(١٠) سورة يونس مكية
وآياتها تسع ومائة

سورة يونس من السور المكية التي تُعْنى بأصولِ العقيدة الإسلامية ، وتتناول جانب التربية الروحية من الإيمان بالله ، واليومِ الآخر ، والكتبِ المنزّلة ، والرسل الذين بعثهم الله تعالى لهداية الإنسانية إلى آخر ما هنالك من أصول الإيمان ، فهي كسائر السور المكية تتميّز بطابعٍ خاص هو « العقيدة » في مفهومها الواسع ، وتتناول الجوانب الأخرى من إثبات الوحي ، والنبوة ، وإثبات البعث والجزاء ، كما أن السور المدنية تتميز بطابع التشريع والتوجيه العام إلى مكام الأخلاق .

نزلت هذه السورة الكريمة بعد سورة الإسراء ، وقد تحدثت في البدء عن حقيقة الألوهية والعبودية ، وأساس الصلة بين الخالق والمخلوق ، وعرّفت الناس بربهم الحق الذي ينبغي أن يدينوا له ويعبدوه ، ويتّبعوا أمره وشرعه ، ويُسلموا وجوههم إليه ، وأن يرجعوا بفطرتهم إلى الله ، فهو وحدَه الخالقُ الرازق ، المحيي المميت ، المدبّر الحكيم ، الفعال لما يريد ، وكل ما سوى الله فإنما هو باطلٌ وهباءٌ تذروه الرياح ﴿ إنَّ ربكم الله الذي خلق السمواتِ والأرضَ في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبّر الأمر ، ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذ لكم الله ربكم فاعبـدوه أفلا تذكّرون ؟﴾ وتناولت السورة موقف المشركين من حقيقة الرسالة والوحي ، ومن القرآنِ نفسهِ حيث شكّوا فيه ، وطلبوا من الرسول خارقة مادية غير القرآن ﴿ وإذا تُتْلى عليهم آياتُنا بيناتٍ قال

الذين لا يرجون لقاءنا إئتِ بقرآنٍ غير هذا أو بدِّلْهُ قل ما يكونُ لي أن أبدِّلَه من تلقاءِ نفسي إنْ أتّبعُ إلا ما يُوحَى إليَّ إني أخافُ إن عصيتُ ربي عذابَ يومٍ عظيم﴾ ثم تناولت القرآن الكريم وبيّنت أنه ما كان ليُفترى من دونَ الله ، وأنه آية هذا الدين ، والمعجزة الخالدة للنبي الأمي ، وهو يحمل برهانه في تفرده المعجز ، حيث تحداهم به ولم يستطيعوا أن يقفوا أمام هذا التحدي مع أنهم أساطينُ الفصاحة ، وأمراءُ البيان ﴿وما كان هذا القرآن أن يُفترى من دون الله ، ولكنْ تصديقَ الذي بين يديه ، وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين . أم يقولون افتراه قل فائتوا بسورةٍ مثلِهِ وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ ثم انتقلت الآيات إلى تعريف الناس بربهم الحق ، وتعريفِهم حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، وقرّرت لهم صفات الإله الحق بذكر آثار قدرته الدالةِ على التدبير الحكيم ، ولفتت الأنظار إلى تعاقب الليل والنهار ، وما في هذا الكون البديع من آثار القدرة الباهرة ، التي هي أوضح برهان على عظمة الله وسلطانه وجلاله ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أمْ منْ يملكُ السمعَ والأبصار ؟ ومن يُخرج الحيَّ من الميّت ويُخرج الميِّتَ من الحي ؟ ومن يدبّرُ الأمر ؟ فسيقولون اللهُ ، فقل أفلا تتقون ؟ فذلكمُ اللهُ ربُّكم الحقُّ فماذا بعد الحقِّ إلا الضلال فأنّى تُصرفون﴾ ؟ وهذه هي القضية الأساسية الكبرى في السور المكيّة ، حيث يدور المحور فيها على موضوع « قضية الربوبية » والإيمان بالوحدانية التي عرضت السورة الكريمة لها بشتى الأدلة العقلية والسمعية ، واستغرق الحديث عنها الجانب الأكبر من هذه السورة . استمع إلى قوله تعالى﴿ إنَّ في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآياتٍ لقوم يتقون﴾ وإلى قوله تعالى ﴿قل هل من شركائكم من يبدءُ الخلقَ ثم يعيده ؟ قل الله يبدءُ الخلقَ ثم يعيده فأنّي تؤفكون ؟﴾

وإلى قوله ﴿هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهارَ مبصراً إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يسمعون﴾.

وقد تحدثت السورة بعد ذلك عن قَصَص بعضِ الأنبياء، فتناولت رسالة نوح، ورسالةَ موسى وهارون عليهما السلام، وموقفَ فرعون الطاغية منهما، وما كان من بغيه وعدوانه على بني إسرائيل حتى أهلكه وجنَده بالغرق في البحر ونجَّى المؤمنين ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحرَ فأتبعَهُم فرعون وجنودُه بغياً وعَدْواً..﴾ وذكرت الآياتُ أن فرعون آمنَ حيث لا ينفعُ الإيمان، وتاب وأناب إلى الله حيث لا ينفع الندم والتوبة، وأنَّ الله تعالى نجَّى بدنَه بعد الغرق ليكون عبرةً للمعتبرين ﴿حتى إذا أدركه الغرق قال آمنتُ أنه لا إله إلا الذي آمنتْ به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾ وقد جاءه الجواب المفحمُ الزاجر ﴿آلآنَ وقد عصيتَ قبلُ وكنتَ من المفسدين. فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خَلْفَك آية، وإنَّ كثيراً من الناس عن آياتنا الغافلون﴾.

وتناولت السورة كذلك قصة نبي الله يونس عليه السلام - الذي سميت السورةُ باسمه - توضيحاً لسنة الله الكونية في إهلاكِ الظالمين، وأن العذاب إذا نزل لا يرفع، وأنه لا ينفع حينئذٍ توبةٌ ولا إيمان إلا ما خصَّ الله به قوم يونس ﴿فلولا كانت قريةٌ آمنتْ فنفعها إيمانُها إلا قوم يونس لمّا آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾ ثم ختمت السورة الكريمة بأمر الرسول الأعظم ﷺ بالاستمساك بشريعة الله، وإعلانِ دعوة التوحيد، والصبر على تحمل الأذى في سبيل الله حتى يأتي الفرج ﴿واتَّبعْ ما يُوحى إليك واصبرْ حتى يحكم اللهُ وهو خيرُ الحاكمين﴾.

سورة يونس

قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ [يونس: ٢].

[٥١٥م] أخرج ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس قال: لما بعث الله محمداً رسولاً أنكرت العرب ذلك أو من أنكر ذلك منهم، فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فأنزل الله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾(١) الآية. وأنزل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾(٢) الآية. فلما كرر الله عليهم الحجج قالوا: وإذا كان بشراً فغير محمد كان أحق بالرسالة. ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾(٣) يقولون: أشرف من محمد، يعنون الوليد بن المغيرة من مكة، ومسعود بن عمرو الثقفي من الطائف، فأنزل الله رداً عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾(٤) الآية.

* * *

[٥١٥م](١) سورة يونس: الآية (٢).
(٢) سورة يوسف: الآية (١٠٩)، سورة النحل: الآية (٤٣).
(٣) سورة الزخرف: الآية (٣١).
(٤) سورة الزخرف: الآية (٣٢).

سورة يونس

مكية إلا الآيات: ٤٠ و٩٤ و٩٥ و٩٦ فمدنية وآياتها: ١٠٩ نزلت بعد الإسراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ①﴾

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن هذه السورة مكية إلا قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فإنها مدنية نزلت في اليهود.

المسألة الأولى: قرأ نافع وابن كثير وعاصم ﴿الٓر﴾ بفتح الراء على التفخيم، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي ويحيى عن أبي بكر: بكسر الراء على الإمالة. وروي عن نافع وابن عامر وحماد عن عاصم، بين الفتح والكسر، واعلم أن كلها لغات صحيحة. قال الواحدي: الأصل ترك الإمالة في هذه الكلمات نحو ما ولا، لأن ألفاتها ليست منقلبة عن الياء، وأما من أمال فلأن هذه الألفاظ أسماء للحروف المخصوصة، فقصد بذكر الإمالة التنبيه على أنها أسماء لا حروف.

المسألة الثانية: اتفقوا- على أن قوله ﴿الٓر﴾ وحده ليس آية، واتفقوا على أن قوله ﴿طه﴾ [طه: ١] وحده آية. والفرق أن قوله: (الر) لا يشاكل مقاطع الآي التي بعده بخلاف قوله: ﴿طه﴾ فإنه يشاكل مقاطع الآي التي بعده.

المسألة الثالثة: الكلام المستقصى في تفسير هذا النوع من الكلمات قد تقدم في أول سورة البقرة إلا أنا نذكر ههنا أيضًا بعض ما قيل. قال ابن عباس ﴿الٓر﴾ معناه أنا الله أرى. وقيل: أنا الرب لا رب غيري. وقيل: ﴿الٓر﴾ و﴿حمٓ﴾ [السجدة: ١] و﴿نٓ﴾ [القلم: ١] اسم الرحمن.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾

فيه مسألتان:

المسألة الأولى: قوله: ﴿تِلْكَ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى ما في هذه السورة من الآيات، ويحتمل أن يكون إشارة إلى ما تقدم هذه السورة من آيات القرآن، وأيضًا فالكتاب الحكيم يحتمل أن يكون المراد منه هو القرآن، ويحتمل أن يكون المراد منه غير القرآن، وهو الكتاب المخزون المكنون عند الله تعالى الذي منه نسخ كل كتاب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ⑦⑦ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٧، ٧٨] وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ②① فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢] وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤] وقال: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩].

وإذا عرفت ما ذكرنا من الاحتمالات تحصل ههنا حينئذ وجوه أربعة من الاحتمالات:

الاحتمال الأول: أن يقال: المراد من لفظة ﴿تِلْكَ﴾ الإشارة إلى الآيات الموجودة في هذه السورة، فكان التقدير تلك الآيات هي آيات الكتاب الحكيم الذي هو القرآن، وذلك لأنه تعالى وعد رسوله عليه الصلاة والسلام أن ينزل عليه كتابًا لا يمحوه الماء، ولا يغيره كرور الدهر، فالتقدير أن تلك الآيات الحاصلة في سورة ﴿الٓرۚ﴾ هي آيات ذلك الكتاب المحكم الذي لا يمحوه الماء.

الاحتمال الثاني: أن يقال: المراد أن تلك الآيات الموجودة في هذه السورة هي آيات الكتاب المخزون المكنون عند الله.

واعلم أن على هذين القولين تكون الإشارة بقولنا: ﴿تِلْكَ﴾ إلى آيات هذه السورة وفيه إشكال، وهو أن ﴿تِلْكَ﴾ يشار بها إلى الغائب، وآيات هذه السورة حاضرة، فكيف يحسن أن يشار إليه بلفظ ﴿تِلْكَ﴾.

واعلم أن هذا السؤال قد سبق مع جوابه في تفسير قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ١، ٢].

الاحتمال الثالث والرابع: أن يقال: لفظ ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم هذه السورة من آيات القرآن، والمراد بها: هي آيات القرآن الحكيم، والمراد أنها هي آيات ذلك الكتاب المكنون المخزون عند الله تعالى، وفي الآية قولان آخران: **أحدهما:** أن يكون المراد من ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ التوراة والإنجيل، والتقدير: أن الآيات المذكورة في هذه السورة هي الآيات المذكورة في التوراة والإنجيل، والمعنى: أن القصص المذكورة في هذه السورة موافقة للقصص المذكورة في التوراة والإنجيل، مع أن محمدًا عليه الصلاة والسلام ما كان عالمًا بالتوراة والإنجيل، فحصول هذه الموافقة لا يمكن إلا إذا خص الله تعالى محمدًا بإنزال الوحي عليه. **والثاني:** وهو قول أبي مسلم: أن قوله: ﴿الٓرۚ﴾ إشارة إلى حروف التهجي، فقوله: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني هذه الحروف هي الأشياء التي جعلت علامات وآيات لهذا الكتاب الذي به وقع التحدي. فلولا امتياز هذا الكتاب عن كلام الناس بالوصف المعجز، وإلا لكان اختصاصه بهذا النظم، دون سائر الناس القادرين على التلفظ بهذه الحروف محالاً.

المسألة الثانية: في وصف الكتاب بكونه حكيمًا وجوه: **الأول:** أن الحكيم هو ذو الحكمة بمعنى اشتمال الكتاب على الحكمة. **الثاني:** أن يكون المراد وصف الكلام بصفة من تكلم به. قال الأعشى:

وَغَرِيبَةٌ تَأْتِي الْمُلُوكَ حَكِيمَةٌ قَدْ قُلْتُهَا لِيُقَالَ مَنْ ذَا قَالَهَا(١)

(١) البيت للأعشى وقد تقدمت ترجمته وفي الشطر الثاني من البيت قال:
قد قلتها ليقال من ذا قالها

الثالث: قال الأكثرون ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ بمعنى الحاكم، فعيل بمعنى فاعل دليله قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٣] فالقرآن كالحاكم في الاعتقادات لتميز حقها عن باطلها، وفي الأفعال لتميز صوابها عن خطئها، وكالحاكم على أن محمدًا صادق في دعوى النبوة، لأن المعجزة الكبرى لرسولنا عليه الصلاة والسلام، ليست إلا القرآن، الرابع: أن ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ بمعنى المحكم. والإحكام معناه المنع من الفساد، فيكون المراد منه أنه لا يمحوه الماء، ولا تحرقه النار، ولا تغيره الدهور. أو المراد منه براءته عن الكذب والتناقض. الخامس: قال الحسن: وصف الكتاب بالحكيم، لأنه تعالى حكم فيه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، وحكم فيه بالجنة لمن أطاعه وبالنار لمن عصاه، فعلى هذا ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ يكون معناه المحكوم فيه. السادس: أن ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ في أصل اللغة: عبارة عن الذي يفعل الحكمة والصواب، فكان وصف القرآن به مجازًا، ووجه المجاز هو أنه يدل على الحكمة والصواب، فمن حيث إنه يدل على هذه المعاني صار كأنه هو الحكيم في نفسه.

قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: أن كفار قريش تعجبوا من تخصيص الله تعالى محمدًا بالرسالة والوحي، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك التعجب. أما بيان كون الكفار تعجبوا من هذا التخصيص فمن وجوه: الأول: قوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٥، ٦] وإذ بلغوا في الجهالة إلى أن تعجبوا من كون الإله تعالى واحدًا، لم يبعد أيضًا أن يتعجبوا من تخصيص الله تعالى محمدًا بالوحي والرسالة! والثاني: أن أهل مكة كانوا يقولون: إن الله تعالى ما وجد رسولاً إلى خلقه إلا يتيم أبي طالب! والثالث: أنهم قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وبالجملة فهذا التعجب يحتمل وجهين: أحدهما: أن يتعجبوا من أن يجعل الله بشرًا رسولاً، كما حكى عن الكفار أنهم قالوا: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] والثاني: أن لا يتعجبوا من ذلك بل يتعجبوا من تخصيص محمد عليه الصلاة والسلام بالوحي والنبوة مع كونه فقيرًا يتيمًا، فهذا بيان أن الكفار تعجبوا من ذلك. وأما بيان أن الله تعالى أنكر عليهم هذا التعجب فهو قوله في هذه الآية: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ فإن قوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ لفظه لفظ الاستفهام،

ومعناه الإنكار لأن يكون ذلك عجبًا. وإنما وجب إنكار هذا التعجب لوجوه:

الأول: أنه تعالى مَالكُ الخلق ومَلِكٌ لهم والمالك والملك هو الذي له الأمر والنهي والإذن والمنع. ولا بد من إيصال تلك التكاليف إلى أولئك المكلفين بواسطة بعض العباد. وإذا كان الأمر كذلك كان إرسال الرسول أمرًا غير ممتنع، بل كان مجوزًا في العقول.

الثاني: أنه تعالى خلق الخلق للاشتغال بالعبودية كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢] وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥] ثم إنه تعالى أكمل عقولهم ومكنهم من الخير والشر، ثم علم تعالى أن عباده لا يشتغلون بما كلفوا به، إلا إذا أرسل إليهم رسولاً ومنبهًا. فعند هذا يجب وجوب الفضل والكرم والرحمة أن يرسل إليهم ذلك الرسول، وإذا كان ذلك واجبًا فكيف يتعجب منه.

الثالث: أن إرسال الرسل أمر ما أخلى الله تعالى شيئًا من أزمنة وجود المكلفين منه، كما قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ [يوسف: ١٠٩] فكيف يتعجب منه مع أنه قد سبقه النظير، ويؤكده قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٩] وسائر قصص الأنبياء عليهم السلام.

الرابع: أنه تعالى إنما أرسل إليهم رجلاً عرفوا نسبه وعرفوا كونه أمينًا بعيدًا عن أنواع التهم والأكاذيب ملازمًا للصدق والعفاف. ثم إنه كان أميًا لم يخالط أهل الأديان، وما قرأ كتابًا أصلاً ألبتة، ثم إنه مع ذلك يتلو عليهم أقاصيصهم ويخبرهم عن وقائعهم، وذلك يدل على كونه صادقًا مصدقًا من عند الله، ويزيل التعجب، وهو من قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢] وقال: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] الخامس: أن مثل هذا التعجب كان موجودًا عند بعثة كل رسول، كما في قوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥] ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: ٧٣] إلى قوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣] السادس: أن هذا التعجب إما أن يكون من إرسال الله تعالى رسولاً من البشر، أو سلّموا أنه لا تعجب في ذلك، وإنما تعجبوا من تخصيص الله تعالى محمدًا عليه الصلاة والسلام بالوحي والرسالة.

أما الأول: فبعيد لأن العقل شاهد بأن مع حصول التكليف لا بد من منبه ورسول يعرفهم تمام ما يحتاجون إليه في أديانهم كالعبادات وغيرها.

وإذا ثبت هذا فنقول: الأولى أن يبعث إليهم من كان من جنسهم ليكون سكونهم إليه أكمل والفهم به أقوى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩] وقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥].

وأما الثاني: فبعيد لأن محمدًا عليه الصلاة والسلام كان موصوفًا بصفات الخير والتقوى

والأمانة، وما كانوا يعيبونه إلا بكونه يتيمًا فقيرًا، وهذا في غاية البعد، لأنه تعالى غني عن العالمين فلا ينبغي أن يكون الفقر سببًا لنقصان الحال عنده، ولا أن يكون الغنى سببًا لكمال الحال عنده. كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ [سبأ: ٣٧] فثبت أن تعجب الكفار من تخصيص الله تعالى محمدًا بالوحي والرسالة كلام فاسد.

المسألة الثانية: الهمزة في قوله: ﴿أَكَانَ﴾ لإنكار التعجب ولأجل التعجيب من هذا التعجب و﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾ اسم كان و﴿عَجَبًا﴾ خبره، وقرأ ابن عباس (عَجَبٌ) فجعله اسمًا وهو نكرة و﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾ خبره وهو معرفة كقوله: يكون مزاجها عسل وماء. والأجود أن تكون (كان) تامة، وأن أوحينا، بدلاً من عجب.

المسألة الثالثة: أنه تعالى قال: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ ولم يقل أكان عند الناس عجبًا، والفرق أن قوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ معناه أنهم جعلوه لأنفسهم أعجوبة يتعجبون منها ونصبوه وعينوه لتوجيه الطيرة والاستهزاء والتعجب إليه! وليس في قوله: (أكان عند الناس عجبًا) هذا المعنى.

المسألة الرابعة: (أن) مع الفعل في قولنا: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾ في تقدير المصدر وهو اسم كان، وخبره هو قوله: ﴿عَجَبًا﴾ وإنما تقدم الخبر على المبتدأ ههنا لأنهم يقدمون الأهم، والمقصود بالإنكار في هذه الآية إنما هو تعجبهم، وأما (أن) في قوله: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ فمفسرة لأن الإيحاء فيه معنى القول، ويجوز أن تكون مخففة من الثقيلة، وأصله أنه أنذر الناس على معنى أن الشأن قولنا أنذر الناس.

المسألة الخامسة: أنه تعالى لما بين أنه أوحى إلى رسوله، بيَّن بعده تفصيل ما أوحى إليه وهو الإنذار والتبشير. أما الإنذار فللكفار والفساق ليرتدعوا بسبب ذلك الإنذار عن فعل ما لا ينبغي، وأما التبشير فلأهل الطاعة لتقوى رغبتهم فيها. وإنما قدم الإنذار على التبشير لأن التخلية مقدمة على التحلية، وإزالة ما لا ينبغي مقدم في الرتبة على فعل ما ينبغي.

المسألة السادسة: قوله: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ فيه أقوال لأهل اللغة وأقوال للمفسرين. أما أقوال أهل اللغة فقد نقل الواحدي في (البسيط) منها وجوهًا: قال الليث وأبو الهيثم: القدم السابقة، والمعنى: أنهم قد سبق لهم عند الله خير. قال ذو الرمة:

وَأَنْتَ امْرُؤٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ ذُؤَابَةٍ ... لَهُمْ قَدَمٌ مَعْرُوفَةٌ وَمَفَاخِرُ[1]

وقال أحمد بن يحيى: القدم: كل ما قدمت من خير، وقال ابن الأنباري: القدم كناية عن العمل الذي يتقدم فيه، ولا يقع فيه تأخير ولا إبطاء.

واعلم أن السبب في إطلاق لفظ القدم على هذه المعاني، أن السعي والسبق لا يحصل إلا

(١) تقدمت ترجمة ذو الرمة.

بالقدم، فسمى المسبب باسم السبب، كما سميت النعمة يدًا، لأنها تعطى باليد.

فإن قيل: فما الفائدة في إضافة القدم إلى الصدق في قوله سبحانه: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾.

قلنا: الفائدة التنبيه على زيادة الفضل وأنه من السوابق العظيمة، وقال بعضهم: المراد مقام صدق. وأما المفسرون فلهم أقوال فبعضهم حمل ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ على الأعمال الصالحة؛ وبعضهم حمله على الثواب، ومنهم من حمله على شفاعة محمد عليه الصلاة والسلام، واختار ابن الأنباري هذا الثاني وأنشد:

صَلِّ لِذِي الْعَرْشِ واتخذ قدمًا ينجيك يَوْمَ الْعِثَارِ وَالزَّلَلِ

المسألة السابعة: أن الكافرين لما جاءهم رسول منهم فأنذرهم وبشرهم وأتاهم من عند الله تعالى بما هو اللائق بحكمته وفضله قالوا متعجبين ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ أي إن هذا الذي يدعي أنه رسول هو ساحر. والابتداء بقوله: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ على تقدير فلما أنذرهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين، قال القفال: وإضمار هذا، غير قليل في القرآن.

المسألة الثامنة: قرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ﴾ والمراد منه محمد ﷺ، والباقون (لسحر) والمراد به القرآن.

واعلم أن وصف الكفار القرآن بكونه سحرًا يدل على عظم محل القرآن عندهم، وكونه معجزًا. وأنه تعذر عليهم فيه المعارضة، فاحتاجوا إلى هذا الكلام.

واعلم أن إقدامهم على وصف القرآن بكونه سحرًا، يحتمل أن يكونوا ذكروه في معرض الذم، ويحتمل أنهم ذكروه في معرض المدح، فلهذا السبب اختلف المفسرون فيه. فقال بعضهم: أرادوا به أنه كلام مزخرف حسن الظاهر، ولكنه باطل في الحقيقة، ولا حاصل له، وقال آخرون: أرادوا به أنه لكمال فصاحته وتعذر مثله، جار مجرى السحر.

واعلم أن هذا الكلام لما كان في غاية الفساد لم يذكر جوابه، وإنما قلنا إنه في غاية الفساد، لأنه ﷺ كان منهم، ونشأ بينهم وما غاب عنهم، وما خالط أحدًا سواهم، وما كانت مكة بلدة العلماء والأذكياء، حتى يقال: إنه تعلم السحر أو تعلم العلوم الكثيرة منهم فقدر على الإتيان بمثل هذا القرآن. وإذا كان الأمر كذلك، كان حمل القرآن على السحر كلامًا في غاية الفساد، فلهذا السبب ترك جوابه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عن الكفار أنهم تعجبوا من الوحي والبعثة والرسالة، ثم إنه تعالى أزال ذلك التعجب بأنه لا يبعد ألبتة في أن يبعث خالق الخلق إليهم رسولاً يبشرهم على الأعمال

الصالحة بالثواب، وعلى الأعمال الباطلة الفاسدة بالعقاب، كان هذا الجواب إنما يتم ويكمل بإثبات أمرين:

أحدهما: إثبات أن لهذا العالم إلهًا قاهرًا قادرًا نافذ الحكم بالأمر والنهي والتكليف.

والثاني: إثبات الحشر والنشر والبعث والقيامة، حتى يحصل الثواب والعقاب اللذان أخبر الأنبياء عن حصولهما، فلا جرم أنه سبحانه ذكر في هذا الموضع ما يدل على تحقيق هذين المطلوبين.

أما الأول: وهو إثبات الإلهية، فبقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

وأما الثاني: وهو إثبات المعاد والحشر والنشر. فبقوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ [يونس: ٤] فثبت أن هذا الترتيب في غاية الحسن، ونهاية الكمال.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قد ذكرنا في هذا الكتاب، وفي الكتب العقلية أن الدليل الدال على وجود الصانع تعالى، إما الإمكان وإما الحدوث وكلاهما إما في الذوات وإما في الصفات، فيكون مجموع الطرق الدالة على وجود الصانع أربعة: وهي إمكان الذوات، وإمكان الصفات، وحدوث الذوات، وحدوث الصفات. وهذه الأربعة معتبرة تارة في العالم العلوي وهو عالم السموات والكواكب، وتارة في العالم السفلي، والأغلب من الدلائل المذكورة في الكتب الإلهية التمسك بإمكان الصفات وحدوثها تارة في أحوال العالم العلوي، وتارة في أحوال العالم السفلي، والمذكور في هذا الموضع هو التمسك بإمكان الأجرام العلوية في مقاديرها وصفاتها، وتقريره من وجوه: الأول: أن أجرام الأفلاك لا شك أنها مركبة من الأجزاء التي لا تتجزى، ومتى كان الأمر كذلك كانت لا محالة محتاجة إلى الخالق والمقدر.

أما بيان المقام الأول: فهو أن أجرام الأفلاك لا شك أنها قابلة للقسمة الوهمية، وقد دللنا في الكتب العقلية على أن كل ما كان قابلاً للقسمة الوهمية، فإنه يكون مركبًا من الأجزاء والأبعاض. ودللنا على أن الذي تقوله الفلاسفة من أن الجسم قابل للقسمة ولكنه يكون في نفسه شيئًا واحدًا كلام فاسد باطل. فثبت بما ذكرنا أن أجرام الأفلاك مركبة من الأجزاء التي لا تتجزى، وإذا ثبت هذا وجب افتقارها إلى خالق ومقدر، وذلك لأنها لما تركبت فقد وقع بعض تلك الأجزاء في داخل ذلك الجرم، وبعضها حصلت على سطحها، وتلك الأجزاء متساوية في الطبع والماهية والحقيقة، والفلاسفة أقروا لنا بصحة هذه المقدمة حيث قالوا إنها بسائط، ويمتنع كونها مركبة من أجزاء مختلفة الطبائع.

وإذا ثبت هذا فنقول: حصول بعضها في الداخل، وحصول بعضها في الخارج، أمر ممكن الحصول جائز الثبوت، يجوز أن ينقلب الظاهر باطنًا، والباطن ظاهرًا. وإذا كان الأمر كذلك وجب افتقار هذه الأجزاء حال تركيبها إلى مدبر وقاهر، يخصص بعضها بالداخل وبعضها

بالخارج فدل هذا على أن الأفلاك مفتقرة في تركيبها وأشكالها وصفاتها إلى مدبر قدير عليم حكيم.

الوجه الثاني: في الاستدلال بصفات الأفلاك على وجود الإله القادر أن نقول: حركات هذه الأفلاك لها بداية، ومتى كان الأمر كذلك افتقرت هذه الأفلاك في حركاتها إلى محرك ومدبر قاهر.

أما المقام الأول: فالدليل على صحته أن الحركة عبارة عن التغير من حال إلى حال، وهذه الماهية تقتضي المسبوقية بالحالة المنتقل عنها، والأزل ينافي المسبوقية بالغير، فكان الجمع بين الحركة وبين الأزل محالاً، فثبت أن لحركات الأفلاك أولاً، وإذا ثبت هذا وجب أن يقال: هذه الأجرام الفلكية كانت معدومة في الأزل وإن كانت موجودة، لكنها كانت واقفة وساكنة. وما كانت متحركة، وعلى التقديرين: فلحركاتها أول وبداية.

وأما المقام الثاني: وهو أنه لما كان الأمر كذلك وجب افتقارها إلى مدبر قاهر، فالدليل عليه أن ابتداء هذه الأجرام بالحركة ذلك الوقت المعين دون ما قبله ودون ما بعده، لا بد وأن يكون لتخصيص مخصص، وترجيح مرجح. وذلك المرجح يمتنع أن يكون موجبًا بالذات، وإلا لحصلت تلك الحركة قبل ذلك الوقت لأجل أن موجب تلك الحركة كان حاصلاً قبل ذلك الوقت، ولما بطل هذا، ثبت أن ذلك المرجح قادر مختار وهو المطلوب.

الوجه الثالث: في الاستدلال بصفات الأفلاك على وجود الإله المختار، وهو أن أجزاء الفلك حاصلة فيه لا في الفلك الآخر، وأجزاء الفلك الآخر حاصلة فيه لا في الفلك الأول. فاختصاص كل واحد منها بتلك الأجزاء أمر ممكن، ولا بد له من مرجح، ويعود التقرير الأول فيه. فهذا تقرير هذا الدليل الذي ذكره الله تعالى في هذه الآية.

وفي الآية سؤالات:

السؤال الأول: أن كلمة (الذى) كلمة وضعت للإشارة إلى شيء مفرد عند محاولة تعريفه بقضية معلومة، كما إذا قيل لك من زيد؟ فتقول: الذي أبوه منطلق، فهذا التعريف إنما يحسن لو كان كون أبيه منطلقًا، أمرًا معلومًا عند السامع، فهنا لما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ فهذا إنما يحسن لو كان كونه سبحانه وتعالى خالقًا للسموات والأرض في ستة أيام، أمرًا معلومًا عند السامع، والعرب ما كانوا عالمين بذلك، فكيف يحسن هذا التعريف؟

وجوابه أن يقال: هذا الكلام مشهور عند اليهود والنصارى، لأنه مذكور في أول ما يزعمون أنه هو التوراة. ولما كان ذلك مشهورًا عندهم والعرب كانوا يخالطونهم، فالظاهر أنهم أيضًا سمعوه منهم، فلهذا السبب حسن هذا التعريف.

السؤال الثاني: ما الفائدة في بيان الأيام التي خلقها الله فيها؟

والجواب: أنه تعالى قادر على خلق جميع العالم في أقل من لمح البصر. والدليل عليه أن

العالم مركب من الأجزاء التي لا تتجزى، والجزء الذي لا يتجزى لا يمكن إيجاده إلا دفعة، لأنا لو فرضنا أن إيجاده إنما يحصل في زمان، فذلك الزمان منقسم لا محالة من آنات متعاقبة، فهل حصل شيء من ذلك الإيجاد في الآن الأول أو لم يحصل، فإن لم يحصل منه شيء في الآن الأول فهو خارج عن مدة الإيجاد، وإن حصل في ذلك الآن إيجاد شيء وحصل في الآن الثاني إيجاد شيء آخر، فهما إن كانا جزأين من ذلك الجزء الذي لا يتجزى، فحينئذ يكون الجزء الذي لا يتجزى متجزئًا. وهو محال. وإن كان شيئًا آخر، فحينئذ يكون إيجاد الجزء الذي لا يتجزى لا يمكن إلا في آن واحد دفعة واحدة، وكذا القول في إيجاد جميع الأجزاء. فثبت أنه تعالى قادر على إيجاد جميع العالم دفعة واحدة، ولا شك أيضًا أنه تعالى قادر على إيجاده وتكوينه على التدريج.

وإذا ثبت هذا فنقول ههنا مذهبان: الأول: قول أصحابنا: وهو أنه يحسن منه كُلّ ما أراد، ولا يعلل شيء من أفعاله بشيء من الحكمة والمصالح، وعلى هذا القول يسقط قول من يقول: لم خلق العالم في ستة أيام وما خلقه في لحظة واحدة؟ لأنا نقول كل شيء صنعه ولا علة لصنعه فلا يعلل شيء من أحكامه ولا شيء من أفعاله بعلة، فسقط هذا السؤال. الثاني: قول المعتزلة وهو أنهم يقولون يجب أن تكون أفعاله تعالى مشتملة على المصلحة والحكمة. فعند هذا قال القاضي: لا يبعد أن يكون خلق الله تعالى السموات والأرض في هذه المدة المخصوصة، أدخل في الاعتبار في حق بعض المكلفين. ثم قال القاضي:

فإن قيل: فمن المعتبر وما وجه الاعتبار؟ ثم أجاب وقال: أما المعتبر فهو أنه لا بد من مكلف أو غير مكلف من الحيوان خلقه الله تعالى قبل خلقه للسموات والأرضين، أو معهما، وإلا لكان خلقهما عبثًا. فإن قيل: فهلا جاز أن يخلقهما لأجل حيوان يخلقه من بعد؟!

قلنا: إنه تعالى لا يخاف الفوت، فلا يجوز أن يقدم خلق ما لا ينتفع به أحد، لأجل حيوان سيحدث بعد ذلك، وإنما يصح منا ذلك في مقدمات الأمور لأنا نخشى الفوت، ونخاف العجز والقصور. قال: وإذا ثبت هذا فقد صح ما روي في الخبر أن خلق الملائكة كان سابقًا على خلق السموات والأرض.

فإن قيل: أولئك الملائكة لا بد لهم من مكان، فقبل خلق السموات والأرض لا مكان، فكيف يمكن وجودهم بلا مكان؟

قلنا: الذي يقدر على تسكين العرش والسموات والأرض في أمكنتها كيف يعجز عن تسكين أولئك الملائكة في أحيازها بقدرته وحكمته؟ وأما وجه الاعتبار في ذلك فهو أنه لما حصل هناك معتبر، لم يمتنع أن يكون اعتباره بما يشاهده حالاً بعد حال أقوى. والدليل عليه: أن ما يحدث على هذا الوجه، فإنه يدل على أنه صادر من فاعل حكيم. وأما المخلوق دفعة واحدة فإنه لا يدل على ذلك.

والسؤال الثالث: فهل هذه الأيام كأيام الدنيا أو كما روي عن ابن عباس أنه قال: إِنَّهَا سِتَّةُ أَيَّامٍ مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ كُلُّ يَوْمٍ مِنْهَا أَلْفُ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ؟ (١)

والجواب: قال القاضي: الظاهر في ذلك أنه تعريف لعباده مدة خلقه لهما، ولا يجوز أن يكون ذلك تعريفًا، إلا والمدة هذه الأيام المعلومة.

ولقائل أن يقول: لما وقع التعريف بالأيام المذكورة في التوراة والإنجيل، وكان المذكور هناك أيام الآخرة لا أيام الدنيا، لم يكن ذلك قادحًا في صحة التعريف.

السؤال الرابع: هذه الأيام إنما تتقدر بحسب طلوع الشمس وغروبها، وهذا المعنى مفقود قبل خلقها، فكيف يعقل هذا التعريف؟

والجواب: التعريف يحصل بما أنه لو وقع حدوث السموات والأرض في مدة، لو حصل هناك أفلاك دائرة وشمس وقمر، لكانت تلك المدة مساوية لستة أيام.

ولقائل أن يقول: فهذا يقتضي حصول مدة قبل خلق العالم، يحصل فيها حدوث العالم، وذلك يوجب قدم المدة.

وجوابه: أن تلك المدة غير موجودة بل هي مفروضة موهومة، والدليل عليه أن تلك المدة المعينة حادثة، وحدوثها لا يحتاج إلى مدة أخرى، وإلا لزم إثبات أزمنة لا نهاية لها وذلك محال، فكل ما يقولون في حدوث المدة فنحن نقوله في حدوث العالم.

السؤال الخامس: أن اليوم قد يراد به اليوم مع ليلته، وقد يراد به النهار وحده. فالمراد بهذه الآية أيهما.

والجواب: الغالب في اللغة أنه يراد باليوم. اليوم بليلته.

المسألة الثانية: أما قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾

ففيه مباحث:

الأول: أن هذا يوهم كونه تعالى مستقرًا على العرش والكلام المستقصى فيه مذكور في أول سورة طه، ولكنا نكتفي ههنا بعبارة وجيزة. فنقول: هذه الآية لا يمكن حملها على ظاهرها، ويدل عليه وجوه:

الأول: أن الاستواء على العرش معناه كونه معتمدًا عليه مستقرًا عليه، بحيث لولا العرش لسقط ونزل، كما أنا إذا قلنا إن فلانًا مستو على سريره. فإنه يفهم منه هذا المعنى. إلا أن إثبات هذا المعنى يقتضي كونه محتاجًا إلى العرش، وإنه لولا العرش لسقط ونزل، وذلك محال، لأن المسلمين أطبقوا على أن الله تعالى هو الممسك للعرش والحافظ له، ولا يقول أحد إن العرش

(١) **إسناده ضعيف:** الطبرى فى (تفسيره) (٢/ ٢٧٨) حديث رقم/ ١٤١١، وابن أبى حاتم في (تفسيره) (١/ ٢١٠) حديث رقم/ ٨١٢، والضياء في (الأحاديث المختارة) (٤/ ٢١٣) حديث رقم/ ٣٨٠، جميعًا من طريق محمد بن أبى محمد عن سعيد بن جبير عن عكرمة عن ابن عباس... به. وفى إسناده محمد بن أبي محمد. قال الحافظ: مجهول.

هو الممسك لله تعالى والحافظ له.

والثاني: أن قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ يدل على أنه قبل ذلك ما كان مستويًا عليه، وذلك يدل على أنه تعالى يتغير من حال إلى حال، وكل من كان متغيرًا كان محدثًا، وذلك بالاتفاق باطل.

الثالث: أنه لما حدث الاستواء في هذا الوقت، فهذا يقتضي أنه تعالى كان قبل هذا الوقت مضطربًا متحركًا، وكل ذلك من صفات المحدثات.

الرابع: أن ظاهر الآية يدل على أنه تعالى إنما استوى على العرش بعد أن خلق السموات والأرض؛ لأن كلمة (ثُمَّ) تقتضي التراخي وذلك يدل على أنه تعالى كان قبل خلق العرش غنيًّا عن العرش، فإذا خلق العرش امتنع أن تنقلب حقيقته وذاته من الاستغناء إلى الحاجة. فوجب أن يبقى بعد خلق العرش غنيًّا عن العرش، ومن كان كذلك امتنع أن يكون مستقرًّا على العرش. فثبت بهذه الوجوه أن هذه الآية لا يمكن حملها على ظاهرها بالاتفاق، وإذا كان كذلك امتنع الاستدلال بها في إثبات المكان والجهة لله تعالى.

المسألة الثالثة: اتفق المسلمون على أن فوق السموات جسمًا عظيمًا هو العرش.

إذا ثبت هذا فنقول: العرش المذكور في هذه الآية هل المراد منه ذلك العرش أو غيره؟ فيه قولان:

القول الأول: وهو الذي اختاره أبو مسلم الأصفهاني، أنه ليس المراد منه ذلك، بل المراد من قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أنه لما خلق السموات والأرض سطحها ورفع سمكها، فإن كل بناء يسمى عرشًا، وبانيه يسمى عارشًا، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨] أي يبنون، وقال في صفة القرية ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [الحج: ٤٥] والمراد أن تلك القرية خلت منهم مع سلامة بنائها وقيام سقوفها، وقال: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧] أي بناؤه، وإنما ذكر الله تعالى ذلك لأنه أعجب في القدرة، فالباني يبني البناء متباعدًا عن الماء على الأرض الصلبة لئلا ينهدم، والله تعالى بنى السموات والأرض على الماء ليعرف العقلاء قدرته وكمال جلالته، والاستواء على العرش هو الاستعلاء عليه بالقهر، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ١٢-١٣] قال أبو مسلم: فثبت أن اللفظ يحتمل هذا الذي ذكرناه. فنقول: وجب حمل اللفظ عليه، ولا يجوز حمله على العرش الذي في السماء، والدليل عليه هو أن الاستدلال على وجود الصانع تعالى، يجب أن يحصل بشيء معلوم مشاهد، والعرش الذي في السماء ليس كذلك، وأما أجرام السموات والأرضين فهي مشاهدة محسوسة، فكان الاستدلال بأحوالها على وجود الصانع الحكيم جائزًا صوابًا حسنًا. ثم قال: ومما يؤكد ذلك أن قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ إشارة إلى تخليق ذواتها، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ يكون إشارة إلى تسطيحها وتشكيلها بالأشكال الموافقة لمصالحها، وعلى هذا الوجه تصير هذه الآية

موافقة لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ۝ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨] فذكر أولاً أنه بناها، ثم ذكر ثانيًا أنه رفع سمكها فسواها. وكذلك ههنا. ذكر بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أنه خلق ذواتها ثم ذكر بقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أنه قصد إلى تعريشها وتسطيحها وتشكيلها بالأشكال الموافقة لها.

والقول الثاني: وهو القول المشهور لجمهور المفسرين: أن المراد من العرش المذكور في هذه الآية: الجسم العظيم الذي في السماء، وهؤلاء قالوا إن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ لا يمكن أن يكون معناه أنه تعالى خلق العرش بعد خلق السموات والأرضين بدليل أنه تعالى قال في آية أخرى ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧] وذلك يدل على أن تكوين العرش سابق على تخليق السموات والأرضين. بل يجب تفسير هذه الآية بوجوه أخر. وهو أن يكون المراد: ثم يدبر الأمر وهو مستو على العرش.

والقول الثالث: أن المراد من العرش الملك، يقال: فلان ولي عرشه أي ملكه فقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ المراد أنه تعالى لما خلق السموات والأرض واستدارت الأفلاك والكواكب، وجعل بسبب دورانها الفصول الأربعة والأحوال المختلفة من المعادن والنبات والحيوانات، ففي هذا الوقت قد حصل وجود هذه المخلوقات والكائنات. والحاصل أن العرش عبارة عن الملك، وملك الله تعالى عبارة عن وجود مخلوقاته، ووجود مخلوقاته إنما حصل بعد تخليق السموات والأرض، لا جرم صح إدخال حرف (ثم) الذي يفيد التراخي على الاستواء على العرش، والله أعلم بمراده.

المسألة الرابعة: أما قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ معناه أنه يقضي ويقدر على حسب مقتضى الحكمة ويفعل ما يفعله المصيب في أفعاله، الناظر في أدبار الأمور وعواقبها، كي لا يدخل في الوجود ما لا ينبغي. والمراد من (الأمر) الشأن يعني يدبر أحوال الخلق وأحوال ملكوت السموات والأرض.

فإن قيل: ما موقع هذه الجملة؟

قلنا: قد دل بكونه خالقًا للسموات والأرض في ستة أيام وبكونه مستويًا على العرش، على نهاية العظمة وغاية الجلالة. ثم أتبعها بهذه الجملة ليدل على أنه لا يحدث في العالم العلوي ولا في العالم السفلي أمر من الأمور ولاحادث من الحوادث، إلا بتقديره وتدبيره وقضائه وحكمه، فيصير ذلك دليلاً على نهاية القدرة والحكمة والعلم والإحاطة والتدبير، وأنه سبحانه مبدع جميع الممكنات، وإليه تنتهي الحاجات.

وأما قوله تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾.

ففيه قولان:

القول الأول: وهو المشهور أن المراد منه أن تدبيره للأشياء وصنعه لها، لا يكون بشفاعة شفيع وتدبير مدبر. ولا يستجرئ أحد أن يشفع إليه في شيء إلا بعد إذنه، لأنه تعالى أعلم

بموضع الحكمة والصواب، فلا يجوز لهم أن يسألوه ما لا يعلمون أنه صواب وصلاح .

فإن قيل: كيف يليق ذكر الشفيع بصفة مبدئية الخلق، وإنما يليق ذكره بأحوال القيامة؟

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: ما ذكره الزجاج: وهو أن الكفار الذين كانوا مخاطبين بهذه الآية كانوا يقولون: إن الأصنام شفعاؤنا عند الله، فالمراد منه الرد عليهم في هذا القول وهو كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [النبأ: ٣٨].

والوجه الثاني: وهو يمكن أن يقال إنه تعالى لما بيَّن كونه إلهًا للعالم مستقلاً بالتصرف فيه من غير شريك ولا منازع، بيَّن أمر المبدأ بقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ وبيَّن حال المعاد بقوله: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ .

والوجه الثالث: يمكن أيضًا أن يقال: إنه تعالى وضع تدبير الأمور في أول خلق العالم على أحسن الوجوه وأقربها من رعاية المصالح، مع أنه ما كان هناك شفيع يشفع في طلب تحصيل المصالح، فدل هذا على أن إله العالم ناظر لعباده محسن إليهم مريد للخير والرأفة بهم، ولا حاجة في كونه سبحانه كذلك إلى حضور شفيع يشفع فيه.

والقول الثاني: في تفسير هذا الشفيع ما ذكره أبو مسلم الأصفهاني، فقال: الشفيع ههنا هو الثاني، وهو مأخوذ من الشفع الذي يخالف الوتر، كما يقال الزوج والفرد، فمعنى الآية خلق السموات والأرض وحده ولا حي معه ولا شريك يعينه، ثم خلق الملائكة والجن والبشر، وهو المراد من قوله: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ أي لم يحدث أحد ولم يدخل في الوجود، إلا من بعد أن قال له: كن، حتى كان وحصل. واعلم أنه تعالى لما بيَّن هذه الدلائل وشرح هذه الأحوال، ختمها بعد ذلك بقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ مبينًا بذلك أن العبادة لا تصلح إلا له، ومنبهًا على أنه سبحانه هو المستحق لجميع العبادات لأجل أنه هو المنعم بجميع النعم التي ذكرها ووصفها. ثم قال بعده: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ دالاً بذلك على وجوب التفكر في تلك الدلائل القاهرة الباهرة، وذلك يدل على أن التفكر في مخلوقات الله تعالى والاستدلال بها على جلالته وعزته وعظمته، أعلى المراتب وأكمل الدرجات.

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما ذكر الدلائل الدالة على إثبات المبدأ، أردفه بما يدل على صحة القول بالمعاد.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في بيان أن إنكار الحشر والنشر ليس من العلوم البديهية، ويدل عليه وجوه: الأول: أن العقلاء اختلفوا في وقوعه وعدم وقوعه. وقال بإمكانه عالم من الناس، وهم جمهور أرباب الملل والأديان. وما كان معلوم الامتناع بالبديهة امتنع وقوع الاختلاف فيه. الثاني: أنا إذا رجعنا إلى عقولنا السليمة، وعرضنا عليها أن الواحد ضعف الاثنين، وعرضنا عليها أيضًا هذه القضية، لم نجد هذه القضية في قوة الامتناع مثل القضية الأولى. الثالث: أنا إما أن نقول بثبوت النفس الناطقة أولا نقول به. فإن قلنا به فقد زال الإشكال بالكلية، فإنه كما لا يمتنع تعلق هذه النفس بالبدن في المرة الأولى، لم يمتنع تعلقها بالبدن مرة أخرى. وإن أنكرنا القول بالنفس فالاحتمال أيضًا قائم، لأنه لا يبعد أن يقال إنه سبحانه يركب تلك الأجزاء المفرقة تركيبًا ثانيًا، ويخلق الإنسان الأول مرة أخرى. والرابع: أنه سبحانه ذكر أمثلة كثيرة دالة على إمكان الحشر والنشر ونحن نجمعها ههنا.

فالمثال الأول: أنا نرى الأرض خاشعة وقت الخريف، ونرى اليبس مستوليًا عليها بسبب شدة الحر في الصيف. ثم إنه تعالى ينزل المطر عليها وقت الشتاء والربيع، فتصير بعد ذلك متحلية بالأزهار العجيبة والأنوار الغريبة كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩] وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ﴾ [الحج: ٥] إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [الحج: ٦] وثالثها: قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ٢١] والمراد كونه منبهًا على أمر المعاد. ورابعها: قوله: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝٢٣ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ [عبس: ٢١ - ٢٤] وقال عليه السلام: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّبِيعَ فَأَكْثِرُوا ذِكْرَ النُّشُورِ**» ولم تحصل المشابهة بين الربيع وبين النشور إلا من الوجه الذي ذكرناه.

المثال الثاني: ما يجده كل واحد منا من نفسه من الزيادة والنمو بسبب السمن، ومن النقصان والذبول بسبب الهزال، ثم إنه قد يعود إلى حالته الأولى بالسمن.

وإذا ثبت هذا فنقول: ما جاز تكوُّنُ بعضه لم يمتنع أيضًا تكوُّنُ كله، ولما ثبت ذلك ظهر أن الإعادة غير ممتنعة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١] يعني أنه سبحانه لما كان قادرًا على إنشاء ذواتكم أولاً ثم على إنشاء أجزائكم حال حياتكم ثانيًا شيئًا فشيئًا من غير أن تكونوا عالمين بوقت حدوثه وبوقت نقصانه. فوجب القطع أيضًا بأنه لا يمتنع عليه سبحانه إعادتكم بعد البلى في القبور لحشر يوم القيامة.

المثال الثالث: أنه تعالى لما كان قادرًا على أن يخلقنا ابتداء من غير مثال سبق، فلأن يكون قادرًا

على إيجادنا مرة أخرى مع سبق الإيجاد الأول كان أولى، وهذا الكلام قرره تعالى في آيات كثيرة، منها في هذه الآية وهو قوله: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ وثانيها: قوله تعالى في سورة يس: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩] وثالثها: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢] ورابعها: قوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥] وخامسها: قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة: ٣٦، ٣٧] إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٤٠] وسادسها: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥] إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٦، ٧] فاستشهد تعالى في هذه الآية على صحة الحشر بأمور: الأول: أنه استدل بالخلق الأول على إمكان الخلق الثاني وهو قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥] كأنه تعالى يقول: لما حصل الخلق الأول بانتقال هذه الأجسام من أحوال إلى أحوال أخرى فلم لا يجوز أن يحصل الخلق الثاني بعد تغيرات كثيرة، واختلافات متعاقبة؟ والثاني: أنه تعالى شبهها بإحياء الأرض الميتة. والثالث: أنه تعالى هو الحق وإنما يكون كذلك لو كان كامل القدرة تام العلم والحكمة. فهذه هي الوجوه المستنبطة من هذه الآية على إمكان صحة الحشر والنشر.

والآية السابعة: في هذا الباب قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥٠، ٥١].

المثال الرابع: أنه تعالى لما قدر على تخليق ما هو أعظم من أبدان الناس فكيف يقال: إنه لا يقدر على إعادتها؟ فإن من كان الفعل الأصعب عليه سهلاً، فلأن يكون الفعل السهل الحقير عليه سهلاً كان أولى وهذا المعنى مذكور في آيات كثيرة: منها قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١] وثانيها: قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٣] وثالثها: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧].

المثال الخامس: الاستدلال بحصول اليقظة بعد النوم على جواز الحشر والنشر، فإن النوم أخو الموت، واليقظة شبيهة بالحياة بعد الموت. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠] ثم ذكر عقيبه أمر الموت والبعث، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۝ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦١، ٦٢] وقال في آية أخرى ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢] والمراد منه الاستدلال بحصول هذه الأحوال على صحة البعث والحشر والنشر.

المثال السادس: أن الإحياء بعد الموت لا يستنكر إلا من حيث إنه يحصل الضد بعد حصول الضد، إلا أن ذلك غير مستنكر في قدرة الله تعالى، لأنه لما جاز حصول الموت عقيب الحياة، فكيف يستبعد حصول الحياة مرة أخرى بعد الموت؟ فإن حكم الضدين واحد. قال تعالى مقررًا لهذا المعنى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾[الواقعة: ٦٠] وأيضًا نجد النار مع حرها ويبسها تتولد من الشجر الأخضر مع برده ورطوبته فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾[يس: ٨٠] فكذا ههنا، فهذا جملة الكلام في بيان أن القول بالمعاد، وحصول الحشر والنشر غير مستبعد في العقول.

المسألة الثانية: في إقامة الدلالة على أن المعاد حق واجب.

اعلم أن الأمة فريقان منهم من يقول: يجب عقلاً أن يكون إله العالم رحيمًا عادلاً منزهًا عن الإيلام والإضرار، إلا لمنافع أجل وأعظم منها، ومنهم من ينكر هذه القاعدة ويقول: لا يجب على الله تعالى شيء أصلاً، بل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. أما الفريق الأول: فقد احتجوا على وجود المعاد من وجوه.

الحجة الأولى: أنه تعالى خلق الخلق وأعطاهم عقولاً بها يميزون بين الحسن والقبيح، وأعطاهم قدرًا بها يقدرون على الخير والشر. وإذا ثبت هذا فمن الواجب في حكمة الله تعالى وعدله أن يمنع الخلق عن شتم الله وذكره بالسوء، وأن يمنعهم عن الجهل والكذب وإيذاء أنبيائه وأوليائه، والصالحين من خلقه. ومن الواجب في حكمته أن يرغبهم في الطاعات والخيرات والحسنات، فإنه لو لم يمنع عن تلك القبائح، ولم يرغب في هذه الخيرات، قدح ذلك في كونه محسنًا عادلاً ناظرًا لعباده. ومن المعلوم أن الترغيب في الطاعات لا يمكن إلا بربط الثواب بفعلها، والزجر عن القبائح لا يمكن إلا بربط العقاب بفعلها، وذلك الثواب المرغب فيه، والعقاب المهدد به غير حاصل في دار الدنيا. فلا بد من دار أخرى يحصل فيها هذا الثواب، وهذا العقاب، وهو المطلوب، وإلا لزم كونه كاذبًا، وأنه باطل. وهذا هو المراد من الآية التي نحن فيها وهي قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال: إنه يكفي في الترغيب في فعل الخيرات، وفي الردع عن المنكرات ما أودع الله في العقول من تحسين الخيرات وتقبيح المنكرات ولا حاجة مع ذلك إلى الوعد والوعيد؟ سلمنا أنه لا بد من الوعد والوعيد، فلم لا يجوز أن يقال: الغرض منه مجرد الترغيب والترهيب ليحصل به نظام العالم كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦] فإما أن يفعل تعالى ذلك فما الدليل عليه؟ قوله لو لم يفعل ما أخبر عنه من الوعد والوعيد لصار كلامه كذبًا فنقول: ألستم تخصصون أكثر عمومات القرآن لقيام الدلالة على وجوب ذلك التخصيص فإن كان هذا كذبًا وجب فيما تحكمون به من تلك التخصيصات أن يكون كذبًا؟ سلمنا أنه لا بد وأن يفعل الله تعالى ذلك لكن لم لا يجوز أن يقال: إن ذلك الثواب

والعقاب عبارة عما يصل إلى الإنسان من أنواع الراحات واللذات ومن أنواع الآلام والأسقام، وأقسام الهموم والغموم؟

والجواب عن السؤال الأول: أن العقل وإن كان يدعوه إلى فعل الخير وترك الشر إلا أن الهوى والنفس يدعوانه إلى الانهماك في الشهوات الجسمانية واللذات الجسدانية، وإذا حصل هذا التعارض فلا بد من مرجح قوي ومعاضد كامل، وما ذاك إلا ترتيب الوعد والوعيد والثواب والعقاب على الفعل والترك.

والجواب عن السؤال الثاني: أنه إذا جوز الإنسان حصول الكذب على الله تعالى فحينئذ لا يحصل من الوعد رغبة، ولا من الوعيد رهبة، لأن السامع يُجَوِّز كونه كذبًا.

والجواب عن السؤال الثالث: أن العبد ما دامت حياته في الدنيا فهو كالأجير المشتغل بالعمل. والأجير حال اشتغاله بالعمل لا يجوز دفع الأجرة بكمالها إليه، لأنه إذا أخذها فإنه لا يجتهد في العمل. وأما إذا كان محل أخذ الأجرة هو الدار الآخرة كان الاجتهاد في العمل أشد وأكمل، وأيضًا نرى في هذه الدنيا أن أزهد الناس وأعلمهم مبتلى بأنواع الغموم والهموم والأحزان، وأجهلهم وأفسقهم في اللذات والمسرات، فعلمنا أن دار الجزاء يمتنع أن تكون هذه الدار فلا بد من دار أخرى، ومن حياة أخرى، ليحصل فيها الجزاء.

الحجة الثانية: أن صريح العقل يوجب في حكمة الحكيم أن يفرق بين المحسن وبين المسيء، وأن لا يجعل من كفر به، أو جحده بمنزلة من أطاعه، ولما وجب إظهار هذه التفرقة فحصول هذه التفرقة إما أن يكون في دار الدنيا، أو في دار الآخرة، والأول باطل. لأنا نرى الكفار والفساق في الدنيا في أعظم الراحات، ونرى العلماء والزهاد بالضد منه، ولهذا المعنى قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ [الزخرف: ٣٣] فثبت أنه لا بد بعد هذه الدار من دار أخرى، وهو المراد من الآية التي نحن في تفسيرها وهي قوله: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ [يونس: ٤] وهو المراد أيضًا بقوله تعالى في سورة طه: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥] وبقوله تعالى في سورة ص: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

فإن قيل: أما أنكرتم أن يقال: إنه تعالى لا يفصل بين المحسن وبين المسيء في الثواب والعقاب كما لم يفصل بينهما في حسن الصورة وفي كثرة المال؟

والجواب: أن هذا الذي ذكرته مما يقوي دليلنا، فإنه ثبت في صريح العقل وجوب التفرقة، ودل الحس على أنه لم تحصل هذه التفرقة في الدنيا، بل كان الأمر على الضد منه، فإنا نرى العالم والزاهد في أشد البلاء، ونرى الكافر والفاسق في أعظم النعم. فعلمنا أنه لا بد من دار أخرى يظهر فيها هذا التفاوت، وأيضًا لا يبعد أن يقال: إنه تعالى علم أن هذا الزاهد العابد لو

أعطاه ما دفع إلى الكافر الفاسق لطغى وبغى وآثر الحياة الدنيا، وأن ذلك الكافر الفاسق لو زاد عليه في التضييق لزاد في الشر، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧].

الحجة الثالثة: أنه تعالى كلف عبيده بالعبودية فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] والحكيم إذا أمر عبده بشيء، فلا بد وأن يجعله فارغ الباب منتظم الأحوال حتى يمكنه الاشتغال بأداء تلك التكاليف، والناس جبلوا على طلب اللذات وتحصيل الراحات لأنفسهم، فلو لم يكن لهم زاجر من خوف المعاد لكثر الهرج والمرج ولعظمت الفتن، وحينئذ لا يتفرغ المكلف للاشتغال بأداء العبادات. فوجب القطع بحصول دار الثواب والعقاب لتنتظم أحوال العالم حتى يقدر المكلف على الاشتغال بأداء العبودية.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال إنه يكفي في بقاء نظام العالم مهابة الملوك وسياساتهم؟ وأيضًا فالأوباش يعلمون أنهم لو حكموا بِحُسْن الهرج والمرج. لانقلب الأمر عليهم ولقدر غيرهم على قتلهم، وأخذ أموالهم، فلهذا المعنى يحترزون عن إثارة الفتن.

والجواب: أن مجرد مهابة السلاطين لا تكفي في ذلك، وذلك لأن السلطان إما أن يكون قد بلغ في القدرة والقوة إلى حيث لا يخاف من الرعية، وإما أن يكون خائفًا منهم، فإن كان لا يخاف الرعية مع أنه لا خوف له من المعاد، فحينئذ يقدم على الظلم والإيذاء على أقبح الوجوه، لأن الداعية النفسانية قائمة، ولا رادع له في الدنيا ولا في الآخرة، وأما إن كان يخاف الرعية فحينئذ الرعية لا يخافون منه خوفًا شديدًا، فلا يصير ذلك رادعًا لهم عن القبائح والظلم. فثبت أن نظام العالم لا يتم ولا يكمل إلا بالرغبة في المعاد والرهبة عنه.

الحجة الرابعة: أن السلطان القاهر إذا كان له جمع من العبيد، وكان بعضهم أقوياء وبعضهم ضعفاء، وجب على ذلك السلطان إن كان رحيمًا ناظرًا مشفقًا عليهم أن ينتصف للمظلوم الضعيف من الظالم القادر القوي، فإن لم يفعل ذلك كان راضيًا بذلك الظلم، والرضا بالظلم لا يليق بالرحيم الناظر المحسن.

إذا ثبت هذا فنقول: إنه سبحانه سلطان قاهر قادر حكيم منزه عن الظلم والعبث. فوجب أن ينتصف لعبيده المظلومين من عبيده الظالمين، وهذا الانتصاف لم يحصل في هذه الدار، لأن المظلوم قد يبقى في غاية الذلة والمهانة، والظالم يبقى في غاية العزة والقدرة، فلا بد من دار أخرى يظهر فيها هذا العدل وهذا الإنصاف، وهذه الحجة يصلح جعلها تفسيرًا لهذه الآية التي نحن في تفسيرها.

فإن قالوا: إنه تعالى لما أقدر الظالم على الظلم في هذه الدار، وما أعجزه عنه، دل على كونه راضيًا بذلك الظلم.

قلنا: الإقدار على الظلم عين الإقدار على العدل والطاعة، فلو لم يقدره تعالى على الظلم

لكان قد أعجزه عن فعل الخيرات والطاعات، وذلك لا يليق بالحكيم، فوجب في العقل إقداره على الظلم والعدل، ثم إنه تعالى ينتقم للمظلوم من الظالم.

الحجة الخامسة: أنه تعالى خلق هذا العالم وخلق كل من فيه من الناس فإما أن يقال: إنه تعالى خلقهم لا لمنفعة ولا لمصلحة، أو يقال: إنه تعالى خلقهم لمصلحة ومنفعة. والأول لا يليق بالرحيم الكريم. والثاني: وهو أن يقال: إنه خلقهم لمقصود ومصلحة وخير، فذلك الخير والمصلحة إما أن يحصل في هذه الدنيا أو في دار أخرى، والأول باطل من وجهين:

الأول: أن لذات هذا العالم جسمانية، واللذات الجسمانية لا حقيقية لها إلا إزالة الألم، وإزالة الألم أمر عدمي، وهذا العدم كان حاصلاً حال كون كل واحد من الخلائق معدومًا، وحينئذ لا يبقى للتخليق فائدة.

والثاني: أن لذات هذا العالم ممزوجة بالآلام والمحن، بل الدنيا طافحة بالشرور والآفات والمحن والبليات، واللذة فيها كالقطرة في البحر. فعلمنا أن الدار التي يصل فيها الخلق إلى تلك الراحات المقصودة دار أخرى سوى دار الدنيا.

فإن قالوا: أليس أنه تعالى يؤلم أهل النار بأشد العذاب لا لأجل مصلحة وحكمة؟ فلم لا يجوز أن يقال: إنه تعالى يخلق الخلق في هذا العالم لا لمصلحة ولا لحكمة.

قلنا: الفرق أن ذلك الضرر ضرر مستحق على أعمالهم الخبيثة. وأما الضرر الحاصل في الدنيا فغير مستحق، فوجب أن يعقبه خيرات عظيمة ومنافع جابرة لتلك المضار السالفة، وإلا لزم أن يكون الفاعل شريرًا مؤذيًا، وذلك ينافي كونه أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين.

الحجة السادسة: لو لم يحصل للإنسان معاد لكان الإنسان أخس من جميع الحيوانات في المنزلة والشرف. واللازم باطل، فالملزوم مثله. بيان الملازمة أن مضار الإنسان في الدنيا أكثر من مضار جميع الحيوانات، فإن سائر الحيوانات قبل وقوعها في الآلام والأسقام تكون فارغة البال طيبة النفس، لأنه ليس لها فكر وتأمل. أما الإنسان فإنه بسبب ما يحصل له من العقل يتفكر أبدًا في الأحوال الماضية والأحوال المستقبلة، فيحصل له بسبب أكثر الأحوال الماضية أنواع من الحزن والأسف، ويحصل له بسبب أكثر الأحوال الآتية أنواع من الخوف، لأنه لا يدري أنه كيف تحدث الأحوال. فثبت أن حصول العقل للإنسان سبب لحصول المضار العظيمة في الدنيا والآلام النفسانية الشديدة القوية. وأما اللذات الجسمانية فهي مشتركة بين الناس وبين سائر الحيوانات، لأن السرقين في مذاق الجُعْل طيب، كما أن اللوزينج في مذاق الإنسان طيب.

إذا ثبت هذا فنقول: لو لم يحصل للإنسان معاد به تكمل حالته وتظهر سعادته، لوجب أن يكون كمال العقل، سببًا لمزيد الهموم والغموم والأحزان من غير جابر يجبر، ومعلوم أن كل ما كان كذلك فإنه يكون سببًا لمزيد الخسة والدناءة والشقاء والتعب الخالية عن المنفعة. فثبت أنه لولا حصول السعادة الأخروية لكان الإنسان أخس الحيوانات حتى الخنافس والديدان، ولما كان

ذلك باطلاً قطعًا، علمنا أنه لا بد من الدار الآخرة، وأن الإنسان خلق للآخرة لا للدنيا، وأنه بعقله يكتسب موجبات السعادات الأخروية. فلهذا السبب كان العقل شريفًا.

الحجة السابعة: أنه تعالى قادر على إيصال النعم إلى عبيده على وجهين:

أحدهما: أن تكون النعم مشوبة بالآفات والأحزان.

والثاني: أن تكون خالصة عنها، فلما أنعم الله تعالى في الدنيا بالمرتبة الأولى وجب أن ينعم علينا بالمرتبة الثانية في دار أخرى، إظهارًا لكمال القدرة والرحمة والحكمة، فهناك ينعم على المطيعين ويعفو عن المذنبين، ويزيل الغموم والهموم والشهوات والشبهات. والذي يقوي ذلك، ويقرر هذا الكلام أن الإنسان حين كان جنينًا في بطن أمه، كان في أضيق المواضع وأشدها عفونة وفسادًا، ثم إذا خرج من بطن أمه كانت الحالة الثانية أطيب وأشرف من الحالة الأولى، ثم إنه عند ذلك يوضع في المهد ويشد شدًّا وثيقًا، ثم بعد حين يخرج من المهد ويعدو يمينًا وشمالاً، وينتقل من تناول اللبن إلى تناول الأطعمة الطيبة، وهذه الحالة الثالثة لا شك أنها أطيب من الحالة الثانية، ثم إنه بعد حين يصير أميرًا نافذ الحكم على الخلق، أو عالمًا مشرفًا على حقائق الأشياء، ولا شك أن هذه الحالة الرابعة أطيب وأشرف من الحالة الثالثة. وإذا ثبت هذا وجب بحكم هذا الاستقراء أن يقال: الحالة الحاصلة بعد الموت تكون أشرف وأعلى وأبهج من اللذات الجسدانية والخيرات الجسمانية.

الحجة الثامنة: طريقة الاحتياط، فإنا إذا آمنا بالمعاد وتأهبنا له، فإن كان هذا المذهب حقًّا، فقد نجونا وهلك المنكر، وإن كان باطلاً، لم يضرنا هذا الاعتقاد. غاية ما في الباب أن يقال إنه تفوتنا هذه اللذات الجسمانية إلا أنا نقول يجب على العاقل أن لا يبالي بفوتها لأمرين: أحدهما: أنها في غاية الخساسة لأنها مشترك فيها بين الخنافس والديدان والكلاب. والثاني: أنها منقطعة سريعة الزوال. فثبت أن الاحتياط ليس إلا في الإيمان بالمعاد، ولهذا قال الشاعر[1]:

قَالَ الْمُنَجِّمُ وَالطَّبِيبُ كِلاَهُمَا ... لاَ تُحْشَرُ الأَمْوَاتُ قُلْتُ إِلَيْكُمَا

إِنْ صح قولكما فَلَسْتُ بِخَاسِرٍ ... أَوْ صَحَّ قَوْلِي فَالْخَسَارُ عَلَيْكُمَا

الحجة التاسعة: اعلم أن الحيوان ما دام يكون حيوانًا، فإنه إن قطع منه شيء مثل ظفر أو ظلف أو شعر، فإنه يعود ذلك الشيء، وإن جرح اندمل، ويكون الدم جاريًا في عروقه وأعضائه جريان الماء في عروق الشجر وأغصانه، ثم إذا مات انقلبت هذه الأحوال، فإن قطع منه شيء من شعره أو ظفره لم ينبت، وإن جرح لم يندمل ولم يلتحم، ورأيت الدم يتجمد في عروقه، ثم بالآخرة يؤول حاله إلى الفساد والانحلال. ثم إنا لما نظرنا إلى الأرض وجدناها شبيهة بهذه الصفة، فإنا نراها في زمان الربيع تفور عيونها وتربو تلالها وينجذب الماء إلى أغصان الأشجار وعروقها، والماء في الأرض بمنزلة الدم الجاري في بدن الحيوان، ثم تخرج أزهارها وأنوارها وثمارها كما

(١) البيت لأبي العلاء المعري ضمن قصيدة من البحر الكامل وقد تقدمت ترجمته.

قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥] وإن جذ من نباتها شيء أخلف ونبت مكانه آخر مثله، وإن قطع غصن من أغصان الأشجار أخلف، وإن جرح التأم، وهذه الأحوال شبيهة بالأحوال التي ذكرناها للحيوان. ثم إذا جاء الشتاء واشتد البرد غارت عيونها وجفت رطوبتها وفسدت بقولها، ولو قطعنا غصنًا من شجرة ما أخلف، فكانت هذه الأحوال شبيهة بالموت بعد الحياة. ثم إنا نرى الأرض في الربيع الثاني تعود إلى تلك الحياة، فإذا عقلنا هذه المعاني في إحدى الصورتين، فلم لا نعقل مثله في الصورة الثانية، بل نقول: لا شك أن الإنسان أشرف من سائر الحيوانات، والحيوان أشرف من النبات، وهو أشرف من الجمادات. فإذا حصلت هذه الأحوال في الأرض، فلم لا يجوز حصولها في الإنسان؟

فإن قالوا: إن أجساد الحيوان تتفرق وتتمزق بالموت، وأما الأرض فليست كذلك.

فالجواب: أن الإنسان عبارة عن النفس الناطقة، وهو جوهر باق، أو إن لم نقل بهذا المذهب فهو عبارة عن أجزاء أصلية باقية من أول وقت تَكَوُّن الجنين إلى آخر العمر، وهي جارية في البدن، وتلك الأجزاء باقية، فزال هذا السؤال.

الحجة العاشرة: لا شك أن بدن الحيوان إنما تولد من النطفة، وهذه النطفة إنما اجتمعت من جميع البدن، بدليل أن عند انفصال النطفة يحصل الضعف والفتور في جميع البدن، ثم إن مادة تلك النطفة إنما تولدت من الأغذية المأكولة، وتلك الأغذية إنما تولدت من الأجزاء العنصرية وتلك الأجزاء كانت متفرقة في مشارق الأرض ومغاربها، واتفق لها أن اجتمعت، فتولد منها حيوان أو نبات فأكله إنسان، فتولد منه دم فتوزع ذلك الدم على أعضائه، فتولد منها أجزاء لطيفة. ثم عند استيلاء الشهوة سال من تلك الرطوبات مقدار معين، وهو النطفة، فانصب إلى فم الرحم، فتولد منه هذا الإنسان، فثبت أن الأجزاء التي منها تولد بدن الإنسان كانت متفرقة في البحار والجبال وأوج الهواء، ثم إنها اجتمعت بالطريق المذكور، فتولد منها هذا البدن، فإذا مات تفرقت تلك الأجزاء على مثال التفرق الأول. وإذا ثبت هذا فنقول وجب القطع أيضًا بأنه لا يمتنع أن يجتمع مرة أخرى على مثال الاجتماع الأول، وأيضًا، فذلك المني لما وقع في رحم الأم، فقد كان قطرة صغيرة ثم تولد منه بدن الإنسان وتعلقت الروح به حال ما كان ذلك البدن في غاية الصغر، ثم إن ذلك البدن لا شك أنه في غاية الرطوبة، ولا شك أنه يتحلل منه أجزاء كثيرة بسبب عمل الحرارة الغريزية فيها، وأيضًا فتلك الأجزاء البدنية الباقية أبدًا في طول العمر تكون في التحلل، ولولا ذلك لما حصل الجوع، ولما حصلت الحاجة إلى الغذاء، مع أنا نقطع بأن هذا الإنسان الشيخ، هو عين ذلك الإنسان الذي كان في بطن أمه. ثم انفصل، وكان طفلاً ثم شابًا، فثبت أن الأجزاء البدنية دائمة التحلل، وأن الإنسان هو هو بعينه. فوجب القطع بأن الإنسان، إما أن يكون جوهرًا مفارقًا مجردًا، وإما أن يكون جسمًا نورانيًا لطيفًا باقيًا مع تحلل هذا البدن، فإذا كان الأمر كذلك فعلى التقديرين لا يمتنع عوده إلى الجثة مرة أخرى، ويكون

هذا الإنسان العائد عين الإنسان الأول، فثبت أن القول بالمعاد صدق.

الحجة الحادية عشر: ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٧٧] واعلم أن قوله سبحانه: ﴿خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [يس: ٧٧] إشارة إلى ما ذكرناه في الحجة العاشرة من أن تلك الأجزاء كانت متفرقة في مشارق الأرض ومغاربها، فجمعها الله تعالى وخلق من تركيبها هذا الحيوان، والذي يقويه قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣] فإن تفسيره هذه الآية إنما يصح بالوجه الذي ذكرناه، وهو أن السلالة من الطين يتكون منها نبات، ثم إن ذلك النبات يأكله الإنسان فيتولد منه الدم، ثم الدم ينقلب نطفة، فبهذا الطريق ينتظم ظاهر هذه الآية. ثم إنه سبحانه بعد أن ذكر هذا المعنى حكى كلام المنكر، وهو قوله تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] ثم إنه تعالى بين إمكان هذا المذهب.

واعلم أن إثبات إمكان الشيء لا يعقل إلا بطريقين: أحدهما: أن يقال: إن مثله ممكن، فوجب أن يكون هذا أيضًا ممكنًا. والثاني: أن يقال: إن ما هو أعظم منه وأعلى حالاً منه، فهو أيضًا ممكن. ثم إنه تعالى ذكر الطريق الأول أولاً فقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩] ثم فيه دقيقة وهي أن قوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا﴾ إشارة إلى كمال القدرة، وقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ إشارة إلى كمال العلم. ومنكرو الحشر والنشر لا ينكرونه إلا لجهلهم بهذين الأصلين، لأنهم تارة يقولون: إنه تعالى موجب بالذات، والموجب بالذات لا يصح منه القصد إلى التكوين، وتارة يقولون إنه يمتنع كونه عالمًا بالجزئيات، فيمتنع منه تمييز أجزاء بدن زيد عن أجزاء بدن عمرو، ولما كانت شبه الفلاسفة مستخرجة من هذين الأصلين، لا جرم كلما ذكر الله تعالى مسألة المعاد أردفه بتقرير هذين الأصلين ثم إنه تعالى ذكر بعده الطريق الثاني، وهو الاستدلال بالأعلى على الأدنى، وتقريره من وجهين: الأول: أن الحياة لا تحصل إلا بالحرارة والرطوبة، والتراب بارد يابس، فحصلت المضادة بينهما. إلا أنا نقول: الحرارة النارية أقوى في صفة الحرارة من الحرارة الغريزية، فلما لم يمتنع تولد الحرارة النارية عن الشجر الأخضر مع كمال ما بينهما من المضادة، فكيف يمتنع حدوث الحرارة الغريزية في جرم التراب؟ الثاني: قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١] بمعنى أنه لما سلمتم أنه تعالى هو الخالق لأجرام الأفلاك والكواكب، فكيف يمكنكم الامتناع عن كونه قادرًا على الحشر والنشر؟ ثم إنه تعالى حسم مادة الشبهات بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] والمراد أن تخليقه وتكوينه لا يتوقف على حصول الآلات والأدوات ونطفة الأب ورحم الأم، والدليل عليه أنه خلق الأب الأول، لا عن أب سابق عليه، فدل ذلك على كونه سبحانه غنيًّا في الخلق والإيجاد والتكوين عن الوسائط والآلات. ثم قال سبحانه:

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣] أي سبحانه من أن لا يعيدهم ويهمل أمر المظلومين، ولا ينتصف للعاجزين من الظالمين، وهو المعنى المذكور في هذه الآية التي نحن في تفسيرها، وهي قوله سبحانه: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾.

الحجة الثانية عشر: دلت الدلائل على أن العالم محدث ولا بد له من محدث قادر، ويجب أن يكون عالمًا، لأن الفعل المحكم المتقن لا يصدر إلا من العالم، ويجب أن يكون غنيًّا عنها وإلا لكان قد خلقها في الأزل وهو محال، فثبت أن لهذا العالم إلهًا قادرًا عالمًا غنيًّا، ثم لما تأملنا فقلنا: هل يجوز في حق هذا الحكيم الغني عن الكل أن يهمل عبيده ويتركهم سدى، ويجوز لهم أن يكذبوا عليه ويبيح لهم أن يشتموه ويجحدوا ربوبيته، ويأكلوا نعمته، ويعبدوا الجبت والطاغوت، ويجعلوا له أندادًا وينكروا أمره ونهيه ووعده ووعيده؟ فههنا حكمت بديهة العقل بأن هذه المعاني لا تليق إلا بالسفيه الجاهل البعيد من الحكمة. القريب من العبث، فحكمنا لأجل هذه المقدمة أن له أمرًا ونهيًا، ثم تأملنا فقلنا: هل يجوز أن يكون له أمر ونهي مع أنه لا يكون له وعد ووعيد؟ فحكم صريح العقل بأن ذلك غير جائز لأنه إن لم يقرن الأمر بالوعد بالثواب، ولم يقرن النهي بالوعيد بالعقاب لم يتأكد الأمر والنهي، ولم يحصل المقصود. فثبت أنه لا بد من وعد ووعيد، ثم تأملنا فقلنا: هل يجوز أن يكون له وعد ووعيد ثم إنه لا يفي بوعده لأهل الثواب، ولا بوعيده لأهل العقاب: فقلنا: إن ذلك لا يجوز، لأنه لو جاز ذلك لما حصل الوثوق بوعده ولا بوعيده، وهذا يوجب أن لا يبقى فائدة في الوعد والوعيد، فعلمنا أنه لا بد من تحقيق الثواب والعقاب، ومعلوم أن ذلك لا يتم إلا بالحشر والبعث، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. فهذه مقدمات يتعلق بعضها ببعض كالسلسلة متى صح بعضها صح كلها، ومتى فسد بعضها فسد كلها، فدل مشاهدة أبصارنا لهذه التغيرات على حدوث العالم، ودل حدوث العالم على وجود الصانع الحكيم الغني، ودل ذلك على وجود الأمر والنهي، ودل ذلك على وجود الثواب والعقاب، ودل ذلك على وجوب الحشر. فإن لم يثبت الحشر أدى ذلك إلى بطلان جميع المقدمات المذكورة ولزم إنكار العلوم البديهية وإنكار العلوم النظرية القطعية. فثبت أنه لا بد لهذه الأجساد البالية والعظام النخرة والأجزاء المتفرقة المتمزقة من البعث بعد الموت، ليصل المحسن إلى ثوابه والمسيء إلى عقابه، فإن لم تحصل هذه الحالة لم يحصل الوعد والوعيد، وإن لم يحصلا لم يحصل الأمر والنهي، وإن لم يحصلا لم تحصل الإلهية، وإن لم تحصل الإلهية لم تحصل هذه التغيرات في العالم. وهذه الحجة هي المراد من الآية التي نحن في تفسيرها وهي قوله: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ هذا كله تقرير إثبات المعاد بناء على أن لهذا العالم إلهًا رحيمًا ناظرًا محسنًا إلى العباد.

أما الفريق الثاني: وهم الذين لا يعللون أفعال الله تعالى برعاية المصالح، فطريقهم إلى إثبات المعاد أن قالوا: المعاد أمر جائز الوجود، والأنبياء عليهم السلام أخبروا عنه، فوجب القطع

بصحته، أما إثبات الإمكان فهو مبني على مقدمات ثلاثة:

المقدمة الأولى: البحث عن حال القابل فنقول: الإنسان إما أن يكون عبارة عن النفس أو عن البدن، فإن كان عبارة عن النفس وهو القول الحق، فنقول: لما كان تعلق النفس بالبدن في المرة الأولى جائزًا كان تعلقها بالبدن في المرة الثانية يجب أن يكون جائزًا. وهذا الكلام لا يختلف، سواء قلنا النفس عبارة عن جوهر مجرد، أو قلنا: إنه جسم لطيف مشاكل لهذا البدن باق في جميع أحوال البدن مصون عن التحلل والتبدل، وأما إن كان الإنسان عبارة عن البدن، وهذا القول أبعد الأقاويل فنقول: إن تألف تلك الأجزاء على الوجه المخصوص في المرة الأولى كان ممكنًا، فوجب أيضًا أن يكون في المرة الثانية ممكنًا، فثبت أن عود الحياة إلى هذا البدن مرة أخرى أمرٌ ممكن في نفسه.

وأما المقدمة الثانية: فهي في بيان أن إله العالم قادر مختار. لا علة موجبة، وأن هذا القادر قادر على كل الممكنات.

وأما المقدمة الثالثة: فهي في بيان أن إله العالم عالم بجميع الجزئيات، فلا جرم أجزاء بدن زيد وإن اختلطت بأجزاء التراب، والبحار إلا أنه تعالى لما كان عالمًا بالجزئيات أمكنه تمييز بعضها عن بعض. ومتى ثبتت هذه المقدمات الثلاثة، لزم القطع بأن الحشر والنشر أمر ممكن في نفسه.

وإذا ثبت هذا الإمكان فنقول: دل الدليل على صدق الأنبياء وهم قطعوا بوقوع هذا الممكن، فوجب القطع بوقوعه، وإلا لزمنا تكذيبهم، وذلك باطل بالدلائل الدالة على صدقهم، فهذا خلاصة ما وصل إليه عقلنا في تقرير أمر المعاد.

المسألة الثالثة: في الجواب عن شبهات المنكرين للحشر والنشر.

الشبهة الأولى: قالوا: لو بدلت هذه الدار بدار أخرى لكانت تلك الدار إما أن تكون مثل هذه الدار أو شرًّا منها أو خيرًا منها، فإن كان الأول كان التبديل عبثًا، وإن كان شرًّا منها كان هذا التبديل سفهًا، وإن كان خيرًا منها ففي أول الأمر هل كان قادرًا على خلق ذلك الأجود أو ما كان قادرًا عليه؟ فإن قدر عليه ثم تركه وفعل الأردأ كان ذلك سفهًا، وإن قلنا: إنه ما كان قادرًا ثم صار قادرًا عليه فقد انتقل من العجز إلى القدرة، أو من الجهل إلى الحكمة، وأن ذلك على خالق العالم محال.

والجواب: لم لا يجوز أن يقال: تقديم هذه الدار على تلك الدار هو المصلحة، لأن الكمالات النفسانية الموجبة للسعادة الأخروية لا يمكن تحصيلها إلا في هذه الدار، ثم عند حصول هذه الكمالات كان البقاء في هذه الدار سببًا للفساد والحرمان عن الخيرات.

الشبهة الثانية: قالوا: حركات الأفلاك مستديرة، والمستدير لا ضد له، وما لا ضد له لا يقبل الفساد.

والجواب: أنا أبطلنا هذه الشبهة في الكتب الفلسفية، فلا حاجة إلى الإعادة. والأصل في إبطال أمثال هذه الشبهات أن نقيم الدليل على أن أجرام الأفلاك مخلوقة، ومتى ثبت ذلك ثبت كونها قابلة للعدم والتفرق والتمزق. ولهذا السر فإنه تعالى في هذه السورة بدأ بالدلائل الدالة على حدوث الأفلاك، ثم أردفها بما يدل على صحة القول بالمعاد.

الشبهة الثالثة: الإنسان عبارة عن هذا البدن، وهو ليس عبارة عن هذه الأجزاء كيف كانت، لأن هذه الأجزاء كانت موجودة قبل حدوث هذا الإنسان، مع أنا نعلم بالضرورة أن هذا الإنسان ما كان موجودًا، وأيضًا أنه إذا أحرق هذا الجسد، فإنه تبقى تلك الأجزاء البسيطة، ومعلوم أن مجموع تلك الأجزاء البسيطة من الأرض والماء والهواء والنار، ما كان عبارة عن هذا الإنسان العاقل الناطق، فثبت أن تلك الأجزاء إنما تكون هذا الإنسان بشرط وقوعها على تأليف مخصوص، ومزاج مخصوص، وصورة مخصوصة، فإذا مات الإنسان وتفرقت أجزاؤه فقد عدمت تلك الصور والأعراض، وعود المعدوم محال. وعلى هذا التقدير فإنه يمتنع عود بعض الأجزاء المعتبرة في حصول هذا الإنسان فوجب أن يمتنع عوده بعينه مرة أخرى.

والجواب: لا نسلم أن هذا الإنسان المعين عبارة عن هذا الجسد المشاهد، بل هو عبارة عن النفس. سواء فسرنا النفس بأنه جوهر مفارق مجرد، أو قلنا: إنه جسم لطيف مخصوص مشاكل لهذا الجسد مصون عن التغير، والله أعلم به.

الشبهة الرابعة: إذا قتل إنسان واغتذى به إنسان آخر. فيلزم أن يقال تلك الأجزاء في بدن كل واحد من الشخصين وذلك محال.

والجواب: هذه الشبهة أيضًا مبنية على أن الإنسان المعين عبارة عن مجموع هذا البدن، وقد بينا أنه باطل. بل الحق أنه عبارة عن النفس سواء.

قلنا: النفس جوهر مجرد وأجسام لطيفة باقية مشاكلة للجسد، وهي التي سمتها المتكلمون بالأجزاء الأصلية. وهذا آخر البحث العقلي عن مسألة المعاد.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾.

فيه أبحاث:

البحث الأول: أن كلمة (إلى) لانتهاء الغاية، وظاهره يقتضي أن يكون الله سبحانه مختصًا بحيز وجهة، حتى يصح أن يقال: إليه مرجع الخلق.

والجواب عنه من وجوه: الأول: أنا إذا قلنا: النفس جوهر مجرد، فالسؤال زائل. الثاني: أن يكون المراد منه: أن مرجعهم إلى حيث لا حاكم سواه. الثالث: أن يكون المراد: أن مرجعهم إلى حيث حصل الوعد فيه بالمجازاة.

البحث الثاني: ظاهر الآيات الكثيرة يدل على أن الإنسان عبارة عن النفس، لا عن البدن، ويدل أيضًا على أن النفس كانت موجودة قبل البدن. أما أن الإنسان شيء غير هذا البدن فلقوله

تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ [آل عمران: ١٦٩] فالعلم الضروري حاصل بأن بدن المقتول ميت، والنص دال على أنه حي، فوجب أن تكون حقيقته شيئًا مغايرًا لهذا البدن الميت، وأيضًا قال الله تعالى في صفة نزع روح الكفار ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣] وأما أن النفس كانت موجودة قبل البدن، فلأن قوله تعالى في هذه الآية: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ يدل على ما قلنا، لأن الرجوع إلى الموضع إنما يحصل لو كان ذلك الشيء قد كان هناك قبل ذلك، ونظيره قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨] وقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢].

البحث الثالث: المرجع بمعنى الرجوع و﴿جَمِيعًا﴾ نصب على الحال أي ذلك الرجوع يحصل حال الاجتماع، وهذا يدل على أنه ليس المراد من هذا المرجع الموت، وإنما المراد منه القيامة.

البحث الرابع: قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ يفيد الحصر، وأنه لا رجوع إلا إلى الله تعالى، ولا حكم إلا حكمه ولا نافذ إلا أمره، وأما قوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: قوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ منصوب على معنى: وعدكم الله وعدًا، لأن قوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ معناه: الوعد بالرجوع، فعلى هذا التقدير يكون قوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدرًا مؤكدًا لقوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ وقوله: ﴿حَقًّا﴾ مصدرًا مؤكدًا لقوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ فهذه التأكيدات قد اجتمعت في هذا الحكم.

المسألة الثانية: قرئ (وَعَدَ الله) على لفظ الفعل. واعلم أنه تعالى لما أخبر عن وقوع الحشر والنشر، ذكر بعده ما يدل على كونه في نفسه ممكن الوجود. ثم ذكر بعده ما يدل على وقوعه. أما ما يدل على إمكانه في نفسه فهو قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: تقرير هذا الدليل أنه تعالى بيّن بالدليل كونه خالقًا للأفلاك والأرضين، ويدخل فيه أيضًا كونه خالقًا لكل ما في هذا العالم من الجمادات والمعادن والنبات والحيوان والإنسان، وقد ثبت في العقل أن كل من كان قادرًا على شيء، وكانت قدرته باقية ممتنعة الزوال، وكان عالمًا بجميع المعلومات فإنه يمكنه إعادته بعينه، فدل هذا الدليل على أنه تعالى قادر على إعادة الإنسان بعد موته.

المسألة الثانية: اتفق المسلمون على أنه تعالى قادر على إعدام أجسام العالم، واختلفوا في أنه تعالى هل يعدمها أم لا؟ فقال قوم إنه تعالى يعدمها، واحتجوا بهذه الآية وذلك لأنه تعالى حكم على جميع المخلوقات بأنه يعيدها، فوجب أن يعيد الأجسام أيضًا، وإعادتها لا تمكن إلا بعد إعدامها، وإلا لزم إيجاد الموجود وهو محال. ونظيره قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] فحكم بأن الإعادة تكون مثل الابتداء،

ثم ثبت بالدليل أنه تعالى إنما يخلقها في الابتداء من العدم، فوجب أن يقال: إنه تعالى يعيدها أيضًا من العدم.

المسألة الثالثة: في هذه الآية إضمار، كأنه قيل: إنه يبدأ الخلق ليأمرهم بالعبادة، ثم يميتهم ثم يعيدهم، كما قال في سورة البقرة: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] إلا أنه تعالى حذف ذكر الأمر بالعبادة ههنا، لأجل أنه تعالى قال قبل هذه الآية: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ [يونس: ٣] وحذف ذكر الإماتة لأن ذكر الإعادة يدل عليها.

المسألة الرابعة: قرأ بعضهم ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ بالكسر وبعضهم بالفتح. قال الزجاج: من كسر الهمزة من (أن) فعلى الاستئناف، وفي الفتح وجهان: الأول: أن يكون التقدير: إليه مرجعكم جميعًا لأنه يبدأ الخلق ثم يعيده. والثاني: أن يكون التقدير: وعد الله وعدًا بدأ الخلق ثم إعادته، وقرئ (يُبْدِئُ) من أبدأ، وقرئ (حق إنه يبدأ الخلق) كقولك: حق إن زيدًا منطلق.

أما قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ فاعلم أن المقصود منه إقامة الدلالة على أنه لا بد من حصول الحشر والنشر، حتى يحصل الفرق بين المحسن والمسيء، وحتى يصل الثواب إلى المطيع والعقاب إلى العاصي، وقد سبق الاستقصاء في تقرير هذا الدليل.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الكعبي: اللام في قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يدل على أنه تعالى خلق العباد للثواب والرحمة. وأيضًا فإنه أدخل لام التعليل على الثواب. وأما العقاب فما أدخل فيه لام التعليل، بل قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ وذلك يدل على أنه خلق الخلق للرحمة لا للعذاب، وذلك يدل على أنه ما أراد منهم الكفر، وما خلق فيهم الكفر ألبتة.

والجواب: أن لام التعليل في أفعال الله تعالى محال، لأنه تعالى لو فعل فعلاً لعلة لكانت تلك العلة، إن كانت قديمة لزم قدم الفعل، وإن كانت حادثة لزم التسلسل وهو محال.

المسألة الثانية: قال الكعبي أيضًا: هذه الآية تدل على أنه لا يجوز من الله تعالى أن يبدأ خلقهم في الجنة، لأنه لو حسن إيصال تلك النعم إليهم من غير واسطة خلقهم في هذا العالم ومن غير واسطة تكليفهم، لما كان خلقهم وتكليفهم معللاً بإيصال تلك النعم إليهم، وظاهر الآية يدل على ذلك. والجواب: هذا بناء على صحة تعليل أحكام الله تعالى وهو باطل، سلمنا صحته. إلا أن كلامه إنما يصح لو عللنا بدء الخلق وإعادته بهذا المعنى وذلك ممنوع. فلم لا يجوز أن يقال: إنه يبدأ الخلق لمحض التفضل، ثم إنه تعالى يعيدهم لغرض إيصال نعم الجنة إليهم؟ وعلى هذا التقدير: سقط كلامه.

أما قوله تعالى: ﴿بِالْقِسْطِ﴾ . ففيه وجهان:

الوجه الأول: ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل، وهو يتعلق بقوله: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ والمعنى: ليجزيهم بقسطه،

وفيه سؤالان.

السؤال الأول: أن القسط إذا كان مفسرًا بالعدل، فالعدل هو الذي يكون لا زائدًا ولا ناقصًا، وذلك يقتضي أنه تعالى لا يزيدهم على ما يستحقونه بأعمالهم، ولا يعطيهم شيئًا على سبيل التفضل ابتداء. والجواب: عندنا أن الثواب أيضًا محض التفضل. وأيضًا فبتقدير أن يساعد على حصول الاستحقاق، إلا أن لفظ (القسط) يدل على توفية الأجر، فأما المنع من الزيادة فلفظ (القسط) لا يدل عليه.

السؤال الثاني: لم خص المؤمنين بالقسط مع أنه تعالى يجازي الكافرين أيضًا بالقسط؟ والجواب: أن تخصيص المؤمنين بذلك يدل على مزيد العناية في حقهم، وعلى كونهم مخصوصين بمزيد هذا الاحتياط.

الوجه الثاني: في تفسير الآية أن يكون المعنى: ليجزي الذين آمنوا بقسطهم، وبما أقسطوا وعدلوا ولم يظلموا أنفسهم حيث آمنوا وعملوا الصالحات، لأن الشرك ظلم. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] والعصاة أيضًا قد ظلموا أنفسهم. قال الله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٢] وهذا الوجه أقوى، لأنه في مقابلة قوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾.

وأما قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الواحدي: الحميم: الذي سخن بالنار حتى انتهى حره. يقال: حممت الماء أي سخنته، فهو حميم. ومنه الحمام.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه لا واسطة بين أن يكون المكلف مؤمنًا وبين أن يكون كافرًا، لأنه تعالى اقتصر في هذه الآية على ذكر هذين القسمين.

وأجاب القاضي عنه: بأن ذكر هذين القسمين لا يدل على نفي القسم الثالث. والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ﴾ [النور: ٤٥] ولم يدل ذلك على نفي القسم الرابع، بل نقول: إن في مثل ذلك ربما يذكر المقصود أو الأكثر، ويترك ذكر ما عداه، إذا كان قد بيَّن في موضع آخر. وقد بيَّن الله تعالى القسم الثالث في سائر الآيات.

والجواب أن نقول: إنما يترك القسم الثالث الذي يجري مجرى النادر، ومعلوم أن الفساق أكثر من أهل الطاعات، وكيف يجوز ترك ذكرهم في هذا الباب؟ وأما قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ﴾ [النور: ٤٥] فإنما ترك ذكر القسم الرابع والخامس، لأن أقسام ذوات الأرجل كثيرة. فكان ذكرها بأسرها يوجب الإطناب بخلاف هذه المسألة. فإنه ليس ههنا إلا القسم الثالث، وهو الفاسق الذي يزعم الخصم أنه لا مؤمن ولا كافر. فظهر الفرق.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل الدالة على الإلهية، ثم فرع عليها صحة القول بالحشر والنشر، عاد مرة أخرى إلى ذكر الدلائل الدالة على الإلهية.

واعلم أن الدلائل المتقدمة في إثبات التوحيد والإلهية هي التمسك بخلق السموات والأرض، وهذا النوع إشارة إلى التمسك بأحوال الشمس والقمر، وهذا النوع الأخير إشارة إلى ما يؤكد الدليل الدال على صحة الحشر والنشر، وذلك لأنه تعالى أثبت القول بصحة الحشر والنشر، بناء على أنه لا بد من إيصال الثواب إلى أهل الطاعة، وإيصال العقاب إلى أهل الكفر، وأنه يجب في الحكمة تمييز المحسن عن المسيء، ثم إنه تعالى ذكر في هذه الآية أنه جعل الشمس ضياء والقمر نورًا وقدره منازل ليتوصل المكلف بذلك إلى معرفة السنين والحساب، فيمكنه ترتيب مهمات معاشه من الزراعة والحراثة، وإعداد مهمات الشتاء والصيف، فكأنه تعالى يقول: تمييز المحسن عن المسيء والمطيع عن العاصي، أوجب في الحكمة من تعليم أحوال السنين والشهور. فلما اقتضت الحكمة والرحمة خلق الشمس والقمر لهذا المهم الذي لا نفع له إلا في الدنيا. فبأن تقتضي الحكمة والرحمة تمييز المحسن عن المسيء بعد الموت، مع أنه يقتضي النفع الأبدي والسعادة السرمدية، كان ذلك أولى. فلما كان الاستدلال بأحوال الشمس والقمر من الوجه المذكور في هذه الآية مما يدل على التوحيد من وجه، وعلى صحة القول بالمعاد من الوجه الذي ذكرناه، لا جرم ذكر الله هذا الدليل بعد ذكر الدليل على صحة المعاد.

المسألة الثانية: الاستدلال بأحوال الشمس والقمر على وجود الصانع المقدر هو أن يقال: الأجسام في ذواتها متماثلة، وفي ماهياتها متساوية، ومتى كان الأمر كذلك كان اختصاص جسم الشمس بضوئه الباهر وشعاعه القاهر، واختصاص جسم القمر بنوره المخصوص لأجل الفاعل الحكيم المختار، أما بيان أن الأجسام متماثلة في ذواتها وماهياتها، فالدليل عليه أن الأجسام لا شك أنها متساوية في الحجمية والتحيز والجرمية، فلو خالف بعضها بعضًا لكانت تلك المخالفة في أمر وراء الحجمية والجرمية ضرورة أن ما به المخالفة غير ما به المشاركة، وإذا كان كذلك فنقول: إن ما به حصلت المخالفة من الأجسام إما أن يكون صفة لها أو موصوفًا بها أو لا صفة لها ولا موصوفًا بها والكل باطل.

أما القسم الأول: فلأن ما به حصلت المخالفة لو كانت صفات قائمة بتلك الذوات، فتكون الذوات في أنفسها، مع قطع النظر عن تلك الصفات، متساوية في تمام الماهية، وإذا كان الأمر كذلك، فكل ما يصح على جسم، وجب أن يصح على كل جسم، وذلك هو المطلوب.

وأما القسم الثاني: وهو أن يقال: إن الذي به خالف بعض الأجسام بعضًا، أمور موصوفة بالجسمية والتحيز والمقدار. فنقول: هذا أيضًا باطل. لأن ذلك الموصوف، إما أن يكون حجمًا ومتحيزًا أو لا يكون، والأول باطل، وإلا لزم افتقاره إلى محل آخر، ويستمر ذلك إلى غير النهاية. وأيضًا فعلى هذا التقدير يكون المحل مثلاً للحال، ولم يكن كون أحدهما محلاً والآخر حالاً، أولى من العكس، فيلزم كون كل واحد منهما محلاً للآخر وحالاً فيه، وذلك محال، وأما إن كان ذلك المحل غير متحيز، وله حجم. فنقول: مثل هذا الشيء لا يكون له اختصاص بحيز ولا تعلق بجهة والجسم مختص بالحيز، وحاصل في الجهة، والشيء الذي يكون واجب الحصول في الحيز والجهة، يمتنع أن يكون حالاً في الشيء الذي يمتنع حصوله في الحيز والجهة.

وأما القسم الثالث: وهو أن يقال: ما به خالف جسم جسمًا، لا حال في الجسم ولا محل له، فهذا أيضًا باطل، لأن على هذا التقدير يكون ذلك الشيء شيئًا مباينًا عن الجسم لا تعلق له به، فحينئذ تكون ذوات الأجسام من حيث ذواتها متساوية في تمام الماهية، وذلك هو المطلوب، فثبت أن الأجسام بأسرها متساوية في تمام الماهية.

وإذا ثبت هذا فنقول: الأشياء المتساوية في تمام الماهية تكون متساوية في جميع لوازم الماهية، فكل ما صح على بعضها وجب أن يصح على الباقي، فلما صح على جرم الشمس اختصاصه بالضوء القاهر الباهر، وجب أن يصح مثل ذلك الضوء القاهر على جرم القمر أيضًا، وبالعكس. وإذا كان كذلك، وجب أن يكون اختصاص جرم الشمس بضوئه القاهر، واختصاص القمر بنوره الضعيف بتخصيص مخصص وإيجاد موجد. وتقدير مقدر وذلك هو المطلوب، فثبت أن اختصاص الشمس بذلك الضوء بجعل جاعل، وأن اختصاص القمر بذلك النوع من النور بجعل جاعل، فثبت بالدليل القاطع صحة قوله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ وهو المطلوب.

المسألة الثالثة: قال أبو علي الفارسي: الضياء لا يخلو من أحد أمرين إما أن يكون جمع ضوء كسوط وسياط وحوض وحياض، أو مصدر ضاء يضوء ضياء كقولك: قام قيامًا، وصام صيامًا، وعلى أي الوجهين حملته، فالمضاف محذوف، والمعنى جعل الشمس ذات ضياء، والقمر ذا نور، ويجوز أن يكون من غير ذلك لأنه لما عظم الضوء والنور فيهما جعلا نفس الضياء والنور كما يقال للرجل الكريم: إنه كرم وجود.

المسألة الرابعة: قال الواحدي: روي عن ابن كثير من طريق قنبل (ضئاء) بهمزتين وأكثر

الناس على تغليطه فيه، لأن ياء ضياء منقلبة من واو مثل ياء قيام وصيام، فلا وجه للهمزة فيها. ثم قال: وعلى البعد يجوز أن يقال: قدم اللام التي هي الهمزة إلى موضع العين، وأخر العين التي هي واو إلى موضع اللام، فلما وقعت طرفًا بعد ألف زائدة انقلبت همزة، كما انقلبت في سقاء وبابه. والله أعلم.

المسألة الخامسة: اعلم أن النور كيفية قابلة للأشد والأضعف، فإن نور الصباح أضعف من النور الحاصل في أول النهار قبل طلوع الشمس، وهو أضعف من النور الحاصل في أفنية الجدران عند طلوع الشمس، وهو أضعف من النور الساطع من الشمس على الجدران، وهو أضعف من الضوء القائم بجرم الشمس، فكمال هذه الكيفية المسماة بالضوء على ما يحس به في جرم الشمس، وهو في الإمكان وجود مرتبة في الضوء أقوى من الكيفية القائمة بالشمس، فهو من مواقف العقول. واختلف الناس في أن الشعاع الفائض من الشمس هل هو جسم أو عرض؟ والحق أنه عرض، وهو كيفية مخصوصة، وإذا ثبت أنه عرض فهل حدوثه في هذا العالم بتأثير قرص الشمس أو لأجل أن الله تعالى أجرى عادته بخلق هذه الكيفية في الأجرام المقابلة لقرص الشمس على سبيل العادة، فهي مباحث عميقة، وإنما يليق الاستقصاء فيها بعلوم المعقولات.

وإذا عرفت هذا فنقول: النور اسم لأصل هذه الكيفية، وأما الضوء، فهو اسم لهذه الكيفية إذا كانت كاملة تامة قوية، والدليل عليه أنه تعالى سمى الكيفية القائمة بالشمس (ضياء) والكيفية القائمة بالقمر (نورًا) ولا شك أن الكيفية القائمة بالشمس أقوى وأكمل من الكيفية القائمة بالقمر، وقال في موضع آخر: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١] وقال في آية أخرى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦] وفي آية أخرى ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: ١٣].

المسألة السادسة: قوله: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ نظيره قوله تعالى في سورة يس: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩] وفيه وجهان: أحدهما: أن يكون المعنى وقدر مسيره منازل. والثاني: أن يكون المعنى وقدره ذا منازل.

المسألة السابعة: الضمير في قوله: ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾ فيه وجهان: الأول: أنه لهما، وإنما وحد الضمير للإيجاز، وإلا فهو في معنى التثنية اكتفاء بالمعلوم، لأن عدد السنين والحساب إنما يعرف بسير الشمس والقمر، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢] والثاني: أن يكون هذا الضمير راجعًا إلى القمر وحده، لأن بسير القمر تعرف الشهور، وذلك لأن الشهور المعتبرة في الشريعة مبنية على رؤية الأهلة، والسنة المعتبرة في الشريعة هي السنة القمرية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٦]

المسألة الثامنة: اعلم أن انتفاع الخلق بضوء الشمس وبنور القمر عظيم، فالشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل. وبحركة الشمس تنفصل السنة إلى الفصول الأربعة، وبالفصول

الأربعة تنتظم مصالح هذا العالم. وبحركة القمر تحصل الشهور، وباختلاف حاله في زيادة الضوء ونقصانه تختلف أحوال رطوبات هذا العالم. وبسبب الحركة اليومية يحصل النهار والليل، فالنهار يكون زمانًا للتكسب والطلب، والليل يكون زمانًا للراحة، وقد استقصينا في منافع الشمس والقمر في تفسير الآيات اللائقة بها فيما سلف، وكل ذلك يدل على كثرة رحمة الله على الخلق وعظم عنايته بهم، فإنا قد دللنا على أن الأجسام متساوية. ومتى كان كذلك كان اختصاص كل جسم بشكله المعين ووضعه المعين، وحيزه المعين، وصفته المعينة، ليس إلا بتدبير مدبر حكيم رحيم قادر قاهر. وذلك يدل على أن جميع المنافع الحاصلة في هذا العالم بسبب حركات الأفلاك ومسير الشمس والقمر والكواكب ما حصل إلا بتدبير المدبر المقدر الرحيم الحكيم سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا. ثم إنه تعالى لما قرر هذه الدلائل ختمها بقوله: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ ومعناه أنه تعالى خلقه على وفق الحكمة ومطابقة المصلحة، ونظيره قوله تعالى في آل عمران: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١]وقال في سورة آخرى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص: ٢٧].

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال القاضي: هذه الآية تدل على بطلان الجبر، لأنه تعالى لو كان مريدًا لكل ظلم، وخالقًا لكل قبيح، ومريدًا لإضلال من ضل، لما صح أن يصف نفسه بأنه ما خلق ذلك إلا بالحق.

المسألة الثانية: قال حكماء الإسلام: هذا يدل على أنه سبحانه أودع في أجرام الأفلاك والكواكب خواص معينة وقوى مخصوصة، باعتبارها تنتظم مصالح هذا العالم السفلي. إذ لو لم يكن لها آثار وفوائد في هذا العالم، لكان خلقها عبثًا وباطلاً وغير مفيد، وهذه النصوص تنافي ذلك، والله أعلم.

ثم بين تعالى أنه يفصل الآيات، ومعنى التفصيل هو ذكر هذه الدلائل الباهرة، واحدًا عقيب الآخر، فصلاً فصلاً مع الشرع والبيان. وفي قوله: (نفصل) قراءتان: قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم (يفصل) بالياء، وقرأ الباقون بالنون.

ثم قال: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وفيه قولان:

الأول: أن المراد منه العقل الذي يعم الكل.

والثاني: أن المراد منه من تفكر وعلم فوائد مخلوقاته وآثار إحسانه، وحجة القول: الأول: عموم اللفظ، وحجة القول. الثاني: أنه لا يمتنع أن يخص الله سبحانه وتعالى العلماء بهذا

الذكر، لأنهم هم الذين انتفعوا بهذه الدلائل، فجاء كما في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥]مع أنه عليه السلام كان منذرًا للكل.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ۝٦﴾

اعلم أنه تعالى استدل على التوحيد والإلهيات **أولاً**:بتخليق السموات والأرض، وثانيًا: بأحوال الشمس والقمر، **وثالثا**:في هذه الآية بالمنافع الحاصلة من اختلاف الليل والنهار، وقد تقدم تفسيره في سورة البقرة في تفسير قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة: ١٦٤]ورابعًا: بكل ما خلق الله في السموات والأرض، وهي أقسام الحوادث الحادثة في هذا العالم، وهي محصورة في أربعة أقسام: **أحدها**:الأحوال الحادثة في العناصر الأربعة، ويدخل فيها أحوال الرعد والبرق والسحاب والأمطار والثلوج. ويدخل فيها أيضًا أحوال البحار، وأحوال المد والجزر، وأحوال الصواعق والزلازل والخسف. **وثانيها**:أحوال المعادن وهي عجيبة كثيرة. **وثالثها**:اختلاف أحوال النبات. **ورابعها**:اختلاف أحوال الحيوانات، وجملة هذه الأقسام الأربعة داخلة في قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ والاستقصاء في شرح هذه الأحوال مما لا يمكن في ألف مجلد، بل كل ما ذكره العقلاء في أحوال أقسام هذا العالم فهو جزء مختصر من هذا الباب. ثم إنه تعالى بعد ذكر هذه الدلائل قال: ﴿ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ﴾ فخصها بالمتقين، لأنهم يحذرون العاقبة فيدعوهم الحذر إلى التدبر والنظر. قال القفال: من تدبر في هذه الأحوال علم أن الدنيا مخلوقة لشقاء الناس فيها، وأن خالقها وخالقهم ما أهملهم، بل جعلها لهم دار عمل. وإذا كان كذلك فلا بد من أمر ونهي، ثم من ثواب وعقاب، ليتميز المحسن عن المسيء، فهذه الأحوال في الحقيقة دالة على صحة القول بإثبات المبدأ وإثبات المعاد.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٨﴾

اعلم أنه تعالى لما أقام الدلائل القاهرة على صحة القول بإثبات الإله الرحيم الحكيم، وعلى صحة القول بالمعاد والحشر والنشر، شرع بعده في شرح أحوال من يكفر بها، وفي شرح أحوال من يؤمن بها. فأما شرح أحوال الكافرين فهو المذكور في هذه الآية.

واعلم أنه تعالى وصفهم بصفات أربعة:

الصفة الأولى: قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في تفسير هذا الرجاء قولان:

القول الأول: وهو قول ابن عباس ومقاتل والكلبي: معناه: لا يخافون البعث، والمعنى: أنهم لا يخافون ذلك لأنهم لا يؤمنون بها. والدليل على تفسير الرجاء ههنا بالخوف قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥]وقوله: ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩]وتفسير الرجاء بالخوف جائز كما قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]قال الهذلي [١]:

إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا

والقول الثاني: تفسير الرجاء بالطمع، فقوله: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أي لا يطمعون في ثوابنا، فيكون هذا الرجاء هو الذي ضده اليأس، كما قال: ﴿قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ﴾ [الممتحنة: ١٣].

واعلم أن حمل الرجاء على الخوف بعيد، لأن تفسير الضد بالضد غير جائز، ولا مانع ههنا من حمل الرجاء على ظاهره ألبتة، والدليل عليه أن لقاء الله إما أن يكون المراد منه تجلي جلال الله تعالى للعبد وإشراق نور كبريائه في روحه، وإما أن يكون المراد منه الوصول إلى ثواب الله تعالى وإلى رحمته. فإن كان الأول فهو أعظم الدرجات وأشرف السعادات وأكمل الخيرات، فالعاقل كيف لا يرجوه، وكيف لا يتمناه؟ وإن كان الثاني فكذلك، لأن كل أحد يرجو من الله تعالى أن يوصله إلى ثوابه ومقامات رحمته، وإذا كان كذلك فكل من آمن بالله فهو يرجو ثوابه، وكل من لم يؤمن بالله ولا بالمعاد فقد أبطل على نفسه هذا الرجاء، فلا جرم حسن جعل عدم هذا الرّجاء كناية عن عدم الإيمان بالله واليوم الآخر.

المسألة الثانية: اللقاء هو الوصول إلى الشيء، وهذا في حق الله تعالى محال، لكونه منزهًا عن الحد والنهاية، فوجب أن يجعل مجازًا عن الرؤية، وهذا مجاز ظاهر. فإنه يقال: لقيت فلانًا إذا رأيته، وحمله على لقاء ثواب الله يقتضي زيادة في الإضمار وهو خلاف الدليل.

واعلم أنه ثبت بالدلائل اليقينية أن سعادة النفس بعد الموت في أن تتجلى فيها معرفة الله تعالى ويكمل إشراقها ويقوى لمعانها، وذلك هو الرؤية، وهي من أعظم السعادات. فمن كان غافلاً عن طلبها معرضًا عنها مكتفيًا بعد الموت بوجدان اللذات الحسية من الأكل والشرب والوقاع كان من الضالين.

الصفة الثانية: من صفات هؤلاء الكفار قوله تعالى: ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

واعلم أن الصفة الأولى إشارة إلى خلو قلبه عن طلب اللذات الروحانية، وفراغه عن طلب السعادات الحاصلة بالمعارف الربانية، وأما هذه الصفة الثانية فهي إشارة إلى استغراقه في طلب اللذات الجسمانية واكتفائه بها، واستغراقه في طلبها.

---

(١)هذا صدر بيت من قصيدة من البحر الطويل للشاعر أبي ذؤيب الهذلي وهو هكذا.

إذا لَسَعَتْهُ الدَبرُ لَم يَرجُ لَسعَها وَخالَفَها في بَيتِ نوبٍ عَواسِلِ

والصفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾ .

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: صفة السعداء أن يحصل لهم عند ذكر الله نوع من الوجل والخوف كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الحج: ٣٥] ثم إذا قويت هذه الحالة حصلت الطمأنينة في ذكر الله تعالى كما قال تعالى: ﴿وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] وصفة الأشقياء أن تحصل لهم الطمأنينة في حب الدنيا، وفي الاشتغال بطلب لذاتها كما قال في هذه الآية: ﴿وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾ فحقيقة الطمأنينة أن يزول عن قلوبهم الوجل، فإذا سمعوا الإنذار والتخويف لم توجل قلوبهم وصارت كالميتة عند ذكر الله تعالى.

المسألة الثانية: مقتضى اللغة أن يقال: واطمأنوا إليها، إلا أن حروف الجر يحسن إقامة بعضها مقام البعض، فلهذا السبب قال: ﴿وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾ .

والصفة الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ والمراد أنهم صاروا في الإعراض عن طلب لقاء الله تعالى. بمنزلة الغافل عن الشيء الذي لا يخطر بباله طول عمره ذكر ذلك الشيء، وبالجملة فهذه الصفات الأربعة دالة على شدة بعده عن طلب الاستسعاد بالسعادات الأخروية الروحانية، وعلى شدة استغراقه في طلب هذه الخيرات الجسمانية والسعادات الدنيوية.

واعلم أنه تعالى لما وصفهم بهذه الصفات الأربعة قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ .

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: النيران على أقسام: النار التي هي جسم محسوس مضيء محرق، صاعدًا بالطبع، والإقرار به واجب، لأجل أنه ثبت بالدلائل المذكورة أن الإقرار بالجنة والنار حق.

القسم الثاني: النار الروحانية العقلية، وتقريره أن من أحب شيئًا حبًّا شديدًا ثم ضاع عنه ذلك الشيء بحيث لا يمكنه الوصول إليه، فإنه يحترق قلبه وباطنه، وكل عاقل يقول: إن فلانًا محترق القلب محترق الباطن بسبب فراق ذلك المحبوب. وألم هذه النار أقوى بكثير من ألم النار المحسوسة.

إذا عرفت هذا فنقول: إن الأرواح التي كانت مستغرقة في حب الجسمانيات وكانت غافلة عن حب عالم الروحانيات، فإذا مات ذلك الإنسان وقعت الفرقة بين ذلك الروح وبين معشوقاته ومحبوباته، وهي أحوال هذا العالم، وليس له معرفة بذلك العالم ولا إلف مع أهل ذلك العالم، فيكون مثاله مثال من أُخرِج من مجالسة معشوقه وألقي في بئر ظلمانية لا إلف له بها، ولا معرفة له بأحوالها، فهذا الإنسان يكون في غاية الوحشة، وتألم الروح فكذا هنا، أما لو كان نفورًا عن هذه الجسمانيات عارفًا بمقابحها ومعايبها وكان شديد الرغبة في اعتلاق العروة الوثقى، عظيم

الحب لله، كان مثاله مثال من كان محبوسًا في سجن مظلم عفن مملوء من الحشرات المؤذية والآفات المهلكة، ثم اتفق أن فتح باب السجن وأخرج منه وأحضر في مجلس السلطان الأعظم مع الأحباب والأصدقاء، كما قال تعالى: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] فهذا هو الإشارة إلى تعريف النار الروحانية والجنة الروحانية.

المسألة الثانية: الباء في قوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ مشعر بأن الأعمال السابقة هي المؤثرة في حصول هذا العذاب، ونظيره قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الحج: ١٠]

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال المنكرين والجاحدين في الآية المتقدمة، ذكر في هذه الآية أحوال المؤمنين المحقين، واعلم أنه تعالى ذكر صفاتهم أولاً، ثم ذكر مالهم من الأحوال السنية والدرجات الرفيعة ثانيًا، أما أحوالهم وصفاتهم فهي قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وفي تفسيره وجوه:

الوجه الأول: أن النفس الإنسانية لها قوتان:

القوة النظرية: وكمالها في معرفة الأشياء، ورئيس المعارف وسلطانها معرفة الله.

والقوة العملية: وكمالها في فعل الخيرات والطاعات، ورئيس الأعمال الصالحة وسلطانها خدمة الله. فقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إشارة إلى كمال القوة النظرية بمعرفة الله تعالى وقوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إشارة إلى كمال القوة العملية بخدمة الله تعالى، ولما كانت القوة النظرية مقدمة على القوة العملية بالشرف والرتبة، لا جرم وجب تقديمها في الذكر.

الوجه الثاني: في تفسير هذه الآية، قال القفال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي صدقوا بقلوبهم، ثم حققوا التصديق بالعمل الصالح الذي جاءت به الأنبياء والكتب من عند الله تعالى.

الوجه الثالث: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي شغلوا قلوبهم وأرواحهم بتحصيل المعرفة ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي شغلوا جوارحهم بالخدمة، فعينهم مشغولة بالاعتبار كما قال: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢] وأذنهم مشغولة بسماع كلام الله تعالى كما قال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ [المائدة: ٨٣] ولسانهم مشغول بذكر الله كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٤١] وجوارحهم مشغولة بنور طاعة الله كما قال: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٥].

واعلم أنه تعالى لما وصفهم بالإيمان والأعمال الصالحة ذكر بعد ذلك درجات كراماتهم ومراتب سعاداتهم وهي أربعة.

المرتبة الأولى: قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في تفسير قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ﴾ وجوه: الأول: أنه تعالى يهديهم إلى الجنة ثوابًا لهم على إيمانهم وأعمالهم الصالحة، والذي يدل على صحة هذا التأويل وجوه:

أحدها: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [الحديد: ١٢].

وثانيها: ما روي أنه عليه السلام قال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا خَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ صُوِّرَ لَهُ عَمَلُهُ فِي صُورَةٍ حَسَنَةٍ فَيَقُولُ لَهُ: أَنَا عَمَلُكَ فَيَكُونُ لَهُ نُورًا وَقَائِدًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَالْكَافِرُ إِذَا خَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ صُوِّرَ لَهُ عَمَلُهُ فِي صُورَةٍ سَيِّئَةٍ فَيَقُولُ لَهُ: أَنَا عَمَلُكَ فَيَنْطَلِقُ بِهِ حَتَّى يُدْخِلَهُ النَّارَ».

وثالثها: قال مجاهد: المؤمنون يكون لهم نور يمشي بهم إلى الجنة.

ورابعها: وهو الوجه العقلي أن الإيمان عبارة عن نور اتصل به من عالم القدس، وذلك النور كالخيط المتصل بين قلب المؤمن وبين ذلك العالم المقدس، فإن حصل هذا الخط النوراني قدر العبد على أن يقتدي بذلك النور ويرجع إلى عالم القدس، فأما إذا لم يوجد هذا الحبل النوراني تاه في ظلمات عالم الضلالات نعوذ بالله منه.

والتأويل الثاني: قال ابن الأنباري: إن إيمانهم يهديهم إلى خصائص في المعرفة ومزايا في الألفاظ ولوامع من النور تستنير بها قلوبهم، وتزول بواسطتها الشكوك والشبهات عنهم، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧] وهذه الزوائد والفوائد والمزايا يجوز حصولها في الدنيا قبل الموت، ويجوز حصولها في الآخرة بعد الموت، قال القفال: وإذا حملنا الآية على هذا الوجه. كان المعنى يهديهم ربهم بإيمانهم وتجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم، إلا أنه حذف الواو وجعل قوله: ﴿تَجْرِي﴾ خبرًا مستأنفًا منقطعًا عما قبله.

والتأويل الثالث: أن الكلام في تفسير هذه الآية يجب أن يكون مسبوقًا بمقدمات.

المقدمة الأولى: أن العلم نور والجهل ظلمة. وصريح العقل يشهد بأن الأمر كذلك، ومما يقرره أنك إذا ألقيت مسألة جليلة شريفة على شخصين، فاتفق أن فهمها أحدهما وما فهمها الآخر، فإنك ترى وجه الفاهم متهللاً مشرقًا مضيئًا، ووجه من لم يفهم عبوسًا مظلمًا منقبضًا، ولهذا السبب جرت عادة القرآن بالتعبير عن العلم والإيمان بالنور، وعن الجهل والكفر بالظلمات.

والمقدمة الثانية: أن الروح كاللوح، والعلوم والمعارف كالنقوش المنقوشة في ذلك اللوح. ثم هنا دقيقة، وهي أن اللوح الجسماني إذا رسمت فيه نقوش جسمانية فحصول بعض النقوش في ذلك اللوح مانع من حصول سائر النقوش فيه، فأما لوح الروح فخاصيته على الضد من ذلك،

فإن الروح إذا كانت خالية عن نقوش المعارف والعلوم فإنه يصعب عليها تحصيل المعارف والعلوم، فإذا احتال وحَصَّل شيئًا منها، كان حصول ما حصل منها معينًا له على سهولة تحصيل الباقي، وكلما كان الحاصل أكثر كان تحصيل البقية أسهل، فالنقوش الجسمانية يكون بعضها مانعًا من حصول الباقي، والنقوش الروحانية يكون بعضها معينًا على حصول البقية، وذلك يدل على أن أحوال العالم الروحاني بالضد من أحوال العالم الجسماني.

المقدمة الثالثة: أن الأعمال الصالحة عبارة عن الأعمال التي تحمل النفس على ترك الدنيا وطلب الآخرة، والأعمال المذمومة ما تكون بالضد من ذلك.

إذا عرفت هذه المقدمات فنقول: الإنسان إذا آمن بالله فقد أشرق روحه بنور هذه المعرفة، ثم إذا واظب على الأعمال الصالحة حصلت له ملكة مستقرة في التوجه إلى الآخرة وفي الإعراض عن الدنيا، وكلما كانت هذه الأحوال أكمل كان استعداد النفس لتحصيل سائر المعارف أشد، وكلما كان الاستعداد أقوى وأكمل. كانت معارج المعارف أكثر وإشراقها ولمعانها أقوى، ولما كان لا نهاية لمراتب المعارف والأنوار العقلية، لا جرم لا نهاية لمراتب هذه الهداية المشار إليها بقوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ المراد منه أنهم يكونون جالسين على سرر مرفوعة في البساتين والأنهار تجري من بين أيديهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤] وهي ما كانت قاعدة عليها، ولكن المعنى بين يديك، وكذا قوله: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف: ٥١] المعنى بين يدي فكذا ههنا.

المسألة الثالثة: الإيمان هو المعرفة والهداية المترتبة عليها أيضًا من جنس المعارف، ثم إنه تعالى لم يقل يهديهم ربهم إيمانهم. بل قال: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ وذلك يدل على أن العلم بالمقدمتين لا يوجب العلم بالنتيجة، بل العلم بالمقدمتين سبب لحصول الاستعداد التام لقبول النفس للنتيجة. ثم إذا حصل هذا الاستعداد، كان التكوين من الحق سبحانه وتعالى، وهذا معنى قول الحكماء أن الفياض المطلق والجواد الحق، ليس إلا الله سبحانه وتعالى.

المرتبة الثانية: من مراتب سعاداتهم ودرجات كمالاتهم قوله سبحانه وتعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ وجوه:

الأول: أن الدعوى ههنا بمعنى الدعاء، يقال: دعا يدعو دعاء ودعوى، كما يقال: شكى يشكو شكاية وشكوى. قال بعض المفسرين: ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي دعاؤهم. وقال تعالى في أهل الجنة: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ [يس: ٥٧] وقال في آية أخرى ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ [الدخان: ٥٥] ومما يقوى أن المراد من الدعوى ههنا الدعاء. هو أنهم قالوا: اللهم. وهذا نداء لله

سبحانه وتعالى، ومعنى قولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ إنا نسبحك، كقول القانت في دعاء القنوت: «اللَّهُمَّ إِيَّاكَ نَعْبُدُ».

الثاني: أن يراد بالدعاء العبادة، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[مريم: ٤٨] أي وما تعبدون. فيكون معنى الآية أنه لا عبادة لأهل الجنة إلا أن يسبحوا الله ويحمدوه، ويكون اشتغالهم بذلك الذكر لا على سبيل التكليف، بل على سبيل الابتهاج بذكر الله تعالى.

الثالث: قال بعضهم: لا يبعد أن يكون المراد من الدعوى نفس الدعوى التي تكون للخصم على الخصم. والمعنى: أن أهل الجنة يدعون في الدنيا وفي الآخرة تنزيه الله تعالى عن كل المعايب والإقرار له بالإلهية. قال القفال: أصل ذلك أيضًا من الدعاء، لأن الخصم يدعو خصمه إلى من يحكم بينهما.

الرابع: قال مسلم: ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي قولهم وإقرارهم ونداؤهم، وذلك هو قولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾.

الخامس: قال القاضي: المراد من قوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي طريقتهم في تمجيد الله تعالى وتقديسه وشأنهم وسنتهم. والدليل على أن المراد ذلك أن قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ ليس بدعاء ولا بدعوى، إلا أن المدعي للشيء يكون مواظبًا على ذكره، لا جرم جعل لفظ الدعوى كناية عن تلك المواظبة والملازمة. فأهل الجنة لما كانوا مواظبين على هذا الذكر، لا جرم أطلق لفظ الدعوى عليها.

السادس: قال القفال: قيل في قوله: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾[يس: ٥٧] أي ما يتمنونه، والعرب تقول: ادع ما شئت علي، أي تمن. وقال ابن جريج: أخبرت أن قوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ هو أنه إذا مر بهم طير يشتهونه قالوا ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ فيأتيهم الملك بذلك المشتهى، فقد خرج تأويل الآية من هذا الوجه، على أنهم إذا اشتهوا الشيء قالوا: سبحانك اللهم، فكان المراد من دعواهم ما حصل في قلوبهم من التمني، وفي هذا التفسير وجه آخر هو أفضل وأشرف مما تقدم، وهو أن يكون المعنى أن تمنيهم في الجنة أن يسبحوا الله تعالى، أي تمنيهم لما يتمنونه، ليس إلا في تسبيح الله تعالى وتقديسه وتنزيهه. السابع: قال القفال أيضًا: ويحتمل أن يكون المعنى في الدعوى ما كانوا يتداعونه في الدنيا في أوقات حروبهم ممن يسكنون إليه ويستنصرونه، كقولهم: يا آل فلان، فأخبر الله تعالى أن أنسهم في الجنة بذكرهم الله تعالى، وسكونهم بتحميدهم الله. ولذتهم بتمجيدهم الله تعالى.

المسألة الثانية: أن قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾.

فيه وجهان:

الوجه الأول: قول من يقول: إن أهل الجنة جعلوا هذا الذكر علامة على طلب المشتهيات قال ابن جريج: إذا مر بهم طيرًا اشتهوه؛ قالوا ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ فيؤتون به، فإذا نالوا منه شهوتهم

قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقال الكلبي: قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ علم بين أهل الجنة والخدام، فإذا سمعوا ذلك من قولهم أتوهم بما يشتهون. واعلم أن هذا القول عندي ضعيف جدًّا، وبيانه من وجوه: أحدها: أن حاصل هذا الكلام يرجع إلى أن أهل الجنة جعلوا هذا الذكر العالي المقدس علامة على طلب المأكول والمشروب والمنكوح، وهذا في غاية الخساسة. وثانيها: أنه تعالى قال في صفة أهل الجنة: ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧] فإذا اشتهوا أكل ذلك الطير، فلا حاجة بهم إلى الطلب، وإذا لم يكن بهم حاجة إلى الطلب، فقد سقط هذا الكلام. وثالثها: أن هذا يقتضي صرف الكلام عن ظاهره الشريف العالي إلى محمل خسيس لا إشعار للفظ به، وهذا باطل.

الوجه الثاني: في تأويل هذه الآية أن نقول: المراد اشتغال أهل الجنة بتقديس الله سبحانه وتمجيده والثناء عليه، لأجل أن سعادتهم في هذا الذكر وابتهاجهم به وسرورهم به، وكمال حالهم لا يحصل إلا منه، وهذا القول هو الصحيح الذي لا محيد عنه. ثم على هذا التقدير ففي الآية وجوه: أحدها: قال القاضي: إنه تعالى وعد المتقين بالثواب العظيم، كما ذكر في أول هذه السورة من قوله: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ [يونس: ٤] فإذا دخل أهل الجنة الجنة، ووجدوا تلك النعم العظيمة، عرفوا أن الله تعالى كان صادقًا في وعده إياهم بتلك النعم، فعند هذا قالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ أي نسبحك عن الخلف في الوعد والكذب في القول. وثانيها: أن نقول: غاية سعادة السعداء، ونهاية درجات الأنبياء والأولياء استسعادهم بمراتب معارف الجلال. واعلم أن معرفة ذات الله تعالى والاطلاع على كنه حقيقته مما لا سبيل للخلق إليه، بل الغاية القصوى معرفة صفاته السلبية أو صفاته الإضافية. أما الصفات السلبية فهي المسماة بصفات الجلال، وأما الصفات الإضافية فهي المسماة بصفات الإكرام، فلذلك كان كمال الذكر العالي مقصورًا عليها، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨] وكان ﷺ يقول: «**أَلِظُّوا بيا ذا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَام**»(١) ولما كانت السلوب متقدمة بالرتبة على الإضافات، لا جرم كان ذكر الجلال متقدمًا على ذكر الإكرام في اللفظ. وإذا ثبت أن غاية سعادة السعداء ليس إلا في هذين المقامين، لا جرم ذكر الله سبحانه وتعالى كونهم مواظبين على هذا الذكر العالي المقدس، ولما كان لا نهاية لمعارج جلال الله ولا غاية لمدارج إلهيته وإكرامه وإحسانه، فكذلك لا نهاية لدرجات ترقي الأرواح المقدسة في هذه المقامات العلية

(١) صحيح: أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٥٤٠) حديث (رقم/ ٣٥٢٥). من طريق المؤمل عن حماد بن سلمة عن حميد عن أنس. . . به. وقال: هذا حديث غريب وليس بمحفوظ وإنما يروى هذا عن حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن عن النبي ﷺ وهذا أصح ومؤمل غلط فيه فقال عن حماد عن حميد عن أنس ولا يتابع فيه. وأبو يعلى في (مسنده) (٦/ ٤٤٥) حديث رقم/ ٣٨٣٣. من طريق مؤمل بن إسماعيل عن حماد. . . به. وأخرجه أحمد في (مسنده) (٤/ ١٧٧)، والحاكم في (المستدرك) (١/ ٦٧٦) حديث رقم/ ١٨٣٦، والنسائي في (سننه الكبرى) (٦/ ٤٧٩) حديث رقم/ ١١٥٦٣، جميعًا من طريق عبد الله بن المبارك أخبرني يحيى بن حسان يحدث عن ربيعة بن عامر قال: سمعت النبي صلي الله عليه وسلم يقول. . . الحديث. وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

الإلهية. وثالثها: أن الملائكة المقربين كانوا قبل تخليق آدم عليه السلام مشتغلين بهذا الذكر، ألا ترى أنهم قالوا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] فالحق سبحانه ألهم السعداء من أولاد آدم، حتى أتوا بهذا التسبيح والتحميد، ليدل ذلك على أن الذي أتى به الملائكة المقربون قبل خلق العالم من الذكر العالي، فهو بعينه أتى به السعداء من أولاد آدم عليه السلام، بعد انقراض العالم، ولما كان هذا الذكر مشتملاً على هذا الشرف العالي، لا جرم جاءت الرواية بقراءته في أول الصلاة، فإن المصلي إذا كبر قال: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ تَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى جَدُّكَ وَلاَ إِلَهَ غَيْرُكَ**»(١).

المرتبة الثالثة: من مراتب سعادات أهل الجنة قوله تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ قال المفسرون: تحية بعضهم لبعض تكون بالسلام، وتحية الملائكة لهم بالسلام، كما قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَامٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤] وتحية الله تعالى لهم أيضًا بالسلام كما قال تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨] قال الواحدي: وعلى هذا التقدير يكون هذا من إضافة المصدر إلى المفعول، وعندي فيه وجه آخر: وهو أن مواظبتهم على ذكر هذه الكلمة، مشعرة بأنهم كانوا في الدنيا في منزل الآفات وفي معرض المخافات، فإذا أخرجوا من الدنيا ووصلوا إلى كرامة الله تعالى، فقد صاروا سالمين من الآفات، آمنين من المخافات والنقصانات. وقد أخبر الله تعالى عنهم بأنهم يذكرون هذا المعنى في قوله: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥].

المرتبة الرابعة: من مراتب سعاداتهم قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قد ذكرنا أن جماعة من المفسرين حملوا هذه الكلمات العالية المقدسة على أحوال أهل الجنة بسبب الأكل والشرب. فقالوا: إن أهل الجنة إذا اشتهوا شيئًا قالوا:

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الصلاة) باب (من رأى الاستفتاح بسبحانك اللهم وبحمدك)، (١/ ٢٠٤) حديث رقم/ ٧٧٥. من طريق زيد بن حباب... به. والترمذي في كتاب (الصلاة) باب (ما يقول عند افتتاح الصلاة)، (٢/ ٩) حديث رقم/ ٢٤٢. وقال أبو عيسى: حديث أبي سعيد أشهر حديث في هذا الباب. من طريق محمد بن موسي البصري... به. والنسائي في كتاب (الافتتاح) باب (نوع آخر من الذكر بين افتتاح الصلاة وبين القراءة)، (١/ ٦٠٠) حديث رقم/ ٨٩٩، أخبرنا عبيد الله بن فضالة بن إبراهيم قال أنبأنا عبد الرزاق... به. وابن ماجه في كتاب (إقامة الصلاة) باب (افتتاح الصلاة)، (١/ ٢٦٤) حديث رقم/ ٨٠٤، من طريق زيد بن حباب... به، وأحمد في(مسنده) (٣/ ٥٠)، من طريق محمد بن الحسن بن أنس.... به. وكذلك في (٣/ ٦٩) من طريق حسن ابن الربيع.... به. والدارمي في كتاب (الصلاة) باب (ما يقال بعد افتتاح الصلاة)، (١/ ٣١٠) حديث رقم/ ١٢٣٩، من طريق زكريا بن عدي.... به. جميعهم (عبد الرزاق، زيد بن حباب، محمد بن موسى، محمد بن الحسن، حسن بن الربيع، زكريا بن عدي) عن جعفر بن سليمان.... به.

سبحانك اللهم وبحمدك، وإذا أكلوا وفرغوا قالوا: الحمد لله رب العالمين، وهذا القائل ما ترقى نظره في دنياه وأخراه عن المأكول والمشروب، وحقيق لمثل هذا الإنسان أن يعد في زمرة البهائم. وأما المحقون المحققون، فقد تركوا ذلك، ولهم فيه أقوال. روى الحسن البصري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يُلْهَمُونَ الْحَمْدَ وَالتَّسْبِيحَ كَمَا تُلْهَمُونَ أنفاسكم»(١) وقال الزجاج: أعلم الله تعالى أن أهل الجنة يفتتحون بتعظيم الله تعالى وتنزيهه. ويختتمون بشكره والثناء عليه، وأقول: عندي في هذا الباب وجوه أخر: فأحدها: أن أهل الجنة لما استسعدوا بذكر سبحانك اللهم وبحمدك، وعاينوا ما هم فيه من السلامة عن الآفات والمخافات، علموا أن كل هذه الأحوال السنية والمقامات القدسية، إنما تيسرت بإحسان الحق سبحانه وإفضاله وإنعامه، فلا جرم اشتغلوا بالحمد والثناء. فقالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ وإنما وقع الختم على هذا الكلام لأن اشتغالهم بتسبيح الله تعالى وتمجيده من أعظم نعم الله تعالى عليهم. والاشتغال بشكر النعمة متأخر عن رؤية تلك النعمة، فلهذا السبب وقع الختم على هذه الكلمة، وثانيها: أن لكل إنسان بحسب قوته معراجًا، فتارة ينزل عن ذلك المعراج، وتارة يصعد إليه. ومعراج العارفين الصادقين، معرفة الله تعالى وتسبيح الله وتحميد الله، فإذا قالوا: ﴿سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ فهم في عين المعراج، وإذا نزلوا منه إلى عالم المخلوقات. كان الحاصل عند ذلك النزول إفاضة الخير على جميع المحتاجين وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ﴾ ثم إنه مرة أخرى يصعد إلى معراجه، وعند الصعود يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ فهذه الكلمات العالية إشارة إلى اختلاف أحوال العبد بسبب النزول والعروج. وثالثها: أن نقول: إن قولنا الله اسم لذات الحق سبحانه، فتارة ينظر العبد إلى صفات الجلال، وهي المشار إليها بقوله: ﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾ ثم يحاول الترقي منها إلى حضرة جلال الذات، ترقيًا يليق بالطاقة البشرية، وهي المشار إليها بقوله: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ فإذا عرج عن ذلك المكان. واخترق في أوائل تلك الأنوار رجع إلى عالم الإكرام، وهو المشار إليه بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ فهذه كلمات خطرت بالبال ودارت في الخيال، فإن حقت فالتوفيق من الله تعالى، وإن لم يكن كذلك فالتكلان على رحمة الله تعالى.

المسألة الثانية: قال الواحدي: (أن) في قوله: ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هي المخففة من الشديدة، فلذلك لم تعمل لخروجها بالتخفيف عن شبه الفعل كقوله:

أَنْ هَالِكٌ كُلُّ مَنْ يَحْفَى وَيَنْتَعِلُ

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في كتاب (الجنة) باب (صفة الجنة وأهلها) (٤/ ٢٠/ ٢١٨١)، من طريق ابن جريج . . . به، وأحمد في (مسنده) (٣/ ٣٤٩) حديث رقم/ ١٤٧٥٠، من طريق ابن لهيعة . . . به، والدارمي في كتاب (الرقاق) باب (في أهل الجنة ونعيمها)، (٢/ ٢٢٣) حديث رقم/ ٢٨٢٧، من طريق ابن جريج . . . به. جميعًا عن أبي الزبير . . . به.

على معنى أنه هالك. وقال صاحب (النظم) ﴿أَنَّ﴾ ههنا زائدة، والتقدير: وآخر دعواهم الحمد لله رب العالمين، وهذا القول ليس بشيء، وقرأ بعضهم (أَنَّ الحَمْدَ) لله بالتشديد، ونصب الحمد.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أن الذي يغلب على ظني أن ابتداء هذه السورة في ذكر شبهات المنكرين للنبوة مع الجواب عنها.

فالشبهة الأولى: أن القوم تعجبوا من تخصيص الله تعالى محمدًا عليه السلام بالنبوة فأزال الله تعالى ذلك التعجب بقوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ [يونس: ٢] ثم ذكر دلائل التوحيد ودلائل صحة المعاد، وحاصل الجواب أنه يقول: إني ما جئتكم إلا بالتوحيد والإقرار بالمعاد، وقد دللت على صحتها، فلم يبق للتعجب من نبوتي معنى.

والشبهة الثانية: للقوم أنهم كانوا أبدًا يقولون: اللهم إن كان ما يقول محمد حقًّا في ادعاء الرسالة فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم. فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بما ذكره في هذه الآية. فهذا هو الكلام في كيفية النظم. ومن الناس من ذكر فيه وجوهًا أخرى: فالأول: قال القاضي: لما بين تعالى فيما تقدم الوعد والوعيد أتبعه بما دل على أن من حقهما أن يتأخرا عن هذه الحياة الدنيوية لأن حصولهما في الدنيا كالمانع من بقاء التكليف. والثاني: ما ذكره القفال: وهو أنه تعالى لما وصف الكفار بأنهم لا يرجون لقاء الله ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، وكانوا عن آيات الله غافلين؛ بين أن من غفلتهم أن الرسول متى أنذرهم استعجلوا العذاب جهلاً منهم وسفهًا.

المسألة الثانية: أنه تعالى أخبر في آيات كثيرة أن هؤلاء المشركين متى خوفوا بنزول العذاب في الدنيا استعجلوا ذلك العذاب كما قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] وقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١] الآية. ثم إنهم لما توعدوا بعذاب الآخرة في هذه الآية وهو قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٨] استعجلوا ذلك العذاب، وقالوا: متى يحصل ذلك كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨] وقال في هذه السورة بعد هذه الآية: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨] إلى قوله: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [يونس: ٥١] وقال في سورة الرعد: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ [الرعد: ٦] فبيَّن تعالى أنهم لا مصلحة لهم في تعجيل إيصال الشر إليهم، لأنه تعالى لو أوصل ذلك العقاب إليهم

لماتوا وهلكوا، لأن تركيبهم في الدنيا لا يحتمل ذلك ولا صلاح في إماتتهم، فربما آمنوا بعد ذلك، وربما خرج من صلبهم من كان مؤمنًا، وذلك يقتضي أن لا يعاجلهم بإيصال ذلك الشر.

المسألة الثالثة: في لفظ الآية إشكال، وهو أن يقال: كيف قابل التعجل بالاستعجال، وكان الواجب أن يقابل التعجيل بالتعجيل، والاستعجال بالاستعجال.

والجواب عنه من وجوه: الأول: قال صاحب (الكشاف): أصل هذا الكلام، ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله لهم الخير إلا أنه وضع استعجالهم بالخير موضع تعجيله لهم الخير إشعارًا بسرعة إجابته وإسعافه بطلبهم، حتى كأن استعجالهم بالخير تعجيل لهم. الثاني: قال بعضهم حقيقة قولك: عجلت فلانًا طلبت عجلته، وكذلك عجلت الأمر إذا أتيت به عاجلاً، كأنك طلبت فيه العجلة والاستعجال أشهر وأظهر في هذا المعنى، وعلى هذا الوجه يصير معنى الآية لو أراد الله عجلة الشر للناس كما أرادوا عجلة الخير لهم لقضى إليهم أجلهم، قال صاحب هذا الوجه، وعلى هذا التقدير: فلا حاجة إلى العدول عن ظاهر الآية. الثالث: أن كل من عجل شيئًا فقد طلب تعجيله، وإذا كان كذلك، فكل من كان معجلاً كان مستعجلاً، فيصير التقدير، ولو استعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير إلا أنه تعالى وصف نفسه بتكوين العجلة ووصفهم بطلبها، لأن اللائق به تعالى هو التكوين واللائق بهم هو الطلب.

المسألة الرابعة: أنه تعالى سمى العذاب شرًّا في هذه الآية، لأنه أذى في حق المعاقب ومكروه عنده كما أنه سماه سيئة في قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [الرعد: ٦] وفي قوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

المسألة الخامسة: قرأ ابن عامر (لَقَضَى) بفتح اللام والقاف (أَجَلَهُم) بالنصب، يعني لقضى الله، وينصره قراءة عبدالله (لَقَضَينَا إِلَيهِم أَجَلَهَم) وقرأ الباقون بضم القاف وكسر الضاد وفتح الياء ﴿أَجَلُهُمْ﴾ بالرفع على ما لم يسم فاعله.

المسألة السادسة: المراد من استعجال هؤلاء المشركين الخير هو أنهم كانوا عند نزول الشدائد يدعون الله تعالى بكشفها، وقد حكى الله تعالى عنهم ذلك في آيات كثيرة كقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣] وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا﴾ [يونس: ١٢]

المسألة السابعة: لسائل أن يسأل فيقول: كيف اتصل قوله: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ بما قبله وما معناه؟

وجوابه أن قوله: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ متضمن معنى نفي التعجيل، كأنه قيل: ولا يعجل لهم الشر، ولا يقضي إليهم أجلهم فيذرهم في طغيانهم أي فيمهلهم مع طغيانهم إلزامًا للحجة.

المسألة الثامنة: قال أصحابنا: إنه تعالى لما حكم عليهم بالطغيان والعمه امتنع أن لا يكونوا كذلك. وإلا لزم أن ينقلب خبر الله الصدق كذبًا وعلمه جهلاً وحكمه باطلاً، وكل ذلك محال، ثم إنه مع هذا كلفهم وذلك يكون جاريًا مجرى التكليف بالجمع بين الضدين.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في كيفية النظم وجهان:

الأول: أنه تعالى لما بين في الآية الأولى أنه لو أنزل العذاب على العبد في الدنيا لهلك ولقضى عليه، فبين في هذه الآية ما يدل على غاية ضعفه ونهاية عجزه، ليكون ذلك مؤكدًا لما ذكره من أنه لو أنزل عليه العذاب لمات.

الثاني: أنه تعالى حكى عنهم أنهم يستعجلون في نزول العذاب، ثم بين في هذه الآية أنهم كاذبون في ذلك الطلب والاستعجال، لأنه لو نزل بالإنسان أدنى شيء يكرهه ويؤذيه، فإنه يتضرع إلى الله تعالى في إزالته عنه وفي دفعه عنه وذلك يدل على أنه ليس صادقًا في هذا الطلب.

المسألة الثانية: المقصود من هذه الآية، بيان أن الإنسان قليل الصبر عند نزول البلاء، قليل الشكر عند وجدان النعماء والآلاء، فإذا مسه الضر أقبل على التضرع والدعاء مضطجعًا أو قائمًا أو قاعدًا مجتهدًا في ذلك الدعاء طالبًا من الله تعالى إزالة تلك المحنة، وتبديلها بالنعمة والمنحة، فإذا كشف تعالى عنه ذلك بالعافية أعرض عن الشكر، ولم يتذكر ذلك الضر ولم يعرف قدر الإنعام، وصار بمنزلة من لم يدع الله تعالى لكشف ضره، وذلك يدل على ضعف طبيعة الإنسان وشدة استيلاء الغفلة والشهوة عليه، وإنما ذكر الله تعالى ذلك تنبيهًا على أن هذه الطريقة مذمومة، بل الواجب على الإنسان العاقل أن يكون صابرًا عند نزول البلاء شاكرًا عند الفوز بالنعماء، ومن شأنه أن يكون كثير الدعاء والتضرع في أوقات الراحة والرفاهية. حتى يكون مجاب الدعوة في وقت المحنة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُسْتَجَابَ لَهُ عِنْدَ الْكَرْبِ وَالشَّدَائِدِ فَلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ عِنْدَ الرَّخَاءِ»[(١)].

واعلم أن المؤمن إذا ابتلي ببلية ومحنة، وجب عليه رعاية أمور:

فأولها: أن يكون راضيًا بقضاء الله تعالى غير معترض بالقلب واللسان عليه. وإنما وجب عليه

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٤٦٢) حديث رقم/ ٣٣٨٢، وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب. وأبو يعلى في (مسنده) (١١/ ٢٨٣) حديث رقم/ ٦٣٩٦، كلاهما من طريق سعيد بن عطية الليثي عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة. . . . به. ورواه أبو يعلى في (مسنده) (١١/ ٢٨٤) حديث رقم/ ٦٣٩٧، من طريق أبي بشر يعني جعفر بن إياس عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة. . . . به.

ذلك لأنه تعالى مالك على الإطلاق وملك بالاستحقاق. فله أن يفعل في مِلْكه ومُلْكه ما شاء كما يشاء، ولأنه تعالى حكيم على الإطلاق وهو منزه عن فعل الباطل والعبث، فكل ما فعله فهو حكمة وصواب، وإذا كان كذلك فحينئذ يعلم أنه تعالى إن أبقى عليه تلك المحنة فهو عدل، وإن أزالها عنه فهو فضل، وحينئذ يجب عليه الصبر والسكوت وترك القلق والاضطراب.

وثانيها: أنه في ذلك الوقت إن اشتغل بذكر الله تعالى والثناء عليه بدلاً عن الدعاء كان أفضل، لقوله عليه السلام حكاية عن رب العزة «**مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ**»(1) ولأن الاشتغال بالذكر اشتغال بالحق، والاشتغال بالدعاء اشتغال بطلب حظ

---

(1) **ضعيف**: أخرجه القضاعي في (مسند الشهاب) (٢/ ٣٢٥) حديث رقم/ ١٤٥٤، من طريق الحسين بن داود بن معاذ البلخي حدثنا الفضيل بن عياض حدثنا منصور عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله بن مسعود... به. والبيهقي في (شعب الإيمان) (١/ ٤١٣) حديث رقم/ ٥٧٣، من طريق أبي سفيان الحميري حدثنا الضحاك بن حمرة عن يزيد بن خمير عن جابر... به. وأيضًا في (٣/ ٤٦٦) حديث رقم/ ٤٠٨٠، من طريق عثمان بن زفر أخبرنا صفوان بن أبي الصهباء عن بكير بن عتيق عن سالم بن عبد الله عن أبيه عن عمر... به.

وأخرجه البخاري في (خلق أفعال العباد) (١/ ١٠٩). من طريق سفيان بن أبي الصهباء عن بكير بن عتيق عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه عن جده... به. وأورده السيوطي في (اللآلي المصنوعة) (١/ ٢٨٨) وقال: قال ابن حبان: موضوع تفرد به صفوان لا يحتج به (قلت) قال الحافظ ابن حجر في أماليه هذا حديث حسن أخرجه البخاري في كتاب خلق أفعال العباد عن أبي نعيم ضرار ابن صرد عن صفوان به وأخرجه ابن شاهين في الترغيب من رواية يحيى الحماني عن صفوان وأورده ابن الجوزي في الموضوعات فلم يصب واستند إلى ذكر ابن حبان لصفوان في الضعفاء ولم يستمر ابن حبان على ذلك بل ذكر صفوان في كتاب الثقات وذكره البخاري في التاريخ ولم يحك فيه جرحًا وذكره ابن شاهين في الترغيب عن الثقات وكذا ابن خلفون وقال: أرجو أن يكون صدوقًا وابن معين وثقه في رواية أبي سعيد بن الأعرابي عن عباس الدوري عنه وشيخه ثقة وله شاهد من حديث أبي سعيد الخدري أخرجه الترمذي وحسنه ومن حديث جابر أخرجه البيهقي في الشعب انتهى وله شاهد آخر من حديث حذيفة قال أبو نعيم في الحلية حدثنا إبراهيم بن محمد بن حمزة حدثنا محمد بن مروان بن عبد الله حدثنا أبو مسلم عبد الرحمن بن واقد حدثنا سفيان بن عيينة عن منصور عن ربعي عن حذيفة قال: قال رسول الله: «قال الله تعالى: من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته قبل أن يسألني». قال أبو نعيم غريب تفرد به أبو مسلم عن ابن عيينة.

وقال ابن الأنباري في كتاب الوقف والابتداء حدثنا بشر بن موسى حدثنا حسين بن عبد الأول حدثنا محمد بن الحسن بن أبي يزيد التمداني الكوفي حدثنا عمرو بن قيس الملائي عن عطية عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله يقول الله تعالى من شغله قراءة القرآن عن دعائي ومسألتي أعطيته أفضل وثواب الشاكرين وقال عبد الرزاق في المصنف عن الثوري عن منصوب عن مالك بن الحويرث قال: يقول الله عز وجل: (إذا أشغل العبد ثناؤه علي عن مسألته إياي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين).

وقال ابن أبي شيبة في (المصنف) حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن مالك بن الحويرث بمثله وقال ابن أبي الدنيا حدثنا خلف بن هشام حدثنا أبو الأحوص عن منصور عن مالك بن الحرث قال يقول الله تعالى: (من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين) وقال ابن أبي شيبة بن نمير عن موسى بن مسلم عن عمرو بن مرة رفعه قال من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين يعني الرب.

وقال الخطابي حدثني محمد بن المظفر حدثنا أحمد بن صالح الكيلاني حدثنا الحسن بن الحسين المروزي قال سألت سفيان بن عيينة عن حديث أفضل الدعاء الحمد لله فقلت له هذا ثناء وليس بدعاء فقال أما بلغك حديث منصور عن=

النفس، ولا شك أن الأول أفضل، ثم إن اشتغل بالدعاء وجب أن يشترط فيه أن يكون إزالته صلاحًا في الدين، وبالجملة فإنه يجب أن يكون الدين راجحًا عنده على الدنيا.

وثالثها: أنه سبحانه إذا أزال عنه تلك البلية فإنه يجب عليه أن يبالغ في الشكر وأن لا يخلو عن ذلك الشكر في السراء والضراء، وأحوال الشدة والرخاء، فهذا هو الطريق الصحيح عند نزول البلاء. وههنا مقام آخر أعلى وأفضل مما ذكرناه، وهو أن أهل التحقيق قالوا: إن من كان في وقت وجدان النعمة مشغولاً بالنعمة لا بالمنعم كان عند البلية مشغولاً بالبلاء لا بالمبلي، ومثل هذا الشخص يكون أبدًا في البلاء، أما في وقت البلاء فلا شك أنه يكون في البلاء، وأما في وقت حصول النعماء فإن خوفه من زوالها يكون أشد أنواع البلاء، فإن النعمة كلما كانت أكمل وألذ وأقوى وأفضل، كان خوف زوالها أشد إيذاء وأقوى إيحاشًا، فثبت أن من كان مشغولاً بالنعمة كان أبدًا في لجة البلية. أما من كان في وقت النعمة مشغولاً بالمنعم، لزم أن يكون في وقت البلاء مشغولاً بالمبلي. وإذا كان المنعم والمبلي واحدًا، كان نظره أبدًا على مطلوب واحد، وكان مطلوبه منزهًا عن التغير مقدسًا عن التبدل ومن كان كذلك كان في وقت البلاء وفي وقت النعماء، غَرِقًا في بحر السعادات، واصلاً إلى أقصى الكمالات، وهذا النوع من البيان بحر لا ساحل له، ومن أراد أن يصل إليه فليكن من الواصلين إلى العين دون السامعين للأثر.

المسألة الثالثة: اختلفوا في ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ في قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ فقال بعضهم: إنه الكافر، ومنهم من بالغ وقال: كل موضع في القرآن ورد فيه ذكر الإنسان، فالمراد هو الكافر، وهذا باطل، لأن قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الانشقاق: ٦، ٧] لا شبهة في أن المؤمن داخل فيه، وكذلك قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ [الدهر: ١] وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦] فالذي قالوه بعيد، بل الحق أن نقول: اللفظ المفرد المحلى بالألف واللام حكمه أنه إذا حصل هناك معهود سابق انصرف إليه، وإن لم يحصل هناك معهود سابق وجب حمله على الاستغراق صونًا له عن الإجمال والتعطيل. ولفظ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ ههنا لائق بالكافر، لأن العمل المذكور لا يليق بالمسلم ألبتة.

=مالك بن الحويرث يقول الله تعالى: (إذا شغل العبد ثناؤه علي عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين).

ومما يدل على شهرة الحديث ما أخرجه ابن عساكر في تاريخه عن سفيان بن عيينة أنه قال يا أصحاب الحديث بما تشبهون حديث النبي: (ما شغل عبدي ذكري عن مسألتي إلا أعطيته أفضل ما أعطي السائلين) فقالوا له: نقول ما يرحمك الله قال يقول الشاعر:

وفتى خلا من ماله ... ومن المروءة غير خال

أعطاك قبل سؤاله ... وكفاك مكروه السؤال

وضعفه الألباني في الضعيفة (٤٩٨٩).

المسألة الرابعة: في قوله: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا﴾ وجهان:

الوجه الأول: أن المراد منه ذكر أحوال الدعاء فقوله: ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ في موضع الحال بدليل عطف الحالين عليه، والتقدير: دعانا مضطجعًا أو قاعدًا أو قائمًا.

فإن قالوا: فما فائدة ذكر هذه الأحوال؟

قلنا: معناه: إن المضرور لا يزال داعيًا لا يفتر عن الدعاء إلى أن يزول عنه الضر، سواء كان مضطجعًا أو قاعدًا أو قائمًا.

والوجه الثاني: أن تكون هذه الأحوال الثلاثة تعديدًا لأحوال الضر، والتقدير: وإذا مس الإنسان الضر لجنبه أو قاعدًا أو قائمًا دعانا وهو قول الزجاج. والأول: أصح، لأن ذكر الدعاء أقرب إلى هذه الأحوال من ذكر الضر، ولأن القول بأن هذه الأحوال أحوال للدعاء يقتضي مبالغة الإنسان في الدعاء، ثم إذا ترك الدعاء بالكلية وأعرض عنه كان ذلك أعجب.

المسألة الخامسة: في قوله: ﴿مَرَّ﴾ وجوه:

الأول: المراد منه أنه مضى على طريقته الأولى قبل مس الضر ونسي حال الجهد.

الثاني: مر عن موقف الابتهال والتضرع لا يرجع إليه كأنه لا عهد له به.

المسألة السادسة: قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥ﴾ تقديره: كأنه لم يدعنا، ثم أسقط الضمير عنه على سبيل التخفيف ونظيره قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ﴾ [يونس: ٤٥] قال الحسن: نسي ما دعا الله فيه، وما صنع الله به في إزالة ذلك البلاء عنه:

المسألة السابعة: قال صاحب (النظم): قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ (إذا) موضوعة للمستقبل.

ثم قال: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا﴾ وهذا للماضي، فهذا النظم يدل على أن معنى الآية أنه هكذا كان فيما مضى وهكذا يكون في المستقبل. فدل ما في الآية من الفعل المستقبل على ما فيه من المعنى المستقبل، وما فيه من الفعل الماضي على ما فيه من المعنى الماضي، وأقول البرهان العقلي مساعد على هذا المعنى وذلك لأن الإنسان جبل على الضعف والعجز وقلة الصبر، وجبل أيضًا على الغرور والبطر والنسيان والتمرد والعتو، فإذا نزل به البلاء حمله ضعفه وعجزه على كثرة الدعاء والتضرع، وإظهار الخضوع والانقياد، وإذا زال البلاء ووقع في الراحة استولى عليه النسيان فنسي إحسان الله تعالى إليه، ووقع في البغي والطغيان والجحود والكفران. فهذه الأحوال من نتائج طبيعته ولوازم خلقته، وبالجملة فهؤلاء المساكين معذورون ولا عذر لهم.

المسألة الثامنة: في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أبحاث:

البحث الأول: أن هذا المزين هو الله تعالى أو النفس أو الشيطان، فرع على مسألة الجبر والقدر وهو معلوم.

البحث الثاني: في بيان السبب الذي لأجله سمى الله سبحانه الكافر مسرفًا. وفيه وجوه:

الوجه الأول: قال أبو بكر الأصم: الكافر مسرف في نفسه وفي ماله ومضيع لهما، أما في

النفس فلأنه جعلها عبدًا للوثن، وأما في المال فلأنهم كانوا يضيعون أموالهم في البحيرة والسائبة والوصيلة والحام.

الوجه الثاني: قال القاضي: إن من كانت عادته أن يكون عند نزول البلاء كثير التضرع والدعاء، وعند زوال البلاء ونزول الآلاء معرضًا عن ذكر الله متغافلاً عنه غير مشتغل بشكره، كان مسرفًا في أمر دينه متجاوزًا للحد في الغفلة عنه، ولا شبهة في أن المرء كما يكون مسرفًا في الإنفاق فكذلك يكون مسرفًا فيما يتركه من واجب أو يقدم عليه من قبيح، إذا تجاوز الحد فيه.

الوجه الثالث: وهو الذي خطر بالبال في هذا الوقت، أن المسرف هو الذي ينفق المال الكثير لأجل الغرض الخسيس، ومعلوم أن لذات الدنيا وطيباتها خسيسة جدًّا في مقابلة سعادات الدار الآخرة. والله تعالى أعطاه الحواس والعقل والفهم والقدرة لاكتساب تلك السعادات العظيمة، فمن بذل هذه الآلات الشريفة لأجل أن يفوز بهذه السعادات الجسمانية الخسيسة، كان قد أنفق أشياء عظيمة كثيرة، لأجل أن يفوز بأشياء حقيرة خسيسة، فوجب أن يكون من المسرفين.

البحث الثالث: الكاف في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ للتشبيه. والمعنى: كما زين لهذا الكافر هذا العمل القبيح المنكر زُيِّن للمسرفين ما كانوا يعملون من الإعراض عن الذكر ومتابعة الشهوات.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: في بيان كيفية النظم. اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم كانوا يقولون: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] ثم إنه أجاب عنه بأن ذكر أنه لا صلاح في إجابة دعائهم، ثم بين أنهم كاذبون في هذا الطلب لأنه لو نزلت بهم آفة أخذوا في التضرع إلى الله تعالى في إزالتها والكشف لها، بين في هذه الآية ما يجري مجرى التهديد، وهو أنه تعالى قد ينزل بهم عذاب الاستئصال ولا يزيله عنهم، والغرض منه أن يكون ذلك رادعًا لهم عن قولهم: إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، لأنهم متى سمعوا أن الله تعالى قد يجيب دعاءهم وينزل عليهم عذاب الاستئصال، ثم سمعوا من اليهود والنصارى أن ذلك قد وقع مرارًا كثيرة. صار ذلك رادعًا لهم وزاجرًا عن ذكر ذلك الكلام، فهذا وجه حسن مقبول في كيفية النظم.

المسألة الثانية: قال صاحب (الكشاف) ﴿لَمَّا﴾ ظرف لأهلكنا، والواو في قوله: ﴿وَجَآءَتْهُمْ﴾

للحال، أي ظلموا بالتكذيب. وقد جاءتهم رسلهم بالدلائل والشواهد على صدقهم وهي المعجزات، وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ يجوز أن يكون عطفًا على ظلموا، وأن يكون اعتراضًا، واللام لتأكيد النفي، وأن الله قد علم منهم أنهم يصرون على الكفر وهذا يدل على أنه تعالى إنما أهلكهم لأجل تكذيبهم الرسل، فكذلك يجزى كل مجرم، وهو وعيد لأهل مكة على تكذيبهم رسول الله، وقرئ (تَجْزِي) بالياء وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ الخطاب للذين بعث إليهم محمد عليه الصلاة والسلام، أي استخلفناكم في الأرض بعد القرون التي أهلكناهم، لننظر كيف تعملون، خيرًا أو شرًّا، فنعاملكم على حسب عملكم. بقي في الآية سؤالان:

السؤال الأول: كيف جاز النظر إلى الله تعالى وفيه معنى المقابلة؟

والجواب: أنه استعير لفظ النظر للعلم الحقيقي الذي لا يتطرق الشك إليه، وشبه هذا العلم بنظر الناظر وعيان المعاين.

السؤال الثاني: قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ مشعر بأن الله تعالى ما كان عالمًا بأحوالهم قبل وجودهم.

والجواب: المراد منه أنه تعالى يعامل العباد معاملة من يطلب العلم بما يكون منهم، ليجازيهم بحسبه كقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧] وقد مر نظائر هذا. وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الدُّنْيَا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ وَإِنَّ اللَّه مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَاظِرٌ كَيفَ تَعْمَلُونَ»(١) وقال قتادة: صدق الله ربنا ما جعلنا خلفاء إلا لينظر إلى أعمالنا، فأروا الله من أعمالكم خيرًا، بالليل والنهار.

المسألة الثالثة: قال الزجاج: موضع ﴿كَيْفَ﴾ نصب بقوله: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ لأنها حرف، استفهام، والاستفهام لا يعمل فيه ما قبله، ولو قلت: لننظر خيرًا تعملون أم شرًّا، كان العالم في خير وشر تعملون.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن هذا الكلام هو النوع الثالث من شبهاتهم وكلماتهم التي ذكروها في الطعن في نبوة النبي ﷺ، حكاها الله تعالى في كتابه وأجاب عنها.

واعلم أن من وقف على هذا الترتيب الذي نذكره، علم أن القرآن مرتب على أحسن الوجوه.

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٨/ ٨٩/ ٧١٢٤). وأحمد في (مسنده) (١٧/ ٢٦٠) حديث رقم/ ١١١٦٩، كلاهما من طريق أبي نضرة عن أبي سعيد. . . به.

المسألة الثانية: روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن خمسة من الكفار كانوا يستهزئون بالرسول عليه الصلاة والسلام وبالقرآن. الوليد بن المغيرة المخزومي، والعاص بن وائل السهمي، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن حنظلة، فَقَتَلَ اللَّه كُلَّ رَجُلٍ مِنْهُمْ بِطَرِيقٍ آخَرَ[1]، كما قال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٥] فذكر الله تعالى أنهم كلما تلي عليهم آيات: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾.

وفيه بحثان:

البحث الأول: أن وصفهم بأنهم لا يرجون لقاء الله أريد به كونهم مكذبين بالحشر والنشر، منكرين للبعث والقيامة، ثم في تقرير حسن هذه الاستعارة وجوه:

الأول: قال الأصم: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أي لا يرجون في لقائنا خيرًا على طاعة، فهم من السيئات أبعد أن يخافوها.

الثاني: قال القاضي: الرجاء لا يستعمل إلا في المنافع، لكنه قد يدل على المضار من بعض الوجوه، لأن من لا يرجو لقاء ما وعد ربه من الثواب، وهو القصد بالتكليف، لا يخاف أيضًا ما يوعده به من العقاب، فصار ذلك كناية عن جحدهم للبعث والنشور.

واعلم أن كلام القاضي قريب من كلام الأصم، إلا أن البيان التام أن يقال: كل من كان مؤمنًا بالبعث والنشور فإنه لا بد وأن يكون راجيًا ثواب الله وخائفًا من عقابه، وعدم اللازم يدل على عدم الملزوم، فلزم من نفي الرجاء نفي الإيمان بالبعث. فهذا هو الوجه في حسن هذه الاستعارة.

البحث الثاني: أنهم طلبوا من رسول الله ﷺ أحد أمرين على البدل:

فالأول: أن يأتيهم بقرآن غير هذا القرآن.

والثاني: أن يبدل هذا القرآن وفيه إشكال، لأنه إذا بدل هذا القرآن بغيره، فقد أتى بقرآن غير هذا القرآن، وإذا كان كذلك كان كل واحد منهما شيئًا واحدًا. وأيضًا مما يدل على أن كل واحد منهما هو عين الآخر أنه عليه الصلاة والسلام اقتصر في الجواب على نفي أحدهما، وهو قوله: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾ وإذا ثبت أن كل واحد من هذين الأمرين هو نفس الآخر، كان إلقاء اللفظ على الترديد والتخيير فيه باطلاً.

والجواب: أن أحد الأمرين غير الآخر، فالإتيان بكتاب آخر، لا على ترتيب هذا القرآن ولا

---

(١) أخرجه البيهقي في (سننه الكبرى) (٩/ ٨) حديث رقم/ ١٧٥٠٩، من طريق أحمد بن يوسف السلمي حدثنا عمر بن عبد الله بن رزين حدثنا سفيان عن جعفر بن إياس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس... به. والطبراني في (الأوسط) (٥/ ١٧٣) حديث رقم/ ٤٩٨٦، من طريق عبد الحكيم النيسابوري قال حدثنا مبشر بن عبد الله عن سفيان بن حسين عن جعفر بن إياس... به. وأورده الهيثمي في (المجمع) (٧/ ١٣٣) وقال: رواه الطبراني في الأوسط وفيه محمد بن عبد الحكيم النيسابوري ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات.

على نظمه، يكون إتيانًا بقرآن آخر، وأما إذا أتى بهذا القرآن إلا أنه وضع مكان ذم بعض الأشياء مدحها، ومكان آية رحمة آية عذاب، كان هذا تبديلاً، أو نقول: الإتيان بقرآن غير هذا هو أن يأتيهم بكتاب آخر سوى هذا الكتاب. مع كون هذا الكتاب باقيًا بحاله، والتبديل هو أن يغير هذا الكتاب. وأما قوله: إنه اكتفى في الجواب على نفي أحد القسمين.

قلنا: الجواب المذكور عن أحد القسمين هو عين الجواب عن القسم الثاني. وإذا كان كذلك وقع الاكتفاء بذكر أحدهما عن ذكر الثاني. وإنما قلنا: الجواب عن أحد القسمين عين الجواب عن الثاني لوجهين:

الأول: أنه عليه الصلاة والسلام لما بيَّن أنه لا يجوز أن يبدله من تلقاء نفسه، لأنه وارد من الله تعالى ولا يقدر على مثله، كما لا يقدر سائر العرب على مثله، فكان ذلك متقررًا في نفوسهم بسبب ما تقدم من تحديه لهم بمثل هذا القرآن، فقد دلهم بذلك على أنه لا يتمكن من قرآن غير هذا.

والثاني: أن التبديل أقرب إلى الإمكان من المجيء بقرآن غير هذا القرآن، فجوابه عن الأسهل يكون جوابًا عن الأصعب، ومن الناس من قال: لا فرق بين الإتيان بقرآن غير هذا القرآن وبين تبديل هذا القرآن، وجعل قوله: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ﴾ جوابًا عن الأمرين، إلا أنه ضعيف على ما بيناه.

المسألة الثالثة: اعلم أن إقدام الكفار على هذا الالتماس يحتمل وجهين:

أحدهما: أنهم ذكروا ذلك على سبيل السخرية والاستهزاء، مثل أن يقولوا: إنك لو جئتنا بقرآن آخر غير هذا القرآن أو بدلته لآمنا بك، وغرضهم من هذا الكلام السخرية والتطير.

والثاني: أن يكونوا قالوه على سبيل الجد، وذلك أيضًا يحتمل وجوهًا:

أحدها: أن يكونوا قالوا ذلك على سبيل التجربة والامتحان، حتى إنه إن فعل ذلك، علموا أنه كان كذابًا في قوله: إن هذا القرآن نزل عليه من عند الله.

وثانيها: أن يكون المقصود من هذا الالتماس أن هذا القرآن مشتمل على ذم آلهتهم والطعن في طرائقهم، وهم كانوا يتأذون منها، فالتمسوا كتابًا آخر ليس فيه ذلك.

وثالثها: أن بتقدير أن يكونوا قد جوزوا كون هذا القرآن من عند الله، التمسوا منه أن يلتمس من الله نسخ هذا القرآن وتبديله بقرآن آخر. وهذا الوجه أبعد الوجوه.

واعلم أن القوم لما ذكروا ذلك أمره الله تعالى أن يقول: إن هذا التبديل غير جائز مني ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾ ثم بين تعالى أنه بمنزلة غيره في أنه متوعد بالعذاب العظيم إن عصى. ويتفرع على هذه الآية فروع:

الفرع الأول: أن قوله: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾ معناه: لا أتبع إلا ما يوحى إلي، فهذا يدل على أنه عليه الصلاة والسلام ما حكم إلا بالوحي، وهذا يدل على أنه لم يحكم قط بالاجتهاد.

الفرع الثاني: تمسك نفاة القياس بهذه الآية فقالوا: دل هذا النص على أنه عليه الصلاة والسلام ما حكم إلا بالنص. فوجب أن يجب على جميع الأمة أن لا يحكموا إلا بمقتضى النص لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. الفرع الثالث: نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إن ذلك منسوخ بقوله: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] وهذا بعيد لأن النسخ إنما يدخل في الأحكام والتعبدات لا في ترتيب العقاب على المعصية.

الفرع الرابع: قالت المعتزلة: إن قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ مشروط بما يكون واقعًا بلا توبة ولا طاعة أعظم منها، ونحن نقول فيه تخصيص ثالث. وهو أن لا يعفو عنه ابتداء، لأن عندنا يجوز من الله تعالى أن يعفو عن أصحاب الكبائر.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنا بينا فيما سلف، أن القوم إنما التمسوا منه ذلك الالتماس، لأجل أنهم اتهموه بأنه هو الذي يأتي بهذا الكتاب من عند نفسه، على سبيل الاختلاق والافتعال، لا على سبيل كونه وحيًا من عند الله. فلهذا المعنى احتج النبي عليه الصلاة والسلام على فساد هذا الوهم بما ذكره الله تعالى في هذه الآية. وتقريره أن أولئك الكفار كانوا قد شاهدوا رسول الله ﷺ من أول عمره إلى ذلك الوقت، وكانوا عالمين بأحواله وأنه ما طالع كتابًا ولا تلمذ لأستاذ ولا تعلم من أحد، ثم بعد انقراض أربعين سنة على هذا الوجه جاءهم بهذا الكتاب العظيم المشتمل على نفائس علم الأصول، ودقائق علم الأحكام، ولطائف علم الأخلاق، وأسرار قصص الأولين. وعجز عن معارضته العلماء والفصحاء والبلغاء، وكل من له عقل سليم فإنه يعرف أن مثل هذا لا يحصل إلا بالوحي والإلهام من الله تعالى، فقوله: ﴿لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ﴾ حكم منه عليه الصلاة والسلام بأن هذا القرآن وحي من عند الله تعالى، لا من اختلاقي ولا من افتعالي. وقوله: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ﴾ إشارة إلى الدليل الذي قررناه، وقوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ يعني أن مثل هذا الكتاب العظيم إذا جاء على يد من لم يتعلم ولم يتلمذ ولم يطالع كتابًا ولم يمارس مجادلة، يعلم بالضرورة أنه لا يكون إلا على سبيل الوحي والتنزيل. وإنكار العلوم الضرورية يقدح في صحة العقل. فلهذا السبب قال: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ﴾ هو من الدراية بمعنى العلم. قال سيبويه: يقال دريته ودريت به، والأكثر هو الاستعمال بالباء. والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ﴾ ولو كان على اللغة الأخرى لقال ولا أدراكموه.

إذا عرفت هذا فنقول: معنى ﴿وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦ﴾ أي ولا أعلمكم الله به ولا أخبركم به. قال صاحب (الكشاف): قرأ الحسن (ولا أَدْرَأُكم به) على لغة من يقول أعطأته وأرضأته في معنى أعطيته وأرضيته ويعضده قراءة ابن عباس (ولا أنذرتكم به) ورواه الفراء (ولا أَدْرَأْكم به) بالهمز، والوجه فيه أن يكون من أدرأته إذا دفعته، وأدرأته إذا جعلته داريًا، والمعنى: ولا أجعلكم بتلاوته خصماء تدرؤونني بالجدال وتكذبونني، وعن ابن كثير (وَلَأَدْرَأَكُم) بلام الابتداء لإثبات الإدراء.

وأما قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓ﴾ فالقراءة المشهورة بضم الميم، وقرئ (عُمْرًا) بسكون الميم.

قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٧﴾

واعلم أن تعلق هذه الآية بما قبلها ظاهر، وذلك لأنهم التمسوا منه قرآنًا يذكره من عند نفسه، ونسبوه إلى أنه إنما يأتي بهذا القرآن من عند نفسه، ثم إنه أقام البرهان القاهر الظاهر على أن ذلك باطل، وأن هذا القرآن ليس إلا بوحي الله تعالى وتنزيله، فعند هذا قال: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ والمراد أن هذا القرآن لو لم يكن من عند الله، لما كان في الدنيا أحد أظلم على نفسه مني، حيث افتريته على الله، ولما أقمت الدلالة على أنه ليس الأمر كذلك، بل هو بوحي من الله تعالى وجب أن يقال: إنه ليس في الدنيا أحد أجهل ولا أظلم على نفسه منكم، لأنه لما ظهر بالبرهان المذكور كونه من عند الله، فإذا أنكرتموه كنتم قد كذبتم بآيات الله. فوجب أن تكونوا أظلم الناس. والحاصل أن قوله: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ المقصود منه نفي الكذب عن نفسه وقوله: ﴿أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾ المقصود منه إلحاق الوعيد الشديد بهم حيث أنكروا دلائل الله، وكذبوا بآيات الله تعالى.

وأما قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ فهو تأكيد لما سبق من هذين الكلامين، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٨﴾

اعلم أنا ذكرنا أن القوم إنما التمسوا من الرسول ﷺ قرآنًا غير هذا القرآن أو تبديل هذا القرآن لأن هذا القرآن مشتمل على شتم الأصنام التي جعلوها آلهة لأنفسهم، فلهذا السبب ذكر الله تعالى في هذا الموضع ما يدل على قبح عبادة الأصنام، ليبين أن تحقيرها والاستخفاف بها أمر حق وطريق متيقن.

واعلم أنه تعالى حكى عنهم امرين: أحدهما: أنهم كانوا يعبدون الأصنام. والثاني: أنهم كانوا يقولون: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾. أما الأول فقد نبه الله تعالى على فساده بقوله: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ وتقريره من وجوه:

الأول: قال الزجاج: لا يضرهم إن لم يعبدوه ولا ينفعهم إن عبدوه.

الثاني: أن المعبود لا بد وأن يكون أكمل قدرة من العابد، وهذه الأصنام لا تنفع ولا تضر ألبتة، وأما هؤلاء الكفار فهم قادرون على التصرف في هذه الأصنام تارة بالإصلاح وأخرى بالإفساد، وإذا كان العابد أكمل حالاً من المعبود كانت العبادة باطلة.

الثالث: أن العبادة أعظم أنواع التعظيم، فهي لا تليق إلا بمن صدر عنه أعظم أنواع الإنعام، وذلك ليس إلا الحياة والعقل والقدرة ومصالح المعاش والمعاد، فإذا كانت المنافع والمضار كلها من الله سبحانه وتعالى، وجب أن لا تليق العبادة إلا بالله سبحانه.

وأما النوع الثاني: ما حكاه الله تعالى عنهم في هذه الآية، وهو قولهم: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ فاعلم أن من الناس من قال إن أولئك الكفار توهموا أن عبادة الأصنام أشد في تعظيم الله من عبادة الله سبحانه وتعالى. فقالوا ليست لنا أهلية أن نشتغل بعبادة الله تعالى بل نحن نشتغل بعبادة هذه الأصنام، وأنها تكون شفعاء لنا عند الله تعالى. ثم اختلفوا في أنهم كيف قالوا في الأصنام إنها شفعاؤنا عند الله؟ وذكروا فيه أقوالاً كثيرة: **فأحدها:** أنهم اعتقدوا أن المتولي لكل أقليم من أقاليم العالم، روح معين من أرواح عالم الأفلاك، فعينوا لذلك الروح صنمًا معينًا واشتغلوا بعبادة ذلك الصنم، ومقصودهم عبادة ذلك الروح، ثم اعتقدوا أن ذلك الروح يكون عبدًا للإله الأعظم ومشتغلاً بعبوديته. **وثانيها:** أنهم كانوا يعبدون الكواكب وزعموا أن الكواكب هي التي لها أهلية عبودية الله تعالى، ثم لما رأوا أن الكواكب تطلع وتغرب وضعوا لها أصنامًا معينة واشتغلوا بعبادتها، ومقصودهم توجيه العبادة إلى الكواكب. **وثالثها:** أنهم وضعوا طلسمات معينة على تلك الأصنام والأوثان، ثم تقربوا إليها كما يفعله أصحاب الطلسمات. **ورابعها:** أنهم وضعوا هذه الأصنام والأوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم، وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل، فإن أولئك الأكابر تكون شفعاء لهم عند الله تعالى، ونظيره في هذا الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الأكابر، على اعتقاد أنهم إذا عظموا قبورهم فإنهم يكونون شفعاء لهم عند الله. **وخامسها:** أنهم اعتقدوا أن الإله نور عظيم، وأن الملائكة أنوار فوضعوا على صورة الإله الأكبر الصنم الأكبر، وعلى صورة الملائكة صورًا أخرى. **وسادسها:** لعل القوم حلولية، وجوزوا حلول الإله في بعض الأجسام العالية الشريفة.

واعلم أن كل هذه الوجوه باطلة بالدليل الذي ذكره الله تعالى وهو قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ وتقريره ما ذكرناه من الوجوه الثلاثة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ .

اعلم أن المفسرين قرروا وجهًا واحدًا، وهو أن المراد من نفي علم الله تعالى بذلك تقرير نفيه في نفسه، وبيان أنه لا وجود له ألبتة، وذلك لأنه لو كان موجودًا لكان معلومًا لله تعالى، وحيث لم يكن معلومًا لله تعالى وجب أن لا يكون موجودًا، ومثل هذا الكلام مشهور في العرف، فإن الإنسان إذا أراد نفي شيء عن نفسه يقول: ما علم الله هذا مني، ومقصوده أنه ما حصل ذلك قط، وقرئ (أَتُنْبِئُونَ) بالتخفيف أما قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فالمقصود تنزيه الله تعالى نفسه عن ذلك الشرك، قرأ حمزة والكسائي (تشركون) بالتاء، ومثله في أول النحل في موضعين، وفي الروم كلها بالتاء على الخطاب، قال صاحب (الكشاف) (ما) موصولة أو مصدرية أي عن الشركاء الذين يشركونهم به أو عن إشراكهم، قال الواحدي: من قرأ بالتاء فلقوله: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ﴾ ومن قرأ بالياء فكأنه قيل للنبي ﷺ: قل أنت ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ويجوز أن يكون الله سبحانه هو الذي نزه نفسه عما قالوه فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما أقام الدلالة القاهرة على فساد القول بعبادة الأصنام، بين السبب في كيفية حدوث هذا المذهب الفاسد، والمقالة الباطلة، فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ واعلم أن ظاهر قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ لا يدل على أنهم أمة واحدة فيماذا؟

وفيه ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنهم كانوا جميعًا على الدين الحق، وهو دين الإسلام، واحتجوا عليه بأمور: الأول: أن المقصود من هذه الآيات بيان كون الكفر باطلاً، وتزييف طريق عبادة الأصنام، وتقرير أن الإسلام هو الدين الفاضل، فوجب أن يكون المراد من قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ هو أنهم كانوا أمة واحدة، إما في الإسلام وإما في الكفر، ولا يجوز أن يقال إنهم كانوا أمة واحدة في الكفر. فبقي أنهم كانوا أمة واحدة في الإسلام، إنما قلنا إنه لا يجوز أن يقال إنهم كانوا أمة واحدة في الكفر لوجوه:

لأول: قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ﴾ [النساء: ٤١] وشهيد الله لا بد وأن يكون مؤمنًا عدلاً. فثبت أنه ما خلت أمة من الأمم إلا وفيهم مؤمن.

الثاني: أن الأحاديث وردت بأن الأرض لا تخلو عمن يعبد الله تعالى، وعن أقوام بهم يمطر أهل الأرض وبهم يرزقون.

الثالث: أنه لما كانت الحكمة الأصلية في الخلق هو العبودية، فيبعد خلو أهل الأرض بالكلية عن هذا المقصود. روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلاَّ بَقِيَّةً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**» (١) وهذا يدل على قوم تمسكوا بالإيمان قبل مجيء الرسول عليه الصلاة والسلام، فكيف يقال إنهم كانوا أمة واحدة في الكفر؟ وإذا ثبت أن الناس كانوا أمة واحدة إما في الكفر وإما في الإيمان، وأنهم ما كانوا أمة واحدة في الكفر، ثبت أنهم كانوا أمة واحدة في الإيمان، ثم اختلف القائلون بهذا القول أنهم متى كانوا كذلك؟ فقال ابن عباس ومجاهد كانوا على دين الإسلام في عهد آدم وفي عهد ولده، واختلفوا عند قتل أحد ابنيه الابن الثاني، وقال قوم: إنهم بقوا على دين الإسلام إلى زمن نوح، وكانوا عشرة قرون. ثم اختلفوا على عهد نوح. فبعث الله تعالى إليهم نوحًا. وقال آخرون: كانوا على دين الإسلام في زمن نوح بعد الغرق، إلى أن ظهر الكفر فيهم. وقال آخرون: كانوا على دين الإسلام من عهد إبراهيم عليه السلام إلى أن غيره عمرو بن لحي، وهذا القائل قال: المراد من الناس في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ العرب خاصة.

إذا عرفت تفصيل هذا القول فنقول: إنه تعالى لما بين فيما قبل فساد القول بعبادة الأصنام بالدليل الذي قررناه، بيَّن في هذه الآية أن هذا المذهب ليس مذهبًا للعرب من أول الأمر، بل كانوا على دين الإسلام، ونفي عبادة الأصنام. ثم حذف هذا المذهب الفاسد فيهم، والغرض منه أن العرب إذا علموا أن هذا المذهب ما كان أصليًّا فيهم، وأنه إنما حدث بعد أن لم يكن، لم يتعصبوا لنصرته، ولم يتأذوا من تزييف هذا المذهب، ولم تنفر طباعهم من إبطاله. ومما يقوي هذا القول وجهان: الأول: أنه تعالى قال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ثم بالغ في إبطاله بالدليل. ثم قال عقيبه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ فلو كان المراد منه بيان أن هذا الكفر كان حاصلاً فيهم من الزمان

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢١٩٧/ ٢٨٦٥)، من طريق معاذ بن هشام حدثني أبي عن قتادة عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال... فذكره.
وأحمد في (مسنده) (٤/ ٢٦٦) قال روح ثنا عوف عن حكيم الأثرم عن الحسن قال حدثني مطرف بن عبد الله حدثني عياض بن حمار المجاشعي قال قال رسول الله صلي الله عليه وسلم في خطبة خطبها قال... فذكر الحديث.
وحدثنا عفان ثنا همام ثنا قتادة ثنا العلاء بن زياد العدوى حدثني يزيد أخو مطرف قال وحدثني عقبة كل هؤلاء يقول حدثني مطرف أن عياض بن حمار حدثه أنه سمع النبي ﷺ يقول في خطبته: «ثم إن الله عز وجل أمرني أن أعلمكم ما جهلتم» فذكر الحديث. وابن حبان في (صحيحه) (٢/ ٤٢٢) حديث رقم/ ٦٥٣، من طريق حفص بن عمر الحوضي قال حدثنا همام بن يحيى... به. والطبراني في (الكبير) (١٧/ ٣٦٠) حديث رقم/ ٩٩٢، من طريق حفص بن عمر حدثنا همام عن قتادة... به. والبزار في (مسنده) (٨/ ٤١٩) حديث رقم/ ٣٤٩١، من طريق عمرو بن عاصم قال: نا همام عن قتادة قال حدثني أربعة عن مطرف بن عبد الله منهم يزيد بن عبد الله والعلاء بن زياد ورجلان نسيهما همام عن عياض بن حمار رضي الله عنه أنه سمع رسول الله يخطب يقول في خطبته... فذكره.

القديم، لم يصح جعل هذا الكلام دليلاً على إبطال تلك المقالة. أما لو حملناه على أن الناس في أول الأمر كانوا مسلمين، وهذا الكفر إنما حدث فيهم من زمان، أمكن التوسل به إلى تزييف اعتقاد الكفار في هذه المقالة، وفي تقبيح صورتها عندهم، فوجب حمل اللفظ عليه تحصيلاً لهذا الغرض. الثاني: أنه تعالى قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ ولا شك أن هذا وعيد، وصرف هذا الوعيد إلى أقرب الأشياء المذكورة أولى، والأقرب هو ذكر الاختلاف، فوجب صرف هذا الوعيد إلى هذا الاختلاف، لا إلى ما سبق من كون الناس أمة واحدة، وإذا كان كذلك، وجب أن يقال: كانوا أمة واحدة في الإسلام لا في الكفر، لأنهم لو كانوا أمة واحدة في الكفر لكان اختلافهم بسبب الإيمان، ولا يجوز أن يكون الاختلاف الحاصل بسبب الإيمان سببًا لحصول الوعيد. أما لو كانوا أمة واحدة في الإيمان لكان اختلافهم بسبب الكفر، وحينئذ يصح جعل ذلك الاختلاف سببًا للوعيد.

القول الثاني: قول من يقول المراد كانوا أمة واحدة في الكفر، وهذا القول منقول عن طائفة من المفسرين قالوا: وعلى هذا التقدير ففائدة هذا الكلام في هذا المقام هي أنه تعالى بين للرسول عليه الصلاة والسلام، أنه لا تطمع في أن يصير كل من تدعوه إلى الدين مجيبًا لك، قابلاً لدينك. فإن الناس كلهم كانوا على الكفر، وإنما حدث الإسلام في بعضهم بعد ذلك، فكيف تطمع في اتفاق الكل على الإيمان؟

القول الثالث: قول من يقول: المراد أنهم كانوا أمة واحدة في أنهم خلقوا على فطرة الإسلام، ثم اختلفوا في الأديان. وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**» [1] ومنهم من يقول المراد كانوا أمة واحدة في الشرائع العقلية، وحاصلها يرجع إلى أمرين: التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ﴾ [الأنعام: ١٥١] واعلم أن هذه المسألة قد استقصينا فيها في سورة البقرة، فلنكتف بهذا القدر ههنا.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فاعلم أنه ليس في الآية ما يدل على أن تلك الكلمة ما هي؟ وذكروا فيه وجوهًا: الأول: أن يقال لولا أنه تعالى أخبر بأنه يبقى التكليف على عباده، وإن كانوا به كافرين، لقضى بينهم بتعجيل الحساب والعقاب لكفرهم، لكن لما كان ذلك سببًا لزوال التكليف، ويوجب الإلجاء، وكان إبقاء

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (الجنائز) باب (ما قيل في أولاد المشركين). (٣/ ٢٩٠) حديث رقم/ ١٣٨٥، من طريق أبي سلمة. . . به. ومسلم في كتاب (القدر) باب (معنى كل مولود يولد على الفطرة) (٤/ ٢٠٤٧) حديث رقم/ ٢٣، من طريق أبي صالح. . . به. كلاهما (أبو سلمة، وأبو صالح) عن أبي هريرة. . . به.

التكليف أصوب وأصلح، لا جرم أنه تعالى أخر هذا العقاب إلى الآخرة. ثم قال هذا القائل، وفي ذلك تصبير للمؤمنين على احتمال المكاره من قبل الكافرين والظالمين. الثاني: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ في أنه لا يعاجل العصاة بالعقوبة إنعامًا عليهم، لقضى بينهم في اختلافهم، بما يمتاز المحق من المبطل والمصيب من المخطئ، الثالث: أن تلك الكلمة هي قوله: «سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي» فلما كانت رحمته غالبة اقتضت تلك الرحمة الغالبة إسبال الستر على الجاهل الضال وإمهاله إلى وقت الوجدان.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾

اعلم أن هذا الكلام هو النوع الرابع من شبهات القوم في إنكارهم نبوته، وذلك أنهم قالوا: إن القرآن الذي جئتنا به كتاب مشتمل على أنواع من الكلمات، والكتاب لا يكون معجزًا، ألا ترى أن كتاب موسى وعيسى ما كان معجزة لهما، بل كان لهما أنواع من المعجزات دلت على نبوتهما سوى الكتاب. وأيضًا فقد كان فيهم من يدعي إمكان المعارضة، كما أخبر الله تعالى أنهم قالوا: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال: ٣١] وإذا كان الأمر كذلك لا جرم طلبوا منه شيئًا آخر سوى القرآن، ليكون معجزة له، فحكى الله تعالى عنهم ذلك بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فأمر الله رسوله عليه الصلاة والسلام أن يقول عند هذا السؤال ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

واعلم أن الوجه في تقرير هذا الجواب أن يقال: أقام الدلالة القاهرة على أن ظهور القرآن عليه معجزة قاهرة ظاهرة. لأنه عليه الصلاة والسلام بيَّن أنه نشأ فيما بينهم وتربى عندهم، وهم علموا أنه لم يطالع كتابًا، ولم يتلمذ لأستاذ. بل كان مدة أربعين سنة معهم ومخالطًا لهم، وما كان مشتغلاً بالفكر والتعلم قط، ثم إنه دفعة واحدة ظهر هذا القرآن العظيم عليه، وظهور مثل هذا الكتاب الشريف العالي، على مثل ذلك الإنسان الذي لم يتفق له شيء من أسباب التعلم، لا يكون إلا بالوحي. فهذا برهان قاهر على أن القرآن معجز قاهر ظاهر، وإذا ثبت هذا كان طلب آية أخرى سوى القرآن من الاقتراحات التي لا حاجة إليها في إثبات نبوته عليه الصلاة والسلام، وتقرير رسالته، ومثل هذا يكون مفوضًا إلى مشيئة الله تعالى، فإن شاء أظهرها، وإن شاء لم يظهرها، فكان ذلك من باب الغيب، فوجب على كل أحد أن ينتظر أنه هل يفعله الله أم لا؟ ولكن سواء فعل أو لم يفعل، فقد ثبتت النبوة، وظهر صدقه في ادعاء الرسالة، ولا يختلف هذا المقصود بحصول تلك الزيادة وبعدمها، فظهر أن هذا الوجه جواب ظاهر في تقرير هذا المطلوب.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن القوم لما طلبوا من رسول الله ﷺ آية أخرى سوى القرآن، وأجاب الجواب الذي قررناه وهو قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ [يونس: ٢٠] ذكر جوابًا آخر وهو المذكور في هذه الآية.

وتقريره من وجهين:

الوجه الأول: أنه تعالى بيَّن في هذه الآية أن عادة هؤلاء الأقوام المكر واللجاج والعناد وعدم الإنصاف، وإذا كانوا كذلك فبتقدير أن يعطوا ما سألوه من إنزال معجزات أخرى، فإنهم لا يؤمنون بل يبقون على كفرهم وجهلهم، فنفتقر ههنا إلى بيان أمرين: إلى بيان أن عادة هؤلاء الأقوام المكر واللجاج والعناد، ثم إلى بيان أنه متى كان الأمر كذلك لم يكن في إظهار سائر المعجزات فائدة.

أما المقام الأول: فتقريره أنه روي أن الله تعالى سلط القحط على أهل مكة سبع سنين ثم رحمهم، وأنزل الأمطار النافعة على أراضيهم، ثم إنهم أضافوا تلك المنافع الجليلة إلى الأصنام وإلى الأنواء، وعلى التقديرين فهو مقابلة للنعمة بالكفران. فقوله: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ المراد منه تلك الأمطار النافعة. وقوله: ﴿مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾ المراد منه ذلك القحط الشديد. وقوله: ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ﴾ المراد منه إضافتهم تلك المنافع الجليلة إلى الأنواء والكواكب أو إلى الأصنام.

واعلم أنه تعالى ذكر هذا المعنى بعينه فيما تقدم من هذه السورة، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ﴾ [يونس: ١٢] إلا أنه تعالى زاد في هذه الآية التي نحن في تفسيرها دقيقة أخرى ما ذكرها في تلك الآية، وتلك الدقيقة هي أنهم يمكرون عند وجدان الرحمة، ويطلبون الغوائل، وفي الآية المتقدمة ما كانت هذه الدقيقة مذكورة، فثبت بما ذكرنا أن عادة هؤلاء الأقوام اللجاج والعناد والمكر وطلب الغوائل.

وأما المقام الثاني: وهو بيان أنه متى كان الأمر كذلك فلا فائدة في إظهار سائر الآيات، لأنه تعالى لو أظهر لهم جميع ما طلبوه من المعجزات الظاهرة فإنهم لا يقبلونها، لأنه ليس غرضهم من هذه الاقتراحات التشدد في طلب الدين، وإنما غرضهم الدفع والمنع والمبالغة في صون مناصبهم الدنيوية، والامتناع من المتابعة للغير، والدليل عليه أنه تعالى لما شدد الأمر عليهم

وسلط البلاء عليهم، ثم أزاله عنهم وأبدل تلك البليات بالخيرات، فهم مع ذلك استمروا على التكذيب والجحود، فدل ذلك على أنه تعالى لو أنزل عليهم الآيات التي طلبوها لم يلتفتوا إليها، فظهر بما ذكرنا أن هذا الكلام جواب قاطع عن السؤال المتقدم.

الوجه الثاني: في تقرير هذا الجواب: أن أهل مكة قد حصل لهم أسباب الرفاهية وطيب العيش، ومن كان كذلك تمرد وتكبر كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٦-٧] وقرر تعالى هذا المعنى بالمثال المذكور، فإقدامهم على طلب الآيات الزائدة والاقتراحات الفاسدة، إنما كان لأجل ما هم فيه من النعم الكثيرة والخيرات المتوالية، وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ كالتنبيه على أنه تعالى يزيل عنهم تلك النعم، ويجعلهم منقادين للرسول مطيعين له، تاركين لهذه الاعتراضات الفاسدة، والله أعلم.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ كلام ورد على سبيل المبالغة، والمراد منه إيصال الرحمة إليهم.

واعلم أن رحمة الله تعالى لا تذاق بالفم، وإنما تذاق بالعقل، وذلك يدل على أن القول بوجود السعادات الروحانية حق.

المسألة الثالثة: قال الزجاج (إذَا) في قوله: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ للشرط و (إذَا) في قوله ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ﴾ جواب الشرط وهو كقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦] والمعنى: إذا أذقنا الناس رحمة مكروا وإن تصبهم سيئة قنطوا. واعلم أن (إذَا) في قوله: ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ﴾ تفيد المفاجأة، معناه أنهم في الحال أقدموا على المكر وسارعوا إليه.

المسألة الرابعة: سمي تكذيبهم بآيات الله مكرًا، لأن المكر عبارة عن صرف الشيء عن وجهه الظاهر بطريق الحيلة، وهؤلاء يحتالون لدفع آيات الله بكل ما يقدرون عليه من إلقاء شبهة أو تخليط في مناظرة أو غير ذلك من الأمور الفاسدة. قال مقاتل: المراد من هذا المكر هو أن هؤلاء لا يقولون هذا رزق الله، بل يقولون سقينا بنوء كذا.

أما قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ فالمعنى أن هؤلاء الكفار لما قابلوا نعمة الله بالمكر، فالله سبحانه وتعالى قابل مكرهم بمكر أشد من ذلك، وهو من وجهين: الأول: ما أعد لهم يوم القيامة من العذاب الشديد، وفي الدنيا من الفضيحة والخزي والنكال. والثاني: أن رسل الله يكتبون مكرهم ويحفظونه، وتعرض عليهم ما في بواطنهم الخبيثة يوم القيامة، ويكون ذلك سببًا للفضيحة التامة والخزي والنكال نعوذ بالله تعالى منه.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ

ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما قال: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ﴾ [يونس: ٢١] كان هذا الكلام كلامًا كليًا لا ينكشف معناه تمام الانكشاف. إلا بذكر مثال كامل، فذكر الله تعالى لنقل الإنسان من الضر الشديد إلى الرحمة مثالاً، ولمكر الإنسان مثالاً، حتى تكون هذه الآية كالمفسرة للآية التي قبلها، وذلك لأن المعنى الكلي لا يصل إلى أفهام السامعين إلا بذكر مثال جلي واضح يكشف عن حقيقة ذلك المعنى الكلي.

واعلم أن الإنسان إذا ركب السفينة ووجد الريح الطيبة الموافقة للمقصود، حصل له الفرح التام والمسرة القوية، ثم قد تظهر علامات الهلاك دفعة واحدة. فأولها: أن تجيئهم الرياح العاصفة الشديدة. وثانيها: أن تأتيهم الأمواج العظيمة من كل جانب. وثالثها: أن يغلب على ظنونهم أن الهلاك واقع، وأن النجاة ليست متوقعة، ولا شك أن الانتقال من تلك الأحوال الطيبة الموافقة إلى هذه الأحوال القاهرة الشديدة يوجب الخوف العظيم، والرعب الشديد، وأيضًا مشاهدة هذه الأحوال والأهوال في البحر مختصة بإيجاب مزيد الرعب، والخوف ثم إن الإنسان في هذه الحالة لا يطمع إلا في فضل الله ورحمته، ويصير منقطع الطمع عن جميع الخلق، ويصير بقلبه وروحه وجميع أجزائه متضرعًا إلى الله تعالى، ثم إذا نجاه الله تعالى من هذه البلية العظيمة، ونقله من هذه المضرة القوية إلى الخلاص والنجاة، ففي الحال ينسى تلك النعمة ويرجع إلى ما ألفه واعتاده من العقائد الباطلة والأخلاق الذميمة، فظهر أنه لا يمكن تقرير ذلك المعنى الكلي المذكور في الآية المتقدمة بمثال أحسن وأكمل من المثال المذكور في هذه الآية.

المسألة الثانية: يحكى أن واحدًا قال لجعفر الصادق: اذكر لي دليلاً على إثبات الصانع فقال: أخبرني عن حرفتك: فقال: أنا رجل أتجر في البحر، فقال: صف لي كيفية حالك. فقال: ركبت البحر فانكسرت السفينة وبقيت على لوح واحد من ألواحها، وجاءت الرياح العاصفة، فقال جعفر: هل وجدت في قلبك تضرعًا ودعاء. فقال نعم. فقال جعفر: فإلهك هو الذي تضرعت إليه في ذلك الوقت.

المسألة الثالثة: قرأ ابن عامر (ينشركم) من النشر الذي هو خلاف الطي كأنه أخذه من قوله تعالى: ﴿فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠] والباقون قرءوا ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ من التسيير.

المسألة الرابعة: احتج أصحابنا بهذه الآية على أن فعل العبد يجب أن يكون خلقًا لله تعالى.

قالوا: دلت هذه الآية على أن سير العباد من الله تعالى، ودل قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١١] على أن سيرهم منهم، وهذا يدل على أن سيرهم منهم ومن الله، فيكون كسبيًّا لهم وخلقًا لله ونظيره.

قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾[الأنفال: ٥] وقال في آية أخرى: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[التوبة: ٤٠] وقال في آية أخرى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾[التوبة: ٨٢] ثم قال في آية أخرى ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾[النجم: ٤٣] وقال في آية أخرى ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾[الأنفال: ٧] قال الجبائي: أما كونه تعالى مُسيِّرًا لهم في البحر على الحقيقة فالأمر كذلك. وأما سيرهم في البر فإنما أضيف إلى الله تعالى على التوسع. فما كان منه طاعة فبأمره وتسهيله، وما كان منه معصية فلأنه تعالى هو الذي أقدره عليه. وزاد القاضي فيه يجوز أن يضاف ذلك إليه تعالى من حيث إنه تعالى سخر لهم المركب في البر، وسخر لهم الأرض التي يتصرفون عليها بإمساكه لها، لأنه تعالى لو لم يفعل ذلك لتعذر عليهم السير. وقال القفال: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي هو الله الهادي لكم إلى السير في البر والبحر طلبًا للمعاش لكم، وهو المسير لكم، لأجل أنه هيأ لكم أسباب ذلك السير. هذا جملة ما قيل في الجواب عنه. ونحن نقول: لا شك أن المسير في البحر هو الله تعالى، لأن الله تعالى هو المحدث لتلك الحركات في أجزاء السفينة، ولا شك أن إضافة الفعل إلى الفاعل هو الحقيقة. فنقول: وجب أيضًا أن يكون مسيرًا لهم في البر بهذا التفسير، إذ لو كان مسيِّرًا لهم في البر بمعنى إعطاء الآلات والأدوات لكان مجازًا بهذا الوجه، فيلزم كون اللفظ الواحد حقيقة ومجازًا دفعة واحدة، وذلك باطل.

واعلم أن مذهب الجبائي أنه لا امتناع في كون اللفظ حقيقة ومجازًا بالنسبة إلى المعنى الواحد. وأما أبو هاشم فإنه يقول: إن ذلك ممتنع، إلا أنه يقول: لا يبعد أن يقال إنه تعالى تكلم به مرتين.

واعلم أن قول الجبائي: قد أبطلناه في أصول الفقه، وقول أبي هاشم أنه تعالى تكلم به مرتين أيضًا بعيد. لأن هذا قول لم يقل به أحد من الأمة ممن كانوا قبله، فكان هذا على خلاف الإجماع فيكون باطلًا.

واعلم أنه بقي في هذه الآية سؤالات:

السؤال الأول: كيف جعل الكون في الفلك غاية للتسيير في البحر، مع أن الكون في الفلك متقدم لا محالة على التسيير في البحر؟

والجواب: لم يجعل الكون في الفلك غاية للتسيير، بل تقدير الكلام كأنه قيل هو الذي يسيركم حتى إذا وقع في جملة تلك التسييرات الحصول في الفلك كان كذا وكذا.

السؤال الثاني: ما جواب (إِذَا) في قوله: ﴿حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ﴾.

الجواب: هو أن جوابها هو قوله: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ ثم قال صاحب (الكشاف):

وأما قوله: ﴿دَعَوُا اللَّهَ﴾ فهو بدل من ﴿وَظَنُّوا﴾ لأن دعاءهم من لوازم ظنهم الهلاك. وقال بعض الأفاضل لو حمل قوله: ﴿دَعَوُا اللَّهَ﴾ على الاستئناف كان أوضح، كأنه لما قيل: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ قال قائل: فما صنعوا؟ فقيل: ﴿دَعَوُا اللَّهَ﴾.

السؤال الثالث: ما الفائدة في صرف الكلام من الخطاب إلى الغيبة؟ **الجواب فيه وجوه**: الأول: قال صاحب (الكشاف): المقصود هو المبالغة كأنه تعالى يذكر حالهم لغيرهم لتعجيبهم منها، ويستدعى منهم مزيد الإنكار والتقبيح. الثاني: قال أبو علي الجبائي: إن مخاطبته تعالى لعباده، هي على لسان الرسول عليه الصلاة والسلام، فهي بمنزلة الخبر عن الغائب. وكل من أقام الغائب مقام المخاطب، حسن منه أن يرده مرة أخرى إلى الغائب. الثالث: وهو الذي خطر بالبال في الحال، أن الانتقال في الكلام من لفظ الغيبة إلى لفظ الحضور فإنه يدل على مزيد التقرب والإكرام. وأما ضده وهو الانتقال من لفظ الحضور إلى لفظ الغيبة، يدل على المقت والتبعيد.

أما الأول: فكما في سورة الفاتحة، فإن قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢، ٣] كله مقام الغيبة، ثم انتقل منها إلى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] وهذا يدل على أن العبد كأنه انتقل من مقام الغيبة إلى مقام الحضور، وهو يوجب علو الدرجة، وكمال القرب من خدمة رب العالمين. **وأما الثاني:** فكما في هذه الآية، لأن قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ﴾ خطاب الحضور، وقوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ مقام الغيبة، فههنا انتقل من مقام الحضور إلى مقام الغيبة، وذلك يدل على المقت والتبعيد والطرد، وهو اللائق بحال هؤلاء، لأن من كان صفته أنه يقابل إحسان الله تعالى إليه بالكفران، كان اللائق به ما ذكرناه.

السؤال الرابع: كم القيود المعتبرة في الشرط والقيود المعتبرة في الجزاء؟

الجواب: أما القيود المعتبرة في الشرط فثلاثة: أولها: الكون في الفلك، وثانيها: جَرْيُ الفلك بالريح الطيبة، وثالثها: فرحهم بها. وأما القيود المعتبرة في الجزاء فثلاثة أيضًا: أولها: قوله: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾.

وفيه سؤالان:

السؤال الأول: الضمير في قوله: ﴿جَاءَتْهَا﴾ عائد إلى الفلك وهو ضمير الواحد، والضمير في قوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ عائد إلى الفلك وهو ضمير الجمع، فما السبب فيه؟

الجواب عنه من وجهين:

الأول: أنا لا نسلم أن الضمير في قوله: ﴿جَاءَتْهَا﴾ عائد إلى الفلك، بل نقول إنه عائد إلى الريح الطيبة المذكورة في قوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾.

الثاني: لو سلمنا ما ذكرتم إلا أن لفظ ﴿الْفُلْكِ﴾ يصلح للواحد والجمع، فحسن الضميران.

السؤال الثاني: ما العاطف. الجواب: قال الفراء والزجاج: يقال: ريح عاصف وعاصفة،

وقد عَصَفَتْ عُصُوفًا وأَعْصَفت، فهي مِعْصَف ومِعْصَفة. قال الفراء: والألف لغة بني أسد، ومعنى عصفت الريح اشتدت، وأصل العصف السرعة، يقال: ناقة عاصف وعصوف سريعة، وإنما قيل ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ لأنه يراد ذات عصوف كما قيل: لابِنٌ وتَامِرٌ أو لأجل أن لفظ الريح مذكر.

أما القيد الثاني: فهو قوله: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ والموج: ما ارتفع من الماء فوق البحر.

أما القيد الثالث: فهو قوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ والمراد أنهم ظنوا القرب من الهلاك، وأصله أن العدو إذا أحاط بقوم أو بلد، فقد دنوا من الهلاك.

السؤال الخامس: ما المراد من الإخلاص في قوله: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

والجواب: قال ابن عباس: يريد تركوا الشرك، ولم يشركوا به من آلهتهم شيئًا، وأقروا لله بالربوبية والوحدانية. قال الحسن: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ﴾ الإخلاص الإيمان، لكن لأجل العلم بأنه لا ينجيهم من ذلك إلا الله تعالى، فيكون جاريًا مجرى الإيمان الاضطراري. وقال ابن زيد: هؤلاء المشركون يدعون مع الله ما يدعون، فإذا جاء الضر والبلاء لم يدعوا إلا الله. وعن أبي عبيدة أن المراد من ذلك الدعاء قولهم: أهيا شراهيا تفسيره: يا حي يا قيوم.

السؤال السادس: ما الشيء المشار إليه بقوله ﴿هَٰذِهِۦ﴾ في قوله: ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ﴾؟

والجواب: المراد لئن أنجيتنا من هذه الريح العاصفة، وقيل المراد لئن أنجيتنا من هذه الأمواج أو من هذه الشدائد، وهذه الألفاظ وإن لم يسبق ذكرها، إلا أنه سبق ذكر ما يدل عليها.

السؤال السابع: هل يحتاج في هذه الآية إلى إضمار؟

الجواب: نعم، والتقدير: دعوا الله مخلصين له الدين مريدين أن يقولوا: لئن أنجيتنا، ويمكن أن يقال: لا حاجة إلا الإضمار، لأن قوله: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ يصير مفسرًا بقوله: ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ فهم في الحقيقة ما قالوا إلا هذا القول.

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم هذا التضرع الكامل بيَّن أنهم بعد الخلاص من تلك البلية والمحنة أقدموا في الحال على البغي في الأرض بغير الحق. قال ابن عباس: يريد به الفساد والتكذيب والجراءة على الله تعالى، ومعنى البغي قصد الاستعلاء بالظلم. قال الزجاج: البغي: الترقي في الفساد، قال الأصمعي: يقال: بغى الجرح يبغي بغيًا إذا ترقى إلى الفساد، وبغت المرأة: إذا فجرت، قال الواحدي: أصل هذا اللفظ من الطلب.

فإن قيل: فما معنى قوله: ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ والبغي لا يكون بحق؟

قلنا: البغي قد يكون بالحق، وهو استيلاء المسلمين عل أرض الكفرة وهدم دورهم وإحراق زروعهم وقطع أشجارهم، كما فعل رسول الله ﷺ ببني قريظة[1]. ثم إنه تعالى بيَّن أن هذا

---

(١) هذا إشارة إلى الحديث الذي رواه الشيخان من رواية ابن عمر رضي الله عنهما متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (المغازي) باب (حديث بني النضير) (٧/ ٣٨٣) حديث رقم/ ٤٣٠١، ومسلم في كتاب (الجهاد) باب (جواز قطع أشجار الكفار) (٣/ ٢٩/ ١٣٦٥). كلاهما من طريق الليث عن نافع عن ابن عمر... به.

البغي أمر باطل يجب على العاقل أن يحترز منه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ .

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ الأكثرون (مَتَاعُ) برفع العين، وقرأ حفص عن عاصم ﴿مَّتَٰعَ﴾ بنصب العين، أما الرفع ففيه وجهان: الأول: أن يكون قوله: ﴿بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ مبتدأ، وقوله: (مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا) خبرًا. والمراد من قوله: ﴿بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ بغي بعضكم على بعض كما في قوله: ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾[البقرة: ٥٤] ومعنى الكلام أن بغي بعضكم عن بعض منفعة الحياة الدنيا ولا بقاء لها. والثاني: أن قوله ﴿بَغْيُكُمْ﴾ مبتدأ، وقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ خبره، وقوله: (مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا) خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: هو متاع الحياة الدنيا. وأما القراءة بالنصب فوجهها أن نقول: إن قوله: ﴿بَغْيُكُمْ﴾ مبتدأ، وقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ خبره، وقوله: ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في موضع المصدر المؤكد، والتقدير: تتمتعون متاع الحياة الدنيا.

المسألة الثانية: البغي من منكرات المعاصي. قال عليه الصلاة والسلام: «**أَسْرَعُ الْخَيْرِ ثَوَابًا صِلَةُ الرَّحِمِ، وَأَعْجَلُ الشَّرِّ عِقَابًا الْبَغْيُ وَالْيَمِينُ الْفَاجِرَةُ**»[(١)] وروى «**ثِنْتَانِ يُعَجِّلُهُمَا اللَّهُ فِي الدُّنْيَا الْبَغْيُ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ**»[(٢)] وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لَوْ بَغَى جَبَلٌ عَلَى جَبَلٍ لَانْدَكَّ الْبَاغِي[(٣)] . وكان المأمون يتمثل بهذين البيتين في أخيه:

يَا صَاحِبَ الْبَغْيِ إِنَّ الْبَغْيَ مَصْرَعَةٌ ... فَارْبِعْ فَخَيْرُ فِعَالِ الْمَرْءِ أَعْدَلُهُ

فَلَوْ بَغَى جَبَلٌ يَوْمًا عَلَى جَبَلٍ ... لَانْدَكَّ مِنْهُ أَعَالِيهِ وَأَسْفَلُهُ

---

(١) أخرجه الخطيب في (تاريخ بغداد) (٥/ ١٨٣). ورواه الجصاص في (أحكام القرآن) (٢/ ٣٣٦). كلاهما من طريق أبي حنيفة قال حدثني ناصح عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة. . . . به. وأخرجه وكيع في (الزهد) (١/ ٤٦١) حديث رقم/ ٣٩٩، وابن الشجري في (الأمالي الشجرية) (١/ ٣٥٣). والبيهقي في (سننه الكبري) (١٠/ ٣٦) حديث رقم/ ١٩٦٥٧، وهناد في (الزهد) (٢/ ٤٩٤) حديث رقم/ ١٠١٨، جميعا من طريق سفيان عن برد عن مكحول قال قال رسول الله صلي الله عليه وسلم. . . به. وأورده الهيثمي في (المجمع) (٤/ ٣٢٢) وقال: رواه الطبراني في الأوسط وفيه أبو الدهماء الأصعب وثقه النفيلي وضعفه ابن حبان. . . به.

(٢) أخرجه البخاري في (الأدب المفرد) (١/ ٢٠٧) حديث رقم/ ٥٩١، من طريق بكار بن عبد العزيز عن أبيه عن جده. . . به. وإسناده صحيح. وأبو نعيم في (أخبار أصفهان) (٦/ ٤٤٣) حديث رقم/ ٤٠٤٢٦، من طريق محمد بن عبد العزيز الراسبي حدثنا سعد مولي أبي بكرة حدثنا عبيد الله بن أبي بكرة عن أبيه. . . به. والخطيب في (موضح أوهام الجمع والتفريق) (١/ ٤١). من طريق سعد عن عبيد الله بن أبي بكرة. . . به. والبخاري في (التاريخ الكبير) (١/ ١٩٦) حديث رقم/ ٤٩٤، وابن عساكر في (تاريخ دمشق) (٣٨/ ١٣١). كلاهما من طريق محمد سمع سعدًا عن عبيد الله بن أبي بكرة عن أبي بكرة. . . به.

(٣) **صحيح موقوف:** أخرجه البخاري في (الأدب المفرد) (١/ ٢٠٦) حديث رقم/ ٥٨٨، من طريق أبي يحيى قال سمعت مجاهدا عن ابن عباس. . . به. وابن أبي الدنيا في (البغي) (١/ ١٤/ ٧). من طريق الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس. . . به.

وعن محمد بن كعب القرظي: ثلاث من كن فيه كن عليه، البغي والنكث والمكر، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾.

المسألة الثالثة: حاصل الكلام في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ أي لا يتهيأ لكم بغي بعضكم على بغض إلا أيامًا قليلة، وهي مدة حياتكم مع قصرها وسرعة انقضائها ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي ما وعدنا من المجازاة على أعمالكم ﴿مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا، والإنباء هو الإخبار، وهو في هذا الموضع وعيد بالعذاب كقول الرجل لغيره سأخبرك بما فعلت.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يونس: ٢٣] أتبعه بهذا المثل العجيب الذي ضربه لمن يبغي في الأرض ويغتر بالدنيا، ويشتد تمسكه بها، ويقوى إعراضه عن أمر الآخرة والتأهب لها، فقال: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ وهذا الكلام يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون المعنى فاختلط به نبات الأرض بسبب هذا الماء النازل من السماء، وذلك لأنه إذا نزل المطر ينبت بسببه أنواع كثيرة من النبات، وتكون تلك الأنواع مختلطة، وهذا فيما لم يكن نابتًا قبل نزول المطر.

والثاني: أن يكون المراد منه الذي نبت، ولكنه لم يترعرع، ولم يهتز. وإنما هو في أول بروزه من الأرض ومبدأ حدوثه، فإذا نزل المطر عليه، واختلط بذلك المطر، أي اتصل كل واحد منهما بالآخر اهتز ذلك النبات وربا وحسن، وكمل واكتسى كمال الرونق والزينة، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾ وذلك لأن التزخرف عبارة عن كمال حسن الشيء. فجعلت الأرض آخذة زخرفها على التشبيه بالعروس إذا لبست الثياب الفاخرة من كل لون، وتزينت بجميع الألوان الممكنة في الزينة من حمرة وخضرة وصفرة وذهبية وبياض، ولا شك أنه متى صار البستان على هذا الوجه، وبهذه الصفة، فإنه يفرح به المالك ويعظم رجاؤه في الانتفاع به، ويصير قلبه مستغرقًا فيه، ثم إنه تعالى يرسل على هذا البستان العجيب آفة عظيمة دفعة واحدة في ليل أو نهار من برد، أو ريح أو سيل، فصارت تلك الأشجار والزروع باطلة

هالكة كأنها ما حصلت ألبتة. فلا شك أنه تعظم حسرة مالك ذلك البستان ويشتد حزنه، فكذلك من وضع قلبه على لذات الدنيا وطيباتها، فإذا فاتته تلك الأشياء يعظم حزنه وتلهفه عليها.

واعلم أن تشبيه الحياة الدنيا بهذا النبات يحتمل وجوهًا لخصها القاضي رحمه الله تعالى.

الوجه الأول: أن عاقبة هذه الحياة الدنيا التي ينفقها المرء في باب الدنيا كعاقبة هذا النبات الذي حين عظم الرجاء في الانتفاع به وقع اليأس منه، لأن الغالب أن المتمسك بالدنيا إذا وضع عليها قلبه وعظمت رغبته فيها يأتيه الموت. وهو معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤] خاسرون الدنيا، وقد أنفقوا أعمارهم فيها، وخاسرون من الآخرة، مع أنهم متوجهون إليها.

والوجه الثاني: في التشبيه أنه تعالى بين أنه كما لم يحصل لذلك الزرع عاقبة تحمد، فكذلك المغتر بالدنيا المحب لها لا يحصل له عاقبة تحمد.

والوجه الثالث: أن يكون وجه التشبيه مثل قوله سبحانه: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] فلما صار سعي هذا الزراع باطلاً بسبب حدوث الأسباب المهلكة، فكذلك سعي المغتر بالدنيا.

والوجه الرابع: أن مالك ذلك البستان لما عمره بإتعاب النفس وكد الروح، وعلق قلبه على الانتفاع به، فإذا حدث ذلك السبب المهلك، وصار العناء الشديد الذي تحمله في الماضي سببًا لحصول الشقاء الشديد له في المستقبل، وهو ما يحصل له في قلبه من الحسرات. فكذلك حال من وضع قلبه على الدنيا وأتعب نفسه في تحصيلها، فإذا مات وفاته كل ما نال، صار العناء الذي تحمله في تحصيل أسباب الدنيا، سببًا لحصول الشقاء العظيم له في الآخرة.

والوجه الخامس: لعله تعالى إنما ضرب هذا المثل لمن لا يؤمن بالمعاد، وذلك لأنا نرى الزرع الذي قد انتهى إلى الغاية القصوى في التربية، قد بلغ الغاية في الزينة والحسن. ثم يعرض للأرض المتزينة به آفة، فيزول ذلك الحسن بالكلية، ثم تصير تلك الأرض موصوفة بتلك الزينة مرة أخرى. فذكر هذا المثال ليدل على أن من قدر على ذلك، كان قادرًا على إعادة الإحياء في الآخرة ليجازيهم على أعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

المسألة الثانية: المثل: قول يشبه به حال الثاني بالأول، ويجوز أن يكون المراد من المثل الصفة. والتقدير: إنما صفة الحياة الدنيا. وأما قوله: ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ فقال الزجاج: يعني تزينت فأدغمت التاء في الزاي وسكنت الزاي فاجتلب لها ألف الوصل، وهذا مثل ما ذكرنا في قوله: ﴿فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ﴾ [البقرة: ٧٢] ﴿ٱدَّارَكُوا۟﴾ [الأعراف: ٣٨].

وأما قوله: ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد أن أهل تلك الأرض قادرون على حصادها وتحصيل ثمراتها. والتحقيق أن الضمير وإن كان في الظاهر عائدًا إلى الأرض، إلا أنه عائد إلى النبات الموجود في الأرض. وأما قوله: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾ فقال

ابن عباس رضي الله عنهما: يريد عذابنا. والتحقيق أن المعنى أتاها أمرنا بهلاكها. وقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا﴾ قال ابن عباس: لا شيء فيها، وقال الضحاك: يعني المحصود. وعلى هذا، المراد بالحصيد الأرض التي حصد نبتها، ويجوز أن يكون المراد بالحصيد النبات، قال أبو عبيدة: الحصيد المستأصل، وقال غيره: الحصيد المقطوع والمقلوع. وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ قال الليث: يقال للشيء إذا فنى: كأن لم يغن بالأمس. أي كأن لم يكن من قولهم غني القوم في دارهم، إذا أقاموا بها، وعلى هذا الوجه يكون هذا صفة للنبات. وقال الزجاج: معناه: كأن لم تعمر بالأمس، وعلى هذا الوجه فالمراد هو الأرض، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي نذكر واحدة منها بعد الأخرى، على الترتيب. ليكون تواليها وكثرتها سببًا لقوة اليقين، وموجبًا لزوال الشك والشبهة.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

المسألة الأولى: في كيفية النظم. اعلم أنه تعالى لما نفر الغافلين عن الميل إلى الدنيا بالمثل السابق، رغبهم في الآخرة بهذه الآية. ووجه الترغيب في الآخرة ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: **«مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ شِبْهُ سَيِّدٍ بَنَى دَارًا وَوَضَعَ مَائِدَةً وأرسل داعيا، فمن أجاب الداعي داخل الدَّارَ وَأَكَلَ مِنَ الْمَائِدَةِ وَرَضِيَ عَنْهُ السَّيِّدُ وَمَنْ لَمْ يُجِبْ لَمْ يَدْخُلْ وَلَمْ يَأْكُلْ وَلَمْ يَرْضَ عَنْهُ السَّيِّدُ فاللَّه السَّيِّدُ، وَالدَّارُ دَارُ الْإِسْلَامِ، وَالْمَائِدَةُ الْجَنَّةُ، وَالدَّاعِي مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ»**(١) وعن النبي ﷺ أنه قال: **«مَا مِنْ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشمس إلا وبِجَنْبَيها مَلَكَانِ يُنَادِيَانِ بِحَيْثُ يَسْمَعُ كُلُّ الْخَلَائِقِ إِلاَّ الثَّقَلَيْنِ أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ واللَّه يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ»**(٢).

المسألة الثانية: لا شبهة أن المراد من دار السلام الجنة، إلا أنهم اختلفوا في السبب الذي لأجله حصل هذا الاسم على وجوه:

الأول: أن السلام هو الله تعالى، والجنة داره. ويجب علينا ههنا بيان فائدة تسمية الله تعالى بالسلام، وفيه وجوه:

أحدها: أنه لما كان واجب الوجود لذاته فقد سلم من الفناء والتغير، وسلم من احتياجه في ذاته وصفاته إلى الافتقار إلى الغير، وهذه الصفة ليست إلا له سبحانه كما قال: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥]

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري في كتاب (الاعتصام بالكتاب والسنة) باب (الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم) (٦/ ٢٦٥٥) حديث رقم/ ٦٨٥٢، من طريق سعيد بن ميناء حدثنا أو سمعت جابر بن عبد الله... به.

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد في (مسنده) (٥/ ١٩٧) حديث رقم/ ٢٤٠٦٤، وابن حبان في (صحيحه) (٢/ ٤٦٢) حديث رقم/ ٩٧٩، والبيهقي في (شعب الإيمان) (٢/ ٢٣٣) حديث رقم/ ٣٤١٢، والطبري في (تفسيره) (١٥/ ٦٠) حديث رقم/ ١٧٦٠٨، وابن أبي حاتم في (تفسيره) (٨/ ٢٢) حديث رقم/ ١١١٦٠، جميعًا من طريق قتادة قال حدثني خليد العصري عن أبي الدرداء... به.

وثانيها: أنه تعالى يوصف بالسلام بمعنى أن الخلق سلموا من ظلمه، قال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[فصلت: ٤٦] ولأن كل ما سواه فهو مُلْكه ومِلْكه، وتصرف الفاعل في ملك نفسه لا يكون ظلمًا. ولأن الظلم إنما يصدر إما عن العاجز أو الجاهل أو المحتاج، ولما كان الكل محالاً على الله تعالى، كان الظلم محالاً في حقه.

وثالثها: قال المبرد: إنه تعالى يوصف بالسلام بمعنى أنه ذو السلام، أي الذي لا يقدر على السلام إلا هو، والسلام عبارة عن تخليص العاجزين عن المكاره والآفات. فالحق تعالى هو الساتر لعيوب المعيوبين، وهو المجيب لدعوة المضطرين، وهو المنتصف للمظلومين من الظالمين. قال المبرد: وعلى هذا التقدير: السَّلَام مصدر سَلِمَ.

القول الثاني: السلام جمع سلامة، ومعنى دار السلام: الدار التي من دخلها سلم من الآفات. فالسلام ههنا بمعنى السلامة، كالرضاع بمعنى الرضاعة. فإن الإنسان هناك سلم من كل الآفات، كالموت والمرض والألم والمصائب ونزعات الشيطان والكفر والبدعة والكد والتعب.

والقول الثالث: أنه سميت الجنة بدار السلام لأنه تعالى يسلم على أهلها قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[يس: ٥٨] والملائكة يسلمون عليهم أيضًا، قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾[الرعد: ٢٣، ٢٤] وهم أيضًا يحيي بعضهم بعضًا بالسلام قال تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾[يونس: ١٠] وأيضًا فسلامهم يصل إلى السعداء من أهل الدنيا، قال تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾[الواقعة: ٩٠، ٩١].

المسألة الثالثة: اعلم أن كمال وجود الله تعالى وكمال قدرته وكمال رحمته بعباده معلوم، فدعوته عبيده إلى دار السلام، تدل على أن دار السلام قد حصل فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، لأن العظيم إذا استعظم شيئًا ورغب فيه وبالغ في ذلك الترغيب، دل ذلك على كمال حال ذلك الشيء، لا سيما وقد ملأ الله هذا الكتاب المقدس من وصف الجنة مثل قوله: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾[الواقعة: ٨٩] ونحن نذكر ههنا كلامًا كليًّا في تقرير هذا المطلوب، فنقول: الإنسان إنما يسعى في يومه لغده. ولكل إنسان غدان، غد في الدنيا وغد في الآخرة. فنقول: غد الآخرة خير من غد الدنيا من وجوه أربعة:

أولها: أن الإنسان قد لا يدرك غد الدنيا وبالضرورة يدرك غد الآخرة.

وثانيها: أن بتقدير أن يدرك غد الدنيا فلعله لا يمكنه أن ينتفع بما جمعه، إما لأنه يضيع منه ذلك المال أو لأنه يحصل في بدنه مرض يمنعه من الانتفاع به. أما غد الآخرة فكلما اكتسبه الإنسان لأجل هذا اليوم، فإنه لا بد وأن ينتفع به.

وثالثها: أن بتقدير أن يجد غد الدنيا ويقدر على أن ينتفع بماله، إلا أن تلك المنافع مخلوطة بالمضار والمتاعب، لأن سعادات الدنيا غير خالصة عن الآفات، بل هي ممزوجة بالبليات، والاستقراء يدل عليه. ولذلك قال عليه السلام: «مَنْ طَلَبَ مَا لَمْ يُخْلَقْ أَتْعَبَ نَفْسَهُ وَلَمْ يُرْزَقْ»

فقيل يا رسول الله وما هو؟ قال: «سرور يوم بتمامه» وأما منافع عز الآخرة فهي خالصة عن الغموم والهموم والأحزان سالمة عن كل المنفرات.

ورابعها: أن بتقدير أن يصل الإنسان إلى عز الدنيا وينتفع بسببه، وكان ذلك الانتفاع خاليًا عن خلط الآفات، إلا أنه لا بد وأن يكون منقطعًا. ومنافع الآخرة دائمة مبرأة عن الانقطاع، فثبت أن سعادات الدنيا مشوبة بهذه العيوب الأربعة، وأن سعادات الآخرة سالمة عنها. فلهذا السبب كانت الجنة دار السلام.

المسألة الرابعة: احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الكفر والإيمان بقضاء الله تعالى قالوا: إنه تعالى بين في هذه الآية أنه دعا جميع الخلق إلى دار السلام، ثم بيَّن أنه ما هدى إلا بعضهم فهذه الهداية الخاصة يجب أن تكون مغايرة لتلك الدعوة العامة، ولا شك أيضًا أن الإقدار والتمكين وإرسال الرسل وإنزال الكتب أمور عامة، فوجب أن تكون هذه الهداية الخاصة مغايرة لكل هذه الأشياء، وما ذاك إلا ما ذكرناه من أنه تعالى خصه بالعلم والمعرفة دون غيره. واعلم أن هذه الآية مشكلة على المعتزلة وما قدروا على إيراد الأسئلة الكثيرة، وحاصل ما ذكره القاضي في وجهين:

الأول: أن يكون المراد ويهدي الله من يشاء إلى إجابة تلك الدعوة، بمعنى أن من أجاب الدعاء وأطاع واتقى فإن الله يهديه إليها.

والثاني: أن المراد من هذه الآية الألطاف. وأجاب أصحابنا عن هذين الوجهين بحرف واحد، وهو أن عندهم أنه يجب على الله فعل هذه الهداية، وما كان واجبًا لا يكون معلقًا بالمشيئة، وهذا معلق بالمشيئة، فامتنع حمله على ما ذكروه.

قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما دعا عباده إلى دار السلام، ذكر السعادات التي تحصل لهم فيها فقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ فيحتاج إلى تفسير هذه الألفاظ الثلاثة.

أما اللفظ الأول: وهو قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ فقال ابن عباس: معناه: للذين ذكروا كلمة: لا إله إلا الله. وقال الأصم: معناه: للذين أحسنوا في كل ما تعبدوا به، ومعناه: أنهم أتوا بالمأمور به كما ينبغي، واجتنبوا المنهيات من الوجه الذي صارت منهيًا عنها.

والقول الثاني: أقرب إلى الصواب لأن الدرجات العالية لا تحصل إلا لأهل الطاعات.

وأما اللفظ الثاني: وهو ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ فقال ابن الأنباري: الحسنى في اللغة تأنيث الأحسن، والعرب توقع هذه اللفظة على الحالة المحبوبة والخصلة المرغوب فيها، ولذلك لم تؤكد، ولم تنعت بشيء، وقال صاحب (الكشاف): المراد: المثوبة الحسنى. ونظير هذه الآية قوله: ﴿هَلْ

جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]

وأما اللفظ الثالث: وهو الزيادة. فنقول: هذه الكلمة مبهمة، ولأجل هذا اختلف الناس في تفسيرها، وحاصل كلامهم يرجع إلى قولين:

القول الأول: أن المراد منها رؤية الله سبحانه وتعالى. قالوا: والدليل عليه النقل والعقل.

أما النقل: فالحديث الصحيح الوارد فيه، وهو أن الحسنى هي الجنة، والزيادة هي النظر إلى الله سبحانه وتعالى.

وأما العقل: فهو أن الحسنى لفظة مفردة دخل عليها حرف التعريف، فانصرف إلى المعهود السابق، وهو دار السلام. والمعروف من المسلمين والمتقرر بين أهل الإسلام من هذه اللفظة هو الجنة، وما فيها من المنافع والتعظيم. وإذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد من الزيادة أمرًا مغايرًا لكل ما في الجنة من المنافع والتعظيم، وإلا لزم التكرار. وكل من قال بذلك قال: إنما هي رؤية الله تعالى. فدل ذلك على أن المراد من هذه الزيادة: الرؤية. ومما يؤكد هذا وجهان: الأول: أنه تعالى قال: ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] فأثبت لأهل الجنة أمرين: أحدهما: نضرة الوجوه، والثاني: النظر إلى الله تعالى، وآيات القرآن يفسر بعضها بعضًا فوجب حمل الحسنى ههنا على نضرة الوجوه، وحمل الزيادة على رؤية الله تعالى. الثاني: أنه تعالى قال لرسوله ﷺ: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠] أثبت له النعيم، ورؤية الملك الكبير، فوجب ههنا حمل الحسنى والزيادة على هذين الأمرين.

القول الثاني: أنه لا يجوز حمل هذه الزيادة على الرؤية. قالت المعتزلة: ويدل على ذلك وجوه:

الأول: أن الدلائل العقلية دلت على أن رؤية الله تعالى ممتنعة.

والثاني: أن الزيادة يجب أن تكون من جنس المزيد عليه، ورؤية الله تعالى ليست من جنس نعيم الجنة.

الثالث: أن الخبر الذي تمسكتم به في هذا الباب هو ما روي أن الزيادة، هي النظر إلى وجه الله تعالى، وهذا الخبر يوجب التشبيه، لأن النظر عبارة عن تقليب الحدقة إلى جهة المرئي. وذلك يقتضي كون المرئي في الجهة، لأن الوجه اسم للعضو المخصوص، وذلك أيضًا يوجب التشبيه. فثبت أن هذا اللفظ لا يمكن حمله على الرؤية، فوجب حمله على شيء آخر، وعند هذا قال الجبائي: الحسنى: عبارة عن الثواب المستحق، والزيادة هي ما يزيده الله تعالى على هذا الثواب من التفضل. قال: والذي يدل على صحته، القرآن وأقوال المفسرين.

أما القرآن: فقوله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ [فاطر: ٣٠].

وأما أقوال المفسرين: فنقل عن علي رضي الله عنه أنه قال: الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة.

وعن ابن عباس: أن الحسنى هي الحسنة، والزيادة عشر أمثالها وعن الحسن: عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وعن مجاهد: الزيادة مغفرة الله ورضوانه. وعن يزيد بن سمرة: الزيادة أن تمر السحابة بأهل الجنة فتقول: ما تريدون أن أمطركم. فلا يريدون شيئًا إلا أمطرتهم. أجاب أصحابنا عن هذه الوجوه فقالوا: أما قولكم: إن الدلائل العقلية دلت على امتناع رؤية الله تعالى فهذا ممنوع، لأنا بينا في كتب الأصول أن تلك الدلائل في غاية الضعف ونهاية السخافة، وإذا لم يوجد في العقل ما يمنع من رؤية الله تعالى وجاءت الأخبار الصحيحة بإثبات الرؤية، وجب إجراؤها على ظواهرها. أما قوله الزيادة يجب أن تكون من جنس المزيد عليه. فنقول: المزيد عليه، إذا كان مقدرًا بمقدار معين، وجب أن تكون الزيادة عليه مخالفة له.

مثال الأول: قول الرجل لغيره: أعطيتك عشرة أمداد من الحنطة وزيادة، فههنا يجب أن تكون تلك الزيادة من الحنطة.

ومثال الثاني: قوله: أعطيتك الحنطة وزيادة، فههنا يجب أن تكون تلك الزيادة غير الحنطة، والمذكور في هذه الآية لفظ ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ وهي الجنة، وهي مطلقة غير مقدرة بقدر معين، فوجب أن تكون تلك الزيادة عليها شيئًا مغايرًا لكل ما في الجنة. وأما قوله: الخبر المذكور في هذا الباب، اشتمل على لفظ النظر، وعلى إثبات الوجه لله تعالى، وكلاهما يوجبان التشبيه. فنقول: هذا الخبر أفاد إثبات الرؤية، وأفاد إثبات الجسمية. ثم قام الدليل على أنه ليس بجسم، ولم يقم الدليل على امتناع رؤيته، فوجب ترك العمل بما قام الدليل على فساده فقط، وأيضًا فقد بينا أن لفظ هذه الآية يدل على أن الزيادة هي الرؤية من غير حاجة تنافي تقرير ذلك الخبر، والله أعلم.

واعلم أنه تعالى لما شرح ما يحصل لأهل الجنة من السعادات، شرح بعد ذلك الآفات التي صانهم الله بفضله عنها، فقال: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ والمعنى: لا يغشاها قتر، وهي غبرة فيها سواد ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ ولا أثر هوان ولا كسوف.

فالصفة الأولى: هي قوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٤٠-٤١].

والصفة الثانية: هي قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ [الغاشية: ٢، ٣] والغرض من نفي هاتين الصفتين، نفي أسباب الخوف والحزن والذل عنهم، ليعلم أن نعيمهم الذي ذكره الله تعالى خالص غير مشوب بالمكروهات، وأنه لا يجوز عليهم ما إذا حصل غَيَّر صفحة الوجه، ويزيل ما فيها من النضارة والطلاقة، ثم بين أنهم خالدون في الجنة لا يخافون الانقطاع.

واعلم أن علماء الأصول قالوا: الثواب منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم، فقوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥] يدل على غاية التعظيم. وقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ يدل على حصول المنفعة وقوله: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ يدل على كونها خالصة وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ إشارة إلى كونها دائمة آمنة من الانقطاع، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه كما شرح حال المسلمين في الآية المتقدمة، شرح حال من أقدم على السيئات في هذه الآية، وذكر تعالى من أحوالهم أمورًا أربعة أولها: قوله: ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا﴾ والمقصود من هذا القيد التنبيه على الفرق بين الحسنات وبين السيئات، لأنه تعالى ذكر في أعمال البر أنه يوصل إلى المشتغلين بها الثواب مع الزيادة وأما في عمل السيئات، فإنه تعالى ذكر أنه لا يجازي إلا بالمثل، والفرق هو أن الزيادة على الثواب تكون تفضلاً وذلك حسن، ويكون فيه تأكيد للترغيب في الطاعة، وأما الزيادة على قدر الاستحقاق في عمل السيئات، فهو ظلم، ولو فعله لبطل الوعد والوعيد والترهيب والتحذير، لأن الثقة بذلك إنما تحصل إذا ثبتت حكمته، ولو فعل الظلم لبطلت حكمته. تعالى الله عن ذلك، هكذا قرره القاضي تفريعًا على مذهبه. وثانيها: قوله: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ وذلك كناية عن الهوان والتحقير، واعلم أن الكمال محبوب لذاته، والنقصان مكروه لذاته، فالإنسان الناقص إذا مات بقيت روحه ناقصة خالية عن الكمالات، فيكون شعوره بكونه ناقصًا، سببًا لحصول الذلة والمهانة والخزي والنكال. وثالثها: قوله: ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ واعلم أنه لا عاصم من الله لا في الدنيا ولا في الآخرة، فإن قضاءه محيط بجميع الكائنات، وقدره نافذ في كل المحدثات إلا أن الغالب على الطباع العاصية، أنهم في الحياة العاجلة مشتغلون بأعمالهم ومراداتهم. أما بعد الموت فكل أحد يقر بأنه ليس له من الله من عاصم. ورابعها: قوله: ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ والمراد من هذا الكلام إثبات ما نفاه عن السعداء حيث قال: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

واعلم أن حكماء الإسلام قالوا: المراد من هذا السواد المذكور ههنا سواد الجهل وظلمة الضلالة، فإن العلم طبعه طبع النور، والجهل طبعه طبع الظلمة، فقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩] المراد منه نور العلم، وروحه وبشره وبشارته، وقوله: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٤٠، ٤١] المراد منه ظلمة الجهل وكدورة الضلالة.

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون معطوفًا على قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ [يونس: ٢٦] كأنه قيل: للذين أحسنوا

الحسنى وللذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها.

والثاني: أن يكون التقدير: وجزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها. على معنى أن جزاءهم أن يجازي سيئة واحدة بسيئة مثلها لا يزاد عليها، وهذا يدل على أن حكم الله في حق المحسنين ليس إلا بالفضل، وفي حق المسيئين ليس إلا بالعدل.

المسألة الثالثة: قال بعضهم: المراد بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الكفار، واحتجوا عليه بأن سواد الوجه من علامات الكفر، بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾[آل عمران: ١٠٦] وكذلك قوله: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٤٠ - ٤٢] ولأنه تعالى قال بعد هذه الآية ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾[يونس: ٢٨] والضمير في قوله: (هُمْ) عائد إلى هؤلاء، ثم إنه تعالى وصفهم بالشرك، وذلك يدل على أن هؤلاء هم الكفار، ولأن العلم نور وسلطان العلوم والمعارف هو معرفة الله تعالى، فكل قلب حصل فيه معرفة الله تعالى لم يحصل فيه الظلمة أصلاً، وكان الشبلي رحمة الله تعالى عليه يتمثل بهذا ويقول:

كُلُّ بَيْتٍ أَنْتَ سَاكِنُهُ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَى السُّرُجِ[1]
وَجْهُكَ الْمَأْمُولُ حُجَّتُنَا يَوْمَ يَأْتِي النَّاسُ بِالْحُجَجِ

وقال القاضي: إن قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ عام يتناول الكافر والفاسق. إلا أنا نقول: الصيغة وإن كانت عامة إلا أن الدلائل التي ذكرناها تخصصه:

المسألة الرابعة: قال الفراء: في قوله: ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ وجهان: الأول: أن يكون التقدير: فلهم جزاء السيئة بمثلها، كما قال: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ﴾[البقرة: ١٩٦] أي فعليه. والثاني: أن يعلق الجزاء بالباء في قوله: ﴿بِمِثْلِهَا﴾ قال ابن الأنباري: وعلى هذا التقدير الثاني فلا بد من عائد الموصول. والتقدير: فجزاء سيئة منهم بمثلها.

أما قوله: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ فهو معطوف على يجازي، لأن قوله: ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ تقديره: يجازي سيئة بمثلها، وقرئ (ويَرْهَقُهُم ذِلَّةٌ) بالياء.

أما قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: ﴿أُغْشِيَتْ﴾ أي ألبست ﴿وُجُوهُهُمْ قِطَعًا﴾ قرأ ابن كثير والكسائي (قِطْعًا)

---

(١) أبو بكر الشبلي وهو دلف بن جحدر الشبلي. ٢٤٧ - ٣٣٤هـ/ ٨٦١-٩٤٦ م. ناسك، كان في مبدأ أمره والياً في دنباوند (من نواحي رستاق الري)، وولي الحجابة للموفق العباسي؛ وكان أبوه حاجب الحجاب ثم ترك الولاية وعكف على العبادة، فاشتهر بالصلاح. له شعر جيد، سلك به مسالك المتصوفة، أصله من خراسان، ونسبته إلى قرية (شبلة) من قرى ما وراء النهر، مولده بسر من رأى، ووفاته ببغداد، اشتهر بكنيته، واختلف في اسمه ونسبه، فقيل (دلف بن جعفر) وقيل (جحدر بن دلف) و(دلف بن جعترة) و(دلف ابن جعونة) (وجعفر بن يونس).

بسكون الطاء، وقرأ الباقون بفتح الطاء، والقِطْع بسكون الطاء: القطِعة. وهي البعض، ومنه قوله تعالى ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هود: ٨١] أي قطعة. وأما قِطَع بفتح الطاء، فهو جمع قطعة، ومعنى الآية: وصف وجوههم بالسواد، حتى كأنها ألبست سوادًا من الليل، كقوله تعالى: ﴿تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠] وكقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٦] وكقوله: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الرحمن: ٤١] وتلك العلامة هي سواد الوجه وزرقة العين.

المسألة الثانية: قوله: ﴿مُظْلِمًا﴾ قال الفراء والزجاج: هو نعت لقوله: ﴿قِطَعًا﴾ وقال أبو علي الفارسي: ويجوز أن يجعل حالاً كأنه قيل: أغشيت وجوههم قطعًا من الليل في حال ظلمته.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن هذا نوع آخر من شرح فضائح أولئك الكفار، فالضمير في قوله ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ عائد إلى المذكور السابق، وذلك هو قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [يونس: ٢٧] فلما وصف الله هؤلاء الذين يحشرهم بالشرك والكفر، دل على أن المراد من قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [يونس: ٢٧] الكفار، وحاصل الكلام: أنه تعالى يحشر العابد والمعبود، ثم إن المعبود يتبرأ من العابد، ويتبين له أنه ما فعل ذلك بعلمه وإرادته، والمقصود منه أن القوم كانوا يقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] فبين الله تعالى أنهم لا يشفعون لهؤلاء الكفار، بل يتبرءون منهم، وذلك يدل على نهاية الخزي والنكال في حق هؤلاء الكفار، ونظيره آيات منها قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ [البقرة: ١٦٦] ومنها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

واعلم أن هذا الكلام يشير على سبيل الرمز إلى دقيقة عقلية، وهي أن ما سوى الواحد الأحد الحق ممكن لذاته، والممكن لذاته محتاج بحسب ماهيته، والشيء الواحد يمتنع أن يكون قابلاً وفاعلاً معًا، فما سوى الواحد الأحد الحق لا تأثير له في الإيجاد والتكوين، فالممكن المحدث لا يليق به أن يكون معبودًا لغيره، بل المعبود الحق ليس إلا الموجد الحق، وذلك ليس إلا الموجود الحق الذي هو واجب الوجود لذاته، فبراءة المعبود من العابدين، يحتمل أن يكون المراد منه ما ذكرناه. والله أعلم بمراده.

المسألة الثانية: (الحشر) الجمع من كل جانب إلى موقف واحد و ﴿جَمِيعًا﴾ نصب على الحال أي نحشر الكل حال اجتماعهم. و ﴿مَكَانَكُمْ﴾ منصوب بإضمار الزموا. والتقدير: الزموا مكانكم و ﴿أَنتُمْ﴾ تأكيد للضمير ﴿وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ عطف عليه. واعلم أن قوله: ﴿مَكَانَكُمْ﴾ كلمة مختصة بالتهديد والوعيد والمراد أنه تعالى يقول للعابدين والمعبودين مكانكم أي الزموا مكانكم حتى تسألوا، ونظيره قوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٢ - ٢٤].

أما قوله: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾

ففيه بحثان:

البحث الأول: أن هذه الكلمة جاءت على لفظ المضي بعد قوله: ﴿ثُمَّ نَقُولُ﴾ وهو منتظر، والسبب فيه أن الذي حكم الله فيه بأنه سيكون، صار كالكائن الراهن الآن، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٤٤].

البحث الثاني: (زيلنا) فَرَّقنا وميزنا. قال الفراء: قوله: ﴿فَزَيَّلْنَا﴾ ليس من أزلت، إنما هو من زلَّت إذا فرقت. تقول العرب: زلت الضأن من المعز فلم تزل. أي ميزتها فلم تتميز، ثم قال الواحدي: فالزيل والتزييل والمزايلة: التمييز والتفريق. قال الواحدي: وقرئ (فزايلنا بينهم) وهو مثل ﴿فَزَيَّلْنَا﴾ وحكى الواحدي عن ابن قتيبة أنه قال في هذه الآية: هو من زال يزول وأزلته أنا، ثم حكى عن الأزهري أنه قال: هذا غلط، لأنه لم يميز بين زال يزول، وبين زال يزيل، وبينهما بون بعيد، والقول ما قاله الفراء، ثم قال المفسرون: ﴿فَزَيَّلْنَا﴾ أي فرقنا بين المشركين وبين شركائهم من الآلهة والأصنام، وانقطع ما كان بينهم من التواصل في الدنيا.

وأما قوله: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾

ففيه مباحث:

البحث الأول: إنما أضاف الشركاء إليهم لوجوه:

الأول: أنهم جعلوا نصيبًا من أموالهم لتلك الأصنام، فصيروها شركاء لأنفسهم في تلك الأموال، فلهذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾ .

الثاني: أنه يكفي في الإضافة أدنى تعلق، فلما كان الكفار هم الذين أثبتوا هذه الشركة، لا جرم حسنت إضافة الشركاء إليهم.

الثالث: أنه تعالى لما خاطب العابدين والمعبودين بقوله: ﴿مَكَانَكُمْ﴾ صاروا شركاء في هذا الخطاب.

البحث الثاني: اختلفوا في المراد بهؤلاء الشركاء. فقال بعضهم: هم الملائكة، واستشهدوا بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠]، ومنهم من

قال: بل هي الأصنام، والدليل عليه: أن هذا الخطاب مشتمل على التهديد والوعيد، وذلك لا يليق بالملائكة المقربين، ثم اختلفوا في أن هذه الأصنام كيف ذكرت هذا الكلام. فقال بعضهم: إن الله تعالى يخلق الحياة والعقل والنطق فيها، فلا جرم قدرت على ذكر هذا الكلام. وقال آخرون: إنه تعالى يخلق فيها الكلام من غير أن يخلق فيها الحياة حتى يسمع منها ذلك الكلام، وهو ضعيف، لأن ظاهر قوله: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾ يقتضي أن يكون فاعل ذلك القول هم الشركاء.

فإن قيل: إذا أحياهم الله تعالى فهل يبقيهم أو يفنيهم؟

قلنا: الكل محتمل ولا اعتراض على الله في شيء من أفعاله، وأحوال القيامة غير معلومة، إلا القليل الذي أخبر الله تعالى عنه في القرآن.

والقول الثالث: إن المراد بهؤلاء الشركاء، كل من عبد من دون الله تعالى، من صنم وشمس وقمر وإنسي وجني وملك.

البحث الثالث: هذا الخطاب لا شك أنه تهديد في حق العابدين، فهل يكون تهديدًا في حق المعبودين؟ أما المعتزلة: فإنهم قطعوا بأن ذلك لا يجوز. قالوا: لأنه لا ذنب للمعبود، ومن لا ذنب له، فإنه يقبح من الله تعالى أن يوجه التخويف والتهديد والوعيد إليه. وأما أصحابنا، فإنهم قالوا: إنه تعالى لا يسئل عما يفعل.

البحث الرابع: أن الشركاء قالوا: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ وهم كانوا قد عبدوهم، فكان هذا كذبًا، وقد ذكرنا في سورة الأنعام اختلاف الناس في أن أهل القيامة هل يكذبون أم لا، وقد تقدمت هذه المسألة على الاستقصاء، والذي نذكره ههنا، أن منهم من قال: إن المراد من قولهم ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ هو أنكم ما عبدتمونا بأمرنا وإرادتنا؟ قالوا: والدليل على أن المراد ما ذكرناه وجهان: الأول: أنهم استشهدوا بالله في ذلك حيث قالوا: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ والثاني: أنهم قالوا: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ فأثبتوا لهم عبادة، إلا أنهم زعموا أنهم كانوا غافلين عن تلك العبادة، وقد صدقوا في ذلك، لأن من أعظم أسباب الغفلة كونها جمادات لا حس لها بشيء ولا شعور ألبتة. ومن الناس من أجرى الآية على ظاهرها. وقالوا: إن الشركاء أخبروا أن الكفار ما عبدوها، ثم ذكروا فيه وجوهًا:

الأول: أن ذلك الموقف موقف الدهشة والحيرة، فذلك الكذب يكون جاريًا مجرى كذب الصبيان، ومجرى كذب المجانين والمدهوشين. **والثاني:** أنهم ما أقاموا لأعمال الكفار وزنًا وجعلوها لبطلانها كالعدم، ولهذا المعنى قالوا: إنهم ما عبدونا. **والثالث:** أنهم تخيلوا في الأصنام التي عبدوها صفات كثيرة، فهم في الحقيقة إنما عبدوا ذوات موصوفة بتلك الصفات، ولما كانت ذواتها خالية عن تلك الصفات، فهم ما عبدوها وإنما عبدوا أمورًا تخيلوها ولا وجود لها في الأعيان، وتلك الصفات التي تخيلوها في أصنامهم أنها تضر وتنفع وتشفع عند الله بغير إذنه.

قوله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

واعلم أن هذه الآية كالتتمة لما قبلها. وقوله: ﴿هُنَالِكَ﴾ معناه: في ذلك المقام وفي ذلك الموقف أو يكون المراد في ذلك الوقت على استعارة اسم المكان للزمان.

وفي قوله: (تبلوا) مباحث:

البحث الأول: قرأ حمزة والكسائي (تتلوا) بتاءين، وقرأ عاصم (نَبْلُو كُلَّ نَفْسٍ) بالنون ونصب كل، والباقون (تبلوا) بالتاء والباء. أما قراءة حمزة والكسائي فلها وجهان: الأول: أن يكون معنى قوله: (تتلوا) أي تتبع ما أسلفت، لأن عمله هو الذي يهديه إلى طريق الجنة وإلى طريق النار. الثاني: أن يكون المعنى: أن كل نفس تقرأ ما في صحيفتها من خير أو شر ومنه قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، وقال: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ﴾ [الإسراء: ٧١] وأما قراءة عاصم فمعناها: أن الله تعالى يقول في ذلك الوقت نختبر كل نفس بسبب اختبار ما أسلفت من العمل، والمعنى: أنا نعرف حالها بمعرفة حال عملها، إن كان حسنًا فهي سعيدة، وإن كان قبيحًا فهي شقية، والمعنى نفعل بها فعل المختبر، كقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] وأما القراءة المشهورة فمعناها: أن كل نفس نختبر أعمالها في ذلك الوقت.

البحث الثاني: الابتلاء عبارة عن الاختبار قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨] ويقال: البلاء ثم الابتلاء أي الاختبار ينبغي أن يكون قبل الابتلاء.

ولقائل أن يقول: إن في ذلك الوقت تنكشف نتائج الأعمال وتظهر آثار الأفعال، فكيف يجوز تسمية حدوث العلم بالابتلاء؟

وجوابه: أن الابتلاء سبب لحدوث العلم، وإطلاق اسم السبب على المسبب مجاز مشهور.

وأما قوله: ﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ فاعلم أن الرد عبارة عن صرف الشيء إلى الموضع الذي جاء منه، وههنا فيه احتمالات: الأول: أن يكون المراد من قوله: ﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي وردوا إلى حيث لا حكم إلا لله على ما تقدم من نظائره. والثاني: أن يكون المراد ﴿وَرُدُّوٓا۟﴾ إلى ما يظهر لهم من الله من ثواب وعقاب، منبهًا بذلك على أن حكم الله بالثواب والعقاب لا يتغير. الثالث: أن يكون المراد من قوله: ﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي جعلوا ملجئين إلى الإقرار بإلهيته، بعد أن كانوا في الدنيا يعبدون غير الله تعالى، ولذلك قال: ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ أعني أعرضوا عن المولى الباطل ورجعوا إلى المولى الحق.

وأما قوله: ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ فقد مر تفسيره في سورة الأنعام.

وأما قوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ فالمراد أنهم كانوا يدعون فيما يعبدونه أنهم شفعاء، وأن عبادتهم مقربة إلى الله تعالى، فنبه تعالى على أن ذلك يزول في الآخرة، ويعلمون أن ذلك باطل وافتراء واختلاق.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن فضائح عبدة الأوثان أتبعها بذكر الدلائل الدالة على فساد هذا المذهب.

فالحجة الأولى: ما ذكره في هذه الآية وهو أحوال الرزق وأحوال الحواس وأحوال الموت والحياة. أما الرزق فإنه إنما يحصل من السماء والأرض، أما من السماء فبنزول الأمطار الموافقة وأما من الأرض، فلأن الغذاء إما أن يكون نباتًا أو حيوانًا، أما النبات فلا ينبت إلا من الأرض وأما الحيوان فهو محتاج أيضًا إلى الغذاء. ولا يمكن أن يكون غذاء كل حيوان حيوانًا آخر وإلا لزم الذهاب إلى ما لا نهاية له وذلك محال، فثبت أن أغذية الحيوانات يجب انتهاؤها إلى النبات وثبت أن تولد النبات من الأرض، فلزم القطع بأن الأرزاق لا تحصل إلا من السماء والأرض، ومعلوم أن مدبر السموات والأرضين ليس إلا الله سبحانه وتعالى، فثبت أن الرزق ليس إلا من الله تعالى، وأما أحوال الحواس فكذلك، لأن أشرفها السمع والبصر، وكان علي رضي الله عنه يقول: سبحان من بصر بشحم، وأسمع بعظم، وأنطق بلحم، وأما أحوال الموت والحياة فهو قوله: ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ وفيه وجهان: الأول: أنه يخرج الإنسان والطائر من النطفة والبيضة ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ أي يخرج النطفة والبيضة من الإنسان والطائر. والثاني: أن المراد منه أنه يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، والأكثرون على القول الأول، وهو إلى الحقيقة أقرب، ثم إنه تعالى لما ذكر هذا التفصيل ذكر بعده كلامًا كليًّا، وهو قوله: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ وذلك لأن أقسام تدبير الله تعالى في العالم العلوي وفي العالم السفلي وفي عالمي الأرواح والأجساد أمور لا نهاية لها، وذكر كلها كالمتعذر، فلما ذكر بعض تلك التفاصيل لا جرم عقبها بالكلام الكلي ليدل على الباقي ثم بيّن تعالى أن الرسول عليه السلام إذا سألهم عن مدبر هذه الأحوال فسيقولون: إنه الله سبحانه وتعالى، وهذا يدل على أن المخاطبين بهذا الكلام كانوا يعرفون الله ويقرون به، وهم الذين قالوا في عبادتهم للأصنام: إنها تقربنا إلى الله زلفى وإنهم شفعاؤنا عند الله وكانوا يعلمون أن

هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر، فعند ذلك قال لرسوله عليه السلام: ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ يعني أفلا تتقون أن تجعلوا هذه الأوثان شركاء لله في المعبودية، مع اعترافكم بأن كل الخيرات في الدنيا والآخرة إنما تحصل من رحمة الله وإحسانه، واعترافكم بأن هذه الأوثان لا تنفع ولا تضر ألبتة.

ثم قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ﴾ ومعناه أن من هذه قدرته ورحمته هو ﴿رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ الثابت ربوبيته ثباتًا لا ريب فيه، وإذا ثبت أن هذا هو الحق، وجب أن يكون ما سواه ضلالاً، لأن النقيضين يمتنع أن يكونا حقين وأن يكونا باطلين، فإذا كان أحدهما حقًا وجب أن يكون ما سواه باطلاً.

ثم قال: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ والمعنى أنكم لما عرفتم هذا الأمر الواضح الظاهر ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ وكيف تستجيزون العدول عن هذا الحق الظاهر، واعلم أن الجبائي قد استدل بهذه الآية وقال: هذا يدل على بطلان قول المجبرة أنه تعالى يصرف الكفار عن الإيمان، لأنه لو كان كذلك لما جاز أن يقول: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ كما لا يقول: إذا أعمى بصر أحدهم إني عميت، واعلم أن الجواب عنه سيأتي عن قريب.

أما قوله: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الكفر بقضاء الله تعالى وإرادته، وتقريره أنه تعالى أخبر عنهم خبرًا جزمًا قطعًا أنهم لا يؤمنون، فلو آمنوا لكان إما أن يبقى ذلك الخبر صدقًا أو لا يبقى، والأول باطل، لأن الخبر بأنه لا يؤمن يمتنع أن يبقى صدقًا حال ما يوجد الإيمان منه، والثاني أيضًا باطل، لأن انقلاب خبر الله تعالى كذبًا محال فثبت أن صدور الإيمان منهم محال. والمحال لا يكون مرادًا، فثبت أنه تعالى ما أراد الإيمان من هذا الكافر وأنه أراد الكفر منه، ثم نقول: إن كان قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ يدل على صحة مذهب القدرية، فهذه الآية الموضوعة بجنبه تدل على فساده، وقد كان من الواجب على الجبائي مع قوة خاطره حين استدل بتلك الآية على صحة قوله أن يذكر هذه الحجة ويجيب عنها حتى يحصل مقصوده.

المسألة الثانية: قرأ نافع وابن عامر (كَلِمَاتُ رَبِكَ) على الجمع وبعده (إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ ربك) [يونس: ٩٦] وفي حم المؤمن (وكَذَلِكَ حَقتْ كَلِماتُ) [غافر: ٦] كله بالألف على الجمع والباقون ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ في جميع ذلك على لفظ الوحدان.

المسألة الثالثة: الكاف في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ للتشبيه، وفيه قولان: الأول: أنه كما ثبت وحق أنه ليس بعد الحق إلا الضلال، كذلك حقت كلمة ربك بأنهم لا يؤمنون. الثاني: كما حق صدور العصيان منهم، كذلك حقت كلمة العذاب عليهم.

المسألة الرابعة: ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بدل من (كلمت) أي حق عليهم انتفاء الإيمان.

المسألة الخامسة: المراد من كلمة الله إما إخباره عن ذلك وخبره صدق لا يقبل التغير والزوال، أو علمه بذلك، وعلمه لا يقبل التغير والجهل. وقال بعض المحققين: علم الله تعلق بأنه لا يؤمن وخبره تعالى تعلق بأنه لا يؤمن، وقدرته لم تتعلق بخلق الإيمان فيه، بل بخلق الكفر فيه وإرادته لم تتعلق بخلق الإيمان فيه، بل بخلق الكفر فيه، وأثبت ذلك في اللوح المحفوظ، وأشهد عليه ملائكته، وأنزله على أنبيائه وأشهدهم عليه، فلو حصل الإيمان لبطلت هذه الأشياء، فينقلب علمه جهلاً، وخبره الصدق كذبًا، وقدرته عجزًا، وإرادته كرهًا، وإشهاده باطلاً، وإخبار الملائكة والأنبياء كذبًا، وكل ذلك محال.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾

اعلم أن هذا هو الحجة الثانية، وتقريرها ما شرح الله تعالى في سائر الآيات من كيفية ابتداء تخليق الإنسان من النطفة والعلقة والمضغة وكيفية إعادته، ومن كيفية ابتداء تخليق السموات والأرض، فلما فصل هذه المقامات، لا جرم اكتفى تعالى بذكرها ههنا على سبيل الإجمال، وههنا سؤالات:

السؤال الأول: ما الفائدة في ذكر هذه الحجة على سبيل السؤال والاستفهام.

والجواب: أن الكلام إذا كان ظاهرًا جليًّا ثم ذكر على سبيل الاستفهام وتفويض الجواب إلى المسؤول، كان ذلك أبلغ وأوقع في القلب.

السؤال الثاني: القوم كانوا منكرين الإعادة والحشر والنشر فكيف احتج عليهم بذلك؟

والجواب: أنه تعالى قدم في هذه السورة ذكر ما يدل عليه، وهو وجوب التمييز بين المحسن وبين المسيء وهذه الدلالة ظاهرة قوية لا يتمكن العاقل من دفعها، فلأجل كمال قوتها وظهورها تمسك به سواء ساعد الخصم عليه أو لم يساعد.

السؤال الثالث: لم أمر رسوله بأن يعترف بذلك، والإلزام إنما يحصل لو اعترف الخصم به؟

والجواب: أن الدليل لما كان ظاهرًا جليًّا، فإذا أورد على الخصم في معرض الاستفهام، ثم إنه بنفسه يقول الأمر كذلك، كان هذا تنبيهًا على أن هذا الكلام بلغ في الوضوح إلى حيث لا حاجة فيه إلى إقرار الخصم به، وأنه سواء أقر أو أنكر، فالأمر متقرر ظاهر.

أما قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فالمراد التعجب منهم في الذهاب عن هذا الأمر الواضح الذي دعاهم الهوى والتقليد أو الشبهة الضعيفة إلى مخالفته، لأن الإخبار عن كون الأوثان آلهة كذب وإفك، والاشتغال بعبادتها- مع أنها لا تستحق هذه العبادة- يشبه الإفك.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن هذا هو الحجة الثالثة، واعلم أن الاستدلال على وجود الصانع بالخلق أولاً، ثم بالهداية ثانيًا، عادة مطردة في القرآن، فحكى تعالى عن الخليل عليه السلام أنه ذكر ذلك فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾[الشعراء: ٧٨] وعن موسى عليه السلام أنه ذكر ذلك فقال: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[طه: ٥٠] وأمر محمدًا ﷺ فقال: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[الأعلى: ١ - ٣] وهو في الحقيقة دليل شريف، لأن الإنسان له جسد وله روح، فالاستدلال على وجود الصانع بأحوال الجسد هو الخلق، والاستدلال بأحوال الروح هو الهداية فههنا أيضًا لما ذكر دليل الخلق في الآية الأولى، وهو قوله: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾[النمل: ٦٤] أتبعه بدليل الهداية في هذه الآية.

واعلم أن المقصود من خلق الجسد حصول الهداية للروح، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل: ٧٨] وهذا كالتصريح بأنه تعالى إنما خلق الجسد، وإنما أعطى الحواس لتكون آلة في اكتساب المعارف والعلوم، وأيضًا فالأحوال الجسدية خسيسة يرجع حاصلها إلى الالتذاذ بذوق شيء من الطعوم أو لمس شيء من الكيفيات الملموسة، أما الأحوال الروحانية والمعارف الإلهية، فإنها كمالات باقية أبد الآباد مصونة عن الكون والفساد، فعلمنا أن الخلق تبع للهداية، والمقصود الأشرف الأعلى- حصول الهداية.

إذا ثبت هذا فنقول: العقول مضطربة والحق صعب، والأفكار مختلطة، ولم يسلم من الغلط إلا الأقلون، فوجب أن الهداية وإدراك الحق لا يكون إلا بإعانة الله سبحانه وتعالى وهدايته وإرشاده، ولصعوبة هذا الأمر قال الكليم عليه السلام بعد استماع الكلام القديم ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾[طه: ٢٥] وكل الخلق يطلبون الهداية ويحترزون عن الضلالة، مع أن الأكثرين وقعوا في الضلالة، وكل ذلك يدل على أن حصول الهداية والعلم والمعرفة ليس إلا من الله تعالى.

إذا عرفت هذا فنقول: الهداية إما أن تكون عبارة عن الدعوة إلى الحق، وإما أن تكون عبارة عن تحصيل تلك المعرفة وعلى التقديرين فقد دللنا على أنها أشرف المراتب البشرية وأعلى السعادات الحقيقية، ودللنا على أنها ليست إلا من الله تعالى. وأما الأصنام فإنها جمادات لا

تأثير لها في الدعوة إلى الحق ولا في الإرشاد إلى الصدق، فثبت أنه تعالى هو الموصل إلى جميع الخيرات في الدنيا والآخرة، والمرشد إلى كل الكمالات في النفس والجسد، وأن الأصنام لا تأثير لها في شيء من ذلك، وإذا كان كذلك كان الاشتغال بعبادتها جهلاً محضًا وسفهًا صرفًا، فهذا حاصل الكلام في هذا الاستدلال.

المسألة الثانية: قال الزجاج: يقال: هديت إلى الحق، وهديت للحق بمعنى واحد، والله تعالى ذكر هاتين اللغتين في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾.

المسألة الثالثة: في قوله: ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ﴾

ست قراءات:

الأول: قرأ ابن كثير وابن عامر وورش عن نافع (يَهَدِّي) بفتح الياء والهاء وتشديد الدال، وهو اختيار أبي عبيدة وأبي حاتم، لأن أصله يهتدي أدغمت التاء في الدال ونقلت فتحة التاء المدغمة إلى الهاء.

الثانية: قرأ نافع ساكنة الهاء مشددة الدال أدغمت التاء في الدال وتركت الهاء على حالها، فجمع في قراءته بين ساكنين كما جمعوا في (يَخْصِّمُون)[يس: ٤٩] قال علي بن عيسى: وهو غلط على نافع.

الثالثة: قرأ أبو عمرو بالإشارة إلى فتحة الهاء من غير إشباع فهو بين الفتح والجزم مختلسة على أصل مذهبه اختيارًا للتخفيف، وذكر علي بن عيسى أنه الصحيح من قراءة نافع.

الرابعة: قرأ عاصم بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال فرارًا من التقاء الساكنين، والجزم يحرك بالكسر.

الخامسة: قرأ حماد ويحيى بن آدم عن أبي بكر عن عاصم بكسر الياء والهاء أتبع الكسرة للكسرة. وقيل: هو لغة من قرأ (نستعين ونعبد).

السادسة: قرأ حمزة والكسائي (يَهْدِي) ساكنة الهاء وبتخفيف الدال على معنى يهتدي، والعرب تقول: يهدي، بمعنى يهتدي يقال: هديته فهدى أي اهتدى.

المسألة الرابعة: في لفظ الآية إشكال، وهو أن المراد من الشركاء في هذه الآية الأصنام وأنها جمادات لا تقبل الهداية، فقوله: ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ لا يليق بها.

والجواب من وجوه: الأول: لا يبعد أن يكون المراد من قوله: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ هو الأصنام. والمراد من قوله: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ رؤساء الكفر والضلالة والدعاة إليها. والدليل عليه قوله سبحانه: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] إلى قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١] والمراد أن الله سبحانه وتعالى هدى الخلق إلى الدين الحق بواسطة ما أظهر من الدلائل العقلية والنقلية. وأما هؤلاء الدعاة والرؤساء فإنهم لا يقدرون على أن يهدوا غيرهم إلا إذا هداهم الله تعالى،

فكان التمسك بدين الله تعالى أولى من قبول قول هؤلاء الجهال.

الوجه الثاني: في الجواب أن يقال: إن القوم لما اتخذوها آلهة، لا جرم عبر عنها كما يعبر عمن يعلم ويعقل، ألا ترى أنه تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤] مع أنها جمادات وقال: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤] فأجرى اللفظ على الأوثان على حسب ما يجري على من يعقل ويعلم فكذا ههنا وصفهم الله تعالى بصفة من يعقل، وإن لم يكن الأمر كذلك، الثالث: أنا نحمل ذلك على التقدير، يعني أنها لو كانت بحيث يمكنها أن تهدي، فإنها لا تهدي غيرها إلا بعد أن يهديها غيرها، وإذا حملنا الكلام على هذا التقدير فقد زال السؤال. الرابع: أن البنية عندنا ليست شرطًا لصحة الحياة والعقل، فتلك الأصنام حال كونها خشبًا وحجرًا قابلة للحياة والعقل، وعلى هذا التقدير فيصح من الله تعالى أن يجعلها حية عاقلة ثم إنها تشتغل بهداية الغير. الخامس: أن الهدى عبارة عن النقل والحركة يقال: هديت المرأة إلى زوجها هدى، إذا نقلت إليه، والهدي: ما يهدى إلى الحرم من النعم، وسميت الهدية هدية لانتقالها من رجل إلى غيره، وجاء فلان يهادى بين اثنين إذا كان يمشي بينهما معتمدًا عليهما من ضعفه وتمايله.

إذا ثبت هذا فنقول: قوله: ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ يحتمل أن يكون معناه أنه لا ينتقل إلى مكان إلا إذا نقل إليه، وعلى هذا التقدير فالمراد الإشارة إلى كون هذه الأصنام جمادات خالية عن الحياة والقدرة. واعلم أنه تعالى لما قرر على الكفار هذه الحجة الظاهرة قال: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ يعجب من مذهبهم الفاسد ومقالتهم الباطلة أربابُ العقول.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾.

وفيه وجهان:

الأول: وما يتبع أكثرهم في إقرارهم بالله تعالى إلا ظنًا، لأنه قول غير مستند إلى برهان عندهم، بل سمعوه من أسلافهم.

الثاني: وما يتبع أكثرهم في قولهم: الأصنام آلهة وأنها شفعاء عند الله إلا الظن، والقول الأول أقوى، لأنا في القول الثاني نحتاج إلى أن نفسر الأكثر بالكل.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: تمسك نفاة القياس بهذه الآية، فقالوا: العمل بالقياس عمل بالظن، فوجب أن لا يجوز، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾.

أجاب مثبتو القياس، فقالوا: الدليل الذي دل على وجوب العمل بالقياس دليل قاطع، فكان وجوب العمل بالقياس معلومًا، فلم يكن العمل بالقياس مظنونًا بل كان معلومًا.

أجاب المستدل عن هذا السؤال، فقال: لو كان الحكم المستفاد من القياس يعلم كونه حكمًا لله تعالى لكان ترك العمل به كفرًا لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] ولما لم يكن كذلك، بطل العمل به وقد يعدون عن هذه الحجة بأنهم قالوا: الحكم المستفاد من القياس إما أن يعلم كونه حكمًا لله تعالى أو يظن أو لا يعلم ولا يظن والأول باطل وإلا لكان من لم يحكم به كافرًا لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] وبالاتفاق ليس كذلك. والثاني: باطل، لأن العمل بالظن لا يجوز لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ والثالث: باطل، لأنه إذا لم يكن ذلك الحكم معلومًا ولا مظنونًا، كان مجرد التشهي، فكان باطلاً لقوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [مريم: ٥٩].

وأجاب مثبتو القياس: بأن حاصل هذا الدليل يرجع إلى التمسك بالعمومات، والتمسك بالعمومات لا يفيد إلا الظن. فلما كانت هذه العمومات دالة على المنع من التمسك بالظن، لزم كونها دالة على المنع من التمسك بها، وما أفضى ثبوته إلى نفيه كان متروكًا.

المسألة الثانية: دلت هذه الآية على أن كل من كان ظانًّا في مسائل الأصول، وما كان قاطعًا، فإنه لا يكون مؤمنًا.

فإن قيل: فقول أهل السنة أنا مؤمن إن شاء الله يمنع من القطع فوجب أن يلزمهم الكفر.

قلنا: هذا ضعيف من وجوه: الأول: مذهب الشافعي رحمه الله: أن الإيمان عبارة عن مجموع الاعتقاد والإقرار والعمل، والشك حاصل في أن هذه الأعمال هل هي موافقة لأمر الله تعالى؟ والشك في أحد أجزاء الماهية لا يوجب الشك في تمام الماهية. الثاني: أن الغرض من قوله: إن شاء الله بقاء الإيمان عند الخاتمة. الثالث: الغرض منه هضم النفس وكسرها، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنا حين شرعنا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [يونس: ٢٠] ذكرنا أن القوم إنما ذكروا ذلك لاعتقادهم أن القرآن ليس بمعجز، وأن

محمدًا إنما يأتي به من عند نفسه على سبيل الافتعال والاختلاق، ثم إنه تعالى ذكر الجوابات الكثيرة عن هذا الكلام، وامتدت تلك البيانات على الترتيب الذي شرحناه وفصلناه إلى هذا الموضع، ثم إنه تعالى بين في هذا المقام أن إتيان محمد عليه السلام بهذا القرآن ليس على سبيل الافتراء على الله تعالى، ولكنه وحي نازل عليه من عند الله، ثم إنه تعالى احتج على صحة هذا الكلام بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ وذلك يدل على أنه معجز نازل عليه من عند الله تعالى، وأنه مبرأ عن الافتراء والافتعال فهذا هو الترتيب الصحيح في نظم هذه الآيات.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ﴾.

فيه وجهان:

الأول: أن قوله: ﴿أَن يُفْتَرَىٰ﴾ في تقدير المصدر، والمعنى: وما كان هذا القرآن افتراء من دون الله، كما تقول: ما كان هذا الكلام إلا كذبًا.

والثاني: أن يقال إن كلمة ﴿أَنَّ﴾ جاءت ههنا بمعنى اللام، والتقدير: ما كان هذا القرآن ليفترى من دون الله، كقوله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢] ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩] أي لم يكن ينبغي لهم أن يفعلوا ذلك، فكذلك ما ينبغي لهذا القرآن أن يفترى، أي ليس وصفه وصف شيء يمكن أن يفترى به على الله، لأن المفترى هو الذي يأتي به البشر، والقرآن معجز لا يقدر عليه البشر، والافتراء: افتعال من فريت الأديم إذا قدرته للقطع، ثم استعمل في الكذب كما استعمل قولهم: اختلق فلان هذا الحديث في الكذب، فصار حاصل هذا الكلام أن هذا القرآن لا يقدر عليه أحد إلا الله عز وجل، ثم إنه تعالى احتج على هذه الدعوى بأمور:

الحجة الأولى: قوله: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وتقرير هذه الحجة من وجوه: أحدها: أن محمدًا عليه السلام كان رجلاً أميًا ما سافر إلى بلدة لأجل التعلم، وما كانت مكة بلدة العلماء، وما كان فيها شيء من كتب العلم، ثم إنه عليه السلام أتى بهذا القرآن، فكان هذا القرآن مشتملاً على أقاصيص الأولين، والقوم كانوا في غاية العداوة له، فلو لم تكن هذه الأقاصيص موافقة لما في التوراة والإنجيل لقدحوا فيه ولبالغوا في الطعن فيه، ولقالوا له: إنك جئت بهذه الأقاصيص لا كما ينبغي، فلما لم يقل أحد ذلك مع شدة حرصهم على الطعن فيه، وعلى تقبيح صورته، علمنا أنه أتى بتلك الأقاصيص مطابقة لما في التوراة والإنجيل، مع أنه ما طالعهما ولا تلمذ لأحد فيهما، وذلك يدل على أنه عليه السلام إنما أخبر عن هذه الأشياء بوحي من قبل الله تعالى.

الحجة الثانية: أن كتب الله المنزلة دلت على مقدم محمد عليه السلام، على ما استقصينا في تقريره في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] وإذا كان الأمر كذلك كان مجيء محمد عليه السلام تصديقًا لما في تلك الكتب، من البشارة بمجيئه ﷺ، فكان هذا عبارة عن تصديق الذي بين يديه.

الحجة الثالثة: أنه عليه السلام أخبر في القرآن عن الغيوب الكثيرة في المستقبل، ووقعت مطابقة لذلك الخبر، كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم: ١، ٢] الآية، وكقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٧] وكقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥] وذلك يدل على أن الإخبار عن هذه الغيوب المستقبلة، إنما حصل بالوحي من الله تعالى، فكان ذلك عبارة عن تصديق الذي بين يديه، فالوجهان الأولان: إخبار عن الغيوب الماضية، والوجه الثالث: إخبار عن الغيوب المستقبلة، ومجموعها عبارة عن تصديق الذي بين يديه.

النوع الثاني: من الدلائل المذكورة في هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يوسف: ١١١].

واعلم أن الناس اختلفوا في أن القرآن معجز من أي الوجوه؟ فقال بعضهم: إنه معجز لاشتماله على الإخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلة، وهذا هو المراد من قوله: ﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ومنهم من قال: إنه معجز لاشتماله على العلوم الكثيرة، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يوسف: ١١١] وتحقيق الكلام في هذا الباب أن العلوم إما أن تكون دينية أو ليست دينية، ولا شك أن القسم الأول أرفع حالاً وأعظم شأنًا وأكمل درجة من القسم الثاني. وأما العلوم الدينية، فإما أن تكون علم العقائد والأديان، وإما أن تكون علم الأعمال. أما علم العقائد والأديان فهو عبارة عن معرفة الله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. أما معرفة الله تعالى، فهي عبارة عن معرفة ذاته ومعرفة صفات جلاله، ومعرفة صفات إكرامه، ومعرفة أفعاله، ومعرفة أحكامه، ومعرفة أسمائه والقرآن مشتمل على دلائل هذه المسائل وتفاريعها وتفاصيلها على وجه لا يساويه شيء من الكتب، بل لا يقرب منه شيء من المصنفات. وأما علم الأعمال فهو إما أن يكون عبارة عن علم التكاليف المتعلقة بالظواهر وهو علم الفقه. ومعلوم أن جميع الفقهاء إنما استنبطوا مباحثهم من القرآن، وإما أن يكون علمًا بتصفية الباطن أو رياضة القلوب. وقد حصل في القرآن من مباحث هذا العلم ما لا يكاد يوجد في غيره، كقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠] فثبت أن القرآن مشتمل على تفاصيل جميع العلوم الشريفة، عَقْلِيِّها ونَقْلِيِّها، اشتمالاً يمتنع حصوله في سائر الكتب فكان ذلك معجزًا، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

- **أما قوله:** ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فتقريره: أن الكتاب الطويل المشتمل على هذه العلوم الكثيرة لا بد وأن يشتمل على نوع من أنواع التناقض، وحيث خلي هذا الكتاب عنه، علمنا أنه من عند الله وبوحيه وتنزيله، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

واعلم أنه تعالى لما ذكر في أول هذه الآية أن هذا القرآن لا يليق بحاله وصفته أن يكون كلامًا مفترى على الله تعالى، وأقام عليه هذين النوعين من الدلائل المذكورة، عاد مرة أخرى بلفظ الاستفهام على سبيل الإنكار، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ ثم إنه تعالى ذكر حجة أخرى على إبطال هذا القول، فقال: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهذه الحجة بالغنا في تقريرها في تفسير قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

وههنا سؤالات:

السؤال الأول: لم قال في سورة البقرة: ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] وقال ههنا: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾.

والجواب: أن محمدًا عليه السلام كان رجلاً أميًا، لم يتتلمذ لأحد ولم يطالع كتابًا فقال في سورة البقرة: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] يعني فليأت إنسان يساوي محمدًا عليه السلام في عدم التتلمذ وعدم مطالعة الكتب وعدم الاشتغال بالعلوم بسورة تساوي هذه السورة، وحيث ظهر العجز ظهر المعجز. فهذا لا يدل على أن السورة في نفسها معجزة، ولكنه يدل على أن ظهور مثل هذه السورة من إنسان مثل محمد عليه السلام في عدم التتلمذ والتعلم معجز، ثم إنه تعالى بين في هذه السورة أن تلك السورة في نفسها معجزة، فإن الخلق وإن تلمذوا وتعلموا وطالعوا وتفكروا، فإنه لا يمكنهم الإتيان بمعارضة سورة واحدة من هذه السور، فلا جرم قال تعالى في هذه الآية: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ ولا شك أن هذا ترتيب عجيب في باب التحدي وإظهار المعجز.

السؤال الثاني: قوله: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ هل يتناول جميع السور الصغار والكبار، أو يختص بالسور الكبار.

الجواب: هذه الآية في سورة يونس وهي مكية، فالمراد مثل هذه السورة، لأنها أقرب ما يمكن أن يشار إليه.

السؤال الثالث: أن المعتزلة تمسكوا بهذه الآية على أن القرآن مخلوق، قالوا: إنه عليه السلام تحدى العرب بالقرآن، والمراد من التحدي: أنه طلب منهم الإتيان بمثله، فإذا عجزوا عنه ظهر كونه حجة من عند الله على صدقه، وهذا إنما يمكن لو كان الإتيان بمثله صحيح الوجود في الجملة ولو كان قديمًا لكان الإتيان بمثل القديم محالاً في نفس الأمر، فوجب أن لا يصح التحدي. **والجواب**: أن القرآن اسم يقال بالاشتراك على الصفة القديمة القائمة بذات الله تعالى، وعلى هذه الحروف والأصوات، ولا نزاع في أن الكلمات المركبة من هذه الحروف والأصوات محدثة مخلوقة، والتحدي إنما وقع بها لا بالصفة القديمة.

أما قوله: ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فالمراد منه: تعليم أنه كيف يمكن

الإتيان بهذه المعارضة لو كانوا قادرين عليها، وتقريره أن الجماعة إذا تعاونت وتعاضدت صارت تلك العقول الكثيرة كالعقل الواحد، فإذا توجهوا نحو شيء واحد، قدر مجموعهم على ما يعجز كل واحد منهم، فكأنه تعالى يقول: هب أن عقل الواحد والاثنين منكم لا يفي باستخراج معارضة القرآن فاجتمعوا وليعن بعضكم بعضًا في هذه المعارضة، فإذا عرفتم عجزكم حالة الاجتماع وحالة الانفراد عن هذه المعارضة، فحينئذ يظهر أن تعذر هذه المعارضة إنما كان لأن قدرة البشر غير وافية بها، فحينئذ يظهر أن ذلك فعل الله لا فعل البشر.

واعلم أنه قد ظهر بهذا الذي قررناه أن مراتب تحدي رسول الله ﷺ بالقرآن ستة: فأولها: أنه تحداهم بكل القرآن كما قال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ [الإسراء: ٨٨] وثانيها: أنه عليه السلام تحداهم بعشر سور قال تعالى: ﴿فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ [هود: ١٣] وثالثها: أنه تحداهم بسورة واحدة كما قال: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] ورابعها: أنه تحداهم بحديث مثله فقال: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ﴾ [الطور: ٣٤] وخامسها: أن في تلك المراتب الأربعة، كان يطلب منهم أن يأتي بالمعارضة رجل يساوي رسول الله ﷺ في عدم التتلمذ والتعلم، ثم في سورة يونس طلب منهم معارضة سورة واحدة من أي إنسان سواء تعلم العلوم أو لم يتعلمها. وسادسها: أن في المراتب المتقدمة تحدى كل واحد من الخلق، وفي هذه المرتبة تحدى جميعهم، وجوز أن يستعين البعض بالبعض في الإتيان بهذه المعارضة، كما قال: ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ وههنا آخر المراتب، فهذا مجموع الدلائل التي ذكرها الله تعالى في إثبات أن القرآن معجز، ثم إنه تعالى ذكر السبب الذي لأجله كذبوا القرآن فقال: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥ﴾ واعلم أن هذا الكلام يحتمل وجوهًا:

الوجه الأول: أنهم كلما سمعوا شيئًا من القصص قالوا: ليس في هذا الكتاب إلا أساطير الأولين ولم يعرفوا أن المقصود منها ليس هو نفس الحكاية بل أمور أخرى مغايرة لها: فأولها: بيان قدرة الله تعالى على التصرف في هذا العالم، ونقل أهله من العز إلى الذل ومن الذل إلى العز وذلك يدل على قدرة كاملة. وثانيها: أنها تدل على العبرة من حيث إن الإنسان يعرف بها أن الدنيا لا تبقى، فنهاية كل متحرك سكون، وغاية كل متكون أن لا يكون، فيرفع قلبه عن حب الدنيا وتقوى رغبته في طلب الآخرة، كما قال: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ [يوسف: ١١١] وثالثها: أنه ﷺ لما ذكر قصص الأولين من غير تحريف ولا تغيير مع أنه لم يتعلم ولم يتلمذ، دل ذلك على أنه بوحي من الله تعالى، كما قال في سورة الشعراء بعد أن ذكر القصص ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤]

والوجه الثاني: أنهم كلما سمعوا حروف التهجي في أوائل السور ولم يفهموا منها شيئًا ساء

ظنهم بالقرآن. وقد أجاب الله تعالى عنه بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧].

والوجه الثالث: أنهم رأوا أن القرآن يظهر شيئًا فشيئًا، فصار ذلك سببًا للطعن الرديء فقالوا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة فأجاب الله تعالى عنه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢] وقد شرحنا هذا الجواب في سورة الفرقان.

والوجه الرابع: أن القرآن مملوء من إثبات الحشر والنشر، والقوم كانوا قد ألفوا المحسوسات فاستبعدوا حصول الحياة بعد الموت، ولم يتقرر ذلك في قلوبهم، فظنوا أن محمدًا عليه السلام إنما يذكر ذلك على سبيل الكذب، والله تعالى بيَّن صحة القول بالمعاد بالدلائل القاهرة الكثيرة.

الوجه الخامس: أن القرآن مملوء من الأمر بالصلاة والزكاة وسائر العبادات، والقوم كانوا يقولون: إله العالمين غني عنا وعن طاعتنا، وإنه تعالى أجل من أن يأمر بشيء لا فائدة فيه، فأجاب الله تعالى عنه بقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥] وبقوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧] وبالجملة فشبهات الكفار كثيرة، فهم لما رأوا القرآن مشتملاً على أمور ما عرفوا حقيقتها ولم يطلعوا على وجه الحكمة فيها لا جرم كذبوا بالقرآن، والحاصل أن القوم ما كانوا يعرفون أسرار الإلهيات، وكانوا يجرون الأمور على الأحوال المألوفة في عالم المحسوسات وما كانوا يطلبون حكمها ولا وجوه تأويلاتها، فلا جرم وقعوا في التكذيب والجهل، فقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ إشارة إلى عدم علمهم بهذه الأشياء، وقوله: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ إشارة إلى عدم جدهم واجتهادهم في طلب تلك الأسرار.

ثم قال: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ والمراد أنهم طلبوا الدنيا وتركوا الآخرة، فلما ماتوا فاتتهم الدنيا والآخرة فبقوا في الخسار العظيم، ومن الناس من قال المراد منه عذاب الاستئصال وهو الذي نزل بالأمم الذين كذبوا الرسل من ضروب العذاب في الدنيا، قال أهل التحقيق قوله: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ يدل على أن من كان غير عارف بالتأويلات وقع في الكفر والبدعة، لأن ظواهر النصوص قد يوجد فيها ما تكون متعارضة، فإذا لم يعرف الإنسان وجه التأويل فيها وقع في قلبه أن هذا الكتاب ليس بحق، أما إذا عرف وجه التأويل طبق التنزيل على التأويل فيصير ذلك نورًا على نور يهدي الله لنوره من يشاء.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر في الآية المتقدمة قوله: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وكان

المراد منه تسليط العذاب عليهم في الدنيا، أتبعه بقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦۚ﴾ منبهًا على أن الصلاح عنده تعالى كان في هذه الطائفة التبقية دون الاستئصال، من حيث كان المعلوم أن منهم من يؤمن به، والأقرب أن يكون الضمير في قوله: ﴿بِهِۦ﴾ راجعًا إلى القرآن، لأنه هو المذكور من قبل، ثم يعلم أنه متى حصل الإيمان بالقرآن، فقد حصل معه الإيمان بالرسول عليه الصلاة والسلام أيضًا. واختلفوا في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦۚ﴾ لأن كلمة يؤمن فعل مستقبل وهو يصلح للحال والاستقبال، فمنهم من حمله على الحال، وقال: المراد أن منهم من يؤمن بالقرآن باطنًا، لكنه يتعمد الجحد وإظهار التكذيب، ومنهم من باطنه كظاهره في التكذيب، ويدخل فيه أصحاب الشبهات، وأصحاب التقليد، ومنهم من قال: المراد هو المستقبل، يعني أن منهم من يؤمن به في المستقبل بأن يتوب عن الفكر ويبدله بالإيمان ومنهم من يصر ويستمر على الكفر.

ثم قال: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي هو العالم بأحوالهم في أنه هل يبقى مصرًا على الكفر أو يرجع عنه.

ثم قال: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ﴾ قيل فقل: لي عملي الطاعة والإيمان، ولكم عملكم الشرك، وقيل: لي جزاء عملي ولكم جزاء عملكم.

ثم قال: ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ قيل معنى الآية الزجر والردع، وقيل بل معناه استمالة قلوبهم. قال مقاتل والكلبي: هذه الآية منسوخة بآية السيف وهذا بعيد، لأن شرط الناسخ أن يكون رافعًا لحكم المنسوخ، ومدلول هذه الآية اختصاص كل واحد بأفعاله وبثمرات أفعاله من الثواب والعقاب، وذلك لا يقتضي حرمة القتال، فآية القتال ما رفعت شيئًا من مدلولات هذه الآية فكان القول بالنسخ باطلاً.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى في الآية الأولى، قسم الكفار إلى قسمين منهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به، وفي هذه الآية قَسَّم من لا يؤمن به قسمين: منهم من يكون في غاية البغض له والعداوة له ونهاية النفرة عن قبول دينه، ومنهم من لا يكون كذلك، فوصف القسم الأول في هذه الآية فقال: ومنهم من يستمع كلامك مع أنه يكون كالأصم من حيث إنه لا ينتفع ألبتة بذلك الكلام، فإن الإنسان إذا قوي بغضه لإنسان آخر، وعظمت نفرته عنه، صارت نفسه

متوجهة إلى طلب مقابح كلامه معرضة عن جميع جهات محاسن كلامه، فالصمم في الأذن، معنى ينافي حصول إدراك الصوت فكذلك حصول هذا البغض الشديد كالمنافي للوقوف على محاسن ذلك الكلام والعمى في العين معنى ينافي حصول إدراك الصورة، فكذلك البغض ينافي وقوف الإنسان على محاسن من يعاديه والوقوف على ما آتاه الله تعالى من الفضائل، فبيَّن تعالى أن في أولئك الكفار من بلغت حالته في البغض والعداوة إلى هذا الحد، ثم كما أنه لا يمكن جعل الأصم سميعًا ولا جعل الأعمى بصيرًا، فكذلك لا يمكن جعل العدو البالغ في العداوة إلى هذا الحد صديقًا تابعًا للرسول ﷺ والمقصود من هذا الكلام تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام بأن هذه الطائفة، قد بلغوا في مرض العقل إلى حيث لا يقبلون العلاج، والطبيب إذا رأى مريضًا لا يقبل العلاج أعرض عنه، ولم يستوحش من عدم قبوله للعلاج، فكذلك وجب عليك أن لا تستوحش من حال هؤلاء الكفار.

المسألة الثانية: احتج ابن قتيبة بهذه الآية، على أن السمع أفضل من البصر فقال: إن الله تعالى قرن بذهاب السمع ذهاب العقل، ولم يقرن بذهاب النظر إلا ذهاب البصر، فوجب أن يكون السمع أفضل من البصر. وزيف ابن الأنباري هذا الدليل فقال: إن الذي نفاه الله مع السمع بمنزلة الذي نفاه الله مع البصر لأنه تعالى أراد إبصار القلوب، ولم يرد إبصار العيون والذي يبصره القلب هو الذي يعقله. واحتج ابن قتيبة على هذا المطلوب بحجة أخرى من القرآن، فقال: كلما ذكر الله السمع والبصر، فإنه في الأغلب يقدم السمع على البصر، وذلك يدل على أن السمع أفضل من البصر ومن الناس من ذكر في هذا الباب دلائل أخرى: فأحدها: أن العمى قد وقع في حق الأنبياء عليهم السلام أما الصمم فغير جائز عليهم لأنه يخل بأداء الرسالة، من حيث إنه إذا لم يسمع كلام السائلين تعذر عليه الجواب فيعجز عن تبليغ شرائع الله تعالى.

الحجة الثانية: أن القوة السامعة تدرك المسموع من جميع الجوانب، والقوة الباصرة لا تدرك المرئي إلا من جهة واحدة وهي المقابل.

الحجة الثالثة: أن الإنسان إنما يستفيد العلم بالتعلم من الأستاذ، وذلك لا يمكن إلا بقوة السمع، فاستكمال النفس بالكمالات العلمية لا يحصل إلا بقوة السمع، ولا يتوقف على قوة البصر، فكان السمع أفضل من البصر.

الحجة الرابعة: أنه تعالى قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] والمراد من القلب ههنا العقل، فجعل السمع قرينًا للعقل ويتأكد هذا بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] فجعلوا السمع سببًا للخلاص من عذاب السعير.

الحجة الخامسة: أن المعنى الذي يمتاز به الإنسان من سائر الحيوانات هو النطق والكلام وإنما

ينتفع بذلك القوة السامعة، فمتعلق السمع النطق الذي به حصل شرف الإنسان، ومتعلق البصر إدراك الألوان والأشكال، وذلك أمر مشترك فيه بين الناس وبين سائر الحيوانات، فوجب أن يكون السمع أفضل من البصر.

الحجة السادسة: أن الأنبياء عليهم السلام يراهم الناس ويسمعون كلامهم، فنبوتهم ما حصلت بسبب ما معهم من الصفات المرئية، وإنما حصلت بسبب ما معهم من الأصوات المسموعة وهو الكلام وتبليغ الشرائع وبيان الأحكام، فوجب أن يكون المسموع أفضل من المرئي، فلزم أن يكون السمع أفضل من البصر، فهذا جملة ما تمسك به القائلون بأن السمع أفضل من البصر، ومن الناس من قال: البصر أفضل من السمع، ويدل عليه وجوه:

الحجة الأولى: أنهم قالوا في المثل المشهور ليس وراء العيان بيان، وذلك يدل على أن أكمل وجوه الإدراكات هو الإبصار.

الحجة الثانية: أن آلة القوة الباصرة هو النور وآلة القوة السامعة هي الهواء والنور أشرف من الهواء فالقوة الباصرة أشرف من القوة السامعة.

الحجة الثالثة: أن عجائب حكمة الله تعالى في تخليق العين التي هي محل الإبصار أكثر من عجائب خلقته في الأذن التي هي محل السماع، فإنه تعالى جعل تمام روح واحد من الأرواح السبعة الدماغية من العصب آلة للإبصار، وركب العين من سبع طبقات وثلاث رطوبات وخلق لتحريكات العين عضلات كثيرة على صور مختلفة، والأذن ليس كذلك وكثرة العناية في تخليق الشيء تدل على كونه أفضل من غيره.

الحجة الرابعة: أن البصر يرى ماحصل فوق سبع سموات والسمع لا يدرك ما بعد منه على فرسخ، فكان البصر أقوى وأفضل، وبهذا البيان يدفع قولهم: إن السمع يدرك من كل الجوانب والبصر لا يدرك إلا من الجانب الواحد.

الحجة الخامسة: أن كثيرًا من الأنبياء سمع كلام الله في الدنيا، واختلفوا في أنه هل رآه أحد في الدنيا أم لا؟ وأيضًا فإن موسى عليه السلام سمع كلامه من غير سبق سؤال والتماس ولما سأل الرؤية قال: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] وذلك يدل على أن حال الرؤية أعلى من حال السماع.

الحجة السادسة: قال ابن الأنباري: كيف يكون السمع أفضل من البصر، وبالبصر يحصل جمال الوجه، وبذهابه عيبه، وذهاب السمع لا يورث الإنسان عيبًا، العرب تسمي العينين الكريمتين ولا تصف السمع بمثل هذا؟ ومنه الحديث يقول الله تعالى: «**مَنْ أَذْهَبْتُ كَرِيمَتَهُ فَصَبَرَ وَاحْتَسَبَ لَمْ أَرْضَ لَهُ ثَوَابًا دُونَ الْجَنَّةِ**». **المسألة الثالثة:** احتج أصحابنا بهذه الآية، على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى، قالوا: الآية دالة على أن قلوب أولئك الكفار بالنسبة إلى الإيمان كالأصم بالنسبة إلى استماع الكلام، وكالأعمى بالنسبة إلى إبصار الأشياء، وكما أن هذا ممتنع فكذلك ما نحن فيه. قالوا: والذي يقوي ذلك أن حصول العداوة القوية الشديدة، وكذلك

حصول المحبة الشديدة في القلب ليس باختيار الإنسان، لأن عند حصول هذه العداوة الشديدة يجد وجدانًا ضروريًا أن القلب يصير كالأصم والأعمى في استماع كلام العدو وفي مطالعة أفعاله الحسنة، وإذا كان الأمر كذلك فقد حصل المطلوب، وأيضًا لما حكم الله تعالى عليها حكمًا جازمًا بعدم الإيمان، فحينئذ يلزم من حصول الإيمان انقلاب علمه جهلاً وخبره الصدق كذبًا وذلك محال. وأما المعتزلة: فقد احتجوا على صحة قولهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وجه الاستدلال به، أنه يدل على أنه تعالى ما ألجأ أحدًا إلى هذه القبائح والمنكرات، ولكنهم باختيار أنفسهم يُقْدِمون عليها ويباشرونها.

أجاب الواحدي عنه فقال: إنه تعالى إنما نفى الظلم عن نفسه، لأنه يتصرف في ملك نفسه، ومن كان كذلك لم يكن ظالمًا، وإنما قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ لأن الفعل منسوب إليهم بسبب الكسب.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما وصف هؤلاء الكفار بقلة الإصغاء وترك التدبر أتبعه بالوعيد فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حفص عن عاصم ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ بالياء والباقون بالنون.

المسألة الثانية: قوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ في موضع الحال، أي مشابهين من لم يلبث إلا ساعة من النهار. وقوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾ يجوز أن يكون متعلقًا بيوم نحشرهم، ويجوز أن يكون حالاً بعد حال.

المسألة الثالثة: ﴿كَأَن﴾ هذه هي المخففة من الثقيلة. التقدير: كأنهم لم يلبثوا، فخففت كقوله: وكأن قد.

المسألة الرابعة: قيل: كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار وقيل في قبورهم، والقرآن وارد بهذين الوجهين قال تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾[المؤمنون: ١١٢-١١٣] قال القاضي: والوجه الأول أولى لوجهين:

أحدهما: أن حال المؤمنين كحال الكافرين في أنهم لا يعرفون مقدار لبثهم بعد الموت إلى وقت الحشر، فيجب أن يحمل ذلك على أمر يختص بالكفار، وهو أنهم لما لم ينتفعوا بعمرهم استقلوه، والمؤمن لما انتفع بعمره فإنه لا يستقله.

الثاني: أنه قال: ﴿ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ لأن التعارف إنما يضاف إلى حال الحياة لا إلى حال الممات.

المسألة الخامسة: ذكروا في سبب هذا الاستقلال وجوهًا:

الأول: قال أبو مسلم: لما ضيعوا أعمارهم في طلب الدنيا والحرص على لذاتها لم ينتفعوا بعمرهم ألبتة، فكان وجود ذلك العمر كالعدم، فلهذا السبب استقلوه، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ [البقرة: ٩٦].

الثاني: قال الأصم: قل ذلك عندهم لما شاهدوا من أهوال الآخرة، والإنسان إذا عظم خوفه نسي الأمور الظاهرة.

الثالث: أنه قل عندهم مقامهم في الدنيا في جنب مقامهم في الآخرة وفي العذاب المؤبد.

الرابع: أنه قل عندهم مقامهم في الدنيا لطول وقوفهم في الحشر.

الخامس: المراد أنهم عند خروجهم من القبور يتعارفون كما كانوا يتعارفون في الدنيا، وكأنهم لم يتعارفوا بسبب الموت إلا مدة قليلة لا تؤثر في ذلك التعارف. وأقول: تحقيق الكلام في هذا الباب، أن عذاب الكافر مضرة خالصة دائمة مقرونة بالإهانة والإذلال، والإحساس بالمضرة أقوى من الإحساس باللذة بدليل أن أقوى اللذات هي لذات الوقاع، والشعور بأم القولنج وغيره والعياذ بالله تعالى أقوى من الشعور بلذة الوقاع. وأيضًا لذات الدنيا مع خساستها ما كانت خالصة، بل كانت مخلوطة بالهمومات الكثيرة، وكانت تلك اللذات مغلوبة بالمؤلمات والآفات، وأيضًا إن لذات الدنيا ما حَصّلَتْ إلا بعضَ أوقاتِ الحياة الدنيوية، وآلام الآخرة أبدية سرمدية لا تنقطع ألبتة ونسبة عمر جميع الدنيا إلى الآخرة الأبدية أقل من الجزء الذي لا يتجزأ بالنسبة إلى ألف ألف عالم مثل العالم الموجود.

إذا عرفت هذا فنقول: أنه متى قوبلت الخيرات الحاصلة بسبب الحياة العاجلة بالآفات الحاصلة للكافر وجدت أقل من اللذة بالنسبة إلى جميع العالم فقوله: ﴿ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ ﴾ إشارة إلى ما ذكرناه من قلتها وحقارتها في جنب ما حصل من العذاب الشديد.

أما قوله: ﴿ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾

ففيه وجوه:

الأول: يعرف بعضهم بعضًا كما كانوا يعرفون في الدنيا.

الثاني: يعرف بعضهم بعضًا بما كانوا عليه من الخطأ والكفر، ثم تنقطع المعرفة إذا عاينوا العذاب وتبرأ بعضهم من بعض.

فإن قيل: كيف توافق هذه الآية قوله: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠] والجواب عنه من وجهين:

الوجه الأول: أن المراد من هذه الآية أنهم يتعارفون بينهم يوبخ بعضهم بعضًا، فيقول: كل

فريق للآخر: أنت أضللتني يوم كذا وزينت لي الفعل الفلاني من القبائح، فهذا تعارف تقبيح وتعنيف وتباعد وتقاطع لا تعارف عطف وشفقة. وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠] فالمراد سؤال الرحمة والعطف.

والوجه الثاني: في الجواب حمل هاتين الآيتين على حالتين، وهو أنهم يتعارفون إذا بعثوا ثم تنقطع المعرفة فلذلك لا يسأل حميم حميمًا.

أما قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾.

ففيه وجهان:

الأول: أن يكون التقدير: ويوم يحشرهم حال كونهم متعارفين، وحال كونهم قائلين ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾.

الثاني: أن يكون ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ كلام الله، فيكون هذا شهادة من الله عليهم بالخسران، والمعنى: أن من باع آخرته بالدنيا فقد خسر، لأنه أعطى الكثير الشريف الباقي وأخذ القليل الخسيس الفاني.

وأما قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ فالمراد أنهم ما اهتدوا إلى رعاية مصالح هذه التجارة، وذلك لأنهم اغتروا بالظاهر وغفلوا عن الحقيقة، فصاروا كمن رأى زجاجة حسنة فظنها جوهرة شريفة فاشتراها بكل ما ملكه، فإذا عرضها على الناقدين خاب سعيه وفات أمله ووقع في حرقة الروع وعذاب القلب. وأما قوله: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ فاعلم أن قوله ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ جواب ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ وجواب ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ محذوف، والتقدير: وإما نرينك بعض الذي نعدهم في الدنيا فذاك أو نتوفينك قبل أن نرينك ذلك الموعد فإنك ستراه في الآخرة.

واعلم أن هذا يدل على أنه تعالى يُري رسوله أنواعًا من ذل الكافرين وخزيهم في الدنيا، وسيزيد عليه بعد وفاته، ولا شك أنه حصل الكثير منه في زمان حياة رسول الله ﷺ، وحصل الكثير أيضًا بعد وفاته، والذي سيحصل يوم القيامة أكثر، وهو تنبيه على أن عاقبة المحقين محمودة وعاقبة المذنبين مذمومة.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن حال محمد ﷺ مع قومه، بين أن حال كل الأنبياء مع أقوامهم كذلك.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: هذه الآية تدل على أن كل جماعة ممن تقدم قد بعث الله إليهم رسولاً والله تعالى ما أهمل أمة من الأمم قط، ويتأكد هذا بقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

فإن قيل: كيف يصح هذا مع ما يعلمه من أحوال الفترة ومع قوله سبحانه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ [يس: ٦].

قلنا: الدليل الذي ذكرناه لا يوجب أن يكون الرسول حاضرًا مع القوم، لأن تقدم الرسول لا يمنع من كونه رسولاً إليهم، كما لا يمنع تقدم رسولنا من كونه مبعوثًا إلينا إلى آخر الأبد. وتحمل الفترة على ضعف دعوة الأنبياء ووقوع موجبات التخليط فيها.

المسألة الثانية: في الكلام إضمار، والتقدير: فإذا جاء رسولهم وبلَّغ فكذبه قوم وصدقه آخرون قضى بينهم أي حكم وفصل.

المسألة الثالثة: المراد من الآية أحد أمرين: إما بيان أن الرسول إذا بعث إلى كل أمة فإنه بالتبليغ وإقامة الحجة يزيح كل علة فلا يبقى لهم عذر في مخالفته أو تكذيبه، فيدل ذلك على أن ما يجري عليهم من العذاب في الآخرة يكون عدلاً ولا يكون ظلمًا، لأنهم من قبل أنفسهم وقعوا في ذلك العقاب، أو يكون المراد أن القوم إذا اجتمعوا في الآخرة جمع الله بينهم وبين رسولهم في وقت المحاسبة، وبأن الفصل بين المطيع والعاصي ليشهد عليهم بما شاهد منهم، وليقع منهم الاعتراف بأنه بلَّغ رسالات ربه فيكون ذلك من جملة ما يؤكد الله به الزجر في الدنيا كالمساءلة، وإنطاق الجوارح، والشهادة عليهم بأعمالهم والموازين وغيرها، وتمام التقرير على هذا الوجه الثاني أنه تعالى ذكر في الآية الأولى أن الله شهيد عليهم، فكأنه تعالى يقول: أنا شهيد عليهم وعلى أعمالهم يوم القيامة، ومع ذلك فإني أحضر في موقف القيامة مع كل قوم رسولهم، حتى يشهد عليهم بتلك الأعمال. والمراد منه المبالغة في إظهار العدل.

واعلم أن دليل القول الأول هو قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وقوله: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ [طه: ١٣٤] ودليل القول الثاني قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ إلى قوله: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠] وقوله تعالى: ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فالتكرير لأجل التأكيد والمبالغة في نفي الظلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

اعلم أن هذه الشبهة الخامسة من شبهات منكري النبوة فإنه عليه السلام كلما هددهم بنزول العذاب ومر زمان ولم يظهر ذلك العذاب، قالوا متى هذا الوعد إن كنتم صادقين، واحتجوا بعدم ظهوره على القدح في نبوته عليه السلام.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: أن قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ كالدليل على أن المراد مما تقدم من قوله: ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾[يونس: ٤٧] القضاء بذلك في الدنيا، لأنه لا يجوز أن يقولوا متى هذا الوعد عند حضورهم في الدار الآخرة، لأن الحال في الآخرة حال يقين ومعرفة لحصول كل وعد ووعيد والأظهر أنهم إنما قالوا ذلك على وجه التكذيب للرسول عليه السلام فيما أخبرهم من نزول العذاب للأعداء والنصرة للأولياء أو على وجه الاستبعاد لكونه محقًّا في ذلك الإخبار، ويدل هذا القول على أن كل أمة قالت لرسولها مثل ذلك القول بدليل قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وذلك لفظ جمع وهو موافق لقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾[يونس: ٤٧] ثم إنه تعالى أمره بأن يجيب عن هذه الشبهة بجواب يحسم المادة وهو قوله: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ والمراد أن إنزال العذاب على الأعداء وإظهار النصرة للأولياء لا يقدر عليه أحد إلا الله سبحانه، وأنه تعالى ما عين لذلك الوعد والوعيد وقتًا معينًا حتى يقال: لما لم يحصل ذلك الموعود في ذلك الوقت، دل على حصول الخلف فكان تعيين الوقت مفوضًا إلى الله سبحانه، إما بحسب مشيئته وإلهيته عند من لا يعلل أفعاله وأحكامه برعاية المصالح، وإما بحسب المصلحة المقدرة عند من يعلل أفعاله وأحكامه برعاية المصالح، ثم إذا حضر الوقت الذي وقته الله تعالى لحدوث ذلك الحادث فإنه لا بد وأن يحدث فيه، ويمتنع عليه التقدم والتأخر.

المسألة الثانية: المعتزلة احتجوا بقوله: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فقالوا: هذا الاستثناء يدل على أن العبد لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا إلا الطاعة والمعصية، فهذا الاستثناء يدل على كون العبد مستقلاً بهما.

والجواب: قال أصحابنا: هذا الاستثناء منقطع، والتقدير: ولكن ما شاء الله من ذلك كائن.

المسألة الثالثة: قرأ ابن سيرين (فإذا جاء أجلهم)

المسألة الرابعة: قوله: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ يدل على أن أحدًا لا يموت إلا بانقضاء أجله، وكذلك المقتول لا يقتل إلا على هذا الوجه، وهذه مسألة طويلة وقد ذكرناها في هذا الكتاب في مواضع كثيرة.

المسألة الخامسة: أنه تعالى قال ههنا: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ فقوله: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ شرط وقوله: ﴿فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ جزاء والفاء حرف الجزاء، فوجب إدخاله على الجزاء كما في هذه الآية، وهذه الآية تدل على أن الجزاء يحصل مع حصول الشرط لا متأخرًا عنه وأن حرف الفاء لا يدل على التراخي وإنما يدل على كونه جزاء.

إذا ثبت هذا فنقول: إذا قال الرجل لامرأة أجنبية إن نكحتك فأنت طالق قال الشافعي رضي الله عنه: لا يصح هذا التعليق، وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: يصح، والدليل على أنه لا يصح أن هذه الآية دلت على أن الجزاء إنما يحصل حال حصول الشرط، فلو صح هذا التعليق لوجب أن

يحصل الطلاق مقارنًا للنكاح، لما ثبت أن الجزاء يجب حصوله مع حصول الشرط، وذلك يوجب الجمع بين الضدين، ولما كان هذا اللازم باطلاً وجب أن لا يصح هذا التعليق.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾

اعلم أن هذا هو الجواب الثاني عن قولهم ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[يونس: ٤٨].

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: حاصل الجواب أن يقال لأولئك الكفار الذين يطلبون نزول العذاب بتقدير أن يحصل هذا المطلوب وينزل هذا العذاب ما الفائدة لكم فيه؟ فإن قلتم نؤمن عنده، فذلك باطل، لأن الإيمان في ذلك الوقت إيمان حاصل في وقت الإلجاء والقسر، وذلك لا يفيد نفعًا ألبتة، فثبت أن هذا الذي تطلبونه لو حصل لم يحصل منه إلا العذاب في الدنيا، ثم يحصل عقيبه يوم القيامة عذاب آخر أشد منه، وهو أنه يقال للذين ظلموا: ذوقوا عذاب الخلد، ثم يقرن بذلك العذاب كلام يدل على الإهانة والتحقير وهو أنه تعالى يقول: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ فحاصل هذا الجواب: أن هذا الذي تطلبونه هو محض الضرر العاري عن جهات النفع والعاقل لا يفعل ذلك.

المسألة الثانية: قوله: ﴿بَيَٰتًا﴾ أي ليلاً يقال: بت ليلتي أفعل كذا، والسبب فيه أن الإنسان في الليل يكون ظاهرًا في البيت، فجعل هذا اللفظ كناية عن الليل والبيات مصدر مثل التبييت كالوداع والسراح، ويقال في النهار ظللت أفعل كذا، لأن الإنسان في النهار يكون ظاهرًا في الظل. وانتصب ﴿بَيَٰتًا﴾ على الظرف أي وقت بيات وكلمة ﴿مَاذَآ﴾ فيها وجهان: أحدهما: أن يكون ماذا اسمًا واحدًا ويكون منصوب المحل كما لو قال ماذا أراد الله، ويجوز أن يكون (ذا) بمعنى الذي، فيكون ﴿مَاذَآ﴾ كلمتين، ومحل ﴿مَا﴾ الرفع على الابتداء، وخبره (ذا) وهو بمعنى الذي، فيكون معناه ما الذي يستعجل منه المجرمون ومعناه، أي شيء الذي يستعجل من العذاب المجرمون.

واعلم أن قوله: ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾ شرط.

وجوابه: قوله ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، وهو كقولك: إن أتيتك ماذا تطعمني، يعني: إن حصل هذا المطلوب، فأي مقصود تستعجلونه منه.

وأما قوله: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ فاعلم أن دخول حرف الاستفهام على (ثم) كدخوله على الواو والفاء في قوله: ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾[الأعراف: ٩٨] ﴿أَفَأَمِنَ﴾[الأعراف: ٩٧] وهو يفيد التقريع

والتوبيخ، ثم أخبر تعالى أن ذلك الإيمان غير واقع لهم بل يعيرون ويوبخون، يقال: آلآن تؤمنون وترجون الانتفاع بالإيمان مع أنكم كنتم قبل ذلك به تستعجلون على سبيل السخرية والاستهزاء، وقرئ (آلان) بحذف الهمزة التي بعد اللام وإلقاء حركتها على اللام.

وأما قوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ فهو عطف عى الفعل المضمر قبل ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ﴾ والتقدير: قيل: آلان وقد كنتم به تستعجلون، ثم قيل للذين ظلموا: ذوقوا عذاب الخلد.

وأما قوله تعالى: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

ففيه ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: أنه تعالى أينما ذكر العقاب والعذاب ذكر هذه العلة كأن سائلاً يسأل ويقول: يا رب العزة أنت الغني عن الكل فكيف يليق برحمتك هذا التشديد والوعيد، فهو تعالى يقول: «**أَنَا مَا عَامَلْتُهُ بِهَذِهِ الْمُعَامَلَةِ ابْتِدَاءً بَلْ هَذَا وَصَلَ إِلَيْهِ جَزَاءً عَلَى عَمَلِهِ الْبَاطِلِ**» وذلك يدل على أن جانب الرحمة راجح غالب، وجانب العذاب مرجوح مغلوب.

المسألة الثانية: ظاهر الآية يدل على أن الجزاء يوجب العمل، أما عند الفلاسفة فهو أثر العمل، لأن العمل الصالح يوجب تنوير القلب، وإشراقه إيجاب العلة معلولها، وأما عند المعتزلة فلأن العمل الصالح يوجب استحقاق الثواب على الله تعالى، وأما عند أهل السنة، فلأن ذلك الجزاء واجب بحكم الوعد المحض.

المسألة الثالثة: الآية تدل على كون العبد مكتسبًا خلافًا للجبرية، وعندنا أن كونه مكتسبًا معناه أن مجموع القدرة مع الداعية الخالصة يوجب الفعل والمسألة طويلة معروفة بدلائلها.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥٣ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٥٤﴾

اعلم أنه سبحانه أخبر عن الكفار بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨].

وأجاب عنه بما تقدم فحكى عنهم أنهم رجعوا إلى الرسول مرة أخرى في عين هذه الواقعة وسألوه عن ذلك السؤال مرة أخرى وقالوا: أحق هو واعلم أن هذا السؤال جهل محض من وجوه: أولها: أنه قد تقدم هذا السؤال مع الجواب فلا يكون في الإعادة فائدة. وثانيها: أنه تقدم ذكر الدلالة العقلية على كون محمد رسولاً من عند الله، وهو بيان كون القرآن معجزًا، وإذا صحت نبوته لزم القطع بصحة كل ما يخبر عن وقوعه، فهذه المعاني توجب الإعراض عنهم، وترك الالتفات إلى سؤالهم، واختلفوا في الضمير في قوله: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ قيل: أحق ما جئتنا به من القرآن والنبوة والشرائع. وقيل: ما تعدنا من البعث والقيامة. وقيل: ما تعدنا من نزول

العذاب علينا في الدنيا.

ثم إنه تعالى أمره أن يجيبهم بقوله: ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ .

والفائدة فيه أمور:

أحدها: أن يستميلهم ويتكلم معهم بالكلام المعتاد ومن الظاهر أن من أخبر عن شيء، وأكده بالقسم فقد أخرجه عن الهزل وأدخله في باب الجد.

وثانيها: أن الناس طبقات فمنهم من لا يقر بالشيء إلا بالبرهان الحقيقي، ومنهم من لا ينتفع بالبرهان الحقيقي، بل ينتفع بالأشياء الإقناعية، نحو القسم فإن الأعرابي الذي جاء الرسول عليه السلام، وسأل عن نبوته ورسالته اكتفى في تحقيق تلك الدعوى بالقسم، فكذا ههنا.

ثم إنه تعالى أكد ذلك بقوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ ولا بد فيه من تقدير محذوف، فيكون المراد وما أنتم بمعجزين لمن وعدكم بالعذاب أن ينزله عليكم والغرض منه التنبيه على أن أحدًا لا يجوز أن يمانع ربه ويدافعه عما أراد وقضى، ثم إنه تعالى بيَّن أن هذا الجنس من الكلمات، إنما يجوز عليهم ما داموا في الدنيا فأما إذا حضروا محفل القيامة وعاينوا قهر الله تعالى، وآثار عظمته تركوا ذلك واشتغلوا بأشياء أخرى، ثم إنه تعالى حكى عنهم ثلاثة أشياء: أولها: قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ إلا أن ذلك متعذر لأنه في محفل القيامة لا يملك شيئًا كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥] وبتقدير: أن يملك خزائن الأرض لا ينفعه الفداء لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨] وقال في صفة هذا اليوم ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وثانيها: قوله: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ .

واعلم أن قوله: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ﴾ جاء على لفظ الماضي، والقيامة من الأمور المستقبلة إلا أنها لما كانت واجبة الوقوع، جعل الله مستقبلها كالماضي، واعلم أن الإسرار هو الإخفاء والإظهار وهو من الأضداد، أما ورود هذه اللفظة بمعنى الإخفاء فظاهر وأما ورودها بمعنى الإظهار فهو من قولهم سر الشيء وأسره إذا أظهره.

إذا عرفت هذا فنقول: من الناس من قال: المراد منه إخفاء تلك الندامة، والسبب في هذا الإخفاء وجوه: الأول: أنهم لما رأوا العذاب الشديد صاروا مبهوتين متحيرين، فلم يطيقوا عنده بكاء ولا صراخًا سوى إسرار الندم كالحال فيمن يذهب به ليصلب فإنه يبقى مبهوتًا متحيرًا لا ينطق بكلمة. الثاني: أنهم أسروا الندامة من سفلتهم وأتباعهم حياء منهم وخوفًا من توبيخهم.

فإن قيل: إن مهابة ذلك الموقف تمنع الإنسان عن هذا التدبير فكيف قدموا عليه.

قلنا: إن هذا الكتمان إنما يحصل قبل الاحتراق بالنار، فإذا احترقوا تركوا هذا الإخفاء وأظهروه بدليل قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ [المؤمنون: ١٠٦] الثالث: أنهم أسروا تلك الندامة لأنهم أخلصوا لله في تلك الندامة، ومن أخلص في الدعاء أسره، وفيه تهكم بهم

وبإخلاصهم يعني أنهم لما أتوا بهذا الإخلاص في غير وقته ولم ينفعهم، بل كان من الواجب عليهم أن يأتوا به في دار الدنيا وقت التكليف، وأما من فسر الإسرار بالإظهار فقوله: ظاهر لأنهم إنما أخفوا الندامة على الكفر والفسق في الدنيا لأجل حفظ الرياسة، وفي القيامة بطل هذا الغرض فوجب الإظهار. وثالثها: قوله تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فقيل: بين المؤمنين والكافرين، وقيل: بين الرؤساء والأتباع، وقيل: بين الكفار بإنزال العقوبة عليهم.

واعلم أن الكفار وإن اشتركوا في العذاب فإنه لا بد وأن يقضي الله تعالى بينهم لأنه لا يمتنع أن يكون قد ظلم بعضهم بعضًا في الدنيا وخانه، فيكون في ذلك القضاء تخفيف من عذاب بعضهم، وتثقيل لعذاب الباقين، لأن العدل يقتضي أن ينتصف للمظلومين من الظالمين، ولا سبيل إليه إلا بأن يخفف من عذاب المظلومين ويثقل في عذاب الظالمين.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٥ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٥٦﴾

اعلم أن من الناس من قال: إن تعلق هذه الآية بما قبلها هو أنه تعالى قال قبل هذه الآية ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِۦ ۗ﴾ [يونس: ٥٤] فلا جرم قال في هذه الآية ليس للظالم شيء يفتدى به، فإن كل الأشياء مُلْك الله تعالى وملكه، واعلم أن هذا التوجيه حسن، أما الأحسن أن يقال: إنا قد ذكرنا أن الناس على طبقات، فمنهم من يكون انتفاعه بالإقناعيات أكثر من انتفاعه بالبرهانيات، أما المحققون فإنهم لا يلتفتون إلى الإقناعيات، وإنما تعويلهم على الدلائل البينة والبراهين القاطعة، فلما حكى الله تعالى عن الكفار أنهم قالوا ﴿أَحَقٌّ هُوَ ۖ﴾؟ أمر الرسول عليه السلام بأن يقول: ﴿إِى وَرَبِّىٓ﴾ [يونس: ٥٣] وهذا جار مجرى الإقناعيات، فلما ذكر ذلك أتبعه بما هو البرهان القاطع على صحته وتقريره أن القول بالنبوة والقول بصحة المعاد يتفرعان على إثبات الإله القادر الحكيم وأن كل ما سواه فهو مُلْكه ومِلْكه، فعبر عن هذا المعنى بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۗ﴾ ولم يذكر الدليل على صحة هذه القضية، لأنه تعالى قد استقصى في تقرير هذه الدلائل فيما سبق من هذه السورة، وهو قوله: ﴿إِنَّ فِى اخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦] وقوله: ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَآءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ [يونس: ٥] فلما تقدم ذكر هذه الدلائل القاهرة اكتفى بذكرها، وذكر أن كل ما في العالم من نبات وحيوان وجسد وروح وظلمة ونور فهو مُلْكه ومِلْكه، ومتى كان الأمر كذلك، كان قادرًا على كل الممكنات، عالمًا بكل المعلومات غنيًا عن جميع الحاجات، منزهًا عن النقائص والآفات، فهو تعالى لكونه قادرًا على جميع الممكنات يكون قادرًا على إنزال العذاب على الأعداء في الدنيا وفي الآخرة ويكون قادرًا على إيصال الرحمة إلى الأولياء في الدنيا وفي الآخرة ويكون قادرًا على تأييد رسوله عليه السلام بالدلائل القاطعة والمعجزات الباهرة ويكون قادرًا على إعلاء شأن

رسوله وإظهار دينه وتقوية شرعه، ولما كان قادرًا على كل ذلك فقد بطل الاستهزاء والتعجب ولما كان منزهًا عن النقائص والآفات، كان منزهًا عن الخلف والكذب وكل ما وعد به فلا بد وأن يقع، هذا إذا قلنا: إنه تعالى لا يراعي مصالح العباد، أما إذا قلنا: إنه تعالى يراعيها فنقول: الكذب إنما يصدر عن العاقل، إما للعجز أو للجهل أو للحاجة، ولما كان الحق سبحانه منزهًا عن الكل كان الكذب عليه محالاً، فلما أخبر عن نزول العذاب بهؤلاء الكفار، وبحصول الحشر والنشر وجب القطع بوقوعه، فثبت بهذا البيان أن قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مقدمة توجب الجزم بصحة قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ ثم قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ والمراد أنهم غافلون عن هذه الدلائل، مغرورون بظواهر الأمور، فلا جرم بقوا محرومين عن هذه المعارف، ثم إنه أكد هذه الدلائل فقال: ﴿هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ والمراد أنه لما قدر على الإحياء في المرة الأولى فإذا أماته وجب أن يبقى قادرًا على إحيائه في المرة الثانية، فظهر بما ذكرنا أنه تعالى أمر رسوله بأن يقول: ﴿إِى وَرَبِّىٓ﴾ [يونس: ٥٣] ثم إنه تعالى أتبع ذلك الكلام بذكر هذه الدلائل القاهرة.

واعلم أن في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ دقيقة أخرى وهي كلمة ﴿أَلَآ﴾ وذلك لأن هذه الكلمة إنما تذكر عند تنبيه الغافلين وإيقاظ النائمين وأهل هذا العالم مشغولون بالنظر إلى الأسباب الظاهرة فيقولون: البستان للأمير والدار للوزير والغلام لزيد والجارية لعمرو فيضيفون كل شيء إلى مالك آخر والخلق لكونهم مستغرقين في نوم الجهل ورقدة الغفلة يظنون صحة تلك الإضافات فالحق نادى هؤلاء النائمين الغافلين بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وذلك لأنه لما ثبت بالعقل أن ما سوى الواحد الأحد الحق ممكن لذاته، وثبت أن الممكن مستند إلى الواجب لذاته إما ابتداء أو بواسطة، فثبت أن ما سواه مِلْكه ومُلْكه، وإذا كان كذلك، فليس لغيره في الحقيقة ملك، فلما كان أكثر الخلق غافلين عن معرفة هذا المعنى غير عالمين به، لا جرم أمر الله رسوله عليه الصلاة والسلام أن يذكر هذا النداء، لعل واحدًا منهم يستيقظ من نوم الجهالة ورقدة الضلالة.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن الطريق إلى إثبات نبوة الأنبياء عليهم السلام أمران: الأول: أن نقول: إن هذا الشخص قد ادعى النبوة وظهرت المعجزة على يده وكل من كان كذلك، فهو

رسول من عند الله حقًّا وصدقًا، وهذا الطريق مما قد ذكره الله تعالى في هذه السورة وقرره على أحسن الوجوه في قوله: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٣٧، ٣٨] وقد ذكرنا في تفسير هذه الآية ما يقوي الدين ويورث اليقين ويزيل الشكوك والشبهات ويبطل الجهالات والضلالات.

وأما الطريق الثاني فهو أن نعلم بعقولنا أن الاعتقاد الحق والعمل الصالح ما هو؟ فكل من جاء ودعا الخلق إليهم وحملهم عليه وكانت لنفسه قوة قوية في نقل الناس من الكفر إلى الإيمان، ومن الاعتقاد الباطل إلى الاعتقاد الحق، ومن الأعمال الداعية إلى الدنيا إلى الأعمال الداعية إلى الآخرة فهو النبي الحق الصادق المصدق، وتقريره: أن نفوس الخلق قد استولى عليها أنواع النقص والجهل وحب الدنيا، ونحن نعلم بعقولنا أن سعادة الإنسان لا تحصل إلا بالاعتقاد الحق والعمل الصالح، وحاصله يرجع إلى حرف واحد وهو أن كل ما قوّى نفرتك عن الدنيا ورغبتك في الآخرة فهو العمل الصالح وكل ما كان بالضد من ذلك فهو العمل الباطل والمعصية، وإذا كان الأمر كذلك كانوا محتاجين إلى إنسان كامل، قوي النفس، مشرق الروح، علوي الطبيعة، ويكون بحيث يقوى على نقل هؤلاء الناقصين من مقام النقصان إلى مقام الكمال، وذلك هو النبي. فالحاصل أن الناس أقسام ثلاثة: الناقصون والكاملون الذين لا يقدرون على تكميل الناقصين، والقسم الثالث هو الكامل الذي يقدر على تكميل الناقصين، فالقسم الأول هو عامة الخلق، والقسم الثاني هم الأولياء، والقسم الثالث هم الأنبياء، ولما كانت القدرة على نقل الناقصين من درجة النقصان إلى درجة الكمال مراتبها مختلفة ودرجاتها متفاوتة، لا جرم كانت درجات الأنبياء في قوة النبوة مختلفة. ولهذا السر: قال النبي ﷺ: «**عُلَمَاءُ أُمَّتِي كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ**»(١).

إذا عرفت هذه المقدمة فنقول: إنه تعالى لما بيَّن صحة نبوة محمد ﷺ بطريق المعجزة، ففي هذه الآية بيَّن صحة نبوته بالطريق الثاني، وهذا الطريق طريق كاشف عن حقيقة النبوة معرف لماهيتها، فالاستدلال بالمعجز هو الذي يسميه المنطقيون برهان الإن، وهذا الطريق هو الطريق

(١) أورده القاري في (المطبوع) (١/ ١٢٣) حديث رقم/ ١٩٦، وقال: لا أصل له، كما قال الدميري والزركشي والعسقلاني. وأورده أيضًا العجلوني في (كشف الخفا) (٢/ ٨٣) حديث رقم/ ١٧٤٤، وقال: قال السيوطي في الدرر: لا أصل له، وقال في المقاصد شيخنا يعني ابن حجر لا أصل له وقبله الدميري والزركشي وزاد بعضهم ولا يعرف في كتاب معتبر وقد مضى في أكرموا حملة القرآن كاد حملة القرآن أن يكونوا أنبياء إلا أنهم لا يوحى إليهم ولأبي نعيم بسند ضعيف عن ابن عباس رفعه أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد انتهى وأنكره أيضا الشيخ إبراهيم الناجي وألف في ذلك جزءا وقال النجم وممن نقله جازما بأنه حديث تزوجها الفخر الرازي وموفق الدين بن قدامة والإسنوي والبارزي واليافعي وأشار إلى التفتازاني وفتح الدين الشهيد وأبو بكر الموصلي والسيوطي في الخصائص وله شواهد ذكرتها في حسن التنبيه لما ورد في التشبيه انتهى وقد يؤيده أنه الواقع أ. هـ بتمامه.

الذي يسمونه برهان اللم، وهو أشرف وأعلى وأكمل وأفضل.

المسألة الثانية: اعلم أنه تعالى وصف القرآن في هذه الآية بصفات أربعة: أولها: كونه موعظة من عند الله. وثانيها: كونه شفاء لما في الصدور. وثالثها: كونه هدى. ورابعها: كونه رحمة للمؤمنين. ولا بد لكل واحد من هذه الصفات من فائدة مخصوصة فنقول: إن الأرواح لما تعلقت بالأجساد كان ذلك التعلق بسبب عشق طبيعي وجب للروح على الجسد، ثم إن جوهر الروح التذ بمشتهيات هذا العالم الجسداني وطيباته بواسطة الحواس الخمس وتمرن على ذلك وألف هذه الطريقة واعتادها. ومن المعلوم أن نور العقل إنما يحصل في آخر الدرجة، حيث قويت العلائق الحسية والحوادث الجسدانية، فصار ذلك الاستغراق سببًا لحصول العقائد الباطلة والأخلاق الذميمة في جوهر الروح، وهذه الأحوال تجري مجرى الأمراض الشديدة لجوهر الروح، فلا بد لها من طبيب حاذق، فإن من وقع في المرض الشديد، فإن لم يتفق له طبيب حاذق يعالجه بالعلاجات الصائبة مات لا محالة، وإن اتفق أن صادفه مثل هذا الطبيب، وكان هذا البدن قابلاً للعلاجات الصائبة فربما حصلت الصحة وزال السقم.

إذا عرفت هذا فنقول: إن محمدًا ﷺ كان كالطبيب الحاذق، وهذا القرآن عبارة عن مجموع أدويته التي بتركيبها تعالج القلوب المريضة. ثم إن الطبيب إذا وصل إلى المريض فله معه مراتب أربعة:

المرتبة الأولى: أن ينهاه عن تناول ما لا ينبغي ويأمره بالاحتراز عن تلك الأشياء التي بسببها وقع في ذلك المرض، وهذا هو الموعظة فإنه لا معنى للوعظ إلا الزجر عن كل ما يبعد عن رضوان الله تعالى، والمنع عن كل ما يشغل القلب بغير الله.

المرتبة الثانية: الشفاء وهو أن يسقيه أدوية تزيل عن باطنه تلك الأخلاط الفاسدة الموجبة للمرض، فكذلك الأنبياء عليهم السلام إذا منعوا الخلق عن فعل المحظورات صارت ظواهرهم مطهرة عن فعل ما لا ينبغي فحينئذ يأمرونهم بطهارة الباطن وذلك بالمجاهدة في إزالة الأخلاق الذميمة وتحصيل الأخلاق الحميدة، وأوائلها ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: ٩٠] وذلك لأنا ذكرنا أن العقائد الفاسدة والأخلاق الذميمة جارية مجرى الأمراض، فإذا زالت فقد حصل الشفاء للقلب وصار جوهر الروح مطهرًا عن جميع النقوش المانعة عن مطالعة عالم الملكوت.

والمرتبة الثالثة: حصول الهدى، وهذه المرتبة لا يمكن حصولها إلا بعد المرتبة الثانية، لأن جوهر الروح الناطقة قابل للجلايا القدسية والأضواء الإلهية وفيض الرحمة عام غير منقطع على ما قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهرِكُمْ نَفَحَاتٍ أَلاَ فَتَعَرَّضُوا لَهَا» وأيضًا فالمنع إنما يكون إما للعجز أو للجهل أو للبخل، والكل في حق الحق ممتنع، فالمنع في حقه ممتنع، فعلى هذا عدم حصول هذه الأضواء الروحانية، إنما كان لأجل أن العقائد الفاسدة والأخلاق الذميمة

طبعها طبع الظلمة، وعند قيام الظلمة يمتنع حصول النور، فإذا زالت تلك الأحوال، فقد زال العائق فلا بد وأن يقع ضوء عالم القدس في جوهر النفس القدسية، ولا معنى لذلك الضوء إلا الهدى، فعند هذه الحالة تصير هذه النفس بحيث قد انطبع فيها نقش الملكوت وتجلى لها قدس اللاهوت، وأول هذه المرتبة هو قوله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨] وأوسطها قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [الذاريات: ٥٠] وآخرها قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] ومجموعها قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾.[هود: ١٢٣] وسيجيء تفسير هذه الآيات في مواضعها بإذن الله تعالى، وهذه المرتبة هي المراد بقوله سبحانه ﴿وَهُدٗى﴾ .

وأما المرتبة الرابعة: فهي أن تصير النفس البالغة إلى هذه الدرجات الروحانية والمعارج الربانية بحيث تفيض أنوارها على أرواح الناقصين فيض النور من جوهر الشمس على أجرام هذا العالم، وذلك هو المراد بقوله ﴿وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وإنما خص المؤمنين بهذا المعنى، لأن أرواح المعاندين لا تستضيء بأنوار أرواح الأنبياء عليهم السلام، لأن الجسم القابل للنور عن قرص الشمس هو الذي يكون وجهه مقابلاً لوجه الشمس، فإن لم تحصل هذه المقابلة لم يقع ضوء الشمس عليه، فكذلك كل روح لما لم تتوجه إلى خدمة أرواح الأنبياء المطهرين، لم تنتفع بأنوارهم، ولم يصل إليها آثار تلك الأرواح المطهرة المقدسة، وكما أن الأجسام التي لا تكون مقابلة لقرص الشمس مختلفة الدرجات والمراتب في البعد عن هذه المقابلة ولا تزال تتزايد درجات هذا البعد حتى ينتهي ذلك الجسم إلى غاية بعده عن مقابلة قرص الشمس، فلا جرم يبقى خالص الظلمة، فكذلك تتفاوت مراتب النفوس في قبول هذه الأنوار عن أرواح الأنبياء ولا تزال تتزايد حتى تنتهي إلى النفس التي كملت ظلمتها، وعظمت شقاوتها وانتهت في العقائد الفاسدة، والأخلاق الذميمة إلى أقصى الغايات، وأبعد النهايات، فالحاصل أن الموعظة إشارة إلى تطهير ظواهر الخلق عما لا ينبغي وهو الشريعة، والشفاء إشارة إلى تطهير الأرواح عن العقائد الفاسدة والأخلاق الذميمة وهو الطريقة، والهدى وهو إشارة إلى ظهور نور الحق في قلوب الصديقين وهو الحقيقة، والرحمة وهي إشارة إلى كونها بالغة في الكمال والإشراق إلى حيث تصير مكملة للناقصين وهي النبوة، فهذه درجات عقلية ومراتب برهانية مدلول عليها بهذه الألفاظ القرآنية لا يمكن تأخير ما تقدم ذكره ولا تقديم ما تأخر ذكره، ولما نبَّه الله تعالى في هذه الآية على هذه الأسرار العالية الإلهية قال: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ والمقصود منه الإشارة إلى ما قرره حكماء الإسلام من أن السعادات الروحانية أفضل من السعادات الجسمانية وقد سبق في مواضع كثيرة من هذا الكتاب المبالغة في تقرير هذا المعنى فلا فائدة في الإعادة، انتهى.

المسألة الثانية: قوله: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ وتقديره: بفضل الله وبرحمته

فليفرحوا، ثم يقول مرة أخرى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ والتكرير للتأكيد. وأيضًا قوله: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ يفيد الحصر، يعني يجب أن لا يفرح الإنسان إلا بذلك. واعلم أن هذا الكلام يدل على أمرين: أحدهما: أنه يجب أن لا يفرح الإنسان بشيء من الأحوال الجسمانية، ويدل عليه وجوه: **الأول:** أن جماعة من المحققين قالوا: لا معنى لهذه اللذات الجسمانية إلا دفع الآلام، والمعنى العدمي لا يستحق أن يفرح به. **والثاني:** أن بتقدير أن تكون هذه اللذات صفات ثبوتية، لكنها معنوية من وجوه: **الأول:** أن التضرر بآلامها أقوى من الانتفاع بلذاتها ألا ترى أن أقوى اللذات الجسمانية لذة الوقاع، ولا شك أن الالتذاذ بها أقل مرتبة من الاستضرار بألم القولنج وسائر الآلام القوية. **والثاني:** أن مداخل اللذات الجسمانية قليلة، فإنه لا سبيل إلى تحصيل اللذات الجسمانية إلا بهذين الطريقين أعني لذة البطن والفرج. وأما الآلام: فإن كل جزء من أجزاء بدن الإنسان معه نوع آخر من الآلام، ولكل نوع منها خاصية ليست للنوع الآخر.

والثالث: أن اللذات الجسمانية لا تكون خالصة ألبتة بل تكون ممزوجة بأنواع من المكاره، فلو لم يحصل في لذة الأكل والوقاع إلا إتعاب النفس في مقدماتها وفي لواحقها لكفى. **الرابع:** أن اللذات الجسمانية لا تكون باقية، فكلما كان الالتذاذ بها أكثر كانت الحسرات الحاصلة من خوف فواتها أكثر وأشد، ولذلك قال المعري:

إنَّ حُزْنًا فِي سَاعَةِ الموت أضعاف سُرُورٍ فِي سَاعَةِ الْمِيلَادِ (١)

فمن المعلوم أن الفرح الحاصل عند حدوث الولد لا يعادل الحزن الحاصل عند موته.

الخامس: أن اللذات الجسمانية حال حصولها تكون ممتنعة البقاء، لأن لذة الأكل لا تبقى بحالها، بل كلما زال ألم الجوع زال الالتذاذ بالأكل ولا يمكن استبقاء تلك اللذة. السادس: أن اللذات الجسمانية التذاذ بأشياء خسيسة، فإنها التذاذ بكيفيات حاصلة في أجسام رخوة سريعة الفساد مستعدة للتغير، فأما اللذات الروحانية فإنها بالضد في جميع هذه الجهات، فثبت أن الفرح باللذات الجسمانية فرح باطل، وأما الفرح الكامل فهو الفرح بالروحانيات والجواهر المقدسة وعالم الجلال ونور الكبرياء.

والبحث الثاني: من مباحث هذه الآية: أنه إذا حصلت اللذات الروحانية فإنه يجب على العاقل أن لا يفرح بها من حيث هي هي، بل يجب أن يفرح بها من حيث إنها من الله تعالى وبفضل الله وبرحمته، فلهذا السبب قال الصديقون: من فرح بنعمة الله من حيث إنها تلك النعمة فهو مشرك، أما من فرح بنعمة الله من حيث إنها من الله كان فرحه بالله، وذلك هو غاية الكمال ونهاية السعادة فقوله سبحانه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ يعني فليفرحوا بتلك النعم لا من حيث هي هي، بل من حيث إنها بفضل الله وبرحمة الله، فهذه أسرار عالية اشتملت عليها

(١) أبو العلاء المعري تقدمت ترجمته.

هذه الألفاظ التي ظهرت من عالم الوحي والتنزيل، هذا ما تلخص عندنا في هذا الباب، أما المفسرون فقالوا: فضل الله الإسلام، ورحمته القرآن. وقال أبو سعيد الخدري: فضل الله القرآن، ورحمته أن جعلكم من أهله.

المسألة الرابعة: قرئ (فَلْتَفْرَحُوا) بالتاء، قال الفراء: وقد ذكر عن زيد بن ثابت أنه قرأ بالتاء وقال: معناه فبذلك فلتفرحوا يا أصحاب محمد هو خير مما يجمع الكفار، قال: وقريب من هذه القراءة قراءة أبي: (فَبِذَلكَ فَافْرَحُوا) والأصل في الأمر للمخاطب والغائب اللام نحو لتقم يا زيد وليقم زيد، وذلك لأن حكم الأمر في الصورتين واحد، إلا أن العرب حذفوا اللام من فعل المأمور المخاطب لكثرة استعماله، وحذفوا التاء أيضًا وأدخلوا ألف الوصل نحو اضرب واقتل ليقع الابتداء به وكان الكسائي يعيب قولهم ﴿فَلْيَفْرَحُواْ﴾ لأنه وجده قليلاً فجعله عيبًا إلا أن ذلك هو الأصل، وروي عن النبي ﷺ أنه قال في بعض المشاهد: «لِتَأْخُذُوا مَصَافَّكُمْ»[1] يريد به خذوا، هذا كله كلام الفراء. وقرئ (تجمعون) بالتاء، ووجهه أنه تعالى عنى المخاطبين والغائبين إلا أنه غلب المخاطب على الغائب كما يغلب التذكير على التأنيث، فكأنه أراد المؤمنين هكذا قاله أهل اللغة وفيه دقيقة عقلية وهو أن الإنسان حصل فيه معنى يدعوه إلى خدمة الله تعالى وإلى الاتصال بعالم الغيب ومعارج الروحانيات، وفيه معنى آخر يدعوه إلى عالم الحس والجسم واللذات الجسدانية، وما دام الروح متعلقًا بهذا الجسد، فإنه لا ينفك عن حب الجسد، وعن طلب اللذات الجسمانية، فكأنه تعالى خاطب الصديقين العارفين، وقال: حصلت الخصومة بين الحوادث العقلية الإلهية وبين النوازع النفسانية الجسدانية، والترجيح لجانب العقل لأنه يدعو إلى فضل الله ورحمته والنفس تدعو إلى جمع الدنيا وشهواتها وفضل الله ورحمته خير لكم مما تجمعون من الدنيا لأن الآخرة خير وأبقى، وما كان كذلك فهو أولى بالطلب والتحصيل.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ۝٥٩ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٦٠﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن الناس ذكروا في تعلق هذه الآية بما قبلها وجوهًا، ولا أستحسن واحدًا منها. والذي يخطر بالبال والعلم عند الله تعالى وجهان: الأول: أن المقصود من هذا

---

(١) إسناده صحيح: أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٣٦٨) حديث رقم/ ٣٢٣٥، وأحمد في (مسنده) (٥/ ٢٤٣) حديث رقم/ ٢٢١٦٣، كلاهما من طريق مالك بن يخامر عن معاذ بن جبل... بَه.

الكلام ذكر طريق ثالث في إثبات النبوة. وتقريره أنه عليه الصلاة والسلام قال للقوم: إِنَّكُمْ تَحْكُمُونَ بِحِلِّ بَعْضِ الْأَشْيَاءِ وَحُرْمَةِ بَعْضِهَا، فَهَذَا الْحُكْمُ تَقُولُونَهُ عَلَى سَبِيلِ الافْتِرَاءِ عَلَى اللَّه تَعَالَى، أَوْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ حُكْمٌ حَكَمَ اللَّه بِهِ والأول طريق باطل بالاتفاق، فلم يبق إلا الثاني، ثم من المعلوم أنه تعالى ما خاطبكم به من غير واسطة، ولما بطل هذا ثبت أن هذه الأحكام إنما وصلت إليكم بقول رسول أرسله الله إليكم ونبي بعثه الله إليكم، وحاصل الكلام أن حكمهم بحل بعض الأشياء وحرمة بعضها مع اشتراك الكل في الصفات المحسوسة والمنافع المحسوسة، يدل على اعترافكم بصحة النبوة والرسالة وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يمكنكم أن تبالغوا هذه المبالغات العظيمة في إنكار النبوة والرسالة وحمل الآية على هذا الوجه الذي ذكرته طريق حسن معقول.

الطريق الثاني: في حسن تعلق هذه الآية بما قبلها هو أنه عليه الصلاة والسلام لما ذكر الدلائل الكثيرة على صحة نبوة نفسه وبيَّن فساد سؤالاتهم وشبهاتهم في إنكارها، أتبع ذلك ببيان فساد طريقتهم في شرائعهم وأحكامهم وبيَّن أن التمييز بين هذه الأشياء بالحل والحرمة، مع أنه لم يشهد بذلك لا عقل ولا نقل طريق باطل ومنهج فاسد، والمقصود إبطال مذاهب القوم في أديانهم وفي أحكامهم، وأنهم ليسوا على شيء في باب من الأبواب.

المسألة الثانية: المراد بالشيء الذي جعلوه حرامًا ما ذكروه من تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وأيضًا قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ [الأنعام: ١٣٨] إلى قوله: ﴿وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩] وأيضًا قوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣] والدليل عليه أن قوله: ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا﴾ إشارة إلى أمر تقدم منهم، ولم يحك الله تعالى عنهم إلا هذا، فوجب توجه هذا الكلام إليه، ثم لما حكى تعالى عنهم ذلك قال لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ وهذه القسمة صحيحة، لأن هذه الأحكام إما أن تكون من الله تعالى أو لم تكن من الله فإن كانت من الله تعالى، فهو المراد بقوله: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ وإن كانت ليست من الله. فهو المراد بقوله: ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ وهذا وإن كان في صورة الاستعلام فالمراد منه تعظيم وعيد من يفتري على الله. وقرأ عيسى بن عمر: (وَمَا ظَنَّ) على لفظ الفعل ومعناه أي ظن ظنوه يوم القيامة وجيء به على لفظ الماضي لما ذكرنا أن أحوال القيامة وإن كانت آتية إلا أنها لما كانت واجبة الوقوع في الحكمة ولا جرم عبر الله عنها بصيغة الماضي.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي بإعطاء العقل وإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فلا يستعملون العقل في التأمل في دلائل الله تعالى ولا يقبلون دعوة أنبياء الله ولا ينتفعون باستماع كتب الله.

المسألة الثالثة: (ما) في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ **فيها وجهان**:

أحدهما: بمعنى: (الذي) فينتصب برأيتم، والآخر أن يكون بمعنى أي في الاستفهام، فينتصب بأنزل وهو قول الزجاج، ومعنى أنزل ههنا خلق وأنشأ كقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦] وجاز أن يعبر عن الخلق بالإنزال، لأن كل ما في الأرض من رزق فما أنزل من السماء من ضرع وزرع وغيرهما، فلما كان إيجاده بالإنزال سمي إنزالاً.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه لما أطال الكلام في أمر الرسول بإيراد الدلائل على فساد مذاهب الكفار، وفي أمره بإيراد الجواب عن شبهاتهم، وفي أمره بتحمل أذاهم، وبالرفق معهم ذكر هذا الكلام ليحصل به تمام السلوة والسرور للمطيعين، وتمام الخوف والفزع للمذنبين، وهو كونه سبحانه عالمًا بعمل كل واحد، وبما في قلبه من الدواعي والصوارف، فإن الإنسان ربما أظهر من نفسه نسكًا وطاعة وزهدًا وتقوى، ويكون باطنه مملوأ من الخبث وربما كان بالعكس من ذلك فإذا كان الحق سبحانه عالمًا بما في البواطن كان ذلك من أعظم أنواع السرور للمطيعين ومن أعظم أنواع التهديد للمذنبين.

المسألة الثانية: اعلم أنه تعالى خصص الرسول في أول هذه الآية بالخطاب في أمرين، ثم أتبع ذلك بتعميم الخطاب مع كل المكلفين في شيء واحد، أما الأمران المخصوصان بالرسول عليه الصلاة والسلام. فالأول: منهما قوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ﴾ واعلم أن (ما) ههنا جحد والشأن: الخطب والجمع الشئون، تقول العرب: ما شأن فلان أي ما حاله، قال الأخفش: وتقول ما شأنت شأنه أي ما عملت عمله، وفيه وجهان: قال ابن عباس: وما تكون يا محمد في شأن يريد من أعمال البر، وقال الحسن: في شأن من شأن الدنيا وحوائجك فيها. والثاني: منهما قوله تعالى: ﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ واختلفوا في أن الضمير في قوله: ﴿مِنْهُ﴾ إلى ماذا يعود؟ وذكروا فيه ثلاثة أوجه: **الأول**: أنه راجع إلى الشأن لأن تلاوة القرآن شأن من شأن رسول الله ﷺ، بل هو معظم شأنه، وعلى هذا التقدير، فكان هذا داخلاً تحت قوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ﴾ إلا أنه خصه بالذكر تنبيهًا على علو مرتبته، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨] وكما في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأحزاب: ٧] **والثاني**: أن هذا الضمير عائد إلى القرآن، والتقدير: وما تتلو من القرآن

من قرآن، وذلك لأنه كما أن القرآن اسم للمجموع، فكذلك هو اسم لكل جزء من أجزاء القرآن والإضمار قبل الذكر، يدل على التعظيم. **الثالث:** أن يكون التقدير: وما تتلو من قرآن من الله أي نازل من عند الله. وأقول: قوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ أمران مخصوصان بالرسول ﷺ.

وأما قوله: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ فهذا خطاب مع النبي ومع جميع الأمة. والسبب في أن خص الرسول بالخطاب أولاً، ثم عمم الخطاب مع الكل، هو أن قوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ وإن كان بحسب الظاهر خطابًا مختصًا بالرسول، إلا أن الأمة داخلون فيه ومرادون منه، لأنه من المعلوم أنه إذا خوطب رئيس القوم كان القوم داخلين في ذلك الخطاب. والدليل عليه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١] ثم إنه تعالى بعد أن خص الرسول بذينك الخطابين عمم الكل بالخطاب الثالث فقال: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ فدل ذلك على كونهم داخلين في الخطابين الأولين.

ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ وذلك لأن الله تعالى شاهد على كل شيء، وعالم بكل شيء، أما على أصول أهل السنة والجماعة، فالأمر فيه ظاهر، لأنه لا محدث ولا خالق ولا موجد إلا الله تعالى. فكل ما يدخل في الوجود من أفعال العباد وأعمالهم الظاهرة والباطنة، فكلها حصلت بإيجاد الله تعالى وإحداثه. والموجد للشيء لا بد وأن يكون عالمًا به، فوجب كونه تعالى عالمًا بكل المعلومات، وأما على أصول المعتزلة، فقد قالوا: إنه تعالى حي وكل من كان حيًا، فإنه يصح أن يعلم كل واحد من المعلومات، والموجب لتلك العالمية، هو ذاته سبحانه. فنسبة ذاته إلى اقتضاء حصول العالمية ببعض المعلومات كنسبة ذاته إلى اقتضاء حصول العالمية بسائر المعلومات، فلما اقتضت ذاته حصول العالمية ببعض المعلومات وجب أن تقتضي حصول العالمية بجميع المعلومات فثبت كونه تعالى عالمًا بجميع المعلومات.

أما قوله تعالى: ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ فاعلم أن الإفاضة ههنا الدخول في العمل على جهة الانصباب إليه وهو الانبساط في العمل، يقال: أفاض القوم في الحديث إذا اندفعوا فيه، وقد أفاضوا من عرفة إذا دفعوا منه بكثرتهم، فتفرقوا.

فإن قيل: (إذ) ههنا بمعنى حين، فيصير تقدير الكلام إلا كنا عليكم شهودًا حين تفيضون فيه، وشهادة الله تعالى عبارة عن علمه، فيلزم منه أن يقال: إنه تعالى ما علم الأشياء إلا عند وجودها وذلك باطل.

قلنا: هذا السؤال بناء على أن شهادة الله تعالى عبارة عن علمه، وهذا ممنوع، فإن الشهادة لا تكون إلا عند وجود المشهود عليه، وأما العلم، فلا يمتنع تقدمه على الشيء، والدليل عليه أن الرسول عليه السلام، لو أخبرنا عن زيد أنه يأكل غدًا كنا من قبل حصول تلك الحالة عالمين بها ولا نوصف بكوننا شاهدين لها. واعلم أن حاصل هذه الكلمات أنه لا يخرج عن علم الله

شيء، ثم إنه تعالى أكد هذا الكلام زيادة تأكيد، فقال: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أصل العزوب من البعد. يقال: كلأ عازب إذا كان بعيد المطلب، وعزب الرجل بإبله إذا أرسلها إلى موضع بعيد من المنزل، والرجل سمي عَزَبًا لبعده عن الأهل، وعزب الشيءُ عن علمي إذا بَعُدَ.

المسألة الثانية: قرأ الكسائي (وما يَعْزِبُ) بكسر الزاي، والباقون بالضم، وفيه لغتان: عَزَبَ يَعْزِبُ، وَعَزَبَ يَعْزُبُ.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ أي وزن ذرة، ومثقال الشيء: ما يساويه في الثقل، والمعنى: ما يساوي ذرة، والذَّر صغار النمل واحدها ذرة، وهي تكون خفيفة الوزن جدًا، وقوله: ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ فالمعنى ظاهر.

فإن قيل: لم قدم الله ذكر الأرض ههنا على ذكر السماء مع أنه تعالى قال في سورة سبأ: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣].

قلنا: حق السماء أن تقدم على الأرض إلا أنه تعالى لما ذكر في هذه الآية شهادته على أحوال أهل الأرض وأعمالهم، ثم وصل بذلك قوله ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾، ناسب أن تقدم الأرض على السماء في هذا الموضع.

ثم قال: ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ﴾ وفيه قراءتان قرأ حمزة (ولا أَصْغرُ) (ولا أَكْبَرُ) بالرفع فيهما، والباقون بالنصب.

واعلم أن قوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ تقديره وما يعزب عن ربك مثقال ذرة فلفظ ﴿مِّثْقَالِ﴾ عند دخول كلمة ﴿مِن﴾ عليه مجرور بحسب الظاهر، ولكنه مرفوع في المعنى، فالمعطوف عليه إن عطف على الظاهر كان مجرورًا إلا أن لفظ أصغر وأكبر غير منصرف، فكان مفتوحًا وإن عطف على المحل، وجب كونه مرفوعًا، ونظيره قوله: ما أتاني من أحد عاقِلٍ وعَاقِلٌ، وكذا قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩] وغَيرِهِ، قال الشاعر:

فَلَسْنَا بِالْجِبَالِ وَلاَ الْحَدِيدَا(١)

هذا ما ذكره النحويون، قال صاحب (الكشاف): لو صح هذا العطف لصار تقدير هذه الآية وما يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء إلا في كتاب: وحينئذ يلزم أن يكون الشيء الذي في الكتاب خارجًا عن علم الله تعالى وأنه باطل.

---

(١) هذا هو عجز البيت ضمن قصيدة لابن الزبير الأسدي وقد تقدمت ترجمته، وأما البيت فهو هكذا:

مُعاويَ أَنَنا بَشَرٌ فأَسجِح ... فَلَسنا بالجِبالِ وَلا الحَديدا

وأجاب بعض المحققين عنه بوجهين:

الوجه الأول: أنا بينا أن العزوب عبارة عن مطلق البعد.

وإذا ثبت هذا فنقول: الأشياء المخلوقة على قسمين: قسم أوجده الله تعالى ابتداء من غير واسطة كالملائكة والسموات والأرض، وقسم آخر أوجده الله بواسطة القسم الأول، مثل: الحوادث الحادثة في عالم الكون والفساد، ولا شك أن هذا القسم الثاني قد يتباعد في سلسلة العِلِّية والمعلولية عن مرتبة وجود واجب الوجود فقوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي لا يبعد عن مرتبة وجوده مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء إلا وهو في كتاب مبين، وهو كتاب كتبه الله تعالى وأثبت صور تلك المعلومات فيه، ومتى كان الأمر كذلك فقد كان عالمًا بها محيطًا بأحوالها، والغرض منه الرد على من يقول: إنه تعالى غير عالم بالجزئيات، وهو المراد من قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩].

والوجه الثاني: في الجواب أن نجعل كلمة ﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ استثناء منقطعًا لكن بمعنى هو في كتاب مبين، وذكر أبو علي الجرجاني صاحب (النظم) عنه جوابًا آخر فقال: قوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ﴾ ههنا تم الكلام وانقطع ثم وقع الابتداء بكلام آخر، وهو قوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي وهو أيضًا في كتاب مبين. قال: والعرب تضع (إلا) موضع (واو النسق) كثيرًا على معنى الابتداء، كقوله تعالى: ﴿لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ۝ إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ [النمل: ١٠-١١] يعني: ومن ظلم. وقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [البقرة: ١٥٠] يعني والذين ظلموا، وهذا الوجه في غاية التعسف.

وأجاب صاحب (الكشاف): بوجه رابع فقال: الإشكال إنما جاء إذا عطفنا قوله: ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ﴾ على قوله: ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ إما بحسب الظاهر أو بحسب المحل، لكنا لا نقول ذلك، بل نقول: الوجه في القراءة بالنصب في قوله: ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ الحمل على نفي الجنس، وفي القراءة بالرفع الحمل على الابتداء، وخبره قوله: ﴿فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا الوجه اختيار الزجاج.

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٦٤﴾

اعلم أنا بينا أن قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ﴾ [يونس: ٦١] مما يقوي قلوب المطيعين، ومما يكسر قلوب الفاسقين فأتبعه الله تعالى بشرح أحوال المخلصين الصادقين الصديقين وهو المذكور في هذه الآية. وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنا نحتاج في تفسير هذه الآية إلى أن نبين أن الولي من هو؟ ثم نبين تفسير نفي الخوف والحزن عنه. فنقول: أما أن الوحي من هو؟ فيدل عليه القرآن والخبر والأثر والمعقول. أما القرآن، فهو قوله في هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ فقوله: ﴿ءَامَنُواْ﴾ إشارة إلى كمال حال القوة النظرية وقوله: ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ إشارة إلى كمال حال القوة العملية. وفيه قيام آخر، وهو أن يحمل الإيمان على مجموع الاعتقاد والعمل، ثم نصف الولي بأنه كان متقيًا في الكل. أما التقوى في موقف العلم فلأن جلال الله أعلى من أن يحيط به عقل البشر، فالصِّدِّيق إذا وصف الله سبحانه بصفة من صفات الجلال، فهو يقدس الله عن أن يكون كماله وجلاله مقتصرًا على ذلك المقدار الذي عرفه ووصفه به، وإذا عبد الله تعالى فهو يقدس الله تعالى عن أن تكون الخدمة اللائقة بكبريائه متقدرة بذلك المقدار فثبت أنه أبدًا يكون في مقام الخوف والتقوى. وأما الأخبار فكثيرة روى عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا فِي اللَّه عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بينهم ولا أموال يتعاطونها، فو اللَّه إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ، وَإِنَّهُمْ لَعَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ لاَ يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ، وَلاَ يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ**»[1] ثم قرأ هذه الآية، وعن النبي ﷺ أنه قال: «**هُمُ الَّذِينَ يُذْكَرُ اللَّه تَعَالَى بِرُؤْيَتِهِمْ**»[2] قال أهل التحقيق: السبب فيه أن مشاهدتهم تذكر أمر الآخرة لما يشاهد فيهم من آيات الخشوع والخضوع، ولما ذكر الله تعالى سبحانه في قوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩] وأما الأثر، فقال أبو بكر الأصم: أولياء الله هم الذين تولى الله تعالى هدايتهم بالبرهان وتولوا القيام بحق عبودية الله تعالى والدعوة إليه، وأما المعقول فنقول: ظهر في علم الاشتقاق أن تركيب الواو واللام والياء يدل على معنى القرب، فولي كل شيء هو الذي يكون قريبًا منه، والقرب من الله تعالى بالمكان والجهة محال، فالقرب منه إنما يكون إذا كان القلب مستغرقًا في نور معرفة الله تعالى سبحانه، فإن رأى دلائل قدرة الله، وإن سمع سمع آيات الله وإن نطق نطق بالثناء على الله، وإن تحرك تحرك في خدمة الله، وإن اجتهد اجتهد في طاعة الله، فهنالك يكون في غاية القرب من الله، فهذا الشخص يكون وليًّا لله تعالى، وإذا كان كذلك كان الله تعالى وليًّا له أيضًا كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] ويجب أن يكون الأمر كذلك، لأن القرب لا يحصل إلا من الجانبين. وقال المتكلمون: ولي الله من يكون آتيًا بالاعتقاد الصحيح المبني على الدليل ويكون آتيًا بالأعمال الصالحة على وفق ما وردت به

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (البيوع) باب (في الرهن) (٣/ ١٥٢٧) حديث رقم/ ٣٥٢٧، وأورده التبريزي في (المشكاة) (٣/ ١٣٩٦) والمنذري في (الترغيب) (٤/ ٢١).

(٢) أخرجه الطبراني في (الكبير) (١٢/ ١٣) حديث رقم/ ١٢٣٢٥، والنحاس في (معاني القرآن) (٣/ ٣٠٢) حديث رقم/ ٥٩، وأبو نعيم في (أخبار أصفهان) (٣/ ٣١٦) حديث رقم/ ٨٤٠، والضياء في (الأحاديث المختارة) (٤/ ١١٥) حديث رقم/ ١٠٤، جميعًا من طريق يحيى بن يمان عن أشعث بن إسحاق عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . . . به. وفي إسناده يحيى بن يمان، قال الحافظ: صدوق عابد يخطئ كثيرًا وقد تغير.

الشريعة، فهذا كلام مختصر في تفسير الولي.

وأما قوله تعالى في صفتهم: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ .

ففيه بحثان:

البحث الأول: أن الخوف إنما يكون في المستقبل بمعنى أنه يخاف حدوث شيء في المستقبل من المخوف، والحزن إنما يكون على الماضي إما لأجل أنه كان قد حصل في الماضي ما كرهه أو لأنه فات شيء أحبه.

البحث الثاني: قال بعض المحققين: إن نفي الحزن والخوف إما أن يحصل للأولياء حال كونهم في الدنيا أو حال انتقالهم إلى الآخرة والأول باطل لوجوه: أحدها: أن هذا لا يحصل في دار الدنيا لأنها دار خوف وحزن والمؤمن خصوصًا لا يخلو من ذلك على ما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ» [1] وعلى ما قال: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ» [2] وثانيها: أن المؤمن، وإن صفا عيشه في الدنيا، فإنه لا يخلو من هَمٍّ بأمر الآخرة شديد، وحزن على ما يفوته من القيام بطاعة الله تعالى، وإذا بطل هذا القسم وجب حمل قوله تعالى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على أمر الآخرة، فهذا كلام محقق، وقال بعض العارفين: إن الولاية عبارة عن القرب، فوليُّ الله تعالى هو الذي يكون في غاية القرب من الله تعالى، وهذا التقرير قد فسرناه باستغراقه في معرفة الله تعالى بحيث لا يخطر بباله في تلك اللحظة شيء مما سوى الله، ففي هذه الساعة تحصل الولاية التامة، ومتى كانت هذه الحالة حاصلة فإن صاحبها لا يخاف شيئًا، ولا يحزن بسبب شيء، وكيف يعقل ذلك والخوف من الشيء والحزن على الشيء لا يحصل إلا بعد الشعور به، والمستغرق في نور جلال الله غافل عن كل ما سوى الله تعالى، فيمتنع أن يكون له خوف أو حزن؟ وهذه درجة عالية، ومن لم يذقها لم يعرفها، ثم إن صاحب هذه الحالة قد تزول عنه الحالة، وحينئذ يحصل له الخوف والحزن والرجاء والرغبة والرهبة بسبب الأحوال الجسمانية، كما يحصل لغيره، وسمعت أن إبراهيم الخواص كان بالبادية ومعه واحد يصحبه، فاتفق في بعض الليالي ظهور حالة قوية وكشف تام له، فجلس في موضعه وجاءت السباع ووقفوا بالقرب منه، والمريد تسلق على رأس

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٤/ ٢٢٧٢/ ٢٩٥٦)، والترمذي في (سننه) (٤/ ٥٦٢) حديث رقم/ ٢٣٢٤، وابن ماجه في (سننه) (٢/ ١٣٧٨) حديث رقم/ ٤١١٣، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٣٢٣) حديث رقم/ ٨٢٧٢، جميعا من طريق العلاء عن أبيه عن أبي هريرة... به.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الجنة) باب (في فاتحته) (٤/ ١/ ٢١٧٤). من طريق عبد الله بن سلمة... به. والترمذي في كتاب (صفة الجنة) باب (حفت الجنة بالمكاره) (٤/ ٥٩٨) حديث رقم/ ٢٥٥٩، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه صحيح من طريق عمرو بن عاصم... به. وأحمد في (مسنده) (٣/ ١٥٣/ ٢٥٤/ ٢٨٤). والدارمي في كتاب (الرقاق) باب (حفت الجنة بالمكاره) (٢/ ٢٢٨) حديث رقم/ ٢٨٤٣. جميعًا عن حماد بن سلمة... به.

شجرة خوفًا منها والشيخ ما كان فازعًا من تلك السباع، فلما أصبح وزالت تلك الحالة ففي الليلة الثانية وقعت بعوضة على يده فأظهر الجزع من تلك البعوضة، فقال المريد: كيف تليق هذه الحالة بما قبلها؟ فقال الشيخ: إنا إنما تحملنا البارحة ما تحملناه بسبب قوة الوارد الغيبي، فلما غاب ذلك الوارد فأنا أضعف خلق الله تعالى.

المسألة الثانية: قال أكثر المحققين: إن أهل الثواب لا يحصل لهم خوف في محفل القيامة واحتجوا على صحة قولهم بقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وبقوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[الأنبياء: ١٠٣] وأيضًا فالقيامة دار الجزاء فلا يليق به إيصال الخوف ومنهم من قال: بل يحصل فيه أنواع من الخوف، وذكروا فيه أخبارًا تدل عليه إلا أن ظاهر القرآن أولى من خبر الواحد.

وأما قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ ففيه ثلاثة أوجه: الأول: النصب بكونه صفة للأولياء. والثاني: النصب على المدح. والثالث: الرفع على الابتداء وخبره: لهم البشرى.

وأما قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾ ففيه أقوال: الأول: المراد منه الرؤيا الصالحة، عن النبي ﷺ أنه قال: «**الْبُشْرَى هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تُرَى لَهُ**»[(١)] وعنه عليه الصلاة والسلام: «**ذَهَبَتِ النُّبُوَّةُ وَبَقِيَتِ الْمُبَشِّرَاتُ**» وعنه عليه الصلاة والسلام: «**الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ اللَّهِ، وَالْحُلْمُ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا حَلَمَ أَحَدُكُمْ حُلْمًا يَخَافُهُ فَلْيَتَعَوَّذْ مِنْهُ وَلْيَبْصُقْ عَنْ شِمَالِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّهُ**»[(٢)] وعنه ﷺ: «**الرُّؤْيَا الصالحة جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ**»[(٣)]

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في كتاب (الصلاة) باب (النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود) (١/ ٢٠٧/ ٣٤٨) من طريق ابن عيينة . . . به. وأبو داود في كتاب (الصلاة) باب (الدعاء في الركوع والسجود) (١/ ٢٣١) حديث رقم/ ٨٧٦، والنسائي في كتاب (التطبيق) باب (تعظيم الرب في الركوع) (٢/ ٥٣٤) حديث رقم/ ١٠٤٤، وابن ماجه في كتاب (تعبير الرؤيا) باب (الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له) (٣/ ١٢٨٣) حديث رقم/ ٣٨٩٩، من طريق سفيان . . . به. وأحمد في (مسنده) (١/ ٢١٩) حديث رقم/ ١٩٠٠، من طريق سفيان . . . به. والدارمي في كتاب (الصلاة) باب (النهي عن القراءة في الركوع والسجود) (١/ ٣١٨/ ٣١٩) حديث رقم/ ١٣٢٥، من طريق ابن عيينة . . . به. والحميدي في (مسنده) (١) حديث رقم/ ٤٨٩، من طريق سفيان . . . به. وابن خزيمة في (صحيحه) (١) حديث رقم/ ٥٤٨/ ٥٩٩/ ٦٧٤، من طريق سفيان وإسماعيل بن جعفر . . . به. كلاهما (سفيان، إسماعيل بن جعفر) قالا: حدثنا سليمان بن سحيم . . . به.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري في كتاب (بدء الخلق) باب (صفة أبواب الجنة) (٦/ ٣٩٠) حديث رقم/ ٣٢٩٢، من طريق الأوزاعي . . . به. والنسائي في (عمل اليوم والليلة) (٥٠٧) حديث رقم/ ٨٩٦، من طريق الأوزاعي . . . به. وكذلك في (٥٠٧) حديث رقم/ ٨٩٨، من طريق أبي عمرو . . . به. وأحمد في (مسنده) (٥/ ٣٠٠) من طريق الأوزاعي . . . به. والدارمي في كتاب (الرؤيا) باب (فيمن يرى رؤيا يكرهه) (١/ ٦٠٤) حديث رقم/ ٢١٤١، من طريق الأوزاعي . . . به. جميعًا عن يحيى بن أبي كثير . . . به.

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (التفسير) باب (الرؤيا الصالحة جزء من تسع وتسعون جزء من النبوة) (١٢/ ٣٨٩) حديث رقم/ ٦٩٨٧، من طريق شعبة . . . به. ومسلم في كتاب (الرؤية)، باب (الرؤية الصالحة) (٤/ ٧/ ١٧٧٤) من طريق شعبة . . . به. جميعا من طريق شعبة . . . به.

وعن ابن مسعود: الرؤيا ثلاثة: الهم يهم به الرجل من النهار فيراه في الليل، وحضور الشيطان، والرؤيا التي هي الرؤيا الصادقة. وعن إبراهيم: الرؤيا ثلاثة: فالمبشرة من الله جزء من سبعين جزءًا من النبوة والشيء يهم به أحدكم بالنهار فلعله يراه بالليل والتخويف من الشيطان، فإذا رأى أحدكم ما يحزنه فليقل: أعوذ بما عاذت به ملائكة الله من شر رؤياي التي رأيتها أن تضرني في دنياي أو في آخرتي.

واعلم أنا إذا حملنا قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ على الرؤيا الصادقة فظاهر هذا النص يقتضي أن لا تحصل هذه الحالة إلا لهم والعقل أيضًا يدل عليه، وذلك لأن ولي الله هو الذي يكون مستغرق القلب والروح بذكر الله، ومن كان كذلك فهو عند النوم لا يبقى في روحه إلا معرفة الله، ومن المعلوم أن معرفة الله ونور جلال الله لا يفيده إلا الحق والصدق، وأما من يكون متوزع الفكر على أحوال هذا العالم الكدر المظلم، فإنه إذا نام يبقى كذلك، فلا جرم لا اعتماد على رؤياه، فلهذا السبب قال: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ على سبيل الحصر والتخصيص.

القول الثاني: في تفسير البشرى: أنها عبارة عن محبة الناس له وعن ذكرهم إياه بالثناء الحسن عن أبي ذر: قال؟ قلت: يا رسول الله إن الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس. فقال: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ».

واعلم أن المباحث العقلية تقوي هذا المعنى، وذلك أن الكمال محبوب لذاته لا لغيره، وكل من اتصف بصفة من صفات الكمال، صار محبوبًا لكل أحد، ولا كمال للعبد أعلى وأشرف من كونه مستغرق القلب بمعرفة الله، مستغرق اللسان بذكر الله، مستغرق الجوارح والأعضاء بعبودية الله، فإذا ظهر عليه أمر من هذا الباب، صارت الألسنة جارية بمدحه، والقلوب مجبولة على حبه، وكلما كانت هذه الصفات الشريفة أكثر، كانت هذه المحبة أقوى، وأيضًا فنور معرفة الله مخدوم بالذات، ففي أي قلب حضر صار ذلك الإنسان مخدومًا بالطبع ألا ترى أن البهائم والسباع قد تكون أقوى من الإنسان، ثم إنها إذا شاهدت الإنسان هابته وفرت منه وما ذاك إلا لمهابة النفس الناطقة.

والقول الثالث: في تفسير البشرى أنها عبارة عن حصول البشرى لهم عند الموت قال تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ﴾ [فصلت: ٣٠] وأما البشرى في الآخرة فسلام الملائكة عليهم كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤] وسلام الله عليهم كما قال: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨] ويندرج في هذا الباب ما ذكره الله في هذا الكتاب الكريم من بياض وجوههم وإعطاء الصحائف بأيمانهم وما يلقون فيها من الأحوال السارة فكل ذلك من المبشرات.

والقول الرابع: أن ذلك عبارة عما بشر الله عباده المتقين في كتابه وعلى ألسنة أنبيائه من جنته وكريم ثوابه. ودليله قوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ﴾ [التوبة: ٢١].

واعلم أن لفظ البشارة مشتق من خبر سار يظهر أثره في بشرة الوجه، فكل ما كان كذلك دخل في هذه الآية، ومجموع الأمور المذكورة مشتركة في هذه الصفة، فيكون الكل داخلاً فيه فكل ما يتعلق من هذه الوجوه بالدنيا فهو داخل تحت قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وكل ما يتعلق بالآخرة فهو داخل تحت قوله: ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ ثم إنه تعالى لما ذكر صفة أولياء الله وشرح أحوالهم قال تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ والمراد أنه لا خلف فيها، والكلمة والقول سواء. ونظيره قوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾[ق: ٢٩] وهذا أحد ما يقوي أن المراد بالبشرى وعد الله بالثواب والكرامة لمن أطاعه بقوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ﴾[التوبة: ٢١] ثم بين تعالى أن: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ وهو كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾[الإنسان: ٢٠] ثم قال القاضي: قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يدل على أنها قابلة للتبديل، وكل ما قبل العدم امتنع أن يكون قديمًا. ونظير هذا الاستدلال بحصول النسخ على أن حكم الله تعالى لا يكون قديمًا وقد سبق الكلام على أمثال هذه الوجوه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾

اعلم أن القوم لما أوردوا أنواع الشبهات التي حكاها الله تعالى عنهم فيما تقدم من هذه السورة وأجاب الله عنها بالأجوبة التي فسرناها وقررناها، عدلوا إلى طريق آخر، وهو أنهم هددوه وخوفوه وزعموا أنهم أصحاب التبع والمال، فنسعى في قهرك وفي إبطال أمرك، والله سبحانه أجاب عن هذا الطريق بقوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾. واعلم أن الإنسان إنما يحزن من وعيد الغير وتهديده ومكره وكيده، لو جوز كونه مؤثرًا في حاله، فإذا علم من جهة علاَّم الغيوب أن ذلك لا يؤثر، خرج من أن يكون سببًا لحزنه. ثم إنه تعالى كما أزال عن الرسول حزن الآخرة بسبب قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[يونس: ٦٢] فكذلك أزال حزن الدنيا بقوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ فإذا كان الله تعالى هو الذي أرسله إلى الخلق وهو الذي أمره بدعوتهم إلى هذا الدين كان لا محالة ناصرًا له ومعينًا، ولما ثبت أن العزة والقهر والغلبة ليست إلا له، فقد حصل الأمن وزال الخوف.

فإن قيل: فكيف آمنه من ذلك ولم يزل خائفًا حتى احتاج إلى الهجرة والهرب، ثم من بعد ذلك يخاف حالاً بعد حال؟

قلنا: إن الله تعالى وعده الظفر والنصرة مطلقًا والوقت ما كان معينًا، فهو في كل وقت كان يخاف من أن لا يكون هذا الوقت المعين ذلك الوقت، فحينئذ يحصل الانكسار والانهزام في هذا الوقت.

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾ .

ففيه أبحاث:

البحث الأول: قال القاضي: إن العزة بالألف المكسورة وفي فتحها فساد يقارب الكفر؛ لأنه يؤدي إلى أن القوم كانوا يقولون: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾ وأن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يحزنه ذلك. أما إذا كسرت الألف كان ذلك استئنافًا، وهذا يدل على فضيلة علم الإعراب. قال صاحب (الكشاف): وقرأ أبو حيوة (أَنَّ العِزَّة) بالفتح على حذف لام العلة يعني: لأن العزة، على صريح التعليل.

البحث الثاني: فائدة ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ﴾ في هذا المقام أمور:

الأول: المراد منه أن جميع العزة والقدرة هي لله تعالى يعطي ما يشاء لعباده، والغرض منه أنه لا يعطي الكفار قدرة عليه، بل يعطيه القدرة عليهم حتى يكون هو بذلك أعز منهم، فآمنه الله تعالى بهذا القول من إضرار الكفار به بالقتل والإيذاء، ومثله قوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ [المجادلة: ٢١] ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١].

الثاني: قال الأصم: المراد أن المشركين يتعززون بكثرة خدمهم وأموالهم ويخوفونك بها وتلك الأشياء كلها لله تعالى فهو القادر على أن يسلب منهم كل تلك الأشياء وأن ينصرك وينقل أموالهم وديارهم إليك.

فإن قيل: قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾ كالمضادة لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

قلنا: لا مضادة، لأن عزة الرسول والمؤمنين كلها بالله فهي لله.

اما قوله: ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ أي يسمع ما يقولون ويعلم ما يعزمون عليه وهو يكافئهم بذلك.

وأما قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ .

ففيه وجهان:

الأول: أنه تعالى ذكر في الآيات المتقدمة ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [يونس: ٥٥] وهذا يدل على أن كل ما لا يعقل فهو ملك لله تعالى وملك له، وأما ههنا فكلمة (من) مختصة بمن يعقل، فتدل على أن كل العقلاء داخلون تحت ملك الله وملكه فيكون مجموع الآيتين دالاً على أن الكل مُلْكه ومِلْكه. والثاني: أن المراد ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ العقلاء المميزون وهم الملائكة والثقلان. وإنما خصهم بالذكر ليدل على أن هؤلاء إذا كانوا له وفي ملكه فالجمادات أولى بهذه العبودية فيكون ذلك قدحًا في جعل الأصنام شركاء لله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ وفي كلمة (ما) قولان:

الأول: أنه نفي وجحد، والمعنى أنهم ما اتبعوا شريك الله تعالى إنما اتبعوا شيئًا ظنوه شريكًا لله تعالى. ومثاله أن أحدنا لو ظن أن زيدًا في الدار وما كان فيها، فخاطب إنسانًا في الدار ظنه زيدًا، فإنه لا يقال: إنه خاطب زيدًا بل يقال: خاطب من ظنه زيدًا.

الثاني: أن (ما) استفهام، كأنه قيل: أي شيء يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء، والمقصود تقبيح فعلهم يعني أنهم ليسوا على شيء.

ثم قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ والمعنى أنهم إنما اتبعوا ظنونهم الباطلة وأوهامهم الفاسدة، ثم بين أن هذا الظن لا حكم له ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ وذكرنا معنى الخرص في سورة الأنعام عند قوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر قوله: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥] احتج عليه بهذه الآية، والمعنى أنه تعالى جعل الليل ليزول التعب والكلال بالسكون فيه، وجعل النهار مبصرًا أي مضيئًا لتهتدوا به في حوائجكم بالإبصار، والمبصر الذي يبصر، والنهار يبصر فيه، وإنما جعله مبصرًا على طريق نقل الاسم من السبب إلى المسبب.

فإن قيل: إن قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ يدل على أنه تعالى ما خلقه إلا لهذا الوجه، وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ يدل على أنه تعالى أراد بتخليق الليل والنهار أنواعًا كثيرة من الدلائل.

قلنا: إن قوله تعالى: ﴿لِتَسْكُنُواْ﴾ لا يدل على أنه لا حكمة فيه إلا ذلك، بل ذلك يقتضي حصول تلك الحكمة.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ فالمراد يتدبرون ما يسمعون ويعتبرون به.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

اعلم أن هذا نوع آخر من الأباطيل التي حكاها الله تعالى عن الكفار وهي قولهم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ ويحتمل أن يكون المراد حكاية قول من يقول: الملائكة بنات الله، ويحتمل أن يكون المراد قول من يقول: الأوثان أولاد الله، ويحتمل أن يكون قد كان فيهم قوم من النصارى قالوا ذلك ثم إنه تعالى لما استنكر هذا القول قال بعده: ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

واعلم أن كونه تعالى غنيًّا مالكًا لكل ما في السموات والأرض يدل على أنه يستحيل أن يكون له ولد، وبيان ذلك من وجوه:

الأول: أنه سبحانه غني مطلقًا على ما في هذه الآية، والعقل أيضًا يدل عليه، لأنه لو كان محتاجًا لافتقر إلى صانع آخر، وهو محال وكل من كان غنيًّا فإنه لا بد أن يكون فردًا منزهًا عن الأجزاء والأبعاض، وكل من كان كذلك امتنع أن ينفصل عنه جزء من أجزائه، والولد عبارة عن أن ينفصل جزء من أجزاء الإنسان، ثم يتولد عن ذلك الجزء مثله، وإذا كان هذا محالاً ثبت أن كونه تعالى غنيًّا يمنع ثبوت الولد له.

الحجة الثانية: أنه تعالى غني وكل من كان غنيًّا كان قديمًا أزليًّا باقيًا سرمديًّا، وكل من كان كذلك، امتنع عليه الانقراض والانقضاء، والولد إنما يحصل للشيء الذي ينقضي، وينقرض، فيكون ولده قائمًا مقامه، فثبت أن كونه تعالى غنيًّا، يدل على أنه يمتنع أن يكون له ولد.

الحجة الثالثة: أنه تعالى غني وكل من كان غنيًّا فإنه يمتنع أن يكون موصوفًا بالشهوة واللذة وإذا امتنع ذلك امتنع أن يكون له صاحبة وولد.

الحجة الرابعة: أنه تعالى غني، وكل من كان غنيًا امتنع أن يكون له ولد، لأن اتخاذ الولد إنما يكون في حق من يكون محتاجًا حتى يعينه ولده على المصالح الحاصلة والمتوقعة، فمن كان غنيًّا مطلقًا امتنع عليه اتخاذ الولد.

الحجة الخامسة: ولد الحيوان إنما يكون ولدًا له بشرطين: إذا كان مساويًا له في الطبيعة والحقيقة، ويكون ابتداء وجوده وتكونه منه، وهذا في حق الله تعالى محال، لأنه تعالى غني مطلقًا، وكل من كان غنيًّا مطلقًا كان واجب الوجود لذاته، فلو كان لواجب الوجود ولد، لكان ولده مساويًا له. فيلزم أن يكون ولد واجب الوجود أيضًا واجب الوجود، لكن كونه واجب الوجود يمنع من تولده من غيره، وإذا لم يكن متولدًا من غيره لم يكن ولدًا، فثبت أن كونه تعالى غنيًّا من أقوى الدلائل على أنه تعالى لا ولد له، وهذه الثلاثة مع الثلاثة الأول في غاية القوة.

الحجة السادسة: أنه تعالى غني، وكل من كان غنيًّا امتنع أن يكون له أب وأم، وكل من تقدس عن الوالدين وجب أن يكون مقدسًا عن الأولاد.

فإن قيل: يشكل هذا بالوالد الأول؟

قلنا: الوالد الأول لا يمتنع كونه ولدًا لغيره، لأنه سبحانه وتعالى قادر على أن يخلق الوالد الأول من أبوين يقدمانه، أما الحق سبحانه فإنه يمتنع افتقاره إلى الأبوين، وإلا لما كان غنيًّا مطلقًا.

الحجة السابعة: إنه تعالى غني مطلقًا، وكل من كان غنيًّا مطلقًا امتنع أن يفتقر في إحداث الأشياء إلى غيره.

إذا ثبت هذا فنقول: هذا الولد، إما أن يكون قديمًا أو حادثًا، فإن كان قديمًا فهو واجب الوجود

لذاته، إذ لو كان ممكن الوجود لافتقر إلى المؤثر، وافتقار القديم إلى المؤثر يقتضي إيجاد الموجود وهو محال، وإذا كان واجب الوجود لذاته لم يكن ولدًا لغيره، بل كان موجودًا مستقلاً بنفسه، وأما إن كان هذا الولد حادثًا والحق سبحانه غني مطلقًا فكان قادرًا على إحداثه ابتداء من غير تشريك شيء آخر، فكان هذا عبدًا مطلقًا، ولم يكن ولدًا، فهذه جملة الوجوه المستنبطة من قوله: ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ الدالة على أنه يمتنع أن يكون له ولد.

أما قوله: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فاعلم أنه نظير قوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] وحاصله يرجع إلى أن ما سوى الواحد الأحد الحق ممكن، وكل ممكن محتاج، وكل محتاج محدث، فكل ما سوى الواحد الأحد الحق محدث، والله تعالى محدثه وخالقه وموجده وذلك يدل على فساد القول بإثبات الصاحبة والولد، ولما بين تعالى بالدليل الواضح امتناع ما أضافوا إليه، عطف عليهم بالإنكار والتوبيخ فقال: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ﴾ منبهًا بهذا على أنه لا حجة عندهم في ذلك ألبتة. ثم بالغ في ذلك الإنكار فقال: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وقد ذكرنا أن هذه الآية يحتج بها في إبطال التقليد في أصول الديانات ونفاة القياس، وأخبار الآحاد قد يحتجون بها في إبطال هذين الأصلين وقد سبق الكلام فيه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيَّن بالدليل القاهر أن إثبات الولد لله تعالى قول باطل ثم بيَّن أنه ليس لهذا القائل دليل على صحة قوله، فقد ظهر أن ذلك المذهب افتراء على الله ونسبه لما لا يليق به إليه، فبيَّن أن من هذا حاله فإنه لا يفلح ألبتة ألا ترى أنه تعالى قال في أول سورة المؤمنون: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] وقال في آخر هذه السورة: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

واعلم أن قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ يدخل فيه هذه الصورة ولكنه لا يختص بهذه الصورة بل كل من قال في ذات الله تعالى وفي صفاته قولاً بغير علم وبغير حجة بينة كان داخلاً في هذا الوعيد، ومعنى قوله: ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ قد ذكرناه في أول سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥] وبالجملة فالفلاح عبارة عن الوصول إلى المقصود والمطلوب، فمعنى أنه لا يفلح هو أنه لا ينجح في سعيه ولا يفوز بمطلوبه بل خاب وخسر، ومن الناس من إذا فاز بشيء من المطالب العاجلة والمقاصد الخسيسة، ظن أنه قد فاز بالمقصد الأقصى، والله سبحانه أزال هذا الخيال بأن قال: إن ذلك المقصود الخسيس متاع قليل في الدنيا، ثم لا بد من الموت، وعند الموت لا بد من الرجوع إلى الله وعند هذا الرجوع لا بد من

أن يذيقه العذاب الشديد بسبب ذلك الكفر المتقدم، وهذا كلام في غاية الانتظام ونهاية الحسن والجزالة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾

اعلم أنه سبحانه لما بالغ في تقرير الدلائل والبينات، وفي الجواب عن الشبه والسؤالات، شرع بعد ذلك في بيان قصص الأنبياء عليهم السلام لوجوه:

أحدها: أن الكلام إذا أطال في تقرير نوع من أنواع العلوم، فربما حصل نوع من أنواع الملالة فإذا انتقل الإنسان من ذلك الفن من العلم إلى فن آخر، انشرح صدره وطاب قلبه ووجد في نفسه رغبة جديدة وقوة حادثة وميلاً قويًا.

وثانيها: ليكون للرسول عليه الصلاة والسلام ولأصحابه أسوة بمن سلف من الأنبياء، فإن الرسول إذا سمع أن معاملة هؤلاء الكفار مع كل الرسل ما كانت إلا على هذا الوجه خف ذلك على قلبه، كما يقال: المصيبة إذا عمَّت خفت.

وثالثها: أن الكفار إذا سمعوا هذه القصص، وعلموا أن الجهال، وإن بالغوا في إيذاء الأنبياء المتقدمين إلا أن الله تعالى أعانهم بالآخرة ونصرهم وأيدهم وقهر أعداءهم، كان سماع هؤلاء الكفار لأمثال هذه القصص سببًا لانكسار قلوبهم، ووقوع الخوف والوجل في صدورهم، وحينئذ يقللون من أنواع الإيذاء والسفاهة.

ورابعها: أنا قد دللنا على أن محمدًا عليه الصلاة والسلام لما لم يتعلم علمًا، ولم يطالع كتابًا ثم ذكر هذه الأقاصيص من غير تفاوت، ومن غير زيادة ومن غير نقصان، دل ذلك على أنه ﷺ إنما عرفها بالوحي والتنزيل.

واعلم أنه تعالى ذكر في هذه السورة من قصص الأنبياء عليهم السلام ثلاثة:

فالقصة الأولى: قصة نوح عليه السلام، وهي المذكورة في هذه الآية.

وفيها وجهان من الفائدة:

الأول: أن قوم نوح عليه السلام لما أصروا على الكفر والجحد عجل الله هلاكهم بالغرق فذكر الله تعالى قصتهم لتصير تلك القصة عبرة لهؤلاء الكفار، وداعية إلى مفارقة الجحد بالتوحيد والنبوة.

والثاني: أن كفار مكة كانوا يستعجلون العذاب الذي يذكره الرسول عليه السلام لهم وكانوا

يقولون له: كذبت، فإنه ما جاءنا هذا العذاب، فالله تعالى ذكر لهم قصة نوح عليه السلام لأنه عليه السلام كان يخوفهم بهذا العذاب وكانوا يكذبونه فيه، ثم بالآخرة وقع كما أخبر فكذا ههنا.

المسألة الثانية: أن نوحًا عليه السلام قال لقومه: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وهذا جملة من الشرط والجزاء، أما الشرط فهو مركب من قيدين:

القيد الأول: قوله: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى﴾ قال الواحدي في (البسيط): يقال كَبُرَ يَكْبُرُ كِبَرًا في السن، وكَبُر الأمر والشيء إذا عظم يَكْبُرُ كِبَرًا وكُبَّارة. قال ابن عباس: ثقل عليكم وشق عليكم وعظم أمره عندكم والمَقام بفتح الميم مصدر كالإقامة. يقال: أقام بين أظهرهم مقامًا وإقامة، والمُقام بضم الميم الموضع الذي يقام فيه، وأراد بالمُقام ههنا مكثه ولبثه فيهم وبالجملة فقوله: ﴿كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى﴾ جار مجرى قولهم: فلان ثقيل الظل.

واعلم أن سبب هذا الثقل أمران: أحدهما: أنه عليه السلام مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا. والثاني: أن أولئك الكفار كانوا قد ألفوا تلك المذاهب الفاسدة والطرائق الباطلة والغالب أن من ألف طريقة في الدين فإنه يثقل عليه أن يدعى إلى خلافها، ويذكر له ركاكتها، فإن اقترن بذلك طول مدة الدعاء كان أثقل وأشد كراهية، فإن اقترن به إيراد الدلائل القاهرة على فساد ذلك المذهب كانت النفرة أشد فهذا هو السبب في حصول ذلك الثقل.

والقيد الثاني: هو قوله: ﴿وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾.

واعلم أن الطباع المشغوفة بالدنيا الحريصة على طلب اللذات العاجلة تكون شديدة النفرة عن الأمر بالطاعات والنهي عن المعاصي والمنكرات، قوية الكراهة لسماع ذكر الموت وتقبيح صورة الدنيا ومن كان كذلك فإنه يستثقل الإنسان الذي يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر وفي الآية وجه آخر وهو أن يكون قوله: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ معناه أنهم كانوا إذا وعظوا الجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم ليكون مكانهم ظاهرًا وكلامهم مسموعًا، كما يحكى عن عيسى عليه السلام أنه كان يعظ الحواريين قائمًا وهم قعود.

واعلم أن هذا هو الشرط المذكور في هذه الآية، أما الجزاء:

ففيه قولان:

القول الأول: أن الجزاء هو قوله: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ يعني أن شدة بغضكم لي تحملكم على الإقدام على إيذائي وأنا لا أقابل ذلك الشر إلا بالتوكل على الله.

واعلم أنه عليه السلام كان أبدًا متوكلاً على الله تعالى، وهذا اللفظ يوهم أنه توكل على الله في هذه الساعة، لكن المعنى أنه إنما توكل على الله في دفع هذا الشر في هذه الساعة.

والقول الثاني: وهو قول الأكثرين إن جواب الشرط هو قوله: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ وقوله: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ كلام اعترض به بين الشرط وجوابه كما تقول في الكلام إن كنت

أنكرت علي شيئًا فالله حسبي فاعمل ما تريد، واعلم أن جواب هذا الشرط مشتمل على قيود خمسة على الترتيب:

القيد الأول: قوله: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ﴾.

وفيه بحثان:

البحث الأول: قال الفراء: الإجماع: الإعداد والعزيمة على الأمر، وأنشد:

يَا لَيتَ شِعْرِي وَالْمُنَى لاَ يَنْفَعُ هَلْ أَغْدُوَنْ يَوْمًا وَأَمْرِي مُجْمَعُ (١)

فإذا أردت جمع التفرق قلت: جمعتُ القوم فهم مجموعون، وقال أبو الهيثم: أجمع أمره، أي جعله جميعًا بعد ما كان متفرقًا، قال: وتفرقه، أي جعل يتدبره فيقول: مرة أفعل كذا ومرة أفعل كذا فلما عزم على أمر واحد فقد جمعه، أي جعله جميعًا، فهذا هو الأصل في الإجماع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ﴾[يوسف: ١٠٢] ثم صار بمعنى العزم حتى وصل بـ(على) فقيل: أجمعت على الأمر، أي عزمت عليه، والأصل أجمعت الأمر.

البحث الثاني: روى الأصمعي عن نافع (فَاجْمَعُوا أَمْرَكُم) بوصل الألف من الجمع وفيه وجهان: الأول: قال أبو علي الفارسي: فاجمعوا ذوي الأمر منكم فحذف المضاف، وجرى على المضاف إليه ما كان يجري على المضاف لو ثبت. الثاني: قال ابن الأنباري: المراد من الأمر ههنا وجوه كيدهم ومكرهم، فالتقدير: ولا تدعوا من أمركم شيئًا إلا أحضرتموه.

والقيد الثاني: قوله: ﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾.

وفيه أبحاث:

البحث الأول: الواو ههنا بمعنى مع، والمعنى: فأجمعوا أمركم مع شركائكم، ونظيره قولهم لو تركت الناقة وفصيلها لرضعها، ولو خليت نفسك والأسد لأكلك.

البحث الثاني: يحتمل أن يكون المراد من الشركاء: الأوثان التي سموها بالآلهة، ويحتمل أن يكون المراد منها من كان على مثل قولهم ودينهم، فإن كان المراد هو الأول فإنما حث الكفار على الاستعانة بالأوثان بناء على مذهبهم من أنها تضر وتنفع، وإن كان المراد هو الثاني فوجه الاستعانة بها ظاهر.

البحث الثالث: قرأ الحسن وجماعة من القراء (وشُرَكَاؤُهم) بالرفع عطفًا على الضمير المرفوع، والتقدير: فأجمعوا أنتم وشركاؤكم. قال الواحدي: وجاز ذلك من غير تأكيد الضمير كقوله: ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾[البقرة: ٣٥] لأن قوله: ﴿أَمْرَكُمْ﴾ فصل بين الضمير وبين المنسوق، فكان كالعوض من التوكيد وكان الفراء يستقبح هذه القراءة، لأنها توجب أن يكتب وشركاؤكم بالواو، وهذا الحرف غير موجود في المصاحف.

---

(١) هذا البيت لذي الرمة وقد تقدمت ترجمته.

القيد الثالث: قوله: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ قال أبو الهيثم: أي مبهمًا من قولهم غم علينا الهلال فهو مغموم: إذا التبس قال طرفة:

لَعَمْرِيَ مَا أَمْرِي عَلَيَّ بِغُمَّةٍ نَهَارِي وَلاَ لَيْلِي عَلَيَّ بِسَرْمَدِ[1]

وقال الليث: إنه لفي غمة من أمره إذا لم يهتد له. قال الزجاج: أي ليكن أمركم ظاهرًا منكشفًا.

القيد الرابع: قوله: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ﴾.

وفيه بحثان:

البحث الأول: قال ابن الأنباري: معناه ثم امضوا إلي بمكروهكم وما توعدونني به، تقول العرب: قضى فلان، يريدون مات ومضى، وقال بعضهم: قضاء الشيء إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه وبه يسمى القاضي، لأنه إذا حكم فقد فرغ فقوله: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ﴾ أي افرغوا من أمركم وامضوا ما في أنفسكم واقطعوا ما بيني وبينكم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾[الإسراء: ٤] أي أعلمناهم إعلامًا قاطعًا، قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ [الحجر: ٦٦] قال القفال رحمه الله تعالى: ومجاز دخول كلمة (إلى) في هذا الموضع من قولهم برئت إليك وخرجت إليك من العهد، وفيه معنى الإخبار فكأنه تعالى قال: ثم اقضوا ما يستقر رأيكم عليه محكمًا مفروغًا منه.

البحث الثاني: قرئ (ثُمَّ أَفْضُوا إِلَيَّ) بالفاء بمعنى ثم انتهوا إِلَيَّ بشركم، وقيل: هو من أفضى الرجل إذا خرج إلى الفضاء، أي أصحروا به إلي وأبرزوه إلي.

القيد الخامس: قوله: ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ معناه لا تمهلون بعد إعلامكم إياي ما اتفقتم عليه فهذا هو تفسير هذه الألفاظ، وقد نظم القاضي هذا الكلام على أحسن الوجوه فقال إنه عليه السلام قال: «فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ فَعَلَى اللَّه تَوَكَّلْتُ فَإِنِّي وَاثِقٌ بِوَعْدِ اللَّه جَازِمٌ بِأَنَّهُ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ وَلاَ تَظُنُّوا أَنَّ تَهْدِيدَكُمْ إِيَّايَ بِالْقَتْلِ وَالْإِيذَاءِ يَمْنَعُنِي مِنَ الدُّعَاءِ إِلَى اللَّه تَعَالَى» ثم إنه عليه السلام أورد ما يدل على صحة دعوته فقال: «فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ» فكأنه يقول لهم أجمعوا كل ما تقدرون عليه من الأسباب التي توجب حصول مطلوبكم ثم لم يقتصر على ذلك بل أمرهم أن يضموا إلى أنفسهم شركاءهم الذين كانوا يزعمون أن حالهم يقوى بمكانتهم وبالتقرب إليهم، ثم لم يقتصر على هذين بل ضم إليهما ثالثًا وهو قوله: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ وأراد أن يبلغوا فيه كل غاية في المكاشفة والمجاهرة، ثم لم يقتصر على ذلك حتى ضم إليها: رابعًا فقال: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ﴾ والمراد أن وجهوا كل تلك الشرور إلي، ثم ضم إلى ذلك خامسًا. وهو قوله: ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي عجلوا ذلك بأشد ما تقدرون عليه من غير إنظار فهذا آخر هذا الكلام ومعلوم أن مثل هذا الكلام يدل على أنه عليه السلام كان قد بلغ الغاية في التوكل على الله تعالى وأنه كان قاطعًا بأن كيدهم لا يصل إليه ومكرهم لا ينفذ فيه.

---

(١) تقدمت ترجمة طرفة.

وأما قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ فقال المفسرون: هذا إشارة إلى أنه ما أخذ منهم مالاً على دعوتهم إلى دين الله تعالى ومتى كان الإنسان فارغًا من الطمع كان قوله أقوى تأثيرًا في القلب. وعندي فيه وجه آخر وهو أن يقال: إنه عليه السلام بيَّن أنه لا يخاف منهم بوجه من الوجوه، وذلك لأن الخوف إنما يحصل بأحد شيئين إما بإيصال الشر أو بقطع المنافع، فبيَّن فيما تقدم أنه لا يخاف شرهم وبيَّن بهذه الآية أنه لا يخاف منهم بسبب أن يقطعوا عنه خيرًا، لأنه ما أخذ منهم شيئًا فكان يخاف أن يقطعوا منه خيرًا.

ثم قال: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

وفيه قولان:

الأول: أنكم سواء قبلتم دين الإسلام أو لم تقبلوا، فأنا مأمور بأن أكون على دين الإسلام.

والثاني: أني مأمور بالاستسلام لكل ما يصل إلي لأجل هذه الدعوة. وهذا الوجه أليق بهذا الموضع، لأنه لما قال: ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ﴾ بيَّن لهم أنه مأمور بالاستسلام لكل ما يصل إليه في هذا الباب، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى الكلمات التي جرت بين نوح وبين أولئك الكفار، ذكر ما إليه رجعت عاقبة تلك الواقعة، أما في حق نوح وأصحابه فأمران: أحدهما: أنه تعالى نجاهم من الكفار. الثاني: أنه جعلهم خلائف بمعنى أنهم يخلفون من هلك بالغرق، وأما في حق الكفار فهو أنه تعالى أغرقهم وأهلكهم. وهذه القصة إذا سمعها من صدق الرسول ومن كذب به كانت زجرًا للمكلفين من حيث يخافون أن ينزل بهم مثل ما نزل بقوم نوح، وتكون داعية للمؤمنين على الثبات على الإيمان، ليصلوا إلى مثل ما وصل إليه قوم نوح، وهذه الطريقة في الترغيب والتحذير إذا جرت على سبيل الحكاية عمن تقدم كانت أبلغ من الوعيد المبتدأ، وعلى هذا الوجه ذكر تعالى أقاصيص الأنبياء عليهم السلام.

وأما تفاصيل هذه القصة فهي مذكورة في سائر السور.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

اعلم أن المراد: ثم بعثنا من بعد نوح رسلاً ولم يسمهم، وكان منهم هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب صلوات الله عليهم أجمعين بالبينات، وهي المعجزات القاهرة، فأخبر تعالى عنهم أنهم جروا على منهاج قوم نوح في التكذيب، ولم يزجرهم ما بلغهم من إهلاك الله تعالى

المكذبين من قوم نوح عن ذلك، فلهذا قال: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ وليس المراد عين ما كذبوا به، لأن ذلك لم يحصل في زمانه بل المراد بمثل ما كذبوا به من البينات، لأن البينات الظاهرة على الأنبياء عليهم السلام أجمع كأنها واحدة.

ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ واحتج أصحابنا على أن الله تعالى قد يمنع المكلف عن الإيمان بهذه الآية وتقريره ظاهر. قال القاضي: الطبع غير مانع من الإيمان بدليل قوله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥] ولو كان هذا الطبع مانعًا لما صح هذا الاستثناء. والجواب: أن الكلام في هذه المسألة قد سبق على الاستقصاء في تفسير قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] فلا فائدة في الإعادة.

القصة الثانية: قصة موسى عليه السلام

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾

اعلم أن هذا الكلام غني عن التفسير وفيه سؤال واحد، وهو أن القوم لما قالوا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ فكيف حكى موسى عليه السلام أنهم قالوا: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ على سبيل الاستفهام؟ وجوابه: أن موسى عليه السلام ما حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ بل قال: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ﴾ ما تقولون، ثم حذف عنه مفعول ﴿أَتَقُولُونَ﴾ لدلالة الحال عليه، ثم قال مرة أخرى ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ وهذا استفهام على سبيل الإنكار، ثم احتج على أنه ليس بسحر، وهو قوله: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ يعني أن حاصل صنعهم تخييل وتمويه ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ وأما قلب العصا حيّة وفلق البحر، فمعلوم بالضرورة أنه ليس من باب التخييل والتمويه؛ فثبت أنه ليس بسحر.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى حكى عن فرعون وقومه أنهم لم يقبلوا دعوة موسى عليه

السلام، وعللوا عدم القبول بأمرين: الأول: قوله: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ قال الواحدي: اللفت في أصل اللغة: الصرف عن أمر، وأصله اللَّيّ يقال: لفت عنقه إذا لواها، ومن هذا يقال: التفت إليه، أي أمال وجهه إليه. قال الأزهري: لفت الشيء وفتله إذا لواه، وهذا من المقلوب.

واعلم أن حاصل هذا الكلام أنهم قالوا: لا نترك الدين الذي نحن عليه، لأنا وجدنا آباءنا عليه، فقد تمسكوا بالتقليد ودفعوا الحجة الظاهرة بمجرد الإصرار.

والسبب الثاني: في عدم القبول قوله: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال المفسرون: المعنى ويكون لكما الملك والعز في أرض مصر، والخطاب لموسى وهارون. قال الزجاج: سمى الملك كبرياء، لأنه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا، وأيضًا فالنبي إذا اعترف القوم بصدقه صارت مقاليد أمر أمته إليه، فصار أكبر القوم.

واعلم أن السبب الأول: إشارة إلى التمسك بالتقليد، والسبب الثاني: إشارة إلى الحرص على طلب الدنيا، والجد في بقاء الرياسة، ولما ذكر القوم هذين السببين صرحوا بالحكم وقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾.

واعلم أن القوم لما ذكروا هذه المعاني حاولوا بعد ذلك، وأرادوا أن يعارضوا معجزة موسى عليه السلام بأنواع من السحر، ليظهروا عند الناس أن ما أتى به موسى من باب السحر، فجمع فرعون السحرة وأحضرهم، فـ ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾.

فإن قيل: كيف أمرهم بالكفر والسحر والأمر بالكفر كفر؟

قلنا: إنه عليه السلام أمرهم بإلقاء الحبال والعصي، ليظهر للخلق أن ما أتوا به عمل فاسد وسعي باطل، لا على طريق أنه عليه السلام أمرهم بالسحر، فلما ألقوا حبالهم وعصيهم قال لهم موسى: ما جئتم به هو السحر الباطل، والغرض منه أن القوم قالوا لموسى: إن ما جئت به سحر، فذكر موسى عليه السلام أن ما ذكرتموه باطل، بل الحق أن الذي جئتم به هو السحر والتمويه الذي يظهر بطلانه، ثم أخبرهم بأن الله تعالى يحق الحق ويبطل الباطل، وقد أخبر الله تعالى في سائر السور أنه كيف أبطل ذلك السحر، وذلك بسبب أن ذلك الثعبان قد تلقف كل تلك الحبال والعصي.

المسألة الثانية: قوله: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ ما ههنا موصولة بمعنى الذي وهي مرتفعة بالابتداء، وخبرها السحر، قال الفراء: وإنما قال: ﴿ٱلسِّحْرُ﴾ بالألف واللام، لأنه جواب كلام سبق ألا ترى أنهم قالوا: لما جاءهم موسى هذا سحر، فقال لهم موسى: بل ما جئتم به السحر، فوجب دخول الألف واللام، لأن النكرة إذا عادت عادت معرفة، يقول الرجل لغيره: لقيت رجلاً فيقول له: من الرجل فيعيده بالألف واللام، ولو قال له من رجل لم يقع في فهمه أنه سأله عن الرجل الذي ذكره له. وقرأ أبو عمرو: ﴿ٱلسِّحْرُ﴾ بالاستفهام، وعلى هذه القراءة ما

استفهامية مرتفع بالابتداء، وجئتم به في موضع الخبر كأنه قيل: أي شيء جئتم به. ثم قال على وجه التوبيخ والتقريع: (آلسحر) كقوله تعالى:

﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾[المائدة: ١١٦] والسحر بدل من المبتدأ، ولزم أن يلحقه الاستفهام ليساوي المبدل منه في أنه استفهام، كما تقول: كم مالك أعشرون أم ثلاثون؟ فجعلت أعشرون بدلاً من كم، ولا يلزم أن يضمر للسحر خبر، لأنك إذا أبدلته من المبتدأ صار في موضعه وصار ما كان خبرًا عن المبدل منه خبرًا عنه.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ أي سيهلكه ويظهر فضيحة صاحبه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي لا يقويه ولا يكمله.

ثم قال: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾ ومعنى إحقاق الحق إظهارُه وتقويتُه. وقوله: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي بوعده موسى. وقيل بما سبق من قضائه وقدره، وفي كلمات الله أبحاث غامضة عميقة عالية، وقد ذكرناها في بعض مواضع من هذا الكتاب.

قوله تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾

واعلم أنه تعالى بيَّن فيما تقدم ما كان من موسى عليه السلام من المعجزات العظيمة وما ظهر من تلقف العصا لكل ما أحضروه من آلات السحر، ثم إنه تعالى بيَّن أنهم مع مشاهدة المعجزات العظيمة ما آمن به منهم إلا ذرية من قومه، وإنما ذكر تعالى ذلك تسلية لمحمدﷺ، لأنه كان يغتم بسبب إعراض القوم عنه واستمرارهم على الكفر، فبيَّن أن له في هذا الباب بسائر الأنبياء أسوة، لأن الذي ظهر من موسى عليه السلام كان في الإعجاز في مرأى العين أعظم، ومع ذلك فما آمن به منهم إلا ذرية. واختلفوا في المراد بالذرية على وجوه:

الأول: أن الذرية ههنا معناها تقليل العدد. قال ابن عباس: لفظ الذرية يعبر به عن القوم على وجه التحقير والتصغير، ولا سبيل إلى حمله على التقدير على وجه الإهانة في هذا الموضع فوجب حمله على التصغير بمعنى قلة العدد.

الثاني: قال بعضهم: المراد أولاد من دعاهم، لأن الآباء استمروا على الكفر، إما لأن قلوب الأولاد ألين أو دواعيهم على الثبات على الكفر أخف.

الثالث: أن الذرية قوم كان آباؤهم من قوم فرعون وأمهاتهم من بني إسرائيل.

الرابع: الذرية من آل فرعون آسية امرأة فرعون وخازنه وامرأة خازنه وماشطتها. وأما الضمير في قوله: ﴿مِّن قَوْمِهِۦ﴾ فقد اختلفوا أن المراد من قوم موسى أو من قوم فرعون، لأن ذكرهما جميعًا قد تقدم والأظهر أنه عائد إلى موسى، لأنه أقرب المذكورين ولأنه نقل أن الذين آمنوا به كانوا من بني إسرائيل.

أما قوله: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ .

ففيه أبحاث:

البحث الأول: أن أولئك الذين آمنوا بموسى كانوا خائفين من فرعون جدًّا، لأنه كان شديد البطش وكان قد أظهر العداوة مع موسى، فإذا علم ميل القوم إلى موسى كان يبالغ في إيذائهم، فلهذا السبب كانوا خائفين منه.

البحث الثاني: إنما قال: ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ مع أن فرعون واحد لوجوه: الأول: أنه قد يعبر عن الواحد بلفظ الجمع، والمراد التعظيم قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩] الثاني: أن المراد بفرعون آل فرعون. الثالث: أن هذا من باب حذف المضاف كأنه أريد بفرعون آل فرعون.

ثم قال: ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ أي يصرفهم عن دينهم بتسليط أنواع البلاء عليهم.

ثم قال: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي لغالب فيها قاهر ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ قيل: المراد أنه كثير القتل كثير التعذيب لمن يخالفه في أمر من الأمور، والغرض منه بيان السبب في كون أولئك المؤمنين خائفين، وقيل: إنما كان مسرفًا لأنه كان من أخس العبيد فادعى الإلهية.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: أن قوله: ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ جزاء معلق على شرطين: أحدهما متقدم والآخر متأخر، والفقهاء قالوا: المتأخر يجب أن يكون متقدمًا والمتقدم يجب أن يكون متأخرًا ومثاله أن يقول الرجل لامرأته: إن دخلت الدار فأنت طالق إن كلمت زيدًا وإنما كان الأمر كذلك، لأن مجموع قوله: إن دخلت الدار فأنت طالق، صار مشروطًا بقوله: إن كلمت زيدًا، والمشروط متأخر عن الشرط، وذلك يقتضي أن يكون المتأخر في اللفظ متقدمًا في المعنى، وأن يكون المتقدم في اللفظ متأخرًا في المعنى، والتقدير: كأنه يقول لامرأته حال ما كلمت زيدًا: إن دخلت الدار فأنت طالق، فلو حصل هذا التعليق قبل إن كلمت زيدًا لم يقع الطلاق.

إذا عرفت هذا فنقول: قوله: ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ يقتضي أن يكون كونهم مسلمين شرطًا لأن يصيروا مخاطبين بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ فكأنه تعالى يقول للمسلم حال إسلامه إن كنت من المؤمنين بالله فعلى الله توكل، والأمر كذلك، لأن

الإسلام عبارة عن الاستسلام، وهو إشارة إلى الانقياد للتكاليف الصادرة عن الله تعالى وإظهار الخضوع وترك التمرد، وأما الإيمان فهو عبارة عن صيرورة القلب عارفًا بأن واجب الوجود لذاته واحد وأن ما سواه محدث مخلوق تحت تدبيره وقهره وتصرفه، وإذا حصلت هاتان الحالتان فعند ذلك يفوض العبد جميع أموره إلى الله تعالى ويحصل في القلب نور التوكل على الله فهذه الآية من لطائف الأسرار، والتوكل على الله عبارة عن تفويض الأمور بالكلية إلى الله تعالى والاعتماد في كل الأحوال على الله تعالى.

واعلم أن من توكل على الله في كل المهمات كفاه الله تعالى كل الملمات لقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

المسألة الثانية: أن هذا الذي أمر موسى قومه به وهو التوكل على الله هو الذي حكاه الله تعالى عن نوح عليه السلام أنه قال: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يونس: ٧١] وعند هذا يظهر التفاوت بين الدرجتين لأن نوحًا عليه السلام وصف نفسه بالتوكل على الله تعالى، وموسى عليه السلام أمر قومه بذلك فكان نوح عليه السلام تامًّا، وكان موسى عليه السلام فوق التمام.

المسألة الثالثة: إنما قال: ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟﴾ ولم يقل توكلوا عليه، لأن الأول يفيد الحصر كأنه عليه السلام أمرهم بالتوكل عليه ونهاهم عن التوكل على الغير، والأمر كذلك، لأنه لما ثبت أن كل ما سواه فهو مُلْكه ومِلْكه وتحت تصرفه وتسخيره وتحت حكمه وتدبيره، امتنع في العقل أن يتوكل الإنسان على غيره، فلهذا السبب جاءت هذه الكلمة بهذه العبارة، ثم بيَّن تعالى أن موسى عليه السلام لما أمرهم بذلك قبلوا قوله: ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي توكلنا عليه، ولا نلتفت إلى أحد سواه، ثم لما فعلوا ذلك اشتغلوا بالدعاء، فطلبوا من الله تعالى شيئين: أحدهما: أن قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ وفيه وجوه:

الأول: أن المراد لا تفتن بنا فرعون وقومه؛ لأنك لو سلطتهم علينا لوقع في قلوبهم أنا لو كنا على الحق لما سلطتهم علينا، فيصير ذلك شبهة قوية في إصرارهم على الكفر فيصير تسليطهم علينا فتنة لهم.

الثاني: أنك لو سلطتهم علينا لاستوجبوا العقاب الشديد في الآخرة وذلك يكون فتنة لهم.

الثالث: ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ أي موضع فتنة لهم، أي موضع عذاب لهم.

الرابع: أن يكون المراد من الفتنة: المفتون، لأن إطلاق لفظ المصدر على المفعول جائز، كالخلق بمعنى المخلوق، والتكوين بمعنى المكون، والمعنى: لا تجعلنا مفتونين، أي لا تمكنهم من أن يحملونا بالظلم والقهر على أن ننصرف عن هذا الدين الحق الذي قبلناه، وهذا التأويل متأكد بما ذكره الله تعالى قبل هذه الآية وهو قوله: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس: ٨٣] وأما المطلوب الثاني في هذا الدعاء فهو قوله تعالى: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

واعلم أن هذا الترتيب يدل على أنه كان اهتمام هؤلاء بأمر دينهم فوق اهتمامهم بأمر دنياهم، وذلك لأنا إن حملنا قولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على أنهم إن سلطوا على المسلمين صار ذلك شبهة لهم في أن هذا الدين باطل فتضرعوا إلى الله تعالى في أن يصون أولئك الكفار عن هذه الشبهة وقدموا هذا الدعاء على طلب النجاة لأنفسهم، وذلك يدل على أن عنايتهم بمصالح دين أعدائهم فوق عنايتهم بمصالح أنفسهم وإن حملناه على أَنْ لا يُمَكِّنَ الله تعالى أولئك الكفار من أن يحملوهم على ترك هذا الدين كان ذلك أيضًا دليلاً على أن اهتمامهم بمصالح أديانهم فوق اهتمامهم بمصالح أبدانهم وعلى جميع التقديرات فهذه لطيفة شريفة.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾

اعلم أنه لما شرح خوف المؤمنين من الكافرين وما ظهر منهم من التوكل على الله تعالى أتبعه بأن أَمَرَ موسى وهارون باتخاذ المساجد والإقبال على الصلوات، يقال: تبوأ المكان، أي اتخذه مُبَوَّأً كقوله: توطنه إذا اتخذه موطنًا، والمعنى: اجعلا بمصر بيوتًا لقومكما ومرجعًا ترجعون إليه للعبادة والصلاة.

ثم قال: ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾.

وفيه أبحاث:

البحث الأول: من الناس من قال: المراد من البيوت المساجد كما في قوله تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [النور: ٣٦] ومنهم من قال: المراد مطلق البيوت، أما الأولون فقد فسروا القبلة بالجانب الذي يستقبل في الصلاة، ثم قالوا: والمراد من قوله: ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي اجعلوا بيوتكم مساجد تستقبلونها لأجل الصلاة، وقال الفراء: واجعلوا بيوتكم قبلة، أي إلى القبلة، وقال ابن الأنباري: واجعلوا بيوتكم قبلة أي قبلاً يعني مساجد فأطلق لفظ الوحدان، والمراد الجمع، واختلفوا في أن هذه القبلة أين كانت؟ فظاهر أن لفظ القرآن لا يدل على تعيينه، إلا أنه نقل عن ابن عباس أنه قال: كانت الكعبة قبلة موسى عليه السلام. وكان الحسن يقول: الكعبة قبلة كل الأنبياء، وإنما وقع العدول عنها بأمر الله تعالى في أيام الرسول عليه السلام بعد الهجرة. وقال آخرون: كانت تلك القبلة جهة بيت المقدس. وأما القائلون بأن المراد من لفظ البيوت المذكورة في هذه الآية مطلق البيت، فهؤلاء لهم في تفسير قوله: ﴿قِبْلَةً﴾ وجهان:

الأول: المراد بجعل تلك البيوت قبلة أي متقابلة، والمقصود منه حصول الجمعية واعتضاد البعض بالبعض.

وقال آخرون: المراد: واجعلوا دوركم قبلة، أي صلوا في بيوتكم.

البحث الثاني : أنه تعالى خص موسى وهارون في أول هذه الآية بالخطاب فقال : ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ ثم عمم هذا الخطاب فقال : ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ والسبب فيه أنه تعالى أمر موسى وهارون أن يتبوآ لقومهما بيوتًا للعبادة، وذلك مما يفوض إلى الأنبياء، ثم جاء الخطاب بعد ذلك عامًّا لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها، لأن ذلك واجب على الكل، ثم خص موسى عليه السلام في آخر الكلام بالخطاب فقال : ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك لأن الغرض الأصلي من جميع العبادات حصول هذه البشارة، فخص الله تعالى موسى بها، ليدل بذلك على أن الأصل في الرسالة هو موسى عليه السلام وأن هارون تبع له .

البحث الثالث : ذكر المفسرون في كيفية هذه الواقعة وجوهًا ثلاثة :

الأول: أن موسى عليه السلام ومن معه كانوا في أول أمرهم مأمورين بأن يصلوا في بيوتهم خفية من الكفرة، لئلا يظهروا عليهم فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم، كما كان المؤمنون على هذه الحالة في أول الإسلام في مكة .

الثاني: قيل : إنه تعالى لما أرسل موسى إليهم أمر فرعون بتخريب مساجد بني إسرائيل ومنعهم من الصلاة، فأمرهم الله تعالى أن يتخذوا مساجد في بيوتهم ويصلوا فيها خوفًا من فرعون .

الثالث: أنه تعالى لما أرسل موسى إليهم وأظهر فرعون تلك العداوة الشديدة أمر الله تعالى موسى وهارون وقومهما باتخاذ المساجد على رغم الأعداء وتكفل تعالى أنه يصونهم عن شر الأعداء .

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

اعلم أن موسى لما بالغ في إظهار المعجزات الظاهرة القاهرة ورأى القوم مصرين على الجحود والعناد والإنكار، أخذ يدعو عليهم، ومن حق من يدعو على الغير أن يذكر أولاً سبب إقدامه على تلك الجرائم، وكان جرمهم هو أنهم لأجل حبهم الدنيا تركوا الدين، فلهذا السبب قال موسى عليه السلام : ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا﴾ والزينة : عبارة عن الصحة، والجمال، واللباس، والدواب، وأثاث البيت، والمال، وما يزيد على هذه الأشياء من الصامت والناطق .

ثم قال: ﴿لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ .

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى : قرأ حمزة والكسائي وعاصم ﴿لِيُضِلُّواْ﴾ بضم الياء، وقرأ الباقون بفتح الياء .

المسألة الثانية: احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى يضل الناس ويريد إضلالهم وتقريره من وجهين:

الأول: أن اللام في قوله: ﴿لِيُضِلُّوا﴾ لام التعليل، والمعنى: أن موسى قال يا رب العزة إنك أعطيتهم هذه الزينة والأموال لأجل أن يضلوا، فدل هذا على أنه تعالى قد يريد إضلال المكلفين.

الثاني: أنه قال: ﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فقال الله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ وذلك أيضًا يدل على المقصود. قال القاضي: لا يجوز أن يكون المراد من هذه الآية ما ذكرتم، ويدل عليه وجوه:

الأول: أنه ثبت أنه تعالى منزه عن فعل القبيح وإرادة الكفر قبيحة. **والثاني**: أنه لو أراد ذلك لكان الكفار مطيعين لله تعالى بسبب كفرهم، لأنه لا معنى للطاعة إلا الإتيان بما يوافق الإرادة ولو كانوا كذلك لما استحقوا الدعاء عليهم بطمس الأموال وشد القلوب. **والثالث**: أنا لو جوزنا أن يريد إضلال العباد، لجوزنا أن يبعث الأنبياء عليهم السلام للدعاء إلى الضلال، ولجاز أن يقوي الكذابين الضالين المضلين بإظهار المعجزات عليهم، وفيه هدم الدين وإبطال الثقة بالقرآن. **والرابع**: أنه لا يجوز أن يقول لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤] وأن يقول: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠] ثم إنه تعالى أراد الضلالة منهم وأعطاهم النعم لكي يضلوا، لأن ذلك كالمناقضة، فلا بد من حمل أحدهما على موافقة الآخر. **الخامس**: أنه لا يجوز أن يقال: إن موسى عليه السلام دعا ربه بأن يطمس على أموالهم لأجل أن لا يؤمنوا مع تشدده في إرادة الإيمان.

واعلم أنا بالغنا في تكثير هذه الوجوه في مواضع كثيرة من هذا الكتاب.

وإذا ثبت هذا فنقول: وجب تأويل هذه الكلمة، وذلك من وجوه: الأول: أن اللام في قوله ﴿لِيُضِلُّوا﴾ لام العاقبة كقوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] ولما كانت عاقبة قوم فرعون هو الضلال، وقد أعلمه الله تعالى، لا جرم عبر عن هذا المعنى بهذا اللفظ.

الثاني: أن قوله: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ أي لئلا يضلوا عن سبيلك، فحذف لا لدلالة المعقول عليه كقوله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦] والمراد أن لا تضلوا، وكقوله تعالى: ﴿قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ١٧٢] والمراد لئلا تقولوا، ومثل هذا الحذف كثير في الكلام. الثالث: أن يكون موسى عليه السلام ذكر ذلك على سبيل التعجب المقرون بالإنكار، والتقدير: كأنك آتيتهم ذلك الغرض فإنهم لا ينفقون هذه الأموال إلا فيه وكأنه قال: آتيتهم زينة وأموالاً لأجل أن يضلوا عن سبيل الله ثم حذف حرف الاستفهام كما في قول الشاعر:

كَذَبَتْكَ عَينُكَ أَمْ رَأَيتَ بِوَاسِطٍ غَلَسَ الظَّلَامِ من الرباب خيالا[1]

أراد أكذبتك فكذا ههنا. الرابع: قال بعضهم: هذه اللام لام الدعاء وهي لام مكسورة تجزم المستقبل ويفتتح بها الكلام، فيقال: ليغفر الله للمؤمنين وليعذب الله الكافرين، والمعنى ربنا ابتلهم بالضلال عن سبيلك. الخامس: أن هذه اللام لام التعليل لكن بحسب ظاهر الأمر لا في نفس الحقيقة وتقريره أنه تعالى لما أعطاهم هذه الأموال وصارت تلك الأموال سببًا لمزيد البغي والكفر، أشبهت هذه الحالة حالة من أعطى المال لأجل الإضلال فورد هذا الكلام بلفظ التعليل لأجل هذا المعنى. السادس: بينا في تفسير قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦] في أول سورة البقرة أن الضلال قد جاء في القرآن بمعنى الهلاك يقال: ضَلَّ الماءُ في اللبن أي هلك فيه.

إذا ثبت هذا فنقول: قوله: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ معناه: ليهلكوا ويموتوا، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [التوبة: ٥٥] فهذا جملة ما قيل في هذا الباب.

واعلم أنا قد أجبنا عن هذه الوجوه مرارًا كثيرة في هذا الكتاب، ولا بأس بأن نعيد بعضها في هذا المقام فنقول: الذي يدل على أن حصول الإضلال من الله تعالى وجوه: الأول: أن العبد لا يقصد إلا حصول الهداية، فلما لم تحصل الهداية بل حصل الضلال الذي لا يريده، علمنا أن حصوله ليس من العبد بل من الله تعالى.

فإن قالوا: إنه ظن بهذا الضلال أنه هدى؟ فلا جرم قد أوقعه وأدخله في الوجود فنقول: فعلى هذا يكون إقدامه على تحصيل هذا الجهل بسبب الجهل السابق، فلو كان حصول ذلك الجهل السابق بسبب جهل آخر لزم التسلسل وهو محال، فثبت أن هذه الجهالات والضلالات لا بد من انتهائها إلى جهل أول وضلال أول، وذلك لا يمكن أن يكون بإحداث العبد وتكوينه لأنه كرهه وإنما أراد ضده، فوجب أن يكون من الله تعالى. الثاني: أنه تعالى لما خلق الخلق بحيث يحبون المال والجاه حبًّا شديدًا لا يمكنه إزالة هذا الحب عن نفسه ألبتة، وكان حصول هذا الحب يوجب الإعراض عمن يستخدمه ويوجب التكبر عليه وترك الالتفات إلى قوله وذلك يوجب الكفر، فهذه الأشياء بعضها يتأدى إلى البعض تأديًا على سبيل اللزوم وجب أن يكون فاعل هذا الكفر هو الذي خلق الإنسان مجبولاً على حب المال والجاه. الثالث: وهو الحجة الكبرى أن القدرة بالنسبة إلى الضدين على السوية، فلا يترجح أحد الطرفين على الثاني إلا لمرجح، وذلك المرجح ليس من العبد وإلا لعاد الكلام فيه، فلا بد وأن يكون من الله تعالى،

---

(١) البيت ضمن قصيدة من البحر الكامل للشاعر الأخطل وهو: غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة بن عمرو، أبو مالك، من بني تغلب ١٩- ١٩٠ هـ/ ٦٤٠-٧٠٨ م.

شاعر مصقول الألفاظ، حسن الديباجة، في شعره إبداع. اشتهر في عهد بني أمية بالشام، وأكثر من مدح ملوكهم. وهو أحد الثلاثة المتفق على أنهم أشعر أهل عصرهم: جرير والفرزدق والأخطل.

وإذا كان كذلك كانت الهداية والإضلال من الله تعالى. الرابع: أنه تعالى أعطى فرعون وقومه زينة وأموالاً وقوى حب ذلك المال والجاه في قلوبهم. وأودع في طباعهم نفرة شديدة عن خدمة موسى عليه السلام والانقياد له، لا سيما وكان فرعون كالمنعم في حقه والمربي له والنفرة عن خدمة من هذا شأنه راسخة في القلوب، وكل ذلك يوجب إعراضهم عن قبول دعوة موسى عليه السلام وإصرارهم على إنكار صدقه، فثبت بالدليل العقلي أن إعطاء الله تعالى فرعون وقومه زينة الدنيا وأموال الدنيا لا بد وأن يكون موجبًا لضلالهم فثبت أن ما أشعر به ظاهر اللفظ فقد ثبت صحته بالعقل الصريح فكيف يمكن ترك ظاهر اللفظ في مثل هذا المقام وكيف يحسن حمل الكلام على الوجوه المتكلفة الضعيفة جدًّا.

إذا عرفت هذا فنقول: أما الوجه الأول: وهو حمل اللام على لام العاقبة فضعيف، لأن موسى عليه السلام ما كان عالمًا بالعواقب.

فإن قالوا: إن الله تعالى أخبره بذلك؟

قلنا: فلما أخبر الله عنهم أنهم لا يؤمنون كان صدور الإيمان منهم محالاً، لأن ذلك يستلزم انقلاب خبر الله كذبًا وهو محال، والمفضى إلى المحال محال.

وأما الوجه الثاني: وهو قولهم يحمل قوله ﴿لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ على أن المراد لئلا يضلوا عن سبيلك فنقول: إن هذا التأويل ذكره أبو علي الجبائي في تفسيره. وأقول: إنه لما شرع في تفسير قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] ثم نقل عن بعض أصحابنا أنه قرأ (فمن نفسك) على سبيل الاستفهام بمعنى الإنكار، ثم إنه استبعد هذه القراءة وقال إنها تقتضي تحريف القرآن وتغييره وتفتح باب تأويلات الباطنية وبالغ في إنكار تلك القراءة وهذا الوجه الذي ذكره ههنا شر من ذلك، لأنه قلب النفي إثباتًا والإثبات نفيًا وتجويزه يفتح باب أن لا يبقى الاعتماد على القرآن لا في نفيه ولا في إثباته وحينئذ يبطل القرآن بالكلية هذا بعينه هو الجواب عن قوله المراد منه الاستفهام بمعنى الإنكار، فإن تجويزه يوجب تجويز مثله في سائر المواطن، فلعله تعالى إنما قال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣] على سبيل الإنكار والتعجب وأما بقية الجوابات فلا يخفى ضعفها.

ثم إنه تعالى حكى عن موسى عليه السلام أنه قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ وذكرنا معنى الطمس عند قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ [النساء: ٤٧] والطمس: هو المسخ. قال ابن عباس رضي الله عنهما: بلغنا أن الدراهم والدنانير، صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحًا وأنصافًا وأثلاثًا، وجعل سكرهم حجارة.

ثم قال: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ومعنى الشد على القلوب الاستيثاق منها حتى لا يدخلها الإيمان. قال الواحدي: وهذا دليل على أن الله تعالى يفعل ذلك بمن يشاء، ولولا ذلك لما حسن من موسى عليه السلام هذا السؤال.

ثم قال: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ وفيه وجهان:

أحدهما: أنه يجوز أن يكون معطوفًا على قوله: ﴿لِيُضِلُّوا۟﴾ والتقدير: ربنا ليضلوا عن سبيلك فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، وقوله: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ يكون اعتراضًا.

والثاني: يجوز أن يكون جوابًا لقوله: ﴿وَٱشْدُدْ﴾ والتقدير: اطبع على قلوبهم وقسها حتى لا يؤمنوا، فإنها تستحق ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ وفيه وجهان: الأول: قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن موسى كان يدعو وهارون كان يُؤَمِّن، فلذلك قال: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ وذلك لأن من يقول عند دعاء الداعي: آمين فهو أيضًا داع، لأن قوله: آمين تأويله استجب فهو سائل كما أن الداعي سائل أيضًا. الثاني: لا يبعد أن يكون كل واحد منهما، ذكر هذا الدعاء غاية ما في الباب أن يقال: إنه تعالى حكى هذا الدعاء عن موسى بقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا﴾ إلا أن هذا لا ينافي أن يكون هارون قد ذكر ذلك الدعاء أيضًا.

وأما قوله: ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ يعني فاستقيما على الدعوة والرسالة، والزيادة في إلزام الحجة فقد لبث نوح في قومه ألف سنة إلا قليلاً فلا تستعجلا، قال ابن جُرَيْج: إن فرعون لبث بعد هذا الدعاء أربعين سنة.

وأما قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ففيه بحثان:

البحث الأول: المعنى: لا تتبعان سبيل الجاهلين الذين يظنون أنه متى كان الدعاء مجابًا كان المقصود حاصلاً في الحال، فربما أجاب الله تعالى دعاء إنسان في مطلوبه، إلا أنه إنما يوصله إليه في وقته المقدر، والاستعجال لا يصدر إلا من الجهال، وهذا كما قال لنوح عليه السلام: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

واعلم أن هذا النهي لا يدل على أن ذلك قد صدر من موسى عليه السلام كما أن قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] لا يدل على صدور الشرك منه.

البحث الثاني: قال الزجاج: قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ﴾ موضعه جزم، والتقدير: ولا تتبعا، إلا أن النون الشديدة دخلت على النهي مؤكدة وكسرت لسكونها، وسكون النون التي قبلها فاختير لها الكسرة، لأنها بعد الألف تشبه نون التثنية، وقرأ ابن عامر (وَلاَ تَتْبِعَانِ) بتخفيف النون.

قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ

نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ
ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾

اعلم أن تفسير اللفظ في قوله: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ [الأعراف: ١٣٨] مذكور في سورة الأعراف، والمعنى: أنه تعالى لما أجاب دعاءهما أمر بني إسرائيل بالخروج من مصر في الوقت المعلوم ويسر لهم أسبابه، وفرعون كان غافلاً عن ذلك، فلما سمع أنهم خرجوا وعزموا على مفارقة مملكته خرج على عقبهم وقوله: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ أي لحقهم يقال: أتبعه حتى لحقه، وقوله: ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ البغي: طلب الاستعلاء بغير حق، والعدو: الظلم، روي أن موسى عليه السلام لما خرج مع قومه وصلوا إلى طرف البحر وقرب فرعون مع عسكره منهم، فوقعوا في خوف شديد، لأنهم صاروا بين بحر مغرق وجند مهلك، فأنعم الله عليهم بأن أظهر لهم طريقًا في البحر على ما ذكر الله تعالى هذه القصة بتمامها في سائر السور، ثم إن موسى عليه السلام مع أصحابه دخلوا وخرجوا وأبقى الله تعالى ذلك الطريق يبسًا، ليطمع فرعون وجَنوده في التمكن من العبور، فلما دخل مع جمعه أغرقه الله تعالى بأن أوصل أجزاء الماء ببعضها وأزال الفلق، فهو معنى قوله: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ وبيَّن ما كان في قلوبهم من البغي وهو محبة الإفراط في قتلهم وظلمهم، والعدو وهوتجاوز الحد، ثم ذكر تعالى أنه لما أدركه الغرق أظهر كلمة الإخلاص ظنًّا منه أنه ينجيه من تلك الآفة.

وههنا سؤالان:

السؤال الأول: أن الإنسان إذا وقع في الغرق لا يمكنه أن يتلفظ بهذا اللفظ فكيف حكى الله تعالى عنه أنه ذكر ذلك؟

والجواب: من وجهين:

الأول: أن مذهبنا أن الكلام الحقيقي هو كلام النفس لا كلام اللسان، فهو إنما ذكر هذا الكلام بالنفس، لا بكلام اللسان، ويمكن أن يستدل بهذه الآية على إثبات كلام النفس لأنه تعالى حكى عنه أنه قال هذا الكلام، وثبت بالدليل أنه ما قاله باللسان، فوجب الاعتراف بثبوت كلام غير كلام اللسان وهو المطلوب.

الثاني: أن يكون المراد من الغرق مقدماته.

السؤال الثاني: أنه آمن ثلاث مرات أولها قوله: ﴿ءَامَنتُ﴾ وثانيها قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وثالثها قوله: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فما السبب في عدم القبول والله تعالى متعال عن أن يلحقه غيظ وحقد حتى يقال: إنه لأجل ذلك الحقد لم يقبل منه هذا الإقرار؟

والجواب: العلماء ذكروا فيه وجوهًا:

الوجه الأول: أنه إنما آمن عند نزول العذاب، والإيمان في هذا الوقت غير مقبول، لأن عند نزول العذاب يصير الحال وقت الإلجاء، وفي هذا الحال لا تكون التوبة مقبولة، ولهذا السبب قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥].

الوجه الثاني: هو أنه إنما ذكر هذه الكلمة ليتوسل بها إلى دفع تلك البلية الحاضرة والمحنة الناجزة، فما كان مقصوده من هذه الكلمة الإقرار بوحدانية الله تعالى، والاعتراف بعزة الربوبية وذلة العبودية، وعلى هذا التقدير فما كان ذكر هذه الكلمة مقرونًا بالإخلاص، فلهذا السبب ما كان مقبولاً.

الوجه الثالث: هو أن ذلك الإقرار كان مبنيًا على محض التقليد، ألا ترى أنه قال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فكأنه اعترف بأنه لا يعرف الله، إلا أنه سمع من بني إسرائيل أن للعالم إلهًا، فهو أقر بذلك الإله الذي سمع من بني إسرائيل أنهم أقروا بوجوده، فكان هذا محض التقليد، فلهذا السبب لم تصر الكلمة مقبولة منه، ومزيد التحقيق فيه أن فرعون على ما بيناه في سورة طه كان من الدهرية، وكان من المنكرين لوجود الصانع تعالى، ومثل هذا الاعتقاد الفاحش لا تزول ظلمته، إلا بنور الحجج القطعية، والدلائل اليقينية، وأما بالتقليد المحض فهو لا يفيد، لأنه يكون ضمًّا لظلمة التقليد إلى ظلمة الجهل السابق.

الوجه الرابع: رأيت في بعض الكتب أن بعض أقوام من بني إسرائيل لما جاوزوا البحر اشتغلوا بعبادة العجل، فلما قال فرعون ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ انصرف ذلك إلى العجل الذي آمنوا بعبادته في ذلك الوقت، فكانت هذه الكلمة في حقه سببًا لزيادة الكفر.

الوجه الخامس: أن اليهود كانت قلوبهم مائلة إلى التشبيه والتجسيم ولهذا السبب اشتغلوا بعبادة العجل لظنهم أنه تعالى حل في جسد ذلك العجل ونزل فيه، فلما كان الأمر كذلك وقال فرعون ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فكأنه آمن بالإله الموصوف بالجسمية والحلول والنزول، وكل من اعتقد ذلك كان كافرًا فلهذا السبب ما صح إيمان فرعون.

الوجه السادس: لعل الإيمان إنما كان يتم بالإقرار بوحدانية الله تعالى، والإقرار بنبوة موسى عليه السلام. فههنا لما أقر فرعون بالوحدانية ولم يقر بالنبوة لا جرم لم يصح إيمانه. ونظيره أن الواحد من الكفار لو قال ألف مرة أشهد أن لا إله إلا الله فإنه لا يصح إيمانه إلا إذا قال معه وأشهد أن محمدًا رسول الله، فكذا ههنا.

الوجه السابع: روى صاحب (الكشاف) أن جبريل عليه السلام أتى فرعون بفتيا فيها: ما قول الأمير في عبد نشأ في مال مولاه ونعمته، فكفر نعمته وجحد حقه، وادعى السيادة دونه، فكتب فرعون فيها يقول: أبو العباس الوليد بن مصعب جزاء العبد الخارج على سيده الكافر بنعمته أن يغرق في البحر، ثم إن فرعون لما غرق رفع جبريل عليه السلام فتياه إليه.

أما قوله تعالى: ﴿ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٩١﴾ .

ففيه سؤالات:

السؤال الأول: من القائل له ﴿ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ .

الجواب: الأخبار دالة على أن قائل هذا القول هو جبريل، وإنما ذكر قوله: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ في مقابلة قوله: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ومن الناس من قال: إن قائل هذا القول هو الله تعالى، لأنه ذكر بعده ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ وهذا الكلام ليس إلا كلام الله تعالى.

السؤال الثاني: ظاهر اللفظ يدل على أنه إنما لم تقبل توبته للمعصية المتقدمة والفساد السابق، وصحة هذا التعليل لا تمنع من قبول التوبة.

والجواب: مذهب أصحابنا أن قبول التوبة غير واجب عقلاً، وأحد دلائلهم على صحة ذلك هذه الآية. وأيضًا فالتعليل ما وقع بمجرد المعصية السابقة، بل بتلك المعصية مع كونه من المفسدين.

السؤال الثالث: هل يصح أن جبريل عليه السلام أخذ يملأ فمه من الطين لئلا يتوب غضبًا عليه.

والجواب: الأقرب أنه لا يصح، لأن في تلك الحالة إما أن يقال: التكليف كان ثابتًا أو ما كان ثابتًا، فإن كان ثابتًا لم يجز على جبريل عليه السلام أن يمنعه من التوبة، بل يجب عليه أن يعينه على التوبة وعلى كل طاعة، لقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢] وأيضًا فلو منعه بما ذكروه لكانت التوبة ممكنة، لأن الأخرس قد يتوب بأن يندم بقلبه ويعزم على ترك معاودة القبيح، وحينئذ لا يبقى لما فعله جبريل عليه السلام فائدة، وأيضًا لو منعه من التوبة لكان قد رضي ببقائه على الكفر، والرضا بالكفر كفر، وأيضًا فكيف يليق بالله تعالى أن يقول لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤] ثم يأمر جبريل عليه السلام بأن يمنعه من الإيمان، ولو قيل: إن جبريل عليه السلام إنما فعل ذلك من عند نفسه لا بأمر الله تعالى، فهذا يبطله قول جبريل ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤] وقوله تعالى في صفتهم: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وقوله: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧] وأما إن قيل: إن التكليف كان زائلاً عن فرعون في ذلك الوقت، فحينئذ لا يبقى لهذا الفعل الذي نسب جبريل إليه فائدة أصلاً.

ثم قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ وفيه وجوه: الأول: ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أي نلقيك بنجوة من الأرض وهي المكان المرتفع. الثاني: نخرجك من البحر ونخلصك مما وقع فيه قومك من قعر البحر، ولكن بعد أن تغرق. وقوله: ﴿بِبَدَنِكَ﴾ في موضع الحال، أي في الحال التي أنت فيه حينئذ لا روح فيك. الثالث: أن هذا وعد له بالنجاة على سبيل التهكم، كما في قوله:

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] كأنه قيل له: ننجيك لكن هذه النجاة إنما تحصل لبدنك لا لروحك، ومثل هذا الكلام قد يذكر على سبيل الاستهزاء كما يقال: نعتقك ولكن بعد الموت، ونخلصك من السجن ولكن بعد أن تموت. الرابع: قرأ بعضهم (نُنَحِّيكَ) بالحاء المهملة، أي نلقيك بناحية مما يلي البحر، وذلك أنه طرح بعد الغرق بجانب من جوانب البحر. قال كعب: رماه الماء إلى الساحل كأنه ثور.

وأما قوله: ﴿بِبَدَنِكَ﴾ ففيه وجوه: الأول: ما ذكرنا أنه في موضع الحال، أي في الحال التي كنت بدنًا محضًا من غير روح. الثاني: المراد ننجيك ببدنك كاملاً سويًا لم تتغير. الثالث: ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أي نخرجك من البحر عريانًا من غير لباس. الرابع: ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أي بدرعك، قال الليث: البدن هو الدرع الذي يكون قصير الكمين، فقوله: ﴿بِبَدَنِكَ﴾ أي بدرعك، وهذا منقول عن ابن عباس قال: كان عليه درع من ذهب يعرف بها، فأخرجه الله من الماء مع ذلك الدرع ليعرف. أقول: إن صح هذا فقد كان ذلك معجزة لموسى عليه السلام.

وأما قوله: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ ففيه وجوه: الأول: أن قومًا ممن اعتقدوا فيه الإلهية لما لم يشاهدوا غرقه كذبوا بذلك وزعموا أن مثله لا يموت، فأظهر الله تعالى أمره بأن أخرجه من الماء بصورته حتى شاهدوه وزالت الشبهة عن قلوبهم. وقيل: كان مطرحه على ممر بني إسرائيل. الثاني: لا يبعد أنه تعالى أراد أن يشاهده الخلق على ذلك الذل والمهانة بعد ما سمعوا منه قوله ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] ليكون ذلك زجرًا للخلق عن مثل طريقته، ويعرفوا أنه كان بالأمس في نهاية الجلالة والعظمة ثم آل أمره إلى ما يرون. الثالث: قرأ بعضهم (لِمَنْ خَلَقَكَ) بالقاف أي لتكون لخالقك آية كسائر آياته. الرابع: أنه تعالى لما أغرقه مع جميع قومه ثم إنه تعالى ما أخرج أحدًا منهم من قعر البحر، بل خصه بالإخراج كان تخصيصه بهذه الحالة العجيبة دالاً على كمال قدرة الله تعالى وعلى صدق موسى عليه السلام في دعوى النبوة.

وأما قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ﴾ فالأظهر أنه تعالى لما ذكر قصة موسى وفرعون وذكر حال عاقبة فرعون وختم ذلك بهذا الكلام، وخاطب به محمدًا عليه الصلاة والسلام فيكون ذلك زاجرًا لأمته عن الإعراض عن الدلائل، وباعثًا لهم على التأمل فيها والاعتبار بها، فإن المقصود من ذكر هذه القصص حصول الاعتبار، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَـٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ الطَّيِّبَـٰتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَآءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر ما وقع عليه الختم في واقعة فرعون وجنوده، ذكر أيضًا في هذه الآية ما وقع عليه الختم في أمر بني إسرائيل.

وههنا بحثان:

البحث الأول: أن قوله: ﴿بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أي: أسكناهم مكان صدق أي مكانًا محمودًا، وقوله: ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ فيه وجهان: الأول: يجوز أن يكون مبوأ صدق مصدرًا، أي بوأناهم تبوأ صدق. الثاني: أن يكون المعنى منزلاً صالحًا مرضيًا، وإنما وصف المبوأ بكونه صدقًا، لأن عادة العرب أنها إذا مدحت شيئًا أضافته إلى الصدق تقول: رجل صدق، وقدم صدق. قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: ٨٠] والسبب فيه أن ذلك الشيء إذا كان كاملاً في وقته صالحًا للغرض المطلوب منه، فكل ما يظن فيه من الخير، فإنه لا بد وأن يصدق ذلك الظن.

البحث الثاني: اختلفوا في أن المراد ببني إسرائيل في هذه الآية أهم اليهود الذين كانوا في زمن موسى عليه السلام أم الذين كانوا في زمن محمد عليه السلام.

أما القول الأول: فقد قال به قوم ودليلهم أنه تعالى لما ذكر هذه الآية عقيب قصة موسى عليه السلام كان حمل هذه الآية على أحوالهم أولى، وعلى هذا التقدير: كان المراد بقوله: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ الشام ومصر، وتلك البلاد فإنها بلاد كثيرة الخصب. قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١] والمراد من قوله: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ تلك المنافع، وأيضًا المراد منها أنه تعالى أورث بني إسرائيل جميع ما كان تحت أيدي قوم فرعون من الناطق والصامت والحرث والنسل، كما قال: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

ثم قال تعالى: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ والمراد أن قوم موسى عليه السلام بقوا على ملة واحدة ومقالة واحدة من غير اختلاف حتى قرأوا التوراة، فحينئذ تنبهوا للمسائل والمطالب ووقع الاختلاف بينهم. ثم بيَّن تعالى أن هذا النوع من الاختلاف لا بد وأن يبقى في دار الدنيا، وأنه تعالى يقضي بينهم يوم القيامة.

وأما القول الثاني: وهو أن المراد ببني إسرائيل في هذه الآية اليهود الذين كانوا في زمان محمد عليه الصلاة والسلام فهذا قال به قوم عظيم من المفسرين. قال ابن عباس: وهم قريظة والنضير وبنو قينقاع أنزلناهم منزل صدق ما بين المدينة والشام ورزقناهم من الطيبات، والمراد ما في تلك البلاد من الرطب والتمر التي ليس مثلها طيبًا في البلاد، ثم إنهم بقوا على دينهم، ولم يظهر فيهم الاختلاف حتى جاءهم العلم، والمراد من العلم القرآن النازل على محمد عليه الصلاة والسلام، وإنما سماه علمًا، لأنه سبب العلم وتسمية السبب باسم المسبب مجاز مشهور. وفي كون القرآن سببًا لحدوث الاختلاف وجهان:

الأول: أن اليهود كانوا يخبرون بمبعث محمد عليه الصلاة والسلام ويفتخرون به على سائر الناس، فلما بعثه الله تعالى كذبوه حسدًا وبغيًا وإيثارًا لبقاء الرياسة وآمن به طائفة منهم، فبهذا

الطريق صار نزول القرآن سببًا لحدوث الاختلاف فيهم .

الثاني: أن يقال : إن هذه الطائفة من بني إسرائيل كانوا قبل نزول القرآن كفارًا محضًا بالكلية وبقوا على هذه الحالة حتى جاءهم العلم، فعند ذلك اختلفوا فآمن قوم وبقي أقوام آخرون على كفرهم .

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فالمراد منه أن هذا النوع من الاختلاف لا حيلة في إزالته في دار الدنيا، وأنه تعالى في الآخرة يقضي بينهم، فيتميز المحق من المبطل والصديق من الزنديق .

قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر من قبل اختلافهم عندما جاءهم العلم أورد على رسول الله ﷺ في هذه الآية ما يقوي قلبه في صحة القرآن والنبوة، فقال تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ .

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال الواحدي: الشك في وضع اللغة: ضم بعض الشيء إلى بعض، يقال: شك الجواهر في العقد إذا ضم بعضها إلى بعض . ويقال: شككت الصيد إذا رميته فضممت يده أو رجله إلى رجله والشكائك من الهوادج: ما شك بعضها ببعض، والشكاك: البيوت المصطفة والشكائك: الأدعياء، لأنهم يشكون أنفسهم إلى قوم ليسوا منهم، أي يضمون، وشك الرجل في السلاح، إذا دخل فيه وضمه إلى نفسه وألزمه إياها، فإذا قالوا: شك فلان في الأمور أرادوا أنه وقف نفسه بين شيئين، فيجوز هذا، ويجوز هذا فهو يضم إلى ما يتوهمه شيئًا آخر خلافه .

المسألة الثانية: اختلف المفسرون: في أن المخاطب بهذا الخطاب من هو؟ فقيل: النبي عليه الصلاة والسلام . وقيل: غيره، أما من قال بالأول فاختلفوا على وجوه .

الوجه الأول: أن الخطاب مع النبي عليه الصلاة والسلام في الظاهر، والمراد غيره كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١] وكقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وكقوله: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦] ومن الأمثلة المشهورة: إياك أعني واسمعي يا جارة .

والذي يدل على صحة ما ذكرناه وجوه: الأول: قوله تعالى في آخر السورة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن

كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي﴾ [يونس: ١٠٤] فبيَّن أن المذكور في أول الآية على سبيل الرمز، هم المذكورون في هذه الآية على سبيل التصريح. الثاني: أن الرسول لو كان شاكًّا في نبوة نفسه لكان شك غيره في نبوته أولى، وهذا يوجب سقوط الشريعة بالكلية. والثالث: أن بتقدير أن يكون شاكًّا في نبوة نفسه، فكيف يزول ذلك الشك بإخبار أهل الكتاب عن نبوته مع أنهم في الأكثر كفار، وإن حصل فيهم من كان مؤمنًا إلا أن قوله ليس بحجة لا سيما وقد تقرر أن ما في أيديهم من التوراة والإنجيل، فالكل مصحف محرف، فثبت أن الحق هو أن الخطاب، وإن كان في الظاهر مع الرسول ﷺ إلا أن المراد هو الأمة، ومثل هذا معتاد، فإن السلطان الكبير إذا كان له أمير، وكان تحت راية ذلك الأمير جمع، فإذا أراد أن يأمر الرعية بأمر مخصوص، فإنه لا يوجه خطابه عليهم، بل يوجه ذلك الخطاب على ذلك الأمير الذي جعله أميرًا عليهم، ليكون ذلك أقوى تأثيرًا في قلوبهم.

الوجه الثاني: أنه تعالى علم أن الرسول لم يشك في ذلك، إلا أن المقصود أنه متى سمع هذا الكلام، فإنه يصرح ويقول: «**يَا رَبِّ لاَ أَشُكُّ وَلاَ أَطْلُبُ الْحُجَّةَ مِنْ قَوْلِ أَهْلِ الْكِتَابِ بَلْ يَكْفِينِي مَا أَنْزَلْتَهُ عَلَيَّ مِنَ الدَّلاَئِلِ الظَّاهِرَةِ**» ونظيره قوله تعالى للملائكة: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ [سبا: ٤٠] والمقصود أن يصرحوا بالجواب الحق ويقولوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ [سبا: ٤١] وكما قال لعيسى عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] والمقصود منه أن يصرح عيسى عليه السلام بالبراءة عن ذلك، فكذا ههنا.

الوجه الثالث: هو أن محمدًا عليه الصلاة والسلام كان من البشر، وكان حصول الخواطر المشوشة والأفكار المضطربة في قلبه من الجائزات، وتلك الخواطر لا تندفع إلا بإيراد الدلائل وتقرير البينات، فهو تعالى أنزل هذا النوع من التقريرات حتى أن بسببها تزول عن خاطره تلك الوساوس، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ [هود: ١٢] وأقول تمام التقرير في هذا الباب أن قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ فافعل كذا وكذا قضية شرطية والقضية الشرطية لا إشعار فيها ألبتة بأن الشرط وقع أو لم يقع. ولا بأن الجزاء وقع أو لم يقع، بل ليس فيها إلا بيان أن ماهية ذلك الشرط مستلزمة لماهية ذلك الجزاء فقط، والدليل عليه أنك إذا قلت إن كانت الخمسة زوجًا كانت منقسمة بمتساويين، فهو كلام حق، لأن معناه أن كون الخمسة زوجًا يستلزم كونها منقسمة بمتساويين، ثم لا يدل هذا الكلام على أن الخمسة زوج ولا على أنها منقسمة بمتساويين فكذا ههنا هذه الآية، تدل على أنه لو حصل هذا الشك لكان الواجب فيه هو فعل كذا وكذا، فأما أن هذا الشك وقع أو لم يقع، فليس في الآية دلالة عليه، والفائدة في إنزال هذه الآية على الرسول أن تكثير الدلائل وتقويتها مما يزيد في قوة اليقين وطمأنينة النفس وسكون الصدر، ولهذا السبب أكثر الله في كتابه من تقرير دلائل التوحيد والنبوة.

والوجه الرابع: في تقرير هذا المعنى أن تقول: المقصود من ذكر هذا الكلام استمالة قلوب الكفار وتقريبهم من قبول الإيمان، وذلك لأنهم طالبوه مرة بعد أخرى، بما يدل على صحة نبوته وكأنهم استحيوا من تلك المعاودات والمطالبات، وذلك الاستحياء صار مانعًا لهم عن قبول الإيمان فقال تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ من نبوتك فتمسك بالدلائل القلائل، يعني أولى الناس بأن لا يشك في نبوته هو نفسه، ثم مع هذا إن طلب هو من نفسه دليلاً على نبوة نفسه بعد ما سبق من الدلائل الباهرة والبينات القاهرة فإنه ليس فيه عيب ولا يحصل بسببه نقصان، فإذا لم يستقبح منه ذلك في حق نفسه فلأن لا يستقبح من غيره طلب الدلائل كان أولى، فثبت أن المقصود بهذا الكلام استمالة القوم وإزالة الحياء عنهم في تكثير المناظرات.

الوجه الخامس: أن يكون التقدير أنك لست شاكًا ألبتة ولو كنت شاكًا لكان لك طرق كثيرة في إزالة ذلك الشك كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] والمعنى أنه لو فرض ذلك الممتنع واقعًا، لزم منه المحال الفلاني فكذا ههنا. ولو فرضنا وقوع هذا الشك فارجع إلى التوراة والإنجيل لتعرف بهما أن هذا الشك زائل وهذه الشبهة باطلة.

الوجه السادس: قال الزجاج: إن الله خاطب الرسول في قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ وهو شامل للخلق وهو كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١] قال: وهذا أحسن الأقاويل، قال القاضي: هذا بعيد؛ لأنه متى كان الرسول داخلاً تحت هذا الخطاب فقد عاد السؤال، سواء أريد معه غيره أو لم يرد، وإن جاز أن يراد هو مع غيره، فما الذي يمنع أن يراد بانفراده كما يقتضيه الظاهر، ثم قال: ومثل هذا التأويل يدل على قلة التحصيل.

الوجه السابع: هو أن لفظ (إن) في قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ للنفي أي ما كنت في شك قبل يعني لا نأمرك بالسؤال لأنك شاك لكن لتزداد يقينًا كما ازداد إبراهيم عليه السلام بمعاينة إحياء الموتى يقينًا.

وأما الوجه الثاني: وهو أن يقال هذا الخطاب ليس مع الرسول فتقريره أن الناس في زمانه كانوا فرقًا ثلاثة، المصدقون به والمكذبون له والمتوقفون في أمره الشاكون فيه، فخاطبهم الله تعالى بهذا الخطاب فقال: إن كنت أيها الإنسان في شك مما أنزلنا إليك من الهدى على لسان محمد فاسأل أهل الكتاب ليدلوك على صحة نبوته، وإنما وحد الله تعالى ذلك وهو يريد الجمع، كما في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾ [الانفطار: ٦، ٧] و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ [الانشقاق: ٦] وقوله: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ﴾ [الزمر: ٤٩] ولم يرد في جميع هذه الآيات إنسانًا بعينه، بل المراد هو الجماعة فكذا ههنا، ولما ذكر الله تعالى لهم ما يزيل ذلك الشك عنهم حذرهم من أن يلحقوا بالقسم الثاني وهم المكذبون فقال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

المسألة الثالثة: اختلفوا في أن المسئول منه في قوله: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ من

هم؟ فقال المحققون: هم الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبدالله بن سلام، وعبدالله بن صوريا، وتميم الداري، وكعب الأحبار لأنهم هم الذين يوثق بخبرهم، ومنهم من قال: الكل سواء كانوا من المسلمين أو من الكفار، لأنهم إذا بلغوا عدد التواتر ثم قرأوا آية من التوراة والإنجيل، وتلك الآية دالة على البشارة بمقدم محمد ﷺ فقد حصل الغرض.

فإن قيل: إذا كان مذهبكم أن هذه الكتب قد دخلها التحريف والتغيير، فكيف يمكن التعويل عليها.

قلنا: إنهم إنما حرفوها بسبب إخفاء الآيات الدالة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام فإن بقيت فيها آيات دالة على نبوته كان ذلك من أقوى الدلائل على صحة نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، لأنها لما بقيت مع توفر دواعيهم على إزالتها دل ذلك على أنها كانت في غاية الظهور، وأما أن المقصود من ذلك السؤال معرفة أي الأشياء، ففيه قولان: الأول: أنه القرآن ومعرفة نبوة الرسول ﷺ. والثاني: أنه رجع ذلك إلى قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ [يونس: ٩٣] والأول أولى، لأنه هو الأهم والحاجة إلى معرفته أتم. واعلم أنه تعالى لما بين هذا الطريق قال بعده: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي فاثبت ودم على ما أنت عليه من انتفاء المرية عنك، وانتفاء التكذيب بآيات الله، ويجوز أن يكون ذلك على طريق التهييج وإظهار التشدد ولذلك قال عليه الصلاة والسلام عند نزوله «**لا أشك ولا أسأل بل أشهد أنه الحق**»

ثم قال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

واعلم أن فرق المكلفين ثلاثة: إما أن يكون من المصدقين بالرسول، أو من المتوقفين في صدقه، أو من المكذبين، ولا شك أن أمر المتوقف أسهل من أمر المكذب، لا جرم قد ذكر المتوقف بقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ ثم أتبعه بذكر المكذب، وبيَّن أنه من الخاسرين، ثم إنه تعالى لما فصل هذا التفصيل، بيَّن أن له عبادًا قضى عليهم بالشقاء فلا يتغيرون، وعبادًا قضى لهم بالكرامة فلا يتغيرون، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ نافع وابن عامر: (كلمات) على الجمع، وقرأ الباقون: (كلمة) على لفظ الواحد، وأقول إنها كلمات بحسب الكثرة النوعية أو الصنفية، وكلمة واحدة بحسب الواحدة الجنسية.

المسألة الثانية: المراد من هذه الكلمة حكم الله بذلك وإخباره عنه، وخلقه في العبد مجموع القدرة والداعية، الذي هو موجب لحصول ذلك الأثر، أما الحكم والإخبار والعلم فظاهر، وأما مجموع القدرة والداعي فظاهر أيضًا، لأن القدرة لما كانت صالحة للطرفين لم يترجح أحد الجانبين على الآخر إلا لمرجح، وذلك المرجح من الله تعالى قطعًا للتسلسل، وعند حصول

هذا المجموع يجب الفعل، وقد احتج أصحابنا بهذه الآية على صحة قولهم في إثبات القضاء اللازم والقدر الواجب وهو حق وصدق ولا محيص عنه.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ والمراد أنهم لا يؤمنون ألبتة، ولو جاءتهم الدلائل التي لا حد لها ولا حصر، وذلك لأن الدليل لا يهدي إلا بإعانة الله تعالى فإذا لم تحصل تلك الإعانة ضاعت تلك الدلائل.

القصة الثالثة

من القصص المذكورة في هذه السورة، قصة يونس عليه السلام

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾.

اعلم أنه تعالى لما بيّن من قبل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] أتبعه بهذه الآية، لأنها دالة على أن قوم يونس آمنوا بعد كفرهم وانتفعوا بذلك الإيمان، وذلك يدل على أن الكفار فريقان: منهم من حكم عليه بخاتمة الكفر، ومنهم من حكم عليه بخاتمة الإيمان وكل ما قضى الله به فهو واقع.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في كلمة ﴿فَلَوْلَا﴾

في هذه الآية طريقان:

الطريق الأول: أن معناه النفي، روى الواحدي في (البسيط) قال: قال أبو مالك: صاحب ابن عباس: كل ما في كتاب الله تعالى من ذكر لولا، فمعناه هلا، إلا حرفين: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ معناه فما كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها، وكذلك ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [هود: ١١٦] معناه: فما كان من القرون، فعلى هذا تقدير الآية، فما كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس. وانتصب قوله: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ على أنه استثناء منقطع عن الأول، لأن أول الكلام جرى على القرية، وإن كان المراد أهلها ووقع استثناء القول من القرية، فكان كقوله: «**وَمَا بِالرَّبْعِ مِنْ أحد . . . ألا أواري**». وقرئ أيضًا بالرفع على البدل.

الطريق الثاني: أن (لولا) معناه هلا، والمعنى هلا كانت قرية واحدة من القرى التي أهلكناها تابت عن الكفر وأخلصت في الإيمان قبل معاينة العذاب إلا قوم يونس. وظاهر اللفظ يقتضي استثناء قوم يونس من القرى، إلا أن المعنى استثناء قوم يونس من أهل القرى، وهو استثناء منقطع بمعنى ولكن قوم يونس لما آمنوا فعلنا بهم كذا وكذا.

المسألة الثانية: روي أن يونس عليه السلام بعث إلى نينوى من أرض الموصل فكذبوه فذهب عنهم مغاضبًا، فلما فقدوه خافوا نزول العقاب، فلبسوا المسوح وعجوا أربعين ليلة، وكان يونس قال لهم: إن أجلكم أربعون ليلة. فقالوا: إن رأينا أسباب الهلاك آمنا بك، فلما مضت خمس وثلاثون ليلة ظهر في السماء غيم أسود شديد السواد، فظهر منه دخان شديد وهبط ذلك الدخان حتى وقع في المدينة وسَوَّد سطوحهم فخرجوا إلى الصحراء، وفرقوا بين النساء والصبيان وبين الدواب وأولادها فحن بعضها إلى بعض فعلت الأصوات، وكثرت التضرعات وأظهروا الإيمان والتوبة وتضرعوا إلى الله تعالى فرحمهم وكشف عنهم، وكان ذلك اليوم يوم عاشوراء يوم الجمعة، وعن ابن مسعود بلغ من توبتهم أن يردوا المظالم حتى إن الرجل كان يقلع الحجر بعد أن وضع عليه بناء أساسه فيرده إلى مالكه، وقيل خرجوا إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا: قد نزل بنا العذاب فما ترى؟ فقال لهم: قولوا يا حي حين لا حي. ويا حي يا محيي الموتى ويا حي لا إله إلا أنت، فقالوا فكشف الله العذاب عنهم، وعن الفضل بن عباس أنهم قالوا: اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم منها وأجل افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله.

المسألة الثالثة: إن قال قائل: إنه تعالى حكى عن فرعون أنه تاب في آخر الأمر ولم يَقْبَل توبته وحكى عن قوم يونس أنهم تابوا وقَبِلَ توبتهم فما الفرق؟

والجواب: أن فرعون إنما تاب بعد أن شاهد العذاب، وأما قوم يونس فإنهم تابوا قبل ذلك فإنهم لما ظهرت لهم أمارات دلت على قرب العذاب تابوا قبل أن شاهدوا فظهر الفرق.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

اعلم أن هذه السورة من أولها إلى هذا الموضع في بيان حكاية شبهات الكفار في إنكار النبوة مع الجواب عنها، وكانت إحدى شبهاتهم أن النبي ﷺ كان يهددهم بنزول العذاب مع الكافرين، ويَعِدُ أتباعه أن الله ينصرهم ويعلي شأنهم ويقوي جانبهم، ثم إن الكفار ما رأوا ذلك فجعلوا ذلك شبهة في الطعن في نبوته، وكانوا يبالغون في استعجال ذلك العذاب على سبيل السخرية، ثم إن الله سبحانه وتعالى بيَّن أن تأخير الموعود به لا يقدح في صحة الوعد، ثم ضرب لهذا أمثلة وهي واقعة نوح وواقعة موسى عليهما السلام مع فرعون وامتدت هذه البيانات إلى هذه المقامات، ثم في هذه الآية بيَّن أن جد الرسول في دخولهم في الإيمان لا ينفع ومبالغته في تقرير الدلائل، وفي الجواب عن الشبهات لا تفيد، لأن الإيمان لا يحصل إلا بتخليق الله تعالى ومشيئته وإرشاده وهدايته، فإذا لم يحصل هذا المعنى لم يحصل الإيمان.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: احتج أصحابنا على صحة قولهم بأن جميع الكائنات بمشيئة الله تعالى، فقالوا كلمة (لو) تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره، فقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ﴾ يقتضي أنه ما حصلت تلك المشيئة وما حصل إيمان أهل الأرض بالكلية فدل هذا على أنه تعالى ما أراد إيمان الكل، أجاب الجبائي والقاضي وغيرهما بأن المراد مشيئة الإلجاء، أي لو شاء الله أن يلجئهم إلى الإيمان لقدر عليه ولصح ذلك منه، ولكنه ما فعل ذلك، لأن الإيمان الصادر من العبد على سبيل الإلجاء لا ينفعه ولا يفيده فائدة، ثم قال الجبائي: ومعنى إلجاء الله تعالى إياهم إلى ذلك، أن يعرفهم اضطرارًا أنهم لو حاولوا تركه، حال الله بينهم وبين ذلك وعند هذا لا بد وأن يفعلوا ما ألجئوا إليه كما أن من علم منا أنه إن حاول قتل ملك فإنه يمنعه منه قهرًا لم يكن تركه لذلك الفعل سببًا لاستحقاق المدح والثواب فكذا ههنا.

واعلم أن هذا الكلام ضعيف وبيانه من وجوه:

الأول: أن الكافر كان قادرًا على الكفر فهل كان قادرًا على الإيمان، أو ما كان قادرًا عليه؟ فإن قدر على الكفر ولم يقدر على الإيمان فحينئذ تكون القدرة على الكفر مستلزمة للكفر، فإذا كان خالق تلك القدرة هو الله تعالى لزم أن يقال: إنه تعالى خلق فيه قدرة مستلزمة للكفر فوجب أن يقال: إنه أراد منه الكفر، وأما إن كانت القدرة صالحة للضدين كما هو مذهب القوم، فرجحان أحد الطرفين على الآخر إن لم يتوقف على المرجح فقد حصل الرجحان لا لمرجح وهذا باطل، وإن توقف على مرجح فذلك المرجح إما أن يكون من العبد أو من الله، فإن كان من العبد عاد التقسيم فيه ولزم التسلسل وهو محال، وإن كان من الله تعالى فحينئذ يكون مجموع تلك القدرة مع تلك الداعية موجبًا لذلك الكفر، فإذا كان خالق القدرة والداعية هو الله تعالى فحينئذ عاد الإلزام.

الثاني: أن قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ لا يجوز حمله على مشيئة الإلجاء، لأن النبي ﷺ ما كان يطلب أن يحصل لهم إيمان لا يفيدهم في الآخرة، فبيَّن تعالى أنه لا قدرة للرسول على تحصيل هذا الإيمان، ثم قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ فوجب أن يكون المراد من الإيمان المذكور في هذه الآية هو هذا الإيمان النافع حتى يكون الكلام منتظمًا، فأما حمل اللفظ على مشيئة القهر والإلجاء فإنه لا يليق بهذا الموضع. **الثالث:** المراد بهذا الإلجاء، إما أن يكون هو أن يظهر له آيات هائلة يعظم خوفه عند رؤيتها، ثم يأتي بالإيمان عندها. وإما أن يكون المراد خلق الإيمان فيهم. والأول باطل، لأنه تعالى بيَّن فيما قبل هذه الآية أن إنزال هذه الآيات لا يفيد وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[يونس: ٩٦، ٩٧] وقال أيضًا: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[الأنعام: ١١١] وإن كان المراد هو الثاني لم يكن هذا الإلجاء إلى الإيمان، بل كان ذلك عبارة عن خلق الإيمان فيهم، ثم يقال: لكنه ما خلق

الإيمان فيهم، فدل على أنه ما أراد حصول الإيمان لهم وهذا عين مذهبنا.

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذا الكلام قال: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ والمعنى أنه لا قدرة لك على التصرف في أحد، والمقصود منه بيان أن القدرة القاهرة والمشيئة النافذة ليست إلا للحق سبحانه وتعالى.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا على صحة قولهم أنه لا حكم للأشياء قبل ورود الشرع بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قالوا وجه الاستدلال به أن الإذن عبارة عن الإطلاق في الفعل ورفع الحرج وصريح هذه الآية يدل على أنه قبل حصول هذا المعنى ليس له أن يُقْدِمَ على هذا الإيمان، ثم قالوا: والذي يدل عليه من جهة العقل وجوه: **الأول**: أن معرفة الله تعالى والاشتغال بشكره والثناء عليه لا يدل العقل على حصول نفع فيه، فوجب أن لا يجب ذلك بحسب العقل، بيان الأول أن ذلك النفع إما أن يكون عائدًا إلى المشكور أو إلى الشاكر، والأول باطل لأن في الشاهد المشكور ينتفع بالشكر فيسره الشكر ويسوءه الكفران، فلا جرم كان الشكر حسنًا والكفران قبيحًا، أما الله سبحانه فإنه لا يسره الشكر ولا يسوءه الكفران، فلا ينتفع بهذا الشكر أصلاً. والثاني: أيضًا باطل لأن الشاكر يتعب في الحال بذلك الشكر ويبذل الخدمة مع أن المشكور لا ينتفع به ألبتة ولا يمكن أن يقال: إن ذلك الشكر علة الثواب، لأن الاستحقاق على الله تعالى محال، فإن الاستحقاق على الغير إنما يعقل إذا كان ذلك الغير بحيث لو لم يعط لأوجب امتناعه من إعطاء ذلك الحق حصول نقصان في حقه، ولما كان الحق سبحانه منزهًا عن النقصان والزيادة لم يعقل ذلك في حقه، فثبت أن الاشتغال بالإيمان وبالشكر، لا يفيد نفعًا بحسب العقل المحض وما كان كذلك امتنع أن يكون العقل موجبًا له، فثبت بهذا البرهان القاطع صحة قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قال القاضي: المراد أن الإيمان لا يصدر عنه إلا بعلم الله أو بتكليفه أو بإقداره عليه.

وجوابنا: أن حمل الإذن على ما ذكرتم ترك للظاهر وذلك لا يجوز، لا سيما وقد بينا أن الدليل القاطع العقلي يقوي قولنا.

المسألة الثالثة: قرأ أبو بكر عن عاصم (ونجعل) بالنون، وقرأ الباقون بالياء كناية عن اسم الله تعالى.

المسألة الرابعة: احتج أصحابنا على صحة قولهم بأن خالق الكفر والإيمان هو الله تعالى بقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وتقريره أن الرجس قد يراد به العمل القبيح قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] والمراد من الرجس ههنا العمل القبيح، سواء كان كفرًا أو معصية، وبالتطهير نقل العبد من رجس الكفر والمعصية إلى طهارة الإيمان والطاعة، فلما ذكر الله تعالى فيما قبل هذه الآية أن الإيمان لا يحصل إلا بمشيئة الله تعالى وتخليقه، ذكر بعده أن الرجس لا يحصل إلا بتخليقه

وتكوينه. والرجس الذي يقابل الإيمان ليس إلا الكفر، فثبت دلالة هذه الآية على أن الكفر والإيمان من الله تعالى.

أجاب أبو علي الفارسي النحوي عنه فقال: الرجس، يحتمل وجهين آخرين: أحدهما: أن يكون المراد منه العذاب، فقوله: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي يلحق العذاب بهم كما قال: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ [الفتح: ٦] والثاني: أنه تعالى يحكم عليهم بأنهم رجس كما قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨] والمعنى أن الطهارة الثابتة للمسلمين لم تحصل لهم.

والجواب: أنا قد بينا بالدليل العقلي أن الجهل لا يمكن أن يكون فعلاً للعبد؛ لأنه لا يريده ولا يقصد إلى تكوينه، وإنما يريد ضده، وإنما قصد إلى تحصيل ضده، فلو كان به لما حصل إلا ما قصده وأوردنا السؤالات على هذه الحجة وأجبنا عنها فيما سلف من هذا الكتاب. وأما حمل الرجس على العذاب، فهو باطل، لأن الرجس عبارة عن الفاسد المستقذر المستكره، فحمل هذا اللفظ على جهلهم وكفرهم أولى من حمله على عذاب الله مع كونه حقًا صدقًا صوابًا، وأما حمل لفظ الرجس على حكم الله برجاستهم، فهو في غاية البعد، لأن حكم الله تعالى بذلك صفته، فكيف يجوز أن يقال: إن صفة الله رجس، فثبت أن الحجة التي ذكرناها ظاهرة.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ عاصم وحمزة ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ﴾ بكسر اللام لالتقاء الساكنين والأصل فيه الكسر، والباقون بضمها نقلوا حركة الهمزة إلى اللام.

المسألة الثانية: اعلم أنه تعالى لما بيَّن في الآيات السالفة أن الإيمان لا يحصل إلا بتخليق الله تعالى ومشيئته، أمر بالنظر والاستدلال في الدلائل حتى لا يتوهم أن الحق هو الجبر المحض. فقال: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

واعلم أن هذا يدل على مطلوبين:

الأول: أنه لا سبيل إلى معرفة الله تعالى إلا بالتدبر في الدلائل كما قال عليه الصلاة والسلام: **«تَفَكَّرُوا فِي الْخَلْقِ وَلاَ تَتَفَكَّرُوا في الخالق»**.

والثاني: وهو أن الدلائل إما أن تكون من عالم السموات أو من عالم الأرض، أما الدلائل السماوية، فهي حركات الأفلاك ومقاديرها وأوضاعها وما فيها من الشمس والقمر والكواكب، وما يختص به كل واحد منها من المنافع والفوائد، وأما الدلائل الأرضية، فهي النظر في أحوال العناصر العلوية، وفي أحوال المعادن وأحوال النبات وأحوال الإنسان خاصة، ثم ينقسم كل

واحد من هذه الأجناس إلى أنواع لا نهاية لها . ولو أن الإنسان أخذ يتفكر في كيفية حكمة الله سبحانه في تخليق جناح بعوضة لانقطع عقله قبل أن يصل إلى أقل مرتبة من مراتب تلك الحكم والفوائد . ولا شك أن الله سبحانه أكثر من ذكر هذه الدلائل في القرآن المجيد، فلهذا السبب ذكر قوله : ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ولم يذكر التفصيل ، فكأنه تعالى نبه على القاعدة الكلية ، حتى إن العاقل يتنبه لأقسامها وحينئذ يشرع في تفصيل حكمة كل واحد منها بقدر القوة العقلية والبشرية ، ثم إنه تعالى لما أمر بهذا التفكر والتأمل بيّن بعد ذلك أن هذا التفكو والتدبر في هذه الآيات لا ينفع في حق من حكم الله تعالى عليه في الأزل بالشقاء والضلال ، فقال : ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ .

وفيه مسائل:

المسألة الأولى : قال النحويون : (ما) في هذا الموضع تحتمل وجهين :

الأول: أن تكون نفيًا بمعنى أن هذه الآيات والنذر لا تفيد الفائدة في حق من حكم الله عليه بأنه لا يؤمن ، كقولك : ما يغني عنك المال إذا لم تنفق .

والثاني: أن تكون استفهامًا كقولك : أي شيء يغني عنهم ، وهو استفهام بمعنى الإنكار .

المسألة الثانية : الآيات هي الدلائل ، والنذر الرسل المنذرون أو الإنذارات .

المسألة الثالثة : قرئ (وَمَا يُغْنِي) بالياء من تحت .

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

واعلم أن المعنى هل ينتظرون إلا أيامًا مثل أيام الأمم الماضية ، والمراد أن الأنبياء المتقدمين عليهم السلام كانوا يتوعدون كفار زمانهم بمجيء أيام مشتملة على أنواع العذاب ، وهم كانوا يكذبون بها ويستعجلونها على سبيل السخرية ، وكذلك الكفار الذين كانوا في زمان الرسول عليه الصلاة والسلام هكذا كانوا يفعلون . ثم إنه تعالى أمره بأن يقول لهم : ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ ثم إنه تعالى قال : ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ .

وفيه مسائل:

المسألة الأولى : قرأ الكسائي في رواية نصير (نُنْجِي) خفيفة ، وقرأ الباقون : مشددة وهما لغتان وكذلك في قوله : ﴿نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

المسألة الثانية : (ثم) حرف عطف ، وتقدير الكلام كانت عادتنا فيما مضى أن نهلكهم سريعًا ثم ننجي رسلنا .

المسألة الثالثة: لما أمر الرسول في الآية الأولى أن يوافق الكفار في انتظار العذاب ذكر التفصيل فقال: العذاب لا ينزل إلا على الكفار وأما الرسول وأتباعه فهم أهل النجاة.

ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): أي مثل ذلك الإنجاء ننصر المؤمنين ونهلك المشركين وحقًّا علينا اعتراض، يعني حق ذلك علينا حقًّا.

المسألة الثانية: قال القاضي قوله: ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ المراد به الوجوب، لأن تخليص الرسول والمؤمنين من العذاب إلى الثواب واجب ولولاه لما حسن من الله تعالى أن يلزمهم الأفعال الشاقة وإذا ثبت وجوبه لهذا السبب جرى مجرى قضاء الدين للسبب المتقدم.

والجواب: أنا نقول: إنه حق بسبب الوعد والحكم، ولا نقول: إنه حق بسبب الاستحقاق، لما ثبت أن العبد لا يستحق على خالقه شيئًا.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

واعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل على أقصى الغايات وأبلغ النهايات، أمر رسوله بإظهار دينه وبإظهار المباينة عن المشركين، لكي تزول الشكوك والشبهات في أمره وتخرج عبادة الله من طريقة السر إلى الإظهار فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ واعلم أن ظاهر هذه الآية يدل على أن هؤلاء الكفار ما كانوا يعرفون دين رسول الله ﷺ، وفي الخبر إنهم كانوا يقولون فيه قد صبأ وهو صابئ فأمر الله تعالى أن يبين لهم أنه على دين إبراهيم حنيفًا مسلمًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾[النحل: ١٢٠] ولقوله: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا﴾[الأنعام: ٧٩] ولقوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾[الكافرون: ٢] والمعنى: أنكم إن كنتم لا تعرفون ديني فأنا أبينه لكم على سبيل التفصيل ثم ذكر فيه أمورًا.

فالقيد الأول: قوله: ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وإنما وجب تقديم هذا النفي لما ذكرنا أن إزالة النقوش الفاسدة عن اللوح لا بد وأن تكون مقدمة على إثبات النقوش الصحيحة في ذلك اللوح، وإنما وجب هذا النفي لأن العبادة غاية التعظيم وهي لا تليق إلا بمن حصلت له غاية الجلال والإكرام، وأما الأوثان فإنها أحجار والإنسان أشرف حالاً منها، وكيف يليق بالأشرف أن يشتغل بعبادة الأخس.

القيد الثاني: قوله: ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ والمقصود أنه لما بين أنه يجب ترك عبادة غير الله، بيَّن أنه يجب الاشتغال بعبادة الله.

فإن قيل: ما الحكمة في ذكر المعبود الحق في هذا المقام بهذه الصفة وهي قوله: ﴿ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾.

قلنا: فيه وجوه الأول: يحتمل أن يكون المراد أني أعبد الله الذي خلقكم أولاً ثم يتوفاكم ثانيًا ثم يعيدكم ثالثًا، وهذه المراتب الثلاثة قد قررناها في القرآن مرارًا وأطوارًا فههنا اكتفى بذكر التوفي منها لكونه منبهًا على البواقي. الثاني: أن الموت أشد الأشياء مهابة، فخص هذا الوصف بالذكر في هذا المقام، ليكون أقوى في الزجر والردع. الثالث: أنهم لما استعجلوا نزول العذاب قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [يونس: ١٠٢، ١٠٣] فهذه الآية تدل على أنه تعالى يهلك أولئك الكفار ويبقي المؤمنين ويقوي دولتهم، فلما كان قريب العهد بذكر هذا الكلام لا جرم قال ههنا: ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ وهو إشارة إلى ما قرره وبيَّنه في تلك الآية كأنه يقول: أعبد ذلك الذي وعدني بإهلاكهم وبإبقائي.

والقيد الثالث: من الأمور المذكورة في هذه الآية قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ واعلم أنه لما ذكر العبادة وهي من جنس أعمال الجوارح انتقل منها إلى الإيمان والمعرفة، وهذا يدل على أنه ما لم يصر الظاهر مزينًا بالأعمال الصالحة، فإنه لا يحصل في القلب نور الإيمان والمعرفة.

والقيد الرابع: قوله: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الواو في قوله: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ حرف عطف وفي المعطوف عليه وجهان: الأول: أن قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ﴾ قائم مقام قوله: وقيل لي: كن من المؤمنين ثم عطف عليه ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ الثاني: أن قوله: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ قائم مقام قوله: ﴿وَأُمِرْتُ﴾ بإقامة الوجه، فصار التقدير وأمرت بأن أكون من المؤمنين وبإقامة الوجه للدين حنيفًا.

المسألة الثانية: إقامة الوجه كناية عن توجيه العقل بالكلية إلى طلب الدين، لأن من يريد أن ينظر إلى شيء نظرًا بالاستقصاء، فإنه يقيم وجهه في مقابلته بحيث لا يصرفه عنه لا بالقليل ولا بالكثير، لأنه لو صرفه عنه، ولو بالقليل فقد بطلت تلك المقابلة، وإذا بطلت تلك المقابلة، فقد اختل الإبصار، فلهذا السبب حسن جعل إقامة الوجه للدين كناية عن صرف العقل بالكلية إلى طلب الدين، وقوله: ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلاً إليه ميلاً كليًا معرضًا عما سواه إعراضًا كليًا، وحاصل هذا الكلام هو الإخلاص التام، وترك الالتفات إلى غيره، فقوله أولاً: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى تحصيل أصل الإيمان، وقوله: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ إشارة إلى الاستغراق في نور الإيمان والإعراض بالكلية عما سواه.

والقيد الخامس: قوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ .

واعلم أنه لا يمكن أن يكون هذا نهيًا عن عبادة الأوثان، لأن ذلك صار مذكورًا بقوله تعالى في هذه الآية: ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فوجب حمل هذا الكلام على فائدة زائدة وهو أن من عرف مولاه، فلو التفت بعد ذلك إلى غيره كان ذلك شركًا، وهذا هو الذي تسميه أصحاب القلوب بالشرك الخفي.

والقيد السادس: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ والممكن لذاته معدوم بالنظر إلى ذاته وموجود بإيجاد الحق، وإذا كان كذلك فما سوى الحق فلا وجود له إلا إيجاد الحق، وعلى هذا التقدير فلا نافع إلا الحق ولا ضار إلا الحق، فكل شيء هالك إلا وجهه وإذا كان كذلك، فلا حكم إلا لله ولا رجوع في الدارين إلا إلى الله.

ثم قال في آخر الآية: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني لو اشتغلت بطلب المنفعة والمضرة من غير الله فأنت من الظالمين، لأن الظلم عبارة عن وضع الشيء في غير موضعه، فإذا كان ما سوى الحق معزولاً عن التصرف، كانت إضافة التصرف إلى ما سوى الحق وضعًا للشيء في غير موضعه فيكون ظلمًا.

فإن قيل: فطلب الشبع من الأكل والري من الشرب هل يقدح في ذلك الإخلاص؟

قلنا: لا، لأن وجود الخبز وصفاته كلها بإيجاد الله وتكوينه، وطلب الانتفاع بشيء خلقه الله للانتفاع به لا يكون منافيًا للرجوع بالكلية إلى الله، إلا أن شرط هذا الإخلاص أن لا يقع بصر عقله على شيء من هذه الموجودات إلا ويشاهد بعين عقله أنها معدومة بذواتها وموجودة بإيجاد الحق وهالكة بأنفسها وباقية بإبقاء الحق، فحينئذ يرى ما سوى الحق عدمًا محضًا بحسب أنفسها ويرى نور وجوده وفيض إحسانه عاليًا على الكل.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه سبحانه وتعالى قرر في آخر هذه السورة أن جميع الممكنات مستندة إليه وجميع الكائنات محتاجة إليه، والعقول والهة فيه، والرحمة والجود والوجود فائض منه.

واعلم أن الشيء إما أن يكون ضارًا وإما أن يكون نافعًا، وإما أن يكون لا ضارًا ولا نافعًا، وهذان القسمان مشتركان في اسم الخير، ولما كان الضر أمرًا وجوديًا لا جرم قال فيه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ ولما كان الخير قد يكون وجوديًا وقد يكون عدميًا، لا جرم لم يذكر لفظ الإمساس فيه بل قال: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ والآية دالة على أن الضر والخير واقعان بقدرة الله تعالى وبقضائه فيدخل فيه الكفر والإيمان والطاعة والعصيان والسرور والآفات والخيرات

والآلام واللذات والراحات والجراحات، فبيَّن سبحانه وتعالى أنه إن قضى لأحد شرًّا فلا كاشف له إلا هو، وإن قضى لأحد خيرًا فلا راد لفضله ألبتة ثم في الآية دقيقة أخرى، وهي أنه تعالى رجح جانب الخير على جانب الشر من ثلاثة أوجه:

الأول: أنه تعالى لما ذكر إمساس الضر بيَّن أنه لا كاشف له إلا هو، وذلك يدل على أنه تعالى يزيل المضار، لأن الاستثناء من النفي إثبات، ولما ذكر الخير لم يقل بأنه يدفعه بل قال: إنه لا راد لفضله، وذلك يدل على أن الخير مطلوب بالذات، وأن الشر مطلوب بالعَرَض كما قال النبي ﷺ رواية عن رب العزة أنه قال: «**سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي**»(١).

الثاني: أنه تعالى قال في صفة الخير: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وذلك يدل على أن جانب الخير والرحمة أقوى وأغلب.

والثالث: أنه قال: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وهذا أيضًا يدل على قوة جانب الرحمة وحاصل الكلام في هذه الآية أنه سبحانه وتعالى بيَّن أنه منفرد بالخلق والإيجاد والتكوين والإبداع، وأنه لا موجد سواه ولا معبود إلا إياه، ثم نبه على أن الخير مراد بالذات، والشر مراد بالعَرَض وتحت هذا الباب أسرار عميقة، فهذا ما نقوله في هذه الآية.

المسألة الثانية: قال المفسرون: إنه تعالى لما بيَّن في الآية الأولى في صفة الأصنام أنها لا تضر ولا تنفع، بيَّن في هذه الآية أنها لا تقدر أيضًا على دفع الضرر الواصل من الغير، وعلى الخير الواصل من الغير. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ يعني بمرض وفقر فلا دافع له إلا هو.

وأما قوله: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ فقال الواحدي: هو من المقلوب معناه: وإن يرد بك الخير ولكنه لما تعلق كل واحد منهما بالآخر جاز إبدال كل واحد منهما بالآخر، وأقول التقديم في اللفظ يدل على زيادة العناية فقوله: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ يدل على أن المقصود هو الإنسان وسائر الخيرات مخلوقة لأجله، فهذه الدقيقة لا تستفاد إلا من هذا التركيب.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾

واعلم أنه تعالى لما قرر الدلائل المذكورة في التوحيد والنبوة والمعاد وزين آخر هذه السورة بهذه البيانات الدالة على كونه تعالى مستبدًا بالخلق والإبداع والتكوين والاختراع، ختمها بهذه الخاتمة الشريفة العالية، وفي تفسيرها وجهان: الأول: أنه من حكم له في الأزل بالاهتداء،

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في (صحيحه) (٦/ ٢٧٤٥) حديث رقم/ ٧١١٤، من طريق قتادة عن أبي رافع عن أبي هريرة. . . به. ومسلم في (صحيحه) (٤/ ٢١٠٨/ ٢٧٥١) من طريق الأعرج عن أبي هريرة. . . به. كلاهما (أبو رافع، والأعرج) عن أبي هريرة. . . به.

فسيقع له ذلك، ومن حكم له بالضلال فكذلك ولا حيلة في دفعه. الثاني: وهو الكلام اللائق بالمعتزلة، قال القاضي: إنه تعالى بيَّن أنه أكمل الشريعة وأزاح العلة وقطع المعذرة ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ فلا يجب عليَّ من السعي في إيصالكم إلى الثواب العظيم، وفي تخليصكم من العذاب الأليم أزيد مما فعلت. قال ابن عباس: هذه الآية منسوخة بآية القتال.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

ثم إنه تعالى ختم هذه الخاتمة بخاتمة أخرى لطيفة فقال: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

والمعنى: أنه تعالى أمره باتباع الوحي والتنزيل، فإن وصل إليه بسبب ذلك الاتباع مكروه فليصبر عليه إلى أن يحكم الله فيه وهو خير الحاكمين. وأنشد بعضهم في الصبر شعرًا فقال:

سَأَصْبِرُ حَتَّى يَعْجِزَ الصَّبْرُ عَنْ صَبْرِي ... وَأَصْبِرُ حَتَّى يحكم اللّه في أمري

سَأَصْبِرُ حَتَّى يَعْلَمَ الصَّبْرُ أَنَّنِي ... صَبَرْتُ عَلَى شَيْءٍ أَمَرَّ مِنَ الصَّبْرِ

تم تفسير هذه السورة، والله أعلم بمراده بأسرار كتابه بعون الله وحسن توفيقه. يقول جامع هذا الكتاب: ختمت تفسير هذه السورة يوم السبت من شهر الله الأصم رجب سنة إحدى وستمائة وكنت ضيق الصدر كثير الحزن بسبب وفاة الولد الصالح محمد أفاض الله على روحه وجسده أنواع المغفرة والرحمة، وأنا ألتمس من كل من يقرأ هذا الكتاب وينتفع به من المسلمين أن يخص ذلك المسكين بالدعاء والرحمة والغفران والحمدلله رب العالمين، وصلاته على خير خلقه محمد وآله وصحبه أجمعين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة يونس عليه السلام

سورة يونسَ عليه السلام مكيةٌ في قول الحسن وعكرمةَ وعطاءٍ وجابر. وقال ابن عباس: إلَّا ثلاثَ آياتٍ من قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ [يونس: ٩٤] إلى آخِرِهن[١].

وقال مقاتل: إلَّا آيتين، وهي قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ نزلت بالمدينة. وقال الكلبيُّ: مكيةٌ إلَّا قولَه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ [يونس: ٤٠] نزلت بالمدينة في اليهود. وقالت فرقة: نزل من أوَّلها نحوٌ من أربعين آيةً بمكةَ وباقيها بالمدينة[٢].

قوله تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الٓر﴾ قال النحاس[٣]: قرئ على أحمد بن شعيب بن علي[٤]، عن الحسين بن حُريث[٥] قال: أخبرنا علي بن الحسين، عن أبيه، عن يزيد، أنَّ عكرمة حدَّثه عن ابن عباس: الر، وحم، ونون؛ حروف الرحمن مفرَّقة، فحدَّثتُ به الأعمشَ

(١) النكت والعيون ٢/ ٤٢٠ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ١٠٢ .

(٣) في إعراب القرآن ٢/ ٢٤٣ .

(٤) في النسخ: قرئ على أبي جعفر أحمد بن شعيب. . والمثبت من إعراب القرآن، وهو الصواب، وأحمد بن شعيب هو النسائي، وهو شيخ النحاس، وأبو جعفر كنية النحاس.

(٥) في النسخ وإعراب القرآن: بن الحسين بن حريث، والصواب ما أثبتناه، والحسين بن حريث يروي عنه الجماعة سوى ابن ماجه. تهذيب الكمال ٦/ ٣٦٠ .

فقال: عندك أشباهُ هذا ولا تُخبرني به[١]؟.

وعن ابن عباس أيضاً قال: معنى «الر»: أنا الله أرى[٢]. قال النحاس[٣]: ورأيت أبا إسحاق[٤] يميل إلى هذا القول؛ لأنَّ سيبويه قد حكى مثلَه عن العرب وأنشد:

بــالــخــيــر خــيــراتٍ وإن شَــرًّا فَــا ولا أريــــد الــــشــــرَّ إلا أنْ تَــــا[٥]

وقال الحسن وعكرمة: «الر» قَسَم. وقال سعيدٌ عن قتادة: «الر» اسم السورة، قال: وكذلك كلُّ هجاءٍ في القرآن. وقال مجاهد: هي فواتح السُّوَر. وقال محمد بن يزيد: هي تنبيهٌ، وكذا حروفُ التَّهَجِّي[٦].

وقُرئ: «الر» من غير إمالة. وقُرئ بالإمالة[٧]؛ لئلَّا تُشبه «ما» و«لا» من الحروف.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ابتداء وخبر؛ أي: تلك التي جرى ذكرها آياتُ الكتاب الحكيم[٨].

قال مجاهد وقتادة: أراد التوراةَ والإنجيل والكتبَ المتقدِّمة[٩]؛ فإنَّ «تلك» إشارة إلى غائبٍ مؤنَّث.

---

(١) وأخرجه الطبري ١٢/١٠٣ - ١٠٤ ، وابن أبي حاتم ٦/١٩٢١ (١٠١٨٦) من طريق علي بن الحسين ابن واقد بالإسناد المذكور. وليس عند الطبري: فحدثت به الأعمش... وعلي بن الحسين بن واقد، صدوق يهم. كما ذكر الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب.

(٢) أخرجه الطبري ١٢/١٠٣ ، وابن أبي حاتم ٦/١٩٢١ (١٠١٨٤).

(٣) في إعراب القرآن ٢/٢٤٣ .

(٤) هو الزّجاج، وكلامه في معاني القرآن ١/٦٢ .

(٥) الكتاب ٣/٣٢١ ، ومعاني القرآن للزجاج ١/٦٣ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/٢٤٣ ، وسلف ١/٢٤٠ ، والمعنى كما ذكر سيبويه: يريد إن شرًّا فشر، ولا أريد الشر إلا أن تشاء.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/٢٤٣ .

(٧) قرأ ابن كثير وقالون وحفص «الر» بالفتح، وورش بين اللفظين، والباقون بالإمالة. التيسير ص١٢٠ ، وينظر السبعة ص٣٢٢ .

(٨) إعراب القرآن ٢/٢٤٤ .

(٩) أخرج قولهما الطبري ١٢/١٠٥ .

وقيل: «تلك» بمعنى هذه؛ أي: هذه آيات الكتاب الحكيم[١]. ومنه قول الأعشى:

تلك خَيْلي منه وتلك رِكابي هُنَّ صُفْرٌ أولادُها كالزَّبيبِ

أي: هذه خيلي[٢].

والمراد القرآن، وهو أولى بالصواب؛ لأنه لم يَجْرِ للكتب المتقدِّمة ذكر[٣]، ولأن «الحكيم» من نعت القرآن، دليلُه قوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود:١] وقد تقدَّم هذا المعنى في أوّل سورة البقرة[٤].

والحكيم: المُحْكَم بالحلال والحرام والحدود والأحكام[٥]. قاله أبو عبيدة وغيره.

وقيل: الحكيم بمعنى الحاكم، أي: إنه حاكمٌ بالحلال والحرام، وحاكمٌ بين الناس بالحقّ، فَعِيلٌ بمعنى فاعل، دليلُه قوله: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾ [البقرة:٢١٣].

وقيل: الحكيم بمعنى المحكوم فيه، أي: حكم الله فيه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وحكم فيه بالنهي عن الفحشاء والمنكر، وبالجنة لمن أطاعه، وبالنار لمن عصاه، فهو فعيل بمعنى المفعول. قاله الحسن وغيره[٦].

وقال مقاتل: الحكيم بمعنى المُحْكَم من الباطل؛ لا كذبَ فيه ولا اختلاف[٧]،

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٤٤ .

(٢) النكت والعيون ٢/ ٤٢٠ ، وسلف البيت ٢/ ١٨٥ .

(٣) تفسير الطبري ١٢/ ١٠٥ - ١٠٦ .

(٤) ١/ ٢٤٢ - ٢٤٤ .

(٥) تفسير البغوي ٢/ ٣٤٢ .

(٦) المصدر السابق.

(٧) تفسير أبي الليث ٢/ ٨٧ .

فعيل بمعنى مُفْعَل، كقول الأعشى يذكر قصيدته التي قالها:

وغريبةٍ تأتي الملوكَ حكيمةٍ قد قلتُها ليُقالَ مَن ذا قالها[١]

قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ استفهامٌ معناه التقرير والتوبيخ[٢]. و«عَجَباً» خبرُ كان، واسمُها: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾ وهو في موضع رفع؛ أي: أكان[٣] إيحاؤنا عجباً للناس.

وفي قراءة عبد الله: «عجبٌ» على أنه اسم كان. والخبر: «أَنْ أَوْحَيْنَا»[٤]. ﴿إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ وقُرئ: «رَجْل» بإسكان الجيم[٥].

وسبب النزول فيما رُويَ عن ابن عباس: أنَّ الكفارَ قالوا لمَّا بُعث محمد: إنَّ الله أعظمُ من أن يكون رسولُه بشراً. وقالوا: ما وَجَد الله مَن يرسله إلَّا يتيمَ أبي طالب! فنزلت: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ﴾ يعني أهلَ مكة ﴿عَجَبًا﴾[٦]. وقيل: إنما تعجَّبوا من ذكر البعث.

قوله تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ في موضع نصبٍ بإسقاط الخافض؛ أي: بأن أنذر الناس، وكذا: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾[٧]. وقد تقدَّم معنى النِّذارة والبِشَارة وغيرِ ذلك

---

(١) ديوان الأعشى الكبير ص٧٧.

(٢) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٣٨.

(٣) في النسخ: كان، وينظر مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٣٩، والدر المصون ٦/ ١٤٤.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٤٤، وذكر القراءة عن عبد الله أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١٠٢-١٠٣.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ١٠٣، ونسبها أبو حيان في البحر ٥/ ١٢٢ لرؤبة، ورَجُل، بضم الجيم وسكونها. القاموس (رجل).

(٦) ذكره دون نسبة الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٥، وأخرجه عن ابن عباس دون قوله: ما وجد الله من يرسله إلا يتيم أبي طالب: الطبريُّ ١٢/ ١٠٧، وابن أبي حاتم ٦/ ١٩٢٢ (١٠١٩٣).

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٤٤.

من ألفاظ الآية[(١)].

واختلف في معنى: «قَدَمَ صِدْقٍ»؛ فقال ابن عباس: «قَدَمَ صِدْقٍ»: منزلَ صدقٍ، دليلُه قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: ٨٠][(٢)]. وعنه أيضاً: أجراً حسناً بما قدَّموا من أعمالهم. وعنه أيضاً: «قَدَمَ صِدْقٍ»: سَبْقَ السعادة في الذِّكر الأول[(٣)]. وقاله مجاهد. الزجَّاج: درجة عالية[(٤)]. قال ذو الرُّمة:

لـكـم قـدَمٌ لا يُـنْـكِـر الـنـاسُ أنَّـهـا مع الحَسَبِ العالي طَمَّتْ على البحر[(٥)]

قتادة: سَلَف صدقٍ. الربيع: ثواب صدقٍ[(٦)]. عطاء: مقام صدقٍ[(٧)]. يَمَان: إيمان صدقٍ. وقيل: دعوة الملائكة. وقيل: وَلدٌ صالح قدَّموه.

الماورديّ[(٨)]: أن يُوافق صِدْقَ الطاعة صِدْقُ الجزاء.

وقال الحسن وقتادة أيضاً: هو محمدٌ ﷺ؛ فإنه شفيعٌ مُطَاعٌ يتقدَّمهم[(٩)]، كما قال: «أنا فَرَطُكم على الحوض»[(١٠)]. وقد سُئل ﷺ فقال: «هي شفاعتي توسَّلون[(١١)] بي إلى ربكم».

---

(١) ١/ ٢٨١ و ٣٥٨.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٢٧٦، وأخرجه بمعناه أحمد (١٩٤٨)، والترمذي (٣١٣٩). قال الترمذي: حسن صحيح.

(٣) أخرج هذا القول والذي قبله عن ابن عباس الطبري ١٢/ ١٠٨ - ١١٠. وذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١٠٣ القول الأخير بلفظ: هي السعادة السابقة لهم في اللوح المحفوظ.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٦ بلفظ: المنزلة الرفيعة.

(٥) ديوان ذي الرمة ٢/ ٩٧٢ برواية: العادي، بدل: العالي، والفخر، بدل: البحر، وقال الأصمعي شارح الديوان: قدم: أي سابقة تقدمت. وطمَّت: عَلَت.

(٦) أخرج قولي قتادة والربيع الطبري ١٢/ ١٠٩ و ١١١.

(٧) ذكره البغوي ٢/ ٣٤٣.

(٨) في النكت والعيون ٢/ ٤٢٢.

(٩) ذكره النحاس في معاني القرآن ٣/ ١٧٦ عن الحسن أو قتادة، وكذلك أخرجه الطبري ١٢/ ١١٠، وأخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٢٤ (١٠٢٠٤) عن الحسن من غير شك.

(١٠) سلف ٥/ ٢٥٧.

(١١) في (ظ): توسلوا، ولم نقف على هذا الخبر.

وقال الترمذيُّ الحكيم: قَدَمه ﷺ في المقام المحمود.

وعن الحسن أيضاً: مُصيبتهم في النبيِّ ﷺ[١].

وقال عبد العزيز بن يحيى: «قَدَمَ صِدْقٍ» قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

وقال مقاتل: أعمالاً قدَّموها. واختاره الطبريّ[٢]؛ قال الوضَّاح[٣]:

صلِّ لذي العرش واتَّخِذْ قَدَماً   تُنجيكَ يومَ العِثارِ والزَّلَلِ

وقيل: هو تقديمُ الله هذه الأمةَ في الحشر من القبر وفي إدخال الجنة، كما قال: «نحن الآخِرون السابقون يومَ القيامة، المقضيُّ لهم قبل الخلائق»[٤].

وحقيقتُه: أنَّه كنايةٌ عن السعي في العمل الصالح، فكنَى عنه بالقَدَم كما يُكنَى عن الإنعام باليد، وعن الثناء باللسان؛ وأنشد حسان:

لنا القَدمُ العليا إليكَ وخَلْفُنا   لأوَّلنا في طاعة الله تابعُ

يريد: السابقة بإخلاص الطاعة[٥]، والله أعلم.

وقال أبو عبيدة والكسائي: كلُّ سابقٍ من خيرٍ أو شرٍّ فهو عند العرب قَدَم؛ يقال: لفلان قَدَمٌ في الإسلام، وله عندي قَدَمُ صدقٍ وقَدَمُ شرٍّ وقَدَمُ خير. وهو مُؤنَّث وقد يُذكَّر، يقال: قَدَمٌ حَسَنٌ وقدمٌ صالحةٌ[٦].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ٦/١٩٢٣ (١٠٢٠١).

(٢) في تفسيره ١٢/١١١ ، وقول مقاتل ذكره أبو الليث ٢/٨٧ ، وقد سلف مثله عن ابن عباس قريباً.

(٣) هو وضاح اليمن، والبيت في ديوانه ص٧١ .

(٤) قطعة من حديث أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما، أخرجه مسلم (٨٥٦). ولفظة: «نحن الآخِرُون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة، المقضيّ لهم قبل الخلائق». وأخرجه أيضاً أحمد (٧٣١٠)، والبخاري (٨٩٦) عن أبي هريرة دون قوله: «المقضي لهم قبل الخلائق».

(٥) النكت والعيون ٢/٤٢٢ ، وسلف البيت ٧/٣١١ .

(٦) ذكره عن أبي عبيدة البغوي ٢/٣٤٣ ، وينظر مجاز القرآن ١/٢٧٣ .

وقال ابن الأعرابي: القَدمُ التقدُّم في الشرف[1]. قال العَجَّاج:

زلَّ بنو العوَّامِ عن آلِ الحَكَمْ وتركوا المُلْكَ لمُلْكٍ ذي قَدَمْ[2]

وفي الصِّحاح عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «لي خمسةُ أسماء: أنا محمد، وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفرَ، وأنا الحاشِرُ الذي يُحشَر الناسُ على قدمي، وأنا العاقب»[3] يريد آخِرَ الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ قرأ ابنُ مُحَيْصِن وابن كثير والكوفيون؛ عاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ والأعمشُ: «لَسَاحِرٌ» نعتاً لرسول الله ﷺ. وقرأ الباقون: «لَسِحْرٌ»[4] نعتاً للقرآن، وقد تقدَّم معنى السحرِ في «البقرة»[5].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ تقدَّم في «الأعراف»[6].

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ قال مجاهد: يقضيه ويقدِّره وحْدَه[7]. ابن عباس: لا يَشْرَكُه في

---

(١) ذكر الأزهري في تهذيب اللغة ٩/ ٤٦ قول ابن الأعرابي بلفظ: القَدْم: الشرف القديم، على مثال فَعْل.

(٢) ديوان العجاج ص١٤٩ برواية: وشنئوا، بدل: وتركوا. قال الأصمعي شارح الديوان: أبغضوا ذلك فسلموه إليهم.

(٣) صحيح البخاري (٤٨٩٦)، وصحيح مسلم (٢٣٥٤)، وهو عند أحمد (١٦٧٣٤) وهو من حديث جبير ابن مطعم ﷺ. قوله: على قدمي، قيل: على سابقتي، وقيل: على سُنَّتي، وقيل: بعدي، أي: يتبعوني إلى يوم القيامة. المفهم ٦/ ١٤٦ .

(٤) السبعة ص٣٢٢ ، والتيسير ص١٢٠ ، وقراءة ابن محيصن والأعمش في المحرر الوجيز ٣/ ١٠٣ .

(٥) ٢/ ٢٧٢ وما بعدها.

(٦) ٩/ ٢٣٧ .

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ١٠٤ ، وأخرجه الطبري ١٢/ ١١٤ - ١١٥ .

تدبيرِ خَلْقِهِ أحد[١]. وقيل: يَبعث بالأمر. وقيل: ينزل به[٢]. وقيل: يأمر به ويُمضيه[٣]، والمعنى متقارب، فجبريلُ للوحي، وميكائيلُ للقَطْرِ، وإسرافيلُ للصُّورِ، وعزرائيلُ للقبضِ. وحقيقتُه: تنزيلُ الأمور في مَرَاتبها على أحكام عَوَاقِبها، واشتقاقُه من الدُّبر[٤]. والأمر: اسمٌ لجنس الأمور.

﴿مَا مِن شَفِيعٍ﴾ في موضع رفعٍ، والمعنى: ما شفيعٌ ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾ وقد تقدَّم في «البقرة» معنى الشفاعة[٥]. فلا يَشْفعُ أحدٌ نبيٌّ ولا غيرُه إلَّا بإذنه سبحانه، وهذا ردٌّ على الكفار في قولهم فيما عبدوه من دون الله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس:١٨]، فأعلمهم الله أنَّ أحداً لا يشفع لأحدٍ إلَّا بإذنه، فكيف بشفاعة أصنامٍ لا تعقل؟!

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ أي: ذلكم الذي فَعَل هذه الأشياء، من خلق السماوات والأرض، هو ربُّكم لا ربَّ لكم غيره. ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ أي: وحِّدوه وأَخْلِصوا له العبادة. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: بمخلوقاته[٦] فتَستدلُّوا بها عليه.

قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٤﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ رفعٌ بالابتداء. ﴿جَمِيعٗاۖ﴾ نصبٌ على الحال.

---

(١) لم نقف عليه وهو بمعنى ما قبله.

(٢) في (ظ): وقيل ينزل الأمر أي ينزل به.

(٣) النكت والعيون ٢/ ٤٢٢ .

(٤) ينظر معجم مقاييس اللغة ٢/ ٣٢٤ . قال ابن فارس: والتدبير: أن يدبِّر الإنسان أمره، وذلك أنه ينظر إلى ما تصير عاقبتُه وآخِره، وهو دُبُره.

(٥) ٤/ ٢٧١ وما بعدها.

(٦) في (م): أي أنها مخلوقاته.

ومعنى الرجوعِ إلى الله: الرجوعُ إلى جزائه. ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ مصدران؛ أي: وَعَد الله ذلك وعداً وحقَّقه «حقًّا» صدقاً لا خُلْفَ فيه. وقرأ إبراهيم بن أبي عَبْلَة: «وَعْدَ الله حَقٌّ» على الاستئناف(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ أي: من التراب ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ إليه. مجاهد: يُنْشِئُه ثم يُميته ثم يُحييه للبعث(٢)؛ أو ينشئه من الماء ثم يُعيده من حال إلى حال.

وقرأ يزيد بن القَعْقَاع: «أَنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْق»(٣) تكون «أنَّ» في موضع نصب؛ أي: وَعَدَكم أنه يبدأ الخلق. ويجوز أن يكون التقدير: لأنَّه يبدأ الخلق، كما يقال: لَبَّيْكَ أنَّ الحمد والنعمة لك. والكسرُ أَجْوَد. وأجاز الفرّاء(٤) أن تكون «أنَّ» في موضع رفعٍ فتكون اسماً. قال أحمد بن يحيى: يكون التقدير: حقًّا إبداؤه الخلق.

قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أي: ماءٌ حارٌّ قد انتهى حرُّه(٥)، والحمِيمةُ مثله. يقال: حَمَمْتُ الماءَ أَحُمُّه فهو حميم، أي: محموم؛ فَعيل بمعنى مفعول. وكلُّ مُسَخَّن عند العرب فهو حميم(٦).

﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾ أي: موجِع يَخْلُص وجعُه إلى قلوبهم. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١٠٥ ، والبحر ٥/ ١٢٤ . قال ابن عطية: وقرأ ابن أبي عبلة: «حقٌّ» فهو ابتداء، وخبره: «أنه» على القراءة بفتح همزة «أنه» على ما يأتي. وقال أبو حيان: وكونُ «حقٌّ» خبر مبتدأ، و«أنه» هو المبتدأ هو الوجه في الإعراب. وقال مكي في مشكل إعراب القرآن: ١/ ٣٣٩ : وأجاز الفراء [معاني القرآن له ١/ ٤٥٧] رفع «وعد» و«حق» على الابتداء، وهو حسن، ولم يقرأ بها أحد.

(٢) تفسير مجاهد ١/ ٢٩١ ، وأخرجه الطبري ١٢/ ١١٦ ووقع في تفسير مجاهد: يخلقه، بدل: ينشئه، وفي تفسير الطبري بدلاً منها: يحييه.

(٣) وهي من العشرة. ويزيد: هو أبو جعفر، وينظر النشر ٢/ ٢٨٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٤٤ ، والكلام منه.

(٤) في معاني القرآن ١/ ٤٥٧ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٤٤ .

(٥) ينظر تفسير الطبري ٢١/ ٥٨ .

(٦) ينظر تفسير الطبري ١٢/ ١١٨ ، والصحاح (حمم).

أي: بكفرهم، وكان معظمُ قريش يعترفون بأنَّ الله خالِقُهم[١]؛ فاحتجَّ عليهم بهذا فقال: مَن قَدَر على الابتداء، قَدَر على الإعادة بعد الإفناء أو بعد تفريق الأجزاء.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ مفعولان، أي: مُضيئةً، ولم يؤنَّث لأنه مصدر، أو ذاتَ ضياء. ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ عطف، أي: منيراً، أو ذا نور، فالضياءُ ما يضيءُ الأشياء، والنورُ ما يَبِينُ فيَخْفَى؛ لأنه من النار من أصل واحد. والضياءُ جمع ضَوْء، كالسِّياط والحِياض؛ جمع سَوْط وحَوض[٢].

وقرأ قُنْبُل عن ابن كثير: «ضِئَاءً» بهمز الياء[٣]، ولا وجهَ له؛ لأنَّ ياءَه كانت واواً مفتوحةً وهي عين الفعل، أصلُها: ضِواء، فقلبت وجُعلت ياءً؛ كما جعلت في الصيام والقيام[٤].

قال المهدويُّ: ومَن قرأ: «ضِئَاءً» بالهمز، فهو مقلوب، قدِّمت الهمزةُ التي بعد الألف فصارت قبل الألف، فصار: ضِئاياً، ثم قُلبت الياءُ همزةً لوقوعها بعد ألفٍ زائدة. وكذلك إنْ قدَّرت أنَّ الياء حين تأخَّرت رجعت إلى الواو التي انقلبت عنها، فإنها تُقلب همزةً أيضاً، فوزنه فِلَاع، مقلوب من فعال[٥].

ويقال: إنَّ الشمس والقمر تضيء وجوهُهما لأهل السماوات السبع، وظهورُهما لأهل الأرضين السبع[٦].

---

(١) ينظر تفسير ابن كثير عند الآية (٦١) من سورة العنكبوت، وقال ابن كثير: كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.

(٢) الحجة للفارسي ٤/٢٥٨ ، وقال: أو يكون مصدرَ: ضاء يضوء ضياء، كقولك: عاذ عياذاً، وقام قياماً.

(٣) السبعة ص٣٢٣ ، والتيسير ص١٢٠ .

(٤) تفسير الرازي ١٧/٣٥ .

(٥) ينظر الكشف عن وجوه القراءات ١/٥١٢ - ٥١٣ .

(٦) أخرج نحوه عبد الرزاق في التفسير ٢/٣١٩ ، والطبري ٢٣/٣٠٠ .

قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ أي: ذا منازل، أو: قدَّر له منازل. ثم قيل: المعنى: وقدَّرهما، فوحَّد إيجازاً واختصاراً، كما قال: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١]. وكما قال:

نحن بما عندنا وأنتَ بما عندك راضٍ والرأيُ مختلِفُ[(١)]

وقيل: إنَّ الإخبار عن القمر وحده؛ إذ به تُحصى الشهور التي عليها العملُ في المعاملات ونحوِها، كما تقدَّم في «البقرة»[(٢)]. وفي سورة يس: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩] أي: على عدد الشهر، وهي ثمانيةٌ وعشرون منزلاً. ويومان للنُّقْصان والمَحاق[(٣)]، وهناك يأتي بيانه.

قوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ أي: عددَ السنين وحسابَ الشهور[(٤)] قال ابن عباس: لو جعل شمسين، شمساً بالنهار وشمساً بالليل ليس فيهما ظلمةٌ ولا ليل، لم يُعلم عددُ السنين وحسابُ الشهور[(٥)]. وواحدُ «السِّنين»: سَنة. ومِن العرب مَن يقول: سنوات في الجمع. ومنهم مَن يقول: سَنَهات. والتصغير سُنَيَّة وسُنَيْهة[(٦)].

قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: ما أراد الله عزَّ وجلَّ بخَلْق ذلك إلا الحكمةَ والصواب[(٧)]، وإظهاراً لصنعته وحكمته، ودلالةً على قدرته وعلمه، ولتُجزى كلُّ نفس بما كسبت، فهذا هو الحقّ.

---

(١) ص١٨٨ من هذا الجزء.

(٢) ٣/ ٢٢٨ وما بعدها. وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٤٥ .

(٣) المحاق وتثلث الميم: آخر الشهر. أو: ثلاث ليال من آخره، أو أن يستسرَّ القمر، فلا يُرى غُدوةً ولا عشيةً، سمِّي لأنه طلع مع الشمس فمحقته. القاموس (محق).

(٤) قوله: أي عدد السنين وحساب الشهور، من (ظ).

(٥) لم نقف عليه.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٤٥ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٤٦ .

قوله تعالى: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ تفصيلُ الآيات: تبيينُها ليُستدلَّ بها على قدرته تعالى؛ لاختصاص الليل بظلامه والنهار بضيائه، من غير استحقاقٍ لهما ولا إيجابٍ؛ فيكون هذا لهم دليلاً على أنَّ ذلك بإرادةِ مُريد.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص ويعقوب: «يُفَصِّل» بالياء[١]، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله مِن قبله: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ وبعده ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فيكون مُتْبَعاً له. وقرأ ابن السَّمَيْفع: «تُفَصَّل»؛ بضمِّ التاء وفتح الصاد على الفعل المجهول، و«الآياتُ» رفعاً[٢]. الباقون: «نفصِّل»[٣] بالنون على التعظيم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾

تقدَّم في «البقرة»[٤] وغيرِها معناه، والحمد لله. وقد قيل: إنَّ سبب نزولها أنَّ أهلَ مكة سألوا آية، فردَّهم إلى تأمُّل مصنوعاته والنظرِ فيها. قاله ابن عباس[٥]. ﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ أي: الشرك، فأمَّا مَن أشْرَكَ ولم يستدلَّ، فليست الآيةُ له آية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ «يرجون»: يخافون، ومنه قول الشاعر:

إذا لسعتْه النحلُ لم يَرْجُ لَسْعَها وخالَفَها في بَيْت نُوبٍ عَواسلُ[٦]

---

(١) السبعة ص٣٢٣، والتيسير ص١٢١، والنشر ٢/ ٢٨٢.

(٢) هي قراءة شاذة ولم نقف عليها.

(٣) السبعة ص٣٢٣، والتيسير ص١٢١.

(٤) ٢/ ٤٩٠ وما بعدها.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم ٦/١٩٢٨ (١٠٢٣٠).

(٦) البيت لأبي ذؤيب الهُذَلي، ووقع في (خ): عوامل، بدل: عواسل، وهي رواية له كما سلف ٣/ ٤٣٣.

وقيل: يرجون: يطعمون، ومنه قول الآخر:

أيرجو بنو مروانَ سَمْعي وطاعتي ... وقومي تميمٌ والفلاةُ ورائيا[١]

فالرجاء يكون بمعنى الخوف والطمع، أي: لا يخافون عقاباً ولا يرجون ثواباً. وجعل لقاء العذاب والثوابِ لقاءً لله تفخيماً لهما.

وقيل: يجري اللقاء على ظاهره، وهو الرؤية، أي: لا يطمعون في رؤيتنا.

وقال بعض العلماء: لا يقع الرجاء بمعنى الخوف إلا مع الجَحْد، كقوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]. وقال بعضهم: بل يقع بمعناه في كلِّ موضعٍ دلَّ عليه المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: رَضُوا بها عوضاً من الآخرة فعملوا لها. ﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ أي: فرحوا بها وسكنوا إليها، وأصل اطمأنَّ: طَأْمَن طُمأنينة، تقدَّمت ميمه، وزيدت نونٌ وألفُ وصل[٢]. ذكره الغَزْنِويّ[٣].

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا﴾ أي: عن أدلَّتنا ﴿غَافِلُونَ﴾: لا يَعتَبِرون ولا يتفكَّرون. ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ﴾ أي: مثواهم ومُقامهم. ﴿النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: من الكفر والتكذيب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: صدَّقوا. ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾ أي: يَزيدُهم هدايةً، كقوله: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧].

وقيل: يَهْديهم ربُّهم بإيمانِهم إلى مكان تجري من تحتهم الأنهار. وقال أبو رَوْق:

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٤٢٣، والبيت لسوّار بن المُضرِّب، كما في الخزانة ٣/ ١٧٦ (دار صادر).

(٢) اللسان (طمن).

(٣) هو محمد بن يزيد بن طيفور، وقد سلفت ترجمته. وينظر اللسان (طمن).

يهديهم ربُّهم بإيمانهم إلى الجنة. وقال عطية: «يَهْدِيهِمْ»: يُثيبهم ويَجزيهم.

وقال مجاهد: يَهْديهم ربُّهم بالنور على الصراط إلى الجنة؛ يجعلُ لهم نوراً يمشون به[١]. ويُروى عن النبيِّ ﷺ ما يقوِّي هذا أنه قال: «يتلقَّى المؤمنَ عملُه في أحسن صورة، فيؤنسُه ويهديه، ويتلقَّى الكافرَ عملُه في أقبح صورة، فيوحِشُه ويُضِلُّه». هذا معنى الحديث[٢].

وقال ابن جُريج: يجعل عملهم هادياً لهم[٣]. الحسن: «يهديهم»: يرحمهم[٤].

قوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ قيل: في الكلام واوٌ محذوفة؛ أي: وتجري من تحتهم[٥]، أي: من تحت بساتينهم. وقيل: من تحت أسِرَّتهم؛ وهذا أحسنُ في النزهة والفرجة.

قوله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ دعواهم، أي: دعاؤهم، والدعوى مصدرُ دعا يدعو، كالشكوى مصدرُ شكا يشكو[٦]، أي: دعاؤهم في الجنة أن يقولوا: سبحانك اللهم.

وقيل: إذا أرادوا أن يَسألوا شيئاً؛ أخرجوا السؤالَ بلفظِ التسبيح، ويختمون بالحمد[٧].

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٣٤٥ . وهو في تفسير مجاهد ١/ ٢٩٢ مختصر بلفظ: يكون لهم إيمانهم نوراً يمشون به. وكذا أخرجه الطبري ١٢/ ١٢٤ ، وذكره النحاس في معاني القرآن ٣/ ٢٧٩ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٢٧٩ ، والحديث أخرجه الطبري ١٢/ ١٢٣ من طريق قتادة عن النبي ﷺ مرسلاً. وينظر مسند أحمد (١٨٥٣٤).

(٣) النكت والعيون ٢/ ٤٢٣ ، وأخرجه الطبري مطولاً ١٢/ ١٢٤ .

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٨٩ .

(٥) ينظر البحر ٥/ ١٢٧ .

(٦) الكتاب ٤/ ٤٠ - ٤١ ، وينظر اللسان (دعا).

(٧) ذكره الواحدي في الوسيط ٢/ ٥٣٩ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقيل: نداؤهم الخدمَ ليأتوهم بما شاؤوا ثم سبَّحوا[١].

وقيل: إنَّ الدعاءَ هنا بمعنى التمنِّي؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت:٣١] أي: ما تَتمنَّوْن. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ أي: تحيَّة الله لهم، أو تحيَّة المَلَك، أو تحيَّة بعضِهم لبعض: سلام[٢]. وقد مضى في «النساء» معنى التحيةِ مستوفًى[٣]. والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **فيه أربع مسائل:**

الأولى: قيل: إنَّ أهل الجنة إذا مرَّ بهم الطيرُ واشتهَوْه قالوا: سبحانك اللهم، فيأتيهم الملك بما اشتَهوا، فإذا أكلوا حمدوا الله، فسؤالُهم بلفظِ التسبيح، والختمُ بلفظ الحمد[٤].

ولم يحكِ أبو عبيد إلا تخفيفَ «أنْ» ورفعَ ما بعدها، قال: وإنما نراهم اختاروا هذا، وفرَّقوا بينها وبين قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ﴾ و﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ﴾ [النور:٧و٩] لأنهم أرادوا الحكاية حين يقال: الحمد لله.

قال النحاس[٥]: مذهبُ الخليل وسيبويه[٦] أنَّ «أنْ» هذه مخفَّفةٌ من الثقيلة، والمعنى: أنه الحمد لله. قال محمد بن يزيد: ويجوز «أنِ الحمدَ لله» يُعْمِلها خفيفةً عَمَلَها ثقيلةً، والرفعُ أَقْيَسُ.

قال النحاس: وحكى أبو حاتم أنَّ بلال بن أبي بردة قرأ: «وآخِرُ دَعْواهُم أَنَّ الحمدَ لله رب العالمين».

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٨٩ ، وتفسير البغوي ٢/ ٣٤٥ .

(٢) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٣٩ .

(٣) ٦/ ٤٨٧ وما بعدها.

(٤) أخرجه الطبري ١٢/ ١٢٦ عن ابن جريج.

(٥) في إعراب القرآن ٢/ ٢٤٦ ، وما قبله منه.

(٦) في الكتاب ٣/ ١٦٣ .

قلت: وهي قراءةُ ابن مُحَيْصن[١]. حكاها الغَزْنَويُّ؛ لأنه يحكى عنه.

الثانية: التسبيحُ والحَمْدُ والتهليلُ قد يُسمَّى دعاءً؛ روى مسلم والبخارِيُّ عن ابن عباس: أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يقول عند الكرب: «لا إله إلا اللهُ العظيم الحلِيم، لا إله إلا اللهُ ربُّ العرش العظيم، لا إله إلا الله ربُّ السماوات وربُّ الأرض وربُّ العرش الكريم»[٢].

قال الطبريّ[٣]: كان السَّلَفُ يدعون بهذا الدعاء، ويسمُّونه دعاءَ الكرب. وقال ابن عيينة؛ وقد سئل عن هذا فقال: أمَا علمتَ أنَّ الله تعالى يقول: «إذا شَغل عبدي ثناؤه عن مسألتي، أعطيته أفضلَ ما أُعطي السائلين»[٤]. والذي يقطع النزاع، وأنَّ هذا يسمَّى دعاءً وإن لم يكن فيه من معنى الدعاء شيءٌ، وإنما هو تعظيمٌ لله تعالى وثناءٌ عليه، ما رواه النَّسائي عن سعد بن أبي وَقَّاص قال: قال رسول الله ﷺ: «دعوةُ ذي النُّون إذ دعا بها في بطن الحوت: لا إله إلا أنتَ سبحانك إنِّي كنتُ من الظالمين؛ فإنَّه لن يدعُوَ بها مسلم في شيء إلا استُجيب له»[٥].

الثالثة: من السُّنَّة لمن بدأ بالأكل أن يُسَمِّيَ اللهَ عند أكله وشربه، ويحمدَه عند فَراغه؛ اقتداءً بأهل الجنة، وفي «صحيح» مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ ليرضى عن العبد أن يأكلَ الأكلةَ فيحمَده عليها، أو يشربَ

---

(١) ذكرها عن بلال وابن محيصن ابنُ خالويه في القراءات الشاذة ص٥٦ ، وابن جني في المحتسب ٣٠٨/١ . وبلال بن أبي بردة هو ابن أبي موسى الأشعري، كان أمير البصرة وقاضيها، توفي سنة نيف وعشرين ومئة. التهذيب ٢٥٢/١ - ٢٥٣ .

(٢) صحيح البخاري (٦٣٤٥)، وصحيح مسلم (٢٧٣٠)، وهو عند أحمد (٢٠١٢).

(٣) قوله في المفهم ٥٦/٧ .

(٤) المفهم ٥٦/٧ ، وأخرجه عن سفيان ابنُ عبد البر في التمهيد ٤٤/١ ، وذكر أن سفيان رواه عن منصور (وهو ابن المعتمر) عن مالك بن الحارث، وكذا أخرجه ابن المبارك في الزهد (٩٢٩). وسلف بنحوه مرفوعاً ٩/١ و ٢٠٩ من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٥) سنن النسائي الكبرى (١٠٤١٦)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٤٦٢) مطولاً، والترمذي (٣٥٠٥).

الشَّربةَ فيحمده عليها»[١].

الرابعة: يُستحبُّ للداعي أن يقولَ في آخر دعائه كما قال أهل الجنة: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وحَسُن أن يقرأ آخر «الصافات»، فإنها جمعت تنزيهَ الباريْ تعالى عما نُسب إليه[٢]، والتَّسليمَ على المرسلين، والخَتْمَ بالحمد لله رب العالمين.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ⑪﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾ قيل: معناه: ولو عجَّل الله للناس العقوبةَ كما يَستعجلون الثوابَ والخير لماتوا؛ لأنهم خُلقوا في الدنيا خَلْقاً ضعيفاً، وليس هم كذا يومَ القيامة؛ لأنهم يومَ القيامة يُخلقون للبقاء[٣].

وقيل: المعنى: لو فعل الله مع الناس في إجابته إلى المكروه مثلَ ما يريدون فعلَه معهم في إجابته إلى الخير لأهلكهم[٤]، وهو معنى: ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ﴾.

وقيل: إنه خاصٌّ بالكافر؛ أي: ولو يعجِّل الله للكافر العذابَ على كفره كما عجَّل له خيرَ الدنيا من المال والولد، لعجَّل له قضاءَ أَجَله ليتعجَّلَ عذابَ الآخرة؛ قاله ابن إسحاق[٥].

مقاتل: هو قولُ النَّضر بنِ الحارث: اللَّهُمَّ إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطِر

---

(١) صحيح مسلم (٢٧٣٤)، وهو عند أحمد (١١٩٧٣)، وسلف الكلام عن الابتداء بالتسمية ٧/ ٣١٤.

(٢) في (ظ): عما نسبه إليه الملحدون.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٤٦ - ٢٤٧.

(٤) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١٠٨ عن مجاهد. وسيأتي كلام مجاهد بتمامه.

(٥) النكت والعيون ٢/ ٤٢٥.

علينا حجارةً من السماء، فلو عجَّل لهم هذا لهلكوا[١].

وقال مجاهد: نزلت في الرجل يدعو على نفسه أو ماله أو ولده إذا غضِب: اللهمَّ أَهْلِكْه، اللهم لا تبارك له فيه والْعَنْه، أو نحو هذا، فلو استُجيب ذلك منه كما يستجاب الخيرُ، لقُضي إليهم أجلُهم[٢]. فالآية نزلت ذامَّةً لخُلُقٍ ذميمٍ هو في بعض الناس، يدعون في الخير فيريدون تعجيلَ الإجابة، ثم يَحْمِلُهم أحياناً سوءُ الخُلق على الدعاء في الشر؛ فلو عُجِّل لهم لَهلَكوا[٣].

الثانية: واختُلف في إجابة هذا الدعاء؛ فروي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إني سألت اللهَ عزَّ وجلَّ ألَّا يستجيبَ دعاءَ حبيبٍ على حبيبه»[٤]. وقال شَهْرُ بن حَوْشَب: قرأت في بعض الكتب أنَّ الله تعالى يقول للملائكة الموكَّلين بالعبد: لا تكتبوا على عبدي في حالِ ضَجَرِه شيئاً[٥]. لطفاً من الله تعالى عليه.

قال بعضهم: وقد يُستجاب ذلك الدعاء؛ واحتجَّ بحديث جابر الذي رواه مسلم في صحيحه آخِرَ الكتاب، قال جابر: سرنا مع رسول الله ﷺ في غزوة بَطْنِ بُواطٍ وهو يطلب المَجْديَّ بن عمرو الجُهَنيّ، وكان الناضحُ يَعْتَقِبُه منَّا الخمسةُ والستةُ والسبعة، فدارت عُقبةُ رجلٍ من الأنصار على ناضحٍ له، فأناخه فركبه، ثم بعثه فتلدَّن عليه بعضَ التلدُّن، فقال له: شَأْ، لعنك الله! فقال رسول الله ﷺ: «مَن هذا اللاعِنُ بعيرَه؟» قال: أنا يا رسول الله؛ قال: انزِلْ عنه فلا تصحبنا بملعونٍ. لا تدْعُوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقُوا من الله ساعةً يُسأل

(١) زاد المسير ٤/ ١١، وتفسير أبي الليث ٢/ ٩٠، والمحرر الوجيز ٣/ ١٠٨.

(٢) أخرجه الطبري ١٢/ ١٣٠ - ١٣١، وابن أبي حاتم ٦/ ١٩٣٢ (١٠٢٥٤)، وهو في تفسير مجاهد ١/ ٢٩٢.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١٠٩.

(٤) أخرجه الخطيب في تاريخه ٢/ ٢٠٢ - ٢٠٣، وابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ٣٥٤ - ٣٥٥ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وقال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ.

(٥) لم نقف عليه عن شهر بن حوشب، وأخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت (٨٤) عن الأحنف بن قيس قال: يوحي الله تعالى إلى الحافظَيْنِ اللَّذَيْن مع ابن آدم: لا تكتبا على عبدي في ضجره شيئاً.

فيها عطاءٌ فيستجيبَ لكم»[١].

في غير كتاب مسلم أنَّ النبيَّ ﷺ كان في سفر، فلعن رجلٌ ناقته، فقال: «أين الذي لعن ناقته؟» فقال الرجل: أنا هذا يا رسول الله؛ فقال: «أخِّرها عنك فقد أُجِبتَ فيها». ذكره الحُليميُّ في «منهاج الدين»[٢].

«شأ» يروى بالسين والشين، وهو زجرٌ للبعير بمعنى: سِرْ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ﴾ قال العلماء: التعجيل من الله، والاستعجال من العبد.

وقال أبو عليّ[٣]: هما من الله، وفي الكلام حذف، أي: ولو يعجِّل الله للناس الشرَّ تعجيلاً مثلَ استعجالهم بالخير. ثم حَذَف تعجيلاً وأقام صفتَه مقامه، ثم حذف صفتَه وأقام المضافَ إليه مقامه. هذا مذهبُ الخليل وسيبويه.

وعلى قول الأخفش والفرَّاءِ: كاستعجالهم، ثم حذف الكاف ونصب. قال الفراء[٤]: كما تقول: ضربتُ زيداً ضَرْبَكَ، أي: كَضَرْبِك.

وقرأ ابن عامر: ﴿لَقَضَى إِليهم أَجَلَهم﴾[٥]. وهي قراءةٌ حسنة؛ لأنه متَّصِلٌ بقوله: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أي: لا يعجِّل لهم الشرَّ، فربما يتوب منهم تائبٌ، أو يخرج من أصلابهم مؤمن. ﴿فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: يتحيَّرون. والطغيان: العلوُّ والارتفاع، وقد تقدَّم في «البقرة»[٦].

---

(١) صحيح مسلم (٣٠٠٩). قوله: بطن بُواط: هو جبل من جبال جهينة، والناضح: جمل السقي، ويعتقبه: أي: يتدارك ركوبه، وتلدن عليه بعض التلدن: أي: تلكأ ولم ينبعث، إكمال المعلم ٨/ ٥٦٤-٥٦٥ .

(٢) المنهاج في شعب الإيمان ٢/ ٤٣٥ ، وأخرجه أحمد (٩٥٢٢) والنسائي (٨٧٦٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) في الحجة ٤/٢٥٤ .

(٤) في معاني القرآن ١/ ٤٥٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٤٧ . وما قبله منه.

(٥) السبعة ص٣٢٣ - ٣٢٤ ، والتيسير ص١٢١ .

(٦) ١/ ٣١٧ .

وقد قيل: إنَّ المراد بهذه الآية أهلُ مكة، وإنها نزلت حين قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ [الأنفال: ٣٢] الآية، على ما تقدَّم[١] والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ قيل: المرادُ بالإنسان هنا الكافرُ ـ قيل: هو أبو حذيفةَ بنُ المغيرة المشرك[٢] ـ تُصيبه البأساءُ والشِّدَّة والجهد.

﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ أي: على جنبه مضطجعاً ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ وإنما أراد جميعَ حالاته؛ لأنَّ الإنسان لا يَعْدُو إحدى هذه الحالاتِ الثلاث[٣].

قال بعضهم: إنما بدأ بالمضطجع لأنه بالضُّرِّ أشدُّ في غالب الأمر، فهو يدعو أكثر، واجتهادُه أشدُّ، ثم القاعدُ، ثم القائم. ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ﴾ أي: استمرَّ على كفره ولم يشكر ولم يتَّعظ.

قلت: وهذه صفة كثيرٍ من المخلِّطين الموحِّدين؛ إذا أصابته العافيةُ مرَّ على ما كان عليه من المعاصي؛ فالآية تعمُّ الكافرَ وغيرَه.

﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ﴾ قال الأخفش: هي «كأنَّ»[٤] الثقيلةُ خُفِّفت، والمعنى: كأنه، وأنشد:

وَيْ كـأنْ مَـن يكـن لـه نَـشَـبٌ يُحْـ ... ـبَبْ ومَن يَفْتَقِرْ يَعِشْ عيشَ ضُرِّ[٥]

---

(١) ٩/ ٤٩٦.

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ١٢ عن ابن عباس ومقاتل، وذَكر أن اسم أبي حذيفة هو هاشم بن المغيرة بن عبد الله المخزومي.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٣٤٦.

(٤) في النسخ الخطية وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٤٧ (والكلام منه): أن، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في معاني القرآن للأخفش ٢/ ٥٦٥.

(٥) قائله زيد بن عمرو بن نفيل، وهو في الكتاب ٢/ ١٥٥، والخزانة ٦/ ٤٠٤.

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ﴾ أي: كما زُيِّن لهذا الدعاءُ عند البلاء والإعراضُ عند الرَّخاء ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: للمشركين أعمالُهم من الكفر والمعاصي[١]. وهذا التزيين يجوز أن يكونَ من الله، ويجوز أن يكون من الشيطان، وإضلالُه: دعاؤه إلى الكفر[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ۙ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ يعني الأممَ الماضية من قَبْلِ أهلِ مكةَ أهلكناهم. ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أي: كفروا وأشركوا. ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالمعجزات الواضحات، والبراهينِ النَّيِّرات. ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أي: أهلكناهم لِعلمنا أنهم لا يؤمنون. يخوِّف كفارَ مكةَ عذابَ الأمم الماضية، أي: نحن قادرون على إهلاك هؤلاء بتكذيبهم محمداً ﷺ، ولكنْ نُمهِلُهم لعلمنا بأنَّ فيهم مَن يؤمن، أو يخرجُ مِن أصلابهم مَن يؤمن. وهذه الآية تردُّ على أهل الضلال القائلين بخَلْقِ الهُدَى والإيمان.

وقيل: معنى: «مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا» أي: جازاهم على كفرهم بأنْ طَبَع على قلوبهم، ويدلُّ على هذا أنه قال: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ﴾ مفعولان. والخلائفُ جمع خليفة، وقد تقدَّم آخِرَ «الأنعام»[٣]. أي: جعلناكم سكَّاناً في الأرض. ﴿مِن بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد القرون المُهْلَكة.

---

(١) زاد المسير ٤/ ١٣.

(٢) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٠٩. وقال ابن عطية: ولفظة التزيين قد جاءت في القرآن بهذين المعنيين؛ من فِعْل الله تعالى، ومرة من فعل الشياطين.

(٣) ٩/ ١٤٧.

﴿لِنَنظُرَ﴾ نصب بلام كي، وقد تقدَّم نظائرُه وأمثاله[١]؛ أي: ليقعَ منكم ما تستحقُّون به الثوابَ والعقاب، ولم يزل يعلمه غيباً.

وقيل: يعاملكم معاملةَ المختبِرِ إظهاراً للعدل.

وقيل: النظر راجعٌ إلى الرسل؛ أي: لينظر رسلُنا وأولياؤنا كيف أعمالُكم. و«كيف» نصبٌ بقوله: تعملون؛ لأن الاستفهام له صدرُ الكلام، فلا يعمل فيه ما قبله.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ «تتلى»: تُقرأ، و﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ نصب على الحال؛ أي: واضحات لا لَبْسَ فيها ولا إشكال. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ يعني: لا يخافون يوم البعث والحساب، ولا يرجون الثواب. قال قتادة: يعني مشركي أهلِ مكة[٢]. ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ والفرقُ بين تبديله والإتيانِ بغيره: أنَّ تبديلَه لا يجوز أن يكون معه، والإتيانُ بغيره قد يجوز أن يكون معه.

وفي قولهم ذلك ثلاثةُ أوجُه:

أحدها: أنهم سألوه أن يحوِّل الوعدَ وعيداً والوعيدَ وعداً، والحلالَ حراماً والحرامَ حلالاً. قاله ابن جرير الطبري.

الثاني: سألوه أن يُسقِطَ ما في القرآن من عَيْبِ آلهتهم وتَسْفيهِ أحلامِهم؛ قاله ابن عيسى.

الثالث: أنهم سألوه إسقاطَ ما فيه من ذِكْر البعث والنشور. قاله الزجَّاج[٣].

---

(١) ٢/ ٤٣٨.

(٢) أخرجه الطبري ١٢/ ١٣٨، وابن أبي حاتم ٦/ ١٩٣٤ (١٠٢٦٩).

(٣) النكت والعيون ٢/ ٤٢٦ - ٤٢٧، وكلام الطبري في تفسيره ١٢/ ١٣٦، وكلام الزجاج في معانيه ٣/ ١١.

الثانية: قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ﴾ أي: قل يا محمد: ما كان لي. ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾ ومن عندي، كما ليس لي أن ألقاه بالردِّ والتكذيب. ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي: لا أتَّبع إلا ما أتلوه عليكم من وَعْدٍ ووعيد، وتحريمٍ وتحليل، وأمرٍ ونهي(١).

وقد يَستدلُّ بهذا مَن يمنع نسخَ الكتاب بالسنَّة؛ لأنه تعالى قال: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾ وهذا فيه بُعد؛ فإنَّ الآية وردت في طلب المشركين مِثْلَ القرآن نَظْماً، ولم يكن الرسولُ ﷺ قادراً على ذلك، ولم يسألوه تبديلَ الحُكم دون اللفظ؛ ولأنَّ الذي يقوله الرسولُ ﷺ إذا كان وحياً لم يكن من تِلْقاء نفسه، بل كان من عند الله تعالى(٢).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ أي: إنْ خالفتُ في تبديله وتغييره، أو في ترك العمل به. ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني يومَ القيامة.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ أي: لو شاء الله ما أرسلني إليكم فتلوتُ عليكم القرآن، ولا أَعْلَمَكم اللهُ ولا أخبركم به؛ يقال: دَرَيْتُ الشيءَ وأدراني اللهُ به، ودَريتُه ودريتُ به. وفي الدِّراية معنى الخَتْل؛ ومنه: داريت(٣) الرجل، أي: ختلته، ولهذا لا يُطْلَق الداري في حقِّ الله تعالى، وأيضاً عُدم فيه التوقيف(٤).

وقرأ ابن كثير: ﴿ولأدراكم به﴾ بغير ألفٍ بين اللام والهمزة(٥)؛ والمعنى: لو

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٤٢٧ .

(٢) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٢٣ .

(٣) في (م) دريت، وكلاهما صحيح. ينظر اللسان (دري).

(٤) ينظر الحجة للفارسي ٤/ ٢٦٠ - ٢٦١ ، ومفردات الراغب ص٣١٢ - ٣١٣ .

(٥) التيسير ص١٢١ .

شاء الله لَأَعْلَمكم به من غير أن أتلوَه عليكم، فهي لامُ التأكيد دخلت على ألف أفعل[١].

وقرأ ابن عباس والحسن: «ولا أدرأتُكم به» بتحويل الياءِ ألفاً[٢]، على لغة بني عقيل؛ قال الشاعر:

لَعَمْرُكَ ما أخشى التَّصَعْلُكَ ما بقَى ... على الأرض قَيْسيٌّ يسوق الأباعرا[٣]

وقال آخر:

ألا آذنتْ أهلَ اليمامةِ طيِّئٌ ... بحربٍ كناصاة الأغرِّ المشهَّرِ[٤]

قال أبو حاتم: سمعت الأصمعيَّ يقول: سألت أبا عمرو بنَ العلاء: هل لقراءة الحسن: «ولا أدرأتُكم به» وجه؟ فقال: لا. وقال أبو عبيد: لا وجهَ لقراءة الحسن: «ولا أدرأتكم به» إلّا [على] الغلط. قال النحاس[٥]: معنى قولِ أبي عبيد إن شاء الله[٦]: على الغلط: أنه يقال: دريتُ، أي: علمت، وأَدْريتُ غيري، ويقال: درأت، أي: دفعت، فيقع الغلطُ بين دريت [وأَدْرَيْتُ] ودرأت. قال أبو حاتم: يريد الحسن فيما أحسِب: «ولا أدريتُكم به» فأبدل من الياء ألفاً على لغة بني الحارث بنِ كعب، يُبْدِلون من الياء ألفاً إذا انفتح ما قبلها؛ مثل: ﴿إنَّ هذان لساحران﴾[٧] [طه: ٦٣].

قال المهدويُّ: ومَن قرأ: «أدرأتُكم» فوجهُه أنَّ أصل الهمزة ياءٌ، فأصلُه:

---

(١) الكشف عن وجوه القراءات ١/ ٥١٤، والمحرر الوجيز ٣/ ١١٠.

(٢) القراءات الشاذة ص٥٦، والمحتسب ١/ ٣٠٩ عن الحسن، وذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١١٠ عن ابن عباس والحسن وابن سيرين وأبي رجاء.

(٣) قائله زيد الخيل الطائي، وهو في ديوانه ص٦٢، وسلف ٤/ ٤١٣.

(٤) قائله حريث بن عَنَّاب الطائي، وهو في النوادر لأبي زيد ص١٢٤، والمعاني الكبير لابن قتيبة ٢/ ١٠٤٨ وفيه: الحصان، بدل: الأغر. وموضع الشاهد فيه قوله: كناصاة، أي: كناصية.

(٥) في إعراب القرآن ٢/ ٢٤٨ - ٢٤٩، وما قبله وما بين حاصرتين منه.

(٦) في (د) و(ز) و(م): معنى قول أبي عبيد لا وجه إن شاء الله، والمثبت من (خ) و(ظ) وهو الموافق لما في إعراب القرآن.

(٧) وهي قراءة نافع وحمزة والكسائي وابن عامر وعاصم في رواية شعبة السبعة ص٤١٩، والتيسير ص١٥٠.

أَدْرَيتكم، فقُلبت الياء ألفاً وإن كانت ساكنة؛ كما قال: يابَس في يَيْبَس[١]، وطايئ في طيِّئ، ثم قلبت الألفُ همزةً على لغة مَن قال في العالم: العَأْلَم، وفي الخاتم: الخأْتم.

قال النحاس[٢]: وهذا غلطٌ، والروايةُ عن الحسن: «ولا أدرأتكم» بالهمز، وأبو حاتم وغيرُه تكلَّم أنه بغير همز، ويجوز أن يكون من: درأت، أي: دفعت؛ أي: ولا أمرتكم أن تدفعوا فتتركوا الكفرَ بالقرآن.

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ ظرف، أي: مقداراً من الزمان وهو أربعون سنة. ﴿مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي: من قبل القرآن، تعرفونني بالصِّدق والأمانة، لا أقرأ ولا أكتب، ثم جئتُكم بالمعجزات. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنَّ هذا لا يكون إلَّا مِن عند الله لا مِن قِبَلي[٣].

وقيل: معنى «لَبِثْت فِيكُمُ عُمُراً» أي: لبثت فيكم مدَّةَ شبابي لم أعصِ الله، أفتُريدون منِّي الآنَ وقد بلغتُ أربعين سنةً أن أخالفَ أمرَ الله، وأغيِّرَ ما ينزلُه عَلَيّ؟!

قال قتادة: لبث فيهم أربعين سنة، وأقام سنتين يرى رؤيا الأنبياء، وتُوفِّي ﷺ وهو ابن اثنتين وستِّينَ سنة[٤].

---

(١) في (م): يايس في ييس، ولم تجود في النسخ الخطية، والمثبت من المحتسب ١/ ٣٠٩ ، والكلام فيه بنحوه.

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٢٤٩ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٤٩ .

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٣٥ (١٠٢٧٥). وقد وردت أقوال في عمره ﷺ عند وفاته، أصحها أنه كان ابن ثلاث وستين سنة. وهو المروي عن أنس ﷺ فيما أخرجه مسلم (٢٣٤٨). وعن ابن عباس رضي الله عنهما فيما أخرجه أحمد (٢١١٠)، والبخاري (٣٩٠٢)، ومسلم (٢٣٥١). وعن عائشة رضي الله عنها فيما أخرجه أحمد (٢٤٦١٨)، والبخاري (٣٥٣٦)، ومسلم (٢٣٤٩). وعن معاوية ﷺ فيما أخرجه أحمد (١٦٨٧٣) ومسلم (٢٣٥٢).

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾

هذا استفهامٌ بمعنى الجَحْد؛ أي: لا أحدَ أظلمُ ممن افترى على الله الكذبَ، وبدَّل كلامه، وأضاف شيئاً إليه مما لم ينزله. وكذلك لا أحدَ أظلمُ منكم إذا أنكرتم القرآنَ وافتريتم على الله الكذبَ، وقلتم: ليس هذا كلامَه. وهذا مما أُمِر به الرسولُ ﷺ أن يقولَ لهم. وقيل: هو من قول الله ابتداءً. وقيل: المُفْتَري: المشركُ، والمكذِّبُ بالآيات: أهلُ الكتاب. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ يريد الأصنام. ﴿وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهذه غايةُ الجَهالةِ منهم، حيث ينتظرون الشفاعةَ في المآل ممن لا يوجد منه نفعٌ ولا ضَرٌّ في الحال!.

وقيل: «شُفَعَاؤُنَا» أي: تشفع لنا عند الله في إصلاح معائشنا في الدنيا.

﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قراءة العامة: ﴿تنبِّئون﴾ بالتشديد. وقرأ أبو السَّمَّال العَدَوِيُّ: «أتنبِئون الله» مخفَّفاً[(١)]، من: أنبأ يُنبئ. وقراءة العامة من: نبَّأ ينبِّئ تَنبِئة؛ وهما بمعنًى واحد، جَمعهما قولُه تعالى: ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَـٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣]. أي: أتخبِرون اللهَ أنَّ له شريكاً في ملكه، أو شفيعاً بغير إذنه، والله لا يعلم لنفسه شريكاً في السماوات ولا في الأرض؛ لأنه لا شريكَ له؛ فلذلك لا يعلمه. نظيرُه: قوله: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ٣٣].

---

(١) هي في القراءات الشاذة ص٥٦، والكشاف ٢/ ٢٣٠، وتفسير الرازي ١٧/ ٦٠، والبحر ٥/ ١٣٤ دون نسبة.

ثم نزَّه نفسه وقدَّسها عن الشِّرك فقال: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: هو أعظمُ من أن يكونَ له شريك.

وقيل: المعنى أي: أتعبدون[1] ما لا يشفع ولا ينصر[2] ولا يمَيِّز، وتقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، فتكذبون؛ وهل يتهيَّأُ لكم أن تنبِّئوه بما لا يعلم، سبحانه وتعالى عما يشركون!.

وقرأ حمزة والكِسائي: ﴿تشركون﴾ بالتاء، وهو اختيار أبي عبيد. الباقون بالياء[3].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

تقدَّم في «البقرة»[4] معناه فلا معنى للإعادة. وقال الزجَّاج[5]: هم العربُ كانوا على الشِّرك. وقيل: كلُّ مولودٍ يولد على الفطرة، فاختلفوا عند البلوغ.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ إشارةٌ إلى القضاء والقدر، أي: لولا ما سبق في حُكمه أنه لا يَقضيَ بينهم فيما اختلفوا فيه بالثواب والعقاب دون القيامة، لَقضَى بينهم في الدنيا، فأدخل المؤمنين الجنةَ بأعمالهم، والكافرين النارَ بكفرهم، ولكنَّه سبق من الله الأجلُ مع علمه بصنيعهم؛ فجعل موعدَهم القيامة؛ قاله الحسن[6].

---

(١) في (خ) و(ز) و(ظ): تعبدون، وفي (م): يعبدون، والمثبت من (د)، وهو الموافق لما في معاني القرآن للنحاس ٣/ ٢٨٣ ، والكلام منه.

(٢) في (ظ) و(م): ما لا يسمع ولا يبصر، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في معاني القرآن للنحاس.

(٣) السبعة ص٣٢٤ ، والتيسير ص١٢١ .

(٤) ٣/ ٤٠٤ .

(٥) في معاني القرآن ٣/ ١٢ .

(٦) تفسير البغوي ٢/ ٣٤٨ .

وقال أبو رَوْق: «لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ»: لأقام عليهم الساعة. وقيل: لَفرغ من هلاكهم.

وقال الكلبي: «الكلمة» أنَّ الله أخَّر هذه الأمةَ، فلا يُهلكهم بالعذاب في الدنيا إلى يوم القيامة، فلولا هذا التأخيرُ لَقُضي بينهم بنزول العذاب أو بإقامة الساعة[١].

والآية تسليةٌ للنبيِّ ﷺ في تأخير العذاب عمَّن كَفَر به. وقيل: الكلمة السابقة أنه لا يأخذ أحداً إلا بحجَّة، وهو إرسالُ الرسل، كما قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وقيل: الكلمة قولُه: «سبقت رحمتي غضبي»[٢] ولولا ذلك لَمَا أخَّر العصاةَ إلى التوبة.

وقرأ عيسى: «لَقَضى» بالفتح[٣].

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾

يريد أهل مكة، أي: هلَّا أُنزل عليه آية، أي: معجزةٌ غيرُ هذه المعجزة، فيَجْعَلَ لنا الجبالَ ذهباً، ويكون له بيتٌ من زُخْرف، ويُحيي لنا مَن مات من آبائنا. وقال الضحَّاك: عصاً كعصا موسى.

﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي: قل يا محمد: إنَّ نزول الآية غيبٌ. ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ أي: تربَّصوا. ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لنزولها. وقيل: انتظروا قضاءَ الله بيننا بإظهار المُحِقِّ على المبطِل[٤].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾

يريد كفَّارَ مكة. ﴿رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾ قيل: رخاء بعد شدَّة، وخِصبٌ بعد

---

(١) المصدر السابق.

(٢) هو في الصحيحين، وسلف ١/ ٢٤٣.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١١١، وهي قراءة شاذة.

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٣٤٨.

جَدْب. ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾ أي: استهزاءٌ وتكذيب. وجوابُ قوله: «وَإِذَا أَذَقْنَا»: «إِذَا لَهُمْ»؛ على قول الخليلِ وسيبويه. ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ﴾ ابتداءٌ وخبر ﴿مَكْرًاۚ﴾ على البيان[1]، أي: أعجلُ عقوبةً على جزاء مكرهم، أي: إنَّ ما يأتيهم من العذاب أسرعُ في إهلاكهم مما أتوه من المكر. ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ يعني بالرسل: الحفظةَ.

وقراءة العامة: ﴿تَمْكُرُونَ﴾ بالتاء خطاباً. وقرأ يعقوب في رواية رُوَيْس وأبو عمرٍو في رواية هارون العَتَكي: «يمكرون» بالياء[2]؛ لقوله: «إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا».

قيل: قال أبو سفيان: قُحِطنا بدعائك، فإن سَقَيتنا صدَّقناك؛ فسُقُوا باستسقائه ﷺ، فلم يؤمنوا، فهذا مَكْرُهم[3].

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ أي: يحملكم في البرِّ على الدوابّ، وفي البحر على الفُلْك. وقال الكلبيُّ: يحفظكم في السير. والآية تتضمَّن تعديدَ النِّعَم فيما هي الحالُ بسبيله من ركوب الناس الدوابَّ والبحر. وقد مضى الكلامُ في ركوب البحر في «البقرة»[4].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٤٩ - ٢٥٠ .

(٢) كذا قال المصنف رحمه الله، والصحيح أن الذي روى هذه القراءة عن يعقوب هو روح. ينظر النشر ٢/ ٢٨٢ ، وزاد المسير ٤/ ١٨ . وقراءة أبي عمرو المتواترة عنه كقراءة الجماعة.

(٣) النكت والعيون ٢/ ٤٣٠ ، والخبر بنحوه قطعة من حديث ابن مسعود ﷺ عند البخاري (١٠٢٠)، ومسلم (٢٧٩٨).

(٤) ٢/ ٤٩٥ - ٤٩٦ .

وَ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ قراءة العامة. ابنُ عامر: «يَنْشُركم» بالنون والشين[(١)]، أي: يبثُّكم ويفرِّقكم. والفُلْك يقع على الواحد والجمع، ويذكَّر ويؤنَّث[(٢)]. وقد تقدَّم القول فيه[(٣)].

وقوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ خروجٌ من الخطاب إلى الغَيبة، وهو في القرآن وأشعارِ العرب كثيرٌ؛ قال النابغة:

يـا دار مـيَّـةَ بـالـعَـلْـيـاء فـالـسَّـنـدِ ... أقْوَت وطال عليها سالفُ الأمَدِ[(٤)]

قال ابن الأنباري: وجائزٌ في اللغة أن يرجعَ من خطاب الغَيبة إلى لفظ المواجهة بالخطاب؛ قال الله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا . إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان:٢٢] فأبدَل الكافَ من الهاء.

قوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ تقدَّم الكلام فيها في «البقرة»[(٥)].

﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ الضميرُ في «جاءتها» للسفينة. وقيل: للريح الطيبة[(٦)]. والعاصفُ: الشديدة؛ يقال: عَصَفَت الريحُ وأَعْصَفَتْ، فهي عاصفٌ ومُعْصِفٌ ومُعْصِفة، أي: شديدة[(٧)]، قال الشاعر:

حـتـى إذا أَعْـصَـفَـتْ ريـحٌ مُـزَعْـزِعَـةٌ ... فـيـهـا قِـطـارٌ ورعـدٌ صـوتُـه زَجِـلُ[(٨)]

---

(١) السبعة ص٣٢٥، والتيسير ص١٢١.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٠.

(٣) ٢/ ٤٩٤.

(٤) ديوان النابغة الذبياني ص٣٠، والخزانة ١١/ ٣٢، العلياء: كلُّ مكان مشرف، والسَّنَد: ما قابلك من الجبل وعلا عن السفح، وأَقْوَتْ: خلت من السكان وأقفرت. الخزانة.

(٥) ٢/ ٥٠١ - ٥٠٢.

(٦) ذكر القولين الفراء في معاني القرآن ١/ ٤٦٠، والنحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٥٠.

(٧) زاد المسير ٤/ ١٩، وتفسير الرازي ١٧/ ٧٠.

(٨) ذكره الفراء في معاني القرآن ١/ ٤٦٠، والطبري في تفسيره ١٢/ ١٤٦ ونسباه لبعض بني دُبَيْر. والقِطار: جمع قَطْرٍ، وهو المطر. والزَّجِل من الغيث: الذي لرعده صوت. معجم متن اللغة (قطر) و(زجل).

وقال: «عاصف» بالتذكير؛ لأنَّ لفظ الريح مذكَّر، وهي القاصِفُ أيضاً. والطيِّبة غيرُ عاصِفٍ ولا بطيئة.

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ والموجُ: ما ارتفع من الماء ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ أي: أيقنوا ﴿أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أي: أحاط بهم البلاء؛ يقال لمن وقع في بلِيَّة: قد أُحيط به، كأنَّ البلاء قد أحاط به، وأصل هذا أنَّ العدوَّ إذا أحاط بموضع فقد هلك أهلُه.

﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: دعَوه وحدَه وتركوا ما كانوا يعبدون. وفي هذا دليلٌ على أنَّ الخلق جُبِلوا على الرجوع إلى الله في الشدائد، وأنَّ المضطر يجاب دعاؤه وإن كان كافراً؛ لانقطاع الأسباب ورجوعِه إلى الواحد ربِّ الأرباب؛ على ما يأتي بيانه في «النمل» إن شاء الله تعالى[(١)].

وقال بعض المفسِّرين: إنهم قالوا في دعائهم: أهيا شراهيا؛ أي: يا حيُّ يا قيوم[(٢)]. وهي لغة العجم.

مسألة: هذه الآية تدلُّ على ركوب البحر مطلقاً، ومن السُّنة حديثُ أبي هريرة، وفيه: إنا نركب البحرَ ونحمل معنا القليلَ من الماء... الحديث. وحديث أنس في قصة أمِّ حرام يدلُّ على جواز ركوبه في الغَزْوِ، وقد مضى هذا المعنى في «البقرة» مستوفًى[(٣)] والحمد لله. وقد تقدَّم في آخر «الأعراف» حكمُ راكبِ البحر في حال ارتجاجه وغَلَيانه؛ هل حكمه حكمُ الصحيح، أو المريضِ المحجورِ عليه؟ فتأمَّله هناك[(٤)].

قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ أي: من هذه الشدائدِ والأهوال. وقال

---

(١) عند تفسير الآية (٦٢) منها.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٢٩٣ ، والطبري ١٢/ ١٤٧ ، وابن أبي حاتم ٦/ ١٩٣٩ (١٠٢٩٨) عن أبي عبيدة، وهو ابن عبد الله بن مسعود ﷺ. وذكره الرازي ١٧/ ٧٠ .

(٣) ٢/ ٤٩٥ - ٤٩٦ ، ومضى فيه حديث أبي هريرة وأنس رضي الله عنهما.

(٤) ٩/ ٤١٤ .

الكلبيُّ: من هذه الريح. ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: من العاملين بطاعتك على نعمة الخلاص. ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ﴾ أي: خلَّصهم وأنقذهم. ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: يعملون في الأرض بالفساد وبالمعاصي. والبغي: الفساد والشرك؛ مِن بَغَى الجرحُ: إذا فسد؛ وأصله الطلب، أي: يطلبون الاستعلاءَ بالفساد. «بِغَيْرِ الحَقِّ» أي: بالتكذيب. ومنه بَغَت المرأةُ: طَلَبتْ غيرَ زوجِها[١].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ أي: وَبالُهُ عائدٌ عليكم؛ وتمَّ الكلام، ثم ابتدأ فقال: ﴿مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنيَا﴾ أي: هو متاعُ الحياةِ الدنيا؛ ولا بقاءَ له.

قال النحاس[٢]: «بَغْيُكُمْ» رفع بالابتداء، وخبره: «مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا». و«على أنفسِكم» مفعولُ معنى فعلِ البَغْي[٣]. ويجوز أن يكون خبرُه: «عَلَى أَنْفُسِكُمْ»، وتُضمِر مبتدأً، أي: ذلك متاعُ الحياة الدنيا، أو: هو متاع الحياة والدنيا؛ وبين المعنيين حرفٌ[٤] لطيف؛ إذا رفعتَ متاعاً على أنه خبرُ «بغيكم»؛ فالمعنى: إنما بغيُ بعضِكم على بعض، مثل: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١] وكذا: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]. وإذا كان الخبر: «عَلَى أنْفُسِكُم»، فالمعنى: إنما فسادُكم راجعٌ عليكم؛ مثل: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧].

ورُوي عن سفيان بنِ عُيينة أنه قال: أراد أنَّ البغي متاعُ الحياة الدنيا، أي: عقوبتُه تُعجَّل لصاحبه في الدنيا؛ كما يقال: البَغْيُ مَصْرَعةٌ[٥].

وقرأ ابن أبي إسحاق: ﴿مَتَٰعَ﴾ بالنصب على أنه مصدر، أي: تتمتَّعون متاعَ الحياة الدنيا[٦]، أو بنزع الخافض، أي: لمتاعِ، أو مصدر بمعنى المفعول على

---

(١) ينظر مفردات الراغب ص١٣٦ - ١٣٧.

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٢٥٠.

(٣) قوله: «وعلى أنفسكم» مفعول معنى فعل البغي، ليس في إعراب القرآن.

(٤) في إعراب القرآن: فرق.

(٥) ذكره عن سفيان بنحوه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١١٣، وفيه: البغي يصرعُ أهله.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٠، وهي قراءة حفص أيضاً وذكر القراءة أيضاً عن ابن أبي إسحاق الطبري ١٢/ ١٤٩، وأبو بكر الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٧٠٥. وينظر السبعة ص٣٢٥، والتيسير ص١٢١.

الحال، أي: متمتِّعين، أو هو نصبٌ على الظرف، أي: في متاع الحياة الدنيا، ومتعلَّق الظرفِ والجارِّ والحالِ معنى الفعلِ في البغي. و«عَلَى أَنْفُسِكُمْ» مفعولُ ذلك المعنى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ معنى الآيةِ التشبيهُ والتمثيلُ، أي: صفةُ الحياة الدنيا في فَنائِها وزوالِها وقِلَّة خطرِها والمَلاذِ بها كماء[1]، أي: مثلُ ماء، فالكافُ في موضعِ رَفْع. وسيأتي لهذا التشبيه مزيدُ بيانٍ في «الكهف» إن شاء الله تعالى[2]. «أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ» نَعْتٌ لـ «ماء»[3].

﴿فَٱخْتَلَطَ﴾ رُوي عن نافع أنَّه وقفَ على «فاختلطَ» أي: فاختلطَ الماءُ بالأرض، ثم ابتدأ: «به نَبَاتُ الأرضِ»[4] أي: بالماءِ نباتُ الأرض، فأخرجَت ألواناً مِن النبات، فـ «نباتُ» على هذا ابتداءٌ، وعلى مذهبِ مَن لم يقفْ على «فَاخْتَلَطَ» مرفوعٌ بـ «اختلط»، أي: اختلطَ النباتُ بالمطر، أي: شربَ منه، فتندَّى وحَسُنَ واخضرَّ. والاختلاطُ: تداخلُ الشيء بعضِه في بعض[5].

---

(١) الكلام بنحوه في مجمع البيان ١١/ ٣٥ .

(٢) عند تفسير الآية (٤٥) منها.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥١ .

(٤) ذكره أبو عمرو الداني في المكتفى ص٣٠٦ دون نسبة، وردَّه، ونسبه الأشموني في منار الهدى ص١٢٩ ليعقوب الأزرق. قال أبو حيان في البحر المحيط ٥/ ١٤٣ : الوقف على قوله: «فاختلط» لا يجوز، وخاصة في القرآن؛ لأنه تفكيكٌ للكلام المُتَّصل الصحيحِ المعنى الفصيحِ اللَّفظ، وذهابٌ إلى اللُّغز والتعقيد والمعنى الضعيف.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ١١٤ .

قوله تعالى: ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ﴾ مِن الحبوبِ والثمارِ والبُقول. ﴿وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾ مِن الكلأ والتِّبنِ والشَّعير[١]. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أي: حُسنَها وزينتَها. والزُّخرفُ: كمالُ حُسنِ الشيء، ومنه قيل للذهب: زُخرفٌ[٢].

﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ أي: بالحُبوب والثمارِ والأزهار، والأصلُ: تزيَّنت؛ أُدغمت التاء في الزاي وجِيء بألفِ الوَصل؛ لأنَّ الحرفَ المُدْغَمَ مقامُ حرفَين، الأوَّلُ منهما ساكنٌ[٣]، والساكنُ لا يُمكن الابتداءُ به.

وقرأ ابنُ مسعود وأبيّ بن كعب: «وتزيَّنت» على الأصل[٤]. وقرأ الحسنُ والأعرجُ وأبو العالية: «وأزْيَنَت»[٥] أي: أتَتْ بالزِّينةِ عليها، أي: الغَلَّة والزَّرع، وجاء بالفعلِ على أصلِه، ولو أعلَّه لقال: وأزَانَت. وقال عوف بن أبي جَميلة الأعرابي[٦]: قرأ أشياخُنا: «وازيانَّت» وزنُه: اسوادَّت. وفي رواية المُقدَّمي[٧]: «وازَّاينتْ»، والأصلُ فيه: تزاينت، وزنه: تفاعلت[٨]، ثم أُدغم[٩]. وقرأ الشعبيّ وقتادة: «وأزْيَنَت» مثل: أفعلت[١٠]. وقرأ أبو عثمان النَّهديّ: «وازينت» مثل: افعلت[١١]، وعنه أيضاً: «وازيانَّتْ» مثل: افعالَّتْ، وروي عنه: «ازيأنَّتْ» بالهمزة،

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٩٤.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٢٨٧.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥١.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ١١٤.

(٥) القراءات الشاذة ص٥٦، والمحتسب ١/ ٣١١.

(٦) أبو سهل البصري، الحافظ، لم يكن أعرابياً، بل شُهرَ به. توفي سنة(١٤٦هـ).السير ٦/ ٣٨٣.

(٧) لعلَّه محمد بن أبي بكر بن علي بن عطاء بن مقدَّم الثقفي مولاهم، البصري، حدَّث عنه البخاري ومسلم في كتابيهما. توفي سنة (٢٣٤هـ). السير ١٠/ ٦٦٠.

(٨) في النسخ غير (ظ): تقاعست، وفي (ظ): تفاعيت، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس.

(٩) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥١، وينظر المحرر الوجيز ٣/ ١١٤.

(١٠) سلف هذه القراءة قريباً.

(١١) لم تتجه لنا هذه القراءة، ولم نقف عليها.

ثلاثُ قراءات[١].

قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ﴾ أي: أيقنَ[٢]. ﴿أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ أي: على حصادِها والانتفاعِ بها، أخبرَ عن الأرضِ والمَعنيُّ النبات؛ إذْ كان مفهوماً، وهو منها. وقيل: ردَّ إلى الغَلَّة، وقيل: إلى الزِّينة[٣]. ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾ أي: عذابُنا، أو أمرُنا بهلاكِها[٤]. ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ ظرفان. ﴿فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا﴾ مفعولان[٥]، أي: محصودةً مقطوعةً لا شيءَ فيها. وقال: «حَصيداً» ولم يُؤنِّثْ؛ لأنَّه فعيلٌ بمعنى مفعول[٦]. قال أبو عُبيد[٧]: الحصيدُ المُستأصَل.

﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ أي: كأنْ[٨] لم تكن عامرةً، مِن غَنِيَ: إذا أقامَ فيهِ وعَمَرَه. والمَغَاني في اللُّغة: المنازلُ التي يَعْمُرُها الناس[٩]. وقال قتادة: كأنْ لم تَنْعَم[١٠]. قال لَبِيد:

وغَنِيتُ سَبْتاً قبل مَجْرَى داحسٍ لو كان للنَّفسِ اللَّجُوجِ خُلودُ[١١]

وقراءةُ العامَّة: «تَغْنَ» بالتاءِ لتأنيثِ الأرض. وقرأ قتادة: «يَغْنَ» بالياء[١٢]، يذهبُ

---

(١) ينظر القراءات الشاذة ص٥٦، والمحتسب ١/ ٣١١، والمحرر الوجيز ٣/ ١١٤، والدر المصون ٦/ ١٧٨ - ١٧٩.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢١.

(٣) زاد المسير ٤/ ٢١، وتفسير البغوي ٢/ ٣٥٠.

(٤) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٤٣.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥١.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ١١٤.

(٧) في تفسير أبي الليث ٢/ ٩٤، وتفسير الرازي ١٧/ ٧٤: أبو عبيدة، وهو في مجاز القرآن له ١/ ٢٧٧.

(٨) قوله: كأن، من (ظ).

(٩) غريب القرآن لابن قتيبة ص١٩٥، ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ٢٨٨.

(١٠) أخرجه الطبري ١٢/ ١٥٢.

(١١) سلف ٩/ ٢٨٧. وقوله: سبتاً، أي: دهراً، ويقال: إن السبت ثمانون سنة. داحس: اسم فرس. اللَّجوج: العاصية.

(١٢) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١١٥، والزمخشري في الكشاف ٢/ ٢٣٣، ونسبها للحسن.

به إلى الزُّخرف، يعني: فكما يَهْلِكُ هذا الزرعُ هكذا كذلك الدنيا. ﴿نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي: نُبيِّنُها. ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في آياتِ الله.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ لمَّا ذكرَ وصفَ هذه الدار، وهي دارُ الدنيا؛ وصفَ الآخرةَ فقال: إنَّ اللهَ لا يدعوكُم إلى جمعِ الدنيا، بل يدعوكُم إلى الطاعَةِ لتصيروا إلى دارِ السلام، أي: إلى الجنَّة. قال قتادة والحسن: السَّلامُ هو الله، ودارُه الجنَّة[(١)]. وسُمِّيَت الجَنةُ دارَ السَّلام؛ لأنَّ مَن دخلَها سَلِمَ مِن الآفات[(٢)]. ومِن أسمائِه سبحانه «السَّلام»، وقد بيَّنَّاه في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»[(٣)]. ويأتي في سورةِ الحشر إن شاء الله[(٤)]. وقيل: المعنى: واللهُ يدعو إلى دارِ السَّلامةِ. والسَّلامُ والسَّلامةُ بمعنًى؛ كالرَّضاعِ والرَّضاعة، قاله الزجاج[(٥)]، قال الشاعر:

تُحَيِّي بالسَّلامةِ أمُّ بكرٍ وهل لكِ بعد قومِكِ من سلامِ[(٦)]

وقيل: أرادَ: واللهُ يدعو إلى دارِ التحيَّة؛ لأنَّ أهلَها يَنالون مِن اللهِ التحيَّةَ والسَّلام، وكذلك مِن الملائكة[(٧)]. قال الحسن: إنَّ السَّلامَ لا ينقطعُ عن أهلِ الجنَّة، وهو تحيَّتُهم، كما قال: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾[(٨)] [يونس: ١٠]. وقال يحيى بن معاذ: يا

---

(١) أخرجه الطبري ١٢/ ١٥٤ عن قتادة.

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٣٥٠.

(٣) ص٢١٧.

(٤) في تفسير الآية (٢٣) منها.

(٥) لم نقف عليه في معاني القرآن له، وأورده أبو القاسم الزجاجي في اشتقاق أسماء الله الحسنى ص٢١٥-٢١٦ مع البيت الآتي.

(٦) قائله شداد بن الأسود الليثي يرثي قتلى بدر كما في السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٩.

(٧) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ١٧/ ٧٥.

(٨) لم نقف عليه.

ابنَ آدم، دعاكَ اللهُ إلى دارِ السَّلام، فانظرْ مِن أين تُجيبُه، فإنْ أجبتَه مِن دنياك دخلتَها، وإنْ أجبتَه مِن قبرِك مُنِعتَها[١]. وقال ابن عباس: الجِنان سبعٌ: دارُ الجلال، ودارُ السَّلام، وجنَّةُ عَدْن، وجنَّةُ المأوى، وجنَّةُ الخلد، وجنَّةُ الفردوس، وجنَّةُ النعيم[٢].

قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ عمَّ بالدعوة إظهاراً لحجَّته، وخصَّ بالهدايةِ استغناءً عن خَلْقه[٣]. والصراطُ المستقيم، قيل: كتابُ الله، رواه عليّ بن أبي طالب ﷺ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «الصراطُ المستقيمُ كتابُ الله تعالى»[٤]. وقيل: الإسلامُ، رواه النوّاس بن سمعان عن رسول الله ﷺ[٥]. وقيل: الحقُّ، قاله قتادة ومجاهد[٦]. وقيل: رسولُ الله ﷺ وصاحباه مِن بعده أبو بكر وعمر رضي الله عنهما[٧].

وروى جابرُ بن عبد الله قال: خرج رسولُ الله ﷺ يوماً فقال: «رأيتُ في المنام كأنَّ جبريلَ عند رأسي، وميكائيلَ عند رجليَّ، فقال أحدُهما لصاحبه: اِضرِبْ له مَثَلاً، فقال[٨]: اِسمعْ سَمِعَتْ أُذناك، واعْقِلْ عَقَلَ قلبُك، إنَّما مَثَلُك ومَثَلُ أُمَّتك كمثل مَلِكٍ اتَّخذَ داراً، ثم بنى فيها بيتاً، ثم جعلَ فيها مَأْدُبةً، ثم بعثَ رسولاً يدعو الناسَ إلى طعامه، فمنهم مَن أجاب الرسولَ، ومنهم مَن تركَه، فاللهُ المَلِكُ، والدارُ

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٠/ ٦٠ ، ويحيى بن معاذ: هو أبو زكريا الرازي، الواعظ، توفي سنة (٢٥٨هـ). المنتظم لابن الجوزي ١٢/ ١٤٨ .

(٢) لم نقف عليه.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٣٥٠ .

(٤) هو قطعة من حديث طويل ضعيف، سلف ١/ ١٠ .

(٥) أخرجه أحمد (١٧٦٣٤).

(٦) أخرجه الطبري ١٠/ ٩٤ عن مجاهد.

(٧) أخرجه الطبري ١/ ١٧٥ عن أبي العالية والحسن، والكلام في النكت والعيون ٢/ ٤٣١ - ٤٣٢ .

(٨) بعدها في (خ) و(م): له.

الإسلامُ، والبيتُ الجنَّةُ، وأنتَ يا محمد الرسولُ، فمن أجابَك دخلَ في الإسلام، ومَن دخلَ في الإسلام دخلَ الجنَّة، ومَن دخلَ الجنَّة أكلَ ما فيها» ثم تلا؛ يعني رسول الله ﷺ: «وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» ثم تلا قتادة ومجاهد: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾[1].

وهذه الآيةُ بيِّنةُ الحُجَّة في الردِّ على القدرية؛ لأنَّهم قالوا: هدَى اللهُ الخَلْقَ كلَّهم إلى صراطٍ مستقيم، والله قال: ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ فردُّوا على اللهِ نصوصَ القرآن.

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٦﴾

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ رُوي مِن حديث أنس قال: سُئل رسولُ الله ﷺ عن قوله تعالى: «وَزِيَادَةٌ» قال: «للذين أحسنُوا العملَ في الدنيا الحُسنى، وهي الجنَّةُ، والزيادةُ النَّظرُ إلى وجهِ الله الكريم»[2]، وهو قولُ أبي بكر الصديق، وعليّ بن أبي طالب ـ في رواية ـ وحذيفة، وعُبادة بن الصامت، وكعب بن عُجْرة، وأبي موسى، وصُهيب، وابن عباس ـ في رواية ـ وهو قولُ جماعة مِن التابعين[3]، وهو الصَّحيحُ في الباب.

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٤٣٢ دون قوله: ثم تلا ـ يعني ـ رسول الله ﷺ: ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ وهذا القول لم يرد في (خ) و(ز) و(ظ). وحديث جابر أخرجه الترمذي (٢٨٦٠) بهذا اللفظ إلى قوله: «ومن دخل الجنة أكل ما فيها». من طريق سعيد بن أبي هلال أن جابر بن عبد الله... فذكره، ثم قال الترمذي: هذا حديث مرسل، سعيد بن أبي هلال لم يدرك جابر بن عبد الله. وأخرجه بنحوه البخاري (٧٢٨١) من طريق آخر عن جابر ﷺ. وقوله: مأدبة، أي: وليمة. فتح الباري ١٣/ ٢٥٥ .

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل ٣/ ١١٧٣ ، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٧٧٩) وفي إسناده سَلْم بن سالم البلخي ونوح بن أبي مريم، فأما سَلْم فضعَّفه ابن معين والنسائي، وقال أحمد: ليس بذاك. ميزان الاعتدال ٢/ ١٨٥ . وأما نوح، فقال الحافظ ابن حجر في التقريب ص٤٩٨ : كذَّبوه في الحديث، وقال ابن المبارك: كان يضع.

(٣) ينظر تفسير الطبري ١٢/ ١٥٦ - ١٦١ . والدر المنثور ٣/ ٣٠٦ .

وروى مسلم في «صحيحه» عن صُهيب عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا دخلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، قال اللهُ تبارك وتعالى: تُريدون شيئاً أَزِيدُكُم؟ فيقولونَ: ألم تُبيِّضْ وجوهَنا؟ ألم تُدخِلْنا الجنَّةَ وتُنجِّنا مِن النَّارِ؟ قال: فيكشِفُ الحجابَ، فما أُعطُوا شيئاً أحبَّ إليهم مِن النَّظرِ إلى ربِّهم عزَّ وجلَّ»، وفي روايةٍ ثم تلا: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[(١)].

وخرَّجه النسائي[(٢)] أيضاً عن صُهيب قال: قيل لرسول الله ﷺ: هذه الآية ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «إذا دخلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، وأهلُ النَّارِ النَّارَ، نادى مُنادٍ: يا أهلَ الجنَّةِ، إنَّ لكم موعداً عند اللهِ يُريدُ أنْ يُنْجِزَكُموه، قالوا: ألم يُبيِّضْ وُجوهَنا، ويُثَقِّلْ مَوازينَنا، ويُجِرْنا مِن النَّار؟ قال: فيكشِفُ الحجابَ فينظرُونَ إليه، فواللهِ، ما أعطاهُمُ اللهُ شيئاً أحبَّ إليهم مِن النَّظرِ، ولا أقرَّ لأعيُنِهم».

وخرَّجه ابنُ المبارك في رقائقه[(٣)] عن أبي موسى الأشعري موقوفاً. وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[(٤)]، وذكرنا هناك معنى كشفِ الحجاب؛ والحمد لله.

وخرَّج الترمذي الحكيم أبو عبد الله رحمه الله: حدَّثنا علي بن حُجر، حدَّثنا الوليد ابن مسلم، عن زُهير، عن أبي العالية، عن أُبيِّ بن كعب قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن الزيادَتين في كتاب الله، في قوله ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «النَّظرُ إلى وجهِ الرحمن». وعن قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧] قال: «عشرون ألفاً»[(٥)].

---

(١) صحيح مسلم (١٨١): (٢٩٧) و(٢٩٨)، وهو في مسند أحمد (١٨٩٣٥) و(١٨٩٣٦).

(٢) في السنن الكبرى (١١١٧٠)، وهو في مسند أحمد (١٨٩٤١).

(٣) في (م): دقائقه. والأثر في الزهد والرقائق (٤١٩) (من زيادات نعيم بن حمَّاد).

(٤) ص٤٩٤ .

(٥) لم نقف عليه في المطبوع من نوادر الأصول. وأخرج القسم الأول منه الطبري ١٢/ ١٦٢ من طريق عمرو بن أبي سلمة، عن زهير بن محمد، عمن سمع أبا العالية، قال: حدثنا أبيّ بن كعب.. وذكره. وأخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٧٨٠) من طريق الوليد بن مسلم عن زهير قال: حدثني من سمع أبا العالية يحدث عن أبي بن كعب.. وذكره. وأخرج القسم الثاني منه الطبري ١٩/ ٦٣٧ بإسناد القسم الأول له، والترمذي (٣٢٢٩) بإسناد الحكيم الترمذي غير أن فيه: عن زهير عن رجل عن أبي العالية. قال الترمذي: هذا حديث غريب.

وقد قيل: إنَّ الزيادةَ أنْ تُضاعَفَ الحسنةُ عشرَ حسناتٍ إلى أكثرَ مِن ذلك، رُوي عن ابن عباس(١). ورُوي عن عليّ بن أبي طالب ﷺ: الزيادةُ، غرفةٌ مِن لؤلؤةٍ واحدة لها أربعةُ أبواب(٢). وقال مجاهد: الحسنى: حسنةٌ مثلُ حسنة، والزيادةُ: مغفرةٌ مِن الله ورضوان(٣). وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الحسنى: الجنَّة، والزيادةُ: ما أعطاهُم الله في الدنيا مِن فَضْلِه، لا يُحاسبُهم به يومَ القيامة(٤). وقال عبد الرحمن بن سابط: الحسنى: البُشرى، والزيادة: النظرُ إلى وجهِ الله الكريم، قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(٥) [القيامة: ٢٢-٢٣].

وقال يزيد بن شجرة(٦): الزيادةُ أنْ تمرَّ السحابةُ بأهلِ الجنَّة، فتُمطرهم مِن كلِّ النوادر التي لم يَروها، وتقول: يا أهلَ الجنَّة، ما تُريدون أنْ أُمطِرَكم؟ فلا يُريدون شيئاً إلَّا أمطرَتهم إيَّاه.

وقيل: الزيادةُ أنَّه ما يمرُّ عليهم مقدارُ يومٍ مِن أيَّام الدنيا إلَّا حتى يُطيفَ بمنزلِ أحدهم سبعون ألفَ مَلَك، مع كلِّ ملكٍ هدايا مِن عند الله ليست مع صاحبِه، ما رَأوا مثلَ تلك الهدايا قَطّ، فسبحانَ الواسعِ العليم، الغنيّ الحميد، العليّ الكبير، العزيز القدير، البرّ الرّحيم، المدبِّر الحكيم، اللَّطيف الكريم، الذي لا تتناهى مقدوراتُه. وقيل: «أَحْسَنُوا» أي: معاملةَ النَّاس، و«الحُسنَى»: شفاعتُهم، والزيادةُ: إذنُ الله تعالى فيها وقبولُه(٧).

---

(١) أخرجه الطبري ١٢/ ١٦٣.

(٢) في النسخ: أربعة آلاف باب. والمثبت من المصادر. والأثر أخرجه الطبري ١٢/ ١٦٢، وابن أبي حاتم ٦/ ١٩٤٥(١٠٣٤٢).

(٣) تفسير مجاهد ١/ ٢٩٣، وأخرجه الطبري ١٢/ ١٦٤.

(٤) أخرجه الطبري ١٢/ ١٦٤.

(٥) أخرجه الطبري ١٢/ ١٦٢ دون ذكر الآية. وفيه: الحسنى: النضرة.

(٦) أبو شجرة الرَّهاوي (نسبة إلى الرَّها بطن من مَذْحِج)، الشامي، يقال: له صحبة، كان أمير الجيش في غزو الروم. توفي سنة (٥٨هـ). السير ٩/ ١٠٦. وقوله هذا أورده الرازي في تفسيره ١٧/ ٧٨، ووقع فيه: يزيد بن سمرة، وهذا أيضاً رَهاويّ، مَذْحِجيّ، شامي زاهد. السير ٩/ ١٠٦.

(٧) لم نقف على هذين القولين.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ﴾ قيل: معناه: يَلحق، ومنه قيل: غلامٌ مُراهقٌ إذا لَحِقَ بالرِّجال، وقيل: يعلو[(١)]، وقيل: يَغْشَى، والمعنى متقارب. ﴿قَتَرٌ﴾: غبار[(٢)]. ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي: مَذَلَّة، كما يَلحق أهلَ النَّار، أي: لا يَلحقُهم غبارٌ في محشرِهم إلى الله، ولا تغشاهُم ذِلَّة. وأنشدَ أبو عُبيدة للفرزدق:

مُتَوَّجٌ بِرداء المُلْكِ يتبعُه مَوْجٌ ترى فوقَه الرَّاياتِ والقَتَرا[(٣)]

وقرأ الحسن: «قَتْرٌ» بإسكان التاء، والقَتَر والقَتْر[(٤)] والقَتَرة بمعنًى واحد قاله النحاس[(٥)]. وواحدُ القَتَر قَتَرة، ومنه قولُه تعالى: «تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ»[(٦)] [عبس:٤١] أي: تعلُوها غَبَرة. وقيل: قَتَرٌ: كآبةٌ وكسوف. ابن عباس: القَتَر سوادُ الوجوه[(٧)]. ابن بحر: دخانُ النَّار، ومنه قُتار القِدْر[(٨)].

وقال ابن أبي ليلى: هو بعدَ نظرِهم إلى ربِّهم عزَّ وجلَّ[(٩)].

قلتُ: هذا فيه نظرٌ؛ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء:١٠١-١٠٣] وقال في غير آية: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٢٦٢] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ الآية [فصلت:٣٠]. وهذا عامٌّ، فلا يتغيَّر ـ بفضلِ الله في موطنٍ مِن المواطنِ، لا قبلَ النَّظرِ

(١) النكت والعيون ٢/ ٤٣٣ .
(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٥ .
(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢٧٧ ، والبيت في ديوان الفرزدق ص٢٣٤ ، وفيه: مُعْتَصِبٌ، بدل: متوَّج.
(٤) في (م): والقترة.
(٥) في إعراب القرآن ٢/ ٢٥١ . وقراءة الحسن في القراءات الشاذة ص٥٧ .
(٦) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢٧٧ .
(٧) أخرجه الطبري ١٢/ ١٦٦ .
(٨) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٤٣٣ .
(٩) أخرجه الطبري ١٢/ ١٦٦ .

ولا بعدَه ـ وجهُ المُحسن بسوادٍ[١] مِن كآبةٍ ولا حزنٍ، ولا يعلُوه شيءٌ مِن دخانِ جهنَّم ولا غيره، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٧].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: عملُوا المعاصي، وقيل: الشِّرك. ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ «جزاءُ»: مرفوعٌ بالابتداء، وخبرُه: «بمثلِها»، قال ابن كيسان: الباءُ زائدةٌ، والمعنى: جزاءُ سيئةٍ مثلُها. وقيل: الباءُ مع ما بعدها الخبرُ، وهي متعلِّقةٌ بمحذوفٍ قامَت مَقامَه، والمعنى: جزاءُ سيئةٍ كائنٌ بمثلِها، كقولك: إنَّما أنا بك، أي: إنَّما أنا كائنٌ بك. ويجوزُ أنْ تتعلَّق بـ«جزاء»، التقدير: جزاءُ سيئةٍ بمثلِها كائنٌ، فحذفَ خبرَ المبتدأ[٢]. ويجوزُ أنْ يكونَ «جَزَاءُ» مرفوعاً على تقديرِ: فلهمْ جزاءُ سيئة؛ فيكونُ مثلَ قوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤]، أي: فعليه عدَّةٌ، وشبهه[٣]، والباءُ على هذا التقدير تتعلَّقُ بمحذوف، كأنَّه قال: لهم جزاءُ سيئةٍ ثابتٌ بمثلها، أو تكونُ مؤكِّدةً أو زائدةً.

ومعنى هذه المِثْلِيَّة أنَّ ذلك الجزاءَ مما يُعَدُّ مُماثلاً لذنوبِهم، أي: هم غيرُ مظلُومين، وفعلُ الربِّ ـ جلَّت قدرتُه وتعالى شأنُه ـ غيرُ مُعلَّل بعلَّة. ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: يغشاهُم هوانٌ وخِزْي. ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: مِن عذابِ الله. ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي: مانعٍ يمنعُهم منه. ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ﴾ أي: أُلبست[٤]. ﴿وُجُوهُهُمْ قِطَعًا﴾ جمعُ قِطْعة، وعلى هذا يكون ﴿مُظْلِمًا﴾ حال من «اللَّيْلِ» أي: أُغشيت وجوهُهم قِطَعاً مِن الليل في حالِ ظلمته.

---

(١) في (ظ): وجه المحسن أبيض يتلألأ ليس به سواد.

(٢) ينظر مجمع البيان للطبرسي ١١/ ٣٧، وإملاء ما من به الرحمن (بهامش الفتوحات الإلهية) ٣/ ٢٢٧.

(٣) معاني القرآن للفراء ١/ ٤٦١.

(٤) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٤٥.

وقرأ الكسائي وابن كثير: «قِطْعاً» بإسكان الطاء، فـ«مُظْلِماً» على هذا نعتٌ، ويجوزُ أنْ يكونَ حالاً مِن الليل[١]. والقِطْعُ: اسم ما قطع فَسَقط. وقال ابن السِّكِّيت: القِطْع: طائفةٌ مِن الليل[٢]، وسيأتي في «هود» إن شاء الله تعالى[٣].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ أي: نجمعُهم، والحشرُ: الجمع. ﴿جَمِيعًا﴾ حال[٤]. ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أي: اتَّخذوا مع الله شريكاً. ﴿مَكَانَكُمْ﴾ أي: اِلزَموا واثبُتوا مكانَكم، وقِفوا مواضعَكم. ﴿أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ وهذا وعيدٌ. ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي: فرَّقنا وقطَّعنا ما كان بينهم مِن التَّواصُل في الدنيا[٥]، يقال: زيَّلْتُه فتزيَّلَ، أي: فرَّقته فتفرَّق، وهو فعَّلْتُ؛ لأنَّك تقول في مصدره: تزييلاً، ولو كان فَيْعَلْتُ لقلت: زَيْلَةً. والمُزايلةُ: المفارقة، يقال: زَايَلَه مُزايَلَةً[٦] وزِيالاً: إذا فارقَه. والتَّزايُلُ: التَّبايُن.

قال الفراء[٧]: وقرأ بعضُهم: «فَزايَلْنا بينهم»، يقال: لا أُزايِل فلاناً، أي: لا أُفارِقُه، فإن قلتَ: لا أُزاوِلُه؛ فهو بمعنًى آخر، معناه: لا أُخاتِلُه[٨].

﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم﴾ عنى بالشركاء: الملائكة. وقيل: الشياطين، وقيل: الأصنام، فيُنطِقُها الله تعالى، فتكون بينهم هذه المُحاورة. وذلك أنَّهم ادَّعَوْا على الشياطين الذين أطاعوهم والأصنام التي عبدوها أنَّهم أمرُوهم بعبادتهم، ويقولون: ما عَبَدْناكم

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٢. وينظر السبعة ص٣٢٥، والتيسير ص١٢١.

(٢) تهذيب اللغة ١/ ١٨٧.

(٣) في تفسير الآية (٨١).

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٦.

(٥) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٢/ ٣٥٢.

(٦) في النسخ: زايله الله مزايلةً، والمثبت من الصحاح (زيل) والكلام منه.

(٧) في معاني القرآن ١/ ٤٦٢، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٥٢، وما بعده منه.

(٨) التخاتل: التخادع. الصحاح (ختل).

حتى أمرتمونا. قال مجاهد: يُنطِق الله الأوثانَ فتقول: ما كنا نشعرُ بأنكم إيَّانا تعبدون، وما أَمَرْناكُم بعبادتنا[١]. وإنْ حُمل الشركاءُ على الشياطين؛ فالمعنى أنَّهم يقولون ذلك دَهَشاً، أو يقولونَه كذباً؛ احتيالاً[٢] للخلاص، وقد يجري مثلُ هذا غداً، وإنْ صارت المعارفُ ضروريَّة.

قوله تعالى: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ۝٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ «شَهِيداً» مفعولٌ[٣]، أي: كفى اللهُ شهيداً، أو تمييزٌ، أي: أكْتَفِ به شهيداً بيننا وبينكم إنْ كنا أَمَرْناكُم بهذا أو رَضِيناهُ منكم. ﴿إِن كُنَّا﴾ أي: ما كنا ﴿عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾: إلَّا غافلين، لا نسمعُ ولا نُبصِرُ ولا نَعقِلُ؛ لأنَّا كنَّا جماداً لا رُوحَ فينا[٤].

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ﴾ في موضعِ نصبٍ على الظرف. ﴿تَبْلُوا۟﴾ أي: في ذلك الوقت[٥]. «تبلُو»، أي: تذوقُ. وقال الكلبيّ: تعلم. مجاهد: تُختبر[٦]. ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ أي: جزاءَ ما عَمِلَت وقدَّمَت. وقيل: تُسلم، أي: تُسلم ما عليها مِن الحقوقِ إلى أربابِها بغيرِ اختيارها[٧].

---

(١) مجمع البيان للطبرسي ١١/ ٤٢. وتفسير أبي الليث ٢/ ٩٧. وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٢/ ١٧١.

(٢) في (م): أو يقولون كذباً واحتيالاً.

(٣) لم نقف على هذا الوجه، والذي في المصادر أن «شهيداً» فيها وجهان: الأول: تمييز، والثاني: حال. ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٦، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٢، ومشكل إعراب القرآن لمكي ١/ ٣٤٤، والدر المصون ٣/ ٥٨٧.

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٣٥٢، وزاد المسير ٤/ ٢٧.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٢.

(٦) تفسير مجاهد ١/ ٢٩٤، وأخرجه الطبري ١٢/ ١٧٣، وينظر تفسير البغوي ٢/ ٣٥٢.

(٧) النكت والعيون ٢/ ٤٣٤.

وقرأ حمزة والكسائيّ: «تتلُو»[١] أي: تقرأ كلُّ نفسٍ كتابَها الذي كُتب عليها. وقيل: «تتلُو»: تتبعُ، أي: تتبعُ كلُّ نفسٍ ما قدَّمَت في الدنيا، قاله السُّدِّي. ومنه قولُ الشاعر:

إنَّ المُريبَ يتبعُ المُريبَا كما رأيتُ الذِّيبَ يتلُو الذِّيبا[٢]

قوله تعالى: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [مولى] بالخفضِ على البدلِ، أو الصِّفة[٣]. ويجوزُ نصبُ الحقِّ مِن ثلاثِ جهات، يكونُ التقديرُ: ورُدُّوا حقًّا، ثم جِيءَ بالألف واللام. ويجوزُ أنْ يكونَ التقدير: مولاهُم حقًّا، لا ما يعبدون مِن دونه. والوجهُ الثالث: أنْ يكونَ مدحاً، أي: أعني الحقَّ. ويجوزُ أنْ يُرفع «الحقّ» ويكونَ المعنى: مولاهُم الحقُّ ـ على الابتداءِ والخبرِ والقطعِ مما قبل ـ لا ما يُشركون مِن دونه[٤]. ووصفَ نفسَه سبحانه بالحقّ؛ لأنَّ الحقَّ منه، كما وصفَ نفسَه بالعَدل؛ لأنَّ العَدلَ منه[٥]، أي: كلُّ عَدلٍ وحقٍّ فمن قِبَلِه، وقال ابن عباس: «مولاهم بالحَقّ»، أي: الذي يُجازِيهم بالحقّ[٦].

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: بطلَ، ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ في موضعِ رفع[٧]، وهو بمعنى المصدر، أي: افتراؤهم.

فإن قيل: كيف قال: «ورُدُّوا إلى الله مولاهُم الحقِّ» وقد أخبرَ بأنَّ الكافرين لا مولَى لهم؟ قيل: ليس بمولاهُمْ في النُّصرةِ والمعونة، وهو مولى لهم في الرِّزقِ وإدرارِ النِّعم[٨].

---

(١) السبعة ص٣٢٥، والتيسير ص١٢١.

(٢) النكت والعيون ٢/ ٤٣٤.

(٣) مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٤٤. وما بين حاصرتين منه.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٢، دون قوله: على الابتداء والخبر والقطع مما قبل.

(٥) النكت والعيون ٢/ ٤٣٤.

(٦) ذكر معناه الواحدي في الوجيز (بهامش مراح لبيد) ١/ ٣٦٧.

(٧) في (د) و(ز) و(م): «يفترون» في موضع رفع، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٢ - ٢٥٣، والكلام منه.

(٨) النكت والعيون ٢/ ٤٣٤.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾

المُراد بمسَاق هذا الكلام الردُّ على المشركين، وتقريرُ الحُجَّة عليهم، فمن اعترفَ منهم فالحُجَّة ظاهرةٌ عليهم، ومَن لم يعترفْ فيقرَّرُ عليه أنَّ هذه السماواتِ والأرضَ لابدَّ لهما مِن خالق، ولا يتمارَى في هذا عاقل. وهذا قريبٌ مِن مرتبة الضرورة.

﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: بالمطر. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: بالنبات. ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ أي: مَن جعلَها وخلقَها[1] لكم. ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ أي: النباتَ مِن الأرض، والإنسانَ مِن النُّطفة، والسُّنْبُلَةَ مِن الحبَّة، والطيرَ مِن البيضة، والمؤمنَ مِن الكافر[2]. ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: يُقدِّره ويَقضيه ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ لأنَّهم كانوا يعتقدون أنَّ الخالقَ هو الله، أو فسيقولون: هو الله إنْ فكَّروا وأنصفُوا فَقُلْ لهم يا محمد: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: أفلا تخافُون عقابَه ونِقْمتَه في الدنيا والآخرة[3].

قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾

فيه ثمان مسائل:

الأولى: قوله تعالى: «فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الحقُّ» أي: هذا الذي يفعلُ هذه الأشياءَ هو ربُّكم الحقّ، لا ما أشركتُم معه[4]. ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ «ذا»: صلة، أي: ما بعدَ

---

(١) في (د) و(م): جعلهما وخلقهما. وينظر الوجيز للواحدي ١/ ٣٦٧.

(٢) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٤٦.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٣٥٢.

(٤) المصدر السابق.

عبادةِ الإله الحقّ إذا تركتَ عبادتَه إلَّا الضلال[١].

وقال بعضُ المتقدّمين: ظاهرُ هذه الآية يدلُّ على أنَّ ما بعدَ الله هو الضلال؛ لأنَّ أوَّلَها ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ وآخرَها ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ فهذا في الإيمانِ والكفرِ، ليس في الأعمال. وقال بعضُهم: إنَّ الكفرَ تغطيةُ الحقّ، وكلُّ ما كان غيرَ الحقّ جرى هذا المَجرى، فالحرامُ ضلالٌ، والمباحُ هُدًى، فإنَّ اللهَ هو المُبيحُ والمُحرِّمُ[٢].

والصَّحيحُ الأوَّلُ؛ لأنَّ قبلُ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ثم قال: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: هذا الذي رزقَكُم، وهذا كلُّه فِعلُه هو. «رَبُّكُمُ الحقُّ» أي: الذي تَحِقُّ له الألوهيَّة، ويستوجبُ العبادة، وإذا كان ذلك فتشريكُ غيره ضلالٌ وغيرُ حقّ[٣].

الثانية: قال علماؤنا: حكمَتْ هذه الآيةُ بأنَّه ليس بين الحقّ والباطل منزلةٌ ثالثةٌ في هذه المسألة التي هي توحيدُ الله تعالى، وكذلك هو الأمرُ في نظائرها، وهي مسائلُ الأصول التي الحقّ فيها في طرفٍ واحد؛ لأنَّ الكلامَ فيها إنَّما هو في تقريرِ[٤] وجود ذاتٍ كيف هي، وذلك بخلاف مسائلِ الفروع التي قال الله تعالى فيها: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨]، وقوله عليه الصلاة والسَّلام: «الحلالُ بيِّنٌ، والحرامُ بيِّنٌ، وبينهما أمورٌ مُتشابهاتٌ»[٥]. والكلامُ في الفروع إنَّما هو في أحكامٍ طارئةٍ على وجودِ ذاتٍ متقرِّرةٍ لا يُختلَفُ فيها، وإنَّما يُختلف في الأحكام المتعلِّقة بها.

---

(١) الوجيز للواحدي ١/ ٣٦٨.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٤٠ - ١٠٤١.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١١٨.

(٤) في (خ) و(ز) و(م): تعديد، وفي (د) و(ظ): تقدير، والمثبت من المحرر الوجيز ٣/ ١١٨، والكلام منه إلى نهاية المسألة.

(٥) هو في الصحيحين من حديث النعمان بن بشير، وسلف ٢/ ٢٩٥.

الثالثة: ثبتَ عن عائشة رضي الله عنها أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة في جَوْف الليل قال: «اللهمَّ لك الحمدُ» الحديثَ. وفيه: «أنتَ الحقُّ، ووَعْدُك الحقُّ، وقولُك الحقُّ، ولقاؤُك الحقُّ، والجنَّةُ حقٌّ، والنَّارُ حقٌّ، والسَّاعةُ حقٌّ، والنبيُّونَ حقٌّ، ومحمدٌ حقٌّ»[(١)] الحديثَ. فقولُه: «أنتَ الحقُّ» أي: الواجبُ الوجود، وأصلُه مِن حَقَّ الشيءُ، أي: ثبتَ ووجب، وهذا الوصفُ لله تعالى بالحقيقة [والخصوصية، لا ينبغي لغيره]، إذ وجودُه لنفسه، لم يَسبقه عَدَمٌ، ولا يلحقه عدَمٌ، وما عداه مما يُقال عليه هذا الاسمُ مسبوقٌ بِعَدَم، ويجوزُ عليه لَحاقُ العَدَمِ، ووجودُه مِن مُوجِده لا مِن نفسه. وباعتبار هذا المعنى كان أصدقُ كلمة قالها الشاعر كلمةَ لبيد:

ألا كـلُّ شـيءٍ مـا خـلا الـلـه بـاطِـلُ

وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[(٢)] [القصص: ٨٨].

الرابعة: مقابلةُ الحقّ بالضلال عُرف لغةً وشرعاً، كما في هذه الآية. وكذلك أيضاً مقابلةُ الحقّ بالباطل عُرف لغةً وشرعاً، قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

والضلالُ: حقيقته الذهابُ عن الحقّ، أُخِذ مِن ضلال الطريق، وهو العُدول عن سَمْته. قال ابن عرفة: الضلالةُ عند العرب: سلوكُ غيرِ سبيل القَصْد، يقال: ضلَّ عن الطريق، وأضلَّ الشيءَ: إذا أضاعَه. وخُصَّ في الشرع بالعبارة في العدول[(٣)] عن السَّداد[(٤)] في الاعتقاد دون الأعمال. ومِن غريب أمره أنه يُعبَّر به عن عَدَم

---

(١) لم نقف عليه من حديث عائشة رضي الله عنها، وأخرجه أحمد (٣٣٦٨)، والبخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) المفهم ٢/ ٣٩٨ ، وما بين حاصرتين منه، وبيت لبيد سلف ٢/ ٢١ .

(٣) الكلام في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٣٩ (دون قول ابن عرفة)، وفيه: عن العدول.

(٤) في (خ) و(د) و(ز): السواء، وفي (ظ): السر، والمثبت من (م)، وهو الموافق لأحكام القرآن لابن العربي.

المعرفة[١] بالحقِّ[٢] إذا قابله غَفْلة، ولم يقترن بعدمه جَهْل أو شكٌّ، وعليه حملَ العلماءُ قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]، أي: غافلاً، في أحد التأويلات، يُحقِّقُه قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢].

الخامسة: روى عبدُ الله بن عبد الحكم وأشهبُ[٣] عن مالك في قوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ قال: اللَّعِبُ بالشِّطْرنج والنَّرْد مِن الضلال. وروى يونس عن ابن وهب [عن مالك] أنَّه سُئل عن الرجل يلعبُ في بيته مع امرأتِه بأربعَ عشرةَ[٤]، فقال مالك: ما يُعجبني، وليس مِن شأن المؤمنين، يقول الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾[٥]. وروى يونس عن أشهب قال: سُئل - يعني مالكاً - عن اللَّعب بالشِّطرنج فقال: لا خيرَ فيه، وليس بشيء، وهو مِن الباطل، واللَّعبُ كلُّه مِن الباطل، وإنَّه ينبغي لذي العقل أنْ تنهاه اللِّحيةُ والشيبُ عن الباطل[٦].

وقال الزهري لما سُئل عن الشِّطرنج: هي مِن الباطل، ولا أحبُّها[٧].

السادسة: اختلفَ العلماءُ في جوازِ اللَّعب بالشِّطرنج وغيرِه إذا لم يكنْ على وجه القِمار، فتحصيلُ مذهبِ مالك وجمهورِ الفقهاء في الشِّطرنج أنَّ مَن لم يُقامِرْ بها، ولعبَ مع أهله في بيتِه مُسْتتِراً به؛ مرَّةً في الشهرِ أو العام، لا يُطَّلعُ عليه ولا يُعلم به؛

---

(١) في النسخ الخطية: يعبر به عن العدم عن المعرفة، والمثبت من (م) وهو الموافق لأحكام القرآن لابن العربي.

(٢) في النسخ الخطية: بالحق سبحانه، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي.

(٣) في أحكام القرآن لابن العربي: عن أشهب.

(٤) هي قطعة خشب يُحفر فيها ثمان وعشرون حفرة، أربع عشرة من جانب وأربع عشرة من الجانب الآخر، ويجعل فيها حصى صغار يُلعب بها. وتسمى أيضاً المنقلة. الزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر الهيتمي ٢/ ١٩١ .

(٥) بعدها في (ظ): واللهو المفرط بدعة وضلال.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٤٠ ، وما بين حاصرتين منه.

(٧) ذكره ابن عبد البر في التمهيد ١٣/ ١٧٩ ، والحَليمي في المنهاج في شعب الإيمان ٣/ ٩٢ .

أنَّه معفوٌّ عنه[١] غيرُ محرَّم عليه ولا مكروهٌ له، وأنَّه إنْ تَخلَّع به، واشتَهر[٢] فيه، سقطَتْ مُروءتُه وعدالتُه، ورُدَّتْ شهادتُه[٣]. وأمَّا الشافعيّ فلا تسقطُ في مذهبِ أصحابه شهادةُ اللَّاعب بالنَّرد والشِّطرنج، إذا كان عَدْلاً في جميعِ أحواله[٤]، ولم يظهرْ منه سَفَهٌ ولا رِيبةٌ ولا كبيرةٌ إلَّا أنْ يلعبَ به قماراً، فإنْ لَعِبَ به قماراً، وكان بذلك معروفاً سقطَتْ عدالتُه وسفَّه نفسَه لأكلِه المالَ بالباطل. وقال أبو حنيفة: يُكره اللَّعبُ بالشِّطرنج والنَّرد والأربعةَ عشرَ وكلِّ اللهو؛ فإنْ لم تَظهرْ مِن اللَّاعب بها كبيرةٌ وكانت محاسنُه أكثرَ مِن مساويه قُبِلَت شهادتُه عندهم.

قال ابن العربي[٥]: قالت الشافعية: إنَّ الشِّطرنج يُخالف النَّرد؛ لأنَّ فيه إكدادَ الفهمِ، واستعمالَ القريحة. والنَّردُ قِمارُ غَرَرٍ، لا يعلم ما يَخرجُ له فيه، كالاستقسامِ بالأزلام.

السابعة: قال علماؤنا: النَّردُ: قطعٌ ملونة[٦] مِن خشبِ البقس[٧] ومِن عظم الفيل، وكذا هو الشِّطرنج؛ إذ هو أخوه غُذِّي بِلِبانه. والنَّرد هو الذي يُعرف بالطبل[٨]، ويُعرف بالكِعاب، ويُعرف في الجاهلية أيضاً بالأرن، ويُعرف أيضاً بالنَّرْدَشِير. وفي

---

(١) بعدها زيادة في (ظ): موافق لقول الإمام الأعظم أبي حنيفة، سُئل عن الشطرنج وغيره من أنواع اللعب، أجاب بقوله: كل لهو مكروه، والمكروه عنده ما كان إلى الحرام أقرب، وقال: لا أحبها، ولولا أعلم أن نهي للعامة (كذا) لا يُؤثر لنهيتهم عن كل ما يحدث الغفلة؛ لأن كل ما ألهى الإنسان غفلة، والغفلة مكروهة، وأجمع الجمهور أيضاً إذا كان يؤدي الصلوات في أوقاتها، ولا يلهو به عن العبادات ولم يقامر. اهـ. وهذه المسألة من التمهيد ١٣/١٧٩ - ١٨٠ و ١٨٣، وليس فيه هذه الزيادة.

(٢) في التمهيد: استهتر. وقوله: تخلَّع، جاء في اللسان (خلع): تخلَّع في الشراب: انهمك فيه ولازمه ليلاً ونهاراً.

(٣) بعدها في (ظ): أيضاً عندهما، أي: عند أبي حنيفة ومالك.

(٤) في النسخ: أصحابه، والمثبت من التمهيد، وينظر إكمال المعلم ٧/ ٢٠٢.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٤١.

(٦) في النسخ: مملوءة، والمثبت من التمهيد ١٣/ ١٧٥، والاستذكار ٢٧/ ١٢٩، والكلام منهما.

(٧) البَقْس: شجر كالآس ورقاً وحبًّا. القاموس (بقس).

(٨) في (م): بالباطل.

«صحيح مسلم»[١]: عن سليمان بن بُريدة، عن أبيه، عن النبيِّ ﷺ قال: «مَن لَعِبَ بالنَّرْدَشِير؛ فكأنَّما غَمَسَ يدَه في لحم خنزيرٍ ودَمِه».

قال علماؤنا: ومعنى هذا، أي: هو كمن غمسَ يدَه في لحم الخنزير يُهيِّئه[٢] لأن يأكلَه، وهذا الفعلُ في الخنزير حرامٌ لا يجوز، يُبيِّنه قولُه ﷺ: «مَن لَعِبَ بالنَّردِ فقد عصى اللهَ ورسولَه»، رواه مالك وغيرُه مِن حديث أبي موسى الأشعري[٣]، وهو حديثٌ صحيح، وهو يُحرِّم اللَّعبَ بالنَّرد جُملةً واحدةً، وكذلك الشِّطرنج، لم يَستثنِ وقتاً مِن وقت، ولا حالاً مِن حال، وأخبرَ أنَّ فاعلَ ذلك عاصٍ لله ورسوله، إلَّا أنَّه يَحتمِلُ أنْ يكونَ المرادُ باللَّعب بالنَّرد المَنهيِّ عنه أنْ يكونَ على وجهِ القمار؛ لما رُوي مِن إجازة اللَّعب بالشِّطرنج عن التابعين على غيرِ قِمار. وحَمْلُ ذلك على العموم قماراً وغيرَ قمارٍ أَوْلى وأحوطُ إن شاء الله[٤].

قال أبو عبد الله الحَلِيميّ في «كتاب منهاج الدين»[٥]: ومما جاء في الشِّطرنج حديثٌ يُروى فيه كما يُروى في النَّرد أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَن لعبَ بالشِّطرنج فقد عصى اللهَ ورسولَه»[٦].

وعن عليٍّ ﷺ أنَّه مَرَّ على مجالسَ من بني تميم[٧] وهم يلعبون بالشِّطرنج، فوقفَ عليهم فقال: أمَا واللهِ، لغير هذا خُلقتُم، أمَا والله، لولا أنْ تكونَ سُنَّةً[٨] لضربتُ به وجوهَكم.

---

(١) الحديث (٢٢٦٠)، وهو في مسند أحمد (٢٢٩٧٩).

(٢) في (ظ): في لحم الخنزير ودمه يمسّه..

(٣) الموطأ ٢/ ٩٥٨ . وأخرجه أحمد (١٩٥٥١).

(٤) التمهيد ١٣/ ١٧٥ و ١٨١ . دون قوله: وكذلك الشطرنج.

(٥) المنهاج في شعب الإيمان ٣/ ٩٢ .

(٦) أورده ابن عبد البر في التمهيد ١٣/ ١٧٣ وقال: رُوي حديث منكر عن مالك عن نافع عن ابن عمر.. فذكره، وقال: وهذا إسناد عن مالك مظلم، وهو حديث موضوع باطل.

(٧) في (م): مرَّ على مجلس من مجالس بني تميم.

(٨) في المنهاج في شعب الإيمان: سُبَّة.

وعنه ﷺ أنَّه مَرَّ بقوم يلعبون بالشِّطرنج، فقال: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢] لأنْ يَمَسَّ أحدُكم جمراً حتى يَطْفأَ خيرٌ مِن أنْ يَمسَّها.

وسُئل ابن عمر عن الشِّطرنج فقال: هي شَرٌّ مِن النَّرد. وقال أبو موسى الأشعري: لا يلعبُ بالشِّطرنج إلَّا خاطئٌ. وسُئل أبو جعفر عن الشِّطرنج فقال: دَعونا مِن هذه المجوسيَّة[١]. وفي حديثٍ طويلٍ عن النبيِّ ﷺ: «وأنَّ مَن لعبَ بالنَّرد والشِّطرنج والجوز والكِعاب مَقَتَه الله، ومَن جلسَ إلى مَن يلعبُ بالنَّرد والشِّطرنج[٢] لينظرَ إليهم مُحِيَتْ عنه حسناتُه كلُّها، وصار ممن مَقَتَه الله»[٣].

وهذه الآثارُ كلُّها تدلُّ على تحريمِ اللَّعب بها بلا قمارٍ، والله أعلم. وقد ذكرنا في «المائدة»[٤] بيانَ تحريمها، وأنَّها كالخمر في التحريم لاقترانِها به، والله أعلم.

قال ابن العربيّ في «قَبَسه»[٥]: وقد جوَّزَه الشافعيّ، وانتهى حالُ بعضهم إلى أنْ يقول: هو مندوبٌ إليه[٦]، حتى اتَّخذوه في المدرسة، فإذا أعيا الطالبُ مِن القراءة لَعِبَ به في المسجد، وأسندوا إلى قومٍ مِن الصحابة والتابعين أنَّهم لَعِبوا بها! وما كان ذلك قطّ، وتالله، ما مسَّتْها يَدُ تقيٍّ. ويقولون: إنَّها تَشْحَذُ الذِّهن، والعِيان يُكذِّبهم، ما تبحَّرَ فيها قطُّ رجلٌ له ذِهن[٧]. سمعتُ الإمام أبا الفضل عطاء المَقْدسي[٨] يقول بالمسجد الأقصى في المناظرة: إنَّها تُعلِّم الحرب. فقال له الطُّرْطُوشيُّ: بل تُفسد

(١) أخرج هذه الآثار البيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ٢١٢ .
(٢) بعدها في (ظ): وغيره من الملاهي.
(٣) لم نقف عليه عند غير الحليمي في المنهاج ٣/ ٩٢ - ٩٣ وعنه نقله المصنف.
(٤) ٨/ ١٦٤ - ١٦٥ .
(٥) ٣/ ١١٤٠ .
(٦) في (ظ): هو مباح، ومنهم من قال مندوب إليه.
(٧) في (ظ): إنه يقوي الذهن ويزيد في العقل، والعيان يكذبهم، شاهد عليهم: لم أر قط رجل يلعبها له ذهن.
(٨) لم نقف له على ترجمة سوى ما قاله ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ٨٣٨ : شيخنا عطاء المقدسي شيخ الفقهاء والصوفية ببيت المقدس.

تدبيرَ الحرب؛ لأنَّ الحربَ المقصودُ منها المَلِكُ واغتيالُه، وفي الشِّطرنج تقول: شاهْ إيَّاه، المَلِك نَحِّه عن طريقي، فاستضحَكَ الحاضرين. وتارةً شدَّدَ فيها مالك وحرَّمها وقال فيها: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾. وتارةً استهانَ بالقليل منها والأهون[(١)]، والقولُ الأوَّلُ أصحُّ، والله أعلم.

فإن قال قائل: رُوي عن عمر بن الخطاب ﷺ أنَّه سُئل عن الشِّطرنج فقال: وما الشِّطرنجُ؟ فقيل له: إنَّ امرأةً كان لها ابنٌ ـ وكان مَلِكاً ـ فأُصيبَ في حربٍ دون أصحابه، فقالت: كيف يكون هذا؟ أَرُونيه عِياناً، فعُمل لها الشِّطرنج، فلما رَأتْه تسلَّتْ بذلك. ووصفوا الشِّطرنج لعمر ﷺ فقال: لا بأسَ بما كان مِن آلةِ الحرب[(٢)].

قيل له: هذا لا حُجَّةَ فيه؛ لأنَّه لم يقل: لا بأسَ بالشِّطرنج، وإنَّما قال: لا بأسَ بما كان مِن آلةِ الحرب. وإنَّما قال هذا؛ لأنَّه شُبِّه عليه أنَّ اللعبَ بالشِّطرنج مما يُستعان به على معرفةِ أسبابِ الحرب، فلما قيل له ذلك، ولم يُحطْ به علمُه قال: لا بأسَ بما كان مِن آلة الحرب، [أي:] إنْ كان كما تقولون فلا بأسَ به، وكذلك مَن رُوي عنه من الصحابة أنَّه لم يَنْهَ عنه، فإنَّ ذلك محمولٌ منه على أنَّه ظنَّ أنَّ ذلك ليس يُتَلهَّى به، وإنَّما يُراد به النسبُ[(٣)] إلى علم القتال[(٤)] والمضاربة[(٥)] فيه، أو على أنَّ الخبرَ المُسنَد لم يَبلغْهم. قال الحَلِيمِي[(٦)]: وإذا صحَّ الخبرُ فلا حُجَّة لأحدٍ معه، وإنَّما الحُجَّة فيه على الكافَّة.

---

(١) في القبس: ولا هون.

(٢) بعدها في (ظ): إن كان ذلك كما يقولون. وأورد هذين الأثرين الحَليمي في المنهاج في شعب الإيمان ٣/ ٩٤ ، والكلام منه إلى آخر المسألة، وما بين سيرد حاصرتين منه.

(٣) في (خ): التشبيه، وفي (ز) و(ظ) و(م): التسبب، والمثبت من (د) وهو الموافق للمنهاج.

(٤) عبارة (ظ): ..أنه ظن أنه ليس يبتلى كثير من الشيوخ الجهال الذين لا يقدرون على الغزو والجهاد، وإنما يراد الشاب الذي يتعلم أو علم الجهاد والقتال..

(٥) في المنهاج في شعب الإيمان: والمهارة.

(٦) في المنهاج في شعب الإيمان ٣/ ٩٥ .

الثامنة: ذكر ابن وهب بإسناده أنَّ عبد الله بن عمر مَرَّ بغلمان يلعبون بالكُجَّة ـ وهي حفرٌ فيها حصًى يلعبون بها ـ قال: فسدَّها ابن عمر ونَهاهُم عنها[1]. وذكر الهرويُّ في باب الكاف مع الجيم في حديث ابن عباس: في كلِّ شيءٍ قِمارٌ حتى في لعب الصِّبيان بالكُجَّة، قال ابن الأعرابي: هو أن يأخذَ الصبيُّ خِرقةً فيدوِّرَها كأنَّها كرةٌ، ثم يتقامرون بها. وكَجَّ: إذا لعِبَ بالكُجَّة[2].

قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي: كيف تَصرفون عقولَكم إلى عبادة ما لا يَرزقُ ولا يُحيي ولا يُميت[3]؟!

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: حكمُه وقضاؤه وعلمُه السابق. ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟﴾ أي: خرجوا عن الطاعة وكفروا وكذَّبوا. ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يُصدِّقون. وفي هذا أوْفَى دليل على القَدَريَّة[4].

وقرأ نافع وابن عامر هنا، وفي آخرها: «كذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ»، وفي سورة غافر[5] بالجمع في الثلاثة، الباقون بالإفراد[6].

و«أنَّ» في موضعِ نصبٍ، أي: بأنَّهم أو لأنَّهم. قال الزجاج[7]: ويجوزُ أنْ تكونَ

(١) التمهيد ١٣/ ١٧٧ .

(٢) تهذيب اللغة ٩/ ٤٢٣ . وقول ابن عباس رضي الله عنهما ذكره أيضاً ابن الجوزي في غريب الحديث ٢/ ٢٨١ . وجاء بعد ذلك في (ظ) ما نصُّه: والذي أراه من هذا اللهو واللعب المفرط إذا أجمعوا عليه العامة (كذا) ولم ينهوا بعضهم بعضاً قتّر عليهم في المعايش، وجلب إليهم الأمور المزعجة، والمراد به ولي الولد الذي يلهو، لابد وأن يحل بهم المقت.

(٣) الوسيط ٢/ ٥٤٧ .

(٤) تفسير الرازي ١٧/ ٨٧ - ٨٨ .

(٥) الآية (٦) منها، والآية الأخرى في هذه السورة هي الآية (٩٦).

(٦) السبعة ص٣٢٦ ، والتيسير ص١٢٢ .

(٧) في معاني القرآن له ٣/ ١٨ .

في موضع رفعٍ على البدل مِن «كلمات». قال الفراء[١]: يجوزُ: «إِنَّهم» بالكسرِ على الاستئناف[٢].

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ أي: آلهتِكم ومعبوداتِكم. ﴿مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: قُلْ لهم يا محمد ذلك على جهةِ التوبيخِ والتقرير، فإنْ أجابوك وإلَّا فـ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ وليس غيرُه يفعلُ ذلك. ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيف تنقلِبون وتنصرِفون عن الحقِّ إلى الباطل؟!

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ يُقال: هداه للطريق، وإلى الطريق؛ بمعنىً واحد، وقد تقدَّم[٣]. أي: هل مِن شركائِكم مَن يُرشِد إلى دين الإسلام؟ فإذا قالوا: لا، ولابدَّ منه فـ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾، ثم قل لهم موبِّخاً ومقرِّراً: ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ﴾ أي: يُرشد. ﴿إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ وهو الله سبحانه وتعالى ﴿أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ يريدُ الأصنامَ التي لا تهدي أحداً، ولا تمشي إلَّا أنْ تُحمل، ولا تنتقلُ عن مكانها إلَّا أنْ تُنقل[٤]. قال الشاعر:

لِلفتى عقلٌ يعيشُ به حيثُ تَهْدِي ساقَه قَدَمُهْ[٥]

وقيل: المرادُ الرؤساءُ والمُضلّون الذين لا يُرشدون أنفسَهم إلى هُدَى إلَّا أنْ

(١) معاني القرآن له ١/ ٤٦٣ - ٤٦٤.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٣، وعنه نقل المصنف قولي الزجاج والفراء.

(٣) ١/ ٢٤٧.

(٤) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٤٧، وتفسير البغوي ٢/ ٣٥٣.

(٥) قائله طرفة بن العبد، وهو في ديوانه ص٨٦.

يُرْشَدوا[١].

وفي «يَهِدِّي» قراءاتٌ ستٌّ:

الأولى: قرأ أهلُ المدينة إلَّا ورشاً «يَهْدِّي» بفتح الياء وإسكان الهاء وتشديد الدال[٢]، فجمعوا في قراءتهم بين ساكنين كما فعلوا في قوله: «لَا تَعْدُّوا» [النساء: ١٥٤]، وفي قوله: «يَخْصِّمُونَ» [يس: ٤٩]. قال النحاس[٣]: والجمعُ بين الساكنين لا يقدِرُ أحدٌ أنْ يَنطِقَ به. قال محمد بن يزيد: لابدَّ لمن رامَ مثل هذا أنْ يُحرِّكَ حركةً خفيفةً إلى الكسر، وسيبويه يُسمّي هذا اختلاسَ الحركة.

الثانية: قرأ أبو عمرو وقالون في روايةٍ بين الفتح والإسكان، على مذهبِه في الإخفاءِ والاختلاس[٤].

الثالثة: قرأ ابنُ عامر، وابن كثير، وورش، وابن مُحَيْصن: «يَهَدِّي» بفتح الياء والهاء وتشديد الدال[٥]. قال النحاس[٦]: هذه القراءةُ بيِّنةٌ في العربية، والأصلُ فيها يَهتدي، أُدغِمت التاء في الدال، وقُلبت حركتُها على الهاء.

الرابعة: قرأ حفصٌ ويعقوبُ والأعمش عن أبي بكر مثل قراءة ابن كَثير، إلا أنهم كسروا الهاء[٧]، قالوا: لأن الجزم إذا اضْطُرَّ إلى حركته حُرِّك إلى الكسر. قال أبو حاتم: هي لغة سُفْلَى مضر[٨].

---

(١) تفسير الرازي ١٧/ ٩١ .

(٢) قرأ بها نافع في رواية قالون، وأبو جعفر. السبعة ص٣٢٦ ، والتيسير ص١٢٢ ، والنشر ٢/ ٢٨٣-٢٨٤ .

(٣) في إعراب القرآن ٢/ ٢٥٤ .

(٤) السبعة ص٣٢٦ ، والتيسير ص١٢٢ .

(٥) السبعة ص٣٢٦ ، والتيسير ص١٢٢ . وابن محيصن ليس من العشرة.

(٦) إعراب القرآن ٢/ ٢٥٤ .

(٧) السبعة ص٣٢٦ ، والتيسير ص١٢٢ ، والنشر ٢/ ٢٨٣ ، ورواية الأعمش عن أبي بكر ليست المشهورة عنه، وستأتي المشهورة عنه بعده.

(٨) ذكره أبو حيان في البحر ٥/ ١٥٦ .

الخامسة: قرأ أبو بكر عن عاصم: «يِهِدِّي» بكسرِ الياء والهاء، وتشديد الدال[1]، كلُّ ذلك لإتباعِ الكسرِ الكسرَ كما تقدَّم في البقرة في «يَخْطَفُ» [الآية: ٢٠]. وقيل: هي لغةُ مَن قرأ: «نِسْتَعِينُ» [الفاتحة: ٥] و«لَنْ تِمَسَّنَا النَّارُ»[2] ونحوه. وسيبويه لا يُجيز «يِهِدِّي»، ويُجيز «تِهِدِّي»، ، و«نِهِدِّي»، و«إِهِدِّي»، قال: لأنَّ الكسرةَ في الياء تثقُل[3].

السادسة: قرأ حمزة والكسائي وخلف ويحيى بن وَثَّاب والأعمش: «يَهْدِي»، بفتحِ الياء وإسكان الهاء وتخفيف الدال[4]، مِن: هَدَى يَهْدِي. قال النحاس: وهذه القراءةُ لها وجهان في العربيةِ وإنْ كانت بعيدةً، وأحد الوجهين: أنَّ الكسائيّ والفراء قالا: «يَهْدي» بمعنى يَهْتدي. قال أبو العباس: لا يُعرف هذا، ولكنَّ التقديرَ: أمَّن لا يَهدي غيرَه. تمَّ الكلامُ، ثم قال: «إِلَّا أَنْ يُهْدَى» استثناءٌ ليس مِن الأوَّل[5]، أي: لكنَّه يحتاجُ أنْ يُهدى، فهو استثناءٌ منقطعٌ، كما تقول: فلانٌ لا يُسمِعُ غيرَه إلَّا أنْ يُسمَع، أي: لكنَّه يَحتاجُ أنْ يُسْمَع. وقال أبو إسحاق[6]: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ كلامٌ تامٌّ، والمعنى: فأيُّ شيء لكم في عبادةِ الأوثان؟!

---

(١) السبعة ص٣٢٦، والتيسير ص١٢٢.

(٢) لم نقف على من ذكر هذه القراءة، وهي لغة من يكسر أوائل الأفعال المضارعة إذا كان الفعل من بنات الياء والواو التي الياء والواو فيهن لام أو عين، والمضاعف، ويشترط لذلك ألا يكون حرف المضارعة ياءً ـ كما سيذكر المصنف بعده ـ وألا يكون ثاني الفعل مفتوحاً نحو: ضَرَبَ. وهذه لغة جميع العرب إلا أهل الحجاز. الكتاب ٤/ ١١٠.

(٣) ينظر التعليق السابق. والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٤. قال السمين الحلبي في الدر المصون ٦/ ١٩٩: وهذا فيه غضٌّ من قراءة أبي بكر، ولكنه قد تواتر قراءةً، فهو مقبول.

(٤) السبعة ص٣٢٦، والتيسير ص١٢٢، والنشر ٢/ ٢٨٣، وقراءة يحيى والأعمش ذكرها النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٥٤. والكلام منه.

(٥) في النسخ: استأنف من الأول، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس.

(٦) يعني الزجاج، وقوله في معاني القرآن له ٣/ ٢٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٥٤.

ثم قيل لهم: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي: لأنفسِكم، وتقضون بهذا الباطلِ الصُّراح، تعبدون آلهةً لا تُغني عن أنفسِها شيئاً إلَّا أنْ يُفعل بها، والله يفعلُ ما يشاءُ، فتتركون عبادتَه، فموضعُ «كيف» نصبٌ بـ «تحكمون».

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ يريدُ الرؤساءَ منهم[(١)]، أي: ما يتَّبعون إلَّا حَدْساً وتَخْريصاً في أنَّها آلهةٌ، وأنَّها تشفعُ، ولا حُجَّة معهم. وأمَّا أتباعُهم فيتبعونَهم تقليداً. ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أي: مِن عذابِ الله، فالحقُّ: هو الله. وقيل: «الحقُّ» هنا: اليقين، أي: ليس الظنُّ كاليقين[(٢)]. وفي هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّه لا يُكْتَفَى بالظنِّ في العقائد. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ مِن الكُفر والتكذيب، خرجَتْ مَخرجَ التهديد.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ «أنْ» مع «يُفترى» مصدرٌ، والمعنى: وما كان هذا القرآنُ افتراءً، كما تقول: فلانٌ يُحب أنْ يركبَ، أي: يُحب الركوبَ، قاله الكسائيّ[(٣)]. وقال الفراء[(٤)]: المعنى: وما ينبغي لهذا القرآنِ أنْ يُفترى، كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ [آل عمران: ١٦١]، ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢]. وقيل: «أنْ» بمعنى اللام، تقديرُه: وما كان هذا القرآنُ

(١) النكت والعيون ٢/ ٤٣٥.

(٢) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٤٧.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٤ - ٢٥٥.

(٤) في معاني القرآن ١/ ٤٦٤.

لِيُفترى[١]. وقيل: بمعنى: لا، أي: لا يُفترى[٢]. وقيل: المعنى: ما كان يتهيَّأ لأحدٍ أنْ يأتيَ بمثل هذا القرآن مِن عند غيرِ الله، ثم يَنسُبَه إلى الله تعالى لإعجازِه؛ لرصفِه[٣] ومعانيه وتأليفه.

﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قال الكسائيّ والفراءُ[٤] ومحمد بن سعدان[٥]: التقديرُ: ولكنْ كان تصديقَ، ويجوزُ عندهم الرَّفع بمعنى: ولكنْ هو تصديقُ. ﴿ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: مِن التوراة والإنجيل وغيرِهما مِن الكُتب، فإنَّها قد بشَّرَت به، فجاء مصدِّقاً لها في تلك البِشارة[٦]، وفي الدعاء إلى التَّوحيدِ، والإيمانِ بالقيامة. وقيل: المعنى: ولكنْ تصديقَ النبيِّ الذي بين يدي القرآن، وهو محمدٌ ﷺ؛ لأنَّهم شاهدوه قبل أن يسمعوا منه القرآن[٧].

﴿وَتَفْصِيلَ﴾ بالنصبِ والرَّفع على الوجهَين المذكورَين في تصديق[٨]. والتفصيلُ: التبيين، أي: يُبيِّنُ ما في كتُب الله المتقدِّمة. والكتاب اسم الجنس.وقيل: أراد بتفصيل الكتاب: ما بُيِّن في القرآنِ مِن الأحكام[٩]. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ الهاءُ عائدةٌ للقرآن، أي: لا شكَّ فيه، أي: في نزولهِ مِن قِبَلِ الله تعالى.

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٣٥٤ .

(٢) لم نقف على هذا القول.

(٣) في النسخ: لوصفه، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٥ ، والكلام منه.

(٤) في معاني القرآن ١/ ٤٦٥ ، ونقله المصنف عنه مع ما بعده من إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٥ .

(٥) أبو جعفر الضرير، الكوفي، النحوي، صنَّف في العربية والقراءات. توفي (٢٣١هـ). طبقات القرّاء ٢/ ١٤٣ .

(٦) تفسير البغوي ٢/ ٣٥٤ ، وتفسير الرازي ١٧/ ٩٥ .

(٧) زاد المسير ٤/ ٣٢ .

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٥ .

(٩) تفسير البغوي ٢/ ٣٥٤ .

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ «أم» ها هنا في مَوضعِ ألفِ الاستفهام؛ لأنَّها اتَّصلَت بما قبلها. وقيل: هي أَم المنقطعةُ التي تُقدَّر بمعنى بل والهمزة[(١)]، كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [السجدة: ١-٢-٣] أي: بل أيقولون افتراه. وقال أبو عُبيدة[(٢)]: أَمْ بمعنى الواو، مجازُه: ويقولون افتراه. وقيل: الميمُ صِلةٌ، والتقدير: أيقولون افتراه[(٣)]، أي: اختلقَ محمدٌ القرآنَ مِن قِبَلِ نفسه، فهو استفهامٌ معناه: التقريع.

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ ومعنى الكلامِ الاحتجاجُ، فإنَّ الآيةَ الأُولى دلَّت على كون القرآن مِن عند الله؛ لأنَّه مصدِّقُ الذي بين يدَيه مِن الكُتب، ومُوافقٌ لها مِن غير أنْ يتعلَّمَ[(٤)] محمدٌ عليه الصلاة والسَّلام عن أحد. وهذه الآيةُ إلزامٌ بأنْ يأتوا بسورة مثله إنْ كان مفترًى. وقد مضى القولُ في إعجاز القرآن، وأنَّه مُعجِزٌ في مقدِّمة الكتاب[(٥)]، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ أي: كذَّبوا بالقرآنِ وهم جاهلون بمعانِيه وتفسيرِه، وعليهم أنْ يَعلموا ذلك بالسؤال. فهذا يدلُّ على أنَّه يجبُ أنْ يُنظرَ

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١٢٠ .

(٢) في مجاز القرآن ١/ ٢٧٨ .

(٣) ذكره السمين في الدر المصون ٦/ ٢٠٤ ، وقال: وهذا قول ساقط، إذ زيادة الميم قليلة جداً لاسيما هنا.

(٤) في (خ) و(ز) و(ظ): يتكلم.

(٥) ١/ ١١٢ .

في التَّأويل[١].

وقوله: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ أي: ولم يأتِهم حقيقةُ عاقبة التكذيب مِن نزولِ العذاب بهم. أو كذَّبوا بما في القرآن مِن ذكرِ البعث والجنَّة والنَّار، ولمَّا يأتِهم تأويلُه، أي: حقيقةُ ما وُعِدوا في الكتاب[٢]، قاله الضحاك. وقيل للحسين بن الفضل: هل تجدُ في القرآن: مَن جهِل شيئاً عاداه؟ قال: نعم، في موضِعين: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾، وقوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾[٣] [الأحقاف: ١١].

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يريدُ الأُمَمَ الخالية، أي: كذا كانت سبيلُهم. والكافُ في موضعِ نصب[٤]. ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: أخذُهم بالهلاكِ والعذاب.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ قيل: المرادُ أهلُ مكة[٥]، أي: ومنهم مَن يؤمنُ به في المستقبل وإنْ طال تكذيبُه؛ لعلمِ الله[٦] تعالى السابقِ فيهم أنَّهم مِن أهل[٧] السعادة. و«مَنْ» رفعٌ بالابتداء، والخبرُ في المجرور. وكذا ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ والمعنى: ومنهم مَن يُصِرُّ على كُفرِه حتى يموت[٨]، كأبي طالب، وأبي

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٥، ومعاني القرآن له ٣/ ٢٩٤ - ٢٩٥.
(٢) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٤٨.
(٣) زاد المسير ٤/ ٣٣.
(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٥.
(٥) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٤٨.
(٦) في (د) و(م): لعلمه.
(٧) لفظ: أهل، ليس في (م).
(٨) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٥.

لهب، ونحوهما. وقيل: المرادُ أهلُ الكتاب. وقيل: هو عامٌّ في جميعِ الكفار، وهو الصحيح. وقيل: إنَّ الضميرَ في «به» يرجعُ إلى محمد ﷺ[(١)]؛ فأعلَمَ اللهُ سبحانه أنَّه إنَّما أخَّرَ العقوبةَ؛ لأنَّ منهم مَن سيؤمِنُ. ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: مَن يُصِرُّ على كفرِه[(٢)]، وهذا تهديدٌ لهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٤١﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي﴾ رفعٌ بالابتداء، والمعنى: لي ثوابُ عملي في التبليغِ والإنذارِ والطاعة لله تعالى. ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ أي: جزاؤه مِن الشِّرك. ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ مثلُه[(٣)]، أي: لا يُؤاخَذُ أحدٌ بذنب الآخر. وهذه الآيةُ منسوخةٌ بآية السيفِ في قول مجاهد، والكلبي، ومقاتل، وابن زيد[(٤)].

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤٢ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ۝٤٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ يُريد بظواهِرهم[(٥)]، وقلوبُهم لا تَعِي شيئاً مما يقولُه مِن الحقّ، ويتلوه مِن القرآن؛ ولهذا قال: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: لا تُسمع، فظاهرُه الاستفهامُ، ومعناه النَّفي[(٦)]، وجعلَهم كالصُّمّ

---

(١) زاد المسير ٤/ ٣٤.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٥ - ٢٥٦.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٦.

(٤) أخرجه الطبري ١٢/ ١٨٥ عن ابن زيد، وذكره الواحدي في الوسيط ٢/ ٥٤٨، والرازي في تفسيره ١٧/ ١٠٠ عن مقاتل والكلبي. قال الرازي: وهذا بعيدٌ؛ لأن شرط الناسخ أن يكون رافعاً لحكم المنسوخ، ومدلولُ هذه الآية اختصاصُ كل واحد بأفعاله، وبثمرات أفعاله من الثواب والعقاب، وذلك لا يقتضي حُرمةَ القتال، فآيةُ القتال ما رفعت شيئاً من مدلولات هذه الآية، فكان القول بالنسخ باطلاً.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٢.

(٦) النكت والعيون ٢/ ٤٣٦.

للخَتْم على قلوبِهم والطَّبْع عليها، أي: لا تقدرُ على هداية مَن أصمَّه الله عن سماعِ الهُدى. وكذا المعنى في: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ أخبرَ تعالى أنَّ أحداً لا يُؤمِن[١] إلَّا بتوفيقه وهدايتِه[٢]. وهذا وما كان مثله يردُّ على القدريَّة قولَهم، كما تقدَّم في غير موضع.

وقال: «يستمعون» على معنى «مَن»، و«ينظرُ» على اللَّفظ[٣]. والمرادُ: تسليةُ النبيِّ ﷺ، أي: كما لا تقدرُ أنْ تُسمِعَ مَن سُلِبَ السَّمعَ، ولا تقدرُ أنْ تخلُقَ للأعمى بصراً يهتدي به، فكذلك لا تقدرُ أنْ تُوفِّقَ هؤلاء للإيمان، وقد حكمَ الله عليهم ألَّا يُؤمنوا[٤].

ومعنى: «يَنْظُرُ إِلَيْكَ» أي: يُديم النظرَ إليك، كما قال: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾[٥] [الأحزاب: ١٩]. قيل: إنَّها نزلَتْ في المُستهزئين[٦]، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

لمَّا ذكرَ أهلَ الشَّقاء ذكرَ أنَّه لم يَظلمْهم، وأنَّ تقديرَ الشَّقاء عليهم وسَلْبَ سمعِ القلب وبصرِه ليس ظُلماً منه؛ لأنَّه تصرّف في ملكه بما شاء، وهو في جميعِ أفعالِه عادلٌ[٧]. ﴿وَلَـٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكفرِ والمعصيةِ ومخالفةِ أمرِ خالقِهم.

وقرأ حمزةُ والكسائي: «ولكنِ» مخفَّفاً، «النَّاسُ» رفعاً[٨]. قال النحاس[٩]: زعمَ

(١) في (خ) و (ز) و (ظ): لن يؤمن.
(٢) تفسير الطبري ١٢/ ١٨٦ .
(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٦ ، والمحرر الوجيز ٣/ ١٢٢ .
(٤) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٢/ ٣٥٥ .
(٥) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٦ .
(٦) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٤٨ . ونسبه لابن عباس رضي الله عنهما.
(٧) الوسيط ٢/ ٥٤٩ ، وتفسير البغوي ٢/ ٣٥٥ .
(٨) السبعة ص١٦٧ ، والتيسير ص١٢٢ .
(٩) في إعراب القرآن ٢/ ٢٥٦ .

جماعةٌ مِن النَّحويين ـ منهم الفرّاء[١] ـ أنَّ العربَ إذا قالت: «ولكن» بالواو آثرَتْ التَّشديد، وإذا حذفوا الواوَ آثروا[٢] التَّخفيفَ، واعتلَّ في ذلك فقال: لأنَّها إذا كانت بغير واوٍ أشبهَتْ «بل» فخفَّفوها، ليكونَ ما بعدها كما بعد «بل»، وإذا جاؤوا بالواو خالفَتْ «بل» فشدَّدوها، ونصبوا بها؛ لأنَّها «إنَّ» زِيدَتْ عليها لامٌ وكافٌ، وصُيِّرَتْ حرفاً واحداً، وأنشد:

ولـكـنَّـنـي مِـن حُـبِّـهـا لَـعَـمِـيـدُ[٣]

فجاء باللام لأنَّها «إنَّ»[٤].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾ بمعنى كأنَّهم، فخفِّفَت، أي: كأنَّهم لم يَلبثوا في قبورهم. ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: قدرَ ساعة، يعني أنَّهم استقصروا طولَ مُقامهم في القبور لِهَولِ ما يَرون مِن البعث، دليلُه قولُهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [المؤمنون: ١١٣]. وقيل: إنَّما قَصُرتْ مدَّةُ لُبْثهم في الدنيا مِن هَوْلِ ما استقبلوا، لا مدَّةُ

(١) في معاني القرآن له ١/ ٤٦٥.

(٢) في (م): آثرت.

(٣) في معاني القرآن للفراء وإعراب القرآن للنحاس: لكميدُ. والعميد: الذي هدَّه العشق، والكميد: وصفٌ من الكمد، وهو الحزن. خزانة الأدب ١٠/ ٣٦٣ - ٣٦٤. وهذا البيت لا يُعرف له قائل، ولا تتمة، ولا نظير، فيما قاله ابن هشام في المغني ص٣٨٥ ونحوه قال أبو البركات الأنباري في الإنصاف ١/ ٢١٤ ولكن ابن عقيل ذكر له صدراً في شرحه على الألفية ١/ ٣٦٣ وهو: يلومونني في حُبِّ ليلى عواذلي. والله أعلم.

(٤) ذكر البغدادي في خزانة الأدب ١٠/ ٣٦١ وغيره أن الكوفيين استدلوا بهذا الشعر على جواز دخول اللام في خبر «لكنَّ»، ومنعه البصريون، وأجابوا عن هذا بأنه إما شاذٌ وإما أن أصله: لكنْ إنَّني، ومثلُه لابن هشام في المغني [ص٣٨٥].

كونهم في القبر[١]. ابن عباس: رأوا أنَّ طُولَ أعمارِهم في مقابلة الخلودِ كساعة[٢].

﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ في موضعِ نصبٍ على الحالِ مِن الهاء والميم في «يحشرُهم»[٣]. ويجوزُ أنْ يكونَ منقطعاً، فكأنَّه قال: فهم يتعارفون[٤].

قال الكلبيّ: يعرِفُ بعضُهم بعضاً كمعرفتِهم في الدنيا إذا خرجوا مِن قبورهم[٥]. وهذا التَّعارفُ تعارفُ توبيخٍ وافتضاح، يقول بعضُهم لبعض: أنت أَضْلَلْتَني، وأغويتَني، وحملتَني على الكُفر، وليس تعارفَ شفقةٍ ورأفةٍ وعَطْف. ثم تنقطعُ المعرفةُ إذا عاينوا أهوالَ يوم القيامة كما قال: ﴿وَلَا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾[٦] [المعارج: ١٠].

وقيل: يبقى تعارفُ التوبيخ، وهو الصحيحُ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ إلى قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [سبأ: ٣١-٣٣] وقولِه: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨] الآية، وقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ [الأحزاب: ٦٧] الآية. فأمَّا قوله: ﴿وَلَا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾، وقوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ [المؤمنون: ١٠١] فمعناه: لا يسألُه سؤالَ رحمةٍ وشفقة، والله أعلم.

وقيل: القيامةُ مَواطن. وقيل: معنى «يتعارفون»: يتساءلون، أي: يتساءلون كم لبثتُم، كما قال: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾[٧] [الطور: ٢٥]، وهذا حسنٌ. وقال الضحَّاك: ذلك تعارفُ تعاطفِ المؤمنين، والكافرون لا تعاطُفَ عليهم، كما قال:

---

(١) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٤٩، وتفسير الرازي ١٧/ ١٠٣ - ١٠٤ .

(٢) ذكره بنحوه الواحدي في الوسيط ٢/ ٥٤٩، والبغوي في تفسيره ٢/ ٣٥٥، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٦ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١٢٣ .

(٤) البيان لأبي البركات ابن الأنباري ١/ ٤١٤ .

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ١٠٠، والنكت والعيون ٢/ ٤٣٧ .

(٦) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ١٧/ ١٠٥ .

(٧) مجمع البيان للطبرسي ١١/ ٥٦ .

﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾[1]، والأوَّلُ أظهرُ، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ أي: بالعَرضِ على الله. ثم قيل: يجوزُ أنْ يكونَ هذا إخباراً مِن الله عزَّ وجلَّ بعد أنْ دلَّ على البعثِ والنشور[2]، أي: خسروا ثوابَ الجنَّة[3]. وقيل: خَسِروا في حالِ لقاء الله؛ لأنَّ الخُسران إنَّما هو في تلك الحالة، وهي الحالة[4] التي لا يُرجى فيها إقالةٌ، ولا تنفعُ توبةٌ.

قال النحاس[5]: ويجوزُ أن يكونَ المعنى: يتعارَفون بينهم يقولون هذا. ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ يُريد في علم الله.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ۝٤٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ شرطٌ[6]. ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ أي: مِن إظهارِ دينِك في حياتِك. وقال المفسرون: كان البعضُ الذي وعدَهم قتْلَ مَن قُتل، وأَسْرَ مَن أُسر ببدر[7]. ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ عطفٌ على «نُرِيَنَّكَ» أي: أو نَتوفَّينَّكَ قبلَ ذلك. ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ جوابُ «إمّا»[8].

والمقصودُ: إنْ لم ننتقِمْ منهم عاجلاً انتقمنا منهم آجلاً[9]. ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾ أي:

---

(١) ذكره أبو الليث في تفسيره ٢/ ١٠٠ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٧ .

(٣) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٤٩ .

(٤) قوله: وهي الحالة، ليس في (د) و(م).

(٥) إعراب القرآن ٢/ ٢٥٧ .

(٦) المصدر السابق.

(٧) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٤٩ .

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٧ .

(٩) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٣ .

شاهدٌ لا يحتاجُ إلى شاهد. ﴿عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ مِن محاربتِك وتكذيبِك[١]. ولو قيل: «ثَمَّ اللهُ شَهِيدٌ» بمعنى هناك، جاز[٢].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

---

(١) الوسيط ٢/٥٤٩.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/٢٥٧، ونسب هذا القول للفراء، وهو في معاني القرآن له ١/٤٦٦، وقرأ بها ابن أبي عبلة كما في الكشاف للزمخشري ٢/٢٣٩، وهي قراءة شاذة.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ يكون المعنى: ولكلِّ أُمَّة رسولٌ شاهدٌ عليهم، فإذا جاء رسولُهم يومَ القيامة قُضيَ بينهم، مثل: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾[1] [النساء: ٤١]. وقال ابن عباس: تُنكر الكفَّارُ غداً مجيءَ الرُّسُل إليهم، فيُؤتَى بالرَّسول فيقول: قد أبلغتُكُم[2] الرِّسالة، فحينئذ يُقضَى عليهم بالعذاب، دليلُه قولُه: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

ويجوز أنْ يكونَ المعنى: أنَّهم لا يُعذَّبون في الدنيا حتى يُرسَلَ إليهم، فمن آمنَ فازَ ونجا، ومَن لم يؤمن هلكَ وعُذِّب، دليلُه قولُه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[3] [الإسراء: ١٥]. والقِسْطُ: العدل. «وهم لا يُظلَمُونَ» أي: لا يُعذَّبون بغيرِ ذنبٍ، ولا يُؤاخذون بغيرِ حُجَّة[4].

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾

يُريد كفارَ مكةَ؛ لفرطِ إنكارِهم، واستعجالِهم العذاب، أي: متى العقابُ، أو متى القيامةُ التي يَعِدُنا محمد. وقيل: هو عامٌّ في كلِّ أمَّةٍ كذَّبت رسولَها[5].

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٧.
(٢) في (ز) و(ظ) و(ف): أبلغتهم.
(٣) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٧.
(٤) تفسير البغوي ٢/ ٣٥٦.
(٥) ينظر زاد المسير ٤/ ٣٧.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ۝٤٩﴾

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا﴾ لمَّا استعجلوا النَّبيَّ ﷺ بالعذاب قال الله له: قُلْ لهم يا محمد: لا أملك لنفسي ضرًّا ولا نفعاً، أي: ليس ذلك لي ولا لغيري. ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ أنْ أملكَه وأقدِرَ عليه، فكيف أقدِرُ أنْ أملكَ ما استعجلتم؟! فلا تستعجلوا[1]. ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ﴾ أي: لهلاكهم وعذابهم وقتٌ معلوم في عِلْمه سبحانه. ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾ أي: وقتُ انقضاء أجَلهم. ﴿فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ أي: لا يُمكنُهم أن يستأخروا ساعةً باقين في الدنيا، ولا يتقدَّمون فيؤخَّرون.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٥٠﴾

قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا﴾ ظرفان، وهو جوابٌ لقولهم: «متى هذا الوعدُ»، وتسفيةٌ لآرائهم في استعجالهم العذاب، أي: إنْ أتاكم العذابُ؛ فما نَفْعُكم فيه؟ ولا ينفعكم الإيمانُ حينئذ. ﴿مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ استفهامٌ معناه التهويل والتعظيم، أي: ما أعظمَ ما يستعجلون به، كما يقال لمن يطلبُ أمراً يَستوخِمُ عاقبتَه: ماذا تجني على نفسك[2]؟ والضمير في «منه» قيل: يعود على العذاب، وقيل: يعود على الله سبحانه وتعالى.

قال النحاس[3]: إنْ جعلتَ الهاء في «منه» تعود على العذاب؛ كان لك في «ماذا» تقديران: أحدُهما: أن يكون «ما» في موضع رَفْع بالابتداء، و«ذا» بمعنى الذي، وهو خبر «ما»، والعائد محذوف. والتقدير الآخر: أن يكون «ماذا» اسماً واحداً في موضع

---

(١) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ١٠١.

(٢) الكلام بنحوه في الوسيط ٢/ ٥٥٠.

(٣) في إعراب القرآن ٢/ ٢٥٧ - ٢٥٨.

رَفْع بالابتداء، والخبر في الجملة؛ قاله الزجاج[١]. وإن جعلتَ الهاء في «منه» تعود على اسم الله تعالى جعلتَ «ما»، و«ذا» شيئاً واحداً، وكانت[٢] في موضع نصب بـ«يستعجل»؛ والمعنى: أيَّ شيء يستعجل[٣] المجرمون من الله عزَّ وجلَّ.

قوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔنَ﴾ في الكلام حذفٌ، والتقدير: أتأمنون أن ينزِلَ بكم العذابُ، ثم يقال لكم إذا حلَّ: الآن آمنتُم به[٤]؟ قيل: هو مِن قول الملائكة استهزاءً بهم. وقيل: هو مِن قول الله تعالى.

ودخلت ألفُ الاستفهام على «ثم»، والمعنى: التقرير والتوبيخ، وليدلَّ على أن معنى الجُملة الثانية بعد الأُولى.

وقيل: إنَّ «ثم» هاهنا بمعنى: «ثَمّ» بفتح الثاء، فتكون ظرفاً، والمعنى: أهنالك، وهو مذهب الطبري[٥]، وحينئذٍ لا يكون فيه معنى الاستفهام.

و«الآن» قيل: أصلُه [: آنَ] فعل مبنيٌّ مثل: حان، والألفُ واللام لِتحويله إلى الاسم. الخليل: بُنِيَتْ[٦] لالتقاء الساكنين، والألفُ واللَّام للعهد والإشارة إلى الوقت، وهو حَدُّ الزَّمانين[٧]. ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ﴾ أي: بالعذاب ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٤ ، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس.

(٢) في إعراب القرآن للنحاس: وإن جعلت الهاء في «منه» تعود على اسم الله جلَّ وعزَّ، وجعلت «ماذا» شيئاً واحداً، كانت....

(٣) بعدها في النسخ: منه، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس، ومعاني الزجاج.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٨ .

(٥) تفسير الطبري ١٢/ ١٩٠ - ١٩١ . قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١٢٤ : وما ادَّعاه الطبري غير معروف.

(٦) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٨ ، والكلام فيه بنحوه، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٧) يعني حدّ الزمان الماضي من آخره وحدّ الزمان المستقبل من أوله. تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٣٩٨ .

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ۝٥٢﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: تقول لهم خزنةُ جهنم: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ أي: الذي لا ينقطع. ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي: جزاء كُفركم(١).

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ أي: يستخبرونك يا محمد عن كون العذاب وقيامِ الساعة: ﴿أَحَقٌّ﴾ ابتداء. ﴿هُوَ﴾ [فاعل] سدَّ مَسَدَّ الخبر، وهذا قولُ سيبويه. ويجوز أن يكون «هو» مبتدأ، و«أحقٌّ» خبره(٢).

﴿قُلْ إِى﴾ «إي» كلمةُ تحقيقٍ وإيجابٍ وتأكيد بمعنى: نعم. ﴿وَرَبِّىٓ﴾ قَسَمٌ. ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ جوابُه، أي: كائن لا شكَّ فيه. ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: فائتين عن عذابه ومُجازاته(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٥٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ أي: أشركتْ وكفرتْ. ﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: مِلكاً. ﴿لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ أي: من عذاب الله، يعني: ولا يُقبل منها(٤)، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ [آل عمران: ٩١]. وقد تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ﴾ أي: أَخفَوْها، يعني رؤساءهم، أي: أَخفَوْا

---

(١) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ١٠١.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٨، وما بين حاصرتين منه.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٣٥٧.

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ١٠٢.

ندامتَهم عن أتباعهم. ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَۖ﴾ وهذا قبل الإحراق بالنار، فإذا وقعوا في النار ألْهَتْهم النارُ عن التصنُّع، بدليل قولهم: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا [المؤمنون: ١٠٦]. فبيَّن أنهم لا يَكْتُمون ما بهم. وقيل: «أسَرُّوا»: أظهروا، والكلمة من الأضداد، ويدلُّ عليه أنَّ الآخرةَ ليست دارَ تَجلُّد وتَصبُّر[1]. وقيل: وجدوا أَلَمَ الحسرة في قلوبهم؛ لأن الندامةَ لا يُمكن إظهارُها. قال كُثَيِّر:

فأسررتُ الندامةَ يومَ نادى بردِّ جِمال غاضرةَ المُنادي[2]

وذكر المبرّد فيه وجهاً ثالثاً[3]: أنه بَدَتْ بالندامة أَسِرَّةُ وجوههم، وهي تكاسيرُ الجبهة، واحدها سِرَار. والنَّدامة: الحسرةُ لوقوع شيء أو فَوْت شيء، وأصلُها اللُّزوم، ومنه: النديم لأنه يُلازم المجالس. وفلان نادمٌ سادمٌ. والسَّدَم: اللَّهَج بالشيء. ونَدِم وتندّم[4] بالشيء، أي: اهتمّ به. قال الجوهري[5]: السَّدَم ـ بالتحريك ـ الندم والحزن؛ وقد سَدِم بالكسر، أي: اهتمَّ وحَزِن، ورجل نادمٌ سادمٌ، وندمانُ سَدْمانُ، وقيل: هو إتباع. وما له همٌّ ولا سَدَم إلا ذلك. وقيل: النَّدم مقلوبُ الدَّمْن[6]، والدّمْن: اللُّزوم، ومنه فلان مُدْمن الخمر. والدِّمْن: ما اجتمع في الدار وتلبَّد من الأبوال والأبعار، سُمِّيَ به لِلُزومه. والدِّمْنة: الحقد الملازم للصدر، والجمع دِمَن. وقد دَمِنَتْ قلوبُهم؛ بالكسر، يقال: دَمِنْتُ على فلان، أي: ضَغِنتُ.

﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ﴾ أي: بين الرؤساء والسُّفَّل؛ بالعدل[7]. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

---

(١) ينظر تفسير البغوي ٢/ ٣٥٧، وتفسير الرازي ١٧/ ١١١ - ١١٢.

(٢) ديوان كُثَيِّر عزَّة ص١٣٧، وقوله: غاضرة: اسم امرأة.

(٣) نقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٤٣٨.

(٤) في (ز) و(ظ) و(ف): سدم.

(٥) في الصحاح (سدم) و(ندم) و(دمن).

(٦) في الصحاح (ندم): المنادمة مقلوبة من المدامنة.

(٧) تفسير أبي الليث ٢/ ١٠٢.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾

«أَلَا» كلمةُ تنبيهٍ للسامع، تُزاد في أوَّل الكلام، أي: انتبهوا لِما أقولُ لكم: ﴿إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾: له مُلْكُ السَّماواتِ والأرض، فلا مانعَ يمنعُه مِن إنفاذِ ما وعدَه[1]. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

قوله تعالى: ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾

بيِّنُ المعنى، وقد تقدَّم[2].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يعني: قريشاً. ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ﴾ أي: وعظٌ. ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني: القرآنَ، فيه مواعظُ وحِكَم[3]. ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ أي: مِن الشكِّ والنفاقِ والخلافِ والشِّقاق. ﴿وَهُدًى﴾ أي: رَشَدٌ لمن اتَّبعه. ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي: نعمةٌ. ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ خصَّهم؛ لأنَّهم المنتفِعون بالإيمان، والكلُّ صفاتُ القرآن، والعطفُ لتأكيدِ المدح. قال الشاعر:

إلى المَلِكِ القَرْمِ وابنِ الهُمامِ ... ولَيثِ الكَتِيبةِ في المُزْدَحَمْ[4]

قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ قال أبو سعيد الخُدريّ وابن عباس رضي الله عنهما: فضلُ الله القرآن، ورحمتُه الإسلام. وعنهما أيضاً: فضلُ الله القرآن،

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٩.

(٢) ١/ ٣٧٣ وما بعدها.

(٣) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٥٠.

(٤) سلف ٢/ ٨٥، وقوله: القرم: السيد.

ورحمتُه أنْ جعلَكم مِن أهله. وعن الحسن والضحَّاك ومجاهد وقتادة: فضلُ الله الإيمان، ورحمتُه القرآن، على العكس مِن القَولِ الأوَّل[١]. وقيل غيرُ هذا.

﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ إشارةٌ إلى الفضلِ والرحمة. والعربُ تأتي «بذلك» للواحدِ والاثنين والجميع. ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنَّه قرأ: «فبذلك فَلْتَفْرَحُوا» بالتاء، وهي قراءةُ يزيد بن القَعْقاع[٢] ويعقوب[٣] وغيرهما، وفي الحديث: «لِتَأخذوا مصافَّكُم»[٤].

والفرحُ لذَّةٌ في القلب بإدراك المَحبُوب. وقد ذُمَّ الفرحُ في مواضع، كقوله: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠]، ولكنَّه مطلقٌ. فإذا قُيِّد الفرحُ لم يكن ذمًّا؛ لقوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٧٠]، وهاهنا قال تبارك وتعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ أي: بالقرآن والإسلام فليفرحوا، فقيَّد[٥].

قال هارون: وفي حرف أُبَيّ: «فبِذلِك فافرحوا»[٦]. قال النحاس[٧]: سبيلُ الأمر أنْ يكونَ باللام؛ ليكونَ معه حرفٌ جازم كما أنَّ مع النَّهي حرفاً؛ إلَّا أنَّهم يحذِفون مِن الأمر للمخاطَب استغناءً بمخاطبته، وربما جاؤوا به على الأصل، منه: «فبذلك فَلْتفرحوا».

---

(١) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٢/ ١٩٥ - ١٩٧ ، والنكت والعيون ٢/ ٤٣٩ ، وزاد المسير ٤/ ٤٠ - ٤١ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٩ ، والقراءات الشاذة ص٥٧ . وقراءة يزيد بن القعقاع (وهو أبو جعفر) المشهورة عنه: «فليفرحوا» بالياء، و«تجمعون» بالتاء، وهي قراءة ابن عامر، كما سيرد.

(٣) في رواية رُويس عنه . النشر ٢/ ٢٨٥ .

(٤) أورده بهذا اللفظ الفراء في معاني القرآن ١/ ٤٧٠ في سياق كلامه على قراءة أُبيّ الآتي ذكرها. وهو قطعة من حديث معاذ بن جبل ﷺ عند أحمد (٢٢١٠٩)، والترمذي (٣٢٣٥) لكن بلفظ: «على مَصَافِّكم كما أنتم»، وحينئذ فلا شاهد فيه.

(٥) الحجة لأبي علي الفارسي ٤/ ٢٨٣ ، والمحرر الوجيز ٣/ ١٢٦ .

(٦) المحتسب ١/ ٣١٣ . وهارون: هو ابن موسى بن شريك التغلبي، الأخفش، أبو عبد الله، الإمام الكبير، مقرئ دمشق، له تصانيف في القراءات والعربية. توفي سنة (٢٩٢هـ). السير ١٣/ ٥٦٦ .

(٧) في إعراب القرآن ٢/ ٢٥٩ ، وما قبله منه.

﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ يعني: في الدنيا. وقراءةُ العامّة بالياء في الفعلَين، ورُوِيَ عن ابن عامر أنَّه قرأ: «فَلْيَفرحوا» بالياء، «تجمعون» بالتاء[١]، خطاباً للكافرين. ورُوِيَ عن الحسن أنَّه قرأ بالتاء في الأوَّل، و«يجمعون» بالياء على العكس[٢]. وروى أبان عن أنس، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن هداه اللهُ للإسلام، وعلَّمه القرآنَ، ثم شكا الفاقةَ، كتبَ اللهُ الفقرَ بين عَيْنيه إلى يوم يَلقاه. ثم تلا: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾»[٣].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم﴾ يُخاطب كفَّارَ مكة[٤]. ﴿مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ «ما» في موضعِ نصبٍ بـ«أرأيتم»، وقال الزجّاج[٥]: في موضعِ نصبٍ بـ«أنزل». «وأَنْزَلَ» بمعنى: خلقَ، كما قال: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦]. ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]. فيجوزُ أنْ يُعبّر عن الخَلْق بالإنزال؛ لأنَّ الذي في الأرض مِن الرزقِ إنَّما هو بما يَنزلُ مِن السماء مِن المطر[٦].

---

(١) السبعة ص٣٢٧ - ٣٢٨ ، والتيسير ص١٢٢ .

(٢) ينظر المحتسب ١/ ٣١٣ .

(٣) النكت والعيون ٢/ ٤٣٩ . وأخرجه أبو القاسم بن بشران في أماليه كما في الدر المنثور ٣/ ٣٠٩ .
وأبان: هو ابن أبي عيّاش فيروز، أبو إسماعيل البصري. قال أحمد ويحيى بن معين: متروك. ميزان الاعتدال ١/ ١٠ .

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٣٥٨ .

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٢٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٥٩ .

(٦) تفسير الرازي ١٧/ ١٢٠ .

﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ قال مجاهد: هو ما حَكموا به مِن تحريم البَحِيرة والسَّائبة والوصِيلة والحام[١]. وقال الضحَّاك: هو قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام:١٣٦].

﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ أي: في التَّحليلِ والتَّحريم. ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ «أم» بمعنى: بل. ﴿تَفْتَرُونَ﴾ هو قولُهم: إنَّ اللهَ أمرَنا بها[٢].

الثانية: استدلَّ بهذه الآية مَن نفى القياس، وهذا بعيد؛ فإنَّ القياسَ دليلُ اللهِ تعالى، فيكونُ التَّحليلُ والتحريمُ مِن الله تعالى عند وجودِ دلالةٍ نصَبها الله تعالى على الحُكم، فإنْ خالفَ في كونِ القياس دليلاً لله تعالى فهو خروجٌ عن هذا الغرضِ ورجوعٌ إلى غيره[٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ «يوم» منصوبٌ على الظرف، أو بالظنّ، نحو ما ظنُّك زيداً[٤]، والمعنى: أيحسبون أنَّ اللهَ لا يُؤاخذهم به[٥]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: في التأخيرِ والإمهال. وقيل: أرادَ أهلَ مكةَ حين جعلَهم في حَرَمٍ آمن. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ يعني الكفارَ. ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ اللهَ على نعمِه، ولا في تأخيرِ العذابِ عنهم. وقيل: «لا يشكرون»: لا يُوحِّدون[٦].

---

(١) سلف شرحها ٨/ ٢٣٧.

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٣٥٨، وأخرج قولي مجاهد والضحاك الطبريُّ ١٢/ ٢٠٢ - ٢٠٣.

(٣) أحكام القرآن للكيا الهراسي ٣/ ٢٢٣، وينظر أحكام القرآن للجصاص ٣/ ١٦٣.

(٤) ينظر الكشاف ٢/ ٢٤٢.

(٥) تفسير البغوي ٢/ ٣٥٨.

(٦) ينظر الوسيط للواحدي ١/ ٣٧١، والوجيز له (بهامش مراح لبيد) ١/ ٣٧١.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ «ما» للجحد، أي: لست في شأن، يعني: من عبادةٍ أو غيرها إلا والرَّبُّ مُطَّلعٌ عليك. والشأن: الخَطْب والأمر، وجمعه شؤون. قال الأخفش: تقول العرب: ما شأنْتُ شَأْنَه، أي: ما عملتُ عَمَلَه[1].

﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ قال الفرّاء والزجَّاج: الهاء في «منه» تعود على الشأن، أي: تُحدِث شأناً فَيُتلى من أجله القرآن؛ فيعلم كيف حُكمه، أو ينزل فيه قرآنٌ فَيُتلى[2]. وقال الطبري[3]: «منه» أي: من كتاب الله تعالى مِن قُرآنٍ؛ أعاد تفخيماً، كقوله: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ [طه: ١٤]. ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ يُخاطب النبيَّ ﷺ والأُمَّة. وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ خِطابٌ له، والمراد هو وأُمَّته، وقد يُخاطَب الرسول والمُراد هو وأتباعُه[4]. وقيل: المُراد كفارُ قريش. ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ أي: نَعْلَمُهُ[5]، ونظيرُه: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧].

﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: تأخذون فيه[6]، والهاء عائدةٌ على العمل[7]، يقال: أفاضَ فلانٌ في الحديث والعمل: إذا اندفع فيه. قال الراعي:

فأَفَضْنَ بعدَ كُظُومِهِنَّ بجِرَّةٍ ... مِن ذِي الأباطح إذْ رَعَيْنَ حَقِيلا[8]

(١) ذكره الرازي في تفسيره ١٧/ ١٢١ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٩ ، وقول الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٢٦ .

(٣) في تفسيره ١٢/ ٢٠٤ . وينظر الكشاف ٢/ ٢٤٢ .

(٤) ينظر الوسيط للواحدي ٢/ ٥٥٢ .

(٥) في (ز) و(ظ): بعلمه.

(٦) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص١٩٧.

(٧) تفسير البغوي ٢/ ٣٥٩ .

(٨) ديوان الراعي ص٢٢٤ ، وسلف ٥/ ٣١٨ ، فينظر شرح غريبه ثمَّة، وينظر تهذيب اللغة ١٢/ ٧٨ .

ابنُ عباس: «تُفِيضُونَ فِيهِ»: تفعلونه[(١)]. الأخفش: تتكلَّمون. ابن زيد: تخوضون. ابن كَيسان: تنشُرون القول. وقال الضحاك: الهاء عائدةٌ على القرآن، المعنى: إذ تُشيعون في القرآن الكذب[(٢)].

﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ قال ابن عباس: يغيب[(٣)]. وقال أبو رَوق: يَبعُدُ. وقال ابن كَيسان: يذهب.

وقرأ الكسائيّ: «يعزِب» بكسر الزاي حيث وقع؛ وضمَّ الباقون[(٤)]، وهما لغتان فصيحتان، نحو يَعْرِش ويَعْرُش[(٥)]. ﴿مِن مِّثۡقَالِ﴾ «من» صلة؛ أي: وما يَعزُب عن ربِّك مِثقال ﴿ذَرَّةٍ﴾، أي: وزن ذرَّة، أي: نُمَيْلة حمراء صغيرة، وقد تقدَّم في «النساء»[(٦)]. ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ﴾ عطف على لفظ «مِثقال»، وإنْ شئتَ على «ذرَّة». وقرأ يعقوبُ وحمزةُ بِرفع الراء فيهما[(٧)] عطفاً على موضع «مِثقال»؛ لأن «من» زائدة للتأكيد. وقال الزجَّاج: ويجوزُ الرفع على الابتداء[(٨)]. وخبره: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾[(٩)] يعني: اللوح المحفوظ مع علم الله تعالى به.

قال الجُرْجاني: «إلا» بمعنى واو النَّسق، أي: وهو في كتاب مُبين، كقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ [النمل: ١٠-١١] أي: ومن ظلم. وقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٠] أي: والذين ظلموا

---

(١) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٠٤.

(٢) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٠٥.

(٣) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٠٨.

(٤) السبعة ص٣٢٨، والتيسر ص١٢٢ - ١٢٣.

(٥) الكشف عن وجوه القراءات السبع ١/ ٥٢٠.

(٦) ٦/ ٣٢١ - ٣٢٢. وينظر الوسيط للواحدي ٢/ ٢٥٢، وتفسير البغوي ٢/ ٣٥٩.

(٧) السبعة ص٣٢٨، والتيسير ص١٢٣، والنشر ٢/ ٢٨٥.

(٨) ينظر معاني القرآن له ٣/ ٢٦.

(٩) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٠.

منهم[١]. فـ «إلا» بمعنى واو النسق. وأضمر «هو» بعده، كقوله: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ [البقرة:٥٨] أي: هي حِطَّة، وقوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ﴾ [النساء:١٧١] أي: هم ثلاثة. ونظيرُ ما نحن فيه: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩] أي: وهو في كتاب مُبين.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: في الآخرة. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لفقد الدنيا. وقيل: لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، أي: مَن تولَّاه الله تعالى وتولَّى حِفْظَه وحِياطتَه ورَضِيَ عنه فلا يخاف يومَ القيامة ولا يحزن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا﴾ أي: عن جهنم ﴿مُبْعَدُونَ﴾ إلى قوله ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾[٢] [الأنبياء:١٠١-١٠٣].

وروى سعيد بنُ جُبير أن رسول الله ﷺ سُئل: مَن أولياء الله؟ فقال: «الذين يُذكَر اللهُ برؤيتهم»[٣].

وقال عمر بن الخطاب في هذه الآية: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ مِن عبادِ الله عباداً ما هُم بأنبياءَ ولا شهداءَ؛ تَغْبِطُهم الأنبياءُ والشهداءُ يومَ القيامة لِمَكانهم من الله تعالى». قيل: يا رسولَ الله، خبِّرنا مَن هُم، وما أعمالُهم، فلعلَّنا نحبُّهم؟. قال: «هم قومٌ تحابّوا في الله على غيرِ أرحامٍ بينهم ولا أموالٍ يتعاطَون بها، فواللهِ إنَّ وجوهَهم لَنورٌ، وإنهم على منابرَ من نورٍ، لا يخافون إذا خافَ الناسُ، ولا يحزَنون إذا حَزِن الناسُ» ثم قرأ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٤].

---

(١) قال الرازي في تفسيره ١/ ١٢٤ : هذا الوجه في غاية التعسُّف، وقال أبو حيان في البحر ٥/ ١٧٥ : وهذا قول ضعيف، ولم يثبت من لسان العرب وضع «إلا» موضع الواو.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٠ .

(٣) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٠٩ ، وهو مرسل. وأخرجه النسائي في الكبرى (١١١٧١)، والطبراني في الكبير (١٢٣٢٥)، والبزار (٣٦٢٦) (زوائد) عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً.

(٤) أخرجه أبو داود (٣٥٢٧)، والطبري ١٢/ ٢١١ - ٢١٢ ، وفي الباب عن أبي هريرة ﷺ أخرجه النسائي في الكبرى (١١١٧٢)، والطبري ١٢/ ٢١١ ، وصححه ابن حبان (٥٧٣).

وقال عليّ بن أبي طالب ﷺ: أولياءُ اللهِ قومٌ صُفْرُ الوجوه من السَّهر، عُمْشُ العيون من العِبَر، خُمْصُ البطون من الجوع، يُبْسُ الشِّفاه من الذَّوِيّ[١].

وقيل: «لا خَوْفٌ عليهم» في ذُرِّيَّتهم؛ لأنَّ الله يتولَّاهم. «ولا هم يَحزنُونَ» على دنياهم؛ لتعويضِ الله إيَّاهم في أُولاهم وأُخراهم؛ لأنه وَليُّهم ومولاهم.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

هذه صفةُ أولياء الله تعالى، فيكون: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في موضع نَصْبٍ على البدل من اسم «إنّ» وهو «أولياء». وإنْ شئتَ على أعني. وقيل: هو ابتداءٌ، وخبره: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾[٢]، فيكون مقطوعاً مما قبلَه. أي: يتَّقون الشِّرك والمعاصي.

قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ عن أبي الدّرداء قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ عنها فقال: «ما سألني أحدٌ عنها غيرُك منذ أُنزِلتْ، هي الرؤيا الصالحة يَراها المسلمُ أو تُرَى له». خرَّجه الترمذي في «جامعه»[٣]. وقال الزُّهريّ وعطاء وقتادة: هي البِشارة التي تُبشِّر بها الملائكةُ المؤمنَ في الدنيا عند الموت[٤].

وعن محمد بن كعب القُرَظِيّ قال: إذا استنقعتْ نفسُ العبدِ المؤمن[٥]؛ جاءه

---

(١) نسبه العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٥٨ للثعلبي، وهو ضعيف. قوله: الذويّ، أي: الذُّبول.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٠ .

(٣) الحديث (٣١٠٦)، وهو في مسند أحمد (٢٧٥٢٠) مختصر، وفي الباب عن عبد الله بن عمرو وعبادة ابن الصامت ﷺ عند أحمد (٧٠٤٤) و(٢٢٦٨٨).

(٤) أخرج قول الزُّهري وقتادة الطبري ١٢/ ٢٢٤ ، وذكره البغوي في تفسيره ٢/ ٣٦٠ عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) أي: إذا اجتمعت فيه تريد الخروج، كما يستنقع الماء في قراره. وأراد بالنفس الروح. النهاية (نقع).

مَلك الموت فقال: السلامُ عليكَ يا وليَّ الله، اللهُ يُقرِئك السلام. ثم نزع بهذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ۙ﴾ [النحل: ٣٢] ذكره ابن المبارك[١].

وقال قتادة والضحَّاك: هي أن يعلمَ أين هو من قبلِ أن يموتَ[٢]. وقال الحسن: هي ما يُبَشِّرهم اللهُ تعالى في كتابه من جنَّته وكريمِ ثوابه؛ لقوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ﴾ [التوبة: ٢١]، وقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥]، وقوله: ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]. ولهذا قال: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: لا خُلف لمواعيده، وذلك لأنَّ مواعيدَه بكلماته.

﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ قيل: بالجنة إذا خرجوا مِن قبورهم. وقيل: إذا خرجتِ الروحُ بُشِّرتْ بِرضوان الله[٣].

وذكر أبو إسحاق الثعلبي: سمعتُ أبا بكر محمدَ بن عبد الله الجَوْزَقيّ[٤] يقول: رأيتُ أبا عبد الله الحافظ في المنام راكباً بِرْذَوْناً عليه طَيْلسان وعِمامة، فسلَّمتُ عليه وقلت له: أهلاً بك، إنا لا نزالُ نذكُرك ونذكُر محاسِنَك، فقال: ونحن لا نزال نذكرك ونذكر محاسنك؛ قال الله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾ الثناء الحسن، وأشار بيده.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: لا خُلف لوعده. وقيل: لا تبديلَ لأخباره، أي: لا يَنْسَخُها بشيء، ولا تكون إلا كما قال. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: ما يصيرُ إليه أولياؤه فهو الفوزُ العظيم.

---

(١) في الزهد (٤٤٢).

(٢) النكت والعيون ٢/ ٤٤١، وأخرجه الطبري ١٢/ ٢٢٥ عن الضحاك.

(٣) ينظر الوسيط للواحدي ٢/ ٥٥٣ - ٥٥٤، وتفسير البغوي ٢/ ٣٦٠، وفيهما قول الحسن السالف.

(٤) الخراساني، الحافظ، المجوِّد، له كتاب الصحيح المخرَّج على كتاب مسلم، والمتَّفق الكبير، يكون في ثلاث مئة جزء. توفي سنة (٣٨٨هـ). وجَوْزَق من قرى نيسابور. السير ١٦/ ٤٩٣.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ تمَّ الكلام، أي: لا يَحزنْك افتراؤهم وتكذيبهم لك، ثم ابتدأ فقال: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ﴾ أي: القوّة الكاملة، والغلبة الشاملة، والقدرة التامَّة لله وحدَه؛ فهو ناصرُك ومُعينك ومانِعُك.

﴿جَمِيعًا﴾ نَصْبٌ على الحال[1]، ولا يُعارض هذا قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، فإنَّ كلَّ عزَّة بالله فهي كلُّها لله، قال الله سبحانه: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠].

﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ السميعُ لأقوالهم وأصواتهم، العليم بأعمالهم وأفعالهم وجميع حركاتهم.

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يحكم فيهم بما يُريد، ويفعل فيهم ما يشاء، سبحانه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ «ما» للنفي، أي: لا يتَّبعون شركاءَ على الحقيقة، بل يَظنُّون أنها تشفع أو تنفع. وقيل: «ما» استفهام، أي: أيَّ شيء يتَّبع الذين يدعون من دون الله شركاءَ؟! تقبيحاً لفعلهم[2]، ثم أجاب فقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: يَحدِسُون ويكذبون، وقد تقدَّم[3].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦١.

(٢) ينظر تفسير البغوي ٢/ ٣٦١، وتفسير الرازي ١٧/ ١٣١.

(٣) ٩/ ٧. وينظر زاد المسير ٤/ ٤٦.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ بيَّن أنَّ الواجب عبادةُ من يَقدِر على خَلْق الليل والنهار؛ لا عبادةُ من لا يقدرُ على شيء. «لِتَسْكُنُوا فيه» أي: مع أزواجكم وأولادكم ليزولَ التَّعبُ والكَلالُ بكم. والسكون: الهدوء عن الاضطراب.

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: مُضيئاً لِتَهتدوا به في حوائجكم. والمُبصِر: الذي يُبصر، والنهار يُبْصر فيه. وقال: «مُبْصِراً»؛ تجوُّزاً وتوسعاً على عادة العرب في قولهم: ليلٌ قائم ونهارٌ صائم. وقال جرير:

لقد لُمْتِنا يا أمَّ غَيْلانَ في السُّرَى ونمتِ وما ليلُ المَطِيِّ بنائم[1]

وقال قُطْرُب: يقال: أظلمَ الليلُ، أي: صار ذا ظُلمة، وأضاء النهار وأبصرَ، أي: صار ذا ضياء وبَصَر[2].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ﴾ أي: علامات ودَلالات. ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي: سماعَ اعتبار.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بِهَـٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ يعني: الكفار. وقد تقدَّم[3]. ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ نَزَّه نفسَه عن الصاحبةِ والأولاد، وعن الشُّركاء والأنداد. ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ثم أخبر بغناهُ المُطْلَق، وأنَّ له ما في السماواتِ والأرضِ مُلْكاً وخَلْقاً وعبداً، ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

---

(١) ديوان جرير ٢/ ٩٩٣، وينظر زاد المسير ٤/ ٤٦.

(٢) ذكره أبو حيان في البحر المحيط ٥/ ١٧٧.

(٣) ٢/ ٣٣٣.

﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا﴾ أي: ما عندكم من حُجَّة بهذا. ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مِن إثباتِ الولد له، والولدُ يَقتضي المُجانسة والمُشابهة، والله تعالى لا يُجانس شيئاً ولا يُشابِهُ شيئاً[1].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ﴾ أي: يختلقون. ﴿عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي: لا يفوزون ولا يأمنون، وتمَّ الكلام. ﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي: ذلك متاعٌ، أو هو متاعٌ في الدنيا، قاله الكسائي[2]. وقال الأخفش: لهم متاعٌ في الدنيا[3]. قال أبو إسحاق[4]: ويجوز النصبُ في غير القرآن على معنى: يتمتَّعون متاعاً. ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي: رُجوعهم. ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ﴾ أي: الغليظ. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ أي: بكفرهم.

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ أَمَرَه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يذكِّرَهم أقاصيصَ المتقدِّمين، ويُخوِّفَهم العذابَ الأليم على كُفرهم. وحُذفت الواو من «ٱتْلُ»؛ لأنه أمرٌ، أي: اقرأ عليهم خبرَ نوح. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ﴾ «إذ» في موضع نصب[5].

---

(١) في (ز) و(ظ) و(ف): ولا يشبهه شيء.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦١ .

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١٣١ ، ولم ينسبه لأحد.

(٤) هو الزجَّاج، وكلامه في معاني القرآن له ٣/ ٢٧ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٦١ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦١ .

﴿يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم﴾ أي: عَظُم وثقُل عليكم. ﴿مَّقَامِي﴾ المَقام؛ بفتح الميم: الموضع الذي يقوم فيه. والمُقام ـ بالضم ـ: الإقامة. ولم يُقرأ به فيما عَلِمتُ[١]، أي: إنْ طال عليكم لُبْثي فيكم. ﴿وَتَذۡكِيرِي﴾ إيَّاكم، وتخويفي لكم. ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وعَزَمْتُم على قَتْلي وطَرْدي. ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ أي: اعتمدتُ. وهذا هو جوابُ الشرط، ولم يزل عليه الصلاة والسلام متوكِّلاً على الله في كل حال، ولكن بيَّن أنه متوكِّل في هذا على الخصوص؛ ليعرفَ قومُه أنَّ الله يَكفيه أمرَهم، أي: إنْ لم تنصروني فإني أتوكَّل على مَن يَنْصُرني[٢].

قوله تعالى: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ قراءة العامَّة[٣]: «فَأَجْمِعُوا» بقطع الألف، «شُرَكاءكم» بالنصب. وقرأ عاصمٌ الجَحْدريُّ: «فاجْمَعُوا» بوصل الألف وفتح الميم؛ مِن جَمع يجْمَع، «شركاءَكم» بالنصب. وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق ويعقوب: «فأَجمِعوا» بقطع الألف «شركاؤكم» بالرفع[٤].

فأمَّا القراءة الأولى، مِن: أجمع على الشيء: إذا عزم عليه. وقال الفرَّاء: أجمع الشيءَ: أعدَّه[٥]. وقال المُؤرِّج: أجمعتُ الأمرَ، أَفْصحُ مِن: أجمعتُ عليه. وأنشد:

يا ليتَ شعري والمُنَى لا تنفعُ ... هل أَغْدُوَنْ يوماً وأمري مُجْمَعُ[٦]

قال النحاس[٧]: وفي نصب الشُّرَكاء على هذه القراءة ثلاثةُ أوجه: قال الكسائي

---

(١) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٣١ . وفي الصحاح (قوم): وقد يكون كل واحد منهما (المَقام والمُقام) بمعنى الإقامة، ويكون بمعنى موضع القيام؛ لأنك إذا جعلته مِن: قام يقوم، فمفتوح، وإن جعلته من: أقام يُقيم، فمضموم.

(٢) ينظر تفسير الرازي ١٧/ ١٣٦ - ١٣٧ .

(٣) في (ز) و(ظ) و(ف): الأئمة.

(٤) يعقوب من العشرة. وينظر النشر ٢/ ٢٨٦ ، والقراءات الشاذة ص٥٧ ، والمحتسب ١/ ٣١٤ .

(٥) معاني القرآن للفراء ١/ ٤٧٣ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٦١-٢٦٢ . وما قبله منه.

(٦) زاد المسير ٤/ ٤٧ - ٤٨ . والبيت في معاني القرآن للفراء ١/ ٤٧٣ ، ونوادر أبي زيد ص١٣٣ ، وإصلاح المنطق ص٢٩٣ دون نسبة.

(٧) في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٢ .

والفراء[1]: هو بمعنى: وادعوا شُركاءَكم لِنُصرتكم. وهو منصوبٌ عندهما على إضمار هذا الفعل. وقال محمد بن يزيد: هو معطوفٌ على المعنى، كما قال:

يا ليت زوجَكِ في الوَغَى متقلِّداً سَيفاً ورُمحاً[2]

والرُّمح لا يُتقلَّد، إلا أنه محمولٌ كالسيف.

وقال أبو إسحاق الزجاج[3]: المعنى: مع شُركائكم على تناصركم؛ كما يقال: التقى الماءُ والخشبةَ.

والقراءة الثانية من الجمع، اعتباراً بقوله تعالى: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٠]. قال أبو معاذ[4]: ويجوز أن يكون جَمَعَ وأجْمع بمعنًى واحد[5]، «وشُركاءكم» على هذه القراءة عطف على «أَمْرَكم»، أو على معنى: فاجمعوا أمرَكم واجمعوا شركاءَكم، وإن شئت بمعنى: مع. قال أبو جعفر النحاس[6]: وسمعت أبا إسحاق يُجيز: قام زيد وعمراً.

والقراءة الثالثة: على أنْ يَعطِفَ الشُّرَكاء على المُضمر المرفوع في «أجمعوا»، وحَسُن ذلك؛ لأنَّ الكلامَ قد طال. قال النحاس[7] وغيره: وهذه القراءة تبعدُ؛ لأنه لو كان مرفوعاً لوجب أن تُكتب بالواو، ولم يُرَ في المصاحف واو في قوله: «وشُركاءكم»، وأيضاً فإنَّ شركاءهم الأصنام، والأصنامُ لا تصنع شيئاً، ولا فعل لها حتى تُجْمِع.

---

(١) في معاني القرآن ١/ ٤٧٣ .

(٢) قائله عبد الله بن الزبعرى، وهو في ديوانه ص٣٢ ، وفيه: قد غدا، بدل: في الوغى. وسلف البيت ١/ ٢٩١ . وينظر الكامل لمحمد بن يزيد المبرد ١/ ٤٣٢ و ٢/ ٨٣٦ .

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٢ .

(٤) لعله أبو معاذ النحوي المروزي المقرئ اللغوي، له كتاب في القراءات. إنباه الرواة ٤/ ١٧٩ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٦ دون نسبة.

(٦) في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٢ ، وما قبله فيه بنحوه، وأبو إسحاق الآتي ذكره هو الزجَّاج.

(٧) في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٢ .

قال المهدويُّ: ويجوز أنْ يرتفعَ الشُّركاءُ بالابتداء، والخبرُ محذوف، أي: وشركاؤكم لِيُجمعوا أمرَهم[١]، ونُسب ذلك إلى الشُّرَكاء ـ وهي لا تسمعُ ولا تُبصر ولا تُميِّز ـ على جهةِ التوبيخ لمن عَبَدَها.

قوله تعالى ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ اسم «يكن» وخبرها. وغُمَّةٌ وغَمٌّ سواء، ومعناه التغطية، مِن قولهم: غُمَّ الهلال: إذا استتر، أي: لِيكن أمرُكم ظاهراً مُنكشِفاً تتمكَّنون فيه مما شئتم[٢]؛ لا كمن يَخفَى أمرُه فلا يقدِر على ما يُريد. قال طَرَفَة:

لعمرك ما أمري عليَّ بغُمَّةٍ ... نهاري ولا ليلي عليَّ بسَرْمَدِ[٣]

الزجَّاج: ﴿غُمَّةً﴾: ذا غَمٍّ، والغَمُّ والغُمَّة، كالكَرْب والكُرْبة. وقيل: إن الغُمَّة ضِيق الأمر الذي يُوجب الغمّ[٤]، فلا يتبيَّن صاحبه لأمره مَصْدراً لينفرجَ عنه ما يغمُّه. وفي «الصحاح»: والغُمَّة: الكُرْبة. قال العجَّاج:

بل لو شَهِدتَ الناسَ إذ تُكُمُّوا ... بغُمَّة لو لم تُفَرَّج غُمُّوا[٥]

يقال: أمْرٌ غُمَّة، أي: مُبْهَم مُلتبِس، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾. قال أبو عُبيدة[٦]: مجازُها ظُلمة وضِيق. والغُمَّة أيضاً: قَعْر النِّحْي وغيره[٧]. قال

---

(١) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١٣٢ دون نسبة.

(٢) ينظر معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٦ . وتهذيب اللغة ١٦/ ١١٥ .

(٣) ديوان طرفة بن العبد ص٤٠ .

(٤) النكت والعيون ٢/ ٤٤٣ .

(٥) ديوان العجاج ص٣٧٤ ، وقوله: تُكُمُّوا، أي: أغميَ عليهم، وغُطُّوا. القاموس المحيط (كمم).
والرجز أورده المصنف كما في الصحاح (غمم)، والذي في الديوان:

بل لو شهدت الناسَ إذ تُكُمُّوا ... بِقَدَرٍ حُمَّ لهم وحُمُّوا
وغُمَّةٍ لو لم تُفرَّج غُمُّوا ... إذ زعمت ربيعة القِشْعَمُّ

(٦) في مجاز القرآن ١/ ٢٧٩ .

(٧) الصحاح (غمم)، والنِّحي: الزِّقُّ، أو ما كان للسَّمن خاصة. القاموس المحيط (نحي).

غيره: وأصلُ هذا كلِّه مشتقٌّ من الغَمامة[١].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ ألف «اِقضوا» ألفُ وصل، مِن: قضى يَقضي. قال الأخفش والكسائي: هو مثل: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ [الحجر:٦٦] أي: أنْهيناه إليه، وأبلغناه إيَّاه. ورُوي عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ قال: اِمضُوا إليَّ ولا تؤخِّرون[٢]. قال النحاس[٣]: هذا قولٌ صحيح في اللغة، ومنه: قَضَى الميتُ، أي: مضى. وأعلمهم بهذا أنهم لا يَصِلون إليه، وهذا من دلائل النبوّات.

وحكى الفرَّاء عن بعض القُرَّاء: «ثم أَفْضوا إليَّ»؛ بالفاء وقَطْع الألف[٤]، أي: توجَّهوا، يقال: أفضت الخلافة إلى فلان، وأفضى إليَّ الوجع.

وهذا إخبارٌ من الله تعالى عن نبيِّه نوح عليه السلام أنه كان بنصرِ الله واثقاً، ومِن كيدهم غيرَ خائف، علماً منه بأنهم وآلهتَهم لا ينفعون ولا يضرُّون[٥]. وهو تعزيةٌ لنبيِّه ﷺ وتقويةٌ لقلبه.

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أي: فإنْ أعرضتُم عما جِئتكم به؛ فليس ذلك لأني سألتُكم أجراً فيثقُلَ عليكم مكافأتي[٦]. ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ في

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٨.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٦/ ١٩٧٠ (١٠٤٨٧).

(٣) في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٢، وما قبله منه.

(٤) معاني القرآن للفراء ١/ ٤٧٤، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٢، ونسب هذه القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٥٧ وابن جني في المحتسب ١/ ٣١٥ إلى السَّري ابن يَنْعُم.

(٥) تفسير البغوي ٢/ ٣٦٢.

(٦) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٣، والنكت والعيون ٢/ ٤٤٣.

تبليغ رسالته. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: الموحِّدين لله تعالى.

فَتَح أهلُ المدينة وأبو عمرو وابن عامر وحفص ياءَ «أجريَ» حيث وقع، وأسكن الباقون[١].

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ يعني نوحاً. ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ أي: من المؤمنين. ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾ أي: السفينة، وسيأتي ذكرها[٢]. ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ أي: سكانَ الأرض وخَلَفاً ممن غَرِق[٣]. ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ يعني آخر أمرِ الذين أنذرهم الرُّسلُ فلم يؤمنوا[٤].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد نوح ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ كهود وصالح وإبراهيم ولوط وشُعيب وغيرهم[٥]. ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمُعجزات. ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ التقدير: بما كذَّب به قومُ نوح مِن قَبْل[٦]. وقيل: «بِمَا كَذَّبُوا به مِنْ قَبْلُ» أي: مِن يوم[٧] الذَّرّ، فإنه كان فيهم من كذَّب بقلبه، وإنْ قال الجميع: بلى.

(١) التيسير ص٦٥ - ٦٦، والنشر ٢/ ١٦٧ - ١٦٨.

(٢) في تفسير الآية (٣٨) من سورة هود.

(٣) ينظر النكت والعيون ٢/ ٤٤٣.

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٣٦٢.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ١٠٦، والوسيط للواحدي ٢/ ٥٥٥.

(٦) تفسير البغوي ٢/ ٣٦٣.

(٧) في (ف) و(م): من قبل يوم.

قال النحاس[١]: ومِن أحسن ما قيل في هذا: إنه لِقومٍ بأعيانهم، مثل: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦].

﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ﴾ أي: نَختِم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي: المُجاوزين الحدَّ في الكُفر والتكذيب، فلا يؤمنوا. وهذا يردُّ على القَدَريَّة قولَهم كما تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أي: من بعدِ الرُّسل والأُمَم. ﴿مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي: أشرافِ قومه. ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يريد الآيات التسع، وقد تقدَّم ذكرها[٢]. ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ أي: عن الحقّ. ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي: مشركين.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ يريد فرعونَ وقومَه. ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ حملوا المعجزاتِ على السحر. قال لهم موسى: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ قيل: في الكلام حذفٌ، المعنى: أتقولون للحقّ: هذا سحرٌ؟ فـ «أتقولون» إنكارٌ، وقولُهم محذوف، أي: هذا سحرٌ، ثم استأنف إنكاراً آخر مِن قِبَله فقال: أسحر هذا؟! فحذف قولهم الأوّل اكتفاء بالثاني من قوله[٣] مُنكِراً على فرعونَ وملئِه.

وقال الأخفش[٤]: هو مِن قولهم، ودخلت الألف حكايةً لقولهم؛ لأنهم قالوا:

---

(١) في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٣.

(٢) ٢/ ٢٥٤، ٩/ ٣٠٩.

(٣) في (د) و(م): من قولهم. والكلام بنحوه في تفسير الطبري ١٢/ ٢٣٨ - ٢٣٩، وتفسير الرازي ١٧/ ١٤١.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٥٧٢، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٣.

أسحرٌ هذا. فقيل لهم: أتقولون للحقّ لما جاءكم: أسحرٌ هذا[١]. ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ أي: لا يُفلح مَن أتى به.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ أي: لتصرفَنا وتَلْوِيَنا، يقال: لَفَتَه يَلفِتُه لَفْتاً: إذا لواه وصَرَفه[٢]. قال الشاعر:

تَلَفَّتُّ نحوَ الحيِّ حتى رأيتُني وَجِعْتُ من الإصغاء لِيتاً وأخدعًا[٣]

ومن هذا: التفتَ، إنما هو عدلَ عن الجهة التي بين يديه[٤]. ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ يريد من عبادة الأصنام. ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ أي: العظمةُ والمُلْك والسلطان. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يُريد أرضَ مصر[٥]. ويقال للمُلْك: الكِبرياء، لأنه أعظمُ ما يُطلَب في الدنيا[٦]. ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وقرأ ابن مسعود والحسن وغيرُهما: «ويكون» بالياء[٧]؛ لأنه تأنيثٌ غيرُ حقيقي، وقد فُصِلَ بينهما. وحكى سيبويه: حضر القاضيَ اليومَ امرأتان[٨].

---

(١) وقع في النسخ بعدها عبارة: وروي عن الحسن. وهو وهم من المصنف رحمه الله، لأن هذه العبارة قد ذكرها النحاس (والكلام منه) من أجل قراءة الحسن: «ويكون لكما الكبرياء» بالياء، وستأتي في الآية التالية.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ١٣٥.

(٣) قائله الصمة بن عبد الله القشيري، وهو في ديوانه ص٩٤، وفيه: وجدتُني، بدل: رأيتُني. وقوله: الإصغاء: أي: الإمالة. واللِّيت: صفحة العُنق. القاموس المحيط (ليت). والأخدع: عِرْق في جانب العُنق. اللسان (خدع).

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٧.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ١٠٧، وتفسير البغوي ٢/ ٣٦٣.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٨.

(٧) القراءات الشاذة ص٥٧-٥٨.

(٨) الكتاب ٢/ ٣٨، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٣، وما قبله منه.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾

إنما قاله لَمَّا رأى العصا واليدَ البيضاء، واعتقدَ أنهما سحرٌ. وقرأ حمزة والكسائيُّ وابن وَثَّاب والأعمش: «سَحَّار»[(١)]. وقد تقدَّم في «الأعراف» القولُ فيهما[(٢)].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾﴾

أي: اطرحوا على الأرض ما معكم من حِبالكم وعِصِيِّكم. وقد تقدَّم في «الأعراف» القولُ في هذا مستوفًى[(٣)].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ تكون «ما» في موضع رفع بالابتداء، والخبر «جئتم به»، والتقدير: أيُّ شيء جِئْتُمْ به؟ على التوبيخ والتصغير[(٤)] لِمَا جاؤوا به من السحر.

وقراءةُ أبي عمرو: «آلسِّحْرُ» على الاستفهام على إضمار مبتدأ، والتقدير: أهو السحر؟ ويجوز أن يكون مبتدأ، والخبرُ محذوف، التقدير: آلسحرُ جئتم به[(٥)]. ولا تكون «ما» على قراءة مَن استفهم بمعنى الذي، إذ لا خبرَ لها[(٦)].

---

(١) قراءة حمزة والكسائي في السبعة ص٢٨٩، والتيسير ص١١٢، وقراءة ابن وثّاب في المحرر الوجيز ٣/ ١٣٥، ولم نقف على من نسبها للأعمش.

(٢) ٩/ ٢٩٣ وما بعدها.

(٣) ٩/ ٢٩٦ وما بعدها.

(٤) في (ز) و (ظ) و (ف) وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٣ (والكلام منه): والتقصير. والمثبت من (د) و (م).

(٥) ذكر مكيّ في مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٥١ الوجه الأول، وذكر العكبري في الإملاء ٣/ ٢٤٥ الوجهين، وقدَّر الثاني بلفظ: السحر هو؟ قال السمين في الدر المصون ٦/ ٢٤٩: وفيهما بُعدٌ.

(٦) هذا قول مكي في مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٥١، قال السمين الحلبي في الدر المصون ٦/ ٢٥٠: ليس كما ذكر، بل خبرها الجملة المقدَّر أحد جُزأيها.

وقرأ الباقون: «السِّحْرُ» على الخبر[١]، ودليلُ هذه القراءة قراءةُ ابن مسعود: «مَا جِئْتُمْ بِهِ سِحْرٌ». وقراءةُ أُبيٍّ: «ما أتيتُم به سحرٌ»؛ فـ «ما» بمعنى الذي، و«جئتم به» الصلة، وموضعُ «ما» رفع بالابتداء، والسحر خبر الابتداء. ولا تكون «ما» إذا جعلتها بمعنى الذي نصباً؛ لأن الصلة لا تعمل في الموصول[٢].

وأجاز الفرَّاء[٣] نَصْبَ «السحر» بـ «جِئْتُم»، وتكون «ما» للشرط، و«جئتم» في موضع جزم بـ «ما»، والفاء محذوفة؛ التقدير: فإن الله سيُبْطلُه.

ويجوز أن يُنصب «السحر» على المصدر، أي: ما جئتُم به سحراً، ثم دخلت الألف واللام زائدتين، فلا يحتاجُ على هذا التقدير إلى حذفِ الفاء. واختار هذا القول النحاس[٤]، وقال: حذفُ الفاء في المُجازاة لا يُجيزه كثيرٌ من النَّحْويين إلا في ضرورة الشعر، كما قال:

مَن يفعلِ الحسناتِ اللهُ يشكرها[٥]

بل ربَّما قال بعضُهم: إنه لا يجوز البتَّة. وسمعت عليَّ بنَ سليمان يقول: حدثني محمد بن يزيد قال: حدثني المازنيُّ قال: سمعتُ الأصمعيَّ يقول: غيَّر النَّحْويون هذا البيت، وإنما الرواية:

مَن يفعلِ الخيرَ فالرحمنُ يشكره[٦]

وسمعتُ عليَّ بنَ سليمان يقول: حذفُ الفاء في المجازاة جائز. قال: والدليل

---

(١) السبعة ص٣٢٨، والتيسير ص١٢٣.

(٢) ينظر مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٥١، والمحرر الوجيز ٣/ ١٣٥، وقراءة ابن مسعود ﷺ في القراءات الشاذة ص٥٨.

(٣) في معاني القرآن له ١/ ٤٧٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٤.

(٤) في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٤.

(٥) صدر بيت، اختلف في قائله، وعجزُه: والشرُّ بالشرِّ عند الله مِثْلان، وسلف ٣/ ٩٢.

(٦) خزانة الأدب ٢/ ٣٦٥.

على ذلك ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]. ﴿وما أصابكم من مصيبة بما كسبت أيديكم﴾ قراءتان مشهورتان معروفتان[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ يعني السحر. قال ابن عباس: مَن أخذ مضجعه من الليل، ثم تلا هذه الآية: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾لم يَضُرَّه كيدُ ساحر، ولا تُكتب على مسحور إلَّا دَفَع اللهُ عنه السِّحر[٢].

قوله تعالى: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾ أي: يُبيِّنُه ويوضِّحه. ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: بكلامه وحُجَجه وبَراهينه[٣]. وقيل: بعِدَاته بالنصر. ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ من آل فرعون.

قوله تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ الهاء عائدة على موسى. قال مجاهد: أي: لم يُؤمن منهم أحدٌ، وإنما آمنَ أولادُ مَن أُرسل موسى إليهم مِن بني إسرائيل، لِطُول الزمان هَلَك الآباءُ وبَقي الأبناءُ فآمنوا، وهذا اختيارُ الطبري[٤].

والذُّرِّيَّة: أعقابُ الإنسان، وقد تَكثُر. وقيل: أراد بالذُّرِّيَّة مؤمني بني إسرائيل[٥]. قال ابن عباس: كانوا ستَّ مئة ألف، وذلك أنَّ يعقوبَ عليه السلام دخل مصر في اثنين وسبعين إنساناً، فتوالدوا بمصرَ حتى بلغوا ستَّ مئة ألف[٦]. وقال ابن عباس

(١) القراءة الأولى قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي، والقراءة الثانية قرأ بها نافع وابن عامر. السبعة ص٥٨١، والتيسير ص١٩٥. والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٤ - ٢٦٥.

(٢) لم نقف عليه. وأخرج ابن أبي حاتم في تفسيره ٦/ ١٩٧٤ نحوَه من قول ليث بن أبي سليم.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٥.

(٤) في تفسيره ١٢/ ٢٤٧، وقول مجاهد في تفسيره ١/ ٢٩٥.

(٥) تفسير البغوي ٢/ ٣٦٤.

(٦) تفسير أبي الليث ٢/ ١٠٧. وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢٢٠١ من قول الربيع بن أنس.

أيضاً: «مِن قَوْمه» يعني: من قوم فرعون، منهم مؤمنُ آل فرعون، وخازنُ فرعون، وامرأتُه، وماشِطةُ ابنته، وامرأةُ خازنه[١].

وقيل: هم أقوامٌ آباؤهم من القِبْط، وأمهاتُهم من بني إسرائيلَ، فسُمُّوا ذُرِّيةً كما يُسمَّى أولاد الفُرس الذين توالدوا باليمن وبلادِ العرب الأبناء؛ لأن أُمَّهاتِهم من غير جنس آبائهم؛ قاله الفراء[٢]. وعلى هذا فالكناية[٣] في «قَوْمِهِ» ترجع إلى موسى للقَرابة من جِهة الأُمَّهات، وإلى فرعونَ إذ[٤] كانوا من القِبْط.

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾ لأنه كان مُسلَّطاً عليهم عاتياً. ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ ولم يقل: ومَلَئه. وعنه ستةُ أجوبة: أحدُها: أنَّ فرعونَ لمَّا كان جبَّاراً أخبر عنه بفعل الجميع. الثاني: أن فرعون لمَّا ذُكِر عُلِم أنَّ معه غيرَه، فعاد الضميرُ عليه وعليهم، وهذا أحدُ قَوْلي الفرّاء[٥]. الثالث: أنْ تكونَ الجماعةُ سُمِّيت بفرعون مثل ثمود. الرابع: أن يكون التقدير: على خوف مِن آل فرعون، فيكون من باب حذف المضاف مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف:٨٢]، وهو القولُ الثاني للفرَّاء[٦]. وهذا الجوابُ على مذهب سيبويه والخليل خطأ، لا يجوز عندهما: قامتْ هند، وأنت تريد غلامها. الخامس: مذهب الأخفشِ سعيدٍ[٧] أن يكون الضميرُ يعود على الذُّرِّيَّة، أي: ملأ الذرِّية، وهو اختيارُ الطبري[٨]. السادس: أن يكون الضميرُ يعود على «قومه». قال النحاس[٩]: وهذا الجوابُ كأنه أبلغُها.

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٣٦٤، وأخرجه الطبري ١٢/ ٢٤٦ دون ذكر ماشطة ابنة فرعون.

(٢) في معاني القرآن ١/ ٤٧٦، وينظر تفسير البغوي ٢/ ٣٦٤.

(٣) في (ظ): فالهاء.

(٤) في (د) و(ز) و(م): إذا، والمثبت من (ظ).

(٥) في معاني القرآن ١/ ٤٧٦، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٥، وما قبله منه.

(٦) في معاني القرآن ١/ ٤٧٧، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٥.

(٧) في معاني القرآن ٢/ ٥٧٣، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٥.

(٨) في تفسيره ١٢/ ٢٤٩.

(٩) في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٥، وما قبله منه.

﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ وحَّد «يفْتِنَهُمْ» على الإخبار عن فرعون[١]، أي: يَصْرِفَهم عن دينهم بالعُقوبات، وهو في موضع خفض على أنه بدلُ اشتمال. ويجوز أن يكون في موضع نصب بـ «خَوْفٍ». ولم ينصرفْ فرعونُ؛ لأنه اسمٌ أعجميٌّ، وهو معرفة[٢].

﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: عاتٍ مُتكبِّرٌ.

﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: المُجاوزين الحدَّ في الكفر؛ لأنه كان عبداً، فادَّعى الرُّبوبية[٣].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم﴾ أي: صدَّقتم ﴿بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟﴾ أي: اعتمدوا. ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ كَرَّر الشرط تأكيداً، وبيَّن أنَّ كمالَ الإيمان بتفويض الأمر إلى الله. ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: أسلمنا أمورَنا إليه، ورَضِينا بقضائه وقَدَره، وانتهينا إلى أمره[٤].

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا تنصرْهم علينا فيكونَ ذلك فتنةً لنا عن الدين، أو لا تمتحنَّا[٥] بأن تعذِّبنا على أيديهم. وقال مجاهد: المعنى: لا تُهلِكْنا بأيدي أعدائنا، ولا تعذِّبنا بعذاب مِن عندك فيقولَ أعداؤنا: لو كانوا على حقٍّ لم نُسَلَّط عليهم، فيُفتنوا[٦]. وقال أبو مِجْلَز وأبو الضُّحى: يعني: لا تُظهرهم علينا، فيرَوا أنهم خيرٌ منَّا، فيزدادوا طُغياناً[٧].

---

(١) تفسير الطبري ١٢/ ٢٥٠، وتفسير البغوي ٢/ ٣٦٤.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٥.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٣٦٤.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٦.

(٥) في (ظ): ولا تمتحنَّا.

(٦) في (ز) و (ظ): فيفتتنوا.

(٧) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٢/ ٢٥١ - ٢٥٢. وقول مجاهد في تفسيره ١/ ٢٩٥.

قوله تعالى: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٨٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾ أي: خلِّصنا ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: من فرعونَ وقومه؛ لأنهم كانوا يأخذونهم بالأعمال الشاقَّة.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ **فيه خمسُ مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا﴾ أي: اتَّخِذا. ﴿لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ يقال: بوَّأت زيداً مكاناً، وبوَّأت لزيد مكاناً. والمبوَّأ: المَنْزِل الملزوم، ومنه: بوَّأه اللهُ مَنْزِلاً، أي: ألزمه إياه وأسكنه، ومنه الحديث: «مَن كَذَبَ عليَّ متعمِّداً فليتبوَّأ مقعدَه من النار»[1] قال الراجز:

نحن بنو عدنانَ ليس شكُّ   تبوَّأ المجدُ بنا والملكُ[2]

ومصر في هذه الآية هي الإسكندرية؛ في قول مجاهد[3]. وقال الضحاك: إنه البلد المسمَّى مصر[4]، ومصرُ ما بين البحر إلى أُسْوان، والإسكندريةُ من أرض مصر[5].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قال أكثر المفسرين: كان بنو إسرائيل لا يصلُّون إلا في مساجدهم وكنائِسهم، وكانت ظاهرةً، فلمَّا أُرسل موسى أَمر فرعونُ بمساجد بني إسرائيل فخرِّبت كلُّها، ومُنعوا من الصلاة، فأوحى اللهُ إلى موسى وهارون أن اتخِذا وتخيَّرا لبني إسرائيل بيوتاً بمصر، أي: مساجد، ولم يُرِد

---

(١) سلف ١/ ٥٧.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٤٤٦.

(٣) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٥٩.

(٤) النكت والعيون ٢/ ٤٤٦.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ١٣٨.

المنازلَ المسكونة. هذا قول إبراهيم وابنِ زيد والرَّبيع وأبي مالك وابن عباس وغيرهم[١].

وروي عن ابن عباس وسعيد بن جُبَير أنَّ المعنى: واجعلوا بيوتكم يقابُل بعضُها بعضاً[٢].

والقولُ الأولُ أصحّ أي: اجعلوا مساجدكم إلى القِبلة، قيل[٣]: بيت المَقْدِس، وهي قبلةُ اليهود إلى اليوم؛ قاله ابن بحر[٤]. وقيل: الكعبة. عن ابن عباس[٥] قال: وكانت الكعبة قِبلةَ موسى ومَن معه.

وهذا يدلُّ على أنَّ القبلة في الصلاة كانت شرعاً لموسى عليه السلام، ولم تَخْلُ الصلاةُ عن شرطِ الطهارة، وستر العورة، واستقبال القبلة؛ فإنَّ ذلك أبلغُ في التكليف وأَوْقَرُ للعبادة[٦].

وقيل: المراد صلُّوا في بيوتكم سرًّا لتأمنوا، وذلك حين أخافهم فرعونُ، فأمِروا بالصبر واتخاذِ المساجد في البيوت، والإقدام على الصلاة، والدعاءِ إلى أنْ ينجِز اللهُ وعدَه، وهو المراد بقوله: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ [الأعراف:١٢٨] الآية. وكان من دينهم أنَّهم لا يصلُّون إلا في البِيَع والكنائس ما داموا على أمنٍ، فإذا خافوا فقد أُذن لهم أن يصلُّوا في بيوتهم. قال ابن العربيِّ: والأوَّلُ أَظْهَرُ القولين؛ لأنَّ الثانيَ دعوى[٧].

---

(١) أخرج قولهم الطبري ١٢/ ٢٥٥ - ٢٥٧ ، وينظر تفسير البغوي ٢/ ٣٦٥ .

(٢) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٦٠ عن سعيد بن جبير، وأخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٧٧ (١٠٥٣٢) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس.

(٣) في (ظ): قبل.

(٤) ذكره عن ابن بحر بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٤٤٧ ، وذكره ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٠٤٣ دون نسبة.

(٥) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٥٧ - ٢٥٨ .

(٦) في النسخ: وأوفر للعبادة، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٤٣ ، والكلام منه.

(٧) أحكام القرآن ٣/ ١٠٤٣ ، ويعني بالأول: بيت المقدس، فقد ذكره ابن العربي قبل هذا القول.

قلت: قوله: دعوى، صحيح؛ فإن في الصحيح قولَه عليه الصلاة والسلام: «جُعلت لي الأرضُ مسجداً وطَهوراً»[١]. وهذا ممَّا خُصَّ به دون الأنبياء، فنحن بحمدِ اللهِ نصلِّي في المساجد والبيوت، وحيث أدركتنا الصلاة، إلا أنَّ النافلة في المنازل أفضلُ منها في المساجد، حتى الركوعَ قبل الجمعة وبعدها، وقبل الصَّلَوات المفروضات وبعدها؛ إذ النوافلُ يحصل فيها الرياء، والفرائض لا يحصل فيها ذلك، وكلما خلَص العمل من الرياء كان أَوْزَنَ وأَزْلَفَ عند الله سبحانه وتعالى.

روى مسلم[٢] عن عبد الله بن شقيق قال: سألتُ عائشةَ عن صلاة رسول اللهِ ﷺ، عن تطوُّعه؛ قالت: كان يصلِّي في بيتي قبل الظهر أربعاً، ثم يخرج فيصلِّي بالناس، ثم يدخل فيصلِّي ركعتين، وكان يُصلِّي بالناس المغرِبَ، ثم يدخل فيصلي ركعتين، ثم يصلي بالناس العشاء، ويدخل بيتي فيصلِّي ركعتين...» الحديث.

وعن ابن عمر قال: صلَّيت مع النبيِّ ﷺ قبل الظهر سجدتين، وبعدها سجدتين، وبعد المغرب سجدتين [وبعد العشاء سجدتين، وبعد الجمعة سجدتين]. فأمَّا المغربُ والعشاء والجمعة فصلَّيت مع النبيِّ ﷺ في بيته[٣].

وروى أبو داود عن كعب بن عُجْرة: أنَّ النبيَّ ﷺ أتى مسجدَ بني [عبد] الأشهل فصلَّى فيه المغرب، فلمَّا قَضَوْا صلاتَهم؛ رآهم يسبِّحون بعدها، فقال: «هذه صلاةُ البيوت»[٤].

---

(١) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٤٢٦٣)، والبخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١) عن جابر ﷺ، وسلف ٢/ ٢٨٣.

(٢) في صحيحه (٧٣٠)، وهو عند أحمد (٢٤٠١٩).

(٣) صحيح مسلم (٧٢٩)، وهو عند البخاري (١١٧٢) وما سلف بين حاصرتين منهما، وأخرجه بنحوه أحمد (٤٥٠٦).

(٤) سنن أبي داود (١٣٠٠)، وأخرجه أيضاً الترمذي (٦٠٤)، والنسائي في المجتبى ٣/ ١٩٨، وما بين حاصرتين من المصادر. وأخرج نحوه أحمد (٢٣٦٢٤) من حديث محمود بن لبيد ﷺ قوله: يسبّحون بعدها، أي: يصلون النافلة بعد المغرب.

الثالثة: واختلف العلماء من هذا الباب في قيام رمضان، هل إيقاعُه في البيت أفضلُ، أو في المسجد؟ فذهب مالك إلى أنه في البيت أفضلُ لمن قَوِيَ عليه، وبه قال أبو يوسفَ وبعضُ أصحاب الشافعي. وذهب ابن عبد الحكم وأحمد وبعضُ أصحاب الشافعيِّ إلى أنَّ حضورها في الجماعة أفضل. وقال الليث: لو قام الناسُ في بيوتهم ولم يقم أحدٌ في المسجد لَأَنْبَغَى[1] أن يخرجوا إليه.

والحجة لمالك ـ ومَن قال بقوله ـ قولُه ﷺ في حديث زيد بن ثابت: «فعليكم بالصلاة في بيوتكم، فإنَّ خيرَ صلاة المرء في بيته إلا المكتوبةَ» خرجه البخاريُّ[2].

احتجَّ المخالفُ بأنَّ النبيَّ ﷺ قد صلَّاها في الجماعة في المسجد، ثم أخبر بالمانع الذي منعه من[3] الدوام على ذلك، وهو خشية أنْ تُفرض عليهم، فلذلك قال لهم: «فعليكم بالصلاة في بيوتكم». ثم إن الصحابة كانوا يصلونها في المسجد أوزَاعاً متفرقين، إلى أن جمعَهم عمر على قارئ واحدٍ، فاستقرَّ الأمرُ على ذلك وثبت سُنَّةً.

الرابعة: وإذا تنزَّلْنا على أنه كان أُبيح لهم أن يصلُّوا في بيوتهم إذا خافوا على أنفسهم، فيُستدلُّ به على أن المعذور بالخوف وغيره يجوز له ترك الجماعة والجمعة. والعذرُ الذي يبيح له ذلك كالمرض الحابس، أو خوف زيادته، أو خوف جورِ السلطان في مالٍ أو بدنٍ دون القضاءِ عليه بحق. والمطرُ الوابِلُ مع الوَحْلِ عذرٌ إن لم ينقطع، ومَن له وليٌّ حميم قد حضرته الوفاةُ ولم يكن عنده من يمرِّضه، وقد فعل ذلك ابن عمر[4].

---

(١) وقع في النسخ والمفهم ٢/ ٣٨٨ (والكلام منه): لا ينبغي، والمثبت من إكمال المعلم ٣/ ١١٢ ، وهو الصواب. وذكر قول الليث أيضاً الجصاص في مختصر اختلاف العلماء ١/ ٣١٣ ، وابن عبد البر في التمهيد ٨/ ١١٧ ولفظه عندهما: لو أنَّ الناس في رمضان قاموا لأنفسهم ولأهليهم كلِّهم حتى يُترك المسجد لا يقوم فيه أحد، لكان ينبغي أن يخرجوا من بيوتهم إلى المسجد حتى يقوموا فيه...

(٢) في صحيحه (٦١١٣) مطولاً، وسلف ٤/ ٣٥٩ .

(٣) في النسخ: منع منه بدل: منعه منه، والمثبت من المفهم.

(٤) الكافي لابن عبد البر ١/ ٢٥٢ وقد ذكر هذا الكلام في التخلف عن صلاة الجمعة، وينظر المفهم ٢/ ٣٣٩ . وخبر ابن عمر أخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ١٥٣ وفيه أن ابناً لسعيد بن زيد بن نفيل كانَ بأرض له بالعقيق على رأس أميال من المدينة، فأتى ابن عمر غداة يوم الجمعة فذكر له شكواه، فانطلق إليه وترك الجمعة.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: الخطاب لمحمدٍ ﷺ. وقيل: لموسى عليه السلام، وهو أظهرُ، أي: بشِّرْ بني إسرائيل بأن الله سيُظهرهم على عدوِّهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ﴾ «آتيْتَ» أي: أعطيت. ﴿زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: مال الدنيا، وكان لهم من فُسطاط مِصر إلى أرض الحبشة جبالٌ فيها معادن الذهب والفضة والزَّبَرْجَد والزُّمرُّد والياقوت[(١)].

قوله تعالى: ﴿ربَّنا لِيَضلُّوا عن سبيلكَ﴾ اختلف في هذه اللام، وأصحُّ ما قيل فيها ـ وهو قول الخليل وسيبويه ـ أنها لامُ العاقبة والصَّيرورة[(٢)]، وفي الخبر: «إنَّ لِلهِ تعالى مَلَكاً ينادي كلَّ يوم: لِدُوا للموت، وابنوا للخراب»[(٣)]. أي: لمَّا كان عاقبةُ أمرهم إلى الضلال صار كأنه أعطاهم ليَضِلُّوا.

وقيل: هي لامُ كي، أي: أعطيتَهم لكي يَضِلُّوا ويَبْطَروا ويتكبَّروا[(٤)].

وقيل: هي لامُ أَجْل[(٥)]، أي: أعطيتَهم لأجْل إعراضِهم عنك؛ فلم يخافوا أن

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٥٥٧ ، والزمخشري ٢/ ٢٤٩ - ٢٥٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٦ .

(٣) قطعة من حديث أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٥١٩)، والبيهقي في الشعب (١٠٧٣٠) عن أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أبو يعلى (٦٨٥)، والبيهقي في الشعب (١٠٧٣١) من حديث الزبير ﷺ. قال ملا علي القاري في الأسرار المرفوعة ص٢٧٦ : قال الإمام أحمد: هو مما يدور في الأسواق، ولا أصل له. وينظر كشف الخفاء ٢/ ١٨٣ - ١٨٤ .

(٤) تفسير الطبري ١٢/ ٢٦٢ ، وهذا قول الفراء في معاني القرآن له ١/ ٤٧٧ وقال البغوي ٢/ ٣٦٥ : هي كقوله: ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن:١٦-١٧].

(٥) زاد المسير ٤/ ٥٦ .

تُعرض عنهم.

وزعم قوم أن المعنى: أعطيتَهم ذلك لئلّا يَضِلُّوا، فحذفت لا كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء:١٧٦] والمعنى: لأن لا تضلوا. قال النحاس[١]: ظاهِرُ هذا الجوابِ حسنٌ، إلا أنَّ العرب لا تَحذف «لا» إلا مع أنْ؛ فموَّه صاحبُ هذا الجوابِ بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَن تَضِلُّواْ﴾.

وقيل: اللام للدعاء، أي: ابتَلِهم بالضلال عن سبيلك؛ لأنَّ بعده: ﴿ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ﴾[٢].

وقيل: الفعل معنى المصدر، أي: إضلالهم، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾ [التوبة:٩٥][٣].

وقرأ الكوفيون: ﴿لِيُضِلُّواْ﴾ بضم الياء من الإِضلال، وفتَحها الباقون[٤].

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي: عاقِبْهم على كفرهم بإهلاك أموالهم. قال الزجاج[٥]: طَمْسُ الشيء إذهابه عن صورته.

قال ابن عباس ومحمدُ بن كعب: صارت أموالُهم ودراهِمُهم حجارةً منقوشة كهيئتها صحاحاً وأثلاثاً وأنصافاً[٦]، ولم يبق لهم معدنٌ إلا طَمَس اللهُ عليه، فلم ينتفع به أحدٌ بعدُ.

---

(١) في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٦ ، وما قبله منه.

(٢) زاد المسير ٤/ ٥٦ ، ومجمع البيان ١١/ ٨٧ ، وقال الطبرسي: المعنى: ابتلهم بالبقاء على ما هم عليه من الضلال. وينظر الكشاف ٢/ ٢٥٠ .

(٣) أي: لإعراضكم عنهم، وهم لم يحلفوا لكي تُعرضوا. ويكون المعنى على هذا القول: آتيتهم ما آتيتهم لضلالهم. وهذا قول أبي العباس أحمد بن يحيى كما في اللسان (لوم). وذكره الطبري ١٢/ ٢٦٢-٢٦٣ .

(٤) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف بضم الياء، والباقون بفتحها. السبعة ص٢٦٧ ، والتيسير ص١٠٦ ، والنشر ٢/ ٢٦٢ .

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٣١ .

(٦) ذكره البغوي ٢/ ٣٦٦ عن ابن عباس وحده، وذكر عن محمد بن كعب قولاً آخر، وسيأتي.

وقال قتادة: بلغَنا أنَّ أموالهم وزروعَهم صارت حجارة[١].

وقال مجاهد وعطية: أهْلِكْها حتى لا تُرَى؛ يقال: عين مطموسة، وطَمس الموضع: إذا عفا ودرَس[٢].

وقال ابن زيد: صارت دنانيرهم ودراهِمُهم وفُرُشُهم وكلُّ شيء لهم حجارةً[٣].

محمد بن كعب: وكان الرجل منهم يكون مع أهله في فراشه وقد صارا حجرين[٤]؛ قال: وسألني عمر بن عبد العزيز فذكرتُ ذلك له، فدعا بخريطةٍ أصيبت بمصر، فأخرج منها الفواكه والدراهمَ والدنانير وإنها لحجارة[٥].

وقال السُّدِّيُّ: وكانت إحدى الآياتِ التسع[٦].

﴿وَاَشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قال ابن عباس: أي: امنعهم الإيمانَ[٧]. وقيل: قَسِّها واطْبَعْ عليها حتى لا تنشرح للإيمان؛ والمعنى واحد[٨].

﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟﴾ قيل: هو عطفٌ على قوله: «لِيَضِلُّوا» أي: آتيتهم النعم ليَضِلُّوا ولا يؤمنوا؛ قاله الزجَّاج والمبرد[٩]. وعلى هذا لا يكون فيه من معنى الدعاء شيء. وقولُه: «رَبَّنَا اطْمسْ» «وَاشْدُدْ» كلامٌ معترِض.

---

(١) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٦٥.

(٢) زاد المسير ٤/ ٥٧، وينظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص١٩٨. وخبر مجاهد في تفسيره ١/ ٢٩٧، وأخرجه الطبري ١٢/ ٢٦٦.

(٣) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٦٦.

(٤) قال الآلوسي في روح المعاني ١١/ ١٧٣: هذا مما لا يكاد يصح أصلاً وليس في الآية ما يشير إليه بوجه. وعندي أن أخبار تغيير أموالهم إلى الحجارة لا تخلو عن وهن، فلا يعوّل عليها.

(٥) تفسير البغوي ٢/ ٣٦٦، وأخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٧٩ (١٠٥٤٣). والخريطة: وعاء من أدم وغيره. معجم متن اللغة (خرط).

(٦) تفسير البغوي ٢/ ٣٦٦.

(٧) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٥٧.

(٨) ينظر الوسيط ٢/ ٥٥٧، وأخرج الطبري ١٢/ ٢٦٧، وابن أبي حاتم ٦/ ١٩٧٩ (١٠٥٤٦) عن ابن عباس قال: ﴿وَاَشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: واطبع على قلوبهم.

(٩) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣١ وقد نقله الزجاج عن المبرد.

وقال الفراء والكسائي وأبو عبيدة: هو دعاء، فهو في موضع جزم عندهم؛ أي: اللهم فلا يؤمنوا، أي: فلا آمنوا[١]. ومنه قول الأعشى:

فلا يَنْبَسِطْ من بين عينَيْكَ ما انزوَى ... ولا تَلْقَني إلَّا وأنفُك راغِمُ

أي: لا انبسط[٢]. ومَن قال: «لِيَضِلُّوا» دعاء ـ أي: ابتلهم بالضلال ـ قال: عُطف عليه «فلا يُؤْمِنُوا».

وقيل: هو في موضع نصبٍ لأنه جواب الأمر، أي: واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا. وهذا قول الأخفش والفراء أيضاً، وأنشد الفراء:

يا ناقُ سيري عَنَقاً فسيحا ... إلى سليمانَ فنَستَريحا[٣]

فعلى هذا حذفت النون لأنه منصوب.

﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ قال ابن عباس: هو الغرق[٤].

وقد استَشْكَل بعضُ الناس هذه الآيةَ فقال: كيف دعا عليهم، وحُكْمُ الرسل استدعاءُ إيمانِ قومهم؟

فالجواب: أنه لا يجوز أن يدعوَ نبيٌّ على قومه إلا بإذنٍ من الله، وإعلامٍ أنه ليس فيهم مَن يؤمن، ولا يخرج من أصلابهم مَن يؤمن، دليلُه: قولُه لنوح عليه السلام: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]، وعند ذلك قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]. والله أعلم.

---

(١) ينظر تفسير الطبري ١٢/ ٢٦٩، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٦، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٢٨١، وزاد المسير ٤/ ٥٧، وقول الفراء في معاني القرآن ١/ ٤٧٧، وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٢٨١.

(٢) تفسير الطبري ١٢/ ٢٦٩، وزاد المسير ٤/ ٥٧، والبيت في ديوان الأعشى ص١٢٩، وسلف ٨/ ١٢٩.

(٣) معاني القرآن للفراء ١/ ٤٧٧ - ٤٧٨، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٦، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٣٥٣. والرجز لأبي النجم العجلي، وهو في ديوانه ص٨٢، والكتاب ٣/ ٣٥. والعَنَق: ضَرْبٌ من السير. والفسيح: الواسع المكين، وأراد: سليمان بن عبد الملك، والشاهد فيه نصب ما بعد الفاء على جواب الأمر. تحصيل عين الذهب ص٣٩٤.

(٤) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٦٧.

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ قال أبو العالية: دعا موسى وأمَّن هارون؛ فسمي هارون ـ وقد أمَّن على الدعاء ـ داعياً. والتأمين على الدعاء أن يقول: آمين، فقولك: آمين؛ دعاء، أي: يا رب استجب لي[1].

وقيل: دعا هارون مع موسى أيضاً[2].

وقال أهل المعاني: ربما خاطبت العربُ الواحدَ بخطاب الاثنين[3]؛ قال الشاعر:

فقلتُ لصاحبي لا تُعْجِلانا بنَزْعِ أصوله فاجتزَّ شِيحا[4]

وهذا على أنَّ آمين ليس بدعاء، وأنَّ هارون لم يَدْعُ.

قال النحاس[5]: سمعت عليَّ بن سليمان يقول: الدليل على أنَّ الدعاء لهما قولُ موسى عليه السلام: «ربَّنا»، ولم يقل: ربّ.

وقرأ عليٌّ والسُّلَميُّ: «دعواتُكما» بالجمع[6]. وقرأ ابن السَّمَيفَع: «أجبتُ دعوتَكما»[7] خبراً عن اللهِ تعالى، ونصب «دعوة» بعده.

---

(١) النكت والعيون ٢/٤٤٨ ، وأخرج قول أبي العالية الطبري ١٢/٢٧١ - ٢٧٢ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/٣١ .

(٣) تفسير الطبري ١٢/٢٧١ ، والصحاح (جزز).

(٤) نسبه الجوهري في الصحاح (جزز) ليزيد بن الطَّثرية، ونُسب لمُفَرِّس بن رِبْعيٍّ الأسدي كما في شرح شواهد الشافية ٤/٤٨١ ، واللسان (جزز). وذكر دون نسبة في تأويل مشكل القرآن ص٢٢٤ ، وتفسير الطبري ١٢/٢٧١ . ووقع في المصادر عدا تفسير الطبري: لا تَحْبِسانا، بدل: لا تُعجلانا. وذكر صاحب اللسان روايةً أخرى وهي: لا تَحْبِسَنَّا. وقال في شرح البيت: يقول: لا تَحبِسْنا عن شَيِّ اللحم بنزع أصول الشجر، بل خذ ما تيسَّر من قضبانه وعيدانه. اهـ والشِّيح: نبت معروف. القاموس (شيح).

(٥) في إعراب القرآن ٢/٢٦٧ .

(٦) القراءات الشاذة ص٥٨ ، والمحتسب ١/٣١٦ .

(٧) ذكرها أبو حيان في البحر ٥/١٨٧ .

وتقدَّم القول في «آمين» في آخِر الفاتحة(١) مستوفًى. وهو مما خُصَّ به نبيُّنا محمدٌ ﷺ وهارونُ وموسى عليهما السلام؛ روى أنس بن مالك قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ الله قد أَعْطَى أمَّتي ثلاثاً لم تُعْطَ أحداً قبلَهم: السلامُ، وهي تحيةُ أهل الجنة، وصفوفُ الملائكة، وآمين، إلا ما كان من موسى وهارون» ذكره الترمذيُّ الحكيمُ في «نوادر الأصول»، وقد تقدَّم في الفاتحة(٢).

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ قال الفرَّاء(٣) وغيره: أَمْرٌ بالاستقامة على أمرهما والثبات عليه؛ من دعاء فرعون وقومِهِ إلى الإيمان؛ إلى أن يأتيَهما تأويلُ الإجابة.

قال محمد بن عليٍّ وابنُ جريج: مَكَثَ فرعون وقومُه بعد هذه الإجابة أربعين سنةً ثم أُهلكوا(٤).

وقيل: «استقيما» أي: على الدعاء، والاستقامةُ في الدعاء تركُ الاستعجال في حصول المقصود، ولا يَسقط الاستعجالُ من القلب إلا باستِقامة السكينةِ فيه، ولا تكون تلك السكينةُ إلا بالرضا الحسنِ لجميع ما يبدو من الغيب(٥).

﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بتشديد النون في موضعِ جزمٍ على النهي، والنونُ للتوكيد وحُركت لالتقاء الساكنَيْن، واختير لها الكسرُ لأنها أَشْبَهتْ نونَ الاثنين(٦).

وقرأ ابن ذَكْوَان بتخفيف النون على النفي(٧). وقيل: هو حالٌ من «استقيما»،

---

(١) ١/ ١٩٥.

(٢) ١/ ٢٠١ وذكرنا ثمة أن في إسناده زربي بن عبد الله الأزدي، وهو منكر الحديث. وهو في نوادر الأصول ص١٨٥.

(٣) في معاني القرآن ١/ ٤٧٨.

(٤) أخرجه عن ابن جريج الطبري ١٢/ ٢٧٣، وعن محمد بن علي أخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٨٠ (١٠٥٥٢).

(٥) لطائف الإشارات للقشيري ٢/ ١١٣، وفيه: بوِجْدان السكينة، بدل: باستقامة السكينة.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٧، وبنحوه في معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣١.

(٧) السبعة ص٣٢٩، والتيسير ص١٢٣ ورواية ابن ذكوان عن ابن عامر الشامي. وقال مكي في الكشف عن وجوه القراءات ١/ ٥٢٢: فيكون لفظه لفظ الخبر، ومعناه النهي.

أي: استقيما غيرَ متَّبِعَين[(١)].

والمعنى: لا تسلكا طريقَ مَن لا يَعلم حقيقةَ وَعْدي ووَعِيدي.

قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ تقدَّم القولُ فيه في «البقرة» في قوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾[(٢)] [الآية: ٥٠]. وقرأ الحسن: «وجوَّزنا»[(٣)]، وهما لغتان. ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ يقال: تَبِع وأَتْبع؛ بمعنًى واحد: إذا لَحِقَه وأدركه. واتَّبع؛ بالتشديد: إذا سار خلفه[(٤)].

وقال الأصمعي: يقال: أَتْبعه؛ بقطع الألف: إذا لَحِقَه وأدركه، واتَّبعه؛ بوصل الألف: إذا اتَّبع أثره، أدركه أو لم يُدْركه. وكذلك قال أبو زيد.

وقرأ قتادة: «فاتَّبعهم» بوصل الألف[(٥)].

وقيل: «اتَّبعه» ـ بوصل الألف ـ في الأمر: اقتدى به. وأتبعه ـ بقطع الألف ـ خيراً أو شرًّا؛ هذا قول أبي عمرو. وقد قيل: هما بمعنًى واحد[(٦)].

فخرج موسى ببني إسرائيل وهم ستُّ مئة ألف وعشرون ألفاً، وتَبِعه فرعون مُصْبِحاً في ألفي ألف وستِّ مئة ألف. وقد تقدَّم[(٧)].

---

(١) الكشف عن وجوه القراءات ١/ ٥٢٢ .

(٢) ٢/ ٨٩ وما بعدها.

(٣) القراءات الشاذة ص٥٨ .

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٣٦٦ .

(٥) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١٤٠ ، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٥٨ للحسن.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣١٣ .

(٧) ٢/ ٩٢ ، وذكر المصنف رحمه الله ثمة أن عدَّة قوم فرعون ألف ألف ومئتا ألف.

﴿بَغْيًا﴾ نصب على الحال. ﴿وَعَدْوًا﴾ معطوف عليه؛ أي: في حال بَغْيٍ واعتداء وظلم، يقال: عَدَا يَعدو عَدْواً، مثلُ: غَزَا يَغزو غَزْواً. وقرأ الحسن: «وعُدُوًّا» بضم العين والدال وتشديد الواو[١]، مثلُ: علا يعلو عُلُوًّا. وقال المفسرون: «بغياً» طلباً للاستعلاء بغير حق في القول، «وعَدْواً» في الفعل[٢]، فهما نصبٌ على المفعول له.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ أي: ناله ووَصَله. ﴿قَالَ ءَامَنتُ﴾ أي: صدَّقت. ﴿أَنَّهُۥ﴾ أي: بأنه[٣]، فلمَّا حُذِف الخافض، تعدَّى الفعلُ فنصَبَ. وقُرِئ بالكسر[٤]، أي: صِرتُ مؤمناً، ثم استأنف. وزعم أبو حاتم أن القول محذوفٌ[٥]، أي: آمنت فقلت: إنه، والإيمان لا ينفع حينئذ، والتوبة مقبولة قبل رؤية البأس، وأمَّا بعدها وبعد المخالطة، فلا تُقبل، حَسَبَ ما تقدَّم في «النساء» بيانُه[٦].

ويقال: إن فرعون هاب دخول البحر، وكان على حصان أدهمَ، ولم يكن في خيل فرعونَ فرسٌ أنثى، فجاء جبريلُ على فرس وَدِيق ـ أي: شَهِيٌّ ـ في صورة هامان وقال له: تقدَّم، ثم خاض البحر، فتبعها حصان فرعون، وميكائيلُ يسوقهم لا يشُذُّ منهم أحد، فلما صار آخِرهم في البحر وهَمَّ أوّلهم أن يخرج، انطبق عليهم البحر، وألجم فرعونَ الغرقُ، فقال: آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل؛ فدَسَّ جبريل في فمه حال البحر[٧].

وروى الترمذي عن ابن عباس أن النبيَّ ﷺ قال: «لمَّا أغرق الله فرعون، قال: آمنتُ أنه لا إله إلا الذي آمَنَتْ به بنو إسرائيل، قال جبريل: يا محمد، فلو رأيتَني وأنا

---

(١) القراءات الشاذة ص٥٨.

(٢) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ١١٠، وتفسير البغوي ٢/ ٣٦٦.

(٣) بعدها في (د) و(م): لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل.

(٤) قرأ بها من السبعة حمزة والكسائي. السبعة ص٣٣٠، والتيسير ص١٢٣.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٧.

(٦) ٦/ ١٥٢ - ١٥٤.

(٧) أخرجه الطبري ١/ ٦٥٥ - ٦٦٠ بنحوه عن عبد الله بن شداد بن الهاد وابن عباس ﷺ، والحال: الطين الأسود.

آخذ مِن حال البحر فأدسُّه في فيه مَخافةَ أن تُدرِكَه الرحمة». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن[١]. حالُ البحر: الطِّين الأسود الذي يكون في أرضه؛ قاله أهل اللغة[٢].

وعن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ أنه ذكر: «أن جبريل جعل يدُسُّ في في فرعونَ الطِّينَ خشيةَ أن يقول: لا إله إلا الله، فيرحمه الله، أو خشية أن يرحَمه». قال: هذا حديث حسن غريب صحيح[٣].

وقال عَون بن عبد الله: بلغني أن جبريل قال للنبيِّ ﷺ: ما وَلَدُ إبليسَ أبغَضَ إليَّ من فرعون، وإنه لمَّا أدركه الغرق قال: ﴿ءَامَنتُ﴾ الآية، فخشِيت أن يقولها فيُرحم، فأخذت تُربة - أو طِينة - فحشوتُها في فيه. وقيل: إنما فَعَل هذا به عقوبةً له على عظيم ما كان يأتي[٤].

وقال كعبُ الأحبار: أمسك الله نِيل مصرَ عن الجَرْي في زمانه، فقالت له القِبْط: إن كنت ربَّنا، فأجْرِ لنا الماء؛ فركب وأمر بجنوده قائداً قائداً، وجعلوا يقفون على درجاتهم، وقعد[٥] حيث لا يرونه، ونزل عن دابته، ولبس ثياباً له أخرى، وسجد، وتضرَّع لله تعالى، فأجرى الله له الماء، فأتاه جبريل وهو وحده في هيئة مُسْتَفْتٍ وقال: ما يقول: الأمير في رجل له عبد، قد نشأ في نعمته لا سندَ[٦] له غيرُه،

---

(١) سنن الترمذي (٣١٠٧)، وهو عند أحمد (٢٨٢٠). وفيه: علي بن زيد بن جُدعان، وهو ضعيف، ويوسف بن مهران، وهو لين الحديث، لم يرو عنه إلا ابن جُدعان. تقريب التهذيب ص٣٤٠ و ٥٤١ .

(٢) ينظر تهذيب اللغة ٥/ ٢٤٥ ، والصحاح (حول).

(٣) سنن الترمذي (٣١٠٨)، وهو عند أحمد (٢١٤٤)، والنسائي في تفسيره (٢٥٨) والحاكم ٢/ ٣٤٠ ، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، إلا أن أكثر أصحاب شعبة أوقفوه على ابن عباس، ووافقه الذهبي في التلخيص. وأخرج الموقوف أحمد (٢١٤٤)، والنسائي في التفسير (٢٥٨) قال الرازي في تفسيره ١٥٦/١٧ : هل يصح أن جبريل عليه السلام أخذ يملأ فمه من الطين لئلا يتوب غضباً عليه، الجواب: الأقرب أنه لا يصح. اهـ وانظر تتمة كلامه، وينظر كلام الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف ص٨٥ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣١٤ .

(٥) في (م): وقفز.

(٦) في (ز) و(ف): لا سيد.

فكفر نِعَمَه، وجَحَدَ حقَّه، وادَّعى السيادةَ دونه؛ فكتب فرعون: يقول أبو العباس الوليدُ بنُ مصعب بنِ الريَّان: جزاؤه أن يُغَرَّق في البحر، فأخذه جبريل ومرَّ، فلمَّا أدركه الغرق، ناوله جبريل عليه السلام خطَّه[١]. وقد مضى هذا في «البقرة» عن عبد الله بن عمرو بن العاص وابنِ عباس مُسنَداً؛ وكان هذا في يوم عاشوراء على ما تقدَّم بيانُه في «البقرة» أيضاً، فلا معنى للإعادة[٢].

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: من الموحِّدين المستسلمين بالانقياد والطاعة.

قوله تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾

قيل: هو من قول الله تعالى. وقيل: هو من قول جبريل[٣]. وقيل: ميكائيل، صلوات الله عليهما، أو غيرِهما من الملائكة[٤] صلوات الله عليهم. وقيل: هو من قول فرعونَ في نفسه، ولم يكن ثَمَّ قولٌ باللسان بل وقع ذلك في قلبه، فقال في نفسه ما قال، حيث لم تنفعه الندامة؛ ونظيره: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩]، أثنى عليهم الربُّ بما في ضميرهم، لا أنهم قالوا ذلك بلفظهم، والكلام الحقيقيُّ كلامُ القلب.

قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أي: نُلْقيك على نَجْوة من الأرض[٥]. وذلك أن بني إسرائيل لم يصدِّقوا أن فرعون غَرِق، وقالوا: هو أعظم شأناً مِن ذلك،

---

(١) الخبر من الإسرائيليات، وأورد هذه القصة الزمخشري في الكشاف ٢/ ٢٥١ مختصرة، ولم ينسبها.

(٢) ٢/ ٩٣ - ٩٤ ، وقد تقدم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما فقط، ولم نقف على حديث عبد الله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٣) تفسير الرازي ١٧/ ١٥٦ .

(٤) بعدها في (ف) و(م): له.

(٥) النكت والعيون ٢/ ٤٤٩ .

فألقاه الله على نَجْوة من الأرض، أي: مكانٍ مرتفِع من الأرض[١] حتى شاهدوه. قال أوس بنُ حَجَر يصف مطراً:

فمَنْ بِعَقْوَتِه كمَن بِنَجْوَتِه والْمُسْتَكِنُّ كمَنْ يَمْشي بِقِرْواحِ[٢]

وقرأ اليزيديُّ وابن السَّمَيْفَع: «نُنَحِّيك» بالحاء؛ من التنحية[٣]، وحكاها علقمة عن ابن مسعود، أي: تكون على ناحية من البحر[٤]. قال ابن جُريج: فرُميَ به على ساحل البحر حتى رآه بنو إسرائيل، وكان قصيراً أحمرَ كأنه ثور[٥].

وحكى علقمة عن عبد الله أنه قرأ: «بندائك» من النداء[٦]. قال أبو بكر الأنباري: وليس بمخالِف لهجاء مصحفنا، إذ سبيلُه أن يكتب بياء وكاف بعد الدال؛ لأن الألف تسقط من ندائك في ترتيب خط المصحف كما سقط من «الظلمات» و«السماوات»، فإذا وقع بها الحذف؛ استوى هجاء بدنك وندائك، على أنَّ هذه القراءة مرغوبٌ عنها لشذوذها وخلافها ما عليه عامَّةُ المسلمين، والقراءة سُنّة يأخذها آخِرٌ عن أوَّل، وفي معناها نقصٌ عن تأويل قراءتنا، إذ ليس فيها للدِّرع ذِكرٌ، الذي تتابعت الآثار بأن بني إسرائيلَ اختلفوا في غَرَق فرعون، وسألوا الله تعالى أن يُريَهم إياه غريقاً، فألقاه[٧] على نَجوة من الأرض ببدنه، وهو درعُه التي كان[٨] يلبَسها في الحروب. قال ابن عباس ومحمد بنُ كعبٍ القُرَظي: وكانت درعه من لؤلؤ منظوم.

---

(١) في (د) و(ز) و(ف) وم): البحر، والمثبت من (ظ). وينظر تفسير الطبري ١٢/ ٢٨١ - ٢٨٢.

(٢) سلف ٧/ ١٢٤، وجاء الشطر الأول: فمن بنجوته كمن بعقوته. وقوله: بعقوته، أي: الساحة وما حول الدار والمحلة. وقِرْواح: البارز الذي ليس يستره من السماء شيء.

(٣) المحتسب ١/ ٣١٦.

(٤) النكت والعيون ٢/ ٤٤٩. وينظر القراءات الشاذة ص٥٨.

(٥) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٨٢ - ٢٨٣.

(٦) القراءات الشاذة ص٥٨، والبحر المحيط ٥/ ١٨٩.

(٧) في (د) و(ز) و(ف) و(م): فألقوه، والمثبت من (ظ).

(٨) لفظة: كان، ليست في (د) و(ز) و(م).

وقيل: مِن الذهب وكان يُعرف بها[(١)]. وقيل: من حديد؛ قاله أبو صخر[(٢)]. والبَدَن: الدِّرع القصيرة. وأنشد أبو عبيدة للأعشى:

وبيضاءَ كالنِّهْيِ مَوْضُونةً لها قَوْنَسٌ فوق جَيْبِ البَدَنْ[(٣)]

وأنشد أيضاً لعمرو بن معد يكرب:

ومضى نساؤهمُ بكل مُفاضةٍ جَدْلَاءَ سابغةٍ وبالأبدانِ[(٤)]

وقال كعب بن مالك:

ترى الأبدان فيها مسبغَاتٍ على الأبطال واليَلَب الحصِينا[(٥)]

أراد بالأبدان الدُّروع، واليَلَب: الدُّروع اليمانية، كانت تُتَّخذ من الجلود؛ يُخرز بعضها إلى بعض، وهو اسم جنس، الواحد: يَلَبة. قال عمرو بن كُلثوم:

علينا البَيضُ واليَلَبُ اليماني وأسيافٌ يُقَمن ويَنْحَنِينا[(٦)]

وقيل: «ببدنك»: بجسد لا روح فيه؛ قاله مجاهد[(٧)].

قال الأخفش[(٨)]: وأمَّا قولُ مَن قال: بدرعك، فليس بشيء. قال أبو بكر: لأنهم

---

(١) أورد هذا القول الرازي في تفسيره ١٥٧/١٧ ونسبه لابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) النكت والعيون ٢/ ٤٤٩ ، وأخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٨٤ (١٠٥٧١) وأبو صخر: هو حميد بن زياد ابن أبي المُخَارق الخرَّاط، مدني، سكن مصر، قال الحافظ ابن حجر في التقريب: صدوق يهم، مات سنة (١٨٩هـ).

(٣) ديوان الأعشى الكبير ص٧٥ ، والنِّهْي: الغدير، أو شبهه. والموضونة: الدِّرع المنسوجة حلقتين حلقتين، أو بالجواهر. والقونس: أعلى بيضة الحديد. القاموس المحيط (نهى) و(وضن) و(قنس).

(٤) ديوان عمرو بن معد يكرب ص١٧٣ . وقوله: مفاضة: المفاضة من الدروع: الواسعة. وجدلاء: الجدلاء من الدروع: المحكمة.

(٥) ديوان كعب ص٢١٧ ، ونسبه ابن هشام في السيرة ٢/ ٢٥٤ لضرار بن الخطاب بن مرداس.

(٦) معلقة عمرو بن كلثوم ص١٠٢ . قال شارحها ابن كيسان: البيض: بيض الحديد.

(٧) النكت والعيون ٢/ ٤٤٩ ، وأخرجه الطبري ١٢/ ٢٨١ .

(٨) في معاني القرآن ٢/ ٥٧٤ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٨ .

لمَّا ضَرَعوا إلى الله يسألونه مشاهدة فرعونَ غريقاً، أبرزه لهم، فرأوا جسداً لا روح فيه، فلمَّا رأته بنو إسرائيل قالوا: نعم يا موسى، هذا فرعون وقد غرِق، فخرج الشكُّ من قلوبهم، وابتلع البحر فرعونَ كما كان[١].

فعلى هذا ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ احتمل معنيين: أحدهما: نُلْقيك على نَجْوة من الأرض.

والثاني: نُظْهر جسدك الذي لا روح فيه.

والقراءة الشاذة «بندائك» يرجع معناها إلى معنى قراءة الجماعة، لأن النداء يُفسَّر تفسيرين:

أحدهما: نُلْقيك بصياحك بكلمة التوبة، وقولِك ـ بعد أن أُغلق بابُها ومضى وقتُ قبولها ـ: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ على موضع رفيع.

والآخَر: فاليوم نعزِلك عن غامض البحر بندائك لمَّا قلت: أنا ربكم الأعلى، فكانت تَنْجيتُه بالبدن معاقبةً من ربِّ العالمين له على ما فرَّط من كُفره الذي منه نداؤه بالذي[٢] افترى فيه وبَهت، وادَّعى القدرة والأمر الذي يَعلم أنه كاذب فيه، وعاجزٌ عنه، وغير مستحِق له.

قال أبو بكر الأنباري: فقراءتنا تتضمن ما في القراءة الشاذة من المعاني وتزيد عليها.

قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ أي: لبني إسرائيلَ، ولمن بقيَ من قوم فرعون ممن لم يُدْركه الغرق، ولم ينته إليه هذا الخبر. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ أي: معرِضون عن تأمُّل آياتنا والتفكُّر فيها.

وقُرِئ: «لمن خَلَفك» ـ بفتح اللام ـ؛ أي: لمن بقيَ بعدك يخلفُك في أرضك.

---

(١) ينظر ياقوتة الصراط لمحمد بن عبد الواحد المعروف بغلام ثعلب ص٢٥٨ .

(٢) في (م): الذي.

وقرأ عليُّ بن أبي طالب: «لمن خلقَك» بالقاف، أي: تكون آية لخالقك[١].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أي: مَنزِلَ صدقٍ محمودٍ مختار، يعني مصر. وقيل: الأُرْدُنّ وفِلسطين. وقال الضحَّاك: هي مصر والشام[٢]. ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: من الثمار وغيرها. وقال ابن عباس: يعني: قُريظةَ والنَّضير وأهلَ عصر النبيِّ ﷺ من بني إسرائيل[٣]، فإنهم كانوا يؤمنون بمحمد ﷺ وينتظرون خروجه، ثم لمَّا خرج حسدوه؛ ولهذا قال: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟﴾ أي: في أمر محمد ﷺ. ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي: القرآنُ ومحمد ﷺ[٤]. والعلم بمعنى المعلوم؛ لأنهم كانوا يعلمونه قبل خروجه؛ قاله ابن جريرٍ الطبري[٥]. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ﴾ أي: يحكم بينهم ويفصِل. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ في الدنيا، فيثيب الطائع ويعاقب العاصي.

قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ الخطاب للنبيِّ ﷺ والمراد غيرُه[٦]، أي: لستَ في شكٍّ ولكنَّ غيرَكَ شكَّ. قال أبو عمر محمد بنُ عبد الواحد الزاهد[٧]:

---

(١) ذكر هاتين القراءتين أبو حيان في البحر المحيط ٥/ ١٨٩ بلا نسبة.

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٣٦٧، وقول الضحاك أخرجه الطبري ١٢/ ٢٨٤.

(٣) أورده الواحدي في الوسيط ٢/ ٥٥٩، والرازي في تفسيره ١٧/ ١٥٩.

(٤) زاد المسير ٤/ ٦٣.

(٥) في تفسيره ١٢/ ٢٨٤ - ٢٨٥.

(٦) الوسيط ٢/ ٥٥٩، وتفسير البغوي ٢/ ٣٦٨.

(٧) في ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن ص٢٥٨ - ٢٥٩.

سمعت الإمامين ثعلباً والمبرّد يقولان: معنى ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ أي: قل: يا محمدُ للكافر: فإن كنت في شكٍّ مما أنزلنا إليك[١]. ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي: يا عابدَ الوثن، إن كنت في شك من القرآن، فاسأل مَن أسلم من اليهود، يعني: عبدَ الله بن سَلَام وأمثالَه؛ لأن عبدة الأوثان كانوا يُقِرُّون لليهود أنهم أعلم منهم مِن أجل أنهم أصحاب كتاب، فدعاهم الرسول ﷺ إلى أن يسألوا مَن يُقِرُّون بأنهم أعلم منهم: هل يبعث الله برسول مِن بعد موسى؟.

وقال القُتَبي: هذا خطاب لمن كان لا يقطع بتكذيب محمد ولا بتصديقه ﷺ، بل كان في شك[٢].

وقيل: المراد بالخطاب النبيُّ ﷺ لا غيرُه، والمعنى: لو كنت ممن[٣] يَلْحقك الشكُّ فيما أخبرناك به، فسألت أهل الكتاب، لأزالوا عنك الشك[٤].

وقيل: الشكُّ ضِيق الصدر، أي: إن ضاق صدرك بكفر هؤلاء فاصبر، واسأل الذين يقرؤون الكتاب مِن قبلك يخبروك صَبْرَ الأنبياءِ مِن قبلك على أذى قومهم، وكيف عاقبةُ أمرهم.

والشك في اللغة، أصله: الضِّيق؛ يقال: شكَّ الثوبَ، أي: ضَمَّه بخِلال[٥] حتى يصير كالوعاء. وكذلك السُّفرة تُمدُّ[٦] علائقها حتى تنقبض، فالشك يقبض الصدر ويضمُّه[٧] حتى يضيق.

وقال الحسين بن الفضل: الفاء مع حروف الشرط لا توجب الفعل ولا تُثْبِته، والدليل

---

(١) قوله: مما أنزلنا إليك، من (م).
(٢) ينظر تأويل مشكل القرآن له ص٥٨ و ٢٠٩ .
(٣) لفظة: ممن، ليست في (م).
(٤) ينظر النكت والعيون ٢/ ٤٥٠ .
(٥) الخلال: العود الذي يُتخلَّل به، وما يُخلُّ به الثوب أيضاً. الصحاح (خلل).
(٦) كذا في النسخ الخطية، والظاهر أنها: تُشك.
(٧) في (ز) و(ظ): ويغمه.

عليه ما رُويَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال لمَّا نزلت هذه الآية: «والله لا أشك [ولا أسأل][١]».

ثم استأنف الكلام فقال ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أي: الشاكِّين المرتابين. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ والخطاب في هاتين الآيتين للنبيِّ ﷺ والمراد غيره[٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ تقدَّم القولُ فيه في هذه السورة[٣]. قال قتادة: أي: الذين حقَّ عليهم غضبُ اللهِ وسخطُه بمعصيتهم لا يؤمنون[٤]. ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ أنَّث «كلًّا» على المعنى، أي: ولو جاءتهم الآياتُ[٥]. ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ فحينئذٍ يؤمنون ولا ينفعهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ قال الأخفش والكسائي: أي: فهلّا. وفي مصحف أبيٍّ وابن مسعود: «فهلا»، وأصلُ «لولا» في الكلام التحضيضُ، أو الدلالة على منع أمرٍ لوجود غيره.

ومفهومٌ من معنى الآية نفيُ إيمانِ أهل القُرى، ثم استثنى قومَ يونس، فهو بحسب اللفظ استثناءٌ منقطع، وهو بحسب المعنى متصل؛ لأن تقديرَه: ما آمن أهلُ قرية إلا

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٩٨، والطبري ١٢/ ٢٨٨ عن قتادة، وهو مرسل وما بين حاصرتين منهما.

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٣٦٨.

(٣) ١٠/ ٤٩٨.

(٤) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٩٠.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٨.

قوم يونس. والنصبُ في «قوم» هو الوجه، وكذلك أدخله سيبويه في: باب ما لا يكون إلّا منصوباً[(١)].

قال النحاس[(٢)]: «إلا قومَ يونس» نصب؛ لأنه استثناءٌ ليس من الأوّل، أي: لكنَّ قومَ يونس؛ هذا قول الكسائي والأخفش والفرّاء[(٣)]. ويجوز: «إلا قومُ يونس» بالرفع، ومن أحسنِ ما قيل في الرفع ما قاله أبو إسحاق الزجاج[(٤)] قال: يكون المعنى: غيرُ قومِ يونس، فلما جاء بـ«إلا»؛ أعرب الاسم الذي بعدها بإعراب «غير» كما قال:

وكلُّ أخٍ مُفارِقُه أخوه لَعَمْرُ أبيك إلا الفَرْقدانِ[(٥)]

ورُوي في قصة قومِ يونس عن جماعة من المفسرين: أنَّ قوم يونس كانوا بِنِيْنَوى من أرض المَوْصل، وكانوا يعبدون الأصنام، فأرسل اللهُ إليهم يونسَ عليه السلام يدعُوهم إلى الإسلام وتَرْكِ ما هم عليه فأبَوْا، فقيل: إنه أقام يدعوهم تسعَ سنين، فيئس من إيمانهم؛ فقيل له: أخبرهم أنَّ العذابَ مُصبِّحهم إلى ثلاثٍ ففعل، وقالوا: هو رَجلٌ لا يكذب، فارقُبوه، فإنْ أقام معكم وبين أظهرِكم فلا عليكم، وإن ارتحل عنكم فهو نزولُ العذاب لا شك، فلما كان الليلُ تزوَّد يونس وخرج عنهم، فأصبحوا فلم يجدوه، فتابوا ودعوا اللهَ، ولَبِسوا المُسوحَ، وفرَّقوا بين الأُمَّهات والأولاد من الناس والبهائم، وردُّوا المظالمَ في تلك الحالة[(٦)].

وقال ابن مسعود: وكان الرجلُ يأتي الحجرَ قد وُضِع عليه أساسُ بُنيانه، فيقتلعه

---

(١) الكتاب ٢/ ٣٢٥، وعنوان الباب فيه: هذا باب ما لا يكون إلا على معنى ولكنّ. اهـ. وهذا الكلام وما قبله من المحرر الوجيز ٣/ ١٤٣ - ١٤٤.

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٨.

(٣) في معاني القرآن له ١/ ٤٧٩.

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ٣٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٩، وجواز الرفع المذكور يعني في اللغة، لا في القراءة.

(٥) نسبه سيبويه في الكتاب ٢/ ٣٣٤، والمبرد في الكامل ٣/ ١٤٤٤ لعمرو بن معدي كرب، ونسبه الآمدي في المؤتلف والمختلف ص١١٦ لحضرميّ بن عامر. وينظر الخزانة ٣/ ٤٢١ و ٤٢٦.

(٦) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٩٣ عن قتادة بنحوه، وينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٤٤، وزاد المسير ٤/ ٦٥.

فيردُّه[١]، والعذابُ منهم فيما رُوي عن ابن عباس على ثُلثي ميل. ورُوي على مِيل[٢]. وعن ابن عباس أنهم غَشِيَتْهم ظُلَّةٌ وفيها حُمرة، فلم تزلْ تدنو حتى وجدوا حرَّها بين أكتافهم[٣]. وقال ابن جُبير: غَشِيَهم العذابُ كما يُغشي الثوب القبر، فلما صحَّت توبتُهم رفعَ اللهُ عنهم العذاب[٤].

وقال الطبريُّ[٥]: خُصَّ قومُ يونس من بين سائر الأُمَم بأن تِيْبَ عليهم بعد معاينة العذاب. وذكر ذلك عن جماعة من المفسرين.

وقال الزجاج[٦]: إنهم لم يَقَع بهم العذاب، وإنما رأوا العلامةَ التي تدلُّ على العذاب، ولو رأوا عينَ العذاب لَمَا نفعهم الإيمانُ.

قلت: قولُ الزجاج حَسَنٌ، فإنَّ المعاينةَ التي لا تنفع التوبةُ معها هي التلبُّس بالعذاب كقصة فرعون، ولهذا جاء بقصة قوم يونس على أثر قصةِ فرعون؛ لأنه آمَنَ حين رأى العذابَ فلم ينفعه ذلك، وقومُ يونس تابوا قبل ذلك[٧]. ويَعْضُد هذا قولُه عليه الصلاة والسلام: «إنَّ اللهَ يقبل توبةَ العبدِ ما لم يُغَرغِرْ»[٨]. والغرغرةُ: الحَشْرَجَة، وذلك هو حالُ التلبُّس بالموت، وأما قبلَ ذلك فلا. واللهُ أعلم.

وقد رُويَ معنى ما قلناه عن ابن مسعود، وأنَّ يونسَ لمَّا وَعدهم العذابَ إلى ثلاثة أيام خرجَ عنهم، فأصبحوا فلم يجدوه، فتابوا وفرَّقوا بين الأُمَّهات والأولاد[٩].

---

(١) عرائس المجالس ص٤١٢.

(٢) عرائس المجالس ص٤١١، والمحرر الوجيز ٣/ ١٤٤، وقول ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه الطبري ١٢/ ٢٩٤.

(٣) ذكره بنحوه ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٦٥.

(٤) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٩٥، وهو في المحرر الوجيز ٣/ ١٤٤.

(٥) في تفسيره ١٢/ ٢٩١، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١٤٤.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٣٤.

(٧) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٣/ ١٤٤.

(٨) سلف ٥/ ١٩٧.

(٩) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٩٦، وسلف نحوه قريباً.

وهذا يدلُّ على أن توبتهم قبل رؤية علامة العذاب. وسيأتي مسنداً مبيَّناً في سورة الصافات إن شاء اللهُ تعالى[(١)]. ويكون معنى ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ﴾ أي: العذابَ الذي وعدَهم به يونس أنه ينزل بهم، لا أنَّهم رأوه عِياناً ولا مُخايلةً، وعلى هذا لا إشكالَ ولا تعارضَ ولا خُصوصَ، واللهُ أعلم.

وبالجملة؛ فكان أهل نِيْنَوى في سابق العلم من السُّعداء.

ورُوِيَ عن عليٍّ ﷺ أنه قال: إنَّ الحَذَرَ لا يردُّ القَدَرَ، وإنَّ الدعاء لَيردُّ القدرَ. وذلك أن اللهَ تعالى يقول: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾. قال عليٌّ ﷺ: وذلك يومَ عاشوراء[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ قيل: إلى أجلهم، قاله السُّدّيُّ وقيل: إلى أن يَصيروا إلى الجنة أو إلى النار، قاله ابن عباس[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ﴾ أي: لاضطرَّهم إليه. «كلُّهم» تأكيد لـ «من». «جميعاً» عند سيبويه نصب على الحال[(٤)]. وقال الأخفش[(٥)]: جاء بقوله: «جميعاً» بعد «كل» تأكيداً، كقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [النحل: ٥١].

قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ قال ابن عباس: كان النبيُّ ﷺ

---

(١) في تفسير الآيات ١٣٩ - ١٤٨ .

(٢) النكت والعيون ٢/ ٤٥٢ ، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٦/ ١٩٨٧ و ١٩٨٨ ، وأخرج القسم الأول منه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١٢١٢).

(٣) أخرجهما ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٨٩ - ١٩٩٠ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٩ .

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٥٧٤ .

حريصاً على إيمان جميع الناس، فأخبره اللهُ تعالى أنه لا يُؤمن إلا من سبقتْ له السعادةُ في الذِّكر الأوّل، ولا يَضلُّ إلا من سبقتْ له الشَّقاوة في الذِّكر الأوّل(١). وقيل: المراد بالناس هنا أبو طالب، وهو عن ابن عباس أيضاً(٢).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ «ما» نفي، أي: ما ينبغي أن تؤمنَ نفسٌ إلا بقضائه وقَدَره ومشيئته وإرادته(٣). ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ وقرأ الحسن وأبو بكر والمُفضَّل: «ونَجعلُ» بالنون على التعظيم(٤).

والرِّجس: العذاب، بضم الراء وكسرها، لغتان(٥). ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أَمْرَ اللهِ عزَّ وجلَّ ونَهْيَه(٦).

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ أمرٌ للكفار بالاعتبار والنظرِ في المصنوعات الدّالة على الصانع والقادر على الكمال(٧). وقد تقدَّم القول في هذا

---

(١) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٩٨ ، والبيهقي في الأسماء والصفات (١٣٩)، من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال الحافظ ابن حجر في التقريب: علي بن أبي طلحة أرسل عن ابن عباس ولم يَرَهُ.

(٢) ذكره أبو الليث ٢/ ١١٢ دون نسبة.

(٣) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ١١٢ .

(٤) قراءة أبي بكر ـ يعني عن عاصم ـ من السبعة، ولم نقف على من نسبها للحسن أو المفضّل. وينظر السبعة ص٣٣٠ ، والتيسير ص١٢٣ .

(٥) في معاجم اللغة: الرِّجس، بكسر الراء فقط. والرّجز، بكسر الراء وضمِّها. والرجس والرجز معناهما واحد. ينظر اللسان (رجس) و(رجز).

(٦) تفسير البغوي ٢/ ٣٧٠ .

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ١٤٥ .

المعنى في غير موضع مستوفًى[١]. ﴿وَمَا تُغْنِي﴾ «ما» نفي، أي: ولن تغني. وقيل: استفهامية، التقدير: أيُّ شيء تُغني؟[٢] ﴿ٱلْآيَٰتُ﴾ أي: الدَّلالات. ﴿وَٱلنُّذُرُ﴾ أي: الرُّسل، جمعُ نذير، وهو الرسول. ﴿عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: عمَّن سبق له في علم الله أنه لا يُؤمن[٣].

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ الأيامُ هنا بمعنى الوقائع، يقال: فلان عالمٌ بأيام العرب، أي: بوقائعهم. قال قتادة: يعني وقائع اللهِ في قوم نوحٍ وعاد وثمود وغيرِهم. والعربُ تُسمِّي العذابَ أياماً والنِّعم أياماً، كقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [إبراهيم: ٥]. وكلُّ ما مضَى لك من خيرٍ أو شرٍّ فهو أيام[٤]. ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ أي: تربَّصوا. وهذا تهديدٌ ووعيد. ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ أي: المُتربِّصين لموعد ربي.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ﴾ أي: من سُنَّتنا إذا أنزلنا بقومٍ عذاباً أخرجنا من بينهم الرُّسلَ والمؤمنين، و«ثُمَّ» معناه: ثم اعلموا أنَّا نُنجي رُسلَنا[٥]. ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أي: واجباً علينا؛ لأنه أخبر، ولا خُلف في خبره. وقرأ يعقوب: «ثم نُنْجي» مُخفَّفاً[٦]. وقرأ الكسائيُّ وحفص ويعقوب: «نُنْجي المؤمنين»

---

(١) ينظر ٩/ ٣٩٩.

(٢) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٤٥، والكشاف ٢/ ٢٥٥.

(٣) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ١١٣.

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٣٧١، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٢/ ٣٠٢.

(٥) ينظر تفسير الطبري ١٢/ ٣٠٢ - ٣٠٣.

(٦) النشر ٢/ ٢٨٧.

مُخفَّفاً، وشدَّد الباقون[١]، وهما لغتان فصيحتان: أَنجى يُنْجِي إنجاء، ونَجَّى يُنَجِّي تَنْجِيَةً، بمعنًى واحد[٢].

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يريد كُفَّارَ مكة. ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ أي: في رَيب من دين الإسلام الذي أدعوكم إليه. ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأوثان التي لا تَعقِل. ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ أي: يُميتكم ويَقبض أرواحَكم. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: المُصَدِّقين بآيات ربِّهم[٣].

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ «أَنْ» عطفٌ على «أَنْ أكونَ»[٤] أي: قيل لي: كن من المؤمنين، وأَقِمْ وجهَك. قال ابن عباس: عَمَلك[٥]، وقيل: نَفْسَك، أي: استقم بإقبالك على ما أُمِرتَ به من الدِّين. ﴿حَنِيفًا﴾ أي: قَويماً به مائلاً عن كل دِين[٦]. قال حمزةُ بن عبد المطلب ﷺ:

حَمِدتُ اللهَ حين هَدَى فؤادي ... من الإشراك للدِّين الحَنيفِ[٧]

(١) السبعة ص٣٣٠، والتيسير ص١٢٣، وقراءة يعقوب ـ من العشرة ـ في النشر ٢/ ٢٨٧.

(٢) ينظر الكشف عن وجوه القراءات السبع ١/ ٥٢٣، وتفسير البغوي ٢/ ٣٧١.

(٣) ينظر تفسير الطبري ١٢/ ٣٠٣ - ٣٠٤.

(٤) تفسير الطبري ١٢/ ٣٠٤.

(٥) تفسير البغوي ٢/ ٣٧١.

(٦) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٤٦.

(٧) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٤٥٣.

وقد مضى في «الأنعام» اشتقاقُه[١]، والحمدُ لله.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: وقيل لي: لا تُشرك، والخِطاب له، والمرادُ غيره، وكذلك قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ﴾ أي: لا تعبد. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ﴾ إنْ عَبدْتَه. ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إنْ عَصَيْتَه. ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ أي: عبدتَ غيرَ الله. ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الواضعين العبادةَ في غيرِ موضعها[٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ أي: يُصِبْكَ به ﴿فَلَا كَاشِفَ﴾ أي: لا دافعَ ﴿لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ أي: يُصِبْكَ برخاءٍ ونعمة ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ﴾ أي: بكل ما أراد من الخير والشرِّ. ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لذنوب عباده وخَطاياهم ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بأوليائه في الآخرة[٣].

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: القرآنُ. وقيل: الرسولُ ﷺ. ﴿مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي: صدَّق محمداً وآمنَ بما جاء به[٤]. ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: لخلاص نفسه. ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ أي: تَرَكَ الرَّسولَ والقرآن، واتَّبع الأصنامَ والأوثان[٥]. ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: وبالُ ذلك على نفسه. ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾

---

(١) سلف اشتقاق «حنيفاً» في سورة البقرة ٢/ ٤١٤ - ٤١٥ ، أما في «الأنعام» ٨/ ٤٤٢ فذكر المصنف رحمه الله معناه فقط.

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٣٧١ .

(٣) ينظر تفسير الطبري ١٢/ ٣٠٥ .

(٤) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ١١٤ .

(٥) ينظر تفسير الطبري ١٢/ ٣٠٦ .

أي: بحفيظٍ أحفظُ أعمالَكم؛ إنَّما أنا رسولٌ. قال ابن عباس: نسختها آيةُ السيف[١].

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ﴾ قيل: نُسِخَ بآية القتال[٢]. وقيل: ليس منسوخاً[٣]، ومعناه: اِصْبِر على الطاعة وعن المعصية.

وقال ابن عباس: لمَّا نزلتْ؛ جمعَ النبيُّ ﷺ الأنصارَ، ولم يجمعْ معهم غيرَهم فقال: «إنَّكم ستجدون بعدي أَثَرَةً، فاصْبِروا حتى تَلْقَوني على الحوض». وعن أنس بمثل ذلك، ثم قال أنس: فلم يَصْبِروا[٤].

فأمرهم بالصبر كما أمره اللهُ تعالى. وفي ذلك يقول عبدُ الرحمن بن حسان[٥]:

ألا أبلِغْ معاويةَ بنَ حربٍ أميرَ المؤمنين نَثَا كلامي

بأنَّا صابرون ومُنظِروكم إلى يومِ التغابن والخِصامِ[٦]

﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ ابتداءٌ وخبر، لأنه عزَّ وجلَّ لا يحكم إلا بالحقِّ[٧].

تمت سورة يونس، والحمد لله وحده.

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٣٧٢، وزاد المسير ٤/ ٧١.

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٤٧١، وقال: إنما نسخ منها الصبر عليهم.

(٣) ينظر زاد المسير ٤/ ٧١.

(٤) لم نقف عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرج حديث أنس - دون ذكر أنه ﷺ جمعهم لما نزلت الآية - أحمد (١٢٦٩٦)، والبخاري (٣١٤٧)، ومسلم (١٠٥٩) وهو في قصة إعطاء النبي ﷺ رجالاً من قريش من أموال هوازن. وفي الباب عن عبد الله بن زيد ﷺ عند أحمد (١٦٤٧٠)، والبخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١).

(٥) ابن ثابت الأنصاري، المدني، الشاعر ابن الشاعر، وأمه سيرين خالة إبراهيم ابن النبي ﷺ، قيل: وُلد في حياة النبي ﷺ. توفي سنة (١٠٤هـ). السير ٥/ ٦٤.

(٦) الاستيعاب ١٠/ ١٤٧، وذكر ابن عبد البر قصة في هذين البيتين. وقوله: نثا: جاء في القاموس (نثو): نثا الحديث: حدّث به وأشاعه، والنثا: ما أخبرت به عن الرجل من حَسَن أو سيِّئ.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٠.

سُورَةُ يُونُس

مكيَّةٌ[1]، وهي مئةٌ وتسعُ آياتٍ[2]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿الٓر﴾ فخَّمَها ابنُ كَثيرٍ ونافِعٌ [برواية قالون] وحَفْصٌ، [وقرأ ورشٌ بين اللفظينِ[3]]، وأمالَها الباقونَ إجراءً لألفِ الرَّاءِ مُجرَى المُنقلبَةِ مِن اليَاءِ[4].

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ إشارةٌ إلى ما تَضمَّنته السَّورةُ أو القُرآنُ من الآيِ،

---

(١) وقد وقع فيها اختلاف كثير فصله ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ٣١٤)، فقال:
روى عطيَّة وابن أبي طلحة عن ابن عباس أنها مكيّة، وبه قال الحسن وعكرمة.
وفي رواية عن ابن عباس: فيها ثلاث آيات من المدنيّ، أوّلها قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ إلى رأس ثلاث آيات، وبه قال قتادة. وروى أبو صالح عن ابن عباس أن فيها من المدني قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ الآية.
وقالَ مقاتل: هي مكيّة غير آيتين، قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ والتي تليها.
وقالَ بعضهم: هي مكيّة إلَّا آيتين، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ والتي تليها.

(٢) انظر: «البيان في عد آي القرآن» للداني (ص: ١٦٣)، وفيه: «وهي مئة وعشر آيات في الشَّامي وتسع في عدد الباقين، اختلافها ثلاث آيات...».

(٣) ما بين معقوفين زيادة من نسخة الطبلاوي، وقوله: «وقرأ رش بين اللفظين»؛ أي: وقرأ ورش ألِفَ (را) بين بين؛ أي: بين لفظ الألف وبين لفظ الياء بحيث لا يتلفظ بالألف من مخرجها بتمامها ولا الياء بتمامها، بل يتلفظ بين الألف والياء متساوي الطرفين. انظر: «حاشية القونوي» (٩/ ٣٨٠).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٢)، و«التيسير» (ص: ١٢٠).

والمرادُ مِن الكتابِ أحدُهُما، ووَصفَهُ بالحكيمِ لاشتمالِهِ على الحِكَمِ، أو لأنَّهُ كلامٌ حَكيمٌ، أو مُحْكَمٌ آياتُه لم يُنْسَخْ شيءٌ مِنْهَا.

(٢) ـ ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ استفهامُ إنكارٍ للتَّعجُّبِ، و﴿عَجَبًا﴾ خبرُ ﴿كانَ﴾، واسمُه: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾، وقُرِئَ بالرَّفعِ[1] على أنَّ الأمرَ بالعَكسِ[2]، أو على أنَّ ﴿كانَ﴾ تامَّةٌ و﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾ بدلٌ مِن ﴿عَجَبًا﴾، واللَّامُ للدَّلالَةِ على أنَّهُم جعلوهُ أعجوبَةً لهم[3] فيوجهونَ[4] نحوَهُ إنكارَهُم واستهزاءَهُم.

﴿إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾: مِن أفناءِ رجالِهِم[5] دونَ عظيمٍ مِن عُظمائِهِم.

قيلَ: كانُوا يَقولونَ: العجبُ أنَّ اللهَ لم يجِد رسولًا يرسلُه إلى النَّاسِ إلَّا يتيمَ

---

(١) نسبت لابن مسعود. انظر: «الكشاف» (٤/ ٨)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ١٠٢)، و«البحر» (١٢/ ١٠).

(٢) قوله: «على أن الأمر بالعكس»؛ أي: أن يكون (عجبٌ) اسم كان وهو نكرةٌ، و﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾ خبرًا، وهو معرفةٌ. وهو عكس المعروف في كلام العرب، فالأصل الإخبارُ عنِ المعرفَةِ بالنَّكرَةِ. وفي جوازه عكسه مقالٌ. ولعلَّ المصنِّفَ اختار كونه جائزًا مطلقًا أو في باب النواسخ مطلقًا أو إذا كانت مدخولة للنفي أو ما في حكمه كالاستفهام الإنكاري. انظر: «حاشية الخفاجي»، «حاشية القونوي» (٩/ ٣٨٢).

(٣) قوله: «واللام للدلالة...» إلى آخره أشارة إلى أن لام ﴿لِلنَّاسِ﴾ ليست متعلقة بـ﴿عَجَبًا﴾ على طريق المفعولية كما في قولهم: عجبت لزيدٍ من كذا، بل على طريق البيان بمعنى أن هذا التعجب لهم كما في قوله: (هيت لك) بمعنى: هذا الخطاب لك. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٤٧)، «حاشية التفتازاني» (٢٧٣/ أ).

(٤) في نسخة التفتازاني: «أعجوبة فوجهوا». وفي نسخة الخيالي: «أعجوبة لهم يوجهون».

(٥) قولُهُ: (إلى أفْناءِ رجالِهِم) هذهِ العبارَةُ وإنِ استُعملَتْ في خمولِ النسبِ فليسَ بمُرادٍ؛ لأنَّ نسبَهُ فيهِم وشرفَهُ نارٌ على علمٍ، بل المُرادُ أنَّهُ ممَّن لم يشتهرْ بالجاهِ والمالِ الَّذينَ اعتقدوا أنَّهُ سببُ العزِّ والإجلالِ لجهلِهِم وجاهليَّتِهِم. انظر: «حاشية الخفاجي».

أبي طالبٍ[١]. وهو مِن فَرطِ حَماقَتِهم وقُصورِ نَظَرِهم على الأُمورِ العاجِلَةِ، وجهلِهم بحَقيقَةِ الوَحيِ والنُّبوَّةِ.

هذا وأنه عليه السَّلامُ لم يَكُن يَقصُرُ عَن عُظمَائِهم فيما يَعتبِرونه[٢] إلَّا في المالِ، وخِفَّةُ الحالِ أعوَنُ شيءٍ في هذا البابِ، ولذلك كانَ أكثرُ الأنبياءِ قبلَه كذلك.

وقيلَ: تعجَّبُوا مِن أنَّه بعثَ بشرًا رسولًا كما سبقَ ذكرُه في سورةِ الأنعامِ.

﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ ﴿أَنْ﴾ هي المفسِّرَةُ[٣]، أو المخفَّفَةُ مِن الثَّقيلَةِ فتكونُ في مَوضعِ مفعولِ ﴿أَوْحَيْنَآ﴾.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ عمَّمَ الإنذارَ إذ قلَّما مِن أَحَدٍ ليس فيه ما يَنبَغِي أن ينذرَ منه، وخصَّصَ البِشارةَ[٤] إذ ليسَ للكُفَّارِ ما يَصِحُّ أن يبشَّرُوا به.

﴿أَنَّ لَهُمْ﴾: بأنَّ لَهُم ﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ سابقةً ومنزلةً رفيعةً، سُمِّيَت قدمًا لأنَّ السَّبقَ بها؛ كمَا سُمِّيَت النِّعمَةُ يَدًا لأنَّها تُعطَى باليدِ، وإضافَتُها إلى الصِّدقِ لتَحقُّقِهَا والتَّنبيهِ على أنَّهُم إنَّما يَنالونَها بصدقِ القولِ والنيَّةِ.

﴿قَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا﴾ يعنونَ الكِتابَ وما جاءَ بِهِ الرَّسولُ.

﴿لسِحْرٌ مُبين﴾ وقرأَ ابنُ كَثيرٍ والكوفيُّونَ ﴿لَسَـٰحِرٌ﴾[٥] علـى أنَّ الإشارةَ إلى

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٥).

(٢) في نسخة الطبلاوي: «فيما يعتبر».

(٣) قولُهُ: (أنْ هيَ المُفسِّرَةُ)؛ أي: لمفعولِ الإيحاءِ المُقدَّرِ، وشرطُها موجودٌ؛ وهوَ أن يتقدَّمَ عليها ما فيهِ معنى القولِ دونَ حروفِهِ كالإيحاءِ نحوُ: كتبتُ إليهِ أنْ قمْ. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٤) قولـه: «عمـم الإنـذار»؛ أي: فـي النـاس حيث لـم يخصصهم بشـيء، «وخصـص البشـارة»؛ أي: بالمؤمنيـن. انظـر: «حاشـية الأنصـاري» (٣/ ١٤٧).

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٢)، و«التيسير» (ص: ١٢٠).

الرَّسولِ، وفيه اعترافٌ بأَنَّهُم صادَفُوا مِن الرَّسولِ أُمورًا خارقَةً للعَادَةِ مُعجِزَةً إيَّاهُم عَن المُعارضَةِ.

وقُرِئَ: «ما هذا إلَّا سِحرٌ مُبين»(١).

(٣) ـ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الَّتي هي أصولُ المُمكِنَاتِ ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾: يُقدِّرُ أمرَ الكائناتِ على ما اقتضَتْهُ حِكمَتُه وسبقَتْ به كَلِمَتُه، ويُهيِّئُ بتَحريكِهِ أسبابَها وينزلُها مِنهُ.

والتَّدبيرُ: النَّظرُ في أدبارِ الأُمورِ لتَجِيءَ مَحمودَةَ العاقِبَةِ.

﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ تقريرٌ لعَظَمتِهِ وعزِّ جلالِه، وردٌّ على مَن زعمَ أن آلهتَهُم تَشفَعُ لهم عندَ اللهِ، وفيه إثباتُ الشَّفاعَةِ لِمَن أذِنَ له.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: الموصوفُ بتلكَ الصِّفاتِ المُقتَضِيَةِ للأُلوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ ﴿رَبُّكُمْ﴾ لا غير، إذ لا يُشارِكُه أحدٌ في شيءٍ مِن ذلك ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾: وحِّدُوهُ بالعبادةِ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: تتفكَّرُونَ أدنى تَفَكُّرٍ فينبِّهَكُم على أنَّه المُستَحِقُّ للرُّبوبيَّةِ والعبادَةِ لا ما تعبدونَه.

(٤) ـ ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ بالمَوتِ أو النُّشورِ لا إلى غيرِه فاستعدُّوا لِلقائِه.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدرٌ مُؤكِّدٌ لنَفسِهِ لأنَّ قولَه: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ وعدٌ مِن اللهِ.

﴿حَقًّا﴾ مصدرٌ آخَرُ مُؤكِّدٌ لغيرِهِ وهو ما دلَّ عليهِ ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾.

﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعدَ بدئِه وإهلاكِه ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾؛ أي: بعدلِه، أو: بعَدالَتِهِم وقيامِهِم على العَدلِ في أمورِهِم، أو: بإيمانِهِم لأنَّه

---

(١) نسبت لأبيٍّ رضي الله عنه. انظر: «الكشاف» (٤/ ١٠)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ١٠٣)، و«البحر» (١٢/ ١٤).

العَدلُ القَوِيمُ كما أنَّ الشركَ ظُلمٌ عَظيمٌ، وهو الأوجَهُ لِمُقابلةِ قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ فإنَّ معناه: ليَجزِيَ الَّذينَ كفَرُوا بشرابٍ مِن حَميمٍ وعذابٍ أليمٍ بسببِ كُفرِهِم، لكنَّه غَيَّرَ النَّظمَ للمُبالغَةِ في استحقاقِهِم للعِقابِ، والتَّنبيهِ على أنَّ المقصودَ بالذَّاتِ مِن الإبداءِ والإعادةِ هو الإثابةُ، والعِقابُ واقعٌ بالعَرَضِ، وأنَّه تعالى يتولَّى إثابةَ المُؤمنينَ بما يليقُ بلُطفِهِ وكَرمِهِ ولذلك لم يعيِّنْهُ، وأمَّا عقابُ الكفرةِ فكأنَّه داءٌ ساقَه إليهِم سوءُ اعتقادِهِم وسوءُ أفعالِهِم.

والآيةُ كالتَّعليلِ لقولِه: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا﴾ فإنَّه لَمَّا كانَ المقصودُ مِن الإبداءِ والإعادَةِ مجازاةَ اللهِ المكلَّفينَ على أعمالِهِم كانَ مرجعُ الجَميعِ إليه لا محالةَ.

ويؤيِّدُه قراءةُ مَن قرأَ: ﴿أنَّه يَبْدَأُ﴾ بالفتحِ[1]؛ أي: لأنَّه، ويجوزُ أَنْ يكونَ مَنصوبًا أو مَرفوعًا بما نَصبَ ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ أو بما نصبَ ﴿حَقًّا﴾.

(٥) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ﴾؛ أي: ذاتَ ضياءٍ، وهو مصدرٌ كقِيامٍ، أو جمعُ ضَوءٍ كسِيَاطٍ وسَوْطٍ، والياءُ فيه مُنقَلِبَةٌ عَن الواوِ.

وعن ابنِ كَثيرٍ: ﴿ضِئاء﴾ بهمزتينِ في كلِّ القُرآنِ على القلبِ بتَقديمِ اللَّامِ على العينِ[2].

﴿وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾؛ أي: ذا نُورٍ، أو سُمِّيَ[3] نُورًا للمُبالغَةِ، وهو أَعَمُّ مِن الضَّوءِ كما عرفتَ[4].

---

(١) وهي قراءة أبي جعفر. انظر: «النشر» (٢/ ٢٨٢).

(٢) هي رواية قنبل عن ابن كثير، انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٣)، و«التيسير» (ص: ١٢٠).

قوله: «بتقدم اللام»: هي الهمزة «على العين»: وهي الواو، ثم قلبت الواو همزةً لتطرُّفِها بعد ألفٍ زائدةٍ ككساء. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٥٠).

(٣) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «وسُمِّي نورًا»، وأشار إلى الفرق الخفاجي في «حاشيته» ورجَّح المثبت.

(٤) قوله: «وهو أعم من الضوء كما عرفت»؛ أي: في سورة البقرة عند قوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ من أنَّ =

وقيلَ: ما بالذاتِ ضَوءٌ وما بالعَرَضِ نورٌ، وقد نبَّهَ سُبحانَه بذلك على أنَّه خلقَ الشَّمسَ نَيِّرَةً في ذاتها والقمرَ نَيِّرًا بعَرَضِ مقابلةِ الشَّمسِ والاكتسابِ[١] منها.

﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ الضَّميرُ لكُلِّ واحدٍ؛ أي: قَدَّرَ مَسيرَ كلِّ واحدٍ مِنهُمَا منازلَ، أو قدَّرَه ذا مَنازِلَ، أو للقَمرِ[٢]، وتخصيصُهُ بالذِّكرِ لسرعَةِ سيرِهِ، ومُعاينَةِ منازِلِه، وإناطةِ أحكامِ الشَّرعِ به، ولذلك[٣] علَّلَه بقولِه: ﴿لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَ﴾: وحسابَ الأوقاتِ من الأشهُرِ والأيامِ في مُعاملاتِكُم وتَصرُّفاتِكُم.

﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾: إلَّا مُلْتَبِسًا بالحقِّ، مُراعِيًا فيه مُقتضَى الحِكمَةِ البالغةِ.

﴿نُفصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يعلَمُونَ﴾ فإنَّهُم المُنتفِعونَ بالتَّأمُّلِ فيها.

وقرأَ ابنُ كَثيرٍ والبَصريَّانِ وحَفصٌ: ﴿يُفَصِّلُ﴾ باليَاءِ[٤].

= الضياءَ أقوى من النور ولذا ينسب الضياء إلى الشمس والنور إلى القمر. انظر: (١/ ١٠٢) من هذا الكتاب، و«حاشية الأنصاري» (٣/ ١٥٠).

(١) في نسخة الطبلاوي: «والاكتساء».

(٢) قولـه: «أو للقمـر»؛ عطـفٌ على «لـكل واحـدٍ» أي: أو الضمير للقمـر. انظر: «حاشـية الأنصاري» (٣/ ١٥٠)، «حاشـية القونوي» (٩/ ٣٩٥).

(٣) وقولُهُ: (ولذلكَ... إلخ)؛ أي: ولإناطة أحكام الشرع به كما هو الظاهر من سوق كلامه، أو لأجل أنه تعالى قدر مسير كل واحد منهما منازل، والحاصل أن ذلك إشارة إلى تقدير المسير؛ فإن معرفة عدد السنين وحساب الأوقات ليست مختصة بسير القمر كما عرفت غايته أن أكثر أحكام الشرع منوط بسيره، ولا يقتضي ذلك التخصيص. ويؤيده تفسير المصنف لقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗا﴾. انظر: «حاشية القونوي» (٩/ ٣٩٦).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٣)، و«التيسير» (ص: ١٢١)، و«النشر» (٢/ ٢٨٢).

(٦) ـ ﴿ إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ مِن أنواعِ الكائنَاتِ ﴿لَأَيَٰتٍ ﴾ على وُجودِ الصَّانعِ ووحدَتِهِ وكمالِ عِلْمِه وقُدرَتِه ﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ العواقِبَ فإنَّه يحمِلُهُم على التَّفكُّرِ والتَّدبُّرِ.

(٧) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾: لا يَتوقَّعُونَهُ؛ لإنكارِهِم البَعْثَ وذُهولِهِم بالمَحسوساتِ عمَّا وَراءَها.

﴿وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ مِن الآخرةِ لغفلَتِهم عَنْهَا ﴿وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا ﴾: وسَكَنُوا إليها مُقْصِرِينَ[1] هِمَمَهُم على لذائذِها وزَخارِفِها، أو سَكَنُوا فيها سكونَ مَن لا يُزعَجُ عنها.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴾: لا يَتفكَّرونَ فيها لانهِمَاكِهِم فيما يضادُّها، والعَطفُ إما لتَغايُرِ الوَصفَيْنِ، والتَّنبيهِ على أنَّ الوَعيدَ على الجمعِ بينَ الذُّهولِ عَن الآياتِ رأسًا، والانهماكِ في الشَّهواتِ بحيثُ لا تخطرُ الآخرَةُ ببالِهِم أصلًا.

وإمَّا لِتَغايُرِ الفَرِيقَيْنِ، والمرادُ بالأَوَّلِيْنَ مَن أنكرَ البَعْثَ ولم يرَ إلَّا الحياةَ الدُّنْيَا، وبالآخِرينَ مَن ألهاهُ حبُّ العَاجِلِ عَن التَّأمُّلِ في الآجلِ والإعدادِ له.

(٨) ـ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾: بما واظَبُوا عليه وتمرَّنُوا به مِن المَعاصِي.

(٩) ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾: بسببِ إيمانِهِم إلى سُلوكِ سَبيلٍ يؤدِّي إلى الجنَّةِ.

---

(١) «مُقْصِرين» بضمِّ الميم وسكون القاف؛ من أقصَرَ. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٥١). وقال الخفاجي: كانَ حقُّهُ أن يقولَ قاصرينَ؛ لأنَّ أقصرَ معناهُ كفَّ معَ القدرَةِ لا بمعنى الاقتصارِ الَّذي عناهُ. انظر: «حاشية الخفاجي».

أو: لإدراكِ الحقائقِ[١]؛ كمَا قالَ عليه السَّلامُ: «مَن عَمِلَ بما عَلِمَ وَرَّثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعلَم»[٢].

أو لِمَا يُريدُونَه في الجَنَّةِ[٣]، ومَفهُومُ التَّرتيبِ[٤] وإنْ دلَّ على أنَّ سببَ الهِدايَةِ هو الإيمانُ والعَمَلُ الصَّالح، لكنْ دلَّ مَنطوقُ قَولِه: ﴿بِإِيمَٰنِهِمۡ﴾ على استقلالِ الإيمانِ بالسَّببيَّةِ، وأن العملَ الصالحَ كالتَّتمَّةِ والرَّدِيفِ له.

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ استئنافٌ، أو خَبَرٌ ثانٍ، أو حالٌ مِن الضَّميرِ المَنصوبِ على المعنى الأَخيرِ، وقولُه: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ خبرٌ، أو حالٌ آخرُ مِنهُ أو مِن ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، أو متعلِّقٌ بـ﴿تَجۡرِي﴾ أو «يهدِي».

(١٠) ـ ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا﴾؛ أي: دعاؤُهم فيها: ﴿سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾: اللهمَّ إنَّا نُسبِّحُكَ تَسبيحًا.

﴿وَتَحِيَّتُهُمۡ﴾ ما يُحَيِّي به بعضُهم بَعضًا، أو تحيةُ الملائكَةِ إيَّاهُم ﴿فِيهَا سَلَٰمٞ﴾.

﴿وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ﴾: وآخرُ دُعائِهم ﴿أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: أن يقولُوا ذلك.

---

(١) قوله: «أو لإدراك الحقائق»؛ اللام فيه وفيما بعده بمعنى (إلى)؛ معطوفٌ على «إلى سلوك سبيل». انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٥١).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠/ ١٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وقال: ذكر أحمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين عن عيسى بن مريم عليه السلام، فوهم بعض الرواة أنه ذكره عن النبي ﷺ، فوضع هذا الإسناد عليه لسهولته وقربه، وهذا الحديث لا يحتمل بهذا الإسناد عن أحمد بن حنبل.

(٣) «أو لما يريدونه» عطفٌ على «لإدراك الحقائق». انظر: «حاشية القونوي» (٩/ ٤٠٠).

(٤) قوله: «ومفهوم الترتيب»؛ أي: ترتيب الهداية على الإيمان والعمل الصالح. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٥٢).

ولعلَّ المعنى: أَنَّهُم إذا دَخَلُوا الجنَّةَ وعايَنُوا عظمَةَ اللهِ وكِبرياءَهُ مَجَّدُوه ونَعتُوهُ بنعوتِ الجَلالِ، ثمَّ حيَّاهُم الملائِكَةُ بالسَّلامَةِ عَن الآفاتِ والفوزِ بأَصنافِ الكراماتِ، أو اللهُ تعالى، فحَمِدُوهُ وأَثْنَوا عليه بصِفَاتِ الإكرامِ.

و«أنْ» هي المُخفَّفَةُ من الثَّقيلَةِ، وقد قُرِئَ بها وبنصبِ «الحمدَ»[(١)].

(١١) ـ ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾: ولو يسرِّعُهُ إليهم ﴿ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ وُضعَ موضِعَ: «تَعجيلَه لهم بالخيرِ»؛ إشعارًا بسرعَةِ إجابَتِه لَهُم في الخيرِ حتَّى كأنَّ استِعجالَهُم به تَعجيلٌ لَهُم، أو بأنَّ المرادَ[(٢)]: شرٌّ استَعجَلُوه؛ كقولِهِم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وتقديرُ الكَلامِ: ولو يعجِّلُ اللهُ للنَّاسِ الشرَّ تَعجيلَهُ للخيرِ حين استعجَلُوهُ استِعجالًا كاستِعجالِهِم بالخَيرِ، فحُذِفَ منه ما حُذِفَ لدَلالَةِ البَاقي عليه.

﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾: لأُمِيتُوا وأُهلِكُوا.

وقرأَ ابنُ عامرٍ ويعقوبُ: ﴿لَقَضَى﴾ على البناءِ للفاعلِ[(٣)]، وهو اللهُ تَعالى. وقُرِئَ: «لقضَيْنَا»[(٤)].

---

(١) أي: (أنَّ الحمدَ لله) بالتشديد ونصبِ (الحمد). انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦١) عن بلال بن أبي بردة الأشعري وابن محيصن، وزاد ابن جني في «المحتسب» (١/ ٣٠٨) نسبتها ليعقوب.

(٢) قوله: «أو بأن المراد» عطفٌ على «بسرعة إجابته لهم». انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٥٢).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٣)، و«التيسير» (ص: ١٢١).

(٤) أي: (لقضَيْنا إليهم أجلَهم)، نسبت لابن مسعود رضي الله عنه. انظر: «الكشاف» (٤/ ٢٨)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ١٠٨)، و«البحر» (١٢/ ٢٩). ووقع في مطبوع «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦١): (لقفينا) ولعله تحريف.

﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ عطفٌ عَلى فعلٍ محذوفٍ دَلَّت عليهِ الشَّرطيَّةُ[1]؛ كأنَّه قيلَ: ولكِن لا نُعجِّلُ ولا نَقضِي فنَذَرُهُم إمهالًا لهم واستِدْرَاجًا.

(١٢) ـ ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا﴾ لإزالَتِه مُخلِصًا فيه.

﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾: مُلقِيًا لجنبِه؛ أي: مُضطَجِعًا ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ وفائدَةُ التَّرديدِ: تعميمُ الدُّعاءِ لجَميعِ الأحوالِ أو لأصنافِ المضارِّ.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ﴾: مَضى على طَريقَتِه واستمرَّ على كُفرِه، أو: مرَّ عَن موقفِ الدُّعاءِ لا يرجعُ إليه.

﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ﴾: كأنَّه لم يَدعُنَا، فخُفِّفَ وحُذفَ ضميرُ الشَّأنِ كمَا قال[2]:

وَنَحْـــرٍ مُشْـــرِقِ اللَّـــون كَـــأَنْ ثَـــدْيَاهُ حُقَّـــانِ

﴿إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾: إلى كشفِ ضرٍّ.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلَ ذلك التَّزيينِ ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ مِن الانهماكِ في الشَّهواتِ والإعراضِ عَن العباداتِ.

---

(١) قوله: «عطف على محذوف دلت عليه الشرطية»؛ يريد أنه لا يصح العطف على شرط (لو) ولا على جوابها؛ لانتفائها، لأن (لو) يجعل المثبت منفيًّا، وهذا مقصودٌ إثباته، ولو عطف عليه لكان منفيًّا أيضًا، وهو خلاف المقصود، وفي هذا المقام وجوهٌ لكن ما اختاره المصنِّف هو المعول عليه. انظر: «حاشية القونوي» (٩/ ٤٠٧).

(٢) لا يعرف قائله، وهو في «كتاب سيبويه» (١/ ٢٨١)، و«معاني القرآن» للأخفش (١/ ٣٧٠)، و«الصحاح» (مادة: أنن)، و«أمالي ابن الشجري» (١/ ٢٣٧)، برواية:

ووجـــه مشـــرق النحـــر

وله روايات أخرى أوردها البغداديُّ في «خزانة الأدب» (١٠/ ٣٩٨)، والشاهد فيه بطلان عمل (كأن) إذا خففت.

(١٣) ـ ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ يـا أهـلَ مَـكَّـةَ ﴿لَمَّا ظَلَمُوا ﴾: حين ظَلَمُوا بالتَّكذيبِ واستعمالِ القُوَى والجوارحِ لا على ما يَنبَغِي.

﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾: بالحُجَجِ الدَّالَّةِ عـلى صِدْقِهِم، وهو حالٌ مِن الواوِ بإضمارِ «قد» أو عطفٌ على ﴿ظَلَمُوا﴾.

﴿وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ﴾: وما استقامَ لَهُم أن يُؤمِنُوا؛ لفسادِ استِعدادِهِم، وخذلانِ اللهِ لهم، وعلمِهِ بأنَّهُم يموتونَ على كفرِهِم، واللَّامُ لتَأكيدِ النَّفيِ.

﴿كَذَٰلِكَ ﴾ مثـلَ ذلـك الجـزاءِ، وهـو إهلاكُهُـم بسـببِ تكذيبِهِـم للرُّسُـلِ وإصرارِهِـم عليـه بحيـثُ تحقَّـقَ أنَّه لا فائـدةَ فـي إمهالِهِـم ﴿نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: نَجـزِي كلَّ مُجـرمٍ، أو: نجزيكُم، فوضـعَ المُظهَرَ مَوضِعَ الضَّميـرِ للدلالةِ على كمالِ جرمِهِـم وأنَّهُـم أعـلامٌ فيه.

(١٤) ـ ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾: استَخْلَفناكُم فيـهـا بعدَ القُرونِ الَّتي أهلَكْنَاها استخلافَ مَن يَخْتَبِرُ.

﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ أتعملونَ خيرًا أو شَرًّا فنعامِلَكُم على مُقتَضَى أَعمالِكُم، و﴿كَيْفَ﴾ معمولُ ﴿تَعْمَلُونَ ﴾[1]؛ فإنَّ مَعنى الاستفهامِ يحجبُ أن يعملَ فيه ما قبلَهُ، وفائدَتُه: الدَّلالَةُ على أنَّ المعتبرَ في الجزاءِ جهاتُ الأفعالِ وكيفيَّاتُها لا هيَ مِن حيثُ ذاتُها، ولذلك يَحسُنُ الفعلُ تارةً ويقبُحُ أُخرى.

---

(١) قوله: «و﴿كَيْفَ﴾ معمول ﴿تَعْمَلُونَ﴾»؛ أي: لا معمول (ننظر)؛ لأن لـ﴿كَيْفَ﴾ صدر الكلام، فلا يتقدمه عامله، وظاهر كلامه ان ﴿كَيْفَ﴾ مفعول ﴿تَعْمَلُونَ﴾ كما يفصح عنه قوله: «أتعملون خيرًا أم شرًّا»، وجمهور النحاة على أنه حال من ضمير ﴿تَعْمَلُونَ﴾، و(ننظر) بمعنى (نعلم)؛ أي: لنعلم جوابَ ﴿كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٥٤).

(١٥) ـ ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ يعني: المشركينَ: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ﴾: بكتابٍ آخرَ نقرؤُهُ ليسَ فيه ما نَستبعِدُه مِن البَعثِ والثَّوابِ والعِقابِ بعدَ الموتِ، أو ما نكرهُهُ مِن معايبِ آلِهَتِنا.

﴿أَوۡ بَدِّلۡهُ﴾ بأنْ تجعلَ مكانَ الآيةِ المُشتَمِلَةِ على ذلك آيةً أُخْرَى، ولعلَّهُم سَأَلُوا ذلك كي يُسعِفَهُم إليه فيُلْزِموه.

﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ﴾: ما يصحُّ لي ﴿أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓ﴾: مِن قِبَلِ نَفْسِي، وهو مصدَرٌ استُعمِلَ ظرفًا، وإنَّما اكتُفِيَ بالجوابِ عن التَّبديلِ لاستلزامِ امتناعِهِ امتناعَ الإتيانِ بقرآنٍ آخرَ[١].

﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ تعليلٌ لـ﴿مَا يَكُونُ﴾، فإنَّ المتَّبعَ لغيرِهِ في أمرٍ لم يَستَبِدَّ بالتَّصرُّفِ فيه بوجهٍ، وجوابٌ للنَّقضِ بنَسْخِ بعضِ الآياتِ ببعضٍ[٢]، وردٌّ لِمَا عَرَّضُوا له بهذا السُّؤالِ مِن أنَّ القُرآنَ كلامُهُ واختِراعُهُ، ولذلك قيَّدَ التَّبديلَ في الجوابِ وسَمَّاهُ عِصيانًا فقالَ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي﴾؛ أي: بالتَّبديلِ ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ وفيه إيماءٌ بأنَّهم استَوْجَبُوا العذابَ بهذا الاقتراحِ.

(١٦) ـ ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ غيرَ ذلك ﴿مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦ﴾: ولا أعلَمَكُم بهِ على لِساني.

وعن ابنِ كَثيرٍ: ﴿ولأَدْرَاكُم﴾ بلامِ التَّأكيدِ[٣]؛ أي: لَوْ شاءَ اللهُ ما تَلَوْتُه عليكم

---

(١) في نسخة الطبلاوي: «بقرآن غير هذا».

(٢) قوله: «وجوابٌ للنَّقضِ بنسخِ بعضِ الآياتِ ببعضٍ» أي: جواب لنقض الكفرة بنسخ بعض الآيات ببعض بأن قالوا: كيف تدعي أنك لا تقدر على التبديل من تلقاء نفسك وقد وقع التبديل منك بالنسخ لبعض الآيات؟ فقولك منقوض بهذا. انظر: «حاشية القونوي» (٩/ ٤١٣ ـ ٤١٤).

(٣) هي قراءة قنبل ورواية أبي ربيعة ـ وهو محمد بن إسحاق بن وهب الربعي المكي أنبل أصحاب =

ولأعلمَكُم به على لسانِ غَيرِي، والمعنى: أنَّه الحَقُّ الَّذي لا محيصَ عنه لو لم أُرسَلْ به لأُرسِلَ به غيرِي.

وقُرِئَ: «ولا أَدْرَأكُم»، «ولا أَدْرَأْتُكُم» بالهمزِ فيهما[1] على لغَةِ مَن يقلِبُ الألِفَ المُبدلَةَ مِن الياءِ همزةً، أو على أنَّه مِن الدَّرْءِ بمَعْنَى الدَّفعِ؛ أي: ولا جعَلْتُكُم بتِلاوَتِه خُصَمَاءَ تَدْرَؤونَنِي بالجِدالِ، والمعنى: أنَّ الأمرَ بمَشيئَةِ اللهِ لا بمَشيئَتِي حتَّى أجعلَهُ على نحوِ ما تَشتَهونَهُ، ثمَّ قرَّرَ ذلكَ بقولِه:

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾: مقدارَ أربعينَ سَنَةً ﴿مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾: من قبلِ القُرآنِ لا أتلوهُ ولا أعلمُهُ، فإنَّه إشارةٌ إلى أنَّ القُرآنَ مُعجِزٌ خارِقٌ للعَادةِ، فإنَّ مَن عاشَ بينَ أَظهُرِهِم أربعينَ سنَةً لم يُمَارِس فيهَا عِلْمًا ولم يُشاهِدْ عالِمًا، ولم يُنشِئْ قَرِيضًا ولا خطبَةً، ثمَّ قرأَ عليهِمْ كِتابًا بذَّتْ[2] فَصاحَتُهُ فصاحَةَ كلِّ مِنْطِيقٍ، وعَلَا كلَّ مَنثورٍ ومَنظومٍ، واحتوَى على قواعدِ عِلْمَي الأُصولِ والفُروعِ، وأعرَبَ عَن أقاصيصِ الأوَّلينَ وأحاديثِ الآخِرينَ على ما هيَ عليه= عُلِمَ أنَّه مُعلَّمٌ[3] بِهِ مِن اللهِ.

= البزي في وقته ـ عن البزي عن ابن كثير، انظر: «التيسير» (ص: ١٢١)، و«معرفة القراء الكبار» للذهبي (١/ ٤٥٤).

(١) الأولى ذكرها العكبري في «إملاء ما من به الرحمن» (ص: ٦٦٩)، والثانية نسبت لابن عباس وابن سيرين والحسن وغيرهم. انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٥٩)، و«تفسير الطبري» (١٢/ ١٣٨ ـ ١٣٩)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٤٣)، و«الهداية» لمكي بن أبي طالب (٥/ ٣٢٣٥)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦١)، و«المحتسب» (١/ ٣٠٩)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ١١٠)، و«الكشاف» (٤/ ٢٤)، و«البحر» (١٢/ ٣٨).

(٢) «بذَّت»؛ بذال معجمة مشددة، أي: غلبت. والقريض: الشِّعرُ. والمِنطيق؛ بالكسر: البليغ.

(٣) قوله: «عُلِمَ» خبرٌ لإنَّ في قوله: «فإن من عاش»، انظر: «حاشية القونوي» (٩/ ٤١٨)، وقوله: «معلم به»؛ من التعليم أو الإعلام. انظر: «حاشية الخفاجي».

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾؛ أي: أفلا تَستعمِلُونَ عُقولَكُم بالتَّدبُّرِ والتَّفكُّرِ فيه لتعلَمُوا أنَّه ليسَ إلَّا مِن اللهِ.

(١٧) ـ ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ تفادٍ ممَّا أَضافُوه إليه كنايةً، أو تَظليمٌ للمُشركينَ بافترائِهم على اللهِ في قولِهم: إنَّه لذُو شريكٍ وذُو ولدٍ.

﴿أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ فكفَرَ بها ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾.

(١٨) ـ ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾ لأنَّه جمادٌ لا يقدرُ على نفعٍ ولا ضرٍّ، والمعبودُ يَنبَغِي أن يكونَ مُثيبًا ومُعاقبًا حتَّى تعودَ عِبادَتُه بجلبِ نَفعٍ أو دفعِ ضرٍّ.

﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الأوثانُ ﴿شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾: تشفَعُ لَنا فيما يُهِمُّنا مِن أُمورِ الدُّنيَا، أو في الآخرةِ إن يَكُن بعثٌ، وكأنَّهُم كانُوا شاكِّينَ فيه، وهذا من فرطِ جَهالتِهم حيثُ تركوا عبادةَ المُوجِدِ الضارِّ النَّافعِ إلى عبادةِ ما يُعلَمُ قطعًا أنَّه لا يَضرُّ ولا يَنفعُ على توهُّمِ أنَّه ربَّما يشفَعُ لهم عندَهُ.

﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ﴾: أتخبِّرونه ﴿بِمَا لَا يَعۡلَمُ﴾ وهو أنَّ له شَريكًا، وفيه تقريعٌ وتهكُّمٌ بهم؛ أو: هؤلاءِ شُفعاؤنا عندَهُ[1]، وما لا يعلَمُه العالِمُ بجميعِ المعلوماتِ لا يكونُ له تَحقُّقٌ ما.

﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ حالٌ مِن العائدِ المحذوفِ[2] مؤكِّدةٌ للنَّفيِ مُنبِّهةٌ

---

(١) قوله: «أو هؤلاء شفعاؤنا عنده» بدل من قوله: «إن له شريكًا». وعبارة «الكشاف» (٤/ ٢٦): أتخبرونه بكونهم شفعاءَ عنده. انظر: «حاشية القونوي» (٩/ ٤٢١).

(٢) قوله: «حال من العائد المحذوف»: هو مفعولُ ﴿يَعۡلَمُ﴾؛ أي: بما لا يعلمُه. انظر: «حاشية القونوي» (٩/ ٤٢٢).

على أنَّ ما يعبدونَ من دونِ اللهِ إمَّا سَماويٌّ وإمَّا أَرضيٌّ، ولا شيءَ مِن الموجوداتِ فيهِمَا إلَّا وهو حادثٌ مَقهورٌ مثلُهُم لا يليقُ أن يُشرَكَ به.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عن إشراكِهم، أو عَن الشُّركاءِ الَّذينَ يُشرِكُونَهُم به.

(١٩) ـ ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ مَوجودينَ على الفطرةِ، أو مُتفقينَ على الحقِّ، وذلك في عهدِ آدمَ عليه السَّلامُ إلى أن قتلَ قابيلُ هابيلَ، أو بعدَ الطُّوفانَ، أو على الضَّلالِ[١] في فترةٍ مِن الرُّسُلِ.

﴿فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ باتباعِ الهَوَى والأباطيلِ، أو ببعثةِ الرُّسُلِ[٢]، فتبعَتهُم طائفةٌ وأصرَّت أخرى.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأخيرِ الحكمِ بينَهُم أو العذابِ الفاصلِ بينَهُم إلى يومِ القيامَةِ فإنَّه يومُ الفَصْلِ والجزاءِ ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ عاجِلًا ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بإهلاكِ المبطلِ وإبقاءِ المحقِّ.

(٢٠) ـ ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ أي: مِن الآياتِ الَّتي اقترَحُوها.

﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ هو المُختصُّ بعلمِهِ فلعلَّهُ يعلَمُ في إنزالِ الآياتِ المُقترحَةِ مِن مَفاسدَ تَصْرِفُ عَنْ إنزالِها.

﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ لنزولِ ما اقترَحْتُموهُ ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لِمَا يفعَلُ اللهُ بِكُم بجُحُودِكُم ما نزلَ عليه[٣] من الآياتِ العِظَامِ واقتراحِكُم غيرَه.

---

(١) قوله: «أو على الضلال» معطوفٌ على «الحق». انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) قولُهُ: «باتِّباعِ الهوى والأباطيلِ... إلخ» ناظرٌ إلى كونِ الاتِّفاقِ في الحقِّ. وقولُهُ: «أو ببعثةِ الرُّسلِ عليهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ» ناظرٌ إلى كونِهِ في الضَّلالِ. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) في نسخة الطبلاوي: «ما نزلَ عليَّ».

(٢١) ـ ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً﴾: صِحَّةً وسَعَةً ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ﴾ كقَحطٍ ومَرضٍ ﴿إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَا﴾ بالطَّعنِ فيها والاحتيالِ في دَفعِها.

قيلَ: قُحِطَ أهلُ مكَّةَ سبعَ سنينَ حتَّى كادُوا يَهْلِكونَ، ثمَّ رَحِمَهُم اللهُ بالحَيا[1] فطَفِقُوا يقدَحُونَ في آياتِ اللهِ ويَكيدونَ رسولَهُ[2].

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًا﴾ مِنْكُم، قد دبَّرَ عِقابَكُم قبلَ أَنْ تُدبِّرُوا كيدَكُم، وإنَّما دلَّ على سُرعَتِهِم المفضَّلِ عليها كلمةُ المُفاجأةِ الواقعَةُ جوابًا لـ«إذا» الشَّرطيَّةِ.

والمكرُ: إخفاءُ الكَيدِ، وهوَ مِن اللهِ إمَّا الاستدراجُ أو الجزاءُ على المكرِ.

﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ﴾ تحقيقٌ للانتقامِ، وتَنبيهٌ على أنَّ ما دبَّرُوا في إخفائِهِ لم يخفَ على الحفَظَةِ فضلًا أَنْ يَخْفَى على اللهِ.

وعَن يَعقوب: ﴿يمكرون﴾ بالياءِ[3]؛ ليُوافِقَ ما قبلَه.

(٢٢) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ﴾: يحمِلُكُم على السَّيرِ ويُمكِّنُكُم منه، وقرأَ ابن عامرٍ: ﴿يَنْشُرُكُمْ﴾ بالنون والشين[4] من النَّشْرِ.

﴿فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾: في السُّفنِ ﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾: بمَنْ فيهَا؛ عَدَلَ عن الخطابِ إلى الغَيْبَةِ للمُبالغَةِ؛ كأنَّه تذكِرَةٌ لغَيرِهِم ليتعجَّبَ من حالَهُم ويُنكِرَ عليهِم.

---

(١) الحَيَا؛ بالقصر والمدِّ: المطر، والمراد به: الخصب. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) روى نحوه البخاري (٤٨٢١)، ومسلم (٢٧٩٨)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) انظر: «النشر» (٢/ ٢٨٢).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٥)، و«التيسير» (ص: ١٢١).

﴿بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾: ليِّنَـةِ الهُبـوبِ ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾: بتلـكِ الرِّيـحِ ﴿جَآءَتۡهَا﴾ جـوابُ ﴿إِذَا﴾، والضَّميـرُ للفلـكِ أو الرِّيـحِ الطَّيِّبَةِ بمَعنـى: تَلَقَّتْهـا ﴿رِيحٌ عَاصِفٞ﴾: ذاتُ عَصـفٍ شَـديدَةُ الهُبوبِ.

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾ يمكِنُ مجيءُ الموجِ مِنْه.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾: أُهْلِكُوا وسُدَّت عليهِم مَسالِكُ الخَلاصِ كمَنْ أحاطَ بهِ العَدُوُّ.

﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ مِن غيرِ إشراكٍ؛ لتراجُعِ الفطرةِ[1] وزَوالِ المُعارِضِ مِن شدَّةِ الخوفِ، وهو بدلٌ مِن «ظنُّوا» بدلَ اشتمالٍ لأنَّ دعاءَهُم مِن لَوازِمِ ظنِّهِم.

﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ عَلـى إرادةِ القـولِ، أو مفعـولُ ﴿دَعَوُاْ﴾ لأنَّه مِن جملةِ القَولِ.

(٢٣) ـ ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ﴾ إجـابـةً لدُعـائِهِم ﴿إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: فاجؤوا الفسادَ فيها وسارَعُوا إلى ما كانُوا عليه ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾: مُبطِلِينَ فيه، وهو احترازٌ عن تَخريبِ المُسلمينَ ديارَ الكَفَرةِ وإحراقِ زُروعِهِم وقلعِ أَشجارِهِم فإنَّها إفسادٌ بحقٍّ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ فإنَّ وَبالَهُ عليكُم، أو أنَّه على أمثالِكُم وأبناءِ جنسِكُم.

﴿مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ مَنفعَةُ الحياةِ الدُّنيَا لا تَبْقَى ويَبْقَى عقابُها، ورَفعُه على أنَّه خبرُ ﴿بَغۡيُكُمۡ﴾ و﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ صلتُه، أو خبرُ مبتدأ محذوفٍ تقديرُه: ذلك متاعُ الحياةِ الدُّنيا و﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ خبرُ ﴿بَغۡيُكُمۡ﴾.

---

(١) أي: لرجوعهم إلى الفطرة. انظر: «حاشية الخفاجي».

ونَصَبَهُ حفصٌ[(١)] على أنَّه مَصدرٌ مؤكِّدٌ؛ أي: تتمتَّعونَ متاعَ الحياةِ الدُّنيا، أو مَفعولُ البَغيِ لأنَّه بمَعنَى الطلبِ، فيكونُ الجارُّ مِن صِلَتِه والخبرُ محذوفًا، تقديرُهُ: بَغْيُكُم متاعَ الحَياةِ الدُّنيا مَحذورٌ أو ضلالٌ، أو مَفعولُ فعلٍ دلَّ عليه البَغيُ و﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ خبرٌ ﴿بَغْيُكُمْ﴾.

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ في القيامَةِ ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالجزاءِ عليهِ.

(٢٤) ـ ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: حالُها العَجيبَةُ في سرعةِ تَقضِّيها وذهابِ نَعيمِهَا بعدَ إقبالِها واغترارِ النَّاسِ بها ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾: فاشتبَكَ بسببِهِ حتَّى خالطَ بعضُهُ بَعْضًا ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾: من الزُّروعِ والبُقولِ والحَشيشِ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾: حُسْنَها وبهجتَها ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾: وتَزيَّنَتْ بأصنافِ النَّباتِ وأشكالِها وألوانِها المُختَلِفَةِ كعَروسٍ أَخَذَتْ مِن ألوانِ الثِّيابِ والزِّينِ فتَزيَّنَتْ بها.

و﴿ازَّيَّنَتْ﴾ أصلُهُ: تَزيَّنَت، فأُدغِمَ، وقَدْ قُرِئَ على الأَصلِ[(٢)].

و: «أَزْيَنَتْ» على أَفْعَلَتْ[(٣)] مِن غيرِ إعلالٍ كـ: أَغْيَلَتْ[(٤)]، والمعنى: صارَتْ ذاتَ زينةٍ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٥)، و«التيسير» (ص: ١٢١).

(٢) نسبت لابن مسعود وأُبي بن كعب، وزيد بن علي والأعمش. انظر: «الكشاف» (٤/ ٣٤)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ١١٤)، و«البحر» (١٢/ ٦٠).

(٣) نسبت لمالك بن دينار الأعرج ونصر بن عاصم وأبي العالية والحسن بخلاف وقتادة وأبي رجاء بخلاف والشعبي وعيسى الثقفي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦١)، و«المحتسب» (٢/ ٣١١)، و«الكامل» للهُذَلي (ص: ٣٨٧).

(٤) أي: سقت ولدها الغيل، وهو اللبن ترضعه ولدها وهي حامل. انظر: «القاموس» (مادة: غيل).

و: «ازْيَانَّتْ» كـ: ابْيَاضَّتْ[١].

﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾: مُتمكِّنونَ مِن حَصدِها ورفعِ غلَّتِها.

﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾: ضَرَبَ زَرْعَها ما يجتاحُه ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا﴾: فجعلنا زرعَهَا، ﴿حَصِيدًا﴾: شبيهًا بما حُصدَ مِن أصلِه ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾: كأن لم يَغْنَ زرعُها؛ أي: لم يَلْبَثْ[٢]، والمضافُ مَحذوفٌ في المَوضِعَينِ للمُبالغَةِ[٣].

وقُرِئَ بالياءِ على الأصلِ[٤].

﴿بِٱلْأَمْسِ﴾: فيما قُبيلَه[٥]، وهو مثلٌ في الوَقتِ القَريبِ، والمُمثَّلُ به مَضمونُ الحِكايَةِ وهو زوالُ خضرةِ النَّباتِ فجأةً وذهابُه حطامًا بعدما كانَ غضًّا، والتفَّ وزيَّنَ الأرضَ حتَّى طمعَ فيه أهلُهُ، وظَنُّوا أنَّه قد سلمَ مِن الجوائحِ، لا الماءُ[٦] وإنْ وَلِيَه حَرفُ التَّشبيهِ لأنَّه مِن التَّشبيهِ المُركَّبِ[٧].

---

(١) نسبت لأبي عثمان النَّهْدي، وعوف بن أبي جميلة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦١)، و«المحتسب» (١/ ٣١١ ـ ٣١٢)، «المحرر الوجيز» (٣/ ١١٤).

(٢) في نسخة الطبلاوي والخيالي: «ينبت»، والمثبت من نسخة التفتازاني؛ وقد أشار إلى النسختين الخفاجي في «الحاشية» والقونوي في «الحاشية» (٩/ ٤٣٤). ورجَّحا المثبتَ.

(٣) قوله: «والمضاف»؛ أي: وهو الزرعُ «محذوف في الموضعين»؛ أي: في ﴿فَجَعَلْنَٰهَا﴾، وفي ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٦١).

(٤) نسبت للحسن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦١)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ١١٥)، و«البحر» (١٢/ ٦٢). وقوله: «على الأصل»؛ أي: بإرجاع الضمير مذكرًا إلى الزرع المضاف المحذوف، فحينئذ تفوت المبالغة المذكورة، ولذا رجح المصنف القراءة بالتاء. انظر: «حاشية القونوي» (٩/ ٤٣٥).

(٥) قوله: «فيما قبيله»؛ أي: قُبَيلَ أمرِنا، لا: قُبَيلَ الأمسِ، على ما يوهمُه كلامُه، كأنه قيل: كأنْ لم تغنَ آنفًا. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٦١).

(٦) قوله: «لا الماءُ» عطف على «مضمونُ الحكاية». انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٦١).

(٧) قوله: «وإن وليه»؛ أي: الماءَ «حرف التشبيه»؛ أي: في قوله ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ﴾ «فإنه»؛ أي: التشبيهَ =

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإنَّهُم المنتفِعونَ بهِ.

(٢٥) ـ ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾: دارِ السَّلامةِ مِن التَّقضِّي[1] والآفَةِ، أو: دارِ اللهِ، وتَخصيصُ هذا الاسمِ أيضًا للتَّنبيهِ على ذلك، أو: دارٍ يسلِّمُ اللهُ والمَلائِكَةُ فيها على مَن يدخلُهَا، والمرادُ: الجنَّةُ ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ بالتَّوفيقِ ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو طريقُهَا، وذلك: الإسلامُ والتَّدرُّعُ بلباسِ التَّقوَى.

وفي تَعميمِ الدَّعوَةِ وتخصيصِ الهِدايَةِ بالمَشيئَةِ دليلٌ على أنَّ الأمرَ غيرُ الإرادةِ، وأنَّ المصرَّ على الضَّلالِ لم يُرِدِ اللهُ رُشدَهُ.

(٢٦) ـ ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾: المثوبـةُ الحُسْـنَى ﴿وَزِيَادَةٌ﴾: ومـا يزيـدُ على المثوبـةِ تَفضُّلًا؛ كقولِـه: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٨].

وقيلَ: ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ مثلُ حسناتِهِم والزِّيادةُ عَشرُ أَمثالِها إلى سبعِ مئةِ ضعفٍ أو أكثرَ.

وقيلَ: الزِّيادَةُ: مغفرةٌ مِن اللهِ ورضوانٌ.

وقيلَ: ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾: الجنَّةُ، والزِّيادَةُ: اللقاءُ[2].

= المذكورَ «من التشبيه المركب» حيثُ شبَّهَ حالَ الدُّنيا في سرعة تقضـِّيها وانقراضِ نعيمِها بعدَ الإقبالِ بحالِ نباتِ الأرضِ في جفافِه وذهابـه حُطامًا بعدما التفَّ وتكاثفَ وزيَّنَ الأرضَ بخُضرتِه واختلاطِه بالماء. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٦١).

(١) في نسخة الطبلاوي والخيالي: «النقص». وقوله: «مِنَ التَّقضِّي»؛ أي: الانقضاءِ والزَّوالِ لخلودِهم فيها. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) قال السيوطي: ما أنصفَ المُصنِّفُ حيثُ جعلَ هذا القولَ آخرَ الأقوالِ وأَضْعفَها، ورجَّحَ عليهِ غيرَهُ، وهو الثَّابتُ عَن رسولِ اللهِ ﷺ نصًّا في تفسيرِ هذه الآيةِ، فيما أخرجَهُ مُسلمٌ في «صحيحه»، عن أصحابِه أبي بكرٍ الصِّديقِ وحذيفةَ وأبي مُوسى وعبادةَ بنِ الصَّامتِ وغَيرِهم، والأحاديثُ والآثارُ بهذا التَّفسيرِ كثيرَةٌ أوردْتُها في «تَفسيري المأثورِ» [«الدر المنثور» (٤/ ٣٥٦ ـ ٣٥٩)]. ولعلَّ =

﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ﴾: لا يَغشاهَا ﴿قَتَرٌ﴾: غُبْرةٌ فيها سَوادٌ ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾: هَوانٌ، والمعنى: لا يرهقُهُم ما يَرْهَقُ أهلَ النَّارِ، أو: لا يَرهَقُهُم ما يوجبُ ذلك مِن حزنٍ وسُوءِ حالٍ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: دائمونَ لا زوالَ فيهَا ولا انقراضَ لنَعيمِهَا، بخلافِ الدُّنيا وزَخارِفِهَا.

(٢٧) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ عَطفٌ على قولِه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ على مَذهَبِ مَن يُجوِّزُ: «في الدَّارِ زَيدٌ والحجرةِ عمرٌو»[١].

أو «الذينَ» مُبتدأٌ والخبرُ: ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ﴾ على تَقديرِ: وجزاءُ الَّذين كسَبُوا السَّيِّئاتِ جزاءُ سَيِّئةٍ بمثلِها؛ أي: أَنْ تُجازَى سيئةٌ بسَيِّئةٍ مِثلِها لا يزادُ عليها، وفيه تنبيهٌ على أنَّ الزِّيادةَ هي الفضلُ أو التَّضعيفُ[٢].

= المُصنِّفَ سَها عندَ كتابةِ هذا المَوضعِ، ومَشى عليه قَوْلُ الزَّمخشريِّ [«الكشاف» (٤/ ٣٨)]: «وزَعمَت المُشبِّهَةُ والمُتحيِّزَةُ أنَّ الزِّيادةَ النَّظرُ إلى وجهِ اللهِ، وجاؤوا بحديثٍ مَرقوعٍ». وذكر أصحاب الحواشي نحو ذلك في اعتراضهم على المصنِّف.

ولفظ الحديث الذي رواه مسلم (١٨١) عن صهيب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل»، وفي رواية: ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

(١) يعني: الَّذينَ معطوفٌ على الَّذينَ المجرورِ الَّذي هوَ معَ جارِّهِ خبرٌ، (وجزاءُ سيئةٍ) معطوفٌ على الحُسنى الَّذي هوَ مبتدأٌ، وفيها مسألة العطف على معمولي عاملين. وفي جوازه خلافٌ وتفصيلٌ في كتب النحو. انظر: «مغني اللبيب» (ص: ٦٠٤ ـ ٦٠٦)، و«حاشية الخفاجي».

(٢) قولُهُ: (وفيهِ تنبيهٌ على أنَّ الزِّيادَةَ هيَ الفضلُ أوِ التَّضعيفُ) تبعَ فيهِ الزَّمخشريَّ، وهو مُخالفٌ للمأثورِ في تفسيرِها، والمُرادُ بالفضلِ أن يفضلَ على العملِ، ويزيدَ عليهِ. انظر: «حاشية الخفاجي».

أو: ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ﴾ أو ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ وما بينَهُما اعتراضٌ؛ فـ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ﴾ مُبتدأٌ خبرُه مَحذوفٌ؛ أي: فجزاءُ سَيِّئَةٍ بمثلِها واقعٌ، أو: ﴿بِمِثۡلِهَا﴾ على زيادةِ الباءِ، أو تقديرِ: مُقدَّرٍ بمثلِها.

﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ﴾ وقُرِئَ بالياءِ[١].

﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖ﴾: ما مِن أحدٍ يعصمُهم من سَخَطِ الله، أو: من جهةِ اللهِ، أو: من عندِه؛ كما يكونُ للمؤمنينَ.

﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًا﴾ لفَرطِ سَوادِهَا وظُلمَتِها، و﴿مُظۡلِمًا﴾ حالٌ من ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ والعامِلُ فيه: ﴿أُغۡشِيَتۡ﴾ لأنَّه العامِلُ في ﴿قِطَعٗا﴾ وهو مَوصوفٌ بالجارِّ والمَجرورِ، والعامِلُ في الموصوفِ عامِلٌ في الصِّفَةِ، أو: مَعنى الفعلِ في ﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾[٢].

وقرأَ ابنُ كَثيرٍ والكِسائِيُّ ويَعقوبُ: ﴿قِطْعا﴾ بالسُّكونِ[٣]، فعلى هذا يَصِحُّ أَنْ يكونَ ﴿مُظۡلِمًا﴾ صفَةً لَهُ أو حَالًا منه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ممَّا يَحتجُّ به الوعيديَّةُ[٤]، والجوابُ: أَنَّ الآيَةَ في الكُفَّارِ؛ لاشتِمالِ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ على الشِّركِ والكُفرِ، ولأنَّ ﴿الذينَ أحسَنُوا﴾ يَتناوَلُ أَصحابَ الكَبيرةِ مِن أَهلِ القِبلَةِ فلا يَتناوَلُهُم قَسيمُهُ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦١) عن بعضهم.

(٢) قولـه: «أو معنى الفعل مـن الليل»؛ عطفٌ علـى ﴿أُغۡشِيَتۡ﴾؛ يعنـي متعلقه المقدَّر. انظر: «حاشـية الخفاجي».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٥)، و«التيسير» (ص: ١٢١)، و«النشر» (٢/ ٢٨٣).

(٤) الوَعيديَّة: القائلون بوجوب إثابة الطائع وتعذيب العاصي. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٦٤).

(٢٨) ـ ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يعني: الفَريقينِ جميعًا ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ﴾ الزَمُوا مَكانَكُم حتَّى تَنظُرُوا ما يُفعَلُ بكُمْ.

﴿أَنتُمْ﴾ تأكيدٌ للضَّميرِ المُنتقِلِ إليه مِن عاملِه ﴿وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ عطفٌ عليهِ، وقُرِئَ بالنَّصبِ على المفعولِ معه[1].

﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾: ففرَّقْنَا بينَهُم وقطَّعْنا الوُصَلَ[2] الَّتي كانَتْ بينَهُم.

﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ مجازٌ عَن براءةِ ما عَبَدُوهُ مِن عِبادَتِهِم، وأنَّهُم إنَّما عَبدُوا في الحقيقةِ أهواءَهُم ـ لأنَّها الآمرَةُ بالإشراكِ ـ لا ما أشرَكُوا به.

وقيلَ: يُنطِقُ اللهُ الأصنامَ فتُشافِهُهم بذلك مَكانَ الشَّفاعَةِ الَّتي توقَّعُوا[3] مِنْها.

وقيلَ: المرادُ بالشُّركاءِ: الملائِكَةُ والمَسيحُ، وقيلَ: الشَّياطينُ.

(٢٩) ـ ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ فإنَّه العَالِمُ بكُنْهِ الحالِ.

﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ ﴿إِن﴾ هي المُخفَّفَةُ مِن الثَّقيلَةِ، واللَّامُ هيَ الفارِقَةُ.

(٣٠) ـ ﴿هُنَالِكَ﴾: في ذلك المَقامِ ﴿تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾: تختبرُ ما قدَّمَتْ مِن عملٍ فتعاينُ نفعَه وضرَّه.

وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ: ﴿تَتْلُو﴾ مِن التِّلاوَةِ[4]؛ أي: تَقرأُ ذكرَ ما قدَّمَتْ، أو من التُّلوِّ؛ أي: تَتْبعُ عملَها فيقودُها إلى الجنَّةِ أو إلى النَّارِ.

---

(١) أي: (وشركاءكم)، انظر: «الكامل» للهُذلي (ص: ٥٦٩)، و«الكشاف» (٤/ ٤٢)، و«البحر» (١١/ ٨٠).

(٢) في نسخة التفتازاني: «الوصلة». والوُصَلُ جمعُ الوُصلةِ.

(٣) في نسخة الطبلاوي والخيالي: «يتوقعون».

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٥)، و«التيسير» (ص: ١٢١).

وقُرِئَ: «نَبْلُو» بالنُّونِ ونصبِ «كلَّ» وإبدالِ «ما» منه[١]، والمعنى: نَختَبِرُها؛ أي: نفعَلُ بها فعلَ المختبِرِ لحالِها المتعرِّفِ لسَعادَتِها وشَقاوَتِها بتعرُّفِ ما أسلَفَتْ مِن أَعمَالِهَا، ويجوزُ أَنْ يُرادَ بِهِ: نُصِيبُ بالبلاءِ ـ أي: بالعذاب ـ كلَّ نَفسٍ عاصِيَةٍ بسببِ ما أسلفَتْ مِن الشرِّ، فتكونُ «ما» مَنصوبَةً بنزعِ الخافضِ.

﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾: إلى جزائِهِ إيَّاهُم بما أسلَفُوا.

﴿مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّ﴾: ربِّهِم ومُتولِّي أَمْرِهِم على الحَقيقَةِ، لا ما اتَّخذوهُ مَولًى.

وقُرِئَ: «الحقَّ» بالنَّصبِ[٢] على المدحِ أو المصدرِ المُؤكِّدِ[٣].

﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾: وضاعَ عَنْهُم ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ مِن أنَّ آلِهَتَهُم تشفَعُ لَهُم، أو: ما كانُوا يدَّعُونَ أنَّها آلهَةٌ.

(٣١) ـ ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: مِنْهُمَا جَميعًا، فإنَّ الأَرزاقَ تحصُلُ بأَسبابٍ سَماوِيَّةٍ وموادَّ أَرضيَّةٍ، أو مِن كُلِّ واحدٍ مِنْهُما توسعةً عليكُمْ.

وقيلَ: ﴿مِّنَ﴾ لبيانِ ﴿مَن﴾ على حذفِ المضافِ؛ أي: مِن أهلِ السَّماءِ والأَرضِ.

﴿أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾: أَمَّنْ يَستطيعُ خلقَهُما وتَسوِيَتَهُما، أو: مَن يحفَظُهُما مِن الآفاتِ مَع كثرَتِها وسُرعَةِ انفِعالِهِما مِن أَدْنَى شَيءٍ.

---

(١) نسبت لعاصم في رواية عنه. انظر: «الكشاف» (٤/ ٤٣)، و«البحر» (١١/ ٨٣). وهي خلاف المشهور عن عاصم. وجاء في «الكامل» للهذلي (ص: ٥٦٧): (نتلوا) بالنون والتاء: أبو حاتمٍ عن هارون عن عاصِم (كُلَّ) نصب. وقوله: «وإبدال» معطوفٌ على (نصب) لا على المقروء. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) انظر: «الكامل» للهذلي (ص: ٥٦٧) عن الحسن، و«الكشاف» (٤/ ٤٤) دون نسبة.

(٣) قوله: «على المدح» كقولك: (الحمدُ لله أهلَ الحمد)، «أو المصدر المؤكد»؛ أي: تأكيد قوله: ﴿رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ كقولك: (هذا عبد الله الحقَّ لا الباطلَ). انظر: «الكشاف» (٤/ ٤٤).

﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾: ومَن يُحيِي ويُميتُ، أو: مَن يُنشِئُ الحيوانَ مِن النُّطفَةِ والنُّطفَةَ مِنه.

﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾: ومَن يَلِي تَدبيرَ أَمرِ العالمِ وهوَ تَعميمٌ بعدَ تَخصيصٍ.

﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ إذ لا يقدرونَ على المكابرةِ والعِنادِ في ذلك لفَرْطِ وُضوحِه.

﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أنفسَكُم عقابَهُ بإشراكِكُم إيَّاهُ ما لا يُشاركُه في شَيءٍ مِن ذلك.

(٣٢) ـ ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: المُتولِّي لهذه الأُمورِ المُستحقُّ للعبادةِ هو ربُّكُم الثَّابتُ رُبوبيَّتُهُ؛ لأنَّه الَّذي أنشأَكُم وأحياكُمْ ورزَقَكُم ودبَّرَ أُمورَكُم.

﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ استفهامُ إنكارٍ؛ أي: ليسَ بعدَ الحقِّ إلَّا الضَّلالُ، فمَنْ تَخطَّى الحَقَّ الَّذي هو عبادةُ اللهِ وقعَ في الضَّلالِ.

﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ عَن الحَقِّ إلى الضَّلالِ؟

(٣٣) ـ ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾؛ أي: كمَا حَقَّت الرُّبُوبِيَّةُ للهِ، أو أنَّ الحقَّ بعدَهُ الضَّلالُ، أو أنَّهُم مَصروفونَ عَن الحقِّ= حقَّتْ كَلِمَةُ اللهِ وحكمُهُ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾: تمرَّدُوا في كُفْرِهِم، وخرجوا عن حدِّ الاستصلاحِ ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بدلٌ مِن الكَلِمَةِ، أو تَعليلٌ لحقيَّتِها، والمرادُ بها: العِدَةُ بالعَذابِ.

(٣٤) ـ ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ جعَلَ الإعادةَ كالإبداءِ في الإلزامِ بها لظُهورِ بُرهانِها، وإن لَمْ يُساعِدُوا عَلَيْهَا، ولذلك أُمرَ الرَّسولُ عليه السَّلامُ بأَنْ ينوبَ عَنْهُم في الجوابِ فقالَ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ لأنَّ لَجاجَهُم لا يَدَعُهُم أن يَعترِفُوا بها.

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾: تُصرَفونَ عَن قصدِ السَّبيلِ.

(٣٥) - ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ بنصبِ الحججِ وإرسالِ الرُّسلِ والتَّوفيقِ للنَّظرِ والتَّدبُّرِ، و«هَدَى» كما يُعدَّى بـ«إلى» لتَضمُّنِه مَعنى الانتهاءِ، يُعدَّى باللَّامِ للدلالَةِ على أنَّ المُنتَهَى غايَةُ الهدايةِ، وأنَّها لم تتوجَّه نحوَهُ على سبيلِ الاتِّفاقِ[١]، ولذلك عُدِّيَ بها ما أسندَهُ إلى اللهِ.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّۗ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ أَمِ الَّذي لا يَهتَدِي إلَّا أن يُهْدَى، مِن قولِهِم: «هُدِيَ بنَفسِه»: إذا اهتَدَى، أو: لا يَهدِي غيرَهُ إلَّا أَنْ يَهْدِيَهُ اللهُ، وهذا حالُ أشرافِ شُركائِهِم كالمَلائِكَةِ والمسيحِ وعُزَيْرٍ.

وقرأَ ابنُ كَثيرٍ وورشٌ عَن نافِعٍ وابنُ عامرٍ ﴿يَهَدِّي﴾ بفتحِ الهاءِ وتَشديدِ الدَّالِ، ويَعقوبُ وحَفصٌ بالكَسرِ والتَّشديدِ، والأصلُ: يَهْتَدِي، فأُدغِمَ وفُتِحَت الهاءُ بحركَةِ التَّاءِ، أو كُسِرَت لالتقاءِ السَّاكِنَينِ.

وروى أبو بكرٍ: ﴿يِهِدِّي﴾ بإتباعِ الياءِ الهاءَ.

وقرأَ أبو عمرٍو بالإدغامِ المُجرَّدِ ولم يبالِ بالتقاءِ السَّاكِنَينِ لأنَّ المُدغَمَ في حُكمِ المُتحرِّكِ، وعن نافعٍ بروايةِ قالون مِثلُه[٢].

---

(١) قوله: «وأنَّها لم تتوجَّه نحوَهُ على سبيلِ الاتِّفاقِ» الضمير في: «وأنها» للهداية، وفي: «نحوه» للمنتهى، والمعنى: أن الهداية لم تتوجه نحو المنتهى من غير قصدٍ وإرادة، بل تتوجه نحوه على سبيل القصد والإرادة. انظر: «حاشية الخفاجي»، وحاشيتي ابن التمجيد والقونوي (٩/ ٤٥٧).

(٢) وملخص ما ورد فيها من قراءات: ابن كثير وابن عامر وورش وأبو عمرو في أحد الوجهين: بفتح الياء والهاء وتشديد الدال، وأبو جعفر بخلاف عن ابن جماز وقالونُ في أحد وجهيه كذلك مع إسكان الهاء، وحمزة والكسائي وخلف بفتح الياء وإسكان الهاء وتخفيف الدال، ويعقوب وحفص بفتح الياء وكسر الهاء، وأبو بكر كذلك مع كسر الياء، وقرأ أبو عمرو وقالون وابن جماز في وجههم الثاني باختلاس الفتحة. انظر: «النشر» (٢/ ٢٨٣).

وقُرِئَ: «إلا أَنْ يُهَدَّى»[1] على المُبالغَةِ.

﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بما يَقتَضِي صريحُ العَقلِ بُطلانَه.

(٣٦) ـ ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ فيما يَعتَقِدُونَ ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ مُستَنِدًا إلى خيالاتٍ فارِغَةٍ وأَقيِسَةٍ فاسِدَةٍ؛ كقياسِ الغائبِ على الشَّاهِدِ والخالقِ على المخلوقِ بأَدْنَى مُشاركَةٍ مَوهومَةٍ.

والمرادُ بالأكثرِ: الجَميعُ، أو مَن يَنتَمِي مِنْهُم إلى تَمييزٍ ونَظَرٍ ولا يرضَى بالتَّقليدِ الصِّرْفِ.

﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ﴾: مِن العلمِ والاعتقادِ الحقِّ ﴿شَيْئًا﴾ مِن الإغناءِ، ويجوزُ أَنْ يكونَ مَفعولًا به و﴿مِنَ الْحَقِّ﴾ حالًا مِنْهُ.

وفيه دليلٌ على أنَّ تحصيلَ العلمِ في الأصولِ واجبٌ والاكتفاءَ بالتَّقليدِ والظنِّ غيرُ جائزٍ.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ وَعيدٌ على اتِّباعِهِم الظَّنَّ وإعراضِهِم عَن البُرهانِ.

(٣٧) ـ ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: افتراءً مِن الخَلقِ ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مطابقٌ لِمَا تَقدَّمَه مِن الكتبِ الإلهيَّةِ المشهودِ على صِدْقِها ولا يكونُ كذبًا، كيفَ وهوَ لكونِهِ مُعجِزًا دونَها عيارٌ عليها شاهِدٌ على صِحَّتِها، ونصبُهُ بأنَّه خَبرٌ لـ«كان» مقدَّرًا، أو عِلَّةٌ لفعلٍ مَحذوفٍ تقديرُه: ولكن أنزلَهُ اللهُ تصديقَ الذي.

وقُرِئَ بالرَّفعِ[2] على تَقديرِ: ولكنْ هوَ تَصديقُ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦١) عن أبي الحارث الذماري.

(٢) أي: (ولكن تصديقُ الذي بين يديه وتفصيلُ)، نسبت لعيسى بنِ عمرَ والزَّعْفراني وابن أبي عبلة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٢)، و«الكامل» للهُذَلي (ص: ٥٦٨).

﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: وتفصيلَ ما حقَّقَ وأثبتَ مِن العقائد والشَّرائعِ.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: مُنتفِيًا عنه الرَّيبُ، وهو خبرٌ ثالثٌ داخلٌ في حكمِ الاستدراكِ، ويجوزُ أَنْ يكونَ حالًا مِن ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ فإنَّه مَفعولٌ في المعنى، وأَنْ يكونَ استِئنافًا.

﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خبرٌ آخرُ تقديرُهُ: كائنًا مِن ربِّ العالمينَ، أو مُتعلِّقٌ بـ﴿تَصْدِيقَ﴾ أو ﴿تفصيل﴾ و﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ اعتراضٌ، أو بالفعلِ المعلَّلِ بهما(١)، ويجوزُ أَنْ يكونَ حالًا مِن ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ أَو الضَّميرِ في ﴿فِيهِ﴾.

ومساقُ الآيةِ بعدَ المنعِ عَن اتِّباعِ الظنِّ لبَيانِ ما يجبُ اتِّباعُهُ والبرهانِ عليه.

(٣٨) ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾: بل أيقولون: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ محمَّدٌ، ومعنى الهمزةِ فيه للإنكارِ.

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ في البلاغَةِ وحُسنِ النَّظمِ وقوَّةِ المَعنى على وَجهِ الافتراءِ؛ فإنَّكُم مِثلي في العَربيَّةِ والفَصاحَةِ وأشدُّ تمرُّنًا في النَّظمِ والعِبارَةِ.

﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾ ومع ذلك فاستَعينُوا بمَنْ أَمْكَنكُم أَنْ تَستَعِينُوا به ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: سِوَى اللهِ تَعالى فإنَّه وحدَهُ قادِرٌ على ذلك ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنَّه اختلَقَهُ.

(٣٩) ـ ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟﴾: بل سَارعُوا إلى التَّكذيبِ ﴿بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾: بالقُرآنِ أوَّلَ ما سَمِعوه قبلَ أن يتدبَّرُوا آياتِه ويُحيطُوا بالعلمِ بشَأنِه، أو: بما جهلوهُ ولم يُحيطُوا به علمًا مِن ذكرِ البَعثِ والجَزاءِ وسائرِ ما يُخالِفُ دينَهُم.

﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾: ولم يَقِفُوا بعدُ على تأويلِه ولم تَبْلُغ أذهانُهُم مَعانِيَه، أو: لَمْ يَأتِهِم بعدُ تَأويلُ ما فيه مِن الإخبارِ بالغُيوبِ حتَّى يَتبيَّنَ لهم أنَّه صِدقٌ أَمْ كَذِبٌ.

---

(١) قوله: «أو بالفعل»؛ أي: أو متعلق بالفعل «المعلل بهما»؛ أي: وهو أنزله. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٧٠).

والمعنى: أنَّ القُرآنَ مُعجِزٌ من جهَةِ اللَّفظِ والمعنى، ثمَّ إنَّهُم فاجؤوا تكذيبَهُ قَبْلَ أَنْ يَتدبَّرُوا نظمَهُ ويَتفحَّصُوا مَعناه.

ومَعنى التَّوقُّعِ في «لمَّا»: أنَّه قَدْ ظهرَ لَهُم بالآخرةِ إعجازُهُ لَمَّا[1] كرَّرَ عليهِم التَّحدِّيَ فرازُوا[2] قُواهُم في مُعارضَتِه فتَضاءَلَت دونَها، أو لَمَّا شاهَدُوا وقوعَ ما أخبرَ به طبقًا لإخبارِهِ مرارًا فلَمْ يُقلِعُوا عَن التَّكذيبِ تَمرُّدًا وعِنادًا.

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أنبياءَهُم ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيهِ وَعيدٌ لَهُم بمثلِ ما عُوقِبَ بهِ مَن قَبلَهُم.

(٤٠) - ﴿وَمِنۡهُم﴾: ومِن المُكذِّبينَ ﴿مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾: مَن يُصدِّقُ بهِ في نَفسِهِ ويَعلَمُ أنَّه حَقٌّ ولكن يعانِدُ، أو: مَن سيُؤمِنُ به ويَتوبُ عَن كُفرِهِ.

﴿وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾ في نفسِهِ لفَرطِ غَباوَتِه وقِلَّةِ تَدبُّرِهِ، أو فيما يُستقبلُ بل يموتُ على الكُفرِ ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾: بالمُعانِدينَ أو بالمُصرِّينَ.

(٤١) - ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾: وإنْ أَصرُّوا على تكذيبِكَ بعدَ إلزامِ الحُجَّةِ ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡ﴾: فتبرَّأْ مِنهُم فقَد أَعْذَرْتَ، والمعنى: لي جَزاءُ عَمَلِي ولكُم جَزاءُ عَمَلِكُم حَقًّا كانَ أو باطِلًا.

﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾: لا تُؤاخَذُونَ بعملي ولا أُؤاخَذُ بعَمَلِكُم، ولِمَا فيهِ مِن إيهامِ الإعراضِ عنهم وتخليَةِ سَبيلِهِم قيلَ: إنَّه مَنسوخٌ بآيةِ السَّيفِ.

---

(١) «لما»، بكسر اللامِ التعليلية، أو بفتحها بمعنى (حين)، وكذلك في «لما شاهدوا». انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) في نسخة الطبلاوي: «فزادوا»؛ تحريف. ومعنى «رازوا»: جرَّبوا وامتحنوا.

(٤٢) ـ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ إذا قرأتَ القُرآنَ وعَلَّمْتَ الشَّرائِعَ، ولكِنْ لا يقبلونَ كالأصمِّ الَّذي لا يَسمَعُ أَصْلًا.

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾: تقدِرُ على إسماعِهِم ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾: ولو انضمَّ إلى صَمَمِهِم عدمُ تَعقُّلِهِم، وفيه تَنبيهٌ على أنَّ حَقيقَةَ استماعِ الكَلامِ فَهْمُ المَعنى المقصودِ منه، ولذلكَ لا تُوصَفُ به البهائمُ، وهو لا يَتأتَّى إلَّا باستعمالِ العَقلِ السَّليمِ في تَدبُّرِه، وعُقولُهُم لَمَّا كانَتْ مَؤُوفةً[١] بمُعارضَةِ الوهمِ ومُشايعَةِ الإلفِ والتَّقليدِ تعذَّرَ إِفهامُهُم الحِكَمَ والمعانيَ الدَّقيقَةَ فلم يَنتفِعُوا بسردِ الألفاظِ عليهم غيرَ ما ينتفِعُ به البَهائِمُ من كلامِ النَّاعقِ.

(٤٣) ـ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ ويُعايِنُونَ دلائلَ نُبوَّتِكَ ولكن لا يُصدِّقُونَ.

﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾: تقدِرُ على هدايتِهِم ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾: وإن انضمَّ إلى عدمِ البَصرِ عدمُ البَصيرَةِ، فإنَّ المَقصودَ مِن الإبصارِ هو الاعتبارُ والاستبصارُ، والعمدةُ في ذلك البَصيرَةُ، ولذلك يَحْدِسُ الأعمى المُستبصِرُ ويتفطَّنُ ما لا يُدرِكُه البَصيرُ الأحمَقُ.

والآيَةُ كالتَّعليلِ للأمرِ بالتَّبرِّي والإعراضِ عَنْهُم.

(٤٤) ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ بسلبِ حواسِّـهِم وعُـقولِهِم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بإفسادِهَا وتَفويتِ مَنافِعِها عليها، وفيه دليلٌ على أنَّ للعبدِ كَسْبًا، وأنَّه ليسَ مَسلوبَ الاختيارِ بالكُلِّيَّةِ كما زعمَت المُجْبِرَةُ.

ويجوز أن يكونَ وعيدًا لهم بمَعنى: أنَّ ما يحيقُ بهم يومَ القيامةِ مِن العذابِ عَدلٌ مِن اللهِ لا يَظلِمُهُم به ولكنَّهُم ظَلَمُوا أنفُسَهُم باقترافِ أسبابِه.

---

(١) قوله: «مؤوفة»؛ أي: مشوبة بالآفات. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٧١).

(٤٥) ـ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾: يَستقصِرونَ مدَّةِ لبثِهم في الدُّنيا أو القبورِ لهولِ ما يرونَ، والجملَةُ التَّشبيهيَّةُ في موضِعِ الحالِ؛ أي: يحشُرُهُم مُشبَّهينَ بمَن لَمْ يَلبَثْ إلَّا ساعةً، أو صفةٌ لـ«يومَ» والعائدُ مَحذوفٌ تقديرُهُ: كأَنْ لَمْ يَلبَثُوا قبلَه، أو لِمَصدَرٍ مَحذوفٍ؛ أي: حشرًا كأَنْ لم يلبثُوا قبلَهُ.

﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يعرفُ بَعضُهم بَعضًا كأنَّهُم لم يَتعارَفُوا إلَّا قَليلًا، وهذا أوَّلَ ما نُشِرُوا ثمَّ ينقطِعُ التَّعارُفُ لشِدَّةِ الأمرِ عَلَيهِم، وهو حالٌ أُخرى مُقدَّرَةٌ، أو بيانٌ لقولِه: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾، أو مُتعلِّقُ الظَّرفِ والتَّقدير: يتعارفونَ يومَ يَحشُرُهُم.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ استئنافٌ للشَّهادةِ على خُسرانِهم والتَّعجُّبِ مِنه، ويجوزُ أن يكونَ حالًا مِن الضَّميرِ في ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾ على إرادةِ القَولِ.

﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ لطرقِ استعمالِ ما مُنِحُوا مِن المَعَاونِ في تَحصيلِ المعارفِ، فاستكسبُوا بها جهالاتٍ أدَّتْ بهم إلى الرَّدَى والعَذابِ الدَّائمِ.

(٤٦) ـ ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾: نُبصِّرَنَّكَ ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ مِن العَذابِ في حَياتِكَ كما أَراه يومَ بَدرٍ ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبلَ أن نُرِيَكَ ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ فنُريكَهُ في الآخرةِ، وهو جوابُ ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ وجوابُ ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ مَحذوفٌ مثلَ: فذاكَ.

﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ مُجازٍ عليه، ذَكَرَ الشَّهادةَ وأرادَ نَتيجتَها ومُقتضاهَا، ولذلك رتَّبَها على الرُّجوعِ بـ﴿ثُمَّ﴾، أو: مؤدٍّ شهادتَهُ على أفعالِهم يومَ القِيامَةِ.

(٤٧) ـ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ مِن الأُمَمِ الماضيَةِ ﴿رَّسُولٌ﴾ يُبعَثُ إليهِم ليَدعُوَهُم إلى الحقِّ ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ بالبيِّناتِ فكَذَّبُوه ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم﴾: بينَ الرَّسولِ ومُكذِّبيهِ ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: بالعدلِ، فأُنْجِيَ الرَّسولُ وأُهلِكَ المكذِّبونَ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

وقيلَ: مَعناه: لكلِّ أمَّةٍ يومَ القِيامَةِ رسولٌ تُنسبُ إليه، فإذا جاءَ رَسولُهُم الموقفَ

لِيَشهدَ عليهم بالكفرِ والإيمانِ قُضِيَ بينَهُم بإنجاءِ المُؤمِنِينَ وعِقابِ الكافِرِينَ[١]؛ كقولِه: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾ [الزمر: ٦٩].

(٤٨) ـ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ استبعادًا له واستهزاءً به ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ خطابٌ مِنْهُم للنَّبيِّ والمُؤمنينَ.

(٤٩) ـ ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ فكيفَ أملِكُ لكُم فأَستعجلَ في جَلبِ العَذابِ إِلَيْكُم ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أَنْ أَملِكَهُ؟ أو: و[٢]لكنْ ما شاءَ اللهُ مِن ذلك كائنٌ.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ مضروبٌ لهلاكِهِم ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾: لا يَتأخَّرُونَ ولا يَتقدَّمونَ، فلا تستعجِلُوا فسَيَحِينُ[٣] وَقتُكُم ويُنجزُ وعدُكُم.

(٥٠) ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ﴾ الَّذي تَستعجِلُونَ به ﴿بَيَٰتًا﴾: وقتَ بياتٍ واشتغالٍ بالنَّومِ ﴿أَوْ نَهَارًا﴾: حينَ كُنتُم مُشتغلينَ بطلبِ مَعاشِكُم.

﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: أيَّ شيءٍ من العَذابِ يَستعجِلُونَهُ وكلُّهُ مَكروهٌ لا يلائِمُ الاستعجالَ، وهو مُتعلِّقٌ بـ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ لأنَّه بمعنى: أَخبروني.

و﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ وُضعَ مَوضِعَ الضَّميرِ للدلالةِ على أنَّهُم لجُرمِهِم يَنبغِي أن يَفزعُوا مِن مَجيءِ الوعيدِ[٤] لا أن يَستعجلوهُ، وجوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ وهو: يندَمُوا على الاستعجالِ، أو: يعرفُوا خَطَأَهُ.

---

(١) في نسخة الخيالي: «المؤمن وعقاب الكافر».

(٢) «الواو» زيادة من نسخة الخيالي.

(٣) في نسخة الطبلاوي: «فسيجيء»، وقد أشار الخفاجي إلى النسختين، قال: وهما بمعنىً. وقوله: «ويُنجَز وعدكم» بالبناء للمجهول. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٤) في نسخة الخيالي: «العذاب» وفي الهامش كالمثبت نسخة.

ويجوزُ أَنْ يكونَ الجَوابُ ﴿مَّاذَا﴾ كقولِكَ: إن أتيتُكَ ماذا تُعطِيني؟ وتكونُ الجُملَةُ مُتعلِّقَةً بـ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، أو قولَه[١]:

(٥١) ـ ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ بمَعنى: إن أتاكُم عذابُهُ آمَنتُم بِه بعدَ وُقوعِهِ حينَ لا يَنفَعُكُم الإيمانُ؟ و﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ﴾ اعتراضٌ، ودخولُ حَرفِ الاستفهامِ على «ثُمَّ» لإنكارِ التَّأخيرِ.

﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ على إرادةِ القَولِ؛ أي: قيلَ لَهُم إذا آمَنُوا بعدَ وُقوعِ العَذابِ: آلآن آمَنْتُم به.

وعَن نافعٍ: ﴿آلَان﴾ بحذفِ الهَمزةِ وإلقاءِ حَرَكتِهَا على اللَّامِ[٢].

﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ تَكذيبًا واستهزاءً.

(٥٢) ـ ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ عطفٌ على «قيلَ» المُقدَّر: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ المُؤلمَ على الدَّوامِ ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ مِن الكُفرِ والمَعاصِي.

(٥٣) ـ ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾: ويَستَخبِرُونَكَ ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾: أحقٌّ ما تقولُ مِن الوَعدِ وادِّعاءِ النُّبُوَّةِ؟ تقولُه بجدٍّ أَمْ باطلٍ تهزلُ به؟ قاله حُيَيُّ بن أخطبَ لَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ[٣].

والأظهَرُ أَنَّ الاستفهامَ فيه على أصلِه؛ لقولِه: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾.

---

(١) قوله: «أو قوله»؛ بالنصب عطفٌ على ﴿مَّاذَا﴾ بعد قوله: «ويجوز أن يكون الجواب». انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٧٤)، ووقع في نسخة التفتازاني: «أو بقوله»، وهو خطأ. والمصنِّفُ تبعَ في هذا الزَّمخشريَّ في «الكشاف» (٤/ ٥٦)، ورُدَّ بأنه في غايَةِ البعدِ؛ لأنَّ ثمَّ حرفُ عطفٍ لم يسمعْ تصديرُ الجوابِ بهِ، والجُملَةُ المصدَّرَةُ بالاستفهامِ لا تقعُ جوابًا بدونِ الفاءِ. انظر: «البحر المحيط» (١٢/ ١١٣ ـ ١١٤)، و«حاشية الخفاجي».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٧)، و«التيسير» (ص: ١٢٢).

(٣) انظر: «تفسير السمرقندي» (٢/ ١٢٠) عن قتادة ومقاتل.

وقيلَ: إنَّهُ للإنكارِ، ويؤيِّدُه أنَّه قُرِئَ: «آلحقُّ هو»[١] فإنَّه فيه تَعريضٌ بأنَّه باطِلٌ.

و﴿أَحَقٌّ﴾ مُبتدأٌ والضَّميرُ مُرتفِعٌ بِهِ سادٌّ مَسَدَّ الخبرَ، أو خبرٌ مُقدَّمٌ، والجملةُ في موقعِ النَّصبِ بـ﴿يَسْتنبئونَكَ﴾.

﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾: إنَّ العذابَ لكائنٌ، أو: ما أدَّعيهِ لثابتٌ.

وقيلَ: كِلَا الضَّميرينِ للقُرآنِ، و﴿إِي﴾ بمَعنى: نعم، وهو مِن لَوازمِ القَسَمِ ولذلك يُوصَلُ بواوِه في التَّصديقِ فيقال: إي واللهِ، ولا يقالُ «إي» وحدَه.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾: فائتينَ العَذابَ.

(٥٤) ـ ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ بالشِّركِ أو التَّعدِّي على الغيرِ ﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مِن خَزائِنِها وأموالِها ﴿لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾: لجَعَلَتْهُ فِديَةً لها من العَذابِ، مِن قَولِهِم: افتَداهُ، بمَعنى: فَدَاهُ.

﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ لأنَّهم بُهِتُوا بما عايَنُوا ممَّا لم يَحْتَسِبُوه مِن فَظاعَةِ الأَمرِ وهَوْلِه فلَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يَنْطِقُوا.

وقيلَ: «أَسَرُّوا النَّدامةَ»: أخلَصُوهَا؛ لأنَّ إخفاءَهَا إخلاصُها، أو لأنَّه يُقالُ: «سِرُّ الشَّيءِ» لخالصتِه، مِن حيثُ إنَّها تَخْفَى ويُضَنُّ بها.

وقيلَ: أظهَرُوهَا، مِن قولهم: أَسَرَّ الشَّيءَ وأَشَرَّهُ: إذا أظهَرَهُ.

﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ليسَ تكريرًا؛ لأنَّ الأوَّلَ قَضاءٌ بينَ الأَنبيَاءِ ومُكذِّبِيهِم، والثَّاني مجازاةُ المُشركينَ على الشركِ أو الحكومةُ بين الظَّالِمِينَ والمَظلومينَ، والضَّميرُ[٢] إنَّما يَتناوَلُهُم لدَلالةِ الظُّلمِ عَلَيهِم.

---

(١) انظر: «المحتسب» (١/ ٣١٢)، و«الكشاف» (٤/ ٥٧)، عن الأعمش.

(٢) قوله: «والضمير»؛ أي: في ﴿بَيْنَهُم﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٧٥).

(٥٥) ـ ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ تقريرٌ لقُدرَتِهِ تَعالى علـى الإثابَةِ والعِقابِ.

﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾: ما وعدَهُ مِن الثَّوابِ والعِقابِ كائنٌ لا خُلْفَ فيه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنَّهُم لا يَعلمونَ ـ لقُصورِ عَقلِهِم ـ إلَّا ظاهِرًا مِن الحَياةِ الدُّنيَا.

(٥٦) ـ ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ في الدُّنيَا، فهُوَ يقدرُ عليهِمَا في العُقبى؛ لأنَّ القادِرَ لذَاتِه لا تزولُ قُدرَتُهُ، والمادَّةُ القابِلَةُ بالذَّاتِ للحَياةِ والموتِ قابلَةٌ لهمَا أَبدًا.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالموتِ أو النُّشورِ(١).

(٥٧) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: قَدْ جاءَكُم كِتابٌ جامِعٌ للحِكمَةِ العَمَليَّةِ الكاشِفَةِ عَن مَحاسنِ الأَعمالِ ومَقابِحِها المُرغِّبَةِ في المَحاسنِ والزَّاجرَةِ عَن المَقابحِ، والحكمةِ النَّظَريَّةِ التي هي شِفاءٌ لِمَا في الصُّدورِ مِـن الشُّكوكِ وسُوءِ الاعتقادِ، وهُدًى إلى الحقِّ واليَقينِ ورَحمةٌ للمُؤمنينَ، حيثُ أُنزلَت عَلَيهِم فنجَوا بها مِن ظُلماتِ الضَّلالِ إلى نورِ الإيمانِ، وتَبدَّلَت مَقاعِدُهُم مِن طَبقاتِ النِّيرانِ بمَصاعِدَ مِن دَرجاتِ الجنانِ، والتَّنكيرُ فيها للتَّعظيمِ.

(٥٨) ـ ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ بإنزالِ القُرآنِ، والباءُ مُتعلِّقَةٌ بفعلٍ يُفسِّرُهُ قولُه: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾؛ فإنَّ اسمَ الإشارَةِ بمنزِلَةِ الضَّميرِ، تَقديرُهُ: بفَضلِ اللهِ وبرَحمَتِهِ فليَعْتَنُوا ـ أو فليَفْرَحُوا ـ فبذلك فليفرحوا، وفائدةُ ذلك التَّكريرِ: التَّأكيدُ والبَيانُ بعدَ الإجمالِ، وإيجابُ اختِصاصِ الفَضلِ والرَّحمَةِ بالفَرَحِ.

---

(١) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «والنشور».

أو بفعلٍ دَلَّ عليه ﴿قَدْ جَآءَتْكُم﴾، و«ذلك» إشارةٌ إلى مَصدَرِه؛ أي: فبمَجيئِها فليَفْرَحُوا.

والفاءُ[1] بمَعنى الشَّرطِ؛ كأنَّه قيلَ: إنْ فَرِحُوا بشَيءٍ فبهِمَا ليَفْرَحُوا، أو للرَّبطِ بما قَبْلَها والدَّلالةِ عَلى أنَّ مَجيءَ الكِتابِ الجامعِ بينَ هذه الصِّفاتِ مُوجِبٌ للفَرحِ، وتَكريرُها للتَّأكيدِ؛ كقولِه[2]:

وإذا هَلَكْتُ فعنـدَ ذلـك فاجزَعِـي

وعَـن يعقـوبَ: ﴿فَلْتَفْرَحُـوا﴾ بالتَّاءِ على الأصـلِ المرفـوضِ[3]،..........

---

(١) في نسخة التفتازاني: «والفاء الأولى». وقد أشار إلى النسختين الخفاجيُّ في «حاشيته»، وكأنه رجح المثبت؛ لأنه يحتمل الفاء الأولى أو الثانية، وتكون الأخرى زائدة، وكلا القولين فيه وجه. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) عجزُ بيتٍ للنمرِ بن تولب في «ديوانه» (ص: ٨٤)، و«الكتاب» لسيبويه (١/ ١٣٤)، و«المقتضب» للمبرد (٢/ ٧٦)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (١/ ٣١٤). وصدرُه:

لا تجزَعي إن مُنْفِسًا أهلكْتُهُ ....

والمَعنى: لا تجزَعِي على ما أتلَفْتُه من المالِ؛ فإني أُحصِّلُ لك أمثالَه، ولكن اجزعي إذا هَلكتُ فإنَّك لا تَجدينَ مِن يخلفُ عليك مثلي، وكان النَّمِرُ قد نزلَ به في الجاهليَّةِ أخوانِ فعقرَ لهما أربعَ قلائِصَ فلامَتْه على ذلك. انظر: «تلخيص الشواهد» لابن هشام (ص: ٥٠٠).

(٣) هي رواية رويس عن يعقوب. انظر: «حجة القراءات» لابن زنجلة (ص: ٣٣٣)، و«النشر» لابن الجزري (٢/ ٢٨٥). وذكرها الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٩٨) عن الحسن. وعزاها ابن خالويه في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٢)، وابن جني في «المحتسب» (١/ ٣١٣) للنبي ﷺ، وزاد ابن جني: عثمان بن عفان وأُبي بن كعب رضي الله عنهما، والحسن وأبي رجاء ومحمد بن سيرين والأعرج، وأبي جعفر بخلاف، والسلمي وقتادة والجحدري وهلال بن يَسَاف، والأعمش بخلاف، وعباس بن الفضل وعمرو بن فائد. وانظر التعليق الآتي.

وقوله: «على الأصل المرفوض»؛ أي: قرئت على أصلها المتروك، وهو أمر المخاطب لا الغائب، =

وقـد رُوِيَ مَرفوعًـا[1] ويُؤَيِّـدُه أنَّه قُـرِئَ: «فافْرَحُوا»[2].

﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ مِـن حُطـامِ الدُّنيـا، فإنَّها إلى الـزَّوالِ، و﴿هُوَ﴾ ضميرُ «ذلك».

وقرأَ ابنُ عامرٍ: ﴿تَجْمَعونَ﴾[3] على مَعنى: فبذلك فليَفْرَحِ المُؤمِنُونَ فهوَ خَيرٌ ممَّا تَجمَعُونَ أيُّها المُخاطَبونَ.

= وذلك أن أصل الأمر أن يكون بحرف اللام مع المضارع، لكن لما كثر أمر المخاطب حذفوا اللام مع حرف المضارعة الذي هو التاء، وبقي ما بعده ساكنًا، فاحتيج إلى همزة الوصل ليقع الابتداء بها، فإذا أتي بأمر المخاطب فقد استعمل الأصل المتروك فيه. انظر: «المحتسب» (ص: ١/ ٣١٣)، و«حاشية الخفاجي».

(١) روي ذلك عن أبي بن كعب رضي الله عنه مرفوعًا وموقوفًا، والصواب الوقف، فقد رواه سعيد بن منصور في «سننه» (١٠٦٢ ـ تفسير) عن أُبيِّ بنِ كعبٍ قال: قال لي رسولُ اللهِ ﷺ: «أُمِرْتُ أنْ أَقرأَ عليكَ القرآنَ»، قال: قُلْتُ: سَمَّاني لك ربِّي؟ قال: «نَعَمْ»، فتَلَا: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ قال: بكتاب اللهِ وبالإسلامِ خَيرٌ مما يجمعون.

والصواب أن المرفوع من هذا الحديث ينتهي عند قوله: «نعم»، ويشهد لذلك أن الحديث رواه البخاري (٣٨٠٩)، ومسلم (٧٩٩)، عن أنس رضي الله عنه، وينتهي عند قوله: «نعم».

أما الآية فقد جاء في كثير من الروايات أن الذي قرأها هو أبي رضي الله عنه، وأنه قرأ فيها: ﴿فَلْيَفْرَحُواْ﴾ بالتاء، انظر: «مصنف ابن ابي شيبة ـ تحقيق محمد عوامة» (٣٠٩٣٧)، و«مسند أحمد» (٢١٢٣٧)، و«خلق أفعال العباد» للبخاري (٥٣٤)، و«سنن أبي داود» (٣٩٧٩)، و«شرح معاني الآثار» (٥٥٨٧).

(٢) نسبت لأُبيِّ بنِ كعب رضي الله عنه. انظر: «المحتسب» (١/ ٣١٣)، و«الكشاف» (٤/ ٦١)، وزاد العُكبَرِيُّ في «إعراب القراءات الشواذ» (١/ ٦٤٨) نسبتها لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٧)، و«التيسير» (ص: ١٢٢).

(٥٩) ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ جعلَ الرِّزْقَ مُنْزَلًا لأنَّه مُقدَّرٌ في السَّماءِ محصَّلٌ بأسبابٍ مِنْهَا، و﴿مَّآ﴾ في مَوضعِ النَّصبِ بـ﴿أَنزَلَ﴾، أو بـ﴿أَرَءَيْتُم﴾ فإنَّه بمَعنى: أَخبِرُوني.

و﴿لَكُم﴾ دلَّ على أنَّ المُرادَ مِنه ما حَلَّ، ولذلك وبَّخ على التَّبعيضِ فقالَ: ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ مثلَ: ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ [الأنعام: ١٣٨]، ﴿مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩].

﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ في التَّحريمِ والتَّحليلِ فتقولونَ ذلك بحُكْمِه.

﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ في نِسبَةِ ذلك إليهِ، ويَجوزُ أَنْ تَكونَ المُنفصلَةُ مُتَّصِلَةً بـ﴿أَرَءَيْتُم﴾ و﴿قُلْ﴾ مُكَرَّرٌ للتَّأكيدِ.

وأن[١] يكونَ الاستفهامُ[٢] للإنكارِ، و﴿أَمْ﴾ مُنقطعَةً، ومَعنى الهمزةِ فيها تقريرٌ لافترائِهم على اللهِ.

(٦٠) ـ ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾: أيُّ شيءٍ ظَنُّهُم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أيحسبونَ أن لا يُجازَوْا عليه؟ وهو مَنصوبٌ بالظنِّ، ويدلُّ عليه أنَّه قُرِئَ بلفظِ الماضي[٣] لأنَّه كائنٌ، وفي إبهامِ الوعيدِ تَهديدٌ عَظيمٌ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ حيثُ أنعمَ عليهم بالعَقلِ وهَدَاهُم بإرسالِ الرُّسُلِ وإنزالِ الكُتبِ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ هذه النِّعمَةَ.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «ويجوز أن».

(٢) أي في: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٧٩).

(٣) أي: (وما ظَنَّ) نسبت لعيسى بن عمر. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٢)، و«الكشاف» (٤/ ٦٣).

(٦١) ـ ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾: ولا تكونُ في أمرٍ، وأصلُهُ الهَمزُ مِن شَأَنْتُ شَأْنَهُ: إذا قَصَدْتَ قَصْدَه، والضَّميرُ في ﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ﴾ له؛ لأنَّ تِلاوةَ القُرآنِ مُعظَمُ شأنِ الرَّسُولِ عليهِ السَّلامُ، أو لأن القِراءَةَ تَكونُ لشَأنٍ، فيكونُ التَّقدير: مِن أَجلِهِ، ومَفعولُ ﴿تَتْلُواْ﴾[١]: ﴿مِن قُرْءَانٍ﴾ على أنَّ ﴿مِن﴾ تبعيضيَّةٌ، أو مَزيدَةٌ لتَأكيدِ النَّفيِ.

أو للقُرآنِ[٢] وإضمارُهُ قبلَ الذِّكرِ ثمَّ بَيانُهُ تَفخيمٌ لَهُ، أو للهِ.

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ تعميمٌ للخِطابِ بعدَ تَخصيصه بمَن هو رَأسُهُم[٣]، ولذلكَ ذُكِرَ حيثُ خَصَّ ما فيه فخامَةٌ، وذكرَ حيثُ عَمَّ ما يتناوَلُ الجَليلَ والحَقيرَ.

﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾: رُقباءَ مُطَّلِعينَ عليه ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾: تَخوضونَ فيه وتَنْدَفِعونَ.

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾: ولا يَبْعُدُ عَنه ولا يَغيبُ عَن علمِه.

وقرأَ الكِسائيُّ بكسرِ الزَّايِ هنا وفي (سبأ)[٤].

﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾: مُوازِنِ نملةٍ صَغيرةٍ أو هَباءٍ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: في الوجودِ والإمكانِ؛ فإنَّ العامَّةَ لا تعرِفُ مُمكِنًا غيرَهُما ليسَ فيهِما ولا مُتَعلِّقًا بهما، وتَقديمُ الأرضِ لأنَّ الكَلامَ في حالِ أَهلِهَا، والمقصودُ منه: البُرهانُ على إحاطةِ علمِهِ بها.

---

(١) قوله: «ومفعول ﴿تَتْلُواْ﴾»؛ أي: على الوجهين. انظر: «حاشية القونوي» (٩/ ٥٠٧).

(٢) قوله: «أو للقرآن» عطف على «له»؛ يعني: أن ضميرَ ﴿مِنْهُ﴾ للشأن، أو للقرآن. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٧٩).

(٣) قوله: «بعد تخصيصه بمن هو رأسهم»؛ أي: وهو النبي ﷺ في قوله: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ ﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٨٠).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٨)، و«التيسير» (ص: ١٢٣).

﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ كلامٌ برأسِهِ مُقرِّرٌ لِمَا قبلَهُ، و«لا» نافِيَةٌ و﴿أَصۡغَرَ﴾ اسمُها و﴿فِي كِتَٰبٖ﴾ خبرُها.

وقرأَ حمزَةُ ويَعقوبُ بالرَّفعِ[1] على الابتداءِ والخبرِ، ومَن عطفَ على لفظِ ﴿مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ﴾ وجعلَ الفتحَ بدلَ الكسرِ لامتناعِ الصَّرفِ، أو على محلِّهِ معَ الجارِّ، جعلَ الاستثناءَ مُنقطِعًا.

والمرادُ بالكتابِ: اللوحُ المَحفوظِ.

(٦٢) ـ ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾: الَّذينَ يَتولَّوْنَهُ بالطَّاعَةِ ويَتولَّاهُم بالكَرامَةِ ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ مِن لُحوقِ مَكروهٍ ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ بفَواتِ مَأمولٍ. والآيَةُ كمُجْمَلٍ فسَّرَه قولُه:

(٦٣) ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾. وقيلَ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ بيانٌ لتَوَلِّيهم لهُ.

(٦٤) ـ ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ وهو ما بَشَّرَ به المتَّقينَ في كتابِه وعلى لسانِ نَبيِّهِ، وما يُريهِم مِن الرُّؤيَا الصَّالِحَةِ، وما يَسنحُ لهم من المكاشَفاتِ، وبُشرى المَلائكَةِ عندَ النَّزعِ ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ بتَلَقِّي المَلائكةِ إيَّاهُم مُسلِّمينَ مُبشِّرينَ بالفَوزِ والكَرامَةِ. بيانٌ لتولِّيهِ لهم.

ومحلُّ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ النَّصبُ أو الرَّفعُ على المدحِ، أو على وَصفِ الأَوْلِيَاءِ، أو على الابتداءِ وخبره: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾.

﴿لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا تَغييرَ لأقوالِهِ ولا إخلافَ لِمَواعيدِه.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى كونِهِم مُبشَّرينَ في الدَّارينِ ﴿هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ هذه

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٨)، و«التيسير» (ص: ١٢٣)، و«النشر» (٢/ ٢٨٥).

الجملَةُ والتي قبلَهَا اعتراضٌ لتحقيقِ المبشَّرِ به وتعظيمِ شَأنِه، وليسَ مِن شرطِهِ أن يقَعَ بعدَهُ كلامٌ يتَّصِلُ بما قبلَهُ.

(٦٥) ـ ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾: إشراكُهُم وتكذيبُهُم وتَهديدُهُم.

وقرأَ نافعٌ: ﴿يُحْزِنْكَ﴾ مِن أحزنَهُ[1]، وكِلاهُمَا بمَعنًى.

﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ استئنافٌ بمَعنى التَّعليلِ، ويدلُّ عليه القِراءَةُ بالفَتحِ[2]؛ كأنَّه قيلَ: لا تحزَنْ بقولِهِم ولا تُبالِ بهم؛ لأنَّ الغلبَةَ للهِ جَمِيعًا لا يملِكُ غيرُهُ شيئًا مِنْها، فهوَ يقهَرُهُم ويَنصرُكَ عليهِم.

﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالِهِم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بعزماتِهِم فيُكافِئُهُم علَيْها.

(٦٦) ـ ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مِن المَلائِكَةِ والثَّقَلينِ، وإذا كانَ هؤلاءِ الَّذينَ هُم أشرَفُ المُمكِنَاتِ عَبيدًا لا يصلحُ أحدٌ مِنْهُم للرُّبوبيَّةِ فمَا لا يَعقلُ مِنْها أحَقُّ أن لا يكونَ له نِدًّا أو شريكًا، فهو كالدَّليلِ على قولِه: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾؛ أي: شُركاءَ على الحقيقَةِ وإن كانُوا يُسَمُّونَها شركاءَ.

ويجوزُ أَنْ يكونَ ﴿شُرَكَآءَ﴾ مفعولُ ﴿يَدْعُونَ﴾ ومفعولُ ﴿يَتَّبِعُ﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾؛ أي: ما يتَّبعونَ يقينًا وإنَّما يتبعونَ ظنَّهُم أنَّها شُركاءُ.

ويجوزُ أَنْ تكونَ «ما» استفهاميَّةً مَنصوبةً بـ﴿يَتَّبِعُ﴾، أو موصولةً مَعطوفةً على ﴿مَن﴾.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢١٩)، و«التيسير» (ص: ٩١).

(٢) نسبت لأبي حيوة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٢)، و«الكشاف» (٤/ ٦٨).

وقُرِئَ: «تدعون» بالتَّاءِ[1]، والمعنى: وأيَّ شيءٍ يتبعُ الَّذينَ تدعونَهُم شركاءَ مِن الملائكةِ والنَّبِيِّين؟ أي: أَنَّهُم لا يتَّبعونَ إلَّا اللهَ ولا يعبدونَ غيرَهُ فما لَكُم لا تتَّبعونَهُم فيه؟ كقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧] فيكونُ إلزامًا بعدَ بُرهانٍ، وما بعدَهُ مصروفٌ عَن خِطابِهِم لبيانِ سَندِهِم ومنشأ رَأيِهِم.

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾: يكذبونَ فيما يَنسبونَ إلى اللهِ، أو يَحْزِرونَ ويقدِّرونَ أنَّها شُركاءُ تَقديرًا باطِلًا.

(٦٧) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ تنبيهٌ على كمالِ قُدرَتِه وعَظيمِ نِعمَتِه المتوحِّدِ هو بهمَا؛ ليدلَّهم على تفرُّدِه باستحقاقِ العِبادَةِ.

وإنَّما قال: ﴿مُبْصِرًا﴾ ولم يقل: لتُبصِرُوا فيه، تفرقَةً بين الظَّرفِ المجرَّدِ والظَّرفِ الَّذي هو سببٌ[2].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماعَ تدبُّرٍ واعتبارٍ.

(٦٨) ـ ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾؛ أي: تَبنَّاه ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيهٌ له عن التَّبنِّي فإنَّه لا يَصِحُّ إلَّا ممَّنْ يُتصوَّرُ له الولدُ، وتعجيبٌ[3] مِن كلمتِهم الحمقاءِ.

﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عِلَّةٌ لتنزُّهِه، فإنَّ اتِّخاذَ الولدِ سببٌ عَن الحاجةِ.

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تقريرٌ لغِناه.

---

(١) نسبت لعلي رضي الله عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٢)، و«الكشاف» (٤/ ٦٩).

(٢) قوله: «تفرقة بين الظرف المجرد»؛ أي: عن التسبُّبِ، وهو النهارُ «والظرف الذي هو سبب» وهو الليلُ؛ لأنَّه سببٌ للسُّكون. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٨٣).

(٣) في نسخة الطبلاوي ونسخة الخيالي: «وتعجب». وقد أشار إلى النسختين الخفاجي والقونوي، ورجَّحَ القونويُّ المثبتَ. انظر: «حاشية الخفاجي»، و«حاشية القونوي» (٩/ ٥٢٢).

﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنِۭ بِهَٰذَآ﴾ نفيٌ لِمُعارضٍ ما أقامَهُ مِن البرهانِ؛ مُبالغةً في تَجهيلِهِم وتحقيقًا لبُطلانِ قَولِهِم، و﴿بِهَٰذَآ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿سُلْطَٰنِۭ﴾ أو نعتٌ له، أو بـ﴿عِندَكُم﴾ كأنَّه قيلَ: إنْ عِندَكُم في هذا سلطانٌ.

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ توبيخٌ وتَقريعٌ على اختِلافِهِم وجهلهم، وفيهِ دَليلٌ على أنَّ كلَّ قَولٍ لا دليلَ عليهِ فهو جهالةٌ، وأنَّ العَقائدَ لا بدَّ لها مِن قاطعٍ، وأنَّ التَّقليدَ فيها غيرُ سائغٍ.

(٦٩) ـ ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ باتِّخاذِ الولدِ وإضافةِ الشَّريكِ إليه ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾: لا يَنْجُونَ مِن النَّارِ ولا يفوزونَ بالجنَّةِ.

(٧٠) ـ ﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ خبرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ؛ أي: افتراؤُهُم متاعٌ في الدُّنيا يُقيمونَ بهِ رئاسَتَهُم في الكفرِ، أو: حياتُهُم ـ أو: تقلُّبُهُم ـ متاعٌ، أو مبتدأٌ خبرُهُ مَحذوفٌ؛ أي: لهم تمتُّعٌ في الدُّنيَا.

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ بالموتِ فيلقونَ الشَّقاءَ المؤبَّدَ ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾: بسببِ كُفرِهِم.

(٧١) ـ ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾: خبرَهُ مع قومِه ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم﴾: عَظُمَ عليكُم وشقَّ ﴿مَّقَامِى﴾: نَفْسِي؛ كقولِكَ: فعلتُ كذا لِمَكانِ فلانٍ، أو: كوني وإقامَتِي بينكُم مدَّةً مَديدةً، أو: قيامِي على الدَّعوَةِ.

﴿وَتَذْكِيرِى﴾ إيَّاكُم ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾: وَثِقْتُ به ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ﴾: فاعزِمُوا عليه ﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾؛ أي: مع شُركائِكُم، ويؤيِّدُه القراءَةُ بالرَّفعِ[1] عطفًا على الضَّميرِ المتَّصِلِ، وجازَ مِن غيرِ أَنْ يُؤَكَّدَ؛ للفَصلِ.

---

(١) وهي قراءة يعقوب من العشرة. انظر: «النشر» (٢/ ٢٨٥).

وقيلَ: إنَّه مَعطوفٌ على ﴿أَمْرَكُمْ﴾ بحذفِ المُضافِ؛ أي: وأمرَ شُركائِكُم.

وقيلَ: إنَّه مَنصوبٌ بفعلٍ مَحذوفٍ تَقديرُهُ: «وادعُوا شُركاءَكُم»، وقَد قُرِئَ به[1].

وعن نافِعٍ: ﴿فَاجمَعُوا﴾ مِن الجمعِ[2]، والمعنى: أمرُهُم بالعزمِ، أو الاجتماعِ على قَصدِه والسَّعي في إهلاكِه على أيِّ وَجهٍ يُمكِنُهُم؛ ثقةً باللهِ وقلةَ مُبالاةٍ بِهِم.

﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ﴾ في قَصدِي ﴿عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾: مَستورًا واجعَلُوه ظاهِرًا مكشوفًا، مِن غَمَّه: إذا سترَهُ، أو: ثمَّ لا يَكُن حالُكُم عليكُم غمًّا إذا أهلَكْتُمُوني وتخلَّصْتُم مِن ثقلِ مَقامِي وتَذكيرِي.

﴿ثُمَّ اقْضُوا﴾: أدُّوا ﴿إِلَيَّ﴾ ذلك الأمرَ الَّذي تُريدونَ بي.

وقُرِئَ: «ثمَّ أَفْضُوا إليَّ» بالفاءِ[3]؛ أي: انتَهُوا إليَّ بشرِّكُم، أو: ابرُزُوا إليَّ، مِن أَفْضَى: إذا خرجَ إلى الفَضاءِ.

﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾: ولا تُمهِلُونِي.

(٧٢) ـ ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾: أعرَضْتُم عن تَذكيرِي ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ يوجبُ تَولِّيكُم لثقلِهِ عليكُم واتِّهامِكُم إيَّايَ لأجلِهِ، أو: يفوتُنِي لتَوَلِّيكُم.

﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾: ما ثَوابي عَلى الدَّعوةِ والتَّذكيرِ ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ لا تَعلُّقَ لـه بِكُم،

---

(١) أي: (فأَجمِعوا أمركم وادْعُوا شركاءكم)، نسبت لأبيٍّ وابن مسعود رضي الله عنهما. انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٧٣)، و«تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة (ص: ١٣٥)، و«القطع والائتناف» للنحاس (ص: ٣٠٧)، و«الكشاف» (٤/ ٧٣)، وذكرها ابن جني في «المحتسب» (١/ ٣١٤) بلفظ: (وادْعُوا شُركاءَكم ثم اجمَعوا أَمْرَكم).

(٢) انظر: «النشر» (٢/ ٢٨٥) من رواية رويس عن يعقوب. والمشهور عن نافع: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ﴾ كالجمهور.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٢)، و«المحتسب» (١/ ٣١٥)، عن السري بن ينعم.

يُثيبُنِي بِهِ آمَنْتُم أو تَوَلَّيْتُم ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ المُنْقادِينَ لِحُكمِهِ لا أخالِفُ أمرَهُ ولا أرجو غيرَهُ.

(٧٣) ـ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فأصرُّوا على تكذيبِهِ بعدَما ألزَمَهُم الحجَّةَ وبيَّنَ أنَّ تولِّيهِم ليسَ إلَّا لِعنادِهِم وتمرُّدِهِم، لا جَرَمَ حقَّتْ عليهِم كلمةُ العَذابِ.

﴿فَنَجَّيْنَهُ﴾ من الغرقِ ﴿وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ﴾ وكانُوا ثمانين ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ خَلَـٰٓئِفَ﴾ مِن الهالكينَ به ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ بالطُّوفانِ ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ تعظيمٌ لِمَا جَرَى عليهم، وتحذيرٌ لِمَن كذَّبَ الرَّسولَ عليه السَّلامُ، وتسليةٌ له.

(٧٤) ـ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾: أَرْسَلْنَا ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾: مِن بعدِ نُوحٍ ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ كلَّ رَسولٍ إلى قومِه ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ بالمعجزاتِ الواضحَةِ المبيِّنَةِ لدَعْوَاهُم.

﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ﴾: فما استقامَ لَهُم أَنْ يُؤمِنُوا لشدَّةِ شَكِيمَتِهم في الكُفرِ وخذلانِ اللهِ إيَّاهُم ﴿بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: بسببِ تَعوُّدِهِم تكذيبَ الحقِّ وتمرُّنِهِم عليه قبلَ بعثِه الرُّسُلَ.

﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ بخذلانِهِم لانهماكِهِم في الضَّلالِ واتِّباعِ المألوفِ، وفي أمثالِ ذلك دليلٌ على أنَّ الأفعالَ واقعةٌ بقدرةِ اللهِ وكسبِ العَبدِ وقد مرَّ تحقيقُ ذلك.

(٧٥) ـ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ مِن بعدِ هؤلاءِ الرُّسُلِ ﴿مُّوسَىٰ وَهَـٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾: بالآياتِ التِّسعِ[١] ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ عن اتِّباعِهِما[٢] ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ معتادينَ الإجرامَ[٣] فلذلك تَهاوَنُوا برِسالةِ رَبِّهِم فاجترَؤُوا على رَدِّهَا.

---

(١) هيَ العصا واليدُ البيضاءُ والطُّوفانُ والجرادُ والقمَّلُ والضَّفادعُ والدَّمُ والطمسُ وفلقُ البحرِ. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «اتباعها».

(٣) قوله: «الإجرام»؛ بفتح الهمزة وكسرها، على الجمع والإفراد؛ أي: الذنوب العظيمة أو فعل الذنب =

(٧٦) ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا﴾ وعَرَفوهُ بتَظاهُرِ المُعجِزَاتِ القاهِرَةِ المزيحةِ للشكِّ ﴿قَالُوٓاْ﴾ مِن فرطِ تَمرُّدِهِم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ ظاهرٌ أنَّه سِحرٌ، أو فائِقٌ في فنِّهِ واضِحٌ فيما بينَ إخوانِه.

(٧٧) ـ ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡ﴾: إنَّه لسِحرٌ، فحُذفَ المَحكيُّ المقولُ[1] لدلالةِ ما قبلَه عليهِ، ولا يَجوزُ أن يكونَ: ﴿أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾ لأنَّهُم بَتُّوا القولَ، بل هو استئنافٌ بإنكارِ ما قالوهُ، اللهمَّ إلَّا أَنْ يكونَ الاستفهامُ فيه للتَّقريرِ والمحكيُّ مَفهومُ قولِهم.

ويجوزُ أَنْ يكونَ مَعنى ﴿أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ﴾: أَتعيبونَهُ، مِن قولِهِم: «فلانٌ يخافُ القالةَ» كقولِه: ﴿سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ﴾ [الأنبياء: ٦٠] فيَستغني عَن المفعولِ.

﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ مِن تمامِ كلامِ مُوسَى عليهِ السَّلام للدَّلالةِ على أنَّه ليسَ بسحرٍ، فإنَّهُ لو كانَ سِحْرًا لاضمحلَّ ولم يُبطِلْ سحرَ السَّحَرَةِ، ولأنَّ العالِمَ بأنَّه لا يفلِحُ السَّاحرُ لا يَسحَرُ.

أو مِن تمامِ قَولِهِم إنْ جُعلَ ﴿أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾ محكيًا؛ كأنَّهُم قالُوا: أجِئْتَنَا بالسِّحرِ تطلبُ به الفلاحَ ولا يفلحُ السَّاحِرونَ.

(٧٨) ـ ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا﴾: لتَصرِفَنا، واللَّفْتُ والفَتْلُ أخوانِ ﴿عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا﴾ مِن عبادَةِ الأَصنامِ ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: المُلْكُ فيها، سُمِّيَ بها لاتِّصافِ الملوكِ بالكِبْرِ، أو: التكبُّرُ على النَّاسِ باستِتْبَاعِهِم.

﴿وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ﴾: بمُصدِّقينَ فيما جِئتُمَا به.

= العظيم. انظر: «حاشية الخفاجي».

(١) في نسخة التفتازاني: «محكي القول».

(٧٩) ـ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ﴾ وقرأ حمزةُ والكِسائيُّ: ﴿بكُلِّ سَحَّارٍ﴾[1].

﴿عَلِيمٍ﴾: حاذِقٍ فيه.

(٨٠ ـ ٨١) ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾؛ أي: الَّذي جِئتُم بِهِ هو السِّحرُ لا ما سَمَّاهُ فِرعونُ وقومُه سِحْرًا.

وقرأ أبو عَمرٍو: ﴿آلسِّحْرُ﴾[2] على أنَّ ﴿مَآ﴾ استفهاميَّةٌ مرفوعةٌ بالابتداءِ، و﴿جِئْتُم بِهِ﴾ خبرُها، و﴿آلسِّحْرُ﴾ بَدلٌ مِنه، أو خبرُ مُبتدأ محذوفٍ تَقديرُهُ: أهوَ السِّحرُ، أو مبتدأٌ خبرُه مَحذوفٌ؛ أي: آلسِّحرُ هُوَ؟

ويجوزُ أَنْ ينتصبَ ﴿مَآ﴾ بفعلٍ يُفسِّرُه ما بعدَهُ تقديرُه: أيَّ شيءٍ أَتيتُم[3].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾: سيمحَقُه، أو: سيُظهرُ بُطلانَه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ لا يُثبِّتُهُ ولا يُقوِّيه. وفيه دليلٌ على أنَّ السِّحرَ إفسادٌ وتَمويهٌ لا حقيقةَ له.

(٨٢) ـ ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾: ويُثبِّتُه ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾: بأوامرِهِ وقَضاياه، وقُرِئَ: «بكَلِمَتِه»[4] ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ذلك.

(٨٣) ـ ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾ في مبدأِ أمرِهِ ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾: إلَّا أولادٌ مِن أولادِ قومِهِ بَنِي إسرائيلَ، دَعاهُم فلَمْ يُجيبوهُ خَوْفًا مِن فِرعَوْنَ إلَّا طائفةً مِن شُبَّانِهِم.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٩)، و«التيسير» (ص: ١١٢).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٨)، و«التيسير» (ص: ١٢٣).

(٣) قوله: «ويجوز أن ينتصب ﴿مَآ﴾...»؛ أي: ويجوز أن تكون ﴿مَآ﴾ استفهامية منصوبة المحل بفعل مقدَّرٍ بعدها ـ لأن لها صدر الكلام ـ ويكون ﴿جِئْتُم بِهِ﴾ مفسّرًا لذلك الفعل المقدر، وتكون المسألة من باب الاشتغال، والتقدير: أي شيء أتيتم جئتم به. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٤/ ٥٩٧).

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٢) عن بعضهم.

وقيلَ: الضَّميرُ لِفرعَوْنَ، والذُّرِّيَّةُ طائفةٌ مِن شُبَّانِهِم آمَنُوا بهِ، أو مُؤمِنُ آلِ فِرعَوْنَ وامرأَتُهُ آسيَةُ وخازِنُهُ وزَوْجَتُهُ وماشِطَتُهُ.

﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾؛ أي: مع خَوْفٍ مِنْهُم، والضَّميرُ لـ﴿فِرْعَوْنَ﴾ وجمعُهُ على ما هو المعتادُ في ضَميرِ العُظَماءِ، أو على أنَّ المُرادَ بـ﴿فِرْعَوْنَ﴾: آلُهُ؛ كمَا يُقالُ: رَبيعَةُ ومُضَرُ، أو للذُّرِّيَّةِ، أو للقَوْمِ.

﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾: أَنْ يُعَذِّبَهُم فِرْعَوْنُ، وهو بَدَلٌ مِنْهُ أو مَفعولُ ﴿خَوْفٍ﴾، وإفرادُهُ بالضَّميرِ للدَّلالَةِ على أنَّ الخوفَ مِن الملأِ كانَ بسببِهِ.

﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: لغالِبٌ فيها ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ في الكِبْرِ والعُتُوِّ حتَّى ادَّعَى الرُّبُوبيَّةَ واستَرَقَّ أسباطَ الأنبياءِ.

(٨٤) ـ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ لَمَّا رَأَى تَخَوُّفَ المُؤمنينَ به: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ وَثِقُوا به واعتمَدُوا عليهِ ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾: مُستَسْلِمينَ لقَضاءِ اللهِ مُخلِصِينَ لهُ، وليسَ هذا مِن تَعليقِ الحُكمِ بشَرْطَيْنِ، فإنَّ المعلَّقَ بالإيمانِ وجوبُ التَّوكُّلِ فإنَّه المُقتضي لهُ، والمَشروطَ بالإِسلامِ حصولُه فإنَّهُ لا يُوجَدُ مع التَّخليطِ، ونَظيرُهُ: «إن دعاكَ زيدٌ فأَجِبْهُ إنْ قَدَرْتَ».

(٨٥) ـ ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لأنَّهم كانُوا مُؤمنينَ مُخلصينَ ولذلك أُجيبَتْ دَعْوَتُهم.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾: موضِعَ فِتنَةٍ ﴿لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: لا تُسَلِّطْهُم علينا فيَفْتِنُونَنا.

(٨٦) ـ ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: مِن كيدِهِم وشُؤمِ مُشاهدَتِهِم.

وفي تَقديمِ التَّوكُّلِ عَلى الدُّعاءِ تَنبيهٌ على أنَّ الدَّاعِيَ يَنبَغِي أَنْ يَتوكَّلَ أولًا لتُجابَ دَعْوَتُه.

(٨٧) ـ ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا﴾؛ أي: اتَّخذا مباءةً[١] ﴿لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ تَسكنونَ فيها، أو ترجِعونَ إليها للعِبادَةِ.

﴿وَٱجْعَلُوا۟﴾ أنتُما وقَومُكُما ﴿بُيُوتَكُمْ﴾: تلك البيوتَ ﴿قِبْلَةً﴾: مُصلًّى، وقيلَ: مَسَاجِدَ مُتوجِّهَةً نحوَ القِبلَةِ، يَعني: الكعبةَ، وكانَ مُوسى يُصلِّي إِلَيْهَا ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فيها؛ أُمِرُوا بذلك أوَّلَ أَمْرِهِم لئلَّا يظهرَ عليهِم الكفَرَةُ فيُؤْذُوهُم ويَفتِنُوهُم عن دينِهِم.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنُّصرَةِ في الدُّنْيَا والجَنَّةِ في العُقْبَى.

وإنَّما ثَنَّى الضَّميرَ أَوَّلًا لأنَّ التَّبوُّءَ للقَومِ واتِّخاذَ المَعابد ممَّا يَتعاطاه رُؤوسُ القَوْمِ بتَشاوُرٍ، ثمَّ جَمَعَ لأنَّ جعلَ البُيوتِ مَساجِدَ والصَّلاةَ ممَّا يَنْبَغي أَنْ يفعلَهُ كلُّ أحدٍ، ثمَّ وحَّدَ لأنَّ البشارةَ في الأصلِ وَظيفَةُ صاحبِ الشَّريعَةِ.

(٨٨) ـ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾: ما يتزيَّنُ بهِ مِن اللباسِ والمراكبِ ونحوهما ﴿وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: وأنواعًا مِن المالِ.

﴿ربَّنا لِيَضِلُّوا عن سَبيلِكَ﴾[٢] دعاءٌ عليهِم بلَفظِ الأمرِ بما عَلِمَ مِن مُمارَسَةِ أَحوالِهِم أنَّه لا يَكونُ غيرهُ، كقولِك: «لعنَ اللهُ إبليسَ».

وقيلَ: اللَّامُ للعاقِبَةِ، وهي مُتعلِّقَةٌ بـ﴿ءَاتَيْتَ﴾.

ويَحتمِلُ أَنْ تكونَ للعلَّةِ؛ لأنَّ إيتاءَ النِّعمِ على الكُفرِ استِدراجٌ وتَثبيتٌ

---

(١) قوله: «اتخذوا مباءة»؛ أي: منزلاً. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٨٩).

(٢) قراءة: ﴿لِيَضِلُّوا﴾ بفتح الياء من الثلاثي هي قراءة ابن عامر وابن كثير وأبي عمرو ونافع، والظاهر أن ما سيأتي من التفسير عليها، وقرأ باقي السبعة: ﴿لِيُضِلُّوا﴾ بضم الياء من الرباعي. انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٧)، و«التيسير» (ص: ١٠٦).

علـى الضَّـلالِ، ولأنَّهـم لَمَّـا جَعلُوها سـبَبًا فـي الضَّـلالِ فكأنَّهـم أُوتوهَـا ليَضِلُّوا، فيكـونُ ﴿رَبَّنَا﴾ تكريـرًا لـلأوَّلِ تأكيـدًا وتنبيهًا علـى أنَّ المَقصودَ عَـرْضُ ضَلالِهِم وكُفْرانِهِـم تَقدِمَـةً لقولِه:

﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾: أَهْلِكْهَـا، والطَّمْـسُ: المَحْـقُ[1]، وقُـرِئَ: «اطمُسْ» بالضَّمِّ [2].

﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: وأَقْسِها واطبَعْ عليها حتَّى لا تَنْشَرِحَ للإيمان.

﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ جوابٌ للدُّعاءِ، أو دُعَاءٌ بلفظِ النَّهيِ، أو عَطفٌ على ﴿لِيَضِلُّوا﴾ وما بينَهُما دعاءٌ مُعترِضٌ.

(٨٩) ـ ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ يَعني: مُوسَى وهارون؛ لأنَّه[3] كانَ يُؤمِّنُ.

﴿فَاسْتَقِيمَا﴾: فاثْبُتَا على ما أنتُما عليه مِن الدَّعوَةِ وإلزامِ الحُجَّةِ، ولا تستعجِلَا فإنَّ ما طَلَبْتُمَا كائنٌ ولكنْ في وقتِه، رُوِيَ أنَّه مكَثَ فيهِمْ بعدَ الدُّعاءِ أربعينَ سَنَةً.

﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾: طريقَ الجَهلَةِ في الاستعجالِ، أو عدمِ الوثوقِ والاطمِئنانِ بوعدِ اللهِ.

وعن ابنِ عامرٍ: ﴿ولا تَتَّبِعانِ﴾ بالنُّونِ الخَفيفَةِ وكسرِهَا لالتقاءِ السَّاكنينِ، «ولا تَتْبعانِّ» مِن «تبعَ»، «ولا تَتْبَعَانِ» أيضًا[4].

---

(١) في نسخة الخيالي: «المحو»، والمحقُ هو المحوُ هنا، وأشار إلى النسختين الخفاجيُّ في «حاشيته».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٢ ـ ٦٣) عن عمر بن علي بن الحسن والشعبي.

(٣) في هامش نسخة الخيالي: «أي لأن هارون».

(٤) ذكر عن ابن عامر ثلاث قراءات:

تشديد التاء مع تخفيف النون وهي رواية ابن ذكوان عنه في المشهور. انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٩)، و«التيسير» (ص: ١٢٣)، و«النشر» (٢/ ٢٨٦). ولا خلاف في تشديد التَّاء في المشهور. =

(٩٠) ـ ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾؛ أي: جَوَّزْنَاهُم في البَحرِ حتَّى بَلَغُوا الشطَّ حافِظِينَ لَهُم. وقُرِئَ: «وَجَوَّزْنَا»[(١)] وهو مِن (فَعَّلَ) المُرَادِفِ لـ(فاعَلَ)؛ كضَعَّفَ وضَاعَفَ.

﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ﴾: فأدركَهُم، يُقالُ: تَبِعْتُه حتَّى أَتْبَعْتُه[(٢)].

﴿فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ﴾: باغينَ وعادينَ، أو: للبَغْيِ والعَدْوِ. وقُرِئَ: «وعُدُوًّا»[(٣)].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ﴾: لَحِقَه ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ﴾؛ أي: بأَنَّهُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾.

وقرأ حمزَةُ والكِسائيُّ: ﴿إِنَّهُۥ﴾ بالكسرِ[(٤)] على إِضمَارِ القَوْلِ، أو الاستئنافِ بدلًا وتَفْسِيرًا لـ﴿ءَامَنتُ﴾.

فنكبَ عَن الإيمانِ أوانَ القَبُولِ وبالغَ فيه حينَ لا يُقبَلُ.

= وتخفيف التاء مع تشديد النون، وهي روايةٌ عن ابن ذكوان كما في «السبعة» و«النشر»، وجاء في «البدور الزاهرة» (ص: ١٥٠): ولكن هذا الوجه قال فيه الداني: إنه غلط ممن رواه عن ابن ذكوان، فلا يقرأ به.

وتخفيفهما، هي رواية الأخفش الدمشقي (وهو هارون بن موسى أبو عبد الله التغلبي، وكان ثقة معمرًا، وتوفي سنة: ٢٩٢) عن أصحابه عن ابن عامر. انظر: «الحجة» للفارسي (٤/ ٢٩٣)، و«النشر» (٢/ ٢٨٧).

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات»: (ص: ٦٣)، و«الكشاف» (٤/ ٨٥)، عن الحسن.

(٢) في نسخة الطبلاوي: «تبِعْتُهُ وأتبَعْتُه»، وأشار إلى النسختين الأنصاري في «حاشيته» (٣/ ١٩٢)، ومعنى: (تبعته حتى أتبعته): مشيتُ مِن بعدِهِ حتَّى لحقتُهُ؛ أي: وصلتُ لهُ. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات»: (ص: ٦٣)، و«الكشاف» (٤/ ٨٦)، عن الحسن. وزاد ابن خالويه نسبتها لأبي رجاء وعكرمة وقتادة.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٠)، و«التيسير» (ص: ١٢٣).

(٩١) ـ ﴿ءَآلۡـَٔـٰنَ﴾: أتؤمِنُ الآنَ وقَدْ أَيِسْتَ مِن نَفْسِكَ ولم يَبْقَ لكَ اختِيَارٌ ﴿وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ﴾: قبلَ ذلك مُدَّةَ عُمرِكَ ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾: الضَّالِّينَ المُضِلِّينَ عَن الإيمانِ.

(٩٢) ـ ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ﴾: نبعدُكَ ممَّا وقعَ فيه قومُكَ مِن قَعْرِ البحرِ ونجعلُكَ طافِيًا، أو نُلقيكَ على نجوةٍ[1] مِن الأرضِ ليراكَ بَنُو إسرائيلَ.

وقرأ يعقوبُ: ﴿نُنْجِيكَ﴾ مِنْ أَنْجَى[2].

وقُرِئَ: «نُنَحِّيكَ» بالحاءِ[3]؛ أي: نُلقيكَ بناحيةِ السَّاحلِ.

﴿بِبَدَنِكَ﴾ في مَوضعِ الحالِ؛ أي: ببدنِكَ عاريًا عَن الرُّوحِ، أو: كامِلًا سويًّا، أو: عريانًا مِن غيرِ لباسٍ، أو: بدرعِكَ، وكانَتْ له درعٌ مِن الذهبِ يعرفُ بها.

وقُرِئَ: «بأبدانِكَ»[4]؛ أي: بأجزاءِ البَدنِ كلِّها؛ كقَولِهِم: هوى بأجرامِهِ، أو: بدُروعِكَ؛ كأنَّه كانَ مُظاهِرًا بينَها[5].

﴿لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةً﴾: لِمَن وراءَكَ علامةً، وهم بنو إسرائيلَ إذ كانَ في نُفوسِهِم مِن عَظَمتِهِ ما خيَّلَ إليهِم أنَّه لا يهلكُ، حتَّى كذَّبُوا موسَى عليهِ السَّلامُ حينَ أخبرَهُم بغرقِهِ، إلى أَنْ عايَنُوه مطَّرحًا[6] على ممرِّهِم مِن السَّاحلِ.

---

(١) النَّجْوةُ: المكان المرتفع.

(٢) التخفيف قراءة يعقوب، وقرأ باقي العشرة بالتشديد. انظر: «النشر» (٢/ ٢٥٩).

(٣) انظر: «المحتسب» (١/ ٣١٦)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٣)، عن أبيٍّ وابن السميفع وغيرهما. وذكرها ابن الجزري في «النشر» (١/ ١٦) عن ابن السميفع وأبي السمال مثالًا على ما نقله غير الثقة مما غالب إسناده ضعيف.

(٤) انظر: «الكامل في القراءات» للهذلي (ص: ٥٦٩)، و«الكشاف» (٤/ ٨٩)، عن أبي حنيفة.

(٥) قوله: «مظاهرًا بينها»؛ أي: لبس بعضها فوق بعض، ظاهر بين ثوبين؛ أي: طارَقَ بينهما وطابَقَ.

(٦) في نسخة الخيالي: «مطروحاً». وفي نسخة الطبلاوي: «منطرحًا».

أو: لِمَن يأتي بعدكَ مِن القُرونِ إذا سَمِعُوا مآلَ أمرِكَ ممَّنْ شاهدَكَ عبرةً ونكالًا عَن الطُّغيانِ، أو حُجَّةً[1] تدلُّهُم على أنَّ الإنسانَ على ما كانَ عليهِ مِن عظمِ الشَّأنِ وكبرياءِ الملكِ مملوكٌ مَقهورٌ بعيدٌ عَن مَظانِّ الرُّبوبيَّةِ.

وقُرِئَ: «لِمَنْ خَلَقَكَ»[2]؛ أي: لِخَالِقِكَ آيةً كسائرِ الآياتِ؛ فإنَّ إفرادَهُ إيَّاكَ بالإلقاءِ إلى السَّاحلِ دليلٌ على أنَّه تعمُّدٌ منه لكَشفِ تَزويرِكَ وإماطَةِ الشُّبهَةِ في أَمرِكَ، وذلك دليلٌ على كمالِ قُدرَتِه وعِلْمِهِ وإرادَتِه، وهذا الوَجْهُ أيضًا مُحتَمَلٌ على المشهورِ.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ لا يَتفكَّرُونَ فيهَا ولا يعتبرونَ بهَا.

(٩٣) ـ ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا﴾: أَنْزَلْنا ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾: مَنزِلًا صالِحًا مَرْضِيًّا وهو الشَّامُ ومِصْرُ ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: مِن اللذائذِ.

﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾: فمَا اختلَفُوا في أمرِ دينِهِم إلَّا مِن بعدِ ما قَرَؤُوا التَّوراةَ وعلِموا أحكامَها، أو: في أمرِ مُحمَّدٍ ﷺ إلَّا مِن بعدِ ما علمُوا صِدقَهُ بنُعوتِهِ ونظامِ مُعجِزَاتِه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيَمِيزُ المحقَّ مِن المبطِلِ بالإنجاءِ والإهلاكِ.

(٩٤) ـ ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ مِن القصصِ على سَبيلِ الفَرْضِ والتَّقديرِ ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ فإنَّهُ مُحقَّقٌ عندَهُم ثابتٌ في كتبِهِم على نحوِ ما ألقَيْنا إليكَ، والمرادُ: تَحقيقُ ذلك، والاستشهادُ بما في الكُتُبِ المتقدِّمَةِ،

---

(١) قوله: «أو حجة» عطف على «عبرة».

(٢) نسبت لعلي رضي الله عنه في «تفسير الثعلبي» (١٤/ ٢٨٣)، ونسبها ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ٣٤٩) لابن السميفع وأبي المتوكل وأبي الجوزاء.

وأنَّ القُرآنَ مُصدِّقٌ لِمَا فيها، أو وصفُ أهلِ الكتابِ بالرُّسوخِ في العلمِ بصحَّةِ ما أُنزلَ إليه، أو تهييجُ الرَّسولِ وزيادَةُ تثبيتِهِ، لا إمكانُ وُقوعِ الشَّكِّ له، ولذلك قالَ عليهِ السَّلامُ: «لا أشكُّ ولا أسألُ»[1].

وقيلَ: الخطابُ للنَّبيِّ والمرادُ به أمَّتُهُ، أو لكلِّ مَن يسمَعُ؛ أي: إن كنتَ أيُّها السَّامِعُ في شَكٍّ ممَّا أنْزَلْنَا على لسانِ نَبيِّنَا إليك، وفيه تنبيهٌ على أنَّ مَن خالجَتْهُ شُبهَةٌ في الدِّينِ ينبغي أن يسارِعَ إلى حلِّهَا بالرُّجوعِ إلى أهلِ العِلْمِ.

﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ واضحًا أنَّه لا مدخلَ للمِرْيَةِ فيه بالآياتِ القاطعةِ.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ بالتَّزَلْزُلِ عمَّا أنتَ عليه مِن الحزمِ واليقينِ.

(٩٥) ـ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ أيضًا مِن بابِ التَّهييجِ والتَّثبيتِ وقطعِ الأَطماعِ عنه كقَوْلِه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦].

(٩٦) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ﴾ ثبتَتْ عليهِم ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بأنَّهم يَموتونَ على الكُفْرِ أو يُخلَّدونَ[2] في العذابِ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إذ لا يكذبُ كلامُه ولا يَنتَقِضُ قَضاؤُه.

(٩٧) ـ ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ فإنَّ السَّببَ الأَصليَّ لإيمانِهِم ـ وهو تعلُّقُ إرادَةِ اللهِ تَعالى بهِ ـ مَفقودٌ ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ وحينئذٍ لا يَنفَعُهُم كمَا لا يَنفَعُ فِرعَوْنَ.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ١٧٩)، وفي «مصنفه» (١٠٢١١)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٨٨) عن قتادة مرسلاً. وقال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ١٤٠): مُعضَل.

(٢) في نسخة الطبلاوي: «ويخلدون».

(٩٨) ـ ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾: فهلَّا كانَتْ قريةٌ مِن القُرى الَّتي أهلَكْناها آمنَتْ قبلَ مُعاينَةِ العَذابِ ولم تُؤخِّر إليها كما أَخَّرَ فِرعون ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ بأَنْ يقبلَهُ اللهُ مِنْهَا ويكشفَ العذابَ عَنْها.

﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ لكنَّ قومَ يُونُس ﴿لَمَّآ ءَامَنُوا۟﴾ أوَّلَ ما رَأَوْا أمارَةَ العذابِ ولم يُؤخِّرُوهُ إلى حُلولِه ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

ويجوزُ أَنْ تكونَ الجُملَةُ في مَعنى النَّفي لتَضمُّنِ حرفِ التَّحضيضِ مَعناه، فيكونُ الاستثناءُ مُتَّصِلًا لأنَّ المُرادَ مِن القُرَى أهاليهَا؛ كأنَّه قالَ: ما آمَنَ أهلُ قريَةٍ مِن القُرَى العاصِيَةِ فنَفَعَهُم إيمانُهُم إلَّا قومَ يُونُسَ، ويؤيِّدُهُ قراءَةُ الرَّفعِ في «قومُ»[1] على البَدلِ.

﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾: إلى آجالِهم.

رُوِيَ أنَّ يُونُسَ عليهِ السَّلامُ بُعثَ إلى نِينوَى مِن المَوْصِلِ فكذَّبوهُ وأصَرُّوا عليهِ، فوعدَهُم بالعذابِ إلى ثلاثٍ، وقيلَ: إلى أربعينَ، فلمَّا دَنَا الموعدُ غامَت السَّماءُ غيمًا أسوَدَ ذا دُخانٍ شَديدٍ فهبطَ حتَّى غشيَ مَدينَتَهُم، فهابُوا فطَلَبُوا يونُسَ فلَمْ يَجِدُوهُ، فأيقَنُوا صِدقَهُ، فلبسُوا المُسُوحَ[2] وبَرَزُوا إلى الصَّعيدِ بأنفُسِهم ونِسائِهم وصِبْيَانِهم ودَوَابِّهم، وفرَّقُوا بينَ كلِّ والدَةٍ وولدِها، فحنَّ بعضُهَا إلى بَعْضٍ وعَلَت الأَصواتُ والعَجيجُ، وأَخْلَصُوا التَّوبَةَ وأظهَرُوا الإيمانَ وتَضَرَّعُوا إلى اللهِ، فرَحِمَهُم وكشَفَ عَنْهُم، وكانَ يومَ عاشوراءَ يومَ الجُمعةِ[3].

---

(١) رويت عن الجَرْمي والكسائي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٣)، و«الكشاف» (٤/ ٩٤).

(٢) المُسُوح؛ جمعُ مِسْح، وهو اللباس؛ أي: لبسوا الألبسة الخلقة تذلُّلاً. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٢٩٤)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ١٥١)، عن وهب، وروى الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٩٥) نحوه عن سعيد بن جبير.

(٩٩) - ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ﴾ بحيثُ لا يَشذُّ منهُم أحدٌ.

﴿جَمِيعًا﴾: مُجتمعينَ على الإيمانِ لا يَختَلِفُونَ فيه، وهو دليلٌ على القَدَرِيَّةِ في أنَّه تَعالى لَمْ يَشَأْ إيمانَهُم أَجمَعِينَ، فإنَّ مَن شاءَ إيمانَهُ يؤمِنُ لا مَحالةَ، والتَّقييدُ بمَشيئَةِ الإلجاءِ خلافُ الظَّاهرِ.

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ بما لَمْ يَشَأِ اللهُ مِنْهُم ﴿حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ وترتيبُ الإكراهِ على المَشيئَةِ بالفَاءِ، وإيلاؤُهَا حرفُ الاستِفهامِ للإنكارِ، وتَقديمُ الضَّميرِ على الفعلِ؛ للدَّلالَةِ على أنَّ خِلافَ المَشيئةِ مُستَحيلٌ فلَا يُمكِنُ تحصيلُهُ بالإكراهِ عليه فضلًا عن الحثِّ والتَّحريضِ عليه؛ إذ رُوِيَ أنَّه كانَ حَرِيصًا على إيمانِ قومِه شديدَ الاهتِمامِ به فنزلَتْ، فلذلك قرَّره بقولِه:

(١٠٠) - ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ﴾ باللهِ ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: إلَّا بإرادَتِهِ وألطافِهِ وتَوفيقِهِ، فلا تُجْهِدْ نفسَكَ في هُداهَا فإنَّه إلى اللهِ.

﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾: العذابَ، أو الخذلانَ فإنَّه سببُهُ. وقُرِئَ بالزَّاي[1].

وقرأَ أبو بكرٍ: ﴿ونَجْعَل﴾ بالنونِ[2].

﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾: لا يَستعمِلُونَ عُقولَهُم بالنَّظرِ في الحججِ والآياتِ، أو: لا يعقلونَ دلائلَهُ وأحكامَهُ لِمَا عَلى قُلوبِهِم مِن الطَّبعِ، ويؤيِّدُ الأوَّلَ قولُه:

(١٠١) - ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ﴾؛ أي: تَفكَّرُوا ﴿مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مِن عَجائبِ صُنعِهِ ليدلَّكُم على وحدَتِه وكمالِ قُدرَتِهِ، و﴿مَاذَا﴾ إنْ جُعِلَت استفهاميَّةً عَلَّقَتْ ﴿ٱنظُرُواْ﴾ عَن العَملِ.

---

(١) نسبت للأعمش، انظر: «تفسير الثعلبي» (١٤/ ٢٩٨)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ١٤٥)، و«البحر المحيط» (١٢/ ١٨٢).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٠)، و«التيسير» (ص: ١٢٣).

﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ في علمِ اللهِ وحُكمِهِ، و«ما» نافيَةٌ، أو استفهاميَّةٌ في مَوضعِ النَّصبِ.

(١٠٢) ـ ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾: مثْلَ وَقائعِهِم ونزولِ بأسِ اللهِ بِهِم إذْ لا يَستَحِقُّونَ غيرَه، مِن قولِهم: «أيامُ العَرَبِ» لوَقَائِعِها.

﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لذلك، أو: فانتَظِرُوا هَلاكِي إنِّي مَعَكُم مِن المُنتَظِرينَ هلاكَكُم.

(١٠٣) ـ ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ عطفٌ علـى مَحذوفٍ دلَّ عليهِ: ﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾ كأنَّه قيلَ: نُهلكُ الأُمَمَ ثمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا ومَن آمنَ بهم، على حكايَةِ الحالِ الماضِيَةِ.

﴿كذلكَ حقًّا علينا نُنَجِّ المؤمنين﴾ كذلكَ الإِنجاءِ ـ أو: إنجاءً كذلك ـ نُنَجِّي مُحمَّدًا وصَحبَهُ حينَ نهلكُ المُشركينَ، و﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ اعتراضٌ، ونصبُه بفعلِهِ المقدَّرِ، وقيلَ: بدلٌ مِن ﴿كَذَٰلِكَ﴾.

وقرأَ حفصٌ والكسائيُّ: ﴿نُنْجِ المُؤمنين﴾ مخفَّفًا[1].

(١٠٤) ـ ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطاب لأهلِ مكَّةَ: ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ وصحَّتِه ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ فهَذا خُلاصَةُ ديني اعتقادًا وعَمَلًا، فاعرِضُوهَا على العقلِ الصِّرْفِ، وانظُرُوا فيهَا بعَيْنِ الإِنصافِ؛ لتَعْلَمُوا صِحَّتَها وهو أنِّي لا أَعبدُ ما تَخلقُونَهُ وتَعْبدُونَهُ ولكِنْ أَعْبُدُ خالِقَكُم الَّذي يوجِدُكُم ويَتوفَّاكُم، وإنَّما خصَّ التَّوَفِّيَ بالذِّكرِ للتَّهديدِ.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بمـا دلَّ عليـهِ العقـلُ ونطَـقَ بـهِ الوَحـيُ، وحَذْفُ

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٠)، و«التيسير» (ص: ١٢٣).

الجارُّ مِن ﴿أَنْ﴾ يجوزُ أَنْ يكونَ مِنَ المُطَّرِدِ مَع «أنْ» و«أنَّ» وأن يكونَ مِن غيرِه، كقولِه[1]:

أَمَرْتُكَ الخَيْرَ فافْعَلْ مَا أُمِرْتَ بِهِ

(١٠٥) ـ ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ عطفٌ على ﴿أَنْ أَكُونَ﴾ غيرَ أنَّ صِلَةَ «أنْ» محكيَّةٌ بصِيغَةِ الأمرِ، ولا فرقَ بينَهُمَا في الغَرَضِ لأنَّ المقصود وَصْلُها بمَا يتضمَّنَ مَعنى المَصدرِ لتَدُلَّ معَهُ عليهِ، وصِيَغُ الأفعالِ كلُّهَا كذلك سواءٌ الخبرُ مِنْهَا والطَّلَبُ، والمَعنى: وأُمِرْتُ بالاستقامَةِ في الدِّينِ والاستِدادِ فيه بأداءِ الفرائضِ والانتِهاءِ عَن القَبائحِ، أو: في الصَّلاةِ باستِقبالِ القِبْلَةِ.

﴿حَنِيفًا﴾ حالٌ مِن الدِّينِ أو الوجهِ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

(١٠٦) ـ ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ بنَفسِهِ إنْ دعوتَه أو خذلْتَه.

﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾: فإنْ دَعَوْتَه ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ جزاءٌ للشَّرطِ وجَوابٌ لسُؤالٍ مُقدَّرٍ عَن تَبعَةِ الدُّعاءِ.

(١٠٧) ـ ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾: وإنْ يُصِبْكَ به ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ﴾ يرفعُه ﴿إِلَّا هُوَ﴾: إلَّا اللهُ.

﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ﴾: فلا دافعَ ﴿لِفَضْلِهِ﴾ الَّذي أرادَكَ بـه، ولعلَّهَ ذكرَ

---

(١) صدر بيت ورد في «الكتاب» (١/ ٣٧)، و«خزانة الأدب» (١/ ٣٣١)، وغيرها، واختلف في نسبته، قال البغدادي: نسب لعمرو بن معدي كرب، وللعباس بن مرداس، ولزرعة بن السائب، ولخفاف بن ندبة. وعجزه:

فقد تركتُكَ ذا مالٍ وذا نَشَبِ

وقد تقدم عند تفسير الآية (٦٨) من سورة البقرة.

الإرادةَ معَ الخَيرِ والمسَّ معَ الضُّرِّ ـ مع تَلازُمِ الأَمرينِ ـ للتَّنبيهِ على أنَّ الخيرَ مُرادٌ بالذَّاتِ وأنَّ الضُّرَّ إنَّما مَسَّهُم لا بالقصدِ الأَوَّلِ.

ووضعُ الفَضلِ مَوضِعَ الضَّميرِ للدَّلالَةِ على أنَّه مُتفَضِّلٌ بما يُريدُ بهِمْ مِن الخَيرِ لا استحقاقَ لهم عليه، ولم يَستَثْنِ لأنَّ مُرادَ اللهِ لا يُمكِنُ رَدُّه.

﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾: بالخيرِ ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فتعرَّضُوا لرَحْمَتِه بالطَّاعَةِ ولا تَيأَسُوا مِن غُفْرانِه بالمَعصِيَةِ.

(١٠٨) ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾: رسولُهُ والقُرآنُ، ولَمْ يبقَ لَكُمْ عُذرٌ ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بالإيمانِ والمُتابعَةِ ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ لأنَّ نفعَهُ لها.

﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بالكُفْرِ بِهِما ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لأنَّ وبالَ الضَّلالِ علَيْهَا.

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾: بحفيظٍ مَوكولٍ إليَّ أمرُكُم وإنَّما أنَا بَشيرٌ ونَذيرٌ.

(١٠٩) ـ ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ بالامتثالِ والتَّبليغِ ﴿وَٱصْبِرْ﴾ على دَعْوَتِهِم وتحمُّلِ أَذِيَّتِهِم ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ بالنُّصْرَةِ أو بالأمرِ بالقِتَالِ.

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ إذ لا يُمكِنُ الخَطَأُ في حكمِه؛ لاطِّلاعِهِ على السَّرائرِ اطِّلاعَهُ على الظَّواهرِ.

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ سُورَةَ يُونُسَ أُعطِي مِن الأجرِ عشرَ حَسَناتٍ بعَدَدِ مَن صدَّقَ بيُونُسَ وكذَّبَ به، وبعَدِ مَن غرقَ مع فِرعونَ»[1].

* * *

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ١٥٦)، والواحدي في «التفسير الوسيط» (٢/ ٥٣٧)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٧٣)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وقال: هذا حديث فضائل السور مصنوع بلا شك. وقد تقدم الكلام عليه، وانظر: «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(١٠) سورة يونس مكية
وآياتها تسع ومائة

بسم الله الرحمن الرحيم

الر تلك آيات الكتاب الحكيم ﴿١﴾ أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ﴿٢﴾

أما الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم الكلام عليها في أوائل سورة البقرة .

وقال ابن عباس ﴿ الر ﴾ أي أنا الله أرى، وكذلك قال الضحاك وغيره، ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ أي هذه آيات القرآن المحكم المبين، وقال الحسن: التوراة والزبور، وقال قتادة: ﴿ تلك آيات الكتاب ﴾ قال: الكتب التي كانت قبل القرآن، وهذا القول لا أعرف وجهه ومعناه، وقوله: ﴿ أكان للناس عجباً ﴾ يقول تعالى منكراً على من تعجب من الكفار، ومن إرسال المرسلين من البشر، كما أخبر تعالى عن القرون الماضين من قولهم: ﴿ أبشرٌ يهدوننا ﴾ ؟ وقال هود وصالح لقومهما: ﴿ أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم ﴾ ؟ وقال تعالى مخبراً عن كفار قريش: ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ﴾ ؟ ! وقال ابن عباس: لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم، فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد، قال: فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿ أكان للناس عجباً ﴾ الآية، وقوله: ﴿ ان لهم قدم صدق عند ربهم ﴾ اختلفوا فيه؛ فقال ابن عباس: سبقت لهم السعادة في الذكر، وقال العوفي عنه: ﴿ أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾ يقول: أجراً حسناً بما قدموا[1]، وقال مجاهد: الأعمال الصالحة، صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم، قال: ومحمد ﷺ يشفع لهم؛ وقال قتادة: سلف صدق عند ربهم؛ واختار ابن جرير قول مجاهد: انها الأعمال الصالحة التي قدموها، كما يقال: له قدم في الإسلام، كقول حسان:

لنا القدم العليا إليك وخلفنا لأولنا في طاعة الله تابع

وقول ذي الرمة: لكم قدم لا ينكر الناس أنها مع الحسب العادي طَمَّتْ على البحر

---

(١) وهو قول الضحاك والربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

وقوله تعالى: ﴿ قال الكافرون إن هذا لساحر مبين﴾ أي مع أنا بعثنا إليهم رسولاً منهم رجلاً من جنسهم بشيراً ونذيراً، ﴿قال الكافرون إن هذا لساحر مبين﴾ أي ظاهر، وهم الكاذبون في ذلك .

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

يخبر تعالى أنه رب العالم جميعه، وأنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، قيل: كهذه الأيام، وقيل: كل يوم كألف سنة مما تعدون ، كما سيأتي بيانه ، ثم استوى على العرش، والعرش أعظم المخلوقات وسقفها، وهو ياقوتة حمراء، وقوله: ﴿ يدبر الأمر ﴾ أي يدبر الخلائق ﴿ لا يعزُب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض﴾ ولا يشغله شأن عن شأن، ولا يتبرم بإلحاح الملحين، ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير ، في الجبال والبحار والعمران والقفار ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ الآية، ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾. وقوله: ﴿ ما من شفيع إلا من بعد إذنه ﴾، كقوله تعالى: ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾، وكقوله تعالى: ﴿وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾، وقوله: ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾، وقوله: ﴿ ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون﴾ أي أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، ﴿ أفلا تذكرون﴾ أيها المشركون في أمركم تعبدون مع الله إلهاً غيره، وأنتم تعلمون أنه المتفرد بالخلق، كقوله تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ؟ ليقولن الله﴾ .

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

يخبر تعالى أن إليه مرجع الخلائق يوم القيامة لا يترك منهم أحداً حتى يعيده كما بدأه، ثم ذكر تعالى أنه كما بدأ الخلق كذلك يعيده، ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾، ﴿ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط﴾ أي بالعدل والجزاء الأوفى، ﴿والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾، أي بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العذاب من سموم وحميم وظل من يحموم، ﴿ هذا فليذوقوه حميم وغساق﴾ .

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه، وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء، وجعل شعاع القمر نوراً، هذا فن وهذا فن آخر، ففاوت بينهما لئلا يشتبها، وجعل سلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل، وقدّر القمر منازل، فأول ما يبدو صغيراً، ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوسق ويكمل إبداره، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى في تمام شهر، كقوله تعالى: ﴿والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم﴾. وقوله تعالى: ﴿والشمس والقمر حسباناً﴾، ﴿وقدّره﴾ أي القمر، ﴿منازل لتعلموا عدد السنين والحساب﴾ فبالشمس تعرف الأيام، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام، ﴿ما خلق الله ذلك إلا بالحق﴾ أي لم يخلقه عبثاً بل له حكمة عظيمة في ذلك وحجة بالغة، كقوله تعالى: ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما باطلاً﴾، وقال تعالى: ﴿أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾، وقوله: ﴿نفصل الآيات﴾ أي نبين الحجج والأدلة، ﴿لقوم يعلمون﴾، وقوله: ﴿إن في اختلاف الليل والنهار﴾ أي تعاقبهما إذا جاء هذا ذهب هذا، وإذا ذهب هذا جاء هذا، لا يتأخر عنه شيئاً كقوله تعالى: ﴿يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً﴾، وقال: ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر﴾ الآية، وقوله: ﴿وما خلق الله في السموات والأرض﴾ أي من الآيات الدالة على عظمته تعالى، كما قال: ﴿وكأين من آية في السموات والأرض﴾ الآية، وقوله: ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾، وقال: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾ أي العقول، وقال ههنا ﴿لآيات لقوم يتقون﴾، أي عقاب الله وسخطه وعذابه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن حال الأشقياء الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة ولا يرجون في لقائه شيئاً، ورضوا بهذه الحياة الدنيا واطمأنت إليها نفوسهم ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها﴾ الآية، قال الحسن: والله ما زينوها ولا رفعوها حتى رضوا بها، وهم غافلون عن آيات الله الكونية، فلا يتفكرون فيها، والشرعية فلا يأتمرون بها بأن مأواهم يوم معادهم النار جزاء ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا والإجرام، مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

هذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وامتثلوا ما أمروا به، فعملوا الصالحات، بأنه سيهديهم بإيمانهم، أي بسبب إيمانهم في الدنيا يهديهم الله يوم القيامة على الصراط المستقيم حتى يجوزوه ويخلصوا إلى الجنة، ويحتمل أن تكون للاستعانة، كما قال مجاهد في قوله: ﴿يهديهم ربهم بإيمانهم﴾ قال: يكون لهم نوراً يمشون به، وقال ابن جريج: في الآية يمثل له عمله في صورة حسنة إذا قام من قبره يبشره بكل خير، فيقول

له: من أنت؟ فيقول: أنا عملك، فيجعل له نوره من بين يديه حتى يدخله الجنة، فذلك قوله تعالى: ﴿يهديهم ربهم بإيمانهم﴾ والكافر يمثل له عمله في صورة سيئة وريح منتنة، فيلزم صاحبه حتى يقذفه في النار.

وقوله تعالى: ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ أي هذا حال أهل الجنة، قال ابن جريج: أخبرت أنه إذا مر بهم الطير يشتهونه قالوا: سبحانك اللهم، وذلك دعواهم فيأتيهم الملك بما يشتهونه، فيسلم عليهم فيردون عليه، فذلك قوله: ﴿وتحيتهم فيها سلام﴾، قال: فإذا أكلوا حمدوا الله ربهم، فذلك قوله: ﴿وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾، وقال مقاتل: إذا أراد أهل الجنة أن يدعوا بالطعام قال أحدهم: ﴿سبحانك اللهم﴾ قال: فيقوم على أحدهم عشرة آلاف خادم مع كل خادم صحفة من ذهب فيها طعام ليس في الأخرى، قال: فيأكل منهن كلهن، وهذه الآية فيها شبه من قوله: ﴿تحيتهم يوم يلقونه سلام﴾، وقوله: ﴿إلا قيلا سلاماً سلاماً﴾، وقوله: ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾، وقوله: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم﴾ الآية، وقوله: ﴿وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ فيه دلالة على أنه تعالى هو المحمود أبداً، المعبود على طول المدى، ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه، وفي ابتداء كتابه، وعند ابتداء تنزيله، حيث يقول تعالى: ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب﴾، ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض﴾ إلى غير ذلك من الأحوال التي يطول بسطها، وأنه المحمود في الأولى والآخرة في جميع الأحوال، ولهذا جاء في الحديث: «إن أهل الجنة يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس»، وإنما يكون ذلك كذلك لما يرون من تزايد نعم الله عليهم، فتكرر وتعاد وتزداد، فليس لها انقضاء ولا أمد، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

* وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾

يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده، أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أولادهم بالشر، في حال ضجرهم وغضبهم، وأنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك، فلهذا لا يستجيب لهم والحالة هذه لطفاً ورحمة، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأولادهم بالخير والبركة، ولهذا قال: ﴿ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم﴾ الآية: أي لو استجاب لهم كل ما دعوه به في ذلك لأهلكهم، ولكن لا ينبغي الإكثار من ذلك، كما جاء في الحديث الذي رواه جابر قال، قال رسول الله ﷺ: «لا تدعوا على أنفسكم، لا تدعوا على أولادكم، لا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم»(١)، وهذا كقوله تعالى: ﴿ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير﴾ الآية، وقال مجاهد في تفسير هذه الآية: هو قول الإنسان لولده أو ماله إذا غضب عليه: اللهم لا تبارك فيه والعنه، فلو يعجل لهم الاستجابة في ذلك كما يستجاب لهم في الخير لأهلكهم.

---

(١) أخرجه البزار وأبو داود عن جابر بن عبدالله.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الضر، كقوله: ﴿وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض﴾ أي كثير، وهما في معنى واحد، وذلك لأنه إذا أصابته شدة قلق لها وجزع منها، وأكثر الدعاء عند ذلك، فدعا الله في كشفها ورفعها عنه، في حال اضطجاعه وقعوده وقيامه وفي جميع أحواله، فإذا فرّج الله شدته وكشف كربته أعرض ونأى بجانبه وذهب، كأنه ما كان به من ذلك شيء، ﴿مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه﴾، ثم ذم تعالى من هذه صفته وطريقته فقال: ﴿كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون﴾، فأما من رزقه الله الهداية والسداد، والتوفيق والرشاد فإنه مستثنى من ذلك، وفي الحديث: «عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له، وإن أصابته سراء فشكر كان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن».

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

أخبر تعالى عما أحل بالقرون الماضية، في تكذيبهم الرسل فيما جاءوهم به من البينات، استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم، وأرسل إليهم رسولاً لينظر طاعتهم له، واتباعهم رسوله، وفي صحيح مسلم: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت من النساء».

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾

يخبر تعالى عن تعنت الكفار من مشركي قريش الجاحدين المعرضين عنه، أنهم إذا قرأ عليهم الرسول ﷺ كتاب الله وحججه الواضحة قالوا له: ائت بقرآن غير هذا، أي رد هذا وجئنا بغيره من نمط آخر أو بدله إلى وضع آخر، قال الله تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي﴾ أي ليس هذا إليّ إنما أنا عبد مأمور، ورسول مبلّغ عن الله، ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إليَّ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾؛ ثم قال محتجاً عليهم في صحة ما جاءهم به: ﴿قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به﴾ أي هذا إنما جئتكم به عن إذن الله لي في ذلك ومشيئته وإرادته، والدليل على أني لست أتقوله من عندي، ولا افتريته أنكم عاجزون عن معارضته، وأنكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت بينكم إلى حين بعثني الله عزّ وجلّ، لا تنتقدون عليَّ شيئاً تغمصوني به، ولهذا قال:

﴿ فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون﴾ أي أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل ؟ ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم (أبا سفيان) قال له: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال أبو سفيان: فقلت: لا ، وكان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة وزعيم المشركين، ومع هذا اعترف بالحق (والفضل ما شهدت به الأعداء) فقال له هرقل: فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب ليكذب على الله . وقال جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة: بعث الله فينا رسولاً نعرف صدقه ونسبه وأمانته، وقد كانت مدة مقامه عليه السلام بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة .

* ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (١٧)

يقول تعالى: لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجراماً ﴿ممن افترى على الله كذباً﴾، وتقوّل على الله، وزعم أن الله أرسله ولم يكن كذلك، فليس أحد أكبر جرماً ولا أعظم ظلماً من هذا، ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء فكيف يشتبه حال هذا بالأنبياء ؟ فإن من قال هذه المقالة صادقاً أو كاذباً فلا بدّ أن الله ينصب عليه من الأدلة على بره أو فجوره ما هو أظهر من الشمس، فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين الضحى وبين حندس الظلماء، قال عبدالله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس[1] فكنت فيمن انجفل، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، قال: فكان أول ما سمعته يقول: « يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام »، ولما وفد (ضمام بن ثعلبة) على رسول الله ﷺ في قومه بني سعد بن بكر قال لرسول الله ﷺ فيما قاله: من رفع هذه السماء ؟ قال: « الله »، قال: ومن نصب هذه الجبال ؟ قال: « الله »، قال: ومن سطح هذه الأرض ؟ قال: « الله »، قال: فبالذي رفع هذه السماء ونصب هذه الجبال وسطح هذه الأرض آلله أرسلك إلى الناس كلهم ؟ قال: « اللهم نعم »، ثم سأله عن الصلاة والزكاة والحج والصيام ويحلف عند كل واحدة هذه اليمين، ويحلف له رسول الله ﷺ ، فقال له: صدقت، والذي بعثك بالحق لا أزيد على ذلك ولا أنقص، فقد أيقن بصدقه صلوات الله وسلامه عليه بما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه، قال حسان بن ثابت :

لو لم تكن فيه آيات مبينـــة كانت بديهته تأتيك بالخبر

وذكروا أن (عمرو بن العاص﴾ وفد على مسيلمة، وكان صديقاً له في الجاهلية، وكان عمرو لم يسلم بعد، فقال له مسيلمة: ويحك يا عمرو، ماذا أنزل على صاحبكم، يعني رسول الله ﷺ، في هذه المدة ؟ فقال: لقد سمعت أصحابه يقرأون سورة عظيمة قصيرة ، فقال ؟ وما هي ؟ فقال: ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر﴾ إلى آخر السورة، ففكر مسيلمة ساعة، ثم قال: وأنا قـد أنزل عليَّ مثله، فقال : وما هو ؟ فقال: (يا وبر، يا وبر، إنما أنت أذنان وصدر وسائرك حفر نقر)، كيف ترى يا عمرو، فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب . فإذا كان هذا من مشرك في حـال شركه لم يشتبه عليه حال محمد ﷺ وصدقه، وحال مسيلمة لعنـه

(١) يعني قومه اليهود. وأما العرب وهم الأنصار فكانوا في أشد الغبطة والسرور .

الله وكذبه، فكيف بأولي البصائر والنهى ، وأصحاب العقول السليمة المستقيمة والحجى ؟ ولهذا قال تعالى: ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون﴾، وكذلك من كذب بالحق الذي جاءت به الرسل، وقامت عليه الحجج، لا أحد أظلم منه كما في الحديث: « أعتى الناس على الله رجل قتل نبياً أو قتله نبي » .

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتها عند الله، فأخبر تعالى أنها لا تضر ولا تنفع ولا تملك شيئاً، ولا يقع شيء مما يزعمون فيها ولا يكون هذا أبداً، ولهذا قال تعالى: ﴿ قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض ﴾قال ابن جرير: معناه أتخبرون الله بما لا يكون في السماوات ولا في الأرض؟ ثم نزه نفسه الكريمة عن شركهم وكفرهم فقال: ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون﴾، ثم أخبر تعالى ان هذا الشرك حادث في الناس كائن بعد أن لم يكن، وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد وهو الإسلام، قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، ثم وقع الاختلاف بين الناس وعبدت الأصنام والأنداد والأوثان، فبعث الله الرسل بآياته وبيّناته وحججه البالغة وبراهينه الدامغة: ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حي عن بينة﴾، وقوله: ﴿ ولو لا كلمة سبقت من ربك﴾ الآية، أي لولا ما تقدم من الله تعالى أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وأنه أجّل الخلق إلى أجل معدود، لقضى بينهم فيما اختلفوا فيه، فأسعد المؤمنين وأعنت الكافرين .

وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

أي ويقول هؤلاء الكفرة المكذبون المعاندون: لولا أنزل على محمد آية من ربه، يعنون: كما أعطى الله ثمود الناقة، أو أن يحول لهم الصفا ذهباً، أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهاراً، أو نحو ذلك، مما الله عليه قادر، ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله، ، كما قال تعالى: ﴿ تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً﴾، وكقوله: ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذّب بها الأولون﴾ الآية، يقول تعالى: إن سنتي في خلقي أني إذا آتيتهم ما سألوا، فإن آمنوا وإلا عاجلتهم بالعقوبة، ولهذا لما خير رسول الله ﷺ بين إعطائهم ما سألوا فإن آمنوا وإلا عذبوا، وبين إنظارهم، اختار إنظارهم، كما حلم عنهم غير مرة رسول الله ﷺ ، ولهذا قال تعالى إرشاداً لنبيّه ﷺ إلى الجواب عما سألوا: ﴿ فقل إنما الغيب لله﴾ أي الأمر كله لله وهو يعلم العواقب في الأمور، ﴿ فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ أي إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتم فانتظروا حكم الله فيَّ وفيكم، ولو علم منهم أنهم سألوا ذلك استرشاداً وتثبتاً لأجابهم، ولكن علم

أنهم إنما يسألون عناداً وتعنتاً فتركهم فيما رابهم، وعلم أنهم لا يؤمن منهم أحد لما فيهم من المكابرة كقوله تعالى: ﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾ فمثل هؤلاء لا فائدة من جوابهم لأنه دائر على تعنتهم وعنادهم لكثرة فجورهم وفسادهم، ولهذا قال: ﴿فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾.

وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم كالرخاء بعد الشدة، والخصب بعد الجدب، والمطر بعد القحط، ونحو ذلك ﴿إذا لهم مكر في آياتنا﴾، قال مجاهد استهزاء وتكذيب، ﴿قل الله أسرع مكراً﴾ أي أشد استدراجاً وإمهالاً حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب، وإنما هو في مهلة ثم يؤخذ على غرة منه، والكاتبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله ويحصونه عليه، ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة فيجازيه على النقير والقطمير، ثم أخبر تعالى أنه: ﴿هو الذي يسيّركم في البر والبحر﴾ أي يحفظكم ويكلؤكم بحراسته، ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها﴾ أي بسرعة سيرهم رافلين، فبينما هم كذلك إذ ﴿جاءتها﴾ أي تلك السفن ﴿ريح عاصف﴾ أي شديدة، ﴿وجاءهم الموج من كل مكان﴾ أي اغتلم البحر عليهم، ﴿وظنوا أنهم أحيط بهم﴾ أي هلكوا، ﴿دعوا الله مخلصين له الدين﴾ أي لا يدعون معه صنماً ولا وثناً يفردونه بالدعاء والابتهال، كقوله تعالى: ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه﴾، ﴿لئن أنجيتنا من هذه﴾ أي هذه الحال ﴿لنكونن من الشاكرين﴾ أي لا نشرك بك أحداً ولنفردنك بالعبادة كما أفردناك بالدعاء ههنا، قال الله تعالى: ﴿فلما أنجاهم﴾ أي من تلك الورطة، ﴿إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق﴾ أي كأن لم يكن من ذلك شيء، ﴿كأن لم يدعنا إلى ضر مسه﴾، ثم قال تعالى: ﴿يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم﴾ أي إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم، ولا تضرون به أحداً غيركم، كما جاء في الحديث: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر الله لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم»، وقوله: ﴿متاع الحياة الدنيا﴾ أي إنما لكم متاع في الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة، ﴿ثم إلينا مرجعكم﴾ أي مصيركم ومآلكم، ﴿فننبئكم﴾ أي فنخبركم بجميع أعمالكم ونوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

ضرب تبارك وتعالى مثلاً لزهرة الحياة الدنيا وزينتها، وسرعة انقضائها وزوالها، بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض، مما يأكل الناس من زروع وثمار، على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل الأنعام، ﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها﴾ أي زينتها الفانية، ﴿ وازينت ﴾ أي حسنت بما خرج في رباها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان ﴿ وظنّ أهلها﴾ الذين زرعوها وغرسوها ﴿ أنهم قادرون عليها ﴾ أي على جذاذها وحصادها، فبينا هم كذلك إذ جاءتها صاعقة أو ريح شديدة باردة، فأيبست أوراقها وأتلفت ثمارها، ولهذا قال تعالى: ﴿ أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً﴾ أي يابساً بعد الخضرة والنضارة، ﴿ كأن لم تغن بالأمس﴾ أي كأنها ما كانت حيناً قبل ذلك، وقال قتادة: ﴿ كأن لم تغن﴾ كأن لم تنعم، وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن، قال تعالى إخباراً عن المهلكين: ﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها﴾، ثم قال تعالى: ﴿ كذلك نفصل الآيات﴾ أي نبين الحجج والأدلة ﴿ لقوم يتفكرون﴾ فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا عن أهلها سريعاً، مع اغترارهم بها وتفلتها عنهم، وقد ضرب الله تعالى مثل الدنيا بنبات الأرض في غير ما آية من كتابه العزيز فقال: ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط بـه نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾، وكذا في سورة (الزمر) و (الحديد) يضرب الله بذلك مثل الحياة الدنيا، وقوله: ﴿ والله يدعو إلى دار السلام﴾ لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة زوالها، رغَّب في الجنة ودعا إليها وسمّاها دار السلام، أي من الآفات والنقائص والنكبات فقال: ﴿ والله يدعو إلى دار السلام، ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾.

روي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال: «إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي، وميكائيل عند رجلي، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلاً، فقال: إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ داراً، ثم بنى فيها بيتاً ثم جعل فيها مأدبة، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه، فنهم من أجاب الرسول، ومنهم من تركه؛ فالله الملك، والدار الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد الرسول؛ فمن أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل منها»[1]

* لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾

يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح، ﴿ الحسنى﴾ في الدار الآخرة ﴿ هل جزاء

(١) أخرجه ابن جرير عن جابر بن عبد الله .

الإحسان إلا الإحسان﴾ ؟ وقوله: ﴿وزيادة﴾ هي تضعيف ثواب الأعمال ويشمل ما يعطيهم الله في الجنة من القصور والحور والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه، النظر إلى وجهه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه لا يستحقونها بعملهم بل بفضله ورحمته، وقد روى تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم الجمهور من السلف والخلف، روى الإمام أحمد عن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾، وقال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: وما هو ألم يثقل موازيننا ؟ ألم يبيض وجوهنا ؟ ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار ؟ - قال: فيشكف لهم الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم»[1] . وعن أبي موسى الأشعري، عن رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث يوم القيامة منادياً ينادي: يا أهل الجنة - بصوت يسمع أولهم وآخرهم - إن الله وعدكم الحسنى وزيادة، فالحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الرحمن عزّ وجلّ»[2] وسئل رسول الله ﷺ عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ قال: «الحسنى: الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله عزّ وجلّ»، وقوله تعالى: ﴿ولا يرهق وجوههم قتر﴾ أي قتام وسواد في عرصات المحشر، كما يعتري وجوه الكفرة الفجرة من القترة والغبرة، ﴿ولا ذلة﴾ أي هوان وصغار، بل هم كما قال تعالى في حقهم: ﴿فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً﴾ أي نضرة في وجوههم وسروراً في قلوبهم، جعلنا الله منهم بفضله ورحمته آمين

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾

لما أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يضاعف لهم الحسنات عطف بذكر حال الأشقياء، فذكر تعالى عدله فيهم وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها لا يزيدهم على ذلك، ﴿وترهقهم﴾ أي تعتريهم وتعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها، كما قال: ﴿وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿مهطعين مقنعي رؤوسهم﴾ الآية، وقوله: ﴿ما لهم من الله من عاصم﴾ أي مانع ولا واق يقيهم العذاب، كقوله تعالى: ﴿يقول الإنسان يومئذ أين المفر * كلا لا وزر﴾، وقوله: ﴿كأنما أغشيت وجوههم﴾ الآية إخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة، كقوله تعالى: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾، وقوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة * ووجوه يومئذ عليها غبرة﴾ الآية .

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ

(١) أخرجه أحمد ورواه مسلم وجماعة من الأئمة .

(٢) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم .

(٣) أخرجه ابن جرير عن أبي بن كعب .

إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى: ﴿ويوم نحشرهم﴾ أي أهل الأرض كلهم من جن وإنس وبر وفاجر، كقوله: ﴿وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً﴾، ﴿ثم نقول للذين أشركوا﴾ الآية، أي الزموا أنتم وهم مكاناً معيناً، امتازوا فيه عن مقام المؤمنين، كقوله تعالى: ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾، وقوله: ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿يومئذٍ يصَّدعون﴾ أي يصيرون صدعين؛ وهذا يكون إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء، ﴿مكانكم أنتم وشركاؤكم، فزيلنا بينهم﴾ أي أنهم أنكروا عبادتهم وتبرؤوا منهم، كقوله: ﴿كلا سيكفرون بعبادتهم﴾ الآية، وقوله: ﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا﴾، وقوله: ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء﴾ الآية، ﴿فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم﴾ الآية، أي ما كنا نشعر بها ولا نعلم بها، وإنما كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم والله شهيد بيننا وبينكم أنا ما دعوناكم إلى عبادتنا ولا أمرناكم بها ولا رضينا منكم بذلك، وفي هذا تبكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره وقد تركوا عبادة الحي القيوم القادر على كل شيء، العليم بكل شيء، وقد أرسل رسله آمراً بعبادته وحده لا شريك له ناهياً عن عبادة ما سواه، كما قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إلّه إلا أنا فاعبدون﴾، وقال: ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون؟﴾، وقوله تعالى: ﴿هنالك تبلى كل نفس ما أسلفت﴾ أي في موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس وتعلم ما سلف من عملها من خير وشر، كقوله تعالى: ﴿يوم تبلى السرائر﴾، وقال تعالى: ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾، وقال تعالى: ﴿ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ۝ اقرأ كتابك﴾، وقوله: ﴿وردوا إلى الله مولاهم الحق﴾ أي ورجعت الأمور كلها الى الله الحكم العدل، ففصلها وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ﴿وضل عنهم﴾ أي ذهب عن المشركين، ﴿ما كانوا يفترون﴾ أي ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه.

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية إلاهيته، فقال تعالى: ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض﴾ أي من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر، فيشق الأرض شقاً بقدرته ومشيئته، فيخرج منها ﴿حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلباً وفاكهة وأباً﴾ أإله مع الله؟ فسيقولون: الله ﴿أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه﴾؟ وقوله: ﴿أمن يملك السمع والأبصار﴾ أي الذي وهبكم هذه القوة السامعة، والقوة الباصرة، ولو شاء لذهب بها ولسلبكم إياها، كقوله تعالى: ﴿قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار﴾

الآية . وقال: ﴿ قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وابصاركم﴾ الآية، وقوله: ﴿ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي﴾ أي بقدرته العظيمة ومنته العميمة، وقوله: ﴿ومن يدبر الأمر﴾ أي من بيده ملكوت كل شيء، وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فالملك كله العلوي والسفلي فقبرون إليه خاضعون لديه، ﴿ فسيقولون الله﴾ أي وهم يعلمون ذلك ويعترفون بـه، ﴿ فقل أفلا تتقون﴾ ؟ أي أفلا تخافون منه أن تعبدوا معــه غيره بآرائكم وجهلكم ؟ وقوله: ﴿ فذلكم الله ربكم الحق﴾ الآية، أي فهذا الذي اعترفتم بأنـه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق الذي يستحق أن يفرد بالعبادة، ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ ؟ أي فكل معبود سواه باطل لا إله إلا هو واحد، لا شريك له، ﴿ فأنى تصرفون﴾ أي فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه ؟ وأنتم تعلمون أنه الرب الذي خلق كل شيء والمتصرف في كل شيء، وقوله: ﴿ كذلك حقت كلمـة ربك على الذين فسقوا﴾ أي كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرازق المتصرف في الملك وحده، الذي بعث رسله بتوحيده، فلهذا حقت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكني النار، كقوله: ﴿ قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين﴾ .

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

وهذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره، وعبدوا من الأصنام والأنداد، ﴿ قل هل من شركائكم من يبدؤ الخلق ثم يعيده﴾ أي من بدأ خلق هذه السماوات والأرض، ثم ينشئ ما فيهما من الخلائق، ويفرّق أجرام السماوات والأرض ويبدلهما بفناء ما فيهما ثم يعيد الخلق خلقــاً جديداً ﴿ قل الله﴾ هو الذي يفعل هــذا ويستقل بـه وحده لا شريك له، ﴿ فأنى تؤفكون﴾ أي فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل، ﴿ قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق ؟ قل الله يهدي للحق﴾ أي أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال، وإنمـا يهدي الحيارى والضُلّال، ويقلّب القلوب من الغيّ إلى الرشد الله رب العـالمين، ﴿ أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يَهِدِّي إلا أن يُهْدى﴾ أي أفيتبع العبد الذي يهدى إلى الحق ويبصر بعد العمى، أم الذي لا يهدي إلى شيء إلا أن يهدى لعماه وبكمه، كما قال تعالى إخباراً عن إبراهيم أنه قال: ﴿ يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾

وقوله تعالى: ﴿ فما لكم كيف تحكمون﴾ أي فما بالكم يذهب بعقولكم، كيف سويتم بين الله وبين خلقــه، وعدلتم هذا بهذا وعبدتم هذا وهذا ؟ وهلا أفردتم الرب جلّ جلاله بالعبادة وحده، وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة ؟ ثم بين تعالى أنهم لا يتبعون في دينهم هــذا دليلاً ولا برهاناً، وإنمـا هو ظنٌ منهم أي توهم وتخيل، وذلك لا يغني

عنهم شيئاً، ﴿إن الله عليم بما يفعلون﴾ تهديد لهم ووعيد شديد لأنه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء .

﴿وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾

هذا بيان لإعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، ولا بعشر سور، ولا بسورة من مثله، لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته، واشتماله على المعاني العزيزة الغزيرة النافعة في الدنيا والآخرة، لا يكون إلا من عند الله، الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وأقواله، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين، ولهذا قال تعالى: ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله﴾ أي مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله ولا يشبه هذا كلام البشر، ﴿ولكن تصديق الذي بين يديه﴾ أي من الكتب المتقدمة ومهيمناً عليه، ومبيناً لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل، وقوله: ﴿وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾ أي وبيان الأحكام بياناً شافياً كافياً لا مرية فيه من الله رب العالمين، كما تقدم في الحديث « فيه خبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وفصل ما بينكم » أي خبر عما سلف وعما سيأتي، وحكم فيما بين الناس بالشرع الذي يحبه الله ويرضاه. وقوله: ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ أي إن ادعيتم وافتريتم وشككتم في أن هذا من عند الله، وقلتم كذباً إن هذا من عند محمد، فمحمد بشر مثلكم وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن فأتوا أنتم بسورة مثله، أي من جنس هذا القرآن، واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان، وهذا هو المقام الثالث في التحدي، فإنه تعالى تحداهم ودعاهم إن كانوا صادقين في دعواهم أنه من عند محمد، فليعارضوه بنظير ما جاء، وليستعينوا بمن شاءوا، وأخبر أنهم لا يقدرون على ذلك ولا سبيل لهم إليه، فقال تعالى: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾، ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه، فقال في أول سورة هود: ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾، ثم تنازل إلى سورة، فقال في هذه السورة: ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾، وكذا في سورة البقرة، وهي مدنية تحداهم بسورة منه، وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبداً فقال: ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار﴾ الآية. هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى في هذا الباب، ولكن، جاءهم من الله ما لا قبل

لأحد به؛ ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام، وحلاوته وجزالته وطلاوته وإفادته وبراعته، فكانوا أعلم الناس به وأفهمهم له وأشدهم له انقياداً .

ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً». وقوله: ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله﴾ يقول: بل كذب هؤلاء بالقرآن، ولم يفهموه ولا عرفوه ﴿ولما يأتهم تأويله﴾ أي ولم يحصلوا ما فيه من الهدى ودين الحق إلى حين تكذيبهم بـه جهلاً وسفهاً، ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ أي من الأمم السالفة، ﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾ أي فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلماً وعلواً وكفراً وعناداً، فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم، وقوله: ﴿ومنهم من يؤمن به﴾ الآية، أي ومن هؤلاء الذين بعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ويتبعك وينتفع بما أرسلت به، ﴿ومنهم من لا يؤمن به﴾ بل يموت على ذلك ويبعث عليه، ﴿وربك أعلم بالمفسدين﴾ أي وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه؟ ومن يستحق الضلالة فيضله، وهو العادل الذي لا يجور، بل يعطي كلا ما يستحقه تبارك وتعالى وتقدس .

وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى لنبيّه محمد ﷺ: وإن كذبك هؤلا المشركون فتبرأ منهم ومن عملهم ﴿فقل لي عملي ولكم عملكم﴾، كقوله تعالى عن إبراهيم الخليل وأتباعه لقومهم المشركين: ﴿إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله﴾، وقوله: ﴿ومنهم من يستمعون إليك﴾ أي يسمعون كلامك الحسن والقرآن العظيم النافع في القلوب والأبدان، ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم، فإنك كما لا تقدر على إسماع الأصم، فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلا أن يشاء الله، ﴿ومنهم من ينظر إليك﴾ أي ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من الخلق العظيم، والدلالة الظاهرة على نبوتك، وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم، ولا يحصل لهم من الهداية شيء كما يحصل لغيرهم، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار، وهؤلاء الكفار ينظرون إليك بعين الاحتقار، ﴿وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً﴾ الآية، ثم أخبر تعالى أنه لا يظلم أحداً شيئاً، وإن كان قد هدى به من هدى وبصر به من العمى، وفتح به أعيناً عمياء وآذاناً صماء، وقلوباً غلفاً، وأضل بـه عن الإيمان آخرين؛ فهو الحاكم المتصرف في ملكه بما يشاء، لعلمه وحكمته وعدله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾ .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾

يقول تعالى مذكراً للناس قيام الساعة، وحشرهم من أجداثهم إلى عرصات القيامة: ﴿ويوم يحشرهم﴾ الآية. كقوله: ﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار﴾، وكقوله: ﴿كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾، وقال تعالى: ﴿نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً﴾، وقال تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾، وهذا كله دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة كقوله: ﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين؟ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين﴾، وقوله: ﴿يتعارفون بينهم﴾ أي يعرف الأبناء الآباء والقرابات بعضهم لبعض، كما كانوا في الدنيا ولكن كل مشغول بنفسه، ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ولا يسأل حميم حميماً﴾، وقوله: ﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين﴾ خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ولا خسارة أعظم من خسارة من فرق بينه وبين أحبته يوم الحسرة والندامة.

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى مخاطباً لرسوله ﷺ: ﴿وإما نرينك بعض الذين نعدهم﴾ أي ننتقم منهم في حياتك لتقر عينك منهم، ﴿أو نتوفينك فإلينا مرجعهم﴾، أي مصيرهم ومنقلبهم، والله يشهد على أفعالهم بعدك، وقوله: ﴿ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم﴾ قال مجاهد: يعني يوم القيامة ﴿قضي بينهم بالقسط﴾ الآية، كقوله تعالى: ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها﴾ الآية، فكل أمة تعرض على الله بحضرة رسولها، وكتاب أعمالها من خير وشر شاهد عليها وحفظتهم من الملائكة شهود أيضاً، وهذه الأمة الشريفة وإن كانت آخر الأمم في الخلق، إلا أنها أول الأمم يوم القيامة، يفصل بينهم ويقضى لهم، كما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، المقضي لهم قبل الخلائق»، فأمته إنما حازت قصب السبق بشرف رسولها صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفر هؤلاء المشركين في استعجالهم العذاب، وسؤالهم عن وقته قبل التعيين، مما لا فائدة لهم فيه، كقوله: ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق﴾ أي كائنة

لا محالة وواقعة وإن لم يعلموا وقتها عيناً، ولهذا أرشد تعالى رسوله ﷺ إلى جوابهم فقال: ﴿ قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً﴾ الآية، أي لا أقول إلا ما علمني، ولا أقدر على شيء مما استأثر به، إلا أن يطلعني الله عليه، فأنا عبده ورسوله إليكم، وقد أخبرتكم بمجيء الساعة وأنها كائنة، ولم يطلعني على وقتها، ولكن ﴿ لكل أمة أجل﴾ أي لكل قرن مدة من العمر مقدرة فإذا انقضى أجلهم ﴿ فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾، كقوله: ﴿ ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها﴾ الآية، ثم أخبر أن عذاب الله سيأتيهم بغتة، فقال: ﴿ قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً﴾ ؟ أي ليلاً أو نهاراً، ﴿ ماذا يستعجل منه المجرمون ۞ أثم إذا ما وقع آمنتم به الآن وقد كنتم به تستعجلون﴾ يعني أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا: ﴿ ربنا أبصرنا وسمعنا﴾ الآية، ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾، وقوله: ﴿ ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد﴾ أي يوم القيامة يقال لهم هذا تبكيتاً وتقريعاً كقوله: ﴿ اصلوها فاصبروا أولا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ .

۞ وَيَسْتَنْبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾

يقول تعالى: ويستخبرونك ﴿ أحق هو﴾ أي المعاد بعد صيرورة الأجسام تراباً ﴿ قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين﴾ أي ليس صيرورتكم تراباً بمعجز الله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم ﴿ فإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾، وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أخريان، يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد في سورة سبأ، ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم﴾، وفي التغابن: ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير﴾، ثم أخبر تعالى أنه إذا قامت القيامة يود الكافر لو افتدى من عذاب الله بملء الأرض ذهباً، ﴿ وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وقضي بينهم بالقسط﴾ أي بالحق ﴿ وهم لا يظلمون﴾ .

أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأن وعده حق كائن لا محالة، وأنه يحيي ويميت وإليه مرجعهم، وأنه القادر على ذلك العليم بما تفرق من الأجسام وتمزق في سائر أقطار الأرض والبحار والقفار .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

يقول تعالى ممتناً على خلقه بما أنزله من القرآن العظيم على رسوله الكريم: ﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة

من ربكم﴾ أي زاجر عن الفواحش، ﴿وشفاء لما في الصدور﴾ أي من الشبه والشكوك وهو إزالة ما فيها من رجس ودنس، ﴿وهدى ورحمة﴾ أي يحصل به الهداية والرحمة من الله تعالى، وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقين الموقنين بما فيه كقوله تعالى: ﴿ونتزل من القرآن ما فيه شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾. وقوله: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾ أي بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا فإنه أولى ما يفرحون به، ﴿هو خير مما يجمعون﴾ أي من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة.

* قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

قال ابن عباس ومجاهد: نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يحلون ويحرمون من البحائر والسوائب والوصايل، كقوله تعالى: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً﴾ الآيات، وقد أنكر الله تعالى على من حرم ما أحل الله، أو أحل ما حرم بمجرد الآراء والأهواء التي لا مستند لها ولا دليل عليها، ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة فقال: ﴿وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة﴾ أي ما ظنهم أن يصنع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة؟ وقوله: ﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾ قال ابن جرير: في تركه معاجلتهم بالعقوبة في الدنيا، ويحتمل أن يكون المراد﴿لذو فضل على الناس﴾ فيما أباح لهم مما خلقه من المنافع، ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم في دنياهم أو دينهم، ﴿ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾ بل يحرمون ما أنعم الله به عليهم، ويضيقون على أنفسهم فيجعلون بعضاً حلالاً وبعضاً حراماً.

وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

يخبر تعالى نبيّه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته، وجميع الخلائق في كل ساعة وأوان ولحظة، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين، كقوله: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾، فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك الدواب السارحة، ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ الآية،

وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء فكيف علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة؟ كما قال تعالى: ﴿الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه﴾ أي إذ تأخذون في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم راءون سامعون، ولهذا قال ﷺ لما سأله جبريل عن الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾

يخبر تعالى أن أولياءه ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ كما فسرهم بهم، فكل من كان تقياً، كان الله ولياً ف ﴿لا خوف عليهم﴾ أي فيما يستقبلونه من أهوال الآخرة، ﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما وراءهم في الدنيا. وقال عبد الله ابن مسعود: أولياء الله الذين إذا رأوا ذكر الله[1]، وقال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله عباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء»، قيل: من هم يا رسول الله لعلنا نحبهم؟ قال: «هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب، وجوههم نور على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس» ثم قرأ: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[2]، وقال الإمام أحمد، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾، قال: «الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له». وقال الإمام أحمد، عن عبادة ابن الصامت، أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت قول الله تعالى: ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ فقال: «لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد من أمتي - أو قال أحد قبلك - تلك الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له»؛ وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله: الرجل يعمل العمل ويحمده الناس عليه ويثنون عليه بـه، فقال رسول الله ﷺ: «تلك عاجل بشرى المؤمن»[3] وعن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه قال: «﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا﴾ الرؤيا الصالحة يبشرها المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»[4] وقال ابن جرير، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ - قال - في الدنيا الرؤيا الصالحة يراها العبد أو ترى له وهي في الآخرة الجنة»[5]، وقال ابن جرير، عن أم كريز الكعبية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ذهبت النبوة وبقيت المبشرات»؛ وقيل: المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة، كقوله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾، وفي حديث البراء رضي الله عنه: (ان المؤمن

(١) ورد هذا القول في حديث مرفوع رواه البزار عن ابن عباس قال، قال رجل: يا رسول الله من أولياء الله؟ فذكره.
(٢) أخرجه ابن جرير عن أبي هريرة ورواه أبو داود في سننه.
(٣) رواه مسلم وأخرجه أحمد عن أبي ذر.
(٤) أخرجه ابن جرير، وقد روي عن جمع من الصحابة والتابعين تفسير (البشرى) بالرؤيا الصالحة.
(٥) وروي موقوفاً عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: الرؤيا الحسنة بشرى من الله وهي من المبشرات.

إذا حضره الموت جاءه ملائكة بيض الوجوه بيض الثياب، فقالوا: اخرجي أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان ورب غير غضبان، فتخرج من فمه كما تسيل القطرة من فم السقاء). وأما بشراهم في الآخرة فكما قال تعالى: ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾، وقال تعالى: ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾، وقوله: ﴿لا تبديل لكلمات الله﴾ أي هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغير بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة، ﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾.

وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ولا يحزنك﴾ قول هؤلاء المشركين واستعن بالله عليهم وتوكل عليه فإن ﴿العزة لله جميعاً﴾ أي جميعاً له ولرسوله وللمؤمنين، ﴿هو السميع العليم﴾ أي السميع لأقوال عباده العليم بأحوالهم؛ ثم أخبر تعالى أن له ملك السماوات والأرض وأن المشركين يعبدون الأصنام وهي لا تملك شيئاً، لا ضراً ولا نفعاً ولا دليل لهم على عبادتها، بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم وتخرصهم وكذبهم وإفكهم، ثم أخبر أنه الذي جعل لعباده الليل ليسكنوا فيه، أي يستريحون فيه من نصبهم وكلالهم وحركاتهم، ﴿والنهار مبصراً﴾ أي مضيئاً لمعاشهم وسعيهم وأسفارهم ومصالحهم، ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾ أي يسمعون هذه الحجج والأدلة فيعتبرون بها ويستدلون على عظمة خالقها ومقدرها ومسيرها.

قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

يقول تعالى منكراً على من ادعى أن له ﴿ولداً سبحانه هو الغني﴾ أي تقدس عن ذلك هو الغني عن كل ما سواه وكل شيء فقير إليه ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾، أي فكيف يكون له ولد مما خلق وكل شيء مملوك له عبد له ﴿إن عندكم من سلطان بهذا﴾ أي ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان ﴿أتقولون على الله ما تعلمون﴾؟ إنكار ووعيد أكيد وتهديد شديد، كقوله تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إداً * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً أن دعوا للرحمن ولداً * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً﴾، ثم توعد تعالى الكاذبين عليه المفترين ممن زعم أن له ولداً، بأنهم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة،

فأما في الدنيا فإنهم إذا استدرجهم وأملى لهم متعهم قليلاً ﴿ ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾، كما قال تعالى ههنا: ﴿ متاع في الدنيا ﴾ أي يوم القيامة، ﴿ ثم نذيقهم العذاب الشديد ﴾ أي الموجع المؤلم ﴿ بما كانوا يكفرون ﴾ أي بسبب كفرهم وافترائهم وكذبهم على الله فيما ادعوه من الإفك والزور.

* وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾

يقول تعالى لنبيّه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ واتل عليهم ﴾ أي أخبرهم واقصص عليهم، أي على كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك، ﴿ نبأ نوح ﴾ أي خبره مع قومه الذين كذبوه كيف أهلكهم الله ودمرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك، ﴿ إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم ﴾ أي عظم عليكم ﴿ مقامي ﴾ أي فيكم بين أظهركم، ﴿ وتذكيري ﴾ إياكم ﴿ بآيات الله ﴾ أي بحججه وبراهينه، ﴿ فعلى الله توكلت ﴾ أي فإني لا أبالي ولا أكف عنكم سواء عظم عليكم أو لا، ﴿ فأجمعوا أمركم وشركاءكم ﴾ أي فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله من صنم ووثن، ﴿ ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ﴾ أي ولا تجعلوا أمركم عليكم متلبساً، بل افصلوا حالكم معي، فإن كنتم تزعمون أنكم محقون فاقضوا إليّ ولا تنظرون، أي ولا تؤخروني ساعة واحدة، أي مهما قدرتم فافعلوا، فإني لا أباليكم ولا أخاف منكم لأنكم لستم على شيء، كما قال هود لقومه: ﴿ فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون إني توكلت على الله ربي وربكم ﴾ الآية. وقوله: ﴿ فإن توليتم ﴾ أي كذبتم وأدبرتم عن الطاعة ﴿ فما سألتكم من أجر ﴾ أي لم أطلب منكم على نصيحتي إياكم شيئاً، ﴿ إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ أي وأنا ممتثل ما أمرت بـه من الإسلام لله عز وجلّ، والإسلام هو دين الأنبياء جميعاً من أولهم إلى آخرهم، وإن تنوعت شرائعهم وتعددت مناهلهم، وقوله تعالى ﴿ فكذبوه فنجيناه ومن معه ﴾ أي على دينه ﴿ في الفلك ﴾ وهي السفينة، ﴿ وجعلناهم خلائف ﴾ أي في الأرض، ﴿ وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾ أي فانظر يا محمد كيف أنجينا المؤمنين وأهلكنا المكذبين.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾

يقول تعالى: ﴿ ثم بعثنا من بعد نوح رسلاً إلى قومهم فجاؤوهم بالبينات﴾ أي بالحجج والأدلة والبراهين على صدق ما جاؤوهم بـه، ﴿ فما كانـوا ليؤمنوا بمـا كذبوا به من قبل﴾، أي فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم بـه رسلهم بسبب تكذيبهم إياهم أول مـا أرسلوا إليهم، كقوله تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم﴾ الآية، وقوله: ﴿ كذلك نطبع على قلوب المعتدين﴾ أي كما طبع الله على قلوب هؤلاء، فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم، هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعـدهم، ويختم على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العـذاب الأليم؛ والمراد أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة وأنجى من آمن بهم وذلك من بعد نوح عليه السلام، فإن الناس كانوا من قبله من زمان آدم عليه السلام على الإسلام، إلى أن أحدث النـاس عبادة الأصنام، فبعث الله إليهم نوحاً عليه السلام، قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، وقال الله تعالى: ﴿ وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح﴾ الآية، وفي هذا إنذار عظيم لمشركي العرب الذين كذبوا سيّد الرسل وخاتم الأنبياء والمرسلين، فإنه إذا كان قـد أصاب من كذب بتلك الرسل ما ذكره الله تعالى من العذاب والنكال، فماذا ظن هؤلاء وقـد ارتكبوا أكبر من أولئك؟

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

يقول تعالى: ﴿ ثم بعثنا﴾ من بعد تلك الرسل ﴿ موسى وهارون إلى فرعون وملئه﴾ أي قومه، ﴿ بآياتنا﴾ أي حججنا وبراهيننا، ﴿ فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾ أي استكبروا عن اتباع الحق والانقياد له وكانوا قوماً مجرمين، ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هـذا لسحر مبين﴾، كأنهم قبحهم الله أقسموا على ذلك وهم يعلمون أن ما قالوه كذب وبهتان، كما قال تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا﴾ الآية، ﴿ قال﴾ لهم ﴿ موسى﴾ منكراً عليهم ﴿ أتقولون للحق لمـا جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون * قالوا أجئتنا لتلفتنا﴾ أي تثنينا ﴿ عما وجـدنا عليه آباءنا﴾ أي الدين الذي كانوا عليه، ﴿ وتكون لكما﴾ أي لك ولهارون ﴿ الكبرياء﴾ أي العظمة والرياسة ﴿ في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين﴾. وكثيراً ما يذكر الله تعالى قصة موسى عليه السلام مـع فرعون في كتابه العزيز، لأنها من أعجب القصص، فإن فرعون حذر من موسى كل الحذر، فسخره القدر: أن رَبّي على فراشه بمنزلة الولد ثم ترعرع وعقد الله له سبباً أخرجه من بين أظهرهم، ورزقه النبوة والرسالة والتكليم، ولم تزل الآيات تقوم على يدي موسى شيئاً بعد شيء، ومرة بعد مرة، ممـا يبهر العقول، ويدهش الألباب، ﴿ وما تأتيهم من آية إلا هي أكبر من أختها﴾ وصمم فرعون وملأه قبحهم الله على التكذيب بذلك كله والجحد والعناد والمكابرة، حتى أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد، وأغرقهم في صبيحة واحدة أجمعين، ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾
فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ
ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾

ذكر تعالى قصة السحرة مع موسى عليه السلام، وما أراده فرعون من معارضة الحق المبين، ﴿وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم ۞ فلما جاء السحرة قـال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون﴾ ، وإنمـا قال لهم ذلك لأنهم لما اصطفوا وقـد وعدوا من فرعون بالتقريب والعطاء الجزيل ﴿ قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من القى ﴾، فأراد موسى أن تكون البداءة منهم ليرى الناس ما صنعوا، ثم يأتي بالحق بعده فيدمغ باطلهم، ولهذا لما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم، ﴿ فأوجس في نفسه خيفة موسى قلنـا لا تخف إنك أنت الأعلى﴾، فعند ذلك قال موسى لما ألقوا: ﴿ ما جئتم بـه السحر إن الله سيبطله أن الله لا يصلح عمل المفسدين ۞ ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون﴾.

فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ
وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾

يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى عليه السلام مع ما جاء بـه من الآيات البينات، والحجج القاطعات والبراهين الساطعات، إلا قليل من قوم فرعون من الذرية، وهم الشباب على وجل وخوف منـه ومن ملئه أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر، لأن فرعون لعنه الله كان جباراً عنيداً مسرفاً في التمرد والعتو، وكانت له سطوة ومهابة يخاف رعيته منه خوفاً شديداً. قال ابن عباس: الذرية التي آمنت لموسى من غير بني إسرائيل من قوم فرعون يسير « منهم امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه »، وعنه: ﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه﴾ يقول: من بني إسرائيل، وقال مجاهد في قوله: ﴿ إلا ذرية من قومه﴾ هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات آباؤهم، واختـار ابن جرير قول مجاهد في الذرية أنها من بني إسرائيل، لا من قوم فرعون لعود الضمير على أقرب المذكورين، وفي هذا نظر، لأنه أراد بالذرية الأحداث والشباب، وأنهم من بني إسرائيل، والمعروف أن بني إسرائيل كلهم آمنوا بموسى عليه السلام وقـد كانوا يعرفون نعته وصفته والبشارة بـه من كتبه المتقدمة، وأن الله تعالى سينقذهم بـه من أسر فرعون ويظهرهم عليـه، ولما جاء موسى آذاهم فرعون أشد الأذى، ﴿ قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾ ، وإذا تقرر هـذا فكيف يكون المراد إلا ذرية من قوم موسى وهم بنو إسرائيل ﴿ على خوف من فرعون وملئهم﴾ أي وأشراف قومهم أن يفتنهم، ولم يكن في بني إسرائيل من يخاف منه أن يفتن عن الإيمان، ومما يدل على أنه لم يكن في بني إسرائيل إلا مؤمن قوله تعالى :

وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا

لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى أنه قال لبني إسرائيل: ﴿ يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ أي فإن الله كاف من توكل عليه، ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾، ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾، وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين العبادة والتوكل، كقوله تعالى: ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ ، وقد امتثل بنو إسرائيل ذلك فقالوا: ﴿ على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ﴾ أي لا تظفرهم وتسلطهم علينا فيظنوا أنهم إنما سلطوا لأنهم على الحق ونحن على الباطل فيفتنوا بذلك، هكذا روي عن أبي الضحى، وقال مجاهد: لا تعذبنا بأيدي آل فرعون ولا بعذاب من عندك فيقول قوم فرعون: لو كانوا على حق ما عذبوا ولا سلطنا عليهم فيفتنوا بنا. وعن مجاهد: لا تسلطهم علينا فيفتنونا، وقوله: ﴿ ونجنا برحمتك ﴾ أي خلصنا برحمة منك وإحسان ﴿ من القوم الكافرين ﴾ أي الذين كفروا الحق وستروه ونحن قد آمنا بك وتوكلنا عليك .

* وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾

يذكر تعالى سبب انجائه بني إسرائيل من فرعون وقومه وكيفية خلاصهم منهم، وذلك أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون عليهما السلام أن يتبوآ، أي يتخذا لقومهما بمصر بيوتاً، واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلة ﴾، فقال ابن عباس: امروا أن يتخذوها مساجد، وقال الثوري، عن إبراهيم: كانوا خائفين فأمروا أن يصلوا في بيوتهم، وأمروا بكثرة الصلاة كقوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ﴾، وفي الحديث: (كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى)[(١)] ، ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين ﴾، أي بالثواب والنصر القريب، وقال العوفي عن ابن عباس في تفسير هذه الآيةقال، قالت بنو إسرائيل عليه السلام: لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة، فأذن الله تعالى لهم أن يصلوا في بيوتهم، وأمروا أن يجعلوا بيوتهم قبل القبلة .

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ *

هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى عليه السلام على فرعونوملئه، لما أبوا قبول الحق واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين ظلماً وعلوا وتكبراً وعتواً، قال موسى: ﴿ ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة ﴾

---

(١) أخرجه أبو داود .

أي من أثاث الدنيا ومتاعها، ﴿وأموالاً﴾ أي جزيلة كثيرة ﴿في﴾ هذه ﴿الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك﴾ أي ليفتتن بما أعطيتهم من شئت من خلقك، وليظن من أغويته أنك إنما أعطيتهم هذا لحبك إياهم واعتنائك بهم ﴿ربنا اطمس على أموالهم﴾، قال ابن عباس: أي أهلكها، وقال الضحاك: اجعلها حجارة منقوشة كهيئة ما كانت، وقال قتادة: بلغنا أن زروعهم تحولت حجارة، وقوله: ﴿واشدد على قلوبهم﴾ قال ابن عباس: أي اطبع عليها ﴿فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾ وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضباً لله ولدينه على فرعون وملئه الذين تبين له أنهم لا خير فيهم ولا يجيء منهم شيء، كما دعا نوح عليه السلام فقال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾، ولهذا استجاب الله تعالى لموسى عليه السلام فيهم هذه الدعوة التي أمَّن عليها أخوه هارون، فقال تعالى: ﴿قد أجيبت دعوتكما﴾، قال أبو العالية وعكرمة: دعا موسى وأمن هارون، أي قد أجبناكما فيما سألتما من تدمير آل فرعون، ﴿فاستقيما﴾ أي كما أجيبت دعوتكما فاستقيما على أمري، قال ابن عباس: فاستقيما: فامضيا لأمري وهي الاستقامة، قال ابن جريج: يقولون إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة، وقيل: أربعين يوماً.

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾

يذكر تعالى كيفية إغراقه فرعون وجنوده، فإن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر وهم فيما قيل ستمائة ألف مقاتل سوى الذرية، اشتد حنق فرعون عليهم، فأرسل في المدائن حاشرين يجمعون له جنوده من أقاليمه، فركب وراءهم في أبهة عظيمة وجيوش هائلة لما يريده الله تعالى بهم، فلحقوهم وقت شروق الشمس، ﴿فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنّا لمدركون﴾، أي كيف المخلص مما نحن فيه؟ فقال: ﴿كلا إن معي ربي سيهدين﴾، فأمره الله تعالى أن يضرب البحر بعصاه، فضربه فانفلق البحر، فكان كل فرق كالطود العظيم، وجاوزت بنو إسرائيل البحر، فلما خرج آخرهم منه، انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى، وهو في مائة ألف، فلما رأى ذلك هاله، وأحجم وهاب وهمَّ بالرجوع، وهيهات ولات حين مناص، فاقتحموا كلهم عن آخرهم، وميكائيل في ساقتهم، لا يترك منهم أحداً إلا ألحقه بهم، فلما استوسقوا فيه وتكاملوا، وهمَّ أولهم بالخروج منه أمر الله القدير البحر أن يرتطم عليهم، فارتطم عليهم، فلم ينج منهم أحد، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم، وتراكمت الأمواج فوق فرعون، وغشيته سكرات الموت، فقال وهو كذلك: ﴿آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾، فآمن حيث لا ينفعه الإيمان ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾، ولهذا قال الله تعالى في جواب فرعون حين قال ما قال: ﴿آلآن وقد عصيت قبل﴾ أي أهذا الوقت تقول، وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه؟ ﴿وكنت من المفسدين﴾ أي في الأرض، ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون﴾، وهذا الذي حكى الله تعالى عن فرعون من قوله هذا في حاله، ذلك من أسرار الغيب التي أعلم

الله بهـا رسوله ﷺ، ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل، عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: « لما قال فرعون آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت بـه بنو إسرائيل - قال، قال لي جبريل: لو رأيتني وقد أخذت من حال[1] البحر فدسسته في فيه مخافة أن تناله الرحمة »[2]

وقوله تعالى: ﴿فاليوم ننجيك ببـدنك لتكون لمن خلفك آية﴾، قال ابن عباس وغيره من السلف: إنَّ بعض بني إسرائيل شكّوا في موت فرعون، فأمر الله البحر أن يلقيه بجسده سوياً بلا روح، ليتحققوا موته وهلاكه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ فاليوم ننجيك﴾ أي نرفعك على نشز من الأرض ﴿ ببدنك ﴾، قال مجاهد: بجسدك، وقال الحسن: بجسم لا روح فيه، وقوله: ﴿ لتكون لمن خلفك آية﴾ أي لتكون لبني إسرائيل دليلاً على موتك وهلاكك، وأن الله هو القـادر الذي ناصية كل دابة بيده، وأنه لا يقوم لغضبه شيء، ﴿ وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون﴾ أي لا يتعظون بها ولا يعتبرون بها، وقـد كان إهلاكهم يوم عاشوراء كما قال ابن عباس: قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فقال: « ما هذا اليوم الذي تصومونه ؟ » فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون، فقال النبي ﷺ لأصحابه: « وأنتم أحق بموسى منهم فصوموه »[3].

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

يخبر تعالى عما أنعم بـه على بني إسرائيل من النعم الدينية والدنيوية، وقوله: ﴿ مبوأ صدق﴾ قيل: هو بلاد مصر والشام مما يلي بيت المقدس ونواحيه، فإن الله تعالى لمـا أهلك فرعون وجنوده، استقرت يـد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكمالها، كما قال تعالى: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها﴾، وقال في الآية الأخرى: ﴿ كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾، وقال: ﴿ كم تركوا من جنـات وعيون﴾ الآيات، ولكن استمروا مع موسى عليه السلام طالبين إلى بلاد بيت المقدس، وهي بلاد الخليل عليه السلام فاستمر موسى بمن معـه طالبـاً بيت المقدس، وكان فيه قوم من العمالقة، فنكل بنو إسرائيل عن قتالهم، فشردهم الله تعالى في التيه أربعين سنة، ومات فيه هارون، ثم موسى عليهما السلام، وخرجوا بعدهما مع (يوشع بن نون) ففتح الله عليهم بيت المقدس، واستقرت أيديهم عليها إلى أن أخذهـا منهم بختنصر حيناً من الدهر، ثم انتزعهـا الصحابة رضي الله عنهم من يـد النصارى، وكان فتح بيت المقدس على يـد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقوله: ﴿ورزقناهم من الطيبات﴾ أي الحلال من الرزق الطيب النـافع المستطاب طبعـاً وشرعـاً، وقوله: ﴿ فما اختلفوا حتى جاءهم العلم﴾ أي ما اختلفوا في شيء من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم، أي ولم يكن لهم أن يختلفوا، وقـد ورد في الحديث: أن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، وأن النصارى اختلفوا على

(١) حال البحر: طينه الأسود.

(٢) ورواه الترمذي وابن أبي حاتم وقال الترمذي: حديث حسن.

(٣) رواه البخاري عن ابن عباس.

اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هـذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، منها واحدة في الجنة، وثنتان وسبعون في النار. قيل من هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»(١)، ولهذا قال تعالى: ﴿إن ربك يقضي بينهم﴾ أي يفصل بينهم ﴿يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾.

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾

قال قتادة: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لا أشك ولا أسأل»، وهذا فيه تثبيت للأمة وإعلام لهم أن صفة نبيهم ﷺ موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ الآية، ثم مع هذا العلم الذي يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم، يلبسون ذلك ويحرفونه ويبدلونه، ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ أي لا يؤمنون إيماناً ينفعهم، بل حين لا ينفع نفساً إيمانها، ولهذا لما دعا موسى على فرعون وملئه قال: ﴿فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾

يقول تعالى: فهلا كانت قرية آمنت بكمالها من الأمم السالفة بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلا كذبه قومه أو أكثرهم، كقوله تعالى: ﴿يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون﴾، وقوله: ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون﴾. وفي الحديث الصحيح: «عرض عليَّ الأنبياء فجعل النبي يمر ومعه الفئام من الناس، والنبي يمر معه الرجل، والنبي معه الرجلان، والنبي ليس معه أحد» ثم ذكر كثرة أتباع موسى عليه السلام، ثم ذكر كثرة أمته صلوات الله وسلامه عليه كثرةً سدَّت الخافقين، **والغرض** أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى إلا قوم يونس، وهم (أهل نينوى) وما كان إيمانهم إلا تخوفاً من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم، بعد ما عاينوا أسبابه، وخرج رسولهم من بين أظهرهم فعندها جأروا إلى الله واستغاثوا به وتضرعوا له، واستكانوا، وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم؛ فعندها رحمهم الله، وكشف عنهم العذاب وأخروا: كما قال تعالى: ﴿إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾. وقال قتادة في تفسير

(١) رواه الحاكم بهذا اللفظ وهو في السنن والمسانيد.

هذه الآية: لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين حضرها العذاب، إلا قوم يونس لما فقدوا نبيهم، وظنوا أن العذاب قد دنا منهم قذف الله في قلوبهم التوبة، ولبسوا المسوح، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، ثم عجوا إلى الله أربعين ليلة، فلما عرف الله الصدق من قلوبهم، والتوبة والندامة على ما مضى منهم كشف عنهم العذاب.

وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾

يقول تعالى: ﴿ولو شاء ربك﴾ يا محمد لأذن لأهل الأرض كلهم في الإيمان، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى، كقوله تعالى: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾، وقال تعالى: ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿أفأنت تكره الناس﴾ أي تلزمهم وتلجئهم، ﴿حتى يكونوا مؤمنين﴾ أي ليس ذلك عليك ولا إليك ﴿ليس عليك هداهم ولكنَّ الله يهدي من يشاء﴾، ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾، ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾، ﴿لست عليهم بمصيطر﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد، الهادي من يشاء المضل لمن يشاء، لعلمه وحكمته وعدله، ولهذا قال تعالى: ﴿وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس﴾ وهو الخبال والضلال ﴿على الذين لا يعقلون﴾ أي حجج الله وأدلته، وهو العادل في كل ذلك في هداية من هدى وإضلال من ضل.

قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

يرشد تعالى عباده إلى التفكر في آلائه، وما خلق الله في السماوات والأرض من الآيات الباهرة لذوي الألباب، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع والأزاهير وصنوف النبات، وما ذرأ فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب، وما في البحر من العجائب والأمواج، وهو مع هذا مسخّر مذلل للسالكين، بتسخير القدير لا إله إلا هو رب العالمين، وقوله: ﴿وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ أي: وأي شيء تغني الآيات السماوية والأرضية، والرسل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها، عن قوم لا يؤمنون، كقوله: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون﴾ الآية، وقوله: ﴿فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم﴾، أي فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يا محمد من النقمة والعذاب إلا مثل أيام الله في الذين خلوا من قبلهم من الأمم الماضية المكذبة لرسلهم، ﴿قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين * ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا﴾، أي ونهلك المكذبين بالرسل، ﴿كذلك حقاً علينا ننجي المؤمنين﴾ حقاً أوجبه الله تعالى على نفسه الكريمة، كقوله: ﴿كتب ربكم على نفسه

الرحمة﴾، وكما جاء في الصحيحين: «إن الله كتب كتاباً فهو عنده فوق العرش، إن رحمتي سبقت غضبي».

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿قل يا أيها الناس إن كنتم في شك﴾ من صحة ما جئتكم به من الدين الحنيف الذي أوحاه الله إليَّ، فأنا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله، ولكن أعبد الله وحده لا شريك له، وهو الذي يتوفاكم كما أحياكم، ثم إليه مرجعكم، فإن كانت آلهتكم التي تدعون من دون الله حقاً فأنا لا أعبدها، فادعوها فلتضرني فإنها لا تضر ولا تنفع، وإنما الذي بيده الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له، وأمرت أن أكون من المؤمنين، وقوله: ﴿وأن أقم وجهك للدين حنيفاً﴾، أي أخلص العبادة لله وحده حنيفاً أي منحرفاً عن الشرك، ولهذا قال: ﴿ولا تكونن من المشركين﴾، وهو معطوف على قوله: ﴿وأمرت أن أكون من المؤمنين﴾، وقوله: ﴿وإن يمسسك الله بضر﴾ الآية، فيه بيان لأن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده، روى الحافظ بن عساكر، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «اطلبوا الخير دهركم كله، وتعرضوا لنفحات ربكم، فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده، واسألوه أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم» وقوله: ﴿وهو الغفور الرحيم﴾ أي لمن تاب إليه ولو من أي ذنب كان حتى من الشرك به فإنه يتوب عليه.

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

يقول تعالى آمراً لرسوله ﷺ أن يخبر الناس، أن الذي جاءهم به من عند الله هو الحق الذي لا مرية فيه، فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفعه على نفسه، ومن ضل عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه، ﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾، أي وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين وإنما أنا نذير لكم، والهداية على الله تعالى، وقوله: ﴿واتبع ما يوحى إليك واصبر﴾ أي تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه إليك، واصبر على مخالفة من خالفك من الناس ﴿حتى يحكم الله﴾ أي يفتح بينك وبينهم، ﴿وهو خير الحاكمين﴾ أي خير الفاتحين بعدله وحكمته.

* * *

تفسير سورة يونس

[وهى مكية][١].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ (٢) ﴾.

أما الحروف المقطعة فى أوائل السور، فقد تقدم الكلام عليها [مستوفى][٢] فى أوائل[٣] سورة البقرة.

وقال أبو الضحى، عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿ الر ﴾، أى: أنا الله أرى. وكذا قال الضحاك وغيره.

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ أى: هذه آيات القرآن المحكم المبين وقال مجاهد: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ [قال: التوراة والإنجيل][٤].

[وقال الحسن: التوراة والزبور][٥].

وقال قتادة: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ قال: الكتب التى كانت قبل القرآن.

وهذا القول لا أعرف وجهه ولا معناه.

وقوله: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية، يقول تعالى منكرا على من تعجب من الكفار من إرسال المرسلين من البشر، كما أخبر تعالى عن القرون الماضية من[٦] قولهم: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ [التغابن: ٦]، وقال هود وصالح لقومهما: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣، ٦٩] وقال تعالى مخبراً عن كفار قريش أنهم قالوا: ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

وقال الضحاك، عن ابن عباس: لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولا، أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر منهم،فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد. قال: فأنزل الله عز

---

(١) زيادة من ت. (٢) زيادة من ت، أ. (٣) فى ت، أ: «أول».
(٤) زيادة من تفسير الطبرى (١٥/ ١١) مستفاد من ط. الشعب.
(٥) زيادة من ت، أ. (٦) فى ت، أ: «فى».

وجل: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾.

وقوله: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: اختلفوا فيه، فقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ [عِندَ رَبِّهِمْ][1] ﴾ يقول: سبقت لهم السعادة فى الذكر الأول.

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يقول: أجرا حسنا، بما قدموا. وكذا قال الضحاك، والربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا كقوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا . مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: ٢، ٣].

وقال مجاهد: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ قال: الأعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم.

[وقال عمرو بن الحارث عن قتادة أو الحسن ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾][2]، قال: محمد ﷺ شفيع لهم. وكذا قال زيد بن أسلم، ومقاتل بن حيان.

وقال قتادة: سَلَفُ صدق عند ربهم.

واختار ابن جرير قول مجاهد ـ أنها الأعمال الصالحة التى قدموها ـ قال: كما يقال: «له قدم فى الإسلام»، ومنه قول [حسان][3] رضى الله عنه:

لنا القَدَمُ[4] العُليا إليك وخَلْفُنا ... لأوّلنا فى طاعة الله تَابعُ

وقول ذى الرُّمة:

لكُم قَدَمٌ لا يُنْكِرُ الناسُ أنها ... مَعَ الحسَبِ العَادِىّ طَمَّت على البَحْرِ[5]

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ[6] مُّبِينٌ﴾ أى: مع أنا بعثنا إليهم رسولا منهم، رجلا من جنسهم، بشيراً ونذيراً، ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ[7] مُّبِينٌ﴾ أى: ظاهر، وهم الكاذبون فى ذلك.

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣) ﴾.

يخبر تعالى أنه رب العالم جميعه، وأنه خَلَق السموات والأرض فى ستة أيام ـ قيل: كهذه الأيام، وقيل: كل يوم كألف سنة مما تعدون. كما سيأتى بيانه [إن شاء الله تعالى][8]، ثم استوى

(١) زيادة من ت، أ.
(٢) زيادة من ت.
(٣) زيادة من ت، أ.
(٤) فى ت: «قدم».
(٥) تفسير الطبرى (١٥/١٦).
(٦، ٧) فى ت: «لسحر».
(٨) زيادة من أ.

على العرش، والعرش أعظم المخلوقات وسقفها.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا حجاج بن حمزة، حدثنا أبو أسامة، حدثنا إسماعيل بن أبى خالد قال: سمعت سعد[(١)] الطائى يقول: العرش ياقوتة حمراء.

وقال وهب بن منبه: خلقه الله من نوره.

وهذا غريب.

﴿ **يُدَبِّرُ الأَمْرَ** ﴾ أى: يدبر أمر الخلائق، ﴿ **لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَلا فِى الأَرْضِ** ﴾ [سبأ: ٣]، ولا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلّطه[(٢)] المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين[(٣)]، ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير، فى الجبال والبحار والعمران والقفار، ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ [هود: ٦]. ﴿ **وَمَا تَسْقُطُ**[(٤)] **مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال الدراوردى، عن سعد بن إسحاق بن كعب [بن عجرة][(٥)] أنه قال حين نزلت هذه الآية: ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ**﴾ لقيهم ركب عظيم[(٦)] [لا يرون إلا أنهم][(٧)] من العرب، فقالوا لهم: من أنتم؟ قالوا. من الجن، خرجنا من المدينة، أخرجتنا هذه الآية. رواه ابن أبى حاتم.

[وقوله][(٨)]: ﴿ **مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِ** ﴾، كقوله تعالى: ﴿ **مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ**﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وكقوله تعالى: ﴿ **وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى السَّمَوَاتِ لا تُغْنِى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى**﴾ [النجم: ٢٦]، وقوله: ﴿**وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ**﴾ [سبأ: ٢٣].

وقوله: ﴿ **ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ**[(٩)]﴾ أى: أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، ﴿**أَفَلا تَذَكَّرُونَ**[(١٠)]﴾ أى: أيها المشركون فى أمركم، تعبدون مع الله غيره، وأنتم تعلمون أنه المتفرد بالخلق، كقوله تعالى: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقوله: ﴿ **قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ**[(١١)] **قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ**﴾ [المؤمنون: ٨٦، ٨٧]، وكذا الآية التى قبلها والتى بعدها.

﴿ **إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا**

---

(١) فى ت: «سعداً».
(٢) فى ت، أ: «ولا يغلطه».
(٣) فى ت: «بالأ لجاج الملجين».
(٤) فى ت: «يسقط».
(٥) زيادة من ت، أ.
(٦) فى ت: «لقى ـ ثم بياض ـ ركباً عظيما».
(٧) زيادة من ت.
(٨) زيادة من ت، أ.
(٩، ١٠) فى ت: «يتذكرون».
(١١) فى ت: «الله».

الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤)﴾.

أخبر تعالى أن إليه مرجع الخلائق يوم القيامة، لا يترك منهم أحدا حتى يعيده كما بدأه. ثم ذكر تعالى أنه كما بدأ الخلق كذلك يعيده، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧].

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ أى: بالعدل والجزاء الأوفى، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أى: بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العقاب، من ﴿سَمُومٍ وَحَمِيمٍ. وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ [الواقعة ٤٢، ٤٣]. ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ. وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ [ص: ٥٧، ٥٨]، ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ. يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤].

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦)﴾.

يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته، وعظيم سلطانه، وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء وشعاع القمر نورا، هذا فن وهذا فن آخر، ففاوت بينهما لئلا يشتبها، وجعل سلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل، وقدر القمر منازل، فأول ما يبدو صغيراً، ثم يتزايد نُوره وجرمه، حتى يستوسق ويكمل إبداره، ثم يشرع فى النقص حتى يرجع إلى حاله الأول فى تمام شهر، كما قال تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ. لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٩، ٤٠]، وقال: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿وَقَدَّرَهُ﴾ أى: القمر ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾، فبالشمس تعرف الأيام، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام.

﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ أى: لم يخلقه عبثا بل له حكمة عظيمة فى ذلك، وحجة بالغة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ. فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

وقوله: ﴿نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ أى: نبين الحجج والأدلة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: تعاقبهما إذا جاء هذا ذهب هذا، وإذا ذهب هذا جاء هذا، لا يتأخر عنه شيئا، كما قال تعالى: ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال: ﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ [يس: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَاعِلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: من الآيات الدالة على عظمته تعالى، كما قال: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ [يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ](١)﴾ [يوسف: ١٠٥]، [وقال](٢): ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ](٣) وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا(٤) إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [سبأ: ٩]، وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] أي: العقول، وقال ها هنا: ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ أي: عقاب الله، وسَخَطه، وعذابه.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ⑦ أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ⑧ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن حال الأشقياء الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة ولا يرجون في لقاء الله شيئا، ورضوا بهذه الحياة الدنيا(٥) واطمأنت إليها أنفسهم.

قال الحسن: والله ما زينوها ولا رفعوها، حتى رضوا بها وهم غافلون عن آيات الله الكونية فلا يتفكرون فيها، والشرعية فلا يأتمرون بها، بأن مأواهم يوم معادهم النار، جزاء على ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا والأجرام، مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ⑨ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ⑩ ﴾.

وهذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وامتثلوا ما أمروا، فعملوا الصالحات، بأنه سيهديهم بإيمانهم.

يحتمل أن تكون «الباء» هاهنا سببية، فتقديره: بسبب إيمانهم في الدنيا يهديهم الله يوم القيامة

---

(١) زيادة من ت، أ، وفي هـ: «الآية». (٢) في أ: «وقوله». (٣) زيادة من ت، أ.
(٤) في ت: «ينظروا». (٥) في أ: «الدنية».

على الصراط، حتى يجوزوه ويخلصُوا إلى الجنة. ويحتمل أن تكون للاستعانة، كما قال مجاهد فى قوله: ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾، قال: [يكون لهم نورا يمشون به][١].

وقال ابن جُرَيْج فى [قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ قال][٢]: يمثَّل له عمله فى صورة حسنة وريح طيبة إذا قام من قبره، يعارض صاحبه ويبشره بكل خير، فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا عملك. فيجعل[٣] له نورا. من بين يديه حتى يدخله[٤] الجنة، فذلك قوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾. والكافر يَمْثُلُ له عمله فى صورة سيئة وريح منتنة فيلازم صاحبه ويلازُّه[٥] حتى يقذفه فى النار.

وروى نحوه عن قتادة مرسلا، فالله أعلم.

وقوله: ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: هذا حال أهل الجنة.

قال ابن جريج: أخبرتُ أن قوله: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾، [قال: إذا مر بهم الطير يشتهونه، قالوا: سبحانك اللهم][٦]، وذلك دعواهم فيأتيهم الملك بما يشتهونه، فيسلم عليهم، فيردون عليه، فذلك قوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾، قال: فإذا أكلوا حمدوا الله ربهم، فلذلك قوله: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقال مقاتل بن حيان: إذا أراد أهل الجنة أن يدعوا بالطعام قال أحدهم: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ قال: فيقوم على أحدهم عشرة آلاف خادم، مع كل خادم صحفة من ذهب، فيها طعام ليس فى الأخرى، قال: فيأكل منهن كلهن.

وقال سفيان الثورى: إذا أراد أحدهم أن يدعو بشىء قال: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾.

وهذه الآية فيها شبه من قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤]، وقوله: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا. إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا ﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]، وقوله: ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]، وقوله: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ. سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

وقوله: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: هذا فيه دلالة على أن الله تعالى هو المحمود أبدا، المعبود على طول المدى؛ ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره، وفى ابتداء كتابه، وعند ابتداء تنزيله، حيث يقول تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ [الكهف: ١]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] إلى غير ذلك من الأحوال التى يطول بسطها، وأنه

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) زيادة من ت، أ، وفى هـ: «الآية». (٣) فى ت: «فنجعل».
(٤) فى ت: « يدخل». (٥) فى ت: «ويلاده». (٦) زيادة من ت، أ.

المحمود فى الأول، و[فى][(١)] الآخر، فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، فى جميع الأحوال؛ ولهذا جاء فى الحديث: «إن أهل الجنة يُلْهَمُون التسبيح والتحميد كما يُلْهَمُون النَّفَس»[(٢)]. وإنما يكون ذلك كذلك لما يرون من تضاعف نعم الله عليهم، فتكرّر[(٣)] وتعاد وتزاد، فليس لها انقضاء ولا أمد، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١)﴾.

يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده: أنه لا يستجيب لهم[(٤)] إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم[(٥)]، فى حال ضجرهم وغضبهم، وأنه يعلم منهم عَدَم القصد إلى إرادة ذلك، فلهذا لا يستجيب[(٦)] لهم ـ والحالة هذه ـ لطفا ورحمة، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم وأولادهم بالخير والبركة والنماء؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ[(٧)] اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ أى: لو استجاب لهم كلّما دعوه به فى ذلك، لأهلكهم، ولكن لا ينبغى الإكثار من ذلك، كما جاء فى الحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده:

حدثنا محمد بن مَعْمَر، حدثنا يعقوب بن محمد، حدثنا حاتم بن إسماعيل، حدثنا يعقوب بن مجاهد أبو حَزْرَة عن عبادة بن الوليد، حدثنا جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدعوا على أنفسكم، لا تدعوا على أولادكم، لا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب[(٨)] لكم».

ورواه أبو داود، من حديث حاتم بن إسماعيل، به[(٩)].

وقال البزار: [و][(١٠)] تفرد به عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت الأنصارى، لم يشاركه أحد فيه، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾ [الإسراء: ١١]

وقال مجاهد فى تفسير هذه الآية: ﴿وَلَوْ[(١١)] يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ﴾: وهو قول الإنسان لولده وماله إذا غضب عليه: «اللهم لا تبارك فيه والعنه». فلو يعجل لهم الاستجابة فى

---

(١) زيادة من ت.

(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٨٣٥) من حديث جابر رضى الله عنه.

(٣) فى ت، أ: «فيكرر».

(٤) فى ت: «لا يستحب منهم»، وفى أ: «لا يستجيب منهم».

(٥) فى ت، أ: «وأموالهم وأولادهم».

(٦) فى ت: «لا يستحب».

(٧) فى ت: «تعجل».

(٨) فى ت: «فيستحب».

(٩) سنن أبى داود برقم (١٥٣٢) ورواه مسلم فى صحيحه برقم (٣٠٠٩) بأطول منه من طريق حاتم بن إسماعيل.

(١٠) زيادة من ت.

(١١) فى ت: «ولولا».

ذلك، كما يستجاب لهم فى الخير لأهلكهم.

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) ﴾.

يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الضر، كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١] أى: كثير، وهما فى معنى واحد؛ وذلك لأنه إذا أصابته شدة قلق لها وجزع منها، وأكثر الدعاء عند ذلك، فدعا الله فى كشفها وزوالها عنه فى حال اضطجاعه وقعوده وقيامه، وفى جميع أحواله، فإذا فرّج الله شدته وكشف كربته، أعرض ونأى بجانبه، وذهب كأنه ما كان به من ذاك شىء، ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾.

ثم ذم تعالى مَنْ هذه صفته وطريقته[٢] فقال: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، فأما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد، فإنه مستثنى من ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود: ١١]، وكقول[٣] رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن[٤]، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له: إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له»، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن[٥].

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤) ﴾.

أخبر تعالى عما أحلّ بالقرون الماضية، فى تكذيبهم الرسل فيما جاؤوهم به من البينات والحجج الواضحات، ثم استخلف الله هؤلاء القومَ من بعدهم، وأرسل إليهم رسولا لينظر طاعتهم له، واتباعهم رسوله، وفى صحيح مسلم من حديث أبى نَضْرة، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدنيا حلوة خَضِرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء»[٦].

وقال ابن جرير: حدثنى المثنى، حدثنا زيد بن عوف أبو ربيعة فهد[٧]، حدثنا حماد، عن ثابت

---

(١) فى ت: «ولولا».
(٢) فى أ: «وطريقه».
(٣) فى ت، أ: «وكما قال».
(٤) فى ت، أ: «عجباً للمؤمن».
(٥) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٩٩٩) من حديث صهيب الرومى رضى الله عنه.
(٦) صحيح مسلم برقم (٢٧٤٢).
(٧) فى هـ، ت: «مهد»، وفى أ: «شهد» والتصويب من الطبرى.

البُنانى، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى؛ أن عوف بن مالك قال لأبى بكر: رأيت فيما يرى النائم كأن سَبَباً دُلّى من السماء، فانتُشط رسولُ الله ﷺ، ثم أعيد، فانتُشط أبو بكر، ثم ذُرِعَ[١] الناس حول المنبر، ففضل عمر بثلاث أذرع إلى المنبر. فقال عمر: دعنا من رؤياك، لا أَرَبَ لنا فيها! فلما استخلف عمر قال: يا عوف، رؤياك! فقال: وهل لك فى رؤياى من حاجة؟ أو لم تنتهرنى[٢]؟ فقال: ويحك! إنى: كرهت أن تنعَى لخليفة رسول الله ﷺ نفسه! فقصّ عليه الرؤيا، حتى إذا بلغ: «ذُرِع[٣] الناس إلى المنبر بهذه الثلاث الأذرع»، قال: أما إحداهن فإنه كائن خليفة. وأما الثانية فإنه لا يخاف فى الله لومة لائم. وأما الثالثة فإنه شهيد. قال: فقال: يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، فقد استُخلفت[٤] يا ابن أم عمر، فانظر كيف تعمل؟ وأما قوله: «فإنى لا أخاف فى الله لومة لائم»، فما شاء الله! وأما قوله: [إنى][٥] شهيد فأَنّى لعمر الشهادة والمسلمون مطيفون به[٦].

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) ﴾.

يخبر تعالى عن تعنّت الكفار من مشركى قريش الجاحدين الحقّ المعرضين عنه، أنهم إذا قرأ عليهم الرسول ﷺ كتاب الله وحُجَجه الواضحة قالوا له: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا﴾ أى: رد هذا وجئنا بغيره من نمط آخر، أو بَدّله إلى وضع آخر، قال الله لنبيه، صلوات الله عليه وسلامه عليه، ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ أى: ليس هذا إلىّ، إنما أنا عبد مأمور، ورسول مبلغ عن الله، ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

ثم قال محتجا عليهم فى صحة ما جاءهم به: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾ أى: هذا إنما جئتكم به عن إذن الله لى فى ذلك ومشيئته وإرادته، والدليل على أنى لست أتقوله من عندى ولا افتريته[٧] أنكم عاجزون عن معارضته، وأنكم تعلمون صدقى وأمانتى منذ نشأت بينكم إلى حين بعثنى الله عز وجل، لا تنتقدون على شيئا تَغمصونى به؛ ولهذا قال: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أى: أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل؛ ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم

(١) فى ت: «درع».
(٢) فى ت: «تنتهزنى».
(٣) فى ت، أ: «درع».
(٤) فى ت، أ: «استخلف».
(٥) زيادة من ت.
(٦) تفسير الطبرى (١٥/٣٩).
(٧) فى ت: «أفتريه»، وفى أ: «أقربه».

أبا[(١)] سفيان ومن معه، فيما سأله من صفة النبى ﷺ، قال: هل[(٢)] كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: فقلت: لا ـ وقد كان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة وزعيم المشركين، ومع هذا اعترف[(٣)] بالحق:

وَالفَضْلُ ما شَهِدَتْ به الأعداءُ

فقال له هرقل: فقد أعرف[(٤)] أنه لم يكن ليدَعَ الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله[(٥)]!

وقال جعفر بن أبى طالب للنجاشى ملك الحبشة: بعث الله فينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته، وقد كانت مدة مقامه، عليه السلام، بين أظهرنا[(٦)] قبل النبوة أربعين سنة. وعن سعيد بن المسيب: ثلاثا وأربعين سنة. والصحيح المشهور الأول.

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧) ﴾.

يقول تعالى: لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجرامًا ﴿مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، وتَقَوّل[(٧)] على الله، وزعم أن الله أرسله، ولم يكن كذلك، فليس أحد أكبر جرماً ولا أعظم ظُلما من هذا، ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء، فكيف يشتبه حال هذا بالأنبياء! فإن مّن قال هذه المقالة صادقا أو كاذبا، فلابد أن الله يَنصب عليه من الأدلة على برِّه أو فُجُوره ما[(٨)] هو أظهر من الشمس، فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب [لعنه الله][(٩)] لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى ووقت نصف الليل فى حنْدس الظلماء، فَمِنْ سيما كل منهما وكلامه وفعاله يَستدلّ من له بصيرة على صدق محمد ﷺ وكذب مسيلمة الكذاب، وسَجَاح، والأسود العَنْسى[(١٠)].

قال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انْجَفَل الناسَ، فكنت فيمن انجفل، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: «يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، [وصلوا الأرحام][(١١)]، وصلّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»[(١٢)].

ولما قَدم ضمام بن ثعلبة على رسول الله ﷺ فى[(١٣)] قومه بنى سعد بن بكر قال لرسول الله فيما قال له[(١٤)]: من رفع هذه السماء؟ قال: «الله». قال: ومن نصب هذه الجبال؟ قال: «الله». قال: ومن

(١) فى ت: «لأبى». (٢) فى ت: «فهل». (٣) فى ت: «أعرف».
(٤) فى ت: «أعترف». (٥) فى ت، أ: «ربه». (٦) فى ت، أ: «أضهرهم».
(٧) فى ت: «ويقول». (٨) فى ت: «وما». (٩) زيادة من أ.
(١٠) فى أ: «العبسى». (١١) زيادة من ت، أ، والمسند.
(١٢) رواه أحمد فى المسند (٥/٤٥١) والترمذى فى السنن برقم (٢٤٨٥) وقال الترمذى: «حديث صحيح».
(١٣) فى أ: «من». (١٤) فى ت: «فيما قاله».

سطح هذه الأرض؟ قال: «الله». قال: فبالذى رفع هذه السماء، ونصب هذه الجبال، وسَطَح هذه الأرض: الله أرسلك إلى الناس كلهم؟ قال: «اللهم نعم» ثم[١] سأله عن الصلاة، والزكاة، والحج، والصيام، ويحلف عند كل واحدة[٢] هذه اليمين، ويحلف رسول الله ﷺ، فقال له: صدقت، والذى بعثك بالحق لا أزيد على ذلك ولا أنقص[٣].

فاكتفى هذا الرجل بمجرد هذا، وقد أيقن بصدقه، صلوات الله وسلامه عليه، بما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه، كما قال حسان بن ثابت:

لَو لم تكُن[٤] فيه آياتٌ مُبَيِّنة كانت بَديهَتُه[٥] تأتيكَ بالخَبَرِ

وأما مسيلمة فمن شاهده من ذَوى البصائر، علم أمره لا محالة، بأقواله الركيكة التى ليست بفصيحة، وأفعاله غير الحسنة بل القبيحة، وقرآنه الذى يخلد به فى النار يوم الحسرة[٦] والفضيحة، وكم من فرق بين قوله تعالى: **﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾** [البقرة: ٢٥٥]. وبين عُلاَك[٧] مسيلمة قبحه الله ولعنه: «يا ضفدع بنت[٨] الضفدعين، نقى كما تنقين لا الماء تكدرين، ولا الشارب تمنعين». وقوله ـ قُبِّح ولعن ـ: «لقد أنعم الله على الحبلى، إذ أخرج منها نَسَمة تسعى، من بين صفَاق وحَشَى». وقوله ـ خدَّره[٩] الله فى نار جهنم، وقد فعل ـ: «الفيل وما أدراك ما الفيل؟ له زُلْقُوم[١٠] طويل» وقوله ـ أبعده الله من رحمته: «والعاجنات عجنا، والخابزات خبزا، واللاقمات[١١] لقما، إهالة وسمنا، إن قريشا قوم يعتدون» إلى غير ذلك من الهذيانات والخرافات التى يأنف الصبيان أن يتلفظوا بها، إلا على وجه السخرية والاستهزاء؛ ولهذا أرغم الله أنفه، وشرب يوم «حديقة الموت» حتفه. ومَزَّق[١٢] شمله. ولعنه صحبُه وأهله. وقدموا على الصديق تائبين، وجاؤوا فى دين الله راغبين، فسألهم الصديق خليفة الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، ورضى [الله][١٣] عنه ـ أن يقرؤوا عليه شيئا من قرآن مسيلمة لعنه الله، فسألوه أن يعفيهم من ذلك، فأبى عليهم إلا أن يقرؤوا شيئا منه ليسمعه من لم يسمعه من الناس، فيعرفوا فضل ما هم عليه[١٤] من الهدى والعلم. فقرؤوا عليه من هذا الذى ذكرناه وأشباهه، فلما فرغوا قال لهم الصديق، رضى الله عنه: ويحكم! أين كان يُذهبَ بعقولكم؟ والله إن هذا لم يخرج من إلٍّ.

(١) فى أ: «قال: ثم» (٢) فى ت: « واحد».
(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٢) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه بنحو هذا السياق.
(٤) فى ت: «يكن». (٥) فى أ: «بدايته». (٦) فى ت، أ: «الحشر».
(٧) فى ت: «علال». (٨) فى ت: «بين». (٩) فى ت، أ: «خلده».
(١٠) فى ت، أ: «زلوم». (١١) فى ت، أ: «فاللاقمات». (١٢) فى ت، أ: «وتمزق».
(١٣) زيادة من ت. (١٤) فى ت، أ: «فيه».

وذكروا أن وفد عمرو بن العاص على مسيلمة، وكان صديقا له فى الجاهلية، وكان عمرو لم يسلم بعدُ، فقال له مسيلمة: ويحك يا عمرو، ماذا أنزل على صاحبكم ـ يعنى: رسول الله ﷺ ـ فى هذه المدة؟ فقال: لقد سمعت أصحابه يقرؤون سورة عظيمة قصيرة فقال: وما هى؟ فقال: ﴿وَالْعَصْرِ. إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [سورة العصر]، ففكر مسيلمة ساعة، ثم قال: وقد أنزل علىّ مثله. فقال: وما هو؟ فقال: «يا وَبْرُ[(١)]، إنما أنت أذنان وصدر، وسائرك حَقْرٌ نَقْر، كيف ترى يا عمرو؟» فقال له عمرو:[(٢)] «والله إنك لتعلم أنى أعلم أنك لتكذب»، فإذا كان هذا من مشرك فى حال شركه، لم يشتبه عليه حال محمد ﷺ وصدقه، وحال مسيلمة ـ لعنه الله ـ وكذبه، فكيف بأولى[(٣)] البصائر والنهى، وأصحاب العقول السليمة المستقيمة والحجى! ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ[(٤)] أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١]، وكذلك من كذّب بالحق الذى جاءت به الرسل، وقامت عليه الحجج، لا أحد أظلم منه كما جاء فى الحديث: «أعتى الناس على الله رجلٌ قتل نبيا، أو قتله نبى»[(٥)].

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩)﴾.

ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتُها عند الله، فأخبر تعالى أنها لا تنفع ولا تضر ولا تملك شيئا، ولا يقع شىء مما يزعمون فيها، ولا يكون هذا أبدا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾.

وقال ابن جرير: معناه: أتخبرون[(٦)] الله بما لا يكون فى السموات ولا فى الأرض؟ ثم نزه نفسه عن شركهم وكفرهم، فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

---

(١) فى ت، أ: «يا وبر وبر». (٢) فى ت: «عمر».
(٣) فى ت: «بأول». (٤) فى ت: «فمن».
(٥) رواه الإمام أحمد فى المسند (١/٤٠٧) من حديث عبد الله بن مسعود ولفظه: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل قتله نبى أو قتل نبياً». وروى البخارى فى صحيحه برقم (٤٠٧٣) من حديث أبى هريرة: «أشد غضب الله على من يقتله رسول الله فى سبيل الله».
(٦) فى ت: «تخبرون».

ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حادث فى الناس، كائن بعد أن لم يكن، وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد، وهو الإسلام؛ قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام، ثم وقع الاختلاف بين الناس، وعُبدت الأصنام والأنداد والأوثان، فبعث الله الرسل بآياته وبيناته وحُجَجه البالغة وبراهينه الدامغة، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾أى: لولا ما تقدم من الله تعالى أنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه؛ وأنه قد أجل الخلق إلى أجل معدود لقضى بينهم فيما فيه اختلفوا، فأسعد المؤمنين، وأعنَتَ الكافرين.

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٢٠) ﴾.

أى: ويقول هؤلاء الكفرة [الملحدون] [(١)] المكذبون المعاندون: «لولا أنزل على محمد آية من ربه»، يعنون كما أعطى الله ثمود الناقة، أو أن [(٢)] يحول لهم الصفا ذهبا، أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهارا، ونحو ذلك مما الله عليه قادر[(٣)]، ولكنه حكيم فى أفعاله وأقواله، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا. بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ [الفرقان: ١٠، ١١] وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ [الإسراء: ٥٩]، يقول تعالى: إن سنتى فى خلقى أنى إذا آتيتهم ما سألوا، فإن آمنوا وإلا عاجلتهم بالعقوبة. ولهذا لما خيَّر رسول الله، عليه الصلاة والسلام، بين أن يُعطى ما سألوا، فإن أجابوا وإلا عُوجلوا، وبين أن يتركهم ويُنْظرهم، اختار إنظارهم، كما حلم عنهم غير مرة، صلوات الله عليه؛ ولهذا قال تعالى إرشادا لنبيه إلى الجواب عما سألوا: ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أى: الأمر كله لله، وهو يعلم العواقب فى الأمور، ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ أى: إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتم فانتظروا حكم الله فىّ وفيكم. هذا مع أنهم قد شاهدوا من معجزاته، عليه السلام[(٤)]، أعظم مما سألوا حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلة إبداره، فانشق باثنتين[(٥)]: فرقة من وراء الجبل، وفرقة من دونه. وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية مما سألوا ومالم يسألوا، ولو علم الله منهم أنهم سألوا ذلك استرشادا وتثبّتا لأجابهم، ولكن علم أنهم إنما يسألون عنادا وتعنتا، فتركهم فيما رابهم، وعلم أنهم لا يؤمن [(٦)] منهم أحد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى ت، أ: «وأن».
(٣) فى ت: «مما الله قادر عليه». (٤) فى أ: «ﷺ». (٥) فى ت، أ: «باثنين».
(٦) فى ت، أ: «ولكن ممن لم يؤمن».

إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]، ولما فيهم من المكابرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧] فمثل هؤلاء أقل من أن يجابوا إلى ما سألوا؛ لأنه لا فائدة في جواب هؤلاء؛ لأنه دائر على تعنتهم وعنادهم، لكثرة فجورهم وفسادهم؛ ولهذا قال: ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾.

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣) ﴾.

يخبر [(١)] تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم، كالرخاء بعد الشدة، والخصب[(٢)] بعد الجدب، والمطر بعد القحط ونحو ذلك ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾.

قال مجاهد: استهزاء وتكذيب. كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ [يونس: ١٢]، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح على[(٣)] أثر سماء ـ مطر [(٤)] ـ أصابهم [(٥)] من الليل ثم قال: «هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة؟» قالوا[(٦)]: الله ورسوله أعلم. قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب»[(٧)].

وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي: أشد استدراجا وإمهالا، حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب، وإنما هو في مهلة، ثم يؤخذ على غرة منه، والكاتبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله،

(١) في ت: «فخبر». (٢) في ت: «والخصيب». (٣) في ت، أ: «في».
(٤) في ت، أ: «أي مطر». (٥) في ت: «أصابتهم». (٦) في ت: «قلنا».
(٧) صحيح البخاري برقم (٨٤٦) وصحيح مسلم برقم (٧١).

ويحصونه عليه، ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة، فيجازيه على الحقير والجليل[١]، والنقير والقطمير.

ثم أخبر تعالى أنه: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أى: يحفظكم [٢] ويكلؤكم بحراسته ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ أى: بسرعة سيرهم رافقين، فبينما [٣] هم كذلك إذ ﴿جَاءَتْهَا﴾ أى: تلك السفن ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ أى: شديدة ﴿ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أى: اغتلم البحر عليهم﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أى: هلكوا ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أى: لايدعون معه صنما ولا وثنا، بل يُفردونه بالدعاء والابتهال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال هاهنا: ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ﴾ أى: هذه الحال﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ أى: لانشرك بك أحداً، ولنفردنَّك [٤] بالعبادة هناك كما أفردناك بالدعاء هاهنا ، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ﴾ أى: من تلك الورطة ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أى: كأن لم يكن من ذاك شىء[٥]، ﴿كأن لم يدعنا إلى ضر مسه﴾.

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم﴾ أى: إنما يذوق وبال هذا البغى أنتم أنفسكم ولا تضرون [٦] به أحدا غيركم، كما جاء فى الحديث: «مامن ذنب أجدر[٧] أن يعجّل الله عقوبته فى الدنيا، مع ما يَدخر [٨] الله لصاحبه فى الآخرة، من البغى وقطيعة الرحم»[٩].

وقوله: ﴿مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى: إنما لكم متاع فى الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ أى: مصيركم ومآلكم [١٠]﴿ فَنُنَبِّئُكُم﴾ أى: فنخبركم بجميع أعمالكم، ونوفيكم [١١] إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٥) ﴾.

---

(١) فى ت: «القليل والحقير». (٢) فى ت، أ: «يحيطكم». (٣) فى ت: «فبينا».
(٤) فى أ: «ولنفردك». (٥) فى ت، أ: «كأن لم يكن شىء من ذاك». (٦) فى ت: «يضرون».
(٧) فى ت: «أحذر». (٨) فى ت: «يؤخر».
(٩) رواه أبو داود فى السنن برقم (٤٩٠٢) والترمذى فى السنن برقم (٢٥١١) وابن ماجه فى السنن برقم (٤٢١١) من حديث أبى بكرة رضى الله عنه، وقال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح».
(١٠) فى ت: «ومآبكم». (١١) فى ت: «ونوفكم».

ضرب [تبارك و][(١)] تعالى مثلا لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها، بالنبات الذى أخرجه الله من الأرض بما أنزل [(٢)] من السماء من الماء، مما يأكل الناس من زرع [(٣)] وثمار، على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل [(٤)] الأنعام من أب وقَضْب وغير ذلك، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أى: زينتها الفانية، ﴿وَازَّيَّنَت﴾ أى: حَسُنَت بما خرج من [(٥)] رُباها من زهور نَضِرة مختلفة الأشكال والألوان، ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا﴾، الذين زرعوها وغرسوها[(٦)]، ﴿أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ أى: على جَذاذها وحصادها فبيناهم [(٧)] كذلك إذ جاءتها صاعقة، أو ريح باردة، فأيبست أوراقها، وأتلفت ثمارها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَتَاهَا[(٨)] أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً﴾ أى: يَبَساً بعد [تلك] [(٩)] الخضرة والنضارة، ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾ أى: كأنها ما كانت حسناء قبل ذلك.

وقال قتادة: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾: كأن لم تنعم.

وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن؛ ولهذا جاء فى الحديث[(١٠)]: «يؤتى بأنعم أهل الدنيا، فيُغْمَس فى النار غَمْسَة ثم يقال له: هل رأيت خيراً قط؟[هل مر بك نعيم قط؟] [(١١)] فيقول: لا. ويؤتى بأشد الناس عذاباً فى الدنيا[(١٢)]، فيغمس فى النعيم غمسة، ثم يقال له: هل رأيت بؤسا قط؟ فيقول: لا»[(١٣)].

وقال تعالى إخباراً عن المهلكين: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ . كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ [هود: ٩٤، ٩٥].

ثم قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ أى: نبين الحُجج والأدلة، ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فيعتبرون بهذا المثل فى زوال الدنيا عن أهلها سريعاً مع اغترارهم بها، وتمكنهم [(١٤)] بمواعيدها وتَفَلّتها [(١٥)] منهم، فإن من طبعها الهرب ممن طلبها، والطلب لمن هرب منها، وقد ضرب الله مثل الحياة الدنيا بنبات الأرض، فى غير ما آية من كتابه العزيز، فقال فى سورة الكهف: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]، وكذا فى سورة الزمر[(١٦)]، والحديد [(١٧)] يضرب بذلك مثل الحياة الدنيا كماء.

وقال ابن جرير: حدثنى الحارث[(١٨)]، حدثنا عبد العزيز، حدثنا ابن عُيَيْنَة، عن عمرو بن دينار، عن عبد الرحمن بن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال: سمعت مروان ـ يعنى: ابن

---

(١) زيادة من ت، أ.
(٢) فى ت، أ: «أنزل الله».
(٣) فى ت: «زروع».
(٤) فى ت: «يأكل».
(٥) فى ت: «فى».
(٦) فى ت: «وعرشوها».
(٧) فى ت، أ: «فبيناها».
(٨) فى ت، أ: «جاءها» وهو خطأ.
(٩) زيادة من ت، أ.
(١٠) فى ت، أ: «الصحيح».
(١١) زيادة من ت، أ، وابن ماجه.
(١٢) فى ت، أ: «ويؤتى بأبأس أهل الدنيا».
(١٣) سنن ابن ماجه برقم (٤٣٢١).
(١٤) فى ت، أ: «وتمسكهم».
(١٥) فى ت: «وتفلها».
(١٦) الآية: ٢١.
(١٧) الآية: ٢٠.
(١٨) فى ت: «الحرب».

الحكم ـ يقرأ على المنبر: «وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها وما كان الله ليهلكها [(١)] إلا بذنوب أهلها»، قال: قد قرأتها وليست في المصحف فقال عباس بن عبد الله بن عباس: هكذا يقرؤها ابن عباس. فأرسلوا إلى ابن عباس فقال: هكذا أقرأني أبيّ بن كعب[(٢)].

وهذه قراءة غريبة، وكأنها زيادة للتفسير.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ الآية: لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة [عطبها و] [(٣)] زوالها، رغَّب في الجنة ودعا إليها، وسماها دار السلام أي: من الآفات، والنقائص والنكبات، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

قال أيوب عن أبي قِلاَبة عن النبي ﷺ قال: «قيل لي: لتنَمْ عينُك، وليعقلْ قلبك، ولتسمع [(٤)] أذنك فنامت عيني، وعقل قلبي، وسمعت أذني. ثم قيل: سيّدٌ بَنَى داراً، ثم صنع مأدبة، وأرسل داعياً، فمن أجاب الداعي دخل الدار، وأكل من المأدبة، ورضي عنه السيد، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار، ولم يأكل من المأدبة، ولم يرض عنه السيّد فالله السيد، والدار الإسلام، والمأدبة الجنة، والداعي محمد ﷺ»[(٥)].

وهذا حديث مرسل، وقد جاء متصلا من حديث الليث، عن خالد بن يزيد[(٦)]، عن سعيد بن أبي هلال، عن جابر [(٧)] بن عبد الله، رضي الله عنه، قال: خرج علينا رسولُ الله ﷺ يوماً فقال: «إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي، وميكائيل عند رجلي، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلا. فقال: اسمع سَمِعت أذنك، واعقل عقَل قلبك، إنما مَثَلُك ومثل أمتَّك كمثل ملك اتخذ دارا، ثم بنى فيها بيتاً، ثم جعل فيها مأدبة، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم من تركه، فالله الملك، والدار الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يامحمد الرسُول، فمن أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل منها» رواه ابن جرير[(٨)].

وقال قتادة: حدثني خُلَيد العَصَرى، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «مامن يوم طلعت فيه شمسه إلا وبجنَبَتَيْها ملكان يناديان يسمعهما [(٩)] خلق الله كلهم إلا الثقلين: يأيها الناس،

---

(١) في ت: «ليهلكهم».

(٢) تفسير الطبري (١٥/ ٥٧) وانظر تعليق الأستاذ محمود شاكر في الحاشية، فقد ذكر أن هذا الإسناد هالك.

(٣) زيادة من ت، أ. (٤) في ت: «وليسمع»

(٥) رواه الطبري في تفسيره (١٥/ ٦٠).

(٦) في ت، أ: «سويد». (٧) في ت: «جبار».

(٨) تفسير الطبري (١٥/ ٦١) وعلقه البخاري في صحيحه برقم (٧٢٨١) ورواه الترمذي في السنن برقم (٢٨٦٠) من طريق قتيبة عن الليث به، وقال الترمذي: «هذا حديث مرسل، سعيد بن أبي هلال لم يدرك جابر بن عبد الله» قال: «وقد روى هذا الحديث من غير وجه عن النبي ﷺ بإسناد أصح من هذا» قلت: رواه البخاري في صحيحه برقم (٧٢٨١) من طريق يزيد عن سليم بن حيان، عن سعيد بن أبي ميناء، عن جابر بن عبد الله بنحوه.

(٩) في ت، أ: «يسمعه».

هلموا إلى ربكم، إن ما قَلَّ وكَفَى، خير مما كثر وألهى». قال: وأنزل ذلك فى [١] القرآن، فى قوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ رواه ابن أبى حاتم، وابن جرير [٢].

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦)﴾.

يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل فى الدنيا بالإيمان والعمل الصالح أبدله [٣] الحسنى فى الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾[الرحمن: ٦٠].

وقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾: هى [٤] تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وزيادة على ذلك [أيضا] [٥]، ويشمل ما يعطيهم الله فى الجنان من القُصُور والحُور والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه النظرُ إلى وجهه [٦] الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه، لا يستحقونها بعملهم، بل بفضله وبرحمته[٧]وقد روى تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله [٨] الكريم، عن أبى بكر الصديق، وحذيفة بن اليمان، وعبد الله بن عباس [قال البغوى وأبو موسى وعبادة بن الصامت][٩]، وسعيد بن المسيب، وعبد الرحمن بن أبى ليلى، وعبد الرحمن بن سابط، ومجاهد، وعكرمة، وعامر بن سعد، وعطاء، والضحاك، والحسن، وقتادة، والسدى، ومحمد بن إسحاق، وغيرهم من السلف والخلف.

وقد وردت فى ذلك أحاديثُ كثيرة، عن رسول الله ﷺ، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد:

حدثنا عفان، أخبرنا حماد بن سلمة، عن ثابت البُنانى، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن صهيب؛ أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، وقال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن يُنْجِزَكُمُوه. فيقولون: وما هو؟ ألم يُثقِّل موازيننا، ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويزحزحنا من النار؟». قال: «فيكشف[١٠] لهم الحجاب، فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه، ولا أقر لأعينهم».

وهكذا رواه مسلم وجماعة من الأئمة، من حديث حماد بن سلمة، به[١١].

(١) فى ت، أ: «فى ذلك».
(٢) تفسير الطبرى (١٥/ ٦٠) ورواه أحمد فى مسنده (٥/ ١٩٧) من طريق همام عن قتادة بنحوه.
(٣) فى ت، أ: «أن لهم». (٤) فى ت، أ: «تشمل هى». (٥) زيادة من ت، أ.
(٦) فى ت: «وجه». (٧) فى ت: «ورحمته». (٨) فى ت: «وجهه».
(٩) زيادة من ت،أ. (١٠) فى ت: «فكشف»
(١١) صحيح مسلم برقم (١٨١) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢٥٥٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٢٣٤) وابن ماجه فى السنن برقم (١٨٧).

وقال ابن جرير: أخبرنا يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا شبيب، عن أبان[١]، عن أبى تَميمة الهُجَيْمى؛ أنه سمع أبا موسى الأشعرى يحدث عن رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث يوم القيامة مناديا ينادى: يا أهل الجنة ـ بصَوْت يُسْمعُ أوَّلهم وآخرهم ـ: إن الله وعدكم الحسنى وزيادة، الحسنى: الجنة. وزيادة: النظر إلى وجه الرحمن عز وجل»[٢].

ورواه أيضاً ابنُ أبى حاتم، من حديث أبى بكر الهُذلى[٣]، عن أبى تميمة الهجيمى، به.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا ابن حميد، حدثنا إبراهيم بن المختار[٤]، عن ابن جُرَيْج، عن عطاء، عن كعب بن عُجْرَة، عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ قال: النظر إلى وجه الرحمن عز وجل[٥].

وقال أيضاً: حدثنا ابن عبد الرحيم[٦]، حدثنا عمرو بن أبى سلمة، سمعت زهيراً عمن سَمع أبا العالية، حدثنا أبىّ بن كعب: أنه سأل رسولَ الله ﷺ عن قول الله عز وجل: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «الحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله عز وجل»[٧].

ورواه ابن أبى حاتم أيضاً من حديث زهير، به.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ أى: قتام وسواد فى عَرَصات المحشر، كما يعترى وجوه الكفرة الفجرة من القَتْرة والغُبْرة، ﴿ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أى: هوان وصغار، أى: لا يحصل لهم إهانة فى الباطن، ولا فى الظاهر، بل هم كما قال تعالى فى حقهم: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١] أى: نضرة فى وجوههم، وسروراً فى قلوبهم، جعلنا الله منهم بفضله ورحمته، آمين.

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧) ﴾.

لما أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يُضاعف لهم الحسنات، ويزدادون[٨] على ذلك، عطف بذكر حال الأشقياء، فذكر عدله تعالى فيهم، وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها، لا يزيدهم على ذلك،

(١) فى ت، أ: «وأبان»

(٢) تفسير الطبرى (١٥/ ٦٥) وابن وهب روى عن شبيب مناكير وأبان بن أبى عياش ضعيف.

(٣) فى ت: «الهذل». . (٤) فى ت: «المختار به».

(٥) تفسير الطبرى (١٥/ ٦٨) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٥/ ٢٠٤) من طريق محمد بن حميد به، وقال: «غريب من حديث عطاء وابن جريج تفرد به إبراهيم بن المختار». وإبراهيم بن المختار ضعيف.

(٦) فى أ: «عبد الرحمن».

(٧) تفسير الطبرى (١٥/ ٦٩) ورواه اللالكائى فى السنة برقم (٧٨٠) من طريق الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد عمن سمع أبى العالية يحدث عن أُبىّ بن كعب فذكره مرفوعاً.

(٨) فى ت: «ويزادون».

﴿وَتَرْهَقُهُمْ﴾ أي: تعتريهم وتعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ . مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ. وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٢ ـ ٤٤]، وقوله: ﴿مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي: من مانع ولا واق يقيهم العذاب، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ . كَلاَّ لا وَزَرَ . إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١٠ ـ ١٢].

وقوله: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾: إخبار عن سواد وجوههم فى الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦، ١٠٧]، وكما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ . وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ . تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ . أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ الآية [عبس: ٣٨ ـ ٤٢].

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠)﴾.

يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ أى: أهل الأرض كلهم، من إنس وجن[1]، وبر وفاجر، كما قال: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ أى: الزموا أنتم وهم مكاناً معيناً، امتازوا فيه عن مقام المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]، وقال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤]، وفى الآية الأخرى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣] أى: يصيرون صدعين، وهذا يكون إذا جاء الرب تعالى لفصل القضاء؛ ولهذا قيل: ذلك[2] يستشفع المؤمنون إلى الله تعالى أن يأتى لفصل القضاء ويريحنا من مقامنا هذا، وفى الحديث الآخر: «نحن يوم القيامة على كَوْم فوق الناس[3]»[4].

---

(١) فى ت: «من جن وإنس».

(٢) وقع هنا بياض فى هـ، ووصل فى ت، أ.

وحديث الاستشفاع رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٤٧٦) من حديث أنس رضى الله عنه.

(٣) فى أ: «النار».

(٤) رواه أحمد فى المسند (٣/ ٣٤٥) من حديث جابر رضى الله عنه. والكوم: الموضع المشرف العال.

وقال الله تعالى فى هذه الآية الكريمة إخباراً عما يأمر به المشركين[١] وأوثانهم يوم القيامة: ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾، أنكروا عبادتهم، وتبرؤوا منهم، كما قال تعالى: ﴿[كَلاَّ][٢] سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ الآية [مريم: ٢]. وقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦]، وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

وقال فى هذه الآية إخباراً عن قول الشركاء فيما راجعوا فيه عابديهم عند ادعائهم عبادتهم: ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ أى: ما كنا نشعر بها ولا نعلم، وإنما أنتم كنتم تعبدوننا من حيث لا ندرى بكم، والله شهيد بيننا وبينكم أنا ما دعوناكم إلى عبادتنا، ولا أمرناكم بها، ولا رضينا منكم بذلك.

وفى هذا تبكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره، ممن لا يسمع ولا يبصر، ولا يغنى عنهم شيئاً، ولم يأمرهم بذلك ولا رضى به ولا أراده، بل تبرأ منهم فى وقت أحوج ما يكونون إليه، وقد تركوا[٣] عبادة الحى القيوم، السميع البصير، القادر على كل شىء، العليم بكل شىء وقد أرسل رسله وأنزل كتبه، آمرا بعبادته وحده لا شريك له، ناهياً عن عبادة ما سواه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ يُوحِي[٤] إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

والمشركون أنواع وأقسام كثيرون، قد ذكرهم الله فى كتابه، وبيّن أحوالهم وأقوالهم، وردّ عليهم فيما هم فيه أتم رد.

وقوله: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ أى: فى موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس وتعلم ما أسلفت من [عملها من][٥] خير وشر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩]، وقال تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا . اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

وقد قرأ بعضهم: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾، وفسَّرها بعضهم بالقراءة، وفسّرها بعضهم بمعنى تتبع ما قدمته من خير وشر، وفسّرها بعضهم بحديث: «تتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيتبع من

(١) فى ت، أ: «المشركون». (٢) زيادة من ت،أ. (٣) فى ت: «يكون إليه وقد ترك».
(٤) فى أ: «نوحى». (٥) زيادة من أ.

كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت» الحديث[١].

وقوله: ﴿ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ ﴾ أي: ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل، ففصلها، وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: ذهب عن المشركين ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أي: ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه.

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٣) ﴾.

يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية الإله[٢]، فقال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ أي: من ذا الذى ينزل من السماء ماء المطر، فيشق[٣] الأرض شقاً بقدرته ومشيئته، فيخرج منها ﴿حَبًّا . وَعِنَبًا وَقَضْبًا . وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً . وَحَدَائِقَ غُلْبًا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٢٧ ـ ٣١]، أإله مع الله؟ فسيقولون: الله، ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ [الملك: ٢١]؟، وكذلك قوله: ﴿أَمَّن[٤] يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ﴾ [يونس: ٣١]؟ أي: الذى وهبكم هذه القوة السامعة، والقوة الباصرة، ولو شاء لذهب بها وسلبكم إياها، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك:٢٣]، وقال: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٦].

وقوله: ﴿ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أي: بقدرته العظيمة، ومنته العميمة، وقد تقدم ذكر الخلاف فى ذلك، وأن الآية عامة فى ذلك كله.

وقوله: ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ أي: من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه، وهو المتصرف الحاكم الذى لا معقب لحكمه، ولا يُسْأل عما يفعل وهم يُسْألون، ﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن: ٢٩]، فالملك كله العلْوى والسفلى، وما فيهما من ملائكة وإنس وجان، فقيرون إليه، عبيد له، خاضعون لديه، ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ أي: هم يعلمون ذلك

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٨٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) فى ت، أ: «وحدانيته الإلهية». (٣) فى ت، أ: «ويشق». (٤) فى أ: «قل من» وهو خطأ.

ويعترفون به، ﴿ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ أى: أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم؟.

وقوله: ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ أى: فهذا الذى اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق الذى يستحق أن يفرد بالعبادة، ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ﴾ أى: فكل معبود سواه باطل، لا إله إلا هو، واحد[1] لا شريك له.

﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾[2] أى: فكيف تصرفون[3] عن عبادته إلى عبادة ما سواه، وأنتم تعلمون أنه الرب الذى خلق كل شىء، والمتصرف فى كل شىء؟

وقوله: ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى: كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره، مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرازق المتصرف فى الملك وحده، الذى بعث رسله بتوحيده؛ فلهذا حقت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكنى النار، كقوله: ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الزمر: ٧١].

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾.

وهذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره، وعبدوا من الأصنام والأنداد، ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أى: من بدأ خلق هذه السموات والأرض ثم ينشئ[4] ما فيهما من الخلائق، ويفرق أجرام السموات والأرض ويبدلهما بفناء ما فيهما، ثم يعيد الخلق[5] خلقاً جديداً؟ ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾، هو الذى يفعل هذا ويستقل به، وحده لا شريك له، ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أى: فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل؟!

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ أى: أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال، وإنما يهدى الحيارى والضلال، ويقلب القلوب من الغى إلى الرشد الله، الذى لا إله إلا هو.

﴿ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ﴾ أى: أَفَيُتَّبع [العبد الذى يهدى إلى

---

(١) فى ت، أ: «لا إله إلا هو لأن الإله واحد».
(٢، ٣) فى ت: «يصرفون».
(٤) فى ت، أ: «يفنى».
(٥) فى ت: «الخلائق».

الحق ويُبَصِّر بعد العمى، أم الذى لا يهدى إلى شىء إلا][1] أن يهدى، لعماه وبكمه؟ كما قال تعالى إخباراً عن إبراهيم أنه قال: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢]، وقال لقومه: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ. وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أى: فما بالكم[2] يُذهَبُ بعقولكم، كيف سويتم بين الله وبين خَلقه، وعدلتم هذا بهذا، وعبدتم هذا وهذا؟ وهلا أفردتم الرب جل جلاله المالك الحاكم الهادى من الضلالة بالعبادة وحده، وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة.

ثم بين تعالى أنهم لا يتبعون فى دينهم هذا دليلا ولا برهاناً، وإنما هو ظن منهم، أى: توهم وتخيل، وذلك لا يغنى عنهم شيئا، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾: تهديد لهم، ووعيد شديد؛ لأنه تعالى أخبر[3] أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء.

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩) وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠)﴾.

هذا بيان لإعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، ولا بعشر سور، ولا بسورة من مثله، لأنه بفصاحته وبلاغته ووَجازته وحَلاوته، واشتماله على المعانى العزيزة[4] [للعزيزة][5]، النافعة فى الدنيا والآخرة، لا يكون إلا من عند الله الذى لا يشبهه شىء فى ذاته ولا صفاته، ولا فى أفعاله وأقواله، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا[6] الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أى: مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله، ولا يشبه هذا كلام[7] البشر، ﴿وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أى: من الكتب المتقدمة، ومهيمناً عليها، ومبيناً لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل.

وقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: وبيان الأحكام والحلال والحرام، بياناً

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى ت: «لكم». (٣) فى ت، أ: «يخبر».
(٤) فى ت، أ: «الغزيرة». (٥) زيادة من ت. (٦) فى ت: «لهذا».
(٧) فى ت، أ: «بكلام».

شافياً كافياً حقاً لا مرية فيه من الله رب العالمين، كما تقدم فى حديث الحارث الأعور، عن على ابن أبى طالب: «فيه خَبَرُ ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وفصل ما بينكم»، أى: خَبَر عما سلف وعما سيأتى، وحكم فيما بين الناس بالشرع الذى يحبه الله ويرضاه.

وقوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: إن ادعيتم وافتريتم وشككتم فى أن هذا من عند الله، وقلتم كذباً ومَيْنا: «إن هذا من عند محمد»، فمحمد بشر مثلكم، وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن، فأتوا أنتم بسورة[1] مثله، أى: من جنس القرآن، واستعينوا على ذلك بكل من قَدرتم عليه من إنس وجان.

وهذا هو المقام الثالث فى التحدى، فإنه تعالى تحداهم ودعاهم، إن كانوا صادقين فى دعواهم، أنه من عند محمد، فلتعارضوه[2] بنظير ما جاء به وحده واستعينوا بمن شئتم[3]. وأخبر أنهم لا يقدرون على ذلك، ولا سبيل لهم إليه، فقال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨]، ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه، فقال فى أول سورة هود: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ[4] اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣]، ثم تنازل إلى سورة، فقال فى هذه السورة: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن[5] دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، وكذا فى سورة البقرة ـ وهى مدنية ـ تحداهم بسورة منه، وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبداً، فقال: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ ﴾ الآية: [البقرة: ٢٤].

هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم، وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى فى هذا الباب، ولكن جاءهم من الله ما لا قِبَلَ لأحد به، ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام وحلاوته، وجزالته وطلاوته، وإفادته وبراعته، فكانوا أعلم الناس به، وأفهمهم له، وأتبعهم له وأشدهم[6] له انقياداً، كما عرف السحرة، لعلمهم[7] بفنون السحر، أن هذا الذى فعله موسى، عليه السلام، لا يصدر إلا عن مُؤَيَّد مُسَدد مرسل من الله، وأن هذا لا يستطاع لبشر إلا بإذن الله. وكذلك عيسى، عليه السلام، بُعث فى زمان علماء الطب ومعالجة المرضى، فكان يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيى الموتى بإذن الله، ومثل هذا لا مدخل للعلاج والدواء فيه، فعرف من عرف منهم أنه عبد الله[8] ورسوله؛ ولهذا جاء فى الصحيح، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من نبى من الأنبياء إلا وقد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً»[9].

---

(١) فى ت، أ: «من مثله». (٢) فى ت، أ: «فليعارضوه». (٣) فى ت، أ: «وليستعينوا بمن شاؤوا».
(٤، ٥) فى ت: «ما» وهو خطأ. (٦) فى ت، أ: «وأشهرهم».
(٧) فى ت، أ: «بعلمهم». (٨) فى ت: «من عبد الله»، وفى أ: «من عند الله».
(٩) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٩٨١) ومسلم فى صحيحه برقم (١٥٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

وقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ يقول: بل كذب هؤلاء بالقرآن، ولم يفهموه ولا عرفوه، ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ أى: ولم يُحصّلوا ما فيه من الهدى ودين الحق إلى حين تكذيبهم به جهلا وسفهاً ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أى: من الأمم السالفة ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ أى: فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلماً وعلوا، وكفرا وعناداً وجهلا، فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم.

وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أى: ومن هؤلاء الذين بُعثت[1] إليهم يا محمد من يؤمن[2] بهذا القرآن، ويتبعك وينتفع بما أرسلت به، ﴿وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ ، بل يموت على ذلك ويبعث عليه، ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أى: وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ومن يستحق الضلالة فيضله، وهو العادل الذى لا يجور، بل يعطى كلا ما يستحقه، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه، لا إله إلا هو.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ (٤٣) إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤)﴾.

يقول تعالى لنبيه ﷺ: وإن كذبك[3] هؤلاء المشركون، فتبرأ منهم ومن عَمَلهم، ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ . وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [سورة الكافرون]. وقال إبراهيم الخليل وأتباعه لقومهم المشركين: ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ أى: يسمعون[4] كلامك الحسن، والقرآن العظيم، والأحاديث الصحيحة الفصيحة[5] النافعة فى القلوب والأبدان والأديان، وفى هذا كفاية عظيمة، ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم، فإنك لا تقدر على إسماع الأصم ـ وهو الأطرش ـ فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء، إلا أن يشاء الله.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ أى: ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من التؤدة، والسمت الحسن، والخلق العظيم، والدلالة الظاهرة، على نبوتك لأولى البصائر[6] والنهى، وهؤلاء ينظرون كما ينظر

---

(١) ت فى ت: «الذين من بعثت». (٢) فى ت، أ: «سيؤمن». (٣) فى أ: «وإن كذبوك».
(٤) فى ت: «يستمعون». (٥) فى ت: «الفصيحة الصحيحة». (٦) فى ت: «الأبصار».

غيرهم، ولا يحصل لهم من الهداية شيء مما [(١)] يحصل لغيرهم، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار، والكافرون ينظرون إليك بعين الاحتقار، ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً. إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٤١، ٤٢].

ثم أخبر تعالى أنه لا يظلم أحد شيئاً، وإن كان قد هدى به من هدى [من الغى][(٢)] وبصر به من العمى، وفتح به أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوباً غلفا، وأضل به عن الإيمان[(٣)] آخرين، فهو الحاكم المتصرف فى ملكه بما يشاء، الذى لا يُسْأل عما يفعل وهم يسألون، لعلمه وحكمته وعدله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. وفى الحديث عن أبى ذر[(٤)]، عن النبى[(٥)] ﷺ، فيما يرويه عنه ربه عز وجل: «يا عبادى، إنى حرّمت الظلم على نفسى، وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ـ إلى أن قال فى آخره: يا عبادى، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نفسه». رواه مسلم بطوله[(٦)].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٤٥)﴾.

يقول تعالى مُذكِّراً للناس قيام الساعة وحشرهم من أجداثهم إلى عَرصَات القيامة: كأنهم[(٧)] يوم يوافونها لم يلبثوا فى الدنيا ﴿إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا. يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا. نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٢ ـ ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ. وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٥، ٥٦].

وهذا كله دليل على استقصار الحياة الدنيا فى الدار الآخرة كما قال: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ. قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ. قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢ ـ ١١٤].

وقوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أى: يعرف الأبناء الآباء[(٨)]، والقرابات بعضهم بعضا، كما كانوا فى

---

(١) فى ت: «ما». (٢) زيادة من ت، أ. (٣) فى ت: «وأضل عن الإيمان به».
(٤) فى ت، أ: «حديث أبى ذر». (٥) فى ت، أ: «رسول الله».
(٦) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٧).
(٧) فى ت، أ: «وكأنهم». (٨) فى ت، أ: «الآباء الأبناء».

الدنيا، ولكن كل مشغول بنفسه ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿ وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا . يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ . وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ . وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ . كَلاَّ﴾ [المعارج: ١٠ ـ ١٥].

وقوله: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥]، لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين. فهذه هى الخسارة العظيمة، ولا خسارة أعظم من خسارة من فُرِّق بينه وبين أحبته[1]، يوم الحسرة والندامة.

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٦) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٤٧) ﴾.

يقول تعالى مخاطبا لرسوله ﷺ: ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أى: ننتقم[2] منهم فى حياتك لتقرّ عينُك منهم، ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أى: مصيرهم ومتقلَبهم، والله شهيد على أفعالهم بعدك.

وقد قال الطبرانى: حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا عقبة بن مكرم، حدثنا أبو بكر الحنفى، حدثنا داود بن الجارود، عن أبى الطفيل[3]، عن حذيفة بن أسيد، عن النبى ﷺ قال: «عُرضت علىّ أمتى البارحة لدى هذه الحجرة، أولها وآخرها. فقال رجل: يا رسول الله، عرض عليك من خُلق، فكيف من لم يخلق؟ فقال: «صُوِّروا لى فى الطين، حتى إنى لأعْرَفُ بالإنسان منهم من أحدكم بصاحبه»[4].

ورواه عن محمد بن عثمان بن أبى شيبة، عن عقبة بن مكرم، عن يونس بن بُكَيْر، عن زياد بن المنذر، عن أبى الطفيل، عن حذيفة بن أسيد، به نحوه[5].

وقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾: قال مجاهد: يعنى يوم القيامة.

﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ[6] وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩]، فكل أمة تُعرَضُ على الله بحضرة رسولها، وكتابُ أعمالها من خير وشر موضوعٌ شاهد عليهم، وحفظتهم من الملائكة شهودٌ أيضا أمة بعد أمة. وهذه الأمة الشريفة وإن كانت آخر الأمم فى الخلق، إلا أنها أول الأمم يوم القيامة يفصل بينهم، ويقضى لهم، كما جاء فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نحن

---

(١) فى ت، أ: «أخيه». (٢) فى ت: «ينتقم».

(٣) فى جميع النسخ: «أبى السليل» والتصويب من المعجم الكبير للطبرانى.

(٤) المعجم الكبير (٣/ ١٨١).

(٥) المعجم الكبير (٣/ ١٨١) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٦٩): «وفيه زياد بن المنذر وهو كذاب».

(٦) فى ت، أ: «بالقسط» وهو خطأ.

الآخرون السابقون يوم القيامة، المقضى لهم قبل الخلائق»[١]، فأمته إنما حازت قَصَب السبق لشرف رسولها، صلوات الله وسلامه عليه [دائماً][٢] إلى يوم الدين.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَئْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن كُفر هؤلاء المشركين في استعجالهم العذاب وسؤالهم عن وقته قبل التعيين، مما لا فائدة فيه لهم[٣]، كما قال تعالى: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨] أي: كائنة لا محالة وواقعة، وإن لم يعلموا وقتها عينا، ولهذا أرشَدَ رسوله ﷺ إلى جوابهم فقال: ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي: لا أقول إلا ما علَّمني، ولا أقدر على شيء مما استأثر به إلا أن يُطلعنى عليه، فأنا عبده ورسوله إليكم، وقد أخبرتكم بمجيء الساعة وأنها كائنة، ولم يطلعنى على وقتها، [ولكن][٤] ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾، أي: لكل قرن مدَّة من العمر مقدَّره[٥]، فإذا انقضى أجلهم ﴿ فَلا يَسْتَئْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١]، ثم أخبرهم أن عذاب الله سيأتيهم بغتة، فقال: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا﴾ أي: ليلا أو نهارا، ﴿ مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ . أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ﴾ يعنى: أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا: ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

﴿ ثُمَّ قِيلَ[٦] لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أي: يوم القيامة يقال لهم هذا، تبكيتا وتقريعاً، كقوله: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا . هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ . أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ . اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٣ ـ ١٦].

---

(١) هذا اللفظ فى صحيح مسلم برقم (٨٥٦) من حديث حذيفة رضى الله عنه، وروى البخارى أوله برقم (٨٧٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) زيادة من ت، أ.

(٣) فى ت، أ: «لهم فيه».

(٤) زيادة من ت، أ.

(٥) فى ت: «تقدر».

(٦) فى ت: «قل».

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٥٣) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٥٤)﴾.

يقول تعالى: ويستخبرونك ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾؟ أي: المعاد والقيامة من الأجداث بعد صيرورة الأجسام ترابا. ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: ليس صيرورتكم ترابا بمعجز الله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ(١) إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وهذه الآية ليس لها نظير فى القرآن إلا آيتان أخريان، يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد فى سورة سبأ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣]، وفى التغابن: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

ثم أخبر تعالى أنه إذا قامت القيامة يودّ الكافر لو افتدى من عذاب الله بملء الأرض ذهبا، ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالحق، ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦)﴾.

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنّ وعده حقّ كائن لا محالة، وأنه يحيى ويميت وإليه مرجعهم، وأنه القادر على ذلك، العليم بما تفرّق من الأجسام وتمزّق فى سائر أقطار الأرض والبحار والقفار [سبحانه وتعالى تقدست أسماؤه وجل ثناؤه](٢).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)﴾.

يقول تعالى ممتنا على خلقه بما أنزل إليهم من القرآن العظيم على رسوله الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى: زاجر عن الفواحش، ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ أى: من الشّبه والشكوك، وهو إزالة ما فيها من رجس ودَنَس، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أى: محصلٌ لها الهداية والرحمة من الله تعالى. وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقين الموقنين بما فيه، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ

(١) فى ت: «إنما قوله» والصواب ما أثبتناه.

(٢) زيادة من أ.

آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ [١] فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أى: بهذا الذى جاءهم من الله من الهدى ودين الحق[٢]، فليفرحوا، فإنه أولى ما يفرحون به، ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أى: من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة، كما قال ابن أبى حاتم، فى تفسير هذه الآية: «وذُكِر عن بَقِيَّة[٣] ـ يعنى ابن الوليد ـ عن صفوان بن عمرو، سمعت أيفع بن عبد الكلاعى يقول: لما قُدِم خراجُ العراق إلى عمر، رضى الله عنه، خرج عُمَرُ ومولى له فجعل عمر يعد الإبل، فإذا هى[٤] أكثر من ذلك، فجعل عمر يقول: الحمد لله تعالى، ويقول مولاه: هذا والله من فضل الله ورحمته. فقال عمر: كذبت. ليس هذا، هو الذى يقول الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، وهذا مما يجمعون.

وقد[٥] أسنده[٦] الحافظ أبو القاسم الطبرانى، فرواه عن أبى زُرْعَة الدمشقى، عن حَيْوة بن شُرَيح، عن بقية، فذكره[٧].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (٦٠)﴾.

قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يحرمون ويحلون من البحائر والسوائب والوصائل، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦] الآيات.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبى إسحاق، سمعت أبا الأحوص ـ وهو عوف بن [مالك بن][٨] نضلة ـ يحدث عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ وأنا قَشْف الهيئة، فقال: «هل لك مال؟» قال: قلت: نعم. قال: «من أى المال؟» قال: قلت: من كل المال، من الإبل والرقيق والخيل والغنم. فقال[٩]: «إذا أتاك مالا فَلْيُرَ عليك». وقال: «هل تنتج إبل قومك صحاحا آذانُها، فتعمَد إلى موسى فتقطع آذانها، فتقول: هذه بحر وتشقها، أو تشق جلودها

(١) فى ت: «وبرحمة».
(٢) فى أ: «الله».
(٣) فى ت: «ذكر عن نفسه».
(٤) فى أ: «هو».
(٥) فى ت: «وهذا».
(٦) فى أ: «أسند».
(٧) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٤/ ٣٦٨) وعزاه لابن أبى حاتم والطبرانى.
(٨) زيادة من ت، أ، والمسند.
(٩) فى ت، أ: «والنعم قال».

وتقول: هذه صُرُم، وتحرمها[(١)] عليك وعلى أهلك؟» قال: نعم. قال: «فإن ما آتاك الله لك حل، وساعد الله أشد من ساعدك، وموسى الله أحد من موساك» وذكر تمام الحديث[(٢)].

ثم رواه عن سفيان بن عيينة، عن أبي الزعراء عمرو بن عمرو، عن عمه أبي الأحوص[(٣)]: وعن بَهْز بن أسد، عن حماد بن سلمة، عن عبد الملك بن عمير، عن أبي الأحوص، به[(٤)]. وهذا حديث جيد قوى الإسناد.

وقد أنكر [الله][(٥)] تعالى على من حَرّم ما أحل الله، أو أحل ما حرم بمجرد الآراء والأهواء، التي[(٦)] لا مستند لها ولا دليل عليها. ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة، فقال: **﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾** أى: ما ظنهم أن يُصنَع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة.

وقوله: **﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾**: قال ابن جرير: فى تركه معاجلتهم[(٧)] بالعقوبة فى الدنيا.

قلت: ويحتمل أن يكون المراد لذو فضل على الناس فيما أباح لهم مما خلقه من المنافع فى الدنيا، ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم فى دنياهم أو دينهم.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ﴾، بل يحرمون ما أنعم الله [به][(٨)]عليهم، ويضيقون على أنفسهم، فيجعلون بعضا حلالا وبعضا حراما. وهذا قد وقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم، وأهل الكتاب فيما ابتدعوه فى دينهم.

وقال ابن أبى حاتم فى تفسير هذه الآية: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن أبى الحوارى، حدثنا رباح، حدثنا عبد الله بن سليمان، حدثنا موسى بن الصباح فى قول الله عز وجل: **﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾** قال: إذا كان يوم القيامة، يؤتى بأهل ولاية الله عز وجل، فيقومون بين يدى الله عز وجل ثلاثة أصناف قال: فيؤتى برجل من الصنف الأول فيقول: عبدى، لماذا عملت؟ فيقول: يارب: خلقت الجنة وأشجارها وثمارها وأنهارها، وحورها ونعيمها، وما أعددت لأهل طاعتك فيها، فأسهرتُ ليلى وأظمأتُ نهارى شوقا إليها. قال: فيقول الله تعالى: عبدى، إنما عملت للجنة، هذه الجنة فادخلها، ومن فضلى عليك أن أعتقك من النار، [ومن فضلى عليك أن أدخلك جنتى][(٩)]، قال: فيدخل هو ومن معه الجنة.

قال: ثم يؤتى برجل من الصنف الثانى، قال: فيقول: عبدى، لماذا[(١٠)] عملت؟ فيقول: يا رب، خلقت نارا وخلقت أغلالها وسعيرها وسمومها ويحمومُها، وما أعددت لأعدائك وأهل معصيتك فيها

(١) فى ت: «حرام ويحرمها».
(٢) المسند (٣/ ٤٧٣).
(٣) المسند (٤/ ١٣٧).
(٤) المسند (٣/ ٤٧٣).
(٥) زيادة من ت، أ.
(٦) فى أ: «الذى».
(٧) فى ت: «معاجتهم».
(٨، ٩) زيادة من ت، أ.

فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى خوفا منها. فيقول: عبدى، إنما عملت ذلك خوفا من نارى،[(١)] فإنى قد أعتقتك من النار، ومن فضلى عليك أن أدخلك جنتى. فيدخل هو ومن معه الجنة.

ثم يؤتى برجل من الصنف الثالث، فيقول: عبدى، لماذا عملت؟ فيقول: رب[(٢)]، حباً لك، وشوقا إليك، وعزتك لقد أسهرت ليلى وأظمأت نهارى شوقا إليك وحبا لك، فيقول تبارك وتعالى: عبدى، إنما عملت حبا لى وشوقا إلى، فينجلى له الرب جل جلاله، ويقول: ها أنا ذا، انظر إلى. ثم يقول: من فضلى عليك أن أعتقك من النار، وأبيحك جنتى، وأزيرك ملائكتى، وأسلم عليك بنفسى. فيدخل هو ومن معه الجنة.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١)﴾.

يخبر تعالى نبيه، صلوات الله عليه وسلامه[(٣)]، أنه[(٤)] يعلم جميع أحواله وأحوال أمته، وجميع الخلائق فى كل ساعة وآن ولحظة، وأنه لا يعزُب عن علمه وبصره مثقالُ ذرة فى حقارتها وصغرها فى السموات ولا فى الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا فى كتاب مبين، كقوله: **﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ[(٥)] الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾** [الأنعام: ٥٩]، فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك الدواب السارحة فى قوله: **﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾** [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: **﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾** [هود: ٦].

وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء، فكيف بعلمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة، كما قال تعالى: **﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ. الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ. وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾** [الشعراء: ٢١٧ ـ ٢١٩]؛ ولهذا قال تعالى: **﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾** أى: إذ تأخذون فى ذلك الشىء نحن مشاهدون لكم راؤون سامعون، ولهذا قال، عليه السلام[(٦)]، لما سأله جبريل عن الإحسان [قال][(٧)]: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[(٨)].

---

(١) فى ت، أ: «النار». (٢) فى أ: «ربى». (٣) فى ت: «صلوات الله وسلامه عليه».
(٤) فى ت: «بأنه». (٥) فى ت: «مفاتح». (٦) فى أ: «ﷺ».
(٧) زيادة من ت، أ.
(٨) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٨) من حديث عمر بن الخطاب الطويل.

﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)﴾.

يخبر تعالى أن أولياءه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، كما فسرهم[١] ربهم، فكل من كان تقيا كان لله وليا: أنه ﴿لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [أى][٢]: فيما يستقبلون من أهوال القيامة، ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما وراءهم فى الدنيا.

وقال عبد الله بن مسعود، وابن عباس، وغير واحد من السلف: أولياء الله الذين إذا رؤوا ذُكِر الله.

وقد ورد هذا فى حديث مرفوع كما قال البزار:

حدثنا على بن حَرْب الرازى، حدثنا محمد بن سعيد بن سابق، حدثنا يعقوب بن عبد الله الأشعرى ـ وهو القمى ـ عن جعفر بن أبى المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رجل: يا رسول الله، مَنْ أولياء الله؟ قال: «الذين إذا رؤُوا ذُكر الله». ثم قال البزار: وقد روى عن سعيد مرسلا[٣].

وقال ابن جرير: حدثنا أبو هشام الرِّفاعى، حدثنا ابن فضيل[٤]، حدثنا أبى، عن عمارة بن القعقاع، عن أبى زُرْعَة بن عمرو بن جرير البَجَلى، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله عبادا يغبطهم[٥] الأنبياء والشهداء». قيل: من هم يا رسول الله؟ لعلنا نحبهم. قال: «هم قوم تحابوا[٦] فى الله من غير أموال ولا أنساب، وجوههم نور على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس». ثم قرأ: **﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾**[٧].

ثم رواه وأيضا أبو داود، من حديث جرير، عن عمارة بن القعقاع، عن أبى زرعة بن عمرو بن جرير، عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ، بمثله[٨].

وهذا أيضا إسناد جيد، إلا أنه منقطع بين أبى زرعة وعمر بن الخطاب، والله أعلم.

---

(١) فى ت، أ: «فسر بهم». (٢) زيادة من ت.

(٣) مسند البزار برقم (٣٦٢٦) «كشف الأستار». والمرسل رواه الطبرى فى تفسيره (١٥/ ١١٩) من طريق أشعث بن إسحاق، عن جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير مرسلاً.

(٤) فى جميع النسخ «أبو فضيل»، وكذا وقع فى مخطوطة الطبرى وصوبه المعلق.

(٥) فى ت: «يعطيهم». (٦) فى أ: «تحابون».

(٧) تفسير الطبرى (١٥/ ٢٠) ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٢٣٦) عن واصل بن عبد الأعلى عن محمد بن فضيل عن أبيه وعمارة بن القعقاع ـ هكذا مقروناً ـ كلاهما عن أبى زرعة عن أبى هريرة به نحوه، ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٢٥٠٨) من طريق عبد الرحمن بن صالح عن ابن فضيل عن عمارة بن القعقاع عن أبى زرعة به.

(٨) تفسير الطبرى (١٥/ ١٢١) وسنن أبى داود برقم (٣٥٢٧).

وفى حديث الإمام أحمد، عن أبى النضر، عن عبد الحميد بن بَهْرَام، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن عبد الرحمن بن غَنْم، عن أبى مالك الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ:«يأتى من أفناء الناس ونوازع القبائل قوم لم تتصل(١) بينهم أرحام متقاربة، تحابوا فى الله، وتصافوا فى الله، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور، فيجلسهم عليها، يفزع الناس ولا يفزعون، وهم أولياء الله، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون». والحديث متطول(٢) (٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن الأعمش، عن ذَكْوَان أبى صالح، عن رجل، عن أبى الدرداء، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، قال: «الرؤيا الصالحة يراها المسلم، أو تُرى له»(٤).

وقال ابن جرير: حدثنى أبو السائب، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبى صالح، عن عطاء بن يسار، عن رجل من أهل مصر، عن أبى الدرداء فى قوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، قال: سأل رجل أبا الدرداء(٥) عن هذه الآية، فقال: لقد سألت عن شىء ما سمعتُ [أحداً](٦) سأل عنه بعد رجل سأل عنه رسولَ الله، فقال: «هى الرؤيا الصالحة يراها الرجل المسلم، أو تُرَى له، بشراه فى الحياة الدنيا، وبشراه فى الآخرة [الجنة](٧).

ثم رواه ابن جرير من حديث سفيان، عن ابن المنْكَدر، عن عَطَاء بن يَسَار، عن رجل من أهل مصر، أنه سأل أبا الدرداء عن هذه الآية، فذكر نحو ما تقدم(٨).

وقال ابن جرير: حدثنى المثنى: حدثنا الحجاج بن منْهَال، حدثنا حماد بن زيد، عن عاصم بن بَهْدَلَة، عن أبى صالح قال: سمعت أبا الدرداء، وسئل عن: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ . لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾، فذكر نحوه سواء(٩).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبان، حدثنا يحيى، عن أبى سلمة، عن عبادة بن الصامت؛ أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت قول الله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾؟ فقال:«لقد سألتنى عن شىء ما سألنى عنه أحد من أمتى ـ أو: أحد قبلك» قال: «تلك الرؤيا الصالحة، يراها الرجل الصالح أو تُرَى له».

وكذا رواه أبو داود الطيالسى، عن عمران القَطَّان، عن يحيى بن أبى كثير، به(١٠). ورواه

(١) فى ت: «يتصل». (٢) فى ت، أ: «يطول».
(٣) المسند (٥/ ٣٤٣).
(٤) المسند (٦/ ٤٤٥).
(٥) فى أ: «سأل رجل من أهل مصر أبا الدرداء». (٦، ٧) زيادة من ت، أ، والطبرى.
(٨) تفسير الطبرى (١٥/ ١٢٨) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣١٠٦) من طريق سفيان عن محمد بن المنكدر به نحوه.
(٩) تفسير الطبرى (١٥/ ١٣٦) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣١٠٦) من طريق أحمد بن عبدة عن حماد بن زيد به.
(١٠) مسند الإمام أحمد (٥/ ٣١٥) وهو فى مسند الطيالسى برقم (٥٨٣) عن حرب بن شداد، عن يحيى بن أبى كثير، عن أبى سلمة قال: نبئت أن عبادة بن الصامت فذكره، وهو منقطع قال ابن حجر: «رجاله ثقات إلا أنه معلول، فإن أبا سلمة لم يسمع من عبادة».

الأوزاعى، عن يحيى بن أبى كثير، فذكره. ورواه على بن المبارك، عن يحيى، عن أبى سلمة قال: نُبِّئنا عن عبادة بن الصامت، سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية، فذكره.

وقال ابن جرير: حدثنى أبو حميد الحِمْصِىّ، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عمر بن عمرو بن عبد الأحمُوسى، عن حميد بن عبد الله المزَنى قال: أتى رجل عبادة بن الصامت فقال: آية فى كتاب الله أسألك عنها، قول الله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؟ فقال عبادة: ما سألنى عنها أحد قبلك، سألت عنها نبى الله فقال مثل ذلك: «ما سألنى عنها أحد قبلك، الرؤيا الصالحة، يراها العبد المؤمن فى المنام أو تُرَى له»[١].

ثم رواه من حديث موسى بن عبيدة، عن أيوب بن خالد بن صَفْوان، عن عبادة بن الصامت؛ أنه قال لرسول الله ﷺ: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، فقد عرفنا بشرى الآخرة الجنة، فما بشرى الدنيا؟ قال: «الرؤيا الصالحة يراها العبد أو تُرَى له، وهى جزء من أربعة وأربعين جزءا أو سبعين جزءا من النبوة»[٢].

وقال [الإمام][٣] أحمد أيضا: حدثنا بَهْز، حدثنا حماد، حدثنا أبو عمران، عن عبد الله بن الصامت، عن أبى ذر؛ أنه قال: يا رسول الله، الرجل يعمل العمل فيحمده[٤] الناس عليه، ويثنون عليه به، فقال رسول الله ﷺ: «تلك عاجل بشرى المؤمن». رواه مسلم[٥].

وقال أحمد أيضا: حدثنا حسن ـ يعنى الأشيب ـ حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا دَرَّاج، عن عبدالرحمن بن جُبَيْر، عن عبد الله بن عمرو، عن رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ قال: «الرويا الصالحة يبشرها المؤمن، هى جزء من تسعة وأربعين جزءا من النبوة، فمن رأى [ذلك][٦] فليخبر بها، ومن رأى سوى ذلك فإنما هو من الشيطان ليَحْزنُه، فلينفث[٧] عن يساره ثلاثا، وليكبر[٨]، ولا يخبر بها أحدا»[٩] لم يخرجوه.

وقال ابن جرير: حدثنى يونس، أنبأنا ابن وَهْب، حدثنى عمرو بن الحارث، أن دَرَّاجا أبا السمح حدثه عن عبد الرحمن بن جُبَيْر، عن عبد الله بن عمرو، عن رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: «الرؤيا الصالحة يبشَّرها المؤمن، جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»[١٠].

وقال أيضا ابن جرير: حدثنى محمد بن حاتم المؤدِّب، حدثنا عمار بن محمد، حدثنا الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ قال: «هى

(١) تفسير الطبرى (١٥/ ١٢٩).
(٢) تفسير الطبرى (١٥/ ١٣٢).
(٣) زيادة من أ.
(٤) فى ت، أ: «ويحمده».
(٥) المسند (٥/ ١٥٦) وصحيح مسلم برقم (٢٦٤٢).
(٦) زيادة من أ، والمسند، وفى ت: «تلك».
(٧) فى ت: «فليتفت».
(٨) فى ت، أ: «وليسكت».
(٩) المسند (٢/ ٢١٩) وابن لهيعة ودراج ضعيفان.
(١٠) تفسير الطبرى (١٥/ ١٣٩).

فى الدنيا الرؤيا الصالحة، يراها العبد أو تُرَى له، وهى فى الآخرة الجنة»[(١)].

ثم رواه عن أبى كُرَيْب، عن أبى بكر بن عَيَّاش، عن أبى حصين، عن أبى صالح، عن أبى هريرة أنه قال: الرؤيا الحسنة بشرى من الله، وهى من المبشّرات[(٢)].

هكذا رواه من هذه الطريق موقوفا.

وقال أيضا: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا أبو بكر، حدثنا هشام، عن ابن سيرين، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا الحسنة هى البشرى، يراها المسلم أو تُرَى له»[(٣)].

وقال ابن جرير: حدثنى أحمد بن حماد الدُّولابى، حدثنا سفيان، عن عبيد الله بن أبى يزيد، عن أبيه، عن سبَاع بن ثابت، عن أم كُرْز الكعبية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ذهبت النبوة، وبقيت المبشرات»[(٤)].

وهكذا روى عن ابن مسعود، وأبى هريرة، وابن عباس، ومجاهد، وعُرْوَة بن الزبير، ويحيى بن أبى كثير، وإبراهيم النَّخَعى، وعطاء بن أبى رباح: أنهم فسروا ذلك بالرؤيا الصالحة.

وقيل: المراد بذلك[(٥)] بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٢].

وفى حديث البراء: «أن المؤمن إذا حضره الموت، جاءه ملائكة بيض الوجوه، بيض الثياب، فقالوا: اخرجى أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان، ورب غير غضبان. فتخرج من فمه، كما تسيل القطرة من فم السقاء».

وأما بشراهم فى الآخرة، فكما قال تعالى: ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[(٦)] [الحديد: ١٢].

وقوله: ﴿لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أى: هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغير، بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة: ﴿ذَلِكَ[(٧)] هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

---

(١) تفسير الطبرى (١٥/ ١٣١).

(٢، ٣) تفسير الطبرى (١٥/ ١٣٠).

(٤) تفسير الطبرى (١٥/ ١٣٣) ورواه ابن ماجه فى السنن برقم (٣٨٩٦) من طريق هارون الحمال عن سفيان به. وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٢١٢): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات» وأبو زيد لم يوثقه سوى ابن حبان، ولم يرو عنه سوى ابنه.

(٥) فى ت، أ: «المراد من ذلك». (٦) فى ت: «وذلك الفوز العظيم». (٧) فى ت: «وذلك» وهو خطأ.

﴿ وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥) أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٦٦) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧) ﴾.

يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ وَلا يَحْزُنكَ ﴾ قولُ هؤلاء المشركين، واستعن بالله عليهم، وتوكل عليه؛ فإن العزة لله جميعا، أى: جميعها له ولرسوله وللمؤمنين، ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أى: السميع لأقوال عباده العليم بأحوالهم[(١)].

ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض، وأن المشركين يعبدون الأصنام، وهى لا تملك شيئا، لا[(٢)] ضراً ولا نفعا، ولا دليل لهم على عبادتها، بل إنما يتبعون فى ذلك ظنونهم وتخرصهم وكذبهم وإفكهم.

ثم أخبر أنه الذى جعل لعباده الليل ليسكنوا فيه، أى: يستريحون فيه من نَصَبهم وكلالهم وحَرَكاتهم، ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أى: مضيئاً لمعاشهم وسعيهم، وأسفارهم ومصالحهم، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أى: يسمعون هذه الحجج والأدلة، فيعتبرون[(٣)] بها، ويستدلون على عظمة خالقها، ومقدرها ومسيرها.

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ(٧٠) ﴾.

يقول تعالى منكراً على من ادعى أن له ولداً: ﴿ سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ أى: تقدس عن ذلك، هو الغنى عن كل ما سواه، وكل شىء فقير إليه، ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أى: فكيف يكون له ولد مما خلق، وكل شىء مملوك له، عبد له؟! ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ أى: ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان! ﴿ أَتَقُولُونَ[(٤)] عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾: إنكار ووعيد أكيد، وتهديد شديد، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا . وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِن كُلُّ مَن فِي

(١) فى ت، أ: «عليم بهم».
(٢) فى ت، أ: «ولا».
(٣) فى ت: «ويعتبرون».
(٤) فى ت: «أيقولون».

السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا. لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا. وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨ـ ٩٥].

ثم توعد تعالى الكاذبين عليه المفترين، ممن زعم أنه له ولدا، بأنهم لا يفلحون فى الدنيا ولا فى الآخرة، فأما فى الدنيا فإنهم إذا استدرجهم وأملى لهم متعهم قليلا، ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ، كما قال هاهنا: ﴿ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ﴾ أى: مدة قريبة، ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ أى: يوم القيامة، ﴿ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ﴾ أى: الموجع المؤلم ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ أى: بسبب كفرهم وافترائهم وكذبهم على الله، فيما ادعوه من الإفك والزور.

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ (٧١) فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) ﴾.

يقول تعالى لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ أى: أخبرهم واقصص عليهم، أى: على كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك ﴿ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ أى: خَبَرَه مع قومه الذين كذبوه، كيف أهلكهم الله ودمّرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم، ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك. ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم ﴾ أى: عَظُم عليكم، ﴿ مَّقَامِي﴾ أى: فيكم بين أظهركم، ﴿وَتَذْكِيرِي﴾ إياكم ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أى: بحججه وبراهينه، ﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أى: فإنى لا أبالى ولا أكف عنكم[1]، سواء عظم عليكم أو لا! ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ أى: فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله، من صَنَم ووثن، ﴿ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أى: ولا تجعلو أمركم عليكم ملتبسا، بل افصلوا حالكم معى، فإن كنتم تزعمون أنكم محقون، فاقضوا إلى ولا تنظرون، أى: ولا تؤخرونى ساعة واحدة، أى: مهما قدرتم فافعلوا، فإنى لا أباليكم[2] ولا أخاف منكم، لأنكم لستم على شىء، كما قال هود لقومه: ﴿ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦].

﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أى: كذبتم وأدبرتم عن الطاعة، ﴿ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أى: لم أطلب منكم على نصحى إياكم شيئا، ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أى: وأنا ممتثل ما أمرت به

---

(١) فى ت، أ: «ولا أفكر عنكم».

(٢) فى ت، أ: «أبالكم».

من الإسلام لله عز وجل؛ والإسلام هو دين [جميع][(١)] الأنبياء من أولهم إلى آخرهم، وإن تنوعت شرائعهم وتعددت مناهجهم، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]. قال ابن عباس: سبيلا وسنة. فهذا نوح يقول: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١]، وقال تعالى عن إبراهيم الخليل: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ. وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣١، ١٣٢]، وقال يوسف: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، وقال موسى: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، وقالت[(٢)] السحرة: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وقالت بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]، وقال [الله][(٣)] تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١] وقال خاتم الرسل وسيد البشر: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] أي: من هذه الأمة؛ ولهذا قال في الحديث الثابت عنه: «نحن معاشر الأنبياء أولاد عَلاَّت، ديننا واحد»[(٤)]. أي: وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن تنوعت شرائعنا، وذلك معنى قوله: «أولاد عَلاَّت»، وهم: الإخوة من أمهات شتى والأب واحد.

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن[(٥)] مَّعَهُ﴾ أي: على دينه ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ وهي: السفينة، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ أي: في الأرض، ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ أي: يا محمد كيف أنجينا المؤمنين، وأهلكنا المكذبين.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤)﴾.

يقول تعالى: ثم بعثنا من بعد نوح رسلا إلى قومهم، فجاؤوهم بالبينات، أي: بالحجج والأدلة والبراهين على صدق ما جاؤوهم به، ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم، بسبب تكذيبهم إياهم أول ما أرسلوا إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي: كما طبع الله على قلوب هؤلاء، فما آمنوا

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) في ت، أ: «وقال». (٣) زيادة من ت، أ.
(٤) رواه البخاري في صحيحه برقم (٣٤٤٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٥) في ت، أ: «والذين».

بسبب تكذيبهم المتقدم، هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم، ويختم على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

والمراد: أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة للرسل، وأنجى[١] من آمن بهم، وذلك من بعد نوح، عليه السلام، فإن الناس كانوا من قبله من[٢] زمان آدم عليه السلام على الإسلام، إلى أن أحدث الناس عبادة الأصنام، فبعث الله إليهم نوحا، عليه السلام؛ ولهذا يقول له المؤمنون يوم القيامة: أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض.

وقال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام.

وقال الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧]، وفى هذا إنذار عظيم لمشركى العرب الذين كذبوا بسيد الرسل وخاتم الأنبياء والمرسلين، فإنه إذا كان قد أصاب من كذب بتلك الرسل ما ذكره الله تعالى من العقاب والنَّكَال، فماذا[٣] ظن هؤلاء وقد ارتكبوا أكبر من أولئك؟

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ من بعد تلك الرسل ﴿مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أى: قومه[٤]. ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أى: حججنا وبراهيننا، ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ أى: استكبروا عن اتباع الحق والانقياد له، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ كأنهم ـ قبَّحهم الله ـ أقسموا على ذلك، وهم يعلمون أن ما قالوه كذب وبهتان، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَىٰ﴾ منكرا عليهم: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ. قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ أى: تثنينا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أى: الدِّين الذى كانوا عليه، ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا﴾ أى: لك ولهارون ﴿الْكِبْرِيَاءُ﴾ أى: العظمة والرياسة ﴿فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وكثيراً ما يذكر الله تعالى قصة موسى، عليه السلام، مع فرعون فى كتابه العزيز؛ لأنها من أعجب القصص، فإن فرعون حَذر من موسى كل[٥] الحذر، فسخره القدر أن ربَّى هذا الذى يُحذَّر

---

(١) فى ت، أ: «ونجى». (٢) فى ت، أ: «إلى». (٣) فى ت، أ: «فما».
(٤) فى ت، أ: «أى إلى قومه». (٥) فى أ: «من».

منه على فراشه ومائدته بمنزلة الولد، ثم ترعرع وعقد الله له سببا أخرجه من بين أظهرهم، ورزقه النبوة والرسالة والتكليم، وبعثه إليه ليدعوه إلى الله تعالى ليعبده[1] ويرجع إليه، هذا مع ما كان عليه فرعون من عظمة المملكة والسلطان، فجاءه برسالة الله، وليس له وزير سوى أخيه هارون عليه[2] السلام، فتمرد فرعون واستكبر وأخذته الحمية، والنفس الخبيثة الأبية، وقوى رأسه وتولّى بركنه، وادعى ما ليس له، وتجهرم على الله، وعتا وبغى وأهان حزب الإيمان من بنى إسرائيل، والله تعالى يحفظ رسوله موسى وأخاه هارون، ويحوطهما، بعنايته، ويحرسهما بعينه التى لا تنام، ولم تزل[3] المحاجة والمجادلة والآيات تقوم على يدى موسى شيئا[4] بعد شيء، ومرة[5] بعد مرة، مما يبهر العقول ويدهش الألباب، مما لا يقوم له شيء، ولا يأتى به إلا من هو مؤيد من الله، وما تأتيهم من آية إلا هى أكبر من أختها، وصمم فرعون ومَلَؤه ـ قبحهم الله ـ على التكذيب بذلك كله، والجحد والعناد والمكابرة، حتى أحل الله بهم بأسه الذى لا يُرَد، وأغرقهم فى صبيحة[6] واحدة أجمعين، ﴿ **فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأنعام: ٤٥].

﴿ **وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢)** ﴾.

ذكر تعالى[7] قصة السحرة مع موسى، عليه السلام، فى سورة الأعراف، وقد تقدم الكلام عليها هناك. وفى هذه السورة، وفى سورة طه، وفى الشعراء؛ وذلك أن فرعون ـ لعنه الله ـ أراد أن يَتَهَرَّج على الناس، ويعارض ما جاء به موسى، عليه السلام، من الحق المبين، بزخارف[8] السحرة والمشعبذين، فانعكس عليه النظام، ولم يحصل له ذلك المرام، وظهرت[9] البراهين الإلهية فى ذلك المحفل العام، و﴿ **فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ . قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ**﴾ [الشعراء: ٤٦ ـ ٤٨] فظن فرعون أن[10] يستنصر بالسُّحار، على رسول عالم الأسرار، فخاب وخسر الجنة، واستوجب النار.

﴿ **وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ[11] عَلِيمٍ . فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ**﴾؛ وإنما قال لهم ذلك لأنهم اصطفوا ـ وقد وعدوا من فرعون بالتقريب والعطاء الجزيل ـ ﴿ **قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ . قَالَ بَلْ أَلْقُوا**﴾ [طه: ٦٥، ٦٦]، فأراد موسى أن تكون البَدَاءَةُ منهم، ليرى الناس ما صنعوا، ثم يأتى بالحق بعده فيدمغ باطلهم؛ ولهذا لما ﴿ **أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ**

---

(١) فى ت، أ: «فيعبده».
(٢) فى ت، أ: «عليهما».
(٣) فى ت: «ولم يزل».
(٤) فى ت: «شيء».
(٥) فى ت: «وكره».
(٦) فى ت: «صيحة».
(٧) فى ت: «ذكر الله سبحانه».
(٨) فى أ: «من خوارق».
(٩) فى ت: «واظهرت».
(١٠) فى ت: «أنه».
(١١) فى ت: «سحار».

وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ . قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ . وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٧ ـ ٦٩]. فعند ذلك قال موسى لما ألقوا: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ . وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عمار بن الحارث، حدثنا عبد الرحمن ـ يعنى الدَّشْتَكِىّ ـ أخبرنا أبو جعفر الرازى، عن لَيْث ـ وهو ابن أبى سليم ـ قال: بلغنى أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله تعالى، تقرأ فى إناء فيه ماء، ثم يصب على رأس المسحور: الآية التى من سورة يونس: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ . وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾، والآية الأخرى: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١١٨ ـ ١٢٢]، وقوله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾[طه: ٦٩].

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣)﴾.

يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى، عليه السلام، مع ما جاء به من الآيات[١] البينات والحجج القاطعات والبراهين الساطعات، إلا قليل من قوم فرعون، من الذرية ـ وهم الشباب[٢] ـ على وجل وخوف منه ومن مَلَئِه، أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر؛ لأن فرعون كان جبارا عنيدا مسرفا فى التمرد والعتوّ، وكانت[٣] له سَطْوة ومَهابة، تخاف رعيته منه خوفا شديدا.

قال العوفى: عن ابن عباس: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ قال: فإن الذرية التى آمنت لموسى، من أناس غير بنى إسرائيل، من قوم فرعون يسير، منهم: امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه.

وروى على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ يقول: بنى إسرائيل.

وعن ابن عباس، والضحاك، وقتادة (الذرية): القليل.

وقال مجاهد فى قوله: ﴿إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ يقول: بنى إسرائيل. قال: هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى، من طول الزمان، ومات آباؤهم.

واختار ابن جرير قول مجاهد فى الذرية: أنها من بنى إسرائيل لا من قوم فرعون، لعود الضمير على أقرب المذكورين.

(١) فى ت: «الإيمان». (٢) فى ت: «الشاب». (٣) فى ت: «فكانت».

وفى هذا نظر؛ لأنه أراد بالذرية الأحداث والشباب[١]، وأنهم من بنى إسرائيل، فالمعروف أن بنى إسرائيل كلهم آمنوا بموسى، عليه السلام، واستبشروا به، وقد كانوا يعرفون نعته وصفته والبشارة به من كتبهم المتقدمة، وأن الله تعالى سينقذهم به من أسر فرعون ويظهرهم عليه؛ ولهذا لما بلغ هذا فرعون حَذَر كل الحذر فلم يُجْد عنه شيئا. ولما جاء موسى آذاهم فرعون[٢] أشد الأذى، و﴿ **قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٢٩]. وإذا تقرر هذا فكيف يكون المراد إلا ذرية من قوم موسى، وهم بنو إسرائيل؟.

﴿ **عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ** ﴾ أى: وأشراف قومهم أن يفتنهم، ولم يكن فى بنى إسرائيل من يخاف منه أن يَفتِنَ عن الإيمان سوى قارون، فإنه كان من قوم موسى، فبغى عليهم؛ لكنه كان طاويا[٣] إلى فرعون، متصلا به، متعلقا بحباله[٤]. ومن قال: إن الضمير فى قوله: ﴿ **وَمَلَئِهِمْ** ﴾، عائد إلى فرعون، وعظم الملك[٥] من أجل اتباعه أو بحذف «آل» فرعون، وإقامة المضاف إليه مقامه ـ فقد أبعد، وإن كان ابن جرير قد حكاهما عن بعض النحاة. ومما يدل على أنه لم يكن فى بنى إسرائيل إلا مؤمن قوله تعالى:

﴿ **وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦)** ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن موسى أنه قال لبنى إسرائيل: ﴿ **يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ** ﴾ أى: فإن الله كاف من توكل عليه، ﴿ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ** ﴾ [الزمر: ٣٦]، ﴿ **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾ [الطلاق: ٣].

وكثيرا ما يقرن الله بين العبادة والتوكل، كما فى قوله تعالى: ﴿ **فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ** ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿ **قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا** ﴾ [الملك: ٢٩]، ﴿ **رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا** ﴾ [المزمل: ٩]، وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا فى كل صلواتهم[٦] مرات متعددة: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ [الفاتحة: ٥].

وقد امتثل بنو إسرائيل ذلك، فقالوا: ﴿ **عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ أى: لا تظفرهم بنا، وتسلطهم[٧] علينا، فيظنوا أنهم إنما سلطوا لأنهم على الحق ونحن على الباطل،

---

(١) فى ت: «والشاب». (٢) فى ت: «الفرعون». (٣) فى ت: «طارياً».

(٤) فى ت: «بحاله». (٥) فى ت: «للملك». (٦) فى ت: «صلاتهم».

(٧) فى ت: «أى يظفركم ويسلطهم».

فيفتنوا[١] بذلك. هكذا روى عن أبى مِجْلَز، وأبى الضُّحى.

وقال ابن أبى نَجِيح وغير واحد، عن مجاهد: لا تعذبنا بأيدى قوم فرعون، ولا بعذاب من عندك، فيقول قوم فرعون: لو كانوا على حق ما عذبوا، ولا سُلِّطنا عليهم، فيفتنوا[٢] بنا.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا ابن عُيَيْنَة، عن ابن نَجِيح، عن مجاهد: ﴿ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِين﴾ [أى][٣]: لا تسلطهم علينا، فيفتنونا.

﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِك﴾ أى: خلصنا برحمة منك وإحسان، ﴿ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِين ﴾ أى: الذين كفروا الحق وستروه، ونحن قد آمنا بك وتوكلنا عليك.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) ﴾.

يذكر تعالى سبب إنجائه بنى إسرائيل من فرعون وقومه، وكيفية خلاصهم منهم[٤]، وذلك أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون، عليهما السلام ﴿ أَن تَبَوَّءَا ﴾ أى: يتخذا لقومهما بمصر بيوتا.

واختلف المفسرون فى معنى قوله تعالى: ﴿ وَاجْعَلُوا [٥]بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾، فقال الثورى وغيره، عن خُصَيْف، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قال: أمرُوا أن يتخذوها مساجد.

وقال الثورى أيضا، عن ابن منصور، عن إبراهيم: ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قال: كانوا خائفين، فأمروا أن يصلوا فى بيوتهم.

وكذا قال مجاهد، وأبو مالك، والربيع بن أنس، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وأبوه زيد بن أسلم: وكأن هذا ـ والله أعلم ـ لما اشتد بهم البلاء من قِبَل فرعون وقومه، وضيقوا عليهم، أمروا بكثرة الصلاة، كما قال تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ [البقرة: ١٥٣]. وفى الحديث: كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبه أمر صلى. أخرجه أبو داود[٦]. ولهذا[٧] قال تعالى فى هذه الآية: ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِين﴾ أى: بالثواب والنصر القريب.

وقال العوفى، عن ابن عباس، فى تفسير هذه الآية قال: قالت بنو إسرائيل لموسى، عليه السلام: لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة، فأذن الله تعالى لهم أن يصلوا فى بيوتهم، وأمروا أن يجعلوا بيوتهم قبل القبلة. وقال مجاهد: ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ ، قال: لما خاف بنو إسرائيل من

(١، ٢) فى ت، أ: «فيفتتنوا».
(٣) زيادة من ت، أ.
(٤) فى أ: «منه».
(٥) فى ت: «وجعلوا».
(٦) سنن أبى داود برقم (١٣١٩) من حديث حذيفة، رضى الله عنه.
(٧) فى ت، أ: «وكذا».

فرعون أن يقتلوا[١] فى الكنائس الجامعة، أمروا أن يجعلوا بيوتهم مساجد مستقبلة الكعبة، يصلون فيها سراً. وكذا قال قتادة، والضحاك.

وقال سعيد بن جبير: ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أى: يقابل بعضها بعضا.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٨٩) ﴾.

هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى، عليه السلام، على فرعون ومَلَئه، لما أبوا قبول الحق واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين، ظلما وعلوا وتكبراً وعتوا، قال: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً﴾ أى: من أثاث الدنيا ومتاعها، ﴿ وَأَمْوَالاً﴾ أى: جزيلة كثيرة، ﴿ فِي﴾ هذه ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيَضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ ـ بفتح الياء ـ أى: أعطيتهم ذلك وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتنى به إليهم استدراجا منك لهم، كما قال تعالى: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾.

وقرأ آخرون: ﴿ لِيُضِلُّوا﴾ بضم الياء، أى: ليفتتن بما أعطيتهم من شئت من خلقك، ليظن من أغويته أنك إنما أعطيت هؤلاء هذا لحبك إياهم[٢]، واعتنائك بهم.

﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد: أى: أهلكها. وقال الضحاك، وأبوالعالية، والربيع بن أنس: جعلها الله حجارة منقوشة كهيئة ما كانت.

وقال قتادة: بلغنا أن زروعهم تحولت حجارة.

وقال محمد بن كعب القُرَظى: اجعل[٣] سُكَّرهم حجارة.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا إسماعيل بن أبى الحارث، حدثنا يحيى بن أبى بُكَيْر، عن أبى مَعْشَر، حدثنى محمد بن قيس: أن محمد بن كعب قرأ سورة يونس على عمر بن عبد العزيز: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ﴾ إلى قوله: ﴿ اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ ﴾ إلى آخرها [فقال له: عمر يا أبا حمزة[٤]، أى شىء الطمس؟ قال: عادت أموالهم كلها حجارة][٥]. فقال عمر بن عبد العزيز لغلام له: ائتنى بكيس. [فجاءه بكيس][٦]، فإذا فيه حمص وبيض، قد قطع حول حجارة.

وقوله: ﴿ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: قال ابن عباس: أى اطبع عليها، ﴿ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾.

وهذه الدعوة كانت من موسى، عليه السلام، غضباً لله ولدينه على فرعون وملئه، الذين تبين له

(١) فى ت: «أن يصلوا». (٢) فى ت، أ: «لهم». (٣) فى ت: «جعل».
(٤) فى ت: «يا أبا جمرة». (٥، ٦) زيادة من ت، أ.

أنه لا خير فيهم، ولا يجيء منهم شيء كما دعا نوح، عليه السلام، فقال: ﴿ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا . إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧]؛ ولهذا استجاب الله تعالى لموسى، عليه السلام، فيهم[١] هذه الدعوة، التي أمَّنَ عليها أخوه هارون، فقال تعالى: ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾.

قال أبو العالية، وأبو صالح، وعكرمة، ومحمد بن كعب القرظي، والربيع بن أنس: دعا موسى وأمَّنَ هارون، أي: قد أجبناكما فيما سألتما من تدمير آل فرعون.

وقد يحتج بهذه الآية من يقول: «إن تأمين المأموم على قراءة الفاتحة يُنزَّل منزلة[٢] قراءتها؛ لأن موسى دعا وهارون أمن».

وقال تعالى: ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا [وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ][٣]﴾ أي: كما أجيبت دعوتكما فاستقيما على أمري.

قال ابن جُرَيْج، عن ابن عباس: ﴿ فَاسْتَقِيمَا﴾: فامضيا لأمري، وهي الاستقامة. قال ابن جريج: يقولون: إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة.

وقال محمد بن علي بن الحسين: أربعين يوما.

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢) ﴾.

يذكر تعالى كيفية إغراقه فرعون وجنوده؛ فإن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر صحبة موسى، عليه السلام، وهم ـ فيما قيل ـ ستمائة ألف مقاتل سوى الذرية، وقد كانوا استعاروا من القبط حُلِيًّا كثيرا، فخرجوا به معهم، فاشتد حَنَق فرعون عليهم، فأرسل في المدائن حاشرين يجمعون له جنوده من أقاليمه، فركب وراءهم في أبهة عظيمة، وجيوش هائلة لما يريده الله تعالى بهم، ولم يتخلف عنه أحد ممن له دولة وسلطان في سائر مملكته، فلحقوهم وقت شروق الشمس، ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]، وذلك أنهم لما انتهوا إلى ساحل البحر، وأدركهم فرعون، ولم يبق إلا أن يتقاتل[٤] الجمعان، وألح أصحاب موسى، عليه السلام، عليه في السؤال كيف المخلص مما نحن فيه؟ فيقول: إني أمرت أن أسلك هاهنا، ﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾

---

(١) في ت: «فيما».
(٢) في ت: «يتنزل منزلة»
(٣) زيادة من أ، وفي هـ: «الآية».
(٤) في أ: «أن يتقابل».

[الشعراء: ٦٢]، فعندما ضاق الأمر اتسع، فأمره الله تعالى أن يضرب البحر بعصاه، فضربه فانفلق البحر، ﴿ **فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ**﴾ [الشعراء: ٦٣] أى: كالجبل العظيم، وصار اثنى عشر طريقاً، لكل سبط واحد. وأمر الله الريح فنشَّفت أرضه، ﴿ **فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لاَّ تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَى**﴾ [طه: ٧٧]، وتخرق الماء بين الطرق كهيئة الشبابيك، ليرى كل قوم الآخرين لئلا يظنوا أنهم هلكوا. وجازت بنو إسرائيل البحر، فلما خرج آخرهم منه انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى، وهو فى مائة ألف أدهم سوى بقية الألوان، فلما رأى ذلك هاله وأحجم وهاب وهم بالرجوع، وهيهات ولات حين مناص، نفذ القدر، واستجيبت الدعوة. وجاء جبريل، عليه السلام، على فرس ـ ودَيق حائل، فمر إلى جانب حصان فرعون فحمحم إليها وتقدم جبريل فاقتحم البحر ودخله، فاقْتحم الحصان وراءه، ولم يبق فرعون يملك من نفسه شيئا، فتجلد لأمرائه، وقال لهم: ليس بنو إسرائيل بأحق بالبحر منا، فاقتحموا كلهم عن آخرهم وميكائيل فى ساقتهم، لا يترك أحدا منهم، إلا ألحقه بهم. فلما استوسقوا فيه وتكاملوا، وهم أولهم بالخروج منه، أمر اللهُ القدير البحرَ أن يرتطم عليهم، فارتطم عليهم، فلم ينج منهم أحد، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم، وتراكمت الأمواج فوق فرعون، وغشيته سكرات الموت، فقال وهو كذلك: ﴿ **آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾. فآمن حيث لا ينفعه الإيمان، ﴿ **فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ**﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

وهكذا[١] قال الله تعالى فى جواب فرعون حين قال ما قال: ﴿ **آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ**﴾ أى: أهذا[٢] الوقت تقول، وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه؟ ﴿**وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**﴾ أى: فى الأرض الذين أضلوا الناس، ﴿ **وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ**﴾ [القصص: ٤١].

وهذا الذى حكى الله تعالى عن فرعون من قوله هذا فى حاله[٣] ذاك من أسرار الغيب التى[٤] أعلم الله بها رسوله؛ ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله:

حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن سلمة، عن على بن زيد، عن يوسف بن مهْران، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قال فرعون: ﴿ **آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ**﴾، قال: قال لى جبريل: [يا محمد][٥] لو رأيتنى وقد أخذت [حالا][٦] من حال البحر، فدسسته فى فيه مخافة أن تناله الرحمة».

---

(١) فى ت: «ولهذا».
(٢) فى ت: «هذا».
(٣) فى ت: «حالة».
(٤) فى ت، أ: «الذى».
(٥، ٦) زيادة من ت، أ، والمسند.

ورواه الترمذى، وابن جرير، وابن أبى حاتم فى تفاسيرهم، من حديث حماد بن سلمة، به[(١)].
وقال الترمذى: حديث حسن.

وقال أبو داود الطيالسى: حدثنا شعبة، عن عدى بن ثابت وعطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «قال لى جبريل: لو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر، فأدسه فى فم فرعون مخافة أن تدركه الرحمة». وقد رواه أبو عيسى الترمذى أيضا، وابن جرير أيضا، من غير وجه، عن شعبة، به[(٢)] .وقال الترمذى: حسن غريب صحيح.

ووقع فى رواية عند ابن جرير، عن محمد بن المثنى، عن غُنْدَر، عن شعبة، عن عَطاء وعَدِىّ، عن سعيد، عن ابن عباس، رفعه أحدهما ـ وكأن[(٣)] الآخر لم يرفعه، فالله[(٤)] أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشَجّ، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن عمر بن عبد الله بن يَعْلَى الثقفى، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس قال: لما أغرق[(٥)] الله فرعون، أشار بأصبعه ورفع صوته: ﴿آمنت أَنَّهُ لا إِلَهَ[(٦)] إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾، قال: فخاف جبريل أن تسبق رحمة الله فيه غضبه، فجعل يأخذ الحال بجناحه فيضرب به وجهه فيرمسه.

وكذا رواه ابن جرير، عن سفيان بن وَكِيع، عن أبى خالد، به موقوفا[(٧)].

وقد روى من حديث أبى هريرة أيضا، فقال ابن جرير:

حدثنا ابن حميد، حدثنا حكّام، عن عَنْبَسَة ـ هو ابن[(٨)] سعيد ـ عن كثير بن زاذان، عن أبى حازم، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال لى جبريل: يا محمد، لو رأيتنى وأنا أغطّه وأدس من الحال[(٩)] فى فيه، مخافة أن تدركه رحمة الله فيغفر له» يعنى: فرعون[(١٠)].

كثير بن زاذان هذا قال ابن مَعِين: لا أعرفه، وقال أبو زُرْعَة وأبو حاتم: مجهول، وباقى رجاله ثقات.

---

(١) المسند (١/ ٣٠٩) وسنن الترمذى برقم (٣١٠٧).

(٢) سنن الترمذى برقم (٣١٠٨) وتفسير الطبرى (١٥/ ١٩٠ ـ ١٩٢) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٣٤٠) من طريق النضر بن شميل عن شعبة به، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه؛ لأن أكثر أصحاب شعبة أوقفوه على ابن عباس» ورواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٩٣٩٢) فذكرت روايات الرفع والوقف.

(٣) فى ت، أ: «فكأن».

(٤) فى ت، أ: «والله».

(٥) فى ت، أ: «لما غرق».

(٦) فى ت: «أن لا إله».

(٧) تفسير الطبرى (١٥/ ١٩٣) ورواه السرقسطى فى غريب الحديث، كما فى تخريج الكشاف (٢/ ١٣٨) عن موسى بن هارون، عن يحيى الحمانى عن أبى خالد الأحمر به نحوه.

(٨) فى ت، أ: «أبو».

(٩) فى ت: «الجبال».

(١٠) تفسير الطبرى (١٥/ ١٩١) ورواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٩٣٩٠) من طريق حكام الرازى به.

وقد أرسل هذا الحديث جماعة من السلف: قتادة، وإبراهيم التيمى، وميمون بن مِهْران. ونقل عن الضحاك بن قيس: أنه خطب بهذا للناس، فالله أعلم.

وقوله: ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾: قال ابن عباس وغيره من السلف: إن بعض بنى إسرائيل شكّوا فى موت فرعون، فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده[1] بلا روح، وعليه درعه المعروفة [به][2]، على نجوة[3] من الأرض وهو المكان المرتفع، ليتحققوا موته وهلاكه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ ﴾ أى: نرفعك على نَشز[4] من الأرض، ﴿ بِبَدَنِكَ﴾. قال مجاهد: بجسدك. وقال الحسن: بجسم لا روح فيه. وقال عبد الله بن شداد: سويا صحيحا، أى: لم يتمزق ليتحققوه ويعرفوه. وقال أبو صخر: بدرعك[5].

وكل هذه الأقوال لا منافاة بينها، كما تقدم، والله أعلم.

وقوله: ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ أى: لتكون لبنى إسرائيل دليلا على موتك وهلاكك، وأن الله[6] هو القادر الذى ناصية كل دابة بيده، وأنه لا يقوم لغضبه شىء؛ ولهذا قرأ بعض السلف: «لتكون لمن خلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ [7]»، أى: لا يتعظون[8] بها، ولا يعتبرون. وقد كان [إهلاك فرعون وملئه][9] يوم عاشوراء، كما قال البخارى:

حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غُنْدَر، حدثنا شعبة، عن أبى بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قدم النبى ﷺ المدينة، واليهود تصوم يوم عاشوراء فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون. فقال النبى ﷺ لأصحابه: «أنتم أحق بموسى منهم، فصوموه»[10].

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣) ﴾.

يخبر تعالى عما أنعم به على بنى إسرائيل من النعم الدينية والدنيوية فـ﴿ مُبَوَّأَ[11] صِدْقٍ﴾، قيل: هو بلاد مصر والشام، مما يلى بيت المقدس ونواحيه، فإن الله تعالى لما أهلك فرعون وجنوده استقرت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكمالها، كما قال الله تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾[الأعراف: ١٣٧]،وقال فى الآية الأخرى: ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ[12] . وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٧ ـ ٥٩]، ولكن

(١) فى ت، أ: «بجسده سويا».
(٢) زيادة من ت، أ.
(٣) فى ت: «نحوه».
(٤) فى ت: «يرفعك على بشر».
(٥) فى ت: «تذرعك».
(٦) فى ت: «وأنه تعالى».
(٧) فى ت: «الغافلون».
(٨) فى ت: «يتعضون».
(٩) زيادة من ت، أ.
(١٠) صحيح البخارى برقم (٤٦٨٠).
(١١) فى ت: «فالمبوأ».
(١٢) فى ت، أ: «كم تركوا من جنات وعيون وزروع».

استمروا مع موسى، عليه السلام، طالبين إلى بلاد بيت المقدس [وهى بلاد الخليل عليه السلام فاستمر موسى بمن معه طالبا بيت المقدس][١]، وكان فيه قوم من العمالقة، [فنكل بنو إسرائيل عن قتال العمالقة][٢]، فشردهم الله تعالى فى التيه أربعين سنة، ومات فيه[٣] هارون، ثم، موسى، عليهما السلام، وخرجوا بعدهما مع يوشع بن نون، ففتح الله عليهم بيت المقدس، واستقرت أيديهم عليها إلى أن أخذها منهم بختنصر حينا من الدهر، ثم عادت إليهم، ثم أخذها ملوك اليونان، وكانت تحت أحكامهم[٤] مدة طويلة، وبعث الله عيسى ابن مريم، عليه السلام، فى تلك المدة، فاستعانت اليهود ـ قبحهم[٥] الله ـ على معاداة عيسى، عليه السلام، بملوك اليونان، وكانت تحت أحكامهم، ووشوا عندهم، وأوحوا إليهم أن هذا يفسد عليكم الرعايا فبعثوا[٦] من يقبض عليه، فرفعه الله إليه، وشُبّه لهم بعض الحواريين بمشيئة الله وقدَره[٧]، فأخذوه فصلبوه، واعتقدوا أنه هو، ﴿ **وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** ﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨] ثم بعد المسيح، عليه السلام بنحو [من][٨] ثلاثمائة سنة، دخل قسطنطين أحد ملوك اليونان ـ فى دين النصرانية، وكان فيلسوفا قبل ذلك. فدخل فى دين النصارى قيل: تقية، وقيل: حيلة ليفسده، فوضعت له الأساقفة منهم قوانين وشريعة وبدعاً أحدثوها، فبنى لهم الكنائس والبيَع الكبار والصغار، والصوامع والهياكل، والمعابد، والقلايات. وانتشر دين النصرانية[٩] فى ذلك الزمان، واشتهر على ما فيه من تبديل وتغيير وتحريف، ووضع وكذب، ومخالفة لدين المسيح. ولم يبق على دين المسيح على الحقيقة منهم إلا القليل من الرهبان، فاتخذوا لهم الصوامع فى البرارى والمهامة والقفار، واستحوذت يدُ النصارى على مملكة الشام والجزيرة وبلاد الروم، وبنى هذا الملك المذكور مدينة قسطنطينية، والقُمَامة، وبيت لحم، وكنائس [بلاد][١٠] بيت المقدس، ومدن حَوْران كبُصرى وغيرها من البلدان بنايات هائلة محكمة، وعبدوا الصليب من حينئذ، وصلوا إلى الشرق، وصوروا الكنائس، وأحلوا لحم الخنزير، وغير ذلك مما أحدثوه من[١١] الفروع فى دينهم والأصول، ووضعوا له الأمانة الحقيرة، التى يسمونها الكبيرة، وصنفوا له القوانين، وبسط هذا يطول.

والغرض أن يدهم لم تزل على هذه البلاد إلى أن انتزعها[١٢] منهم الصحابة، رضى الله عنهم، وكان فتح بيت المقدس على يدى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿ **وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ** ﴾ أى: الحلال، من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعا وشرعا.

وقوله: ﴿ **فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ** ﴾ أى: ما اختلفوا فى شىء من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم، أى: ولم يكن لهم أن يختلفوا، وقد بين الله لهم وأزال عنهم اللبس. وقد ورد فى

(١، ٢) زيادة من ت، أ.
(٣) فى ت، أ: «فى أثنائها».
(٤) فى أ: «حكامهم».
(٥) فى أ: «لعنهم».
(٦) فى ت: «فعثوا».
(٧) فى أ: «وقدرته».
(٨) زيادة من ت، أ.
(٩) فى أ: «النصارى».
(١٠) زيادة من ت، أ.
(١١) فى أ: «فى».
(١٢) فى ت: «انتزعتها».

الحديث: أن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، وأن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، منها واحدة فى الجنة، وثنتان وسبعون فى النار. قيل: من هم[(١)] يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابى».

رواه الحاكم فى مستدركه بهذا اللفظ، وهو فى السنن والمسانيد[(٢)]. ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ أى: يفصل بينهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٩٧) ﴾.

قال قتادة بن دعامة: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لا أشك ولا أسأل»[(٣)].

وكذا قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، والحسن البصرى، وهذا فيه تثبيت[(٤)] للأمة، وإعلام لهم أن صفة نبيهم ﷺ موجودة[(٥)] فى الكتب المتقدمة التى بأيدى أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧]. ثم مع هذا العلم يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم، يلبسون ذلك ويحرفونه ويبدلونه، ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ أى: لا يؤمنون إيمانا ينفعهم، بل حين لا ينفع نفساً إيمانها؛ ولهذا لما دعا موسى، عليه السلام، على فرعون وملئه قال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]، ثم قال تعالى:

﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) ﴾.

---

(١) فى ت: «من هو».

(٢) المستدرك (١/ ١٢٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وجاء من حديث معاوية وأنس وعوف بن مالك قال العراقى: «أسانيدها جياد».

(٣) رواه عبد الرزاق فى تفسيره (١٥/ ٢٠٢) عن معمر عن قتادة به مرسلاً.

(٤) فى ت: «تتبيت».

(٥) فى ت، أ: «صلوات الله وسلامه عليه موجود».

يقول تعالى: فهلا كانت قرية آمنت بكمالها من الأمم السالفة الذين بعثنا إليهم الرسل، بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلا كذبه قومه، أو أكثرهم كما قال تعالى: ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠]، ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]، ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ[١] إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ[٢]﴾ [الزخرف: ٢٣]. وفى الحديث الصحيح: «عرض علىّ الأنبياء، فجعل النبى يمر ومعه الفئام من الناس، والنبى معه الرجل والنبى معه الرجلان، والنبى ليس معه أحد»[٣] ثم ذكر كثرة أتباع موسى، عليه السلام، ثم ذكر كثرة أمته، صلوات الله وسلامه عليه، كثرة سدت الخافقين الشرقى[٤] والغربى.

والغرض أنه لم توجد[٥] قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى، إلا قوم يونس، وهم أهل نِينَوى، وما كان إيمانهم إلا خوفا من وصول العذاب الذى أنذرهم به رسولهم، بعد ما عاينوا أسبابه، وخرج رسولهم من بين أظهرهم، فعندها جأروا إلى الله واستغاثوا به، وتضرعوا[٦] لديه. واستكانوا وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذى أنذرهم به نبيهم. فعندها رحمهم الله، وكشف عنهم العذاب وأخّروا، كما قال تعالى: ﴿ إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ .

واختلف المفسرون: هل كُشف عنهم العذاب الأخروى مع الدنيوى؟ أو إنما كشف عنهم فى الدنيا فقط؟ على قولين، أحدهما: إنما كان ذلك فى الحياة الدنيا، كما هو مقيد فى هذه الآية، والقول الثانى فيهما لقوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ. فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الصافات: ١٤٧، ١٤٨]، فأطلق عليهم الإيمان، والإيمان منقذ من العذاب الأخروى، وهذا هو الظاهر، والله أعلم.

قال قتادة فى تفسير هذه الآية: لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين حضرها العذاب، فتركت، إلا قوم يونس، لما فقدوا نبيهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم، قذف الله فى قلوبهم التوبة، ولبسوا المسُوح، وفرّقوا بين كل بهيمة وولدها ثم عَجّوا إلى الله أربعين ليلة. فلما عرف الله منهم الصدق من قلوبهم، والتوبة والندامة على ما مضى منهم كشف الله عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم ـ قال قتادة: وذكر أن قوم يونس كانوا بنينوى أرض الموصل.

وكذا روى عن ابن مسعود، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وغير واحد من السلف، وكان ابن مسعود يقرؤها: «فَهَلاَّ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ».

---

(١) فى ت: «وما أرسلنا فى قرية من نبى». (٢) فى ت: «مهتدون» وهو خطأ.
(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٧٥٢) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٢٠) من حديث عبد الله بن عباس رضى الله عنه.
(٤) فى ت، أ: «والشرقى». (٥) فى ت: «يوجد». (٦) فى ت، أ: «وضرعوا».

وقال أبو عمران، عن أبى الجَلْد قال: لما نزل بهم[١] العذاب، جعل يدور على رؤوسهم كقطع الليل المظلم، فمشوا إلى رجل من علمائهم فقالوا: علمنا دعاء ندعو به، لعل الله يكشف[٢] عنا العذاب، فقال: قولوا: يا حيّ حين لا حيّ، يا محيى الموتى[٣]، لا إله إلا أنت. قال: فكُشِف عنهم العذاب.

وتمام القصة سيأتى مفصلا فى سورة الصافات إن شاء الله.

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠) ﴾.

يقول تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ ﴾ ـ يا محمد ـ لأذن لأهل الأرض كلّهم فى الإيمان بما جئتهم به، فآمنوا كلهم، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى كما قال: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ ﴾ أى: تلزمهم وتلجئهم ﴿ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أى: ليس ذلك عليك ولا إليك، بل [إلى][٤] الله ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨]، ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ. لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد، الهادى من يشاء، المضل لمن يشاء، لعلمه وحكمته وعدله؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ[٥] إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ ﴾ وهو الخبال[٦] والضلال، ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أى: حججَ الله وأدلته، وهو العادل فى كل ذلك، فى هداية من هدى، وإضلال من ضل.

﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣) ﴾.

---

(١) فى ت: «لما نزل بقوم يونس». (٢) فى ت: «أن يكشف». (٣) فى ت: «يا محيى الموتى يا حى».
(٤) زيادة من ت. (٥) فى ت: «يؤمن» (٦) فى ت: «الجبال».

يرشدُ تعالى عباده إلى التفكر فى آلائه[١] وما خلق فى السموات والأرض من الآيات الباهرة لذوى الألباب، مما فى السموات[٢] من كواكب نيرات، ثوابت وسيارات، والشمس والقمر، والليل والنهار، واختلافهما، وإيلاج أحدهما فى الآخر، حتى يطول هذا ويقصر هذا، ثم يقصر هذا ويطول هذا، وارتفاع السماء واتساعها، وحسنها وزينتها، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع والأزاهير، وصنوف النبات، وما ذرأ فيها من دوابّ مختلفة الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبال وسهول[٣] وقفار وعمران وخراب. وما فى البحر من العجائب والأمواج، وهو مع هذا [مسخر][٤] مذلل للسالكين، يحمل سفنهم، ويجرى بها برفق بتسخير القدير له، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وقوله: ﴿ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ أى: وأى شىء تُجدى الآيات السماوية والأرضية، والرسل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها، عن قوم لايؤمنون، كما قال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ .وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾[يونس: ٩٦، ٩٧].

وقوله: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ﴾أى: فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يامحمد من النقمة والعذاب إلا مثل أيام الله فى الذين خلوا من قبلهم من الأمم المكذبة لرسلهم، ﴿قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي[٥]مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ . ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾أى: ونهلك المكذبين بالرسل، ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[أى] [٦]حقا: أوجبه تعالى على نفسه الكريمة: كقوله﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]، كما جاء فى الصحيحين، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله كتب كتابا فهو عنده فوق العرش: إن رحمتى سبقت [٧] غضبى»[٨].

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧) ﴾.

يقول تعالى لرسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه: قل: يا أيها الناس، إن كنتم فى شك من

(١) فى أ: «إلى التفكر فى الآية لآياته». (٢) فى ت، أ: «السماء». (٣) فى أ: «وهول».
(٤) زيادة من ت، أ. (٥) فى ت: «فإنى». (٦) زيادة من ت، أ.
(٧) فى ت، أ: «تغلب».
(٨) صحيح البخارى برقم (٧٥٥٤) وصحيح مسلم برقم (٢٧٥١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

صحة ماجئتكم من الدين الحنيف، الذى أوحاه الله إلى، فها أنا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله، ولكن أعبد الله وحده لا شريك له، وهو الذى يتوفاكم كما أحياكم، ثم إليه مرجعكم؛ فإن كانت آلهتكم التي تدعون من دون الله [١] حقا، فأنا لا أعبدها[٢]، فادعوها فلتضرنى، فإنها لا تضر ولاتنفع، وإنما الذى بيده الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له، وأمرت أن أكون من المؤمنين.

وقوله: ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أى: أخلص العبادة لله وحده حنيفا، أى: منحرفا عن الشرك؛ ولهذا قال: ﴿ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾، وهو معطوف على قوله: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ ﴾ إلى آخرها، بيان لأن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده لا يشاركه [٣]فى ذلك أحد، فهو الذى يستحق العبادة وحده، لاشريك له.

روى الحافظ ابن عساكر، فى ترجمة صفوان بن سليم، من طريق عبد الله بن وهب: أخبرنى يحيى بن أيوب عن عيسى بن موسى، عن صفوان بن سليم، عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ قال: «اطلبوا الخير دهركم كله، وتعرضوا لنفحات رحمة الله، فإن لله نفحات من رحمته، يصيب بها من يشاء من عباده واسألوه أن يستر عوراتكم، ويؤمن روعاتكم»[٤].

ثم رواه من طريق الليث، عن عيسى بن موسى، عن صفوان، عن رجل من أشجع، عن أبى هريرة مرفوعا؛ بمثله سواء[٥].

وقوله: ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ أى: لمن تاب إليه وتوكل عليه، ولو من أىّ ذنب كان، حتى من الشرك به، فإنه يتوب عليه.

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩) ﴾.

يقول تعالى آمرا لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، أن يخبر الناس أن الذى جاءهم به من عند

---

(١) فى أ: «من دون الله من شىء حقا». (٢) فى ت: «أعبد».

(٣) فى ت، «لايشركه».

(٤) تاريخ دمشق (٨/ ٣٢٨ «المخطوط») ورواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (١١٢١) من طريق عبد الله بن وهب به، ورواه ابن عبد البر فى التمهيد (٥/ ٣٣٩) والبيهقى فى شعب الإيمان برقم (١١٢٢) من طريق عمرو بن الربيع بن طاق عن يحيى بن أيوب به نحوه ورمز له السيوطى بالضعف فى الجامع.

(٥) تاريخ دمشق (٨/ ٣٢٨ «المخطوط») ورواه ابن أبى الدنيا فى الفرج بعد الشدة برقم (٢٧) من طريق رويم بن يزيد عن الليث به مرفوعاً، ورواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (١١٢٣) من طريق يحيى بن بكير عن الليث به مرفوعاً. وقال البيهقى: «هذا هو المحفوظ دون الأول» والأول حديث أنس.

الله هو الحق الذى لامرية فيه ولاشك، فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه، [ومن ضل عنه [١] فإنما يرجع وبال ذلك عليه[٢]][٣].

﴿ **وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ** ﴾ أى: وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين به، وإنما أنا نذير لكم، والهداية على الله تعالى.

وقوله: ﴿ **وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ** ﴾ أى: تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه[٤]، واصبر على مخالفة من خالفك من الناس، ﴿ **حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ** ﴾ أى: يفتح بينك وبينهم، ﴿ **وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ** ﴾ أى: خير الفاتحين بعدله [٥] وحكمته.

---

(١) فى ت: «عن ذلك».
(٢) فى ت: «على نفسه»
(٣) زيادة من ت، أ.
(٤) فى ت، أ: «وأوحاه إليك».
(٥) فى ت، أ: «لعدله».

سورة يونس

مكّيّة وهي مائة وتسع آياتٍ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾

﴿الٓر﴾ بتفخيم الراء المفتوحة. وقُرئ بالإمالة[١] إجراءً للأصليّة مُجرى المنقلِبة مِن الياء.[٢] وقُرئ بينَ بينَ.[٣] وهو: إمّا مَسرود على نمط التعديد بطريق التحدّي، على أحد الوجهين المذكورين في فاتحة سورة البقرة، فلا محلَّ له مِن الإعراب؛ وإمّا اسم للسورة، كما عليه إطباقُ الأكثر،[٤] فمحلّه الرفعُ على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، أي: هذه السورة مُسمّاةٌ بـ﴿الٓر﴾، وهو أظهَر مِن الرفع على الابتداء لعدم سَبْق العِلم بالتسمية بعدُ، فحقُّها الإخبارُ بها لا جعلُها عنوانَ الموضوع لتوقّفه على عِلم المخاطب بالانتساب كما مرّ. والإشارة إليها قبل جَرَيان ذِكرها لِما أنّها باعتبار كونها على جَناح الذِّكر وبصدده صارت في حُكم الحاضر، كما يقال: "هذا ما اشترى فلان".

أو النصبُ[٥] بتقدير فعل لائقٍ بالمقام نحو "اذكُرْ" أو "اقرأ". وكلمةُ ﴿تِلۡكَ﴾ إشارة إليها: أمّا على تقدير كونِ ﴿الٓر﴾ مَسرودًا على نمط التعديدِ فقد نُزِّل حضور مادّتها التي هي الحروف المذكورة منزلةَ ذِكرها فأشيرَ إليها، كأنّه قيل: هذه الكلمات المؤلَّفة مِن جنس هذه الحروف المَبسوطة... إلخ؛ وأمّا على تقدير كونه اسمًا للسورة فقد نُوِّهتْ[٦] بالإشارة إليها بعد تنويهها بتعيين اسمها،

---

١ قرأ بها أبو عمرو وابن عامر والكسائي وحمزة وأبو بكر وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٦٦.

٢ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٨٨.

٣ قرأ بها ورش. النشر لابن الجزري، ٢/٦٧.

٤ انظر تفصيله في الكشّاف للزمخشري، ١/٣٤ (البقرة، ٢/١).

٥ السياق: فمحلُّه الرفع... أو النصب...

٦ وفي هامش م: نوّهه ونوّه به: دعاه ورفعه. قاموس. | انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي، «نوه».

أو الأمرِ بذِكرها أو بقراءتها. وما في اسم الإشارة مِن معنى البُعد للتنبيه على بُعد منزلِتها في الفخامة. ومحلّه الرفع على أنّه مبتدأ خبرُه قوله عزّ وجلّ: ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

وعلى تقدير كون ﴿الٓر﴾ مبتدأً فهو مبتدأ ثانٍ، أو بدل مِن الأوّل، والمعنى: هي آيات مخصوصة منه مترجَمة باسم مستقِلّ، والمقصود ببيان بعضيّتها منه وصفُها بما اشتهر اتّصافُه به مِن النعوت الفاضلة والصفات الكاملة.

والمراد بـ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾: إمّا جميع القرآن العظيم وإن لم يَنزِل الكُلّ حينئذ، إمّا باعتبار تعيُّنه وتحقُّقه في علم الله عزّ وعلا أو في اللوح، أو باعتبار أنّه أُنزل جُملةً إلى السماء الدنيا، كما هو المشهور، فإنّ "فاتحة الكتاب" كانت مسمّاةً بهذا الاسم وبـ"أمّ القرآن" في عهد النبوّة ولمّا يَحصُل المجموع[١] الشخصي إذ ذاك، فلا بدّ مِن ملاحظة كلّ مِن الكتاب والقرآن بأحد الاعتبارات المذكورة.

[٦٤و] وإمّا[٢] جميع القرآن النازل وقتئذ المتفاهَم بين الناسِ إذ ذاك، / فإنّه كما يُطلَق على المجموع الشخصي يُطلَق على مجموعٍ ما نزَل في كلّ عصرٍ، ألا يُرى إلى ما رُوي عن جابر رضي الله عنه أنّه قال: «كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يجمع بين الرجلين مِن قتلى أُحُد في ثوب واحد، ثمّ يقول: أيُّهم أكثرُ أخذًا للقرآن؟ فإذا أشيرَ له إلى أحدهما قدّمه في اللّحد».[٣] فإنّ ما يَفهَمه الناسُ مِن القرآن في ذلك الوقت ويُحافظون على التفاوت في أَخْذه إنّما هو المجموع النازل حينئذ، مِن غير ملاحظةٍ لتحقّق المجموع الشخصي في عِلم الله سبحانه أو في اللوح، ولا لنزوله جملةً إلى السماء الدنيا.

﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ ذي الحِكمة وُصِف به لاشتماله على فنون الحِكَم الباهرة ونُطقِه بها، أو هو مِن باب وَصْف الكلام بصفة صاحبه، أو مِن باب الاستعارة المَكنيّة المبنيّة على تشبيه الكتاب بالحكيم الناطق بالحكمة.

---

١ وفي هامش م: أي مجموع الكتاب والقرآن. «منه».

٢ وفي هامش م: عطفٌ على قوله: إمّا جميع القرآن العظيم. «منه».

٣ صحيح البخاري، ٩١/٢ (١٣٤٣)؛ سنن ابن ماجه، ٤٧٧/٢ (١٥١٤)؛ سنن النسائي، ٦٢/٤ (١٩٥٥).

هذا وقد جُعل ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ عبارةً عن نفس السورة، وكلمةُ ﴿تِلْكَ﴾ إشارةٌ إلى ما في ضِمنها مِن الآي، فإنّها في حُكم الحاضر، لاسيّما بعد ذِكر ما يتضمَّنها مِن السورة عند بيان اسمِها، أو الأمرِ بذِكرها أو بقراءتها، وينبغي أن يكون المشار إليه حينئذ كلَّ واحدةٍ منها لا جميعَها مِن حيث هو جميع؛ لأنّه عينُ السورة، فلا يكون للإضافة وَجْه ولا لتخصيص الوصف بالمضاف إليه حِكمة، فلا يتأتّى ما قُصد مِن مدح المضافِ بما للمضاف إليه مِن صفات الكمال، ولأنّ في بيان اتِّصاف كلّ منها[1] بالكمال مِن المبالغة ما ليس في بيان اتّصافِ الكلّ بذلك.

والمتبادَر مِن ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ عند الإطلاق وإن كان كلُّه بأحد الوجهين[2] المذكورين، لكنّ صحّة إطلاقه على بعضه أيضًا ممّا لا ريب فيها. والمعهود المشهور وإن كان اتّصافُ الكلّ بأحد الاعتبارين بما ذُكر مِن نعوت الكمالِ إلّا أنّ شُهرة اتصافِ كلّ سورة منه بما اتَّصف به / الكلُّ ممّا لا يُنكَر، وعليه يدور تحقُّق مَدْح السورة بكونها بعضًا مِن القرآن الكريم، إذ لولا أنّ بعضه منعوت بنعت كلّه داخل تحت حُكمه لَما تسنّى ذلك. وفيه ما لا يخفى مِن التكلّف والتعسّف. [٦٤ظ]

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ الهمزة لإنكار تعجُّبهم ولتعجُّب السامعين منه لكونه في غير محلّه. والمرادُ بـ"الناس": كفّار مكّةَ. وإنّما عُبّر عنهم باسم الجنس مِن غير تعرُّض لكُفرهم مع أنّه المدارُ لتعجُّبهم، كما تُعُرِّض له في قوله عزّ وجلّ: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾... إلخ، لتحقيق ما[3] فيه الشركةُ بينهم وبين رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وتعيينِ مدار التعجّب في زعمهم، ثمّ تبيينِ خطائهم وإظهارِ بطلان زعمهم بإيراد الإنكار والتعجيب. واللام متعلِّقة بمحذوف وقع حالًا مِن ﴿عَجَبًا﴾.

---

[1] س: منهما.

[2] وفي هامش م: المجموع الشخصي ومجموع ما نزل في كلّ عصر. «منه».

[3] وفي هامش م: ولو تعرّض لوصف الكفر لاختلّ المرام. «منه».

وقيل: بـ﴿عَجَبًا﴾ على التوسّع المشهورِ في الظروف. وقيل: المصدر إذا كان بمعنى اسمِ الفاعل أو اسمِ المفعول جاز تقديم معموله عليه. وقيل: متعلِّقة بـ﴿كَانَ﴾.[١] وهو مبنيٌّ على دلالة "كان" الناقصةِ على الحدث.

﴿أَنْ أَوْحَيْنَا﴾ اسم ﴿كَانَ﴾ قُدِّم عليه خبرُها اهتمامًا بشأنه لكونه مدارًا للإنكار والتعجيب وتشويقًا إلى المؤخَّر، ولأنّ في الاسم ضربَ تفصيل، ففي مراعاة الأصل نوعُ إخلال بتجاوب أطرافِ الكلام. وقُرئ برفع "عَجَبٌ"،[٢] على أنّه الاسم وهو نكرة، والخبرُ ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا﴾ وهو مَعرِفة، لأنّ "أن" مع الفعل في تأويل المصدر المضافِ إلى المَعرفة البتّةَ. والمختار حينئذ أن تُجعَل ﴿كَانَ﴾ تامّةً،[٣] و﴿أَنْ أَوْحَيْنَا﴾ متعلِّقًا بـ"عَجَبٌ" على حَذْف حرف التعليل، أي: أَحَدَث للناس عجبٌ لِأن أوحينا أو مِن أن أوحينا؟[٤] أو بدلًا مِن "عَجَبٌ"،[٥] لكن لا على توجيه الإنكار والتعجيب إلى حدوثه؛ بل إلى كونه عَجَبًا، فإنّ كون الإبدال في حُكم تنحية المبدَل منه ليس معناه إهدارَه بالمرّة. وإنّما قيل: "للناس" لا "عند الناس" للدلالة / على أنّهم [٦٥و]
اتَّخذوه أُعجوبةً لهم. وفيه مِن زيادة تقبيح حالهم ما لا يخفى.

﴿إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: إلى بشر مِن جنسهم، كقولهم: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء، ٩٤/١٧]، أو مِن أفنائهم مِن حيث المالُ لا مِن عُظمائهم كقولهم: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ[٦] هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف، ٣١/٤٣]. وكِلا الوجهين مِن ظهور البطلانِ بحيث لا مَزيد عليه:

أمّا **الأوّل** فلأنّ بَعْث المَلَك إنّما يكون عند كون المبعوث إليهم ملائكةً، كما قال سبحانه: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء، ٩٥/١٧]، وأمّا عامّة البشر فهم بمَعزِل مِن استحقاق المفاوضة المَلَكيّة، كيف لا، وهي منوطة بالتناسُب والتجانُس، فبَعْث المَلَك إليهم

---

[١] الأقوال الثلاثة في التبيان للعُكبري، ٦٦٤/٢؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٤٤/٦؛ واللباب لابن عادل، ٢٥٣/١٠-٢٥٤.

[٢] قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٣.

[٣] رجّح ذلك الزمخشري في الكشّاف، ٢٤٤/٢.

[٤] انظر: الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٤٥/٦؛ واللباب لابن عادل، ٢٥٤/١٠.

[٥] الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٢٤٤/٢.

[٦] م: أُنزل.

مزاحِم للحِكمة التي عليها يدور فَلَك التكوين والتشريع، وإنّما الذي تقتضيه الحكمة أن يُبعَث المَلَك مِن بينهم إلى الخواصّ المختصّين بالنفوس الزكيّة المؤيَّدين بالقوّة القدسيّة المتعلِّقين بكِلا العالَمين الروحاني والجِسماني ليتلقَّوا مِن جانب ويُلْقوا إلى جانب.

وأمّا الثاني فلِما أنّ مَناط الاصطفاء للنبوّة والرسالة هو التقدّم في الاتّصاف بما ذُكر مِن النعوت الجميلة والصفات الجليلة، والسبقُ في إحراز الفضائل العليّة وحيازةِ المَلَكات السنيّة جِبِلَّة واكتسابًا، ولا ريب لأحد منهم في أنّه صلّى الله عليه وسلّم في ذلك الشأن في غاية الغايات القاصية ونهايةِ النهايات النائية. وأمّا التقدّم في الرِّياسة الدنيويّة والسبقُ في نيل الحظوظِ الدنيّة فلا دخلَ له في ذلك قطعًا؛ بل له إخلال به غالبًا، قال عليه السلام: «لو كانت الدنيا تزِن عند الله جناحَ بعوضة ما سقى الكافرَ منها شربة ماءٍ».[1]

﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ ﴿أَنْ﴾: مصدريّة لجواز كون صلتِها أمرًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ [يونس، ١٠/١٠٥]، وذلك لأنّ الخبر والإنشاء في الدلالة على المصدر سِيّانِ، فساغ وقوع الأمر والنهي صلة حسبَ / وقوعِ الفعل، فيُجرَّد [٦٥ظ] عند ذلك عن معنى الأمر والنهي نحوَ تجرُّد الصلة الفعليّة عن معنى المُضيّ والاستقبال. ووجوبُ كون الصلة في الموصول الاسمي خبريةً إنّما هو للتوصّل بها إلى وَصْف المعارف بالجمل، لا لقصور في دلالة الإنشاء على المصدر.

أو مفسِّرة؛[2] إذ الإيحاء فيه معنى القول.[3] وقد جُوِّز كونها مخفَّفة مِن المثقَّلة، على حذف ضمير الشأن والقول مِن الخبر، والمعنى: أنّ الشأن قولنا: أنذِر الناسَ.[4] والمراد به جميعُ الناسِ كافةً، لا ما أُريد بالأوّل،[5] وهو النكتة في إيثار الإظهار على الإضمار. وكونُ الثاني عينَ الأوّل عند إعادة المعرفة ليس على الإطلاق.

---

[1] بلفظ قريب في المُصنَّف لابن أبي شيبة، ٧/٧٨ (٣٤٣٢٤)؛ وسنن ابن ماجه، ٥/٢٣٠ (٤١١٠)؛ والمعجم الكبير للطبراني، ٦/١٥٧ (٥٨٤٠).

[2] السياق: ﴿أَنْ﴾: مصدريّة... أو مُفسِّرة...

[3] انظر الوجهين في التبيان للعكبري، ٢/٦٦٤؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٦/١٤٥؛ واللباب لابن عادل، ١٠/٢٥٥.

[4] جوّز ذلك الزمخشري في الكشّاف، ٢/٢٤٤-٢٤٥.

[5] مضى أنّ المراد بلفظ "الناس" الأوّل: كفّار مكّةَ.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بما أوحيناه وصدّقوه ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي: بأنّ لهم ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ أي: سابقةً ومنزلةً رفيعة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾. وإنّما عُبِّر عنها بها إذ بها يحصُل السبق والوصول إلى المَنازل الرفيعة، كما يُعبَّر عن النعمة باليد لأنّها تُعطى بها. وقيل: مقامَ صدقٍ.[1] والوجه أنّ الوصول إلى المقام إنّما يحصُل بالقَدَم، وإضافتُها إلى الصدق للدلالة على تحقّقها وثباتِها، وللتنبيه على أنّ مدار نَيل ما نالوه مِن المَراتب العليّةِ هو صدقُهم، فإنّ التصديق لا ينفكّ عن الصدق.

﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ هم المتعجِّبون. وإيرادهم ههنا بعنوان الكفر ممّا لا حاجة إلى ذِكر سببه. وتركُ العاطِف لجرَيانه مَجرى البيان للجملة التي دخل عليها همزة الإنكار، أو لكونه استئنافًا مبنيًا على السؤال، كأنّه قيل: ماذا صنعوا بعد التعجّب هل بقُوا على التردّد والاستبعاد أو قطعوا فيه بشيء؟ فقيل: قال: الكافرون على طريقة التوكيد: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ يَعنُون به ما أُوحيَ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مِن القرآن الحكيم المنطوي على الإنذار والتبشير.

﴿لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر. وقُرئ: "لَسَاحِرٌ"،[2] على أنّ الإشارةَ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وقُرئ: "مَا هَذا إلّا سِحرٌ مبينٌ".[3] وهذا اعتراف مِن حيث لا يَشعرون بأنّ ما عاينوه / خارجٌ عن طَوْق البشر، نازلٌ مِن جَناب خلّاق القُوى والقُدَر، ولكنّهم يُسمّونه بما قالوا تماديًا في العِناد، كما هو دَيدَن المُكابِر اللَّجوج ودأبُ المُفحَم المَحجوج. [٦٦و]

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ كلام مستأنَف سِيق لإظهار بُطلانِ تعجُّبهم المذكور، وما بنَوا عليه

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٤٥.

٢ كذا وقع في الأصل. والظاهر أنّه سهو؛ لأنّ ما ذكره هو قراءة عاصم التي يجعلها المُصنِّف أصلًا فيما يسوقه مِن التفسير ثمّ يشير إلى خلافه. وبها قرأ أيضًا ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف. وقرأ الباقون "لَسِحْرٌ"، وهذه القراءة هي المرادة ههنا، بحسب المعتاد مِن المُصنِّف. انظر تخريج القراءة في النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٦.

٣ قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن مسعود. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٤٨.

مِن المقالة الباطلة غِبَّ الإشارةِ إليه بالإنكار والتعجيب، وحُقِّق فيه حقّيّة ما تعجَّبوا منه وصحّة ما أنكروه بالتنبيه الإجمالي على بعض ما يدلّ عليها مِن شئون الخلق والتقدير وأحوالِ التكوين والتدبيرِ، ويُرشدهم إلى معرفتها بأدنى تذكير لاعترافهم به مِن غير نكير، لقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ[1] قُلۡ أَفَلَا[2] تَتَّقُونَ[3]﴾ [المؤمنون، ٢٣/٨٦-٨٧]، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [يونس، ١٠/٣١] إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس، ١٠/٣١].

أي: إنّ ربّكم ومالكَ أمرِكم الذي تتعجّبون مِن أن يُرسِل إليكم رجلًا منكم بالإنذار والتبشير وتَعدُّون ما أوحيَ إليه مِن الكتاب الحكيم سِحرًا هو ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ وما فيها مِن أصول الكائنات ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: في ستّة أوقات، أو في مِقدار ستّة أيّام معهودة. فإنّ نفس اليوم الذي هو عبارة عن زمان كون الشمس فوق الأرض ممّا لا يُتصوَّر تحقُّقه حين لا أرضَ ولا سماءَ.

وفي خلقها مدرَّجًا مع القدرة التامّة على إبداعها دفعةً دليلٌ على الاختيار، واعتبارٌ للنُّظّار، وحثٌّ لهم على التأنّي في الأحوال والأطوار. وأمّا تخصيص ذلك بالعدد المعيَّن فأمر قد استأثر بعِلم ما يَستدعيه علّامُ الغيوب، جلّت قُدرته ودقّت حِكمته. وإيثارُ صيغة الجمع في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لِما هو المشهور مِن الإيذان بأنّها أجرام مختلِفةُ الطباع متباينةُ الآثار والأحكام.

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ العرش: هو الجسم المحيط بسائر الأجسام، سُمّي به لارتفاعه، أو للتشبيه بسَرير المَلِك، فإنّ الأوامر والتدابير منه تَنزِل. وقيل: هو المُلك.[4] ومعنى استوائِه سبحانه عليه: استيلاؤه عليه، أو استواء أمره. وعن أصحابنا أنّ الاستواء على العرش صفة له سبحانه بلا كيف. والمعنى: أنّه سبحانه استوى على العرش على الوجه الذي عناه منزَّهًا عن التمكّن والاستقرار. وهذا بيان لجلالة مُلكه وسلطانِه بعد بيان عظمة شأنه وسَعة قُدرتِه بما مرّ مِن خَلْق هاتيك الأجرام العظامِ.

---

١ م: الله.

٢ م: فأنّى.

٣ م: تؤفكون.

٤ القول في اللباب لابن عادل، ١٠/٢٦٠.

﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ التدبير: النظر في أدبار الأمور وعواقبها لتقعَ على الوجه المحمود، والمراد ههنا: التقدير على الوجه الأتمّ الأكمل. والمراد بـ﴿ٱلۡأَمۡرَ﴾: أمرُ مَلكوت السماوات والأرضِ والعرش، وغيرُ ذلك / مِن الجزئيّات الحادثةِ [٦٦ظ] شيئًا فشيئًا على أطوار شتّى وأنحاءٍ لا تكاد تحصى مِن المناسبات والمبايَنات في الذوات والصفات والأزمنة والأوقات، أي: يُقدِّر ما ذُكر مِن أمر الكائناتِ الذي ما تعجَّبوا منه مِن أمر البعث والوحي فردٌ مِن جُملته وشُعبةٌ مِن دَوحته، ويُهيّئ أسباب كلّ منها حدوثًا وبقاءً في أوقاتها المعيَّنة ويُرتِّب مصالحَها على الوجه الفائق والنمط اللائق حسبما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المَصلحة.

والجملة: في محلّ النصب على أنّها حال مِن ضمير ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾، وقد جُوِّز كونه خبرًا ثانيًا لـ﴿إِنَّ﴾، أو مستأنَفةٌ[١] لا محلّ لها مِن الإعراب،[٢] مَبنيّة على سؤال نشأ مِن ذكر الاستواءِ على العرش المنبئ عن إجراء أحكامِ الملك. وعلى كلّ حال فإيثار صيغةِ المضارعِ للدلالة على تجدّد التدبير واستمراره.

وقوله عزّ وعلا: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ﴾ بيان لاستبداده سبحانه في التقدير والتدبير ونفيٌ للشفاعة على أبلغ الوجوه، فإنّ نفيَ جميع أفراد الشفيع بـ﴿مِن﴾ الاستغراقيّة يستلزم نفيَ الشفاعة على أتمّ الوجوه، كما في قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾[٣] [هود، ٤٣/١١]. وهذا بعد قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ جارٍ مَجرى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ﴾ [المؤمنون، ٨٨/٢٣]، عقيب قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ [المؤمنون، ٨٨/٢٣].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمّ الأوقات، أي: ما مِن شفيع يشفَع لأحد في وقت مِن الأوقات إلّا بعد إذنه المَبني على الحِكمة الباهرة، وذلك عند كون الشفيع مِن المصطَفين الأخيار والمَشفوعِ له ممّن يليق بالشفاعة، كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ

---

١ السياق: والجملة في محلّ... أو مستأنفة...

٢ الوجوه الثلاثة في التبيان للعكبري، ٦٦٤/٢؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٤٥/٦؛ واللباب لابن عادل، ٢٦٠/١٠.

٣ وفي هامش م: فإنّ نفي العاصم مُستلزِم لنفي العِصمة، كما في قولهم: "ليس فيه داعٍ ولا مُجيبٌ"، فإنّه يدلّ على نفي الدعاء والإجابة على أبلغ وجه. «منه».

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ، ٣٨/٧٨]. وفيه مِن الدلالة على عظمة جلاله سبحانه ما لا يخفى.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إشارة إلى المعلوم بتلك العظمة، أي: ذلكم العظيم الشأن المنعوت بما ذُكر مِن نعوت الكمال التي عليها يدور استحقاق الألوهيّة ﴿ٱللَّهُ﴾. وقوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ﴾ بيان له، أو بدل منه، أو خبر ثانٍ لاسم الإشارةِ. / وهذا [٦٧و] بعد بيان أنّ ربّهم الله الذي خلَق السماواتِ والأرضَ... إلخ، لزيادة التقرير والمبالغة في التذكير، ولتفريع الأمر بالعبادة عليه بقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ أي: وحدَه مِن غير أن تُشركوا به شيئًا مِن مَلَك أُو نبيّ، فضلًا عن جماد لا يُبصر ولا يَسمع ولا يَضرّ ولا ينفَع، وآمِنوا بما أنزله إليكم. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تعلمون أنّ الأمر كما فُصِل، فلا تتذكّرون ذلك حتّى تقِفوا على فساد ما أنتم عليه فترتدِعوا عنه.[١]

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝٤﴾

﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى أحد سواه استقلالًا أو اشتراكًا. ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: بالبعث كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾، فإنّه حال مِن الضمير المجرورِ لكونه فاعلًا في المعنى، أي: إليه رُجوعكم مجتمِعين. والجملة كالتعليل لوجوب العبادة. ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكّد لنفسه، لأنّ قوله عزّ وجلّ: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ وَعْد منه سبحانه بالبعث، أو لفعل مقدَّر،[٢] أي: وعَدَ اللهُ. وأيًّا ما كان فهو دليل على أنّ المراد بالمَرجِع هو الرجوع بالبعث، لأنّ ما بالموت بمَعزِل مِن الوعد كما أنّه بمَعزِل مِن الاجتماع. وقُرئ بصيغة الفعل.[٣] ﴿حَقًّا﴾ مصدر آخرُ مؤكِّد لِما دلّ عليه الأوّل.

---

١ وفي هامش م: بتوجيه الإنكار إلى المعطوف فقط، فإنّ عدم التذكّر بعد العِلم مُستنكَر جدًّا، ويجوز أن يُقدَّر المعطوف عليه منفيًّا، ويُوجَّه الإنكار إليهما معًا، أي: ألا تتأمّلون فلا تتذكّرون. «منه».

٢ السياق: مصدر مؤكِّد لنفسه... أو لفعل مُقدَّر...

٣ قراءة شاذّة، مَرويّة عن السُّلَمي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦١.

﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ﴾ وقُرئ: "يُبدِئُ".[١] ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ وهو استئناف عُلِّل به وجوب المَرجِع إليه سبحانه وتعالى، فإنّ غاية البدء والإعادة هو جزاء المكلَّفين بأعمالهم حسنة أو سيّئة. وقُرئ بالفتح،[٢] أي: لأنّه. ويجوز كونه منصوبًا بما نُصب ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾، أي: وعَد الله وَعدًا بَدْءَ الخلقِ ثمّ إعادتَه؛ ومرفوعًا بما نَصب ﴿حَقًّا﴾، أي: حقّ حقًّا بدءُ الخلقِ... إلخ.

﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل، وهو حال مِن فاعل "يَجزي"، أي: ملتبِسًا بالعدل، أو متعلِّق بـ"يَجزي"، أي: ليجزيَهم بقسطه ويُوفّيَهم أجورَهم، وإنّما أُجمِل ذلك إيذانًا بأنّه لا يفي به الحصر، أو بقسطهم وعدلِهم عند إيمانِهم ومباشرتِهم للأعمال الصالحة. وهو الأنسبُ بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾، فإنّ معناه: ويجزي الذين كفروا بسبب كُفرهم.

وتكرير الإسناد بجَعْل الجملة الظرفيّة خبرًا للموصول لتقوية الحُكم. والجمع بين صيغتَي الماضي والمستقبل للدلالة على مواظبتهم على الكفر. وتغيير النظم الكريم للإيذان بكمال استحقاقهم للعقاب، وأنّ التعذيب بمَعزِل عن الانتظام في سِلك العِلّة الغائيّة للخَلْق بدءًا وإعادةً، وإنّما يَحيق ذلك بالكَفَرة على موجَب سوء اختيارهم، وأمّا المقصود / الأصليُّ مِن ذلك[٣] فهو الإثابة. [٦٧ظ]

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ تنبيه على الاستدلال على وجوده تعالى ووحدته وعِلمه وقُدرته وحِكمته بآثار صُنعه في النيّرين، بعد التنبيه على الاستدلال

---

١ قراءة شاذّة، مَرويّة عن طلحة بن مُصرِّف والزُّهري. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦١؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٤٩.

٢ قراءة شاذّة، مَرويّة عن يزيد بن القعقاع وسهل بن شعيب وطلحة وأبي جعفر والأعمش وشيبة والزعفراني. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٤؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٤٨.

٣ وفي هامش م: أي: البدء والإعادة. «منه».

بما مرّ مِن إبداع السماوات والأرض والاستواءِ على العرش وغير ذلك، وبيانٌ لبعض أفراد التدبير الذي أشيرَ إليه إشارة إجمالية، وإرشادٌ إلى أنّه حيث دُبِّرت أمورهم المتعلِّقة بمَعاشهم هذا التدبيرَ البديعَ فلَأن يُدبَّر مصالحُهم المتعلِّقة بالمَعاد بإرسال الرسول وإنزال الكتاب وتبيينِ طرائق الهدى وتعيينِ مَهاوي الردى أَولى وأحرى.

و"الجَعْل": إن جُعل بمعنى الإنشاء والإبداعِ فـ﴿ضِيَآءً﴾ حالٌ مِن مفعوله، أي: خلقها حالَ كونها ذات ضياء على حذف المضاف، أو ضياءً مَحضًا للمبالغة؛ وإن جُعل بمعنى التصيير فهو مفعوله الثاني، أي: جعلها ضياءً على أحد الوجهين المذكورين، لكن لا بعد أن كانت خاليةً عن تلك الحالة؛ بل أبدعها كذلك، كما في قولهم: "ضيِّقْ فمَ الرَّكيّة ووسِّعْ أسفلها".[١] و"الضياء" مصدر كـ"قِيام"، أو جمعُ "ضوءٍ"، كـ"سِياط" و"سَوْط"، وياؤه منقلِبة مِن الواو لانكسار ما قبلها. وقُرئ: "ضِئَاءً"،[٢] بهمزتين بينهما ألف بتقديم اللام على العين.

﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ الكلام فيه كالكلام في الشمس. والضياء أقوى مِن النور. وقيل: ما بالذات ضوءٌ وما بالعرَض نور.[٣] ففيه إشعار بأنّ نُورَه مستفاد مِن الشمس. ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾ أي: قدَّر له وهيّأ ﴿مَنَازِلَ﴾، أو قدَّر مَسيرَه في منازلَ، أو قدَّره ذا منازلَ، على تضمين التقدير معنى التصيير. وتخصيص القمر بهذا[٤] التقدير: لسرعة سَيره، ومعاينة مَنازِله، وتعلُّقِ أحكام الشريعة به، وكونه عمدةً في تواريخ العرب. وقد جُعل الضمير / لكلّ منهما. [٦٨و]

وهي ثمانية وعشرون مَنزلًا، ينزِل القمر كلّ ليلةٍ في واحد منها لا يتخطّاه ولا يتقاصَر عنه على تقدير مستوٍ لا يتفاوت، يسير فيها مِن ليلة المستهلّ إلى الثامنة والعشرين، فإذا كان في آخر مَنازِله دقّ واستقوس، ثمّ يَستسرّ ليلتين أو ليلةً إذا نقص الشهر.

---

[١] مثّل به الزمخشري في الكشّاف، ١١٧/٤ (غافر، ١٢/٤٠)، وقال بعده: «وليس ثمّة نقل... مِن ضِيق إلى سَعة ولا مِن سَعة إلى ضِيق، وإنّما أردتَ الإنشاء على تلك الصفات».

[٢] قرأ بها ابن كثير في رواية قنبل عنه. النشر لابن الجزري، ٤٠٦/١.

[٣] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٠/٢.

[٤] وفي هامش م: الباء داخلة على المقصور. «منه».

ويكون مقام الشمس في كلّ مَنزلةٍ منها ثلاثةَ عشرَ يومًا. وهذه المنازل هي مواقع النجوم التي نسَبت إليها العربُ الأنواءَ المستمطَرة وهي: الشرطان، والبُطَين، والثُّريا، الدَّبَرانُ، الهَقعَة، الهَنعَة، الذِّراع، النثرة، الطوف،[١] الجَبهة، الزُّبرَة، الصَّرفة، العَوّاء، السِّمَاك، الغَفْر، الزُّباني، الإكليل، القَلْب، الشَّولة، النعائم، البلدة، سعدُ الذابح، سعدُ بُلَع، سعدُ السُّعودِ، سعدُ الأخبية، فرغُ الدَّلو المقدَّم، فرغُ الدَّلو المؤخَّر، الرِّشاء، وهو بطن الحوت.[٢]

﴿لِتَعۡلَمُواْ﴾ إمّا بتعاقب الليل والنهار المَنوطَين بطلوع الشمس وغروبها أو باعتبار نزول كلّ منهما في تلك المنازل.[٣] ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾ التي يتعلَّق بها غرض علميٌّ لإقامة مصالحِكم الدينيّة والدنيويّة. ﴿وَٱلۡحِسَابَ﴾ أي: حسابَ الأوقات[٤] مِن الأشهر والأيّام والليالي وغير ذلك ممّا نِيط به شيء مِن المصالح المذكورة. وتخصيص العدد بالسنين والحساب بالأوقات لِما أنّه لم يُعتبر في السنين المَعدودة معنى مغاير لمَراتب الأعداد، كما اعتُبر في الأوقات المَحسوبة.

وتحقيقه أنّ "الحساب" إحصاءُ ما له كمّيّة انفصاليّة بتكرير أمثاله مِن حيث يتحصّل بطائفة معيَّنة منها حدٌّ معيَّنٌ له اسم خاصّ وحُكم مستقِلّ. كالسَّنة المتحصِّلة مِن اثني عشرَ شهرًا، قد تحصَّل كلّ مِن ذلك مِن ثلاثين يومًا[٥] قد تحصَّل كلّ مِن ذلك مِن أربع وعشرين ساعةً مثلًا. و"العدّ" مجرَّد إحصائه بتكرير أمثاله مِن غير اعتبار أن يتحصَّل بذلك شيء كذلك.

ولمّا لم يُعتَبر في السنين المَعدودةِ تحصُّل حدّ معيَّن له اسم خاصّ غيرُ أسامي مراتبِ الأعدادِ وحُكم مستقِلٌّ أُضيف[٦] إليها العدد. وتحصُّلُ مراتب الأعداد مِن العشَرات / والمئات والألوف اعتباري لا يُجدي في تحصُّل المَعدود نفعًا. [٦٨ظ]

---

[١] كذا وقع في الأصل. وصوابه: الطرف. انظر: الأنواء لابن قتيبة، ص ٥٥.

[٢] انظر تفصيل الكلام على منازل القمر في الأنواء لابن قتيبة، ص ٢٠-٨٩.

[٣] وفي هامش م: ثمّ الظاهر أنّ المراد: البروج، إذ بها وبقطعها يُعلَم عدد السنين والحساب، بقرانه مع الشمس وظهور بعده، وذلك لأنّ المُعتبَر مِن الشَّرع السنَة القمريّة والشهر الهلالي. تفتازاني. | والكلام في حاشية التفتازاني على الكشّاف، ٣٩٧ظ.

[٤] وفي هامش م: على أنّ الألف واللام عِوض عن المضاف إليه. | عُلِّق تحتها «يحـ».

[٥] وفي هامش م: فإنّ الليلة محسوبة مِن يومها. «منه».

[٦] وفي هامش م: جواب لمّا. «منه».

وحيث اعتُبر في الأوقات المَحسوبة تحصُّلُ ما ذُكر مِن المراتب التي لها أسامٍ خاصّةٌ وأحكام مستقلّة عُلِّق بها الحساب المنبئُ عن ذلك.

والسَّنةُ مِن حيث تحقّقُها في نفسها ممّا يتعلّق به الحساب، وإنّما الذي يتعلّق به العدّ طائفة منها، وتعلُّقه في ضمن ذلك بكلّ واحدةٍ مِن تلك الطائفة ليس مِن الحيثيّة المذكورة، أعني: حيثيّةَ تحصُّلها مِن عدّة أشهُر قد تحصَّل كلُّ واحدٍ منها مِن عدّة أيّام قد حصل كلّ منها بطائفة مِن الساعات، فإنّ ذلك وظيفة الحساب؛ بل مِن حيث إنّها فردٌ مِن تلك الطائفة المعدودة مِن غير أن يُعتَبر معها شيء غير ذلك. وتقديم العدد على الحساب مع أنّ الترتيب بين متعلَّقيهما وُجودًا وعِلمًا على العكس، لأنّ العِلم المتعلِّق بعدد السنين عِلمٌ إجمالي بما تعلَّق به الحسابُ تفصيلًا وإن لم يتَّحِد الجهةُ، أو لأنّ العدد مِن حيث إنّه لم يُعتَبر فيه تحصّلُ أمرٍ آخرَ -حسبما حُقِّق آنفًا- نازلٍ مِن الحساب الذي اعتُبر فيه ذلك منزلةَ البسيط مِن المركَّب.

﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن الشمس والقمر على ما حُكي مِن الأحوال. وفيه إيذان بأنّ معنى جعلهما على تلك الأحوال والهيئات ليس إلّا خلقَهما كذلك كما أشيرَ إليه، ولا يَقدَح في ذلك أنّ استفادة القمر النورَ مِن الشمس أمرٌ حادث، فإنّ المراد بجَعْله نورًا إنّما هو جَعْله بحيث يتَّصف بالنور عند وجودِ شرائطِه، لا اتّصافُه به بالفعل.

﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمّ أحوالِ الفاعل أو المفعول، أي: ما خلق ذلك ملتبِسًا بشيء مِن الأشياء إلّا ملتبِسًا بالحقّ مراعيًا[١] لمقتضى الحِكمة البالغةِ أو مراعًى[٢] فيه ذلك، وهو ما أشيرَ إليه إجمالًا مِن العِلم بأحوال السنين والأوقات المَنوط به أمورُ معاملاتهم وعباداتهم.

﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: الآياتِ التكوينيّةَ المذكورة، أو جميعَ الآيات، فيَدخل فيها الآيات المذكورة / دُخولًا أوّليًا، أو يُفصِّل الآياتِ التنزيليّةَ المنبِّهة على ذلك. [٦٩و]

---

[١] وفي هامش م: على تقدير كونه حالًا مِن الفاعل. «منه».

[٢] وفي هامش م: على تقدير كونه حالًا مِن المفعول. «منه».

وقُرئ: بنون العظمة.[١] ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الحكمةَ في إبداع الكائنات فيستدلّون بذلك على شئون مُبدعِها جلّ وعلا، أو يعلمون ما في تضاعيف الآيات المنزلة فيُؤمنون بها. وتخصيص التفصيلِ بهم لأنّهم المنتفِعون به.

﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦﴾

﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ تنبيه آخرُ إجمالي على ما ذُكر، أي: في تعاقبهما وكون كلّ منهما خِلْفةً للآخر بحسَب طلوع الشمس وغروبها التابعين لحركات السماوات وسكونِ الأرض، أو في تفاوُتهما في أنفسِهما بازدياد كلّ منهما بانتقاص الآخر وانتقاصِه بازدياده باختلاف حال الشمس بالنسبة إلينا قُربًا وبُعدًا بحسَب الأزمنة، أو في اختلافهما وتفاوتِهما بحسب الأمكنة؛ إمّا في الطول والقِصَر، فإنّ البلاد القريبة مِن القُطب الشمالي أيّامُها الصيفيّة أطول ولياليها الصيفيّةُ أقصرُ مِن أيّام البلاد البعيدةِ منه ولياليها؛ وإمّا في أنفسهما[٢] فإنّ كُرَيّة الأرضِ تقتضي أن يكون بعض الأوقات في بعض الأماكن ليلًا وفي مقابله نهارًا.

﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مِن أصناف المَصنوعات ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ عظيمةً أو كثيرةً دالّةً على وجود الصانع تعالى ووَحدته وكمالِ علمِه وقُدرتِه وبالِغ حكمته التي مِن جملة مقتضياتِها ما أنكروه مِن إرسال الرسول وإنزال الكتاب والبعثِ والجزاء.

﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ خصّهم بذلك لأنّ الداعيَ إلى النظر والتدبّر إنّما هو تقوى الله تعالى والحذرُ مِن العاقبة، فهُمْ الواقفون على أنّ جميع المخلوقات آياتٌ دون غيرهم. ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف، ١٢/١٠٥].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ بيان لمآل أمر مَن كفَر بالبعث وأعرَض عن البيّنات

---

[١] قرأ بها نافع وعاصم في رواية أبي بكر وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٢.

[٢] ط س: أنفسها.

الدالّة عليه بعد تحقيق أنّ مَرجِع الكلّ إليه تعالى وأنّه يُعيدهم بعد بدئِهم للجزاء ثوابًا وعقابًا وتفصيلِ بعض الآياتِ الشاهدة بذلك. والمراد بلقائه تعالى إمّا الرجوع إليه تعالى بالبعث، أو لقاءُ الحساب كما في قوله عزّ وعلا: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة، ٦٩/٢٠]. وأيًّا ما كان ففيه مع الالتفات إلى ضمير الجلالة مِن تهويل الأمر ما لا يخفى.

والمراد بعدم الرجاء عدمُ التوقّع مطلقًا المنتظِم لعدم الأملِ وعدمِ الخوف، فإنّ عدمهما لا يستدعي عدم اعتقاد وقوع المأمول والمَخوف، أي: لا يتوقّعون الرجوع إلينا أو لقاء حسابنا المؤدّي إمّا إلى حُسن الثواب أو إلى سُوء العذاب. فلا يأمُلون الأوّل، وإليه أشيرَ بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، فإنّه منبئ عن إيثار الأدنى الخسيس على الأعلى النفيس، كقوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [التوبة، ٩/٣٨] ولا يخافون الثانيَ وإليه أشيرَ بقوله تعالى: ﴿وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾ أي: سكَنوا فيها سكونَ مَن لا بَراحَ له منها آمنين مِن اعتراء المزعِجات غيرَ مخطِرين ببالهم ما يَسوءهم مِن عذابنا.

وقيل: المراد بالرجاء معناه الحقيقيُّ، وباللقاء حسنُ اللقاء.[1] أي: لا يأمُلون حُسن لقائنا بالبعث والإحياء بالحياة الأبديّة، ورضُوا بدلًا منها وممّا فيها مِن فنون الكرامات السنيّة بالحياة الدنيا الدنيّة الفانية، واطمأَنُّوا بها، أي: سكَنوا إليها مُكبّين عليها قاصرين مَجامعَ هِمَم على لذائذها وزخارفِها مِن غير صارفٍ يَلويهم ولا عاطفٍ يَثنيهم.

وإيثار الباءِ على كلمة "إلى" المنبئة / عن مجرّد الوصول والانتهاء للإيذان [٦٩ظ] بتمام الملابسة ودوام المصاحبة والمؤانسة. وحملُ الرجاء على الخوف فقط يأباه كلمةُ الرضا بالحياة الدنيا، فإنّها منبئة عما ذُكر مِن ترك الأعلى وأخذِ الأدنى. واختيار صيغةِ الماضي في الصلتين الأخيرتين للدلالة على التحقّق والتقّرر، كما أنّ اختيار صيغة المستقبل في الأُولى للإيذان باستمرار عدم الرجاء.

---

[1] القول في حاشية التفتازاني على الكشّاف، ٣٩٧ظ.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾ المفصَّلة في صحائف الأكوان حسبما أشيرَ إلى بعضها، أو آياتنا المنزلِة المنبِّهة على الاستشهاد بها، المتّفقةِ معها في الدلالة على حقّيّة ما لا يَرجونه مِن اللقاء المترتِّب على البعث وعلى بطلان ما رضُوا به واطمأنّوا إليه مِن الحياة الدنيا. ﴿غَٰفِلُونَ﴾ لا يتفكّرون فيها أصلًا وإن نُبِّهوا على ذلك وذُكِّروا بأنواع القوارع لانهماكهم فيما يَصُدّهم عنها مِن الأحوال المعدودة. وتكرير الموصول للتوسّل به إلى جعل صلته جملةً اسميّةً منبئةً عمّا هم عليه مِن استمرار الغفلة ودوامها. وتنزيل التغاير الوصفي مَنزلةَ التغاير الذاتي إيذانًا بمغايرة الوصف الأخير للأوصاف الأُوَل واستقلاله باستتباع العذاب.

هذا، وأمّا ما قيل مِن أنّ العطف إمّا لتغاير الوصفين والتنبيهِ على أنّ الوعيد على الجمع بين الذهول عن الآيات رأسًا، والانهماكِ في الشهوات، بحيث لا يخطُر ببالهم الآخرةُ أصلًا؛ وإمّا لتغاير الفريقين، والمرادُ بالأوّلين مَن أنكَر البعث ولم يرَ إلّا الحياةَ الدنيا، وبالآخِرين مَن ألهاه حبُّ العاجل عن التأمّل في الآجل،[1] فكلام ناءٍ عن السَّداد،[2] فتأمّل.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٨﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر مِن صفات السوء ﴿مَأْوَىٰهُمُ﴾ أي: مَسكَنهم ومَقرّهم الذي لا بَراحَ لهم منه ﴿ٱلنَّارُ﴾ لا ما اطمأنّوا بها مِن الحياة الدنيا ونعيمها ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ مِن الأعمال القلبيّةِ المعدودة وما تستتبعه مِن أصناف المعاصي والسيّئاتِ أو بكَسْبهم إيّاها. والجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على الاستمرار التجدّدي. والباء متعلِّقة بمضمون الجملة الأخيرة الواقعة خبرًا عن اسم الإشارة، وهو مع خبره خبرٌ لـ﴿إِنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾... إلخ.[3]

---

[1] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٩٠-٩١.

[2] السياق: وأمّا ما قيل... فكلام ناءٍ...

[3] في الآية السابقة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩﴾

/ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: فعلوا الإيمان، أو آمنوا بما تشهَد به الآيات التي غفَل عنها الغافلون، أو بكلّ ما يجب أن يُؤمَن به فيَندرجُ فيه ذلك اندراجًا أوّليًّا. [٧٠و] ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: الأعمال الصالحة في أنفسها اللائقة بالإيمان،[1] وإنّما تُرك ذِكر الموصوف لجريانها مَجرى الأسماء.

﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم﴾ أُوثر الالتفات تشريفًا لهم بإضافة الربّ إليهم، وإشعارًا بعِلّة الهداية. ﴿بِإِيمَٰنِهِمۡ﴾ أي: يَهديهم بسبب إيمانِهم إلى مأواهم[2] ومَقصِدهم وهي الجنّة، وإنّما لم تُذكَر تعويلًا على ظهورها وانسياقِ النفس إليها، لا سيّما بمُلاحظة ما سبق مِن بيان مأوى الكفَرة وما آواهم إليه مِن أعمالهم السيّئةِ ومشاهَدة ما لحِق مِن التلويح[3] والتصريح.[4]

وفي النظم الكريم إشعار بأنّ مجرَّد الإيمان والعمل الصالح لا يكفي في الوصول إلى الجنّة؛ بل لا بدّ بعد ذلك مِن الهداية الربّانيّة، وأنّ الكفر والمعاصيَ كافية في دخول النار. ثمّ إنّه لا نزاعَ في أنّ المراد بالإيمان الذي جُعل سببًا لتلك الهداية هو إيمانُهم الخاصُّ المشفوع بالأعمال الصالحة، لا الإيمانُ المجرَّد عنها، ولا ما هو أعمُّ منهما، إلّا أنّ ذلك بمَعزِل عن الدلالة، على خلاف ما عليه أهل السُّنّة والجماعة مِن أنّ الإيمان الخاليَ عن العمل الصالح يُفضي إلى الجنّة في الجملة ولا يخلّد صاحبُه في النار.

فإنّ منطوق الآية الكريمة أنّ الإيمان المقرون بالعمل الصالح سبب للهداية إلى الجنّة. وأمّا أن كلّ ما هو سببٌ لها يجب أن يكون كذلك، فلا دلالةَ لها ولا لغيرها عليه قطعًا، كيف لا، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام، ٨٢/٦] مُنادٍ بخلافه، فإنّ المراد بالظلم هو الشركُ،

---

[1] وفي هامش م: فيندرج فيها رجاء لقائه سبحانه والاجتناب عن الرضا بالحياة الدنيا والاطمئنان بها. «منه».

[2] في هامش م: يُصرِّح بها. «يحـ».

[3] وفي هامش م: هو قوله: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾. «منه».

[4] وفي هامش م: هو قوله: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾. «منه».

كما أطبق عليه المفسّرون. والمعنى: لم يخلِطوا إيمانَهم بشِرك، ولئن حُمل على ظاهره أيضًا يدخُل في الاهتداء مَن آمن ولم يعمل صالحًا، ثمّ مات قبل أن يَظلِم بفعل حرام أو بتركِ واجب.

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي: بين أيديهم كقوله سبحانه: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓ﴾ [الزخرف، ٥١/٤٣]، أو تجري وهم على / سُرر مرفوعة وأرائِكَ مصفوفة. [٧٠ظ]
والجملة مستأنَفة، أو خبر ثانٍ لـ﴿إِنَّ﴾، أو حالٌ مِن مفعول ﴿يَهۡدِيهِمۡ﴾ على تقدير كون المَهدي إليه ما يريدونه في الجنّة كما قيل.[١] وقيل: يهديهم ويُسدِّدهم للاستقامة على سلوك السبيلِ المؤدّي إلى الثواب والجنّة.[٢]

وقوله: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ جارٍ مَجرى التفسير والبيان، فإنّ التمسّك بحبل السعادة في حُكم الوصول إليها. وقيل: يَهديهم إلى إدراك الحقائق البديعة بحسب القوّة العمليّة،[٣] كما قال عليه السلام: «مَن عمِل بما علِم ورَّثه الله عِلمَ ما لم يعلَم».[٤] ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ خبر آخرُ، أو حال أخرى منه، أو مِن ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، أو متعلّق بـ﴿تَجۡرِي﴾، أو بـ"يهدي". فالمراد بالمَهدي إليه إمّا منازلهم في الجنّة، أو ما يريدونه فيها.

﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾

﴿دَعۡوَىٰهُمۡ﴾ أي: دعاؤهم وهو مبتدأ، وقوله عزّ وجلّ: ﴿فِيهَا﴾ متعلِّق به، وقوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ خبرُه، أي: دعاؤهم هذا الكلام. وهو معمول لمقدَّر لا يجوز إظهاره، والمعنى: اللّهمّ إنّا نُسبِّحك تسبيحًا. ولعلّهم يقولونه عندما عاينوا فيها مِن تعاجيب آثار قدرته تعالى ونتائج رحمته ورأفته ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطَر على قلب بشَر، تقديسًا لمقامه تعالى عن شوائب العجز والنقصان، وتنزيهًا لوعده الكريم عن سِمات الخُلف.

---

١ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩١/٢.
٢ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٢٤٦/٢-٢٤٧.
٣ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩١/٢.
٤ حلية الأولياء لأبي نُعيم، ١٦٣/٦؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩١/٢؛ تفسير ابن كثير، ٤٣٧/٨ (العلق، ٥/٩٦).

﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا﴾ التحيّة: التكرُمة بالحالة الجليلة، أصلُها: "أحياكَ الله حياةً طيّبة"، أي: ما يُحيِّي به بعضهم بعضًا، أو تحيّةُ الملائكة إيّاهم،[١] كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ [الرعد، ٢٣/١٣]، أو تحيّةُ الله عزّ وجلّ لهم، كما في قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس، ٥٨/٣٦]. ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي: سلامة عن كلّ مكروه.

﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي: خاتمة دعائِهم ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: أن يقولوا ذلك نعتًا له عزّ وجلّ بصفات الإكرام إثرَ نعتِه تعالى بصفات الجلال، أي: دعاؤهم منحصِر فيما ذُكِر، إذ ليس لهم مَطلَب مترقَّب حتّى ينتظموه في سِلك الدعاء. و﴿أَنْ﴾ هي المخفَّفة مِن "أنّ" المثقَّلة، أصلُه: "أنّه الحمدُ لله"، فحُذف ضمير الشأن، كما في قوله:

أنْ هـالـكٌ كـلُّ مَـن يَحفى ويَـنتعِـلُ[٢]

وقُرِئ: "أنّ الحَمْدَ للهِ"[٣] بالتشديد ونَصْب "الحمد". ولعلّ توسيطَ ذِكر تحيّتهم عند الحكاية بين دعائهم وخاتمتِه / للتوسّل إلى خَتْم الحكاية بالتحميد [٧١و] تبرّكًا مع أنّ التحيّة ليست بأجنبيّة على الإطلاق.

ودعوى كون ترتيبِ الوقوع أيضًا كذلك، بأن كانوا حين دخلوا الجنّة وعاينوا عظمة الله تعالى وكبرياءَه مجّدوه تعالى[٤] ونعَتوه بصفات[٥] الجلال، ثمّ حيّاهم الملائكة بالسلامة عن الآفات والفوز بأصناف الكرامات، أو حيّاهم بذلك ربُّ العزّة فحمِدوه تعالى وأثنَوا عليه،[٦] يأباها إضافة "الآخِر" إلى دعواهم.[٧]

---

١ وفي هامش م: على الإضافة إلى المفعول.

٢ عجز بيت للأعشى مِن معلّقته، وصدره:

في فِتيةٍ كسيوف الهِندِ قد عَلِموا

وهو له بهذه الرواية شاهدًا على ما نحن فيه في كتاب سيبويه، ١٣٧/٢؛ وبلا نسبة في المُفصَّل للزمخشري، ص ٣٠٢؛ وعجزه في الكشّاف للزمخشري، ٢٤٧/٢. وهو في شرح القصائد العشر للتبريزي، ص ٢٩٧. وروايته في ديوان الأعشى، ص ٥٩:

إمّـا تَـرَيـنـا حُـفـاةً لا نِـعـالَ لنا
إنّـا كـذلـك مـا نـحفى ونـنتعلُ

٣ قراءة شاذّة، مَرويّة عن بلال بن أبي بُردة وابن مُحيصن وأبو حَيْوة وابن مِقسَم والزعفراني وأبو حنيفة والمنهال والوليد والفزاري عن يعقوب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦١؛ المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ٩٥٠.

٤ ط س - تعالى.

٥ ط س: بنعوت. | وفي هامش ط: بصفات [نحـ].

٦ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩١/٢-٩٢.

٧ السياق: ودعوى كون ترتيب... يأباها إضافة الآخر...

وقد جُوِّز أن يكون المراد بالدعاء العبادةَ، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ﴾... إلخ، [مريم، ٤٨/١٩]، إيذانًا بألّا تكليفَ في الجنّة، أي: ما عبادتهم إلّا أن يُسبّحوه ويَحمَدوه، وليس ذلك بعبادة، إنّما يُلهَمونه فينطقون به تلذّذًا.[١] ولا يساعده تعيينُ الخاتمة.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ هم الذين لا يَرجون لقاءَ الله تعالى لإنكارهم البعث وما يترتّب عليه مِن الحساب والجزاء. أشيرَ إلى بعض مِن عظائمِ معاصيهم المتفرِّعة على ذلك وهو استعجالهم بما أُوعدوا به مِن العذاب تكذيبًا واستهزاءً وإيرادُهم باسم الجنس لِما أنّ تعجيل الخير لهم ليس دائرًا على وصفهم المذكور، إذ ليس كلُّ ذلك بطريق الاستدراج، أي: لو يُعجِّل الله لهم ﴿ٱلشَّرَّ﴾ الذي كانوا يستعجلون به، فإنّهم كانوا يقولون: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال، ٣٢/٨]، ونحو ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ نُصب على أنّه مصدر تشبيهي وُضع مَوضِعَ مصدرِ ناصبه دلالةً على اعتبار الاستعجالِ في جانب المشبَّه كاعتبار التعجيل في جانب المشبَّه به، وإشعارًا بسرعة إجابته تعالى لهم حتّى كأنّ استعجالهم بالخير نفس تعجيله لهم، والتقدير: ولو يُعجِّل الله لهم الشرَّ عند استعجالهم به تعجيلًا مِثلَ تعجيله لهم الخيرَ عند استعجالِهم به. فحُذف ما حُذف تعويلًا على دلالة الباقي عليه.

﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ أي:[٢] لأُدّيَ إليهم الأجل الذي عُيِّن لعذابهم وأُميتوا وأُهلِكوا بالمرّة، وما أُمهلوا طرفةَ عين. وفي إيثار صيغة المَبني / للمفعول جريٌ [٧١ظ]
على سَنن الكبرياء، مع الإيذان بتعيُّن الفاعل.[٣] وقُرئ على البناء للفاعل،[٤] كما قُرئ:

---

[١] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٢٤٧/٢.
[٢] ط س – أي.
[٣] ط س – مع الإيذان بتعيين الفاعل.
[٤] قرأ بها ابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٨٢/٢.

"لَقَضَيْنَا".[١] واختيار صيغة الاستقبال في الشرط، وإن كان المعنى على المُضيّ، لإفادة أنّ عدم قضاءِ الأجل لاستمرار عدم التعجيل، فإنّ المضارع المَنفي الواقع مَوقِع الماضي ليس بنصّ في إفادة انتفاء استمرار الفعل؛ بل قد يفيد استمرار انتفائه أيضًا بحسب المقام، كما حُقِّق في موضعه.

واعلم أنّ مدار الإفادة في الشرطيّة أن يكون التالي أمرًا مغايرًا للمقدَّم في نفسه مترتّبًا عليه في الوجود، كما في قوله تعالى: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات، ٧/٤٩]، فإنّ العنَت، أي: الوقوع في المَشقّة والهلاك أمرٌ مغايرٌ لطاعته عليه السلام لهم مترتِّبٌ عليها في الوجود، أو يكون فردًا كاملًا مِن أفراده ممتازًا عن البقيّة بأمر يَخصّه، كما في الأجوبة المحذوفة في مِثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام، ٣٠/٦]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام، ٢٧/٦]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [السجدة، ١٢/٣٢]، ونظائرِها، أي: لرأيتَ أمرًا هائلًا فظيعًا، أو نحوَ ذلك. وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر، ٤٥/٣٥] إذا فُسِّر الجواب بالاستئصال، فإنّه فرد كامل مِن أفراد مطلَق المؤاخَذة قد عُبِّر عنه بما لا مَزيدَ عليه في الدلالة على الشدّة والفظاعة، فحسنُ مَوقعه في مَعرِض التالي للمؤاخَذة المطلَقة.

وأمّا ما نحن فيه مِن القضاء فليس بأمر مغاير لتعجيل الشرّ في نفسه، وهو ظاهر؛ بل هو إمّا نفسُه أو جزئي منه كسائر جزئيّاته مِن غير مزيّة له على البقيّة؛ إذ لم يُعتبَر في مفهومه ما ليس في مفهوم تعجيل الشرّ مِن الشدّة والهَول، فلا يكون في ترتيبه عليه وجودًا أو عدمًا مَزيدُ فائدة مصحِّحة لجعلِه تاليًا له. فالحقّ أنّ المقدَّم ليس نفس التعجيل المذكور؛ بل هو إرادته المستتبَعة للقضاء المذكور وجودًا وعدمًا، كما في قوله تعالى:[٢] ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ [الكهف، ٥٨/١٨]، أي: لو يريد مؤاخَذتهم، فإنّ تعجيل العذاب لهم

---

١ قراءة شاذّة، مَروية عن ابن مُحيصن والأعمش. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦١.

٢ س - تعالى.

نفسُ المؤاخَذة، أو جزئي مِن جزئيّاتها غيرُ ممتاز عن البقيّة، فليس في بيان ترتّبه عليها وجودًا أو عدمًا مَزيدُ فائدة، وإنّما الفائدة في بيان ترتّبه على إرادتها حسبما ذُكر، وأيضًا في ترتيب التالي على إرادة المقدَّم ما ليس في ترتيبه على نفسه مِن الدلالة على[1] المبالغة وتهويل الأمر والدلالة على أنّ الأمور مَنوطةٌ بإرادته تعالى المَبنيّة على الحِكم البالغة.

[٧٢و] / ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ بنون العظمة الدالّة على التشديد في الوعيد، وهو عطفٌ على مقدَّر تُنبئ عنه الشرطيّة، كأنّه قيل: لكن لا نفعل ذلك لِما تقتضيه الحكمة، فنتركهم إمهالًا واستدراجًا. ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ الذي هو عدم رجاء اللقاء، وإنكارُ البعث والجزاء وما يتفرّع على ذلك مِن أعمالهم السيّئةِ ومَقالاتهم الشنيعة. ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أي:[2] يتردّدون ويتحيّرون، ففي وضع الموصول مَوضعَ الضمير نوعُ بيان للطغيان بما في حيّز الصلة، وإشعار بعلّيّته للترك والاستدارج.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ أي: أصابه جنس الضُّرّ مِن مرض وفقر وغيرهما مِن الشدائد إصابةً يسيرة. ﴿دَعَانَا﴾ لكشفه وإزالته. ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ حال مِن فاعل "دعا" بشهادة ما عُطف عليه مِن الحالين، واللام بمعنى "على"، كما في قوله تعالى: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ [الإسراء، ١٠٧/١٧]، أي: دعانا كائنًا على جنبه، أي: مضطجِعًا. ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ أي: في جميع الأحوال ممّا ذُكر وما لم يُذكَر. وتخصيص المعدودات بالذِّكر لعدم خلوّ الإنسان عنها عادةً، أو دعانا في جميع أحوال مرضه على أنّه المراد بالضُّرّ خاصّة، مضطجَعًا عاجزًا عن القعود، وقاعدًا غيرَ قادر على النهوض، وقائمًا لا يستطيع الحَراك.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ﴾ الذي مَسّه غِبَّ ما دعانا، حسبما ينبئ عنه الفاء. ﴿مَرَّ﴾ أي: مضى واستمرَّ على طريقته التي كان يَنتحيها قبل مِساس الضُّرّ ونسيَ

---

١ ط س - الدلالة على.

٢ ط س - أي.

حالة الجَهد والبلاء، أو مرّ عن موقف الضراعة والابتهال ونأى بجانبه. ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا﴾ أي: كأنّه لم يَدعُنا، فخُفِّف وحُذف ضمير الشأن، كما في قوله:

كـأنْ لـم يكـن بيـن الحَجون إلـى الصَّفا[1]

والجملة التشبيهيّة في محلّ النصب على الحاليّة مِن فاعل ﴿مَرَّ﴾، أي: مرّ مشبَّهًا بمَن لم يَدعُنا. ﴿إِلَىٰ ضُرٍّ﴾ أي: إلى كشف ضُرّ ﴿مَّسَّهُۥ﴾. وهذا وصفٌ للجنس باعتبار حال بعض أفرادِه ممّن هو متّصف بهذه الصفات.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ نصب على المصدريّة، وذلك إشارة إلى مصدر الفعل الآتي، وما فيه مِن معنى البعدِ للتفخيم، والكاف مُقحَمة للدلالة على زيادة فخامة المشار إليه إقحامًا لا يكاد يُترَك في لغة العَرب ولا في غيرها، ومِن ذلك قولهم: "مِثلُك لا يَبخَل" مكان "أنت لا تبخل".[2] أي: / مِثل ذلك التزيين العجيب. [٧٢ظ]

﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: للموصوفين بما ذُكر مِن الصفات الذميمة. وإسرافهم لِما أنّ الباريَ[3] تعالى إنّما أعطاهم القُوى والمَشاعر ليَصرفوها إلى مَصارفها ويستعملوها فيما خُلقن له مِن العلوم والأعمال الصالحة، فلمّا صرفوها إلى ما لا ينبغي وهي رأسُ مالِهم فقد أتلفوها وأسرفوا إسرافًا ظاهرًا. والتزيين إمّا مِن جهة الله تعالى بطريق[4] التخلية والخِذلان، أو مِن الشيطان بالوسوسة والتسويل.

﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ مِن الإعراض عن الذِّكر والدعاء والانهماك في الشهوات. وتعلُّق الآية الكريمة بما قبلها مِن حيث إنّ في كلّ منهما إملاءً للكفَرة على طريقة الاستدراج بعد الإنقاذ مِن الشرّ المقدَّر في الأُولى ومِن الضُّرّ المقرَّر في الأخرى.

---

١ في هامش م: تمامه:

أنيـسٌ ولـم يسـمُر بـمكّـةَ سـامرُ

والبيت لمُضَاض بن عمرو بن الحارث بن مُضَاض الجُرهُميّ، وقد يُنسب لأبيه عمرو أو لجدّه الحارث. انظر: الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، ١٥/١٨؛ ومعجم الشُّعراء للمَرزُباني، ص ٢٧؛ والصحاح للجوهري، «حجن»؛ ومعجم البلدان للحموي، ٢/٢٢٥. وفي الأخير: «الحَجون: جبلٌ بأعلى مكّة عنده مدافن أهلها».

٢ انظر الكلام على هذا الأسلوب في دلائل الإعجاز للجرجاني، ص ١٣٨-١٤٠؛ ومفتاح العلوم للسكّاكي، ص ٣٢٨.

٣ ط س: الله.

٤ ط س: على طريقة.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ﴾ أي: القرون الخالية مِثلَ قوم نوح وعاد وأضرابِهم. و﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ متعلِّقة بـ﴿أَهْلَكْنَا﴾، أي: أهلكناهم مِن قبل زمانِكم. والخطاب لأهل مكّةَ على طريقة الالتفات للمبالغة في تشديد التهديد بعد تأييده بالتأكيد[١] القَسمي. ﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ ظرف للإهلاك، أي: أهلكناهم حين فعلوا الظلم بالتكذيب والتمادي في الغَيّ والضلال مِن غير تأخير.

وقوله تعالى:[٢] ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ حال[٣] مِن ضمير ﴿ظَلَمُوا۟﴾، بإضمار "قد".[٤] وقوله تعالى: ﴿بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ متعلِّق بـ﴿جَآءَتْهُمْ﴾، على أنّ الباء للتعدية، أو بمحذوف هو[٥] حال[٦] مِن ﴿رُسُلُهُم﴾، دالّة على إفراطهم في الظلم وتناهيهم في المُكابَرة، أي: ظلموا بالتكذيب وقد جاءتهم رسلهم بالآيات البيّنة الدالّة على صدقهم، أو ملتبِسين بها حين لا مجالَ للتكذيب.

وقد جُوِّز أن يكون قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْهُمْ﴾[٧] عطفًا[٨] على ﴿ظَلَمُوا۟﴾،[٩] فلا محلَّ له[١٠] مِن الإعراب[١١] عند سيبويه، وعند غيره مَحلُّه[١٢] الجرُّ؛ لأنّه[١٣] معطوف[١٤] على ما هو مجرور بإضافة الظرف إليه.[١٥] وليس الظلم منحصِرًا في التكذيب حتّى يُحتاج إلى الاعتذار بأنّ الترتيب الذِّكري لا يجِب كونه على وَفق الترتيب الوقوعي،

---

١ ط س: بالتوكيد.
٢ ط س - وقوله تعالى.
٣ ط س: الواو للحال.
٤ ط س - بإضمار "قد".
٥ ط س: وقع.
٦ ط س: حالًا.
٧ ط س - قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْهُمْ﴾.
٨ ط س: للعطف.
٩ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٤٨/٢؛ التبيان للعُكبري، ٦٦٤/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٢/٢.
١٠ ط س: للجملة.
١١ ط س - مِن الإعراب.
١٢ ط س: محلّها.
١٣ ط س: لأنّها.
١٤ ط س: معطوفة.
١٥ الكلام في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٦٢/٦؛ واللباب لابن عادل، ٢٨٠/١٠. وانظر الكلام على "لمّا" في كتاب سيبويه، ٢٣٤/٤. هذا على التسليم بأنّ مذهب سيبويه في "لمّا" أنّها حرف، وهو ما فهمه ابن خروف مِن كلامه، وعند المُحقِّقين أنّها عنده ظرف. انظر: شرح الرضيّ على الكافية، ٢٣٠/٣-٢٣١؛ والمُطوَّل للتفتازاني، ص ٩.

كما في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾... إلخ، [يوسف، ١٢/١٠٠]؛ بل هو محمول على سائر أنواع الظلم.

والتكذيب مستفاد مِن قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ﴾ على أبلغ وجه وآكده، فإنّ اللام لتأكيد النفي، أي: وما صحّ وما استقام لهم أن يُؤمنوا لفساد استعدادهم وخذلان الله تعالى إيّاهم لعلمه بأنّ الألطاف لا تنجَع فيهم. والجملة على الأوّل عطفٌ على ﴿ظَلَمُواْ﴾؛ لأنّه إخبار بإحداث التكذيب، وهذا بالإصرار عليه، وعلى الثاني عطفٌ على ما عُطف عليه.

وقيل: اعتراض بين الفعل وما يجري مَجرى مصدره التشبيهي،[١] أعني: قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، فإنّ الجزاء المشار إليه عبارة عن مصدره، أي: مِثلَ ذلك الجزاء / الفظيع، أي: الإهلاكِ الشديد الذي هو الاستئصال بالمرّة. ﴿نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: كلَّ طائفة مجرِمة. وفيه وعيد شديد وتهديد أكيد لأهل مكّةَ لاشتراكهم لأولئك المهلَكين في الجرائم والجرائر التي هي تكذيب الرسول والإصرارُ عليه، وتقريرٌ لمضمون ما سبق مِن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾.[٢] وقُرئ بالياء[٣] على الالتفات إلى الغيبة. [٧٣و]

وقد جُوِّز أن يكون المراد بـ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: أهلَ مكّةَ،[٤] على طريقة وضعِ الظاهر مَوضعَ ضميرِ الخطاب، إيذانًا بأنّهم أعلامٌ في الإجرام، ويأباه كلَّ الإباء قولُه عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾؛ فإنّه صريح في أنّه ابتداء تعرّضٍ لأمورهم، وأنّ ما بُيّن فيه إنّما هو مبادي أحوالهم لاختبار كيفيّات أعمالهم على وجه يُشعِر باستمالتهم نحوَ الإيمان والطاعة، فمُحال أن يكون ذلك إثرَ بيان منتهى أمرهم وخطابِهم ببتّ القول بإهلاكهم لكمال إجرامهم. والمعنى: ثمّ استخلفناكم في الأرض مِن بعد إهلاكِ أولئك القرون التي تسمعون أخبارَها وتشاهدون آثارها استخلافَ مَن يَختبر.

---

١ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٤٨.

٢ في الآية الحادية عشرة مِن سورة يونس.

٣ قراءة شاذّة، مَرويّة عن عبّاس والحسن بن عمران. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٥١.

٤ في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٤٩.

﴿لِنَنظُرَ﴾ أي: لنعامل معاملةَ مَن ينظُر ﴿كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، فهي استعارة تمثيليّة. و﴿كَيْفَ﴾: منصوب على المصدريّة بـ﴿تَعْمَلُونَ﴾ لا بـ"ننظر"،[١] فإنّ ما فيه مِن معنى الاستفهام مانع مِن تقدّم عامله عليه، أي: أيَّ عمل؛[٢] أو على الحاليّة، أي: على أيّ حال تعملون الأعمال اللائقة بالاستخلاف مِن أوصاف الحُسن، كقوله عزّ وعلا: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود، ٧/١١]. ففيه إشعار بأنّ المراد بالذات والمقصود الأصليَّ مِن الاستخلاف إنّما هو ظهور الكيفيّات الحسنة للأعمال الصالحة، وأمّا الأعمال السيّئة فبمَعزِل مِن أن تصدُر عنهم لاسيّما بعد ما سمِعوا أخبارَ القرون المُهلَكة وشاهدوا آثارَ بعضِها فضلًا عن أن يُنظم ظهورها في سِلك العلّة الغائيّة للاستخلاف.

[٧٣ظ] وقيل: منصوب على أنّه مفعول به[٣] / أي: أيَّ عمل[٤] تعملون أَخَيرًا أم شرًّا فنُعاملَكم بحسبه، فلا يكون في كلمة ﴿كَيْفَ﴾ حينئذ دلالةٌ على أنّ المعتبَر في الجزاء جهاتُ الأعمال وكيفيّاتُها لا ذواتُها كما هو رأي القائل؛[٥] بل تكون حينئذ مستعارةً لمعنى "أيّ شيء".

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ التفات مِن خطابهم إلى الغيبة إعراضًا عنهم وتوجيهًا للخطاب إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بتعديد جناياتِهم المُضادّة لِما أريدَ منهم بالاستخلاف، مِن تكذيب الرسول والكفر بالآيات البيّنات وغير ذلك كدأب مَن قبلهم مِن القرون المُهلَكة. وصيغة المضارع للدلالة على تجدّد جوابهم الآتي حسبَ تجدّد التلاوة.

---

١ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٤٩.
٢ وفي هامش م: مصدر لا اسم. «منه».
٣ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٩٣.
٤ وفي هامش م: اسم لا مصدر.
٥ يقصد أنّ البيضاوي جعل "كيف" منصوبة على المفعوليّة، ثمّ أورد المعنى على ما يناسب وجه الحاليّة.

﴿ءَايَاتُنَا﴾ الدالّة على حقّيّة التوحيد وبطلان الشرك. والإضافة لتشريف المضاف والترغيب في الإيمان به والترهيب عن تكذيبه. ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ حالَ كونها واضحاتِ الدلالة على ذلك. وإيراد فعلِ التلاوة مبنيًّا للمفعول مُسنَدًا إلى الآيات دون رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ببنائه للفاعل للإشعار بعدم الحاجة لتعيّن التالي، وللإيذان بأنّ كلامهم في نفس المتلوّ دون التالي.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ وُضع الموصول مَوضع الضمير إشعارًا بعلّيّة ما في حيّز الصلة العظيمة المَحكيّة عنهم، وأنّهم إنّما اجترءوا عليها لعدم خوفِهم مِن عقابه تعالى يوم اللقاء لإنكارهم له ولِما هو مِن مَباديه مِن البعث، وذمًّا لهم بذلك، أي: قالوا لمَن يتلوها عليهم وهو رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وإنّما لم يُذكَر إيذانًا بتعيّنه: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ أشاروا بهذا إلى القرآن المشتمِل على تلك الآيات لا إلى نفسها فقط، قصدًا إلى إخراج الكلّ مِن البين، أي: ائت بكتاب آخرَ نقرؤه ليس فيه ما نستبعِده مِن البعث والحساب والجزاء أو ما نكرهه مِن ذمّ آلهتنا ومَعايبها والوعيدِ / على عبادتها. [٧٤و]

﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ بتغيير ترتيبه بأن تَجعل مكانَ الآية المشتملة على ذلك آيةً أخرى خاليةً عنها. وإنّما قالوه كيدًا وطمعًا في المساعدة ليتوسّلوا به إلى الإلزام والاستهزاء به.

﴿قُلْ﴾ لهم ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ﴾ أي: ما يصحّ وما يستقيم لي ولا يمكنني أصلًا ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾ أي: مِن قِبَل نفسي، وهو مصدر استُعمل ظرفًا. وقُرئ بفتح التاء.[١] وقَصْر الجواب ببيان امتناع ما اقترحوه على اقتراحهم الثاني للإيذان بأنّ استحالة ما اقترحوه أوّلًا مِن الظهور بحيث لا حاجةَ إلى بيانها، وأنّ التصدّيَ لذلك مع كونه ضائعًا ربّما يُعدّ مِن قبيل المُجاراةِ مع السفهاء إذ لا يصدُر مِثل ذلك الاقتراح عن العقلاء، ولأنّ ما يدل على استحالة الثاني يدلّ على استحالة الأوّل بالطريق الأَولى.

---

١ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٤٩.

﴿إِنْ أَتَّبِعُ﴾ أي: ما أتّبع في شيء ممّا آتي وأذر ﴿إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ مِن غير تغيير له في شيء أصلًا على معنى قَصْر حاله عليه السلام على اتّباع ما يُوحى إليه، لا قَصْرِ اتّباعه على ما يُوحى إليه كما هو المتبادَر مِن ظاهر العبارة، كأنّه قيل: ما أفعَل إلّا اتّباعَ ما يُوحى إليّ. وقد مرّ تحقيق المقام في سورة الأنعام، وهو تعليل لصدر الكلام، فإنّ مَن شأنه اتّباع الوحي على ما هو عليه لا يَستبدّ بشيء دونه قطعًا.

وفيه جواب للنقض بنَسْخ بعض الآيات ببعض، وردٌّ لِما عرَّضوا به عليه السلام بهذا السؤال مِن أنّ القرآن كلامُه عليه السلام. ولذلك قُيِّد التبديل في الجواب بقوله: ﴿مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ﴾، وسمّاه عصيانًا عظيمًا مستتبِعًا لعذاب عظيم بقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، فإنّه تعليل لمضمون ما قبله مِن امتناع التبديل، / واقتصارِ أمره عليه السلام على اتّباع الوحي، [٧٤ظ]
أي: أخاف إن عصيتُه تعالى بتعاطي ما ليس لي مِن التبديل مِن تلقاء نفسي والإعراضِ عن اتّباع الوحي عذابَ يوم عظيم هو يومُ القيامة ويومُ اللقاء الذي لا يرجونه. وفيه إشعار بأنّهم استوجبوه بهذا الاقتراح.

والتعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام لتهويل أمر العصيان، وإظهارِ كمال نزاهته عليه السلام عنه. وإيراد "اليوم" بالتنوين التفخيمي ووصفُه بالعِظَم لتهويل ما فيه مِن العذاب وتفظيعه، ولا مَساغَ لحمل مقترَحهم على التبديل والإتيان بقرآن آخرَ مِن جهة الوحي بتفسير قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ﴾ بأنّه لا يتسهَّل لي أن أُبدلَه بالاستدعاء مِن جهة الوحي، ما أتّبع إلّا ما يُوحى إليّ مِن غير صُنعٍ ما مِن الاستدعاء وغيره مِن قِبلي، لأنّه يَردّه التعليل المذكور، لكن لا لأنّ المقترَح حينئذ ليس فيه معصيةٌ أصلًا كما تُوهِّم، فإنّ استدعاء تبديل الآيات النازلة حسبما تقتضيه الحكمة التشريعيّة بعضِها ببعض، لاسيّما بموجَب اقتراح الكفرة ممّا لا ريبَ في كونه معصيةً؛ بل لأنّه ليس فيه معصيةُ الافتراء مع أنّها المقصودةُ بما ذُكر في التعليل، ألا يُرى إلى ما بعده مِن الآيتين الكريمتين، فإنّه صريح في أنّ مقترَحهم الإتيان بغير القرآن وتبديلُه بطريق الافتراء، وأنّ زعمهم في الأصل أيضًا كذلك.

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾

وقوله عزّ وجلّ: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ تحقيق لحقّيّة القرآن وكونه مِن عند الله تعالى إثرَ بيان بُطلان ما اقترحوا الإتيان به واستحالته عبارةً ودلالةً. وإنّما صُدِّر بالأمر المستقلّ مع كونه داخلًا تحت الأمر السابق إظهارًا لكمال الاعتناء بشأنه وإيذانًا باستقلاله مفهومًا وأسلوبًا، / فإنّه برهان دالّ على [٧٥و] كونه بأمر الله تعالى ومَشيئته كما سيأتي، وما سبق مجرَّد إخبار باستحالة ما اقترحوه. ومفعول ﴿شَآءَ﴾ محذوف يُنبئ عنه الجزاء، لا "غيرَ ذلك"[١] كما قيل؛[٢] فإنّ مفعول المشيئةِ إنّما يُحذَف إذا وقعتِ شرطًا وكان مفعولُها مضمونَ الجزاء، ولم يكن في تعلّقها به غرابة، كما في قوله:

ولــو شـئـتُ أن أبـكـي دمًـــا لـبـكَـيـتُـهُ[٣]

حيث لم يُحذف لفقدان الشرط الأخير.[٤]

ولأنّ المستلزِم للجزاء،[٥] أعني عدمَ تلاوتِه عليه السلام للقرآن عليهم إنّما هو مشيئتُه تعالى له لا مشيئتُه لغير القرآن، والمعنى: أنّ الأمر كلَّه مَنوطٌ بمشيئته تعالى، وليس لي منه شيء قطّ، ولو شاء عدم تلاوتي له عليكم، لا بأن شاء عدم تلاوتي له مِن تِلقاء نفسي؛ بل بأن لم يُنزِله عليّ ولم يأمُرني بتلاوته، كما يُنبئ عنه إيثار التلاوة على القراءة،[٦] ما تلوتُه عليكم.[٧]

﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ أي: ولا أَعلَمكم به بواسطتي. والتالي وهو عدمُ التلاوة والإدراء منتفٍ فينتفي المقدَّم، أعني: مشيئة عدمِ التلاوة، ولا يخفى أنّها مستلزِمة

---

١ وفي هامش م: فيه ما لا يخفى مِن النكتة. «منه».

٢ قدَّر البيضاوي المفعول بـ"غيرَ ذلك". أنوار التنزيل، ٩٣/٢.

٣ صدر بيت للخُريمي، عجزه:
عليهِ ولكن ساحةُ الصبرِ أَوسعُ
والبيت له في الكامل للمُبرِّد، ١٣٦٢/٣؛ والمصون لأبي أحمد العسكري، ص ١٦. وهو بلا نسبة شاهد على ما نحن فيه في دلائل الإعجاز للجرجاني، ص ١٦٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٧٤/١ (البقرة، ٢٠/٢).

٤ يقصد أنّ مفعول المشيئة لم يُحذف في البيت لِما فيه مِن الغرابة، وهو بكاءُ الدم.

٥ السياق: فإنّ مفعول المشيئة... ولأنّ المستلزم للجزاء...

٦ وفي هامش م: فإنّها مُنبئة عن معنى البقيّة. «منه».

٧ السياق: ولو شاء عدم تلاوتي... ما تلوته عليكم...

لعدم مشيئة التلاوة قطعًا، فانتفاؤها مستلزِم لانتفائه حتمًا، وانتفاءُ عدم مشيئة التلاوة إنّما يكون بتحقّق مشيئة التلاوة فثبَت أنّ تلاوته عليه السلام للقرآن بمشيئته تعالى وأمره. وإنّما قيّدنا الإدراء بكونه بواسطته عليه السلام؛ لأنّ عدم الإعلام مطلقًا ليس مِن لوازم الشرطِ الذي هو مشيئة عدم تلاوته عليه السلام،[1] فلا يجوز نظمه في سِلك الجزاء.

وفي إسناد عدم الإدراء إليه تعالى المنبئ عن استناد الإدراء إليه تعالى إيذانٌ بألّا دخلَ له عليه السلام في ذلك حسبما يقتضيه المقام. وقُرئ: "وَلَا أَدْرَأْتُكُمْ"،[2] و"لا أَدْرَأَكُمْ"[3] بالهمزة فيهما على لغة مَن يقول: "أعطأتُ" و"أرضأتُ" في "أعطيتُ" و"أرضيتُ"،[4] / أو على أنّه مِن الدَّرء، بمعنى: الدَّفع، [٧٥ظ] أي: ولا جعلتُكم بتلاوته عليكم خُصَماءَ تدرَءونني بالجِدال.

وقُرئ: "وَلَا أَنْذَرْتُكُمْ بِهِ".[5] وقُرئ: "لَأَدْرَاكُمْ"[6] بلام الجواب، أي: لو شاء الله ما تلوتُه عليكم أنا ولأعلَمكم به على لسان غيري، على معنى: أنّه الحقّ الذي لا مَحيصَ عنه، لو لم أرسلَ به أنا لأُرسلَ به غيري البتّةَ، أو على معنى: أنّه تعالى يمُنّ على مَن يشاء فخَصّني بهذه الكرامة.

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ تعليل للملازمة المستلزِمة لكون تلاوته بمشيئة الله عزّ وجلّ وأمره حسبما بيّن آنفًا، لكن لا بطريق الاستدلال عليها بعدم تلاوته عليه السلام فيما سبق بسبب مشيئته تعالى إيّاه؛ بل بطريق الاستشهاد عليها بما شاهدوا منه عليه السلام في تلك المدّة الطويلة مِن الأمور الدالّة على استحالة كون التلاوة مِن جهته عليه السلام بلا وحي.

---

[1] وفي هامش م: لجواز أعلامه بواسطة غيره عليه السلام. «منه».

[2] قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن عبّاس والحسن وابن سيرين. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٤.

[3] قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن عبّاس والحسن وابن سيرين وأبي رجاء. اللباب لابن عادل، ٢٨٣/١٠.

[4] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٥٠/٢.

[5] قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن عبّاس وابن مسعود وأُبيّ وشهر بن حَوشب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٤؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٥٢.

[6] قرأ بها ابن كثير عن البزّي بخلاف. النشر لابن الجزري، ٢٨٢/٢.

و﴿عُمُرًا﴾ نصب على التشبيه بظرف الزمان، والمعنى: قد أقمتُ فيما بينكم دهرًا مديدًا مِقدارَ أربعين سنةً تحفظون تفاصيلَ أحوالي طُرًّا وتُحيطون بما لديَّ خُبرًا. ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: مِن قبل نُزولِ القرآن لا أتعاطى شيئًا ممّا يتعلّق به لا مِن حيث نظمُه المعجِز ولا مِن حيث معناه الكاشفُ عن أسرار الحقائق وأحكام الشرائع.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: ألا تُلاحِظون ذلك فلا تعقلون امتناعَ صدوره عن مِثلي ووجوبَ كونه منزَّلًا مِن عند الله العزيز الحكيم، فإنّه غير خافٍ على مَن له عقل سليم. والحقّ الذي لا مَحيدَ عنه أنّ مَن له أدنى مُسْكة مِن العقل إذا تأمَّل في أمره صلّى الله عليه وسلّم، وأنّه نشأ فيما بينهم هذا الدهر الطويل مِن غير مصاحبةِ العلماء في شأن مِن الشئون، ولا مراجعةٍ إليهم في فنّ مِن الفنون، ولا مخالطةِ البلغاءِ في المفاوضة والحِوار ولا خوضٍ معهم في إنشاء الخُطب / والأشعار، [٧٦و] ثمّ أتى بكتاب بهَرتْ فصاحتُه كلَّ فصيح فائق، وبزّت بلاغتُه كلَّ بليغ رائق، علا نظمُه كلَّ منثور ومنظوم، وحوى فحواه بدائعَ أصناف العلوم، كاشفٍ عن أسرار الغيب مِن وراء أستار الكُمون،[١] ناطقٍ بأخبار ما قد كان وما سيكون، مصدِّقٍ لِما بين يديه مِن الكتب المنزَّلة، مهيمِنٍ عليها في أحكامها المُجْملة والمفصَّلة، لا يبقى عنده شائبة اشتباه في أنّه وحيٌ منزَّل مِن عند الله تعالى.

هذا هو الذي اتّفقت عليه كلمة الجمهور، ولكنّ الأنسب ببناء الجواب فيما سلف على مجرَّد امتناع صدور التغيير والتبديل عنه عليه السلام لكونه معصية موجِبة للعذاب العظيم، واقتصارِ حاله عليه السلام على اتّباع الوحي، وامتناعِ الاستبداد بالرأي مِن غير تعرّض هناك ولا ههنا لكون القرآن في نفسه أمرًا خارجًا عن طَوق البشر، ولا لكونه عليه السلام غيرَ قادر على الإتيان بمِثله أن يُستشهد ههنا على المَطلَب بما يُلائم ذلك مِن أحواله المستمرّة في تلك المدّة المتطاولة، مِن كمال نزاهته عليه السلام عمّا يُوهِم شائبةَ صدور الكذب والافتراء عنه في حقّ أحد كائنًا مَن كان، كما يُنبئ عنه تعقيبه بتظليم المفتري على الله تعالى.

---

[١] الكمون: الاختفاء والاستتار. لسان العرب لابن منظور، «كمن».

والمعنى: قد لبثتُ فيما بين ظَهْرانَيكم قبل الوحي لا أتعرَّض لأحد قطُّ بتحكّم ولا جِدال، ولا أحومُ حول مقال فيه شائبةُ شبهةٍ فضلًا عمّا فيه كذب أو افتراء، ألا تُلاحظونه فلا تعقِلون أنّ مَن هذا شأنُه المطَّرد في هذا العهد البعيد مستحيل أن يفتريَ على الله عزّ وجلّ ويتحكَّم على كافّة الخلق بالأوامر والنواهي الموجِبة لسَلْب الأموال وسَفك الدماء ونحو ذلك، وأنّ ما أتى به وحيٌ مبين / تنزيل مِن ربّ العالمين. [٧٦ظ]

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ١٧﴾

وقوله عزّ وعلا: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ استفهام إنكاري معناه الجحد، أي: لا أحدَ أظلمُ منه على معنى: أنه أظلم مِن كلّ ظالم، وإن كان سَبْك التركيب مفيدًا لإنكار أن يكون أحد أظلمَ منه مِن غير تعرّض لإنكار المساواة ونفيها، فإنّه إذا قيل: "مَن أفضلُ مِن فلان؟" أو "لا أعلمَ منه" يُفهم منه حتمًا أنّه أفضل مِن كلّ فاضل وأعلمُ مِن كلّ عالم.

وزيادةُ قوله تعالى: ﴿كَذِبًا﴾ مع أنّ الافتراءَ لا يكون إلّا كذلك للإيذان بأنّ ما أضافوه إليه ضِمنًا وحملوه عليه السلام عليه صريحًا مع كونه افتراء على الله تعالى كَذِب في نفسه، فرُبّ افتراء يكون كَذِبه في الإسناد فقط، كما إذا أُسند ذنب زيد إلى عمرو، وهذا للمبالغة منه عليه السلام في التفادي ممّا ذُكر مِن الافتراء على الله سبحانه. ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ فكفر بها، وهذا تظليم للمشركين بتكذيبهم للقرآن وحَمْلِهم على أنّه مِن جهته عليه السلام.

والفاء لترتيب الكلام على ما سبق مِن بيان كون القرآن بمشيئته تعالى وأمره، فلا مجالَ لحَمْل الافتراء على الافتراء باتّخاذ الولد والشريك، أي: وإذا كان الأمر كذلك فمَن افترى عليه تعالى بأن يَختلِق كلامًا فيقول: "هذا مِن عند الله"، أو يُبدِّل بعض آياته تعالى ببعض كما تُجوّزون ذلك في شأني، وكذلك مَن كذَّب بآياته تعالى كما تفعلونه، أظلمُ مِن كلّ ظالم.[١]

---

١ السياق: فمَن افترى... أظلمُ...

﴿إِنَّهُۥ﴾ الضمير للشأن وقع اسمًا لـ"إنّ"، والخبر ما يعقُبه مِن الجملة. ومَدار وَضْعه موضعَه ادِّعاءُ شهرته المغنيةِ عن ذِكره. وفائدة تصديرها به الإيذان بفخامة مضمونها مع ما فيه مِن زيادة تقريره في الذهن، فإنّ الضمير لا يُفهَم منه مِن أوّل الأمر إلّا شأن مبهَم له خطَر فيبقى الذهن مترقِّبًا لِما يَعقُبه، فيَتمكّن عند وروده عليه فضلَ تمكّن، فكأنّه قيل: إنّ الشأن هذا، أي: ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: لا يَنجُون مِن محذور، ولا يَظفَرون بمطلوب. والمراد جنس المجرمين، فيَندرج فيه المفتري والمكذِّب اندراجًا أوّليًّا.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ١٨﴾

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حكاية لجِناية أخرى لهم نشأت عنها جِنايتُهم الأولى معطوفةٌ على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ الآية،[١] عَطْفَ قصّةٍ على قصّة. و﴿مِن دُونِ﴾ متعلِّق بـ﴿يَعْبُدُونَ﴾، ومحلّه النصب على الحاليّة مِن فاعله، أي: متجاوزين الله سبحانه، لا بمعنى تركِ عبادته بالكلّيّة؛ بل بمعنى عدم الاكتفاء بها وجعلِها قرينًا لعبادة الأصنام كما يُفصِح عنه سياق النظم الكريم.

﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ أي: ما ليس مِن شأنه الضرّ والنفع مِن الأصنام التي هي جمادات. و﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة. وتقديم نفي الضرر، لأنّ أدنى أحكام العبادة دَفْع الضرر الذي هو أوّل المنافع، والعبادة أمر حادث مسبوق بالعدم الذي هو مَظِنّة الضرر، فحيث لم تقدِر الأصنامُ على الضرر لم يُوجد لإحداث العبادة سبب. وقيل: لا يضرّهم إن تركوا عبادتها ولا ينفعهم إن عبدوها.[٢] كان / أهل الطائف يعبُدون اللاتَ، وأهلُ مكّةَ عزّى ومَناةَ وهُبَل وإسافًا ونائلة.[٣] [٧٧و]

﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ عن النَّضر بن الحارث: إذا كان يوم القيامة يَشفَع لي اللات.[٤] قيل: إنّهم كانوا يَعتقدون أنّ المتولّيَ لكلّ إقليم رُوح معيَّن

---

[١] يونس، ١٥/١٠.
[٢] القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٥٠.
[٣] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٥٠.
[٤] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٥١.

مِن أرواح الأفلاك، فعيَّنوا لذلك الرُّوح صنمًا معيَّنًا مِن الأصنام واشتغلوا بعبادته ومقصودُهم ذلك الرُّوحُ، ثمّ اعتقدوا أنّ ذلك الرُّوح يكون عند الإله الأعظم مشتغِلًا بعبوديّته. وقيل: إنّهم كانوا يعبدون الكواكب فوضعوا لها أصنامًا معيَّنة واشتغلوا بعبادتها قصدًا إلى عبادة الكواكب. وقيل: إنّهم وضعوا طِلَسماتٍ معيَّنةً على تلك الأصنام ثمّ تقرّبوا إليها. وقيل: إنّهم وضعوا هذه الأصنام على صور أنبيائِهم وأكابرِهم وزعموا أنّهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيلِ فإنّ أولئك الأكابرَ يَشفعُون لهم عند الله تعالى.[1]

﴿قُلْ﴾ تبكيتًا لهم: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ أي: أتُخبرونه بما لا وجودَ له أصلًا؟ وهو كون الأصنام شفعاءَهم عند الله تعالى، إذ لولاه لعلّمه علّامُ الغيوب. وفيه تقريع لهم وتهكّم بهم وبما يَدعونه مِن المُحال الذي لا يكاد يدخُل تحت الصحّة والإمكان. وقُرئ: "أَتُنْبِئُونَ"[2] بالتخفيف. وقوله تعالى: ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حال مِن العائد المحذوفِ في "يَعْلَمُه" مؤكِّدةٌ للنفي، لأنّ ما لا يُوجَد فيهما فهو منتفٍ عادة.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عن إشراكهم المستلزِم لتلك المقالة الباطلة أو عن شركائهم الذين يعتقدونهم شفعاءَهم عند الله تعالى. وقُرئ: "تُشْرِكُونَ"[3] بتاء الخطاب على أنّه مِن جملة القول المأمور به، وعلى الأوّل هو اعتراض تذييلي مِن جهته سبحانه وتعالى.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

[٧٧ظ] / ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ بيان لأنّ التوحيد والإسلام مِلّة قديمة أجمعت عليها الأُمَم قاطبة فطرةً وتشريعًا، وأنّ الشِّرك وفروعه جهالات ابتدعها

---

[1] هذه الأقوال الأربعة في اللباب لابن عادل، ٢٨٥/١٠.

[2] م س: أتُنبِئونه. | وأثبتُّ ما في مصادر المُصنِّف. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٥١/١؛ واللباب لابن عادل، ٢٨٦/١٠. وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال وابن وثّاب. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٥٢.

[3] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٨٢/٢.

الغُواة خلافًا للجمهور وشقًّا لعصا الجماعة. وأمّا حَمْل اتّحادهم على الاتّفاق على الضلال عند الفترة واختلافِهم على ما كان منهم مِن الاتّباع والإصرار،[١] فممّا لا احتمال له.

أي: وما كان الناس كافّة مِن أوّل الأمر إلّا متّفقين على الحقّ والتوحيد مِن غير اختلافٍ، وذلك مِن عهد آدمَ عليه السلام إلى أن قتل قابيلُ هابيلَ. وقيل: إلى زمن إدريسَ.[٢] وقيل: إلى زمن نوح عليهما السلام.[٣] وقيل: مِن حين الطوفان حينَ لم يَذر الله مِن الكافرين ديّارًا إلى أن ظهر فيما بينهم الكفرُ.[٤] وقيل: مِن لدُن إبراهيمَ عليه السلام إلى أن أظهر عمرو بن لُحيّ عبادةَ الأصنام. فالمراد بـ﴿ٱلنَّاسُ﴾ العربُ خاصّة.[٥] وهو الأنسب بإيراد الآية الكريمة إثرَ حكايةِ ما حُكي عنهم مِن الهَنات وتنزيهِ ساحة الكبرياء عن ذلك.

﴿فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾ بأن كفَر بعضهم وثبَت آخرون على ما هم عليه فخالف كلٌّ مِن الفريقين الآخرَ، لا أنّ كلًّا منهما أحدَث مِلّة على حِدَة مِن مِلَل الكفر مخالِفةً لمِلّة الآخر، فإنّ الكلام ليس في ذلك الاختلاف، إذ كلٌّ منهما مبطِلٌ حينئذ، فلا يُتصوَّر أن يُقضى بينهما بإبقاء المحقّ وإهلاك المبطِل. والفاء التعقيبيّة لا تُنافي امتداد زمان الاتّفاق، إذ المراد بيان وقوع الاختلاف عقيبَ انصرام مدّة الاتّفاق لا عقيبَ حدوث الاتّفاق.

﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأخير القضاء بينهم، أو بتأخير العذاب الفاصل بينهم إلى يوم القيامة، فإنّه يوم الفصل. ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ عاجلًا ﴿فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ / بتمييز الحقّ عن الباطل بإبقاء المحِقّ وإهلاك المبطِل. وصيغة [٧٨و]
الاستقبال لحكاية الحال الماضية والدلالة على الاستمرار.

﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٢٠﴾

---

١ حمَلهما على ذلك البيضاوي في أنوار التنزيل، ٩٥/٢.
٢ ما وجدته فيما بين يديّ مِن المظانّ.
٣ القول في اللباب لابن عادل، ٢٨٧/١٠.
٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٥١/٢.
٥ القول في اللباب لابن عادل، ٢٨٧/١٠.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ حكاية لجناية أخرى لهم معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾.[١] وصيغة المضارع لاستحضار صورة مقالتهم الشنعاءَ والدلالةِ على الاستمرار. والقائلون أهل مكّة. ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أرادوا آيةً مِن الآيات التي اقترحوها، كأنّهم لفرط العُتوّ والفساد ونهايةِ التمادي في المكابَرة والعِناد لم يَعدُّوا البيِّناتِ النازلةَ عليه عليه السلام مِن جنس الآيات واقترحوا غيرها، مع أنّه قد أُنزل عليه مِن الآيات الباهرة والمعجِزات المتكاثِرة ما يضطّرهم إلى الانقياد والقبول لو كانوا مِن أرباب العقول.

﴿فَقُلْ﴾ لهم في الجواب: ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ اللام للاختصاص العِلمي دون التكويني، فإنّ الغيب والشهادة في ذلك الاختصاصِ سِيّانِ، والمعنى: أنّ ما اقترحتموه زعمتُم أنّه مِن لوازم النبوّة وعلّقتم إيمانكم بنزوله مِن الغيوب المختصّة بالله سبحانه، لا وقوفَ لي عليه. ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ نزولَه ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ أي: لِما يفعل الله بكم لاجترائكم على مِثل هذه العظيمة مِن جحود الآيات واقتراحِ غيرها. وجعلُ ﴿ٱلْغَيْبُ﴾ عبارةً عن الصارف عن إنزال الآياتِ المقترَحةِ،[٢] يأباه ترتيب الأمرِ بالانتظار على اختصاص الغيب به تعالى.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ صِحّةً وسَعةً. ﴿مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾ أي: خالطتْهم حتّى أحسُّوا بسوء أثرها فيهم. وإسناد "المِساس" إلى "الضرّاء" بعد إسنادِ "الإذاقة" إلى ضمير الجلالة مِن الآداب القرآنيّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء، ٢٦/٨٠] ونظائره. قيل: سلّط الله تعالى على أهل مكّةَ القحط سبع سنين حتّى كادوا يَهلِكون ثمّ رحِمهم بالحَيا،[٣] فطفِقوا يطعنون في آياته تعالى ويُعادون رسولَه صلّى الله عليه وسلّم ويَكيدونه،[٤]

---

[١] يونس، ١٠/١٨.

[٢] ذهب إلى ذلك البيضاوي في أنوار التنزيل، ٢/٩٥.

[٣] الحيا: المطر والخِصب. لسان العرب لابن منظور، «حيا».

[٤] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٥١.

وذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾ أي: بالطعن فيها وعدم الاعتداد بها والاحتيال في دفعها.

و﴿إِذَا﴾ الأُولى شرطيّة والثانية جوابها، كأنّه قيل: فاجئوا وقوع المَكر منهم. وتنكير ﴿مَكْرٌ﴾ للتفخيم. و﴿فِى﴾ متعلِّقة بالاستقرار الذي يتعلّق به اللام.

/ ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي: أعجَلُ عقوبةً، أي: عذابه أسرع وصولًا إليكم ممّا يأتي منكم في دَفْع الحقّ.[1] وتسمية العقوبة بـ"المَكر" لوقوعها في مقابَلة مَكرهم وجودًا[2] أو ذِكرًا.[3] [٧٨ظ]

﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ الذين يحفظون أعمالكم. والإضافةُ للتشريف. ﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ أي: مَكرَكم، أو ما تَمكُرونه. وهو تحقيق للانتقام منهم، وتنبيه على أنّ ما دبّروا في إخفائه غيرُ خافٍ على الحفَظة فضلًا عن العليم الخبير.

وصيغة الاستقبال في الفعلين للدلالة على الاستمرار التجدّدي. والجملة تعليل مِن جهته تعالى لأسرعيّة مَكرِه سبحانه غيرُ داخل في الكلام الملقَّن، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف، ١٠٩/١٨]. فإنّ كتابة الرسُل لِما يَمكرون مِن مبادي بُطلان مَكرِهم وتخلّفِ أثره عنه بالكلّيّة، وفيه مِن المبالغة ما لا يُوصَف. وتلوين الخطاب بصرفه عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إليهم للتشديد في التوبيخ.

وقُرئ على لفظ الغَيبة،[4] فيكون حينئذ تعليلًا لما ذُكر أو للأمر.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾[5] كلام مستأنَف مَسوق لبيان جِناية أخرى لهم مَبنيّةٍ على ما مرَّ آنفًا مِن اختلاف حالِهم حسب اختلافِ ما يعتريهم مِن السرّاء والضرّاء،

---

[1] وفي هامش م: أو أُريد بالمكر الاستدراج. «منه».

[2] وفي هامش م: فيكون مِن باب تسمية الشيء باسم سببه. «منه».

[3] وفي هامش م: فيكون مِن باب المُشاكلة. «منه».

[4] قرأ بها يعقوب في رواية روح عنه. النشر لابن الجزري، ٢٨٢/٢.

[5] وفي هامش م: التفات.

أي: يُمكِّنكم مِن السير تمكينًا مستمِرًّا عند الملابَسة به وقبلها. ﴿فِي ٱلْبَرِّ﴾ مُشاةً ورُكبانًا. وقُرئ: "يَنْشُرُكُمْ"[١] مِن النَّشر، ومنه قوله عزّ وعلا: ﴿بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم، ٢٠/٣٠].

﴿وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ﴾ أي: السُّفن، فإنّه جَمْع "فُلْك"[٢] على زِنة "أُسْد" جَمْعِ "أَسَد"،[٣] لا على وزن "قُفْل". وغاية التسيير ليست ابتداءَ ركوبهم فيها؛ بل مضمون الشرطيّة بتمامه، كما يُنبئ عنه إيثارُ الكون المؤذِن بالدوام على الركوب المشعِر بالحدوث.

﴿وَجَرَيْنَ﴾ أي: السُّفن ﴿بِهِم﴾ بالذين فيها. والالتفات إلى الغَيبة للإيذان بما لهم مِن سوء الحال الموجِب للإعراض عنهم، كأنّه يُذكر لغيرهم مَساوئ أحوالِهم ليُعجِّبهم منها ويَستدعيَ منهم الإنكار أو التقبيح.[٤] وقيل:[٥] ليس فيه التفات؛ بل معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ﴾: إذا كان بعضُكم فيها، إذ الخطاب للكلّ ومنهم المسيَّرون في البرّ، فالضمير الغائب عائد إلى ذلك المضاف المقدَّر، كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ﴾ [النور، ٤٠/٢٤]، أي: أو كذي ظُلماتٍ يغشاه موج.[٦] ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ لِيَنةِ الهُبوب موافقةٍ لمَقصِدهم. / ﴿وَفَرِحُوا۟ بِهَا﴾ بتلك الريحِ لطِيبها وموافقتها. [٧٩و]

﴿جَآءَتْهَا﴾ جواب ﴿إِذَا﴾، والضمير المنصوب لـ"الريح الطيّبة"، أي: تلقَّتها واستولت عليها مِن طرف مخالِف لها، فإنّ الهبوب على وَفقها لا يُسمَّى مَجيئًا لريح أخرى عادةً؛ بل هو اشتداد للريح الأولى. وقيل: للفُلك.[٧] والأوّل أظهرُ لاستلزامه للثاني مِن غير عكس؛ لأنّ الهبوب على طريقة الريح اللّيِّنة يُعدّ مَجيئًا بالنسبة إلى الفُلك دون الريح اللّيِّنة، مع أنّه لا يَستتبع تلاطمَ الأمواجِ الموجِب

---

١ قرأ بها ابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٨٢/٢.

٢ كذا ضُبطت في م. | والأحسن للسياق أن تُضبط "فَلَك".

٣ وفي هامش م: و"فُعْل" أخو "فَعَل" في الجمع. «منه».

٤ ط س: والتقبيح.

٥ وفي هامش م: ابن عطيّة. | انظر القول في المحرّر الوجيز لابن عطية ١١٣/٣.

٦ القول في اللباب لابن عادل، ٢٩٢/١٠-٢٩٣.

٧ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٥٣/٢.

لمجيئها مِن كلّ مكان، ولأنّ التهويل في بيان استيلائها على ما فرحوا به وعلّقوا به حبالَ رجائِهم أكثرُ. ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ أي: ذاتُ عَصْف. وقيل: العُصوف مختصٌّ بالريح فلا حاجة إلى الفارق. وقيل: الريح قد يُذكَّر.[1]

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ﴾ في الفُلْك ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: مِن أمكنة مَجيءِ الموج عادةً، ولا بُعدَ في مجيئه مِن جميع الجوانب أيضًا إذ لا يجب أن يكون مجيئُه مِن جهة هُبوبِ الريح فقط؛ بل قد يكون مِن غيرها بحسب أسبابٍ تتّفق له. ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أي: هلَكوا، فإنّ ذلك مَثل في الهَلاك، وأصله إحاطة العدوّ بالحيّ، أو سُدَّت عليهم مَسالكُ الخلاص.

﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ بدل مِن ﴿ظَنُّوٓاْ﴾ بدلَ اشتمال لِما بينهما مِن الملابسة والتلازم، أو استئناف مبنيّ على سؤال تنساق إليه الأذهان، كأنّه قيل: فماذا صنعوا؟ فقيل: دعَوا الله ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ مِن غير أن يُشرِكوا به شيئًا مِن آلهتهم لا مخصِّصين للدعاء به تعالى فقط؛ بل للعبادة أيضًا فإنّهم بمجرَّد تخصيصِ الدعاء به تعالى لا يكونون مخلِصين له الدِّين.

﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا﴾ اللام موطِّئة للقسَم على إرادة القول، أي: قائلين: واللهِ لئن أنجيتنا ﴿مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ الورطة ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ البتّةَ بعد ذلك أبدًا ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لِنعمك التي مِن جُملتها هذه النعمةُ المَسئولة. وقيل: الجملة مفعول ﴿دَعَوُاْ﴾ / لأنّ الدعاء مِن قبيل القول.[2] والأوّل هو الأَولى لاستدعاء الثاني لاقتصار دعائهم على ذلك فقط. وفي قوله: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ مِن المبالغة في الدلالة على كونهم ثابتين في الشكر مثابرين عليه منتظِمين في سِلكِ المنعوتين بالشكر الراسخين فيه ما ليس في أن يقال: لَنَشكُرنَّ. [٧٩ظ]

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ﴾ ممّا غشِيَهم مِن الكُربة، والفاءُ للدلالة على سرعة الإجابة.

---

١ القولان في معالم التنزيل للبغوي، ١٢٨/٤.

٢ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٦/٢.

﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: فاجئوا الفسادَ فيها وسارعوا إليه متراقين في ذلك متجاوزين عمّا كانوا عليه مِن حدود العَيث، مِن قولهم: "بغى الجُرح": إذا ترامى في الفساد.[1] وزيادةُ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ للدلالة على شمول بغيهم لأقطارها. وصيغة المضارع للدلالة على التجدّد والاستمرار.

وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ تأكيد لِما يُفيده البغي، أو معناه: أنّه بغير الحقّ عندهم أيضًا بأن يكون ذلك ظُلمًا ظاهرًا لا يخفى قُبحه على أحد، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة، ٦١/٢]. وأمّا ما قيل مِن أنّه للاحتراز عن البغي بحقّ كتخريب الغُزاة ديارَ الكفرة وقطعِ أشجارهم وإحراقِ زروعهم،[2] فلا يُساعده النظم الكريم؛ لابتنائه على كون البغي بمعنى إفساد صورة الشيء وإبطالِ منفعته دون ما ذُكر مِن المعنى اللائق بحال المفسِدين.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ توجيه للخطاب إلى أولئك الباغين للتشديد في التهديد والمبالغة في الوعيد. ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ﴾ الذي تتعاطَونه. وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ خبرُه، أي: عليكم في الحقيقة لا على الذين تبغون عليهم وإن ظُنَّ كذلك.

وقوله تعالى: ﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بيان لكون ما فيه مِن المَنفعة العاجلةِ شيئًا غيرَ معتدٍّ به سريعَ الزوال دائمَ الوبال. وهو نصب على أنّه مصدر مؤكِّد لفعل مقدَّر بطريق الاستئناف، أي: تتمتَّعون متاعَ الحياة الدنيا.

وقيل: على أنّه مصدر وقع موقِعَ الحال، أي: متمتِّعين بالحياة الدنيا، والعاملُ هو الاستقرار الذي في الخبر لا نفسُ البغي لأنه يُؤدّي إلى الفصل بين المصدر ومعموله بالخبر، ولا يُخبَر عن الموصول / إلّا بعد تمام صلته.[3] وأنت [٨٠و]
خبير بأنّه ليس في تقييد كونِ بغيهم على أنفسهم بحال تمتّعهم بالحياة الدنيا معنًى يعتدّ به.

---

١ انظر: الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٧٤/٦؛ واللباب لابن عادل، ٢٩٤/١٠.

٢ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٦/٢.

٣ الوجه في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٧٤/٦؛ واللباب لابن عادل، ٢٩٧/١٠.

وقيل: على أنّه ظرفُ زمان نحو "مَقدمَ الحاجّ"، أي: زمنَ متاع الحياةِ الدنيا. وفيه ما مرّ بعينه.

وقيل: على أنّه مفعول لفعل دلّ عليه المصدر، أي: تبغون متاعَ الحياة الدنيا.[١] ولا يخفى أنّه لا يدلّ على البغي بمعنى الطلَب، وجعلُ المصدر أيضًا بمعناه ممّا يُخلُّ بجزالة النظمِ الكريم؛ لأنّ الاستئناف لبيان سوءِ عاقبة ما حُكيَ عنهم مِن البغي المفسَّر بالإفساد المفرِط اللائق بحالهم، فأيُّ مناسبةٍ بينه وبين البغي بمعنى الطلب؟ وجعلُ الأوّل أيضًا بمعناه ممّا يجب تنزيهُ ساحةِ التنزيل عنه.

وقيل: على أنّه مفعول له، أي: لأجل متاعِ الحياة الدنيا، والعاملُ ما ذُكر مِن الاستقرار. وفيه أنّ المعلَّل بما ذُكر نفسُ البغي لا كونُه على أنفسهم. وقيل: العامل فيه فعل مدلول عليه بالمصدر، أي: تبغون لأجل مَتاع الحياة الدنيا، على أنّ الجملة مستأنَفة.[٢]

وقيل: على أنّه مفعول صريحٌ للمصدر، و﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ ظرف لَغْوٍ متعلِّقٌ به، والمراد بالأنفس الجنس، والخبر محذوف لطول الكلام، والتقدير: إنّما بغيكم على أبناء جنسكم متاعَ الحياة الدنيا محذور، أو ظاهرُ الفساد، أو نحوُ ذلك.[٣] وفيه ما مرّ مِن ابتنائه على ما يليق بالمقام مِن كون البغي بمعنى الطلَب. نعم لو جُعل نصبه على العِلّة، أي: إنّما بغيُكم على أبناء جنسِكم لأجل متاع الحياةِ الدنيا محذورٌ -كما اختاره بعضُهم- لكان له وجهٌ في الجملة، لكنّ الحقّ الذي تقتضيه جزالة التنزيل إنّما هو الأوّل.

وقُرئ: "مَتَاعُ"[٤] بالرفع على أنّه الخبر والظرف صلةٌ للمصدر، أو خبرٌ ثانٍ، أو خبرٌ لمبتدأ محذوف، أي: هو متاعُ... إلخ، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ﴾ [الأحقاف، ٣٥/٤٦]، أي: هذا بلاغ.

---

[١] الوجهان في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٧٤/٦؛ واللباب لابن عادل، ٢٩٧/١٠.

[٢] الوجهان في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٧٤/٦؛ واللباب لابن عادل، ٢٩٧/١٠.

[٣] الوجه في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٧٤/٦-١٧٥؛ واللباب لابن عادل، ٢٩٧/١٠.

[٤] قرأ بها العشرة إلّا عاصمًا في رواية حفص عنه. النشر لابن الجزري، ٢٨٣/٢.

فالمراد بأنفسهم على الوجه الأوّل: أبناءُ جنسِهم، وإنّما عُبّر عنهم بذلك هزًّا لشفقتهم عليهم وحثًّا لهم على تركِ إيثار التمتّع المذكورِ على حقوقهم. ولا مَجال للحَمْل على الحقيقة؛ لأنّ كون بغيهم وَبالًا عليهم ليس بثابت عندهم حسبما يقتضيه ما حُكي عنهم، ولم يُخبَر به بعدُ حتّى يُجعلَ مِن تتمّة الكلام ويُجعَل كونه متاعًا مقصودَ الإفادةِ، على أنّ عنوان كونه وبالًا عليهم قادح في كونه مَتاعًا فضلًا عن كونه مِن مبادي ثبوته للمبتدأ كما هو المتبادَر مِن السَّوْق، وأمّا كون البغي على أبناء الجنس فمعلومُ الثبوتِ عندهم ومتضمِّن لمَبادي التمتّع مِن أخذ المال والاستيلاء على الناس وغير ذلك.

[٨٠ظ] / وأمّا على الوجهين الأخيرين فلا موجِبَ للعدول عن الحقيقة، فإنّ المبتدأ إمّا نفس البغي أو الضميرُ العائد إليه، مِن حيث هو هو، لا مِن حيث كونُه وبالًا عليهم، كما في صورة كون الظرف صلةً للمصدر، فتدبّر.

وقُرئ: "مَتَاعًا الحَيَاةَ الدُّنيَا".[١] أمّا نصبُ "متاعًا" فعلى ما مرّ، وأمّا نصب "الحَيَاةَ" فعلى أنّه بدلٌ مِن "متاعًا" بدلَ اشتمال. وقيل: على أنّه مفعول به لـ"متاعًا" إذا لم يكن انتصابه على المصدريّة؛ لأنّ المصدر المؤكِّد لا يعمل.[٢]

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «لا تَمكُر ولا تُعِن ماكرًا، ولا تبغِ ولا تُعن باغيًا، ولا تنكُث ولا تُعِن ناكثًا».[٣] وكان يتلوها. وقال محمّد بن كعب: «ثلاثٌ مَن كُنّ فيه كُنّ عليه: البغي والنّكث والمَكر، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾، ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنعام، ١٢٣/٦]، ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح، ١٠/٤٨]».[٤] وعنه صلّى الله عليه وسلّم: «أسرعُ الخيرِ ثوابًا صلةُ الرَّحِم، وأعجلُ الشرّ عقابًا البغيُ واليمينُ الفاجرة».[٥]

---

١ قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن أبي إسحاق. الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٧٥/٦؛ واللباب لابن عادل، ٢٩٨/١٠.

٢ القول في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٧٥/٦؛ واللباب لابن عادل، ٢٩٨/١٠.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٢٥٣/٢. وانظر لتفصيل تخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ١٢١/٢.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٢٥٣/٢؛ اللباب لابن عادل، ٢٩٧/١٠.

٥ مسند إسحاق ابن راهويه، ١٠٢٧/٣ (١٧٧٧)؛ سنن ابن ماجه، ٢٩٧/٥ (٤٢١٢)؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٥٣/٢.

ورُوي «اِثنتان يُعجِّلهما الله تعالى في الدنيا: البغيُ، وعقوقُ الوالدين».[١] وعن ابن عبّاس رضيَ الله عنهما «لو بغى جبلٌ على جبل لدُكَّ الباغي».[٢]

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ عطفٌ على ما مرّ مِن الجملة المستأنَفة المقدَّرة، كأنّه قيل: تتمتَّعون متاعَ الحياة الدنيا ثمّ ترجِعون إلينا. وإنّما غُيّر السَّبك إلى الجملة الاسميّة مع تقديم الجارّ والمجرور للدلالة على الثبات والقصر.

﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا على الاستمرار مِن البغي، وهو وعيد بالجزاء والعذاب، كقول الرجل لمن يتوعَّده: "سأخبركَ بما فعلتَ". وفيه نكتة خفيّة مَبنيّة على حِكمة أبيّة، وهي أن كلّ ما يظهَر في هذه النشأة مِن الأعيان والأعراض فإنّما يظهَر بصورة مغايرةٍ لصورته الحقيقيّة التي بها يظهَر في النشأة الآخرة، فإنّ المعاصيَ مثلًا سُموم قاتلةٌ قد برزت في الدنيا بصُوَر تستحسنها نفوس العُصاةِ، وكذا الطاعاتُ مع كونها أحسنَ الأحاسن قد ظهرت عندهم بصُوَر مكروهة، ولذلك قال عليه السلام: «حُفَّت الجنّة بالمَكاره وحُفَّت النار بالشهوات».[٣]

فالبغي في هذه النشأة وإن برز بصورة تشتهيها البغاةُ وتستحسنها الغواةُ لتمتّعهم به مِن حيث أخذُ المال والتشفّي مِن الأعداء ونحو ذلك، لكنّ ذلك ليس بتمتّع في الحقيقة؛ بل هو تضرُّر مِن حيث لا يحتسبون، وإنّما يظهر لهم ذلك عند إبراز ما كانوا يعملونه مِن البغي بصورته الحقيقيّة المُضادّة لِما كانوا يُشاهِدونه على ذلك مِن الصورة، وهو المراد بالتَنبِئة المذكورة. والله سبحانه أعلم.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

---

١ بلفظ قريب في مسند أحمد، ١٥/٣٤-١٦ (٢٠٣٨٠)؛ والأدب المُفرد للبخاري، ص ٢٠٧ (٥٠٩). وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٢٥٣/٢.

٢ بلفظ قريب في شعب الإيمان للبيهقي، ٦٤/٩ (٦٢٦٦). وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٢٥٣/٢-٢٥٤. وانظر لتفصيل تخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ١٢٣/٢.

٣ مسند أحمد، ٥٠٧/١٤ (٨٩٤٤)؛ صحيح مسلم، ٢١٧٤/٤ (٢٨٢٢)؛ سنن الترمذي، ٦٩٣/٤ (٢٥٥٩).

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ كلام مستأنَف سِيق لبيان شأن الحياة الدنيا وقصرِ مدّة التمتّع بها وقُربِ زمان الرجوع الموعود، وقد شُبّه حالها العجيبة الشأنِ البديعةُ المثالِ المنتظمةُ لغرابتها في سِلك الأمثال / في سرعة تقضّيها وانصرامِ [٨١و] نعيمها غِبَّ إقبالِها واغترارِ الناسِ بها، بحال ما على الأرض مِن أنواع النبات في زوال رونقِها ونضارتِها فجأةً وذهابِها حُطامًا لم يبق لها أثرٌ أصلًا، بعد ما كانت غضّةً طريّة قد التفّ بعضُها ببعض وزُيّنت الأرض بألوانها، وتقوّت بعد ضعفها بحيث طَمِع الناسُ وظنُّوا أنّها سَلِمت مِن الجوائح.

وليس المشبَّه به ما دخله الكاف في قوله عزّ وجلّ: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾؛ بل ما يُفهَم مِن الكلام، فإنّه مِن التشبيه المركّب. ﴿ممّا يأكُلُ الناس والأنعام﴾ مِن البقول والزروع والحشيش.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ جُعلت الأرض في تزيّنها بما عليها مِن أصناف النباتات وأشكالها وألوانها المختلِفة المونِقة آخذةً زُخرفَها على طريقة التمثيل بالعَروس التي قد أخذت مِن ألوان الثياب والزِّيَن فتزيَّنت بها.

﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ أصله "تَزيَّنتْ" فأُدغِم. وقُرئَ على الأصل،[١] وقُرئَ: "وأزْيَنَتْ"[٢] كـ"أغيَلَتْ" مِن غير إعلال، والمعنى: صارت ذاتَ زينة، و"ازْيَانَّتْ"[٣] كـ"ابْيَاضَّتْ". ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ متمكِّنون مِن حَضدها ورَفْع غَلَّتها.

﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾ جواب ﴿إذا﴾، أي: ضرَب زرعَها ما يجتاحه مِن الآفات والعاهات. ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا﴾ أي: زرعَها وسائرَ ما عليها ﴿حَصِيدًا﴾ أي: شبيهًا بما حُصد مِن أصله. ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾ كأنّه لم يَغنَ زَرعها، والمضافُ

---

١ قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن مسعود ويحيى وإبراهيم والأعمش وزيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٥؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٥٧.

٢ قراءة شاذّة، مَرويّة عن مالك بن دينار والحسن وقتادة وأبي العالية والأعرج وعبد الوهّاب ونصر بن عاصم ويونس وحميد وعن أبي عمرو وكرداب عن رويس. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٥؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٥٦.

٣ قراءة شاذّة، مَرويّة عن أبي عثمان النهدي وأبي العالية الرّياحي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦١؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٥٧.

محذوف للمبالغة. وقُرئ بتذكير الفعل.[١] ﴿بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾ أي: فيما قَبلُ بزمان قريبٍ، فإنّ الأمس مَثَل في ذلك، كأنّه قيل: لم تغنَ آنفًا.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثلَ ذلك التفصيل البديع ﴿نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: الآيات القرآنية التي مِن جملتها هذه الآيات المنبّهةُ على أحوال الحياة الدنيا، أي: نُوضِّحها ونُبيِّنها ﴿لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ / في تضاعيفها ويقفون على معانيها. وتخصيص تفصيلها بهم [٨١ظ]
لأنّهم المنتفِعون بها. ويجوز أن يراد بـ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ ما ذُكر في أثناء التمثيل مِن الكائنات والفاسدات، وبـ"تفصيلها" تصريفُها على الترتيب المَحكي إيجادًا وإعدامًا، فإنّها آيات وعلامات يَستدِلّ بها مِن يتفكّر فيها على أحوال الحياة الدنيا حالًا ومآلًا.

﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٥﴾

﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ ترغيب للناس في الحياة الأخرويّة الباقية إثرَ ترغيبهم عن الحياة الدنيويّة الفانية، أي: يدعو الناس جميعًا إلى دار السلامة عن كلّ مكروه وآفة وهي الجنّة، وإنّما ذُكرت بهذا الاسم لذِكر الدنيا بما يُقابله مِن كونها مِعرَضًا[٢] للآفات، أو إلى دار الله تعالى، وتخصيص الإضافةِ التشريفيّة بهذا الاسم الكريمِ للتنبيه على ذلك؛ أو إلى دار يُسلِّم الله تعالى أو الملائكةُ فيها على مَن يدخُلها أو يُسلِّم بعضهم على بعض.

﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ هدايتَه منهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ مُوصِل إليها، وهو الإسلام والتزوّد بالتقوى. وفي تعميم الدعوة وتخصيص الهداية بالمشيئة دليل على أنّ الأمر غيرُ الإرادة، وأنّ مَن أصرّ على الضلالة لم يُرِد الله رُشده.

﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٦﴾

﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ أي: أعمالَهم، أي: عملوها على الوجه اللائق، وهو حسنها

---

١ قراءة شاذّة، مَرويّة عن الحسن وأبي رجاء وقتادة وابن مِقسَم. **شواذ القرآن** لابن خالويه، ص ٦١؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ٩٥٢.

٢ المِعرَض: الثوب الذي تُعرَض فيه الجارية وتُجلَى فيه. **لسان العرب** لابن منظور، «عرض».

الوصفي المستلزِم لحُسنها الذاتي، وقد فسَّره رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بقوله: «أن تعبُد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك».[١] ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: المَثوبة الحُسنى ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ أي: وما يزيد على تلك المَثوبة تفضّلًا لقوله عزّ اسمه: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء، ١٧٣/٤]. وقيل: الحسنى مِثلُ حسناتِهم، والزيادة عَشر أمثالِها إلى سبعمائة ضِعف وأكثر.[٢] وقيل: الزيادة مَغفرة مِن الله ورِضوان.[٣] وقيل: الحُسنى: الجنّة، والزيادة اللقاء.[٤]

[٨٢و] ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ﴾ / أي: لا يغشاها ﴿قَتَرٌ﴾ غُبرة فيها سواد ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي: أثرُ هوانٍ وكسوفُ بالٍ،[٥] والمعنى: لا يَرهقهم ما يَرهَق أهلَ النار، أو لا يَرهَقهم ما يُوجِب ذلك مِن الحُزن وسوء الحال. والتنكير للتحقير، أي: شيء منهما. والجملة مستأنَفة لبيان أَمْنهم مِن المَكاره إثرَ بيان فوزهم بالمَطالب، والثاني وإن اقتضى الأوّلَ إلّا أنّه ذُكر إذكارًا بما يُنقذِهم الله تعالى برحمته.

وتقديم المفعول على الفاعل للاهتمام ببيان أنّ المَصون مِن الرَّهَق أشرفُ أعضائِهم، وللتشويق إلى المؤخَّر، فإنّ ما حقُّه التقديمُ إذا أُخِّر تبقى النفس مترقِّبةً لوروده، فعند وروده عليها يتمكّن عندها فَضْلَ تمكّن، ولأنّ في الفاعل ضربَ تفصيل، كما في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن، ٢٢/٥٥]، وقولِه عزّ وجلّ: ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود، ١٢٠/١١].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المَذكورين باعتبار اتّصافهم بالصفات المذكورة، وما في اسم الإشارة مِن معنى البُعدِ للإيذان بعُلوّ درجتهم وسُموّ طبقتهم، أي:

---

١ صحيح البخاري، ١٩/١ (٥٠)؛ صحيح مسلم، ٣٦/١ (٨).

٢ مَرويّ عن ابن عبّاس والحسن. انظر: جامع البيان للطبري، ١٦٣/١٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٣٠/٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٥٥/٢.

٣ مَرويّ عن مجاهد. انظر: جامع البيان للطبري، ١٦٤/١٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٣٠/٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٥٥/٢.

٤ مَرويّ عن جماعة مِن الصحابة، منهم: أبو بكر الصدِّيق وحذيفة وأبو موسى وعبادة بن الصامت رضي الله عنهم. وهو قول الحسن وعكرمة وعطاء ومقاتل والضحّاك والسدّي. انظر: جامع البيان للطبري، ١٥٦/١٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٣٠/٤.

٥ وفي هامش م: ولا بدّ أن يكون هذا أدنى مِن القتر.

أولئك الموصوفون بما ذُكر مِن النعوت الجميلة الفائزون بالمَثوبات الناجون مِن المَكاره. ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ بلا زوال دائمون بلا انتقال.

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٧﴾

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: الشركَ والمعاصيَ، وهو مبتدأ بتقدير المضاف، خبرُه قوله تعالى: ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ أي: جزاءُ الذين كسبوا السيّئاتِ أن يُجازى سيّئةً واحدةً بسيّئة مثلها، لا يُزاد عليها كما يُزاد في الحسنة. وتغيير السبك[١] لمراعاة ما بين الفريقين مِن كمال التنائي والتبايُن. وإيراد الكسب للإيذان بأنّ ذلك إنّما هو لسُوء صنيعِهم وبسبب جنايتهم على أنفسهم. أو الموصول معطوف على الموصول الأوّل، كأنّه قيل: وللذين كسبوا السيّئاتِ جزاءُ سيّئةٍ بمثلها، كقولك: "في الدار زيدٌ والحجرةِ عمروٌ"،[٢] / وفيه دلالة على أنّ المراد بالزيادة الفضلُ. [٨٢ظ]

﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ وأيُّ ذِلّة؟ كما يُنبئ عنه التنوين التفخيميُّ. وفي إسناد الرَّهَق إلى أنفسهم دون وجوههم إيذان بأنّها محيطة بهم غاشية لهم جميعًا. وقُرئ: "يَرهَقُهُمْ"[٣] بالياء التحتانيّة.

﴿مَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي: لا يَعصِمُهم أحد مِن سخطه تعالى وعذابه، أو ما لهم مِن عنده تعالى مَن يعصمهم كما يكون للمؤمنين، وفي نفي العاصم مِن المبالغة في نفي العِصمة ما لا يخفى. والجملة مستأنَفة، أو حال مِن ضمير ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾.

﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ لفَرط سوادِها وظُلمتِها. ﴿مُظْلِمًا﴾ حال مِن الليل، والعاملُ فيه: ﴿أُغْشِيَتْ﴾، لأنّه العامل في ﴿قِطَعًا﴾، وهو موصوف[٤]

---

١ وفي هامش م: حيث لم يقل: وللذين كسبوا السيّئاتِ السوآى.

٢ وفي هامش م: ويُسمّيه النحاة عطفًا على معمولَي عاملين، وفيه ثلاثة مذاهب: التجويز مُطلقًا وهو قول الفرّاء، والمنع مُطلقًا وهو قول سيبويه، والتفصيل بين أن يكون المُتقدّم مجرورًا فيجوز، كما فيما نحن فيه، أو لا، فيمتنع نحو إنّ زيدًا في الدار وعمرًا القصرِ، أي: وإنّ عمرًا في القصر. «منه». | والكلام كلّه بلفظ قريب في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٨١/٦؛ واللباب لابن عادل، ٣٠٩/١٠.

٣ قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن مِقسَم. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٥٨.

٤ وفي هامش م: لفظ ﴿قِطَعًا﴾. «منه».

بالجارّ والمجرور، والعاملُ في الموصوف عاملٌ في الصفة؛ أو معنى الفعلِ في ﴿مِنَ ٱلَّيۡلِ﴾. وقُرئ: "قِطْعًا"[1] بسكون الطاء: وهو طائفة مِن الليل، قال:

افتحي الباب وانظُري في النجومِ كَم علينا مِن قِطْعِ ليلٍ بهيمِ[2]

فيَجوز كون ﴿مُظۡلِمًا﴾ صفةً له أو حالًا منه. وقُرئ: "كَأنّما يُغْشَى وُجُوهَهُمْ قِطْعٌ مِنَ اللَّيلِ مُظلِمٌ".[3] والجملة كما قبلها مستأنَفة، أو حال مِن ضمير ﴿تَرۡهَقُهُمۡ﴾. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الموصوفون بما ذُكر مِن الصفات الذميمة ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، وحيث كانت الآية الكريمة في حقّ الكفّار بشهادة السِّياق والسِّباقِ لم يكن فيها تمسُّك للوعيديّة.

﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ٢٨﴾

﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ﴾ كلام مستأنَف مَسوق لبيان بعضٍ آخرَ مِن أحوالهم الفظيعة. وتأخيره في الذِّكر مع تقدّمه في الوجود على بعض أحوالهم المَحكيّة سابقًا للإيذان باستقلال كلّ مِن السابق واللاحق بالاعتبار، ولو رُوعيَ الترتيب الخارجي لَعُدَّ الكلُّ شيئًا واحدًا، كما مرّ في قصّة البقرة، ولذلك فُصِل عمّا قبله. و﴿يَوۡمَ﴾ منصوب على المفعوليّة بمضمَر، أي: أنذِرْهم أو ذكِّرْهم.

وضمير ﴿نَحۡشُرُهُمۡ﴾ لكلا الفريقين الذين أحسنوا والذين كسبوا السيّئات؛ لأنّه المتبادر مِن قوله تعالى: ﴿جَمِيعٗا﴾، ومِن أفراد الفريق الثاني بالذِّكر في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ أي: نقول للمشركين مِن بينهم، ولأنّ توبيخهم وتهديدهم على رءوس الأشهاد أفظَعُ، / والإخبار بحَشْر الكلّ في تهويل [٨٣و] اليومِ أدخَلُ، وتخصيصُ وصف إشراكِهم بالذِّكر في حيّز الصلة مِن بين سائر

[1] قرأ بها ابن كثير والكسائي ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٣.

[2] ما عرفتُ قائله. وهو بلا نسبة في الصحاح للجوهري، «قطع»؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٥٨٣ (الحجر، ١٥/٦٥)؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٦/١٨٧؛ واللباب لابن عادل، ١٠/٣١١.

[3] قراءة شاذّة، مَرويّة عن أُبيّ بن كعب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦١.

ما اكتسبوه مِن السيّئات لابتناء التوبيخ والتقريع عليه مع ما فيه مِن الإيذان بكونه معظمَ جناياتِهم وعمدةَ سيّئاتِهم، وقيل: للفريق الثاني خاصّةً، فيكون وضع الموصول مَوضِع الضمير لِما ذُكر آنفًا.

﴿مَكَانَكُمْ﴾ نُصب على أنّه في الأصل ظرف لفعل أُقيم مُقامه لا على أنّه اسم فعل، وحركتُه حركة بناءٍ كما هو رأي الفارسي،[١] أي: الزَموه حتّى تنظُروا ما يُفعَل بكم. ﴿أَنتُمْ﴾ تأكيد للضمير المنتقَل إليه مِن عامله لسدِّه مَسدَّه، ﴿وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ عطفٌ عليه. وقُرئ بالنصب[٢] على أنّ الواو بمعنى "مع".

﴿فَزَيَّلْنَا﴾ مِن "زِلتُ الشيء عن مكانه أَزِيلُه"، أي: أزلتُه، والتضعيف للتكثير لا للتعدية. وقُرئ: "فَزَايَلْنَا"[٣] بمعناه نحو "كلَّمتُه وكالَمتُه"، وهو معطوف على ﴿نَقُولُ﴾. وإيثار صيغةِ الماضي للدلالة على التحقّق المورّث لزيادة التوبيخ والتحسير، والفاء للدلالة على وقوع التزييل ومَباديه عقيبَ الخطاب مِن غير مُهلة إيذانًا بكمال رخاوة ما بين الفريقين مِن العلاقة والوُصلة، أي: ففرَّقنا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وقطَّعنا أقرانَهم والوُصَل التي كانت بينهم في الدنيا، لكن لا مِن الجانبين؛ بل مِن جانب العَبَدة فقط، لعدم احتمال شمول الشركاء للشياطين كما سيجيء، فخابت آمالهم وانصرمت عُرى أطماعِهم، وحصل لهم اليأس الكلّيُّ مِن حصول ما كانوا يَرجونه مِن جهتهم. والحال وإن كانت معلومةً لهم مِن حين الموت والابتلاء بالعذاب لكنّ هذه المرتبة مِن اليقين إنّما حصلت عند المشاهدة والمشافهة.

وقيل: المراد بالتزييل التفريق الحسيُّ،[٤] أي: فباعَدنا بينهم بعد الجَمْع في الموقف وتبرُّؤ شركائهم منهم ومِن عبادتهم، كما في قوله تعالى: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ [غافر، ٤٠/٧٣-٧٤]، فالواو حينئذ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾ حاليّةٌ بتقدير كلمة "قد" عند مَن يشترطها وبدونه عند غيره، لا عاطفةٌ كما في التفسير الأوّل، لاستدعاء المحاوَرة المحاضَرة الفائتة بالمباعَدة.

---

١ هو اسم فعل مبنيٌّ عند أبي عليّ. انظر: **الحلبيّات** لأبي عليّ الفارسي، ص ١٠٤.

٢ قراءة شاذّة، غير منسوبة. **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٢٥٦؛ و**اللباب** لابن عادل، ١٠/٣١٥.

٣ قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن أبي عبلة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٢٦.

٤ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٢٥٦.

وليس في ترتيب التزييل بهذا المعنى على الأمر بلزوم المكان ما في ترتيبه عليه بالمعنى الأوّل مِن النكتة المذكورة ليُصار لأجل رعايتها إلى تغيير الترتيب الخارجي، فإنّ المباعَدة بعد المحاوَرة حتمًا، وأمّا قَطْع الأقران والعلائق فليس كذلك؛ بل ابتداؤه حاصل مِن حين الحشر؛ بل بعضُ مراتبه حاصل قبله أيضًا، وإنّما الحاصل عند المحاوَرة أقصاها كما أشيرَ إليه، فلا اعتدادَ بما في تقديمه مِن التغيير لاسيّما مع رعاية ما ذُكر مِن النكتة، ولو سُلِّم تأخُّر جميع مراتبه مِن المحاوَرة فمراعاة تلك النكتة كافية في استدعاء تقديمه عليها. ويجوز أن تكون حاليّةً على هذا التقدير أيضًا.

والمراد بالشركاء، قيل: الملائكة وعُزير والمَسيح وغيرهم ممّن عبدوه مِن أولي العِلم.[١] ففيه تأييد لرجوع الضميرِ إلى الكلّ. وقولهم: ﴿مَا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ عبارة عن تبرّئهم مِن عبادتهم وأنّهم إنّما عبدوا في الحقيقة أهواءَهم وشياطينَهم الذين أغوَوهم، لأنّها الآمرة لهم بالإشراك دونهم كقولهم: ﴿سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ الآية، [سبأ، ٤١/٣٤]. وقيل: الأصنام يُنطِقها الله الذي أنطق كلَّ شيء فتُشافِههم بذلك مكانَ الشفاعةِ التي كانوا يتوقّعونها.[٢]

﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ ۝٢٩﴾

[٨٣ظ] / ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾، فإنّه العليم الخبير. ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ﴾ أي: عن عبادتكم لنا، وتركُه[٣] للظهور وللإيذان بكمال الغفلة عنها. والغفلة عبارةٌ عن عدم الارتضاء وإلّا فعدمُ شعور الملائكة بعبادتهم لهم غيرُ ظاهر، وهذا يقطع احتمال كون المراد بالشركاء الشّياطينَ كما قيل،[٤] فإنّ ارتضاءهم بإشراكهم ممّا لا ريب فيه، وإن لم يكونوا مُجبِرين لهم على ذلك. و﴿إن﴾ مخفَّفة مِن "إنّ"، واللام فارقة.

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝٣٠﴾

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٩/٢.

٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٩/٢.

٣ يعني ترك لفظ "لنا".

٤ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٩/٢.

﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك المَقام الدَّهِش، أو في ذلك الوقت على استعارة ظرفِ المكان للزمان. ﴿تَبْلُواْ﴾ أي: تختبِر وتذوق ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ مؤمنةً كانت أو كافرةً سعيدةً أو شقيّةً ﴿مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ مِن العمل وتُعاينه بكُنهه مستتبِعًا لآثاره مِن نفع أوضُرّ وخيرٍ أو شرّ، وأمّا ما علِمتْ مِن حالها مِن حين الموتِ والابتلاءِ بالعذاب في البرزخ فأمرٌ مجمَل.

وقُرئ: "نَبلُو" بنون العظمةِ ونصبِ ﴿كُلَّ﴾ وإبدالِ ﴿مَا﴾ منه،[1] أي: نعاملها معاملةَ مَن يبلوها ويتعرَّف أحوالَها مِن السعادة والشقاوة باختبار ما أسلفت مِن العمل. ويجوز أن يُراد: نُصيبُ بالبلاء، أي: العذاب كلَّ نفس عاصية بسبب ما أسلفت مِن الشرّ، فيكون ﴿مَا﴾ منصوبة بنزع الخافض. وقُرئ: "تَتْلُو"،[2] أي: تتبَع، لأنّ عملها هو الذي يَهديها إلى طريق الجنّة أو إلى طريق النارِ، أو تقرأ في صحيفة أعمالِها ما قدَّمت مِن خير أو شرّ.

﴿وَرُدُّوٓاْ﴾ الضمير للذين أشركوا على أنّه معطوف على "زيَّلنا" وما عُطف عليه، وقوله عزّ وجلّ: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ﴾... إلخ، اعتراض في أثناء الحكايةِ مقرِّر لمضمونها. ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إلى جزائه وعقابه. ﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾ ربّهم ﴿ٱلْحَقِّ﴾ أي: المتحقِّق الصادق ربوبيّته لا ما اتّخذوه ربًّا باطلًا. وقُرئ: "الحقَّ"[3] بالنصب على المدح، كقولهم: "الحمدُ لله أهلَ الحمد"، أو على المصدر المؤكِّد.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ وضاع، أي: ظهر ضَياعه وضلاله، لا أنّه كان قبل ذلك غيرَ ضالّ، أو ضلّ في اعتقادهم[4] أيضًا: ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ مِن أنّ آلهتهم تشفَع لهم، أو ما كانوا يدَّعون أنّها آلهة. / هذا وجُعل الضمير في ﴿رُدُّوٓاْ﴾ للنفوس المدلول عليها [٨٤و]
بـ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ على أنّه معطوف على ﴿تَبْلُواْ﴾، وأنّ العدول إلى الماضي للدلالة على التحقّق والتقرّر، وأنّ إيثار صيغة الجمع للإيذان بأنّ ردّهم إلى الله تعالى

---

[1] قراءة شاذّة، مَرويّة عن أبي حاتم عن هارون عن عاصم. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٦٠.

[2] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٨٣/٢.

[3] قراءة شاذّة، مَرويّة عن زيد بن عليّ والحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٦؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٦٠.

[4] وفي هامش م: أي: اعتقادهم الجازم، وقد مرّ تفصيل الأمر. «منه».

يكون على طريقة الاجتماع لا يُلائمه التعرّض لوصف الحقّيّة في قوله تعالى: ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ فإنّه للتعريض بالمردودين حسبما أشيرَ إليه، ولئن اكتُفيَ فيه بالتعريض ببعضهم،[1] أو حُمل ﴿ٱلْحَقِّ﴾ على معنى العدل في الثواب والعقاب فقوله عزّ وجلّ: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ ممّا لا مجال فيه للتدارك قطعًا، فإنّ ما فيه مِن الضمائر الثلاثة للمشركين، فيلزم التفكيك حتمًا. وتخصيص ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ بالنفوس المشركة مع عموم البلوى للكلّ يأباه مقام تهويل المقام،[2] والله تعالى أعلَم.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾

﴿قُلْ﴾ أي: لأولئك المشركين الذين حُكيت أحوالهم وبيّن ما يُؤدّي إليه أعمالهم احتجاجًا على حقّيّة التوحيد وبُطلانِ ما هم عليه مِن الإشراك. ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: منهما جميعًا، فإنّ الأرزاق تحصُل بأسباب سماويّة وموادَّ أرضيّة، أو مِن كلّ واحدة منهما توسعةً عليكم. وقيل: ﴿مِن﴾ لبيان كلمة ﴿مَن﴾ على حذف المضافِ، أي: مِن أهل السماء والأرض.[3]

﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ "أم" منقطِعة، وما فيها مِن كلمة "بل" للإضراب عن الاستفهام الأوّل، لكن لا على طريقة الإبطال؛ بل على وجه الانتقال وصرفِ الكلام عنه إلى استفهام آخرَ تنبيهًا على كفايته فيما هو المقصود، أي: مَن يستطيع خَلْقهما وتسويتهما على هذه الفطرة العجيبة، أو مَن يحفظهما مِن الآفات مع كثرتها وسرعة انفعالهما مِن أدنى شيء يُصيبهما؟

﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ أي: ومَن يُحيي ويُميت أو ومَن يُنشئ الحيوان مِن النُّطفة والنُّطفة مِن الحيوان. ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: ومَن يلي تدبير أمر العالم جميعًا، وهو تعميم بعد تخصيصِ بعضٍ ما / اندرج [٨٤ظ] تحته مِن الأمور الظاهرة بالذِّكر. ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ بلا تلعثُم ولا تأخير: ﴿ٱللَّهُ﴾.

---

[1] وفي هامش م: أي ببعض النفوس الشاملة للكلّ، وهو للمشركين خاصّة. «منه».
[2] وفي هامش م: أي: ﴿هُنَالِكَ﴾. «منه».
[3] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٩/٢.

إذ لا مجال للمُكابرة لغاية وضوحه. والخبر محذوف، أي: الله يفعل ما ذُكر مِن الأفاعيل لا غيرُه.

﴿فَقُلْ﴾ عند ذلك تبكيتًا لهم. ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الهمزة لإنكار عدم الاتّقاء بمعنى إنكار الواقع، كما في: أَتضرِب أباكَ؟ لا بمعنى إنكار الوقوع كما في: أَأَضرِبُ أبي؟ والفاء للعطف على مقدَّر ينسحِب عليه النظم الكريم، أي: أتعلَمون ذلك فلا تقُون أنفسَكم عذابَه الذي ذُكر لكم بما تتعاطَونه مِن إشراككم به ما لا يُشاركه في شيء ممّا ذُكر مِن خواصّ الإلهيّة.

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿فَذَٰلِكُمُ﴾ فذلكة لِما تقدَّم، أي: ذلكم الذي اعترفتُم باتّصافه بالنعوت المذكورة. وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ﴾ خبره. وقوله تعالى: ﴿رَبُّكُمُ﴾ أي: مالككم ومتولّي أموركم على الإطلاق بدلٌ منه أو بيان له. وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ صفة له، أي: ربُّكم الثابت ربوبيّته والمتحقِّق ألوهيّته تحقُّقًا لا ريبَ فيه.[١]

﴿فَمَاذَا﴾ يجوز أن يكون الكلُّ اسمًا واحدًا قد غُلّب فيه الاستفهامُ على اسم الإشارة، وأن يكون "ذا" موصولًا بمعنى: "الذي"، أي: ما الذي ﴿بَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾؟ أي: غيرُه بطريق الاستعارة. وإظهار ﴿ٱلْحَقِّ﴾ إمّا لأنّ المراد به غيرُ الأوّل[٢] وإمّا لزيادة التقرير ومراعاة كمال المقابلة بينه وبين الضلال.

والاستفهام إنكاري بمعنى إنكار الوقوع ونفيه، أي: ليس غيرُ الحقّ ﴿إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ الذي لا يَختاره أحد، فحيث ثبَت أنّ عبادة مَن هو منعوت بما ذُكر مِن النعوت الجميلة حقٌّ ظهَر أنّ ما عداها مِن عبادة الأصنام ضلال مَحض؛ إذ لا واسطة بينهما. وإنّما سُمّيت ضلالًا مع كونها مِن أعمال الجوارح باعتبار ابتنائِها على ما هو ضلال[٣] مِن الاعتقاد والرأيِ، هذا على تقدير كونِ الحقّ عبارةً عن التوحيد، وأمّا على تقدير كونه عبارةً عن الأوّل، فالمراد بالضلال

---

[١] وفي هامش م: مُستفاد مِن صيغة ﴿ٱلْحَقُّ﴾. «منه».
[٢] وفي هامش م: كما ستقف عليه. «منه».
[٣] وفي هامش م: أي عبادة الأصنام.

[٨٥و] / هو الأصنام لا عبادتها. والمعنى: فماذا بعد الربّ الحقّ الثابت ربوبيّته إلّا الضلالُ، أي: الباطل الضائع المضمَحلُّ، وإنّما سُمّي بالمَصدر مبالغةً، كأنّه نفْس الضلال والضياع. وهذا أنسَب بقوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام، ٦/٢٤] على التفسير الثاني.

﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ استفهام إنكاري بمعنى إنكار الواقع واستبعاده والتعجيب منه، وفيه مِن المبالغة ما ليس في توجيه الإنكار إلى نفس الفعل، لأنّ كلّ موجود لا بدّ مِن أن يكون وجوده على حال مِن الأحوال قطعًا، فإذا انتفى جميع أحوال وجوده فقد انتفى وجوده على الطريق البرهاني كما مرّ مرارًا.

و"الفاء" لترتيب الإنكار على ما قبله، أي: كيف تُصرَفون مِن الحقّ الذي لا محيدَ عنه وهو التوحيد[١] إلى الضلال عن السبيل المستبين وهو الإشراكُ وعبادةُ الأصنام؟ أو مِن عبادة ربّكم الحقّ[٢] الثابت ربوبيّته إلى عبادة الباطل الذي سمعتُم ضلاله وضياعه في الآخرة؟ وفي إيثار صيغة المَبنيّ للمفعول إيذان بأنّ الانصراف مِن الحقّ إلى الضلال ممّا لا يَصدُر عن العاقل بإرادته، وإنّما يقع عند وقوعه بالقسر مِن جهة صارف خارجي.

﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٣٣﴾

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما حقّت الربوبيّة لله تعالى، أو كما أنّه ليس بعد الحقّ إلّا الضلال، أو أنّهم مصروفون عن الحقّ. ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ وحُكمه وقضاؤه ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾ أي: تمرّدوا في الكفر وخرجوا مِن أقصى حدوده ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بدل مِن "الكلمة"، أو تعليل لحقّيّتها، والمرادُ بها العِدَة بالعذاب.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ٣٤﴾

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ احتجاج آخرُ على حقّيّة التوحيد وبطلانِ الإشراكِ

---

١ وفي هامش م: على التفسير الأوّل للحقّ.
٢ وفي هامش م: على التفسير الثاني.

بإظهار كونِ شركائهم بمَعزِل مِن استحقاق الإلهيّة ببيان اختصاصِ خواصِّها مِن بَدء الخلق وإعادتِه به سبحانه وتعالى. وإنّما لم يُعطَف على ما قبله إيذانًا باستقلاله في إثبات المطلوب. والسؤال للتبكيت والإلزام، وقد جُعلت هَليّةُ الإعادة وتحقُّقها لوضوح مكانها وسُنوح برهانها بمَنزلة بدءِ الخَلْق فنُظِمت في سِلكه حيث قيل: / ﴿مَن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ إيذانًا بتلازمهما وجودًا وعِلمًا يَستلزم الاعترافُ به الاعترافَ بها، وإن صدّهم عن ذلك ما بهم مِن المُكابرة والعِناد. [٨٥ظ]

ثمّ أُمر صلّى الله عليه وسلّم بأن يُبيّن لهم مَن يفعل ذلك فقيل له: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: هو يفعلهما لا غيرُ كائنًا ما كان، لا بأن ينوب عليه السلام عنهم في ذلك كما قيل،[١] لأنّ القول المأمور به غيرُ ما أُريد منهم مِن الجواب وإن كان مستلزِمًا له، إذ ليس المسئول عنه مَن يبدأ الخلق ثمّ يعيده، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الرعد، ١٦/١٣]، حتّى يكونَ القول المأمور به عينَ الجواب الذي أُريد منهم، ويكونَ عليه السلام نائبًا عنهم في ذلك؛ بل إنّما هو وجود مَن يفعل البدء والإعادة مِن شركائهم، فالجواب المطلوبُ منهم: لا، لا غيرُ.

نعم أُمر صلّى الله عليه وسلّم بأن يُضمِّنه مقالتَه إيذانًا بتعيّنه[٢] وتحتُّمه، وإشعارًا بأنّهم لا يجترئون على التصريح به مَخافة التبكيت وإلقامِ الحجَر، لا مُكابرةً ولَجاجًا،[٣] فتدبّر. وإعادة الجملة في الجواب بتمامها غيرَ محذوفة الخبر كما في الجواب السابق لمَزيد التأكيد والتحقيق.

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ الإفك: الصَّرف والقلب عن الشيء، وقد يُخصّ بالقلب عن الرأي، وهو الأنسب بالمقام، أي: كيف تُقلبون مِن الحقّ إلى الباطل. والكلام فيه كما ذُكر في ﴿تُصْرَفُونَ﴾.[٤]

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٥٨/٢.
٢ وفي هامش م: للجوابيّة. «منه».
٣ كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٩/٢.
٤ يونس، ٣٢/١٠.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ احتجاج آخرُ على ما ذُكر، جيء به إلزامًا لهم غِبَّ الزامِ وإفحامًا إثرَ إفحام، وفصلُه عمّا قبله لِما ذُكر مِن الدلالة على استقلاله.

﴿مَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ أي: بوجه مِن الوجوه، فإنّ أدنى مَراتب المعبوديّة هداية المعبود لعبَدته إلى ما فيه صلاحُ أمرِهم. وأمّا تعيين طريق الهدايةِ وتخصيصُه بنصب الحُجج وإرسال الرُّسل والتوفيقِ للنظر والتدبّر كما قيل،[١] فمُخِلٌّ بما يقتضيه المقام مِن كمال التبكيت والإلزام، / فإنّ العجز عن الهداية على وجه خاصّ لا يَستلزم العجز عن مطلَق الهداية. و"هدى" كما يُستعمل بكلمة "إلى" لتضمّنه معنى الانتهاء يُستعمَل باللام للدلالة على أنّ المنتهى غاية للهداية، وإنّما لم يُتوجَّه نحوه على سبيل الاتّفاق، ولذلك استُعمل بها ما أُسند إلى الله تعالى حيث قيل: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾ أي: هو يهدي له دون غيره، وذلك بما ذُكر مِن نَصْب الأدلّة والحُجج وإرسال الرُّسل وإنزالِ الكُتب والتوفيق للنظر والتدبّر وغير ذلك مِن فنون الهدايات. والكلام في الأمر بالسؤال والجواب كما مرّ فيما مرّ. [٨٦و]

﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ وهو الله عزّ وجلّ ﴿أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ﴾ بكسر الهاء، أصلُه: "يهتدي" فأُدغم وكُسرت الهاء لالتقاء الساكنين. وقُرئ بكسر الياء[٢] إتباعًا لها لحركة الهاء، وقُرئ بفتح الهاء[٣] نقلًا لحركة التاء إليها، أي: لا يهتدي بنفسه فضلًا عن هداية غيره، وفيه مِن المبالغة ما لا يخفى. وإنّما نُفي عنه الاهتداء مع أنّ المفهوم ممّا سبق نفي الهداية لِما أنّ نفيها مستتبع لنفيه غالبًا، فإنّ مَن اهتدى إلى الحقّ لا يخلو عن هداية غيره في الجملة، وأدناها كونه قُدوةً له بأن يراه فيَسلُكَ مَسلكَه مِن حيث لا يدري.

و"الفاء" لترتيب الاستفهام على ما سبق مِن تحقّق هدايتِه تعالى صريحًا وعدمِ هداية شركائهم المفهومِ مِن القَصْر ومِن عدم الجواب المنبئ عن الجواب بالعدم، فإنّ ذلك ممّا يَضطرّهم إلى الجواب الحقّ لا لتوجيه الاستفهام إلى الترتيب

---

١ في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٠٠.
٢ قرأ بها عاصم في رواية أبي بكر عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٣.
٣ قرأ بها ابن كثير وابن عامر ونافع في رواية ورش عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٣.

كما يقع في بعض المواقع، فإنّ ذلك مختصّ بالإنكاري كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾... إلخ، [آل عمران، ١٦٢/٣] ونحوِه.

والهمزة متأخِرة في الاعتبار، وإنّما تقديمها في الذِكر لإظهار عراقتها في اقتضاء الصدارة كما هو رأي الجمهور، حتّى لو كان السؤال بكلمة "أيّ" لأُخِرت حتمًا، ألا يُرى إلى قوله تعالى: ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ [الأنعام، ٨١/٦] إثرَ تقديرِ ما يُلجئ المشركين إلى الجواب مِن حالهم وحال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وقُرئ: "لَا يَهْدِي"[1] بمعنى: لا يهتدي،[2] لمجيئه لازمًا، أو لا يهدي غيرَه.

وصيغة التفضيل: إمّا على حقيقتها والمفضَّل عليه محذوف كما اختاره مكّي،[3] والتقدير: أفمَن يَهدي إلى الحقّ أحقُّ أن يُتَّبع ممّن لا يهدي أم مَن لا يهدي أحقُّ... إلخ؛ / وإمّا بمعنى: "حقيق" كما اختاره أبو حيّان،[4] وأيًّا ما كان فالاستفهام للإلزام، وأن يُتَّبع في حيّز النصب[5] أو الجرّ[6] بعد حذف الجارّ على الخلاف المعروف، أي: بأن يتَّبعَ. [٨٦ظ]

﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمّ الأحوال، أي: لا يَهتدي أو لا يَهدي غيرَه في حال مِن الأحوال إلّا حالَ هدايتِه تعالى له إلى الاهتداء أو إلى هداية الغير، وهذا حال أشرافِ شُركائهم مِن الملائكة والمَسيح وعُزير عليهم السلام.

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٨٣/٢.

٢ وهو رأي الكسائي والفرّاء وتبعهما الزمخشري، وفيه نظر. انظر قولهم: معاني القرآن للفراء، ٩٩/٢ (النحل، ٢٩/١٦)؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٥٨/٢. وانظر الردّ عليه في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٩٧/٦؛ واللباب لابن عادل، ٣٢٤/١٠.

٣ انظر: مشكل إعراب القرآن لمكّي، ٣٤٥/١؛ واللباب لابن عادل، ٣٢٤/١٠-٣٢٥.

٤ انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٤/٦؛ واللباب لابن عادل، ٣٢٤/١٠. | هو محمّد بن يوسف بن عليّ بن يوسف بن حيّان الإمام أثير الدين الغرناطي الأندلسي الجياني، أبو حيّان (ت. ٧٤٥هـ/١٣٤٤م). مِن كبار العلماء بالعربيّة والتفسير والحديث والتراجم واللغات. وُلد في إحدى جهات غرناطة ورحل إلى مالَقة وتنقّل إلى أن أقام بالقاهرة ومات فيها بعد أن كُفّ بصره. اشتهرت تصانيفه في حياته وقُرئت عليه، وأهمّها: البحر المحيط، والتذييل والتكميل، وارتشاف الضَّرَب، والمُبدِع في التصريف، والنُكت الحِسان. وهي مطبوعة. انظر: بغية الوعاة للسيوطي، ٢٨٠/١؛ والأعلام للزركلي، ١٥٢/٧.

٥ وفي هامش م: عند سيبويه والفرّاء. «منه».

٦ وفي هامش م: عند الخليل والكسائي. «منه».

وقيل: المعنى: أم مَن لا يهتدي مِن الأوثان إلى مكان فيُنتَقل إليه إلّا أن يُنقل إليه أو إلّا أن يَنقُله الله تعالى مِن حاله إلى أن يَجعَله حيوانًا مكلَّفًا فيَهديَه. وقُرئ: "إِلَّا أَنْ يُهَدَّى"[١] مِن "التفعيل" للمبالغة.

﴿فَمَا لَكُمْ﴾ أي: أيُّ شيءٍ لكم في اتّخاذكم هؤلاء شركاءَ لله سبحانه وتعالى. والاستفهام للإنكار التوبيخي، وفيه تعجّبٌ مِن حالهم. وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي: بما يقضي صريحُ العقل ببُطلانه إنكارٌ لحكمهم الباطلِ وتعجّبٌ منه وتشنيعٌ لهم بذلك. و"الفاء" لترتيب كلا الإنكارين على ما ظهر مِن وجوب اتّباع الهادي إلى الحقّ.

إن قلتَ: التبكيت بالاستفهام السابق إنّما يظهر في حقّ مَن يعكس جوابه الصحيح فيحكم بأحقّيّة مَن لا يَهدي بالاتّباع دون مَن يهدي، وهم ليسوا حاكمين بأحقّيّة شركائهم لذلك دون الله سبحانه وتعالى؛ بل باستحقاقهما جميعًا مع رُجحان جانبه تعالى، حيث يقولون: هؤلاء شفعاؤُنا عند الله. قلتُ: حكمُهم باستحقاقه تعالى للاتّباع بطريق الاشتراكِ حكمٌ منهم بعدم استحقاقه تعالى لذلك بطريق الاستقلال، فصاروا حاكمين باستحقاق شركائِهم له دون الله تعالى مِن حيث لا يحتسِبون.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ كلام مبتدأ غيرُ داخل في حيّز الأمر، مَسوقٌ مِن قِبَله تعالى لبيان عدم فهمهم لمضمون ما أفحمهم وألقمهم الحجرَ مِن البرهان النيّر الموجِب لاتّباع الهادي إلى الحقّ الناعي عليهم بُطلانَ حُكمهم وعدمَ تأثّرهم مِن ذلك لعدم اهتدائِهم إلى طريق العِلم أصلًا، أي: ما يتّبع أكثرهم في معتقداتهم ومحاوراتِهم ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ واهيًا مِن غير التفات إلى فرد مِن أفراد العِلم، فضلًا عن أن يَسلُكوا مَسالكَ الأدلّة الصحيحة الهادية إلى الحقّ المَبنيّة على المقدِّمات اليقينيّة الحقّة، فيفهموا مضمونها ويقفوا على صِحّتها وبُطلانِ ما يخالفها مِن أحكامهم الباطلة، فيَحصُل / التبكيت والإلزام. [٨٧و]

---

١ قراءة شاذّة، مَرويّة عن أبي الحارث الذماري. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦١.

فالمراد بـ"الاتّباع" مطلَق الاعتقاد الشامل لِما يُقارن القبول والانقياد وما لا يُقارنه، وبالقصر ما أشيرَ إليه مِن أن لا يكون لهم في أثنائه اتّباعٌ لفرد مِن أفراد العِلم والتفات إليه. ووجهُ تخصيص هذا الاتّباع بأكثرهم: الإشعار بأنّ بعضهم قد يتّبعون العِلم فيَقفون على حقّيّة التوحيد وبُطلان الشرك، لكن لا يَقبلونه مُكابرةً وعِنادًا، فيَحصُل بالنسبة إليهم التأثّر مِن البرهان المَزبور وإن لم يُظهِروه، وكونهم أشدَّ كُفرًا وأكثرَ عذابًا مِن الفريق الأوّلِ لا يقدَح فيما يُفهَم مِن فحوى الكلام عُرفًا مِن كون أولئك أسوأَ حالًا مِن غيرهم، إذ المعتبَر سوء الحال مِن حيث الفهمُ والإدراك لا مِن حيث الكفرُ والعذاب.

أو ما يتَّبع أكثرُهم مدَّةَ عُمرهم إلّا ظنًّا ولا يتركونه أبدًا، فإنّ حرف النفي الداخل على المضارع يُفيد استمرار النفي بحسبِ المَقام،[١] فالمراد بـ"الاتّباع" حينئذ هو الإذعان والانقياد والقصر باعتبار الزمان. ووجهُ تخصيص هذا الاتّباع بأكثرهم مع مشاركة المعاندين لهم في ذلك التلويح بما سيكون مِن بعضهم مِن اتّباع الحقّ والتوبة، كما سيأتي.

هذا، وقد قيل: المعنى: وما يتَّبع أكثرهم في إقرارهم بالله تعالى إلّا ظنًّا غيرَ مستندٍ إلى بُرهان عندهم. وقيل: وما يتَّبع أكثرهم في قولهم للأصنام: إنّها آلهةٌ، إلّا ظنًّا، والمراد بالأكثر الجميع،[٢] فتأمَّل. وقيل: الضمير في ﴿أَكۡثَرُهُمۡ﴾ للناس،[٣] فلا حاجةَ إلى التكلّف.

﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ مِن العِلم اليقيني والاعتقادِ الصحيح المطابق للواقع ﴿شَيۡـًٔا﴾ مِن الإغناء. ويجوز أن يكون مفعولًا به، و﴿مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ حالًا منه، والجملة استئناف ببيان شأن الظنّ وبُطلانه.[٤] وفيه دلالة على وجوب العِلم في الأصول، وعدمِ جوازِ الاكتفاءِ بالتقليد.[٥] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ وعيد لهم / على أفعالهم القبيحة، فيندرج تحتها ما حُكيَ عنهم مِن الإعراض [٨٧ظ]

---

١ وفي هامش م: كما حُقِّق فيما قبلُ. «منه».
٢ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٥٨.
٣ ما وجدته فيما بين يديّ مِن المظانّ.
٤ كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٠١.
٥ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٠١.

عن البراهين القاطعة والاتّباع للظنون الفاسدة اندراجًا أوّليًا. وقُرئ: "تَفْعَلُونَ"[١] بالالتفات إلى الخطاب لتشديد الوعيد.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ شروع في بيان ردِّهم للقرآن الكريم إثرَ بيان ردِّهم للأدلّة العقليّة المندرِجة في تضاعيفه، أي: وما صحّ وما استقام أن يكون هذا القرآن المَشحون بفنون الهدايات المستوجِبة للاتّباع التي مِن جملتها هاتِيك الحُجج البيّنة الناطقة بحقّيّة التوحيد وبُطلان الشرك. ﴿أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: افتراءً مِن الخلق، أي: مفترًى منهم سُمّي بالمصدر مبالغة.

﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مِن الكتب الإلهيّة المَشهود على صدقها، أي: مصدِّقًا لها، كيف لا، وهو لكونه معجِزًا دونها عِيارٌ عليها شاهدٌ بصحّتها. ونَصْبه بأنّه خبر "كان" مقدَّرًا. وقد جُوّز كونه عِلّة لفعل محذوف، تقديره: لكن أنزَله الله تصديقَ... إلخ.[٢] وقُرئ بالرفع[٣] على تقدير المبتدأ، أي: ولكن هو تصديق... إلخ.

﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ عطفٌ عليه نصبًا ورفعًا، أي: وتفصيلَ ما كُتب وأُثبت مِن الحقائق والشرائع. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ خبر ثالث داخل في حُكم الاستدراك، أي: منتفيًا عنه الرَّيب، أو حال مِن ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ وإن كان مضافًا إليه فإنّه مفعول في المعنى، أو استئناف لا محلَّ له مِن الإعراب.

﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خبر آخرُ،[٤] أي: كائنًا مِن ربّ العالمين، أو متعلِّق بـ﴿تَصْدِيقَ﴾ أو بـ﴿تَفْصِيلَ﴾ أو بالفعل المعلَّل بهما. و﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ اعتراض كما في قولك:

---

١ قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن مسعود والحسن وعيسى الكوفي. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٦١؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٢٧.

٢ كما في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢/١٠١.

٣ قراءة شاذّة، مَرويّة عن عيسى بن عمر وزيد بن عليّ وابن أبي عبلة والزّعفراني. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٦٢؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٢٧؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ٩٦٢.

٤ وفي هامش م: أي: لـ"كان" المُقدَّر. «منه».

"زيد لا شكَّ فيه كريمٌ"، أو حال مِن ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ أو مِن الضمير في ﴿فِيهِ﴾. ومَساق الآية الكريمة بعد المنع عن اتّباع الظنّ لبيان ما يجِب اتّباعه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ / ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي: بل أيقولون افتراه محمّد عليه السلام؟ والهمزة لإنكار الواقع واستبعاده. ﴿قُلْ﴾ تبكيتًا لهم وإظهارًا لبُطلان مقالتهم الفاسدة، إن كان الأمر كما تقولون ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ أي: في البلاغة وحُسن الصياغة وقوّة المعنى على وجه الافتراء، فإنكم مِثلي في العربيّة والفصاحة وأشدُّ تمرّنًا منّي في النظم والعبارة. وقُرئ: "سُورَةِ مِثْلِهِ"[1] على الإضافة، أي: بسورة كتابٍ مثلِه. [٨٨و]

﴿وَٱدْعُوا۟﴾ للمظاهَرة والمعاوَنة ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾ دعاءَه والاستعانةَ به مِن آلهتكم التي تزعُمون أنّها مُمِدّة لكم في المهِمّات والملِمّات، ومَدارِهِكم[2] الذين تلجئون إلى آرائهم في كلّ ما تأتون وما تذرون.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ متعلّق بـ﴿ٱدْعُوا۟﴾. و﴿دُونِ﴾ جارٍ مَجرى أداة الاستثناء، وقد مرّ تفصيله في قوله تعالى: ﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة، ٢/٢٣]، أي: ادعُوا سواه تعالى مَن استطعتم مِن خلقه فإنّه لا يَقدِر عليه أحد. وإخراجه سبحانه مِن حُكم الدعاءِ للتنصيص على براءتهم منه تعالى وكونِهم في عُدوة المُضادّة والمُشاقّة، لا لبيان استبداده تعالى بالقدرة على ما كُلِّفوه، فإنّ ذلك ممّا يُوهِم أنّهم لو دعَوه تعالى لأجابهم إليه.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: في أنّي افتريته، فإنّ ذلك مستلزِم لإمكان الاتيان بمثله، وهو أيضًا مستلزِم لقدرتكم عليه. والجواب محذوف لدلالة المذكور عليه.[3]

---

١ قراءة شاذّة، مَرويّة عن عمرو بن فايد. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٢.

٢ المَدَاره جمع "مِدْرَه": زعيم القوم وخطيبهم والمُتكلِّم عنهم والذي يرجعون إلى رأيه. انظر: لسان العرب لابن منظور، «دره».

٣ وفي هامش م: أي: إن كنتم صادقين فأتوا بسورة مِثله. «منه».

﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾ إضراب وانتقال عن إظهار بُطلان ما قالوا في حقّ القرآن العظيم بالتحدّي إلى إظهاره ببيانِ أنّه كلام ناشيء عن جهلهم بشأنه الجليلِ. فـ﴿مَا﴾ عبارةٌ عن كلّه، لا عمّا فيه مِن ذِكر البعث والجزاءِ وما يُخالف دينَهم كما قيل،[١] فإنّه ممّا يجب تنزيهُ ساحة التنزيل عن مِثله، أي: سارَعوا إلى تكذيبه آثرَ ذي أثيرٍ مِن غير أن يتدبَّروا فيه ويقِفوا على ما في تضاعيفه مِن الشواهد الدالّة على كونه كما وُصف آنفًا،[٢] ويعلموا أنّه ليس ممّا يُمكن أن يكون له نظير يَقدِر عليه المخلوق.

والتعبير عنه بـ﴿مَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾ دون أن يقال: بل كذّبوا به مِن غير أن يُحيطوا بعلمه، أو نحو ذلك، / للإيذان بكمال جهلهم به، وأنّهم لم يعلموه إلّا [٨٨ظ] بعنوان عدم العِلم به، وبأنّ تكذيبهم به إنّما هو بسبب عدم عِلمهم به لِما أنّ إدارة الحُكم على الموصول مشعِرة بعِلّيّة ما في حيّز الصلة له.

﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ عطفٌ على الصلة، أو حال مِن الموصول، أي: ولم يقِفوا بعدُ على تأويله، ولم يبلُغ أذهانَهم معانيه الرائقةُ المنبِئة عن علوّ شأنه. والتعبير عن ذلك بإتيان التأويل للإشعار بأنّ تأويله متوجِّه إلى الأذهان مُنساق إليها بنفسه،[٣] أو لم يأتِهم بعدُ تأويل ما فيه مِن الإخبار بالغيوب حتّى يتبيَّن أنّه صدق أم كذب. والمعنى: أنّ القرآن معجِز مِن جهة النظم والمعنى ومِن جهة الإخبار بالغيب، وهم قد فاجئوا تكذيبَه قبل أن يتدبَّروا نظمه ويتفكَّروا في معناه أو ينتظروا وقوعَ ما أخبر به مِن الأمور المستقبَلة.

ونفيُ إتيان التأويل بكلمة ﴿لَمَّا﴾ الدالّة على التوقّع بعد نفي الإحاطة بعِلمه بكلمة ﴿لَمْ﴾ لتأكيد الذمّ وتشديد التشنيع، فإنّ الشناعة في تكذيب الشيء قبل عِلمه

---

١ وفي هامش م: قائله بيضاوي، ومَن مصدريّة. «منه». | انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٠٢.

٢ وفي هامش م: مِن كونه تصديقَ الذي بين يديه وتفصيلَ الكتاب لا ريبَ فيه مِن ربّ العالمين. «منه».

٣ وفي هامش م: أي: غير مُحتاج إلى تأمّل. «منه».

المتوقَّع إتيانُه أفحشُ مِنها في تكذيبه قبل عِلمه مطلقًا. والمعنى: أنّه كان يجب عليهم أن يتوقَّفوا إلى زمان وقوع المتوقَّع فلم يفعلوا. وأمّا أنّ المتوقَّع قد وقع بعدُ، وأنّهم استمرُّوا عند ذلك أيضًا على ما هم عليه أو لا، فلا تعرُّضَ له ههنا.

والاستشهاد عليه بعدم انقطاع الذمّ، أو ادّعاءُ أنّ قولهم: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾[١] تكذيبٌ بعد التدبّر،[٢] ناشئٌ مِن عدم التدبّر، فتدبّر. كيف لا، وهم لم يقولوه بعد التحدّي؛ بل قبله. وادّعاء كونِه مَسبوقًا بالتحدّي الوارد في سورة البقرة،[٣] يردُّه أنّها مدنيّة وهذه مكيّة، وإنّما الذي يدلّ عليه ما سيُتلى عليك مِن قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم﴾...[٤] إلخ.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾... إلخ، وصفٌ لحالهم المَحكي وبيان لِما يُؤدّي / إليه مِن العقوبة، أي: مِثلَ ذلك التكذيب المَبني على بادي الرأي والمُجازفةِ مِن غير تدبّر وتأمّل ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي: فعلوا التكذيبَ، أو كذَّبوا ما كذَّبوا مِن المعجِزات التي ظهرت على أيدي أنبيائِهم، أو كذَّبوا أنبياءَهم. ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهم الذين مِن قبلهم مِن المكذِّبين. وإنّما وُضع المُظهَر مَوضِع المضمَر للإيذان بكون التكذيبِ ظُلمًا، وبعِلّيّته لإصابة ما أصابهم مِن سوء العاقبة، وبدخول هؤلاء الظالمين في زمرتهم جُرمًا ووعيدًا دخولًا أوّليًّا. [٨٩و]

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنۡهُم﴾... إلخ، وصفٌ لحالهم بعد إتيان التأويل المتوقَّع، إذ حينئذ يُمكِن تنويعُهم إلى المؤمِن به وغير المؤمِن ضرورةَ امتناع الإيمان بشيء مِن غير علم به، واشتراكِ الكلّ في التكذيب والكفر به قبل ذلك حسبما أفاده قولُه تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ﴾.[٥] أي: ومِن هؤلاء المكذِّبين ﴿مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾ عند الإحاطةِ بعلمه وإتيانِ تأويله وظهورِ حقّيّته بعد ما سعَوا في المعارضة ورازُوا قُواهم فيها فتضاءلت دونها، أو بعد ما شاهدوا وقوعَ ما أَخبر به كما أَخبر به مرارًا.

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] وفي هامش م: المولى قطب الرازي رحمه الله. | القول في شرح مشكلات الكشّاف لقطب الدين الرازي، ٣٤٨ظ. والقول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٥٩.

[٣] وفي هامش م: المولى التفتازاني رحمه الله. «منه». | انظر: حاشية التفتازاني على الكشّاف، ٤٠٠ظ.

[٤] في الآية الآتية.

[٥] في الآية السابقة.

ومعنى الإيمان به إمّا الاعتقاد بحقّيّته فقط، أي: يُصدِّق به في نفسه، ويعلم أنّه حقٌّ ولكنّه يُعانِد ويُكابِر، وهؤلاءِ هم الذين أشيرَ بقَصْر اتّباع الظنّ على أكثرهم إلى أنّهم يعلمون الحقَّ[1] على التفسير الأوّل[2] كما أشيرَ إليه فيما سلف، وإمّا الإيمان الحقيقي، أي: سيُؤمن به ويتوب عن الكفر، وهم الذي أشيرَ بالقَصْر المذكور على التفسير الثاني[3] إلى أنّهم سيتّبعون الحقَّ كما مرّ.

﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي لا يُصدِّق به في نفسه كما لا يُصدِّق به ظاهرًا لفَرْط غباوته المانعة عن الإحاطة بعِلمه كما ينبغي وإن كان فوق مَرتبةِ عدمِ الإحاطةِ به أصلًا، أو لسخافة عقله واختلال تمييزه وعجزه عن تخليص علومه عن معارضة الظنون والأوهام التي ألِفَها، فيبقى على ما كان عليه مِن الشكّ. وهذا القَدْر مِن الإحاطة وإتيان التأويل كافٍ في مقابلة ما سبق مِن / عدم الإحاطةِ بالمرّة، وهؤلاء [٨٩ظ] هم الذين أُريدوا فيما سلف بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾[4] على التفسير الأوّل،[5] أو لا يُؤمِن به[6] فيما سيأتي بل يموت على كُفره معاندًا كان أو شاكًّا، وهم المستمِرُّون على اتّباع الظنّ[7] على التفسير الثاني مِن غير إذعان للحقّ وانقياد له.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: بكلا الفريقين[8] على الوجه الأوّل، لا بالمعاندين فقط كما قيل،[9] لاشتراكهما في أصل الإفساد المستدعي لاشتراكهما في الوعيد،[10] أو بالمصرّين الباقين على الكفر على الوجه الثاني[11] مِن المعانِدين والشاكِّين.

---

١ وفي هامش م: لكن لا يقبلونه مُكابرة. «منه».
٢ وفي هامش م: وهو حمل الاتّباع على مُطلَق الاعتقاد لا على ما يُقارن القبول والانقياد فقط. «منه».
٣ وفي هامش م: وهو حَمْل الاتّباع على الانقياد واعتبار الزمان في القصر. «منه».
٤ يونس، ٣٦/١٠.
٥ وفي هامش م: ولا يَقدح في هذا القصر ما مرّ آنفًا مِن الإحاطة في الجملة لِما أنّه ليس باتّباع لغير الظنّ ولا بمستلزم له. «منه».
٦ وفي هامش م: عطفٌ على قوله: "لا يُصدِّق به". «منه».
٧ وفي هامش م: فإنّ المُعاندين أيضًا تابعون للظنّ بمعنى القبول والعمل بمُوجَبه. «منه».
٨ وفي هامش م: أحدهما الفريق المُصدِّق بحقّيّة المُعاند والآخر الفريق المُكذِّب ظاهرًا أو باطنًا. «منه».
٩ في هامش م: زمخشري وبيضاوي ومَن يقتدي بهما. «منه». | وفيهما أنّ المقصود: المُصرُّون والمُعاندون. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٢٦٠/٢؛ و**أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٠٢/٢.
١٠ وفي هامش م: هو حَمْل الاتّباع على مطلَق الاعتقاد مِن غير اعتبار القبول والانقياد. «منه».
١١ وفي هامش م: هو حَمْل الاتّباع على الانقياد واعتبار الزمان في القصر. «منه».

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ٤١﴾

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ أي: إن تمُّوا على تكذيبك وأصرُّوا عليه حسبما أُخبر عنهم[1] بعد إلزام الحجَّةِ بالتحدّي ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ أي: تبرَّأْ منهم فقد أعذرتَ، كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٞ﴾ [الشعراء، ٢٦/٢١٦]. والمعنى: لي جزاء عملي ولكم جزاء عملِكم حقًّا كان أو باطلًا، وتوحيد العمل المضافِ إليهم باعتبار الاتّحادِ النوعي ولمراعاة كمال المقابلة.

﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تأكيد لِما أفاده لامُ الاختصاص مِن عدم تعدّي جزاءِ العمل إلى غير عامله، أي: لا تُؤاخَذون بعملي ولا أُؤاخَذ بعملكم، ولِما فيه مِن إيهام المُتاركة وعدم التعرّضِ لهم. قيل: إنّه مَنسوخ بآية السيف.[2]

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ٤٢﴾

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ بيان لكونهم مَطبوعًا على قلوبهم، بحيث لا سبيلَ إلى إيمانهم، وإنّما جُمِع الضمير الراجع إلى كلمة ﴿مَن﴾ رعايةً لجانب المعنى كما أُفرِد فيما سيأتي محافظةً على ظاهر اللفظ، ولعلّ ذلك للإيماء إلى كثرة المستمِعين بناءً على عدم توقّف الاستماع على ما يتوقّف عليه النظر مِن المقابلة وانتفاء الحِجاب والظُّلمة، أي: ومنهم ناس يستمعون إليك عند قراءتك القرآنَ وتعليمِك للشرائع.

﴿أَفَأَنتَ / تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ همزة الاستفهام إنكاريّة، والفاء عاطفة، وليس الجمع [٩٠و]
بينهما لترتيب إنكار الإسماع على الاستماع كما هو رأيُ سيبويهِ والجمهور،[3] على أن يُجعَل تقديم الهمزة على الفاء لاقتضائها الصدارة كما تقرَّر في موضعه؛

[1] وفي هامش م: كقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم﴾... إلخ. «منه».

[2] القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٦٠؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٠٢.

[3] انظر: كتاب سيبويه، ٣/١٨٨-١٨٩.

بل لإنكار ترتّبه عليه حسبما هو المعتاد، لكن لا بطريق العطف على الفعل المذكور لأدائه إلى اختلال المعنى، لأنّه إمّا صلة أو صفة.

وأيًا ما كان فالعطف عليه يَستدعي دخولَ المعطوف في حيّزه وتوجُّهَ الإنكار إليه مِن تلك الحيثيّة، ولا ريبَ في فساده؛ بل بطريق العطف على مقدَّر مفهوم مِن فحوى النظم، كأنّه قيل: أيَستمِعون إليك فأنتَ تُسمِعهم[١] لا إنكارًا لاستماعهم فإنّه أمر محقَّق؛ بل إنكارًا لوقوع الإسماع عقيبَ ذلك وترتّبِه عليه حسب العادة الكلّيّة؛ بل نفيًا لإمكانه أيضًا كما يُنبئ عنه وضع الصُّمّ مَوضِعَ ضميرِهم ووصفُهم بعدم العقل بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ أي: ولو انضمّ إلى صمَمهم عدم عقولهم، لأنّ الأصمّ العاقل ربّما تفرّس إذا وصل إلى صِماخه صوتٌ، وأمّا إذا اجتمع فقدان السمع والعقل جميعا فقد تمّ الأمر.

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ ۝٤٣﴾

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَ﴾ ويُعاين دلائلَ نبوّتك الواضحة. ﴿أَفَأَنتَ﴾ أي: أعقيبَ ذلك أنت تهديهم؟ وإنّما قيل: ﴿تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ﴾ تربيةً لإنكار هدايتِهم وإبرازًا لوقوعها في مَعرِض الاستحالة، وقد أُكِّد ذلك حيث قيل: ﴿وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ أي: ولو انضمّ إلى عدم البصَر عدمُ البصيرة، فإنّ المقصود مِن الإبصار الاعتبار والاستبصار. والعمدة في ذلك هي البصيرة، ولذلك يحدِس الأعمى المستبصِرُ ويتفطَّن لِما لا يُدركه البصير الأحمق، فحيثُ اجتمع فيهم الحُمْق والعَمَى فقد انسدّ عليهم باب الهدى.

[٩٠ظ] / وجواب ﴿لَوۡ﴾ في الجملتين محذوف لدلالة قوله تعالى: ﴿تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾[٢] ﴿تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ﴾ عليه، وكلٌّ مِنهما معطوفة على جملة مقدَّرة مقابِلة لها في الفحوى كلتاهما في موضع الحال مِن مفعول الفعل السابق، أي: أفأنت تُسمِع الصمّ لو كانوا يعقلون ولو كانوا لا يعقلون؟ أفأنت تهدي العُميَ لو كانوا يبصرون ولو كانوا لا يبصرون؟ أي: على كلّ حالٍ مفروضٍ.

---

[١] وفي هامش م: والمآل: أبعد ذلك أنت تُسمِعهم. [٢] في الآية السابقة.

وقد حُذفت الأُولى في الباب حذفًا مطَّردًا لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة، فإنّ الشيء إذا تحقَّق عند تحقّق المانع أو المانعِ القويّ فلأَنْ يتحقَّق عند عدمه أو عند تحقّق المانع الضعيف أَوْلى. وعلى هذه النكتة يدور ما في "لو" و"إنْ" الوصليتين مِن التأكيد، وقد مرّ الكلام في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة، ٣٢/٩] ونظائرِه مِرارًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ﴾ إشارة إلى أنّ ما حُكي عنهم مِن عدم اهتدائهم إلى طريق الحقّ وتعطّلِ مَشاعرهم مِن الإدراك، ليس لأمر مستندٍ إلى الله عزّ وجلّ مِن خَلْقهم مَئوفي[1] المَشاعرِ ونحو ذلك؛ بل إنّما هو مِن قِبلهم، أي: لا ينقُصهم ﴿شَيْـًٔا﴾ ممّا نِيط به مصالحُهم الدينيّة والدنيويّة وكمالاتُهم الأُولويّة والأُخرويّة مِن مبادي إدراكاتهم وأسبابِ علومهم مِن المشاعر الظاهرة والباطنة والإرشادِ إلى الحقّ بإرسال الرُّسل وإنزال الكُتب؛ بل يُوفّيهم ذلك مِن غير إخلالٍ بشيء أصلًا.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ وقُرئ بالتخفيف ورفع ﴿ٱلنَّاسَ﴾.[2] وُضع الظاهرُ مَوْضِعَ الضمير لزيادة تعيين وتقرير، أي: لكنّهم بعدم استعمال مشاعِرهم فيما خُلقتْ له وإعراضِهم عن قَبول دعوةِ الحقّ وتكذيبِهم للرسل والكتب ﴿أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: ينقُصون ما ينقُصون ممّا يُخِلّون به مِن مبادي كمالِهم وذرائع اهتدائِهم، وإنّما لم يُذكَر لِما أنّ مرمى الغرض إنّما هو قَصْر الظلم على أنفسهم لا بيانُ ما يتعلّق به الظلم. والتعبير عن فعلهم بالنقص مع كونه تفويتًا بالكلّيّة وإبطالًا بالمرّة لمراعاة جانبِ قرينته.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: إمّا تأكيد لـ﴿ٱلنَّاسَ﴾[3] فيكون بمنزلة ضمير الفصل في قوله تعالى: / ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف، ٧٦/٤٣] [٩١و] في قَصْر الظالميّة عليهم؛ وإمّا مفعول لـ﴿يَظْلِمُونَ﴾ حسبما وقع في سائر المواقع.

---

[1] إيف القوم فهم مئوفون إذا أصابتهم آفة. انظر: لسان العرب لابن منظور، «أوف».

[2] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢١٩/٢.

[3] وفي هامش م: على قراءة "لكنّ" بالتشديد. «منه».

وتقديمُه عليه لمجرَّد الاهتمام به مع مراعاة الفاصلة مِن غير قصد إلى قَصْر المظلوميّة عليهم على رأي مَن لا يرى التقديم موجِبًا للقصر، فيكون كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود، ١٠١/١١] مِن غير قَصْر للظلم لا على الفاعل ولا على المفعول.

وأمّا على رأي مَن يراه موجِبًا له فلعلّ إيثارَ قصرها دون قصر الظالميّة عليهم للمبالغة في بيان بطلان أفعالهم وسخافة عقولهم، لِما أنّ أقبح الأمرين عند اتّحاد الفاعل والمفعول وأشدَّهما إنكارًا عند العقل ونُفرة لدى الطبع وأوجبَهما حذرًا منه عند كلّ أحد هو المظلوميّة لا الظالميّة، على أنّ قَصْر الأُولى عليهم مستلزِم لِما يقتضيه ظاهر الحال مِن قَصْر الثانية عليهم، ضرورةَ أنّه إذا لم يَظلِم أحد مِن الناس إلّا نفسَه يلزَم ألّا يَظلِمَه إلّا نفسُه، إذ لو ظلمه غيرُه يلزَم كون ذلك الغير ظالمًا لغير نفسه، والمفروض ألّا يظلِم أحد إلّا نفسَه، فاكتُفي بالقصر الأوّل عن الثاني مع رعاية ما ذُكر مِن الفائدة.

وصيغة المضارع للاستمرار نفيًا وإثباتًا، فإنّ حرف النفي إذا دخل على المضارع يُفيد بحسب المقام استمرار النفي لا نفيَ الاستمرار، ألا يُرى أنّ قولكَ: "ما زيدًا ضربتُ" يدلّ على اختصاص النفي لا على نفي الاختصاص. ومَساق الآية الكريمة لإلزام الحُجّة، ويجوز أن يكون للوعيد، فالمضارع المنفي للاستقبال والمثبَت للاستمرار، والمعنى: أنّ الله لا يَظلِمهم بتعذيبهم يوم القيامة شيئًا مِن الظُّلم ولكنّهم أنفسَهم يَظلِمون ظُلمًا مستمرًّا، فإنّ مباشرتهم المستمرّة للسيّئات الموجِبة للتعذيب عينُ ظُلمِهم لأنفسهم. وعلى الوجهين فالآية الكريمة تذييل لِما سبق.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ منصوب بمضمَر. وقُرئ بالنون[١] على الالتفات، أي: اذكر لهم أو أنذِرهم يوم يحشرهم. ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ أي: كأنّهم لم يلبثوا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾

---

[١] قرأ بها العشرة إلّا عاصمًا في رواية حفص عنه. النشر لابن الجزري، ٢٦٢/٢.

أي: شيئًا قليلًا منه، فإنّها مَثَل في غاية القِلّة. وتخصيصُها بالنهار لأنّ ساعاته أعرف حالًا مِن ساعات الليل. والجملة في موقع الحال مِن ضمير المفعول / أي: يحشرهم مُشبِهين في أحوالهم الظاهرة للناس بمَن لم يلبَث في الدنيا ولم يتقلَّب في نعيمها إلّا ذلك القدرَ اليسير، فإنّ مَن أقام بها دهرًا وتمتّع بمتاعها لا يخلو عن بعض آثارِ نعمةٍ وأحكامِ بهجةٍ منافية لِما بهم مِن رثاثة الهيئة وسوء الحال، أو بمَن لم يلبَث في البرزخ إلّا ذلك المِقدارَ. [٩١ظ]

ففائدة التقييد بيانُ كمال يُسر الحشر بالنسبة إلى قُدرته تعالى، ولو بعد دهر طويل، وإظهارُ بُطلان استبعادهم وانكارِهم بقولهم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون، ٨٢/٢٣] ونحوِ ذلك؛ أو بيانُ تمام الموافقة بين النشأتين في الأشكال والصور، فإنّ قلّة اللُّبث في البَرزخ مِن موجِبات عدم التبدّل والتغيّر، فيكون قوله عزّ وعلا: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ بيانًا وتقريرًا له؛ لأنّ التعارُف مع طُول العهد ينقلب تناكُرًا، وعلى الأوّل يكون استئنافًا، أي: يَعرِف بعضهم بعضًا كأنّهم لم يتفارقوا إلّا قليلًا، وذلك أوّلَ ما خرجوا مِن القبور، إذ هم حينئذ على ما كانوا عليه مِن الهيئة المتعارَفة فيما بينهم، ثمّ ينقطِع التعارف لشدّة الأهوال المذهِلة، واعتراءِ الأحوال المعضِلة المغيّرة للصور والأشكال المبدّلة لها مِن حال إلى حال.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ شهادة مِن الله سبحانه[١] على خُسرانهم وتعجّبٌ منه. وقيل: حال مِن ضمير ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾ على إرادة القول. والتعبير عنهم بالموصول مع كون المقام مقامَ إضمار لذمِّهم بما في حيّز الصلة والإشعارِ بعلّيّته لِما أصابهم. والمراد بـ"لقاء الله" تعالى إن كان مطلقَ الحساب والجزاء أو حسنَ اللقاء فالمراد بالخسران الوضيعةُ، والمعنى: وُضِعوا في تجاراتهم ومعاملاتهم واشترائهم الكفرَ بالإيمان والضلالةَ بالهدى.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾: ما كانوا عارفين بأحوال التجارة مهتدين لطُرقها. وإن كان سوءَ اللقاءِ[٢] فالخَسارُ: الهلاك والضلال، أي: قد ضلُّوا

---

[١] ط س + وتعالى.

[٢] السياق: إن كان مطلق الحساب... وإن كان سوء اللقاء...

وهلكوا بتكذيبهم وما كانوا مهتدين إلى طريق النجاة.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾

[٩٢و] / ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ أصله: إن نُرِكَ، و"ما" مَزيدة لتأكيد معنى الشرط ومِن ثمّة أُكِّد الفعل بالنون، أي: نُبصِرنّك بأن نُظهِر له[1] ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ أي: وعدناهم مِن العذاب ونُعجّله في حياتك فتراه. والعدول إلى صيغة الاستقبال لاستحضار الصورة أو للدلالة على التجدّد والاستمرار، أي: نَعِدهم وعدًا متجدِّدًا حسبما تقتضيه الحكمة مِن إنذارٍ غِبَّ إنذار. وفي تخصيص البعض بالذِّكر رمز إلى العِدَة بإراءة بعض الموعود، وقد أراه يوم بدر.

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي: كيفما دارت الحال أريناكَ بعض ما وعدناهم أو لا، فإلينا مرجعهم في الدنيا والآخرة فنُنجِز ما وعدناهم البتّة. وقيل: المذكور جواب للشرط الثاني، كأنّه قيل: فإلينا مرجعُهم فنريكَه في الآخرة، وجوابُ الأوّل محذوف لظهوره، أي: فذاك.[2]

﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ مِن الأفعال السيّئةِ التي حُكيت عنهم، والمراد بالشهادة إمّا مقتضاها ونتيجتُها وهي معاقبتُه تعالى إيّاهم، وإمّا إقامتها وأداؤها بإنطاق الجوارح. وإظهار اسم الجلالة لإدخال الرَّوعة وتربية المَهابة وتأكيد التهديد. وقُرئ: "ثَمَّ"،[3] أي: هناك.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ مِن الأمم الخالية ﴿رَّسُولٌ﴾ يُبعَث إليهم بشريعة خاصّة مناسِبة لأحوالهم ليدعُوَهم إلى الحقّ، ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ فبلغهم ما أُرسِل به

---

١ ط س – له.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٦١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٠٤.

٣ م س: ثَمّة. | وأثبتُّ ما في المصادر الآتية. وهي قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن أبي عبلة وكِرداب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٦١؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٦٣.

فكذَّبوه وخالفوه ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم﴾ أي: بين كلّ أمّة ورسولِها ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل وحُكِم بنجاة الرسول والمؤمنين به وهلاكِ المكذِّبين، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء، ١٧/١٥].

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ في ذلك القضاء المستوجِب لتعذيبهم؛ لأنّه مِن نتائج أعمالهم، أو ولكلّ أمّة مِن الأمم يوم القيامة رسولٌ تُنسَب إليه وتدعى به، / فإذا [٩٢ظ] جاء رسولُهم المَوقفَ ليشهدَ عليهم بالكفر والإيمان، كقوله عزّ وجلّ: ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ[١] بَيْنَهُم﴾ [الزمر، ٣٩/٦٩].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٨ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٤٩﴾

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ استعجالًا لِما وُعدوا مِن العذاب على طريقة الاستهزاء به والإنكار حسبما يُرشِد إليه الجواب لا طلبًا لتعيين وقت مجيئه على وجه الإلزام، كما في سورة الملك. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: في أنّه يأتينا. والخطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين الذين يتلون عليهم الآياتِ المتضمِّنةَ للوعد المذكور.

وجواب الشرط محذوف اعتمادًا على ما تقدَّمه حسبما حُذف في مِثل قوله تعالى: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف، ٧/٧٠]، فإنّ الاستعجال في قوّة الأمر بالإتيان عجلةً، كأنّه قيل: فليأتِنا عجَلةً إن كنتم صادقين، ولِما فيه مِن الإشعار بكون إتيانه بواسطة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قيل: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: لا أقدِر على شيء منهما بوجه مِن الوجوه.

وتقديم "الضّرّ" لِما أنّ مَساق النظم لإظهار العجز عنه، وأمّا ذِكر النفع فلتوسيع الدائرة تكملةً للعَجْز، وما وقَع في سورة الأعراف مِن تقديم النفع للإشعار بأهمّيته والمَقامُ مقامه، والمعنى: إنّي لا أملِك شيئًا مِن شئوني ردًّا وإيرادًا مع أنّ ذلك أقربُ حصولًا، فكيف أملِك شئونكم حتّى أتسبَّب في إتيان عذابكم الموعود؟

---

[١] م س: قُضي.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ استثناء منقطِع، أي: ولكن ما شاء الله كائن. وحملُه على الاتّصال على معنى: إلّا ما شاء الله أن أملِكه،[١] يأباه مقام التبرؤ عن أن يكون له عليه السلام دَخْل في إتيان الوعد، فإنّ ذلك يستدعي بيانَ كون المتنازَع فيه ممّا لا يشاء الله أن يَملِكه عليه السلام. وجعلُ ﴿مَا﴾ / عبارةً عن بعض [٩٣و] الأحوال المعهودة المنوطة بالأفعال الاختياريّة المفوَّضة إلى العباد، على أن يكون المعنى: لا أَملِك لنفسي شيئًا مِن الضَّرّ والنفع إلّا ما شاء الله أن أَملِكه منهما مِن الضَّرّ والنفعِ المترتِّبين على أفعالي الاختياريّة كالضَّرّ والنفع المترتِّبين على الأكل والشربِ عدمًا ووجودًا،[٢] تعسّفٌ ظاهر.[٣]

وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ بيان لِما أُبهِم في الاستثناء وتقييد لِما في القضاء السابق مِن الإطلاق المُشعِر بكون المَقضي به أمرًا مُنجَّزًا غيرَ مُتوقِّف على شيء غيرَ مجيء الرسول وتكذيبِ الأمّة، أي: لكلّ أمّةٍ أمّةٍ ممّن قُضي بينهم وبين رسولهم أجلٌ مُعيَّن خاصٌّ بهم لا يتعدّى إلى أمّة أخرى مَضروبٌ لعذابهم يحِلّ بهم عند حلوله.

﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ إن جُعل "الأجل" عبارةً عن حدّ مُعيَّن مِن الزمان فمعنى مجيئِه ظاهرٌ، وإن أُريدَ به ما امتدّ إليه مِن الزمان فمجيئُه عبارة عن انقضائه؛ إذ هناك يتحقَّق مجيئه بتمامه. والضمير إن جُعل للأمم المدلولِ عليها بـ"كلّ أمة" فإظهار الأجَل مضافًا إليه لإفادة المعنى المقصود الذي هو بلوغ كلّ أمّةٍ أجلَها الخاصّ بها، ومجيئُه إيّاها بعينها مِن بين الأمم بواسطة اكتساب الأجل بالإضافة عمومًا يُفيده معنى الجمعيّة، كأنّه قيل: إذا جاءهم آجالُهم بأن يجيء كلٌّ واحدة مِن تلك الأمم أجلُها الخاصُّ بها؛ وإن جُعل لكلّ أمّة خاصّةٍ،[٤] كما هو الظاهر، فالإظهار في موقع الإضمار لزيادة التقرير، والإضافةُ إلى الضمير لإفادة كمال التعيين، أي: إذا جاءها أجلها الخاصّ بها ﴿فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ عن ذلك الأجل ﴿سَاعَةً﴾

---

[١] كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٠٤.

[٢] ما وقفت على هذا الوجه فيما بين يديّ مِن المظانّ.

[٣] السياق: وجَعْل ﴿مَا﴾ عبارةً... تعسُّف ظاهر.

[٤] السياق: والضمير إن جُعل للأمم... وإن جُعل لكلّ أمّة...

أي: شيئًا قليلًا مِن الزمان، فإنّها مَثَل في غاية القِلّة منه، أي: لا يتأخّرون عنه أصلًا. وصيغة الاستفعال للإشعار بعجزهم عن ذلك مع طلبهم له.

﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي: لا يتقدّمون عليه، وهو عطفٌ على ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ لكن لا لبيان انتفاء التقدّم مع إمكانه في نفسه كالتأخّر؛ بل للمبالغة في انتفاء التأخّر بنظمه في سِلك المستحيل عقلًا، كما في قوله سبحانه وتعالى:[١] ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء، ١٨/٤]، فإنّ مَن مات كافرًا مع ظهور ألّا توبة له رأسًا قد نُظم في عدم قَبول التوبة في سِلك مَن سوَّفها إلى حضور الموت إيذانًا بتساوي / وجود التوبة حينئذ وعدمها بالمرّة، كما مرّ في سورة الأعراف. [٩٣ظ]

وقد جُوّز أن يُراد بمجيء الأجل دُنوُّه، بحيث يُمكن التقدّم في الجملة كمجيء اليوم الذي ضُرب لهلاكهم ساعة معيَّنة منه، لكن ليس في تقييد عدم الاستئخار بدنوّه مزيدُ فائدة. وتقديم بيان انتفاء الاستئخار على بيان انتفاء الاستقدام لأنّ المقصود الأهمّ بيان عدم خلاصهم مِن العذاب ولو ساعةً، وذلك بالتأخّر، وأمّا ما في قوله تعالى: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ [الحجر، ٥/١٥] مِن سَبْق السَّبْق في الذِّكر فلِما أنّ المراد هناك بيان سرّ تأخير عذابِهم مع استحقاقهم له حسبما يُنبيء عنه قوله عزّ وجلّ: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر، ٣/١٥]، فالأهمّ إذ ذاك بيان انتفاء السَّبْق كما ذُكر هناك.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَـٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٠ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝٥١ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ۝٥٢﴾

﴿قُلْ﴾ لهم غِبَّ ما بيَّنتَ كيفيّة جريان سنّة الله عزّ وجلّ فيما بين الأمم على الإطلاق ونبَّهتَهم على أنّ عذابهم أمر مقرَّر محتومٌ لا يتوقَّف إلّا على مجيء أجله المعلوم إيذانًا بكمال دُنوّه وتنزيلًا له منزلةَ إتيانه حقيقة: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾

---

[١] م - وتعالى.

أي: أخبروني ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ﴾ الذي تستعجلون به[١] ﴿بَيَٰتًا﴾ أي: وقتَ بيات واشتغالٍ بالنوم ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ أي: عند اشتغالكم بمَشاغلكم حسبما عُيِّن لكم مِن الأجل بمقتضى المشيئة التابعة للحكمة كما عُيِّن لسائر الأمم المُهلَكة.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[٢] جواب للشرط بحذف الفاء، كما في قولك: إن أتيتُك ماذا تُطعمني؟ و﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ موضوع موضِعَ المضمَر لتأكيد الإنكار ببيان مباينة حالهم للاستعجال، فإنّ حقّ المجرِم أن يَهلِك فزَعًا مِن إتيان العذاب فضلًا عن استعجاله.

والجملة الشرطيّة متعلِّقة بـ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، والمعنى: أخبروني إن أتاكم عذابه تعالى أيُّ[٣] شيءٍ تستعجلون منه سبحانه؟ والشيء لا يُمكن استعجاله بعد إتيانه. والمراد به المبالغة في إنكار استعجاله بإخراجه عن حيّز الإمكان. وتنزيله في الاستحالة منزلةَ استعجالِه بعد إتيانه بناءً على تنزيل تقرُّر إتيانه ودنوّه منزلةَ إتيانه حقيقةً كما أُشيرَ إليه، وهذا الإنكار بمنزلة النهي في قوله عزّ وعلا: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل، ١٦/١]، خلا أنّ التنزيل هناك صريح وهنا ضمني، كما في قول مَن قال لغريمه الذي يتقاضاه حقَّه: "أرأيتَ إن أعطيتُك حقّك فماذا تطلُب منّي؟" يريد المبالغة في إنكار التقاضي، بنظمه في سِلك التقاضي بعد الإعطاء بناءً على تنزيل تقرّره منزلةَ نفسه.

[٩٤و] / وقوله عزّ وجلّ: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ إنكار لإيمانهم بنزول العذاب بعد وقوعه حقيقةً، داخلٌ مع ما قبله مِن إنكار استعجالهم به بعد إتيانه حُكمًا تحت القول المأمور به، أي: أَبَعد ما وقع العذاب وحلّ بكم حقيقةً آمنتُم به حين لا يَنفعكم الإيمان؟ إنكارًا لتأخيره إلى هذا الحدّ وإيذانًا باستتباعه للندم والحسرة ليُقلعوا عمّا هم عليه مِن العناد، ويتوجّهوا نحو التدارك قبل فوت الوقت، فتقديم الظرفِ للقصر.

وقيل: ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ﴾ متعلِّق بـ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، وجواب الشرط محذوف، أي: تندموا على الاستعجال أو تعرفوا خطأه، والشرطيّة اعتراض مقرِّر لمضمون

---

١ وفي هامش م: بقولكم: متى هذا الوعد... إلخ.
٢ وفي هامش م: استعجله واستعجل به واحد.
٣ ضُبِطت في نسخة المُصنِّف بالوجهين: النصب والرفع.

الاستخبار. وقيل: الجواب قوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾... إلى آخره، والاستفهاميّةُ الأُولى اعتراض، والمعنى: أخبروني إن أتاكم عذابُه آمنتُم به بعد وقوعِه حين لا ينفعكم الإيمان.[١] ثمّ جيء بكلمة التراخي دلالةً على الاستبعاد، ثمّ زِيد أداةُ الشرط دلالةً على استقلاله بالاستبعاد وعلى أنّ الأوّل كالتمهيد له، وجيء بـ﴿إِذَا﴾ مؤكّدًا بـ﴿مَا﴾ ترشيحًا لمعنى الوقوع وزيادةً للتجهيل وأنّهم لم يؤمنوا إلّا بعد أن لم ينفعهم الإيمان البتّةَ.

وقوله تعالى: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ﴾ استئناف مِن جهته تعالى غيرُ داخل تحت القول الملقَّن مَسوقٌ لتقرير مضمون ما سبق على إرادة القول، أي: قيل لهم عند إيمانهم بعد وقوع العذاب: آلآن آمنتُم به؟ إنكارًا للتأخير وتوبيخًا عليه ببيان أنّه لم يكن ذلك لعدم سبق الإنذار به ولا للتأمّل والتدبّر في شأنه ولا لشيء آخرَ ممّا عسى يُعدّ عُذرًا في التأخير؛ بل كان ذلك على طريق التكذيب والاستعجال به على وجه الاستهزاء. وقُرئ: "آلَانَ"[٢] بحذف الهمزة وإلقاء حركتِها على اللام.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي: تكذيبًا واستهزاء، جملة وقعت حالًا مِن فاعل آمنتُم المقدَّر لتشديد التوبيخ والتقريع وزيادةِ التنديم والتحسير. وتقديم الجارّ والمجرور على الفعل لمراعاة الفواصل دون القصر.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ﴾... إلى آخره، تأكيد للتوبيخ والعتاب بوعيد العذاب والعقاب، وهو عطفٌ على ما قُدِّر قبل ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ﴾. ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: وضعوا الكفر والتكذيب موضعَ الإيمان والتصديق، أو ظلموا أنفسَهم بتعريضها للعذاب والهلاك. ووضعُ الموصول موضع الضمير لذمِّهم بما في حيّز الصلة والإشعار بعلّيّته لإصابة ما أصابهم.

﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ المؤلمَ على الدوام ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ اليوم ﴿إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ في الدنيا مِن أصناف الكفر والمعاصي التي مِن جملتها ما مرّ مِن الاستعجال.

---

[١] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٦٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٠٤-١٠٥.

[٢] قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ١/٣٥٧.

﴿وَيَسْتَنْبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥٣﴾

﴿وَيَسْتَنْبِـُٔونَكَ﴾ أي: يستخبرونك فيقولون على طريقة الاستهزاء والإنكار: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ ﴿أَحَقٌّ﴾: خبر قُدِّم على المبتدأ الذي هو الضمير للاهتمام به، ويُؤيِّده قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ أو مبتدأ والضمير مرتفع به سادٌّ مَسدَّ الخبر، والجملةُ في موقع النصب بـ﴿يَسْتَنْبِـُٔونَكَ﴾، وقُرِئ: "آلحَقُّ هُوَ"[١] تعريضًا بأنّه باطل، كأنّه قيل: أهو الحق لا الباطل؟ أو أهو الذي سميتموه الحقَّ؟

﴿قُلْ﴾ لهم غيرَ ملتفِت إلى استهزائهم مُغضيًا[٢] عمّا قصدوا وبانيًا للأمر على أساس الحكمة: ﴿إِي وَرَبِّيٓ﴾ / ﴿إِي﴾ مِن حروف الإيجاب بمعنى "نعم" في القسَم خاصّةً، كما أنّ "هل" بمعنى "قد" في الاستفهام خاصّةً، ولذلك يُوصَل بواوه. [٩٤ظ]

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: العذاب الموعود ﴿لَحَقٌّ﴾ لَثابتٌ البتّة، أُكِّد الجواب بأتمّ وجوه التأكيد حسب شدّة إنكارهم وقوّته، وقد زِيد تقريرًا وتحقيقًا بقوله عزّ اسمُه: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: بفائتين العذابَ بالهرب، وهو لاحق بكم لا محالةَ. وهو إمّا معطوف على جواب القسَم، أو مستأنَف سِيق لبيان عجزهم عن الخلاص مع ما فيه مِن التقرير المذكور.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٥٤﴾

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ بالشرك أو التعدّي على الغير أو غيرِ ذلك مِن أصناف الظلم ولو مرّةً حسبما يُفيده كون الصفة فعلًا. ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي ما في الدنيا مِن خزائنها وأموالِها ومنافعها قاطبةً بما كثُرت ﴿لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ أي: لجعلتْه فديةً لها مِن العذاب مِن "افتداه" بمعنى: فَداه.

﴿وَأَسَرُّواْ﴾ أي: النفوسُ المدلول عليها بـ"كلّ نفس". والعدول إلى صيغة الجمع مع تحقّق العموم في صورة الإفراد أيضًا لإفادة تهويل الخطب بكون الإسرار

---

١ قراءة شاذّة، مَرويّة عن الأعمش. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٦٤.

٢ وفي هامش م: أي: مُعرضًا. «منه».

بطريق المَعيّة والاجتماع، وإنّما لم يُراعَ ذلك فيما سبق لتحقيق ما يُتوخّى مِن فَرْض كون جميع ما في الأرض لكلّ واحدة مِن النفوس. وإيثار صيغة جمعِ المذكّر لحمل لفظ "النفس" على الشخص، أو لتغليب ذكورِ مدلولِه على إناثه.

﴿ٱلنَّدَامَةَ﴾ على ما فعلوا مِن الظلم، أي: أخفَوها ولم يُظهروها، لكن لا للاصطبار والتجلّد، هيهاتَ ولاتَ حينَ اصطبار؛ بل لأنّهم بُهتوا ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: عند معاينتهم مِن فظاعة الحال وشِدّة الأهوال ما لم يكونوا يحتسبون، فلم يقدروا على أن ينطِقوا بشيء. فـ﴿لَمَّا﴾ بمعنى: "حين" منصوب بـ﴿أَسَرُّواْ﴾، أو حرفُ شرطٍ حُذف جوابه لدلالة ما تقدَّم عليه.

وقيل: أسرّها رؤساؤهم ممّن أضلُّوهم حياءً منهم وخوفًا مِن توبيخهم، ولكنّ الأمر أشدُّ مِن أن يعتريَهم هناك شيء غيرُ خوف العذاب. وقيل: أسرُّوا الندامة: أخلصوها، لأنّ إسرارها إخلاصُها، أو لأنّ سِرَّ الشيء خالصتُه، حيث تُخفى / وتُضَنّ[1] بها، ففيه تهكُّم بهم. وقيل: أظهروا الندامة، مِن قولهم: "أسرَّ الشيء وأشرَّه" إذا أظهره حين عِيل صبره وفنِيَ تجلُّده.[2] [٩٥و]

﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾ أي: أُوقِع القضاء بين الظالمين مِن المشركين وغيرهم مِن أصناف أهل الظلم بأن أُظهِر الحقُّ سواء كان مِن حقوق الله سبحانه، أو مِن حقوق العباد مِن الباطل، وعُومل أهل كلّ منهما بما يليق به. ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل. وتخصيص الظلم بالتعدّي،[3] وحملُ القضاء على مجرَّد الحكومة بين الظالمين والمظلومين،[4] مِن غير أن يُتعرَّض لحال المشركين وهم أظلمُ الظالمين،[5] لا يساعده المَقام، فإنّ مقتضاه إمّا كون الظلم عبارةً عن الشرك، أو عمّا يدخُل فيه دخولًا أوّليًا. ﴿وَهُمْ﴾ أي: الظالمون ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ فيما فُعل بهم مِن العذاب؛ بل هو مِن مقتضيات ظُلمِهم ولوازمِه الضروريّة.

---

١ كذا وردت في نسخة م س.

٢ الأقوال الثلاثة بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٦٣؛ والأخيران في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٠٥.

٣ كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٠٥.

٤ كما في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٦٣.

٥ أضاف البيضاوي التعرُّض لمُجازاة المشركين في أنوار التنزيل، ٢/١٠٥-١٠٦.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٥﴾

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: ما وُجد فيهما داخلًا في حقيقتهما أو خارجًا عنهما متمكِّنًا فيهما. وكلمة ﴿مَا﴾ لتغليب غير العقلاءِ على العقلاء، فهو تقرير لكمال قدرته سبحانه على جميع الأشياء وبيانٌ لاندراج الكلّ تحت ملكوته يتصرَّف فيه كيفما يشاء إيجادًا وإعدامًا وإثابةً وعقابًا.

﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ إظهار الاسم الجليل لتفخيم شأن الوعد والإشعار بعِلّة الحُكم، وهو إمّا بمعنى الموعود، أي: جميعِ ما وَعَد به كائنًا ما كان فيندرج فيه العذاب الذي استعجلوه، وما ذُكر في أثناء بيان حالِه اندراجًا أوّليًا، أو بمعناه المصدري، أي: وعدَه بجميع ما ذُكر. فمعنى قوله تعالى: ﴿حَقّٞ﴾ على الأوّل ثابت واقع لا محالةَ، وعلى الثاني مطابق للواقع. وتصدير الجملتين بحرفَي التنبيه والتحقيق للتسجيل على تحقّق مضمونهما المقرِّر لمضمون ما سلف مِن الآيات الكريمة والتنبيهِ على وجوب استحضاره والمحافظة عليه.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ﴾ لقصور عقولهم واستيلاء الغفلة عليهم وإلفِهم بالأحوال المَحسوسة المعتادة ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ذلك، فيقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون.

﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٥٦﴾

﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ في الدنيا مِن غير دخل لأحد في ذلك، ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ في الآخرة بالبعث والحشر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ التفات ورجوع إلى استمالتهم نحوَ الحقّ واستنزالهم إلى قبوله واتّباعه / غِبَّ تحذيرهم مِن غوائل الضلال بما تُليَ عليهم مِن القوارع [٩٥ظ]
الناعية عليهم سوءَ عاقبتِهم، وإيذانٌ بأنّ جميع ذلك مَسوقٌ لمصالحهم ومنافعهم.

﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ﴾ هي والوعظ والعِظَة: التذكير بالعواقب، سواء كان بالزجر والترهيب أو بالاستمالة والترغيبِ. وكلمة ﴿مِن﴾ في قوله تعالى:

﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ ابتدائيّة متعلِّقة بـ﴿جَآءَتْكُم﴾، أو تبعيضيّة متعلِّقة بمحذوف وقع صفةً لـ﴿مَّوْعِظَةٌ﴾، أي: مَوعظة كائنة مِن مواعظ ربّكم. وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة مِن حُسن المَوقع ما لا يخفى.

﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: كتابٌ جامع لهذه الفوائد والمَنافِع، فإنّه كاشف عن أحوال الأعمال حسناتِها وسيّئاتِها، مرغِّب في الأُولى ورادِعٌ عن الأخرى، ومبيِّنٌ للمعارف الحقّة التي هي شفاء لِما في الصدور مِن الأدواء القلبيّة كالجهل والشكّ والشرك والنفاق وغيرها مِن العقائد الزائغة، وهادٍ إلى طريق الحقّ واليقين بالإرشاد إلى الاستدلال بالدلائل المنصوبة في الآفاق والأنفس. وفي مجيئه رحمةٌ للمؤمنين حيث نجَوا به مِن ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان وتخلَّصوا مِن درَكات النيران وارتقَوا إلى درَجات الجِنان. والتنكير في الكلّ للتفخيم.

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾

﴿قُلْ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ليأمرَ الناس بأن يغتنموا ما في مجيء القرآن العظيم مِن الفضل والرحمة. ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ المراد بهما إمّا ما في مجيء القرآن مِن الفضل والرحمة، وإمّا الجنس وهما داخلان فيه دخولًا أوّليًا، والباء متعلِّقة بمحذوف. وأصلُ الكلام: ليَفرَحوا بفضل الله وبرحمته، وتكرير الباء في رحمته للإيذان باستقلالها في استيجاب الفرح، ثمّ قُدِّم الجارّ والمجرور على الفعل لإفادة القصر، ثمّ أُدخل عليه الفاءُ لإفادة معنى السببيّة، فصار: بفضل الله وبرحمته فليَفرَحوا.

ثمّ قيل: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ للتأكيد والتقرير، ثمّ حُذف الفعل الأوّل لدلالة الثاني عليه، والفاء الأولى جزائيّة والثانية للدلالة على السببيّة، والأصل: إن فرِحوا بشيء فبذلك ليَفرحوا لا بشيء آخرَ، ثمّ أُدخل الفاءُ / للدلالة على السببيّة [٩٦و]
ثمّ حُذف الشرط. ومعنى البُعد في اسم الإشارة للدلالة على بُعد درجة فضل الله تعالى ورحمته. ويجوز أن يُراد: بفضل الله وبرحمته فلْيَعتنوا فبذلك فليفرحوا.

ويجوز أن يتعلّق الباء بـ﴿جَآءَتۡكُم﴾،[١] أي: جاءتكم موعظة بفضل الله وبرحمته فبذلك، أي: فبمجيئها فليَفرَحوا.[٢] وقُرئ: "فَلْتَفْرَحُوا"،[٣] وقرأ أُبيّ "فافْرَحُوا".[٤] وعن أُبيّ بن كعب أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تلا: «﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾، فقال: بكتاب الله والإسلام».[٥] وقيل: فضلُه: الإسلامُ، ورحمتُه: ما وعَد عليه.[٦]

﴿هُوَ﴾ أي: ما ذُكر مِن فضل الله ورحمته ﴿خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ مِن حُطام الدنيا. وقُرئ: "تَجْمَعُونَ"،[٧] أي: فبذلك فليَفرَح المؤمنون هو خير ممّا تجمعون أيُّها المخاطَبون.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ۝٥٩﴾

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم﴾ أي: أخبروني ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ﴾ ﴿مَّا﴾ منصوبةُ المَحلّ بما بعدها، أو بما قبلها واللام للدلالة على أنّ المراد بـ"الرزق": ما حلّ لهم، وجعلُه منزلًا لأنّه مقدَّر في السماء محصَّل هو أو ما يتوقَّف عليه وجودًا أو بقاءً بأسباب سماويّة مِن المطر والكواكب في الإنضاج والتلوين.

﴿فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ﴾ أي: جعلتم بعضه ﴿حَرَامٗا﴾ أي: حكمتم بأنّه حرام، ﴿وَحَلَٰلٗا﴾ أي: وجعلتُم بعضه حلالًا، أي: حكمتُم بحِلّه مع كون كلّه حلالًا، وذلك قولهم: ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ﴾ الآية [الأنعام، ١٣٨/٦]، وقولُهم: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَا﴾ [الأنعام، ١٣٩/٦]، ونحوُ ذلك. وتقديم الحرام لظهور أثرِ الجَعْل فيه ودوران التوبيخ عليه. ﴿قُلۡ﴾ تكرير لتأكيد الأمر بالاستخبار، أي: أخبروني.

---

١ في الآية السابقة.

٢ جوّز هذين الوجهين الزمخشري في الكشّاف، ٢٦٣/٢.

٣ قرأ بها يعقوب في رواية رويس عنه. النشر لابن الجزري، ٢٨٥/٢.

٤ قراءة شاذّة، مَرويّة عن أبيّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٧.

٥ جامع البيان للطبري، ١٩٥/١٢-١٩٧، شعب الإيمان للبيهقي، ١٨٠/٤ (٢٣٥٧)، الكشّاف للزمخشري، ٢٦٣/٢.

٦ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٦٣/٢.

٧ قرأ بها ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب في رواية رويس عنه. النشر لابن الجزري، ٢٨٥/٢.

﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ في ذلك الجَعْل فأنتم فيه ممتثلون بأمره تعالى، ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ ﴿أَمْ﴾ متّصلة والاستفهام للتقرير[١] والتبكيت لتحقّق العلم بالشقّ الأخير قطعًا، كأنّه قيل: أم لم يأذن لكم؛ بل تفترون عليه سبحانه، فأُظهِر الاسم الجليل وقُدِّم على الفعل دلالةً على كمال قبح افترائهم وتأكيدًا للتبكيت إثرَ تأكيدٍ مع مراعاة الفواصل. ويجوز أن يكون الاستفهام للإنكار[٢] و﴿أَمْ﴾ منقطعةً،[٣] ومعنى "بل" فيها الإضراب والانتقال مِن التوبيخ والزجر بإنكار الإذن إلى ما تُفيده همزتُها مِن التوبيخ على الافتراء عليه سبحانه وتقريرِه. وتقديم الجارّ والمجرور على هذا يجوز أن يكون للقصر، كأنّه قيل: بل أعَلى الله تعالى خاصّة تفترون؟

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٦٠﴾

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ كلام مَسوق مِن قِبَله تعالى لبيان هول ما سيلقَونه غيرُ داخل تحت القول المأمور به، والتعبيرُ عنهم بالموصول في موقع الإضمار لقطع احتمال الشقّ الأوّل مِن الترديد والتسجيلِ عليهم بالافتراء وزيادة الكذب، مع أنّ الافتراء لا يكون إلّا كذبًا، لإظهار كمال قُبح ما افتعلوا وكونِه كذبًا في اعتقادهم أيضًا. وكلمة ﴿مَا﴾ استفهاميّة وقعت مبتدأ، و﴿ظَنُّ﴾ خبرُها، ومفعولاه محذوفان.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ ظرف لنفس الظنّ، أي: أيُّ شيء ظنُّهم في ذلك اليوم، يومَ عرض الأفعال والأقوال والمُجازاة عليها مِثقالًا بمِثقال؟ والمراد تهويله وتفظيعه بهول ما يتعلّق به ممّا يُصنع بهم يومئذ. وقيل: هو ظرف لِما يتعلّق به ظنُّهم اليومَ مِن الأمور التي ستقع يوم القيامة تنزيلًا له ولِما فيه مِن الأحوال لكمال وضوح أمره في التقرّر والتحقّق منزلةَ المسلَّم عندهم،[٤]

---

[١] وفي هامش م: للحمل على الإقرار. «منه».
[٢] وفي هامش م: أي: إنكار وقوع الإذن. «منه».
[٣] كما في **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٢٦٤.
[٤] انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٦/٧٨.

[٩٦ظ] / أي: أيُّ شيء ظنُّهم لِما سيقع يوم القيامة؟ أيحسبون أنّهم لا يُسألون عن افترائهم أو لا يُجازون عليه أو يُجازون جزاءً يسيرًا، ولأجل ذلك يفعلون ما يفعلون؟ كلّا إنّهم لفي أشدّ العذاب، لأنّ معصيتهم أشدُّ المعاصي، ومَن أظلم ممّن افترى على الله كذبًا. وقُرئ على لفظ الماضي،[١] أي: أيُّ ظنّ ظنُّوا يوم القيامة؟ وإيراد صيغةِ الماضي لأنه كائنٌ فكأنّه قد كان.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ أي: عظيم لا يُكتنه كُنهه ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: جميعًا حيث أنعَم عليهم بالعقل المميِّز بين الحقّ والباطل والحسَن والقبيح، ورحِمهم بإنزال الكتب وإرسال الرسل، وبيَّن لهم الأسرار التي لا تستقلّ العقول في إدراكها وأرشدهم إلى ما يُهِمّهم مِن أمر المعاش والمعاد.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ تلك النعمة الجليلة فلا يَصرِفون قُواهم ومَشاعرهم إلى ما خُلقت له، ولا يتّبعون دليل العقل فيما يستبدّ به، ولا دليلَ الشرع فيما لا يُدرك إلّا به، وقد تفضَّل عليهم ببيان ما سيلقَونه يوم القيامة، فلا يلتفتون إليه فيقعون فيما يقعون، فهو تذييل لِما سبق مقرِّر لمضمونه.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ أي: في أمر، مِن شأنْتُ شأنه، أي: قصدتُ قصدَه، مصدر بمعنى المفعول. ﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ﴾ الضمير للشأن، والظرفُ صفة لمصدر محذوف، أي: تلاوةً كائنةً مِن الشأن، إذ هي معظم شئونه عليه السلام أو للتنزيل. والإضمار قبل الذِّكر لتفخيم شأنِه، و"مِن" ابتدائيّة أو تبعيضيّة أو لله عزّ وجلّ. و"مِن" ابتدائيّة، والتي في قوله تعالى: ﴿مِن قُرْءَانٍ﴾ مَزيدةٌ لتأكيد النفي أو ابتدائيّة على الوجه الأوّل، وبيانيّة أو تبعيضيّةٌ على الثاني والثالث.

---

١ قراءة شاذّة، مَرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٢.

﴿وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ﴾ تعميم للخطاب إثرَ تخصيصه بمقتدى الكلّ، وقد رُوعي في كلّ مِن المَقامين ما يليق به حيث ذُكر أوّلًا مِن الأعمال ما فيه فخامة وجلالة، وثانيًا ما يتناول الجليل والحقير.

﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمّ أحوال المخاطَبين بالأفعال الثلاثة، أي: ما تُلابِسون بشيء منها في حال / مِن الأحوال إلّا حالَ كوننا رُقباء [٩٧و]
مطّلعين عليه حافظين له.

﴿إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: تخوضون وتندفعون فيه، وأصلُ الإفاضة: الاندفاعُ بكثرة أو بقوّة. وحيث أريدَ بالأفعال السابقة الحالة المستمرّة الدائمة المقارنة للزمان الماضي أيضًا أوثرَ في الاستثناء صيغةُ الماضي وفي الظرف كلمة "إذ" التي تُفيد المضارعَ معنى الماضي.

﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ أي: لا يبعُد ولا يغيب عن علمه الشامل. وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة مِن الإشعار باللطف ما لا يخفى. وقُرئ بكسر الزاء.[١]

﴿مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ﴾ كلمةُ ﴿مِن﴾ مَزيدة لتأكيد النفي، أي: ما يعزُب عنه ما يساوي في الثقل نملةً صغيرةً أو هباءً ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: في دائرة الوجود والإمكان، فإنّ العامّة لا تعرِف سواهما ممكنًا ليس في أحدهما أو متعلِّقًا بهما. وتقديم ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ لأنّ الكلام في حال أهلها، والمقصودُ إقامة البرهان على إحاطة علمه تعالى بتفاصيلها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ كلام برأسه مقرِّر لِما قبله، و﴿لَآ﴾ نافية للجنس، و﴿أَصۡغَرَ﴾ اسمها، و﴿فِي كِتَٰبٖ﴾ خبرها. وقُرئ بالرفع[٢] على الابتداء والخبر. ومَن عطَف على ﴿مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ﴾ وجعَل الفتحَ بدلَ الكسر لامتناع الصرف أو على محلّه مع الجارّ جعلَ الاستثناءَ منقطعًا،[٣] كأنّه قيل: لا يعزُب عن ربّك شيء ما، لكنْ جميعُ الأشياء في كتاب مبين، فكيف يعزُب عنه شي منها؟ وقيل: يجوز أن يكون الاستثناء متّصلًا، و﴿يَعۡزُبُ﴾

---

١ قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٥.
٢ قرأ بها حمزة ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٥.
٣ السياق: ومَن عطَف... جعَل الاستثناء...

بمعنى: يَبين ويصدُر، والمعنى: لا يصدُر عنه تعالى شيء إلّا وهو في كتاب مبين، والمراد بالكتاب المبين: اللوح المحفوظ.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٤﴾

﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ بيان على وجه التبشير والوعد لِما هو نتيجة لأعمال المؤمنين، وغايةٌ لِما ذُكر قبله مِن كونه تعالى مهيمنًا على نبيّه صلى الله عليه وسلَّم وأمّتِه في كلّ ما يأتون وما يذرون وإحاطةِ عِلمه سبحانه بجميع ما في السماء والأرض وكونِ الكلّ مثبَتًا في الكتاب المبين، بعد ما أشيرَ إلى فظاعة حال المفترين على الله تعالى يوم القيامة وما سيعتريهم مِن الهول إشارة إجماليّة على طريق التهديد والوعيد، وصُدِّرت الجملة بحرف التنبيه والتحقيق لزيادة تقرير مضمونها. و"الوليُّ" لغةً: القريب، والمراد بـ﴿أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾: خُلَّص المؤمنين

[٩٧ظ] لقربهم الروحاني / منه سبحانه وتعالى، كما سيُفصح عنه تفسيرهم.

﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ في الدارين مِن لحوق مكروه ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ مِن فوات مطلوب، أي: لا يعتريهم ما يُوجب ذلك، لا أنّه يعتريهم لكنّهم لا يخافون ولا يحزنون، ولا أنّه لا يعتريهم خوف وحُزن أصلًا؛ بل يستمرُّون على النشاط والسرور، كيف لا، واستشعار الخوف والخشيةِ استعظامًا لجلال الله سبحانه وهيبته واستقصارًا للجِدّ والسعي في إقامة حقوق العبوديّة مِن خصائص الخواصّ والمقرَّبين.

والمراد بيان دوام انتفائهما لا بيانُ انتفاء دوامهما كما يُوهمه كون الخبر في الجملة الثانية مضارعًا لِما مرّ مرارًا مِن أنّ النفي وإن دخل على نفس المضارع يُفيد الاستمرار والدوام بحسب المقام، وإنّما لا يعتريهم ذلك لأنّ مَقصِدهم ليس إلّا طاعة الله تعالى ونيل رضوانه المستتبع للكرامة والزُّلفى، وذلك ممّا لا ريبَ في حصوله ولا احتمالَ لفواته بموجَب الوعد بالنسبة إليه تعالى، وأمّا ما عدا ذلك مِن الأمور الدنيويّة المتردِّدة بين الحصول والفوات فهي بمَعزِل مِن الانتظام في سِلك مَقصِدهم وجودًا وعدمًا حتّى يخافوا مِن حصول ضارّها أو يحزنوا بفوات نافعِها.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: بكلّ ما جاء مِن عند الله تعالى ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يقُون أنفسَهم عمّا يحِقّ وقايتها عنه مِن الأفعال والتُّروك وقايةً دائمةً حسبما يُفيده الجمع بين صيغتَي الماضي والمستقبلِ، بيانٌ وتفسير لهم وإشارة إلى ما به نالوا ما نالوا، على طريقة الاستئناف المبنيّ على السؤال، ومحلُّ الموصول الرفعُ على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، كأنّه قيل: مَن أولئك وما سبب فوزهم بتلك الكرامة؟ فقيل: هم الذين جمعوا بين الإيمان والتقوى المفضِيَين إلى كلّ خيرٍ، المنجيَين عن كلّ شرّ. وقيل: محلّه النصب، أو الرفع على المدح، أو على أنّه وصف مادح للأولياء.[١] ولا يقدَح في ذلك توسّط الخبر.

والمراد بالتقوى المَرتبة الثالثة منها،[٢] الجامعةُ لِما تحتها مِن مَرتبة التوقّي عن الشِّرك التي يفيدها الإيمان أيضًا ومَرتبة التجنّب عن كلّ ما يُؤثم مِن فِعل أو ترك، أعني تنزُّه الإنسان عن كلّ ما يشغَل سرَّه عن الحقّ والتبتّلِ إليه بالكلّيّة، وهي[٣] التقوى[٤] الحقيقيّة[٥] المأمور بها[٦] في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران، ١٠٢/٣]، وبه يحصُل الشهود والحضور والقُرب الذي عليه يدور إطلاق الاسم عليه، وهكذا كان حال كلّ مَن دخل معه عليه الصلاة والسلام تحت الخطاب بقوله عزّ وعلا: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾،[٧] خلا أنّ لهم في شأن التبتّل والتنزّه درجاتٍ متفاوتةً حسب تفاوُت درجات استعداداتهم الفائضة عليهم بموجَب المشيئة المَبنيّة على الحِكَم الأبيّة، أقصاها ما انتهى إليه هِمم الأنبياء عليهم السلام حتّى جمعوا بذلك بين رياستَي النبوّة والوَلاية ولم يعُقهم التعلّق بعالم الأشباح عن الاستغراق في عالم الأرواح، ولم يصُدَّهم الملابسةُ بمصالح الخلق عن التبتّل إلى جناب الحقّ، لكمال استعداد نفوسهم الزكيّة المؤيَّدة بالقوّة القدسيّة، فمَلاك أمر الوَلاية هو التقوى المذكور.

---

[١] هذه الوجوه في **الكشّاف** للزمخشري، ٢٦٥/٢.
[٢] ط س: منه.
[٣] ط س: هو.
[٤] وفي هامش م: التقوى يُذكَّر ويُؤنَّث. «منه».
[٥] ط س: الحقيقي.
[٦] ط س: به.
[٧] يونس، ٦١/١٠.

فأولياء الله تعالى هم المؤمنون المتّقون. ويقرُب منه ما قيل: مِن أنّهم الذين تولّى الله تعالى[١] هدايتَهم بالبرهان، وتولَّوا القيام بحقّ عبوديّة الله تعالى والدعوة إليه.[٢] ولا يخالفه ما قيل مِن "أنّهم الذين يُذكَر الله تعالى[٣] برؤيتهم"،[٤] لِما رُوي عن سعيد بن جُبير أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سُئل "مَن أولياءُ الله" فقال: «هم / الذين يُذكرُ الله برؤيتهم»،[٥] أي: بسَمْتهم وإخباتهم وسكينتهم. ولا [٩٨و]
ما قيل:[٦] مِن أنّهم المتحابُّون في الله، لِما رُوي عن عمرَ رضيَ الله عنه أنّه قال: «سمعت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول: "إنّ مِن عباد الله عبادًا ليسوا بأنبياءَ ولا شهداءَ يغبِطُهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم مِن الله"، قالوا: "يا رسول الله خبّرنا مَن هم وما أعمالُهم فلعلّنا نُحبّهم؟" قال: "هم قوم تحابُّوا في الله على غير أرحام منهم ولا أموال يتعاطَونها، فواللهِ إنّ وجوههم لَنور، وإنّهم لَعلى منابرَ مِن نور، لا يَخافون إذا خاف الناس ولا يَحزنون إذا حزِن الناس"».[٧]

فإنّ ما ذُكر مِن حُسن السَّمت والسكينة المذكِّرة لله تعالى والتحابِّ في الله سبحانه مِن الأحكام الدنيويّة اللازمة للإيمان والتقوى والآثارِ الخاصّة بهما الحقيقةِ بالتخصيص بالذِّكر لظهورها وقُربها مِن أفهام الناس، قد أورد النبيّ[٨] عليه السلام كلًّا مِن ذلك حسبما يقتضيه مقام الإرشاد والتذكير ترغيبًا للسائلين أو غيرهم مِن الحاضرين فيما خصّه بالذِّكر هناك مِن أحكامهما، فلعلّ الحاضرين أوّلًا كانوا محتاجين إلى إصلاح الحال مِن جهة الأقوال والأفعال والمَلابس ونحوِ ذلك، والحاضرين ثانيًا مفتقِرين إلى تأليف قلوبهم وعطفِها نحوَ المؤمنين الذين لا علاقةَ بينهم وبينهم مِن جهة النسب والقرابة، وتأكيدِ ما بينهم مِن الأخوَّة الدينيّة ببيان عِظَم شأنها ورفعةِ مكانها وحُسن عاقبتها، ليُراعوا حقوقها

---

١ ط س – تعالى.
٢ القول عن أبي بكر الأصمّ في اللباب لابن عادل، ٣٦٦/١٠.
٣ ط س – تعالى.
٤ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٦٥/٢.
٥ جامع البيان للطبري، ٢٠٩/١٢-٢١١؛ المعجم الكبير للطبراني، ١٣/١٢ (١٢٣٢٥)؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٦٥/٢.
٦ السياق: ولا يُخالفه ما قيل... ولا ما قيل...
٧ سنن أبي داود، ٣٨٧/٥ (٣٥٢٧)؛ جامع البيان للطبري، ٢١١/١٢-٢١٢؛ شعب الإيمان للبيهقي، ٣١٥/١١ (٨٥٨٥)؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٦٥/٢.
٨ ط س: رسول الله.

ويهجُروا مَن لا يُوافقهم في الدِّين مِن ذوي أرحامهم. وأمّا ما ذُكر مِن أنّه يغبِطهم الأنبياء فتصوير لحُسن حالهم على طريقة التمثيل. قال الكواشيّ:[١] وهذا مبالغة، والمعنى لو فُرض قومٌ بهذه الصفة لكانوا هؤلاء.

وقيل: أولياءُ الله: الذين يتولَّونه بالطاعة ويتولَّاهم بالكرامة، وجُعل قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ تفسيرًا لتولّيهم إيّاه تعالى، وقولُه تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ تفسيرًا لتولّيه تعالى إيّاهم.[٢]

ولا ريبَ في أنّ اعتبار القيد الأخير في مفهوم الوَلاية غيرُ مناسب لمقام ترغيب المؤمنين في تحصيلها والثبات عليها وبشارتِهم بآثارها ونتائجها؛ بل مُخِلّ بذلك، إذ التحصيل إنّما يتعلّق بالمقدور، والاستبشارُ لا يحصُل إلّا بما عُلم وجود سببه، والقيد المذكور ليس بمقدور لهم حتّى يُحصِّلوا الوَلاية بتحصيله، ولا بمعلوم لهم عند حصوله حتّى يعرفوا حصول الوَلاية لهم، ويستبشروا بمحاسن آثارِها؛ بل التولّي بالكرامة عين نتيجة الوَلاية، فاعتباره في عنوان الموضوع. ثمّ الإخبار بعدم الخوفِ والحزنِ ممّا لا يليق بشأن التنزيل الجليل.

فالذي يقتضيه نظمه الكريم أنّ الأوّل تفسير للأولياء حسبما شُرح، والثاني بيان لِما أولاهم بما لهم مِن الوَلاية تفضّلًا وتكرّمًا[٣] مِن خيرات الدارين بعد بيان نجاتهم[٤] مِن شرورهما ومكارههما. والجملة مستأنَفة كما سبق، كأنّه قيل: هل لهم وراء ذلك مِن نعمة وكرامة؟ فقيل: لهم ما يسرُّهم في الدارين. وتقديم الأوّل

---

١ تفسير الكواشي، ٢٢٠و. | هو أحمد بن يوسف بن حسن بن رافع بن الحسين بن سويدان الشيباني الموصلي المعروف بالكواشي (ت. ٦٨٠هـ/١٢٨١م). يُنسب إلى كواشة أو كواشى قلعة في الموصل. الإمام الديّن المفسّر الشافعي. برع في العربيّة والقراءات والتفسير، وكان عديم النظير زاهدًا صادقًا، وأضرّ قبل موته بعشر سنين. تولّى مشيخة الإقراء بدار الحديث في دمشق، وكان خطيبًا وإمامًا بالجامع الأموي. وله تفسيران كبير هو تبصرة المتذكّر وتذكرة المتبصّر، وصغير هو التلخيص في تفسير القرآن العظيم، وله جملة مِن الكتب في علوم القرآن الكريم. انظر: بغية الوعاة للسيوطي، ٤٠١/٢؛ وغاية النهاية لابن الجزري، ١٨٣/١؛ والأعلام للزركلي، ٢٧٤/١.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٦٥/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠٨/٢.

٣ م - بما لهم مِن الولاية تفضّلًا وكرامة.

٤ ط س: إنجائهم.

لِما أنّ التخلية سابقة على التحلية مع ما فيه مِن مراعاة حقّ المقابلة بين حُسن حالِ المؤمنين وسوء حالِ المفترين.

وتعجيل إدخالِ المَسرّة بتبشير الخلاص عن الأهوال وتوسيطُ البيان السابق بين بِشارة الخلاص عن المحذور وبِشارةِ الفوز بالمطلوب، لإظهار كمال العناية بتفسير الأولياء، مع الإيذان بأن انتفاء الخوف والحزن لاتّقائهم عمّا يؤدّي إليهما مِن الأسباب.

و"البُشرى" مصدر أريدَ به المبشَّر به مِن الخيرات العاجلة كالنصر والفتح والغنيمة وغير ذلك، والآجلةِ الغنيّة عن البيان. وإيثار الإبهام والإجمال للإيذان بكونه وراء البيان / والتفصيل. والظرفان في موقع الحالِ منه، والعاملُ ما [٩٨ظ]
في الخبر مِن معنى الاستقرار، أي: لهم البشرى حالَ كونها في الحياة الدنيا وحالَ كونِها في الآخرة، أي: عاجلةً وآجلةً؛ أو مِن الضمير المجرور، أي: حالَ كونِهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة،[١] ومِن البشرى العاجلة الثناءُ الحسَن والذِّكرُ الجميل ومحبّةُ الناس. عن أبي ذرّ رضي الله عنه: «قلت: يا رسولَ الله الرجلُ يعمل العملَ لله ويُحبّه الناسُ، فقال عليه السلام: "تلك عاجل بُشرى المؤمن"».[٢]

هذا وقد قيل: البشرى مصدر والظرفان متعلِّقان به.[٣]

أمّا البشرى في الدنيا فهي البِشارات الواقعة للمؤمنين المتّقين في غير موضع مِن الكتاب المبين. وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «هي الرؤيا الصالحةُ يراها المؤمنُ أو تُرى له»،[٤] وعنه عليه السلام: «ذهبَت النبوّة وبقيَت المبشِّرات»،[٥]

---

[١] ط س - الدنيا وفي الآخرة.

[٢] مسند أحمد، ٣٠٥/٣٥ (٢١٣٨٠)؛ صحيح مسلم، ٢٠٣٤/٤ (٢٦٤٢)؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٤١/٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٦٦/٢.

[٣] انظر: التبيان للعكبري، ٦٧٩/٢؛ واللباب لابن عادل، ٣٦٨/١٠.

[٤] بلفظ قريب في مسند أحمد، ٤٢٧/٣٧ (٢٢٧٦٧)؛ وسنن الترمذي، ٥٣٤/٤ (٢٢٧٥). وبلفظه في جامع البيان للطبري، ٢١٩/١٢-٢٢٠؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٦٥/٢.

[٥] مسند أحمد، ١١٥/٤٥ (٢٧١٤١)؛ وسنن الترمذي، ٥٣٣/٤ (٢٢٧١)؛ جامع البيان للطبري، ٢١٩/١٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٦٥/٢؛

وعن عطاء: «لهم البشرى عند الموت تأتيهم الملائكة بالرحمة، قال الله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ﴾ [فصلت، ٤١/٣٠]».[١]

وأمّا البشرى في الآخرة فتلقّي الملائكة إيّاهم مسلِّمين مبشِّرين بالفوز والكرامة، وما يرَون مِن بياض وجوههم وإعطاء الصحائف بأيمانهم وما يقرءُون منها وغيرِ ذلك مِن البِشارات، فيكون هذه بِشارةً بما سيقع مِن البِشارات العاجلة والآجلة المطلوبة لغاياتها لا لذواتها، ولا يخفى أنّ صَرْف البِشارة الناجزة عن المقاصد بالذات إلى وسائلها ممّا لا يُساعده جلالة شأن التنزيل الكريم.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ لا تغييرَ لأقواله التي مِن جملتها مواعيدُه الواردة بِشارةً للمؤمنين المتَّقين فتدخل فيها البِشارات الواردة ههنا دخولًا أوّليًا ويثبُت امتناع الإخلاف فيها ثبوتًا قطعيًا، وعلى تقدير كون المراد بالبشرى الرؤيا الصالحة فالمراد بعدم تبديل كلماته تعالى ليس عدم الخُلف بينهما وبين نتائجها الدنيويّة والأخرويّة؛[٢] بل عدم الخُلف بينهما وبين ما دلّ على ثبوتها ووقوعها فيما سيأتي بطريق الوعد مِن قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ فتدبّر.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن أنّ لهم البشرى في الدارين. ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوزَ وراءه، وفيه تفسير لِما أُبهم فيما سبق، وهاتِيك الجملة والتي قبلها اعتراض بتحقيق المبشَّر به وتعظيم شأنه، وليس مِن شرطه أن يكون بعده كلام متَّصل بما قبله، أو هذه تذييل والسابقة اعتراض.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ تسلية للرسول صلّى الله عليه وسلّم عمّا كان يلقاه مِن جهتهم مِن الأذيّة الناشئة مِن مقالاتهم الموحِشة، وتبشيرٌ له عليه السلام بأنّه عزّ وجلّ ينصُره ويُعزّه عليهم إثرَ بيان أنّ له ولأتباعه أمنًا مِن كلّ محذورٍ

---

[١] معالم التنزيل للبغوي، ٤/١٤١؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٦٦. وبمعناه عن قتادة في جامع البيان للطبري، ١٢/٢٢٤.

[٢] كما في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٦٦؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٠٨.

وفوزًا بكلّ مطلوب. وقُرئ: "وَلَا يُحْزِنْكَ"[١] مِن "أَحزَن"، وهو في الحقيقة نهي له عليه السلام عن الحزن، كأنّه قيل: لا تَحزَن بقولهم ولا تُبالِ بتكذيبهم وتَشاورِهم في تدبير هلاكك وإبطالِ أمرك وسائرِ ما يتفوّهون به في شأنك ممّا لا خيرَ فيه.

وإنّما وُجّه النهي إلى قولهم للمبالغة في نهيه عليه السلام عن الحزن لِما أنّ النهي عن التأثير نهيٌ عن التأثّر بأصله ونفيٌ له بالمرّة، وقد يُوجَّه النهيُ إلى اللازم، والمراد هو النهيُ عن الملزوم، كما في قولك: لا أُرَيَّنكَ ههنا. وتخصيص النهي عن الحزن بالإيراد مع شمول النفي السابق للخوف أيضًا لِما أنّه لم يكن فيه عليه السلام شائبة خوف حتّى يُنهى عنه، وربّما كان يعتريه عليه السلام في بعض الأوقات نوعُ حزنٍ فسُلّيَ عن ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ﴾ تعليل للنهي على طريقة الاستئناف، أي: إنّ الغلبة والقهر ﴿لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: في ملكته وسلطانه لا يملِك أحد شيئًا منها أصلًا، لا هم ولا غيرُهم، فهو يقهرهم ويَعصِمك منهم وينصُرك عليهم، وقد كان كذلك.
[٩٩و] / فهي مِن جملة البُشريات العاجلة. وقُرئ بفتح «إنَّ»[٢] على صريح التعليل، أي: لأنّ العزّة لله.

﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يسمع ما يقولون في حقّك، ويعلم ما يعزِمون عليه، وهو مُكافِئهم بذلك.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: العقلاء مِن الملائكة والثقلين، وتخصيصُهم بالذِكر للإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح بغيرهم، فإنّهم مع شرفهم

---

١ قرأ بها نافع. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٤.

٢ قراءة شاذّة، مَروية عن أبي حَيْوة وأبو بَحْريّة والشيرازي والأنطاكي عن أبي جعفر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٢؛ المغني في القراءات للنُوزاوازي، ص ٩٦٦.

وعلوّ طبقتهم إذا كانوا عبيدًا له سبحانه مقهورين تحت قدرته وملكته، فما عداهم مِن الموجودات أَولى بذلك، وهو مع ما فيه مِن التأكيد لِما سبق مِن اختصاص العزّة بالله تعالى الموجبِ لسلوته عليه السلام وعدمِ مبالاته بالمشركين وبمقالاتهم تمهيدٌ لِما لحِق مِن قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾، وبرهانٌ على بطلان ظنونهم وأعمالهم المبنيّة عليها.

و﴿مَا﴾ إمّا نافية و﴿شُرَكَآءَ﴾ مفعولُ ﴿يَتَّبِعُ﴾ ومفعولُ ﴿يَدْعُونَ﴾ محذوف لظهوره، أي: ما يتّبع الذين يدعون مِن دون الله شركاءَ شركاءَ في الحقيقة وإن سمَّوها شركاءَ، فاقتُصر على أحدهما لظهور دلالته على الآخر. ويجوز أن يكون المذكور مفعولَ ﴿يَدْعُونَ﴾ ويكونَ مفعولُ ﴿يَتَّبِعُ﴾ محذوفًا لانفهامه مِن قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي: ما يتّبعونه يقينًا إنّما يتّبعون ظنَّهم الباطل.[١]

وإمّا موصولةٌ معطوفة على ﴿مَن﴾، كأنّه قيل: ولله ما يتّبعه الذين يدعون مِن دون الله شركاءَ، أي: وله شركاؤهم. وتخصيصهم بالذِّكر مع دخولهم فيما سبَق[٢] عبارةً[٣] أو دلالةً[٤] للمبالغة في بيان بطلان اتّباعهم وفسادِ ما بنَوه عليه مِن ظنّهم شركاءَهم معبودين مع كونهم عبيدًا له سبحانه.

وإمّا استفهاميّةٌ،[٥] أي: وأيُّ شيءٍ يتّبعون؟ أي: لا يتّبعون شيئًا ما يتّبعون إلّا الظنَّ والخيال الباطل، كقوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ[٦] إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَا﴾... إلخ [يوسف، ١٢/٤٠]. وقُرئ: "تَدْعُونَ"[٧] بالتاء، فالاستفهام للتبكيت والتوبيخ، كأنّه قيل: وأيَّ شيءٍ يتّبع الذين تدعونهم شركاءَ مِن الملائكة والنبيّين؟ تقريرًا لكونهم متّبعين لله تعالى مطيعين له، وتوبيخًا لهم على عدم اقتدائهم بهم في ذلك، كقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء، ١٧/٥٧]،

---

١ جوّز ذلك العكبري في التبيان، ٢/٦٨٠؛ وهو في اللباب لابن عادل، ١٠/٣٧٠-٣٧١.

٢ وفي هامش م: مِن قوله تعالى: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾. «منه».

٣ وفي هامش م: كالملائكة وعيسى وعُزير عليهم السلام. «منه».

٤ وفي هامش م: كالأصنام والكواكب. «منه».

٥ وفي هامش م: على طريقة الإنكار. «منه».

٦ م - مِن دُونِهِ.

٧ قراءة شاذّة، مَرويّة عن عليّ بن أبي طالب وأبي عبد الرحمن السُّلمي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٢؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٦٦.

ثمّ صُرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة فقيل: إن يتّبع هؤلاء المشركون إلّا الظنَّ ولا يتّبعون ما يتّبعه الملائكة / والنبيّون مِن الحقّ، ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [٩٩ظ] يَكذِبون فيما ينسُبونه إليه سبحانه ويَحزُرون ويُقدِّرون أنّهم شركاءُ تقديرًا باطلًا.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ تنبيه على تفرّده تعالى بالقدرة الكاملة والنعمة الشاملة ليَدلّهم على توحّده سبحانه باستحقاق العبادة، وتقريرٌ لِما سلف مِن كون جميع الموجودات الممكنة تحت قدرته وملكته المفصِح عن اختصاص العزّة به سبحانه.

و"الجَعْل" إن كان بمعنى الإبداع والخَلْق فـ﴿مُبْصِرًا﴾ حال، وإلّا فـ﴿لَكُمْ﴾ مفعوله الثاني، أو هو حال كما في الوجه الأوّل والمفعولُ الثاني ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾، أو هو محذوف يدلّ عليه المفعول الثاني مِن الجملة الثانية، كما أنّ العلّة الغائيّة منها محذوفة اعتمادًا على ما في الأُولى، والتقدير: هو الذي جعَل لكم الليل مظلمًا لتسكُنوا فيه والنهارَ مبصِرًا لتتحرّكوا فيه لمصالحكم، كما سيجيء نظيره في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ الآية [يونس، ١٠/١٠٧]، فحُذف في كلّ واحد مِن الجانبين ما ذُكر في الآخر اكتفاءً بالمذكور عن المتروك. وإسناد الإبصار إلى النهار مجازيٌّ كالذي في "نهارُه صائمٌ".[١]

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: في جعل كلّ منهما كما وُصف أو فيهما. وما في اسم الإشارةِ مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلة المشار إليه وعلوِّ رُتبته. ﴿لَـَٔايَـٰتٍ﴾ أي: عجيبةً كثيرة، أو آياتٍ أُخَرَ غيرَ ما ذُكر. ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي: هذه الآيات المتلوّةَ ونظائرها المنبّهةَ على تلك الآيات التكوينيّة الآمرةَ بالتأمّل فيها سماعَ تدبُّر واعتبار، فيعملون بمقتضاها. وتخصيص الآيات بهم مع أنّها منصوبة لمصلحة الكلّ لِما أنّهم المنتفعون بها.

---

١ انظر: اللباب لابن عادل، ١٠/٣٧٢.

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

﴿قَالُوا﴾ شروع في ذِكر ضَرْب آخرَ مِن أباطيلهم وبيانُ بطلانه. ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ أي: تبنّاه. ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه وتقديس له عمّا نَسَبوا إليه وتعجيبٌ مِن كلمتهم الحمقاءَ. ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ على الإطلاق عن كلّ شيء في كلّ شيء، وهو عِلّة لتنزّهه سبحانه وإيذانٌ بأنّ اتّخاذ الولد مِن أحكام الحاجة.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: مِن العقلاء وغيرهم، تقرير لغِناه وتحقيق لمالكيّته تعالى لكلّ ما سواه.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أي: حجّة ﴿بِهَٰذَا﴾ أي: بما ذُكر مِن قولهم الباطل توضيح لبطلانه بتحقيق سلامة ما أُقيم مِن البرهان الساطع عن المعارِض، فـ﴿مِن﴾ في ﴿مِن سُلْطَانٍ﴾ زائدةٌ لتأكيد النفي، وهو مبتدأ، والظرف المقدَّم خبره، أو مرتفِعٌ على أنّه فاعل للظرف لاعتماده على النفي، و﴿بِهَٰذَا﴾ متعلِّق / إمّا بـ﴿سُلْطَانٍ﴾ لأنّه بمعنى الحجّة والبرهان، وإمّا بمحذوف وقعَ صفةً [١٠٠و]
له، وإمّا بما في ﴿عِندَكُم﴾ مِن معنى الاستقرار، كأنّه قيل: إنّ عندكم في هذا القول مِن سلطان.

والالتفات إلى الخطاب لمزيد المبالغة في الإلزام والإفحام وتأكيدِ ما في قوله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مِن التوبيخ والتقريع على جهلهم واختلاقهم، وفيه تنبيه على أنّ كلّ مقالة لا دليلَ عليها فهي جهالة، وأنّ العقائد لا بدَّ لها مِن برهان قطعي، وأنّ التقليد بمَعزِل مِن الاعتداد به.

﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾

﴿قُلْ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ليُبيّن لهم سوءَ مَغبّتهم ووخامةَ عاقبتِهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ أي: في كلّ أمر فيَدخل ما نحن بصدده مِن الافتراء بنسبة الولد والشريكِ إليه سبحانه دخولًا أوّليًا. ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي: لا ينجُون مِن مكروه ولا يفوزون بمطلوب أصلًا.

وتخصيص عدم النجاة والفوز بما يندرج في ذلك مِن عدم النجاة مِن النار وعدم الفوز بالجنّة لا يناسب مقام المبالغة في الزجر عن الافتراء عليه سبحانه.

﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ كلام مستأنَف سِيق لبيان أنّ ما يتراءى فيهم بحسب الظاهر مِن نَيل المطالب والفوز بالحظوظ الدنيويّة على الإطلاق أو في ضمن افترائِهم بمَعزِل مِن أن يكون مِن جنس الفلاح،[1] كأنّه قيل: كيف لا يُفلحون وهم في غِبطة ونعيم؟ فقيل: هو متاع يسير في الدنيا وليس بفوز بالمطلوب.

ثمّ أشيرَ إلى انتفاء النجاةِ عن المكروه أيضًا بقوله عزّ وعلا: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي: بالموت. ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ فيبقَون في الشقاء المؤبَّد بسبب كفرهم المستمرّ أو بكفرهم في الدنيا، فأين هم مِن الفلاح؟ وقيل: المبتدأ المحذوف: حياتُهم أو تقلُّبهم،[2] وقد قيل: إنّه: افتراؤُهم.[3]

ولا يخفى أنّ "المتاع" إنّما يُطلق على ما يكون مطبوعًا عند النفس مرغوبًا فيه في نفسه يُتمتَّع ويُنتفَع به، وإنّما عدمُ الاعتداد به لسرعة زواله، ونفسُ الافتراء عليه سبحانه أقبحُ القبائح عند النفس فضلًا عن أن يكون مطبوعًا عندها. وعدُّه كذلك باعتبار إجراء حُكم ما يؤدّي إليه مِن رياساتهم عليه ممّا لا وجهَ له،[4] فالوجهُ ما ذُكر أوّلًا. وليس ببعيد ما قيل: إنّ المحذوف هو الخبر، أي: لهم متاعٌ.[5]

[١٠٠ظ] / والآية إمّا مسوقةٌ مِن جهة الله سبحانه لتحقيق عدم إفلاحهم غيرُ داخلةٍ في الكلام المأمور به، كما يقتضيه ظاهر قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا﴾ وقولِه تعالى: ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ﴾، وإمّا داخلةٌ فيه، على أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مأمور بنقله وحكايتِه عنه عزّ وجلّ.

---

[1] وفي هامش م: لا فوزًا بالمرام ولا نجاة عن المحذور. «منه».

[2] القول في التبيان للعكبري، ٢/٦٨٠؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١١٠.

[3] كما في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٦٧.

[4] س – له. | كما في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٦٧؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١١٠.

[5] الوجه في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٦/٢٣٨؛ واللباب لابن عادل، ١٠/٣٧٤.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على المشركين مِن أهل مكّةَ وغيرهم لتحقيق ما سبق مِن أنّهم لا يُفلحون، وأنّ ما يتمتّعون به على جناح الفوات، وأنّهم مشرفون على العذاب الخالد.

﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي: خبرَه الذي له شأن وخَطَر مع قومه الذين هم أضراب قومك في الكفر والعناد، ليتدبّروا ما فيه مِن زوال ما تمتّعوا به مِن النعيم وحلول عذاب الغَرق الموصول بالعذاب المقيم، لينزجروا بذلك عمّا هم عليه مِن الكفر أو تنكسرَ شدّة شكيمتهم أو يعترفَ بعضهم بصحّة نبوّتك، بأن عرفوا أنّ ما تتلوه موافِقًا لِما ثبت عندهم مِن غير مخالفة بينهما أصلًا، مع علمهم بأنّك لم تسمَع ذلك مِن أحد ليس إلّا بطريق الوحي. وفيه مِن تقرير ما سبق مِن كون الكلّ لله سبحانه واختصاص العزّة به تعالى وانتفاء الخوف والحزن مِن أوليائه عزّ وعلا قاطبةً وتشجيعِ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وحملِه على عدم المبالاة بهم وبأقوالهم وأفعالهم ما لا يخفى.

﴿إِذْ قَالَ﴾ معمول لـ﴿نَبَأَ﴾ أو بدل منه بدلَ اشتمال، وأيًّا ما كان فالمراد بعض نَبئِه عليه السلام، لا كلُّ ما جرى بينه وبين قومه. واللام في قوله تعالى: ﴿لِقَوْمِهِۦ﴾ للتبليغ. ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ﴾ أي: عظُم وشَقّ ﴿عَلَيْكُم مَّقَامِى﴾ أي: نفسي، كما يقال: فعلتُه لمكان فلان، أي لفلان، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ [الرحمن، ٥٥/٤٦]، أي: خاف ربَّه؛[١] أو قيامي ومُكثي بين ظَهْرانَيكم مدّة طويلة، أو قيامي ﴿وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، فإنّهم كانوا إذا وعَظوا الجماعة يقومون على أرجلهم والجماعةُ قعودٌ ليَظهر حالُهم ويُسمَع مقالُهم. ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ جواب للشرط،[٢] أي: دمتُ على تخصيص التوكّل به تعالى، ويجوز أن يُراد به إحداث مرتبةٍ مخصوصة مِن مراتب التوكّل.

---

[١] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٦٨.

[٢] وفي هامش م: وسببيّة مِن حيث استتباعه لتصدِّيهم لقتله. «منه».

﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ﴾ عطفٌ على الجواب، والفاء لترتيب الأمر بالإجماع على التوكّل لا لترتيب نفس الإجماع عليه، أو هو الجواب وما سبق جملة اعتراضيّة. والإجماع: العزم. قيل: هو متعدّ بنفسه. وقيل: فيه حَذْف وإيصال.[١] قال السَّدوسي:[٢] "أجمعتُ الأمرَ" أفصحُ مِن "أجمعتُ عليه"، وقال أبو الهيثم:[٣] أجمعَ أمرَه: جعله مجموعًا بعد ما كان متفرِقًا، وتفرُّقُه أنّه يقول مرّة: أفعلُ كذا، وأخرى: أفعل كذا، وإذا عزم على أمر واحد فقد جمَعه، أي: جعله جميعًا.[٤]

﴿وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ بالنصب على أنّ الواو بمعنى "مع" كما تدلّ عليه القراءة بالرفع عطفًا على الضمير المتّصل تنزيلًا للفصل منزلة التأكيد. وإسناد الإجماع إلى الشركاء على طريقة التهكّم. وقيل: إنّه عطفٌ على ﴿أَمۡرَكُمۡ﴾ بحذف المضاف، أي: أمرَ شركائكم. وقيل: منصوب بفعل محذوف، أي: وادْعُوا شركاءَكم،[٥] وقد قُرِئ كذلك.[٦] وقُرِئ: "فاجْمَعُوا"[٧] مِن الجمع، أي: فاعزِموا على أمركم الذي تُريدون بي مِن السعي / في إهلاكي واحتشِدوا فيه على أيّ وجه يُمكنكم. [١٠١و]

﴿ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ﴾ ذلك ﴿عَلَيۡكُمۡ غُمَّةً﴾ أي: مستورًا مِن غمّه إذا ستَره؛ بل مكشوفًا مشهورًا تُجاهرونني به، فإنّ الستر إنّما يُصار إليه لسدّ باب تدارُك الخلاص بالهرب أو نحوه، فحيث استحال ذلك في حقّي لم يكن للستر وجهٌ. وإنّما خاطَبهم عليه السلام بذلك إظهارًا لعدم المبالاة بهم، وأنّهم لن يجدوا إليه سبيلًا، وثقةً بالله سبحانه وبما وعده مِن عصمته وكَلاءته، فكلمةُ ﴿ثُمَّ﴾

---

١ القولان في التبيان للعكبري، ٢/٦٨٠-٦٨١؛ واللباب لابن عادل، ١٠/٣٧٦.

٢ هو مؤرِّج بن عمر السَّدوسي النحوي البصري، أبو فَيد (ت. ١٩٥هـ/٨١٠م). عالم بالعربيّة والحديث والأنساب والأخبار. مِن أعيان أصحاب الخليل بن أحمد، سمع مِن أبي عمرو بن العلاء. مِن كتبه: **جماهير القبائل**، **غريب القرآن**، **الأمثال**، **الأنواء**، **والمعاني**. انظر: **بغية الوعاة** للسيوطي، ٢/٣٠٥؛ **والأعلام** للزركلي، ٧/٣١٨.

٣ أبو الهيثم الرازي (ت. ٢٧٦هـ/٨٨٩). إمام مِن أئمّة اللغة، أدرك العلماء وأخذ منهم وتصدّر بالريّ للإفادة. أخباره نادرة في كتب التراجم. انظر: **بغية الوعاة** للسيوطي، ٢/٣٢٩.

٤ قولاهما في **الدرّ المصون** للسمين الحلبي، ٦/٢٤٠؛ **واللباب** لابن عادل، ١٠/٣٧٦.

٥ القولان في **التبيان** للعكبري، ٢/٦٨١؛ **وأنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢/١١٠.

٦ قراءة شاذّة، مَرويّة عن أُبيّ. **المغني في القراءات** للنَّوزاوازي، ص ٩٦٨.

٧ قرأ بها رويس بخُلف عنه. **النشر** لابن الجزري، ٢/٢٨٥.

للتراخي في الرتبة. وإظهارُ "الأمر" في موقع الإضمار لزيادة تقرير يقتضيها مقامُ الأمر بالإظهار الذي يستلزمه النهيُ عن السَّتر والإسرار.

وقيل: المراد بأمرهم: ما يعتريهم مِن جهته عليه السلام مِن الحال الشديدة عليهم المكروهة لديهم، والغُمّة: الغَمّ، كالكُربة والكَرْب، و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي الزماني، والمعنى: لا يكن حالكم عليكم غمّةً، وتخلَّصوا بإهلاكي مِن ثِقَل مقامي وتذكيري.[1] ولا يخفى أنّه لا يساعده قولُه عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ اقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي: أدُّوا إليّ، أي: أحكِمُوا ذلك الأمرَ الذي تريدون بي ولا تُمهلوني، كقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ [الحجر، ٦٦/١٥]، أو أدُّوا إليّ ما هو حقّ عليكم عندكم مِن إهلاكي، كما يقضي الرجلُ غريمَه، فإنّ توسيط ما يحصُل بعد الإهلاك بين الأمر بالعزم على مباديه[2] وبين الأمر بقضائه مِن قبيل الفصل بين الشجَر ولِحائه. وقُرئ: "أَفْضُوا"[3] بالفاء، أي: انتهوا إليّ بشَرّكم، أو ابرُزوا إليّ، مِن أفضى إذا خرج إلى الفضاء.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ "الفاء" لترتيب التولّي على ما سبق، فالمراد به: إمّا الاستمرار عليه، وإمّا إحداث التولّي المخصوص، أي: إن أعرضتُم عن نصيحتي وتذكيري إثرَ ما شاهدتُم منّي مَخايل صحّة ما أقول ودلائلَها التي مِن جملتها دعوتي إيّاكم جميعًا إلى تحقيق ما تريدون بي مِن السوء غيرَ مُبالٍ بكم وبما يأتي منكم، وإحجامُكم مِن الإجابة علمًا منكم بأنّي على الحقّ المبين مؤيَّد مِن عند الله العزيز.

﴿فَمَا سَأَلْتُكُم﴾ بمقابلة وعظي وتذكيري ﴿مِّنْ أَجْرٍ﴾ تُؤدُّونه إليّ حتّى يؤدّيَ ذلك إلى تولّيكم، إمّا لاتّهامكم إيّاي بالطمع والسؤال وإمّا لثِقل دَفْع المسئول عليكم

---

١ الوجه في **الكشّاف** للزمخشري، ٢٦٨/٢.

٢ وفي هامش م: أسبابه.

٣ قراءة شاذّة، مَرويّة عن أبي حَيْوة عن السَّري بن ينعم ويحيى بن يعمر والجرّاح وأبي واقد والزعفراني وحَيْوة بن شُريح. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٦٢؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٢٨؛ **المغني في القراءات** للنّوْزاوازي، ص ٩٦٦.

أو حتّى يضرّني تولّيكم المؤدّي إلى الحرمان. فالأوّلُ لإظهار بطلان التولّي ببيان عدم ما يُصحِّحه، والثاني لإظهار عدم مبالاته عليه السلام بوجوده وعدمه، وعلى التقديرين فالفاء الجزائيّة لسببيّة الشرط لإعلام مضمون الجزاء لا لنفسه،
[١٠١ظ] والمعنى: إن تولّيتُم فاعلموا / أن ليس فيَّ مصحِّحٌ له ولا تأثّرٌ منه.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ ينتظِم المعنيين جميعًا، خلا أنّه على الأوّل تأكيد[١] وعلى الثاني تعليل لاستغنائه عليه السلام عنه، أي: ما ثوابي على العِظَة والتذكير إلّا عليه تعالى، يُثيبني به آمنتُم أو توليتُم. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لحُكمه لا أُخالِف أمره ولا أرجو غيره، أو المستسلمين لكلّ ما يُصيب مِن البلاء في طاعة الله تعالى.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فأصرُّوا على ما هم عليه مِن التكذيب بعدما ألزَمهم الحجّةَ، وبيّن لهم المَحَجّة، وحقّق أنّ تولّيَهم ليس له سبب غيرُ التمرّد والعناد، فلا جرمَ حقّت عليهم كلمة العذاب. ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ مِن المسلمين وكانوا ثمانين،[٢] ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ مِن الهالكين.

﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: بالطوفان. وتأخيرُ ذِكره عن ذِكر الإنجاء والاستخلاف حسبما وقع في قوله عزّ وعلا: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود، ٩٤/١١] وغيرِ ذلك مِن الآيات الكريمة، لإظهار كمال العناية بشأن المقدَّم، ولتعجيل المَسرّة للسامعين، وللإيذان بسَبْق الرحمة التي هي مِن مقتضيات الربوبيّة على الغضب الذي هو مِن مستتبعات جرائم المجرمين. ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ تهويل لِما جرى عليهم، وتحذيرٌ لمَن كذّب بالرسول صلّى الله عليه وسلّم، وتسليةٌ له عليه السلام.

---

[١] وفي هامش م: وهو ظاهر.

[٢] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٠/٢.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ أي: أرسلنا ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: مِن بعد نوح عليه السلام ﴿رُسُلًا﴾ التنكير للتفخيم ذاتًا ووصفًا، أي: رسلًا كِرامًا ذوي عدد كثير ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ أي: إلى أقوامهم، لكن لا بأنْ أرسلنا كلَّ رسول منهم إلى أقوام الكُلّ أو إلى قوم ما أيِّ قومٍ كانوا؛ بل كلُّ رسول إلى قومه خاصّة، مثلُ هود إلى عاد وصالح إلى ثمودَ، وغيرِ ذلك ممّن قُصّ منهم ومَن لم يُقَصّ.

﴿فَجَآءُوهُم﴾ أي: جاء كلُّ رسول قومَه المخصوصين به ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: المعجزات الواضحة الدالّة على صِدق ما قالوا. و"الباء" إمّا متعلِّقة بالفعل المذكور على أنّها للتعدية، أو بمحذوف وقع حالًا مِن ضمير "جاءوا"، أي: ملتبِسين بالبيّنات، لكن لا بأن يأتيَ كلُّ رسولٍ ببيّنة واحدة؛ بل ببيّنات كثيرة خاصّةٍ به معيّنة له حسب اقتضاء الحكمة، فإنّ مراعاة انقسام الآحاد إلى الآحاد إنّما هي فيما بين ضميرَي "جاءوهم"، كما أُشيرَ إليه.

﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ بيان لاستمرار عدم إيمانهم في الزمان الماضي لا لعدم استمرار إيمانِهم، كما مرّ مثله في هذه السورة الكريمة غيرَ مرّة، أي: فما صحّ وما استقام لقوم مِن أولئك الأقوام في وقت مِن الأوقات أن يؤمِنوا؛ بل كان ذلك ممتنعًا منهم لشدّة شكيمتهم في الكفر والعناد.

ثمّ إن كان المحكيُّ آخرَ حال كلّ قومٍ حسبما يدلّ عليه حكاية قوم نوح فالمراد بعدم إيمانِهم المذكورِ ههنا إصرارُهم على ذلك بعد اللُّتيّا والتي،[1] وبما أشيرَ إليه / في قوله عزّ وجلّ: ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ تكذيبُهم مِن حين مجيء [٦٢و]
الرسل إلى زمان الإصرار والعناد، وإنّما لم يُجعل ذلك مقصودًا بالذات كالأوّل حيث جُعل صلةً للموصول إيذانًا بأنّه بيّن بنفسه غنيٌّ عن البيان، وإنّما المحتاج إلى ذلك عدم إيمانهم بعد تواتر البيّنات الظاهرة وتظاهُرِ المعجزات الباهرة

---

[1] اللُّتيا والتِي: يكنى بهما عن الشدّة، واللُّتيا: تصغيرُ التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. مجمع الأمثال للميداني، ١٦٤/١.

التي كانت تَضطرّهم إلى القبول لو كانوا مِن أصحاب العقول. والموصول الذي تعلّق به الإيمان والتكذيب سلبًا وإيجابًا عبارة عن جميع الشرائع التي جاء بها كلُّ رسول أصولِها وفروعِها.

وإن كان المحكيُّ جميعَ أحوال كلّ قومٍ منهم فالمراد بما ذُكر أوّلًا: كفرُهم المستمرّ مِن حين مجيء الرسل إلى آخره، وبما أشيرَ إليه آخرًا: تكذيبُهم قبل مجيئِهم، فلا بدّ مِن كون الموصول المذكور عبارةً عن أصول الشرائع التي أجمعت عليها الرسل قاطبة ودعَوا أُممهم إليها آثرَ ذي أثير لاستحالة تبدُّلها وتغيُّرِها مثل ملّة التوحيد ولوازمِها. ومعنى تكذيبهم بها قبلَ مجيء رسلهم: أنّهم ما كانوا في زمن الجاهليّة بحيث لم يسمعوا بكلمة التوحيد قطّ؛ بل كان كلُّ قومٍ مِن أولئك الأقوام يتسامعون بها مِن بقايا مَن قبلهم كثمودَ مِن بقايا عاد، وعادٍ مِن بقايا قوم نوح عليه السلام فيُكذّبونها، ثمّ كانت حالتهم بعد مجيء الرسلِ كحالتهم قبل ذلك كأن لم يُبعث إليهم أحد.

وتخصيص التكذيب وعدمِ الإيمان بما ذُكر مِن الأصول لظهور حالِ الباقي بدلالة النصّ، فإنّهم حيث لم يؤمِنوا بما أجمعت عليه كافّة الرسل فلَأَن لا يؤمِنوا بما تفرّد به بعضهم أَولى. وعدمُ جعلِ هذا التكذيب مقصودًا بالذات لِما أنّ ما عليه يدور أَمر العذاب والعقاب عند اجتماع التكذيبين هو التكذيب الواقع بعد الدعوة، حسبما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء، ١٧/١٥]. وإنّما ذُكر ما وقَع قبلها بيانًا لعراقتهم في الكفر والتكذيب.

وعلى التقديرين فالضمائر الثلاثة متوافقة في المَرجِع. وقيل: ضمير ﴿كَذَّبُواْ﴾ راجع إلى قوم نوح عليه السلام، والمعنى: فما كان قوم الرسل ليُؤمِنوا بما كذَّب بمِثله قوم نوح.[١] ولا يخفى ما فيه مِن التعسّف. / وقيل: الباء للسببيّة، أي: بسبب [١٠٢ظ]
تعوُّدهم تكذيبَ الحقّ وتمرُّنِهم عليه قبلَ بعثة الرسل.[٢] ولا يخفى أنّ ذلك يؤدّي إلى مخالفة الجمهور مِن جَعْل "ما" المصدريّة مِن قبيل الأسماء كما هو رأيُ

---

١ القول في مشكل إعراب القرآن لمكّي، ١/٣٥٠؛ والتبيان للعكبري، ٢/٦٨٢. وأورده عنهما ابن عادل في اللباب، ١٠/٣٨٢.

٢ كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١١١.

الأخفش وابنِ السرّاج ليرجِع إليها الضمير،[١] وفي إرجاعه إلى الحقّ بادّعاء كونه مركوزًا في الأذهان[٢] ما لا يخفى مِن التعسّف.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الطبع المحكَم ﴿نَطْبَعُ﴾ بنون العظَمة، وقُرئ بالياء[٣] على أنّ الضمير لله سبحانه. ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ المتجاوزين عن الحدود المعهودة في الكفر والعناد المتجافِين عن قبول الحقّ وسلوكِ طريق الرشاد، وذلك بخذلانهم وتخليتِهم وشأنَهم لانهماكهم في الغيّ والضلال. وفي أمثال هذا دلالة على أنّ الأفعال واقعة بقدرة الله تعالى وكسبِ العبد.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧٦﴾

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾[٤] عطفَ قصّةٍ على قصّة. ﴿مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أي: مِن بعد أولئك الرسل عليهم السلام. ﴿مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ خُصّت بعثتُهما عليهما السلام بالذِّكر ولم يُكتفَ باندراج خبرِهما فيما أشيرَ إليه إشارة إجماليّة مِن أخبار الرسل عليهم السلام مع أقوامهم، وأُوثر في ذلك ضربُ تفصيلٍ إيذانًا بخَطَر شأن القصّة وعِظَم وَقْعها، كما في نبأ نوح عليه السلام.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي: أشرافِ قومه. وتخصيصهم بالذِّكر لأصالتهم في إقامة المصالح والمُهمّات ومراجعةِ الكلّ إليهم في النوازل والمُلمّات. ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: ملتبِسين بها وهي الآياتُ المفصّلات في "الأعراف".[٥] ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ الاستكبار: ادّعاء الكِبْر مِن غير استحقاق، و"الفاءُ" فصيحة، أي: فأتيَاهم فبلّغاهم الرسالة فاستكبروا عن اتّباعهما، وذلك قول اللعين لموسى عليه السلام: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾... إلخ، [الشعراء، ١٨/٢٦].

---

١ الكلام في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٦/٢٤٥-٢٤٦؛ واللباب لابن عادل، ٢٨٢/١٠.

٢ ما وقفتُ على هذا الوجه فيما بين يديّ مِن المظانّ.

٣ قراءة شاذّة، مَرويّة عن العبّاس بن الفضل وأبي واقد والجرّاح. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٢؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٨.

٤ يونس، ٧٤/١٠.

٥ الأعراف، ١٣٣/٧.

﴿وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ اعتراض مقرِّر لمضمون ما قبله، أي: كانوا معتادين لارتكاب الذنوب العِظام، فإنّ الإجرام مؤذِن بعِظَم الذنب، ومنه الجِرم، أي: الجُثّة، فلذلك اجترءوا على ما اجترءوا عليه مِن الاستهانة برسالة الله عزّ وجلّ.

وحملُ الاستكبار على الامتناع عن قَبول الآيات لا يساعده قولُه عزّ وعلا: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ فإنّه صريح في أنّ المراد
[١٠٣و] باستكبارهم ما وقع منهم / قبل مجيء الحقّ الذي سمّوه سحرًا، أعني: العصا واليد البيضاء، كما يُنبئ عنه سياق النظم الكريم، وذلك أوّل ما أظهره عليه السلام مِن الآيات العِظام. و"الفاء" فيه أيضًا فصيحة معرِبة عما صُرّح به في مواضعَ أُخرَ، كأنّه قيل: قال موسى: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف، ١٠٥/٧]، إلى قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الشعراء، ٣٢/٢٦-٣٣]. فلمّا جاءهم الحقّ مِن عندنا وعرَفوه قالوا مِن فَرْط عُتوّهم وعنادهم: إنّ هذا لَسحر مبين، أي: ظاهرٌ كونه سحرًا، أو فائقٌ في بابه واضح فيما بين أضرابه. وقُرئ: "لَسَاحِرٌ".[١]

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ۝٧٧ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ۝٧٨﴾

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال تنساق إليه الأذهان، كأنّه قيل: فماذا قال لهم موسى حينئذ؟ فقيل: قال على طريقة الاستفهام الإنكاري التوبيخي: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ﴾ الذي هو أبعدُ شيء مِن السحر الذي هو الباطل البحت. ﴿لَمَّا جَآءَكُمْ﴾ أي: حين مجيئه إيّاكم ووقوفكم عليه، أو مِن أوّل الأمر مِن غير تأمّل وتدبّر، وكلا الحالين ممّا ينافي القولَ المذكور.

والمَقول محذوف ثقةً بدلالة ما قبله وما بعده عليه وإيذانًا بأنّه ممّا لا ينبغي أن يُتفوَّه به ولو على نهج الحكاية، أي: أتقولون له ما تقولون مِن أنّه سِحر؟

---

[١] قراءة شاذّة، مَرويّة عن سعيد بن جُبير وابن مجاهد والأعمش وعيسى بن عمر وابن مِقسَم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٩؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٦٨.

يعني به أنّه ممّا لا يمكن أن يقوله قائل ويتكلَّمَ به متكلِّم، أو القول بمعنى: العيب والطعن، مِن قولهم: "فلان يخاف القالَة"، و"بين الناسِ تقاوُل": إذا قال بعضهم لبعض ما يسوءه، ونظيرُه "الذِّكر" في قوله تعالى: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾... إلخ، [الأنبياء، ٦٠/٢١].[1] فيُستغنى عن المفعول، أي: أتَعيبونه وتطعنون فيه.

وعلى الوجهين فقوله عزّ وجلّ: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ إنكار مستأنَف مِن جهته عليه السلام لكونه سِحرًا، وتكذيبٌ لقولهم وتوبيخ لهم على ذلك إثرَ توبيخ وتجهيلٌ بعد تجهيل. أمّا على الأوّل فظاهر، وأمّا على الثاني فوجهُ إيثارِ إنكار كونه سِحرًا على إنكار كونه مَعيبًا بأن يقال مثلًا: "أَفِيه عَيبٌ" حسبما يقتضيه ظاهر الإنكارِ السابق،[2] التصريحُ[3] بالردّ عليهم في خصوصيّة ما عابوه به بعد التنبيه بالإنكار السابق، على أن ليس فيه شائبة عيبٍ ما.

وما في ﴿هَٰذَا﴾ مِن معنى القُرب لزيادة تعيين المشار إليه واستحضارِ ما فيه مِن الصفات الدالّة على كونه آية باهرة مِن آيات الله المناديةِ على امتناع كونه سحرًا، أي: أَسِحرٌ هذا الذي أمرُه واضح مكشوف وشأنه مشاهَد معروف بحيث لا يرتاب فيه أحد ممّن له عين مبصِرة؟ وتقديم الخبر للإيذان بأنّه مُصَبّ الإنكار.

/ ولمّا استلزَم كونُه سِحرًا كونَ مَن أتى به ساحرًا أُكِّد الإنكار السابق وما فيه مِن التوبيخ والتجهيل بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾، وهو جملة حاليّة مِن ضمير المخاطَبين، والرابط هو الواو بلا ضمير، كما في قول مَن قال: [١٠٣ظ]

جاء الشتاءُ ولستُ أملِكُ عُدّةً[4]

وقولِك: "جاء زيدٌ ولم تطلُع الشمس"، أي: أتقولون للحقّ: إنّه سِحر؟ والحال أنّه لا يُفلح فاعله، أي: لا يظفَر بمطلوب ولا ينجو مِن مكروه، فكيف يُمكن صدورُه مِن مثلي مِن المؤيَّدين مِن عند الله العزيز الحكيم الفائزين بكلّ مَطلَب الناجين مِن كلّ محذور؟

---

[1] الكلام عن هذا المعنى لـ"القول" في الكشّاف للزمخشري، ٢٧٠/٢.

[2] وفي هامش م: أي: أتعيبونه؟

[3] السياق: فوجهُ إيثار... التصريحُ...

[4] ما وقفتُ عليه فيما بين يديّ مِن المَظانّ.

وقوله تعالى: ﴿أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾ جملة معترِضة بين الحال وصاحبها أُكِّد بها الإنكار السابق ببيان استحالة كونه سِحرًا بالنظر إلى ذاته قبل بيان استحالتِه بالنظر إلى صدوره عنه عليه السلام هذا. وأمّا تجويز أن يكون الكلّ مقولَ القول على أنّ المعنى: أجئتُما بالسحر تطلُبان به الفلاح ولا يفلح الساحرون؟[١] فممّا لا يساعده النظم الكريم أصلًا:

أمّا أوّلًا فلأنّ ما قالوا هو الحكم بأنّه سِحر مِن غير أن يكون فيه دلالة على ما تُعُسِّف فيه مِن المعنى بوجه مِن الوجوه، فصَرفُ جوابه عليه السلام عن صريح ما خاطبوه به إلى ما لا يُفهَم منه أصلًا ممّا يجب تنزيه النظم التنزيلي عن الحمل على أمثاله.

وأمّا ثانيًا فلأنّ التعرّض لعدم إفلاح السَّحَرة على الإطلاق مِن وظائف مَن يتمسّك بالحقّ المبِين دون الكفَرة المتشبِّثين بأذيال بعض منهم في معارضته عليه السلام، ولو كان ذلك مِن كلامهم لَناسَب تخصيصَ عدم الإفلاح بمَن زعموه ساحرًا بناءً على غلبة مَن يأتون به مِن السَّحَرة.

وأما ثالثًا فلأنّ قولَ عزّ وجلّ: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا﴾... إلخ، مسوقٌ لبيان أنّه عليه السلام ألقمهم الحجرَ فانقطعوا عن الإتيان بكلام له تعلُّق بكلامه عليه السلام فضلًا عن الجواب الصحيح، واضطرّوا إلى التشبّث بذيل التقليد الذي هو دأب كلّ عاجز محجوج ودَيدنُ كلّ معاند لَجوج.

على أنّه استئناف وقع جوابًا عما قبله مِن كلامه عليه السلام على طريقة قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ﴾... إلخ، حسبما أشيرَ إليه، كأنّه قيل: فماذا قالوا لموسى عليه السلام عندما قال لهم ما قال؟ فقيل: قالوا عاجزين عن المُحاجّة: أَجِئتنا ﴿لِتَلۡفِتَنَا﴾؟ أي: لتَصرِفنا، فإنّ الفَتْل واللَّفْت أخوَان.[٢] ﴿عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا﴾ أي: مِن عبادة الأصنام، ولا ريبَ في أنّ ذلك إنّما يتسنّى بكون ما ذُكر مِن تتمّة كلامه عليه السلام على الوجه الذي شُرح، إذ على تقدير كونه مَحكيًّا مِن قِبَلهم يكون جوابه عليه السلام خاليًا عن التبكيت المُلجئ لهم إلى العدول عن سَنن المُحاجّة،

---

١ كما في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٧٠.
٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٧٠.

/ ولا ريبَ في أنّه لا علاقةَ بين قولهم: ﴿أَجِئۡتَنَا﴾... إلخ، وبين إنكاره عليه السلام [١٠٤و]
لِما حُكيَ عنهم مصحِّحةً لكونه جوابًا عنه. ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ﴾ أي: المُلك أو التكبّر على الناس باستتباعهم. وقُرئ: "وَيَكُونَ"[١] بالياء التحتانيّة.

وكلمة ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أرض مصرَ متعلِّقة بـ﴿تَكُونَ﴾، أو بـ﴿ٱلۡكِبۡرِيَآءُ﴾، أو بالاستقرار في ﴿لَكُمَا﴾ لوقوعه خبرًا، أو بمحذوف وقع حالًا مِن ﴿ٱلۡكِبۡرِيَآءُ﴾، أو مِن الضمير في ﴿لَكُمَا﴾ لتحمّله إيّاه.[٢]

﴿وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: بمصدِّقين فيما جئتُما به. وتثنية الضمير في هذين الموضعين بعد إفراده فيما تقدَّم مِن المقامين باعتبار شمول الكبرياء لهما عليهما السلام واستلزامِ التصديقِ لأحدهما التصديقَ للآخر، وأمّا اللفتُ والمجيءُ له فحيث كانا مِن خصائص صاحب الشريعة أُسنِد إلى موسى عليه السلام خاصّة.

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ٧٩﴾

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ﴾ توحيد الفعل لأنّ الأمر مِن وظائف فرعونَ، أي: قال لمَلَئه يأمرهم بترتيب مبادي إلزامِهما عليهما السلام بالفعل بعد اليأسِ عن إلزامهما بالقول. ﴿ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ﴾ بفنون السِّحر حاذقٍ ماهرٍ فيه. وقُرئ: "سَحَّارٍ".[٣]

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ٨٠﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ عطفٌ على مقدَّر يستدعيه المقام قد حُذف إيذانًا بسرعة امتثالهم بأمر فرعونَ كما هو شأن الفاء الفصيحة في كلّ مقام، أي: فأتَوا به فلمّا جاءوا ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ﴾، لكن لا في ابتداء مجيئهم؛ بل بعد ما قالوا له عليه السلام ما حُكي عنهم في السُّور الأُخَر مِن قولهم: ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ﴾ [الأعراف، ١١٥/٧]، ونحوِ ذلك: ﴿أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ﴾ أي: مُلقون له كائنًا ما كان مِن أصناف السِّحر.

---

١ قرأ بها أبو بكر بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢٨٦/٢.

٢ جميع هذه الوجوه في التبيان للعكبري، ٦٨٢/٢؛ واللباب لابن عادل، ٣٨٤/١٠.

٣ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٧٠/٢.

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٨١﴾

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ﴾ ما ألقوا مِن العِصيّ والحِبال، واسترهبوا الناسَ، وجاءوا بسحر عظيم ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَىٰ﴾ غيرَ مكترِث بهم وبما صنعوا: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ ﴿مَا﴾ موصولة وقعتْ مبتدأ، و﴿ٱلسِّحْرُ﴾ خبره، أي: هو السِّحر لا ما سمّاه فرعونُ وقومه مِن آيات الله سبحانه، أو هو مِن جنس السِّحر يُريهم أنّ حاله بيّن لا يُعبأ به، كأنّه قال: ما جئتُم به ممّا لا ينبغي أن يُجاء به. وقُرئ: "ٓالسِّحْرُ"[١] على الاستفهام، فـ﴿مَا﴾ استفهاميّة، أي: أيُّ شيء جئتُم به؟ أهو السحرُ الذي يَعرِف حالَه كلُّ أحد ولا يتصدّى له عاقل؟ وقُرئ: "مَا جِئْتُمْ بِهِ سِحْرٌ"،[٢] وقُرئ: "مَا أَتيتُمْ بِهِ سِحْرٌ"،[٣] ودلالتُهما على المعنى الثاني في القراءة المشهورة أظهرُ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ أي: سيمحقه بالكلّيّة بما يُظهره على يديَّ مِن المعجزة فلا يبقى له أثر أصلًا، أو سيظهر بطلانُه للناس، / والسين للتأكيد. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: عملَ جنس المفسدين على الإطلاق، فيدخل فيه السِّحر دخولًا أوّليًا؛ أو عملَكم، فيكون مِن باب وضعِ المُظهَر مَوضعَ المُضمَر للتسجيل عليهم بالإفساد والإشعارِ بعلّة الحكم. وليس المراد بعدم إصلاح عملِهم عدمَ جعلِ فسادهم صلاحًا؛ بل عدمُ إثباته وإتمامه، أي: لا يُثبته ولا يُكمِّله ولا يُديمه؛ بل يَمحقه ويُهلكه ويُسلِّط عليه الدمار. والجملة تعليل لِما سبق مِن قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾، والكلّ اعتراض تذييلي، وفيه دليل على أنّ السِّحر إفساد وتمويه لا حقيقةَ له. [١٠٤ظ]

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨٢﴾

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾،[٤] أي: يُثبِته ويُقوّيه. وإظهار الاسم الجليل في المقامين الأخيرين لإلقاء الرَّوعة وتربيةِ المهابة.

---

١ قرأ بها أبو عمرو وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ١/٣٧٨.

٢ قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن مسعود والأعمش. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٢؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٦٩.

٣ قراءة شاذّة، مَرويّة عن أُبيّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٩.

٤ في الآية السابقة.

﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ بأوامره وقضاياه. وقُرئ: "بِكَلِمَتِهِ".[١] ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ذلك، والمراد بهم كلُّ مَن اتّصف بالإجرام مِن السَّحَرة وغيرهم.

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾ معطوف على مقدَّر قد فُصِّل في مواقعَ أُخَرَ، أي: فألقى عصاه فإذا هي تلقَف ما يأفِكون... إلى آخره، وإنّما لم يُذكَر تعويلًا على ذلك وإيثارًا للإيجاز وإيذانًا بأنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾[٢] ممّا لا يحتمل الخُلفَ أصلًا، وعطفُه على ذلك بالفاء مع كونه عدمًا مستمرًّا مِن قبيل ما في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ [هود، ١١/٩٧]، وما في قولك: "وعظتُه فلم يتّعظ وصِحتُ به فلم ينزجِر"، والسرُّ في ذلك أنّ الإتيان بالشيء بعد ورود ما يُوجِب الإقلاع عنه، وإن كان استمرارًا عليه لكنّه بحسب العنوان فعلٌ جديد وصنعٌ حادث، أي: فما آمن[٣] له عليه السلام بمشاهدة تلك الآيات القاهرة ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ أي: إلّا أولادٌ مِن أولاد قومِه بني إسرائيلَ حيث دعا الآباءَ فلم يُجيبوه خوفًا مِن فرعونَ، وأجابته طائفة مِن شُبّانهم. وقيل: الضمير لـ﴿فِرْعَوْنَ﴾، والذرّيّة: طائفةٌ مِن شُبّانهم آمنوا به عليه السلام، أو مؤمنُ آلِ فرعونَ وامرأتُه آسيةُ وخازنُه وامرأته وماشِطته.[٤] وهو بعيد.

﴿عَلَىٰ خَوْفٍ﴾ أي: كائنين على خوف عظيم. ﴿مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ الضمير لـ﴿فِرْعَوْنَ﴾، والجمعُ لِما هو المعتاد في ضمائر العظماءِ، ولا يأباه مقام بيانِ علوّه في الفساد وغلوّه في الشرّ والتسلّط على العباد، أو لأنّ المراد به آله، كما يقال: ربيعةُ ومضرُ، أو للذرّيّة، أو للقوم، أي: على خوف مِن فرعونَ ومِن أشراف بني إسرائيلَ، حيث كانوا يمنعون أعقابهم خوفًا مِن فرعونَ عليهم وعلى أنفسهم. ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ أي: يعذِّبَهم، وهو بدل اشتمالٍ، أو مفعولُ ﴿خَوْفٍ﴾،

---

١ قراءة شاذّة، مَرويّة عن يحيى وإبراهيم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٩.

٢ يونس، ١٠/٨١.

٣ وفي هامش م: ما صدّق.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٧١.

فإنّ إعمال المصدر المنكَّر كثيرٌ، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ۝ يَتِيمٗا﴾ [البلد، ٩٠/١٤-١٥]، أو مفعول له بعد حذف اللام.[١] وإسناد الفعل إلى فرعونَ خاصّةً لأنّه الآمرُ بالتعذيب.

[١٠٥و] ﴿وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ / لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لغالب في أرض مصرَ. ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ في الظلم والفساد بالقتل وسَفْك الدماء، أو في الكِبر والعُتوّ، حتّى ادّعى الربوبيّة واسترقَّ أسباط الأنبياء. والجملتان اعتراض تذييلي مؤكِّد لمضمون ما سبق.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ۝٨٤﴾

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ لمّا رأى تخوُّف المؤمنين منه: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ أي: صدّقتُم به وبآياته ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ وبه ثِقوا ولا تخافوا أحدًا غيرَه، فإنّه كافيكم كلَّ شرّ وضُرّ ﴿إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ مستسلمين لقضاء الله مخلِصين له. وليس هذا مِن تعليق الحُكم بشرطين، فإنّ المعلَّق بالإيمان وجوبُ التوكّل عليه تعالى فإنّه المقتضي له، والمشروطَ بالإسلام وجودُه فإنّه لا يتحقّق مع التخليد، ونظيرُه: "إن أحسنَ إليك زيدٌ فأحسِنْ إليه إن قدَرتَ عليه".[٢]

﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٥ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٨٦﴾

﴿فَقَالُواْ﴾ مجيبين له عليه السلام مِن غير تلعثم في ذلك: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾ لأنّهم كانوا مؤمنين مخلِصين، ثمّ دعَوا ربَّهم قائلين: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ﴾ أي: موقعَ فتنة ﴿لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا تُسلِّطهم علينا حتّى يُعذِّبونا أو يفتنونا عن ديننا، أو يُفتَنوا بنا ويقولوا: لو كان هؤلاء على الحقّ لَما أُصيبوا.

وقوله تعالى: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ دعاء منهم بالإنجاء مِن سوء جوارهم وشؤم مصاحبتهم بعد الإنجاءِ مِن ظلمهم، ولذلك عُبّر عنهم بالكفر بعدما وُصفوا بالظلم. وفي ترتيب الدعاء على التوكّل تلويحٌ بأنّ الداعيَ حقُّه أن يبنيَ دعاءه على التوكّل على الله تعالى.

---

١ الوجوه الثلاثة في اللباب لابن عادل، ٣٩٢/١٠. ٢ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٣/٢.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا﴾ ﴿أَن﴾ مفسِّرة، لأنّ في الوحي معنى القول، أي: اتّخِذا مَباءةً ﴿لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ تسكُنون فيها وتَرجِعون إليها للعبادة، ﴿وَٱجْعَلُواْ﴾ أنتما وقومُكما ﴿بُيُوتَكُمْ﴾ تلك ﴿قِبْلَةً﴾ مصلّى. وقيل: مساجدَ متوجِّهة نحو القِبلة، يعني: الكعبةَ، فإنّ موسى عليه السلام كان يصلّي إليها.[1] ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: فيها، أُمروا بذلك في أوّل أمرهم لئلا يظهَر عليهم الكفَرةُ / فيُؤذوهم ويفتِنوهم عن دينهم. [١٠٥ظ]

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنُصرة في الدنيا إجابةً لدعوتهم والجنّةِ في العُقبى. وإنّما ثُنِّيَ الضمير أوّلا لأنّ التبوُّء للقوم واتّخاذَ المعابد ممّا يتولّاه رؤساء القوم بتشاور، ثمّ جُمع لأنّ جعل البيوت مساجدَ والصلاةَ فيها ممّا يفعله كلُّ أحد، ثمّ وُحِّد لأنّ بِشارةَ الأمّة وظيفةُ صاحب الشريعة.[2] ووضعُ المؤمنين مَوضعَ ضمير القوم لمدحهم بالإيمان، وللإشعار بأنّه المدار في التبشير.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ أي: ما يُتزَيَّن به مِن اللباس والمراكب ونحوِها ﴿وَأَمْوَٰلًا﴾ وأنواعًا كثيرة مِن المال ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ دعاءٌ عليهم بلفظ الأمر بما عُلم بممارسة أحوالهم أنّه لا يكون غيره، كقولك: لعن الله إبليسَ. وقيل: "اللام" للعاقبة، وهي متعلقةٌ بـ﴿ءَاتَيْتَ﴾؛ أو للعلّة، لأنّ إيتاء النِعم على الكفر استدراج وتثبيت على الضلال، ولأنّهم لمّا جعلوها ذريعةً إلى الضلال فكأنّهم أُوتوها ليُضلّوا،[3] فيكون ﴿رَبَّنَا﴾ تكريرًا للأوّل

---

[1] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٢٧٢/٢.

[2] الكلام بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٢٧٢/٢.

[3] وجها اللام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٤/٢.

تأكيدًا أو تنبيهًا على أنّ المقصود عرضُ ضلالِهم وكفرانِهم تقدِمةً لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾. الطمس: المَحْقُ. وقُرئ بضمّ الميم،[١] أي: أَهلِكها.

﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: اجعلها قاسية واطبَع عليها حتّى لا تنشرح للإيمان كما هو قضيّة شأنهم. ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟﴾ جواب للدعاء، أو دعاءٌ بلفظ النهي، أو عطفٌ على ﴿لِيُضِلُّوا۟﴾،[٢] وما بينهما دعاء معترِض. ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أي: يُعاينوه ويُوقنوا به بحيث لا ينفعُهم ذلك إذ ذاك.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ يعني: موسى وهارون عليهما السلام؛ لأنّه كان يُؤمِّن،[٣] / كما يُشعِر به إضافة الربّ إلى ضمير المتكلّم مع الغير في المواقع الثلاثة. [١٠٦و]
﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ فاثبُتا على ما أنتما عليه مِن الدعوة وإلزام الحجّةِ، ولا تستعجلا فإنّ ما طلبتماه كائن في وقته لا محالةَ. رُويَ أنّه «مكَث فيهم بعد الدعاء أربعين سنةً».[٤]

﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: بعادات الله سبحانه في تعليق الأمور بالحِكَم والمصالح، أو سبيل الجهلة في الاستعجال، أو عدمِ الوثوق بوعد الله تعالى. وقُرئ بالنون الخفيفةِ وكسرِها لالتقاء الساكنين، "وَلَا تَتْبَعَانِّ" مِن تبِع، "وَلَا تَتْبَعَانِ"[٥] أيضًا.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ هو مِن جاوَز المكانَ إذا تخطّاه وخلّفه والباء للتعدية، أي: جعلناهم مجاوِزين البحرَ بأن جعلناه يَبَسًا وحفِظناهم حتّى بلغوا الشطّ.

---

١ قراءة شاذّة، مَرويّة عن الشعبي وعمرو بن عليّ عن الحسن وجابر عن عاصم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٣؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٧١.

٢ وفي هامش م: على تقدير ألّا يكون دعاء. «منه».

٣ رُوي عن عكرمة ومحمّد بن كعب وأبي العالية والربيع بن أنس: أنّ موسى كان يدعو وهارون كان يؤمّن. انظر: جامع البيان للطبري، ٢٧٣/١٢.

٤ مَرويٌّ عن ابن جُريج في جامع البيان للطبري، ٢٧٠/١٢-٢٧٢؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٧٣/٢.

٥ قرأ بالقراءات الثلاثة ابن ذكوان، وفيها تفصيل وخلاف. النشر لابن الجزري، ٢٨٦/٢-٢٨٧.

وقُرئ: "جوّزنا"[١] وهو مِن التجويز المرادف للمجاوزة لا ممّا هو بمعنى: التنفيذ، نحو ما وقع في قول الأعشى:

كما جـوّز السَّـكّيُّ فـي البـاب فَيْـتَـقُ[٢]

وإلّا لقيل: وجوّزنا بني إسرائيلَ في البحر، ولَخلا النظمُ الكريم عن الإيذان بانفصالهم عن البحر وبمقارنة العنايةِ الإلهيّة لهم عند الجواز، كما هو المشهور في الفرق بين أذهبه وذهَب به.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ يقال: تبِعتُه حتّى أتبعتُه إذا كان سبقكَ فلحقتَه، أي أدركهم ولحِقهم. ﴿فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ حتّى تراءت الفئتان وكاد يجتمع الجمعان ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ ظلمًا واعتداءً، أي: باغِين وعادِين، أو للبغي والعدوان. وقُرئ: "وَعُدُوًّا"،[٣] وذلك أن موسى عليه السلام خرج ببني إسرائيلَ على حين غفلة مِن فرعونَ، فلمّا سمِع به تبِعهم حتّى لحِقهم ووصل إلى الساحل، وهم قد خرجوا مِن البحر ومسلُكهم باقٍ على حاله يَبَسًا، فسلكه بجنوده أجمعين فلمّا دخل آخرُهم وهمّ أوّلهم بالخروج غَشِيهم مِن اليمّ ما غشيَهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ أي: / لحِقه وألجَمه ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ﴾ أي: بأنّه، [١٠٦ظ]
والضمير للشأن. وقُرئ: "إنّه"[٤] على الاستئناف بدلًا مِن ﴿ءَامَنتُ﴾ وتفسيرًا له.

---

[١] قراءة شاذّة، مَرويّة عن الحسن ويحيى وإبراهيم والمازني عن يعقوب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٣؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٠.

[٢] وفي هامش م: أوّلُه:

ولا بـدّ مِـن جـارٍ يُجيز سبيلَها
كـمـا... إلخ.

وقبله:

وإنّ امـرأ أسـرى إلـيكِ ودونـه
مِن الأرض ظلماءُ ويهماءُ سملَقُ
لَمحقوقةٌ أن تستجيبي لصوته
وأن تعلمي أنّ المُعانَ موفَّقُ

وهي للأعشى في ديوانه، ص ٢٢٣. وفيه رواية الشطر الثاني مِن البيت الأوّل قبله: «فيافٍ تَنوفاتٌ وبيداءُ خَيفقُ». والشطر المذكور في المتن للأعشى في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٧٣. والسُّكّي: المسمار. والفيتق: النجار. انظر: لسان العرب لابن منظور، «فتق»، وأورد بيت الأعشى، وفيه «سَلَك» مكان «جوّز».

[٣] قراءة شاذّة، مَرويّة عن الحسن وقتادة وأبو رجاء وعكرمة والزعفراني وابن مِقسَم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٣؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٧١.

[٤] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٧.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ لم يقل كما قاله السَّحَرة: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف، ٧/١٢١-١٢٢]؛ بل عبَّر عنه تعالى بالموصول وجعل صلتَه إيمانَ بني إسرائيلَ به تعالى للإشعار برجوعه عن الاستعصاء وباتّباعه لمَن كان يستتبعهم طمعًا في القبول والانتظام معهم في سِلك النجاة.

﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: الذين أسلموا نفوسَهم لله، أي: جعلوها سالمة خالصة له تعالى، وأراد بهم إمّا بني إسرائيلَ خاصّةً، وإمّا الجنسَ وهم داخلون فيه دخولًا أوّليًّا. والجملة على الأوّل عطفٌ على ﴿ءَامَنتُ﴾، وإيثارُ الاسميّة لادّعاء الدوام والاستمرار، وعلى الثاني يحتمل الحاليّة أيضًا مِن ضمير المتكلِّم، أي: آمنتُ مخلِصًا لله منتظِمًا في سِلك الراسخين فيه. ولقد كُرِّر المعنى الواحد بثلاث عباراتٍ[١] حِرصًا على القبول المفضي إلى النجاة، وهيهاتَ هيهاتَ بعد ما فات ما فات وأتى ما هو آتٍ.

﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٩١﴾

وقوله عزّ وجلّ: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ مقول لقول مقدّر معطوف على ﴿قَالَ﴾، أي: فقيل: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾. وهو إلى قوله تعالى: ﴿ءَايَةً﴾[٢] حكاية لِما جرى منه سبحانه مِن الغضب على المخذول ومقابلةِ ما أظهره بالردّ على وجه الإنكار التوبيخي على تأخيره وتقريعِه بالعصيان والإفساد وغير ذلك.

وفي حذف الفعل المذكور وإبرازِ الخبر المحكي في صورة الإنشاء مِن الدلالة على عِظَم السخط وشدّة الغضبِ ما لا يخفى، كما يُفصح عنه ما رُوي مِن أنّ جبريلَ عليه السلام دسَّ فاه عند ذلك بحال[٣] البحر وسدّه به.[٤] فإنّه تأكيد للردّ القولي بالردّ الفعلي، ولا يُنافيه تعليلُه بمخافة إدراك الرحمةِ،[٥] فيما نُقل أنّه قال للنبيّ عليهما السلام: «فلو رأيتَني يا محمّدُ وأنا آخذٌ مِن حال البحر

---

١ وفي هامش م: على قراءة كسر "أنّ". «منه».

٢ في الآية الآتية.

٣ الحال: الطين الأسود والحمأة. انظر: لسان العرب لابن منظور، «حول».

٤ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٧٤. وسيأتي تخريجه.

٥ في هذا وفيما سيأتي مِن كلام المُصنِّف ردٌّ على الزمخشري في الكشّاف، ٢/٢٧٤، فيما ذهب إليه مِن إنكار هذا التعليل في الحديث المرويّ، مع صحّة مورده.

فأدُسّه في فيه مخافةَ أن تُدركه الرحمة»؛[1] إذ المراد بها الرحمة الدنيويّة، أي: النجاة التي هي طِلْبة المخذول وليس مِن ضرورة إدراكِها صحّةُ الإيمان، كما في إيمان قوم يونسَ عليه السلام، حتّى يلزمَ مِن كراهته ما لا يُتصوّر في شأن جبريلَ عليه السلام مِن الرضا بالكفر؛ إذ لا استحالةَ في ترتّب هذه الرحمة على مجرّد التفوّه بكلمة الإيمان، وإن كان ذلك في حالة البأس واليأس، فيُحمَل دسُّه عليه السلام على سدّ باب الاحتمال البعيد لكمال الغيظ وشدّة الحَرْدِ، فتدبّر، والله الموفِّق.

وحقُّ العامل في الظرف أن يُقدَّر مؤخَّرًا[2] ليتوجّه الإنكار والتوبيخ إلى تأخير الإيمان إلى حدّ يمتنع قبوله فيه، أي: آلآن تُؤمِن حين يئستَ مِن الحياة وأيقنتَ بالممات؟

وقوله عزّ وعلا: ﴿وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ﴾ حال مِن فاعل الفعل المقدَّر جيء به لتشديد التوبيخ والتقريع على تأخير الإيمان إلى هذا الآن، ببيان أنّه لم يكن تأخيرُه لعدم بلوغ الدعوة إليه ولا للتأمّل والتدبّر في دلائله وآياتِه، ولا لشيء آخرَ ممّا عسى يُعدّ عُذرًا في التأخير؛ بل كان ذلك على طريقة الردّ والاستعصاء والإفساد، فإنّ قوله تعالى: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ عطفٌ على ﴿عَصَيۡتَ﴾ داخل في حيّز الحال، أي: وكنتَ مِن الغالين في الضلال والإضلالِ عن الإيمان، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ﴾ [النحل، ٨٨/١٦]، فهذا عبارةٌ عن فساده الراجع إلى نفسه والساري إلى غيره مِن الظلم والتعدّي وصدِّ بني إسرائيلَ عن الإيمان، والأوّلُ عن عصيانه الخاصّ به.

﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ٩٢﴾

﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ﴾ أي: نُخرجك ممّا وقع فيه قومك مِن قعر البحر ونجعلك طافيًا. وفي التعبير عنه بالتنجية تلويحٌ بأنّ مراده بالإيمان هو النجاة كما مرّ

---

[1] جاء بهذه الرواية في سنن الترمذي، ٢٨٧/٥ (٣١٠٧)؛ وجامع البيان للطبري، ٢٧٧/١٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٤٨/٤.

[2] وفي هامش م: لا مُقدَّمًا كما فعله الجمهور. «منه».

وتهكّمٌ به، أو نُلقيك على نَجْوَة[١] مِن الأرض ليراك بنو إسرائيلَ. وقُرِئ: "نُنْجِيكَ"[٢] مِن الإنجاء، و"نُنَحِّيكَ"[٣] بالحاء مِن التنحية، أو نُلقيك بناحية الساحل.

[١٠٧و] ﴿بِبَدَنِكَ﴾ في / موضع الحال مِن ضمير المخاطَب، أي: نُنجِّيك ملابسًا ببدنك فقط، لا مع روحك كما هو مطلوبُك، فهو تخييبٌ له وحسمٌ لأطماعه بالمرّة، أو عاريًا عن اللباس، أو كاملًا سويًّا، أو بدِرْعك، وكانت له درعٌ مِن الذهب يُعرَف بها. وقُرِئ: "بِأَبْدَانِكَ"،[٤] أي: بأجزاء بدنكَ كلّها، كقولهم: هوى بأجرامه، أو بدُروعكَ، كأنّه كان مُظاهِرًا[٥] بينها.

﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ لمَن وراءك علامةً وهم بنو إسرائيلَ، إذ كان في نفوسهم مِن عظمته ما خُيِّل إليهم أنّه لا يَهلِك، حتّى يُروى أنّهم لم يُصدِّقوا موسى عليه السلام حين أخبرهم بغرقه إلى أن عاينوه مطَّرَحًا على ممرِّهم مِن الساحل، أو تكون لمَن يأتي بعدك مِن الأمم إذا سمعوا مآل أمرك ممّن شاهدك عِبرةً ونكالًا مِن الطغيان، أو حجّةً تدلّهم على أنّ الإنسان وإن بلغ الغايةَ القصوى مِن عِظَم الشأن وعُلوّ الكبرياء وقوّة السلطان فهو مملوك مقهور بعيد عن مظانّ الربوبيّة.

وقُرِئ: "لِمَنْ خَلَفَكَ"[٦] فعلًا ماضيًا، أي: لمَن خَلَفك مِن الجبابرة. وقُرِئ: "لِمَنْ خَلَقَكَ"[٧] بالقاف، أي: لتكون لخالقك آيةً كسائر الآيات، فإنّ إفراده سبحانه إيّاك بالإلقاء إلى الساحل دليلٌ على أنّه قَصَد منه لكَشْف تزويرك وإماطة الشبهةِ في أمرك، وبرهانٌ نيّر على كمال عِلمه وقدرته وحكمته وإرادته، وهذا الوجه محتمل على القراءة المشهورة أيضًا، وفي تعليل تنجيته[٨] بما ذُكِر[٩] إيذان

---

١ النجوة: ما ارتفع مِن الأرض فلم يَعلُه السيل فظننته نجاءك. انظر: لسان العرب لابن منظور، «نجو».

٢ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٨.

٣ قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن مسعود واليماني ويزيد بن البربري. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٣؛ المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ٩٧٣.

٤ قراءة شاذّة، مَرويّة عن أبي حنيفة. المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ٩٧٣.

٥ يقال: ظاهَرَ الرجل بين ثوبين أو نعلين أو درعين إذا لبس أحدهما على الآخر. انظر: لسان العرب لابن منظور، «ظهر».

٦ قراءة شاذّة، مَرويّة عن إسماعيل المكّي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٣.

٧ قراءة شاذّة، مَرويّة عن عليّ. المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ٩٧٣.

٨ وفي هامش م: فرعون.

٩ وفي هامش م: مِن كونه آيةً. «منه».

بأنّها ليست لإعزازه أو لفائدة أخرى عائدةٍ إليه؛ بل لكمال الاستهانة به وتفضيحه على رءوس الأشهاد، وزيادةِ تفظيع حاله كمَن يُقتل ثمّ يُجرُّ جسده في الأسواق أو يُدار برأسه في البلاد. و"اللام" الأولى متعلِّقة بـ﴿نُنَجِّيكَ﴾، والثانيةُ بمحذوف وقع حالًا مِن ﴿ءَايَةً﴾، أي: كائنةً لمَن خلفك.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾[1] لا يتفكّرون فيها ولا يعتبرون بها، وهو اعتراض تذييلي جيء به عند الحكايةِ تقريرًا لفحوى الكلام المَحكي.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ كلام مستأنَف سِيق لبيان النِّعم الفائضة عليهم إثرَ نعمة الإنجاء على وجه الإجمال وإخلالهم بشُكرها وأداءِ حقوقها، أي: أسكنّاهم وأنزلناهم بعدما أنجيناهم وأهلكنا أعداءَهم. ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أي: منزِلًا صالحًا مَرضيًا وهو الشام ومِصرُ، ملكوها بعد الفراعنة والعمالقة، وتمكّنوا في نواحيها حسبما نطقَ به قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف، ١٣٧/٧]، ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: اللذائذ.

﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟﴾ في أمور دينهم ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي: إلّا بعد ما جاءهم العلم بقراءتهم التوراةَ وعِلمِهم بأحكامها، أو في أمر محمّد عليه السلام إلّا مِن بعد ما علموا صدق نبوّته وتظاهُر معجزاته، فالمراد بالمختلفين: أعقابهم الذين كانوا في عصر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

/ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيُميِّز بين المحِقّ والمبطل بالإثابة والتعذيب. [١٠٧ظ]

﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾

﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ أي: في شكّ ما يسير على الفَرْض والتقدير، فإنّ مضمون

---

[1] م: غافلون.

الشرطيّة إنّما هو تعليق شيء بشيء مِن غير تعرّض لإمكان شيء منهما، كيف لا، وقد يكون كلاهما ممتنعًا، كقوله عزّ وجلّ: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف، ٨١/٤٣]، وقولِه تعالى: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر، ٦٥/٣٩]، ونظائرِهما. ﴿مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ مِن القصص التي مِن جملتها قصّةُ فرعونَ وقومه وأخبارُ بني إسرائيلَ.

﴿فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَ﴾ فإنّ ذلك محقَّق عندهم ثابت في كتبهم حسبما ألقينا إليك. والمراد إظهار نبوّته عليه السلام بشهادة الأخبار حسبما هو المسطور في كتبهم، وإن لم يكن إليه حاجة أصلًا، أو وصفُ أهل الكتاب بالرسوخ في العِلم بصحّة نبوّته عليه السلام، أو تهييجُه عليه السلام وزيادةُ تثبيته على ما هو عليه مِن اليقين، لا تجويزُ صدور الشكّ منه عليه السلام، ولذلك قال عليه السلام: «لا أشُكُّ ولا أسألُ».[1]

وقيل: المراد بالموصول مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وتميمٍ الداري وكعبٍ وأضرابِهم.[2] وقيل: الخطاب للنبيّ عليه السلام والمراد أمّته، أو لكلّ مَن يسمَع، أي: إن كنتَ أيُّها السامع في شكّ ممّا أنزلنا إليك على لسان نبيّنا.[3] وفيه تنبيهٌ على أنّ مَن خالجته شبهة في الدِّين ينبغي أن يُسارع إلى حلّها بالرجوع إلى أهل العلم.[4] وقُرئ: "فاسْألْ الذِينَ يَقْرَءون الكُتُبَ".[5]

﴿لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ﴾ الذي لا محيدَ عنه ولا ريبَ في حقيّته ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ وظهرَ ذلك بالآيات القاطعة التي لا يحوم حولها شائبةُ الارتياب. وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام مِن التشريف ما لا يخفى. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ بالتزلزل عمّا أنت عليه مِن الجزم واليقين، ودُمْ على ذلك كما كنتَ مِن قبلُ.

---

١ تفسير عبد الرزّاق، ٢٩٨/١؛ جامع البيان للطبري، ٢٨٨/١٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٧٦/٢.

٢ مرويٌّ عن ابن عبّاس ومجاهد والضحّاك في جامع البيان للطبري، ٢٨٧/١٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٥٠/٤.

٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٥/٢؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٧٦/٢.

٤ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٥/٢.

٥ قراءة شاذّة، مَرويّة عن يحيى وإبراهيم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٣.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٩٥﴾

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ مِن باب التهييج والإلهاب، والمراد به إعلامُ أنّ التكذيب مِن القبح والمحذوريّة بحيث ينبغي أن يُنهى عنه مَن لا يُتصوَّر إمكان صدوره عنه، فكيف بمَن يمكن اتّصافُه به؟ وفيه قَطْع لأطماع الكفَرة. ﴿فَتَكُونَ﴾ بذلك ﴿مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أنفسًا وأعمالًا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ﴾ شروع في بيان سِرّ إصرارِ الكفَرة على ما هم عليه مِن الكفر والضلال، أي: ثبتتْ ووجبتْ بمقتضى المشيئة المَبنيّة على الحكمة البالغة. ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ حكمُه وقضاؤه بأنّهم يموتون على الكفر ويُخلَّدون في النار، كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾... إلخ، [السجدة، ١٣/٣٢].

﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أبدًا إذ لا كذِبَ لكلامه ولا انتقاضَ لقضائه، أي: لا يؤمنون إيمانًا نافعًا واقعًا في أوانه، فيندرجُ فيهم المؤمنون عند معاينة العذاب مِثلَ فرعونَ باقيًا عند الموت، فيدخل فيهم المرتدّون.

﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٩٧﴾

﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ واضحةِ المدلول مقبولةٍ لدى العقول، لأنّ سبب إيمانهم -وهو تعلُّق إرادته تعالى به- مفقودٌ، لكنّ فقدانَه ليس لمنع منه سبحانه مع استحقاقهم له؛ بل لسوء اختيارهم المتفرّع على عدم استعدادهم لذلك. ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ كدأب آل فرعونَ وأضرابهم.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝٩٨﴾

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ﴾ كلام مستأنَف لتقرير ما سبق مِن استحالة إيمان مَن حقَّت عليهم كلمته تعالى لسوء اختيارهم مع تمكّنهم مِن التدارك، فيكون الاستثناء الآتي بيانًا لكون قوم يونسَ عليه السلام ممن لم يحِقَّ عليه الكلمة لاهتدائهم

إلى التدارك في وقته. و"لولا" بمعنى "هلّا"، وقُرئ كذلك،[١] أي: "فَهَلّا كَانَتْ" ﴿قَرْيَةٌ﴾ مِن القرى المُهلَكة ﴿ءَامَنَتْ﴾ قبل معاينة العذاب ولم تُؤخِّر إيمانَها إلى حين معاينتِه كما فعَل فرعونُ وقومه ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَا﴾ بأن يقبله الله تعالى منها ويكشِفَ بسببه العذاب عنها.

[١٠٨و] ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ / استثناء منقطِع، أي: لكنّ قوم يونسَ ﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ﴾ أوّل ما رأوا أمارة العذاب ولم يؤخِّروا إلى حلوله ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بعد ما أظلَّهم وكاد يحِلّ بهم. ويجوز أن تكون الجملة في معنى النفي، كما يُفصح عنه حرفُ التحضيض فيكون الاستثناء متّصلًا، إذ المراد بـ"القرى" أهاليها، كأنّه قيل: ما آمنت طائفة مِن الأمم العاصية فنفعهم إيمانهم إلّا قومَ يونسَ، فيكون قوله تعالى: ﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ﴾ استئنافًا لبيان نفعِ إيمانهم، ويُؤيِّده قراءة الرفع على البدليّة.[٢]

﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ﴾ بمتاع الدنيا بعد كَشْف العذاب عنهم ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ مقدَّر لهم في عِلم الله سبحانه.

رُوي أنّ يونسَ عليه السلام بُعث إلى نَينوى[٣] مِن أرض المَوصل، فكذّبوه فذهب عنهم مغاضِبًا، فلمّا فقَدوه خافوا نزولَ العذاب فلبِسوا المُسوح وعجّوا أربعين ليلةً.[٤] وقيل: قال لهم يونسُ عليه السلام: أجلُكم أربعون ليلةً فقالوا: إن رأينا أسبابَ الهلاك آمنّا بك، فلمّا مضَت خمسٌ وثلاثون أغامت السماء غيمًا أسودَ هائلًا يُدخِّن دُخانًا شديدًا ثمّ يهبِط حتّى يغشى مدينتَهم ويُسوِّد سطوحَهم، فلبِسوا المُسوحَ وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصِبيانهم ودوابّهم، وفرّقوا بين النساء والصبيان وبين الدوابّ وأولادها فحنّ بعضُها إلى بعض

---

[١] قراءة شاذّة، مَرويّة عن أُبيّ وابن مسعود. الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٧٧.

[٢] قراءة شاذّة، مَرويّة عن الجَرمي والكسائي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٣.

[٣] نِيْنَوَى: هي قرية يونس بن متّى عليه السلام بالموصل، وبسواد الكوفة ناحية يقال لها: نينوى منها كربلاء التي قُتل بها الحسن رضي الله عنه. انظر: معجم البلدان للحموي، ٥/٣٣٩.

[٤] مرويٌّ بلفظ قريب عن قتادة في جامع البيان للطبري، ١٢/٢٩٣؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٢٧٧.

وعلَت الأصوات والعجيجُ، وأظهروا الإيمانَ والتوبةَ وتضرّعوا إلى الله تعالى فرحِمهم وكشف عنهم، وكان ذلك يومَ عاشوراءَ يومَ الجمعة.[١]

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: بلغ مِن توبتهم أن ترادّوا المظالمَ حتّى إنّ الرجل كان يقتلع الحجر وقد وضع عليه أساسَ بنائه فيرُدّه إلى صاحبه.[٢] وقيل: خرجوا إلى شيخ مِن بقيّة علمائهم فقالوا: قد نزل بنا العذابُ فما ترى؟ فقال لهم: قولوا: يا حيُّ حين لا حيَّ، ويا حيُّ محييَ الموتى، ويا حيُّ لا إله إلّا أنت، فقالوها فكشُف عنهم. وعن الفضيل بن عياض[٣] قالوا: إنّ ذنوبنا قد عظُمت وجلّت وأنت أعظمُ منها وأجلُّ، افعل بنا ما أنت أهلُه، ولا تفعل بنا ما نحن أهلُه.[٤]

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تحقيق لدوران إيمانِ كافّة المكلّفين وجودًا وعدمًا على قُطب مشيئته تعالى مطلقًا إثرَ بيان تبعيّةِ كُفر الكفَرة لكلمته. ومفعول المشيئة محذوف لوجود ما يقتضيه مِن وقوعها شرطًا، وكونِ مفعولها مضمونَ الجزاء، وألّا يكونَ في تعلّقها به غرابة كما هو المشهور،[٥] أي: لو شاء سبحانه إيمانَ مَن في الأرض مِن الثقلين لآمَن ﴿كُلُّهُمْ﴾ بحيث لا يشِذّ عنهم أحد

---

[١] مرويٌّ بلفظ قريب عن ابن مسعود وسعيد بن جُبير ووهب. انظر: **معالم التنزيل** للبغوي، ١٥١/٤-١٥٢؛ **والكشّاف** للزمخشري، ٢٧٧/٢.

[٢] لم أجده في مظانّه وهو في **الكشّاف** للزمخشري، ٢٧٧/٢.

[٣] هو الفُضيل بن عِياض بن مسعود بن بشر التميمي، أبو عليّ (ت. ١٨٧هـ/٨٠٣م). الإمام القدوة الثبت شيخ الإسلام الزاهد المشهور. وُلد بخراسان بكورة أبيوَرد، وقدم الكوفة وهو كبير فسمع الحديث مِن منصور بن المعتمر وغيره، ثم تعبّد وانتقل إلى مكّة فنزلها ومات بها في خلافة هارون الرشيد. وكان ثقة فاضلًا عابدًا ورعًا كثيرَ الحديث. روى عن عبد العزيز بن أبي روّاد، وعبّاد بن منصور، وحدّث عنه سفيان بن عُيينة وأبوه وموسى بن أعين وأخذ عنه خلق منهم الشافعي. انظر: **وفيات الأعيان** لابن خَلّكان، ٤٧/٤؛ **وسير أعلام النبلاء** للذهبي، ٤٢١/٨-٤٤٢؛ **والأعلام** للزركلي، ١٥٣/٥.

[٤] القولان في **الكشّاف** للزمخشري، ٢٧٧/٢.

[٥] مضى تفصيل الكلام على هذا الحذف في تفسير يونس، ١٦/١٠.

﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعِين على الإيمان لا يختلفون فيه، لكنّه لا يشاؤه لكونه مخالِفًا للحِكمة التي عليها بُنِيَ أساسُ التكوين والتشريع. وفيه دلالةٌ على أنّ مَن شاء الله تعالى إيمانَه يؤمِن لا محالةَ.

﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ على ما لم يشأ الله منهم، حسبما يُنبئ عنه حرف الامتناع في الشرطيّة. و"الفاء" للعطف على مقدَّر ينسحِب عليه الكلام، كأنّه قيل: أربُّك لا يشاء ذلك فأنت تُكرِههم؟ ﴿حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ فيكون الإنكار متوجِهًا إلى ترتيب الإكراه المذكور على عدم مشيئته تعالى.

ويجوز أن يكون "الفاء" لترتيب الإنكار على عدم مشيئته تعالى بناء على أنّ الهمزة متأخِّرة في الاعتبار وإنّما قُدِّمت لاقتضائها الصدارةَ كما هو رأي الجمهور.[1] وأيًا ما كان فالمشيئةُ على إطلاقها؛ إذ لا فائدةَ، بل لا وجهَ لاعتبار عدمِ مشيئة الإلجاءِ خاصّة في إنكار الترتيب عليه أو ترتيبِ الإنكار عليه.

وفي إيلاء الاسم حرفَ الاستفهام إيذان بأنّ الإكراه أمر ممكن لكنّ الشأن في المُكرِه مَن هو؟ وما هو إلّا هو وحدَه لا يُشارَك فيه، لأنّه القادر على أن يفعل في قلوبهم ما يضطّرهم إلى الإيمان، وذلك غير مستطاعٍ للبشر.[2] وفيه إيذان باعتبار الإلجاء في المشيئة كما أشيرَ إليه.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٠﴾

﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ﴾ بيان لتبعيّة إيمان النفوس المؤمنة لمشيئته تعالى وجودًا بعد بيان الدوران الكلّي عليها وجودًا وعدمًا، أي: ما صحّ وما استقام لنفس مِن النفوس التي علِم الله تعالى أنّها تؤمن ﴿أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بتسهيله ومنحه للألطاف. وإنّما خُصّت النفس بمَن ذُكر ولم يُجعل مِن قبيل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران، ١٤٥/٣] لأنّ الاستثناء مفرّغ / مِن أعمّ [١٠٨ظ]
الأحوال، أي: ما كان لنفس أن تؤمن في حال مِن أحوالها إلّا حالَ كونها ملابسةً

---

[1] مضى هذا الكلام على تقديم الهمزة في تفسير يونس، ٣٥/١٠.

[2] الكلام بلفظ قريب في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢٧٠/٦؛ واللباب لابن عادل، ٤١٦/١٠.

بإذنه تعالى، فلا بدّ مِن كون الإيمان ممّا يئول إليه حالها، كما أنّ الموت حال لكلّ نفس بحيث لا مَحيصَ لها عنه، فلا بدّ مِن تخصيص النفسِ بمَن ذُكر، فإنّ النفوس التي علم الله أنّها لا تؤمن ليس لها حال تؤمِن فيها حتّى يُستثنى تلك الحال عن غيرها.

﴿وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ﴾ أي: الكفر، بقرينة ما قبله، عُبّر عنه بالرجس الذي هو: عبارة عن القبيح المستقذَر المستكرَه لكونه عَلَمًا في القبح والاستكراه. وقيل: هو العذاب أو الخِذلان المؤدّي إليه.[١] وقُرئ بنون العظمة،[٢] وقُرئ بالزاء،[٣] أي: يَجعل الكفرَ ويُبقيه ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ لا يستعملون عقولهم بالنظر في الحُجَج والآيات، أو لا يعقلون دلائله وأحكامه لِما على قلوبهم مِن الطبع، فلا يحصُل لهم الهداية التي عُبّر عنها بالإذن، فيبقَون مغمورين بقبائح الكفر والضلال، أو مقهورين بالعذاب والنَّكال. والجملة معطوفة على مقدَّر ينسحِب عليه النظم الكريم، كأنّه قيل: فيأذن لهم بمَنْح الألطاف ويجعل... إلخ.

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١﴾

﴿قُلِ﴾ مخاطِبًا لأهل مكّةَ بعثًا لهم على التدبّر في ملكوت السماوات والأرض وما فيهما مِن تعاجيب الآيات الأنفسيّة والآفاقيّة، ليتّضحَ لك أنّهم مِن الذين لا يعقِلون وحقّت عليهم الكلمة: ﴿ٱنظُرُواْ﴾ أي: تفكّروا. وقُرئ بنقل حركةِ الهمزةِ إلى لام ﴿قُلِ﴾.[٤]

﴿مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أيُّ شيء بديعٍ فيهما مِن عجائب صُنعه الدالّة على وحدته وكمال قدرتِه؟ على أنّ ﴿مَاذَا﴾ جُعل بالتركيب اسمًا واحدًا مغلَّبًا فيه الاستفهام على اسم الإشارة، فهو مبتدأ خبرُه الظرف. ويجوز أن يكون "ما" مبتدأ، و"ذا" بمعنى "الذي"، والظرفُ صلته، والجملةُ خبر للمبتدأ.

---

١ كما في الكشّاف للزمخشري، ٢٧٨/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٧/٢.

٢ قرأ بها أبو بكر. النشر لابن الجزري، ٢٨٧/٢.

٣ قراءة شاذّة، مَرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٠.

٤ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر والكسائي وأبو جعفر وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٢٥/٢.

وعلى التقديرين فالمبتدأ والخبرُ في محلّ النصب بإسقاط الخافض، وفعلُ النظر معلّق بالاستفهام.[١]

﴿وَمَا تُغۡنِي﴾ أي: ما تنفع، وقُرئ بالتذكير.[٢] ﴿ٱلۡأٓيَٰتُ﴾ وهي التي عُبّر عنها بقوله تعالى: ﴿مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾. ﴿وَٱلنُّذُرُ﴾ جمع "نذير" على أنّه فاعل بمعنى منذِر، أو على أنّه مصدر، أي: لا تنفع الآيات والرسل المنذِرون أو الإنذارات ﴿عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ في عِلم الله سبحانه وحُكمه. فـ﴿مَا﴾ نافية، والجملة إمّا حاليّة أو اعتراضيّة. ويجوز كون ﴿مَا﴾ استفهاميّةً إنكاريّةً في موضع النصب على المصدريّة، أي: أيّ إغناء تُغني... إلخ، فالجملة حينئذ اعتراضيّة.

﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ١٠٢﴾

﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ﴾ أي: مشركو مكّةَ وأضرابهم ﴿إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ﴾ أي: إلّا يومًا مثل أيّام الذين خلَوا ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ مِن مشركي الأُممِ الماضية، أي: مثلَ وقائعهم ونزول بأس الله بهم، إذ لا يستحقُّون غيره، مِن قولهم: "أيّامُ العَرب" لوقائعها.

﴿قُلۡ﴾ تهديدًا لهم: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ ما هو عاقبتُكم ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ لذلك.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ بالتشديد، وقُرئ بالتخفيف،[٣] وهو عطفٌ على مقدَّر يدلّ عليه قوله: ﴿مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ﴾، وما بينهما اعتراض جيء به مُسارَعة إلى التهديد ومبالغة في تشديد الوعيد، كأنّه قيل: أهلكنا الأمم ثمّ نجّينا رسلنا المُرسَلة إليهم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

وصيغة الاستقبال لحكاية الأحوال الماضية لتهويل أمرها باستحضار صُوَرها. وتأخيرُ حكاية التنجية عن حكاية الإهلاك على عكس ما في قوله تعالى:

---

١ الكلام على الوجهين في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢٧١/٦؛ واللباب لابن عادل، ٤١٨/١٠.

٢ قراءة شاذّة، مَرويّة عن الأعمش والأسود وابن مِقسَم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٧٤.

٣ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٨٧/٢.

﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾... إلخ [يونس، ١٠/٧٣]، ونظائرِه الواردة في مواقعَ عديدة ليتّصل به قوله عزّ وعلا: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الإنجاء ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ اعتراض بين العامل والمعمول، أي: حَقَّ ذلك حَقًّا. وقيل: بدل مِن المحذوف الذي ناب عنه كذلك، أي: إنجاءً مثلَ ذلك حقًّا.[1]

والكاف متعلِّقة بقوله تعالى: / ﴿نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: مِن كلّ شدّة وعذاب. والجملة تذييل لِما قبلها مقرِّر لمضمونه. والمراد بـ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إمّا الجنسُ المتناوِل للرسل عليهم السلام والأتباع، وإمّا الأتباعُ فقط. وإنّما لم يُذكَر إنجاء الرسل إيذانًا بعدم الحاجة إليه. وأيًّا ما كان ففيه تنبيهٌ على أنّ مدار النجاة هو الإيمان. [١٠٩و]

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

﴿قُلْ﴾ لجمهور المشركين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أُوثر الخطاب باسم الجنس مُصدَّرًا بحرف التنبيه تعميمًا للتبليغ وإظهارًا لكمال العناية بشأن ما بُلِّغ إليهم. ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ الذي أتعبّد الله عزّ وجلّ به وأدعوكم إليه، ولم تعلموا ما هو وما صفتُه. ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ في وقت مِن الأوقات.

﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ ثمّ يَفعل بكم ما يفعل مِن فنون العذاب، أي: فاعلموا أنّه تخصيصُ العبادة به تعالى ورفضُ عبادة ما سواه مِن الأصنام وغيرها ممّا تعبدونه جهلًا. وتقديمُ ترك عبادة الغير على عبادته تعالى لتقدُّم التخلية على التحلية كما في كلمة التوحيد، وللإيذان بالمخالفة مِن أوّل الأمر، أو إن كنتُم في شكٍّ مِن صحّة ديني وسَدادِه فاعلموا أنّ خلاصته إخلاصُ العبادة لمَن بيده الإيجاد والإعدام دون ما هو بمَعزِل منهما مِن الأصنام فاعرِضوها على عقولكم، وأجيلوا فيها أفكارَكم، وانظُروا فيها بعين الإنصاف لتعلموا أنّه حقٌّ لا ريبَ فيه. وفي تخصيص التوفّي بالذِّكر متعلِّقًا بهم ما لا يخفى مِن التهديد.

---

[1] هذا الوجه في التبيان للعكبري، ٢/٦٨٧؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١١٧.

والتعبير عمّا هم فيه بالشكّ مع كونهم قاطعين بعدم الصحّةِ للإيذان بأنّ أقصى ما يمكن عُروضه للعاقل في هذا الباب هو الشكّ في صحّته، وأمّا القطع بعدمها فممّا لا سبيلَ إليه، وإن كنتُم في شكٍّ مِن ثباتي على الدِّين فاعلموا أنّي لا أتركه أبدًا.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بما دلّ عليه العقل ونطق به الوحيُ، وهو تصريح بأنّ ما عليه مِن دين التوحيدِ ليس بطريق العقل الصِّرف؛ بل بالإمداد السماوي والتوفيق الإلهي. وحذفُ حرفِ الجرّ مِن ﴿أَنْ﴾ يجوز أن يكون مِن باب الحذف المطَّرد مع "أنْ" و"أنّ"، وأن يكون خاصًّا بفعل الأمر، كما في قوله:

أَمـرتُـكَ الـخـيـرَ فـافـعـلْ مـا أُمِــرْت بـهِ[1]

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٠٥﴾

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ عطفٌ على ﴿أَنْ أَكُونَ﴾ خلا أنّ صلة ﴿أَنْ﴾ محكيّة بصيغة الأمر، ولا ضيرَ في ذلك، لأنّ مناط جواز وصلِها بصيغ الأفعال دلالتُها على المصدر، وذلك لا يختلف بالخبريّة والطلبيّة، ووجوبُ كون الصلة خبريةً في الموصول الاسمي إنّما هو للتوصُّل إلى وَصْف المعارف بالجمل، وهي لا تُوصَف إلّا بالجمل الخبريّة، وليس الموصول الحرفيُّ كذلك،[2] أي: وأُمرتُ بالاستقامة في الدِّين والاستبدادِ فيه بأداء المأمور به والانتهاءِ عن المنهي عنه، أو باستقبال القِبلة في الصلاة وعدمِ الالتفات إلى اليمين والشمال.

﴿حَنِيفًا﴾ حال مِن "الدِّين" أو "الوجه"، أي: مائلًا عن الأديان الباطلة. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ عطفٌ على ﴿أَقِمْ﴾ داخلٌ تحت الأمر، أي: لا تكُوننّ منهم اعتقادًا ولا عملًا.

---

[1] صدر بيت لعمرو بن مَعديكَرِب الزُّبيدي، عجزه:

فقد تـركتُـك ذا مـالٍ وذا نـشَـبِ

في ديوانه، ص ٦٣. وهو له في كتاب سيبويه، ٣٧/١. ويُنسَب لغير عمرو. انظر لتفصيل ذلك: شرح أبيات سيبويه لابن السيرافي، ٢٤٩/١-٢٥١؛ وفرحة الأديب للغُندجاني، ص ٦١-٦٢؛ وخزانة الأدب للبغدادي، ٣٤٢/١-٣٤٤.

[2] نقل الزمخشري في الكشّاف، ٢٧٩/٢، جواز ما ذُكر عن سيبويه، وهو كذلك في كتاب سيبويه، ١٦٢/٣.

﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٦﴾

وقوله عزّ وعلا: ﴿وَلَا تَدۡعُ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾[1] غيرُ داخل تحت الأمر. وقيل: على ما قبله مِن النهي.[2] والوجهُ هو الأوّل؛ لأنّ ما بعده مِن الجُمل إلى آخر الآيتين متّسقةٌ لا يمكن فَصْل بعضِها عن بعض كما ترى، ولا وجهَ لإدراج الكلّ تحت الأمر، وهو تأكيد للنهي المذكور وتفصيل لِما أُجمِل فيه إظهارًا لكمال العناية بالأمر وكشفًا عن وجه بُطلان ما عليه المشركون، أي: لا تدْعُ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ استقلالًا ولا اشتراكًا ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ﴾ إذا دعوتَه بدَفْع مكروه أو جَلْب محبوب، ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إذا تركتَه بسلب المحبوب دفعًا أو رفعًا أو بإيقاع المكروه. وتقديم النفعِ على الضرر غنيٌّ عن بيان السبب.

/ ﴿فَإِن فَعَلۡتَ﴾ أي: ما نُهيتَ عنه مِن دعاءِ ما لا ينفع ولا يضرّ، كنّى به [١٠٩ظ] عنه تنويهًا لشأنه عليه السلام وتنبيهًا على رفعة مكانه مِن أن يُنسَب إليه عبادة غيرِ الله سبحانه ولو في ضمن الجملة الشرطيّة. ﴿فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جزاء للشرط وجواب لسؤال مَن يسأل عن تَبِعة ما نُهي عنه.

﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٧﴾

﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ﴾ تقرير لِما أُورد في حيّز الصلة مِن سَلْب النفع مِن الأصنام وتصوير لاختصاصه به سبحانه. ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾ عنك كائنًا مَن كان وما كان. ﴿إِلَّا هُوَ﴾ وحدَه، فيثبُت عدم كَشْف الأصنام بالطريق البرهاني وهو بيان لعدم النفع برفع المكروه المستلزِم لعدم النفع بجَلْب المحبوبِ استلزامًا ظاهرًا، فإنّ رَفْع المكروه أدنى مراتب النفع، فإذا انتفى انتفى النفعُ بالكلّيّة.

﴿وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ﴾ تحقيق لسلب الضرر الوارد في حيّز الصلة، أي: إن يُرِد أن يُصيبَك بخير ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦ﴾ الذي مِن جملته ما أرادك به مِن الخير،

---

[1] يونس، ١٠/١٠٤.

[2] انظر: الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٦/١٢٧٥؛ واللباب لابن عادل، ١٠/٤٢٣.

فهو دليل على جواب الشرط لا نفسُ الجواب. وفيه إيذان بأنّ فيضان الخير منه تعالى بطريق التفضّل مِن غير استحقاق عليه سبحانه، أي: لا أحدَ يقدِر على ردّه كائنًا ما كان، فيدخل فيه الأصنام دخولًا أوّليًا، وهو بيان لعدم ضُرِّها بدَفْع المحبوب قبلَ وقوعه المستلزِم لعدم ضُرِّها برفعه أو بإيقاع المكروهِ استلزامًا جليًا.

ولعلّ ذِكرَ الإرادة مع الخير والمسّ مع الضُّرّ مع تلازُم الأمرين للإيذان بأنّ الخير مراد بالذات، وأنّ الضُّرَّ إنّما يَمسُّ مَن يَمَسّه لِما يوجبه مِن الدواعي الخارجيّة لا بالقصد الأوّلي، أو أريدَ معنى الفعلين في كلٍّ مِن الضرّ والخير، وأنّه لا دافعَ[١] لِما يُريد منهما، ولا رافعَ[٢] لِما يُصيب به منهما، فأُوجِز الكلام بأن ذُكر في أحدهما المسَّ وفي الآخر الإرادة، ليدلّ بما ذُكر في كلّ جانبٍ على ما تُرك في الجانب الآخر.

على أنّه قد صُرِّح بالإصابة حيث قيل: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾ إظهارًا لكمال العناية بجانب الخير، كما يُنبئ عنه ترك الاستثناء فيه، أي: يُصيب بفضله الواسع المُنتظِم لِما أرادك به مِن الخير. وجعلُ الفضل عبارةً عن ذلك الخير بعينه، على أن يكون مِن باب وضع المُظهَرِ في موضع المُضمَر لِما ذُكر مِن الفائدة،[٣] يأباه قوله عزّ وجلّ: ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، فإنّ ذلك ينادي بعموم الفضل.

وقوله عزّ قائلًا: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تذييل لقوله تعالى: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾... إلخ، مقرِّرٌ / لمضمونه، والكلُّ تذييل للشرطيّة الأخيرةِ محقِّق لمضمونها. [١١٠و]

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾

﴿قُلْ﴾ مخاطِبًا لأولئك الكفَرة بعد ما بلّغتهم ما أُوحيَ إليك. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ وهو القرآن العظيم المشتمِل على محاسِن الأحكام

---

١ م س: رادّ [صُحّح في هامش م].
٢ م س: مُزيلَ [صُحّح في هامش م].
٣ كما في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٧٩، وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١١٨.

التي مِن جملتها ما مرّ آنفًا مِن أصول الدِّين، واطلعتُم على ما في تضاعيفه مِن البيِّنات والهدى ولم يبقَ لكم عُذرٌ.

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بالإيمان به والعمل بما في مطاويه ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: منفعة اهتدائه لها خاصّة. ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بالكفر به والإعراض عنه ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: فوَبالُ الضلال مقصور عليها، والمراد تنزيه ساحة الرسالةِ عن شائبة غرَض عائد إليه عليه السلام مِن جَلْب نفع أو دَفْع ضُرّ، كما يلوّح به إسناد المجيء إلى الحقّ مِن غير إشعار بكون ذلك بواسطته.

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ موكولٍ إليّ أمرُكم، وإنّما أنا بشير ونذير.

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ١٠٩﴾

﴿وَٱتَّبِعْ﴾ اعتقادًا وعملًا وتبليغًا ﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ على نهج التجدّد والاستمرار مِن الحقّ المذكور المتأكِّد يومًا فيومًا. وفي التعبير عن بلوغه إليهم بالمجيء وإليه عليه السلام بالوحي تنبيهٌ على ما بين المَرتبتَين مِن التنائي.[١] ﴿وَٱصْبِرْ﴾ على ما يعتريك مِن مشاقّ التبليغ ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ بالنُصرة عليهم أو بالأمر بالقتال. ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ إذ لا يمكن الخطأ في حكمه لاطّلاعه على السرائر اطّلاعَه على الظواهر.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورةَ يونسَ أُعطيَ له مِن الأجر عشرُ حسنات بعَدد مَن صَدَّق بيونسَ وكذّب به، وبعَدد مَن غرِق بفرعونَ».[٢]

الحمدُ لله سبحانه على التمام، والصلاة على سيِّدنا محمّد وآله وصحبه أجمعين.

---

١ س: التآنّي.

٢ **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٥٦/١٤ (يونس، ١/١٠)؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٥٣٧/٢ (يونس، ١/١٠)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٢٨٠/٢. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١. وانظر لتفصيل تخريجه: **تخريج أحاديث الكشّاف** للزيلعي، ١٤٢/٢.

١٠

سورة يونس

مكية إلاّ «فإن كنت في شك» الآيتين أو الثلاث، أو «ومنهم من يؤمن به» الآيةَ، مِائةٌ وتسعُ أو عشرُ آيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿الر﴾ اللهُ أعلم بمُراده بذلك.

﴿تِلكَ﴾ أي: هذه الآياتُ ﴿آياتُ الكِتابِ﴾ القُرآن ـ والإضافة بمعنى: مِن ـ ﴿الحَكِيمِ﴾: المُحكَمِ.

٢ ـ ﴿أكانَ لِلنّاسِ﴾ أي: أهلِ مكّة، استفهامُ إنكار، والجارّ والمجرور: حال من قوله ﴿عَجَبًا﴾ بالنصبِ: خبرُ «كان»، والرفعِ اسمُها،..

سورة يونس

قولُه: (اللّهُ أعلَمُ) قيل: معناه: أنا اللهُ أرى وقيل: بانضمَامِ ﴿حم﴾ و﴿ن﴾ يصيرُ «الرَّحمن».

قولُه: (أي: هذِهِ الآيَاتُ) أو آياتُ هذِه السُّورةِ.

قولُه: (المُحْكَم) أي: لم يُنسَخ منه شيءٌ، أو وصفَه بـ﴿الحَكِيمِ﴾ لاشتمالِهِ على الحِكَمِ أو الحُكْمِ، أو لأنّه كلامُ حكيمٍ.

قولُه: (أي: أَهلِ مكّةَ) تفسيرٌ ﴿للنَّاسِ﴾.

قولُه: (إنكَارٍ) للتَّعجُّبِ.

قولُه: (والرَّفع) أي: برفعِ ﴿عجباً﴾ وهو قراءةٌ شاذّةٌ[1].

---

(١) انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٢٢٣) ونسبت لابن مسعود رضي الله عنه.

والخبرُ وهو اسمُها على الأُولى: ﴿أَن أَوحَينا﴾ أي: إيحاؤنا ﴿إِلَى رَجُلٍ مِنهُم﴾ مُحمّدٍ ﷺ: ﴿أَن﴾: مُفسّرةٌ ﴿أَنذِرِ﴾: خوِّفِ ﴿النّاسَ﴾ الكافرين بالعذاب، ﴿وبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ﴾ أي: بأنّ ﴿لَهُم قَدَمَ﴾: سَلَفَ ﴿صِدقٍ عِندَ رَبِّهِم﴾ أي: أجرًا حسنًا بما قدّموا من الأعمال؟ ﴿قالَ الكافِرُونَ: إنَّ هذا﴾ القُرآنَ المُشتمِلَ على ذلك ﴿لَسِحرٌ مُبِينٌ﴾: بيِّنٌ. وفي قراءة: «لَساحِرٌ» والمشارُ إليه النبيُّ.

٣ ـ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ في سِتَّةِ أَيّامٍ﴾ من أيام الدنيا،...............

قولُه: (والخَبَرُ) مبتدأٌ خبرُه ﴿أن أوحينا﴾.

قولُه: (وهُو اسْمُها) جملةٌ حاليَّةٌ مُعترِضةٌ.

قولُه: (الأَوّلِ) أي: على النَّصبِ.

قولُه: (أي: إيحَاؤُنَا) أو إيحاءَنا.

قولُه: (مُحمَّدٍ) أي: غيرِ مشهورٍ بالرِّياسةِ.

قولُه: (مفَسِّرةٌ) لِمَا في الإيحاءِ مِن معنى القَولِ.

قولُه: (الكَافِرِينَ) قيل: عمَّمَ الإنذارَ؛ إذْ قلَّمَا مِن أحدٍ ليسَ فيه ما ينبغِي أنْ يُنذَرَ منه، وخصَّصَ البشارةَ؛ إذ ليسَ للكفَّارِ ما يصحُّ أن يُبشَّروا به.

قولُه: (سَلَفَ) أي: سبقَ، أو سعيَ، أو مرتبةَ، وأضافَها إلى الصِّدقِ لتحقُّقِها والتَّنبيه على أنَّهم إنَّما ينالونها بالصِّدقِ، وقال مقاتلٌ: هو محمَّدٌ شفيعُ صدقٍ. أخرَجَه ابنُ أبي حاتمٍ[١]، كذا في «المبهَماتِ»[٢] ويؤيِّدُه قولُه ﷺ: «أنا فرَطُكم»[٣].

قولُه: (بمَا قَدَّمُوا) أو بما سبقَتْ لهم السَّعادةُ في الذِّكرِ الأوَّلِ.

قولُه: (وفِي قِراءَةٍ) للمكِّيِّ والكوفيِّ[٤]، وفيه اعترافٌ بالعَجزِ عن المعارضَةِ.

قولُه: (أيَّامِ الدُّنيَا) أو كل يومٍ ألف سنةٍ[٥].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠١٩٩).

(٢) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ٥٣).

(٣) رواه البخاري (٧٠٤٩)، ومسلم (٢٢٩٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٢٢)، و«حجة القراءات» (٣٢٧).

(٥) روى الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ١٦٨)، والحاكم في «المستدرك» (٣٥٤٦) واللفظ للطبري: عن ابن عباس قال: خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وكل يوم من هذه كألف سنة مما تعدون أنتم. =

أي: في قدْرها لأنه لم يكن ثَمّ شمس ولا قمر ـ ولو شاء لخلقهنّ في لمحة. والعدولُ عنه لتعليم خلقه التثبّتَ ـ ﴿ثُمَّ استَوَى علَى العَرشِ﴾ استواءً يليق به، ﴿يُدَبِّرُ الأمرَ﴾ بين الخلائق، ﴿ما مِن﴾: زائدةٌ ﴿شَفِيعٍ﴾ يشفع لأحد ﴿إلاّ مِن بَعدِ إذنِهِ﴾. ردٌّ لقولهم: إنّ الأصنام تشفع لهم. ﴿ذلِكُمُ﴾ الخالق المُدبّر ﴿اللهُ رَبُّكُم. فاعبُدُوهُ﴾: وحّدوه. ﴿أفلا تَذَّكَّرُونَ﴾؟ بإدغام التاء في الأصل في الذال.

٤ ـ ﴿إلَيهِ﴾ تعالى ﴿مَرجِعُكُم جَمِيعًا، وَعْدَ اللهِ حَقًّا﴾: مصدران منصوبان بفعلهما المُقدّر. ﴿إنَّهُ﴾ ـ بالكسرِ استئنافًا والفتحِ على تقدير اللام ـ ﴿يَبدَأُ الخَلقَ﴾ أي: بدأه بالإنشاء ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ بالبعث، ﴿لِيَجزِيَ﴾: لِيُثِيبَ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ بِالقِسطِ، والَّذِينَ كَفَرُوا لَهُم شَرابٌ مِن حَمِيمٍ﴾: ماء بالغِ نهايةَ الحرارة، ﴿وعَذابٌ أَلِيمٌ﴾: مُؤلمٌ ﴿بِما كانُوا يَكفُرُونَ﴾ أي: بسبب كُفرهم.

٥ ـ ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمسَ ضِياءً﴾: ذاتَ ضياء..

قولُه: (بينَ الخَلائقِ) أي: يقدِّرُ أمرَ الكائناتِ، فاللّامُ للعهدِ أو للاستغراقِ.

قولُه: (ردٌّ) أو إثباتُ الشَّفاعةِ لمن أَذِنَ له.

قولُه: (الخَالِقُ) أي: ربُّكم لا غيرُ.

قولُه: (وحِّدُوهُ) بالعبادَةِ.

قولُه: (بإدغَامِ التَّاءِ) وبالتَّخفيفِ حمزةُ والكِسائيُّ وحفصٌ[1].

قولُه: (تعَالى) لا إلَه غيرُه فاستعِدُّوا للقائِهِ.

قولُه: (والفَتحِ) لأبي جعفرٍ[2]، مِن العَشَرةِ.

قولُه: (أي: بدأَهُ) الظَّاهرُ إبقاءُ الفعلِ على المعنى المضَارعيِّ؛ لأنَّ المرادَ الاستِمرارُ، نحوُ: فلانٌ يُعطِي ويمنَعُ.

قالَ تعالى: (﴿بالقسطِ﴾) أي: بعَدلِهِ، لا يُنقِصُ مِن ثوابِهم بمقتَضَى وعدِهِ، ويزيدُ مِن فضْلِهِ، أو بعدالَتِهم وقيَامِهم على العدْلِ في أمُورِهم، أو بإيمَانِهم؛ لأنَّه العَدلُ القويمُ، كمَا أنَّ الشِّركَ ظلمٌ عظيمٌ، وهو الأَوجَهُ لمقابلَةِ ما بعدَهُ.

قولُه: (ذَاتَ ضِياءٍ) أو مبالغةً.

= قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي.

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٧٢)، و«التسير في القراءات السبع» (ص: ١٠٨).

(٢) انظر: «المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢٣٢).

أي: نورٍ ﴿والقَمَرَ نُورًا، وقَدَّرَهُ﴾ من حيثُ سيرُه ﴿مَنازِلَ﴾ ثمانيةً وعشرين منزلاً في ثمانٍ وعشرين ليلةً من كُلّ شهر، ويستتر ليلتينِ إن كان الشهر ثلاثين يومًا، وليلةً إن كان تسعة وعشرين يومًا، ﴿لِتَعلَمُوا﴾ بذلك ﴿عَدَدَ السِّنِينَ والحِسابَ. ما خَلَقَ اللهُ ذلِكَ﴾ المذكورَ ﴿إلاّ بِالحَقِّ﴾ لا عبثًا، تعالى عن ذلك. ﴿يُفَصِّلُ﴾، بالياء والنون، يُبيّنُ ﴿الآياتِ لِقَومٍ يَعلَمُونَ﴾: يتدبّرون.

٦ ـ ﴿إنَّ في اختِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ﴾ بالذَّهاب والمجيء والزيادة والنُّقصان، ﴿وما خَلَقَ اللهُ في السَّماواتِ﴾ من ملائكة وشمس وقمر ونُجوم وغير ذلك ﴿و﴾ في ﴿الأرضِ﴾ من حيوان وجِبال وبِحار وأنهار وأشجار وغيرها، ﴿لَآياتٍ﴾: دلالاتٍ على قُدرته ـ تعالى ـ ﴿لِقَومٍ يَتَّقُونَ﴾ ـه فيُؤمنون. خصّهم بالذكر لأنهم المُنتفعون بها.

٧ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ لا يَرجُونَ لِقاءَنا﴾ بالبعث ﴿ورَضُوا بِالحَياةِ الدُّنيا﴾........

قولُه: (أي: نُورٍ) فيه أنَّ الضِّياءَ أقوَى الأنوارِ، وقرَأَ قُنبُلٌ[1]: (ضئاء) بهمزتَين على القَلْبِ، بتقديمِ اللَّامِ على العَينِ.

قولُه: (مِن حَيثُ سَيْرُهُ) الضَّميرُ لكلِّ واحدٍ؛ أي: قدَّر مسيرَ كلِّ واحدٍ منهمَا منازِلَ، أو قدَّرَ كلَّ واحدٍ ذا منازِلَ، أو للقمَرِ، وتخصيصُه بالذِّكرِ لسُرعةِ سَيْرِه ومُعايَنةِ منازِلِهِ وإناطةِ أحكامِ الشَّرعِ غالباً به، ولذلكَ علَّلَه بقولِه: ﴿لتعلَموا﴾ ثمَّ الظَّاهرُ أنَّ المرادَ البروجُ لا المنَازِلُ؛ إذ بهَا وبقطعِهَا عددُ السِّنين والحسَابُ.

قولُه: (بذلِكَ) في مُعامَلاتِكم وتصرُّفاتِكم.

وقولُه تعَالى: (﴿والحِسَابَ﴾) أي: حسَابَ الأوقَاتِ مِن الأشْهرِ والأيَّامِ.

قولُه: (بالياءِ) الغَيبة، مكِّيٌّ وبَصريٌّ وحفصٌ[2].

قولُه: (والنُّقصَانِ) والظُّلمةِ والضِّياءِ.

وقولُه تعالى: (﴿ومَا خَلَقَ اللهُ﴾) أي: وفيما خلَقَ.

قولُه: (وغَيرِ ذلِكَ) من الكائناتِ العُلْويَّةِ.

قولُه: (وغَيْرِها) من الكائناتِ السُّفليَّةِ.

قولُه: (علَى قُدرَتِهِ) ووحدتِهِ لعدَمِ فسَادِها.

قولُه: (بالبَعْثِ) أي: لا يتوقَّعونَه لا رجاءً ولا خوفاً لإنكَارِهم البعثَ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٢٣)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٢٠).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٢٣)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٢٨).

بدلَ الآخِرة لإنكارهم لها ﴿واطمَأَنُّوا بِها﴾: سكنوا إليها، ﴿والَّذِينَ هُم عَن آياتِنا﴾: دلائلِ وحدانيّتنا ﴿غافِلُونَ﴾: تاركون للنظر فيها، ٨ ـ ﴿أُولئِكَ مأواهُمُ النّارُ بِما كانُوا يَكسِبُونَ﴾ من الشِّرك والمعاصي. ٩ ـ ١٠ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ يَهدِيهِم﴾: يُرشدهم ﴿رَبُّهُم بِإيمانِهِم﴾: به بأن يجعل لهم نورًا يهتدون به يوم القيامة، ﴿تَجرِي مِن تَحتِهِمِ الأنهارُ في جَنّاتِ النَّعِيمِ، دَعواهُم فِيها﴾: طلبهم لِما يشتهونه في الجنّة أن يقولوا: ﴿سُبحانَكَ اللّهُمَّ﴾ أي: يا اللهُ! فإذا ما طلبوه وجدوه بين أيديهم، ﴿وتَحِيَّتُهُم﴾ فيما بينهم ﴿فِيها سَلامٌ، وآخِرُ دَعواهُم أنِ﴾ ـ مُفسِّرة ـ ﴿الحَمدُ للهِ رَبِّ العالَمِينَ﴾.

قولُه: (سَكَنوا إِلَيهَا) مقصِّرينَ همَمَهم على لذائذِها أو سكَنُوا فيها سكُونَ مَن لا يُزعَجُ عنها.

قولُه: (دَلَائلِ) الكونيَّةِ والشَّرعيَّةِ.

قولُه: (بِهِ) أي: بسببِ إيمانِهم بالبعثِ.

قولُه: (بأنْ يجعَلَ) بيانُ الإرشادِ، أو يهديَهم إلى الجنَّةِ أو إلى سُلوكِ السَّبيلِ المؤدِّي إلى الثَّوابِ.

قولُه: (طَلَبُهمْ) عن كثيرٍ مِن السَّلفِ: أنَّ أهلَ الجنَّة كلَّما اشتهَوا شيئاً قالوا: سبحانَكَ اللَّهمَّ، فيأتِيهم الملَكُ بما يشتَهونَ، فيسلِّمُ عليهم فيردُّونَ عليهِ، وذلكَ تحيَّتُهم، فإذا أكَلوا حمِدُوا اللهَ، وذلكَ قولُه: ﴿وآخرُ دعْواهم...﴾ إلخ[1].

قولُه: (فإِذَا) للمُفاجَأةِ.

قولُه: (فيمَا بَينَهُم) أي: ما يُحيِّي به بعضُهم بعضاً، أو تحيَّةُ الملائكَةِ أو اللهِ تعالى إيَّاهُم.

قولُه: (مُفَسِّرةٌ) الصَّحيحُ قولُ القاضِي[2]: إنَّ ﴿أن﴾ هي المخفَّفةُ مِن الثَّقيلةِ، وقد قُرِئَ بها وبنصبِ: ﴿الحمد﴾[3]. وزادَ في «المدارِكِ»[4]: أصلُه: أنه الحمدُ للهِ، والضَّميرُ للشَّأنِ.

قال الرَّضيُّ[5]: ينبَغِي أن يُعلَمَ أنَّ ما بعدَ «أن» المفسِّرةِ ليسَ مِن صلَةِ ما قبلَهَا، بل يتمُّ الكلامُ بدونِهِ، ولا يُحتاجُ إليه إلَّا مِن جهةِ التَّفسيرِ للمُبهَم المقدَّرِ، فقولُه تعالى: ﴿وآخرُ دعواهم أنِ الحمْدُ للهِ ربِّ العالمينَ﴾ ليسَتْ ﴿أن﴾ فيهِ المفسِّرةَ؛ لأنَّ قولَه: ﴿الحمْدُ للهِ ربِّ العالمينَ﴾ خبرُ المبتدإِ المقدَّمِ. انتهى.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧٥٦٣) عن ابن جريج.

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١٠٦).

(٣) أي: (أنَّ الحمدَ) وهي قراءة شاذة، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ٦١) ونسبت لبلال بن أبي بردة وابن محيصن.

(٤) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٩).

(٥) انظر: «شرح الرضي لكافية ابن الحاجب» (٢/ ١٣٨٠).

ونزل لمّا استعجل المشركون العذاب: ١١ ـ ﴿ولَو يُعَجِّلُ اللهُ لِلنّاسِ الشَّرَّ استِعجالَهُم﴾ أي: كاستعجالهم ﴿بِالخَيرِ لَقُضِيَ﴾ ـ بالبناء للمفعول وللفاعل ـ ﴿إلَيهِم أجَلُهُم﴾، بالرفع والنصب، بأن يُهلِكهم، ولكن يُمهلهم ـ ﴿فنَذَرُ﴾: نتركُ ﴿الَّذِينَ لا يَرجُونَ لِقاءَنا في طُغيانِهم يَعمَهُونَ﴾: يتردّدون مُتحيّرين ـ ١٢ ـ ﴿وإذا مَسَّ الإنسانَ﴾: الكافرَ ﴿الضُّرُّ﴾: المرض والفقر ﴿دَعانا لِجَنبِهِ﴾ أي: مُضطجعًا ﴿أو قاعِدًا أو قائمًا﴾ أي: في كُلّ حال، ﴿فلَمّا كَشَفنا عَنهُ ضُرَّهُ مَرَّ﴾ على كُفره ﴿كأنْ﴾، مُخفّفةٌ واسمها محذوف، أي: كأنّه ﴿لَم يَدعُنا إلَى ضُرٍّ مَسَّهُ. كَذلِكَ﴾: كما زُيّنَ له الدعاءُ عِند الضرر والإعراضُ عِند الرخاء ﴿زُيِّنَ لِلمُسرِفِينَ﴾: المُشركينَ ﴿ما كانُوا يَعمَلُونَ﴾.

قولُه: (أي: كاستِعْجَالِهِم) تقديرُ الكلامِ: ولو يعجِّلُ اللهُ للنَّاسِ تعجيلَهُ للخَيرِ حينَ استعْجَلوا الشَّرَّ استعجَالاً كاستعْجَالِهم بالخيرِ، فحُذِفَ منه ما حُذِفَ لِدلالةِ الباقِي عليهِ.

قولُه: (وللفَاعِلِ) الشَّاميُّ[1].

قولُه: (والنَّصْبِ) شاميٌّ[2].

قولُه: (ولكنْ يُمهِلُهُم) يعني: بفضلِهِ يستَجِيبُ في الخيرِ سريعاً لا في الشَّرِّ. وقولُه: «يمهلُهم» ينبَغِي أن يكونَ بالنُّونِ؛ إشارةً إلى أنَّ ﴿فنذرُ﴾ عطفٌ على فعلٍ محذوفٍ دلَّتْ عليه الشرطيَّةُ؛ كأنَّه قيل: ولكنْ لا نعجَلُ ولا نقْضِي فنذرُهُم إمهَالاً لهم واستدراجاً، وتوضيحُه أنَّ ظاهرَه العطفُ على الشَّرطِ والجزاءِ، ولا يستقيمُ؛ لأنَّ حُكمَه الثُّبوتُ لا الانتفاءُ، فأُجيبَ بأنَّه عطفٌ على النَّفي الدَّالِّ عليه كلمةُ ﴿لو﴾ إلَّا أنَّ ذاكَ في النَّاسِ على الإطلاقِ، وهذا في ﴿الذينَ لا يرجونَ﴾ فتأمَّلْ. فإنَّه دقيقٌ وبالتأمُّلِ حقيقٌ.

قولُه: (أَي: مُضطَجِعاً) وأصلُه: مُلْقِياً لجنبِهِ إشارةٌ إلى أنَّ ﴿لجنبِهِ﴾ حالٌ.

قولُه: (أي: فِي كُلِّ حَالٍ) يعني: فائدةُ التَّرديدِ تعميمُ الدُّعاءِ لجميعِ الأحوالِ أو لأصنافِ المضارِّ.

قولُه: (علَى كُفرِهِ) أي: مضَى على طريقتِهِ قبلَ الضُّرِّ، ونسِيَ ما كان يدعو إليه، واستمرَّ على كفرِهِ، أو ﴿مرَّ﴾ عن موقفِ الدُّعاءِ لا يرجعُ إليه.

وقولُه تعالى: (﴿إلى ضرٍّ﴾) أي: إلى كشفِهِ.

وقولُه تعالى: (﴿ما كانوا يعملونَ﴾) مِن الانهماكِ في الشَّهواتِ والإعراضِ عن العباداتِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٢٣)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٢٨).

(٢) انظر المصادر السابقة.

١٣ ـ ﴿ولقد أهلَكْنا القُرُونَ﴾: الأُمم ﴿مِن قَبلِكُم﴾ ـ يا أهل مكّة ـ ﴿لَمّا ظَلَمُوا﴾ بالشرك، ﴿و﴾ قد ﴿جاءَتهم رُسُلُهُم بِالبَيِّناتِ﴾: الدلالات على صِدقهم، ﴿وما كانُوا لِيُؤمِنُوا﴾: عطفٌ على «ظلموا» ـ ﴿كَذلِكَ﴾: كما أهلكنا أُولئك ﴿نَجزِي القَومَ المُجرِمِينَ﴾: الكافرين ـ ١٤ ـ ﴿ثُمَّ جَعَلْناكُم﴾ يا أهل مكّة ﴿خَلائفَ﴾: جمع خليفة ﴿في الأرضِ مِن بَعدِهِم، لِنَنظُرَ: كَيفَ تَعمَلُونَ﴾ فيها؟ وهل تعتبرون بهم فتُصدّقوا رُسلَنا؟

١٥ ـ ﴿وإذا تُتلَى علَيهِم آياتُنا﴾: القُرآنُ ﴿بَيِّناتٍ﴾: ظاهراتٍ حالٌ ﴿قالَ الَّذِينَ لا يَرجُونَ لِقاءَنا﴾: لا يخافون البعث: ﴿ائتِ بِقُرآنٍ غَيرِ هذا﴾ ليس فيه عيب آلهتنا، ﴿أو بَدِّلْهُ﴾ من تِلقاء نفسك. ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿ما يَكُونُ﴾: ينبغي ﴿لِيَ أن أُبَدِّلَهُ مِن تِلقاءِ﴾: قِبَلِ ﴿نَفسِي. إن﴾: ما ﴿أَتَّبِعُ إلاّ ما يُوحَى إلَيَّ. إنِّي أخافُ، إن عَصَيتُ رَبِّي﴾ بتبديله، ﴿عَذابَ يَومٍ عَظِيمٍ﴾ هو يوم القيامة.

١٦ ـ ﴿قُلْ: لَو شاءَ اللهُ ما تَلَوتُهُ علَيكُم، ولا أدراكُم﴾: أعلَمَكم ﴿بِهِ﴾. ولا: نافية، عطفٌ على ما قبله..........................

قولُه: (قَد) أي: حالٌ من الواو بإضمارِ قد، وقيل: عطفٌ على ﴿ظلَموا﴾.

قولُه: (الدَّالَّاتِ) أي: بالحُججِ الدَّالَّةِ.

قولُه: (عَطفٌ) أو اعتراضٌ.

قولُه: (الكَافِرِينَ) أي: نجزي كلَّ مجرمٍ، أو نجزيكُم، فوضعَ المظهَرُ موضعَ المضمَرِ.

قولُه: (فيهَا) يعني: استخلافَ مَن يُختبرُ.

قولُه: (لَا يَخَافُون) أو لا يأمُلونَ.

قولُه: (عَيْبُ) ولا بعثٌ.

قولُه: (مِن تلقَاءِ) بأن تجعَلَ مكانَ الآيةِ المشتمِلةِ على ما ذُكِرَ آيةً أخرى.

قولُه: (قِبَلِ) يعني: فضلاً عن آخرَ، أو المرادُ بالتَّبديلِ ما يشمَلُها.

قالَ تعَالى: (﴿قل لو شاء الله﴾) أي: غيرَ ذلكَ.

قولُه: (أعلَمَكُم) أي: على لساني.

قولُه: (﴿لا﴾ نَافِيةٌ) الظَّاهرُ أنها: مؤكِّدةٌ للنَّفي.

قولُه: (عَلى مَا قَبْلَه) فيه لطافةٌ.

وفي قراءة بلامٍ جوابَ «لو»، أي: لأعلمكم به على لسان غيري. ﴿فقد لَبِثتُ﴾: مَكَثتُ ﴿فِيكُم عُمُرًا﴾ سِنِينَ أربعين ﴿مِن قَبلِهِ﴾، لا أُحدِّثكم بشيء. ﴿أفلا تعقِلُونَ﴾ أنه ليس من قِبَلي؟ ١٧ ـ ﴿فمَن﴾ أي: لا أحدَ ﴿أظلَمُ مِمَّنِ افترَى علَى اللهِ كَذِبًا﴾ بنِسبة الشريك إليه ﴿أو كَذَّبَ بآياتِهِ﴾: القُرآنِ؟ ﴿إنَّهُ﴾ أي: الشأنَ ﴿لا يُفلِحُ﴾: يَسعد ﴿المُجرِمُونَ﴾: المُشركون.

١٨ ـ ﴿ويَعبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: غيرَه ﴿ما لا يَضُرُّهُم﴾ ـ إن لم يعبدوه ـ ﴿ولا يَنفَعُهُم﴾ إن عبدوه، هو الأصنام، ﴿ويَقُولُونَ﴾ عنها: ﴿هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِندَ اللهِ. قُلْ﴾ لهم: ﴿أتُنَبِّئُونَ اللهَ﴾: تُخبرونه ﴿بِما لا يَعلَمُ في السَّماواتِ ولا في الأرضِ﴾؟ استفهام إنكار، أي: لو كان له شريك لعلمه، إذ لا يخفى عليه شيء. ﴿سُبحانَهُ﴾: تنزيهًا له ﴿وتَعالَى عَمّا يُشرِكُونَـ﴾ـه معه!

١٩ ـ ﴿وما كانَ النّاسُ إلاّ أُمَّةً واحِدَةً﴾: على دِين واحد ـ وهو الإسلام ـ من لدُن آدمَ إلى نُوح، وقيل: من عهد إبراهيمَ إلى عمرِو ابنِ لُحَيّ، ﴿فاختَلَفُوا﴾ بأن ثبَتَ بعض وكفر بعض، ﴿ولَولا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَبِّكَ﴾ بتأخير الجزاء إلى يوم القيامة ﴿لَقُضِيَ بَينَهُم﴾ أي: الناسِ في الدنيا، ﴿فِيما فِيهِ يَختَلِفُونَ﴾ من الدّين بتعذيب الكافرين.

٢٠ ـ ٢١ ـ ﴿ويَقُولُونَ﴾ أي: أهل مكّة: ﴿لَولا﴾: هلاّ ﴿أُنزِلَ علَيهِ﴾: على مُحمّد ﴿آيَةٌ مِن رَبِّهِ﴾ كما كان للأنبياء من الناقة والعصا واليد ـ ﴿فقُلْ﴾ لهم: ﴿إنَّما الغَيبُ﴾:........................

قولُه: (وفِي قِرَاءَةٍ) للمكيِّ بخُلْفٍ عن البزِّيِّ[١].

قولُه: (جوابَ ﴿لو﴾) الصَّحيحُ أنَّ اللّامَ لامُ التَّوكيدِ، و﴿ما تلَوتُه﴾ و﴿لا أدراكم﴾ كلاهما جوابٌ بالتَّعاطُفِ، والأوَّلُ نفيٌ والثَّاني إثباتٌ.

قولُه: (سِنِيْناً) كذا بالنَّصبِ مع الألفِ، والصَّوابُ: «سنينَ» بلا ألفٍ؛ لأنَّه مُلحَقٌ بجمعِ السَّالم.

قولُه: (لَا أُحَدِّثُكم) إشارةٌ إلى أنَّ القرآنَ مُعجِزٌ.

قولُه: (وهوَ الأصْنامُ) سبحانَ اللهِ! يرضَونَ أن يكونَ الإلهُ حجراً، ولا يرضَون أن يكونَ الرَّسولُ بشراً، ويدَّعونَ لها الشَّفاعةَ، ولو كانَ لها قَدْرٌ لدفعَتِ النحتَ عن رأسِها.

قولُه: (معَهُ) وقرأَ حمزةُ والكِسائيُّ بالخطابِ[٢].

---

(١) أي: (ولأدراكم) وهي أيضًا من رواية قنبل، انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٢١)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٢٩).

(٢) انظر المصادر السابقة.

ما غاب عن العِباد أي: أمرُه ﴿لِلهِ﴾ ومنه الآياتُ، فلا يأتي بها إلاّ هو، وإنّما عليَّ التبليغ. ﴿فانتَظِرُوا﴾ العذابَ، إن لم تُؤمنوا. ﴿إنّي مَعَكُم مِنَ المُنتَظِرِينَ ـ وإذا أذَقنا النّاسَ﴾ أي: كُفّار مكّة ﴿رَحْمةً﴾: مطرًا وخِصبًا ﴿مِن بَعدِ ضَرّاءَ﴾: بُؤس وجدب ﴿مَسَّتهُم إذا لَهُم مَكرٌ في آياتِنا﴾ بالاستهزاء والتكذيب. ﴿قُلِ﴾ لهم: ﴿اللهُ أسرَعُ مَكرًا﴾: مُجازاةً. ﴿إنَّ رُسُلَنا﴾: الحَفَظةَ ﴿يَكتُبُونَ ما تَمكُرُونَ﴾. بالتاء والياء.

٢٢ ـ ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُم﴾ ـ وفي قراءة: «يَنشُرُكُم» ـ ﴿في البَرِّ والبَحرِ. حَتَّى إذا كُنتُم في الفُلْكِ﴾: السُّفن، ﴿وجَرَينَ بِهِم﴾ ـ فيه التفات عن الخِطاب ـ ﴿بِرِيحٍ طَيِّبةٍ﴾: ليّنة ﴿وفَرِحُوا بِها، جاءَتها رِيحٌ عاصِفٌ﴾: شديدةُ الهُبوب تكسِر كُلّ شيء،.........................

قولُه: (أي: أَمْرُه) أي: أمرُ الغيبِ مختَصٌّ باللهِ.

قولُه: (ومنهُ) أي: من جملَةِ الغيبِ.

قولُه: (وخِصْباً) وصحَّةً وسَعةً.

قولُه: (وجَدْبٌ) ومرضٌ وفقرٌ.

قولُه: (مُجَازَاةٌ) المكرُ: إخفاءُ الكيدِ، وهو مِن اللهِ إمَّا الاستِدراجُ، أو الجزاءُ على المكرِ.

قولُه: (واليَاء) الغَيبةُ قراءةُ يعقوبَ مِن العَشَرةِ(١)، قالَ البيضَاويُّ(٢): ليوافقَ ما قبلَه. يعنِي: ﴿إذا لهم مكرٌ﴾ لا يكتُبونَ كما يُتوهَّمُ، فتفهَّمْ.

قولُه: (وفِي قِرَاءةٍ) لحمزةَ(٣)، من النَّشرِ، على زنةِ ينصُرُ.

قولُه: (السُّفُنِ) جمعُ: سفينةٍ، فالفُلْكُ هنا جمعٌ بدليلِ و﴿جرين بهم﴾ أي: بمَنْ فيها.

قولُه: (عنِ الخِطَاب) إلى الغيبةِ للمُبالغةِ في سُرعةِ جَريها؛ كأنَّ الحاضرينَ غابُوا بمجرَّدِ الجري.

قولُه: (ليِّنة) الهبُوبِ.

قالَ تعَالى: (﴿جاءتها﴾) جوابُ ﴿إذا﴾ والضَّميرُ للفُلكِ أو للرِّيحِ الطَّيبةِ؛ بمعنى: تلقَّتْها(٤).

قولُه: (شَدِيدَة) أي: ذاتُ عَصفٍ شديدٍ.

---

(١) انظر: «المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢٣٢).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١٠٩).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٢٥)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٢٩).

(٤) في الأصول: «تلقتهما» ولعل الصواب ما أثبته.

﴿وجاءَهُمُ المَوجُ مِن كُلِّ مَكانٍ، وظَنُّوا أَنَّهُم أُحِيطَ بِهِم﴾ أي: أهلِكوا، ﴿دَعَوُا اللهَ مُخلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾: الدُّعاءَ ﴿لَئِنْ﴾ ـ لامُ قسم ـ ﴿أنجَيتَنا مِن هذِهِ﴾ الأهوالِ ﴿لنَكُونَنَّ مِنَ الشّاكِرِينَ﴾: المُوحّدين، ٢٣ ـ ﴿فلَمّا أَنجاهُم إذا هُم يَبغُونَ في الأرضِ بِغَيرِ الحَقِّ﴾: بالشِّرك. ﴿يا أَيُّها النّاسُ، إنَّما بَغيُكُم﴾: ظُلمكم ﴿علَى أنفُسِكُم﴾ لأنّ إثمه عليها. هو ﴿مَتاعُ الحَياةِ الدُّنيا﴾ تُمتّعون فيها قليلاً، ﴿ثُمَّ إلَينا مَرجِعُكُم﴾ بعد الموت، ﴿فنُنَبِّئُكُم بِما كُنتُم تَعمَلُونَ﴾ فنُجازيكم عليه. وفي قراءة بنصب: «متاعَ»، أي: تَتمتّعون.

٢٤ ـ ﴿إنَّما مَثَلُ﴾: صِفةُ ﴿الحَياةِ الدُّنيا كَماءٍ﴾: مطر، ﴿أنزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ، فاختَلَطَ بِهِ﴾: بسببه ﴿نَباتُ الأرضِ﴾، ....

قالَ تعالَى: (﴿مِن كلِّ مكانٍ﴾) يجيءُ الموجُ منه.

قولُه: (الدُّعَاءَ) مِن غيرِ إشراكٍ، وهو بدلٌ مِن ﴿ظَنُّوا﴾ بدلُ اشتمالٍ؛ لأنَّ دعاءهُم من لوازمِ ظنِّهم.

قولُه: (لامُ قسَمٍ) أي: موطِّئةٌ للقسمِ على إرادةِ القولِ، أو مفعولُ ﴿دعَوا﴾ لأنَّ الدُّعاء مِن جملةِ القولِ.

وقولُه تعالَى: (﴿بغَيرِ الحَقِّ﴾) أي: مُبطِلِينَ فيه، وهو احتِرازٌ عن تخريبِ المسلمينَ ديارَ الكفَرةِ وإحراقِ زروعِهِم وقلعِ أشجارِهم؛ فإنَّها إفسادٌ بحقٍّ.

قولُه: (بالشِّركِ) تفسيرٌ للبغي بمعنى الإفسادِ، أو التَّقديرُ: يطلُبونَ الفسادَ.

قولُه: (لأَنَّ إثْمَه عَليهَا) عن ابنِ عبَّاسٍ[1]: لو بغَى جبلٌ على جبلٍ لَدُكَّ الباغِي.

قولُه: (هُو) إشارةٌ إلى أنَّ ﴿متاعُ﴾ خبرُ محذوفٍ تقديرُه: هو، أو ذلك، و﴿على أنفُسِكُم﴾ خبرُ ﴿بغيكم﴾.

قولُه: (تُمَتَّعُون) معلومٌ أو مجهولٌ.

قولُه: (وفِي قِرَاءَةٍ) لحفصٍ[2].

قولُه: (بنَصْبِ ﴿مَتَاع﴾) على أنَّه مصدرٌ مؤكِّدٌ.

قولُه: (صِفةُ) أي: حالُها العجيبةُ في سرعةِ تقضِّيهَا وذهابِ نعيمِها بعدَ إقبالِها واغترارِ النَّاسِ بها.

قولُه: (بِسَبَبِه) أي: اشتبكَ حتَّى خالطَ بعضُه بعضاً، وقد وقعَ في «الكشَّافِ»[3] هنا خطأٌ فاحشٌ حيثُ قال:

---

(١) رواه وكيع في «الزهد» (٤٢٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٥٨٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٢٢) وقد ورد مرفوعاً أيضاً، انظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ١٢٣).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٢٥)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٣٠).

(٣) لم أقف على كلامه هذا في تفسير هذه الآية في هذا الموضع (٢/ ٣٤٠).

وإنما جاء في موضعين: الأول «الكشاف» (٢/ ٧٢٥) عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه =

واشتبك بعضه ببعض، ﴿مِمَّا يأكُلُ النَّاسُ﴾ من البُرِّ والشعير وغيرهما ﴿والأنعامُ﴾ من الكلأ. ﴿حَتَّى إذا أخَذَتِ الأرضُ زُخرُفَها﴾: بهجتها من النبات، ﴿وازَّيَّنَتْ﴾ بالزهر ـ وأصله «تَزَيَّنَتْ»، أُبدلت التاء زايًا وأُدغمت في الزاي ـ ﴿وظَنَّ أهلُها أنَّهم قادِرُونَ علَيها﴾: مُتمكّنون من تحصيل ثمارها، ﴿أتاها أمرُنا﴾: قضاؤنا، أي: عذابُنا ﴿لَيلاً أو نَهارًا، فجَعَلْناها﴾ أي: زرعَها ﴿حَصِيدًا﴾ كالمحصود بالمَناجِل، ﴿كأنْ﴾ ـ مُخفّفةٌ ـ أي: كأنّها ﴿لَم تَغْنَ﴾:........

وكانَ حقُّ اللَّفظِ: فاختلطَ بنباتِ الأرضِ، ووجهُ صحَّتِهِ أنَّ كلَّ واحدٍ منهما موصُوفٌ بصفةِ صاحبِهِ، على أنَّ هذا التَّركيبَ أبلغُ؛ لأنَّه حينئذٍ مِن بابِ: عرضْتُ النَّاقةَ على الحوضِ. انتهى. وهو فاسدٌ من وجوهٍ:

أمَّا الأوَّل: فلأنَّ الباءَ هنا ليسَتْ صِلةً كما توهَّمَه؛ إذ المعنى: ليسَ على أنَّ الماءَ اختلطَ به النَّباتُ أو عكسُه؛ فإنَّ المطرَ سابقٌ وجودُه على تحقُّقِ النَّباتِ على ما أشارَ إليه فاءُ التَّعقيبيَّةِ أو التَّفريعيَّةِ في قولِه سبحانَه: ﴿إنَّما مثَلُ الحياةِ الدّنيا كماءٍ أنزلْناهُ مِنَ السَّماءِ فاختَلَطَ به نباتُ الأرْضِ﴾ فإذا كانَ الأمرُ كذلك فكيفَ يُتصوَّرُ اختلاطُهما؟ فالصَّوابُ أنَّ الباءَ للسَّببيَّةِ، وأنَّ المختلِطَ هو بعضُ نباتِ الأرضِ بالبعضِ، كما يُقال: اختلطَ القومُ.

وأمَّا ثانياً: فقولُه: «حقُّ اللَّفظِ»، باطلٌ، فإنَّ الاختلاطَ لغةً يقعُ على كلٍّ منهما على تقديرِ صحَّتِه.

وأمَّا ثالثاً: فقولُه: «إنَّه مِن بابِ القلْبِ» قلب التَّحقيق فإنَّ العرضَ عُرفاً وعادةً لا يكونُ إلَّا على ذي تمييزٍ في الجملةِ، فبهذِه القرينةِ يُعرَفُ أنَّ ذلك الكلامَ مقلوبٌ بخلافِ ما نحن فيه؛ فإنَّ لكلٍّ منَ الطَّرفَين قابليَّةَ الخلطِ كما بيَّنَّاه فاعلم، واللهُ أعلمُ.

قولُه: (بالزَّهْرِ) أي: بأصنافِ النَّباتِ وأشكالِها وألوانِها المختلفةِ، كعرُوسٍ أخذَتْ من ألوانِ الثِّيابِ والتَّزيُّنِ، فتزيَّنَتْ بها.

قولُه: (وأُدْغِمَتْ) واجتُلِبَتْ همزةُ الوصلِ.

قولُه: (ثِمَارِها) ومِن حصدِها ورفعِ غلَّتِها.

قولُه: (قَضَاؤُنا) ضربُ زرعِها بما يحتاجُه.

قولُه: (أَي: كَأَنَّها) أي: زرعَها، والمضافُ محذوفٌ في الموضِعَين للمُبالغةِ، وقُرِئَ[1]: (يَغْنَ) بالياءِ على الأصلِ.

= من السماء فاختلط به نبات الأرض...﴾ الآية [الكهف: ٤٥]، وتتمته في الموضع الثاني (٤/ ٣٠٥) عند قوله تعالى: ﴿ويوم يعرض الذين كفروا...﴾ الآية [الأحقاف: ٢٠].

(١) وهي قراءة شاذة، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٢٢٦) ونسبت لقتادة.

تكنْ ﴿بِالأمسِ. كَذلِكَ نُفَصِّلُ﴾: نُبيّنُ ﴿الآياتِ لِقَومٍ يَتفكَّرُونَ﴾.

٢٥ ـ ﴿واللهُ يَدعُو إلَى دارِ السَّلامِ﴾ أي: السلامة ـ وهي الجنّة ـ بالدعاء إلى الإيمان، ﴿ويَهدِي مَن يَشاءُ﴾ هِدايتَه ﴿إلَى صِراطٍ مُستَقِيمٍ﴾: دِين الإسلام. ٢٦ ـ ٢٧ ـ ﴿لِلَّذِينَ أحسَنُوا﴾ بالإيمان ﴿الحُسنَى﴾: الجنّةُ، ﴿وزِيادةٌ﴾ ـ هي النظر إليه تعالى كما في حديث مسلم ـ ﴿ولا يَرهَقُ﴾: يغشى ﴿وُجُوهَهُم قَترٌ﴾: سواد ﴿ولا ذِلّةٌ﴾: كآبة ـ ﴿أُولئِكَ أصحابُ الجَنّةِ، هُم فِيها خالِدُونَ ـ والَّذِينَ﴾: عطفٌ على «لِلّذينَ أحسَنُوا» أي: وللذين ﴿كَسَبُوا السَّيِّئاتِ﴾:.........................

وقولُه تعالى: (﴿بالأمْسِ﴾) أي: فيما قُبَيلَ الأمسِ، وهو مثَلٌ في الوقتِ القريبِ.

قولُه: (أي: السَّلامَةِ) من النَّقصِ والآفةِ، أو دارِ اللهِ، وتخصيصُ هذا الاسمِ أيضاً للتَّنبيهِ على ذلك، أو دارِ يسلِّمُ اللهُ والملائكةُ فيها على مَن يدخُلُها.

قولُه: (هِدَايَتَه) بالتَّوفيقِ.

قولُه: (دِينِ الإسلَامِ) الذي هو طريقُ ﴿دار السَّلام﴾.

قال تعالى: (﴿الحسنى﴾) أي: الجنَّةُ، أو المثوبةُ الحسنَى.

قولُه: (هيَ النَّظَرُ) وهو قولُ أبي بكرٍ الصِّديقِ وكثيرٍ مِن السَّلفِ، وعليه أحاديثُ كثيرةٌ أحدُها في «صحيحِ مسلمٍ وابنِ ماجه والتِّرمذيِّ، و«مسندِ» الإمامِ أحمدَ[1]، وعاندَ الزَّمخشريُّ وقال[2]: إنَّه مرقوعٌ ـ بالقافِ ـ؛ أي: مخترعٌ، والحالُ أنَّه مرفُوعٌ في كمالِ الصِّحةِ، والعجَبُ من البيضاويِّ[3] أنَّه ذكرَه بـ«قيل» في آخرِ الأقوالِ.

قولُه: (سَوادٌ) أو غبَرةٌ فيها سَوادٌ.

قولُه: (كآبَةٌ) أو هَوانٌ.

قولُه: (عَطفٌ عَلَى ﴿لِلَّذِينَ﴾) هذا على مذهبِ مَن يُجوِّزُ: في الدَّارِ زيدٌ والحُجرةِ عمرٌو، فلا يصحُّ أن يكونَ مختاراً مِن الأعاريبِ. قال أبو البقاءِ[4]: هو مبتدأٌ، والخبرُ ﴿ما لَهم مِنَ اللهِ﴾ أو ﴿أولئكَ﴾ ويكونُ ﴿جزاء سيئة بمثلها﴾ مُعترِضاً بينَ المبتدإِ وخبرِه، انتهى.

---

(١) رواه مسلم (١٨١)، والترمذي (٢٥٥٢)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١١٧٠)، وابن ماجه (١٨٧)، وأحمد في «مسنده» (١٨٩٣٥) من حديث صهيب بن سنان رضي الله عنه.

(٢) انظر: «الكشاف» (٢/ ٣٤٢).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١١٠).

(٤) انظر: «التبيان في إعراب القرآن» (٢/ ٦٧٢).

عملوا الشِّرك ﴿جَزاءُ سَيِّئةٍ بِمثلِها، وتَرهَقُهُم ذِلَّةٌ، مالَهُم مِنَ اللهِ مِن﴾: زائدةٌ ﴿عاصِمٍ﴾: مانع، ﴿كأنَّما أُغشِيَتْ﴾: أُلبِستْ ﴿وُجُوهُهُم قِطَعًا﴾، بفتحِ الطاء: جمع قطْعة، وإسكانِها، أي: جُزءًا ﴿مِنَ اللَّيلِ مُظلِمًا. أُولئِكَ أصحابُ النّارِ، هُم فِيها خالِدُونَ﴾.

٢٨ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿يَومَ نَحشُرُهُم﴾ أيِ: الخلقَ ﴿جَمِيعًا، ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أشرَكُوا: مَكانَكُم﴾ ـ نصبٌ بـ «الزموا» مُقدّرًا ـ ﴿أنتُم﴾: تأكيدٌ للضمير المُستتر في الفعل المُقدّر، ليُعطف عليه ﴿وشُرَكاؤُكُم﴾ أي: الأصنامُ، ﴿فزَيَّلْنا﴾: ميّزنا ﴿بَينَهُم﴾ وبين المُؤمنين كما في آيةِ «وامتازُوا اليومَ، أيُّها المُجرِمُونَ»، ﴿وقالَ﴾ لهم ﴿شُرَكاؤُهُم: ما كُنتُم إيّانا تَعبُدُونَ﴾. ما: نافية، وقُدّم المفعول للفاصلة.

٢٩ ـ ٣٠ ـ ﴿فكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَينَنا وبَينَكُم! إنْ﴾: مُخفّفةٌ أي: إنّا ﴿كُنّا عَن عِبادَتِكُم لَغافِلِينَ. هُنالِكَ﴾ أي: ذلك اليومَ ﴿تَبلُو﴾ ـ مِن البلوَى. وفي قراءة بتاءينِ من التلاوة ـ ﴿كُلُّ نَفسٍ ما أسلَفَتْ﴾: قدّمتْ من العمل، ﴿ورُدُّوا إلَى اللهِ مَولاهُمُ الحَقِّ﴾:..................

والاعتراضُ لا بدَّ أن يكونَ كلاماً تامًّا فـ﴿جزاء سيئة﴾ مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ؛ أي: فجزاءُ السَّيئةِ بمثلِها واقعٌ، أو تقديرُه: مقدَّرٌ بمثلِهَا، أو الباءُ زائدةٌ.

قولُه: (وإسْكَانِها) مكِّيٌّ وكِسائيٌّ[1].

قولُه: (أي: الخَلْقَ) يعني: الفريقَينِ.

قولُه: (المُسْتَتِر...) إلخ. وقال القاضِي[2]: للضَّميرِ المنتَقلِ إلى ﴿مكانكم﴾ من عاملِهِ.

قولُه: (﴿مَا﴾ نَافِيةٌ) فإنَّهم إنَّما عبدُوا في الحقيقةِ أهواءَهُم.

قولُه: (ذلكَ اليَومَ) أو في ذلكَ المقامِ.

قولُه: (منَ البَلْوَى) أي: تختبرُ ما قدَّمَتْ مِن عملٍ، فتُعاينُ نفعَه وضُرَّه.

قولُه: (وفي قِرَاءةٍ) لحمزةَ والكِسائيِّ[3].

قولُه: (منَ التِّلَاوَةِ) أي: تقرَأُ ذكرَ ما قدَّمَتْ، أو من التَّلو؛ أي: تتبعُ عملَه فيقودُها إلى الجنَّةِ أو النَّارِ.

قالَ تعَالى: (﴿إلى الله﴾) أي: إلى حُكمِه أو جزائِه.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٢٥)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٣٠).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١١١).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٢٥)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٣١).

الثابت الدائم، ﴿وضَلَّ﴾: غاب ﴿عَنهُم ما كانُوا يَفترُونَ﴾ عليه من الشُّركاء.

٣١ ـ ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿مَن يَرزُقُكُم مِنَ السَّماءِ﴾ بالمطر ﴿والأرضِ﴾ بالنبات؟ ﴿أَم مَن يَملِكُ السَّمعَ﴾ بمعنى الأسماع أي: خَلقَها ﴿والأبصارَ؟ ومَن يُخرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيْتِ، ويُخرِجُ المَيْتَ مِنَ الحَيِّ؟ ومَن يُدَبِّرُ الأمرَ﴾ بين الخلائق؟ ﴿فسَيَقُولُونَ﴾: هو ﴿اللهُ. فقُلْ﴾ لهم: ﴿أفلا تَتَّقُونَـ﴾ ـه فتؤمنون؟ ٣٢ ـ ﴿فذلِكُمُ﴾ الفاعل لهذه الأشياء ﴿اللهُ رَبُّكُمُ الحَقُّ﴾: الثابت. ﴿فماذا بَعدَ الحَقِّ إلاّ الضَّلالُ﴾؟ استفهام تقرير، أي: ليس بعده غيره. فمن أخطأ الحقّ ـ وهو عبادةُ الله ـ وقع في الضلال. ﴿فأَنَّى﴾: كيف ﴿تُصرَفُونَ﴾ عن الإيمان مع قِيام البرهان؟ ٣٣ ـ ﴿كَذلِكَ﴾: كما صُرف هؤلاء عن الإيمان ﴿حَقَّتْ كَلِمةُ رَبِّكَ علَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾: كفروا، وهي «لَأملأَنَّ جَهَنَّمَ» الآيَةَ أو هي ﴿أَنَّهُم لا يُؤمِنُونَ﴾.

٣٤ ـ ﴿قُلْ: هَل مِن شُرَكائكُم مَن يَبدَأُ الخَلقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ؟ قُلِ: اللهُ يَبدَأُ الخَلقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ. فأَنَّى تُؤفَكُونَ﴾: تُصرفون عن عِبادته مع قيام الدليل؟..............................

قولُه: (الثَّابتِ الدَّائمِ) لا ما اتَّخذوهُ مولًى.

قولُه: (علَيْه) أي: على اللهِ، و(مِن) بيانيَّةٌ لـ﴿ما﴾.

قولُه: (بالنَّبَاتِ) أو مِن أهلِها.

قولُه: (بمَعنَى الأسْمَاعِ) وُحِّدَ لأنَّه في الأصلِ مصدرٌ، وهو لا يُجمَعُ، ولأنَّ المسمُوعَ لا يتعدَّدُ في آنٍ واحدٍ.

قولُه: (خَلْقَها) أو حفظَها، وقدَّمَ السَّمعَ لشرفِ الدَّليلِ السَّمعيِّ.

قولُه: (بينَ الخَلائقِ) وهو تعميمٌ بعدَ تخصيصٍ.

قولُه: (هوَ ﴿اللّه﴾) أي: لا يقدرونَ على المكابرةِ والعنادِ في ذلك لفرْطِ وضوحِهِ.

قولُه: (استِفهَامُ تَقرِيرٍ) الصَّحيحُ أنَّه استفهامُ إنكارٍ؛ لقولِه: (أي: ليسَ بعدَهُ غيرُه) أي: ليسَ بعدَ الحقِّ غيرُ الضَّلالِ.

قولُه: (وهيَ ﴿لأملأنَّ﴾) فـ(أنَّهم) تعليلٌ لحقِّيَّتِها.

قولُه: (أَو هيَ) أي: الكلمةُ (﴿أنَّهم﴾) فـ﴿أنَّهم﴾ بدلٌ من الكلمةِ.

قالَ تعَالى: (﴿مَن يَبدَأُ الخلْقَ﴾) أي: يفعلُه ابتداءً، جعلَ الإعادة كالإبداءِ في الإلزامِ بها لظُهورِ برهانِها وإنْ لم يساعدوا عليهَا.

٣٥ ـ ﴿قُلْ: هَل مِن شُرَكائكم مَن يَهدِي إلَى الحَقِّ﴾ بنصب الحُجج وخلقِ الاهتداء؟ ﴿قُلِ: اللهُ يَهدِي لِلحَقِّ. أفمَن يَهدِي إلَى الحَقِّ﴾ ـ وهو الله ـ ﴿أحَقُّ أنْ يُتَّبَعَ أم مَنْ لا يَهِدِّي﴾: يهتدي ﴿إلاّ أن يُهدَى﴾ أحقُّ أن يُتبع؟ استفهام تقرير وتوبيخ. أي: الأولّ أحقّ. ﴿فما لَكُم؟ كَيفَ تَحكُمُونَ﴾ هذا الحُكمَ الفاسد من اتّباع ما لا يحقّ اتّباعه؟

٣٦ ـ ﴿وما يَتَّبِعُ أكثَرُهُم﴾ في عِبادة الأصنام ﴿إلاّ ظَنًّا﴾ حيثُ قلّدوا فيه آباءهم. ﴿إنَّ الظَّنَّ لا يُغني مِنَ الحَقِّ شَيئًا﴾ فيما المطلوبُ منه العِلمُ! ﴿إنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِما يَفعَلُونَ﴾ فيُجازيهم عليه.

٣٧ ـ ﴿وما كانَ هذا القُرآنُ أن يُفتَرَى﴾ أي: افتراءً ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: غيرِه، ﴿ولكِنْ﴾ أُنزِل ﴿تَصدِيقَ الَّذِي بَينَ يَدَيهِ﴾ من الكُتب، ﴿وتَفصِيلَ الكِتابِ﴾: تبيينَ ما كتبَ الله من الأحكام وغيرها، ﴿لا رَيبَ﴾: شكَّ ﴿فِيهِ، مِن رَبِّ العالَمِينَ﴾: متعلق بـ «تصديق» أو بـ «أُنزِل» المحذوف. وقُرئ برفع «تَصديقُ، وتَفصيلُ» بتقدير: هو.

قولُه: (وهُوَ اللهُ) في «الكشّافِ»[١]: يقال: هداهُ للحَقِّ وإلى الحقِّ، فجمعَ بينَ اللُّغتَين. انتهى.

يعني: تفنُّناً في العبارةِ، وفي البيضاويِّ[٢]: فرقٌ دقيقٌ بينهما.

قولُه: (﴿يَهدِي﴾) قرأَ شعبةُ بكسرِ الياءِ الأولى، والباقِي بالفتحِ، وكسرَ عاصمٌ الهاء، وفتحها الباقونَ، واختلسَ حرَكتَها قالونُ وأبو عمرٍو، والكلُّ بتشديدِ الدَّالِ إلّا حمزةَ والكِسائيَّ؛ فعندَهما على وزْنِ «يرمي» فهذه خمسُ قراءاتٍ[٣]، وتوجيهُ كلٍّ يُطلَبُ من محلِّه.

قولُه: (آبَاءَهُم) والمرادُ بالأكثرِ الجميعُ.

قولُه: (افتِرَاءً) الأولى مفترًى.

قولُه: (أُنزِلَ) أي: أنزلَهُ اللهُ، فنصبَ ﴿تصديقَ﴾ على أنّه علّةٌ لفعلٍ محذُوفٍ، والأظهرُ نصبُه بأنَّه خبرُ (كانَ) مقدّرٌ.

قولُه: (بـ﴿تَصْدِيق﴾) أو ﴿تفصيل﴾ ولا ريبَ فيه اعتراضٌ.

---

(١) انظر: «الكشاف» (٢/ ٣٤٦).

(٢) حيث قال: وهدى كما يعدى بإلى لتضمنه معنى الانتهاء يعدى باللام للدلالة على أن المنتهي غاية الهداية وأنها لم تتوجه نحوه على سبيل الاتفاق ولذلك عدى بها ما أسند إلى الله تعالى. انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١١٢).

(٣) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٢٢)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ١٠٥).

٣٨ ـ ﴿أَم﴾: بل أ ﴿يَقُولُونَ: افتراهُ﴾: اختلقه مُحمّد؟ ﴿قُلْ: فأتُوا بِسُورةٍ مِثلِهِ﴾ في الفصاحة والبلاغة على وجه الافتراء ـ فإنكم عربيّون فُصحاء مثلي ـ ﴿وادعُوا﴾ للإعانة عليه ﴿مَنِ استطَعتُم مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: غيرَه، ﴿إن كُنتُم صادِقِينَ﴾ في أنه افتراء. فلم يقدروا على ذلك. ٣٩ ـ قال تعالى: ﴿بَل كَذَّبُوا بِما لَم يُحِيطُوا بِعِلمِهِ﴾ أي: القُرآنِ ولم يتدبّروه، ﴿ولَمّا﴾: لم ﴿يأتِهِم تأوِيلُهُ﴾: عاقبةُ ما فيه من الوعيد. ﴿كَذلِكَ﴾ التكذيبِ ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبلِهِم﴾ رُسلَهم. ﴿فانظُرْ: كَيفَ كانَ عاقِبةُ الظّالِمِينَ﴾ بتكذيب الرسل أي: آخرُ أمرهم من الهلاك؟ فكذلك يَهلِك هؤلاء.

٤٠ ـ ﴿ومِنهُم﴾ أي: أهلِ مكّة ﴿مَن يُؤمِنُ بِهِ﴾ لعِلم الله ذلك منه، ﴿ومِنهُم مَن لا يُؤمِنُ بِهِ﴾ أبدًا ـ ﴿ورَبُّكَ أعلَمُ بِالمُفسِدِينَ﴾. تهديدٌ لهم. ٤١ ـ ﴿وإن كَذَّبُوكَ فقُلْ﴾ لهم: ﴿لِي عَمَلِي ولَكُم عَمَلُكُم﴾ أي: لُكلٍّ جزاءُ عمله. ﴿أنتُم بَرِيؤُونَ مِمّا أعمَلُ، وأنا بَرِيءٌ مِمّا تَعمَلُونَ﴾، وهذا منسوخ بآية السيف ـ ٤٢ ـ ﴿ومِنهُم مَن يَستَمِعُونَ إلَيكَ﴾ إذا قرأتَ القرآن. ﴿أفأنتَ تُسمِعُ الصُّمَّ﴾ ـ شَبَّههم بهم في عدم الانتفاع بما يُتلى عليهم ـ ﴿ولَو كانُوا﴾ مع الصَّمم ﴿لا يَعقِلُونَ﴾: يتدبّرون؟ ٤٣ ـ ﴿ومِنهُم مَن يَنظُرُ إلَيكَ.......

قولُه: (﴿يَقُولُون﴾) الظَّاهرُ: «أ﴿يقولونَ﴾» كما في نسخةٍ، ومعنى الهمزةِ فيه الإنكارُ.

قولُه: (عَلَيهِ) أي: الإتيانِ.

قولُه: (أَي: غَيرَه) فإنَّه وحدَه قادرٌ على ذلك.

قولُه: (ولَم يتدَبَّرُوهُ) عطفٌ على ﴿كذَّبوا﴾ أو ﴿لم يحيطوا﴾ أي: سارَعُوا إلى التَّكذيبِ بالقرآنِ أوَّلَ ما سمِعُوه.

قولُه: (أَهلِ مكَّةَ) أو مِن المكذِّبينَ.

قالَ تعَالى: (﴿وإن كذبوك﴾) أي: أصَرُّوا على تكذيبِكَ بعدَ إلزامِ الحُجَّةِ.

قولُه: (جَزَاءُ عَمَلِهِ) حقًّا كانَ أو باطلاً.

وقولُه: (﴿أنتم بريئونَ﴾) غيرُ مؤاخَذينَ.

قولُه: (وهَذَا منسُوخٌ) وفيه أنَّ هذا المعنَى لا نسخَ فيه، معَ أنَّ الأخبارَ لا تُنسَخُ. قال القاضِي[1]: ولِمَا فيه من إيهامِ الإعراضِ عنهُم وتخليةِ سبيلِهِم، قيل: إنَّه منسُوخٌ.

قالَ تعَالى: (﴿من ينظر إليك﴾) يُعاينونَ دلائلَ نبوَّتِكَ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١١٤).

أفأنتَ تَهدِي العُمْيَ، ولَو كانُوا لا يُبصِرُونَ﴾؟ شبّههم بهم في عدم الاهتداء. بل أعظَمُ «فإنّها لا تَعمَى الأبصارُ، ولكِنْ تَعمَى القُلُوبُ الّتِي في الصُّدُورِ».

٤٤ ـ ٤٥ ـ ﴿إنَّ اللهَ لا يَظلِمُ النّاسَ شَيئًا! ولكِنَّ النّاسَ أنفُسَهُم يَظلِمُونَ. ويَومَ يَحشُرُهُم كأنْ﴾ أي: كأنّهم ﴿لَم يَلبَثُوا﴾ في الدنيا أو القُبور ﴿إلاّ ساعةً مِنَ النَّهارِ﴾ لهول ما رأوا ـ وجملة التشبيه حال من الضمير ـ ﴿يَتَعارَفُونَ بَينَهُم﴾: يعرف بعضهم بعضًا إذا بُعثوا، ثم ينقطع التعارف لِشِدّة الأهوال. والجملة: حالٌ مقدرة، أو مُتعلَّقُ الظرف. ﴿قَد خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللهِ﴾: بالبعث، ﴿وما كانُوا مُهتَدِينَ﴾!

٤٦ ـ ﴿وإمّا﴾ ـ فيه إدغام نون «إن» الشرطيّة في «ما» المزيدةِ ـ ﴿نُرِيَنَّكَ بَعضَ الَّذِي نَعِدُهُم﴾ به من العذاب في حياتك ـ وجواب الشرط محذوف، أي: فذاك ـ ﴿أو نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل تعذيبهم ﴿فإلَينا مَرجِعُهُم، ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ﴾: مُطّلع ﴿علَى ما يَفعَلُونَ﴾ من تكذيبهم وكُفرهم، فيُعذّبهم أشدّ العذاب، ٤٧ ـ ﴿ولِكُلِّ أُمّةٍ﴾ من الأمم ﴿رَسُولٌ. فإذا جاءَ رَسُولُهُم﴾ إليهم فكذّبوه ﴿قُضِيَ بَينَهُم بِالقِسطِ﴾: بالعدل، فيُعذّبون ويُنجّى الرسول ومَن صدّقه، ﴿وهُم لا يُظلَمُونَ﴾ بتعذيبهم بغير جُرم. فكذلك نفعل بهؤلاء.

٤٨ ـ ﴿ويَقُولُونَ: مَتَى هذا الوَعدُ﴾ بالعذاب، ﴿إن كُنتُم صادِقِينَ﴾ فيه؟ ٤٩ ـ ﴿قُل: لا أملِكُ لِنَفسِي ضَرًّا﴾ أدفعه ﴿ولا نَفعًا﴾ أجلبه ﴿إلاّ ما شاءَ اللهُ﴾...

قولُه: (بَل أعظَمُ) يعني: بأنِ انضمَّ إلى عَدمِ البصَرِ عدمُ البصِيرَةِ.

قالَ تعالى: (﴿ويومَ يحشُرُهم﴾) حفصٌ بالياءِ التَّحتيَّةِ، والباقونَ بالنُّونِ[1].

قولُه: (حَالٌ) أي: في مَوقعِ الحالِ؛ أي: يحشُرُهم مُشبَّهين بمَن لم يلبَثُوا.

قولُه: (أَو مُتعلَّقُ الظَّرفِ) والتَّقديرُ: يتعارَفونَ يومَ يحشُرُهم.

قولُه: (فِي حَياتِكَ) متعلِّقٌ بـ﴿نرينَّكَ﴾ أي: بنُصرَتِكَ في حياتِكَ كما أراه يومَ بدرٍ.

قولُه: (قَبلَ تعذِيبِهم) الأظهرُ: قبلَ أن نُريَك.

قالَ تعالَى: (﴿فإلَيْنا مرجِعُهم﴾) فنُريكَه في الآخرةِ، وهو جوابُ ﴿نتوفينَّكَ﴾.

قولُه: (بالعَذابِ) استبعاداً له واستهزاءً.

قولُه: (فيهِ) أي: الوعدِ، خطابٌ منهم للنَّبيِّ والمؤمنينَ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٢٧)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٣٢).

أن يُقدّرني عليه. فكيف أملك لكم حلول العذاب؟ ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾: مُدّة معلومة لهلاكهم، ﴿إذا جاءَ أَجَلُهُم فلا يَستأخِرُونَ﴾: يتأخّرون عنه ﴿ساعةً ولا يَستقدِمُونَ﴾ يتقدّمون عليه.

٥٠ ـ ﴿قُلْ: أرَأيتُم﴾: أخبِروني، ﴿إن أتاكُم عَذابُهُ﴾ أي: اللهِ ﴿بَياتًا﴾: ليلاً ﴿أو نَهارًا، ماذا﴾: أيُّ شيء ﴿يَستَعجِلُ مِنهُ﴾ أي: العذابِ ﴿المُجرِمُونَ﴾: المُشركون؟ فيه وضع الظاهر موضع المُضمر، وجملة الاستفهام جواب الشرط، كقولك: إنْ أتيتُكَ ماذا تُعطيني؟ والمُراد به التهويل، أي: ما أعظَمَ ما استعجلوه!

٥١ ـ ﴿أثُمَّ إذا ما وَقَعَ﴾: حلّ بكم ﴿آمَنتُم بِهِ﴾ أي: اللهِ أو العذابِ عند نزوله؟ والهمزة لإنكار التأخير. فلا يُقبل منكم، ويقال لكم: ﴿آلآنَ﴾ تُؤمنون، ﴿وقَد كُنتُم بِهِ تَستَعجِلُونَ﴾ استهزاءً؟ ٥٢ ـ ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا: ذُوقُوا عَذابَ الخُلدِ﴾ أي: الذي تخلدون فيه. ﴿هَل﴾: ما ﴿تُجزَونَ إلاّ﴾ جزاءً ﴿بِما كُنتُم تَكسِبُونَ﴾؟

٥٣ ـ ﴿ويَستَنبِئُونَكَ﴾: يستخبرونك: ﴿أحَقٌّ هُوَ﴾ أي: ما وعدتنا به من العذاب والبعث؟ ﴿قُلْ: إيْ﴾: نَعَمْ ﴿ورَبِّيَ إنَّهُ لَحَقٌّ، وما أنتُم بِمُعجِزِينَ﴾: بفائتِينَ العذابَ، ٥٤ ـ ﴿ولَو أنَّ لِكُلِّ نَفسٍ ظَلَمَتْ﴾: كفرتْ ﴿ما في الأرضِ﴾ من الأموال ﴿لافتَدَتْ بِهِ﴾ من العذاب يوم القيامة، ﴿وأسَرُّوا النَّدامَةَ﴾ على ترك الإيمان ﴿لَمّا رأَوُا العَذابَ﴾ أي: أخفاها رؤساؤهم عن الضعفاء الذين أضلّوهم مخافةَ التعيير، ﴿وقُضِيَ بَينَهُم﴾: بين الخلائق ﴿بِالقِسطِ﴾: بالعدل، ﴿وهُم لا يُظلَمُونَ﴾ شيئًا!

قولُه: (أن يُقدِّرَني) الأظهرُ: أنْ أملِكَه، أو لكن ما شاءَ اللهُ مِن ذاك كائنٌ.

قولُه: (لَيلًا) أي: وقتَ بياتٍ واشتغالٍ بالنَّومِ.

قولُه: (أي: العَذابِ) أي: أيُّ شيءٍ من العذابِ يستعجِلُونَه وكلُّه مكروهٌ لا يلائمُ الاستِعجالَ.

قولُه: (المُضمَرِ) المخاطب للدِّلالةِ على أنّهم لجُرمِهِم ينبَغِي أن يفزَعوا مِن مجيءِ الوَعيدِ لا أن يستَعجِلوهُ.

قولُه: (والهَمزَةُ) أي: دخولُها على ﴿ثُمَّ﴾.

قولُه: (ويُقالُ) الأولى: وقيل؛ لعطْفِ ﴿ثمَّ قيلَ﴾ عليه.

قولُه: (كفَرَتْ) أو تعدَّتْ على الغيرِ.

قولُه: (مِن العَذابِ) أي: جعلَتْه فِديةً لها منه، مِن قَولِهم: افتدَاهُ بمعنى: فَدَاهُ[1].

---

(١) انظر: «لسان العرب» (١٥/ ١٤٩).

٥٥ ـ ﴿أَلا إنَّ لِلهِ ما في السَّماواتِ والأرضِ. ألا إنَّ وَعدَ اللهِ﴾ بالبعث والجزاء ﴿حَقٌّ﴾: ثابت، ﴿ولكِنَّ أكثَرَهُم﴾ أي: الناسِ ﴿لا يَعلَمُونَ﴾ ذلك. ٥٦ ـ ﴿هُوَ يُحيِي ويُمِيتُ، وإلَيهِ تُرجَعُونَ﴾ في الآخِرة فيُجازيكم بأعمالكم. ٥٧ ـ ﴿يا أيُّها النّاسُ﴾ أي: أهلَ مكّة، ﴿قَد جاءَتكُم مَوعِظَةٌ مِن رَبِّكُم﴾: كتابٌ فيه ما لَكم وعليكم ـ وهو القُرآن ـ ﴿وشِفاءٌ﴾: دواء ﴿لِما في الصُّدُورِ﴾ من العقائد الفاسدة والشكوك ﴿وهُدًى﴾ من الضلال ﴿ورَحمةٌ لِلمُؤمِنِينَ﴾ به.

٥٨ ـ ﴿قُلْ: بِفَضلِ اللهِ﴾: الإسلامِ ﴿وبِرَحمتِهِ﴾: القرآنِ، ﴿فبِذلِكَ﴾ الفضل والرحمة ﴿فلْيَفرَحُوا. هُوَ خَيرٌ مِمّا يَجمَعُونَ﴾ من الدنيا، بالياء والتاء.

٥٩ ـ ﴿قُلْ: أرَأَيتُم﴾: أخبروني ﴿ما أنزَلَ اللهُ﴾: خَلقَ ﴿لَكُم مِن رِزقٍ، فجَعَلتُم مِنهُ حَرامًا وحَلالاً﴾ كالبَحيرة والسائبة والميتة؟ ﴿قُلْ: آللهُ أذِنَ لَكُم﴾ في ذلك التحريم والتحليل؟ لا. ﴿أم﴾: بل ﴿علَى اللهِ تَفتَرُونَ﴾: تكذبون بنِسبة ذلك إليه؟ ٦٠ ـ ﴿وما ظَنُّ الَّذِينَ يَفتَرُونَ علَى اللهِ الكَذِبَ﴾ أي: أيُّ شيءٍ ظنُّهم به

قولُه: (ذلكَ) أي: ما ذُكِرَ مِن أنَّ وعدَ اللهِ حقٌّ.

قولُه: (أي: أهْلَ مكَّةَ) يحتملُ النِّدائيَّةَ والتَّفسيريَّةَ، والأولى العمومُ.

قولُه: (القُرآنِ) أو هما؛ القرآنُ والإسلامُ، وهو مختارُ صاحبِ «المدارِكِ»[1]، والباءُ متعلِّقةٌ بفعلٍ يفسِّرُه قولُه: ﴿فبذلِكَ فليفْرَحوا﴾ وفائدةُ التَّكريرِ التَّأكيدُ والبيانُ بعدَ الإجمالِ، وعن يعقوبَ[2]: (فلتفرحوا) بالتَّاءِ على الأصلِ المرفوضِ، وقد رُويَ مرفوعاً[3]، ويؤيِّدُه أنَّه قُرِئَ[4]: (فافْرَحُوا).

قولُه: (والتَّاءِ) الخطابُ، ابنُ عامرٍ[5].

قولُه: (خَلقَ) جعلَ الرِّزقَ مُنزَّلاً؛ لأنَّه مقدَّرٌ في السَّماءِ، محصَّلٌ بأسبابٍ منها.

قولُه: (بَل) يعني: الاستفهامُ للإنكارِ و﴿أم﴾ منقطعةٌ، ومعنى الهمزةِ فيها تقريرٌ لافترائِهم على اللهِ.

قولُه: (بِهِ) أي: باللهِ.

---

(١) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٢٨).

(٢) انظر: «المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢٣٤).

(٣) أي قوله: (فلتفرحوا) رواه أبو داود (٣٩٨١)، وأحمد في «مسنده» (٢١١٣٦)، والطيالسي في «مسنده» (٥٤٧) من حديث أُبي رضي الله عنه.

(٤) وهي قراءة شاذة، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٢٢٨) ونسبت لأبي رضي الله عنه.

(٥) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٢٧)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٣٤).

﴿يَومَ القِيامةِ﴾؟ أيحسبون أنه لا يُعاقبهم؟ لا. ﴿إنَّ اللهَ لَذُو فَضلٍ علَى النّاسِ﴾ بإمهالهم والإنعام عليهم، ﴿ولكِنَّ أكثرَهُم لا يَشكُرُونَ﴾.

٦١ ـ ﴿وما تَكُونُ﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿في شأنٍ﴾: أمر، ﴿وما تَتلُو مِنهُ﴾ أي: من الشأنِ أو اللهِ ﴿مِن قُرآنٍ﴾ أنزله عليك، ﴿ولا تَعمَلُونَ﴾ ـ خاطبَهُ وأُمّتَه ـ ﴿مِن عَمَلٍ، إلاّ كُنّا عَلَيكُم شُهُودًا﴾: رُقباءَ ﴿إذ تُفِيضُونَ﴾: تأخذون ﴿فِيهِ﴾ أي: العمل، ﴿وما يَعزُبُ﴾: يغيب ﴿عَن رَبِّكَ مِن مِثقالِ﴾: وزنِ ﴿ذَرّةٍ﴾: أصغرِ نملةٍ ﴿في الأرضِ ولا في السَّماءِ، ولا أصغَرَ مِن ذلِكَ ولا أكبَرَ إلاّ في كِتابٍ مُبِينٍ﴾: بيِّنٍ، هو اللوح المحفوظ.

٦٢ ـ ﴿ألا إنَّ أولِياءَ اللهِ لا خَوفٌ علَيهِم، ولا هُم يَحزَنُونَ﴾ في الآخِرة. ٦٣ ـ هم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وكانُوا يَتَّقُونَ﴾ اللهَ بامتثال أمره ونهيه، ٦٤ ـ ﴿لَهُمُ البُشرَى في الحَياةِ الدُّنيا﴾ ـ فُسّرتْ في حديث صحّحه الحاكم بالرؤيا الصالحة، ....

وقولُه تعَالى: (﴿يومَ القيامَةِ﴾) منصوبٌ بالظَّنِّ.

قولُه: (أي: منَ الشَّأنِ)[1] لأنَّ تلاوةَ القرآنِ مُعظَمُ شأنِ الرَّسولِ.

قولُه: (أنزلَهُ علَيكَ) فـ﴿من﴾ تبعيضيَّةٌ مفعولُ ﴿تتلوا﴾.

قولُه: (خَاطبَهُ وأمَّتَه) أي: تعميمٌ للخطابِ بعدَ تخصِيصِه بمَن هو رأسُهُم.

قولُه: (رُقَباءَ) مطَّلِعينَ.

قولُه: (يَغِيبُ) والكِسائيُّ بكسر الزَّاي[2].

قولُه: (أصْغَرِ نملَةٍ) أو هباءٍ.

قولُه: (بيِّنٍ) كلامٌ برأسِهِ مقرِّرٌ لِما قبلَه، و﴿لا﴾ نافيةٌ و﴿أصغر﴾ اسمُها، و﴿في كتاب﴾ خبرُها. وقرأَ حمزةُ بالرَّفعِ فيهما[3] على الابتداءِ والخبرِ، ومَن عطَفَ على لفظِ: ﴿مثقال ذرَّةٍ﴾ وجعلَ الفتحَ بدلَ الكسرِ لامتناعِ الصَّرفِ، أو على محلِّه مع الجارِّ على قراءةِ الرَّفعِ جعلَ الاستثناء منقطعاً.

قولُه: (هُم) أي: محلُّه الرَّفعُ على المدحِ.

---

(١) «وقوله تعالى: ﴿يوم القيامة﴾ منصوب بالظن. قولُه: أي من الشّأن»: ليست في (ص).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٢٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٣٤).

(٣) انظر المصادر السابقة.

يراها الرجل أو تُرى له ـ ﴿وفي الآخِرةِ﴾ بالجنّة والثواب. ﴿لا تَبديلَ لِكَلِماتِ اللهِ﴾: لا خُلفَ لمواعيده. ﴿ذلِكَ﴾ المذكور ﴿هُوَ الفَوزُ العَظِيمُ﴾.

٦٥ ـ ﴿ولا يَحزُنْكَ قَولُهُم﴾ لك: لستَ مُرسَلاً وغيرَه. ﴿إنَّ﴾ ـ استئناف ـ ﴿العِزّةَ﴾: القُوّة ﴿لِلهِ جَمِيعًا. هُوَ السَّمِيعُ﴾ للقول ﴿العَلِيمُ﴾ بالفعل، فيُجازيهم وينصرك. ٦٦ ـ ﴿ألا إنَّ لِلهِ مَن في السَّماواتِ ومَن في الأرضِ﴾ عبيدًا ومُلكًا وخلقًا، ﴿وما يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدعُونَ﴾: يعبدون ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: غيرَه أصنامًا ﴿شُرَكاءَ﴾ له، على الحقيقة. تعالى عن ذلك. ﴿إنْ﴾: ما ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ في ذلك ﴿إلاّ الظَّنَّ﴾، أي: ظنَّهم أنها آلهة تشفع لهم، ﴿وإنْ﴾: ما ﴿هُم إلاّ يَخرُصُونَ﴾: يكذبون في ذلك. ٦٧ ـ ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ لِتَسكُنُوا فِيهِ والنَّهارَ مُبصِرًا﴾. إسناد الإبصار إليه مجاز، لأنه مُبصَرٌ فيه. ﴿إنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ﴾: دلالاتٍ على وحدانيّته ـ تعالى ـ ﴿لِقَومٍ يَسمَعُونَ﴾ سماعَ تدبّر واتّعاظ.

٦٨ ـ ﴿قالُوا﴾ أي: اليهودُ والنصارى ومن زعم أنّ الملائكة بنات الله: ﴿اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا﴾. قال تعالى لهم: ﴿سُبحانَهُ﴾: تنزيهًا له عن الولد! ﴿هُوَ الغَنِيُّ﴾ عن كُلّ أحد، وإنّما يَطلب الولدَ مَن يحتاج إليه، ﴿لَهُ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ﴾ مُلكًا وخلقًا وعبيدًا. ﴿إنْ﴾: ما ﴿عِندَكُم مِن سُلطانٍ﴾: حُجّةٍ ﴿بِهذا﴾ الذي تقولونه. ﴿أتَقُولُونَ عَلَى اللهِ ما لا تَعلَمُونَ﴾؟ استفهام توبيخ..........

قولُه: (أَو تُرى لهُ) أو ما بشَّرَ به الملائكةُ عندَ النَّزعِ ﴿وفي الآخِرَةِ﴾ بتلقِّي الملائكةِ إيَّاهم مسلِّمين مبشِّرين بالفوزِ والكرامةِ.

قولُه: (المَذكُورُ) مِن كونِهم مبشَّرينَ في الدَّارَين.

قولُه: (وغَيرَه) والأحسنُ: فينا، أو فيكَ، أو في القرآنِ.

قولُه: (استِئنَافٌ) بمعنى التَّعليل وقُرِئَ بالفتحِ.

قال تعالى: (﴿اتخَذَ اللهُ ولداً﴾) أي: تبنَّاه.

قولُه: (تَنزِيهاً لهُ عَن الوَلَدِ) أو تنزياً له عن التَّبنِّي، فإنَّه لا يصلُحُ إلَّا ممَّن يتصوَّرُ له الولدُ، أو تعجُّباً مِن كلِمَتِهم الحمقاءِ.

قولُه: (عَن كُلِّ أحَدٍ) علَّةٌ لتنزُّهِه.

قولُه: (وإنَّمَا يطلُبُ) الأظهرُ: يتَّخذُ.

قولُه: (مُلكاً...) إلخ تقريرٌ لغِناهُ.

٦٩ ـ ﴿قُلْ: إنَّ الَّذِينَ يَفتَرُونَ علَى اللهِ الكَذِبَ﴾ بنِسبة الولد إليه ﴿لا يُفلِحُونَ﴾: لا يَسعدون.
٧٠ ـ لهم ﴿مَتاعٌ﴾ قليل ﴿في الدُّنيا﴾، يتمتّعون به مُدّة حياتهم، ﴿ثُمَّ إلَينا مَرجِعُهُم﴾ بالموت، ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ العَذابَ الشَّدِيدَ﴾ بعدَ الموت ﴿بِما كانُوا يَكفُرُونَ﴾.

٧١ ـ ﴿واتلُ﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿علَيهِم﴾ أي: كُفّارِ مكّةَ ﴿نَبأَ﴾: خبرَ ﴿نُوحٍ﴾، ويُبدل منه: ﴿إذْ قالَ لِقَومِهِ: يا قَومِ، إن كانَ كَبُرَ﴾: شقَّ ﴿علَيكمُ مَقامِي﴾: لُبثي فيكم، ﴿وتَذكِيرِي﴾: وعظي إيّاكم ﴿بِآياتِ اللهِ، فعلَى اللهِ تَوَكَّلتُ، فأجمِعُوا أمرَكُم﴾: اعزموا على أمرٍ تفعلونه بي ﴿وشُركاءَكُم﴾، الواو بمعنى: مع، ﴿ثُمَّ لا يَكُنْ أمرُكُم علَيكُم غُمّةً﴾: مستورًا، بل أظهروه وجاهروني به، ﴿ثُمَّ اقضُوا إلَيَّ﴾: أمضُوا فيَّ ما أردتموه، ﴿ولا تُنظِرُونِ﴾: تُمهلونِ..

قولُه: (بنسبةِ الولَدِ) والشَّريكِ.

قولُه: (لهُم) أشارَ إلى أنَّ ﴿متاع﴾ مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ.

قولُه: (خَبرَ ﴿نوح﴾) معَ قومِهِ.

قولُه: (شقَّ) وعظُمَ.

قولُه: (لُبْثِي) أي: كَوْني وإقامَتي بينكم مدَّةً مديدةً، أو نفسِي، أو قيامِي على الدَّعوةِ.

قولُه: (اعزِمُوا عَلى أمْرٍ) قالَ الكِسائيُّ: يقالُ: أجمعْتُ الأمرَ وعلى الأمرِ: إذا عزمْتَ عليه، والأمرُ مُجمَعٌ. كذا في «الصِّحاحِ»[1].

قولُه: (بِي) وفي نسخةٍ: «فيَّ» بتشديدِ الياءِ.

قولُه: (الواوُ بمَعنَى: مَع) وقيل: إنَّه منصُوبٌ بفعلٍ مُضمَرٍ تقديرُه: وادعُوا شُركاءَكم، وهي روايةٌ عن يعقوبَ[2]. قال في «الصِّحاحِ»[3] أي: وادعُوا شُركاءَكم؛ لأنَّه لا يقالُ: أجمعْتُ شركائي، إنَّما يقال: جمعْتُ، قال الشَّاعرُ[4]:

يَا لَيْتَ زَوجَكِ فِي الوَغَى ... مُتَقَلِّداً سَيْفاً ورُمْحاً

(١) انظر: «الصحاح» (٣/ ١١٩٩).

(٢) لم أجدها عن يعقوب هكذا، وجاء عنه أنه قرأ وحده (وشركاؤُكم) بضم الهمزة، انظر: «المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢٣٥).
وجاء في قراءة شاذة عن أُبي (فادعوا شركاءكم ثم أجمعوا أمركم) انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٢٢٨).

(٣) انظر: «الصحاح» (٣/ ١١٩٩).

(٤) قائله عبد الله بن الزبعري، انظر: «ديوانه» (ص: ٣٢).

فإني لست مُباليًا بكم، ٧٢ ـ ﴿فإن تَوَلَّيتُم﴾ عن تذكيري ﴿فما سألتُكُم مِن أجرٍ﴾: ثواب عليه، فتتولَّوا. ﴿إنْ﴾: ما ﴿أجرِيَ﴾ ثوابي ﴿إلاّ علَى اللهِ، وأُمِرتُ أن أكُونَ مِنَ المُسلِمِينَ﴾.

٧٣ ـ ﴿فكَذَّبُوهُ، فنَجَّيناهُ ومَن مَعَهُ في الفُلكِ﴾ السفينة، ﴿وجَعَلْناهُم﴾ أي: مَن معه ﴿خَلائفَ﴾ في الأرض، ﴿وأغرَقْنا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا﴾ بالطوفان. ﴿فانظُرْ: كَيفَ كانَ عاقِبةُ المُنذَرِينَ﴾ من إهلاكهم؟ فكذلك نفعل بمن كذَّبك.

٧٤ ـ ﴿ثُمَّ بَعَثْنا مِن بَعدِهِ﴾ أي: نُوحٍ ﴿رُسُلاً إلَى قَومِهِم﴾ كإبراهيمَ وهُودٍ وصالح، ﴿فجاؤُوهُم بِالبَيِّناتِ﴾: بالمُعجزات، ﴿فما كانُوا لِيُؤمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبلُ﴾ أي: قبلِ بعثِ الرُّسلِ إليهم. ﴿كَذلِكَ نَطبَعُ﴾: نَختِمُ ﴿علَى قُلُوبِ المُعتَدِينَ﴾، فلا تَقبل الإيمانَ كما طبعنا على قلوب أُولئك.

٧٥ ـ ٧٦ ـ ﴿ثُمَّ بَعَثْنا مِن بَعدِهِم مُوسَى وهارُونَ إلَى فِرعَونَ ومَلَئِهِ﴾: قومِه ﴿بِآياتِنا﴾ التسع، ﴿فاستَكبَرُوا﴾ عن الإيمان بها، ﴿وكانُوا قَومًا مُجرِمِينَ، فلَمّا جاءَهُمُ الحَقُّ مِن عِندِنا قالُوا: إنَّ هذا لَسِحرٌ مُبِينٌ﴾: بيِّنٌ ظاهر. ٧٧ ـ ﴿قالَ مُوسَى: أتَقُولُونَ لِلحَقِّ لَمّا جاءَكُم﴾: إنه لَسحر؟ ﴿أسِحرٌ هذا﴾، وقد أفلح من أتى به وأبطل سِحرَ السحَرة، ﴿ولا يُفلِحُ السّاحِرُونَ﴾؟ والاستفهام في الموضعين للإنكار.

٧٨ ـ ﴿قالُوا: أجِئتَنا لِتَلفِتَنا﴾: لتردّنا ﴿عَمّا وَجَدْنا علَيهِ آباءَنا، وتَكُونَ لَكُما الكِبرِياءُ﴾: المُلك ﴿في الأرضِ﴾ أرض مصر؟ ﴿وما نَحنُ لَكُما بِمُؤمِنِينَ﴾: مُصدّقين..........

أي: وحاملاً رمحاً؛ لأنَّ الرُّمح لا يُتقلَّدُ.

قولُه: (مُبَالياً) ثقةً باللهِ تعالى.

قولُه: (فتَوَلَّوا) بحذفِ التَّاءِ.

قولُه: (أي: قَبلِ بَعثِ الرُّسُلِ) والمعنى: فما استقامَ لهم أنْ يؤمنُوا لشدَّةِ شَكيمَتِهم في الكفرِ وخِذْلانِ اللهِ إيَّاهم بسببِ تعوُّدِهم تكذيبَ الحقِّ، وتمرُّنِهم عليهِ قبلَ بعثةِ الرُّسلِ.

قولُه: (نَختِمُ) وفي أمثالِ ذلكَ دليلٌ على أنَّ الأفعالَ واقعةٌ بقُدرَةِ اللهِ وكسبِ العبدِ.

قولُه: (بِهَا) أي: بالآياتِ، وفي نسخةٍ: «بهمَا» أي: بموسَى وهارونَ.

قولُه: (ظاهِرٌ) أنَّه سحرٌ.

قولُه: (إنَّه لَسِحرٌ) فحُذِفَ المحكيُّ للقولِ لِدلالةِ ما قبلَهُ عليه.

قولُه: (المُلْكُ) سُمِّيَ بها لاتِّصافِ الملوكِ بالكِبْرِ، أو التَّكبُّرُ على النَّاسِ باستتباعِهِم.

٧٩ ـ ﴿وقالَ فِرعَونُ: ائتُونِي بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ﴾: فائق في عِلم السِّحر.

٨٠ ـ ٨١ ـ ٨٢ ـ ﴿فلَمّا جاءَ السَّحرةُ قالَ لَهُم مُوسَى﴾، بعد ما قالوا له: «إمّا أن تُلقِيَ، وإمّا أن نَكُونَ نَحنُ المُلقِينَ»: ﴿ألقُوا ما أنتُم مُلقُونَ. فلَمّا ألقَوا﴾ حِبالهم وعِصيَّهم ﴿قالَ مُوسَى: ما﴾: استفهاميّة مبتدأ خبرُه: ﴿جِئتُم بِهِ؟ آلسِّحرُ﴾؟ بدل. وفي قراءة بهمزة واحدة إخبارٌ. فما: موصول مبتدأ. ﴿إنَّ اللهَ سَيُبطِلُهُ﴾: سيمحقه ـ ﴿إنَّ اللهَ لا يُصلِحُ عَمَلَ المُفسِدِينَ ـ ويُحِقُّ﴾: يُثبتُ ويُظهر ﴿اللهُ الحَقَّ بِكَلِماتِهِ﴾: بمواعيده، ﴿ولَو كَرِهَ المُجرِمُونَ﴾.

٨٣ ـ ﴿فما آمَنَ لِمُوسَى إلاّ ذُرِّيّةٌ﴾: طائفة ﴿مِن﴾ أولاد ﴿قَومِهِ﴾ أي: فرعونَ، ﴿علَى خَوفٍ مِن فِرعَونَ ومَلَئِهِم أن يَفتِنَهُم﴾: يصرفهم عن دِينه بتعذيبه. ﴿وإنَّ فِرعَونَ لَعالٍ﴾: مُتكبِّرٌ ﴿في الأرضِ﴾: أرض مصر، ﴿وإنَّهُ لَمِنَ المُسرِفِينَ﴾: المُتجاوزين الحدَّ بادّعاء الربوبيّة.

قولُه: (فائقٍ) وحمزةُ والكِسائيُّ: (سحّار)[1].

قولُه: (بدَلٌ) أي: مِن ﴿ما﴾.

قولُه: (وفي قراءةٍ) لغيرِ البصريِّ[2].

قولُه: (فـ﴿ما﴾ مَوصُولٌ) أي: الذي جئتُم به هو السِّحرُ، لا ما سمَّاه فرعونُ وقومُه سحراً.

قولُه: (سيَمْحَقُه) أو سيُظهِرُ بطلانَه.

قولُه: (بمَوَاعِيدِهِ) أو بأوامرِه وقضاياهُ.

قولُه: (أي: فِرعَونَ) والذُّرِّيةُ مؤمنُ آل فرعونَ، وامرأتُه آسيةُ، وخازنُه وزوجتُه وماشطتُه.

قولُه: (يَصرِفَهُم) وقولُه تعالى: (﴿على خَوفٍ﴾) أي: مع خوفٍ منهم، والضَّميرُ في ﴿ملئهم﴾ لفرعونَ وجمعِهِ على ما هو المعتادُ في أساليبِ العربِ في ضميرِ العُظَماءِ، أو للذُّرِّيةِ، أو للقومِ، وإفرادُ فرعَونَ بضميرِ ﴿أن يفتِنَهم﴾ للدِّلالةِ على أنَّ الخوفَ مِن الملأِ كان بسببِهِ.

قولُه: (مُتكبِّرٌ) أو غالبٌ.

قولُه: (الحَدَّ) في الكِبْرِ والعتُوِّ.

قولُه: (بادِّعَاءِ الرُّبُوبيَّةِ) واسترقاقِ أسباطِ الأنبياءِ.

---

(١) انظر: «حجة القراءات» (ص: ٣٣٥).

(٢) انظر المصدر السابق.

٨٤ ـ ٨٥ ـ ﴿وقالَ مُوسَى: يا قَومِ، إن كُنتُم آمَنتُم بِاللهِ فعَلَيهِ تَوَكَّلُوا، إن كُنتُم مُسلِمِينَ. فقالُوا: علَى اللهِ تَوَكَّلْنا. رَبَّنا، لا تَجعَلْنا فِتنةً لِلقَومِ الظّالِمِينَ﴾ أي: لا تُظهِرْهم علينا، فيظنّوا أنهم على الحقّ فيُفتَتَنوا بنا، ٨٦ ـ ﴿ونَجِّنا بِرَحمتِكَ مِنَ القَومِ الكافِرِينَ﴾.

٨٧ ـ ﴿وأَوحَينا إلَى مُوسَى وأخِيهِ أن تَبَوَّآ﴾: اتّخِذا ﴿لِقَومِكُما بِمِصرَ بُيُوتًا، واجعَلُوا بُيُوتَكُم قِبْلَةً﴾: مُصلًّى تُصلّون فيه لتأمنوا من الخوف ـ وكان فِرعَون منعهم من الصلاة ـ ﴿وأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾: أتمّوها، ﴿وبَشِّرِ المُؤمِنِينَ﴾ بالنصر والجنّة.

٨٨ ـ ﴿وقالَ مُوسَى: رَبَّنا، إنَّكَ آتَيتَ فِرعَونَ ومَلَأَهُ زِينةً وأموالاً في الحَياةِ الدُّنيا، رَبَّنا﴾ آتيتَهم ذلك ﴿لِيَضِلُّوا﴾ في عاقبته ﴿عَن سَبِيلِكَ﴾: دِينك. ﴿رَبَّنا، اطمِسْ علَى أموالِهِم﴾: امسَخْها، ﴿واشدُدْ علَى قُلُوبِهِم﴾: اطبعْ عليها واستَوثِقْ، ﴿فلا يُؤمِنُوا حَتَّى يَرَوُا العَذابَ الألِيمَ﴾: المُؤلم. دعا عليهم وأمَّنَ هارونُ على دعائه.

٨٩ ـ ﴿قالَ﴾ تعالى: ﴿قَد أُجِيبَتْ دَعوَتُكُما﴾ فمُسخَت أموالُهم حِجارةً، ولم يُؤمن فرعون حتّى أدركه الغرق. ﴿فاستَقِيما﴾ على الرسالة والدعوة إلى أن يأتيهم العذاب، ﴿ولا تَتَّبِعانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعلَمُونَ﴾ في استعجال قضائي. رُوي أنه مكث بعدها أربعين سنة.

وقولُه تعَالَى: (﴿فتنة﴾) أي: موضِعَ فتنةٍ.

قولُه: (فيُفتَتَنوا بنَا) أو لا تسلِّطْهم علينَا فيفتِنُونا.

قولُه: (مُصلًّى) أي: اجعَلوا أنتما وقومُكما تلكَ البيوتَ ذواتَ قِبلةٍ؛ أي: مُصلًّى، وقيل: مساجدَ متوجهةً نحوَ القِبلةِ؛ يعني: الكعبةَ، وكان موسى يصلِّي إليها.

قولُه: (أتِمُّوهَا) أو أقيمُوها فيها.

قولُه: (بالنَّصْرِ) في الدُّنيا (والجنَّةِ) في العُقبى.

قالَ تعالى: (﴿زينة﴾) أي: ما يُتزيَّنُ به مِن اللِّباسِ والمراكبِ ونحوِهما.

وقولُه: (﴿أموالاً﴾) يعني: أنواعاً مِن المالِ.

قولُه: (فِي عاقِبَتِه) إشارةٌ إلى أنَّ اللّامَ للعاقبَةِ، وهي متعلِّقةٌ بـ﴿آتيت﴾ وقرأَ الكوفيُّونَ بضمِّ الياءِ[1].

قولُه: (امسَخْهَا) أو أهلِكْها، والطَّمسُ المحوُ.

---

(١) انظر: «حجة القراءات» (ص: ٣٣٥).

٩٠ ـ ﴿وجاوَزْنا بِبَنِي إسرائيلَ البَحرَ، فأتبَعَهُم﴾: لَحِقَهم ﴿فِرعَونُ وجُنودُهُ بَغْيًا وعَدْوًا﴾: مفعول له. ﴿حَتَّى إذا أدرَكَهُ الغَرَقُ قالَ: آمَنتُ أنَّهُ﴾ أي: بأنه ـ وفي قراءة بالكسر استئنافًا ـ ﴿لا إلـٰـهَ إلاّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إسرائيلَ، وأنا مِنَ المُسلِمِينَ﴾. كرّر ليُقبل منه، فلم يُقبل.

ودسّ جبريل في فِيه من حَمْأة البحر مخافةَ أن تناله الرحمة، وقال له: ٩١ ـ ﴿آلآنَ﴾ تُؤمن، ﴿وقَد عَصَيتَ قَبلُ، وكُنتَ مِنَ المُفسِدِينَ﴾ بضلالك وإضلالك عن الإيمان؟ ٩٢ ـ ﴿فاليَومَ نُنَجِّيكَ﴾: نُخرجك من البحر، ﴿بِبَدَنِكَ﴾: جسدِك الذي لا روح فيه، ﴿لِتَكُونَ لِمَن خَلْفَكَ﴾: بعدَك ﴿آيَةً﴾: عِبرة، فيعرفوا عُبوديّتك ولا يُقدموا على مِثل فِعلك...

قولُه: (لَحِقَهُم) وأدركَهُم، يقال: تبعتُه حتَّى أَتْبعتُه. عن ابنِ مسعودٍ مرفوعاً: «ألَا أعلِّمُكم الكلماتِ التي تكلَّمَ بها موسَى حينَ جاوزَ البحرَ بِبَنِي إسرائيلَ؟» فقلنا: بلى يا رسُولَ اللهِ، قال: «قولوا: اللَّهمَّ لكَ الحمدُ وإليك المشْتكَى، وأنتَ المستعَانُ، ولا حَولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ العليِّ العظيمِ». رواه الطَّبرانيُّ في «معجمه الصَّغيرِ»[1] بإسنادٍ جيِّدٍ.

قولُه: (مَفعُولٌ لهُ) أو حالٌ؛ أي: باغينَ وعادِينَ.

قولُه: (وفِي قِراءَةٍ) لحمزةَ والكِسائيِّ[2].

قولُه: (استِئنَافاً) بدلاً وتفسيراً، أو على إضمَارِ القَولِ.

قولُه: (كرَّر) أي: نكبَ عن الإيمانِ أوانَ القَبولِ، وبالغَ فيه حينَ لا يُقبَلُ.

قولُه: (تُؤمِن) أو أتؤمِنُ الآنَ وقد أيسْتَ من نفسِكَ ولم يبقَ لكَ اختيارٌ.

قولُه: (نُخرجُك) أي: نُلقيكَ في نَجوةٍ مِن الأرضِ؛ أي: فضاءٍ أو مكانٍ مرتفعٍ[3]؛ ليرَوا حالَكَ ومآلَكَ، أو نبعدُكَ ممَّا وقعَ فيه قومُكَ من قعرِ البحرِ ونجعلُكَ طافياً.

قولُه: (جسَدِكَ) في موضعِ الحالِ؛ أي: عارياً عن الرُّوحِ، أو عُرياناً، أو كاملاً سويًّا، أو بدرعِكَ؛ وكانت له درعٌ مِن ذهبٍ يُعرَفُ بها.

قولُه: (بعدَكَ) من القرونِ إذا سمِعُوا مآلَ أمرِكَ ممَّنَ شاهدَكَ.

قولُه: (عِبرَةً) ونكالاً عن الطُّغيانِ.

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الصغير» (٣٣٩).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٣٠)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٣٦).

(٣) «أو مكان مرتفع»: ليست في (ص).

وعن ابن عبّاس أنّ بعض بني إسرائيل شكّوا في موته، فأُخرج لهم ليَروه. ﴿وإنَّ كَثِيرًا مِنَ النّاسِ﴾ أي: أهلِ مكّة ﴿عَن آياتِنا لَغافِلُونَ﴾: لا يعتبرون بها.

٩٣ ـ ﴿ولَقَد بَوَّأْنا﴾: أنزلْنا ﴿بَنِي إسرائيلَ مُبَوَّأَ صِدقٍ﴾: منزلَ كرامةٍ ـ وهو الشام ومصر ـ ﴿ورَزَقْناهُم مِنَ الطَّيِّباتِ، فما اختَلَفُوا﴾ بأن آمن بعض وكفر بعض ﴿حَتَّى جاءَهُمُ العِلمُ. إنَّ رَبَّكَ يَقضِي بَينَهُم يَومَ القِيامةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَختَلِفُونَ﴾ من أمر الدِّين بإنجاء المُؤمنين وتعذيب الكافرين.

٩٤ ـ ﴿فإن كُنتَ﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿في شَكٍّ مِمّا أنزَلْنا إلَيكَ﴾ من القَصَص، فَرْضًا، ﴿فاسألِ الَّذِينَ يَقرَؤُونَ الكِتابَ﴾: التوراة ﴿مِن قَبلِكَ﴾ ـ فإنه ثابت عندهم ـ يخبروك بصدقه. قال ﷺ: «لا أشُكُّ ولا أسألُ». ﴿لَقَد جاءَكَ الحَقُّ مِن رَبِّكَ. فلا تَكُونَنَّ مِنَ المُمتَرِينَ﴾: الشاكّين فيه، ٩٥ ـ ﴿ولا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ، فتَكُونَ مِنَ الخاسِرِينَ﴾.

٩٦ ـ ٩٧ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ﴾: وجبتْ ﴿عَلَيهِم كَلِمةُ رَبِّكَ﴾ بالعذاب ﴿لا يُؤمِنُونَ، ولَو جاءَتْهُم كُلُّ آيةٍ، حَتَّى يَرَوُا العَذابَ الأليمَ﴾ فلا ينفعهم حينئذ. ٩٨ ـ ﴿فلَولا﴾: فهلاّ ﴿كانَت قَريةٌ﴾، أريد أهلُها،..

قولُه: (ليَرَوهُ) فعلى هذا معنى ﴿خلفَكَ﴾ وراءكَ علامةً.

قولُه: (وكَفَرَ بَعضٌ) أي: في أمرِ دينِهم إلّا مِن بعدِ ما قَرَؤوا التَّوراةَ وعلِمُوا أحكامَها، أو في أمرِ محمَّدٍ ﷺ، إلّا مِن بعدِ ما علمُوا صدْقَه بنُعوتِه وتظاهُرِ معجزاتِه.

قولُه: (يُخبِرُوك) والمرادُ تحقيقُ ذلك وتهييجُ الرَّسولِ وزيادةُ تثبيتِه لا إمكانُ وقوعِ الشَّكِّ له، ولذلك قال ﷺ: «لا أشُكُّ ولا أسأَلُ»(١) وقيل: الخطابُ للنَّبيِّ والمرادُ أمَّتُه، أو لكلِّ مَن يسمَعُ.

قولُه: (فيهِ) أي: فيما أنزلنا إليكَ.

قولُه: (بالعَذَابِ) أو بالموتِ على الكفرِ.

قولُه: (حِينَئذٍ) كما لم ينفَعْ فرعونَ.

قولُه: (فهلَّا) للتَّنديمِ؛ لأنَّها دخلَتْ على المضِيِّ، كذا قالَه الفاضِلُ.

قولُه: (أُرِيدَ أهلُهَا) أي: قريةٌ مِن القُرى التي أهلكْناها.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١١٧٣)، والطبري في «تفسيره» (١٧٨٩٤) عن قتادة بلاغاً، وقال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ١٤٠): هو معضل.

﴿آمَنَت﴾ قبل نُزول العذاب بها، ﴿فنَفَعَها إيمانُها، إلاّ﴾ لكنّ ﴿قَومَ يُونُسَ، لَمّا آمَنُوا﴾ عِند رؤية أمارة العذاب ولم يُؤخِّروا إلى حُلوله ﴿كَشَفْنا عَنهُم عَذابَ الخِزيِ في الحَياةِ الدُّنيا، ومَتَّعْناهُم إلَى حِينٍ﴾: انقضاءِ آجالهم.

٩٩ ـ ﴿ولَو شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن في الأرضِ كُلُّهُم جَمِيعًا ـ أفأنتَ تُكرِهُ النّاسَ﴾ بما لم يشأه الله منهم، ﴿حَتّى يَكُونُوا مُؤمِنِينَ﴾؟ لا ـ ١٠٠ ـ ﴿وما كانَ لِنَفسٍ أن تُؤمِنَ إلاّ بِإذنِ اللهِ﴾: بإرادته، ﴿ويَجعَلُ الرِّجسَ﴾: العذاب ﴿علَى الَّذِينَ لا يَعقِلُونَ﴾: يتدبّرون آياتِ الله.

١٠١ ـ ﴿قُلِ﴾ لكفّار مكّة: ﴿انظُرُوا ماذا﴾ أيِ: الذي ﴿في السَّماواتِ والأرضِ﴾ من الآيات الدالّة على وحدانيّة الله تعالى. ﴿وما تُغني الآياتُ والنُّذُرُ﴾: جمع نذير، أي: الرُّسلُ، ﴿عَن قَومٍ لا يُؤمِنُونَ﴾ في عِلم الله، أي: ما تَنفعهم. ١٠٢ ـ ١٠٣ ـ ﴿فهَل﴾: فما ﴿يَنتَظِرُونَ﴾ بتكذيبك ﴿إلاّ مِثلَ أيّامِ الَّذِينَ خَلَوا مِن قَبلِهِم﴾ من الأُمم، أي: مِثلَ وقائعهم من العذاب؟ ـ ﴿قُلْ: فانتَظِرُوا﴾ ذلك. ﴿إنِّي مَعَكُم مِنَ المُنتَظِرِينَ ـ ثُمَّ نُنَجِّي﴾ ـ المضارع لحكاية الحال الماضية ـ ﴿رُسُلَنا والَّذِينَ آمَنُوا﴾ من العذاب.

قولُه: (قبلَ نُزُولِ العَذَابِ) ولم تؤخِّرِ الإيمانَ إليه كما أخَّرَ فرعونُ.

وقولُه تعالى: (﴿فنَفعَها إيمانُها﴾) بأنْ يقبلَه اللهُ منها، ويكشفَ العذابَ عنها.

قولُه: (لكِنْ ﴿قَوْمَ يُوْنُسَ﴾) هم أهلُ قريةِ نينَوَى بشاطئِ دجلةَ مِن بلادِ الموصلِ.

قولُه: (العَذابِ) أو الخِذْلانِ؛ فإنَّه سببُه، وقُرِئَ بالزَّاي[1]، وقرأ أبو بكرٍ: (ونجعلُ) بالنُّونِ[2].

قولُه: (أي: الَّذِي) يعني: أنَّ ﴿ماذا﴾ كلَّه موصُولٌ بمعنى الَّذِي، وهو أحدُ معانِيهِ على مَا في «المغني»[3].

قولُه: (أي: مَا تنفَعُهُم) فـ﴿ما﴾ نافيةٌ، وقيل: استفهاميَّةٌ في موضعِ النَّصبِ.

قولُه: (مِثلَ وَقائعِهِم) مِن قولِهم: أيَّامُ العربِ لوقائعِها.

قولُه: (ذلكَ) أي: مثلَ وقائعِهِم، أو هلاكِي.

قولُه: (المَاضِيَةِ) عطفٌ على محذوفٍ دلَّ عليهِ ﴿إلَّا مثلَ أيَّامِ الذينَ خلَوا﴾[يونس: ١٠٢] كأنَّه قيل: نُهلِكُ الأمَمَ.

---

(١) أي: (الرجز) وهي قراءة شاذة، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٢٣٠) ونسبت للأعمش.

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٣٠).

(٣) انظر: «مغني اللبيب» (ص: ٣٩٥).

﴿كَذَلِكَ﴾ الإنجاءِ ﴿حَقًّا عَلَينا نُنجِي المُؤمِنِينَ﴾: النبيَّ وأصحابه حين تعذيب المُشركين.

١٠٤ ـ ١٠٥ ـ ١٠٦ ـ ﴿قُلْ: يا أيُّها النّاسُ﴾ أي أهلَ مكّةَ، ﴿إن كُنتُم في شَكٍّ مِن دِيني﴾ أنّه حقّ ﴿فلا أعبُدُ الَّذِينَ تَعبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: غيرَه ـ وهو الأصنام ـ لشكّكُم فيه، ﴿ولكِن أعبُدُ اللهَ الَّذِي يَتَوَفّاكُم﴾ يَقبِضُ أرواحكم، ﴿وأُمِرتُ أن﴾ أي: بأن ﴿أكُونَ مِنَ المُؤمِنِينَ، و﴾ قيل لي: ﴿أن أقِمْ وَجهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾: مائلاً إليه، ﴿ولا تَكُونَنَّ مِنَ المُشرِكِينَ، ولا تَدْعُ﴾: تعبدْ ﴿مِن دُونِ اللهِ ما لا يَنفَعُكَ﴾ إن عبدتَه، ﴿ولا يَضُرُّكَ﴾ إن لم تعبده. ﴿فإن فَعَلتَ﴾ ذلك، فَرْضًا، ﴿فإنَّكَ إذًا مِنَ الظّالِمِينَ﴾.

١٠٧ ـ ﴿وإن يَمسَسْكَ﴾: يُصِبْك ﴿اللهُ بِضُرٍّ﴾ كفقر ومرض ﴿فلا كاشِفَ﴾: رافعَ ﴿لَهُ إلاّ هُوَ، وإن يُرِدْكَ بِخَيرٍ فلا رادَّ﴾: دافعَ ﴿لِفَضلِهِ﴾ الذي أرادك به. ﴿يُصِيبُ بِهِ﴾ أي: بالخير ﴿مَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ. وهُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

قولُه: (الإِنجَاءِ) أو إنجاءً كذلك. و﴿حقاً علينا﴾ اعتراضٌ، ونصبُه بفعلٍ مقدَّرٍ، و﴿نُنجِ﴾ بالتَّخفيفِ قراءةُ حفصٍ والكِسائيِّ[1]، والرَّسمُ بحذفِ الياءِ.

قولُه: (لشكِّكُم فيهِ) أي: في دِيني؛ يعني: فهذا خُلاصَةُ دِيني اعتقاداً وعملاً.

قولُه: (يَقبِضُ) خُصَّ بالذِّكرِ للتَّهديدِ.

قولُه: (بِأَنْ) حذفُ الجارِّ مِن ﴿أن﴾ يجوزُ أن يكونَ من المطَّرِدِ مع «أنْ» و«أنَّ» وأن يكونَ من غيرِ المطَّرِدِ؛ كقولك:

أمرتُكَ الخيرَ فافعلْ ما أُمِرْتَ بهِ[2]

قولُه: (﴿و﴾ قِيلَ لِي) في «المدارك»[3]: وأُوحيَ إليَّ. وهو الظَّاهرُ، فتكونُ ﴿أن﴾ مفسِّرةً.

قولُه: (إلَيهِ) أي: إلى الدِّينِ الحقِّ عن سائرِ الأديانِ، حالٌ مِن الدِّينِ، أو الوجهِ، أو مِن ضميرِ ﴿أقم﴾.

قالَ تعَالى: (﴿إلَّا هو﴾) أي: إلَّا اللهُ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٣٠)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٣٧).

(٢) شطر بيت تتمته:

فقد تركتك ذا مالٍ وذا نسبِ

لعمرو بن معديكرب الزبيري «الكتاب» لسيبويه (١/ ٣٧).

(٣) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٤٤).

١٠٨ ـ ﴿قُلْ: يا أيُّها النّاسُ﴾ أي أهلَ مكّة، ﴿قد جاءَكُمُ الحَقُّ مِن رَبِّكُم. فمَنِ اهتَدَى فإنَّما يَهتَدِي لِنَفسِهِ﴾ لأنّ ثواب اهتدائه له، ﴿ومَن ضَلَّ فإنَّما يَضِلُّ عَلَيها﴾ لأنّ وبال ضلاله عليها، ﴿وما أنا عَلَيكُم بِوَكِيلٍ﴾ فأُجبرَكم على الهُدى. ١٠٩ ـ ﴿واتَّبِعْ ما يُوحَى إلَيكَ، واصبِرْ﴾ على الدعوة وأذاهم ﴿حَتَّى يَحكُمَ اللهُ﴾ فيهم بأمر. ﴿وهُوَ خَيرُ الحاكِمِينَ﴾: أعدَلُهم. وقد صبر حتّى حُكم على المشركينَ بالقِتال، وأهلِ الكِتاب بالجِزية.

قالَ تعَالى: (﴿الحقُّ﴾) رسولُه، أو القرآنُ، ولم يبقَ لكُم عُذرٌ.

قولُه: (فأُجبِرَكُم) أي: ما أنا بموكولٍ إليَّ أمرُكم، وإنَّما أنا بشيرٌ ونذيرٌ.

قولُه: (بأَمْرِهِ) بالنَّصرِ أو بالقتَالِ، والله تعالى أعلمُ.

***

سورة يونس

مكّيةٌ على المشهور، واستثنى منها بعضُهم ثلاثَ آيات: (فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ) (أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ) (وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ) قال: إنَّها نَزَلَت في المدينة[1].

وحَكَى ابنُ الفرس والسَّخَاويُّ أن مِن أوَّلها إلى رأس أربعين آيةً مكيٌّ، والباقي مدني[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما روايتان؛ فأخرج ابنُ مردويه من طريق العوفيِّ عنه، ومِن طريق ابنِ جريج عن عطاء عنه أنَّها مكيةٌ، وأخرجَ من طريق عثمانَ بن عطاء عن أبيه عنه أنَّها مدنية[3]. والمعوَّلُ عليه عند الجمهور الرواية الأولى.

وآياتها مئةٌ وتسعٌ عند الجميع غيرَ الشاميِّ فإنَّها عنده مئة وعشرُ آيات.

ووجْهُ مناسَبتها لسورة براءة أنَّ الأولى خُتِمَت بذكر الرسول ﷺ وهذه ابتُدئت به. وأيضاً أنَّ في الأولى بياناً لِمَا يقولُه المنافقون عند نزول سورةٍ من القرآن، وفي هذه بيانٌ لِمَا يقوله الكفارُ في القرآن، حيث قال سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨] الآية، وقال جلَّ وعلا: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥].

---

(١) كذا ذكر المصنف هذه الآيات الثلاث من سورة هود في هذا الموضع، وهو وهم منه رحمه الله، وينظر الإتقان للسيوطي ١/ ٤٥. وقد استثني من هذه السورة ثلاث آيات أيضاً، وهي قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ إلى آخرهن، ينظر النكت والعيون ٢/ ٤٢٠، وتفسير القرطبي ١٠/ ٤٤٥، والبحر ٥/ ٢٢١. وقال السيوطي في الإتقان ١/ ٤٤: استثني منها: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ الآيتين [٩٤-٩٥] وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ الآية [٤٠].

(٢) جمال القراء للسخاوي ١/ ١٢٢، ونقله المصنف عنه وعن ابن الفرس بواسطة السيوطي في الإتقان ١/ ٤٥.

(٣) الإتقان ١/ ٣٥-٣٦.

وأيضاً في الأولى ذمُّ المنافقين بعدم التوبة والتذكُّرِ إذا أصابهم البلاءُ في قوله سبحانه: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦] على أحد الأقوال، وفي هذه ذمٌّ لمن يُصيبه البلاء فيَرْعَوي ثمَّ يعودُ، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ وفي قوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [يونس: ٢٢] إلى أنْ قال سبحانه: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٣].

وأيضاً في الأولى براءةُ الرسولِ ﷺ من المشركين مع الأمرِ بقتالهم على أتمِّ وجهٍ، وفي هذه براءتُه ﷺ من عملهم، لكنْ من دون أمرٍ بقتال، بل أُمِرَ فيها عليه الصلاة والسلام أنْ يُظهر البراءة فيها على وجهٍ يُشعر بالإعراض وتَخْليةِ السبيل كما قيل، على ضدِّ ما في الأولى، وهذا نوعٌ من المناسبة أيضاً، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]. إلى غير ذلك.

والعجبُ من الجلال السيوطي عليه الرحمة كيف لَم يَلُحْ له في «تناسق الدرر» وجْهُ المناسبة بين السورتَين وذكر وجْهَ المناسبة بين هذه السورة وسورةِ «الأعراف»[١]، وقد يُوجد في الأسقاط ما لا يوجد في الأسفاط.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر﴾ بتفخيم الراء المفتوحةِ وهو الأصلُ، وأمال أبو عمرو وبعضُ القرَّاء[٢] إجراءً لألف الراء مجرَى الألف المنقلبة عن الياء، فإنَّهم يُميلونها تنبيهاً على أصلها، وفي الإمالةِ هنا دفعُ توهُّمِ أنَّ «ر»[٣] حرف كـ: ما ولا، فقد صرَّحوا أنَّ

(١) تناسق الدرر ص٥٩.

(٢) وهم ابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي وخلف. التيسير ص١٢٠، والنشر ٢/ ٦٦.

(٣) في الأصل: را.

الحروف يمتنعُ فيها الإمالة. وقرأ ورش بَيْنَ بَيْن[1].

والمراد من «الر» على ما رَوى جماعةٌ عن ابنِ عباس ﵄: أنا الله أرى[2]. وفي روايةٍ أُخرى: أنَّها بعضُ «الرحمن»، وتمامُه: (حمٓ) (نٓ)[3].

وعن قتادة أنَّها بعضُ الراحم، وهو من أسماء القرآن.

وقيل: هي أسماءٌ للأحرف المعلومة من حروف التهجِّي، أُتي بها مسرودةً على نمط التَّعْدِيد بطريق التحدِّي، وعليه فلا محلَّ لها من الإعراب، والكلامُ فيها وفي نظائرها شهيرٌ.

والأكثرون على أنَّها اسمٌ للسورة، فمحلُّها الرفعُ على أنَّها خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ، أي: هذه السورةُ مسماةٌ بكذا، وهو أظهرُ من الرفع على الابتداء؛ لعدمِ سَبْقِ العلم بالتسمية بعد، فحقُّها الإخبارُ بها لا جعلُها عنوانَ الموضوع لتوقُّفِهِ على عِلْمِ المخاطَبِ بالانتساب، والإشارةُ إليها قبل جريان ذِكْرِها لصَيْرورَتِها في حُكْمِ الحاضر لاعتبارِ كونها على جناح الذكر، كما يقال في الصكوك: هذا ما اشترى فلانٌ، وجوَّز النصبُ بتقدير فعلٍ لائقٍ بالمقام كـ : اذكر، واقرأ.

وكلمةُ ﴿تِلْكَ﴾ إشارةٌ إليها:

أمَّا على تقديرِ كون «الر» مسروداً على نَمَط التعديد، فقد نُزِّل حضورُ مادتها منزلةَ ذكرها، فأُشير إليها، كأنَّه قيل: هذه الكلماتُ المؤلفةُ من جنس هذه الحروفِ المبسوطة.. إلخ.

وأمَّا على تقدير كونها اسماً للسورة، فقد نَوَّهَتْ بالإشارة إليها بعد تَنْويهها بتعيين اسمها، أو الأمرِ بذِكْرِها أو بقراءتها. وما في اسم الإشارةِ من معنى البُعْدِ للتنبيه على بُعْدِ منزلتها في الفخامة، ومحلُّه الرفع على أنَّه مبتدأ خبره قولُه عزَّ وجل: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وعلى تقدير كون «الر» مبتدأً فهو إمَّا مبتدأٌ ثانٍ، أو بدلٌ من الأول.

(١) التيسير ص١٢٠، والنشر ٢/ ٦٧.

(٢) أخرجه الطبري ١٢/ ١٠٣.

(٣) أخرج هذه الرواية عن ابن عباس الطبري ١٢/ ١٠٣-١٠٤، والنحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٤٣.

والمعنى: هي آياتٌ مخصوصةٌ منه مُترجَمةٌ باسمٍ مُستقلٍّ، والمقصودُ ببيان بعضيَّتها منه وصفيتُها بما أُشير إلى اتِّصافه[1] به من النعوتِ الفاضلة والصفاتِ الكاملة.

والمرادُ بالكتاب إمَّا جميعُ القرآن العظيم وإنْ لم يُنزَّل بعدُ: إمَّا باعتبارِ تَعيُّنِهِ وتحقُّقِهِ في العِلْم أو في اللوح، أو باعتبارِ نُزوله جملةً إلى بيت العزَّة من السماء الدنيا. وإمَّا جميعُ القرآن النازل وقتئذٍ، المتفاهَم بين الناس إذ ذاك، فإنَّه كما يُطلق على المجموع الشخصيِّ يُطلق على مجموع ما نزل في كلٍّ، كذا قال شيخُ الإسلام[2].

وأنت تعلم أنَّ المشهورَ عن السلف تفويضُ معنى «الر» وأمثالِهِ إلى الله تعالى، وحيث لم يظهر المرادُ منها لا معنى للتعرُّض لإعرابها. وقد ذكروا أنَّه يجوز في الإشارة أنْ تكون لآياتِ هذه السورة، وأن تكونَ لآيات القرآن، ويجوز في «الكتاب» أنْ يُراد به السورة وأنْ يُراد به[3] القرآن، فتكون الصُّورُ أربعاً:

إحداها: الإشارةُ إلى آيات القرآن، و«الكتاب» بمعنى السورة، ولا يصحُّ إلا بتخصيص «آيات» أو تأويلٍ بعيد.

وثانيها: عكسُه، ولا محذورَ فيه.

وثالثها: الإشارةُ إلى آيات السورة، و«الكتاب» بمعنى السورة.

ورابعها: الإشارةُ إلى آيات القرآن، و«الكتاب» بمعنى القرآن. ومَرْجِعُ إفادة الكلام عليهما[4] باعتبارِ صفة الكتاب الآتية.

وجوَّز الإشارةُ إلى الآيات لكونها في حكم الحاضر وإنْ لم تُذكر، كما في المثال المذكور آنفاً[5]. وفي «أمالي» ابنِ الحاجب: أنَّ المشارَ إليه لا يُشترط أنْ

(١) في الأصل: وصفيتها بما أشير اتصافه، وفي تفسير أبي السعود ٤/ ١١٥ (والكلام منه): وصفها بما اشتهر اتصافه.
(٢) هو أبو السعود في تفسيره ٤/ ١١٥.
(٣) قوله: به، ليس في (م).
(٤) يعني الثالث والرابع. ينظر حاشية الشهاب ٥/ ٢.
(٥) وهو قولهم في الصكوك: هذا ما اشترى فلان. حاشية الشهاب ٥/ ٢.

يكونَ موجوداً حاضراً، بل يكفي أنْ يكون موجوداً ذهناً. وفي «الكشاف» في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: ٧٨] ما يُؤيِّده(١). وأُوثِرَ لفظُ «تلك» لِمَا أشار إليه الشيخ(٢)، ولكونه في حكم الغائب من وجْهٍ، ولا يخلو ما ذكروه عن دغدغة.

وأمَّا حَمْلُ «الكتاب» على الكتب التي خلَت قبل القرآن من التوراة والإنجيل وغيرهما ـ كما أخرجه ابنُ أبي حاتم عن قتادة(٣) ـ فهو في غاية البُعْدِ، فتأمَّل.

وقولُه تعالى: ﴿الْحَكِيمِ ۝١﴾ صفةٌ لـ «الكتاب»، ووُصِفَ بذلك لاشتماله على الحِكَم، فيُراد بـ «الحكيم»: ذو الحكمة، على أنَّه للنسبة كـ: لابنٍ وتامرٍ. وقد يُعتَبر تشبيه «الكتاب» بإنسان ناطقٍ بالحكمة على طريق الاستعارةِ بالكناية، وإثباتُ الحكمة قرينةٌ لها.

وجُوِّز أنْ يكون وَصْفُه بذلك لأنَّه كلامُ حكيمٍ، فالمعنى: حكيمٌ قائلُه، فالتجوُّز في الإسناد كـ: ليلُه قائمٌ ونهارُه صائمٌ.

وقيل: لأنَّ آياته محكمةٌ لم يُنسخ منها شيءٌ، أي: بكتابٍ آخر، فَفَعِيل بمعنى مُفْعَل، وقد تقدَّم ما لَه وما عليه.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ الهمزةُ لإنكار تعجُّبهم، ولتعجيبِ السامعين منه لوقوعه في غير محلِّه، والمرادُ بالناس كفَّارُ العرب، والتعبيرُ عنهم باسم الجنس من غير تعرُّضٍ لكفرهم الذي هو المدارُ لتعجُّبهم ـ كما تعرَّض له فيما بعد(٤) ـ لتحقيق ما فيه من الشركةِ بين رسول الله ﷺ وبينهم، وتعيينِ مدارِ التعجيب(٥) في زَعْمهم، ثم تَبيينِ خطئهم، وإظهارِ بُطلانِ زَعْمِهم بإيراد الإنكار.

---

(١) الكشاف ٢/ ٤٩٥.

(٢) يعني للتنبيه على بُعد منزلتها في الفخامة، والشيخ هو أبو السعود.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٢٢.

(٤) وهو قوله تعالى: ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ تفسير أبي السعود ٤/ ١١٦، والكلام منه.

(٥) في تفسير أبي السعود: التعجب.

واللامُ متعلِّقَةٌ بمحذوفٍ وَقَع حالاً من «عجباً» كما هو القاعدةُ في نعتِ النكرة إذا تقدَّم عليها. وقيل: متعلِّقةٌ بـ «عجباً» بناءً على التوسُّع المشهور في الظروف. وبعضُهم جعَلَها متعلِّقةً به، لا على طريق المفعولية كما في قوله:

عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدَّهرِ بيني وبينها[1]

بل على طريق التبيين كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣] وسقياً لك، ومثلُ ذلك يجوزُ تقديمه على المصدر. وأنت تعلم أنَّ هذا قولٌ بالتعلُّق بمقدَّرٍ في التحقيق.

وقيل: إنَّها متعلِّقةٌ به؛ لأنَّه بمعنى المعجب، والمصدرُ إذا كان بمعنى مفعولٍ أو فاعلٍ يجوزُ تقديمُ معموله عليه.

وجوَّز أيضاً تعلُّقه بـ «كان» وإنْ كانت ناقصةً بناءً على جوازه.

و«عجباً» خبرُ «كان» قُدِّم على اسمها وهو قوله سبحانه: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا﴾ لكونه مَصَبَّ الإنكارِ والتعجيب، وتشويقاً إلى المؤخَّر؛ ولأنَّ في الاسم ضربَ تفصيلٍ ففي تقديمه رعايةٌ للأصل نوعُ إخلال بتجاوُبِ أطرافِ النَّظْم الكريم.

وقرأ ابنُ مسعود: «عَجَبٌ» بالرفع[2] على أنَّه اسم كان، وهو نكرةٌ، والخبر «أنْ أوحينا» وهو معرفةٌ؛ لأنَّ «أنْ» مع الفعل في تأويلِ المصدرِ المضافِ إلى المعرفة، فهو كقول حسان:

كأنَّ سَبيئةً من بيت رأسٍ ... يكُونُ مزاجَها عَسَلٌ وماءُ[3]

وحَمَله بعضُهم على القَلْب، وفي قبوله مطلقاً أو إذا تضمَّن لطيفةً خلافٌ، والمعوَّلُ عليه اشتراطُ التضمُّن وهو غيرُ ظاهرٍ هنا.

---

(١) وعجزه: فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر، والبيت لمجنون ليلى، وهو في ديوانه ص١٣٠.

(٢) الكشاف ٢/ ٢٢٤، والمحرر الوجيز ٣/ ١٠٢، والبحر ٥/ ١٢٢.

(٣) ديوان حسان ص٥٩، والكتاب ١/ ٤٩، والمحتسب ١/ ٢٧٩، والمغني ص٩١١. والسبيئة: الخمر، ورواية الأعلم في شرح الشواهد ص٧٨: كأن سلافة، والسلافة الخمر أيضاً، وقال الأعلم: بيت رأسٍ اسمُ موضعٍ بعينه، وقيل: رأسٌ رئيسُ الخمَّارين، ويقال: هو اسم خمَّارٍ معروف، قال ابن هشام: والأولى رفع المزاج ونصب العسل، وقد روي كذلك أيضاً، فارتفاع ماء بتقدير: وخالطها ماء، ويروى برفعهن على إضمار الشأن.

وحكي عن ابنِ جنِّي أنَّه قال[1]: إنَّما جاز ذلك في البيت من حيث كان «عسل وماء» جنسَين، فكأنَّه قال: يكونُ مزاجَها العسلُ والماء، ونكرةُ الجنس تُفيد مفادَ معرفته، ألا ترى أنَّك تقول: خرجتُ فإذا أسدٌ بالباب، أي: فإذا الأسدُ بالباب، لا فرقَ بينهما؛ لأنَّك في الموضعين لا تُريد أسداً معيَّناً، ولهذا لم يَجُز هذا في قولك: كان قائمٌ أخاك، وكان جالسٌ أباك؛ لأنَّه ليس في جالس وقائم معنَى الجنسيةِ التي تتلاقَى معنى نكرتها ومعرفتها[2].

ومعنى الآيةِ على هذا: كان الوحي للناس هذا الجنس من الفعل وهو التعجُّب، ولا يخفَى أنَّ المصدر المتحصِّلَ هو المصدرُ المضافُ إلى المعرفة كما سمعتَ، فاعتبارُه محلًّى بأل الجنسية خلافُ الظاهر.

وأجاز بعضُهم الإخبارَ عن النكرة بالمعرفة[3] في باب النواسخ خاصَّة، سواءٌ كان هناك نفيٌ أو ما في حُكْمِه، أم لا. وابنُ جنِّي يُجوِّز ذلك إذا كان نفيٌ أو ما في حُكمِه ولا يُجوِّز إذا لم يكن[4]، وفي الآية قد تقدَّم الاستفهامُ الإنكاريُّ على الناسخ، وهو في حكم النفي.

واختار غيرُ واحدٍ كونَ «كان» تامَّةً، و«عجبٌ» فاعلٌ لها و«أنْ أوحينا» بتقدير حرفِ جرٍّ متعلِّقٍ بـ «عجبٌ» أي: لأنْ أوحينا، أو: مِن أنْ أوحينا، أو هو بدلٌ منه بدلَ كلٍّ من كلٍّ، أو بدلَ اشتمالٍ، والإنكارُ متوجِّه إلى كونه عجباً لا إلى حدوثه، وكونُ الإبدال في حكم تنحيةِ المبدَلِ منه ليس معناه إهدارُه بالمرَّة كما تقرَّر في موضعه.

واقتصر في «اللوامح»[5] على أنَّ «للناس» خبرُ «كان»، وتعقِّب بأنَّه ركيكٌ معنًى، لأنَّه يُفيدُ إنكار صدوره من الناس لا مطلقاً، وفيه ركاكةٌ ظاهرةٌ فافهم.

وإنَّما قيل: للناس، لا: عند الناس؛ للدلالة على أنَّهم اتخذوه أعجوبةً لهم، وفيه من زيادة تقبيح حالهم ما لا يخفى.

---

(١) في المحتسب ١/ ٢٧٩.
(٢) في الأصل: ومعنى معرفتها، وفي المحتسب: التي تلاقى مَعْنَيَا نكرتها ومعرفتها.
(٣) في (م): عن المعرفة بالنكرة.
(٤) المحتسب ١/ ٢٧٩.
(٥) كما في حاشية الشهاب ٥/ ٣، وعنه نقل المصنف.

﴿إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: إلى بشرٍ من جِنْسِهِم، كقوله تعالى حكايةً: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]. وقولِه سبحانه: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [فصلت: ١٤]، أو إلى رجلٍ من أَفْناء رجالهم من حيث المالُ لا من حيث النسب، لأنَّه ﷺ كان من مشاهيرهم فيه، وكان منه بمكان لا يُدْفَعُ، فهو كقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١]. وفي بعض الآثار أنَّهم كانوا يقولون: العَجَبُ أنَّ الله تعالى لم يجد رسولاً يُرسلُه إلَّا يتيمَ أبي طالب[1].

والعجبُ مِن فَرْط جَهْلِهم:

أمَّا في قولهم الأولِ: فحيث لم يعلموا أنَّ بعْثَ الملَكِ إنما يكون عند كون المبعوثِ إليهم ملائكةً، كما قال تعالى: ﴿لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء ٩٥]. وأمَّا عامَّةُ البشر فبمعزلٍ عن استحقاقِ مُفاوَضةِ الملائكة؛ لأنَّها مَنُوطةٌ بالتناسُب، فبعْثُ الملَك إليهم مُزاحِمٌ للحكمة التي عليها يدورُ فلكُ التكوين والتشريع، وإنَّما الذي تقتضيه الحكمة بعْثُ الملَك من بينهم إلى الخواصِّ المختصِّين بالنفوس الزكية، المؤيَّدين بالقوة القدسية، المتعلِّقين بكِلَا العالَمين الروحانيِّ والجسمانيِّ، ليتأتَّى لهم الاستفاضةُ والإفاضةُ، وهذا تابعٌ للاستعداد الأزلي كما لا يخفى.

وأمَّا في قولهم الثاني: فلِأنَّ مناطَ الاصطفاء للإيحاء إلى شخصٍ هو التقدُّمُ في الاتِّصافِ بما عَلِمْتَ، والسبقُ في إحرازِ الفضائل وحِيازةِ المَلَكاتِ السَّنية جِبِلَّةً واكتساباً، ولا ريبَ لأحدٍ في أنَّ للنبيِّ ﷺ القدحَ المعلَّى من ذلك، بل له عليه الصلاة والسلام فيه غايةُ الغايات القاصيةِ، ونهايةُ النهاياتِ النائية، يقول رائيه:

وأحسنُ منكَ لم تَرَ قطُّ عيني ... ومثلَك قطُّ لم تَلِدِ النساءُ
خُلِقْتَ مُبرَّأً مِن كلِّ عيبٍ ... كأنَّكَ قد خُلِقْتَ كما تَشاءُ[2]

وكذا يقول:

---

(١) ذكره الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٥، والزمخشري في الكشاف ٢/ ٢٢٤.
(٢) البيتان لحسان، وهما في ديوانه ص٦٦، وفيه: وأجمل منك، بدل: وأحسن منك.

ولو صوَّرْتَ نفسَك لم تَزِدْها على ما فيك مِن كَرم الطِّباعِ[(١)]

وأمَّا التقدُّمُ في الرياسة الدنيوية، والسبقُ في نيل الحظوظِ الدَّنيَّةِ فلا دَخْل له في ذلك قطعاً، بل له إخلالٌ به غالباً، وما أحسنَ قولَ الشافعيِّ رضي الله عنه من أبيات:

لكنَّ مَنْ رُزِق الحِجَا حُرِم الغِنَى ضِدَّان مفترقان أيَّ تفرُّقِ

وما ذكروه مِن اليُتْم إنْ رَجع إلى ما في الآية على التوجيه الثاني فبُطْلانُه بطلانُه، وإن أرادوا أنَّ أَصل اليُتْمِ مانعٌ من الإيحاء إليه ﷺ فهو أظهرُ بطلاناً وأوضح هَذَياناً، وما ألطفَ ما قيل: إنَّ أنفَسَ الدُّرِّ يَتيمُه.

وقيل للحَسَن: لِمَ جَعَل الله تعالى النبيَّ ﷺ يتيماً؟ فقال: لئلَّا يكون لمخلوقٍ عليه مِنَّةٌ، فإنَّ الله سبحانه هو الذي آواه وأدَّبَه وربَّاه ﷺ.

هذا والوجه الثاني من الوجهَين السابقَين في قوله سبحانه: ﴿إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ على الوجه الذي ذكرناه، هو الذي أراده صاحب «الكشاف»[(٢)]، ولم يَرتَضِهِ الجلال السيوطي، وزَعَم أنَّ التَّحاميَ عنه أَوْلَى، ثم قال: والذي عندي في تفسير ذلك أنَّ المراد: إلى مشهورٍ بينَهم يَعرفُون نَسَبَه وجلالَته وأمانتَه وعِفَّته، كما قال سبحانه في آخر السورة التي قبلُ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة:١٢٨]. فإنَّ هذا هو محلُّ إنكارِ العَجَب، ويكونُ هذا وجهُ مناسبةِ وَضْعِ هذه السورةِ بعْدَ تلك، واعتلاقِ أوَّلِ هذه بآخِرِ تلك، ونظيرُه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾ [النحل: ١١٣] ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]. إلى آخر ما قال.

وتُعقِّب بأنَّه غيرُ ظاهرٍ؛ لأنَّه وإنْ كان أعظمَ مما ذُكر لكنَّ السياق يَقتضي بيانَ كفرهم وتَذْليلِهم وتحقيرِهم[(٣)] من أعزَّه الله تعالى وعظَّمه.

والذي يقتضيه سببُ النزول تعيُّنُ الوجْهِ الأول هنا، فقد أخرج ابنُ جرير وغيرُه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لمَّا بعَثَ الله تعالى محمداً ﷺ رسولاً أنكرَت العربُ ذلك، أو مَن أنكر منهم، فقالوا: اللهُ تعالى أعظَمُ مِن أنْ يكون رسولُه بشراً مثلَ

---

(١) البيت لأبي تمام، وهو في ديوانه ٢/ ٣٤٠.

(٢) ٢/ ٢٢٤.

(٣) في (م): وتحقير، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٥/ ٣، والكلام منه.

محمدٍ (عليه الصلاة والسلام) فأنزل سبحانه: (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ) الآية، وقولَه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ الآية [يوسف: ١٠٩]. فلما كرَّر سبحانه عليهم الحُجَجَ قالوا: وإذا كان بشراً فغيرُ محمد ﷺ كان أحقَّ بالرسالة، فلولا نُزِّل هذا القرآنُ على رجلٍ من القريتَين عظيم، فأنزل الله تعالى ردّاً عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾الآية [الزخرف: ٣٢](1). ومنه يُعلم أنَّ ما حُكي في الوجه الثاني سببٌ لنزول آيةٍ أخرى.

﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ أي: أَخبرْهم بما فيه تخويفٌ لهم مما يترتَّبُ على فعلِ ما لا ينبغي، والمرادُ به جميعُ الناس الذين يُمكنه عليه الصلاة والسلام تبليغُهم ذلك، لا ما أُريد بالناس أولاً، وهو النكتةُ في إيثار الإظهار على الإضمار، وكونُ الثاني عينَ الأول عند إعادةِ المعرفة ليس على الإطلاق.

و«أنْ» هي المفسِّرةُ لمفعولِ الإيحاء المقدَّر، وقد تقدَّم عليها ما فيه معنى القولِ دون حُروفِهِ، وهو الإيحاء، أو هي المخفَّفة من الثقيلة(2)، على أنَّ اسمها ضميرُ الشأن والجملةُ الأمريَّةُ خبرُها، وفي وقوعها خبرَ ضميرِ الشأنِ دونَ تأويلٍ وتقديرِ قولٍ اختلافٌ، فذهب صاحب «الكشف» إلى أنَّه لا يُحتاجُ إلى ذلك؛ لأنَّ المقصود منها التفسير، وخالفه غير واحدٍ في ذلك، وذهبوا إلى أنَّه لا فرقَ بين خبرِه وخبرِ غيره.

وقال بعضُهم: هي المصدريَّةُ الخفيفةُ في الوضع بناءً على أنَّها تُوصَلُ بالأمر والنهي. والكثيرُ على المنع، وذكر أبو حيان(3) هذا الاحتمال هنا، مع أنَّه نَقَل عنه في «المغني»(4) أنَّ مذهبه المنعُ لِمَا أنَّه يفوتُ معنى الأمرِ إذا سُبكَ بالمصدر.

واعتُرض بأنَّه يفوتُ معنَى المضيِّ والحاليةِ والاستقبالِ المقصودِ أيضاً، مع الاتِّفاق على جواز وَصْلها بما يدلُّ على ذلك.

---

(1) تفسير الطبري ١٢/ ١٠٧ و٢٠/ ٥٨٣-٥٨٤، وتفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٢٢، ونقله المصنف عن الدر المنثور ٣/ ٢٩٩-٣٠٠.

(2) في (م): المثقلة.

(3) في البحر ٥/ ١٢٢.

(4) ص٤٤، ونقله المصنف مع ما قبله وما سيأتي من حاشية الشهاب ٥/ ٤.

وأجيبَ بأنَّه قد يقال: بأنَّ بينهما فرقاً، فإنَّ المصدر يدلُّ على الزمان التزاماً، فقد تُنصَبُ عليه قرينةٌ فلا يفوتُ معناه بالكلِّية، بخلافِ الأمر والنهي، فإنَّه لا دلالةَ للمصدر عليهما أصلاً.

وقال بعضُ المدقِّقين: إنَّ المصدر كما يجوز أخذُه من جوهر الكلمة، يجوزُ أخذه من الهيئة وما يتبعُها، فيقدَّر في هذا ونحوه: أوحينا إليه الأمرَ بالإنذار، كما قُدِّر في: أنْ لا تزنيَ خيرٌ: عدمُ الزنا خيرٌ.

ولا يخفَى أنَّ هذا البحث يجري في «أن» المخفَّفةِ من الثقيلة؛ لأنَّها مصدريةٌ أيضاً، وأنَّ أقلَّ الاحتمالات مؤنةً احتمالُ التفسير.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بما أوحيناه إليك وصدَّقوه ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي: بأنَّ لهم ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ أي: سابقَةً ومنزلةً رفيعةً ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وأصلُ القَدَم: العضوُ المخصوصُ، وأُطلقَت على السَّبْق مجازاً مرسَلاً لكونها سَبَبَه وآلَتَه، وأُريدَ من السَّبْق: الفضلُ والشرفُ، والتقدُّم المعنويُّ إلى المنازل الرفيعةِ مجازاً أيضاً، فالمجازُ هنا بمرتبَتَين.

وقيل: المراد تقدُّمُهم على غيرهم في دخول الجنة؛ لقوله ﷺ: «نحنُ الآخِرُون السَّابقون يومَ القيامةِ»[1] وقولِه ﷺ: «إنَّ الجنَّة محرَّمةٌ على الأنبياء حتى أدخُلَها أنا، وعلى الأُمَمِ حتى تَدخُلَها أمتي»[2].

وقيل: تقدُّمهم في البعث.

وأصلُ الصدق ما يكونُ في الأقوال، ويُستعمل كما قال الراغبُ[3] في الأفعال، فيقال: صَدَقَ في القتال، إذا وفَّاه حقَّه، وكذا في ضدِّه يقال: كَذَب فيه، فَيُعبَّر به عن كلِّ فعلٍ فاضلٍ ظاهراً وباطناً، ويُضافُ إليه كـ: مَقْعد صِدْقٍ، ومُدْخلِ صِدقٍ، ومُخْرَج صِدْق، إلى غير ذلك.

---

(١) أخرجه أحمد (٧٣١٠)، والبخاري (٢٣٨)، ومسلم (٨٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٩٤٢) من حديث عمر ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١١/ ٦٩: فيه صدقة بن عبد الله السمين وثقه أبو حاتم وغيره وضعفه جماعة، فإسناده حسن. اهـ. وأخرجه ابن أبي شيبة ١١/ ٥١٠-٥١١ من طريق مكحول عن عمر عن النبي ﷺ مطولاً. قال أبو زرعة كما في المراسيل لابن أبي حاتم ص١٦٦: مكحول عن عمر مرسل.

(٣) في مفرداته (صدق).

وصرَّحوا هنا بأنَّ الإضافة من إضافة الموصوف إلى صفته، والأصلُ: قَدَمٌ صِدْقٌ، أي: محقَّقةٌ مقرَّرةٌ، وفيه مبالغةٌ لجعلها عينَ الصدق، ثم جُعل الصدقُ كأنَّه صاحبُها.

ويحتملُ أنْ تكون الإضافة من إضافة المسبَّب إلى السبب، وفي ذلك تنبيهٌ على أنَّ ما نالوه من المنازل الرفيعة كان بسبب صِدْق القول والنية.

وقال بعضُهم: إنَّ هذا التنبيه[1] قد يَحصُلُ على الاعتبار الأول؛ لأنَّ الصدق قد تُجوِّزَ به عن تَوْفِيَة الأمورِ الفاضلة حقَّها؛ للزوم الصِّدق لها، حتى كأنَّها لا توجَدُ بدونه، ويكفي مثلُه في ذلك التنبيه، وهذا كما قالوا: إنْ أبا لهب يُشير إلى أنَّه جهنميٌّ، وفيه خفاءٌ كما لا يخفَى.

وجُوِّز أنْ[2] يُراد بالقَدمِ المقامُ بإطلاق الحال وإرادةِ المحلِّ.

وعن الأزهريِّ أنَّ القَدَم: الشيءُ الذي تُقدِّمه قدَّامَكَ ليكون عُدَّةً لك حين تُقدِمُ عليه[3]. ويُشعرُ بأنَّه اسمُ مفعول، وبه صرَّح بعضُهم وقال: إنَّه كالنقض.

وقيل: إنَّه اسمٌ للحُسنَى من العبد كما أنَّ اليد اسمٌ للحُسنى من السيِّد، وفعلوا ذلك للفرق بين العبد والسيد، وهو من الغرابة بمكان، ولا يكاد يصحُّ في قول ذي الرُّمة:

لكم قَدَمٌ لا يُنكرُ الناسُ أنَّها ... مع الحَسَب العاديِّ طمَّت على البحر[4]

وقوله:

وأنتَ امرؤٌ من أهل بيتِ ذُؤابةٍ ... لهم قَدَمٌ معروفةٌ في المفاخر[5]

والسبقُ هو الأسبق إلى الذهن في ذلك، وكذا قول حسان:

لنا القدمُ العُليا إليكَ وخَلْفنا ... لأوَّلنا في طاعة الله تابعُ[6]

(١) في الأصل: التفسير.
(٢) في (م): ويجوز إلى.
(٣) ينظر تهذيب اللغة ٩/ ٤٦، وتفسير غريب ما في الصحيحين للحميدي ص٣٤٤.
(٤) الديوان ٢/ ٩٧٢ برواية: ... طمست على الفخر.
(٥) الديوان ٢/ ١٠٤٤ برواية: ... معروفة ومفاخر.
(٦) ديوان حسان ص٣١٠ برواية: لنا القدم الأولى...

وقولُ الآخَر:

صلِّ لذي العرش واتَّخِذ قَدَماً تُنجيك يومَ العِثَارِ والزَلَلِ[(١)]

محتملٌ لسائر المعاني.

وهل يُطلق على سابقة السوء أوْ لا؟ الظاهرُ الأوّل، وقد نصَّ على ذلك أبو عبيدةَ والكِسائيُّ[(٢)]. وقال صاحب «الانتصاف»: لم يُسمُّوا سابقةَ السوء قَدَماً، إمَّا لكون المجاز لا يطَّردُ، وإمَّا لأنَّه غَلَبَ في العرف على سابقة الخير[(٣)]، وفيه نظر.

وتفسيرُ ابن عباس رضي الله عنهما له بالأجر، وابنِ مسعود بالعمل، لا يخرجُ عمَّا ذكرنا من معانيه. وكذا تفسيرُ عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه وأبي سعيد الخدري والحسن وزيد بنِ أسلم له برأس الموجودات محمدٍ ﷺ يَرْجِعُ إلى تفسيره بالخير والسعادة كما قاله جمعٌ. وكونهُ ﷺ خيراً وسعادةً للمؤمنين مما لا يَمتري فيه مؤمنٌ، أو يقال: إنَّ المراد شفاعتُه ﷺ، والأمرُ في ذلك حينئذٍ في غاية الظهور.

وخُصَّ التبشير بالمؤمنين، لأنَّه لا يتعلَّق بالكفار، وتبشيرُهم إنْ آمنوا راجعٌ إلى تبشير المؤمنين، وهذا بخلاف الإنذار فإنَّه يتعلَّق بالمؤمن والكافر، ولذلك ذكره سبحانه ولم يذكر جلَّ وعلا المنذَرَ به للتعميم والتهويل، وذكر المبشَّر به على الوجه الذي ذكره لتقوَى رغبةُ المؤمنين فيما يُؤدِّيهم إليه.

وقَدَّم الإنذار على التبشير؛ لأنَّ التخلية مقدَّمةٌ على التحلية، وإزالةُ ما لا ينبغي مقدَّمةٌ في الرتبة على فِعْلِ ما ينبغي.

﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ هم المتعجِّبون، وإيرادُهم بهذا العنوان على بابه، وتُرِكَ العاطفُ لجريانه مَجرَى البيان للجملة التي دخل عليها همزةُ الإنكار، أو لكونه استئنافاً مبنيّاً على السؤال، كأنَّه قيل: ماذا صنعوا بعد التعجُّب؟ هل بقُوا على التردُّد والاستبعاد، أو قَطَعوا فيه بشيءٍ؟ فقيل: قال الكافرون على طريقة التأكيد ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: ما أُوحيَ إليه ﷺ من الكتاب المُنْطَوي على الإنذار والتبشير.

---

(١) البيت لوضاح اليمن، وهو في ديوانه ص٧١.

(٢) ذكره عنهما القرطبي ١٠/ ٤٥٠، وينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢٧٣.

(٣) الانتصاف مع الكشاف ٢/ ٢٢٤.

وزعم الخازنُ(١) أنَّ في الكلام حذفاً، أي: أكان للناس عجباً أنْ أوحينا إلى رجلٍ منهم أنْ أنذر وبشِّر، فلمَّا جاءهم بالوحي وأنذَرهم قال الكافرون: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ۝﴾(٢) أي: ظاهرٌ.

وقرأ ابنُ كثير والكوفيون: «الساحرٌ»(٣) على أنَّ الإشارة إلى رجل، وعَنَوا به رسول الله ﷺ، وفي قراءة أُبي: «ما هذا إلا سحرٌ مبين»(٤) وأرادوا بالسحر الحاصل بالمصدر، وفي هذا اعترافٌ بأنَّ ما عاينوه خارجٌ عن طوق البشر، نازلٌ من حضرة خلَّاقِ القُوَى والقُدَر، ولكنَّهم يُسمُّونه بما قالوا تمادياً في العناد كما هو شِنْشِنةُ المكابر اللَّجوج ونِشْنِشَةُ المفحَم المحجُوج.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ استئنافٌ سيقَ لإظهار بُطلان تعجُّبِهم المذكورِ وما تَبِعَه من تلك المقالةِ الباطلةِ غِبَّ الإشارة إليه بالإنكار والتعجيب، وحقَّق فيه حَقِّيَّةَ ما تعجَّبوا منه وصِحَّةَ ما أنكروه بالتنبيه الإجماليِّ على بعضِ ما يدلُّ عليها من شؤون الخَلْقِ والتقديرِ، وأحوالِ التكوينِ والتدبير، ويُرشدُهم إلى معرفتها بأدنى تذكيرٍ؛ لاعترافهم به من غير نكيرٍ، كما يُعرِبُ عنه غيرُ ما آيةٍ في الكتاب الكريم(٥).

والتأكيدُ لمزيد الاعتناء بمضمون الجملةِ على ما هو الظاهر، أي: إنَّ ربَّكم ومالِكَ أمرِكم الذي تَعْجَبون من أنْ يُرسِلَ إليكم رجلاً منكم بالإنذار والتبشير، وتَعدُّون ما أُوحَى إليه من الكتاب سحراً، هو ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: أوقاتٍ، فالمرادُ من اليوم معناه اللغويُّ، وهو مطلقُ الوقت.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ تلك الأيام من أيام الآخرة، التي يومٌ منها كألف سنةٍ مما تَعُدُّون.

وقيل: هي مقدارُ ستةِ أيَّامٍ من أيام الدنيا، وهو الأنسبُ بالمقام لِمَا فيه من

(١) في تفسيره ٣/ ١٧٣-١٧٤.
(٢) وهي قراءة نافع وأبي عمرو وابن عامر وأبي جعفر ويعقوب. التيسير ص١٢٠، والنشر ٢/ ٢٥٦.
(٣) التيسير ص١٢٠، والنشر ٢/ ٢٥٦.
(٤) الكشاف ٢/ ٢٢٥، والمحرر الوجيز ٣/ ١٠٣.
(٥) منها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٦-٨٧]. تفسير أبي السعود ٤/ ١١٨، والكلام منه.

الدلالة على القدرة الباهرة بخَلْق هذه الأجرامِ العظيمة في مثل تلك المدَّة اليسيرة، ولأنَّه تعريفٌ لنا بما نعرفُه.

ولا يُمكن أنْ يُراد باليوم اليومُ المعروف[1]؛ لأنَّه ـ كما قيل ـ عبارةٌ عن كون الشمس فوق الأرض، وهو ممَّا لا يتصوَّر تحقُّقُه حين لا أرضَ ولا سماء، واليومُ بهذا المعنَى يُسمَّى بالنهار المفرد، ويُطلَق اليوم أيضاً على مجموع ذلك النهارِ وليلته، ومقدارُ ذلك حينئذٍ ممكنُ الإرادة هنا أيضاً.

وقد صرَّح بعضُ الأكابر بأنَّ المراد بالسماوات ماعدا المحدَّد، وأنَّ اليوم هنا عبارةٌ عن مدَّةِ دورةٍ تامَّةٍ له. ولا يخفى أنَّ اليوم اللغويَّ يتناولُ هذا أيضاً، إلا أنَّ إرادتَه كإرادة مقدارِ مجموع النهار وليلته يحتاجُ إلى نقلٍ، وليس ذلك أمراً معروفاً عند المخاطَبين ليُستغنَى عن النقل، على أنَّ القول به يدور على كون المحدَّد متحرِّكاً بالحركة الوضعية، ويحتاجُ ذلك إلى النقل أيضاً، وكذا يدورُ على كون المحدَّد خارجاً عن السماوات المخلوقة في الأيام الستِّ، لكنَّ ذلك لا يضرُّ إذ الآياتُ والأخبارُ شاهدةٌ بالخروج[2] كما لا يخفى.

وفي خَلْقها مُدَرَّجاً مع القدرة التامَّة على إبداعها في طَرْفة عينٍ اعتبارٌ للنُّظَّار، وحثٌّ لهم على التأنِّي في الأحوال والأطوار، وفيه أيضاً ـ على ما صرَّح به بعضُ المحقِّقين ـ دليلٌ على الاختيار.

وأمَّا تخصيصُ ذلك بالعدد المعيَّن، فقد قيل: إنَّه أمرٌ قد استأثَرَ بعِلْم ما يستدعيه علَّام الغيوب جلَّت قدرتُه ودَقَّت حكمتُه.

وقيل: إنَّه سبحانه جَعَلَ لكلٍّ مِن خَلْق موادِّ السماوات وصُورِها ورَبْطِ بَعْضِها ببعضٍ، وخَلْقِ مادَّةِ الأرض وصُورتها ورَبْطِ إحداهما بالأخرى وقتاً، فلذا صارت الأوقاتُ ستّاً، وفيه تأمُّل، وسيأتي إنْ شاء الله تعالى في «الدخان»[3] تحقيقُ هذا المطلب على وجهٍ ينكشف به الغبارُ عن بصائر الناظرين.

---

(١) في الأصل: المعروف اليوم.

(٢) في الأصل: على الخروج.

(٣) لم نقف عليه في الدخان، وسلف في الأعراف ٩/ ١٣٤.

وإيثارُ جمع السماواتِ لِمَا هو المشهورُ، من الإيذان بأنَّها أجرامٌ مختلفةُ الطباع مُتباينةُ الآثار والأحكام، وتقديمُها على الأرض: إمَّا لأنَّها أعظمُ منها خلقاً، أو لأنَّها جاريةٌ مَجرى الفاعل والأرض جاريةٌ مجرَى القابِل، على ما بُيِّن في موضعه[1]، وتقديمُ الأرض عليها في آية «طه» لكونها أقربَ إلى الحسِّ وأظهرَ عنده، وسيأتي أيضاً تحقيقُه هناك إنْ شاء الله تعالى.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ على المعنى الذي أراده سبحانه، وكفُّ الكيف مشلولةٌ.

وقيل: الاستواءُ على العرش مجازٌ عن الملك والسلطان، متفرِّعٌ عن الكناية فيمَن يجوزُ عليه القعود على السرير، يقال: استوى فلانٌ على سرير الملك، ويُراد منه: مَلَكَ، وإنْ لم يقعد على السرير أصلاً.

وقيل: إنَّ الاستواء بمعنى الاستيلاء، وأَرجعوه إلى صفة القُدرة.

وأنت تعلم أنَّ هذا وأمثالَه من المتشابِه، وللناس فيه مذاهبُ، وما أَشرنا إليه هو الذي عليه أكثرُ سَلَفِ الأمة رضي الله عنهم.

وقد صرَّح بعضٌ أنَّ الاستواء صفةٌ غيرُ الثمانية، لا يَعلمُ ما هي إلَّا مَن هي له، والعجزُ عن دركِ الإدراك إدراكٌ.

واختارَ كثيرٌ من الخلف أنَّ المراد بذلك الملكُ والسلطان، وذكره لبيان جلالةِ مُلكه وسلطانِهِ سبحانه بعد بيانِ عظمةِ شأنه وسعةِ قُدرته بما مرَّ مِن خَلْق هاتيك الأجرام العظيمة.

وقولُه تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ استئنافٌ لبيانِ حكمةِ استوائه جلَّ وعلا على العرش، وتقديرِ عظمته. والتدبيرُ في اللغة: النظرُ في أدبارِ الأمورِ وعَوَاقِبِها لتقعَ على الوجه المحمود، والمرادُ به هنا: التقديرُ الجاري على وفقِ الحكمة والوجهِ الأتمِّ الأكمل، وأخرج أبو الشيخ وغيرُه عن مجاهد أنَّ المعنى: يقضي الأمر[2].

---

(١) ينظر ما سلف ٨/ ١٥-١٦.

(٢) عزاه لأبي الشيخ السيوطي في الدر المنثور ١/ ٣٠٠، وأخرجه أيضاً الطبري ١٢/ ١١٤، وابن أبي حاتم ٦/ ١٩٢٦.

والمرادُ بالأمر: أمرُ الكائناتِ عُلويِّها وسفليِّها حتى العرش، فـ «أل» فيه للعهد، أي: يُقدِّر أمرَ ذلك كلِّه على الوجه الفائق والنَّمطِ اللائق، حسبما تَقتضيه المصلحةُ وتستدعيه الحكمةُ، ويدخلُ فيما ذُكر ما تعجَّبوا منه دخولاً ظاهراً.

وزعم بعضُهم أنَّ المعنى: يدبِّرُ ذلك على ما اقتضَتْه حكمتُه ويُهيِّئُ أسبابه بسبب تحريك العرش، وهو فلكُ الأفلاك عندهم، وبحركته يُحرِّك غيرُه من الأفلاك الممثَّلةِ وغيرِها لقوة نفسه. وقيل: لأنَّ الكلَّ في جوفه، فيلزم مِن حركتِه حركتُه لزومَ حركةِ المظْرُوف لحركةِ الظَّرْف. وهو مبنيٌّ على أنَّ الظَّرف مكانٌ طبيعيٌّ للمظروف، وإلا ففيه نظر.

وأنت تعلم أنَّ مثلَ هذا الزَّعْم ـ على ما فيه ـ مما لا يقبلُه المحدِّثون وسلفُ الأمة، إذ لا يشهدُ له الكتاب ولا السُّنة، وحينئذٍ فلا يُفتَى به وإنْ حكم القاضي[(١)].

وجُوِّز في الجملة أنْ تكون في محلِّ النصب على أنَّها حالٌ من ضمير «استوى»، وأنْ تكونَ في محلِّ الرفع على أنَّها خبرٌ ثانٍ لـ «إنَّ»، وعلى كلِّ حالٍ فإيثارُ صيغةِ المضارع للدلالة على تجدُّدِ التدبير واستمرارِه منه تعالى.

وقوله سبحانه: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾ بيانٌ لاستبداده تعالى في التدبير والتقدير، ونفيٌ للشفاعة على أبلغ وجهٍ، فإنَّ نَفيَ جميع أفراد الشفيع بـ «مِن» الاستغراقيةِ يستلزمُ نفيَ الشفاعة على أتمِّ الوجوه، فلا حاجةَ إلى أنْ يقال: التقدير: ما مِن شفاعةٍ لشفيع. وفي ذلك أيضاً تقريرٌ لعظمته سبحانه إِثْرَ تقرير. والاستثناء مُفرَّغ من أعمِّ الأوقات، أي: ما مِن شفيع يشفعُ لأحدٍ في وقتٍ مِن الأوقات إلَّا بعدَ إذنه تعالى المبنيِّ على الحكمة الباهرة، وذلك عند كون الشفيعِ مِن المصطَفين الأخيار، والمشفوع له ممن يليقُ بالشفاعة.

وذهب القاضي إلى أنَّ فيه ردّاً على مَن زعَمَ أنَّ آلهتهم تشفعُ لهم عند الله تعالى[(٢)].

وتُعقِّبَ بأنَّه غيرُ تامٍّ؛ لأنَّهم لمَّا ادَّعَوا شفاعتَها فقد يَدَّعون الإذنَ لها، فكيف

(١) ينظر تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ٥.

(٢) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ٥.

يتمُّ هذا الردُّ ولا دلالة في الآية على أنَّهم لا يؤذَن لهم؟ وما قيل: إنَّها دعوَى غيرُ مسلَّمة واحتمالُها غيرُ مُجْدٍ، لا فائدةَ فيه إلَّا أنْ يقال: مرادُه أنَّ الأصنام لا تُدرِكُ ولا تنطِق، فكونُها ليس مِن شأنها أنْ يُؤذَنَ لها بديهيٌّ.

وقولُه عزَّ شأنُه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ استئنافٌ لزيادة التقرير والمبالغةِ في التذكير، ولتفريعِ الأمر بالعبادة بقوله سبحانه: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ والإشارةُ إلى الذات الموصوفة[1] بتلك الصفات المقتَضيَةِ لاستحقاق ما أخبرَ به عنه، وهو «الله» و«ربكم» فإنَّهما خبران لـ «ذلكم»، وحيث كان وجْهُ ثبوتِ ذلك له ما ذُكر مما لا يوجد في غيره، اقتضَى انحصارَه فيه، وأفاد أنْ لا ربَّ غيرُه ولا معبود سواه.

ويجوزُ أنْ يكون الاسمُ الجليل نعتاً لاسم الإشارة و«ربكم» خبره، وأنْ يكون هو الخبر و«ربُّكم» بيانٌ له أو بدلٌ منه، ولا يخلو الكلامُ من إفادة الانحصار، وإذا فُرِّع الأمر المذكور على ذلك أفادَ الأمرَ بعبادته سبحانه وحده، أي: فاعبدوه سبحانه من غير أنْ تُشركوا به شيئاً من مَلَكٍ أو نبيٍّ، فضلاً عن جمادٍ لا يُبصر ولا يسمع، ولا يَضُرُّ ولا يَنْفَع. وليس الداعي لهذا الحملِ أنَّ أصل العبادة ثابتٌ لهم فيُحملُ الأمرُ بها على ذلك ليُفيد[2]؛ لما قيل: مِن أنَّ الخطاب للمشركين، ولا عبادةَ مع الشركِ.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ أي: أَتَعْلَمون أنَّ الأمر كما فُصِّل فلا تتذكرون[3] ذلك حتى تَقِفُوا على فساد ما أنتم عليه، فترتَدِعُوا عنه وتعبدوا الله تعالى وحده، وإيثارُ «تَذَكَّرون» على تَفكَّرون؛ للإيذان بظهور الأمر، وأنَّه كالمعلوم الذي لا يفتقرُ إلى فكرٍ تامٍّ ونظرٍ كامل، بل إلى مجرَّدِ التفاتٍ وإخطارٍ بالبال.

وقولُه سبحانه: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ كالتعليل لوجوب العبادة، والجارُّ والمجرورُ خبرٌ مقدَّم و«مرجعكم» مبتدأ مؤخَّرٌ، وهو مصدرٌ ميميٌّ لا اسمُ مكانٍ، خلافاً لمن وَهِم فيه. و«جميعاً» حالٌ من الضمير المجرور لكونه فاعلاً في المعنى، أي: إليه تعالى رجوعُكم مُجْتَمِعينَ ـ لا إلى غيره سبحانه ـ بالبعث.

---

(١) في الأصل و(م): الموصوف، والمثبت من حاشية الشهاب ٥/٦.
(٢) في الأصل: فيفيد، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٥/٦.
(٣) في الأصل: تذكرون.

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ مصدرٌ مؤكدٌ لمضمون الجملة السابقة؛ لأنَّها وعْدٌ منه تعالى بالبعث، وحيث كانت لا تَحتَمِلُ غيرَ الوعدِ كان ذلك من أفراد المصدر المؤكِّد لنفسه عندهم، كما في قولك: له عَلَيَّ ألفٌ عرفاً[(١)]، ويجوزُ أنْ يكون نصباً على المصدرية لفعلٍ محذوفٍ، أي: وَعَد الله وعْداً.

وأيّاً ما كان فهو دليلٌ على أنَّ المراد بالمَرْجِع الرجوعُ بالبعث؛ لأنَّ ما بالموت بمعزلٍ عن الوعد، كما أنَّه بمعزلٍ عن الاجتماع، فما وقع في بعض نسخ القاضي بالموت أو النشور[(٢)]، ليس على ما ينبغي.

وقرئ: «وَعَدَ اللهُ» بصيغة الفعل ورَفْعِ الاسم الجليل على الفاعلية[(٣)].

﴿حَقًّاۚ﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ لِمَا دلَّ عليه الأول، وهو من قِسْم المؤكِّد لغيره؛ لأنَّ الأول ليس نصّاً فيه، فإنَّ الوعد يحتمل الحَقِّيَةَ والتخلُّفَ.

وقيل: إنَّه منصوبٌ بـ «وَعْدَ» على تقديرِ «في» وتشبيهه بالظرف، كقوله:

أَفِـي الـحـقِّ أنِّـي هـائـمٌ بـكِ مُـغْـرَمُ[(٤)]

والأولُ أظهر.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ كالتعليل لما أفاده «إليه مرجعُكم» فإنَّ غايةَ البدء والإعادة هو الجزاء بما يليق.

وقرأ أبو جعفر والأعمش: «أنَّه» بفتح الهمزة[(٥)] على تقدير: لأنه. وجوَّز أنْ يكون منصوباً بمثل ما نصبَ «وعد»، أي: وَعَدَ اللهُ سبحانه بَدْءَ الخَلْقِ ثمَّ إعادتَه، أي: إعادتَه بعدَ بَدْئِه، ويكون الوعدُ واقعاً على المجموع لكنْ باعتبار الجزء

---

(١) أي: اعترافاً، ينظر حاشية الشهاب ٥/ ٦، وشرح الألفية لابن عقيل ١/ ٥٧٠، وينظر ما سلف ٦/ ٢٩٦.

(٢) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ٦.

(٣) القراءات الشاذة ص٥٦.

(٤) وعجزه: وأنكِ لا خَلٌّ هواكِ ولا خمر. والبيت لمجنون ليلى، وهو في ديوانه ص١٢٧، وحاشية الشهاب ٥/ ٦، والكلام منه.

(٥) النشر ٢/ ٢٨٢ عن أبي جعفر، وذكرها عن الأعمش ابن جني في المحتسب ١/ ٣٠٧.

الأخير؛ لأنَّ البدءَ ليس موعوداً. وأنْ يكون مرفوعاً بمثل ما نصب «حقّاً»، أي: حَقَّ بدءُ الخَلْقِ ثم إعادتُه، ويكونُ نظيرَ قولِ الحماسيّ:

أحـقّـاً عـبـادَ الله أنْ لـسـتُ رائـيـاً رِفـاعـةَ طـولَ الـدهـر إلّا تـوهُّـمـا

وعن المرزوقيِّ أنَّه خرَّجه على النصب على الظرفية ـ وهو إمَّا خبرٌ مقدَّمٌ أو ظرفٌ معتمِدٌ ـ وزعَمَ أنَّ ذلك مذهب سيبويه[(١)].

وجُوِّز أنْ يكون النصبُ بـ «وعد الله» على أنَّه مفعولٌ له، والرفعُ بـ «حقّاً» على أنَّه فاعلٌ له.

وظاهرُ كلام «الكشاف»[(٢)] يدلُّ على أنَّ الفعلَين العاملَين في المصدرَين المذكورَين هما اللذان يَعملان فيما ذُكر، لا فعلان آخران مثلهما، وحينئذٍ يفوتُ أمرُ التأكيد الذي ذكرناه؛ لأنَّ فاعلَ العامل في المصدر[(٣)] المؤكِّد لا بدَّ أنْ يكون عائداً على ما تقدَّمه مما أكَّده.

وقرئ: «حقٌّ أنَّه يبدأ الخلق»[(٤)]، وهو كقولك: حقٌّ أنَّ زيداً منطلقٌ. وقرئ: «يُبدِئُ» من أبدأ[(٥)].

ولعلَّ المراد من الخَلْقِ نحوُ المكلَّفين، لا ما يَعُمُّ ذلك والجمادات، ويؤيِّد ذلك ما أخرجه غيرُ واحدٍ عن مجاهد أنَّ معنى الآية: يُحيي الخلق ثم يُميتُه ثم يحييه[(٦)].

﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل، وهو حالٌ من فاعلِ «يجزي»، أي: ملتبساً بالعدل، أو متعلِّقٌ بـ «يجزي» أي: ليجزيَهم بقِسْطِه ويُوفِّيَهم أجورَهم، وإنَّما أجملَ ذلك إيذاناً بأنَّه لا يَفي به الحصرُ، ويُرشِّح ذلك جَعْلُ ذاتِهِ

---

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/ ٩٨٢، والبيت فيه منسوب لرُقيبة الجَرْمي من طيئ، قال المرزوقي: قوله: حقّاً، انتصب عند سيبويه على الظرف، كأنه: أفي الحق ذلك، وينظر الكتاب ٣/ ١٣٥.

(٢) ٢/ ٢٢٥.

(٣) في الأصل و(م): بالمصدر، والمثبت من حاشية الشهاب ٥/ ٧، والكلام منه.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ١٠٥، والكشاف ٢/ ٢٢٥، والبحر ٥/ ١٢٤ عن ابن أبي عبلة.

(٥) القراءات الشاذة ص٥٦، والبحر ٥/ ١٢٤ عن طلحة بن مصرف.

(٦) تفسير الطبري ١٢/ ١١٦، وتفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٢٦.

الكريمة هي المُجَازِيَة، أو: بِقِسْطِهم وعَدْلِهم في أمورهم. أو: بإيمانهم؛ ورُجِّح هذا بأنَّه أَوْفَقُ بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ۝٤﴾ فإن معناه: ويَجزي الذين كفروا بشرابٍ من ماءٍ حارٍّ قد انتهى حرُّه وعذابٍ أليمٍ بسبب كفرهم، فيظهرُ التقابُلُ بين سببي جزاءِ المؤمنين وجزاءِ الكافرين، مع أنَّهُ لا وجْهَ لتخصيصِ العدل بجزاء المؤمنين، بل جزاءُ الآخَرين أَوْلَى به كما لا يخفى[(١)].

وتكريرُ الإسنادِ بجَعْلِ الجملةِ الظرفيةِ خبراً للموصولِ لتقويةِ الحُكْم، والجمعُ بين صيغتَي الماضي والمضارع للدلالة على مُواظبتهم على الكفر.

وتغييرُ النظم الكريم للمبالغة في استحقاقهم العقابَ بجَعْلِه حقّاً مقرَّراً لهم، والإيذانِ بأنَّ التعذيبَ بمعزلٍ عن الانتظام في سلك العلَّة الغائية للإعادة بناءً على تعلُّق «ليجزي» بها، أو لها وللبدء بناءً على تعلُّقه بهما على التنازُع، وإنَّما المنتظمُ في ذلك السلكِ هو الإثابةُ، فهي المقصودةُ بالذات، والعقابُ واقعٌ بالعَرَض.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ تنبيهٌ على الاستدلال على وجوده تعالى ووحدته وعِلْمِه وقدرتِهِ وحكمته بآثارِ صنيعِه في النَّيِّرَيْن بعد التنبيه على الاستدلال بما مرَّ، وبيانٌ لبعض أفراد التدبير الذي أُشير إليه إشارةً إجماليةً، وإرشادٌ إلى أنَّه سبحانه حين دبَّر أمورَهم المتعلِّقةَ بمعاشهم هذا التدبير[(٢)] البديع، فَلأَنْ يُدبِّرَ مصالحهم المتعلِّقةَ بمَعَادهم بإرسال الرسل وإنزالِ الكتب أَوْلَى وأَحْرَى.

و«جَعَلَ»[(٣)] إمَّا بمعنى: أنشأ وأبدع، فـ «ضياءً» حالٌ من مفعوله، وإمَّا بمعنى: صيَّر فهو مفعولُه الثاني. والكلامُ على حدِّ: ضيِّق فمَ القربة؛ إذ لم تكن الشمسُ خاليةً عن تلك الحالةِ، وهي ـ على ما قيل ـ مأخوذةٌ من: شمسة القلادة، للخرزة الكبيرة وَسطَها، وسمِّيت بذلك لأنَّها أعظمُ الكواكب كما تدلُّ عليه الآثارُ ويَشْهَدُ له الحِسُّ، وإليه ذهب جمهورُ أهل الهيئة.

---

(١) أي: تخصيص العدل بجزاء الكافرين أولى من تخصيصه بجزاء المؤمنين؛ لِمَا اشتهر أن الثواب بفضله والعقاب بعدله. حاشية الشهاب ٥/٦.

(٢) في (م): التدبر، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/١٢٠، والكلام منه.

(٣) في (م): أو جعل، وهو خطأ.

ومنهم مَن قال: سمِّيت بذلك لأنَّها في الفلك الأوسط بين أفلاك العلوية وبين أفلاك الثلاثة الأُخَر، وهو أمرٌ ظنِّيٌّ لم تَشْهَدْ له الأخبارُ النبويةُ كما ستعلمه قريباً إنْ شاء الله تعالى.

والضياءُ مصدرٌ كـ: قيام، وقال أبو عليٍّ في «الحجة»: كونه جمعاً كحوضٍ وحياض، وسَوْطٍ وسياط، أَقْيسُ من كونه مصدراً[1]. وتعقَّب بأنَّ إفراد النور فيما بعدُ يرجِّح الأول، وياؤه منقلبةٌ عن واو لانكسار ما قبلها. وأصلُ الكلام: جَعَل الشمسَ ذاتَ ضياءٍ.

ويجوزُ أنْ يجعلَ المصدرُ بمعنى اسم الفاعل، أي: مضيئة، وأَنْ يبقَى على ظاهره من غير مضافٍ فيفيدُ المبالغةَ بجَعْلِها نفسَ الضياء.

وقرأ ابنُ كثير: «ضئاءً» بهمزتَين بينهما ألف[2]. والوجهُ فيه كما قال أبو البقاء: أنْ يكون أَخَّر الياء وقدَّم الهمزة، فلمَّا وقعَت الياءُ طرفاً بعد ألفٍ زائدةٍ قُلبتْ همزةً عند قوم، وعند آخرين قُلبت ألفاً، ثم قلبت الألفُ همزةً لئلا يجتمع ألفان[3].

﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ أي: ذا نورٍ، أو منيراً، أو نفسَ النور على حدِّ ما تقدَّم آنفاً. والنورُ قيل: أعمُّ من الضوء، بناءً على أنَّه ما قَوِيَ من النور، والنورُ شاملٌ للقويِّ والضعيف، والمقصودُ من قوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ [النور: ٣٥] تشبيهُ هداهُ الذي نَصَبَه للناس بالنور الموجودِ في الليل أثناءَ الظلامِ، والمعنى: أنَّه تعالى جَعَل هُداه كالنور في الظلام، فيُهدَى قومٌ ويَضلُّ آخرون، ولو جعله كالضياء الذي لا يبقَى معه ظلام لم يضلَّ أحدٌ، وهو مُنافٍ للحكمة. وفيه نظر.

وقيل: هما متباينان؛ فما كان بالذات فهو ضياءٌ، وما كان بالعَرَض فهو نورٌ، ولكون الشمس نَيِّرَةً بنفسها نسب إليها الضياء، ولكون نورِ القمر مستفاداً منها نسب إليه النور.

---

(١) الحجة ٤/ ٢٥٨-٢٥٩، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ٧.

(٢) وهي رواية قنبل عن ابن كثير. التيسير ص١٢٠، والنشر ٢/ ٢٨٢.

(٣) الإملاء ٣/ ٢١٢.

وتعقَّبه العلَّامةُ الثاني بأنَّ ذلك قولُ الحكماء وليس من اللغة في شيءٍ، فإنَّه شاع: نورُ الشمس ونورُ النار.

ونحن قد بَسطنا الكلامَ على ذلك فيما تقدَّم[١]، وفي كتابنا «الطراز المذهب» وأتينا بما فيه هدًى للناظرين.

بقي أنَّ حديثَ الاستفادة المذكورة سواءٌ كانت على سبيل الانعكاس من غير أنْ يصيرَ جوهرُ القمر مُستنيراً كما في المرآة، أو بأنْ يستنيرَ جوهرُه على ما هو الأشبهُ عند الإمام[٢]، قد ذكرها كثيرٌ من الناس حتى القاضي في تفسيره[٣]، وهو مما لم يَجِئ من حديثِ مَن عَرَج إلى السماء ﷺ، وإنَّما جاء عن الفلاسفة.

وقد زعموا أنَّ الأفلاك الكلِّيَة تسعةٌ، أعلاها فَلَكُ الأفلاك، ثمَّ فَلَكُ الثوابت، ثمَّ فَلَكُ كَيْوانَ، ثم فلك بِرْجِيس[٤]، ثم فلك بَهْرام[٥]، ثم فلك الشمس، ثم فلك الزهرة، ثم فلك الكاتب[٦]، ثم فلك القمر.

وزَعَم صاحب «التحفة»[٧] أنَّ فَلَكَ الشمس تحت فَلَكِ الزهرة، وما عليه الجمهورُ هو الأولُ، واستَدلَّ كثيرٌ منهم على هذا الترتيب بما يبقَى معه الاشتباهُ بين الشمس وبين الزهرة والكاتب، كالكسفِ والانكساف، واختلاف المنظر الذي يُتوصَّلُ إلى معرفته بذات الشعبتَين؛ لأنَّ الأول لا يُتصوَّر هناك؛ لأنَّ الزهرة والكاتب يحترقان عند الاقتران في معظم المعمورة، والثاني أيضاً مما لا يُستطاع عِلْمُه بتلك الآلة؛ لأنَّها تنصب في سطح نصف النهار، وهذان الكوكبان لا يَظْهَران

---

(١) ١/ ٤٦٦-٤٦٨.

(٢) في تفسيره ١٧/ ٣٣-٣٤.

(٣) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ٧.

(٤) برجيس: هو كوكب المشتري، وكيوان: زحل. القاموس (برجس) و(كون).

(٥) وهو كوكب المريخ. اللسان (بهرم).

(٦) في تهذيب اللغة ٣/ ٣٤٦، والعين ٢/ ٣٢٧، واللسان والتاج (عطرة): الكُتَّاب، وهو كوكب عطارد.

(٧) وهو: التحفة الشاهية في الهيئة، لقطب الدين محمود بن مسعود الشيرازي المتوفى سنة (٧١٠ هـ). كشف الظنون ١/ ٣٦٧.

هناك لكونهما حَوالي الشمسِ بأقلَّ مِن بُرْجَين، فإذا بلغا نصفَ النهار كانت الشمسُ فوق الأرض شرقيةً أو غربيّة، فلا يُرَيان أصلاً.

وجَعْلُ الشمس في الفلك الأوسط لما في ذلك في حُسنِ الترتيب كأنَّها شمسةُ القلادة، أو لأنَّها بمنزلة الملِكِ في العالَم، فكما يَنبغي للملك أنْ يكون في وسط العسكر ينبغي لها أنْ تكون في وسط كرات[1] العالَم = أمرٌ إقناعيٌّ، بل هو مِن قَبيل التمسُّك بحبال القمر.

ومثلُ ذلك تمسُّكُهم في عدم الزيادة على هذه الأفلاك بأنَّه لا فضل في الفلكيات، مع أنَّه يلزم عليه أنْ يكون ثخنُ الفلك الأعظم أقلَّ ما يمكن أنْ يكون للأجسام من الثخانة؛ إذ لا كوكب فيه حتى يكونَ ثخنُه مساوياً لقطره، فالزائد على أقلِّ ما يمكن فَضْلٌ.

وقد بَيَّن في رسالة «الأبعاد والأجرام»[2] أنَّه بلغ الغاية في الثخن، وقد قدَّمنا لك ذلك، وحينئذٍ يُمكن أنْ يكونَ لكلٍّ مِن الثوابت فلكٌ على حدة، وأنْ تكون تلك الأفلاكُ متوافقةً في حركاتها جهةً وقطباً ومنطقةً وسرعةً، بل لو قيل بتخالُفِ بعضها لم يكن هناك دليلٌ ينفيه؛ لأنَّ المرصود منها أقلُّ قليلٍ، فيمكنُ أنْ يكونَ بعضُ ما لم يُرصَد متخالفاً. على أنَّ مِن الناس مَن أثبت كرةً فوقَ كرةِ الثوابت وتحت الفلك الأعظم، واستَدلَّ على ذلك بما استَدلَّ.

ومَن عَلِمَ أنَّ أرباب الأرصاد منذُ زمانٍ يسيرٍ وَجَدوا كوكباً سيَّاراً أبطأ سيراً من زُحل وسمَّوه هرشلاً[3]، وقد رَصَده لالنت[4] فوجَدَه يقطعُ في ستٍّ سنين شمسيةٍ وأحدَ عَشَرَ شهراً وسبعةٍ وعشرين يوماً، وهو يومُ تحريرنا هذا المبحث، وهو اليومُ الرابعُ والعشرون مِن جُمادَى الآخرة سنةَ الألف والمئتين والستِّ والخمسين، حيث

---

(١) في الأصل: كرة.

(٢) لحبش بن عبد الله المروزي الحاسب أحد أصحاب الأرصاد، المتوفى سنة (٢٢٠ هـ). الفهرست ص ٣٣٤، وهدية العارفين ١/ ٢٦٢.

(٣) وهو المشهور باسم أورانوس، وسمي هرشلاً على اسم مكتشفه العالم الإنكليزي وليم هرشل (١٧٣٨-١٨٢٢). المنجد ص ٧٢٧.

(٤) جوزيف لالاند (١٧٣٢-١٨٠٨) فلكي فرنسي اشتغل في بحث النجوم السيارة، وأخصُّها عطارد والنجوم المذنَّبة. المنجد ص ٦٠٨.

الشمسُ في السنبلة قد قَطَعَ من الحوت درجةً واحدةً وثلاثَ عشرةَ دقيقةً راجعاً = لا يبقَى له اعتمادٌ على ما قاله المتقدِّمون، ويجوِّزُ أمثالَ ما ظَفَرَ به هؤلاء المتأخِّرون.

وأيضاً من الجائز أنْ تكون الأفلاك ثمانيةً؛ لإمكانِ كونِ جميع الثوابت مركوزةً في محدَّبِ ممثِّلِ زحل، أي: في مُتمِّمه الحاوي على أنَّه يتحرَّك بالحركة البطيئة، والفلكُ الثامن يتحرَّك بالحركة السريعة، وحينئذٍ تكونُ دائرةُ البروج المارَّة بأوائل البروج منتقلةً بحركة الثامن غيرُ مُنتقلة بحركة الممثل، ليحصل انتقالُ الثوابت بحركة الممثل من برجٍ إلى برجٍ كما هو الواقع.

وقد صرَّح البِرْجَنْدي[1] أنَّ القدماء لم يُثبتوا الفلك الأعظم، وإنَّما أثبتَه المتأخِّرون.

وأيضاً يجوزُ أنْ تكونَ سبعةً بأنْ يفرض الثوابت ودوائر[2] البروج على محدَّب ممثل زحل، ويكونُ هناك نفسان تتَّصل إحداهما بمجموعِ السبعة وتُحرِّكُها إحدى الحركَتَين الأولَيَيْن، والأخرى بالكرة السابعة وتُحرِّكُها الأخرى، ولكنْ يُشترط[3] أنْ تُفرَضَ دوائرُ البروج مُتحرِّكةً بالسريعة دون البطيئة، كتَحرُّكِها متوهَّمةً على سطوح الممثلات بالسريعة دون البطيئة، لينقل الثوابت بالبطيئة مِن بُرجٍ إلى برجٍ كما هو في الواقع، ونحن وراء المنع فيما يَرِدُ على هذا الاحتمال.

وأيضاً ذَكَر الإمام أنَّه لِمَ لا يجوز أنْ تكونَ الثوابتُ تحت فلكِ القمر، فتكون تحت كرات السيارة لا فوقها؟ وما يقال مِن أنَّا نَرَى أنَّ هذه السيارة تكسِف الثوابت، والكاسِفُ تحت المكسوف لا محالةَ، مدفوعٌ بأنَّ هذه السيارات إنَّما تكسِفُ الثوابتَ القريبة من المنطقة دونَ القريبة من القُطْبَين، فلِمَ لا يجوزُ أنْ يقال: هذه الثوابتُ القريبةُ من المنطقة مركوزةٌ في الفلك الثامن، والقريبةُ من

---

(١) عبد العلي بن محمد بن الحسين البرجندي الحنفي، له حاشية على شرح الملخص في الهيئة، وشرح التذكرة النصيرية في علم الهيئة وغيرهما، توفي سنة (٩٣٢هـ). كشف الظنون ٢/ ١٨٢٠، وهدية العارفين ١/ ٥٨٦.

(٢) في (م): ودائرة.

(٣) في (م): بشرط.

القطبَين مركوزةٌ في كرة أُخرى تحت كرة القمر؟ على أنَّه لِمَ لا يجوزُ أنْ يقال: الكواكبُ تتحرَّك بأنفسها من غير أنْ تكونَ مركوزةً في جسم آخر؟ ودون إثباتِ الامتناع خرطُ القتاد(١).

وذكروا في استفادة نور القمر مِن ضوء الشمس أنَّه من الحَدْسيات؛ لاختلاف أشكاله بحسب قُربه وبُعده منها، وذلك كما قال ابنُ الهيثم(٢): لا يفيدُ الجزمَ بالاستفادة؛ لاحتمال أنْ يكونَ القمرُ كُرةً نصفُها مضيء ونصفُها مظلمٌ، ويَتحرَّكُ على نفسه، فيُرَى هلالاً ثم بدراً ثم يَنمَحِقُ وهكذا دائماً. ومقصوده أنَّه لا بدَّ من ضمِّ شيءٍ آخرَ إلى اختلافِ الأشكال حَسَبَ القُرْبِ والبُعْدِ ليدلَّ على المدَّعَى، وهو حصولُ الخسوف عند توسُّطِ الأرض بينه وبين الشمس.

وبعضُ المحقِّقين كصاحب «حكمة العين» وصاحبِ «المواقف»(٣) نَقَلوا ما نَقَلوا عن ابنِ الهيثم ولم يقفوا على مقصوده منه، فقالوا: إنَّه ضعيفٌ، وإلَّا لَمَا انخسفَ القمر في شيء من الاستقبالات أصلاً، وذلك كما قال العاملي: عجيبٌ منهم.

وأنت تعلم أنْ لا جزْمَ أيضاً، وأنَّ ضَمَّ ما ضُمَّ لجوازِ أنْ يكون سببٌ آخرُ لاختلاف تلك الأشكال النورية لكنَّا لا نعلمه، كأنْ يكون كوكبٌ كَمِدٌ تحت فلك القمر ينخسف به في بعض استقبالاته.

وإنْ طُعن في ذلك بأنَّه لو كان لرؤي. قلنا: لِمَ لا يجوز أنْ يكونَ الاختلافُ والخسوفُ من آثار إرادة الفاعل المختار مِن دون توسُّطِ القُرْبِ والبُعْدِ من الشمس، وحيلولةِ الأرض بينها وبينه، بل ليس هناك إلا توسُّطُ الكافِ والنون، وهو كافٍ عند مَن سَلِمَتْ عينُه من الغين.

---

(١) تفسير الرازي ٢/ ١٥٦-١٥٧.

(٢) الحسن بن الحسن بن الهيثم، وقيل: محمد بن الحسن بن الهيثم، أبو علي، كان خبيراً في الطب، ولم يماثله أحد من أهل زمانه في العلم الرياضي، ولخص كثيراً من كتب أرسطو وجالينوس وشرحها، وله مصنفات منها: مقالة في هيئة العالم، توفي سنة (٤٣٠هـ). الوافي بالوفيات ١١/ ٤٢٠-٤٢١.

(٣) ص٢١٤، وشرح المواقف ٧/ ١٣٤-١٣٥، وصاحب حكمة العين هو نجم الدين أبو الحسن علي بن محمد القزويني المتوفى سنة (٦٧٥ هـ). كشف الظنون ١/ ٦٨٥.

وللمتشرِّعين من المحدثين، وكذا لساداتنا الصوفية قدَّس الله تعالى أسرارَهم كلماتٌ شهيرةٌ في هذا الشأن، ولعلَّك قد وقفْتَ عليها، وإلَّا فستقفُ بعدُ إن شاء الله تعالى.

وقد استندوا فيما يقولون إلى أخبارٍ نبويةٍ، وأرصادٍ قلبية، وغالبُ الأخبار في ذلك لم تبلغ درجةَ الصحيح، وما بلغ منها آحادٌ، ومع هذا قابلٌ للتأويل بما لا يُنافي مذهبَ الفلاسفة، والحقُّ أنَّه لا جَزْمَ بما يقولونه في ترتيب الأجرام العلويَّة وما يلتحق بذلك، وأنَّ القول به ممَّا لا يضرُّ بالدِّين إلَّا إذا صادَمَ ما عُلِمَ مجيئُه عن النبيِّ ﷺ.

هذا وسمِّي القمرُ قمراً لبياضِه كما قال الجوهريُّ، واعتَبَرَ هو وغيرهُ كونه قمراً بعد ثلاث[1].

﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾ أي: قدَّر له وهيَّأ ﴿مَنَازِلَ﴾، أو: قدَّر مسيرَه في منازلَ، فـ «منازل» على الأول مفعولٌ به، وعلى الثاني نصبٌ على الظرفية.

وجُوِّز أنْ يكون «قدَّر» بمعنى جَعَل المتعدِّي لواحد، و«منازل» حالٌ من مفعوله، أي: جَعَلَه وخَلَقَه متنقِّلاً، وأنْ يكون بمعنى «جَعَل» المتعدِّي لاثنين، أي: صيَّره ذا منازل، وأيّاً ما كان فالضميرُ للقمر، وتخصيصُه بهذا التقدير لسرعة سيره بالنسبة إلى الشمس؛ ولأنَّ منازلَه معلومةٌ محسوسةٌ، ولكونه عُمدةً في تواريخ العرب؛ ولأنَّ أحكام الشرع منوطةٌ به في الأكثر، وجُوِّزَ أنْ يكونَ الضميرُ له وللشمس بتأويل كلٍّ منهما.

والمنازلُ ثمانية وعشرون، وهي: الشَّرَطانِ، والبُطَيْنُ، والثُّريَّا، والدَّبَرانِ، والهَقْعةُ، والهَنْعَةُ، والذِّراعُ، والنَّثْرةُ، والطَّرْفُ، والجبْهَةُ، والزُّبْرةُ، والصَّرْفةُ، والعوَّاءُ، والسِّمَاك الأعزلُ، والغَفْر[2]، والزُّبانَى، والإكليل، والقَلْبُ، والشَّوْلَةُ، والنَّعائمُ، والبَلْدَةُ، وسَعْدُ الذابحُ، وسَعْدُ بُلَعَ، وسَعْدُ السُّعود، وسَعْدُ الأخبيةِ، وفَرْغُ الدَّلْوِ المُقدَّمِ، والفَرْغُ المؤخَّرُ، وبَطْنُ الحوت[3].

---

(١) الصحاح (قمر).

(٢) في (م): والعفرة، وهو خطأ.

(٣) ينظر هذه المنازل مع شرحها في الأزمنة والأمكنة للمرزوقي ١/١٧٦-١٨٦، والعمدة لابن رشيق ٢/٢٥٣-٢٥٧، وتفسير القرطبي ١٧/٤٤٦ و٤٤٩، والقاموس كلٌّ في بابه.

وهي مقسَّمةٌ على البروج الاثني عشر المشهورة، فيكونُ لكلِّ برجٍ منزلان وثلثٌ، والبرجُ عندهم ثلاثون درجةً حاصلةً من قسمة ثلاث مئة وستين أجزاءِ دائرةِ البروج على اثني عشر، والدرجةُ عندهم مُنقسمةٌ بستين دقيقةً، وهي منقسمةٌ بستين ثانية، وهي منقسمةٌ بستين ثالثةً، وهكذا إلى الروابع والخوامس والسوادسِ وغيرِها.

ويَقطعُ القمرُ بحركته الخاصةِ في كلِّ يوم بليلته ثلاثَ عَشْرةَ درجةً، وثلاثَ دقائقَ، وثلاثاً وخمسين ثانيةً، وستًّا وخمسينَ ثالثةً.

وتسميةُ ما ذكرنا منازلَ مجازٌ؛ لأنَّه عبارةٌ عن كواكبَ مخصوصةٍ من الثوابت قريبة من المنطقة، والمنزلةُ الحقيقيةُ للقمر الفراغُ الذي يشغلُه جُرْمُ القمرِ ـ على أحدِ الأقوال ـ في المكان، فمعنى نزولِ القمر في هاتيك المنازل: مُسَامَتَتُه إياها، وكذا تعتبرُ المُسَامَتَةُ في نزوله في البروج؛ لأنَّها مفروضةٌ أوَّلاً في الفَلَكِ الأعظم، وأمَّا تسميةُ نحوِ الحمل والثور والجوزة بذلك، فباعتبار المسامتةِ أيضاً.

وكان أولُ المنازل الشَّرَطَيْنِ ـ ويقال له: النَّطْحُ ـ وهو لأوَّل الحَمَل، ثم تحرَّكت حتى صار أوَّلُها ـ على ما حرَّره المحقِّقون من المتأخرين ـ الفَرْغَ المؤخَّرَ، ولا يثبت على ذلك؛ لأنَّ للثوابت حركةً على التَّوالي ـ على الصحيح ـ وإنْ كانت بطيئةً، وهي حركةُ فَلَكِها.

ومُثبِتو ذلك اختلفوا في مقدار المدَّة التي يقطعُ بها جزءاً واحداً من درجات منطقتِهِ، فقيل: هي ستٌّ وستُّون سنةً شمسية، أو ثمان وستُّون سنةً قمريةً، وذهب ابنُ الأعلم(١) إلى أنَّها سبعون سنةً شمسيةً، وطابقَه الرَّصْدُ الجديدُ الذي تولَّاه نصيرُ الطوسيُّ بِمَرَاغَة(٢). وزَعَم محيي الدين أحدُ أصحابه أنَّه تولَّى رصْدَ عِدَّةٍ من الثوابت

---

(١) علي بن الحسن العلوي من أولاد جعفر الطيار ﷺ، بغدادي المنشأ والمولد، وكان عالماً بالهندسة وأجزائها، عارفاً بالقانون الفيثاغوري، توفي سنة (٣٣٥هـ). تاريخ حكماء الإسلام ص٩٠، والأعلام ٤/ ٢٧٢.

(٢) نصير الطوسي هو محمد بن محمد بن الحسن، الفيلسوف صاحب علوم الرياضة والرصد، أشهر أساتذته سالم بن بدران المصري المعتزلي الرافضي، من تصانيفه: المتوسطات من الهندسة والهيئة. وبنى رصداً بمراغة، وهي بلدة مشهورة من أعظم وأشهر بلاد أذربيجان، توفي سنة (٦٧٢هـ). الوافي بالوفيات ١/ ١٧٩، وينظر معجم البلدان ٥/ ٩٣.

كعين الثورِ وقلبِ العقرب بذلك الرصد، فوجَدَها تتحرَّك في كلِّ ستٍّ وستِّين سنةً شمسيةً درجةً واحدةً. وادَّعى بطليموس أنَّه وجد الثوابتَ القريبةَ إلى المنطقة متحرِّكةً في كلِّ مئةِ سنةٍ شمسيةٍ درجةً. والله تعالى أعلمُ بحقائق الأحوال، وهو المتصرِّفُ في ملكِه وملكوته حَسْبَما يشاء.

﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ﴾ التي يتعلَّق بها غرضٌ علميٌّ لإقامة مصالحكم الدينية والدنيوية ﴿وَالْحِسَابَ﴾ أي: ولتعلموا الحسابَ بالأوقاتِ من الأشهر والأيام وغيرِ ذلك مما نيط به شيءٌ من المصالح المذكورة.

واللامُ ـ على ما يُفهم من «أمالي» عزِّ الدين بنِ عبد السلام ـ متعلِّقةٌ بـ «قدَّر». واستَشْكَلَ هو ذلك بأنَّ عِلْمَ العددِ والحساب لا يفتقرُ لكون القمر مقدَّراً بالمنازل، بل طلوعُه وغروبُه كافٍ.

وذكر بعضُهم أنَّ حكمةَ ذلك صلاحُ الثمار بوقوع شعاع القمر عليها وقوعاً تدريجيّاً، وكونُه أدلَّ على وجوده سبحانه وتعالى؛ إذ كثرةُ اختلافِ أحوال الممكن وزيادةُ تفاوتِ أوصافه أدْعَى إلى احتياجه إلى صانعٍ حكيم واجبٍ بالذات، وغير ذلك مما يعرفه الواقفون على الأسرار.

وأجابَ مولانا سريُّ الدِّين(١) بأنَّ المرادَ من الحساب حسابُ الأوقات بمعرفةِ الماضي من الشهر والباقي منه، وكذا من الليل، ثم قال: وهذا إذا علَّقتَ اللامَ بـ «قدَّره منازل» فإنْ علَّقتَه بـ «جعَلَ الشمس والقمر» لم يَرِدِ السؤال.

ولعلَّ الأولَى على هذا أنْ يحمل «السنين» على ما يعمُّ السنينَ الشمسيةَ والقمريَّةَ، وإنْ كان المعتبرُ في التاريخ العربيِّ الإسلاميِّ السنةَ القمريةَ، والتفاوتُ بين السنتَين عشرةُ أيَّام وإحدَى عَشْرَةَ ساعةً ودقيقةٌ واحدةٌ، فإنَّ السنة الأولى عبارةٌ عن ثلاث مئة وخمسةٍ وستينَ يوماً وخمسِ ساعاتٍ وتسع وأربعينَ دقيقةً على مقتضَى الرصد الإيلخاني، والسنة الثانيةُ عبارةٌ عن ثلاث مئة وأربعةٍ وخمسين يوماً وثماني ساعاتٍ وثمانٍ وأربعينَ دقيقةً، وينقسم كلٌّ منهما إلى بسيطةٍ وكبيسةٍ، وبيانُ ذلك في محلِّه.

---

(١) ابن إبراهيم المصري الحنفي المعروف بابن الصائغ، وسلفت ترجمته ١٠/ ٢٣٢.

وتخصيصُ العدد بالسنين، والحساب بالأوقات؛ لِمَا أنَّه لم يُعتبر في السنينَ المعدودةِ معنًى مغايرٌ لمراتبِ الأعداد كما اعتُبر في الأوقات المحسوبة. وتحقيقُه: أنَّ الحساب إحصاءُ ما له كمِّيَّةٌ انفصاليةٌ بتكريرِ أمثاله، من حيث يتحصَّل بطائفةٍ معيَّنةٍ منها عددٌ معيَّنٌ له اسمٌ خاصٌّ وحُكْمٌ مُستقلٌّ، كالسَّنة المتحصِّلةِ من اثني عشرَ شهراً، قد تحصَّل كلٌّ مِن ذلك مِن أيامٍ معلومة، قد تحصَّل كلٌّ منها مِن ساعاتٍ كذلك، والعدُّ[1] مجرَّدُ إحصائه بتكريرِ أمثاله من غير اعتبارِ أنْ يتحصَّل بذلك شيءٌ كذلك، ولمَّا لم يُعتَبر في السنينَ المعدودةِ تحصُّلُ حدٍّ معيَّنٍ له اسمٌ خاصٌّ غيرُ أسامي مراتبِ الأعداد وحُكْمٌ مستقلٌّ، أُضيف إليها العدد. وتحصُّلُ مراتب الأعداد من العشرات والمئات والألوف اعتباريٌّ لا يُجدي في تحصيل المعدود[2] نفعاً، وحيث اعتُبر في الأوقات المحسوبة تحصيلُ[3] ما ذكر من المراتب التي لها أسام خاصَّةٌ وأحكامٌ مستقلَّةٌ عُلِّق بها الحساب المنبئُ عن ذلك، والسنةُ من حيث تحقُّقُها في نفسها مما يتعلَّق به الحساب، وإنَّما الذي يتعلَّق به العدُّ[4] طائفةٌ منها، وتعلُّقه في ضمن ذلك بكلِّ واحدةٍ من تلك الطائفة ليس من تلك الحيثية المذكورة، أعني حيثيَّةَ تحصُّلها من عدة أشهر، قد تحصَّل كلٌّ واحدٍ منها من عدَّةِ أيامٍ، قد حَصَل كلٌّ منها من عدَّة ساعات، فإنَّ ذلك وظيفةُ الحساب، بل من حيث إنَّها فردٌ من تلك الطائفة المعدودة من غير أنْ يعتبر معها شيءٌ غيرُ ذلك.

وتقديمُ العدد على الحساب مع أنَّ الترتيب بين متعلّقَيهما وجوداً وعِلْماً على العكس؛ لأنَّ العلم المتعلِّق بعدد السنين[5] علمٌ إجماليٌّ بما تعلَّق به الحساب تفصيلاً وإنْ لم تَتَّحد الجهةُ، أو لأنَّ العدد من حيث إنه لم يُعتبر فيه تحصيلُ[6] أمرٍ آخرَ ـ حَسْبَما حُقِّق آنفاً ـ نازلٌ من الحساب الذي اعتُبر فيه ذلك منزلةَ البسيط من المركب. قاله شيخ الإسلام.

---

(١) في الأصل: والعدد، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٤/ ١٢١، والكلام منه.
(٢) في تفسير أبي السعود: في تحصُّل المعدودة.
(٣) في تفسير أبي السعود: تحصل.
(٤) في الأصل: العدد، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود.
(٥) بعدها في (م): له، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود.
(٦) في تفسير أبي السعود: تحصل.

﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر من الشمس والقمر على ما حكَى سبحانه من الأحوال ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ استثناءٌ من أعمِّ أحوال الفاعل أو المفعول[١]، والباء للملابسة، أي: ما خَلَق ذلك مُلتبساً بشيءٍ من الأشياء إلَّا ملتبساً بالحقِّ، مراعياً فيه الحكمة والمصلحة، أو مُراعًى فيه ذلك، فالمراد بالحقِّ هنا خلافُ الباطل والعَبَث.

﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي: الآياتِ التكوينيةَ المذكورةَ، أو الأعمَّ منها ويدخلُ المذكورُ دخولاً أوَّليّاً، أو: يفصِّل[٢] الآيات التنزيلية المنبِّهة على ذلك.

وقرئ: «نفصل» بنون العظمة[٣]، وفيه التفاتٌ.

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾ الحكمةَ في إبداع الكائنات، فيستدلُّون بذلك على شؤون مُبدِعِها جلَّ وعلا، أو: يعملون ما في تضاعيف الآيات المنزَلةِ فيؤمنون بها. وتخصيصُ التفصيل بهم على الاحتمالَين، لأنَّهم المنتفعون به.

وقيل: المرادُ: لقومٍ عقلاءَ من ذوي العلم، فيعمُّ مَن ذكَرْنا وغيرَهم.

﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ تنبيهٌ آخرُ إجماليٌّ على ما ذُكر، أي: في تعاقُبِهما وكونِ كلٍّ منهما خلفةً للآخر بحسب طلوعِ الشمس وغروبها، التابعَين عند أكثر الفلاسفة لحركة الفلك الأعظم حول مركزه على خلاف التَّوالي، فإنَّه يلزمُها حركةُ سائرِ الأفلاك وما فيها من الكواكب ـ على ما تقدَّم ـ مع سكون الأرض، وهذا في أكثر المواضع، وأمَّا في عَرْض تسعين فلا يطلعُ شيءٌ ولا يغربُ بتلك الحركة أصلاً، بل بحركاتٍ أخرى، وكذا فيما يقرُب منه قد يقعُ طلوعٌ وغروبٌ بغير ذلك، وتُسمَّى تلك الحركةُ الحركةَ اليومية، وجعَلَها بعضُهم بتمامها للأرض، وجعَلَ آخرون بعضَها للأرض وبعضَها للفلك الأعظم.

والمشهورُ عند كثيرٍ من المحدِّثين أنَّ الشمس نفسَها تجري مسخَّرةً بإذن الله

---

(١) في (م): والمفعول، وهو خطأ، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود.

(٢) في (م): نفصل.

(٣) هي قراءة نافع وابن عامر وحمزة والكسائي وشعبة وخلف وأبي جعفر. التيسير ص١٢١، والنشر ٢/ ٢٨٢.

تعالى في بحرٍ مكفوفٍ، فتطلُع وتغرُب حيث شاء الله تعالى، ولا حركةَ للسماء، وإلى مثل ذلك ذهب الشيخ الأكبر قدِّس سرُّه[١].

ويجوزُ أنْ يُراد بـ «اختلاف الليل والنهار» تفاوتُهما في أنفسهما بازدياد كلٍّ منهما بانتقاصِ الآخر، وانتقاصِه بازدياده، وهو ناشئ[٢] عندهم من اختلاف حالِ الشمس بالنسبة إلينا قُرباً وبُعداً بسبب حركتها الثانية، التي بها تختلفُ الأزمنة، وتنقسمُ السنة إلى فصول، وقد يتساوَى الليلُ والنهار في بعض الأزمان عند بعضٍ، وذلك إنَّما يكون إذا اتَّفق حلولُ الشمس نقطةَ الاعتدال عند الطلوع أو الغروب، وكان الأوجُ في أحد الاعتدالَين، فإنَّه إذا تحقَّق الأول كان قوسُ النهار كقوس الليل، وإذا تحقَّق الثاني كان الأمرُ بالعكس، وهذا نادرٌ جدّاً، ولا يُمكن على ما ذهب إليه بطليموس من عدم حركةِ الأوج، فلا يتساوَى الليلُ والنهار عنده أصلاً.

وقد يُراد اختلافُهما بحسب الأمكنة: إمَّا في الطول والقصر، فإنَّ البلاد القريبةَ من القطب الشمالي أيامُها الصيفيةُ أطولُ ولياليها الصيفيةُ أقصرُ من أيام البلاد البعيدة منه ولياليها، وإمَّا في أنفسهما فإنَّ كُريَّة الأرض ـ على ما قالوا ـ تقتضي أنْ يكون[٣] بعضُ الأوقات في بعضِ الأماكن ليلاً وفي مقابله نهاراً.

﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مِن المصنوعات المُتقَنةِ والآثارِ المُحْكَمةِ ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ عظيمةٍ كثيرةٍ دالَّةٍ عى وجود الصانع تعالى ووحدتِهِ وكمالِ قدرته، وبالغِ حكمته، التي مِن جملة مقتضياتها[٤] ما أنكروا مِن إرسال الرسولِ وإنزالِ الكتاب، وتَبيينِ طرائق الهدَى، وتَعيين مهاوي الردى.

﴿لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ۝٦﴾ اللهَ تعالى ويَحْذَرون من العاقبة، وخصَّهم[٥] سبحانه بالذكر؛ لأنَّ التقوى هي الداعيةُ للنظر والتدبُّر.

---

(١) في الباب الثامن والخمسين وخمس مئة من الفتوحات.
(٢) في الأصل: ناش.
(٣) في (م): تكون، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ١٢٢، والكلام منه.
(٤) في الأصل و(م): مقتضياته، والمثبت من تفسير أبي السعود.
(٥) في (م): وخصصهم، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ بيانٌ لمآل أمرِ مَن كفَرَ بالبعث المشار إليه فيما سبق، وأعرضَ عن البيِّنات الدالَّةِ عليه، والمرادُ بلقائه تعالى شأنُه إمَّا الرجوعُ إليه بالبعث، أو لقاءُ الحساب، وأيّاً ما كان ففيه مع الالتفات إلى ضمير الجلالة من تهويل الأمر ما لا يخفَى.

والرجاءُ يُطْلَقُ على توقُّع الخير كالأمل، وعلى الخوفِ وتوقُّعِ الشرِّ، وعلى مُطْلقِ التوقُّع، وهو في الأول حقيقةٌ وفي الأخيرَين مجازٌ، واختار بعضُ المحقِّقين المعنى المجازيَّ الأخيرَ المنتظِمَ للأمل والخوف، فالمعنى: لا يتوقَّعون الرجوعَ إلينا، أو لقاءَ حسابنا المؤدِّي إلى حُسْنِ الثواب أو إلى سوءِ العقاب، فلا يأمَلون الأولَ ولا يخافون الثاني.

ويشيرُ إلى عَدَمِ أَمَلهم قولُه سبحانه: ﴿وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فإنَّه مُنبئٌ عن إيثارِ الأَدْنَى الخسيس على الأعلى النفيس، وإلى عَدَمِ خوفهم قولُه عزَّ وجل: ﴿وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾ فإنَّ المرادَ: أنَّهم سكنوا فيها سكونَ مَن لا بَراحَ له، آمنين مِن اعتراء المزعجات، غيرَ مُخْطِرِين ببالهم ما يَسوءُهم من العذاب.

وجُوِّز أنْ يُراد بالرجاء المعنى الأول، والكلامُ على حذفِ مضافٍ، أي: لا يؤمِّلون حُسْنَ لقائنا بالبعث والإحياءِ بالحياة الأبدية، ورَضُوا بدلاً منها ومما فيها من الكرامات السَّنيَّةِ بالحياة الدنيا الفانيةِ الدنيَّةِ، وسكنوا إليها مُكِبِّين عليها قاصرين مَجامِعَ همَمِهم على لذائذها وزخارِفها، من غير صارفٍ يَلويهم ولا عاطفٍ يُثْنيهم.

وجُوِّز أن يُراد به المعنى الثاني، والكلام على حذف المضاف أيضاً، أي: لا يخافون سوءَ لقائنا الذي يجبُ أن يُخاف. وتعقِّب بأنَّ كلمة الرضا بالحياة الدنيا تأبَى ذلك، فإنَّها مُنبئةٌ عما تقدَّم من تَرْكِ الأعلى وأَخْذِ الأدنى.

وقال الإمام: إنَّ حَمْلَ الرجاء على الخوف بعيدٌ؛ لأنَّ تفسير الضدِّ بالضدِّ غيرُ جائزٍ(١). ولا يخفى أنَّه في حيِّز المنع، فقد وَرَدَ ذلك في استعمالهم، وذكره الراغب والإمامُ المرزوقيُّ، وأنشدوا شاهداً قولَ أبي ذؤيب:

---

(١) تفسير الرازي ١٧/٣٨.

إذا لَسَعَتْهُ النحلُ لم يَرْجُ لَسْعَها وحالَفَها في بيتِ نُوبٍ عواملِ(١)

ووجَّه ذلك الراغبُ بأنَّ الرجاء والخوف يتلازمان(٢).

وأمَّا الاعتراضُ على الإمام بأنَّ استعمال الضدِّ في الضدِّ جائزٌ في الاستعارة التهكُّمية، فليس بشيءٍ؛ لأنَّ مقصودَه رحمه الله تعالى أنَّ ذلك غيرُ جائزٍ في غير الاستعارة المذكورة، كما يُشعر به قولُه: تفسير، دون: استعارة، ثم إنَّه لا يجوز اعتبارُ هذه الاستعارة هنا؛ لأنَّ التهكُّم غيرُ مرادٍ كما لا يخفَى.

ويُعلم مما ذكرنا في تفسير الآية أنَّ الباء للظرفية، وجُوِّز أن تكونَ للسببيَّة على معنى: سكنوا بسبب زينتها وزخارفها. واختيارُ صيغة الماضي في الخصلَتين الأخيرتَين للدلالة على التحقُّق والتقرُّر، كما أنَّ اختيار صيغة المستقبَل في الأولَى للإيذان بالاستمرار.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾ المفصَّلةِ في صحائف الأكوان حَسْبَما أُشيرَ إلى بعضها، أو آياتنا المنزَّلة المنبِّهة على الاستدلال بها، المتَّفقةِ معها في الدلالة على حَقِّيَّة ما لا يرجونه من اللقاء المترتِّب على البعث، وعلى بطلان ما رضُوا به واطمأنوا فيه من الحياة الدنيا.

﴿غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ لا يتفكَّرون فيها أصلاً وإنْ نُبِّهوا بما نبهوا؛ لانهماكهم بما يصدُّهم عنها من الأحوال المعدودة، وتكريرُ الموصول للتوصُّل به إلى هذه الصلة المُؤْذِنة بدوام غَفْلَتهم واستمرارها.

والعطفُ لمغايرَةِ الوصف المذكور لِمَا قبله من الأوصاف، وفي ذلك تنبيهٌ على أنَّهم جامعون لهذا وتلك، وأنَّ كلَّ واحدٍ منهما متميِّزٌ مستقلٌّ صالحٌ لأنْ يكون منشأً للذمِّ والوعيد.

---

(١) ديوان الهذليين ١/١٤٣، ومجاز اللغة ٢/٧٣، ومعاني القرآن للفراء ١/٢٨٦، والخزانة ٥/٤٩١، ورواية الديوان: عواسل، بدل: عوامل. النوب: النحل، سميت بذلك لسوادها، أو لأنها تختلف وتجيء وتذهب. وعوامل: أي: تعمل العسل. وحالفها، أي: صار حليفها في بيتها، ويروى: وخالفها، أي: جاء إلى عسلها من ورائها لمَّا سرحت في المراعي.

(٢) مفردات الراغب (رجا).

والقولُ بأنَّ ذلك لتغايُرِ الوصفَين، والتنبيهِ على أنَّ الوعيد على الجمع بين الذهول عن الآيات رأساً والانهماكِ في الشهوات، بحيث لا تَخْطُر ببالهم الآخرةُ أصلاً = ليس بشيءٍ؛ إذ يُفهم من ظاهره أنَّ كلّاً منهما غيرُ موجبٍ للوعيد بالاستقلال، بل الموجبُ له المجموعُ، وهو كما ترى.

وكونُه لتغايُرِ الفريقَين، بأنْ يُراد من الأوَّلِينَ مَن أنكر البعثَ ولم يُرِدْ إلَّا الحياةَ الدنيا، وبالآخرِين مَن ألهاه حبُّ العاجل عن التأمُّل في الآجِلِ والإعدادِ له، كأهل الكتاب الذين ألهاهم حبُّ الدنيا والرياسةِ عن الإيمان والاستعدادِ للآخرة = بعيدٌ غايةَ البعد في هذا المقام.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الموصوفون بما ذُكر ﴿مَأْوَىٰهُمُ﴾ أي: مسكنُهم ومقرُّهم الذي لا براحَ لهم منه ﴿ٱلنَّارُ﴾ لا ما اطمأنُّوا به من الحياة الدنيا ونعيمِها.

﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٨﴾ من الأعمال القلبية المعدودةِ وما يستتْبعُه من المعاصي، أو بكَسْبِهم[1] ذلك. والجمعُ بين صيغتَي الماضي والمضارع للدلالة على الاستمرار. والباءُ متعلِّقةٌ بما دلَّ عليه الجملةُ الأخيرةُ الواقعةُ خبراً عن اسم الإشارة، وقدَّره أبو البقاء: جُوزُوا[2].

وجملة «أولئك» إلخ خبر «إنَّ» في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ﴾ إلخ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بما يجبُ الإيمان به، ويندرجُ فيه الإيمانُ بالآيات التي غفل عنها الغافلون اندراجاً أوَّليّاً، وقد يخصُّ المتعلق بذلك نظراً للمقام ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: الأعمالَ الصالحةَ في أنفسها اللائقةَ بالإيمان، وترك ذِكْرَ الموصوف لجريان الصفة مجرى الأسماء.

﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ أي: يهديهم بسبب إيمانهم إلى مأواهم ومقصدهم وهي الجنة، وإنَّما لم تُذكر تعويلاً على ظهورها وانسياقِ النفس إليها، لا سيما مع ملاحظة ما سَبَقَ من بيان مأوى الكفرة وما أدَّاهم إليه من الأعمال السيئة، ومشاهدةِ ما لَحِقَ من التلويح والتصريح.

---

(١) في (م) يكسبهم، وهو تصحيف.
(٢) الإملاء ٣/ ٢١٤.

والمراد بهذا الإيمان الذي جُعل سبباً لِمَا ذُكِر الإيمانُ الخاصُّ المشفوعُ بالأعمال الصالحة، لا المجرَّدُ عنها ولا ما هو الأعمُّ، ولا ينبغي أنْ يَنتطح في ذلك كبشان، والآيةُ عليه بمعزلٍ عن الدلالة على خلاف ما عليه الجماعةُ من أنَّ الإيمان الخاليَ عن العمل الصالح يُفضي إلى الجنة في الجملة، ولا يَخْلُدُ صاحبه في النار، فإنَّ منطوقها أنَّ الإيمان المقرون بالعمل الصالح سببٌ للهداية إلى الجنة. وأمَّا أنَّ كلّ ما هو سببٌ لها يجبُ أنْ يكون كذلك، فلا دلالةَ لها ولا لغيرها عليه، كيف لا وقولُه سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] منادٍ بخلافه على ما أطبقُوا عليه مِن تفسير الظلم بالشرك؟ ولئن حُمل على ظاهره أيضاً يدخل في الاهتداء مَن آمن ولم يعمل صالحاً، ثمَّ مات قبل أنْ يَظلم بفِعْلِ حرامٍ أو بتركِ واجبٍ[١].

وإلى حَمْلِ الإيمان على ما قلنا ذهب الزمخشريُّ، وقال: إنَّ الآية تدلُّ على أنَّ الإيمان المعتبرَ في الهداية إلى الجنة هو الإيمانُ المقيَّد بالعمل الصالح، ووجَّه ذلك بأنَّه جَعَل فيها الصلةَ مجموعَ الأمرَين، فكأنَّه قيل: إنَّ الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، ثم قيل: بإيمانهم، أي: هذا المضموم إليه العملُ الصالح[٢].

وزَعَم بعضهم[٣] أنَّ ذلك منه مبنيٌّ على الاعتزال وخلودِ غيرِ الصالح في النار، ثم قال: إنَّه لا دلالة في الآية على ما ذكره؛ لأنَّه جُعِلَ سببُ الهداية إلى الجنة مُطلَقَ الإيمان، وأمَّا أنَّ إضافتَه إلى ضمير الصالحين يقتضي أخذَ الصلاح قيداً في السبب فممنوعٌ، فإنَّ الضمير يعودُ على الذَّوات بقِطْعِ النظر عن الصفات. وأيضاً فإنَّ كونَ الصِّلة عِلَّةً للخبر بطريق المفهوم، فلا يعارضُ السببَ الصريح المنطوق، على أنَّه ليس كلُّ خبرٍ عن الموصول يلزمُ فيه ذلك، ألا ترى أنَّ نحو: الذي كان معنا بالأمس فَعَل كذا، خالٍ عمَّا يذكرونه في نحو: الذي يؤمنُ يدخل الجنة.

وانتُصر للزمخشري بأنَّ الجمع بين الإيمان والعمل الصالح ظاهرٌ في أنَّهما السببُ، والتصريحُ بسببية الإيمان المضاف إلى ضمير «الذين آمنوا وعملوا

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ١٢٣-١٢٤.

(٢) الكشاف ٢/ ٢٢٦.

(٣) هو ابن المنير في الانتصاف ٢/ ٢٢٦، والكلام من حاشية الشهاب ٥/ ٩.

الصالحات» كالتنصيص على أنَّه ذلك الإيمانُ المقرونُ بما معه لا المطلَقُ، لكنَّه ذُكر لأصالته وزيادةِ شرفه، ولا يلزم على هذا استدراكُ ذكرِهِ، ولا استقلالُه بالسببية.

وفيه ردٌّ على القاضي البيضاوي حيث ادَّعى أنَّ مفهوم الترتيب وإن دلَّ على أنَّ سبب الهدايةِ الإيمانُ والعمل الصالح، لكنَّ منطوقَ قوله سبحانه: ﴿بِإِيمَٰنِهِمْۖ﴾ دلَّ على استقلال الإيمان[1].

ومنعَ في «الكشف» أيضاً كونَ المنطوق ذلك، وفرَّعه على كون الاستدلالِ[2] مِن جَعْلِ الإيمان والعمل الصالح واقعَين في الصِّلة ليجريا مجرَى العلَّةِ، ثم لمَّا أُعيدَ الإيمانُ مضافاً كان إشارةً إلى الإيمان المقرون؛ لِمَا ثبَتَ أنَّ استعمالَ ذلك إنَّما يكونُ حيث معهودٌ، والمعهودُ السابق هو هذا والأصلُ عدمُ غيره.

ثم قال: ولو سُلِّم أنَّ المنطوق ذلك لم يضرَّ الزمخشريَّ؛ لأنَّ العمل يُعدُّ شرطاً حينئذٍ، جَمْعاً بين المنطوق والمفهوم بقَدْرِ الإمكان، فلَم يُلغَ اقترانُ العمل ولا دلالةُ السببية، وهذا فائدةُ إفراده بالذكر ثانياً، مع ما فيه من الأصالة وزيادة الشرف، ولا مخالِفَ له من الجماعة؛ لأنَّ العصاةَ غيرُ مهديِّين، وأمَّا أنَّ كلَّ مَن ليس مهتدياً فهو خالدٌ في النار، فهو ممنوعٌ غايةَ المنع. انتهى.

وفي القلب مِن هذا المنع شيءٌ، والأولَى التعويلُ على ما قدَّمناه في تقريرِ كون الآية بمعزلٍ عن الدلالة على خلافِ ما عليه الجماعةُ، والهدايةُ على هذا الوجهِ يحتمل أنْ تُفسَّر بالدلالة الموصِلَةِ إلى البُغيةِ، وبمجرَّد الدلالة، والمختارُ الأوَّل.

واختار الثانيَ مَن قال: إنَّ المعنَى: يهديهم إلى[3] طريق الجنة بنور إيمانهم، وذلك إمَّا على تقدير المضافِ، أو على أنَّ إيمانهم يَظْهَرُ نوراً بين أيديهم.

وقيل: إنَّ المعنى: يُسدِّدهم بسبب إيمانهم للاستقامة على سلوك السبيلِ المؤدِّي إلى الثواب[4]، والهدايةُ عليه بالمعنى الأول.

---

(١) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ٨.

(٢) في الأصل: الاستدراك.

(٣) قوله: إلى، ليس في (م).

(٤) وهذا قول الزمخشري في الكشاف ٢/ ٢٢٦ كما سيرد قريباً.

وقيل: المرادُ: يهديهم إلى إدراك حقائقِ الأمور، فتنكشفُ[1] لهم بسبب ذلك.

وأيّاً ما كان فالالتفاتُ في قوله سبحانه: (رَبُّهُم) لتشريفهم بإضافة الربِّ إليهم، مع الإشعارِ بعلَّة الهداية.

وقوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ـ أي: من تحت منازلهم، أو مِن بين أيديهم ـ استئنافٌ نحويٌّ أو بيانيٌّ فلا محلَّ له من الإعراب، أو خبرٌ ثانٍ لـ «إنَّ» فمحلُّه الرفع.

وجُوِّز أنْ يكون في محلِّ النصب على الحال من مفعول «يهديهم» على تقدير كون المُهْدَى إليه ما يُريدونه في الجنة كما قال أبو البقاء[2]، وإنْ جُعل حالاً منتَظَرَةً لم يحتَجْ إلى القول بهذا التقدير، لكنَّه خلافُ الظاهر.

والزمخشريُّ لمَّا فسَّر «يهديهم ربُّهم» بيسدِّدُهم إلخ، جَعَل هذه الجملة بياناً له وتفسيراً؛ لأنَّ التمسُّك بسبب السعادة كالوصول إليها[3]، ولا يخفَى أنَّ سبيل هذا البيانِ سبيلُ البدل، وبذلك صرَّح الطيبيُّ، وحينئذٍ فمحلُّها الرفعُ؛ لأنَّه محلُّ الجملة المبدَل منها.

وقوله سبحانه: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝﴾ خبرٌ آخر، أو حالٌ أُخرى من مفعول «يهديهم»، فتكونُ حالاً مترادفةً، أو من «الأنهار» فتكون مُتداخلةً، أو متعلِّق بـ «تجري» أو بـ «يهدي» والمرادُ ـ على ما قيل ـ بالمُهدَى إليه إمَّا منازلُهم في الجنة، أو ما يريدونه فيها.

﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾أي: دعاؤهم، وهو مبتدأ، وقولُه تعالى شأنه: ﴿فِيهَا﴾ متعلِّقٌ به، وقولُه سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ خبرُه، أي: دعاؤهم هذا الكلامُ. والدعوى وإن اشتهرَت بمعنى الادِّعاء، لكنَّها وردَت بما ذكرنا أيضاً، وكونُ الخبر من جنس الدعاء يشهدُ له قولُه ﷺ: «أكثَرُ دُعائي ودعاءِ الأنبياءِ قَبْلي بعرفات: لا إله إلا الله

(١) في الأصل: فتكشف.
(٢) في الإملاء ٣/ ٢١٥.
(٣) الكشاف ٢/ ٢٢٦.

وحدَه لا شريك له، له الملكُ وله الحمدُ وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ»[١]. والظاهرُ أنَّ إطلاق الدعاء على ذلك مجازٌ، وهو الذي يُفهِمُه كلامُ ابنِ الأثير حيث قال: إنَّما سمِّي التهليلُ والتحميدُ والتمجيد دعاء؛ لأنَّه بمنزلته في استيجاب ثواب الله تعالى وجزائه[٢]، وفي الحديث: «إذا شَغَلَ عبدي ثناؤه عَلَيَّ عن مسألتي أعطيتُه أفضلَ ما أُعطي السائلين»[٣].

وجاءت بمعنَى العبادة كما في قوله سبحانه: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨] وجوِّز إرادتُه هنا، والمرادُ نَفْيُ التكليف، أي: لا عبادةَ لهم غير هذا القول، وليس ذلك بعبادةٍ، وإنَّما يُلهَمُونه ويَنطقون به تلذُّذاً لا تكليفاً، ونظيرُ ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصۡدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥]. وفيه خفاءٌ كما لا يخفى.

وقد يقال: يأتي نظيرُ هذا في الآية على احتمال أنْ يُراد بالدعوى الدعاءُ حقيقةً، فيكون المعنى على طرز ما قُرِّر، أنَّه لا سؤالَ لهم من الله تعالى سوى ذلك، ومن المعلوم أنَّ ذلك ليس بسؤالٍ، فيفيدُ أنَّه لا سؤالَ لهم أصلاً. والغرضُ

---

(١) قطعة من حديث أخرجه ابن أبي شيبة ١٠/ ٣٧٣-٣٧٤، والبيهقي في السنن الكبرى ٥/ ١١٧، وابن عبد البر في التمهيد ٦/ ٤٠ من طريق موسى بن عبيدة، عن أخيه، عن علي ﷺ، عن النبي ﷺ. قال البيهقي: تفرد به موسى بن عبيدة، وهو ضعيف، ولم يدرك أخوه علياً.
وأخرجه مالك ١/ ٤٢٢، وعبد الرزاق (٨١٢٥) من طريق طلحة بن عبيد الله بن كريز عن النبي ﷺ مرسلاً بلفظ: «أفضل الدعاء دعاءُ يوم عرفة، وأفضلُ ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له»، وينظر التمهيد ٦/ ٣٩-٤١.

(٢) النهاية (دعا).

(٣) أخرجه بهذا اللفظ ابن المبارك في الزهد (٩٢٩)، وابن عبد البر في التمهيد ٦/ ٤٣-٤٤ عن مالك بن الحارث قال: يقول الله تعالى: إذا شغل عبدي، وقال ابن عبد البر: قد روي مرفوعاً إلى النبي ﷺ، ثم ذكره من حديث عمر ﷺ. وحديث عمر أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد ص١٠٥ بلفظ: «مَن شغله ذكري عن مسألتي أعطيته»، وفي إسناده صفوان بن أبي الصهباء، قال الذهبي في الميزان ٢/ ٣١٦: ضعفه ابن حبان وقال: يروي ما لا أصل له، لا يجوز الاحتجاج بما انفرد به، ثم ذكره في الثقات أيضاً.
وأخرجه الترمذي (٢٩٢٦) من طريق عطية عن أبي سعيد مرفوعاً بلفظ: «من شغله القرآن وذكري...»، وقال: حسن غريب.اهـ. وقال ابن حجر في الفتح ٩/ ٦٦: رجاله ثقات، إلا عطية العوفي ففيه ضعف.

من ذلك الإشارةُ إلى حصول جميعِ مقاصدهم بالفعل، فليس بهم حاجةٌ إلى سؤال شيء، إلا أنَّ فيه ما فيه.

ونصب «سبحان» على المصدرية لفعلٍ محذوفٍ وجوباً، وهو بمعنى التسبيح. وقدِّرت الجملةُ اسميةً، أي: إنَّا نُسبِّحك تسبيحاً؛ لأنَّها أبلغُ، والجملُ التي بعدها كذلك.

و«اللهم» بتقدير: يا الله، حُذف حرفُ النداء وعُوِّض عنه الميم، وتمامُ الكلام فيه وفيما قبله قد تقدَّم لك(١) فتذكر.

وكان القياسُ تقديمَ الاسمِ الجليل؛ لأنَّ النداء يُقدَّم على الدعاء، لكنَّه استُعمل في التسبيح كذلك، قيل: لأنَّه تنزيهٌ عن جميع النقائص، وفي النداء ربَّما يتوهَّم تركُ الأدب.

﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾ أي: ما يُحيَّون به ﴿فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ أي: سلامة(٢) من كلِّ مكروه، وهو خبرُ «تحيَّتُهم» و«فيها» متعلِّقٌ بها، والتحيةُ: التكرمةُ بالحال الجليلة، وأصلُها: أَحياك الله تعالى حياةً طيبةً، وإضافتُها هنا إلى المفعول، والفاعلُ إمَّا اللهُ سبحانه، أي: تحيةُ اللهِ تعالى إياهم ذلك، ويُرشد إليه قولُه عزَّ وجل: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨] أو الملائكةُ عليهم السلام، ويُرشد إليه قوله سبحانه: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۞ سَلَٰمٌ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤].

وجُوِّز أنْ تكونَ الإضافةُ إلى الفاعل بتقدير مضافٍ، أي: تحيةُ بعضِهم بعضاً آخرَ ذلك. وقد يُعتبرُ البعضُ المقدَّرُ مفعولاً، فالإضافةُ إلى المفعول والفاعلُ محذوفٌ.

وقيل: يجوزُ أن يكونَ مما أُضيفَ فيه المصدرُ لفاعله ومفعولِه معاً، إذا كان المعنى: يُحَيِّي بعضُهم بعضاً، ونظيرُه في الإضافة إلى الفاعل والمفعول قولُه تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨] حيث أُضيف «حُكم» إلى ضميرِ داودَ وسليمانَ عليهما السلام ـ وهما حاكمان ـ وغيرِهما وهم المحكومُ عليهم.

---

(١) ٤/ ٨٩ و٢/ ١٠٣.

(٢) في (م): سلامتهم.

وليس ذلك من باب الجمعِ بين الحقيقة والمجازِ المختلَف فيه ـ حيث إنَّ إضافة المصدر لفاعله حقيقةٌ ولمفعوله مجازٌ ـ لأنَّه لا خلافَ في جواز الجمع إذا كان المجازُ عقليّاً، إنما الخلافُ فيه إذا كان لُغويّاً.

﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي: خاتمةُ دعائهم ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ أي: أنَّه الحمدُ لله، فـ «أنْ» مخفَّفةٌ من الثقيلة، واسمُها ضميرُ شأنٍ محذوفٌ، والجملةُ الاسمية خبرُها، و«أنْ» ومعمولاها خبرُ «آخِرُ» وليست مفسِّرةً؛ لفَقْد شرطها، ولا زائدةً لأنَّ الزيادةَ خلافُ الأصل ولا داعي إليها، على أنَّه قد قرأ ابنُ محيصن ومجاهد وقتادةُ ويعقوبُ بتشديدِها ونَصْبِ «الحمد»[1]، وفي ذلك دليلٌ لِمَا قلنا.

والظاهرُ أنَّ تحقُّق[2] مضمونِ هذه الجمل ـ لكونها اسميةً ـ على سبيل الدَّوام والاستمرار، وفي الأخبار ما يؤيِّده، فلعلَّ القومَ لمَّا دخلوا الجنة حصَلَ لهم من العلم بالله تعالى ما لم يَحْصُلْ لهم قبله، على اختلاف مراتبهم.

وقد صرَّح مولانا شهابُ الدين السهروَرديُّ في بعض رسائله في الكلام بتفاوُتِ أهل الجنة في المعرفة، فقال: إنَّ عوامَّ المؤمنين في الجنة يكونون في العلم كالعلماء في الدنيا، والعلماءُ فيها يكونون كالأنبياء عليهم السلام في الدنيا، والأنبياءُ عليهم السلام يكونون فيها[3] كنبيِّنا ﷺ، ويكونُ لنبيِّنا عليه الصلاة والسلام من العلم بربِّه سبحانه الغايةُ القصوى التي لا تكون لملَكٍ مقرَّبٍ ولا لنبيٍّ مرسَلٍ، ويُمكن أن يكون ذلك المقامَ المحمودَ.

ولا يَبْعُدُ عندي أنَّهم مع تفاوُتِهم في المعرفة لا يزالون يترقَّون[4] فيها على حَسَب مراتبهم، والسيرُ في الله سبحانه غيرُ مُتَناهٍ، والوقوفُ على الكُنْه غيرُ ممكنٍ، وحينئذٍ التفاوتُ في معرفة الصفات، وهي كما قيل: إمَّا سلبيةٌ وتُسمَّى بصفات الجلال؛ لأنَّه[5] يقال فيها: جلَّ عن كذا جلَّ عن كذا، وإمَّا غيرُها وتُسمَّى بصفات

---

(١) القراءات الشاذة ص٩٦، والمحتسب ١/ ٣٠٨، والبحر ٥/ ١٢٧.
(٢) في الأصل: تحقيق.
(٣) في (م): في ذلك.
(٤) في (م): يترقبون، وهو تصحيف.
(٥) في (م): لأنها.

الإكرام، وبذلك فُسِّر قولُه تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨] فلا يزالون يَدْعُون الله تعالى بالتسبيح الذي هو إشارةٌ إلى نعتِه بنعوت الجلال، وبالتحميد الذي هو إشارةٌ إلى وَصْفِه بصفات الإكرام.

والدوامُ عرفيٌّ، وهو أكثرُ من أنْ يُحصَى، وقولُه عليه الصلاة والسلام في وصف أهل الجنة كما في صحيح مسلم: «يُسبِّحُونَ الله تعالى بُكرةً وعشياً»[1] يؤيِّد بظاهره ذلك، والمراد بالبكرة والعشيَّة ـ كما قال النوويُّ ـ قَدْرَهما[2].

وظاهرُ الآية أنَّهم يُقدِّمون نعتَه تعالى بنعوتِ الجلال ويختمون دعاءهم بوَصْفِه بصفات الإكرام؛ لأنَّ الأُولى متقدِّمةٌ على الثانية لتقدُّم التخلية على التحلية، ويُرشد إلى ذلك قولُه سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

والمختارُ عندي كونُ فاعل التحية هو اللهُ تعالى أو الملائكةُ عليهم السلام، وحينئذٍ لا يَبعُدُ أن يكونَ الترتيبُ الذِّكري حَسْبَ الترتيب الوقوعي، وذلك بأنْ يقال: إنَّهم حين يَشرعون بالدعاء يُسبِّحون الله تعالى وينزِّهونَه، فيقابَلون بالسلام، وهو دعاءٌ بالسلامة عن كلِّ مكروه، فإنْ كان مِن الله سبحانه فهو مجازٌ لا محالةَ، لاستحالة حقيقةِ الدعاء عليه تعالى، وإنْ كان من الملائكة عليهم السلام فلا مانعَ من بقائه على حقيقتِهِ، لكنْ يُوجَّه الطلبُ فيه إلى الدوام؛ لأنَّ أصل السلامة حاصلٌ لهم، وإنْ قلنا: إنَّها تقبل الزيادة، فلا بُعْدَ في أنْ يوجَّه إلى طلبها. وما ألطفَ مقابلةَ التسبيح والتنزيه بالسلامة عن المكروه لقُرْبها من ذلك معنًى، كما لا يخفَى على المُنْصف. ثم يختمون دعاءهم بـ «الحمد لله رب العالمين». وهكذا لا يزال دأبُهم بكرةً وعشياً كما يُشير إليه خبرُ الصحيح، ولعلَّ عدمَ ذكر التحميد فيه اكتفاء بما في الآية. وهذا ما عندي فيها.

وأخرج ابنُ جرير وابنُ المنذر وأبو الشيخ عن ابنِ جُريج قال: أُخبرتُ أنَّ أهل الجنة إذا مرَّ بهم الطائرُ يشتهونه قالوا: سبحانك اللهم، وذلك دعاؤهم به، فيأتيهم المَلَكُ بما اشتَهَوا، فإذا جاء المَلَك به يُسلِّم عليهم فيردُّون عليه، وذلك قولُه

---

(١) صحيح مسلم (٢٨٣٤)، وأخرجه أيضاً أحمد (٨١٩٨)، والبخاري (٣٢٤٥)، وهو من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) شرح صحيح مسلم ١٧/ ١٧٣.

تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ فإذا أكلوا قدْرَ حاجتهم قالوا: الحمدُ لله رب العالمين، وذلك قولُه سبحانه: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

وهو ظاهرٌ في أنَّ الترتيب الذِّكريَّ حَسْبَ الترتيب الوقوعيِّ أيضاً، لكنْ يدلُّ على أنَّ الدعوى بمعنى الدعاء، ومعنى كون «سبحانك اللهم» دعاءً وطلباً لِمَا يشتهون حينئذٍ: أنَّه علامةٌ للطلب. ونظيرُ ذلك تسبيحُ المصلِّي إذا نابه شيءٌ في صلاته.

وفي بعض الآثار: أنَّ هذه الكلمة علامةٌ بين أهل الجنة والخدم في الطعام، فإذا قالوها أَتوهم بما يشتهون[2].

وأخرج ابنُ مردويه عن أُبيِّ بنِ كعب مرفوعاً: أنَّهم إذا قالوا ذلك أتاهم ما اشتَهوا من الجنة من ربِّهم[3].

ولا بأس في ذلك، نعم في كون الحمد بعدَ أكْلِ قَدْرِ حاجتهم مدلولَ قوله سبحانه: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خفاءٌ.

وقال القاضي بيَّضَ الله تعالى غرَّةَ أحواله: لعلَّ المعنى أنَّهم إذا دخلوا الجنةَ وعايَنوا عظمةَ الله سبحانه وكبرياءَه مجَّدوه ونعتُوه بنعوتِ الجلال، ثم حيَّاهم الملائكةُ بالسلامة عن الآفات والفوزِ بأصناف الكرامات، أو اللهُ تعالى، فحمدوه وأثنوا عليه بصفات الإكرام[4].

وهو أيضاً ظاهرٌ في كون الترتيبِ الذِّكريِّ كما قلنا، إلا أنَّه تُعقِّب بأنَّ إضافة «آخِر» إلى «دعواهم» يأباه، وكأنَّ وجْهَ الإباء ـ على ما قيل ـ أنَّ ذلك على هذا آخر الحال، وبأنَّ اعتبارَ الفوزِ بالكرامات غيرُ ظاهر، ولعلَّ الأمر في ذلك سهلٌ.

وقال شيخ الإسلام: لعلَّهم يقولون: «سبحانك اللهم» عندما يُعاينون من تعاجيب آثارِ قدرته تعالى ونتائج رحمته ورأفته ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت

---

(١) تفسير الطبري ١٢/ ١٢٦، وعزاه لابن المنذر وأبي الشيخ السيوطي في الدر ٣/ ٣٠١.

(٢) ذكره البغوي ٢/ ٣٤٥ عن أهل التفسير، وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية عن مقاتل بن حيان.

(٣) الدر المنثور ٣/ ٣٠١.

(٤) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ١٠.

ولا خَطَر على قلب بشر، تقديساً لمقامه تعالى عن[١] شوائب العجز والنقصان، وتنزيهاً لوعْدِه الكريم عن سمات الخُلْف، ويكون خاتمةُ دعائهم أنْ يقولوا: «الحمد لله رب العالمين» نعتاً له تعالى شأنُه بصفات الإكرام إثْرَ نعتِه بصفات الجلال، والمعنى: دعاؤهم منحصرٌ فيما ذكر، إذ ليس لهم مَطلَبٌ مترقَّبٌ حتى يَنْظمُوه في سِلك الدعاء، ولعلَّ توسيط ذكْرِ تحيتهم عند الحكاية بين دعائهم وخاتمته للتوسُّل إلى خَتْم الحكاية بالتحميد تبرُّكاً، مع أنَّ التحية ليست بأجنبيةٍ على الإطلاق[٢]. انتهى.

وكأنه أراد بعدم كون التحية أجنبيةً على الإطلاق كونَها دعاءً معنًى، وكلامُه نصٌّ في أنَّ الترتيب الوقوعيَّ مخالفٌ للترتيب الذِّكريِّ، ولا يخفَى أنَّ توجيه توسيطِ ذكرِ التحية بما ذَكَره مما لا يكاد يرتضيه مُنْصِفٌ، على أنَّه غَفَل هو وسائرُ مَن وَقَفْنا على كلامه من المفسِّرين عن توجيه اسميةِ الجمل فافْهم، والله تعالى أعلم.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ هم الذين لا يرجون لقاء الله تعالى، المذكورون في قوله سبحانه: (إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ) إلخ، والآية مُتَّصلةٌ بذلك دالَّةٌ على استحقاقهم للعذاب، وأنَّه سبحانه إنما يُمهلُهم استدراجاً، وذِكْرُ المؤمنين وَقَع في البين تَتْميماً[٣] ومقابلةً، وجيءَ بـ «الناس» بدلَ ضميرهم تفظيعاً للأمر.

وفي «إرشاد العقل السليم»[٤]: إنما أُوردوا باسم الجنس لِمَا أنَّ تعجيلَ الخير لهم ليس دائراً على وَصْفِهم المذكور، إذ ليس كلُّ ذلك بطريق الاستدراج، والمرادُ: لو يعجِّل الله تعالى لهم ﴿ٱلشَّرَّ﴾ الذي كانوا يستعجلون به تكذيباً واستهزاءً، فإنَّهم كانوا يقولون: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس:٤٨] ونحو ذلك.

---

(١) في الأصل: من.
(٢) تفسير أبي السعود ٤/ ١٢٤.
(٣) في الأصل: تعميماً.
(٤) ٤/ ١٢٥.

وأخرج ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم عن قتادة أنَّه قال: هو دعاءُ الرجل على نفسه ومالِهِ بما يكره أنْ يُستجاب له. وأخرجا عن مجاهد أنَّه قال: هو قولُ الإنسان لولده وماله إذا غضب: اللهمَّ لا تبارك فيه، اللهمَّ الْعَنْه[1]. وفيه حَمْلُ «الناس» على العموم، والمختار الأولُ، ويُؤيِّده ما قيل: إنَّ[2] الآية نزلَت في النضْر بنِ الحارث حين قال: (ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ) إلخ[3].

وقوله سبحانه: ﴿ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ نصبٌ على المصدرية، والأصل على ما قاله أبو البقاء: تعجيلاً مثلَ استعجالهم، فحُذِفَ تعجيلاً وصفتُه المضافةُ وأُقيمَ المضافُ إليه مقامهما[4].

وفي «الكشاف»: وُضعَ «استعجالهم بالخير» موضعَ: تعجيله لهم، إشعاراً بسرعة إجابته سبحانه لهم وإسعافه بطِلْبَتِهِم، حتى كأنَّ استعجالهم بالخير تعجيلٌ لهم[5].

وهو كلامٌ رصينٌ يدلُّ على دقَّة نظرِ صاحبه كما قال ابنُ المنير[6]، إذ لا يكاد يُوضع مصدرٌ مؤكِّدٌ مقارِناً لغير فِعْلِه في الكتاب العزيز بدون مثل هذه الفائدة الجليلة، والنحاةُ يقولون في ذلك: أُجرِيَ المصدرُ على فعلٍ مقدَّرٍ دلَّ عليه المذكورُ، ولا يَزيدون عليه، وإذا راجع الفَطِنُ قريحتَه، وناجَى فكرتَه، علمَ أنَّه إنما قُرِنَ بغير فِعْلِه لفائدةٍ، وهي في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح:١٧] التنبيهُ على نفوذِ القدرة في المقدور وسُرعةِ إمضاء حُكْمِها، حتى كأنَّ إنبات اللهِ تعالى لهم نفسُ نباتهم، أي: إذا وُجد الإنبات وُجد النبات حتماً، حتى كأنَّ أحدَهما عينُ الآخَر فقُرن به.

---

(١) الخبران في تفسير الطبري ١٢/ ١٣١-١٣٢، وتفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٣٢.
(٢) في (م): من أن.
(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٩٠، والمحرر الوجيز ٣/ ١٠٨، وزاد المسير ٤/ ١١.
(٤) الإملاء ٣/ ٢١٧، ووقع في الأصل و(م): مقامها، والمثبت من الإملاء. ومعنى الكلام: أنه حذف تعجيلاً وأقيمت صفته مقامه، ثم حذفت الصفة وأقيم ما أضيفت إليه مقامها كـ «اسأل القرية». حاشية الشهاب ٥/ ١٠.
(٥) الكشاف ٢/ ٢٢٧، ووقع في (م): له.
(٦) في الانتصاف ٢/ ٢٢٧، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ١٠.

وقال الطيبيّ: كان أصلُ الكلام: ولو يُعجِّلُ[1] اللهُ للناسِ الشرَّ تعجيلَه، ثم وُضِعَ موضعَه الاستعجالُ، ثم نُسب إليهم فقيل: استعجالَهم بالخير؛ لأنَّ المرادَ أنَّ رحمتَه سبقَت غضبَه، فأُريد مزيدُ المبالغة، وذلك أنَّ استعجالَهم الخيرَ أسرعُ من تعجيل الله تعالى لهم ذلك، فإنَّ الإنسان خُلق عجولاً، والله تعالى صبورٌ حليمٌ يؤخِّر للمصالح الجمَّة التي لا يهتدي إليها عقلُ الإنسان، ومع ذلك يُسعفُهم بِطِلْبَتِهِم ويُسرع إجابتَهم.

وأَوْجَبَ أبو حيان كونَ التقدير: تعجيلاً مثلَ استعجالهم، أو أنَّ ثَمَّ محذوفاً يدلُّ عليه المصدر، أي: لو يعجِّلُ الله للناسِ الشرَّ إذا استعجلوه استعجالَهم بالخير، قال: لأنَّ مدلول «عجَّل» غيرُ مدلول «استعجل»؛ لأنَّ «عجَّل» يدلُّ على الوقوع و«استعجل» يدلُّ على طلب التعجيل، وذلك واقعٌ من الله تعالى وهذا مضافٌ إليهم، فلا يجوز ما قرَّره الزمخشري وأتباعه[2].

وأجاب السفاقسيُّ بأنَّ «استفعل» هنا للدلالة على وقوع الفعل لا على طلبه، ك: استقر بمعنى أقرَّ، وقوله: وهذا مضافٌ إليهم، مبنيٌّ على أنَّ المصدر مضافٌ للفاعل، ويحتملُ أنْ يكون مضافاً للمفعول، ولا يخفَى أنَّ كلَّ ذلك ناشٍ من قلةِ التدبُّر.

ومعنى قوله سبحانه: ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾: لأُميتوا وأُهلكوا بالمرة، يقال: قضى إليه أَجَلَه، أي: أنهى إليه مُدَّته التي قُدِّر فيها موتُه فهلَكَ. وفي إيثار صيغة المبني للمفعول جَرْيٌ على سَنَن الكبرياء، مع الإيذان بتعيُّن الفاعل. وقرأ ابنُ عامر ويعقوب: «لَقَضَى» على البناء للفاعل[3]. وقرأ عبد الله «لقضينا»[4] وفيه التفاتٌ.

واختيارُ صيغة الاستقبال في الشرط وإنْ كان المعنى على المضيِّ، لإفادة أنَّ عدم قضاءِ الأجل لاستمرار عدم التعجيل، فإنَّ المضارع المنفيَّ الواقعَ موقعَ الماضي ليس بنصٍّ في إفادة انتفاءِ استمرارِ الفعل، بل قد يُفيد استمرارَ انتفائه أيضاً بحسب المقام كما حُقِّق في موضعه.

---

(١) في (م): يجعل، وهو تصحيف.

(٢) البحر ٥/ ١٢٨-١٢٩.

(٣) التيسير ص١٢١، والنشر ٢/ ٢٨٢.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ١٠٨، والكشاف ٢/ ٢٢٧، والبحر ٥/ ١٢٩.

وذكر بعضُ المحقِّقين أنَّ المقدَّم هاهنا ليس نفسَ التعجيل المذكور، بل هو إرادته المستتبعة للقضاء المذكور وجوداً وعدماً؛ لأنَّ القضاء ليس أمراً مغايراً لتعجيل الشرِّ في نفسه، بل هو إمَّا نفسُه، أو جزئيٌّ منه كسائر جزئياته من غير مَزِيَّة له على البقية، إذ لم يُعتَبر في مفهومه ما ليس في مفهوم تعجيل الشرِّ من الشدَّة والهول، فلا يكون في ترتُّبه عليه وجوداً أو عدماً مزيدُ فائدةٍ مُصحِّحَةٍ لجَعْلِه تالياً له(١)، فليس كقوله تعالى: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات:٧] ولا كقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام:٣٠] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر:٤٥] إذا فسِّر الجواب بالاستئصال. وأيضاً في ترتيب التالي على إرادة المقدَّم ما ليس في ترتيبه على المقدَّم نفسِه، من الدلالة على المبالغة وتهويل الأمر، والدلالة على أنَّ الأمور منوطةٌ بإرادته تعالى المَبْنِيَّة على الحِكَم البالغة.

وقوله سبحانه: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أي: نتركُهم إمهالاً واستدراجاً ﴿فِى طُغْيَـٰنِهِمْ﴾ الذي هو عدمُ رجاءِ اللِّقاء، وإنكارُ البعثِ والجزاء، وما يتفرَّع على ذلك من الأعمال السيئة والمقالات الشنيعة ﴿يَعْمَهُونَ ۝١١﴾ أي: يتردَّدون ويتحيَّرون = لا يصحُّ عطفُه على شرط «لو» ولا على جوابها لانتفائه، وهو مقصودٌ إثباتُه، وليست «لو» بمعنى «إنْ» كما قيل، فهو إمَّا معطوفٌ على مجموع الشرطية؛ لأنَّها في معنى: لا يُعجِّل لهم، وفي قوَّته، فكأنه قيل: لا يُعجِّل بل يَذرهم، أو معطوفٌ على مقدَّرٍ تدُلُّ عليه الشرطية، أي: ولكنْ يمهلهم، أو: ولكنْ لا يعجِّل ولا يَقضي فيذرُهم، وبكلٍّ قال بعضٌ.

وقيل: الجملةُ مستأنفةٌ، والتقدير: فنحن نذرُهم.

وقيل: إنَّ الفاء واقعةٌ في جواب شرطٍ مقدَّر، والمعنى: لو يعجِّل الله تعالى ما استعجلوه لَأَبادَهم، ولكن يُمهلُهم ليزيدوا في طغيانهم ثم يستأصلهم، وإذا كان

---

(١) وهذا كقوله تعالى: ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ [الكهف: ٥٨] أي: لو يريد مؤاخذتهم، فإن تعجيل العذاب لهم نفس المؤاخذة، أو جزئيٌّ من جزيئاتها غيرُ ممتاز عن البقية، فليس في بيان ترتُّبه عليها مزيد فائدة، وإنما الفائدة في بيان ترتُّبه على إرادتها. تفسير أبي السعود ٤/ ١٢٥.

كذلك فنحن نذرُ هؤلاء الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يتردَّدون ثم نقطعُ دابرهم.

وصاحب «الكشف» بعد ما قرَّر أنَّ اتِّصال «ولو يعجِّل» إلخ بقوله تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا) إلخ، وأنَّ ذكْرَ المؤمنين إنما وقع في البَيْن تَتْميماً ومقابلةً وليس بأجنبيٍّ، قال: إنَّه لا حاجةَ إلى جَعْلِ هذا جوابَ شرطٍ مقدَّرٍ، وفي وضع الموصول موضعَ الضمير نوعُ بيانٍ للطغيان بما في حيِّز الصلة، وإشعارٌ بعلِّيَّته للتَّرْكِ والاستدراج.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ أي: إذا أصابه جنسُ الضر[1] من مرضٍ وفقرٍ وغيرِهما من الشدائد إصابةً يسيرةً، وقيل: مطلقاً ﴿دَعَانَا﴾ لكَشْفِه وإزالته ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ في موضع الحال، ولذا عطَفَ عليه الحالَ الصريحة، أعني قولَه سبحانه: ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ أي: دعانا مضطجعاً ـ أو مُلْقًى ـ لجنبه، واللام على ظاهرها، وقيل: إنَّها بمعنى «على» كما في قوله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ [الإسراء:١٠٩] ولا حاجةَ إليه، وقد يعبَّر بـ «على» [بدله][2] وهي تُفيدُ استعلاءه عليه، واللامُ تفيد اختصاصَ كينونته واستقراره بالجنب، إذ لا يمكنه الاستقرارُ على غير تلك الهيئة، ففيه مبالغةٌ زائدة.

واختلف في ذي الحال؛ فقيل: إنَّه فاعلُ «دعانا».

وقيل: هو مفعولُ «مسَّ». واستُضْعِف بأمرَين:

أحدُهما: تأخُّرُ الحال عن محلِّها من غير داعٍ.

الثاني: أنَّ المعنى على أنَّه يدعو كثيراً في كلِّ أحواله، إلا أنَّه خَصَّ المعدودات بالذكر لعدمِ خُلُوِّ الإنسان عنها عادةً، لا أنَّ الضرَّ يُصيبه في كلِّ أحواله.

وأجيب عن هذا بأنَّه لا بأس به، فإنَّه يلزمُ مَن مسَّه الضرُّ في هذه الأحوال دعاؤه فيها أيضاً؛ لأنَّ القيد في الشرط قيدٌ في الجواب، فإذا قلت: إذا جاء زيدٌ فقيراً أَحسنَّا

(١) في الأصل: الضرر.

(٢) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٥/١١.

إليه، فالمعنى: أحسنَّا إليه في حال فقْرِه. وأنت تعلم أنَّ الأظهر هو الأول.

واعتبر بعضُهم توزُّعَ هذه الأحوال على أفراد الإنسان، على معنى: أنَّ مِن الإنسان مَن يدعو على هذه الحالة، ومنه مَن يدعو على تلك الحالة(١).

وذكر غيرُ واحدٍ أنَّه يجوز أن يكونَ المرادُ بهذه الأحوال تعميمَ أصنافِ المَضارِّ؛ لأنَّها إمَّا خفيفة لا تمنع الشخصَ القيامَ، أو متوسِّطة تمنعه القيامَ دون القعود، أو شديدة تمنعه منهما(٢)، وانفهامُ ذلك منها بمعونة السياق.

و«إذا» قيل: إنَّها على أصلها، وقيل: إنَّها للمضي.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ﴾ الذي مسَّه غِبَّ ما دعانا، كما يُنبئُ عنه الفاءُ.

﴿مَرَّ﴾ أي: مضَى على ما كان عليه قبلُ، ونسي حالةَ الجهد والبلاء، أو: مرَّ عن موقف الدعاء والابتهال وَنَأى بجانبه، والمرورُ على الأول مجازٌ، وعلى الثاني باقٍ على حقيقته، ويكون كنايةً عن عدم الدعاء.

﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ﴾ أي: كأنَّه لم يدْعُنا، فخفَّف وحذف ضمير الشأن، ومثلُ ذلك قولُه:

وَوَجْهٍ مشرق النحرِ كأنْ ثدياه حُقَّانِ(٣)

فإنَّ الأصل فيه: كأنَّه، فخفَّف «كأنَّ» وحذف ضميرَ الشأن، لكنْ صرَّح ابنُ هشام في شواهده أن ذلك غيرُ متعيِّنٍ، إذ يجوز كونُ الضمير للوجه، أو للصدر على روايةِ: وصدرٍ(٤).

وروي: كأنْ ثدييه(٥)، على إعمال «كأنْ» في اسمٍ مذكور، ولا يَبْعدُ أنْ يجوز ذلك في الرواية الأولى على بعض اللغات.

---

(١) قوله: الحالة، ليس في (م).

(٢) في (م): منها.

(٣) الكتاب ٢/ ١٣٥، والكشاف ٢/ ٢٢٨، قال البغدادي في الخزانة ١٠/ ٤٠١: هذا البيت من أبيات سيبويه الخمسين التي لا يعرف لها قائل.

(٤) تنظر هذه الرواية في أمالي ابن الشجري ١/ ٣٦٢، والخزانة ١٠/ ٣٩٨.

(٥) أمالي ابن الشجري ٢/ ١٧٨، والخزانة ١٠/ ٣٩٨، وشرح الألفية لابن عقيل ١/ ٣٩١.

والجملةُ التشبيهية في موضع الحال من فاعل «مرَّ»، أي: مرَّ مشبَّهاً بمَن لم يَدْعُنا ﴿إِلَىٰ ضُرٍّ﴾ أي: إلى كَشْفِه؛ لأنَّه المدعوُّ إليه، وقيل: لا حاجةَ إلى التقدير، و«إلى» بمعنى «اللام»، أي: لضرٍّ ﴿مَّسَّهُۥ﴾.

والظاهرُ أنَّ هذا وصفٌ لجنس الإنسان مطلقاً، أو الكافرِ منه باعتبار حال بعضِ الأفراد ممن هو متَّصفٌ بهذه الصفات.

وذكر الشهابُ أنَّ للمفسِّرين في المراد بالإنسان هنا ثلاثةَ أقوال: فقيل: الجنس. وقيل: الكافر. وقيل: شخصٌ معيَّنٌ[1]، وعليه لا حاجةَ إلى الاعتبار. لكنْ لا اعتبارَ له.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك التزيينِ العجيبِ ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: للموصوفين بما ذُكر من الصفات الذميمة ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ من الإعراض عن الذكر والدعاءِ، والانهماك في الشهوات.

والإسرافُ: مجاوزةُ الحدِّ، وسُمُّوا أولئك «مسرفين» لِمَا أنَّ الله تعالى إنما أعطاهم القوَى والمشاعرَ ليَصْرِفوها إلى مَصَارِفها، ويستعملوها فيما خُلقَت له من العلوم والأعمال الصالحة، وهم قد صَرَفوها إلى ما لا ينبغي مع أنَّها رأسُ مالهم.

وفاعلُ التزيين: إمَّا مالِكُ الملك جلَّ شأنه، وإمَّا الشيطان عليه اللعنة، وقد مرَّ تحقيقُ ذلك و«كذلك» فتذكَّر[2].

وتعلُّقُ الآية الكريمة بما قبلها قيل: من حيث إنَّ في كلٍّ منهما إملاءً للكفرة على طريقة الاستدراج بعد الإنقاذ من الشرِّ المقدَّر[3] في الأولى، ومن الضرِّ المقرَّر في الأخرى.

وذكر الإمام في وجه الانتظام مع الآية الأولى وجهَين:

الأول: أنَّه تعالى بيَّن في الأُولى أنَّه لو أنزل العذاب على العبد في الدنيا لهلَك، وأكَّد ذلك في هذه الآية حيث دلَّت على غاية ضعفه ونهاية عجزِه.

---

(١) حاشية الشهاب ٥/ ١١.

(٢) ينظر ما سلف ٣/ ٨ و٢١٩.

(٣) في (م): المقرر، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ١٢٦، والكلام منه.

والثاني: أنَّه سبحانه أشار في الأُولى إلى أنَّ الكفرة يستعجلون نزولَ العذاب، وبيَّن جلَّ شأنه في هذه أنَّهم كاذبون في ذلك الطلب، حيث أفادت أنَّه لو نزل بالإنسان أدنَى شيء يكرهه فإنَّه يتضرَّع إلى الله تعالى في إزالته عنه[١]. انتهى. ولكلٍّ وِجْهة.

وفي الآية ذمٌّ لمن يترك الدعاء في الرخاء ويهرعُ إليه في الشدَّة، واللائقُ بحال الكامل أن يتضرَّع[٢] إلى مولاه في السراء والضراء، فإنَّ ذلك أرجَى للإجابة، ففي الحديث: «تعرَّفْ إلى اللهِ في الرَّخاءِ يَعْرِفْك في الشِّدَّة»[٣].

وأخرج أبو الشيخ عن أبي الدرداء قال: ادعُ الله تعالى يومَ سرَّائك يَستجِبْ لك يومَ ضرَّائك[٤].

وفي حديثٍ للترمذيِّ[٥] عن أبي هريرة ـ ورواه الحاكم عن سلمان وقال: صحيح الإسناد ـ: «مَن سرَّه أنْ يَستجِيب الله تعالى له عندَ الشدائدِ والكروب، فليُكْثِرِ الدعاءَ في الرخاء»[٦].

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ﴾ مثل قوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ، وهو جمعُ قَرنٍ بفتح القاف: أهل كلِّ زمانٍ، مأخوذٌ من الاقتران، كأنَّ أهل ذلك الزمان اقترنوا في أعمالهم وأحوالهم.

وقيل: القرن أربعون سنةً، وقيل: ثمانون، وقيل: مئة، وقيل: هو مُطلقُ الزمان.

والمراد هنا المعنى الأول، وكذا في قوله ﷺ: «خيرُ القرونِ قَرْني ثمَّ الذين يَلُونَهم»[٧]، وقولِه:

---

(١) تفسير الرازي ١٧/ ٤٩-٥٠.
(٢) في (م): التضرع، بدل: أن يتضرع.
(٣) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢٨٠٣)، والترمذي (٢٥١٦) عن ابن عباس ﷺ. قال الترمذي: حسن صحيح.
(٤) الدر المنثور ٣/ ٣٠٢.
(٥) في الأصل: الترمذي.
(٦) سنن الترمذي (٣٣٨٢)، والمستدرك ١/ ٥٤٤.
(٧) أخرجه أحمد (١٩٨٣٥)، والبخاري (٦٤٢٨)، ومسلم (٢٥٣٥) من حديث عمران بن

إذا ذهبَ القرنُ الذي أنت فيهمُ وخُلِّفتَ في قَرنٍ فأنت غريبُ[1]

﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ أي: مِن قبل زمانكم، والخطابُ لأهل مكة على طريقة الالتفات للمبالغة في تشديد التهديد بعد تأييده بالتوكيد القَسَميِّ، والجارُّ والمجرورُ مُتعلِّقٌ بـ «أهلكنا»، ومَنَعَ أبو البقاء كونَه حالاً من القرون[2].

﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ أي: حين فَعلوا الظلمَ بالتكذيب والتمادي في الغيِّ والضلال، والظرفُ متعلِّق بـ «أهلكنا».

وجَعْلُ «لَمَّا» شرطيةً بتقديرِ جوابٍ هو: أهلكناهم، بقرينةِ ما قبله، تكلُّفٌ لا حاجةَ إليه.

وقوله سبحانه: ﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾ حالٌ مِن ضمير «ظلموا» بإضمار «قد».

وقولُه تعالى: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ متعلِّقٌ بـ «جاءتهم» على أنَّ الباء للتعدية، أو بمحذوفٍ وقع حالاً مِن «رسلهم» دالَّةً على إفراطهم في الظلم وتناهيهم في المكابرة، أي: ظلموا بالتكذيب وقد جاءتهم رسُلُهم بالآيات البيِّنةِ الدالَّة على صدقهم، أو مُلْتَبِسينَ[3] بها حين لا مجالَ للتكذيب.

وجوَّز أبو البقاء وغيرُه عطفَه على «ظلموا»[4]، فلا محلَّ له من الإعراب، أو محلُّه الجرُّ، وذلك عند مَن يَرَى إضافة الظرف إلى المعطوف عليه. والترتيبُ الذِّكريُّ لا يجبُ أنْ يكون حَسْبَ الترتيب الوقوعي كما في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾ [يوسف:١٠٠]، ولا حاجةَ إلى هذا الاعتذار، بناءً

= حصين بلفظ: «إن خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» قال عمران: فما أدري أقال النبي ﷺ بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً.

(١) البيت لأبي محمد التيمي عبد الله بن أيوب من شعراء الدولة العباسية، كما في الأغاني ٢٠/ ٥٤، ونسبه البصري في الحماسة ٢/ ٤٧ له أو للحسن بن عمرو الإباضي، ونسبه ابن قتيبة في عيون الأخبار ٩/ ٣٢٢ للحجاج بن يوسف التيمي.

(٢) الإملاء ٣/ ٢٢٠. وقال السمين في الدر المصون ٦/ ١٦٢: لأنه ظرف زمان فلا يقع حالاً عن الجنة كما لا يقع خبراً عنها.

(٣) في (م): متلبسين، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ١٢٧، والكلام منه.

(٤) الإملاء ٣/ ٢٢٠.

على أنَّ الظلم ليس مُنحصراً في التكذيب، بل هو محمولٌ على سائر أنواع الظلم.

والتكذيبُ مستفادٌ مِن قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ على أبلغ وجهٍ وآكَدِه؛ لأنَّ اللام لتأكيد النفي. وهذه الجملةُ على الأوَّل عطفٌ على «ظلموا»، وليس من العطف التفسيريِّ في شيءٍ على ما قاله صاحب «الكشف» خلافاً للطيبي؛ لأنَّ الأُولى إخبارٌ بإحداث التكذيب، وهذه إخبارٌ بالإصرار عليه، وعلى الثاني عَطْفٌ على ما عُطِفَ عليه.

وقيل: اعتراضٌ للتأكيد بين الفعل وما يجري مَجرَى مصدرِه التشبيهيِّ، أعني قولَه سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ فإنَّ الجزاء المشارَ إليه عبارةٌ عن مصدرِه، أي: مثلَ ذلك الجزاءِ الفظيع، أي: الإهلاكِ الشديدِ الذي هو الاستئصالُ بالمرة ﴿نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ أي: كلَّ طائفةٍ مجرمةٍ، فيشملُ القرون، وجَعْلُ ذلك عبارةً عنهم غيرُ مناسبٍ للسياق. وقرئ: «يَجزِي» بياء الغيبة[1] التفاتاً من التكلُّم في «أهلكنا» إليها.

وحاصلُ المعنى على تقدير العطف: أنَّ السبب في إهلاكهم تكذيبُهم الرسلَ، وأنَّهم ما صحَّ وما استقام لهم أنْ يؤمنوا؛ لفساد استعدادهم، وخذلان الله تعالى إيَّاهم، ويُقتصر على الأمر الأول في بيان الحاصل على تقدير الاعتراض، وذكر الزمخشريُّ بدلَ الأمر الثاني علمَ الله تعالى أنَّه لا فائدةَ في إمهالهم بعد أنْ أُلزموا الحجَّةَ ببعثةِ الرسل عليهم السلام[2]، وجُعِلَ بياناً على التقديرَين، وفيه ما يحتاج إلى الكشف فتدبَّره.

وتعليلُ عدم الإيمان بالخذلان ونحوِه ظاهرٌ، وكلام القاضي صريحٌ في تعليله ـ أيضاً ـ بعِلْم الله تعالى أنَّهم يموتون على الكفر[3].

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٢٨، والبحر ٥/ ١٣١.

(٢) الكشاف ٢/ ٢٢٨، وفيه: المعنى أن السبب في إهلاكهم تكذيبهم الرسل وعلم الله أنه لا فائدة...

(٣) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ١٢.

واعترَضَ بأنَّه منافٍ لقولهم: إنَّ العلم تابعٌ للمعلوم[(١)]، وتكلَّفَ بعضُ الفضلاء في تصحيحه ما تكلَّفَ[(٢)]، ولم يأتِ بشيءٍ.

وقال بعض المحققين: معنى كونِ العلم تابعاً للمعلوم أنَّ عِلْمَه تعالى في الأزل بالمعلوم المعيَّنِ الحادثِ تابعٌ لماهيّتِهِ، بمعنى أنَّ خصوصيَّةَ العلم وامتيازَه عن سائر العلوم إنَّما هو باعتبارِ أنَّه عِلْمٌ بهذه الماهية، وأمَّا وجودُ الماهية وفعليتها فيما لا يزال فتابعٌ لعِلْمِه الأزليِّ التابع لماهيته، بمعنى: أنَّه تعالى لمَّا عَلِمها في الأزل على هذه الخصوصية، لَزِمَ أنْ تتحقَّق فيما لا يزالُ على هذه الخصوصية، فنفسُ موتهم على الكفر وعدمُ إيمانهم متبوعٌ لعلْمِه تعالى الأزليِّ، ووقوعُه تابعٌ له، وهذا مما لا شُبهة فيه، وهو مذهبُ أهل السنَّة رحمهم الله تعالى، وبه ينحلُّ إشكالاتٌ كثيرةٌ فليُحفَظ.

وذكر مولانا الشيخ إبراهيم الكورانيُّ أنَّ معنى كون العلم تابعاً للمعلوم أنَّه متعلِّقٌ به كاشفٌ له على ما هو عليه. وبُني على ذلك كونُ الماهيات ثابتةً غيرَ مجعولةٍ في ثبوتها. والقولُ بالتبعية المذكورة مما ذَهَبَ إليه الشيخُ الأكبر قُدِّس سرُّه[(٣)]، ونازَعَ في ذلك عبدُ الكريم الجيليُّ.

وقال الشيخ محمد عمر البغدادي[(٤)] عليه الرحمة: إنَّ كونَ العلم تابعاً للمعلوم بالنظر إلى حضرةِ الأعيان القديمة التي أعطَت الحقَّ العلمَ التفصيليَّ بها، وأمَّا بالنظر إلى العلم الإجماليِّ الكلِّيِّ فالمعلومُ تابعٌ للعلم؛ لأنَّ الحقَّ تعالى لمَّا تَجلَّى من ذاته لذاته بالفيض الأقدس حصلَت الأعيان واستعداداتها، فلم تحصل عن جهل، تعالَى اللهُ عن ذلك علوّاً كبيراً، وحينئذٍ فلا مخالفةَ بين الشيخ الأكبر قُدِّس

(١) أي أن علمه تعالى ليس علة لعدم إيمانهم؛ لأن العلم تابع للمعلوم لا بالعكس. حاشية الشهاب ٥/ ١٢.

(٢) ينظر كلامه في حاشية الشهاب ٥/ ١٢، وكذا كلام بعض المحققين الذي سيرد بعده.

(٣) ينظر الفتوحات، الباب أحد عشر وأربع مئة.

(٤) عمر بن عبد الجليل بن محمد بن جميل بن درويش البغدادي الحنفي الصوفي القادري نزيل دمشق، فقيه مفسِّر نحوي، له: شرح القدوري بالفقه، وحاشية على المغني في النحو، وحاشية على رسالة وحدة الوجود وشرح الصلوات المحمدية لابن عربي، والحواشي الفتوحية على شرح القصيدة النونية في العقائد، وغيرها، توفي سنة (١١٩٤هـ). سلك الدرر ٣/ ١٧٩، وهدية العارفين ١/ ٧٩٩، وإيضاح المكنون ١/ ٤٢٣ و٢/ ٣٨٢.

سرِّه والجيليِّ، على أنَّه إنْ بقيت[1] هناك مخالفةٌ فالحقُّ مع الشيخ؛ لأنَّ الجيليَّ بالنسبة إليه نَحلةٌ تُدندِنُ حول الحمى، والدليلُ أيضاً مع الشيخ كنارٍ على عَلَم، لكنَّه قد أَبْعَدَ ﷺ الشوط بقوله: العلمُ تابعٌ للمعلوم، والمعلوم أنت، وأنت هو، والبحث وَعِرُ المسلك صعبُ المرتقى، وتمام الكلام فيه يُطلب من محلِّه.

واستفادةُ معنى العلم هنا ـ على ما قيل ـ من التأكيد الذي أفادته اللام. وفي الآية وعيدٌ شديدٌ وتهديدٌ أكيدٌ لأهل مكة؛ لأنَّهم وأولئك المهلَكين مشتركون فيما يقتضي الإهلاك.

ويُعلم ممَّا تقرَّر أنَّ ضمير «كانوا» للقرون، وهو ظاهرٌ. وجوَّز مقاتلٌ أنْ يكون الضميرُ لأهل مكة، وهو خلافُ الظاهر.

وكذا جوِّز كونُ المراد بـ «القوم المجرمين» أهلَ مكة، على طريقة وضْعِ الظاهر موضعَ ضمير الخطاب إيذاناً بأنَّهم أعلامٌ في الإجرام، وذِكْرُ «القوم» إشارةٌ إلى أنَّ العذاب عذابُ استئصال، والتشبيهُ على هذا ظاهرٌ، إذ المعنى: يجزيكم مثلَ جزاءِ مَن قبلكم، وأمَّا على الأول، فهو على مِنوالِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وأضرابِه. وفيه بُعدٌ أيضاً، بل قال بعضُ المحققين: يأباه كلَّ الإباء. قولُه سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ فإنَّه صريحٌ في أنَّه ابتداءُ تعرُّضٍ لأمورهم، وأنَّ ما بُيِّنَ فيه مبادئُ أحوالِهم لاختبار كيفيةِ أعمالهم على وجهٍ يُشعر باستمالتهم نحو الإيمان والطاعة، فمحالٌ أنْ يكونَ ذلك إِثْرَ بيانِ منتهَى أمرهم، وخطابهم بِبَتِّ القول بإهلاكهم لكمال إجرامهم.

والعطفُ على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا﴾ لا على ما قبله، والمعنى: ثم استخلفناكم في الأرض بعد إهلاك أولئك القرونِ التي تسمعون أخبارها وتشاهدون آثارها ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۝١٤﴾ أي: لنعلم أيَّ عملٍ تعملون، فـ «كيف» مفعولٌ مطلقٌ لـ «تعملون»، وقد صرَّح في «المغني» بأنَّ «كيف» تأتي كذلك، وأنَّ منه: ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ [الفيل: ١][2] وليست معمولة «لننظر» لأنَّ الاستفهام له الصدارةُ، فيُمْنَعُ ما قبلَه من العمل فيه، ولذا لَزِمَ تقديمُه على عامله هنا.

(١) في الأصل: ثبت.
(٢) مغني اللبيب ص٢٧١.

وقيل: محلُّها النصبُ على الحال من ضمير «تعملون» كما هو المشهورُ فيها إذا كان بعدها فعلٌ، نحو: كيف ضرب زيد، أي: على أيِّ حالٍ تعملون الأفعالَ اللائقةَ بالاستخلاف من أوصاف الحُسْن، وفيه مِن المبالغة في الزَّجْر عن الأعمال السيئة ما فيه.

وقيل: محلُّها النصب على أنَّها مفعولٌ به لـ «تعملون»، أي: أيَّ عملٍ تعملون خيراً أو شرّاً، وقد صرَّحوا بمجيئها كذلك أيضاً، وجعلوا من ذلك[1]: كيف ظننتَ زيداً؟ وبما ذُكر فسَّر الزمخشريُّ الآية[2].

وتعقَّبه القطب بما تعقَّبه، ثم قال: ولعلَّه جعَلَ «كيف» هاهنا مجازاً بمعنى: أيِّ شيءٍ؛ لدلالة المقام عليه.

وذكر بعضُ المحقِّقين أنَّ التحقيق أنَّ معنى «كيف» السؤالُ عن الأحوال والصفاتِ لا عن الذوات وغيرها، فالسؤالُ هنا عن أحوالهم وأعمالهم، ولا معنى للسؤال عن العمل إلَّا عن كونه حَسَناً أو قبيحاً وخيراً أو شرّاً، فـ «كيف» ليسَت مجازاً بل هي على حقيقتها.

ثم إنَّ استعمال النظر بمعنى العلم مجازٌ، حيث شُبِّه بنَظَرِ الناظرِ وعيان المُعايِنِ في تحقُّقه، والكلامُ استعارةٌ تمثيليةٌ مرتَّبة على استعارةٍ تصريحيةٍ تَبعيَّةٍ، والمرادُ: يعاملُكم معاملةَ مَن يطلب العلم بأعمالكم ليُجازيَكم بحَسَبها، كقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

وقيل: يمكن أنْ يقال: المرادُ بالعلم المعلومُ، فحينئذٍ يكون هذا مجازاً مرتَّباً على استعارة.

وأيّاً ما كان فلا يلزمُ أنْ لا يكون اللهُ سبحانه وتعالى عالماً بأعمالهم قبل استخلافهم.

وليس مبني تفسير النظر بالعلم على نفي الرؤية كما هو مذهبُ بعض القدرية القائلين بأنَّه جلَّ شأنه لا يَرَى ولا يُرَى، فأنا ـ ولله تعالى الحمد ـ ممن يقول: إنَّه

---

(١) بعدها في (م): نحو.
(٢) الكشاف ٢/٢٢٨.

تبارك وتعالى يَرى ويُرى، والشروطُ في الشاهد ليست شروطاً عقلية، كما حُقِّق في موضعه[١]. وإنَّ الرؤية صفةٌ مغايرةٌ للعلم، وكذا السمع أيضاً.

وممَّن يقول أيضاً: إنَّ صُورَ الماهياتِ الحادثةَ مشهودةٌ لله تعالى أزلاً في حالِ عَدَمِها في أنفُسِها في مرايا الماهيات الثابتة عنده جلَّ شأنه، بل هو مبنيٌّ على اقتضاء المعنى له، فإنك إذا قلتَ: أكرمتُك لأرى ما تصنعُ، فمعناه: أكرمتُك لأختبرَك وأعلمَ صُنعَك فأجازيَك عليه.

ومن هنا يُعلم أنَّ حَمْلَ النظر على الانتظارِ والتربُّص كما هو أحدُ معانيه ليس بشيءٍ، وبعضُ الناس حَمَل كلامَ بعضِ الأفاضل عليه، وارتكب شططاً وتكلَّم غلطاً.

هذا وقرئ: «لِنَظُّر» بنون واحدة وتشديد الظاء[٢]، ووُجِّه ذلك أنَّ النون الثانية قُلبت ظاءً وأُدغمَت.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ التفاتٌ من خطابهم إلى الغيبة، إعراضاً عنهم، وتوجيهاً للخطاب إلى سيِّد المخاطَبين ﷺ بتعديد جناياتهم المضادَّة لِمَا أُريدَ منهم بالاستخلاف، من التكذيب والكفرِ بالآيات البيِّنات وغيرِ ذلك، كدأب مَن قبلَهم مِن القرون المهلَكة. وصيغةُ المضارع للدلالة على تجدُّد جوابهم الآتي حَسْبَ تجدُّدِ التلاوة.

والمرادُ بـ «الآيات»: الآياتُ الدالة على التوحيد وبطلان الشرك. وقيل: ما هو أعمُّ من ذلك. والإضافة لتشريف المضافِ، والترغيبِ في الإيمان به، والترهيبِ عن تكذيبه.

ونصب «بيناتٍ» على الحال، أي: حالَ كونها واضحاتِ الدلالة على ما تضمَّنته.

وإيرادُ فِعْلِ التلاوة مبنيّاً للمفعول، مُسنداً إلى الآيات دون رسول الله ﷺ ببنائه للفاعل؛ للإشعار بعدم الحاجةِ لتعيين التالي، وللإيذان بأنَّ كلامهم في نفس المتلوِّ ولو تلاه رجلٌ مِن إحدَى القريتَين عظيمٌ.

---

(١) ينظر بحث رؤية الله تعالى ٨/ ٣٤٦ وما بعدها.

(٢) المحتسب ١/ ٣٠٩، والبحر ٥/ ١٣١.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ وُضع الموصول موضعَ الضمير إشعاراً بعلِّية ما في حيِّز الصلة المعظَّمة المحكيَّة عنهم، وذمّاً لهم بذلك، أي: قالوا لمن يتلوها عليهم وهو رسولُ الله ﷺ ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ أشاروا بهذا إلى القرآن المشتملِ على تلك الآياتِ لا إلى أنفسها فقط، قصداً إلى إخراج الكلِّ مِن البين، أي: ائت بكتابٍ آخرَ نقرؤه، ليس فيه ما نستبعدُهُ من البعث وتوابعِهِ، أو ما نكرهُه مِن ذمِّ آلهتنا والوعيدِ على عبادتها ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ بأنْ تجعلَ مكان الآيةِ المشتمِلَة على ذلك آيةً أُخرى.

ولعلَّهم إنَّما سألوا ذلك كيداً وطمعاً في إجابته عليه الصلاة والسلام؛ ليتوسَّلوا إلى الإلزام والاستهزاء، وليس مرادُهم أنَّه عليه الصلاة والسلام لو أجابهم آمنوا.

﴿قُلْ﴾ أيُّها الرسول لهم ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ﴾ المصدرُ فاعلُ «يكون»، وهي من «كان» التامَّة، وتُفسَّر بـ «وُجِدَ»، ونَفْيُ الوجود قد يُراد به نَفْيُ الصحة، فإنَّ وجودَ ما ليس بصحيح كَلَا وجودٍ، فالمعنى هنا: ما يصحُّ لي أصلاً تبديله ﴿مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾ أي: من جهتي ومن عندي.

وأصلُ «تلقاء» مصدرٌ على تِفْعال بكسر[1] التاء، ولم يَجِئْ مصدرٌ بكسرها غيرُه وغير تبيان في المشهور. وقرئ شاذاً بالفتح[2]، وهو القياس في المصادر الدالة على التكرار كالتَّطواف والتَّجوال، وقد خَرَجَ هنا من ذلك إلى الظرفية المجازية، والجرُّ بـ «مِن» لا يُخرِجُ الظرفَ عن ظرفيته، ولذا اختصَّت الظروف الغيرُ المتصرِّفةِ كـ: عند، بدخولها عليها.

ومن الناس مَن وَهِمَ في ذلك وقَصَر الجوابَ ببيانِ امتناع ما اقترحوه على اقتراحهم الثاني، للإيذان بأنَّ استحالة ما اقترحوه أولاً من الظهور بحيث لا حاجةَ إلى بيانها؛ لأنَّ ما يدلُّ على استحالة الثاني يدلُّ على استحالة الأول بالطريق الأولَى، فهو بحَسَبِ المآل والحقيقة جوابٌ عن الأمْرين.

﴿إِنْ أَتَّبِعُ﴾ أي: ما أَتَّبعُ فيما آتي وأَذَرُ ﴿إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ من غير تغييرٍ له في

---

(١) قوله: بكسر، ساقط من (م)، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٥/ ١٤، والكلام منه.
(٢) الكشاف ٢/ ٢٢٩، والبحر ٥/ ١٣٢، وحاشية الشهاب ٥/ ١٤.

شيءٍ أصلاً، على معنى قَصْرِ حاله عليه الصلاة والسلام على اتِّباع ما يُوحَى، لا قَصْرِ اتِّباعه على ما يُوحَى إليه، كما هو المتبادرُ من ظاهر العبارة، فكأنَّه قيل: ما أفعلُ إلَّا اتِّباعَ ما يُوحَى إليَّ، والجملةُ مستأنفةٌ لما يكونُ، فإنَّ مَن شأنُه اتِّباعُ الوحي على ما هو عليه لا يستقلُّ بشيءٍ دونه أصلاً.

وفي ذلك ـ على ما قيل ـ جوابٌ لنقضٍ مقدَّرٍ، وهو أنَّه: كيف هذا وقد نَسَخَ بعضَ الآيات ببعض؟ وردٌّ لِمَا عَرَّضُوا له بهذا السؤال مِن أنَّ القرآن كلامُه ﷺ.

وكذا تقييدُ التبديل في الجواب بقوله: «مِن تلْقاءِ نفسي» لردِّ تعريضهم بأنَّه مِن عنده عليه الصلاة والسلام، ولذلك أيضاً سمَّاه عصياناً عظيماً مُستتْبِعاً لعذابٍ عظيم بقوله عز وجل: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥﴾ وهو تعليلٌ لمضمون ما قبلَه مِن امتناع التبديل، واقتصارِ أمره ﷺ على اتِّباع الوحي، أي: إنِّي أخافُ إنْ عصيتُه تعالى بتعاطي التبديل والإعراض عن الوحي عذابَ يوم عظيم، هو يومُ القيامة ويومُ اللقاء الذي لا يرجونه، وفيه إيماءٌ بأنَّهم استوجبوا العذابَ بهذا الاقتراح؛ لأنَّ اقتراح ما يوجبه يستوجبه أيضاً، وإنْ لم يكن كفعله.

والتعرُّضُ لعنوان الربوبية مع الإضافة لضميره عليه الصلاة والسلام لتهويل أمر العصيان، وإظهارِ كمالِ نَزاهته ﷺ، وفي إيرادِ اليوم بالتنوين التفخيميِّ، ووصْفِهِ بـ «عظيم» ما لا يخفَى ما فيه من العذاب وتفظيعه.

وجوَّز العلَّامة الطيبيُّ كونَ الجواب المذكور جواباً عن الاقتراحَين من غير حاجةٍ إلى شيءٍ، وذلك بحَمْلِ التبديل فيه على ما يعمُّ تبديلَ ذاتٍ بذاتٍ أُخرَى كـ: بدَّلتُ الدنانير دراهمَ، وهو الذي أشاروا إليه بقولهم: «ائت بقرآنٍ غير هذا»، وتبديلَ صفةٍ بصفةٍ أُخرَى كـ: بدَّلتُ الخاتمَ حلقةً، وهو الذي أشاروا إليهم بقولهم: «أو بدِّله».

وأُورد عليه بأنَّ تقييد التبديل بقوله سبحانه: (مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ) يمنعُ حمله على الأعمِّ؛ لأنَّه يُشعر بأنَّ ذلك مقدورٌ له ﷺ، ولكنْ لا يفعله بغير إذنه تعالى، والتبديلُ الذي أشاروا إليه أوَّلاً غيرُ مقدورٍ له عليه الصلاة والسلام، حتى إنَّ المقترِحِينَ يعلمون استحالةَ ذلك، لكن اقترحوه لِمَا مرَّ، وقالوا: لو شئنا لقلنا مثل هذا، مكابرةً وعناداً.

ثمَّ إنَّ الظاهر أنَّهم اقترحوا التبديلَ والإتيانَ بطريق الافتراء، قيل: لا مساغَ للقول بأنَّهم اقترحوا ذلك من جهة الوحي، فكأنَّهم قالوا: ائتِ بقرآن غيرِ هذا أو بدِّله من جهة الوحي، كما أتيت بالقرآن من جهتِهِ، ويكون معنى قوله: «ما يكون لي» إلخ: ما يَتَسهَّل لي ولا يُمكنني أنْ أبدِّله = لِمَا في «الكشاف» مِن أنَّ قوله: «إنِّي أخافُ إنْ عصيتُ ربي» يردُّ ذلك[1].

ووُجِّه بأنهم لم يطلبوا ما هو عصيانٌ على هذا التقدير حتى يقولَ في جوابهم ما ذكر.

ونُظِرَ فيه بأنَّ الطلب مِن غير إذنٍ عصيانٌ، فإنْ لم يُحْمَلْ: ما يتسهَّل لي، على أنَّ ذلك لكونه غيرَ مأذونٍ، كان الجوابُ غيرَ مطابقٍ لسؤالهم؛ لأنَّ السؤال عن تبديلٍ من الله تعالى، وهو عليه الصلاة والسلام قال: لا يُمكنني التبديلُ من تلقاء نفسي، في الجواب. وإنْ حُمِلَ عليه فالعصيانُ أيضاً منزل عليه.

وأُجيب بأنَّ صاحب «الكشاف» حمل «ما يكون» على أنَّه: لا يُمكن ولا يتسهَّل. والعصيانُ يقع على الممكن المقدور، لا أنَّهم طلبوا ما هو عصيان أو ليس، والمطابقةُ حاصلةٌ بل أشدُّها؛ لأنَّ الحاصل إمَّا التبديلُ من تلقاء نفسي، فغيرُ ممكن، وإمَّا من قبل الوحي، فأنا تابعٌ غيرُ متبوع. نعم لا يُنكَر أنَّه يُمكن أنْ يأتي وجْهٌ آخرُ بأنْ يحمل على أنَّه: لا يحلُّ لي ذلك دونَ إذنٍ، وصاحب «الكشاف» لم يَنْفِه.

وذكر بعضُ المحقِّقين أنَّه لا مساغَ لحمل مُقترحِهم على ما هو من جهة الوحي، لمكان التعليل بـ «إنِّي أخاف» إلخ، إذ المقصودُ بما ذُكر فيه معصيةُ الافتراء، كما يُرشد إلى ذلك صريحُ ما بعده من الآيتَين الكريمَتين، وحينئذٍ لا يتحقَّق فيه تلك المعصية، ومعصيةُ استدعاء تبديلِ ما اقتضته الحكمةُ التشريعيةُ لا سيَّما بموجب اقتراحِ الكفرة ليسَت مقصودةً، فلا ينفعُ تحقُّقها، وهو كلامٌ وجيهٌ يُعلم منه ما في الكلام السابق من النظر.

بقيَ أنَّه يُفهَم من بعض الآثار أنَّهم طلبوا الإتيان من جهة الوحي، فعن

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٢٩.

مقاتل[١]: أنَّ الآية نزلتَ في خمسة نفرٍ: عبد الله بن أبي أميَّةَ[٢] المخزوميِّ، والوليدِ بن المغيرةَ، ومكرز بنِ حفصٍ، وعمرو بن عبد الله بن أبي قيسٍ العامريِّ، والعاصِ بن عامر بن هشام، قالوا للنبيِّ ﷺ: إنْ كنتَ تريدُ أنْ نؤمنَ لك، فائتِ بقرآنٍ ليس فيه تركُ عبادة اللَّات والعُزَّى ومناة، وليس فيه عيبُها، وإنْ لم يُنزل الله تعالى عليك فقل أنت مِن نفسك، أو بدِّله فاجْعَل مكانَ آيةِ عذاب آيةَ رحمة، ومكانَ حرامٍ حلالاً ومكانَ حلالٍ حراماً.

وربَّما يقال: إنَّ هذا ـ على تقديرِ صحته ـ لا يأبَى أنْ يكونَ ما في الآيةِ ما أشار إليه تالي الشرطيةِ الثانيةِ مِن كلامهم، فتدَبَّر.

وقوله سبحانه: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ تحقيقٌ لحَقِّيَّة القرآن، وأنَّه من عنده سبحانه، إثْرَ بيانِ بطلانِ ما اقترحوه على أتمِّ وجهٍ، وصُدِّر بالأمر المستقلِّ إظهاراً لكمال الاعتناء بشأنه، وإيذاناً باستقلاله مفهوماً وأسلوباً، فإنَّه برهانٌ دالٌّ على كونه بأمر الله تعالى ومشيئته كما ستعلمه إنْ شاء الله تعالى. وما سَبَق مجرَّدُ إخبارٍ باستحالة ما اقترحوه.

ومفعولُ المشيئة محذوفٌ يُنْبِئُ عنه الجزاء كما هو المطَّردُ في أمثاله ـ ويُفهَم من ظاهر كلام بعضهم أنَّه غيرُ ذلك، وليس بذلك ـ وهو ظاهرٌ، والمعنى: أنَّ الأمر كلَّه منوطٌ بمشيئته تعالى، وليس لي منه شيءٌ أصلاً، ولو شاء سبحانه عدمَ تلاوتي له عليكم، وعدَم إدرائكم به بواسطتي، بأنْ لم يُنزِّله جلَّ شأنُه عليَّ ولم يأمرني بتلاوته ما تَلَوْتُه عليكم ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ أي: ولا أَعْلَمَكم به بواسطتي. والتالي ـ وهو عدمُ التلاوة والإدراء ـ مُنْتَفٍ، فينتفي المقدَّمُ وهو مشيئتُه العدمَ، وهي مسلتزمةٌ لعدم مشيئته الوجودَ، فانتفاؤه مستلزمٌ لانتفائه، وهو إنَّما يكون بتحقُّق مشيئة الوجود، فثبت أنَّ تلاوته عليه الصلاة والسلام للقرآن وإدراءَه تعالى بواسطته بمشيئتِه تعالى.

---

(١) كما في أسباب النزول للواحدي ص٢٦٧، وتفسير البغوي ٢/ ٣٤٧.

(٢) في الأصل و(م) وتفسير البغوي: عبد الله بن أمية، والمثبت من الإصابة ٦/ ١١، وأسباب النزول.

وتقييدُ الإدراء بذلك[١] هو الذي يقتضيه المقامُ، وحيثُ اقتصرَ بعضُهم في تقدير المفعول في الشرط على عدم التلاوة علَّل التقييدَ بأنَّ عدمَ الإعلام مطلقاً ليس مِن لوازم الشرط، الذي هو عدمُ مشيئة تلاوتِه عليه الصلاة والسلام، فلا يجوز نَظْمُه في سلك الجزاء[٢]. ولم يظهر وجهُ الاقتصار على ذلك، وعدمُ ضمِّ عدمِ الإدراء إليه، مع أنَّ العطفَ ظاهرٌ فيه. وفي إسناد عدم الإدراء إليه تعالى، المنبئ عن استناد الإدراء إليه سبحانه، إعلامٌ بأنَّه لا دخلَ له عليه الصلاة والسلام في ذلك حسبما يقتضيه المقامُ إليه.

ورواية أبي ربيعة عن ابن كثير: «ولأدراكم» بلام التوكيد[٣]، وهي الواقعةُ في جواب «لو» أي: لو شاء الله ما تلوتُه عليكم ولأَعْلَمَكم به على لسان غيري، على معنى: أنَّه الحقُّ الذي لا محيصَ عنه، لو لم أُرسَل به لأُرسل به غيري، وجيءَ باللام هنا للإيذان بأنَّ إعلامهم به على لسان غيرِه ﷺ أشدُّ انتفاءً وأقوى.

ولعلَّ «لا» في القراءة الأُولى لأنَّه يُغتفر في التابع ما لا يُغتفر في المتبوع، وإلَّا فهي لا تقعُ في جواب «لو»، فلا يقال: لو قام زيد لا قامَ عمرو، بل: ما قام، ومِن هنا نصَّ السمين على أنَّها زائدةٌ مؤكِّدة للنفي[٤].

وروي عن ابن عباس والحسن وابن سيرين أنهم قرؤوا: «ولا أَدْرَاتُكم»[٥] بإسنادِ الفعل إلى ضميره ﷺ كالفعل السابق، والأصل: ولا أَدريتُكم، فقُلبت الياءُ ألفاً على لغة مَن يقلب الياءَ الساكنةَ المفتوحَ ما قبلها ألفاً، وهي لغة بَلْحَارث بن

---

(١) أي: بكونه بواسطته ﷺ. تفسير أبي السعود ٤/ ١٢٩-١٣٠.

(٢) تفسير أبي السعود ٤/ ١٣٠.

(٣) التيسير ص١٢١، والنشر ٢/ ٢٨٢. وأبو ربيعة هو محمد بن إسحاق بن وهب بن أعين الرَّبَعي المكي المقرئ، قرأ على البزي، وهو أنبل أصحابه في وقته، توفي سنة (٢٩٤هـ). معرفة القراء الكبار ١/ ٤٥٤. وروى غيره عن البزي بإثبات الألف. وبذلك قرأ الباقون.

(٤) الدر المصون ٦/ ١٦٤.

(٥) أي: بالألف، وكذا ذكرها الشهاب في الحاشية ٥/ ١٥ لكن دون نسبة، وينظر القراءات الشاذة ص٥٦. والمروي عن ابن عباس والحسن وابن سيرين أنهم قرؤوا: «ولا أدرأتكم» بالهمزة بعد الراء، كما في القراءات الشاذة ص٥٦، والمحتسب ١/ ٣٠٩، والبحر ٥/ ١٣٣، وسترد قريباً عن الحسن.

كعب وقبائلَ مِن اليمن، حتى قلبوا ياء التثنية ألفاً وجعلوا المثنَّى في جميع الأحوال على لفظٍ واحد، وحكى ذلك قطرب عن عُقَيل[١].

وأخرج ابنُ جرير وابنُ المنذر وغيرُهما عن الحسن أنَّه قرأ: «ولا أدرأْتُكم» بهمزةٍ ساكنة[٢]، فقيل: إنَّها مبدَلةٌ من الألف المنقلبةِ عن الياء كما سمعتَ، وقيل: إنَّها مبدلةٌ من الياء ابتداءً كما يقال في لَبَّيْتُ: لبَّأت. وعلى القولَين هي غيرُ أصليةٍ، وجاء ذلك في بعضِ اللغات كما نصَّ عليه غيرُ واحدٍ.

وجوَّز أنْ تكونَ أصليةً على أنَّ الفعل من الدَّرْءِ، وهو الدفعُ والمنع، ويقال: أدرأْتُه، أي: جعلتُه دارئاً ودافعاً[٣]، والمعنى: ولا جعلتُكم بتلاوته خُصماء تَدرَؤونني بالجدال.

وقرئ: «ولا أدراكم» بالهمز وتركه[٤] أيضاً، مع إسناد الفعل إلى ضمير الله تعالى.

وأخرج سعيد بنُ منصور وابنُ جرير أنَّ ابنَ عباسٍ ﵄ كان يقرأ: «ولا أنذرتُكم به»[٥].

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ نوعُ تعليلٍ للملازمة المستلزِمَةِ لكون ذلك بمشيئة الله عزَّ وجلَّ حسبما مرَّ آنفاً، واللبثُ: الإقامة.

ونُصِبَ «عُمُراً» على التشبيه بظرفِ الزمان، والمرادُ منه: مدَّةً. وقيل: هو على تقدير مضافٍ، أي: مقدارَ عُمُرٍ. وهو بضمِّ الميم، وقرأ الأعمش بسكونها للتخفيف[٦].

---

(١) يعني عن بني عقيل. المحتسب ١/ ٣١٠، والبحر ٥/ ١٣٣، والدر المصون ٦/ ١٦٤.

(٢) تفسير الطبري ١٢/ ١٣٩، وعزاها لابن المنذر السيوطي في الدر ٣/ ٣٠٢.

(٣) في (م): أي دافعاً، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٥/ ١٥، والكلام منه.

(٤) القراءة بترك الهمزة هي قراءة العشرة، والقراءة بالهمز ذكرها العكبري في الإملاء ٣/ ٢٢٠، والبيضاوي في تفسيره مع حاشية الشهاب ٥/ ١٥.

(٥) سنن سعيد بن منصور (١٠٥٦- تفسير)، وتفسير الطبري ١٢/ ١٤١، وهي في القراءات الشاذة ص٥٦.

(٦) البحر ٥/ ١٣٣، وهي دون نسبة في الكشاف ٢/ ٢٢٩.

والمعنى: قد أقمتُ فيما بينكم مدةً مديدةً، وهي مقدارُ أربعين سنةً، تحفظونَ تفاصيلَ أحوالي، وتُحيطون خبراً بأقوالي وأفعالي.

﴿مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي: مِن قَبْلِ نزول القرآن، أو من قَبْلِ وقتِ نزوله ـ ورجوعُ الضمير للتلاوة ليس بشيءٍ ـ لا أتعاطَى شيئاً مما يتعلَّق بذاك، لا مِن حيثُ نظمُه المعجِزُ، ولا من حيث معناه الكاشفُ عن أسرار الحقائق وأحكامِ الشرائع.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي: ألَا تلاحظون ذلك فلا تَعْقِلون امتناعَ صدورِه عن مثلي، ووجوبَ كونه منزلاً من عند الله العزيز الحكيم، فإنَّ ذلك غيرُ خافٍ على مَن له عقلٌ سليم وذهنٌ مستقيم، بل لَعمري إنَّ مَن كان له أدنَى مُسكةٍ مِن عقل إذا تأمَّل في أمره ﷺ، وأنَّه نشأ فيما بينهم هذا الدهرَ الطويلَ من غير مصاحبةِ العلماء في شأنٍ من الشؤون، ولا مراجعةٍ إليهم في فنٍّ من الفنون، ولا مخالطةٍ للبلغاءِ في المحاوَرةِ والمفاوضة، ولا خوضٍ معهم في إنشاء الخطب والمقارضة[1]، ثم أتَى بكتابٍ بَهَرَت فصاحتُه كلَّ ذي أَدبٍ، وحيَّرَت بلاغتُه مصاقِعَ العرب، واحتوَى على بدائعِ أصنافِ العلوم، ودقائقِ حقائق المنطوق والمفهوم، وغدا كاشفاً عن أسرار الغيبِ التي لا تنالُها الظنون، ومُعرِباً عن أقاصيص الأوَّلِينَ وأحاديثِ الآخرينَ من القرون، ومصدِّقاً لما بين يديه مِن الكتب المنزَّلة، ومهيمناً عليها في أحكامه المجملة والمفصَّلة، لا يبقَى عنده اشتباهٌ في أنَّه منزَلٌ من عند الله جلَّ جلاله وعمَّ إفضاله، هذا هو الذي اتَّفقت عليه كلمةُ الجمهور، وهو أوفقُ بالردِّ عليهم كما لا يخفَى على المتأمِّل.

وقيل[2]: إنَّ الأنسب ببناء الجوابِ فيما سلف على امتناعِ صدورِ التغيير والتبديل عنه عليه الصلاة والسلام، لكونه معصيةً موجبةً للعذاب العظيم، واقتصاره ﷺ على اتِّباع الوحي، وامتناع الاستبداد بالرأي، مِن غير تعرُّضٍ هناك ولا هنا لكون القرآن في نفسه أمراً خارجاً عن طَوْق البشر، ولا بكونه عليه الصلاة والسلام غيرَ قادرٍ على الإتيان بمثله = أنْ يُستَشهدَ هاهنا بما يلائم ذلك من

---

(١) في (م): المعارضة. وجاء في تفسير أبي السعود ٤/ ١٣٠ (والكلام فيه بنحوه): في إنشاء الخطب والأشعار.

(٢) القائل هو أبو السعود في تفسيره ٤/ ١٣٠.

أحواله ﷺ المستمِرَّة في تلك المدَّة المتطاولة، مِن كمال نزاهتِهِ عليه الصلاة والسلام عما يُوهم شائبةَ صدورِ الكذب والافتراء عنه في حقِّ أحدٍ كائناً مَن كان، كما يُنبئ عنه تَعقيبه بتَظْليم المفتري على الله تعالى، والمعنى: قد لبثتُ فيما بين ظهرانَيكم قبل الوحي لا أتعرَّضُ لأحدٍ قطُّ بتحكُّم ولا جدالٍ، ولا أحومُ حول مقالٍ فيه شائبةُ شبهةٍ فضلاً عما فيه كذبٌ وافتراءٌ، ألا تلاحظونَه فلا تعقلون أنَّ مَن هذا شأنُه المطَّرِدُ في هذا العهد البعيد، يستحيلُ أنْ يفتري على الله عزَّ وجلَّ، ويتحكَّمَ على كافَّة الخلقِ بالأوامر والنواهي، الموجبةِ لسَلْبِ الأموال، وسَفْكِ الدماء، وغير ذلك، وأنَّ ما أتى به وحيٌ مبينٌ تنزيلٌ مِن ربِّ العالمين. انتهى.

وأنت تعلم أنَّ هذا غيرُ منساقٍ إلى الذهن، وأنَّ الكلام الأول مشيرٌ في الجملة إلى كون القرآن أمراً خارجاً عن طوق البشر، وأنَّه ﷺ غيرُ قادرٍ على الإتيان بمثله، على أنَّه بَعْدُ لا يخلو عن مقالٍ فتأمَّل.

وقوله سبحانه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ معناه النفيُ، أي: لا أحدَ أظلَمُ من ذلك، ونَفْيُ الأظلمية كما هو المشهورُ كنايةٌ عن نفي المساواة، فالمرادُ أنَّه أَظلَمُ مِن كلِّ ظالمٍ وقد مرَّ تحقيق ذلك[1].

والآيةُ مرتبطةٌ بما قبلها على أنَّ المقصودَ منها تفاديه ﷺ مما لَوَّحوا به مِن نسبةِ الافتراء على الله سبحانه إليه عليه الصلاة والسلام وحاشاه، وتظليمٌ للمشركين بتكذيبهم للقرآن وكفرهم به.

وزيادةُ «كذباً» مع أنَّ الافتراء لا يكونُ إلا كذلك للإيذان بأنَّ ما لوَّحوا به ضِمْناً، وحَمَلوه ـ عليه الصلاة والسلام ـ عليه صريحاً، مع كونه افتراءً على الله سبحانه، كذبٌ في نفسه، فرُبَّ افتراءٍ يكونُ كذبُه في الإسناد فقط، كما إذا أسندْتَ ذنْبَ زيدٍ إلى عمرٍو، وهذا للمبالغة منه ﷺ في التفادي مما ذُكر.

والفاءُ لترتيب الكلام على ما سَبَقَ من بيان كون القرآن بمشيئته تعالى وأمره، أي: وإذا كان الأمرُ كذلك، فمَن افترَى عليه سبحانه بأنْ يخلق[2] كلاماً فيقول:

---

(١) ٢/ ٣٩٩-٤٠٠.

(٢) كذا في الأصل و(م)، وفي تفسير أبي السعود ٤ / ١٣١ (والكلام منه): يختلق.

هذا مِن عند الله تعالى، أو يُبدِّلُ بعضَ آياته ببعضٍ، كما تجوِّزون ذلك في شأني، وكذلك مَن كذَّب بآياته جلَّ شأنه كما تفعلونه أنتم = أَظلَمُ من كلِّ ظالم.

وقيل: المقصودُ مِن الآية تظليم المشركين بافترائهم على الله تعالى في قولهم: إنَّه ـ تعالى عمَّا يقولون ـ ذو شريكٍ وذو ولد، وتكذيبِهم بآياته سبحانه، وهي مرتبطةٌ إمَّا بما قبلها أيضاً على معنى: إنِّي لم أفترِ على الله تعالى ولم أكذب عليه، وقد قام الدليل على ذلك، وأنتم قد فعلتُم ذلك حيث زعمتُم أنَّ لله تعالى شريكاً، وأنَّ له ولداً، وكذَّبتُم نبيَّه ﷺ وما جاء به من عنده سبحانه.

وإمَّا بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ إلخ على أنْ يكون قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ وقولُه سبحانه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ إلى هنا إعلاماً بأنَّ المشركين الذين بُعِثَ إليهم رسولُ الله ﷺ استنُّوا[1] بسَنَن مَن قبلَهم في تكذيب آيات الله تعالى والرسل عليهم الصلاة والسلام، ويكونُ هذا عوداً إلى الأوَّل بعد الفراغ من قصة المشركين.

وقيل: وجهُ تعلُّقِها بما تقدَّم أنَّهم سألوه ﷺ تبديلَ القرآن لما فيه من ذمِّ آلهتهم الذين افتروا في جعلها آلهةً.

وقيل: إنَّ الآية تَوطئةٌ لما بعدها.

ولا يَخفَى أنَّ الأول هو الأنسبُ بالمقام، وأوفقُ بالفاء، وأبعدُ عن التكلُّف، وأقربُ انْسِياقاً إلى الذهن السليم.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الشأن ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾ أي: لا ينجُون من محذورٍ، ولا يفوزون بمطلوبٍ، والمرادُ جنسُ المجرمين، فيندرجُ فيه المفتري والمكذِّبُ اندراجاً أوليّاً، ولا يخفَى ما في اختيار ضمير الشأن من الاعتناء بشأن ما يُذكر بعدَه من أوَّل الأمر.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ حكايةٌ لجنايةٍ أُخرَى لهم، وهي عطفٌ على قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ الآية عطفَ قصةٍ على قصة. و«من دون» في موضع الحال من فاعل «يعبدون» أي: مُتجاوِزين الله تعالى، إمَّا بمعنى

(١) في (م): واستنوا.

تركِ عبادتِهِ سبحانه بالكلِّيَّة؛ لأنَّها لا تصحُّ ولا تقعُ عبادةٌ مع الشِّركة، أو بمعنى عدمِ الاكتفاء بها وجَعْلِها قريناً لعبادةِ غيره سبحانه كما اختاره البعض.

و«ما» إمَّا موصولةٌ أو موصوفةٌ، والمرادُ بها الأصنام، ومعنى كونِها لا تضرُّ ولا تنفعُ: أنَّها لا تقدِرُ على ذلك لأنَّها جماداتٌ، والمقصودُ مِن هذا الوصفِ نفيُ صحةِ معبوديَّتها؛ لأنَّ مِن شأن المعبود القدرةَ على ما ذكر.

وقيل: المعنى: لا تضرُّهم إنْ تركوا عبادتها ولا تنفعهم إنْ عبدوها، والمقصود أيضاً نفيُ صحة معبوديتها؛ لأنَّ مِن شأن المعبود أنْ يُثيبُ عابدَه، ويُعاقبَ مَن لم يعبده.

والفرقُ بين التفسيرَين على ما قاله القطبُ: إطلاقُ النفع والضرِّ في الأول، والتقييدُ بالعبادة وتركِها في الثاني.

وقيل: المقصودُ على الأول من الموصول الأصنامُ بعينها، وعلى الثاني فاقدُ أوصافِ المعبودية[1]، ويجوز أنْ يدخل فيه غيرُ الأصنام من الملائكة والمسيحِ عليهم السلام.

والظاهرُ أنَّ المراد هنا الأصنامُ؛ لأنَّ العرب إنَّما كانوا يعبدونها، وكان أهلُ الطائف يعبدون اللاتَ، وأهلُ مكةَ العزَّى ومناةَ وهُبَلَ وإسافاً ونائلة.

﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ أخرج ابنُ أبي حاتم عن عكرمة قال: كان النضر بن الحارث يقول: إذا كان يومُ القيامة شفَعَت لي اللاتُ والعزَّى، وفيه نزلت الآية[2].

والظاهرُ أنَّ سائرَ المشركين كانوا يقولون هذا القولَ، ولعلَّ ذلك منهم على سبيل الفرَضِ والتقدير، أي: إن[3] كان بعثٌ كما زعمتُم فهؤلاء يشفعون لنا، فلا يقال: إنَّ المتبادر من الشفاعة عند الله تعالى أنَّه في الآخرة، وهو مستلزِمٌ للبعث، وهم ينكرونه كما يدل عليه قولُه تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا

(١) في الأصل: العبودية.
(٢) الدر المنثور ٣/ ٣٠٢.
(٣) في الأصل: إذا.

﴿يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾ [النحل:٣٨]. وكذا ما تقدَّم آنفاً من قوله سبحانه: (قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا) فيلزمُ المنافاةُ بين مفاهيم الآيات.

وكأنَّه لذلك قال الحسن عليه الرحمة: إنَّهم أرادوا مِن هذه الشفاعةِ الشفاعةَ في الدنيا لإصلاح المعاش. وحينئذٍ لا[1] منافاةَ، والجمهورُ على الأول، ومَن سبَرَ حالَ القومِ رآهم متردِّدين، ولذلك اختلفَت كلماتُهم.

ونسبةُ الشفاعةِ للأصنام؛ قيل: باعتبارِ السببية، وذلك لأنَّهم كما هو المشهورُ وضعوها على صور رجالٍ صالحين وذوي[2] خطرٍ عندهم، وزعموا أنَّهم متى اشتغلوا بعبادتها فإنَّ أولئك الرجال يشفعون لهم.

وقيل: إنَّهم كانوا يعتقدون أنَّ المتولِّيَ لكلِّ إقليم روحٌ معيَّنٌ من أرواح الأفلاك، فعيَّنوا لذلك الروحِ صنماً من الأصنام واشتغلوا بعبادتها قصداً إلى عبادة الكواكب. وقيل غير ذلك. والحقُّ أنَّ من الأصنام ما وُضع على الوجه الأول، ومنها ما وُضع لكونها كالهياكل للروحانيات.

﴿قُلْ﴾ تبكيتاً لهم ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ أي: أتخبرونه سبحانه بما لا وجودَ له ولا تحقُّق أصلاً، وهو كونُ الأصنام شفعاءَهم عند الله سبحانه[3]، فإنَّ ما لا يعلمه علَّامُ الغيوبِ، المحيطُ علمُه بالكلِّيات والجزئيات، لا يكون له تحقُّقٌ بالكلِّية.

وذكروا أنَّ مثلَ ذلك لا يسمَّى شيئاً، بناءً على أنَّه كما قال سيبويه: ما يصحُّ أنْ يُعلم ويُخبر عنه[4]، وهو يَشمل الموجودَ والمعدومَ كما حقَّقه بعضُ أصحابنا، كالمعتزلة، وسمَّوا ما لا يُعلم بالمنفي كالشريك وكاجتماع الضدَّين، وحقَّقَ ذلك الشيخ إبراهيم الكوراني في رسالة مستقلَّة أتى فيها بالعَجَبِ العُجاب.

ويجوزُ أن يُراد بالموصول: أنَّ له ـ سبحانه ـ شريكاً. والمقصود على الوجهَين مِن ذِكْرِ إنباءِ الله تعالى بما لا تحقُّقَ له ولم يتعلَّق به علمُه التهكُّم والهزءُ بهم، وإلا فلا إنباء.

---

(١) في الأصل: فلا.

(٢) في (م): ذوي.

(٣) في (م): عنده جلَّ شأنه.

(٤) سلف كلام سيبويه ١/ ٤٩٤، و٢/ ٣٩٤، و٨/ ٩٠، وينظر الكشاف ١/ ٢٢٢.

وقوله سبحانه: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ في موضع الحال من العائد المحذوفِ، أي: بما لا يعلمه كائناً في ذلك، والمقصودُ منه تأكيدُ النفي المدلولِ عليه بما قبله؛ فإنَّه قد جرى في العرف أنْ يقال عند تأكيد النفي للشيء: ليس هذا في السماء ولا في الأرض؛ لاعتقاد العامَّة أنَّ كلَّ ما يوجد إمَّا في السماء وإمَّا في الأرض، كما هو رأيُ المتكلِّمين في كلِّ ما سوى الله تعالى إذ هو سبحانه المعبودُ المنزَّه عن الحلول في المكان، والآيات التي ظاهرها ذلك من المتشابه، والمذاهبُ فيه شهيرةٌ، وهذا إذا أُريد بالسماء والأرض جهتا العلوِّ والسفل.

وقيل: الكلام إلزاميٌّ لِزَعْمِ المخاطَبين الكافرين أنَّ الأمر كذلك.

وقيل: إنَّ معنى الآية: أتخبرونَه تعالى بشريكٍ أو شفيعٍ لا يعلم شيئاً في السماوات ولا في الأرض، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النحل: ٧٣]. وليس بشيءٍ.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي: عن إشراكهم المستلزِمِ لتلك المقالة الباطلة، أو عن شركائهم الذين يعتقدونَهم شركاء.

وقرئ: «أتُنْبِئون» بالتخفيف[(١)]. وقرأ حمزة والكسائي «تشركون» بتاء الخطاب[(٢)] على أنَّه من جملة القول المأمور به، وعلى الأول هو اعتراضٌ تذييليٌّ من جهته سبحانه وتعالى.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: وما كان الناس كافَّةً من أول الأمر إلا متَّفقين على الحقِّ والتوحيدِ من غير اختلاف، وروي هذا عن ابن عباس والسديِّ ومجاهدٍ والجبائيِّ وأبي مسلم، ويؤيِّده قراءةُ ابنِ مسعود ﷺ: «وما كان الناس إلا أمةً واحدة على هدى»[(٣)]، وذلك من عَهْدِ آدمَ عليه الصلاة والسلام إلى أنْ قَتَل قابيلُ هابيلَ.

وقيل: إلى زمن إدريس عليه الصلاة والسلام.

---

(١) القراءات الشاذة ص٥٦، وتفسير القرطبي ١٠/ ٤٧٠، والبحر ٥/ ١٣٤، ونسبها القرطبي لأبي السمال.

(٢) التيسير ص١٢١، والنشر ٢/ ٨٢، وهي قراءة خلف من العشرة.

(٣) مجمع البيان ١١/ ٢٧.

وقيل: إلى زمن نوحٍ عليه الصلاة والسلام، وكانوا عشرةَ قرونٍ. وقيل: كانوا كذلك في زمنه عليه الصلاة والسلام بعد أنْ لم يَبْقَ على الأرض من الكافرين ديَّارٌ، إلى أنْ ظهر بينهم الكفر.

وقيل: من لَدُنْ إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى أنْ أظهرَ عمرو بنُ لحيٍّ عبادةَ الأصنام، وهو المروي عن عطاء، وعليه فالمراد من «الناس»: العربُ خاصّةً، وهو الأنسبُ بإيراد الآية الكريمة إثْرَ حكايةِ ما حُكي عنهم[1] من الهنات، وتنزيه ساحةِ الكبرياء عن ذلك.

﴿فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾ بأنْ كَفَر بعضُهم وثبتَ الآخرون على ما هم عليه، فخالَفَ كلٌّ مِن الفريقَين الآخَرَ، والفاء للتعقيب، وهي لا تُنافي امتدادَ زمانِ الاتفاق؛ إذ المرادُ بيانُ وقوعِ الاختلاف عقيبَ انصرام مدَّة الاتِّفاق لا عقيبَ حدوثه.

﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأخير القضاءِ بينهم ـ أوالعذابِ الفاصل بينهم ـ إلى يوم القيامة، فإنَّه يومُ الفصل والجزاء.

﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ عاجلاً ﴿فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٩﴾ بأنْ يُنزل عليهم آياتٍ ملجئةً إلى اتِّباعِ الحقِّ ورفع الاختلاف، أو بأنْ يُهلكَ المُبْطِلَ ويُبْقيَ المُحِقَّ، وصيغة الاستقبال لحكاية الحال الماضيةِ والدلالةِ على الاستمرار.

ووجْهُ ارتباطِ الآيةِ بما قبلها أنَّها كالتأكيد لِمَا أشار إليه من أنَّ التوحيد هو الدِّينُ الحقُّ، حيث أفادَت أنَّه ملَّةٌ قديمةٌ اجتمعَت عليها الأمم قاطبةً، وأنَّ الشرك وفروعَه جهالاتٌ ابتدعها الغواةُ خلافاً للجمهور وشقّاً لعصا الجماعة.

وقيل: وجْهُ ذلك أنَّه سبحانه بيَّن فيما قبلُ فسادَ القوم بعبادة الأصنام، وبيَّن في هذه أنَّ هذا المذهبَ ليس مذهباً للعرب من أول الأمر، بل كانوا على الدِّين الحقِّ الخالي عن عبادة الأصنام، وإنَّما حدثَت فيهم عبادتُها بتسويل الشياطين.

قيل: والغرضُ من ذلك أنَّ العرب إذا علموا أنَّ ما هم عليه اليوم لم يكن من قبلُ فيهم، وإنَّما حدَثَ بعد أنْ لم يكن، لم يتعصَّبوا لنصرته، ولم يتأذَّوا من تزييفه وإبطاله.

---

(١) في (م): منهم.

وعن الكلبيِّ أنَّ معنى كونِهم أمةً واحدةً: اتِّفاقُهم على الكفر، وذلك في زمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام. وروي مثلُه عن الحسن، إلا أنَّه قال: كانوا كذلك من لَدُن وفاةِ آدم إلى زمن نوحٍ عليهما السلام، ثم آمَن مَن آمَن وبَقِيَ مَن بقي على الكفر. وفائدةُ إيرادِ هذا الكلامِ في هذا المقام تسليتُه ﷺ، كأنَّه قيل: لا تطمع في أنْ يصيرَ كلُّ مَن تدعوه إلى الإيمان والتوحيد مجيباً لك قابلاً لدينك، فإنَّ الناس كلَّهم كانوا على الكفر، وإنَّما حَدَثَ الإيمان في بعضهم بعد ذلك، فكيف تطمعُ في اتِّفاقِ الكلِّ عليه.

واعتُرض بأنَّه يلزم على هذا خلوُّ الأرض في عصرٍ من مؤمنٍ بالله تعالى عارفٍ به، وقد قالوا: إنَّ الأرض في كلِّ وقتٍ لا تخلو عن ذلك.

وأُجيبَ بأنَّ عدمَ الخلوِّ في حيِّز المنع، فقد ورَدَ في بعض الآثار أنَّ الناس قبل يوم القيامة ليس فيهم مَن يقول: الله الله، وعلى تقدير التسليم المرادُ بالاتِّفاق على الكفر اتفاقُ الأكثر. والحقُّ أنَّ هذا القولَ في حدِّ ذاته ضعيفٌ، فلا يَنبغي التزامُ دَفْعِ ما يَرِدُ عليه.

وأضعفُ منه ـ بل لا يكاد يصحُّ ـ كونُ المراد أنَّهم كانوا أمةً واحدةً، فاختلفوا بأنْ أحدَثَ كلٌّ منهم ملَّةً على حدَة من مِلَلِ الكفر مخالفةً لملَّة الآخر؛ لأنَّ الكلام ليس في ذلك الاختلاف، إذ كلٌّ مِن الفريقَين مُبْطِلٌ حينئذٍ، فلا يُتصوَّر أنْ يُقضَى بينهما بإبقاء المحقِّ وإهلاكِ المبطل، أو بإلجاء أحدهما إلى اتِّباع الحقِّ ليرتفع الاختلاف، كما لا يخفَى.

❁ ❁ ❁

هذا ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿الٓر﴾ «ا» إشارةٌ إلى الذات الذي هو أوَّلُ الوجود، و«ل» إشارةٌ إلى العقل المسمَّى جبريل عليه السلام، وهو أوسطُ الوجود، الذي يستفيضُ من المبدأ ويُفيض إلى المنتهى، و«ر» إشارةٌ إلى الرحمة التي هي الذاتُ المحمدية، وهي في الحقيقة أوَّل ووسطٌ وآخِر، لكنَّ الاعتباراتِ مختلفةٌ، وكأنَّ ذلك قَسَمٌ منه تعالى بالحقيقة المحمَّديَّة على أنَّ ما تضمَّنَتْه السورةُ أو القرآن من الآي آياتُ الكتاب المتقَن.

وقيل: المعنى: ما أُشير إليه بهذه الأحرف أركانُ كتاب الكلِّ ذي الحكمة أو المحكم ومعظم تفاصيله.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ إنكارٌ لتعجُّبهم مِن سنَّة الله الجارية، وهي الإيحاءُ إلى رجلٍ، وكان ذلك لبُعدهم عن مقامه[1]، وعدمِ مناسبةِ حالِهم لحاله، ومنافاةِ ما جاء به لِمَا اعتقدوه.

﴿أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾ أي: خوِّفْهم مِن أنْ يشركوا بي شيئاً ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ سابقةً عظيمةً وقربةً ليس لأحد مثلُها. وقيل: سابقةَ رحمةٍ أودَعَها في محمد ﷺ.

﴿قَالَ الْكَافِرُونَ﴾ أي: المحجوبون عن الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: الكتاب الذي جاء به محمدٌ ﷺ ﴿لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾، لمَّا رأوه خارجاً عن قُدَرِهم، واحتَجبوا بالشَّيْطَنةِ عن الوقوف على حقيقة الحال قالوا ذلك.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: أوقاتٍ مقدارُ كلِّ يوم[2] منها دورةُ الفَلَكِ الأعظم مرَّةً واحدةً، كما نصَّ عليه الشيخ الأكبر[3]. والستةُ عددٌ تامٌّ، واختاره الله تعالى لِمَا فيه من الأسرار[4].

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي: المُلْكِ ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ على وفق حكمته بيد قُدرته. وقد يُفسَّر العرشُ بقَلْبِ الكامل، فالكلامُ إشارةٌ إلى خَلْقِ الإنسان الذي انطوَى فيه العالَمُ بأسره.

﴿مَا مِن شَفِيعٍ﴾ يَشفَعُ لأحدٍ بدَفْعِ ما يضرُّه أو جَلْبِ ما ينفعُه ﴿إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ بموهبة الاستعداد، ثم بتوفيق الأسباب.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الموصوفُ بهذه الصفات الجليلة ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ الذي يَربُّكم ويُدبِّرُ أمرَكم ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ فخصُّوه بالعبادة، واعْرِفوه بهذه الصفات، ولا تعبدوا

(١) في (م): مقامهم.
(٢) في الأصل: وقت.
(٣) في الباب التسعين وثلاث مئة من الفتوحات.
(٤) جاء في حاشية الأصل: وسينكشف البعض إن شاء الله تعالى في «الدخان».

الشيطان، ولا تحتَجِبُوا عنه تعالى فتنسبوا قولَه وفعله إلى الشيطان ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ آياتِه التي خطَّها بيد قُدرته في صحائف الآفاق والأنفُس، فتتفكَّروا فيها وتَنْزَجِروا عن الشرك به سبحانه.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ بالعود إلى عين الجمع المطلَقِ في القيامة الصغرَى، أو إلى عينِ جمع الذات بالفناء فيه تعالى عند القيامة الكبرى، كذا قيل(١).

وقال بعضُ العارفين: إنَّ مرجع العاشقين جمالُه، ومَرْجِعَ العارِفين جلالُه، ومَرْجِعَ الموحِّدين كبرياؤه، ومَرْجِعَ الخائفين عَظَمتُه، ومَرْجِعَ المشتاقين وِصالُه، ومَرْجِعَ المحبِّينَ دُنوُّه، ومَرْجع أهل العناية ذاتُه.

وقال الجنيد قدِّس سرُّه في الآية: إنَّه تعالى منه الابتداء وإليه الانتهاء، وما بين ذلك مرابعُ فضْلِه وتواتُرُ نعمه.

﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي: يبدؤه في النشأة الأُولى ثم يُعيدُه في النشأة الثانية، أو: يبدأ الخلقَ باختفائه وإظهارهم ثم يُعيدُه بإفنائهم وظهوره.

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي: يفعل ذلك ليجزيَ المؤمنَ والكافرَ على حَسَبِ ما يقتضيه عملُ كلٍّ.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً﴾ أي: جعَلَ شمسَ الروح ضياءَ الوجود. ﴿وَالْقَمَرَ﴾ أي: قمرَ القلب ﴿نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ أي: مقاماتٍ ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ﴾ أي: سِني مراتِبِكم وأطوارِكم في المسير إليه وفيه تعالى ﴿وَالْحِسَابَ﴾ أي: حسابَ درجاتكم ومواقعَ أقدامكم في كلِّ مقامٍ ومرتبةٍ.

ويقال: جعَلَ شمسَ الذات ضياءً للأرواح العارفةِ، وجعَلَ قمر الصفات نوراً للقلوب العاشقة، ففنيَت الأرواحُ بصَوْلةِ الذات في عين الذات، وبقيَت القلوبُ بمشاهدة الصفات في عين الصفات. وهذه الشمسُ المشارُ إليها لا تغيبُ أصلاً عن بصائر الأرواح، ومن هنا قال قائلهم:

---

(١) في تفسير ابن عربي ١/ ٣٠١.

هي الشمسُ إلّا أنَّ للشمسِ غيبةً وهذا الذي نَعنيه ليس يغيبُ[١]

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ الَّيْلِ﴾ أي: غَلَبةِ ظُلمة النفس على القلب. ﴿وَالنَّهَارِ﴾ أي: نهارِ إشراق ضوءِ الروح عليه ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: سماوات الأرواح ﴿وَالْأَرْضِ﴾ أي: أرض الأجساد ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ حُجُبَ صفاتِ النفس الأمَّارة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾ أي: يُوْصِلُهم إلى الجنات الثلاث بحَسَبِ نور إيمانهم، فقولُه سبحانه: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ كالبيان لذلك ﴿دَعْوَاهُمْ﴾ الاستعداديُّ ﴿فِيهَا﴾ أي: في تلك الجنات ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ إشارةٌ إلى تنزيهه تعالى، والتنزيهُ في الأُولى عن الشرك في الأفعال بالبراءة عن حَوْلِهم وقوتهم، وفي الثانية عن الشرك في الصفات بالانسلاخ عن صفاتهم، وفي الثالثة عن الشرك في الوجود بفنائهم.

﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾ أي تحيةُ بعضِهم لبعض، أو تحيةُ اللهِ تعالى ﴿فِيهَا سَلَامٌ﴾ أي: إفاضةُ أنوارِ التزكية وإمدادُ التصفية، أو إشراقُ أنوارِ التجلِّيات وإمدادُ التجريدِ وإزالة الآفات ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: آخِرُ ما يقتضيه استعدادُهم قيامُهم بالله تعالى في ظهور كمالاته وصفاتِ جلاله وجماله عليهم، وهو الحمدُ الحقيقيُّ منه وله سبحانه.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ أي: استَغْرقَ أوقاتَه في الدعاء ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾هذا وَصْفُ الذين لم يدركوا حقائقَ العبوديةِ في مَشاهِدِ الربوبية، فإنَّهم إذا أَظلمَ عليهم ليلُ البلاء قاموا إلى إيقاد مصباح التضرُّع، فإذا انْجلَتْ عنهم الغَياهِبُ بسطوع أنوار فَجْرِ الفَرَجِ، نسُوا ما كانوا فيه، ومرُّوا كأنْ لم يَدْعوا مولاهم إلى كشفِ ما عنَّاهم:

كأنَّ الفتى لم يَعْرَ يوماً إذا اكْتَسى ولم يَكُ صُعلوكاً إذا ما تموَّلا[٢]

---

(١) البيت بهذه الرواية في لطائف الإشارات ٢/ ٨٠، وهو في البيان والتبيين ٢/ ١٨٧ برواية: هو الشمس... وهذا الفتى الجرمي ليس يغيب.

(٢) البيت لجابر بن ثعلب الطائي، كما في الكامل للمبرد ٢/ ٦٤٤، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ٣٠٥.

ولو كانوا عارفين لم يَبرَحوا دارةَ التضرُّع وإظهارِ العبودية بين يديه تعالى في كلِّ حينٍ.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ على الفطرة التي فطَرَ اللهُ الناسَ عليها، متوجِّهين إلى التوحيد، متنوِّرين بنور الهداية الأصلية ﴿فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ بمقتضيات النشأة، واختلافِ الأَمْزِجةِ والأهويةِ والعاداتِ والمخالَطاتِ.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهو قضاؤه سبحانه الأزليُّ بتقدير الآجال والأرزاق ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بإهلاك المبطِل وإبقاء المحقِّ، والمرادُ أنَّ حكمة الله تعالى اقتضَت أنْ يبلغ كلٌّ منهم وجهتَه التي ولَّى وَجْهَهُ إليها بأعماله التي يُزاولها هو وإظهار ما خفي في نفسه، وسبحان الحكيم العليم.

❁ ❁ ❁

﴿وَيَقُولُونَ﴾ حكايةٌ لجنايةٍ أُخرَى لهم، وفي «الكشاف» تفسيرُ المضارع بالماضي، أي: وقالوا(١)، وجُعِلَ ذلك إشارةً إلى أنَّ العَطْفَ ليس على «ويقولون هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا» كما يقتضيه ظاهرُ اللفظ، وإنَّما هو على قوله سبحانه: (قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ) وما بينهما اعتراضٌ، وأُوثِرَ المضارع على الماضي ليؤذنَ باستمرار هذه المقالةِ، وأنَّها من دَأْبهم وعادتهم، مع ما في ذلك من استحضار صورته الشنيعة.

وجوَّز العطف على «يعبدون»، وهو الذي اقتصرَ عليه بعضُ المحقِّقين، وأبقَى بعضُهم الفعلَ على ظاهره، وله وجْهٌ. والقائلُ كفارُ مكة.

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أرادوا: آية من الآيات التي اقترحوها، كآيةِ موسى وعيسى عليهما السلام، ومعنى إنزالها عليه: إظهارُ اللهِ تعالى لها على يده ﷺ، وطلبوا ذلك تعنُّتاً وعناداً، وإلا فقد أتَى ﷺ بآياتٍ ظاهرةٍ ومعجزاتٍ باهرةٍ تعلو على جميع الآياتِ، وتفوقُ سائرَ المعجزات لاسيما القرآن العظيم الباقي إعجازه على وجْهِ الدهر إلى يوم القيامة، ولَعمري لو أنصفوا لاستغنَوا عن كلِّ آيةٍ

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٣٠.

غيرِه عليه الصلاة والسلام، فإنَّه الآيةُ الكبرَى، ومَن رآه وسبَرَ أحواله لم يَكَدْ يشكُّ في أنَّه رسول الله ﷺ.

﴿فَقُلْ﴾ لهم في الجواب ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾ وهو جوابٌ ـ على ما قرَّره الطيبيُّ ـ على الأسلوب الحكيم، فإنَّهم حين طلبوا ما طلبوا مع وجود الآيات المتكاثِرةِ، دلَّ على أنَّ سؤالهم للتعنُّت كما علمتَ آنفاً، فأُجِيبُوا بما أُجيبوا ليؤذنَ بأنَّ سؤالهم سؤالُ المقترِحِين يستحقُّون به نقمةَ الله تعالى وحلولَ عقابه، يعني: أنَّه لابدَّ أنْ يستأصل شأفتكم لكنْ لا أعلمُ متى يكونُ، وأنتم كذلك؛ لأنَّ ذلك من الغيب وهو مختصٌّ به تعالى لا يعلمه أحدٌ غيرُه جلَّ شأنه، وإذا كان كذلك فانتظروا ما يُوجبه اقتراحُكم إنِّي معكم من المنتظرين إياه.

وقيل: إنَّ المراد أنَّه تعالى هو المختصُّ بعلم الغيب، والصارفُ عن إنزال الآيات المقترَحَة أمرٌ مُغيَّبٌ، فلا يعلمه إلا هو.

واعتُرضَ عليه بأنَّه معيَّنٌ وهو عنادُهم، قال تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩].

وأُجيب: بأنَّا لا نُسلِّم أنَّ عنادَهم هو الصارف فقد[1] يُجاب المعانِدُ، والآية وإنْ دلَّت على بقائهم على العناد وإنْ جاءت لم تَدلَّ على أنَّ العناد هو الصارف.

واختارَ بعضُ المحقِّقين[2]: أنَّ ما اقترحتُموه وزعمتُم أنَّه من لوازم النبوَّة، وعلَّقتُم إيمانكم بنزوله، من الغيوب المختصَّة به سبحانه، لا وقوفَ لي عليه «فانتظروا» نزولَه «إنِّي معكم من المنتظرين» لِمَا يفعلُ الله تعالى بكم؛ لاجترائكم على مثل هذه العظيمةِ من جحود الآيات واقتراحِ غيرها. واعتَرض على ما قيل بأنَّه يأباه ترتيبُ الأمر بالانتظار على اختصاص الغيب به تعالى.

والذي يخطر بالبال أنَّ سؤال القوم ـ قاتلهم الله تعالى ـ متضمِّنٌ لدعوَى أنَّ الصلاح في إنزال آيةٍ مما اقترحوه، حيثُ لم يعتبروا ما نَزَل ولم يلتفتوا إليه، فكأنَّهم

---

(١) في (م): وقد، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ١٦/٥، والكلام منه.
(٢) هو أبو السعود في تفسيره ٤/١٣٣.

قالوا: لا صلاحَ في نزول ما نَزَل، وإنَّما الصلاحُ في إنزال آيةٍ مما نقترح، فلولا نزلت. وفي ذلك دعوَى الغيب بلا ريبٍ، فأُجيبوا بأنَّ الغيب مختصٌّ بالله، فهو الذي يعلم ما به الصلاحُ لا أنتم ولا غيرُكم. ثم قال سبحانه: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ إلخ على معنى: إذا كان علمُ الغيب مختصّاً بالله تعالى وقد ادَّعيتُم من ذلك ما ادعيتُم وطعنتُم فيما طعنتم، فانتظروا نزولَ العذابِ بكم إني معكم من المنتظرين إياه، ولا يَرِدُ على هذا ما أُورد على غيرِه، ولا ما عسى أنْ يُورد أيضاً، فتأمَّل.

﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً﴾ كالصحة والسعة ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ﴾ أي: خالَطتْهم حتى أحسُّوا بسوء أثرها فيهم، وإسنادُ المِسَاس إلى الضرَّاء بعد إسناد الإذاقة إلى ضمير الجلالة من الآداب القرآنية كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] ونظائرِه، ويَنبغي التأدُّب في ذلك، ففي الخبر: «اللهمَّ، إنَّ[1] الخيرَ بيَديك والشَّرُّ ليس إليك»[2].

والمراد بـ«الناس» كفارُ مكة على ما قيل؛ لِمَا رُوِيَ أنَّ الله تعالى سلَّط عليهم القَحْطَ سبع سنين حتى كادوا يهلكون فطلبوا منه ﷺ أنْ يدعوَ لهم بالخصب ووعدوه بالإيمان، فلمَّا دعا لهم ورحمهم الله تعالى بالحيا[3]، طفقوا يطعنونَ في آياته تعالى، ويُعاندونه عليه الصلاة والسلام ويَكيدونه[4]، وذلك قولُه سبحانه: ﴿إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾ أي: بالطعن فيها، وعدم الاعتداد بها، والاحتيالِ في دفعها.

والظاهرُ أنَّ المراد بالآيات الآياتُ القرآنية. وقيل: المراد بها الآيات التكوينية كإنزالِ الحياة، ومكرُهم فيها إضافتُها إلى الأصنام والكواكب.

وقيل: إنَّ «الناس» عامٌّ لجميع الكفار، ولا يجوزُ حَمْلُه على ما يشمل العصاةَ كما لا يخفى.

---

(١) قوله: إن، ليس في الأصل.

(٢) أخرجه أحمد (٨٠٣)، ومسلم (٧٢٩) من حديث علي رضي الله عنه بلفظ: «الخير كلُّه في يديك، والشرُّ ليس إليك».

(٣) أي: بالخصب. القاموس (حيي).

(٤) أخرج نحوه البخاري (٤٨٢١)، ومسلم (٢٧٩٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وكانت العربُ تُضيف الأمطار، وكذا الرياح والحرّ والبرد إلى الأنواء، وهو جمعُ[1] نَوْءٍ مصدر ناء يَنوءُ: إذا نهضَ بجُهدٍ ومشقَّةٍ، ويقال ذلك أيضاً إذا سقطَ، فهو من الأضداد، ويُطلَق على النجم الذي هو أحدُ المنازل الثمانية والعشرين التي ذكرناها فيما سبق[2]، وهو المراد في كلامهم، إلا أنَّ الإضافةَ إليه باعتبار سقوطِهِ مع الفجر وغُروبه كما هو المشهور، أو باعتبارِ طلوعه ذلك الوقتَ كما قال الأصمعيُّ.

وقد عُدَّ القائل بتأثير الأنواء كافراً، فقد رَوَى الشيخان وأبو داود والنَّسائي عن زيد بن خالد قال: قال رسولُ الله ﷺ: «قال الله تعالى: أصبحَ مِن عبادي مُؤمنٌ بي وكافرٌ بالكوكبِ، وكافرٌ بي ومُؤمنٌ بالكوكب، فأمَّا مَن قال مُطِرْنا بفَضْلِ الله ورَحْمتِهِ فذلك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب، وأمَّا مَن قال مُطرنا بنَوء كذا وكذا فذلك كافرٌ بي ومؤمن بالكوكب»[3].

ولعلَّ كونَ ذلك من الكفر بالله تعالى مبنيٌّ على زَعْمِ أنَّ للكواكب تأثيراً اختيارياً ذاتياً في ذلك، وإلا فاعتقادُ أنَّ التأثير عندها لا بها كما هو المشهور من مذهب الأشاعرة في سائر الأسباب ليس بكفرٍ، كما نصَّ عليه العلَّامةُ ابنُ حَجَر[4].

وكذا اعتقادُ أنَّ التأثير بها على معنى أنَّ الله تعالى أَودَعَ فيها قوَّةً مؤثِّرةً بإذنه، فمتى شاء سبحانه أَثَّرَت ومتى لم يَشأ لم تُؤثِّر، كما هو مذهب السلف في الأسباب على ما قرَّره الشيخ إبراهيم الكورانيُّ في «مسلك السداد»[5].

ولو كان نسبةُ التأثير مطلقاً إلى الأنواء ونحوها من العُلويَّات كُفراً لاتَّسع

---

(١) في (م): جميع.

(٢) ص٣١ من هذا الجزء. وينظر أدب الكاتب ص٨٦-٨٧.

(٣) صحيح البخاري (٨٤٦)، وصحيح مسلم (٧١)، وسنن أبي داود (٣٩٠٦)، وسنن النسائي ٣/ ١٦٥، وهو عند أحمد (١٧٠٦١).

(٤) الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي ص٢٨٢-٢٨٣.

(٥) مسلك السداد إلى مسألة خلق أفعال العباد، لإبراهيم بن حسن الكوراني الشهرزوري برهان الدين. وله أيضاً: إمداد ذوي الاستعداد لسلوك مسلك السداد. إيضاح المكنون ٢/ ٤٨٠، وهدية العارفين ١/ ٣٥-٣٦.

الخرقُ، ولَزِمَ إكفارُ كثيرٍ من الناس حتى أفاضِلِهم، لقولهم بنسبة الكثير من عالَم الكون والفساد إلى العلويات، ويُسمُّونها بالآباء العلويَّةِ.

وقد صرَّح الشيخ الأكبر قُدِّس سرُّه بأنَّ للكواكب السيارات وغيرِها تأثيراً في هذا العالم، إلا أنَّ الوقوفَ على تعيين جزئيَّاته مما لا يطَّلع عليه إلا أربابُ الكشوف[1] والأرصاد القلبية.

وليس مرادُه قُدِّس سرُّه ـ وكذا مرادُ مَن أطلق التأثيرَ ـ إلا ما ذَهَب إليه أحدُ الفريقَين في الأسباب، وحاشا ثم حاشا أنْ يكون أولئك الأفاضلُ ممن يعتقدُ أنَّ في الوجود مؤثِّراً غيرَ الله تعالى.

بل مَن وقف على حقيقة كلامِ الحكماءِ الذين هم بمعزلٍ عن الشريعة الغرَّاء وجَدَهم متَّفقين على أنَّ الوجودَ معلولٌ له تعالى على الإطلاق؛ قال بهمنيار[2] في «التحصيل»: فإنْ سئلت الحق فلا يصحُّ أنْ يكونَ علةَ الوجودِ إلا ما هو بريءٌ مِن كلِّ وجْهٍ من معنى ما بالقوة، وهذا هو المبدأ الأول لا غير.

وما نُقل عن أفلاطون مِن قوله: إنَّ العالَم كرةٌ، والأرضَ مركزٌ، والإنسانَ هدفٌ، والأفلاكَ قِسِيٌّ والحوادث سهامٌ، واللهُ تعالى هو الرامي فأين المفر؟ يُشعر بذلك أيضاً.

نعم إنَّهم قالوا بالشرائط العقلية، وهي المرادُ بالوسائط في كلام بعضهم، وهو خلافُ المذهب الحقِّ.

وبالجملة لا يكفر مَن قال: إنَّ الكواكب مؤثِّرةٌ على معنى أنَّ التأثير عندها أو بها بإذن الله تعالى، بل حكمُه حكمُ مَن قال: إنَّ النار محرقةٌ والماء مُرْوٍ مثلاً، ولا فرقَ بين القولَين إلَّا بما عسى أنْ يقال: إنَّ التأثير في نحو النار والماء أمرٌ محسوسٌ مشاهَدٌ، والتأثيرُ في الكواكب ليس كذلك فالقول[3] به رجمٌ بالغيب، لكنَّ

---

(١) في (م): الكشف.

(٢) بهمنيار بن مرزبان العجمي الأذربيجاني، كان مجوسيّاً ثم أسلم، وهو من أعيان تلامذة ابن سينا، من مصنفاته: التحصيل، والسعادة، توفي سنة (٤٥٨هـ). هدية العارفين ١/ ٢٤٤.

(٣) في (م): والقول.

ذلك بعدَ تسليمه لا يُوجب كونَ أحدِ القولَين كفراً دون الآخر، كما لا يخفَى على المنصف.

ومع هذا، الأحوطُ عدمُ إطلاق نسبة التأثير إلى الكواكب، والتجنُّبُ عن التلفُّظ بنحو ما أَكْفَرَ اللهُ سبحانه المتلفِّظَ به.

هذا «وإذا» الأولَى شرطيةٌ، والثانية فجائيةٌ رابطةٌ للجواب، وتنكيرُ «مكرٌ» للتفخيم، و«في» متعلِّقةٌ بالاستقرار الذي تتعلَّق به اللام.

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًاۚ﴾ أي: منكم، ف «أسرع» أفعلُ تفضيل، وهو مأخوذٌ إمَّا مِن سَرُع الثلاثي كما حكاه الفارسي[1]، أو مِن أَسْرَعَ المزيد، إلَّا أنَّ في أَخْذ أَفْعلَ من المزيد خلافاً، فمنهم مَن مَنَعه مطلقاً، ومنهم مَن جوَّزه مطلقاً، ومنهم مَن قال: إنْ كانت الهمزةُ للتعدية امتنَعَ، وإلا جاز، ومثلُه في ذلك بناءُ التعجُّبِ.

ووَصْفُ المفضَّلِ عليه بالسرعة دلَّ عليه المفاجأةُ، على أنَّ صحة استعمالِ «أسرع» في ذلك لا يتوقَّفُ على دلالة الكلام على ما ذُكِرَ، خِلافاً لما يقتضيه ظاهرُ كلام الزمخشري[2].

وأصلُ المكر: إخفاءُ الكيد والمضرَّة، والمرادُ به: الجزاءُ والعقوبةُ على المكر، مجازاً مرسلاً أو مشاكلةً، وهي لا تُنافيه كما في «شرح المفتاح»، وقد شاع أنَّه لا يستعمل فيه تعالى إلا على سبيل المشاكلة، وليس بذاك كما حُقِّق في موضعه.

﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ الحفظةَ مِن قِبَلِنَا على أعمالكم ﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي: مَكْرَكم، أو: ما تمكرونه، وكيفيةُ كتابة ذلك مما لا يلزمُ العِلْمُ به، ولا حاجةَ إلى جَعْلِ ذلك مجازاً عن العلم. وهذا تحقيقٌ للانتقام منهم، وتنبيهٌ على أنَّ ما دبَّروا في إخفائه غيرُ خافٍ على الكتبة، فضلاً عن مُنْزِل الكتاب الذي لا تخفَى عليه خافيةٌ، وفي ذلك تجهيلٌ لهم كما لا يخفَى.

---

(١) المسائل العضديات لأبي عليٍّ الفارسي ص١٦٢-١٦٣.

(٢) في الكشاف ٢/ ٢٣١، وفيه: ما وصفهم بسرعة المكر فكيف صح قوله: «أسرع مكراً». وأجاب عن ذلك بأنه دل عليه كلمة المفاجأة؛ لأن المعنى: فاجؤوا وقوع المكر منهم وسارعوا إليه.

والظاهرُ أنَّ الجملةَ ليست داخلةً في الكلام الملقَّن كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩] وهي تعليلٌ لأسرعية مَكْرِه سبحانه وتعالى. وجوَّز أنْ تكون داخلةً في ذلك، وفي «إنَّ رسلنا» التفاتاً؛ إذ لو أجري[1] على قوله سبحانه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ لقيل: إنَّ رُسله، فلا إشكالَ فيه من حيث إنَّه لا وجْهَ لأمر الرسول ﷺ بأنْ يقولَ لهم: إنَّ رُسلَنا، إذ الضمير لله تعالى لا له عليه الصلاة والسلام بتقدير مضاف، أي: رُسل ربِّنا، أو بالإضافة لأدنَى ملابسةٍ كما قيل.

وقال بعضُهم في الجواب: إنَّه حكايةُ ما قال الله تعالى، على كون المراد أداءَ هذا المعنى لا بهذه العبارة.

وقرأ الحسن ومجاهد: ﴿يَمْكُرُونَ﴾ على لفظ الغيبة، ورُوي ذلك أيضاً عن نافع ويعقوب[2]، وفيه الجريُ على ما سبق من قوله سبحانه: ﴿مَسَّتْهُمْ﴾ و﴿لَهُم﴾ والمناسِبُ الخطابُ كما قرأ الباقون إذا كانت الجملةُ داخلةً في حيِّز القول؛ إذ المعنَى: قل لهم، ومناسبةُ الخطاب حينئذٍ ظاهرةٌ، وفيه أيضاً مبالغةٌ في الإعلام بمكرهم. وجعَلَها بعضُ المحقِّقين على تلك القراءةِ وعدم دخولها في حيِّز القول تعليلاً للأسرعية أو للأمر المذكور.

وصيغةُ الاستقبال في الفعلَين للدلالة على الاستمرار والتجدُّدِ، وكذا في قوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ وهو ـ على ما قيل ـ كلامٌ مستأنَفٌ مَسوقٌ لبيان جنايةٍ أُخرى لهم، مَبنيةٍ على ما مرَّ آنفاً من اختلاف حالهم بحسب اختلافِ ما يعتريهم من الضرَّاء.

وعن أبي مسلم أنَّه تفسيرٌ لبعض ما أجمل في قوله سبحانه: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ﴾ إلخ، وهو قريبٌ مِن قول الإمام أنَّه تعالى لـمَّا قال: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا﴾ الآية وهو كلامٌ كلِّيٌّ، ضَربَ لهم مثلاً بهذا ليتَّضح ويظهر ما هم عليه[3].

---

(١) في الأصل: جرى.

(٢) في رواية روح عنه، كما في النشر ٢/ ٢٨٢. والمشهور عن نافع: «تمكرون» بالتاء، وقراءة الحسن ومجاهد في القراءات الشاذة ص٥٦، والبحر ٥/ ١٣٦.

(٣) تفسير الرازي ١٧/ ٦٧، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ١٧.

وزَعَمَ بعضُهم أنَّه متَّصلٌ بما تقدَّم من دلائل التوحيد، فكأنَّه قيل: إلهُكم الذي جعَل الشمسَ ضياءً والقمرَ نوراً و«هو الذي يُسيِّركم» إلخ.

وأُوِّلَ التسيير بالحمل على السير والتمكينِ منه، والداعي لذلك قيل: عدمُ صحةِ جَعْلِ قولِه سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ غايةً للتسيير في البحر مع أنَّه مقدَّمٌ عليه، وغايةُ الشيءِ لابدَّ أنْ تكون متأخِّرةً عنه. وبَعْدَ التأويل لا إشكالَ في جَعْلِ ما ذُكِر غايةً لِمَا قَبْلَه.

وقيل: هو دفعُ لزوم الجمع بين الحقيقة والمجاز، وذلك لأنَّ المسيِّر في البحر هو الله تعالى، إذ هو سبحانه المحدِثُ لتلك الحركات في الفُلْك بالريح ولا دخلَ للعبد فيه، بل في مقدماته، وأمَّا سيرُ البرِّ فمِنَ الأفعال الاختيارية الصادرة من المخاطَبين أنفسِهم إنْ كانوا مشاةً، أو من دوابِّهم إنْ كانوا رُكباناً، وتَسييرُ الله تعالى فيه إعطاءُ الآلات والأدوات، ولزومُ الجمع عليه ظاهر. ووجْهُ الدفع أنَّ المراد من التسيير ما ذكر، وهو معنًى مجازيٌّ شاملٌ للحقيقة والمجاز.

وادَّعى بعضُهم اتِّحادَ التسيير في البرِّ والبحرِ، واستَدل بالآية على أنَّ أفعال العباد مخلوقةٌ لله تعالى. وتُعقِّب بأنَّه تكلُّفٌ.

والزمخشريُّ[1] لم يؤوِّل التسيير بما ذكرنا، وجعَلَ الغايةَ مضمونَ الجملة الشرطية الواقعةِ بعد «حتى» بما في حيِّزها، كأنَّه قيل: يُسيِّركم حتى إذا وقعَت هذه الحادثةُ وكان كَيْتَ وكيت، من مجيءِ الريح العاصفِ وتراكمُ الأمواج والظنِّ للهلاك والدعاءِ بالإنجاء، دُون الكَوْنِ في البحر.

وتعقَّب ذلك القطبُ: بأنَّه لو جعَلَ الكونَ في الفلك مع ما عطف عليه من قوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ كفى، ولم يَحتَجْ إلى اعتبارِ مجموعِ الشرطِ والجزاء.

ثم قال: والتحقيقُ أنَّ الغاية إنْ فُسِّرت بما ينتهي إليه الشيءُ بالذات ـ فهي ليس إلا ما وقع شرطاً في مثل ذلك وإن فسِّرت بما ينتهي إليه الشيء مطلقاً ـ سواءٌ كان بالذات أو بالواسطة ـ فهي مجموعُ الشرط والجزاء، واستوضح ذلك من

(١) في الكشاف ٢/ ٢٣١.

قولك: مشيتُ حتى إذا بلغتُ البلد اتّجرْتُ. فإنَّ ما انتهى إليه المشيُ بالذات الوصولُ إلى البلد، وأمَّا الاتِّجار فأمرٌ مترتِّبٌ على ذلك، فيكونُ مما انتهَى إليه المشيُ بالواسطة.

والتضعيفُ في «يسيِّر» للتعدية؛ تقول: سارَ الرجلُ وسيَّرتُه. وقال الفارسي: إنَّ سار متعدٌّ كـ : سيَّر؛ لأنَّ العرب تقولُ: سِرْتُ الرجلَ وسيَّرته، بمعنًى، ومنه قولُ الهذَلي:

فلا تَجْزَعَنْ مِن سنَّةٍ أنتَ سِرْتَها فأوَّلُ راضٍ سنَّةً مَن يَسيرُها[1]

وقال في «الصحاح»: سارتِ الدابَّةُ وسارَها صاحبُها، يتعدَّى ولا يتعدَّى، وأنشدَ له هذا البيت[2]. وأوَّلَه النحويُّون حيث لم يَرْتَضوا ذلك.

و«الفُلك»: السفنُ، ومفردُه وجمعُه واحدٌ، وتغايُرُ الحركات بينهما اعتباريٌّ. وفي «الصحاح»[3]: أنَّه واحدٌ وجمعٌ يذكَّرُ ويؤنَّثُ. وكأنَّ ذلك باعتبارِ المركب والسفينة.

وكان سيبويه يقول: الفُلْكُ التي هي جمعٌ تكسيرٌ للفُلْك الذي هو[4] واحدٌ، وليسَتْ مثل الجُنُب الذي هو واحدٌ وجمعٌ، والطفلِ وما أشبههما من الأسماء؛ لأنَّ فَعَلاً وفُعْلاً يشتركان في الشيءِ الواحد مثل: العَرَب والعُرْب، والعَجَم والعُجْم، والرَّهَب والرُّهْب، فحيث جاز أَنْ يُجمع فَعَل على فُعْل مثل: أَسَد وأُسْد، لم يَمتنع أنْ يُجمعَ فُعْل على فُعْل[5].

وضمير «جَرين» لـ «الفلك» وضمير «بهم» لمن فيها، وهو التفاتٌ للمبالغة في تقبيح حالهم، كأنَّه أعرض عن خطابهم وحكَى لغيرهم سوء صنيعهم، وقيل:

---

(١) الحجة للفارسي ٤/ ٢٦٥، والبيت لأبي ذؤيب الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ١/ ١٥٧، والبحر ٥/ ١٣٨، ورواية الديوان: وأول راضي سنةٍ...، ووقع في الأصل و(م): فلا تجزعي، والمثبت من المصادر.

(٢) الصحاح (سير).

(٣) مادة (فلك).

(٤) في الصحاح: التي هي.

(٥) بنحوه في الكتاب ٣/ ٥٧٧، ونقله المصنف بواسطة الجوهري في الصحاح.

لا التفاتَ، بل معنى قوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِى ٱلۡفُلۡكِ﴾: حتى إذا كان بعضُكم فيها؛ إذ الخطابُ للكلِّ، ومنهم المسيَّرون في البر، فالضميرُ الغائبُ عائدٌ إلى ذلك المضاف المقدَّر، كما في قوله تعالى: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِى بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ﴾ [النور: ٤٠] فإنَّه في تقدير: أو كذي ظلماتٍ يغشاه موجٌ.

والباء الأولى للتعدية، والثانيةُ وكذا الثالثةُ للسببية، فلذا تعلَّق الحرفان بمتعلَّقٍ واحد، وإلا فقد منعوا تعلُّقَ حرفَين بمعنًى بمتعلَّق واحدٍ، واعتبارُ تعلُّق الثاني بعد تعلُّق الأول به وملاحظته معه يُزيل اتِّحاد المتعلَّق.

وجوِّز أنْ تكون الثانيةُ للحال، أي: جرَين بهم مُلْتبِسةً بريحٍ، فتتعلَّق بمحذوفٍ كما في «البحر»(١)، وقد تجعل الأولى للملابَسة أيضاً.

«وفرحوا» عطفٌ على «جَرَيْنَ» وهو عطفٌ على «كنتم»، وقد تُجعل حالاً بتقدير «قد». وضميرُ «بها» للريح، ونقل الطبرسيُّ القولَ برجوعه للفُلْكِ(٢)، ولا يكاد يَجري به القلم.

والمراد بـ «طيِّبة» حَسْبَما يقتضيه المقامُ: لينةُ الهبوب مُوَافِقةُ المقصِدِ.

وظاهرُ الآية ـ على ما نُقل عن الإمام ـ يقتضي أنَّ راكب السفينة متحرِّكٌ بحركتها، خلافاً لمن قال: إنَّه ساكنٌ، ولا وجْهَ ـ كما قال بعض المحققين(٣) ـ لهذا الخلاف؛ فإنَّه ساكنٌ بالذات سائرٌ بالواسطة.

وقرأ ابنُ عامر: «يَنْشُرُكم» بالنون والشين المعجمة والراء المهملة(٤)، من النشر ضدَّ الطي، أي: يُفرِّقُكم ويَبُثُّكم. وقرأ الحسن: «يُنشِرُكم» مِن أَنشَرَ(٥) بمعنى أَحيا. وقرأ بعضُ الشاميين: «يُنشِّرُكم» بالتشديد للتكثير(٦) من النشر أيضاً.

---

(١) ٥/ ١٣٦.
(٢) مجمع البيان ١١/ ٣٣.
(٣) هو الشهاب في الحاشية ٦/ ١٨، وعنه نقل المصنف قول الإمام.
(٤) التيسير ص١٢١، والنشر ٢/ ٢٨٢، وهي قراءة أبي جعفر من العشرة.
(٥) القراءات الشاذة ص٥٦، والبحر ٥/ ١٣٧.
(٦) البحر ٥/ ١٣٧.

وعن أمِّ الدرداء أنَّها قرأت: «في الفُلْكِيِّ» بزيادة ياءي النسب[١]، ووُجِّهُ ذلك بأنَّهما زائدتان، كما في الخارجيِّ والأحمريِّ، ولا اختصاصَ لذلك في الصفات؛ لمجيء: دودويّ، و: أنا الصَّلَتانيُّ، في قول الصَّلَتَان[٢]، ويجوز أنْ يُراد به اللُّجُّ والماءُ الغمرُ الذي لا تجري الفُلْكُ إلَّا فيه.

وقوله سبحانه: ﴿جَآءَتۡهَا﴾ جوابُ «إذا»، والضميرُ المنصوبُ للفُلْكِ أو للريح الطيبة، على معنى: تلقَّتها واستولَتْ عليها من طرفٍ مخالفٍ لها، فإنَّ الهبوب على وَفْقِها لا يُسمَّى ـ على ما قيل ـ مجيئاً لريح أُخرَى عادةً، بل هو اشتدادٌ للريح الأولى.

ورُجِّحَ الثاني بأنه الأظهرُ لاستلزامه للأول من غير عكسٍ؛ لأنَّ الهبوب على طريقة الريح اللينة يُعدُّ مجيئاً بالنسبة إلى الفلك دون الريح اللينة، مع أنَّه لا يستتبعُ تلاطُمَ الأمواجِ الموجبَ لمجيئها مِن كلِّ مكانٍ، ولأنَّ التهويل في بيان استيلائها على ما فرحوا به وعلَّقوا به حبالَ رجائهم أكثر، وفيه تأمُّل.

﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ أي: ذاتُ عصفٍ، فهو من باب النسب كـ: لابِنٍ وتامِرٍ، ويَستوي فيه المذكَّر والمؤنَّث كما صرَّحوا به، فلذا لم يَقُل: عاصفةٌ، مع أنَّ الريح مؤنثةٌ لا تُذكَّر بدون تأويل.

وقيل: لم يقل: عاصفةٌ؛ لأنَّ العصوف مختصٌّ بالريح، فهو كـ: حائض، فلا حاجةَ إلى الفارق، أو أنَّه اعتُبر التذكير في الريح كما اعتُبر فيها التأنيث، والأولَى ما قدَّمناه.

وأصلُ العصف: الكَسْرُ، أو النباتُ[٣] المتكسِّر، والمراد: شديدةُ الهبوب.

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ﴾ وهو ما علا وارتفع من اضطراب الماء. وقيل: هو اضطرابُ البحرِ. والأول هو المشهور.

---

(١) المحتسب ١/ ٣١٠، والبحر ٥/ ١٣٨.

(٢) واسمه قُثَم بن خَبِيَّة، أحد بني محارب بن عمرو بن وديعة، قال الآمدي: هو شاعر مشهور خبيث. الخزانة ٢/ ١٨١. وهذه قطعة من بيت له في أمالي القالي ٢/ ١٤١، والمحتسب ١/ ٣١١، والبحر ٥/ ١٣٨، والخزانة ٢/ ١٧٦، وتمامه:

أنا الصَّلَتانيُّ الذي قد علمتُمُ   متى ما يحكَّم فهو بالحقِّ صادح

(٣) في (م): والنبات، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٥/ ١٨.

﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: من أمكنةِ مجيءِ الموج عادةً، وقد يتَّفق مجيئُه من جهاتٍ حَسْبَ أسبابٍ تَتَّفقُ لذلك.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ أي: أُهلكوا، كما رواه ابنُ المنذر[1] عن ابنِ جُرَيج. ففي الكلام استعارةٌ تبعيةٌ.

وقيل: إنَّ الإحاطة استعارةٌ لسدِّ مسالك الخلاص تشبيهاً له بإحاطة العدوِّ بإنسانٍ، ثم كنى بتلك الاستعارة عن الهلاك لكونها مِن روافدها ولوازمها.

وقيل: إنَّ ذلك مَثَلٌ في الهلاك.

والظنُّ على ما يتبادَرُ منه، وجُوِّز أنْ يكون بمعنى اليقين؛ بناءً على تحقُّق وقوعِه في اعتقادهم، أو كونِ الكناية عن القرب من الهلاك.

﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ جعلَه غيرُ واحدٍ بدلَ اشتمالٍ من «ظنُّوا»؛ لأنَّ دعاءهم من لوازم ظنِّهم الهلاك، فبينهما ملابَسةٌ تُصحِّحُ البدلية.

وقيل: هو جوابُ ما اشتمل عليه المعنى من معنى الشرط، أي: لمَّا ظنُّوا أنَّهم أُحيط بهم دَعَوُا الله.. إلخ.

وجعله أبو حيان استئنافاً بيانيّاً، كأنَّه قيل: فماذا كان حالهم إذ ذاك؟ فقيل: دَعَوا.. إلخ[2].

ورجِّح القولُ بالبدلِ عليه بأنَّه أَدْخَلُ في اتِّصال الكلام، والدلالةِ على كونه المقصودَ، مع إفادته ما يُستفاد من الاستئناف، مع الاستغناءِ عن تقدير السؤال.

وأنت تعلم أنَّ تقدير السؤال ليس تقديراً حقيقيّاً، بل أمرٌ اعتباريٌّ، وفيه من الإيجاز ما فيه، وليس بأبعدَ مما تُكلِّف للبدلية.

ويُشعر كلامُ بعضهم بجواز كونِهِ جواب الشرط، «وجاءتها» في موضع الحال، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] الآية.

وتُعقِّب بأنَّ الاحتياج إلى الجواب يقتضي صرفَ ما يَصْلُحُ له إليه، لا إلى

---

(١) كما في الدر المنثور ٣/ ٣٠٣.

(٢) البحر ٥/ ١٣٩.

الحال الفضلةِ المفتقرةِ إلى تقدير «قد»، مع أنَّ عطف «وظنُّوا» على «جاءتها» يأبَى الحالية، والفرحُ بالريح الطيبة لا يكونُ حالَ مجيءِ العاصفةِ، والمعنى على تحقُّق المجيءِ لا على تقديره، ليُجعلَ حالاً مقدَّرةً. ولا يخلو عن حُسْنٍ.

والظاهرُ أنَّ ما عدَّه مانعاً من الحالية غيرُ مشتركٍ بينه وبين كونه جوابَ «إذا»؛ لأنَّه يقتضي أنَّهما في زمانٍ واحدٍ، كما لا يخفى على مَن له أدنَى معرفةٍ بأساليب الكلام.

وقوله سبحانه: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ حالٌ من ضمير «دَعَوا»، و«له» متعلِّقٌ بـ «مخلصين»، و«الدِّين» مفعوله، أي: دَعَوه تعالى من غير إشراكٍ لرجوعهم من شدَّة الخوف إلى الفطرة التي جُبل عليها كلُّ أحدٍ من التوحيد، وأنَّه لا متصرِّف إلا الله سبحانه، المركوز في طبائع العالم، وروي ذلك عن ابن عباس، ومن حديثٍ أخرجه أبو داود والنسائي وغيرُهما عن سعد بنِ أبي وقاص قال: لما كان يوم الفتح فرَّ عكرمةُ بن أبي جهل، فركبَ البحر فأصابتهم عاصفٌ، فقال أصحاب السفينة لأهل السفينة: أَخلصُوا، فإنَّ آلهتكم لا تُغني عنكم شيئاً. فقال عكرمةُ: لئن لم يُنجِّني في البحر إلا الإخلاصُ، ما يُنجيني في البرِّ غيرُه، اللهمَّ إنَّ لك [عليَّ] عهداً إنْ أنت عافيتني مما أنا فيه أنْ آتيَ محمداً حتى أضعَ يدي في يده، فلأَجِدَنَّه عَفُوّاً كريماً، قال: فجاء فأسلم(١).

وفي رواية ابن سعد عن [ابن] أبي مُليكة: أنَّ عكرمةَ لـمَّا ركبَ السفينةَ وأَخَذَتهمُ الريح فجعلوا يدعون الله تعالى ويُوحِّدونه، قال: ما هذا؟ فقالوا: هذا مكانٌ لا ينفعُ فيه إلا اللهُ تعالى. قال: فهذا إلهُ محمدٍ ﷺ الذي يدعونا إليه، فارجعوا بنا. فرَجَعَ وأسلم(٢).

---

(١) سنن النسائي ٧/ ١٠٦، وهو قطعة من حديث طويل أخرج أبو داود في سننه (٢٦٨٣) بعضه دون هذه القصة، وأخرجه أيضاً الطحاوي في شرح معاني الآثار ٣/ ٣٣٠، وابن عبد البر في التمهيد ٦/ ١٧٥، وما بين حاصرتين من هذه المصادر.

(٢) عزاه لابن سعد السيوطي في الدر ٣/ ٣٠٣، وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير ١٧/ (١٠١٩). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ٥: وهو مرسل ورجاله رجال الصحيح. وما سلف بين حاصرتين من المصادر.

وظاهرُ الآيةِ أنَّه ليس المراد تخصيصَ الدعاء فقط به سبحانه، بل تخصيصَ العبادةِ به تعالى أيضاً؛ لأنَّهم بمجرَّد ذلك لا يكونون مُخْلِصينَ له الدِّين، وأيّاً ما كان فالآيةُ دالَّةٌ على أنَّ المشركين لا يَدْعون غيرَه تعالى في تلك الحال.

وأنت خبيرٌ بأنَّ الناس اليومَ إذا اعتراهم أمرٌ خطيرٌ وخطبٌ جسيمٌ في برٍّ أو بحرٍ، دَعَوا مَن لا يضرُّ ولا ينفع، ولا يَرى ولا يسمع، فمنهم مَن يدعو الخضرَ وإلياس، ومنهم مَن يُنادي أبا الخميس والعباس، ومنهم مَن يستغيثُ بأحدِ الأئمة، ومنهم مَن يَضْرَعُ إلى شيخٍ من مشايخ الأمَّة، ولا تَرَى فيهم أحداً يخصُّ مولاه بتضرُّعه ودُعاه، ولا يكاد يمرُّ له ببالٍ أنَّه لو دعا الله تعالى وحده ينجو مِن هاتيك الأهوال، فباللهِ تعالى عليك قل لي: أيُّ الفريقَين مِن هذه الحيثية أهدَى سبيلاً؟ وأيُّ الداعيَين أقومُ قِيلاً؟ وإلى الله تعالى المشتكَى من زمانٍ عَصَفَتْ فيه ريحُ الجَهالة، وتَلاطَمَتْ أمواجُ الضلالة، وخُرقَت سفينة الشريعة، واتُّخذت الاستغاثة بغير الله تعالى للنجاة ذريعة، وتعذَّر على العارفين الأمرُ بالمعروفِ، وحالَتْ دون النهي عن المنكر صنوفُ الحتوف.

هذا وقولُه تعالى: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ في محلِّ نصبٍ بقولٍ مقدَّرٍ عند البصريين، وهو حالٌ من الضمير السابق. ومذهبُ الكوفيين إجراءُ الدعاء مجرَى القول لأنَّه من أنواعه وجَعْلُ الجملةِ محكيةً به، والأوَّلُ هو الأَوْلَى هنا.

واللامُ موطِّئةٌ لقسمٍ مقدَّرٍ، و«لنكوننَّ» جوابُه. والمشارُ إليه بـ «هذه» الحالُ التي هم فيها، أي: واللهِ لئن أنجيتَنا مما نحن فيه مِن الشدَّة لنكوننَّ البتةَ بعد ذلك أبداً شاكرينَ لنعمك التي مِن جملتها هذه النعمةُ المسؤولة. والعدولُ عن لنشكرنَّ إلى ما في النظم الجليل للمبالغة في الدلالة على الثبوت في الشكر والمثابرةِ عليه.

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ﴾ ممَّا نَزَل بهم من الشدَّة والكربة، والفاءُ للدلالة على سرعة الإجابة ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: فاجَؤوا الفسادَ فيها وسارَعوا إليه، مُترامين في ذلك مُمعنين فيه، من قولهم: بغَى الجرحُ: إذا تَرَامَى في الفساد. وزيادةُ «في الأرض» للدلالة على شمول بَغْيِهم لأقطارها. وصيغةُ المضارع للدلالة على التجدُّد والاستمرار.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ تأكيدٌ لِمَا يُفيده البغيُ؛ إذ معناه بغير الحقِّ[١] عندهم أيضاً، بأنْ يكونَ ظلماً ظاهراً لا يخفَى قُبحه على كلِّ أحدٍ، كما قيل نحوُ ذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١].

وقد فسِّر البغيُ بإفساد صورةِ الشيءِ وإتلافِ منفعته، وجُعل «بغير الحق» للاحتراز عما[٢] يكونُ من ذلك بحقٍّ، كتخريب الغزاة ديارَ الكفرةِ وقطعِ أشجارِهم وحَرْقِ زروعهم. كما فعلَ ﷺ ببني قريظة[٣].

وتُعقِّب بأنَّه مما لا يُساعده النظمُ الكريم؛ لأنَّ البغيَ بالمعنَى الأوَّلِ هو اللائقُ بحالِ المفسدين، فينبغي بناءُ الكلام عليه.

والزمخشريُّ اختار كونَ ذلك للاحتراز عما ذُكر[٤]. وذَكر في «الكشف» أنَّه أشار بذلك إلى أنَّ الفساد اللغويَّ: خروجُ الشيءِ من الانتفاع، فلا كلُّ بَغْيٍ - أي: فسادٍ في الأرض واستطالةٍ فيها - كذلك كما علمتَ، وإنْ كان موضوعُه العرفيُّ للاستطالة بغير حقٍّ، لكن النظر إلى موضوعه الأصلي.

وقيل: إنَّ البغيَ الذي يتعدَّى بـ «في» بمعنى الإتلاف والإفساد، وهو يكونُ حقّاً وغيرَه، والذي يتعدَّى بـ «على» بمعنى الظلم، وتقييد الأول بـ «غير الحق» للاحتراز، وتقييد الثاني به للتأكيد، ولعلَّ مَن يجعلُ البغيَ هنا بمعنى الظلم يقول: إنَّ المعنى: يبغون على المسلمين، مثلاً. فافهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ توجيهُ الخطاب إلى أولئك الباغينَ للتشديد في التهديد، والمبالغةِ في الوعيد ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ﴾ الذي تتعاطَونه، وهو مبتدأٌ خبرُه قولُه سبحانه: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ أي: عليكم في الحقيقة لا على الذين تبغون عليهم، وإنْ ظُنَّ كذلك.

---

(١) في الأصل: حق، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٤/ ١٣٥، والكلام منه.

(٢) في (م): مما.

(٣) الكشاف ٢/ ٢٣٢. وأخرج أبو عوانة ٤/ ٩٧ من حديث ابن عمر ﵄: أن النبي ﷺ حرَّق على بني قريظة والنضير نخلاً لهم. والحديث في الصحيحين لكن دون ذكر قريظة، فقد أخرجه البخاري (٢٣٢٦)، ومسلم (١٧٤٦) عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ حرَّق نخل بني النضير وقَطَعَ، وهي البويرة.

(٤) الكشاف ٢/ ٢٣٢.

وقولُه تعالى: ﴿مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ نصب على أنَّه مصدرٌ مؤكِّدٌ لفعلٍ مقدَّرٍ بطريق الاستئناف، أي: تتمتَّعون متاعَ الحياة الدنيا، والمرادُ من ذلك بيانُ كونِ ما في البغي من المنفعة العاجلة شيئاً غيرَ مُعتدٍّ به، سريعَ الزوال دائمَ الوبال.

وقيل: إنَّه منصوبٌ على أنَّه مصدرٌ واقعٌ موقعَ الحال، أي: متمتِّعين، والعاملُ هو الاستقرارُ الذي في الخبر، ولا يجوز أنْ يكون نفسَ البغي؛ لأنَّه لا يجوز الفصلُ بين المصدر ومعموله بالخبر، وأيضاً لا يُخبر عن المصدر إلا بعد تمام صِلاته ومعمولاته.

وتعقِّب بأنَّه ليس في تقييد كونِ بغيهم على أنفسهم بحالِ تمتُّعهم بالحياة الدنيا معنًى يُعتَدُّ به.

وقيل: على أنَّه ظرفُ زمانٍ كـ : مَقْدَمَ الحاجِّ، أي: زمانَ متاعِ الحياة الدنيا، والعاملُ فيه الاستقرارُ أيضاً، وفيه ما في سابقه.

وقيل: على أنَّه مفعولٌ لفعلٍ دلَّ عليه المصدرُ، أي: تبغون متاعَ الحياة الدنيا.

واعتُرض بأنَّ هذا يستدعي أنْ يكون البغيُ بمعنَى الطلب؛ لأنَّه الذي يتعدَّى بنفسه، والمصدرُ لا يدلُّ عليه. وجَعْلُ المصدرِ أيضاً بمعناه مما يُخلُّ بجزالة النظم الكريم؛ لأنَّ الاستئناف لبيانِ سوء عاقبةِ ما حُكي عنهم من البغي المفسَّر ـ على المختار ـ بالفساد المفرِطِ اللائق بحالهم، وحينئذٍ تنتفي المناسبةُ ويفوتُ الانتظام، وجَعْلُ الأول أيضاً بمعناه مما يجب تنزيهُ ساحة التنزيل عنه.

وقيل: على أنَّه مفعولٌ له، أي: لأَجْلِ متاعِ الحياة الدنيا، والعاملُ فيه الاستقرار. وتُعقِّب بأنَّ المعلَّل بما ذُكر نفسُ البغي لا كونُه على أنفسهم. وقيل: العاملُ فيه فعلٌ مدلولٌ عليه بالمصدر، أي: تبغون لأَجْلِ متاعِ الحياة الدنيا، على أنَّ الجملةَ مستأنَفةٌ.

وقيل: على أنَّه مفعولٌ صريحٌ للمصدر، و«على أنفسكم»[1] متعلِّقٌ به لا خبرٌ لِمَا مرَّ، والمراد بالأنفس الجنس، والخبرُ محذوفٌ لطول الكلام، والتقدير: إنَّما بغيُكم

(١) في الأصل و(م): وعليكم، وينظر تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ١٩، وتفسير أبي السعود ٤/ ١٣٥.

على أبناءِ جِنسكم متاعَ الحياة الدنيا مذمومٌ أو منهيٌّ عنه، أو ضلالٌ، أو ظاهرُ الفساد، أو نحوُ ذلك، وفيه الابتناءُ على أنَّ البغي بمعنَى الطلب، وقد علمتَ ما فيه.

نعم لو جَعَل نصبه على العلَّة، أي: إنَّما بغيُكم على أبناء جنسكم لأَجْلِ متاعِ الحياة الدنيا مذمومٌ ـ كما اختاره بعضُهم ـ لكان له وجهٌ في الجملة، لكنَّ الحقَّ الذي يقتضيه جزالةُ النَّظْم هو الأول.

وقرأ الجمهور: «متاعُ» بالرفع[1]. قال صاحب «المرشد»: وفيه وجهان:

أحدُهما: كونُه الخبر، والظرفُ صلةُ المصدر.

والثاني: كونُه خبرَ مبتدأ محذوفٍ، أي: هو ـ أو ذلك ـ متاع.

وزِيْدَ وجْهٌ آخرُ، وهو كونُه خبراً بعدَ خبرٍ لـ «بغيكم».

والمختارُ بل المتعيِّنُ على الوجه الأول كونُ المراد بـ «أنفسكم»: أبناءَ جنسكم أو أمثالَكم على سبيل الاستعارة، والتعبيرُ عنهم بذلك للتشفيق والحثِّ على ترك إيثار التمتُّع المذكور على ما يَنبغي من الحقوق، ولا مانعَ على الوجهين الأخيرَين من الحمل على الحقيقة، كما بيَّن ذلك مولانا شيخُ الإسلام[2].

وقرئ بنصب المتاع والحياة[3]، وخُرِّج نصبُ الأَوَّل على ما مرَّ، ونصب الثاني على أنَّه بدل اشتمالٍ من الأول. وقيل: على أنَّه مفعولٌ به له إذا لم يكن انتصابُه على المصدرية؛ لأنَّ المصدر المؤكِّد لا يعمل.

وذَكَر أبو البقاء[4] أنَّه قرئ بجرِّهما على أنَّ الثاني مضافٌ إليه، والأول نعتٌ للأنفس، أي: ذات متاع، وجوَّز أن يكون المصدرُ بمعنى اسم الفاعل، أي: متمتِّعات[5]، وضَعَّف كونَه بدلاً، إذ قد أَمْكَنَ كونُه صفة.

---

(١) وهي قراءة العشرة إلا عاصماً في رواية حفص. التيسير ص١٢١، والنشر ٢/ ٢٨٣.
(٢) أبو السعود في تفسيره ٤/ ١٣٦.
(٣) أي: «متاعاً الحياةَ الدنيا»، وهي في تفسير الطبري ١٢/ ١٤٩، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٠، والمحرر الوجيز ٣/ ١١٣، والبحر ٥/ ١٤٠.
(٤) في الإملاء ٣/ ٢٢٤.
(٥) في الإملاء: ممتعات.

هذا، وفي الآيةِ مِن الزَّجْرِ عن البَغْيِ ما لا يَخْفَى، وقد أخرج أبو الشيخ وأبو نعيم والخطيبُ والديلميُّ وغيرُهم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ هنَّ رَواجِعُ على أهلها: المكرُ والنكثُ والبغيُ» ثم تلا عليه الصلاة والسلام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣] ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح: ١٠][1].

وأخرج البيهقيُّ في «الشعب» عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِن ذنبٍ أَجدَرُ أنْ يُعجَّل لصاحبه العقوبة من البغي وقطيعة الرحم»[2].

وأخرج أيضاً من طريق بلال بنِ أبي بُردة عن أبيه عن جدِّه عن النبيِّ ﷺ قال: «لا يَبغي على الناس إلا ولدُ بَغِيٍّ أو فيه عرقٌ منه»[3].

وأخرج ابنُ مردويه عن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم قالا: قال رسول الله ﷺ: «لو بغَى جبلٌ على جبلٍ لدُكَّ الباغي منهما»[4].

---

(١) أخبار أصبهان ٢/ ٧٠، وتاريخ بغداد ٨/ ٤٤٩-٤٥٠، وعزاه لأبي الشيخ والديلمي السيوطي في الدر ٣/ ٣٠٣، وهو في الفردوس (٢٤٩٧) بنحوه ولكن من حديث عبد الله بن نفيل.
وحديث أنس في إسناده مروان بن صَبيح، قال الذهبي في الميزان ٤/ ٩١: لا أعرفه، وله خبر منكر، ثم ذكر عنه هذا الحديث.
وحديث عبد الله بن نفيل أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (١٣٧٤) من طريق سليمان بن سليم عنه. قال الحافظ في الإصابة ٦/ ٢٣٢: رجاله ثقات، إلا أنه منقطع بين سليمان والصحابي.

(٢) شعب الإيمان (٦٦٧٠) بلفظ: «ما من ذنب أجدر أن يعجل لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدَّخر له في الآخرة من البغي...» وأخرجه أيضاً أحمد (٢٠٣٩٨)، وأبو داود (٤٩٠٢)، والترمذي (٢٥١١)، وابن ماجه (٤٢١١). قال الترمذي: حسن صحيح.

(٣) شعب الإيمان (٦٦٧٥) من طريق سهل الأعرابي عن أبي الوليد مولى لقريش عن بلال به، وكذا أخرجه البخاري في التاريخ الكبير ٤/ ١٠٢. وسهل قال عنه الذهبي في الميزان: مقلٌّ لا يقبل ما انفرد به. وقال عن أبي الوليد: لا يعرف. الميزان ٢/ ٢٤٢ و٤/ ٨٥.

(٤) الدر المنثور ٣/ ٣٠٤، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٨٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً. وأخرجه ابن الجوزي في العلل (١٢٩٧) من طريق إسماعيل بن يحيى عن ابن أبي ذئب عن نافع عن ابن عمر مرفوعاً. قال ابن الجوزي: هذا حديث باطل عن ابن أبي ذئب، لم يروه غير إسماعيل، وكان يحدث عن الثقات بالبواطيل.

وكان المأمونُ يتمثَّل بهذين البيتَين لأخيه:

يا صاحبَ البغْي إنَّ البغيَ مَصْرَعةٌ فاربع فخيرُ فِعالِ المرء أعدلُه
فلو بغَى جبلٌ يوماً على جبلٍ لاندكَّ منه أعاليه وأسفلُه[(١)]

وعَقَد ذلك الشهاب فقال:

إنْ يَعْدُ ذو بَغْيٍ عليك فخلِّه وارقُب زماناً لانتقامِ باغي
واحذَر من البغي الوخيمِ فلو بغَى جبلٌ على جبلٍ لَدُكَّ الباغي[(٢)]

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ عطفٌ على ما مرَّ من الجملة المستأنفة المقدَّرة، كأنَّه قيل: تَتمتَّعون متاعَ الحياة الدنيا ثم ترجعون إلينا، وإنَّما غيَّرَ السبكَ إلى ما في النظم الكريم للدلالة على الثبات والقَصْرِ.

﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ في الدنيا على الاستمرار من البغي، وهو[(٣)] وعيدٌ وتهديدٌ بالجزاء والعذاب، وقد تقدَّم الكلام في نظيره[(٤)].

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ كلامٌ مستأنَفٌ لبيان شأن الحياة الدنيا، وقِصَر مدَّة التمتُّع فيها، وأصلُ المَثَلِ: ما شُبِّه مَضْرِبُه بمورِدِه، ويُستعار للأمر العجيب المستَغْرَبِ، أي: إنَّما حالُها في سرعةِ تَقَضِّيها وانصرامِ نعيمها بعدَ إقبالها واغترار الناس بها ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ﴾ أي: فكَثُر بسببه ﴿نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ حتى التفَّ بعضُه ببعضٍ، فالباءُ للسببية، ومنهم مَن أبقاها على المصاحَبةِ وجَعَل الاختلاطَ بالماء نفسِه، فإنَّه كالغذاء للنبات، فيجري فيه ويُخالطه، والأوَّل هو الذي يقتضيه كلامُ ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَٰمُ﴾ كالبقول والزروع، والحشيش والمراعي، والجارُّ والمجرور في موضع الحال من النبات.

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٣٢، وتفسير الرازي ١٦/ ٧١، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٠، والثاني في بهجة المجالس لابن عبد البر ١/ ٤٠٦.
(٢) حاشية الشهاب ٥/ ٢٠.
(٣) في (م): فهو، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ١٣٦، والكلام منه.
(٤) ١٠/ ٤٧١.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: استوفَت واستكملَت ﴿زُخْرُفَهَا﴾ أي: حُسْنَها وبهجَتَها ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ بأصناف النبات[1] وأشكالِها وألوانها المختلفة:

كأذيالِ خَوْدٍ أقبلَت في غلائلٍ مُصبَّغةٍ والبعضُ أقصرُ مِن بعضِ[2]

وقد ذَكَرَ غيرُ واحدٍ أنَّ في الكلام استعارةً بالكناية، حيث شُبِّهت الأرضُ بالعروس، وحُذف المشبَّه به وأُقيمَ المشبَّه مقامَه، وإثباتُ أَخْذِ الزُّخْرفِ لها تخييلٌ، وما بعدَه ترشيحٌ.

وقيل: الزخرفُ الذهب، استُعير للنضارة والمنظر السارِّ.

وأصل «ازَّيَّنت»: تَزَيَّنت، فأُدغِمَتِ التاءُ في الزَّاي وسُكِّنت، فاجتلبَتْ همزة وصلٍ للتوصُّل للابتداء بالساكن، وبالأصل قرأ عبد الله[3].

وقرأ الأعرج والشعبيُّ وأبو العالية ونصرُ بن عاصم والحسن بخلاف: «وأَزْيَنَت» بوزن أَفعلَت كأَكْرَمَت[4]، وكان قياسُه أنْ يُعلَّ فيقلَب ياؤُه ألفاً فيقال: أَزَانَتْ، لأنَّه المطَّردُ في باب الإفعال المعتلِّ العين، لكنَّه ورَدَ على خلافه كـ : أَغْيَلَت المرأة، إذا سقَت ولَدَها الغيل، وهو لَبَنُ حَمْلها عليه، وقد جاء: أغالَت على القياس. ومعنى الإفعال[5] هنا الصيرورةُ، أي: صارَت ذاتَ زينة، أو صيَّرَت نفسَها كذلك.

وقرأ أبو عثمان النهديُّ: «ازْيَأَنَّت» بهمزة وَصْلٍ بعدها زايٌ ساكنةٌ وياءٌ مفتوحةٌ وهمزةٌ كذلك ونونٌ مشدَّدةٌ وتاءُ تأنيث[6]، وأصلُه: ازْيَانَّتْ، بوزن: احْمَارَّت، بألف صريحة، فكرهوا اجتماع ساكنَين، فقلبوا الألف همزةً مفتوحةً كما قرئ:

---

(١) في الأصل: النباتات.

(٢) البيت لسيف الدولة الحمداني، كما في يتيمة الدهر ١/ ٥٣، والنجوم الزاهرة ٤/ ١٧، وشذرات الذهب ٤/ ٢٩٥. والخَوْد: الحسنة الخَلْق الشابة، أو الناعمة. وجمعها: خَوْدات وخُود.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١١٤، والبحر ٥/ ١٤٣.

(٤) المحتسب ٣/ ٣١١، والبحر ٥/ ١٤٣.

(٥) بعدها في (م): هناك.

(٦) القراءات الشاذة ص٩٦، والمحتسب ٣/ ٣١١، والبحر ٥/ ١٤٤، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٠.

«الضالِّين»، وجاء أيضاً: احمأرَّت، بالهمزة كقوله:

إذا ما الهوادِي بالعبيط احْمَأرَّت[1]

وقرأ عوف بن أبي جميلة: «ازْيانَّت» بألف من غير إبدال[2].

وقرئ: «ازَّايَنَتْ»[3] لقَصْدِ المبالغة.

﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ أي: على الأرض، والمراد: ظنُّوا أنَّهم مُتمكِّنون من منفعتها، محصِّلون لثمرتها، رافعون لغلَّتها.

وقيل: الكناية للزروع[4]. وقيل: للثمرة. وقيل: للزينة؛ لانفهام ذلك من الكلام.

﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾ جوابُ «إذا»، أي: نَزَل بها ما قدَّرناه من العذاب، وهو ضَرْبُ زَرْعِها ما يَجْتاحُه من الآفات والعاهات، كالبرد، والجراد، والفأر، والصرصر، والسموم، وغير ذلك.

﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ أي: في ليلٍ أو نهارٍ، ولعلَّ المراد الإشارةُ إلى أنَّه لا فرقَ في إتيان العذاب بين زَمَن غفلتهم وزَمَن يقظتهم، إذ لا يَمنعُ منه مانعٌ ولا يدفعُ عنه دافعٌ.

﴿فَجَعَلْنَٰهَا﴾ أي: فجعلنا نباتَها ﴿حَصِيدًا﴾ أي: شبيهاً بما حُصِد من أصله،

---

(١) ذكره ابن جني في المحتسب ١/ ٤٧، والخصائص ٣/ ١٢٦ وعزاه لكثير، وفيهما: إذا ما العوالي...، وهو دون نسبة في البحر ٥/ ١٤٤، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٠. وورد في ديوان كثير ص٢٣٧ ضمن قصيدة في مدح عبد العزيز بن مروان برواية:

وأنت ابنَ ليلى خيرُ قومك مشهداً إذا ما احمأرَّتْ بالعبيط العواملُ

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥١، والمحرر الوجيز ٣/ ١١٤، وتفسير القرطبي ١٠/ ٤٧٨، والبحر ٥/ ١٤٤، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٠، وعنه نقل المصنف. ووقع في الأصل و(م) وحاشية الشهاب: عوف بن جميل، وهو تصحيف. وعوف بن أبي جميلة هو أبو سهل البصري الحافظ، وثَّقه غير واحد، وفيه تشيع، حدث عن أبي العالية وابن سيرين وغيرهما، وروى عنه شعبة وابن المبارك وغندر، توفي سنة (١٤٦هـ). السير ٦/ ٣٨٣.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥١، والمحرر الوجيز ٣/ ١١٤، والبحر ٥/ ١٤٤.

(٤) في الأصل: للزرع.

والظاهرُ أنَّ هذا من التشبيه لذكر الطرفَين فيه، فإنَّ المحذوف في قوَّة المذكور[١].

وجوِّز أنْ يكون هناك استعارةٌ مصرِّحة، والأصل: جعلنا نباتَها هالكاً، فشُبِّه الهالك بالحصيد وأُقيمَ اسمُ المشبَّه به مقامَه، ولا ينافيه تقديرُ المضاف كما تُوهِّم؛ لأنَّه لم يشبِّه الزرعَ بالحصيد بل الهالك به.

وذهب السكاكيُّ إلى أنَّ في الكلام استعارةً بالكناية، حيثُ شُبِّهَت الأرضُ المزَخْرَفةُ والمزيَّنةُ بالنبات الناضِرِ المونق الذي وَرَدَ عليه ما يُزيله ويُفنيه، وجُعِلَ الحصيدُ تَخْييلاً[٢]. ولا يخفَى بعدُه.

﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾ أي: كأنْ لم يَغْنَ نباتُها، أي: لم يمكُث ولم يَقُم، فـ «تَغْنَ» مِن غَني بالمكان: إذا أقامَ ومكَثَ فيه، ومنه قيل للمنزل: مغْنًى. وقد حُذفَ المضافُ في هذا وفيما قبله، فانقلَب الضميرُ المجرورُ منصوباً في أوَّلهما، ومرفوعاً مستتراً في الثاني، واختِيرَ الحَذْفُ للمبالغة، حيث أفادَ ظاهرُ الكلام جَعْلَ الأرضِ نفسِها حصيداً، وكأنَّها نفسَها لم تكن؛ لتغيُّرها بتغيُّر[٣] ما فيها، وقد عطَفَ بعضُهم عليهما «عليها» لما أنَّ التقدير فيه: على نباتها، فحذفَ المضاف وجرَّ الضمير بعلَى، وليس بالبعيد خلا أنَّ في كون الحذفِ للمبالغة أيضاً تردُّداً.

وقيل: ضمير «تَغْنَ» وما قبله يعودان على الزرع كما قيل في ضمير «عليها».

وقيل: يعودان على الأرض ولا حَذْفَ، بل يُجعل التجوُّز في الإسناد.

وأنت تعلم أنَّ إرجاع الضمائر كلِّها للأرض ولو مع ارتكاب التجوُّز في الإسناد أولَى من إرجاعها لغيرها كائناً ما كان.

نعم إنَّه لا يُمكن إرجاع الضمير إليها في قراءة الحسن: «يَغْنَ» بالياء التحتية[٤]،

---

(١) أي: شبَّه الزرع الهالك بما قطع وحصد من أصله، والجامع بينهما الذهاب من محلِّه. حاشية الشهاب ٥/ ٢٠.

(٢) مفتاح العلوم ص٣٨٨-٣٨٩، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ٢١. ووقع في (م): تخيلاً.

(٣) في الأصل: بتغيير.

(٤) الكشاف ٢/ ٢٣١، وهي في المحرر الوجيز ٢/ ١١٥ عن قتادة، وفي البحر ٥/ ١٤٤ عن الحسن وقتادة. ووقع في (م): يغنى.

وجَعْلُ ذلك من قبيل: ولا أرضَ أَبْقَلَ إبقالَها[1]، كما ترى، فينبغي أنْ يَرجع للنبات أو للزرع مثلاً. ومآلُ المعنى: كأنْ لم يكن نابتاً ﴿بِالْأَمْسِ﴾ أي: فيما قبلَ إتيانِ أمرنا بزمانٍ قريبٍ، فإنَّ الأمس مَثَلٌ في ذلك.

والجملةُ التشبيهية جُوِّز أن تكون في محلِّ النصب على أنَّها حالٌ، وأنْ تكونَ مستأنفةً لا محلَّ لها من الإعراب جواباً لسؤالٍ مقدَّر.

والممثَّلُ به في الآية ما يُفهم من الكلام ـ وهو زوالُ خُضرةِ النبات فجأةً وذهابُه حطاماً لم يَبْقَ له أثرٌ بعد ما كان غضًّا طريّاً قد التفَّ بعضُه ببعضٍ وازَّينت الأرضُ بألوانه حتى طمع الناس وظنُّوا أنَّه قد سَلِمَ من الجَوَائح ـ لا الماءُ وإنْ دخلته كافُ التشبيه؛ فإنَّه من التشبيه المركَّب، مع اشتمال الكلامِ نفسِه على أمورٍ حقيقيةٍ وأمور مجازيةٍ فيها من اللَّطافة ما لا يخفى.

وعن أبيٍّ أنَّه قرأ: «كأنْ لم تَغْنَ بالأمسِ وما أهلَكناها إلا بذنوبِ أهلها»[2].

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثْلَ ذلك التفصيلِ البديع ﴿نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي: القرآنية، التي من جملتها هذه الآيةُ الجليلةُ الشأنِ المنبِّهةُ على أحوال الحياةِ الدنيا، أي: نوضِّحها ونبينُها ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ في معانيها، ويقفون على حقائقها، وتخصيصُهم بالذِّكر لأنَّهم المنتفعون.

وجُوِّز أنْ يُراد بالآيات ما ذكر في أثناء التمثيل من الكائنات والفاسدات، وبتفصيلها تصريفُها على الترتيب المحكيِّ إيجاداً وإعداماً، فإنَّها آياتٌ وعلاماتٌ يَستدلُّ بها المتفكِّر فيها على أحوال الحياة الدنيا حالاً ومآلاً. والأولُ هو الظاهر.

وعن أبي مجلز أنَّه قال: كان مكتوباً إلى جَنْبِ هذه الآيةِ فمُحي: «ولو أنَّ لابنِ آدمَ واديَيْن مِن مالٍ لتمنَّى وادياً ثالثاً، ولا يُشبع نفسَ ابنِ آدمَ إلا التراب، ويتوبُ الله على مَن تاب»[3].

---

(١) وصدره: فلا مزنة وَدَقَتْ وَدْقَها، وهو في الكتاب ١/ ٤٦، والخزانة ١/ ٤٥، وسلف ٢/ ٢٣٩.

(٢) تفسير الطبري ١٢/ ١٥٢، والمحرر الوجيز ٢/ ١١٥، والبحر ٥/ ١٤٤.

(٣) جاء في هامش الأصل: أخرجه أبو الشيخ. اهـ. وقد عزاه السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٠٤ لابن المنذر وأبي الشيخ. وقوله: «لو أن لابن آدم واديين...» أخرجه البخاري =

﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ ترغيبٌ للناس في الحياة الأخروية الباقية إثْرَ ترغيبهم عن الحياة الدنيوية الفانية، أي: يدعو الناسَ جميعاً إلى الجنة حيث يأمرُهم بما يُفضي إليها، وسُمِّيت الجنة بذلك لسلامةِ أهلها عن كلِّ ألم وآفةٍ، أو لأنَّ الله تعالى يُسلِّم عليهم، أو لأنَّ خَزَنَتَها يقولون لهم: سلامٌ عليكم طبتُّم، أو لأنَّ بعضَهم يُسلِّم فيها على بعض ـ ف «السلام» إمَّا بمعنى السلامة أو بمعنى التسليم ـ أو لأنَّ السلام من أسمائه تعالى، ومعناه: هو الذي منه وبه السلامةُ، أو ذو السلامة عن جميع النقائص، فأُضيفَت إليه سبحانه للتشريف، كما في بيت الله تعالى للكعبة؛ ولأنَّه لا مُلكَ لغيره جلَّ شأنه فيها ظاهراً وباطناً، وللتنبيه على أنَّ مَن فيها سالمٌ عمَّا مرَّ للنظر إلى معنَى السلامة في أصله، ويدلُّ على قَصْدِه تخصيصُه بالإضافة إليه دونَ غيره من أسمائه تعالى.

﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ هدايتَه ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٥﴾ مُوْصِلٍ إلى تلك الدار، وهو الدِّينُ الحقُّ.

وفي الآية دلالةٌ على أنَّ الهداية غيرُ الدعوة إلى ذلك، وعلى أنَّ الأمر(١) مغايرٌ للإرادة، حيث عمَّم سبحانه الدعوةَ إذ حَذَف مفعولها، وخصَّ الهداية بالمشيئة المساويةِ للإرادة على المشهور إذ قيَّدها بها، وهو الذي ذَهَب إليه الجماعة.

وقال المعتزلة: إنَّ المراد بالهداية التوفيقُ والألطاف، ومغايرةُ الدعوة والأمرِ لذلك ظاهرةٌ، فإنَّ الكافر مأمورٌ وليس بموفَّق، وإنَّ «من يشاء» هو مَن عَلمَ سبحانه أنَّ اللطفَ يَنفعُ فيه؛ لأنَّ مشيئتَه تعالى شأنُه تابعةٌ للحكمة، فمَن عَلمَ أنَّه لا ينفع فيه اللطفُ لم يُوفِّقه ولم يَلطُف به؛ إذ التوفيق لمن عَلم الله تعالى أنَّه لا ينفعُه عَبثٌ، والحكمةُ منافيةٌ للعبث، فهو جلَّ وعلا يهدي مَن ينفعُه اللطف، وإن أراد اهتداءَ الكلِّ.

= (٦٤٣٦)، ومسلم (١٠٤٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرج نحوه البخاري أيضاً (٦٤٣٨) من حديث ابن الزبير رضي الله عنهما، و(٦٤٣٩) من حديث أنس رضي الله عنه. ثم أخرج البخاري (٦٤٤٠) من طريق أنس عن أبيٍّ قال: كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾.

(١) قوله: الأمر، مأخوذ من قوله: «يدعو»؛ لأن الدعاء يكون بالأمر. حاشية الشهاب ٥/ ٢١.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ أي: العملَ، بأنْ فَعَلوا المأمورَ به واجتنبوا المنهيَّ عنه، وفسَّر رسولُ الله ﷺ الإحسانَ بقوله عليه الصلاة والسلام: «أنْ تعبدَ الله تعالى كأنَّك تراه، فإنْ لم تكن تراه فإنَّه يراك»(١).

﴿الْحُسْنَىٰ﴾ أي: المنزلةُ الحسنَى وهي الجنة ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ وهي النظرُ إلى وجه ربِّهم الكريمِ جلَّ جلاله، وهو التفسيرُ المأثور عن أبي بكر وعليٍّ كرم الله تعالى وجهه وابنِ عباسٍ وحذيفةَ وابن مسعود وأبي موسى الأشعريِّ وخَلْقٍ آخرين، ورُوي مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ من طُرقٍ شتَّى، وقد أخرج الطيالسيُّ وأحمدُ ومسلم والترمذيُّ وابن ماجه وابنُ جرير وابنُ المنذر وابنُ أبي حاتم وابن خزيمة وابن حبان وأبو الشيخ، والدارقطنيُّ في «الرؤية»، وابنُ مردويه، والبيهقيُّ في «الأسماء والصفات»، عن صهيب: أَنَّ رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا) إلخ فقال: «إذا دخَل أهلُ الجنةِ الجنةَ وأهلُ النارِ النارَ نادَى منادٍ: يا أهلَ الجنة إنَّ لكم عند الله تعالى موعداً يُريد أنْ يُنجِزَكموه. فيقولون: وما هو؟ أَلَم يُثَقِّلْ موازينَنا ويُبيِّضْ وجوهَنا ويُدخلنا الجنة ويُزَحْزِحْنا عن النار؟ قال: فيكشفُ لهم الحجابَ فَيَنظُرُونَ إليه سبحانه، فوالله ما أَعطاهم الله تعالى شيئاً أحبَّ إليهم من النَّظر إليه، ولا أقرَّ لأعيُنهم»(٢).

فحكايةُ هذا التفسير بِقيلَ ـ كما فَعَل البيضاويُّ عفَا الله تعالى عنه(٣) ـ مما لا ينبغي.

وقولُ الزمخشريِّ عامَلَه الله تعالى بعَدْلِه: إنَّ الحديث مرقوع(٤) ـ بالقاف ـ أي: مفترًى؛ لا يَصْدُر إلا عن رَقيع، فإنَّه متَّفقٌ على صحته، وقد أخرجه حُفَّاظٌ ليس فيهم ما يقال.

---

(١) قطعة من حديث جبريل الطويل، أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٨). وسلف ٢/ ٢٩٥.
(٢) مسند الطيالسي (١٣١٥)، ومسند أحمد (١٨٩٣٥)، وصحيح مسلم (١٨١): (٢٩٨)، وسنن الترمذي (٢٥٥٢)، وسنن ابن ماجه (١٨٧) واللفظ له، وتفسير الطبري ١٢/ ١٦٠، وتفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٤٥، والتوحيد لابن خزيمة ص١٨٠، وصحيح ابن حبان (٧٤٤١)، والرؤية (١٥٥)، والأسماء والصفات (٦٦٥)، وعزاه لابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه السيوطي في الدر ٣/ ٣٠٥، وعنه نقل المصنف.
(٣) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ٢٢.
(٤) الكشاف ٢/ ٢٣٤، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٢، وعنه نقل المصنف، وجاء في مطبوع الكشاف: مرفوع.

نعم جاء في تفسير ذلك غيرُ ما ذُكر، لكنْ ليس في هذه الدرجة من الصحة، ولا رُفعَ فيه صريحاً، فقد أخرج ابن جرير[(١)] عن مجاهد قال: الزيادةُ المغفرةُ والرضوان.

وأخرَجَ عن الحسن: أنَّها تضعيفُ الحسنةِ بعشر أمثالها إلى سبعِ مئةِ ضِعْفٍ.

وأخرج عن ابن زيد: أنَّها أنْ لا يُحاسبَهم على ما أعطاهم في الدنيا.

وأخرج عن الحكم بنِ عتيبة عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه أنَّها غرفةٌ مِن لؤلؤةٍ واحدةٍ لها أربعةُ أبوابٍ. وتعقَّبه ابن الجوزي بأنَّه لا يصحُّ[(٢)].

وقيل: الزيادةُ أنْ تمرَّ السحابةُ بهم فتقول: ما تريدون أن[(٣)] أمطركم؟ فلا يريدون شيئاً إلَّا أَمطرتهم.

وجمع بعضُهم بينَ الروايات بأنَّه لا مانعَ من أنْ يَمُنَّ الله تعالى عليهم بكلِّ ما ذُكر، ويَصدُق عليه أنَّه زيادةٌ على ما منَّ به عليهم من الجنة، وأُيِّد ذلك بما أخرجه سعيد بن منصور وابنُ المنذر والبيهقيُّ عن سفيان أنَّه قال: ليس في تفسير القرآن اختلافٌ إنما هو كلامٌ جامعٌ يُراد به هذا وهذا[(٤)].

والذي حَمَل الزمخشريَّ على عدم الاعتماد على الروايات الناطقةِ بِحَمْلِ الزيادة على رؤية الله تعالى زَعْمُه الفاسدُ كأصحابه أنَّ الله تعالى لا يُرى، وقد علمتَ منشأ ذلك الزعمِ، وقد ردَّه أهلُ السنَّة بوجوه.

﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي: لا يغشاها غَبَرَةٌ مّا فيها سوادٌ، ولا أثرُ هوانٍ مّا وكسوف بال، والمعنى: لا يَعْرِضُ لهم ما يَعْرِضُ لأهل النار، أو: لا يَعْرِضُ لهم ما يوجب ذلك من الحُزن وسوءِ الحال، والكلامُ على الأول حقيقةٌ

---

(١) في تفسيره ١٢/ ١٦٢-١٦٤.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢٤.

(٣) في الأصل و(م): أنا، والمثبت من تفسير الثعلبي ٥/ ١٣٠، والكشاف ٢/ ٢٣٤، وتفسير الرازي ١٧/ ٧٨، وتفسير القرطبي ١٠/ ٤٨٤.

(٤) سنن سعيد بن منصور (١٠٦١-تفسير)، وعزاه لابن المنذر والبيهقي في الرؤية السيوطي في الدر ٣/ ٣٠٦.

وعلى الثاني كنايةٌ؛ لأنَّ عدم غشيان ذلك لازمٌ لعدم غشيان ما يوجبهما، فذَكَر اللازمَ لينتقل منه إلى الملزوم، ورُجِّح هذا بأنَّه أَمدحُ، والمقصودُ بيانُ خُلوصِ نعيمهم من شوائب المكاره إثْرَ بيان ما منَّ سبحانه به عليهم من النعيم.

وقيل: إنَّ ذِكْر ذلك لتذكيرهم بما يُنقذهم منه، فإنَّهم إذا ذكروا ذلك زادَ ابتهاجُهم ومسرَّتُهم، كما أنَّ أهل النار إذا ذكروا ما فاتهم من النعيم ازداد غمُّهم وحسرتُهم.

وقيل: الغرضُ إدخالُ السرور عليهم بتذكير حالِ أعدائهم أهلِ النار، فإنَّ الإنسان متى علم أنَّ عدوَّه في الهوان وسوءِ الحال ازداد سروراً، وقد شاهدنا مَن يَكتفي بمضرَّةِ عدوِّه عن حصول المنفعة له، بل مَن يَسرُّه ضررُ عدوِّه وإنْ تضرَّر هو.

وتقديمُ المفعول على الفاعل للاهتمام ببيان أنَّ المَصُونَ من الرَّهَقِ أشرفُ أعضائهم، وللتشويق إلى المؤخَّر؛ ولأنَّ في الفاعل ضربُ تفصيل.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: المذكورون باعتبارِ اتِّصافهم بما تقدَّم ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ دائمون بلا زوالٍ، ويلزمُ ذلك عدمُ زوالِ نعيمها.

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: الشركَ والمعاصيَ، وهو مبتدأٌ بتقدير المضاف خبرُه قولُه سبحانه: ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ والباءُ متعلِّقةٌ بـ «جزاء»، وهو مصدرُ المبنيِّ للمفعول، لا اسمٌ للعِوَضِ كما في بعض الأوجُهِ الآتية على ما قيل، أي: جزاء الذين كسبوا السيئات أنْ تُجازَى سيئةٌ واحدةٌ بسيئةٍ مثلِها، على معنى عدمِ الزيادة بمقتضَى العدل، وإلا فلا مانعَ عن العفو بمقتضَى الكرم، لكنَّ ذلك في غير الشركِ.

ويجوزُ أنْ يكون «جزاءُ سيئةٍ بمثلها» جملةً من مبتدأ وخبر، هي خبرُ المبتدأ، وحينئذٍ لا حاجةَ إلى تقدير المضاف، لكنَّ العائد محذوفٌ، أي: جزاءُ سيئة منهم بمِثْلِها، على حدِّ: السَّمنُ مَنَوانِ[1] بدرهمٍ.

وأجاز أبو الفتح أنْ يكون «جزاء» مبتدأً محذوفَ الخبر[2]، أي: لهم جزاءُ سيئةٍ

---

(١) مثنّى مَنًا، وهو الكيل، أو الميزان الذي يوزن به. اللسان (منا).
(٢) سر صناعة الإعراب ١/ ١٤٠.

بِمِثْلِها، وحُذف «لهم» لقرينة «للذين أحسنوا»، والجملةُ خبرُ «الذين كسبوا»، وحينئذٍ لا حاجةَ إلى تقدير عائدٍ، كما لا حاجةَ إلى تقدير مضافٍ.

وجَوَّز غيرُ واحدٍ أنْ يكون «للذين» عطفاً على «الذين» المجرورِ الذي هو مع جاره خبرٌ، و«جزاء سيئة» معطوفٌ على «الحسنى» الذي هو المبتدأ، وفي ذلك العطفُ على معمولي عاملَين مختلفَين، وفيه مذاهب: المنعُ مطلقاً وهو مذهبُ سيبويه، والجوازُ مطلقاً وهو مذهبُ الفرَّاء، والتفصيلُ بين أنْ يتقدَّم المجرورُ نحو: في الدار زيدٌ والحجرةِ عمرٌو، فيجوزُ، أوْ لا فيمتنعُ، والمانعون يحملون نحوَ هذا المثالِ على إضمار الجارِّ، ويجعلونه مطَّرداً كقوله:

أكلَّ امرئٍ تَحسبينَ امْرَأً ونارٍ تَوقَّدُ بالليلِ ناراً[1]

وقيل: هو مبتدأٌ والخبرُ جملةُ «ما لهم من الله من عاصم» أو «كأنما أُغشيت» أو «أولئك أصحابُ النار» وما في البَيْنِ اعتراضٌ. وفي تعدُّدِ الاعتراض خلافٌ بين النحْويين، و«جزاءُ سيئة» حينئذٍ مبتدأٌ، و«بمثلها» متعلِّقٌ به، والخبر محذوفٌ، أي: واقعٌ، أو «بمثلها»هو الخبر على أنَّ الباء زائدةٌ، أو الجارُّ والمجرورُ في موضع الخبر على أنَّ الباء غيرُ زائدةٍ، والأَوْلَى تقديرُ المتعلَّق خاصّاً كـ: مقدَّرٌ، ويصحُّ تقديره عامّاً، والقولُ بأنَّه لا معنى له حاصل وهم ظاهر.

وأيّاً ما كان لا دلالة في الآية على أنَّ الزيادة هي الفَضْلُ دون الرؤية، وقد علمتَ أنَّ تفسيرها بذلك هو المأثورُ عن النبي ﷺ وجملةٍ من السَّلَف الصالح، فلا ينبغي العدولُ عنه لِمَا يتراءى منه خلافُه، لاسيما وقد أتَى الإمام[2] وغيرُه بدلائلَ جَمَّةٍ على أنَّ المراد بها ذلك.

ولم يؤتَ بالآيتَين على أسلوبٍ واحدٍ لمراعاة ما بين الفريقَين من كمال التنائي والتبايُن، وإيرادُ الكَسْبِ للإيذان بأنَّ ذلك إنَّما هو بسوء صنيعهم وجنايتهم على أنفسهم.

﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: هوانٌ عظيم، فالتنوين هنا للتفخيم، على عكس التنوين

---

(١) البيت لأبي دؤاد الإيادي، كما في الكتاب ١/٦٦، والأصمعيات ص١٩١.

(٢) في تفسيره ١٧/٧٧.

فيما قبلُ كما أشرنا إليه، وفي إسنادِ الرَّهقِ إلى أنفسهم دون وجوههم إيذانٌ بأنَّها محيطةٌ بهم غاشيةٌ لهم.

وقرئ: «يرهقهم» بالياء التحتانية[1] لكون الفاعل ظاهراً وتأنيثه غير حقيقيٍّ. وقيل: التذكير باعتبار أنَّ المراد من الذلة سَبَبُها مجازاً. ولا يُحتاجُ إليه كما لا يخفَى؛ لأنَّ التذكير في مَجازيِّ التأنيث ـ لاسيما المفصول ـ كثيرٌ جدّاً.

والواو على ما قال غيرُ واحدٍ للعطف، وما بعدَه معطوفٌ على «كسبوا». وضعَّفه أبو البقاء بأنَّ المستَقْبَلَ لا يُعطف على الماضي[2]. وأُجيبَ بالمنع. وفي العطفِ هاهنا ما لا يخفَى من المبالغة، حيث أخرجَ نسبة الرَّهق إليهم يومَ القيامة مخرجَ المعلوم، حيث جعلَ ذلك بواسطة العطف صلةَ الموصول.

وقيل: إنَّه عطفٌ على ما قبله بحسب المعنى، كأنَّه قيل: والذين كسبوا السيئات تُجازَى سيئتُهم بمثلها وتَرهقُهم ذلَّةٌ، ولعله أولَى من الأول.

وأمَّا جَعْلُ الواو حاليةً، والجملةُ في موضع الحال من ضمير «كسبوا»، فلا يخفَى حالُه.

﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي: ما لهم أحدٌ يعصمُهم ويمنَعُهم من سخط الله تعالى وعذابه، فـ «مِن» الأولى متعلِّقةٌ بـ «عاصم»، والكلام على حذف مضافٍ، و«مِن» الثانيةُ زائدةٌ لتعميم النفي.

أو: ما لهم مِن جهته وعنده تعالى مَن يعصمُهم كما يكون للمؤمنين، فـ «مِن» الأولى متعلِّقةٌ بمحذوفٍ وقع حالاً من «عاصم».

وقيل: متعلِّقةٌ بالاستقرار المفهوم من الظرف، وليس في الكلام مضافٌ محذوف. و«مِن» الثانية على حالها.

والجملةُ مستأنفةٌ أو حالٌ من ضمير «تَرهَقُهم». وفي نفي العاصم من المبالغة في نفي العصمة ما لا يخفَى.

---

(١) القراءات الشاذة ص٥٧، والبحر ٥/ ١٤٨.
(٢) الإملاء ٣/ ٢٢٧.

﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ أي: كأنما أُلبِستْ ذلك؛ لِفَرْطِ سوادِها وظُلمتها، والجارُّ والمجرورُ صفةُ «قِطَعاً»، وقولُه سبحانه: ﴿مُظۡلِمًاۚ﴾ حالٌ من «الليل»، والعاملُ فيه متعلَّق الجارِّ والمجرورِ فعلاً كان أو اسماً.

وجوَّز أبو البقاء[1] كونَه حالاً من «قطعاً» أو صفةً له، وكان الواجبُ الجمعُ لأنَّ «قطعاً» جَمْعُ قطعةٍ، إلَّا أنَّه أُفردَتْ حالُه أو صفتُه لتأويل ذلك بكثير. ولا يخفَى أنَّه تكلُّفٌ مستغنًى عنه.

والظاهرُ أنَّ «مِن» للتبعيض، وقال بعضُ المحققين: للَّيل[2] معنَيان: زمانٌ تخفَى فيه الشمسُ قليلاً أو كثيراً، كما يُقال: دخَلَ الليل، والآن ليلٌ، وما بين غروب الشمس إلى طلوعها أو قربها من الطلوع، فـ «مِن» إمَّا تبعيضيةٌ على الأول، أو بيانية[3] على الثاني.

وجوَّز الزمخشريُّ أنْ يكون العاملُ في الحال «أغشيت» مِن قِبَلِ أنَّ «من الليل» صفةٌ لـ «قطعاً» فكان إفضاؤه إلى الموصوف كإفضائه إلى الصفة[4].

قال صاحب «التقريب»: وفيه نظر؛ لأنَّ «من الليل» ليس صلةَ «أُغْشِيَتْ» حتى يكون عاملاً في المجرور، بل التقديرُ أنَّه صفة، فيكون العاملُ فيه الاستقرار، وأيضاً الصفة «من الليل» وذو الحال هو «الليل»، فلا يكونُ «أُغشيَتْ» عاملاً في ذي الحال، مع أنَّه المقصود. وقد يقال: إنَّ «مِن» للتبيين، والتقدير: كائنةً من الليل، فـ «أُغشيت» عاملٌ في الصفة، وهي كائنة، فكأنَّه عاملٌ في «الليل»، وهو مبنيٌّ على أنَّ العاملَ في العامل في الشيء عاملٌ فيه، وهو فاسد. فالوجه أنْ يقال: إنَّ «مِن» للتبعيض، أي: بعضَ الليل، ويكون بدلاً مِن «قطعاً»، ويجعل «مظلماً» حالاً مِن البعض لا من «الليل»، فيكون العاملُ في ذي الحال «أُغشيتْ».

ولا يخفَى أنَّه وجْهٌ أَغشَى قطعاً من ليلِ التكلُّف والتعسُّف مظلماً.

---

(١) في الإملاء ٣/ ٢٢٨.

(٢) في (م): لليل.

(٣) في الأصل و(م): وبيانية، والمثبت من حاشية الشهاب ٥/ ٢٤.

(٤) الكشاف ٢/ ٢٣٤-٢٣٥.

وأجاب الإمام أمينُ الدين[1] بأنَّ نسبةَ «أُغشيت» إلى «قطعاً» إنما هي باعتبارِ ذاتها المبهَمةِ المفسَّرة بالليل، لا باعتبار مفهوم القطع في نفسها، وإنَّما ذُكرَتْ لبيان مقدار ما أُغشيَتْ به وجوهُهم، وهو الليلُ مظلماً، فإفضاء الفعل إلى «قِطَعاً» باعتبارِ ما لا يتم معناها المرادُ إلَّا به كإفضاء الفعل إليه، كما إذا قيل: اشتريتُ أرطالاً من الزيت صافياً، فإنَّ المشتَرَى فيه الزيتُ، والأرطالُ مُبيِّنةٌ لمقدار ما اشتُرِيَ صافياً، فالعاملُ في الحال إنَّما هو العامل اللَّفظيُّ، ولا يُلاحَظ معنى الفعل في الجارِّ والمجرور مِن جهة العمل لغلبة العامل اللفظيِّ عليه بالظهور. ولا يخفَى ما فيه.

وقال في «الكشف»: إنَّ الزمخشريَّ ذهب إلى أنَّ «أُغشيَت» له اتِّصالٌ بقوله تعالى: (مِّنَ ٱلَّيۡلِ) مِن قِبَلِ أنَّ الصفة والموصوفَ متَّحدان، لاسيما والقِطَعُ بعضُ الليل، فجاز أنْ يكون عاملاً في الصفة بذلك الاعتبار، وكأنَّه قيل: أُغشيت الليلَ مظلماً، وهذا كما جوِّز في نحو: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا﴾ [الحجر: ٤٧] أنْ يكون حالاً من الضمير باعتبارِ اتِّحاده بالمضاف، وكأنه قيل: ونزعنا ما فيهم[2] من غلٍّ إخواناً، وكما جوِّز في ﴿مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ﴾ [البقرة: ١٣٥] لأنَّ الملة كالجزء كأنه قيل: اتَّبعوا إبراهيم حنيفاً، وهذا الذي ذهب إليه الزمخشريُّ، وهو سرُّ هذا الموضع، لا ما طوَّله كثيرون، لاسيما حمل «مِن» على التجريد، فإنَّه مع أنَّ المعنى على التبعيض لا البيان ـ وليس كلُّ بيانٍ تجريداً ـ لا يتمُّ مقصودُه. انتهى.

وقد عرَّض في ذلك بشيخه العلامة الطيبي، فإنَّه عليه الرحمة قد تكلَّف ما تكلَّف، والإنصافُ أنَّ ما جوَّزَه الزمخشريُّ هنا مما لا ينبغي، والسعيُ في إصلاحه مع وجود الوجه الواضح الذي لا تَرْهَقُه قَتَرةٌ يقربُ مِن أنْ يكون عبثاً.

وقرأ ابن كثير والكسائي ويعقوب وسهل: «قِطْعاً» بسكون الطاء[3]، وهو اسمٌ

---

(١) محمد بن الحسين البخاري الشهير بأمير شاه، نزيل مكة، صنف التعليقة على تفسير البيضاوي وهي إلى سورة الملك، وتوفي قبل تكميلها سنة (٨٧٢هـ). طبقات المفسرين للأدرنه وي ص٣٣٨-٣٣٩، مع الإشارة إلى أنه وقع في غلاف طبقات المفسرين: الأدنه وي، دون الراء، مع أنه ذُكر في صور مخطوط الكتاب أنه من بلدة: أدرنة. فليحقَّق!

(٢) في الأصل و(م): ما في صدورهم، والمثبت من حاشية الشهاب ٥/ ٢٣.

(٣) التيسير ص١٢١، والنشر ٢/ ٢٨٣، عن ابن كثير والكسائي ويعقوب، ومجمع البيان ١١/ ٣٧ عن سهل.

مفردٌ معناه: طائفة من الليل، أو ظلمة آخره، أو اسمُ جنسٍ لقطعة، وأنشدوا:

افتحي البابَ وانظري في النجوم كم علينا من قِطْعِ ليلٍ بهيم(١)

وعلى هذا يجوز أنْ يكون «مظلماً» صفةً له، أو حالاً منه بلا تكلُّفِ تأويل.

وقرئ: «كأنَّما يَغشَى وجوهَهم قِطْعٌ من الليل مظلمٌ»(٢) والكلامُ فيه ظاهرٌ، والجملةُ كالتي قبلها مستأنفةٌ أو حالٌ من ضمير «ترهَقُهم».

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الموصوفون بما ذكر من الصفات الذميمة ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧﴾ لا يخرجون منها أبداً.

واحتجَّت الوعيدية(٣) بهذه الآية على قولهم الفاسد بخلود أهلِ الكبائر.

وأُجيبَ بأنَّ السيئات شاملةٌ للكفر وسائرِ المعاصي، وقد قامت الأدلَّة على أنَّه لا خلودَ لأصحاب المعاصي، فخُصِّصَت(٤) الآيةُ بمَن عَدَاهم.

وأيضاً قد يُقال: إنَّهم داخلون في «الذين أحسنوا»، بناءً على ما أخرج ابن جرير وابنُ المنذر وغيرُهما عن ابن عباس، وأبو الشيخ عن قتادةَ، أنَّهم الذين شهدوا أنْ لا إله إلا الله(٥)، أي: المؤمنون مطلقاً، فلا يدخلون في القسم الآخر لتنافي الحُكْمَين.

وقيل: إنَّ «أل» في «السيئات» للاستغراق، فالمراد: مَن عَمِلَ جميع ذلك، والقولُ بخلوده في النار مجمَعٌ عليه. وليس بذاك.

﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ مَسوقٌ لبيان بعضٍ آخرَ مِن أحوالهم الفظيعة.

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٩٤، والدر المصون ٦/ ١٨٧، واللسان (قطع).

(٢) القراءات الشاذة ص٥٧، وتفسير الطبري ١٢/ ١٦٩، والبحر ٥/ ١٥٠ عن أبيٍّ ﷺ. قال أبو حيان: وقرأ ابن أبي عبلة كذلك إلا أنه فتح الطاء.

(٣) نسبة إلى الوعيد؛ لتمسكهم بظاهر آيات الوعيد والأحاديث الواردة فيه على خلود الفسَّاق في النار، وهي تشمل المعتزلة والخوارج. ينظر حاشية الشهاب ١/ ٢٥٨.

(٤) في الأصل: فخصت، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٥/ ٢٤، والكلام منه.

(٥) تفسير الطبري ١٢/ ١٦٤، وعزاه لابن المنذر، وكذا خبر قتادة لأبي الشيخ، السيوطي في الدر ٣/ ٣٠٦.

وتأخيرُه في الذكر مع تقدُّمه في الوجود على بعضِ أحوالهم المحكية سابقاً ـ كما قال بعضُ المحقِّقين ـ للإيذان باستقلال كلٍّ مِن السابق واللاحق بالاعتبار، ولو رُوعي الترتيب الخارجيُّ لعُدَّ الكلُّ شيئاً واحداً، ولذلك فُصِلَ عما قبله.

وزعم الطبرسيُّ أنَّه تعالى لمَّا قدَّم ذِكْرَ الجزاء بيَّن بهذا وقتَ ذلك[1]، وعليه فالآيةُ متَّصلةٌ بما ذُكر آنفاً، لكنْ لا يخفَى أنَّ ذلك لم يخرج مخرجَ البيان، وأولَى منه أنْ يقال: وجْهُ اتِّصاله بما قبله أنَّ فيه تأكيداً لقوله سبحانه: ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ مِن حيث دلالتُه على عدم نفْع الشركاء لهم.

و«يوم» منصوبٌ بفعلٍ مقدَّرٍ، ك: ذَكِّرهم وخَوِّفهم، وضمير «نحشرهم» لكِلَا الفريقَين من الذين أحسنوا[2] والذين كسبوا السيئات؛ لأنَّه المتبادر من قوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾، ومن إفراد الفريقِ الثاني بالذكر في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ أي: للمشركين من بينهم، ولأنَّ توبيخَهم وتهديدَهم على رؤوس الأشهاد أفظعُ، والإخبارُ بحشر الكلِّ في تهويل اليوم أَدْخَلُ، وإلى هذا ذهب القاضي البيضاوي[3] وغيرُه، وكون المراد[4] بالفريقَين فريقَي الكفار والمشركين خلافُ الظاهر جداً.

وقيل: الضمير للفريق الثاني خاصَّةً، فيكونُ «الذين أشركوا» مِن وضع الموصول موضع الضمير، والنكتةُ في تخصيص وصْفِ إشراكهم في حيِّز الصلة من بين سائرِ ما اكتسبوه من السيئاتِ ابتناءُ التوبيخ والتقريع عليه، مع ما فيه من الإيذان بكونه معظمَ جناياتهم وعُمدةَ سيئاتهم، وهو السرُّ في الإظهار في مقام الإضمار على القول الأخير.

﴿مَكَانَكُمْ﴾ ظرفٌ متعلِّقٌ بفعلٍ حُذف فسَدَّ هو مَسَدَّه، وهو مضافٌ إلى الكاف، والميمُ علامة الجمع، أي: الزموا مكانكم. والمرادُ انتظروا حتى تَنظروا ما يُفعلُ بكم. وعن أبي علي الفارسيِّ أن «مكان» اسمُ فعلٍ، وحركتُه حركةُ بناءٍ. وهل هو

---

(١) مجمع البيان ١١/ ٤١.
(٢) وقع بعدها في الأصل و(م): الحسنى، وهو سهو، والمثبت من تفسير أبي السعود ٤/ ١٣٩، والكلام منه.
(٣) في تفسيره مع حاشية الشهاب ٥/ ٢٤.
(٤) في (م): مراده.

اسمُ فعلٍ لِالْـزَمْ أو لاثْبُتْ؟ ظاهرُ كلام بعضِهم الأول، والمنقولُ عن «شرح التسهيل» الثاني؛ لأنَّه على الأول يلزم أنْ يكون متعدِّياً كـ: الزم، مع أنَّه لازمٌ. وأُجيب بمنع اللزوم، وقال السفاقسيُّ: في كلام الجوهريِّ[1] ما يدلُّ على أنَّ «الزم» يكون لازماً ومتعدِّياً[2]، فلعلَّ ما هو اسمٌ له اللازمُ.

وذكر الكوفيون أنَّه يكون متعدِّياً، وسمعوا من العرب: مكانك زيداً، أي: انتظره.

واختار الدماميني في «شرح التسهيل» عَدَم كونه اسمَ فعلٍ، فقال: لا أدري ما الداعي إلى جَعْلِ هذا الظَّرفِ اسمَ فعلٍ، إمَّا لازماً وإمَّا متعدياً، وهلّا جعلوه ظرفاً على بابه ولم يُخرجوه عن أصله، أي: اثبت مكانك، أو: انتظر مكانك. وإنَّما يَحسُن دعوَى اسمِ الفعل حيث لا يُمكن الجمعُ بين ذلك الاسمِ وذلك الفعل، نحو: صه وعليك وإليك، وأمَّا إذا أمكن فلا، كـ: وراءك وأمامكَ[3]. وفيه منعٌ ظاهر.

وقوله تعالى: ﴿أَنتُمْ﴾ توكيدٌ للضمير المنتقل إلى الظرف من عامله على القول الأوَّل، وللضمير المستتر في اسم الفعل على القول الثاني، وقوله سبحانه: ﴿وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ عطفٌ على ذلك.

وقيل: إنَّ «أنتم» مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ، أي: مُهانون أو مَجزيُّون، وهو خلافُ الظاهر مع ما فيه من تفكيك النظم؛ قيل: ولأنَّه يأباه قراءةُ: «وشركاءَكم» بالنصب[4]، إذ يصيرُ حينئذٍ مثل: كلُّ رجلٍ وضيعته[5]، ومثلُه لا يصحُّ فيه ذلك لعُدْمِ ما يكون عاملاً فيه، والعاملُ على التوجيه الأول ظاهرٌ لمكان «مكانكم».

---

(١) في الصحاح (لزم).

(٢) في (م): معتدياً، وهو تصحيف.

(٣) حاشية الشهاب ٥/ ٢٤.

(٤) الكشاف ٢/ ٢٣٥، والبحر ٥/ ١٥٢.

(٥) قال أبو حيان في البحر ٥/ ١٥٢: وضيعته بالرفع، ولا يجوز فيه النصب. اهـ. وهو- كما في شرح الألفية لابن عقيل ١/ ٢٥٣ - معطوف على «كل»، والخبر محذوف تقديره: مقترنان، وقيل: هذا كلام تام لا يحتاج إلى خبر؛ لأن المعنى: كلُّ رجل مع ضيعتِه.

﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي: ففرَّقنا، وهو مِن زِلْتُ الشيءَ عن مكانه أَزيلُه، أي: أَزَلتُه، والتضعيفُ للتكثير لا للتعدية، وهو يائيٌّ ووزنُه فعَّل بدليل زايَلَ، وقد قرئ به[١]، وهو بمعناه نحو: كلَّمتُه وكالمتُه، و: صَعَّر خدَّه وصاعَرَ خدَّه.

وقال أبو البقاء: إنَّه واويٌّ؛ لأنَّه مِن زال يَزول، وإنَّما قُلبت الواو ياءً لأنَّه فَيْعَلَ[٢].

والأول أصحُّ لِمَا علمتَ، ولأنَّ مصدره التَّزييل لا الزيولة، مع أنَّ فعَّل أكثرُ من فَيْعَلَ.

ونصب «بين» على الظرفية لا على أنَّه مفعولٌ به كما تُوُهِّم، والمراد بالتفريق: قطْعُ الأقران والوُصَلِ التي كانت بينهم وبين شركائهم[٣] في الدنيا.

وقيل: التفريقُ الجسمانيُّ، وظاهرُ النظم الجليل لا يُساعده.

والعطفُ على «نقول»، وإيثارُ صيغة الماضي للدلالة على التحقُّق؛ لزيادة التوبيخ والتحسير، والفاء للدلالة[٤] على وقوع التزييل ومَباديهِ عقيبَ الخطاب من غير مُهْلَةٍ[٥]، إيذاناً بكمالِ رَخَاوةِ ما بين الفريقَين من العلاقة والوُصْلةِ.

وقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾ عطفٌ على ما قبله، وجوِّز أنْ يكون في موضع الحال بتقدير «قد» أو بدونها على الخلاف، والإضافةُ باعتبارِ أنَّ الكفار هم الذين اتَّخذوهم شركاء لله سبحانه وتعالى.

وقيل: لأنَّهم جعلوا لهم نصيباً من أموالهم، فصيَّروهم شركاء لأنفسهم في ذلك.

والمراد بهؤلاء الشركاء؛ قيل: الأصنام؛ فإنَّ أهل مكة إنَّما كانوا يعبدونها، وهم المعنيُّون بأكثر هذه الآيات، ونسبةُ القول لها غيرُ بعيد من قُدرته سبحانه، فيُنطقُها الله الذي أنطق كلَّ شيءٍ في ذلك الموقف، فتقول لهم: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا

---

(١) أي: «فزايلنا»، وهي في معاني القرآن للفراء ١/ ٤٦٢، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٢.
(٢) الإملاء ٣/ ٢٢٨.
(٣) في (م): الشركاء.
(٤) في (م): الدلالة، وهو تصحيف. والكلام من تفسير أبي السعود ٤/ ١٣٩.
(٥) في (م): مهملة، وهو تصحيف.

تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ والمراد من ذلك تَبرِّيهم من عبادتهم وأنَّهم إنَّما عَبدوا في الحقيقة أهواءَهم الداعيةَ لهم، وما أعظمَ هذا مكانَ الشفاعةِ التي كانوا يتوقَّعونها منهم!

وقيل: المراد بهم الملائكةُ والمسيحُ عليهم السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠]. وقوله سبحانه: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ﴾ [المائدة: ١١٦] الآيةَ، والمرادُ من ذلك القولِ ما أُريدَ منه أولاً أيضاً؛ لأنَّ نَفْيَ العبادة لا يصحُّ لثبوتها في الواقع، والكذبُ لا يقعُ يومَ القيامة[1] ممن كان.

وقيل: إنَّ قول الشركاءِ مُجرًى على حقيقته، بناءً على أنَّ ذلك الموقف موقفُ الدهشة والحيرة، فذلك الكذب يكونُ جارياً مجرَى كذب الصبيان والمجانين المدهوشين.

ويمكن أنْ يقال أيضاً: إنَّهم ما أقاموا لأعمال الكفار وَزْناً، وجعلوها لبطلانها كالعدم، فلذا نفَوا عبادتَهم إياهم.

أو يقال: إنْ المشركين لمَّا تخيَّلوا فيما عبدوه أوصافاً كثيرةً غيرَ موجودةٍ فيه في نفس الأمر، كانوا في الحقيقة إنَّما عبدوا ذواتٍ موصوفةً بتلك الصفاتِ، ولمَّا كانت ذواتُ الشركاء خاليةً عن تلك الصفاتِ صَدَق أنْ يقال: إنَّ المشركين ما عبدوا الشركاء، وهذا أَولَى من الأوَّلَين، بل لا يكاد يُلتفَتُ إليهما.

وكأنَّ حاصل المعنى عليه: إنَّكم عبدتُم مَن زَعمتُم أنه يَقدرُ على الشفاعة لكم وتخليصِكم من العذاب، وأنه موصوفٌ بكَيتَ وكيتَ، فاطلبوه فإنَّا لسنا كذلك.

والمراد من ذلك قَطْعُ عُرَى أطماعهم، وإيقاعُهم في اليأس الكُلِّي من حصول ما كانوا يرجونه ويعتقدونه فيهم، ولعل اليأسَ كان حاصلاً لهم من حين الموتِ والابتلاء بالعذاب، ولكنْ يحصل بما ذُكرَ مرتبةٌ فوق تلك المرتبة.

وقيل: المراد بهم الشياطينُ، وقَطْعُ الوُصَل عليه من الجانبَين لا من جانب العَبَدةِ فقط كما يقتضيه ما قبلُ، والمرادُ من قولهم ذلك على طرز ما تقدَّم.

---

(١) في (م): في القيامة.

وأُورِدَ على القول بأنَّ المراد الملائكةُ والمسيحُ عليهم السلام بأنَّه لا يناسب قوله سبحانه: (مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ) حيث إنَّ المرادَ منه الوعيدُ والتهديدُ، وظاهرُ العطف انصرافُ ذلك إلى الشركاء أيضاً، وتهديدُ أولئك الكرام عليهم الصلاة والسلام مما لا يكادُ يُقدَم على القول به.

واعتُرِضَ بأنَّ هذا مشتركُ الإلزام، فإنَّه يَرِدُ على القول الأول أيضاً، إذ لا معنًى للوعيد والتهديد في حقِّ الأصنام مع عدم صدور شيءٍ منها يوجب ذلك، ولا مخلِّص إلا بالتزامِ أنَّ التهديد والوعيدَ للمخاطبين فقط، أو للمجموع باعتبارهم.

وأُجيبَ بجواز كونِ تهديدِ الأصنامِ نظيرَ إدخالها النارَ مع عَبَدتِها كما يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٩٨]. وكذا قولُه سبحانه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة:٢٤] على ما عليه جمعٌ من المفسرين، ودعوى الفرق بينَ التهديد والإدخال في النار تحتاجُ إلى دليل.

نعم قالوا: يجبُ على القول بأنَّ المراد الملائكةُ عليهم السلام أنْ تُحملَ الغفلةُ في قوله سبحانه: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ على عدم الارتضاءِ لا على عدم الشعور؛ لأنَّ عدم شعورِ الملائكة بعبادتهم غيرُ ظاهرٍ، بل لو قيل بوجوب هذا الحمل على القول بأنَّ المراد المسيحُ عليه السلام أيضاً لم يَبعُد؛ لأنَّ عدم شعوره بعبادتهم مع أنَّه سينزل ويكسرُ الصليب كذلك، ولا يكاد يصحُّ الحمل على الظاهر إلا إذا كان المراد الأصنام، فإنَّ عدم شعورهم بذلك ظاهر.

وتُعقِّب بأنَّه لا دليلَ على شعور الملائكة عليهم السلام بعبادتهم ليُصْرَفَ له اللفظ عن حقيقته، وليس هؤلاء المعبودون هم الحفظةُ أو الكتبةُ بل ملائكةٌ آخرون، ولعلهم مُشغَلون بأداء ما أُمروا به عن الالتفات إلى ما في هذا العالَم، ونحن لا ندَّعي في الملائكة عليهم السلام ما يدَّعيه الفلاسفة، فإنَّهم الذين قالوا يومَ استُنبئوا عن الأسماء: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة:٣٢] وهذا جبريل

عليه السلام من أجلِّهم قَدْراً كان كثيراً ما يسألُه رسول الله ﷺ عن أشياءَ فيقول: لا أعلم وسوف أسألُ ربي[(١)].

وكذا لا دليلَ على شعور المسيح عليه السلام بعبادة هؤلاء المخاطَبين عند إيقاعها، وكونُه سينزلُ ويَكسرُ الصليبَ لا يستدعي الشعورَ بها كذلك كما لا يخفَى، وقد يُستأنَس لعدم شعورِه بما حكَى الله تعالى عنه في الجواب عن سؤاله له عليه السلام من قوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة:١١٧].

واعتُرض على القول الأخير بأنَّه لا يصحُّ مع هذا القولِ مطلقاً؛ لأنَّ الشياطين هم الذين زيَّنوا لهم هذه الشنيعة الشنعاء وأغروهم عليها، فكيف يتأتَّى القولُ بأنَّهم غافلون حقيقةً عنها، أو أنَّهم غيرُ مُرتَضين لها؟!

ولعل مَن ذهب إلى ذلك يلتزم الكذب ويقول بجواز وقوعه يوم القيامة.

وقيل: إنَّ القول الأول لا يصحُّ مع هذا القول أيضاً مطلقاً؛ لأنَّ الأوثان لا تَتَّصفُ بالغفلة حقيقةً؛ لأنَّها كما يفهم من «القاموس» اسمٌ لتَرْكِ الشيءِ وذهابِ القَلْبِ عنه إلى غيره[(٢)]، وهذا شأنُ ذوي القلوب، والأوثانُ ليسَت من ذلك. وكذا لا تتَّصف بها مجازاً عن عدم الارتضاء؛ إذ الظاهرُ أنَّ مرادهم من عَدَمِ الارْتِضاءِ السخطُ والكراهةُ، وظاهرٌ أنَّ الأوثان لا تتَّصف بسخطٍ ولا ارتضاء، إذ هما تابعان للإدراك ولا إدراكَ لها، ومَن أثبتَه للجمادات حسب عالمها فالأمرُ عنده سهلٌ، ومَن لا يثبته يقول: إنَّها مجازٌ عن عدم الشعور.

وقد يقال: إنَّ المراد بغفلتهم عن عبادة المشركين عدمُ طلبهم الاستعداديِّ لها، ويرجع ذلك بالآخرة إلى نفْي استحقاقِ العبادة عن أنفسهم، وإثباتِ الظلم لعابديهم. وحينئذٍ فالأظهرُ أنْ يُراد بالشركاء جميعُ ما عُبد مِن دون الله تعالى مِن ذَوي العقول وغيرهم، والكلُّ صادقٌ في قوله ذلك.

(١) ينظر حديث جبير بن مطعم عند أحمد (١٦٧٤٤).
(٢) ينظر القاموس (غفل) و(سهو).

وقد يُراد من عدم الطلب ما يشملُ عَدَمَ الطلب الحاليِّ والقالي، إذا اعتُبر كونُ القائل ممن يصحُّ نسبةُ ذلك له، كالملائكة عليهم السلام، وهذا الوجهُ لا يتوقَّف على شعور الشركاء بعبادتهم ولا على عدمه، فيجوز أنْ يكون لهم شعورٌ بذلك، ويجوزُ أنْ لا يكون لهم شعورٌ.

والظاهرُ أنَّ تفسير الغَفْلةِ بعدم الارْتِضاءِ المرادِ منهم[1] - على ما قيل - السخط والكراهة يستدعي الشعور، إذ كراهةُ شيءٍ[2] مع عدم الشعور به مما لا يكادُ يعقل، وإثباتُه لجميع الشركاء ولو إجمالاً في وقتٍ من الأوقات الدنيوية غيرُ مسلَّم. ولعل التعبير بالغفلة أكثرُ تهجيناً للمخاطَبين ولعبادتهم من التعبير بعدم الطلب مثلاً، فتأمل.

والباء في «بالله» صلةٌ و«شهيداً» تمييزٌ، و«إنْ» مخفَّفةٌ من «إنَّ» واللامُ هي الفارقةُ بين المخفَّفة والنافية، والظرفُ متعلِّقٌ بـ «غافلين»، والتقديمُ لرعاية الفاصلة، أي: كَفَى اللهُ شهيداً فإنَّه العليمُ الخبير المطَّلع على كنهِ الحال، إنَّا كنَّا غافلينَ عن عبادتكم. والظاهرُ من كلام بعض المحققين أنَّ «فكفَى» إلخ استشهادٌ على النفي السابق، لا على الإثبات اللاحق.

﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك المقام الدَّحضِ[3] والمكانِ الدَّهشِ، وهو مقامُ الحشر، فـ «هنالك» باقٍ على أصله وهو الظرفيةُ المكانية. وقيل: إنَّه استُعمل ظرفَ زمانٍ مجازاً، أي: في ذلك الوقت.

﴿تَبْلُوا﴾ أي: تختبر ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ مؤمنةً كانت أو كافرةً ﴿مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ من العمل، فتُعاين نَفْعَه وضُرَّه أتمَّ معاينةٍ.

وقرأ حمزة والكسائي: «تتلو»[4] من التلاوة بمعنى القراءة، والمراد قراءةُ صحفِ ما أسلفَت. وقيل: إنَّ ذلك كنايةٌ عن ظهور الأعمال.

---

(١) كذا في الأصل و(م)، ولعل الصواب: منه.
(٢) في (م): الشيء.
(٣) أي: الزَّلِق. القاموس (دحض).
(٤) التيسير ص١٢١، والنشر ٢/ ٢٨٧، وهي قراءة خلف من العشرة.

وجُوِّز أنْ يكون من التلوِّ على معنى أنَّ العمل يتجسَّم ويظهر، فيتبعه صاحبُه حتى يَرِدَ به الجنة أو النار، أو هو تمثيلٌ.

وقرأ عاصم في روايةٍ عنه: «نبلو» بالباء الموحَّدة والنون ونَصْبِ «كلَّ»[1] على أنَّ فاعل «نبلو» ضميرُه تعالى، و«كلَّ» مفعوله و«ما» بدلٌ منه بدلَ اشتمالٍ، والكلامُ استعارةٌ تمثيلية، أي: هنالك نُعامل كلَّ نفسٍ معاملةَ مَن يبلوها ويتعرَّفُ أحوالها من السعادة والشقاوة، باختبارِ ما أسلفَت من العمل.

ويجوز أنْ يُراد: نُصيب بالبلاء - أي: العذاب - كلَّ نفسٍ عاصيةٍ بسبب ما أسلَفَت من الشرِّ، فتكون «ما» منصوبةً بنَزْعِ الخافض وهو الباءُ السببية.

﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ عطفٌ على «زيَّلنا»، والضميرُ لـ «الذين أشركوا»، وما في البين اعتراضٌ في أثناء الحكاية مقرِّرٌ لمضمونها، والمعنى: رُدُّوا إلى جزائه وعقابه، أو إلى موضع ذلك، فالردُّ إمَّا معنويٌّ أو حسيٌّ.

وقال الإمام: المعنى: جُعِلُوا مُلْجَئين إلى الإقرار بألوهيته سبحانه وتعالى[2].

﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾ أي: ربُّهم ﴿ٱلْحَقِّ﴾ أي: المتحقِّقِ الصادقِ في[3] ربوبيته لا ما اتَّخذوه ربّاً باطلاً.

وقرئ: «الحقَّ» بالنصب[4] على المدح، والمرادُ به اللهُ تعالى وهو من أسمائه سبحانه، أو على المصدر المؤكِّد، والمرادُ به ما يُقابِل الباطل.

ولا منافاةَ بين هذه الآية وقولِه سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١] لاختلافِ معنَى المولى فيهما.

وأخرج أبو الشيخ[5] عن السدِّي أنَّ الأُولَى منسوخةٌ بالثانية، ولا يخفَى ما فيه.

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٣٥، والبحر ٥/ ١٥٣. وهو خلاف المشهور عن عاصم.
(٢) تفسير الرازي ١٧/ ٨٥.
(٣) قوله: في، ليس في الأصل.
(٤) الكشاف ٢/ ٢٣٥، والبحر ٥/ ١٥٣.
(٥) كما في الدر المنثور ٣/ ٣٠٧.

﴿وَضَلَّ﴾ أي: ضاع وذهب ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝٣٠﴾ من أنَّ آلهتهم تشفعُ لهم، أو ما كانوا يدَّعون أنَّها شركاءُ لله عزَّ وجلَّ. و«ما» يحتملُ أنْ تكون موصولةً وأنْ تكون مصدريةً. والجملةُ معطوفةٌ على قوله سبحانه: (وَرُدُّوٓا۟).

ومن الناس مَن جَعَلَها عَطْفاً على «زيَّلنا»، وجملةُ «ردُّوا» معطوفةٌ على جملة «تبلو» إلخ داخلةٌ في الاعتراض، وضميرُ الجمعِ للنفوس المدلول عليها بـ «كل نفس»، والعدولُ إلى الماضي للدلالة على التحقُّق والتقرُّر، وإيثارُ صيغةِ الجمع للإيذان بأنَّ ردَّهم إليه سبحانه يكونُ على طريق الاجتماع.

وما ذكرناه أَولَى لفظاً ومعنًى.

وتعقَّبَ شيخُ الإسلام جعْلَ الضمير للنفوس وعَطْفَ «رُدُّوا» على «تبلو» إلخ، بأنَّه لا يلائمه التعرُّض لوصفِ الحقِّيَّة في قوله سبحانه: (مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ)؛ فإنَّه للتعريض بالمردودين.

ثم قال: ولئن اكتُفي فيه بالتعريض ببعضهم، أو حَمْلِ «الحق» على معنَى العَدْلِ في الثواب والعقاب، أي: مع تفسير المولى بمتولِّي الأمور، فقولُه سبحانه: (وَضَلَّ) إلخ مما لا مجالَ فيه للتدارُكِ قطعاً، فإنَّ ما فيه من الضمائر الثلاثة للمشركين، فيلزمُ التفكيكُ حتماً، وتخصيصُ «كلَّ نفسٍ» بالنفوس المشركة مع عموم البلوى للكلِّ يأباه مقامُ تهويل المقامِ[1]. انتهى.

والظاهرُ أنَّه اعتَبر عطْفَ «وضلَّ عنهم» إلخ على «ردُّوا» مع رجوعِ ضميرِه للنفوس، وهو غيرُ ما ذكرناه فلا تغفل.

﴿قُلْ﴾ أي: لأولئك المشركين الذين حُكيَتْ أحوالهم، وبُيِّن ما يؤدِّي إليه أفعالُهم التي هي أفعى لهم، احتجاجاً على حقِّيَّة التوحيد وبطلانِ ما هم عليه من الإشراك:

﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: منهما جميعاً؛ فإنَّ الأرزاق تحصُلُ بأسبابٍ سماوية ـ كالمطر وحرارةِ الشمس المُنْضِجَةِ وغيرِ ذلك ـ وموادَّ أرضيةٍ، والأُولَى بمنزلة

---

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ١٤١.

الفاعل، والثانيةُ بمنزلةِ القابل. أو مِن كلِّ واحدٍ منهما بالاستقلال ـ كالأمطار والمنِّ والأغذيةِ الأرضية ـ تَوْسعةً عليكم[1]. فـ «مِن» على هذا لابتداء الغاية.

وقيل: هي لبيان «مَن» على تقدير المضاف، وقيل: تبعيضية على ذلك التقدير، أي: مِن أهل السماء والأرض.

﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ «أم» منقطعة بمعنى: بل، والإضرابُ انتقاليٌّ لا إبطاليٌّ وفيه تنبيهٌ على كفاية هذا الاستفهام فيما هو المقصود، أي: مَن يستطيع خلْقَهما وتسويَتَهما على هذه الفطرة العجيبة، ومَن وقَفَ على تشريحهما وَقَف على ما يبهر العقول، أو مَن يحفظُهما من الآفات مع كثرتها وسرعةِ انفعالهما عن أدنَى شيءٍ يُصيبهما، أو مَن يتصرَّف بهما إذهاباً وإبقاءً. والملك على كلٍّ مجاز.

قيل: والمعنى الأولُ أوفقُ لنظم الخالقيَّةِ مع الرازقية، كقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣].

﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ أي: ومَن يُنشئُ الحيوان من النطفة مثلاً، والنطفةَ من الحيوان. أو: مَن يُحيي أو يُميتُ، بأنْ يكونَ المرادُ بالإخراج التحصيلَ، من قولهم: الخارجُ كذا، أي: الحاصلُ، أي: مَن يُحصِّل الحيَّ مِن الميت بأنْ يُفيض عليه الحياةَ، ويُحصِّلُ الميتَ من الحي بأنْ يُفيضَ عليه الموت ويسلبَ[2] عنه الحياة، والمآلُ ما علمتَ.

ومِن الناس مَن فسَّر الحيَّ والميتَ هنا بالمؤمن والكافر. والأول أولَى.

﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: ومَن يَلي تدبيرَ أمرِ العالَم جميعاً، وهو تعميمٌ بعد تخصيصِ ما اندرج تحته مِن الأمور الظاهرة بالذكر، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الكلَّ منه سبحانه وإليه، وأنَّه لا يُمكنكم عِلْمُ تفاصيله.

﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ بلا تَلَعْثُمٍ ولا تأخيرٍ ﴿ٱللَّهُ﴾ إذ لا مجالَ للمكابرة والعناد في شيءٍ من ذلك؛ لغايةِ وضوحِهِ، والاسمُ الجليلُ مبتدأٌ والخبرُ محذوفٌ، أي: الله يفعلُ ما ذُكر من الأفاعيل لا غيرُه.

---

(١) قوله: توسعة عليكم، تعليل للمعنى الثاني، ينظر حاشية الشهاب ٥/ ٢٥.
(٢) في الأصل: أو يسلب.

هذا وربما يُستَدل بالآية على تقديرِ أنْ لا تكون «مِن» لابتداء الغاية على جواز أنْ يُقال لله[١] سبحانه: إنه مِن أهل السماء والأرض، وكونُ المراد هناك غيرَ الله تعالى لا يُناسب الجواب، ومَن لم يرَ الجوازَ تعنَّى.

ومَن رآه بناءً على ظواهر الآيات المفيدةِ لكونه تعالى في السماء، وقوله ﷺ في الجارية التي أشارت إلى السماء حين قيل لها: «أين الله؟»: «أَعْتِقْها فإنَّها مؤمنةٌ»[٢]، وإقرارِه حُصيناً حين قال له عليه الصلاة والسلام: «كم تعبدُ يا حُصين؟» فقال: سبعةً، ستةً في الأرض وواحداً[٣] في السماء. فقال ﷺ: «فَمَن الذي أَعدَدْتَه لرَغْبَتِكَ ورَهْبَتِكَ؟» فقال حُصينٌ: الإلهُ الذي في السماء[٤] = أَبقَى الآية على ما يقتضيه ظاهرُها.

وأنت تعلم أنَّه لم يَرِدْ صريحاً كونُه تعالى من أهل السماء والأرض وإنْ وَرَدَ كونُه جلَّ وعلا في السماء على المعنَى اللائق بجلاله جلَّ جلاله، فلا أَرَى جوازَ ذلك، ولا داعي لإخراج «مِن» عن ابتداء الغاية ليحتاج إلى العناية في ردِّ الاستدلالِ كما لا يخفَى.

وفي «الانتصاف»: إنَّ هذه الآية كافحةٌ لوجوه القدرية الزاعمين أنَّ الأرزاق مُنقسمةٌ، فمنها ما رزَقَه الله تعالى للعبد وهو الحلالُ، ومنها ما رزَقَه العبدُ لنفسه،

---

(١) في (م): الله.

(٢) أخرجه بهذه السياقة ـ يعني أنها أشارت إلى السماء ـ أحمد (٧٩٠٦) من طريق المسعودي، عن عون، عن أخيه عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن أبي هريرة ﷺ. وفي إسناده المسعودي، وقد اختلط. وأخرجه أحمد (٢٣٧٦٢)، ومسلم (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم مطولاً، وفيه: قال لها رسول الله ﷺ: «أين الله؟» قالت: في السماء. قال: «مَن أنا؟» قالت: أنت رسول الله. قال: «أعتقها...».

(٣) في (م): وواحد.

(٤) أخرجه الترمذي (٣٤٨٣) من حديث عمران بن حصين ﷺ، وحصين المذكور في الحديث هو والده، وزاد الترمذي قال: «يا حصين، أمَا إنك لو أسلمت علَّمتُك كلمتين تنفعانك» فلما أسلم حصين قال: يا رسول الله علمني الكلمتين اللتين وعدتني. فقال: «قل: اللهم ألهمني رشدي، وأعذني من شرِّ نفسي». قال الترمذي كما في تحفة الأشراف ٨/ ١٧٥، وتحفة الأحوذي ٩/ ٤٥٥: هذا حديث حسن غريب.

وهو الحرامُ، فهي ناعيةٌ عليهم هذا الشرك الخفيَّ لو سمعوا، ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٤٢][١].

وكذا ـ فيما قيل ـ تكفح[٢] في وجوه أناس يزعُمون أنَّ الذي يُدبِّر الأمرَ في كلِّ عصرٍ قُطْبُه، وهو عمادُ السماء عندهم، ولولاه لوقعَت على الأرض، فكأنِّي بك إذا سألتهم: مَن يُدبِّرُ الأمرَ؟ يقولون: القطبُ.

وقد يُعتذَر عنهم بأنَّ مُرادهم أنَّه المدبِّرُ بإذن الله تعالى. وجاء إطلاقُ المدبِّر بهذا المعنَى على غيره تعالى في قوله سبحانه: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥].

وربما يقالُ: إنَّه لا فرقَ عندهم بين الله تعالى وبينَ القطب إلا بالاعتبار؛ لأنَّه الذي فاز بقربَى النوافل والفرائض على أتمِّ وجهٍ، فارتفعت الغَيريَّةُ، فالقولُ بأنَّ القطب هو المدبِّر كالقول بأنَّ الله سبحانه هو المدبِّر بلا فَرْقٍ.

واعتُرض هذا بأنَّه ذهابٌ إلى القول بوحدة الوجود، وأكثر المتكلمين وبعضُ الصوفية كالإمام الربانيِّ قدِّس سرُّه[٣] ينكرون ذلك.

والأولُ[٤] بأنَّه هلَّا قال المشركون في جواب ذلك: الملائكةُ أو عيسى عليهم السلام مثلاً على معنى أنَّهم المدبِّرون للأمر بإذن الله تعالى، فيكون المذكورون عندهم بمنزلة الأقطاب عند أولئك.

وأُجيبَ بأنَّ السؤالَ إنما هو عمَّن ينتهي إليه الأمر، فلا يتسنَّى لهم إلا الجوابُ المذكور، ولعلَّ غيرَ أهل الوحدة لو سئلوا كذلك ما عدلوا في الجواب عنه سبحانه، وأمَّا أهلُ الوحدة قدَّس الله تعالى أسرارَهم فلهم كلماتٌ لا يقولها المشركون، وهي لَعمري فوق طور العقل، ولذا أَنكرها أهلُ الظاهر عليهم.

---

(١) الإنصاف ٢/ ٢٣٦.

(٢) في الأصل: تلفح.

(٣) هو أحمد بن عبد الأحد السَّرْهِنْدي الفاروقي النقشبندي الصوفي الحنفي، من مصنفاته: رسالة المبدأ والمعاد، ورسالة ردِّ الشيعة، ورسالة آداب المريدين، ومن إفاداته أنه أوضح الفرق بين وحدة الوجود وبين وحدة الشهود، وكان فقيهاً ماتريدياً حريصاً على اتباع السنَّة، توفي سنة (١٠٣٤هـ). هدية العارفين ١/ ١٥٦، وأبجد العلوم ٣/ ٢٢٥.

(٤) يعني: واعتُرض الأول.

﴿فَقُلْ﴾ لهم: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ الهمزةُ لإنكار عَدَمِ الاتِّقاء بمعنى إنكار الواقع، كما في قولك: أتَضْرِبُ أباك، لا بمعنى إنكار الوقوع كما في قولك: أأَضْرِبُ أبي، والفاء للعطف على مقدَّرٍ ينسحبُ عليه النظمُ الكريم، أي: أتعلمون ذلك فلا تتَّقون، والخلافُ في مثل هذا التركيب شهيرٌ، وما ذكرناه هو ما عليه البعض.

ومفعولُ «تتَّقون» محذوفٌ، وهو مُتعدٍّ لواحد، أي: أفلا تتقون عذابه الذي [ذكر][1] لكم بما تتعاطونه من إشراككم به سبحانه ما لا يُشاركه في شيءٍ مما ذُكِرَ من خواصِّ الألوهية. وكلامُ القاضي يُوهم أنَّه متعدٍّ إلى مفعولين[2]، وليس بذاك.

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ فذلكةٌ لما تقرَّر، والإشارةُ إلى المتَّصِفِ بالصفات السابقة حَسْبَما اعترفوا به، وهي مبتدأ والاسمُ الجليل صفةٌ له، و«ربكم» خبرٌ، و«الحقُّ» خبرٌ بعد خبرٍ أو صفةٌ أو خبرُ مبتدأ محذوفٍ، ويجوزُ أنْ يكون الاسمُ الجليلُ هو الخبر، و«ربُّكم» بدلٌ منه أو بيانٌ له، و«الحقُّ» صفةُ الربِّ، أي: مالكُكم ومتولِّي أُمورِكم الثابتُ ربوبيَّتُه والمتحقِّقُ ألوهيتُه تحقُّقاً لا ريبَ فيه.

﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ أي: لا يوجَدُ غير الحقِّ شيءٌ يُتَّبع إلا الضلال، فَمَن تخطَّى الحقَّ وهو عبادةُ الله تعالى وحدَه لابدَّ وأنْ يقعَ في الضلال، وهو عبادةُ غيره سبحانه على الانفراد أو الاشتراك؛ لأنَّ عبادة الله جلَّ شأنه مع الإشراك[3] لا يُعتَدُّ بها.

فـ «ما» اسم استفهام و«ذا» موصولٌ، ويجوز أنْ يكونَ الكلُّ اسماً واحداً قد غلب فيه الاستفهام على اسم الإشارة، وهو مبتدأ خبرُه «بعد الحق» على ما في «النهر»[4]، والاستفهامُ إنكاريٌّ بمعنى إنكارِ الوقوع ونفيه، و«بعد» بمعنى «غير»

---

(١) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٤/ ١٤٢، والكلام منه.
(٢) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ٢٥، وفيه: أفلا تتقون أنفسَكم عقابَه بإشراككم...، قال الشهاب: لا يخفى أن التقوى لا تتعدى إلا إلى مفعول واحد، فالأولى إسقاط أنفسكم... إلى آخر كلامه.
(٣) في (م): لأن عبادته جل شأنه مع الاشتراك.
(٤) النهر الماد من البحر لأبي حيان على هامش البحر ٥/ ١٥٤.

مجازاً[١]، و«الحق» ما علمتَ، وهو غيرُ الأول ولذا أُظهر، وإطلاقُ «الحق» على عبادته سبحانه، وكذا إطلاقُ «الضلال» على عبادة غيرِه تعالى لِمَا أنَّ المَدَارَ في العبادة الاعتقاد.

وجوِّز أنْ يكون «الحق» عبارةً عن الأول، والإظهارُ لزيادة التقرير، ومراعاةِ كمال المقابلة بينه وبين الضلال، والمرادُ به هو الأصنام، والمعنى: فماذا بعدَ الربِّ الحقِّ[٢] الثابتِ ربوبيَّتُه إلا الضلالُ، أي: الباطلُ الضائعُ المضمَحِلُّ، وإنَّما سُمِّي بالمصدر مبالغةً، كأنَّه نفسُ الضلالِ والضياع.

وقيل: المرادُ بالحقِّ والضلالِ ما يعمُّ التوحيدَ وعبادةَ غيرِه سبحانه وغيرَ ذلك، ويدخل ما يقتضيه المقام هنا دخولاً أوليّاً، ويُؤيِّده ما أخرجه ابنُ أبي حاتم عن أشهب قال: سئل مالكٌ عن شهادة اللعَّابِ بالشطرنج والنَّرد، فقال: أمَّا مَن أدْمَنَ فما أَرَى شهادتَهم طائلةً، يقول الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ فهذا كلُّه مِن الضلال[٣].

﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٣٢﴾ أي: فكيف تُصرفون عن الحقِّ إلى الضلال، والاستفهامُ إنكاريٌّ بمعنى إنكارِ الواقع واستبعادِه والتعجيبِ[٤] منه، وفيه من المبالغة ما ليس في توجيه الإنكار إلى نفس الفعل، فإنَّه لابدَّ لكلِّ موجودٍ مِن أنْ يكون وجودُه على حالٍ مِن الأحوال، فإذا انتفَى جميعُ أحوالِ وجودِه فقد انتفَى وجودُه على الطريق البرهاني.

والفاءُ لترتيب الإنكار والتعجيبِ[٥] على ما قبله، ولعل ذلك الإنكار والتعجيب متوجِّهان في الحقيقة إلى منشأ الصَّرفِ، وإلا فنفسُ الصَّرف منه تعالى على ما هو الحقُّ، فلا معنى لإنكاره والتعجيبِ منه مع كونه فِعْلَه جلَّ شأنُه، وإنما لم يُسْنَدِ الفعلُ إلى الفاعل لعَدَم تعلُّق غرضٍ به.

---

(١) في (م): مجاز.
(٢) في الأصل: الحق الرب.
(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٥١.
(٤) في (م): التعجب، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ١٤٢، والكلام منه.
(٥) في (م): والتعجب، وكذا وقع في سائر المواضع.

وذهب المعتزلة إلى[1] أنَّ فاعلَ الصَّرْفِ نفسِه المشركون، فهم الذين صَرَفُوا أنفسَهم وعَدَلوا بها عن الحقِّ إلى الضلال، بناءً على أنَّ العباد هم الخالقون لأفعالهم، وأمرُ الإنكار والتعجيب عليه ظاهرٌ. وإنما لم يُسند الفعل إلى ضميرهم على جهة الفاعلية إشارةً إلى أنَّه بَلَغ من الشناعة إلى حيث إنَّه لا ينبغي أنْ يُصرَّح بوقوعه منهم فتدبَّر.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما حقَّت كلمةُ الربوبية للهِ سبحانه وتعالى، أو: كما أنَّه ليس بعد الحقِّ إلا الضلال، أو: كما أنَّهم مصروفون[2] عن الحقِّ ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: حُكْمُه ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟﴾ أي: تمرَّدوا في الكفر، وخرجوا إلى أقصى حدوده، والمرادُ بهم أولئك المخاطبون، ووُضِعَ الموصولُ مَوضع ضميرهم للتوصُّل إلى ذمِّهم بعنوان الصِّلة وللإشعار بالعلِّية.

﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ بدلٌ من الكلمة بدلَ كلٍّ مِن كلٍّ أو بدلَ اشتمالٍ، بناءً على أنَّ الحُكْم بالمعنى المصدري، أو بمعنى المحكوم به.

وقد تُفسَّر الكلمةُ بالعِدَةِ بالعذاب، فيكونُ هذا في موضع التعليل لحِقِّيتها، أي: لأنَّهم.. إلخ.

واعتُرِض بأنَّ محصَّلَ الآية حينئذٍ على ما تقرَّر في «الذين فسقوا» أنَّ كلمة العذاب حقَّت على أولئك المتمرِّدين لتمرُّدهم في كفرهم ولأنَّهم لا يؤمنون، وهو تكرارٌ لا طائلَ تحته.

وأُجيبَ بأنَّه لو سلِّم أنَّ في الآية تكراراً مطلقاً فهو تصريحٌ بما عُلم ضمناً، وفيه دلالةٌ على شرف الإيمان بأنَّ عذابَ المتمرِّدين في الكفر بسبب انتفاء الإيمان.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ احتجاجٌ آخرُ على حَقِّيَّة التوحيد وبطلانِ الإشراك، ولم يَعْطِفْ إيذاناً باستقلاله في إثبات المطلوب، والسؤالُ للتبكيت والإلزام. وجعَلَ سبحانه الإعادة لسطوع البراهين القائمةِ عليها بمنزلة البدْء في إلزامهم، ولم يُبالِ بإنكارهم لها؛ لأنَّهم مُكابِرون فيه والمكابِرُ لا يُلتَفتُ إليه،

---

(١) قوله: إلى، ليس في (م).

(٢) في الأصل و(م): مصرفون، والمثبت من تفسير أبي السعود ٤/١٤٣، والكلام منه.

فلا يقال: إنَّ مثلَ هذا الاحتجاج إنما يَتأتَّى على مَن اعترف بأنَّ مِن خواصِّ الإلهية بدءَ الخَلْقِ ثم إعادتَه؛ ليلزم مِن نَفْيه عن الشركاء نفيُ الإلهية، وهم غيرُ مقرِّين بذلك، ففي الآية الإشارةُ إلى أنَّ الإعادة أمرٌ مكشوفٌ ظاهرٌ، بلغ في الظهور والجلاء بحيث يصحُّ أنْ يَثبُتَ فيه دعوَى أُخرى.

وجعَلَ ذلك الطيبيُّ من صنعة الإدماج[1]، كقول ابن نباتة:

فلابدَّ لي من جَهْلةٍ في وصاله فَمَن لي بخلٍّ أُودِعُ الحِلْمَ عنده[2]

فقد ضمَّن الغَزَل الفخْرَ بكونه حليماً، والفخرَ شكايةَ الإخوان[3].

﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ قيل: هو أمرٌ له ﷺ بأنْ يُبيِّن لهم مَن يفعلُ ذلك، أي: قل لهم: سبحانه هو يفعلُهما لا غيرُه كائناً ما كان، لا بأنْ ينوب عليه الصلاة والسلام عنهم في الجوابِ كما قاله[4] غيرُ واحد؛ لأنَّ القول[5] المأمورَ به غيرُ ما أُريدَ منهم من الجواب وإنْ كان مستلزماً له، إذ ليس المسؤولُ عنه: مَن يبدأ الخلقَ ثم يُعيده، كما في قوله سبحانه: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ [الرعد: ١٦] حتى يكونَ القولُ المأمورُ به عينَ الجواب الذي أُريد منهم، ويكونَ ﷺ نائباً عنهم في ذلك، بل إنَّما هو وجودُ مَن يفعلُ البدءَ والإعادةَ مِن شركائهم، فالجوابُ المطلوب منهم: لا، لا غير. نعم أُمِرَ ﷺ بأنَّ يُضمِّنه مقالتَه إيذاناً بتعيُّنه وتحتُّمِه، وإشعاراً بأنَّهم لا يجترئون على التصريح به مخافةَ التبكيت وإلقامِ الحجر لا مكابرةً ولجاجاً. انتهى.

وقد يُقال: المرادُ مِن قوله سبحانه: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ إلخ: هل المُبْدِئُ المُعِيدُ اللهُ أم الشركاء؟ والمراد من قوله سبحانه جلَّ شأنه: ﴿اللَّهُ﴾ إلخ: الله يبدأ ويعيدُ لا غيرُه

---

(١) الإدماج: أن يتضمن كلام سيق لمعنى ـ مدحاً كان أو غيرَه ـ معنًى آخر، وهو أعم من الاستتباع؛ لشموله المدح وغيره واختصاصِ الاستتباع بالمدح. التعريفات للجرجاني ص٣٠.

(٢) يتيمة الدهر ٢/ ٤٤٩.

(٣) أي: وضمن الفخرَ شكايةَ الإخوان.

(٤) في الأصل: قال.

(٥) في (م): المقول، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ١٤٣، والكلام منه.

من الشركاء، وحينئذٍ ينتظم السؤالُ والجوابُ، وانْفِهامُ الحصر بدلالة الفحوَى، فإنَّك إذا قلت: مَن يَهبُ الألوفَ زيدٌ أم عمرٌو؟ فقيل: زيدٌ يهبُ الألوفِ، أفادَ الحَصْرَ بلا شبهةٍ.

وبما ذُكر يُعلم ما في الكلام السابق في الردِّ على ما قاله الجمع، وكذا ردّ ما قاله القطبُ مِن أنَّ هذا لا يصلح جواباً عن ذلك السؤال؛ لأنَّ السؤال عن الشركاء، وهذا الكلامُ في الله تعالى، بل هو استدلالٌ على إلهيته تعالى وأنه الذي يستحقُّ العبادة بأنَّه المبدئُ المعيدُ، بعد الاستدلال على نفي إلهية الشركاء فتأمَّل.

وإعادةُ[1] الجملة في الجواب بتمامها غير محذوفةِ الخبر كما في الجواب السابق لمزيد التأكيد والتحقيق.

﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ الأَفْكُ: الصَّرفُ والقلبُ عن الشيء؛ يقالُ: أَفَكَه عن الشيء يَأْفِكه أَفْكاً: إذا قَلَبه عنه وصَرَفه، ومنه قولُ عروة بنِ أذينة:

إنْ تَكُ عن أحسنِ الصنيعةِ مأ ... فوكاً ففي آخَرينَ قد أُفِكوا[2]

وقد يخصُّ كما في «القاموس» بالقَلْبِ عن الرأي[3]، ولعله الأنسبُ بالمقام، أي: كيف تُقْلَبون مِن[4] الحق إلى الباطل، والكلامُ فيه كما تقدَّم في «فأنى تُصرَفون».

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّۚ﴾ احتجاجٌ آخرُ على ما ذُكر جيءَ به إلزاماً غِبَّ إلزامٍ، وإفحاماً إثْرَ إفحامٍ. وفصَلَه إيذاناً بفَضْلِه واستقلالِه في إثبات المطلوب كما في سابقه. والمراد: هلْ مَن يهدي إلى الحقِّ بإعطاء العقل، وبعثةِ الرسل، وإنزالِ الكتب، والتوفيقِ إلى النظر والتدبُّر بما نُصبَ في الآفاق والأنفس، إلى غير ذلك: الله[5] سبحانه أم الشركاء؟!.

---

(١) في الأصل و(م): وفي إعادة، والمثبت من تفسير أبي السعود.

(٢) إصلاح المنطق ص٢٧، والصحاح (أفك).

(٣) القاموس (أفك).

(٤) في الأصل: عن، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٤/ ١٤٣.

(٥) في (م): أَلله.

ومنهم مَن يُبقي الكلامَ على ما يتبادرُ منه كما سمعتَ فيما قبل، ومن الناس مَن خصَّص طريقَ الهداية، والتعميمُ أوفقُ بما يقتضيه المقام من كمال التبكيت والإلزامِ، كما لا يخفَى.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾ أي: هو سبحانه يهدي له دون غيره جلَّ شأنه، والكلامُ في الأمر على طرز ما سبق، وفعلُ الهداية يتعدَّى إلى اثنين ثانيهما بواسطة، وهي «إلى» أو اللام، وقد يتعدَّى لهما بنفسه، وهو لغةٌ على ما قيل، كاستعماله قاصراً بمعنى اهتدَى، والمبرِّد أنكر هذا حيث قال: إنَّ هدَى بمعنى اهْتَدى لا يُعرف، لكنْ لم يُتابعه على ذلك الحفَّاظ كالفرَّاء[1] وغيرِه.

وقد جمع هنا بين صلتَيه «إلى» واللام تفنُّناً، وإشارةً بـ «إلى» إلى معنى الانتهاء، وباللام للدلالة على أنَّ المنتهَى غايةٌ للهداية، وأنَّها لم تتوجَّه إليه على سبيل الاتِّفاق، بل على قَصْدِه[2] من الفعل وجَعْلِه ثمرةً له، ولذلك عُدِّي بها ما أُسند إليه سبحانه كما ترَى. وأمَّا قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ فالمقصودُ به التعميمُ وإنْ كان الفاعلُ في الواقع هو الله جلَّ شأنه.

وقيل: اللامُ هنا للاختصاص. والجمهورُ على الأول.

والمفعولُ محذوفٌ في المواضع الثلاثة، وجواز اللزوم في الأول مما لا يُلتفتُ إليه، ويقدَّر فيها على طرزٍ واحدٍ كالشخص ونحوه.

وقيل: التقديرُ: قل هل مِن شركائكم مَن يهدي غيرَه إلى الحق، قل الله يهدي مَن يشاء إلى الحقِّ، أَفَمَنْ يهدي غيرَه إلى الحقِّ ﴿أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ﴾ بفتح الياء وكَسْرِ الهاء وتشديد الدال، وهي قراءةُ يعقوبَ وحَفْصٍ[3]، وأصلُه: يَهتدي، وكَسْرُ الهاء لالتقاء الساكنين.

---

(١) يعني أن الفراء لم يقل به، فإن وفاة الفراء قبل وفاة المبرد بنحو ثمانين عاماً. وكلام الفراء في معاني القرآن ٢/ ٩٩. وذكر قوله وقول المبرد أبو حيان في البحر ٥/ ١٥٦، ولفظه: وأنكر المبرد ما قاله الكسائي والفراء وتبعهما الزمخشري من أن يكون هدى بمعنى اهتدى، وقال: لا نعرف هذا.

(٢) في (م): قصد، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٥/ ٢٧.

(٣) التيسير ص١٢٢، والنشر ٢/ ٢٨٣.

وقرأ حمَّادٌ ويَحيَى عن أبي بكر عن عاصم بكسر الياء والهاء والتشديد[١]، وكُسِرَت الياء إتباعاً للهاء، وكان سيبويه[٢] يرَى جوازَ كَسْرِ حَرْفِ المضارعة لغةً إلا الياء لثقل الكسرة عليها، وهذه القراءةُ حجَّةٌ عليه.

وقرأ ابنُ كثيرٍ، وورشٌ عن نافع، وابنُ عامرٍ بفتح الياء والهاء والتشديد[٣]، والأصل: يَهْتَدي، فنُقلت فتحةُ التاء إلى الهاء قبلها ثم قُلبت دالاً لقُرْبِ مخرجهما وأُدغمت فيها.

وقرأ أبو عمرو وقالون عن نافع كذلك لكنَّه اختلس فتحة الهاء تنبيهاً على أنَّ الحركة فيها عارضةٌ. وفي بعض الطرق عن أبي عمرو أنَّه قرأ بالإدغام المجرَّد عن نقل الحركة إلى ما قبلها، أو التحريكِ بالكسر لالتقاء الساكنين[٤]. واستشكل ذلك بأنَّ فيه الجمعَ بين الساكنين، ولذا قال المبرِّد: مَن رام هذا لابدَّ أنْ يحرِّك حركةً خفيفة، قال ابن النحاس[٥]: إذ بدونه لا يُمكن النطق. وذكر القاضي: أنَّه لم يبالِ بالتقاء الساكنين؛ لأنَّ المدغَم في حُكْم المتحرِّك[٦]، وأَنْكَر بعضُهم هذه القراءة وادَّعَى أنَّه إنما قرأ بالاختلاس، والحقُّ أنَّه قرأ بهما، وروي ذلك عن نافع[٧] أيضاً، وتفصيله في «لطائف الإشارات» و«الطيبة»[٨].

---

(١) القراءة عن عاصم من رواية أبي بكر في التيسير ص١٢٢، والنشر ٢/ ٢٨٣.

(٢) في الكتاب ٤/ ١١٠، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ٢٧.

(٣) التيسير ص١٢٢، والنشر ٢/ ٢٨٣.

(٤) أي: بإسكان الهاء مع تشديد الدال، وهي روايةٌ عن قالون كما في التيسير ص١٢٢، والنشر ٢/ ٢٨٤. وبها قرأ أبو جعفر، والرواية بذلك عن أبي عمرو ذكرها الداني في جامع البيان ٢/ ١٩٣ عنه من رواية شجاع، وقال صاحب النشر ٢/ ٢٨٤: وانفرد صاحب العنوان بإسكان الهاء في روايتيه وجهاً واحداً، وهو الذي ذكره الداني عن شجاع وحده. وينظر كتاب العنوان في القراءات السبع لأبي طاهر إسماعيل بن خلف الأنصاري ص ١٠٥.

(٥) في إعراب القرآن ٢/ ٢٥٤، ونقله المصنف عنه مع قول المبرد بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ٢٨.

(٦) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ٢٧، وقوله: لم يبال، يعني به أبا عمرو.

(٧) هي روايةٌ عن قالون عن نافع، كما ذكرنا قريباً.

(٨) النشر ٢/ ٢٨٤. وكتاب لطائف الإشارات في علم القراءات للإمام أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر القسطلاني المتوفى سنة (٩٢٣هـ)، وهو كتاب عظيم النفع. كشف الظنون ٢/ ١٥٥١.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «يَهْدِي» ك: يرْمي[١]، وهو إمَّا لازم بمعنى: يَهتدي، كما هو أحدُ استعمالات فِعْلِ الهداية على المعوَّل عليه كما علمتَ آنفاً، أو متعدٍّ، أي: لا يهدي غيرَه، ورُجِّح هذا بأنَّه الأوفقُ بما قبلُ، فإنَّ المفهوم منه نفْيُ الهداية لا الاهتداء، وقد يُرجَّح الأول بأن فيه توافق القراءات معنًى، وتَوَافقُها خيرٌ من تخالُفِها، وإنَما نفَى الاهتداء مع أنَّ المفهوم مما سبق نفْيُ الهداية كما ذكر، لِمَا أنَّ نفْيَها مُستَتبعٌ لنفيه غالباً، فإنَّ مَن اهتدَى إلى الحقِّ لا يخلو عن هداية غيرِه في الجملة، وأدناها كونُه قدوةً له بأنْ يراه فيَسلُكَ مَسلَكَه.

والفاءُ لترتيب الاستفهام على ما سبق كأنَّه قيل: إذا كان الأمر كذلك فأنا أسألكم: أمَن يَهدي إلى الحقِّ. .إلخ. والمقصودُ من ذلك الإلزامُ، والهمزةُ على هذا متأخِّرةٌ في الاعتبار، وإنَّما قُدِّمَتْ في الذكر لإظهار عراقتها في اقتضاء الصدارةِ كما هو المشهور عند الجمهور.

وصيغةُ التفضيل إمَّا على حقيقتها والمفضَّل عليه محذوفٌ كما اختاره مكِّي[٢]، والتقدير: أفمن يَهدي إلى الحقِ أحقُّ أنْ يُتَّبع ممن لا يهدي أمْ مَن لا يهدي أحقُّ. وإمَّا بمعنَى حقيقٌ كما اختاره أبو حيان[٣]. وهو خبرٌ عن الموصول، والفصل بالخبر بين «أم» وما عُطفَت عليه هو الأفصح كما قال السَّمينُ[٤]، وقد لا يُفصل كما في قوله سبحانه: ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٩]. والإظهارُ في موضع الإضمار لزيادة التقرير.

و«أَنْ يُتَّبع» في حيِّز النصب، أو الجرِّ بعد حَذْفِ الجارِّ، على الخلاف المعروف في مثله، أي[٥]: بأنْ يُتَّبع.

﴿إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۚ﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ من أعمِّ الأحوال، أي: لا يَهتدي أو لا يَهدي غيرَه في حال من الأحوال إلا حالَ هدايته تعالى له إلى الاهتداء، أو إلى هدايةِ

---

(١) التيسير ص١٢٢، والنشر ٢/ ٢٨٣، وهي قراءة خلف من العشرة.

(٢) في مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٤٥، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي السعود ٤/ ١٤٤.

(٣) في البحر ٥/ ١٥٦.

(٤) في الدر المصون ٦/ ١٩٨.

(٥) في (م): أو، وهو تصحيف، والكلام من تفسير أبي السعود ٤/ ١٤٤.

الغير، وهذا ـ على ما قاله جمعٌ ـ حالُ أشرافِ شركائهم كالمسيح وعُزيرٍ والملائكة عليهم السلام، دون الأوثان؛ لأنَّ الاهتداء الذي هو قبولُ الهداية وهدايةُ الغير مختصَّان بذوي العلم، فلا يُتصوَّر فيها.

وأخرج ابنُ أبي حاتم وأبو الشيخ وغيرُهما أنَّ المراد الأوثان[1]. ووجِّه ذلك بأنَّه جارٍ على تنزيلهم لها منزلةَ ذوي العلم.

وقيل: المعنَى: أم مَن لا يهتدي من الأوثان إلى مكانٍ فينتقل[2] إليه إلَّا أنْ يُنقَلَ إليه، أو إلَّا أنْ يَنقله الله تعالى مِن حاله إلى أنْ يجعلَه حيواناً مكلفاً فيهديَه، وهو مِن قولك: هديتُ المرأةَ إلى زوجها وقد هُدِيَت إليه.

وقيل: الآيةُ الأولى ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ في الأصنام، أو فيما يعمُّهم ونحوَ الملائكة عليهم السلام، وهذه في رؤساء الضلالة كالأحبار والرهبان الذين اتُّخذوا أرباباً من دون الله. وليس بالبعيد فيما أرَى، ويؤيِّده التعبير[3] بالاتِّباع، فإنَّه يَقتضي العملَ بأوامرهم والاجتنابَ عن نواهيهم، وهذا لا يُعقَل في الأوثان إلا بتكلُّفٍ، وهو وإنْ عُقِلَ في أشراف شركائهم لكنَّهم لا يَدْعون إلَّا إلى خير، واتِّباعُهم في ذلك لا ينعي على أحدهم، اللهمَّ إلا أنْ يقال: إنَّ المشركين تَقوَّلوا عليهم أوامرَ ونواهيَ، فنُعِيَ عليهم اتِّباعُهم لهم في ذلك.

وعبَّر بالاتِّباع ولم يعبِّر بالعبادة بأنْ يقال: أفمَن يهدي إلى الحقِّ أحقُّ أن يعبد أمْ مَن لا يهدي إلا أن يُهدَى، مع أنَّ الآية متضمِّنةٌ إبطالَ صحةِ عبادتهم من حيث إنَّهم لا يهدون، وأدنَى مراتبِ المعبودية[4] هدايةُ المعبود لعبدتِهِ إلى ما فيه صلاحُ أمرهم = مبالغةً في تفظيع حال عبادتهم؛ لأنَّه إذا لم يحسُن الاتِّباعُ لم تحسُن العبادة بالطريق الأولى، وإذا قبُح حالُ ذاك، فحال هذه أقبحُ، واللهُ تعالى أعلم.

وقرئ: «إلا أنْ يُهَدَّى» مجهولاً مشدَّداً[5] دلالةً على المبالغة في الهداية.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٥٢، والدر المنثور ٣/ ٣٠٧، وأخرجه الطبري ١٢/ ١٨٥.
(٢) في (م): فينقل، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ١٤٤، والكلام منه.
(٣) في الأصل: التفسير.
(٤) في (م): العبودية.
(٥) القراءات الشاذة ص٥٧، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٨.

﴿فَمَا لَكُمْ﴾ أي: أيُّ شيءٍ لكم في اتِّخاذ هؤلاء العاجزين شركاءَ لله سبحانه وتعالى، والكلامُ مبتدأٌ وخبرٌ، والاستفهامُ للإنكار والتعجيب[1].

وعن بعض النحاة أنَّ مثل هذا التركيب لا يتمُّ بدون حالٍ بعدَه، نحو قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٩]، فلعلَّ الحالَ هنا محذوفٌ لظهوره، كأنَّه قيل: فما لكم متَّخذينَ هؤلاء شركاءَ. ولا يصحُّ أن يكون قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٥﴾ في موضع الحال؛ لأنَّ الجملة الاستفهاميةَ لا تقعُ حالاً، بل هو استفهامٌ آخَرُ للإنكار والتعجيب[2] أيضاً، أي: كيف تحكمون بالباطل الذي يأباه صريحُ العقل ويحكمُ ببطلانه، من اتِّخاذ الشركاء لله جلَّ وعلا؟! والفاء لترتيب الإنكار على ما ظهر مِن وجوب اتِّباع الهادي.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ كلامٌ مبتدأ غيرُ داخلٍ في حيِّز الأمر، مسوقٌ من جهته تعالى لبيان سوءِ إدراكهم، وعدمِ فَهمِهم لمضمون ما أَفحمَهم من البراهين النيِّرة الموجبة للتوحيد، أي: ما يتَّبعُ أكثرُهم في معتقداتهم ومَحاوَراتهم إلا ظنّاً واهياً مُستنِداً إلى خيالاتٍ فارغةٍ وأَقْيسةٍ باطلةٍ، كقياس الغائبِ على الشاهد وقياسِ الخالق على المخلوق بأدنَى مشاركةٍ موهومةٍ، ولا يلتفتون إلى فردٍ من أفراد العِلْم، فضلاً عن أنْ يَسلُكوا مسالكَ الأدلَّة الصحيحةِ الهاديةِ إلى الحقِّ، فيفهموا مضمونَها، ويقفوا على صحَّتها وبطلانِ ما يخالفُها.

فالمرادُ بالاتِّباع: مطلَقُ الاعتقاد[3] الشامل لِمَا يُقارِن القبولَ والانقيادَ وما لا يُقارنه، وبالقَصْرِ ما أُشيرَ إليه مِن أنْ لا يكونَ لهم في أثنائه اتِّباعٌ لفردٍ من أفراد العلم والتفاتٌ إليه.

وتنكيرُ «ظنّاً» للنوعية. وفي تخصيص هذا الاتِّباع بالأكثر الإشارةُ إلى أنَّ منهم مَن قد يتَّبعُ فيقفُ على حَقِّيَّة التوحيد، لكنْ لا يقبله مكابرةً وعناداً.

ومُقتضَى ما ذكروه في وجْهِ أمرِه ﷺ بأنْ ينوبَ عنهم في الجواب مِن أنَّه

---

(١) في (م): والتعجب، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ١٤٤.

(٢) في (م): والتعجب.

(٣) في الأصل و(م): الانقياد، والمثبت من تفسير أبي السعود ٤/ ١٤٤، والكلام منه.

الإشارةُ إلى أنَّ لَجاجَهم وعِنادهم يمنعُهم من الاعتراف بذلك، أنَّ فيهم مَن عَلِمَ وكان مُعانداً، ولعل النيابةَ حينئذٍ عن الجميع باعتبار هذا البعض.

وجُوِّز أنْ يكونَ المعنى: ما يتَّبع أكثرُهم مدَّةَ عمرِه إلا ظنّاً ولا يتركونه أبداً، فإنَّ حرفَ النفي الداخلَ على المضارع يفيدُ استمرارَ النفي بحسب المقام، فالمرادُ بالاتِّباع هو الإذعانُ والانقيادُ، والقَصْرُ باعتبارِ الزمان، وفي التخصيص[1] تلويحٌ بما سيكون من بعضهم من اتِّباع الحقِّ والتوبة.

وقيل: المعنى: وما يتَّبع أكثرهم في إقرارهم إلَّا ظنّاً؛ لأنَّه قولٌ غيرُ مستندٍ إلى برهانٍ عندهم.

وقيل: المعنى: وما يتَّبع أكثرُهم في قولهم للأصنام: وإنَّها شفعاءُ عند الله، إلا الظنَّ، والأكثرُ بمعنى الجميع، وهذا كما ورد القليلُ بمعنى العَدَم في قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨]، وفي قوله:

قليلُ التشكِّي في المصيبات حافظٌ ... مِن اليوم أعقابَ الأحاديثِ في غدِ[2]

وحَمْلُ النقيض على النقيض حسَنٌ وطريقةٌ مسلوكةٌ، ولا يخفَى أنَّه يتعيَّن على هذَين القولَين حملُ الأكثر على الجميع، بل يُمكن حملُه على ما يتبادَر منه أيضاً، ومِن الناس مَن جَعَل ضميرَ «أكثرهم» للناس، وحينئذٍ يجب الحملُ على المتبادر بلا كُلفة.

﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ﴾ مطلقاً ﴿لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ فكيف الظنُّ الفاسدُ، والمراد من «الحقِّ» العلمُ والاعتقادُ الصحيح المطابقُ للواقع، والجارُّ متعلِّقٌ بما قبله، و«شيئاً» منصوب[3] على أنَّه مفعولٌ مطلق، أي: إغناءً ما. ويجوزُ أنْ يكونَ مفعولاً به والجارُّ والمجرورُ في موضع الحال منه، والجملة استئنافٌ لبيانِ شأنِ الظنِّ وبطلانِه.

---

(١) أي: تخصيص الاتباع بأكثرهم. تفسير أبي السعود ٤/ ١٤٥، والكلام منه.
(٢) البيت لدريد بن الصمة كما في التمهيد لابن عبد البر ٢٠/ ٢٢٦، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/ ٨١٩، ودون نسبة في البيان والتبيين ٢/ ١٩٣. وجاء في هذه المصادر: قليل التشكي للمصيبات. . .
(٣) في (م): نصب.

وفيه دليلٌ لمن قال: إنَّ تحصيلَ العلم في الاعتقاديات واجبٌ، وإنَّ إيمان المقلِّد غيرُ صحيح، وإنَّما لم يُؤخذ عاماً للعمليات لقيام الدليل على صحةِ التقليد والاكتفاء بالظنِّ فيها، كما قُرِّر في موضعه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ۝٣٦﴾ وعيدٌ لهم على أفعالهم القبيحة، ويندرجُ فيها ما حُكي عنهم من الإعراض عن البراهين القاطعة، واتِّباعِ الظنون الفاسدةِ اندراجاً أوليّاً.

وقرئ: «تفعلون» بالالتفات إلى الخطاب(١) لتشديد الوعيد.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ شروعٌ في بيان حالهم مع(٢) القرآن إثْرَ بيانِ حالهم مع الأدلَّة المندرجة في تضاعيفه، أو استئنافٌ لبيانِ ما يجبُ اتِّباعُه والبرهان عليه غِبَّ المنع عن(٣) اتِّباع الظنِّ.

وقيل: إنَّه متعلِّقٌ بما قصَّه الله تعالى من قولهم: (ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ)، وقيل: بقوله سبحانه: (وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ) إلخ، ولا يخفى ما في ذلك من البعد.

و«كان» هنا ناقصةٌ عند كثيرٍ من الكاملين، و«هذا» اسمُها، و«القرآن» نعتٌ له أو عطفُ بيان، و«أنْ يُفْتَرى» بتأويل المصدر، أي: افتراءً؛ خبرُ «كان»، وهو في تأويل المفعول، أي: مُفترَى كما ذكره ابنُ هشام في قاعدةِ أنَّ اللَّفْظَ قد يكون على تقدير، وذلك المقدَّرُ على تقديرٍ آخر. ومنه قوله:

لَعمرُك ما الفِتيانُ أَنْ تَنْبُتَ اللِّحَى(٤)

---

(١) القراءات الشاذة ص٥٧، والبحر ٥/ ١٥٧ عن ابن مسعود.

(٢) في (م): من.

(٣) في (م): مع.

(٤) مغني اللبيب ص٩٠٧، وعجزه: ولكنَّما الفتيانُ كلُّ فتًى نَدِي، وهو في معاني القرآن للفراء ١/ ١٠٥، وأمالي المرتضى ١/ ٢٠١ دون نسبة. وقال البغدادي في شرح أبيات المغني ٨/ ٩٧: والبيت ملفَّقٌ من مصراعين لابن بيض وهي:

لعمرك ما الفتيان أن تنبت اللِّحى وتعظُمَ أبدانُ الرجال من الهَبْرِ
ولكنما الفتيان كل فتًى نَدِي صبور على الآفات في العسر واليسر

وذهب بعضُ المُعْربين إلى[(١)] أنَّ «ما كان» بمعنى: ما صح، وأنَّ في الكلام لاماً مقدَّرةً لتأكيد النفي، والأصل: ما كان هذا القرآنُ لِأَنْ يُفتَرَى، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢] و«أَنْ يُفتَرَى» خبرُ كان، و«مِن دون الله» خبرٌ ثانٍ وهو بيانٌ للأول، أي: ما صحَّ ولا استقامَ أنْ يكونَ هذا القرآنُ المشحونُ بفنون الهدايات المستوجِبَةِ للاتِّباع التي من جملتها هاتيك الحجَجُ البيِّنةُ الناطقةُ بحقِّيَّة التوحيد وبطلانِ الشرك صادراً مِن غير الله تعالى كيف كان. وقيل عليه ما قيل، لكن[(٢)] لا ينبغي العدولُ عما قاله في محل «مِن دون الله»، وما ذكر في حاصل المعنَى أمرٌ مقبولٌ كما لا يخفَى.

وجَوَّز البدرُ الدماميني أنْ تكون «كان» تامَّةً و«أنْ يُفتَرَى» بدل اشتمالٍ من «هذا القرآن»[(٣)].

وتُعقِّب بأنَّه لا يحسُنُ قطعاً؛ لأنَّ: ما وُجد القرآنُ، يُوهِمُ مِن أوَّلِ الأمر نفيَ وجوده، وأيضاً لابدَّ مِن الملابَسةِ بين البدل والمبدَلِ منه في بدل الاشتمال، فيلزم أنْ يُبتنَى الكلامُ على الملابَسةِ بين القرآن العظيم والافتراء، وفي التزام كلٌّ ما ترَى، وأُجيبَ عن ذلك بما لا أَراه مثبتاً للحُسْن أصلاً.

واقتَصَر بعضُهم على اعتبارِ المصدر من غير تأويله باسم المفعولِ اعتباراً للمبالغة، على حدِّ ما قيل في: زيدٌ عدلٌ. والظاهرُ عندي أنَّ المبالغة حينئذٍ راجعةٌ إلى النفي، نظير ما قيل في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] لا أنَّ النفيَ راجعٌ إلى المبالغة كما لا يخفَى.

ومِن هنا يُعلَم ما في قول بعض المحقِّقين: إنَّ قولَ الزمخشري في بيان معنَى الآية: وما صحَّ وما استقامَ وكان محالاً أنْ يكون مثلُه في علوِّ أمره وإعجازه مفترًى[(٤)]. ربَّما يُشعرُ بأنَّه على حذفِ اللام، إذ مجرَّدُ توسيط «كان» لا يُفيد ذلك، والتعبير بالمصدر لا تعلُّقَ له بتأكيد معنَى النفي = من النظر.

---

(١) قوله: إلى، ليس في (م).
(٢) في (م): لكنه.
(٣) تحفة الغريب شرح مغني اللبيب ١/ ٥٨.
(٤) الكشاف ٢/ ٢٣٧.

ثم إنَّهم - فيما رأينا - لم يعتبروا المصدرَ هنا إلا نكرةً، والمشهورُ اتِّفاقُ النحاةِ على أنَّ «أنْ» والفعلَ المؤوَّلَ بالمصدر معرفةٌ ولذلك لا يُخبَر به عن النكرة، وكأنَّه مبنيٌّ على ما قاله ابن جنِّي في «الخاطريات» من أنَّه يكون نكرةً، وذكَرَ أنَّه عرضَه على أبي عليٍّ فارتضاه[١].

واستَشكل بعضُهم هذه الآيةَ بأنَّ «أنْ» تُخلِّصُ المضارعَ للاستقبال كما نصَّ على ذلك النحْويُّون، والمشركون إنَّما زعموا كونَ القرآن مفترًى في الزمان الماضي، كما يدلُّ عليه ما يأتي إنْ شاء الله تعالى، فكيف ينبغي كونُه مفترًى في الزمان المستقبل.

وأُجيبَ عنه بأنَّ الفعل فيها مستعمَلٌ في مطلَق الزمان، وقد نصَّ على جواز ذلك في الفعل ابنُ الحاجب وغيرُه، ونقله البدرُ الدماميني في شرحه لـ «مغني اللبيب»[٢]. ولعلَّ ذلك من باب المجاز، وحينئذٍ يمكن أنْ يكون نكتَةُ العدول عن المصدر الصريح - مع أنَّه المستعمَلُ في كلامهم عند عدمِ ملاحظةِ أحدِ الأزمنة نحو: أَعجبني قيامُك - أنَّ المجازَ أبلغُ من الحقيقة.

وقيل: لعلَّ النكتة في ذلك استقامةُ الحمل بدون تأويلٍ، للفرق بين المصدر الصريح والمؤوَّلِ على ما أشار إليه شارح «اللباب» وغيرُه، ولا يخفى أنَّ فيه مخالفةً لِمَا مرَّت الإشارةُ إليه من أنَّ «أنْ» والفعلَ في تأويل المصدر، وهو في تأويل المفعول.

قيل: وقد يجابُ أيضاً عن أصل الإشكال بأنَّه إنَّما نفَى في الماضي إمكانَ تعلُّقِ الافتراء به في المستقبل، وكونَه محلّاً لذلك، فينتفي تعلُّق الافتراء به بالفعل من باب أَولَى، وفي ذلك سلوكُ طريقِ البرهان، فيكونُ في الكلام مجازٌ أصليٌّ أو تَبعيٌّ.

وقد نصَّ أبو البقاء على جواز كونِ الخبر محذوفاً، وأنَّ التقدير: وما كان هذا القرآنُ ممكناً أنْ يُفتَرَى[٣].

---

(١) حاشية الشهاب ٥/٢٨، ولم نقف عليه في المطبوع من الخاطريات.
(٢) تحفة الغريب ١/٥٨.
(٣) الإملاء ٣/٢٣٠.

وقال العلَّامة ابنُ حجر: إنَّ الآية جوابٌ عن قولهم: «ائتِ بقرآنٍ غيرِ هذا أو بدِّله» وهو طلبٌ للافتراء في المستقبل، وأمَّا الجوابُ عن زَعْمِهم أنَّه عليه الصلاة والسلام افتراه ـ وحاشاه ـ فسيأتي عند حكاية زَعْمِهم ذلك، فلا إشكال. على أنَّ عمومَ تخليص «أنْ» المضارعَ للاستقبال في حيِّز المنع، لم لا يجوز أنْ يكون فيما عدا خبرِ «كان» المنفيةِ كما يُرشد إليه قولُه سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة:١١٣] فإنَّه نزل [نهياً] عن استغفارٍ سبَقَ منهم للمشركين كما قاله أئمةُ التفسير[١]. وقد أطال الكلام على ذلك في ذيل فتاويه فتبصَّر.

﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكُتُب الإلهية كالتوراة والإنجيل، فالمرادُ من الموصول الجنسُ، وعنَى بالتصديق بيانَ الصدق، وهو مطابقةُ الواقع وإظهارُه، وإضافته إمَّا لفاعله أو مفعوله، وتصديقُ الكُتُب له بأنَّ ما فيه من العقائد الحقَّةِ مطابقٌ لِمَا فيها، وهي مسلَّمةٌ عند أهل الكتاب وما عَدَاهم إن اعتُرفِ بها، وإلَّا فلا عبرَة به.

وفي جَعْلِ الإضافة للمفعول مبالغةٌ في نفي الافتراء عنه؛ لأنَّ ما يثبُتُ ويظهرُ به صِدْقُ غيرِه فهو أَولَى بالصدق، ووجْهُ كونِهِ مصدِّقاً لها أنَّه دالٌّ على نزولها من عند الله تعالى، ومُشْتمِلٌ على قصص الأوَّلين حسبما ذُكِرَ فيها، وهو معجِزٌ دونها، فهو الصالحُ لِأَنْ يكونَ حجَّةً وبرهاناً لغيره لا بالعكس.

وزعَمَ بعضُهم أنَّ المراد من «الذي بين يديه» أخبارُ الغيوب، والإضافةُ للفاعل، وتصديقُها له مجيئُها على وفق ما أَخبر به، وليس بشيءٍ.

ونُصِبَ «التصديق» على العطفِ على خبر «كان» أو على أنَّه خبرٌ لكان مقدَّرة.

وقيل: على أنَّه مفعولٌ لأَجْلِه لفعلٍ مقدَّرٍ، أي: أُنزل لتصديق ذلك، وجَعْلُ العلَّة هنا ما ذُكِرَ مع أنَّه أُنزل لأمورٍ [أُخَر][٢]؛ لأنَّه المناسبُ لمقام ردِّ دعوى افترائه.

وقيل: نُصب على المصدرية لفعلٍ مقدَّرٍ، أي: يُصدِّقُ تصديقَ.. إلخ.

---

(١) ينظر الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي ص ٢٥٨، وما بين حاصرتين منه.

(٢) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٥/٢٩، والكلام منه.

وقرأ عيسى بن عمر[١] الثقفي برَفْعِه على أنَّه خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: ولكن هو تصديقُ... إلخ. وكذا قرأ بالرفع في قوله تعالى: ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾[٢] أي: ما كُتِبَ وأُثبتَ من الحقائق والشرائع، والعطفُ نصباً أو رفعاً على «تصديق».

وقولُه سبحانه: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ خبرٌ آخرُ لـ «كان»[٣] أو للمبتدأ المقدَّر، وفُصِل لأنَّه جملةٌ مؤكِّدةٌ لِمَا قبلها، وجوِّز أنْ يكون حالاً من «الكتاب» وإنْ كان مضافاً إليه، فإنه مفعولٌ في المعنى، وأنْ يكون استئنافاً نحويّاً لا محلَّ له من الإعراب، أو بيانيًّا جواباً للسؤال عن حال الكتاب، والأول أظهرُ، والمعنى: لا ينبغي لعاقلٍ أن يرتابَ فيه لوضوح برهانه وعلوِّ شأنه.

﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ خبرٌ آخَرُ لـ «كان» أو المبتدأ المقدَّر كما مرَّ في سابقه، أو متعلِّقٌ بـ «تصديق» أو بـ «تفصيل»، أو بالفعل المعلَّل بهما، أو متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقَعَ حالاً من «الكتاب»، و«لا ريب فيه» اعتراضٌ لئلَّا يلزمَ الفَصْلُ بالأجنبيِّ بين المتعلِّق والمتعلَّق، أو الحالِ وذِيْها. وجوِّز أنْ يكون حالاً من الضمير المجرور في «فيه».

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ «أم» منقطعةٌ وهي مقدَّرة ببل والهمزة عند سيبويه[٤] والجمهور، أي: بل أيقولون، وبل انتقاليةٌ، والهمزةُ لإنكار الواقع واستبعاده، أي: ما كان ينبغي ذلك، وجوِّز أنْ تكون للتقرير لإلزام الحجة، والمعنيان ـ على ما قيل ـ متقاربان.

وقيل: إنَّ «أم» متَّصلةٌ ومُعادِلُها مقدَّر، أي: أتقرُّون به أم تقولون افتراه.

وقيل: هي استفهامية بمعنى الهمزة. وقيل: عاطفةٌ بمعنى الواو. والصحيح الأول.

---

(١) في الأصل و(م): عمرو، والصواب ما أثبتناه، وقراءته في القراءات الشاذة ص٥٧، والبحر ٥/ ١٥٧.

(٢) البحر ٥/ ١٥٧.

(٣) في (م): للكن، وهو خطأ. وقوله: لـ «كان»، أي: لكان المقدرة بعد «لكن» كما ذكره الشهاب في الحاشية ٥/ ٣٠.

(٤) كما في البحر ٥/ ١٥٨، وحاشية الشهاب ٥/ ٣٠ وعنه نقل المصنف، وينظر الكتاب ٣/ ١٧٣ و١٨٩.

وأيًا ما كان فالضميرُ المستترُ للنبيِّ ﷺ وإنْ لم يذكر؛ لأنَّه معلومٌ من السياق.

﴿قُلْ﴾ تبكيتاً لهم وإظهاراً لبطلانِ مقالتهم الفاسدةِ: إنْ كان الأمر كما تقولون ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ﴾ طويلةً كانت أو قصيرةً ﴿مِّثْلِهِۦ﴾ في البلاغة وحُسْن الارتباط وجزالة المعنى على وجه الافتراء، وحاصلُه على ما قيل: إن كان ذاك افتراءً منِّي فافترُوا سورةً[1] مثله، فإنَّكم مثلي في العربية والفصاحة، وأشدُّ تمرُّناً واعتياداً في النظم والنثر.

وعلى هذا فالمرادُ بإتيان المخاطَبين بذلك إنشاؤهم له والتكلُّمُ به من عند أنفسهم، لا ما يعمُّ ذلك وإيرادَه من كلام الغير ممن تقدَّم.

وجوِّز أنْ يكونَ المراد ما ذكر[2]، ولعله السرُّ في العدول عن: قولوا سورةً مِثْلَه مَثَلاً، إلى ما في النظم الكريم، أي: إنْ كان الأمر كما زعمتُم فأتوا من عند أنفسكم، أو ممن تقدَّمكم من فصحاء العرب وبُلَغائها كامرئ القيس وزهيرٍ وأضرابهما، بسورةٍ مماثلةٍ له في صفاته الجليلة، فحيثُ عجزتُم عن ذلك مع شدَّةِ تمرُّنكم، ولم يوجد في كلام أولئك، وهم الذين نُصبَت لهم المنابرُ في عكاظِ الفصاحةِ والبلاغة، وبهم دارت رَحَا النَّظْمِ والنثر، وتصرَّمَت أيامُهم في الإنشاء والإنشاد، دلَّ على أنَّه ليس من كلام البشر، بل هو من[3] كلامِ خالقِ القوى والقُدَر.

وقرئ: «بسورةِ مثله» على الإضافة[4]، أي: بسورةِ كتابٍ مِثْلِه.

﴿وَٱدْعُوا۟﴾ للمعاوَنةِ والمظاهَرةِ ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾ دعاءَه والاستعانةَ به من آلهتكم التي تزعمون أنَّها مُمِدَّةٌ لكم في المهمَّات والملمَّاتِ، والمدارِهِ[5] الذين تلجؤون إليهم في كلِّ ما تأتون وتَذَرُون.

---

(١) في الأصل: فأتوا بسورة.

(٢) أي: ما يعم إنشاءَهم له من عند أنفسهم وإيرادَه من كلام الغير ممن تقدم.

(٣) قوله: من، ليس في الأصل.

(٤) القراءات الشاذة ص٥٧، والمحتسب ١/ ٣١٣، والبحر ٥/ ١٥٨ عن عمرو بن فائد.

(٥) في (م): والمداراة، وفي الأصل: والمدارة. والمداره جمع مِدْرَه كمِنبر، وهو رأس القوم المدافع عنهم، والسيد الشريف، والمقدم في اليد واللسان عند الخصومة والقتال.

﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ متعلّقٌ بـ «ادعوا» كما قيل، و«مِن» ابتدائيةٌ على معنى أنَّ الدعاء مبتدأً من غيرِه تعالى لا مُلابسةَ له معه ـ جلَّ شأنُه ـ بوجْهٍ.

وجوّز أنْ يكونَ متعلِّقاً بما عنده و«مِن» بيانية، أي: ادْعُوا مَن استطعتُم مِن خَلْقِه، ولا يخلو عن حُسْن.

وفائدةُ هذا القيد، قيل: التنصيصُ على براءتهم منه تعالى، وكونِهم في عُدْوَةِ المضادَّةِ والمشاقَّةِ، وليس المراد به إفادةَ استبدادِه تعالى بالقُدرة على ما كلَّفوه، فإنَّ ذلك مما يُوهم أنَّهم لو دَعَوه لأجابهم إليه.

وقد يُقال: لا بأس بإفادة ذلك؛ لأنَّ الاستبداد المذكورَ مما يؤيِّد المقصودَ، وهو كونُ ما أتَى به ﷺ لم يكن من عند نفسِه بل هو منه تعالى، والإيهامُ ممَّا لا يُلتفتُ إليه، فإنَّ دعاءهم إيَّاه تعالى بمعنى طلبهم منه سبحانه وتعالى أنْ يأتي بما كلَّفوه مستبِدّاً به مما لا يكاد يتصوَّرُ؛ لأنَّه يُنافي زعمَهم السابقَ كما لا يخفَى، فتأمَّل.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ في أنِّي افتريتُه، فإنَّ ذلك مستلزمٌ لإمكان الإتيان بمثله، وهو أيضاً مستلزمٌ لقدرتكم عليه. وجواب «إنْ» محذوفٌ لدلالة المذكور عليه.

وفي هذه الآية دلالةٌ على إعجاز القرآن؛ لأنَّه عليه الصلاة والسلام تحدَّى مصاقع العرب بسورةٍ ما منه فلم يأتوا بذلك، وإلَّا لنُقِلَ إلينا لتوفُّر الدَّواعي إلى نَقْلِه.

وزَعَمَ بعضُ الملاحدة أنَّه لا يلزم من عجزهم عن الإتيان بذلك كونُه من عند الله تعالى قَطْعاً، فإنَّه قد يتَّفقُ في الشخص خصوصيةٌ لا توجدُ في غيره، فيحتمل أنَّه ﷺ كان مخصوصاً بهذه المرتبةِ من الفصاحةِ والبلاغةِ، ممتازاً بها عن سائر العرب، فأتَى بما أتَى دونهم، وقد جاء من بعض الطرق أنَّه ﷺ قال: «أنا أفصحُ العرب بيدَ أنِّي مِن قريش»[1].

---

(١) قال السيوطي كما في المصنوع في معرفة الحديث الموضوع لعلي القاري ص٦٠: لا يُعْلَم مَن أخرجه ولا إسناده. وروي أيضاً: أنا أفصح مَن نطق بالضاد، قال السخاوي في المقاصد الحسنة ص٩٥: معناه صحيح، ولكن لا أصل له كما قاله ابن كثير.

وأُجيبَ بأنَّه ﷺ وإنْ كان في أقصَى الغايات من الفصاحة، حتى كأنَّ الله تعالى شأنُه وعزَّت قُدرتُه مَخَضَ اللسانَ العربي وألقَى زُبدتَه على لسانه ﷺ فما مِن خطيبٍ يقاومُه إلا نكَصَ متفكِّكَ الرِّجل[1]، وما مِن مِصْقع يُناهزُه إلَّا رجع فارغ السَّجْل، إلا أنَّ كلامه ﷺ لا يُشبه ما جاء به القرآن[2]، وكلامُ شخصٍ واحدٍ متشابهٌ كما لا يخفَى على ذَوي الأذواق الواقفين على كلام البلغاء قديماً وحديثاً.

وتعقِّب بأنَّه لا يدفع ذلك الزَّعْمَ، لِمَا فيه ظاهراً مِن تسليم كونِ كلامه عليه الصلاة والسلام مُعْجِزاً لا تُستَطاع مُعارضتُه، وحينئذٍ العجزُ عن معارضةِ القرآن يجعَلُه[3] دائراً بين كونه كلامَه تعالى وكونه كلامَه ﷺ، ولا يثبُتُ كونُه كلامَ الله عزَّ وجلَّ إلا بضمِّ امتيازه على كلامه ﷺ، والزاعمُ لم يَدَّعِ إلا عدمَ لزومِ كونه مِن عند الله تعالى قطعاً من عجزهم عن الإتيان بذلك.

وأيضاً يُنافي هذا التسليمُ ما تقدَّم في بيان حاصل «فأتوا بسورةٍ مثله»، حيثُ علَّل بـ: إنكم مثلي في العربية والفصاحة. . إلخ.

ومن هنا قيل: الأوجَهُ في الجواب أنْ يُلتزمَ عدمُ إعجازِ كلامه ﷺ، مع كونه عليه الصلاة والسلام أفصحَ العرب، ولا منافاة بينهما كما لا يخفَى على المتأمِّل.

وأطالَ بعضُهم الكلام في هذا المقام، وبعضٌ أدرجَ مسألةَ خَلْقِ الأفعال في البين، وجعَلَ مدار الجواب مذهَب الأشعريِّ فيها، ولعل الأمر غنيٌّ عن الإطالة عند مَن انْجَابَ عن عينِ بصِيرته الغَين.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ قيل: هو إضرابٌ وانتقالٌ عن إظهار بطلانِ ما قالوا في حقِّ القرآن العظيم بالتحدِّي إلى إظهاره ببيانِ أنَّه كلامٌ ناشئٌ عن عدم علمهم بكنهِ أمره، والاطِّلاعِ على شأنه الجليل، فـ «ما» عبارةٌ عن القرآن، وهو المرويُّ عن الحسن، وعليه محقِّقو المفسِّرين.

---

(١) في الأصل: الرحل. وقوله: متفكك الرجل، لعله كناية عن العيِّ والعجز. ينظر الفائق ١/ ١١.

(٢) في (م): من القرآن.

(٣) في الأصل: بجعله.

وقيل: هي عبارةٌ عمَّا ذُكر فيه مما يخالفُ دينَهم كالتوحيدِ والبعثِ والجزاء. وليس بذاك سواءٌ كانت الباء للتعدية ـ كما هو المتبادِر ـ أم للسببية.

والمرادُ أنَّهم سارَعوا إلى تكذيبه مِن غير أنْ يتدبَّروا ما فيه، ويقفوا على ما في تضاعيفه من الشواهد الدالَّة على كونه كما وُصِف آنفاً، ويعلموا أنَّه ليس مما يُمكن أنْ يُؤتَى بسورةٍ مثله.

والتعبيرُ عنه بهذا العنوان، دون أنْ يقال: بل كذَّبوا به من غير أنْ يُحيطوا بعلْمِه، أو نحوِه، للإيذان بكمالِ جَهْلِهم به، وأنَّهم لم يَعْلَموه إلَّا بعنوانِ عدمِ العلم به، وبأنَّ تكذيبَهم به إنما هو بسبب عدمِ إحاطتهم بعلمه، لِمَا أنَّ تعليق الحكم بالموصول مشعرٌ بعلِّيَّة ما في حيِّز الصلَة له، وأصلُ الكلام: بما لم يحيطوا به علماً، إلا أنَّه عدَلَ عنه إلى ما في النظم الكريم لأنَّه أبلغ.

﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ عطفٌ على الصِّلة أو حالٌ من الموصول، أي: ولم يقفوا بعدُ على معانيه الوضعية والعقلية المنبئةِ عن علوِّ شأنه وسطوعِ برهانه، فالتأويلُ نوعٌ من التفسير، والإتيانُ مجازٌ عن المعرفة والوقوف، ولعلَّ اختياره للإشعار بأنَّ تلك المعاني متوجِّهةٌ إلى الأذهان، مُنْساقةٌ إليها بنفسها.

وجوِّز أن يُراد بالتأويل وقوعُ مدلوله، وهو عاقبتُه وما يَؤولُ إليه، وهو المعنَى الحقيقيُّ عند بعضٍ، فإتيانُه حينئذٍ مجازٌ عن تَبيُّنه وانكشافه، أي: ولم يَتَبيَّن لهم إلى الآن تأويلُ ما فيه من الإخبار بالغيوب حتى يَظهرَ أنَّه صدقٌ أم كذبٌ، والمعنى: أنَّ القرآن معجِزٌ من جهة النَّظْم والمعنَى، ومن جهة الإخبار بالغيب، وهم فاجَؤوا تكذيبَه قبل أن يتدبَّروا نظمَه ويتفكَّروا في معناه، أو ينتظروا وقوعَ ما أَخبر به من الأمور المستقبلة.

ونفيُ إتيان التأويل بكلمةِ «لمَّا» الدالَّةِ على توقُّع منفيِّها بعد نفي الإحاطة بعِلْمِه بكلمةِ «لم»؛ لتأكيد الذمِّ وتشديدِ التشنيع، فإنَّ الشناعة في تكذيب الشيء قبل عِلْمِه المتوقَّع إتيانُه أفحشُ منها في تكذيبه قبل عِلْمِه مطلقاً.

وادَّعى بعضُهم أنَّ الإضراب عن التكذيب عناداً المدلولِ عليه بقوله سبحانه: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟﴾ إلخ، فإنَّ الإلزام إنَّما يأتي بعد ظهور العجز، ومعنَى هذا الإضرابِ ذمُّهم

على التقليد وتَرْكِ النظر مع التمكُّنِ منه، وهو أَدخَلُ في الذمِّ من العناد من وجْهٍ، وذلك لأنَّ التقليد اعترافٌ من صاحبه بالقصور في الفطنة، ثُم لا يعذَرُ فيه، فلا يرتَضي ذو عقلٍ أنْ يُقلِّد رجلاً مثلَه من غيرِ تقدُّم عليه بفطنةٍ وتجربةٍ، وأمَّا العنادُ فقد يحمَدُه بعضُ النفوس الأبيَّةِ، بل في أشعارهم مَا يدلُّ على أنَّهم مفتخرون بذلك كقولهم:

فـعـانِـدْ مَـن تُـطـيـقُ لـه عـنـاداً[1]

ولا يَرِدُ أنَّ العناد لمَّا كان بعد العلم كان أَدْخَلَ في الذمِّ، فلا نُسلِّم أنَّه أَدخَلُ فيه من التقليد، بل من الجهل قبل التدبُّر دون اقتران التقليد به، وإنْ سُلِّم فهذا أيضاً أدخَلُ من وجهٍ، وإن جُعِلَ مصبُّ الإنكار على جَمْعهم بينَ الأمرَين - والجمعُ على كلِّ حالٍ أدخَلُ من التفرُّد بواحدٍ - صح الإضراب، فكأنه قيل: دَعْ تحدِّيهم وإلزامَهم، فإنَّهم لا يستأهلون الخطابَ؛ لأنَّهم مقلِّدون متهافتون في الأمر لا عن خبرٍ وحِجًى.

وقد ذكَرَ الزمخشريُّ في هذا المقامِ ثلاثةَ أوجه[2]:

الوجهُ الأول: أنَّ التقدير: أم كذَّبوا وقالوا: هو مفترًى، بعد العلم بإعجازه عناداً، بل كذَّبوا به قبلَ أنْ يأتيَهم العلمُ بوجهِ إعجازه أيضاً، فهم مستمرُّون على التكذيب في الحالَين، مذمُومون به مَوسُومُون برذيلتَي التقليد والعناد، جامعون بينهما بالنسبة إلى وقتَين.

ووجَّهَ ذلك بأنَّ «بل كذَّبوا بما لم يحيطوا بعِلْمِه» صريحٌ في تكذيبهم قبل العلم بوجهِ الإعجاز، و«لمَّا يأتهم تأويله» يدلُّ على امتداد هذا التكذيب إلى مجيء التأويل المنتظر بالنسبة إلى تكذيبهم قبلُ، لا بالنسبة إلى زمان الإخبار، فإنَّ التأويل أيضاً واقعٌ، وحينئذٍ إمَّا أنْ يكونَ التكذيبُ قد زال فلا يتوجَّه عليهم الذمُّ بالتكذيب الأول، وإمَّا أن يكون مستمرّاً، وهو الواجب ليصحَّ كونُه وارداً ذمّاً لهم بالتسرُّع إلى التكذيب الذي هو منطوقُ النصِّ، فيجبُ أنْ يكونَ العطفُ على قوله سبحانه: ﴿أَمْ

---

(١) وصدره: أرى العنقاءَ تكبرُ أن تُصادا، والبيت لأبي العلاء المعري، وهو في شروح سقط الزند ٢/ ٥٥٣.

(٢) ينظر الكشاف ٢/ ٢٣٨.

﴿يَقُولُونَ افْتَرَنهُ﴾ ويكون ذلك لبيان أنَّهم كذَّبوا عن علم، وهذا لبيان تكذيبهم قبلَه أيضاً، ويكون الجهتان منظورتَين، وأنَّهم مذمومون فيهما.

والحاصل أنَّ «أم يقولون افتراه» لا مِريَةَ فيه أنَّه تكذيبٌ بعد العلم؛ لمكان الأمر بعده، لكن لمَّا جُعلَ التوقُّع المفاد بـ «لمَّا» لعِلْمِ الإعجاز لَزِمَ أنْ يكونَ بالنسبةِ إلى حالهم الأولى، وهو التكذيبُ قبلَ العلم، فإنَّ النبيَّ ﷺ كان يتوقَّعُ زوالَه بالعلم، ويكون معنَى المبالغة في «لمَّا» الإشعارَ باستغراق الوقت للتكذيب إلى زمان التأويلِ المنتَظَرِ الواقع الذي كذَّبوا فيه عناداً وبَغْياً.

الوجه الثاني: حَمْلُ التأويل على المعنى الثاني الذي ذكرناه، والمعنَى: بل سارَعُوا إلى التكذيب قبل الإحاطة بعلمه ليعرفوا إعجازَ نَظْمِه، وقبل[1] إتيانِ التأويلِ المنتَظر، وهو ما يَؤُولُ إليه من الصِّدق في الإخبار بالمغيَّبات. والمقصودُ من هذا ذمُّهم بالتسارُع إلى التكذيب من الوجهَين، لكنْ لمَّا كان مع الوجهَين علمُ ما يتضمَّنه لو يدَّبروا، لم يكن فيه شيءٌ منتظرٌ، والثاني لمَّا لم يكن كذلك كان فيه أمرٌ منتظَرٌ، وأتَى بحرف التوقُّع دليلاً عن أنَّ هذا المنتَظرَ كائنٌ، وسيظهر أنَّهم مُبطلون فيه أيضاً كالأول، ولا نظرَ إلى أنَّهم مذمومون حالتَي العناد والتقليد، بل المقصودُ كمالُ إظهار الإلزام بأنَّه مفروغٌ عنه مع أمثالهم للتهافُت المذكور.

الوجه الثالث: أنْ «أمْ يقولون افتراه» ذمٌّ لطائفة كذَّبوا عن علم، وهذا ذمٌّ لأُخرَى كذَّبَت عن شكٍّ، ولمَّا وُجد فيما بينهم القسمان أسنَدَ الكلَّ إلى الكُلِّ، وليس بِدعاً في القرآن، والغرضُ من الإضراب تعميمُ التكذيب، وأنه كان الواجب على الشاكِّ التوقفَ لا التسرُّعَ إلى التكذيب، ومعنَى التوقُّع أنَّه سيزول شكُّهم فيُسْلِم[2] بعضُهم ويبقى بعضٌ على ما هو عليه، والآيةُ ساكتةٌ عن التفصيل ناطقةٌ بزوال الشكِّ، ولا خفاءَ أنَّ الشاكَّ ينتظر، وكذلك كان ﷺ يتوقَّعُ زوالَ شكِّهم. انتهى.

ولا يخفَى أنَّ ما نقلناه[3] أوَّلاً أَولَى بالقبول[4] عند ذَوي العقول.

(١) في (م): وقيل، وهو تصحيف.
(٢) في (م): فسيعلم.
(٣) في (م): نقلنا.
(٤) قوله: بالقبول، ليس في الأصل.

وأُورد على دعوَى أنَّ «أم يقولون افتراه» تكذيبٌ بعد العلم، أنَّها ناشئةٌ من عدم العلم، وما سيقَ لإثباتها في حيِّز المنع، فإنَّ الإلزام بعد التحدِّي وذلك القولُ قبلَه، وكونُه مسبوقاً بالتحدِّي الوارد في سورة البقرة[١] يردُّه أنَّها مدنيةٌ وهذه مكيةٌ.

نعم ربما يقال في الاستدلال على كون ذلك القولِ بعدَ العلم بوقوعِ حكايته في النظم الكريم بعدَ حكاية الإشارة إلى مضمونه بقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥]، وردُّه بما سمعتَه هناك حَسْبَما قرَّره الجمهور.

وبيانُ ذلك: أنَّهم نُقل عنهم أولاً الإشارةُ إلى نسبة الافتراء إلى سيد الصادقين ﷺ، ثم نُقل عنهم التصريحُ بذلك، والظاهر أنَّ الأمرَ حسبما نُقل لكثرة وقوع التصريح بعد الإشارة، وقد تخلَّل ردُّ ما أشاروا إليه في البين، فيحتمل أنَّهم عقلوه وعلموا الحقَّ، لكنهم لم يقرُّوا به عناداً وبغياً فصرَّحوا بما صرَّحوا، فيكونُ ذلك منهم بعد العلم، ولِتَرَقِّيهم من الإشارة إلى التصريح ترقَّى في إلزامهم، فإنَّ هذا التحدِّي أظهرُ في الإلزام مما تقدَّم كما هو ظاهر، لكنْ للمناقشة في هذا مجال.

ويخطر بالبال أنَّه يحتمل أنْ يكونَ الإضراب عن ذمِّهم بالتكذيب بالقرآن إلى ذمِّهم بالمسارعة إلى تكذيب ما لم يحيطوا به علماً، وأنَّ الوقوف على العلم به متوقِّعٌ سواءٌ كان قرآناً أو غيره، فـ «ما»[٢] عامَّةٌ للأمرَين، ويدخل القرآنُ في العموم دخولاً أوليّاً، ولعله أَولَى مما قيل: إنَّه إضرابٌ عن مقدَّر، وينبغي أنْ تسمَّى «بل» هذه فصيحةً، فإنَّ المعنى: فما أجابوا، أو ما قدروا أنْ يأتوا، بل كذبوا.. إلخ.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ تكذيبهم من غير تدبُّرٍ وتأمُّلٍ ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: فعلوا التكذيبَ، أو كذَّبوا أنبياءهم فيما أَتَوا به.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ خطابٌ لسيد المخاطَبين ﷺ، ويحتمل أنْ يكونَ عامّاً لكلِّ مَن يَصلُح له. والمراد بـ «الظالمين»: الذين مِن قَبْلِهم، ووُضِعَ المُظْهَر موضع المضمَرِ للإيذان بكون التكذيبِ ظلماً، وبعلِّيته لإصابةِ

(١) الآية (٢٣) منها.
(٢) بعدها في الأصل: به.

ما أصابهم من سوء العاقبةِ، وبدخول هؤلاء الذين حُكي عنهم ما حُكي في زمرتهم جرماً ووعيداً دخولاً أولياً.

والفاءُ لترتيبِ ما بعدها على محذوفٍ ينساقُ إليه الكلام، أي: فأهلكناهم فانظر.. إلخ.

و«كيف» في موضع نصبِ خبرِ «كان»، وقد يُتصرَّف فيها فتوضعُ موضعَ المصدر، وهو: كيفية، ويخلع عنها معنى الاستفهام بالكلية، وهي هنا تَحْتمِلُ ذلك، وكذا قولُ البخاريِّ ﷺ: كيف كان بدءُ الوحي[١]، كما قال السمين[٢]. ونُقِلَ عنه أنَّ فعل النظر معلَّقٌ عن العمل لمكان «كيف»؛ لأنَّهم عاملوها في كلِّ موضعٍ معاملةَ الاستفهام المحض[٣].

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ وصفٌ لحالهم بعد إتيانِ التأويل المتوقَّع ـ كما قيل ـ إذ حينئذٍ يُمكن تنويعُهم إلى المؤمن به وغيرِ المؤمن به، ضرورةَ امتناعِ الإيمانِ بشيءٍ من غير علمٍ به، واشتراكِ الكلِّ في التكذيب قبل ذلك، فالضمير للمكذِّبين.

ومعنى الإيمانِ به إمَّا الاعتقاد بحقِّيَّته فقط، أي: منهم مَن يُصدِّق به في نفسه أنَّه حقٌّ عند الإحاطةِ بعلمه وإتيانِ تأويله، لكنه يُعاند ويكابِر. وإما الإيمان الحقيقي، أي: منهم مَن سيؤمنُ به ويتوبُ عن الكفر.

﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي: لا يصدِّقُ به في نفسه، كما لا يُصدِّق به ظاهراً، لفَرْطِ غَباوَتِه المانعةِ عن الإحاطة بعلمه كما ينبغي، أو لسخافةِ عَقْلِه واختلالِ تمييزه، وعجزِه عن تخليص علومه عن معارضة الظنونِ والأوهام التي أَلِفَها، فيبقَى على ما كان عليه من الشكِّ، أو لا يؤمنُ به فيما سيأتي، بل يموت على كفره مُعانداً كان أو شاكّاً.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾ أي: بكِلَا الفريقَين على الوجه الأول من التفسير، لا بالمعاندين فقط؛ لاشتراكهما في أصل الإفساد المستدعي لاشتراكهما في الوعيد

(١) الباب الأول في صحيح البخاري.
(٢) في الدر المصون ٦/ ٢٠٦ نقلاً عن المحرر الوجيز ٣/ ١٢١.
(٣) الدر المصون ٦/ ٢٠٥-٢٠٦.

المراد من الكلام، أو بالمصرِّين الباقين على الكفر على الوجه الثاني منه.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ أي: أصرُّوا على تكذيبك بعد إلزام الحجَّة، وأُوِّل بذلك لأنَّ أصل التكذيب حاصلٌ، فلا يصحُّ فيه الاستقبال المفاد بالشرط، وأيضاً جوابه وهو قوله سبحانه: ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ المرادُ منه التبرُّؤ والتَّخْلِيةُ، إنَّما يُناسبُ الإصرارَ على التكذيب واليأسَ من الإجابة، والمعنَى: لي جزاءُ عملي ولكم جزاء عملكم كيفما كانا.

وتوحيدُ العمل المضاف إليهم باعتبار الاتِّحاد النوعيِّ، ولمراعاة كمال المقابلة كما قيل.

وقولُه سبحانه: ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ تأكيدٌ لِمَا أفاده لامُ الاختصاص من عدم تعدِّي جزاء العمل إلى غير عامله، أي: لا تُؤاخَذون بعملي ولا أُؤاخَذُ بعملكم، وعلى هذا فالآيةُ محكَمةٌ غيرُ منسوخةٍ بآية السيف، لِمَا أنَّ مدلولها اختصاصُ كلٍّ بأفعاله وثمراتِها من الثواب والعقاب، وآيةُ السيف لم تَرفع ذلك.

وعن مقاتل والكلبيِّ وابن زيد: أنَّها منسوخةٌ بها، وكأنَّ ذلك لمَّا فهموا منها الإعراضَ وتركَ التعرُّض بشيءٍ.

ولعلَّ وجهَ تقديمِ حُكم المتكلم أولاً وتأخيرِه ثانياً، والعكسِ في حكم المخاطبين، ظاهرٌ مما ذكرناه في معنى الآية. فافهم.

❁ ❁ ❁

هذا ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾ وهو احتجابُهم عن قبول صفاتِ الحقِّ؛ وذلك لأنَّه بتوفُّر النعم الظاهرةِ والمراداتِ الجسمانية يقوَى ميلُ النفس إلى الجهة السفلية، فتحتَجبُ عن قبول ذلك، كما أنَّه بأنواع البلاء تنكسرُ سَوْرَةُ النفس، ويتلطَّفُ القلب، ويحصلُ الميلُ إلى الجهة العلويَّة، والتهيُّؤ لقبول ذلك.

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ بإخفاءِ القهرِ الحقيقيِّ في هذا اللطف الصُّوريِّ ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ في ألواح الملكوت.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: يُسيِّر نفوسَكم في بَرِّ المجاهدَات، وقلوبَكم في بحر المشاهدَات.

وقيل: يسيِّر عقولَكم في بَرِّ الأفعال، وأرواحَكم في بحر الصفات والذات.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ أي: فلكِ العناية الأزلية ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهي ريحُ صَبَا وِصَالِه سبحانه ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ لإيذانها بذلك، وتعطُّرها بشذا ديارِ الأُنس ومرابع القُدْسِ:

أَلَا يا نسيمَ الريح مالَكَ كلَّما تَقَرَّبْتَ منَّا زادَ نَشْرُكَ طِيْبا
أظنُّ سُلَيمَى خُبِّرَتْ بسقامنا فأعطتكَ ريَّاها فجئتَ طَبيبا[1]

﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ وذلك عاصفُ القَهْرِ وأمواجُ صفاتِ الجلال، وهذه سنَّةٌ جاريةٌ في العاشقين، لا يستمرُّ لهم حالٌ ولا يدومُ لهم وصالٌ، ولله دَرُّ من قال:

فَبِتْنا على رَغْم الحسود وبيننا شرابٌ كريح المسكِ شِيْبَ بهِ الخمرُ
فوسَّدتُها كفِّي وبتُّ ضَجيْعَها وقلتُ لِلَيْلي طُلْ فَقَد رَقَدَ البدرُ
فلمَّا أضاءَ الصبحُ فرَّق بَيْننا وأيُّ نعيمٍ لا يُكَدِّرُهُ الدهرُ[2]

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أي: أنَّهم مِن الهالكين في تلك الأمواج ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ بالتبرِّي من غير الله تعالى، قائلين: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لك بك.

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وهو تجاوزُهم عن حدِّ العبودية بسُكْرِهم في جمال الربوبية، وذلك مثلُ ما عرا الحلَّاجَ وأضرابَه، ثم إنَّه سبحانه نَبَّههم بعدَ رجوعهم من السُّكْرِ إلى الصَّحْوِ على أنَّ الأمر وراءَ ذلك، بقوله جلَّ وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ أي: إنَّه يرجعُ إليكم ما ادَّعيتُم لا إليه تعالى، فإنَّه سبحانه الوجود[3] المطلق حتى عن قيدِ الإطلاق، كذا قالوا.

(١) البيتان في المدهش لابن الجوزي ص٤٦٨.
(٢) الأبيات لصريع الغواني، وهي في ديوانه ص٣١٧.
(٣) في (م): الموجود.

وقال ابنُ عطاء في الآية: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا﴾مراكبَ المعرفة، وجرَت بهم رياحُ العناية، وطابَت نفوسُهم وقلوبُهم بذلك، وفرحوا بتوجُّههم إلى مقصودهم ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾أفنتْهم عن أحوالهم وإرادتهم ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أي: تيقَّنوا أنَّهم مأخوذون عنهم، ولم يبق لهم ولا عليهم صفةٌ يرجعون إليها، وأنَّ الحقَّ خصَّهم من بين عبادِه بأنْ سَلَبهم عنهم ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ حيث صفَّى سبحانه أسرارَهم، وطهَّرها مما سواه ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ﴾ أي: ردَّهم إلى أوصافهم وأشباحهم، رجعوا إلى ما عليه عوامُّ الخلق من طلَب المعاش للنفوس. انتهى.

وكأنَّه حمل البغيَ على الطلب، وضمَّنه معنَى الاشتغال، أي: يطلبون في الأرض مشتغلينَ بغير الحقِّ سبحانه، وهو المعاشُ الذي به قوامُ أبدانهم.

ويُشْكِلُ أمرُ الوعيدِ المنبئ به ﴿فَنُنَبِّئُكُم﴾ إلخ على هذا التأويل وما قبله؛ لأنَّ ما يقع في السكر لا وعيدَ عليه، وكذا طلبُ المعاش. وانظر هل يصحُّ أنْ يقال: إنَّ الأمر من باب: حسناتُ الأبرارِ سيئاتُ المقرَّبين؟.

ثم إنَّه سبحانه مثَّل الحياةَ في سرعة زوالها وانصرام نعيمها غِبَّ إقبالها واغترار صاحبها بها بما أشار إليه سبحانه بقوله جلَّ وعلا: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ﴾ إلخ، وفيه إشارةٌ إلى ما يَعْرِض ـ والعياذُ بالله تعالى ـ لمن سبقَت شقاوتُه في الأزل من الحَوْرِ بعد الكَوْرِ، فبينما تراه وأحوالُه حاليَةٌ، وأعوامُه عن شوائب الكَدَر خاليةٌ، وغصونُ أُنْسِه متدلِّيةٌ، ورياضُ قُرْبِه مُونِقةٌ، قلَبَ الدهرُ له ظهْرَ المِجَنِّ، وغزاه بجيوشِ المحَنِ، وهبَّت على هاتيك الرياض عاصفاتُ القضاء، وضاقت عليه فسيحاتُ الفضاء، وذهَبَ السرورُ والأنس، وجُعل حصيداً كأنْ لم يَغْنَ بالأمس، وأنشد لسانُ حاله:

قِف بالديار فهذه آثارُهم تبكي[1] الأحبةَ حسرةً وتَشَوُّقا
كم قد وَقفتُ بها أُسائلُ مُخبِراً عن أهلها أو صادقاً أو مُشْفِقا
فأجابني داعي الهوى في رسمها فارقْتَ مَن تَهوى فعزَّ الملتقَى[2]

(١) في (م): نبكي.
(٢) حلية الأولياء ١٠/٣٤٨، وتاريخ بغداد ٤/٤٣٣، وطبقات الصوفية ص٢٦٤.

﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ وهو العالَمُ الروحانيُّ السليمُ من الآفات ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ لا شُعوبَ فيه، وهو طريقُ الوحدة.

وقد يقال: يدعو الجميعَ إلى داره، ويَهدي خواصَّ العارفين إلى وِصاله، أو: يدعو السالكينَ إلى الجنة، ويَهدي المجذوبينَ إلى المشاهدةِ.

﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ وهم خواصُّ الخواصِّ ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ وهي رؤيةُ الله تعالى ﴿وَزِيَادَةٞۖ﴾ وهي دوامُ الرؤية. أو: للذين جاؤوا بما يَحسُنُ به حالُهم من خيرٍ قلبيٍّ أو قالبيٍّ، المثوبةُ الحسنَى من الكمال الذي يُفاضُ عليهم، وزيادةٌ في استعداد قبول الخير إلى ما كانوا عليه قبلُ.

وقد يقال: «الحسنى» ما يقتضيه قربُ النوافل، والزيادة ما يقتضيه قربُ الفرائض.

﴿وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ﴾ أي: لا يُصيبُهم غبارُ الخجالة ولا ذلُّ الفرقة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ التي تقتضيها أفعالُهم ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

ثم ذكر سبحانه حالَ الذين أساؤوا بقوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ إلخ وأشار إلى أنه على عكس حالِ أولئك الكرام.

﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾ في المجمع الأكبر ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ منهم، وهم المحجوبون الواقفون مع الغير بالمحبةِ والطاعة ﴿مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ﴾ قِفُوا جميعاً وانتظروا الحكمَ.

﴿فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ﴾ أي: قَطعْنا الأسباب التي كانت بينهم ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ﴾ بل كنتم تعبدون أشياءَ اخترعتُمُوها في أوهامكم الفاسدة. ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾ لم نطلبها منكم لا بلسان حالٍ ولا بلسان قالٍ.

﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك الموقف ﴿تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ﴾ أي: تذوقُ وتختبرُ ﴿مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ﴾ في الدنيا ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ المتولِّي لجزائهم بالعدل والقِسْط ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ من اختراعاتهم وتوهُّماتهم الكاذبة وأمانيهم الباطلة.

ثم ذكر سبحانه مما يَدُلُّ على التوحيد ما ذكر، والرزقُ من السماء عند العارفين هو رزقُ الأرواح، ومن الأرض رزقُ الأشباح، والحيُّ عندهم العارفُ، والميتُ الجاهل.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ ذمٌّ لهم بعَدَمِ العلم بما يجبُ لمولاهم، وما يمتنع وما يجوز، ولا يكادُ ينجو من هذا الذمِّ إلا قليلٌ، ومنهم الذين عرفوه جلَّ شأنه به لا بالفكر، بل قد يكاد يقصر العلم عليهم، فإنَّ أدلَّةَ أهلِ الرسوم من المتكلِّمين وغيرِهم متعارضةٌ، وكلماتهم متجاذبةٌ، فلا تكاد تَرَى دليلاً سالماً من قيلٍ وقال، ونزاعٍ وجدال، والوقوفُ على علمٍ من ذلك مع ذلك أمرٌ أبعدُ من العيُّوق، وأعزُّ مِن بَيض الأنُوق:

لقد طُفْتُ في تلكَ المعاهدِ كلِّها وسرَّحتُ طَرْفي بين تلك المعالمِ
فلمْ أرَ إلا واضعاً كفَّ حائرٍ على ذقنٍ أو قارعاً سنَّ نادمِ[1]

فَمَن أرادَ النجاةَ فليفعلْ ما فعل القومُ ليَحْصُلَ له ما حَصَلَ لهم، أو لا فليتَّبع السَّلفَ الصالح فيما كانوا عليه في أمر دينهم، غيرَ مُكترثٍ بمقالات الفلاسفة ومَن حذا حَذْوَهم من المتكلِّمين، التي لا تزيدُ طالبَ الحقِّ إلا شكّاً.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من اللوحِ المحفوظِ ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الذي هو الأمُّ، أي: كيف يكون مختلقاً وقد أثبتَ قبلَه في كتابين مُفصَّلاً ومجملاً.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ ذمٌّ لهم بالمسارَعةِ إلى تكذيب الحقِّ قبل التأمُّلِ والتدبرِ والاطِّلاعِ على الحقيقة، وهذه عادةُ المنكرين أهلِ الحجاب مع كلمات القوم، حيث إنَّهم يُسارعون إلى إنكارها قبل التأمُّل فيها، وتدبُّرِ مضامينها، والوقوفِ على الاصطلاحات التي بُنِيَتْ عليها، وكان الحرِيُّ بهم التثبتُ والتدبُّرُ. والله تعالى ولي التوفيق.

❁ ❁ ❁

(١) البيتان لابن سينا كما في وفيات الأعيان ٢/ ١٦١، وقد سلفا ٤/ ٣٠٧.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ بيانٌ لكونهم مطبوعاً على قلوبهم بحيث لا سبيلَ إلى إيمانهم، «ومَن» مبتدأ خبرُه مقدَّمٌ عليه، وهو إمَّا موصولٌ أو نكرةٌ موصوفةٌ، والجملةُ بعده إمَّا صلةٌ أو صفةٌ، وجُمِعَ الضمير الراجع إليه رعايةً لجانبِ المعنَى، كما أُفرد فيما بعدُ رعايةً لجانب اللفظ، ولعل ذلك للإيماءِ إلى كثرة المستمعين بناءً على عدم توقُّف الاستماع على ما يتوقَّفُ عليه النظر من الشروط العادية أو العقلية، والمعنَى: ومِن المكذِّبين الذين ـ أو أُناسٌ ـ يُصغون إلى القرآن، أو إلى كلامك إذا علَّمتَ الشرائع، وتَصِلُ الألفاظُ لآذانهم، ولكنْ لا ينتفعون بها ولا يقبلونها، كالصُّمِّ الذين لا يسمعون.

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ أي: تقدرُ على إسماعهم ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أي: ولو انضمَّ إلى صَمَمِهم عدمُ عقلهم؛ لأنَّ الأصمَّ العاقل ربَّما تفرَّس إذا وصل إلى صِماخه دويٌّ، وأمَّا إذا اجتمع فقدانُ السمع والعقلِ فقد تمَّ الأمرُ.

وإنَّما جُعلوا كالصُّمِّ الذين لا عقْلَ لهم مع كونهم عقلاء؛ لأنَّ عقولَهم قد أُصيبَت بآفةِ معارضةِ الوهم لها، وداءِ متابعة الإلْفِ والتقليد، ومِن هنا تَعذَّر عليهم فهمُ معاني القرآن والأحكام الدقيقة، وإدراكُ الحِكَم الرشيقة الأنيقة، فلم ينتفعوا بسَرْدِ الألفاظ عليهم غيرَ ما تنتفعُ به البهائم من كلام الناعق.

وتقديمُ المسند إليه في «أفأنت» للتقوية عند السكاكي[1]، وجَعَله العلَّامةُ للتخصيص، ففي تقديم الفاعل المعنويِّ وإيلائه همزةَ الإنكارِ الدلالةُ على أنَّ نبيَّ الله ﷺ تَصوَّر في نفسه ـ مِن حِرْصِه على إيمان القوم ـ أنَّه قادرٌ على الإسماع. أو نُزِّل مَنزلةَ مَن تَصوَّر أنَّه قادرٌ عليه، وأنَّه تعالى شأنُه نفَى ذلك عنه ﷺ وأثبتَه لنفسه سبحانه على الاختصاص، كأنَّه قيل: أنتَ لا تقدرُ على إسماع أولئك، بل نحن القادرون عليه. كذا قيل، وفي القلب منه شيءٌ، ولذا اختير هنا مذهبُ السكاكي. وجُعل إنكار الإسماع متفرِّعاً على المقدِّمة الاستدراكية المطويَّة المفهومة من المقام حسبما أُشيرَ إليه، وفيه اعتبارُ كونِ الهمزة مُقدَّمةً من تأخيرٍ لاقتضائها الصدارةَ، وهو مذهبٌ لبعضهم.

---

(١) مفتاح العلوم ص١٩٥ و٢٢١، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ٣٢.

وقيل: إنَّها في موضعها، وأُدخلت الفاءُ لإنكار ترتُّبِ الإسماع على الاستماع، لكن لا بطريق العطف على فعله المذكور الواقع صلةً أو صفةً، للزوم اختلال المعنَى على ذلك[1]، بل بطريق العطف على فعلٍ مثله، مفهوم من فحوَى النظم غيرِ واقعٍ موقعه، كأنَّه قيل: أيستمعون إليك فأنت تُسمعهم، وقد يُراد إنكارُ إمكان وقوع الإسماع عقيبَ ذلك وترتُّبه عليه، كما يُنبئ عنه وضْعُ الصمِّ موضعَ ضميرهم ووصْفُهم بعدم العقل.

وجواب «لو» محذوفٌ لدلالة ما قبله[2] عليه، والجملةُ معطوفةٌ على جملةٍ مقدَّرةٍ مقابِلة لها، والكلُّ في موضع الحال من مفعول الفعل السابق، أي: أفأنت تُسمع الصمَّ لو كانوا يعقلون ولو كانوا لا يعقلون، على معنَى: أفأنت تُسمعهم على كلِّ حالٍ مفروضٍ، ويقال لـ «لو» هذه: وصلية، وذلك أمرٌ مشهور.

واستشكل الإتيان بها هنا بأنَّ الأصل فيها أنْ يكون الحُكم على تقدير تحقق مدخولها ثابتاً، كما أنَّه ثابتٌ على تقديرِ عَدَمِه، إلا أنَّه على تقدير عدمه أولَى، والأمرُ هنا بالعكس.

وأُجيبَ بأنَّ اتِّصال الوصلِ بالإثبات جارٍ على المعروف، فإنَّ تقديره: تُسمعهم ولو كانوا لا يعقلون، وظاهرٌ أنَّ إسماعهم مع العقل بطريق الأولَى، والاستفهامُ إثباتٌ بحسب الظاهر، فإنْ نُظِرَ إليه فذاك، وإنْ نُظِرَ إلى الإنكار وأنَّه نَفْيٌ بحسب المعنى اعتُبر أنَّه داخلٌ على المجموع بعد ارتباطه، وكذا يقال فيما بعدُ، فتأمَّل فيه ولا تغفل.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ ويُعاينُ دلائلَ نُبوَّتك الواضحة، ولكن لا يهتدي بها كالأعمى ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ تقدرُ على هدايتهم ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: ولو انضمَّ إلى عدم البصر عدمُ البصيرة، فإنَّ المقصود من الإبصار هو الاعتبارُ والاستبصار، والعمدةُ في ذلك هي البصيرة، ولذلك يَحدِسُ الأعمى المستَبْصِرُ وَيَتَفطَّن لِمَا لا يُدركُ البصير الأحمقُ، فلا يقال: كيف أُثبِتَ لهم النظر والإبصارُ أولاً ونُفي عنهم ثانياً.

---

(١) لأنه سواء كان هذا الفعل صلة أو صفة فالعطف عليه يستدعي دخول المعطوف في حيِّزه، وتوجُّهَ الإنكار عليه من تلك الحيثية، ولا ريب في فساده. تفسير أبي السعود ٤/ ١٤٨.

(٢) في الأصل: قبل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ﴾ أي: لا يَنقُصُهم ﴿شَيۡـًٔا﴾ مما نيطَت به مصالحهم وكمالاتُهم، من مبادي الإدراكات وأسبابِ العلوم، والإرشادِ إلى الحقِّ بإرسال الرسل عليهم السلام ونَصْبِ الأدلة، بل يُوفِّيهم ذلك فضلاً منه جلَّ شأنه وكرماً.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ أي: ينقصون ما ينقصون من ذلك لعدم استعمال مشاعرهم فيما خُلقَت له، وإعراضِهم عن قبول الحقِّ، وتكذيبهم للرسل، وتَرْكِ النظر في الأدلة، فـ «شيئاً» مفعولٌ ثانٍ لـ «يظلم» بناءً على أنه مُضمَّنٌ معنى ينقُصُ كما قيل، أو أنَّه بمعناه من غير حاجةٍ إلى القول بالتضمين كما نقول، وأنَّ النقص يتعدَّى لاثنين، كما يكون لازماً ومتعدِّياً لواحد.

ولم يُذكر ثاني مفعولي الثاني لعدم تعلُّقِ الغرض به. وتقديمُ المفعول الأول يحتملُ أنْ يكون لمجرَّد الاهتمام مع مراعاة الفاصلة، من غير قصدٍ إلى قصْرِ المظلومية عليهم على رأي مَن لا يرَى التقديمَ موجباً للقصر، كابنِ الأثير(١) ومَن تبعه، كما في قوله سبحانه: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ [هود: ١٠١]. ويحتمل أنْ يكونَ لقَصْرِ المظلومية على رأي من يَرى التقديمَ موجباً لذلك، كالجمهور ومَن تبعهم. ولعل إيثارَ قَصْرِها على قَصْرِ الظالمية عليهم للمبالغة في بطلان أفعالهم وسخافةِ عقولهم، على أنَّ قَصْرَ الأولى عليهم مستلزمٌ ـ كما قيل ـ لِمَا يقتضيه ظاهرُ الحال من قَصْرِ الثانية عليهم، فاكتفَى بالقصر الأول عن الثاني مع رعاية ما ذكر من الفائدة.

وجوَّز بعضُهم كونَ «أنفسهم» تأكيداً للناس، والمفعولُ حينئذٍ محذوفٌ، فيكونُ بمنزلة ضمير الفصل في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف:٧٦] في قَصْر الظالمية عليهم.

والتعبيرُ عن فِعْلِهم ذلك بالنقص مع كونه تفويتاً بالكلِّية لمراعاة جانبِ قرينه. وصيغةُ المضارع للاستمرار نفياً وإثباتاً، أمَّا الثاني فظاهرٌ، وأمَّا الأول، فلأنَّ حرفَ النفي إذا دخل على المضارع يفيد بحسب المقام استمرارَ النفي لا نفي الاستمرار كما مرَّ غيرَ مرةٍ.

(١) في المثل السائر ٢/ ٣٩.

وقيل: المعنَى: إنَّ الله لا يظلمُ الناسَ بتعذيبهم يوم القيامة شيئاً من الظلم، ولكنَّ الناس أنفسَهم يظلمون ظلماً مستمرّاً، فإنَّ مباشرتَهم المستمرَّة للسيئات الموجبةِ للتعذيب عينُ ظلمهم لأنفسهم، فالظلمُ على معناه المشهور، و«شيئاً» مفعولٌ مطلقٌ، والمضارعُ المنفيُّ للاستقبال، والمثبَتُ للاستمرار.

ومساقُ الآية الكريمة على الأول لإلزام الحجَّةِ، وعلى الثاني للوعيد، وعلى الوجهَين هي تذييلٌ لِمَا سبق. وجَعْلُها على الأول تذييلاً لجميع التكاليفِ والأقاصيصِ المذكورة من أول السورة ـ وإنْ كان مُتَّجهاً ـ خلافُ الظاهر، لاسيَّما وما بعدُ ليس ابتداءَ شروعٍ في قصةِ آخرين.

وقيل: معنَى الآيةِ: إنَّ الله لا يظلمُ الناسَ شيئاً بسَلْبِ حواسِّهم وعقولهم إنْ سَلَبها، لأنَّه تصرُّفٌ في خالص مُلكه، ولكنَّ الناسَ أنفسَهم يظلمون بإفساد ذلك وصَرْفِهِ لِمَا لا يليقُ، وهي جوابٌ لسؤالٍ نشأ من الآية السابقة، والظلمُ فيها على ظاهره أيضاً.

واستُدلَّ بها على أنَّ للعبد كَسْباً، وليس مسلوبَ الاختيارِ بالكلية كما ذهبَ إليه الجبرية، والمختارُ عند كثير من المحقِّقين أنَّ نفْيَ ظلم الناس عنه تعالى شأنُه لأنَّه سبحانه جوادٌ حكيم يُفيضُ على القوابل حَسْبَ استعدادها الأزليِّ الثابت في العلم، فما مِن كمالٍ أو نقصٍ في العبد إلا هو كمالُه أو نقصُه الذي اقتضاه استعدادُه، كما يُرشد إلى ذلك قولُه جلَّ وعلا: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [طه: ٥٠] وقوله سبحانه: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٨]. وأنَّ إثبات ظلم الناس لأنفسهم باعتبار اقتضاءِ استعدادِهم الثابت في العلم الأزليِّ ما أُفيض عليهم مما استحقُّوا به التعذيب.

وقد ذكروا أنَّ هذا الاستعدادَ غيرُ مجعولٍ، ضرورةَ أنَّ الجَعْلَ مسبوقٌ بتعلُّق القدرة المسبوق بتعلُّق الإرادة المسبوقِ بتعلُّق العلم، والاستعدادُ ليس كذلك؛ لأنَّه لم يثبت العلم إلا وهو متعلِّق به، بل بسائر الأشياء أيضاً؛ لأنَّ التعلُّق بالمعلوم من ضروريات العلم، والتعلُّقُ بما لا ثُبوتَ له أصلاً مما لا يُعقَلُ، ضرورةَ أنَّه نسبةٌ، وهي لا تَتحقَّق بدون ثبوت الطرفَين.

ولا يَرِدُ على هذا أنَّه يلزَمُ منه استغناءُ الموجوداتِ عن المؤثِّر؛ لأنَّا[1] نقول: إنْ كان المراد استغناءَها عن ذلك نظراً إلى الموجود العِلْميِّ القديم فالأمرُ كذلك، ولا محذورَ فيه، وإنْ كان المراد استغناءها عن ذلك نظراً إلى وجودها الخارجيِّ الحادث، فلا نُسلِّم اللزوم. وتحقيقُ ذلك بما له وما عليه[2] في محلِّه.

وفي الآية على هذا تنبيهٌ على أنَّ كون أولئك المكذِّبين كما وُصفوا إنما نَشَأ عن اقتضاءِ استعدادِهم له، ولذلك ذُمُّوا به، لا عن مَحْضِ تقديره عليهم من غير أنْ يكونَ منهم طلبٌ له باستعدادهم، ولعل تسميةَ التصرُّف على خلافِ ما يقتضيه الاستعداد لو كان ظلماً من باب المجاز وتنزيلِ المقتضي منزلةَ الملك، وإلا فحقيقةُ الظلم مما لا يصحُّ إطلاقه على تصرُّفٍ من تصرُّفاته تعالى كيف كان، إذ لا ملك حقيقةً لأحدٍ سواه في شيءٍ من الأشياء.

ووُضع الظاهرُ في الجملة الاستدراكية موضعَ الضمير لزيادة التعيين والتقرير. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ بتخفيف «لكنْ» ورَفْع «الناس»[3].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ بالياء وهي قراءةُ حفصٍ عن عاصم[4]، وقرأ الباقون بالنون على الالتفات. و«يوم» عند الأكثرين منصوبٌ بمضمرٍ، أي: اذكُر لهم ـ أو أَنذرهم ـ يومَ نجمعُهم لموقف الحساب.

﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ أي: كأنَّهم أناسٌ لم يلبثوا[5] ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: شيئاً قليلاً منه، فإنَّها مَثَلٌ في غاية القِلَّة، وتخصيصُها بالنهار لأنَّ ساعاته أعرفُ حالاً من ساعات الليل.

---

(١) جاء في هامش الأصل: ذهب بعض المحققين إلى أن المعلومات في العلم صادرة منه تعالى (وبعدها كلمة غير مجودة) فلا تغفل. اهـ منه.

(٢) في الأصل: بما له وعليه.

(٣) التيسير ص١٢٢، والنشر ٢/ ٢١٩، وهي قراءة خلف من العشرة.

(٤) في الأصل: حمزة عن عاصم، وفي (م): حمزة على عاصم، والصواب ما أثبتناه، وهي عن حفص في التيسير ص١٠٧، والنشر ٢/ ٢٦٢.

(٥) في (م): يلبسوا، وهو تصحيف.

والجملةُ في موقع الحال من مفعول «نحشرُهم»، أي: نحشرُهم مشبَّهين بمَن لم يَلْبَثْ في الدنيا أو في البرزخ إلَّا ذلك القدرَ اليسير.

وليس المرادُ من التشبيه ظاهرَه على ما قيل، وقد صرَّح في «شرح المفتاح»[1] أنَّ التشبيه كثيراً ما يُذكر ويُراد به معانٍ أُخَرُ تَتَرتَّب عليه. فالمرادُ إمَّا التأسُّفُ على عدم انتفاعهم بأعمارهم، أو تمنِّي أنْ يطولَ مُكثُهم قبل ذلك حتى لا يشاهدوا ما شاهدوه من الأهوال، فمآلُ الجملة في الآخرة: نحشرُهم متأسِّفين أو متمنِّين طول مكثهم قبل ذلك.

ويجوزُ أنْ يراد: تحشرُهم مُشبَّهين في أحوالهم الظاهرة للناس بمن لم يلبث في الدنيا ولم يتقلَّب في نعيمها إلا يسيراً، فإنَّ مَن أقام بها دهراً وتمتَّع بمتاعها لا يخلو عن بعض آثارِ نعمةٍ وأحكام بهجةٍ منافيةٍ لما بهم من رثاثة الهيئة وسوء الحال، وإليه ذهب بعضُهم، والظاهرُ أنَّه تكلُّفٌ لإبقاء التشبيه على ظاهره، والأول أولَى كما لا يخفَى.

وأيّاً ما كان ففائدةُ التشبيه كنارٍ على علم، والعجبُ ممن لم يَرَها فقال: الظاهرُ أنَّ «كأنْ» للظنِّ.

وادَّعى البعض[2] أنَّ فائدةَ التقييد على تقدير أنْ يرادَ اللبثُ في البرزخ بيانُ كمال يُسْرِ الحشر بالنسبة إلى قدرته تعالى ولو بعد دهرٍ طويلٍ، وإظهارُ بطلان استبعادهم وإنكارهم بقولهم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٢]، ونحو ذلك، أو بيانُ تمامِ الموافقةِ بين النشأتَين في الأشكال والصُّورِ، فإنَّ قلَّةَ اللُّبث في البرزخ من موجبات عدم التبدُّلِ والتغيُّر. ولعلَّ مآل الحال على هذا: ويوم نحشرُهم على صورهم وأشكالهم غيرَ متغيِّرين.

وجوَّزَ أبو عليٍّ[3] كونَ الجملة في موضع الصفة لـ «يوم»، والعائدُ محذوفٌ تقديره: كأنْ لم يلبثوا قبله، أو لمصدرٍ محذوفٍ والعائدُ كذلك، أي: حشراً كأن لم يلبثوا قبله.

---

(١) كما في حاشية الشهاب ٦/ ٣٣، وعنه نقل المصنف.

(٢) هو أبو السعود في تفسيره ٦/ ١٥٠.

(٣) هو الفارسي، وكلامه في مجمع البيان ١١/ ٥٤-٥٥.

ورُدّا[١] بأنَّ مثل هذا الرابط لا يجوزُ حذفُه، والأولُ بأنَّ المراد بالظرف المضاف ـ وهو الموصوف ـ يومُ القيامة، وهو يومٌ معيَّنٌ، وتقدير الكلام: يومَ حَشْرِه، أو: يومَ حَشْرِنا، فيكون الموصوفُ معرفةً، والجملُ نكرات ولا تُنعت المعرفة بالنكرة.

وأُجيبَ بأنَّ المنع من جواز حذف مثل ذلك الرابط في حيِّز المنع، وبأنَّ الجمل التي تضاف إليها أسماء الزمان قد يقدَّر حلُّها إلى معرفةٍ، فيكونُ ما أُضيف إليها معرفةً، وقد يقدَّر حلُّها إلى نكرة، فيكون ذلك نكرة، ولعل أبا عليٍّ يتكلَّف لاعتبارِ حلِّها إلى نكرة، ويكونُ الموصوف هنا نكرةً عنده، فيرتفعُ محذورُ نعتِ المعرفة بالنكرة.

وأنت تعلمُ أنَّ الجواب إنما يدفعُ البطلانَ لا غير، فالحقُّ ترجيحُ الحالية.

وقولُه سبحانه: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ ـ أي: يعرفُ بعضُهم بعضاً كأنَّهم لم يتفارَقوا إلَّا قليلاً ـ يحتمل أنْ يكونَ استئنافاً، وأن يكونَ بياناً للجملة التشبيهية واستدلالاً عليها كما قيل، وذلك أنَّه لو طال العهدُ لم يبقَ التعارُفُ؛ لأنَّ طول العهد مُنْسٍ مُفْضٍ إلى التناكُر، لكنَّ التعارف باقٍ فطولُ العهدِ مُنتفٍ، وهو معنى «لم يَلبَثوا إلا ساعةً»، وفيه دغدغة.

وزعَمَ أبو البقاء كونَه حالاً مقدَّرة[٢]، ولا داعيَ لاعتبارِ كونها مقدَّرة؛ لأن الظاهر عدمُ تأخُّرِ التعارُفِ عن الحشر بزمانٍ طويل ليُحتاجَ إليه، وقد صرَّحوا بأنَّ التعارُف بينَهم يكون أولَ خروجهم من القبور، ثم ينقطع لشدَّة الأهوال المذهلة، واعتراءِ الأحوال المعضلة المغيِّرة للصُّور والأشكال، المبدِّلة لها من حالٍ إلى حال.

وعندي أنْ لا قَطْعَ بالانقطاع، فالمواقفُ مختلفةٌ والأحوالُ متفاوتةٌ، فقد يتعارَفون بعدَ التناكُر في موقفٍ دون موقفٍ وحالٍ دون حال، وفي بعض الآثار ما يؤيِّد ذلك.

---

(١) في (م): ورد، والمثبت من الأصل، وهو الصواب. ينظر حاشية الشهاب ٥/ ٣٣.
(٢) الإملاء ٣/ ٢٣٣.

وزَعَم بعضُهم المنافاةَ بين ما تدلُّ عليه هذه الآيةِ وما يدلُّ عليه قولُه سبحانه: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون:١٠١] وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج:١٠] من عَدَم التعارف، لولا اعتبار الزمانين.

وقيل: لا منافاةَ؛ بناءً على أنَّ المثبت تعارُفُ تقريعٍ وتوبيخٍ، والمنفيّ تعارفُ تواصُلٍ وشفقة.

ولمانعٍ أنْ يمنعَ دلالةَ ما ذُكر من الآيات على نفْيِ التعارف، وقُصارَى ما تدلُّ[1] عليه نفيُ نَفْعِ الأنساب وسؤالِ بعضِهم بعضاً، والتعارُف الذي تدلُّ عليه هذه الآيةُ لا ينافي ذلك؛ فقد أخرج ابنُ أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن أنَّه قال فيها: يعرِفُ الرجل صاحبَه إلى جنبه فلا يستطيعُ أنْ يكلِّمه[2].

ثم إنَّ حمْلَ التعارُفِ على معرفة بعضهم بعضاً هو المعروفُ عند المفسرين. وقيل: المراد به التعريفُ، أي: يعرِّفُ بعضُهم بعضاً ما كانوا عليه من الخطأ والكفر، وفيه ما فيه.

وجوَّز بعضُهم أنْ يكونَ الظرفُ السابقُ متعلِّقاً بـ «يتعارفون»، قيل: فيعطَفُ على ما سبق. ولا يظهرُ له وجهٌ.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ سيقَت للشهادة منه تعالى على خُسرانهم والتعجيبِ منه، وهي خبريَّةٌ لفظاً، إنشائيةٌ معنًى.

وقيل: مقولٌ لقولٍ مقدَّرٍ وقع حالاً من ضمير «يتعارفون»، أو من ضمير «يحشرُهم» إن كانت جملة «يتعارفون» حالاً أيضاً لئلَّا يفصل بينَ الحال وذِيها أجنبيٌّ، والاستئنافُ أظهرُ.

والتعبيرُ عنهم بالموصول مع أنَّ المقام مقامُ إضمارٍ، لذمِّهم بما في حيِّز الصلة، وللإشعار بعلِّيته لِمَا أصابهم. والظاهرُ أنَّ المراد بـ «لقاء الله» تعالى مطلقُ الحساب والجزاء، وبالخسران الوضيعةُ، أي: قد وُضعوا في تجارتهم ومعاملتهم واشترائهم الكفر بالإيمان.

---

(١) في (م): يدل.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٥٥، وعزاه لأبي الشيخ السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٠٨.

وجوّز أنْ يُراد بالأول سوءُ اللقاء، وبالثاني الهلاكُ والضلال، أي: قد ضلُّوا وهلكوا بتكذيبهم بذلك.

﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: لطُرقِ التجارة عارفِينَ بأحوالها، أو ما كانوا مهتدين إلى طريق النجاة، والجملةُ عطفٌ على جملة «قد خسر» إلخ. وجوّز أن تكون معطوفةً على صلةِ الموصول على أنّها كالتأكيد لها.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ أصلُه: إنْ نُرينَّك، و«ما» مزيدة[1] لتأكيد معنى الشرط، ومن ثَمَّةَ أكّد الفعلُ بالنون، والرؤيةُ بَصَريةٌ، أي: إمَّا نُرينَّك بعينك ﴿بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب، بأنْ نعذِّبهم في حياتك ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك.

﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ جوابٌ للشرط وما عُطِفَ عليه، والمعنى: إنَّ عذابهم في الآخرة مُقرَّرٌ، عُذِّبوا في الدنيا أوْ لا.

وقيل: هو جوابُ «نَتَوَفَّيَنَّكَ»، كأنَّه قيل: إمَّا نتوفَّينَّك فإلينا مرجعُهم فنُرِيكَه في الآخرة، وجوابُ الأول محذوفٌ، أي: إمَّا نرينَّك فذاك المراد، أو المتمنَّى، أو نحو ذلك. وقال الطيبيُّ: أي: فذاك حقٌّ وصوابٌ، أو واقعٌ أو ثابتٌ.

واختار الأولَ أبو حيان[2]. والاعتراضُ عليه بأنَّ الرجوع لا يترتَّب على تلك الإراءة، فيحتاجُ إلى التزام كون الشرطية اتِّفاقيةً، ناشئٌ من الغفلة عن المعنى المرادِ.

والمراد من «نَعِدُهم»: وَعَدْناهم، إلا أنّه عدل إلى صيغة الاستقبال لاستحضار الصورة، أو للدلالة على التجدُّد والاستمرار، أي: نعدُهم وعداً متجدِّداً حَسْبَما تقتضيه الحكمة من إنذارٍ غِبَّ إنذار.

وفي تخصيص البعض بالذِّكر، قيل: رمزٌ إلى أنَّ العِدَةَ بإراءة بعضِ الموعود، وقد أَراه ﷺ ذلك يومَ بدر.

﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ من الأفعال السيئة التي حُكيت عنهم، والمرادُ من الشهادة لازِمُها مجازاً، وهو المعاقبةُ والجزاءُ، فكأنَّه قيل: ثم الله تعالى معاقِبٌ

---

(١) في (م): مزيد.
(٢) في البحر ٥/ ١٦٤.

على ما يفعلون. وجوّز أنْ يُراد منها إقامتُها وأداؤها بإنطاق الجوارح، وإلا فشهادةُ الله سبحانه بمعنى كونه رقيباً وحافظاً أمرٌ دائم في الدارَين، و«ثم» لا تناسبُ ذلك[1].

والظاهرُ أنَّها على هذَين الوجَهين على ظاهرها، وفي «الكشف» وغيرِه: هي على الأول للتراخي الرُّتْبي، وعلى الثاني على الظاهر. وظاهرُ كلام البعض استحسانُ حَمْلِها على التراخي الرُّتْبي مطلقاً. ولا أرى لارتكاب خلافِ الظاهرِ بعد ذلك الارتكاب داعياً.

وأنَّ العطف بها على الجزاء لا على مجموع الشرطيةِ. وأنت تعلمُ أنَّ العطف على ذاك يَمنعُ من إرادة التعذيب منه أو إراءتِه، أو نحوِ ذلك مما لا يصحُّ أنْ يكون المعنى المعطوفُ بـ «ثم» بعده ومترتِّباً عليه، ولعل ما اعتبروه هناك ليس تفسيراً للرجوع، بل هو بيانٌ للمقصود من الكلام.

وإظهارُ اسم الجلالة لإدخال الرَّوعةِ، وتربيةِ المهابة، وتأكيدِ التهديد.

وقرأ ابنُ أبي عبلة: «ثَمَّ» بالفتح[2]، أي: هنالك.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ يومَ القيامة ﴿رَسُولٌ﴾ تُنسَب إليه وتُدعَى به ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ الموقفَ ليشهدَ عليهم بالكفر والإيمان ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم﴾ أي: بعد أنْ يشهد ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل، وحُكم بنجاة المؤمن وعقابِ الكافر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أصلاً. والجملةُ قيل: تذييلٌ لِمَا قبلها مؤكِّدةٌ له. وقيل: في موضع الحال، أي: مستمرّاً عدمُ ظلمهم. ونظيرُ هذه الآيةِ على هذا قولُه سبحانه: ﴿وَجِاْىٓءَ بِالنَّبِيِّـۧنَ وَالشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ [الزمر: ٦٩].

أو: لكلِّ أمةٍ من الأمم الخالية رسولٌ يُبعث إليهم بشريعةٍ اقتضَتها الحكمةُ ليدعوهم إلى الحقِّ، فإذا جاء رسولهم فبلَّغهم ودعاهم فكذَّبوه وخالفوه، قُضي بينهم - أي: بين كلِّ أمة ورسولها - بالعدل، وحُكمَ بنجاة الرسول والمؤمنين به، وهلاكِ المكذِّبين.

---

(١) لأنها تقتضي حدوثه. حاشية الشهاب ٥/ ٣٤.

(٢) البحر ٥/ ١٦٤.

والأَوَّلُ مما رواه ابنُ جرير وغيرُه عن مجاهد(١)، والاستقبالُ عليه على ظاهرِه، ولا يحتاج إلى تقديرٍ مثل ما احتيجَ في التفسير الثاني، وقد رجِّح بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ بناءً على أنَّ الظاهر أنَّ المراد بالوعد الذي أشاروا إليه العذابُ الدنيويُّ الموعودُ كما يُرشد إليه ما بعده.

واستشكل ما يقتضيه ظاهرُ الآية مِن أن الله تعالى لم يُهمل أمةً من الأمم قطُّ، بل بعث إلى كلِّ واحدةٍ منهم رسولاً، بأنَّ أهل الفترة ليس فيهم رسولٌ، كما يشهد له(٢) قوله سبحانه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ [يس:٦].

وأُجيبَ بأنَّ عمومَ الآية لا يقتضي أنْ يكون الرسولُ حاضراً مع كلِّ أمةٍ منهم؛ لأنَّ تقدُّمَه على بعضٍ منهم لا يمنعُ من كونه رسولاً إلى ذلك البعض، كما لا يمنع تقدُّمُ رسولنا ﷺ مِن كونه مبعوثاً إلينا إلى آخر الأبد، غايةُ ما في الباب أنَّ ما وقع مِن تخليط القوم في زمن الفترة يكونُ مؤدِّياً إلى ضَعْفِ أَثَرِ دعوة الأنبياء عليهم السلام. انتهى. وهو كما ترى.

وقد يقال: إنَّ المراد من كلِّ أمةٍ: كلُّ جماعةٍ أراد الله تعالى تكليفَها حَسْبَما سبَقَ به عِلْمُه أو أراد سبحانه تنفيذَ كلمته فيها، أو نحو ذلك من المخصِّصات التي لا يلغو معها الحكم، لا كلُّ جماعةٍ من الناس مطلقاً، فلا إشكالَ أصلاً، فتدبر.

ثم إنَّ هذا القولَ من المكذِّبين استعجالٌ لِمَا وُعِدُوا به، وغرضُهم منه ـ على ما قيل ـ استبعادُ الموعودِ، وأنَّه ممَّا لا يكون.

وقد يُراد بالاستفهام الاستبعادُ ابتداءً؛ إذ المقامُ يقتضيه ولا مانعَ عنه، والقولُ بأنَّ ذلك إنَّما يكون ابتداءً بأين وأنَّى ونحوهما دون «متى» غيرُ مسلَّمٍ، كيف وهو معنًى مجازيٌّ، والمجازُ لا حَجْرَ فيه.

والخطاب لسيد المخاطَبين عليه الصلاة والسلام، والمؤمنين الذين يتلون عليهم الآياتِ المتضمِّنة لذلك، وجوابُ «إنْ» محذوفٌ اعتماداً على ما تقدَّمه، أي: إنْ كنتم صادقين في أنَّه يأتينا فليأتنا عَجَلةً.

---

(١) تفسير الطبري ١٢/ ١٨٨.

(٢) بعدها في الأصل: في قول.

ولكونه ﷺ هو الواسطةَ في إتيان ذلك ومنه نشأ الوعدُ دونَ المؤمنين، أُمِر ﷺ بالجواب بقوله سبحانه: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا﴾ أي: لا أَقدِرُ على شيءٍ منهما بوجهٍ من الوجوه، وتقديمُ الضرِّ لِمَا أنَّ مَساقَ النَّظْمِ الكريم لإظهار العجز عنه، وأمَّا ذكرُ النفع فللتعميم إظهاراً لكمال العجز. وقيل: إنَّه استطراديٌّ لئلا يُتوهَّم اختصاصُ ذلك بالضرِّ. والأولُ أولَى، وما وقع في سورة الأعراف(١) من تقديم النفع فللإشعار بأهمِّيته والمقامُ مقامه، والمعنى: لا أملك شيئاً من شؤوني ردّاً وإيراداً مع أنَّ ذلك أقربُ حصولاً، فكيف أملكُ شؤونَكم حتى أَتسبَّب في إتيان عذابِكم الموعودِ حَسْبَما تُريدون؟!

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ استثناءٌ منقطعٌ عند جمعٍ، أي: ولكنْ ما شاء الله تعالى كائنٌ.

وقيل: متَّصلٌ على معنى: إلا ما شاء الله تعالى أنْ أَملِكَه.

وتُعقِّب بأنَّه يأباه مقامُ التبرُّؤ عن أنْ يكون له ﷺ دَخْلٌ في إتيان الوعدِ، فإنَّ ذلك يستدعي بيانَ كونِ المتنازَع فيه مما لا يشاء أنْ يملكه عليه الصلاة والسلام.

والمعتزلةُ قالوا باتِّصال الاستثناء، واستدلُّوا بذلك على أنَّ العبد مستقلٌّ بأفعاله من الطاعات والمعاصي. وأنت تعلمُ أنَّ ذلك بمراحلَ عن إثبات مدَّعاهم.

نعم استدلَّ بها بعضُ مَن يرى رأي السلف مِن أنَّ للعبد قُدرةً مؤثِّرة بإذن الله تعالى، لا أنَّه ليس له قدرةٌ أصلاً كما يقوله الجبرية، ولا أنَّ له قدرةً لكنَّها غيرُ مؤثِّرةٍ كما هو المشهورُ عن الأشاعرة، ولا أنَّ له قدرةً مؤثِّرة إن شاء الله تعالى وإنْ لم يشأ، كما هو رأي المعتزلة. وقال: المعنى: لا أقدر على شيءٍ من الضرِّ والنفع إلَّا ما شاء الله تعالى أنْ أَقدِرَ عليه منهما فإنِّي أقدرُ عليه بمشيئته سبحانه.

وقال بعضهم: إذا كان الملك بمعنى الاستطاعةِ يكونُ الاستثناءُ متَّصلاً، وإذا أُبقي على ظاهره تعيَّن الانقطاعُ.

ولا يخفَى أنَّ الأصل الاتِّصالُ، ولا ينبغي العدولُ عنه حيث أَمْكَنَ من دون تعسُّفٍ.

---

(١) في الآية (١٨٨).

وأيّاً ما كان فظاهرُ كلامهم أنَّ الاستثناء من المفعول، إلا أنَّه على تقدير الانقطاع ليس المعنَى على إخراج المستثنى من حكم المستثنى منه، ولذا جُعل الحكم على ذلك التقدير أنَّه كائنٌ دون أملكه مثلاً، فلا تَدافُعَ في كلام مَن حكم بالانقطاع، وقال في بيان المعنى: أي: ولكنْ ما شاء الله تعالى من ذلك كائنٌ، مشيراً بذلك إلى النفع والضرِّ، فإنَّه صريحٌ في كون المستثنى من جنس المستثنى منه المقتضي للاتِّصال؛ لأنَّ المدار عند المحقِّقين في الأمرَين على الإخراج من الحُكْمِ وعَدَمِه.

ومما يقضي منه العجب زَعْمُ أنَّ الاستثناء من فاعلِ «لا أملك»، وجَعْلُ المعنى: لا أملك أنا ولكن الله سبحانه هو المالك لكلِّ ما يشاء يفعله بمشيئته.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الذين أَصرُّوا على تكذيب رُسُلهم ﴿أَجَلٌ﴾ لعذابهم يحلُّ بهم عند حلوله، لا يتعدَّى إلى أمةٍ أخرى.

﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ أي: أجلُ كلِّ أمةٍ، على ما هو الظاهر. ووُضِعَ الظاهرُ موضعَ الضميرِ لزيادةِ التقرير، والإضافةُ لإفادةِ كمالِ التعيين.

وجوَّز أن يكونَ الضمير للأمم المدلول عليها(١) بـ «كل أمة»، ووجِّهَ إظهارُ الأَجَلِ مضافاً لذلك بأنَّه لإفادة المعنى المقصود، الذي هو بلوغُ كلِّ أمةٍ أجلَها الخاصَّ بها. ومجيئُه إيَّاها بعينها من بين الأمم بواسطةِ اكتسابِ الأجل بإضافته عموماً يفيدُه معنى الجمعية، كأنَّه قيل: إذا جاءتهم آجالهم، بالجمع كما قرأ به ابنُ سيرين(٢)، بأنْ يجيءَ كلَّ واحدٍ من تلك الأمم أجلُها الخاصُّ بها.

ويُفسَّر الأجلُ بحدٍّ معيَّنٍ من الزمان، والمجيءُ عليه ظاهرٌ، وبما امتدَّ إليه من ذلك(٣)، فمجيئُه حينئذٍ عبارةٌ عن انقضائه، إذ هناك يتحقَّق مجيئه بتمامه، أي: إذا تمَّ وانقضَى أجلُهم الخاصُّ بهم.

﴿فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ عنه ﴿سَاعَةً﴾ أي: شيئاً قليلاً من الزمان ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ عليه، والاستفعالُ عند جمعٍ على أصله، ونفيُ طلب التأخُّر والتقدُّم أبلغُ، وقال

---

(١) في الأصل و(م): عليه، والمثبت من تفسير أبي السعود ٤/ ١٥٢، والكلام منه.

(٢) الكشاف ٢/ ٢٤٠، والمحرر الوجيز ٣/ ١٢٣، والبحر ٥/ ١٦٥.

(٣) أي: من الزمان. تفسير أبي السعود ٤/ ١٥٢.

آخرون: إنَّه بمعنى التفعُّل، أي: لا يَتأخَّرون ولا يَتقدَّمون، والجملة الثانية إمَّا مستأنفةٌ أو معطوفة على القيد والمقيَّد، ومنعوا عطفَها على «لا يستأخرون» لئلَّا يَرِدَ أنَّه لا يُتصوَّر التقدُّم بعد مجيء الأجل، فلا فائدةَ في نفيه.

وأجازه غيرُ واحدٍ، والفائدةُ عنده في ذلك المبالغةُ في انتفاء التأخُّر؛ لأنَّه لمَّا نُظم في سلكه أَشعَرَ بأنَّه بلغ في الاستحالة إلى مرتبته، فهو مستحيلٌ مثله للتقدير الإلهيِّ، وإنْ أمكنَ في نفسه؛ قيل: وهذا هو السرُّ في إيراد صيغة الاستفعال، أي: أنَّه بلغ في الاستحالة إلى أنَّه لا يُطلَب، إذ المحال لا يُطلَب.

ودَفَعَ بعضُهم ذلك بأنَّ «جاء» بمعنى: قارَبَ المجيءَ، نحو قولك: إذا جاء الشتاءُ فتأهَّب له. وتُعقِّب بأنَّه ليس في تقييد عدم الاستئخار بالقرب والدنوِّ مزيدُ فائدةٍ.

وأشار الزمخشريُّ[1] إلى جوابٍ آخر، وهو أنَّ لا يتأخَّر ولا يتقدَّم كنايةٌ عن كونه له حدٌّ معين وأجل مضروب لا يتعدَّاه، بقَطْعِ النظر عن التقدُّم والتأخُّر، كقول الحماسيِّ:

وَقَف الهوى بي حيث أنتِ فليس لي ... مُتأخَّرٌ عنه ولا مُتقَدَّمُ[2]

فإنَّه أراد كما قال المرزوقي: حبَسَني الهوى في موضع تستقرِّينَ فيه، فألزَمُه ولا أُفارقُه، وأنا معكِ مقيمةً وظاعنةً، لا أَعدلُ عنكِ ولا أَميلُ إلى سواك[3]. ووجهُ تقدير بيانِ انتفاء الاستئخارِ على بيان انتفاءِ الاستقدام قد تقدَّم في آية «الأعراف»[4] مع بسط كلامٍ فيها.

ثم لا يخفَى أنَّ هذه الآية داخلةٌ في حيِّز الجواب، ولم تُعطَف على ما قبلها

---

(١) في الكشاف ٢/ ٢٤٠، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ٣٥.

(٢) في الأصل و(م): متقدم عنه ولا متأخر، والمثبت من حاشية الشهاب، وهو الموافق لما في المصادر، والبيت في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/ ١٣٧٣، والشعر والشعراء ٢/ ٨٤٣، وأمالي القالي ١/ ٢١٨، وقائله أبو الشيص محمد بن عبد الله بن رزين، وهو ابن عم الشاعر دعبل، وكان في زمن الرشيد.

(٣) شرح ديوان الحماسة ٣/ ١٣٧٣، وحاشية الشهاب ٥/ ٣٥، وعنه نقل المصنف.

(٤) وهي الآية (٣٤) منها، وينظر تفسيرها ٧/ ١١٣.

إيذاناً باستقلالها فيه. قال العلَّامة الطيبي طيَّب الله تعالى ثراه: إنَّ الجواب بقوله سبحانه: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ﴾ إلخ واردٌ على الأسلوب الحكيم؛ لأنَّهم ما أرادوا بالسؤال إلا استبعادَ أنَّ الموعود من الله تعالى، وأنَّه صلوات الله تعالى وسلامه عليه هو الذي يدَّعي أنَّ ذلك منه، فطلبوا منه تعيين الوقت تَهكُّماً وسُخرية، فقيل في الجواب: هذا التهكُّم إنما يتمُّ إذا ادَّعيتُ بأنِّي أنا الجالبُ لذلك الموعود، وإذا كنتُ مقرّاً بأنِّي مثلكم في أنِّي لا أملك لنفسي ضرّاً ولا نفعاً، كيف أدَّعي ما ليس لي بحقٍّ؟! ثمَّ شرع في الجواب الصحيح ولم يلتفت ﷺ إلى تهكُّمهم واستبعادهم فقال: «لكلِّ أمةٍ أجل» إلخ. وحاصلُه على ما في «الكشاف»: إنَّ عذابكم له أجلٌ مضروبٌ عند الله تعالى، وحدٌّ محدود من الزمان، إذا جاء ذلك الوقتُ أنجز وعدكم لا محالة، فلا تستعجلوا[1].

ومن هنا يُعلم سرُّ إسقاط الفاء من «إذا جاء أجلُهم» وزيادتها في «فلا يستأخرون» على عكس آيةِ «الأعراف»، حيث أُتي بها أولاً ولم يُؤتَ بها ثانياً، وذلك أنَّه لما سيقَت الآيةُ جواباً عن استعجالهم العذابَ الموعودَ ـ حَسْبَما علمتَ آنفاً ـ اعتُني بأمر الشرطية ولزومِها كمالَ الاعتناء، فأُتي بها غيرَ متفرِّعة على شيءٍ، كأنَّها من الأمور الثابتة في نفسها الغير المتفرِّعة على غيرها، وقَوِي لزومُ التالي فيها للمقدَّم بزيادةِ الفاء التي يُؤتَى بها[2] للربط في أمثال ذلك، ولا كذلك آية «الأعرافِ» كما لا يخفَى إلا على الأنعام، فاحفظه فإنَّه من الأنفال. ولا يأباه ما مرَّ في تقرير الاستفهام في صدر الكلام، كما هو ظاهرٌ لَدَى ذوي الأفهام. وكذا لا يأباه ما قيل في ربط هذه الآيةِ بما قبلها مِن أنَّها بيانٌ لما أُبهم في الاستفهام[3]، وتقييدٌ لِمَا في القضاء السابق من الإطلاق المشعر بكون المقضيِّ به أمراً منجَزاً غيرَ متوقِّفٍ على شيءٍ غيرِ مجيءِ الرسول وتكذيب الأمة؛ لأنَّه على ما فيه ما فيه إنكار المدخلية في الجواب، ولعل[4] الغرض يتمُّ بمجرَّد ذلك؛ لحصول التغاير بين مَساقَي الآيتَين به أيضاً.

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٤٠، وقد ذكره المصنف قريباً عن الزمخشري بنحوه نقلاً عن الشهاب.

(٢) في (م): بها يؤتى.

(٣) في (م): الاستثناء.

(٤) في الأصل: فلعل.

وقد يقال: إنَّ إسقاط الفاء أولاً لتكون الجملة في موضع الصفة لـ «أجل» تهويلاً لأمره وتنويهاً بشأنه، حَسْبَما يقتضيه المقامُ، أي: لكلِّ أمةٍ أجلٌ موصوفٌ بأنَّه إذا جاءَ لا يستأخرون عنه ولا يستقدمون عليه البتة، والإظهارُ في موضعِ الإضمارِ لزيادة التقرير مثل ما مرَّ آنفاً. وليس بذاك.

ومما تضحكُ منه الموتَى ما قاله بعضُ العظاميين بعد أنْ كاد يُقضى عليه فكراً، من أنَّ السرَّ في اختلاف الآيتَين الإشارةُ منه تعالى إلى جواز الأمرَين عربيةً، ولم يعلم عافاه الله تعالى أنَّ القرآن الكريم[١] لم ينزل مُعلِّماً للعربية، مُبيِّناً لقواعدها، شارحاً[٢] لِمَا يجوز فيها وما لا يجوز، بل نزل مُعْجِزاً بفصاحته وبلاغته وما تضمَّنه من الأسرار أقواماً، كلٌّ منهم في ذلك الشأن الجذيلُ المحكَّكُ[٣] والعذيقُ المرجَّب[٤].

وذكر بعضُ مَن أحيا مَيِّتَ الفضلِ علمُه، وصفا عن تخليط أبناءِ العصر فهمُه، صفاءُ الدين عيسى البندنيجيّ[٥] أنَّ مَساقَ هذه الآيةِ لتثبيت النبيِّ ﷺ، وشَرْح صدرِه عليه الصلاة والسلام عمَّا عسى يَضيقُ به بحسب البشريةِ من قولهم: «متَى هذا الوعْدُ إنْ كنتُم صادقين»، ولتلقينه ﷺ ردَّ قولهم ذلك كما يُشعر به السباق، فناسب قطعَ كلٍّ من الجملتَين عن الأخرى، ليستقلَّ كلٌّ منهما في إفادة التثبيت والردِّ للتأكيد والمبالغة فيها، ولذا لم يُؤتَ بالفاء في صدر الشَّرطية، وجيء بها في الجواب زيادةً في ذلك لإفادة تحقُّق ما بعدَها عقيبَ ما يقتضيه بلا مهلة. وآيةُ «الأعراف» سيقت وعيداً لأهل مكة، ومن البيِّن أنَّ محطَّ الفائدة في[٦] إشعارِ أنَّه وعيدٌ، وأنَّ ما هو

---

(١) في الأصل: العظيم.

(٢) في (م): وشارحاً.

(٣) الجُذَيْل تصغير جذْل، وهو العود الذي ينصب للإبل الجَرْبَى لتحتك به، أي: يستشفى برأيه كما تستشفي الإبل الجربى بالاحتكاك بهذا العود. النهاية (جذل).

(٤) العذيق تصغير عذق، وهو النخلة. والمرجَّب: الذي يدعم النخلة إذا كثر حملها.

(٥) هو عيسى بن موسى، فاضل من أهل بغداد، نسبته إلى بندنيجين من ملحقات بغداد في حدود إيران، وتسمى اليوم: مندلي، من مصنفاته: الأجوبة البندنيجية على الأسئلة الهندية، توفي سنة (١٢٨٣هـ). الأعلام ٥/ ١١٠.

(٦) قوله: في، مكرر في (م).

أدخلُ في التخويف الجملةُ الشرطية؛ لأنَّها النصُّ في نزول العذاب عند حلول الأجل، وأنَّه لا محيصَ لهم عن ذلك عنده، دون «لكلِّ أمةٍ أجل» فقط، فكان المقام مقامَ ربطٍ ووصلٍ، فجيء بالفاء لتدلَّ على ذلك، وتُؤذِنَ باتِّحاد الجملتَين في كونهما وعيداً، ولمسامحته سبحانه في الوعيد لم يؤتَ بالفاء في الجواب. انتهى.

ولعل ما قدَّمناه ليس بالبعيد عنه من وجهٍ وإنْ خالفه من وجهٍ آخر، ولكلٍّ وجْهةٌ، والله تعالى أعلم بأسرار كتابه.

﴿قُلْ﴾ لهم بعدَما بيَّنْتَ لهم[1] كيفيةَ حالك وجريانَ سنَّة الله تعالى فيما بين الأمم على الإطلاق، ونبَّهتَهم على أنَّ عذابهم أمرٌ مقرَّرٌ محتومٌ لا يتوقف إلا على مجيء أجلِهِ المعلوم، إيذاناً بكمال دُنوِّه، وتنزيلاً له منزلة إتيانه حقيقةً: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَنكُمْ عَذَابُهُۥ﴾ الذي تستعجلون به، ولعلَّ استعمال «إنْ» من باب المجاراة ﴿بَيَـٰتًا﴾ أي: وقت بياتٍ ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ أي: عند اشتغالكم بمشاغلكم، وإنَّما لم يَقُل: ليلاً أو نهاراً[2] ليَظْهرَ التقابلُ؛ لأنَّ المراد الإشعارُ بالنوم والغفلة، والبياتُ متكفِّلٌ بذلك؛ لأنَّه الوقتُ الذي يَبيتُ فيه العدوُّ ويُوقَع فيه، ويُغتنَم فُرصةُ غفلته، وليس في مفهوم الليل هذا المعنى، ولم يَشْتَهِرْ شهرةَ النهار بالاشتغالِ بالمصالح والمعاش، حتى يَحسُن الاكتفاءُ بدلالة الالتزام كما في النهار.

وقد يقال: النهار كلُّه محلُّ الغفلة؛ لأنَّه إمَّا زمان اشتغالٍ بمعاشٍ، أو زمانُ قيلولةٍ، بخلاف الليل فإنَّ محلَّ الغفلة فيه ما قارَبَ وسطَه، وهو وقتُ البيات، فلذا خُصَّ بالذكر، والبياتُ جاء بمعنى البيتُوتة، وبمعنى التبييت، كالسلام بمعنى التسليم، والمعنى المراد هنا مبنيٌّ على هذا.

﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٠﴾ أي: أيَّ شيءٍ يستعجلون من العذاب، وليس شيءٌ منه يُوجب الاستعجال، لِمَا أنَّ كلَّه مكروهٌ مرُّ المذاق موجبٌ للنفار، فـ «مِن» للتبعيض والضميرُ للعذاب والتنكيرُ في شيء للفردية.

وجوَّز أنْ يكون المعنى على التعجُّب، وهو مستفادٌ من المقام، كأنَّه قيل: أيَّ هولٍ

---

(١) قوله: لهم، ليس في الأصل.
(٢) في (م): ونهاراً.

شديدٍ يستعجلون منه! ف «من» بيانيةٌ وتجريديةٌ بناءً على عدِّ الزمخشريِّ لها منها[١].

وقيل: الضميرُ لله تعالى، وعليه فالمعنى على الثاني، ولكنْ تزول فائدةُ الإبهام والتفسير وما فيه من التفخيم.

وما قيل: إنَّه أبلغُ على معنى: هل تعرفون ما العذابُ المعذِّبُ به[٢] اللهُ سبحانه، فهو مشتركٌ على التقديرَين، ألا ترى إلى قوله تعالى: (عَذَابُهُ)؟.

و«ماذا» بمعنى: أيّ شيءٍ منصوبُ المحلِّ مفعولاً مقدَّماً، وهو أولَى مِن جَعْلِه مبتدأ، ومَن فَعَلَ قدَّر العائد. ومَن قال: إنَّ ضمير «منه» هو الرابطُ مع تفسيره بالعذاب، جَنَح إلى أنَّ المستعجَل من العذاب، فهو شاملٌ للمبتدأ، فيقوم مقامَ رابطه؛ لأنَّ عموم الخبر في الاسم الظاهر يكون رابطاً على المشهور، ففي الضمير أولَى.

وزعم أبو البقاء أنَّ الضمير عائدٌ إلى المبتدأ، وهو الرابطُ، وجعَلَ ذلك نظيرَ قولك: زيدٌ أخذتُ منه درهماً[٣]. وليس بشيءٍ كما لا يخفَى.

والمرادُ من «المجرمون» المخاطَبون، وعَدَل عن الضمير إليه للدلالة على أنَّهم لجرمهم ينبغي أنْ يفزَعوا من إتيان العذاب، فضلاً عن أنْ يستعجلوه.

وقيل: النكتةُ في ذلك إظهارُ[٤] تحقيرهم وذمِّهم بهذه الصفة الفظيعة.

والجملةُ متعلِّقةٌ بـ «أَرأَيتُم» على أنَّها استئنافٌ بيانيٌّ، أو في محلِّ نصبٍ على المفعولية، وعلِّق عنها الفعل للاستفهام، وهو في الأصل استفهامٌ عن الرؤية البصرية أو العِلْمِية، ثم استعمل بمعنى: أخبروني، لِمَا بين الرؤية والإخبار من السببية والمسَبَّبية في الجملة، فهو مجازٌ فيما ذكر، وإليه ذهب الكثير.

وذهب أبو حيان إلى أنَّ ذلك بطريقِ التضمين[٥]، ولم يُستعمل إلَّا في الأمر العجيب.

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٤٠، وفيه: ويجب أن تكون «من» للبيان في هذا الوجه.

(٢) بعدها في (م): هو.

(٣) الإملاء ٣/ ٢٣٤-٢٣٦.

(٤) في (م): إظهاره.

(٥) البحر ٥/ ١٦٦.

وجواب الشرط محذوفٌ، أي: إن أتاكم عذابُه في أحدِ ذَينك الوقتَين تندموا، أو: تعرفوا منه[1] الخطأ، أو: فأخبروني ماذا يستعجلُ منه المجرمون.

وزعم أبو حيان تعيُّنَ الأخير؛ لأنَّ الجواب إنما يُقدَّرُ مما تقدَّمه لفظاً أو تقديراً[2]، ولم يَدْرِ أنَّ تقديرَه من غير جنس المذكور إذا قامت قرينةٌ عليه ليس بعزيز. ولئن سلِّم صحةُ الحصر الذي ادَّعاه، فما ذُكر غيرُ خارجٍ عنه بناءً على أن المقصود من: أرأيتُم ماذا يستعجل منه. .إلخ، تنديمُهم أو تجهيلُهم كما نصَّ عليه بعض المحققين.

وفي «الكشف» تقريراً لأحدِ الأوجهِ المذكورة في «الكشاف»[3]: أنَّ «ماذا» إلخ مُتعلِّق الاستخبار، والشرطُ مع جوابه المحذوف مقرِّرٌ لمضمون الاستخبار، ولهذا وسِّط بينهما، ولمَّا كان في هذا[4] الاستفهام تجهيلٌ وتنديمٌ قُدِّر الجواب: تندموا أو تعرفوا الخطأ، ولا مانعَ من تقديرهما معاً، أو ما يفيد المعنَيين، ولهذا حذف الجواب ووسِّط تأكيداً على تأكيد. انتهى.

وجوِّز كونُ «ماذا يستعجل» جواباً للشرط، كقولك: إن أتيتُك ماذا تُطعمني، والمجموع بتمامه متعلِّق بـ «أَرَأَيتُم»[5]. ورُدَّ بأنَّ جواب الشرط إذا كان استفهاماً فلابدَّ فيه من الفاء، تقول: إنْ زارَنا فلانٌ فأيُّ رجلٍ هو، ولا تُحذَف إلا ضرورةً، وقد صرَّح في «المفصَّل» بأنَّ الجملة إذا كانت إنشائيةً لابدَّ من الفاء معها، والاستفهامُ وإنْ لم يُرَدْ به حقيقتُه لم يخرج عن الإنشائية، والمثالُ مصنوعٌ فلا يعوَّل عليه.

وأُجيبَ بأنَّ الرضيّ صرَّح بأنَّ وقوع الجملة الاستفهامية جواباً بدون الفاء ثابتٌ في كثيرٍ من الكلام الفصيح، ولو سلِّم ما ذكر فيقدَّر القول، وحذفُه كثيرٌ مطَّردٌ بلا خلاف.

---

(١) قوله: منه، ليس في (م). وجاء في الكشاف ٣/ ٢٤٠: أو تعرفوا الخطأ فيه. وفي تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ٣٧، وتفسير أبي السعود ٤/ ١٥٣: أو تعرفوا خطأه.

(٢) البحر ٥/ ١٦٦-١٦٧.

(٣) وهو ما سلف من تقدير: تندموا على الاستعجال، أو: تعرفوا الخطأ فيه. الكشاف ٣/ ٢٤٠.

(٤) قوله: هذا، ليس في (م).

(٥) وهذا الوجه أجازه الزمخشري أيضاً في الكشاف ٣/ ٢٤٠، وما سيأتي ذكره من ردِّه هو لأبي حيان في البحر ٥/ ١٦٧، ونقله المصنف بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ٣٧.

وأُورد أيضاً على هذا الوجه أنَّ استعجال العذاب قبل إتيانه، فكيف يكونُ مرتَّباً عليه وجزاءً له؟

وأُجيبَ بأنَّه حكايةٌ عن حالٍ ماضية، أي: ماذا كنتُم تستعجلون؟ ويشهد لهذا التصريحُ بـ «كنتُم» فيما بعد، والقرآنُ يفسِّر بعضُه بعضاً.

وأنت تعلم أنَّ مجرَّد ذلك لا يُجوِّز كونَه جواباً؛ لأنَّ الاستعجال الماضيَ لا يترتَّب على إتيان العذاب، فلابدَّ من تقديرِ نحوِ: تَعْلَموا، أي: تعلموا ماذا إلخ. وقيل: «إنْ أتاكم» بمعنى: إنْ قارَبَ إتيانُه إياكم، أو المراد: إنْ أتاكم أماراتُ عذابِه. وقيل: حيث إنَّ المرادُ إنكارُ الاستعجال بمعنَى نفيه رأساً صحَّ كونُه جواباً.

واعتُرض على جَعْلِ مجموع الشرطية متعلِّقاً بـ «أرَأَيتم» بأنَّه لا يصحُّ أنْ يكون مفعولاً به له، بناءً على أنَّه بمعنى: أخبروني، وهو مُتعدٍّ بـ «عن» ولا تدخلُ [على][1] الجملة، إلا أنَّها إذا اقترنَت بالاستفهام وقلنا بجوازِ تعليقها[2] - وفيه كلامٌ في العربية - جاز.

ودُفع بأنَّ مراد القائل بالتعلُّق التعلُّقُ المعنويُّ[3]؛ لأنَّ المعنى: أخبروني عن صنيعكم إنْ أتاكم... إلخ.

والمراد بقوله سبحانه: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ زيادةُ التنديم والتجهيل، والمعنى: أإذا وقَعَ العذابُ وحلَّ بكم حقيقةً آمنتُم به وعاد استهزاؤكم وتكذيبُكم تصديقاً وإذعاناً، وجيء بـ «ثم» دلالةً على زيادة الاستبعاد. وفيه أنَّ هذا الثاني أَبْعدُ من الأول وأَدْخَلُ في الإنكار.

وَجوَّز أنْ يكون هذا جوابَ الشرط، والاستفهامية الأولى اعتراضٌ، والمعنى: أخبروني إنْ أتاكم عذابه آمنتُم به بعد وقوعه حين لا ينفعُكم الإيمان. وأصلُ الكلام على ما قيل: إنْ أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً ووقع وتحقَّق آمنتم، ثم جيء بحرف التراخي بدل الواو دلالةً على الاستبعاد، ثم زِيْدَ أداةُ الشرط دلالةً على استقلاله

---

(١) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٥/٣٧، والكلام منه.

(٢) في الأصل: تعلقها، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب.

(٣) في الأصل و(م): اللغوي، والمثبت من حاشية الشهاب.

بالاستبعاد وعلى أنَّ الأول كالتمهيد له، وجيء بـ «إذا» مؤكَّداً بـ «ما» ترشيحاً لمعنى الوقوع والتحقيق، وزيادةً للتجهيل، وأنَّهم لم يؤمنوا إلا بعد أنْ لم ينفعهم البتة، وهذا الوجه مما جوَّزه الزمخشري[1].

وتُعقِّب بأنَّه في غاية البعد؛ لأنَّ «ثم» حرفُ عطفٍ لم يُسمع تصديرُ الجواب به، والجملةُ المصدَّرةُ بالاستفهام لا تقع جواباً بدون الفاء، وأُجيب عن هذا بما مرَّ.

وأمَّا الجوابُ عنه بأنَّه أَجرى «ثم» مجرَى الفاء، فكما أنَّ الفاء في الأصل للعطف والترتيب وقد ربطَت الجزاء فكذلك هذه، فمخالفٌ لإجماع النحاة. وقياسُه على الفاء غيرُ جليٍّ. ولهذه الدغدغة قيل: مرادُ الزمخشريِّ أنَّه يدلُّ على الجواب، والتقدير: إنْ أتاكم عذابُه آمنتم به بعد وقوعه، وما في النظم الكريم[2] معطوفٌ عليه للتأكيد نحو: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٣-٤].

وتعقِّب بأنَّه لا يخفَى تكلُّفُه، فإنَّ عطف التأكيد بـ «ثم» مع حَذْفِ المؤكَّد ممَّا لا ينبغي ارتكابُه. ولو قيل: المراد أنَّ «آمنتم» هو الجواب و«أَثُمَّ إذا ما وَقع» معترضٌ، فالاعتراضُ بالواو والفاء، وأمَّا بـ «ثم» فلم يذهب إليه أحدٌ.

وبالجملة قد كثُر الجَرْحُ والتعديل لهذا الوجه، ولا يُصْلِحُ العطَّارُ ما أَفْسَدَ الدهر.

وقرئ: «ثَمَّ» بفتح الثاء[3]، بمعنى: هنالك.

وقوله سبحانه: ﴿ءَآلْـَٔنَ﴾ على تقدير القول، وهو الأظهرُ والأقوى معنًى، أي: قيل لهم عند إيمانهم بعد وقوعِ العذاب: آلآن آمنتم به، فـ «الآن» في محلِّ نصبٍ على أنَّه ظرفٌ لـ «آمنتم» مقدَّراً، ومُنع أنْ يكون ظرفاً للمذكور؛ لأنَّ الاستفهام له صدرُ الكلام.

وقرئ بدون همزة الاستفهام[4]، والظاهرُ عندي على هذا تعلُّقُه بمقدَّرٍ أيضاً؛ لأنَّ الكلام على الاستفهام. وبعضٌ جوَّز تعلُّقه بالمذكور، وليس بذاك.

---

(١) في الكشاف ٣/ ٢٤٠.

(٢) يعني قوله: «أثم إذا» حاشية الشهاب ٥/ ٣٧، والكلام منه.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١٢٤، والبحر ٥/ ١٦٧ عن طلحة بن مصرف.

(٤) البحر ٥/ ١٦٧ عن طلحة بن مصرف وعيسى البصري.

وعن نافع أنَّه قرأ: «آلَان» بحذفِ الهمزة التي بعد اللام وإلقاء حركتها على اللام[١].

وقوله سبحانه: ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝٥١﴾ في موضع الحال من فاعل «آمنتم» المقدَّر. والكلامُ على ما قيل مسوقٌ من جهته تعالى، غيرُ داخلٍ تحت القول الملقَّن؛ لتقريرِ مضمون ما سبَقَ من إنكارِ التأخير والتوبيخ عليه، وفائدةُ الحال تشديدُ التوبيخِ والتقريع، وزيادةُ التنديم والتحسير.

قال العلَّامة الطيبي: إنَّ «آلآن آمنتم به» يقتضي أنْ يقال بعدَه: وقد كنتم به تُكذِّبون، لا «تستعجلون» إلا أنَّه وُضِعَ مَوْضِعَه لأنَّ المراد به الاستعجالُ السابق، وهو ما حكاه سبحانه عنهم بقوله تعالى: (مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ) وكان ذلك تهكُّماً منهم وتكذيباً واستبعاداً، وفي العدول استحضارٌ لتلك المقالةِ الشنيعة، فيكون أبلغَ من «تُكذِّبون».

وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ على الفعل لمراعاة الفواصل.

وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ﴾ إلخ عطفٌ على «قيل» المقدَّرِ قبل «آلآن» لتوكيد[٢] التوبيخ، ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: وَضَعوا ما نُهوا عنه من الكفر والتكذيب موضعَ ما أُمِروا به من الإيمان والتصديق، أو ظلموا أنفسَهم بتعريضها للهلاك والعذاب.

ووُضِعَ الموصولُ موضعَ الضمير لذمِّهم بما في حيِّز الصلة، والإشعارِ بعلِّيته لإصابة ما أصابهم.

﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ أي: المؤلم على الدوام ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ أي: ما تجزون اليوم ﴿إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ۝٥٢﴾ أي: إلا ما استمررتُم على كَسْبِه في الدنيا من أصناف الكفرِ التي من جُملتها ما مرَّ من الاستعجال.

وزاد غيرُ واحدٍ في البيان سائرَ أنواع المعاصي، بناءً على أنَّ الكفار مكلَّفون بالفروع فيُعذَّبون على ذلك، لكنْ هل العذاب عليه مستَمِرٌّ تبعاً للكفر، أو منتهٍ كعذابِ غيرهم من العصاة؟ قيل: الظاهرُ الثاني، وبه جُمِعَ بين النصوصِ الدالَّةِ على

---

(١) التيسير ص١٢٢، والنشر ١/ ٣٥٧.

(٢) في الأصل و(م): توكيد، والمثبت من حاشية الشهاب ٥/ ٣٨، والكلام منه.

تخفيف عذاب الكفار وما يعارِضُها، فقالوا: إنَّ المخفَّف عذابُ المعاصي، والذي لا يُخفَّف عذابُ الكفر.

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ﴾ أي: يَسْتَخبِرونك ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ أي: العذابُ الموعود، كما هو الأنسبُ بالسياق دون ادِّعاء النبوَّةِ الذي جوَّزه بعضُهم، ورجَّح عليه أيضاً بأنَّه لا يتأتَّى إثباتُ النبوَّة لمنكريها بالقَسَم.

وأُجيبَ بأنَّه ليس المرادُ منه إثباتَها، بل كونَ تلك الدعوى جدّاً لا هَزْلاً، أو أنَّه بالنسبة لمن يَقْنعُ بالإثبات بمثله.

وقد يقال: ما ذكر مُشتَرَكُ الإلزام؛ لأنَّ العذاب الموعود لا يثبتُ عند الزاعمين أنَّه افتراءٌ قبل وقوعه بمجرَّد القَسَم أيضاً، فلا يصلُح ما ذكر مرجِّحاً. والحقُّ أنَّ القسم لم يُذكر للإلزام، بل توكيداً لِمَا أنكروه.

والاستفهامُ للإنكار، والاستنباءُ على سبيل التهكُّم والاستهزاء كما هو المعلومُ من حالهم، فلا يقتضي بقاءه على أصله.

وربما يقال: إن الاستنباء بمعنى طلبِ النبأ حقيقةً، لكنْ لا عن الحَقِّية ومقابلها بالمعنى المتبادِر، لأنَّهم جازمون بالثاني، بل المراد من ذلك الجِدُّ والهزْلُ، كأنَّهم قالوا: إنَّا جازمون بأنَّ ما تقوله كذبٌ لكنَّا شاكُّون في أنَّه جِدٌّ منك أم هزلٌ فأخبرنا عن حقيقة ذلك. ونظيرُ هذا قولُهم: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ [سبأ:٨]. على ما قرَّره الجماعة، إلَّا أنَّ ذلك خلافُ الظاهر.

و«حقٌّ» خبرٌ قُدِّم على المبتدأ الذي هو «هو» ليَليَ الهمزةَ المسؤولُ عنه. وجوِّز أنْ يكون مبتدأ، و«هو» مرتفعٌ به سادٌّ مسدَّ الخبر؛ لأنَّه بمعنى ثابت، فهو حينئذٍ صفة وقعَت بعد الاستفهام فتعمل، ويُكتفَى بمرفوعها عن الخبر إذا كان اسماً ظاهراً، أو في حُكْمِه كالضمير المنفصل هنا.

والمشهورُ أنَّ استنبأ تتعدَّى إلى اثنين، أحدُهما بدون واسطة، والآخَرُ بواسطة «عن»، فالمفعولُ الأولُ على هذا لـ «يستنبؤون» الكافُ، والثاني قامت مقامَه هذه الجملةُ، على معنى: يسألونك عن جواب هذا السؤال، إذ الاستفهام لا يُسأل عنه، وإنما يُسأل عن جوابه.

والزمخشريُّ لمَّا رأى أنَّ الجملة هنا لا تصلُح أنْ تكون مفعولاً ثانياً معنًى لِمَا عَرَفْتَ، ولفظاً لأنَّه لا يصحُّ دخولُ «عن» عليها، جعَل الفعل مضمَّناً معنى القول، أي: يقولون لك هذا، والجملةُ في محلٍّ نصبِ مفعول القول(١).

وقرأ الأعمشُ: «آلحقُّ هو» بالتعريف مع الاستفهام(٢)، وهي تؤيِّد كونَ الاستفهام للإنكار، لِمَا فيها من التعريض لبطلانه المقتضي لإنكاره، لإفادة الكلامِ عليها القصرَ، وهو من قَصْرِ المُسْنَدِ على المسنَدِ إليه على المشهور، والمعنى: أنَّ الحقَّ ما تقول أم خلافه.

وجَعَله الزمخشريُّ من قَصْرِ المسنَدِ إليه على المسند، حيث قال: كأنَّه قيل: أهو الحقُّ لا الباطل، أو: أهو الذي سمَّيتمُوه الحقَّ(٣). وأشارَ بالترديد إلى أنَّ الغرض مِن هذا الوجه لا يختلف جعل الحَصْر حقيقيّاً تهكُّماً أو ادِّعائياً.

واعتُرِضَ ذلك بأنَّه مخالفٌ لِمَا عليه علماء المعاني في مثل هذا التركيب.

وفي «الكشف»: إنَّه يتخايَلُ أنَّ الحصر على معنى: أهو الحقُّ لا غيرُه، لا معنى: أهو الحقُّ لا الباطل. على ما قرَّروه في قولهم: زيدٌ المنطلق، والمنطلقُ زيدٌ. فعلى هذا لا يسد ما ذكره الزمخشريُّ، ولكنَّه يضمَحلُّ بما حققناه في قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]. وأنَّ انحصار أحدهما في الآخر يلاحَظُ بحسب المقام، وحينئذٍ لا يبالَى قدّمَ أو أخّر، وهاهنا المعنى على حَصْرِ العذاب في الحقِّية، لا على حَصْرِ الحقِّية في العذاب.

وقد قال هناك(٤): إنَّ التحقيق أنَّ نحو: زيدٌ المنطلق، وعَكْسَه، إنَّما يُحكم فيه بقَصْرِ الثاني - أعني الانطلاقَ - على الأول؛ لأنَّ المناسب قَصْرُ العامِّ على الخاصِّ، وكذلك نحو: الناسُ هم العلماء، والعلماءُ هم الناس، وإنْ كان بينهما عمومٌ وخصوصٌ من وجْهٍ؛ لأنَّ المقصودَ بيِّنٌ. وأمَّا في نحو قولنا:

---

(١) ينظر الكشاف ٢/ ٢٤١، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ٣٩.
(٢) المحتسب ١/ ٣١٢، والمحرر الوجيز ٣/ ١٢٥، والكشاف ٢/ ٢٤١، والبحر ٥/ ١٦٨.
(٣) الكشاف ٣/ ٢٤١.
(٤) يعني صاحب الكشف عن آية البقرة.

الخاشعون هم العلماءُ والعلماء هم الخاشعون، فالحكم مختلِفٌ تقديماً وتأخيراً، وأحدُ القصرَين غيرُ الآخر، فينبغي أنْ يُنظَر إلى مقتضَى المقام، إنْ تعيَّن أحدُهما لذلك حُكم به قدِّم أو أخِّر، وإلا رُوعي التقديم والتأخير، وقد يكون القصرُ مُتعاكساً نحو: زيدٌ المنطلق، إذا أُريدَ المعهود وهذا ذاك، وكذلك الجنسان إذا اتَّحدا مَورداً، كقولك: الضاحكُ الكاتب، إلى آخر ما قال.

وكون المعنى هنا على حصر العذاب في الحقِّية دون العكس هو المناسب. ومخالفةُ علماء المعاني ليست بِدعاً من صاحب «الكشاف» وأمثاله، والحقُّ ليس محصوراً بما هم عليه كما لا يخفى، فتدبَّر.

﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ أي: قل لهم غيرَ مكترثٍ باستهزائهم، مُغضياً عمَّا قصدوا، بانياً للأمر على أساس الحكمة: نعم إنَّ ذلك العذابَ الموعودَ ثابتٌ البتة، فضمير «إنَّه» للعذاب أيضاً.

و«إي» حرفُ جوابٍ وتصديقٍ بمعنى: نعم، قيل: ولا تُستعمل كذلك إلا مع القسم خاصَّةً، كما أنَّ «هل» بمعنى «قد» في الاستفهام خاصَّةً، ولذلك سُمع من كلامهم وصلُها بواو القسم إذا لم يُذكر المقسَم به، فيقولون: «إيو»[(١)]، ويُوصلون به هاء السكت أيضاً فيقولون: «إيوه». وهذه اللفظةُ شائعةٌ اليوم في لسان المصريين وأهلِ ذلك الصقع.

وادَّعى أبو حيان أنَّه يجوز استعمالُها مع القسم وبدونه، إلا أنَّ الأول هو الأكثر[(٢)].

قال: وما ذُكِرَ من السماع ليس بحجَّة؛ لأنَّ اللغة فسدَت بمخالطة غيرِ العرب،

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٤١، وفيه قول الزمخشري: سمعتهم يقولون: إيو، ولا يخفى أن عصره بعد عصر السماع، ولذلك تعقبه أبو حيان كما سيرد.

(٢) نقل المصنف كلام أبي حيان بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ٣٩، وكلام أبي حيان في البحر، وكذلك في النهر على هامش البحر ٥/ ١٦٨ صريح في أنها لا تستعمل إلا مع القسم، وما ذكره المصنف والشهاب عنه قد نقل نحوه في البحر ٥/ ١٦٩ عن ابن عطية، فقال: قال ابن عطية: هي لفظة تتقدم القسم وهي بمعنى نعم، ويجيء بعدها حرف القسم وقد لا يجيء؛ تقول: إي ربِّي، إي وربِّي. انتهى.

فلم يَبْقَ وثوقٌ بالسماع، وحَذْفُ المجرور بواو القسم والاكتفاءُ بها لم يُسمَع مِن موثوقٍ به، وهو مخالفٌ للقياس(١).

وأكَّد الجواب بأتمِّ وجوه التأكيد حَسْبَ شدَّة إنكارهم وقوَّته، وقد زِيْدَ تقريراً وتحقيقاً بقوله جلَّ شأنُه: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ۝٥٣﴾ أي: بفائتين العذابَ، على أنَّه من فاته الأمرُ: إذا ذهب عنه. ويصحُّ جَعْلُه من «أَعجَزَه» بمعنى: وَجَده عاجزاً، أي: ما أنتم بواجدي العذابِ أو مَن يُوْقِعُه بكم عاجزاً عن إدراككم وإيقاعِه بكم، وأيّاً ما كان فالجملةُ إمَّا معطوفةٌ على جواب القسم، أو مستأنفةٌ سيقت لبيان عجزِهم عن الخلاص، مع ما فيه من التقرير المذكور.

﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ﴾ أي: بالكفر، أو بالتعدِّي على الغير، أو غيرِ ذلك من أصناف الظلم، كذا قيل. وربما يُقتصر على الأول لأنَّه الفردُ الكاملُ مع أنَّ الكلام في حقِّ الكفار.

و«لو» قيل: بمعنى «إنْ»، وقيل: على ظاهرها، واستُبعد، ولا أَراه بعيداً.

﴿مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: ما في الدنيا من خزائنها وأموالها ومنافِعها قاطبةً ﴿لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦٓ﴾ أي: لجعلَته فديةً لها من العذاب، من افتداه بمعنى فَدَاه، فالمفعولُ محذوفٌ، أي: لافتدَت نفسَها به.

وجوِّز أنْ يكون افتدى لازماً على أنَّه مُطاوِعُ «فدَى» المتعدِّي، يقال: فداه فافتدَى.

وتعقِّب بأنه غيرُ مناسبٍ للسياق؛ إذ المتبادرُ منه أنَّ غيرَه فَدَاه؛ لأنَّ معناه: قَبِلَتِ الفدية، والقابلُ غيرُ الفاعل.

ونُظر فيه بأنَّه قد يتَّحد القابلُ والفاعلُ إذا فدى نفسه، نعم المتبادِرُ الأول.

﴿وَأَسَرُّواْ﴾ أي: النفوسُ المدلولُ عليها بـ «كلّ نفسٍ»، والعدولُ إلى صيغة الجمع لإفادة تهويل الخطب بكون الإسرار بطريق المعيَّة والاجتماع. وإنَّما لم يُراعَ ذلك

---

(١) حاشية الشهاب ٥/ ٣٩، والكلام في البحر ٥/ ١٦٨-١٦٩ دون قوله: وحذف المجرور بواو القسم...

فيما سبق لتحقيق ما يُتوخَّى من فرض كون جميع[1] ما في الأرض لكلِّ واحدةٍ من النفوس. وإيثارُ صيغةِ جمعِ المذكَّر لحمل لفظِ النفس على الشخص، أو لتغليبِ ذكورِ مدلوله على إناثه.

والإسرارُ: الإخفاء، أي: أَخفَوا ﴿ٱلنَّدَامَةَ﴾أي: الغمَّ والأسفَ على ما فعلوا من الظلم، والمرادُ إخفاءُ آثارِها كالبكاء وعضِّ اليد، وإلَّا فهي من الأمور الباطنة التي لا تكون إلَّا سرّاً، وذلك لشدَّة حَيرتهم وبَهتهم.

﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: عند معاينتهم من فظاعة الحال وشدَّة الأهوال ما لم يمرَّ لهم ببال، فأَشْبَه حالُهم حالَ المقدَّم للصَّلْبِ يُثخنه ما دَهَمَه من الخَطْب، ويُغلَب حتى لا يستطيع التفوُّه بِبنْتِ شَفَة، ويبقَى جامداً مَبْهوتاً.

وقيل: المرادُ بالإسرار: الإخلاصُ، أي: أَخْلَصوا الندامةَ، وذلك إمَّا لأنَّ إخفاءها إخلاصُها، وإما من قولهم: سرُّ الشيءِ، لخالصِهِ الذي من شأنه أنْ يخفَى ويُصانَ ويُضَنَّ به. وفيه تهكُّمٌ بهم.

وقال أبو عبيدة والجبائي: إنَّ الإسرار هنا بمعنى الإظهار[2]. وفي «الصحاح»: أسررتُ الشيءَ: كتمتُه، وأعلنتُه أيضاً، وهو من الأضداد، والوجهان جميعاً يُفسَّران في قوله تعالى: (وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ) وكذلك في قول امرئ القيس: لو يُسِرُّونَ مقتلي[3]. انتهى. وفي «القاموس» أيضاً: أَسرَّه: كَتَمَه وأظهرَه، ضدٌّ[4].

وفيه اختلافُ اللغويين، فإنَّ الأزهريَّ منهم ادَّعى أنَّ استعمال «أَسرَّ» بمعنى

---

(١) في الأصل و(م): جمع، والمثبت من تفسير أبي السعود ٤/ ١٥٤، والكلام منه.

(٢) مجمع البيان ١١/ ٦١، وقول أبي عبيدة ذكره أيضاً الأزهري في تهذيب اللغة ٢/ ٢٨٥.

(٣) الصحاح (سرر)، والبيت في ديوان امرئ القيس ص١٣ برواية: يُشِرُّون. قال النحاس في شرح المعلقات ١/ ١٧: مَن روى يسرُّون فيجوز أن يكون معناه عنده: يكتمون، ويجوز معناه: يُظهرون. أما يشرون فمعناه يظهرون لا غير. ورواية البيت في الديوان:

تجاوَزْتُ أحراساً وأهوالَ معشرٍ ... عليَّ حِراصٍ لو يُشرُّون مقتلي

وروايته في شرح المعلقات للنحاس ١/ ١٧، وللتبريزي ص٣٧:

تجاوزتُ أحراساً إليها ومعشراً ... عليَّ حراصاً لو يُشِرُّون مقتلي

(٤) القاموس (سرر).

«أظهرَ» غلطٌ، وأنَّ المستعمل بذلك المعنى هو «أشرَّ» بالشين المعجمة لا غير[1]. ولعلَّه قد غَلِطَ في التغليط، وعليه فالإظهارُ أيضاً باعتبار الآثار على ما لا يخفَى.

وجوَّز بعضُهم أنْ يكونَ المراد بالإسرار الإخفاءَ إلَّا أنَّ المراد من ضمير الجمع الرؤساء، أي: أخفَى رؤساؤهم الندامةَ من سَفِلَتهم الذين أضلُّوهم حياءً منهم وخوفاً من توبيخهم.

وفيه أنَّ ضميرَ «أسرُّوا» عامٌّ لا قرينةَ على تخصيصه، على أنَّ هول الموقف أشدُّ من أن يتفكَّر معه في أمثال ذلك.

وجملة «أسرُّوا» مستأنفةٌ على الظاهر، وقيل: حالٌ بتقدير «قد»، و«لمَّا» على سائر الأوجه بمعنى «حين» منصوبٌ بـ «أسرُّوا»، وجوِّز أن تكون للشرط، والجوابُ محذوفٌ على الصحيح لدلالةِ ما تقدَّم عليه، أي: لمَّا رأوا العذابَ أسرُّوا الندامة.

﴿وَقُضِيَ﴾ أي: حُكم وفُصِلَ ﴿بَيْنَهُم﴾ أي: بين النفوس الظالمة ﴿بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾ أصلاً لأنَّه لا يُفعل بهم إلا ما يقتضيه استعدادُهم.

وقيل: ضميرُ «بينهم» للظالمين السابقين في قوله سبحانه: (وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ) والمظلومين الذين ظلموهم وإنْ لم يَجْرِ لهم ذكرٌ، لكنَّ الظلم يدلُّ بمفهومه عليهم، وتخصيص الظلم بالتعدِّي، والمعنى: وقعَت الحكومة بين الظالمين والمظلومين، وعُومل كلٌّ منهما بما يليق به.

وأنت تعلم أنَّ المقام لا يساعد على ذلك؛ لأنَّه[2] إنْ لم يَقْتَضِ حَمْلَ الظلم على أعظم أفراده وهو الشرك، فلا أقلَّ من أنَّه يَقْتَضي حمله على ما يُدخل ذلك فيه دخولاً أوَّليّاً.

والظاهرُ أنَّ جملة «قُضي» مستأنفةٌ. وجوِّز أنْ تكون معطوفةً على جملة «رأوا»، فتكون داخلةً في حيِّز «لمَّا».

---

(١) ذكره عن الأزهري الطبرسي في مجمع البيان ١١/ ٦٦، ولم نقف عليه في تهذيب اللغة، وفيه تعقيباً على قول أبي عبيدة بأن معنى «أسروا الندامة» أظهروها: ولم أسمع ذلك لغيره. تهذيب اللغة ١٢/ ٢٨٥.

(٢) يعني المقام. تفسير أبي السعود ٤/ ١٥٤-١٥٥، والكلام فيه بنحوه.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ أي: إنَّ له سبحانه لا لغيره تعالى ما وُجد في هذه الأجرامِ العظيمة، داخلاً في حقيقتها، أو خارجاً عنها متمكِّناً فيها، وكلمةُ «ما» لتغليب غيرِ العقلاء على العقلاء، وهو تذييلٌ لِمَا سبق، وتأكيدٌ واستدلالٌ عليه بأنَّ مَن يملك جميع الكائنات وله التصرُّف فيها، قادرٌ على ما ذكر.

وقيل: إنَّه متَّصلٌ بقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ كأنَّه بيانٌ لفقدهم[1] ما يفتدون به، وعَدَمِ ملكهم شيئاً، حيث أفادَ أنَّ جميع ما في السماوات والأرض ملكُه، لا ملكَ لأحدٍ فيه سواه جلَّ وعلا. وليس بشيءٍ وإنْ ذكره بعضُ الأجلَّة واقتصر عليه.

﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي: جميعَ ما وَعَدَ به كائناً ما كان، فيندرجُ فيه العذابُ الذي استعجلوه وما ذُكر في أثناء بيانِ حاله اندراجاً أوليّاً. فالمصدرُ بمعنى اسم المفعول، ويجوز أن يكونَ باقياً على معناه المصدريِّ، أي: وَعْده سبحانه بجميع ما ذكر ﴿حَقٌّ﴾ أي: ثابتٌ واقعٌ لا محالة، أو مطابقٌ للواقع.

والظاهرُ أنَّ حَمْل الوعدِ على العموم بحيث يندرج فيه العذابُ المذكورُ والعقابُ للعصاة، أو الوعدُ بهما، يستدعي اعتبارَ التغليب في الكلام. وبعضُهم حَمَلَ الوعدَ على ما وُعِدَ به ﷺ من نَصرِه وعقابِ مَن لم يتَّبعه، وقال: إنَّ اعتبار التغليب توهُّمٌ وليس بالمتعيِّن.

وإظهارُ الاسم الجليل لتفخيم شأن الوعد والإشعارِ بعلَّة الحكم. وتصديرُ الجملتَين بحرفي التنبيه والتحقيق للتسجيل على تحقُّق مضمونها المقرِّرِ لمضمون ما سلف من الآيات الكريمة، والتنبيهِ على وجوب استحضارِه والمحافظةِ عليه.

وذَكَر الإمامُ في توجيه ذكر أداةِ التنبيه في الجملة الأولى أنَّ أهل هذا العالَمِ مشغولون بالنظر إلى الأسباب الظاهرة، فيضيفون الأشياء إلى ملَّاكها الظاهرة المجازية، ويقولون مثلاً: الدارُ لزيد، والغلامُ لعمرٍو، والسَّلْطَنةُ للخليفة، والتصرُّف للوزير. فكانوا مستغرقين في نوم الجهل والغفلة، حيث يظنُّون صحةَ تلك

---

(١) في (م): لعقدهم، وهو تصحيف.

الإضافات، فلذلك ناداهم[1] سبحانه بقوله عزَّ اسمُه: (أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ) إلخ، واستنادُ جميع ذلك إليه جلَّ شأنه بالمملوكية لِمَا ثبت مِن وجوب وجودِه لذاته سبحانه، وأنَّ جميع ما سواه ممكنٌ لذاته، وأنَّ الممكن لذاته مستندٌ إلى الواجب لذاته إمَّا ابتداءً أو بواسطة، وذلك يقتضي أنَّ الكلَّ مملوكٌ له تعالى[2].

والكلامُ في ذِكْر الأداة في الجملة الثانية على هذا النمط لا يخلو عن تكلُّفٍ، والحقُّ ما أشرنا إليه في وجه التصدير.

ووَجْهُ اتِّصال هذه الجملةِ بما تقدَّم ظاهرٌ مما قرَّرنا، وللطبرسيِّ[3] في توجيه ذلك كلامٌ ليس بشيءٍ.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ لسوء استعداداتهم وقصورِ عقولهم واستيلاءِ الغَفْلةِ عليهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ فيقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون.

﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ في الدنيا من غير دَخْلٍ لأحد في ذلك. وهذا على ما يُفهَم من كلام البعض استدلالٌ على البعث والنشور، على معنى أنَّه تعالى يفعل الإحياء والإماتة في الدنيا، فهو قادرٌ عليهما في العُقبى؛ لأنَّ القادر لذاته لا تزولُ قدرتُه، والمادةُ القابلة بالذات للحياة والموت قابلةٌ لهما أبداً.

ولا يخفى أنَّ ذكر القدرة على الإماتة استطراديٌّ لا دَخْلَ له في الاستدلال على ذلك، والظاهرُ عندي أنَّه كالذي قبله تذييلٌ لما سبق.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾ في الآخرة بالبعث والحشر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ التفاتٌ ورجوعٌ إلى[4] استمالتهم نحوَ الحقِّ، واستنزالهم إلى قبوله واتِّباعه، غِبَّ تحذيرهم من غوائلِ الضلال بما تلا عليهم من القوارع، وإيذانٌ بأنَّ جميع ذلك مسوقٌ لمصالحهم، وهذا وجهُ الربط بما تقدَّم.

---

(١) في (م): زادهم، والمثبت من الأصل وتفسير الرازي.

(٢) تفسير الرازي ١٣/ ١١٣-١١٤.

(٣) في مجمع البيان ١١/ ٦٢.

(٤) في الأصل: في، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٤/ ١٥٥، والكلام منه.

وقال أبو حيان في ذلك: إنَّه تعالى لمَّا ذكَرَ الأدلَّة على الألوهية والوحدانيةِ والقدرة، ذكَرَ الدلائلَ الدالَّة على صحَّة النبوَّة، والطريقَ المؤدِّيَ إليها [وهو القرآن] وهو المتَّصفُ بهذه الأوصاف(١).

والأوَّل أَولَى، ولا يأباه عمومُ الخطاب كما هو الظاهرُ، واختاره الطبري(٢) خلافاً لمن جعله خاصّاً بقريش.

و«الموعظة» كالوَعْظِ والعِظةِ: تذكيرُ ما يُليِّن القلبَ من الثواب والعقاب، وقيل: زجرٌ مقترنٌ بتخويفٍ. و«الشفاءُ» الدواء، ويُجمَع على أَشْفِية، وجمعُ الجمع أَشَافي.

و«الهدَى» معلومٌ مما مرَّ غيرَ مرَّةٍ. و«الرحمة» الإحسانُ، أو إرادتُه، أو صفةٌ غيرُهما لائقةٌ بمن قامت به.

و«من ربكم» متعلِّقٌ بـ «جاء» و«مِن» ابتدائية، أو بمحذوفٍ وقع صفةً لـ «موعظة» و«من» تبعيضية والكلامُ على حذف مضافٍ، أي: موعظةٌ من مواعظ ربكم.

و«لِمَا» إما متعلِّقٌ بما عنده واللام مقوِّيةٌ، وإما متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع نعتاً له، وكذا يُقال ـ على ما قيل ـ فيما بَعْدُ.

والمرادُ: قد جاءكم كتابٌ جامعٌ لهذه الفوائدِ والمنافع، كاشفٌ عن أحوال الأعمال حسناتِها وسيِّئاتِها، مرغِّبٌ في الأولى ورادعٌ(٣) عن الأخرى، ومبيِّنٌ للمعارف الحَقَّة المُزيلةِ لأَدْواءِ الشكوك وسوءِ مزاج الاعتقاد، وهادٍ إلى طريق الحقِّ واليقين بالإرشاد إلى الاستدلال بالدلائل الآفاقية والأنفُسيَّةِ، ورحمةٌ للمؤمنين حيث نجَوا به من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان، وتخلَّصوا من دَرَكات النيران، وارتَقوا إلى درجات الجنان.

قال بعضُ المحقِّقين: إنَّ في ذلك إشارةً إلى أنَّ للنفس الإنسانية مراتبَ كمالٍ مَن تمسَّك بالقرآن فاز بها:

---

(١) البحر ٥/ ١٧٠، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) في تفسيره ١٢/ ١٩٣.

(٣) في الأصل: رادع، دون الواو، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٤/ ١٥٥.

أحدها: تهذيبُ الظاهر عن فعلِ ما لا يَنبغي، وإليه الإشارةُ بـ «الموعظة»؛ بناءً على أنَّ فيها الزجرَ عن المعاصي.

وثانيها: تهذيبُ الباطن عن العقائد الفاسدةِ، والملكاتِ الرديَّةِ، وإليه الإشارةُ بـ «شفاءٌ لِمَا في الصدور».

وثالثها: تحلِّي النفس بالعقائد الحقَّة والأخلاقِ الفاضلة، ولا يحصل ذلك إلا بـ «الهدى».

ورابعها: تجلِّي أنوار الرحمة الإلهية، وتختصُّ بالنفوس الكاملة، المستعدَّةِ بما حصَلَ لها من الكمال الظاهر والباطن لذلك.

وقال الإمام: الموعظةُ إشارةٌ إلى تَطهُّر ظواهر الخلقِ عمَّا لا ينبغي، وهو الشريعة. والشفاءُ إلى تطهُّر الأرواح عن العقائد الفاسدةِ والأخلاق الذميمة، وهو الطريقة. والهدى إلى ظهور الحقِّ في قلوب الصدِّيقين، وهو الحقيقة. والرحمةُ إلى بلوغ الكمال والإشراق حتى يُكمِّلَ غيرَه ويُفيضَ عليه، وهو النبوَّة والخلافة، فهذه درجاتٌ لا يمكن فيها تقديمٌ ولا تأخير[1].

ولا يخفَى أنَّ هذا خلافُ الظاهر جدّاً، والذي يقتضيه الظاهرُ كونُ المذكورات أوصافاً للقرآنِ باعتبار كونه سبباً وآلةً لها، وجُعلَت عينَه مبالغةً، وبينها تلازمٌ في الجملة، والتنكيرُ فيها للتفخيم.

والهدايةُ إنْ أخذت بمعنى الدلالة مطلقاً فعامَّةٌ، أو بمعنى الدلالة الموصولة فخاصَّةٌ، وحينئذٍ يكون «للمؤمنين» قيدُ الأمرَين، ويؤيِّد تقييدَ الهدى بذلك قولُه سبحانه: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] فالقرآنُ واعظٌ بما فيه من الترهيب والترغيب، أو بما فيه من الزَّجْرِ عن المعاصي كيفما كانت، المقترنِ بالتخويف فقط بناءً على التفسير الثاني للموعظة، وشافٍ لِمَا في الصدور من الأدواء المفضيةِ إلى الهلاك كالجهل والشكِّ والشِّرك والنفاقِ وغيرِها، ومرشدٌ ببيان ما يليقُ وما لا يليق إلى ما فيه النجاةُ والفوزُ بالنعيم الدائم، أو موصلٌ إلى ذلك، وسبب الرحمة للمؤمنين

(١) تفسير الرازي ١٧/١١٧.

الذين آمنوا به وامتثلوا ما فيه من الأحكام، وأمَّا إذا ارتُكبَ خلاف الظاهر فيقال غيرُ ما قيل أيضاً، مما ستراه إن شاء الله تعالى في باب الإشارة.

واستُدل - كما قال الجلال السيوطي(١) - بالآية على أنَّ القرآن يشفي(٢) من الأمراض البدنية كما يشفي من الأمراض القلبية. فقد أخرج ابنُ مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: إنِّي أشتكي صدري. فقال عليه الصلاة والسلام: «اقرأ القرآن، يقول الله تعالى: ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾». وأخرج البيهقيُّ في «الشعب» عن واثلة بنِ الأسقع أنَّ رجلاً شكا إلى النبي ﷺ وجَعَ حلقِهِ فقال: «عليك بقراءة القرآن»(٣).

وأنت تعلم أنَّ الاستدلال بها على ذلك مما لا يكاد يُسَلَّم. والخبرُ الثاني لا يدلُّ عليه، إذ ليس فيه أكثرُ من أمره ﷺ الشاكيَ بقراءة القرآن، إرشاداً له إلى ما ينفعه ويزول به وجعُه، ونحن لا نُنكر أنَّ لقراءة القرآن بركةً قد يُذْهِبُ الله تعالى بسببها الأمراض والأوجاع، وإنما ننكر الاستدلال بالآية على ذلك.

والخبرُ الأول وإنْ كان ظاهراً في المقصود، لكن ينبغي تأويلُه كأنْ يقال: لعلَّه ﷺ اطَّلع على أنَّ في صدر الرجل مرضاً معنويّاً قلبيّاً قد صار سبباً للمرض الحسِّي البدني، فأَمَره عليه الصلاة والسلام بقراءة القرآن ليزولَ عنه الأوَّلُ فيزول الثاني، ولا يُستبعد كونُ بعضِ الأمراض القلبية قد يكون سبباً لبعض الأمراض القالبية، فإنَّا نرى أنَّ نحو الحسد والحقد قد يكون سبباً لذلك، ومن كلامهم: لله تعالى درُّ الحسد ما أعدَلَه بدأ بصاحبه فقَتَلَه(٤)، وهذا أولَى من إخراج الكلام مخرجَ الأسلوب الحكيم.

والحسنُ البصريُّ ينكر كونَ القرآن شفاءً للأمراض، فقد أخرج أبو الشيخ عنه(٥) أنَّه قال: إنَّ الله تعالى جعَلَ القرآن شفاءً لِمَا في الصدور، ولم يجعله شفاءً لأمراضكم. والحقُّ ما ذكرنا.

---

(١) في الإكليل في استنباط التنزيل ص١٤٨.
(٢) في الإكليل: أن قراءة القرآن تشفي...
(٣) الإكليل ص١٤٨، وحديث واثلة في الشعب (٢٥٨٠).
(٤) نُسب لعلي رضي الله عنه، كما في غرر الخصائص الواضحة ص٤٧٨.
(٥) كما في الدر المنثور ٣/ ٣٠٨.

﴿قُلْ﴾ تلوينٌ للخطاب وتوجيهٌ له إلى رسول الله ﷺ ليأمرَ الناسَ بأنْ يغتنموا ما في القرآن العظيم من الفضل والرحمة، أي: قل لهم.

﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ، وأصلُ الكلام: ليفرحوا بفضل الله تعالى وبرحمته، ثم قُدّم الجارُّ والمجرورُ على الفعل لإفادة اختصاصه بالمجرور، ثم أُدخل عليه الفاء لإفادة معنى السببية، فصار: بفضل الله وبرحمته فليفرحوا، ثم جيء بقوله سبحانه: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ للتأكيد والتقرير، ثم حُذف الفعل الأول لدلالة الثاني عليه.

والفاء الأولى قيل: جزائيةٌ، والثانيةُ زائدةٌ للتأكيد، والأصل: إنْ فرحوا بشيءٍ فبذلك ليفرحوا لا بشيءٍ آخر، ثم زِيدَت الفاء لِمَا ذكر، ثم حُذفَ الشرط.

وقيل: إنَّ الأُولى هي الزائدة؛ لأنَّ جواب الشرط في الحقيقة «فليفرحوا» و«بذلك» مقدَّمٌ من تأخيرٍ؛ لمَا أُشير إليه، وزِيدَت فيه الفاءُ للتحسين، ولذلك جوِّز أنْ يكون بدلاً من قوله سبحانه: (بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ) وحينئذٍ لا يُحتاج إلى القول بحذف متعلَّقه، ونظيرُ ذلك في الاختلاف في تعيين الزائد فيه قولُ النَّمِر بن تَوْلَب:

لا تجزعي إنْ منفساً أهلكْتُهُ ... فإذا هلكْتُ فعند ذلك فاجْزَعي[1]

ومن غريب العربية ما أشار إليه بعضُهم: أنَّ الآية من باب الاشتغال، وقد أُقيمَ اسمُ الإشارة مقامَ ضمير المعمول، وتوحيدُه باعتبار ما ذُكر ونحوه كما هو شائعٌ فيه، ووجهُ الغرابة[2] أنَّ المعروف في شرط البابِ اشتغالُ العامل بضمير المعمول، ولم يذكر أحدٌ من النحاة اشتغالَه باسم الإشارة إليه.

وجوِّز أنْ يُقدَّر متعلَّق الجارِّ والمجرور: فليعتنوا، أي: بفضل الله ورحمته فليعتنوا فبذلك فليفرحوا، والقرينةُ على تقدير ذلك أنَّ ما يُفْرَحُ به يكون مما يُعتَنى ويُهتَمُّ بشأنه، أو تقديمُ الجارِّ والمجرور على ما قيل، وقال الحلبي: الدلالة عليه

---

(١) الكتاب ١/ ١٣٤، والخزانة ١/ ٣١٤، ومعناه كما ذكر البغدادي: أن الشاعر يقول مخاطباً زوجته: لا تجزعي من إنفاقي النفائس ما دمت حيّاً، فإني أحصل على أمثالها وأخلفها عليك، ولكن اجزعي إذا مت فإنك لا تجدين خَلَفاً مني.

(٢) في (م): غرابته.

من السياق واضحة، وليس شرط الدلالة أنْ تكون لفظية[١]. فقولُ أبي حيان: إنَّ ذلك إضمارٌ لا دليل عليه[٢]. مما لا وجْهَ له.

وأن يُقدَّر: جاءتكم، بعد «قل» مدلولاً عليه بما قبلُ، أي: قل جاءتكم موعظةٌ وشفاءٌ وهدًى ورحمةٌ بفضل اللهِ وبرحمته، ولا يجوزُ تعلُّقه بـ «جاءتكم» المذكور؛ لأنَّ «قل» تمنعُ من ذلك، و«ذلك» على هذا إشارةٌ إلى المصدر المفهوم من الفعل، وهو المجيء، أي: فبمجيء المذكورات فليفرحوا.

وتكريرُ الباء في «برحمته» على سائر الأوجه للإيذان باستقلالها في استيجاب[٣] الفرح.

والمرادُ بالفضل والرحمة إما الجنسُ، فيدخل[٤] فيه ما في مجيء القرآن من الفضل والرحمة دخولاً أوليّاً، وإمَّا ما في مجيئه من ذلك، ويؤيِّده ما روي عن مجاهد أنَّ المراد بالفضل والرحمة القرآنُ.

وأخرج أبو الشيخ وابنُ مردويه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «فضْلُ الله القرآنُ، ورحمتُه أنْ جَعَلكُم من أهله»[٥] وروي ذلك عن البراء وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما موقوفاً[٦].

وجاء عن جمعٍ جمٍّ أنَّ الفضل القرآنُ، والرحمة الإسلام، وهو في معنى الحديث المذكور.

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ الفضل العلمُ، والرحمة محمدٌ ﷺ[٧].

---

(١) الدر المصون ٦/ ٢٢٣.
(٢) البحر ٥/ ١٧١.
(٣) في الأصل: إيجاب.
(٤) في (م): ويدخل.
(٥) الدر المنثور ٣/ ٣٠٨، وعزاه لابن مردويه أيضاً الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار ٢/ ١٢٨، وفي إسناده محمد بن عبد الرحمن بن غزوان، قال عنه الدارقطني وغيره: كان يضع الحديث. وقال ابن عدي: له عن ثقات الناس بواطيل.
(٦) أخرجه عن البراء الطبراني في الأوسط (٥٥١٢)، وعن أبي سعيد الخدري سعيد بن منصور في سننه (١٠٦٤ - تفسير)، وابن أبي شيبة ١٠/ ٥٠١، والطبراني ١٢/ ١٩٤-١٩٥.
(٧) الدر المنثور ٢/ ٣٠٨.

وأخرج الخطيب وابنُ عساكر عنه تفسيرَ الفضل بالنبيِّ عليه الصلاة والسلام، والرحمة بعليٍّ كرم الله تعالى وجهه[١]. والمشهورُ وصفُ النبيِّ ﷺ بالرحمة كما يُرشد إليه قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] دون الأمير كرَّم الله تعالى وجهه، وإنْ كان رحمةً جليلةً رضي الله عنه وأرضاه.

وقيل: المرادُ بهما: الجنَّةُ، والنجاة من النار. وقيل غيرُ ذلك.

ولا يجوز أنْ يُراد بالرحمة على الوجه الأخير من أوجُهِ الإعراب ما أُريد بها أوَّلاً، بل هي فيه غيرُ الأولى كما لا يخفى.

ورَوى رويس عن يعقوب أنَّه قرأ: «فلتفرحوا» بتاء الخطاب ولام الأمر[٢] على أصل المخاطَب المتروك، بناءً على القول بأنَّ أصل صيغةِ الأمر الأمرُ باللام، فحذفت مع تاء المضارعة واجْتُلبت همزةُ الوصل للتوصُّل إلى الابتداء بالساكن، لا على القول بأنَّها صيغةٌ أصلية.

وقد وردَت هذه القراءة في حديث صحيح عن النبيِّ ﷺ، وقد أخرجه جماعةٌ منهم أبو داود وأحمدُ والبيهقيُّ من طرقٍ عن أبيٍّ بن كعبٍ رضي الله عنه مرفوعاً[٣]. وقرأ بها أيضاً ابنُ عباس وقتادة وغيرُهما[٤].

وفي تعليقات الزمخشريِّ على كشافه: كأنَّه ﷺ إنَّما آثر القراءة بالأصل؛ لأنَّه أدلُّ على الأمر بالفرح، وأشدُّ تصريحاً به، إيذاناً بأنَّ الفرح بفضل الله تعالى وبرحمته بليغ التوصية به ليطابق التقرير والتكرير وتضمين معنى الشرط لذلك، ونظيرُه مما انقلب فيه ما ليس بفصيحٍ فصيحاً قوله سبحانه: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤][٥] من تقديم الظرف اللغو ليكون الغرضُ اختصاصَ

---

(١) تاريخ بغداد ٥/ ١٥، وتاريخ دمشق ٤٢/ ٣٦٢ وهو من طريق محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح، وهي سلسلة الكذب المشهورة.

(٢) النشر ٢/ ٢٨٥.

(٣) سنن أبي داود (٣٩٨٠)، ومسند أحمد (٢١١٣٦)، والشعب (٢٥٩٤).

(٤) المحتسب ١/ ٣١٣، والبحر ٥/ ١٧٢ عن جمع منهم قتادة، ولم نقف عليها عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) ذكره بنحوه الشهاب في الحاشية ٥/ ٤١، وفيه: ... إيذاناً بأن الفرح بفضل الله ورحمته =

التوحيد. انتهى. وهو مأخوذٌ من كلام ابن جني في توجيه ذلك(١).

ونُقِل عن «شرح اللب» في توجيهه: أنَّه لمَّا كان النبيُّ ﷺ مبعوثاً إلى الحاضر والغائب جَمَعَ بين اللام والتاء. قيل(٢): وكأنَّه عنى: أنَّ الأمر لمَّا كان لجملة المؤمنينَ حاضرِهم وغائبهم، غلِّب الحاضرون في الخطاب على الغائبين، وأُتي باللام رعايةً لأمر الغائبين، وهي نكتةٌ بديعةٌ إلا أنَّه أمر محتملٌ. وما نُقل عن صاحب «الكشاف» أَوْلَى بالقبول.

وقرئ: «فافرحوا»(٣) وهي تؤيِّد القراءةَ السابقة؛ لأنَّها أمرُ المخاطب على الأصل. وقرئ: «فَلِيَفْرحوا» بكسر اللام(٤).

﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ من الأموال والحَرْثِ والأنعامِ وسائر حطام الدنيا، فإنَّها صائرةٌ إلى الزوال مشرفةٌ عليه، وهو راجعٌ إلى لفظِ «ذلك» باعتبارِ مدلوله وهو مفرد، فَرُوعيَ لفظُه، وإنْ كان عبارةً عن الفضل والرحمة.

ويجوزُ إرجاعُ الضمير إليهما ابتداءً بتأويل(٥) المذكور كما فعل في «ذلك»، أو جَعْلُهما في حكم شيءٍ واحدٍ.

ولك أنْ تجعلَه راجعاً إلى المصدر، أعني: المجيء الذي أشير إليه. و«ما» تحتمل الموصولية والمصدرية.

وقرأ ابنُ عامر: «تجمعون» بالخطاب(٦) لمن خُوطب بـ «يا أيها الناس» سواءٌ كان عامّاً أو خاصّاً بكفار قريش، وضمير «فليفرحوا» للمؤمنين، أي: فبذلك فليفرح المؤمنون فهو خيرٌ مما تجمعون أيُّها المخاطَبون، وعلى قراءة «فلتفرحوا»

= مما ينبغي التوصية مشافهة به، وبهذا الاعتبار انقلب ما ليس فصيحاً فصيحاً كما في قوله: «لم يكن له كفواً أحد».

(١) كلام ابن جني في المحتسب ١/ ٣١٣-٣١٤، وحاشية الشهاب ٥/ ٤١.

(٢) القائل هو الشهاب في الحاشية ٥/ ٤٢، وما قبله منه.

(٣) المحتسب ١/ ٣١٣، والبحر ٥/ ١٧٢ عن أبيٍّ ﷺ.

(٤) القراءات الشاذة ص٥٧، والبحر ٥/ ١٧٢.

(٥) في الأصل: باعتبار، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٥/ ٤٢، والكلام منه.

(٦) التيسير ص١٢٢، والنشر ٢/ ٢٨٥. وهي قراءة أبي جعفر، ورويس عن يعقوب.

و«افرحوا» يكون الخطابُ على ما قيل للمؤمنين. وجوِّز أنْ يكونَ لهم على قراءة الغيبة أيضاً التفاتاً، وتعقِّب بأنَّ الجمع أنسبُ بغيرهم، وإنْ صحَّ وصفُهم به في الجملة، فلا ينبغي أنْ يلتزم القول بما يستلزمُه ما دام مندوحة عنه.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ أي: ما قدَّر لانتفاعكم من ذلك، وإلَّا فالرزقُ ليس كلُّه مُنزلاً، واستعمال «أَنْزَل» فيما ذكر مجازٌ من إطلاق المسبَّب على السبب. وجوِّز أنْ يكون الإسناد مجازيّاً بأنْ أسند الإنزال إلى الرزق؛ لأنَّ سببه كالمطر مُنزَلٌ.

وقيل: إنَّ هناك استعارةً مكنيةً تخييليةً، وهو بعيد. وجَعْلُ الرزق مجازاً عن سببه، أو تقديرُ لفظ سبب مما لا ينبغي[1].

و«ما» إمَّا موصولةٌ في موضع النصب على أنَّها مفعولٌ أولُ لـ «أرأيتم» والعائد محذوفٌ، أي: أنزله، والمفعولُ الثاني ما ستراه إن شاء الله تعالى قريباً. وإمَّا[2] استفهاميةٌ في موضع النصب على أنَّه مفعولُ «أنزل» وقدِّم عليه لصدارته، وهو معلِّقٌ لِمَا قبله إنْ قلنا بالتعليق فيه، أي: أيّ شيءٍ أنزل الله تعالى من رزق.

﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ أي: فبعَّضْتُموه وقَسمتُموه إلى حرامٍ وحلالٍ، وقلتم: ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ [الأنعام:١٣٨] و﴿مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩] إلى غير ذلك.

﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ في جَعْلِ البعضِ منه حراماً والبَعْضِ الآخَرِ حلالاً ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ۝٥٩﴾ «أم» والهمزةُ متعادلتان، والجملةُ في موضع المفعول الثاني لـ «أرأيتم»[3]، و«قل» مكرَّرٌ للتأكيد فلا يَمنعُ من ذلك، والعائدُ على المفعول الأول مقدَّرٌ، والمعنى: أرأيتم الذي أنزله الله تعالى لكم من رزقٍ ففعلتُم فيه ما فعلتم، أيُّ الأمرَين كائنٌ فيه: الإذنُ فيه من الله تعالى بجَعْلِه قِسْمَين، أم الافتراءُ منكم.

---

(١) لأن المستَخْبَر عنه ليس سبب الرزق بل هو نفسه. حاشية الشهاب ٥/ ٤٢، والكلام منه.

(٢) في (م): وما، وهو تحريف.

(٣) يعني على القول بأن «ما» موصولة في موضع النصب على أنها مفعول أول لـ «أرأيتم». الدر المصون ٦/ ٢٢٦، وحاشية الشهاب ٥/ ٤٢.

وكان أصلُ «آلله أذنَ لكم» إلخ: آللهُ أَذِنَ أم غيرُه، فعدل إلى ما في النظم الجليل دلالةً على أنَّ الثابت هو الشقُّ الثاني، وهم نسبوا ذلك إليه سبحانه، فهم مفترون عليه جلَّ شأنه لا على غيره، وفيه زجرٌ عظيم كما لا يخفى. ولعل هذا مرادُ مَن قال: إنَّ الاستفهام للاستخبار، ولم يُقصَد به حقيقتُه ليُنافي تحقُّقَ العلم بانتفاءِ الإذن وثبوتِ الافتراء، بل قُصِدَ به التقريرُ والوعيدُ وإلزام الحجة.

وجوِّز أن يكون الاستفهام لإنكار الإذن، وتكون «أم» منقطعةً بمعنى «بل» الإضرابية، والمقصودُ الإضراب عن ذلك لتقرير افترائهم، والجملةُ على هذا معمولةٌ للقول وليست متعلِّقةً بـ «أرأيتم»، وهو قد اكتفَى بالجملة الأولى كما أشرنا إليه.

ومن الناس مَن جوَّز كونَ «أم» متَّصلةً وكونَها منفصلة، على تقدير تعلُّق الجملة بفعل القول، وأوجبَ الاتِّصال على تقدير تعلُّقها بـ «أرأيتم».

وجَعْلُ الاسم الجليل مبتدأً مخبراً عنه بالجملة للتخصيص عند بعضٍ، ولتقويةِ الحكم عند آخر، والإظهارُ بعدُ في مقام الإضمار للإيذان بكمال قُبح افترائهم، وتقديمُ الجارِّ والمجرور للقَصْرِ مطلقاً في رأيٍ، ولمراعاةِ الفواصل على الوجه الأول وللقَصْرِ على الوجه الثاني في آخر.

واستَدلَّ المعتزلةُ بالآية على أنَّ الحرام ليس برزقٍ، ولا دليلَ لهم فيها ـ على ما ذكرناه ـ لأنَّ المقدَّر للانتفاع هو الحلال، فيكون المذكور هنا قسماً من الرزق، وهو شاملٌ للحلال والحرام، والكفرةُ إنَّما أخطؤوا في جَعْلِ بعض الحلال حراماً، ومَن جعَلَ أهلَ السنة نظيراً لهم في جَعْلِهم الرزقَ مطلقاً منقسماً إلى قسمين فقد أَعْظَمَ الفرية.

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ كلامٌ مسوقٌ من جهته تعالى لبيان هولِ ما سيلْقَوْنه، غيرُ داخلٍ تحت القول المأمور به، والتعبيرُ عنهم بالموصول [في موقع الإضمار][1] لقَطْعِ احتمالِ الشقِّ الأول من الترديد، والتسجيلِ عليهم بالافتراءِ،

(١) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٤/ ١٥٧، والكلام منه.

وزيادةُ الكذب ـ مع أنَّ الافتراء لا يكون إلا كذلك ـ لإظهارِ[1] كمالِ قُبْحِ ما افتعلوا، وكونه كذباً في اعتقادهم أيضاً.

و«ما» استفهاميةٌ مبتدأ و«ظنُّ» خبرُها، وهو[2] مصدرٌ مضافٌ إلى فاعله، ومفعولاه محذوفان.

وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ ظرفٌ لنفس الظنِّ لا لـ «يفترون»[3] لعدم صحته معنًى، ولا بمقدَّر لأنَّ التقدير خلافُ الظاهر، أي: أيُّ شيءٍ ظنُّهم في ذلك اليوم أنِّي فاعلٌ بهم، والمقصودُ التهديدُ والوعيد.

ويدلُّ على تعلُّقه بالظنِّ قراءة عيسى بن عمر: «وما ظَنَّ» بصيغة الماضي[4]، و«ما» في هذه القراءة بمعنى الظنِّ في محلِّ نصبٍ على المصدرية، والتعبيرُ بالماضي لتحقُّق الوقوع، وأكثرُ أحوال القيامة يعبَّر عنها بذلك في القرآن لِمَا ذُكر، والعملُ في الظرف المستقبلِ لا يمنعُ لتصييره الفعلَ نصّاً في الاستقبال التجوُّزَ المذكور؛ لأنَّه[5] يقدَّر ـ لتحقُّقِه أيضاً ـ ماضياً.

وقيل: الظرفُ متعلِّقٌ بما يتعلَّق به ظنُّهم اليومَ من الأمور التي ستقع يوم القيامة؛ تنزيلاً له ولِمَا فيه[6] من الأهوال ـ لمكان وضوح أمره في التحقُّق والتقرُّر ـ منزلةَ المسلَّم عندهم، أي: أيُّ شيءٍ ظنُّهم لِمَا سيقع يوم القيامة، أيحسبون أنَّهم لا يُسألون عن افترائهم، أو لا يُجازَوْنَ عليه، أو يُجازَون جزاءً يسيراً، ولذلك يفعلون ما يفعلون[7]، كلَّا إنَّهم لفي أشدِّ العذاب؛ لأنَّ معصيتهم أشدُّ المعاصي.

والآيةُ السابقة، قيل: متَّصلةٌ بقوله سبحانه: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلخ [الآية: ٣١]، كأنَّه قيل حيث أقرُّوا أنَّه سبحانه الرازقُ: قل لهم: أرأيتم

---

(١) قوله: لإظهار، مكرر في (م).

(٢) في (م): هو.

(٣) في (م): لا بيفترون.

(٤) القراءات الشاذة ص٥٧، والكشاف ٢/ ٢٤٢، والبحر ٥/ ١٧٣، وحاشية الشهاب ٥/ ٤٣.

(٥) أي: يوم القيامة. حاشية الشهاب ٥/ ٤٣.

(٦) في (م): ولما يقع فيه. والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ١٥٧، والكلام منه.

(٧) في (م): ما يفعلون يفعلون، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود.

ما أنزل الله.. إلخ. ونُقل ذلك عن أبي مسلم.

وقيل: بقوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ) إلخ، وذلك أنَّه جلَّ شأنه لمَّا وصَفَ القرآن بما وَصَفَه، وأمر نبيَّه ﷺ أنْ يُرغِّب باغتنام ما فيه، عَقَّب ذلك بذكرِ مخالفتهم لِمَا جاء به، وتَحْريمِهم ما أحلَّ.

وقيل: إنها متَّصلةٌ بالآيات الناعيةِ عليهم سوء اعتقادهم، كأنَّه سبحانه بعد أن نَعَى عليهم أصولَهم بيَّن بطلان فروعهم، ولعل خيرَ الثلاثة وَسَطُها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ أي: عظيمٍ لا يُقْدَرُ قَدْرُه ولا يُكْتَنَهُ كُنْهُه ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ جميعاً حيث أنعم عليهم بالعقل، ورَحِمَهم بإرسال وإنزالِ الكتب، وبيَّن لهم ما لا تستقلُّ عقولُهم بإدراكه، وأرشدَهم إلى ما يهمُّهم من أمر المعاش والمعاد، ورغَّبهم ورهَّبهم، وشَرَحَ لهم الأحوال، وما يلقاه الحائدُ عن الرشاد من الأهوال ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٦٠﴾ ذلك الفضلَ، فلا ينتفعون به. ولعل الجملةَ تذييلٌ لَمَا سَبَقَ مِقرِّرٌ لمضمونه.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ أي: في أمرٍ معتنًى به، مِن شَأَنَه بالهمز كسَأَلَه: إذا قَصدَه، وقد تُبدل همزتُه ألفاً، وهو في الأصل مصدرٌ، وقد أُريدَ به[1] المفعول.

﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ﴾ الضميرُ المجرور للشأن، والتلاوةُ أعظمُ شؤونه ﷺ، ولذا خُصَّت بالذِّكر. أو للتنزيل، والإضمارُ قبل الذكر لتفخيم شأنه. أو لله عزَّ وجلَّ.

و«مِن» قيل: تبعيضية على الاحتمالَين الأوَّلَين، وابتدائيةٌ على الثالث. والتي في قوله سبحانه: ﴿مِن قُرْءَانٍ﴾ زائدةٌ لتأكيد النفي على جميع التقادير، وإلى ذلك ذهب القطب.

وقال الطيبي: إنَّ «مِن» الأولى على الاحتمال الأخير ابتدائية والثانية مزيدةٌ، وعلى الاحتمال الأوَّل الأُولى للتبعيض والثانية للبيان، وعلى الثاني الأُولى ابتدائيةٌ والثانية للبيان.

وفي «إرشاد العقل السليم»[2]: إنَّ الضمير الأول للشأن، والظرف صفةٌ لمصدرٍ

---

(١) قوله: به، ليس في (م).

(٢) ٤/١٥٧.

محذوفٍ، أي: تلاوةً كائنةً من الشأن. أو للتنزيل و«من» ابتدائية أو تبعيضية. أو لله تعالى شأنُه. و«مِن» الثانية مزيدة أو ابتدائية[١] على الوجه الأول، وبيانيةٌ أو تبعيضيةٌ على الوجه الثاني والثالث.

وأنت تعلم أنَّه قد يكون الظرف متعلِّقاً بما عنده، والتزامُ تعلُّقه بمحذوفٍ وقع صفةً لمصدرٍ كذلك في جميع الاحتمالات مما لا حاجةَ إليه. نعم اللازمُ ـ بناءً على المشهور ـ أنْ لا يتعلَّق حرفان بمعنًى بمتعلَّقٍ واحد.

وذهب أبو البقاء إلى أنَّ الضمير الأول للشأن، و«من» الأُولى للأَجْلِ كما في قوله سبحانه: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ﴾ [نوح: ٢٥]. و«من» الثانية مزيدةٌ وما بعدها مفعول به لـ «تتلو»[٢]. وله وجهٌ.

وممَّا يقضي منه العجب ما قاله بعضُهم: إنَّه يحتمل أن يكون ضميرُ «منه» للشأن؛ إما على تقدير: ما تتلو حالَ كون القراءة[٣] بعضَ شؤونك، وإما أنْ يُحمل الكلامُ على حذف المضاف، أي: وما تتلو من أَجْلِ الشأنِ بأنْ يَحدث لك شأنٌ فتتلو القرآن من أجله. فإنَّ الحالية مما لا تكاد تخطرُ ببالِ مَن له أدنى ذوقٍ في العربية، ولم نَرَ القولَ بتقدير مضافٍ في الكلام إذا كان فيه «مِن» الأَجْلية أو نحوها، وما في كلام غير واحدٍ من الأفاضل في أمثال ذلك تقديرُ معنًى لا تقديرُ إعراب، ويَبعُد حمل هذا البعض على ذلك، كما لا يخفى.

هذا، ثم إنَّ القرآن عامٌّ للمقروءِ كلّاً وبعضاً، وهو حقيقةٌ في كلٍّ كما حُقِّق في موضعه. والقولُ بأنَّه مجازٌ في البعض بإطلاق الكلِّ وإرادةِ الجزء، مما لا يُلتفَتُ إليه.

﴿وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ﴾ أي: أيِّ عملٍ كان، والخطابُ الأوَّل خاصٌّ برأس النوع الإنساني وسيدِ المخاطبين ﷺ وهذا عامٌّ يشملُ[٤] سائرَ العباد برِّهم

---

(١) في (م): وابتدائية. وهو خطأ.
(٢) الإملاء ٣/ ٢٣٨.
(٣) في الأصل: القرآن.
(٤) في (م): ويشمل.

وفاجرهم، لا الأخيرين فقط، وقد رُوعي في كلٍّ من المقامَين ما يليق به، فعبَّر في مقام الخصوص في الأول بالشأن؛ لأنَّ عَمَلَ العظيم عظيمٌ، وفي الثاني بالعمل العامِّ للجليل والحقير.

وقيل: الخطابُ الأوّل عامٌّ للأمة أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١].

﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ استثناءٌ مفرَّغ من أعمِّ أحوال المخاطبين بالأفعال الثلاثة، أي: وما تلابسون بشيءٍ منها في حالٍ من الأحوال إلا حالَ كوننا رقباء مطَّلعين عليه حافظين له، كذا قالوا. ويُفهَم منه أنَّ الجارَّ والمجرور متعلِّق بما بعده، ولعل تقديمه للاهتمام بتخويفِ مَن أُريدَ تخويفُه من المخاطَبين، وكأنَّه للمبالغة فيه جيء بضمير العظمة، وأنَّ المقصود من الاطِّلاع عليهم الاطِّلاع على عملهم.

﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: تَشْرَعون فيه وتَتلبَّسون به، وأصلُ الإفاضة: الاندفاعُ بكثرةٍ، أو بقوة، وحيث أُريد بالأفعال السابقة الحالةُ المستمرَّةُ الدائمةُ المقارِنةُ للزمان الماضي أيضاً أُوثر في الاستثناء صيغةُ الماضي، وفي الظرف كلمة «إذ» التي تفيد المضارعَ معنى الماضي، كذا قيل.

ولم أرَ مَن تعرَّض لبيان وجه اختيار النفي بـ «ما» ـ التي تُخلِّصُ المضارعَ للحال عند الجمهور عند انتفاء قرينة خلافه ـ في الجملتَين الأوليين، والنفيِ بـ «لا» ـ التي تخلص المضارع للاستقبال عند الأكثرين، خلافاً لابن مالك[١] ـ في الجملة الثالثة، ولعل ذلك من آثار اختلاف الخطاب خصوصاً وعموماً، فتأمَّله فإنَّه دقيقٌ جدّاً.

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ أي: ما يَبْعُدُ وما يغيبُ، ومنه يقال: الروضُ العازب، وروضٌ عزيبٌ: إذا كان بعيداً عن[٢] الناس. والكلامُ على حذف مضاف، أي: وما يَعْزُبُ عن عِلْمِ ربِّك عزَّ وجلَّ، أو هو كنايةٌ عن ذلك.

وفي التعرُّض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ﷺ من الإشعار باللُّطفِ ما لا يخفى.

---

(١) كما في المغني ص٣٢٢.

(٢) في (م): من.

وقرأ الكسائي والأعمش ويحيى بن وثاب بكَسْرِ الزاي[١].

﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ «مِن» مزيدةٌ لتأكيد النفي، والمثقالُ اسمٌ لِمَا يُوازِن الشيءَ ويكونُ في ثقله، وهو في الشرع أربعةٌ وعشرون قيراطاً. وأخرج ذلك ابنُ أبي حاتم في تفسيره عن أبي جعفر[٢]. والصحيح أنَّه لم يختلف جاهليةً وإسلاماً، فقد نقل الجلال السيوطيُّ عن الرافعيِّ أنَّه قال: أَجْمعَ أهل العصر الأول على التقدير بهذا الوزن، وهو أنَّ الدرهم ستةُ دوانيق، وكلُّ عشرة دراهم سبعةُ مثاقيل، ولم يتغيَّر المثقالُ في الجاهلية ولا في الإسلام.

والذرة واحدةُ الذرِّ، وهو النمل الأحمر الصغير، وسئل ثعلب عنها فقال: إنَّ مئةَ نملةٍ وزن حبة، والذرَّة واحدة منها[٣].

وقيل: الذرَّةُ ليس لها وزنٌ، ويُراد بها ما يُرى في شعاع الشمس الداخل في النافذة.

﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي في جهتَي السفل والعلوِّ، أو في دائرة الوجود والإمكان؛ لأنَّ العامةَ لا تعرفُ سواهما ممكناً ليس فيهما ولا متعلِّقاً بهما، والكلامُ شاملٌ لهما أنفسِهما أيضاً كما لا يخفى.

وتقديمُ الأرض على السماء مع أنَّها قدِّمت عليها في كثيرٍ من المواضع، ووقعت أيضاً في «سبأ» في نظير هذه الآية مقدَّمةً[٤]؛ لأنَّ الكلام في حال أهلها، والمقصودُ إقامة البرهان على إحاطة عِلْمِه سبحانه بتفاصيلها، وذِكْر «السماء» لئلا يُتوهَّم اختصاصُ إحاطة عِلْمِه جلَّ وعلا بشيءٍ دون شيءٍ، وحاصلُ الاستدلال أنَّه سبحانه لا يغيبُ عنه شيءٌ؛ ومَن يكون هذا شأنُه كيف لا يعلم حالَ أهلِ الأرض وما هم عليه مع نبيِّه ﷺ؟

وقوله سبحانه: ﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ جملةٌ مستقلةٌ

---

(١) التيسير ص١٢٢-١٢٣، والنشر ٢/ ٢٨٥ عن الكسائي، وعزاها للأعمش وابن وثاب أبو حيان في البحر ٥/ ١٧٤.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٢/ ٦٠٩، وسلف ٦/ ٢٩.

(٣) مجالس ثعلب ص٤٧٥.

(٤) وهي قوله تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣].

ليست معطوفةً على ما قبلها، و«لا» نافية للجنس، و«أصغر» اسمها منصوبٌ لِشَبَهِه بالمضاف، وكذا «أكبر» لتقديرِ عمله، وقولُ السمين: إنَّهما مبنيَّان على الفتح[1]، ضعيفٌ، وهو مذهبُ البغداديين، وزَعْمُ[2] أنَّه سَبْقُ قلمٍ متأخِّرٌ عن حيز القبول. و«في كتاب» متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع خبراً.

وقرأ حمزةُ ويعقوبُ وخلفٌ وسهلٌ بالرفع[3] على الابتداء والخبر. و«لا» يجوزُ إلغاؤها إذا تكرَّرت، وأما قولهم: إنَّ الشبيه بالمضاف يجبُ نَصْبُه، فالمراد منه المنعُ من البناء لا المنعُ من الرفع والإلغاءِ كما توهَّمه بعضُهم. وجوِّز أنْ يكون ذلك على جَعْلِ «لا» عاملةً عملَ ليس.

وقيل: إنَّ «أصغرَ» على القراءة الأولى عطفٌ على «مثقالٍ» أو «ذرةٍ» باعتبارِ اللفظ، وجيء بالفتح بدلاً عن الكسر لأنَّه لا ينصرفُ؛ للوَصْف ووَزْنِ الفعل، وعلى القراءة الأخرى معطوفٌ على «مثقال» باعتبار محلِّه؛ لأنَّه فاعلٌ و«مِن» كما عرفْتَ مزيدٌ. واستشكل بأنَّه يصير التقدير: ولا يعزُبُ عنه أصغرُ من ذلك ولا أكبرُ منه إلَّا في كتاب فيعزب عنه، ومعناه غيرُ صحيح.

وأُجيبَ بأنَّ هذا على تقدير اتِّصال الاستثناء، وأما على تقدير انقطاعه فيصير التقدير: لكنْ لا أصغرُ ولا أكبرُ إلا هو في كتابٍ مبين. وهو مؤكِّدٌ لقوله سبحانه: (وَمَا يَعْزُبُ عَن) إلخ[4].

وأجاب بعضُهم ـ على تقدير الاتصال ـ بأنَّه على حدِّ ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان:٥٦] ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء:٢٣] في رأيٍ، فالمعنى: لا يبعُدُ عن علمه شيءٌ إلا ما في اللوح الذي هو محلُّ صُوَر معلوماته تعالى شأنُه، بناءً على تفسير «الكتاب المبين» به، أو: إلَّا ما في علمه، بناءً على ما قيل: إنَّ الكتاب العلمُ، فإن عُدَّ ذلك من

---

(١) الدر المصون ٦/ ٢٣٠.

(٢) الزاعم هو الشهاب في الحاشية ٥/ ٤٤.

(٣) التيسير ص١٢٣، والنشر ٢/ ٥٨٥ عن حمزة ويعقوب وخلف. وقراءة سهل في مجمع البيان ١١/ ٦٥، والبحر ٥/ ١٧٤.

(٤) كذا ذكر في هذا الموضع آية سبأ، والأولى ذكر آية يونس: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ إلخ.

العزوب، فهو عازبٌ عن علمه، وظاهرٌ أنَّه ليس من العزوب قطعاً، فلا يعزب عن علمه شيءٌ قطعاً.

ونُقل عن بعض المحقِّقين[1] في دَفْع الإشكال أنَّ العزوب عبارةٌ عن مطلق البعد، والمخلوقاتُ قسمان: قسمٌ أَوْجَدَه الله تعالى من غير واسطةٍ، كالأرض والسماء والملائكةِ عليهم السلام، وقسمٌ أوجده بواسطةِ القسم الأول، مثل الحوادث في العالم، وقد تتباعَدُ سلسلة العلِّية والمعلولية عن مرتبة وجودِ واجبِ الوجود سبحانه، فالمعنى: لا يَبْعُدُ عن مرتبة وجوده تعالى ذرَّةٌ في الأرض ولا في السماء إلَّا وهو في كتابٍ مبينٍ أَثْبَتَ فيه سبحانه تلك المعلومات، فهو استثناءٌ مفرَّغٌ من أعمِّ الأحوال، وإثباتُ العزوب بمعنى البعد عنه تعالى في سلسلة الإيجاد لا محذورَ فيه، وهو وجهٌ دقيقٌ إلا أنَّه أشبهُ بتدقيقات الحكماء، وإن خالف ما هم عليه في الجملة.

وقال الكواشي[2]: معنى «يعزبُ»: يَبِينُ وينفصلُ، أي: لا يَصْدُرُ عن ربِّك شيءٌ من خَلْقِه إلَّا وهو في اللوح، وتلخيصُه: أنَّ كلَّ شيءٍ مكتوبٌ فيه.

واعتُرض بأنَّ تفسير يعزب بـ: يَبِين[3] وينفصل، غيرُ معروفٍ.

وقيل: المرادُ بالبعد عن الربِّ سبحانه البعدُ والخروجُ عن غيبه، أي: لا يَخرجُ عن غيبه إلا ما كان في اللوح، فيعزُبُ عن الغيب ويَبعُدُ، إذ لا يبقَى ذلك غيباً حينئذٍ لاطِّلاع الملائكة عليهم السلام وغيرِهم عليه، فيفيد إحاطة علْمِهِ سبحانه بالغيب والشهادة. ومن هنا يظهرُ وجهٌ آخَرُ لتقديم الأرضِ على السماء.

وقيل: إنَّ «إلا» عاطفةٌ بمنزلة الواو كما قال بذلك الفرَّاء في قوله تعالى: ﴿لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ [النمل: ١٠-١١][4]، والأخفش في قوله سبحانه:

---

(١) كما في تفسير الرازي ١٧/ ١٢٤، وحاشية الشهاب ٥/ ٤٤، وعنه نقل المصنف.

(٢) كما في حاشية الشهاب ٥/ ٤٤.

(٣) في (م): تفسيره بيبين.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٨٧، وقد ذكره الفراء عن بعض النحويين، ثم قال: ولم أجد العربية تحتمل ما قالوا؛ لأني لا أجيز: قام الناس إلا عبدَ الله، وهو قائم، إنما الاستثناء أن يخرج الاسم الذي بعد «إلا» من معنى الأسماء قبل «إلا» ولكن مثله مما يكون في معنى «إلا» كمعنى الواو وليست بها قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ
=

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠][1] وقومٌ في قوله جلَّ شأنه: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢] و«هو» مقدَّر بعدها، والكلام قد تمَّ عند قوله سبحانه: (وَلَا أَكْبَرَ) ثم ابتدأ بقوله تعالى: (إِلَّا فِي كِتَابٍ) أي: وهو في كتاب، ونقل ذلك مكِّي عن أبي علي الحسن بن يحيى الجرجاني[2] ثم قال: وهو قولٌ حسنٌ لولا أنَّ جميع البصريين لا يعرفون «إلا» بمعنى الواو.

والإنصافُ أنَّه لا ينبغي تخريجُ كلام الله تعالى العزيز على ذلك، ولو اجتمع الخلق إنسُهم وجنُّهم على مجيء «إلا» بمعنى الواو.

وقيل: إنَّ الاستثناء من محذوفٍ دلَّ عليه الكلام السابق، أي: ولا شيء إلَّا في كتاب؛ ونظيرُه ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]. ويكونُ من مجموع ذلك إثباتُ العلم لله تعالى في كلِّ معلومٍ، وأنَّ كلَّ شيءٍ مكتوبٌ في الكتاب، ويشهد لهذا - على ما قيل - كثيرٌ من أساليب كلام العرب.

ونُقل عن صاحب كتاب «تبصرة المتذكر»[3]: أنَّه يجوز أنْ يكونَ الاستثناءُ متصلاً بما قبلَ قوله تعالى: (وَمَا يَعْزُبُ) ويكون في الآية تقديمٌ وتأخير، وترتيبها: وما تكون في شأنٍ، وما تتلو منه من قرآنٍ، ولا تعملون من عملٍ إلا في كتابٍ مبينٍ إلا كنَّا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه، إلى[4] «ولا أكبر». وتلخيصُه: وما مِن شيءٍ إلا وهو في اللوح المحفوظ، ونحن نشاهدُه في كلِّ آنٍ.

= رَبُّكَ﴾ هو في المعنى: إلا الذي شاء ربك من الزيادة، فلا تجعل «إلا» في منزلة الواو ولكن بمنزلة «سوى»، فإذا كانت «سوى» في موضع «إلا» صلحت بمعنى الواو؛ لأنك تقول: عندي مال كثير سوى هذا، أي: وهذا عندي.

(١) معاني القرآن للأخفش ١/ ٣٤٣.

(٢) الجماجمي، كان مسكنه بجرجان بباب الخندق في سكة تعرف بجماجمو، له من التصانيف عدة منها في نظم القرآن، وكان من أهل السنَّة، روى عنه أبو النضر محمد بن محمد بن يوسف الطوسي. تاريخ جرجان ص١٨٧، والأنساب ٣/ ٢٨٩. ونقل كلامه أيضاً الرازي ١٧/ ١٢٤، والقرطبي ١١/ ١٥، وأبو حيان ٥/ ١٧٤-١٧٥.

(٣) تبصرة المتذكر وتذكرة المتبصر، لموفق الدين أحمد بن يوسف بن الحسين الكواشي المتوفي سنة (٦٨٠هـ). هدية العارفين ١/ ٩٨.

(٤) قوله: إلى، ليس في (م).

ونظر فيه البلقيني في رسالته المسماة بـ «الاستغناء بالفتح المبين في الاستثناء في: ولا أكبر إلا في كتاب مبين»: بأنه على ما فيه من التكلُّف يلزمُ عليه القول بتركيبٍ في الكلام المجيد لم يوجد في كلام العرب مثله، أعني: إلا في كتابٍ مبين إلَّا كنَّا عليكم شهوداً، وليس ذلك نظير: امْرُر بهم إلا الفتى إلا العَلَا[1]. كما لا يخفى.

وأنت تعلم أنَّ أقلَّ الأقوال تكلُّفاً القولُ بالانقطاع، وأجلَّها قَدْراً وأدقَّها سرّاً القولُ بالاتِّصال، وإخراجُ الكلام مخرجَ ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ ونظائرِه الكثيرةِ نثراً ونظماً، ولا عيبَ فيه إلا أنَّ الآية عليه أبلغ. فليفهم.

ثم إن الله تعالى[2] لما عمَّم وعدَه ووعيده في حقِّ كافَّة مَن أطاع وعصى، أتْبعَه سبحانه بشرح أحوال أوليائه تعالى المخلصين، فقال عزَّ مِن قائل: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

وفي «إرشاد العقل السليم»[3]: أنَّه بيانٌ على وجه التبشير والوعدِ لِمَا هو نتيجةٌ لأعمال المؤمنين، وغايةٌ لِمَا ذكر قبله من كونه سبحانه مهيمناً على نبيِّه ﷺ وأمَّتِه في كلٍّ ما يأتون ويَذَرون، وإحاطة علمه جلَّ وعلا، بعد ما أُشير إلى فظاعة حالِ المفترين على الله تعالى يوم القيامة وما سيعتريهم[4] من الهول إشارةً إجماليةً على طريق التهديدِ والوعيد. وصُدِّرت الجملة بحرفي[5] التنبيه والتحقيقِ لزيادة تقرير مضمونها.

والأولياء جمعُ «وليٍّ»، من «الوَلْي» بمعنى: القُربِ والدنوِّ، يقال: تَباعَدَ بعد وَلْيٍ، أي: قُرْبٍ. والمرادُ بهم خُلَّصُ المؤمنين؛ لقُرْبهم الروحانيِّ منه سبحانه كما يُفْصِحُ عنه تفسيرُهم الآتي.

---

(١) قطعة من ألفية ابن مالك، وتمامه: وألغ إلا ذات توكيد كلا تمرر بهم...، قال ابن عقيل في شرح ألفية ابن مالك ١/ ٦٠٤: إذا دخلت إلا لقصد التوكيد لم تؤثر فيما دخلت عليه شيئاً وذلك في البدل والعطف نحو: ما مررت بأحدٍ إلا زيدٍ إلا أخيك، فـ «أخيك» بدل من زيد ولم تؤثر فيه «إلا» شيئاً، ومثله: لا تمرر بهم إلا الفتى إلا العَلَا، والأصل: لا تمرر بهم إلا الفتى العَلَا، فالعَلَا، بدل من الفتى.

(٢) في (م): ثم إنه تعالى.

(٣) ٤/ ١٥٨.

(٤) في الأصل: سيريهم، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود.

(٥) في (م): بحرف، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود.

ويفسَّر الوليُّ بالمحبِّ، وبين المعنَيَين تلازمٌ، وسيأتي تمامُ الكلام على ذلك قريباً إن شاء الله تعالى، وجاء بمعنى النصير، ويُشير كلامُ البعض إلى صحة اعتبار هذا المعنى هنا.

والمرادُ من الجملَتَين المنفيتَين المتعاطفتَين دوامُ انتفاءِ مدلولهما كما مرَّ تحقيقُه غيرَ مرة، قيل: والمعنى: لا خوفٌ عليهم من لُحوق مكروهٍ ولا هم يحزنون من فوات مطلوبٍ في جميع الأوقات، أي: لا يعتريهم ما يوجب ذلك أصلاً، لا أنَّه يعتريهم لكنَّهم لا يخافون ولا يحزنون، ولا أنَّه لا يعتريهم خوفٌ وحزنٌ أصلاً بل يستمرُّون على النشاط والسرور، كيف لا واستشعارُ الخوف استعظاماً لجلال الله تعالى واستقصاراً للجدِّ والسعي في إقامة حقوقِ العبوديَّةِ من خصائص الخواصِّ والمقرَّبين؟

بل كلما ازداد العبدُ قرباً من ربِّه سبحانه ازداد خوفاً وخشيةً منه سبحانه، ويُرشد إلى ذلك غيرُ ما خبرٍ، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]. وإنما لا يعتريهم ذلك؛ لأنَّ مقصدَهم ليس إلَّا الله تعالى، ونَيلَ رضوانه المستَتْبع للكرامة والزلفى، وذلك مما لا ريبَ في حصوله ولا احتمالَ لفواته بموجب الوعدِ الإلهي. وأمَّا ما عدا ذلك من الأمور الدنيويةِ المتردِّدة بين الحصولِ والفواتِ فهي عندهم أحقَرُ من تَبالة[1] عند الحجَّاج، بل الدنيا بأسرها في أعينهم أقذرُ من ذراع خنزيرٍ ميِّتٍ بال عليه كلبٌ في يد مجذومٍ، فهيهات أنْ تَنتظمَ في سِلْكِ مَقْصِدِهم وجوداً وعَدَماً، حتى يخافوا من حصولِ ضارِّها، أو يحزنوا من فوات نافعها.

وقيل: المرادُ بانتفاء الخوفِ والحزن أمنُهم من ذلك يومَ القيامة، بعد تحقُّق ما لهم من القرب والسعادة، وإلا فالخوف والحزنُ يعرضان لهم قبل ذلك، سواء كان سببُهما دنيويّاً أو أخرويّاً، ولا يجوز أنْ يُرادَ أمنُهم مما ذكر في الدنيا أو

(١) في الأصل و(م): ذبالة، والمثبت من المصادر، وتبالة بلدة صغيرة من بلدان اليمن، استعمل عليها الحجاج بن يوسف، وهي أول عمل وليه الحجاج، فأتاها، فاستحقرها، فلم يدخلها، فقيل أهون... جمهرة الأمثال ٢/ ٣١٣، والمستقصى ١/ ٤٤٥، ومجمع الأمثال ٢/ ٤٠٨، والقاموس (تبل).

فيما يعمُّها والآخرة؛ لأنَّ في ذلك أمناً من مكر الله تعالى، ولا يأمنُ مكر الله إلا القومُ الخاسرون.

وهذا مبنيٌّ على أنَّ الخوفَ المنفيَّ مُسندٌ إليهم، وليس بالمتعيِّن. فقد ذهب بعضُ الجلَّة إلى أنَّه مسنَدٌ إلى غيرهم، أي: غيرُهم لا يَخاف عليهم، ولا يلزمُ من ذلك أنَّهم لا يخافون ليجيءَ حديثُ لزومِ الأمن. وجَعَل ذلك نُكتَةَ اختلافِ أسلوبِ الجملتَين، والعدولِ عن: لا هم يخافون، الأنسبِ بـ «لا هم يحزنون» إلى ما في النظم الجليل.

وقد يقال: إذا كان المرادُ: لا يعتريهم ما يوجب الخوف والحزن، لا يبقَى لحديث لزوم الأمن مِن مكر الله تعالى مجالٌ على ما لا يخفى على المتدبِّر، لكن لا يظهرُ عليه نُكتةُ اختلاف أسلوب الجملتَين.

وكونُها اختلافَ شأنِ الخوف والحزن بشيوع وَصْف الأخير بعدم الثبات كما قيل:

فـــلا حـــزنٌ يـــدومُ ولا سُـــرورُ[1]

دون الأول، ولذا ناسَبَ أن يُعبَّرَ بالاسم في الأول، وبالفعل المفيد للحدوث والتجدُّدِ في الثاني = كما ترى.

وقيل: إنَّ المراد نَفْيُ استيلاء الخوف عليهم، ونَفْيُ الحزن أصلاً، ومفادُ ذلك اتِّصافُهم بالخوف في الجملة، ففيه إشارةٌ إلى أنَّهم بين الرجاء والخوف غير آيسين ولا آمنين، ولهذا لم يُؤتَ بالجملتَين على طرزٍ واحدٍ، وكذا لم يقل: لا خوفٌ لهم، مثلاً.

والأوجهُ عندي ما نُقِلَ عن بعض الجلَّة، من أنَّ معنى «لا خوفٌ عليهم»: لا يَخافُ عليهم غيرُهم، وتجعل[2] الجملةَ الأولى عليه كنايةً عن حُسْنِ حالهم، وأنت في الجملة الثانية بالخيار.

والخوفُ على ما قال الراغب: توقُّع المكروه، وضدُّه الأمنُ. والحزنُ من

---

(١) عجز بيت ورد في الديوان المنسوب لعلي رضي الله عنه ص٦٧، وصدره: رأيت الدهر مختلفاً يدور. وذكره صاحب الوافي بالوفيات ١٨/ ١٥٥-١٥٦ عن أبي النصر الهروي عبد الرحمن بن عبد الجبار على أنه صدر بيت وعجزه: ولا هجر يدوم ولا وصال.

(٢) في (م): ويجعل.

الحَزَن بالفتح، وهو خشونةٌ في النفس لِمَا يحصلُ من الغمِّ، ويضادُّه الفرح[١].
وعلى هذا قالوا في بيان المعنى: لا خوفٌ عليهم من لُحوق مكروهٍ، ولا هم يحزنون من فواتِ مأمول.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: بكلِّ ما جاء من عند الله تعالى ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ عما يحقُّ الاتِّقاءُ منه من الأفعال والتروك اتِّقاءً دائماً، حَسْبَما يُفيده الجمع بين صيغتَي الماضي والمستقبل.

والموصولُ في محلِّ الرفع على أنَّه خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ، والجملةُ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّه قيل: مَن أولئك، وما سببُ فوزهم بما أشار إليه الكلامُ السابق؟ فقيل: هم الذين جمعوا بين الإيمان والتقوى المفضيَيْنِ إلى كلِّ خيرٍ المنجيين[٢] عن كلِّ شرٍّ؟

ولك أن تقتصر[٣] في السؤال على: مَن أولئك؟ فيكونُ ذلك بياناً وتفسيراً للمراد من الأولياء فقط، وعلى الأول هذا مع الإشارة إلى ما به نالوا ما نالوا[٤].

وقيل: محلُّه النصبُ أو الرفعُ على المدح، أو على أنَّه وصفٌ للأولياء. ورُدَّ بأنَّ في ذلك الفصلَ بين الصفة والموصوف بالخبر، وقد أباه النحاة. نعم جوَّزه الحفيد[٥]، وجوَّز فيه البدلية أيضاً.

والمراد من التقوى عند جمعٍ المرتبةُ الثالثة منها، وهي التقوى المأمورُ بها في قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. وفُسِّرت بتنزُّه الإنسان عن

---

(١) مفردات الراغب (خوف) و(حزن)، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ٤٥.
(٢) في (م): المجنبين، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ١٥٩.
(٣) في (م): تقصر.
(٤) في (م): مالوا، وهو تصحيف.
(٥) حفيد التفتازاني أحمد بن يحيى بن محمد بن سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، سيف الدين الحنفي رئيس العلماء بهراة، له: الفرائد والفوائد، وشرح تهذيب المنطق والكلام لجده سعد الدين التفتازاني، وغيرها، قتله الشاه إسماعيل بن حيدر الصفوي مع جماعة من علماء هراة، ونُعت بالشهيد، سنة (٩١٦هـ). هدية العارفين ١/ ١٣٨، والأعلام ١/ ٢٧٠. ونقل المصنف كلامه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ٤٦.

كلِّ ما يَشغل سرَّه عن الحقِّ والتبتُّل إليه بالكلِّية، وبذلك يحصُل الشهودُ والحضور والقرب الذي يدور إطلاقُ الاسم عليه، وهكذا كان حالُ مَن دخل معه ﷺ تحت الخطاب في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ إلخ خلا أنَّ لهم في شأن التبتُّل والتنزُّه درجاتٍ متفاوتةً حَسْبَ تفاوتِ درجاتِ[1] استعداداتهم، وأقصى الدرجاتِ ما انتهى إليه هِمَمُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، حتى جمعوا بذلك بين رياستَي[2] النبوَّة والولاية، ولم يَعُقْهُم التعلُّق بعالَم الأشباح عن الاستغراق في عالَم الأرواح، ولم تصدَّهم الملابَسةُ بمصالح الخَلْقِ عن التبتُّل إلى جَنابِ الحقِّ سبحانه عزَّ وجلَّ، لكمال استعداد نفوسهم الزكيةِ المؤيَّدةِ بالقوة القدسية، كذا قيل.

وفي كون حالِ كلِّ مَن دخل معه ﷺ تحت الخطاب مراداً به جميعُ الصحابة ﷺ، ما أشار إليه من التقوى الحقيقية المأمورِ بها في الآية التي بها يحصُل الشهود والحضور والقرب = بحثٌ، وقُصارَى ما تحقَّق بعد نزاعٍ طويل ذكرناه في جوابنا لسؤال أهل لاهور: أنَّ الصحابة ﷺ كلُّهم عدولٌ، مَن لابَسَ منهم الفتنةَ ومَن لم يُلابِسْها، ودَعْوَى أنَّ العدالة تستلزمُ الولاية بالمعنى السابق إنْ تمَّت تمَّ المقصود وإلَّا فلا.

والآية ظاهرةٌ في أنَّ الأولياء هم المؤمنون المتقون، وأقلُّ ما يكفي في إطلاق الوليِّ التقرُّبُ إليه سبحانه بالفرائض، من امتثالِ الأوامر واجتنابِ الزواجر، والأكملُ التقرُّبُ إليه جلَّ شأنُه بكلِّ ما يمكنُ من القُرَب.

وفي «المبين المعين»: الوليُّ هو من يتولَّى اللهُ تعالى بذاته أمرَه، فلا تصرُّفَ له أصلاً، إذ لا وجودَ له ولا ذاتَ ولا فِعْلَ ولا وَصْفَ، والتركيبُ يدلُّ على القرب، فكأنه قريبٌ منه عزَّ وجل، لاستدامة عباداته واستقامةِ طاعاته، أو لاستغراقِه في بحر معرفته ومشاهدةِ طَلْعةِ عَظَمَتِه[3]. انتهى، وفيه القولُ بأنَّ الوليَّ فعيلٌ بمعنى: مفعول.

---

(١) في (م): حسبما درجات تفاوت.

(٢) في (م): رياسة.

(٣) المبين المعين لفهم الأربعين النووية للعلامة علي القاري ص٢١٤.

وجوِّز أن يكون بمعنى فاعل، وفسِّر بأنَّه مَن يتولَّى عبادةَ الله تعالى وطاعَته على التوالي من غيرِ تخلُّلِ معصيةٍ.

وعن القشيري(١): أنَّ كلا الوصفَين: تولِّي اللهِ تعالى أمرَه، وتولِّيه عبادةَ الله تعالى وطاعَته، شرطٌ في الولاية، غير أنَّ الوصف الأول غالبٌ على المجذوب المراد، والثاني على السالك المريد.

ولا يخفى أنَّ هذا الكلام وكذا ما قبله يدلُّ على أنَّ تخلُّل المعصية منافٍ للولاية، وهو الذي يُشير إليه كلامُ غيرِ واحدٍ من الفضلاء، وليس في ذلك قولٌ بالعصمة التي لم يُثبتها الجماعة إلا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بل قُصارى ما فيه القولُ بالحفظ.

وقد قيل: الأولياء محفوظون، وفُسِّر بعدم صدور الذنب مع إمكانه، والقيدُ لإخراج العصمة. نعم جاءت العصمةُ بمعنى الحفظِ المفسَّر بما ذُكر، وعلى ذلك خُرِّج قولُ صاحب «حزب البحر»(٢): اللهمَّ اعْصِمْني في الحركات والسكنات؛ لأنَّ الدعاء بما هو من خواصِّ الأنبياء عليهم السلام لا يجوز، كالدعاء بسائر المستحيلات كما حُقِّق في محلِّه.

وأطلق بعضُهم القول بأنَّ تخلُّل ذلك غيرُ منافٍ، احتجاجاً بما حُكي عن الجنيد قدِّس سرُّه، أنَّه سئل: هل يزني العارفُ؟ فقال: نعم ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

وتُعقِّب بأنَّه محمولٌ على الإمكان سؤالاً وجواباً، ولا كلامَ فيه، وإنَّما الكلام في أنَّ الوقوع منافٍ أو غيرُ منافٍ.

وقال بعضُهم: لا شبهةَ في عدم بقاءِ وصفِ الولايةِ حالَ التلبُّسِ بالمعصية، إذ لا تقوى حينئذٍ بالإجماع(٣)، ومدارُ هذا الوصف عليها، وكذا على الإيمان، وهو

---

(١) هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك أبو القاسم الخراساني الصوفي صاحب الرسالة القشيرية، وتنظر ٣/ ٢١٠-٢١١.

(٢) هو الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله.

(٣) قوله: بالإجماع، ليس في الأصل.

غيرُ كاملٍ إذ ذاك عند أهل الحقِّ، وغيرُ متحقِّقٍ أصلاً، بل المتحقِّقُ الفسقُ المعنيُّ بالواسطة، أو الكفرُ عند آخرين.

وكذا لا شبهةَ في عدم منافاة وقوع المعصيةِ الاتِّصافَ بالولاية بعده، بأنْ يعود مَن ابتُلي بذلك إلى تقوى الله تعالى، ويتَّصفَ بما تتوقَّفُ الولاية عليه، وهو نظيرُ من يتَّصف بالإيمان أو بالعدالة مثلاً، بعد أنْ لم يكن متَّصفاً بذلك.

بقي الكلامُ في منافاة الوقوع الاتِّصافَ قبلُ، فإنْ قيل: إنَّه منافٍ له بمعنى أنَّه لذلك لم يكن متَّصفاً قبلُ بما هو إيمانٌ وتقوى عند الناس، فلا شبهة أيضاً في عدم المنافاة بهذا المعنى، وهو ظاهرٌ.

وإنْ قيل: إنَّه منافٍ له بمعنى أنَّه لم يكن لذلك متَّصفاً بما ذكر عند الله تعالى، بناءً على أنَّ المراد بالتقوى - التي هي شرطُ الوليِّ - التقوى الكاملةُ التي يترتَّب عليها حبُّ الله تعالى، المترتِّبُ عليه الحفظُ، كما أُشير إليه فيما رواه البخاري من حديث أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ تعالى قال: مَن عادَى لي وليّاً فقَدْ آذنْتُهُ بالحربِ، وما تَقَرَّبَ إليَّ عبدي بشيءٍ أَحَبَّ إليَّ مما افْتَرَضْتُ عليه، ولازال عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتى أُحِبَّه، فإذا أَحببتُهُ كنتُ سَمْعَهُ الذي يَسمعُ به، وبَصَرَه الذي يُبْصِرُ به، ويَدَه التي يَبْطِشُ بها، وَرِجْلَه التي يمشي بها» الحديث[1].

وقد قال غيرُ واحدٍ في معنى الشرطية: فإذا أحببتُه كنتُ حافظاً حواسَّه وجوارحَه، فلا يسمعُ ولا يُبصر ولا يأخذُ ولا يمشي إلا فيما أَرْضَى وأُحِبُّ، وينقلعُ عن الشهوات ويستغرقُ في الطاعات.

وقريبٌ منه قول الخطَّابي[2]: المرادُ من ذلك توفيقُه في الأعمال[3] التي يُباشرها بهذه الأعضاء، يعني: ييسِّر عليه فيها سبيل ما يحبُّه، ويَعصِمه عن موافقةِ ما يكرهُه، من إصغاءٍ إلى لهوٍ يسمَعُه، ونظرٍ إلى ما نُهي عنه ببصرِه، وبَطْشٍ بما لا يَحِلُّ بيده، وسَعْيٍ في باطلٍ برجله.

---

(١) صحيح البخاري (٦٥٠٢).

(٢) في أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري ٣/ ٢٢٥٩.

(٣) في أعلام الحديث: توفيقه للأعمال.

وكذا قولُ بعضهم: المعنى: أَجْعَلُ سلطان حبِّي غالباً عليه، حتى أَسلُبَ عنه الاهتمامَ بشيءٍ غيرِ ما يقرِّبه إليَّ، فيصيرُ متخلِّياً عن اللَّذات، متجنِّباً عن الشهوات، متى ما يتقلَّب وأينما يتوجَّه لقيَ الله تعالى بمرأى منه[1] ومسمعٍ منه، ويأخذ حبُّ الله تعالى مجامعَ قلبه، فلا يسمعُ ولا يَرَى ولا يفعلُ إلا ما يحبُّه، ويكونُ له في ذلك عوناً ومؤيِّداً ووكيلاً، يحمي جوارحَه وحواسَّه = فله وجهٌ[2]؛ لأنَّه إذا وقعَت المعصيةُ يُعلَم أنَّه لم يكن محفوظاً، وبه يُعلم أنَّه لم يكن محبوباً، وبذلك يُعلم أنَّه لم يكن متقرِّباً إليه تعالى شأنُه، متَّقياً إيَّاه حقَّ تُقاته، وإنْ ظنَّه الناس كذلك، فهو ليس من أوليائه سبحانه في نفس الأمر.

نعم مَن اتَّصف بصفاتِ الأولياء ظاهراً يجبُ تعظيمُه واحترامُه والتأدُّبُ معه، والكفُّ عن إيذائه بشيءٍ من أنواع الإيذاء التي لا مسوِّغَ لها شرعاً، كالإنكارِ عليه عناداً أو حسداً، دون المنازعةِ في محاكمةٍ أو خصومةٍ راجعةٍ لاستخراجِ حقٍّ، أو كشفِ غامضٍ ونحوِ ذلكَ، لِمَا دلَّ عليه الحديثُ السابقُ المشتمِلُ مِن تهديد المؤذي على الغاية القصوى. والحُكم على مَن ذُكر بالولاية[3] إذا لم يكن هناك نصٌّ من معصومٍ على ما يدُلُّ على تحقُّقها في نفس الأمر، إنَّما هو بالنظر إلى الظاهر لا إلى ما عند الله تعالى، لِمَا أنَّ من الذنوب ما لا يمكن أنْ يطَّلع عليه إلا علَّام الغيوب، ومنها الذنوبُ القلبية التي هي أدواءٌ قاتلةٌ وسمومٌ ناقعةٌ، مع أنَّ الأعمال بخواتيمها، وهي مجهولةٌ إلَّا للمُبْدِئِ المُعيدِ جلَّ جلاله. هذا وهو تحقيقٌ يلوح عليه مخايلُ القبول.

ومن الناس مَن قسم الولايةَ إلى صغرى قد يقعُ فيها الذنبُ على الندرة، لكن يبادر للتنصُّل منه فوراً، وعدَّ العلَّامةُ ابن حجرٍ عليه الرحمة مَن وقع منه الذنبُ كذلك فبادَرَ للتنصُّل محفوظاً، فالوقوعُ عنده على الندرة مع المبادَرَة للتنصُّل لا ينافي الحفظَ، وإنما يُنافيه تكرُّرُ الوقوع وكثرتُه، وكذا ندْرتُه مع عدم المبادرة للتنصُّل.

---

(١) في (م): فيه.

(٢) قوله: فله وجه، هو جواب الشرط في قوله: وإن قيل إنه منافٍ له بمعنى أنه لم يكن لذلك متصفاً بما ذكر عند الله.

(٣) في (م): ذكره لولاية.

وكُبرَى لا يقع فيها الذنبُ أصلاً، مع إمكان الوقوع، ولو قيل: أو مع استحالته كما في ولاية الأنبياء عليهم السلام، وادُّعي أنَّ ذلك من خصوصيات ولايتهم، فيكون الحفظُ أعمَّ من العصمة = لم يبعد.

وأنت تعلم أنَّ قولهم: الأنبياءُ معصومون، ظاهرٌ في كون العصمة من توابع النبوَّة، ومعلَّلةً بها، وهو مخالفٌ لتلك الدعوى كما لا يخفى، وما ذُكر من التقسيم حسنٌ، ويُعلم منه أنَّ الكثير ممن يدَّعي الولاية في زماننا أو تُدَّعَى له ليس له فيها سوى الدعوى، لإصراره - والعياذُ بالله تعالى - على كبائرَ تقع منه في اليوم مراراً، عافانا الله تعالى والمسلمين من ذلك.

وقد جاء عن النبيِّ ﷺ في تفسير الأولياء ما يُظَنُّ أنَّه مخالفٌ لِمَا دلَّت عليه الآيةُ في ذلك، فقد أخرج ابن المبارك والترمذيُّ في «نوادر الأصول» وأبو الشيخ وابنُ مردويه وآخرون عن ابن عباس ﷺ قال: قيل: يا رسولَ الله، مَن أولياءُ الله؟ قال: «الذين إذا رُؤُوا ذُكِرَ الله تعالى»[1] أي لحُسْنِ سَمْتهم وإخباتهم.

وأخرج أحمد وابنُ أبي حاتم والبيهقيُّ وجماعةٌ عن أبي مالكٍ الأشعريِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لله تعالى عباداً ليسُوا بأنبياءَ ولا شُهداءَ، يغبطُهم النبيُّون والشهداءُ على مَجالِسِهم وقُربهم مِن الله تعالى». قال أعرابيٌّ: يا رسول الله انْعَتْهُم لنا. قال: «هم أُناسٌ مِن أَفْناءِ الناسِ ونَوازِعِ القبائلِ، لم تَصِلْ بينَهم أَرحامٌ متقاربةٌ، تَحابُّوا في الله وتَصافَوا في الله، يَضَعُ الله تعالى لهم يومَ القيامةِ مَنابرَ مِن نورٍ، فيجلسون عليها، يَفزَعُ الناسُ وهم لا يفزعون، وهم أولياءُ الله لا خَوفٌ عليهم ولا هم يحزنون»[2].

ولا مخالفةَ في الحقيقة، فإنَّ ما أُشيرَ إليه مِن حُسنِ السَّمْتِ والإخباتِ والتَّحابِّ في الله تعالى من الأحكام اللازمة للإيمان والتقوى، والآثارِ الخاصَّة بهما، الحقيقةِ بالتخصيص بالذكر لظهورها وقُرْبِها من أفهام الناس، وقد أَوردَ رسولُ الله ﷺ كلاً

---

(١) الزهد لابن المبارك (٢١٨)، ونوادر الأصول ص١٤٠، وعزاه لأبي الشيخ وابن مردويه السيوطي في الدر ٣/ ٣٠٩-٣١٠، وأخرجه أيضاً ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٦٤.

(٢) مسند أحمد (٢٢٩٠٦)، وتفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٦٣، وشعب الإيمان (٩٠٠١).

من ذلك حَسْبَما يقتضيه مقامُ الإرشاد والتذكير، ترغيباً لسائلٍ أو حاضرٍ فيما خصَّه بالذكر من أحكامها.

وأُريدَ بوصفهم بأنَّهم يغبِطُهم النبيون على مجالسهم وقُرْبهم الإشارةُ إلى راحتهم ممَّا يعتري الأنبياءَ عليهم السلام من الاشتغال بأممهم، والمرادُ أنَّهم يغبطونَهم على مجموع الأمرَين.

وعن الكواشي: أنَّ ذلك خارجٌ مخرَج المبالغة، والمعنى: أنَّه لو فُرِضَ قومٌ بهذه الصفة لكانوا هؤلاء. وقال بعضُ المحقِّقين: إنَّ ذلك تصويرٌ لحُسْن حالهم على طريقة التمثيل.

وأيّاً ما كان فلا دليلَ فيه على أنَّ الولاية أفضلُ من النبوَّة، وقد كفَّر مُعتقِدُ ذلك، وقد يؤوَّل له بحمل ذلك على أنَّ ولاية النبيِّ أفضلُ من نبوَّته، كما حُمِلَ ما قاله العزُّ بنُ عبد السلام ـ المخالفُ للأصَحِّ ـ من أنَّ النبوة أفضلُ من الرسالة[1]، على نحو ذلك.

وكذا ـ لنظير ما ذكرنا ـ لا يخالف ما دلَّت الآيةُ عليه تفسيرَ عيسى عليه السلام لذلك؛ فقد أخرج أحمد في «الزهد» وابنُ أبي حاتم وأبو الشيخ عن وَهْب قال: قال الحواريُّون: يا عيسى مَن أولياءُ الله تعالى الذين لا خَوفٌ عليهم ولا هم يحزنون؟ فقال عليه السلام: الذين نظروا إلى باطن الدنيا حينَ نظَرَ الناسُ إلى ظاهرها، والذين نظروا إلى آجِلِ الدنيا حين نظر الناسُ إلى عاجلها، وأماتوا منها ما يخشَون أنْ يميتَهم، وتركوا ما علموا أنْ سيترُكهم، فصار استكثارُهم منها استقلالاً، وذكرُهم إيَّاها فَواتاً، وفرحُهم بما أصابوا منها حُزناً، وما عارَضَهم من نائلها رفضوه، وما عارضهم من رِفعتها بغير الحقِّ وَضَعوه، خَلِقَت الدنيا عندهم فليسوا يُجدِّدونها، وخَرِبَت بينهم فليسوا يَعْمُرونها، وماتَت في صدورهم فليسوا يُحْيُونها، يَهدِمونها فيبنون بها آخرتهم، ويَبيعونَها فيشترون بها ما يَبقَى لهم، رفضوها فكانوا برفْضِها هم الفَرِحين، باعوها فكانوا ببيعها هم الرابحين، ونظروا إلى أهلها صرعَى قد خلَت فيهم المَثُلات، فأَحْيَوا ذِكْرَ الموت وأماتوا ذِكْرَ الحياة،

(١) قواعد الأحكام ٢/ ٩٩.

يُحبُّون الله سبحانه وتعالى، ويستضيئون بنوره ويضيئون به، لهم خبرٌ عجيبٌ وعندهم الخبرُ العجيب، بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نَطَق الكتاب وبه نطقوا، وبهم عُلِمَ الكتاب وبه عُلِموا، ليس يَرَون نائلاً مع ما نالوا، ولا أمانيَّ دون ما يرجون، ولا فَرَقاً دون ما يَحْذَرون[1].

﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ استئنافٌ جيء به في موضع التعليل لنفي حُزنهم والخوفِ عليهم في قولٍ، وفي آخرَ جيء به بياناً لِمَا أولاهم سبحانه من خيرات الدارَين، بعد أنْ أَخبرَ جلَّ وعلا بإنجائهم من شرورهما ومَكارِهِهما، وكأنَّه على هذا قيل: هل لهم وراءَ ذلك من نعمةٍ وكرامةٍ؟ فقيل: لهم البشرى. . إلخ. وتقديمُ الأوَّل لِمَا أنَّ التَّخْليةَ سابقةٌ على التَّحْلية، مع ما فيه من رعاية حقِّ المقابلة بين حُسْنِ حالِ المؤمنين وسوءِ حال المفترين، وتعجيل إدخال المسرَّة بتبشير الخلاص عن الأهوال، وتوسيطُ البيان السابق بينَ التخليةِ والتحلية لإظهار كمال العناية به[2]، مع الإيذان بأنَّ انتفاء ما تقدَّم لإيمانهم واتِّقائهم عما يؤدِّي إليه من الأسباب.

ومن الناس مَن فسَّر الأولياء بالذين يتولَّونه تعالى بالطاعة ويتولَّاهم بالكرامة، وجَعَل «الذين آمنوا» إلخ تفسيراً لتولِّيهم إياه تعالى، وهذه الجملةَ تفسيراً لتَوَلِّيه[3] تعالى إياهم.

وتعقَّب بأنَّه لا ريبَ في أنَّ اعتبار القيدِ الأخير في مفهوم الولاية غيرُ مناسبٍ لمقامِ ترغيب المؤمنين في تحصيلها والثباتِ عليها، وبشارتِهم بآثارها ونتائجها، بل مُخلٌّ بذلك؛ إذ التحصيلُ إنما يتعلَّق بالمقدور، والاستبشارُ لا يحصلُ إلا بما عُلم وجودُ سببه، والقيدُ المذكور ليس بمقدورٍ لهم حتى يُحصِّلوا الولايةَ بتحصيله، ولا بمعلومٍ لهم عند حصوله حتى يعرِفوا حصولَ الولاية لهم ويستبشروا بمحاسنِ آثارها، بلِ التولِّي بالكرامة عينُ نتيجةِ الولاية، فاعتبارُه في عنوان الموضوع، ثم

(١) الزهد لأحمد ص٧٨، وتفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٦٤، وعزاه لأبي الشيخ السيوطي في الدر ٣/ ٣٠٩.

(٢) أي: توسيط قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ بين بشارة الخلاص عن المحذور وبشارة الفوز بالمطلوب لإظهار كمال العناية بتفسير الأولياء. تفسير أبي السعود ٤/ ١٦٠، والكلام منه.

(٣) في الأصل و(م): لتوليته، والمثبت من تفسير أبي السعود.

الإخبارُ بعدم الخوف والحزن، مما لا يليقُ بشأن التنزيل الجليل. انتهى.

وأنت تعلم أنَّ ما ارتكبه ذلك البعضُ تكلُّفٌ وعدولٌ عن الظاهر، فلا ينبغي العدول إليه، وإنْ كان ما ذكره المتعقِّب لا يخلو عن نظر.

وجوِّز كونُ الموصول مبتدأً وهذه الجملة خبرهُ، وفي بعض الأخبار ما يؤيِّده. و[البُشرَى] في الأصل: الخبرُ بما يُظِهرُ السرورَ في بَشَرة الوجه، ومثلُها البِشارةُ، وتُطلق على المبشَّر به من ذلك، وإلى إرادة كلٍّ ذهب بعضٌ. والظرفان بعده على الأول متعلِّقان به، وعلى الثاني في موضع الحال منه، والعاملُ ما في الخبر من معنى الاستقرار، أي: لهم البشرى حالَ كونها في الدنيا وحالَ كونها في الآخرة، أي: عاجلةً وآجلةً، أو من الضمير المجرور، أي: حالَ كونهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

والثابتُ في أكثر الروايات أَنَّ البشرَى في الحياة الدنيا هي الرؤيا الصالحةُ التي هي «جزءٌ من ستة وأربعين جزءاً من النبوَّة»[1] كما هو المشهور. أو«جزءٌ من سبعين جزءاً منها» كما أخرجه ابنُ أبي شيبة عن ابن عمر وأبي هريرة، وهو وابنُ ماجه عن الأول[2].

فقد أخرج الطيالسي وأحمد والدارميُّ والترمذيُّ وابنُ ماجه والطبرانيُّ والحاكم وصححه والبيهقيُّ وغيرُهم عن عبادةَ بنِ الصامت قال: سألتُ رسول الله ﷺ عن قوله سبحانه: ﴿ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قال: «هيَ الرُّؤْيا الصالحةُ يَرَاها المؤمنُ أو تُرَى لَهُ»[3].

---

(١) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٢٠٣٧)، والبخاري (٦٩٨٣)، ومسلم (٢٢٦٤) عن أنس ﷺ. وأخرجه أحمد (٢٢٦٩٧)، والبخاري (٦٩٨٧)، ومسلم (٢٢٦٤) عن عبادة بن الصامت ﷺ. وأخرجه أحمد (٧٦٤٢)، والبخاري (٦٩٨٨)، ومسلم (٢٢٦٣) عن أبي هريرة ﷺ. وأخرجه البخاري (٦٩٨٩) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ١١/ ٥٢ و٥٤، وسنن ابن ماجه (٣٨٩٧). وحديث ابن عمر أخرجه أيضاً أحمد (٤٦٧٨)، ومسلم (٢٢٦٥).

(٣) مسند الطيالسي (٥٨٣)، ومسند أحمد (٢٢٦٨٧)، وسنن الدارمي (٢١٣٦)، وسنن الترمذي (٢٢٧٥)، وسنن ابن ماجه (٣٨٩٨)، والمستدرك ٤/ ٣٩١، وشعب الإيمان (٤٧٥٣). وفي الباب عن أبي الدرداء عند الترمذي (٣١٠٦).

وأخرج ابنُ مردويه عن ابن مسعود أنّه سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فأُجيبَ بما ذكر أيضاً. وأخرج مِن طريق أبي سفيان عن جابر مثل ذلك[١].

وأخرج ابنُ أبي الدنيا وأبو الشيخ وأبو القاسم ابنُ منده من طريق أبي جعفر عن جابرٍ المذكورِ قال: أتى رجلٌ من أهل البادية رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أخبرني عن قول الله تعالى: (ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ) إلخ؟ فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «أمَّا قولُه تعالى: (لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا) فهي الرؤيا الحسنةُ تُرَى للمؤمنِ فيُبَشَّر بها في دنياه، وأمَّا قوله سبحانه: (وَفِى ٱلْأَخِرَةِ) فإنَّها بِشارةُ المؤمن عند الموتِ: أنَّ الله قد غَفَرَ لك ولمن حَمَلك إلى قبرِك»[٢] وجاء مرفوعاً وموقوفاً عن غيرِ واحدٍ تفسيرُها بما ذُكر.

وأخرج ابنُ جرير وابنُ المنذر من طريق عليّ بنِ أبي طلحةَ عن ابنِ عباس أنَّ البشرى في الحياة الدنيا هي قولُه تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٧][٣]. وعن الزجّاج والفرّاء: أنَّها هذا وما شاكله[٤] من قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢] وقوله سبحانه: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ الآية [التوبة: ٢١]، وقوله جل وعلا: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥] إلى غير ذلك[٥].

وأخرج ابنُ أبي شيبة وغيرُه عن الضحاك أنّه قال في ذلك: أنَّهم يعلمون أين هم قبل أنْ يموتوا[٦].

وجاء في تفسير «البشرى» في الآخرة ما سمعتَ في الخبر الأخير عن جابر[٧].

وأخرجَ ابنُ جرير وغيرُه عن أبي هريرة مرفوعاً: «أنّها الجنة»[٨].

---

(١) ذكرهما عن ابن مردويه السيوطي في الدر ٣/ ٣١٢.
(٢) الدر المنثور ٣/ ٣١٢.
(٣) تفسير الطبري ١٢/ ٢٢٣، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٣/ ٣١٣.
(٤) في (م): يشاكله.
(٥) معاني القرآن للفراء ١/ ٤٧١، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٦-٢٧.
(٦) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٨١.
(٧) في (م): عن جابر الأخير.
(٨) تفسير الطبري ٢/ ٢١٨ وأخرجه الطبري أيضاً ص٢١٦ من حديث أبي الدرداء ﷺ، =

وعن عطاء: أنَّ البشرى في الدنيا أنْ تأتيَهم الملائكةُ عند الموت بالرحمة، قال الله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ﴾ [فصلت: ٣٠] وأمَّا البشرى في الآخرة فتلَقِّي الملائكةِ إياهم مُسلِّمين مبشِّرين[١] بالفوز والكرامة، وما يَرَون من بياض وجوههم وإعطاءِ الصحائف بأيمانهم، وما يقرؤون منها، وغير ذلك من البشارات.

وقيل: المرادُ بالبشرى: العاجلةُ، نحو: النصرُ والفتحُ والغنيمة، والثناءُ الحسنُ، والذِّكْرُ الجميل، ومحبةُ الناس، وغيرُ ذلك، وأما البشرى الآجلةُ فغنيَّةٌ عن البيان.

وأنت تعلم أنَّه لا ينبغي العدول عمَّا ورَدَ عن رسول الله ﷺ في تفسير ذلك إذا صحَّ، وحيث عَدَل ـ لعدم وُقوفه على ذلك فيما أظنُّ ـ فالأَولَى أن يُحمل «البشرى» في الدارَين على البشارة بما يُحقِّق نفْيَ الخوفِ والحزن كائناً ما كان، ويُرشد إلى ذلك السياق[٢]، ومِن أَجلِّ ذلك بُشرى الملائكة لهم بذلك وقتاً فوقتاً حتى يدخلوا الجنة، وقد نَطَق الكتاب العزيز في غير موضعٍ بهذه البشرى مَنَّ الله تعالى علينا بها برحمته وكرمه.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تغييرَ لأقواله التي من جملتها مواعيدُه الواردةُ بشارةً للمؤمنين المتقين، فيدخل فيها البشاراتُ الواردةُ ها هنا دخولاً أوّليّاً، ويثبتُ امتناعُ الإخلاف فيها لطفاً وكرماً ثبوتاً قطعيّاً.

وأُريدَ من عدم تبديل كلماته سبحانه ـ على تقدير أنْ يُراد من «البشرى» الرؤيا الصالحة ـ عدمُ الخلف بينها وبين ما دلَّ على ثبوتها ووقوعها فيما سيأتي بطريق الوعدِ من قوله تبارك اسمه: (لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ)، لا عدمُ الخلف بينها وبين نتائجها الدنيوية والأخروية[٣]. ولم يظهر لي وجهه بعد التدبُّر، والمشهورُ أنَّ

= وص٢١٨-٢١٩ من حديث عبادة بن الصامت ﷺ. وينظر تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص٨٤-٨٥.

(١) في الأصل: ومبشرين، والمثبت من (م)، والكشاف ٢/ ٢٤٣، وتفسير أبي السعود ٤/ ١٦٠.

(٢) في (م): السباق.

(٣) تفسير أبي السعود ٤/ ١٦١.

الرؤيا الصالحةَ لا يتخلَّف ما تدُلُّ عليه. وقد جاء من حديث الحكيم الترمذي وغيره عن عبادةَ رضي الله عنه أنَّه ﷺ قال له في الرؤيا الصالحة: «كلامٌ يُكلِّمُ به ربُّك عبدَه في المنام»[1].

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر من أنَّ لهم البشرى في الدارَين ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ الذي لا فوزَ وراءه. وجوِّز أنْ تكون الإشارة إلى «البشرى» بمعنى التبشير.

وقيل: إنَّ «ذلك» إشارةٌ إلى النعيم الذي وقعَت به البشرى.

وجَعَل غيرُ واحدٍ الجملة الأولى وهذه الجملة اعتراضاً جيء به لتحقيق المبشَّر به وتعظيم[2] شأنه، وهو مبنيٌّ على جواز تعدُّد الاعتراض، وعلى أنَّه يجوز أنْ يكونَ في آخر الكلام، ولذا قال العلَّامة الطيبي: لو جُعلت الأولى معترضةً، والثانيةُ تذليلاً للمعترِض والمعترَض فيه ومؤكِّدةً لهما كان أحسنَ. بناءً على أنَّ ما في آخر الكلام يُسمَّى تذييلاً لا اعتراضاً، وهو مجرَّد اصطلاح.

ومَن جعل قوله سبحانه: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ معطوفاً على الجملة قبلُ، أي: إنَّ أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون فلا يَحْزُنكَ قولُ أعداء الله تعالى، فالاعتراضُ عنده بين متَّصلَين، لا في آخر الكلام، لكنَّه ليس بشيء.

والذي عليه الجمهور أنَّه استئنافٌ سِيقَ تسليةً للرسول ﷺ عمَّا كان يلقاه من جهة الأعداء من الأذيَّةِ الناشئةِ من مقالاتهم الرديئةِ الوحشيةِ، وتبشيراً له عليه الصلاة والسلام بالنصر والعزِّ إثْرَ بيانِ أنَّ له ولأتباعه أمناً من كلِّ محذورٍ، وفوزاً بكلِّ مطلوبٍ، فهو متَّصلٌ بقوله سبحانه: (أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ) إلخ معنىً.

وقيل: إنه متَّصلٌ بقوله سبحانه: (وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ) الآية واختاره على ما فيه من البعد الطبرسيُّ[3].

---

(١) نوادر الأصول ص١١٨، وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة ١/ ٢١٤، والطبراني في مسند الشاميين ٢/ ١١٨.

(٢) في الأصل و(م): لتعظيم، والمثبت من تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ٤٦، وتفسير أبي السعود ٤/ ١٦١.

(٣) في مجمع البيان ١١/ ٧١.

وقرأ نافع: «ولا يُحْزِنْكَ»[1] من أَحزَنَ، وهو في الحقيقة نَهْيٌ له ﷺ عن الحزن، كأنَّه قيل: لا تحزن بقولهم، ولا تبالِ بكلٍّ ما يتفوَّهون به في شأنك مما لا خيرَ فيه، وإنَّما عدَلَ عنه إلى ما في النظم الجليل للمبالغة في النهي عن الحزن؛ لمَا أنَّ النهيَ عن التأثير نهيٌ عن التأثُّر بأصله ونفيٌ له بالمرة، ونظيرُ ذلك كما مرَّ غيرَ مرةٍ قولُهم: لا أَرينَّكَ ها هنا، و: لا يأكُلْكَ السّبع، ونحوه، وقد وجِّه فيه النهيُ إلى اللازم والمرادُ هو النهيُ عن الملزوم.

قيل: وتخصيصُ النهيِ عن الحزن بالإيراد مع شمول النفْي السابق للخوف أيضاً، لِمَا أنَّه لم يكن فيه ﷺ شائبةُ خوفٍ حتى يُنهَى عنه، وربما كان يَعتريه ﷺ في بعض الأوقاتِ حزنٌ فسلِّي عنه.

ولا يخفى أنَّه إذا قلنا: إنَّ الخوفَ والحزنَ متقاربان، فإذا اجتَمعا افْترقا وإذا افترَقا اجتَمعا، كما علمتَ آنفاً، كان النهيُ عن الحزن نهياً عن الخوف أيضاً، إلَّا أنَّ الأولَى عدمُ اعتبار ما فيه توهُّمُ نسبةِ الخوف إلى ساحته عليه الصلاة والسلام، وإنْ لم يكن في ذلك نقصٌ، فقد جاء نهْيُ الأنبياء عليهم السلام عن الخوف كنهيهم عن الحزن، بل قد ثبت صريحاً نسبةُ ذلك إليهم، وهو ممَّا لا يُخلُّ بمرتبة النبوَّة؛ إذ ليس كلُّ خوفٍ نقصاً ليُنزَّهوا عنه كيف كان.

﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ كلامٌ مستأنفٌ سيقَ لتعليل النهي. وقيل: جوابُ سؤالٍ مقدَّرٍ، كأنه قيل: لمَ لا يحزنه؟ فقيل: لأنَّ الغلبةَ والقهرَ لله سبحانه، لا يملك أحدٌ شيئاً منها أصلاً، لا هُمْ ولا غيرُهم، فلا يُقْهَر ولا يُغْلَبُ أولياؤه، بل يَقْهَرُهم ويَغْلِبُهم ويَعْصِمُكَ منهم.

وقرأ أبو حيوة: «أنَّ» بالفتح[2] على صريح التعليل، أي: لأنَّ. وحَمَلَ ابن قُتيبة[3]

---

(١) التيسير ص٩١-٩٢، والنشر ٢/ ٢٤٤.

(٢) القراءات الشاذة ص٢٧، والبحر ٥/ ١٧٦.

(٣) في الأصل و(م): قتيبة بن مسلم، والصواب ما أثبتناه، وكلام ابن قتيبة في هذه المسألة ذكره عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١٢٩، وأبو حيان في البحر ٥/ ١٧٦، والسمين في الدر ٦/ ٢٣٤، والشهاب في الحاشية ٥/ ٤٦.

ذلك على البدل، ثم أنكر القراءةَ لذلك؛ لأنَّه يؤدِّي إلى أنْ يقال: فلا يَحْزُنْك أنَّ العزَّة لله جميعاً، وهو فاسدٌ.

وذكر الزمخشريُّ: أنَّه لو حُمِلَ على البدل لكان له وجهٌ أيضاً على أسلوب ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦] ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [القصص: ٨٨] فيكون للتهييج والإلهاب والتعريض بالغير[(١)]. وفيه بعدٌ.

﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾ يسمعُ أقوالَهم في حقِّك، ويعلم ما يُضمرونه عليك، فيكافؤهم على ذلك.

وما ذكرناه في الآية هو الظاهرُ المتبادِر. وأخرج أبو الشيخ[(٢)] عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما أنَّه قال: لمَّا لم يَنتفعوا بما جاءهم من الله تعالى، وأقاموا على كفرهم، كَبُرَ ذلك على رسول الله ﷺ، فجاءه مِن الله سبحانه فيما يُعاتبه: (وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ) يسمع ما يقولون ويعلمُه، فلو شاء بعزَّته لانتصر منهم. ولا يخفَى أنه خلافُ الظاهر جدّاً، مع ما فيه من تعليق العلم بما علق بالسمع، ولعلَّ روايته عن الحبر غيرُ معوَّلٍ عليها.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: من الملائكة والثقلَين، كما يدُلُّ عليه التعبير بـ «مَن» الشائع في العقلاء، والتغليبُ غيرُ مناسبٍ هنا، ووجْهُ تخصيصِهم بالذِّكر الإيذانُ بعدم الحاجة إلى التصريح بغيرهم، فإنَّهم مع شرفهم وعُلوِّ طبقتهم إذا كانوا عبيداً لله مملوكين له سبحانه فما عَدَاهم من الموجودات أَولَى بذلك.

والجملةُ مع ما فيها من التأكيد لِمَا سبق من اختصاص العزَّةِ به جلَّ شأنه، الموجبِ لسلوته عليه الصلاة والسلام وعدم مبالاته بمقالات المشركين = تمهيدٌ لِمَا لَحِقَ من قوله سبحانه: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾ ودليلٌ

---

(١) كذا ذكر المصنف هذا الكلام عن الزمخشري، وقول الزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٤٤ هو: مَن جعله بدلاً من «قولُهم» ثم أنكره، فالمنكرُ هو تخريجه لا ما أنكره من القراءة به. اهـ. وما ذكره المصنف قاله الشهاب في الحاشية ٥/ ٤٦ بعد ما أشار لقول الزمخشري المذكور.

(٢) كما في الدر المنثور ٣/ ٣١٣.

على بطلان ظنونهم وأعمالهم المبنيَّةِ عليها، والاقتصارُ على أحد الأمرَين قصورٌ، فلا تكُن من القاصرين.

و«ما» نافية «وشركاءَ» مفعولُ «يتَّبع»، ومفعولُ «يَدْعُون» محذوفٌ لظهوره، أي: ما يتَّبع الذين يَدْعُون من دون الله شركاءَ شركاءَ في الحقيقة، وإنْ سمَّوها شركاء لجَهْلِهم، فالمرادُ سَلْبُ الصفة في الحقيقة ونفسِ الأمر، فما ذكره أبو البقاء[1] من عدم جوازِ هذا الوجه من الإعراب؛ لأنَّه يدُلُّ على نفْي اتِّباعهم الشركاءَ مع أنَّهم اتَّبعوهم، ناشئٌ من[2] الغفلة عمَّا ذكرنا.

وجوَّز أنْ يكون «شركاء» المذكورُ مفعولَ «يَدْعون»، ويكون مفعولُ «يتَّبع» محذوفاً لِانفهامِهِ من قوله سبحانه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي: ما يتَّبعون يقيناً وإنما يتبعون ظنَّهم الباطلَ أو ظنَّهم أنَّها شركاء، بتقديرِ معمول الظنِّ أو تنزيله منزلةَ اللازم.

وقدَّر بعضُهم مفعولَ «يتَّبعون»: «شركاء»، ميلاً إلى إعمال الثاني في التنازع، وتعقِّب بأنَّه لا يصحُّ أنْ يكونَ من ذلك البابِ؛ لأنْ مفعول الفعل الأول مقيدٌ دون الثاني، فلا يتَّحد المعمول، والاتِّحادُ شرطٌ في ذلك.

وكونُ التقييدِ عارضاً بعد الإعمال بقرينة عاملِهِ فلا ينافي ما شُرط في الباب، بالباب كما لا يخفى[3].

وجوَّز أيضاً أنْ تكون «ما» استفهاميةً منصوبةً بـ «يتَّبع»، و«شركاءَ» مفعول «يَدْعون»، أي: أيَّ شيءٍ يتَّبع المشركون، أي: ما يتَّبعونه ليس بشيء.

وأنْ تكونَ موصولةً معطوفةً على «مَن»، أي: وله تعالى ما يتَّبعه المشركون خَلْقاً ومُلكاً، فكيف يكون شريكاً له سبحانه؟ وتخصيصُ ذلك بالذكر مع دخوله فيما سبَقَ عبارةً أو دلالةً للمبالغة في بيان بطلانِ الاتِّباع، وفسادِ ما بنوه عليه مِن الظنِّ الذي هو من الفساد بمكان.

---

(١) في الإملاء ٣/ ٢٤٠.

(٢) في الأصل: عن.

(٣) قوله: بالباب. . .، يعني: فيه نظر، كما في حاشية الشهاب ٥/ ٤٧.

وجوِّز على احتمال الموصولية أنْ تكونَ مبتدأً خبرُه محذوفٌ، أي: باطلٌ ونحوه، أو الخبرُ قوله سبحانه: «إنْ يتَّبعون» والعائدُ محذوفٌ، أي: في عبادته أو اتِّباعه.

وقرأ السلمي: «تدعون» بالتاء الخطابية، وروي ذلك عن عليٍّ كرم الله وجهه[1]، وهي قراءةٌ متَّجهةٌ خلافاً لزاعمِ خلافِه، فإنَّ «ما» فيها استفهامية للتبكيت والتوبيخ، والعائدُ على «الذين» محذوفٌ و«شركاء» حالٌ منه، والمرادُ من «الذين» الملائكة والمسيحُ وعزيرٌ عليهم الصلاة والسلام، فكأنَّه قيل: أيَّ شيءٍ يتَّبعُ الذين تَدْعونهم حالَ كونهم شركاءَ في زَعْمِكم من الملائكة والنبيين، تقريراً لكونهم متَّبِعينَ اللهَ تعالى، مطيعين له، وتوبيخاً لهم على عدم اقتدائهم بهم في ذلك، كقوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء:٥٧] وحاصلُه: إنَّ الذين تعبدونهم يعبدون الله تعالى ولا يعبدون غيرَه، فما لكم لا تقتدون بهم ولا تتبعونهم في ذلك. ثم صُرِفَ الكلام عن الخطاب إلى الغيبة، فقيل: إنْ يتَّبعُ هؤلاء إلا الظنَّ، ولا يتَّبعون ما يتَّبعُه الملائكةُ والنبيُّون عليهم السلام من الحقِّ.

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أي: يَحزِرون ويُقدِّرون أنَّهم شركاء تقديراً باطلاً، أو يَكذبون فيما ينسبونه إليه سبحانه وتعالى، على أنَّ الخَرْصَ إما بمعنى الحَزْرِ والتخمين، كما هو الأصل الشائع فيه، وإمَّا بمعنى الكذب، فإنَّه جاء استعمالُه في ذلك لغَلَبته في مثله.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ تنبيهٌ على تفرُّده تعالى بالقدرة الكاملةِ والنعمة الشاملة؛ ليدُلَّهم على تَوَحُّده سبحانه باستحقاق العبادة، فتعريفُ الطرفَين للقَصْر، وهو قَصْرُ تعيينٍ، وفي ذلك أيضاً تقريرٌ لِمَا سلَفَ من كون جميع الموجوداتِ الممكنةِ تحت قدرتِهِ وملكتِهِ، المفصِحِ عن اختصاص العزَّة به سبحانه.

والجعلُ إنْ كان بمعنى الإبداع والخَلْقِ فـ «مُبصِراً» حالٌ، وإنْ كان بمعنى التصيير فـ «لكم» المفعولُ الثاني، أو حالٌ كما في الوجه الأول، فالمفعول[2] الثاني

(١) القراءات الشاذة ص٥٧، والمحرر الوجيز ٣/ ١٣٠، والبحر ٥/ ١٧٧.

(٢) في تفسير أبي السعود ٤/ ١٦٢ (والكلام منه): والمفعول.

«لتسكنوا فيه»، أو محذوفٌ يدُلُّ عليه المفعول الثاني من الجملة الثانية، كما أنَّ العلة الغائية منها محذوفةٌ اعتماداً على ما في الأولى، والتقدير: هو الذي جعل لكم الليل مظلماً لتَسْكنُوا فيه، والنهارَ مبصِراً لتتحرَّكوا فيه لمصالحكم، فحذَفَ مِن كلٍّ ما ذُكر في الآخر، اكتفاءً بالمذكور عن المتروك، وفيه على هذا صنعةُ الاحتباك، والآيةُ شائعةٌ في التمثيل بها لذلك، وهو الظاهرُ فيها، وإنْ كان أمراً غيرَ ضروريٍّ، ومن هنا ذهب جمعٌ إلى أنَّه لا احتباك فيها.

والعدولُ عن: لتُبْصروا فيه ـ الذي يقتضيه ما قبلُ ـ إلى ما في النظم الجليل؛ للتفرقة بينَ الظرف المجرَّد، والظرفِ الذي هو سببٌ يتوقَّف عليه في الجملة. وإسنادُ الإبصار إلى النهار مجازيٌّ كالذي في قول جرير:

لقد لُمتِنا يا أمَّ غَيْلانَ في السُّرَى ... ونمتِ وما ليلُ المَطِيِّ بنائم[(١)]

وقولِهم: نهارُه صائم، وغيرِ ذلك ممَّا لا يُحصى كثرةً. وإلى هذا ذهب ابنُ عطية[(٢)] وجماعة.

وقيل: إنَّ «مبصراً» للنسب، كـ: لابِنٍ وتامر، أي: ذا إبصار.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في الجعل المذكور، أو في الليل والنهار، وما في اسم الإشارةِ من معنى البُعدِ للإيذان ببُعْدِ منزلةِ المشارِ إليه وعلوِّ رُتبته.

﴿لَآيَٰتٍ﴾ أي: حُجَجاً ودلالاتٍ على توحيد الله تعالى كثيرةً، أو آيات أُخَرَ غيرَ ما ذُكر.

﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ أي: الحُجَجَ مطلقاً سماعَ تدبُّرٍ واعتبارٍ، أو: يسمعون هذه الآيات المتلوَّةَ ونظائرَها المنبِّهةَ على تلك الآياتِ التكوينيةِ الآمرةَ بالتأمل فيها ذلك السماع[(٣)]، فيعملون بمقتضاها، وتخصيصُ هؤلاء بالذكر مع أنَّ الآيات منصوبةٌ لمصلحةِ الكلِّ لِمَا أنَّهم المنتفعون بها.

---

(١) ديوان جرير ٢/ ٩٩٣، والكتاب ١/ ١٦٠، والخزانة ١/ ٤٦٥.

(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ١٣٠.

(٣) أي: يسمعون هذه الآيات.. سماعَ تدبر واعتبار. تفسير أبي السعود ٤/ ١٦٢، والكلام منه.

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ شروعٌ في ذكر ضربٍ آخرَ من أباطيلِ المشركين وبيانِ بطلانه، والمرادُ بهؤلاء المشركين على ما قيل: كفارُ قريشٍ والعربِ، فإنَّهم قالوا: الملائكةُ بناتُ الله تعالى، واليهودُ والنصارَى القائلون: عزيرٌ وعيسى عليهما السلام ابناه عزَّ وجل، والاتخاذُ صريحٌ في التبنِّي.

وظاهرُ الآية يدُلُّ على أنَّ ذلك قولُ كلِّ المشركين، وإذا ثبتَ أنَّ منهم مَن يقول بالولادة والتوليد حقيقةً، كان ما هنا قولَ البعض، ولْيُنْظَر هل يجري فيه احتمالُ إسناد ما للبعض للكلِّ لتحقُّق شرطه، أم لا يجري لفَقْدِ ذلك؟

والولد يُستعمَل مفرداً وجَمْعاً، وفي «القاموس»: الوَلَدُ محرَّكةً وبالضمِّ والكسر والفتح: واحدٌ وجَمْعٌ، وقد يُجمَع على أَوْلادٍ ووِلْدَةٍ وإِلْدَةٍ بالكسر فيهما، ووُلْدٍ بالضم(١). وهو يشمل الذَّكَر والأنثى.

﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيهٌ وتقديسٌ له تعالى عمَّا نَسبوا إليه، على ما هو الأصل في معنى «سبحان»، وقد يُستعمل للتعجُّب مجازاً، ويصحُّ إرادتُه هنا، والمرادُ التعجُّب من كلمتهم الحمقى.

وجَمَع بعضُهم بين التنزيه والتعجُّب، ولعلَّه مبنيٌّ على أنَّ التعجُّب معنىً كنائيٌّ، وأنَّه يصحُّ إرادةُ المعنَى الحقيقي في الكناية، وهو أحدُ قولَين في المسألة. وقيل: إنَّه لا يلزم استفادةُ معنَى التعجُّب منه باستعمال اللفظ فيه، بل هو من المعاني الثواني.

وقولُه سبحانه: ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ أي: عن كلِّ شيءٍ في كلِّ شيءٍ، علةٌ لتنزُّهِهِ تعالى وتَقدُّسِهِ(٢) عن ذلك، وإيذانٌ بأنَّ اتِّخاذ الولد مسبَّبٌ عن الحاجة، وهي التقوِّي أو بقاءُ النوع مثلاً.

وقوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: مِن العقلاء وغيرِهم، تقريرٌ لمعنَى الغنَى؛ لأنَّ المالك لجميع الكائناتِ هو الغنيُّ، وما عداه فقيرٌ.

وقيل: هو علةٌ أُخرى للتنزُّه عن التبنِّي؛ لأنَّه يُنافي المالكية.

---

(١) القاموس (ولد).

(٢) في (م): وتقدس.

وقولُه جلَّ شأنه: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: حُجَّةٍ ﴿بِهَٰذَآ﴾ أي: بما ذُكر من القول الباطل، توضيحٌ لبطلانه بتحقيق سلامةِ ما أُقيمَ من البرهان الساطع عن المعارِض والمنافي، فـ «إنْ» نافية، و«مِن» زائدةٌ لتأكيد النفي، ومجرورُها مبتدأٌ، والظرفُ المقدَّم خبرُه، أو مرتفعٌ على أنَّه فاعلٌ له لاعتماده على النفي، و«بهذا» متعلِّقٌ إما بـ «سلطان» لأنَّه بمعنى الحُجَّة كما سمعتَ، وإما بمحذوفٍ وقَعَ صفةً له، وقيل: وقع حالاً من الضمير المستتر في الظرف الراجع إليه. وإما بما في «عندكم» من معنَى الاستقرار، ويتعيَّن على هذا كون «سلطان» فاعلاً للظرف؛ لئلا يلزم الفصلُ بين العامل المعنوي ومتعلَّقه بأجنبي.

والالتفاتُ إلى الخطاب لمزيد المبالغةِ في الإلزام والإفحام، وتأكيدِ ما في قوله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ من التوبيخ والتقريعِ على جهلهم واختلاقهم.

وفي الآية دليلٌ على أنَّ كلَّ قولٍ لا دليلَ عليه فهو جهالةٌ، وأنَّ العقائدَ لا بدَّ لها من قاطع، وأنَّ التقليدَ بمعزلٍ من الاهتداء، ولا تصلُح متَمسَّكاً لنفْي القياسِ والعملِ بخبرِ الآحاد لأنَّ ذلك في الفروع، وهي مخصوصةٌ بالأصول؛ لِمَا قام من الأدلة على تخصيصها وإنْ عمَّ ظاهرُها.

﴿قُلْ﴾ تلوينٌ للخطاب وتوجيهٌ له إلى سيد المخاطَبين ﷺ؛ ليبيِّن سوءَ مَغَبَّتهم ووخامةَ عاقبتهم، وفي ذلك إنذارٌ لهم عن الاستمرار على ما هم فيه، ولغيرهم عن[1] الوقوع في مثله. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ في كلِّ أمرٍ، ويدخلُ الافتراءُ بنسبة الولد والشريك إليه تعالى دخولاً أوليّاً، وهو أَوْلَى من الاقتصار على ما الكلامُ فيه، وحينئذٍ فالمرادُ بالموصول ما يَعُمُّ أولئك المخاطَبين وغيرَهم، أي: إنَّ مَن تكونُ هذه صفتَهم كائناً ما كانوا ﴿لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ لا يَنْجُون من مكروه، ولا يفوزون بمطلوبٍ أصلاً، ويندرجُ في ذلك عدمُ النجاةِ من النار، وعدمُ الفوز بالجنة، والاقتصارُ عليه في مقام المبالغة في الزَّجرِ عن

(١) في الأصل: من.

الافتراء عليه سبحانه دون التعميم في المناسبة[1].

﴿مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هو ـ أو ذلك ـ متاعٌ، والتنوينُ للتحقير والتقليل، والظرفُ متعلِّقٌ بما عنده، أو بمحذوفٍ وقَعَ نعتاً له. والجملةُ كلامٌ مستأنفٌ سيق جواباً لسؤالٍ مقدَّرٍ عمَّا يتراءى فيهم ـ بحسب الظاهر ـ من نيل المطالبِ والفوزِ بالحظوظ الدنيوية على الإطلاق، أو في ضمن افترائهم، وبياناً لأنَّ ذلك بمعزلٍ من أنْ يكون من جنس الفلاح، كأنَّه قيل: كيف لا يُفلحون وهم في غبطةٍ ونعيم؟ فقيل: هو ـ أو ذلك ـ متاعٌ حقيرٌ قليل في الدنيا، وليس بفوزٍ بالمطلوب.

ثم أُشيرَ إلى انتفاء النجاة عن المكروه أيضاً بقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي: إلى حُكْمنا رجوعُهم بالموت، فيَلقَوْنَ الشقاءَ المؤبَّد ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝٧٠﴾ أي: بسبب كفرِهم المستمرِّ، أو بكفرهم في الدنيا، فأين هم من الفلاح؟

وما ذكرنا مِن كون «متاعٌ» خبرَ مبتدأ محذوفٍ، هو الذي ذهب إليه غيرُ واحدٍ من المعربين، غيرَ أنَّ أبا البقاء وآخرِين منهم قدَّروا المبتدأ: حياتُهم، أو تقلُّبهم، أو افتراؤُهم[2].

واعتُرِض على تقدير الأخير بأنَّ المتاع إنما يُطلق على ما يكون مطبوعاً عند النفس، مرغوباً فيه في نفسه، يُتمتَّع به ويُنتَفع، وإنَّما عدمُ الاعتداد به لسرعة زواله، ونفسُ الافتراء عليه سبحانه أقبحُ القبائح عند النفس فضلاً عن أنْ يكون مطبوعاً عندها.

وأُجيبَ بأنَّ إطلاق المتاعِ على ذلك باعتبار أنَّه مطبوعٌ عند نفوسهم الخبيثةِ، وفيه انتفاعٌ لهم به حسبما يَرَونه انتفاعاً، وإنْ كان مِن أقبح القبائح، وغيرَ مُنتَفع به في نفس الأمر. ولا يخفَى أنَّ الوجه الأول مع هذا أَوْجَهُ.

---

(١) قوله: والاقتصار عليه.... إلخ، أي: تخصيص عدم النجاة وعدم الفوز بما يندرج فيه من عدم النجاة من النار وعدم الفوز بالجنة لا يناسب مقام المبالغة في الزجر عن الافتراء عليه سبحانه، والتعميم أنسب بالمقام. ينظر تفسير أبي السعود ٤/ ١٦٣.

(٢) الإملاء ٣/ ٢٤٠.

وقيل: إنَّ المذكور مبتدأٌ محذوفُ الخبرِ، أي: لهم متاع.. إلخ، وليس ببعيد.

والآيةُ إمَّا مسوقةٌ من جهته سبحانه لتحقيق عدمِ إفلاحهم، غيرُ داخلةٍ في الكلام المأمور به، وهو الذي يقتضيه ظاهرُ قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ وقولِه تعالى: ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ﴾ وإمَّا داخلةٌ فيه على أنَّ النبيَّ ﷺ مأمورٌ بنقله وحكايتِهِ عنه تعالى شأنه، وله نظائرُ في الكتاب العزيز.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على المشركين من أهل مكة وغيرهم؛ لتحقيق ما سبق من عدم إفلاح المفترين، وكونِ ما يتَّمتعون به على جناح الفوات، وأنَّهم مُشْرِفون على الشقاء المؤبَّد والعذاب الشديد.

﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي: خبرَه الذي له شأنٌ وخطرٌ مع قومه الذين هم أضرابُ قومك في الكفر والعناد؛ ليتدبَّروا ما فيه مما فيه مُزْدَجرٌ، فلعلَّهم يَنْزَجِرون عمَّا هم عليه، أو تنكسرُ[(١)] شدَّةُ شكيمتهم، ولعل بعضَ مَن يسمعُ ذلك منك ممن أَنكَرَ صحةَ نبوَّتك أنْ يعترف بصحَّتها فيؤمنَ بك بأنْ يكون قد ثبتَ عنده ما يوافقُ ما تضمَّنه المتلوُّ من غير مخالفةٍ له أصلاً فيستحضر أنَّك لم تسمع ذلك من أحدٍ ولم تَستفده من كتابٍ، فلا طريقَ لعِلْمِك به إلا من جهة الوحي، وهو مدارُ النبوة.

وفي ذلك من تقرير ما سبَقَ من كون الكلِّ لله سبحانه، واختصاصِ العزَّة به تعالى، وانتفاءِ الخوفِ على أوليائه وحُزنِهم، وتشجيعِ النبيِّ ﷺ، وحَمْلِه على عدم المبالاةِ بهم وبأقوالهم وأفعالهم = ما لا يخفى، والاقتصارُ على بعض ذلك قصورٌ. وقد تقدَّم الكلامُ في نوح عليه السلام[(٢)].

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ﴾ اللام للتبليغ أو التعليل، و«إذ» بدلٌ من «نبأ» بدلَ اشتمال، أو معمولةٌ له لا لـ «اتل» لفساد المعنَى. وجوَّز أبو البقاء تعلُّقه بمحذوفٍ وقع حالاً من «نبأ»[(٣)].

---

(١) في الأصل: تنكسف، والمثبت من (م)، وتفسير أبي السعود ٤/ ١٦٤.
(٢) ٩/ ١٦٧ وما بعد.
(٣) الإملاء ٣/ ٢٤٠.

وأيّاً ما كان فالمرادُ بعضُ نبئِهِ عليه الصلاة والسلام، لا كلُّ ما جرَى بينه وبين قومه، وكانوا على ما قال الأجهوري من بني قابيل.

﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ﴾ أي: عظُم وشَقَّ ﴿عَلَيْكُم مَّقَامِى﴾ أي: نَفْسي، على أنَّه في الأصل اسمُ مكانٍ وأريد منه النفسُ بطريق الكناية الإيمائية، كما يقال: المجلسُ السامي.

ويجوز أنْ يكونَ مصدراً ميمياً بمعنى الإقامة، يقال: قُمتُ بالمكان وأَقمتُ بمعنًى، أي: إقامتي بين ظهرانَيكم مدَّةً مديدةً. وكونُها ما ذَكر الله تعالى ألفَ سنةٍ إلا خمسين عاماً يقتضي أنْ يكون القولُ في آخر عُمُره ومنتَهى أَمْرِه، ويحتاجُ ذلك إلى نَقْلٍ.

أو المرادُ قيامُه بدعوتهم، وقريبٌ منه قيامُه لتذكيرهم وَوَعْظهم؛ لأنَّ الواعظ كان يقومُ بين مَن يَعِظُهم؛ لأنه أظهرُ وأعونُ على الاستماع، كما يُحكَى عن عيسى عليه السلام أنَّه كان يعظُ الحواريين قائماً وهم قعودٌ، وكثيراً ما كان نبيُّنا ﷺ يقومُ على المنبر فيعظُ الجماعةَ وهم قعودٌ، فيُجعَلُ[1] القيامُ كنايةً أو مجازاً عن ذلك. أو هو عبارةٌ عن ثباتِ ذلك وتقرُّره.

﴿وَتَذْكِيرِى﴾ إياكم ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالَّةِ على وحدانيته، المبطِلَةِ لِمَا أنتم عليه من الشرك.

﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ لا على غيره، والجملةُ جوابُ الشرط، وهو عبارةٌ عن عدم مبالاتهِ والتفاتهِ إلى استثقالهم، ويجوزُ أنْ تكون قائمةً مقامه.

وقيل: الجوابُ محذوفٌ وهذا عطفٌ عليه، أي: فافعلوا ما شئتم.

وقيل: المرادُ الاستمرارُ على تخصيص التوكُّل به تعالى.

ويجوز أنْ يكونَ المرادُ إحداثَ مَرْتبةٍ مخصوصةٍ من مراتب التوكُّل، وإلا فهو عليه الصلاة والسلام متوكِّلٌ عليه سبحانه لا على غيره دائماً.

وقوله سبحانه: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ﴾ عطفٌ على الجواب المذكورِ عند الجمهور، والفاءُ لترتيب الأمر بالإجماع على التوكُّل، لا لترتيب نفسِ الإجماع عليه.

---

(١) في الأصل: ويجعل، وفي حاشية الشهاب ٥/ ٤٨ (والكلام منه): فجعل.

وقيل: إنَّه الجوابُ، وما سبَقَ اعتراضٌ وهو يكونُ بالفاء:

فاعْلَمْ فعلمُ المرءِ ينفَعُه[1]

ولعله أقلُّ غائلةً مما تقدَّم لِمَا سمعتَه، مع ما فيه من ارتكابِ عَطْفِ الإنشاء على الخبر، وفيه كلام.

و«أجمعوا» بقَطْع الهمزة، وهو كما قال أبو البقاء: من أَجمعتُ على الأمر: إذا عزمتَ عليه، إلا أنَّه حُذف حرفُ الجرِّ فوَصَل الفعلُ، وقيل: إنَّ أَجْمَعَ متعدٍّ بنفسه، واستشهد له بقول الحارث بن حلِّزة:

أَجْمَعُوا أَمرَهم بليلٍ فلمَّا ... أصبحوا أصبحَت لهم ضَوضَاءُ[2]

ونصَّ السدوسيُّ[3] على أنَّ عدم الإتيان بـ «على» كـ: أجمعتُ الأمر، أفصحُ من الإتيان بها كـ: أجمعتُ على الأمر.

وقال أبو الهيثم[4]: معنى أَجمَعَ أمرَه: جَعَلَه مجموعاً بعد ما كان متفرِّقاً، وتَفرقَتُهُ أنْ يقولَ مرَّةً أَفعلُ كذا، ومرَّةً أفعلُ كذا، فإذا عَزَمَ فقد جَمَع ما تفرَّق من عزمه. ثم صار بمعنى العزم حتى وُصِل بـ «على»، وأصلُه التعديةُ بنفسه.

ولا فَرْقَ بين «أجمعَ» و«جمع» عند بعضٍ. وفرَّق آخرون بينهما بأنَّ الأول يُستعمَل في المعاني، والثاني في الأعيان، فيقال: أَجمعتُ أمري وجمعتُ الجيشَ، ولعله أكثريٌّ لا دائميٌّ.

والمرادُ بالأمر هنا[5]: المكرُ والكيد.

---

(١) وعجزه: أن سوف يأتي كلُّ ما قدرا، وسلف ١/ ٤٢٨ و٤/ ٨٣ و٩/ ٤٣٦. والكلام من حاشية الشهاب ٥/ ٤٨.

(٢) الإملاء ٣/ ٢٤٠-٢٤١، والبيت في شرح المعلقات للنحاس ٢/ ٦٢، ولابن الأنباري ص٤٥٢، وللتبريزي ص٢٩٨، والبحر ٥/ ١٧٨، وحاشية الشهاب ٥/ ٤٨.

(٣) هو مؤرج بن عمرو أبو فيد السدوسي، وكلامه في البحر ٧/ ١٧٩.

(٤) كما في تهذيب اللغة ١/ ٣٩٧، والبحر ٧/ ١٧٩، وحاشية الشهاب ٥/ ٤٨، وعنه نقل المصنف.

(٥) بعدها في (م): نحو، والمثبت من الأصل، وحاشية الشهاب ٥/ ٤٨.

﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ أي: التي زعمتُم أنَّها شركاءُ لله سبحانه وتعالى، وهو نصب على أنَّه مفعولٌ معه من الفاعل؛ لأنَّ الشركاء عازمون لا معزومٌ عليهم.

ويؤيِّد ذلك قراءةُ الحسن وابنِ أبي إسحاق وأبي عبد الرحمن السلميِّ وعيسى الثقفيِّ بالرفع[١]، فإنَّ الظاهر أنَّه حينئذٍ معطوفٌ على الضمير المرفوعِ المتَّصل، ووجودُ الفاصلِ قائمٌ مقام التأكيد بالضمير المنفصل. وقيل: إنَّه مبتدأٌ محذوفُ الخبر، أي: وشركاؤكم يُجمِعُون، ونحوه.

وقيل: إنَّ النصب بالعطف على «أمركم» بحذفِ المضاف، أي: وأمرَ شركائكم، بناءً على أنَّ «أَجمعَ» تتعلَّق بالمعاني. والكلامُ خارجٌ مخرجَ التهكُّم بناءً على أنَّ المرادَ بالشركاء الأصنامُ. وقيل: إنَّه على ظاهره والمرادُ بهم مَن على دينهم.

وجوِّز أنْ لا يكون هناك حذفٌ، والكلامُ مِن الإسناد إلى المفعول المجازيِّ، على حدِّ ما قيل في ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢].

وقيل: إنَّ ذاك على المفعولية به لمقدَّرٍ كما قيل في قوله:

علفتُها تبناً وماءً بارداً[٢]

أي: وادعوا شركاءَكم، كما قرأ به أُبيٌّ رضي الله عنه[٣].

وقرأ نافع: «فاجْمَعوا» بوصل الهمزة وفتح الميم[٤] من جمع، وعطْفُ الشركاء على الأمر في هذه القراءة ظاهرٌ بناءً على أنَّه يقال: جمعْتُ شركائي، كما يقال: جمعْتُ أمري، وزَعَم بعضُهم أنَّ المعنى: ذوي أمركم، وهو كما ترى.

---

(١) المحتسب ١/ ٣١٤، والبحر ٥/ ١٧٩، وهي قراءة أبي جعفر من العشرة، كما في النشر ٢/ ٢٨٦.

(٢) وعجزه: حتى شتت همَّالة عيناها، وسلف ٦/ ٣٢٥.

(٣) الكشاف ٢/ ٢٤٥، والبحر ٧/ ١٧٩، وهي في المحتسب ١/ ٣١٤ بلفظ: «وادعوا شركاءكم ثم اجْمَعوا أمركم».

(٤) البحر ٥/ ١٧٩، وهي قراءة رويس كما في النشر ٢/ ٢٨٥، والمشهور عن نافع القراءة بقطع الهمزة وكسر الميم كقراءة الجماعة.

والمعنى[١]: أَمَرَهم[٢] بالعزم والإجماعِ على قَصْدِه والسعي في إهلاكه على أيِّ وجهٍ يُمكنهم من المكر ونحوه، ثقةً بالله تعالى وقلّةَ مبالاةٍ بهم، وليس المراد حقيقةَ الأمر.

﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ﴾ ذلك ﴿عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي: مستوراً، من غمَّه: إذا ستره، ومنه حديثُ وائل بن حُجر: «لا غُمَّةَ في فرائضِ الله تعالى»[٣] أي: لا تُستَر ولا تُخفَى وإنَّما تُظهر وتُعلَن، والجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بـ «غمَّة»، والمرادُ نَهيُهُم عن تعاطي ما يجعل ذلك غُمَّةً عليهم، فإنَّ الأمرَ لا يُنهَى، ويستلزم ذلك الأمرَ بالإظهار. فالمعنَى: أظهرُوا ذلك وجاهروني به، فإنَّ الستر إنَّما يُصارُ إليه لسدِّ باب تَدارُكِ الخلاصِ بالهرب أو نحوِه، فحيثُ استحال ذلك في حقِّي لم يكن للستر وجهٌ.

وكلمةُ «ثم» للتراخي في الرتبة، وإظهارُ الأمر في مقام الإضمار لزيادةِ التقريرِ.

وقيل: أُظهر لأنَّ المراد به ما يعتريهم من جهته عليه السلام من الحال الشديدةِ عليهم المكروهةِ لديهم، لا الأمرُ الأول، والمرادُ بالغُمَّة: الغَمُّ، كالكُربة والكَرْب، والجارُّ والمجرور متعلِّق بمقدَّرٍ وقع حالاً منها، و«ثم» للتراخي في الزمان، والمعنى: ثم لا يكن حالُكم غَمّاً كائناً عليكم، وتخلَّصوا بإهلاكي[٤] من ثقل مقامي وتَذْكيري بآيات الله تعالى.

واعتُرِض[٥] عليه بأنَّه لا يُساعدُه قولُه تعالى شأنه: ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾ أي: أدُّوا إليَّ ذلك الأمرَ الذي تريدون [بي] ولا تُمهِلوني، على أنَّ القضاء مِن

---

(١) أي: على الوجوه السابقة. حاشية الشهاب ٥/ ٤٩.
(٢) بلفظ الماضي، أي أن نوحاً عليه السلام أمرهم، ويصح أن يكون اسماً أيضاً. حاشية الشهاب ٥/ ٤٩.
(٣) طرف من كتاب النبي ﷺ لوائل بن حجر، أخرجه الخطابي في غريب الحديث ١/ ٢٨٠-٢٨١ وذكره القاضي عياض كما في شرح الشفا للخفاجي ١/ ٤٠٤، وقال: وروي: لا عَمَه، أي: لا حيرة ولا تردُّد فيها، وروي: لا غِمْدَ، ومعناها: لا ستر ولا خفاء، كتغمَّدنا الله برحمته، أي: سترنا بها.
(٤) في (م): بهلاكي، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ١٦٥، والكلام منه.
(٥) المعترض هو أبو السعود في تفسيره ٤/ ١٦٥، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

قَضَى دَينَه: إذا أَدَّاه، ومفعولُه محذوفٌ كما أَشرنا إليه، وفيه استعارةٌ مكنيةٌ والقضاء تخييل. وقد يُفسَّر القضاء بالحكم، أي: احكُموا بما تؤدونه[1] إليَّ، ففيه تضمينٌ واستعارةٌ مكنية أيضاً = لأنَّ[2] توسيط ما يحصُل بعد الإهلاك بين الأمر بالعزم على مباديه وبين الأمر بقضائه من قبيل الفصلِ بين الشجر ولحائه. والوجه الأول سالمٌ عن ذلك، وهو ظاهرٌ.

وقيل: المرادُ بالغمَّة المعنَى الأوَّلُ، وبالأمر ما تقدَّم، وبالنهي الأمرُ بالمشاورة، أي: أجمعوا أمرَكم ثم تشاورُوا فيه. وفيه بُعدٌ لعدم ظهورِ كِلَا الترتيبَين الدالَّةِ عليهما «ثم» سواءٌ اعتُبِرتْ قراءةُ الجماعة أو قراءةُ نافع في «أَجْمِعوا».

وقرئ: «أَفضُوا إليَّ» بالفاء[3]، أي: انتهوا إليَّ بشرِّكم، أو أَبْرِزوا إليَّ، من أَفْضَى: إذا خرج إلى الفضاء، كأَبْرزَ: إذا خَرَج إلى البَراز، وهو المكانُ الواسع.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: بقيتُم على إعراضكم عن تذكيري أو أحدثتُم إعراضاً مخصوصاً عن ذلك بعدَ وقوفكم على أمري، ومشاهدتكم منِّي ما يدُلُّ على صحة قولي ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم﴾ بمقابلةِ تذكيري ووَعْظي ﴿مِّنْ أَجْرٍ﴾ تُؤدُّونه إليَّ حتى يُؤدِّي ذلك[4] إلى تولِّيكُم، إمَّا لاتهامكم إيَّايَ بالطمع، أو لثقَلِ دفع المسؤول عليكم، أو حتى يَضرَّني تولِّيكم المؤدِّي إلى الحرمان، فالأوَّل لإظهار بطلان التولِّي ببيانِ عدم ما يُصحِّحه[5]، والثاني لإظهار عدمِ مبالاته عليه السلامٌ بوجوده وعدمه.

وعلى التقديرَين فالفاءُ الأُولَى لترتُّب هذا الشرط على الجزاء قبله، والفاءُ الثانيةُ لسببية الشرط للإعلام بمضمون الجزاء بعده كما ذكره بعض المحققين، أي: إنْ تولَّيتُم فاعلموا أنْ ليس فيَّ مصحِّحٌ له، أو لا تأثُّر منه، على حدِّ ما قيل في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

---

(١) في (م): تؤدوه.
(٢) قوله: لأن، متعلق بقوله: لا يساعده.
(٣) القراءات الشاذة ص٥٧، والبحر ٥/ ١٨٠.
(٤) بعدها في (م): إليكم، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ١٦٥، والكلام منه.
(٥) بعدها في الأصل: كما ذكره بعض المحققين.

وذهب بعضُهم إلى أنَّ جواب الشرط محذوفٌ، أُقيمَ ما ذُكر ـ وهو علّتُه ـ مقامَه، أي: فلا باعثَ لكم على التولِّي ولا موجبَ له، أو فلا ضيرَ عليَّ بذلك. وكلامُ البعض مشعرٌ بأنَّه مع اعتبار الحذف والإقامة المذكورَين يجيءُ حديثُ اعتبارِ سببية الشرط للإعلام، وهو الذي يميل إليه الذوق. و«من» زائدةٌ للتأكيد، أي: فما سألتكم أجراً.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ تأكيدٌ لِمَا قبله على المعنى الأوَّل، وتعليلٌ لاستغنائه عليه السلام على المعنى الثاني، أي: ما ثوابي على العِظَة والتذكير إلَّا عليه تعالى يُثيبني بذلك آمنتُم أو تولَّيتُم.

وقوله سبحانه: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ تذييلٌ ـ على ما قيل ـ لمضمون ما قبلَه مقرِّرٌ له، والمعنى: وأُمرتُ بأنْ أكونَ مُنتظِماً في عداد المسلمين الذين لا يأخذون على تعليم الدين شيئاً، ولا يطلبون به دنيا، وفيه حملُ الإسلام على ما يساوقُ الإيمان واعتبارُ التقييد.

وعدَلَ عنه بعضُهم لِمَا فيه من نوعِ تكلُّفٍ، فحَمَل الإسلامَ على الاستسلام والانقياد، ولم يُقيِّد، أي: وأُمرتُ بأنْ أكونَ من جملة المنقادين لحكمه تعالى، لا أخالفُ أمرَه ولا أرجو غيرَه، وفيه على هذا المعنى أيضاً مِن تأكيد ما تقدَّم وتقرير مضمونه ما لا يخفَى.

ولا يظهرُ أمرُ التأكيد على تقديرِ أنْ يكون المعنَى: من المستسلمين لكلِّ ما يُصيبُ من البلاء في طاعة الله تعالى، ظهورَه على التقديرَين السابقَين.

وبالجملة: إنَّه عليه الصلاة والسلام لم يُقصِّر في إرشادهم بهذا الكلام وبلَغَ الغايةَ القصوى فيه.

وذكر بعضُهم وجهَ نَظْمِه على هذا الأسلوبِ على بعض الأوجُهِ المحتملة، فقال: إنَّه عليه الصلاة والسلام قال في أول الأمر: «فعلى الله توكَّلتُ» فبيَّن وُثُوقَه بربِّه سبحانه، أي: إنِّي وَثِقتُ به فلا تظنُّوا بي أنَّ تهديدَكم إيَّايَ بالقتل والإيذاء يَمنعُني من الدعاء إلى الله تعالى، ثم أوردَ عليهم ما يدُلُّ على صحة دعواه فقال: «فأجْمِعُوا أمرَكم»، كأنه يقول: أَجْمِعُوا كلَّ ما تقدِرُون عليه من الأشياء التي تُوجب

حصولَ مطلوبكم. ثم لم يقتصر على ذلك بل أمرَهم أنْ يُضيفوا إلى أنفسهم شركاءَهم الذين كانوا يزعمون أنَّ حالهم يَقوَى بمكانهم وبالتقرُّب إليهم، ثم لم يقتصر على هذَين بل ضمَّ إليهما ثالثاً، وهو قوله: «ثم لا يكُن أمركم عليكم غمة» فأراد أن يَسعَوا في أمره غايةَ السَّعْي، ويُبالغوا فيه غايةَ المبالغة حتى يَطيبَ عيشُهم. ثم لم يقتصر على ذلك حتى ضمَّ إليه رابعاً فقال: «ثم اقْضُوا إليَّ» آمراً لهم بأداء ذلك كلِّه إليه.

ثم ضم إلى ذلك خامساً فقال[١]: «ولا تُنظِرُون» فنهاهم عن الإمهال، وفي ذلك من الدلالة على أنَّه عليه الصلاة والسلام قد بلغَ الغايةَ في التوكُّل على الله سبحانه، وأنَّه كان قاطعاً بأنَّ كيدَهم لا يضرُّه ولا يصل إليه، وأنَّ مكرهم لا ينفُذُ فيه ما هو أظهرُ من الشمس وأَبْيَنُ من الأمس[٢].

ثم إنَّه عليه السلام أرادَ أنْ يجعل الحُجَّةَ لازمةً عليهم ويُبرِّئ ساحته، فنفَى سؤالَه إياهم شيئاً من الأجر، وأَكَّد ذلك بأنَّ أَجْرَه على الله سبحانه لا على غيره، مُشيراً إلى مزيد كرمه جلَّ جلالهُ، وأنَّه يُثيبه على فعله سألَه أو لم يَسألْهُ، ولذا لم يقُل: إنْ سؤاليَ الأجرَ إلَّا من الله تعالى.

ثم لم يكتف بذلك، حتى ضمَّ إليه أنَّه مأمورٌ بما يندرجُ فيه عدمُ سؤالهم والالتفاتِ إلى ما عندَهم، وأنْ يتَّصفَ به على أتمِّ وجهٍ، لأنَّ «من المسلمين» أبلغُ من مسلماً، كما تحقَّق في محلِّه، وفي ذلك قطعُ ما عسى أنْ يَحولَ بينهم وبين إجابةِ دعوتِهِ والاتِّعاظ بعظَتِه.

إلَّا أنَّ القوم قد بَلَغوا الغايةَ في العناد والتمرُّد ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: فأصرُّوا ـ بعد أنْ لم يُبقِ[٣] عليه السلام في قوس الإلزام منزعاً، وفي كأس بيانٍ أنْ لا سببَ لتولِّيهم غير التمرُّد مكرعاً ـ على ما هم عليه من التكذيب الدالِّ عليه السباقُ واللحاقُ، وهو عطفٌ على جملة[٤] قوله تعالى: ﴿قَالَ لِقَوْمِهِ﴾.

---

(١) قوله: فقال، ليس في (م).
(٢) في (م): أمس.
(٣) بعدها في (م): عليهم.
(٤) قوله: جملة، ليس في الأصل.

والفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾ فصيحةٌ في رأيٍ، أي: فحقَّت عليهم كلمةُ العذاب فنجَّيناه. وأنكر ذلك الشهاب، وادَّعى أنَّ ذِكْرَ ما يُشير إليه في عبارة بعض المفسِّرين توطئةٌ للتفريع لا إشارةٌ إلى أنَّ الفاء فصيحة[1].

وأنا لا أرى فيه بأساً، إلا أنَّ تقدير: فعامَلْنا كلّاً بما تَقتضيه الحكمةُ، ونحوِه، عندي أولَى.

ومتعلَّقُ الإنجاء محذوفٌ، أي: مِن الغرق، كما يدُلُّ عليه المقام. وقيل: مِن أيدي الكفار، أي: فخلَّصناه من ذلك ﴿وَمَن مَّعَهُۥ﴾ من المؤمنين به، وكانوا ـ في المشهور ـ أربعين رجلاً وأربعينَ امرأةً، وقيل: دون ذلك.

﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾ أي: السفينة، وهو مفرَدٌ ها هنا، والجارُّ ـ كما قال الأجهوري وغيرُه ـ متعلِّقٌ بـ: «نجَّيناه»، أي: وقع الإنجاء في الفلك. ويجوز أنْ يتعلَّق بالاستقرار الذي تعلَّق به الظرفُ قبلَه الواقع صلةً، أي: والذين استقروا معه في الفلك.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ عمَّن هلَكَ بالإغراق بالطُّوفان، وهو جمع خليفة.

﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وهم الباقون من قومه، والتعبيرُ عنهم بالموصول للإيذان بعلِّية مضمون الصِّلة للإغراق، وتأخيرُ ذِكْرِه عن ذِكْرِ الإنجاء والاستخلافِ لإظهار كمالِ العناية بشأن المقدَّم، ولتعجيل المَسرَّة للسامعين، وللإيذان بسَبْق الرحمةِ التي هي من مقتضَيات الربوبية على الغضب الذي هو من مُستَتْبَعات جرائمِ المجرمين.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ المخوَّفين بالله تعالى وعذابه، والمرادُ بهم المكذِّبون[2]، والتعبيرُ عنهم بذلك للإشارة إلى إصرارهم على التكذيب، حيث لم يَنجَع الإنذارُ فيهم ولم يُفدهم شيئاً، وقد جَرَت عادةُ الله تعالى أنْ لا يُهلكَ قوماً بالاستئصال إلا بعدَ الإنذار؛ لأنَّ مَن أنذرَ فقد أعذَر.

---

(١) حاشية الشهاب ٥/ ٤٩.

(٢) في (م): المكذبين.

والنظرُ ـ كما قال الراغبُ[١] ـ يكونُ بالبصر والبصيرةِ، والثاني أكثرُ عند الخاصَّة، وسيقَ الكلامُ لتهويل ما جرَى عليهم، وتحذيرِ مَن كذَّب بالرسول عليه الصلاة والسلام، والتسليةِ له ﷺ. والمراد: اعتَبِرْ ما أخبر الله تعالى به؛ لأنَّه لا يمكن أنْ ينظرَ إليه هو ﷺ ولا مَن أنذرَه.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ أي: أرسلنا ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: مِن بعد نوحٍ عليه الصلاة والسلام ﴿رُسُلًا﴾ أي: كِراماً ذوي عددٍ[٢] كثيرٍ، فالتنكيرُ للتفخيم والتكثير. ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ قيل: أي: إلى أقوامهم، على معنى: أرسلنا كلَّ رسولٍ إلى قومه[٣] خاصَّة، مثل هودٍ إلى عادٍ، وصالحٍ إلى ثمودَ، وغيرِ ذلك ممن قصَّ منهم ومَن لم يقصَّ، لا على معنى: أرسلنا كلَّ رسولٍ منهم إلى أقوامِ الكلِّ، أو: إلى قومٍ أيِّ قومٍ كانوا.

وفيه إشارةٌ إلى أنَّ عمومَ الرسالة إلى البشر لم يَثْبُتْ لأحدٍ من أولئك الرسل عليهم الصلاة والسلام. وظاهرُ كلامهم الإجماعُ على أنَّ ذلك مخصوصٌ بنبيِّنا ﷺ، ولم يثبت لأحدٍ ممن أُرسل بعدَ نوح، واختُلف فيه عليه السلام: هل بُعث إلى أهل الأرضِ كافةً، أو إلى أهل صقعٍ منها؟ وعليه يُبنَى النظرُ في الغرق: هل عمَّ جميعَ أهل الأرضِ، أو كان لبعضهم، وهم أهلُ دعوته المكذِّبين به، كما هو ظاهرُ كثيرٍ من الآيات والأحاديث؟ قال ابنُ عطية: الراجحُ عند المحقِّقين هو الثاني[٤]. وكثيرٌ من أهل الأرض كأهل الصين وغيرهم ينكرون عمومَ الغرقِ، والأولُ لا يُنافي القولَ باختصاص عمومِ الرسالةِ على العموم المشهورِ بينَ الخصوصِ والعمومِ بنبيِّنا ﷺ؛ لأنَّها لمن بعده إلى يوم القيامة.

وزعم بعضُهم أنَّ الغرقَ كان عامّاً مع خصوص البعثةِ، ولا مانعَ مِن أنْ

---

(١) في مفرداته (نظر).

(٢) في (م): عذر، وهو تصحيف، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ١٦٦، والكلام منه.

(٣) في الأصل و(م): قوم، والمثبت من تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ٤٩، وتفسير أبي السعود ٤/ ١٦٦، والكلام منه.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ١٣٣.

يُهلِكَ الله تعالى مَن لا جنايةَ له مع مَن له جنايةٌ، ولا اعتراضَ عليه سبحانه فيما ذَكر، إذ هو تصرُّفٌ في خالص ملكه، ولا يُسْأَلُ عمَّا يفعل، وفي قوله سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] نوعُ إشارةٍ إلى ذلك. نعم قد ثبَتَ لنوحٍ عليه السلام عمومُ الرسالة انتهاءً، حيث لم يبقَ على وجه الأرض بعدَ الطوفان سوى مَن كان معه، وهم جميعُ أهلِ الأرضِ إذ ذاك، فالفرقُ بين رسالته عليه السلام ورسالةِ نبيِّنا ﷺ ظاهرٌ، فإنَّ رسالة نبيِّنا عليه الصلاة والسلام عامَّةٌ ابتداءً وانتهاءً، ورسالتُه عليه السلام عامَّةٌ انتهاءً لا ابتداءً. ولا يخلو عن نظر.

والأَولَى أنْ يُعتبر في اختصاص عمومِ رسالة نبيِّنا عليه الصلاة والسلام كونُها لمن بعده إلى يوم القيامة، فإنَّ عدم ثبوتِ ذلك لأحدٍ من الرسل عليهم السلام قبل نوحٍ وبعدَه مما لا يُتنازع فيه.

وهذا كلُّه إذا لم يُلاحَظْ في العموم الجنُّ وكذا الملائكةُ، وإذا[1] لُوحِظَ كما يُفيدُه قوله سبحانه: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] فأمْرُ الاختصاصِ أظهرُ وأظهرُ.

﴿فَجَاءُوهُم﴾ أي: فأتَى كلُّ رسولٍ قومَه المخصوصين به ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالمعجزات الواضحةِ الدالَّةِ على صِدْقِ ما يقولون، والباء إما متعلِّقةٌ بما عندها على أنَّها للتعدية، أو بمحذوفٍ وقَعَ حالاً من الضمير المرفوعِ، أي: مُلتبسين[2] بالبينات، لكنْ لا بأنْ يأتيَ كلُّ رسولٍ ببيِّنةٍ فقط، بل بأنْ يأتيَ ببيِّنةٍ أو ببيِّناتٍ كثيرةٍ خاصَّةٍ به معيَّنةٍ له حَسْبَ اقتضاء الحكمة، وإلى نفي إرادةِ الإتيان ببيِّنةٍ وإرادة الإتيان ببيناتٍ كثيرةٍ ذهب شيخ الإسلام، ثم قال: فإنَّ مراعاةَ انقسامِ الآحاد على الآحاد إنَّما هي في ضميري «جاؤوهم» كما أُشيرَ إليه[3]. ولعلَّ صنيعَنا أحسنُ من صنيعه.

ويُفهم من كلام بعضِ المحققين أنَّ انفهام إرسالِ كلِّ رسولٍ إلى قومه مِن إضافة القوم إلى ضمير «رسلاً» وليس ذلك من مُقابلة الجمع بالجمع المقتَضي لانقسام الآحاد على الآحاد، ولا شكَّ أنَّ انفهام مجيءِ كلِّ رسولٍ قومَه المخصوصين به تابعٌ لذلك.

---

(١) في (م): إذا، دون واو.
(٢) في (م) متلبسين، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ١٦٦، والكلام منه.
(٣) تفسير أبي السعود ٤/ ١٦٦.

وبعد هذا كلِّه إذا اعتبر مقابلةُ الجمع بالجمع في «جاؤوهم بالبينات»، وقيل بانقسام الآحادِ على الآحاد، لا يلزم أنْ يكونَ لكلِّ رسولٍ بينةٌ جاء بها، كما أنَّ: باع القومُ دوابَّهم، لا يقتَضي أنْ يكونَ لكلِّ واحدٍ من القوم دابَّةٌ واحدة باعها، فإنَّ معناه باعَ كلٌّ مِن القومِ ما لَه من الدوابِّ، وهو يعمُّ الدابة الواحدة وغيرَها، وهذا بخلاف: رَكب القومُ دوابَّهم، فإنَّه يتعيَّن فيه إرادةُ كلِّ واحدةٍ من الدوابِّ؛ لاستحالة ركوبِ الشخص دابَّتَين مثلاً. وقد نصَّ العلَّامة أبو القاسم السمرقنديُّ في حواشيه على «المطول»: أنَّه لا يشترط في مقابلة الجمعِ بالجمع انقسامُ الآحاد على الآحاد بمعنى أنْ يكونَ لكلِّ واحدٍ من أحدِ الجمعَين واحدٌ مِن الجمع الآخر. وهو ظاهرٌ فيما قلنا، والمعوَّل عليه في كون الآية من قَبيل المثال الأول أمرٌ خارج، فإنَّ من المعلوم أنَّ الرسول الواحدَ مِن الرسل عليهم السلام قد جاء قومَه ببيناتٍ فوق الواحدة.

﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ بيانٌ لاستمرار عدمِ إيمانهم في الزمان الماضي، أي: فما صحَّ ولا استقام لهم في وقتٍ من الأوقات أنْ يؤمنوا؛ لشدَّة شكيمتهم ومَزيدِ عِنادِهم.

وضميرُ الجمع هنا للقوم المبعوثِ إليهم، وكذا في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ والباءُ فيه صلةُ «يؤمنوا»، و«ما» موصولة، والمرادُ بها جميعُ الشرائع التي جاء بها كلُّ رسولٍ، أصولها وفروعها. والمراد بعدم إيمانهم بها إصرارُهم على ذلك بعد اللُّتَيَّا والتي، وبتكذيبهم مِن قبلُ تكذيبُهُم من حين مجيءِ الرسل عليهم السلام إلى زمان الإصرار والعناد. وهذا بناء على أنَّ المحكيَّ آخرُ أحوالهم، حسبما يُشير إليه حكايةُ قومِ نوحٍ عليه السلام، ولم يُجعل التكذيبُ مقصوداً بالذات كما جُعِلَ عدم إيمانهم كذلك، إيذاناً بأنَّه بيِّنٌ في نفسه غنيٌّ عن البيان، وإنما المحتاجُ إليه عدمُ إيمانهم بعد تواترِ البيِّنات وتظاهرِ المعجزات التي كانت تَضطرُّهم إلى القبول لو كانوا من أهل العقول.

وإذا كان المحكيُّ جميعَ أحوال أولئك الأقوام فالمرادُ بعدم إيمانهم المفادِ بالنفي السابق كفرُهم المستمرُّ من حين مجيءِ الرسلِ عليهم السلام إلى زمان إصرارهم، وبعدم إيمانهم المفهومِ من جملة الصلةِ كفرُهم قبل مجيءِ الرسل عليهم

السلام، ويُراد حينئذٍ من الموصول أصولُ الشرائعِ التي أَجمعَت عليها الرسلُ قاطبةً، ودَعَوا أُمَمَهُم إليها، كالتوحيد ولوازمه مما يستحيلُ تبدُّلُه وتغيُّرُه، ومعنى تكذيبهم بذلك قبلَ مجيءِ رسلهم أنَّهم ما كانوا أهلَ جاهليةٍ بحيث لم يَسمعوا بذلك قطُّ، بل كان كلُّ قومٍ يتسامعون به من بقايا مَن قبلهم، فيكذِّبونه، ثم كانت حالُهم بعد مجيء الرسل كحالهم قبل ذلك، كأنْ لم يُبعث إليهم أحدٌ.

وقيل: المراد أنهم لم ينتفعوا بالبعثة وكانت حالهم بعد البعثة كحالهم قبلها في كونهم أهلَ جاهليةٍ.

والأولُ أَوْلَى، وتخصيصُ التكذيب وعدمِ الإيمان بما ذكر من الأُصول لظهور حالِ الباقي بدلالةِ النصِّ، فإنَّهم حين لم يؤمنوا بما اجْتَمعَت عليه الكافَّةُ، فلأنْ لا يؤمنوا بما تفرَّد به البعضُ أَولَى، وعدمُ جَعْلِ هذا التكذيب مقصوداً بالذات؛ لأنَّ ما عليه يدور أمرُ العذابِ عند اجتماع التكذيبَين هو التكذيبُ الواقعُ بعد البعثةِ والدعوةِ حسبما يُعرِبُ عنه قولُه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وإنما ذكر ما وقَعَ قبلُ بياناً لعراقتهم في الكفر والتكذيب.

وفكَّكَ بعضُهم بين الضمائر فقيل: ضميرُ «كانوا» و«يؤمنوا» لقوم الرسل، وضميرُ «كذبوا» لقوم نوحٍ عليه السلام، أي: ما كان قومُ الرسل ليؤمنوا بما كذَّب به قومُ نوحٍ، أي بمثله، والمرادُ به ما بُعِثَ الرسلُ عليهم السلام لإبلاغه. وجوَّز على هذا القول أنْ يُراد بالموصول نوحٌ نفسه، أي: ما كان قومُ الرسل ليؤمنوا بنوحٍ عليه السلام، إذ لو آمنوا به آمنوا بأنبيائهم عليهم السلام. ولا يخفى ما في ذلك.

ومن الناس مَن جَعَلَ الباء سببيةً و«ما» مصدريةً، والمعنى: كذَّبوا رسلَهم فكان عقابُهم من الله تعالى أنَّهم لم يكونوا ليؤمنوا بسبب تكذيبهم من قبلُ وأيَّده بالآية الآتية، وفيه مخالفةُ الجمهور مِن جَعْلِ «ما» المصدرية اسماً ـ كما هو رأي الأخفش وابن السرَّاج[1] ـ ليرجع الضمير إليها. وفي إرجاعه إلى الحقِّ بادِّعاء كونه مركوزاً في الأذهان ما لا يخفَى من التعسُّف.

---

(١) في الأصول في النحو ١/ ١٦١، وذكره عنه وعن الأخفش السمين في الدر ٦/ ٢٤٦، وأبو السعود ٤/ ١٦٧، والكلام منه.

وقيل: «ما» موصوفةٌ، والباء للسببية أيضاً أو للملابسة، أي: بشيءٍ كذَّبوا به، وهو العناد والتمرُّد. وهو كما ترى.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الطبع المُحْكَم ﴿نَطْبَعُ﴾ فالإشارةُ على حدِّ ما قُرِّر في قوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:١٤٣] ونظائرِه مما مرّ[١]، وجعْلُ الإشارةِ إلى الإغراق كما فعل الخازن[٢] ليس بشيءٍ.

والطَّبْعُ يُطلَق على تأثير الشيء بنقش الطابع، وعلى الأثر الحاصل من[٣] النقشِ، والختم مثلُه في ذلك على ما ذَكَره الراغب، وذكر أيضاً[٤] أنَّه تصوير[٥] الشيءِ بصورةٍ ما، كطبعِ السِّكَّةِ وطَبْع الدراهم، وأنَّه أعمُّ من الخَتْم وأخصُّ من النقش[٦].

والأكثرون على تفسيره بالختم مُراداً به المنعُ، أي: نختمُ ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ أي: المتجاوزين عن الحدود المعهودةِ في الكفر والعناد، ونمنعُها لذلك عن قبول الحقِّ وسُلوك سبيلِ الرشاد.

وقد جاء الطَّبْعُ[٧] بمعنى الدَّنَس، ومنه: طِبْعُ السيف، لصَدَئه ودَنَسِهِ، وبعضُهم حَمَل ما في الآية على ذلك.

وفسَّره المعتزلةُ حيث وقَعَ منسوباً إليه تعالى بالخذلان تطبيقاً له على مذهبهم، ومن هنا قال الزمخشريُّ[٨]: إنَّه جارٍ مجرى الكنايةِ عن عنادهم ولجاجهم؛ لأنَّ مَن عاند وثبَتَ على اللَّجاج خَذَله الله تعالى، ومنَعَه التوفيق واللطف، فلا يزالُ كذلك حتى يتراكم الرَّين والطبعُ على قلبه.

---

(١) ينظر ما سلف ٣/ ٨.
(٢) في تفسيره ٣/ ٢٠١.
(٣) في (م): عن.
(٤) في (م): أيضاً وذكر.
(٥) في (م): نصور.
(٦) مفردات الراغب (طبع).
(٧) بالكسر، ويحرَّك. القاموس والتاج (طبع).
(٨) في الكشاف ٢/ ٢٤٦، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ٥٠.

ومرادُه ـ كما قيل ـ أنَّ «نَطْبَع» بمعنى «نخذل» على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، لكنْ لمَّا كان الطبعُ الذي هو الخِذلان تابعاً لعنادهم ولجاجهم لازماً لهما أُجْرِيَ مجرَى الكناية عنهما.

وقرئ: «يطبع» بالياء[1]، على أنَّ الضمير لله سبحانه وتعالى.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ عطفٌ على (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ) عطْفَ قصةٍ على قصة ﴿مِنْ بَعْدِهِم﴾ أي: من بعد أولئك الرسل عليهم السلام.

﴿مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أُوثِرَ التنصيصُ على بعثتهما عليهما السلام مع ضربِ تفصيلٍ إيذاناً بخَطَر شأنِ القصة وعِظَم وَقْعها.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي: أشرافِ قومه الذين يجتمعون على رأي فيملَؤون العينَ رواءً والنفوسَ جلالةً وبهاءً، وتخصيصُهم بالذكر لأصالتهم في إقامة المصالح والمُهمَّات، ومراجعةِ الكلِّ إليهم في النوازل والمُلِمَّات.

وقيل: المرادُ بهم هنا مطلَقُ القوم، من استعمال الخاصِّ في العامِّ.

﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: أَدِلَّتنا ومُعجزاتنا، وهي الآيات المفصَّلات في «الأعراف»، والباء للملابسةِ، أي: ملتبسين[2] بها.

﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ أي: تكبَّروا وأُعجبوا بأنفسهم وتعظَّموا عن الاتِّباع، والفاء فصيحةٌ، أي: فأتَيَاهم فبلَّغَاهم الرسالةَ فاستكبروا، وأُشيرَ بهذا الاستكبار إلى ما وقَعَ منهم أوَّل الأمر من قول اللَّعين لموسى عليه السلام: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨] وغيرِ ذلك.

﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ جملةٌ معترِضةٌ تذييليةٌ، وجوِّز فيها الحالية بتقدير «قد»، وعلى الوجْهَين تُفيدُ اعتيادَهم الإجرام، وهو فعلُ الذنب العظيم، أي: وكانوا قوماً شأنُهم ودأبُهم ذلك. وقد يُؤخَذ مما ذكر تعليلُ استكبارهم. والحملُ على العطف الساذج لا يناسب البلاغةَ القرآنية ولا يُلائمها، فمعلوم هذا القَدْر من سوابق أوصافهم.

---

(١) القراءات الشاذة ص٥٧، والبحر ٥/ ١٨١.

(٢) في (م): متلبسين، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ١٦٧، والكلام منه.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ الفاءُ فصيحةٌ أيضاً مُعرِبَةٌ عما صُرِّح به في مواضع أُخَرَ، كأنَّه قيل: قال موسى: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٥-١٠٨] فلمَّا جاءهم الحقُّ ﴿قَالُوٓا۟﴾ مِن فَرْطِ عنادهم وعُتوِّهم مع تَنَاهي عَجْزِهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾﴾ أي: ظاهرٌ كونُه سحراً، أو واضحٌ في بابه فائقٌ فيما بين أضرابه، فـ «مبين» من أَبانَ بمعنى ظَهَر واتَّضَحَ، لا بمعنى أَظهَرَ وأَوْضَحَ كما هو أحدُ معنييه.

والإشارةُ إلى الحقِّ الذي جاءهم، والمرادُ به ـ كما قال غيرُ واحدٍ ـ الآياتُ، وقد أُقيمَ مقام الضمير للإشارة إلى ظهور حقِّيَّته عند كلِّ أحدٍ، ونسبةُ المجيء إليه على سبيل الاستعارة تشير أيضاً إلى غاية ظهوره وشدَّةِ سطوعه، بحيث لا يخفى على مَن له أدنى مُسْكَةٍ، ومن هنا قيل في المعنى: فلمَّا جاءهم الحقُّ من عندنا وعَرَفوه قالوا. . إلخ، فالاعتراضُ عليه بأنَّه لا دلالةَ في الكلام على هذه المعرفة، وإنما تُعلَم من موضعٍ آخر، كقوله سبحانه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤] من قلَّة المعرفة؛ لظهور دلالة ما علمتَ، وكذا ما قالوا بناء على ما قيل من دلالته على الاعتراف وتَناهي العجْزِ عليها.

وقرئ: «لساحر»[(١)]، وعنوا به موسى عليه السلام؛ لأنَّه الذي ظهر على يده ما أعجزهم.

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّه قيل: فماذا قال لهم موسى عليه السلام؟ فقيل: قال لهم على سبيل الاستفهام الإنكاريِّ التوبيخيِّ: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ﴾ الذي هو أَبعدُ شيءٍ من السحر الذي هو الباطل البحتُ ﴿لَمَّا جَآءَكُمْ﴾ أي: حين مجيئه إياكم ووقوفِكم عليه، وهو الذي يقتضيه ما أُشيرَ إليه آنفاً، أو من أَول الأمر من غير تأمُّلٍ وتدبُّرٍ كما قيل، وأيّاً ما كان فهو مما ينافي القول الذي في حيِّز الاستفهام، والمقولُ محذوفٌ ثقةً بدلالة ما قبلُ وما بعدُ عليه، وإيذاناً بأنَّه مما لا ينبغي أنْ يتفوَّه به ولو على نَهْج الحكاية، أي: أتقولون له ما تقولون مِن أنَّه سحرٌ مبين؟ يعني به أنَّه مما لا يُمكن أنْ يقوله قائلٌ ويتكلَّمَ به متكلِّمٌ.

---

(١) المحتسب ١/٣١٦، والبحر ٥/١٨١ عن مجاهد وسعيد بن جبير والأعمش.

وجوِّز أنْ يكون مقولُ القول قولَه عزَّ وجلَّ: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ على أنَّ مقصودَهم بالاستفهام تقريرُه عليه السلام[1]، لا الاستفهامُ الحقيقيُّ؛ لأنَّهم قد بتُّوا القولَ بأنَّه سحرٌ فكيف يستفهمون عنه؟ والمحكيُّ في أحد الموضعَين مفهومُ قولهم ومعناه؟ وإلا فالقصةُ واحدةٌ، والصادرُ فيها بحسب الظاهر إحدَى المقالتَين. ولا يخفَى ضعفُه.

وأنْ[2] يكونَ القول بمعنى العيبِ والطعن، من قولهم: فلانٌ يخاف القالَةَ، و: بينَ الناس تقاوُلٌ، إذا قال بعضُهم لبعضٍ ما يسوءه، ونظيرُه الذكر في قوله تعالى: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠] وحينئذٍ يُستغنَى عن المفعول، واللامُ لبيان المطعون فيه كما في قوله تعالى: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣] أي: أَتعيبونَه وتطعنُون فيه؟

وعلى هذا الوجه وكذا الوجه الأول يكونُ قوله سبحانه: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ إنكاراً مستأنفاً من جهة موسى عليه السلام لكونه سحراً، وتكذيبٌ لقولهم وتوبيخٌ لهم عليه إثْرَ توبيخٍ، وتجهيلٌ[3] إثْرَ تجهيلٍ. أمَّا على الوجه المتقدِّم فظاهرٌ، وأمَّا على الوجه الأخير فوجهُ إيثارِ إنكارِ كونه سحراً على إنكارِ كونه معيباً ـ بأنْ يقال: أَفِيْهِ عيبٌ؟ حسبما يقتضيه ظاهرُ الإنكار السابق ـ التصريحُ بالردِّ عليهم في خصوصية ما عابوه به، بعد التنبيه بالإنكار الأول على أنَّه ليس فيه شائبةُ عيبٍ ما.

وتقديمُ الخبر للإيذان بأنَّه مصبُّ الإنكار، وما في اسم الإشارة من معنى القُربِ لزيادةِ تعيين المشار إليه، واستحضارِ ما فيه من الصفات الدالَّة على كونه آيةً باهرةً من آيات الله تعالى المناديةِ على امتناع كونه سحراً، أي: أسحرٌ هذا الذي أَمرُه واضحٌ مكشوفٌ، وشأنُه مشاهَدٌ معروفٌ، بحيث لا يرتابُ فيه أحدٌ ممن له عينٌ مُبْصِرةٌ.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ تأكيدٌ للإنكار السابق وما فيه من التوبيخ

---

(١) أي: حمله على الإقرار بأنه سحر. حاشية الشهاب ٥/ ٥١.

(٢) عطف على قوله: أن يكون مقول القول...

(٣) كذا وقع قوله: وتكذيبٌ... وتوبيخٌ... وتجهيلٌ، بالرفع، والصواب أن يكون بالنصب عطفاً على قوله: إنكاراً. وينظر تفسير أبي السعود ٤/ ١٦٨.

والتجهيل، وقد استلزمَ القولُ بكونه سحراً القولَ بكون مَن أتى به ساحراً، والجملةُ في موضع الحال من ضمير المخاطَبين، والرابطُ الواوُ بلا ضمير، كما في قوله:

جاء الشتاءُ ولستُ أملكُ عدَّةً[١]

وقولِك: جاء زيدٌ ولم تَطْلُع الشمس، أي: أتقولون للحقِّ: إنَّه سحرٌ، والحالُ أنَّه لا يفلح فاعلُه، أي: لا يظفرُ بمطلوبٍ ولا ينجو من مكروهٍ، وأنا قد أفلحتُ وفُزتُ بالحُجَّة، ونجوتُ من الهلكة. وجملةُ «أسحرٌ هذا» معترضةٌ بين الحال وذِيها لتأكيد الإنكار السابقِ، ببيانِ استحالةِ كونه سحراً بالنظر إلى ذاته، قبلَ بيانِ استحالتِهِ بالنظر إلى صدورِه منه عليه السلام، ومَن جعلها مقولَ القول أبقى الحاليةَ على حالها، ولا اعتراضَ عندهم[٢]، وكان المعنى على ذلك: أتحمِلُوني على الإقرار بأنَّه سحرٌ، وما أنا عليه من الفلاح دليلٌ على أنَّ بينَه وبين السحر أبعد مما بين المشرقِ والمغربِ.

وقيل: يجوز أنْ تكونَ هذه الجملة كالتي قبلها في حيِّز قولهم، وهي حاليةٌ أيضاً لكنْ على نمطٍ آخر، والاستفهامُ مصروفٌ إليها، والمعنى: أجئتَنا بسحرٍ تطلبُ به الفلاح والحالُ أنَّه لا يفلحُ الساحرُ، أو هم يتعجَّبون مِن فلاحه وهو ساحرٌ.

ولا يخفَى أنَّ السياقَ والسباق يأبيانِ هذا التجويز، فلا ينبغي حَمْلُ النظم الجليل على ذلك.

وفي «إرشاد العقل السليم»[٣]: أنَّ تجويز أنْ يكونَ الكلُّ مقولَ القول مما لا يُساعدُه النظم الكريم أصلاً: أمَّا أولاً: فلأنَّ ما قالوا هو الحكمُ بأنَّه سحرٌ، من غير أنْ يكونَ فيه دلالةٌ على ما تعسّفَ فيه من المعنى بوجهٍ من الوجوه، فصَرْفُ جوابِهِ عليه السلام عن صريحِ ما خاطبوه به إلى ما لا يُفهم منه مما يجبُ تنزيهُ التنزيل عن أمثاله. وكونُ ذلك إعراضاً عن ردِّ الإنكار السابق إلى ردِّ ما هو أبلغُ منه

---

(١) وعجزه: والاعتماد عليك فانظر ما ترى، والبيت لأبي النصر طاهر بن الحسين، كما في يتيمة الدهر ٤/٥٠٩ والكلام من تفسير أبي السعود ٤/١٦٨.

(٢) في (م): عنده.

(٣) ٤/١٦٨-١٦٩.

في الإنكار لا أراه يحسنُ الالتفات هنا إلى قبول ذلك التجويزِ في كلام الله تعالى العزيز.

وأما ثانياً: فلأنَّ التعرُّض لعدم إفلاحِ السحرةِ على الإطلاق من وظائف مَن يتمسَّكُ بالحقِّ المبين، دون الكفرة المتشبِّثين بأذيال بعضٍ منهم في معارضته عليه السلام، ولو كان ذلك من كلامهم لناسَبَ تخصيصَ عدم الإفلاحِ بمَن زعموه ساحراً، بناءً على غلبةِ مَن يأتون به من السحرة. والاعتذارُ بأنَّ التشبُّث بأذيال بعضِ السحرة لا يُنافي التعرُّضَ لعدم إفلاحهم على الإطلاق؛ لجواز أنْ يكونَ اعتقادُهم عدمَ الإفلاح مطلقاً، وتشبُّثُهم بعدُ بما تشبَّثوا به من باب تلقِّي الباطل بالباطل، لا أراه إلا من باب تشبُّث الغريق بالحشيش.

وأمَّا ثالثاً: فلأنَّ قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا﴾ إلخ مسوقٌ لبيان أنَّه عليه السلام أَلقمَهم الحجَرَ، فانقطعوا عن الإتيان بكلامٍ له تعلُّقٌ بكلامه عليه السلام، فضلاً عن الجواب الصحيح، واضْطُرُّوا إلى التشبُّث بذيل التقليدِ، الذي هو دأبُ كلِّ عاجزٍ محجوجٍ، ودَيدَنُ كلِّ معالجٍ لجوجٍ، على أنَّه استئنافٌ وقَعَ جواباً عما قبله من كلامه ﷺ على طريقة «قال موسى»، كما أشيرَ إليه، كأنَّه قيل: فماذا قالوا لموسى عليه السلام حينَ قال لهم ما قال؟ فقيل: قالوا عاجزين عن المحاجَّة: أجِئْتَنا ﴿لِتَلْفِتَنَا﴾ أي: لتصرفَنا ـ وبين اللَّفت والفَتْل مناسبةٌ معنويةٌ واشتقاقيةٌ، وقد نصَّ غيرُ واحدٍ على أنَّهما أَخَوَان، وليس أحدُهما مقلوباً من الآخر، كما قال الأزهريُّ[1] ـ ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ أي: من عبادة غيرِ الله تعالى، ولا ريبَ في أنَّ ذلك إنَّما يتسَنَّى بكون ما ذكر من تتمة كلامِهِ عليه السلام على الوجهِ الذي شُرِحَ، إذ على تقديرِ كونه محكياً مِن قِبَلِهم، يكونُ جوابه عليه السلام خالياً عن التبكيت الملجئ لهم إلى العدول عن سَنَن المحاجَّة، ولا ريبَ في أنَّه لا علاقةَ بين قولهم: «أجئتنا» إلخ وبين إنكاره عليه السلام لِمَا حُكي عنهم مُصحِّحةً[2] لكونه جواباً عنه. وهذا ظاهرٌ إلَّا على مَنْ حُجِبَ عن إدراك البديهيات.

---

(١) في تهذيب اللغة ٤/٢٦٨، ولم يذكره أبو السعود، ونقله المصنف بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/٥١.

(٢) قوله: مصححة، صفة لقوله: علاقة.

وبالجملة: الحقُّ أنَّه(١) لا وجْهَ لذلك التجويز بوجهٍ، والانتصارُ له من الفضول كما لا يخفَى.

﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ أي: الملكُ كما رُوي عن مجاهد، فهو مِن إطلاق الملزومِ وإرادةِ اللازم. وعن الزجّاج: أنَّه إنَّما سُمِّي الملكُ كبرياءَ لأنَّه أكبرُ ما يُطلَبُ من أمر الدنيا(٢).

وقيل: أي: العظمةُ والتكبُّر على الناس باستتباعهم.

وقرأ حمادٌ ويحيى(٣) عن أبي بكر وزيد عن يعقوب: «يكون» بالياء التحتانية(٤)؛ لأنَّ التأنيثَ غيرُ حقيقيٍّ مع وجود الفاصل.

﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرضِ مصرَ، وقيل: أُريدَ الجنسُ، والجارُّ متعلِّقٌ بـ «تكون»، أو بالكبرياء، أو بالاستقرار في «لكما» لوقوعه خبراً، أو بمحذوفٍ وقَعَ حالاً من «الكبرياء» أو من الضمير في «لكما» لتحمُّله إياه.

﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ۝٧٨﴾ أي: بمصدِّقين فيما جئتما به أصلاً، وفيه تأكيدٌ لِمَا يُفهم من الإنكار السابق، والمرادُ بضمير المخاطَبين موسى وهارونُ عليهما السلام، وإنَّما لم يُفرِدُوا موسى عليه السلام بالخطاب هنا كما أفردوه به

---

(١) في (م): أن.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٩.

(٣) في الأصل و(م): حماد بن يحيى، وهو خطأ، وحماد هو ابن أبي زياد شعيب، أبو شعيب التميمي الحماني الكوفي، أخذ القراءة عرضاً عن عاصم، ولما مات عاصم قرأ على أبي بكر بن عياش، روى عنه القراءة عرضاً يحيى بن محمد العليمي وغيره، توفي سنة (١٩٠هـ)، أما يحيى فهو يحيى بن محمد، أبو محمد العليمي الأنصاري الكوفي، شيخ القراءة بالكوفة، أخذ القراءة عرضاً عن أبي بكر بن عياش وحماد بن أبي زياد عن عاصم، توفي سنة (٢٤٣هـ) قال الحافظ أبو عمرو في جامعه: رواية العليمي عن حماد عن عاصم، وعن أبي بكر عن عاصم سواء، واللفظ لهما واحد. طبقات القراء ١/ ٢٥٨ و٢/ ٣٧٨. والكلام من مجمع البيان ١١/ ٧٨، وقد جاء فيه: حماد ويحيى، على الصواب.

(٤) مجمع البيان ١١/ ٧٨، وذكرها أبو عمرو الداني في جامع البيان ٢/ ١٩٧ عن عاصم في رواية حماد وفي رواية العليمي عن أبي بكر.

فيما تقدَّم لأنَّه المُشافِهُ بالتوبيخ والإنكار، تعظيماً لأمر ما هو أحدُ سببي الإعراض معنىً، ومبالغةً في إغاظةِ موسى عليه السلام وإقناطه عن الإيمان بما جاء به.

وفي «إرشاد العقل السليم»: أنَّ تثنيةَ الضمير في هذَين الموضعَين بعد إفراده فيما تقدَّم من المقامَين باعتبار شُمُول الكبرياء لهما عليهما السلام، واستلزامِ التصديق لأحدهما التصديقَ للآخر، وأمَّا اللَّفتُ والمجيءُ له، فحيث كانا من خصائص صاحبِ الشريعة أُسند إلى موسى عليه السلام خاصَّةً[1]. انتهى، فتدبَّر.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ أُسنِدَ الفعلُ إليه وحدَه؛ لأنَّ الأمر من وظائفه دون الملأ، وهذا بخلافِ الأفعال السابقة من الاستكبار ونحوه، فإنَّها مما تُسنَد إليه وإلى ملَئِهِ، لكنَّ الظاهر أنَّه غيرُ داخلٍ في القائلين: «أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا» لأنَّه عليه اللعنة لم يكن يُظهر عبادةَ أحدٍ كما كان يفعلُه مَلَؤه وسائرُ قومه، أي: قال لملَئِهِ يأمرهم بترتيب مبادي الإلزام بالفعل بعد اليأسِ عن الإلزام بالقول: ﴿ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ بفنونِ السحر حاذقٍ ماهرٍ فيه.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «سحَّار»[2].

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ عطفٌ على مقدَّرٍ يستدعيه المقامُ، قد حُذِف إيذاناً بسرعة امتثالهم للأمر، كما هو شأن الفاء الفصيحة، وقد نُصَّ على نظير ذلك في قوله سبحانه: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ﴾ [البقرة: ٦٠] أي: فأَتَوا به فلمَّا جاؤوا ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾﴾ أي: ما ثبتُّم واستقرَّ رأيُكم على إلقائه كائناً ما كان من أصناف[3] السحر.

وأصل الإلقاء: طرحُ الشيء حيث تلقاه، أي: تراه، ثم صار في العُرْف اسماً لكل طَرْحٍ، وكان هذا القولُ منه عليه السلام بعدَ ما قالوا له ما حُكيَ عنهم في السور الأُخَر من قولهم: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥] ونحوِ ذلك، ولم يكن في ابتداء مجيئهم.

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ١٦٩.

(٢) التيسير ص١١٢، والنشر ٢/ ٢٧٠، وهي قراءة خلف من العشرة.

(٣) في (م): أصنف، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ١٦٩، والكلام منه.

و«ما» موصولةٌ والجملةُ بعدها صلةٌ والعائدُ محذوفٌ، أي: ملقون إيَّاه، ولا يخفَى ما في الإبهام من التحقير والإشعارِ بعدم المبالاة، والمرادُ أمرُهم بتقديم ما صمَّمُوا على فعله ليَظْهَرَ إبطالُه، وليس المرادُ الأمرَ بالسحر والرضا به.

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا﴾ ما أَلْقَوا من العصيِّ والحبال، واستَرْهَبوا الناس وجاؤوا بسحرٍ عظيم ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَىٰ﴾ غيرَ مكترثٍ بهم وبما صنعوا ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ «ما» موصولةٌ وقعَت مبتدأ، و«السحرُ» خبره[1]، و«أل» فيه للجنس، والتعريفُ لإفادة القصر إفراداً، أي: الذي جئتم به هو السحر لا الذي سمَّاه فرعون وملؤه من آيات الله تعالى سحراً، وهو للجنس، ونُقل عن الفراء أنَّ «أل» للعهد لتقدُّم «السحر» في قوله تعالى: (إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ)[2].

ورُدَّ بأنَّ شَرْطَ كونها للعهد اتِّحادُ المتقدِّم والمتأخِّر ذاتاً، كما في ﴿أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۞ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل: ١٥-١٦] ولا اتِّحادَ فيما نحن فيه، فإنَّ السحرَ المتقدِّم ما جاء به موسى عليه السلام، وهذا ما جاء به السحرةُ.

ومِن الناس مَن مَنَع اشتراطَ الاتِّحاد الذاتيِّ مدَّعياً أنَّ الاتِّحاد في الجنس كافٍ، فقد قالوا في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ﴾ [مريم: ٣٣]: إنَّ «أل» للعهد، مع أنَّ السلام الواقعَ على عيسى عليه السلام غيرُ السلام الواقع على يحيى عليه السلام ذاتاً.

والظاهرُ اشتراطُ ذلك وعدمُ كفاية الاتِّحاد في الجنس، وإلا لصحَّ في: رأيتُ رجلاً وأكرمتُ الرجلَ - إذا كان الأوَّلُ زيداً والثاني عمراً مثلاً - أنْ يقال: إنَّ «أل» للعهد؛ لأنَّ الاتِّحاد في الجنس ظاهرٌ، ولم نجد مَن يقوله، بل لا أَظنُّ أحداً تُحدِّثُه نفسُه بذلك، وما في الآية من هذا القبيل، بل المغايرةُ بين المتقدِّم والمتأخِّر أظهرُ، إذ الأولُ سحرٌ ادِّعائيٌّ والثاني حقيقيٌّ، و«السلام» فيما نقلوا متَّحدٌ، وتعدُّدُ مَن وقَعَ عليه لا يجعلُه مُتعدِّداً في العرف، والتدقيقُ الفلسفيُّ لا يُلتفَتُ إليه في مثل ذلك.

---

(١) في (م): خبر.

(٢) معاني القرآن للفراء ١/ ٤٧٥، وذكره عنه أبو حيان في البحر ٥/ ١٨٣، والسمين في الدر ٦/ ٢٥٢، والشهاب في الحاشية ٥/ ٥٢، والكلام منه.

وقد ذكر بعضُ المحقِّقين[1] أنَّ القول بكون التعريفِ للعهد مع دعوى استفادةِ القصر منه مما يتنافيان؛ لأنَّ القصْرَ إنَّما يكون إذا كان التعريفُ للجنس، نعم إذا لم يُرَد بالنكرة المذكورة أولاً معيَّنٌ ثم عُرِّفَتْ لا ينافي التعريفُ الجنسيةَ؛ لأنَّ النكرة تُساوي تعريفَ الجنس، فحينئذٍ لا ينافي تعريفُ العهد القصرَ وإنْ كان كلامهم يُخالفُه ظاهراً، فليحرَّر. انتهى.

وأقول: دعوى الفرَّاء العهدَ هنا مما لا ينبغي أنْ يُلتفَت إليه، ولعله أراد الجنس وإنْ عبَّر بالعهد، بناءً على ما ذكره الجلالُ السيوطي في «همع الهوامع» نقلاً عن ابن عصفور أنَّه قال: لا يَبعُدُ عندي أنْ يُسمَّى الألفُ واللامُ اللتان لتعريف الجنس عهديَّتَين؛ لأنَّ الأجناس عند العقلاء معلومةٌ مُذ فهموها، والعهد تقدُّمُ المعرفة. وادَّعى أبو الحجاج يوسف بن معزوز أنَّ «أل» لا تكون إلَّا عهديةً، وتأوَّله بنحو ما ذُكر[2]، إلا أنَّ ظاهرَ التعليل لا يساعدُ ذلك.

وقرأ عبد الله: «سحرٌ» بالتنكير[3]، وأُبيّ: «ما أَتيتُم به سحرٌ»[4]، والكلامُ على ذلك مفيدٌ للقصر أيضاً لكن بواسطة التعريض؛ لوقوعه في مقابلةِ قولهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

وجوَّز في «ما» في جميع هذه[5] القراءات أنْ تكونَ استفهاميةً، و«السحرُ» خبرُ مبتدأ محذوفٍ.

وقرأ أبو عمرو وأبو جعفر: «آلسحرُ» بقطع الألف ومدِّها على الاستفهام[6]، فـ «ما» استفهاميةٌ مرفوعةٌ على الابتداء، و«جئتُم به» خبرُها، و«السحرُ» خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أو مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ، أي: شيءٌ جسيمٌ جئتم به أهو السحرُ، أو:

---

(١) هو الشهاب في الحاشية ٥/ ٥٢.

(٢) همع الهوامع ١/ ٣١٠، ويوسف بن معزور هو القيسي النحوي، أخذ العربية عن أبي إسحاق بن ملكون وأبي زيد السهيلي وغيرهما، وله: شرح الإيضاح للفارسي، والرد على الزمخشري في مفصَّله، وغير ذلك، توفي بمُرْسِية في حدود سنة (٦٢٥ هـ). بغية الوعاة ٢/ ٣٦٢.

(٣) القراءات الشاذة ص٥٨، والبحر ٥/ ١٨٣.

(٤) معاني القرآن للفراء ١/ ٤٧٥، وللنحاس ٢/ ٢٦٤، والبحر ٥/ ١٨٣.

(٥) في (م): هذا.

(٦) التيسير ص١٢٣، والنشر ١/ ٣٧٨.

آلسحر هو. وقد يُجعل «السحر» بدلاً من «ما» كما تقول: ما عندك أدينارٌ أم درهمٌ؟

وقد تُجعل «ما» نصباً بفعلٍ محذوفٍ يقدَّر بعدَها، أي: أيَّ شيءٍ أتيتُم[١]، و«جئتُم به» مفسِّرٌ له، وفي «السحر» الوجهان الأوَّلان.

وجوَّز أنْ تكونَ موصولةً مبتدأ، والجملةُ الاسميةُ ـ أي: أهو السحرُ، أو آلسِّحْرُ هو ـ خبرُه. وفيه الإخبارُ بالجملة الإنشائية، ولا يجوزُ أنْ تكون على هذا التقديرِ منصوبةً بفعلٍ محذوفٍ يفسِّرُه المذكور؛ لأنَّ ما لا يعمل لا يُفسِّر عاملاً.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ أي: سيَمْحَقُه بالكلِّية بما يُظهرُه على يديَّ من المعجزة، فلا يبقَى له أثرٌ أصلاً، أو سيُظْهِرُ بطلانَه وفساده للناس، والسين للتأكيد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ أي: جنسِهم على الإطلاق، فيدخلُ فيه السحرةُ دخولاً أوليّاً، ويجوز أنْ يُرادَ بالمفسدين المخاطَبون، فيكون مِن وَضْعِ الظاهر مَوضِعَ الضمير؛ للتسجيل عليهم بالإفساد، والإشعارِ بعلَّة الحكم.

والجملةُ تذييلٌ لتعليل ما قبلها وتأكيدِه. والمرادُ بعدم إصلاحِ ذلك عدمُ إثباته أو عدمُ تقويته بالتأييد الإلهي، لا عدمُ جَعْلِ الفاسد صالحاً؛ لظهور أنَّ ذلك مما لا يكون، أي أنَّه سبحانه لا يُثبتُ عملَ المفسدين ولا يُديمه بل يُزيلُه ويَمحَقُه، أو: لا يُقوِّيه ولا يؤيِّدُه بل يُظهر بطلانَه ويجعلُه معلوماً.

واستُدلَّ بالآية على أنَّ السِّحرَ إفسادٌ وتمويهٌ لا حقيقةَ له، وأنت تعلمُ أنَّ في إطلاق القول بأنَّ السحرَ لا حقيقةَ له بحثاً، والحقُّ أنَّ منه ما له حقيقةٌ، ومنه ما هو تخيُّلٌ باطلٌ ويسمَّى شَعْبَذَةً وشَعوذَة.

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾ أي: يُثبِتُه ويُقوِّيه، وهو عطفٌ على قوله سبحانه: (سَيُبْطِلُهُۥٓ) وإظهارُ الاسم الجليل في المقامَين لإلقاء الرَّوعَة وتربيةِ المهابة.

﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: بأوامره وقضاياه، وعن الحسن: أي: بوَعْدِه النصرَ لمن جاء به، وهو سبحانه لا يُخلف ذلك. وعن الجبائي: أي: بما يُنزلُه مبيِّناً لمعاني الآيات التي أتى بها نبيُّه عليه السلام.

---

(١) بعدها في (م): به.

وقرئ: «بكَلِمَته»[١]، وفسِّرَت بالأمر واحدِ الأوامر حسبما فُسِّرت الكلماتُ بالأوامر، وأُريد منها الجنس، فيتطابق[٢] القراءتان.

وقيل: يحتمل أنْ يُرادَ بها قولُ: «كن»، وأنْ يُراد بها الأمر واحدُ الأمور، ويُرادَ بالكلمات الأمور والشؤون.

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ ذلك، والمرادُ بهم كلُّ مَن اتَّصف بالإجرام من السحرة وغيرهم.

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾ عطفٌ على مقدَّرٍ فُصِّل في موضعٍ آخر، أي: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء: ٤٥] إلخ، وإنَّما لم يُذْكَر تعويلاً على ذلك، وإيثاراً للإيجاز، وإيذاناً بأنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ مما لا يَحتمل الخلفَ أصلاً. ولعل عطْفَه على ذلك بالفاء باعتبارِ الإيجاب الحادث الذي هو أحدُ مفهومي الحصر، فإنَّهم قالوا: معنى ما قام إلا زيدٌ: قام زيدٌ ولم يقم غيرُه.

وبعضُهم[٣] لم يعتبر ذلك وقال: إنَّ عطْفَه بالفاء على ذلك مع كونه عدماً مستمرًّا من قَبيل ما في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ [هود: ٩٧] وما في قولك: وعظتُه فلم يتَّعظ، و: صحْتُ به فلم يَنْزَجر، والسرُّ في ذلك أنَّ الإتيان بالشيءِ بعد وُرُودِ ما يُوجبُ الإقلاعَ عنه وإنْ كان استمراراً عليه، لكنَّه بحسَب العنوان فِعلٌ جديدٌ وصنعٌ حادثٌ، أي: فما آمن له عليه السلام في مبدأ أمرِه ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ أي: إلَّا أولادُ بعضِ بني إسرائيل، حيث دعا عليه السلام الآباءَ فلم يُجيبوه خوفاً من فرعون، وأجابته طائفةٌ من شبَّانهم، فالمرادُ من الذرية الشبانُ لا الأطفالُ.

و«من» للتبعيض، وجوَّز أنْ تكونَ للابتداء، والتبعيضُ مستفادٌ من التنوين، والضميرُ لموسى عليه السلام كما هو إحدى الروايتَين عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وأخرج ابنُ جرير عنه أنَّ الضميرَ لفرعون[٤]، وبه قال جمعٌ، فالمؤمنون من

---

(١) القراءات الشاذة ص ٥٨، والبحر ٥/ ١٨٣.
(٢) في الأصل: ليتطابق.
(٣) هو أبو السعود في تفسيره ٤/ ١٧٠.
(٤) تفسير الطبري ١٢/ ٢٤٦.

غير بني إسرائيل، ومنهم: زوجتُه آسية، وماشطتُه، ومؤمنُ آلِ فرعونَ، والخازنُ وامرأتُه، وفي إطلاق الذريَّة على هؤلاء نوعُ خفاءٍ.

ورجَّح بعضُهم إرجاعَ الضمير لموسى عليه السلام بأنَّه المحدَّثُ عنه، وبأنَّ المناسب على القول الآخرِ الإضمارُ فيما بعد.

ورجَّح ابنُ عطية إرجاعَ الضمير لفرعون بأنَّ المعروف في القصص أنَّ بني إسرائيل كانوا في قهر فرعونَ، وكانوا قد بُشِّروا بأنَّ خَلاصَهم على يدِ مولودٍ يكونُ نبيّاً صفتُه كذا وكذا، فلمَّا ظهرَ موسى عليه السلام اتَّبعوه، ولم يُعرَف أنَّ أحداً منهم خالفَه، فالظاهرُ القولُ الثاني(١).

وما ذكر من أنَّ المحدَّث عنه موسى عليه السلام لا يخلو عن شيءٍ، فإنَّ لقائلٍ أنْ يقابِلَ ذلك بأنَّ الكلام في قوم فرعون؛ لأنَّهم القائلون: إنَّه ساحرٌ، ولأنَّ وَعْظَ أهلِ مكةَ وتخويفَهم المسوقَ له الآياتُ قاضٍ بأنَّ المقصودَ هنا شرحُ أحوالهم. وأنت تعلم أنَّ للبحث في هذا مجالاً، والمعروفُ بعد تسليم كونه معروفاً لا يضرُّ القولَ الأول؛ لأنَّ المراد حينئذٍ: فما أَظْهَرَ إيمانَه وأَعلَنَ به إلا ذُرِّيَّةٌ مِن بني إسرائيل دون غيرهم، فإنَّهم أخفَوه ولم يظهروه.

﴿عَلَىٰ خَوْفٍ﴾ حالٌ من «ذرية»، و«على» بمعنى «مع»، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة:١٧٧] والتنوينُ للتعظيم، أي: كائنين مع خوفٍ عظيم.

﴿مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ الضمير لـ «فرعون»، والجمعُ عند غيرِ واحدٍ على ما هو المعتادُ في ضمائر العظماء. ورُدَّ بأنَّ الوارد في كلام العرب الجمعُ في ضمير المتكلِّم كـ «نحن»، وضميرِ المخاطَب كما في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون:٩٩] وقوله:

ألا فارْحَموني يا إلهَ محمدٍ(٢)

ولم يُنقَل في ضمير الغائب، كما نُقل عن الرضي.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١٣٧.
(٢) الكشاف ٣/ ٤٢، والبحر ٦/ ٤٢١، وعزاه الشنقيطي في أصول البيان ٥/ ٨٢١ لحسان، وعجزه: فإن لم أكن أهلاً فأنتم له أهل.

وأُجيبَ بأنَّ الثعالبيَّ والفارسيَّ نَقَلاه في الغائب أيضاً، والمثبِتُ مقدَّمٌ على النافي.

وبأنَّه لا يناسب تعظيمَ فرعون، فإنْ كان على زَعْمِه وزعمِ قومه فإنما يَحسُنُ في كلامٍ ذُكر أنَّه محكيٌّ عنهم، وليس فليس.

ويُجابُ بأنَّ المراد من التعظيم تنزيلُهُ منزلةَ المتعدِّد. وكونُه لا يُناسب في حيِّز المنع، لِمَ لا يجوزُ أنْ يكونَ مناسباً لِمَا فيه من الإشارة إلى مزيدِ عِظَمِ الخوفِ المتضمِّن زيادةَ مدحِ المؤمنين؟

وقيل: إنَّ ذلك واردٌ على عادتهم في محاوراتهم في مجرَّد جمعِ ضمير العظماء وإنْ لم يُقصَد التعظيم أصلاً. فتأمَّله.

وجوِّز أنْ يكونَ الجمعُ لأنَّ المراد من «فرعون» آلُه، كما يقال: ربيعةُ ومضرُ. واعتُرض عليه بأنَّ هذا إنما عُرِفَ في القبيلة وأبيها، إذ يُطلَق اسمُ الأب عليهم، وفرعونُ ليس من هذا القبيل، على أنَّه قد قيل: إنَّ إطلاق أبي نحو القبيلة عليها لا يجوزُ ما لم يُسمَع ويتحقَّق جَعْلُه عَلَماً لها، ألا تراهم لا يقولون: فلانٌ من هاشمٍ، ولا من عبد المطَّلب، بل: من بني هاشمٍ وبني عبدِ المطَّلب، فكيف يُراد من فرعون آلُه ولم يتحقَّق فيه جَعْلُه عَلَماً لهم، ودعوى التحقُّقِ هنا أولُ المسألة، فالقولُ بأنَّ الجمعَ لأنَّ المراد به آلُه كربيعة ليس بشيءٍ، إلا أنْ يُراد أنَّ فرعونَ ونحوَه من الملوك إذا ذُكر خطَرَ بالبال[1] أتباعُه معه، فعاد الضميرُ على ما في الذهن، وتمثيلُه بما ذُكر لأنَّه نظيرُه في الجملة.

ثمَّ إنَّه لا يخفَى أنَّه إذا أُريدَ من فرعون آلُه ينبغي أنْ يُراد من «آل فرعون» فرعونُ وآلُه على التغليب.

وقيل: إنَّ الكلامَ على حذف مضافٍ، أي: آلِ فرعون، فالضميرُ راجعٌ إلى ذلك المحذوفِ، وفيه أنَّ الحذفَ يَعتَمِدُ القرينةَ، ولا قرينةَ هنا، وضميرُ الجمعِ يحتملُ رجوعه لغير ذلك المحذوفِ كما ستعلمه قريباً إنْ شاء الله تعالى، فلا يصلحُ

---

(١) بعدها في (م): خطر، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٥/ ٥٣، والكلام منه.

لأنْ يكونَ قرينةً، وأمَّا أنَّ المحذوفَ لا يعودُ إليه ضميرٌ ـ كما قال أبو البقاء[1] ـ فليس بذاك؛ لأنَّه إنْ أُريدَ أنَّه لا يعودُ إليه مطلقاً فغيرُ صحيحٍ، وإنْ أُريدَ: إذا حذف لقرينةٍ، فممنوعٌ؛ لأنَّه حينئذٍ في قوةِ المذكور، وقد كَثُر عودُ الضمير إليه كذلك في كلام العرب.

وقريبٌ من هذا القيل زَعْمُ أنَّ هناك معطوفاً محذوفاً إليه يعودُ الضميرُ، أي: على خوفٍ من فرعونَ وقومه وملئهم. ويَرِدُ عليه أيضاً ما قيل: إنَّ هذا الحذفَ ضعيفٌ غيرُ مطَّردٍ.

وقيل: الضميرُ للذرِّيَّة أو للقوم، أي: على خوفٍ من فرعون ومن أشرافِ بني إسرائيلَ، حيث كانوا يمنعونهم خوفاً من فرعون عليهم أو على أنفسهم، أو من أشراف القِبْطِ ورؤسائهم، حيث كانوا يَمنعونَهم انتصاراً لفرعون.

ولعل المُنْسَاقَ إلى الذهن رجوعُه إلى الذرِّية، والجمعُ باعتبار المعنى[2]، ويؤُول المعنى إلى أنهم آمنوا على خوفٍ من فرعون ومن أشرافِ قومهم.

﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ أي: يبتليهم ويُعذِّبهم، وأصلُ الفَتْن كما قال الراغب[3]: إدخالُ الذهب النارَ لِتَظْهَرَ جودَتُه من رداءتِه، واستُعمل في إدخال الإنسان النارَ كما في قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣]. ويُسمَّى ما يحصُل منه العذابُ فتنةً، ويُستَعمل في الاختبار، وبمعنى البلاءِ والشدَّةِ وهو المراد هنا.

و«أنْ» وما بعدها في تأويل مصدرٍ وَقَع بدلاً من فرعون بدلَ اشتمالٍ، أي: على خوفٍ من فرعون فِتْنَتِهِ، ويجوز أنْ يكونَ مفعولَ «خوفٍ» لأنَّه مصدرٌ منكَّرٌ كَثُرَ إعمالُه.

وقيل: إنَّه مفعولٌ له، والأصلُ: لأنْ يَفتِنَهم، فحُذِفَ الجارُّ، وهو مما يطَّرد فيه الحذفُ، ولا يضرُّ في مثل هذا عدمُ اتِّحاد فاعل المصدر والمعلَّل به، على أنَّ مذهب بعضِ الأئمة عدمُ اشتراط ذلك في جواز النصب، وإليه مال الرضي، وأَيَّده

---

(١) في الإملاء ٣/ ٢٤٧.

(٢) أي: لأن الذرية قوم، فهو مذكر في المعنى. الإملاء ٣/ ٢٤٧.

(٣) في مفرداته (فتن).

بما ذكرناه في حواشينا على «شرح القطر» للمصنف[1]. وإسنادُ الفعل إلى فرعون خاصَّةً لأنَّه مدارُ أمر التعذيب، وفي الكلام استخدامٌ[2] في رأيٍ، حيثُ أُريدَ من فرعون أولاً آلُه، وثانياً هو وحده، وأنت تعلم ما فيه.

﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لغالبٌ قاهرٌ في أرض مصرَ. واستعمالُ العلوِّ بالغلبة والقهر مجازٌ معروفٌ ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٨٣﴾ أي: المتجاوزي الحدِّ في الظلم والفساد بالقتل وسفك الدماء، أو في الكِبْرِ والعُتوِّ حتى ادَّعى الربوبية، واستَرَقَّ أسباطَ الأنبياء عليهم السلام. والجملتان اعتراضٌ تذييليٌّ مؤكِّدٌ لمضمون ما سبَقَ، وفيهما من التأكيد ما لا يخفى.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ لمَّا رأى تخوُّفَ المؤمنين ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ أي: صدَّقتُم به وبآياته ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟﴾ أي: اعتمِدُوا لا على أحدٍ سواه، فإنَّه سبحانه كافيكم كلَّ شَرٍّ وضرٍّ.

﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ۝٨٤﴾ أي: مستسلمين لقضاء الله تعالى مُخْلِصينَ له، وليس هذا مِن تعليق الحُكم بشرطَين، بل من تعليق شيئَين بشرطَين؛ لأنَّه علَّق وجوبَ التوكُّلِ المفهومِ من الأمر وتقديمِ المتعلِّق بالإيمان، فإنَّه المقتَضي له، وعلَّق نفْسَ التوكُّلِ ووجودِه بالإسلام والإخلاص؛ لأنَّه لا يتحقَّقُ مع التخليط، ونظيرُ ذلك: إنْ دعاك زيدٌ فأجبه إنْ قَدَرْتَ عليه، فإنَّ وجوب الإجابة معلَّقٌ بالدعوة، ونفسُ الإجابة[3] معلَّقةٌ بالقُدرة، وحاصلُه: إنْ كنتُم آمنتم بالله فيجبُ عليكم التوكُّل عليه سبحانه، فافعلوه واتَّصِفوا به إنْ كنتُم مستسلمين له تعالى.

وهذا النوع على ما في: «الكشف» يُفيدُ مبالغةً في تَرتُّب الجزاءِ على الشرط، على نحو: إنْ دخلتِ الدارَ فأنت طالقٌ إنْ كنْتِ زوجتي.

وجعَلَه بعضُهم من باب التعليق بشرطَين، المقتضي لتقدُّم الشرط الثاني على الأول في الوجود حتى لو قال: إنْ كلَّمْتِ زيداً فأنتِ طالقٌ إنْ داخلت الدار، لم

---

(١) يعني ابن هشام، وله قطر الندى وشرحه. ينظر كشف الظنون ٢/ ١٣٥٣.

(٢) هو أن يؤتى بلفظ له معنيان فأكثر مراداً أحدُ معانيه، ثم يؤتى بضميره مراداً به المعنى الآخر. وقيل في تعريفه غير ذلك. ينظر الإتقان ٢/ ٩٠١.

(٣) في الأصل و(م): الدعوة، وهو خطأ، والمثبت من حاشية الشهاب ٥/ ٥٤، والكلام منه.

تَطلُق ما لم تَدخُل قبل الكلام؛ لأنَّ الشرطَ الثاني شرطٌ للأوَّل، فيلزَمُ تقدُّمُه عليه. وقَرَّره بأنَّ ها هنا ثلاثةَ أشياء: الإيمانُ والتوكُّلُ والإسلامُ، والمرادُ بالإيمان التصديقُ، وبالتوكُّل إسنادُ الأمورِ إليه عزَّ وجل، وبالإسلام تسليمُ النفس إليه سبحانه وقطعُ الأسباب، فعلَّقَ التوكُّل بالتصديق بعدَ تعليقِهِ بالإسلام؛ لأنَّ الجزاء معلَّقٌ بالشرط الأوَّل وتفسيرٌ للجزاء الثاني، كأنه قيل: إنْ كنتُم مصدِّقين بالله تعالى وآياته فخُصُّوه سبحانه بإسناد جميعِ الأمورِ إليه، وذلك لا يتحصَّل إلا بعد أنْ تكونوا مخلصين لله تبارك وتعالى، مستسلمين بأنفسكم له سبحانه، ليس للشيطان فيكم نصيبٌ، وإلا فاتركوا أمرَ التوكل.

ويُعلم منه أنْ ليس لكلِّ أحدٍ من المؤمنين الخوضُ في التوكُّل، بل للآحاد منهم، وأنَّ مقام التوكُّل دون مقامِ التسليم، والأكثرُ على الأول ولعله أدقُّ نظراً.

﴿فَقَالُوا﴾ مجيبين له عليه السلام من غير تلعثُمٍ وبلعِ ريقٍ في ذلك ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لا على غيره سبحانه، ويُؤخذ من هذا القصرِ والتعبيرِ بالماضي دون: نتوكَّلُ، أنَّهم كانوا مخلصين، قيل: ولذا أُجيبَ دعاؤهم ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾ أي: موضعَ فتنةٍ وعذابٍ لهم، بأنْ تسلِّطَهم علينا فيُعذِّبونا أو يفتنونا عن ديننا، أو يُفْتَنوا بنا ويقولوا: لو كان هؤلاء على الحقِّ لَمَا أُصيبوا.

﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ دعاءٌ بالإنجاء من سوء جوارهم[1] وسوء صنيعهم بعد الإنجاء من ظلمهم، ولذا عبَّر عنهم بالكفر بعد ما وُصِفُوا بالظلم، ففيه وضعُ المظهَرِ موضعَ المضمر، وجوَّز أنْ يُراد من «القوم الظالمين»: الملأ الذين تخوَّفوا منهم، ومن «القوم الكافرين» ما يعمُّهم وغيرَهم.

وفي تقديم التوكُّل على الدعاء ـ وإنْ كان بياناً لامتثال أمر موسى عليه السلام لهم به ـ تلويحٌ بأنَّ الداعي حقُّه أن يبنيَ دعاءَه على التوكُّل على الله تعالى، فإنَّه أرجَى للإجابة.

ولا يُتوهَّمَنَّ أنَّ التوكُّل منافٍ للدعاء؛ لأنَّه أحدُ الأسباب للمقصود والتوكلُ قطعُ الأسباب؛ لأنَّ المرادَ بذلك قطعُ النظر عن الأسباب العادية، وقصرُه على

(١) في الأصل: جورهم، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٤/ ١٧١، والكلام منه.

مسبِّبها عزَّ وجل، واعتقادُ أنَّ الأمر مربوطٌ بمشيئته سبحانه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكُن. وقد صرَّحوا أنَّ الشخصَ إذا تعاطَى الأسباب معتقداً ذلك يُعَدُّ متوكِّلاً أيضاً.

ومثلُ التوكُّل في عدم المنافاة للدعاء ـ على ما تُشعر به الآية ـ الاستسلامُ. نعم في قول بعضهم: إنَّ الاستسلام من صفات إبراهيم عليه السلام، وكان من آثاره تَركُ الدعاءِ حين أُلقيَ في النار، واكتفاؤه عليه السلام بالعلم المشار إليه بقوله: «حسبي من سؤالي علمُه بحالي»(١)، ما يُشعرُ بالمنافاة، ومَن عَرَف المقامات وأمعَنَ النظر هان عليه أمرُ الجمع.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا﴾ «أنْ» مُفسِّرة؛ لأنَّ في الوحي معنى القول، ويحتمل أنْ تكونَ مصدريَّةً. والتبوُّؤ اتِّخاذُ المباءة، أي: المنزل، كالتَّوَطُّن: اتِّخاذُ الوطن. والجمهورُ على تحقيق الهمزة، ومنهم مَن قرأ: «تَبوَّيَا لقومكما بمصر بيوتاً» فجعلها ياءً(٢)، وهي مبدلةٌ من الهمزةِ تخفيفاً.

والفعلُ ـ على ما قيل ـ مما يتعدَّى لواحدٍ، فيقال: تبوَّأَ زيدٌ كذا، لكنْ إذا دخلت اللام على الفاعل فقيل: تبوَّأ لزيدٍ كذا، تعدَّى لِمَا كان فاعلاً باللام فيتعدَّى لاثنَين، وخُرِّجت الآية على ذلك، فـ «لقومكما» أحدُ المفعولَين. وقيل: هو متعدٍّ لواحدٍ، و«لقومكما» متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقَعَ حالاً من البيوت. واللام على الوجهَين غيرُ زائدةٍ.

وقال أبو عليٍّ(٣): هو متعدٍّ بنفسه لاثنين واللام زائدةٌ، كما في ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢] وفعَّل وتَفَعَّل قد يكونان بمعنًى، مثل: علَّقتُها وتَعلَّقتها. والتقدير: بوِّئا قومَكما بيوتاً يَسكنُون فيها، أو يرجعون إليها للعبادة.

(١) ذكره ابن عراق في تنزيه الشريعة ١/ ٢٥٠ بلفظ: علمه بحالي يغني عن سؤالي، وقال: قال ابن تيمية: موضوع.

(٢) ذكرها أبو حيان في البحر ٥/ ١٨٦ عن حفص، ولم تثبت عنه من طريق صحيح، كما في البدور الزاهرة ص١٥٠.

(٣) كما في حاشية الشهاب ٥/ ٥٥.

و«مصر» غيرُ منصرفٍ؛ لأنَّه مؤنث[1] معرفة، ولو صَرَفْتَه لخِفَّتِه كما صرفْتَ «هنداً» لكان جائزاً. والجارُّ متعلِّقٌ بـ «تبوءا». وجوِّز أنْ يكون حالاً من «بيوتاً»، أو من «قومكما»، أو من ضمير الفاعل في «تبوَّءا» وفيه ضعفٌ.

﴿وَٱجْعَلُوا۟﴾ أنتما وقومَكما، ففيه تغليبُ المخاطَب[2] على غيره ﴿بُيُوتَكُمْ﴾ تلك، فالإضافة للعهد ﴿قِبْلَةً﴾ أي: مصلًّى، وقيل: مساجدَ متوجِّهةً نحو القبلة يعني الكعبةَ، فإنَّ موسى عليه السلام كان يصلِّي إليها. وعلى التفسيرَين تكونُ القبلة مجازاً فيما فُسِّرَت به بعلاقة اللزوم، أو الكلِّيَّة والجزئيَّة، والاختلافُ في المراد هنا ناظرٌ للاختلاف في أنَّ تلك البيوت المتَّخَذة هل للسكنَى أو للصلاة؟ فإنْ كان الأول فالقبلة مجازٌ عن المصلَّى، وإنْ كان الثاني فهي مجازٌ عن المساجد.

واعترض القولُ بحمل القبلة على المساجد المتوجِّهةِ إلى الكعبة بأنَّ المنصوص عليه في الحديث الصحيح أنَّ اليهود تستقبلُ الصخرةَ، والنصارى مطلع الشمس[3]، ولم يَشتهر أنَّ موسى عليه السلام كان يستقبل الكعبةَ في صلاتِهِ، فالقولُ به غريب. وأغربُ منه ما قاله العلائيُّ: من أنَّ الأنبياء عليهم السلام كانت قبلتُهم كلّهم الكعبةَ.

قيل: وجَعْلُ البيوتِ مصلًّى يُنافيه ما في الحديث: «جُعِلَت لي الأرضُ مسجداً وطهوراً»[4] من أنَّ الأمم السالفة كانوا لا يُصلُّون إلا في كنائسهم.

وأُجيبَ عن هذا بأنَّ محلَّه إذا لم يُضْطرُّوا جازَت لهم الصلاة في بيوتهم، كما رُخِّصَ لنا صلاةُ الخوف، فإنَّ فرعونَ لعنه الله تعالى خرَّب مساجدَهم ومنعهم من الصلاة، فأوحي إليهم أنْ صلُّوا في بيوتكم، كما روي عن ابن عباس وابن جبير.

وقد يقال: إنَّه لا منافاةَ أصلاً، بناءً على أنَّ المراد تعيينُ البيوت للصلاة، وعدم صحَّة الصلاة في غيرها، فيكون حُكمها إذ ذاك حُكمَ الكنائس اليومَ، وما هو

---

(١) في الأصل: لأنه علم مؤنث.
(٢) في الأصل: المخاطبين.
(٣) حاشية الشهاب ٥/ ٥٥.
(٤) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١) عن جابر ﷺ.

من الخصائص صحة الصلاة في أيِّ مكانٍ من الأرض وعدمُ تعيُّنِ موضعٍ منها لذلك، فلا حاجةَ إلى ما يقال من أنَّ اعتبارَ جَعْلِ الأرضِ كلِّها مسجداً خصوصيةٌ بالنظر إلى ما استقرَّت عليه شريعةُ موسى عليه السلام من تعيُّنِ الصلاة في الكنائس وعدمِ جوازها في أيِّ مكانٍ أراده المصلِّي من الأرض.

وما تقدَّم من استقبال اليهود الصخرةَ فالمشهورُ أنَّه كان في بيت المقدس، وأما قبلُ بعد[1] نزول التوراة فكانوا يستقبلون التابوت، وكان يُوضعُ في قبة موسى عليه السلام، على أنَّه قد قيل: إنَّ الاستقبال في بيت المقدس كان للتابوت أيضاً، وكانوا يضعونه على الصخرة، فيكون استقباله استقبالَها. وأما استقبالُهم في مصر فيحتمل أنَّه كان للكعبة كما روي عن الحسن، وما في الحديث محمولٌ على آخِرِ أحوالهم، ويحتملُ أنَّه كان للصخرة حَسْبَما هو اليوم، ويحتمل غيرَ ذلك، والله تعالى أعلمُ بحقيقة الحال.

وقيل: معنى «قبلة»: متقابلة، ورواه ابنُ أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما[2]، أي: اجعلوا بيوتَكم يقابل بعضُها بعضاً ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فيها، قيل: أُمروا بذلك في أول أَمرِهم لئلَّا يظهرَ عليهم الكفرةُ فيؤذونهم ويفتنونهم في دينهم. وهو مبنيٌّ على أنَّ المراد بالبيوت المساكنُ، أمَّا لو أُريدَ بها المساجدُ، فلا يصحُّ كما لا يخفى، ولعلَّ التوجيهَ على ذلك هو أنَّهم أُمروا بالصلاة ليَستعينُوا ببركَتها على مقصودهم، فقد قال سبحانه: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥] وهي في المساجد أفضلُ، فتكون أرجَى للنفع.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ بحصول مقصودهم، وقيل: بالنُّصرَة في الدنيا إجابةً لدعوتهم والجنةِ في العُقبَى.

وإنما ثنِّي الضميرُ أولاً لأنَّ التبوُّءَ للقومِ واتِّخاذَ المعابد مما يتولَّاه رؤساء القوم بَتشاوُرٍ، ثم جُمِعَ ثانياً لأنَّ جَعْلَ البيوت مساجدَ والصلاةَ فيها مما يفعلُه كلُّ أحدٍ، مع أنَّ في إدخال موسى وهارون عليهما السلام مع القوم في الأمرَين المذكورَين

---

(١) قوله: بعد، ليس في الأصل.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٧٧.

ترغيباً لهم في الامتثال، ثم وُحِّد ثالثاً لأنَّ بشارةَ الأمة وظيفةُ صاحب الشريعة، وهي من الأعظم أَسَرُّ وأوقعُ في النفس.

ووُضع «المؤمنين» موضعَ ضميرِ القومِ لمدحهم بالإيمان، وللإشعار بأنَّه المدارُ في التبشير.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ أي: ما يُتزيَّن به من اللباس والمراكب ونحوِها، وتُستعمل مصدراً، ﴿وَأَمْوَٰلًا﴾ أنواعاً كثيرةً من المال، كما يُشعر به الجمعُ والتنوينُ، وذِكْرُ ذلك بعد الزينة من ذِكرِ العامِّ بعد الخاصِّ للشمول، وقد يُحمَل على ما عداه بقرينة المقابلة، وفسَّر بعضُهم الزينة بالجمال وصحَّةِ البدن وطولِ القامة ونحوه.

﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ أي: لكي يُضلُّوا عنها، وهو تعليلٌ للإيتاء السابق، والكلامُ إخبارٌ من موسى عليه السلام بأنَّ الله تعالى إنما أمدَّهم بالزينة والأموال استدراجاً ليزدادوا إثماً وضلالةً، كما أَخبرَ سبحانه عن أمثالهم بقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]. وإلى كون اللام للتعليل ذهب الفرَّاء[١]، والظاهرُ أنَّه حقيقةٌ، فيكونُ ذلك الضلال مرادَ الله تعالى، ولا يلزم ما قاله المعتزلة من أنَّه إذا كان مراداً يلزم أن يكونوا مُطيعين به بناءً على أنَّ الإرادة أمرٌ أو مستلزمٌ له، لِمَا أنَّه قد تَبيَّن بُطلانُ هذا المبنى في الكلام. وقدَّر بعضُهم حَذَراً من ذلك: لئلَّا يضلُّوا، كما قدَّر في ﴿شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟﴾ [الأعراف: ١٧٢]: ألَّا[٢] تقولوا، ولا حاجةَ إليه.

وقيل: إنَّ التعليل مجازيٌّ؛ لأنَّهم لمَّا ضلُّوا بسبب ذلك جُعِلَ إيتاؤه كأنَّه للضلال، فيكون في اللام استعارةٌ تبعيَّةٌ.

وقال الأخفشُ[٣]: اللام للعاقبة. فيكون ذلك إخباراً منه عليه السلام ـ لممارسته لهم وتَفرُّسِه بهم، أو لعلمهم بالوحي[٤] على ما قيل ـ بأنَّ عاقبةَ ذلك الإيتاء

---

(١) في معاني القرآن ١/ ٤٧٧.

(٢) في (م): شهدنا ألا.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٥٧٣.

(٤) كذا في الأصل و(م)، والصواب: لعلمه بالوحي.

الضلالُ. والفرقُ بين التعليل المجازيِّ وهذا ـ إنْ قلنا بأنَّه معنىً مجازيٌّ أيضاً ـ أنَّ في التعليل ذكرُ ما هو سببٌ، لكن لم يكن إيتاؤه لكونه سبباً، وفي لام العاقبة لم يُذكَر سببٌ أصلاً، وهي كاستعارة أحد الضِّدَّين للآخر.

وقال ابنُ الأنباريِّ: إنَّها للدعاء، ولا مَغمزَ على موسى عليه السلام في الدعاء عليهم بالضلال، إمَّا لأنَّه عليه السلام عَلِمَ بالممارسة ونحوها[1] أنَّه كائنٌ لا محالةَ فدعا به، وحاصله أنَّه دعاءٌ بما لا يكون إلا ذلك، فهو تصريحٌ بما جَرَى قضاء الله تعالى به، ونحوُه: لَعَن الله تعالى الشيطان. وإمَّا لأنَّه ليس بدعاءٍ حقيقةً، وليس النظر إلى تَنْجيز المسؤولِ وعدمه، بل النظرُ إلى وَصْفهم بالعتوِّ وإبداء[2] عذرِه عليه السلام في الدعوة، فهو كنايةٌ إيمائيةٌ على هذا.

وما قيل: هذا شهادةٌ بسوء حالهم بطريق الكناية في الكناية؛ لأنَّ الضلال رَدِيفُ الإضلال، وهو مَنعُ اللُّطفِ، فكنى بالضلال عن الإضلال، والإضلالُ رَدِيفُ كونهم كالمطبوع عليهم، فكان هذا كشفاً وبياناً لحالهم بطريق الكناية، فهو ـ على ما فيه ـ شيءٌ عنه غنىً؛ لأنَّ الطبع مصرَّحٌ به بعدُ، بل النظرُ ها هنا إلى الزبدة والخلاصةِ من هذه المطالب كلِّها.

ويُشعر كلام الزمخشريِّ باختيار كونها للدعاء[3]. وفي «الانتصاف»: أنَّه اعتزالٌ أدقُّ من دبيب النمل، يكادُ الاطلاعُ عليه يكون كشفاً، والظاهر أنها للتعليل[4].

وقال صاحبُ «الفرائد»[5]: لولا التعليلُ لم يتَّجه قوله: ﴿إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ ولم ينتظم.

وأُورِدَ عليه أيضاً أنَّه يُنافي غرضَ البعثة، وهو الدعوةُ إلى الإيمان والهُدَى. ولا يخفَى أنَّ دفع هذا يُعلم مما قدمنا آنفاً.

---

(١) في (م): أو نحوها.
(٢) في (م): وإبلاء.
(٣) الكشاف ٢/ ٢٥٠.
(٤) الانتصاف ٢/ ٢٥٠.
(٥) كما في حاشية الشهاب ٥/ ٥٥، والكلام منه.

وأمَّا وجهُ انتظام الكلام فهو كما قال غيرُ واحدٍ: إنَّ موسى عليه السلام ذَكَر قوله: «إنك آتيت» إلخ تمهيداً للتخلُّص إلى الدعاء عليهم، أي: إنَّك أَوْلَيتَهم هذه النعمةَ ليعبدوك ويشكروك فما زادهم ذلك إلا طغياناً وكفراً، وإذا كانت الحال هذه فَلْيُضِلُّوا عن سبيلك، ولو دعا ابتداءً لم يحسُن، إذ ربما يُعذَر، فقدَّم الشِّكايةَ منهم والنعْيَ بسوء صنيعهم ليتسلَّقَ منه إلى الدعاء، مع مراعاةِ تلازُمِ الكلام من إيراد الأدعية منسوقةً نسقاً واحداً، وعدم الاحتياج إلى الاعتذار عن تكرير النداء كما احتاج القول بالتعليل إلى الاعتذار عنه بأنَّه للتأكيد وللإشارة إلى أنَّ المقصود عرضُ ضلالهم وكُفرانهم تقدمةً للدعاء عليهم بعدُ.

وادَّعى الطيبي: أنَّه لا مجالَ للقول بالاعتراض؛ لأنَّه إنَّما يحسُن موقعُه إذا التَذَّت النفسُ بسماعه، ولذا عِيبَ قولُ النابغة:

لــعــلَّ زيــاداً لا أبــا لــكَ غــافــلُ[1]

وفي كلامه مَيلٌ إلى القول بأنَّ اللام للدعاء، وهو لَدَى المنصفِ خلافُ الظاهر، وما ذكروه له لا يُفيده ظهوراً.

وقرئ: «ليضلوا» بضم الياء وفتحها[2].

﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ أي: أَهْلِكْها كما قال مجاهد، فالطَّمْسُ بمعنى الإهلاك، وفِعْلُه من باب ضَرَبَ ودَخَل، ويَشهدُ له قراءةُ: «اطمُس» بضم الميم[3]، ويتعدَّى ولا يتعدَّى. وجاء بمعنى مَحْوِ الأثر والتغيير، وبهذا فسَّره أكثرُ المفسِّرين؛ قالوا: المعنى: ربَّنا غيِّرها عن جهةِ نَفْعها إلى جهةٍ لا يُنتَفَعُ بها.

وأنت تعلم أنَّ تغييرَها عن جهة نَفْعها إهلاكٌ لها أيضاً، فلا يُنافي ما أخرجه ابنُ

---

(١) وصدره: يقول رجال ينكرون خليقتي، وهو في ديوان النابغة الذبياني ص٨٩، وزياد هو اسم النابغة.

(٢) قرأ بضم الياء عاصم وحمزة والكسائي وخلف، والباقون بفتحها. التيسير ص١٠٦، والنشر ٢/ ٢٦٢.

(٣) القراءات الشاذة ص٥٨، والكشاف ٢/ ٢٥٠، والبحر ٥/ ١٨٧.

أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضَّحاك أنَّه بعد هذا الدعاء صارَت دراهمُهم ودنانيرهم ونحاسُهم وحديدُهم حجارةً منقوشةً(١).

وعن محمد القُرظيِّ قال: سألني عمر بنُ عبد العزيز عن هذه الآية فأخبرتُه أنَّ الله تعالى طمَسَ على أموال فرعونَ وآلِ فرعونَ حتى صارت حجارةً، فقال عمرُ: مكانَكَ حتى آتيَكَ، فدعا بكيسٍ مختوم ففكَّه، فإذا فيه البيضةُ مشقوقةٌ وهي حجارةٌ، وكذا الدراهمُ والدنانيرُ وأشباه ذلكَ(٢).

وفي روايةٍ عنه أنَّه صار سكَّرُهم حجارةً، وأنَّ الرجل بينما هو مع أهله إذ صارا حجرَين، وبينما المرأةُ قائمة تَخبِزُ إذ صارت كذلك.

وهذا مما لا يكادُ يصحُّ أصلاً، وليس في الآية ما يُشيرُ إليه بوجهٍ. وعندي أنَّ أخبارَ تغيير أموالهم إلى الحجارة لا تخلو عن وهنٍ، فلا يعوَّل عليها، ولعلَّ الأَوْلَى أنْ يُراد من طَمْسها إتلافُها منهم على أتمِّ وجهٍ، والمرادُ بالأموال ما يشملُ الزينةَ من الملابس والمراكب وغيرها.

﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ أي: اجعلها قاسيةً واطبَعْ عليها حتى لا تنشرحَ للإيمان، كما هو قضيَّةُ شأنهم ﴿فَلَا يُؤۡمِنُواْ﴾ جوابٌ للدعاء، أعني «اشدُد» دون «اطمِسْ»، فهو منصوبٌ، ويحتمل أنْ يكونَ دعاءً بلفظ النهي نحو: إلهي لا تعذبني، فهو مجزومٌ، وجوِّز أنْ يكون عطفاً على «ليضلوا»، وما بينهما دعاءٌ معترضٌ، فهو حينئذٍ منصوبٌ أو مجزومٌ حسبما علمتَ من الخلاف في اللام.

﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ أي: يُعاينوه ويُوقنوا به بحيث لا يَنفعُهم ذلك إذ ذاك، والمرادُ به جنسُ العذاب الأليم. وأخرج غيرُ واحدٍ عن ابن عباس تفسيرَه بالغرق.

واستدلَّ بعضُهم بالآية على أنَّ الدعاء على شخصٍ بالكفر لا يُعدُّ كفراً، إذا لم يكن على وجه الاستيجاز والاستحسان للكفر بل كان على وجه التمنِّي لينتقمَ الله

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٧٩، وعزاه لأبي الشيخ السيوطي في الدر ٣/ ٣١٥، وأخرجه أيضاً الطبري ١٢/ ٢٦٦.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٧٩، وعزاه السيوطي في الدر ٣/ ٣١٥ لابن المنذر وأبي الشيخ.

تعالى من ذلك الشخص أشدَّ انتقام، وإلى هذا ذهب شيخُ الإسلام خواهر زاده[١]، فقولهم: الرضا بكفرِ الغير كفرٌ، ليس على إطلاقه عنده، بل هو مقيَّدٌ بما إذا كان على وجه الاستحسان، لكنْ قال صاحب «الذخيرة»: قد عثرنا على روايةٍ عن أبي حنيفة ﷺ أنَّ الرضا بكفر الغير كفرٌ، من غير[٢] تفصيلٍ، والمنقولُ عن عَلَمِ الهدى أبي منصور الماتريديِّ التفصيلُ، ففي المسألة اختلافٌ.

قيل: والمعوَّلُ عليه أنَّ الرضا بالكفر من حيث إنَّه كفرٌ كفرٌ، وأنَّ الرضا به لا مِن هذه الحيثيةِ بل من حيثية كونِهِ سبباً للعذاب الأليم، أو كونِهِ أثراً من آثار قضاء الله تعالى وقَدَره مثلاً ليس بكفرٍ، وبهذا يَندفعُ التنافي بين قولهم: الرِّضا بالكفر كفرٌ، وقولهم: الرضا بالقضاءِ واجبٌ، بناءً على حَمْل القضاء فيه على المقضيِّ، وعلى هذا لا يتأتَّى ما قيل: إنَّ رضا العبدِ بكفر نفْسِه كفرٌ بلا شبهةٍ على إطلاقه، بل يجري فيه التفصيلُ السابق في الرضا بكفر الغير أيضاً.

ومن هذا التحقيقِ يُعلَم ما في قولهم: إنَّ مَن جاءه كافرٌ ليسلم فقال له: اصبر حتى أتوضَّأ، أو أخَّره، يَكفرُ لرضاه بكفره في زمانٍ من النظر، ويؤيِّدُه ما في الحديث الصحيح في فتح مكة، أنَّ ابنَ أبي سرح أتَى به عثمانُ ﷺ إلى النبيِّ ﷺ وقال: يا رسول الله بايعْهُ. فكفَّ ﷺ يدَه عن بيعته، ونَظَر إليه ثلاثَ مراتٍ، كلُّ ذلك يأبَى أنْ يُبايعَه، فبايعه بعد الثلاث، ثم أَقبَلَ ﷺ على أصحابه فقال: «أما كان فيكم رجُلٌ رشيدٌ يقومُ إلى هذا حيثُ رَآني كفَفْتُ يَدي عن بَيعتِهِ فَيَقْتُلَهُ؟» قالوا: وما يُدرينا يا رسولَ الله ما في نفسك، ألا أَومأت إلينا بعَينِكَ. فقال عليه الصلاة والسلام: «إنَّه لا يَنْبغي لنبيٍّ أنْ يكونَ لهُ خَائنةُ أَعْيُنٍ». وقد أخرجه ابنُ أبي شيبة وأبو داود والنسائيُّ وابنُ مردويه عن سعد بن أبي وقاص[٣]، وهو معروفٌ في السير، فإنَّه ظاهرٌ في أنَّ التوقُّفَ مطلقاً ليس كما قالوه كفراً. فليُتَأمَّل.

---

(١) كما في حاشية الشهاب ٥/ ٥٦ نقلاً عن الفصول العمادية.

(٢) في الأصل: بغير، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ١٤/ ٤٩١، وسنن أبي داود (٢٦٨٣)، وسنن النسائي ٧/ ١٠٥-١٠٦، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٣/ ٣٠٣.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ هو خطابٌ لموسى وهارون عليهما السلام، وظاهرُه أنَّ هارون عليه السلام دعا بمثل ما دعا موسى عليه السلام حقيقةً، لكن اكتُفيَ بنَقْل دعاءِ موسى عليه السلام لكونِهِ الرسولَ بالاستقلال عن نقل دعائه، وأُشرِك بالبشارة إظهاراً لشرفه عليه السلام، ويحتمل أنَّه لم يَدْعُ حقيقةً، لكن أُضيفَت الدعوةُ إليه أيضاً بناءً على أنَّ دعوةَ موسى في حُكْم دعوته، لمكان كونِه تابعاً ووزيراً له.

والذي تَضَافَرت[1] به الآثارُ أنَّه عليه السلام كان يُؤمِّنُ لدعاء أخيه[2]، والتأمينُ دعاءٌ، فإنَّ معنى «آمين»: استَجِب، وليس اسماً من أسمائه تعالى كما يَروُونه عن أبي هريرةَ رضي الله عنه[3].

قيل: ولكونه دعاءً استَحبَّ الحنفيةُ الإسرارَ به، وفيه نظرٌ؛ لأنَّ الظاهرَ أنَّ مدارَ استحباب الإسرار والجهر ليس كونَه دعاءً، فإنَّ الشافعيةَ استحبُّوا الجهرَ به مع أنَّ المشهورَ عنهم أنَّهم قائلون أيضاً بكونه دعاءً.

وظاهرُ كلام بعض المحقِّقين أنَّ إضافة الربِّ إلى ضمير المتكلِّم مع الغير في المواقع الثلاثة تُشعر بأنَّه عليه السلام كان يُؤمِّن لدعاء موسى عليه السلام، ولا يخفَى ما في ذلك الإشعار من الخفاء.

وقرئ: «دَعَواتُكُما» بالجمع[4] ووجهُه ظاهرٌ.

﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ فامضِيَا لأمري واثْبُتَا على ما أنتم عليه من الدعوة وإلزامِ الحجَّة، ولا تستعجلا، فإنَّ ما طلبتُماه كائنٌ في وقته لا محالة، أخرج ابنُ المنذر عن ابن عباس[5] رضي الله عنهما قال: يزعمُون أنَّ فرعون مكَثَ بعد هذه الدعوة أربعينَ سنةً. وأخرج

(١) في الأصل: تظافرت.
(٢) أخرج ذلك الطبري ١٢/ ٢٧١-٢٧٢ عن عكرمة وأبي صالح ومحمد بن كعب وأبي العالية.
(٣) أخرجه عبد الرزاق (٢٦٥١) عن أبي هريرة موقوفاً، وإسناده ضعيف كما ذكر الحافظ في الفتح ٢/ ٢٦٢، وقال: وعن هلال بن يساف التابعي مثله، وأنكره جماعة.
(٤) القراءات الشاذة ص٥٨، والمحتسب ١/ ٣١٦، والبحر ٥/ ١٨٧.
(٥) كما في الدر المنثور ٣/ ٣١٥.

ابنُ جرير عن ابن جُرَيج مثلَه[١]. وأخرج الترمذيُّ[٢] عن **مجاهد** أنَّ الدعوةَ أُجيبَت بعد أربعينَ سنةً، ولم يذكر الزعم.

﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨٩﴾ بعادات الله تعالى في تعليق الأمور بالحكم والمصالح، أو سبيل الجهلةِ في عدم الوُثُوق بوعد الله سبحانه، والنهيُ لا يقتضي صحَّةَ وقوع المنهيِّ عنه، فقد كثُر نهيُ الشخص عما يستحيلُ وقوعُه منه، ولعل الغرضَ منه هنا مجرَّدُ تأكيدِ أمرِ الوعد، وإفادة أنَّ في تأخير إنجازه حِكَماً إلهيةً.

وعن ابن عامر أنَّه قرأ: «ولا تَتْبعانِ» بالنُّون الخفيفةِ المكسورة[٣] لالتقاء الساكنَين. ووَجَّه ذلك ابنُ الحاجب بأنَّ «لا» نافيةٌ والنونُ علامةُ الرفع، والجملةُ إمَّا في موضع الحال من الضمير المرفوع في «استقيما»، كأنَّه قيل: استقيما غيرَ متَّبِعَينِ، والجملةُ المضارعيَّة المنفيةُ بـ «لا» الواقعةُ حالاً يجوزُ اقترانُها بالواو وعدمُه، خلافاً لمن زَعَم وجوبَ عدمِ الاقتران بالواو إلا أنْ يُقدَّر مبتدأ. وإمَّا معطوفةٌ على الجملة الطلبيَّة التي قبلها، وهي وإنْ كانت خبريةً لفظاً إلا أنَّها طلبيةٌ معنىً؛ لأنَّ المراد منها النهيُ كما في قوله تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الصف: ١١] و﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٨٣] والنهيُ المُخرَجُ بصورة الخبرِ أبلغُ من النهي المُخرَجِ بصورته. ويجوزُ أنْ تعتبرَ الجملة مستأنفةً للإخبار بأنَّهما لا يتَّبعانِ سبيلَ الجاهلين.

ومن الناس مَن جَعَل «لا» في قراءة العامة نافيةً أيضاً وهو ضعيفٌ؛ لأنَّ النفْيَ لا يُؤكَّد على الصحيح.

وقيل: «لا» ناهيةٌ، والنُّون نونُ التوكيد الخفيفةِ كُسِرَت لالتقاء الساكنَين، وهو تخريجٌ لَيِّن، فإنَّ[٤] الكِسائيَّ وسيبويه لا يُجيزانه[٥]، لأنَّهما يمنعان وقوعَ الخفيفةِ بعد الألف سواءٌ كانت ألفَ التثنية أو الألفَ الفاصلة بين نون الإناث ونون التوكيد،

---

(١) تفسير الطبري ٢/ ٢٧٣.

(٢) الحكيم، كما في الدر المنثور ٣/ ٣١٥، وعنه نقل المصنف.

(٣) وهي رواية ابن ذكوان عن نافع. التيسير ص١٢٣، والنشر ٢/ ٢٨٦.

(٤) في الأصل: لأن، والمثبت من (م) وهامش الأصل.

(٥) الكتاب ٣/ ٥١٩، وذكره عنهما أبو حيان في البحر ٥/ ١٨٨، والشهاب في الحاشية ٥/ ٥٦، والكلام منه.

نحو: هل تَضْرِبْنَانِ يا نسوة، وأيضاً النونُ الخفيفة إذا لقيها ساكنٌ لَزِمَ حذفُها عند الجمهور ولا يجوز تحريكُها، لكن يُونس والفرَّاء أجازا ذلك، وفيه عنهما روايتان: إبقاؤها ساكنةً لأنَّ الألفَ لخفَّتها بمنزلة الفتحة، وكَسرُها على أصل التقاء الساكنين، وعلى هذا يتمُّ ذاك التخريج.

وقيل: إنَّ هذه النونَ هي نونُ التوكيد الثقيلة إلا أنَّها خُفِّفَت. وهو كما ترى.

وعنه أيضاً: «ولا تَتْبعانِّ» بتخفيف التاء الثانية وسكونها وبالنون المشدَّدة[١]، من تَبِعَ الثلاثي.

وأيضاً: «ولا تتبعانْ» وهي كالأُولَى إلا أنَّ النونَ ساكنةٌ[٢] على إحدى الروايَتين عمَّن تقدَّم في تسكين النون الخفيفة بعد الألف على الأصل، واغتفارِ التقاء الساكنين إذا كان الأولُ ألفاً كما في «محياي».

ثم اعلم أنَّه اشتهر في تعليل كَسرِ النون في قراءة العامة بأنَّه لالتقاء الساكنَين، وظاهرُه أنَّه بذلك زال التقاء الساكنَين، وليس كذلك؛ إذ الساكنان هما الألف والنونُ الأُولَى ولا شيءَ منهما بمتحرِّك، وإنَّما المتحرّك النونُ الثانية، ومِن هنا قال بعضُ محقِّقي النحاة: إنَّ أَصْلَ التحريك لِيتأتَّى الإدغامُ، وكونُه بالكسر تشبيهاً بنون التثنية، والتقاءُ الساكنَين ـ أعني: الألف والنون الأولى ـ غيرُ مضرٍّ لِمَا قالوا من جوازه إذا كان الأولُ حرفَ مدٍّ والثاني مُدغَماً في مثله، كما في: دابة، لارتفاع اللسان بهما معاً حينئذٍ، وقد حُقِّق ذلك في موضعه فليُراجَع هذا، والله تعالى أعلم.

❋ ❋ ❋

ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أشار سبحانه إلى أنَّهم يستمعون لكنَّ حُكمهم حُكم الصمِّ[٣] في عدم

(١) وهي رواية عن ابن ذكوان كما في السبعة ص ٣٢٩، والنشر ٢/ ٢٨٦. وفي البدور الزاهرة ص١٥٠: ولكن هذا الوجه قال فيه الداني: إنه غلطٌ ممن رواه عن ابن ذكوان، فلا يقرأ به. اهـ. وقال الداني أيضاً في التيسير ص١٢٣: ولا خلاف في تشديد التاء.

(٢) البحر ٧/ ١٨٧.

(٣) في (م): الأصم.

الانتفاع، وذلك لعدم استعدادهم حقيقةً، أو حُكماً بأنْ كان ولكن حَجبَ نورَه رسوخُ الهيئات المظلمة؛ وكذا يُقال فيما بعدُ.

ثم إنه تعالى دفع(١) ما يُتوهَّم من أنَّ كونَهم في تلك الحالة ظلمٌ منه سبحانه لهم بقوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ بسَلْبِ حواسِّهم وعقولهم مثلاً ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيثُ طلب استعدادُهم الغير المجعول ذلك.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ لذهولهم بتكاثُف ظُلماتِ المعاصي على قلوبهم ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ بحكم سابقَةِ الصحبة وداعيةِ الهوى اللازمةِ للجنسية الأصلية، وهذا التعارفُ قد يبقَى إذا اتّحدوا في الوجهة واتَّفقوا في المقصد، وقد لا يَبقى وذلك إذا اختلفَت الأهواءُ وتبايَنَت الآراءُ، فحينئذٍ تَتَفاوتُ الهيئاتُ المستفادَةُ من لواحقِ النشأة، فيقَعُ التناكرُ وعوارضُ العادة.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ لِمَا يَنتفعون به.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ من جنسهم ليتَمكَّنُوا من الاستفاضة منه ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم﴾ بإنجاء مَن اهتدَى به وإثابته، وإهلاكِ مَن أعرضَ عنه وتعذيبه لظهور أسبابِ ذلك بوجوده ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فيُعامَلوا بخلافِ ما يَستحقُّون.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إنكارٌ للقيامة لاحتجابهم بما هم فيه من الكثافة ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ سلبٌ لاستقلاله بالتأثير(٢)، وبيانٌ لأنَّه لا يملكُ إلا ما أَذِنَ الله تعالى فيه، وهذا نوعٌ من توحيد الأفعال، وفيه إرشادٌ لهم بأنَّه لا يَملِكُ استعجالَ ما وعَدَهم به.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: تزكيةٌ لنفوسكم بالوعد والوعيد، والزَّجْرِ عن الذنوب المتسبِّبةِ للعقاب، والتحريضِ على الطاعة الموجبةِ بفَضْلِ الله تعالى للثواب.

﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي: دواءٌ للقلوب من أمراضها التي هي أشدُّ من

---

(١) في (م): رفع.
(٢) في (م): في التأثير.

أمراضِ الأبدان، كالشكِّ والنِّفاق والحسد والحقد وأمثال ذلك، بتعليم الحقائقِ والحِكَمِ الموجبةِ لليقين والتصفية والتهيىء لتجلِّيات الصفات الحقَّة.

﴿وَهُدًى﴾ لأرواحكم إلى الشهود الذاتي ﴿وَرَحْمَةٌ﴾بإفاضةِ الكمالات اللائقة بكلِّ مقامٍ من المقامات الثلاثة بعدَ حصول الاستعداد في مقام النفس بالموعظة، ومقامِ القلبِ بالتَّصفية، ومقامِ الروح بالهداية للمؤمنين، بالتصديق أولاً ثم باليقينِ ثانياً ثم بالعيان ثالثاً.

وذكر بعضُهم: الموعظةُ للمريدين، والشفاءُ للمحبِّين، والهدى للعارفين، والرحمةُ للمستأنسين، والكلُّ مؤمنون إلا أنَّ مراتبَ الإيمان متفاوتةٌ، والخطابُ في الآية لهم، وفيها إقامةُ الظاهر مقامَ المضمر.

ويقال: إنَّه سبحانه بدأ بالموعظة لمريضِ حُبِّه؛ لأنَّها معجونٌ لإسهال شهواتِهِ، فإذا تطهَّرَ عن ذلك يَسقيه شرابَ ألطافه، فيكون ذلك شفاءً له مما به، فإذا شُفيَ يُغذِّيه بهدايته إلى نفسه، فإذا كَمُل بصُحبته يُطهِّرُه بمياه رحمته من وَسَخ المرض ودَرَنِ الامتحان.

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ﴾ بتوفيقه للقبول في المقامات ﴿وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ بالمواهب الخَلْقيَّة والعملية والكَشْفية فيها ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ لا بالأمور الفانيةِ القليلةِ المقدارِ الدنيَّةِ القدرِ ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من الخسائس والمحقَّرات.

وفسَّر بعضُهم الفضلَ بانكشاف صباحِ الأزل لعيون أرواحِ المريدين، وزيادةِ وُضوحه في لحظة حتى تَطلُعَ شموسُ الصفات وأقمارُ الذات، فيطيرون في أنوار ذلك بأجنحة الجذبات إلى حيث شاء الله تعالى، والرحمةَ بتَتَابُع مواجيدِ الغيوب للقلوب بنعت التفريد بلا انقطاع، ومن هنا قال ضِرغامُ أَجَمةِ التصوُّف أبو بكر الشبلي قُدِّس سرُّه: وقتي سرمدٌ وبحري بلا شاطئ.

وقيل: فضلُه الوصال، ورحمتُه الوقاية عن الانفصال.

وقيل: فضلُه إلقاءُ نيرانِ المحبةِ في قلوب المريدين، ورحمتُه جَذْبُه أرواحَ المشتاقين.

وقيل: فضلُه سبحانه على العارفين كشفُ الذات، وعلى المحبِّين كشفُ

الصفات، وعلى المريدين كشفُ أنوار الآيات، ورحمتُه جلَّ شأنه على العارفين العنايةُ، وعلى المحبِّين الكفايةُ، وعلى المريدين الرعايةُ.

وقال الجنيد: فَضْلُ الله تعالى في الابتداء ورحمتُه في الانتهاء. وهو مناسبٌ لما قلنا.

وقال الكتَّاني(١): فضلُ الله تعالى النعمُ الظاهرةُ، ورحمتُه النعمُ الباطنةُ. وقيل غيرُ ذلك.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم﴾ أي: أخبروني ما أنزل الله سبحانه من رزقٍ معنويٍّ كالمعارف الحقَّانيَّة وكالآداب الشرعية ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا﴾ كالقِسْم الأوَّل، حيث أنكرتُموه على أهله ورميتموهم بالزندقة ﴿وَحَلَٰلًا﴾ كالقِسْم الثاني، حيث قبلتُموه ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ في الحُكْم بالتحليل والتحريم ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ في ذلك.

ثم إنَّه سبحانه أوعَدَ المفترين بقوله عزَّ من قائلٍ: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ﴾ إلخ، ففي الآية إشارةٌ إلى سوء حالِ المنكرين على مَن تَحلَّى بالمعارف الإلهية، ولعلَّ منشأ ذلك زعمُهم انحصارَ العلم فيما عندهم، ولم يعلموا أنَّ وراء علومهم علوماً لا تُحصَى يمنُّ الله تعالى بها على مَن يشاء، وفي قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] إشارة إلى ذلك، فما أَوْلاهم بأن يقال لهم: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] ومِن العجيب أنَّهم إذا سمعوا شيئاً من أهل الله تعالى مخالفاً لما عليه مجتهدوهم ردُّوه وقالوا: زيغٌ وضلالٌ، واعتمدوا في ذلك على مجرَّد تلك المخالفة ظنّاً منهم أنَّ الحقَّ منحصرٌ فيما جاء به أحدُ أولئك المجتهدين، مع أنَّ الاختلاف بينهم لم يزل قائماً(٢) على ساق.

على أنَّه قد يقال لهم: ما يُدريكم أنَّ هذا القائلَ الذي سمعتُم منه ما سمعتم وأنكرتُموه أنَّه مجتهدٌ أيضاً كسائر مجتهديكم؟

فإنْ قالوا: إنَّ للمجتهد شروطاً معلومةً، وهي غيرُ موجودةٍ فيه.

---

(١) أبو بكر محمد بن علي بن جعفر البغدادي الكتاني، صحب الجنيد وغيره، وأقام بمكة مجاوراً بها، توفي سنة (٣٢٠هـ). سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٣٣، وشذرات الذهب ٤/ ١١٧.

(٢) في (م): مع أن الاختلاف لم يزل قائماً بينهم.

قلنا: هذه الشروطُ التي وُضعَت للمجتهد في دين الله تعالى، هل هي منقولةٌ عن رسول الله ﷺ صريحاً، أو وَضَعْتُموها[1] أنتم من تلقاء أنفسكم، أو وَضَعها[2] المجتهدُ؟ فإنْ كانت منقولةً عن الرسول عليه الصلاة والسلام فأتوا بها واتلوها وصحِّحوا نقلها إنْ كنتُم صادقين، وهيهات ذلك، وإنْ كان الواضع لها أنتُم، وأنتُم أجهلُ مِن ابن يوم، فهي ردٌّ عليكم ولا حبّاً ولا كرامةً، على أنَّ في اعتبارها أخذاً بكلام مَن ليس مجتهداً، وأنتُم لا تجوِّزونه، وإنْ كان الواضع لها المجتهد فإثباتُ كونه مجتهداً متوقِّفٌ على اعتبار تلك الشروط، واعتبار تلك الشروط متوقِّفٌ على إثبات كونه مجتهداً، وهل هذا إلا دورٌ؟ وهو محالٌ لو تعقلونه.

وأيضاً لِمَ لا يجوز أنْ تكون تلك الشروط شروطاً للمجتهد النقلي، وهناك مجتهدٌ آخَرُ شرطُه تصفيةُ النفس وتزكيتُها، وتخلُّقها بالخُلُق الربَّانيِّ، وتَهيُّؤها واستعدادُها لقبول العلم من الله تعالى؟ وأيُّ مانعٍ من أنْ يخلُقَ الله تعالى العلمَ فيمَن صَفَتْ نفسُه وتهيَّأت بالفقر واللَّجَأ إلى الله تعالى، وصَدَقَ عزمُه في الأخذ، ولم يتَّكل على حوله وقوته، كما يخلقه فيمَن استوفى شروط الاجتهاد عندكم فاجتهد وصَرَف فكره ونظره؟ والقولُ بأنَّه سبحانه إنَّما يخلُق العلم في هذا دونَ ذاك حَجْرٌ على الله تعالى وخروجٌ عن الإنصاف كما لا يخفى.

فلا ينبغي للمنصف العارف بأنَّ الفضلَ بيد الله يُؤتيه مَن يشاء من عباده إلا أنْ يُسلِّم لمن ظهَرَت فيه آثارُ التصفية والتهيىء وسطَعَت عليه أنوارُ التخلُّق بالخُلُق الربَّاني ما أتى به، ولو لم يأتِ به مجتهدٌ، ما لم يُخالف ما عُلِمَ مجيئُه من الدين بالضرورة، ويأبَى الله تعالى أنْ يأتي ذلك بمثل ما ذكر.

لكنْ ذكر مولانا الإمامُ الربَّانيُّ مجدِّد الألف الثاني قُدِّسَ سرُّه[3] في بعض مكتوباته الفارسية: أنَّه لا يجوز تقليد أهلِ الكشف في كشفهم؛ لأنَّ الكشف لا يكونُ حجَّةً على الغير وملزماً له.

(١) في (م): صنعتموها.
(٢) في (م): صنعها.
(٣) هو الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي، الفاروقي نسباً، وكلامه في كتابه المكتوبات ١/ ٤٣.

وقد يقال: ليس في هذا أكثرُ من منع تقليد أهل الكشف، ومحلُّ النزاع الإنكارُ عليهم ورَمْيُهُم والعياذُ بالله تعالى بالزندقة، وليس في الكلام أدنَى رائحةٍ منه كما لا يخفى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بصنفي العِلْمَين وإفاضتهما بعدَ تَهيئَةِ الاستعداد لقبولهما ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ذلك ولا يعرفون قَدْرَه فيُمنَعون عن الزيادة.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ إخبارٌ منه تعالى بعظيم اطِّلاعه سبحانه على الخواطر، وما يجري في الضمائر، فلا يخفَى عليه جلَّ شأنه خاطرٌ ولا ضميرٌ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

ثم أخبَرَ جلَّ وعلا عن سلطان إحاطتِهِ على كلِّ ذرَّةٍ مِن العرش إلى ما تحت الثرى بقوله تبارك اسمه: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: إنَّ علمه سبحانه محيطٌ بما في العالم السُّفليِّ والعُلْوِيِّ، فكلُّ ذرَّةٍ من ذراته داخلةٌ في حيطة عِلمه، كيف لا وكلُّها قائمةٌ به جلَّ شأنه، يَنظُرُ إلى كلٍّ في كلِّ آنٍ نظَرَ الحفظِ والرعاية، ولولا ذلك لهلَكت الذرَّات واضمحلَّت سائرُ الموجودات.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ إذ لم يبقَ منهم بقيَّةٌ يخاف بسببها من حرمانٍ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لامتناع فواتِ شيءٍ من الكمالات واللَّذات منهم، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الإيمان الحقيقيَّ ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ بقاياهم وظهورَ تلُّوناتهم.

﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بوجود الاستقامة والأخلاق المبشِّرَة بجنة النفوس﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ بظهور أنوارِ الصفاتِ والحقائق عليهم المبشِّرة بجنة القلوب.

والظاهرُ أنَّ الموصول بيانٌ للأولياء، فالوليُّ هو المؤمنُ المتَّقي على الكمال، ولهم في تعريفه عباراتٌ شتَّى تقدَّم بعضُها.

وفي «الفتوحات»: هو الذي تولَّاه الله تعالى بنصرته في مقام مجاهدته الأعداءَ الأربعةَ: الهوى والنفسَ والشيطانَ والدنيا. وفيها تقسيمُ الأولياء إلى عدَّة أقسام منها: الأقطابُ، والأوتادُ، والأبدال، والنقباء، والنجباء، وقد ورَدَ ذلك مرفوعاً وموقوفاً من حديث عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وأنس وحذيفة بن اليمان

وعبادة بن الصامت وابن عباس وعبد الله بن عمر وابن مسعود وعوف بن مالك ومعاذ بن جبل وواثلة بن الأسقع وأبي سعيد الخدري وأبي هريرة وأبي الدرداء وأم سلمة ﷺ، ومن مرسل الحسن وعطاء وبكر بن خنيس، ومن الآثار عن التابعين ومَن بعدهم ما لا يُحصَى.

وقد ذكر ذلك الجلالُ السيوطيُّ في رسالةٍ مستقلةٍ له وشيَّد أركانه[1]، وأنكره ـ كما قدَّمنا ـ بعضُهم، والحقُّ مع المثبتين، وأنا ـ والحمد لله ـ منهم وإنْ كنتُ لم أُشيِّد قبلُ أركانَ ذلك. والأئمةُ[2] والحواريُّون والرجبيُّون والختم والملامية والفقراء وسقيط الرفرف ابن ساقط العرش والأمناء والمحدَّثون[3] إلى غير ذلك.

---

(١) واسمها: الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال، وهي في كتاب الحاوي ٢/ ٤١٧، وقد خرَّج فيها السيوطي جميع ما ذكر. ولكن قال ابن القيم في المنار المنيف ص١٣٦: أحاديث الأبدال والأقطاب والأغواث والنقباء والنجباء والأوتاد كلها باطلة على رسول الله ﷺ، وأقرب ما فيها: «لا تسبُّوا أهل الشام فإن فيهم البدلاء، كلما مات رجل منهم أبدل الله مكانه رجلاً آخر»، ذكره أحمد، ولا يصح أيضاً فإنه منقطع.
قلنا: وهو عند أحمد (٨٩٦) من حديث علي ﷺ دون قوله: لا تسبوا أهل الشام. فإنه فيه من قول علي بنحوه. وأخرجه بنحوه أيضاً الطبراني في الكبير ١٨/ ٦٥ عن عوف بن مالك، وإسناده منقطع، وفيه أيضاً ضعيف ومتروك.
وقال السيوطي في الرسالة نفسها في الحاوي ٢/ ٤٣٥: أخرج الشيخ نصر المقدسي في كتاب الحجة على تارك المحجة بسنده عن أحمد بن حنبل أنه قيل له: هل لله في الأرض أبدال؟ قال: نعم. قيل: من هم؟ قال: إن لم يكن أصحاب الحديث هم الأبدال، فما أعرف لله أبدالاً.

(٢) قوله: والأئمة... إلخ، معطوف على قوله: الأقطاب... إلخ.

(٣) الحواريون: هم واحد في كل زمان، وكان في زمن رسول الله ﷺ الزبير بن العوام ﷺ. معجم مصطلحات الصوفية لعبد المنعم الحفني ص٨٣.
والرجبيُّون: هم أربعون، ولا يكون لهم هذا المقام إلا في شهر رجب، ويقع لهم فيه من الكشوف والتجليات والاطلاع على المغيبات. معجم مصطلحات الصوفية ص١١١.
والختم: هو الذي يجمع كل الصفات المتفرقة في النوع الذي يختمه، فهو الحد الذي لا يتخطَّى كماله أمرٌ من الأمور التي يختمها. المعجم الصوفي لسعاد الحكيم ص٣٧٣.
والملامية وهي الملامتية: هم قوم طابت نفوسهم مع الله فلم يودُّوا أن يطلع على أعمالهم غيره، فإن رأى أحد منهم أن أحداً اعتقد فيه، خرَّب، أي: فعل ما يذمُّ به ظاهره. الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي ص٣١٧.

=

وعَدَّ الشيخ الأكبر قُدِّس سرُّه منهم الرسلَ والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والبيانُ الذي في الآية صادقٌ عليهم عليهم السلام على أتمِّ وجهٍ.

ونُسِب إليه ﷺ القولُ بتفضيل الوليِّ على النبيِّ والرسول، وخاض فيه كثيرٌ من المنكِرين حتى كفَّروه ـ وحاشاه ـ بسبب ذلك، وقد صرَّح في غير موضعٍ من «فتوحاته» ـ وكذا من سائر تأليفاته ـ بما يُنافي هذا القولَ حسبما فهمَه المنكِرون.

وقد ذَكر في كتاب «القربة» أنَّه ينبغي لمن سمع لفظةً من عارفٍ متحقِّقٍ مبهمةً، كأنْ يقول: الولايةُ هي النبوَّةُ الكبرى، أو الوليُّ العارف مرتبتُه فوق مرتبة الرسول، أنَّ يتحقَّق المرادَ منها، ولا يُبادرَ بالطعن.

ثم ذَكَرَ في بيان ما ذكر ما نصُّه: اعلم أنَّه لا اعتبار للشخص من حيث ما هو إنسانٌ، فلا فضْلَ ولا شرَف في الجنس بالحكم الذاتي، وإنَّما يقعُ التفاضُلُ بالمراتب، فالأنبياء صلواتُ الله تعالى عليهم ما فَضُلوا الخلقَ إلا بها، فالنبيُّ ﷺ له مرتبةُ الولاية والمعرفة والرسالة، ومرتبة الولاية والمعرفةِ دائمةُ الوجود، ومرتبةُ الرسالة منقطعةٌ، فإنَّها تنقطعُ بالتبليغ، والفضلُ للدائمِ الباقي، والوليُّ العارفُ مقيمٌ عنده سبحانه والرسولُ خارجٌ، وحالة الإقامة أعلى من حالة الخروج، فهو ﷺ من حيثية كونه وليّاً وعارفاً أعلى وأشرفُ من حيثية كونه رسولاً، وهو ﷺ الشخصُ بعينه واختلفَت مراتبه، لا أنَّ الوليَّ منَّا أرفعُ من الرسول نعوذ بالله تعالى من الخِذلان، فعلى هذا الحدِّ يقول تلك الكلمة أصحابُ الكشف والوجود، إذ لا اعتبارَ عندنا إلا للمقامات، ولا نتكلَّم إلا فيها لا في الأشخاص، فإنَّ الكلام في

= والفقراء: الفقير نعتُه السكون عند العدم، والبذل والإيثار عند الوجود، وسمي الصوفية فقراء لتخليهم عن الأملاك، وحقيقته أن لا يستغني العبد إلا بالله. معجم مصطلحات الصوفية ص٢٠٧.

وسقيط الرفرف ابن ساقط العرش: حاله لا يتعدَّاه، شُغلُه بنفسه وبربِّه، كبير الشأن عظيم الحال، رؤيته مؤثِّرةٌ في حالِ مَن يراه، فيه انكسار. الفتوحات المكية ٢/ ١٤.

والأمناء: هم الملامتية. معجم مصطلحات الصوفية ص٢٥.

والمحدثون: وهم صنفان: صنف يحدثه الحقُّ من خلف حجاب، وصنف تحدثهم الأرواح الملكية في قلوبهم، وأحياناً في آذانهم، ومنهم عمر بن الخطاب ﷺ. الفتوحات المكية ٢/ ٢١.

الأشخاص قد يكونُ بعضَ الأوقات غيبةً، والكلامُ على المقامات والأحوال من صفات الرجال، ولنا في كلٍّ حظٌّ شِرْبٌ معلومٌ ورزقٌ مقسومٌ. انتهى.

وهو صريحٌ في أنَّه قُدِّس سرُّه لا يقول هو ولا غيرُه من الطائفة بأنَّ الوليَّ أفضلُ من النبيِّ حسبما يُنسَب إليه، وقد نَقَل الشعرانيُّ عنه أنَّه قال: فُتح لي قَدْرُ خرم إبرةٍ من مقام النبوَّةِ تجلِّياً لا دخولاً فكِدْتُ أَحترقُ.

فينبغي تأويلُ جميعِ ما يُوهمُ القولَ بذلك، كإخباره في كتابه «التجلِّيات» وغيرِه باجْتماعه ببعض الأنبياءِ عليهم السلام، وإفادتِه لهم مِن العلم ما ليس عندهم. وكقول الشيخ عبد القادر الجيلي قُدِّس سرُّه ـ وقد تقدم ـ: يا معاشرَ الأنبياء أُوتيتم الألقاب وأُوتينا ما لم تُؤْتَوْه[1]. إلى غير ذلك، فإنَّ اعتقاد أفضليةِ وليٍّ من الأولياء على نبيٍّ من الأنبياء كفرٌ عظيمٌ وضلالٌ بعيدٌ.

ولو ساغَ تفضيل وليٍّ على نبيٍّ لفُضِّل الصديقُ الأكبرُ ﷺ على أحدٍ من الأنبياء؛ لأنَّه أرفعُ الأولياء قَدْراً كما ذهب إليه أهلُ السنَّة، ونصَّ عليه الشيخ قُدِّس سرُّه في كتاب «القُربة» أيضاً، مع أنَّه لم يُفضَّل كذلك بل فُضِّل على مَن عداهم كما نَطَق به: «ما طلَعَت الشمسُ ولا غَرَبَت على أحدٍ بعد النبيين أفضلَ مِن أبي بكرٍ الصديق»[2] فمتى لم يفضَّل الصدِّيقُ، وهو الذي وَقَر في صدره ما وَقَر، ونال من الكمال ما لا يُحصَر، فكيف يُفضَّل غيرُه؟.

وفضَّل كثيرٌ من الشيعة عليّاً كرم الله تعالى وجهه، وكذا أولادَه الأئمةَ

---

(١) سلف ٣/ ٤٣٣.

(٢) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١٣٥) و(١٣٧)، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٣٢٥، والخطيب في تاريخ بغداد ١٢/ ٤٣٨ من طرق عن ابن جريج، عن عطاء، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ. وأخرجه الطبراني في الأوسط (٧٣٠٦)، وابن الجوزي في العلل (٢٩٨) من طريق إسماعيل بن يحيى التميمي، عن ابن جريج، عن عطاء، عن جابر، عن النبي ﷺ. قال ابن الجوزي: قال الدارقطني: إسماعيل ضعيف، وغيره يرويه عن عطاء عن أبي الدرداء، والحديث غير ثابت. وينظر العلل لابن أبي حاتم ٢/ ٣٨٤. وأخرج البخاري (٣٦٧١) عن محمد بن الحنفية قال: قلت لأبي: أيُّ الناس خير بعد رسول الله ﷺ؟ قال: أبو بكر، قلت: ثم مَن؟ قال: عمر.

الطاهرين ﷺ أجمعين على كثيرٍ من الأنبياء والمرسلين من أولي العزم وغيرهم، ولا مستندَ لهم في ذلك إلا أخبارٌ كاذبةٌ وأفكارٌ غيرُ صائبة.

وبالجملة متى رأينا الشخصَ مؤمناً متَّقياً حكمنا عليه بالولاية نظراً لظاهر الحال، ووجَبَ علينا معاملتُه بما هو أهلُه من التوقير والاحترام غيرَ غالين فيه بتفضيله على رسولٍ أو نبيٍّ أو نحو ذلك مما عليه العوامُّ اليوم في معاملة مَن يعتقدونه وليّاً، التي هي أشبه شيء بمعاملة المشركين مَن يعتقدونه إلهاً، نسألُ الله تعالى العفْوَ والعافية.

ولا يُشترَط فيه صدورُ كرامةٍ على يده كما يُشترَطُ في الرسول صدورُ معجزةٍ، ويَكفيه الاستقامةُ كرامةً، كما يدُلُّ عليه ما اشتهر عن أبي يزيد قُدِّس سرُّه، بل الوليُّ الكامل لا التفاتَ له إليها، ولا يَوَدُّ صدورَها على يده إلا إذا تضمَّنَت مصلحةً للمسلمين خاصَّةً أو عامةً.

وفي «الجواهر والدُّرر» للشعراني: سمعتُ شيخنا يقولُ: إذا زَلَّ الوليُّ ولم يرجع لوقته عُوقب بالحجاب، وهو أنْ يُحَبَّبَ إليه إظهارُ خَرْقِ العوائد المسمَّاة على(1) لسان العامة كرامات، فيظهر بها ويقول: لو كنتُ مُؤاخَذاً بهذه الزلَّة لَقُبِضَ عنِّي التصريفُ. وغابَ عنه أنَّ ذلك استدراجٌ، بل ولو سَلِمَ من الزلة فالواجبُ خوفُه من المكر والاستدراج.

وقال بعضُهم: الكرامةُ حيضُ الرجال، ومَن اغترَّ بالكرامات بالكرى مات.

وأضرُّ الكرامات للولي ما أَوجَبَ الشهرةَ، فإنَّ الشهرةَ آفةٌ، وقد نُقِل عن الخوَّاص: أنَّها تُنْقِصُ مرتبة الكمال، وأيَّد ذلك بالأثر المشهور: خُصَّ بالبلاء مَن عرفه الناس.

نعم ذكر في «أسرار القرآن»(2) أنَّ الولايةَ لا تتمُّ إلا بأربع مقامات: الأول: مقامُ المحبَّة، والثاني: مقامُ الشَّوق، والثالثُ: مقامُ العشق، والرابعُ: مقامُ

---

(١) في (م): في.
(٢) لعله كتاب: عجيب البيان في أسرار القرآن للشيخ عبد الباسط بن رستم القنوجي المتوفى سنة (١٢٢٣هـ). أبجد العلوم ٣/ ١٦١.

المعرفة، ولا تكون المحبَّةُ إلا بكَشْف الجمال، ولا يكونُ الشوقُ إلا باستنشاق نَسيم الوصال، ولا يكونُ العشقُ إلا بدنوِّ الأنوار، ولا تكونُ المعرفةُ إلا بالصحبة، وتَتَحقَّق الصحبةُ بكشف الألوهية مع ظهور أنوارِ الصفات. ولِحصُول ذلك آثارٌ وعلاماتٌ مذكورةٌ فيه فليُراجعْه مَن أرادها.

والكلامُ في هذا المقام كثيرٌ، وكُتُب القوم ملأى منه، وفي[1] ما ذكرناه كفايةٌ لغرضنا. وأحسنُ ما يُعتَمَد عليه في معرفة الوليِّ اتِّباعُ الشريعة الغرَّاء، وسلوكُ المحجَّة البيضاء، فمن خَرَج عنها قيدَ شبرٍ بَعُدَ عن الولاية بمراحلَ، فلا ينبغي أنْ يُطلَق عليه اسمُ الوليِّ ولو أتى بألفِ ألفِ خارقٍ، فالوليُّ الشرعيُّ اليومَ أعزُّ من الكبريت الأحمر، ولا حولَ ولا قوَّة إلا بالله:

أمّا الخيامُ فإنَّها كخيامهم وأرَى نساءَ الحيِّ غيرَ نسائها[2]

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: لِمَا سبق لهم في الأزل من حُسن العنايةِ، أو لا تبديلَ لحقائقه سبحانه الواردةِ عليهم، وأسمائه تعالى المنكَشِفَةِ لهم، وأحكامِ تجلِّياته جلَّ وعلا النازلةِ بهم، أو لا تبديلَ لِفِطَرِهم التي فَطَرَهم عليها، ويقال لكلِّ محدَّثٍ: كلمة؛ لأنَّه أثَرُ الكلمة.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي: لا تتأثَّر به ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾ لا يملك أحدٌ سواه منها شيئاً، فسَيَكفِيكَهم الله تعالى ويَقهرُهم و﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما ينبغي أنْ يفعلَ بهم.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾ أي: إنَّ كلَّ مَن في ذلك تحت مُلكه سبحانه وتصرُّفه وقَهْرِه، لا يقدرون على شيءٍ مِن غير إذنه، فهو كالتأكيد لِمَا أفادته الآيةُ السابقةُ، أو أنَّ مَن فيها من الملائكة والثقلَين الذين هم أشرفُ الممكِنات عبيدٌ له سبحانه، لا يصلُح أحدٌ منهم للربوبية، فما لا يَعْقِلُ أحقُّ بأنْ لا يصلُح لذلك، فهو كالدليل على قوله سبحانه: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ﴾ إلا ما يتوهَّمونه ويتخيَّلونه شريكاً ولا شركةَ له في الحقيقة.

---

(١) قوله: في، ليس في (م).
(٢) البيت لعلي بن أحمد الفالي، كما في معجم الأدباء ١٢/ ٢٢٧، وسلف ١/ ٢٣٢.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ إشارةٌ إلى سكون العشَّاق والمشتاقين في الليل إذا مدَّ أطنابه ونَشَر جلبابه، ومَيلِهم إلى مناجاة محبوبهم، وانجذابهم إلى مشاهدةِ مطلوبهم، وتلذُّذِهم بما يَرِدُ عليهم من الواردات الإلهية، واستغراقهم بأنواع التجلِّيات الربَّانية، ومن هنا قال بعضُهم: لولا الليل لما أحببتُ البقاء في الدنيا، وهذه حالةُ عُشَّاقِ الحضرة، وهم العشَّاقُ الحقيقيُّون نفعنا الله تعالى بهم، وأنشدَ بعضُ المجازيين:

أُقضِّي نهاري بالحديث وبالمُنَى ... ويَجمعني بالليل والهمَّ جامعُ
نهاري نهارُ الناس حتى إذا بَدَا ... ليَ الليلُ هزَّتْني إليك المضاجعُ[1]

﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ أي: أَلْبَسَهُ سِرْبالَ أنوار القُدرةِ لتقضوا فيه[2] حاجاتِكم الضرورية.

وقيل: الإشارةُ بذلك إلى ليلِ الجسم ونهارِ الروح، أي: جعَلَ لكم ليلَ الجسم لتسكنوا فيه، ونهار الروح لتبصروا به حقائقَ الأشياء وما تهتدون به.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ كلامَ الله تعالى، فيُقيمون بَواطِنَه وحُدُودَه، ويَطَّلعون به على صفاته وأسمائه سبحانه.

﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ﴾ أي: معلولاً يُجانسه ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾ أي: أُنزِّهُه جلَّ وعلا من ذلك ﴿هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ﴾ الذي وجودُه بذاته، وبه وجودُ كلِّ شيءٍ، وذلك يُنافي الغنَى، وأكَّد غناه جلَّ شأنه بقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إلخ.

وقولُه سبحانه: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ﴾ إلخ أمرٌ له ﷺ بأنْ يَتْلو عليهم نبأ نوحٍ عليه السلام في صحَّة توكُّله على الله تعالى، ونظرِه إلى قومه وشركائهم بعين الغِنَى، وعدمِ المبالاة بهم وبمكايدهم، ليعتبروا به حاله عليه الصلاة والسلام، فإنَّ الأنبياء عليهم السلام في ملَّة التوحيد والقيام بالله تعالى وعدمِ الالتفات إلى الخلق سواءٌ. أو أمرٌ له ﷺ بأنْ يتلوَ نبأ نوحٍ مع قومه ليتَّعظَ قومُه ويَنزجرُوا عمَّا هم عليه مما يُفضي إلى إهلاكهم.

---

(١) البيتان لمجنون ليلى، وهما في ديوانه ص١٨٥.
(٢) في (م): فيها.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ أي: إيماناً حقيقياً ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ أي: مُنقادِين، أي: إنْ صحَّ إيمانُكم يقيناً فعليه توكَّلُوا بشرطِ أنْ لا يكونَ لكم فعلٌ، ولا تَرَوا لأنفسكم ولا لغيركم قوةً ولا تأثيراً، بل تكونون[1] منقادين كالميت بين يدي مُغَسِّله، فإنَّ شَرْط صحَّة التوكُّل فناءُ بقايا الأفعال والقوى.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾ أي: على ما أنتما عليه من الدعوة شكراً لتلك الإجابة، وقيل: أي: استقيما على معرفَتِكُمَا مقامَ السؤال، وهو مقامُ الرضوان والبسط، ليُستجابَ لكما بعدُ إذا دعوتُما، فإنَّ مَن لم يعرف مقامَ السؤال قد يُوقعُه في غير مقامه، فيُسيءُ الأدبَ فلا يُستجاب له.

وقيل: إنَّ هذا عتابٌ لهما عليهما السلام أي: قد أُجيبَت دعوتُكما لضعفِكُما عن تحمُّل واردِ امتحاني، فاستقيما بعد ذلك على تحمُّل بلائي والصبر فيه، فإنَّه اللائقُ بشأنكما. وقد قيل: المعرفةُ تقتضي الرضا بالقضاء والسكونَ في البلاء.

وقيل: أي: استقيما في دعائكما، والاستقامةُ في الدعاء على ما قال ذو النون المصريُّ: أنْ لا يَغْضَبَ الداعي لتأخير الإجابة، ولا يَسألَ سؤالَ خصوصٍ. نسألُ الله تعالى أنْ يُوفِّقَنا لما يُحبُّ ويَرضى.

❁ ❁ ❁

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ مِن جَاوَزَ المكان: إذا قَطَعه وتَخَطَّاه، وهو متعدٍّ إلى المفعول الأول الذي كان فاعلاً في الأصل بالباء، وإلى الثاني بنفسه، والمعنَى: جعلناهم مُجاوزين البحرَ، بأنْ جعلناه يَبَساً، وحفِظناهم حتى بلغوا الشَّطَّ.

وقرأ الحسنُ: «وجَوَّزْنا» بالتضعيف[2]، وفعَّل بمعنى فَاعَل، فهو من التجويز المرادف للمجاوزة بالمعنى السابق، وليس بمعنى نفذ[3]؛ لأنَّه لا يحتاج إلى التعدية بالباء، ويتعدَّى إلى المفعول الثاني بفي، كما في قوله:

---

(١) في (م): تكونوا.

(٢) القراءات الشاذة ص٥٨، والبحر ٥/ ١٨٨.

(٣) كذا في الأصل و(م): ولعل الصواب: أنفذ، كما في حاشية الشهاب ٥/ ٥٧، ومعجم متن اللغة (جوز).

ولا بدَّ مِن جارٍ يُجيزُ سَبيلَها كما جَوَّز السَّكّيَّ في الباب فَيْتَقُ[1]

فكان الواجب هنا من حيث اللغةُ أنْ يقال: وجوَّزنا بني إسرائيل [في][2] البحر، أي: نفذناهم وأدخلناهم فيه.

وفي الآية إشارةٌ إلى انفصالهم عن البحر، وإلى مقارنة العناية الإلهية لهم عند الجَوَاز، كما هو المشهور في الفَرْق بين أذهَبَه وذَهَبَ به.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ قال الراغبُ: يقال: تَبِعَه وأَتْبَعَه، إذا قَفَا أَثَرَه إمَّا بالجسم أو بالارْتِسام والائتمار، وظاهره أنَّ الفعلَين بمعنًى[3].

وقال بعضُ المحققين: يقال: تَبِعْتُه حتى أَتْبَعْتُه، إذا كان سَبَقَك فَلَحِقْتَه، فالمعنى هنا: أَدْرَكَهُم ولَحِقهم ﴿فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ حتى تراءت الفئتان وكاد يجتمعُ الجمعان ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ أي: ظلماً واعتداءً، وهما مصدران منصوبان على الحال بتأويلِ اسمِ الفاعل، أي: باغينَ وعادينَ، أو على المفعولية لأَجْلِه، أي: للبغي والعدوان.

وقرأ الحسنُ: «وعُدُوّاً» بضم العين والدال وتشديد الواو[4].

وذلك أنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا أَخبَرَ موسى وهارونَ عليهما السلام بإجابة دعوتهما أَمَرَ موسى عليه السلام بإخراج بني إسرائيل من مصر ليلاً، وكانوا كما ذكره غيرُ واحدٍ ستَّ مئة ألفٍ، فخرج بهم على حين غفلةٍ من فرعون وملئه، فلما أحسَّ بذلك خرج هو وجنودُه على أثرهم مُسرعين، فالتفت القومُ فإذا الطامَّةُ الكبرى وراءهم، فقالوا: يا موسى، هذا فرعونُ وجنودُه وراءنا وهذا البحر أمامنا، فكيف الخلاصُ؟! فأوحَى الله تعالى إلى موسى أنِ اضْرب بعصاك البحر، فضَرَبَه فانفلَق اثني عشر فِرْقاً، كلُّ فِرْقٍ كالطَّود العظيم، وصار لكلِّ سبطٍ طريقٌ، فسلكوا، ووَصَل

(١) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص١٢٠. السكي: المسمار. والفيتق: النجار. اللسان (سكك) و(فتق).

(٢) ما بين حاصرتين من الكشاف ٢/ ٢٥١، وتفسير أبي السعود ٤/ ١٧٢، والكلام فيهما بنحوه.

(٣) ينظر مفردات الراغب (تبع)، وقد زاد النحاس إليهما اتَّبع، فقال في إعراب القرآن ٢/ ٤٧٠: والحقُّ أن تبع وأتبع واتَّبع لغات بمعنى واحد، وهي بمعنى السير.

(٤) القراءات الشاذة ص٥٨، والبحر ٥/ ١٨٨.

فرعونُ ومَن معه إلى الساحل وهم قد خرجوا من البحر، ومسلَكُهم باقٍ على حاله، فسلَكه بمَن معه أجمعين، فلمَّا دخل آخرُهم وَهَمَّ أوَّلُهم بالخروج غَشِيَهم من اليمِّ ما غَشِيَهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ﴾ أي: لحِقَه، والمرادُ بلحوقه إياه وقوعُه فيه وتلبُّسُه بأوائله.

وقيل: معنى أدرَكَه: قارَبَ إدراكَه، كـ: جاء الشتاء فتأهَّب؛ لأنَّ حقيقةَ اللُّحوق تَمنَعُه من القول الذي قصَّه سبحانه بقوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ ءَامَنتُ﴾ إلخ.

ومن الناس مَن أبقَى الإدراك على ظاهره، وحَمَل القولَ على النفسي، وزَعَم أنَّ الآيةَ دليلٌ على ثبوت الكلامِ النفسيِّ. ونُظِرَ فيه بأنَّ قيامَ الاحتمال يُبطل صحَّة الاستدلال.

وأيّاً ما كان فليس المرادُ الإخبارَ بإيمانٍ سابقٍ كما قيل، بل إنشاء إيمان.

﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي بأنَّه، وقُدِّر الجارُّ لأنَّ الإيمان وكذا الكُفر متعدٍّ بالباء، ومحلُّ مدخوله بعد حذفه الجرُّ أو النصبُ، فيه خلافٌ شهير، وجَعْلُه متعدِّياً بنفسه فلا تقدير لأنَّه في أصل وَضْعِه كذلك مخالَفةٌ للاستعمال المشهور فيه.

وقرأ حمزة والكِسائي: «إنَّه» بالكسر(١) على إضمار القول، أي: وقال إنَّه، أو على الاستئناف لبيان إيمانه، أو الإبدال من جملة «آمنتُ»، والجملةُ الاسميةُ يجوزُ إبدالُها من الفعلية، والاستئنافُ على البدلية باعتبار المحكيِّ لا الحكاية؛ لأنَّ الكلامَ في الأول، والجملةُ الأولى في كلامه مستأنَفةٌ والمبدَل من المستأنَف مستأنَفٌ.

والضمير للشأن، وعبَّر عنه تعالى بالموصول وجَعَل صلتَه إيمانَ بني إسرائيل به تعالى، ولم يقل كما قال السحرة: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١-١٢٢] للإشعار برجوعه عن الاستعصاء، واتِّباعِه لمن كان يَستَتْبعهم، طمعاً في القبول والانتظامِ معهم في سلك النجاة.

---

(١) التيسير ص١٢٣، والنشر ٢/ ٢٨٧، وهي قراءة خلف أيضاً.

﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩٠﴾ أي: الذين أسلموا نفوسَهم لله تعالى، أي: جعلوها خالصةً سالمةً له سبحانه، وأرادَ بهم إمَّا بني إسرائيلَ خاصَّةً، وإما الجنس، وهم إذ ذاك داخلون فيه[1] دخولاً أوليّاً، والظاهرُ أنَّ الجملة على التقديرَين معطوفةٌ على جملة «آمنتُ»، وإيثارُ الاسمية لادِّعاء الدوام والاستمرار.

وقيل: إنَّها على الأول معطوفةٌ، وعلى الثاني تحتملُ الحاليةَ أيضاً من ضمير المتكلِّم، أي: آمنتُ مُخْلِصاً لله تعالى مُنتظِماً في سلك الراسخين في ذلك.

ولقد كرَّر المعنى الواحدَ بثلاث عباراتٍ، وبالغَ ما بالغ حِرصاً على القبول المقتضي للنجاة، وليتَ بعضَ ذلك قد كان حين يَنفَعُه الإيمان، وذلك قبل اليأس، فإنَّ إيمانَ اليأس غيرُ مقبولٍ كما عليه الأئمة الفحول.

﴿ءَآلْـَٔنَ﴾ الاستفهامُ للإنكار والتوبيخ، والظرفُ متعلِّقٌ بمحذوفٍ يقدَّر مؤخَّراً، أي: آلآنَ تؤمنُ حين يَئِسْتَ من الحياة وأيقنتَ بالممات، وقُدِّرَ مؤخَّراً ليتوجَّه الإنكارُ والتوبيخُ إلى تأخير الإيمان إلى حدٍّ يمتنعُ قبوله فيه، والكلامُ على تقدير القول، أي: فقيل له ذلك، وهو معطوفٌ على «قال».

وهذا إلى (ءَايَةً)[2] حكايةٌ لِمَا جَرَى منه سبحانه من الغضب على المخذول، ومُقابلةِ ما أظهرَه بالردِّ الشنيع، وتقريعِهِ بالعصيان والإفسادِ، إلى غير ذلك.

وفي حذف الفعل المذكور وإبرازِ الخبر المحكيِّ في صورة الإنشاء من الدلالة على عِظَمِ السخطِ وشدَّةِ الغضب ما لا يخفَى.

والقائلُ له ذلك قيل: هو الله تعالى، وقيل: هو جبريلُ عليه السلام، وقيل: إنَّه ميكائيل عليه السلام، فقد أخرج أبو الشيخ عن أبي أمامةَ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «قال لي جبريلُ عليه السلام: ما أَبغضْتُ شيئاً مِن خَلْق الله تعالى ما أَبغضْتُ إبليسَ يومَ أُمِرَ بالسجود فأَبَى أنْ يَسْجُدَ، وما أبغضْتُ شيئاً أشدَّ بغضاً من فرعون، فلمَّا كان يومَ الغَرَقِ خِفْتُ أنْ يَعتَصِمَ بكلمةِ الإخلاصِ فينجُوَ، فأخذْتُ قَبضَةً من حمأةٍ

---

(١) قوله: فيه، ليس في (م).

(٢) يعني قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾.

فضربتُ بها في فيه، فوجدْتُ الله تعالى عليه أشدَّ غضباً منِّي، فأمر ميكائيلَ فأتاه فقال: آلآن»[١] إلخ.

وما تَضمَّنه هذا الخبرُ من فِعْلِ جبريل عليه السلام جاءَ في غيرِ ما خبرٍ؛ ومن ذلك ما أَخْرَجَه الطيالسيُّ وابنُ حِبَّان وابنُ جرير وابنُ المنذر وابنُ مردويه والبيهقيُّ في «الشعب» والترمذيُّ والحاكمُ وصحَّحاه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ «قال لي جبريل: لو رأيْتَني وأنا آخُذُ من حالِ البحر فأَدسُّهُ في في فرعونَ مخافةَ أنْ تُدرِكَه الرحمةُ»[٢].

واستشكل هذا التعليل، وفي «الكشاف»: أنَّ ذلك من زيادات الباهتين لله تعالى وملائكتِه عليهم السلام، وفيه جهالتان: إحداهُما: أنَّ الإيمان يصحُّ بالقلب كإيمان الأخرس، فحالُ البحر لا يَمنَعُه. والأخرى: أنَّ مَن كره إيمانَ الكافرِ وأحبَّ بقاءَه على الكفر فهو كافرٌ؛ لأنَّ الرضا بالكفر كفرٌ[٣].

وارتضاه ابنُ المنير قائلاً: لقد أَنكرَ منكراً وغَضِبَ لله تعالى وملائكتِه عليهم السلام كما يجبُ لهم[٤].

والجمهورُ على خلافه لصحَّة الحديثِ عند الأئمة الثقات كالترمذيِّ ـ المقدَّم على المحدِّثين بعد مسلم ـ وغيره، وقد خاضوا في بيان المرادِ منه بحيث لا يبقَى فيه إشكال.

ففي «إرشاد العقل السليم»: أنَّ المرادَ بالرحمة الرحمةُ الدنيوية، أي: النجاة التي هي طلبةُ المخذول، وليس من ضرورة إدراكها صحةُ الإيمان،

---

(١) الدر المنثور ٣/ ٣١٦.

(٢) مسند الطيالسي (٢٦١٨)، وصحيح ابن حبان (٦٢١٥)، وتفسير الطبري ١٢/ ٢٧٧، وشعب الإيمان للبيهقي (٩٣٩٣)، وسنن الترمذي (٣١٠٧) و(٣١٠٨)، والمستدرك ٢/ ٣٤٠، وعزاه لابن المنذر وابن مردويه السيوطي في الدر ٣/ ٣١٦، وأخرجه أيضاً أحمد (٢١٤٤) و(٢٨٢٠). وينظر تخريج أحاديث الكشاف ص٨٥. وحال البحر: الطين الأسود الذي يكون في أرضه. تهذيب اللغة ٥/ ٢٤٥، والصحاح (حول).

(٣) الكشاف ٢/ ٢٥١.

(٤) الانتصاف ٢/ ٢٥١.

كما في إيمان قوم يُونس عليه السلام، حتى يلزمَ من كراهته ما لا يُتصوَّر في شأن جبريل عليه السلام من الرضا بالكفر؛ إذ لا استحالةَ في ترتُّب هذه الرحمةِ على مجرَّد التفوُّه بكلمة الإيمان، وإنْ كان ذلك في حالة البأس واليأس، فيُحمَل دسُّه عليه السلام على سدِّ باب الاحتمال البعيد لكمال الغيظ وشدَّةِ الحَرَد[1]. انتهى.

ولا يخفَى أنَّ حمْلَ الرحمةِ على الرحمة الدنيوية بعيدٌ. ويكادُ يأبَى عنه ما أخرجه ابنُ جرير والبيهقيُّ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قالَ لي جبريلُ عليه السلام: لو رأيتَني يا محمد وأنا أَغطُّ فرعونَ بإحدَى يَديَّ وأدسُّ من الحال في فيه، مخافةَ أنْ تُدرِكَهُ رحمةُ الله تعالى فيغفرَ له»[2] فإنَّه رتَّب فيه المغفرة على إدراك الرحمة، وهو ظاهرٌ في أنَّه ليس المرادُ بها الرحمةَ الدنيويةَ؛ لأنَّ المغفرةَ لا تَترتَّب عليها وإنما يترتَّبُ عليها النجاة.

وقال بعضُ المحقِّقين: إنما فعَلَ جبريلُ عليه السلام مافَعَلَ غَضَباً عليه لِمَا صدَرَ منه، وخوفاً أنَّه إذا كَرَّر ذلك ربَّما قُبِل منه على سبيلِ خَرْق العادة لسعةِ بحر الرحمة الذي يستغرقُ كلَّ شيءٍ، وأمَّا الرضا بالكفر فالحقُّ أنه ليس بكفرٍ مطلقاً، بل إذا اسْتُحِسنَ، وإنما الكفرُ رضاه بكفرِ نفسه، كما في «التأويلات» لعَلَم الهدى[3]. انتهى.

وقد تقدَّم آنفاً ما يتعلَّق بهذه المسألة[4]، فتذكَّرْه فما في العهد مِن قِدَمٍ، نعم قيل: إنَّ الرضا بكفرِ نفسِه إنما يكونُ وهو كافرٌ، فلا معنى لعَدِّه كفراً والكفرُ حاصلٌ قبله، وهو على ما له وما عليه بحثٌ آخرُ لا يضرُّ فيما نحن فيه.

والطيبي بعد أنْ أجابَ بما أجابَ أردفَ ذلك بقوله: على أنَّه ليس للعقل مجالٌ في مثل هذا النقلِ الصحيح إلا التسليمُ، ونسبةُ القصور إلى النفس.

---

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ١٧٣.

(٢) تفسير الطبري ١٢/ ٢٧٦، وشعب الإيمان (٩٣٩٠)، وأخرجه أيضاً ابن عدي في الكامل ٢/ ٧٨٩. وفيه كثير بن زاذان، وهو مجهول كما قال الحافظ في التقريب.

(٣) هو أبو منصور الماتريدي، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ٥٨.

(٤) ص٢٥٨-٢٥٩ من هذا الجزء.

وقد يقال: إنَّ الخبر متى خالفَ صريحَ العقل، أو تضمَّن نسبةَ ما لا يُتصوَّر شرعاً في حقِّ شخصٍ إليه، ولم يُمكن تأويلُه على وجهٍ يُوافق حكمَ العقل ويندفعُ به نسبةُ النقص، لا يكون صحيحاً، واتِّهامُ الراوي بما يُوهِنُ أمرَ روايته أهونُ من اتِّهام العقل الصريحِ، ونسبةُ النقص إليه دون نسبةِ النقص إلى مَن شَهِدَ الله تعالى ورسولُه صلى الله تعالى عليه بعصمتِه وكماله، فتأمَّل والله تعالى الموفِّق.

وقوله سبحانه: ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ في موضع الحال من فاعل الفعلِ العامل في الظرف، جيء به لتشديد التوبيخ والتقريع على تأخير الإيمان إلى هذا الآن، ببيانِ أنَّه لم يكن تأخيرُه لِمَا عسى يُعَدُّ عُذراً، بل كان ذلك على طريقة الردِّ والاستعصاء والإفساد، فإنَّ قوله تعالى: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ عطفٌ على «عَصَيْتَ» داخلٌ في حيِّز الحالِ، والتحقيق أي: وقد كنتَ من المفسدين الغالين في الضلال والإضلال عن الإيمان، فهذا عبارةٌ عن فساده الراجعِ إلى نفسه والساري إلى غيره من الظلم والتعدِّي وصدِّ بني إسرائيلَ عن السبيل، والأول عن عصيانه الخاصِّ به.

وقوله جلَّ شأنه: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ تهكُّمٌ به وتخييب له وحسمٌ لأطماعه بالمرَّة، والمرادُ: فاليوم نُخرجُك مما وقع فيه قومُك من قَعْر البحرِ، ونجعلُك طافياً مُلابساً ببدنك عارياً عن الروح، إلا أنَّه عبَّر عن ذلك بالتَّنجِيَة مجازاً، وجَعَل الجارَّ والمجرورَ في موضع الحالِ من ضمير المخاطَب لذلك، مع ما فيه من التلويح بأنَّ مُراده بالإيمان هو النجاةُ.

وقيل: معنى الحال: عارياً عن اللباس، أو تامَّ الأعضاء كاملَها.

وجعَلَ بعضُ الأفاضل الكلامَ على التجريد، وجَوَّز أنْ تكونَ الباءُ زائدةً و«بَدَنك» بدلَ بعضٍ من ضمير المخاطب، كأنَّه قيل: نُنجِّي بَدَنك.

وجَعْلُ الباء للآلة ليكونَ على وزان قولك: أَخذتَه بيدِكَ، ونظرتَه بعينِكَ، إيذاناً بحصول هذا المطلوبِ البعيدِ التناولِ، وَجْهٌ لكنَّه غيرُ وجيهٍ كما لا يخفَى.

وقيل: التنجيةُ الإلقاءُ على النجوة، وهي المكان المرتفع، قيل: وسُمِّي به لنجاته عن السيل، وإلى هذا ذهب يونس بن حبيب النحوي، فقد أخرج ابنُ

الأنباري وأبو الشيخ عنه أنَّه قال: المعنى: نجعلُك على نجوةٍ من الأرض كي يَراك بنو إسرائيلَ فيعرفوا أنَّك قد متَّ[1].

وجاء تفسير البَدَن بالدِّرع، ورُوي ذلك عن محمد بنِ كعب وأبيٍّ، وكانت له دِرعٌ من ذهبٍ يُعرَف بها، وفي روايةٍ أنَّها كانت من لؤلؤ.

وأخرج ابنُ أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي جهضمَ موسى بنِ سالم أنَّه كان لفرعونَ شيءٌ يلبسُه ـ يقال له: البدن ـ يتلألأ[2].

وقرأ يعقوب: «نُنْجِيكَ» من باب الإفعال[3]، وهو بمعنى التفعيل بمعنييه السابقَين.

وأخرج ابنُ الأنباري[4] عن محمد بن السَّمَيفع اليماني ويزيد البربريِّ أنَّهما قرأا: «نُنَحِّيك» بالحاء المهملة، ونُسبَت إلى أبي بن كعب وأبي السمال[5]، أي: نجعلُك في ناحيةٍ ونُلقيك على[6] الساحل.

وقرأ أبو حنيفة رضي الله عنه: «بِأَبْدَانِكَ» على صيغة الجمع[7]، بجعل كلِّ عضوٍ بمنزلة البدن، فأطلق الكلّ على الجزء مجازاً، وعلى هذا جمع الأجرام في قوله:

وكم موطنٍ لولايَ طِحْتَ كما هَوَى ... بأجرامه من قُلَّة النِّيق مُنْهوي[8]

أو بإرادة: دروعك، بناءً على أنَّ المخذول كان لابساً درعاً على درعٍ.

وأخرج ابنُ الأنباري عن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّه قرأ: «بِنِدَائكَ»[9]، أي: بدعائك.

---

(١) الدر المنثور ٣/ ٣١٦.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٨٤ دون قوله: يتلألأ، والكلام من الدر المنثور ٣/ ٥١٦.

(٣) النشر ٢/ ٢٥٩.

(٤) كما في الدر المنثور ٣/ ٣١٦.

(٥) المحتسب ١/ ٣١٦، والبحر ٥/ ١٨٩، عن أبيٍّ وابن السميفع ويزيد البربري. وذكرها عن أبي السمال الشهاب في الحاشية ٥٨/٧.

(٦) في الأصل: إلى.

(٧) البحر ٥/ ١٨٩.

(٨) البيت ليزيد بن الحكم الثقفي كما في الكتاب ٢/ ٣٧٤، والخصائص ٢/ ٢٥٩، وسلف ١٠/ ٢٧٢.

(٩) الدر المنثور ٣/ ٣١٦، والقراءة في القراءات الشاذة ص٢٥٨، والبحر ٥/ ١٨٩.

﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ أي: لتكونَ لمن يأتي بعدك مِن الأمم إذا سمعوا مآلَ[(١)] أمرِكَ ممن شاهد حالك وما عراك عبرةً ونكالاً من الطغيان، أو حجَّةً تدلُّهم على أنَّ الإنسان وإنْ بلَغَ الغايةَ القصوى من عِظَم الشأن وعلوِّ الكبرياء وقوَّةِ السلطان، فهو مملوكٌ مقهورٌ بعيدٌ عن مظانِّ الألوهية والربوبية.

وقيل: المرادُ بمَن خلفه مَن بقي بعده من بني إسرائيلَ، أي: لتكونَ لهم علامةً على صدق موسى عليه السلام، إذ كان في نفوسهم من عظمته ما خَيَّل إليهم أنَّه لا يهلك، فكذَّبوا لذلك خبَرَ موسى عليه السلام بهلاكه، حتى عاينوه على ممرِّهم من الساحل أحمرَ قصيراً كأنَّه ثورٌ، ورُوي هذا عن مجاهد.

وقرئ: «لمن خَلَفَك» فعلاً ماضياً[(٢)]، أي: حلَّ مكانك.

ونُسِبَ إلى ابن السميفع وأبي السمال أنَّهما أيضاً قرأا: «لمن خَلَقَك» بفتح اللام والقاف، أي: لتكونَ لخالقك آيةً كسائر الآيات، فإنَّ إفرادَه سبحانه إيَّاك بالإلقاء إلى الساحل دليلٌ على أنَّه قصْدٌ منه جلَّ شأنه لكَشْف تزويرك وإماطةِ الشُّبهات في أمرك، وبرهانٌ نَيِّرٌ على كمال علمه وقدرته وحكمته وإرادته، وهو معنًى لا بأس به يصحُّ أنْ تُوجَّه به الآية على القراءة المشهورة أيضاً.

ذكر في «النشر»: أنَّ مما لا يُوثَق بنقله قراءةُ ابن السَّميفع وأبي السمَّال: «ننحِّيك» بالحاء، و: «لمن خَلَقَك» بالقاف[(٣)].

وفي تعليل تنجيته بما ذُكر كما قاله بعض المحققين إيذانٌ بأنَّها ليسَت لإعزازه أو لفائدةٍ أُخرى عائدةٍ إليه، بل لكمال الاستهانة به وتَفْضِيحه على رؤوس الأشهاد، وزيادةِ تَفْظيعِ حاله، كمن يُقتَل ثم يُجَرُّ جسدُه في الأسواق، ويُطرح جيفةً في الميدان، أو يُدارُ برأسِه في النواحي والبلدان.

واللام الأُولى متعلِّقةٌ بالفعل قبلها، والثانيةُ بمحذوفٍ وَقَع حالاً من «آية»، أي: كائنةً لمن خَلْفَك، وجاء الردُّ على هذا المخذول على طِرْز ما أتى به في قوله: «آمنتُ

---

(١) في (م): حال، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ١٧٤، والكلام منه.

(٢) القراءات الشاذة ص٥٨، والبحر٥/ ١٨٩.

(٣) النشر ١/ ١٦، والقراءة بالقاف ذكرها أيضاً ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٦٢ عن ابن السميفع وأبي المتوكل وأبي الجوزاء، والقرطبي ١١/ ٥١ عن عليٍّ رضي الله عنه.

أنَّه» إلخ في اشتماله على المبالغة، كما لا يخفى على مَن تفكَّر في الآية، وقد قُرِّر فَحْوَى المحكيِّ بقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ أي: لا يتفكَّرون فيها ولا يعتبرون بها، وهو اعتراضٌ تذييليٌّ جيء به عند الحكاية لذلك.

ولهذه الآيةِ وأشباهِها وَقَع الإجماع على كفر المخذولِ وعدم قبول إيمانه، ويشهدُ لذلك أيضاً ما رواه ابنُ عدي والطبرانيُّ من أنَّه ﷺ قال: «خَلَق الله تعالى يَحيَى بنَ زكريَّا في بطن أُمِّه مؤمناً، وخَلَق فرعونَ في بَطْن أُمِّه كافراً»(١) فهو من أهل النار المخلَّدين فيها بلا ريب، وبذلك قال الشيخُ الأكبر قُدِّس سرُّه في أول كتابه «الفتوحات» في الباب الثاني والستين منه، حيث ذَكَر أنَّ الذين خَذَلهم الله تعالى من العباد جعَلَهم طائفتَين: طائفةٌ لا تضرُّهم الذنوب التي وقعت منهم، وإليهم الإشارةُ بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة:٢٦٨] وهؤلاء لا تمسُّهم النار بما تاب الله تعالى عليهم، واستغفارِ الملأ الأعلى ودعائِهم لهم.

وقسم الطائفةَ الأخرى إلى قسميَن: قسمٌ أَخرجَهم من النار بالشفاعة، وهم طائفةٌ من المؤمنين وأهلِ التوحيد ماتوا ولم تُكفَّر عنهم خطاياهم. وقسمٌ آخرُ أَبقاهم في النار، وهم المجرمون خاصةً الذين يُقال لهم يوم القيامة: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يس:٥٩] ولهم يقال: أهل النار؛ لأنَّهم الذين يَعمُرُونها، وهم على أربع طوائفَ كلُّهم في النار لا يخرجون منها:

الطائفةُ الأُولَى: المتكبِّرون على الله تعالى، كفرعونَ وأشباهِهِ ممن ادَّعَى الربوبيَّة لنفسه ونفاها عن الله تعالى، فقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨] وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤] يريد به: ما في السماء غيري، وكذلك نمروذ وغيرُه.

والثانية: المشركون، وهم الذين أَثبتُوا الله تعالى إلا أنَّهم جعلوا معه آلهةً أُخرى، وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣].

---

(١) الكامل ٦/ ٢٢٢١، والمعجم الكبير (١٠٥٤٣) من حديث ابن مسعود ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٩٣: إسناده جيد.اهـ. وفي الباب ما أخرجه مسلم (٢٦٦٢) من حديث عائشة ﷺ بلفظ: «إن الله خلق للجنة أهلاً، خلقهم وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً، خلقهم وهم في أصلاب آبائهم».

والثالثة: المعطِّلة، وهم الذين نَفَوا الإله جملةً واحدةً، فلم يُثبتوا للعالَم إلهاً أصلاً.

والرابعة: المنافقون، وهم الذين أظهروا الإيمانَ للقهر الذي حُكم عليهم، وهم في نفوسهم على ما هم عليه من اعتقاد إحدى هذه الطوائفِ الثلاثِ.

فهؤلاء الأصنافُ الأربعة هم أهلُ النار الذين لا يخرجون منها من الجِنِّ والإنس. انتهى[1].

وهو صريحٌ فيما قلنا، إلا أنَّه ذهب في موضع آخرَ من الكتاب المذكور إلى خلافه، فقال في الباب السابع والستين ومئة[2] ما حاصلُه: إنَّ الله تعالى لمَّا عَلم أنَّه قد طَبَع على كلِّ قلبِ مظهِرٍ للجبروت والكبرياء، وأنَّ فرعونَ في نفسه أذلُّ الأذلَّاءِ، أمر موسى وهارون عليهما السلام أنْ يُعاملاه بالرحمة واللين، لمناسبة باطنِه واستنزالِ ظاهرِه من جبروته وكبريائه، فقال سبحانه: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه: ٤٤] و«لعل» و«عسى» من الله تعالى واجبتان، فيتذكر[3] بما يُقابله من اللين والمسكنة ما هو عليه في باطنه، ليكونَ الظاهرُ والباطنُ على السواء، فما زالَت تلك الخميرةُ معه تعملُ في باطنه مع التَّرجِّي الإلهي الواجب فيه وقوعُ المترجَّى، ويتقوَّى حُكْمُها، إلى حين انقطاعِ يأسِهِ من أتباعه، وحَالَ الغرقُ بينه وبين أطماعه، لَجَأ إلى ما كان مُستتراً في باطنه من الذِّلة والافتقار، ليتحقَّق عند المؤمنين وقوعُ الرجاء الإلهي، فقال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩٠﴾ فرفع الإشكال من الإشكال[4]، كما قالت السحرة لمَّا آمنَتْ: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ٤٨] أي: الذي يَدعُوَان إليه، فجاءَتْ بذلك لدفع[5] الارتياب ورفع الإشكال.

وقوله: «وأنا من المسلمين» خطابٌ منه للحقِّ تعالى لعِلْمِهِ أنَّه سبحانه

---

(١) الفتوحات المكية ١/ ٣٠١-٣٠٢.

(٢) الفتوحات المكية ٢/ ٢٧٦.

(٣) في الأصل و(م): فتذكر، والمثبت من الفتوحات.

(٤) في الفتوحات: لرفع الإشكال عند الإشكال.

(٥) في الأصل: لرفع.

يَسمَعُه ويراه، فخاطبه الحقُّ بلسان الغيب وسمعِه[١]: آلآن أظهرتَ ما قد كنتَ تَعلَمُه، وقد عصيتَ قبلُ وكنتَ من المفسدين لأتباعك. وما قال له: وأنت من المفسدين، فهي كلمةُ بُشرى له عرَّفَنا بها لنرجوَ رحمتَه مع إسرافنا وإجرامنا، ثم قال سبحانه: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ يعني: لتكون النجاةُ لمن يأتي بعدك آيةً، أي: علامةً، إذا قال ما قُلتَه تكونُ له النجاةُ مثلَ ما كانت لك، وما في الآية أنَّ بأسَ الآخرة لا يرتفعُ وأنَّ إيمانه لم يُقبل، وإنما فيها أنَّ بأس الدنيا لا يرتَفعُ عمَّن نزل به إذا آمن في حالِ نزوله إلَّا قومَ يُونُس عليه السلام، فقوله سبحانه: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ بمعنى أنَّ العذاب لا يتعلَّق إلا بظاهرك، وقد أَرَيْتُ الخلقَ نجاتَه من العذاب فكان ابتداءُ الغرق عذاباً، فصار الموتُ فيه شهادةً خالصةً بريئةً لم يتخلَّلها معصيةٌ، فقُبضَ[٢] على أفضل عملٍ، وهو التلفُّظ بالإيمان، كلُّ ذلك حتى لا يَقنَطَ أحدٌ من رحمة الله تعالى، والأعمالُ بخواتيمها، فلم يزل الإيمان بالله تعالى يجول في باطنه، وقد حالَ الطابعُ الإلهيُّ الذاتيُّ في الخلق بين الكبرياء واللطائف الإنسانية، فلم يَدخُلها قَطُّ كبرياء.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥] فكلامٌ محقَّقٌ في غاية الوضوح، فإنَّ النافع هو الله تعالى، فما نَفَعهم إلَّا الله[٣] سبحانه، وقوله عزَّ وجل: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ٨٥] فيعني بذلك الإيمان عند رؤية البأس الغير المعتادِ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥] فغاية هذا الإيمانِ أنْ يكونَ كرهاً، وقد أَضافه الحقُّ سبحانه إليه، والكراهةُ محلُّها القلبُ، والإيمانُ كذلك، والله تعالى لا يأخُذ العبدَ بالأعمال الشاقَّة عليه من حيث ما يجدُه من المشقَّة فيها، بل يُضاعف له فيها الأجرَ، وأمَّا في هذا الموطن فالمشقَّةُ منه بعيدةٌ، بل جاء طوعاً في إيمانه وما عاش بعد ذلك بل قُبض ولم يؤخَّر، لئلا يرجع إلى ما كان عليه

---

(١) في الفتوحات: بلسان العتب وأسمعه.

(٢) في الفتوحات: فقبضت.

(٣) في (م): هو، والمثبت من الأصل والفتوحات.

منِ الدعوى، ولو قبض رُكَّاب البحر الذين قال سبحانه فيهم: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٦٧] عند نجاتهم لماتوا موحِّدين، وقد حصَلَت لهم النجاة.

ثم قوله تعالى في تَتْميم قصته هذه: (وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ) على معنى: قد ظهَرَت نجاتُك آيةً، أي: علامةً على حصول النجاة، فغَفَل أكثرُ الناس عن هذه الآيةِ، فقَضَوا على المؤمن بالشقاء، وأمَّا قوله تعالى: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود:٩٨] فليس فيه أنَّه يَدخُلُها معهم، بل قال جلَّ وعلا: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦] ولم يقُل: أَدخِلُوا فرعونَ وآلَه، ورحمةُ الله تعالى أَوسعُ مِن أَنْ لا يقبلَ إيمانَ المضطرِّ، وأيُّ اضطرارٍ أعظمُ من اضطرار فرعونَ في حال الغرق؟ والله تبارك وتعالى يقول: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل:٦٢] فقرَن للمضطرِّ إذ دعاه بالإجابة[1] وكشفِ السوءِ عنه، وهذا آمَنَ لله تعالى خالصاً، وما دعاه في البقاء في الحياة الدنيا خوفاً من العوارض وأنْ يُحالَ بينه وبين هذا الإخلاص الذي جاءه في هذه الحال، فرجَحَ جانبُ لقاءِ الله تعالى على البقاء بالتلفُّظ بالإيمان، وجَعَل ذلك الغرقَ نكالَ الآخرةِ والأُولَى، فلم يكُنْ عذابُه أكثرَ مِن غَمِّ الماء الأُجاج، وقَبَضَه على أحسن صفة، وهذا هو الذي يُعطيه ظاهرُ اللَّفظ، وهو معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات:٢٦] يعني: في أَخْذِه نكالَ الآخرة والأُولَى، وقدَّم سبحانه ذِكْرَ الآخرةِ على الأولى ليُعلم أنَّ ذلك العذابَ ـ أعني: عذابَ الغرق ـ هو نكالُ الآخرة، وهذا هو الفضلُ العظيم. انتهى.

وهو نصٌّ في إيمانه، بل في كونه من الشهداء، بناءً على أنَّ الموتَ غَرَقاً شهادةٌ للمؤمنين كما أجمع عليه أئمةُ الدين على خلافٍ في موت مَن قصَّر في تعلُّم السباحة غريقاً، هل يُعَدُّ شهادةً أم لا؟ فإنَّ بعض الشافعيةِ ذهب إلى أنَّ المقصِّر المذكورَ إذا مات غريقاً مات عاصياً لا شهيداً، وإنَّما الشهيدُ مَن مات كذلك وكان عارفاً بالسباحة، أو غيرَ مُقصِّرٍ في تعلُّمها لكنْ لم يتعلَّم، وكأنَّ الشيخ قُدِّس سرُّه لا يقول بهذا التفصيل، أو كان يَعلمُ أنَّ فرعونَ كان ممن يعلمُ السباحةَ، أو ممن لم يُقصِّر في تعلُّمها، أو أنَّه يقول: إنَّ الإيمان كَفَّر عنه كلَّ معصيةٍ قبله، ومِن جملة ذلك

---

(١) في الفتوحات: الإجابة.

معصيةُ التقصير مثلاً التي هي دون قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ و﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ بألفِ ألفِ مرتبةٍ.

لكن لا أدري هل الغريقُ شهيدٌ في شريعة موسى عليه السلام كما هو كذلك في شريعتنا، أم هذا الأمرُ من خواصِّ هذه الشريعة التي أنعمَ الله تعالى على أهلها بما أنعمَ كرامةً لنبيِّها ﷺ.

وقد ذَهبَ قُدِّس سرُّه في كتابه «فصوص الحكم» إلى نحو ما ذهب إليه أخيراً في كتابه «الفتوحات». وقد اعترَضَ عليه بذلك غيرُ واحدٍ، وهو عندي ليس بأعظمَ مِن قوله قُدِّس سرُّه بإيمان قومِ نوحٍ عليه السلام وكثيرٍ من أضرابهم، ونجاتِهم يوم القيامة، وقد نصَّ على ذلك في «الفصوص».

والعجبُ أنَّه لم يَكثُر مُعترِضُوه في ذلك كثرتَهم في القول بإيمان فرعون؛ وقد انتصَرَ له بعضُ الناس، ومنهم في المشهور الجلالُ الدوانيُّ، وله رسالةٌ في ذلك أتى فيها بما لا يُعَدُّ شيئاً عند أصاغر الطلبة، لكنْ في «تاريخ حلب» للفاضل الحلبي ـ كما قال مولانا الشهاب ـ أنَّها ليسَت للجلال، وإنَّما هي لرجلٍ يُسمَّى محمد بن هلال النحْوي، وقد ردَّها القزويني وشنَّع عليه وقال: إنما مَثَلُه مثلُ رجلٍ خاملِ الذكرِ لمَّا قَدِم مكة بال في زمزم ليشتهرَ بين الناس، وفي المثل: خالِفْ تُعرَفْ. ويُؤيِّد كونَها ليسَت للجلال أنَّه شافعيُّ المذهب، كما يشهد لذلك حاشيتُه على «الأنوار»؛ وفي «فتاوى» ابنِ حجر: أنَّ بعضَ فقهائنا كفَّر مَن ذهب إلى إيمان فرعون[1]. مع ما عليه تلك الرسالةُ من اختلال العبارةِ وظهورِ الركاكةِ وعدم مُشابهَتها لسائر تأليفاته، ولولا خوفُ الإطالة لسردتُها عليك.

وبالجملةِ ظواهرُ الآي صريحةٌ في كُفْر فرعونَ وعدمِ قبول إيمانه، ومن ذلك قولُه سبحانه: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ

(١) حاشية الشهاب ٥/ ٥٧، وينظر الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي ص ٢٨٩ و٢٩١، والزواجر عن اقتراف الكبائر له ١/ ٣١.

فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٣٨-٤٠] فإنَّه ظاهرٌ في استمرار فرعونَ على الكفر والمعاصي الموجبةِ لِمَا حلَّ به كما يدلُّ عليه التعبيرُ بكان والفعلِ المضارع، ومع الإيمان لا استمرار، على أنَّ نظمه في سلكِ مَن ذُكر معه ظاهرٌ أيضاً في المدَّعى.

وألحقَ بعضُهم بذلك قوله تعالى: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ [طه:٣٩] بناءً على أنَّ «عدوّ» صفةٌ مشبهةٌ، وهي للثبوت، فيدلُّ على ثبوت عداوته لله تعالى وعداوتِه لرسوله عليه السلام، وثبوتُ إحدى العداوتَين كافٍ في سوءِ حاله خلافاً لمن وَهِمَ.

وقد صرَّحوا أيضاً بأنَّ إيمان البأس واليأس غيرُ مقبولٍ، ولا شكَّ أنَّ إيمان المخذول كان من ذلك القبيل، وإنكارُه مكابرةٌ، وقد حُكي إجماعُ الأئمة المجتهدين على عدم القبول، ومُستَندُهم فيه الكتابُ والسُّنَّة، وما يُنقل عن الإمام مالكٍ من القبول لم يثبت عند المطَّلعين على أقوال المجتهدين واختلافاتهم.

نعم صرَّح الإمام القاضي عبد الصمد من ساداتنا الحنفية في تفسيره[1] بأنَّ مذهب الصوفيةِ أنَّ الإيمان يُنتَفعُ به ولو عند معاينة العذاب، وهذا الإمام متقدِّمٌ على الشيخ الأكبر قدس سره بنحو مئةِ سنة[2]، وحينئذٍ تُشكل حكايةُ الإجماع، إلا أنْ يقال بعدم تَسليمِ صحَّة ذلك عن الصوفية الذين هم من أهل الاجتهادِ المعوَّل عليهم؛ لما فيه مِن المخالفة للأدلَّة الظاهرةِ في عدم النفعِ، فلا يُخلُّ ذلك بالإجماع بالإجماع.

وفي «الزواجر»: أنَّه على تقدير التسليم لا يَضرُّنا ذلك في دعوى عدم إجماعِ الأُمة على كفر فرعون؛ لأنَّا لم نحكم بكفره لأجل إيمانه عند البأس فحسب، بل لِمَا انضمَّ إليه من أنَّه لم يؤمن بالله تعالى إيماناً صحيحاً، بل كان تقليداً محضاً بدليل قوله: «إلا الذي آمنَتْ به بنو إسرائيل»، فكأنَّه اعترف بأنَّه لا يَعْرِفُ الله تعالى، وإنَّما سمع من بني إسرائيل أنَّ للعالم إلهاً فآمن بذلك الإله الذي سمع بني

(١) كما في الزواجر لابن حجر ١/ ٣١.

(٢) كان موجوداً أوائل المئة الخامسة في سنة (٤٣٠هـ). الزواجر ١/ ٣١.

إسرائيل يُقرُّون بوجوده، وهذا هو محضُ التقليد الذي لا يقبل، لا سيما من مثل فرعونَ الذي كان دهرياً منكراً لوجود الصانع، فإنه لا بدَّ له من برهانٍ قطعيٍّ يُزيلُ ما هو عليه من الاعتقاد الخبيثِ البالغِ نهايةَ القُبحِ والفحشِ.

وأيضاً لا بدَّ في إسلام الدهريِّ ونحوِه ممن كان قد دان بشيءٍ أنْ يُقرَّ ببطلان ذلك الشيء الذي كُفِّر به، فلو قال: آمنتُ بالذي لا إله غيرُه، لم يكن مسلماً، وفرعون لم يعترف ببطلان ما كان كفَّر به من نفي الصانع وادِّعاءِ الإلهية لنفسه الخبيثة، وقوله: «إلا الذي آمنَتْ به بنو إسرائيل» لا يُدرَى ما الذي أراد به، فإذا[1] صرَّح الأئمة بأنَّ: آمنتُ بالذي لا إله غيرُه، لا يحصل الإيمان للاحتمال، فكذا ما قاله، وعلى التنزُّل فالإجماعُ منعقدٌ على أنَّ الإيمان بالله تعالى مع عدم الإيمان بالرسول لا يصحُّ، فلو سلَّمنا أنَّ فرعون آمنَ بالله تعالى إيماناً صحيحاً، فهو لم يُؤمن بموسى عليه السلام ولا تعرَّض له أصلاً، فلم يكُن إيمانُه نافعاً، ألا ترى أنَّ الكافر لو قال ألوفاً من المرات: أشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ، أو: إلا الذي آمن به المسلمون، لا يكونُ مؤمناً حتى يقولَ: وأنَّ محمداً رسولُ الله. والسحرةُ تعرَّضوا في إيمانهم للإيمان بموسى عليه السلام بقولهم: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ٤٨] فلا يقال: إنَّ إيمان فرعونَ على طرز إيمانهم لذلك، على أنَّ إيمانَهم حين آمنوا كان بمعجزةِ موسى عليه السلام، والإيمان بالله تعالى مع الإيمان بمعجزة الرسول إيمانٌ بالرسول، فهم آمنوا بموسى عليه السلام، بخلاف فرعون فإنَّه لم يَتعرَّض للإيمان به عليه السلام أصلاً، بل في ذِكْرِه بني إسرائيل دونه - مع أنَّه الرسولُ العارفُ بالإله وما يليق به، والهادي إلى طريقه - إشارةٌ ما إلى بقائه على كفره به.

وما ذكَرَه الشيخ الأكبر قُدّس سرُّه في توجيه آية: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ إلخ خارجٌ عن ذَوق الكلامِ العربيِّ، وتجشُّمُ تكلُّفٍ لا معنى له، ويُرشدك إلى بعض ذلك أنَّه قُدِّس سره حَمَل قوله تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ﴾ إلخ على العتب والبشرَى، مع أنَّه لا يخفَى أنَّه لو صحَّ إيمانُه وإسلامه، لكان الأنسب بمقام الفضلِ الذي إليه طَمَحَ نظرُ الشيخ أنْ يقال له: الآن نَقبلُك ونُكرمُك، لاستلزام صحَّةِ إيمانه رِضَا الحقِّ

(١) في الأصل و(م): فلذا، والمثبت من الزواجر.

عنه، ومَن وَقَع له الرضا لا يُخاطَبُ بمثل ذلك الخطاب، كما لا يخفَى على مَن له وقوفٌ على أساليبِ كلامِ العرب ومحاوراتهم.

وأيضاً كيف يُخاطَبُ مَن محا الإيمانُ عصيانَه وإفسادَه بما هو ظاهرٌ في التأنيب المحضِ والتقريع الصرفِ والتوبيخ البحْتِ، فما ذلك إلا لإقامة أعظم نَوَاميسِ الغضب عليه، وتَذكيرِه بقبائحه التي قدَّمها، وإعلامِه بأنَّها هي التي منعَتْهُ عند[1] النُّطق بالإيمان إلى حيث لا ينفعُهُ.

وكذا تأويلُه: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ﴾ [غافر: ٨٥] بأنَّ النافعَ هو الله تعالى، مع أنَّ اصطلاح الكتابِ والسُّنة نِسبةُ الأشياءِ إلى أسبابها إيجاباً وسَلْباً، فإذا قيل: لا ينفعُ الإيمان، فليس معناه الشرعيُّ إلا الحكمَ عليه بأنَّه باطلٌ لا يُعتدُّ به؛ وأيُّ معنًى سوَّغ تخصيصَ نفعِ الله تعالى بهذه الحالةِ التي هي حالةُ وقوعِ العذابِ مع النظر إلى ما هو الواقعُ مِن أنَّ الله تعالى هو النافعُ حقيقةً في كلِّ وقتٍ، ولو نَفَعهم لَمَا استأصَلَهم بالعذاب، وقوله تعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨] دليلٌ واضحٌ على أنَّ المرادَ بـ «لم يكُ ينفعُهم إيمانُهم» أنَّهم باقون مع ذلك الإيمان على الكفر.

إلى غير ذلك ممَّا لا يخفَى على الناظر في كلامه قدِّس سره، فالذي ينبغي أنْ يُعوَّلَ عليه ما ذَهَبَ أولاً إليه، وقد قالوا: إذا اختَلَفَ كلامُ إمامٍ يُؤخَذُ منه بما يُوافقُ الأدلَّة الظاهرةَ، ويُعرَض عمَّا خالفها، ولا شكَّ أنَّ ما ذهب إليه أولاً هو الموافقُ لذلك.

على أنَّه لو لم يكن له قدس سرُّه إلا القولُ بقبول إيمانه لا يَلزمُنا اتِّباعُه في ذلك والأخذُ به، لمخالفته ما دلَّ عليه الكتابُ والسُّنةُ، وشهدَت به أئمةُ الصحابة والتابعين فَمَن بعدَهم من المجتهدين، وجلالةُ قائله لا تُوجب القبولَ، فقد قال مالكٌ وغيرُه: ما مِن أحدٍ إلا مأخوذٌ من قوله ومردودٌ عليه إلا صاحب هذا القبر. يعني النبيَّ ﷺ[2].

وعن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه: لا تَنظر إلى مَن قال، وانظر إلى ما قال.

---

(١) كذا في الأصل و(م)، والذي في الزواجر ١/ ٣٢: عن.
(٢) الزواجر ١/ ٣٠-٣٢.

وكأنَّ الشيخ قدس سرُّه قال ذلك من طريق النظر، والنظرُ يُخطئ ويُصيب، وَمن عَلِمَ أنَّ للنبيِّ عليه الصلاة والسلام اجتهاداً جاء الوحيُ بخلافِهِ لم يَستعظم ما قيل في الشيخ وإنْ كان هو هو.

على أنَّه لو كان قال ذلك مِن طريق الكشف إلا أنَّه أبدَى الاستدلالَ تفهيماً وإرشاداً إلى أنَّ فَهْمَه لم يُخالف ما يدلُّ عليه الكتاب لم يلزمنا أيضاً تقليدُه، بل قد مرَّ عن الإمام الرباني قُدِّس سره[1] أنَّه لا يجوز تقليدُ الكشفِ، وصرَّح غيرُ واحدٍ بأنَّه ليس بحجَّةٍ على الغير، كالإلهام، ولا يَثبُتُ به حُكْمٌ شرعيٌّ.

وأنت تعلم أنَّه لو كان كلٌّ مِن القولَين مِن طريق الكشفِ يَلزمُ انقسامُ الكشفِ إلى صوابٍ وخطأ كالنظر، ضرورةَ عدمِ اجتماع الإيجاب والسلب على الكذب ولا على الصدق، وهو ظاهرٌ، وقد قال بعضُهم بالانقسام، ويخفى وجْهُهُ.

ومن الناس مَن أوَّل كلامَ الشيخ المثبِتِ لقبول الإيمان بأنَّ المرادَ بفرعونَ فيه النفسُ الأمَّارة، وبموسى وهارون المأمورَين بالقول اللَّيِّن موسى الروحِ وهارونُ القلب، وأخَذَ يقرِّر الكلام على هذا السَّنَن، ولا يخفَى أنَّ ارتكابَ ذلك ـ على ما فيه من التكلُّف الظاهر الكلف ـ في كلام الشيخ ما يأباه، ولعلَّه خلافُ مَطمَح نظرِه، ولذلك لم يَرتكبه أَجلَّةُ أصحابه، بل أبقوا كلامَه على ظاهره، وهو الظاهر، وإكفارُ بعضِ المنكرين له فيه ضلالٌ وأيُّ ضلالٍ، وظلمٌ عظيم موجبٌ للنكال، فإنَّ له قدس سره في ذلك مستنداً كغيره المقابِلِ له، وإن اختلفَا في القوة والضعف، على أنَّ الوقوفَ على حقيقة هذه المسألة ليس مما كُلِّفنا به، فلا يضرُّ الجهلُ بها في الدين، والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ سيق لبيان النعم الفائضةِ عليهم إثْرَ نعمةِ الإنجاء على وجه الإجمال، وإخلالهم بشكرها. وبَوَّأ بمعنى أَنْزلَ كأَبَاءَ، والاسم منه البِيئَةُ بالكسر كما في «القاموس»[2]، وجاء: بَوَّأه مَنزِلاً وبَوَّأه في منزِلٍ، وكذا بَوَّأتَ له مكاناً: إذا سوَّيته، وهو مما يتعدَّى لواحدٍ ولاثنين، أي: أنزلناهم بعد أنْ أنجَيْناهم وأهلكنا أعداءَهم.

(١) ص٢٦٦ من هذا الجزء.

(٢) مادة (بوأ).

﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أي منزلاً صالحاً مَرْضياً، وهو اسمُ مكانٍ منصوبٌ على الظرفية، ويَحْتَمِلُ المصدريَّةَ بتقديرِ مضافٍ ـ أي: مكانَ مُبَوَّأ ـ وبدونه، وقد يُجعل مفعولاً ثانياً.

وأصلُ الصدق ضدُّ الكذب، لكنْ جَرَت عادةُ العرب على أنَّهم إذا مدحوا شيئاً أضافوه إلى الصدق، فقالوا: رجلُ صدقٍ، مثلاً، إذا كان كاملاً في صفته صالحاً للغرض المطلوب منه، كأنَّهم لاحظوا أنَّ كلَّ ما يُظَنُّ به فهو صادق.

والمرادُ بهذا المبوَّأ كما رواه ابنُ المنذر وغيرُه عن الضحاك الشامُ ومصرُ[(١)]، فإنَّ بني إسرائيل الذين كانوا في زمان موسى عليه السلام، وهم المرادون هنا، ملكوا ذلك حسبما ذَهَب إليه جمعٌ من الفضلاء.

وأخرج أبو الشيخ وغيرُه عن قتادة أنَّ المرادَ به الشامُ وبيتُ المقدس[(٢)]. واختاره بعضُهم بناءً على أنَّ أولئك لم يعودُوا إلى مصر بعد ذلك.

وأنت تعلم أنَّه ينبغي أنْ يُراد ببني إسرائيل على[(٣)] القولَين ما يشملُ ذرِّيَّتهم، بناءً على أنَّهم ما دخلوا الشام في حياة موسى عليه السلام وإنَّما دخلها أبناؤهم، وقد تقدَّم[(٤)] لك ما يتعلَّق بهذا المقام فتذكَّره.

وقيل: المرادُ به أطرافُ المدينة إلى جهة الشام، وببني إسرائيل بنو إسرائيل الذين كانوا على عهد نبينا عليه أفضل الصلاة وأكمل السلام.

﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: اللذائذ؛ قيل: وقد يُفسَّر بالحلال ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟﴾ في أُمور دينهم، بل كانوا متَّبعين أمرَ رسولهم عليه السلام ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي: إلَّا بعد ما علموا بقراءة التوراةِ والوقوفِ على أحكامها.

---

(١) تفسير الطبري ١٢/ ٢٨٤، وتفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٨٥، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٣/ ٣١٦.

(٢) تفسير عبد الرزاق ١/ ٢٩٧، وتفسير الطبري ١٢/ ٢٨٤، وعزاه لأبي الشيخ السيوطي في الدر ٣/ ٣١٦.

(٣) في (م): عن.

(٤) ٢/ ١٨٥-١٨٦.

وقيل: المعنى: ما اختلفوا في أمر محمدٍ ﷺ إلا بعد ما علموا صِدْقَ نبوَّته بنعوته المذكورة في كتابهم وتَظاهُرِ معجزاته، وهو ظاهرٌ على القول الأخير في المراد من بني إسرائيل المبوَّئين، وأمَّا على القول الأوَّل ففيه خفاءٌ؛ لأنَّ أولئك المبوَّئين الذين كانوا في عصر موسى عليه السلام لم يختلفوا في أمر نبينا ﷺ ضرورةً، ليُنسَب إليهم ذلك الاختلاف حقيقةً، وليس هذا نظيرَ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [الأعراف:١٤١] الآية، ولا قولِه سبحانه: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٩١] ليُعتبر المجاز.

وزَعَم الطبرسيُّ: أنَّ المعنى: أنَّهم كانوا جميعاً على الكفر لم يختلفوا فيه، حتى أُرسلَ إليهم موسى عليه السلام، ونزلَت التوراةُ فيها حكمُ الله تعالى، فمنهم مَن آمن ومنهم من أصرَّ على كفره[1]. وليس بشيءٍ أصلاً كما لا يخفى.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾ فيميِّز بين المحقِّ والمبطل بالإثابة والعقوبة.

﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: في شكٍّ ما يَسيرٍ، والخطابُ قيل: له ﷺ، والمراد: إنْ كنتَ في ذلك على سبيل الفرض والتقدير؛ لأنَّ الشكَّ لا يُتصوَّر منه عليه الصلاة والسلام، لانكشاف الغطاء له، ولذا عبَّر بـ «إنْ» التي تستعمل غالباً[2] فيما لا تحقُّق له، حتى تُستعملُ في المستحيل عقلاً وعادةً، كما في قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ [الزخرف:٨١] وقولِه تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام:٣٥] وصِدْقُ الشرطية لا يتوقَّفُ على وقوعها كما هو ظاهر.

والمراد بالموصول القصص، أي: إنْ كنتَ في شكٍّ من القصص المنزلَةِ إليك، التي من جملتها قصةُ فرعونَ وقومِه وأخبارُ بني إسرائيل ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ فإنَّ ذلك محقَّقٌ عندهم ثابتٌ في كتبهم حسبما أنزلناه إليك. وخُصَّت القصص بالذكر؛ لأنَّ الأحكام المنزلةَ إليه عليه الصلاة والسلام ناسخةٌ لأحكامهم مخالفةٌ لها، فلا يُتصوَّر سؤالُهم عنها.

---

(١) مجمع البيان ١١/ ٩٣.

(٢) في الأصل: في الغالب، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٧/ ٥٩، والكلام منه.

والمرادُ بـ «الكتاب» جنسُه، فيشمل التوراةَ والإنجيلَ، وهو المرويُّ عن ابن عباس رضي الله عنهما، ويُؤيِّده أنَّه قرئ: «الكُتُب» بالجمع[(١)].

وفسِّر الموصول بمَن لم يؤمن من أهل الكتاب؛ لأنَّ إخبارَهم بما يُوافقُ ما أُنزِلَ المترتِّبَ على السؤال أجدَى في المقصود.

وفسَّره بعضُهم بالمؤمنين منهم كعبد الله بن سلام وتميم الداري، ونُسب ذلك إلى ابن عباس والضحاك ومجاهد.

وتعقِّب بأنَّ ابنَ سلام وغيرَه إنَّما أسلموا بالمدينة، وهذه السورةُ مكيةٌ.

وينبغي أنْ يكونَ المرادُ الاستدلالَ على حَقِّيَّة المنزَل، والاستشهادَ بما في الكُتُب المتقدِّمة على ما ذكر، وأنَّ القرآن مصدِّقٌ لها، ومُحصِّلُ ذلك أنَّ الفائدةَ دفعُ الشكِّ إنْ طرأ لأحدٍ غيرِه ﷺ بالبرهان، أو وصفَ[(٢)] أهلِ الكتاب بالرسوخ في العلم بصحةِ نبوته ﷺ، وتوبيخَهم على تَرْك الإيمانِ، أو تَهييجَ الرسول عليه الصلاة والسلام وزيادةَ تَثبيتِهِ، وليس الغرضُ إمكان وقوعِ الشكِّ له ﷺ أصلاً، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام حين جاءته الآيةُ على ما أخرج عبد الرزاق وابنُ جرير عن قتادة: «لا أشكُّ ولا أسألُ»[(٣)].

وزَعَم الزجَّاج: أنَّ «إنْ» نافيةٌ، وقوله سبحانه: (فَسْئَلِ) جوابُ شرطٍ مقدَّر، أي: ما كنتَ في شكٍّ مما أنزلنا إليك، فإنْ أردْتَ أنْ تزدادَ يقيناً فاسأل[(٤)]. وهو خلافُ الظاهر، وفيما ذُكرَ غِنًى عنه.

ومثلُه ما قيل: إنَّ الشكَّ بمعنى الضيق والشدَّة بما يعانيه[(٥)] ﷺ من تعنُّتِ قومه وأذاهم، أي: إنْ ضِقْتَ ذَرعاً بما تلقَى من أذَى قومك وتعنُّتهم فاسأل أهلَ الكتابِ كيف صبَرَ الأنبياءُ عليهم السلام على أَذَى قومهم وتعنُّتهم، فاصبِرْ كذلك. بل هو أبعدُ جدّاً من ذلك.

---

(١) القراءات الشاذة ص٥٨، والبحر ٥/ ١٩١.
(٢) قوله: أو وصفَ، معطوف على قوله: الاستدلال. ينظر حاشية الشهاب ٥/ ٩٥.
(٣) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٩٨، والمصنف ٦/ ١٢٦، وتفسير الطبري ١٢/ ٢٨٨.
(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٣.
(٥) في (م): يعاينه.

وقيل: الخطابُ له ﷺ والمرادُ به أمتُه، أو لكلِّ مَن يسمع، أي: إنْ كنتَ أيُّها السامعُ في شكٍّ ممَّا أنزلنا على لسانِ نبيِّنا إليك فاسأل، ف «أنزلْنا إليك» على هذا نظيرُ قوله سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، وفي جَعْلِ القراءةِ صلةَ الموصولِ إشارةٌ إلى أنَّ الجوابَ لا يتوقَّفُ على أكثر منها.

وفي الآية تنبيهٌ على أنَّ مَن خالجتْهُ شُبهةٌ في الدِّين ينبغي له مراجعةُ مَن يُزيلُها من أهل العلم، بل المسارعةُ إلى ذلك حسبما تدلُّ عليه الفاءُ الجزائيةُ بناءً على أنَّها تُفيدُ التعقيبَ.

﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ﴾ الواضحُ الذي لا محيدَ عنه ولاريبَ في حَقِّيَّته ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ القائمِ بما يُصلح شأنك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ أي: بالتزلْزُلِ عما أنت عليه من الحزم واليقين، وَدُمْ على ذلك كما كنتَ من قبلُ.

والامتراءُ: الشكُّ والتردُّدُ، وهو أخفُّ من التكذيب فلذا ذُكِرَ أوَّلاً، وعقَّب بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بشيءٍ منها ﴿فَتَكُونَ﴾ بذلك ﴿مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾ أنفساً وأعمالاً، والتعبيرُ بـ «الخاسرين» أظهرُ في التحذير من التعبير بالكافرين.

وفائدةُ النهي في الموضعَين التهييجُ والإلهابُ نظير ما مرَّ، والمرادُ بذلك إعلامُ أنَّ الامتراءَ والتكذيبَ قد بلغا في القبح والمحذوريَّة إلى حيث ينبغي أنْ يُنهَى عنهما مَن لا يُمكن أنْ يتَّصف بهما، فكيفَ بمن يُمكن اتِّصافُه؟ وفيه قَطْعٌ لأطماعِ الكفرة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ﴾ إلخ بيانٌ لمنشأ إصرار الكفرةِ على ما هم عليه من الكفر والضلالِ إلى حيث لا ينتفعون بالإيمان، أي: إنَّ الذين ثبتَتْ عليهم ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: حُكمُه وقضاؤه ـ المفسَّرُ عند الأشاعرة بإرادته تعالى الأزليةِ المتعلِّقةِ بالأشياء على ما هي عليه فيما لا يزال ـ بأنَّهم يموتون على الكفر أو يخلدون في النار ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾﴾ إذ لا يُمكن أنْ يَنتقضَ قضاؤه سبحانه وتتخلَّفَ(١) إرادتُه جلَّ جلاله.

---

(١) في الأصل: وتختلف.

﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ واضحةِ المدلول مقبولةٍ لدى العقول ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ كالإغراق[١] ونحوه، وحينئذٍ يقال لهم: الصيفَ ضيَّعْتِ اللبنَ[٢].

وفسَّر الزمخشريُّ الكلمةَ بقول الله تعالى الذي كَتَبه في اللوح وأَخبَرَ سبحانه به الملائكة، أنَّهم يموتون كفاراً، وجَعَلَ تلك كتابةَ معلومٍ لا كتابةَ مقدَّرٍ ومراد[٣].

ولا ضيرَ في تفسير الكلمة بذلك، إلا أنَّ جعْلَ الكتابةِ كتابةَ معلومٍ لا كتابةَ مقدَّرٍ ومرادٍ مبنيٌّ على مذهب الاعتزال، والذي عليه أهلُ السُّنة أنَّ أفعالَ العبادِ بأسرها معلومةٌ له تعالى ومرادةٌ، ولا يكونُ إلا ما أراده سبحانه، وعِلْمُه عزَّ شأنُه وإرادتُه متوافقان ولا تجوزُ المخالفةُ بينهما، ولا يتعلَّق علمُه سبحانه إلا بما عليه الشيءُ في نفسه، ولا يُريد إلَّا ما عَلِمَ، ولا يُقدِّر إلا ما يُريد، ولا جَبْرَ هناك ولا تَفْويضَ، ولكنْ أمرٌ بينَ أمرَين.

وفسَّره المولَى الكوراني في شرحه للمقدِّمات الأربع المذكورة في توضيح الأصول بأنَّ العبدَ مجبورٌ باختياره، وفصَّله بما لا مَزيدَ عليه، وبإثبات الاستعداد وأنَّه غيرُ مجعولٍ تَتَّضِحُ الحجَّةُ البالغة، وبَسْطُ الكلامِ في علم الكلام، وقد تقدَّم بعضُ ما ينفع في هذا المقام، وإنْ أردْتَ ما يطمئنُّ به الخاطرُ وتنشرحُ له الضمائر، فعليك برسائلِ ذلكَ المولَى في هذا الشأن، فإنَّها واضحةُ المسالك في تحصيل الإيقان.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ لتقرير هلاكهم، و«لولا» هنا تَحضيضيَّة فيها معنى التوبيخ كهلَّا، ومثلُها ما في قول الفرزدق[٤]:

تَعدُّون عَقْرَ النِّيبِ أفضَلَ مجدكم ... بني ضَوْطَرَى لولا الكَمِيَّ المُقَنَّعا[٥]

---

(١) في (م): الإغراق.

(٢) يضرب لمن فرَّط في طلب الحاجة وقت إمكانها، ثم طلبها بعد فواتها، وينظر ما روى في قصته في جمهرة الأمثال ١/ ٥٧٥، والمستقصى ١/ ٣٢٩، ومجمع الأمثال ٢/ ٦٨، وفصل المقال في شرح كتاب الأمثال للبكري ص ٣٥٧.

(٣) الكشاف ٢/ ٢٥٣.

(٤) كذا ذكر المصنف، ومثله في الدر المصون ٦/ ٢٦٨، والصواب أنه لجرير على ما يأتي.

(٥) ديوان جرير ٢/ ٩٠٧، والنقائض ٢/ ٨٣٣، ونسب للأشهب بن رميلة في مجاز القرآن ١/ ٥٢، =

ويشهدُ لذلك قراءةُ أُبيٍّ وابنِ مسعود رضي الله عنهما: «فهلَّا»[١]، والتوبيخ على ما نُقِل عن السفاقسيِّ على تَرْك الإيمان المذكور بعدُ.

و«كان» كما اختاره بعضُ المحققين ناقصةٌ، وقولُه تعالى: ﴿قَرْيَةٌ﴾ اسمها، وجملةُ قوله سبحانه: ﴿ءَامَنَتْ﴾ خبرُها، وقولُه جلَّ شأنه: ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ معطوفٌ على الخبر، أي: فهلَّا كانت قريةٌ من القرى التي أُهلِكَتْ هلاكَ الاستئصال آمنَتْ قبل مُعاينة العذاب، ولم تُؤخِّر إيمانَها إلى حين مُعايَنته كما أَخَّر فرعونُ إيمانَه، فنفعها ذلك بأنْ يقبلَه الله تعالى منها، ويكشفَ بسببه العذابَ عنها.

وذهب السمينُ وغيرُه إلى أنَّها تامَّةٌ و«قريةٌ» فاعلُها، وجملةُ «آمنَت» صفةٌ و«نَفَعها» معطوفةٌ عليها[٢].

وتعقِّب بأنَّه يلزم حينئذٍ أنْ يكونَ التحضيضُ والتوبيخُ على الوجود، مع أنَّه ليس بمراد.

وأُجيبَ بأنَّه لا مانعَ من أنْ يكونَ التحضيضُ على الصفة، وحينئذٍ لا غبارَ على ما قيل.

وأيّاً ما كان فالمرادُ بالقرية أهلُها مجازاً شائعاً، والقرينةُ هنا أظهرُ من أنْ تَخفَى.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ استثناءٌ منقطعٌ كما قال الزجَّاجُ وسيبويه والكِسائيُّ وأكثرُ النحاة[٣]، أي: لكنْ قومَ يُونسَ ﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ﴾

= وتفسير الطبري ٢/ ٤٧٦، والنكت والعيون ١/ ١٨٠، وأمالي ابن الشجري ١/ ٢٤٦ و٢/ ٨٤. قال البغدادي في خزانة الأدب ٣/ ٥٩: الصحيح أنه من قصيدة لجرير، لا خلاف بين الرواة أنها له. ورواية الديوان والنقائض: هلا، بدل: لولا. قوله: النيب، جمع ناب: وهي الناقة المسنَّة. وضوطرى: الرجل الضخم المليء الذي لا غَناء عنده. والكميّ: الشجاع المتكمي في سلاحه، والمعنى: تعدُّون عقر الإبل المسنَّة التي لا ينتفع بها ولا يرجى نسلها أفضل مجدكم، هلا تعدُّون قتل الشجعان أفضل مجدكم.

(١) معاني القرآن للفراء ١/ ٤٧٩، والكشاف ٢/ ٢٥٤، والمحرر الوجيز ٣/ ١٤٣، والبحر ٥/ ١٩٢.

(٢) الدر المصون ٦/ ٢٦٨.

(٣) ومنهم الأخفش والفراء كما في البحر ٥/ ١٩٢، وقول سيبويه في الكتاب ٢/ ٣٢٥، وقول الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٣٤.

عندما رأوا أماراتِ العذاب ولم يُؤخِّروا إلى حلوله ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ﴾ أي: الذلِّ والهوان ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بعد ما أظلَّهم وكاد يَنزِلُ بهم ﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ﴾ بمتاع الدنيا بعدَ كشْفِ العذاب عنهم ﴿إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ أي: زمانٍ من الدهر مقدَّرٍ لهم في علم الله تعالى.

ونُقِلَ عن ابن عباس أنَّ المرادَ: إلى يوم القيامة، فهم اليومَ أحياءٌ إلا أنَّ الله تعالى ستَرَهم عن الناس على حدِّ ما يقال في الخضر عليه السلام، ورأيتُ في بعض الكتب ما يوافقُه، إلا أنَّه ذُكر فيه أنَّهم يظهرون أيامَ المهدي، ويكونون من جملة أنصاره ثم يموتون، والكلُّ مما لا صحةَ له.

وقال آخرون: الاستثناءُ متَّصلٌ، ويُراد من القرية أهلُها المشرفون على الهلاك، وقيل: العاصون، ويُعتبر النفيُ الذي يُشْعِرُ به التحضيض، وهو مشعرٌ بالأمرِ أيضاً ولذا جعلوه في حُكْمِه، إلا أنَّه لا يصحُّ اعتبارُه على تقدير الاتِّصال، لِمَا يلزمه من كون الإيمان من المستَثْنَيْنَ غيرَ مطلوبٍ. وهو غيرُ مطلوبٍ بل فاسدٌ.

وقيل: لا مانعَ من ذلك على ذلك التقدير؛ لأنَّ أهلَ القرى محضُوضُون على الإيمان النافعِ وليس قومُ يُونسَ محضوضين عليه لأنَّهم آمنوا. والذَّوقُ يأبى إلا اعتبارَ النفي فقط حالَ اعتبارِ الاتصال، ويكونُ قوله سبحانه: (لَمَّآ ءَامَنُوا) استئنافاً لبيانِ نَفْعِ إيمانهم.

وقرئ: «إلا قومُ» بالرفع[1] على البدل من «قرية» المرادِ بها أهلُها، وأُيِّد بذلك القولُ بالاتِّصال واعتبار النفي؛ لأنَّ البدل لا يكونُ إلا في غير الموجَب، وخرَّجَ بعضُهم هذه القراءةَ على أنَّ «إلا» بمعنى «غير»، وهي صفةٌ ظهَرَ إعرابُها فيما بعدَها كما في قوله على رأيٍ:

وكلُّ أخٍ مفارِقُه أخوه ... لَعَمْرُ أبيكَ إلا الفرقدان[2]

وظاهرُ كلامهم أنَّ الاستثناء مطلقاً من «قرية»، وعن الزمخشري: أنَّه على

(١) الكشاف ٢/ ٢٥٤، والبحر ٥/ ١٩٢، والدر المصون ٦/ ٢٧٠.

(٢) نسب في الكتاب ٢/ ٣٣٤، والكامل ٣/ ٤٤٤ لعمرو بن معدي كرب، ونسبه الآمدي في المؤتلف والمختلف لحضرمي بن عامر، وسلف ٣/ ٣٧٠.

الأوَّل من القرية[١]، لا من الضمير في «آمنَتْ». وعلّل بأنَّ المنقطع بمعنى «لكن»، فيتوسَّط بين الكلامَين المتغايرَين، فلا يعتمد ما لا يستقلُّ، ولأنَّه لا مدخَل للوصف ـ أعني الإيمان ـ في المستثنَى منه، فالاستثناءُ عن أصل الكلام. وأما على الثاني فهو استثناءٌ من الضمير من حيث المعنى جعل في اللفظ منه أو من القرية؛ إذ لا فرْقَ في قولك: كان القومُ منطلقين إلا زيداً، بين جعلِهِ من الاسم أو من الضمير في الخبر؛ لأنَّ الحكم إنما يتمُّ بالخبر، وإنَّما الفرقُ في نحو: ضربتُ القومَ القائمين[٢] إلا زيداً، ثم قال: ونظيرُ هذا في الوجهين قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ [الحجر: ٥٨، ٥٩] ووجْهُ ذلك ظاهرٌ.

وفي «الكشف»: أنَّ وجْهَ الشَّبه اختلافُ معنى الهلاكِ على الوجْهين كاختلاف معنَى الإرسال هنالك على الوجهَين، وكأنَّه عنى بالهلاك المأخوذ قيداً في قوله: فهلَّا كانت قريةٌ من القرى التي أهلكناها، فتدبَّر.

وفي «يُونس» لغات: تثليثُ النون مهموزاً وغيرَ مهموزٍ، والمتواترُ منها الضمُّ بلا همزٍ.

وكان مِن قصة هؤلاء القومِ على ما رُوي عن غير واحدٍ أنَّ يُونُسَ عليه السلام بُعثَ إلى أهل نِينَوَى من أرض الموصل، وكانوا أهلَ كفرٍ وشركٍ، فدعاهم إلى الإيمان بالله تعالى وحدَه وتركِ ما يعبدون من الأصنام، فأَبَوا عليه وكذَّبوه، فأخبرهم أنَّ العذابَ مُصبِّحُهم إلى ثلاثٍ، فلمَّا كانت الليلةُ الثالثة ذهبَ عنهم من جوف الليل، فلمَّا أصبحوا تغشَّاهم العذابُ، فكان فوقَ رؤوسهم ليس بينهم وبينه إلا قَدْرُ ثُلثَي ميلٍ، وجاء أنَّه غامَت السماءُ غَيْماً أسودَ هائلاً يُدخِّنُ دخاناً شديداً، فهبط حتى غَشِيَ مدينتهم واسودَّتْ أَسطِحَتُهم، فلمَّا أَيقَنوا بالهلاك طلبوا نبيَّهم فلم يجدوه، فخرجوا إلى الصحراء بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابِّهم، ولبسُوا المسوحَ[٣] وأظهروا الإيمان والتوبة، وفَرَّقوا بين الوالدةِ وولدها من الناس والدوابِّ، فحنَّ البعضُ إلى البعض وعلَت الأصواتُ، وعَجُّوا جميعاً وتضرَّعوا إليه

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٥٤.

(٢) في (م): العالمين.

(٣) جمع مسح بوزن ملح، وهو اللباس، أي: لبسوا الألبسة الخلقة تذللاً. حاشية الشهاب ٥/ ٦١.

تعالى وأخلَصُوا النيةَ، فَرحِمَهم ربُّهم واستجابَ دعاءهم وكشَفَ عنهم ما نَزَل بهم من العذاب، وكان ذلك يومَ عاشوراءَ، وكان يومَ الجمعة.

قال ابنُ مسعود: إنَّه بلَغَ من توبتهم أنْ تَرادُّوا المظالمَ فيما بينهم، حتى إنْ كان الرجلُ ليَأتي إلى الحجَرِ قد وُضِع أساسُ بنيانِهِ عليه، فيقْلَعُه ويردُّه إلى صاحبه.

وجاء في روايةٍ عن قتادة: أنَّهم عجُّوا إلى الله تعالى أربعينَ صباحاً حتى كُشف ما نَزَل بهم.

وأخرج أحمدُ في «الزهد» وابنُ جرير وغيرهما عن جيلان[١] قال: لمَّا غَشِيَ قومَ يُونسَ العذابُ مَشَوا إلى شيخٍ من بَقيَّة علمائهم فقالوا: ما ترى؟ فقال: قولوا: يا حيُّ حينَ لا حيَّ، ويا حيُّ محيي الموتى، ويا حيُّ لا إله إلا أنت، فقالوها فكُشِفَ عنهم العذاب[٢].

وقال الفضيل بن عياض: قالوا: اللهمَّ إنَّ ذنوبَنا قد عَظُمَت وجلَّت وأنت أعظمُ وأجلُّ، فافعل بنا ما أنت أهلُه ولا تفعلْ بنا ما نحن أهله.

وكان يونس عليه السلام إذا ذَهَب عنهم قعد في الطرق يَسألُ الخبرَ ـ كما جاء مرفوعاً ـ فمرَّ به رجلٌ، فقال له: ما فَعَلَ قومُ يونس؟ فحدَّثه بما صنعوا، فقال: لا أرجعُ إلى قومٍ قد كذبتُهم. وانطلقَ مُغاضِباً[٣]، حسبما قصَّه الله تعالى في غيرِ هذا الموضعِ مما سيأتي[٤] إن شاء الله تعالى.

وظاهرُ الآية يستدعي أنَّ القومَ شاهدوا العذابَ؛ لمكانِ «كَشَفْنا»، وهو الذي يقتضيه أكثرُ الأخبار، وإليه ذهب كثيرٌ من المفسرين، ونفْعُ الإيمانِ لهم بعد المشاهدة من خصوصيَّاتهم، فإنَّ إيمان الكفَّار بعد مشاهدةِ ما وُعِدُوا به إيمانُ

---

(١) في الأصل: خيلان، وفي (م): ابن غيلان، والصواب ما أثبتناه. وهو جيلان بن فروة، أبو الجلد الجوني الأسدي البصري، روى عنه قتادة وأبو عمران الجوني، قال أحمد: أبو الجلد جيلان بن فروة ثقة. الثقات ٤/ ١١٩، والجرح والتعديل ٢/ ٥٤٧.

(٢) الزهد ص٤٤، وتفسير الطبري ٢/ ٢٩٦.

(٣) أخرجه ابن مردويه من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ، كما في الدر المنثور ٣/ ٣١٧.

(٤) عند تفسير الآية (٨٧) من سورة الأنبياء.

يأس[1] غيرُ نافعٍ؛ لارتفاع التكليف حينئذٍ، وعادةُ الله إهلاكُهم من غير إمهالٍ كما أهلَكَ فرعونَ، والقولُ بأنَّه بقي حيّاً إلى ما شاء الله تعالى وسكَنَ أرضَ المَوصِل من مُفتريات اليهود.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تحقيقٌ لدوران إيمانِ جميع المكلَّفين وجوداً وعدماً على قُطْبِ مشيئتِهِ سبحانه مطلقاً بعد بيانِ تبعيَّةِ كُفْرِ الكفرةِ لكلمتهِ، ومفعولُ المشيئة هنا محذوفٌ حَسْبَ المعهودِ في نظائره، أي: لو شاء سبحانه إيمانَ مَن في الأرض من الثقلَين لآمن ﴿كُلُّهُمْ﴾ بحيث لا يشذُّ منهم أحدٌ ﴿جَمِيعًا﴾ أي: مُجتمعين على الإيمان لا يختلفون فيه، لكنَّه لم يَشأ ذلك؛ لأنَّه سبحانه لا يشاء إلا ما يَعلمُ، ولا يَعلمُ إلا ما له ثبوتٌ في نفسه، فما لا ثبوتَ له أصلاً لا يُعلم، وما لا يُعلمُ لا يُشاءُ، وإلى هذا التعليل ذهبَ الكورانيُّ عليه الرحمة، وأطالَ الكلامَ في تحريره والذبِّ عنه في غير ما رسالة.

والجمهورُ على أنَّه سبحانه لا يَشاؤه لكونِهِ مُخالفاً للحكمة التي عليها بناءُ[2] أساس التكوين والتشريع.

والآيةُ حجَّةٌ على المعتزلة الزاعمين أنَّ الله تعالى شاءَ الإيمانَ من جميع الخلقِ فلم يُؤمن إلا بعضُهم، والمشيئةُ عندهم قسمان: تفويضيَّةٌ يجوز تخلُّف الشيء عنها، وقسريَّةٌ لا يجوزُ التخلُّفُ عنها، وحملوا ما في الآية على هذا الأخير. فالمعنى عندهم: لو شاء ربُّك مشيئةَ إلجاءٍ وقَسْرٍ إيمانَ الثقلَين لآمنوا، لكنَّه سبحانه لم يشأ كذلك، بل أمرهم بالإيمان وخَلَق لهم اختياراً له ولضدِّه، وفوَّض الأمرَ إليهم، فمَن شاء فليؤمن ومَن شاء فليكفر، وهذا دَيدَنُهم في كلِّ ما ورَدَ عليهم من الآيات الظاهرةِ في إبطال ما هم عليه.

وفيه أنَّه لا قرينةَ على التقييد، مع أنَّ قوله سبحانه: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ يأباه فيما قيل، فإنَّ الهمزةَ للإنكار، وهي لصدارتها مقدَّمةٌ من تأخيرٍ على ما عليه الجمهورُ، والفاء للتفريع، والمقصودُ تفرُّعُ الإنكارِ على ما قبلُ، ولا فائدةَ بل لا وجْهَ لاعتبار مشيئةِ القسْرِ والإلجاء خاصَّةً في تفرُّع الإنكار.

---

(١) في (م): بأس.
(٢) في الأصل: التي بناء عليها.

وقيل: إنَّ الهمزةَ في موضعها، والعطفُ على مقدَّرٍ ينسحبُ عليه الكلامُ، كأنَّه قيل: أَربُّك لا يشاءُ ذلك فأنت تُكرِهُهم ﴿حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝﴾ والإنكارُ متوجِّهٌ إلى ترتيب الإكراه المذكورِ على عدم مشيئته تعالى، والإباء هو الإباء، فلا بدَّ مِن حَمْل المشيئةِ على إطلاقها. والمرادُ بالناس مَن طُبعَ عليهم أو الجميعُ مبالغةً.

وجوِّز في «أنت» أنْ يكونَ فاعلاً بمقدَّرٍ يُفسِّره ما بعده. وأنْ يكونَ مبتدأً خبرُه الجملةُ بعدَه، ويَعدُّونه فاعلاً معنوياً، وتقديمه لتقوية حُكم الإنكار، كما ذهب إليه الشريف قدِّسَ سرُّه في «شرح المفتاح»، وذَكَر فيه أنَّ المقصود إنكارُ صُدورِ الفعل مِن المخاطَب، لا إنكارُ كونِهِ هو الفاعلُ مع تقرُّر أصل الفعل.

وقيل: إنَّ التقديمَ للتخصيص، ففيه إيذانٌ بأنَّ الإكراه أمرٌ ممكن، لكنَّ الشأن في المُكرِه مَن هو؟ وما هو إلا سبحانه وحده لا يشارَك فيه؛ لأنَّه جلَّ شأنه القادرُ على أن يفعل في قلوبهم ما يَضْطرُّهم إلى الإيمان، وذلك غيرُ مستطاعٍ للبشر.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ﴾ بيانٌ لتبعيَّة إيمانِ النفوس التي عَلمَ الله تعالى إيمانَها لمشيئته تعالى وجوداً وعدماً، بعد بيانِ الدوران الكلِّي عليها كذلك، وقيل: هو تقريرٌ لما يدلُّ عليه الكلامُ السابق من أنَّ خلاف المشيئةِ مستحيلٌ، أي: ما صحَّ وما استقامَ لنفسٍ من النفوس التي علم الله تعالى أنَّها تؤمنُ ﴿أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بمشيئته وإرادته سبحانه.

والأصلُ في الإذن بالشيء الإعلامُ بإجازته والرُّخصةِ فيه ورَفْعِ الحجْرِ عنه، وجعلوا ما ذُكر من لوازمه، كالتسهيل الذي ذكره بعضُهم في تفسيره.

وخُصِّصَت النفسُ بالصفة المذكورة ولم تجعل من قبيل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥] قيل: لأنَّ الاستثناء مفرَّغ من أعمِّ الأحوال، أي: ما كان لنفسٍ أنْ تؤمنَ في حالٍ من أحوالها(١) إلا حالَ كونها ملابِسةً بإذنه سبحانه، فلا بدَّ من كون الإيمان مما يؤول إليه حالُها، كما أنَّ الموتَ مآل(٢)

---

(١) في الأصل: في حال من الأحوال، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٤/ ١٧٧، والكلام منه.

(٢) في الأصل و(م): حال، والمثبت من تفسير أبي السعود.

لكلِّ نفسٍ لا محيصَ لها عنه، فلا بدَّ من التخصيص بما ذُكر، فإنَّ النفوس التي عَلِمَ الله تعالى أنَّها لا تؤمنُ ليس لها حالٌ تؤمنُ فيها حتى تُسْتَثْنَى تلك الحالُ من غيرها. انتهى.

وقد يقال: إنَّ هذا الاستثناءَ بالنظر إلى النفس التي علم الله تعالى أنَّها لا تؤمنُ مفيدٌ لعدم إيمانها على أتمِّ وجْهٍ، على حدِّ ما قيل في قوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٣] فكأنَّه قيل: ما كان لنفسٍ عَلِمَ الله تعالى أنَّها لا تؤمنُ أنْ تؤمنَ في حالٍ من الأحوال، كسلامة العقل وصحَّة البدن وغيرهما، إلا في حال ملابستها إذنَ الله تعالى وإرادتَه أنْ تؤمنَ، وهي تابعةٌ لعلمه بذلك، وعلمُه به محالٌ لأنَّه قد علم نقيضَه، فيلزم انقلابُ العلمِ جهلاً، فتكون إرادتهُ ذلك محالاً، فيكون إيمانها محالاً؛ إذ الموقوف على المحال محالٌ.

وفي «الحواشي الشهابية»[1]: أنَّ «ما كان» إنْ كان بمعنى: ما وُجِدَ، احتاجَ إلى تقييد النفس بمن عَلِمَ [الله] أنَّها تؤمنُ، وإنْ كان بمعنى: ما صحَّ، لا يحتاجُ إليه، ولذا ذَكَره مَن ذَكَره وتَرَكه مَن تَرَكه. وفيه خفاءٌ فتأمل.

﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ أي: الكفرَ كما في قوله تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] بقرينة ما قبله، وأصلُه: الشيءُ الفاسدُ المستقذَرُ، وعبَّر عنه بذلك لكونه عَلَماً في الفساد والاستقذار.

وقيل: المرادُ به العذاب، وعبَّر عنه بذلك لاشتراكهما في الاستكراه والتنفُّر، وأنَّ إرادةَ الكفر منه باعتبارِ أنَّه نُقل أولاً عن المستقذر إلى العذاب للاشتراك فيما ذكر. ثم أُطلِقَ على الكفر؛ لأنَّه سببُهُ، فيكون مجازاً في المرتبة الثانية.

واختارَ الإمامُ[2] التفسيرَ الأول تحاشياً مما في إطلاق المستقذَر على عذاب الله تعالى من الاستقذار. وبعضٌ[3] الثانيَ لِمَا أنَّ كلمةَ «على» في قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ ـ أي: لا يستعملون عقولَهم بالنظر في الحُجَجِ والآيات، أو لا يعقلونَ دلائلَهُ وأحكامَه لِمَا على قلوبهم من الطبْعِ ـ تأبى الأول.

---

(١) ٥/ ٦٢ وما سيأتي بين حاصرتين منه.
(٢) هو الرازي في تفسيره ١٧/ ١٦٩.
(٣) أي: واختار بعضٌ.

وتُعقِّب بأنَّ المعنى: يُقدِّره عليهم، فلا إباء، ويفسَّر «الذين لا يعقلون» بما يكونُ به تأسيساً كما سمعتَ في تفسيره، ومنه تعلم أنَّ الفعلَ منزَّلٌ منزلةَ اللازم، أو له مفعولٌ مقدَّر.

وقد يُفرَّق بين التفسيرَين بأنَّهم على الأوَّل لم يُسلَبُوا قوَّةَ النظر، لكنَّهم لم يُوفَّقوا لذلك، وعلى الثاني بخلافه، والأمرُ الآتي ظاهرٌ في الأوَّل.

والجملةُ معطوفةٌ على مقدَّرٍ، كأنَّه قيل: فيأذن لهم بالإيمان ويجعل. .إلخ، أو: فيأذن لبعضهم بذلك ويجعل. . إلخ.

وقرئ: «الرجْزَ» بالزاي[1]. وقرأ حماد ويحيى عن أبي بكر: «ونَجْعَلُ» بالنون[2].

﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟﴾ خطابٌ لسيِّد المخاطَبين ﷺ أنْ يأمر الكفرةَ الذين هو عليه الصلاة والسلام بين ظهرانَيهم بالتفكُّر في ملكوت السماوات والأرض وما فيهما من عجائب الآياتِ الآفاقية والأنفسِيَّة؛ ليتَّضِحَ له ﷺ أنَّهم من الذين لا يعقلون، وكأنَّه متعلِّقٌ بما عنده.

وتعليقُه بقوله سبحانه: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ إلخ على معنى: لا تُكْرِهِ الناسَ على الإيمان، ولكن اؤمُرهم بما يُتوَصَّل به إليه عادةً من النظر، لا يخلو عن النظر.

وقيل: إنَّه تعالى لمَّا أفاد فيما تقدَّم أنَّ الإيمان بخَلْقه سبحانه، وأنَّه لا يؤمِنُ مَن يُؤمن إلا من[3] بعد إذنه، وأنَّ الذين حقَّت عليهم الكلمة لا يؤمنون، أَمَرَ نبيَّه عليه الصلاة والسلام أنْ يأمرَ بالنظر لئلا يُزهَد فيه بعد تلك الإفادة. وأرى الأوَّلَ أَوْلَى.

وجاء ضمُّ لامِ «قُل» وكَسْرُها[4]، وهما قراءتان سبعيَّتان.

وقوله سبحانه: ﴿مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ في محلِّ نصبٍ بإسقاط الخافضِ؛

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١٤٥، والبحر ٥/ ١٩٣ عن الأعمش.

(٢) التيسير ص١٢٣، والنشر ٢/ ٢٨٧ عن أبي بكر.

(٣) قوله: من، ليس في الأصل.

(٤) قرأ بالكسر عاصم وحمزة من السبعة ويعقوب من العشرة، والباقون بالضم. التيسير ص٧٨، والنشر ٢/ ٢٢٥.

لأنَّ الفعل قبله معلَّقٌ بالاستفهام؛ لأنَّ «ما» استفهاميةٌ وهي مبتدأ، و«ذا» بمعنى «الذي» والظرفُ صلتُه، وهو خبرُ المبتدأ، ويجوزُ أنْ يكونَ «ماذا» كلُّه اسمَ استفهامٍ مبتدأ، والظرفُ خبرُه، أي: أيُّ شيءٍ بديعٍ في السماوات والأرض من عجائب صنعتِهِ تعالى الدالَّةِ على وحدته وكمالِ قدرته جلَّ شأنه.

وجوَّز أنْ يكونَ «ماذا» كلُّه موصولاً بمعنى «الذي»، وهو في محلِّ نصبٍ بالفعل قبله، وضعَّفه السمينُ بأنَّه لا يخلو حينئذٍ من أنْ يكون النظرُ قلبيّاً ـ كما هو الظاهر ـ فيُعدَّى بـ «في»، وأنْ يكون بصريّاً فيُعدَّى بـ «إلى»[1].

﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ أي: ما تكفيهم وما تنفعُهم. وقرئ بالتذكير[2]. والمراد بالآيات ما أُشيرَ إليه بقوله سبحانه: ﴿مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ففيه إقامةُ الظاهر مقامَ المضمر، «والنُّذُر» جمعُ نذيرٍ بمعنى مُنذِرٍ، أي: الرسلُ المنذِرون، أو بمعنى إنذارٍ، أي: الإنذارات، وجُمِعَ لإرادة الأنواعِ، وجوَّز أنْ يكون «النذر» نفسُه مصدراً بمعنى الإنذار. والمرادُ بهؤلاء القومِ المطبوعُ على قلوبهم، أي: لا يؤمنون في علم الله تعالى وحكمه.

و«ما» نافيةٌ، والجملة اعتراضية، وجوِّز أن تكون في موضع الحال من ضمير «قل». وفي القلب مِن جَعْلِها حالاً من ضمير «انظروا» شيءٌ، فانظروا. ويتعيَّن كونُها اعتراضيةً إذا جعلت «ما» استفهاميَّةً إنكاريَّةً، وهي حينئذٍ في موضع النصب على المصدريَّة للفعل بعدها، أو على أنَّه مفعولٌ به له، والمفعول على هذا وكذا على احتمال النفي محذوفٌ إنْ لم يُنزَّل الفعلُ منزلةَ اللازم، أي: ما تُغني شيئاً.

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ﴾ أي: هؤلاء المأمورون بالنظر من مشركي مكةَ وأشرافهم ﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا﴾ أي: مثلَ وقائعهم ونزولِ بأس الله تعالى بهم، إذ لا يستحقُّون غيرَ ذلك، وجاء استعمالُ الأيام في الوقائع كقولهم: أيام العرب، وهو مجازٌ مشهورٌ من التعبير بالزمان عمَّا وقَعَ فيه، كما يقال: المغربُ، للصلاة الواقعة فيه.

والمرادُ بالموصول المشركون من الأُمم الماضية.

---

(١) الدر المصون ٦/ ٢٧١.

(٢) الكشاف ٢/ ٢٥٥، والبحر ٧/ ١٩٤.

﴿مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ متعلِّقٌ بـ «خَلَوا»، جيء به للتأكيد والإيماءِ بأنَّهم سيَخْلُون كما خَلَوا.

﴿قُلۡ﴾ تهديداً لهم ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ ذلك ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ١٠٢﴾ إياه، فمتعلِّقُ الانتظار واحدٌ بالذات، وهو الظاهرُ، وجوِّز أنْ يكونَ مُختلفاً بالذات متَّحداً بالجنس، أي: فانتظروا إهلاكي إنِّي معكم من المنتظرين هلاكَكُم.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ بالتشديد، وعن الكِسائيِّ ويعقوب بالتخفيف[1]، وهو عطفٌ على مقدَّرٍ يدُلُّ عليه قولُه سبحانه: (مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡا) وما بينهما اعتراضٌ جيء به مسارعةً إلى التهديد ومبالغةً في تشديد الوعيدِ، كأنَّه قيل: نُهلِك الأُمم ثم ننجِّي المرسَل إليهم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بهم. وعبَّر بالمضارع لحكاية الحالِ الماضية؛ لتهويل أمرها باستحضار صُوَرها.

وتأخيرُ حكايةِ التنْجِيَةِ عن حكاية الإهلاكِ ـ على عكس ما جاء في غير موضعٍ ـ ليتَّصل به قوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ أي: نُنْجيهم إنجاءً كذلك الإنجاءِ الذي كان لمن قبلَهم، على أنَّ الإشارة إلى الإنجاء، والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بمقدَّرٍ وقَعَ صفةً لمصدرٍ محذوفٍ.

وجوِّز أنْ يكونَ الكافُ في محلِّ نصبٍ بمعنى «مثل» سادَّةً مسدَّ المفعول المطلق. ويحتمل عند بعضٍ أنْ يكونَ في موقع الحال من الإنجاء الذي تضمَّنه «نُنجي» بتأويل: نَفعلُ الإنجاء حالَ كونه مثلَ ذلك الإنجاء، وأن يكون في موضع رفعِ خبرِ مبتدأ محذوفٍ، أي: الأمر كذلك.

و«حقاً» نصب بفعله المقدَّر، أي: حَقَّ ذلك حقاً.

والجملةُ اعتراضٌ بين العامل والمعمول على تقدير أنْ يكون «كذلك» معمولاً للفعل المذكور بعدُ، وفائدتُها الاهتمامُ بالإنجاء، وبيانُ أنَّه كائنٌ لا محالةَ، وهو المرادُ بالحقِّ، ويجوز أنْ يُرادَ به الواجبُ، ومعنى كونِ الإنجاء واجباً أنَّه كالأمر الواجب عليه تعالى، وإلا فلا وجوبَ حقيقةً عليه سبحانه. وقد صرَّح بأنَّ الجملة

(١) التيسير ص١٢٣، والنشر ٢/ ٢٥٩.

اعتراضيةٌ غيرُ واحدٍ من المعربين، ويُستفاد منه أنَّه لا بأس بالجملة[1] الاعتراضية غيرُ إذا بقي شيءٌ من متعلقاتها.

وجوّز أنْ يكونَ بدلاً من الكاف التي هي بمعنى مثل، أو من المحذوف الذي نابَت عنه[2].

وقيل: إنَّ «كذلك» منصوبٌ بـ «نُنَجِّي» الأول، و«حقّاً» منصوبٌ بالثاني، وهو خلافُ الظاهر.

والمراد بـ «المؤمنين» إمَّا الجنسُ المتناول للرُّسُل عليهم السلام وأتباعِهم، وإمَّا الأتباعُ فقط، وإنَّما لم يذكر إنجاءُ الرسل إيذاناً بعدم الحاجةِ إليه. وأيّاً ما كان ففيه تنبيهٌ على أنَّ مدارَ الإنجاء هو الإيمان، وجيء بهذه الجملةِ تذييلاً لِمَا قبلها مقرِّراً لمضمونه.

﴿قُلْ﴾ لجميع مَن شَكَّ في دينك وكَفَر بك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أُوثِرَ الخطابُ باسم الجنس مصدَّراً بحرف التنبيه تعميماً للتبليغ، وإظهاراً لكمال العناية بشأن ما بلِّغ إليهم ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ الذي أعبدُ الله تعالى به وأدعوكم إليه، ولم تعلموا ما هو ولا صفتَه حتى قلتم: إنَّه صَبأ.

﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ في وقتٍ من الأوقات ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ ثم يَفعل بكم ما يفعلُ من فنون العذاب. وجَعْلُ هذه الجملة باعتبار مضمونها جواباً بتأويل الإخبار، وإلَّا فلا ترتُّب لها على الشرط بحَسَب الظاهر، فالمعنى: إنْ كنتُم في شكٍّ من ذلك فأُخبركم أنَّه تخصيصُ العبادة به تعالى ورَفْضُ عبادةِ ما سواه من الأصنام وغيرِها ممَّا تعبدونه جهلاً، وقد كثُرَ جعلُ الإخبار بمفهوم الجملة جزاءً نحو: إن أكرمتَني اليومَ فقد أكرمتُكَ أمس، وعلى هذا الطرز قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] فإنَّ استقرارَ النعمة ليس سبباً لحصولها من الله تعالى، بل الأمرُ بالعكس، وإنَّما سببٌ للإخبار بحصولها منه تعالى كما قرَّره ابنُ الحاجب.

---

(١) في (م): الجملة.

(٢) والتقدير: إنجاءً مثلَ ذلك حقاً. الدر المصون ٦/ ٢٧٢.

وقد يكونُ المعنى: إنْ كنتُم في شكٍّ من صحة ديني وسدادِه فأخبرُكم أنَّ خُلاصته العبادةُ لإلهٍ هذا شأنُه، دون ما تعبدونه مما هو بمعزلٍ عن ذلك الشأن، فاعْرِضُوا ذلك على عقولكم وأجيلوا فيه أفكارَكم وانظروا بعين الإنصافِ لتعلموا صحتَه وحقِّيتَه. وذكر بعضُهم أنَّه لا يُحتاجُ على هذا إلى جَعل المسبَّب الإخبارَ والإعلام، بل يُعتَبرُ الجزاءُ الأمرَ بعَرْضِ ما ذُكر على عقولهم والتفكُّرِ فيه. والأظهرُ اعتبارُ كون الإخبار جزاءً كما في المعنى الأول.

والتعبيرُ عمَّا هم عليه بالشكِّ ـ مع كونهم قاطعين بعدمِ الصحةِ ـ للإيذان بأنَّ أَقصى ما يُمكن عروضه للعاقل في هذا الباب هو الشكُّ في الصحة، وأما القطعُ بعدمها فممَّا[1] لا سبيلَ إليه.

وقيل: لا نسلِّم أنَّهم كانوا قاطعين، بل كانوا في شكٍّ واضطرابٍ عند رؤية المعجزات، وجيء بـ «إنْ» للإشارة إلى[2] أنَّه مما لا ينبغي أنْ يكون لوجود ما يزيله.

وجوِّز أنْ يكونَ المعنى: إنْ كنتُم في شكٍّ من ديني ومما أنا عليه أَأَثْبُتُ عليه أم أَترُكُه وأُوافقُكم، فلا تحدِّثوا أنفسَكم بالمحال، ولا تشكُّوا في أمري، واقطعوا عنِّي أطماعَكم، واعلموا أنِّي لا أعبدُ الذين تعبدون من دون الله، ولا أختارُ الضلالةَ على الهدى، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ١-٢] ولا يخفَى أنَّ ما قبلُ أوفقُ بالمقام.

وتقديمُ تركِ عبادةِ غير الله تعالى على عبادتِهِ سبحانه لتقدُّم التخلية على التحلية، كما في كلمة التوحيد، والإيذانِ بالمخالفة من أوَّل الأمرِ، وتخصيصُ التوفِّي من بين سائر صفاتِ الأفعالِ بالذِّكر متعلِّقاً بهم للتخويف، فإنَّه لا شيءَ أشدُّ عليهم من الموت.

وقيل: المرادُ: أعبدُ الله الذي خلقَكُم ثمَّ يتوفَّاكم ثم يُعيدُكم، وفيه إيماءٌ إلى

(١) في الأصل و(م): فما، والمثبت من تفسير أبي السعود ٤/ ١٧٩، والكلام منه.
(٢) في (م): إلا، وهو تصحيف.

الحشر الذي يُنكرونه، وهو مِن أُمَّهات أصولِ الدين، ثم حذفَ الطرفان وأبقى الوسط ليدلَّ عليهما فإنهما[١] قد كثُر اقترانُهما به في القرآن.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ أي: أَوجَبَ الله تعالى عليَّ ذلك، فوجوبُ الإيمان بالله تعالى شرعيٌّ كسائر الواجبات، وذكر المولى صدرُ الشريعة: أنَّ[٢] للشرعيِّ معنَيَين: ما يتوقف على الشرع كوجوب الصلاة والصوم، وما ورَدَ به الشرعُ ولا يتوقَّف على الشرع كوجوب الإيمان بالله سبحانه ووجوبِ تصديقِهِ ﷺ، فإنَّه لا يُتَوَقَّف على الشرع، فهو ليس بشرعيٍّ بالمعنى الأول، وذلك لأنَّ ثبوتَ الشرع موقوفٌ على الإيمان بوجود الباري تعالى وعلمه وقدرته وكلامه، وعلى التصديق بنبوةِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام بدلالة معجزاته، فلو تَوَقَّف شيءٌ من هذه الأحكامِ على الشرع لزم الدور.

ولقائل أنْ يمنعَ توقُّفَ الشرع على وجوب الإيمان ونحوِه، سواءٌ أُريد بالشرع خطابُ الله تعالى، أو شريعةُ النبيِّ ﷺ، وتوقُّفُ التصديق بثبوتِ شرع النبيِّ ﷺ على الإيمان بالله تعالى وصفاته وعلى التصديق بنبوَّةِ النبيِّ ﷺ ودلالةِ معجزاته لا يقتضي توقُّفَه على وجوب الإيمان والتصديق، ولا على العلم بوجوبهما، غايتُه أنَّه يتوقَّفُ على نفس الإيمان والتصديق، وهو غيرُ مفيدٍ لتوقُّفِهِ على وجوب الإيمان والتصديقِ، ولا منافٍ لتوقُّف وجوبِ الإيمان ونحوِه على الشرع، كما هو المذهبُ عندهم من أنَّه[٣] لا وجوبَ إلا بالسمع.

وقول الزمخشريِّ هنا: إنَّه عليه الصلاة والسلام أُمِرَ بالعقل والوحي[٤]. لا يخلو عن نَزْغةٍ اعتزاليةٍ كما هو دَأْبُه في كثيرٍ من المواضع، ومن قال من المفسرين منَّا: إنَّه وجب عليَّ ذلك بالعقل والسمع، أراد بالعقل التابع لِما سمع من[٥] الشرع، فلا تبعيَّة.

---

(١) في الأصل: فإنه.
(٢) بعدها في الأصل: للوجوب.
(٣) في (م): أن.
(٤) الكشاف ٢/ ٢٥٥، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ٦٤.
(٥) في (م): لما سمع بالشرع، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب.

والكلامُ على حذف الجارِّ، أي: أُمرت بأنْ أكون، وحذفُه من «أنَّ» و«أنْ» مطَّردٌ، وإنْ قُطع النظرُ عن ذلك فالحذفُ بعد «أَمَرَ» مسموعٌ عن العرب، كقوله:

أمرتُكَ الخيرَ فافعل ما أمرتُ به فقد تركتُكَ ذا مالٍ وذا نشبِ[1]

وأدخلَ بعضُهم هذه الجملةَ في الجزاء وليس بمتعيِّنٍ.

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ عطفٌ كما قال غيرُ واحدٍ على «أنْ أكون»، واعتُرض بأنَّ «أنْ» في المعطوف عليه مصدريةٌ بلا كلام؛ لعملها النصبَ، والتي في جانب المعطوف لا يصحُّ أنْ تكون كذلك لوقوع الأمر بعدها، وكذا لا يصحُّ أنْ تكونَ مفسِّرة لعطفها على المصدرية؛ ولأنَّه يلزَم دخولُ الباء المقدَّرة عليها، والمفسِّرة لا يدخل عليها ذلك.

ودُفع ذلك باختيار كونها مصدريَّةً، ووقوعُ الأمر بعدها لا يضرُّ في ذلك، فقد نُقلَ عن سيبويه أنَّه يجوز وصلها به[2]، ولا فَرْق في صلة الموصول الحرفي بين الطلب والخبر؛ لأنَّه إنما مُنِعَ في الموصول الاسميِّ لأنَّه وُضع للتوصُّل به إلى وَصْف المعارف بالجمل، والجمل الطلبية لا تكونُ صفةً، والمقصودُ من هذه أنْ[3] يُذكر بعدها ما يدلُّ على المصدر الذي تؤوَّل[4] به، وهو يحصلُ بكلِّ فعلٍ، وكونُ تأويله يُزيلُ معنى الأمر المقصودِ منه مدفوعٌ بأنَّه يؤوَّل - كما أشرنا إليه فيما مرَّ - بالأمر بالإقامة، إذ كما يُؤخَذ المصدر من المادة قد يُؤخَذ من الصيغة، مع أنَّه لا حاجةَ إليه هنا لدلالة قوله تعالى: (وَأُمِرْتُ) عليه.

وفي «الفرائد»: أنَّه يجوز أنْ يقدَّر: وأوحي إليَّ أنْ أَقِمْ.

وتعقَّبه الطيبي بأنَّ هذا سائغٌ إعراباً، إلَّا أنَّ في ذلك العطفِ فائدةٌ معنويةٌ، وهي أنَّ «وأنْ أقم» إلخ كالتفسير لـ «أنْ أكونَ» إلخ على أسلوب: أعجبني زيدٌ وكرمُه،

---

(١) الكتاب ١/ ٣٧، والخزانة ١/ ٣٣٩. وقال البغدادي: نسب لعمرو بن معدي كرب، وللعباس بن مرداس، ولزرعة بن السائب، ولخفاف بن ندبة، وذكر أنه نسب أيضاً لأعشى طرود. وقد سلف شطره الأول ٧/ ٤٩٩.

(٢) الكتاب ٣/ ١٦٢، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ٦٥.

(٣) في (م): والمقصود من أن هذه، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب.

(٤) في الأصل و(م): تأول، والمثبت من حاشية الشهاب.

داخلٌ معه في حكم المأمور به، فلو قدِّر ذلك فاتَ غرضُ التفسير، وتكونُ الجملةُ مستقلَّةً معطوفةً على مثلها. وفيه تأمُّلٌ؛ لجواز أنْ تكون هذه الجملةُ مفسِّرةً للجملة المعطوفة هي عليها.

وقدَّرَ أبو حيان ذلك، وزَعَم أنَّ «أنْ» حينئذٍ يجوزُ أنْ تكونَ مصدريةً، وأنْ تكونَ مفسِّرةً؛ لأنَّ في الفعل المقدَّر معنى القولِ دون حروفه، وأنَّه على ذلك يزولُ قلقُ العطف، ويكونُ الخطابُ في «وجهك» في محلِّه[1].

ورُدَّ بأنَّ الجملة المفسِّرة لا يجوز حذفها، وأمَّا صحةُ وقوعِ المصدرية فاعلاً أو مفعولاً فليس بلازمٍ، ولا قَلَقَ في العطف الذي عناه، وأَمْرُ الخطاب سهلٌ لأنَّه لملاحظة المحكيِّ والأمرِ المذكور معه.

وإقامةُ الوجه للدِّين كنايةٌ عن توجيه النفسِ بالكلِّية إلى عبادة الله تعالى والإعراضِ عمَّن سواه، فإنَّ مَن أراد أنْ ينظرَ إلى شيءٍ نظرَ استقصاءٍ يُقيمُ وجهَهُ في مقابلته بحيث لا يلتفتُ يميناً ولا شمالاً، إذ لو التفَتَ بطَلَت المقابلة، والظاهرُ أنَّ الوجه على هذا على ظاهره. ويجوز أنْ يُراد به الذاتُ، والمرادُ: اصْرِف ذاتَك وكُلِّيتَكَ للدين واجتهد بأداء الفرائضِ والانتهاء عن القبائح، فاللامُ صلةُ «أقم».

وقيل: الوجهُ على ظاهره، وإقامتُه توجيهُهُ للقبلة، أي: استَقْبِل القبلةَ ولا تلتفَتْ إلى اليمين أو الشمال، فاللامُ للتعليل، وليس بذاك، ومثلُه القولُ بأنَّ ذلك كنايةٌ عن صرف العقلِ بالكلِّية إلى طلب الدِّين.

﴿حَنِيفًا﴾ أي: مائلاً عن الأديان الباطلةِ، وهو حالٌ إمَّا من الوجه، أو من الدِّين، وعلى الأول تكون حالاً مؤكِّدةً؛ لأنَّ إقامةَ الوجه تضمَّنَت التوجُّه إلى الحقِّ والإعراضَ عن الباطل، وعلى الثاني قيل: تكونُ حالاً مُنتقِلَةً، وفيه نظرٌ. ويجوز أنْ تكونَ حالاً من الضمير في «أقم».

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ عطفٌ على «أقم» داخلٌ تحتَ الأمر، وفيه تأكيدٌ له، أي: لا تكونَنَّ منهم اعتقاداً ولا عملاً.

---

(١) البحر ٥/١٩٦.

﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ استقلالاً ولا اشتراكاً ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ﴾ بنفسه إذا دعوتَه بدفعِ مكروهٍ، أو جَلبِ محبوبٍ ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إذا تركتَه بسلبِ المحبوبِ دفعاً أو رفعاً، أو بإيقاع المكروه.

والجملةُ قيل: معطوفةٌ على جملة النهي قبلها. واختارَ بعضُ المحقِّقين عطفَها على قوله سبحانه: (قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ) فهي غيرُ داخلةٍ تحت الأمر؛ لأنَّ ما بعدها من الجمل إلى آخر الآيتَين مُتَّسِقَةٌ لا يُمكن فصلُ بعضها عن بعضٍ، ولا وجْهَ لإدراج الكلِّ تحت الأمر.

وأنت تعلمُ أنَّه لو قُدِّر فعلُ الإيحاء في «وأنْ أقم» كما فعَلَ أبو حيان وصاحبُ «الفرائد» لا مانعَ من العطف ـ كما هو الظاهرُ ـ على جملة النهي المعطوفةِ على الجملة الأُولى، وإدراجِ جميع المتَّسِقات تحت الإيحاء، وقد يُرجَّحُ ذلك التقديرُ بأنَّه لا يُحتاجُ معه إلى ارتكاب خلافِ الظاهر من العطف على البعيد.

وقيل: لا حاجةَ إلى تقدير الإيحاءِ والعطفِ كما قيل، والأمرُ السابقُ بمعنى الوحي، كأنَّه قيل: وأُوحِيَ إليَّ أنْ أكونَ.. إلخ، والاندراجُ حينئذٍ مما لا بأس به. وهو كما ترى، ولا أظنُّك تقبله.

﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٦﴾ أي: معدوداً في عدادهم، والفعلُ كنايةٌ عن الدعاء، كأنَّه قيل: فإنْ دعوتَ ما لا ينفعُ ولا يضرُّ، وكنى عن ذلك ـ على ما قيل ـ تنويهاً لشأنه عليه الصلاة والسلام، وتنبيهاً على رِفعةِ مكانه ﷺ مِن أنْ يُنسَب إليه عبادةُ غيرِ الله تعالى ولو في ضمن الجملة الشرطية. والكلامُ في فائدة نحو النهي المذكور قد مرَّ آنفاً.

وجوابُ الشرط على ما في «النهر»[1] جملةُ «فإنك» وخبرُها، أعني «من الظالمين»، وتوسَّطَت «إذا» بين الاسم والخبر مع أنَّ رُتْبَتَها بعد الخبر رعايةً للفاصلة.

وفي «الكشاف»: أنَّ «إذا» جزاءٌ للشرط وجوابٌ لسؤالٍ مقدَّرٍ، كأنَّ سائلاً سأل

(١) في (م): النهي، وهو تصحيف، والكلام من النهر المادِّ من البحر لأبي حيان على هامش البحر ٥/ ١٩٥.

عن تبعةِ عبادةِ الأوثان، فجعل من الظالمين لأنَّه لا ظلمَ أعظمُ من الشرك ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣][١]. وهذه عبارةُ النحويين، وفُسِّرت كما قال الشهاب: بأنَّ المراد أنَّها تدلُّ على أنَّ ما بعدها مسبَّبٌ عن شرطٍ محقَّقٍ أو مقدَّرٍ، وجوابٌ عن كلام محقق أو مقدر[٢].

وقد ذكر الجلال السيوطيُّ عليه الرحمة في «جمع الجوامع» ـ بعد أنْ بيَّن أنَّ «إذا» الظرفيةَ قد يُحذَف جزء[٣] الجملة التي أضيفَت هي إليها أو كلُّها، فيعوَّض عنه[٤] التنوين، وتُكسَر للساكنَين لا للإعراب خلافاً للأخفش، وقد تُفتَح ـ أنَّ شيخَه الكافيجي ألحق بها «إذن». ثم قال في شرحه «همع الهوامع»[٥]: وقد أشرتُ بقولي: وأَلْحَقَ شيخُنا بها في ذلك «إذن» إلى مسألةٍ غريبةٍ قَلَّ مَن تعرَّض لها، وذلك أنِّي سمعتُ شيخنا عليه الرحمة يقول في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤]: ليسَت «إذن» هذه الكلمةَ المعهودة، وإنَّما هي «إذا» الشرطية حُذفَت جملتها التي يضاف إليها وعوِّضَ عنها التنوين، كما في يومئذٍ، وكنت أستَحْسِنُ هذا جدّاً، وأظنُّ أنَّ الشيخ لا سَلَفَ له في ذلك، حتَّى رأيت بعضَ المتأخِّرين جنَحَ إلى ما جنح إليه الشيخ، وقد أوسعتُ الكلام في ذلك في حاشية «المغني». انتهى.

وأنت تعلمُ أنَّ الآية التي ذكرها كالآية التي نحنُ فيها وما ذكره مما يميلُ إليه القلبُ ولا أرى فيه بأساً، ولعلَّه أولَى مما قاله صاحب «الكشاف» ومُتَّبعوه، فليُحمَلْ ما في الآية عليه، وكان كثيراً ما يخطُرُ لي ذلك إلا أنِّي لم أَكَد أُقدِمُ على إثباته حتى رأيتُه لغيري ممن لا يُنكَر فضلُه، فأثبتُّه حامداً لله تعالى.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ تقريرٌ لِمَا أُورد في حيِّز الصلة من سَلْب النفع من المعبودات الباطلةِ، وتصويرٌ لاختصاصه به سبحانه، أي: وإنْ يُصبك بسوءٍ ما ﴿فَلَا

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٥٦، وفيه: وجعل من الظالمين...
(٢) حاشية الشهاب ٥/ ٦٦.
(٣) في الأصل: جزاء.
(٤) في الأصل: عنها.
(٥) ٢/ ١٧٥-١٧٦.

كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾ عنك كائناً مَن كان وما كان ﴿إِلَّا هُوَۖ﴾ وحده، فثَبَتَ عدمُ كَشْفِ الأصنام بالطريق البرهاني، وهو بيانٌ لعدم النفعِ برفْع المكروه المستلزِم لعدم النفع بجلبِ المحبوب استلزاماً ظاهراً، فإنَّ رفْعَ المكروه أدنى مراتبِ النفع، فإذا انتفى انتفى النفعُ بالكلِّية.

﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ تحقيقٌ لسلب الضررِ الواردِ في حيِّز الصلة، أي: إنْ يُرِدْ أنْ يُصيبَكَ بخير ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦۚ﴾ الذي من جملته ما أرادك به من الخير، فهو دليلٌ على جواب الشرطِ لا نفسُ الجوابِ، وفيه إيذانٌ بأنَّ فَيَضان الخير منه تعالى بطريق التفضُّل والكرم من غير استحقاقٍ عليه سبحانه، أي: لا أحدَ يَقدِرُ على ردِّه كائناً مَن كان، فيدخل فيه الأصنامُ دخولاً أَوَّليّاً، وهو بيانٌ لعدم ضرِّها بدفع المحبوب قبل وقوعه المستلزمِ لعدم ضرِّها برفعه أو بإيقاع المكروه استلزاماً جليّاً.

ولعلَّ ذِكرَ(١) الإرادةِ مع الخير والمسِّ مع الضرِّ مع تلازُم الأمرَين ـ لأنَّ ما يريده سبحانه يُصيب، وما يُصيب لا يكونُ إلا بإرادته تعالى ـ للإيذان بأنَّ الخير مقصودٌ لله تعالى بالذات، والضرّ إنَّما يقعُ جزاءً على الأعمال وليس مقصوداً بالذات.

ويحتمل أنَّه أُريدَ معنى الفعلَين في كلٍّ من الخير والضرِّ لاقتضاء المقامِ تأكيدَ كلٍّ من الترغيب والترهيب، إلا أنَّه قصَدَ الإيجاز في الكلام فذكر في أحدهما المسَّ وفي الآخر الإرادةَ، ليدلَّ بما ذكر في كلِّ جانبٍ على ما ترك في الجانب الآخر، ففي الآية نوعٌ من البديع يسمَّى احتباكاً، وقد تقدَّم في غيرِ آيةٍ.

ولم يَستثنِ سبحانه في جانب الخير(٢) إظهاراً لكمال العناية به، ويُنبئُ عن ذلك قولُه تعالى: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾ حيث صرَّح جلَّ شأنه بالإصابة بالفضل المنتظِم لِمَا أرادَ من الخير.

وقيل: إنَّما لم يَستثنِ جلَّ وعلا في ذلك؛ لأنَّه قد فَرَض فيه أنَّ تعلُّقَ الخير به واقعٌ بإرادته تعالى، وصحةُ الاستثناء تكونُ بإرادةِ ضدِّه في ذلك الوقت، وهو

---

(١) في (م): ذكره.

(٢) أي: لم يقل: فلا راد لفضله إلا هو، كما قال: فلا كاشف له إلا هو. حاشية الشهاب ٥/ ٦٦.

محالٌ، وهذا بخلافِ مسِّ الضرِّ، فإنَّ إرادة كشفه لا تستلزمُ المحالَ، وهو تعلُّقُ الإرادتَين بالضدَّين في وقتٍ واحد.

وفي العدول عن: يُرِدْ بك الخير، إلى ما في النظم الجليلِ إيماءٌ كما قيل إلى أنَّ المقصودَ هو الإنسانُ، وسائرُ الخيرات مخلوقةٌ لأجله.

وما أشرنا إليه من رجوع ضمير «به» إلى الفضل هو الظاهرُ المناسب، وجوِّز رجوعُه لِمَا ذكر، وليس بذاك. وحملُ الفضل على العموم أوَّلاً وآخِراً حسبما علمتَ هو الذي ذهب إليه بعضُ المحقِّقين[1] رادّاً على مَن جعَلَه عبارةً عن ذلك الخير بعينه على أنْ يكونَ الإتيانُ به أوَّلاً ظاهراً من باب وَضْعِ المظهَرِ موضعَ المضمَر إظهاراً لِمَا ذكر من الفائدة، بأنَّ قوله سبحانه: ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ يأبَى ذلك؛ لأنَّه يُنادي بالعموم. ويجوزُ عندي أنْ يكونَ الكلامُ من باب: عندي درهمٌ ونصفُه.

وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٧﴾ تذييلٌ لقوله تعالى: (يُصِيبُ بِهِۦ) إلخ مقرِّرٌ لمضمونه، والكلُّ تذييلٌ للشرطية الأخيرة مقرِّرٌ لمضمونها.

وذكر الإمام[2] في هذه الآيات: أنَّ قوله تعالى: (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ) لا يمكن أنْ يكونَ نهياً عن عبادة الأوثانِ؛ لأنَّ ذلك مذكورٌ في قوله سبحانه أولَ الآية: (فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ) فلا بدَّ من حَمْل هذا الكلامِ على ما فيه فائدةٌ زائدةٌ، وهي أنَّ مَن عَرَفَ مولاه لو التفَتَ بعد ذلك إلى غيره كانَ ذلك شركاً، وهو الذي يُسمِّيه أصحابُ القلوب بالشرك الخفيِّ، ويجعل قوله سبحانه: (وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ) إشارةً إلى مقامٍ هو آخِرُ درجاتِ العارفين؛ لأنَّ ما سوى الحقِّ ممكنٌ لذاته موجودٌ بإيجاده، والممكنُ لذاته معدومٌ بالنظر إلى ذاته وموجودٌ بإيجاد الحقِّ، وحينئذٍ فلا نافعَ إلا الحقُّ، ولا ضارَّ إلا هو، وكلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهَه، وإذا كان كذلك فلا رجوعَ إلا إليه عزَّ شأنه في الدارَين.

ومعنى «فإنْ فعلت» إلخ: فإن اشتَغَلْتَ بطَلَب المنفعة والمضرَّة من غير الله تعالى فأنت من الظالمين، أي: الواضعين للشيءِ في غير موضعِه، إذ ما سوى الله

(١) هو أبو السعود في تفسيره ٤/ ١٨٠.
(٢) هو الرازي في تفسيره ١٧/ ١٧٣-١٧٤.

تعالى معزولٌ عن التصرُّف، فإضافة التصرُّف إليه وضعٌ للشيء في غير موضعه، وهو الظلم، وطلبُ الانتفاع بالأشياء التي خَلَقَها الله تعالى للانتفاع بها من الطعام والشرابِ ونحوهما لا ينافي الرجوعَ بالكلِّية إلى الله تعالى، بشرط أنْ يكونَ بصرُ العقلِ عندَ التوجُّه إلى شيءٍ من ذلك مشاهداً لقدرة الله تعالى وَجُودِه وإحسانِهِ في[1] إيجاد تلك الموجوداتِ وإيداعِ تلك المنافعِ فيها، مع الجزم بأنَّها في أَنفُسها وذواتها معدومةٌ وهالكةٌ، ولا وجودَ لها ولا بقاءَ ولا تأثيرَ إلا بإيجادِ الله تعالى وإبقائه، وإفاضة ما فيها من الخَوَاصِّ عليها بجودِه وإحسانِهِ.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ﴾ إلخ تقريرٌ لأنَّ جميعَ الممكِنات مستندةٌ إليه سبحانه وتعالى، وأنَّه لا معوَّل إلا عليه عزَّ شأنُه.

وهو كلامٌ حسنٌ، بيدَ أنَّ زَعْمه أنَّ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لا يمكنُ أنْ يكونَ نهياً عن عبادة الأوثانِ.. إلخ، لايخفى ما فيه.

وقد ذَكَر نحوَ هذا الكلام في الآيات ساداتُنا الصوفية، ففي «أسرار القرآن»: أنَّه سبحانه خوَّفَ نبيَّه ﷺ من الالتفات إلى غيره في إقباله عليه سبحانه بقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾أي: من الطالبين غيري والمُؤْثِرِيْنَ على جمال مشاهدتي ما لا يَليقُ من الحدثان.

وقد ذكروا أنَّ إقامةَ الملَّة الحنيفية بتصحيح المعرفةِ، وهو لا يكونُ إلا بترك النظرِ إلى ما سوى الحقِّ جلَّ جلاله.

ثم إنَّه تعالى زادَ تأكيداً للإقبال عليه والإعراضِ عمَّا سواه بقوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَا تَدْعُ﴾ إلخ حيث أشار فيه إلى أنَّ مَن طلَبَ النفع أو الضرَّ من غيره تعالى، فهو ظالمٌ، أي: واضعٌ للربوبيَّة في غير موضعها. ومن هنا قال شقيقٌ البَلْخيُّ: الظالمُ مَن طلَبَ نَفْعَه ممن لا يملكُ نفْعَ نفسِهِ، واستدفَعَ الضرَّ ممن لا يملك الدفاعَ عن نفسِه، ومَن عَجَز عن إقامة نفسِه كيف يُقيمُ غيرَه؟ وقُرِّر ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ﴾ إلخ.

---

(١) في الأصل: من.

ومن ذلك قال ابنُ عطاء: إنَّه تعالى قطَعَ على عباده الرَّهبةَ والرغبةَ إلا منه وإليه بإعلامه أنَّه الضارُّ النافعُ.

وقد يكونُ الضرُّ إشارةً إلى الحجاب، والخيرُ إشارةً إلى كشف الجمالِ، أي: إنْ يَمْسَسْكَ الله بضُرِّ الحجاب فلا كاشف لضرِّك إلا هو بظهور أنوارِ وصاله، وإنْ يُردك بكشف جمالِهِ فلا رادَّ لفضْلِ وصالِهِ من سببٍ وعِلَّةٍ، فإنَّ المختصَّ في الأزل بالوصال لا يحتجب بشيءٍ من الأشياء؛ لأنَّه في الفضل السابق مصونٌ من جَرَيان القهر.

هذا، ولعله مُغنٍ عن الكلام من باب الإشارة في الآيات حسبما هو العادة في الكتاب.

﴿قُلْ﴾ يا أيُّها الرسول مخاطِباً لأولئك الكفرةِ بعد ما بلَّغْتَهم ما أُوحي إليك، أو للمكلَّفين مطلقاً كما قال الطبرسي[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ وهو القرآنُ العظيمُ الظاهر الدلالة، المشتملُ على محاسن الأحكام التي من جملتها ما مرَّ آنفاً من أصول الدين، واطَّلعتُم على ما في تضاعيفه من البينات والهدَى، ولم يَبْقَ لكم عُذرٌ.

وقيل: المرادُ من الحقِّ النبيُّ ﷺ، وفيه من المبالغةِ ما لا يخفَى.

وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد[2]: أنَّ «الحق» هو ما دلَّ عليه قوله تعالى: (وَإِن يَمْسَسْكَ) إلخ، وهو كما ترى.

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بالإيمان والمتابعةِ ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: منفعةُ اهتدائه لها ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بالكفر والإعراض ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: فوبال ضلالِهِ عليها، قيل: والمرادُ تنزيهُ ساحةِ الرسالة عن شائبةِ غرضٍ عائدٍ إليه عليه الصلاة والسلام من جَلْبِ نفعٍ ودَفْعِ ضُرٍّ، ويلوِّحُ إليه إسنادُ المجيءِ إلى «الحقِّ» من غير إشعارٍ بكون ذلك بواسطته ﷺ.

---

(١) في مجمع البيان ١١/١٠٨.
(٢) كما في الدر المنثور ٣/٣١٩.

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٍ﴾ أي: بحفيظٍ موكولٍ إليَّ أمرُكم، وإنما أنا بشيرٌ ونذيرٌ، وفي الآية إشارةٌ إلى أنَّه عليه الصلاة والسلام لا يُجبرهم على الإيمان ولا يُكرهُهُم عليه، وإنما عليه البلاغُ.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّها منسوخةٌ بآية السيف.

﴿وَٱتَّبِعۡ﴾ في جميع شؤونكَ من الاعتقاد والعمل والتّبليغ ﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ على نهج التجدُّدِ والاستمرار، والتعبيرُ عن بلوغ الحقِّ المفسَّر بالقرآن إليهم بالمجيء وإليه ﷺ بالوحي تنبيهٌ على ما بين المرتبتين من التنافي، وإذا أريد من الحق ما قيل فالأمرُ ظاهرٌ جدّاً.

﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ على ما يعتريك من مشاقِّ التبليغ، وأذى مَن ضلَّ ﴿حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ﴾ بالنصرة عليه، أو بالأمر بالقتال ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ إذ لا يمكن الخطأ في حُكْمِه تعالى لاطِّلاعه على السرائر كاطِّلاعه على الظواهر، وغيرُه جلَّ شأنهُ من الحاكمين إنما يطلع على الظواهر فيقعُ الخطأ في حكمه.

ولا يخفى ما في هذه الآيات من الموعظة الحسنة، وتسليةِ النبيِّ ﷺ، ووَعْدِ للمؤمنين، والوعيدِ للكافرين.

والحمدُ لله تعالى ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، الذي يؤنسُ ذكرُه قلوبَ الموحِّدين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١١) سُورَةُ هُودٍ مَكِّيَّة
وآياتها ثلاثٌ وعشرون ومائة

سورة هود من السور المكية التي عرضت لقَصَص الأنبياء بالتفصيل ، وشأنها كشأن سائر المكي : تقريرُ أصول الدين ، وإقامةُ الأدلةِ والبراهينِ على وجودِ اللهِ ووحدانيته وردُّ الشُبَه التي كان يثيرها المعارضون حول الوحي والرسالة ونبوة محمد عليه السلام . نزلت هذه السورة بعد يونس وفي الفترة العصيبة التي كان يعيشها عليه الصلاة والسلام بعد وفاة عمه « أبي طالب » وزوجه « خديجة بنتِ خويلد » والتي اشتد فيها أذى المشركين على الرسول ﷺ وعلى أصحابه ، وبلغت الحرب المعلنة عليه وعلى دعوته أقسى وأقصى مداها . قال ابن اسحاق : ثم إن خديجة وأبا طالب هلكا في عام واحد ، فتتابعتْ على رسول الله ﷺ المصائب بموت خديجة وكانت له وزيرَ صدق على الإسلام يشكو إليها ، وبهلاك عمه أبي طالب وكان له عَضُداً وحِرْزاً ، ومَنَعةً وناصراً على قومه ، وذلك قبل مهاجَره إلى المدينة بثلاث سنين ، فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكنْ تطمع به في حياة أبي طالب حتى اعترضه سفيهٌ من سفهاء قريش فنثر على رأسه التراب ، فدخل بيته والتراب على رأسه فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي ورسولُ الله ﷺ يقول لها : لا تبكي يا بنيّة فإن الله مانعٌ أباك » . في هذه الفترة العصيبة نزلت سورةَ هود ، وفيها قَصَصُ الأنبياء تسليةً للنبي ﷺ بما حدث لإخوانه الرسل

من أنواع الابتلاء ، وتأسياً بهم في الصبر والثبات ، والثقةِ واليقين وهم يتلقون الإعراض والتكذيب ، والسخرية والاستهزاء ، والتهديد والإيذاء ، بدأتْ السورةُ بذكر الكتاب المجيد ، الذي أُحكمتْ آياته فلا يتطرق إليه خللٌ ولا تناقض ، لأنه تنزيلُ الحكيم الذي لا يضِلُّ ، الخبيرِ الذي لا تخفى عليه خافيةٌ من مصالح العباد ، فقد فصَّل لهم الحلال والحرام ، وبيَّن لهم الأحكامَ التي يحتاجون إليها في حياتهم الدنيا ﴿ آلـــر . كتابٌ أُحكمتْ آياتُه ثُمَّ فصِّلَتْ من لَدُنْ حكيمٍ خبير . ألاّ تعبدُوا إلا اللهَ إنني لكم منهُ نذيرٌ وبشيرٌ ﴾ ثم عرضت السورة الكريمة لعناصر الدعوة الإسلامية وهي ﴿ التوحيدُ ، والرسالةُ ، والبعثُ ﴾ عن طريقِ الحجج العقلية مع الموازنةِ بين الفريقين : فريقِ الهُدَى ، وفريقِ الضلال ، وبين النفوس المستعدة للايمان ، والنفوس النافرةِ منه ، وضربتْ مثلاً للفريقين يتضح بهما الفارقُ الكبيرُ بين الهدى والضلال ، كما تفرقُ الشمسُ بين الظلمات والنور ، وبين الأعمى والبصير ﴿ مَثَلُ الفريقين كالأعمى والأصمّ ، والبصير والسميع هل يستويان مثلاً أفلا تَذَكَّرون ﴾ ؟ ثم أخذتْ تتحدث بالإسهاب عن دعوة الرسل الكرام ، تسليةً للنبي عليه السلام ، وبياناً لوحدة الدعوة الإلهية ، وإنذاراً للمكذبين ، فهذه الدعوة التي جاء بها محمد ﷺ ليستْ دعوةً مبتدعة وإنما هي دعوةٌ جَاء بها الرسل الكرام ، لقد جَاء بها من قبلُ نوحٌ وهودٌ وصالحٌ وشعيب وموسى وغيرهم من الرسل ، وبدأت بقصة نوح عليه السلام لأنه الأب الثاني للبشر ، وهو أطول الأنبياء عمراً ، وأكثرُهم بلاءً وصبراً ، فقد مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وهو يدعوهم إلى الله ، ومع طول هذه المدة لم يؤمن معه إلا نفرٌ قليل ، وقد أوغل قومه في التكذيب والسخرية والعناد وهو صابرٌ لأمر الله ، حتى كان الطوفانُ الذي عمَّ البشرية ولم ينج إلا نوحٌ والمؤمنون الذين

ركبوا معه في السفينة ﴿وقال اركبوا فيها باسم اللهِ مَجْريها ومُرْسَاها إنَّ ربّيْ لغفورٌ رحيم وهي تجري بهمْ في موجٍ كالجبالِ ونادَى نوحٌ ابنَهُ وكانَ في مَعْزِلٍ يا بُنَيَّ اركبْ مَعَنا ولا تكنْ مع الكافرين قال سآوي إلى جبلٍ يَعْصمني من الماء، قال لا عَاصِمَ اليومَ من أمرِ اللهِ إلا مَنْ رَحِمَ وحالَ بينهما الموجُ فكان من المُغرقين﴾ وهكذا كان مشهدُ الطوفان الذي غمر الأرض وتمَّ وعدُ الله بهلاك المكذبين، ونجاة المؤمنين. ثم تتابعت الآيات تذكر قصة «هود» عليه السلام الذي سميت السورة الكريمة باسمه، وأنه تعالى بعثه إلى قوم عاد أولئك العاتون المتجبرون، الذي اغتروا بقوة أجسامهم فكان هلاكهم بالريح الصرصر العاتية التي لم تدع شيئاً إلا دمَّرته، وقد ذكرت الآيات الكريمة العبرة من قصة هود وخاتمة أمره مع قومه على حسب سنة الله في نصرة أوليائه وخزي أعدائه «وتلكَ عادٌ جحدوا بآياتِ ربهم وعَصَوْا رسلَه واتَّبعوا أمر كلِ جبارٍ عنيد. وأُتبعوا في هذه الدنيا لعنةً ويوم القيامة، أَلاَ إنَّ عاداً كفروا ربَّهم، أَلاَ بُعْداً لعادٍ قوم هود». وتتابعت الآيات الكريمة تذكر قَصَص الأنبياء، فذكرتْ نبيَّ الله «صالح» عليه السلام مع قومه ثمود، الذين قابلوه بالعِناد والجحود فأهلكهم الله بالصيحة بعد أن أقدموا على عقر الناقة «فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمةٍ مناومن خِزْيِ يَوْمِئذٍ، إن ربّكَ هو القويُّ العزيز وأخذَ الذين ظلموا الصيحةُ فأصبحوا في ديارهم جاثمين. كأنْ لم يَغْنَوْا فيها أَلا إن ثمودَ كفروا ربَّهم ألا بُعْداً لثمود» ثم تلتها قصة لوط ثم قصة شعيب ثم قصة موسى وهارون عليهم أفضلُ الصلاة والتسليم وجاء التعقيبُ المباشر بما في هذه القِصَصِ من العِبَر والعظات في إهلاك اللهِ للظالمين «ذلكَ من أنباء القرى نقصُّه عليكَ منها قائمٌ وحصيد. وما ظلمناهم ولكنْ ظلموا أنفسَهم فما أغنَتْ عنهم آلهتهم التي يدعون

من دون الله مِن شيءٍ لَمّا جاء أمرُ ربّكَ ، وما زادُوهم غيرَ تَتْبيب . وكذلكَ أخذُ ربِك إذا أخذ القرى وهي ظالمةٌ إنَّ أخذه أليم شديد » وختمت السورة بتوجيه الخطاب للرسول الأعظم ﷺ بالاستقامةِ على شريعة الله ، والمثابرةِ على الدعوة ، والصبرِ على تحملِ الأذى في سبيل الله حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه « فاستقمْ كما أُمرتَ ومن تابَ معك ولا تَطْغوا إنه بما تعملون بصير » ثم أعقبها ببيان الحكمة من ذكر أخبار الأنبياء ألاَ وهو تثبيتُ قلب النبي ﷺ أمام تلك الشدائد والأهوال ﴿ وكلاً نقصُّ عليك من أنباء الرسل ما نُثبتُ به فؤادكَ ، وجاءكَ في هذه الحقُّ وموعظةٌ وذكرى للمؤمنين . وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنّا عاملون وانتظروا إنّا منتظرون . ولله غيب السموات والأرضِ وإليه يُرْجعُ الأمرُ كلُّه فاعبدْهُ وتوكَّلْ عليه وما ربك بغافل عما تعملون » وهكذا تختم السورة الكريمة بمثل ما بدأتْ به من التوحيد والتوبةِ والإنابة والرجعة الى الله تعالى في نهاية المطاف .

سورة هود

[٥١٦] ك.. روى البخاري عن ابن عباس في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾(١)، قال: كان أناس يستحيون أن يتخلوا فيفضوا بفروجهم إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم، فيفضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم.

[٥١٦م] وأخرج ابن جرير وغيره عن عبدالله بن شداد قال: كان أحدهم إذا مرَّ بالنبي [ﷺ] ثنى صدره لكي لا يراه، فنزلت.

[٥١٧] وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال: لما نزل: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾(٢) قال ناس: إن الساعة قد اقتربت فتناهوا، فتناهى القوم قليلاً ثم عادوا إلى مكرهم مكر السوء، فأنزل الله: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾(٣) الآية.

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج مثله.

[٥١٧م] وروى الشيخان(٤) عن ابن مسعود: أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة فأتى النبي [ﷺ] فأخبره، فأنزل الله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾(٥) فقال الرجل: أليَ هذه؟ قال [ﷺ] **«لجميع أمتي كلهم»**.

[٥١٨] وأخرج الترمذي وغيره(٦) عن أبي اليسر قال: أتتني امرأة تبتاع تمراً

---

[٥١٦] (١) سورة هود: الآية (٥).
[٥١٧] (٢) سورة الأنبياء: الآية (١).
(٣) سورة هود: الآية (٨).
[٥١٧م](٤) صحيح البخاري (١/ ١٤٠) من طريق يزيد بن زريع وصحيح مسلم عن يحيى والواحدي في أسباب النزول من طريق مسلم.
(٥) سورة هود: الآية (١١٤).
[٥١٨] (٦) الحديث رواه الترمذي في سننه (٣١١٥)، والطبراني في الكبير (١٩/ ١٦٥)، وابن جرير (١٢/ ٨٢)، والواحدي في أسباب النزول ص (١٥٣) من طريق عثمان بن مؤمن عن موسى بن طلحة عن أبي اليسر.

فقلتُ إن في البيت أطيب منه، فدخلت معي البيت فأهويت إليها فقبلتها فأتيت رسول الله [ﷺ] فذكرت ذلك له، فقال: «**أخلفت غازياً في سبيل الله في أهله بمثله هذا**»؟! وأطرق طويلاً حتى أوحى الله إليه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ إلى قوله: ﴿لِلذَّٰكِرِينَ﴾[1]، وورد نحوه من حديث أبي أمامة ومعاذ بن جبل وابن عباس وبريدة وغيرهم، وقد استوفيت أحاديثهم في ترجمان القرآن.

* * *

(١) سورة هود: الآية (١١٤).

سورة هود

مكية، إلا الآيات: ١٢ و١٧ و ١١٤ فمدنية، وآياتها ١٢٣ نزلت بعد سورة يونس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ①﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن قوله ﴿الٓر﴾ اسم للسورة وهو مبتدأ. وقوله ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبره، وقوله: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ صفة للكتاب. قال الزجاج: لا يجوز أن يقال: ﴿الٓر﴾ مبتدأ، وقوله: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ خبر؛ لأن ﴿الٓر﴾ ليس هو الموصوف بهذه الصفة وحده؛ وهذا الاعتراض فاسد، لأنه ليس من شرط كون الشيء مبتدأ أن يكون خبره محصورًا فيه، ولا أدري كيف وقع للزجاج هذا السؤال، ثم إن الزجاج اختار قولاً آخر وهو أن يكون التقدير: الر هذا كتاب أحكمت آياته، وعندي أن هذا القول ضعيف لوجهين: الأول: أن على هذا التقدير يقع قوله: ﴿الٓر﴾ كلامًا باطلاً لا فائدة فيه، والثاني: أنك إذا قلت: هذا كتاب، فقوله: (هذا) يكون إشارة إلى أقرب المذكورات، وذلك هو قوله: ﴿الٓر﴾ فيصير حينئذ ﴿الٓر﴾ مخبرًا عنه بأنه كتاب أحكمت آياته، فيلزمه على هذا القول ما لم يرض به في القول الأول، فثبت أن الصواب ما ذكرناه.

المسألة الثانية: في قوله: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ وجوه: الأول: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ نظمت نظمًا رصيفًا محكمًا لا يقع فيه نقص ولا خلل، كالبناء المحكم المرصف. الثاني: أن الإحكام عبارة عن منع الفساد من الشيء. فقوله: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي لم تنسخ بكتاب كما نسخت الكتب والشرائع بها.

واعلم أن على هذا الوجه لا يكون كل الكتاب محكمًا، لأنه حصل فيه آيات منسوخة، إلا أنه لما كان الغالب كذلك صح إطلاق هذا الوصف عليه إجراء للحكم الثابت في الغالب مجرى الحكم الثابت في الكل. الثالث: قال صاحب (الكشاف) ﴿أُحۡكِمَتۡ﴾ يجوز أن يكون نقلاً بالهمزة من حَكُم بضم الكاف إذا صار حكيمًا، أي جعلت حكيمة، كقوله: ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يونس: ١] الرابع: جعلت آياته محكمة في أمور:

أحدها: أن معاني هذا الكتاب هي التوحيد، والعدل، والنبوة، والمعاد، وهذه المعاني لا تقبل النسخ، فهي في غاية الإحكام.

وثانيها: أن الآيات الواردة فيه غير متناقضة، والتناقض ضد الإحكام فإذا خلت آياته عن

التناقض فقد حصل الإحكام.

وثالثها: أن ألفاظ هذه الآيات بلغت في الفصاحة والجزالة إلى حيث لا تقبل المعارضة، وهذا أيضًا مشعر بالقوة والإحكام.

ورابعها: أن العلوم الدينية إما نظرية وإما عملية. أما النظرية فهي معرفة الإله تعالى ومعرفة الملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر، وهذا الكتاب مشتمل على شرائف هذه العلوم ولطائفها، وأما العملية فهي إما أن تكون عبارة عن تهذيب الأعمال الظاهرة وهو الفقه، أو عن تهذيب الأحوال الباطنة وهي علم التصفية ورياضة النفس، ولا نجد كتابًا في العالم يساوي هذا الكتاب في هذه المطالب، فثبت أن هذا الكتاب مشتمل على أشرف المطالب الروحانية وأعلى المباحث الإلهية، فكان كتابًا محكمًا غير قابل للنقض والهدم. وتمام الكلام في تفسير المحكم ذكرناه في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾[آل عمران: ٧].

المسألة الثالثة: في قوله: ﴿فُصِّلَتْ﴾ وجوه:

أحدها: أن هذا الكتاب فصل كما تفصل الدلائل بالفوائد الروحانية، وهي دلائل التوحيد والنبوة والأحكام والمواعظ والقصص.

والثاني: أنها جعلت فصولاً سورة سورة، وآية آية.

الثالث: ﴿فُصِّلَتْ﴾ بمعنى أنها فرقت في التنزيل وما نزلت جملة واحدة، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾[الأعراف: ١٣٣] والمعنى مجيء هذه الآيات متفرقة متعاقبة.

الرابع: فصل ما يحتاج إليه العباد أي جعلت مبينة ملخصة.

الخامس: جعلت فصولاً حلالاً وحرامًا، وأمثالاً وترغيبًا، وترهيبًا ومواعظ، وأمرًا ونهيًا لكل معنى فيها فصل، قد أفرد به غير مختلط بغيره حتى تستكمل فوائد كل واحد منها، ويحصل الوقوف على كل باب واحد منها على الوجه الأكمل.

المسألة الرابعة: معنى ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ ليس للتراخي في الوقت، لكن في الحال كما تقول: هي محكمة أحسن الإحكام، ثم مفصلة أحسن التفصيل، وكما تقول: فلان كريم الأصل ثم كريم الفعل.

المسألة الخامسة: قال صاحب (الكشاف): قرئ (أَحْكَمْتُ آياتِه ثم فَصَّلْتُ) أي أحكمتها أنا ثم فصلتها، وعن عكرمة والضحاك (ثُمَّ فَصَلَتْ) أي فرقت بين الحق والباطل.

المسألة السادسة: احتج الجبائي بهذه الآية على أن القرآن محدث مخلوق من ثلاثة أوجه:

الأول: قال المحكم: هو الذي أتقنه فاعله، ولولا أن الله تعالى يحدث هذا القرآن وإلا لم يصح ذلك لأن الإحكام لا يكون إلا في الأفعال، ولا يجوز أن يقال: كان موجودًا غير محكم ثم جعله الله محكمًا، لأن هذا يقتضي في بعضه الذي جعله محكمًا أن يكون محدثًا، ولم يقل أحد

بأن القرآن بعضه قديم وبعضه محدث. الثاني: أن قوله: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ يدل على أنه حصل فيه انفصال وافتراق، ويدل على أن ذلك الانفصال والافتراق إنما حصل بجعل جاعل، وتكوين مكون، وذلك أيضًا يدل على المطلوب. الثالث: قوله: ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ والمراد من عنده، والقديم لا يجوز أن يقال: إنه حصل من عند قديم آخر، لأنهما لو كانا قديمين لم يكن القول بأن أحدهما حصل من عند الآخر أولى من العكس.

أجاب أصحابنا بأن هذه النعوت عائدة إلى هذه الحروف والأصوات ونحن معترفون بأنها محدثة مخلوقة، وإنما الذي ندعي قدمه أمر آخر سوى هذه الحروف والأصوات.

المسألة السابعة: قال صاحب (الكشاف) قوله: ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ يحتمل وجوهًا: الأول: أنا ذكرنا أن قوله: ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبر و(أحكمت) صفة لهذا الخبر، وقوله: ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ صفة ثانية، والتقدير: الر كتاب من لدن حكيم خبير. والثاني: أن يكون خبرًا بعد خبر والتقدير: الر من لدن حكيم خبير. والثالث: أن يكون ذلك صفة لقوله: ﴿أُحۡكِمَتۡ﴾. و﴿فُصِّلَتۡ﴾ أي أحكمت وفصلت من لدن حكيم خبير، وعلى هذا التقدير فقد حصل بين أول هذه الآية وبين آخرها نكتة لطيفة كأنه يقول أحكمت آياته من لدن حكيم وفصلت من لدن خبير عالم بكيفيات الأمور.

قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٤﴾

اعلم أن في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن في قوله: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ وجوهًا:

الأول: أن يكون مفعولاً له، والتقدير: كتاب أحكمت آياته ثم فصلت لأجل ألا تعبدوا إلا الله وأقول هذا التأويل يدل على أنه لا مقصود من هذا الكتاب الشريف إلا هذا الحرف الواحد، فكل من صرف عمره إلى سائر المطالب، فقد خاب وخسر.

الثاني: أن تكون (أن) مفسرة لأن في تفصيل الآيات معنى القول والحمل على هذا أولى، لأن قوله: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾ معطوف على قوله: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ﴾ فيجب أن يكون معناه: أي لا تعبدوا ليكون الأمر معطوفًا على النهي، فإن كونه بمعنى لئلا تعبدوا يمنع عطف الأمر عليه. والثالث: أن يكون التقدير: الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ليأمر الناس أن لا يعبدوا إلا الله ويقول لهم: إنني لكم منه نذير وبشير، والله أعلم.

المسألة الثانية: اعلم أن هذه الآية مشتملة على التكليف من وجوه: الأول: أنه تعالى أمر بأن لا يعبدوا إلا الله، وإذا قلنا: الاستثناء من النفي إثبات، كان معنى هذا الكلام النهي عن عبادة

غير الله تعالى، والأمر بعبادة الله تعالى، وذلك هو الحق، لأنا بيَّنا أن ما سوى الله فهو محدث مخلوق مربوب، وإنما حصل بتكوين الله وإيجاده، والعبادة عبارة عن إظهار الخضوع والخشوع ونهاية التواضع والتذلل وهذا لا يليق إلا بالخالق المدبر الرحيم المحسن، فثبت أن عبادة غير الله منكرة، والإعراض عن عبادة الله منكر.

واعلم أن عبادة الله مشروطة بتحصيل معرفة الله تعالى قبل العبادة، لأن من لا يعرف معبوده لا ينتفع بعبادته فكان الأمر بعبادة الله أمرًا بتحصيل المعرفة أولاً. ونظيره قوله تعالى في أول سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾[البقرة: ٢١] ثم أتبعه بالدلائل الدالة على وجود الصانع وهو قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[البقرة: ٢١] إنما حسن ذلك لأن الأمر بالعبادة يتضمن الأمر بتحصيل المعرفة فلا جرم ذكر ما يدل على تحصيل المعرفة.

ثم قال: ﴿إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ .

وفيه مباحث:

البحث الأول: أن الضمير في قوله: ﴿مِّنْهُ﴾ عائد إلى الحكيم الخبير، والمعنى: إنني لكم نذير وبشير من جهته.

البحث الثاني: أن قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ مشتمل على المنع عن عبادة غير الله، وعلى الترغيب في عبادة الله تعالى، فهو عليه الصلاة والسلام نذير على الأول بإلحاق العذاب الشديد لمن لم يأت بها وبشير على الثاني بإلحاق الثواب العظيم لمن أتى بها.

واعلم أنه ﷺ ما بعث إلا لهذين الأمرين، وهو الإنذار على فعل ما لا ينبغي، والبشارة على فعل ما ينبغي.

المرتبة الثانية: من الأمور المذكورة في هذه الآية قوله: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ .

والمرتبة الثالثة: قوله: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ واختلفوا في بيان الفرق بين هاتين المرتبتين على وجوه:

الوجه الأول: أن معنى قوله: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ﴾ اطلبوا من ربكم المغفرة لذنوبكم، ثم بيَّن الشيء الذي يطلب به ذلك وهو التوبة، فقال: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ لأن الداعي إلى التوبة والمحرض عليها هو الاستغفار الذي هو عبارة عن طلب المغفرة وهذا يدل على أنه لا سبيل إلى طلب المغفرة من عند الله إلا بإظهار التوبة، والأمر في الحقيقة كذلك، لأن المذنب معرض عن طريق الحق، والمعرض المتمادي في التباعد ما لم يرجع عن ذلك الإعراض لا يمكنه التوجه إلى المقصود بالذات، فالمقصود بالذات هو التوجه إلى المطلوب إلا أن ذلك لا يمكن إلا بالإعراض عما يضاده، فثبت أن الاستغفار مطلوب بالذات، وأن التوبة مطلوبة لكونها من متممات الاستغفار، وما كان آخرًا في الحصول كان أولاً في الطلب، فلهذا السبب قدم ذكر الاستغفار على التوبة.

الوجه الثاني: في فائدة هذا الترتيب أن المراد: استغفروا من سالف الذنوب ثم توبوا إليه في المستأنف.

الوجه الثالث: وأن استغفروا من الشرك والمعاصي، ثم توبوا من الأعمال الباطلة.

الوجه الرابع: الاستغفار طلب من الله لإزالة ما لا ينبغي، والتوبة سعي من الإنسان في إزالة ما لا ينبغي، فقدم الاستغفار ليدل على أن المرء يجب أن لا يطلب الشيء إلا من مولاه فإنه هو الذي يقدر على تحصيله، ثم بعد الاستغفار ذكر التوبة لأنها عمل يأتي به الإنسان ويتوسل به إلى دفع المكروه والاستعانة بفضل الله تعالى مقدمة على الاستعانة بسعي النفس.

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه المراتب الثلاثة ذكر بعدها ما يترتب عليها من الآثار النافعة والنتائج المطلوبة، ومن المعلوم أن المطالب محصورة في نوعين، لأنه إما أن يكون حصولها في الدنيا أو في الآخرة، أما المنافع الدنيوية: فهي المراد من قوله: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهذا يدل على أن المقبل على عبادة الله والمشتغل بها يبقى في الدنيا منتظم الحال مرفه البال، وفي الآية سؤالات:

السؤال الأول: أليس أن النبي ﷺ قال: «**الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ**»(١) وقال أيضًا: «**خُصَّ الْبَلَاءُ بِالْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ الْأَوْلِيَاءِ ثُمَّ الْأَمْثَلِ فَالْأَمْثَلِ**»(٢) وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ [الزخرف: ٣٣] فهذه النصوص دالة على أن نصيب المشتغل بالطاعات في الدنيا هو الشدة والبلية. ومقتضى هذه الآية أن نصيب المشتغل بالطاعات الراحة في الدنيا فكيف الجمع بينهما؟

الجواب: من وجوه. الأول: المراد أنه تعالى لا يعذبهم بعذاب الاستئصال كما استأصل أهل القرى الذين كفروا. الثاني: أنه تعالى يوصل إليهم الرزق كيف كان، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ [طه: ١٣٢] الثالث: وهو الأقوى عندي أن يقال: إن المشتغل بعبادة الله وبمحبة الله مشتغل بحب شيء يمتنع تغيره وزواله وفنائه، فكل من كان إمعانه في ذلك الطريق أكثر وتوغله فيه أتم كان انقطاعه عن الخلق أتم وأكمل،

---

(١) تقدم قريبًا تخريجه.

(٢) **صحيح**: أخرجه الترمذي في كتاب (الزهد) باب (في الصبر علي البلاء) (٤/ ٥٢٠) حديث رقم/ ٢٣٩٨، من طريق حماد بن زيد... به. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وابن ماجه في كتاب (الفتن) باب (الصبر على البلاء) (٢/ ١٣٣٤) حديث رقم/ ٤٠٢٣، من طريق حماد بن زيد... به. وأحمد في (مسنده) (١/ ١٧٢) حديث رقم/ ١٤٨١، من طريق سفيان... به. والدارمي في كتاب (الرقاق) باب (في أشد الناس بلاء) (٢/ ٢٠٦) حديث رقم/ ٢٧٨٣، من طريق سفيان... به. والحاكم في (المستدرك) (١/ ٤٠). والبيهقي في (السنن) (٣/ ٣٧٢). جميعًا من طريق مصعب بن سعد عن سعد قال: ثم سئل النبي ﷺ أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل علي حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد صلابة وان كان في دينه رقة خفف عنه ولا يزال البلاء بالعبد حتى يمشى على الأرض ماله خطيئة. واللفظ للدارمي.

وكلما كان الكمال في هذا الباب أكثر، كان الابتهاج والسرور أتم، لأنه أمن من تغير مطلوبه، وأمن من زوال محبوبه، فأما من كان مشتغلاً بحب غير الله، كان أبدًا في ألم الخوف من فوات المحبوب وزواله، فكان عيشه منغصًا وقلبه مضطربًا، ولذلك قال الله تعالى في صفة المشتغلين بخدمته ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

السؤال الثاني: هل يدل قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ على أن للعبد أجلين، وأنه يقع في ذلك التقديم والتأخير؟

والجواب: لا، ومعنى الآية أنه تعالى حكم بأن هذا العبد لو اشتغل بالعبادة لكان أجله في الوقت الفلاني، ولو أعرض عنها لكان أجله في وقت آخر، لكنه تعالى عالم بأنه لو اشتغل بالعبادة أم لا، فإن أجله ليس إلا في ذلك الوقت المعين، فثبت أن لكل إنسان أجلاً واحدًا فقط.

السؤال الثالث: لم سمى منافع الدنيا بالمتاع؟

الجواب: لأجل التنبيه على حقارتها وقلتها، ونبه على كونها منقضية بقوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فصارت هذه الآية دالة على كونها حقيرة خسيسة منقضية، ثم لما بين تعالى ذلك قال: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ والمراد منه السعادات الأخروية، وفيها لطائف وفوائد.

الفائدة الأولى: أن قوله: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ معناه: ويؤت كل ذي فضل موجب فضله ومعلوله والأمر كذلك؛ وذلك لأن الإنسان إذا كان في نهاية البعد عن الاشتغال بغير الله وكان في غاية الرغبة في تحصيل أسباب معرفة الله تعالى فحينئذ يصير قلبه فصًا لنقش الملكوت ومرآة يتجلى بها قدس اللاهوت، إلا أن العلائق الجسدانية الظلمانية تكدر تلك الأنوار الروحانية، فإذا زالت هذه العلائق أشرقت تلك الأنوار وتلألأت تلك الأضواء وتوالت موجبات السعادات، فهذا هو المراد من قوله: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾.

الفائدة الثانية: أن هذا تنبيه على أن مراتب السعادات في الآخرة مختلفة، وذلك لأنها مقدرة بمقدار الدرجات الحاصلة في الدنيا، فلما كان الإعراض عن غير الحق والإقبال على عبودية الحق درجات غير متناهية، فكذلك مراتب السعادات الأخروية غير متناهية، فلهذا السبب قال: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾.

الفائدة الثالثة: أنه تعالى قال في منافع الدنيا: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ وقال في سعادات الآخرة ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ وذلك يدل على أن جميع خيرات الدنيا والآخرة ليس إلا منه وليس إلا بإيجاده وتكوينه وإعطائه وجوده. وكان الشيخ الإمام الوالد رحمه الله تعالى يقول: لولا الأسباب لما ارتاب مرتاب، فأكثر الناس عقولهم ضعيفة واشتغال عقولهم بهذه الوسائط الفانية يعميها عن مشاهدة أن الكل منه، فأما الذين توغلوا في المعارف الإلهية وخاضوا في بحار أنوار الحقيقة علموا أن ما سواه ممكن لذاته موجود بإيجاده، فانقطع نظرهم عما سواه وعلموا أنه سبحانه وتعالى هو الضار والنافع والمعطي والمانع.

ثم إنه تعالى لما بيّن هذه الأحوال قال: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ والأمر كذلك، لأن من اشتغل بعبادة غير الله صار في الدنيا أعمى، ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢] والذي يبين ذلك أن من أقبل على طلب الدنيا ولذاتها وطيباتها قوي حبه لها ومال طبعه إليها وعظمت رغبته فيها، فإذا مات بقي معه ذلك الحب الشديد والميل التام وصار عاجزًا عن الوصول إلى محبوبه، فحينئذ يعظم البلاء ويتكامل الشقاء، فهذا القدر المعلوم عندنا من عذاب ذلك اليوم، وأما تفاصيل تلك الأحوال فهي غائبة عنا ما دمنا في هذه الحياة الدنيوية. ثم بيّن أنه لا بد من الرجوع إلى الله تعالى بقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾.

واعلم أن قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ فيه دقيقة، وهي: أن هذا اللفظ يفيد الحصر، يعني أن مرجعنا إلى الله لا إلى غيره، فيدل هذا على أن لا مدبر ولا متصرف هناك إلا هو والأمر كذلك أيضًا في هذه الحياة الدنيوية، إلا أن أقوامًا اشتغلوا بالنظر إلى الوسائط فعجزوا عن الوصول إلى مسبب الأسباب، فظنوا أنهم في دار الدنيا قادرون على شيء، وأما في دار الآخرة، فهذا الحال الفاسد زائل أيضًا، فلهذا المعنى بيّن هذا الحصر بقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾.

ثم قال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾ وأقول: إن هذا تهديد عظيم من بعض الوجوه وبشارة عظيمة من سائر الوجوه. أما أنه تهديد عظيم فلأن قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ يدل على أنه ليس مرجعنا إلا إليه، وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾ يدل على أنه قادر على جميع المقدورات لا دافع لقضائه ولا مانع لمشيئته والرجوع إلى الحاكم الموصوف بهذه الصفة مع العيوب الكثيرة والذنوب العظيمة مشكل وأما أنه بشارة عظيمة فلأن ذلك يدل على قدرة غالبة وجلالة عظيمة لهذا الحاكم وعلى ضعف تام وعجز عظيم لهذا العبد، والملك القاهر العالي الغالب إذا رأى عاجزًا مشرفًا على الهلاك فإنه يخلصه من الهلاك، ومنه المثل المشهور: ملكت فاسجح.

يقول مصنف هذا الكتاب: قد أفنيت عمري في خدمة العلم والمطالعة للكتب ولا رجاء لي في شيء إلا أني في غاية الذلة والقصور والكريم إذا قدر غفر، وأسألك يا أكرم الأكرمين ويا أرحم الراحمين وساتر عيوب المعيوبين ومجيب دعوة المضطرين أن تفيض سجال رحمتك على ولدي وفلذة كبدي وأن تخلصنا بالفضل والتجاوز والجود والكرم.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾

اعلم أنه تعالى لما قال: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ يعني عن عبادته وطاعته ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣] بيّن بعده أن التولي عن ذلك باطنًا كالتولي عنه ظاهرًا فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ﴾ يعني الكفار من قوم محمد ﷺ يثنون صدورهم ليستخفوا منه.

واعلم أنه تعالى حكى عن هؤلاء الكفار شيئين: الأول: أنهم يثنون صدورهم يقال: ثنيت الشيء إذا عطفته وطويته، وفي الآية وجهان:

الوجه الأول: روي أن طائفة من المشركين قالوا: إذا أغلقنا أبوابنا وأرسلنا ستورنا، واستغشينا ثيابنا وثنينا صدورنا على عداوة محمد، فكيف يعلم بنا؟ وعلى هذا التقدير: كان قوله: ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ كناية عن النفاق، فكأنه قيل: يضمرون خلاف ما يظهرون ليستخفوا من الله تعالى، ثم نبه بقوله: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ على أنهم يستخفون منه حين يستغشون ثيابهم.

الوجه الثاني: روي أن بعض الكفار كان إذا مر به رسول الله ثنى صدره وولى ظهره واستغشى ثيابه، والتقدير كأنه قيل: إنهم ينصرفون عنه ليستخفوا منه حين يستغشون ثيابهم، لئلا يسمعوا كلام رسول الله وما يتلو من القرآن، وليقولوا في أنفسهم ما يشتهون من الطعن. وقوله: ﴿أَلَآ﴾ للتنبيه، فنبه أولاً على أنهم ينصرفوا عنه ليستخفوا ثم كرر كلمة ﴿أَلَا﴾ للتنبيه على ذكر الاستخفاء لينبه على وقت استخفائهم، وهو حين يستغشون ثيابهم، كأنه قيل: ألا إنهم ينصرفون عنه ليستخفوا من الله، ألا إنهم يستخفون حين يستغشون ثيابهم. ثم ذكر أنه لا فائدة لهم في استخفائهم بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر في الآية الأولى أنه ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أردفه بما يدل على كونه تعالى عالمًا بجميع المعلومات، فثبت أن رزق كل حيوان إنما يصل إليه من الله تعالى، فلو لم يكن عالمًا بجميع المعلومات لما حصلت هذه المهمات، وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال الزجاج: الدابة اسم لكل حيوان، لأن الدابة اسم مأخوذ من الدبيب، وبنيت هذه اللفظة على هاء التأنيث، وأطلق على كل حيوان ذي روح ذكرًا كان أو أنثى، إلا أنه بحسب عرف العرب اختص بالفرس، والمراد بهذا اللفظ في هذه الآية الموضوع الأصلي اللغوي فيدخل فيه جميع الحيوانات، وهذا متفق عليه بين المفسرين، ولا شك أن أقسام الحيوانات وأنواعها كثيرة، وهي الأجناس التي تكون في البر والبحر والجبال، والله يحصيها دون غيره، وهو تعالى عالم بكيفية طبائعها وأعضائها وأحوالها وأغذيتها وسمومها ومساكنها، وما يوافقها وما يخالفها، فالإله المدبر لإطباق السموات والأرضين؛ وطبائع الحيوان والنبات، كيف لا يكون عالمًا بأحوالها؟ روي أن موسى عليه السلام عند نزول الوحي إليه تعلق قلبه بأحوال أهله، فأمره الله تعالى أن يضرب بعصاه على صخرة فانشقت وخرجت صخرة ثانية؛ ثم ضرب بعصاه عليها فانشقت وخرجت صخرة ثالثة، ثم ضربها بعصاه فانشقت فخرجت منها

دودة كالذرة وفي فمها شيء يجري مجرى الغذاء لها، ورفع الحجاب عن سمع موسى عليه السلام فسمع الدودة تقول: سبحان من يراني، ويسمع كلامي، ويعرف مكاني، ويذكرني ولا ينساني.

المسألة الثانية: تعلق بعضهم بأنه يجب على الله تعالى بعض الأشياء بهذه الآية وقال: إن كلمة (على) للوجوب، وهذا يدل على أن إيصال الرزق إلى الدابة واجب على الله.

وجوابه: أنه واجب بحسب الوعد والفضل والإحسان.

المسألة الثالثة: تعلق أصحابنا بهذه الآية في إثبات أن الرزق قد يكون حرامًا، قالوا: لأنه ثبت أن إيصال الرزق إلى كل حيوان واجب على الله تعالى بحسب الوعد وبحسب الاستحقاق، والله تعالى لا يُخِلُّ بالواجب، ثم قد نرى إنسانًا لا يأكل من الحلال طول عمره، فلو لم يكن الحرام رزقًا لكان الله تعالى ما أوصل رزقه إليه، فيكون تعالى قد أخل بالواجب وذلك محال، فعلمنا أن الحرام قد يكون رزقًا، وأما قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ فالمستقر: هو مكانه من الأرض والمستودع حيث كان مودعًا قبل الاستقرار في صلب أو رحم أو بيضة، وقال الفراء: مستقرها: حيث تأوي إليه ليلاً أو نهارًا، ومستودعها: موضعها الذي تموت فيه، وقد مضى استقصاء تفسير المستقر والمستودع في سورة الأنعام، ثم قال: ﴿كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ قال الزجاج: المعنى أن ذلك ثابت في علم الله تعالى، ومنهم من قال: في اللوح المحفوظ، وقد ذكرنا ذلك في قوله: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾

واعلم أنه تعالى لما أثبت بالدليل المتقدم كونه عالمًا بالمعلومات، أثبت بهذا الدليل كونه تعالى قادرًا على كل المقدورات، وفي الحقيقة فكل واحد من هذين الدليلين يدل على كمال علم الله وعلى كمال قدرته.

واعلم أن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ قد مضى تفسيره في سورة يونس على سبيل الاستقصاء. بقي ههنا أن نذكر ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ قال كعب: خلق الله تعالى ياقوتة خضراء، ثم نظر إليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد، ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها ثم وضع العرش على الماء، قال أبو بكر الأصم: معنى قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ كقولهم: السماء على الأرض. وليس ذلك على سبيل كون أحدهما ملتصقًا بالآخر وكيف كانت الواقعة فذلك يدل على أن العرش والماء كانا قبل السموات والأرض، وقالت المعتزلة: في الآية دلالة على وجود الملائكة قبل خلقهما، لأنه لا يجوز أن يخلق ذلك ولا أحد

ينتفع بالعرش والماء، لأنه تعالى لما خلقهما فإما أن يكون قد خلقهما لمنفعة أو لا لمنفعة والثاني عبث، فبقي الأول وهو أنه خلقهما لمنفعة، وتلك المنفعة، إما أن تكون عائدة إلى الله وهو محال لكونه متعاليًا عن النفع والضرر أو إلى الغير فوجب أن يكون ذلك الغير حيًّا، لأن غير الحي لا ينتفع. وكل من قال: بذلك قال ذلك الحي كان من جنس الملائكة، وأما أبو مسلم الأصفهاني فقال: معنى قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ أي بناؤه السموات كان على الماء، وقد مضى تفسير ذلك في سورة يونس، وبيَّن أنه تعالى إذا بنى السموات على الماء كانت أبدع وأعجب، فإن البناء الضعيف إذا لم يؤسس على أرض صلبة لم يثبت، فكيف بهذا الأمر العظيم إذا بسط على الماء؟ وههنا سؤالات:

السؤال الأول: ما الفائدة في ذكر أن عرشه كان على الماء قبل خلق السموات والأرض؟

والجواب: فيه دلالة على كمال القدرة من وجوه: الأول: أن العرش مع كونه أعظم من السموات والأرض كان على الماء فلولا أنه تعالى قادر على إمساك الثقيل بغير عمد لما صح ذلك، والثاني: أنه تعالى أمسك الماء لا على قرار وإلا لزم أن يكون أقسام العالم غير متناهية، وذلك يدل على ما ذكرناه. والثالث: أن العرش الذي هو أعظم المخلوقات قد أمسكه الله تعالى فوق سبع سموات من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه، وذلك يدل أيضًا على ما ذكرنا.

السؤال الثاني: هل يصح ما يروى أنه قيل: يا رسول الله، أَيْنَ كَانَ رَبُّنَا قَبْلَ خلق السموات وَالْأَرْضِ؟ فَقَالَ: كَانَ فِي عَمَاءٍ فَوْقَهُ هَوَاءٌ وَتَحْتَهُ هَوَاءٌ(١).

والجواب: أن هذه الرواية ضعيفة، والأولى أن يكون الخبر المشهور أولى بالقبول وهو قوله ﷺ كَانَ اللَّه وَمَا كَانَ مَعَهُ شَيْءٌ، ثُمَّ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ(٢).

السؤال الثالث: اللام في قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ يقتضي أنه تعالى خلق السموات والأرض لابتلاء المكلف فكيف الحال فيه؟ والجواب: ظاهر هذا الكلام يقتضي أن الله تعالى خلق هذا العالم الكثير لمصلحة المكلفين، وقد قال بهذا القول طوائف من العقلاء، ولكل طائفة فيه وجه آخر سوى الوجه الذي قال به الآخرون، وشرح تلك المقالات لا يليق بهذا الكتاب. والذين قالوا: إن أفعاله وأحكامه غير معللة بالمصالح قالوا: لام التعليل

---

(١) **إسناده ضعيف**: الترمذي في (سننه) (٥/ ٢٨٨) حديث رقم/ ٣١٠٩، وابن ماجه في (سننه) (١/ ٦٤) حديث رقم/ ١٨٢، وأحمد في (مسنده) (٤/ ١١) حديث رقم/ ١٦٢٣٣، وعبد الله بن أحمد في (السنة) (١/ ٢٤٥) حديث رقم/ ٤٥٠، وأبو الشيخ في (العظمة) (١/ ٣٦٣) حديث رقم/ ٨٣، والذهبي في (العلو) (١/ ١٨) حديث رقم/ ٢٦، والبيهقي في (الأسماء والصفات) (٢/ ٣٠٣) حديث رقم/ ٨٦٤، والطبري في (تفسيره) (١٥/ ٢٤٦) حديث رقم/ ١٧٩٨١، جميعًا من طريق يعلى بن عطاء عن وكيع بن حدس عن عمه أبي رزين... به. والحديث إسناده ضعيف مداره على وكيع بن حدس وهو مجهول وضعفه الألباني في (الضعيفة) (٥٣٢٠).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري في (صحيحه) (٣/ ١١٦٦) حديث رقم/ ٣٠١٩، وأحمد في (مسنده) (٤/ ٤٣١)، كلاهما من طريق صفوان بن مجزر عن عمران بن حصين... به.

وردت على ظاهر الأمر، ومعناه أنه تعالى فعل فعلاً لو كان يفعله من تجوز عليه رعاية المصالح لما فعله إلا لهذا الغرض.

السؤال الرابع: الابتلاء إنما يصح على الجاهل بعواقب الأمور وذلك عليه تعالى محال، فكيف يعقل حصول معنى الابتلاء في حقه؟

والجواب: أن هذا الكلام على سبيل الاستقصاء ذكرناه في تفسير قوله تعالى في أول سورة البقرة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

واعلم أنه تعالى لما بيَّن أنه خلق هذا العالم لأجل ابتلاء المكلفين وامتحانهم فهذا يوجب القطع بحصول الحشر والنشر، لأن الابتلاء والامتحان يوجب تخصيص المحسن بالرحمة والثواب وتخصيص المسيء بالعقاب، وذلك لا يتم إلا مع الاعتراف بالمعاد والقيامة، فعند هذا خاطب محمدًا عليه الصلاة والسلام وقال: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ومعناه أنهم ينكرون هذا الكلام ويحكمون بفساد القول بالبعث.

فإن قيل: الذي يمكن وصفه بأنه سحر ما يكون فعلاً مخصوصًا، وكيف يمكن وصف هذا القول بأنه سحر؟

قلنا: الجواب عنه من وجوه: الأول: قال القفال: معناه أن هذا القول خديعة منكم وضعتموها لمنع الناس عن لذات الدنيا وإحرازًا لهم إلى الانقياد لكم والدخول تحت طاعتكم. الثاني: أن معنى قوله: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ هو أن السحر أمر باطل، قال تعالى حاكيًا عن موسى عليه السلام ﴿مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾ [يونس: ٨١] فقوله: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ﴾ أي باطل مبين. الثالث: أن القرآن هو الحاكم بحصول البعث وطعنوا في القرآن بكونه سحرًا لأن الطعن في الأصل يفيد الطعن في الفرع. الرابع: قرأ حمزة والكسائي (إِنْ هَذَا إِلاَّ سَاحِرٌ) يريدون النبي ﷺ والساحر كاذب.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾﴾

اعلم أنه تعالى حكى عن الكفار أنهم يكذبون الرسول ﷺ بقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ فحكى عنهم في هذه الآية نوعًا آخر من أباطيلهم وهو أنه متى تأخر عنهم العذاب الذي توعدهم الرسول ﷺ به أخذوا في الاستهزاء ويقولون: ما السبب الذي حبسه عنا؟

فأجاب الله تعالى بأنه إذا جاء الوقت الذي عينه الله لنزول ذلك العذاب الذي كانوا يستهزءون به لم ينصرف ذلك العذاب عنهم وأحاط بهم ذلك العذاب. بقي ههنا سؤالات:

السؤال الأول: المراد من هذا العذاب هو عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة؟

الجواب: للمفسرين فيه وجوه:

الأول: قال الحسن: معنى حكم الله في هذه الآية أنه لا يعذب أحدًا منهم بعذاب الاستئصال وأخر ذلك إلى يوم القيامة، فلما أخر الله عنهم ذلك العذاب قالوا على سبيل الاستهزاء ما الذي حبسه عنا؟

والثاني: أن المراد الأمر بالجهاد وما نزل بهم يوم بدر، وعلى هذا الوجه تأولوا قوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي نزل بهم هذا العذاب يوم بدر.

السؤال الثاني: ما المراد بقوله: ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعۡدُودَةٍ﴾.

الجواب من وجهين: الأول: أن الأصل في الأمة هم الناس والفرقة فإذا قلت: جاءني أمة من الناس، فالمراد طائفة مجتمعة قال تعالى: ﴿وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ﴾ [القصص: ٢٣] وقوله: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥] أي بعد انقضاء أمة وفنائها فكذا ههنا قوله: ﴿وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعۡدُودَةٍ﴾ أي إلى حين تنقضي أمة من الناس انقرضت بعد هذا الوعيد بالقول، لقالوا: ماذا يحبسه عنا وقد انقرض من الناس الذين كانوا متوعدين بهذا الوعيد؟ وتسمية الشيء باسم ما يحصل فيه كقولك: كنت عند فلان صلاة العصر، أي في ذلك الحين. الثاني: أن اشتقاق الأمة من الأَم، وهو القصد، كأنه يعني الوقت المقصود بإيقاع هذا الموعود فيه.

السؤال الثالث: لم قال: ﴿وَحَاقَ﴾ على لفظ الماضي مع أن ذلك لم يقع؟

والجواب: قد مر في هذا الكتاب آيات كثيرة من هذا الجنس، والضابط فيها أنه تعالى أخبر عن أحوال القيامة بلفظ الماضي مبالغة في التأكيد والتقرير.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةً ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ۝٩ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝١١﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر أن عذاب أولئك الكفار وإن تأخر إلا أنه لا بد وأن يحيق بهم، ذكر بعده ما يدل على كفرهم، وعلى كونهم مستحقين لذلك العذاب. فقال: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: لفظ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾

في هذه الآية فيه قولان:

القول الأول: أن المراد منه مطلق الإنسان ويدل عليه وجوه: الأول: أنه تعالى استثنى منه قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل، فثبت أن

الإنسان المذكور في هذه الآية داخل فيه المؤمن والكافر، وذلك يدل على ما قلناه. الثاني: أن هذه الآية موافقة على هذا التقرير لقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣] وموافقة أيضًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩ - ٢١] الثالث: أن مزاج الإنسان مجبول على الضعف والعجز. قال ابن جريج في تفسير هذه الآية: يا ابن آدم إذا نزلت لك نعمة من الله فأنت كفور، فإذا نزعت منك فيئوس قنوط.

والقول الثاني: أن المراد منه الكافر، ويدل عليه وجوه: الأول: أن الأصل في المفرد المحلى بالألف واللام أن يحمل على المعهود السابق لولا المانع، وههنا لا مانع فوجب حمله عليه والمعهود السابق هو الكافر المذكور في الآية المتقدمة. الثاني: أن الصفات المذكورة للإنسان في هذه الآية لا تليق إلا بالكافر لأنه وصفه بكونه يئوسًا، وذلك من صفات الكافر لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] ووصفه أيضًا بكونه كفورًا، وهو تصريح بالكفر ووصفه أيضًا بأنه عند وجدان الراحة يقول: ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ﴾ [هود: ١٠] وذلك جراءة على الله تعالى، ووصفه أيضًا بكونه فرحًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦] ووصفه أيضًا بكونه فخورًا، وذلك ليس من صفات أهل الدين. ثم قال الناظرون لهذا القول: وجب أن يحمل الاستثناء المذكور في هذه الآية على الاستثناء المنقطع حتى لا تلزمنا هذه المحذورات.

المسألة الثانية: لفظ الإذاقة والذوق يفيد أقل ما يوجد به الطعم، فكان المراد أن الإنسان بوجدان أقل القليل من الخيرات العاجلة يقع في التمرد والطغيان، وبإدراك أقل القليل من المحنة والبلية يقع في اليأس والقنوط والكفران فالدنيا في نفسها قليلة، والحاصل منها للإنسان الواحد قليل، والإذاقة من ذلك المقدار خير قليل ثم إنه في سرعة الزوال يشبه أحلام النائمين وخيالات الموسوسين، فهذه الإذاقة من قليل، ومع ذلك فإن الإنسان لا طاقة له بتحملها ولا صبر له على الإتيان بالطريق الحسن معها. وأما النعماء فقال الواحدي: إنها إنعام يظهر أثره على صاحبه، والضراء مضرة يظهر أثرها على صاحبها، لأنها خرجت مخرج الأحوال الظاهرة نحو حمراء وعوراء، وهذا هو الفرق بين النعمة والنعماء، والمضرة والضراء.

المسألة الثالثة: اعلم أن أحوال الدنيا غير باقية، بل هي أبدًا في التغير والزوال، والتحول والانتقال، إلا أن الضابط فيه أنه إما أن يتحول من النعمة إلى المحنة، ومن اللذات إلى الآفات وإما أن يكون بالعكس من ذلك، وهو أن ينتقل من المكروه إلى المحبوب، ومن المحرمات إلى الطيبات.

أما القسم الأول: فهو المراد من قوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾ وحاصل الكلام أنه تعالى حكم على هذا الإنسان بأنه يئوس كفور. وتقريره أن يقال: إنه حال زوال تلك النعمة يصير يئوسًا، وذلك لأن الكافر يعتقد أن السبب في حصول تلك النعمة

سبب اتفاقي، ثم إنه يستبعد حدوث ذلك الاتفاق مرة أخرى فلا جرم يستبعد عود تلك النعمة فيقع في اليأس. وأما المسلم الذي يعتقد أن تلك النعمة إنما حصلت من الله تعالى وفضله وإحسانه وطوله فإنه لا يحصل له اليأس، بل يقول لعله تعالى يردها إلى بعد ذلك أكمل وأحسن وأفضل مما كانت، وأما حال كون تلك النعمة حاصلة فإنه يكون كفورًا لأنه لما اعتقد أن حصولها إنما كان على سبيل الاتفاق أو بسبب أن الإنسان حَصَّلَها بسبب جده وجهده، فحينئذ لا يشتغل بشكر الله تعالى على تلك النعمة. فالحاصل أن الكافر يكون عند زوال تلك النعمة يئوسًا وعند حصولها يكون كفورًا.

وأما القسم الثاني: وهو أن ينتقل الإنسان من المكروه إلى المحبوب، ومن المحنة إلى النعمة، فههنا الكافر يكون فرحًا فخورًا. أما قوة الفرح فلأن منتهى طمع الكافر هو الفوز بهذه السعادات الدنيوية وهو منكر للسعادات الأخروية الروحانية، فإذا وجد الدنيا فكأنه قد فاز بغاية السعادات فلا جرم يعظم فرحه بها، وأما كونه فخورًا فلأنه لما كان الفوز بسائر المطلوب نهاية السعادة لا جرم يفتخر به، فحاصل الكلام أنه تعالى بيَّن أن الكافر عند البلاء لا يكون من الصابرين، وعند الفوز بالنعماء لا يكون من الشاكرين. ثم لما قرر ذلك قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ والمراد منه ضد ما تقدم فقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ المراد منه أن يكون عند البلاء من الصابرين، وقوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المراد منه أن يكون عند الراحة والخير من الشاكرين. ثم بيَّن حالهم فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ فجمع لهم بين هذين المطلوبين. أحدهما: زوال العقاب والخلاص منه، وهو المراد من قوله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾، والثاني: الفوز بالثواب وهو المراد من قوله: ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ومن وقف على هذا التفصيل الذي ذكرناه علم أن هذا الكتاب الكريم كما أنه معجز بحسب ألفاظه فهو أيضًا معجز بحسب معانيه.

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾

اعلم أن هذا نوع آخر من كلمات الكفار، والله تعالى بيَّن أن قلب الرسول ضاق بسببه، ثم إنه تعالى قواه وأيده بالإكرام والتأييد.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رؤساء مكة قالوا: يا محمد اجعل لنا جبال مكة ذهبًا إن كنت رسولاً، وقال آخرون: ائتنا بالملائكة يشهدون بنبوتك. فقال: لا أقدر على ذلك فنزلت هذه الآية. واختلفوا في المراد بقوله: ﴿تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ قال

ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال المشركون للنبي ﷺ ائْتِنَا بِكِتَابٍ لَيْسَ فِيهِ شَتْمُ آلِهَتِنَا حَتَّى نَتَّبِعَكَ وَنُؤْمِنَ بِكَ، وَقَالَ الْحَسَنُ اطْلُبُوا مِنْهُ لاَ يَقُولُ: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ [طه: ١٥] وقال بعضهم: الْمُرَادُ نِسْبَتُهُمْ إِلَى الْجَهْلِ وَالتَّقْلِيدِ وَالْإِصْرَارِ عَلَى الْبَاطِلِ.

المسألة الثانية: أجمع المسلمون على أنه لا يجوز على الرسول عليه الصلاة والسلام أن يخون في الوحي والتنزيل وأن يترك بعض ما يوحى إليه، لأن تجويزه يؤدي إلى الشك في كل الشرائع والتكاليف وذلك يقدح في النبوة وأيضًا فالمقصود من الرسالة تبليغ تكاليف الله تعالى وأحكامه فإذا لم تحصل هذه الفائدة فقد خرجت الرسالة عن أن تفيد فائدتها المطلوبة منها، وإذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد من قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ شيئًا آخر سوى أنه عليه السلام فعل ذلك وللناس فيه وجوه: الأول: لا يمتنع أن يكون في معلوم الله تعالى أنه إنما يترك التقصير في أداء الوحي والتنزيل لسبب يرد عليه من الله تعالى أمثال هذه التهيئات البليغة الثاني: أنهم كانوا لا يعتقدون بالقرآن ويتهاونون به، فكان يضيق صدر الرسول ﷺ أن يلقي إليهم ما لا يقبلونه ويضحكون منه، فهيجه الله تعالى لأداء الرسالة وطرح المبالاة بكلماتهم الفاسدة وترك الالتفات إلى استهزائهم، والغرض منه التنبيه على أنه إن أدى ذلك الوحي وقع في سخريتهم وسفاهتهم وإن لم يؤد ذلك الوحي إليهم وقع في ترك وحي الله تعالى وفي إيقاع الخيانة فيه، فإذا لا بد من تحمل أحد الضررين وتحمل سفاهتهم أسهل من تحمل إيقاع الخيانة في وحي الله تعالى، والغرض من ذكر هذا الكلام التنبيه على هذه الدقيقة، لأن الإنسان إذا علم أن كل واحد من طرفي الفعل والترك يشتمل على ضرر عظيم، ثم علم أن الضرر في جانب الترك أعظم وأقوى سهل عليه ذلك الفعل وخف، فالمقصود من ذكر هذا الكلام ما ذكرناه.

فإن قيل: قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ كلمة شك فما الفائدة فيها؟

قلنا: المراد منه الزجر، والعرب تقول للرجل إذا أرادوا إبعاده عن أمر: لعلك تقدر أن تفعل كذا مع أنه لا شك فيه، ويقول لولده لو أمره: لعلك تقصر فيما أمرتك به ويريد توكيد الأمر فمعناه لا تترك.

وأما قوله: ﴿وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ فالضائق بمعنى الضيق، قال الواحدي: الفرق بينهما أن الضائق يكون بضيق عارض غير لازم، لأن رسول الله ﷺ كان أفسح الناس صدرًا، ومثله قولك: زيد سيد جواد تريد السيادة والجود الثابتين المستقرين، فإذا أردت الحدوث قلت: سائد وجائد، والمعنى: ضائق صدرك لأجل أن يقولوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ .

فإن قيل: الكنز كيف ينزل؟

قلنا: المراد ما يكنز وجرت العادة على أنه يسمى المال الكثير بهذا الاسم، فكأن القوم قالوا: إن كنت صادقًا في أنك رسول الإله الذي تصفه بالقدرة على كل شيء وإنك عزيز عنده فهلا أنزل عليك ما تستغني به وتغني أحبابك من الكد والعناء وتستعين به على مهماتك وتعين أنصارك وإن

كنت صادقًا فهلا أنزل الله معك ملكًا يشهد لك على صدق قولك ويعينك على تحصيل مقصودك فتزول الشبهة في أمرك، فلما لم يفعل إلهك ذلك فأنت غير صادق، فبيَّن تعالى أنه رسول منذر بالعقاب ومبشر بالثواب ولا قدرة له على إيجاد هذه الأشياء. والذي أرسله هو القادر على ذلك فإن شاء فعل وإن شاء لم يفعل ولا اعتراض لأحد عليه في فعله وفي حكمه. ومعنى ﴿وَكِيلٌ﴾ حفيظ أي يحفظ عليهم أعمالهم، أي يجازيهم بها، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ [الفرقان: ١٠] وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ [الإسراء: ٩٠] إلى قوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣].

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾

اعلم أن القوم لما طلبوا منه المعجز قال: معجزي هذا القرآن ولما حصل المعجز الواحد كان طلب الزيادة بغيًا وجهلاً، ثم قرر كونه معجزًا بأن تحداهم بالمعارضة، وتقرير هذا الكلام بالاستقصاء قد تقدم في البقرة وفي سورة يونس وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: الضمير في قوله: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ عائد إلى ما سبق من قوله: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ أي إن قالوا إن هذا الذي يوحى إليك مفترى فقل لهم حتى يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، وقوله ﴿مِّثْلِهِۦ﴾ بمعنى أمثاله حملاً على كل واحد من تلك السور ولا يبعد أيضًا أن يكون المراد هو المجموع، لأن مجموع السور العشرة شيء واحد.

المسألة الثانية: قال ابن عباس: هذه السورة التي وقع بها هذا التحدي معينة، وهي سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال والتوبة ويونس وهود عليهما السلام، وقوله: ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ إشارة إلى السور المتقدمة على هذه السورة، وهذا فيه إشكال، لأن هذه السورة مكية، وبعض السور المتقدمة على هذه السورة مدنية، فكيف يمكن أن يكون المراد من هذه العشر السور التي ما نزلت عند هذا الكلام، فالأولى أن يقال: التحدي وقع بمطلق السور التي يظهر فيها قوة تركيب الكلام وتأليفه.

واعلم أن التحدي بعشر سور لا بد وأن يكون سابقًا على التحدي بسورة واحدة، وهو مثل أن يقول الرجل لغيره اكتب عشرة أسطر مثل ما أكتب، فإذا ظهر عجزه عنه قال: قد اقتصرت منها على سطر واحد مثله.

إذا عرفت هذا فنقول: التحدي بالسورة الواحدة ورد في سورة البقرة، وفي سورة يونس كما تقدم، أما تقدم هذه السورة على سورة البقرة فظاهر، لأن هذه السورة مكية وسورة البقرة مدنية، وأما في سورة يونس فالإشكال زائل أيضًا، لأن كل واحدة من هاتين السورتين مكية، والدليل

الذي ذكرناه يقتضي أن تكون سورة هود متقدمة في النزول على سورة يونس حتى يستقيم الكلام الذي ذكرناه.

المسألة الثالثة: اختلف الناس في الوجه الذي لأجله كان القرآن معجزًا، فقال بعضهم: هو الفصاحة، وقال بعضهم: هو الأسلوب، وقال ثالث: هو عدم التناقض، وقال رابع: هو اشتماله على العلوم الكثيرة، وقال خامس: هو الصرف، وقال سادس: هو اشتماله على الإخبار عن الغيوب، والمختار عندي وعند الأكثرين أنه معجز بسبب الفصاحة، واحتجوا على صحة قولهم بهذه الآية لأنه لو كان وجه الإعجاز هو كثرة العلوم أو الإخبار عن الغيوب أو عدم التناقض لم يكن لقوله: ﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ معنى أما إذا كان وجه الإعجاز هو الفصاحة صح ذلك؛ لأن فصاحة الفصيح تظهر بالكلام، سواء كان الكلام صدقًا أو كذبًا، وأيضًا لو كان الوجه في كونه معجزًا هو الصرف لكان دلالة الكلام الركيك النازل في الفصاحة على هذا المطلوب أوكد من دلالة الكلام العالي في الفصاحة، ثم إنه تعالى لما قرر وجه التحدي قال: ﴿وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ والمراد إن كنتم صادقين في ادعاء كونه مفترى كما قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾.

واعلم أن هذا الكلام يدل على أنه لا بد في إثبات الدين من تقرير الدلائل والبراهين، وذلك لأنه تعالى أورد في إثبات نبوة محمد عليه السلام هذا الدليل وهذه الحجة، ولولا أن الدين لا يتم إلا بالدليل لم يكن في ذكره فائدة.

قوله تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾

اعلم أن الآية المتقدمة اشتملت على خطابين: أحدهما: خطاب الرسول، وهو قوله: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾، والثاني: خطاب الكفار وهو قوله: ﴿وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ١٣] فلما أتبعه بقوله: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ احتمل أن يكون المراد أن الكفار لم يستجيبوا في المعارضة لتعذرها عليهم، واحتمل أن من يدعونه من دون الله لم يستجيبوا، فلهذا السبب اختلف المفسرون على قولين: فبعضهم قال: هذا خطاب للرسول ﷺ وللمؤمنين، والمراد أن الكفار إن لم يستجيبوا لكم في الإتيان بالمعارضة، فاعلموا أنما أنزل بعلم الله. والمعنى: فاثبتوا على العلم الذي أنتم عليه وازدادوا يقينًا وثبات قدم على أنه منزل من عند الله، ومعنى قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي فهل أنتم مخلصون، ومنهم من قال: فيه إضمار، والتقدير: فقولوا أيها المسلمون للكفار اعلموا أنما أنزل بعلم الله.

والقول الثاني: أن هذا خطاب مع الكفار، والمعنى أن الذين تدعونهم من دون الله إذا لم يستجيبوا لكم في الإعانة على المعارضة، فاعلموا أيها الكفار أن هذا القرآن إنما أنزل بعلم الله فهل أنتم مسلمون بعد لزوم الحجة عليكم، والقائلون بهذا القول قالوا: هذا أولى من القول

الأول، لأنكم في القول الأول احتجتم إلى أن حملتم قوله: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ﴾ على الأمر بالثبات أو على إضمار القول، وعلى هذا الاحتمال لا حاجة فيه إلى إضمار، فكان هذا أولى، وأيضًا فعود الضمير إلى أقرب المذكورين واجب، وأقرب المذكورين في هذه الآية هو هذا الاحتمال الثاني، وأيضًا أن الخطاب الأول كان مع الرسول عليه الصلاة والسلام وحده بقوله: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ﴾ [هود: ١٣] والخطاب الثاني كان مع جماعة الكفار بقوله: ﴿وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ١٣] وقوله: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ خطاب مع الجماعة، فكان حمله على هذا الذي قلناه أولى. بقي في الآية سؤالات:

السؤال الأول: ما الشيء الذي لم يستجيبوا فيه؟

الجواب: المعنى: فإن لم يستجيبوا لكم في معارضة القرآن، وقال بعضهم: فإن لم يستجيبوا لكم في جملة الإيمان وهو بعيد.

السؤال الثاني: من المشار إليه بقوله: ﴿لَكُمْ﴾ ؟

والجواب: إن حملنا قوله: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ على المؤمنين فذلك ظاهر، وإن حملناه على الرسول فعنه جوابان: الأول: المراد: فإن لم يستجيبوا لك وللمؤمنين، لأن الرسول عليه السلام والمؤمنين كانوا يتحدونهم، وقال في موضع آخر: فإن لم يستجيبوا لك فاعلم. والثاني: يجوز أن يكون الجمع لتعظيم رسول الله ﷺ.

السؤال الثالث: أي تعلق بين الشرط المذكور في هذه الآية وبين ما فيها من الجزاء.

والجواب: أن القوم ادعوا كون القرآن مفترى على الله تعالى، فقال: لو كان مفترى على الله لوجب أن يقدر الخلق على مثله ولما لم يقدروا عليه، ثبت أنه من عند الله، فقوله: ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ كناية عن كونه من عند الله ومن قبله، كما يقول الحاكم هذا الحكم جرى بعلمي.

السؤال الرابع: أي تعلق لقوله: ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بعجزهم عن المعارضة.

والجواب فيه من وجوه:

الأول: أنه تعالى لما أمر محمدًا ﷺ حتى يطلب من الكفار أن يستعينوا بالأصنام في تحقيق المعارضة ثم ظهر عجزهم عنها فحينئذ ظهر أنها لا تنفع ولا تضر في شيء من المطالب ألبتة، ومتى كان كذلك، فقد بطل القول بإثبات كونهم آلهة، فصار عجز القوم عن المعارضة بعد الاستعانة بالأصنام مبطلاً لإلهية الأصنام ودليلاً على ثبوت نبوة محمد ﷺ، فكان قوله: ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إشارة إلى ما ظهر من فساد القول بإلهية الأصنام:

الثاني: أنه ثبت في علم الأصول أن القول بنفي الشريك عن الله من المسائل التي يمكن إثباتها بقول الرسول عليه السلام، وعلى هذا فكأنه قيل: لما ثبت عجز الخصوم عن المعارضة ثبت كون القرآن حقًّا، وثبت كون محمد ﷺ صادقًا في دعوى الرسالة، ثم إنه كان يخبر عن أنه لا إله

إلا الله فلما ثبت كونه محقًا في دعوى النبوة ثبت قوله: ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ .

الثالث: أن ذكر قوله ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ جار مجرى التهديد، كأنه قيل: لما ثبت بهذا الدليل كون محمد عليه السلام صادقًا في دعوى الرسالة وعلمتم أنه لا إله إلا الله، فكونوا خائفين من قهره وعذابه واتركوا الإصرار على الكفر واقبلوا الإسلام، ونظيره قوله تعالى في سورة البقرة عند ذكر آية التحدي: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

وأما قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ .

فإن قلنا: إنه خطاب مع المؤمنين كان معناه الترغيب في زيادة الإخلاص. وإن قلنا: إنه خطاب مع الكفار كان معناه الترغيب في أصل الإسلام.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٦﴾

اعلم أن الكفار كانوا ينازعون محمدًا ﷺ في أكثر الأحوال، فكانوا يظهرون من أنفسهم أن محمدًا مبطل ونحن محقون، وإنما نبالغ في منازعته لتحقيق الحق وإبطال الباطل، وكانوا كاذبين فيه، بل كان غرضهم محض الحسد والاستنكاف من المتابعة، فأنزل الله تعالى هذه الآية لتقرير هذا المعنى. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨] وقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن في الآية قولين:

القول الأول: أنها مختصة بالكفار، لأن قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا﴾ يندرج فيه المؤمن والكافر والصديق والزنديق، لأن كل أحد يريد التمتع بلذات الدنيا وطيباتها والانتفاع بخيراتها وشهواتها، إلا أن آخر الآية يدل على أن المراد من هذا العام الخاص وهو الكافر، لأن قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ لا يليق إلا بالكفار، فصار تقدير الآية: من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها فقط، أي تكون إرادته مقصورة على حب الدنيا وزينتها ولم يكن طالبًا لسعادات الآخرة، كان حكمه كذا وكذا، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا فيه، فمنهم من قال: المراد منهم منكرو البعث فإنهم ينكرون الآخرة ولا يرغبون إلا في سعادات الدنيا، وهذا قول الأصم وكلامه ظاهر.

والقول الثاني: أن الآية نزلت في المنافقين الذين كانوا يطلبون بغزوهم مع الرسول عليه السلام الغنائم من دون أن يؤمنوا بالآخرة وثوابها.

والقول الثالث: أن المراد: اليهود والنصارى؛ وهو منقول عن أنس.

والقول الرابع: وهو الذي اختاره القاضي أن المراد: من كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا وزينتها، وعمل الخير قسمان: العبادات، وإيصال المنفعة إلى الحيوان، ويدخل في هذا القسم الثاني البر وصلة الرحم والصدقة وبناء القناطر وتسوية الطرق والسعي في دفع الشرور وإجراء الأنهار. فهذه الأشياء إذا أتى بها الكافر لأجل الثناء في الدنيا، فإن بسببها تصل الخيرات والمنافع إلى المحتاجين، فكلها تكون من أعمال الخير، فلا جرم هذه الأعمال تكون طاعات سواء صدرت من الكافر أو المسلم. وأما العبادات: فهي إنما تكون طاعات بنيات مخصوصة، فإذا لم يؤت بتلك النية، وإنما أتى فاعلها بها على طلب زينة الدنيا، وتحصيل الرياء والسمعة فيها صار وجودها كعدمها فلا تكون من باب الطاعات.

وإذا عرفت هذا فنقول قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ المراد منه الطاعات التي يصح صدورها من الكافر.

القول الثاني: وهو أن تجري الآية على ظاهرها في العموم، ونقول: إنه يندرج فيه المؤمن الذي يأتي بالطاعات على سبيل الرياء والسمعة، ويندرج فيه الكافر الذي هذا صفته، وهذا القول مشكل، لأن قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ لا يليق بالمؤمن إلا إذا قلنا المراد أولئك الذين ليس لهم في الأخرة إلا النار بسبب هذه الأعمال الفاسدة والأفعال الباطلة المقرونة بالرياء، ثم القائلون بهذا القول ذكروا أخبارًا كثيرة في هذا الباب. روي أن الرسول عليه السلام قال: «تَعَوَّذُوا باللّه مِنْ جُبِّ الْحَزَنِ» قيل: وما جب الحزن؟ قال عليه الصلاة والسلام: «وَادٍ في جهنم يلقى فيه القراء المراءون»(١) وقال عليه الصلاة والسلام: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ يَرَى النَّاسُ أَنَّ فِيهِ خَيْرًا وَلاَ خَيْرَ فِيهِ»(٢)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يُدْعَى بِرَجُلٍ جَمَعَ الْقُرْآنَ، فَيُقَالُ لَهُ: مَا عَمِلْتَ فِيهِ؟ فَيَقُولُ يَا رَبِّ قُمْتُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فَيَقُولُ اللّه تَعَالَى: كَذَبْتَ بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ قارئ، وقد قيل ذلك، ويؤتى بِصَاحِبِ الْمَالِ فَيَقُولُ اللّه لَهُ: أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ فَيَقُولُ: وَصَلْتُ الرَّحِمَ وَتَصَدَّقْتُ، فَيَقُولُ اللّه تَعَالَى: كَذَبْتَ بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَوَادٌ، وَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ، وَيُؤْتَى بِمَنْ قُتِلَ

---

(١) أخرجه الترمذي في (سننه) (٤/ ٥٩٣) حديث رقم/ ٢٣٨٣، وقال: هذا حديث حسن غريب، وابن ماجه في (سننه) (١/ ٩٤) حديث (رقم/ ٢٥٦).

(٢) أخرجه الديلمي (١/ ٣٦١، رقم ١٤٥٨). وعزاه المناوي (١/ ٥١٧) لأبي عبد الرحمن السلمي في الأربعين، والديلمي، وقال: فيه الربيع بن بدر، قال الذهبي: قال الدارقطني وغيره متروك ومن ثم رمز لضعفه. والحديث موضوع كما في السلسلة الضعيفة للألباني (٦/ ٢٩٧، رقم ٢٧٨٢).

فِي سَبِيلِ اللَّه فَيَقُولُ: قَاتَلْتُ فِي الْجِهَادِ حَتَّى قُتِلْتُ، فَيَقُولُ اللَّه تَعَالَى: كَذَبْتَ بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَرِيءٌ وَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ» قال أبو هريرة رضي الله عنه ثم ضرب رسول الله ﷺ ركبتي وَقَالَ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ خَلْقٍ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ(١)، وروي أن أبا هريرة رضي الله عنه ذكر هذا الحديث عند معاوية قال الراوي فبكى حتى ظننا أنه هالك ثم أفاق وقال صدق الله ورسوله ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ .

المسألة الثانية: المراد من توفية أجور تلك الأعمال هو أن كل ما يستحقون بها من الثواب، فإنه يصل إليهم حال كونهم في دار الدنيا، فإذا خرجوا من الدنيا لم يبق معهم من تلك الأعمال أثر من آثار الخيرات، بل ليس لهم منها إلا النار.

واعلم أن العقل يدل عليه قطعًا، وذلك لأن من أتى بالأعمال لأجل طلب الثناء في الدنيا ولأجل الرياء، فذلك لأجل أنه غلب على قلبه حب الدنيا، ولم يحصل في قلبه حب الآخرة، إذ لو عرف حقيقة الآخرة وما فيها من السعادات لامتنع أن يأتي بالخيرات لأجل الدنيا وينسى أمر الآخرة، فثبت أن الآتي بأعمال البر لأجل الدنيا لا بد وأن يكون عظيم الرغبة في الدنيا عديم الطلب للآخرة ومن كان كذلك فإذا مات فإنه يفوته جميع منافع الدنيا ويبقى عاجزًا عن وجدانها غير قادر على تحصيلها، ومن أحب شيئًا ثم حيل بينه وبين المطلوب فإنه لا بد وأن تشتعل في قلبه نيران الحسرات فثبت بهذا البرهان العقلي، أن كل من أتى بعمل من الأعمال لطلب الأحوال الدنيوية فإنه يجد تلك المنفعة الدنيوية اللائقة بذلك العمل، ثم إذا مات فإنه لا يحصل له منه إلا النار ويصير ذلك العمل في الدار الآخرة محبطًا باطلاً عديم الأثر.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾

اعلم أن تعلق هذه الآية بما قبلها ظاهر، والتقدير: أفمن كان على بينة من ربه كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها وليس لهم في الآخرة إلا النار، إلا أنه حذف الجواب لظهوره ومثله في القرآن كثير كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨]

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في كتاب (الإمارة) باب (من قاتل للرياء والسمعة استحق النار) (٣/ ١٥٢/ ١٥١٣). والنسائي في كتاب (الجهاد) باب (من قاتل ليقال فلان جريء) (٣/ ٣٢٥) حديث رقم/ ٣١٣٧، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٣٢٢)، من طريق حجاج... به، والبيهقي في (السنن الكبرى) (٩/ ١٦٨) من طريق عبد الوهاب بن عطاء... به. جميعًا (خالد، حجاج، عبد الوهاب) عن ابن جريج... به.

وقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ [الزمر: ٩] وقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

واعلم أن أول هذه الآية مشتمل على ألفاظ أربعة كل واحد محتمل: فالأول: أن هذا الذي وصفه الله تعالى بأنه على بينة من ربه من هو. والثاني: أنه ما المراد بهذه البينة. والثالث: أن المراد بقوله: ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ القرآن أو كونه حاصلاً عقيب غيره. والرابع: أن هذا الشاهد ما هو؟ فهذه الألفاظ الأربعة مجملة فلهذا كثر اختلاف المفسرين في هذه الآية.

أما الأول: وهو أن هذا الذي وصفه الله تعالى بأنه على بينة من ربه من هو؟ فقيل: المراد به النبي عليه الصلاة والسلام، وقيل: المراد به من آمن من اليهود كعبدالله بن سلام وغيره، وهو الأظهر لقوله تعالى في آخر الآية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ وهذا صيغة جمع، فلا يجوز رجوعه إلى محمد ﷺ، والمراد بالبينة هو البيان والبرهان الذي عرف به صحة الدين الحق والضمير في ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ يرجع إلى معنى البينة، وهو البيان والبرهان والمراد بالشاهد هو القرآن، و﴿مِّنْهُ﴾ أي من الله ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾، أي ويتلو ذلك البرهان من قبل مجيء القرآن كتاب موسى.

واعلم أن كون كتاب موسى تابعًا للقرآن ليس في الوجود بل في دلالته على هذا المطلوب و ﴿إِمَامًا﴾ نصب على الحال، فالحاصل أنه يقول اجتمع في تقرير صحة هذا الدين أمور ثلاثة أولها: دلالة البينات العقلية على صحته. وثانيها: شهادة القرآن بصحته. وثالثها: شهادة التوراة بصحته، فعند اجتماع هذه الثلاثة لا يبقى في صحته شك ولا ارتياب، فهذا القول أحسن الأقاويل في هذه الآية وأقربها إلى مطابقة اللفظ.

وفيها أقوال أخر:

فالقول الأول: أن الذي وصفه الله تعالى بأنه على بينة من ربه هو محمد عليه السلام والبينة هو القرآن، والمراد بقوله: ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ هو التلاوة بمعنى القراءة وعلى هذا التقدير فذكروا في تفسير الشاهد وجوهًا: أحدها: أنه جبريل عليه السلام، والمعنى: أن جبريل عليه السلام يقرأ القرآن على محمد عليه السلام. وثانيها: أن ذلك الشاهد هو لسان محمد عليه السلام وهو قول الحسن ورواية عن محمد بن الحنفية عن علي رضي الله عنهما قال: قلت لأبي أنت التالي قال: وما معنى التالي قلت: قوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ قال: وددت أني هو ولكنه لسان رسول الله ﷺ ولما كان الإنسان إنما يقرأ القرآن ويتلوه بلسانه لا جرم جعل اللسان تاليًا على سبيل المجاز كما يقال: عين باصرة وأذن سامعة ولسان ناطق. وثالثها: أن المراد هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والمعنى أنه يتلو تلك البينة وقوله: ﴿مِّنْهُ﴾ أي هذا الشاهد من محمد وبعض منه، والمراد منه تشريف هذا الشاهد بأنه بعض من محمد عليه السلام. ورابعها: أن لا يكون المراد بقوله: ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ القرآن بل حصول هذا الشاهد عقيب تلك البينة، وعلى هذا الوجه قالوا إن المراد أن صورة النبي عليه السلام ووجهه ومخايله كل ذلك يشهد بصدقه، لأن من نظر إليه

بعقله علم أنه ليس بمجنون ولا كاهن ولا ساحر ولا كذاب، والمراد بكون هذا الشاهد منه كون هذه الأحوال متعلقة بذات النبي ﷺ.

القول الثاني: أن الذي وصفه الله تعالى بأنه على بينة هم المؤمنون، وهم أصحاب النبي ﷺ، والمراد بالبينة: القرآن ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ أي ويتلو الكتاب الذي هو الحجة يعني ويعقبه شاهد من الله تعالى، وعلى هذا القول اختلفوا في ذلك الشاهد، فقال بعضهم: إنه محمد عليه السلام، وقال آخرون: بل ذلك الشاهد هو كون القرآن واقعًا على وجه يعرف كل من نظر فيه أنه معجزة وذلك الوجه هو اشتماله على الفصاحة التامة والبلاغة الكاملة وكونه بحيث لا يقدر البشر على الإتيان بمثله، وقوله: ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي من تلك البينة لأن أحوال القرآن وصفاته من القراءات متعلقة به. وثالثها: قال الفراء: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ يعني الإنجيل يتلو القرآن وإن كان قد أنزل قبله، والمعنى أنه يتلوه في التصديق، وتقريره: أنه تعالى ذكر محمدًا ﷺ في الإنجيل، وأمر بالإيمان به.

واعلم أن هذين القولين وإن كانا محتملين إلا أن القول الأول أقوى وأتم.

واعلم أنه تعالى وصف كتاب موسى عليه السلام بكونه إمامًا ورحمة، ومعنى كونه إمامًا أنه كان مقتدى العالمين، وإمامًا لهم يرجعون إليه في معرفة الدين والشرائع، وأما كونه رحمة فلأنه يهدي إلى الحق في الدنيا والدين، وذلك سبب لحصول الرحمة والثواب فلما كان سببًا للرحمة أطلق اسم الرحمة عليه إطلاقًا لاسم المسبب على السبب.

ثم قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ والمعنى: أن الذين وصفهم الله بأنهم على بينة من ربهم في صحة هذا الدين يؤمنون.

واعلم أن المطالب على قسمين منها ما يعلم صحتها بالبديهة، ومنها ما يحتاج في تحصيل العلم بها إلى طلب واجتهاد، وهذا القسم الثاني على قسمين، لأن طريق تحصيل المعارف إما الحجة والبرهان المستنبط بالعقل وإما الاستفادة من الوحي والإلهام، فهذان الطريقان هما الطريقان اللذان يمكن الرجوع إليهما في تعريف المجهولات، فإذا اجتمعا واعتضد كل واحد منهما بالآخر بلغا الغاية في القوة والوثوق، ثم إن في أنبياء الله تعالى كثرة، فإذا توافقت كلمات الأنبياء على صحته، وكان البرهان اليقيني قائمًا على صحته، فهذه المرتبة قد بلغت في القوة إلى حيث لا يمكن الزيادة فقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ المراد بالبينة الدلائل العقلية اليقينية، وقوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ إشارة إلى الوحي الذي حصل لمحمد عليه السلام، وقوله: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ إشارة إلى الوحي الذي حصل لموسى عليه السلام، وعند اجتماع هذه الثلاثة قد بلغ هذا اليقين في القوة والظهور والجلاء إلى حيث لا يمكن الزيادة عليه.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ والمراد من الأحزاب أصناف الكفار،

فيدخل فيهم اليهود والنصارى والمجوس. روى سعيد بن جبير عن أبي موسى أن النبي ﷺ قال: «لاَ يَسْمَعُ بِي يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ فَلاَ يُؤْمِنُ بِي إِلاَّ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»[1] قال أبو موسى: فقلت في نفسي: إن النبي ﷺ لا يقول مثل هذا إلا عن القرآن، فوجدت الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ وقال بعضهم: لما دلت الآية على أن من يكفر به فالنار موعده، دلت على أن من لا يكفر به لم تكن النار موعده.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

ففيه قولان:

الأول: فلا تك في مرية من صحة هذا الدين، ومن كون القرآن نازلاً من عند الله تعالى، فكان متعلقًا بما تقدم من قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [هود: ١٣].

الثاني: فلا تك في مرية من أن موعد الكافر النار. وقرئ (مُرْية) بضم الميم.

ثم قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ والتقدير: لما ظهر الحق ظهورًا في الغاية، فكن أنت متابعًا له ولا تبال بالجهال سواء آمنوا أو لم يؤمنوا، والأقرب أن يكون المراد لا يؤمنون بما تقدم ذكره من وصف القرآن.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾

اعلم أن الكفار كانت لهم عادات كثيرة وطرق مختلفة، فمنها شدة حرصهم على الدنيا ورغبتهم في تحصيلها، وقد أبطل الله هذه الطريقة بقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ [هود: ١٥] إلى آخر الآية، ومنها أنهم كانوا ينكرون نبوة الرسول ﷺ، ويقدحون في معجزاته، وقد أبطل الله تعالى ذلك بقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [هود: ١٧] ومنها أنهم كانوا يزعمون في الأصنام أنها شفعاؤهم عند الله، وقد أبطل الله تعالى ذلك بهذه الآية، وذلك لأن هذا الكلام افتراء على الله تعالى، فلما بيّن وعيد المفترين على الله، فقد دخل فيه هذا الكلام.

واعلم أن قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ إنما يورد في معرض المبالغة. وفيه دلالة على أن الافتراء على الله تعالى أعظم أنواع الظلم.

ثم إنه تعالى بيّن وعيد هؤلاء بقوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وما وصفهم بذلك لأنهم

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (١/ ١٣٤/ ١٥٣)، من طريق عمرو أن أبا يونس حدثه عن أبي هريرة... به. وأحمد في (مسنده) (٢/ ٣١٧) حديث رقم/ ٨١٨٨، من طريق معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة... به.

مختصون بذلك العرض، لأن العرض عام في كل العباد كما قال: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف: ٤٨] وإنما أراد به أنهم يعرضون فيفتضحون بأن يقول الأشهاد عند عرضهم ﴿هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ فحصل لهم من الخزي والنكال مالا مزيد عليه.

وفيه سؤالات:

السؤال الأول: إذا لم يجز أن يكون الله تعالى في مكان، فكيف قال: ﴿يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ والجواب: أنهم يعرضون على الأماكن المعدة للحساب والسؤال، ويجوز أيضًا أن يكون ذلك عرضًا على من شاء الله من الخلق بأمر الله من الملائكة والأنبياء والمؤمنين.

السؤال الثاني: من الأشهاد الذين أضيف إليهم هذا القول؟

الجواب: قال مجاهد: هم الملائكة الذين كانوا يحفظون أعمالهم عليهم في الدنيا. وقال قتادة ومقاتل: ﴿الْأَشْهَادُ﴾ الناس كما يقال على رءوس الأشهاد، يعني على رءوس الناس. وقال الآخرون: هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. قال الله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾[الأعراف: ٦]، والفائدة في اعتبار قول الأشهاد المبالغة في إظهار الفضيحة.

السؤال الثالث: الأشهاد جمع فما واحده؟ والجواب: يجوز أن يكون جمع شاهد مثل صاحب وأصحاب، وناصر وأنصار، ويجوز أن يكون جمع شهيد مثل شريف وأشراف. قال أبو علي الفارسي: وهذا كأنه أرجح، لأن ما جاء من ذلك في التنزيل جاء على فعيل، كقوله: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة: ١٤٣] ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾[النساء: ٤١] ثم لما أخبر عن حالهم في عذاب القيامة أخبر عن حالهم في الحال فقال: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ وبيّن أنهم في الحال لملعونون من عند الله، ثم ذكر من صفاتهم أنهم يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا يعني أنهم كما ظلموا أنفسهم بالتزام الكفر والضلال، فقد أضافوا إليه المنع من الدين الحق وإلقاء الشبهات، وتعويج الدلائل المستقيمة، لأنه لا يقال في العاصي: يبغي عوجًا، وإنما يقال ذلك فيمن يعرف كيفية الاستقامة، وكيفية العوج بسبب إلقاء الشبهات وتقرير الضلالات.

ثم قال: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ قال الزجاج: كلمة (هم) كررت على جهة التوكيد لثباتهم في الكفر.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ۘ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾

اعلم أن الله تعالى وصف هؤلاء المنكرين الجاحدين بصفات كثيرة في معرض الذم.

الصفة الأولى: كونهم مفترين على الله، وهي قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [هود: ١٨].

والصفة الثانية: أنهم يُعْرَضون على الله في موقف الذل والهوان والخزي والنكال وهي قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [هود: ١٨].

والصفة الثالثة: حصول الخزي والنكال والفضيحة العظيمة، وهي قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [هود: ١٨].

والصفة الرابعة: كونهم ملعونين من عند الله، وهي قوله: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

والصفة الخامسة: كونهم صادين عن سبيل الله مانعين عن متابعة الحق، وهي قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ١٩].

والصفة السادسة: سعيهم في إلقاء الشبهات، وتعويج الدلائل المستقيمة، وهي قوله: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [هود: ١٩].

والصفة السابعة: كونهم كافرين، وهي قوله: ﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ [هود: ١٩].

والصفة الثامنة: كونهم عاجزين عن الفرار من عذاب الله، وهي قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال الواحدي: معنى الإعجاز: المنع من تحصيل المراد. يقال: أعجزني فلان أي منعني عن مرادي، ومعنى ﴿مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي لا يمكنهم أن يهربوا من عذابنا فإن هرب العبد من عذاب الله محال، لأنه سبحانه وتعالى قادر على جميع الممكنات، ولا تتفاوت قدرته بالبعد والقرب والقوة والضعف.

والصفة التاسعة: أنهم ليس لهم أولياء يدفعون عذاب الله عنهم، والمراد منه الرد عليهم في وصفهم الأصنام بأنها شفعاؤهم عند الله والمقصود أن قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ دل على أنهم لا قدرة لهم على الفرار، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ هو أن أحدًا لا يقدر على تخليصهم من ذلك العذاب، فجمع تعالى بين ما يرجع إليهم وبين ما يرجع إلى غيرهم، وبيَّن بذلك انقطاع حيلهم في الخلاص من عذاب الدنيا والآخرة، ثم اختلفوا فقال قوم: المراد أن عدم نزول العذاب ليس لأجل أنهم قدروا على منع الله من إنزال العذاب ولا لأجل أن لهم ناصرًا يمنع ذلك العذاب عنهم، بل إنما حصل ذلك الإمهال لأنه تعالى أمهلهم كي يتوبوا فيزولوا عن كفرهم فإذا أبوا إلا الثبات عليه فلا بد من مضاعفة العذاب في الآخرة، وقال بعضهم: بل المراد أن يكونوا معجزين لله عما يريد إنزاله عليهم من العذاب في الآخرة أو في الدنيا ولا يجدون وليًا ينصرهم ويدفع ذلك عنهم.

والصفة العاشرة: قوله تعالى: ﴿يُضَـٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ قيل: سبب تضعيف العذاب في حقهم أنهم كفروا بالله وبالبعث وبالنشور، فكفرهم بالمبدأ والمعاد صار سببًا لتضعيف العذاب،

والأصوب أن يقال: إنهم مع ضلالهم الشديد، سعوا في الإضلال ومنع الناس عن الدين الحق، فلهذا المعنى حصل هذا التضعيف عليهم.

الصفة الحادية عشرة: قوله: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ والمراد ما هم عليه في الدنيا من صمم القلب وعمى النفس، واحتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى قد يخلق في المكلف ما يمنعه الإيمان، روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: إنه تعالى منع الكافر من الإيمان في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا ففي قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ وأما في الآخرة فهو قوله: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢] وحاصل الكلام في هذا الاستدلال أنه تعالى أخبر عنهم أنهم لا يستطيعون السمع، فإما أن يكون المراد أنهم ما كانوا يستطيعون سمع الأصوات والحروف، وإما أن يكون المراد كونهم عاجزين عن الوقوف على دلائل الله تعالى، والقول الأول باطل؛ لأن البديهة دلت على أنهم كانوا يسمعون الأصوات والحروف، وجب حمل اللفظ على الثاني، أجاب الجبائي عنه بأن السمع إما أن يكون عبارة عن الحاسة المخصوصة، أو عن معنى يخلقه الله تعالى في صماخ الأذن، وكلاهما لا يقدر العبد عليه، لأنه لو اجتهد في أن يفعل ذلك أو يتركه لتعذر عليه، وإذا ثبت هذا كان إثبات الاستطاعة فيه محالاً، وإذا كان إثباتها محالاً كان نفي الاستطاعة عنه هو الحق، فثبت أن ظاهر الآية لا يقدح في قولنا. ثم قال المراد بقوله: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ إهمالهم له ونفورهم عنه كما يقول القائل: هذا كلام لا أستطيع أن أسمعه، وهذا مما يمجه سمعي، وذكر غير الجبائي عذرًا آخر، فقال: إنه تعالى نفى أن يكون لهم أولياء والمراد الأصنام ثم بيَّن نفي كونهم أولياء بقوله: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ فكيف يصلحون للولاية.

والجواب: أما حمل الآية على أنه لا قدرة لهم على خلق الحاسة وعلى خلق المعنى فيها فباطل، لأن هذه الآية وردت في معرض الوعيد فلا بد وأن يكون ذلك معنى مختصًا بهم، والمعنى الذي قالوه حاصل في الملائكة والأنبياء فكيف يمكن حمل اللفظ عليه.

وأما قوله: إن ذلك محمول على أنهم كانوا يستثقلون سماع كلام رسول الله ﷺ وإبصار صورته، فالجواب أنه تعالى نفى الاستطاعة فَحَمْلُه على معنى آخر خلاف الظاهر، وأيضًا أن حصول ذلك الاستثقال إما أن يمنع من الفهم والوصول إلى الغرض أو لم يمنع، فإن منع فهو المقصود، وإن لم يمنع منه فحينئذ كان ذلك سببًا أجنبيًا عن المعاني المعتبرة في الفهم والإدراك، ولا تختلف أحوال القلب في العلم والمعرفة بسببه، فكيف يمكن جعله ذمًا لهم في هذا المعرض، وأيضًا قد بينا مرارًا كثيرة في هذا الكتاب أن حصول الفعل مع قيام الصارف محال، فلما بيَّن تعالى كون هذا المعنى صارفًا عن قبول الدين الحق وبيَّن فيه أنه حصل حصولاً على سبيل اللزوم بحيث لا يزول ألبتة في ذلك الوقت كان المكلف في ذلك الوقت ممنوعًا عن الإيمان، وحينئذ يحصل المطلوب، وأما قوله فإنا نجعل هذه الصفة من صفة الأوثان فبعيد؛

لأنه تعالى قال: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ ثم قال: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ فوجب أن يكون الضمير في هذه الآية المتأخرة عائدًا إلى عين ما عاد إليه الضمير المذكور في هذه الآية الأولى. وأما قوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ فقيل: المراد منه البصيرة، وقيل: المراد منه أنهم عدلوا عن إبصار ما يكون حجة لهم.

الصفة الثانية عشرة: قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ ومعناه أنهم اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله تعالى، فكان هذا الخسران أعظم وجوه الخسران.

الصفة الثالثة عشرة: قوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ والمعنى أنهم لما باعوا الدين بالدنيا فقد خسروا، لأنهم أعطوا الشريف، ورضوا بأخذ الخسيس، وهذا عين الخسران في الدنيا ثم في الآخرة، فهذا الخسيس يضيع ويهلك ولا يبقى منه أثر، وهو المراد بقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

الصفة الرابعة عشرة: قوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ وتقريره ما تقدم، وهو أنه لما أعطى الشريف الرفيع ورضي بالخسيس الوضيع فقد خسر في التجارة. ثم لما كان هذا الخسيس بحيث لا يبقى بل لا بد وأن يهلك ويفنى انقلبت تلك التجارة إلى النهاية في صفة الخسارة، فلهذا قال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ وقوله ﴿لَا جَرَمَ﴾ قال الفراء: إنها بمنزلة قولنا: لا بد ولا محالة، ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة حقًّا، تقول العرب: لا جرم أنك محسن، على معنى: حقًّا إنك محسن، وأما النحويون فلهم فيه وجوه: الأول: لا حرف نفي وجرَم، أي قطع، فإذا قلنا: لا جرم معناه أنه لا قطع قاطع عنهم أنهم في الآخرة هم الأخسرون. الثاني: قال الزجاج: إن كلمة ﴿لَا﴾ نفي لما ظنوا أنه ينفعهم، و ﴿جَرَمَ﴾ معناه كسب ذلك الفعل، والمعنى: لا ينفعهم ذلك وكسب ذلك الفعل لهم الخسران في الدنيا والآخرة، وذكرنا ﴿جَرَمَ﴾ بمعنى كسب في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾ [المائدة: ٢] قال الأزهري: وهذا من أحسن ما قيل في هذا الباب، الثالث: قال سيبويه والأخفش: ﴿لَا﴾ رد على أهل الكفر كما ذكرنا، وجرم معناه حق وصَحَّ، والتأويل أنه حق كفرهم وقوع العذاب والخسران بهم. واحتج سيبويه بقول الشاعر:

وَلَقَدْ طَعَنْتُ أبا عيينة طعنة ... جرمت فزاة بَعْدَهَا أنْ يَغْضَبُوا

أراد: حَقَّتِ الطَّعْنَةُ فَزَارَةَ أن يغضبوا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر عقوبة الكافرين وخسرانهم، أتبعه بذكر أحوال المؤمنين، والإخبات: هو الخشوع والخضوع، وهو مأخوذ من الخبت: وهو الأرض المطمئنة وخبت ذكره أي خفي،

فقوله: (أخبت) أي دخل في الخبت، كما يقال فيمن صار إلى نجد: أنجد وإلى تهامة أتهم، ومنه المخبت من الناس الذي أخبت إلى ربه أي اطمأن إليه، ولفظ الإخبات يتعدى بإلى وباللام، فإذا قلنا: أخبت فلان إلى كذا فمعناه اطمأن إليه، وإذا قلنا: أخبت له فمعناه خشع له.

إذا عرفت هذا فنقول: قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ إشارة إلى جميع الأعمال الصالحة، وقوله ﴿وَأَخْبَتُوٓا۟﴾ إشارة إلى أن هذه الأعمال لا تنفع في الآخرة إلا مع الأحوال القلبية ثم إن فسرنا الإخبات بالطمأنينة كان المراد أنهم يعبدون الله وكانت قلوبهم عند أداء العبادات مطمئنة بذكر الله فارغة عن الالتفات إلى ما سوى الله تعالى أو يقال: إنما قلوبهم صارت مطمئنة إلى صدق الله بكل ما وعدهم من الثواب والعقاب، وأما إن فسرنا الإخبات بالخشوع كان معناه أنهم يأتون بالأعمال الصالحة خائفين وجلين من أن يكونوا أتوا بها مع وجود الإخلال والتقصير، ثم بيَّن أن من حصل له هذه الصفات الثلاثة فهم أصحاب الجنة، ويحصل لهم الخلود في الجنة.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

واعلم أنه تعالى لما ذكر الفريقين ذكر فيهما مثالاً مطابقًا ثم اختلفوا فقيل: إنه راجع إلى من ذُكِرَ آخرًا من المؤمنين والكافرين من قبل، وقال آخرون: بل رجع إلى قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[هود: ١٧] ثم ذكر من بعده الكافرين ووصفهم بأنهم لا يستطيعون السمع ولا يبصرون، والسميع والبصير هم الذين وصفهم الله بأنهم على بينة من ربهم.

واعلم أن وجه التشبيه هو أنه سبحانه خلق الإنسان مركبًا من الجسد ومن النفس، وكما أن للجسد بصرًا وسمعًا فكذلك حصل لجوهر الروح سمع وبصر، وكما أن الجسد إذا كان أعمى أصم بقي متحيرًا لا يهتدي إلى شيء من المصالح، بل يكون كالتائه في حضيض الظلمات لا يبصر نورًا يهتدي به ولا يسمع صوتًا، فكذلك الجاهل الضال المضل، يكون أعمى وأصم القلب، فيبقى في ظلمات الضلالات حائرًا تائهًا.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ منبهًا على أنه يمكنه علاج هذا العمى وهذا الصمم، وإذا كان العلاج ممكنًا من الضرر الحاصل بسبب حصول هذا العمى وهذا الصمم وجب على العاقل أن يسعى في ذلك العلاج بقدر الإمكان.

واعلم أنه قد جرت العادة بأنه تعالى إذا أورد على الكافر أنواع الدلائل أتبعها بالقصص، ليصير ذكرها مؤكدًا لتلك الدلائل على ما قررنا هذا المعنى في مواضع كثيرة، وفي هذه السورة ذكر أنواعًا من القصص.

القصة الأولى: قصة نوح عليه السلام

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى قد بدأ بذكر هذه القصة في سورة يونس وقد أعادها في هذه السورة أيضًا لما فيها من زوائد الفوائد وبدائع الحكم.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي (أنّي) بفتح الهمزة، والمعنى: أرسلنا نوحًا بأني لكم نذير مبين، ومعناه أرسلناه ملتبسًا بهذا الكلام وهو قوله: (أَنّى لَكُم نَذِيرٌ مُبنٌ) فلما اتصل به حرف الجر وهو الباء فتح كما فتح في كان، وأما سائر القراء فقرأوا ﴿إِنِّى﴾ بالكسر على معنى قال ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

المسألة الثانية: قال بعضهم: المراد من النذير كونه مهددًا للعصاة بالعقاب، ومن المبين كونه مبينًا ما أعد الله للمطيعين من الثواب، والأولى أن يكون المعنى أنه نذير للعصاة من العقاب وأنه مبين بمعنى أنه بيَّن ذلك الإنذار على الطريق الأكمل والبيان الأقوى الأظهر، ثم بيَّن تعالى أن ذلك الإنذار إنما حصل في النهي عن عبادة غير الله وفي الأمر بعبادة الله؛ لأن قوله: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ استثناء من النفي وهو يوجب نفي غير المستثنى.

واعلم أن تقدير الآية كأنه تعالى قال: ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه بهذا الكلام، وهو قوله: ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

ثم قال: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ فقوله: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ بدل من قوله: ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ ثم إنه أكد ذلك بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ والمعنى أنه لما حصل الألم العظيم في ذلك اليوم أسند ذلك الألم إلى اليوم، كقولهم: نهارك صائم، وليلك قائم.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عن نوح عليه السلام أنه دعا قومه إلى عبادة الله تعالى حكى عنهم أنهم طعنوا في نبوته بثلاثة أنوع من الشبهات.

فالشبهة الأولى: أنه بشر مثلهم، والتفاوت الحاصل بين آحاد البشر يمتنع انتهاؤه إلى حيث يصير الواحد منهم واجب الطاعة لجميع العالمين.

والشبهة الثانية: كونه ما أتبعه إلا أراذل من القوم كالحيَّاكة وأهل الصنائع الخسيسة، قالوا: ولو كنت صادقًا لاتبعك الأكياس من الناس والأشراف منهم، ونظيره قوله تعالى في سورة الشعراء ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١].

والشبهة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ والمعنى: لا نرى لكم علينا من فضل لا في العقل ولا في رعاية المصالح العاجلة ولا في قوة الجدل فإذا لم نشاهد فضلك علينا في شيء من هذه الأحوال الظاهرة فكيف نعترف بفضلك علينا في أشرف الدرجات وأعلى المقامات، فهذا خلاصة الكلام في تقرير هذه الشبهات.

واعلم أن الشبهة الأولى لا تليق إلا بالبراهمة الذين ينكرون نبوة البشر على الإطلاق، أما الشبهتان الباقيتان فيمكن أن يتمسك بهما من أقر بنبوة سائر الأنبياء.

وفي لفظ الآية مسائل:

المسألة الأولى: الملأ: الأشراف وفي اشتقاقه وجوه: الأول: أنه مأخوذ من قولهم مليء بكذا إذا كان مطيقًا له وقد ملئوا بالأمر، والسبب في إطلاق هذا اللفظ عليهم أنهم ملئوا بترتيب المهمات وأحسنوا في تدبيرها. الثاني: أنهم وصفوا بذلك لأنهم يتمالئون أي يتظاهرون عليه. الثالث: وصفوا بذلك لأنهم يملئون القلوب هيبة والمجالس أبهة. الرابع: وصفوا به لأنهم ملأوا العقول الراجحة والآراء الصائبة.

ثم حكى الله تعالى عنهم الشبهة الأولى، وهي قولهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ وهو مثل ما حكى الله تعالى عن بعض العرب أنهم قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨] وهذا جهل، لأن من حق الرسول أن يباشر الأمة بالدليل والبرهان والتثبت والحجة، لا بالصورة والخلقة، بل نقول: إن الله تعالى لو بعث إلى البشر ملكًا لكانت الشبهة أقوى في الطعن عليه في رسالته لأنه يخطر بالبال أن هذه المعجزات التي ظهرت لعل هذا الملك هو الذي أتى بها من عند نفسه بسبب أن قوته أكمل وقدرته أقوى، فلهذه الحكمة ما بعث الله إلى البشر رسولاً إلا من البشر.

ثم حكى الشبهة الثانية وهي قوله: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ والمراد منه قلة مالهم وقلة جاههم ودناءة حرفهم وصناعتهم هذا أيضًا جهل، لأن الرفعة في الدين لا تكون بالحسب والمال والمناصب العالية، بل الفقر أهون على الدين من الغنى، بل نقول: الأنبياء ما بعثوا إلا لترك الدنيا والإقبال على الآخرة فكيف تجعل قلة المال في الدنيا طعنًا في النبوة والرسالة.

ثم حكى الله تعالى الشبهة الثالثة وهي قوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ وهذا أيضًا جهل، لأن الفضيلة المعتبرة عند الله ليست إلا بالعلم والعمل، فكيف اطلعوا على بواطن الخلق حتى عرفوا نفي هذه الفضيلة، ثم قالوا بعد ذكر هذه الشبهات لنوح عليه السلام ومن اتبعه ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ وفيه وجهان:

الأول: أن يكون هذا خطابًا مع نوح ومع قومه، والمراد منه تكذيب نوح في دعوى الرسالة.

والثاني: أن يكون هذا خطابًا مع الأراذل فنسبوهم إلى أنهم كذبوا في أن آمنوا به واتبعوه.

المسألة الثانية: قال الواحدي: الأرذل: جمع رذل وهو الدون من كل شيء في منظره وحالاته ورجل رذل الثياب والفعل. والأراذل جمع الأرذل، كقولهم: أكابر مجرميها، وقوله عليه الصلاة والسلام: «أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا» فعلى هذا الأراذل جمع الجمع، وقال بعضهم: الأصل فيه أن يقال: هو أرذل من كذا، ثم كثر حتى قالوا: هو الأرذل فصارت الألف واللام عوضًا عن الإضافة وقوله: ﴿بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ البادي: هو الظاهر من قولك: بدا الشيء إذا ظهر، ومنه يقال: بادية لظهورها وبروزها للناظر، واختلفوا في بادي الرأي وذكروا فيه وجوهًا: الأول: اتبعوك في الظاهر وباطنهم بخلافه، والثاني: يجوز أن يكون المراد اتبعوك في ابتداء حدوث الرأي وما احتاطوا في ذلك الرأي وما أعطوه حقه من الفكر الصائب والتدبر الوافي. الثالث: أنهم لما وصفوا القوم بالرذالة قالوا: كونهم كذلك بادي الرأي أمر ظاهر لكل من يراهم، والرأي على هذا المعنى من رأي العين لا من رأي القلب، ويتأكد هذا التأويل بما نقل عن مجاهد أنه كان يقرأ (إلا الذين هم أراذِلُنا بادى رآى العين).

المسألة الثالثة: قرأ أبو عمرو ونصير عن الكسائي (بادئ) بالهمزة، والباقون بالياء غير مهموز فمن قرأ (بادئ) بالهمزة فالمعنى أول الرأي وابتداؤه، ومن قرأ بالياء غير مهموز كان من بدا يبدو أي ظهر و(بادى) نصب على المصدر كقولك: ضربت أول الضرب.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما حكى شبهات منكري نبوة نوح عليه الصلاة والسلام حكى بعده ما يكون جوابًا عن تلك الشبهات.

فالشبهة الأولى: قولهم: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٤] فقال نوح حصول المساواة في البشرية لا يمنع من حصول المفارقة في صفة النبوة والرسالة، ثم ذكر الطريق الدال على إمكانه، فقال: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ من معرفة ذات الله وصفاته وما يجب وما يمتنع وما يجوز عليه، ثم إنه تعالى آتاني رحمة من عنده، والمراد بتلك الرحمة إما النبوة وإما المعجزة الدالة على النبوة ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أي صارت مظنة مشتبهة ملتبسة في عقولكم، فهل أقدر على أن أجعلكم بحيث تصلون إلى معرفتها شئتم أم أبيتم؟ والمراد أني لا أقدر على ذلك ألبتة، وعن قتادة: والله لو استطاع نبي الله لألزمها ولكنه لم يقدر عليه، وحاصل الكلام أنهم لما قالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ [هود: ٢٧] ذكر نوح عليه السلام أن ذلك بسبب أن الحجة عميت

عليكم واشتبهت، فأما لو تركتم العناد واللجاج ونظرتم في الدليل لظهر المقصود، وتبين أن الله تعالى آتانا عليكم فضلاً عظيمًا.

المسألة الثانية: قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ بضم العين وتشديد الميم على ما لم يسم فاعله، بمعنى ألبست وشبهت، والباقون بفتح العين مخففة الميم، أي التبست واشتبهت.

واعلم أن الشيء إذا بقي مجهولاً محضًا أشبه المعمي، لأن العلم نور البصيرة الباطنة والإبصار نور البصر الظاهر فحسن جعل كل واحد منها مجازًا عن الآخر وتحقيقه أن البينة توصف بالإبصار قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ﴾ [النمل: ١٣] وكذلك توصف بالعمى، قال تعالى: ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ﴾ [القصص: ٦٦] وقال في هذه الآية: ﴿فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾.

المسألة الثالثة: ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا﴾ فيه ثلاث مضمرات: ضمير المتكلم وضمير الغائب وضمير المخاطب، وأجاز الفراء إسكان الميم الأولى، وروي ذلك عن أبي عمرو قال: وذلك أن الحركات توالت فسكنت الميم وهي أيضًا مرفوعة وقبلها كسرة والحركة التي بعدها ضمة ثقيلة، قال الزجاج: جميع النحويين البصريين لا يجيزون إسكان حرف الإعراب إلا في ضرورة الشعر وما يروى عن أبي عمرو فلم يضبطه عنه الفراء، وروي عن سيبويه أنه كان يخفف الحركة ويختلسها، وهذا هو الحق وإنما يجوز الإسكان في الشعر كقول امرئ القيس:

فَالْيَوْمَ أَشْرَبْ غَيْرَ مُسْتَحْقِبِ

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن هذا هو الجواب عن الشبهة الثانية، وهي قولهم: لا يتبعك إلا الأراذل من الناس، وتقرير هذا الجواب من وجوه:

الوجه الأول: أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**أَنَا لاَ أَطْلُبُ عَلَى تَبْلِيغ دَعْوَةِ الرِّسَالَةِ مَالاً حَتَّى يَتَفَاوَتَ الْحَالُ بِسَبَبِ كَوْنِ الْمُسْتَجِيبِ فَقِيرًا أَوْ غَنِيًا وَإِنَّمَا أَجْرِي عَلَى هَذِهِ الطَّاعَةِ الشَّاقَّةِ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ**» وإذا كان الأمر كذلك فسواء كانوا فقراء أو أغنياء لم يتفاوت الحال في ذلك.

الوجه الثاني: كأنه عليه الصلاة والسلام قال لهم: إنكم لما نظرتم إلى ظواهر الأمور

وجدتموني فقيرًا وظننتم أني إنما اشتغلت بهذه الحرفة لأتوسل بها إلى أخذ أموالكم وهذا الظن منكم خطأ فإني لا أسئلكم على تبليغ الرسالة أجرًا إن أجري إلا على رب العالمين فلا تحرموا أنفسكم من سعادة الدين بسبب هذا الظن الفاسد.

والوجه الثالث: في تقرير هذا الجواب أنهم قالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ [هود: ٢٧] فهو عليه السلام بيَّن أنه تعالى أعطاه أنواعًا كثيرة توجب فضله عليهم ولذلك لم يسع في طلب الدنيا، وإنما يسعى في طلب الدين، والإعراض عن الدنيا من أمهات الفضائل باتفاق الكل، فلعل المراد تقرير حصول الفضيلة من هذا الوجه.

فاما قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ فهذا كالدليل على أن القوم سألوه طردهم رفعًا لأنفسهم عن مشاركة أولئك الفقراء. روى ابن جريج أنهم قالوا: إن أحببت يا نوح أن نتبعك فاطردهم فإنا لا نرضى بمشاركتهم فقال عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ وقوله تعالى حكاية عنهم أنهم قالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: ٢٧] كالدليل على أنهم طلبوا منه طردهم؛ لأنه كالدليل على أنهم كانوا يقولون: لو اتبعك أشراف القوم لوافقناهم، ثم إنه تعالى حكى عنه أنه ما طردهم، وذكر في بيان ما يوجب الامتناع من هذا الطرد أمورًا: الأول: أنهم ملاقو ربهم وهذا الكلام يحتمل وجوهًا منها أنهم قالوا: هم منافقون فيما أظهروا فلا تغتر بهم فأجاب بأن هذا الأمر ينكشف عند لقاء ربهم في الآخرة. ومنها أنه جعله علة في الامتناع من الطرد وأراد أنهم ملاقو ما وعدهم ربهم، فإن طردتهم استخصموني في الآخرة، ومنها أنه نبه بذلك الأمر على أنا نجتمع في الآخرة فأعاقب على طردهم فلا أجد من ينصرني، ثم بين أنهم يبنون أمرهم على الجهل بالعواقب والاغترار بالظواهر فقال ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾.

ثم قال بعده ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ والمعنى: أن العقل والشرع تطابقا على أنه لا بد من تعظيم المؤمن البر التقي ومن إهانة الفاجر الكافر، فلو قلبت القصة وعكست القضية وقربت الكافر الفاجر على سبيل التعظيم، وطردت المؤمن التقي على سبيل الإهانة كنت على ضد أمر الله تعالى، وعلى عكس حكمه وكنت في هذا الحكم على ضد ما أمر الله تعالى من إيصال الثواب إلى المحقين، والعقاب إلى المبطلين وحينئذ أصير مستوجبًا للعقاب العظيم فمن ذا الذي ينصرني من الله تعالى ومن الذي يخلصني من عذاب الله أفلا تذكرون فتعلمون أن ذلك لا يصح ثم أكد هذا البيان بوجه ثالث فقال: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ أي كما لا أسألكم فكذلك لا أدعي أني أملك مالاً ولا لي غرض في المال لا أخذًا ولا دفعًا، ولا أعلم الغيب حتى أصل به إلى ما أريد لنفسي ولا أتباعي ولا أقول إني ملك حتى أتعظم بذلك عليكم، بل طريقي الخضوع والتواضع ومن كان هذا شأنه وطريقه فإنه لا يستنكف عن

مخالطة الفقراء والمساكين، ولا يطلب مجالسة الأمراء والسلاطين وإنما شأنه طلب الدين وسيرته مخالطة الخاضعين والخاشعين، فلما كانت طريقتي توجب مخالطة الفقراء فكيف جعلتم ذلك عيبًا علي، ثم إنه أكد هذا البيان بطريق رابع فقال: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًاۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْۖ﴾ وهذا كالدلالة على أنهم كانوا ينسبون أتباعه مع الفقر والذلة إلى النفاق فقال: إني لا أقول ذلك، لأنه من باب الغيب والغيب لا يعلمه إلا الله، فربما كان باطنهم كظاهرهم فيؤتيهم الله ملك الآخرة فأكون كاذبًا فيما أخبرت به، فإني إن فعلت ذلك كنت من الظالمين لنفسي ومن الظالمين لهم في وصفهم بأنهم لا خير لهم مع أن الله تعالى آتاهم الخير في الآخرة.

المسألة الثانية: احتج قوم بهذه الآية على تفضيل الملائكة على الأنبياء وقالوا: إن الإنسان إذا قال: أنا لا أدعي كذا وكذا، فهذا إنما يحسن إذا كان ذلك الشيء أشرف من أحوال ذلك القائل فلما كان قائل هذا القول هو نوح عليه السلام وجب أن تكون درجة الملائكة أعلى وأشرف من درجات الأنبياء، ثم قالوا: وكيف لا يكون الأمر كذلك والملائكة داوموا على عبادة الله تعالى طول الدنيا مذ خلقوا إلى أن تقوم الساعة، وتمام التقرير أن الفضائل الحقيقية الروحانية ليست إلا ثلاثة أشياء:

أولها: الاستغناء المطلق وجرت العادة في الدنيا أن من ملك المال الكثير، فإنه يوصف بكونه غنيًا فقوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى أني لا أدعي الاستغناء المطلق

وثانيها: العلم التام وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ .

وثالثها: القدرة التامة الكاملة، وقد تقرر في الخواطر أن أكمل المخلوقات في القدرة والقوة هم الملائكة وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ والمقصود من ذكر هذه الأمور الثلاثة بيان أن ما حصل عندي من هذه المراتب الثلاثة إلا ما يليق بالقوة البشرية والطاقة الإنسانية، فأما الكمال المطلق فأنا لا أدعيه، وإذا كان الأمر كذلك فقد ظهر أن قوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ يدل على أنهم أكمل من البشر، وأيضًا يمكن جعل هذا الكلام جوابًا عما ذكروه من الشبهة فإنهم طعنوا في أتباعه بالفقر فقال: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ حتى أجعلهم أغنياء وطعنوا فيهم أيضًا بأنهم منافقون فقال: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ حتى أعرف كيفية باطنهم وإنما أُجري الأحوال على الظواهر وطعنوا فيهم بأنهم قد يأتون بأفعال لا كما ينبغي فقال: ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ حتى أكون مبرأ عن جميع الدواعي الشهوانية والبواعث النفسانية.

المسألة الثالثة: احتج قوم بهذه الآية على صدور الذنب من الأنبياء فقالوا: إن هذه الآية دلت على أن طرد المؤمنين لطلب مرضاة الكفار من أصول المعاصي، ثم إن محمدًا ﷺ طرد فقراء المؤمنين لطلب مرضاة الكفار حتى عاتبه الله تعالى في قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥۖ﴾ [الأنعام: ٥٢] وذلك يدل على إقدام محمد ﷺ على الذنب.

والجواب: يحمل الطرد المذكور في هذه الآية على الطرد المطلق على سبيل التأبيد، والطرد المذكور في واقعة محمد ﷺ، على التقليل في أوقات معينة لرعاية المصالح.

المسألة الرابعة: احتج الجبائي على أنه لا تجوز الشفاعة عند الله في دفع العقاب بقول نوح عليه السلام ﴿مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ﴾ معناه إن كان هذا الطرد محرمًا فمن ذا الذي ينصرني من الله، أي من الذي يخلصني من عقابه ولو كانت الشفاعة جائزة لكانت في حق نوح عليه السلام أيضًا جائزة وحينئذ يبطل قوله: ﴿مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ﴾ واعلم أن هذا الاستدلال يشبه استدلالهم في هذه المسألة بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨، ١٢٣] والجواب المذكور هناك هو الجواب عن هذا الكلام.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن الكفار لما أوردوا تلك الشبهة.

وأجاب نوح عليه السلام عنها بالجوابات الموافقة الصحيحة أورد الكفار على نوح كلامين:

الأول: أنهم وصفوه بكثرة المجادلة فقالوا: يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا، وهذا يدل على أنه عليه السلام كان قد أكثر في الجدال معهم، وذلك الجدال ما كان إلا في إثبات التوحيد والنبوة والمعاد، وهذا يدل على أن الجدال في تقرير الدلائل وفي إزالة الشبهات حرفة الأنبياء، وعلى أن التقليد والجهل والإصرار على الباطل حرفة الكفار.

والثاني: أنهم استعجلوا العذاب الذي كان يتوعدهم به، فقالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ثم إنه عليه السلام أجاب عنه بجواب صحيح فقال: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ والمعنى أن إنزال العذاب ليس إلي وإنما هو خلق الله تعالى فيفعله إن شاء كما شاء، وإذا أراد إنزال العذاب فإن أحدًا لا يعجزه، أي لا يمنعه منه، والمعجز هو الذي يفعل ما عنده لتعذر مراد الغير فيوصف بأنه أعجزه، فقوله: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي لا سبيل لكم إلى فعل ما عنده، فلا يمتنع على الله تعالى ما يشاء من العذاب إن أراد إنزاله بكم، وقد قيل معناه: وما أنتم بمانعين، وقيل: وما أنتم بمصونين، وقيل: وما أنتم بسابقين إلى الخلاص، وهذه الأقوال متقاربة.

واعلم أن نوحًا عليه السلام لما أجاب عن شبهاتهم ختم الكلام بخاتمة قاطعة، فقال: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ أي إن كان الله يريد أن يغويكم فإنه لا ينفعكم نصحي ألبتة، واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن الله تعالى قد يريد الكفر من العبد، وأنه إذا أراد منه ذلك فإنه يمتنع صدور الإيمان منه، قالوا: إن نوحًا عليه السلام قال: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ والتقدير: لا ينفعكم نصحي إن كان الله يريد أن يغويكم ويضلكم، وهذا صريح في مذهبنا، أما المعتزلة فإنهم قالوا ظاهر الآية يدل على أن الله تعالى إن أراد إغواء القوم لم ينتفعوا بنصح الرسول، وهذا مُسلَّم، فإنا نعرف أن الله تعالى لو أراد إغواء عبد فإنه لا ينفعه نصح الناصحين، لكن لم قلتم إنه تعالى أراد هذا الإغواء فإن النزاع ما وقع إلا فيه، بل نقول: إن نوحًا عليه السلام إنما ذكر هذا الكلام ليدل على أنه تعالى ما أغواهم، بل فوض الاختيار إليهم وبيانه من وجهين:

الأول: أنه عليه السلام بيَّن أنه تعالى لو أراد إغواءهم لما بقي في النصح فائدة فلو لم يكن فيه فائدة لما أمره بأن ينصح الكفار، وأجمع المسلمون على أنه عليه السلام مأمور بدعوة الكفار ونصيحتهم، فعلمنا أن هذا النصح غير خال عن الفائدة، وإذا لم يكن خاليًا عن الفائدة وجب القطع بأنه تعالى ما أغواهم، فهذا صار حجة لنا من هذا الوجه.

الثاني: أنه لو ثبت الحكم عليهم بأن الله تعالى أغواهم لصار هذا عذرًا لهم في عدم إتيانهم بالإيمان ولصار نوح منقطعًا في مناظرتهم، لأنهم يقولون له: إنك سلمت أن الله إذا أغوانا فإنه لا يبقى في نصحك ولا في جدنا واجتهادنا فائدة، فإذا ادعيت بأن الله تعالى قد أغوانا فقد جعلتنا معذورين فلم يلزمنا قبول هذه الدعوة، فثبت أن الأمر لو كان كما قاله الخصم، لصار هذا حجة للكفار على نوح عليه السلام، ومعلوم أن نوحًا عليه السلام لا يجوز أن يذكر كلامًا يصير بسببه مفحمًا ملزمًا عاجزًا عن تقرير حجة الله تعالى، فثبت بما ذكرنا أن هذه الآية لا تدل على قول المجبرة، ثم إنهم ذكروا وجوهًا من التأويلات:

الأول: أولئك الكفار كانوا مجبرة، وكانوا يقولون: إن كفرهم بإرادة الله تعالى، فعند هذا قال نوح عليه السلام: إن نصحه لا ينفعهم إن كان الأمر كما قالوا، ومثاله أن يعاقب الرجل ولده على ذنبه فيقول الولد: لا أقدر على غير ما أنا عليه، فيقول الوالد فلن ينفعك إذًا نصحي ولا زجري، وليس المراد أنه يصدقه على ما ذكره بل على وجه الإنكار لذلك.

الثاني: قال الحسن: معنى ﴿يُغْوِيَكُمْ﴾ أي يعذبكم، والمعنى: لا ينفعكم نصحي اليوم إذا نزل بكم العذاب فآمنتم في ذلك الوقت، لأن الإيمان عند نزول العذاب لا يقبل، وإنما ينفعكم نصحي إذا آمنتم قبل مشاهدة العذاب.

الثالث: قال الجبائي: الغواية: هي الخيبة من الطلب بدليل قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩] أي خيبة من خير الآخرة، قال الشاعر:

وَمَنْ يَغْوَ لاَ يَعْدَمْ عَلَى الْغَيِّ لاَئِمَا[1]

الرابع: أنه إذا أصر على الكفر وتمادى فيه منعه الله تعالى الألطاف وفوضه إلى نفسه، فهذا شبيه ما إذا أراد إغواءه فلهذا السبب حسن أن يقال: إن الله تعالى أغواه هذا جملة كلمات المعتزلة في هذا الباب. والجواب عن أمثال هذه الكلمات قد ذكرناه مرارًا وأطوارًا فلا فائدة في الإعادة.

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ جزاء معلق على شرط بعده شرط آخر وهذا يقتضي أن يكون الشرط المؤخر في اللفظ مقدمًا في الوجود وذلك لأن الرجل إذا قال لامرأته أنت طالق إن دخلت الدار، كان المفهوم كون ذلك الطلاق من لوازم ذلك الدخول، فإذا ذكر بعده شرطًا آخر مثل أن يقول: إن أكلت الخبز كان المعنى أن تعلق ذلك الجزاء بذلك الشرط الأول مشروط بحصول هذا الشرط الثاني، والشرط مقدم على المشروط في الوجود فعلى هذا إن حصل الشرط الثاني تعلق ذلك الجزاء بذلك الشرط الأول إما إن لم يوجد الشرط المذكور ثانيًا لم يتعلق ذلك الجزاء بذلك الشرط الأول، هذا هو التحقيق في هذا التركيب، فلهذا المعنى قال الفقهاء: إن الشرط المؤخر في اللفظ مقدم في المعنى، والمقدم في اللفظ مؤخر في المعنى.

واعلم أن نوحًا عليه السلام لما قرر هذه المعاني قال: ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وهذا نهاية الوعيد أي هو إلهكم الذي خلقكم ورباكم ويملك التصرف في ذواتكم وفي صفاتكم قبل الموت وعند الموت وبعد الموت مرجعكم إليه وهذا يفيد نهاية التحذير.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ۝٣٥﴾

اعلم أن معنى افتراه اختلقه وافتعله وجاء به من عند نفسه، والهاء ترجع إلى الوحي الذي بلغه إليهم، وقوله: ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِى﴾ الإجرام اقتراح المحظورات واكتسابها، وهذا من باب حذف المضاف، لأن المعنى: فعليَّ عقاب إجرامي، وفي الآية محذوف آخر وهو أن المعنى: إن كنت افتريته فعليَّ عقاب جرمي، وإن كنت صادقًا وكذبتموني فعليكم عقاب ذلك التكذيب، إلا أنه حذف هذه البقية لدلالة الكلام عليه، كقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٩] ولم يذكر البقية، وقوله: ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ أي أنا بريء من عقاب جرمكم، وأكثر المفسرين على

(١) البيت ضمن قصيدة لابن حمديس من البحر الطويل والبيت كاملا هكذا:

يلومُ صليبَ العود وهو يلومه ومن يَغْوَ لايَعْدَمْ على الغيّ لائما

وابن حمديس هو: عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الأزدي الصقلي أبو محمد. ٤٤٧-٥٢٧ هـ/ ١٠٥٣-١١٣٣ م. شاعر مبدع، ولد وتعلم في جزيرة صقلية، ورحل إلى الأندلس سنة ٤٧١ هـ، فمدح المعتمد بن عباد فأجزل له عطاياه. وانتقل إلى إفريقية سنة ٥١٦ هـ. وتوفي بجزيرة ميورقة عن نحو ٨٠ عاماً، وقد فقد بصره.

أن هذا من بقية كلام نوح عليه السلام، وهذه الآية وقعت في قصة محمد ﷺ في أثناء حكاية نوح، وقولهم بعيد جدًّا، وأيضًا قوله: ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى﴾ لا يدل على أنه كان شاكًّا، إلا أنه قول يقال على وجه الإنكار عند اليأس من القبول.

قوله تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما جاء هذا من عند الله تعالى دعا على قومه فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] وقوله: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أي لا تحزن، قال أبو زيد: ابتأس الرجل إذا بلغه شيء يكرهه، وأنشد أبو عبيدة:

مَا يَقْسِمُ اللَّه اقْبَلْ غَيْرَ مُبْتَئِسٍ ... بِهِ وَاَقْعُدْ كَرِيمًا نَاعِمَ الْبَالِ(١)

أي غير حزين ولا كاره.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا بهذه الآية على صحة قولهم في القضاء والقدر وقالوا: إنه تعالى أخبر عن قومه أنهم لا يؤمنون بعد ذلك، فلو حصل إيمانهم لكان إما مع بقاء هذا الخبر صدقًا، ومع بقاء هذا العلم علمًا أو مع انقلاب هذا الخبر كذبًا ومع انقلاب هذا العلم جهلاً والأول ظاهر البطلان لأن وجود الإيمان مع أن يكون الإخبار عن عدم الإيمان صدقًا، ومع كون العلم بعدم الإيمان حاصلاً حال وجود الإيمان جمع بين النقيضين، والثاني أيضًا باطل، لأن انقلاب خبر الله كذبًا وعلم الله جهلاً محال، ولما كان صدور الإيمان منهم لا بد وأن يكون على هذين القسمين وثبت أن كل واحد منهما محال كان صدور الإيمان منهم محالاً مع أنهم كانوا مأمورين به، وأيضًا القوم كانوا مأمورين بالإيمان ومن الإيمان تصديق الله تعالى في كل ما أخبر عنه. ومنه قوله: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ فيلزم أن يقال: إنهم كانوا مأمورين بأن يؤمنوا بأنهم لا يؤمنون ألبتة. وذلك تكليف الجمع بين النقيضين، وتقرير هذا الكلام قد مر في هذا الكتاب مرارًا وأطوارًا.

المسألة الثالثة: اختلف المعتزلة في أنه هل يجوز أن ينزل الله تعالى عذاب الاستئصال على قوم كان في المعلوم أن فيهم من يؤمن أو كان في أولادهم من يؤمن، فقال قوم: إنه لا يجوز. واحتجوا بما حكى الله تعالى عن نوح عليه السلام أنه قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: ٢٦-٢٧] وهذا يدل على أنه إنما حسن منه تعالى إنزال عذاب الاستئصال عليهم، لأجل أنه تعالى علم أنه ليس من يؤمن، ولا في

---

(١) وجب هذا البيت ضمن قصيدة من البحر البسيط للصحابي الجليل حسان بن ثابت.

أولادهم أحد يؤمن. قال القاضي: وقال كثير من علمائنا: إن ذلك من الله تعالى جائز وإن كان منهم من يؤمن. وأما قول نوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] فذلك يدل على أنه إنما سأل ذلك من حيث إنه كان في المعلوم أنهم يضلون عباده ولايلدون إلا فاجرًا كفارًا وذلك يدل على أن ذلك الحكم كان قولاً بمجموع هاتين العلتين، وأيضًا فلا دليل فيه على أنهما لو لم يحصلا لما جاز إنزال الإهلاك، والأقرب أن يقال: إن نوحًا عليه السلام لشدة محبته لإيمانهم كان سأل ربه أن يبقيهم، فأعلمه أنه لا يؤمن منهم أحد ليزول عن قلبه ما كان قد حصل فيه من تلك المحبة، ولذلك قال تعالى من بعد: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أي لا تحزن من ذلك ولا تغتم ولا تظن أن في ذلك مذلة، فإن الدين عزيز، وإن قل عدد من يتمسك به، والباطل ذليل وإن كثر عدد من يقول به.

قوله تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾

واعلم أن قوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦] يقتضي تعريف نوح عليه السلام أنه معذبهم ومهلكهم، فكان يحتمل أن يعذبهم بوجوه التعذيب، فعرفه الله تعالى أنه يعذبهم بهذا الجنس الذي هو الغرق، ولما كان السبيل الذي به يحصل النجاة من الغرق تكوين السفينة. لا جرم أمره الله تعالى بإصلاح السفينة وإعدادها، فأوحى الله تعالى إليه أن يصنعها على مثال جوجؤ الطائر.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ أمر إيجاب أو أمر إباحة.

قلنا: الأظهر أنه أمر إيجاب، لأنه لا سبيل له إلى صون روح نفسه وأرواح غيره عن الهلاك إلا بهذا الطريق وصون النفس عن الهلاك واجب وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ويحتمل أن لا يكون ذلك الأمر أمر إيجاب بل كان أمر إباحة، وهو بمنزلة أن يتخذ الإنسان لنفسه دارًا ليسكنها ويقيم بها.

أما قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ فهذا لا يمكن إجراؤه على ظاهره من وجوه:

أحدها: أنه يقتضي أن يكون لله تعالى أعين كثيرة. وهذا يناقض ظاهر قوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٩].

وثانيها: أنه يقتضي أن يصنع نوح عليه السلام ذلك الفلك بتلك الأعين، كما يقال: قطعت بالسكين، وكتبت بالقلم، ومعلوم أن ذلك باطل.

وثالثها: أنه ثبت بالدلائل القطعية العقلية كونه تعالى منزهًا عن الأعضاء والجوارح والأجزاء والأبعاض، فوجب المصير فيه إلى التأويل، وهو من وجوه:

الأول: أن معنى ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي بعين الملك الذي كان يعرفه كيف يتخذ السفينة، يقال: فلان

عين على فلان نصب عليه ليكون منفحصًا عن أحواله ولا تحول عنه عينه.

الثاني: أن من كان عظيم العناية بالشيء فإنه يضع عينه عليه، فلما كان وضع العين على الشيء سببًا لمبالغة الاحتياط والعناية جعل العين كناية عن الاحتياط، فلهذا قال المفسرون معناه بحفظنا إياك حفظ من يراك ويملك دفع السوء عنك، وحاصل الكلام أن إقدامه على عمل السفينة مشروط بأمرين:

أحدهما: أن لا يمنعه أعداؤه عن ذلك العمل.

والثاني: أن يكون عالمًا بأنه كيف ينبغي تأليف السفينة وتركيبها ودفع الشر عنه، وقوله: ﴿وَوَحۡيِنَا﴾ إشارة إلى أنه تعالى يوحي إليه أنه كيف ينبغي عمل السفينة حتى يحصل منه المطلوب.

وأما قوله: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾.

ففيه وجوه:

الأول: يعني لا تطلب مني تأخير العذاب عنهم فإني قد حكمت عليهم بهذا الحكم، فلما علم نوح عليه السلام ذلك دعا عليهم بعد ذلك وقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

الثاني: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي﴾ في تعجيل ذلك العقاب على الذين ظلموا، فإني لما قضيت إنزال ذلك العذاب في وقت معين كان تعجيله ممتنعًا، الثالث: المراد بالذين ظلموا امرأته وابنه كنعان.

قوله تعالى: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾

أما قوله تعالى: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾.

ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: في قوله: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ قولان:

الأول: أنه حكاية حال ماضية أي في ذلك الوقت كان يصدق عليه أنه يصنع الفلك.

الثاني: التقدير: وأقبل يصنع الفلك فاقتصر على قوله: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾.

المسألة الثانية: ذكروا في صفة السفينة أقوالاً كثيرة:

فأحدها: أن نوحًا عليه السلام اتخذ السفينة في سنتين، وقيل: في أربع سنين وكان طولها ثلثمائة ذراع وعرضها خمسون ذراعًا وطولها في السماء ثلاثون ذراعًا، وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاث بطون فحمل في البطن الأسفل الوحوش والسباع والهوام، وفي البطن الأوسط

الدواب والأنعام، وفي البطن الأعلى جلس هو ومن كان معه مع ما احتاجوا إليه من الزاد، وحمل معه جسد آدم عليه السلام.

وثانيها: قال الحسن: كان طولها ألفًا ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع.

واعلم أن أمثال هذه المباحث لا تعجبني لأنها أمور لا حاجة إلى معرفتها ألبتة ولا يتعلق بمعرفتها فائدة أصلاً وكان الخوض فيها من باب الفضول لا سيما مع القطع بأنه ليس ههنا ما يدل على الجانب الصحيح والذي نعلمه إنه كان في السعة بحيث يتسع للمؤمنين من قومه ولما يحتاجون إليه ولحصول زوجين من كل حيوان، لأن هذا القدر مذكور في القرآن، فأما غير ذلك القدر فغير مذكور.

أما قوله تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ﴾ ففي تفسير الملأ وجهان قيل: جماعة وقيل طبقة من أشرافهم وكبرائهم واختلفوا فيما لأجله كانوا يسخرون، وفيه وجوه:

أحدها: أنهم كانوا يقولون: يا نوح كنت تدعي رسالة الله تعالى فصرت بعد ذلك نجارًا.

وثانيها: أنهم كانوا يقولون له: لو كنت صادقًا في دعواك لكان إلهك يغنيك عن هذا العمل الشاق.

وثالثها: أنهم ما رأوا السفينة قبل ذلك وما عرفوا كيفية الانتفاع بها وكانوا يتعجبون منه ويسخرون.

ورابعها: أن تلك السفينة كانت كبيرة وهو كان يصنعها في موضع بعيد عن الماء جدًا وكانوا يقولون: ليس ههنا ماء ولا يمكنك نقلها إلى الأنهار العظيمة وإلى البحار، فكانوا يعدون ذلك من باب السفه والجنون.

وخامسها: أنه لما طالت مدته مع القوم وكان ينذرهم بالغرق وما شاهدوا من ذلك المعنى خبرًا ولا أثرًا غلب على ظنونهم كونه كاذبًا في ذلك المقال، فلما اشتغل بعمل السفينة لا جرم سخروا منه وكل هذه الوجوه محتملة.

ثم إنه تعالى حكى عنه أنه كان يقول: ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾.

وفيه وجوه:

الأول: التقدير إن تسخروا منا في هذه الساعة فإنا نسخر منكم سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق في الدنيا والخزي في الآخرة.

الثاني: إن حكمتم علينا بالجهل فيما نصنع فإنا نحكم عليكم بالجهل فيما أنتم عليه من الكفر والتعرض لسخط الله تعالى وعذابه فأنتم أولى بالسخرية منا.

الثالث: إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم واستجهالكم أقبح وأشد، لأنكم لا تستجهلون إلا لأجل الجهل بحقيقة الأمر والاغترار بظاهر الحال كما هو عادة الأطفال والجهال.

فإن قيل: السخرية من آثار المعاصي فكيف يليق ذلك بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

قلنا: إنه تعالى سمى المقابلة سخرية كما في قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠].

أما قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ أي فسوف تعلمون من هو أحق بالسخرية ومن هو أحمد عاقبة، وفي قوله: ﴿مَن يَأۡتِيهِ﴾ وجهان:

أحدهما: أن يكون استفهامًا بمعنى أي كأنه قيل: فسوف تعلمون أينا يأتيه عذاب، وعلى هذا الوجه فمحل (من) رفع بالابتداء.

والثاني: أن يكون بمعنى الذي ويكون في محل النصب، وقوله تعالى: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾ أي يجب عليه وينزل به.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ۝٤٠﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هي التي يبتدأ بعدها الكلام أدخلت على الجملة من الشرط والجزاء ووقعت غاية لقوله: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ أي فكان يصنعها إلى أن جاء وقت الموعد.

المسألة الثانية: الأمر في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ يحتمل وجهين: الأول: أنه تعالى بيَّن أنه لا يحدث شيء إلا بأمر الله تعالى كما قال: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] فكان المراد هذا. والثاني: أن يكون المراد من الأمر ههنا هو العذاب الموعد به.

المسألة الثالثة: في التنور قولان: أحدهما: أنه التنورالذي يخبز فيه. والثاني: أنه غيره، أما الأول وهو أنه التنور الذي يخبز فيه فهو قول جماعة عظيمة من المفسرين كابن عباس والحسن ومجاهد. وهؤلاء اختلفوا، فمنهم من قال: إنه تنور لنوح عليه السلام، وقيل: كان لآدم، قال الحسن: كان تنورًا من حجارة، وكان لحواء حتى صار لنوح عليه السلام، واختلفوا في موضعه فقال الشعبي: إنه كان بناحية الكوفة، وعن علي رضي الله عنه أنه في مسجد الكوفة، قال: وقد صلى فيه سبعون نبيًا، وقيل بالشام بموضع يقال له: عين وردان وهو قول مقاتل، وقيل: فار التنور بالهند، وقيل: إن امرأته كانت تخبز في ذلك التنور فأخبرته بخروج الماء من ذلك التنور فاشتغل في الحال بوضع تلك الأشياء في السفينة.

القول الثاني: ليس المراد من التنور تنور الخبز، وعلى هذا التقدير ففيه أقوال:

الأول: أنه انفجر الماء من وجه الأرض كما قال: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ۝١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١، ١٢] والعرب تسمي وجه الأرض تنورًا.

الثاني: أن التنور أشرف موضع في الأرض وأعلى مكان فيها وقد أخرج إليه الماء من ذلك الموضع ليكون ذلك معجزة له، وأيضًا المعنى أنه لما نبع الماء من أعالي الأرض، ومن الأمكنة المرتفعة فشبهت لارتفاعها بالتنانير.

الثالث: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ أي طلع الصبح وهو منقول عن علي رضي الله عنه. الرابع: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ يحتمل أن يكون معناه أشد الأمر كما يقال: حمي الوطيس، ومعنى الآية إذا رأيت الأمر يشتد والماء يكثر فانج بنفسك ومن معك إلى السفينة.

فإن قيل: فما الأصح من هذه الأقوال؟

قلنا: الأصل حمل الكلام على حقيقته ولفظ التنور حقيقة في الموضع الذي يخبز فيه فوجب حمل اللفظ عليه ولا امتناع في العقل في أن يقال: إن الماء نبع أولاً من موضع معين وكان ذلك الموضع تنورًا.

فإن قيل: ذكر التنور بالألف واللام وهذا إنما يكون معهود سابق معين معلوم عند السامع وليس في الأرض تنور هذا شأنه، فوجب أن يحمل ذلك على أن المراد إذا رأيت الماء يشتد نبوعه والأمر يقوى فانج بنفسك وبمن معك.

قلنا: لا يبعد أن يقال: إن ذلك التنور كان لنوح عليه السلام بأن كان تنور آدم أو حواء أو كان تنورًا عينه الله تعالى لنوح عليه السلام وعرفه أنك إذا رأيت الماء يفور فاعلم أن الأمر قد وقع، وعلى هذا التقدير فلا حاجة إلى صرف الكلام عن ظاهره.

المسألة الرابعة: معنى ﴿وَفَارَ﴾ نبع على قوة وشدة تشبيهًا بغليان القدر عند قوة النار ولا شبهة في أن نفس التنور لا يفور فالمراد فار الماء من التنور، والذي روي أن فور التنور كان علامة لهلاك القوم لا يمتنع لأن هذه واقعة عظيمة، وقد وعد الله تعالى المؤمنين النجاة فلا بد وأن يجعل لهم علامة بها يعرفون الوقت المعين، فلا يبعد جعل هذه الحالة علامة لحدوث هذه الواقعة.

المسألة الخامسة: قال الليث: التنور لفظة عمت بكل لسان وصاحبه تنار، قال الأزهري: وهذا يدل على أن الاسم قد يكون أعجميًا فتعربه العرب فيصير عربيًّا، والدليل على ذلك أن الأصل تنار ولا يعرف في كلام العرب تنور قبل هذا، ونظيره ما دخل في كلام العرب من كلام العجم الديباج والدينار والسندس والاستبرق فإن العرب لما تكلموا بهذه الألفاظ صارت عربية.

واعلم أنه لما فار التنور فعند ذلك أمره الله تعالى بأن يحمل في السفينة ثلاثة أنواع من الأشياء. فالأول: قوله: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ قال الأخفش: تقول الاثنان هما زوجان قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩] فالسماء زوج والأرض زوج والشتاء زوج والصيف زوج والنهار زوج والليل زوج، وتقول للمرأة هي زوج وهو زوجها، قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١] يعني المرأة، وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥] فثبت

أن الواحد قد يقال له: زوج، ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ﴾ [الأنعام: ١٤٣]، ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِۗ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

إذا عرفت هذا فنقول: الزوجان عبارة عن كل شيئين يكون أحدهما ذكرًا والآخر أنثى، والتقدير كل شيئين هما كذلك فاحمل منهما في السفينة اثنين واحد ذكر والآخر أنثى، ولذلك قرأ حفص ﴿مِن كُلٍّ﴾ بالتنوين وأرادوا حمل من كل شيء زوجين اثنين الذكر زوج والأنثى زوج لا يقال عليه إن الزوجين لا يكونان إلا اثنين فما الفائدة في قوله: ﴿زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ لأنا نقول هذا على مثال قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ﴾ [النحل: ٥١] وقوله: ﴿نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌۚ﴾ [الحاقة: ١٣] وأما على القراءة المشهورة، فهذا السؤال غير وارد واختلفوا في أنه هل دخل في قوله: ﴿زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ غير الحيوان أم لا؟ فنقول: أما الحيوان فداخل لأن قوله: ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ يدخل فيه كل الحيوانات، وأما النبات فاللفظ لا يدل عليه، إلا أنه بحسب قرينة الحال لا يبعد بسبب أن الناس محتاجون إلى النبات بجميع أقسامه، وجاء في الروايات عن ابن مسعود رضي الله عنهما أنه قال: لم يستطع نوح عليه السلام أن يحمل الأسد حتى ألقيت عليه الحمى وذلك أن نوحًا عليه السلام قال: يا رب فمن أين أطعم الأسد إذا حملته قال تعالى: «**فَسَوْفَ أَشْغَلُهُ عَنِ الطَّعَامِ**» فسلط الله تعالى عليه الحمى وأمثال هذه الكلمات الأولى تركها، فإن حاجة الفيل إلى الطعام أكثر وليس به حمى. الثاني: من الأشياء التي أمر الله نوحًا عليه السلام بحملها في السفينة.

قوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ قالوا: كانوا سبعة نوح عليه السلام وثلاثة أبناء له وهم سام وحام ويافث، ولكل واحد منهم زوجة، وقيل أيضًا: كانوا ثمانية، هؤلاء وزوجة نوح عليه السلام.

وأما قوله: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ فالمراد ابنه وامرأته وكانا كافرين، حكم الله تعالى عليهما بالهلاك.

فإن قيل: الإنسان أشرف من جميع الحيوانات فما السبب أنه وقع الابتداء بذكر الحيوانات؟

قلنا: الإنسان عاقل وهو لعقله كالمضطر إلى دفع أسباب الهلاك عن نفسه، فلا حاجة فيه إلى المبالغة في الترغيب، بخلاف السعي في تخليص سائر الحيوانات، فلهذا السبب وقع الابتداء به.

واعلم أن أصحابنا احتجوا بقوله: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ في إثبات القضاء اللازم والقدر الواجب، قالوا: لأن قوله: ﴿سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ مشعر بأن كل من سبق عليه القول فإنه لا يتغير عن حاله وهو كقوله عليه الصلاة والسلام: «**السَّعِيد مَنْ سَعِدَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ وَالشَّقِي مَنْ شَقِيَ فِي بطن أمه**».

النوع الثالث: من تلك الأشياء قوله: ﴿وَمَنْ ءَامَنَۚ﴾ قالوا كانوا ثمانين. قال مقاتل: في ناحية الموصل قرية يقال لها: قرية الثمانين سميت بذلك، لأن هؤلاء لما خرجوا من السفينة بنوها،

فسميت بهذا الاسم وذكروا ماهو أزيد منه وما هو أنقص منه وذلك مما لا سبيل إلى معرفته إلا أن الله تعالى وصفهم بالقلة وهو قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

فإن قيل: لما كان الذين آمنوا معه ودخلوا في السفينة كانوا جماعة فَلِمَ لم يقل قليلون كما في قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤].

قلنا: كلا اللفظين جائز، والتقدير ههنا وما آمن معه إلا نفر قليل، فأما الذي يروى أن إبليس دخل السفينة فبعيد، لأنه من الجن وهو جسم ناري أو هوائي وكيف يؤثر الغرق فيه، وأيضًا كتاب الله تعالى لم يدل عليه وخبر صحيح ما ورد فيه، فالأولى ترك الخوض فيه.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٤١﴾

أما قوله تعالى: ﴿وَقَالَ﴾ يعني نوح عليه السلام لقومه: ﴿ٱرۡكَبُواْ﴾ والركوب العلو على ظهر الشيء ومنه ركوب الدابة وركوب السفينة وركوب البحر وكل شيء علا شيئًا فقد ركبه، يقال: ركبه الدين قال الليث: وتسمي العرب من يركب السفينة راكب السفينة. وأما الركبان والركب من ركبوا الدواب والإبل. قال الواحدي: ولفظة (في) في قوله: ﴿ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾ لا يجوز أن تكون من صلة الركوب، لأنه يقال: ركبت السفينة ولا يقال: ركبت في السفينة، بل الوجه أن يقال مفعول اركبوا محذوف، والتقدير: اركبوا الماء في السفينة، وأيضًا يجوز أن يكون فائدة هذه الزيادة، أنه أمرهم أن يكونوا في جوف الفلك لا على ظهرها، فلو قال اركبوها: لتوهموا أنه أمرهم أن يكونوا على ظهر السفينة.

أما قوله تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم مجريها بفتح الميم والباقون بضم الميم واتفقوا في ﴿وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾ أنه بضم الميم، وقال صاحب (الكشاف): قرأ مجاهد (مُجْرِيها ومُرْسِيها) بلفظ اسم الفاعل مجروري المحل صفتين لله تعالى. قال الواحدي: المجرى مصدر كالإجراء، ومثله قوله: ﴿مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا﴾ [المؤمنون: ٢٩] و﴿أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ﴾ [الإسراء: ٨٠] وأما من قرأ ﴿مَجۡرٜىٰهَا﴾ بفتح الميم، فهو أيضًا مصدر، مثل الجري. واحتج صاحب هذه القراءة بقوله: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ﴾ [هود: ٤٢] ولو كان (مُجْرَاها) لكان وهي تجريهم، وحجة من ضم الميم أن جرت بهم وأجرتهم يتقاربان في المعنى، فإذا قال: ﴿تَجۡرِي بِهِمۡ﴾ فكأنه قال: تجريهم، وأما المرسى فهو أيضًا مصدر كالإرساء. يقال: رسا الشيء يرسو إذا ثبت وأرساه غيره، قال تعالى: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣٢] قال ابن عباس: يريد تجري بسم الله وقدرته،

وترسو بسم الله وقدرته، وقيل: كان إذا أراد أن تجري بهم قال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا﴾ فتجري، وإذا أراد أن ترسو قال: بسم الله مرساها فترسو.

المسألة الثانية: ذكروا في عامل الإعراب في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ وجوهًا:

الأول: اركبوا بسم الله.

والثاني: ابدؤا أو بسم الله.

والثالث: بسم الله إجراؤها وإرساؤها، وقيل: إنها سارت لأول يوم من رجب، وقيل: لعشر مضين من رجب، فصارت ستة أشهر، واستوت يوم العاشر من المحرم على الجودي.

المسألة الثالثة: في الآية احتمالان:

الاحتمال الأول: أن يكون مجموع قوله: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ كلامًا واحدًا، والتقدير: وقال اركبوا فيها بسم مجريها ومرساها، يعني ينبغي أن يكون الركوب مقرونًا بهذا الذكر.

والاحتمال الثاني: أن يكونا كلامين، والتقدير: أن نوحًا عليه السلام أمرهم بالركوب، ثم أخبرهم بأن مجريها ومرساها ليس إلا بسم الله وأمره وقدرته.

فالمعنى الأول: يشير إلى أن الإنسان لا ينبغي أن يشرع في أمر من الأمور إلا ويكون في وقت الشروع فيه ذاكرًا لاسم الله تعالى بالأذكار المقدسة حتى يكون ببركة ذلك الذكر سببًا لتمام ذلك المقصود.

والمعنى الثاني: يدل على أنه لما ركب السفينة أخبر القوم بأن السفينة ليست سببًا لحصول النجاة بل الواجب ربط الهمة وتعليق القلب بفضل الله تعالى، وأخبرهم أنه تعالى هو المجري والمرسي للسفينة، فإياكم أن تعولوا على السفينة، بل يجب أن يكون تعويلكم على فضل الله فإنه هو المجري والمرسي لها، فعلى التقدير الأول كان نوح عليه السلام وقت ركوب السفينة في مقام الذكر، وعلى التقدير الثاني كان في مقام الفكر والبراءة عن الحول والقوة وقطع النظر عن الأسباب واستغراق القلب في نور جلال مسبب الأسباب.

واعلم أن الإنسان إذا تفكر في طلب معرفة الله تعالى بالدليل والحجة فكأنه جلس في سفينة التفكر والتدبر، وأمواج الظلمات والضلالات قد علت تلك الجبال وارتفعت إلى مصاعد القلال، فإذا ابتدأت سفينة الفكرة والروية بالحركة وجب أن يكون هناك اعتماده على الله تعالى وتضرعه إلى الله تعالى وأن يكون بلسان القلب ونظر العقل. يقول: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ حتى تصل سفينة فكره إلى ساحل النجاة وتتخلص عن أمواج الضلالات.

وأما قوله: ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ففيه سؤال وهو أن ذلك الوقت وقت الإهلاك وإظهار القهر فكيف يليق به هذا الذكر؟

وجوابه: لعل القوم الذين ركبوا السفينة اعتقدوا في أنفسهم أنا إنما نجونا ببركة علمنا فالله

تعالى نبههم بهذا الكلام لإزالة ذلك العجب منهم، فإن الإنسان لا ينفك عن أنواع الزلات وظلمات الشهوات، وفي جميع الأحوال فهو محتاج إلى إعانة الله وفضله وإحسانه، وأن يكون رحيمًا لعقوبته غفورًا لذنوبه.

قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾

واعلم أن قوله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ﴾ متعلق بمحذوف، والتقدير: وقال اركبوا فيها، فركبوا فيها يقولون: بسم الله وهي تجري بهم في موج كالجبال.

المسألة الثانية: الأمواج العظيمة إنما تحدث عند حصول الرياح القوية الشديدة العاصفة، فهذا يدل على أنه حصل في ذلك الوقت رياح عاصفة شديدة، والمقصود منه: بيان شدة الهول والفزع.

المسألة الثالثة: الجريان في الموج، هو أن تجري السفينة داخل الموج، وذلك يوجب الغرق، فالمراد أن الأمواج لما أحاطت بالسفينة من الجوانب، شبهت تلك السفينة بما إذا جرت في داخل تلك الأمواج.

ثم حكى الله تعالى عنه أنه نادى ابنه.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في أنه كان ابنًا له.

وفيه أقوال:

القول الأول: أنه ابنه في الحقيقة، والدليل عليه: أنه تعالى نص عليه فقال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ﴾ ونوح أيضًا نص عليه فقال: ﴿يَا بُنَيَّ﴾ وصرف هذا اللفظ إلى أنه رباه، فأطلق عليه اسم الابن لهذا السبب، وهذا صرف للكلام عن حقيقته إلى مجازه من غير ضرورة وأنه لا يجوز، والذين خالفوا هذا الظاهر إنما خالفوه لأنهم استبعدوا أن يكون ولد الرسول المعصوم كافرًا، وهذا بعيد، فإنه ثبت أن والد رسولنا ﷺ كان كافرًا، ووالد إبراهيم عليه السلام كان كافرًا بنص القرآن، فكذلك ههنا، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا في أنه عليه السلام لما قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] فكيف ناداه مع كفره؟

فأجابوا عنه من وجوه: الأول: أنه كان ينافق أباه فظن نوح أنه مؤمن فلذلك ناداه ولولا ذلك لما

أحب نجاته . والثاني : أنه عليه السلام كان يعلم أنه كافر ، لكنه ظن أنه لما شاهد الغرق والأهوال العظيمة فإنه يقبل الإيمان فصار قوله : ﴿يَـٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾ كالدلالة على أنه طلب منه الإيمان وتأكد هذا بقوله : ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَـٰفِرِينَ﴾ أي تابعهم في الكفر واركب معنا . والثالث : أن شفقة الأبوة لعلها حملته على ذلك النداء ، والذي تقدم من قوله : ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾ كان كالمجمل فلعله عليه السلام جوز أن لا يكون هو داخلاً فيه .

القول الثاني : أنه كان ابن امرأته وهو قول محمد بن علي الباقر وقول الحسن البصري ويروى أن عليًّا رضي الله عنه قرأ (ونَادَى نُوحٌ ابنَهَا) والضمير لامرأته . وقرأ محمد بن علي وعروة بن الزبير (ابْنَهَ) بفتح الهاء يريدان ابنها إلا أنهما اكتفيا بالفتحة عن الألف ، وقال قتادة سألت الحسن عنه فقال : والله ما كان ابنه فقلت : إن الله حكى عنه أنه قال : ﴿إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ [هود: ٤٥] وأنت تقول : ما كان ابنًا له ، فقال : لم يقل : إنه مني ولكنه قال من أهلي وهذا يدل على قولي .

القول الثالث : أنه ولد على فراشه لغير رشدة ، والقائلون بهذا القول احتجوا بقوله تعالى في امرأة نوح وامرأة لوط فخانتاهما وهذا قول خبيث يجب صون منصب الأنبياء عن هذه الفضيحة لا سيما وهو على خلاف نص القرآن .

أما قوله تعالى ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠] فليس فيه أن تلك الخيانة إنما حصلت بالسبب الذي ذكروه . قيل لابن عباس رضي الله عنهما : ما كانت تلك الخيانة ، فقال : كانت امرأة نوح تقول : زوجي مجنون ، وامرأة لوط تدل الناس على ضيفه إذا نزلوا به .

ثم الدليل القاطع على فساد هذا المذهب قوله تعالى : ﴿ٱلۡخَبِيثَـٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَـٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَـٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَـٰتِۚ﴾ [النور: ٢٦] وأيضًا قوله تعالى : ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النور: ٣] وبالجملة فقد دللنا على أن الحق هو مقول الأول .

وأما قوله: ﴿وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ﴾ فاعلم أن المعزل في اللغة معناه : موضع منقطع عن غيره ، وأصله من العزل ، وهو التنحية والإبعاد . تقول : كنت بمعزل عن كذا ، أي بموضع قد عزل منه .

واعلم أن قوله: ﴿وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ﴾ لا يدل على أنه في معزل من أي شيء فلهذا السبب ذكروا وجوهًا : الأول : أنه كان في معزل من السفينة لأنه كان يظن أن الجبل يمنعه من الغرق ، الثاني : أنه كان في معزل عن أبيه وإخوته وقومه ، الثالث : أنه كان في معزل من الكفار كأنه انفرد عنهم فظن نوح عليه السلام أن ذلك إنما كان لأنه أحب مفارقتهم .

أما قوله: ﴿يَـٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَـٰفِرِينَ﴾ فنقول : قرأ حفص عن عاصم ﴿يَـٰبُنَيَّ﴾ بفتح الياء في جميع القرآن والباقون بالكسر . قال أبو علي : الوجه الكسر وذلك أن اللام من ابن ياء أو واو فإذا صغرت ألحقت ياء التحقير ، فلزم أن ترد اللام المحذوفة وإلا لزم أن تحرك ياء التحقير بحركات الإعراب لكنها لا تحرك لأنها لو حركت لزم أن تنقلب كما تنقلب سائر حروف المد

واللين إذا كانت حروف إعراب، نحو عَصًا وقفا ولو انقلبت بطلت دلالتها على التحقير ثم أضفت إلى نفسك اجتمعت ثلاث آيات. الأولى: منها للتحقير. والثانية: لام الفعل. والثالثة: التي للإضافة تقول: هذا بني فإذا ناديته صار فيه وجهان: إثبات الياء وحذفها والاختيار حذف الياء التي للإضافة وإبقاء الكسرة دلالة عليه نحو يا غلام ومن قرأ ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ بفتح الياء فإنه أراد الإضافة أيضًا كما أرادها من قرأ بالكسر لكنه أبدل من الكسرة الفتحة ومن الياء الألف تخفيفًا فصار يا بنيا كما قال:

يَا ابْنَةَ عَمَّا لاَ تَلُومِي وَاهْجَعِي[1]

ثم حذف الألف للتخفيف.

واعلم أنه تعالى لما حكى عن نوح عليه السلام أنه دعاه إلى أن يركب السفينة حكى عن ابنه أنه قال: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ وهذا يدل على أن الابن كان متماديًا في الكفر مصرًّا عليه مكذبًا لأبيه فيما أخبر عنه فعند هذا قال نوح عليه السلام: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ وفيه سؤال، وهو أن الذي رحمه الله معصوم، فكيف يحسن استثناء المعصوم من العاصم وهو قوله: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ وذكروا في الجواب طرقًا كثيرة.

الوجه الأول: أنه تعالى قال قبل هذه الآية: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: ٤١] فبيَّن أنه تعالى رحيم وأنه برحمته يخلص هؤلاء الذين ركبوا السفينة من آفة الغرق.

إذا عرفت هذا فنقول: إن ابن نوح عليه السلام لما قال: سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال نوح عليه السلام أخطأت ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ والمعنى: إلا ذلك الذي ذكرت أنه برحمته يخلص هؤلاء من الغرق فصار تقدير الآية: لا عاصم اليوم من عذاب الله إلا الله الرحيم، وتقديره: لا فرار من الله إلا إلى الله، وهو نظير قوله عليه السلام في دعائه: «وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ»[2] وهذا تأويل في غاية الحسن.

الوجه الثاني: في التأويل وهو الذي ذكره صاحب (حل العقد) أن هذا الاستثناء وقع من مضمر هو في حكم الملفوظ لظهور دلالة اللفظ عليه، والتقدير: لا عاصم اليوم لأحد من أمر الله إلا من رحم وهو كقولك: لا تضرب اليوم إلا زيدًا، فإن تقديره لا تضرب أحدًا إلا زيدًا

---

(١) هذا البيت للشاعر أبي النجم العجلي وقد تقدمت ترجمته.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الصلاة) باب (ما يقال في الركوع والسجود)، (١/ ٢٢٢/ ٣٥٢)، وأبو داود في كتاب (الصلاة) باب (في الدعاء في الركوع والسجود)، (١/ ٣٨٩) حديث رقم/ ٨٧٩، وابن ماجه في كتاب (الدعاء) باب (ما تعوذ منه النبي)، (٢/ ١٢٦٢/ ١٢٦٣) حديث رقم/ ٣٨٤١، والنسائي في كتاب (الطهارة) باب (ترك الوضوء من مس رجل) (١/ ١١١) حديث رقم/ ١٦٩، وأحمد في (مسنده) (٦/ ٢٠١)، وابن خزيمة باب (نصب القدمين في السجود) حديث رقم/ ٦٥٥، جميعا من طريق عبد الله بن عمر... به.

إلا أنه ترك التصريح به لدلالة اللفظ عليه فكذا ههنا.

الوجه الثالث: في التأويل أن قوله: ﴿لَا عَاصِمَ﴾ أي لا ذا عصمة كما قالوا: رامح ولابن ومعناه ذو رمح، وذو لبن وقال تعالى: ﴿مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾[الطارق: ٦] و﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾[الحاقة: ٢١] ومعناه ما ذكرنا ههنا، وعلى هذا التقدير: العاصم هو ذو العصمة، فيدخل فيه المعصوم، وحينئذ يصح استثناء قوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ منه.

الوجه الرابع: قوله: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ عنى بقوله: إلا من رحم نفسه، لأن نوحًا وطائفته هم الذين خصهم الله تعالى برحمته، والمراد: لا عاصم لك إلا الله بمعنى أن بسببه تحصل رحمة الله، كما أضيف الإحياء إلى عيسى عليه السلام في قوله: ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[آل عمران: ٤٩] لأجل أن الإحياء حصل بدعائه.

الوجه الخامس: أن قوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ استثناء منقطع، والمعنى لكن من رحم الله معصوم، ونظيره قوله تعالى: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾[النساء: ١٥٧] ثم إنه تعالى بيَّن بقوله: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ أي بسبب هذه الحيلولة خرج من أن يخاطبه نوح ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

اعلم أن المقصود من هذا الكلام وصف آخر لواقعة الطوفان، فكان التقدير أنه لما انتهى أمر الطوفان قيل كذا وكذا ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ يقال: بلع الماء يبلعه بلعًا إذا شربه وابتلع الطعام ابتلاعًا إذا لم يمضغه، وقال أهل اللغة: الفصيح بَلِع بكسر اللام يبلع بفتحها ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ يقال: أقلع الرجل عن عمله إذا كف عنه، وأقلعت السماء بعدما مطرت إذا أمسكت ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ يقال غاض الماء يغيض غيضًا ومغاضًا إذا نقص وغضته أنا وهذا من باب فعل الشيء وفعلته أنا ومثله جبر العظم وجبرته وفغر الفم وفغرته، ودلع اللسان ودلعته، ونقص الشيء ونقصته، فقوله: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ أي نقص وما بقي منه شيء.

واعلم أن هذه الآية مشتملة على ألفاظ كثيرة كل واحد منها دال على عظمة الله تعالى وعلو كبريائه:

فأولها: قوله: ﴿وَقِيلَ﴾ وذلك لأن هذا يدل على أنه سبحانه في الجلال والعلو والعظمة، بحيث إنه متى قيل قيل لم ينصرف العقل إلا إليه ولم يتوجه الفكر إلا إلى أن ذلك القائل هو هو وهذا تنبيه من هذا الوجه، على أنه تقرر في العقول أنه لا حاكم في العالمين ولا متصرف في العالم العلوي والعالم السفلي إلا هو.

وثانيها: قوله: ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ فإن الحس يدل على عظمة هذه الأجسام

وشدتها وقوتها فإذا شعر العقل بوجود موجود قاهر لهذه الأجسام مستول عليها متصرف فيها كيف شاء وأراد، صار ذلك سببًا لوقوف القوة العقلية على كمال جلال الله تعالى وعلو قهره، وكمال قدرته ومشيئته. وثالثها: أن السماء والأرض من الجمادات فقوله: ﴿يَٰٓأَرۡضُ﴾ ﴿وَيَٰسَمَآءُ﴾ مشعر بحسب الظاهر، على أن أمره وتكليفه نافذ في الجمادات فعند هذا يحكم الوهم بأنه لما كان الأمر كذلك فلأن يكون أمره نافذًا على العقلاء كان أولى وليس مرادي منه أنه تعالى يأمر الجمادات فإن ذلك باطل بل المراد أن توجيه صيغة الأمر بحسب الظاهر على هذه الجمادات القوية الشديدة يقرر في الوهم نوع عظمته وجلاله تقريرًا كاملاً.

وأما قوله: ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ فالمراد أن الذي قضى به وقدره في الأزل قضاء جزمًا حتمًا فقد وقع تنبيهًا على أن كل ما قضى الله تعالى فهو واقع في وقته وأنه لا دافع لقضائه ولا مانع من نفاذ حكمه في أرضه وسمائه.

فإن قيل: كيف يليق بحكمة الله تعالى أن يغرق الأطفال بسبب جرم الكفار؟

قلنا: الجواب عنه من وجهين:

الأول: أن كثيرًا من المفسرين يقولون إن الله تعالى أعقم أرحام نسائهم قبل الغرق بأربعين سنة فلم يغرق إلا من بلغ سنه إلى الأربعين.

ولقائل ان يقول: لو كان الأمر على ما ذكرتم، لكان ذلك آية عجيبة قاهرة. ويبعد مع ظهورها استمرارهم على الكفر، وأيضًا فهب أنكم ذكرتم ما ذكرتم فما قولكم في إهلاك الطير والوحش مع أنه لا تكليف عليها ألبتة.

والجواب الثاني: وهو الحق أنه لا اعتراض على الله تعالى في أفعاله ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] وأما المعتزلة فهم يقولون: إنه تعالى أغرق الأطفال والحيوانات، وذلك يجري مجرى إذنه تعالى في ذبح هذه البهائم وفي استعمالها في الأعمال الشاقة الشديدة.

وأما قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ فالمعنى: واستوت السفينة على جبل بالجزيرة يقال له الجودي، وكان ذلك الجبل جبلاً منخفضًا، فكان استواء السفينة عليه دليلاً على انقطاع مادة ذلك الماء وكان ذلك الاستواء يوم عاشوراء.

وأما قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

.ففيه وجهان:

الأول: أنه من كلام الله تعالى قال لهم ذلك على سبيل اللعن والطرد.

والثاني: أن يكون ذلك من كلام نوح عليه السلام وأصحابه لأن الغالب ممن يسلم من الأمر الهائل بسبب اجتماع قوم من الظلمة فإذا هلكوا ونجا منهم قال مثل هذا الكلام، ولأنه جار مجرى الدعاء عليهم فجعله من كلام البشر أليق.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: اعلم أن قوله: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ فقد ذكرنا الخلاف في أنه هل كان ابنًا له أم لا فلا نعيده، ثم إنه تعالى ذكر أنه قال: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ واعلم أنه لما ثبت بالدليل أنه كان ابنًا له وجب حمل قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ على أحد وجهين:

أحدهما: أن يكون المراد أنه ليس من أهل دينك.

والثاني: المراد أنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك، والقولان متقاربان.

المسألة الثانية: هذه الآية تدل على أن العبرة بقرابة الدين لا بقرابة النسب، فإن في هذه الصورة كانت قرابة النسب حاصلة من أقوى الوجوه ولكن لما انتفت قرابة الدين لا جرم نفاه الله تعالى بأبلغ الألفاظ وهو قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ قرأ الكسائي: عَمِلَ على صيغة الفعل الماضي، وغيرَ بالنصب، والمعنى: إن ابنك عمل عملاً غير صالح يعني أشرك وكذب، وكلمة (غير) نصب، لأنها نعت لمصدر محذوف، وقرأ الباقون: ﴿عَمَلٌ﴾ بالرفع والتنوين، وفيه وجهان:

الأول: أن الضمير في قوله ﴿إِنَّهُۥ﴾ عائد إلى السؤال، يعني أن هذا السؤال عمل وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ غير صالح، لأن طلب نجاة الكافر بعد أن سبق الحكم، الجزم بأنه لا ينجي أحدًا منهم سؤال باطل.

الثاني: أن يكون هذا الضمير عائدًا إلى الابن، وعلى هذا التقدير ففي وصفه بكونه عملاً غير صالح وجوه: **الأول:** أن الرجل إذا كثر عمله وإحسانه يقال له: إنه عِلْمٌ وكَرَمٌ وجُودٌ، فكذا ههنا لما كثر إقدام ابن نوح على الأعمال الباطلة حكم عليه بأنه في نفسه عمل باطل. **الثاني:** أن يكون المراد أنه ذو عمل باطل، فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه. **الثالث:** قال بعضهم: معنى قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ أي إنه ولد زنًا وهذا القول باطل قطعًا.

ثم إنه تعالى قال لنوح عليه السلام: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: احتج بهذه الآية من قدح في عصمة الأنبياء عليهم السلام من وجوه:

الوجه الأول: أن قراءة ﴿عَمَلٌ﴾ بالرفع والتنوين قراءة متواترة فهي محكمة، وهذا يقتضي عود الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ إما إلى ابن نوح وإما إلى ذلك السؤال، فالقول بأنه عائد إلى ابن نوح لا يتم إلا بإضمار وهو خلاف الظاهر. ولا يجوز المصير إليه إلا عند الضرورة ولا ضرورة هاهنا، لأنا إذا حكمنا بعود الضمير إلى السؤال المتقدم فقد استغنينا عن هذا الضمير، فثبت أن هذا الضمير عائد إلى هذا السؤال، فكان التقدير أن هذا السؤال عمل غير صالح، أي قولك: إن ابني من أهلي لطلب نجاته عمل غير صالح، وذلك يدل على أن هذا السؤال كان ذنبًا ومعصية.

الوجه الثاني: أن قوله: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ﴾ نهي له عن السؤال، والمذكور السابق هو قوله ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ فدل هذا على أنه تعالى نهاه عن ذلك السؤال فكان ذلك السؤال ذنبًا ومعصية.

الوجه الثالث: أن قوله: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ يدل على أن ذلك السؤال كان قد صدر لا عن العلم، والقول بغير العلم ذنب لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩].

الوجه الرابع: أن قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ يدل على أن ذلك السؤال كان محض الجهل. وهذا يدل على غاية التقريع ونهاية الزجر، وأيضًا جعل الجهل كناية عن الذنب مشهور في القرآن. قال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ [النساء: ١٧] وقال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

الوجه الخامس: أن نوحًا عليه السلام اعترف بإقدامه على الذنب والمعصية في هذا المقام فإنه قال: ﴿إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ واعترافه بذلك يدل على أنه كان مذنبًا.

الوجه السادس: في التمسك بهذه الآية أن هذه الآية تدل على أن نوحًا نادى ربه لطلب تخليص ولده من الغرق، والآية المتقدمة وهي قوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ وقال: ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ تدل على أنه عليه السلام طلب من ابنه الموافقة. فنقول: إما أن يقال: إن طلب هذا المعنى من الله كان سابقًا على طلبه من الولد أو كان بالعكس، والأول باطل؛ لأن بتقدير أن يكون طلب هذا المعنى من الله تعالى سابقًا على طلبه من الابن لكان قد سمع من الله أنه تعالى لا يخلص ذلك الابن من الغرق، وأنه تعالى نهاه عن ذلك الطلب، وبعد هذا كيف قال له: ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وأما إن قلنا: إن هذا الطلب من الابن كان متقدمًا فكان قد سمع من الابن قوله: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ وظهر بذلك كفره، فكيف طلب من الله تخليصه، وأيضًا أنه تعالى أخبر أن نوحًا لما طلب ذلك منه وامتنع هو صار من المغرقين فكيف يطلب من الله تخليصه من الغرق بعد أن صار من المغرقين، فهذه الآية من هذه الوجوه الستة تدل على صدور المعصية من نوح عليه السلام.

واعلم أنه لما دلت الدلائل الكثيرة على وجوب تنزيه الله تعالى الأنبياء عليهم السلام من

المعاصي، وجب حمل هذه الوجوه المذكورة على ترك الأفضل والأكمل، وحسنات الأبرار سيئات المقربين، فلهذا السبب حصل هذا العتاب والأمر بالاستغفار، ولا يدل على سابقة الذنب كما قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ [النصر: ١ - ٣] ومعلوم أن مجيء نصر الله والفتح ودخول الناس في دين الله أفواجًا ليست بذنب يوجب الاستغفار وقال تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ [محمد: ١٩] وليس جميعهم مذنبين، فدل ذلك على أن الاستغفار قد يكون بسبب ترك الأفضل.

المسألة الثانية: قرأ نافع برواية ورش وإسماعيل بتشديد النون وإثبات الياء (تَسْأَلنِّي) وقرأ ابن عامر ونافع برواية قالون بتشديد النون وكسرها من غير إثبات الياء، وقرأ أبو عمرو بتخفيف النون وكسرها وحذف الياء (تَسْأَلِن) أما التشديد فللتأكيد، وأما إثبات الياء فعلى الأصل، وأما ترك التشديد والحذف فللتخفيف من غير إخلال.

واعلم أنه تعالى لما نهاه عن ذلك السؤال حكى عنه أنه قال: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ والمعنى أنه تعالى لما قال له: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾ فقال عند ذلك قبلت يا رب هذا التكليف، ولا أعود إليه إلا أني لا أقدر على الاحتراز منه إلا بإعانتك وهدايتك، فلهذا بدأ أولاً بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ﴾ .

واعلم أن قوله: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾ إخبار عما في المستقبل، أي لا أعود إلى هذا العمل، ثم اشتغل بالاعتذار عما مضى، فقال: ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ وحقيقة التوبة تقتضي أمرين: أحدهما: في المستقبل، وهو العزم على الترك وإليه الإشارة بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾، والثاني: في الماضي وهو الندم على ما مضى وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ ونختم هذا الكلام بالبحث عن الزلة التي صدرت عن نوح عليه السلام في هذا المقام. فنقول: إن أمة نوح عليه السلام كانوا على ثلاثة أقسام كافر يُظْهِر كفره ومؤمن يعلم إيمانه وجمع من المنافقين، وقد كان حكم المؤمنين هو النجاة وحكم الكافرين هو الغرق، وكان ذلك معلومًا، وأما أهل النفاق فبقي حكمهم مخفيًا وكان ابن نوح منهم وكان يجوز فيه كونه مؤمنًا، وكانت الشفقة المفرطة التي تكون من الأب في حق الابن تحمله على حمل أعماله وأفعاله لا على كونه كافرًا، بل على الوجوه الصحيحة، فلما رآه بمعزل عن القوم طلب منه أن يدخل السفينة فقال: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ وذلك لا يدل على كفره لجواز أن يكون قد ظن أن الصعود على الجبل يجري مجرى الركوب في السفينة في أنه يصونه عن الغرق، وقول نوح: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾ لا يدل إلا على أنه عليه السلام كان يقرر عند ابنه أنه لا ينفعه إلا الإيمان والعمل الصالح، وهذا أيضًا لا يدل على أنه علم من ابنه أنه كان كافرًا فعند هذه الحالة كان قد بقي في قلبه ظن أن ذلك الابن مؤمن، فطلب من الله تعالى تخليصه بطريق من الطرق

إما بأن يمكنه من الدخول في السفينة، وإما أن يحفظه على قلة جبل، فعند ذلك أخبره الله تعالى بأنه منافق وأنه ليس من أهل دينه، فالزلة الصادرة عن نوح عليه السلام هو أنه لم يستقص في تعريف ما يدل على نفاقه وكفره، بل اجتهد في ذلك وكان يظن أنه مؤمن، مع أنه أخطأ في ذلك الاجتهاد، لأنه كان كافرًا فلم يصدر عنه إلا الخطأ في هذا الاجتهاد، كما قررنا ذلك في أن آدم عليه السلام لم تصدر عنه تلك الزلة إلا لأنه أخطأ في هذا الاجتهاد، فثبت بما ذكرنا أن الصادر عن نوح عليه السلام ما كان من باب الكبائر وإنما هو من باب الخطأ في الاجتهاد، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: أنه تعالى أخبر عن السفينة أنها استوت على الجودي، فهناك قد خرج نوح وقومه من السفينة لا محالة، ثم إنهم نزلوا من ذلك الجبل إلى الأرض فقوله: ﴿ٱهْبِطْ﴾ يحتمل أن يكون أمرًا بالخروج من السفينة إلى أرض الجبل وأن يكون أمرًا بالهبوط من الجبل إلى الأرض المستوية.

المسألة الثانية: أنه تعالى وعده عند الخروج بالسلامة أولاً، ثم بالبركة ثانيًا، أما الوعد بالسلامة فيحتمل وجهين: الأول: أنه تعالى أخبر في الآية المتقدمة أن نوحًا عليه السلام تاب عن زلته وتضرع إلى الله تعالى بقوله: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧] وهذا التضرع هو عين التضرع الذي حكاه الله تعالى عن آدم عليه السلام عند توبته من زلته وهو قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] فكان نوح عليه السلام محتاجًا إلى أن بشره الله تعالى بالسلامة من التهديد والوعيد فلما قيل له: ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ حصل له الأمن من جميع المكاره المتعلقة بالدين. والثاني أن ذلك الغرق لما كان عامًّا في جميع الأرض فعندما خرج نوح عليه السلام من السفينة علم أنه ليس في الأرض شيء مما ينتفع به من النبات والحيوان، فكان كالخائف في أنه كيف يعيش وكيف يدفع جميع الحاجات عن نفسه من المأكول والمشروب، فلما قال الله تعالى: ﴿ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ زال عنه ذلك الخوف، لأن ذلك يدل على حصول السلامة من الآفات ولا يكون ذلك إلا مع الأمن وسعة الرزق، ثم إنه تعالى لما وعده بالسلامة أردفه بأن وعده بالبركة، وهي عبارة عن الدوام والبقاء، والثبات، ونيل الأمل، ومنه بروك الإبل، ومنه البركة لثبوت الماء فيها، ومنه تبارك وتعالى، أي ثبت تعظيمه، ثم اختلف المفسرون في تفسير هذا الثبات والبقاء.

فالقول الأول: أنه تعالى صيَّر نوحًا أبا البشر، لأن جميع من بقي كانوا من نسله وعند هذا قال

هذا القائل: إنه لما خرج نوح من السفينة مات كل من كان معه ممن لم يكن من ذريته ولم يحصل النسل إلا من ذريته، فالخلق كلهم من نسله وذريته، وقال آخرون: لم يكن في سفينة نوح عليه السلام إلا من كان من نسله وذريته، وعلى التقديرين فالخلق كلهم إنما تولدوا منه ومن أولاده، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧] فثبت أن نوحًا عليه السلام كان آدم الأصغر، فهذا هو المراد من البركات التي وعده الله بها.

والقول الثاني: أنه تعالى لما وعده بالسلامة من الآفات، وعده بأن موجبات السلامة، والراحة والفراغة يكون في التزايد والثبات والاستقرار، ثم إنه تعالى لما شرفه بالسلامة والبركة شرح بعده حال أولئك الذين كانوا معه فقال: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ واختلفوا في المراد منه على ثلاثة أقوال: منهم من حمله على أولئك الأقوام الذين نجوا معه وجعلهم أممًا وجماعات، لأنه ما كان في ذلك الوقت في جميع الأرض أحد من البشر إلا هم، فلهذا السبب جعلهم أممًا، ومنهم من قال: بل المراد ممن معك نسلاً وتولدًا قالوا: ودليل ذلك أنه ما كان معه إلا الذين آمنوا وقد حكم الله تعالى عليهم بالقلة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، ومنهم من قال: المراد من ذلك مجموع الحاضرين مع الذين سيولدون بعد ذلك، والمختار هو القول الثاني: و(من) في قوله: ﴿مِّمَّن مَّعَكَ﴾ لابتداء الغاية، والمعنى: وعلى أمم ناشئة من الذين معك.

واعلم أنه تعالى جعل تلك الأمم الناشئة من الذين معه على قسمين: أحدهما: الذين عطفهم على نوح في وصول سلام الله وبركاته إليهم وهم أهل الإيمان. والثاني: أمم وصفهم بأنه تعالى سيمتعهم مدة في الدنيا ثم في الآخرة يمسهم عذاب أليم، فحكم تعالى بأن الأمم الناشئة من الذين كانوا مع نوح عليه السلام لا بد وأن ينقسموا إلى مؤمن وإلى كافر. قال المفسرون: دخل في تلك السلامة كل مؤمن وكل مؤمنة إلى يوم القيامة، ودخل في ذلك المتاع وفي ذلك العذاب كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة، ثم قال أهل التحقيق: إنه تعالى إنما عظم شأن نوح بإيصال السلامة والبركات منه إليه، لأنه قال: ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ وهذا يدل على أن الصديقين لا يفرحون بالنعمة من حيث إنها نعمة ولكنهم إنما يفرحون بالنعمة من حيث إنها من الحق، وفي التحقيق يكون فرحهم بالحق وطلبهم للحق وتوجههم إلى الحق، وهذا مقام شريف لا يعرفه إلا خواص الله تعالى، فإن الفرح بالسلامة وبالبركة من حيث هما سلامة وبركة غير، والفرح بالسلامة والبركة من حيث إنهما من الحق غير، والأول: نصيب عامة الخلق، والثاني: نصيب المقربين، ولهذا السبب قال بعضهم: من آثر العرفان للعرفان فقد قال بالثاني، ومن آثر العرفان لا للعرفان بل للمعروف فقد خاض لجة الوصول، وأما أهل العقاب فقد قال في شرح أحوالهم ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فحكم بأنه تعالى يعطيهم نصيبًا من متاع الدنيا فدل ذلك على خساسة الدنيا، فإنه تعالى لما ذكر أحوال المؤمنين لم يذكر ألبتة أنه يعطيهم الدنيا أم

لا . ولما ذكر أحوال الكافرين ذكر أنه يعطيهم الدنيا، وهذا تنبيه عظيم على خساسة السعادات الجسمانية والترغيب في المقامات الروحانية.

قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

واعلم أنه تعالى لما شرح قصة نوح عليه السلام على التفصيل قال: ﴿تِلْكَ﴾ أي تلك الآيات التي ذكرناها، وتلك التفاصيل التي شرحناها من أنباء الغيب، أي من الأخبار التي كانت غائبة عن الخلق فقوله: ﴿تِلْكَ﴾ في محل الرفع على الابتداء، و(من أنباء الغيب) الخبر و﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ خبر ثان وما بعده أيضًا خبر ثالث.

ثم قال تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾ والمعنى: أنك ما كنت تعرف هذه القصة، بل قومك ما كانوا يعرفونها أيضًا، ونظيره أن تقول لإنسان لا تعرف هذه المسألة لا أنت ولا أهل بلدك.

فإن قيل: أليس قد كانت قصة طوفان نوح عليه السلام مشهورة عند أهل العلم؟

قلنا: تلك القصة بحسب الإجمال كانت مشهورة، أما التفاصيل المذكورة فما كانت معلومة.

ثم قال: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ والمعنى: يا محمد اصبر أنت وقومك على أذى هؤلاء الكفار كما صبر نوح وقومه على أذى أولئك الكفار، وفيه تنبيه على أن الصبر عاقبته النصر والظفر والفرح والسرور كما كان لنوح عليه السلام ولقومه. **فإن قال قائل:** إنه تعالى ذكر هذه القصة في سورة يونس ثم إنه أعادها هاهنا مرة أخرى، فما الفائدة في هذا التكرير؟ **قلنا:** إن القصة الواحدة قد ينتفع بها من وجوه: ففي السورة الأولى كان الكفار يستعجلون نزول العذاب، فذكر تعالى قصة نوح في بيان أن قومه كانوا يكذبونه بسبب أن العذاب ما كان يظهر ثم في العاقبة ظهر فكذا في واقعة محمد ﷺ، وفي هذه السورة ذكر هذه القصة لأجل أن الكفار كانوا يبالغون في الإيحاش، فذكر الله تعالى هذه القصة لبيان أن إقدام الكفار على الإيذاء والإيحاش كان حاصلاً في زمان نوح، إلا أنه عليه السلام لما صبر نال الفتح والظفر، فكن يا محمد كذلك لتنال المقصود، ولما كان وجه الانتفاع بهذه القصة في كل سورة من وجه آخر لم يكن تكريرها خاليًا عن الفائدة.

قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

اعلم أن هذا هو القصة الثانية من القصص التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة، واعلم أن

هذا معطوف على قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا﴾ [الحديد: ٢٦] والتقدير: ولقد أرسلنا إلى عاد أخاهم هودًا وقوله: ﴿هُودٗا﴾ عطف بيان.

واعلم أنه تعالى وصف هودًا بأنه أخوهم ومعلوم أن تلك الأخوة ما كانت في الدين، وإنما كانت في النسب، لأن هودًا كان رجلاً من قبيلة عاد، وهذه القبيلة كانت قبيلة من العرب وكانوا بناحية اليمن، ونظيره ما يقال للرجل: يا أخا تميم ويا أخا سليم، والمراد رجل منهم.

فإن قيل: إنه تعالى، قال في ابن نوح ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ [هود: ٤٦] فبيَّن أن قرابة النسب لا تفيد إذا لم تحصل قرابة الدين، وهاهنا أثبت هذه الأخوة مع الاختلاف في الدين، فما الفرق بينهما؟

قلنا: المراد من هذا الكلام استمالة قوم محمد ﷺ؛ لأن قومه كانوا يستبعدون في محمد، مع أنه واحد من قبيلتهم، أن يكون رسولاً إليهم من عند الله، فذكر الله تعالى أن هودًا كان واحدًا من عاد، وأن صالحًا كان واحدًا من ثمود؛ لإزالة هذا الاستبعاد.

واعلم أنه تعالى حكى عن هود عليه السلام، أنه دعا قومه إلى أنواع من التكاليف.

فالنوع الأول: أنه دعاهم إلى التوحيد، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ﴾ وفيه سؤال وهو أنه كيف دعاهم إلى عبادة الله تعالى قبل أن أقام الدلالة على ثبوت الإله تعالى؟

قلنا: دلائل وجود الله تعالى ظاهرة، وهي دلائل الآفاق والأنفس وقلما توجد في الدنيا طائفة ينكرون وجود الإله تعالى، ولذلك قال تعالى في صفة الكفار: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان: ٢٥].

قال مصنف هذا الكتاب محمد بن عمر الرازي رحمه الله وختم له بالحسنى، دخلت بلاد الهند فرأيت أولئك الكفار مطبقين على الاعتراف بوجود الإله، وأكثر بلاد الترك أيضًا كذلك، وإنما الشأن في عبادة الأوثان، فإنها آفة عمت أكثر أطراف الأرض وهكذا الأمر كان في الزمان القديم، أعني زمان نوح وهود وصالح عليهم السلام، فهؤلاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، كانوا يمنعونهم من عبادة الأصنام، فكان قوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ معناه لا تعبدوا غير الله، والدليل عليه أنه قال عقيبه: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ وذلك يدل على أن المقصود من هذا الكلام منعهم عن الاشتغال بعبادة الأصنام.

وأما قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ فقرئ ﴿غَيۡرُهُۥٓ﴾ بالرفع صفة على محل الجار والمجرور، وقرئ بالجر صفة على اللفظ.

ثم قال: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ﴾ يعني أنكم كاذبون في قولكم: إن هذه الأصنام تحسن عبادتها، أو في قولكم: إنها تستحق العبادة، وكيف لا يكون هذا كذبًا وافتراء وهي جمادات لاحس لها ولا إدراك، والإنسان هو الذي ركبها وصورها فكيف يليق بالإنسان الذي صنعها أن

يعبدها وأن يضع الجبهة على التراب تعظيمًا لها، ثم إنه عليه الصلاة والسلام لما أرشدهم إلى التوحيد ومنعهم عن عبادة الأوثان قال: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾ وهو عين ما ذكره نوح عليه السلام، وذلك لأن الدعوة إلى الله تعالى إذا كانت مطهرة عن دنس الطمع، قوي تأثيرها في القلب.

ثم قال ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يعني أفلا تعقلون أني مصيب في المنع من عبادة الأصنام، وذلك لأن العلم بصحة هذا المنع، كأنه مركوز في بدائه العقول.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

اعلم أن هذا هو النوع الثاني من التكاليف التي ذكرها هود عليه السلام لقومة، وذلك لأنه في المقام الأول دعاهم إلى التوحيد، وفي هذا المقام دعاهم إلى الاستغفار ثم إلى التوبة، والفرق بينهما قد تقدم في أول هذه السورة. قال أبو بكر الأصم: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟﴾، أي سلوه أن يغفر لكم ما تقدم من شرككم ثم توبوا من بعده بالندم على ما مضى وبالعزم على أن لا تعودوا إلى مثله؛ ثم إنه عليه السلام قال: إِنَّكُمْ مَتَى فَعَلْتُمْ ذَلِكَ فاللَّه تَعَالَى يُكْثِرُ النِّعَمَ عِنْدَكُمْ وَيُقَوِّيكُمْ عَلَى الانْتِفَاعِ بِتِلْكَ النِّعَمِ وهذا غاية ما يراد من السعادات، فإن النعم إن لم تكن حاصلة تعذر الانتفاع، وإن كانت حاصلة إلا أن الحيوان قام به المنع من الانتفاع بها لم يحصل المقصود أيضًا، أما إذا كثرت النعمة وحصلت القوة الكاملة على الانتفاع بها، فهاهنا تحصل غاية السعادة والبهجة فقوله تعالى: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ إشارة إلى تكثير النعم لأن مادة حصول النعم هي الأمطار الموافقة، وقوله: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ إشارة إلى كمال حال القوى التي بها يمكن الانتفاع بتلك النعمة، ولا شك أن هذه الكلمة جامعة في البشارة بتحصيل السعادات وأن الزيادة عليها ممتنعة في صريح العقل، ويجب على العاقل أن يتأمل في هذه اللطائف ليعرف ما في هذا الكتاب الكريم من الأسرار المخفية، وأما المفسرون فإنهم قالوا القوم كانوا مخصوصين في الدنيا بنوعين من الكمال: أحدهما: أن بساتينهم ومزارعهم كانت في غاية الطيب والبهجة، والدليل عليه قوله: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [الفجر: ٧، ٨]، والثاني: أنهم كانوا في غاية القوة والبطش ولذلك قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، ولما كان القوم مفتخرين على سائر الخلق بهذين الأمرين وعدهم هود عليه السلام أنهم لو تركوا عبادة الأصنام واشتغلوا بالاستغفار والتوبة فإن الله تعالى يقوي حالهم في هذين المطلوبين ويزيدهم فيها درجات كثيرة، ونقل أيضًا أن الله تعالى لما بعث هودًا عليه السلام إليهم وكذبوه حبس الله عنهم المطر سنين وأعقم أرحام نسائهم فقال لهم هود: إن آمنتم بالله أحيا الله بلادكم ورزقكم المال والولد، فذلك قوله: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ والمدرار الكثير الدر وهو من أبنية

المبالغة وقوله: ﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ ففسروا هذه القوة بالمال والولد، والشدة في الأعضاء، لأن كل ذلكم ما يتقوى به الإنسان.

فإن قيل: حاصل الكلام هو أن هودًا عليه السلام قال: لو اشتغلتم بعبادة الله تعالى لانفتحت عليكم أبواب الخيرات الدنيوية، وليس الأمر كذلك، لأنه عليه الصلاة والسلام قال: «خُصَّ الْبَلَاءُ بِالْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ الْأَوْلِيَاءِ ثُمَّ الْأَمْثَلِ فَالْأَمْثَلِ» فكيف الجمع بينهما، وأيضًا فقد جرت عادة القرآن بالترغيب في الطاعات بسبب ترتيب الخيرات الدنيوية والأخروية عليها، فأما الترغيب في الطاعات، لأجل ترتيب الخيرات الدنيوية عليها، فذلك لا يليق بالقرآن بل هو طريق مذكور في التوراة.

الجواب: أنه لما أكثر الترغيب في السعادات الأخروية لم يبعد الترغيب أيضًا في خير الدنيا بقدر الكفاية.

وأما قوله: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾ فمعناه: لا تعرضوا عني وعما أدعوكم إليه وأرغبكم فيه مجرمين أي مصرين على إجرامكم وآثامكم.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عن هود عليه السلام ما ذكره للقوم، حكى أيضًا ما ذكره القوم له وهو أشياء: أولها: قولهم: ﴿مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾ أي بحجة، والبينة سميت بينة لأنها تبين الحق من الباطل، ومن المعلوم أنه عليه السلام كان قد أظهر المعجزات إلا أن القوم بجهلهم أنكروها، وزعموا أنه ما جاء بشيء من المعجزات. وثانيها: قولهم: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ﴾ وهذا أيضًا ركيك، لأنهم كانوا يعترفون بأن النافع والضار هو الله تعالى وأن الأصنام لا تنفع ولا تضر، ومتى كان الأمر كذلك فقد ظهر في بديهة العقل أنه لا تجوز عبادتها وتركهم آلهتهم لا يكون عن مجرد قوله بل عن حكم نظر العقل وبديهة النفس. وثالثها: قولهم: ﴿وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ وهذا يدل على الإصرار والتقليد والجحود. ورابعها: قولهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ﴾ يقال: اعتراه كذا إذا غشيه وأصابه. والمعنى: أنك شتمت آلهتنا فجعلتك مجنونًا وأفسدت عقلك، ثم إنه تعالى ذكر أنهم لما قالوا ذلك قال هود عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ وهو ظاهر.

ثم قال: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ وهذا نظير ما قاله نوح عليه السلام لقومه: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١].

واعلم أن هذا معجزة قاهرة، وذلك أن الرجل الواحد إذا أقبل على القوم العظيم وقال لهم: بالغوا في عداوتي وفي موجبات إيذائي ولا تؤجلون؛ فإنه لا يقول هذا إلا إذا كان واثقًا من عند الله تعالى بأنه يحفظه ويصونه عن كيد الأعداء.

ثم قال: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ قال الأزهري: الناصية عند العرب: منبت الشعر في مقدم الرأس ويسمى الشعر النابت هناك ناصية باسم منبته.

واعلم أن العرب إذا وصفوا إنسانًا بالذلة والخضوع قالوا: ما ناصية فلان إلا بيد فلان، أي أنه مطيع له، لأن كل من أخذت بناصيته فقد قهرته، وكانوا إذا أسروا الأسير فأرادوا إطلاقه والمن عليه جَزُّوا ناصيته ليكون ذلك علامة لقهره فخوطبوا في القرآن بما يعرفون فقوله: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ أي ما من حيوان إلا وهو تحت قهره وقدرته، ومنقاد لقضائه وقدره.

ثم قال: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وفيه وجوه:

الأول: أنه تعالى لما قال: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ أشعر ذلك بقدرة عالية وقهر عظيم فأتبعه بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي أنه وإن كان قادرًا عليهم لكنه لا يظلمهم ولا يفعل بهم إلا ما هو الحق والعدل والصواب، قالت المعتزلة قوله: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ يدل على التوحيد وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يدل على العدل، فثبت أن الدين إنما يتم بالتوحيد والعدل.

والثاني: أنه تعالى لما ذكر أن سلطانه قهر جميع الخلق أتبعه بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يعني أنه لا يخفى عليه مستتر، ولا يفوته هارب، فذكر الصراط المستقيم وهو يعني به الطريق الذي لا يكون لأحد مسلك إلا عليه، كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] الثالث: أن يكون المراد إن ربي يدل على الصراط المستقيم، أي يحث، أو يحملكم بالدعاء إليه.

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾

اعلم أن قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ يعني فإن تتولوا ثم فيه وجهان: الأول تقدير الكلام فإن تتولوا لم أعاتب على تقصير في الإبلاغ وكنتم محجوجين كأنه يقول: أنتم الذين أصررتم على التكذيب. الثاني: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾.

ثم قال: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يعني يخلق بعدكم من هو أطوع لله منكم، وهذا إشارة إلى نزول عذاب الاستئصال ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾، يعني أن إهلاككم لا ينقص من ملكه شيئًا.

ثم قال: ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ وفيه ثلاثة أوجه : **الأول:** حفيظ لأعمال العباد حتى يجازيهم عليها . **الثاني:** يحفظني من شركم ومكركم . **الثالث:** حفيظ على كل شيء يحفظه من الهلاك إذا شاء ويهلكه إذا شاء .

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِـَٔايَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾

اعلم أن قوله: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أي عذابنا ، وذلك هو ما نزل بهم من الريح العقيم عذبهم الله بها سبع ليال وثمانية أيام ، تدخل في مناخرهم وتخرج من أدبارهم وتصرعهم على الأرض على وجوههم حتى صاروا كأعجاز نخل خاوية .

فإن قيل: فهذه الريح كيف تؤثر في إهلاكهم؟

قلنا: يحتمل أن يكون ذلك لشدة حرها أو لشدة بردها أو لشده قوتها ، فتخطف الحيوان من الأرض ، ثم تضربه على الأرض ، فكل ذلك محتمل .

وأما قوله: ﴿ نَجَّيْنَا هُودًا ﴾ فاعلم أنه يجوز إتيان البلية على المؤمن وعلى الكافر معًا ، وحينئذ تكون تلك البلية رحمة على المؤمن وعذابًا على الكافر ، فأما العذاب النازل بمن يكذب الأنبياء عليهم السلام فإنه يجب في حكمة الله تعالى أن ينجي المؤمن منه ، ولولا ذلك لما عرف كونه عذابًا على كفرهم ، فلهذا السبب قال الله تعالى هاهنا : ﴿ نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ﴾ .

وأما قوله: ﴿ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ .

ففيه وجوه:

الأول: أراد أنه لا ينجو أحد وإن اجتهد في الإيمان والعمل الصالح إلا برحمة من الله .

والثاني: المراد من الرحمة ما هداهم إليه من الإيمان بالله والعمل الصالح .

الثالث: أنه رحمهم في ذلك الوقت ، وميزهم عن الكافرين في العقاب .

وأما قوله: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ فالمراد من النجاة الأولى هي النجاة من عذاب الدنيا ، والنجاة الثانية من عذاب القيامة ، وإنما وصفه بكونه غليظًا تنبيهًا على أن العذاب الذي حصل لهم بعد موتهم بالنسبة إلى العذاب الذي وقعوا فيه كان عذابًا غليظًا ، والمراد من قوله تعالى : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُم ﴾ أي حكمنا بأنهم لا يستحقون ذلك العذاب الغليظ ولا يقعون فيه .

واعلم أنه تعالى لما ذكر قصة عاد خاطب قوم محمد ﷺ فقال : ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ﴾ فهو إشارة إلى قبورهم وآثارهم ، كأنه تعالى قال : سيروا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا . ثم إنه تعالى جمع

أوصافهم ثم ذكر عاقبة أحوالهم في الدنيا والآخرة، فأما أوصافهم فهي ثلاثة.

الصفة الأولى: قوله: ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ والمراد: جحدوا دلالة المعجزات على الصدق، أو الجحد، ودلالة المحدثات على وجود الصانع الحكيم، إن ثبت أنهم كانوا زنادقة.

الصفة الثانية: قوله: ﴿وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ﴾ والسبب فيه أنهم إذا عصوا رسولاً واحدًا، فقد عصوا جميع الرسل لقوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وقيل: لم يرسل إليهم إلا هودٌ عليه السلام.

الصفة الثالثة: قوله: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾ والمعنى أن السفلة كانوا يقلدون الرؤساء في قولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ [المؤمنون: ٢٤] والمراد من الجبار: المرتفع المتمرد العنيد العنود والمعاند، وهو المنازع المعارض.

واعلم أنه تعالى لما ذكر أوصافهم ذكر بعد ذلك أحوالهم فقال: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ أي جعل اللعن رديفًا لهم، ومتابعًا ومصاحبًا في الدنيا وفي الآخرة، ومعنى اللعنة: الإبعاد من رحمة الله تعالى ومن كل خير.

ثم إنه تعالى بيَّن السبب الأصلي في نزول هذه الأحوال المكروهة بهم فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾ قيل: أراد كفروا بربهم فحذف الباء، وقيل: الكفر هو الجحد، فالتقدير: ألا إن عادًا جحدوا ربهم. وقيل: هو من باب حذف المضاف، أي كفروا نعمة ربهم.

ثم قال: ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ﴾.

وفيه سؤالان:

السؤال الأول: اللعن هو البعد، فلما قال: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ فما الفائدة في قوله: ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ﴾.

والجواب: التكرير بعبارتين مختلفتين يدل على غاية التأكيد.

السؤال الثاني: ما الفائدة في قوله: ﴿لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ﴾.

الجواب: كان عاد عادين، فالأولى: القديمة هم قوم هود، والثانية: هم إرم ذات العماد، فذكر ذلك لإزالة الاشتباه. والثاني: أن المبالغة في التنصيص تدل على مزيد التأكيد.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ٦١ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٦٢﴾

اعلم أن هذا هو القصة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة وهي قصة صالح مع

ثمود، ونظمها مثل النظم المذكور في قصة هود، إلا أن هاهنا لما أمرهم بالتوحيد ذكر في تقريره دليلين:

الدليل الأول: قوله: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ .

وفيه وجهان:

الوجه الأول: أن الكل مخلوقون من صلب آدم، وهو كان مخلوقًا من الأرض. وأقول: هذا صحيح لكن فيه وجه آخر وهو أقرب منه، وذلك لأن الإنسان مخلوق من المني ومن دم الطمث، والمني إنما تولد من الدم، فالإنسان مخلوق من الدم، والدم إنما تولد من الأغذية، وهذه الأغذية إما حيوانية وإما نباتية، والحيوانات حالها كحال الإنسان، فوجب انتهاء الكل إلى النبات وظاهر أن تولد النبات من الأرض، فثبت أنه تعالى أنشأنا من الأرض.

والوجه الثاني: أن تكون كلمة ﴿ مِّنَ ﴾ معناها في التقدير: أنشأكم في الأرض، وهذا ضعيف لأنه متى أمكن حمل الكلام على ظاهره فلا حاجة إلى صرفه عنه، وأما تقرير أن تولد الإنسان من الأرض كيف يدل على وجود الصانع فقد شرحناه مرارًا كثيرة.

الدليل الثاني: قوله: ﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ وفيه ثلاثة أوجه:

الأول: جعلكم عمارها، قالوا: كان ملوك فارس قد أكثروا في حفر الأنهار وغرس الأشجار، لا جرم حصلت لهم الأعمار الطويلة فسأل نبي من أنبياء زمانهم ربه، ما سبب تلك الأعمار؟ فأوحى الله تعالى إليه أنهم عمروا بلادي فعاش فيها عبادي، وأخذ معاوية في إحياء أرض في آخر عمره فقيل له: ما حملك عليه، فقال: ما حملني عليه إلا قول القائل:

لَيْسَ الْفَتَى بِفَتًى لاَ يُسْتَضَاءُ بِهِ ... وَلاَ يَكُونُ لَهُ فِي الْأَرْضِ آثَارُ

الثاني: أنه تعالى أطال أعماركم فيها، واشتقاق ﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ ﴾ من العمر مثل استبقاكم من البقاء.

والثالث: أنه مأخوذ من العمرى، أي جعلها لكم طول أعماركم فإذا متم انتقلت إلى غيركم.

واعلم أن في كون الأرض قابلة للعمارات النافعة للإنسان، وكون الإنسان قادرًا عليها دلالة عظيمة على وجود الصانع، ويرجع حاصله إلى ما ذكره الله تعالى في آية أخرى وهي قوله: ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى: ٣] وذلك لأن حدوث الإنسان مع أنه حصل في ذاته العقل الهادي والقدرة على التصرفات الموافقة يدل على وجود الصانع الحكيم وكون الأرض موصوفة بصفات مطابقة للمصالح موافقة للمنافع يدل أيضًا على وجود الصانع الحكيم.

أما قوله: ﴿ فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ﴾ فقد تقدم تفسيره.

وأما قوله: ﴿ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ يعني أنه قريب بالعلم والسمع ﴿ مُّجِيبٌ ﴾ دعاء المحتاجين بفضله ورحمته، ثم بيّن تعالى أن صالحًا عليه السلام لما قرر هذه الدلائل ﴿ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ﴾ وفيه وجوه:

الأول: أنه لما كان رجلاً قوي العقل قوي الخاطر وكان من قبيلتهم قوي رجاؤهم في أن ينصر

دينهم ويقوي مذهبهم ويقرر طريقتهم؛ لأنه متى حدث رجل فاضل في قوم طمعوا فيه من هذا الوجه.

الثاني: قال بعضهم: المراد أنك كنت تعطف على فقرائنا وتعين ضعفاءنا وتعود مرضانا فقوي رجاؤنا فيك أنك من الأنصار والأحباب، فكيف أظهرت العداوة والبغضة؟ ثم إنهم أضافوا إلى هذا الكلام التعجب الشديد من قوله: فقالوا ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ والمقصود من هذا الكلام التمسك بطريق التقليد ووجوب متابعة الآباء والأسلاف، ونظير هذا التعجب ما حكاه الله تعالى عن كفار مكة حيث قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] ثم قالوا: ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ والشك هو أن يبقى الإنسان متوقفًا بين النفي والإثبات والمريب: هو الذي يظن به السوء فقوله: ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ﴾ يعني به أنه لم يترجح في اعتقادهم صحة قوله وقوله: ﴿مُرِيبٍ﴾ يعني أنه ترجح في اعتقادهم فساد قوله، وهذا مبالغة في تزييف كلامه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾

اعلم أن قوله: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ ورد بحرف الشك وكان على يقين تام في أمره إلا أن خطاب المخالف على هذا الوجه أقرب إلى القبول، فكأنه قال: قدروا أني على بينة من ربي وأني نبي على الحقيقة، وانظروا أني إن تابعتكم وعصيت ربي في أوامره فمن يمنعني من عذاب الله فما تزيدونني على هذا التقدير غير تخسير، وفي تفسير هذه الكلمة وجهان: الأول: أن على هذا التقدير تُخْسِرُون أعمالي وتبطلونها. الثاني: أن يكون التقدير: فما تزيدونني بما تقولون لي وتحملوني عليه غير أن أُخَسِّرَكم أي أنسبكم إلى الخسران، وأقول لكم: إنكم خاسرون، والقول الأول أقرب لأن قوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ [هود: ٦٣] كالدلالة على أنه أراد إن أتبعتكم فيما أنتم عليه من الكفر الذي دعوتموني إليه لم أزدد إلا خسرانًا في الدين فأصير من الهالكين الخاسرين.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾

اعلم أن العادة فيمن يدعي النبوة عند قوم يعبدون الأصنام أن يبتدئ بالدعوة إلى عبادة الله ثم يتبعه بدعوى النبوة لا بد وأن يطلبوا منه المعجزة، وأمر صالح عليه السلام هكذا كان، يروى أن قومه خرجوا في عيد لهم فسألوه أن يأتيهم بآية وأن يخرج لهم من صخرة معينة أشاروا إليها ناقة،

فدعا صالح ربه، فخرجت الناقة كما سألوا.

واعلم أن تلك الناقة كانت معجزة من وجوه: الأول: أنه تعالى خلقها من الصخرة، وثانيها: أنه تعالى خلقها في جوف الجبل ثم شق عنها الجبل. وثالثها: أنه تعالى خلقها حاملاً من غير ذكر. ورابعها: أنه خلقها على تلك الصورة دفعة واحدة من غير ولادة، وخامسها: ما روي أنه كان لها شِرْب يوم، ولكل القوم شِرْب يوم آخر، وسادسها: أنه كان يحصل منها لبن كثير يكفي الخلق العظيم، وكل واحد من هذه الوجوه معجز قوي وليس في القرآن، إلا أن تلك الناقة كانت آية ومعجزة، فأما بيان أنها كانت معجزة من أي الوجوه فليس فيه بيانه.

ثم قال: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ والمراد أنه عليه السلام رفع عن القوم مؤنتها، فصارت مع كونها آية لهم تنفعهم ولا تضرهم، لأنهم كانوا ينتفعون بلبنها على ما روي أنه عليه السلام خاف عليها منهم لما شاهد من إصرارهم على الكفر، فإن الخصم لا يحب ظهور حجة خصمه، بل يسعى في إخفائها وإبطالها بأقصى الإمكان، فلهذا السبب كان يخاف من إقدامهم على قتلها، فلهذا احتاط وقال: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ وتوعدهم إن مسوها بسوء بعذاب قريب، وذلك تحذير شديد لهم من الإقدام على قتلها، ثم بيَّن الله تعالى أنهم مع ذلك عقروها وذبحوها، ويحتمل أنهم عقروها لإبطال تلك الحجة، وأن يكون لأنها ضيقت الشرب على القوم، وأن يكون لأنهم رغبوا في شحمها ولحمها، وقوله: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ يريد اليوم الثالث، وهو قوله: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ﴾ ثم بيَّن تعالى أن القوم عقروها، فعند ذلك قال لهم صالح عليه السلام: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ ومعنى التمتع: التلذذ بالمنافع والملاذ التي تدرك بالحواس، ولما كان التمتع لا يحصل إلا للحي عَبَّر به عن الحياة، وقوله: ﴿فِي دَارِكُمْ﴾ فيه وجهان: الأول: أن المراد من الدار البلد، وتسمى البلاد بالديار، لأنه يدار فيها أي يتصرف يقال: ديار بكر أي بلادهم. الثاني: أن المراد بالديار الدنيا. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ أي غير مكذب والمصدر قد يَرِد بلفظ المفعول كالمجلود والمعقول وبأيكم المفتون، وقيل غير مكذوب فيه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنه تعالى لما أمهلهم تلك الأيام الثلاثة فقد رغبهم في الإيمان، وذلك لأنهم لما عقروا الناقة أنذرهم صالح عليه السلام بنزول العذاب، فقالوا وما علامة ذلك؟ فقال: تصير وجوهكم في اليوم الأول مصفرة، وفي الثاني محمرة، وفي الثالث مسودة، ثم يأتيكم العذاب في اليوم الرابع، فلما رأوا وجوههم قد اسودت أيقنوا بالعذاب فاحتاطوا واستعدوا للعذاب فصبحهم اليوم الرابع وهي الصيحة والصاعقة والعذاب.

فإن قيل: كيف يعقل أن تظهر فيهم هذه العلامات مطابقة لقول صالح عليه السلام، ثم يبقون مصرين على الكفر.

قلنا: ما دامت الأمارات غير بالغة إلى حد الجزم واليقين لم يمتنع بقاؤهم على الكفر وإذا صارت يقينية قطعية، فقد انتهى الأمر إلى حد الإلجاء والإيمان في ذلك الوقت غير مقبول.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ۝٦٦ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ۝٦٧ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ۝٦٨﴾

اعلم أن مثل هذه الآية قد مضى في قصة عاد، وقوله: ﴿وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ﴾ .**فيه مسائل:**

المسألة الأولى: الواو في قوله: ﴿وَمِنۡ خِزۡيِ﴾ واو العطف وفيه وجهان: الأول: أن يكون التقدير: نجينا صالحًا والذين آمنوا معه برحمة منا من العذاب النازل بقومه ومن الخزي الذي لزمهم وبقي العار فيه مأثورًا عنهم ومنسوبًا إليهم؛ لأن معنى الخزي العيب الذي تظهر فضيحته ويُستَحْيا من مثله فحذف ما حذف اعتمادًا على دلالة ما بقي عليه. الثاني: أن يكون التقدير: نجينا صالحًا برحمة منا ونجيناهم من خزي يومئذ.

المسألة الثانية: قرأ الكسائي ونافع في رواية ورش وقالون وإحدى الروايات عن الأعشى (يومئذٍ) بفتح الميم، وفي المعارج (عَذَابِ يَومَئِذٍ) [المعارج: ١١] والباقون بكسر الميم فيهما فمن قرأ بالفتح فعلى أن يوم مضاف إلى (إذ) وأن إذ مبني، والمضاف إلى المبني يجوز جعله مبنيًا، ألا ترى أن المضاف يكتسب من المضاف إليه التعريف والتنكير فكذا ههنا، وأما الكسر في إذ فالسبب أنه يضاف إلى الجملة من المبتدأ والخبر تقول: جئتك إذ الشمس طالعة، فلما قطع عن المضاف إليه نُوِّنَ ليدل التنوين على ذلك ثم كسرت الذال لسكونها وسكون التنوين، وأما القراءة بالكسر فعلى إضافة الخزي إلى اليوم ولم يلزم من إضافته إلى المبني أن يكون مبنيًّا لأن هذه الإضافة غير لازمة.

المسألة الثالثة: الخزي: الذل العظيم حتى يبلغ حد الفضيحة، ولذلك قال تعالى في المحاربين ﴿ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [المائدة: ٣٣] وإنما سمى الله تعالى ذلك العذاب خزيًا لأنه فضيحة باقية يعتبر بها أمثالهم ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ وإنما حسن ذلك، لأنه تعالى بيَّن أنه أوصل ذلك العذاب إلى الكافر وصان أهل الإيمان عنه، وهذا التمييز لا يصح إلا من القادر الذي يقدر على قهر طبائع الأشياء فيجعل الشيء الواحد بالنسبة إلى إنسان بلاء وعذابًا وبالنسبة إلى إنسان آخر راحة وريحانًا ثم إنه تعالى بيَّن ذلك الأمر فقال: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ .

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: إنما قال: ﴿وَأَخَذَ﴾ ولم يقل أخذت لأن الصيحة محمولة على الصياح، وأيضًا فصل بين الفعل والاسم المؤنث بفاصل، فكان الفاصل كالعوض من تاء التأنيث، وقد سبق لها نظائر.

المسألة الثانية: ذكروا في الصيحة وجهين. قال ابن عباس رضي الله عنهما: المراد الصاعقة الثاني: الصيحة: صيحة عظيمة هائلة سمعوها فماتوا أجمع منها فأصبحوا وهم موتى جاثمين في دورهم ومساكنهم، وجثومهم سقوطهم على وجوههم، يقال: إنه تعالى أمر جبريل عليه السلام أن يصيح بهم تلك الصيحة التي ماتوا بها، ويجوز أن يكون الله تعالى خلقها، والصياح لا يكون إلا الصوت الحادث في حلق وفم وكذلك الصراخ، فإن كان من فِعْل الله تعالى فقد خلقه في حلق حيوان وإن كان فعل جبريل عليه السلام فقد حصل في فمه وحلقه، والدليل عليه أن صوت الرعد أعظم من كل صيحة ولا يسمى بذلك ولا بأنه صراخ.

فإن قيل: فما السبب في كون الصيحة موجبة للموت؟

قلنا: فيه وجوه:

أحدها: أن الصيحة العظيمة إنما تحدث عند سبب قوي يوجب تموج الهواء، وذلك التموج الشديد ربما يتعدى إلى صماخ الإنسان فيمزق غشاء الدماغ فيورث الموت.

والثاني: أنها شيء مهيب، فتحدث الهيبة العظيمة عند حدوثها والأعراض النفسانية إذا قويت أوجبت الموت.

الثالث: أن الصيحة العظيمة إذا حدثت من السحاب فلا بد وأن يصحبها برق شديد محرق، وذلك هو الصاعقة التي ذكرها ابن عباس رضي الله عنهما.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ والجثوم هو السكون يقال للطير إذا باتت في أوكارها أنها جثمت، ثم إن العرب أطلقوا هذا اللفظ على ما لا يتحرك من الموت فوصف الله تعالى هؤلاء المهلكين بأنهم سكنوا عند الهلاك، حتى كأنهم ما كانوا أحياء وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ أي كأنهم لم يوجدوا، والمغنى المقام الذي يقيم الحي به يقال: غَنِيَ الرجل بمكان كذا إذا أقام به.

ثم قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ قرأ حمزة وحفص عن عاصم ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ﴾ غير منون في كل القرآن، وقرأ الباقون (ثمودًا) بالتنوين و(لِثَمُودٍ) كلاهما بالصرف، والصرف للذهاب إلى الحي، أو إلى الأب الأكبر، ومنعه للتعريف والتأنيث بمعنى القبيلة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۝٦٩ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٠ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ۝٧١﴾

اعلم أن هذا هو القصة الرابعة من القصص المذكورة في هذه السورة وههنا مسائل:

المسألة الأولى: قال النحويون: دخلت كلمة (قد) ههنا؛ لأن السامع لقصص الأنبياء عليهم السلام يتوقع قصة بعد قصة، وقد للتوقع، ودخت اللام في (لقد) لتأكيد الخبر، ولفظ ﴿رُسُلُنَا﴾ جمع وأقله ثلاثة فهذا يفيد القطع بحصول ثلاثة، وأما الزائد على هذا العدد فلا سبيل إلى إثباته إلا بدليل آخر، وأجمعوا على أن الأصل فيهم كان جبريل عليه السلام، ثم اختلفت الروايات فقيل: أتاه جبريل عليه السلام ومعه اثنا عشر ملكًا على صورة الغلمان الذين يكونون في غاية الحسن، وقال الضحاك: كانوا تسعة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام، وهم الذين ذكرهم الله في سورة والذاريات في قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الذاريات: ٢٤] وفي الحجر ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحجر: ٥١].

المسألة الثانية: اختلفوا في المراد بالبشرى على وجهين:

الأول: أن المراد ما بشره الله بعد ذلك بقوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾.

الثاني: أن المراد منه أنه بشر إبراهيم عليه السلام بسلامة لوط وبإهلاك قومه.

وأما قوله: ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة والكسائي (قَالُوا سِلْمًا قال سِلْمٌ) بكسر السين وسكون اللام بغير ألف، وفي والذاريات مثله. قال الفراء: لا فرق بين القراءتين كما قالوا: حِلٌّ وحَلَالٌ وحِرْمٌ وحَرَام لأن في التفسير أنهم لما جاءوا سلموا عليه. قال أبو علي الفارسي: ويحتمل أن يكون سلم خلاف العدو والحرب كأنهم لما امتنعوا من تناول ما قدمه إليهم نكرهم وأوجس منهم خيفة قال إنا سِلْمٌ ولست بحرب ولا عدو فلا تمتنعوا من تناول طعامي كما يمتنع من تناول طعام العدو، وهذا الوجه عندي بعيد، لأن على هذا التقدير ينبغي أن يكون تكلم إبراهيم عليه السلام بهذا اللفظ بعد إحضار الطعام، إلا أن القرآن يدل على أن هذا الكلام إنما وجد قبل إحضار الطعام لأنه تعالى قال: ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩] والفاء للتعقيب، فدل ذلك على أن مجيئه بذلك العجل الحنيذ كان بعد ذكر السلام.

المسألة الثانية: قالوا: سلامًا تقديره: سلمنا عليك سلامًا قال: سلام تقديره: أمري سلام، أي لست مريدًا غير السلامة والصلح. قال الواحدي: ويحتمل أن يكون المراد: سلام عليكم، فجاء به مرفوعًا حكاية لقوله كما قال: وحذف عنه الخبر كما حذف من قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨] وإنما يحسن هذا الحذف إذا كان المقصود معلومًا بعد الحذف، وههنا المقصود معلوم فلا جرم حسن الحذف، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ [الزخرف: ٨٩] على حذف الخبر، واعلم أنه إنما سلم بعضهم على بعض، رعاية للإذن المذكور في قوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧].

المسألة الثالثة: أكثر ما يستعمل ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٤] بغير ألف ولام، وذلك لأنه في

معنى الدعاء، فهو مثل قولهم: خَيرٌ بَينَ يَدَيكَ.

فإن قيل: كيف جاز جعل النكرة مبتدأ؟

قلنا: النكرة إذا كانت موصوفة جاز جعلها مبتدأ، فإذا قلت: سلام عليكم: فالتنكير في هذا الموضع يدل على التمام والكمال، فكأنه قيل: سلام كامل تام عليكم، ونظيره قولنا: سلام عليك، وقوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ﴾[مريم: ٤٧] وقوله: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾[يس: ٥٨] ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[الصافات: ٧٩] ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾[الرعد: ٢٣-٢٤] فأما قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾[طه: ٤٧] فهذا أيضًا جائز، والمراد منه الماهية والحقيقة. وأقول: قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾[الأنعام: ٥٤] أكمل من قوله: السلام عليكم؛ لأن التنكير في قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾[الأنعام: ٥٤] يفيد الكمال والمبالغة والتمام. وأما لفظ السلام: فإنه لا يفيد إلا الماهية. قال الأخفش: من العرب من يقول: سَلَام عليكم فيعرى قوله: سلام عن الألف واللام والتنوين، والسبب في ذلك كثرة الاستعمال أباح هذا التخفيف، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾ قالوا: مكث إبراهيم خمس عشرة ليلة لا يأتيه ضيف فاغتم لذلك، ثم جاءه الملائكة فرأى أضيافًا لم ير مثلهم، فعجل وجاء بعجل حنيذ، فقوله: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾ معناه: فما لَبِثَ في المجيء به بل عجل فيه، أو التقدير: فما لبث مجيئه، والعجل ولد البقرة. أما الحنيذ: فهو الذي يشوى في حفرة من الأرض بالحجارة المحماة، وهو من فعل أهل البادية معروف، وهو محنوذ في الأصل كما قيل: طبيخ ومطبوخ، وقيل: الحنيذ الذي يقطر دسمه. يقال: حَنَذْتُ الفرسَ إذا ألقيت عليه الخل حتى تقطر عرقًا.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ﴾ أي إلى العجل، وقال الفراء: إلى الطعام، وهو ذلك العجل ﴿نَكِرَهُمۡ﴾ أي أنكرهم. يقال: نَكِرَه وأَنْكَره واستنكره.

واعلم أن الأضياف إنما امتنعوا من الطعام لأنهم ملائكة والملائكة لا يأكلون ولا يشربون، وإنما أتوه في صورة الأضياف ليكونوا على صفة يحبها، وهو كان مشغوفًا بالضيافة. وأما إبراهيم عليه السلام. فنقول: إما أن يقال: إنه عليه السلام ما كان يعلم أنهم ملائكة، بل كان يعتقد فيهم أنهم من البشر، أو يقال: إنه كان عالمًا بأنهم من الملائكة. أما على الاحتمال الأول فسبب خوفه أمران: **أحدهما:** أنه كان ينزل في طرف من الأرض بعيد عن الناس، فلما امتنعوا من الأكل خاف أن يريدوا به مكروهًا. **وثانيها:** أن من لا يُعْرَف إذا حضر وقُدِّم إليه طعام فإن أكل حصل الأمن وإن لم يأكل حصل الخوف. وأما الاحتمال الثاني: وهو أنه عرف أنهم ملائكة الله تعالى، فسبب خوفه على هذا التقدير أيضًا أمران: **احدهما:** أنه خاف أن يكون نزولهم لأمر أنكره الله تعالى عليه، **والثاني:** أنه خاف أن يكون نزولهم لتعذيب قومه.

فإن قيل: فأي هذين الاحتمالين أقرب وأظهر؟

قلنا: أما الذي يقول: إنه ما عرف أنهم ملائكة الله تعالى فله أن يحتج بأمور: **أحدها:** أنه تسارع إلى إحضار الطعام، ولو عرف كونهم من الملائكة لما فعل ذلك. **وثانيها:** أنه لما رآهم ممتنعين من الأكل خافهم، ولو عرف كونهم من الملائكة لما استدل بترك الأكل على حصول الشر، **وثالثها:** أنه رآهم في أول الأمر في صورة البشر، وذلك لا يدل على كونهم من الملائكة. وأما الذي يقول: إنه عرف ذلك احتج بقوله: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ وإنما يقال: هذا لمن عرفهم ولم يعرف بأي سبب أرسلوا، ثم بيَّن تعالى أن الملائكة أزالوا ذلك الخوف عنه فقالوا: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ ومعناه: أرسلنا بالعذاب إلى قوم لوط، لأنه أضمر لقيام الدليل عليه في سورة أخرى، وهو قوله: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ [الحجر: ٥٨] ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً﴾ [الذاريات: ٣٣].

ثم قال تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ﴾ يعني سارة بنت آزر بن باحورا بنت عم إبراهيم عليه السلام، وقوله: ﴿قَآئِمَةٌ﴾ قيل: كانت قائمة من وراء الستر تستمع إلى الرسل، لأنها ربما خافت أيضًا. وقيل: كانت قائمة تخدم الأضياف وإبراهيم عليه السلام جالس معهم، ويُؤكد هذا التأويل قراءة ابن مسعود: (وامْرَأَتُهُ قَائِمِةٌ وَهُوَ قَاعِدٌ).

ثم قال تعالى: ﴿فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ واختلفوا في الضحك على قولين: منهم من حمله على نفس الضحك، ومنهم من حمل هذا اللفظ على معنى آخر سوى الضحك. أما الذين حملوه على نفس الضحك فاختلفوا في أنها لم ضحكت، وذكروا وجوهًا: **الأول:** قال القاضي: إن ذلك السبب لا بد وأن يكون سببًا جرى ذكره في هذه الآية، وما ذاك إلا أنها فرحت بزوال ذلك الخوف عن إبراهيم عليه السلام حيث قالت الملائكة: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ وعظم سرورها بسبب سروره بزوال خوفه، وفي مثل هذه الحالة قد يضحك الإنسان، وبالجملة فقد كان ضحكها بسبب قول الملائكة لإبراهيم عليه السلام ﴿لَا تَخَفْ﴾ فكان كالبشارة، فقيل لها: نجعل هذه البشارة بشارتين، فكما حصلت البشارة بزوال الخوف، فقد حصلت البشارة أيضًا بحصول الولد الذي كنتم تطلبونه من أول العمر إلى هذا الوقت، وهذا تأويل في غاية الحسن. **الثاني:** يحتمل أنها كانت عظيمة الإنكار على قوم لوط لما كانوا عليه من الكفر والعمل الخبيث، فلما أظهروا أنهم جاءوا لإهلاكهم لحقها السرور فضحكت. **الثالث:** قال السدي: قال إبراهيم عليه السلام لهم: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الصافات: ٩١] قالوا: لا نأكل طعامًا إلا بالثمن، فقال: ثمنه أن تذكروا اسم الله تعالى على أوله وتحمدوه على آخره، فقال جبريل لميكائيل عليهما السلام: «حَقٌّ لِمِثْلِ هَذَا الرَّجُلِ أَنْ يَتَّخِذَهُ رَبُّهُ خَلِيلاً» فضحكت امرأته فرحًا منها بهذا الكلام. **الرابع:** أن سارة قالت لإبراهيم عليه السلام أرسل إلى ابن أخيك وضمه إلى نفسك، فإن الله تعالى لا يترك قومه حتى يعذبهم، فعند تمام هذا الكلام دخل الملائكة على إبراهيم عليه السلام، فلما أخبروه بأنهم إنما جاءوا لإهلاك قوم لوط صار قولهم موافقًا لقولها، فضحكت لشدة سرورها بحصول الموافقة بين كلامها وبين كلام الملائكة. **الخامس:** أن الملائكة لما أخبروا إبراهيم عليه السلام

أنهم من الملائكة لا من البشر وأنهم إنما جاءوا لإهلاك قوم لوط طلب إبراهيم عليه السلام منهم معجزة دالة على أنهم من الملائكة فدعوا ربهم بإحياء العجل المشوي فطفر ذلك العجل المشوي من الموضع الذي كان موضوعًا فيه إلى مرعاه، وكانت امرأة إبراهيم عليه السلام قائمة فضحكت لما رأت ذلك العجل المشوي قد طفر من موضعه. **السادس:** أنها ضحكت تعجبًا من أن قومًا أتاهم العذاب وهم في غفلة. **السابع:** لا يبعد أن يقال: إنهم بشروها بحصول مطلق الولد فضحكت، إما على سبيل التعجب فإنه يقال إنها كانت في ذلك الوقت بنت بضع وتسعين سنة وإبراهيم عليه السلام ابن مائة سنة، وإما على سبيل السرور. ثم لما ضحكت بشرها الله تعالى بأن ذلك الولد هو إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب. **الثامن:** أنها ضحكت بسبب أنها تعجبت من خوف إبراهيم عليه السلام من ثلاث أنفس حال ما كان معه حشمه وخدمه. **التاسع:** أن هذا على التقديم والتأخير، والتقدير: وامرأته قائمة فبشرناها بإسحاق فضحكت سرورًا بسبب تلك البشارة فقدم الضحك، ومعناه التأخير. الثاني: هو أن يكون معنى فضحكت: حاضت وهو منقول عن مجاهد وعكرمة قالا: ضحكت أي حاضت عند فرحها بالسلامة من الخوف، فلما ظهر حيضها بشرت بحصول الولد، وأنكر الفراء وأبو عبيدة أن يكون ضحكت بمعنى حاضت، قال أبو بكر الأنباري هذه اللغة إن لم يعرفها هؤلاء فقد عرفها غيرهم، حكى الليث في هذه الآية ﴿فَضَحِكَتْ﴾ طمثت، وحكى الأزهري عن بعضهم أن أصله من ضحاك الطلعة، يقال: ضحكت الطلعة إذا انشقت، واعلم أن هذه الوجوه كلها زوائد. وإنما الوجه الصحيح هو الأول.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ . وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قرأ ابن عامر وحمزة وحفص عن عاصم: ﴿يَعْقُوبَ﴾ بالنصب والباقون بالرفع أما وجه النصب، فهو أن يكون التقدير: بشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق وهبنا لها يعقوب، وأما وجه الرفع فهو أن يكون التقدير: ومن وراء إسحق يعقوب مولود أو موجود.

المسألة الثانية: في لفظ وراء قولان: الأول: وهو قول الأكثرين أن معناه بعد أي بعد إسحاق يعقوب وهذا هو الوجه الظاهر. والثاني: أن الوراء ولد الولد، عن الشعبي أنه قيل له: هذا ابنك، فقال: نعم من الوراء، وكان ولد ولده، وهذا الوجه عندي شديد التعسف، واللفظ كأنه ينبو عنه.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال الفراء أصل الويل وي، وهو الخزي، ويقال: وي لفلان أي خزي له

فقوله ويلك أي خزي لك، وقال سيبويه: ويح: زجر لمن أشرف على الهلاك، وويل لمن وقع فيه. قال الخليل: ولم أسمع على بنائه إلا ويح، وويس، وويك، وويه، وهذه الكلمات متقاربة في المعنى، وأما قوله: (يا ويلتا) فمنهم من قال: هذه الألف ألف الندبة، وقال صاحب (الكشاف): الألف في ويلتا مبدلة من ياء الإضافة في ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ وكذلك في يا لهفا ويا عجبا ثم أبدل من الياء والكسرة الألف والفتحة، لأن الفتح والألف أخف من الياء والكسرة.

أما قوله: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ﴾ . **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: (آلد) بهمزة ومدة، والباقون بهمزتين بلا مد.

المسألة الثانية: لقائل أن يقول: إنها تعجبت من قدرة الله تعالى والتعجب من قدرة الله تعالى يوجب الكفر، بيان المقدمة الأولى من ثلاثة أوجه: أولها: قوله تعالى حكاية عنها في معرض التعجب ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ﴾، وثانيها: قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾ وثالثها: قول الملائكة لها ﴿أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ وأما بيان أن التعجب من قدرة الله تعالى يوجب الكفر، فلأن هذا التعجب يدل على جهلها بقدرة الله تعالى، وذلك يوجب الكفر.

والجواب: أنها إنما تعجبت بحسب العرف والعادة لا بحسب القدرة فإن الرجل المسلم لو أخبره مخبر صادق بأن الله تعالى يقلب هذا الجبل ذهبًا إبريزًا، فلا شك أنه يتعجب نظرًا إلى أحوال العادة لا لأجل أنه استنكر قدرة الله تعالى على ذلك.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ﴾ فاعلم أن شيخًا منصوب على الحال، قال الواحدي رحمه الله: وهذا من لطائف النحو وغامضه فإن كلمة هذا للإشارة، فكان قوله: ﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ﴾ قائم مقام أن يقال أشير إلى بعلي حال كونه شيخًا، والمقصود تعريف هذه الحالة المخصوصة وهي الشيخوخة.

المسألة الرابعة: قرأ بعضهم: (وهَذَا بَعْلِي شَيخٌ) على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي هذا بعلي وهو شيخ، أو بعلي بدل من المبتدأ وشيخ خبر أو يكونان معًا خبرين، ثم حكى تعالى أن الملائكة قالوا: (أتجبين من أمر الله) والمعنى: أنهم تعجبوا من تعجبها، ثم قالوا: (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) والمقصود من هذا الكلام ذكر ما يزيل ذلك التعجب وتقديره: إن رحمة الله عليكم متكاثرة وبركاته لديكم متوالية متعاقبة، وهي النبوة والمعجزات القاهرة والتوفيق للخيرات العظيمة فإذا رأيت أن الله خرق العادات في تخصيصكم بهذه الكرامات العالية الرفيعة وفي إظهار خوارق العادات وإحداث البينات والمعجزات، فكيف يليق به التعجب.

وأما قوله: ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ فإنه مدح لهم فهو نصب على النداء أو على الاختصاص، ثم أكدوا ذلك بقولهم: ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾ والحميد هو المحمود وهو الذي تحمد أفعاله، والمجيد

الماجد، وهو ذو الشرف والكرم، ومن محامد الأفعال إيصال العبد المطيع إلى مراده ومطلوبه، ومن أنواع الفضل والكرم أن لا يمنع الطالب عن مطلوبه، فإذا كان من المعلوم أنه تعالى قادر على الكل وأنه حميد مجيد، فكيف يبقى هذا التعجب في نفس الأمر فثبت أن المقصود من ذكر هذه الكلمات إزالة التعجب.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾

اعلم أن هذا هو القصة الخامسة وهي قصة لوط عليه السلام، واعلم أن الروع هو الخوف وهو ما أوجس من الخيفة حين أنكر أضيافه، والمعنى: أنه لما زال الخوف وحصل السرور بسبب مجيء البشرى بحصول الولد، أخذ يجادلنا في قوم لوط وجواب (لما) هو قوله: (أَخَذَ) إلا أنه حذف في اللفظ لدلالة الكلام عليه، وقيل تقديره: لما ذهب عن إبراهيم الروع جادلنا.

واعلم أن قوله: ﴿يُجَادِلُنَا﴾ أي يجادل رسلنا.

فإن قيل: هذه المجادلة إن كانت مع الله تعالى فهي جراءة على الله، والجراءة على الله تعالى من أعظم الذنوب، ولأن المقصود من هذه المجادلة إزالة ذلك الحكم، وذلك يدل على أنه ما كان راضيًا بقضاء الله تعالى وأنه كفر وإن كانت هذه المجادلة مع الملائكة فهي أيضًا عجيبة، لأن المقصود من هذه المجادلة أن يتركوا إهلاك قوم لوط، فإن كان قد اعتقد فيهم أنهم من تلقاء أنفسهم يُجَادَلُون في هذا الإهلاك فهذا سوء ظن بهم. وإن اعتقد فيهم أنهم بأمر الله جاءوا فهذه المجادلة تقتضي أنه كان يطلب منهم مخالفة أمر الله تعالى وهذا منكر.

والجواب: من وجهين:

الوجه الأول: وهو الجواب الإجمالي أنه تعالى مدحه عقيب هذه الآية فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ ولو كان هذا الجدل من الذنوب لما ذكر عقيبه ما يدل على المدح العظيم.

والوجه الثاني: وهو الجواب التفصيلي أن المراد من هذه المجادلة سعي إبراهيم في تأخير العذاب عنهم وتقريره من وجوه:

الوجه الأول: أن الملائكة قالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣١] فقال إبراهيم: أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلًا من المؤمنين أتهلكونها؟ قالوا: لا. قال: فأربعون. قالوا: لا. قال: فثلاثون قالوا: لا. حتى بلغ العشرة قالوا: لا. قال: أرأيتم إن كان فيها رجل مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا. فعند ذلك قال: إن فيها لوطًا، وقد ذكر الله تعالى هذا في سورة العنكبوت فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١، ٣٢].

ثم قال: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾[العنكبوت: ٣٣] فبان بهذا أن مجادلة إبراهيم عليه السلام، إنما كانت في قوم لوط بسبب مقام لوط فيما بينهم.

الوجه الثاني: يحتمل أن يقال: إنه عليه السلام كان يميل إلى أن تلحقهم رحمة الله بتأخير العذاب عنهم رجاء أنهم ربما أقدموا على الإيمان والتوبة عن المعاصي، وربما وقعت تلك المجادلات بسبب أن إبراهيم كان يقول: إن أمر الله ورد بإيصال العذاب ومطلق الأمر لا يوجب الفور بل يقبل التراخي فاصبروا مدة أخرى، والملائكة كانوا يقولون: إن مطلق الأمر يقبل الفور، وقد حصلت هناك قرائن دالة على الفور، ثم أخذ كل واحد منهم يقرر مذهبه بالوجوه المعلومة فحصلت المجادلة بهذا السبب، وهذا الوجه عندي هو المعتمد.

الوجه الثالث في الجواب: لعل إبراهيم عليه السلام سأل عن لفظ ذلك الأمر وكان ذلك الأمر مشروطًا بشرط فاختلفوا في أن ذلك الشرط هل حصل في ذلك القوم أم لا فحصلت المجادلة بسببه، وبالجملة نرى العلماء في زماننا يجادل بعضهم بعضًا عند التمسك بالنصوص، وذلك لا يوجب القدح في واحد منها فكذا هاهنا.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ وهذا مدح عظيم من الله تعالى لإبراهيم، أما الحليم فهو الذي لا يتعجل بمكافأة غيره، بل يتأنى فيه فيؤخر ويعفو ومن هذا حاله فإنه يحب من غيره هذه الطريقة، وهذا كالدلالة على أن جداله كان في أمر متعلق بالحلم وتأخير العقاب، ثم ضم إلى ذلك ماله تعلق بالحلم وهو قوله: ﴿أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ لأن من يستعمل الحلم في غيره، فإنه يتأوه إذا شاهد وصول الشدائد إلى الغير فلما رأى مجيء الملائكة لأجل إهلاك قوم لوط عظم حزنه بسبب ذلك وأخذ يتأوه عليه فلذلك وصفه الله تعالى بهذه الصفة، ووصفه أيضًا بأنه مُنيب، لأن من ظهرت فيه هذه الشفقة العظيمة على الغير فإنه ينيب ويتوب ويرجع إلى الله في إزالة ذلك العذاب عنهم، أو يقال: إن من كان لا يرضى بوقوع غيره في الشدائد فأن لا يرضى بوقوع نفسه فيها كان أولى، ولا طريق إلى صون النفس عن الوقوع في عذاب الله إلا بالتوبة والإنابة فوجب فيمن هذا شأنه يكون منيبًا.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾

اعلم أن قوله: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ معناه: أن الملائكة قالوا له: اترك هذه المجادلة لأنه قد جاء أمر ربك بإيصال هذا العذاب إليهم وإذا لاح وجه دلالة النص على هذا الحكم فلا سبيل إلى دفعه فلذلك أمروه بترك المجادلة، ولما ذكروا ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ ولم يكن في هذا اللفظ

دلالة على أن هذا الأمر بماذا جاء لا جرم بين الله تعالى أنهم آتيهم عذاب غير مردود، أي عذاب لا سبيل إلى دفعه ورده. ثم قال: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ وهؤلاء الرسل هم الرسل الذين بشروا إبراهيم بالولد عليهم السلام. قال ابن عباس رضي الله عنهما: انطلقوا من عند إبراهيم إلى لوط وبين القريتين أربع فراسخ ودخلوا عليه على صورة شباب مرد من بني آدم وكانوا في غاية الحسن ولم يعرف لوط أنهم ملائكة الله وذكروا فيه ستة أوجه: **الأول:** أنه ظن أنهم من الإنس فخاف عليهم خبث قومه وأن يعجزوا عن مقاومتهم. **الثاني:** ساءه مجيئهم لأنه ما كان يجد ما ينفقه عليهم وما كان قادرًا على القيام بحق ضيافتهم. **والثالث:** ساءه ذلك لأن قومه منعوه من إدخال الضيف داره. **الرابع:** ساءه مجيئهم، لأنه عرف بالحزر أنهم ملائكة وأنهم إنما جاءوا لإهلاك قومه، والوجه الأول هو الأصح لدلالة قوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٧٨] وبقي في الآية ألفاظ ثلاثة لا بد من تفسيرها:

اللفظ الأول: قوله: ﴿ سِيٓءَ بِهِمْ﴾ ومعناه ساء مجيئهم وساء يسوء فعل لازم مجاوز يقال: سؤته فسيء مثل شَغَلتُه فشغل وسررتُه فَسُرَّ. قال الزجاج: أصله سَوِئَ بهم إلا أن الواو سكنت ونقلت كسرتها إلى السين.

واللفظ الثاني: قوله: ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ قال الأزهري: الذرع: يوضع موضع الطاقة والأصل فيه البعير يَذْرَعُ بيديه في سيره ذرعًا على قدر سعة خطوته، فإذا حمل عليه أكثر من طاقته ضاق ذرعه عن ذلك فضعف ومد عنقه، فجعل ضيق الذرع عبارة عن قدر الوسع والطاقة. فيقال: مالي به ذَرْعٌ ولا ذِرَاعٌ أي مالي به طاقة، والدليل على صحة ما قلناه أنهم يجعلون الذراع في موضع الذرع فيقولون ضقت بالأمر ذراعًا.

واللفظ الثالث: قوله: ﴿ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أي يوم شديد، وإنما قيل للشديد: عصيب؛ لأنه يعصب الإنسان بالشر.

قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أنه لما دخلت الملائكة دار لوط عليه السلام مضت امرأته عجوز السوء فقالت لقومه: دخل دارنا قوم ما رأيت أحسن وجوهًا ولا أنظف ثيابًا ولا أطيب رائحة منهم ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: يسرعون، وبيّن تعالى أن إسراعهم ربما كان لطلب العمل الخبيث

بقوله: ﴿وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ نقل أن القوم دخلوا دار لوط وأرادوا أن يدخلوا البيت الذي كان فيه جبريل عليه السلام، فوضع جبريل عليه السلام يده على الباب، فلم يطيقوا فتحه حتى كسروه، فمسح أعينهم بيده فعموا، فقالوا: يا لوط قد أدخلت علينا السحرة وأظهرت الفتنة. ولأهل اللغة في ﴿يُهۡرَعُونَ﴾ قولان:

القول الأول: أن هذا من باب ما جاءت صيغة الفاعل فيه على لفظ المفعول ولا يعرف له فاعل نحو: أُولِعَ فلان في الأمر، وأُرْعِدَ زيد، وزُهِيَ عمرو من الزهو.

والقول الثاني: أنه لا يجوز ورود الفاعل على لفظ المفعول، وهذه الأفعال حذف فاعلوها فتأويل أُولِعَ زيد أنه أولعه طبعه وأرعِدَ الرجل: أرعده غضبه وزُهِيَ عمرو معناه جعله ماله زاهيًا وأُهرِعَ معناه أهرعه خوفه أو حرصه، واختلفوا أيضًا فقال بعضهم: الإهراع هو الإسراع مع الرعدة. وقال آخرون: هو العدو الشديد.

أما قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ ففيه قولان: قال قتادة: المراد بناته لصلبه. وقال مجاهد وسعيد بن جبير: المراد نساء أمته؛ لأنهن في أنفسهن بنات ولهن إضافة إليه بالمتابعة وقبول الدعوة. قال أهل النحو: يكفي في حسن الإضافة أدنى سبب، لأنه كان نبيًّا لهم فكان كالأب لهم. قال تعالى: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ [الأحزاب: ٦] وهو أب لهم وهذا القول عندي هو المختار، ويدل عليه وجوه: **الأول:** أن إقدام الإنسان على عرض بناته على الأوباش والفجار أمر مستبعد لا يليق بأهل المروءة فكيف بأكابر الأنبياء؟ **الثاني:** وهو أنه قال: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ فبناته اللواتي من صلبه لا تكفي للجمع العظيم. أما نساء أمته ففيهن كفاية للكل. **الثالث:** أنه صحت الرواية أنه كان له بنتان، وهما: زنتا، وزعورًا، وإطلاق لفظ البنات على البنتين لا يجوز لما ثبت أن أقل الجمع ثلاثة، فأما القائلون بالقول الأول فقد اتفقوا على أنه عليه السلام ما دعا القوم إلى الزنا بالنسوان بل المراد أنه دعاهم إلى التزوج بهن، وفيه قولان: **أحدهما:** أنه دعاهم إلى التزوج بهن بشرط أن يقدموا الإيمان. **والثاني:** أنه كان يجوز تزويج المؤمنة من الكافر في شريعته، وهكذا كان في أول الإسلام بدليل أنه عليه السلام زوج ابنته زينب من أبي العاص بن الربيع وكان مشركًا وزوَّج ابنته من عتبة بن أبي لهب ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ﴾ [البقرة: ٢٢١]، وبقوله: ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ﴾ [البقرة: ٢٢١] واختلفوا أيضًا، فقال الأكثرون: كان له بنتان، وعلى هذا التقدير ذكر الاثنتين بلفظ الجمع، كما في قوله: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ﴾ [النساء: ١١] ﴿فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ [التحريم: ٤] وقيل: إنهن كن أكثر من اثنتين.

أما قوله تعالى: ﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ . **ففيه مسألتان:**

المسألة الأولى: ظاهر قوله: ﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ يقتضي كون العمل الذي يطلبونه طاهرًا، ومعلوم أنه فاسد، ولأنه لا طهارة في نكاح الرجل، بل هذا جار مجرى قولنا: الله أكبر،

والمراد أنه كبير، ولقوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾[الصافات: ٦٢] ولاخير فيها، ولما قال أبو سفيان: اعل أحد واعل هبل قال النبي: (الله أعلى وأجل) ولامقاربة بين الله وبين الصنم.

المسألة الثانية: روي عن عبد الملك بن مروان والحسن وعيسى بن عمر أنهم قرأوا (هُنَّ أَطْهَرَ لكُم) بالنصب على الحال كما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾[هود: ٧٢] إلا أن أكثر النحويين اتفقوا على أنه خطأ قالوا لو قرئ (هَؤلاءِ بَنَاتِي هَنَّ أَطْهَرَ لكُم) كان هذا نظير قوله: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ إلا أن كلمة (هن) قد وقعت في البين وذلك يمنع من جعل أطهر حالاً وطولوا فيه، ثم قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ أبو عمرو ونافع: (ولا تخزوني) بإثبات الياء على الأصل، والباقون بحذفها للتخفيف ودلالة الكسر عليه.

المسألة الثانية: في لفظ ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ وجهان:

الأول: قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا تفضحوني في أضيافي، يريد أنهم إذا هجموا على أضيافه بالمكروه لحقته الفضيحة.

والثاني: لا تخزوني في ضيفي أي لا تخجلوني فيهم، لأن مضيف الضيف يلزمه الخجالة من كل فعل قبيح يوصل إلى الضيف يقال: خزي الرجل إذا استحيا.

المسألة الثالثة: الضيف هاهنا قائم مقام الأضياف، كما قام الطِّفل مقام الأطفال في قوله تعالى: ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا﴾[النور: ٣١] ويجوز أن يكون الضيف مصدرًا فيستغنى عن جمعه كما يقال: رجال صوم. ثم قال: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾.

وفيه قولان:

الأول: ﴿رَّشِيدٌ﴾ بمعنى مُرْشِد أي يقول الحق ويرد هؤلاء الأوباش عن أضيافي.

والثاني: رشيد بمعنى مُرْشَد، والمعنى: أليس فيكم رجل أرْشَدَه الله تعالى إلى الصلاح. وأسعده بالسداد والرشاد حتى يمنع عن هذا العمل القبيح، والأول أولى.

ثم قال تعالى: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾.

وفيه وجوه:

الأول: مالنا في بناتك من حاجة ولا شهوة، والتقدير أن من احتاج إلى شيء فكأنه حصل له فيه نوع حق، فلهذا السبب جعل نفي الحق كناية عن نفي الحاجة.

الثاني: أن نجري اللفظ على ظاهره فنقول: معناه إنهن لسن لنا بأزواج ولا حق لنا فيهن ألبتة. ولا يميل أيضًا طبعنا إليهن فكيف قيامهن مقام العمل الذي نريده وهو إشارة إلى العمل الخبيث.

الثالث: ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ لأنك دعوتنا إلى نكاحهن بشرط الإيمان ونحن لا نجيبك إلى ذلك فلا يكون لنا فيهن حق. ثم إنه تعالى حكى عن لوط أنه عند سماع هذا الكلام قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: جواب (لو) محذوف لدلالة الكلام عليه، والتقدير: لمنعتكم ولبالغت في دفعكم، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ [الرعد: ٣١] وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧] قال الواحدي: وحذف الجواب هاهنا لأن الوهم يذهب إلى أنواع كثيرة من المنع والدفع.

المسألة الثانية: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ أي لو أن لي ما أتقوى به عليكم وتسمية موجب القوة بالقوة جائز قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠] والمراد السلاح، وقال آخرون: القدرة على دفعهم، وقوله: ﴿أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ المراد منه الموضع الحصين المنيع تشبيهًا له بالركن الشديد من الجبل.

فإن قيل: ما الوجه هاهنا في عطف الفعل على الاسم؟

قلنا: قال صاحب (الكشاف): قرئ (أَوْ آوِيَ) بالنصب بإضمار أن، كأنه قيل لو أن لي بكم قوة أو أوْيًا.

واعلم أن قوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ لا بد من حمل كل واحد من هذين الكلامين على فائدة مستقلة.

وفيه وجوه:

الأول: المراد بقوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ كونه بنفسه قادرًا على الدفع وكونه متمكنًا إما بنفسه وإما بمعاونة غيره على قهرهم وتأديبهم، والمراد بقوله: ﴿أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ هو أن لا يكون له قدرة على الدفع لكنه يقدر على التحصن بحصن ليأمن من شرهم بواسطته.

الثالث: أنه لما شاهد سفاهة القوم وإقدامهم على سوء الأدب تمنى حصول قوة قوية على الدفع، ثم استدرك على نفسه وقال: بلى الأولى أن آوي إلى ركن شديد وهو الاعتصام بعناية الله تعالى، وعلى هذا التقدير فقوله: ﴿أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ كلام منفصل عما قبله ولا تعلق له به، وبهذا الطريق لا يلزم عطف الفعل على الاسم، ولذلك قال النبي عليه السلام: «**رَحِمَ اللَّه أَخِي لُوطًا كَانَ يَأْوِي إِلَى ركن شديد**»(١).

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في (صحيحه) (٣/ ١٢٣٣) حديث رقم/ ٣١٩٢، ومسلم في (صحيحه) (١/ ٩٢/ ٣٩٩)، كلاهما من طريق ابن شهاب عن أبي سلمة وسعيد بن المسيب عن أبي هريرة.... به.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾﴾

اعلم أن قوله تعالى مخبرًا عن لوط عليه السلام أنه قال: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾[هود: ٨٠] يدل على أنه كان في غاية القلق والحزن بسبب إقدام أولئك الأوباش على ما يوجب الفضيحة في حق أضيافه، فلما رأت الملائكة تلك الحالة بشروه بأنواع من البشارات:

أحدها: أنهم رسل الله.

وثانيها: أن الكفار لا يصلون إلى ما همُّوا به.

وثالثها: أنه تعالى يهلكهم.

ورابعها: أنه تعالى ينجيه مع أهله من ذلك العذاب.

وخامسها: أن ركنك شديد وأن ناصرك هو الله تعالى فحصل له هذه البشارات، وروي أن جبريل عليه السلام قال له: إن قومك لن يصلوا إليك فافتح الباب فدخلوا فضرب جبريل عليه السلام بجناحه وجوههم فطمس أعينهم فأعماهم فصاروا لا يعرفون الطريق ولا يهتدون إلى بيوتهم، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ﴾[القمر: ٣٧] ومعنى قوله: ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ أي بسوء ومكروه فإنا نحول بينهم وبين ذلك. ثم قال: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ﴾ قرأ نافع وابن كثير (فَاسْرِ) موصولة والباقون بقطع الألف وهما لغتان، يقال سَرَيتُ بالليل وأَسْرَيتُ وأنشد حسان:

أَسْـرَتْ إِلَـيْـكَ وَلَـمْ تَـكُـنْ تَـسْـرِي

فجاء باللغتين فمن قرأ بقطع الألف فحجته قوله سبحانه وتعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾[الإسراء: ١] ومن وصل فحجته قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾[الفجر: ٤] والسَّرَى: السير في الليل. يقال: سَرَى يَسْرِي إذا سار بالليل وأُسْرِيَ بفلان إذا سير به بالليل، والقِطْع من الليل: بعضه وهو مثل القطعة، يريد اخرجوا ليلاً لتسبقوا نزول العذاب الذي موعده الصبح. قال نافع بن الأزرق لعبدالله بن عباس رضي الله عنهما: أخبرني عن قول الله: ﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ قال: هو آخر الليل سحر، وقال قتادة: بعد طائفة من الليل، وقال آخرون: هو نصف الليل فإنه في ذلك الوقت قطع بنصفين.

ثم قال: ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ﴾ نهى من معه عن الالتفات والالتفات نظر الإنسان إلى ما وراءه، والظاهر أن المراد أنه كان لهم في البلدة أموال وأقمشة وأصدقاء، فالملائكة أمروهم بأن يخرجوا ويتركوا تلك الأشياء ولا يلتفتوا إليها ألبتة، وكان المراد منه قطع القلب عن تلك الأشياء

وقد يراد منه الانصراف أيضًا كقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا﴾ [يونس: ٧٨] أي لتصرفنا، وعلى هذا التقدير فالمراد من قوله: ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ﴾ النهي عن التخلف.

ثم قال: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو (إلا امْرأتُك) بالرفع، والباقون بالنصب. قال الواحدي: من نصب وهو الاختيار فقد جعلها مستثناة من الأهل على معنى فأسر بأهلك إلا امرأتك، والذي يشهد بصحة هذه القراءة أن في قراءة عبد الله (فأَسْر بأَهْلِكَ إلا امرأتك) فأسقط قوله: ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ﴾ من هذا الموضع، وأما الذين رفعوا فالتقدير (وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنْكُن أَحَدٌ إلاَّ امْرَأَتُكَ).

فإن قيل: فهذه القراءة توجب أنها أمرت بالالتفات لأن القائل إذا قال لا يقم منكم أحد إلا زيد كان ذلك أمرًا لزيد بالقيام.

وأجاب أبو بكر الأنباري عنه فقال: معنى ﴿إِلَّا﴾ هاهنا الاستثناء المنقطع على معنى: لا يلتفت منكم أحدٌ، لكن امرأتك تلتفت فيصيبها ما أصابهم، وإذا كان هذا الاستثناء منقطعًا كان التفاتها معصية ويتأكد ما ذكرنا بما روي عن قتادة أنه قال: إنها كانت مع لوط حين خرج من القرية فلما سمعت هذا العذاب التفتت وقالت: يا قوماه فأصابها حجر فأهلكها.

واعلم أن القراءة بالرفع أقوى، لأن القراءة بالنصب تمنع من خروجها مع أهله لكن على هذا التقدير الاستثناء يكون من الأهل كأنه أمر لوطًا بأن يخرج بأهله ويترك هذه المرأة فإنها هالكة مع الهالكين، وأما القراءة بالنصب فإنها أقوى من وجه آخر، وذلك لأن مع القراءة بالنصب يبقى الاستثناء متصلاً ومع القراءة بالرفع يصير الاستثناء منقطعًا. ثم بيَّن الله تعالى أنهم قالوا: إنه مصيبها ما أصابهم. والمراد أنه مصيبها ذلك العذاب الذي أصابهم. ثم قالوا: ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ﴾ روي أنهم لما قالوا للوط عليه السلام: ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ﴾ قال أريد أعجل من ذلك بل الساعة فقالوا: ﴿أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٍ﴾ قال المفسرون: إن لوطًا - عليه السلام - لما سمع هذا الكلام خرج بأهله في الليل.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: في الأمر وجهان:

الأول: أن المراد من هذا الأمر ما هو ضد النهي، ويدل عليه وجوه: الأول: أن لفظ الأمر حقيقة في هذا المعنى مجاز في غيره دفعًا للاشتراك.

الثاني: أن الأمر لا يمكن حمله هاهنا على العذاب، وذلك لأنه تعالى قال: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ وهذا الجعل هو العذاب، فدلَّت هذه الآية على أن هذا الأمر شرط

والعذاب جزاء، والشرط غير الجزاء، فهذا الأمر غير العذاب، وكل من قال بذلك قال إنه هو الأمر الذي هو ضد النهي.

والثالث: أنه تعالى قال قبل هذه الآية: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ﴾ [هود: ٧٠] فدل هذا على أنهم كانوا مأمورين من عند الله تعالى بالذهاب إلى قوم لوط وبإيصال هذا العذاب إليهم.

إذا عرفت هذا فنقول: إنه تعالى أمر جمعًا من الملائكة بأن يخربوا تلك المدائن في وقت معين، فلما جاء ذلك الوقت أقدموا على ذلك العمل، فكان قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ إشارة إلى ذلك التكليف.

فإن قيل: لو كان الأمر كذلك، لوجب أن يقال: فلما جاء أمرنا جعلوا عاليها سافلها، لأن الفعل صدر عن ذلك المأمور.

قلنا: هذا لا يلزم على مذهبنا، لأن فعل العبد فعل الله تعالى عندنا. وأيضًا أن الذي وقع منهم إنما وقع بأمر الله تعالى وبقدرته، فلم يبعد إضافته إلى الله عز وجل، لأن الفعل كما تحسن إضافته إلى المباشر، فقد تحسن أيضًا إضافته إلى السبب.

القول الثاني: أن يكون المراد من الأمر هاهنا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] وقد تقدم تفسير ذلك الأمر.

القول الثالث: أن يكون المراد من الأمر العذاب وعلى هذا التقدير فيحتاج إلى الإضمار، والمعنى: ولما جاء وقت عذابنا جعلنا عاليها سافلها.

المسألة الثانية: اعلم أن ذلك العذاب قد وصفه الله تعالى في هذه الآية بنوعين من الوصف فالأول: قوله: ﴿جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ روي أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه الواحد تحت مدائن قوم لوط وقلعها وصعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نهيق الحمير ونباح الكلاب وصياح الديوك، ولم تنكفئ لهم جرة ولم ينكبَّ لهم إناء، ثم قلبها دفعة واحدة وضربها على الأرض.

واعلم أن هذا العمل كان معجزة قاهرة من وجهين:

أحدهما: أن قلع الأرض وإصعادها إلى قريب من السماء فعل خارق للعادات.

والثاني: أن ضربها من ذلك البعد البعيد على الأرض بحيث لم تتحرك سائر القرى المحيطة بها ألبتة، ولم تصل الآفة إلى لوط عليه السلام وأهله مع قرب مكانهم من ذلك الموضع معجزة قاهرة أيضًا. الثاني: قوله: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ﴾ واختلفوا في السجيل على وجوه:

الأول: أنه فارسي معرب وأصله سنككل، وأنه شيء مركب من الحجر والطين بشرط أن يكون في غاية الصلابة، قال الأزهري: لماعربته العرب صار عربيًا وقد عربت حروفًا كثيرة كالديباج والديوان والاستبرق.

والثاني: سجيل، أي مثل السَّجْلُ وهو الدلو العظيم.

والثالث: سجيل، أي شديد من الحجارة.

الرابع: مرسلة عليهم من أَسْجَلْتُه إذا أرسلته وهو فِعِّيلٌ منه.

الخامس: من أَسْجَلْتُه، أي أعطيته تقديره مثل العطية في الإدرار، وقيل: كان كتب عليها أسامي المعذبين.

السادس: وهو من السِّجِل وهو الكتاب تقديره: من مكتوب في الأزل أي كتب الله أن يعذبهم بها، والسِّجِيل: أخذ من السجل وهو الدلو العظيمة لأنه يتضمن أحكامًا كثيرة، وقيل: مأخوذ من المساجلة وهي المفاخرة.

والسابع: من سِجِّيل أي من جهنم أبدلت النون لامًا.

والثامن: من السماء الدنيا، وتسمى سجيلاً عن أبي زيد.

والتاسع: السِّجِّيل: الطين، لقوله تعالى: ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣] وهو قول عكرمة وقتادة. قال الحسن: كان أصل الحجر هو من الطين، إلا أنه صلب بمرور الزمان.

والعاشر: سِجِّيل موضع الحجارة، وهي جبال مخصوصة، ومنه قوله تعالى: ﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ [النور: ٤٣].

واعلم أنه تعالى وصف تلك الحجارة بصفات:

فالصفة الأولى: كونها من سجيل، وقد سبق ذكره.

الصفة الثانية: قوله تعالى: ﴿مَّنضُودٍ﴾ قال الواحدي: هو مفعول من النضد، وهو موضع الشيء بعضه على بعض.

وفيه وجوه:

الأول: أن تلك الحجارة كان بعضها فوق بعض في النزول فأتى به على سبيل المبالغة.

والثاني: أن كل حجر فإن ما فيه من الأجزاء منضود بعضها ببعض، وملتصق بعضها ببعض.

والثالث: أنه تعالى كان قد خلقها في معادنها ونضد بعضها فوق بعض، وأعدها لإهلاك الظلمة.

واعلم أن قوله: ﴿مَّنضُودٍ﴾ صفة للسجيل.

الصفة الثالثة: مسومة، وهذه الصفة صفة للأحجار ومعناها المُعَلَّمة، وقد مضى الكلام فيه في تفسير قوله: ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ [آل عمران: ١٤] واختلفوا في كيفية تلك العلامة على وجوه:

الأول: قال الحسن والسدي: كان عليها أمثال الخواتيم.

الثاني: قال ابن صالح: رأيت منها عند أم هانئ حجارة فيها خطوط حمر على هيئة الجزع.

الثالث: قال ابن جريج: كان عليها سِيَما لا تشارك حجارة الأرض، وتدل على أنه تعالى إنما خلقها للعذاب.

الرابع: قال الربيع: مكتوب على كل حجر اسم من رمى به.

ثم قال تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ أي في خزائنه التي لا يتصرف فيها أحد إلا هو.

ثم قال: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ يعني به كفار مكة، والمقصود أنه تعالى يرميهم بها. عن أنس أنه قال: سأل رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام عن هذا فقال: يعني عن ظالمي أمتك، ما من ظالم منهم إلا وهو بمعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة. وقيل: الضمير في قوله: ﴿وَمَا هِيَ﴾ للقرى. أي وما تلك القرى التي وقعت فيها هذه الواقعة من كفار مكة ببعيد، وذلك لأن القرى كانت في الشأم، وهي قريب من مكة.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾

اعلم أن هذه هي القصة السادسة من القصص المذكورة في هذه السورة. واعلم أن مدين اسم ابن لإبراهيم عليه السلام، ثم صار اسمًا للقبيلة، وكثير من المفسرين يذهب إلى أن مدين اسم مدينة بناها مدين بن إبراهيم عليه السلام، والمعنى على هذا التقدير: وأرسلنا إلى أهل مدين فحذف الأهل.

واعلم أنا بينا أن الأنبياء عليهم السلام يشرعون في أول الأمر بالدعوة إلى التوحيد، فلهذا قال شعيب عليه السلام: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ ثم إنهم بعد الدعوة إلى التوحيد يشرعون في الأهم ثم الأهم، ولما كان المعتاد من أهل مدين البخس في المكيال والميزان، دعاهم إلى ترك هذه العادة فقال: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ والنقص فيه على وجهين: أحدهما: أن يكون الإيفاء من قبلهم فينقصون من قدره. والآخر: أن يكون لهم الاستيفاء فيأخذون أزيد من الواجب وذلك يوجب نقصان حق الغير، وفي القسمين حصل النقصان في حق الغير. ثم قال: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ وفيه وجهان: الأول: أنه حذرهم من غلاء السعر وزوال النعمة إن لم يتوبوا فكأنه قال: اتركوا هذا التطفيف وإلا أزال الله عنكم ما حصل عندكم من الخير والراحة. والثاني: أن يكون التقدير أنه تعالى أتاكم بالخير الكثير والمال والرخص والسعة فلا حاجة بكم إلى هذا التطفيف. ثم قال: ﴿وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾.

وفيه أبحاث:

البحث الأول: قال ابن عباس رضي الله عنهما: أخاف أي أعلم حصول عذاب يوم محيط

وقال آخرون: بل المراد هو الخوف، لأنه يجوز أن يتركوا ذلك العمل خشية أن يحصل لهم العذاب ولما كان هذا التخويف قائمًا فالحاصل هو الظن لا العلم.

البحث الثاني: أنه تعالى توعدهم بعذاب يحيط بهم بحيث لا يخرج منه أحد، والمحيط من صفة اليوم في الظاهر، وفي المعنى من صفة العذاب، وذلك مجاز مشهور كقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧].

البحث الثالث: اختلفوا في المراد بهذا العذاب فقال بعضهم: هو عذاب يوم القيامة، لأنه اليوم الذي نصب لإحاطة العذاب بالمعذبين، وقال بعضهم: بل يدخل فيه عذاب الدنيا والآخرة وقال بعضهم: بل المراد منه عذاب الاستئصال في الدنيا كما في حق سائر الأنبياء، والأقرب دخول كل عذاب فيه وإحاطة العذاب بهم كإحاطة الدائرة بما في داخلها فينالهم من كل وجه وذلك مبالغة في الوعد كقوله: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف: ٤٢] ثم قال: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾.

فإن قيل: وقع التكرير في هذه الآية من ثلاثة أوجه: لأنه قال أولاً ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ ثم قال: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ وهذا عين الأول. ثم قال: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ وهذا عين ما تقدم فما الفائدة في هذا التكرير؟

قلنا: إن فيه وجوهًا:

الوجه الأول: أن القوم كانوا مصرين على ذلك العمل فاحتيج في المنع منه إلى المبالغة والتأكيد، والتكرير يفيد التأكيد وشدة العناية والاهتمام.

والوجه الثاني: أن قوله: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ نهي عن التنقيص وقوله: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ أمر بإيفاء العدل، والنهي عن ضد الشيء مغاير للأمر به، وليس لقائل أن يقول: النهي عن ضد الشيء أمر به، فكان التكرير لازمًا من هذا الوجه، لأنا نقول: الجواب من وجهين:

الأول: أنه تعالى جمع بين الأمر والشيء، وبين النهي عن ضده للمبالغة، كما تقول: صِلْ قرابتك ولا تقطعهم، فيدل هذا الجمع على غاية التأكيد.

الثاني: أن نقول: لا نسلم أن الأمر كما ذكرتم لأنه يجوز أن ينهى عن التنقيص وينهى أيضًا عن أصل المعاملة، فهو تعالى منع من التنقيص وأمر بإيفاء الحق، ليدل ذلك على أنه تعالى لم يمنع عن المعاملات ولم ينه عن المبايعات، وإنما منع من التطفيف، وذلك لأن طائفة من الناس يقولون: إن المبايعات لا تنفك عن التطفيف ومنع الحقوق فكانت المبايعات محرمة بالكلية، فلأجل إبطال هذا الخيال، منع تعالى في الآية الأولى من التطفيف وفي الآية الأخرى أمر بالإيفاء.

وأما قوله ثالثًا: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ فليس بتكرير لأنه تعالى خص المنع في الآية

السابقة بالنقصان في المكيال والميزان. ثم إنه تعالى عم الحكم في جميع الأشياء فظهر بهذا البيان أنها غير مكررة، بل في كل واحد منها فائدة زائدة.

والوجه الثالث: أنه تعالى قال في الآية الأولى: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ وفي الثانية قال: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ والإيفاء عبارة عن الإتيان به على سبيل الكمال والتمام، ولا يحصل ذلك إلا إذا أعطى قدرًا زائدًا على الحق، ولهذا المعنى قال الفقهاء: إنه تعالى أمر بغسل الوجه وذلك لا يحصل إلا عند غسل جزء من أجزاء الرأس. فالحاصل: أنه تعالى في الآية الأولى نهى عن النقصان، وفي الآية الثانية أمر بإعطاء قدر من الزيادة ولا يحصل الجزم واليقين بأداء الواجب إلا عند أداء ذلك القدر من الزيادة فكأنه تعالى نهى أولاً عن سعي الإنسان في أن يجعل مال غيره ناقصًا لتحصل له تلك الزيادة، وفي الثاني أمر بالسعي في تنقيص مال نفسه ليخرج باليقين عن العهدة وقوله: ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ يعني بالعدل ومعناه الأمر بإيفاء الحق بحيث يحصل معه اليقين بالخروج عن العهدة فالأمر بإيتاء الزيادة على ذلك غير حاصل. ثم قال: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ والبخس هو النقص في كل الأشياء، وقد ذكرنا أن الآية الأولى دلت على المنع من النقص في المكيال والميزان، وهذه الآية دلت على المنع من النقص في كل الأشياء. ثم قال: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

فإن قيل: العثو: الفساد التام فقوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ جار مجرى أن يقال: ولا تفسدوا في الأرض مفسدين.

قلنا: فيه وجوه:

الأول: أن من سعى في إيصال الضرر إلى الغير فقد حمل ذلك الغير على السعي إلى إيصال الضرر إليه فقوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ معناه: ولا تسعوا في إفساد مصالح الغير فإن ذلك في الحقيقة سعي منكم في إفساد مصالح أنفسكم.

والثاني: أن يكون المراد من قوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ مصالح دنياكم وآخرتكم.

والثالث: ولا تعثوا في الأرض مفسدين مصالح الأديان. ثم قال: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ قرئ (تقية الله) وهي تقواه ومراقبته التي تصرف عن المعاصي. ثم نقول المعنى: ما أبقى الله لكم من الحلال بعد إيفاء الكيل والوزن خير من البخس والتطفيف يعني المال الحلال الذي يبقى لكم خير من تلك الزيادة الحاصلة بطريق البخس والتطفيف، وقال الحسن: بقية الله أي طاعة الله خير لكم من ذلك القدر القليل، لأن ثواب الطاعة يبقى أبدًا، وقال قتادة: حظكم من ربكم خير لكم، وأقول المراد من هذه البقية إما المال الذي يبقى عليه في الدنيا، وإما ثواب الله، وإما كونه تعالى راضيًا عنه والكل خير من قدر التطفيف، أما المال الباقي فلأن الناس إذا عرفوا إنسانًا بالصدق والأمانة والبعد عن الخيانة اعتمدوا عليه ورجعوا في كل المعاملات إليه فيفتح عليه باب الرزق، وإذا عرفوه بالخيانة والمكر انصرفوا عنه ولم يخالطوه ألبتة فتضيق أبواب الرزق عليه،

وأما إن حملنا هذه البقية على الثواب فالأمر ظاهر، لأن كل الدنيا تفنى وتنقرض وثواب الله باق، وأما إن حملناه على حصول رضا الله تعالى فالأمر فيه ظاهر، فثبت بهذا البرهان أن بقية الله خير. ثم قال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وإنما شرط الإيمان في كونه خيرًا لهم لأنهم إن كانوا مؤمنين مقرين بالثواب والعقاب عرفوا أن السعي في تحصيل الثواب وفي الحذر من العقاب خير لهم من السعي في تحصيل ذلك القليل.

واعلم أن المعلق بالشرط عُدِمَ عند عدم الشرط، فهذه الآية تدل بظاهرها على أن من لم يحترز عن هذا التطفيف فإنه لا يكون مؤمنًا.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ وفيه وجهان:

الأول: أن يكون المعنى: إني نصحتكم وأرشدتكم إلى الخير ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أي: لا قدرة لي على منعكم عن هذا العمل القبيح.

الثاني: أنه قد أشار فيما تقدم إلى أن الاشتغال بالبخس والتطفيف يوجب زوال نعمة الله تعالى فقال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ يعني لو لم تتركوا هذا العمل القبيح لزالت نعم الله عنكم، وأنا لا أقدر على حفظها عليكم في تلك الحالة.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾ بغير واو. والباقون (أصلواتك) على الجمع.

المسألة الثانية: اعلم أن شعيبًا عليه السلام أمرهم بشيئين: بالتوحيد وترك البخس، فالقوم أنكروا عليه أمره بهذين النوعين من الطاعة، فقوله: ﴿أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ إشارة إلى أنه أمرهم بالتوحيد وقوله: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ۖ﴾ إشارة إلى أنه أمرهم بترك البخس. أما الأول: فقد أشاروا فيه إلى التمسك بطريقة التقليد؛ لأنهم استبعدوا منه أن يأمرهم بترك عبادة ما كان يعبد آباؤهم يعني الطريقة التي أخذناها من آبائنا وأسلافنا كيف نتركها، وذلك تمسك بمحض التقليد.

المسألة الثالثة: في لفظ الصلاة.

وهاهنا قولان:

الأول: المراد منه الدين والإيمان؛ لأن الصلاة أظهر شعار الدين فجعلوا ذكر الصلاة كناية عن الدين، أو نقول: الصلاة أصلها من الاتباع ومنه أخذ المصلي من الخيل الذي يتلو السابق؛ لأن رأسه يكون على صلوى السابق وهما ناحيتا الفخذين، والمراد: دينك يأمرك بذلك.

والثاني: أن المراد منه هذه الأعمال المخصوصة، روي أن شعيبًا كان كثير الصلاة، وكان قومه إذا رأوه يصلي تغامزوا وتضاحكوا، فقصدوا بقولهم: أصلاتك تأمرك السخرية والهزؤ، وكما أنك إذا رأيت معتوهًا يطالع كتبًا ثم يذكر كلامًا فاسدًا فيقال له: هذا من مطالعة تلك الكتب على سبيل الهزؤ والسخرية فكذا هاهنا. فإن قيل: تقدير الآية: أصلواتك تأمرك أن نفعل في أموالنا ما نشاء وهم إنما ذكروا هذا الكلام على سبيل الإنكار، وهم ما كانوا ينكرون كونهم فاعلين في أموالهم ما يشاءون، فكيف وجه التأويل؟. قلنا: فيه وجهان: الأول: التقدير: أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا وأن نترك فعل ما نشاء، وعلى هذا فقوله: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ﴾ معطوف على ما في قوله: ﴿مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ [هود: ٦٢] والثاني: أن تجعل الصلاة آمرة وناهية والتقدير: أصلواتك تأمرك بأن نترك عبادة الأوثان وتنهاك أن نفعل في أموالنا ما نشاء، وقرأ ابن أبي عبلة (أو أن تفعل في أموالنا ما تشاء) بتاء الخطاب فيهما وهو ما كان يأمرهم به من ترك التطفيف والبخس والاقتناع بالحلال القليل وأنه خير من الحرام الكثير.

ثم قال تعالى حكاية عنهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾.

وفيه وجوه:

الوجه الأول: أن يكون المعنى: إنك لأنت السفيه الجاهل إلا أنهم عكسوا ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية به، كما يقال للبخيل الخسيس لو رآك حاتم لسجد لك.

والوجه الثاني: أن يكون المراد: إنك موصوف عند نفسك وعند قومك بالحلم والرشد.

والوجه الثالث: أنه عليه السلام كان مشهورًا عندهم بأنه حليم رشيد، فلما أمرهم بمفارقة طريقتهم قالوا له: إنك لأنت الحليم الرشيد المعروف الطريقة في هذا الباب، فكيف تنهانا عن دين ألفيناه من آبائنا وأسلافنا، والمقصود استبعاد مثل هذا العمل ممن كان موصوفًا بالحلم والرشد، وهذا الوجه أصوب الوجوه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى حكى عن شعيب عليه السلام ما ذكره في الجواب عن كلماتهم، فالأول قوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ﴾.

وفيه وجوه:

الأول: أن قوله: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ إشارة إلى ما آتاه الله تعالى من العلم والهداية والدين والنبوة، وقوله: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ إشارة إلى ما آتاه الله من المال الحلال، فإنه يروى أن شعيبًا عليه السلام كان كثير المال.

واعلم أن جواب (إن) الشرطية محذوف، والتقدير: أنه تعالى لما آتاني جميع السعادات الروحانية وهي البينة والسعادات الجسمانية وهي المال والرزق الحسن فهل يسعني مع هذا الإنعام العظيم أن أخون في وحيه وأن أخالفه في أمره ونهيه، وهذا الجواب شديد المطابقة لما تقدم، وذلك لأنهم قالوا له: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ فكيف يليق بك مع حلمك ورشدك أن تنهانا عن دين آبائنا فكأنه قال: إنما أقدمت على هذا العمل؛ لأن نعم الله تعالى عندي كثيرة وهو أمرني بهذا التبليغ والرسالة، فكيف يليق بي مع كثرة نعم الله تعالى على أن أخالف أمره وتكليفه. الثاني: أن يكون التقدير كأنه يقول: لما ثبت عندي أن الاشتغال بعبادة غير الله والاشتغال بالبخس والتطفيف عمل منكر، ثم أنا رجل أريد إصلاح أحوالكم ولا أحتاج إلى أموالكم، لأجل أن الله تعالى آتاني رزقًا حسنًا فهل يسعني مع هذه الأحوال أن أخون في وحي الله تعالى وفي حكمه. الثالث: قوله: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ [هود: ٢٨] أي: ما حصل عنده من المعجزة وقوله: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ المراد أنه لا يسألهم أجرًا ولا جعلاً وهو الذي ذكره سائر الأنبياء من قولهم: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩].

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ يدل على أن ذلك الرزق إنما حصل من عند الله تعالى وبإعانته وأنه لا مدخل للكسب فيه، وفيه تنبيه على أن الإعزاز من الله تعالى والإذلال من الله تعالى، وإذا كان الكل من الله تعالى فأنا لا أبالي بمخالفتكم ولا أفرح بموافقتكم، وإنما أكون على تقرير دين الله تعالى وإيضاح شرائع الله تعالى.

وأما الوجه الثاني: من الأجوبة التي ذكرها شعيب عليه السلام فقوله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ قال صاحب (الكشاف): يقال: خالفني فلان إلى كذا إذا قصده وأنت مول عنه وخالفني عنه إذا ولَّى عنه وأنت قاصده، ويلقاك الرجل صادرًا عن الماء فتسأله عن صاحبه. فيقول: خالفني إلى الماء، يريد أنه قد ذهب إليه واردًا وأنا ذاهب عنه صادرًا، ومنه قوله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ يعني أن أسبقكم إلى شهواتكم التي نهيتكم عنها لأستبد بها دونكم فهذا بيان اللغة، وتحقيق الكلام فيه أن القوم اعترفوا بأنه حليم رشيد، وذلك يدل على كمال العقل، وكمال العقل يحمل صاحبه على اختيار الطريق الأصوب الأصلح، فكأنه عليه السلام قال لهم: لما اعترفتم بكمال عقلي فاعلموا أن الذي اختاره عقلي لنفسي لا بد وأن يكون أصوب الطرق وأصلحها والدعوة إلى توحيد الله تعالى وترك البخس والنقصان يرجع حاصلهما

إلى جزأين : التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله تعالى وأنا مواظب عليهما غير تارك لهما في شيء من الأحوال ألبتة فلما اعترفتم لي بالحلم والرشد وترون أني لا أترك هذه الطريقة، فاعلموا أن هذه الطريقة خير الطرق، وأشرف الأديان والشرائع .

وأما الوجه الثالث: من الوجوه التي ذكرها شعيب عليه السلام فهو قوله : ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ والمعنى : ما أريد إلا أن أصلحكم بموعظتي ونصيحتي، وقوله : ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ فيه وجوه :

الأول: أنه ظرف، والتقدير : مدة استطاعتي للإصلاح وما دمت متمكنًا منه لا آلو فيه جهدًا .

والثاني: أنه بدل من الإصلاح، أي المقدار الذي استطعت منه .

والثالث: أن يكون مفعولاً له أي ما أريد إلا أن أصلح ما استطعت إصلاحه .

واعلم أن المقصود من هذا الكلام أن القوم كانوا قد أقروا بأنه حليم رشيد، وإنما أقروا له بذلك لأنه كان مشهورًا فيما بين الخلق بهذه الصفة، فكأنه عليه السلام قال لهم : إنكم تعرفون من حالي أني لا أسعى إلا في الإصلاح وإزالة الفساد والخصومة، فلما أمرتكم بالتوحيد وترك إيذاء الناس، فاعلموا أنه دين حق وأنه ليس غرضي منه إيقاع الخصومة وإثارة الفتنة، فإنكم تعرفون أني أبغض ذلك الطريق ولا أدور إلا على ما يوجب الصُّلْح والصلاح بقدر طاقتي، وذلك هو الإبلاغ والإنذار، وأما الإجبار على الطاعة فلا أقدر عليه، ثم إنه عليه السلام أكد ذلك بقوله : ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ وبيَّن بهذا أن توكله واعتماده في تنفيذ كل الأعمال الصالحة على توفيق الله تعالى وهدايته .

واعلم أن قوله عليه السلام : ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ إشارة إلى محض التوحيد، لأن قوله عليه السلام توكلت يفيد الحصر، وهو أنه لا ينبغي للإنسان أن يتوكل على أحد إلا على الله تعالى وكيف وكل ما سوى الحق سبحانه ممكن لذاته فإنْ بذاته، ولا يحصل إلا بإيجاده وتكوينه! وإذا كان كذلك لم يجز التوكل إلا على الله تعالى وأعظم مراتب معرفة المبدأ هو الذي ذكرناه، وأما قوله : ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ فهو إشارة إلى معرفة المعاد، وهو أيضًا يفيد الحصر لأن قوله : ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ يدل على أنه لا مرجع للخلق إلا إلى الله تعالى، وعن رسول الله ﷺ أنه كان إذا ذكر شعيب عليه السلام قال : «ذَاكَ خَطِيبُ الأَنْبِيَاءِ»(١) لحسن مراجعته في كلامه بين قومه .

وأما الوجه الرابع: من الوجوه التي ذكرها شعيب عليه السلام فهو قوله : ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ

---

(١) إسناده ضعيف : أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٢/ ٥٦٧)، وقال : قال ابن إسحاق : وكان رسول الله ﷺ فيما ذكر لي يعقوب ابن أبي سلمة . . . فذكره، وابن أبي حاتم في (تفسيره) (٦/ ١١٣) حديث رقم/ ٨٧٥٢، من طريق عبد الرحمن بن سلمة عن مسلمة حدثني ابن إسحاق قال . . . به، والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٦٢٠) حديث رقم/ ٤٠٧١، من طريق سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحاق . . . به، وسكت عنه الذهبي في التلخيص، وهذا إسناد مرسل ومحمد بن إسحاق مدلس .

شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم﴾ قال صاحب (الكشاف): جرم: مثل كسب في تعديته تارة إلى مفعول واحد وأخرى إلى مفعولين يقال: جرم ذنبًا وكسبه وجرمه ذنبًا وكسبه إياه، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم﴾ أي لا يكسبنكم شقاقي إصابة العذاب، وقرأ ابن كثير (يُجْرِمَنَّكُم) بضم الياء من أجرمته ذنبًا إذا جعلته جارمًا له أي كاسبًا له. وهو منقول من جَرَم المتعدي إلى مفعول واحد، وعلى هذا فلا فرق بين جرمته ذنبًا وأجرمته إياه، والقراءتان مستويتان في المعنى لا تفاوت بينهما إلا أن المشهورة أفصح لفظًا كما أن كسبه مالاً أفصح من أكسبه.

إذا عرفت هذا فنقول: المراد من الآية: لا تكسبنكم معاداتكم إياي أي يصيبكم عذاب الاستئصال في الدنيا مثل ما حصل لقوم نوح عليه السلام من الغرق، ولقوم هود من الريح العقيم ولقوم صالح من الرجفة، ولقوم لوط من الخسف.

وأما قوله: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾.

ففيه وجهان:

الأول: أن المراد نفي البعد في المكان؛ لأن بلاد قوم لوط عليه السلام قريبة من مدين.

والثاني: أن المراد نفي البعد في الزمان؛ لأن إهلاك قوم لوط عليه السلام أقرب الإهلاكات التي عرفها الناس في زمان شعيب عليه السلام، وعلى هذين التقديرين فإن القرب في المكان وفي الزمان يفيد زيادة المعرفة وكمال الوقوف على الأحوال فكأنه يقول: اعتبروا بأحوالهم واحذروا من مخالفة الله تعالى ومنازعته حتى لا ينزل بكم مثل ذلك العذاب.

فإن قيل: لم قال: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ وكان الواجب أن يقال: ببعيدين؟

أجاب عنه صاحب (الكشاف) من وجهين:

الأول أن يكون التقدير: ما إهلاكهم شيء بعيد.

الثاني: أنه يجوز أن يسوى في قريب وبعيد وكثير وقليل بين المذكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر التي هي الصهيل والنهيق ونحوهما.

وأما الوجه الخامس: من الوجوه التي ذكرها شعيب عليه السلام فهو قوله: (﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ عَنِ الْبَخْسِ وَالنُّقْصَانِ ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ﴾ بِأَوْلِيَائِهِ ﴿وَدُودٌ﴾). قال أبو بكر الأنباري: الودود في أسماء الله تعالى المحب لعباده، من قولهم وددت الرجل أوده، وقال الأزهري في (كتاب شرح أسماء الله تعالى) ويجوز أن يكون ودود فعولاً بمعنى مفعول كركوب وحَلُوب، ومعناه أن عباده الصالحين يودُّونه ويُحِبُّونه لكثرة إفضاله وإحسانه على الخلق.

واعلم أن هذا الترتيب الذي راعاه شعيب عليه السلام في ذكر هذه الوجوه الخمسة ترتيب لطيف، وذلك لأنه بيَّن أولاً أن ظهور البينة له وكثرة إنعام الله تعالى عليه في الظاهر والباطن يمنعه عن الخيانة في وحي الله تعالى ويصده عن التهاون في تكاليفه. ثم بيَّن ثانيًا أنه مواظب على العمل

بهذه الدعوة ولو كانت باطلة لما اشتغل هو بها مع اعترافكم بكونه حليمًا رشيدًا، ثم بيَّن صحته بطريق آخر وهو أنه كان معروفًا بتحصيل موجبات الصلاح وإخفاء موجبات الفتن، فلو كانت هذه الدعوة باطلة لما اشتغل بها، ثم لما بيَّن صحة طريقته أشار إلى نفي المعارض وقال: لا ينبغي أن تحملكم عداوتي على مذهب ودين تقعون بسببه في العذاب الشديد من الله تعالى، كما وقع فيه أقوام الأنبياء المتقدمين، ثم إنه لما صحح مذهب نفسه بهذه الدلائل عاد إلى تقرير ما ذكره أولاً وهو التوحيد والمنع من البخس بقوله: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ ثم بيَّن لهم أن سبق الكفر والمعصية منهم لا ينبغي أن يمنعهم من الإيمان والطاعة لأنه تعالى رحيم ودود يقبل الإيمان والتوبة من الكافر والفاسق لأن رحمته وحبه لهم يوجب ذلك، وهذا التقرير في غاية الكمال.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ٩١﴾

اعلم أنه عليه السلام لما بالغ في التقرير والبيان، أجابوه بكلمات فاسدة: فالأول: قولهم: ﴿يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: لقائل أن يقول: أنه عليه السلام كان يخاطبهم بلسانهم، فلم قالوا: ﴿مَا نَفۡقَهُ﴾ والعلماء ذكروا عنه أنواعًا من الجوابات: فالأول: أن المراد: ما نفهم كثيرًا مما تقول، لأنهم كانوا لا يلقون إليه أفهامهم لشدة نفرتهم عن كلامه وهو كقوله: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ [الأنعام: ٢٥]، الثاني: أنهم فهموه بقلوبهم ولكنهم ما أقاموا له وزنًا، فذكروا هذا الكلام على وجه الاستهانة كما يقول الرجل لصاحبه إذ لم يعبأ بحديثه: ما أدري ما تقول. الثالث: أن هذه الدلائل التي ذكرها ما أقنعتهم في صحة التوحيد والنبوة والبعث، وما يجب من ترك الظلم والسرقة، فقولهم: ﴿مَا نَفۡقَهُ﴾ أي لم نعرف صحة الدلائل التي ذكرتها على صحة هذه المطالب.

المسألة الثانية: من الناس من قال: الفقه اسم لعَلَم مخصوص، وهو معرفة غرض المتكلم من كلامه، واحتجوا بهذه الآية وهي قوله: ﴿مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾ فأضاف الفقه إلى القول ثم صار اسمًا لنوع معين من علوم الدين، ومنهم من قال: إنه اسم لمطلق الفهم. يقال: أوتي فلان فقهًا في الدين، أي فهمًا. وقال النبي ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللَّه بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» أي يفهمه تأويله.

والنوع الثاني: من الأشياء التي ذكروها قولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ﴾ وفيه وجهان: الأول: أنه الضعيف الذي يتعذر عليه منع القوم عن نفسه، والثاني: أن الضعيف هو الأعمى بلغة حمير. واعلم أن هذا القول ضعيف لوجوه: الأول: أنه ترك للظاهر من غير دليل، والثاني: أن قوله: ﴿فِينَا﴾ يبطل هذا الوجه؛ ألا ترى أنه لو قال: إنا لنراك أعمى فينا كان فاسدًا، لأن الأعمى أعمى فيهم وفي غيرهم، الثالث: أنهم قالوا بعد ذلك: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾ فنفوا عنه القوة

التي أثبتوها في رهطه، ولما كان المراد بالقوة التي أثبتوها للرهط هي النصرة، وجب أن تكون القوة التي نفوها عنه هي النصرة، والذين حملوا اللفظ على ضعف البصر لعلهم إنما حملوه عليه، لأنه سبب للضعف. واعلم أن أصحابنا يجوزون العمى على الأنبياء، إلا أن هذا اللفظ لا يحسن الاستدلال به في إثبات هذا المعنى لما بيناه. وأما المعتزلة فقد اختلفوا فيه فمنهم من قال: إنه لا يجوز لكونه متعبدًا فإنه لا يمكنه الاحتراز عن النجاسات، ولأنه يُخِل بجواز كونه حاكمًا وشاهدًا، فلأن يمنع من النبوة كان أولى، والكلام فيه لا يليق بهذه الآية، لأنا بينا أن الآية لا دلالة فيها على هذا المعنى.

والنوع الثالث: من الأشياء التي ذكروها قولهم: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): الرهط من الثلاثة إلى العشرة، وقيل: إلى السبعة، وقد كان رهطه على ملتهم. قالوا لولا حرمة رهطك عندنا بسبب كونهم على ملتنا لرجمناك، والمقصود من هذا الكلام أنهم بينوا أنه لا حرمة له عندهم، ولا وَقْعَ له في صدورهم، وأنهم إنما لم يقتلوه لأجل احترامهم رهطه.

المسألة الثانية: الرجم في اللغة عبارة عن الرمي، وذلك قد يكون بالحجارة عند قصد القتل، ولما كان هذا الرجم سببًا للقتل لا جرم سموا القتل رجمًا، وقد يكون بالقول الذي هو القذف، كقوله: ﴿رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾[الكهف: ٢٢] وقوله: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾[سبأ: ٥٣] وقد يكون بالشتم واللعن، ومنه قوله: ﴿ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[النحل: ٩٨] وقد يكون بالطرد كقوله: ﴿رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾[الملك: ٥].

إذا عرفت هذا ففي الآية وجهان: الأول: ﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾: لقتلناك. الثاني: لشتمناك وطردناك.

النوع الرابع: من الأشياء التي ذكروها قولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ ومعناه أنك لما لم تكن علينا عزيزًا سهل علينا الإقدام على قتلك وإيذائك.

واعلم أن كل هذه الوجوه التي ذكروها ليست دافعًا لما قرره شعيب عليه السلام من الدلائل والبينات، بل هي جارية مجرى مقابلة الدليل والحجة بالشتم والسفاهة.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾

اعلم أن الكفار لما خوفوا شعيبًا عليه السلام بالقتل والإيذاء، حكى الله تعالى عنه ما ذكره في هذا المقام، وهو نوعان من الكلام:

النوع الأول: قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ والمعنى: أن القوم زعموا أنهم تركوا إيذاءه رعاية لجانب قومه. فقال: أنتم تزعمون أنكم تتركون قتلي إكرامًا لرهطي، والله تعالى أولى أن يتبع أمره، فكأنه يقول: حفظتكم إياي رعاية لأمر الله تعالى أولى من حفظكم إياي رعاية لحق رهطي.

وأما قوله: ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ﴾ فالمعنى: أنكم نسيتموه وجعلتموه كالشيء المنبوذ وراء الظهر لا يعبأ به. قال صاحب (الكشاف): والظهري منسوب إلى الظَّهر، والكسر من تغيرات النسب ونظيره قولهم في النسبة إلى الأمس إمسي بكسر الهمزة، وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ يعني أنه عالم بأحوالكم فلا يخفى عليه شيء منها.

والنوع الثاني: قوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ﴾ والمكانة: الحالة يتمكن بها صاحبها من عمله، والمعنى: اعملوا حال كونكم موصوفين بغاية المكنة والقدرة وكل ما في وسعكم وطاقتكم من إيصال الشرور إلي، فإني أيضًا عامل بقدر ما آتاني الله تعالى من القدرة.

ثم قال: ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: لقائل أن يقول: لِمَ لَمْ يقل ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ والجواب: إدخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل، وأما بحذف الفاء فإنه يجعله جوابًا عن سؤال مقدر والتقدير: أنه لما قال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ﴾ فكأنهم قالوا: فماذا يكون بعد ذلك؟ فقال: ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ فظهر أن حذف حرف الفاء هاهنا أكمل في باب الفظاعة والتهويل. ثم قال ﴿وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾ والمعنى: فانتظروا العاقبة إني معكم رقيب أي منتظر، والرقيب بمعنى الراقب من رقبه كالضَّريب والصَّريم بمعنى الضَّارب والصَّارم، أو بمعنى المراقب كالعشير والنديم، أو بمعنى المرتقب كالفقير والرفيع بمعنى المفتقر والمرتفع.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ۝٩٤ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ۝٩٥﴾

روى الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لم يعذب الله تعالى أمتين بعذاب واحد إلا قوم شعيب وقوم صالح فأما قوم صالح فأخذتهم الصيحة من تحتهم، وقوم شعيب أخذتهم من فوقهم[(١)] وقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ يحتمل أن يكون المراد منه ولما جاء وقت أمرنا ملكًا من الملائكة بتلك الصيحة، ويحتمل أن يكون المراد من الأمر العقاب، وعلى التقديرين فأخبر الله

(١) في إسناده الكلبي متروك وقد اتهم بالكذب.

أنه نجى شعيبًا ومن معه من المؤمنين برحمة منه، وفيه وجهان: الأول: أنه تعالى إنما خلصه من ذلك العذاب لمحض رحمته، تنبيهًا على أن كل ما يصل إلى العبد فليس إلا بفضل الله ورحمته. والثاني: أن يكون المراد من الرحمة الإيمان والطاعة وسائر الأعمال الصالحة وهي أيضًا ما حصلت إلا بتوفيق الله تعالى، ثم وصف كيفية ذلك العذاب فقال: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ وإنما ذكر الصيحة بالألف واللام إشارة إلى المعهود السابق وهي صيحة جبريل عليه السلام ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ والجاثم: الملازم لمكانه الذي لا يتحول عنه يعني أن جبريل عليه السلام لما صاح بهم تلك الصيحة زهق روح كل واحد منهم بحيث يقع في مكانه ميتًا ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ أي كأن لم يقيموا في ديارهم أحياء متصرفين مترددين.

ثم قال تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ وقد تقدم تفسير هذه اللفظة وإنما قاس حالهم على ثمود لما ذكرنا أنه تعالى عذبهم مثل عذاب ثمود.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾

واعلم أن هذه هي القصة السابعة من القصص التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة، وهي آخر القصص من هذه السورة، أما قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ ففيه وجوه:

الأول: أن المراد من الآيات: التوراة مع ما فيها من الشرائع والأحكام، ومن السلطان المبين المعجزات القاهرة الباهرة، والتقدير: ولقد أرسلنا موسى بشرائع وأحكام وتكاليف وأيدناه بمعجزات قاهرة وبينات باهرة.

الثاني: أن الآيات هي المعجزات والبينات، وهو كقوله: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ﴾ [يونس: ٦٨] وقوله: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾[النجم: ٢٣] وعلى هذا التقدير ففي الآية وجهان:

الأول: أن هذه الآيات فيها سلطان مبين لموسى على صدق نبوته.

الثاني: أن يراد بالسلطان المبين العصا، لأنه أشهرها، وذلك لأنه تعالى أعطى موسى تسع آيات بينات، وهي العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص من الثمرات والأنفس. ومنهم من أبدل نقص الثمرات والأنفس بإظلال الجبل وفلق البحر، واختلفوا في أن الحجة لم سميت بالسلطان. فقال بعض المحققين: لأن صاحب الحجة يقهر من لا حجة معه عند النظر كما يقهر السلطان غيره، فلهذا توصف الحجة بأنها سلطان، وقال الزجاج: السلطان هو الحجة والسلطان سمي سلطانًا لأنه حجة الله في أرضه واشتقاقه من السَّلِيط والسَّلِيط: ما

يضاء به ومن هذا قيل للزيت: السليط، وفيه قول ثالث: وهو أن السلطان مشتق من التسليط، والعلماء سلاطين بسبب كمالهم في القوة العلمية والملوك سلاطين بسبب ما معهم من القدرة والمكنة، إلا أن سلطنة العلماء أكمل وأقوى من سلطنة الملوك، لأن سلطنة العلماء لا تقبل النسخ والعزل وسلطنة الملوك تقبلهما، ولأن سلطنة الملوك تابعة لسلطنة العلماء وسلطنة العلماء من جنس سلطنة الأنبياء وسلطنة الملوك من جنس سلطنة الفراعنة.

فإن قيل: إذا حملتم الآيات المذكورة في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ على المعجزات، والسلطان أيضًا على الدلائل، والمبين أيضًا معناه كونه سببًا للظهور فما الفرق بين هذه المراتب الثلاثة؟

قلنا: الآيات اسم للقدر المشترك بين العلامات التي تفيد الظن، وبين الدلائل التي تفيد اليقين وأما السلطان فهو اسم لما يفيد القطع واليقين، إلا أنه اسم للقدر المشترك بين الدلائل التي تؤكد بالحس، وبين الدلائل التي لم تتأكد بالحس، وأما الدليل القاطع الذي تأكد بالحس فهو السلطان المبين، ولما كانت معجزات موسى عليه السلام هكذا لا جرم وصفها الله بأنها سلطان مبين. ثم قال: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ يعني: وأرسلنا موسى بآياتنا بمثل هذه الآيات إلى فرعون وملئه، أي جماعته. ثم قال: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ ويحتمل أن يكون المراد أمره إياهم بالكفر بموسى ومعجزاته ويحتمل أن يكون المراد من الأمر: الطريق والشأن.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي بمرشد إلى خير، وقيل رشيد أي ذي رشد.

واعلم أن بُعْدَ طريق فرعون من الرشد كان ظاهرًا، لأنه كان دهريًا نافيًا للصانع والمعاد وكان يقول: لا إله للعالم وإنما يجب على أهل كل بلد أن يشتغلوا بطاعة سلطانهم وعبوديته رعاية لمصلحة العالم وأنكر أن يكون الرشد في عبادة الله ومعرفته، فلما كان هو نافيًا لهذين الأمرين كان خاليًا عن الرشد بالكلية، ثم إنه تعالى ذكر صفته وصفة قومه فقال: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ .

وفيه بحثان:

البحث الأول: من حيث اللغة يقال: قَدِمَ فلان فلانًا بمعنى تقدمه، ومنه قادمة الرجل كما يقال قَدِمَه بمعنى تقدمه، ومنه مقدمة الجيش.

والبحث الثاني: من حيث المعنى وهو أن فرعون كان قدوة لقومه في الضلال حال ما كانوا في الدنيا وكذلك مقدمهم إلى النار وهم يتبعونه، أو يقال: كما تقدم قومه في الدنيا فأدخلهم في البحر وأغرقهم فكذلك يتقدمهم يوم القيامة فيدخلهم النار ويحرقهم، ويجوز أيضًا أن يريد بقوله: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي وما أمره بصالح حميد العاقبة، ويكون قوله: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ﴾ تفسيرًا لذلك، وإيضاحًا له، أي كيف يكون أمره رشيدًا مع أن عاقبته هكذا.

فإن قيل: لِمَ لَمْ يقل: يقدم قومه فيوردهم النار؟ بل قال: يقدم قومه فأوردهم النار بلفظ الماضي.

قلنا: لأن الماضي قد وقع ودخل في الوجود فلا سبيل ألبتة إلى دفعه، فإذا عبر عن المستقبل بلفظ الماضي دل على غاية المبالغة، ثم قال: ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾.

وفيه بحثان:

البحث الأول: لفظ (النار) مؤنث، فكان ينبغي أن يقال: وبئست الورد المورود إلا أن لفظ (الورد) مذكر، فكان التذكير والتأنيث جائزين كما تقول: نعم المنزل دارك، ونعمت المنزل دارك، فمن ذكَّر غلب المنزل، ومن أنث بنى على تأنيث الدار هكذا قاله الواحدي.

البحث الثاني: الورد قد يكون بمعنى الورود فيكون مصدرًا وقد يكون بمعنى الوارد. قال تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦] وقد يكون بمعنى المورود عليه كالماء الذي يورد عليه. قال صاحب (الكشاف): الوِرْد المورود: الذي حصل وروده. فشبه الله تعالى فرعون بمن يتقدم الواردة إلى الماء وشبه أتباعه بالواردين إلى الماء، ثم قال: بئس الورد الذي يوردونه النار، لأن الورد إنما يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد، والنار ضده.

ثم قال: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ والمعنى: أنهم أتبعوا في هذه الدنيا لعنة وفي يوم القيامة أيضًا، ومعناه أن اللعن من الله ومن الملائكة والأنبياء ملتصق بهم في الدنيا وفي الآخرة لا يزول عنهم، ونظيره قوله في سورة القصص: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤٢].

ثم قال: ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ والرفد: هو العطية، وأصله الذي يعين على المطلوب سأل نافع بن الأزرق ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله: ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ قال: هو اللعنة بعد اللعنة. قال قتادة: ترادفت عليهم لعنتان من الله تعالى لعنة في الدنيا ولعنة في الآخرة وكل شيء جعلته عونًا لشيء فقد رفدته به.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر قصص الأولين قال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾ والفائدة في ذكرها أمور: **أولها:** أن الانتفاع بالدليل العقلي المحض إنما يحصل للإنسان الكامل، وذلك إنما يكون في غاية الندرة. فأما إذا ذكرت الدلائل ثم أكدت بأقاصيص الأولين صار ذكر هذه الأقاصيص كالموصل لتلك الدلائل العقلية إلى العقول.

الوجه الثاني: أنه تعالى خلط بهذه الأقاصيص أنواع الدلائل التي كان الأنبياء عليهم السلام يتمسكون بها ويذكر مدافعات الكفار لتلك الدلائل وشبهاتهم في دفعها، ثم يذكر عقيبهما أجوبة

الأنبياء عنها ثم يذكر عقيبها أنهم لما أصروا واستكبروا وقعوا في عذاب الدنيا وبقي عليهم اللعن والعقاب في الدنيا وفي الآخرة، فكان ذكر هذه القصص سببًا لإيصال الدلائل والجوابات عن الشبهات إلى قلوب المنكرين، وسببًا لإزالة القسوة والغلظة عن قلوبهم، فثبت أن أحسن الطرق في الدعوة إلى الله تعالى ما ذكرناه.

الفائدة الثالثة: أنه عليه السلام كان يذكر هذه القصص من غير مطالعة كتب، ولا تَلْمِذَ لأحد وذلك معجزة عظيمة تدل على النبوة كما قررناه.

الفائدة الرابعة: إن الذين يسمعون هذه القصص يتقرر عندهم أن عاقبة الصديق والزنديق والموافق والمنافق إلى ترك الدنيا والخروج عنها، إلا أن المؤمن يخرج من الدنيا مع الثناء الجميل في الدنيا، والثواب الجزيل في الآخرة، والكافر يخرج من الدنيا مع اللعن في الدنيا والعقاب في الآخرة، فإذا تكررت هذه الأقاصيص على السمع، فلا بد وأن يلين القلب وتخضع النفس وتزول العداوة ويحصل في القلب خوف يحمله على النظر والاستدلال، فهذا كلام جليل في فوائد ذكر هذه القصص.

أما قوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْقُرَىٰ﴾.

ففيه أبحاث:

البحث الأول: أن قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الغائب، والمراد منه هاهنا الإشارة إلى هذه القصص التي تقدمت، وهي حاضرة، إلا أن الجواب عنه ما تقدم في قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[البقرة: ٢].

البحث الثاني: أن لفظ (ذلك) يشار به إلى الواحد والاثنين والجماعة لقوله تعالى: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾[البقرة: ٦٨] وأيضًا يحتمل أن يكون المراد ذلك الذي ذكرناه هو كذا وكذا.

البحث الثالث: قال صاحب (الكشاف): (ذلك) مبتدأ ﴿مِنْ أَنبَآءِ ٱلْقُرَىٰ﴾ خبر ﴿نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾ خبر بعد خبر أي ذلك المذكور بعض أنباء القرى مقصوص عليك. ثم قال: ﴿مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ والضمير في قوله: ﴿مِنْهَا﴾ يعود إلى القرى شبه ما بقي من آثار القرى وجدرانها بالزرع القائم على ساقه وما عفا منها وبطر بالحصيد، والمعنى أن تلك القرى بعضها بقي منه شيء وبعضها هلك وما بقي منه أثر ألبتة.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾.

وفيه وجوه:

الأول: وما ظلمناهم بالعذاب والإهلاك، ولكن ظلموا أنفسهم بالكفر والمعصية.

الثاني: أن الذي نزل بالقوم ليس بظلم من الله بل هو عدل وحكمة، لأجل أن القوم أولاً

ظلموا أنفسهم بسبب إقدامهم على الكفر والمعاصي فاستوجبوا لأجل تلك الأعمال من الله ذلك العذاب .

الثالث: قال ابن عباس رضي الله عنهما : يريد : وما نقصناهم من النعيم في الدنيا والرزق، ولكن نقصوا حظ أنفسهم حيث استخفوا بحقوق الله تعالى .

ثم قال: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي ما نفعتهم تلك الآلهة في شيء ألبتة .

ثم قال: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : غير تخسير . يقال : تب إذا خسر وتبَّبه غيره إذا أوقعه في الخسران، والمعنى أن الكفار كانوا يعتقدون في الأصنام أنها تعين على تحصيل المنافع ودفع المضار ثم إنه تعالى أخبر أنهم عند مساس الحاجة إلى المعين ما وجدوا منها شيئًا لا جلب نفع ولا دفع ضر، ثم كما لم يجدوا ذلك فقد وجدوا ضده، وهو أن ذلك الاعتقاد زال عنهم به منافع الدنيا والآخرة وجلب إليهم مضار الدنيا والآخرة، فكان ذلك من أعظم موجبات الخسران .

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ عاصم والجحدري : (إِذْ أَخَذَ القُرَى) بألف واحدة، وقرأ الباقون بألفين .

المسألة الثانية: اعلم أنه تعالى لما أخبر الرسول - عليه السلام - في كتابه بما فعل بأمم من تقدم من الأنبياء لما خالفوا الرسل وردوا عليهم من عذاب الاستئصال، وبيَّن أنهم ظلموا أنفسهم فحل بهم العذاب في الدنيا قال بعده : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ فبيَّن أن عذابه ليس بمقتصر على من تقدم، بل الحال في أخذ كل الظالمين يكون كذلك وقوله : ﴿وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ الضمير فيه عائد إلى القرى وهو في الحقيقة عائد إلى أهلها، ونظيره قوله : ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ [الأنبياء : ١١] وقوله : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ [القصص : ٥٨] .

واعلم أنه تعالى لما بيَّن كيفية أخذ الأمم المتقدمة ثم بيَّن أنه إنما يأخذ جميع الظالمين على ذلك الوجه أتبعه بما يزيده تأكيدًا وتقوية فقال : ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ فوصف ذلك العذاب بالإيلام وبالشدة، ولا منغصة في الدنيا إلا الألم، ولا تشديد في الدنيا وفي الآخرة، وفي الوهم والعقل إلا تشديد الألم .

واعلم أن هذه الآية تدل على أن من أقدم على ظلم فإنه يجب عليه أن يتدارك ذلك بالتوبة

والإنابة لئلا يقع في الأخذ الذي وصفه الله تعالى بأنه أليم شديد ولا ينبغي أن يظن أن هذه الأحكام مختصة بأولئك المتقدمين، لأنه تعالى لما حكى أحوال المتقدمين قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ فبيَّن أن كل من شارك أولئك المتقدمين في فعل ما لا ينبغي، فلا بد وأن يشاركهم في ذلك الأخذ الأليم الشديد.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ قال القفال: تقرير هذا الكلام أن يقال: إن هؤلاء إنما عذبوا في الدنيا لأجل تكذيبهم الأنبياء وإشراكهم بالله، فإذا عذبوا في الدنيا على ذلك وهي دار العمل، فلأن يعذبوا عليه في الآخرة التي هي دار الجزاء كان أولى.

واعلم أن كثيرًا ممن تنبه لهذا البحث من المفسرين عولوا على هذا الوجه، بل هو ضعيف، وذلك لأنَّ على هذا الوجه الذي ذكره القفال يكون ظهور عذاب الاستئصال في الدنيا دليلاً على أن القول بالقيامة والبعث والنشر حق وصدق، وظاهر الآية يقتضي أن العلم بأن القيامة حق كالشرط في حصول الاعتبار بظهور عذاب الاستئصال، وهذا المعنى كالمضاد لما ذكره القفال، لأن القفال يجعل العلم بعذاب الاستئصال أصلاً للعلم بأن القيامة حق، فبطل ما ذكره القفال والأصوب عندي أن يقال: العلم بأن القيامة حق موقوف على العلم بأن المدبر لوجود هذه السموات والأرضين فاعل مختار لا موجب بالذات وما لم يعرف الإنسان أن إله العالم فاعل مختار وقادر على كل الممكنات وأن جميع الحوادث الواقعة في السموات والأرضين لا تحصل إلا بتكوينه وقضائه، لا يمكنه أن يعتبر بعذاب الاستئصال، وذلك لأن الذين يزعمون أن المؤثر في وجود هذا العالم موجب بالذات لا فاعل مختار، يزعمون أن هذه الأحوال التي ظهرت في أيام الأنبياء مثل الغرق والحرق والخسف والمسخ والصيحة كلها إنما حدثت بسبب قرانات الكواكب واتصال بعضها ببعض، وإذا كان الأمر كذلك فحينئذ لا يكون حصولها دليلاً على صدق الأنبياء، فأما الذي يؤمن بالقيامة، فلا يتم ذلك الإيمان إلا إذا اعتقد أنه إله العالم فاعل مختار وأنه عالم بجميع الجزئيات، وإذا كان الأمر كذلك لزم القطع بأن حدوث هذه الحوادث الهائلة والوقائع العظيمة إنما كان بسبب أن إله العالم خلقها وأوجدها وأنها ليست بسبب طوالع الكواكب وقراناتها، وحينئذ ينتفع بسماع هذه القصص، ويستدل بها على صدق الأنبياء، فثبت بهذا صحة قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ .

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ .

واعلم أنه تعالى لما ذكر الآخرة وصف ذلك اليوم بوصفين:

أحدهما: أنه يوم مجموع له الناس، والمعنى أن خلق الأولين والآخرين كلهم يحشرون في ذلك اليوم ويجمعون.

والثاني: أنه يوم مشهود قال ابن عباس رضي الله عنهما يشهده البر والفاجر. وقال آخرون يشهده أهل السماء وأهل الأرض، والمراد من الشهود الحضور، والمقصود من ذكره أنه ربما

وقع في قلب إنسان أنهم لما جمعوا في ذلك الوقت لم يعرف كل أحد إلا واقعة نفسه، فبيَّن تعالى أن تلك الوقائع تصير معلومة للكل بسبب المحاسبة والمساءلة.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ والمعنى أن تأخير الآخرة وإفناء الدنيا موقوف على أجل معدود وكل ماله عدد فهو متناه وكل ما كان متناهيًا فإنه لا بد وأن يفنى، فيلزم أن يقال إن تأخير الآخرة سينتهي إلى وقت لا بد وأن يقيم الله القيامة فيه، وأن تخرب الدنيا فيه، وكل ما هو آت قريب.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة ﴿يَأْتِ﴾ بحذف الياء والباقون بإثبات الياء. قال صاحب (الكشاف): وحذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة كثير في لغة هذيل، ونحوه قولهم لا أدرِ، حكاه الخليل وسيبويه.

المسألة الثانية: قال صاحب (الكشاف): فاعل يأتي هو الله تعالى كقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠] وقوله: ﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] ويعضده قراءة من قرأ (وما يؤخره) بالياء أقول لا يعجبني هذا التأويل، لأن قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠] حكاه الله تعالى عن أقوام والظاهر أنهم هم اليهود، وذلك ليس فيه حجة وكذا قوله: ﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] أما هاهنا فهو صريح كلام الله تعالى وإسناد فعل الإتيان إليه مشكل.

فإن قالوا: فما قولك في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢].

قلنا: هناك تأويلات، وأيضًا فهو صريح، فلا يمكن دفعه فوجب الامتناع منه بل الواجب أن يقال: المراد منه يوم يأتي الشيء المهيب الهائل المستعظم، فحذف الله تعالى ذكره بتعيينه ليكون أقوى في التخويف.

المسألة الثالثة: قال صاحب (الكشاف): العامل في انتصاب الظرف هو قوله: ﴿لَا تَكَلَّمُ﴾ أو إضمار اذكر.

أما قوله: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ﴾ ففيه حذف، والتقدير: لا تكلم نفس فيه إلا بإذن الله تعالى.

فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآية وبين سائر الآيات التي توهم كونها مناقضة لهذه الآية منها

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١] ومنها أنهم يكذبون ويحلفون بالله عليه وهو قولهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] ومنها قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤] ومنها قوله: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦].

والجواب من وجهين:

الأول: أنه حيث ورد المنع من الكلام فهو محمول على الجوابات الحقية الصحيحة.

الثاني: أن ذلك اليوم يوم طويل وله مواقف، ففي بعضها يجادلون عن أنفسهم، وفي بعضها يكفون عن الكلام، وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلمون، وفي بعضها يختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم.

أما قوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): الضمير في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ﴾ لأهل الموقف ولم يذكر لأنه معلوم ولأن قوله: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ يدل عليه لأنه قد مر ذكر الناس في قوله: ﴿مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾ [هود: ١٠٣].

المسألة الثانية: قوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ يدل ظاهره على أن أهل الموقف لا يخرجون عن هذين القسمين.

فإن قيل: أليس في الناس مجانين وأطفال وهم خارجون عن هذين القسمين؟

قلنا: المراد من يحشر ممن أطلق للحساب وهم لا يخرجون عن هذين القسمين.

فإن قيل: قد احتج القاضي بهذه الآية على فساد ما يقال: إن أهل الأعراف لا في الجنة ولا في النار فما قولكم فيه؟

قلنا: لما سلم أن الأطفال والمجانين خارجون عن هذين القسمين؛ لأنهم لا يحاسبون فلم لا يجوز أيضًا أن يقال: إن أصحاب الأعراف خارجون عنه لأنهم أيضًا لا يحاسبون، لأن الله تعالى علم من حالهم أن ثوابهم يساوي عذابهم، فلا فائدة في حسابهم.

فإن قيل: القاضي استدل بهذه الآية أيضًا على أن كل من حضر عرصة القيامة فإنه لا بد وأن يكون ثوابه زائدًا أو يكون عقابه زائدًا، فأما من كان ثوابه مساويًا لعقابه فإنه وإن كان جائزًا في العقل، إلا أن هذا النص دل على أنه غير موجود.

قلنا: الكلام فيه ما سبق من أن السعيد هو الذي يكون من أهل الثواب، والشقي هو الذي يكون من أهل العقاب، وتخصيص هذين القسمين بالذكر لا يدل على نفي القسم الثالث، والدليل على ذلك: أن أكثر الآيات مشتملة على ذكر المؤمن والكافر فقط، وليس فيه ذكر ثالث لا يكون لا مؤمنًا ولا كافرًا مع أن القاضي أثبته، فإذا لم يلزم من عدم ذكر ذلك الثالث عدمه فكذلك لا يلزم من ذكر هذا الثالث عدمه.

المسألة الثالثة: اعلم أنه تعالى حكم الآن على بعض أهل القيامة بأنه سعيدٌ، وعلى بعضهم بأنه شقيٌ، ومن حكم الله عليه بحكم وعلم منه ذلك الأمر امتنع كونه بخلافه، وإلا لزم أن يصير خبر الله تعالى كذبًا وعلمه جهلاً وذلك محال فثبت أن السعيد لا ينقلب شقيًا وأن الشقي لا ينقلب سعيدًا، وتقرير هذا الدليل مر في هذا الكتاب مرارًا لا تحصى. وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ قلت: يا رسول الله فعلى ماذا نعمل على شيء قد فرغ منه أم على شيء لم يفرغ منه؟ فقال: «عَلَى شَيْءٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ يَا عُمَرُ وَجَفَّتْ بِهِ الأَقْلَامُ وَجَرَتْ بِهِ الأَقْدَارُ، وَلَكِنْ كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ» وقالت المعتزلة: نقل عن الحسن أنه قال: فمنهم شقي بعمله وسعيد بعمله.

قلنا: الدليل القاطع لا يدفع بهذه الروايات، وأيضًا فلا نزاع أنه إنما شقي بعمله وإنما سعد بعمله ولكن لما كان ذلك العمل حاصلاً بقضاء الله وقدره كان الدليل الذي ذكرناه باقيًا.

واعلم أنه تعالى لما قسم أهل القيامة إلى هذين القسمين شرح حال كل واحد منهما فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكروا في الفرق بين الزفير والشهيق وجوهًا:

الوجه الأول: قال الليث: الزفير: أن يملأ الرجل صدره حال كونه في الغم الشديد من النَّفَس ولم يخرجه، والشهيق أن يخرج ذلك النفس، وقال الفراء: يقال للفرس إنه عظيم الزفرة أي عظيم البطن وأقول: إن الإنسان إذا عظم غمه انحصر روح قلبه في داخل القلب فإذا انحصر الروح قويت الحرارة وعظمت وعند ذلك يحتاج الإنسان إلى النفَس القوي لأجل أن يستدخل هواء كثيرًا باردًا حتى يقوى على ترويح تلك الحرارة، فلهذا السبب يعظم في ذلك الوقت استدخال الهواء في داخل البدن وحينئذ يرتفع صدره وينتفخ جنباه، ولما كانت الحرارة الغريزية والروح الحيواني محصورًا داخل القلب استولت البرودة على الأعضاء الخارجة فربما عجزت آلات النفَس عن دفع ذلك الهواء الكثير المستنشق فيبقى ذلك الهواء الكثير منحصرًا في الصدر ويقرب من أن يختنق الإنسان منه وحينئذ تجتهد الطبيعة في إخراج ذلك الهواء فعلى قياس قول الأطباء الزفير هو استدخال الهواء الكثير لترويح الحرارة الحاصلة في القلب بسبب انحصار الروح فيه، والشهيق هو إخراج ذلك الهواء عند مجاهدة الطبيعة في إخراجه وكل واحدة من هاتين الحالتين تدل على كرب شديد وغم عظيم.

الوجه الثاني: في الفرق بين الزفير والشهيق. قال بعضهم: الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمار بالنهيق. وأما الشهيق فهو بمنزلة آخر صوت الحمار.

الوجه الثالث: قال الحسن: قد ذكرنا أن الزفير عبارة عن الارتفاع. فنقول: الزفير: لهيب جهنم يرفعهم بقوته حتى إذا وصلوا إلى أعلى درجات جهنم وطمعوا في أن يخرجوا منها

ضربتهم الملائكة بمقامع من حديد ويردونهم إلى الدرك الأسفل من جهنم، وذلك قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠] فارتفاعهم في النار هو الزفير وانحطاطهم مرة أخرى هو الشهيق.

الوجه الرابع: قال أبو مسلم: الزفير: ما يجتمع في الصدر من النفس عند البكاء الشديد فينقطع النفس، والشهيق: هو الذي يظهر عند اشتداد الكربة والحزن، وربما تبعهما الغشية، وربما حصل عقيبه الموت.

الوجه الخامس: قال أبو العالية: الزفير في الحلق والشهيق في الصدر.

الوجه السادس: قال قوم: الزفير الصوت الشديد، والشهيق الصوت الضعيف.

الوجه السابع: قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ﴾ يريد ندامة ونفسًا عالية وبكاء لا ينقطع وحزنًا لا يندفع.

الوجه الثامن: الزفير: مشعر بالقوة، والشهيق بالضعف على ما قررناه بحسب اللغة.

إذا عرفت هذا فنقول: لم يبعد أن يكون المراد من الزفير قوة ميلهم إلى عالم الدنيا وإلى اللذات الجسدانية، والمراد من الشهيق ضعفهم عن الاستسعاد بعالم الروحانيات والاستكمال بالأنوار الإلهية والمعارج القدسية.

ثم قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال قوم: إن عذاب الكفار منقطع وله نهاية، واحتجوا بالقرآن والمعقول. أما القرآن فآيات منها هذه الآية والاستدلال بها من وجهين: الأول: أنه تعالى قال: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ دل هذا النص على أن مدة عقابهم مساوية لمدة بقاء السموات والأرض، ثم توافقنا على أن مدة بقاء السموات والأرض متناهية فلزم أن تكون مدة عقاب الكفار منقطعة. الثاني: أن قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ استثناء من مدة عقابهم وذلك يدل على زوال ذلك العذاب في وقت هذا الاستثناء ومما تمسكوا به أيضًا قوله تعالى في سورة عم يتساءلون: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾ [النبأ: ٢٣] بيَّن تعالى أن لبثهم في ذلك العذاب لا يكون إلا أحقابًا معدودة.

وأما العقل فوجهان:

الأول: أن معصية الكافر متناهية ومُقابلةُ، الجرم المتناهي بعقاب لا نهاية له ظلم وأنه لا يجوز.

الثاني: أن ذلك العقاب ضرر خال عن النفع فيكون قبيحًا، بيان خلوه عن النفع أن ذلك النفع لا يرجع إلى الله تعالى لكونه متعاليًا عن النفع والضرر ولا إلى ذلك المعاقب، لأنه في حقه ضرر محض ولا إلى غيره، لأن أهل الجنة مشغولون بلذاتهم فلا فائدة لهم في الالتذاذ بالعذاب الدائم في حق غيرهم، فثبت أن ذلك العذاب ضرر خال عن جميع جهات النفع فوجب أن لا يجوز، وأما الجمهور الأعظم من الأمة، فقد اتفقوا على أن عذاب الكافر دائم وعند هذا احتاجوا

إلى الجواب عن التمسك بهذه الآية. أما قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ فذكروا عنه جوابين: الأول: قالوا المراد سموات الآخرة وأرضها. قالوا: والدليل على أن في الآخرة سماء وأرضًا قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وقوله: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر: ٧٤] وأيضًا لا بد لأهل الآخرة مما يقلهم ويظلهم، وذلك هو الأرض والسموات.

ولقائل أن يقول: التشبيه إنما يحسن ويجوز إذا كان حال المشبه به معلومًا مقررًا فيشبه به غيره تأكيدًا لثبوت الحكم في المشبه ووجود السموات والأرض في الآخرة غير معلوم، وبتقدير أن يكون وجودهما معلومًا إلا أن بقاءهما على وجه لا يفنى ألبتة غير معلوم، فإذا كان أصل وجودهما مجهولاً لأكثر الخلق ودوامهما أيضًا مجهولاً للأكثر، كان تشبيه عقاب الأشقياء به في الدوام كلامًا عديم الفائدة، أقصى ما في الباب أن يقال: لما ثبت بالقرآن وجود سموات وأرض في الآخرة وثبت دوامهما وجب الاعتراف به، وحينئذ يحسن التشبيه، إلا أنا نقول: لما كان الطريق في إثبات دوام سموات أهل الآخرة ودوام أرضهم هو السمع، ثم السمع دل على دوام عقاب الكافر، فحينئذ الدليل الذي دل على ثبوت الحكم في الأصل حاصل بعينه في الفرع، وفي هذه الصورة أجمعوا على أن القياس ضائع والتشبيه باطل، فكذا هاهنا.

والوجه الثاني: في الجواب قالوا: إن العرب يعبرون عن الدوام والأبد بقولهم: ما دامت السموات والأرض، ونظيره أيضًا قولهم ما اختلف الليل والنهار، وما طما البحر، وما أقام الجبل، وأنه تعالى خاطب العرب على عرفهم في كلامهم فلما ذكروا هذه الأشياء بناء على اعتقادهم أنها باقية أبد الآباد، علمنا أن هذه الألفاظ بحسب عرفهم تفيد الأبد والدوام الخالي عن الانقطاع.

ولقائل أن يقول: هل تسلمون أن قول القائل: خالدين فيها ما دامت السموات والأرض، يمنع من بقائها موجودة بعد فناء السموات، أو تقولون: إنه لا يدل على هذا المعنى، فإن كان الأول، فالإشكال لازم، لأن النص لما دل على أنه يجب أن تكون مدة كونهم في النار مساوية لمدة بقاء السموات ويمنع من حصول بقائهم في النار بعد فناء السموات، ثم ثبت أنه لا بد من فناء السموات فعندها يلزمكم القول بانقطاع ذلك العقاب، وأما إن قلتم هذا الكلام لا يمنع بقاء كونهم في النار بعد فناء السموات والأرض، فلا حاجة بكم إلى هذا الجواب ألبتة، فثبت أن هذا الجواب على كلا التقديرين ضائع.

واعلم أن الجواب الحق عندي في هذا الباب شيء آخر، وهو أن المعهود من الآية أنه متى كانت السموات والأرض دائمتين، كان كونهم في النار باقيًا فهذا يقتضي أن كلما حصل الشرط حصل المشروط ولا يقتضي أنه إذا عدم الشرط يعدم المشروط: ألا ترى أنا نقول: إن كان هذا إنسانًا فهو حيوان.

فإن قلنا: لكنه إنسان فإنه ينتج أنه حيوان، أما إذا قلنا لكنه ليس بإنسان لم ينتج أنه ليس بحيوان، لأنه ثبت في علم المنطق أن استثناء نقيض المقدم لا ينتج شيئًا، فكذا هاهنا إذا قلنا: متى دامت السموات دام عقابهم، فإذا قلنا لكن السموات دائمة لزم أن يكون عقابهم حاصلاً، أما إذا قلنا: لكنه ما بقيت السموات لم يلزم عدم دوام عقابهم.

فإن قالوا: فإذا كان العقاب حاصلاً سواء بقيت السموات أو لم تبق لم يبق لهذا التشبيه فائدة؟

قلنا: بل فيه أعظم الفوائد، وهو أنه يدل على نفاذ ذلك العذاب دهرًا دهرًا، وزمانًا لا يحيط العقل بطوله وامتداده، فأما أنه هل يحصل له آخر أم لا فذلك يستفاد من دلائل أخر، وهذا الجواب الذي قررته جواب حق ولكنه إنما يفهمه إنسان ألف شيئًا من المعقولات.

وأما الشبهة الثانية: وهي التمسك بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ فقد ذكروا فيه أنواعًا من الأجوبة.

الوجه الأول: في الجواب وهو الذي ذكره ابن قتيبة وابن الأنباري والفراء. قالوا: هذا استثناء استثناه الله تعالى ولا يفعله ألبتة، كقولك: والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك مع أن عزيمتك تكون على ضربه، فكذا هاهنا وطولوا في تقرير هذا الجواب، وفي ضرب الأمثلة فيه، وحاصله ما ذكرناه.

ولقائل أن يقول: هذا ضعيف لأنه إذا قال: لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك، معناه: لأضربنك إلا إذا رأيت أن الأولى ترك الضرب، وهذا لا يدل ألبتة على أن هذه الرؤية قد حصلت أم لا بخلاف قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ فإن معناه الحكم بخلودهم فيها إلا المدة التي شاء ربك، فهاهنا اللفظ يدل على أن هذه المشيئة قد حصلت جزمًا، فكيف يحصل قياس هذا الكلام على ذلك الكلام.

الوجه الثاني: في الجواب أن يقال: إن كلمة (إلا) هاهنا وردت بمعنى: سوى. والمعنى أنه تعالى لما قال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ فهم منه أنهم يكونون في النار في جميع مدة بقاء السموات والأرض في الدنيا، ثم قال: سوى ما يتجاوز ذلك من الخلود الدائم فذكر أولاً في خلودهم ماليس عند العرب أطول منه، ثم زاد عليه الدوام الذي لا آخر له بقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ المعنى: إلا ما شاء ربك من الزيادة التي لا آخر لها.

الوجه الثالث: في الجواب: وهو أن المراد من هذا الاستثناء زمان وقوفهم في الموقف فكأنه تعالى قال: فأما الذين شقوا ففي النار إلا وقت وقوفهم للمحاسبة، فإنهم في ذلك الوقت لا يكونون في النار، وقال أبو بكر الأصم: المراد إلا ما شاء ربك وهو حال كونهم في القبر، أو المراد إلا ما شاء ربك حال عمرهم في الدنيا وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة، والمعنى: خالدين فيها بمقدار مكثهم في الدنيا أو في البرزخ أو مقدار وقوفهم للحساب ثم يصيرون إلى النار.

الوجه الرابع: في الجواب قالوا: الاستثناء يرجع إلى قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٦]

وتقريره أن نقول: قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [هود: ١٠٦-١٠٧] يفيد حصول الزفير والشهيق مع الخلود، فإذا دخل الاستثناء عليه وجب أن يحصل وقت لا يحصل فيه هذا المجموع لكنه ثبت في المعقولات أنه كما ينتفي المجموع بانتفاء جميع أجزائه فكذلك ينتفي بانتفاء فرد واحد من أجزائه فإذا انتهوا آخر الأمر إلى أن يصيروا ساكنين هامدين خامدين فحينئذ لم يبق لهم زفير وشهيق فانتفى أحد أجزاء ذلك المجموع فحينئذ يصح ذلك الاستثناء من غير حاجة إلى الحكم بانقطاع كونهم في النار.

الوجه الخامس: في الجواب: أن يحمل هذا الاستثناء على أن أهل العذاب لا يكونون أبدًا في النار، بل قد ينقلون إلى البرد والزمهرير وسائر أنواع العذاب وذلك يكفي في صحة هذا الاستثناء.

الوجه السادس: في الجواب قال قوم: هذا الاستثناء يفيد إخراج أهل التوحيد من النار، لأن قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ﴾ يفيد أن جملة الأشقياء محكوم عليهم بهذا الحكم، ثم قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ يوجب أن لا يبقى ذلك الحكم على ذلك المجموع. ويكفي في زوال حكم الخلود عن المجموع زواله عن بعضهم، فوجب أن لا يبقى حكم الخلود لبعض الأشقياء، ولما ثبت أن الخلود واجب للكفار وجب أن يقال: الذين زال حكم الخلود عنهم هم الفساق من أهل الصلاة، وهذا كلام قوي في هذا الباب.

فإن قيل: فهذا الوجه إنما يتعين إذا فسدت سائر الوجوه التي ذكرتموها، فما الدليل على فسادها، وأيضًا فمثل هذا الاستثناء مذكور في جانب السعداء، فإنه تعالى قال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ .

قلنا: إنا بهذا الوجه بينا أن هذه الآية لا تدل على انقطاع وعيد الكفار، ثم إذا أردنا الاستدلال بهذه الآية على صحة قولنا في أنه تعالى يخرج الفساق من أهل الصلاة من النار.

قلنا: أما حمل كلمة (إلا) على سوى فهو عدول عن الظاهر، وأما حمل الاستثناء على حال عمر الدنيا والبرزخ والموقف فبعيد أيضًا، لأن الاستثناء وقع عن الخلود في النار، ومن المعلوم أن الخلود في النار كيفية من كيفيات الحصول في النار، فقبل الحصول في النار امتنع حصول الخلود في النار، وإذا لم يحصل الخلود لم يحصل المستثنى منه وامتنع حصول الاستثناء. وأما قوله الاستثناء عائد إلى الزفير والشهيق فهذا أيضًا ترك للظاهر، فلم يبق للآية محمل صحيح إلا هذا الذي ذكرناه، وأما قوله المراد من الاستثناء نقله من النار إلى الزمهرير. فنقول: لو كان الأمر كذلك لوجب أن لا يحصل العذاب بالزمهرير إلا بعد انقضاء مدة السموات والأرض. والأخبار الصحيحة دلت على أن النقل من النار إلى الزمهرير وبالعكس يحصل في كل يوم مرارًا فبطل هذا الوجه، وأما قوله: إن مثل هذا الاستثناء حاصل في جانب السعداء فنقول: أجمعت الأمة على أنه يمتنع أن يقال: إن أحدًا يدخل الجنة ثم يخرج منها إلى النار، فلأجل هذا الإجماع افتقرنا فيه

إلى حمل ذلك الاستثناء على أحد تلك التأويلات . أما في هذه الآية لم يحصل هذا الإجماع، فوجب إجراؤها على ظاهرها فهذا تمام الكلام في هذه الآية .

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذا الاستثناء قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ وهذا يحسن انطباقه على هذه الآية إذا حملنا الاستثناء على إخراج الفساق من النار، كأنه تعالى يقول : أظهرت القهر والقدرة ثم أظهرت المغفرة والرحمة لأني فعال لما أريد وليس لأحد عليَّ حكم ألبتة .

ثم قال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ .

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى : قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿سُعِدُواْ﴾ بضم السين، والباقون بفتحها وإنما جاز ضم السين لأنه على حذف الزيادة من أسعد، ولأن سعد لا يتعدى وأسعد يتعدى وسعد وأسعد بمعنى ومنه المسعود من أسماء الرجال .

المسألة الثانية : الاستثناء في باب السعداء يجب حمله على أحد الوجوه المذكورة فيما تقدم وهاهنا وجه آخر وهو أنه ربما اتفق لبعضهم أن يرفع من الجنة إلى العرش وإلى المنازل الرفيعة التي لا يعلمها إلا الله تعالى . قال الله تعالى : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] وقوله : ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ .

فيه مسألتان:

المسألة الأولى : جذه يجُذُّه جذًّا إذا قطعه وجذ الله دابرهم، فقوله : ﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي غير مقطوع، ونظيره قوله تعالى في صفة نعيم الجنة ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٣] .

المسألة الثانية : اعلم أنه تعالى لما صرح في هذه الآية أنه ليس المراد من هذا الاستثناء كون هذه الحالة منقطعة، فلما خص هذا الموضع بهذا البيان ولم يذكر ذلك في جانب الأشقياء دل ذلك على أن المراد من ذلك الاستثناء هو الانقطاع، فهذا تمام الكلام في هذه الآية .

قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح أقاصيص عبدة الأوثان ثم أتبعه بأحوال الأشقياء وأحوال السعداء شرح للرسول عليه الصلاة والسلام أحوال الكفار من قومه فقال : ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ﴾ والمعنى : فلا تكن، إلا أنه حذف النون لكثرة الاستعمال، ولأن النون إذا وقع على طرف الكلام لم يبق عند التلفظ به إلا مجرد الغنة فلا جرم أسقطوه، والمعنى : فلا تك في شك من حال ما يعبدون في أنها لا تضر ولا تنفع .

ثم قال تعالى: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ والمراد أنهم أشبهوا آباءهم في لزوم الجهل والتقليد. **ثم قال:** ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ فيحتمل أن يكون المراد إنا موفوهم نصيبهم أي ما يخصهم من العذاب. ويحتمل أن يكون المراد أنهم وإن كفروا وأعرضوا عن الحق فإنا موفوهم نصيبهم من الرزق والخيرات الدنيوية. ويحتمل أيضًا أن يكون المراد: إنا موفوهم نصيبهم من إزالة العذر وإزاحة العلل وإظهار الدلائل وإرسال الرسل وإنزال الكتب، ويحتمل أيضًا أن يكون الكل مرادًا.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيَّن في الآية الأولى إصرار كفار مكة على إنكار التوحيد، بيَّن أيضًا إصرارهم على إنكار نبوته عليه السلام وتكذيبهم بكتابه، وبيَّن تعالى أن هؤلاء الكفار كانوا على هذه السيرة الفاسدة مع كل الأنبياء عليهم السلام وضرب لذلك مثلاً؛ وهو أنه لما أنزل التوراة على موسى عليه السلام اختلفوا فيه فقبله بعضهم وأنكره آخرون، وذلك يدل على أن عادة الخلق هكذا.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾.

وفيه وجوه:

الأول: أن المراد: ولولا ما تقدم من حكم الله تعالى بتأخير عذاب هذه الأمة إلى يوم القيامة لكان الذي يستحقه هؤلاء الكفار عند عظيم كفرهم إنزال عذاب الاستئصال عليهم لكن المتقدم من قضائه أخر ذلك عنهم في دنياهم.

الثاني: لولا كلمة سبقت من ربك، وهي أن الله تعالى إنما يحكم بين المختلفين يوم القيامة وإلا لكان من الواجب تمييز المحق عن المبطل في دار الدنيا. الثالث: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي أن رحمته سبقت غضبه وأن إحسانه راجح على قهره وإلا لقضى بينهم، ولما قرر تعالى هذا المعنى قال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ يعني أن كفار قومك لفي شك من هذا القرآن مريب.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: المعنى أن من عجلت عقوبته ومن أخرت ومن صَدَّق الرسل ومن كَذَّبَ فحالهم سواء في أنه تعالى يوفيهم جزاء أعمالهم في الآخرة، فجمعت الآية الوعد والوعيد فإن

توفية جزاء الطاعات وعد عظيم، وتوفية جزاء المعاصي وعيد عظيم، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ توكيد الوعد والوعيد، فإنه لما كان عالمًا بجميع المعلومات كان عالمًا بمقادير الطاعات والمعاصي، فكان عالمًا بالقدر اللائق بكل عمل من الجزاء، فحينئذ لا يضيع شيء من الحقوق والأجزية وذلك نهاية البيان.

المسألة الثانية: قرأ أبو عمرو والكسائي: ﴿وَإِنَّ﴾ مشددة النون (لَمَا) خفيفة، قال أبو علي: اللام في (لَمَا) هي التي تقتضيه (إن) وذلك لأن حرف (إن) يقتضي أن يدخل على خبرها أو اسمها لام كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل: ١٨] وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾ [الحجر: ٧٧] واللام الثانية هي التي تجيء بعد القسم كقولك: والله لتفعلن، ولما اجتمع لامان دخلت (ما) لتفصل بينهما فكلمة (ما) على هذا التقدير زائدة، وقال الفراء: (ما) موصولة بمعنى (من) وبقية التقرير كما تقدم ومثله: ﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ [النساء: ٧٢].

والقراءة الثانية: في هذه الآية قرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر عن عاصم (وإِنْ كُلاًّ لَمَا) مخففتان والسبب فيه أنهم أعملوا (إن) مخففة كما تعمل مشددة لأن كلمة (إن) تشبه الفعل، فكما يجوز إعمال الفعل تامًا ومحذوفًا في قولك لم يكن زيد قائمًا ولم يك زيد قائمًا فكذلك أن وإن.

والقراءة الثالثة: قرأ حمزة وابن عامر وحفص: (وإنَّ كلاً لَمَّا) مشددتان، قالوا: وأحسن ما قيل فيه إن أصل لَمَّا لمًّا بالتنوين كقوله: ﴿أَكۡلٗا لَّمّٗا﴾ والمعنى أن كلاً ملمومين أي مجموعين كأنه قيل: وإن كلاً جميعًا.

المسألة الثالثة: سمعت بعض الأفاضل قال: إنه تعالى لما أخبر عن توفية الأجزية على المستحقين في هذه الآية ذكر فيها سبعة أنواع من التوكيدات: **أولها**: كلمة (إن) وهي للتأكيد. **وثانيها**: كلمة (كل) وهي أيضًا للتأكيد. **وثالثها**: اللام الداخلة على خبر (إن) وهي تفيد التأكيد أيضًا. **ورابعها**: حرف (ما) إذا جعلناه على قول الفراء موصولاً. **وخامسها**: القسم المضمر، فإن تقدير الكلام: وإن جميعهم والله ليوفينهم. **وسادسها**: اللام الثانية الداخلة على جواب القسم. وسابعها: النون المؤكدة في قوله ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ﴾ فجميع هذه الألفاظ السبعة الدالة على التوكيد في هذه الكلمة الواحدة تدل على أن أمر الربوبية والعبودية لا يتم إلا بالبعث والقيامة وأمر الحشر والنشر ثم أردفه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ وهو من أعظم المؤكدات.

قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ١١٣﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما أطنب في شرح الوعد والوعيد قال لرسوله: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ

﴿أُمِرْتَ﴾ وهذ الكلمة كلمة جامعة في كل ما يتعلق بالعقائد والأعمال، سواء كان مختصًا به أو كان متعلقًا بتبليغ الوحي وبيان الشرائع، ولا شك أن البقاء على الاستقامة الحقيقية مشكل جدًا وأنا أضرب لذلك مثالاً يُقَرِّب صعوبة هذا المعنى إلى العقل السليم، وهو أن الخط المستقيم الذي يفصل بين الظل وبين الضوء جزء واحد لا يقبل القسمة في العرض، إلا أن عين ذلك الخط مما لا يتميز في الحس عن طرفيه، فإنه إذا قرب طرف الظل من طرف الضوء اشتبه البعض بالبعض في الحس، فلم يقع الحس على إدراك ذلك الخط بعينه بحيث يتميز عن كل ما سواه.

إذا عرفت هذا في المثال فاعرف مثاله في جميع أبواب العبودية، فأولها: معرفة الله تعالى وتحصيل هذه المعرفة على وجه يبقى العبد مصونًا في طرف الإثبات عن التشبيه، وفي طرف النفي عن التعطيل في غاية الصعوبة، واعتبر سائر مقامات المعرفة من نفسك، وأيضًا فالقوة الغضبية والقوة الشهوانية حصل لكل واحدة منهما طرفا إفراط وتفريط وهما مذمومان، والفاصل هو المتوسط بينهما بحيث لا يميل إلى أحد الجانبين، والوقوف عليه صعب ثم العمل به أصعب، فثبت أن معرفة الصراط المستقيم في غاية الصعوبة، بتقدير معرفته فالبقاء عليه والعمل به أصعب، ولما كان هذا المقام في غاية الصعوبة لا جرم قال ابن عباس: ما نزلت على رسول الله ﷺ في جميع القرآن آية أشد ولا أشق عليه من هذه الآية، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا» (١) وعن بعضهم قال: رأيت النبي ﷺ في النوم فقلت له: روي عنك أنك قلت: شيبتني هود وأخواتها فقال: (نعم) فقلت: وبأي آية؟ فقال: بقوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ (٢).

المسألة الثانية: اعلم أن هذه الآية أصل عظيم في الشريعة، وذلك لأن القرآن لما ورد بالأمر بأعمال الوضوء مرتبة في اللفظ وجب اعتبار الترتيب فيها لقوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ ولما ورد الأمر في الزكاة بأداء الإبل من الإبل والبقر من البقر وجب اعتبارها، وكذا القول في كل ما ورد أمر الله تعالى به وعندي أنه لا يجوز تخصيص النص بالقياس، لأنه لما دل عموم النص على حكم وجب الحكم بمقتضاه لقوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ والعمل بالقياس انحراف عنه، ثم قال: ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ .

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الواحدي: (مَنْ) في محل الرفع من وجوه: الأول: أن يكون عطفًا على

(١) أخرجه البزار في (مسنده) (١/ ١٦٩) حديث رقم/ ٩٢، من طريق زائدة بن أبي الرقاد... به، وأورده الدارقطني في (العلل) (١/ ١٩٣/ ١٩٩)، وجاء به من جميع طرق كلها فليراجع حتى لاتطول الحواشي وتكثر وزائدة بن أبي الرقاد عند زياد النميري وثابت منكر الحديث كذا قاله البخاري في (التاريخ الكبير) (٣/ ٤٣٣).
(٢) أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) (٢/ ٤٧٢) حديث رقم/ ٢٤٣٩، قال: اخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي سمعت أبا علي السري يقول: رأيت النبي صلي الله عليه وسلم فقلت... ثم ذكره.

الضمير المستتر في قوله: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ﴾ وأغنى الوصل بالجار عن تأكيده بضمير المتصل في صحة العطف أي فاستقم أنت وهم. والثاني: أن يكون عطفًا على الضمير فى أمرت. والثالث: أن يكون ابتداء على تقدير: ومن تاب معك فليستقم.

المسألة الثانية: أن الكافر والفاسق يجب عليهما الرجوع عن الكفر والفسق ففي تلك الحالة لا يصح اشتغالهما بالاستقامة، وأما التائب عن الكفر والفسق فإنه يصح منه الاشتغال بالاستقامة على مناهج دين الله تعالى والبقاء على طريق عبودية الله تعالى، ثم قال: ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ﴾ ومعنى الطغيان: أن يجاوز المقدار. قال ابن عباس: يريد تواضعوا لله تعالى ولا تتكبروا على أحد وقيل ولا تطغوا في القرآن فتحلوا حرامه وتحرموا حلاله، وقيل: لا تتجاوزوا ما أمرتم به وحُدَّ لكم، وقيل: ولا تعدلوا عن طريق شكره والتواضع له عند عظم نعمه عليكم والأولى دخول الكل فيه، ثم قال: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ والركون هو السكون إلى الشيء والميل إليه بالمحبة ونقيضه النفور عنه، وقرأ العامة بفتح التاء والكاف والماضي من هذا رَكِنَ كَعَلِمَ وفيه لغة أخرى رَكَنَ يَرْكُن قال الأزهري: وليست بفصيحة. قال المحققون: الركون المنهي عنه هو الرضا بما عليه الظلمة من الظلم وتحسين تلك الطريقة وتزيينها عندهم وعند غيرهم ومشاركتهم في شيء من تلك الأبواب فأما مداخلتهم لدفع ضرر أو اجتلاب منفعة عاجلة فغير داخل في الركون، ومعنى قوله: ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي أنكم إن ركنتم إليهم فهذه عاقبة الركون، ثم قال: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ أي ليس لكم أولياء يُخَلِّصُونكم من عذاب الله.

ثم قال: ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ والمراد: لا تجدون من ينصركم من تلك الواقعة.

واعلم أن الله تعالى حكم بأن من رَكِنَ إلى الظلمة لا بد وأن تمسه النار، وإذا كان كذلك فكيف يكون حال الظالم في نفسه.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما أمره بالاستقامة أردفه بالأمر بالصلاة، وذلك يدل على أن أعظم العبادات بعد الإيمان بالله هو الصلاة.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: رأيت في بعض (كتب القاضي أبي بكر الباقلاني) أن الخوارج تمسكوا بهذه الآية في إثبات أن الواجب ليس إلا الفجر والعشاء من وجهين.

الوجه الأول: أنهما واقعان على طرفي النهار، والله تعالى أوجب إقامة الصلاة طرفي النهار، فوجب أن يكون هذا القدر كافيًا.

فإن قيل: قوله: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ يوجب صلوات أخرى.

قلنا: لا نسلم فإن طرفي النهار موصوفان بكونهما زلفًا من الليل، فإن ما لا يكون نهارًا يكون ليلاً غاية ما في الباب أن هذا يقتضي عطف الصفة على الموصوف إلا أن ذلك كثير في القرآن والشعر.

الوجه الثاني: أنه تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وهذا يشعر بأن من صلى طرفي النهار كان إقامتهما كفارة لكل ذنب سواهما فبتقدير أن يقال: إن سائر الصلوات واجبة إلا أن إقامتهما يجب أن تكون كفارة لترك سائر الصلوات. واعلم أن هذا القول باطل بإجماع الأمة فلا يلتفت إليه.

المسألة الثانية: كثرت المذاهب في تفسير طرفي النهار والأقرب أن الصلاة التي تقام في طرفي النهار وهي الفجر والعصر، وذلك لأن أحد طرفي النهار طلوع الشمس والطرف الثاني منه غروب الشمس فالطرف الأول هو صلاة الفجر، والطرف الثاني لا يجوز أن يكون صلاة المغرب لأنها داخلة تحت قوله: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ فوجب حمل الطرف الثاني على صلاة العصر.

إذا عرفت هذا كانت الآية دليلاً على قول أبي حنيفة رحمه الله في أن التنوير بالفجر أفضل، وفي أن تأخير العصر أفضل، وذلك لأن ظاهر هذه الآية يدل على وجوب إقامة الصلاة في طرفي النهار وبينا أن طرفي النهار هما الزمان الأول لطلوع الشمس، والزمان الثاني لغروبها، وأجمعت الأمة على أن إقامة الصلاة في ذلك الوقت من غير ضرورة غير مشروعة، فقد تعذر العمل بظاهر هذه الآية، فوجب حمله على المجاز، وهو أن يكون المراد: أقم الصلاة في الوقت الذي يقرب من طرفي النهار، لأن ما يقرب من الشيء يجوز أن يطلق عليه اسمه، وإذا كان كذلك فكل وقت كان أقرب إلى طلوع الشمس وإلى غروبها كان أقرب إلى ظاهر اللفظ، وإقامة صلاة الفجر عند التنوير أقرب إلى وقت الطلوع من إقامتها عند التغليس، وكذلك إقامة صلاة العصر عندما يصير ظل كل شيء مثليه أقرب إلى وقت الغروب من إقامتها عندما يصير ظل كل شيء مثله، والمجاز كلما كان أقرب إلى الحقيقة كان حمل اللفظ عليه أولى، فثبت أن ظاهر هذه الآية يقوي قول أبي حنيفة في هاتين المسألتين.

وأما قوله: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ فهو يقتضي الأمر بإقامة الصلاة في ثلاث زلف من الليل، لأن أقل الجمع ثلاثة وللمغرب والعشاء وقتان، فيجب الحكم بوجوب الوتر حتى يحصل زلف ثلاثة يجب إيقاع الصلاة فيها، وَإِذَا ثَبَتَ وُجُوبُ الْوَتْرِ فِي حَقِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَبَ فِي حَقِّ غَيْرِهِ[١] لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ [سبا: ٢٠] ونظير هذه الآية بعينها قوله سبحانه وتعالى:

---

(١) هذا إشاره إلى حديث الوتر حق وهو صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الصلاة) باب (كم الوتر) (٢/ ٦٣) حديث رقم/ ١٤٢٢، من طريق قريش بن حبان العجلي عن بكر بن وائل... به، والنسائي في كتاب (قيام الليل وتطوع النهار) باب (ذكر الاختلاف على الزهري في حديث أبي أيوب في الوتر (٢/ ٣٨٤) حديث رقم/ ١٧٠٩، وابن ماجه في كتاب (إقامة الصلاة) باب (ما جاء في الوتر بثلاث وخمس وسبع وتسع)، (١/ ٣٧٦) حديث=

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ٣٠] فالذي هو قبل طلوع الشمس هو صلاة الفجر، والذي هو قبل غروبها هو صلاة العصر.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ [طه: ١٣٠]، وهو نظير قوله: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ .

المسألة الثالثة: قال المفسرون: نزلت هذه الآية في رجل أتى النبي ﷺ فقال: ما تقولون في رجل أصاب من امرأة محرمة كلَّ ما يصيبه الرجل من امرأته غير الجماع، فقال عليه الصلاة والسلام: «لِيَتَوَضَّأْ وُضُوءًا حَسَنًا ثُمَّ لِيَقُمْ وَلْيُصَلِّ» فأنزل الله تعالى هذه الآية، فقيل للنبي عليه الصلاة والسلام: هذا له خاصة، فقال: «بَلْ هُوَ لِلنَّاسِ عَامَّةً» [(١)] وقوله: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ قال الليث: زُلْفَة من أول الليل طائفة، والجمع الزلف. قال الواحدي: وأصل الكلمة من الزلفى والزلفى هي القربى، يقال: أزلفته فازدلف أي قربته فاقترب.

المسألة الرابعة: قال صاحب (الكشاف): قرئ (زُلُفًا) بضمتين و(زُلْفًا) بإسكان اللام و(زُلْفَى) بوزن قُرْبَى فالزُّلَف جمع زُلْفة كظُلَم جمع ظُلْمة والزُّلْف بالسكون نحو بُسْرَة وبُسْر والزُّلُف بضمتين نحو: يُسُر في يُسْر، والزُّلْفى بمعنى الزُّلفة كما أن القُرْبى بمعنى القربة وهو ما يقرب من آخر النهار من الليل، وقيل في تفسير قوله: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ وقربًا من الليل، ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ .

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: في تفسير الحسنات قولان:

الأول: قال ابن عباس: المعنى أن الصلوات الخمس كفارات لسائر الذنوب بشرط الاجتناب عن الكبائر.

والثاني: روي عن مجاهد أن الحسنات هي قول العبد سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

المسألة الثانية: احتج من قال: إن المعصية لا تضر مع الإيمان بهذه الآية، وذلك لأن الإيمان

=رقم/ ١١٩٠، من طريق الفريابي عن الأوزاعي... به، كلاهما (بكر، الأوزاعي) عن الزهري... به، جميعًا من طريق عطاء بن يزيد عن أبي أيوب أن النبي ﷺ قال: الوتر حق فمن شاء أوتر بسبع ومن شاء أوتر بخمس ومن شاء أوتر بثلاث ومن شاء أوتر بواحدة، واللفظ للنسائي.

(١) **حسن صحيح**: أخرجه مسلم في كتاب (التوبة) باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤] (٤/ ٤٢/ ٢١١٦)، وأبو داود في كتاب (الحدود) باب (في الرجل يصيب من المرأة دون الجماع فيتوب قبل أن يأخذه الإمام (٤/ ١٩١١) حديث رقم/ ٤٤٦٨، والترمذي في (التفسير) (٥/ ٢٧٠) حديث رقم/ ٣١١٢، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في (الكبرى) في كتاب (الرجم) باب (من اعترف فيما لا تجب فيه الحدود)، (٤/ ٣١٦) حديث رقم/ ٧٣١٧، وأحمد في (مسنده) (١/ ٤٤٥/ ٤٤٩)، والبيهقي في (سننه الكبري) (٨/ ٢٤١)، جميعًا من طريق سماك بن حرب... به.

أشرف الحسنات وأجلها وأفضلها. ودلت الآية على أن الحسنات يذهبن السيئات، فالإيمان الذي هو أعلى الحسنات درجة يذهب الكفر الذي هو أعلى درجة في العصيان فلأن يقوى على المعصية التي هي أقل السيئات درجة كان أولى، فإن لم يفد إزالة العقاب بالكلية فلا أقل من أن يفيد إزالة العذاب الدائم المؤبد.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ فقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى قوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ إلى آخرها ﴿ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ عظة للمتعظين وإرشاد للمسترشدين.

ثم قال: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ قيل: على الصلاة، وهو كقوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيَّن أن الأمم المتقدمين حل بهم عذاب الاستئصال بيَّن أن السبب فيه أمران:

السبب الأول: أنه ما كان فيهم قوم ينهون عن الفساد في الأرض. فقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ﴾ والمعنى فهلا كان، وحكي عن الخليل: أنه قال كل ما كان في القرآن من كلمة لولا فمعناه هلا إلا التي في الصافات. قال صاحب (الكشاف): وما صحت هذه الرواية عنه، بدليل قوله تعالى في غير الصافات ﴿لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ﴾ [القلم: ٤٩] ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ﴾ [الفتح: ٢٥] ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤]، وقوله: ﴿أُولُوا بَقِيَّةٍ﴾ فالمعنى أولو فضل وخير، وسمي الفضل والجود: بقية لأن الرجل يستبقي مما يخرجه أجوده وأفضله، فصار هذا اللفظ مثلاً في الجودة يقال فلان مِن بقية القوم أي من خيارهم، ومنه قولهم: في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا، ويجوز أن تكون البَقِية بمعنى البقوى كالتَقِيَّة بمعنى التقوى أي فهلا كان منهم ذو بقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله تعالى وقرئ (أُولُو بِقِية) بوزن لقية من بقاه يبقيه: إذا راقبه وانتظره، والبِقِية: المرة من مصدره، والمعنى فلولا كان منهم أولو مراقبة وخشية من انتقام الله تعالى. ثم قال: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ ولا يمكن جعله استثناء متصلاً لأنه على هذا التقدير يكون ذلك ترغيبًا لأولي البقية في النهي عن الفساد إلا القليل من الناجين منهم كما تقول: هلا قرأ قومك القرآن إلا الصلحاء منهم تريد استثناء الصلحاء من المرغبين في قراءة القرآن. وإذا ثبت هذا قلنا: إنه استثناء منقطع، والتقدير: لكن قليلاً ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد وسائرهم تاركون للنهي.

والسبب الثاني: لنزول عذاب الاستئصال قوله: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ والترفه:

النعمة وصبي مترف إذا كان منعم البدن، والمترف: الذي أبطرته النعمة وسعة المعيشة وأراد بالذين ظلموا تاركي النهي عن المنكرات أي لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واتبعوا طلب الشهوات واللذات واشتغلوا بتحصيل الرياسات وقرأ أبو عمرو في رواية الجعفي ﴿وَأُتْبِعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا﴾ أي واتبعوا حرامًا أترفوا فيه، ثم قال: ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ ومعناه ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ۝١١٧ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١١٩﴾

اعلم أنه تعالى بيّن أنه ما أهلك أهل القرى إلا بظلم، وفيه وجوه:

الوجه الأول: أن المراد من الظلم هاهنا الشرك قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] والمعنى أنه تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم، والحاصل أن عذاب الاستئصال لا ينزل لأجل كون القوم معتقدين للشرك والكفر، بل إنما ينزل ذلك العذاب إذا أساءوا في المعاملات وسعوا في الإيذاء والظلم. ولهذا قال الفقهاء: إن حقوق الله تعالى مبناها على المسامحة والمساهلة. وحقوق العباد مبناها على الضيق والشح. ويقال في الأثر: الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم، فمعنى الآية: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ أي لا يهلكهم بمجرد شركهم إذا كانوا مصلحين يعامل بعضهم بعضًا على الصلاح والسداد. وهذا تأويل أهل السنة لهذه الآية، قالوا: والدليل عليه أن قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب إنما نزل عليهم عذاب الاستئصال لما حكى الله تعالى عنهم من إيذاء الناس وظلم الخلق.

والوجه الثاني: في التأويل وهو الذي تختاره المعتزلة هو أنه تعالى لو أهلكهم حال كونهم مصلحين لما كان متعاليًا عن الظلم فلا جرم لا يفعل ذلك بل إنما يهلكهم لأجل سوء أفعالهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ والمعتزلة يحملون هذه الآية على مشيئة الإلجاء والإجبار وقد سبق الكلام عليه.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ والمراد افتراق الناس في الأديان والأخلاق والأفعال.

واعلم أنه لا سبيل إلى استقصاء مذاهب العالم في هذا الموضع، ومن أراد ذلك فليطالع كتابنا الذي سميناه (بالرياض المونقة) إلا أنا نذكر هاهنا تقسيمًا جامعًا للمذاهب. فنقول: الناس فريقان منهم من أقر بالعلوم الحسية كعلمنا بأن النار حارة والشمس مضيئة والعلوم البديهية كعلمنا بأن النفي والإثبات لا يجتمعان، ومنهم من أنكرهما، والمنكرون هم السوفسطائية،

والمقِرُّون هم الجمهور الأعظم من أهل العالم، وهم فريقان: منهم من سلَّم أنه يمكن تركيب تلك العلوم البديهية بحيث يستنتج منها نتائج علمية نظرية، ومنهم من أنكره، وهم الذين ينكرون أيضًا النظر إلى العلوم، وهم قليلون، والأولون هم الجمهور الأعظم من أهل العالم، وهم فريقان: منهم من لا يثبت لهذا العالم الجسماني مبدأ أصلاً وهم الأقلون، ومنهم من يثبت له مبدأ وهؤلاء فريقان: منهم من يقول: ذلك المبدأ موجب بالذات، وهم جمهور الفلاسفة في هذا الزمان، ومنهم من يقول: إنه فاعل مختار وهم أكثر أهل العالم، ثم هؤلاء فريقان: منهم من يقول: إنه ما أرسل رسولاً إلى العباد، ومنهم من يقول: إنه أرسل الرسول، فالأولون هم البراهمة.

والقسم الثاني أرباب الشرائع والأديان، وهم المسلمون والنصارى واليهود والمجوس، وفي كل واحد من هذه الطوائف اختلافات لا حدَّ لها ولا حصر، والعقول مضطربة، والمطالب غامضة، ومنازعات الوهم والخيال غير منقطعة، ولما حسن من بقراط أن يقول في صناعة الطب: العمر قصير، والصناعة طويلة، والقضاء عسر، والتجربة خطر، فلأن يحسن ذكره في هذه المطالب العالية والمباحث الغامضة، كان ذلك أولى.

فإن قيل: إنكم حملتم قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ على الاختلاف في الأديان، فما الدليل عليه، ولِمَ لا يجوز أن يحمل على الاختلاف في الألوان والألسنة والأرزاق والأعمال.

قلنا: الدليل عليه أن ما قبل هذه الآية هو قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ فيجب حمل هذا الاختلاف على ما يخرجهم من أن يكونوا أمة واحدة، وما بعد هذه الآية هو قوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ فيجب حمل هذا الاختلاف على معنى يصح أن يستثنى منه قوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ وذلك ليس إلا ما قلنا.

ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الهداية والإيمان لا تحصل إلا بتخليق الله تعالى، وذلك لأن هذه الآية تدل على أن زوال الاختلاف في الدين لا يحصل إلا لمن خصه الله برحمته، وتلك الرحمة ليست عبارة عن إعطاء القدرة والعقل، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وإزاحة العذر، فإن كل ذلك حاصل في حق الكفار، فلم يبق إلا أن يقال: تلك الرحمة هو أنه سبحانه خلق فيه تلك الهداية والمعرفة. قال القاضي معناه: إلا من رحم ربك بأن يصير من أهل الجنة والثواب، فيرحمه الله بالثواب، ويحتمل إلا من رحمه الله بألطافه، فصار مؤمنًا بألطافه وتسهيله، وهذان الجوابان في غاية الضعف.

أما الأول: فلأن قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ يفيد أن ذلك الاختلاف إنما زال بسبب هذه الرحمة، فوجب أن تكون هذه الرحمة جارية مجرى السبب المتقدم على زوال هذا الاختلاف، والثواب شيء متأخر عن زوال هذا الاختلاف، فالاختلاف جار مجرى المسبب له، ومجرى المعلول، فحمل هذه الرحمة على الثواب بعيد.

وأما الثاني: وهو حمل هذه الرحمة على الألطاف فنقول: جميع الألطاف التي فعلها في حق المؤمن فهي مفعولة أيضًا في حق الكافر، وهذه الرحمة أمر مختص به المؤمن، فوجب أن يكون شيئًا زائدًا على تلك الألطاف، وأيضًا فحصول تلك الألطاف هل يوجب رجحان وجود الإيمان على عدمه أو لا يوجبه، فإن لم يوجبه كان وجود تلك الألطاف وعدمها بالنسبة إلى حصول هذا المقصود سيان، فلم يك لطفًا فيه، وإن أوجب الرجحان فقد بينا في (الكتب العقلية) أنه متى حصل الرجحان فقد وجب، وحينئذ يكون حصول الإيمان من الله، ومما يدل على أن حصول الإيمان لا يكون إلا بخلق الله، أنه ما لم يتميز الإيمان عن الكفر، والعلم عن الجهل، امتنع القصد إلى تكوين الإيمان والعلم، وإنما يحصل هذا الامتياز إذا علم كون أحد هذين الاعتقادين مطابقًا للمعتقد وكون الآخر ليس كذلك، وإنما يصح حصول هذا العلم، إن لو عرف أن ذلك المعتقد في نفسه كيف يكون، وهذا يوجب أنه لا يصح من العبد القصد إلى تكوين العلم بالشيء إلا بعد أن كان عالمًا، وذلك يقتضي تكوين الكائن وتحصيل الحاصل وهو محال فثبت أن زوال الاختلاف في الدين وحصول العلم والهداية لا يحصل إلا بخلق الله تعالى وهو المطلوب.

ثم قال تعالى: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ وفيه ثلاثة أقوال:

القول الأول: قال ابن عباس: وللرحمة خلقهم، وهذا اختيار جمهور المعتزلة. قالوا: ولا يجوز أن يقال: وللاختلاف خلقهم، ويدل عليه وجوه: الأول: أن عود الضمير إلى أقرب المذكورين أولى من عوده إلى أبعدهما، وأقرب المذكورين هاهنا هو الرحمة، والاختلاف أبعدهما. والثاني: أنه تعالى لو خلقهم للاختلاف وأراد منهم ذلك الإيمان، لكان لا يجوز أن يعذبهم عليه، إذ كانوا مطيعين له بذلك الاختلاف. الثالث: إذا فسرنا الآية بهذا المعنى، كان مطابقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦].

فإن قيل: لو كان المراد: وللرحمة خلقهم لقال: ولتلك خلقهم ولم يقل: ولذلك خلقهم.

قلنا: إن تأنيث الرحمة ليس تأنيثًا حقيقيًا، فكان محمولاً على الفضل والغفران كقوله: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾[الكهف: ٩٨] وقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[الأعراف: ٥٦].

والقول الثاني: أن المراد وللاختلاف خلقهم.

والقول الثالث: وهو المختار أنه خلق أهل الرحمة للرحمة وأهل الاختلاف للاختلاف. روى أبو صالح عن ابن عباس أنه قال: خلق الله أهل الرحمة لئلا يختلفوا، وأهل العذاب لأن يختلفوا، وخلق الجنة وخلق لها أهلاً، وخلق النار وخلق لها أهلاً، والذي يدل على صحة هذا التأويل وجوه:

الأول: الدلائل القاطعة الدالة على أن العلم والجهل لا يمكن حصولهما في العبد إلا بتخليق الله تعالى.

الثاني: أن يقال: إنه تعالى لما حكم على البعض بكونهم مختلفين، وعلى الآخرين بأنهم من

أهل الرحمة وعلم ذلك امتنع انقلاب ذلك، وإلا لزم انقلاب العلم جهلاً وهو محال.

الثالث: أنه تعالى قال بعده: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وهذا تصريح بأنه تعالى خلق أقوامًا للهداية والجنة، وأقوامًا آخرين للضلالة والنار، وذلك يقوي هذا التأويل.

قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر القصص الكثيرة في هذه السورة ذكر في هذه الآية نوعين من الفائدة.

الفائدة الأولى: تثبيت الفؤاد على أداء الرسالة وعلى الصبر واحتمال الأذى، وذلك لأن الإنسان إذا ابتلى بمحنة وبلية، فإذا رأى له فيه مشاركًا خف ذلك على قلبه، كما يقال: المصيبة إذا عمت خفت، فإذا سمع الرسول هذه القصص، وعلم أن حال جميع الأنبياء صلوات الله عليهم مع أتباعهم هكذا، سهل عليه تحمل الأذى من قومه وأمكنه الصبر عليه.

والفائدة الثانية: قوله: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وفي قوله: ﴿فِي هَٰذِهِ﴾ وجوه:

أحدها: في هذه السورة. **وثانيها:** في هذه الآية. **وثالثها:** في هذه الدنيا، وهذا بعيد غير لائق بهذا الموضع. واعلم أنه لا يلزم من تخصيص هذ السورة بمجيء الحق فيها أن يكون حال سائر السور بخلاف ذلك، لاحتمال أن يكون الحق المذكور في هذه السورة أكمل حالاً مما ذكر في سائر السور، ولو لم يكن فيها إلا قوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾[هود: ١١٢] لكان الأمر كما ذكرنا، ثم إنه تعالى بيَّن أنه جاء في هذه السورة أمور ثلاثة الحق والموعظة والذكرى.

أما الحق: فهو إشارة إلى البراهين الدالة على التوحيد والعدل والنبوة.

وأما الذكرى: فهي إشارة إلى الإرشاد إلى الأعمال الباقية الصالحة.

وأما الموعظة: فهي إشارة إلى التنفير من الدنيا وتقبيح أحوالها في الدار الآخرة، والمذكرة لما هنالك من السعادة والشقاوة، وذلك لأن الروح إنما جاء من ذلك العالم إلا أنه لاستغراقه في محبة الجسد في هذا العالم نسي أحوال ذلك العالم فالكلام الإلهي يذكره أحوال ذلك العالم، فلهذا السبب صح إطلاق لفظ الذكر عليه.

ثم هاهنا دقيقة أخرى عجيبة: وهي أن المعارف الإلهية لا بد لها من قابل ومن موجب، وقابلها هو القلب، والقلب ما لم يكن كامل الاستعداد لقبول تلك المعارف الإلهية والتجليات القدسية، لم يحصل الانتفاع بسماع الدلائل، فلهذا السبب قدم الله تعالى ذكر إصلاح القلب، وهو تثبيت الفؤاد، ثم لما ذكر صلاح حال القابل، أردفه بذكر الموجب، وهو مجيء هذه السورة المشتملة على الحق والموعظة والذكرى، وهذا الترتيب في غاية الشرف والجلالة.

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بلغ الغاية في الإعذار والإنذار، والترغيب والترهيب، أتبع ذلك بأن قال للرسول: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ولم تؤثر فيهم هذه البيانات البالغة ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ﴾ وهذا عين ما حكاه الله تعالى عن شعيب عليه السلام أنه قال لقومه، والمعنى: افعلوا كل ما تقدرون عليه في حقي من الشر، فنحن أيضًا عاملون. وقوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟﴾ وإن كانت صيغته صيغة الأمر، إلا أن المراد منها التهديد، كقوله تعالى لإبليس: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤] وكقوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] وانتظروا ما يعدكم الشيطان من الخذلان فإنا منتظرون ما وعدنا الرحمن من أنواع الغفران والإحسان. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ الهلاك فإنا منتظرون لكم العذاب. ثم إنه تعالى ذكر خاتمة شريفة عالية جامعة لكل المطالب الشريفة المقدسة فقال: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

واعلم أن مجموع ما يحتاج الإنسان إلى معرفته أمور ثلاثة. وهي: الماضي والحاضر والمستقبل. أما الماضي فهو أن يعرف الموجود الذي كان موجودًا قبله، وذلك الموجود المتقدم عليه هو الذي نقله من العدم إلى الوجود، وذلك هو الإله تعالى وتقدس.

واعلم أن حقيقة ذات الإله وكنه هويته غير معلومة للبشر ألبتة، وإنما المعلوم للبشر صفاته، ثم إن صفاته قسمان: صفات الجلال، وصفات الإكرام. أما صفات الجلال، فهي سُلُوب، كقولنا: إنه ليس بجوهر ولا جسم، ولا كذا ولا كذا. وهذه السُلُوب في الحقيقة ليست صفات الكمال، لأن السُلُوب عدم، والعدم المحض والنفي الصرف، لا كمال فيه، فقولنا: لا تأخذه سنة ولا نوم إنما أفاد الكلام لدلالته على العلم المحيط الدائم المبرأ عن التغير ولولا ذلك كان عدم النوم ليس يدل على كمال أصلاً، ألا ترى أن الميت والجماد لا تأخذه سنة ولا نوم وقوله: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤] إنما أفاد، الجلال والكمال والكبرياء، لأن قوله: ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤] يفيد كونه واجب الوجود لذاته غنيًّا عن الطعام والشراب بل عن كل ما سواه، فثبت أن صفات الكمال والعز والعلو هي الصفات الثبوتية، وأشرف الصفات الثبوتية الدالة على الكمال والجلال صفتان: العلم والقدرة، فلهذا السبب وصف الله تعالى ذاته في هذه الآية بهما في معرض التعظيم والثناء والمدح. أما صفة العلم فقوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والمراد أن علمه نافذ في جميع الكليات والجزئيات والمعدومات والموجودات والحاضرات والغائبات، وتمام البيان والشرح في دلالة هذا اللفظ على نهاية الكمال ما ذكرناه في تفسير قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] وأما صفة القدرة، فقوله: ﴿وَإِلَيْهِ

﴿يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ والمراد أن مرجع الكل إليه، وإنما يكون كذلك لو كان مصدر الكل ومبدأ الكل هو هو والذي يكون مبدأ لجميع الممكنات وإليه يكون مرجع كل المحدثات والكائنات، كان عظيم القدرة نافذ المشيئة قهارًا للعدم بالوجود والتحصيل جبارًا له بالقوة والفعل والتكميل، فهذان الوصفان هما المذكوران في شرح جلال المبدأ ونعت كبريائه.

والمرتبة الثانية: من المراتب التي يجب على الإنسان كونه عالمًا بها أن يعرف ما هو مهم له في زمان حياته في الدنيا، وما ذلك إلا تكميل النفس بالمعارف الروحانية والجلايا القدسية، وهذه المرتبة لها بداية ونهاية. أما بدايتها فالاشتغال بالعبادات الجسدانية والروحانية. أما العبادات الجسدانية، فأفضل الحركات الصلاة، وأكمل السكنات الصيام، وأنفع البر الصدقة.

وأما العبادة الروحانية فهي: الفكر، والتأمل في عجائب صنع الله تعالى في ملكوت السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١] وأما نهاية هذه المرتبة، فالانتهاء من الأسباب إلى مسببها، وقطع النظر عن كل الممكنات والمبدعات، وتوجيه حدقة العقل إلى نور عالم الجلال، واستغراق الروح في أضواء عالم الكبرياء، ومن وصل إلى هذه الدرجة رأى كل ما سواه مهرولاً تائهًا في ساحة كبريائه هالكًا فانيًا في فناء سناء أسمائه. وحاصل الكلام: أن أول درجات السير إلى الله تعالى هو عبودية الله، وآخرها التوكل على الله، فلهذا السبب قال: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾.

والمرتبة الثالثة: من المراتب المهمة لكل عامل معرفة المستقبل وهو أنه يعرف كيف يصير حاله بعد انقضاء هذه الحياة الجسمانية، وهل لأعماله أثر في السعادة والشقاوة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ والمقصود أنه لا يضيع طاعات المطيعين ولا يهمل أحوال المتمردين الجاحدين، وذلك بأن يحضروا في موقف القيامة ويحاسبوا على النقير والقطمير ويعاتبوا في الصغير والكبير، ثم يحصل عاقبة الأمر فريق في الجنة وفريق في السعير، فظهر أن هذه الآية وافية بالإشارة إلى جميع المطالب العلوية، والمقاصد القدسية، وأنه ليس وراءها للعقول مرتقى ولا للخواطر منتهى والله الهادي للصواب، تمت السورة بحمد الله وعونه، وقد وجد بخط المصنف رضي الله عنه في النسخة المنتقل منها: تم تفسير هذه السورة قبل طلوع الصبح ليلة الاثنين من شهر رجب ختمه الله بالخير والبركة سنة إحدى وستمائة، وقد كان لي ولد صالح حسن السيرة فتوفي في الغربة في عنفوان شبابه، وكان قلبي كالمحترق لذلك السبب، فأنا أنشد الله إخواني في الدين وشركائي في طلب اليقين وكل من نظر في هذا الكتاب وانتفع به أن يذكر ذلك الشاب بالرحمة والمغفرة، وأن يذكر هذا المسكين بالدعاء وهو يقول: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨] وصلى الله على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة هود عليه السَّلام

مكيةٌ في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. وقال ابنُ عباس وقتادة: إلَّا آية، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾[1] [هود: ١١٤].

وأسند أبو محمد الدَّارمي في «مسنده» عن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا سورةَ هودٍ يومَ الجمعة»[2].

وروى الترمذيُّ عن ابن عباس قال: قال أبو بكر ﷺ: يا رسولَ الله قد شِبْتَ! قال: «شَيَّبتني هودٌ، والواقعةُ، والمرسلاتُ، وَ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، و﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾». قال: هذا حديثٌ حسنٌ غريب. وقد رُويَ شيءٌ من هذا مرسلاً[3].

وأخرجه الترمذيُّ الحكيم أبو عبد الله في «نوادر الأصول»: حدّثنا سفيانُ بن وكيع قال: حدّثنا محمد بن بِشر، عن عليّ بن صالح، عن أبي إسحاق، عن أبي

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٤٥٥ .

(٢) سنن الدارمي (٣٤٠٤)، وأخرجه أبو داود في المراسيل (٥٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٤٣٨). وكعب: هو بن ماتع، المعروف بكعب الأحبار، والحديث مرسل.

(٣) سنن الترمذي (٣٢٩٧) من طريق أبي إسحاق، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن أبي بكر، به. وأخرجه سعيد بن منصور في سننه (التفسير) (١١١٠)، وأبو يعلى في مسنده (١٠٧) (١٠٨) من طريق عكرمة، عن أبي بكر، به. وعكرمة لم يدرك أبا بكر. وقال أبو حاتم كما في «العلل» لابنه ٢/ ١١٠ : مرسل أصح. اهـ والحديث اختلف فيه على أبي إسحاق اختلافاً كثيراً، ينظر ما سيأتي من رواية أبي ميسرة وأبي جحيفة، وما أورده الدارقطني في العلل ١/ ١٩٣ وما بعدها. وعبارة الترمذي: وقد روي عن أبي إسحاق عن أبي ميسرة شيءٌ من هذا مرسلاً. اهـ

وقد أخرجه المروزي في مسند أبي بكر الصديق (٣٢) عن أبي إسحاق، عن أبي ميسرة، عن أبي بكر، وليس فيه ذكر: المرسلات.

جُحَيْفة قال: قالوا يا رسول الله، نراكَ قد شِبتَ! قال: «شَيَّبتني هودٌ وأخواتها»(١).

قال أبو عبد الله: فالفزعُ يورثُ الشَّيب؛ وذلك أنَّ الفزعَ يَذْهَل النفسَ، فيَنْشَفُ رطوبةَ الجسد، وتحت كلِّ شعرةٍ مَنْبع، ومنه يَعْرَق، فإذا انتَشَفَ(٢) الفزعُ رطوبتَه، يبِست المنابع، فيَبِس الشعرُ وابيضَّ؛ كما يُرى الزرعُ أخضرَ(٣) بسقياه(٤)، فإذا ذهب سقياه(٥) يبِسَ فابيضَّ؛ وإنَّما يبيضُّ شعرُ الشيخ لذهاب رطوبته ويَبْسِ جلده، فالنفْسُ تَذْهل بوَعيد الله(٦)، وأهوال ما جاء به الخبر عن الله؛ فتَذْبُل، ويَنْشَفُ ماءَها ذلك الوعيدُ والهول(٧) الذي جاء به؛ فمنه تَشيب، وقال الله تعالى: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزمل:١٧]، فإنَّما شابوا من الفزع.

---

(١) نوادر الأصول ١/ ٢٢٤ دون إسناد، وأخرجه بهذا الإسناد الترمذي في الشمائل (٤١)، ومن طريقه البغوي في شرح السنة (٤١٧٦).

وأخرجه أيضاً أبو يعلى في مسنده (٨٨٠)، والطبراني في الكبير ٢٢/(٣١٨)، والدارقطني في العلل ٢/ ٢٠٦ وأبو نعيم في الحلية ٤/ ٣٥٠ من طريق محمد بن عبد الله بن نمير، عن محمد بن بشر، به.

وأورد الرازي في العلل ٢/ ١٣٣ الحديث السالف ثم قال: ورواه شيبان عن أبي إسحاق، عن عكرمة، أن أبا بكر قال للنبي ﷺ، وهذا أشبههما بالصواب، والله أعلم.

وأخرجه الدارقطني في العلل ١/ ٢٠٧ من طريق محمد بن مهاجر وشهاب بن عباد، عن محمد بن بشر، عن علي بن صالح، عن أبي إسحاق، عن أبي جحيفة، قال: قال أبو بكر الصديق، به. فذكرا فيه أبا بكر الصديق.

وأورده الحافظ ابن حجر في النكت على كتاب ابن الصلاح ٢/ ٧٧٤ مثالاً للحديث المضطرب وأبو جحيفة هو وهب بن عبد الله السوائي، صحابي، توفي سنة أربع وسبعين. السير ٣/ ٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٢) في (د) و(ز): أنشف، وفي (ظ): نشف، والمثبت من (ف) و(م). وهو الموافق لنوادر الأصول.

(٣) في (م): كما ترى الزرع الأخضر. والمثبت من (ظ) و(ف)، وسقطت هذه العبارة من (ز) و(د).

(٤) في (م) و(د): بسقائه، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لمطبوع نوادر الأصول.

(٥) في (م): سقاؤه. والمثبت من (ظ) و(ف). وهو الموافق لمطبوع نوادر الأصول.

(٦) في (د) و(ز): بوعد الله، وفي (ظ): لوعد الله، وفي نوادر الأصول: لوعيد الله. والمثبت من (ف) و(م).

(٧) في (د) و(ز): والخوف.

وأمّا سورة هود فإنّما فيها ذكر الأمم[١]، وما حَلَّ بهم من عاجل بأس الله تعالى، فأهلُ اليقين إذا تَلَوها تَراءى على قلوبهم من ملكه وسلطانه ولحَظَاته البطشُ بأعدائه، فلو ماتوا من الفزع لَحُقَّ لهم، ولكنَّ الله تبارك وتعالى اسمُه يَلْطُف[٢] بهم في تلك الأحايين حتى يقرؤوا كلامه.

وأمّا أخواتُها؛ فما أشبهَها من السُّور؛ مثلُ ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾، و﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾، و﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾، و﴿ٱلۡقَارِعَةُ﴾، ففي تلاوة هذه السُّور ما يَكْشفُ لقلوب العارفين سلطانَه وبطشَه؛ فتذهَلُ منه النفوس، وتَشيبُ منه الرؤوس[٣].

قلت: وقد قيل: إنَّ الذي شيَّب النبيَّ ﷺ من سورة هود، قوله: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ [الآية: ١١٢] على ما يأتي بيانه إنْ شاء الله تعالى.

وقال يزيدُ بن أبان: رأيتُ رسولَ الله ﷺ في منامي، فقرأتُ عليه سورة هود، فلما ختمتُها[٤]، قال: «يا يزيد، هذه القراءةُ، فأين البكاء؟»[٥].

قال علماؤنا: وقال أبو جعفر النحاس[٦]: يقال: هذه هودُ فاعلم؛ بغير تنوين على أنّه اسمٌ للسورة؛ لأنّك لو سمَّيتَ امرأةً بزيدٍ لم تَصْرِف؛ وهذا قول الخليل وسيبويه[٧]. وعيسى بن عمر يقول: هذه هودٌ [فاعلمْ]؛ بالتنوين على أنَّه اسمٌ للسورة؛

---

(١) في (م): فلما ذكر الأمم، وفي (ف): فإنما ذكر للأمم، وفي (د) و(ز): فإنما ذكر الأمم، والمثبت من (ظ).

(٢) في (د) و(ز) و(ف): تلطف، والمثبت من (ظ) و(م) وهو الموافق لنوادر الأصول ١/ ٢٢٤ والكلام منه بنحوه.

(٣) نوادر الأصول ١/ ٢٢٤ .

(٤) في (د) و(ز): حققتها.

(٥) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٥/ ٨٣ - ٨٤ ، والمزي في تهذيب الكمال ٣٢/ ٧٠ وليس فيهما تسمية السورة ويزيد بن أبان: هو الرقاشيّ، من زهّاد أهل البصرة، قال أحمد: كان يزيدُ منكرَ الحديث... وكان قاصاً. تهذيب الكمال ٣٢/ ٦٤ وما بعدها، وميزان الاعتدال ٤/ ٤١٨ .

(٦) في إعراب القرآن له ٢/ ٢٧١ . وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٧) في الكتاب ٣/ ٢٤٢ .

وكذا إنْ سمَّى امرأةً بزيد؛ لأنَّه لمَّا سكن وسطه خفَّ فصُرِف، فإنْ أردتَ الحذف؛ صرفت على قول الجميع، فقلت: هذه هودٌ [فاعلمْ]؛ وأنت تريد سورة هود؛ قال سيبويه[١]: والدليلُ على هذا أنَّك تقول: هذه الرحمن، فلولا أنَّك تريد: هذه سورةُ الرحمن؛ ما قلتَ: هذه.

قوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿الٓرۚ﴾ تقدَّم القول فيه[٢].

﴿كِتَٰبٌ﴾ بمعنى: هذا كتاب.

﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ في موضع رفع نعتٌ لكتاب. وأحسن ما قيل في معنى «أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ» قول قَتَادة: أي: جُعلت محكمةً كلُّها، لا خَلَل فيها ولا باطل[٣].

والإحكامُ: منع القول من الفساد، أي: نُظمت نظماً مُحْكَماً؛ لا يلحقها تناقضٌ ولا خَلَل[٤].

وقال ابن عباس: أي: لم ينسخها كتاب، بخلاف التوراة والإنجيل[٥]. وعلى هذا فالمعنى: أُحكم بعضُ آياته؛ بأنْ جُعِل ناسخاً غير منسوخ. وقد تقدَّم القول فيه[٦]. وقد يقعُ اسم الجنس على النوع؛ فيقال: أكلتُ طعام زيد، أي: بعضَ طعامه[٧].

---

(١) في الكتاب ٣/٢٥٦ - ٢٥٧ .

(٢) في مطلع سورة يونس.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧١ ، ومعاني القرآن له ٣/٣٢٨ . وأخرج قول قتادة الطبري ١٢/ ٣١٠ .

(٤) تفسير الرازي ١٧/١٧٨ .

(٥) ينظر تفسير البغوي ٢/ ٣٧٢ .

(٦) ١٧/٥ .

(٧) قال ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٧٤ : أحكم بعضها بالبيان الواضح ومنع الالتباس، فأوقع العموم =

وقال الحسن وأبو العالية: «أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ» بالأمر والنهي[(١)].

﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ بالوعد والوعيد والثواب والعقاب[(٢)]. وقال قتادة: أحكَمها الله من الباطل، ثمَّ فصَّلها بالحلال والحرام[(٣)]. مجاهد: أُحكمت جملةً، ثم بُيِّنت بذكر آية آية بجميع ما يحتاج إليه من الدَّليل على التوحيد والنبوّة والبعث وغيرها[(٤)]. وقيل: جُمِعت في اللوح المحفوظ، ثم فُصِّلت في التنزيل[(٥)]. وقيل: «فُصِّلت»: أنزلت نَجْماً نَجْماً لتُتَدبَّر[(٦)].

وقرأ عكرمة: «فَصَلَتْ» مخفّفاً، أي: حَكَمت بالحق[(٧)].

﴿مِن لَّدُنْ﴾ أي: من عند ﴿حَكِيمٍ﴾ أي: مُحكِمٍ للأمور ﴿خَبِيرٍ﴾ بكلِّ كائنٍ وغير كائن.

قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ قال الكسائيُّ والفرّاء: أي: بأنْ لا[(٨)]، أي: أُحكِمت ثم فُصِّلت[(٩)] بألَّا تعبدوا إلَّا الله. وقال الزَّجّاج[(١٠)]: لئلَّا؛ أي: أُحكِمت ثمَّ فُصِّلت لئلَّا تعبدوا إلَّا الله. قيل: أمر رسولَه أنْ يقولَ للنَّاس ألَّا تعبدوا إلا الله[(١١)].

= على معنى الخصوص، كما تقول العرب: قد أكلت طعام زيد، يعنون بعض طعامه.

(١) النكت والعيون ٢/ ٤٥٥، وزاد المسير ٤/ ٧٣، وأخرج قول الحسن الطبريُّ ١٢/ ٣٠٩، وابنُ أبي حاتم ٦/ ١٩٩٤ (١٠٦٣٥).

(٢) زاد المسير ٤/ ٧٤ ونسبه للحسن. وأخرجه الطبري ١٢/ ٣٠٩.

(٣) النكت والعيون ٢/ ٤٥٥، وأخرجه الطبري ١٢/ ٣١٠، وابن أبي حاتم ٦/ ١٩٩٥ (١٠٦٣٦، ١٠٦٣٩).

(٤) ينظر النكت والعيون ٢/ ٤٥٦، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٧، وزاد المسير ٤/ ٧٤.

(٥) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ١١٦، وزاد المسير ٤/ ٧٤.

(٦) في (د) و(ز): لينذر، وفي (ظ): ليتدبروا، والمثبت من (ف) و(م). وتنظر المراجع السابقة.

(٧) القراءات الشاذة ص٥٩، والمحتسب ١/ ٣١٨.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٢، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٣.

(٩) قوله: ثم فصلت. من (م) و(د).

(١٠) في معاني القرآن له ٣/ ٣٨، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٢.

(١١) النكت والعيون ٢/ ٤٥٦.

﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ﴾ أي: من الله ﴿نَذِيرٌ﴾ أي: مُخوِّف من عذابه وسَطْوته لمن عصاه ﴿وَبَشِيرٌ﴾ بالرِّضوان والجنَّة لمن أطاعه.

وقيل: هو من قول الله أوّلاً وآخراً؛ أي: لا تعبدوا إلّا الله إنني لكم منه نذير ـ أي: الله نذيرٌ لكم[١] ـ من عبادة غيره، كما قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ عطفٌ على الأوّل.

﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أي: ارجعوا إليه بالطاعة والعبادة. وقال الفرّاء: «ثُمَّ» هنا بمعنى الواو، أي: وتوبوا إليه؛ لأنَّ الاستغفارَ هو التوبة، والتوبةُ هي الاستغفار[٢].

وقيل: استغفروه من سالف ذنوبكم، وتوبوا إليه من المستأنَفِ متى وقعتْ منكم. قالَ بعض الصلحاء: الاستغفارُ بلا إقلاعٍ توبةُ الكَذَّابين[٣]. وقد تقدَّم هذا المعنى في «آل عمران» مستوفًى[٤]. وفي «البقرة» عند قوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ [الآية: ٢٣١][٥].

وقيل: إنَّما قدَّم ذكرَ الاستغفار لأنَّ المغفرة هي الغرضُ المطلوب، والتوبةُ هي السبب إليها؛ فالمغفرةُ أوَّلٌ في المطلوب وآخِرٌ في السبب. ويحتمل أنْ يكون المعنى: استغفروه من الصغائر، وتوبوا إليه من الكبائر[٦].

﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا﴾ هذه ثمرةُ الاستغفار والتوبة، أي: يمتِّعكم بالمنافع من سَعَة الرِّزق ورَغَد العيش، ولا يستأصِلُكُم بالعذاب كما فعل بمن أهلك قبلَكم[٧]. وقيل:

---

(١) قوله: أي: الله نذير لكم. ليس في (ظ).

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٣٧٣، وزاد المسير ٤/ ٧٥.

(٣) النكت والعيون ٢/ ٤٥٦.

(٤) ٥/ ٣٢٤.

(٥) ٤/ ١٠١ - ١٠٢.

(٦) النكت والعيون ٢/ ٤٥٦.

(٧) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٨. والنكت والعيون ٢/ ٤٥٦.

﴿يُمَتِّعْكُم﴾: يُعمِّركم؛ وأصلُ الإمتاع: الإطالة، ومنه: أمتع اللهُ بك، ومَتَّع[١]. وقال سهلُ بن عبد الله: المتاع الحسن: تركُ الخَلْق، والإقبالُ على الحق[٢]. وقيل: هو القناعةُ بالموجود، وتركُ الحزنِ على المفقود[٣].

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قيل: هو الموت. وقيل: القيامة[٤]. وقيل: دخول الجنة. والمتاعُ الحسن على هذا: وقاية كل مكروه وأمرٍ مَخُوف، ممَّا يكون في القبر وغيره من أهوال يوم[٥] القيامة وكُرَبها. والأوَّل أظهر؛ لقوله في هذه السورة: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [الآية: ٥٢]. وهذا ينقطع بالموت، وهو الأجلُ المسمَّى. والله أعلم.

قال مقاتل: فأبَوا فدعا عليهم رسولُ الله ﷺ، فابتُلُوا بالقَحْط سبعَ سنين، حتَّى أكلوا العظامَ المحرَّقَة والقَذَر والجيفَ والكلاب[٦].

﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ أي: يؤتِ كلَّ ذي عملٍ من الأعمال الصالحات جزاءَ عمله[٧]. وقيل: ويؤتِ كلَّ من فَضَلت حسناته على سيئاته «فَضْلَهُ»، أي: الجنة، وهي فضلُ الله[٨]. فالكناية في قوله: «فَضْلَهُ» ترجع إلى الله تعالى[٩]. وقال مجاهد: هو ما يحتسبُه الإنسان من كلامٍ يقوله بلسانه، أو عملٍ يعملُه بيده أو رجله، أو ما

(١) غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٠١، ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٢٨.

(٢) النكت والعيون ٢/ ٤٥٦.

(٣) ينظر النكت والعيون ٢/ ٤٥٦، وتفسير البغوي ٢/ ٣٧٣.

(٤) النكت والعيون ٢/ ٤٥٦، وزاد المسير ٤/ ٧٥.

(٥) لفظ: يوم. من (ظ).

(٦) ذكره أبو الليث في تفسيره ٢/ ١١٦، وذكر نحوه المصنف في تفسير الآية (١٦) من سورة الجن، ولم ينسبه.

(٧) تفسير أبي الليث ٢/ ١١٦ ونسبه للضحاك.

(٨) الوجيز للواحدي ١/ ٣٧٩.

(٩) زاد المسير ٤/ ٧٥.

تطوَّع به من ماله، فهو فضلُ الله يؤتيه ذلك إذا آمن، ولا يتقبله منه إنْ كان كافراً[١].

﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ أي: يومَ القيامة، وهو كبيرٌ لمَا فيه من الأهوال. وقيل: اليومُ الكبير: هو يوم بدر وغيره. و«تَوَلَّوْا» يجوز أنْ يكون ماضياً ويكون المعنى: وإن تولّوا فقل لهم: إنّي أخافُ عليكم. ويجوز أنْ يكون مستقبلاً حُذِفت منه إحدى التاءين والمعنى: قل لهم: إنْ تتولَّوا فإني أخافُ عليكم[٢].

قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: بعد الموت. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ من ثوابٍ وعقاب.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ﴾ أخبر عن معاداةِ المشركين للنبيِّ ﷺ والمؤمنين، ويظنُّون أنَّه تخفى على الله أحوالهم. «يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ» أي: يطوونَها على عداوة المسلمين، ففيه هذا الحذف، قال ابن عباس: يُخفون ما في صدورهم من الشَّحناء والعَداوة، ويظهرون خلافه، نزلت في الأخنسِ بن شُريق، وكان رجلاً حُلوَ الكلام حُلو المنظر[٣]، يلقى رسولَ الله ﷺ بما يحبّ، وينطوي له بقلبه على ما يسوء[٤]. وقال مجاهد: ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾: شكًّا وامتراءً[٥]. وقال الحسن: يثنونَها على ما فيها من الكفر[٦].

وقيل: نزلتْ في بعض المنافقين، كان إذا مرَّ بالنبيّ ﷺ ثَنَى صدره وظهره، وطأطأ

---

(١) ينظر تفسير مجاهد ١/ ٢٩٩، وتفسير الطبري ١٢/ ٣١٤.

(٢) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٥٠.

(٣) في النسخ: المنطق. والمثبت من المصادر الآتية.

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٣٧٣. وأسباب النزول للواحدي ص٢٦٨ وعند الواحدي: يطوي. بدل: ينطوي.

(٥) تفسير مجاهد ١/ ٢٩٩، وأخرجه الطبري ١٢/ ٣١٧، وابن أبي حاتم ٦/ ١٩٩٩ (١٠٦٥٨).

(٦) النكت والعيون ٢/ ٤٥٧، وزاد المسير ٤/ ٧٧، ونسب فيهما إلى مجاهد بدل الحسن.

رأسَه وغطَّى وجهه، كي لا يراه النبيُّ ﷺ فيدعوَه إلى الإيمان. حُكي معناه عن عبد الله ابن شدَّاد(١)، فالهاء في «مِنْهُ» تعودُ على النبيِّ ﷺ.

وقيل: قال المنافقون: إذا أغلقنا أبوابنا، واستغشينا ثيابَنا، وثَنَينا صدورَنا على عداوة محمدٍ؛ فمن يعلم بنا؟ فنزلت الآية(٢).

وقيل: إنَّ قوماً من المسلمين كانوا يَتَنَسَّكون بسَتر أبدانهم، ولا يكشفونَها تحت السماء، فبيَّن الله تعالى أنَّ التَّنَسُّك ما اشتملت عليه قلوبهم من معتقد، وأظهروه من قولٍ وعمل(٣).

ورَوى ابنُ جريج(٤) عن محمد بن عبَّاد بن جعفر قال: سمعتُ ابنَ عباس رضي الله عنهما يقول: «أَلَا إِنَّهُمْ تَثْنَوْنِي صُدُورُهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ»(٥) قال: كانوا لا يجامعون النساء، ولا يأتون الغائط وهم يُفضون إلى السماء، فنزلت هذه الآية.

وروى غير محمد بن عباد عن ابن عباس: «أَلَا إِنَّهُمْ تَثْنَوْنِ صُدُورُهُمْ» كالأوَّل، وهو بغير ياء(٦)؛ ومعنى «تَثْنَوْنِ»(٧) والقراءتين الأُخريين متقارب؛ لأنها لا تَثْنَوني

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٣٧٣، وزاد المسير ٤/ ٧٦. وأخرجه سعيد بن منصور (١٠٧٨ - تفسير)، والطبري ١٢/ ٣١٦ - ٣١٧، وابن أبي حاتم ٦/ ١٩٩٩ (١٠٦٥٩).

(٢) ذكره الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٣٨ - ٣٩، والواحدي في الوسيط ٢/ ٥٦٤، والبغوي ٢/ ٣٧٣، والرَّازي في تفسيره ١٧/ ١٨٥. وبنحوه أخرجه الطبري ١٢/ ٣١٩ عن قتادة. (وفي بعضها ذكر: المشركون، بدل: المنافقون).

(٣) النكت والعيون ٢/ ٤٥٨.

(٤) في (م): ابن جرير، وهو خطأ.

(٥) وقع في النسخ الخطية: تثنوي صدورهم ـ بغير نون بعد الواو في وزن تنطوي ـ ليستخفوا منه...الخ. والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٢، والكلام منه، وهو الموافق لما في صحيح البخاري (٤٦٨١) (٤٦٨٢)، وتفسير الطبري ١٢/ ٣٢٠.

(٦) في (م) ونسخة كما في حاشية إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٢: «ألا إنهم تثنوي صدورهم» بغير نون بعد الواو، في وزن تنطوي (وهي رواية شاذة أيضاً) والمثبت من النسخ الخطية وهو المناسب لما في إعراب القرآن للنحاس. وقد رويت فيها ألفاظ أخرى شاذة، ينظر المحتسب ١/ ٣١٩، والدر المصون ٦/ ٢٨٤ - ٢٨٨.

(٧) في (م): تثنوِي.

حتى يَثْنُوها[١]، وقيل: كان بعضُهم ينحنّي على بعض ليُسارَّه[٢] في الطّعن على المسلمين، وبلَغَ من جهلهم أنْ توهَّموا أنَّ ذلك يخفى على الله تعالى[٣].

«لِيَسْتَخْفُوا» أي: ليتواروا عنه؛ أي: عن محمدٍ أو عن الله[٤].

﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: يُغطُّون رؤوسهم بثيابهم. قال قَتَادة: أخفى ما يكون العبد إذا حَنَى ظهرَه، واستغشى ثوبَه، وأضمرَ في نفسِه هَمَّه[٥].

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ «ما» نفي، و«مِنْ» زائدةٌ، و«دَابَّةٍ» في موضع رفع؛ التقدير: وما دابةٌ[٦].

﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ «على» بمعنى «مِن»؛ أي: من الله رزقُها؛ يدلُّ عليه قول مجاهد: كلُّ ما جاءها من رزقٍ فمن الله[٧]. وقيل: «على الله» أي: فضلاً لا وجوباً[٨]. وقيل: وعداً منه حقًّا ـ وقد تقدَّم بيانُ هذا المعنى في «النساء»[٩] ـ وأنَّه سبحانه لا يَجب عليه شيء[١٠].

---

(١) في (ز) و(ظ): لأنها لا تنثوي حتى يثنونها، وفي (د) و(ف): لأنها تثنون حتى يثنونها. والمثبت من إعراب القرآن للنحاس.

(٢) في (ظ) و(م): يساره، والمثبت من (د) و(ز) و(ف) وهو الموافق لإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٢ . والكلام منه.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٢ - ٢٧٣ .

(٤) زاد المسير ٤/ ٧٨ .

(٥) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٦٤ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٧٨ . وأخرجه الطبري ١٢/ ٣١٩ .

(٦) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢٨٥ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٣ .

(٧) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٦٤ - ٥٦٥ ، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٢/ ٣٢٤ .

(٨) زاد المسير ٤/ ٧٨ .

(٩) ٦/ ٤٥٠ .

(١٠) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٥١ .

«رِزْقُهَا» رفع بالابتداء، وعند الكوفيين بالصفة[(١)]؛ وظاهرُ الآية العموم، ومعناها الخصوص؛ لأنَّ كثيراً من الدوابِّ هَلَك قبل أنْ يُرزق. وقيل: هي عامة في كُلِّ دابَّة[(٢)]، وكلُّ دابَّة لم تُرزق رزقاً تعيش به فقد رُزقت رُوحَها.

ووجه النظم بما قبلُ: أنَّه سبحانه أخبرَ برزق الجميع، وأنَّه لا يَغفُل عن تربيته، فكيف تَخفى عليه أحوالُكم يا معشرَ الكفَّار وهو يرزقكم[(٣)]؟!

والدَّابةُ: كلُّ حيوانٍ يَدِبُّ[(٤)].

والرزقُ حقيقته: ما يَتغذَّى به الحيُّ، ويكونُ فيه بقاءُ رُوحه، ونَماءُ جسده. ولا يجوز أنْ يكونَ الرِّزق بمعنى المِلك؛ لأنَّ البهائمَ تُرزق، وليس يصحُّ وصفُها بأنَّها مالكةٌ لعَلَفها؛ وهكذا الأطفالُ تُرزق اللّبنَ، ولا يقال: إنَّ اللّبن الذي في الثّدي مِلكٌ للطفل، وقال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ [الذاريات: ٢٢]، وليس لنَا في السماء مِلك؛ ولأنَّ الرِّزق لو كان مِلكاً، لكان إذا أكلَ الإنسان من مِلك غيره أنْ يكون قد أكل من رزق غيره، وذلك محالٌ؛ لأنَّ العبدَ لا يأكل إلَّا رزقَ نفسه. وقد تقدَّم في «البقرة» هذا المعنى[(٥)]، والحمد لله.

وقيل لبعضهم: من أين تأكل؟ فقال: الذي خلق الرَّحى يَأْتيها بالطَّحين، والذي شَدقَ الأشداق هو خالق الأرزاق.

وقيل لأبي أسيد: من أين تأكل؟ فقال: سبحان الله، والحمد لله[(٦)]، والله أكبر! إنَّ الله[(٧)] يرزُق الكلب أفلا يرزُق أبا أسيد[(٨)]!.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٣ .

(٢) قوله: في كل دابة. من (د) و(م). وينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٥١ .

(٣) ينظر مجمع البيان ١٢/ ١١٩ .

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٣٧٤ ، وزاد المسير ٤/ ٧٨ .

(٥) ١/ ٢٧٢ .

(٦) قوله: والحمد لله من (ظ).

(٧) قوله: إن الله. ليس في النسخ الخطية.

(٨) أخرجه الفسوي في المعرفة والتاريخ ٢/ ٤٠٢ . وأبو أسيد هو الفزاري من زهاد أهل دمشق. تاريخ دمشق ٦٦/ ١٢ .

وقيل لحاتم الأصمّ[١]: من أين تأكل؟ فقال: من عند الله؛ فقيل له: الله يُنزل لك دنانير ودراهم من السماء؟! فقال: كأنْ ما لَه إلا السماء! يا هذا، الأرضُ له والسماءُ له؛ فإنْ لم يؤتني رزقي من السماء ساقَه لي من الأرض؛ وأنشد:

وكيف أخافُ الفقرَ واللهُ رازقي ... ورازقُ هذا الخلقِ في العُسْرِ واليُسْرِ
تَكَفَّلَ بالأرزاقِ للخلقِ كُلِّهم ... وللضَبِّ في البَيْدا وللحُوتِ[٢] في البحرِ[٣]

وذكر التِّرمذيّ الحكيم في «نوادر الأصول»[٤] بإسناده عن زيد بن أسلم: أنَّ الأشعريِّين - أبا موسى، وأبا مالك، وأبا عامر في نفرٍ منهم - لمَّا هاجروا قدموا[٥] على رسول الله ﷺ في فُلْكٍ[٦]، وقد أَرْمَلوا من الزاد[٧]، فأرسلوا رجلاً منهم إلى رسول الله ﷺ يسأله، فلما انتهى إلى باب رسول الله ﷺ سمعَه يقرأ هذه الآية: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ فقال الرجل: ما الأشعريُّون بأهون الدوابِّ على الله؛ فرجع ولم يدخل على رسول الله ﷺ؛ فقال لأصحابه: أبشروا أتاكم الغَوْث، ولا يظنون إلَّا أنَّه قد كلَّم رسولَ الله ﷺ فوعده؛ فبينا هم كذلك إذْ أتاهم رجلان يحملان قصعةً بينهما مملوءةً خبزاً ولحماً، فأكلوا منها ما شاؤوا، ثم قال بعضهم لبعض: لو أنَّا رَدَدْنا هذا الطعامَ إلى رسول الله ﷺ ليقضيَ به حاجته، فقالوا للرجلين: اذهبا بهذا الطعام إلى رسول الله ﷺ فإنَّا قد قضينا

---

(١) هو أبو عبد الرحمن، حاتم بن عنوان بن يوسف البلخي، له كلام جليل في الزهد والمواعظ والحكم. توفي سنة (٢٣٧هـ). السير ١١/ ٤٨٤ - ٤٨٧.

(٢) في (د) و(ز) و(ف) و(م): والحوت.. والمثبت من (ظ).

(٣) أورد البيتين اليوسي في زهر الأكم في الأمثال والحكم ٢/ ٥١.

(٤) ص٢٥٣.

(٥) في (م): وقدموا. والمثبت من النسخ، وهو الموافق لنوادر الأصول.

(٦) في النسخ: ذلك. والمثبت من نوادر الأصول، وهو الأوفق مع قصة قدوم أبي موسى الأشعري وقومه من الحبشة إلى المدينة ينظر: صحيح مسلم (٢٥٠٢).

(٧) أرملوا: أي: نَفِدَ زادهم. وأصله من الرَّمْل، كأنهم لصقوا بالرَّمْل، كما قيل للفقير: التَّرِب. النهاية (رمل).

منه حاجتَنا، ثم إنَّهم أتَوا رسول الله ﷺ؛ فقالوا: يا رسول الله ما رأينا طعاماً أكثرَ ولا أطيبَ من طعامٍ أرسلتَ به؛ قال: «ما أرسلتُ إليكم طعاماً». فأخبروه أنَّهم أرسلوا صاحبَهم، فسأَلَه رسولُ الله ﷺ، فأخبره ما صَنَع، وما قال لهم؛ فقال رسول الله ﷺ: «ذلك شيءٌ رزقَكُمُوه الله».

قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ أي: من الأرض حيثُ تأوي إليه ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أي: الموضع الذي تموت فيه فتدفن؛ قاله مِقْسَم عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال الربيع بن أنس: «مُسْتَقَرَّهَا»: أيام حياتها، «وَمُسْتَوْدَعَهَا»: حيث(١) تموت وحيث تُبعث. وقال سعيد بن جُبير عن ابن عباس: «مُسْتَقَرَّهَا» في الرَّحِم، «وَمُسْتَوْدَعَهَا» في الصلب(٢). وقيل: «يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا» في الجنة أو النار، «وَمُسْتَوْدَعَهَا» في القبر؛ يدلُّ عليه قوله تعالى في وصف أهل(٣) الجنة وأهل النار: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٦] و﴿سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦] ﴿كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في اللَّوح المحفوظ(٤).

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ تقدَّم في «الأعراف»(٥) بيانه والحمد لله.

﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ بيَّن أنَّ خَلْق العرش والماء قبل خلق الأرض

---

(١) في النسخ الخطية: حين، والمثبت من (م) وهو الموافق لتفسير الطبري.

(٢) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٢/ ٣٢٥، ٣٢٧، ٩/ ٤٣٨.

(٣) لفظة: أهل، من (م).

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٣٧٤.

(٥) ٩/ ٢٣٧.

والسماء. قال كعب: خلق الله ياقوتةً خضراء، فنظر إليها بالهيبة، فصارت ماءً يرتعد من مخافة الله تعالى؛ فلذلك يرتعد الماء إلى الآن وإنْ كان ساكناً، ثمَّ خلق الرِّيحَ فجعل الماءَ على مَتْنِها، ثُمَّ وَضَع العرشَ على الماء[١].

وقال سعيد بن جُبير عن ابن عباس: إنه سُئل عن قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ فقال: على أيِّ شيءٍ كان الماء؟ قال: على مَتْن الرِّيح[٢].

ورَوى البخاريّ عن عِمْران بن حُصَين، قال: إني[٣] عند النبيِّ ﷺ إذْ جاءه قومٌ من بني تميم، فقال: «اِقْبَلُوا البُشْرى يا بني تميمٍ» قالوا: بَشَّرْتَنَا فأعطِنا. فدخل ناسٌ من أهل اليمن، فقال: «اِقْبلُوا البُشْرى يا أهلَ اليمن، إذْ لم يقبلها بنو تميم». قالوا: قَبِلنا، جئنا لنتفقه في الدِّين، ولنسألك عن أولِ هذا الأمر ما كان؟ قال: «كان اللهُ ولم يكنْ شيءٌ قبله[٤]، وكانَ عرشُه على الماء، ثمَّ خلق السماواتِ والأرضَ، وكتبَ في الذِّكْر كلَّ شيء». ثم أتاني رجلٌ فقال: يا عِمران، أدركْ ناقتك فقد ذهبت، فانطلقتُ أطلُبُها؛ فإذا السَّرابُ ينقطع دونها[٥]؛ وايمُ اللهِ لَوَدِدْتُ أنَّها قد ذهبتْ ولم أقُمْ[٦].

قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: خلقَ ذلك لِيبتليَ عبادَه بالاعتبار والاستدلال على كمال قُدرته، وعلى البعث. وقال قَتَادة: معنى «أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً»: أيُّكم أتمُّ عقلاً[٧]. وقال الحسن وسفيان الثَّوريّ: أيُّكم أزهدُ في الدنيا[٨].

(١) ذكره البغوي في تفسيره ٢/ ٣٧٤، والخبر من الإسرائيليات التي يرويها كعب.

(٢) أخرجه الطبري ١٢/ ٣٣٣ - ٣٣٤.

(٣) في (م) و(د): كنت، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في صحيح البخاري.

(٤) في (م): غيره.

(٥) وقع في (م): فإذا هي يقطع دونها السراب.

(٦) صحيح البخاري (٧٤١٨)، وهو عند أحمد (١٩٨٧٦).

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٠٦ (١٠٧٠٨).

(٨) زاد المسير ٤/ ٧٩، والنكت والعيون ٢/ ٤٥٩، وأخرج قول سفيان ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٠٦ (١٠٧٠٧).

وذكر أنَّ عيسى عليه السلام مرَّ برجلٍ نائم فقال: يا نائم، قُم فتعبَّدْ، فقال: يا رُوح الله قد تَعبَّدتُ، فقال: وما[(١)] تَعبَّدتَ؟ قال: قد تركتُ الدنيا لأهلِها. قال: نَمْ، فقد فُقْتَ العابدين[(٢)].

الضَّحَّاك: أيُّكم أكثر شكراً[(٣)]. مقاتل: أيكم أتقى لله. ابن عباس: أيُّكم أعملُ بطاعة الله عزَّ وجلَّ[(٤)].

ورُويَ عن ابن عمر أنَّ النبيَّ ﷺ تلا: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قال: «أيُّكم أحسنُ عقلاً، وأورعُ عن محارم الله، وأسرعُ في طاعة الله»[(٥)] فجمعَ الأقاويل كلَّها، وسيأتي في «الكهف» هذا أيضاً إنْ شاء الله تعالى[(٦)]. وقد تقدَّم معنى الابتلاء[(٧)].

﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ﴾ أي: دللتَ يا محمد على البعث ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ﴾ وذكرتَ ذلك للمشركين لقالوا: هذا سحر. وكُسِرت «إنّ» لأنَّها بعد القول مبتدأة. وحكى سيبويه الفتح[(٨)].

﴿لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ فُتِحت اللّام [التي قبل النون] لأنَّه فعلٌ متقدِّم لا ضمير فيه، وبعده «لَيَقُولُنَّ» لأنَّ فيه ضميراً[(٩)].

---

(١) في (م): وبم.

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٤٠٦ بنحوه.

(٣) النكت والعيون ٢/ ٤٥٩.

(٤) زاد المسير ٤/ ٧٩.

(٥) أخرجه الطبري ١٢/ ٣٣٥، وابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٠٦ (١٠٧٠٥) والحارث بن أبي أسامة في مسنده (٨٣١) عن داود بن المحبَّر، عن عبد الواحد بن زياد، عن كليب بن وائل، عن ابن عمر، به. قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف ص٨٦: داود ساقط.

(٦) عند تفسير الآية: ٧ منها.

(٧) ٢/ ٨٨ - ٨٩.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٣.

(٩) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٣. وما بين حاصرتين منه.

و﴿سِحْرٌ﴾ أي: غرورٌ باطل، لبطلان السحر عندهم[١]. وقرأ حمزةُ والكسائيّ: «إِنْ هَذَا إِلَّا سَاحِرٌ مُبِينٌ»[٢] كناية عن النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ اللام في «لَئِنْ» للقسم[٣]، والجواب: «لَيَقُولُنَّ». ومعنى «إِلَى أُمَّةٍ»: إلى أجلٍ معدود، وحينٍ معلوم؛ فالأمَّة هنا المدَّة؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقَتادة وجمهور المفسّرين[٤]. وأصلُ الأمَّة: الجماعة؛ فعبَّر عن الحين والسنين بالأُمَّة، لأنَّ الأمَّة تكون فيها[٥]. وقيل: هو على حذف المضاف؛ والمعنى: إلى مجيء أُمَّةٍ ليس فيها مَنْ يؤمن، فيستحقُّون الهلاكَ. أو: إلى انقراض أُمَّةٍ فيها مَنْ يؤمن، فلا يَبقى بعد انقراضها من يؤمن[٦].

والأُمَّة اسمٌ مشتركٌ يقال على ثمانية أوجه: فالأمَّة تكون: الجماعة؛ كقوله تعالى: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ﴾ [القصص:٢٣]. والأمَّة أيضاً: أتباعُ الأنبياء عليهم السلام. والأمَّة: الرجلُ الجامع للخير، الذي يُقتدى به؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل:١٢٠]. والأُمَّة: الدِّين والمِلَّة؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف:٢٢]. والأمَّة: الحينُ والزمان؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ [هود:٨]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف:٤٥]، والأمَّة: القامة، وهو طولُ الإنسان وارتفاعه؛ يقال من ذلك:

---

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٠ .

(٢) السبعة ص٢٤٩ ، والتيسير ص١٠١ .

(٣) في (ز) و(ظ): لام القسم، وينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٥٣ .

(٤) أخرج قولهم الطبري ١٢/ ٣٣٧ - ٣٣٨ .

(٥) ينظر النكت والعيون ٢/ ٤٦٠ .

(٦) ينظر النكت والعيون ٢/ ٤٦٠ ، وزاد المسير ٤/ ٨٠ .

فلانٌ حسن الأُمَّة، أي: القامة. والأمَّة: الرجلُ المنفرد بدينه وحدَه، لا يَشْرَكُه فيه أحدٌ؛ قال النبي ﷺ: «يُبعَثُ زيدُ بن عَمرو بن نُفَيْل أُمَّةً وحدَه»[١]. والأمَّة: الأمُّ؛ يقال: هذه أُمَّة زيد؛ يعني: أمّ زيد[٢].

﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ يعني: العذاب؛ وقالوا هذا إما تكذيباً للعذاب لتأخره عنهم، أو استعجالاً واستهزاء، أي: ما الذي يحبسه عنا[٣].

﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ قيل: هو قتلُ المشركين ببدر؛ وقتلُ جبريل المستهزئين على ما يأتي[٤].

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: نزل وأحاط ﴿مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: جزاءُ ما كانوا به يستهزئون، والمضاف محذوف.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ الإنسانُ اسمٌ شائعٌ للجنس في جميع الكفار[٥]. ويقال: إنَّ الإنسان هنا: الوليدُ بن المغيرة، وفيه نزلت. وقيل: في

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٦٤٨) من طريق نُفيل بن هشام بن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، عن أبيه، عن جده. وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٤١٧ وقال: فيه المسعودي وقد اختلط، وبقية رجاله ثقات.

(٢) نزهة القلوب للسجستاني ص١١٣ .

(٣) النكت والعيون ٢/ ٤٦٠ .

(٤) عند تفسير الآية: ٩٥ من سورة الحجر.

(٥) قال الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٤١ : والإنسان اسم للجنس في معنى الناس اهـ. وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١٥٣ : وقال بعض الناس في هذه الآية ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ إنما يراد به الكافر، وحملَه على ذلك لفظة ﴿كَفُورٌ﴾ وهذا عندي مردود، لأن صفة الكفر لا تطلق على جميع الناس كما تقتضي لفظة «الإنسان».

عبد الله بن أبي[١] أميَّة المخزوميّ[٢]. «رَحْمَةً» أي: نعمة.

﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ أي: سلبناه إياها ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ﴾ أي: آيسٌ[٣] من الرحمة ﴿كَفُورٌ﴾ للنعم؛ جاحدٌ لها؛ قاله ابن الأعرابيّ.

النحاس[٤]: «لَيَؤُوسٌ» من يَئِس يَيْأَس، وحكى سيبويه[٥]: يئس يَئِس على فَعِل يَفْعِل، ونظيره: حَسِب يَحْسِب، ونَعِم يَنْعِم، وبَئِس يَبْئِس[٦]. وبعضهم يقول: يَئس يَئِسُ[٧]؛ لا يعرف في الكلام[٨] إلَّا هذه الأربعةُ الأحرف من السَّالم جاءت على فَعِل يفعِل[٩]؛ وفي واحد منها اختلاف. وهو يَئِسٌ، ويَؤُوسٌ على التكثير؛ كفخور، للمبالغة.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ﴾ أي: صحةً ورَخاءً وسَعةً في الرزق ﴿بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ أي: بعد ضُرٍّ وفقرٍ وشدَّة ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ أي: الخطايا التي

---

(١) لفظة: أبي، من (م)، وهو الموافق لما في الوسيط للواحدي. وعبد الله بن أبي أمية المخزومي، أخو أم سلمة أم المؤمنين، كان شديداً على المسلمين قبل إسلامه، ثم أسلم فكانت له صحبة. ينظر الإصابة ٥/ ١١.

(٢) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٦٦.

(٣) في (م): يائس.

(٤) في إعراب القرآن ٢/ ٢٧٣ - ٢٧٤.

(٥) في الكتاب ٤/ ٥٤.

(٦) في النسخ: يئس ييئِس، بالياء، وهو تكرار، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس، وينظر أدب الكاتب ٤٨٣ والكامل للمبرد ٢/ ٧٥٤.

(٧) كذا في النسخ، وفي إعراب القرآن للنحاس: يئِس ييأَس. وليسا بمرادَيْنِ في هذا السياق. ولعل الصواب: يئسَ يئِسُ، فقد ذكره سيبويه في الكتاب ٤/ ٥٤ نقلاً عن بعض العرب قال: فحذفوا الياء من يفْعِل لاستثقال الياءات ههنا مع الكسرات. اهـ. أو أن الصواب: يئسَ ياءسُ، كما نقل الزَّبيدي في تاج العروس (يئس) عن المبرّد أن منهم من يُبدل في المستقبل من الياء الثانية ألفاً.

(٨) في (م): الكلام العربي.

(٩) وأورد ابن السِّيد في الاقتضاب ص٢٣٢ أيضاً: يَبِسَ يَبْبِسُ، وعلى هذا تكون الأفعال الشاذة من الصحيح من باب فعِل يفعَل ويفعِل: خمسة، كما ذكر.

تسوءُ صاحبَها من الضُّرّ والفقر[١].

﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أي: يفرح ويفخر بما ناله من السَّعَة، وينسى شكر الله عليه؛ يقال: رجلٌ فاخرٌ: إذا افتخر، وفخورٌ للمبالغة.

قال يعقوب القارئ: وقرأ بعضُ أهل المدينة: «لَفَرُحٌ» بضمِّ الراء[٢]، كما يقال: رجلٌ فَطُنٌ وحَذُرٌ ونَدُسٌ. ويجوز في كلتا اللغتين الإسكانُ لِثقل الضمَّة، والكسرة[٣].

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ يعني المؤمنين، مدحَهم بالصبر على الشدائد. وهو في موضع نصب. قال الأخفش[٤]: هو استثناءٌ ليس من الأوَّل؛ أي: لكن الذين صبروا وعملوا الصالحات في حالتي النعمة والمحنة. وقال الفراء[٥]: هو استثناءٌ من «وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ» أي: من «الإنسان»، فإنَّ الإنسان بمعنى النَّاس[٦]، والناس: يشمل الكافر والمؤمن؛ فهو استثناءٌ متصل وهو حسن.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ ابتداءٌ وخبر ﴿وَأَجْرٌ﴾ معطوف ﴿كَبِيرٌ﴾ صفة.

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٌ ١٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٖ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٖ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٣﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ أي: فلعلَّكَ لِعظيمِ ما تراه منهم من الكفر والتكذيب تتوهَّم أنَّهم يُزيلُونَك عن بعض ما أنت عليه[٧].

---

(١) ينظر الوسيط للواحدي ٢/ ٥٦٦ .

(٢) القراءات الشاذة ص٥٩ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٤ .

(٤) في معاني القرآن له ٢/ ٥٧٥ . وهو قول الزجاج أيضاً في معاني القرآن له ٣/ ٤١ .

(٥) في معاني القرآن له ٢/ ٤ - ٥ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٤ ، وعنه نقل المصنف كلام الأخفش والفراء.

(٧) في (ز): فيه، وفي هامشها: ما أمرت به. وينظر الوسيط للواحدي ٢/ ٥٦٦ ، وفيه: ما أنت عليه من أمر ربك.

وقيل: إنَّهم لمَّا قالوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾ هَمَّ أن يَدَعَ سبَّ آلهتهم، فنزلت هذه الآية.

فالكلام معناه الاستفهام؛ أي: هل أنتَ تاركٌ ما فيه سبُّ آلهتهم، كما سألوك؟ وتأكَّد عليه الأمرُ في الإبلاغ؛ كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقيل: معنى الكلام النفي مع استبعادٍ، أي: لا يكون منك ذلك، بل تُبَلِّغهم كلَّ ما أُنزل إليك؛ وذلك أنَّ مشركي مكَّة قالوا للنبي ﷺ: لو أتيتنا بكتابٍ ليس فيه سبُّ آلهتنا لاتبعناك، فهَمَّ النبيُّ ﷺ أنْ يَدَع سبَّ آلهتهم؛ فنزلت[١].

قوله تعالى: ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ عطف على «تَارِكٌ»، و«صَدْرُكَ» مرفوعٌ به[٢]، والهاء في «به» تعودُ على «ما»، أو على «بعض»[٣]، أو على التبليغ، أو التكذيب[٤]. وقال: «ضَائِقٌ» ولم يقل: ضيّق، ليشاكل «تَارِكٌ» الذي قبله؛ ولأنَّ الضّائقَ عارضٌ، والضّيقَ ألزمُ منه[٥].

﴿أَن يَقُولُواْ﴾ في موضع نصب، أي: كراهيةَ أنْ يقولوا[٦]؛ أو: لئلَّا يقولوا؛ كقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ﴾ [النساء: ١٧٦] أي: لئلَّا تضلُّوا. أو: لأنْ يقولوا[٧].

﴿لَوۡلَآ﴾ أي: هلَّا ﴿أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾ يُصَدِّقه؛ قاله عبد الله بنُ

---

(١) ينظر الوسيط للواحدي ٢/ ٥٦٦ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٤ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١٥٤ .

(٤) ينظر الدر المصون ٦/ ٢٩٤ .

(٥) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٥٤ ، وفيه: لأنه وصف لازم.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٤ .

(٧) ينظر إملاء ما من به الرحمن (بحاشية الفتوحات الإلهية) ٣/ ٢٦١ ، والدر المصون ٦/ ٢٩٤ .

أبي أميَّة بن المغيرة المخزوميّ[١]؛ فقال الله تعالى: يا محمد ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ﴾: إنَّما عليك أنْ تُنذرهم، لا بأنْ تأتيَهم بما يقترحونه من الآيات[٢] ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي: حافظ وشهيد.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ﴾ «أم» بمعنى بل، وقد تقدَّم في «يونس»[٣]؛ أي: قد أزحتَ عِلَّتهم وإشكالَهم في نبوَّتكَ بهذا القرآن، وحَجَجْتَهم به، فإن قالوا: افتريتَه ـ أي: اختلقتَه ـ فليأتُوا بمثله مفترًى بزعمهم ﴿وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: من الكهنة والأعوان.

قوله تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ أي: في المعارضة، ولم تتهيأ لهم، فقد قامت عليهم الحجَّة[٤]؛ إذْ هم اللُّسْنُ البلغاء، وأصحابُ الألسنِ الفُصحاء ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ واعلموا صدقَ محمد ﷺ ﴿و﴾ اعلموا ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ استفهامٌ معناه الأمر[٥]. وقد تقدَّم القول في معنى هذه الآية، وأنَّ القرآن معجزٌ، في مقدمة الكتاب[٦]، والحمد لله.

وقال: ﴿قُلْ فَأْتُواْ﴾ وبعده: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ ولم يقل: لك؛ فقيل: هو على تحويل المخاطبة من الإفراد إلى الجمع، تعظيماً وتفخيماً؛ وقد يُخاطب الرئيس بما يُخاطب به الجماعة[٧].

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٣٧٦.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤١ والوسيط للواحدي ٢/ ٥٦٦.

(٣) ٨/ ٣٤٤.

(٤) ينظر الوسيط ٢/ ٥٦٧.

(٥) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٦٧، وتفسير البغوي ٢/ ٣٧٦.

(٦) ١/ ١١٢.

(٧) ينظر تفسير الطبري ١٢/ ٣٤٦، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٥، وزاد المسير ٤/ ٨٣.

وقيل: الضميرُ في «لَكُمْ»، وفي «فَاعْلَمُوا» للجميع؛ أي: فليعلم الجميع ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ قاله مجاهد[١].

وقيل: الضمير في «لكم»، وفي «فاعلموا» للمشركين، والمعنى: فإنْ لم يستجبْ لكم من تدعونَه إلى المعاونة، ولا تهيّأتْ لكم المعارضة ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾[٢].

وقيل: الضمير في «لكم» للنبيِّ ﷺ وللمؤمنين، وفي «فاعلموا» للمشركين[٣].

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ﴾ كان زائدة، ولهذا جزم بالجواب فقال: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ﴾ قاله الفرَّاء[٤]. وقال الزَّجَّاج[٥]: «مَنْ كَانَ» في موضع جزم بالشرط، وجوابه: «نُوَفِّ إِلَيْهِمْ» أي: من يَكُنْ يريد؛ والأوَّل في اللفظ ماضٍ، والثاني مستقبل، كما قال زهير:

وَمَنْ هَابَ أسبابَ المنايا يَنَلْنَهُ[٦] ... ولو رامَ أسبابَ السَّماءِ بسُلَّمِ[٧]

واختلف العلماء في تأويل هذه الآية: فقيل: نزلت في الكُفَّار؛ قاله الضحاك،

(١) لم نقف عليه، وينظر المحرر الوجيز ٤/ ١٥٩.

(٢) ينظر تفسير الطبري ١٢/ ٣٤٥، وتفسير الرازي ١٧/ ١٩٦.

(٣) ذكره الطبري في تفسيره ١٢/ ٣٤٥ وقال: وذلك تأويلٌ بعيدٌ من المفهوم.

(٤) في معاني القرآن له ٢/ ٥. وقال في البحر المحيط ٥/ ٢١٠: ولعله لا يصح، إذ لو كانت زائدة لكان فعل الشرط «يريد»، وكان يكون مجزوماً. اهـ وينظر الدر المصون ٦/ ٢٩٦.

(٥) لم نقف عليه في معاني القرآن له، وهو في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٥.

(٦) في (م): ومن هاب أسباب المنية يلقها. والمثبت من (د) و(ز) و(ظ) وهو الموافق للمصادر.

(٧) الشطر الثاني سقط من (ز) و(ظ)، والبيت في ديوان زهير ص٣٠، قال شارحه ثعلب: أي: من هاب أسباب المنية يلقها، وأسباب السماء: نواحيها ووجوهها. يقول: من اتقى الموت لقيه.

واختاره النحاس[١]؛ بدليل الآية التي بعدها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ﴾. أي: مَنْ أتى منهم بصلة رَحِم أو صدقة، نكافئه به[٢] في الدنيا، بصحة الجسم، وكثرة الرزق، لكنْ لا حسنة له في الآخرة[٣]. وقد تقدَّم هذا المعنى في «براءة»[٤] مستوفًى.

وقيل: المراد بالآية المؤمنون، أي: مَنْ أراد بعمله ثوابَ الدنيا؛ عُجِّل له الثوابُ، ولم يُنقص شيئاً في الدنيا، وله في الآخرة العذاب، لأنَّه جرَّد قَصدَه إلى الدنيا[٥]، وهذا كما قال ﷺ: «إنَّما الأعمالُ بالنيَّات»[٦] فالعبدُ إنَّما يُعطَى على وجه قصده، وبحكم ضميره؛ وهذا أمرٌ متَّفقٌ عليه في الأمم بين كلِّ مِلَّة[٧].

وقيل: هو لأهل الرياء[٨]؛ وفي الخبر أنَّه يقال لأهل الرياء: صُمتُم، وصلَّيتُم، وتصدَّقتُم، وجاهدتُم، وقرأتُم، ليقالَ ذلك، فقد قيلَ ذلك، ثم قال: «إنَّ هؤلاء أولُ من تُسَعَّر بهم النار»، رواه أبو هريرة، ثم بكى بكاءً شديداً، وقال: صَدَق رسول الله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ وقرأ الآيتين، خرَّجه مسلمٌ في «صحيحه» بمعناه، والترمذيّ أيضاً[٩].

وقيل: الآيةُ عامةٌ في كلِّ من ينوي بعمله[١٠] غير الله تعالى، كان معه أصلُ إيمانٍ،

---

(١) في معاني القرآن له ٣/ ٣٣٥ . وأخرج قول الضحاك الطبري ١٢/٣٤٩ - ٣٥٠ .

(٢) في (م): بها.

(٣) ينظر زاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٨٤ .

(٤) ١٠/٢٣٦ .

(٥) أخرج الطبري نحوه ١٢/٣٤٨ عن ابن عباس، وسعيد بن جبير. وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٨٤ عن ابن عباس.

(٦) سلف ٣/ ٢٧٠ .

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٤٤ .

(٨) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٤٤ ، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٨٤ وقد نسب لمجاهد.

(٩) صحيح مسلم (١٩٠٥)، وجامع الترمذي (٢٣٨٢)، وقال: حسن غريب. وهو عند أحمد (٨٢٧٧).

(١٠) في (ز): بعلمه، وينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٤٤ .

أو لم يكن[١]. قاله مجاهدٌ وميمون بن مِهْران، وإليه ذهب معاوية رحمه الله تعالى.

وقال ميمون بن مِهْران: ليس أحدٌ يعمل حسنةً إلَّا وُفِّيَ ثوابَها؛ فإنْ كان مسلماً مخلصاً وُفِّيَ في الدنيا والآخرة، وإنْ كان كافراً وُفِّيَ في الدنيا.

وقيل: من كان يريد بغزوه مع النبي ﷺ [الغنيمة] وُفِّيها، أي: وُفِّيَ أجرَ الغُزاة ولم يُنقص منها[٢]؛ وهذا خصوص، والصحيح العموم.

الثانية: قال بعض العلماء: معنى هذه الآية قوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّما الأعمالُ بالنيَّات»[٣]. وتدلُّكَ هذه الآية على أنَّ من صام في رمضان لا عن رمضان، لا يقع عن رمضان، وتدلُّ على أنَّ من توضأ للتبرُّدِ والتنظُّف، لا يَقع قُربةً عن جهة الصلاة[٤]، وهكذا كلُّ ما كان في معناه.

الثالثة: ذهبَ أكثر العلماء إلى أنَّ هذه الآيةَ مطلقة، وكذلك الآية التي في «الشورى» ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ الآية [٢٠]، وكذلك ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٤٥] قيَّدَها وفسَّرها [بالآية] التي في «سبحان» ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ إلى قوله: ﴿مَحْظُورًا﴾ [الآيات: ١٨-٢٠]. فأخبرَ سبحانه أنَّ العبدَ ينوي ويريد، والله سبحانه يحكُم ما يريد[٥].

ورَوى الضَّحَّاك عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أنَّها منسوخةٌ بقوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾[٦] [الإسراء: ١٨]. والصحيحُ ما

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٤٤ وهو من قوله. وأما نسبته لمجاهد، ففيها خلاف: فقد نقل النحاس في إعرابه ٢/ ٢٧٥ عنه أنه قال: نوف إليه حسناته في الدنيا. ونقل ابن عطية في المحرر ٣/ ١٥٦ عنه: أنها في الكفرة وفي أهل الرياء - كالقول السالف - وهو الذي ذهب إليه معاوية ﷺ.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٥ وما بين حاصرتين منه.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٤٤ .

(٤) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٢٥ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٤٤ ، وما بين حاصرتين منه.

(٦) ذكره النحاس في الناسخ والمنسوخ (٦٢٥)، وأخرجه فيه (٧٨١). وينظر الدر المنثور ٣/ ٣٢٣ .

ذكرناه؛ وأنَّه من باب الإطلاق والتقييد؛ ومثله قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]. فهذا ظاهرُه خبرٌ عن إجابة كلِّ داعٍ دائماً على كلِّ حال، وليس كذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ [الأنعام:٤١].

والنسخ في الأخبار لا يجوز؛ لاستحالة تبدُّل الواجبات العقلية، ولاستحالة الكذب على الله تعالى، فأما الأخبارُ عن الأحكام الشرعيَّة، فيجوزُ نسخُها على خلافٍ فيه، على ما هو مذكورٌ في الأصول[1]؛ ويأتي في «النحل» بيانه إنْ شاء الله تعالى[2].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ إشارةٌ إلى التّخليد، والمؤمن لا يُخلَّد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ الآية [النساء:٤٨]، فهو محمولٌ على ما لو كانت موافاةُ هذا المُرائي على الكفر.

وقيل: المعنى ليس لهم إلا النَّار في أيامٍ معلومةٍ ثمَّ يخرج؛ إمَّا بالشفاعة، وإمَّا بالقَبْضة[3]. والآية تقتضي الوعيد بسَلْب الإيمان، وفي الحديث: المعاصي بريدُ[4]

(١) ينظر إحكام الفصول في أحكام الأصول للباجي ص٣٩٩، والناسخ والمنسوخ للنحاس ١/٤٠٥ و ٢/٤٧٢ - ٤٧٣، والإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ص٣٢٥ لمكي، ونواسخ القرآن لابن الجوزي ص٢٢.

(٢) عند تفسير الآية ٦٧ منها.

(٣) كما ورد في الحديث الذي أخرجه أحمد (١١٨٩٨)، ومسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري، أنه تعالى يقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط، قد عادوا حُمماً، فيلقيهم في أفواه الجنة.

(٤) في (ظ): العاصي يريد، وفي (م): الماضي يريد.

الكفر[١]، وخاصةً الرياء، إذْ هو شركٌ؛ على ما تقدَّم بيانه في «النساء»، ويأتي في آخر «الكهف»[٢].

﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ابتداءٌ وخبر؛ قال أبو حاتم: وحَذَف الهاء؛ قال النحاس[٣]: هذا لا يَحتاج إلى حذف؛ لأنَّه بمعنى المصدر، أي: وباطلٌ عمله. وفي حرف أُبيّ وعبدِ الله[٤]: «وَبَاطِلاً مَا كَانُوا يَعْمَلُون» تكون[٥] «ما» زائدة، أي: وكانوا يعملون باطلاً.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ ابتداءٌ، والخبر محذوف، أي: أفمن كان على بيِّنةٍ من ربِّه في اتِّباع النبيّ ﷺ، ومعه من الفضل ما يتبيَّن به؛ كغيره ممن يريد الحياةَ الدنيا وزينتها؟! عن علي بن الحسين والحسن بن أبي الحسن[٦]. وكذا قال ابن زيد: إنَّ الذي على بيِّنةٍ هو من اتبع النبيّ محمداً ﷺ[٧].

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٢٢٩ ، والبيهقي في شعب الإيمان ٥/ ٤٤٧ من قول أبي حفص النيسابوري. ونقل العجلوني في كشف الخفاء ٢/ ٢٧٨ عن ابن حجر المكي أنه قال: أظنه من قول السلف، وقيل: إنه حديث.

(٢) سلف ٧/ ١٩٠ - ١٩١ ، وسيرد عند تفسير الآية ١١٠ من سورة الكهف.

(٣) في إعراب القرآن له ٢/ ٢٧٥ ، وما قبله منه.

(٤) القراءات الشاذة ص٥٩ ، والمحتسب ١/ ٣٢٠ .

(٥) في (م): وتكون.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٦ .

(٧) أخرج الطبري ١٢/ ٣٥٥ - ٣٥٦ عن ابن زيد في قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ قال: رسول الله ﷺ كان على بينة من ربّه. وذكر الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٤٦١ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٨٥ عن ابن زيد: أن البينة القرآن.

﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾: من الله، وهو النبيّ ﷺ. وقيل: المراد بقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: النبيُّ ﷺ[١]، والكلامُ راجعٌ إلى قوله: ﴿وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾؛ أي: أفمن كان معه بيانٌ من الله، ومعجزةٌ كالقرآن، ومعه شاهد كجبريل - على ما يأتي[٢] - وقد بَشَّرت به الكتب السالفة، يَضيقُ صدره بالإبلاغ، وهو يعلم أنَّ الله لا يُسْلِمه. والهاء في «ربّه» تعود عليه.

وقوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ رَوى عِكرمة عن ابن عباس: أنَّه جبريل؛ وهو قول مجاهد والنَّخَعِيّ[٣]. والهاء في «منه» لله عزَّ وجلَّ، أي: ويتلو البيانَ والبرهانَ شاهدٌ من الله عزَّ وجلَّ[٤].

وقال مجاهد: الشاهد مَلَك من الله عزَّ وجلَّ يحفظُه ويُسدِّده[٥].

وقال الحسن البصري وقَتادة[٦]: الشاهدُ لسان رسول الله ﷺ. قال محمدُ بن علي ابنُ الحنفية: قلت لأبي: أنتَ الشاهد؟ فقال: وَدِدتُ أنْ أكون أنا هو، ولكنَّه لسانُ رسول الله ﷺ[٧].

وقيل: هو علي بن أبي طالب؛ روي عن ابن عباس أنَّه قال: هو علي بن أبي طالب[٨]؛ ورويَ عن عليٍّ أنَّه قال: ما من رجلٍ من قريشٍ إلَّا وقد أُنزِلت فيه الآية والآيتان، فقال له رجل: أيُّ شيءٍ نَزَل فيك؟ فقال عليّ: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾[٩].

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٤٦١، زاد المسير ٤/ ٨٦.

(٢) في (ز): أو علي على ما يأتي.

(٣) أخرجه الطبري ١٢/ ٣٥٧ - ٣٥٨.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٦، والنكت والعيون ٢/ ٤٦١.

(٥) تفسير مجاهد ١/ ٣٠١ - ٣٠٢، وأخرجه الطبري ١٢/ ٣٦٠.

(٦) النكت والعيون ٢/ ٤٦١، وأخرج قولهما الطبري ١٢/ ٣٥٤.

(٧) أخرجه الطبري ١٢/ ٣٥٤، وابن أبي حاتم ٦/ ٢٠١٤ (١٠٧٥٩) والطبراني في الأوسط (٦٨٢٤).

(٨) لم نقف عليه.

(٩) النكت والعيون ٢/ ٤٦١، وأخرجه الطبري ١٢/ ٣٥٦ وابن أبي حاتم ٦/ ٢٠١٥ (١٠٧٦٤). وقال ابن كثير في تفسيره ٤/ ٣١٢: هو ضعيف لا يثبت قائله.

وقيل: الشاهدُ: صورة رسول الله ﷺ ووجهُه ومخايلُهُ؛ لأنَّ من كان له فضلٌ وعقلٌ؛ فنظر إلى النبيِّ ﷺ؛ عَلِم أنَّه رسول الله ﷺ[1]؛ فالهاء على هذا ترجع إلى النبيِّ ﷺ، على قول ابن زيدٍ[2] وغيره.

وقيل: الشاهدُ: القرآن في نظمه وبلاغته، والمعاني الكثيرة منه في اللَّفظ الواحد؛ قاله الحسين بن الفضل[3]؛ فالهاء في «منه» للقرآن.

وقال الفرَّاء[4]: قال بعضهم: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾: الإنجيل، وإن كان قبلَه؛ فهو يتلو القرآن في التصديق[5]؛ والهاء في «منه» لله عزَّ وجلَّ.

وقيل: البيِّنة: معرفةُ الله التي أشرقت لها القلوب، والشاهد الذي يتلوه: العقلُ الذي رُكِّب في دماغه، وأشرقَ صدرُه بنوره.

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: من قبل الإنجيل. ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ رفع بالابتداء، قال أبو إسحاق الزجَّاج[6]: والمعنى: ويتلوه من قبله كتابُ موسى؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ موصوفٌ في كتاب موسى؛ ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف:١٥٧]. وحكى أبو حاتم عن بعضهم: أنَّه قرأ: «وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابَ مُوسَى» بالنصب؛ وحكاها المهدويّ عن الكَلْبيّ[7]؛ يكون معطوفاً على الهاء في «يَتْلُوهُ»[8]، والمعنى: ويتلو كتابَ موسى جبريلُ عليه السلام؛ وكذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما[9]؛

---

(١) زاد المسير ٤/ ٨٦.

(٢) سلف قوله قريباً.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٣٧٧، وزاد المسير ٤/ ٨٦.

(٤) في معاني القرآن له ٢/ ٦.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٦ وعنه نقل المصنف كلام الفراء.

(٦) في معاني القرآن له ٣/ ٤٤، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٦.

(٧) القراءات الشاذة ص٥٩.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٦.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠١٥ (١٠٧٦٧).

المعنى: ومن قبله تلا جبريلُ كتابَ موسى على موسى. ويجوز على ما ذكره ابن عباس أيضاً من هذا القول أن يُرفع «كتاب» على أن يكون المعنى: ومِن قبله كتابُ موسى كذلك[١]، أي: تلاه جبريلُ على موسى كما تلا القرآن على محمد.

﴿إِمَامًا﴾ نصب على الحال[٢]. ﴿وَرَحْمَةً﴾ معطوف.

﴿أُوْلَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ إشارةٌ إلى بني إسرائيل، أي: يؤمنون بما في التوراة من البِشارة بك؛ وإنَّما كفر بك هؤلاء المتأخرون[٣]، فهم الذين موعدُهم النار؛ حكاه القشيريّ.

والهاء في «به» يجوز أنْ تكون للقرآن، ويجوز أنْ تكون للنبيِّ ﷺ[٤].

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن، أو بالنبيِّ عليه الصلاة والسلام ﴿مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ يعني من الملل كلِّها؛ عن قَتَادة؛ وكذا قال سعيد بن جُبَير[٥]: «الأحزاب»: أهلُ الأديان كلِّها؛ لأنَّهم يتحازبون. وقيل: قريشٌ وحلفاؤهم[٦].

﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ أي: هو من أهل النار؛ وأنشد حسان:

أوردتُموها حياضَ الموتِ ضاحيةً ... فالنارُ موعدُها والموتُ لاقيها[٧]

وفي «صحيح مسلم»[٨] من حديث أبي هريرة[٩] عن النبي ﷺ: «والذي نفسُ

---

(١) ينظر زاد المسير ٤/ ٨٧ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٤ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٦ .

(٣) في (د) و(ز): المفاخرون.

(٤) ينظر زاد المسير ٤/ ٨٨ . وذكر فيه وجهاً ثالثاً، وهو أن تكون للتوراة.

(٥) النكت والعيون ٢/ ٤٦٢ ، وزاد المسير ٤/ ٨٨ ، وأخرج قوليهما الطبري ١٢/ ٣٦٤ - ٣٦٥ .

(٦) ذكره الماوردي ٢/ ٤٦٢ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٨٨ عن السُّدِّي.

(٧) ديوان حسان ص٢٥٩ . وفيه: والقتل لاقيها، بدل: والموت لاقيها.
وضاحية: أي وقت الضحى، والضَّحاء: ارتفاع النهار واشتداد وقع الشمس. ينظر لسان العرب (ضحي).

(٨) (١٥٣)، وأخرجه أحمد (٨٦٠٩). وما سيرد بين حاصرتين منهما.

(٩) في (م): أبي يونس، وفي النسخ الخطية: أبي موسى. والمثبت من صحيح مسلم. وأما حديث أبي موسى فقد أخرجه أحمد (١٩٥٣٦) والنسائي في الكبرى (١١١٧٧) بغير هذه السياقة. وينظر المحرر الوجيز ٢/ ١٥٨ .

محمدٍ بيدِه، لَا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة؛ يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ؛ [ثم يموت] ولم يؤمن بالذي أُرسلتُ به إلّا كان من أصحاب النار».

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ﴾ أي: في شكٍّ ﴿مِّنْهُ﴾ أي: من القرآن ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: القرآن من الله؛ قاله مقاتل. وقال الكَلْبيّ: المعنى: فلا تكُ في مريةٍ في أنَّ الكافر في النار[١]. «إنَّه الحَقُّ» أي: القولُ الحقُّ الكائن. والخطابُ للنبي ﷺ، والمرادُ جميع المكلَّفين[٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا أحدَ أظلمُ منهم لأنفسهم؛ لأنَّهم افترَوا على الله كذباً، فأضافوا كلامه إلى غيره، وزعموا أنَّ له شريكاً وولداً[٣]، وقالوا للأصنام: هؤلاء شفعاؤنا عند الله.

﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: يحاسبُهم على أعمالهم.

﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ﴾ يعني: الملائكة الحَفَظة؛ عن مجاهد[٤] وغيره؛ وقال سفيان: سألتُ الأعمش عن «الأَشْهَادُ» فقال: الملائكة[٥]. الضَّحاك: هم الأنبياء والمرسلون؛ دليله قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾[٦] [النساء: ٤١]. وقيل: الملائكة والأنبياء والعلماء الذين بلَّغوا الرسالات.

---

(١) قول مقاتل والكلبي في النكت والعيون ٢/ ٤٦٢ ، وزاد المسير ٤/ ٨٩ .

(٢) قاله الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٤٦٢ .

(٣) ينظر تفسير البغوي ٢/ ٣٧٨ ، والمحرر الوجيز ٢/ ١٥٩ .

(٤) تفسير مجاهد ١/ ٣٠٢ ، وأخرجه الطبري ١٢/ ٣٦٧ .

(٥) أخرجه الطبري ١٢/ ٣٦٨ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٩ ، وأخرجه الطبري ١٢/ ٣٦٨ .

وقال قتادة: عنى الخلائق أجمع[١]. وفي «صحيح مسلم»[٢] من حديث صفوان بن مُحرِز، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ، وفيه قال: «وأمّا الكفّارُ والمنافقون فينادَى بهم على رؤوس الخلَائق: هؤلاءِ الذين كَذَبوا على الله».

﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: بُعدُه وسُخْطه وإبعادُه من رحمته على الذين وضعوا العبادةَ في غير موضعها.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يجوز أنْ تكون «الَّذِينَ» في موضع خفض نعتاً للظالمين، ويجوز أنْ تكون في موضع رفع، أي: هم الذين[٣]. وقيل: هو ابتداءُ خطاب من الله تعالى، أي: الذين[٤] يصدُّون أنفسهم وغيرَهم عن الإيمان والطاعة.

﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ أي: يعدلون بالنَّاس عنها إلى المعاصي والشرك ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ أعاد لفظ «هم» تأكيداً[٥].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: فائتين من عذاب الله. وقال ابن عباس: لم يُعجزوني أنْ آمر الأرض فتُخسف بهم[٦].

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ يعني: أنصاراً، و«مِنْ» زائدة. وقيل: «ما» بمعنى الذي[٧]، تقديره: أولئك لم يكونوا معجزين لا هم ولا الذين كانوا لهم من

---

(١) أخرجه الطبري ١٢/ ٣٦٧.
(٢) (٢٧٦٨)، وأخرجه أحمد (٥٤٣٦)، والبخاري (٢٤٤١).
(٣) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٦٠.
(٤) في (م): هم الذين.
(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٥.
(٦) في (د) و(ف) و(م): فتنخسف. والمثبت من (ز)، وهو الموافق لما في زاد المسير ٤/ ٩٠.
(٧) ينظر الدر المصون ٦/ ٣٠٢.

أولياء من دون الله؛ وهو قولُ ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: على قدر كُفرهم ومعاصيهم ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ «ما» في موضع نصبٍ على أنْ يكون المعنى: بما كانوا يستطيعون السمع، وبما كانوا يبصرون، ولم يستعملوا ذلك في استماع الحقِّ وإبصاره. والعرب تقول: جزيتُهُ ما فعل وبما فعل؛ فيحذفون الباء مرَّةً ويثبتونها أخرى؛ وأنشد سيبويه[1]:

أمَرْتُكَ الخيرَ فافعل ما أمِرتَ بهِ ... فقد تَركتُك ذا مالٍ وذا نَشَبِ

ويجوز أن تكون «ما» ظرفاً، والمعنى: يُضَاعف لهم العذاب[2] أبداً، أي: وقتَ استطاعتهم السَّمع والبصر، والله سبحانه يجعلهم في جهنم مستطيعي ذلك أبداً. ويجوز أنْ تكون «ما» نافيةً لا موضع لها؛ إذ الكلامُ قد تمَّ قبلها، والوقفُ على العذاب كافٍ؛ والمعنى: ما كانوا يستطيعون في الدنيا أنْ يسمعوا سمعاً ينتفعون به، ولا أنْ يُبصروا إبصارَ مهتد. قال الفرّاء[3]: ما كانوا يستطيعون السمع؛ لأنَّ الله أضلَّهم في اللوح المحفوظ. وقال الزجَّاج[4]: لِبُغضهم النبيَّ ﷺ وعداوتهم له، لا يستطيعون أنْ يسمعوا منه، ولا يفقهوا عنه. قال النحاس[5]: وهذا معروفٌ في كلام العرب؛ يقال: فلانٌ لا يستطيع أنْ ينظر إلى فلانٍ، إذا كان ذلك ثقيلاً عليه.

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ ابتداءٌ وخبر ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي: ضاعَ عنهم افتراؤُهم وتَلِف.

---

(١) في الكتاب ١/ ٣٧ . وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٦ والكلام منه، وسلف ٤/ ١٢٣ .

(٢) لفظ: العذاب. زيادة من (ظ) وهي موافقة لما في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٦ .

(٣) في معاني القرآن له ٢/ ٨ .

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ٤٥ .

(٥) في إعراب القرآن له ٢/ ٢٧٧ . وما قبله منه، وينظر مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٥٧ .

قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ﴾ للعلماء فيه أقوال؛ فقال الخليل وسيبويه[١]: «لَا جَرَمَ» بمعنى: حَقَّ، فـ «لا» و«جَرَمَ» عندهما كلمة واحدة، و«أنَّ» عندهما في موضع رفع؛ وهذا قول الفرّاء[٢] ومحمد بن يزيد[٣]؛ حكاه النحَّاس[٤].

قال المهدويّ: وعن الخليل أيضاً، أنَّ معناها: لابدَّ ولا محالة، وهو قول الفرَّاء[٥] أيضاً؛ ذكره الثعلبيّ.

وقال الزَّجَّاج[٦]: «لا» هاهنا نفي، وهو ردٌّ لقولهم: إنَّ الأصنامَ تنفعُهم، كأنَّ المعنى: لا ينفعهم ذلك، و«جَرَمَ» بمعنى: كَسَب، أي: كَسَب ذلك الفعلُ لهم الخسران، وفاعل كسب مُضمر، و«أنَّ» منصوبةٌ بجَرَم[٧]، كما تقول: كَسَبَ جفاؤُك زيداً غضبَه عليك. وقال الشاعر:

نَصبنا رأسَه في رأس جِذْعٍ[٨] ... بما جَرَمَتْ يداه وما اعْتَدينا[٩]

أي: بما كسبت.

وقال الكسائيّ: معنى «لَا جَرَمَ»: لا صَدَّ ولا مَنْع عن أنَّهم[١٠].

وقيل: المعنى: لا قَطَعَ قاطعٌ، فحذفَ الفاعل حين كَثُر استعماله[١١].

---

(١) ذكره في الكتاب ٣/ ١٣٨ على أنه قول المفسرين.

(٢) في معاني القرآن له ٢/ ٨ .

(٣) هو المبرّد، وكلامه في المقتضب ٢/ ٣٥١ .

(٤) في إعراب القرآن له ٢/ ٢٧٧ ، وينظر مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٥٧ - ٣٥٨ .

(٥) في معاني القرآن له ٢/ ٨ .

(٦) في معاني القرآن له ٣/ ٤٦ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٨ . وما قبله منه.

(٨) في (م) و(ظ): والنكت والعيون ٢/ ٤٦٤ : نصبنا رأسه في جذع نخل. والمثبت من (ز) و(د) و(ف) وهو الموافق لما في المصادر الآتية.

(٩) ورد في الزاهر لابن الأنباري ١/ ٢٧٢ ، وأمالي المرتضى ١/ ١١٠ ، والخزانة ١٠/ ٢٨٦ دون نسبة.

(١٠) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٨ .

(١١) ينظر مجمع البيان ١٢/ ١٢٩ .

والجَرْم: القَطْع؛ وقد جَرَمَ النَّخْلَ واجترَمَه، أي: صَرَمه، فهو جارِمٌ، وقومٌ جُرَّمٌ، وهذا زمن الجَرَام والجِرَام، وجَرَمتُ صوف الشاة، أي: جززتُه، وقد جَرَمتُ منه: إذا أخذتَ منه؛ مثل: جَلَمْتُ الشيءَ جَلْماً، أي: قطعتُه[(١)]، وجَلَمتُ الجزورَ أجلِمُها جَلْماً: إذا أخذتَ ما على عظامها من اللَّحم، وأخذتُ الشيءَ بجَلْمتِه ـ ساكنة اللام ـ إذا أخذتَه أجمع، وهذه جَلَمة الجزور ـ بالتحريك ـ أي: لحمُها أجمع. قاله الجوهريّ[(٢)].

قال النَّحاس[(٣)]: وزعم الكسائيُّ أنَّ فيها أربعَ لغات: لا جَرَمَ، ولا عن ذا جَرَم، ولا أنْ ذا جَرَم، قال: وناسٌ من فَزَارة يقولون: لا جَرَ أنَّهم، بغير ميم. وحكى الفرّاء فيه لغتين أُخريين قال: بنو عامرٍ يقولون: لا ذا جَرَمَ، قال: وناسٌ من العرب يقولون: لا جُرْم بضم الجيم[(٤)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ «الذين» اسمُ «إنَّ»، «آمَنُوا» صلة؛ أي: صدَّقوا ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ عطف على الصلة[(٥)].

قال ابن عباس: ﴿وَأَخْبَتُوٓاْ﴾: أنابوا[(٦)]. مجاهد: أطاعوا[(٧)]. قَتَادة: خشَعوا

---

(١) في (ظ) و(م) قطعت، والمثبت من (د) و(ف) وهو الموافق لما في الصحاح وسقط في (ز) من قوله: الشيء جلماً... إلى قوله قاله الجوهري.

(٢) في الصحاح (جرم) (جلم).

(٣) في إعراب القرآن له ٢/ ٢٧٨ .

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٨ - ٩ ، وليس فيه القول الثاني، وحكى القولين عنه النحاس في إعراب ٢/ ٢٧٨ . وينظر أمالي المرتضى ١/ ١١٠ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٨ .

(٦) أخرجه الطبري ١٢/ ٣٧٤ .

(٧) لم نقف على قول مجاهد بهذا اللفظ، والذي في تفسير مجاهد ١/ ٣٠٢ وتفسير الطبري ١٢/ ٣٧٥ وزاد المسير ٤/ ٩٣ : أخبتوا: اطمأنوا .

وخضَعوا[١]. مقاتل: أخلصوا[٢]. الحسن: الإخباتُ: الخشوعُ للمخافة الثابتة في القلب.

وأصلُ الإخبات: الاستواء، من الخَبْت، وهو الأرضُ المستوية الواسعة. فالإخباتُ: الخشوعُ أو الاطمئنان، أو: الإنابةُ إلى الله عزَّ وجلَّ، المستمرّة[٣]، وذلك[٤] على استِواء[٥].

«إِلَى رَبِّهِمْ» قال الفرّاء[٦]: إلى ربِّهم ولربِّهم، واحد، وقد يكون المعنى: وجَّهوا إخباتَهم إلى ربهم. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ﴾ خبر «إنَّ»[٧].

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ ابتداء، والخبر ﴿كَٱلْأَعْمَىٰ﴾ وما بعده. قال الأخفش[٨]: أي: كمثل الأعمى.

النحاس[٩]: التقديرُ: مَثَلُ فريق الكافر كالأعمى والأصمّ، ومثلُ فريق المؤمن كالسميع والبصير، ولهذا قال: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ فردَّ إلى الفريقين وهما اثنان؛ رُوي معناه عن قَتَادة وغيره[١٠].

---

(١) أخرجه الطبري ١٢/ ٣٧٥ .

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٤٦٥ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٩٣ .

(٣) في (ز) و(ظ): المستمر.

(٤) في النسخ عدا (ظ): ذلك. والمثبت من (ظ).

(٥) ينظر مجمع البيان ١٢/ ١٣٤ .

(٦) في معاني القرآن له ٢/ ٩ - ١٠ ، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٨ .

(٧) قوله: «أصحاب الجنة» سقط من النسخ، والكلام في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٨ .

(٨) في معاني القرآن له ٢/ ٥٧٦ .

(٩) في إعراب القرآن له ٢/ ٢٧٨ وما قبله منه.

(١٠) في النسخ: مَثَلُ فريق الكافر كالأصم، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس.

قال الضَّحَّاك: الأعمى والأصمُّ مثلٌ للكافر، والسميع والبصير مثلٌ للمؤمن(١).

وقيل: المعنى: هل يستوي الأعمى والبصير، وهل يستوي الأصمُّ والسميع؟ ﴿مَثَلًا﴾ منصوبٌ على التفسير(٢) ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ في الوصفين وتنظرون؟

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ ذكَر سبحانَه قصصَ الأنبياء عليهم السلام للنبي ﷺ تنبيهاً له على ملازمة الصبر على أذى الكفار إلى أنْ يكفيَه اللهُ أمرَهم.

﴿إِنِّى﴾ أي: فقال: إني؛ لأنَّ في الإرسال معنى القول. وقرأ ابن كثيرٍ وأبو عمرٍو والكسائيُّ: «أَنِّي» بفتح الهمزة(٣)، أي: أرسلناه بأني لكم نذيرٌ مبين(٤).

ولم يقل: «إنه»؛ لأنه رجع من الغَيبة إلى خطاب نوح لقومه؛ كما قال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ ثم قال: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥](٥).

قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: اتركوا الأصنام فلا تعبدوها، وأطيعوا الله وحده. ومَن قرأ: «إنّي» بالكسر جعله معترِضاً في الكلام، والمعنى: أرسلناه بألّا تعبدوا إلا الله(٦). ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

فيه أربع مسائل:

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٤١ .

(٢) في (م): التمييز، وهما بمعنى. وينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٦٢ .

(٣) السبعة ص٣٣٢ ، والتيسير ص١٢٤ ، وتفسير البغوي ٢/ ٣٧٩ والكلام منه.

(٤) الحجة للفارسي ٤/ ٣١٥ ، والكشف عن وجوه القراءات ١/ ٥٢٥ . قال مكي: لأن «أرسل» يتعدى إلى مفعولين، الثاني بحرف جر.

(٥) ينظر الحجة للفارسي ٤/ ٣١٥ .

(٦) ينظر الحجة ٤/ ٣١٦ ، والبحر ٥/ ٢١٤ .

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ قال أبو إسحاقَ الزجَّاج: الملأ الرؤساء؛ أي: هم مليئون بما يقولون[١]. وقد تقدّم هذا في «البقرة»[٢] وغيرِها.﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا﴾ أي: آدميًا ﴿مِّثْلَنَا﴾ نصبٌ على الحال[٣]. و«مثلَنا» مضافٌ إلى معرفة، وهو نكرةٌ يقدَّرُ فيه التنوينُ[٤]، كما قال الشاعر:

يا رُبَّ مِثْلِكِ في النِّساءِ غَريرَةٍ[٥]

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ أراذل جمع أرْذُل، وأَرْذُل جمع رَذْل، مثلُ كَلْب وأكْلُب وأكالب[٦]. وقيل: الأراذل جمع الأرْذَل[٧]، كأسَاود جمع الأسْوَد من الحيَّات. والرَّذْل: النَّذْل. أرادوا: اتَّبعك أخِسَّاؤنا وسَقَطُنا[٨] وسَفِلَتُنا.

قال الزجَّاج[٩]: نَسَبوهم إلى الحِياكة [والحِجامة]، ولم يعلموا أنَّ الصناعاتِ لا

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٧ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٧٩ . ووقع عند الزجاج: مَلاءٌ بالرأي وبما يُحتاج إليه منهم، بدل: مليئون بما يقولون.

(٢) ٤/ ٢٢٨ .

(٣) سياق الكلام عند المصنف رحمه الله قد يوهم أن المنصوب على الحال هو قوله: «مثلنا»، وإنما المنصوب على الحال هو قوله: «بشراً». وهذا على اعتبار أن الفعل من رؤية العين، ويجوز أن يكون الفعل من رؤية القلب، فيكون: «بشراً» المفعول الثاني. والأمر كذلك في قوله: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ﴾. وأما قوله: «مثلنا»، فمنصوب على النعت. ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٩ ، والإملاء للعكبري ٣/ ٢٦٧ (بهامش الفتوحات الإلهية)، وروح المعاني للآلوسي ١٢/ ٣٧ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٩ .

(٥) وعجزُه: بيضاء قد متَّعتُها بطلاق، والبيت لأبي محجن الثقفي كما في الكتاب ١/ ٤٢٧ و ٢/ ٢٨٦ ، وشرح الشواهد للشنتمري ص٢٤٢ و ٣٤٦ ، وشرح المفصل لابن يعيش ٢/ ١٢٦ ، وهو بلا نسبة في المقتضب ٤/ ٢٨٩ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٩ . قال الشنتمري: الشاهد فيه إضافة رب إلى مثلك؛ لأنها نكرة وإن كانت بلفظ المعرفة. والغريرة: المغترة بلين العيش، الغافلة عن صروف الدهر.

(٦) تفسير البغوي ٢/ ٣٨٠ .

(٧) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٤١ ، والمحرر الوجيز ٣/ ١٦٣ .

(٨) في (ظ): وسقطتنا.

(٩) في معاني القرآن ٤/ ٩٥ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

أثرَ لها في الدِّيانة.

قال النحاس[١]: الأراذل همُ الفقراءُ، والذين لا حَسَبَ لهم، والخسيسو الصناعاتِ. وفي الحديث: «إنَّهم كانوا حاكَةً وحَجَّامين»[٢]. وكان هذا جهلاً منهم؛ لأنهم عابوا نبيَّ الله ﷺ بما لا عيبَ فيه؛ لأنَّ الأنبياءَ صلواتُ الله وسلامُه عليهم إنما عليهم أنْ يأتُوا بالبراهين والآيات، وليس عليهم تغييرُ الصُّورِ والهيئات، وهم يُرسَلونَ إلى الناس جميعاً، فإذا أسْلَمَ منهم الدَّنيءُ، لم يلْحَقْهم من ذلك نقصانٌ؛ لأنَّ عليهم أن يقبلوا إسلامَ كلِّ مَنْ أسلَمَ منهم.

قلت: الأراذلُ هنا هم الفقراءُ والضعفاء، كما قال هِرَقْلُ لأبي سفيانَ: أشرافُ الناس اتَّبعوه أم ضعفاؤُهم؟ فقال: بل ضعفاؤهم، فقال: هم أتباعُ الرسل[٣].

قال علماؤنا: إنَّما كان ذلك لاستيلاء الرياسةِ على الأشراف، وصعوبةِ الانفكاك عنها، والأَنَفةِ من الانقيادِ للغير؛ والفقيرُ خَلِيٌّ عن تلك الموانعِ، فهو سريعٌ إلى الإجابة والانقياد. وهذا غالبُ أحوالِ أهل الدنيا[٤].

الثالثة: اختلف العلماء في تعيين السَّفِلَة على أقوال:

فذكر ابنُ المبارك عن سفيانَ: أنَّ السَّفِلَة هم الذين يَتَقلَّسون[٥]، ويأتون أبوابَ القضاةِ والسلاطين يطلبون الشهادات.

وقال ثعلبٌ عن ابن الأعرابي: السَّفِلَة: الذينَ يأكلونَ الدنيا بدينهم؛ قيل له: فَمَن

---

(١) في إعراب القرآن ٢/ ٢٧٩ .

(٢) لم نقف عليه عند غير النحاس، وسيذكره المصنف في المسألة التالية عن ابن عباس قوله. ذكره الألوسي في روح المعاني ١٩/ ١٠٧ .

(٣) أخرجه مطولاً أحمد (٢٣٧٠)، والبخاري (٢٩٤١)، ومسلم (١٧٧٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) المفهم ٣/ ٦٠٤ .

(٥) في (ظ): ينقلبون. والتقليس: استقبال الولاة عند قدومهم بأصناف اللهو. اللسان (قلس)، والخبر في ربيع الأبرار ونصوص الأخبار للزمخشري ٢/ ٤٦٧ .

سَفِلَةُ السَّفِلَة؟ قال: الذي يُصْلِحُ دنيا غيرِه بفسادِ دينه[١].

وسُئل عليٌّ ﷺ عن السَّفِلَة فقال: الذين إذا اجتمعوا غَلَبوا، وإذا تفرَّقوا لم يُعرَفُوا.

وقيل لمالكِ بنِ أنسٍ ﷺ: مَن السَّفِلَة؟ قال: الذي يَسُبُّ الصحابةَ[٢].

ورُوِيَ عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما: الأرذلون: الحاكَةُ والحجَّامون.

يحيى بنُ أكْثَم: الدَّباغ والكنَّاس إذا كان من غير العرب[٣].

الرابعة: إذا قالت المرأة لزوجها: يا سَفِلةُ! فقال: إن كنتُ منهم فأنتِ طالق، فحكى النقاشُ أنَّ رجلاً جاء إلى التِّرمذيِّ فقال: إنَّ امرأتي قالت لي: يا سَفِلة، فقلت: إن كنتُ سَفِلةً فأنتِ طالقٌ. قال التِّرمذيُّ: ما صناعتُك؟ قال: سمَّاكٌ، قال: سَفِلةٌ واللهِ، سَفلةٌ والله.

قلت: وعلى ما ذكره ابنُ المبارك عن سفيانَ لا تَطْلُقُ، وكذلك على قول مالك وابنِ الأعرابيِّ لا يَلْزَمُه شيءٌ.

قوله تعالى: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾. أي: ظاهرَ الرأي، وباطِنُهم على خلافِ ذلك[٤].

يقال: بدا يبدو: إذا ظهر، كما قال:

فـالـيـوم حـيـن بَـدَوْنَ لـلـنُّـظَّـارِ[٥]

ويقال للبرِّية: باديةٌ؛ لظهورها. وبدا لي أنْ أفعلَ كذا، أي: ظهرَ لي رأيٌ غيرُ

---

(١) ربيع الأبرار ٢/ ٤٦٧ ، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٦٩٣٣) عن مالك بن أنس أنه هو المسؤول.

(٢) ذكر الخبرين السالفين الزمخشري في ربيع الأبرار ٢/ ٤٨٧ و ٤٦٨ .

(٣) ربيع الأبرار ٢/ ٤٦٨ .

(٤) الوجيز للواحدي (على هامش مراح لبيد) ص٣٨٣ ، والمعنى: اتبعوك في ظاهر أمرهم، وعسى أن تكون بواطنهم ليست معك. البحر ٥/ ٢١٥ . وقال الفارسي في الحجة ٤/ ٣١٧ : المعنى: وما اتبعك إلا الأراذل فيما ظهر لهم من الرأي، أي: لم يتعقَّبوه بنظرٍ فيه ولا تبيُّنٍ له.

(٥) وصدره: قد كنَّ يَخْبَأْنَ الوجوهَ تَسَتُّراً، وقائله الربيع بن زياد كما في الأغاني ٧/ ١٩٦ ، والتعازي والمراثي للمبرد ص٢٨٠ ، وشروح سقط الزند ١/ ٥٢ ، وشرح ديوان الحماسة للتبريزي ٣/ ٢٦ ، وفيه: بَرَزْنَ، بدل: بَدَوْنَ.

الأول. وقال الأزهريُّ[١]: معناه: فيما يبدو لنا من الرأي. ويجوز أن يكونَ «بَادِيَ الرَّأْيِ» من بدأ يبدَأُ، وحذف الهمزةَ.

وحَقَّقَ أبو عمرٍو الهمزةَ فقرأ: «بَادِئَ الرأي»[٢] أي: أوَّلَ الرأي، أي: اتَّبعوك حين ابتدؤوا ينظرون، ولو أمْعَنوا النَّظَرَ والفِكْرَ لم يتَّبعوك. ولا يختلف المعنى هاهنا بالهمز وتَرْكِ الهمز[٣]. وانتصبَ على حذف «في»، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥][٤].

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي: في اتِّباعه، وهذا جَحْدٌ منهم لنبوَّته ﷺ. ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ الخطابُ لنوحٍ ومَن آمنَ معه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ أي: على يقين؛ قاله أبو عِمرانَ الجونيّ[٥]. وقيل: على معجزةٍ، وقد تقدَّم في «الأنعام» هذا المعنى[٦].

---

(١) في تهذيب اللغة ٤/ ٢٠٣.

(٢) السبعة ص٣٣٢، والتيسير ص١٢٤.

(٣) وقال الفارسي في الحجة ٤/ ٣١٧ - ٣١٨: وابتداء الشيء يكون ظهوراً، وإن كان الظهور قد يكون ابتداءً وغيرَ ابتداءٍ، فلذلك تُستعمل كلُّ واحدة من الكلمتين في موضع الأخرى.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٠.

(٥) أورده عنه الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٤٦٥ بلفظ: على ثقة. بدل: على يقين. وكذا أخرجه عنه ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٢٣ (١٠٨١٧).

(٦) ٨/ ٣٩٨.

﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ أي: نبوَّةً ورسالة؛ عن ابن عباس[١]؛ وهي رحمةٌ على الخلق. وقيل: الهدايةُ إلى الله بالبراهين. وقيل: الإيمان[٢] والإسلام.

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: عَمِيتْ عليكم الرسالةُ والهدايةُ فلم تفهموها. يقال: عَمِيتُ عن كذا، وعَمِيَ عليَّ كذا، أي: لم أَفهمْه. والمعنى: فَعَمِيت الرحمةُ. فقيل: هو مقلوبٌ؛ لأنَّ الرحمةَ لا تَعمَى إنَّما يُعمَى عنها، فهو كقولك: أدخلتُ القَلَنْسُوة في رأسي[٣]، ودخَلَ الخفُّ في رجلي.

وقرأها الأعمشُ وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ بضمِّ العين وتشديد الميم على ما لم يُسمَّ فاعِلُه[٤]، أي: فعمَّاها الله عليكم، وكذا في قراءة أُبيٍّ: «فعمَّاها»؛ ذكرها الماوَرْديّ[٥].

﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ قيل: شهادةُ أن لا إله إلا الله. وقيل: الهاءُ تَرجِعُ إلى الرحمة. وقيل: إلى البيِّنة، أي: أنلزمُكم قَبولها، وأُوجبُها عليكم[٦]؟! وهو استفهامٌ بمعنى الإنكار، أي: لا يُمكِنني أن أَضْطَرَّكم إلى المعرفة بها، وإنَّما قَصَدَ نوحٌ عليه السلام بهذا القولِ أن يردَّ عليهم.

وحكى الكسائيُّ والفرَّاءُ[٧]: «أَنُلْزِمْكُمُوهَا» بإسكان الميم الأولى تخفيفاً، وقد

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٤٦٦ .

(٢) في (م): بالإيمان.

(٣) في (د) و(ف) و(م): أدخلت في القلنسوة رأسي، وفي (ظ): أدخلت القلنسوة رأسي، وسقط هذا الموضع من (خ) و(ز)، والمثبت من الحجة للفارسي ٤/ ٣٢٢ والكلام منه، والمحرر الوجيز ٣/ ١٦٤ ، والبحر ٥/ ٢١٦ ، والدر المصون ٦/ ٣١٤ . وقال مكي في الكشف عن وجوه القراءات ١/ ٥٢٧ : ويجوز أن يكون معنى «عَميت»: خَفِيَت، فلا يكون فيه قلب.

(٤) وهي قراءة عاصم من رواية حفص أيضاً. السبعة ص٣٣٢ ، والتيسير ص١٢٤ . وذكرها عن الأعمش الفرَّاء في معاني القرآن ٢/ ١٢ .

(٥) في النكت والعيون ٢/ ٤٦٦ ، وذكرها أيضاً الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٢ ، وابن خالويه في القراءات الشاذة ص٥٩ . وذكرها الطبري ١٢/ ٣٨٢ عن ابن مسعود ﷺ.

(٦) ذكر هذا القول والذي قبله الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٤٦٦ .

(٧) في معاني القرآن ٢/ ١٢ ، ونقله المصنف عنه وعن الكسائي بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٨٠ .

أجاز مثلَ هذا سيبويهِ، وأنشد:

فـاليـومَ أشـربْ غيـرَ مُسـتَحْقِـبٍ إثْـمـاً مِـنَ الـلـهِ وَلَا وَاغِـلِ[١]

وقال النحاس[٢]: ويجوزُ على قول يونسَ [في غير القرآن]: أنلْزِمُكُمْهَا، يُجري المضمَر مُجرَى المُظْهَر؛ كما تقول: أنلزمُكمْ ذلك.

﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ أي: لا يصِحُّ قَبولُكم لها معَ الكراهة عليها. قال قتادةُ: والله لو استطاع نبيُّ الله نوحٌ عليه السلام لألزمها قومَه، ولكنَّه لم يملكْ ذلك[٣].

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على التبليغِ، والدعاءِ إلى الله، والإيمانِ به، أجراً، أي: ﴿مَالًا﴾ فيثقلَ عليكم. ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: ثوابي في تبليغِ الرسالة. ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ سألوه أنْ يطردَ الأراذلَ الذين آمنوا به، كما سألت قريشٌ النبيَّ ﷺ أنْ يطرُدَ المواليَ والفقراءَ، حَسْبَ ما تقدَّمَ في «الأنعام» بيانُه[٤]. فأجابَهم بقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ يَحتَمِلُ أن يكون قال هذا على وجهِ الإعظامِ لهم بلقاء الله عزَّ وجلَّ، ويَحتَمِلُ أن يكون قاله على وجهِ الاختصام، أي: لو فعلتُ ذلك لخاصموني عند الله، فيجازيهم على إيمانهم، ويجازي مَن طردهم. ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ في استرذالِكم لهم، وسؤالِكم طردَهم[٥].

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ﴾ قال الفرَّاء[٦]: أي: يمنعني من عذابه. ﴿إِن طَرَدتُّهُمْ﴾ أي: لأجْل إيمانهم. ﴿أَفَلَا تَذَّكَّرُونَ﴾ أُدغِمَت التاء في الذال. ويجوز

(١) الكتاب ٤/ ٢٠٤ ، والبيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٢٢ برواية: فاليوم أُسقى. وسلف ٢/ ١١٢ .

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٢٨ ، وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) النكت والعيون ٢/ ٤٦٦ ، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٢/ ٣٨٣ . وابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٢٣ (١٠٨١٩).

(٤) ٨/ ٣٨٧ وما بعدها.

(٥) النكت والعيون ٢/ ٤٦٧ .

(٦) في معاني القرآن ٢/ ١٣ .

حذفُها فتقول: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾[١].

قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ أخبر بتذلُّله وتواضُعِه لله عزَّ وجلَّ، وأنه لا يدَّعي ما ليس له من خزائن الله، وهي إنعامُه على مَن يشاء من عباده. وأنه لا يعلم الغيب؛ لأنَّ الغيبَ لا يعلمُه إلا الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ أي: لا أقول إنَّ منزلتي عند الناس منزلةُ الملائكة. وقد قالت العلماءُ: الفائدةُ في الكلام: الدلالةُ على أنَّ الملائكةَ أفضلُ من الأنبياء؛ لدوامهم على الطاعة، واتصالِ عبادتِهم إلى يوم القيامة، صلواتُ الله عليهم أجمعين[٢]. وقد تقدَّم هذا المعنى في «البقرة»[٣].

﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ أي: تستَقِلُّ[٤] وتحتقرُ أعينُكم، والأصلُ: تزدريهم، حُذِفت الهاءُ والميمُ لطول الاسم. والدَّالُ مبدلَةٌ من تاء؛ لأنَّ الأصلَ في تزدري: تَزْتَرِي، ولكنَّ التَّاءَ تُبْدَلُ بعدَ الزاي دالاً؛ لأنَّ الزَّايَ مَجْهورةٌ والتاءَ مهموسةٌ، فأُبدلَ من التاء حرفٌ مجهورٌ من مخرجها[٥]. ويقال: أَزْرَيتُ عليه: إذا عِبتَه، وزرَيتُ عليه: إذا حقَّرتَه[٦]. وأنشد الفرَّاء:

يُباعِدُه الصَّدِيقُ وتَزْدَريهِ حَلِيلَتُه ويَنْهَرُه الصَّغيرُ[٧]

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٠ ، وقرأ «تَذَكَّرون» بتخفيف الذال حيث وقع إذ كان بالتاء، حفص وحمزة والكسائي، وشدَّدها الباقون. التيسير ص١٠٨ ، وينظر السبعة ص٢٧٢ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٣) ١/ ٤٣٠ وما بعدها.

(٤) في (م): تستثقل.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨١ .

(٦) ينظر الكامل للمبرد ٢/ ٥٠٦ ، والنكت والعيون ٢/ ٤٦٨ .

(٧) البيت لعروة بن الورد، وهو في ديوانه ص٩١ ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ١/ ٢٤٢ ، والبيان والتبيين ١/ ٢٣٤ برواية: ويُقصَى في النَّديِّ وتزدريه...، وفي العقد الفريد ٣/ ٢٩ برواية: يباعده القريب...، وهو في النكت والعيون ٢/ ٤٦٨ موافق لرواية المصنف.

﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ أي: ليس لاحتقاركم لهم تَبْطُلُ أجورُهم، أو يَنقُصُ ثوابُهم. ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ فيجازيهم عليه ويؤاخذُهم به. ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: إن قلتُ هذا الذي تقدَّمَ ذكرُه(١). و«إذاً» ملغاةٌ؛ لأنها متوسطة(٢).

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ أي: خاصمتَنا فأكثرت خصومتَنا وبالغتَ فيها. والجَدَلُ في كلام العرب: المبالغةُ في الخصومة، مشتقٌّ من الجَدْل، وهو شدَّةُ الفَتْل. ويقال للصقر أيضاً: أَجْدَلُ؛ لشدَّته في الطَّير(٣)، وقد مضى هذا المعنى في «الأنعام»(٤) بأشبعَ من هذا. وقرأ ابن عباس: «فَأَكْثَرْتَ جَدَلَنَا». ذكره النحاس(٥).

والجَدَلُ في الدِّين محمود؛ ولهذا جادلَ نوحٌ والأنبياءُ قومَهم حتى يَظهرَ الحقُّ، فمَن قَبِله أَنْجَحَ وأَفْلَحَ، ومَن ردَّه خابَ وخَسِر. وأمَّا الجِدالُ لغير الحقِّ حتى يَظهرَ الباطلُ في صورةِ الحقِّ فمذمومٌ، وصاحبُه في الدَّارين مَلُوم.

﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ أي: مِنَ العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ في قولك.

---

(١) النكت والعيون ٢/٤٦٨ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨١ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٩ وفيه: لأنه من أشدّ الطير، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨١ ، وعنه نقل المصنف.

(٤) ٩/ ١٧ .

(٥) في إعراب القرآن ٢/ ٢٨١ ، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٠ ، وابن جني في المحتسب ١/ ٣٢١ عن ابن عباس وأيوب السختياني.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ أي: إن أراد إهلاكَكُم عذَّبكم. ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: بفائتين[١]. وقيل: بغالبينَ بكَثْرَتكم؛ لأنهم أُعجبوا بذلك؛ كانوا مَلَؤوا الأرضَ سهلاً وجبلاً على ما يأتي[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ﴾ أي: إبلاغي واجتهادي في إيمانكم ﴿إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ أي: لأنكم لا تَقبلون نُصحاً، وقد تقدَّم في «براءة»[٣] معنى النُّصْحِ لغةً.

﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ أي: يُضِلَّكم. وهذا مما يدلُّ على بطلان مذهب المعتزلة والقَدَريَّة ومَن وافقهما؛ إذ زعموا أنَّ اللهَ تعالى لا يريدُ أن يَعصيَ العاصي، ولا يَكفرَ الكافرُ، ولا يَغوَى الغاوي، وأنه يفعلُ ذلك واللهُ لا يريد ذلك؛ فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾. وقد مضى هذا المعنى في «الفاتحة» وغيرِها[٤]. وقد أكْذَبوا شيخَهم اللعينَ إبليسَ على ما بيَّنَّاه في «الأعراف»[٥] في إغواء الله تعالى إيّاه حيثُ قال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ [الأعراف:١٦]، ولا محيصَ لهم عن قول نوحٍ عليه السلام: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾، فأضاف إغواءَهم إلى الله سبحانه وتعالى؛ إذ هو الهادي والمُضِلُّ، سبحانه عمَّا يقول الجاحدون والظالمون عُلُوًّا كبيراً.

وقيل: «أَنْ يُغْوِيَكُمْ»: يُهلكَكم؛ لأنَّ الإضلالَ يُفضي إلى الهلاك. الطَّبريّ[٦]: «يُغْوِيَكُمْ»: يهلكَكم بعذابه؛ حُكي عن طيِّئ: أصبح فلانٌ غاوياً، أي: مريضاً، وأغويته: أهلكته، ومنه: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم:٥٩].

﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ فإليه الإغواءُ، وإليه الهدايةُ. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تهديدٌ ووعيد.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ يَعنونَ النبيَّ ﷺ. افترى: افتعل، أي: اختلَقَ

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٣٨١ .

(٢) ص١١٠ من هذا الجزء.

(٣) ٨/ ٢٢٦ .

(٤) ١/ ٢٣٠ و ٢٨٥ ، و ٥/ ٣١ ، وغيرها.

(٥) ٩/ ١٧١ - ١٧٢ .

(٦) في تفسيره ١٢/ ٣٨٩ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٣/ ٣٤٥ .

القرآنَ من قِبَل نفسِه، وما أخبرَ به عن نوحٍ وقومِه؛ قاله مقاتل[١].

وقال ابن عباس: هو من محاورةِ نوحٍ لقومه[٢]. وهو أظهرُ؛ لأنه ليس قَبْلَه ولا بعدَه إلا ذِكْرُ نوحٍ وقومِه، فالخطابُ منهم ولهم.

﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ أي: اختلقتُه وافتعلتُه، يعني الوحيَ والرسالة. ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِى﴾ أي: عقابُ إجرامي. وإنْ كنتُ مُحِقًّا فيما أقولُه فعليكم عقابُ تكذيبي. والإجرامُ مصدرُ أَجْرَمَ؛ وهو اقترافُ السَّيئة. وقيل: المعنى: أي جزاءُ جُرْمي وكَسْبي. وجَرَم وأَجْرَم بمعنًى، عن النحاس وغيرِه[٣]. قال:

طَـريـدُ عَـشـيـرةٍ ورَهـيـنُ جُـرْمٍ بـمـا جَـرَمَـتْ يَـدِي وجَـنَـى لِـسَـانـي[٤]

ومَن قرأ: «أَجْرَامي» بفتحِ الهمزة؛ ذهبَ إلى أنه جمعُ جُرْم؛ وذكره النحاس أيضاً[٥]. ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ أي: من الكفر والتكذيب.

قوله تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ «أنه» في

---

(١) ذكره البغوي ٢/ ٣٨١ ، وقال بهذا القول أيضاً الطبري ١٢/ ٣٨٩ ، والماوردي في النكت والعيون ٢/ ٤٦٨ .

(٢) ذكره البغوي ٢/ ٣٨١ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨١ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٩ .

(٤) قائله الهَيْرُدَان السعديُّ كما في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢٨٨ برواية: ورهين ذنب، وهو في النكت والعيون ٢/ ٤٦٨ دون نسبة موافق لرواية المصنف. وذكره أبو الفرج في الأغاني ٢/ ١٩١ عن الشاعر النَّمِري برواية:

طـريـد عـشـيـرة وطـريـد حـرب بـمـا اجـتـرمـت يـدي...

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٣٤٦ ، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٣ ، وللزجاج ٣/ ٤٩ ، وذكر القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٠ عن الفراء.

موضع رفعٍ على أنه اسمُ ما لم يُسمَّ فاعلُه. ويجوزُ أنْ يكون في موضع نصب، ويكونُ التقديرُ: بأنه[١]. و«آمَنَ» في موضعِ نصبٍ بـ «يؤمن»[٢]. ومعنى الكلامِ الإياسُ من إيمانهم، واستدامةُ كفرهم، تحقيقاً لنزول الوعيد بهم. قال الضحَّاك: فدعا عليهم لمَّا أُخْبِرَ بهذا فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ الآيتين [نوح:٢٦-٢٧][٣].

وقيل: إنَّ رجلاً من قوم نوحٍ حمَلَ ابنَه على كتفه، فلمَّا رأى الصبيُّ نوحاً قال لأبيه: أعطني حجراً؛ فأعطاه حجراً، ورمى به نوحاً عليه السلامُ فأدماه؛ فأوحى الله تعالى إليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾[٤].

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أي فلا تغتَمَّ بهلاكِهم حتى تكونَ بائساً، أي: حزيناً. والبؤسُ: الحزنُ، ومنه قولُ الشاعر:

وكم مِن خليلٍ أو حميمٍ رُزِئتُه ... فلم أبتئسْ والرُّزءُ فيه جَلِيلُ[٥]

يقال: ابتأسَ الرجلُ: إذا بلغَه شيءٌ يكرهُه. والابتئاسُ: حُزْن في استكانة.

قوله تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ أي: اعمل السفينةَ لتركبَها أنتَ ومَن آمَنَ معك. «بِأَعْيُنِنَا» أي: بمرأى منَّا وحيثُ نراك[٦]. وقال الرَّبيع بنُ أنس: بحفظِنا، [والتأويل: بحفظنا] إياكَ حِفظَ مَن يَراك[٧]. وقال ابنُ عباسٍ رضيَ الله عنهما:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٢ .

(٢) كذا قال المصنف رحمه الله، والواقع أن قوله: «آمن»، صلة الموصول، وقوله: «مَنْ قد آمن» في موضع رفع بـ«يؤمن». ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٢ ، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٣٦١ ، وإملاء العكبري ٣/ ٢٧٣ (بهامش الفتوحات الإلهية).

(٣) النكت والعيون ٢/ ٤٦٩ ، وأخرج خبر الضحاك الطبري ١٢/ ٣٩١ .

(٤) ذكر الثعلبي في عرائس المجالس ص٥٦ ، والبغوي ٢/ ٣٨٢ ، وابن الجوزي ٤/ ١٠١ قصة بمعنى هذه القصة، ولم نقف عليها بهذا اللفظ الذي ذكره المصنف.

(٥) النكت والعيون ٢/ ٤٦٩ ، وذكره أبو حيان ٥/ ٢٢٠ برواية: نبتئس، بدل: أبتئس.

(٦) ينظر النكت والعيون ٢/ ٤٦٩ ، وتفسير البغوي ٢/ ٣٨٢ . وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ١٦٦ : يريد: بمرأى منا وتحت إدراك، فتكون عبارة عن الإدراك والرعاية والحفظ.

(٧) الوسيط ٢/ ٥٧٢ ، وما سلف بين حاصرتين منه، وذكر خبر الربيع أيضاً ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ١٠١ .

بحراستنا، والمعنى واحد.

فعبَّر عن الرؤيةِ بالأعين؛ لأنَّ الرؤيةَ تكونُ بها[1]. ويكون جمعُ الأعينِ للعظمة لا للتكثير؛ كما قال تعالى: ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣] ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨] ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]. وقد رجع[2] معنى الأعينِ في هذه الآيةِ وغيرِها إلى معنى عين؛ كما قال: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٩]، وذلك كلُّه عبارةٌ عن الإدراكِ والإحاطةِ، وهو سبحانه منزَّه عن الحواسِّ والتشبيه والتكييف، لا ربَّ غيرُه.

وقيل: المعنى: «بِأَعْيُنِنَا»، أي: بأعينِ ملائكتِنا الذين جعلناهم عيوناً على حِفظك ومعونتك، فيكونُ الجمعُ على هذا التكثير على بابه.

وقيل: «بِأَعْيُنِنَا» أي: بعلمنا؛ قاله مقاتل[3]. وقال الضَّحَّاك وسفيان: «بِأَعْيُنِنَا»: بأمرنا. وقيل: بوَحْينا. وقيل: بمعونتِنا لك على صُنْعها. «وَوَحْيِنَا» أي: على ما أوحينا إليك مِن صنعتها. ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ أي: لا تطلبْ إمهالَهم فإنِّي مُغْرِقُهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ أي: وَطفِقَ يصنعُ. قال زيدُ بنُ أسلم: مكثَ

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٤٦٩، وحقُّ هذا الكلام أن يذكر إثر أول قول ذكره المصنف، وهو قوله: بمرأى منا، وكذا ذكره الماوردي.

(٢) في (د) و(ز) و(ف) و(م): وقد يرجع، والمثبت من (ظ). ووقع في المحرر الوجيز ٣/ ١٦٩ (والكلام منه): فرجع.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٣٨٢.

نوحٌ ﷺ مئةَ سنةٍ يَغرِسُ الشَّجرَ ويَقطعُها ويُيبِّسها، ومئةَ سنةً يعملُها(١).

وروَى ابنُ القاسم عن ابنِ أشرسَ عن مالكٍ قال: بلغني أنَّ قومَ نوحٍ مَلَؤوا الأرضَ، حتى مَلَؤوا السّهلَ والجبل، فما يستطيع هؤلاء أن ينزلوا إلى هؤلاء، ولا هؤلاء أن يصعدوا إلى هؤلاء، فمكث نوحٌ يَغرس الشجرَ مئة عامٍ لعمل السَّفينة، ثم جمعها يُيبِّسُها مئةَ عام، وقومُه يسخَرون، وذلك لما رأَوه يصنعُ من ذلك؛ حتى كان من قضاء الله فيهم ما كان(٢).

ورُويَ عن عمرو بنِ الحارث قال: عملَ نوحٌ سفينته ببقاعِ دمشقَ، وقَطَع خشبَها من جبل لبنانَ(٣).

وقال القاضي أبو بكر بنُ العربيِّ: لمَّا استنقذ الله سبحانَه وتعالى مَن في الأصلاب والأرحام من المؤمنين أوحَى الله إليه: أنه لن يؤمنَ مِن قومك إلّا مَنْ قد آمنَ، فاصنع الفُلك. قال: يا ربِّ! ما أنا بنجَّار. قال: بلى، فإنَّ ذلك بعيني. فأخذ القَدُوم فجعلَه بيده، وجعلتْ يدُه لا تُخطئ، فجعلوا يمرُّون به ويقولون: هذا الذي يزعمُ أنه نبيٌّ صار نجّاراً؛ فعَمِلَها في أربعين سنة(٤).

وحكى الثَّعلبيُّ وأبو نصر القُشَيريُّ عن ابن عباس قال: اتخذَ نوحٌ السفينةَ في سنتين(٥). زاد الثَّعلبيُّ: وذلك لأنه لم يعلمْ كيف صنعةُ الفُلْك، فأوحى الله إليه أن اصنعها كجُؤْجُؤ الطائر(٦). وقال كعب(٧): بناها في ثلاثين سنة، والله أعْلَمُ. المَهْدَويُّ: وجاء في الخبر أنَّ الملائكةَ كانت تُعلِّمه كيف يصنعُها.

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٤٧٠، وأخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٢٦ (١٠٨٤٦).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٤٥ - ١٠٤٦.

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١٧٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٤٦. وأخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٢٧ (١٠٨٤٧) عن كعب الأحبار.

(٥) ذكره البغوي ٢/ ٣٨٢.

(٦) أخرجه الطبري ١٢/ ٣٩٢، وابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٢٥ (١٠٨٣٣). والجؤجؤ: الصدر. النهاية (جؤجؤ).

(٧) هو كعب الأحبار، وكلامه في تفسير البغوي ٢/ ٣٨٣.

واختلفوا في طولها وعرضها؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما: كان طولُها ثلاثَ مئة ذراع، وعرضُها خمسون، وسمكُها ثلاثون ذراعاً، وكانت من خشب السَّاج[١]. وكذا قال الكَلْبيُّ وقَتادةُ وعِكْرمةُ: كان طولها ثلاثَ مئة ذراع. والذِّراعُ إلى المَنْكِب؛ قاله سلمانُ الفارسيّ[٢].

وقال الحسنُ البصريُّ: إنَّ طولَ السَّفينةِ ألفُ ذراعٍ ومئتا ذراع، وعرضَها ستُّ مئة ذراع[٣].

وحكى[٤] الثّعلبيُّ في كتاب «العرائس»[٥]: روَى عليُّ بنُ زيدٍ، عن يوسفَ بن مِهرانَ، عن ابن عباس قال: قال الحواريون لعيسى عليه السلام: لو بعَثْتَ لنا رجلاً شهدَ السفينةَ يحدِّثنا عنها. فانطلقَ بهم حتى انتهى إلى كَثِيبٍ من ترابٍ، فأخذَ كفًّا من ذلك التراب، قال: أتدرونَ ما هذا؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلَمُ! قال: هذا قبر سامِ بنِ نوح[٦]، قال: فضربَ الكثيبَ بعصاه وقال: قم بإذن الله، فإذا هو قائمٌ ينفضُ التراب عن رأسه وقد شابَ[٧]، فقال له عيسى: أهكذا هلكْتَ؟ قال: لا، بل مِتُّ وأنا شابٌّ، ولكنني ظننتُ أنها الساعةُ، فمن ثَمَّ شِبتُ. قال: أَخبِرْنا عن سفينة نوح؟ قال: كان طولُها ألفَ ذراع ومئتي ذراع، وعرضُها ستَّ مئة ذراع، وكانت ثلاثَ طبقات؛ طبقة فيها الدوابُّ والوحش، وطبقة فيها الإنس، وطبقة فيها الطير. وذَكَر باقيَ الخبرِ

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٣٨٢، وأخرجه الطبري ١٢/ ٣٩٤ عن قتادة. والساج: شجر يعظم جدًّا، ويذهب طولاً وعرضاً، يتغطى الرجل بورقة منه فتكنه من المطر. اللسان (سوج).

(٢) أخرجه الطبري ١٢/ ٤٠٠.

(٣) أخرجه الطبري ١٢/ ٣٩٥.

(٤) في (ز) و(ظ) و(ف) و(م): وحكاه، والمثبت من (د).

(٥) ص٦٠، وأخرجه الطبري في التفسير ١٢/ ٣٩٥، وفي التاريخ ١/ ١٨١.

(٦) في العرائس: هذا سام بن نوح، وفي تفسير الطبري: هذا كعب حام بن نوح، وفي التاريخ: هذا قبر حام بن نوح.

(٧) في النسخ الخطية: وقد شاخ، والمثبت من (م) والمصادر.

على ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى(١).

وقال الكَلْبيُّ فيما حكاه النقاش: ودخل الماءُ فيها أربعةَ أذرُع، وكان لها ثلاثةُ أبواب؛ بابٌ فيه السِّبَاع والطير، وبابٌ فيه الوحش، وبابٌ فيه الرجال والنساء.

ابن عباس: جعلها ثلاثَ بطون؛ البطنُ الأسفلُ للوحوش والسباع والدوابّ، والأوسَطُ للطعام والشراب، ورَكِبَ هو في البطن الأعلى، وحمل معه جسَدَ آدمَ عليه السلامُ معترِضاً بينَ الرجال والنساء(٢)، ثم دفنه بعدُ ببيت المقدِس، وكان إبليسُ معهم في الكَوْثَل(٣).

وقيل: جاءت الحيَّةُ والعقربُ لدخول السفينة، فقال نوح: لا أحملُكما؛ لأنكما سببُ الضَّررِ والبلاء، فقالتا: احملنا فنحن نضمن لك ألَّا نَضُرَّ أحداً ذَكَرك. فَمَن قرأ حينَ يخاف مَضَرَّتهما: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩] لم تضرَّاه(٤)؛ ذكره القشيريُّ وغيرُه.

وذكر الحافظُ ابن عساكر في «التاريخ» له مرفوعاً من حديث أبي أُمامةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قال حين يُمسي: صلَّى الله على نوح، وعلى نوحٍ السلامُ، لم تلدغه عقربٌ تلك الليلة»(٥).

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّمَا﴾ ظرفٌ ﴿مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ﴾ قال الأخفشُ

---

(١) ص١٢١ من هذا الجزء. قال أبو حيان في البحر ٥/ ٢٢١ : اختلفوا في هيئتها من التربيع والطول، وفي مقدار مدة عملها، وفي المكان الذي عملت فيه، ومقدار طولها وعرضها، على أقوال متعارضة لم يصح منها شيء. وقال الرازي ١٧/ ٢٢٤ : اعلم أن أمثال هذه المباحث لا تعجبني؛ لأنها أمور لا حاجة إلى معرفتها البتة، ولا يتعلق بمعرفتها فائدة أصلاً.

(٢) قوله: وحمل معه جسد آدم...، جزء من خبر أخرجه الطبري في التاريخ ١/ ١٨٥ عن طريق الكلبي، عن أبي صالح عن ابن عباس، وما قبله ذكره عن ابن عباس البغوي ٢/ ٣٨٣ .

(٣) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٧١ . والكوثل: مؤخَّر السفينة. اللسان (كثل).

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٣٨٤ .

(٥) تاريخ ابن عساكر ٦٢/ ٢٥٦ ، وأخرجه أيضاً ابن عدي في الكامل ٢/ ٤٤٠ ، وفيه بشر بن نمير، قال فيه الحافظ في التقريب: متروك متهم.

والكِسائيُّ يقال: سَخِرْتُ به ومنه[١].

وفي سخريتهم منه قولان: أحدُهما: أنهم كانوا يرَونه يبني سفينةً في البَرّ، فيسخرون به ويستهزئون ويقولون: يا نوحُ، صرتَ بعد النبوَّة نجاراً.

الثاني: لمَّا رَأَوْه يبني السفينةَ ولم يشاهدوا قبلَها سفينةً بُنيتْ قالوا: يا نوحُ ما تصنعُ؟ قال: أبني بيتاً يمشي على الماء. فعجبوا من قوله وسخروا منه. قال ابن عباس: ولم يكنْ في الأرضِ قبلَ الطُّوفان نهرٌ ولا بحر؛ فلذلك سخروا منه، ومياهُ البحار هي بقيةُ الطوفان[٢].

﴿قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا﴾ أي: من فِعْلِنا اليومَ عند بناء السفينة ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ غداً عند الغرق. والمرادُ بالسخريةِ هنا: الاستجهالُ؛ ومعناه: إنْ تَسْتَجْهِلونا فإنَّا نستجهلُكم كما تستجهلونا[٣].

قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ تهديدٌ، و«مَنْ» متَّصلةٌ بـ «سوف تعلمون»، و«تعلمون» هنا من باب التعدية إلى مفعول، أي: فسوف تعلمون الذي يأتيه العذابُ. ويجوز أن تكونَ «مَن» استفهاميةً؛ أي: أيُّنا يأتيه العذابُ؟ وقيل: «مَن» في موضعِ رفعٍ بالابتداء[٤]، و«يأتيهِ» الخبر، و«يُخْزِيه» صفةٌ لـ «عذاب».

وحكى الكسائيُّ: أنَّ أناساً من أهل الحجاز يقولون: سَوْ تعلمون، وقال: مَن قال: «ستعلمون» أسقَطَ الواوَ والفاءَ جميعاً. وحكى الكوفيُّونَ: سَفَ تعلمون، ولا

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٢ .

(٢) كذا نقل المصنف عن الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٤٧١ ، وهو مخالف لصريح النقل، وفي نسبته لابن عباس نظر.

(٣) النكت والعيون ٢/ ٤٧١ ، وذكره أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١٧١ وقال: إلا أن التصريف يضعفه.

(٤) كذا وقع في النسخ، والواقع أن «مَنْ» في موضع رفع بالابتداء، وذلك على أنها استفهامية، فلعل الصواب حذف لفظة «قيل» في قوله: وقيل: «من» في موضع رفع... وتكون العبارة: و«من» في موضع رفع... ينظر تفسير الرازي ١٧/ ٢٢٤ - ٢٢٥ ، والبحر المحيط ٥/ ٢٢٢ .

يعرفُ البصريونَ إلا سوفَ تفعلُ، وستفعلُ، لغتان ليست إحداهما من الأخرى[(١)].

﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ أي: يجبُ عليه وينزلُ به. ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: دائمٌ، يريدُ عذابَ الآخرة.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ اختُلِفَ في التنُّور على أقوالٍ سبعة:

الأول: أنه وجهُ الأرضِ، والعربُ تسمِّي وجهَ الأرضِ تنُّوراً؛ قاله ابنُ عباس وعِكرمةُ والزُّهريُّ وابنُ عُيَيْنَةَ، وذلك أنه قيل له: إذا رأيتَ الماءَ على وجه الأرض فاركبْ أنت ومَن معك[(٢)].

الثاني: أنه تنُّورُ الخبز الذي يُخْبَزُ فيه، وكان تنُّوراً من حجارة، وكان لحوَّاءَ حتى صار لنوح، فقيل له: إذا رأيتَ الماءَ يفور من التنُّور؛ فاركب أنت وأصحابُك. وأَنْبَعَ اللهُ الماءَ من التنُّور، فعلمتْ به امرأتُه، فقالت: يا نوحُ، فار الماءُ من التنُّور، فقال: جاء وعدُ ربي حقًّا. هذا قول الحسن، وقاله مجاهدٌ، وعطيةُ عن ابن عباس[(٣)].

الثالث: أنه موضعُ اجتماع الماءِ في السفينة؛ عن الحسن أيضاً[(٤)].

الرابع: أنه طلوعُ الفجر، ونورُ الصبح؛ من قولهم: نوَّرَ الفجرُ تنويراً؛ قاله عليُّ ابنُ أبي طالبٍ ﷺ[(٥)].

الخامس: أنه مسجدُ الكوفة؛ قاله عليّ بن أبي طالب أيضاً[(٦)]، وقاله مجاهد.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٢، وينظر الإنصاف في مسائل الخلاف ٢/ ٦٤٦ - ٦٤٧.

(٢) النكت والعيون ٢/ ٤٧٢، وأخرجه عن ابن عباس وعكرمة الطبري ١٢/ ٤٠١ - ٤٠٢، وذكره عن الزهري البغويُّ ٢/ ٣٨٣.

(٣) أخرج هذه الأخبار الطبري ١٢/ ٤٠٤ - ٤٠٥، وعطية هو العوفي.

(٤) أورده ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١٧١.

(٥) أورده النحاس في معاني القرآن ٣/ ٣٤٨، والماوردي في النكت والعيون ٢/ ٤٧٢، وأخرجه الطبري ١٢/ ٤٠٢ - ٤٠٣.

(٦) أورده أبو الليث ٢/ ١٢٦، والماوردي في النكت والعيون ٢/ ٤٧٢، وأخرجه الطبري ١٢/ ٤٠٦ عن الشعبي. وأخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٢٨ (١٠٨٥٦) عن محمد بن علي.

قال مجاهد: كان ناحيةُ التنُّور بالكوفة. وقال: اتخذَ نوحٌ السفينةَ في جوف مسجدِ الكوفةِ، وكان التنورُ على يمين الدَّاخل مما يلي كِندةَ. وكان فَوَرانُ الماء منه عَلَماً لنوح، ودليلاً على هلاك قومه[١]. قال الشاعرُ وهو أمية:

فـار تـنُّـورُهـم وجـاشَ بـمـاءٍ صار فوق الجبالِ حتى عَلَاها[٢]

السادس: أنه أعالي الأرض، والمواضعُ المرتفعةُ منها؛ قاله قتادة[٣].

السابع: أنه العينُ التي بالجزيرة «عين الوردة» رواه عِكرمة[٤]. وقال مقاتل: كان ذلك تنُّورَ آدمَ، وإنما كان بالشام بموضع يقال له: «عينُ وَرْدَة»[٥]. وقال ابن عباس أيضاً: فارَ تنُّورُ آدمَ بالهند[٦].

قال النحاس[٧]: وهذه الأقوال ليست بمتناقضة؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ أخبرنا أنَّ الماء جاء من السماء والأرض؛ قال: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١١، ١٢]. فهذه الأقوالُ تجتمعُ في أنَّ ذلك كان علامةً.

والفَوَرانُ: الغَلَيَانُ[٨]. والتنُّور اسمٌ أعجميٌّ عرَّبتْه العربُ، وهو على بناء فَعَّل؛ لأنَّ أصْلَ بنائه: تَنَّرَ، وليس في كلام العرب نونٌ قبل راء[٩].

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٣٨٣ - ٣٨٤ ، وعرائس المجالس ص٥٧ .

(٢) النكت والعيون ٢/ ٤٧٢ ، وأمية هو ابن أبي الصلت، والبيت في ديوانه ص١٤٩ برواية: طمَّ، بدل: صار.

(٣) أخرجه الطبري ١٢/ ٤٠٤ .

(٤) النكت والعيون ٢/ ٤٧٢ وأخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٢٩ (١٠٨٩٥) من طريق عكرمة عن ابن عباس. وعين الوردة: هو رأسُ عين، المدينةُ المشهورة بالجزيرة. وبقربها يقع جبل طورزيتا عند قنطرة الخابور. ينظر معجم البلدان ٤/ ٤٧ و ١٨٠ .

(٥) تفسير البغوي ٢/ ٣٨٤ . وعرائس المجالس ص٥٧ .

(٦) تفسير البغوي ٢/ ٣٨٤ ، وأخرجه الطبري ١٢/ ٤٠٨ بلفظ: فار التنور بالهند.

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٣٤٨ - ٣٤٩ .

(٨) عرائس المجالس ص٥٧ ، وتفسير البغوي ٢/ ٣٨٤ .

(٩) ينظر تهذيب اللغة ١٤/ ٢٦٩ - ٢٧٠ ، ومقاييس اللغة ٣/ ٢٨ .

وقيل: معنى: «فَارَ التَّنُورُ»: التمثيلُ لحضور العذاب، كقولهم: حَمِيَ الوطيسُ: إذا اشتدَّت الحرب. والوطيسُ: التنُّور. ويقال: فارت قِدرُ القومِ: إذا اشتدَّ حربُهم[١]؛ قال شاعرهم:

تـركـتُـم قِـدْرَكـم لا شـيءَ فـيـهـا وقِـدْرُ الـقـوم حـامـيـةٌ تَـفُـورُ[٢]

قوله تعالى: ﴿قلنا احْمِلْ فيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ يعني ذكراً وأنثى؛ لبقاء أصل النَّسْل بعد الطوفان. وقرأ حفصٌ: ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ بتنوينِ «كلٍّ» أي: من كلِّ شيءٍ زوجين[٣]. والقراءتان ترجعان إلى معنى: واحدٌ[٤] معه آخَرُ لا يَستغنِي عنه[٥]. ويقال للاثنين: هما زوجان، في كلِّ اثنين لا يَستغني أحدُهما عن صاحبه؛ فإنَّ العربَ تسمِّي كلَّ واحدٍ منهما زوجاً[٦]. يقال: له زوجا نعلٍ، إذا كان له نعلان. وكذلك: عنده زوجا حمامٍ، وعليه زوجا قُيود، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥][٧]. ويقال للمرأة: هي زوجُ الرجل، وللرجل: هو زوجُها.

وقد يقال للاثنين: هما زوجٌ[٨]. وقد يكون الزوجانِ بمعنى الضَّرْبين، والصِّنفين، وكلُّ ضَرْبٍ يُدْعَى زوجاً؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]

---

(١) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٧١، ومجمع البيان ١٢/ ١٥٧. وقوله: حميَ الوطيس، أولُ مَن قال هذه الكلمة رسول الله ﷺ في غزوة حنين، قال: «هذا حين حمي الوطيس» أخرجه مطولاً أحمد (١٧٧٥)، ومسلم (١٧٧٥). قال أبو العباس في المفهم ٣/ ٦١٧: وهذه الاستعارة عجيبة لا يُعرف مَن تكلَّم بها قبل النبي ﷺ من العرب، ومنه تُلُقِّيَتْ فصُيِّرت مثلاً في الأمر إذا اشتد.

(٢) قائله جبل بن جوَّال الثعلبي كما في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٧٣.

(٣) السبعة ص٣٣٣، والتيسير ص١٢٤. قال الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٥١: والمعنى واحدٌ في الزوجين أَضَفْتَ أم لم تُضِفْ.

(٤) بعدها في (م): شيء.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٩.

(٦) تفسير البغوي ٢/ ٣٨٤.

(٧) تفسير الطبري ١٢/ ٤٠٨. وذكره بعض أهل العلم بكلام العرب من الكوفيين.

(٨) الحجة للفارسي ٤/ ٣٢٥، وذكره عن أبي الحسن الأخفش.

أي: من كلٍّ لونٍ وصنف[١]. وقال الأعشى:

وكـلُّ زوجٍ مـن الـدِّيبـاجِ يَـلـبَـسـهُ أبـو قُـدامـةَ مَـحْـبُـوٌّ بـذاك مَـعَـا[٢]

أراد: كلَّ ضربٍ ولون.

و﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ في موضع نصبٍ بـ «احمل»[٣]. ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ تأكيد ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أي: واحملْ أهلَك ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ﴾ «مَن» في موضع نصبٍ بالاستثناء[٤]. ﴿عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ منهم، أي: بالهلاك، وهو ابنُه كنعانُ وامرأتُه وَاعِلَةُ؛ كانا كافرَيْن[٥]. ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ قال الضحَّاك وابن جُريج: أي: احمل مَن آمن بي، أي: مَن صدَّقك، فـ «مَن» في موضع نصبٍ بـ «احمل».

﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: آمنَ مِن قومِه ثمانونَ إنساناً[٦]. منهم ثلاثةٌ من بنيه: سامٌ وحامٌ ويافث، وثلاثُ كنائنَ له[٧]. ولمَّا خرجوا من السفينة بنَوْا قريةً وهي اليوم تُدْعَى قريةَ الثمانين بناحيةِ الموصلِ[٨].

وورد في الخبر: أنه كان في السفينة ثمانيةُ أنْفُس؛ نوحٌ وزوجتُه غيرُ التي عوقبت، وبنوه الثلاثةُ وزوجاتُهم. وهو قولُ قتادةَ والحَكَم بنِ عُتَيْبةَ وابنِ جريجٍ

---

(١) ينظر تفسير الطبري ١٢/ ٤٠٨، والمحرر الوجيز ٣/ ١٧١.

(٢) ديوان الأعشى ميمون بن قيس ص١٥٧، وتفسير الطبري ١٢/ ٤٠٩ وهو فيهما برواية وفيهما: محبوًّا، والبيت من قصيدة في مدح هوذة بن علي، وهو أبو قدامة.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٣.

(٤) المصدر السابق.

(٥) تفسير البغوي ٢/ ٣٨٤، والمحرر الوجيز ٣/ ١٧٢ وفيه: والعة، بدل: واعلة. وقال ابن عطية: وقيل: هو عموم في مَن لم يؤمن من قوم نوح وعشيرته.

(٦) أخرجه الطبري ١٢/ ٤١٢.

(٧) تفسير الطبري ١٢/ ٤١١، وعرائس المجالس ص٥٨، وتفسير البغوي ٢/ ٣٨٤.

(٨) هي بليدة عند جبل الجودي قرب جزيرة ابن عمر التغلبي فوق الموصل. معجم البلدان ٢/ ٨٤، والخبر أخرجه مطولاً ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٣٢ (١٠٨٨٢). عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ومحمد بنِ كعب(١). فأصاب حامٌ امرأتَه في السفينة، فدعا نوحٌ اللهَ أنْ يُغيِّرَ نطفتَه فجاء بالسُّودان(٢). قال عطاء: ودعا نوحٌ على حام ألَّا يَعْدُوَ شَعْرُ أولادِه آذانَهم، وأنَّهم حيثُما كان ولدُه يكونون عبيداً لولد سام ويافث(٣).

وقال الأعمش: كانوا سبعةً: نوحٌ، وثلاثُ كنائنَ، وثلاثةُ بنينَ(٤)، وأسقطَ امرأةَ نوح. وقال ابنُ إسحاق: كانوا عشرةً سوى نسائِهم: نوحٌ وبنوه سام وحام ويافث، وستةُ أناس ممن كان آمَن به، وأزواجُهم جميعاً(٥).

و«قَلِيلٌ» رفع بـ«آمَنَ»، ولا يجوزُ نصبُه على الاستثناء؛ لأنَّ الكلامَ قبلَه لم يتمَّ، إلَّا أنَّ الفائدةَ في دخولِ «إلَّا» و«مَا»؛ أنك(٦) لو قلتَ: آمنَ معَه فلانٌ وفلانٌ جازَ أن يكونَ غيرُهم قد آمن؛ فإذا جئت بما وإلَّا، أوجبتَ لمَا بعدَ إلَّا، ونفيتَ عن غيرِهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٤١ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ۝٤٢ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ۝٤٣ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝٤٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا﴾ أمرٌ بالركوب؛ ويَحتمِل أن يكونَ من الله تعالى،

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٣٨٤ دون ذكر الحكم، وأخرجه عن قتادة وابن جريج الطبري ١٢/ ٤١٠ - ٤١١. وأخرج عن الحكم قوله: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾: نوح، وثلاثة بنيه، وأربع كنائنه.

(٢) هذا تتمة خبر ابن جريج - المذكور في التعليق السابق - عند الطبري ١٢/ ٤١١.

(٣) عرائس المجالس ص٦٢.

(٤) أخرجه الطبري ١٢/ ٤١١.

(٥) تفسير البغوي ٢/ ٣٨٤.

(٦) في النسخ: لأنك، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٣.

ويحتملُ أن يكون مِن نوحٍ لقومه. والركوبُ: العلوُّ على ظهر الشيء. ويقال: ركبه الدَّيْن. وفي الكلام حذف، أي: اركبوا الماءَ في السفينة. وقيل: المعنى: اركبوها، و«في» للتأكيد؛ كقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف:٤٣](١) وفائدة «في»: أنَّهم أُمروا أن يكونوا في جوفها لا على ظهرها(٢).

قال عِكرمة: رَكِب نوحٌ عليه السلام في الفُلْك لعشرٍ خلَوْنَ من رجب، واستوت على الجُوديِّ لعشرٍ خلَون من المحرم، فذلك ستةُ أشهر. وقاله قَتادةُ وزاد: وهو يومُ عاشوراء، فقال لمن كان معه: مَن كان صائماً فلْيتمَّ صومَه، ومَن لم يكن صائماً فليصُمْه(٣).

وذكر الطبريُّ في هذا حديثاً عن النبيِّ ﷺ: أنَّ نوحاً ركب في السفينة أوَّلَ يومٍ من رجب، وصام الشهرَ أجمعَ، وجرت بهم السفينةُ إلى يومِ عاشوراء، ففيه أرسَتْ على الجوديِّ، فصامه نوح ومَن معه(٤).

وذكر الطبريُّ عن ابن إسحاقَ ما يقتضي أنه أقام على الماء نحوَ السنة(٥). ومرَّت بالبيت فطافت به سبعاً، وقد رفعه الله عن الغرق فلم يَنَلْه غرقٌ، ثم مضتْ إلى اليمن، ورجعت إلى الجوديِّ فاستوت عليه(٦).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ قراءةُ أهل الحرمين وأهلِ البصرة بضم

---

(١) أي: إن كنتم تعبُرون الرؤيا، فاللام صلة. ينظر المدهش لابن الجوزي ص٣٣ ، وتاج العروس (عبر)، والبحر ٥/ ٣١٢ .

(٢) ينظر تفسير الرازي ١٧/ ٢٢٨ ، والبحر ٥/ ٢٢٤ ، والدر المصون ٦/ ٣٢٤ .

(٣) النكت والعيون ٢/ ٤٧٣ عن قتادة، وأخرجه عنه الطبري ١٢/ ٤٢٠ ، ولم نقف عليه عن عكرمة.

(٤) تفسير الطبري ١٢/ ٤١٩ – ٤٢٠ من طريق عبد العزيز بن عبد الغفور، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ، وذكره. قال الحافظ في الإصابة ٧/ ٣٢٦ : وهذا مقلوب وفيه انقطاع، والصواب رواية عبد الغفور، عن أبيه عبد العزيز، عن أبيه سعيد. هذا من حيث السند، وإلا فرجالُه ما بين ضعيف ومجهول.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ١٧٥ .

(٦) أخرجه الطبري ١٢/ ٤٢٠ عن ابن جريج.

الميم فيهما إلا مَن شذّ [منهم] على معنًى: بسم الله إجراؤها وإرساؤها، فمُجْراها ومُرساها في موضع رفعٍ بالابتداء، ويجوز أن تكونَ في موضع نصب، ويكونُ التقدير: بسم الله وقتَ إجرائها، ثم حُذِفَ وقت، وأُقيمَ «مُجراها» مُقامه[١].

وقرأ الأعمش وحمزةُ والكسائي: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيٰهَا﴾ بفتح الميم[٢]. ﴿وَمُرْسَىٰهَآ﴾ بضم الميم.

وروى يحيى بنُ عيسى، عن الأعمش، عن يحيى بن وثّاب: «بسم الله مَجْرَاها وَمَرْساها» بفتح الميم فيهما، على المصدر من جَرت تَجري جرياً ومَجرًى، ورَست رُسُوًّا ومَرْسًى: إذا ثبتَتْ[٣].

وقرأ مجاهدٌ ومسلم[٤] بنُ جُنْدُب وعاصم الجَحْدَريُّ وأبو رَجاء العُطَارِدِيُّ: «بسم الله مُجْرِيها ومُرْسِيها» نعتٌ لله عزَّ وجلَّ في موضعِ جرّ. ويجوز أن يكون في موضعِ رفعٍ على إضمارِ مبتدأ، أي: هو مُجريها ومُرسيها. ويجوز النصب على الحال[٥].

وقال الضحَّاك: كان نوح عليه السلام إذا قال: بسم الله مَجراها، جرت. وإذا قال: بسم الله مَرساها، رست[٦].

وروى مروان بن سالم، عن طلحةَ بنِ عبيد الله بن كَرِيز، عن الحسين بن عليٍّ، عن النبيِّ ﷺ قال: أمَانٌ لأمتي من الغرق إذا ركبوا في الفلك: بسم الله الرحمن الرحيم:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٣ . وما بين حاصرتين منه، وذكر النحاس أنه يجوز أيضاً أن يكون التقدير: باسم الله موضعَ إجرائها، ثم حُذف موضع، وأقيم مجراها مقامه.

(٢) السبعة ص٣٣٣ ، والتيسير ص١٢٤ . والكلام من إعراب القرآن للنحاس.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٣ .

(٤) في النسخ: وسليمان، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس، وهو الصواب. وينظر معرفة القراء الكبار ١/ ١٨٤ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٣ - ٢٨٤ ، وذكر القراءة عن مجاهد والجحدري ابنُ خالويه في القراءات الشاذة ص٦٠ .

(٦) أخرجه الطبري ١٢/ ٤١٦ .

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[(١)].

وفي هذه الآية دليلٌ على ذكر البسملة عند ابتداء كلِّ فعلٍ، على ما بيَّنّاه في البسملة[(٢)]، والحمد له. ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: لأهل السفينة.

ورُوي عن ابن عباس قال: لمَّا كثُرت الأرْواثُ والأقذار أوحى الله إلى نوح: اغمِزْ ذَنَب الفيل، فوقع منه خنزيرٌ وخنزيرةٌ، فأقبلا على الرَّوث، فقال نوح: لو غمزتُ ذنبَ هذا الخنزير! ففعل، فخرج منه فأرٌ وفأرة، فلمَّا وقعا أقبلا على السفينة وحبالِها تقرضها، وتقرِضُ الأمتعةَ والأزواد، حتى خافوا على حبال السفينة، فأوحى الله إلى نوحٍ أن امسح جبهةَ الأسد، فمسحَها، فخرج منها سِنَّورانِ فأكلا الفِئْرة[(٣)].

ولمَّا حَمل الأسدَ في السفينة قال: يا ربِّ من أين أُطعمُه؟ قال: سوف أَشغلُه، فأخذَتْه الحُمَّى، فهو الدهرَ محمومٌ[(٤)].

قال ابن عباس[(٥)]: وأوَّل ما حمل نوحٌ من البهائم في الفلك حَملَ الإوزّةَ[(٦)]، وآخِرُ ما حملَ حملَ الحمارَ، قال: وتعلَّق إبليسُ بذنبه، ويداه قد دخلَتا في السفينة،

---

(١) أخرجه أبو يعلى (٦٧٨١)، وابن السُّنِّي في عمل اليوم والليلة (٥٠٠) وابن عدي ٧/ ٢٦٥٥ - ٢٦٥٦، وفي إسناده يحيى بن العلاء الرازي، قال أحمد: كذاب يضع الحديث. وقال الدارقطني: متروك. وضعفه ابن معين وجماعة. الميزان ٤/ ٣٩٧، وينظر فيض القدير ٢/ ١٨٢.

(٢) ١/ ١٥١.

(٣) أخرجه الطبري ١٢/ ٣٩٥ - ٣٩٦ و ٤٠٠، وذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص٦٠، وقد سلفت قطعة منه ص١١١ من هذا الجزء. وهذا الخبر وما بعده من الأخبار الإسرائيلية التي لا أساس لها.

(٤) بنحوه في تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٣٠ - ٢٠٣١ (١٠٨٦٩) و(١٠٨٧٠) و(١٠٨٧١)، وعرائس المجالس ص٥٨.

(٥) أخرجه الطبري ١٢/ ٣٩٨، وذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص٥٨، والبغوي ٢/ ٣٨٤.

(٦) كذا في النسخ، وعند الطبري والبغوي: الدُّرة، وهي الببغاء. حياة الحيوان للدميري ١/ ٣٣٦. وفي عرائس المجالس: الذَّرَّة، وهي مفرد الذَّر: وهو النمل الأحمر الصغير. حياة الحيوان ١/ ٣٥٦.

ورجلاه خارجةٌ بعدُ، فجعل الحمارُ يَضطربُ ولا يستطيع أن يدخلَ، فصاح به نوح: ادخل ويلك! فجعل يضطرب، فقال: ادخلْ ويلَك! وإن كان معك الشيطانُ؛ كلمةٌ زلَّتْ على لسانه، فدخل، ووثَب الشيطانُ فدخل. ثم إن نوحاً رآه يغنِّي[١] في السفينة، فقال له: يا لعينُ، ما أَدْخلَكَ بيتي؟! قال: أنتَ أَذِنْتَ لي، فذكَر له، فقال له: قم فاخرجْ. قال: ما لكَ بدٌّ في أن تحملني معك، فكان فيما يزعمُون في ظهر الفُلْك.

وكان مع نوحٍ عليه السلام خَرَزتانِ مضيئتان، واحدةٌ مكانَ الشمس، والأخرى مكانَ القمر. ابن عباس: إحداهما بيضاءُ كبياض النهار، والأخرى سوداءُ كسواد الليل، فكان يعرفُ بهما مواقيتَ الصلاة، فإذا أمسَوْا غَلَبَ سوادُ هذه بياضَ هذه، وإذا أصبحوا غلب بياضُ هذه سوادَ هذه، على قَدْرِ الساعات[٢].

قوله تعالى: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ الموجُ جمع موجةٍ، وهي ما ارتفع من جملة الماء الكثيرِ عند اشتداد الريح. والكاف للتشبيه، وهي في موضعِ خفضِ نعتٍ للموج. وجاء في التفسير أنَّ الماء جاوز كلَّ شيء بخمسةَ عشرَ ذراعاً[٣].

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ قيل: كان كافراً واسمُه كنعانُ. وقيل: يام[٤]. ويجوز على قول سيبويه: «ونادى نوحٌ ابنَه» بحذف الواو من «ابنه» في اللفظ[٥]، وأنشد:

لَــهُ زَجَــلٌ كَــأَنَّــهُ صَــوتُ حــادٍ[٦]

---

(١) في (د) و(ز): يتغنى، وفي (ظ): يتعشى.

(٢) تاريخ ابن عساكر ٦٢/ ٢٦٢ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٥٣ ، وذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص٥٩ عن ابن عباس: أن الماء ارتفع على أعلى جبل في الأرض خمسة عشر ذراعاً.

(٤) النكت والعيون ٢/ ٤٧٦ ، وزاد المسير ٤/ ١٠٩ ، ومجمع البيان ١١/ ١٥٨ .

(٥) أي: بالضم والاختلاس من غير إشباع، وهي قراءة أبي جعفر محمد بن علي كما في القراءات الشاذة ص٦٠ ، ونقل المصنف كلام سيبويه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٨٤ .

(٦) صدر بيت للشماخ، وعجزه: إذا طلب الوسيقةَ أو زَميرُ، وهو في ديوانه ١٥٥ ، والكتاب ١/ ٣٠ ، وسلف ١/ ٤٨٥ . قال الشنتمري في شرح الشواهد ص٦٤ : أراد: كأنهو، فحذف الواو ضرورة.

فأمّا: «ونَادَى نُوحٌ ابْنَهَ وكان» فقراءةٌ شاذَّة، وهي مَرْوِيَّةٌ عن عليِّ بنِ أبي طالب كرم الله وجهَه، وعروةَ بنِ الزبير[(١)]. وزعم أبو حاتمٍ أنها تجوز على أنه يريدُ: «ابنها» فحذفَ الألفَ كما تقول: «ابنه» فتحذفُ الواو. وقال النحاس[(٢)]: وهذا الذي قاله أبو حاتم لا يجوز على مذهبِ سيبويه؛ لأنَّ الألفَ خفيفةٌ فلا يجوز حذفُها، والواوَ ثقيلةٌ يجوز حذفها.

﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ أي: من دِين أبيه. وقيل: عن السفينة[(٣)]. وقيل: إنَّ نوحاً لم يعلم أنَّ ابنه كان كافراً، وأنه ظنَّ أنه مؤمنٌ؛ ولذلك قال له: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وسيأتي[(٤)]. وكان هذا النداء من قبلِ أن يستيقنَ القومُ الغرقَ، وقبلَ رؤية اليأسِ، بل كان في أوَّل ما فار التنُّور، وظهَرَت العلامةُ لنوح.

وقرأ عاصم: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ بفتح الياء، والباقون بكسرها[(٥)]. وأصل «يا بنيَّ» أن تكون بثلاث ياءات: ياءِ التصغير، وياءِ الفعل[(٦)]، وياءِ الإضافة، فأُدغمت ياءُ التصغير في لام الفعل، وكُسرت لامُ الفعلِ من أجل ياء الإضافة، وحذفت ياءُ الإضافة لوقوعها موقعَ التنوين، أو لسكونها وسكونِ الراء في هذا الموضع. هذا أصْلُ قراءةِ مَن كَسَر الياء. وهو أيضاً أصلُ قراءة مَنْ فتح؛ لأنه قلَبَ ياءَ الإضافة أَلِفاً لخفَّةِ الألف، ثم حذَفَ الألفَ لكونها عِوَضاً من حرفٍ يُحذَف، أو لسكونها وسكونِ الراء[(٧)].

---

(١) ذكرها عن علي ﷺ وعروة الطبرسي في مجمع البيان ١١/ ١٥١ ، وأبو حيان في البحر ٥/ ٢٢٦ ، وهي في الكشاف ٢/ ٢٧٠ ، والمحرر الوجيز ٣/ ١٧٣ ، وتفسير الرازي ١٧/ ٢٣١ عن عروة وجعفر بن محمد. وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٠ عن هشام بن عروة. وسيأتي عن علي قراءة: «ابنها» بفتح الهاء وألف.

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٢٨٤ ، وما قبله منه.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٥٤ ، وقال الزجاج عن القول الثاني: وهو أشبه.

(٤) ص١٣٣ من هذا الجزء.

(٥) السبعة ص٣٣٤ ، والتيسير ص١٢٤ .

(٦) وهي لامُه؛ لأن أصل «ابن»: بنى، على فَعَل. ينظر الكشف عن وجوه القراءات ١/ ٥٢٩ .

(٧) ينظر الكشف عن وجوه القراءات ١/ ٥٢٩ - ٥٣٠ ، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٣٦٥ ، والمحرر الوجيز ٣/ ١٧٤ .

قال النحاس[١]: أمَّا قراءةُ عاصمٍ فمشْكِلَةٌ. قال أبو حاتم: يريد: يا بُنَيَّاه، ثم يَحذِف[٢]؛ قال النحاس: رأيتُ عليَّ بنَ سليمانَ يذهب إلى أنَّ هذا لا يجوز؛ لأن الألفَ خفيفةٌ. قال أبو جعفر النحاس: ما علمتُ أنَّ أحداً من النَّحْويين جوَّزَ الكلامَ في هذا إلا أبا إسحاق[٣]؛ فإنه زعَمَ أنَّ الفتح من جهتين، والكسرَ من جهتين؛ فالفتحُ على أنه يبدلُ من الياء ألفاً، قال الله عزَّ وجلَّ إخباراً: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ﴾ [الفرقان: ٢٨] وكما قال الشاعر:

فيا عجبًا مِن رَحْلها المتحمَّلِ[٤]

فيريد: يا بنيَّا، ثم حذَفَ الألفَ لالتقاء الساكنين، كما تقول: جاءني عبدَ[٥] الله في التثنية. والجهة الأخرى أن تَحذفَ الألف؛ لأن النداءَ موضعُ حذفٍ. والكسرُ على أن تحذفَ الياء للنداء. والجهةُ الأخرى على أن تحذفها لالتقاء الساكنين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ﴾ أي: أرجعُ وأنضمُّ ﴿إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي﴾ أي: يمنعني ﴿مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ فلا أغرق ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا مانعَ؛ فإنه يومٌ حقَّ فيه العذابُ على الكفار. وانتصب «عاصم» على التبرئة[٦]. ويجوزُ: «لا عاصمٌ اليوم» تكون «لا» بمعنى «ليس»[٧].

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾ في موضعِ نصبِ استثناءٍ ليس من الأوَّل؛ أي: لكنْ مَن رحمَه اللهُ فهو يعصمه؛ قاله الزجَّاج[٨]. ويجوزُ أن يكون في موضع رفع، على أنَّ عاصماً

---

(١) في إعراب القرآن ٢/ ٢٨٤ .

(٢) في إعراب القرآن للنحاس: ثم حذف.

(٣) هو الزجاج وينظر معاني القرآن له ٣/ ٥٤ .

(٤) وصدره: ويوم عقرتُ للعذارى مطيتي، وقائله امرؤ القيس، وهو في ديوانه ١١ ، وسلف ٨/ ٣٥٨ .

(٥) في (م): عبدا.

(٦) أي: النافية للجنس. ينظر أمالي ابن الشجري ٢/ ٥٢٧ - ٥٣٠ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٥ ، وجواز تنوين الرفع، يعني في اللغة، لا في القراءة.

(٨) في معاني القرآن ٢/ ٥٤ .

بمعنى معصوم، مثلُ: ﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق:٦] أي: مدفوق[١]، فالاستثناء على هذا متَّصِل؛ قال الشاعر:

بـطـيءُ الـقـيـامِ رخـيـمُ الـكـلا ... مِ أَمْـسَـى فـؤادِي بـهِ فَـاتِـنَـا[٢]

أي: مفتوناً. وقال آخر:

دَعِ الـمـكـارِمَ لا تَـنـهـضْ لـبـغـيـتـهـا ... واقعدْ فإنَّك أنتَ الطاعمُ الكَاسِي[٣]

أي: المَطْعومُ المَكْسوّ.

قال النحاس[٤]: ومن أحسنِ ما قيل فيه أن تكون «مَن» في موضع رفع؛ بمعنى: لا يعصم اليوم من أمر الله إلا الراحِمُ، أي: إلا الله ـ وهذا اختيارُ الطَّبَريّ[٥] ـ ويَحسُنُ هذا لأنك لم تجعلْ عاصماً بمعنى معصوم فتخرجَه من بابه، ولا «إلّا» بمعنى «لكن».

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ يعني بين نوحٍ وابنه ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ قيل: إنه كان راكباً على فرسٍ قد بَطِرَ بنفسه، وأُعجب بها، فلما رأى الماءَ جاء قال: يا أبت، فار التنُّور! فقال له أبوه: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ فما استَتمَّ المراجعةَ حتى جاءت مَوْجةٌ عظيمةٌ فالتقمَتْه هو وفرسَه، وحِيلَ بينه وبين نوح فغرق.

وقيل: إنه اتخذ لنفسه بيتاً من زجاج يتحصَّنُ فيه من الماء، فلما فار التنُّور دخل فيه وأقفله عليه من داخلٍ، فلم يزل يتغوَّط فيه ويبولُ حتى غرق بذلك[٦].

وقيل: إنَّ الجبل الذي آوى إليه «طورُ زيتا»[٧].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٥ .

(٢) الصحاح واللسان (فتن) برواية رخيم الكلام قطيع القيام...

(٣) قائله الحطيئة، وهو في ديوانه ص٢٨٤ برواية: لا ترحل لبغيتها.

(٤) في إعراب القرآن ٢/ ٢٨٥ .

(٥) في تفسيره ٢/ ٤١٨ .

(٦) لطائف الإشارات ٢/ ١٣٩ .

(٧) في (م): طور سينا، والمثبت من النسخ الخطية والنكت والعيون ٢/ ٤٧٣ ، والكلام منه. وطور زيتا علم مرتجل لجبل بقرب رأس عين عند قنطرة الخابور. معجم البلدان ٤/ ٤٧ - ٤٨ .

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ هذا مجازٌ لأنها مَوَات. وقيل: جعل فيها ما تُميِّز به. والذي قال: إنه مجاز، قال: لو فُتِّش كلامُ العرب والعجم ما وُجدَ فيه مثلُ هذه الآية على حسن نَظْمِها، وبلاغةِ وصْفِها، واشتمالِ المعاني فيها[1].

وفي الأثر: إنَّ الله تعالى لا يُخلي الأرضَ من مطر في عام أو عامين[2]، وإنه ما نزل من السماء ماءٌ قطُّ إلا بحفظِ مَلَكٍ موكَّل به، إلا ما كان من ماء الطُّوفان؛ فإنه خرج منه ما لا يحفظُه الملَك. وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١].

فجرت بهم السَّفينةُ إلى أنْ تناهى الأمر، فأمَرَ الله الماءَ المنهمِرَ من السماء بالإمساك، وأمر اللهُ الأرضَ بالابتلاع. يقال: بلَع الماءَ يبلَعه؛ مثل: مَنَع يمنَع، وبَلِع يبلَع؛ مثل: حمِد يحمَد، لغتانِ حكاهما الكسائيُّ والفرَّاء[3]. والبالُوعةُ: الموضعُ الذي يشرَبُ الماء[4].

قال ابن العربي:[5] التقى الماءان على أمرٍ قد قُدِر، ما كان في الأرض وما نزل من السماء، فأمر الله ما نزل من السماء بالإقلاع، فلم تمتصَّ الأرضُ منه قَطْرةً، وأَمَرَ الأرضَ بابتلاع ما خرج منها فقط. وذلك قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾.

وقيل: ميَّز الله بين الماءين، فما كان من ماء الأرض أَمَرها فبلَعته، وصار ماءُ السماء بحاراً.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٦ .

(٢) وقع في مطبوع أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٠٠ (والكلام منه): في عامر أو غامر.

(٣) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ١٧ ، وتفسير الطبري ١٢/ ٤١٩ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٦ . وتهذيب اللغة ٢/ ٤١١ .

(٤) ينظر تهذيب اللغة ٢/ ٤١١ - ٤١٢ ، ومقاييس اللغة ١/ ٣٠١ .

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٠٠ - ١٣٠١ .

قوله تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ أي: نَقَصَ؛ يقال: غاض الشيءُ، وغِضتُه أنا، كما يقال: نَقَص بنفسه ونَقَصه غيرُه، ويجوز: «غُيض» بضم الغين[١]. ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: أُحكمَ وفُرِغ منه؛ يعني: أهلك قوم نوح على تمامٍ وإحكام.

ويقال: إنَّ الله تعالى أَعقمَ أرحامَهم، أي: أرحامَ نسائهم قبل الغرق بأربعين سنةً، فلم يكن فيمَن هَلَكَ صغير[٢]. والصحيحُ أنه أهلك الوِلدانَ بِالطُّوفان، كما هلكت الطير والسباع، ولم يكن الغرقُ عقوبةً للصبيان والبهائمِ والطير، بل ماتوا بآجالهم[٣].

وحُكي أنه لمَّا كَثُر الماءُ في السّكك خشيتْ أمُّ صبيٍّ عليه، وكانت تحبُّه حبًّا شديداً، فخرجتْ به إلى الجبل حتى بلغتْ ثُلُثَه، فلمَّا بلَغها الماءُ خرجتْ حتى بلغتْ ثُلُثَيه، فلمَّا بلغها الماءُ استوت على الجبل، فلمَّا بلَغ الماءُ رقبتَها رفعتْ يديها بابنها حتى ذهب بها الماء، فلو رَحِم الله منهم أحداً لرحم أمَّ الصبي[٤].

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: هلاكاً لهم. الجُوديُّ: جبلٌ بقرب الْمَوْصِل[٥]، استوتْ عليه في العاشر من المحرَّم يومَ عاشوراءَ، فصامه نوح وأمر جميعَ مَن معه من الناس والوحش والطير والدوابِّ وغيرِها فصاموه شكراً لله تعالى، وقد تقدَّم هذا المعنى[٦]. وقيل: كان ذلك يومَ الجمعة.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٦، وقرأ الكسائي وهشام: «قيل» و«غيض» و«جيء» بإشمام الضم لأول ذلك حيث وقع، والباقون بإخلاص كسره. التيسير ص٧٢، وينظر السبعة ص١٤١ - ١٤٢.

(٢) تاريخ ابن عساكر ٦٢/ ٢٤٩، وينظر تفسير الطبري ١٢/ ٣٩٦ - ٣٩٨.

(٣) أخرجه الطبري ١٢/ ٤٢٤ - ٤٢٥ عن الضحاك.

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٣٨٥، وهذه قطعة من حديث أخرجه الطبري ١٢/ ٣٩٤، والحاكم ٢/ ٣٤٢ عن عائشة رضي الله عنها. وفي إسناده: موسى بن يعقوب. قال الذهبي في التلخيص: إسناده مظلم، وموسى ليس بذاك.

(٥) قال ياقوت في معجم البلدان ٢/ ١٧٩: هو جبل مطل على جزيرة ابن عمر في الجانب الشرقي من دجلة، من أعمال الموصل.

(٦) ص١١٩ من هذا الجزء.

ورُوي أنَّ الله تعالى أوحى إلى الجبال أنَّ السفينةَ تُرسي على واحدٍ منها فتطاولت، وبقيَ الجُوديُّ لم يتطاولْ تواضُعاً لله، فاستوت السَّفينة عليه، وبقيتْ عليه أعوادُها[١]. وفي الحديث أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لقد بقي منها شيءٌ أدركَه أوائلُ هذه الأمة»[٢].

وقال مجاهد: تشامختِ الجبالُ وتطاولت لئلَّا ينالَها الغرقُ، فعلا الماءُ فوقها خمسةَ عشرَ ذراعاً، وتطامنَ الجوديُّ، وتَواضَعَ لأمر الله تعالى فلم يغرقْ، ورستِ السفينةُ عليه[٣].

وقد قيل: إنَّ الجوديَّ اسمٌ لكلِّ جبل[٤]، ومنه قولُ زيدِ بن عمرو بنِ نُفَيل:

سُبحانَه ثُمَّ سُبحاناً يَعودُ له وقَبْلَنا سَبَّحَ الجُوديُّ والجُمُدُ[٥]

ويقال: إن الجُوديَّ من جبال الجنة[٦]؛ فلهذا استوت عليه.

ويقال: أكرم الله ثلاثةَ جبال بثلاثةِ نفَر: الجوديَّ بنوح، وطورَ سيناء بموسى، وحِراءَ بمحمدٍ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

مسألة: لمَّا تواضَعَ الجوديُّ وخضَع عزَّ، ولمَّا ارتفع غيرُه واستعلى ذَلَّ، وهذه سُنَّةُ الله في خَلْقه، يرفعُ مَن تخشَّعَ، ويضَعُ مَن ترفَّع، ولقد أَحسن القائل:

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١٧٦ ، وسيأتي نحوه عن مجاهد، وينظر تاريخ ابن عساكر ٦٢/ ٢٦٢ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ١٧٦ ، ولم نقف عليه مرفوعاً، وعلقه البخاري قبل الحديث (٤٨٦٩) عن قتادة قوله، ووصله عبد الرزاق في التفسير ٣/ ٢٥٨ ، والطبري ٢٢/ ١٢٨ .

(٣) عرائس المجالس ص٥٩ ، وأخرجه الطبري ١٢/ ٤٢٢ .

(٤) النكت والعيون ٢/ ٤٧٤ .

(٥) نُسب البيت لزيد في مجاز القرآن ١/ ٢٩٠ ، وشرح أبيات سيبويه للسيرافي ١/ ١٩٤ ، والنكت والعيون ٢/ ٤٧٤ ، ونسبه سيبويه في الكتاب ١/ ٣٢٦ لأمية بن أبي الصلت، وهو في ديوان أمية ص١٦١ باختلاف يسير. ونسب لورقة بن نوفل كما في الأغاني ٣/ ١٢١ ، والخزانة ٣/ ٣٨٨ . قوله: الجُمُد: هو جبل لبني نصر بنجد. معجم البلدان ٢/ ١٦١ .

(٦) تاريخ ابن عساكر ٦٢/ ٢٦٢ .

وإذا تـذلـلَّـتِ الـرِّقـابُ تَـخـشُّـعـاً   مِـنَّـا إلـيـكَ فـعِـزُّهـا فـي ذُلِّـهـا(١)

وفي صحيح البخاري ومسلم عن أنسِ بن مالك قال: كانت ناقةٌ للنبيِّ ﷺ تُسمَّى العَضْباءَ، وكانت لا تُسبق، فجاء أعرابيٌّ على قَعودٍ له فسبقها، فاشتدَّ ذلك على المسلمين؛ وقالوا: سُبِقتِ العضباءُ! فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ حقًّا على الله ألَّا يَرفعَ شيئاً من الدنيا إلا وضَعه»(٢).

وخرَّج مسلمٌ(٣) عن أبي هريرةَ عن رسول الله ﷺ قال: «ما نَقَصت صدقةٌ من مالٍ، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزًّا، وما تَوَاضَعَ أحدٌ لله إلَّا رَفَعه الله».

وقال ﷺ: «إنَّ الله أَوحى إليَّ أنْ تَواضَعوا حتى لا يَبغِيَ أحدٌ على أحدٍ، ولا يَفخرَ أحدٌ على أحد». خرَّجه البخاريّ(٤).

مسألة: نذكر فيها من قصة نوح مع قومه وبعضَ ذِكْر السفينة.

ذكر الحافظ ابنُ عساكرَ في «التاريخ»(٥) له عن الحسن: أنَّ نوحاً أوّلُ رسولٍ بعثه الله إلى أهل الأرض؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت:١٤]. وكان قد كَثُرت فيهم المعاصي، وكَثُرت الجبابرةُ وعَتَوْا عُتُوًّا كبيراً، وكان نوحٌ يدعوهم ليلاً ونهاراً، سرًّا وعلانية، وكان صبوراً حليماً، ولم يلقَ أحدٌ من الأنبياء أشدَّ مما لقيَ نوح، فكانوا يدخلون عليه فيخنقونه حتى يترك وَقِيذاً(٦)، ويضربونه في المجالس ويُطْرَدَ، وكان لا يَدَعُ على ما

---

(١) هو لأبي إسحاق الصابي كما في يتيمة الدهر ٢/ ٣٢٥ برواية: تقرُّباً منها إليك، بدل: تخشعاً منا إليك.

(٢) صحيح البخاري (٢٨٧٢)، وهو عند أحمد (١٢٠١٠)، ولم نقف عليه عند مسلم. قوله: على قعود، القعود من الإبل: ما أمكن أن يُركب، وأدناه يكون له سنتان. النهاية (قعد).

(٣) في صحيحه (٢٥٨٨)، وهو عند أحمد (٩٠٠٨).

(٤) في الأدب المفرد (٤٢٦) و(٤٢٨)، وهو عند مسلم (٢٨٦٥): (٦٤) وهو من حديث عياض بن حمار ﷺ.

(٥) ٦٢/ ٢٤٤.

(٦) الوقيذ: الذي يغشى عليه؛ لا يُدرى أميت أم لا. اللسان (وقذ).

يُصنع به أنْ يدعوَهم[١]، ويقول: «رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ». فكان لا يزيدُهم ذلك إلا فراراً منه، حتى إنه لَيُكلِّمُ الرجلَ منهم فيلفُّ رأسَه بثوبه، ويجعلُ أُصْبُعَيه في أذنيه لكيلا يَسمع شيئاً من كلامه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ [نوح: ٧].

وقال مجاهدٌ وعُبيدُ بن عمير: كانوا يضربونه حتى يُغشَى عليه، فإذا أفَاق قال: رَبِّ اغْفِرْ لقَوْمي فإنَّهم لا يَعْلَمُون[٢].

وقال ابن عباس: إنَّ نوحاً كان يُضرَبُ، ثم يُلفُّ في لِبْد[٣] فيُلْقى في بيته، يُرَونَ أنه قد مات، ثم يخرجُ فيدعوهم؛ حتى إذا يَئِسَ من إيمان قومه جاءه رجلٌ ومعه ابنُه، وهو يتوكَّأ على عصاً، فقال: يا بُنيَّ، انظر هذا الشيخَ لا يغرَّنَّك، قال: يا أبتِ، أمكنِّي من العصا، فأمكنَه، فأخذ العصا ثم قال: ضَعْني في الأرض، فوضعه، فمشى إليه بالعصا فضربه فشجَّه شجَّةً مُوضِحة[٤] في رأسه، وسالت الدماء، فقال نوح: ربِّ قد ترى ما يفعلُ بي عبادُك، فإن يكُ لك في عبادك خيريَّةٌ فاهدِهم، وإن يكُ غيرُ ذلك فصبِّرني إلى أن تحكم، وأنت خيرُ الحاكمين. فأوحى الله إليه وآيَسَه من إيمان قومه، وأخبره أنه لم يبقَ في أصلاب الرجال ولا في أرحام النساء مؤمن، قال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أي: لا تحزن عليهم ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ قال: يا ربِّ، وأين الخشبُ؟ قال: اغرسِ الشجر. قال: فَغرسَ السَّاج عشرين سنةً، وكفَّ عن الدعاء، وكفُّوا عن الاستهزاء، وكانوا يسخرون منه، فلما أدرك الشجرُ؛ أَمَره ربُّه فقطَعَها وجفَّفها، فقال: يا ربِّ، كيف أتَّخذُ هذا البيت؟ قال: اجعله على ثلاثِ صُوَر؛ رأسُه كرأس الدِّيك، وجؤجؤه

---

(١) في (م): وكان لا يدعو على من يصنع به بل يدعوهم.

(٢) تاريخ ابن عساكر ٦٢/٢٤٧، وأخرجه الطبري ١٢/٣٩٦ عن عبيد بن عمير مطولاً.

(٣) اللبد: من البسط معروف. اللسان (لبد).

(٤) الموضحة من الشجاج: التي بلغت العظم فأوضحت عنه. اللسان (وضح).

كجؤجؤ الطير، وذنَبه كذنَب الديك؛ واجعلها مطبَّقةً، واجعل لها أبواباً في جَنْبها، وشُدَّها بدُسُرٍ، يعني مساميرَ الحديد. وبعث الله جبريلَ فعلَّمه صَنْعَةَ السفينة، وجعلت يدُه لا تخطئ[١].

قال ابن عباس: كانت دارُ نوح عليه السلام دمشقَ، وأنشأ سفينتَه من خشب لبنانَ بين زمزمَ وبين الركن والمقام، فلمَّا كَمَلَتْ حَملَ فيها السباعَ والدوابَّ في الباب الأوّل، وجعل الوحشَ والطير في الباب الثاني، وأطبق عليهما، وجعلَ أولادَ آدمَ أربعينَ رجلاً وأربعين امرأةً في الباب الأعلى، وأطبق عليهم، وجعل الذَّرَّ معه في الباب الأعلى لضَعْفها؛ ألَّا تَطَأَها الدوابّ[٢].

قال الزُّهريُّ: إنَّ الله عزَّ وجلَّ بعثَ ريحاً، فحمل إليه من كلّ زوجين اثنين، من السباع والطير والوحش والبهائم[٣].

وقال جعفرُ بن محمد: بعث الله جبريلَ فحشرهم، فجعل يضربُ بيديه على الزوجين، فتقعُ يده اليمنى على الذكر، واليسرى على الأنثى، فيُدخله السفينة.

وقال زيدُ بن ثابت: استصعبتْ على نوحٍ الماعزةُ أنْ تدخلَ السفينةَ، فدفعها بيده في ذنبَها؛ فمن ثَمَّ انكسر ذنبُها فصار مَعْقوفاً وبدا حَياؤها. ومضتِ النعجةُ حتى دخلتْ، فمسح على ذنبها فسُتِرَ حياؤها[٤].

قال إسحاق: أخبرنا رجلٌ من أهل العلم: أنَّ نوحاً حَمَلَ أهلَ السفينة، وجعل فيها من كلّ زوجين اثنين، وحمل من الهدهد زوجين، فماتت الهدهدةُ في السفينة قبل أن تَظهرَ الأرضُ، فحملها الهدهدُ فطاف بها الدنيا ليصيبَ لها مكاناً، فلم يجد طيناً ولا تراباً، فرحمه ربُّه فحفر لها في قفاه قبراً فدفنها فيه، فذلك الريشُ الناتئ في قفا

---

(١) أخرجه ابن عساكر ٦٢/٢٤٨ - ٢٤٩ من طريق جويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس. وذكره الثعلبي في العرائس ص٥٦ - ٥٧ مطولاً، والخبر من الإسرائيليات.

(٢) ينظر تاريخ ابن عساكر ٦٢/ ٢٤١ و ٢٤٩.

(٣) أخرجه ابن عساكر ٦٢/ ٢٥٥.

(٤) أخرجهما ابن عساكر ٦٢/ ٢٥٢ - ٢٥٣ و ٢٥٥، وهما من الأخبار التالفة.

الهدهد موضعُ القبر؛ فلذلك نَتَأَت أقفيةُ الهداهد[١].

وقال رسول الله ﷺ: «كان حمل نوحٌ معه في السفينة من جميع الشجر، وكانت العَجْوةُ من الجنة مع نوح في السفينة»[٢].

وذكَرَ صاحبُ كتاب «العروس»[٣] وغيرُه: أنَّ نوحاً عليه السلام لمَّا أراد أن يبعثَ مَن يأتيه بخبر الأرض قال الدَّجاج: أنا، فأخذها وختَمَ على جناحها وقال لها: أنتِ مختومةٌ بخاتَمي، لا تطيري أبداً، أنتِ ينتفعُ بكِ أمتي. فبعث الغرابَ، فأصاب جِيفةً فوقع عليها فاحتبس، فلعنه، ولذلك يُقتلُ في الحِلِّ والحَرَم، ودعا عليه بالخوف؛ فلذلك لا يَألَفُ البيوت. وبعث الحمامةَ فلم تجد قراراً فوقَعتْ على شجرة بأرض سَبأ[٤]، فحملتْ ورقةَ زيتونةٍ، ورجعت إلى نوح فعلم أنها لم تستمكنْ من الأرض، ثم بعثها بعد ذلك فطارت حتى وقعت بوادي الحرَم، فإذا الماءُ قد نَضَبَ من مواضعِ الكعبة، وكانت طينتُها حمراءَ، فاختضبتْ رجلاها، ثم جاءت إلى نوح عليه السلام فقالت: بُشْرايَ منكَ أنْ تهبَ لي الطَّوْقَ في عنقي، والخِضابَ في رجلي، وأسكن الحَرَم، فمسح يدَه على عنقها وطوَّقها، ووهبَ لها الحمرةَ في رجليها، ودعا لها ولذرِّيتها بالبركة.

---

(١) تاريخ ابن عساكر ٦٢/ ٢٦١ . وإسحاق هو ابن بشر. قال الدارقطني: كذاب متروك. ميزان الاعتدال ١/ ١٨٤ .

(٢) أخرجه ابن عساكر ٦٢/ ٢٦١ من حديث علي ﷺ. وقوله: «العجوة من الجنة». أخرجه أحمد (٨٠٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ، و(١١٤٥٣) من حديث جابر وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما، و(١٥٥٠٨) من حديث رافع بن عمرو المزني، و(١١٩٣٨) من حديث بريدة الأسلمي ﷺ. والخبر في تاريخ ابن عساكر ٦٢/ ٢٦٣ - ٢٦٤ .

(٣) كتاب العروس لجعفر بن محمد، قال الملا علي القاري في المصنوع ص٢٥١ : وقال الديلمي: أسانيد كتاب العروس لأبي الفضل جعفر بن محمد بن جعفر بن محمد بن علي الحسيني واهية لا يعتمد عليها، وأحاديثه منكرة. والخبر ذكره ابن عساكر ٦٢/ ٢٦٣ - ٢٦٤ . وكان من الأَولى بالمصنف أن ينزه كتابه عن أمثال هذه القصص التالفة.

(٤) في (د) و(م): سيناء.

وذكر الثعلبيّ أنه بعث بعد الغراب التُّدْرُج[١] وكان من جنس الدَّجاج، وقال: إياك أنْ تعتذرَ، فأصاب الخُضْرةَ والفُرْجَةَ فلم يرجعْ، وأخذ أولادَه عنده رهناً إلى يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾ أي: دعاه. ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ أي: من أهلي الذين وعدتَهم أنْ تُنجيَهم من الغرق؛ ففي الكلام حذفٌ. ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ يعني الصدقَ.

وقال علماؤنا: وإنما سأل نوحٌ ربَّه ابنَه لقوله: «وَأَهْلَكَ»، وترك قوله: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾[٢] فلمَّا كان عنده من أهله قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ يدلُّ على ذلك قوله: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: لا تكن ممن لستَ منهم؛ لأنه كان عنده مؤمناً في ظنِّه[٣]، ولم يك نوحٌ يقول لربه: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ إلَّا وذلك عنده كذلك؛ إذ محالٌ أن يَسألَ هلاكَ الكفار، ثم يسألَ في إنجاء بعضِهم، وكان ابنه يُسِرُّ الكفرَ ويُظهرُ الإيمان، فأخبر الله تعالى نوحاً بما هو منفردٌ به من علم الغيوب؛ أي: علمتُ من حال ابنك ما لم تعلمْه أنت.

وقال الحسن: كان منافقاً؛ ولذلك استَحَلَّ نوحٌ أنْ يناديَه[٤]. وعنه أيضاً: كان ابنَ

---

(١) طائر يغرِّد في البساتين بأصوات طيبة، يكون بأرض خراسان وغيرها من بلاد فارس. حياة الحيوان ص١٦٣ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٤٦ .

(٣) ينظر لطائف الإشارات ٢/ ١٣٧ .

(٤) النكت والعيون ٢/ ٤٧٦ .

امرأته[١]، دليلُه قراءةُ عليٍّ: «ونادى نوحٌ ابْنَها»[٢].

﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ ابتداءٌ وخبر. أي: حكمتَ على قومٍ بالنجاة، وعلى قومٍ بالغرق.

الثانية: قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: ليس من أهلك الذين وعدتُهم أن أُنجِيَهم؛ قاله سعيدُ بن جُبير. وقال الجمهور: ليس من أهل دينك ولا ولايتك[٣]، فهو على حذفِ مضاف. وهذا يدلُّ على أنَّ حكمَ الاتفاق في الدِّين أقوى من حكم النسب.

﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ قرأ ابن عباس وعُروةُ وعِكرمةُ ويعقوبُ والكسائيُّ: ﴿إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ﴾[٤] أي: من الكفر والتكذيب، واختاره أبو عبيد. وقرأ الباقون: ﴿عَمَلٌ﴾أي: ابنُك ذو عملٍ غيرِ صالح، فحذف المضاف؛ قاله الزجَّاج وغيرُه[٥].

قال:

تَـرْتَـعُ مـا رَتَـعـتْ حـتَّـى إذا ادَّكَـرتْ ... فَـإنـمـا هـي إقـبـالٌ وإدبـار[٦]

أي: ذاتُ إقبالٍ وإدبار. وهذا القولُ والذي قبلَه يَرجِعُ إلى معنًى واحد.

ويجوز أن تكونَ الهاءُ للسؤال، أي: إنَّ سؤالَك إياي أن أُنجيَه عملٌ غيرُ صالح. قاله قتادة[٧].

وقال الحسن: معنى عمل غير صالح: أنه وُلِدَ على فراشه ولم يكن ابنَه. وكان

---

(١) أورده الواحدي في الوسيط ٢/ ٥٧٥ .

(٢) القراءات الشاذة ص٦٠ .

(٣) النكت والعيون ٢/ ٤٧٦ .

(٤) السبعة ص٤٣٣ والتيسير ص١٢٥ عن الكسائي، والنشر ٢/ ٢٨٩ عنه وعن يعقوب، وأخرجها عن ابن عباس الطبري ١٢/ ٤٣٥ ، وذكرها ابن عطية ٣/ ١٧٧ عن علي وابن عباس وعائشة وأنس ﷺ.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٥٥ ، ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٥ .

(٦) البيت للخنساء، وهو في ديوانها ص٤٨ ، وسلف ٣/ ٥٤ و ٩/ ٢٥٩ .

(٧) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣١٠ ، وسعيد بن منصور في سننه (١٠٩٣ - تفسير).

لغير رِشْدَة، وقاله أيضاً مجاهد(١). قال قتادة: سألت الحسن عنه فقال: والله ما كان ابنَه، قلت: إنَّ الله أَخبرَ عن نوحٍ أنه قال: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ فقال: لم يقلْ مني، وهذه إشارةٌ إلى أنه كان ابنَ امرأتِه من زوجٍ آخرَ، فقلت له: إنَّ الله حكى عنه أنه قال: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ ولا يختلفُ أهلُ الكتابين أنه ابنُه، فقال الحسن: ومَن يأخذُ دينَه عن أهل الكتاب! إنهم يكذِبون. وقرأ: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠](٢). وقال ابنُ جريج: ناداه وهو يحسب أنه ابنه، وكان وُلد على فراشه، وكانت امرأته خانته فيه(٣)؛ ولهذا قال: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾.

وقال ابن عباس: ما بغتِ امرأةُ نبيٍّ قطّ، وأنه كان ابنَه لصُلْبه. وكذلك قال الضَّحاك وعِكرمةُ وسعيدُ بن جُبير وميمون بن مِهران وغيرُهم، وأنه كان ابنَه لصُلْبه.

وقيل: لسعيدِ بن جُبير: يقول نوح: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ أكان من أهله؟ أكان ابنَه؟ فسبَّح اللهَ طويلاً ثم قال: لا إله إلا الله! يُحدِّثُ اللهُ محمداً ﷺ أنه ابنُه، وتقول: إنه ليس ابنَه! نَعمْ كان ابنَه، ولكنْ كان مخالفاً في النية والعمل والدِّين(٤)، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾.

وهذا هو الصحيحُ في الباب إن شاء الله تعالى لجلالة مَن قال به، وإنَّ قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ليس مما ينفي عنه أنَّه ابنه(٥).

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٤٧٥ ، وأخرجه قولهما الطبري ١٢/ ٤٢٦ و ٤٣٤ . وقوله: لغير رشدة، أي: لِغَيَّة وزَنية. اللسان (رشد). وقد ردَّ الألوسي هذا الكلام في روح المعاني ١٢/ ٥٨ ، وقال: نسبة هذا القول إلى الحسن ومجاهد كذبٌ صريح. وقال: إن الله تعالى قد طهَّر الأنبياء عليهم السلام عما دون ذلك من النقص بمراحل، فحاشاهم ثم حاشاهم أن يشار إليهم بأصبع الطعن، وإنما المراد بالخيانة الخيانة في الدين.

(٢) أخرجه بنحوه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٠٦ ، والطبري ١٢/ ٤٢٧ .

(٣) أخرجه الطبري ١٢/ ٤٢٨ ، وسلف أن هذا الكلام لا يصح.

(٤) أخرجه مع ما سبقه من قول ابن عباس وغيره الطبري ١٢/ ٤٢٨ - ٤٣٣ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٥١ .

وقوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ يعني في الدِّين لا في الفِراش[١]، وذلك أنَّ هذه كانتْ تُخبرُ الناسَ أنه مجنون، وذلك أنها قالت له: أمَا ينصرُك ربُّك؟ فقال لها: نعم. قالت: فمتى؟ قال: إذا فار التَّنُّور. فخرجتْ تقول لقومها: يا قوم، والله إنه لمجنون، يزعمُ أنه لا ينصره ربُّه إلا أنْ يفورَ هذا التَّنُّور! فهذه خيانتُها. وخيانةُ الأخرى أنها كانت تدلُّ على الأضياف[٢]. على ما سيأتي إن شاء الله[٣]. والله أعلم.

وقيل: الولدُ قد يسمَّى عملاً كما يسمَّى كَسْباً، كما في الخبر: «أولادُكم مِن كَسْبكم»[٤]. ذكره القشيريُّ.

الثالثة: في هذه الآية تسليةٌ للخلق في فساد أبنائهم وإن كانوا صالحين[٥]. ورُوِيَ أنَّ ابنَ مالك بنِ أنس نزل من فوقُ ومعه حمامٌ قد غطَّاه، قال: فَعَلمَ مالكٌ أنه قد فَهِمَه الناسُ، فقال مالك: الأدبُ أدبُ الله، لا أدبُ الآباءِ والأمهات، والخيرُ خير الله، لا خيرُ الآباء والأمهات[٦].

وفيها أيضاً دليلٌ على أنَّ الابنَ من الأهل لغةً وشرعاً، ومن أهل البيت[٧]، فَمَن وصَّى لأهله دخَلَ في ذلك ابنُه ومَن تضمَّنَه منزلُه وهو في عياله. وقال تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الصافات: ٧٥-٧٦]. فسمَّى جميعَ مَن ضمَّه منزلُه من أهله[٨].

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٣٨٧.

(٢) أخرجه مختصراً عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣١٠، والطبري ١٢/ ٤٣٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقوله: الأخرى، يعني امرأة لوط.

(٣) ص١٧٦ من هذا الجزء، وعند تفسير الآية (١٠) من سورة التحريم.

(٤) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢٥٢٩٦)، والترمذي (١٣٥٨)، وابن ماجه (٢٢٩٠) عن عائشة رضي الله عنها.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٤٧.

(٦) أخرجه الرامهرمزي في المحدث الفاصل (١٤٨).

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٤٧.

(٨) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٢٥ - ٢٢٦.

الرابعة: ودلَّتِ الآيةُ على قول الحسن ومجاهد وغيرِهما: أنَّ الولدَ للفراش؛ ولذلك قال نوحٌ ما قال آخِذاً بظاهرِ الفراش. وقد رَوَى سفيانُ بن عُيينة عن عمرِو بن دينار، أنه سمع عُبيد بن عمير يقول: نُرى رسول الله ﷺ إنما قضى بالولد للفراش من أجل ابن نوح عليه السلام، ذكره أبو عمر في كتاب «التمهيد»[(١)].

وفي الحديث الصحيح عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «الولدُ للفراش، وللعاهِرِ الحَجَر»[(٢)] يريد: الخيبةَ. وقيل: الرَّجم بالحجارة[(٣)].

وقرأ عُروة بن الزّبير: «وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهَا»[(٤)] يريد ابن امرأته، وهي تفسيرُ القراءة المتقدِّمةِ عنه وعن عليٍّ ﷺ[(٥)]، وهي حُجَّةٌ للحسن ومجاهد؛ إلا أنها قراءةٌ شاذَّة، فلا نَترك المتفقَ عليها لها. والله أعلم.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ أي: أنهاك عن هذا السؤال، وأُحذِّرُك لئلَّا تكون، أو كراهيةَ أن تكون من الجاهلين، أي: الآثمين[(٦)]. ومنه قوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [النور:١٧] أي: يحذِّرُكم الله وينهاكم. وقيل: المعنى: أرفعُك أن تكونَ من الجاهلين[(٧)].

قال ابنُ العربيِّ: وهذه زيادةٌ من الله وموعظةٌ يرفعُ بها نوحاً عن مَقام الجاهلين،

---

(١) ٨/ ١٩٥ ، وأخرجه الطبري ١٢/ ٤٢٨ ، وهو ضعيف لإرساله.

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٨٦)، والبخاري (٢٠٥٧)، ومسلم (١٤٥٧) من حديث عائشة رضي الله عنها، وأخرجه أحمد (٧٢٦٢)، ومسلم (١٤٥٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) المفهم ٤/ ١٩٧ . وضعَّف أبو العباس القول الثاني، وكذلك النووي في شرحه لصحيح مسلم ١٠/ ٣٧ وقال: لأنه ليس كل زانٍ يرجم، وإنما يرجم المحصَن خاصة، ولأنه لا يلزم مِن رَجْمه نَفْيُ الولد عنه، والحديث إنما ورد في نفي الولد عنه.

(٤) ذكرها أبو حيان في البحر ٥/ ٢٢٦ ، وسلف ذكرها عن علي ﷺ.

(٥) ص١٢٣ من هذا الجزء، وهي قراءة: «ونادى نوح ابنَهَ».

(٦) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٦ ، والوسيط ٢/ ٥٧٦ .

(٧) النكت والعيون ٢/ ٤٧٦ .

ويُعليه بها إلى مَقام العلماء والعارفين، فقال نوح: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾ الآية، وهذه ذنوبُ الأنبياء عليهم السلام، فشكر الله تذلله وتواضعه[١]. ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي﴾ ما فرَط من السؤال ﴿وَتَرۡحَمۡنِيٓ﴾ أي: بالتوبة. ﴿أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أي: أعمالاً. فقال: ﴿يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾.

قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٨﴾

قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾ أي: قالت له الملائكةُ، أو قال الله تعالى له: اهبط من السفينة إلى الأرض، أو من الجبل إلى الأرض، فقد ابتلعتِ الماءَ وجفَّت. «بِسَلَامٍ مِنَّا» أي: بسلامةٍ وأمن. وقيل: بتحية[٢].

﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾ أي: نِعَم ثابتةٍ، مشتقٌّ من بروكِ الجمل، وهو ثبوتُه وإقامتُه[٣]. ومنه البِركةُ؛ لثبوت الماء فيها.

وقال ابنُ عباس رضي الله عنهما: نوحٌ آدمُ الأصغر[٤]. فجميع الخلائقِ الآنَ من نسله، ولم يكن معه في السفينة من الرجال والنساء إلا مَن كان من ذرِّيته، على قول قَتادةَ وغيرِه، حسبَ ما تقدَّم[٥]، وفي التنزيل: ﴿وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧].

﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ قيل: دخلَ في هذا كلُّ مؤمنٍ إلى يومِ القيامة. ودخل في قوله: ﴿وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ كلُّ كافرٍ إلى يوم القيامة؛ رُويَ

---

(١) ينظر تفسير الرازي ١٨/ ٣ - ٤ . وقد ردَّ الرازي على مَن قدح في عصمة الأنبياء، وذكر أنه يجب حمل الكلام هنا على أنه من باب ترك الأفضل والأكمل، وقد قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ إلى قوله: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ قال: ومعلوم أن مجيء نصر الله والفتح، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، ليست بذنب يوجب الاستغفار.

(٢) الوجيز للواحدي (على هامش مراح لبيد) ص٣٨٦ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٧ .

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٢/ ٥٧٦ .

(٥) ص١١٧ من هذا الجزء، وينظر الوسيط ٢/ ٥٧٦ .

ذلك عن محمد بن كعب. والتقدير على هذا: وعلى ذرِّيَّةِ أمم ممَّن معك، وذرِّيَّةِ أممٍ سنمتِّعهم[١].

وقيل: «مِن» للتبعيض، وتكونُ لبيان الجنس.

«وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ»؛ ارتفع «وَأُمَمٌ» على معنى: وتكونُ أمم. قال الأخفشُ سعيدٌ: كما تقول: كلَّمتُ زيداً وعمرٌو جالسٌ. وأجازَ الفرَّاء في غير القراءة: وأمماً، وتقديرُه: ونمتِّع أمماً[٢]. وأعيدت «على» مع «أُمَم» لأنه معطوفٌ على الكاف من «عَلَيْكَ»، وهي ضميرُ المجرور، ولا يُعطَفُ على ضمير المجرور إلا بإعادة الجارِّ على قول سيبويه وغيره. وقد تقدَّم في «النساء» بيان هذا مستوفًى في قوله تعالى: ﴿واتقوا اللهَ الذي تَساءلون به والأرحامِ﴾ بالخفض.

والباء في قوله: «بِسَلَامٍ» متعلقة بمحذوف؛ لأنها في موضع الحال، أي: اهبط مسلَّماً عليك. و«عليك»[٣] في موضع جرٍّ متعلِّقٌ بمحذوف؛ لأنه نعت للبركات. «وَعَلَى أُمَمٍ» متعلِّقٌ بما تعلَّق به «عَلَيْكَ»؛ لأنه أُعيد من أجل المعطوف على الكاف. و«مِن» في قوله: «مِمَّنْ مَعَكَ» متعلِّقٌ بمحذوف؛ لأنه في موضع جرٍّ نعتٍ للأمم.

و«مَعَكَ» متعلِّقٌ بفعلٍ محذوف؛ لأنه صلةٌ لـ «مَن»، أي: ممن استقرَّ معك، أو آمن معك، أو ركب معك[٤].

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: تلك الأنباءُ، وفي موضعٍ آخَرَ: «ذلك»، أي: ذلك النبأُ والقَصَصُ من أنباء ما غاب عنك. ﴿نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾ أي: لتقف عليها

(١) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٥ - ٣٥٦، وخبر كعب أخرجه الطبري ١٢/ ٤٣٨.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٧، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ١٨.

(٣) في النسخ عدا (ز): ومنا، والمثبت من (ز)، وهو الصواب.

(٤) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٧٩.

﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾ أي: كانوا غيرَ عارِفين بأمر الطوفان، والمجوس الآن ينكرونه.

﴿مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ خبر، أي: مجهولةٌ عندك وعند قومك. ﴿فَاصْبِرْ﴾ على مَشَاقّ الرسالة وإذاية القوم كما صبر نوح[1]. وقيل: أرادَ جهلَهم بقصةِ ابن نوح، وإن سمعوا أمرَ الطوفان فإنه على الجملة.

﴿فَاصْبِرْ﴾ أي: اصبر يا محمدُ على القيام بأمر الله وتبليغِ رسالته، وما تَلْقى من أذى العربِ الكفار، كما صبر نوحٌ على أذى قومه. ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ﴾ في الدنيا بالظَّفَر، وفي الآخرة بالفوز ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن الشِّرْك والمعاصي.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي: وأرسَلْنا، فهو معطوفٌ على ﴿أَرْسَلْنَا

(١) من قوله: من قبل هذا، خبر، إلى هذا الموضع، من (م).

نُوحًا﴾ [هود: ٢٥]. وقيل له أخوهم؛ لأنه منهم، وكانت القبيلةُ تجمعُهم، كما تقول: يا أخا تميمٍ، وقيل: إنَّما قيل له: أخوهم؛ لأنه من بني آدم، كما أنَّهم من بني آدم[١]، وقد تقدَّم هذا في «الأعراف»[٢]، وكانوا عَبَدَةَ الأوثان.

وقيل: هم عادَان، عادٌ الأولى، وعادٌ الأخرى، فهؤلاء هم الأولى، وأما الأخرى فهو شدَّاد ولُقْمان المذكوران في قوله تعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ [الفجر: ٧].

وعادٌ: اسم رجلٍ، ثم استمرَّ[٣] على قومٍ انتسبوا إليه.

﴿قال يا قومِ اعبُدُوا اللهَ مالكم من إلهٍ غيرِهِ﴾ بالخَفْض على اللفظ، و«غيرُهُ» بالرفع على الموضع، و«غيرَهُ» بالنَّصب على الاستثناء[٤].

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ أي: ما أنتم في اتِّخاذِكُم إلهاً غيرَه إلَّا كاذبون عليه جلَّ وعزَّ[٥].

قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾ تقدَّم معناه[٦]. والفِطْرة: ابتداءُ الخلق.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما جرى على قومِ نوحٍ لمَّا كذَّبوا الرُّسل.

قول تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ تقدَّم في أوَّل السورة[٧].

﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ﴾ جُزِم لأنه جوابٌ، وفيه معنى المُجازاة.

---

(١) ضعف هذا القول ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١٧٩ .

(٢) ٩/ ٢٦٢ .

(٣) في (ظ): اشتهر.

(٤) الخفض والرفع قراءتان متواترتان، وقد سلف الكلام فيهما ٩/ ٢٦٠ ، وأما النصب فقراءة شاذة. القراءات الشاذة ص٤٤ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٧ .

(٦) ص٢٥-٢٦ من هذا الجزء.

(٧) ص٦٧ من هذا الجزء.

﴿عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ نصبٌ على الحال، وفيه معنى التكثير؛ أي: يرسلُ السماء بالمطر متتابعاً يتلو بعضُه بعضاً، والعربُ تحذِفُ الهاء في مِفْعال على النَّسَب[١]، وأكثرُ ما يأتي مِفْعال من أَفْعَل، وقد جاء هاهنا من فَعَل؛ لأنه من: درَّتِ السماءُ تَدِرُّ وتَدُرُّ، فهي مِدْرارٌ.

وكان قومُ هود ـ أعني عاداً ـ أهلَ بساتين وزروعٍ وعمارةٍ، وكانت مساكنُهم الرمالَ التي بين الشام واليمن[٢]، كما تقدَّم في «الأعراف»[٣].

﴿وَيَزِدْكُمْ﴾ عطفٌ على يُرسل.

﴿قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ قال مجاهد: شدَّةً إلى[٤] شدَّتكم. الضَّحَّاك: خِصْباً إلى خِصْبكم. عليُّ بنُ عيسى: عِزًّا إلى[٥] عزِّكم. عِكرمة: ولدُ الولد[٦]. وقيل: إن الله حبَسَ عنهم المطر وأعْقَم الأرحامَ ثلاثَ سنين، فلم يُوْلَد لهم ولدٌ، فقال لهم هودٌ: إنْ آمنتُم أحيا الله بلادَكم، ورزَقكم المالَ والولد، فتلك القوَّة. وقال الزجَّاج[٧]: المعنى يَزِدكم قوَّةً في النِّعم.

﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ أي: لا تُعْرِضوا عمَّا أدعوكم إليه، وتُقيموا على الكفر.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي: حُجَّة واضحة. ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ إصرارٌ[٨] منهم على الكفر.

---

(١) مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٦٧ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٥٧ .

(٣) ٧/ ٢٣٦ ، وفيه أن مساكنهم كانت بنواحي حضرموت إلى اليمن.

(٤) في (د) و(م): على.

(٥) في (م): على.

(٦) في (م): ولداً إلى ولدكم، وفي (ظ): دوام الولد، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٢/ ٤٧٧ .

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٥٧ .

(٨) في (م): إصراراً.

قوله تعالى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ﴾ أي: أصابَكَ. ﴿بَعْضُ ءَالِهَتِنَا﴾ أي: أصنامِنا. ﴿بِسُوٓءٍ﴾ أي: بجنونٍ لِسَبِّك إياها، عن ابن عباس وغيره[١]. يقال: عَرَاهُ الأمرُ واعْتَرَاه واعترَّه[٢]: إذا أَلَمَّ به. ومنه ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾[٣] [الحج: ٣٦].

﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾ أي: على نفسي. ﴿وَٱشْهَدُوٓا۟﴾ أي: وأُشهِدُكم، لا أنَّهم كانوا أهلَ شهادةٍ، ولكنَّه نهايةٌ للتقرير، أي: لتعرفوا ﴿أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أي: من عبادة الأصنام التي تعبدونَها.

﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا﴾ أي: أنتم وأوثانُكم في عداوتي[٤] وضَرِّي. ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ أي: لا تؤخِّرون. وهذا القولُ مع كثرة الأعداء يدلُّ على كمال الثِّقة بنصر الله تعالى، وهو من أعلام النبوَّة؛ أن يكون الرسولُ وحدَه يقولُ لقومه: ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا﴾، وكذلك قال النبيُّ ﷺ لقريش[٥]، وقال نوحٌ ﷺ: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ الآية [يونس: ٧١].

قوله تعالى: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم﴾ أي: رضيتُ بحُكمه، ووَثِقْتُ بنصره.

﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ﴾ أي: نفسٍ تدِبُّ على الأرض، وهو في موضع رفعٍ بالابتداء. ﴿إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ أي: يَصْرِفها كيف يشاء، ويمنعُها مما يشاء، أي: فلا تصلون إلى ضَرِّي. وكلُّ ما فيه رُوح يقال له: دابٌّ ودابَّة، والهاء للمبالغة[٦]. وقال الفراء: مالكُها، والقادرُ عليها، وقال القُتَبيُّ[٧]: قاهرُها؛ لأنَّ من أخذتَ بناصيته فقد قهرتَه، وقال الضحَّاك: يُحييها ثم يميتُها[٨]، والمعنى متقارِبٌ.

---

(١) أخرجه الطبري ١٢/ ٤٤٧ .

(٢) قوله: واعترَّه، ليس في (م).

(٣) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٧ .

(٤) في (ظ): عذابي.

(٥) يشير إلى قوله سبحانه: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ [المرسلات: ٣٩].

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٨ .

(٧) في تأويل مشكل القرآن ص١٣٨ .

(٨) تفسير البغوي ٢/ ٣٨٨ - ٣٨٩ ، والأقوال السالفة منه.

والناصية: قُصاصُ الشَّعر في مقدَّم الرأس، ونَصَوْتُ الرجلَ أنصوه نَصْواً، أي: مددتُ ناصيتَه.

قال ابن جَرِير[(١)]: إنما خَصَّ الناصية؛ لأنَّ العربَ تستعمل ذلك إذا وصفَتْ إنساناً بالذِّلَّة والخضوع، فيقولون: ما ناصيةُ فلان إلَّا بيد فلان، أي: إنه مطيعٌ له يُصرِّفُه كيف يشاء، وكانوا إذا أسروا أسيراً وأرادوا إطلاقه والمَنَّ عليه جَزُّوا ناصيتَه، ليعرفوا بذلك فخراً عليه، فخاطبهم اللهُ بما يعرفونَ في كلامهم.

وقال الترمذيُّ الحكيم في «نوادر الأصول»[(٢)]: قوله تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ وجهُهُ عندنا أن الله تعالى قدَّر مقادير أعمال العباد، ثم نظَرَ إليها، ثم خلَقَ خلقَه، وقد نفَذَ بصرُه في جميع ما هم فيه عاملون من قَبْل أن يخلقَهم، فلمَّا خلقَهم وضعَ نور تلك النَّظْرة في نواصيهم، فذلك النورُ آخِذٌ بنواصيهم، يُجريهم إلى أعمالهم المقدَّرة عليهم يوم المقادير.

وخلَقَ الله المقادير قبل أن يخلُقَ السماوات والأرض بخمسين ألفَ سنةٍ، رواه عبد الله بنُ عَمرو بن العاص، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «قدَّرَ الله المقادير قبل أن يخلُقُ السماوات والأرض بخمسين ألفَ سنةٍ»[(٣)].

ولهذا قَوِيَت الرسلُ وصاروا من أُولي العَزْم؛ لأنهم لاحظوا نورَ النواصي، وأيقَنوا أنَّ جميعَ خلقه منقادون[(٤)] بتلك الأنوار إلى ما نفَذَ بصرُه فيهم من الأعمال، فأوفرُهم حظًّا من الملاحظة أقواهم في العَزْم، ولذلك ما قَوِيَ هود[(٥)] النبيُّ ﷺ حتى قال: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾.

---

(١) في النسخ: ابن جُريج، وهو خطأ، وابن جرير: هو الطبري، والكلام في تفسيره ١٢/ ٤٤٩ .

(٢) قوله: في نوادر الأصول، ليس في (ظ)، ولم نقف على كلامه في المطبوع من النوادر.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٦٥٧٩)، ومسلم (٢٦٥٣).

(٤) في (ظ): متفاوتون.

(٥) في (ظ): عزم، بدل: هود.

وإنما سُمِّيت ناصيةً؛ لأن الأعمالَ قد نَصَّت وبرزَتْ من غيبِ الغيب، فصارت منصوصةً في المقادير، قد نفذ بَصَرُ الخالق في جميع حركات الخلق بقدرةٍ، ثم وُضِعَتْ حركاتُ كلٍّ من دَبَّ على الأرض حيًّا في جبهته بين عينيه، فسُمِّي ذلك الموضعُ منه ناصيةً؛ لأنها تَنُصُّ حركاتِ العباد بما قدَّر، فالناصيةُ مأخوذةٌ بمنصوصِ الحركات التي نظَرَ اللهُ تعالى إليها قبل أن يخلُقَها.

ووصفَ ناصيةَ أبي جهل، فقال: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [العلق:١٦]؛ يُخْبِرُ أنَّ النواصيَ فيها كاذبةٌ خاطئةٌ، فعلى سبيل ما تأوَّلوه يستحيلُ أن تكون الناصيةُ منسوبةً إلى الكذب والخطأ، والله أعلم.

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قال النحَّاس: الصِّراطُ في اللغة: المِنْهاج الواضحُ، والمعنى أن الله جلَّ ثناؤه، وإن كان يقدِرُ على كلِّ شيء، فإنه لا يأخُذُهم إلا بالحقِّ[1]. وقيل: معناه: لا خَلَلَ في تدبيره، ولا تفاوتَ في خلقه سبحانه[2].

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ في موضع جزم؛ فلذلك حُذِفت منه النون، والأصلُ: تتولَّوا، فحُذِفت التاءُ؛ لاجتماع تاءين. ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾ بمعنى: قد بيَّنتُ لكم.

﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي: يُهْلِكُكم، ويخلُقُ من هو أطوَعُ له منكم يوحِّدُونه ويعبُدونه. «ويَستخلِفُ» مقطوعٌ ممَّا قبلَه، فلذلك ارتفع، أو معطوفٌ على ما يجب فيما بعد الفاء من قوله: «فقد أبلَغتُكم»[3]. ورُوِيَ عن حفص عن عاصم: «ويَستخلِفْ» بالجَزْم حملاً على موضع الفاء وما بعدها[4]، مثل: ﴿ويَذَرْهُم في طُغيانِهِم يَعْمَهونَ﴾[5] [الأعراف:١٨٦].

---

(١) معاني القرآن ٣/ ٣٥٩ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٨ .

(٣) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٨ .

(٤) رواها هبيرة عن حفص. المحرر الوجيز ٣/ ١٨٢ ، والقراءة المتواترة عن حفص بالرفع، كقراءة الجماعة.

(٥) وهي قراءة حمزة والكسائي، وسلف ذكرها ٩/ ٤٠٤ .

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾ أي: بتولِّيكم وإعراضكم. ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي: لكلِّ شيءٍ حافظٌ. «على» بمعنى اللام، فهو يحفظُني من أن تنالوني بسوء.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي: عذابُنا بهلاك عادٍ. ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ لأن أحداً لا يَنْجو إلا برحمةِ الله تعالى، وإن كانت له أعمالٌ صالحة. وفي «صحيح» مسلمٍ والبخاريِّ وغيرِهما[(١)]، عن النبيِّ ﷺ: «لن يُنجيَ أحداً منكم عملُه» قالوا: ولا أنتَ يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يَتغمَّدنيَ اللهُ برحمةٍ منه».

وقيل: معنى «بِرَحْمَةٍ مِنَّا»: بأن بيَّنَّا لهم الهُدى الذي هو رحمةٌ. وكانوا أربعةَ آلاف، وقيل: ثلاثةَ آلاف.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: عذابِ يوم القيامة، وقيل: هو الريحُ العقيم؛ كما ذكر الله في «الذاريات» وغيرِها، وسيأتي[(٢)].

قال القُشَيريُّ أبو نَصْر: والعذابُ الذي يتوعَّد به النبيُّ أُمته إذا حضر يُنَجِّي الله منه النبيَّ والمؤمنين معه، نعم، لا يبعُدُ أن يبتليَ الله نبيًّا وقومَه فيَعُمَّهم ببلاء، فيكون ذلك عقوبةً للكافرين، وتمحيصاً للمؤمنين، إذا لم يكن مما توعَّدَهم النبيُّ به.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ ابتداءٌ وخبر. وحكى الكسائيُّ أن من العرب من لا يصرِفُ «عاداً»، فيجعله اسماً للقبيلة[(٣)]. ﴿جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: كذَّبوا بالمعجزات وأنكروها. ﴿وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾ يعني هوداً وحدَه، لأنه لم يُرسل إليهم من الرُّسل سواه. ونظيره قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [المؤمنون:٥١] يعني النبيَّ ﷺ وحدَه؛ لأنه لم يكن في عصرِه رسولٌ سواه، وإنما جَمَعَ هاهنا؛ لأن من كذَّب رسولاً واحداً فقد كَفَرَ بجميع الرُّسل. وقيل: عَصَوا هوداً والرُّسلَ قبلَه، وكانوا بحيث لو

---

(١) صحيح مسلم (٢٨١٦): (٧١)، وصحيح البخاري (٦٤٦٢) عن أبي هريرة، وهو في المسند (٧٢٠٣).

(٢) عند تفسير الآية (٤١) منها.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٩.

أُرسِلَ إليهم ألفُ رسولٍ لَجَحدوا الكُلَّ.

﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: اتَّبع سُقَّاطُهم رؤساءَهم. والجَبَّار: المتكبِّر، والعنيد: الطاغي الذي لا يقبَلُ الحقَّ ولا يُذعِنُ له. قال أبو عُبيدة[1]: العَنِيد والعَنود والعانِد والمُعانِد: المُعارِض بالخلاف، ومنه قيل للعِرْق الذي ينفجِرُ بالدم: عانِدٌ. قال الراجز:

إنِّـي كـبـيـرٌ لا أُطـيـقُ الـعُـنَّـدا[2]

قوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي: أُلحِقُوها. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: وأُتبِعُوا يوم القيامة مثل ذلك، فالتمامُ على قوله: «ويومَ القيامة»[3].

﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾ قال الفرَّاء[4]: أي: كفروا نعمةَ ربهم، قال: ويُقال: كَفَرتُه وكَفَرتُ به، مثل: شكرتُه وشكرتُ له.

﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ أي: لا زالوا مُبْعَدين عن رحمة الله. والبُعد: الهلاك، والبُعد: التَّباعُدُ من الخير، يقال: بَعُد يَبعُد بُعْداً: إذا تأخَّر وتباعَدَ، وبَعِد يَبْعَد بَعَداً: إذا هلك، قال:

لا يَـبـعَـدَنْ قـومـي الـذيـن هُـمُ سـمُّ الـعُـداةِ وآفَـةُ الـجُـزْرِ[5]

وقال النابغة:

فـلا تَـبـعَـدنْ إنَّ الـمـنـيـةَ مَـنـهَـلٌ وكـلُّ امـرئ يـومـاً بـه الـحـالُ زائـلُ[6]

---

(١) في (م): أبو عبيد، والمثبت من (ز) و(ظ)، والكلام في مجاز القرآن له ١/ ٢٩٠ ، بنحوه، وينظر تفسير البغوي ٢/ ٣٨٩ .

(٢) أورده كذلك الطبري ١٢/ ٤٥٢ ، وابن الشجري في أماليه ١/ ٤٢٢ ، وقبله عنده: إذا ركبت فاجعلوني وسطاً. والعندا: الصعاب من الإبل، وسيذكر المصنف الرجز عند تفسير الآية (١٥) من سورة إبراهيم.

(٣) والوقف حسن، كما في الوقف والابتداء لابن الأنباري ٢/ ٧١٤ .

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٢٠ ، ونقله عنه المصنف بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٨٩ .

(٥) سلف ٣/ ٥٦ .

(٦) ديوان النابغة الذبياني ص٩٠ ، وفيه: إن المنية موعد.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ أي: أرسلنا إلى ثمود ﴿أَخَاهُمْ﴾ أي: في النَّسَب. ﴿صَٰلِحًا﴾. وقرأ يحيى بنُ وثَّاب: «وإلى ثَمودٍ» بالتنوين في كلِّ القرآن[١]، وكذا رُوِيَ عن الحسن، واختلف سائر القرَّاء فيه، فصَرَفوه في موضع، ولم يَصرفوه في موضع[٢]، وزعم أبو عُبيدة أنه لولا مخالفةُ السَّواد لكان الوجهُ تركَ الصَّرف؛ إذ كان الأغلبُ عليه التأنيث. قال النحَّاس[٣]: الذي قاله أبو عُبيدة ـ رحمه الله ـ من أن الغالبَ عليه التأنيثُ كلامٌ مردودٌ؛ لأن ثموداً يقال له حيٌّ، ويقال له قَبيلة، وليس الغالب عليه القَبِيلة، بل الأمرُ على ضدِّ ما قال عند سيبويه، والأجودُ عند سيبويه[٤] فيما لم يُقل فيه: بنو فلان، الصَّرفُ، نحو قريش وثَقِيف وما أشبَهَهما، وكذلك ثمود، والعلةُ في ذلك أنه لمَّا كان التذكيرُ الأصلَ، وكان يقعُ له مذكَّر ومؤنَّث؛ كان الأصلُ الأخفُّ أولى، والتأنيث جيِّد بالغٌ حسن. وأنشد سيبويه[٤] في التأنيث:

غَلبَ المَسامِيحَ الوليدُ سماحةً ... وكَفَى قريشَ المعضِلاتِ وسادَها[٥]

الثانية: قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ تقدَّم[٦].

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ابتدأ خلقَكم من الأرض، وذلك أن آدمَ خُلِقَ من

---

(١) القراءات الشاذة ص٤٤ ، وزاد نسبتها للأعمش.

(٢) ينظر السبعة ص٣٣٧ ، والتيسير ص١٢٥ .

(٣) في إعراب القرآن ٢/ ٢٨٩ -٢٩٠ ، وما قبله منه. إلا أن فيه: أبو عبيد، في الموضعين.

(٤) الكتاب ٣/ ٢٥٠ . ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس.

(٥) البيت لعَدِيِّ بن الرِّقاع. والمساميح: جمع سَمْحٍ على غير قياسٍ، وهو من الجمع النادر، والمعضلات: الشدائد. شرح الشواهد للشنتمري ص٤٦٠ - ٤٦١ .

(٦) ٩/ ٢٦٠ .

الأرض على ما تقدَّم في «البقرة» و«الأنعام»[(١)]. وهم منه. وقيل: أنشأكم في الأرض.

ولا يجوز إدغامُ الهاء من «غيره» في الهاء من «هو» إلا على لغةِ مَنْ حذَفَ الواوَ في الإدراج[(٢)].

﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي: جعلكم عُمَّارَها وسكَّانَها. قال مجاهدٌ: ومعنى «استعمَرَكم»: أعمركم، من قولهم[(٣)]: أعْمَر فلانٌ فلاناً دارَه، فهي له عُمْرَى، وقال قَتَادة: أسكنكم فيها، وعلى هذين القولين يكون استَفْعَل بمعنى أَفْعَل، مثل: استجاب بمعنى أجاب، وقال الضَّحَّاك: أطال أعماركم، وكانت أعمارُهم من ثلاث مئة إلى ألف[(٤)]. ابن عباس: أعاشَكم فيها. زيد بنُ أسلم: أمرَكم بعمارة ما تحتاجون إليه فيها من بناءِ مساكنَ، وغَرْسِ أشجارِ. وقيل: المعنى: ألهمَكم عمارتَها من الحَرْث والغَرْس وحَفْر الأنهار وغيرها.

الثالثة: قال ابنُ العربيِّ[(٥)]: قال بعضُ علماء الشافعية: الاستعمار: طلبُ العِمارة، والطلبُ المطلقُ من الله تعالى على الوجوب. قال القاضي أبو بكر: تأتي كلمةُ استَفْعَل في لسان العرب على معان منها: استَفْعَل بمعنى طلب الفعل، كقوله: استحملتُه، أي: طلبتُ منه حُملاناً، وبمعنى اعتقَدَ، كقولهم: استسهلتُ هذا الأمر: اعتقدتُه سهلاً، أو وجدتُه سهلاً، واستعظمتُه؛ أي: اعتقدتُه عظيماً ووجدتُه، ومنه استفعلتُ بمعنى أصبتُ، كقولهم: استجَدْتُه أي: أصبتُه[(٦)] جيداً، ومنها بمعنى فَعَل، كقوله: قَرَّ في المكان واستقَرَّ، وقالوا: وقوله: ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ٥]

---

(١) ١/ ٤١٧ و ٨/ ٣١٨.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٠، وإدغام الهاء من «غيره» في الهاء من «هو» من الإدغام الكبير لأبي عمرو البصري من رواية السوسي.

(٣) في (د) و(م): قوله.

(٤) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٢/ ٤٥٣، والنكت والعيون ٢/ ٤٧٩، وتفسير البغوي ٢/ ٣٩٠.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٤٧، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٦) في (د): وجدته، وفي (ظ): أصبت.

و﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ [الصافات: ١٤] منه.

فقوله تعالى: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ خلقَكم لعمارتها، لا على معنى استَجَدْتُهُ واستسهلتُه، أي: أصبتُه جيداً وسهلاً، وهذا يستحيل في الخالق، فيرجع إلى أنه خَلَق؛ لأنه الفائدةُ، وقد يُعبَّر عن الشيء بفائدته مجازاً، ولا يصحُّ أن يقال: إنه طلبٌ من الله تعالى لعمارتها؛ فإنَّ هذا اللفظَ لا يجوز في حقِّه، أمَا أنه يصحُّ أن يقال: إنه استدعى عِمارتَها؛ فإنه جاء بلفظ استَفْعَل، وهو استدعاءُ الفعل بالقول ممن هو دونَه إذا كان أمراً، وطلبٌ للفعل إذا كان من الأدنى إلى الأعلى [رغبة].

قلتُ: لم يذكر استَفْعَل بمعنى أَفْعَل، مثل قوله: استوقَدَ بمعنى أوقَدَ، وقد ذكرناه[(١)]. وهي:

الرابعة: ويكون فيها دليلٌ على الإسكان والعُمْرى، وقد مضى القولُ في «البقرة» في السُّكْنى والرُّقْبى[(٢)].

وأما العُمْرى فاختلف العلماءُ فيها على ثلاثة أقوال:

أحدها: إنها تمليكٌ لمنافع الرَّقَبة حياةَ المُعْمَر مدةَ عُمُرِه، فإن لم يذكُر عَقِباً، فمات المُعْمِرُ؛ رجعتْ إلى الذي أعطاها أو لورثته، هذا قول القاسم بن محمد ويزيد ابن قُسيط والليث بن سعد، وهو مشهورُ مذهب مالك، وأحدُ أقوال الشافعي، وقد تقدَّم في «البقرة» حُجَّةُ هذا القول[(٣)].

الثاني: إنها تمليكُ الرقَبة ومنافِعِها، وهي هبةٌ مَبْتُولة[(٤)]، وهو قول أبي حنيفة والشافعي وأصحابهما والثَّوري والحسن بن حيٍّ وأحمد بن حنبل وابن شُبْرمة

---

(١) ١/ ٣٢١.

(٢) ١/ ٤٤٥، وما بعدها.

(٣) ١/ ٤٤٦.

(٤) في (ظ) مقبولة. ومبتولة، أي: منقطعة من مال واهبها خارجة عنه، من البَتْل: وهو القطع وتمييز الشيء من الشيء. تهذيب اللغة ١٤/ ٢٩١.

وأبي عُبيد، قالوا: من أعمَرَ رجلاً شيئاً حياتَه فهو له حياتَه، وبعد وفاتِه لورثته؛ لأنه قد ملَكَ رقبَتَها، وشَرْطُ المعطي الحياةَ أو العمرَ باطلٌ؛ لأن رسولَ الله ﷺ قال: «العُمْرى جائزةٌ»[1]، و«العُمْرى لمن وُهِبت له»[2].

الثالث: إن قال: عُمرَك، ولم يذكر العَقِبَ، كان كالقولِ الأوّل، وإن قال: لعَقِبِك، كان كالقول الثاني، وبه قال الزُّهريُّ وأبو ثور وأبو سَلَمة بنُ عبد الرحمن وابنُ أبي ذئب[3]، وقد رُوي عن مالك، وهو ظاهرُ قوله في «الموطأ»[4].

والمعروفُ عنه وعن أصحابه أنها ترجعُ إلى المُعْمِر إذا انقرضَ عَقِبُ المُعْمَر، إن كان المُعْمِر حيًّا، وإلا فإلى من كان حيًّا من ورثته وأولى الناس بميراثه، ولا يملِكُ المُعْمَر بلفظ العُمْرى عند مالك وأصحابه رقبةَ شيءٍ من الأشياء، وإنما يملِكُ بلفظ العُمْرى المنفعةَ دون الرقبة[5].

وقد قال مالك في الحُبُس أيضاً إذا حبَسَ على رجل وعَقِبه: إنه لا يرجع إليه، وإن حبَسَ على رجلٍ بعينه حياتَه رجَعَ إليه، وكذلك العُمْرى قياساً[6]، وهو ظاهر «الموطأ». وفي «صحيح مسلم» عن جابر بن عبد الله أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أيُّما رجلٍ أَعْمر رجلاً عُمْرى له ولعَقِبه فقال: قد أعطيتُكَها وعَقِبَك ما بقي منكم أحدٌ، فإنَّها لمن أُعْطِيَها[7]، وإنها لا ترجعُ إلى صاحبها؛ من أجلِ أنه أعطى عطاءً وقعت فيه المواريثُ». وعنه قال: إن العُمْرى التي أجاز رسولُ الله ﷺ أن يقول: هي لك ولعَقِبك، فأما إذا قال: هي لك ما عِشْتَ، فإنَّها ترجِعُ إلى صاحبِها. قال مَعْمَر: وبذلك كان الزُّهريّ يُفتي[8].

---

(١) أخرجه أحمد (٨٥٦٧)، والبخاري (٢٦٢٦)، ومسلم (١٦٢٦): (٣٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٢) أخرجه أحمد (١٤٢٤٣)، والبخاري (٢٦٢٥)، ومسلم (١٦٢٥): (٢٥) من حديث جابر بن عبدالله ﷺ.
(٣) ينظر التمهيد ٧/ ١١٤ وما بعدها.
(٤) ٢/ ٧٥٦ .
(٥) الاستذكار ٢٢/ ٣١٧ .
(٦) الكافي ٢/ ١٠١٣ .
(٧) بعدها في (ز) و(ظ): وعقبه.
(٨) صحيح مسلم (١٦٢٥): (٢٢) و (٢٣)، وهما في مسند أحمد (١٥٢٩٠) و(١٤١٣١).

قلتُ: معنى القرآن يجري مع أهل القول الثاني؛ لأنَّ الله سبحانه قال: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ﴾ بمعنى أعمركم، فأعمَرَ الرجلَ الصَّالح فيها مدةَ حياتِه بالعمل الصَّالح، وبعد موته بالذِّكر الجميل والثناءِ الحسن، وبالعكس الرجلُ الفاجرُ، فالدنيا ظرفٌ لهما حياةً وموتاً. وقد يقال: إن الثناء الحسن يجري مجرى العَقِب. وفي التنزيل: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤] أي: ثناءً حسناً، وقيل: هو محمدٌ ﷺ[١]. وقال: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧] وقال: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي: سَلُوه المغفرةَ من عبادة الأصنام. ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ أي: ارجِعُوا إلى عبادته. ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ أي: قريبُ الإجابة لمن دعاه. وقد مضى في «البقرة» عند قوله: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ [١٨٦] القولُ فيه[٢].

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ أي: كنا نرجو أن تكون فينا سيِّداً قبل هذا، أي: قبل دعوتك النبوَّة. وقيل: كان صالحٌ يعيب آلهتهم ويَشْنَؤُها،

(١) ينظر ما سيرد عند تفسير الآية ٨٣ من سورة الشعراء.

(٢) ٣/ ١٧٨ فما بعدها.

وكانوا يرجون رجوعَه إلى دينهم، فلمَّا دعاهم إلى الله قالوا: انقطَعَ رجاؤُنا منك[(١)].

﴿أَتَنْهَىٰنَآ﴾ استفهامٌ معناه الإنكارُ. ﴿أَن نَّعْبُدَ﴾ أي: عن أن نعبُدَ ﴿مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ فـ «أن» في محلِّ نصبٍ بإسقاط حرفِ الجر. ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ﴾ وفي سورة «إبراهيم»: ﴿وَإِنَّا﴾ [٩] والأصلُ: وإنَّنا، فاستثقل ثلاثَ نوناتٍ فأسقطَ الثالثة[(٢)]. ﴿مِّمَّا تَدْعُونَآ﴾ الخطابُ لصالح، وفي سورة «إبراهيم»: ﴿تَدْعُونَنَآ﴾ [٩] لأنَّ الخطابَ للرُّسل صلوات الله وسلامه عليهم ﴿إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ من أَرَبْتُه فأنا أُرِيبُه: إذا فعلتَ به فعلاً يوجبُ لديه[(٣)] الرِّيبة. قال الهُذَليُّ:

كنتُ إذا أتوتُه من غَيْبِ يَشَمُّ عِطْفي ويَبُزُّ ثَوْبي
كأنَّما أَرَبْتُه بِرَيْبِ[(٤)]

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ تقدَّم معناه في قول نوح[(٥)]. ﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ استفهامٌ معناه النفيُ؛ أي: لا ينصُرني منه إن عصيتُه أحدٌ. ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أي: تضليلٍ وإبعادٍ من الخير، قاله الفرَّاء[(٦)]. والتَّخْسيرُ لهم لا له ﷺ، كأنه قال: غيرَ تخسيرٍ لكم، لا لي، وقيل: المعنى ما تزيدونني باحتجاجِكم بدينِ آبائكم غيرَ بصيرةٍ بخسارتكم، عن ابن عباس[(٧)].

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ ابتداءٌ وخبر. ﴿لَكُمْ ءَايَةً﴾ نصبٌ على

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٣٩٠.

(٢) ينظر زاد المسير ٤/ ١٢٤.

(٣) في (د): توجب به.

(٤) قائله خالد بن زهير، جعله أبو ذؤيب ـ خالُه ـ رسولاً بينه وبين عشيقته، فأفسدها عليه، فكان يشك فيه، فقال له خالد هذه الأبيات. والشعر في ديوان الهذليين ١/ ١٦٥، وقبله: يا قوم ما بالُ أبي ذؤيب. وأتوته: لغة في أتيته، ويبز ثوبي، أي: يجذبه إليه. اللسان: (أتى) و(بزز).

(٥) ص١٠١ من هذا الجزء.

(٦) معاني القرآن ٢/ ٢٠، ونقله عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٩٠.

(٧) تفسير البغوي ٢/ ٣٩١.

الحال، والعاملُ معنى[١] الإشارة، أو التنبيه في «هذه». وإنَّما قيل: ناقةُ الله؛ لأنه أخرجَها لهم من جبل على ما طلبوا، على أنَّهم يؤمنون[٢]. وقيل: أخرجَها من صخرةٍ صمَّاءَ منفردةٍ في ناحيةِ الحِجْر يقال لها: الكاثِبَة، فلما خرجَتِ الناقةُ ـ على ما طَلَبوا ـ قال لهم نبيُّ الله صالح: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾.

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ﴾ أمرٌ وجوابُه، وحُذِفت النونُ من «فذروها» لأنه أمرٌ، ولا يقال: وَذَرَ ولا وَاذِرٌ إلا شاذًّا، وللنحويين فيه قولان: قال سيبويه[٣]: استغنَوا عنه بتَرَكَ، وقال غيرُه: لَمَّا كانت الواو ثقيلةً، وكان في الكلام فِعْلٌ بمعناه لا واوَ فيه؛ ألغَوه. قال أبو إسحاق الزجَّاج: ويجوزُ رفع «تأكل» على الحال والاستئناف.

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا﴾ جزمٌ بالنهي. ﴿بِسُوٓءٍ﴾ قال الفرَّاء: بعَقْر. ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ جوابُ النهي. ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ أي: قريبٌ من عَقْرِها[٤].

قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ إنما عَقَرها بعضُهم، وأُضيف إلى الكلِّ؛ لأنه كان برضا الباقين. وقد تقدَّم الكلامُ في عَقْرِها في «الأعراف». ويأتي أيضاً[٥].

﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟﴾ أي: قال لهم صالح: تمتَّعوا، أي: بنعم الله عزَّ وجلَّ قبلَ العذاب. ﴿فِى دَارِكُمْ﴾ أي: في بلدكم، ولو أراد المنزِلَ لقال: في دُورِكم. وقيل: أي: يتمتَّع كلُّ واحدٍ منكم في داره ومسكنه، كقوله: ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾[٦] [غافر: ٦٧]؛ أي: كلَّ واحدٍ طفلاً. وعبَّر عن التمتع بالحياة؛ لأن الميِّتَ لا يتلذَّذ ولا

(١) في (ظ): فيه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٠ .

(٣) الكتاب ١/ ٢٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٠ ، والأقوال السالفة منه.

(٥) ينظر ٩/ ٢٧٠ . وسيرد في تفسير الآية ٢٩ من سورة القمر، والآية ١٤ من سورة الشمس.

(٦) في (ظ): ﴿نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥].

يتمتَّع بشيء، فعُقِرت يومَ الأربعاء، فأقاموا يومَ الخميس والجمعة والسَّبت، وأتاهم العذابُ يومَ الأحد، وإنَّما أقاموا ثلاثةَ أيامٍ؛ لأنَّ الفَصِيل رغا ثلاثاً، على ما تقدَّم في «الأعراف»[١]، فاصفرَّت ألوانُهم في اليوم الأوَّل، ثم احمرَّت في الثاني، ثم اسودَّت في الثالث، وهَلَكوا في الرابع، وقد تقدَّم في «الأعراف»[٢].

الثانية: استدلَّ علماؤنا بإرجاء الله العذابَ عن قومِ صالحٍ ثلاثةَ أيامٍ على أن المسافرَ إذا لم يُجمِعْ على إقامة أربعِ ليالٍ قَصَرَ؛ لأنَّ الثلاثةَ الأيامِ خارجةٌ عن حكم الإقامة. وقد تقدَّم في «النساء»[٣] ما للعلماء في هذا.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ أي: غير كَذِبٍ. وقيل: غير مكذوبٍ فيه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي: عذابُنا. ﴿نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ تقدَّم[٤]. ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ أي: ونجَّيناهم من خِزْيِ يومئذٍ، أي: من فضيحته وذِلَّته. وقيل: الواو زائدةٌ؛ أي: نجَّيناهم من خِزْيِ يومئذ، ولا يجوزُ زيادتُها عند سيبويه[٥] وأهل البصرة، وعند الكوفيين يجوز زيادتُها مع «لمَّا» و«حتَّى» لا غير[٦].

وقرأ نافع والكسائيُّ: «يومئذٍ» بالنصب، والباقون بالكَسْر على إضافة «يوم» إلى «إذ»[٧]. وقال أبو حاتم: حدَّثنا أبو زيد، عن أبي عَمرو أنه قرأ: «وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ»؛ أدغَمَ الياء في الياء، وأضاف، وكَسَر الميم في «يومِئذ». قال النحاس[٨]: الذي يرويه

(١) ٩/ ٢٧١ .

(٢) لم يذكر المصنف هذا في «الأعراف»، وينظر المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٢ .

(٣) ٧/ ٨٣ .

(٤) تقدم معناه في قصة هود ص١٤٦ من هذا الجزء.

(٥) الكتاب ٣/ ١٠٣ .

(٦) ينظر الإنصاف للأنباري ٢/ ٤٥٦ وما بعدها.

(٧) السبعة ص٣٣٦ ، والتيسير ص١٢٥ .

(٨) إعراب القرآن ٢/ ٢٩١ ، وما قبله منه.

النحويون مثلُ سيبويه ومن قارَبَه[١] عن أبي عَمرٍو في مثل هذا الإخفاء[٢]، فأما الإدغامُ فلا يجوز؛ لأنه يلتقي ساكنان، ولا يجوز كَسْرُ الزاي[٣].

قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ أي: في اليوم الرابع؛ صِيْحَ بهم فماتوا، وذَكَّر؛ لأنَّ الصَّيحة والصِّياح واحدٌ. قيل: صيحةُ جبريل، وقيل: صيحةٌ من السَّماء فيها صوتُ كلِّ صاعقة، وصوتُ كلِّ شيء في الأرض، فتقطَّعت قلوبُهم وماتوا[٤].

وقال هنا: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ وقال في «الأعراف»: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ [٧٨]، وقد تقدَّم بيانُه هناك.

وفي التفسير: إنهم لمَّا أيقنوا بالعذاب قال بعضهم لبعض: ما مُقامُكم أن يأتيَكم الأمرُ بَغْتةً؟! قالوا: فما نصنَعُ؟ فأخذوا سيوفَهم ورِماحَهُم وعُدَدَهم، وكانوا فيما يقال: اثني عشَرَ ألف قبيلة، في كلِّ قبيلةٍ اثنا عشَرَ ألف مقاتل، فوقفوا على الطُّرُق والفِجَاج ـ زعموا ـ يُلاقون العذاب، فأوحى الله تعالى إلى المَلَك الموكَّل بالشمس أن يُعذِّبَهم بحرِّها، فأدناها من رؤوسهم، فاشْتَوَتْ أيديهم، وتدلَّت ألسنتُهم على صدورهم من العطش، ومات كلُّ ما كان معهم من البهائم، وجعل الماءُ يتفوّر من تلك العيون من غَلَيانه حتى يبلُغَ السماء، لا يسقطُ على شيءٍ إلا أهلَكه من شدَّة حَرِّه، فما زالوا كذلك، وأوحى الله إلى مَلَك الموت ألَّا يقبِضَ أرواحَهم؛ تعذيباً لهم إلى أن غَرَبت الشَّمس، فصِيْحَ بهم، فأهلكوا.

---

(١) في (ظ): قارنه.

(٢) قال سيبويه في الكتاب ٤/ ٤٣٨ : وإذا كان قبل الحرف المتحرك الذي بعده حرف مثلُه سواءً حرف ساكن لم يجز أن يسكن، ولكنك إن شئت أخفيت، وكان بزنته متحركاً.

(٣) قال أبو عمرو الداني في جامع البيان ١/ ١٨٣ مقرراً مذهب أبي عمرو البصري في الإدغام: فأما المثلان إذا كانا من كلمتين فإنه أدغم الأول في الثاني منهما في جميع القرآن، وسواء سكن ما قبله أو تحرك... إلا موضعاً واحداً وهو في لقمان: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ [٢٣] فإنه لم يدغم الكاف في الكاف فيه؛ لسكون النون قبلها، وكونها مخفاة عنده، فلو أدغمها لوالى بين إعلالين.

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٣٩١ ، والقول الثاني أخرجه الطبري في تفسيره ١٢/ ٤٦٢ في سياق طويل، من حديث عمرو بن خارجة مرفوعاً.

﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أي: ساقطين على وجوههم قد لَصِقوا بالتراب، كالطَّير إذا جَثَمت.

﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ تقدَّم معناه(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةًۚ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ هذه قصَّة لوطٍ عليه السلام، وهو ابنُ عمِّ إبراهيم عليه السلام لَحًّا(٢)، وكانت قرى لوطٍ بنواحي الشَّام، وإبراهيمُ ببلاد فلسطين، فلمَّا أنزل الله الملائكةَ بعذابِ قومِ لوط مرُّوا بإبراهيمَ ونزلوا عندَه، وكان كلُّ من نزَلَ عنده يُحسِنُ قِرَاهُ، وكانوا مرُّوا ببشارة إبراهيم، فظنَّهم أضيافاً، وهم جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ عليهم السلام، قاله ابنُ عباس. الضحَّاك: كانوا تسعةً. السُّدِّيّ: أحدَ عَشَر مَلَكاً على صورة الغِلْمان الحِسَان الوجوه، ذَوو وَضاءةٍ وجمالٍ بارع(٣).

﴿بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ قيل: بالولد، وقيل: بإهلاكِ قوم لوطٍ، وقيل: بشَّروه بأنَّهم رسلُ الله عزَّ وجلَّ، وأنه لا خوفَ عليه.

﴿قَالُواْ سَلَٰمًاۖ﴾ نُصِب بوقوعِ الفعل عليه، كما تقول: قالوا خيراً، وهذا اختيارُ الطبريِّ(٤). وأما قوله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ﴾ [الكهف: ٢٢] فالثلاثةُ اسمٌ غيرُ قولٍ مقول(٥)،

---

(١) في قصة هود ص١٤٧ من هذا الجزء.

(٢) أي: لاصق النسب. الصحاح: (لحح).

(٣) ينظر تفسير البغوي ٢/ ٣٩٢ .

(٤) تفسير الطبري ١٢/ ٤٦٦ .

(٥) في (د): غير منقول.

ولو رُفِعا جميعاً أو نُصِبا جميعاً ﴿قَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌۖ﴾ جاز في العربية[(١)]. وقيل: انتصَبَ على المصدر، وقيل: ﴿قَالُواْ سَلَٰمًاۖ﴾ أي: فاتَحوه بصوابٍ من القول، كما قال: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣] أي: صواباً، فسلاماً معنى قولهم، لا لفظُه. قال معناه ابنُ العربيّ واختاره[(٢)]، قال: ألا ترى أنَّ الله تعالى لمَّا أراد ذِكْر اللفظ قالَه بعينه، فقال مخبراً عن الملائكة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْۚ﴾ [الرعد: ٢٦] ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ [الزمر: ٧٣].

وقيل: دَعَوا له، والمعنى: سَلِمتَ سَلاماً.

﴿قَالَ سَلَٰمٌۖ﴾ في رفعه وجهان: أحدهما: على إضمار مبتدأ؛ أي: هو سلامٌ، وأمري سلامٌ. والآخرُ بمعنى: سلامٌ عليكم، إذا جُعِلَ بمعنى التحيَّة، فأضمَرَ الخبر، وجاز «سلامٌ» على التنكير؛ لكثرة استعماله، فحذَفَ الألفَ واللام كما حُذِفت من لاهمَّ في قولك: اللهُمَّ. وقُرئ: «سِلْمٌ»[(٣)] قال الفرَّاء[(٤)]: السِّلم والسَّلام بمعنًى، مثل الحِلِّ والحَلال.

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ **فيه أربعَ عَشْرة مسألة**[(٥)]:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ﴾ «أن» بمعنى حتَّى، قاله كُبَراء النَّحويين، حكاه ابنُ العربيّ[(٦)]، التقدير: فما لبِثَ حتَّى جاء.

وقيل: «أن» في موضع نصبٍ بسقوط حرفِ الجرّ، التقدير: فما لبِثَ عن أن جاء، أي: ما أبطأ عن مجيئه بعجلٍ، فلمَّا حذف حرف الجرّ بقي «أن» في محلّ

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١ .

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٤٨ .

(٣) وقرأ بها من السبعة حمزة والكسائي. السبعة ص٣٣٧ - ٣٣٨ ، والتيسير ص١٢٥ .

(٤) معاني القرآن ٢/ ٢٠ - ٢١ .

(٥) المسائل التي ذكرها المصنف تنتظم هذه الآية والتي بعدها.

(٦) أحكام القرآن ٣/ ١٠٥٠ ، وعقب عليه بقوله: وأعجب لهم كيف استجازوا ذلك مع سعة معرفتهم. ثم ذكر أن التحقيق في موضع «أن جاء» النصب على حكم المفعول.

النَّصبِ، وفي «لبث» ضميرُ اسمِ إبراهيم. و«ما» نافيةٌ، قاله سيبويه.

وقال الفراء[١]: فما لبث مجيئُه، أي: ما أبطَأ مجيئُه، فـ «أن» في موضع رفعٍ، ولا ضميرَ في «لبِثَ»، و«ما» نافيةٌ، ويصحُّ أن تكون «ما» بمعنى الذي، وفي «لبث» ضميرُ إبراهيم، و«أن جاء» خبرُ «ما» أي: فالذي لبِثَ إبراهيمُ هو مجيئُه بعجلٍ حَنِيذٍ.

و﴿حَنِيذٍ﴾ مشويٌّ، وقيل: هو المشويُّ بِحَرِّ الحجارة من غير أن تَمَسَّه النارُ. يقال: حَنَذتُ الشاةَ أحنِذُها حَنْذاً، أي: شويتُها، وجعلتُ فوقَها[٢] حجارةً مُحْمَاة لتُنضجها، فهي حنيذٌ، وحَنَذتُ الفرس أحنِذُه حَنْذاً ـ وهو أن تُحضِره[٣] شوطاً أو شوطين ثم تُظاهِرَ عليه الجِلال في الشمس ليعرَقَ ـ فهو محنوذٌ وحَنِيذٌ، فإن لم يعرَقْ قيل: كَبَا. وحَنَذٌ: موضعٌ قريبٌ من المدينة[٤].

وقيل: الحَنِيذ: السَّمِيطُ[٥]. ابنُ عباس وغيره: حنيذٌ: نَضِيج[٦]. وحَنِيذٍ بمعنى محنوذٌ، وإنما جاء بعجلٍ؛ لأنَّ البقرَ كانت أكثرَ أمواله.

الثانية: في هذه الآية من أدب الضَّيف أن يُعجِّل قِراه، فيقدِّمَ الموجودَ الميسَّرَ في الحال، ثم يُتبِعَه بغيره إن كان له جِدَةٌ، ولا يتكلَّفَ ما يَضُرُّ به.

والضِّيافةُ من مكارم الأخلاق، ومن آداب الإسلام، ومن خُلُق النبيِّين والصَّالحين، وإبراهيمُ أوَّلُ من أضافَ على ما تقدَّم في «البقرة»[٧]، وليست بواجبةٍ عند عامَّة أهل العلم؛ لقوله ﷺ: «الضِّيافةُ ثلاثةُ أيامٍ، وجائِزتُه يومٌ وليلةٌ، فما

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٢١ .

(٢) في (ظ): وجعلتها فوق.

(٣) قال في الصحاح (حضر): أحضر الفرسُ إحضاراً واحتضر، أي: عدا، واستحضرته: أعديته.

(٤) الصحاح: (حنذ).

(٥) السميط في قول الليث: إذا مُرِط عنه صوفه، ثم شُوي بإهابه. وأصل السمط: أن ينزع صوف الشاة المذبوحة بالماء الحار لتشوى. اللسان: (سمط).

(٦) أخرجه الطبري ١٢/ ٤٦٨ - ٤٦٩ .

(٧) ٢/ ٣٥٢ .

كان وراءَ ذلك فهو صَدَقةٌ»(١)، والجائزةُ: العطيةُ والصِّلةُ التي أصلُها على النَّدب، وقال ﷺ: «من كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر فليكرِمْ جارَه، ومن كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر فليكرِمْ ضيفَه»(٢)، وإكرامُ الجارِ ليس بواجبٍ إجماعاً، فالضيافةُ مثلُه(٣)، والله أعلم، وذهب الليثُ إلى وجوبها مُتمسِّكاً(٤) بقوله ﷺ: «ليلةُ الضَّيف حقٌّ»(٥) إلى غير ذلك من الأحاديث، وفيما أشرنا إليه كفايةٌ، والله الموفِّقُ للهداية.

قال ابنُ العربيِّ(٦): وقد قال قومٌ: إنَّ وجوب الضِّيافة كان في صَدْر الإسلام ثم نُسِخَ. وهذا ضعيفٌ؛ فإنَّ الوجوبَ لم يثبُتْ، والناسخَ لم يَرِدْ. وذَكَر حديثَ أبي سعيدٍ الخدريِّ، خرَّجه الأئمةُ(٧)، وفيه: «فاستضفناهم فأبوا أن يُضيِّفونا، فلُدِغَ سَيِّدُ ذلك الحيِّ» الحديثَ. وقال: هذا ظاهرٌ في أن الضِّيافةَ لو كانت حقًّا لَلَامَ النبيُّ ﷺ القومَ الذين أَبَوا، ولَبيَّنَ لهم ذلك.

الثالثة: اختلفَ العلماء فيمن يُخاطَبُ بها؛ فذهب الشافعيُّ ومحمد بنُ عبد الحَكَم إلى أنَّ المخاطَبَ بها أهلُ الحَضَر والبادية، وقال مالكٌ: ليس على أهل الحَضَر ضيافةٌ. قال سُحْنون: إنَّما الضِّيافة على أهل القُرى، وأما الحَضَر فالفُنْدق ينزِلُ فيه المسافر(٨)، واحتجُّوا بحديث ابن عُمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الضِّيافةُ

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٣٧١)، والبخاري (٦٠١٩)، ومسلم (٤٨): (١٤) [٢/ ١٣٥٢] بنحوه، من حديث أبي شريح الخزاعي. وأخرجه الترمذي (١٩٦٨) وفيه: «وما أنفق عليه بعد ذلك فهو صدقة».

(٢) أخرجه أحمد (٧٦٢٦)، والبخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧): (٧٤) من حديث أبي هريرة.

(٣) التمهيد ٢١/ ٤٧ .

(٤) في (م): تمسكاً.

(٥) أخرجه أحمد (١٧١٧٢)، وأبو داود (٣٧٥٠)، وابن ماجه (٣٦٧٧) من حديث أبي كريمة المقدام بن معدي كرب.

(٦) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٤٩ - ١٠٥٠ .

(٧) أخرجه أحمد (١١٣٩٩)، والبخاري (٢٢٧٦)، ومسلم (٢٢٠١): (٦٥).

(٨) بعدها في (د) و(م): حكى اللغتين صاحب العين وغيره، وهي مقحمة لا وجه لها.

على أهل الوَبَرِ، وليست على أهل المَدَرِ»[١]. وهذا حديثٌ لا يصحُّ، وإبراهيم ابنُ أخي عبد الرزاق متروكُ الحديث، منسوبٌ إلى الكذب، وهذا ممَّا انفردَ به، ونُسِبَ إلى وَضْعه، قاله أبو عمر بنُ عبد البَرِّ[٢]. قال ابنُ العربيِّ[٣]: الضِّيافةُ حقيقةً فرضٌ على الكفاية، ومن الناس من قال: إنها واجبةٌ في القُرى حيثُ لا طعامَ ولا مأوى[٤]، بخلافِ الحواضر؛ فإنَّها مشحونةٌ بالمأْوَاة[٥] والأقوات، ولا شكَّ أن الضَّيف كريمٌ، والضِّيافة كرامةٌ، فإن كان غريباً[٦] فهي فريضةٌ.

الرابعة: قال ابنُ العربيِّ[٧] قال بعضُ علمائنا: كانت ضيافةُ إبراهيمَ قليلةً، فشكَرها الحبيبُ. وهذا حكمٌ بالظنِّ في موضع القَطْع، وبالقياس في موضع النقل، من أين عَلِمَ أنه قليل؟! بل قد نقَلَ المفسِّرون أن الملائكةَ كانوا ثلاثةً: جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ، وعِجْلٌ لثلاثةٍ عظيمٌ، فما هذا التفسيرُ لكتابِ الله بالرأي؟! هذا ـ بأمانةِ الله ـ هو التفسيرُ المذمومُ، فاجتنبوه فقد عَلِمْتُموه.

الخامسة: السُّنةُ إذا قُدِّم للضَّيف الطعامُ أن يبادِرَ المقدَّم إليه بالأكل؛ فإنَّ كرامةَ الضَّيف تعجيلُ التقديم، وكرامة صاحبِ المنزل المبادرةُ بالقَبول، فلمَّا قبضوا أيديَهم نَكِرَهم إبراهيمُ؛ لأنهم خرجوا عن العادة، وخالفوا السُّنَّة، وخاف أن يكون وراءَهم مكروهٌ[٨] يقصِدُونَه[٩]. ورُوي أنهم كانوا يَنكُتُون بقِداحٍ كانت في أيديهم في اللَّحم،

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل ١/ ٢٧١، والقضاعي في مسند الشهاب (٢٨٤). من طريق إبراهيم بن عبد الله ابن أخي عبد الرزاق.

(٢) في التمهيد ٢١/ ٤٣ - ٤٤.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٥٠.

(٤) في (د) و(ز) و(ظ): ولا ماء.

(٥) في (د) و(ز) و(ظ): بالمياه.

(٦) في (ظ): كانت عرساً.

(٧) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٥١.

(٨) في (ز) و(ظ): مكر.

(٩) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٥١.

ولا تصِلُ أيديهم إلى اللَّحم، فلمَّا رأى ذلك منهم ﴿نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾(١) أي: أضمَرَ، وقيل: أحسَّ، والوجوسُ: الدخولُ، قال الشاعر(٢):

جـاء الـبـريـدُ بـقِـرْطـاسٍ يَـخُـبُّ بـهِ فـأوجَسَ الـقـلـبُ من قِرْطاسِه جَزَعا

«خِيفَةً»: خوفاً، أي: فزعاً، وكانوا إذا رأوا الضيفَ لا يأكُلُ ظنُّوا به شرًّا، فقالت الملائكةُ: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾.

السادسة: من أدب الطعام أنَّ لصاحب الضَّيف أن ينظرُ في ضيفه هل يأكُلُ أم لا، وذلك ينبغي أن يكون بتلفُّتٍ ومسارقةٍ، لا بتحديدِ النَّظَر. رُوي أن أعرابياً أكلَ مع سُليمان بنِ عبد الملك، فرأى سليمانُ في لقمة الأعرابيِّ شعرةً، فقال له: أزِلِ الشعرةَ عن لقمتك، فقال له: أتنظُرُ إليَّ نظر من يرى الشَّعرة في لقمتي؟! والله لا أكلتُ معك(٣).

قلتُ: وقد ذُكر أنَّ هذه الحكايةَ إنما كانت مع هشام بنِ عبد الملك لا مع سُليمان، وأن الأعرابيَّ خرج من عنده وهو يقول:

ولَـلْـمـوتُ خـيـرٌ مـن زيـارةِ بـاخِـلٍ يُلاحظُ أطرافَ الأكيلِ على عَمْدِ(٤)

السابعة: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ يقول: أنكرهم، تقول: نَكِرتُك، وأنكرتُك، واستنكرتُك: إذا وجدتَه على غير ما عَهِدتَه، قال الشاعر(٥):

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٢/ ٤٧١ من قول جندب بن سفيان.

(٢) هو يزيد بن معاوية، قاله حينما جاءه نعي والده معاوية ﷺ، والبيت في ديوان شعره ص٢٥ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١٨٨ .

(٤) العقد الفريد ٦/ ١٨٢ ، والبيت نسب لحاتم الطائي، ولقيس بن عاصم، وهو في البيان والتبيين ٣/ ٣١٠ ، وعيون الأخبار ٣/ ٢٦٣ دون نسبة، وينظر تعليق الأستاذ عبد السلام هارون على البيان والتبيين.

(٥) نُسِبَ للأعشى، والبيت في ديوانه ص١٥١ ، غير أن أبا عبيدة نقل في مجاز القرآن ١/ ٢٩٣ عن يونس عن أبي عمرو أنه هو الذي زاد هذا البيت في شعر الأعشى، وقال: فأتوب إلى الله منه.

وأنكرتْني وما كان الذي نَكِرتْ من الحوادِثِ إلا الشَّيبَ والصَّلَعَا

فجمع بين اللغتين[١].ويقال: نَكِرتُ: لما تراهُ بعينك. وأنكرتُ: لما تراه بقلبك.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ﴾ ابتداءٌ وخبر، أي: قائمةٌ بحيث ترى الملائكةَ، قيل: كانت من وراء السِّتر، وقيل: كانت تخدِمُ الملائكة وهو جالسٌ، وقال محمد بن إسحاق: قائمة تُصلي[٢]، وفي قراءة عبد الله بن مسعود: «وامرأتُه قائمةٌ وهو قاعِدٌ»[٣].

التاسعة: قوله تعالى: ﴿فَضَحِكَتۡ﴾ قال مجاهد وعِكْرمة[٤]: حاضَتْ، وكانت آيسةً، تحقيقاً للبشارة، وأنشد على ذلك اللغويون:

وإني لآتي العِرْسَ عند طُهورها وأهجرُها يوماً إذا تَكُ ضاحِكا[٥]

وقال آخر:

وضِحْكُ الأرانبِ فوق الصَّفَا كمثلِ دمِ الجَوفِ يومَ اللِّقا[٦]

والعرب تقول: ضَحِكَت الأرنبُ: إذا حاضَتْ، ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما وعِكرمة[٧]، أُخِذَ من قولهم: ضحكَتِ الكافورةُ ـ وهي قشرة الطَّلْعة ـ إذا انشقَّت، وقد أنكر بعضُ اللغويين أن يكون في كلام العرب ضَحِكَت بمعنى: حاضت.

---

(١) تفسير الطبري ١٢/ ٤٧٢ .

(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ١٨٨ : وقالت فرقة. ولم نقف على من نسبَ هذا القول لابن إسحاق.

(٣) تفسير الطبري ١٢/ ٤٧٣ ، والمحرر الوجيز ٣/ ١٨٨ ، وقراءة ابن مسعود عندهما: «وهو جالس»، وذكرها الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٢ مثل رواية المصنف.

(٤) قول مجاهد أخرجه الطبري ١٢/ ٤٧٦ - ٤٧٧ ، وقول عكرمة أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣٠٦ .

(٥) أورده أبو الشيخ عقب قول عكرمة فيما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٤٠ ، دون نسبة.

(٦) أورده الطبري في تفسيره ١٢/ ٤٧٧ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١٨٩ .

(٧) قول ابن عباس أخرجه ابن أبي حاتم وغيره فيما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٤٠ ، وقول عكرمة ذكره الرازي في تفسيره ١٨/ ٢٦ .

وقال الجمهور: هو الضَّحِكُ المعروف، واختلفوا فيه: فقيل: هو ضحك التعجُّب، قال أبو ذؤيب:

فجاءَ بِمِزْجٍ لم يَرَ الناسُ مثلَه هو الضَّحْكُ إلا أنه عَمَلُ النَّحْلِ[(١)]

وقال مقاتل: ضحكت من خوفِ إبراهيم ورِغْدَته من ثلاثةِ نفرٍ، وإبراهيمُ في حَشَمه وخَدَمه[(٢)]، وكان إبراهيمُ يُقَوَّم وحدَه بمئة رجل.

قال: وليس الضَّحك: الحيض في اللغة بمستقيم، وأنكر أبو عُبَيدة[(٣)] والفرَّاء ذلك. قال الفراء[(٤)]: لم أسمعه من ثقةٍ، وإنما هو كنايةٌ.

ورُويَ أن الملائكةَ مَسَحَت العجلَ، فقام من موضعه، فلَحِقَ بأمه، فضحكت سارةُ عند ذلك، فبشَّروها بإسحاق.

ويقال: كان إبراهيم عليه السلام إذا أرادَ أن يكرِمَ أضيافَه أقامَ سارةَ تَخْدِمهم، فذلك قوله: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ﴾ أي: قائمةٌ في خدمتهم.

ويقال: «قَائِمَةٌ» لروع إبراهيم، «فَضَحِكَتْ» لقولهم: «لَا تَخَفْ» سروراً بالأمن[(٥)].

وقال الفرَّاء: فيه تقديمٌ وتأخير، المعنى: فبشَّرناها بإسحاق فضحكت، أي: ضحكت سروراً بالولد، وقد هَرِمَتْ، والله أعلم أيَّ ذلك كان[(٦)].

---

(١) ديوان الهذليين ١/ ٤٢ . والمزج: العسل، والضحك: قيل في تفسيره هنا: هو الشهد، وقيل: الزُّبْد، وقيل: الثلج، والأجود في تفسير البيت - فيما ذكر الأستاذ محمود شاكر رحمه الله في تعليقه على تفسير الطبري ١٥/ ٣٩٣ - أن يقال: إن الضحك هنا: هو طلع النخل حين ينشق عما في جوفه، وهو أبيض شديد البياض والنقاء. وينظر اللسان: (مزج) و(ضحك).

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٣٩٣ .

(٣) في (م): أبو عبيد، والمثبت من (ز)و(ظ)، وهو الموافق لما في تفسير الرازي ١٨/ ٢٦ . وقد نقل الرازي عن أبي بكر الأنباري قوله: هذه اللغة إن لم يعرفها هؤلاء فقد عرفها غيرهم.

(٤) معاني القرآن ٢/ ٢٢ .

(٥) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٩٣ ، وتفسير الرازي ١٨/ ٢٥ - ٢٦ .

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٢ ، إلا أنه لم يجزم بهذا القول، بل ذكر أنه مما يقوله بعض المفسرين، ثم قال: وهو مما قد يحتمله الكلام، والله أعلم بصوابه.

قال النحاس[١]: فيه أقوال: أحسنُها: أنهم[٢] لمَّا لم يأكلوا أنكرهم[٣] وخافَهم، فلما قالوا: لا تَخَفْ، وأخبروه أنهم رُسُلُ الله، فرِحَ بذلك، فضحكَتْ امرأتُه سروراً بفرحه. وقيل: إنها كانت قالت له: أحسَبُ أن هؤلاء القوم سينزِلُ بهم عذابٌ، فَضُمَّ لوطاً إليك، فلما جاءت الرسلُ بما قالته؛ سُرَّتْ به فضحكت. قال النحاس[٤]: وهذا إن صحَّ إسنادُه فهو حسنٌ.

والضَّحِكُ: انكشافُ الأسنان، ويجوز أن يكون الضَّحك: إشراقُ الوجه، تقول: رأيتُ فلاناً ضاحكاً، أي: مشرقاً، وأتيتُ على رَوْضةٍ تضحكُ، أي: مشرقة. وفي الحديث: «إن الله سبحانه يبعثُ السَّحابَ، فيضحَكُ أحسَنَ الضَّحِك»[٥]؛ جعل انجلاءه عن البَرْق ضَحِكاً، وهذا كلامٌ مستعارٌ[٦].

ورُوِيَ عن رجل من قرَّاء مكةَ يقال له: محمد بنُ زياد الأعرابيُّ: «فضَحَكت»، بفتح الحاء[٧]، قال المَهْدَوي: وفتحُ «الحاء» من «فضحكت» غيرُ معروفٍ.

وضَحِك يضحَك ضَحْكاً وضِحْكاً وضِحِكاً وضَحِكاً، أربع لغات. والضَّحْكة: المرَّة الواحدةُ، ومنه قول كُثَيِّر:

غَلِقَتْ لِضِحْكتِهِ رقابُ المالِ[٨]

(١) في معاني القرآن ٣/ ٣٦٣.

(٢) في (ظ): أنه.

(٣) في (ز) و(ظ): نكرهم.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٣٦٣.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٦٨٦) من حديث رجل من بني غفار، بلفظ: «إن الله ينشئ السحاب، فينطق أحسن المنطق، ويضحك أحسن الضحك».

(٦) هذا تأويل ابن الأثير في النهاية: (ضحك)، وقد أول الطحاوي في شرح مشكل الآثار ١٣/ ٢١٨ ضحك السحاب: بخروج الزهر والمرعى في الجنان بما يهطل من مائه.

(٧) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٠ دون نسبة.

(٨) ديوانه ص٢٩٥ ، وصدره: غَمْرُ الرداء إذا تبسَّم ضاحكاً.

قاله الجوهري(١).

العاشرة: روى مسلم عن سَهْل بن سَعْد قال: دعا أبو أُسَيد الساعِديُّ رسولَ الله ﷺ في عُرْسه، فكانت امرأتُه يومئذٍ خادِمَهم، وهي العَروس، قال سَهْل: أتدرون ما سقَتْ رسولَ الله ﷺ؟ أنقَعَتْ له تمراتٍ من الليل في تَوْرٍ، فلمَّا أكَلَ سقَتْه إياه(٢).

وأخرجه البخاريُّ(٣) وترجَمَ له: بابُ قيامِ المرأة على الرجال في العُرْس وخِدْمَتهم بالنفس.

قال علماؤنا: فيه جوازُ خدمة العَروس زوجَها وأصحابَه في عُرْسها، وفيه أنه لا بأسَ أن يعرِضَ الرجلُ أهلَه على صالحِ إخوانه، ويستخدِمَهنَّ لهم، ويَحتَمِلُ أن يكون هذا قبلَ نزولِ الحجاب. والله أعلم.

الحادية عشرة: ذكر الطبريُّ(٤) أنَّ إبراهيم عليه السلام لما قَدَّم العِجْلَ قالوا: لا نأكُلُ طعاماً إلا بثمنٍ، فقال لهم: ثمنُه أن تذكروا الله في أوَّله، وتحمَدوه في آخره، فقال جبريلُ لأصحابه: بِحَقٍّ اتخَذَ الله هذا خليلاً.

قال علماؤنا: ولم يأكلوا؛ لأن الملائكةَ لا تأكُلُ. وقد كان من الجائز كما يَسَّر الله للملائكة أن يتَشكَّلوا(٥) في صفة الآدميِّ جسداً وهيئةً أن يُيَسِّر لهم أكلَ الطعام؛ إلا أنه في قول العلماء أرسَلَهم في صفة الآدمي، وتكلَّف إبراهيمُ عليه السلام الضِّيافَةَ، [حتى إذا رأى التوقُّفَ وخافَ، جاءته البُشْرى فجأةً](٦).

الثانية عشرة: ودلَّ هذا على أن التَّسْمية في أول الطعام، والحمدَ في آخره

---

(١) في الصحاح: (ضحك).

(٢) صحيح مسلم (٢٠٠٦) (٨٦)، وهو عند أحمد (١٦٠٦٢).

(٣) صحيح البخاري (١٥١٨٢).

(٤) تفسير الطبري ١٢/ ٤٧٣ - ٤٧٤ .

(٥) في (ز) و(ظ): ينسلكوا، وفي (د): يسلكوا، والمثبت من (م) وأحكام القرآن.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٥١ ، وما بين حاصرتين منه.

مشروعٌ في الأمم قبلنا، وقد جاء في الإسرائيليات أنَّ إبراهيم عليه السلام كان لا يأكُلُ وحدَه، فإذا حضَرَ طعامُه أرسَلَ يطلُبُ من يأكُلُ معه، فلقيَ يوماً رجلاً، فلما جلَسَ معه على الطعام، قال له إبراهيم: سَمِّ اللهَ، قال الرجل: لا أدري ما اللهُ؟ فقال له: فاخرجْ عن طعامي، فلما خرَجَ نزل إليه جبريلُ، فقال له: يقول الله: إنه يرزُقُه على كفره مدى عمره، وأنت بخلتَ عليه بلقمةٍ، فخرج إبراهيم فَزِعاً يجرُّ رداءَه، وقال: ارجِعْ، فقال: لا أرجعُ حتى تخبِرني لم تردُّني لغيرِ معنًى؟ فأخبره بالأمر، فقال: هذا ربٌّ كريم، آمنتُ، ودخل وسمَّى الله، وأكلَ مؤمناً[1].

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ لمَّا وُلد لإبراهيم إسماعيلُ من هاجر تمنَّتْ سارة أن يكون لها ابن، وأَيِسَتْ لِكِبَر سنِّها، فبُشِّرت بولدٍ يكون نبيًّا ويلِدُ نبيًّا، فكان هذا بشارةً لها بأن ترى ولدَ ولدِها.

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ قرأ حمزة وعبد الله بن عامر: «يعقوبَ» بالنصب، ورفع الباقون[2]، فالرفع على معنى: ويحدُثُ لها من وراء إسحاق يعقوبُ، ويجوز أن يرتفع بالفعل الذي يعملُ في ﴿مِن وَرَآءِ﴾[3] كأنَّ المعنى: وثبَتَ لها من وراء إسحاقَ يعقوبُ، ويجوز أن يرتفعَ بالابتداء، ويكون في موضع الحال، أي: بشَّروها بإسحاق مقابلاً له يعقوب، والنَّصب على معنى: ووهبنا لها من وراء إسحاق يعقوبَ، وأجاز الكِسائيُّ والأخفشُ وأبو حاتم أن يكون «يعقوبَ» في موضع جرٍّ، على معنى: وبشَّرناها من وراء إسحاق بيعقوبَ. قال الفرَّاء[4]: ولا يجوزُ الخَفْض إلا بإعادة الحرفِ الخافض. قال سيبويه[5] ولو قلتَ: مررتُ بزيدٍ أوَّل من

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٠٤٩ .

(٢) وعن عاصم روايتان: فروى عنه أبو بكر الرفع، وروى حفص عنه النصب. السبعة ص٣٣٨ ، والتيسير ص١٢٥ .

(٣) لفظة: «وراء»، ليست في (م).

(٤) في معاني القرآن ٢/٢٢ .

(٥) في الكتاب ١/٩٣ - ٩٤ .

أمسِ وأمس عمرٍو كان قبيحاً خبيثاً؛ لأنك فرقتَ بين المجرور وما يَشْرَكُه وهو الواو، كما تُفَرِّق بين الجارِّ والمجرور[١]؛ لأن الجارَّ لا يُفصل بينه وبين المجرور، ولا بينه وبين الواو[٢].

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَـٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ قال الزجَّاج[٣]: أصلُها: يا ويلتي، فأُبدِلَ من الياء ألفٌ؛ لأنها أخفُّ من الياء والكسرة.

ولم تُرِدِ الدعاءَ على نفسها بالويل، ولكنها كلمةٌ تَخِفُّ على أفواه النساء إذا طرأ عليهنَّ ما يعجَبْنَ منه، وعجبَتْ من ولادتها وكون[٤] بعلِها شيخاً؛ لخروجه عن العادة، وما خرج عن العادة مستغرَبٌ ومستنكَر.

و﴿ءَأَلِدُ﴾ استفهامٌ معناه التعجُّب. ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ أي: شيخةٌ، ولقد عَجَزتْ تَعجُزُ عَجْزاً، وعَجَّزتْ تَعْجِيزاً، أي: طعنت في السِّنِّ. وقد يقال: عجوزةٌ أيضاً. وعَجِزَت المرأةُ، بكسر الجيم: عظُمَتْ عجيزتُها عُجْزاً وعَجَزاً، بضم العين وفتحها.

قال مجاهدٌ: كانت بنتَ تسعٍ وتسعين سنة. وقال ابن إسحاق: كانت بنت تسعين. وقيل غيرُ هذا[٥].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَهَـٰذَا بَعْلِى﴾ أي: زوجي ﴿شَيْخًا ۖ﴾ نصبٌ على الحال، والعاملُ فيه التنبيهُ أو الإشارة، «وهذا بَعْلي» ابتداءٌ وخبر، وقالِ الأخفش: وفي قراءة

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٣ ، وعنه نقل المصنف قولي الفراء وسيبويه.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٦٢ .

(٣) في معاني القرآن له ٣/ ٦٣ .

(٤) في (د): ولو أن، وفي (م): ومن كون.

(٥) ينظر تفسير البغوي ٢/ ٣٩٣ .

ابن مسعود وأُبيٍّ: «وهذا بعلي شيخٌ». قال النحَّاس[(١)]: كما تقول: هذا زيدٌ قائم، فزيدٌ بدل من هذا، وقائم خبرُ الابتداء، ويجوز أن يكون «هذا» مبتدأ، و«زيدٌ قائمٌ» خبرين، وحكى سيبويه[(٢)]: هذا حلوٌ حامضٌ.

وقيل: كان إبراهيم ابن مئة وعشرين سنة، وقيل: ابن مئة، فكان يزيدُ عليها في قول مجاهدٍ سنةً[(٣)]. وقيل: إنها عرَّضَتْ بقولها: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ أي: عن ترك غِشْيانه لها. وسارة هذه امرأةُ إبراهيم بنتُ هاران بن ناحور بن شاروع بن أرغو بن فالغ، وهي بنتُ عمِّ إبراهيم[(٤)].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي: الذي بشَّرتُموني به لشيءٌ عجيبٌ.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾

فيه أربعُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ لما قالت: ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ وتعجَّبت، أنكرتِ الملائكةُ عليها تعجُّبها من أمر الله؛ أي: من قضائه وقَدَره، أي: لا عجب من أن يرزقَكما اللهُ الولدَ، وهو إسحاق.

وبهذه الآية استدلَّ كثيرٌ من العلماء على أن الذَّبيحَ إسماعيل، وأنه أسنُّ من إسحاق؛ لأنها بُشِّرت بأن إسحاق يعيشُ حتى يولَدَ له يعقوبُ[(٥)]. وسيأتي الكلامُ في هذا وبيانُه في «الصافات» إن شاء الله تعالى.

---

(١) في إعراب القرآن ٢/ ٢٩٤.

(٢) في الكتاب ٢/ ٨٣.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٣٩٣.

(٤) وقيل: في نسبها غير ذلك، ينظر الطبري ١٢/ ٤٧٢ - ٤٧٣، والوسيط ٢/ ٥٨١، وتفسير البغوي ٢/ ٣٩٢، والمحرر الوجيز ٣/ ١٨٩.

(٥) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٩٠.

الثانية: قوله تعالى: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ﴾ مبتدأ، والخبر ﴿عَلَيْكُمْ﴾. وحكى سيبويه: «عَلَيكِم» بكسر الكاف لمجاورتها الياء. وهل هو خبرٌ أو دعاء؟ وكونُه إخباراً أشرفُ؛ لأنَّ ذلك يقتضي حصولَ الرحمة والبركة لهم، المعنى: أوصَلَ الله لكم رحمتَه وبركاتِه أهلَ البيت، وكونُه دعاءً إنما يقتضي أنه أمرٌ يُترجَّى ولم يتحصَّل بعدُ.

ونصب ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ على الاختصاص، وهذا مذهبُ سيبويه[١]. وقيل: على النداء.

الثالثة: هذه الآيةُ تعطي[٢] أن زوجةَ الرجل من أهل البيت، فدلَّ هذا على أنَّ أزواجَ الأنبياء من أهل البيت، فعائشةُ رضي الله عنها وغيرُها من جملةِ أهلِ بيت النبيِّ ﷺ، ممن قال الله فيهم: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٣] وسيأتي.

الرابعة: ودلَّت الآيةُ أيضاً على أنَّ منتهى السلام: وبركاتُهُ، كما أخبر الله عن صالحي عباده: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾.

والبركةُ النموُّ والزيادة، ومن تلك البركات أنَّ جميعَ الأنبياء والمرسلين كانوا في ولد إبراهيم وسارة[٣].

وروى مالكٌ[٤] عن وَهْب بن كَيْسان أبي نُعَيم، عن محمد بن عَمْرو بن عطاء، قال: كنتُ جالساً عند عبد الله بن عباس، فدخل عليه رجلٌ من أهل اليمن، فقال: السَّلام عليكَ ورحمةُ الله وبركاتُه، ثم زاد شيئاً مع ذلك، فقال ابنُ عباس، وهو يومئذٍ قد ذهب بصرُه: مَن هذا؟ فقالوا: اليمانيُّ الذي يغشاكَ، فعرَّفوه إياه، فقال: إن السَّلام انتهى إلى البركة.

---

(١) الكتاب ٢/ ٢٣٦ . ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٤ .

(٢) في (ظ): تقتضي.

(٣) كذا قال المصنف رحمه الله، وقال ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ١٣٣ : إن أكثر الأنبياء والأسباط من إبراهيم وسارة.

(٤) الموطأ ٢/ ٩٥٩ .

ورُوِيَ عن عليٍّ ﷺ أنه قال: دخلتُ المسجدَ، فإذا أنا بالنبيِّ ﷺ في عُصْبةٍ من أصحابه، فقلتُ: السَّلام عليكم، فقال: «وعليكَ السلامُ ورحمةُ الله، عشرون لي، وعَشْر لك». قال: ودخلتُ الثانيةَ، فقلت: السَّلام عليكم ورحمةُ الله، فقال: «وعليك السَّلام ورحمةُ الله وبركاته، ثلاثون لي وعشرون[1] لك[2]». فدخلتُ الثالثةَ، فقلت: السَّلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاتُه: فقال: «وعليكَ السلامُ ورحمةُ الله وبركاتُه، ثلاثون لي وثلاثون لك، أنا وأنتَ في السَّلام سواءٌ»[3].

﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ أي: محمودٌ ماجِدٌ. وقد بيَّنَّاهما في «الأسماء الحُسْنى»[4].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ۝٧٤ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ۝٧٥ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ۝٧٦﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ﴾ أي: الخوف؛ يقال: ارتاع من كذا: إذا خاف، قال النابغة:

فارتاعَ من صَوْتِ كَلَّابٍ فباتَ لهُ ... طوعَ الشَّوامِتِ من خوفٍ ومن صَرَدِ[5]

﴿وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ أي: بإسحاق ويعقوب، وقال قَتادة: بشَّروه بأنهم إنَّما أَتَوا بالعذاب إلى قومِ لوط، وأنه لا يخافُ[6].

---

(١) في (د) و(ز): وعشرة.

(٢) في (ظ): لأصحابي.

(٣) أخرجه البزار في مسنده (٨٠٨)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٣٠ ، وقال: فيه مختار بن نافع التيمي، وهو ضعيف، وفيه عبيد بن إسحاق العطار، وهو متروك.

(٤) بيان «المجيد» في الأسنى ص٢٤٤ ، وأما «الحميد» فلم نقف على بيانه في المطبوع منه.

(٥) ديوان النابغة الذبياني ص٣٢ . يصف ثوراً فزع من صوت الصياد صاحب الكِلَاب، فبقي قائماً منقاداً لشوامته ـ أي: قوائمه، جمع شامتة ـ من الخوف والصَّرَد، وهو البرد. وقيل: طوع الشوامت، أي: بات له ما يسر الأعداء الشامتين به. ينظر: شرح القصائد المشهورات للنحاس ٢/ ١٦٣ ، وشرح القصائد العشر ص٣٥٣ - ٣٥٤ ، وخزانة الأدب ٣/ ١٨٨ - ١٨٩ .

(٦) تفسير الطبري ١٢/ ٤٨٦ .

﴿يُجَٰدِلُنَا﴾ أي: يجادِلُ رسلَنا، وأضافَه إلى نفسه؛ لأنهم نزلوا بأمرِه، وهذه المجادلةُ رواها حُميد بنُ هِلال، عن جُندبٍ، عن حُذَيفةَ؛ وذلك أنهم لمَّا قالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣١] قال لهم: أرأيتُم إن كان فيها خمسون من المسلمين؛ أتُهلِكُونهم؟ قالوا: لا. قال: فأربعون؟ قالوا: لا. قال: فثلاثون؟ قالوا: لا. قال: فعشرون؟ قالوا: لا. قال: فإن كان فيها عشرةٌ ـ أو خمسةٌ، شكَّ حُميد ـ قالوا: لا[١]. قال قَتادة نحواً منه، قال: فقال يعني إبراهيمَ: قومٌ ليس فيهم عشرةٌ من المسلمين لا خيرَ فيهم[٢]. وقيل: إنَّ إبراهيم قال: أرأيتُم إن كان فيها رجلٌ مسلمٌ، أتُهلِكُونها؟ قالوا: لا. فقال إبراهيم عند ذلك: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٢].

وقال عبد الرحمن بنُ سَمُرة: كانوا أربع مئة ألف. ابن جُريج: وكان في قرى قومِ لوطٍ أربعةُ آلاف ألفٍ[٣].

ومذهبُ الأخفش والكِسائيِّ أنّ «يُجادِلُنا» في موضع «جادَلَنا». قال النحَّاس[٤]: لمَّا كان جوابُ «لمَّا» يجب أن يكون بالماضي جُعِل المستقبلُ مكانَه، كما أنَّ الشرطَ يجبُ أن يكون بالمستقبل، فجُعِلَ الماضي مكانَه، وفيه جوابٌ آخر: أن يكون «يُجادِلُنا» في موضعِ الحال؛ أي: أقبَلَ يُجادِلُنا، وهذا قول الفرَّاء[٥].

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ تقدَّم في «براءة»[٦] معنى ﴿لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾. والمنيبُ: الراجعُ[٧]، يقال: أناب: إذا رجَع. وإبراهيمُ ﷺ كان راجعاً إلى الله تعالى في أموره

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١١/ ٥٢٣ - ٥٢٤، وابن أبي حاتم في تفسيره ٦/ ٢٠٥٧ (١١٠٣٧).

(٢) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٣٠٨.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ١٢/ ٤٩٢.

(٤) في إعراب القرآن ٢/ ٢٩٥.

(٥) في معاني القرآن له ٢/ ٢٣.

(٦) في ١٠/ ٤٠١ - ٤٠٤.

(٧) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢٩٣، وتفسير أبي الليث ٢/ ١٣٦.

كلِّها[١]. وقيل: الأوَّاه: المتأوِّه أسفاً على ما قد فات قومَ لوطٍ من الإيمان.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾ أي: دَعْ عنك الجِدال في قوم لوط. ﴿إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ أي: عذابُه لهم. ﴿وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ﴾ أي: نازلٌ بهم. ﴿عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾ أي: غيرُ مصروفٍ عنهم ولا مدفوع[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ٨٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ لمّا خرجت الملائكةُ من عند إبراهيمَ ـ وكان بين إبراهيمَ وقرية لوطٍ أربعةُ فراسخَ ـ بَصُرَتْ بنتا لوط وهما تَستقيان بالملائكة ورأتا هيئةً حسنة، فقالتا: ما شأنكم؟ ومِنْ أين أقبلتُم؟ قالوا: مِن مَوضع كذا، نريدُ هذه القريةَ، قالتا: فإنَّ أهلَها أصحابُ الفواحش، فقالوا: أَبِها مَنْ يُضيفنا؟ قالتا: نعم، هذا الشيخُ، وأشارتا إلى لوط، فلمَّا رأى لوطٌ هيئتَهم خاف قومَه عليهم[٣].

﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ أي: ساءَه مجيئُهم[٤]، يقال: ساء يسوء، فهو لازم، وساءه يسوؤه،

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٥.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ١٣٦، وتفسير البغوي ٢/ ٣٩٤.

(٣) الكلام بنحوه في تفسير أبي الليث ٢/ ١٣٦.

(٤) تفسير الطبري ١٢/ ٤٩٤، ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٦.

فهو متعدٍّ أيضاً[١]، وإن شئتَ ضَممتَ السينَ؛ لأنَّ أصلَها الضمُّ، والأصل: سُوِئ بهم مِنَ السّوء، قُلِبتْ حركةُ الواوِ على السين فانقلبتْ ياءً، وإن خفَّفتَ الهمزةَ ألقيتَ حركتَها على الياء، فقلتَ: «سِيَ بهم» مخففًا، ولغةٌ شاذةٌ بالتشديد[٢].

﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي: ضاق صدرُه بمجيئهم، وكَرِهَه. وقيل: ضاق وُسْعُه وطاقَتُه. وأصلُه أن يَذْرَع البعيرُ بيديه في سيره ذَرْعاً على قدر سَعة خَطْوِه، فإذا حُمِل على أكثرَ مِن طَوْقه ضاق عن ذلك، وضَعُفَ ومدَّ عنقَه[٣]، فضيقُ الذَّرعِ عبارةٌ عن ضِيق الوُسع. وقيل: هو مِن: ذَرَعه القيءُ، أي: غلَبَه، أي: ضاق عن حبسِه المكروهَ في نفسِه[٤]، وإنما ضاق ذرعُه بهم لِمَا رأى مِن جَمالهم، وما يعلمُ من فسق قومه[٥].

﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أي: شديدٌ في الشرّ[٦]. وقال الشاعر:

وإنّكَ إلّا تُرضِ بكرَ بنَ وائلٍ ... يكنْ لكَ يومٌ بالعراقِ عصيبُ[٧]

وقال آخر:

يومٌ عَصيبٌ يَعصِبُ الأبطالا ... عَصْبَ القَوِيّ السَّلَمَ الطِّوالا[٨]

ويقال: عصِيبٌ وَعَصَبْصَبٌ على التكثير، أي: مكروهٌ مجتمعُ الشرّ، وقد عَصَبَ؛ أي: عَصَبَ بالشرِ عصابة، ومنه قيل: عُصبة وعِصابة، أي: مجتمعو الكلمة، أي:

---

(١) ينظر تفسير الرازي ١٨/ ٣١ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٥ .

(٣) تهذيب اللغة ٢/ ٣١٦ .

(٤) ينظر زاد المسير ٤/ ١٣٦ .

(٥) ينظر تفسير البغوي ٢/ ٣٩٤ .

(٦) مجمع البيان ١٢/ ١٩٤ .

(٧) قائله عِتبان بن أُصيلة ـ ويقال: وصيلة ـ الشيباني، وهو في الاشتقاق لابن دريد ص٣٥٩ ومعجم الشعراء للمزرباني ص١٠٨ .

(٨) هو في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢٩٤ ، وتفسير الطبري ١٢/ ٤٩٨ . والسَّلَم: شجر من العضاه (الشوك). الصحاح (سلم).

مجتمعون في أنفسهم. وعَصَبةُ الرجل: المجتمعون معه في النَّسَب، وتعصّبتُ لفلان: صِرتُ كعَصَبَته، ورَجلٌ معصوبٌ، أي: مجتمعُ الخَلْق.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ في موضع الحال[1]. «يُهْرَعُونَ» أي: يُسرعون. قال الكسائيُّ والفرَّاءُ وغيرُهما مِن أهل اللغة: لا يكون الإهراعُ إلا إسراعاً[2] معَ رِعدة، يقال: أُهْرِع الرجلُ إهراعاً، أي: أسرع في رِعْدَة من بَرْد أو غضب أو حُمَّى، وهو مُهرَع[3]، قال مُهلهِل:

فجاؤوا يُهرَعون وهُمْ أُسَارى نَقودُهمُ على رَغْمِ الأنوفِ[4]

وقال آخر:

بِمُعْجَلاتٍ نحوه مَهارع[5]

وهذا مثلُ: أُولِعَ فلانٌ بالأمر، وأُرعِدَ زيدٌ، وزُهِيَ فلان. وتجيءُ ولا تُستعملُ إلا على هذا الوجه. وقيل: أُهرِع، أي: أَهْرَعَه حِرصُه[6]، وعلى هذا «يُهْرَعُونَ» أي: يُستحثُّون عليه[7]. ومَن قال بالأول قال: لم يُسمَعْ إلا أُهْرِعَ الرجلُ، أي: أَسرعَ، على لفظ ما لم يُسَمَّ فاعلُه[8]. قال ابن القوطيّة[9]: هُرِع الإنسان هَرَعاً، وأُهرِع: سِيقَ واستُعجِلَ. وقال الهرويُّ: يقال: هُرِع الرجلُ وأُهرِع، أي: استُحِثَّ[10]. قال ابن

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٥ ، وما قبله منه.

(٢) في النسخ الخطية: سراعاً، والمثبت من (م).

(٣) ينظر تهذيب اللغة ١/ ١٤١ ، والنكت والعيون ٢/ ٤٨٨ ، وزاد المسير ٤/ ١٣٧ .

(٤) تفسير الطبري ١٢/ ٥٠٠ ، وتهذيب اللغة ١/ ١٤١ ، والمحرر الوجيز ٣/ ١٩٤ .

(٥) هو في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢٩٤ ، وتفسير الطبري ١٢/ ٤٩٩ .

(٦) تفسير الرازي ١٨/ ٣٢ .

(٧) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢٩٤ ، وفيه: يُستحثُّون إليه.

(٨) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٠٦ ، والصحاح (هرع).

(٩) محمد بن عمر بن عبد العزيز الأندلسي، القرطبي، النحوي، ألَّف «تصاريف الأفعال»، وصنَّف تاريخاً في أخبار الأندلس. توفي سنة (٣٦٧هـ). السير ١٦/ ٢١٩ .

(١٠) ينظر تهذيب اللغة ١/ ١٤١ .

عباس وقتادة والسّدّي: «يُهرعون»: يُهرولون. الضحاك: يَسعَون. ابن عُيينة: كأنهم يُدفعون. وقال شِمْر بنُ عطية: هو مشيٌ بين الهرولة والجَمَزَى[١]. وقال الحسن: مشيٌ بين مشيين[٢]، والمعنى متقارب.

وكان سببُ إسراعهم ما رُوي أنَّ امرأةَ لوط الكافرةَ، لمّا رأتِ الأضيافِ وجَمالَهم وهيئتَهم، خرجَتْ حتى أتتْ مجالسَ قومِها، فقالت لهم: إنّ لوطاً قد أضافَ الليلةَ فِتيةً ما رُئِيَ مثلُهم جمالاً، وكذا وكذا، فحينئذٍ جاؤوا يُهرَعون إليه[٣].

ويُذْكَرُ أنَّ الرسُلَ لمّا وصلوا إلى بلد لوط وجدوا لوطاً في حَرْثٍ له. وقيل: وَجدوا ابنتَه تستقي ماءً مِن نهر سَدومَ[٤]، فسألوها الدَّلالةَ على من يُضيفهم، ورأت هيئتَهم فخافت عليهم من قوم لوط، وقالت لهم: مكانكم! وذهبتْ إلى أبيها فأخبرتْه، فخرج إليهم، فقالوا: نريدُ أنْ تُضيفَنا الليلةَ، فقال لهم: أوَ مَا سمعتُم بعمل هؤلاء القومِ؟ فقالوا: ما عملُهم؟ فقال: أشهدُ بالله إنهم لَشرُّ قومٍ في الأرض ـ وقد كان اللهُ عزَّ وجلَّ قال لملائكته: لا تُعذِّبوهم حتى يشهدَ لوطٌ عليهم أربعَ شهادات ـ فلمّا قال لوطٌ هذه المقالةَ، قال جبريلُ لأصحابه: هذه واحدةٌ، وتردَّد القولُ بينهم حتى كرَّر لوط الشهادة أربعَ مرات، ثم دخل بهم المدينة[٥].

قوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ أي: ومن قبلِ مَجيء الرُّسل[٦]. وقيل: مِن قبلِ لوط[٧].

---

(١) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٢/ ٥٠٠ - ٥٠١ . والجَمَزَى: ضربٌ من السَّير سريع. النهاية (جمز).

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٣٩٥ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١٩٤ ، وأخرجه الطبري ١٢/ ٥٠٤ عن ابن إسحاق بنحوه.

(٤) قال الأزهري في تهذيب اللغة ١٢/ ٣٧٤ : وسدوم: مدينة من مدائن قوم لوط، كان قاضيها يقال له: سدوم. قال أبو حاتم في كتاب المُزال والمُفسَد: إنما هو سذوم، بالذال، والدال خطأ. قال الأزهري: وهذا عندي هو الصحيح. اهـ. قلنا: يضرب المثل بجور قاضيها، فيقال: أجور من قاضي سدوم. معجم البلدان ٣/ ٢٠٠ .

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ١٩٣ . وأخرجه الطبري ١٢/ ٤٩٦ عن قتادة والسدي.

(٦) تفسير الطبري ١٢/ ٥٠٢ ، وتفسير البغوي ٢/ ٣٩٥ .

(٧) تفسير أبي الليث ٢/ ١٣٦ .

﴿كَانُوا۟ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ أي: كانت عادتُهم إتيانَ الرجال. فلما جاؤوا إلى لوطٍ وقَصَدوا أضيافَه قام إليهم لوطٌ مُدافعاً[١]، وقال: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾ ابتداءٌ وخبر[٢]. وقد اختُلِفَ في قوله: «هؤلاء بناتي» فقيل: كان له ثلاثُ بناتٍ من صُلبه. وقيل: بنتان، زيتا وزعوراء، فقيل: كان لهم سَيِّدان مُطاعان، فأراد أنْ يزوجَهما ابنتيه[٣]. وقيل: ندَبهم في هذه الحالة إلى النكاح، وكانت سُنَّتُهم جوازَ نكاحِ الكافرِ المؤمنةَ[٤]، وقد كان هذا في أول الإسلام جائزاً ثم نُسخ، فزوَّج رسولُ الله ﷺ بنتاً له مِن عُتْبَة بنِ أبي لَهب، والأُخرى من أبي العاص بنِ الربيع قبلَ الوحي، وكانا كافرين[٥].

وقالت فرقةٌ ـ منهم مجاهدٌ وسعيدُ بن جُبير ـ: أشار بقوله: «بَنَاتِي» إلى النساء جملةً، إذ نبيُّ القومِ أبٌ لهم، ويقَوِّي هذا أنَّ في قراءة ابنِ مسعود: «النَّبِيُّ أَوْلَى بالمؤمنينَ مِنْ أَنْفُسِهِم وأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ وهو أبٌ لهم»[٦].

وقالت طائفة: إنما كان الكلامُ مُدافعةً، ولم يُرِدْ إمضاءَه، رُوِيَ هذا القولُ عن أبي عبيدةَ، كما يقال لمن يُنهى عن أكل مالِ الغير: الخنزير أَحَلُّ لك مِن هذا[٧].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١٩٤ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٥ .

(٣) مجمع البيان ١٢/ ١٩٧ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ١٩٤ .

(٥) تفسير البغوي ٢/ ٣٩٥ . وحديث تزويج النبي ﷺ رُقية رضي الله عنها من عُتبة بن أبي لهب أخرجه الطبراني في الكبير ٢٢/ ٤٣٤ (١٠٥٦) وفيه: ... فلما أنزل اللهُ تبارك وتعالى: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾ سأل النبيُّ ﷺ عُتبةَ طلاقَ رُقية، وسألته رقيةُ ذلك، فطلقها، فتزوج عثمانُ ﷺ رقية وتوفيت عنده. اهـ. وذكر الحافظ ابن حجر في الفتح ٧/ ٨٦ أن عُتبةَ تزوَّج رُقيَّةَ قبل عثمان ولم يدخل بها، فأمره أبوه بمفارقتها ففارقها.

وحديث تزويج النبي ﷺ زينب رضي الله عنها من أبي العاص بن الربيع قبل أن يُسلم، أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ٢٣٦ ، وقد ترجم البخاري قبل الحديث (٣٧٢٩): باب ذكر أصهار النبي ﷺ، منهم أبو العاص بن الربيع. اهـ. وولدت له أمامةَ، وهي التي كان النبي ﷺ يحملها وهو يصلي، كما في الحديث المشهور.

(٦) أخرجه الطبري ١٢/ ٥٠٢ - ٥٠٤ . وقراءة ابن مسعود ﷺ في القراءات الشاذة ص١١٩ .

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ١٩٤ ، وقال ابنُ عطية: وهذا التنطُّع ليس من كلام الأنبياء صلى الله عليهم وسلم.

وقال عِكرمة: لم يعرِضْ عليهم بناتِه ولا بناتِ أُمَّته، وإنما قال لهم هذا لِينصرفوا(١).

قوله تعالى: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ ابتداءٌ وخبر، أي: أُزوّجكموهنَّ، فهو أطهرُ لكم مما تريدون، أي: أَحَلُّ. والتطهُّرُ التنزُّه عمّا لا يَحِلّ. وقال ابن عباس: كان رؤساؤُهم خَطبوا بناتِه فلم يُجبهم(٢)، وأراد ذلك اليومَ أن يفديَ أضيافَه ببناته.

وليس أَلِفُ «أطهَرُ» للتفضيل حتى يُتَوهَّمَ أنَّ في نكاح الرجال(٣) طهارةً، بل هو كقولك: الله أكبرُ وأعلى وأجلُّ، وإن لم يكن تفضيلاً؛ وهذا جائزٌ شائعٌ في كلام العرب، ولم يُكابرِ اللهَ تعالى أحدٌ حتى يكون اللهُ تعالى أكبرَ منه. وقد قال أبو سفيانَ ابنُ حرب يومَ أُحد: أُعْلُ هُبَلُ، فقال النبيُّ ﷺ لعمر: «قل: الله أعلى وأجلّ». وهُبَل لم يكن قطُّ عالياً ولا جليلاً(٤).

وقرأ العامة برفع الراء. وقرأ الحسن وعيسى بن عمر: «هُنَّ أطهرَ» بالنصب على الحال(٥). و«هُنّ» عِماد. ولا يُجيزُ الخليلُ وسيبويهِ والأخفشُ أن يكونَ «هُنّ» هاهنا عماداً، وإنما يَكون عماداً فيما لا يتِمُّ الكلامُ إلا بما بعدها، نحوُ: كان زيدٌ هو أخاك، لتدلَّ بها على أنَّ الأخَ ليس بنعت(٦). قال الزجَّاج(٧): ويدلُّ بها على أنّ «كان» تحتاجُ إلى خبر. وقال غيرُه: يدلُّ بها على أنَّ الخبرَ معرفةٌ أو ما قاربَها(٨).

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٨.

(٢) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١٩٥ بنحوه دون نسبة.

(٣) في النسخ: النساء، وهو خطأ.

(٤) ينظر تفسير الرازي ١٨/ ٣٣، والحديث أخرجه البخاري مطولاً من حديث البراء بن عازب ﷺ، وسلف ٥/ ٣٥٨ - ٣٥٩.

(٥) القراءات الشاذة ص٦٠، والمحتسب ١/ ٣٢٥، والمحرر الوجيز ٣/ ١٩٤.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٦، وينظر قول الخليل وسيبويه في الكتاب ٢/ ٣٩٧، وقول الأخفش في معاني القرآن له ٢/ ٥٨١.

(٧) في معاني القرآن له ٣/ ٦٧، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٩٦.

(٨) في (م): قارنها.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ﴾ أي: لا تُهينوني ولا تُذِلُّوني، ومنه قول حسان:

فأخزاك ربي يا عُتيبَ بنَ مالك ولقَّاكَ قبلَ الموت إحدى الصَّواعقِ
مَددتَ يميناً للنبيِّ تعمُّداً ودَمَّيْتَ فاهُ قُطِّعتْ بالبَوارقِ[1]

ويجوزُ أن يكون من الخَزَاية؛ وهو الحياء والخجل، قال ذو الرُّمَّة:

خَزايةً أدركتْه بعد جولتِهِ من جانبِ الحبلِ مخلوطاً بها الغضبُ[2]

وقال آخر:

من البِيض لا تَخزَى إذا الريحُ ألصقتْ بها مِرْطَها أو زايَل الحَلْيَ جِيدُهَا[3]

وضَيف يقع للاثنين والجميع على لفظ الواحد؛ لأنه في الأصل مصدرٌ[4]، قال الشاعر:

لا تَعدَمي الدهرَ شِفارَ الجازِرِ لِلضّيفِ والضيفُ أحقُّ زائرِ[5]

ويجوز فيه التثنيةُ والجمعُ[6]، والأوّلُ أكثرُ كقولك: رجالٌ صَوْم وفِطر وزَوْر. وخَزِيَ الرجلُ خَزَايةً، أي: استحيا[7]، مثلُ: ذَلَّ وهان. وخَزِيَ خزياً إذا افْتُضِحَ، يَخْزَى فيهما جميعاً[8].

---

(١) ديوان حسان ص٣٤٧ - ٣٤٨ ، وفيه: بسطتَ، بدل: مددتَ، وبرميةٍ، بدل: تعمُّداً، وفأدميت، بدل: ودَمَّيْتَ.

(٢) ديوان ذي الرمة ١/ ١٠٣ ، وينظر تهذيب اللغة ٧/ ٤٩١ .

(٣) قائله ابن الدُّمينة، وهو في ديوانه ص٥٢ وفيه: ألزقت، بدل: ألصقت، ونسبه المَرزُباني في معجم الشعراء ص١٣٤ لعلي بن حسان البكري، وفيه: درعها، بدل: مرطها، ونسبه البكري في سمط اللآلئ ١/ ١٠٨ للحسين بن مطير.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٦ ، وينظر البيان لأبي البركات الأنباري ٢/ ٢٥ .

(٥) لم نقف على قائله، وهو في فتح القدير ٢/ ٥١٤ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٦ .

(٧) ينظر تفسير الرازي ١٨/ ٣٤ .

(٨) ينظر تهذيب اللغة ٧/ ٤٩١ - ٤٩٢ .

ثم وبَّخهم بقوله: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾؟[١] أي: شديدٌ يأمرُ بالمعروف وينهى عن المنكر. وقيل: «رشيد» أي: ذو رَشَد. أو بمعنى راشد أو مُرشِد، أي: صالح أو مُصلِح. ابن عباس: مؤمن. أبو مالك: ناهٍ عن المنكر. وقيل: الرشيد بمعنى الرّشَد، والرَّشَد والرَّشاد: الهُدى والاستقامةَ. ويجوز أن يكون بمعنى المُرشَد، كالحكيم بمعنى المُحكَم[٢].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ رويَ أنّ قومَ لوطٍ خطبوا بناتِه فردَّهم، وكانت سنَّتُهم أنَّ مَنْ رُدَّ في خِطبةِ امرأةٍ لم تَحِلَّ له أبداً، فذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ وبَعُدَ أنْ تكون هذه الخاصيّةُ[٣]. فوجْهُ الكلامِ أنه ليس لنا إلى بناتك تعلُّقٌ، ولا هنَّ قَصْدُنا، ولا لنا عادة نطلبُ ذلك[٤]. ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ إشارةٌ إلى الأضياف.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ لمَّا رأى استمرارَهم في غَيِّهم، وضَعُفَ عنهم، ولم يَقدِرْ على دَفْعهم، تمنَّى لو وجد عوناً على ردِّهم، فقال على جهة التفجُّع والاستكانة: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾[٥] أي: أنصاراً وأعواناً. وقال ابنُ عباس: أراد الولدَ[٦].

و«أنّ» في موضع رفعٍ بفعل مضمر، تقديره: لو اتّفقَ أو وقع. وهذا يطَّرِدُ في «أنَّ» التابعةِ لِ «لو». وجوابُ «لو» محذوفٌ[٧]، أي: لرددتُ أهلَ الفساد، وحُلْتُ بينهم

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١٩٥ .

(٢) ينظر النكت والعيون ٢/ ٤٨٩ ، وتفسير البغوي ٢/ ٣٥٩ ، وزاد المسير ٤/ ١٣٩ .

(٣) في النسخ: وبعد ألا تكون هذه الخاصية. والمثبت من المحرر الوجيز ٣/ ١٩٥ ، والكلام منه.

(٤) في (د) و(ز) و(ظ): ولكنها عادة نطلبها في ذلك، وفي (ف): ولا كنا عادة نطلب ذلك، والمثبت من (م) والمحرر الوجيز.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ١٩٥ .

(٦) النكت والعيون ٢/ ٤٩٠ .

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ١٩٥ .

وبين ما يريدون.

﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أي: ألجأ وأنضوي. وقُرِئ: ﴿أو آوِيَ﴾[1] بالنصب عطفاً على «قوّة»، كأنه قال: «لو أن لي بكم قوّة» أو إيواءً إلى ركن شديد، أي: وأنْ آويَ، فهو منصوبٌ بإضمار «أن». ومراد لوطٍ بالرُّكنِ العشيرةُ والمنعةُ بالكثرة[2].

وبلَغَ بهم قبيحُ فعلهِم إلى قوله هذا معَ علمه بما عندَ اللهِ تعالى، فيُرْوَى أن الملائكةَ وَجَدتْ عليه حين قال هذه الكلمات، وقالوا: إنَّ ركنَك لشديد.

وفي البخاريِّ عن أبي هُريرةَ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يرحَمُ اللهُ لوطاً، لقد كان يَأوي إلى ركنٍ شديد» الحديث، وقد تقدّم في «البقرة»[3]. وخرَّجه الترمذيُّ وزاد: «ما بعث الله بعدَه نبيًّا إلا في ثروةٍ من قومه». قال محمدُ بنُ عمرو: والثروة: الكثرة والمَنَعَة؛ حديثٌ حسن[4].

ويروى أن لوطاً عليه السلام لمَّا غلبه قومه، وهمُّوا بكسر الباب وهو يُمسكه، قالت له الرُّسل: تنحَّ عن الباب، فتنحَّى وانفتح الباب، فضربهم جبريلُ بجناحه فطَمَسَ أعينَهم، وعَمُوا وانصرفوا على أعقابهم يقولون: النجاءَ[5]، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: ٣٧].

وقال ابن عباس وأهل التفسير: أغلق لوطٌ بابه والملائكةُ معه في الدار، وهو يُناظرُ قومَه ويُناشدهم من وراء الباب، وهم يعالجون تسوُّرَ الجدار؛ فلما رأت الملائكة ما لقيَ من الجَهْد والكَرْب والنَّصَب بسببهم، قالوا: يا لوطُ، إنَّ ركنَك

(١) القراءات الشاذة ص٦٠ - ٦١، والمحتسب ١/٣٢٦.

(٢) المحرر الوجيز ٣/١٩٥.

(٣) ٤/٣١٠.

(٤) سنن الترمذي (٣١١٦)، ومحمد بن عمرو: هو أبو عبد الله، ويقال: أبو الحسن، الليثي المدني، أحد رجال الإسناد.

(٥) المحرر الوجيز ٣/١٩٥ - ١٩٦.

لشديدٌ، وإنهم آتيهم عذابٌ غيرُ مردود، وإنّا رسلُ ربِّك؛ فافتحْ البابَ ودَعْنا وإياهم، ففتح البابَ فضربَهم جبريلُ بجناحه على ما تقدّم. وقيل: أخذ جبريلُ قبضةً من تراب فأذْراها في وجوههم، فأوصل الله إلى عينِ مَن بَعُد ومَن قَرُب مِن ذلك الترابِ فطَمَس أعينَهم، فلم يعرفوا طريقاً، ولا اهتدَوا إلى بيوتهم، وجعلوا يقولون: النجاءَ النجاءَ، فإنَّ في بيت لوط قوماً هم أَسْحرُ مَنْ على وجه الأرض، وقد سحرونا فأعمَوا أبصارَنا. وجعلوا يقولون: يا لوطُ، كما أنت حتى نصبح فسترى؛ يتوعدونه[1].

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ لمَّا رأت الملائكةُ حُزْنَه واضطرابَه ومدافعَته عرّفوه بأنفسهم، فلمّا علم أنهم رسلٌ مكَّن قومَه من الدخول، فأمرَّ جبريلُ عليه السلام يدَه على أعينهم فعَمُوا، وعلى أيديهم فجفَّتْ. ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ أي: بمكروه.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾، قرئ «فأسرِ» بوصل الألف وقَطْعها، لغتان فصيحتان[2]. قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ [الفجر: ٤] وقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١] وقال النابغةُ ـ فجمع بين اللغتين ـ:

أَسْرتْ عليه من الجوزاء ساريةٌ تُزجِي الشمالُ عليهِ جامِدَ البَرَدِ[3]

وقال آخر[4]:

حَيِّ النَّضيرةَ ربَّةَ الخِدْرِ أَسْرَتْ إليكَ ولم تَكنْ تَسْري

وقد قيل: «فَأَسْرِ»؛ بالقَطْعِ: إذا سار من أوَّل الليل، وسرى: إذا سار من آخره،

(١) عرائس المجالس ص١٠٧، وتفسير البغوي ٢/ ٣٩٦.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٦، وقرأ بوصل الهمزة من السبعة نافع وابن كثير وقرأ الباقون بقطعها. السبعة ص٣٣٨، والتيسير ١٢٥.

(٣) ديوان النابغة الذبياني ص٣١ وفيه: سرت، بدل: أسرت، وهو في المحرر الوجيز ٣/ ١٩٦ بلفظ المصنف.

(٤) هو حسان بن ثابت، والبيت مطلع قصيدة له في الديوان ص٢٢٤.

ولا يقال في النهار إلا: سار. وقال لبيد:

إذا المرءُ أسْرَى ليلةً ظَنَّ أنَّهُ قَضَى عملاً والمرءُ ما عاش عامِلُ(١)

وقال عبد الله بن رواحةَ:

عند الصّباحِ يَحْمَدُ القومُ السُّرَى وتَنْجلِي عنهم غَيَاباتُ الكَرَى(٢)

﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ قال ابن عباس: بطائفةٍ من الليل. الضّحاك: ببقية من الليل. قَتَادة: بعد مُضيٍّ صدرٍ من الليل(٣). الأخفش: بعد جُنح من الليل. ابن الأعرابي: بساعة من الليل. وقيل: بظلمةٍ من الليل(٤). وقيل: بعدَ هَدْءٍ من الليل. وقيل: هَزِيعٍ من اللّيل. وكلُّها متقاربة.

وقيل: إنه نصفُ اللَّيل، مأخوذٌ من قَطْعِه نِصْفين، ومنه قول الشاعر:

ونائحةٍ تَنوحُ بِقِطْعِ ليلٍ على رجلٍ بقارعةِ الصَّعيدِ(٥)

فإن قيل: السُّرى لا يكون إلا بالليل، فما معنى «بقِطْع من الليل»؟ فالجواب: أنّه لو لم يقل: «بقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ» جاز أن يكون أوَّله(٦).

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أي: لا ينظرْ وراءَه منكم أحدٌ، قاله مجاهد. ابن عباس: لا يتخلفْ منكم أحدٌ. عليُّ بنُ عيسى: لا يشتغلْ منكم أحدٌ بما يُخلِّفه من مال

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٤٩٠ . والبيت في ديوان لبيد ص٢٥٤ .

(٢) الرجز في النكت والعيون ٢/ ٤٩٠ ، ونسب في الحيوان ٦/ ٥٠٨ لبكر بن عبد الله المزني، وفي مجمع الأمثال ٢/ ٣ لخالد بن الوليد ﷺ.

(٣) أورد هذه الأقوال البغوي ٢/ ٣٩٦ ، وقول ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه الطبري ١٢/ ٥٢٤ .

(٤) أورد هذا القول الواحدي في الوسيط ٢/ ٥٨٤ ونسبه لابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) النكت والعيون ٢/ ٤٩١ ، والبيت أورده أبو بكر الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٨٥ ، والسيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٤٥ ، والآلوسي في روح المعاني ١٢/ ١٠٩ ونسبوه لمالك بن كنانة بلفظ:

ونائحة تقوم بقطع ليل على رجل أهانته شعوب

(٦) معاني القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٦ .

أو متاع[١].

﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ بالنصب[٢]، وهي القراءة الواضحةُ البيّنةُ المعنى، أي: فأَسر بِأهلِك إلا امرأتَك. وكذا في قراءة ابن مسعود: «فأَسرِ بِأهلِك إلا امرأتَك»[٣] فهو استثناءٌ من الأهل. وعلى هذا لم يخرجْ بها معه. وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الأعراف:٨٣] أي: من الباقين. وقرأ أبو عمرو وابن كثير: «إلا امرأتُك» بالرفع على البدل من «أحد». وأنكر هذه القراءةَ جماعةٌ منهم أبو عُبيد، وقال: لا يصحُّ ذلك إلا برفع «يلتفت» ويكون نعتاً؛ لأن المعنى يصير ـ إذا أبدلْتَ وجَزمْتَ ـ أن المرأة أُبيحَ لها الالتفاتُ، وليس المعنى كذلك.

قال النحاس[٤]: وهذا الحَملُ من أبي عُبيد وغيرِه على مثلِ أبي عمرو مع جلالته ومَحلِّه من العربية لا يجب أن يكون، والرفع على البدل له معنًى صحيحٌ، والتأويلُ له على ما حكى محمدُ بن الوليد[٥] عن محمدِ بن يزيدَ أن يقولَ الرجل لحاجبه: لا يخرجْ فلانٌ، فلَفْظُ النَّهي لفلان، ومعناه للمخاطب، أي: لا تَدَعْه يخرجُ، ومثلُه قولك: لا يَقُمْ أحدٌ إلا زيدٌ، يكونُ معناه: انهَهُم عن القيام إلا زيداً. وكذلك النهيُ للوطٍ ولفظُه لغيرِه، كأنه قال: اِنْهَهُم لا يلتفتْ منهم أحدٌ إلا امرأتُك. ويجوز أن يكونَ استثناءً من النهي عن الالتفات لأنه كلامٌ تامٌّ، أي: لا يلتفتْ منكم أحدٌ إلا امرأتُك، فإنها تلتفتُ وتَهلِكُ، وأنّ لوطاً خرج بها، ونهى مَن معه ممن أُسريَ بهم ألا يلتفتَ،

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٤٩١ ، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٢/ ٥٢٤ ، وقول ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٦/ ٢٠٦٥ .

(٢) قرأ بها نافع وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي. السبعة ص٣٣٨ ، والتيسير ص١٢٥ .

(٣) ذكرها الطبري ١٢/ ٥٢٥ . والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٦ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٧ ، والكلام الذي قبله فيه بنحوه، وينظر البيان لأبي البركات الأنباري ٢/ ٢٦ .

(٥) المصري النحوي التميمي، يُعرف بولّاد، قرأ كتاب سيبويه على المبرّد. توفي سنة (٢٩٨هـ). إنباه الرواة ٣/ ٢٢٥ .

فلم يلتفتْ منهم أحدٌ سوى زوجتِه، فإنها لمّا سمعتْ هدَّةَ العذاب التفتَتْ، وقالت: واقوماه، فأدركها حَجَرٌ فقتلها[١].

﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا﴾ أي: من العذاب. والكناية في «إنه» ترجعُ إلى الأمر والشأن، أي: فإن الأمرَ والشأن والقصة[٢].

﴿مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ﴾ لما قالت الملائكة: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِۖ﴾ [العنكبوت: ٣١] قال لوط: الآنَ الآن. استعجلَهم بالعذاب لغيظِه على قومه، فقالوا: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾؟ وقرأ عيسى بن عمرَ: ﴿أَلَيْسَ الصُّبُحُ﴾ بضمّ الباء، وهي لغةٌ[٣]. ويَحتمِلُ أن يكون جَعَلَ الصبحَ ميقاتاً لهلاكهم؛ لأن النفوسَ فيه أودعُ، والناسَ فيه أجمعُ[٤].

وقال بعضُ أهل التفسير: إنّ لوطاً خرج بابنتيهِ ليس معه غيرُهما عند طلوع الفجر، وإن الملائكة قالت له: إن الله قد وكّل بهذه القرية ملائكةً معهم صوتُ رعد، وخطفُ برق، وصواعقُ عظيمةٌ، وقد ذكرنا لهم أنّ لوطاً سيخرج فلا تُؤذوه، وأمارتُه أنه لا يلتفتُ، ولا تلتفتُ ابنتاه فلا يهولنَّك ما ترى. فخرج لوطٌ وطوى اللهُ له الأرضَ في وقته حتى نجا ووصل إلى إبراهيم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي: عذابُنا. ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ وذلك أن جبريلَ عليه السلام أدخل جناحَه تحت قُرى قوم لوط، وهي خمسٌ: سدومُ ـ وهي القرية العظمى ـ وعامورا، ودادوما، وصعرة، وقتم[٥]، فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بما فيها، حتى سمع أهلُ السماء نهيقَ حُمُرهم وصياحَ

(١) تفسير البغوي ٢/ ٣٩٦.

(٢) ينظر مجمع البيان ١٢/ ١٩٥.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٧، وقراءة عيسى بن عمر في القراءات الشاذة ص٦١.

(٤) النكت والعيون ٢/ ٤٩١ - ٤٩٢.

(٥) اختلفت النسخ والمصادر في أسماء هذه القرى اختلافاً كبيراً ما عدا سدوم. وينظر المحبر ص٤٦٧، والتعريف والإعلام للسُّهيلي ص١٧٦، ومعجم البلدان ٢/ ٤١٨ و ٣/ ٤١١ و ٤/ ٧١.

دِيكتهم، لم تَنكفئ لهم جرَّةٌ، ولم ينكسر لهم إناء، ثم نُكِسوا على رؤوسهم، وأتبعهم اللهُ بالحجارة. مقاتل: أُهلكتْ أربعة، ونَجتْ صعرة. وقيل غير هذا، والله أعلم[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ دليلٌ على أنّ من فعل فعلهم حكمُه الرَّجم، وقد تقدَّم في «الأعراف»[(٢)].

وفي التفسير: أُمطِرْنا في العذاب، ومُطرنا في الرحمة[(٣)]. وأمّا كلام العرب فيقال: مَطرتِ السماء وأمطرت، حكاه الهرويّ[(٤)].

واختُلِفَ في «السِّجّيل» فقال البخاري[(٥)]: السجّيل: الشديد الكثير، وسجِّيل وسِجِّين اللام والنون أختان. وقال أبو عُبيدة[(٦)]: السِّجِّيل الشديد، وأنشد:

ضَرْباً تَوَاصَى به الأبطالُ سِجِّينا[(٧)]

قال النحاس[(٨)]: وردَّ عليه هذا القولَ عبدُ الله بن مسلم[(٩)] وقال: هذا سجِّين وذلك سجِّيل، فكيف يستشهد به؟! قال النحاس: وهذا الردُّ لا يلزم، لأنَّ أبا عُبيدةَ ذهب إلى أن اللام تُبدلُ من النون لقرب إحداهما من الأخرى، وقولُ أبي عُبيدة يُرَدُّ من جهة أخرى، وهي أنه لو كان على قوله لكان حجارةً سجِّيلاً؛ لأنه لا يقال: حجارةٌ من شديد؛ لأنّ شديداً نعتٌ.

وحكى أبو عُبيد[(١٠)] عن الفراء[(١١)] أنه قد يقال لحجارة الأرْحاء: سجِّيل. وحكى

---

(١) عرائس المجالس ص١٠٧، وتفسير البغوي ٢/ ٣٩٦، والمحرر الوجيز ٣/ ١٩٧، وسلف الكلام ٩/ ٢٨٠.

(٢) ٩/ ٢٧٤ وما بعدها.

(٣) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٩٧.

(٤) تهذيب اللغة ١٣/ ٣٤١.

(٥) في (م): النحاس، والكلام عند البخاري (٤٦٨٤) وينظر فتح الباري ٨/ ٣٥١.

(٦) في مجاز القرآن ١/ ٢٩٦.

(٧) سيأتي بتمامه قريباً.

(٨) في معاني القرآن ٣/ ٣٧٠ - ٣٧١.

(٩) هو ابن قتيبة، وكلامه في تفسير غريب القرآن له ص٢٠٨.

(١٠) في (د) و(ز) و(ظ) و(م): أبو عبيدة، والمثبت من (ف) وهو الموافق لإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٧، والكلام منه.

(١١) في معاني القرآن ٢/ ٢٤.

عن محمدُ بن الجهم(١) أن سجِّيلاً طينٌ يُطبَخُ حتى يصيرَ بمنزلة الأَرْحاء.

وقالت طائفةٌ ـ منهم ابنُ عباس وسعيدُ بن جُبير وابن إسحاق ـ: إنّ سجِّيلاً لفظةٌ غيرُ عربيةٍ عُرِّبتْ، أصلُها سنج وجيل. ويقال: سنك وكيل، بالكاف موضع الجيم، وهما بالفارسية حجرٌ وطين؛ عرَّبتهما العربُ، فَجَعَلَتْهما اسماً واحداً. وقيل: هو من لغة العرب.

وقال قتادة وعِكرمة: السجِّيلُ: الطينُ؛ بدليل قوله: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات:٣٣]. وقال الحسن: كان أصلُ الحجارة طيناً فشدّدت. والسجِّيل عند العرب كلُّ شديدٍ صُلْب. وقال الضحاك: يعني الآجُرَّ. وقال ابنُ زيد: طينٌ طُبِخَ حتى كان كالآجرّ، وعنه أنّ سجيلاً اسمُ السماء الدنيا(٢)، ذكره المهدويّ، وحكاه الثعلبيُّ عن أبي العالية، وقال ابن عطية(٣): وهذا ضعيفٌ يردُّه وصفُه بـ «منضود». وعن عكرمةَ: أنه بحرٌ معلَّق في الهواء بين السماء والأرض منه نزلتِ الحجارة(٤). وقيل: هي جبالٌ في السماء، وهي التي أشار الله تعالى إليها بقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾(٥) [النور:٤٣]. وقيل: هو مما سُجِّل لهم، أي: كُتبَ لهم أن يُصيبهم، فهو في معنى سِجِّين، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ [المطففين:٨-٩] قاله الزجَّاج(٦) واختاره. وقيل: هو فِعِّيل مِن أَسجلْتُه؛ أي: أرسلتُه، فكأنها مُرسَلةٌ عليهم. وقيل: هو مِن أسجلته: إذا أعطيتَه، فكأنه عذابٌ أُعطوه، قال:

مَنْ يُساجِلْني يُساجِلْ ماجِداً   يَمْلأُ الدَّلْوَ إلى عَقْدِ الكَرَبْ(٧)

(١) أبي عبد الله السَّمَّري، الأديب، تلميذ الفراء وراويه. توفي سنة (٢٧٧هـ). السير ١٣/ ١٦٣ .
(٢) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٢/ ٥٢٦ – ٥٢٩ ، وتفسير البغوي ٢/ ٢٩٧ ، وزاد المسير ٤/ ١٤٤ .
(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ١٩٧ .
(٤) زاد المسير ٤/ ١٤٤ .
(٥) تفسير البغوي ٢/ ٣٩٧ .
(٦) في معاني القرآن ٣/ ٧١ .
(٧) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٧١ ، والبيت للفضل بن العباس، وهو في الكامل ١/ ٢٥٠ ، والأغاني =

وقال أهل المعاني: السِّجِّيلُ والسِّجِّين: الشديد من الحَجَر والضَّرب، قال ابن مُقبل:

وَرَجْلَةً يضربون البَيْضَ ضاحِيَةً ضَرْباً تَواصَى بِه الأبطالُ سِجِّينا[١]

﴿مَنضُودٍ﴾ قال ابن عباس: مُتتابع. وقال قتادة: نُضِدَ بعضُها فوق بعض. وقال الرّبيع: نُضِدَ بعضُه على بعض حتى صار جسداً واحداً. وقال عِكرمة: مصفوف[٢]. وقال بعضُهم: مرصوص، والمعنى متقارب. يقال: نَضَدتُ المتاعَ واللَّبِنَ: إذا جعلتَ بعضَه على بعض، فهو منضود ونَضِيد ونَضَد، قال:

ورفَّعَتْه إلى السِّجْفَين فالنَّضَدِ[٣]

وقال أبو بكر الهُذَليّ: مُعَدٌّ، أي: هو ممَّا أعدَّه الله لأعدائه الظَّلَمة[٤]. ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي: مُعْلَمة، من السِّيما؛ وهي العلامة، أي: كان عليها أمثالُ الخواتيم[٥]. وقيل: مكتوبٌ على كل حجرٍ اسمُ مَن رُميَ به، وكانت لا تُشاكِلُ حجارةَ الأرض[٦]. وقال الفرّاء[٧]: زعموا أنها كانت مخطَّطَةً بحمرة وسَواد في بياض، فذلك

= ١٦/ ١٧٢ . قال المبرد: وأصل المساجلة أن يستقي ساقيان، فيخرج كل واحد منهما في سَجْله مثلَ ما يُخرج الآخر، فأيهما نكَلَ فقد غُلب، فضربَتْه العرب مثلاً للمفاخرة اهـ قوله: الكَرَب: هو حبل يُشدُّ على عَراقي الدلو، يُثنَّى ثم يُثلث. رغبة الآمل لسيد بن علي المرصفي ٢/ ٢٣٧ .

(١) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢٩٦ ، والبيت في ديوان تميم بن مقبل ص٣٣٣ ، وفيه: عن عرض، بدل: ضاحية. قوله: البَيْض، هو جمع بيضة، وهي الخُوذة.

(٢) تنظر هذه الأقوال في زاد المسير ٤/ ١٤٥ ، وقولا الربيع وعكرمة أخرجهما الطبري ١٢/ ٥٢٩ .

(٣) ينظر معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٧١ ، والبيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص٣١ ، وصدره: خلَّت سبيل أتيٍّ كان يحبسه.
والسِّجفان: ستران رقيقان يكونان في مقدَّم البيت. شرح القصائد المشهورات للنحاس ٢/ ١٦٠ ، وسيأتي البيت بتمامه في تفسير الآية (٢٩) من سورة الواقعة.

(٤) أخرجه الطبري ١٢/ ٥٢٩ .

(٥) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢٩٧ ، والنكت والعيون ٢/ ٤٩٣ .

(٦) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٢/ ٥٣٠ - ٥٣١ ، وتفسير البغوي ٢/ ٣٩٧ ، وزاد المسير ٤/ ١٤٥ - ١٤٦ .

(٧) في معاني القرآن ٢/ ٢٤ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٩٧ .

تسويمُها. وقال كعب: كانت مُعلمةً ببياض وحُمرة[١]، وقال الشاعر:

غلامٌ رماه اللهُ بالحسنِ يافِعاً له سِيمياءٌ لا تَشقُّ على البَصَرْ[٢]

و«مُسَوَّمَةً» من نعت حجارة. و«منضودٍ» من نعت «سِجّيل». وفي قوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ دليلٌ على أنها ليست من حجارة الأرض، قاله الحسن[٣]. ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ يعني قومَ لوط، أي: لم تكن تُخطئهم[٤]. وقال مجاهد: يُرهِب قريشاً[٥]، المعنى: ما الحجارةُ من ظالمي قومك يا محمدُ ببعيد[٦]. وقال قتادة وعِكرمة: يعني ظالمي هذه الأمةِ، واللهِ ما أجارَ الله منها ظالماً بعدُ[٧]. ورويَ عن النبي ﷺ أنه قال: «سيكون في آخرِ أمّتي قومٌ يكتفي رجالُهم بالرجال ونساؤهم بالنساء، فإذا كان ذلك فارتقبوا عذابَ قومِ لوط، أن يرسِلَ الله عليهم حجارةً من سجِّيل»، ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾. وفي روايةٍ عنه عليه الصلاة والسلام: «لا تذهبُ الليالي والأيامُ حتى تستحلَّ هذه الأمةُ أدبارَ الرجالِ كما استحلُّوا أدبارَ النساء، فتصيب طوائفَ من هذه الأمة حجارةٌ من ربِّك»[٨]. وقيل: المعنى ما هذه القرى من الظالمين ببعيد، وهي بين الشام والمدينة[٩]. وجاء «بِبَعِيدٍ» مذكّراً على معنى بمكان بعيد.

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٤٩٣، وزاد المسير ٤/ ١٤٥ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) البيت لابن عنقاء الفزاري، وهو في الأغاني ١٩/ ٢٠٨، والمؤتلف والمختلف للآمدي ص٢٣٨، وسمط اللآلئ ١/ ٥٤٣، وعندهم: بالخير، بدل: بالحسن.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٢.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٨.

(٥) أخرجه الطبري ١٢/ ٥٣٢.

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٥.

(٧) أخرجه الطبري ١٢/ ٥٣٣.

(٨) لم نقف عليه، وأورد ابن حبان في المجروحين ٢/ ١٨٢ نحوه من حديث واثلة بن الأسقع وأنس بن مالك رضي الله عنهما مرفوعاً بلفظ: «لا تذهب الدنيا حتى يستغني النساءُ بالنساء، والرجالُ بالرجال، السحاق زنا النساء فيما بينهنّ»، وفي إسناده العلاء بن كثير الدمشقي، قال ابن حبان: كان ممن يروي الموضوعات عن الأثبات. قال البخاري: منكر الحديث، وقال أحمد: ليس بشيء. ميزان الاعتدال ٣/ ١٠٤.

(٩) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٩٨.

وفي الحجارة التي أُمطرتْ قولان: أحدُهما: أنها أُمطرت على المدن حين رفعها جبريلُ. الثاني: أنها أُمطرتْ على من لم يكن في المدن من أهلها وكان خارجاً عنها[1].

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ۖ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي: وأرسلنا إلى مدينَ، ومدينُ هم قوم شعيب.

(١) النكت والعيون ٢/ ٤٩٤.

وفي تسميتهم بذلك قولان: أحدُهما: أنهم بنو مدينَ بنِ إبراهيمَ، فقيل: مدينُ، والمرادُ بنو مدينَ. كما يقال: مُضَر، والمراد: بنو مُضَر. الثاني: أنه اسم مدينتهم، فنُسبوا إليها[١].

قال النحاس[٢]: لا ينصرفُ مدينُ لأنه اسم مدينة. وقد تقدَّم في «الأعراف» هذا المعنى وزيادة[٣].

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ تقدَّم[٤]. ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ كانوا مع كفرهم أهلَ بَخْسٍ وتَطْفيف[٥]، كانوا إذا جاءهم البائعُ بالطعام أخذوا بكَيلٍ زائد، واستوفَوا بغاية ما يَقدِرون عليه، وظلموا، وإن جاءهم مشترٍ للطعام باعُوه بكَيلٍ ناقص، وشحَّحوا له بغاية ما يقدِرون، فأُمِروا بالإيمان إقلاعاً عن الشِّرك، وبالوفاء نهياً عن التطفيف.

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ أي: في سَعةٍ من الرزق، وكثرةٍ من النِّعم[٦]. وقال الحسن: كان سِعرُهم رخيصاً[٧].

﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ وَصَفَ اليومَ بالإحاطة، وأراد وَصْفَ ذلك اليومِ بالإحاطةِ بهم، فإنَّ يومَ العذابِ إذا أحاط بهم فقد أحاط العذابُ بهم، وهو كقولك: يومٌ شديد، أي: شديدٌ حَرُّه.

واختُلِفَ في ذلك العذاب، فقيل: هو عذابُ النار في الآخرة. وقيل: عذابُ

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٤٩٤ .

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٣٩٨ .

(٣) في ٩/ ٢٨٠ وما بعدها.

(٤) ٩/ ٢٥٧ .

(٥) ينظر النكت والعيون ٢/ ٤٩٥ ، وتفسير الرازي ١٨/ ٤٠ .

(٦) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ١٣٩ .

(٧) أخرجه الطبري ١٢/ ٥٣٩ .

الاستئصالِ في الدنيا. وقيل: غلاءُ السِّعر؛ رويَ معناه عن ابن عباس[١]. وفي الحديث عن النبيِّ ﷺ: «ما أظهرَ قومٌ البَخْسَ في المكيال والميزانِ إلا ابتلاهم اللهُ بالقَحْط والغلاء»، وقد تقدَّم[٢].

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ أَمَرَ بالإيفاء بعد أن نَهى عن التطفيف تأكيداً. والإيفاءُ: الإتمام. «بالقسط» أي: بالعدل والحقّ، والمقصودُ أن يَصِلَ كلُّ ذي نصيبٍ إلى نصيبه، وليس يريدُ إيفاءَ المَكيل والموزون، لأنه لم يقل: أوفُوا بالمكيال وبالميزان، بل أراد ألَّا تَنْقُصوا حَجْمَ المكيالِ عن المعهود، وكذا الصَّنجات.

﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ أي: لا تَنْقُصوهم مما استحقُّوه شيئاً[٣]. ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ بيَّن أنّ الخيانة في المكيال والميزان مبالَغَةٌ في الفساد في الأرض، وقد مضى في «الأعراف» زيادةٌ لهذا[٤]، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ أي: ما يُبقيه اللهُ لكم بعد إيفاءِ الحقوقِ بالقسط أكثرُ بركةً، وأحمدُ عاقبةً مما تُبقونه أنتم لأنفسكم من فضل التطفيف بالتجبُّر والظلم، قال معناه الطبريُّ[٥] وغيرُه. وقال مجاهد: «بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لكم» يريدُ طاعتَه[٦]. وقال الرَّبيع: وصيةُ الله[٧]. وقال الفرّاء[٨]: مراقبةُ الله. ابن زيد: رحمةُ الله.

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٤٩٥، وقول ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه الطبري ١٢/ ٥٣٨.

(٢) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١٩٩ بنحوه، ولم نقف عليه مرفوعاً عند غيره، وقد تقدم بنحوه من قول ابن عباس رضي الله عنهما، وعزاه المصنف ثمة لمالك، وهو في الموطأ ٢/ ٤٦٠.

(٣) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ١٣٩.

(٤) ٩/ ٢٨٢.

(٥) في تفسيره ١٢/ ٥٤١، وينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٩٩.

(٦) تفسير مجاهد ١/ ٣٠٨، وأخرجه الطبري ١٢/ ٥٤٢.

(٧) النكت والعيون ٢/ ٤٩٥.

(٨) في معاني القرآن ٢/ ٢٥.

قتادةُ والحسن: حظُّكم من ربِّكم خيرٌ لكم. وقال ابن عباس: رزقُ الله خيرٌ لكم[(١)].

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ شَرَطَ هذا لأنهم إنما يَعرفون صحةَ هذا إن كانوا مؤمنين[(٢)]. وقيل: يَحتمِلُ أنهم كانوا يعترفون بأنَّ الله خالقُهم فخاطبهم بهذا.

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أي: رقيب أرْقُبُكم عند كَيلكم ووزنكم، أي: لا يُمكِنُني شُهودُ كلِّ معاملةٍ تَصْدُرُ منكم حتى أُؤاخذَكم بإيفاءِ الحقّ. وقيل: أي: لا يتهيَّأُ لي أن أحفظَكم من إزالة نِعَم الله عليكم بمعاصيكم[(٣)].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ﴾ وقرئ: ﴿أَصَلَاتُكَ﴾ من غير جَمع[(٤)]. ﴿تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ «أن» في موضع نصب؛ قال الكِسائي: مَوضِعُها خفضٌ على إضمار الباء[(٥)].

ورُوي أنّ شعيباً عليه السلامُ كان كثيرَ الصلاة، مواظِباً على العبادةِ[(٦)] فَرْضِها ونَفْلِها، ويقول: الصلاةُ تنهى عن الفحشاء والمنكر، فلمّا أَمَرهم ونهاهم عيَّرُوه بما رأوه يَستمرُّ عليه من كثرة الصلاة، واستهزؤوا به، فقالوا ما أَخبرَ اللهُ عنهم[(٧)].

وقيل: إن الصلاةَ هنا بمعنى القراءة؛ قاله سفيانُ عن الأعمش، أي: قراءتُك تأمرُك، ودلَّ بهذا على أنهم كانوا كفاراً[(٨)]. وقال الحسن: لم يبعثِ اللهُ نبيًّا إلا فَرَضَ

---

(١) أخرج الأقوال الثلاثة الطبري ١٢/٥٤٣ - ٥٤٤، وذكرها ابن الجوزي في زاد المسير ٤/١٤٩.

(٢) زاد المسير ٤/١٤٩.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/٢٩٨، وينظر مجمع البيان ١٢/٢٠٤.

(٤) قرأ بالتوحيد عاصم ـ في رواية حفص ـ وحمزة والكسائي، وقرأ الباقون: «أصلواتك» بالجمع. السبعة ص٣١٧، والتيسير ص١١٩.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/٢٩٨.

(٦) في النسخ: مواظب العبادة. والمثبت من (م).

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٠٥١ بنحوه.

(٨) معاني القرآن للنحاس ٣/٣٧٤، وقول الأعمش أخرجه الطبري ١٢/٥٤٦ - ٥٤٧ وسفيان: هو الثوري.

عليه الصلاةَ والزكاة[١].

﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ زَعَم الفراء[٢] أنّ التقديرَ: أَوَتنهانا أن نفعلَ في أموالنا ما نشاء. وقرأ السُّلَميُّ والضّحاك بن قيس: «أو أنْ تَفعلَ في أموالِنا ما تشاء» بالتاء في الفعلين[٣]، والمعنى: ما تشاء أنت يا شعيب. وقال النحاس: «أو أن» على هذه القراءة معطوفةٌ على «أن» الأولى[٤]. ورُويَ عن زيدِ بن أسلم أنه قال: كان مما نهاهم عنه حَذْفُ الدراهم[٥]. وقيل: معنى «أَوْ أَنْ نَفْعَل في أموالنا ما نشاءُ» إذا تَراضَيْنا فيما بيننا بالبخس فَلِمَ تمنعُنا منه[٦]؟!.

﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ يَعْنون عند نَفْسك بزعمك[٧]، ومِثْلُه في صفة أبي جهل: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] أي: عند نفسك بزعمك. وقيل: قالوه على وجه الاستهزاء والسخرية، قاله قتادة[٨]. ومنه قولُهم للحبشيّ: أبو البيضاء، وللأبيض: أبو الجَون، ومنه قولُ خَزَنة جهنم لأبي جهل: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾[٩]. وقال سفيانُ بن عُيَينةَ: العربُ تَصِفُ الشيءَ بضِدِّه للتطيُّر والتفاؤل، كما قيل لِلَّدِيغ: سَلِيم، وللفلاة: مَفازة[١٠]. وقيل: هو تعريضٌ أرادوا به السبَّ.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٠٠ .

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٢٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٩٨ .

(٣) قرأ السُّلمي: «نفعل» بالنون، وقرأ الضحاك: «تفعل» بالتاء، وقرأ كلاهما: «تشاء» بالتاء. ينظر القراءات الشاذة ص٦١ ، والدر المصون ٦/ ٣٧٢ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٨ .

(٥) أخرجه الطبري ١٢/ ٥٤٥ . وحذف الدراهم، أي: كسرها. ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٧٣ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٤ .

(٧) المصدر السابق.

(٨) النكت والعيون ٢/ ٤٩٦ .

(٩) الكلام بنحوه في عرائس المجالس ص١٦٧ . والجون من الأضداد، يقال للأبيض والأسود. الأضداد لابن الأنباري ص١١١ .

(١٠) ذكره البغوي في تفسيره ٢/ ٣٩٨ دون نسبة.

وأَحسَنُ من هذا كلِّه، ويدلُّ ما قبلَه على صحته، أي: إنك أنت الحليمُ الرشيد حقًّا، فكيف تأمرُنا أنْ نتركَ ما يعبد آباؤنا؟! ويدلُّ عليه: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ أنكروا ـ لمَّا رأوا من كثرة صلاته وعبادته، وأنه حليمٌ رشيدٌ ـ بأن يكونَ يأمرُهم بترك ما كان يعبد آباؤهم، وبعده أيضاً ما يدلُّ عليه، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ﴾ أي: أفلا أنهاكم عن الضلال؟[(١)]

وهذا كلُّه يدلُّ على أنهم قالوه على وجه الحقيقة، وأنه اعتقادَهم فيه. ويُشبه هذا المعنى قولَ اليهود من بني قُريظةَ للنبي ﷺ حين قال لهم: «يا إخوةَ القردة» فقالوا: يا محمدُ ما عَلِمناك جهولاً![(٢)]

مسألة: قال أهلُ التفسير: كان مما ينهاهم عنه، وعُذِّبوا لأجله قطعُ الدنانيرِ والدراهم[(٣)]، كانوا يَقْرِضون من أطراف الصِّحاح لِتفضُلَ لهم القُراضة، وكانوا يتعاملون على الصِّحاح عدَداً[(٤)]، وعلى المقروضة وزناً، وكانوا يبخَسون في الوزن.

وقال ابن وهب: قال مالك: كانوا يكسِرون الدنانير والدراهمَ، وكذلك قال جماعةٌ من المفسرين المتقدمين كسعيدِ بن المسيِّب، وزيدِ بن أسلم، وغيرِهما، وكَسْرُهما ذنبٌ عظيم[(٥)]. وفي كتاب أبي داودَ عن علقمةَ بنِ عبد الله، عن أبيه قال: نهى رسولُ الله ﷺ أنْ تُكْسَرَ سِكَّةُ المسلمين الجائزةُ بينهم إلا من بأس[(٦)]. فإنها إذا

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٩.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٠١، والحديث أخرجه الحاكم ٣/ ٣٤ - ٣٥، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ومن طريقه أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٤/ ٨ - ٩. وعندهما: فحاشاً، بدل: جهولاً. وقد قال النبي ﷺ ذلك في يهود بني قريظة عندما غزاهم.

(٣) عرائس المجالس ص١٦٧.

(٤) في (م): عدًّا.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٥١ - ١٠٥٢.

(٦) سنن أبي داود (٣٤٤٩). والسِّكة: الدنانير والدراهم المضروبة، يُسمَّى كل واحد منهما سكة؛ لأنه طبع بالحديدة. النهاية (سكك).

كانت صِحاحاً قام معناها، وظهرَتْ فائدتُها، وإذا كُسِرتْ صارت سِلعةً، وبَطَلت منها الفائدةُ، فأضرَّ ذلك بالناس؛ ولذلك حُرِّم. وقد قيل في تأويل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل:٤٨] أنهم كانوا يَكسِرون الدراهمَ؛ قاله زيدُ بن أسلم[١]. قال أبو عمرَ بنُ عبد البر[٢]: زعموا أنه لم يكن بالمدينة أعلمُ بتأويل القرآن من زيدِ بن أسلم بعد محمدِ بن كعب القُرَظيّ.

مسألة: قال أصْبغُ: قال عبدُ الرحمن بنُ القاسم بنِ خالدِ بن جُنادةَ مولى زيدِ بن الحارث العُتَقيّ: مَنْ كَسَرَها لم تُقبَلْ شهادتُه، وإن اعتذر بالجهالة لم يُعْذَرْ، وليس هذا بموضع عذر، قال ابنُ العربي[٣]: أمّا قوله: لم تُقبلْ شهادتُه فلأنه أتى كبيرةً، والكبائر تُسقِطُ العدالةَ دون الصغائر، وأمّا قوله: لا يُقبلُ عذرُه بالجهالة في هذا، فلأنه أمرٌ بيّنٌ لا يَخفى على أحد، وإنما يُقبَلُ العذرُ إذا ظهر الصدقُ فيه، أو خَفِيَ وجهُ الصدق فيه، وكان اللهُ أعلمَ به من العبد كما قال مالك.

مسألة: إذا كان هذا معصيةً وفساداً تُردُّ به الشهادة؛ فإنه يُعاقَبُ مَنْ فَعَلَ ذلك. ومرَّ ابنُ المسيِّب برجل قد جُلد، فقال: ما هذا؟ فقالوا[٤]: رجلٌ يقطَعُ الدنانير والدراهم، قال ابنُ المسّيب: هذا من الفساد في الأرض، ولم يُنكِرْ جَلْدَه. ونحوُه عن سفيان. وقال أبو عبد الرحمن النّجيبي[٥]: كنت قاعداً عند عمرَ بنِ عبد العزيز، وهو إذ ذاك أمير المدينة، فأُتِيَ برجلٍ يقطَعُ الدراهمَ وقد شُهِدَ عليه، فضربه وحَلَقه، وأَمَر فَطِيف به، وأَمَره أن يقول: هذا جزاءُ مَن يقطع الدراهمَ، ثم أَمَرَ أن يُرَدَّ إليه، فقال: إنه لم يمنعني أن أَقْطَعَ يدَكَ إلّا أني لم أكن تقدّمت في ذلك قبل اليوم، وقد تقدَّمت في

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٥٢ .

(٢) في التمهيد ٣/ ٢٤٠ .

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٥٢ ، وما قبله منه.

(٤) في النسخ: قال، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٥٣ ، والكلام منه.

(٥) وقع في (ز) وأحكام القرآن لابن العربي التجيبي، ولم تجود في (ظ)، ولم نعرفه.

ذلك، فمن شاء فَلْيقطع.

قال القاضي أبو بكر بن العربيّ[١]: أمّا أدبُه بالسوط فلا كلامَ فيه، وأما حَلْقُه فقد فعله عمر، وقد كنتُ أيامَ الحُكم بين الناس أَضرِبُ وأَحْلِقُ، وإنما كنتُ أفعل ذلك بمن يربِّي[٢] شَعْرَه عوناً له على المعصية، وطريقاً إلى التجمُّل به في الفساد، وهذا هو الواجبُ في كلِّ طريقٍ للمعصية؛ أنْ يُقْطَعَ إذا كان غيرَ مُؤثِّر في البدن، وأمَّا قَطْعُ يدِه فإنما أَخَذَ ذلك عمرُ مِن فَصْلِ[٣] السرقة، وذلك أنَّ قَرْضَ الدراهم غيرُ كَسْرِها، فإنّ الكسرَ إفسادُ الوصف، والقرضَ تنقيصٌ للقدر، فهو أَخْذُ مالٍ على جهة الاختفاء، فإن قيل: أليس الحِرزُ أصلاً في القطع؟ قلنا: يَحتمِلُ أن يكونَ عمرُ يرى أنَّ تهيئَتها للفصل بين الخلق ديناراً أو درهماً حِرزٌ لها، وحِرزُ كل شيءٍ على قَدْرِ حاله، وقد أَنْفَذَ ذلك ابنُ الزبير، وقَطَعَ يدَ رجل في قَطْع الدنانيرِ والدراهم. وقد قال علماؤنا المالكية: إن الدنانيرَ والدراهم خواتيمُ الله، عليها اسمُه، ولو قُطع ـ على قول أهلِ التأويل ـ مَنْ كَسَرَ خاتماً لله كان أهلاً لذلك، إذ من[٤] كسر خاتَمَ سلطانٍ عليه اسمُه أُدِّب، وخاتَمُ الله تُقضى به الحوائجُ فلا يستويان في العقوبة.

قال ابن العربيّ[٥]: وأرى أن يُقْطَعَ في قرضها دون كسرها، وقد كنتُ أفعل ذلك أيامَ توليتي الحُكْمَ، إلّا أني كنتُ محفوفاً بالجُهّال، فلم أُجِبْ[٦] بسبب المقالِ للحسَدَةِ الضُّلّال، فمن قَدَرَ عليه يوماً من أهل الحق؛ فليفعلْه احتساباً لله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ تقدَّم[٧]. ﴿وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٥٣، وما قبله منه.

(٢) في النسخ: يرى، والمثبت من أحكام القرآن.

(٣) في (ظ): قصد.

(٤) في (د) و(م): أو من، وفي (ظ): ومن، والمثبت من (ز) و(ف)، وهو الموافق لأحكام القرآن.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٥٤.

(٦) في (م): أجبن.

(٧) في ٨/ ٣٩٨، و ص١٠١ من هذا الجزء.

﴿حَسَنًا﴾ أي: واسعاً حلالاً، وكان شعيبٌ عليه السلامُ كثيرَ المال، قاله ابن عباس وغيرُه[١]. وقيل: أراد به الهدى والتوفيق، والعلمَ والمعرفة[٢]، وفي الكلام حذفٌ، وهو ما ذكرناه، أي: أفلا أَنهاكم عن الضلال؟![٣] وقيل: المعنى: «أرأيتم إنْ كنتُ على بيِّنة من ربِّي» أَتَّبعُ الضَّلال[٤]؟ وقيل: المعنى: «أرأيتم إنْ كنتُ على بيِّنة من ربي» أتأمرونني بالعصيان في البَخْس والتطفيف وقد أغناني الله عنه؟!

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ﴾ في موضع نصب بـ «أُريدُ»[٥]. ﴿إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ أي: ليس أنهاكم عن شيءٍ وأَرتكبه[٦]، كما لا أترك ما أَمرتُكم به. ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ أي: ما أُريدُ إلا فِعْلَ الصلاح، أي: أن تُصلحوا دنياكم بالعَدْل، وآخرتَكم بالعبادة، وقال: «ما اسْتَطَعْتُ» لأنَّ الاستطاعةَ من شروط الفعل دون الإرادة[٧]. و«ما» مصدرية، أي: إنْ أُريدُ إلا الإصلاحَ جَهدي واستطاعتي[٨]. ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ﴾ أي: رُشْدي، والتوفيقُ: الرشدُ. ﴿إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: اعتمدتُ. ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: أَرجع فيما يَنزِلُ بي من جميع النوائب. وقيل: إليه أرجعُ في الآخرة. وقيل: إنَّ الإنابةَ الدعاءُ، ومعناه: وله أدعو[٩].

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ وقرأ يحيى بن وثاب: «يُجْرِمَنَّكُمْ»[١٠].

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٤٩٧، وزاد المسير ٤/ ١٥١.

(٢) ينظر تفسير البغوي ٢/ ٣٩٨، وزاد المسير ٤/ ١٥١.

(٣) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٩، والنكت والعيون ٢/ ٤٩٧.

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ١٣٩، وزاد المسير ٤/ ١٥١.

(٥) يعني «أن أخالفكم» في موضع نصب بـ «أريد»، ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٩.

(٦) في (ظ): أركبه، وينظر تفسير الطبري ١٢/ ٥٤٩، وتفسير البغوي ٢/ ٣٩٨، وزاد المسير ٤/ ١٥١.

(٧) النكت والعيون ٢/ ٤٩٧.

(٨) ينظر تفسير الرازي ١٨/ ٤٦.

(٩) ينظر النكت والعيون ٢/ ٤٩٧.

(١٠) المحتسب ١/ ٣٢٧.

﴿شِقَاقِيٓ﴾ في موضع رفع. ﴿أَن يُصِيبَكُم﴾ في موضع نصب[١]، أي: لا يَحمِلَنَّكم مُعاداتي على ترك الإيمان فيصيبَكم ما أصاب الكفارَ قبلكم، قاله الحسن وقتادة[٢]. وقيل: لا يُكْسِبَنَّكم شِقاقي إصابتَكم العذابَ كما أصاب مَن كان قبلكم، قاله الزجاج[٣]. وقد تقدَّم معنى «يجرمنَّكم» في «المائدة»، و«الشقاقِ» في «البقرة»[٤] وهو هنا بمعنى العداوة، قاله السدّي، ومنه قول الأخطل:

أَلَا مَنْ مُبْلِغٌ عني رسولاً فكيف وجَدتُم طَعْمَ الشِّقاقِ[٥]

وقال الحسن البصري: إضراري. وقال قتادة: فِراقي[٦].

﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ وذلك أنهم كانوا حديثي عهدٍ بهلاك قومِ لوط. وقيل: وما ديارُ قوم لوطٍ منكم ببعيد[٧]، أي: بمكان بعيد، فلذلك وحَّدَ البعيد[٨]. قال الكسائيُّ: أي: دورُهم في دورِكم[٩].

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ تقدَّم[١٠]. ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ اسمان من أسمائه سبحانه، وقد بيَّنَّاهما في كتاب «الأسنى في شرح الأسماء الحسنى»[١١]. قال الجوهريّ[١٢]: وَدِدتُ الرجلَ أَوَدُّه وُدًّا: إذا أحببتَه، والودود:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٩.

(٢) أخرجه بنحوه الطبري ١٢/ ٥٥١ عن قتادة.

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٧٤ بنحوه، وينظر النكت والعيون ٢/ ٤٩٨.

(٤) في المائدة ٧/ ٢٦٥، وفي البقرة ٢/ ٤١٩.

(٥) النكت والعيون ٢/ ٤٩٨، والبيت في ديوان الأخطل ص٣١، وفيه: قيساً، بدل: عني.

(٦) النكت والعيون ٢/ ٤٩٨.

(٧) تفسير الطبري ١٢/ ٥٥١ - ٥٥٢، وتفسير البغوي ٢/ ٣٩٩.

(٨) زاد المسير ٤/ ١٥١.

(٩) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٩.

(١٠) في ص٦٧ من هذا الجزء.

(١١) ينظر ص٨١ و ٨٦ و ٩١، وينظر شرح الرحيم ص٣٩٥، وليس في المطبوع منه شرح «الودود».

(١٢) في الصحاح (ودد).

المُحبُّ، والوَدُّ والوِدّ والوُدّ: المَودَّة[١].

ورُويَ عن النبي ﷺ أنه كان إذا ذَكَر شعيباً قال: «ذاك خطيبُ الأنبياء»[٢].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ أي: ما نفهم؛ لأنك تَحمِلُنا على أمورٍ غائبة من البَعْث والنُّشور، وتَعِظُنا بما لا عهدَ بمثله. وقيل: قالوا ذلك إعراضاً عن سماعه، واحتقاراً لكلامه[٣]، يقال: فَقِه يفقَه: إذا فَهِم؛ فِقْهاً وفَقَهاً، وحكى الكسائيُّ: فَقَهاناً، وفَقُه فَقَها وفِقْها[٤]: إذا صار فقيهاً.

﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ قيل: إنه كان مصاباً ببصره؛ قاله سعيدُ بن جُبير وقتادة. وقيل: كان ضعيفَ البصر؛ قاله الثوريّ[٥]، وحكى عنه النحاسُ[٦] مثلَ قول سعيدِ بن جُبير وقتادةَ. قال النحاس: وحكى أهلُ اللغة أنَّ حِمْيَر تقول للأعمى: ضعيفٌ، أي: قد ضَعُفَ بذهاب بصرِه، كما يقال له: ضرير، أي: قد ضُرَّ بذهاب بصره، كما يقال له: مكفوفٌ، أي: قد كُفَّ عن النظر بذهاب بصره[٧]. قال الحسن: معناه: مَهين. وقيل: المعنى ضعيفُ البدن؛ حكاه عليُّ بن عيسى. وقال السدّي: وحيداً ليس لك جندٌ وأعوان تَقْدِرُ بها على مُخالفتنا. وقيل: قليلُ المعرفةِ بمصالح الدنيا وسياسةِ أهلها[٨].

---

(١) في (م): والوَدّ والوِدّ والوُدّ والمودة: المحبة.

(٢) سلف ٩/ ٢٨١ ، وهو حديث ضعيف.

(٣) النكت والعيون ٢/ ٤٩٩ .

(٤) وقعت العبارة في (م): فَقِهَ يفقَه إذا فهم فِقْهاً، وحكى الكسائي: فَقُه فَقَهاً وفِقْها..، والمثبت من النسخ الخطية، وهو موافق لإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٩ ، والكلام منه.

(٥) تفسير الطبري ١٢/ ٥٥٣ ، والنكت والعيون ٢/ ٤٩٩ .

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٣٧٥ .

(٧) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٦ . قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٠٢ : وهذا كله ضعيف، ولا تقوم عليه حجة بضعف بصره أو بدنه، والظاهر من قولهم: «ضعيفاً» أنه ضعيف الانتصار والقدرة. اهـ. وكذلك ضعَّف هذا القول الرازي من عدّة وجوه، تنظر في تفسيره ١٨/ ٤٩ .

(٨) أورد هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٤٩٩ .

و«ضعيفاً» نصبَ على الحال. ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ رفعٌ بالابتداء[١]، ورهطُ الرجل: عشيرتُه الذي يستندُ إليهم ويتقوَّى بهم، ومنه الرّاهِطَاء لجُحْر اليَرْبُوع؛ لأنه يَتوثَّقُ به ويَخْبأُ فيه ولدَه[٢]. ومعنى ﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾: لقتَلْناك بالرَّجم، وكانوا إذا قَتلوا إنساناً رجَموه بالحجارة، وكان رَهْطُه من أهل مِلَّتهم[٣]. وقيل: معنى «لَرَجَمْنَاكَ»: لَشتمناك، ومنه قولُ الجَعْديّ:

تَراجَمْنا بمُرِّ القولِ حتى ... نَصيرَ كأنّنا فرَسَا رِهانِ[٤]

والرَّجمُ أيضاً: اللَّعنُ، ومنه: الشيطان الرجيم[٥]. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي: ما أنت علينا بغالب ولا قاهر ولا مُمتنع[٦].

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ﴾ «أرَهْطِي» رفعٌ بالابتداء، والمعنى: أرهطي في قلوبكم ﴿أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وأعظمُ وأجلُّ وهو يَملِكُكم؟![٧]

﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أي: اتَّخذتُم ما جئتُكم به مِن أمرِ اللهِ ظِهْرِيًّا، أي: جعلتُموه وراءَ ظهورِكم، وامتنعتُم من قَتْلي مخافةَ قومي[٨]، يقال: جعلتُ أمرَه بظهرِ إذا قَصَّرْت فيه[٩]، وقد مضى في «البقرة»[١٠].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٩ .

(٢) ينظر تهذيب اللغة ٦/ ١٧٥ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٠٢ .

(٣) ينظر زاد المسير ٤/ ١٥٣ .

(٤) النكت والعيون ٢/ ٤٩٩ - ٥٠٠ ، والبيت في ديوان النابغة الجعدي ص١٦٥ ، وفيه: بصدر، بدل: بمرّ.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ١٤٠ .

(٦) ينظر الوسيط للواحدي ٢/ ٥٨٧ ، والنكت والعيون ٢/ ٥٠٠ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٩ .

(٨) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ١٤٠ ، والوسيط للواحدي ٢/ ٥٨٧ .

(٩) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٧ بنحوه.

(١٠) ٢/ ٢٦٨ .

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: من الكُفر والمعصية. ﴿مُحِيطٌ﴾ أي: عليم. وقيل: حفيظ[١].

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديدٌ ووعيد[٢]، وقد تقدَّمَ في «الأنعام»[٣].

﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: يُهلِكُه. و«مَنْ» في موضعِ نصب، مثل: ﴿يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠]. ﴿وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ عطفٌ عليها[٤]. وقيل: أي: وسوف تعلمون مَن هو كاذبٌ مِنَّا. وقيل: في محلِّ رفع، تقديره: ويَخزَى مَن هو كاذب[٥]. وقيل: تقديرُه: ومن هو كاذب فَسيُعلَمُ كَذِبُه، ويذوقُ وبالَ أمره[٦]. وزعم الفرّاءُ[٧] أنهم إنما جاؤوا بـ«هو» في «وَمَنْ هو كاذبٌ» لأنهم لا يقولون: مَن قائمٌ، إنما يقولون: مَن قام، ومَن يقوم، ومَن القائم، فزادوا «هو» ليكونَ جملةً تقوم مَقامَ فَعَلَ ويَفْعلُ. قال النحاس: ويدلُّ على خلاف هذا قولُه:

مَـن رَسُـولٌ إلـى الـثُّـريّـا بِـأنِّـي ... ضِـقْـتُ ذَرْعـاً بِـهَـجْـرِهَـا والـكـتـابِ[٨]

﴿وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ أي: انتظروا العذابَ والسَّخْطَةَ، فإني منتظرٌ النصرَ والرحمة[٩].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ قيل: صاحَ بهم جبريلُ صيحةً فخرجتْ أرواحُهم

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٥٠١.

(٢) النكت والعيون ٢/ ٥٠١، وتفسير أبي الليث ٢/ ١٤٠.

(٣) ٩/ ٣٥.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٩ - ٣٠٠.

(٥) ينظر النكت والعيون ٢/ ٥٠١.

(٦) تفسير البغوي ٢/ ٣٩٩.

(٧) في معاني القرآن ٢/ ٢٦، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٠٠.

(٨) قائله عمر بن أبي ربيعة، وهو في ديوانه ص٣٠، وفيه: رسولي، بدل: رسولٌ.

(٩) ينظر تفسير البغوي ٢/ ٣٩٩.

من أجسادهم[١]، ﴿نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ أي: صيحةُ جبريلَ. وَأَنَّثَ الفِعلَ على لفظ الصيحة، وقال في صيحة صالح: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [هود:٦٧]، فذكَّرَ على معنى الصياح.

قال ابن عباس: ما أهلكَ اللهُ أُمَّتين بِعذابٍ واحد إلا قومَ صالحٍ وقومَ شُعيب، أهلكهم الله بالصيحة، غيرَ أنّ قومَ صالح أخذَتْهم الصيحةُ من تحتِهم، وقومَ شعيب أخذتْهم الصيحة من فوقِهم[٢].

﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ . كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾ تقدّم معناه[٣]. وحكى الكسائيُّ أن أبا عبد الرحمن السُّلَميَّ قرأ: «كَمَا بَعُدَتْ ثَمُودُ» بضم العين. قال النحاس[٤]: المعروف في اللغة إنما يقال: بَعِدَ يَبْعَدُ بَعَداً وبُعْداً: إذا هلك.

وقال المهدويّ: مَن ضمَّ العين من «بَعُدتْ» فهي لغةٌ تُستعمل في الخير والشرّ، ومصدُرها البُعد، وبَعِدت تُستعمل في الشرِّ خاصةً، يقال: بَعِدَ يَبْعَد بَعَداً، فالبُعد على قراءة الجماعة بمعنى اللَّعنة، وقد يجتمع معنى اللُّغتين لِتقاربهما في المعنى، فيكون مما جاء مصدرُه على غير لفظهِ لتقارب المعاني.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ﴿٩٧﴾ يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ﴿٩٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بيَّن أنه أتْبع النبيَّ النبيَّ لإقامة الحُجَّة،

---

(١) تفسير الطبري ١٢/ ٥٥٩ - ٥٦٠، وتفسير البغوي ٢/ ٤٠٠.

(٢) تفسير الرازي ١٨/ ٥١.

(٣) تقدم معنى قوله: «فأصبحوا في ديارهم جاثمين» في ص١٥٧ من هذا الجزء، وقوله: «كأن لم يغنوا فيها» في ٩/ ٢٨٦، وقوله: «ألا بعداً» في ص١٤٧ من هذا الجزء.

(٤) في إعراب القرآن ٢/ ٣٠٠، وما قبله منه، وقراءة السُّلمي في القراءات الشاذة ص٦١.

وإزاحةِ كلِّ عِلَّة. «بِآيَاتِنَا» أي: بالتوراة، وقيل: بالمعجزات. ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: حُجَّة بيِّنة، يعني العصا[(١)]. وقد مضى في «آل عمران» معنى السلطانِ واشتقاقُه[(٢)]، فلا معنى للإعادة.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: شأنَه وحالَه، حتى اتخذوه إلهاً، وخالفوا أمر الله تعالى. ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي: بسديدٍ يؤدِّي إلى صواب. وقيل: «بِرشيدٍ» أي: بمرشدٍ إلى خير[(٣)].

قوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يعني أنه يتقدَّمهم إلى النار، إذ هو رئيسهم. يقال: قَدَمهم يقدُمُهم قُدْماً وقُدُوماً: إذا تقدَّمهم[(٤)]. ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ أي: أدخلهم فيها. ذُكِر بلفظ الماضي، والمعنى: فيوردهم النار، وما تحقَّق وجودُه فكأنه كائن، فلهذا يُعبَّر عن المستقبل بالماضي[(٥)]. ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ أي: بئس المدخل المدخول، ولم يقل: بئست؛ لأن الكلام يرجِع إلى الوِرْد[(٦)]، وهو كما تقول: نِعْمَ المنزلُ دارُك، ونعمت المنزلُ دارُك. والوِرْد[(٧)]: الماء الذي يُورَد، والموضع الذي يُورد، وهو بمعنى المفعول.

قوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً﴾ أي: في الدنيا. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: ولعنةً يوم القيامة، وقد تقدَّم هذا المعنى[(٨)].

﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ حكى الكِسائيُّ وأبو عُبيدة: رَفَدْتُه أَرْفِدُه رَفْداً، أي: أعنتُه

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط ٢/ ٥٨٨ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) ٤/ ٣٥٧.

(٣) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٨٨.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٠.

(٥) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٢٠٥.

(٦) في (م): المورود. والكلام بنحوه في تفسير الرازي ١٨/ ٥٤.

(٧) في (م): والمورود.

(٨) ص١٤٧ من هذا الجزء.

وأعطيته. واسم العَطِيَّة: الرِّفْد[١]، أي: بئس العطاءُ والإعانة. والرِّفْد والرَّفْد[٢] أيضاً: القَدَح الضخم؛ قاله الجوهري[٣]، والتقدير: بئس الرِّفد رِفدُ المرفود. وذكر الماوردي: أنَّ الرَّفْد بفتح الراء: القَدَح، والرِّفْد بكسرها: ما في القدح من الشراب، حكى ذلك عن الأصمعي، فكأنه ذمَّ بذلك ما يُسقَونه في النار. وقيل: إنَّ الرِّفْد الزيادة، أي: بئس ما يُرفدون به بعد الغَرق النارُ، قاله الكلبي[٤].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾ «ذَلِكَ» رفعٌ على إضمار مبتدأ، أي: الأمر ذلك. وإنْ شئت بالابتداء[٥]، والمعنى: ذلك النبأُ المتقدِّم من أنباء القرى

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٠ . وقول أبي عُبيدة في مجاز القرآن له ١/ ٢٩٨ .

(٢) قوله: والرَّفد (الثانية)، ليس في (م).

(٣) الصحاح (رفد).

(٤) النكت والعيون ٢/ ٥٠٢ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٠ .

نقصُّه عليك.

﴿مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ قال قتادة: القائم ما كان قائماً[1] على عروشه، والحصيد ما لا أثرَ له. وقيل: القائمُ: العامر، والحصيدُ: الخراب، قاله ابن عباس[2]. وقال مجاهد: قائم: خاويةٌ على عروشها، وحصيد: مُستأصَل، يعني محصوداً، كالزرع إذا حُصد، قال الشاعر:

والنـاس فـي قَسْـم الـمَـنيَّة بينـهـم كـالـزَّرع مـنـه قـائـمٌ وحـصـيـدُ[3]

وقال آخر:

إنــمــا نــحــن مــثــلُ خــامَــةِ زرعٍ فــمــتــى يــأنِ يــأتِ مُــحــتَــصِــدُهْ[4]

قال الأخفش سعيد[5]: حصيد، أي: محصود، وجمعه: حَصْدَى وحِصاد، مثل: مرضى ومِراض، قال: يكون فيمن يعقِل: حَصْدَى، مثل: قَتِيل وقَتْلى[6].

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ أصلُ الظلم في اللغة: وضعُ الشيء في غير موضعه، وقد تقدَّم في «البقرة» مستوفًى[7]. ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر والمعاصي. وحكى سيبويه أنه يقال: ظلم إياه[8] ﴿فَمَآ أَغْنَتْ﴾ أي: دَفَعت. ﴿عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ في الكلام حذف، أي: التي كانوا يعبدون، أي: يدعون. ﴿لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ أي: غيرَ تخسير، قاله مجاهدٌ وقَتادة[9]. وقال لبيد:

---

(١) في (د) و(ز) و(ف) و(م): خاوياً، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما أخرجه الطبري ١٢/ ٥٦٧ .

(٢) أخرجه الطبري ١٢/ ٥٦٧ بنحوه.

(٣) النكت والعيون ٢/ ٥٠٣ .

(٤) قائله الطِّرِمّاح، وهو في ديوانه ص١٩٨ ، والشطر الأول فيه: إنما الناس مثل نابتة الزرع. وأورده بلفظ المصنف ابن فارس في معجم مقاييس اللغة ٢/ ٧١ .

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٥٨٢ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٠١ .

(٦) في إعراب القرآن: ويجوز فيمن يعقل: حُصداء مثل: قتيل وقُتَلاء. وينظر الدر المصون ٦/ ٣٨٤ .

(٧) ١/ ٤٦٠ - ٤٦١ .

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠١ .

(٩) أخرجه الطبري ١٢/ ٥٦٩ - ٥٧٠ .

فلقد بَلِيتُ وكلُّ صاحبِ جِدَّةٍ لِبِلًى يعود وذاكُمُ التَّتْبِيبُ[١]

والتَّبَاب: الهلاك والخسران، وفيه إضمار، أي: ما زادتهم عبادةُ الأصنام، فحذف المضاف، أي: كانت عبادتهم إياها قد خسَّرتهم ثوابَ الآخرة[٢].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: كما أخذ هذه القرى التي كانت لنوحٍ وعادٍ وثمودَ يأخذ جميعَ القرى الظالمة.

وقرأ عاصمٌ الجحدريُّ وطلحة بنُ مصرِّف: «وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذْ أَخَذَ الْقُرَى»[٣]. وعن الجحدريِّ أيضاً: «وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ» كالجماعة «إِذْ أَخَذَ القُرَى»[٤].

قال المهدويّ: من قرأ: «وكذلك أَخَذَ ربُّك إِذْ أَخَذَ» فهو إخبارٌ عما جَرَتْ[٥] به العادةُ في إهلاك مَن تقدَّم من الأمم، والمعنى: وكذلك أَخَذَ ربُّك مَن أخذه من الأمم[٦] المُهلَكة إذْ أخذهم.

وقراءة الجماعة على أنه مصدر، والمعنى: كذلك أَخْذُ ربِّك مَن أراد إهلاكَه متى أخذه، فـ«إذْ» لِما مضَى، أي: حين أَخَذَ القرى، و«إذا» للمستقبل.

﴿وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ أي: وأهلُها ظالمون، فحذف المضاف، مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢][٧].

---

(١) لم نقف عليه في المطبوع من ديوان لبيد، والكلام في النكت والعيون ٢/ ٥٠٣ ، وقد ذكر البيت الزجاجي في أماليه ص١٢٧ ضمن قصيدة لِنُويفع بن نُفيع الفقعسي، ولفظه:

قالت: كَبِرتَ، وكل صاحب لذَّة لِبِلًى يعود وذلك التتبيب

(٢) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠١ .

(٣) تفسير الطبري ١٢/ ٥٧٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠١ عن عاصم الجحدري. والمحرر الوجيز ٣/ ٢٠٦ عن أبي رجاء العطاردي والجحدري، وفيه: إذا، بدل: إذ.

(٤) من قوله: وعن الجحدري إلى هذا الموضع ليس في (ظ).

(٥) في (م): جاءت.

(٦) من قوله: والمعنى إلى هذا الموضع ليس في (ظ).

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠١ .

﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ أي: عقوبته لأهل الشرك مُوجِعةٌ غليظة.

وفي «صحيح» مسلم والترمذيِّ[1] من حديث أبي موسى: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله تعالى يُملي للظالم، حتى إذا أَخَذَه لم يُفْلِتْهُ»، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾ الآية. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح غريب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً﴾ أي: لَعبرةً وموعظة. ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْأَخِرَةِۚ﴾. ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ﴾، ابتداءٌ وخبر. ﴿مَّجْمُوعٌ﴾ مِن نعته، ﴿لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ اسم ما لم يُسمَّ فاعله، ولهذا لم يقل: مجموعون؛ فإن قدَّرت ارتفاعَ «الناس» بالابتداء، والخبر «مجموعٌ له»، فإنما لم يقل: مجموعون، على هذا التقدير؛ لأن «له» يقوم مقامَ الفاعل[2]. والجمع: الحشر، أي: يحشرون لذلك اليوم. ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أي: يشهده البَرُّ والفاجر، ويشهده أهلُ السماء. وقد ذكرنا هذين الاسمين مع غيرهما من أسماء القيامة في كتاب «التذكرة»[3] وبيَّنَّاهما، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ أي: ما نؤخِّر ذلك اليوم. ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أي: لأجَلٍ سبقَ به قضاؤنا، وهو معدودٌ عندنا. ﴿يَوْمَ يأتي﴾، وقرئ: ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾؛ لأن الياء تُحذف إذا كان قبلَها كسرة، تقول: لا أدرِ، ذكره القشيري.

قال النحاس[4]: قرأه أهلُ المدينة وأبو عمرٍو والكسائيُّ بإثبات الياء في الإدراج، وحذفِها في الوقف، ورُوي أنَّ أُبيًّا وابنَ مسعود قرأا: «يومَ يأتِي» بالياء في الوقف والوصل[5]. وقرأ الأعمش وحمزة: «يَوْمَ يَأْتِ» بغير ياءٍ في الوقف والوصل[6].

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٨٣)، وسنن الترمذي (٣١١٠)، وهو عند البخاري (٤٦٨٦).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠١ .

(٣) ص٢٢٠ و ٢٢٩ .

(٤) في إعراب القرآن ٢/ ٣٠١ - ٣٠٢ .

(٥) وهي قراءة ابن كثير ويعقوب . السبعة ص٣٣٨ - ٣٣٩ ، والتيسير ص١٢٧ ، والنشر ٢/ ٢٩٢ .

(٦) قراءة حمزة في السبعة ص٣٣٩ ، ووافقه ابن عامر وعاصم.

قال أبو جعفر النحاس[(١)]: الوجه في هذا ألَّا يوقفَ عليه، وأن يُوصل بالياء، لأن جماعةً من النحويين قالوا: لا تحذف الياء، ولا يجزم الشيءُ بغير جازم، فأما الوقفُ بغير ياءٍ ففيه قولٌ للكسائيّ، قال: لأنَّ الفعلَ السالمَ يُوقَفُ عليه كالمجزوم، فحذف الياء، كما تحذف الضمة. وأما قراءةُ حمزة فقد احتجَّ أبو عُبيد لحذف الياء في الوصل والوقف بحجَّتين: إحداهما: أنه زَعم أنه رآه في الإمام الذي يقال له إنه مصحف عثمانَ ﷺ بغير ياء. والحجَّة الأخرى: أنه حكى أنها لغةُ هُذَيل، تقول: ما أدرِ.

قال النحَّاس[(٢)]: أما حُجَّته بمصحف عثمان ﷺ فشيءٌ يردُّه عليه أكثرُ العلماء، قال مالك بن أنس رحمه الله: سألتُ عن مصحف عثمان ﷺ فقيل لي: ذَهَب. وأما حُجَّته بقولهم: «ما أدرِ» فلا حُجَّة فيه؛ لأن هذا الحرفَ[(٣)] قد حكاه النحويُّون القدماء، وذكروا عِلَّته، وأنه لا يُقاس عليه. وأنشد الفراء في حذف الياء:

كَـفَّـاكَ كَـفٌّ مـا تُـلِـيـقُ دِرهـمـاً جُوداً وأخرى تُعْطِ بالسيفِ الدَّمَا[(٤)]

أي: تعطي. وقد حكى سيبويه والخليلُ أنّ العرب تقول: لا أدرِ، فتحذف الياءَ وتجتزئ بالكسر، إلا أنهم يزعُمون أنَّ ذلك لِكَثْرة الاستعمال. قال الزجَّاج[(٥)]: والأجود في النحو إثباتُ الياء، قال: والذي أراه اتِّباعُ المصحف وإجماعِ القرَّاء؛ لأن القراءة سُنَّة، وقد جاء مثلُه في كلام العرب.

﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ الأصل: تتكلم، حُذفت إحدى التاءين تخفيفاً[(٦)].

---

(١) في إعراب القرآن ٢/ ٣٠٢.

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٣٠٢، وما قبله منه.

(٣) في (د) و(م): الحذف، والمثبت من (ز) و(ظ) و(ف)، وهو الموافق لإعراب القرآن.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٧، والأضداد للأنباري ص٢٦٤، ودرة الغواص للحريري ص١٦٥. وقوله: ما تُليق درهماً، أي: ما تحبسه ولا تلصَق به. اللسان (ليق).

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٧٧، وما قبله منه.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٢.

وفيه إضمار، أي: لا تتكلَّم فيه نفسٌ إلَّا بالمأذون فيه مِن حسن الكلام؛ لأنهم مُلجَؤون إلى ترك القبيح. وقيل: المعنى: لا تكلَّمُ بحجَّة ولا شفاعةٍ إلا بإذنه. وقيل: إنَّ لهم في الموقف وقتاً يُمنَعون فيه من الكلام إلا بإذنه[١].

وهذه الآية أكثرُ ما يَسأل عنها أهلُ الإلحاد في الدِّين. فيقول: لمَ قال: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ و﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥]. وقال في موضعٍ مِن ذكر القيامة: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ [القلم: ٣٠]. وقال: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١]. وقال: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]. وقال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾[٢] [الرحمن: ٣٩].

والجواب ما ذكرناه، وأنهم لا ينطِقون بحجَّة تجب لهم، وإنما يتكلَّمون بالإقرار بذنوبهم، ولَوْمِ بعضِهم بعضاً، وطرحِ بعضِهم الذنوبَ على بعض، فأما التكلُّم والنُّطق بحجة لهم فلا، وهذا كما تقول للذي يُخاطبك كثيراً وخطابُه فارغٌ عن الحجة: ما تكلَّمتَ بشيء، وما نطقتَ بشيء، فسُمِّيَ مَن يتكلم بلا حُجَّة فيه له غيرَ متكلِّم. وقال قوم: ذلك اليوم طويل، وله مواطنُ ومواقفُ، في بعضها يُمنعون من الكلام، وفي بعضها يُطلق لهم الكلام، فهذا يدلُّ على أنه لا تتكلَّم نفسٌ إلَّا بإذنه[٣].

﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ أي: من الأنفس، أو من الناس، وقد ذَكَرَهم في قوله: ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾. والشقيُّ الذي كُتبت عليه الشَّقاوة، والسَّعيد الذي كتبت عليه السَّعادة، قال لَبيد[٤]:

فمنهمْ سعيدٌ آخذٌ بنصيبهِ ومنهم شَقيٌّ بالمعيشةِ قانعُ

وروى الترمذيُّ[٥] عن ابن عمر، عن عمر بنِ الخطاب قال: لمَّا نزلت هذه الآية

(١) النكت والعيون ٢/ ٥٠٣.
(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٧٧ - ٧٨.
(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٧٨ - ٧٩.
(٤) ديوانه ص١٧٠.
(٥) في سننه (٣١١١)، وهو عند أحمد (١٩٦).

﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ﴾ سألتُ رسول الله ﷺ، فقلت: يا نبيَّ الله، فعلامَ نعمل؟ على شيءٍ قد فُرِغَ منه، أو على شيءٍ لم يُفرَغ منه؟ فقال: «بَلْ على شيءٍ قد فُرِغَ منه، وجرَتْ به الأقلامُ يا عُمر، ولكن كلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ له». قال: هذا حديثٌ حسن غريب من هذا الوجه، لا نعرِفه إلا من حديث عبد الله بن عمر، وقد تقدَّم في «الأعراف»[1].

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ ابتداء. ﴿فَفِي ٱلنَّارِ﴾ في موضع الخبر، وكذا ﴿لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ﴾ قال أبو العالية: الزفير من الصدر، والشهيق من الحلق[2]، وعنه أيضاً ضدُّ ذلك[3]. وقال الزجَّاج[4]: الزَّفير من شدَّة الأنين، والشَّهيق من الأنين المرتفع جدًّا، قال: وزعَم أهلُ اللغة من الكوفيين والبصريين أنَّ الزفير بمنزلة ابتداءِ صوت الحمير في النَّهيق، والشَّهيقَ بمنزلة آخِرِ صوت الحمار في النَّهيق. وقال ابن عباس ﷺ عكسَه؛ قال: الزفير: الصوتُ الشديد، والشَّهيق: الصوت الضعيف[5]. وقال الضحَّاك ومقاتل: الزفير مثلُ أوَّلِ نهيق الحمار، والشهيقُ مثلُ آخرِه حين فرغ من صوته[6]، قال الشاعر:

حَشرَجَ في الجوف سَحِيلاً أو شَهَقْ حتى يُقالَ ناهقٌ وما نَهَقْ[7]

وقيل: الزَّفير: إخراج النَّفَس، وهو أن يمتلئَ الجوفُ غمًّا فيخرج بالنَّفَس، والشَّهيق: ردُّ النَّفَس[8].

---

(١) ٩/ ٣٧٦.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٣، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٠٧.

(٣) أخرجه الطبري ١٢/ ٥٧٧.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٧٩، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٣.

(٥) أخرجه الطبري ١٢/ ٥٧٧.

(٦) تفسير البغوي ٢/ ٤٠٢.

(٧) الرجز لرؤبة بن العجاج، وهو في ديوانه ص١٠٦، والسحيل: الصوت الذي يدور في صدر الحمار. اللسان (سحل).

(٨) ينظر تهذيب اللغة ١٣/ ١٩٣.

وقيل: الزَّفير ترديد النَّفَس من شدَّة الحزن، مأخوذٌ من الزَّفْر، وهو الحَمْل على الظهر لشِدَّته. والشهيق: النفَس الطويل المُمتدّ، مأخوذٌ من قولهم: جبلٌ شاهق، أي: طويل[١]. والزفير والشهيق من أصوات المحزونين[٢].

قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ «ما دامَتِ» في موضع نصبٍ على الظرف، أي: دوامَ السماوات والأرض، والتقدير: وقتَ ذلك[٣].

واختُلف في تأويل هذا، فقالت طائفةٌ؛ منهم الضحَّاك: المعنى: ما دامت سماواتُ الجنة والنار وأرضُهما، والسماءُ كلُّ ما علاكَ فأظلَّك، والأرضُ ما استقرَّ عليه قدمُك[٤]، وفي التنزيل: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر: ٧٤].

وقيل: أراد به السماءَ والأرض المعهودتين في الدنيا، وأجرى ذلك على عادة العرب في الإخبار عن دوام الشيءِ وتأبيدِه، كقولهم: لا آتيك ما جَنَّ ليلٌ، أو سال سيلٌ، وما اختلف الليلُ والنهار، وما ناح الحمام، وما دامت السماواتُ والأرض، ونحوِ هذا مما يريدون به طولاً من غير نهاية، فأفهمهم اللهُ تخليدَ الكَفَرة بذلك، وإنْ كان قد أَخبر بزوال السماوات والأرض[٥].

وعن ابن عباس: أنَّ جميع الأشياء المخلوقةِ أصلُها من نور العرش، وأنَّ السماواتِ والأرضَ في الآخرة تُردَّان إلى النور الذي أُخذتا منه، فهما دائمتان أبداً في نور العرش[٦].

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ في موضع نصب، لأنه استثناءٌ ليس من

(١) النكت والعيون ٢/ ٥٠٤ .
(٢) تهذيب اللغة ٥/ ٣٨٩ .
(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٣ .
(٤) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٩١ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤٠٢ .
(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٢٠٨ .
(٦) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٠٨ بنحوه مختصراً.

الأوَّل[١]، وقد اختلف فيه على أقوال عشرة:

الأول: أنه استثناءٌ من قوله: ﴿فَفِي ٱلنَّارِ﴾ كأنه قال: إلَّا ما شاء ربُّك مِن تأخير قومٍ عن ذلك. وهذا قولٌ رواه أبو نَضْرة عن أبي سعيد الخُدْريِّ أو جابرٍ[٢] رضي الله عنهما[٣]. وإنما لم يقل: مَن شاء؛ لأنَّ المرادَ العددُ لا الأشخاص، كقوله: ﴿مَا طَابَ لَكُم﴾ [النساء:٣]. وعن أبي نَضْرة، عن رسول الله ﷺ: «إلَّا من شاء ألَّا يُدخلَهم وإن شَقُوا بالمعصية»[٤].

الثاني: أنَّ الاستثناء إنما هو للعصاة من المؤمنين في إخراجهم بعد مدَّةٍ من النار، وعلى هذا يكون قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟﴾ عامًّا في الكَفَرة والعصاة، ويكون الاستثناءُ من «خَالِدِينَ»؛ قاله قتادة والضَّحَّاك وأبو سِنان وغيرُهم[٥].

وفي الصحيح من حديث أنس بنِ مالك قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يَدخلُ ناسٌ جهنمَ، حتى إذا صاروا كالحُمَمَة؛ أُخرجوا منها ودخلوا الجنة، فيقال: هؤلاء الجَهنَّميُّون»[٦] وقد تقدَّم هذا المعنى في «النساء»[٧] وغيرها.

الثالث: أنَّ الاستثناء من الزَّفير والشَّهيق، أي: لهم فيها زفيرٌ وشهيق إلَّا ما شاء ربُّك من أنواع العذاب الذي لم يذكره، وكذلك لأهل الجنة من النعيم، ما ذكر وما لم يذكر. حكاه ابنُ الأنباري[٨].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٣.

(٢) في النسخ: وجابر، والمثبت من مصادر التخريج.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣١٣، والطبري ١٢/ ٥٨١، وأبو نضرة: هو المنذر بن مالك.

(٤) كذا ذكره الماوردي هكذا في النكت والعيون ٢/ ٥٠٥ مرسلاً.

(٥) أخرجه الطبري ١٢/ ٥٧٩ - ٥٨١، وينظر المحرر الوجيز ٣/ ٢٠٨ وأبو سنان: هو ضرار بن مرة الشيباني.

(٦) أخرجه بنحوه أحمد (١٢٢٥٨)، والبخاري (٦٥٥٩). والحُمَمَة: الفحمة. النهاية (حمم).

(٧) ٧/ ٤٠ وما بعدها.

(٨) النكت والعيون ٢/ ٥٠٥ - ٥٠٦، وهو قول الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٨٠.

الرابع: قال ابن مسعود: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾: لا يموتون فيها، ولا يُخرجون منها ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ وهو أن يأمرَ النارَ فتأكلُهم وتُفنيهم، ثم يُجدّد خلقهم[١].

قلت: وهذا القول خاصٌّ بالكافر والاستثناء له في الأكل وتجديدِ الخَلْق.

الخامس: أنَّ «إلا» بمعنى «سوى»، كما تقول في الكلام: ما معي رجلٌ إلَّا زيد، ولي عليك ألفا درهمٍ إلا الألفَ التي لي عليك[٢].

قيل: فالمعنى: ما دامت السماواتُ والأرض سوى ما شاء ربُّك من الخلود.

السادس: أنه استثناءٌ من الإخراج، وهو لا يريد أن يُخرجَهم منها. كما تقول في الكلام: أردت أن أفعلَ ذلك إلَّا أن أشاءَ غيرَه، وأنت مقيمٌ على ذلك الفعل، فالمعنى أنه لو شاء أن يُخرجَهم لأخرجهم، ولكنه قد أعلمهم أنهم خالدون فيها. ذَكَر هذين القولين الزَّجاجُ[٣] عن أهل اللغة، قال: ولأهل المعاني قولان آخران:

فأحد القولين: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ مِن مقدار موقفهم على رأس قبورهم، وللمحاسبة، وقدرِ مُكْثهم في الدنيا، والبرزخِ، والوقوف للحساب.

والقول الآخر: وقوع الاستثناء في الزيادة على النعيم والعذاب، وتقديره: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ من زيادة النعيم لأهل النعيم، وزيادةِ العذاب لأهل الجحيم[٤].

قلت: فالاستثناء في الزيادة من الخلود على مُدَّة كون السماءِ والأرض

---

(١) زاد المسير ٤/ ١٦٠.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٠٨.

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٧٩ - ٨٠.

(٤) هذا القول ليس في معاني الزجاج، والقول الآخر الذي ذكره الزجاج هو القول الثالث الذي ذكره المصنف آنفاً.

المعهودتين في الدنيا، واختاره الترمذيُّ الحكيم أبو عبد الله محمد بنُ علي[١]، أي: خالدين فيها مقدارَ دوامِ السماوات والأرض، وذلك مدَّة العالَم، وللسماء والأرض وقتٌ يتغيَّران فيه، وهو قولُ سبحانه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم:٤٨]، فخلق اللهُ سبحانه الآدميِّين وعامَلَهم، واشترى منهم أنفسَهم وأموالهم بالجنة، وعلى ذلك بايَعهم يومَ الميثاق، فمن وفَى بذلك العهدِ فله الجنة، ومن ذهب برقبته يُخلَّد في النار بمقدار دوامِ السماوات والأرض، فإنما دامتا للمعاملة، وكذلك أهلُ الجنة؛ خلودٌ في الجنة بمقدار ذلك، فإذا تمَّت هذه المعاملةُ، وقع الجميع في مشيئة الله، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان:٣٨]، فيخلَّد أهلُ الدارين بمقدار دوامهما، وهو حقُّ الرُّبوبية بذلك المقدارِ من العَظَمة، ثم أوجب لهم الأبد في كلتا الدارين؛ لحقِّ الأَحَديَّة، فمن لَقِيه مُوحِّداً لأحدِيَّته، بقي في داره أبداً، ومَن لَقِيَه مُشركاً بأحديَّته إلهاً، بقي في السِّجن أبداً، فأعلمَ اللهُ العبادَ مقدارَ الخلود، ثم قال: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ مِن زيادة المدَّة التي تعجِزُ القلوبُ عن إدراكها؛ لأنه لا غايةَ لها؛ فبالاعتقاد دام خلودُهم في الدارين أبداً.

وقد قيل: إنَّ «إلا» بمعنى الواو، قاله الفرَّاء[٢] وبعضُ أهل النظر. وهو الثامن[٣]، والمعنى: وما شاء ربُّك من الزيادة في الخلود على مدَّة دوامِ السماوات والأرض في الدنيا. وقد قيل في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [العنكبوت:٤٦] أي: ولا الذين ظلموا. وقال الشاعر:

وكلُّ أخٍ مُفارِقُه أخوه ... لعَمرُ أبيكَ إلا الفَرْقَدانِ[٤]

أي: والفرقدان. وقال أبو محمد مكِّيّ: وهذا قولٌ بعيد عند البصريين أن تكونَ

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٢٨.

(٣) لم يذكر المصنف السابع.

(٤) سلف ص٥٤ من هذا الجزء.

«إلا» بمعنى الواو، وقد مضى في «البقرة» بيانُه[١].

وقيل: معناه: كما شاء ربُّك، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء:٢٢] أي: كما قد سلف، وهو التاسع[٢].

العاشر: وهو أنَّ قوله تعالى: «إِلَّا ما شاء ربُّكَ» إنما ذلك على طريق الاستثناء الذي ندب الشرعُ إلى استعماله في كل كلام، فهو على حدِّ قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح:٢٧] فهو استثناءٌ في واجب، وهذا الاستثناء في حكم الشرط كذلك، كأنه قال: إن شاء ربُّك، فليس يوصف بمتَّصلٍ ولا منقطع، ويُؤيِّده ويقوِّيه قولُه تعالى: «عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ»[٣]، ونحوه عن أبي عُبيد قال: تقدَّمت عزيمةُ المشيئة من الله تعالى في خلود الفريقَين في الدارين، فوقع لفظ الاستثناء، والعزيمة قد تقدَّمت في الخلود، قال: وهذا مثلُ قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ وقد علم أنهم يدخلونه حتماً، فلم يوجب الاستثناءُ في الموضعين خياراً، إذ المشيئة قد تقدَّمت بالعزيمة في الخلود في الدارين والدخولِ في المسجد الحرام، ونحوُه عن الفرَّاء[٤].

وقولٌ حادي عشر: وهو أنَّ الأشقياء هم السُّعداء، والسعداء هم الأشقياء لا غيرهم، والاستثناء في الموضعين راجعٌ إليهم، وبيانه: أنَّ «ما» بمعنى «مَن» استثنى اللهُ عزَّ وجلَّ من الداخلين في النار المخلَّدين فيها الذين يخرجون منها من أمة محمدٍ ﷺ بما معهم من الإيمان، واستثنى من الداخلين في الجنة المخلَّدين فيها الذين يدخلون النارَ بذنوبهم قبل دخول الجنة، ثم يخرجون منها إلى الجنة، وهم الذين وقع عليهم الاستثناء الثاني، كأنه قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ

---

(١) ٢/ ٤٥٥ - ٤٥٦.

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ١٦١ ونسبه للثعلبي.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٢٠٨.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٢٨.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ ألَّا يُخلِّدَه فيها، وهم الخارجون منها من أمة محمدٍ ﷺ بإيمانهم وبشفاعة محمدٍ ﷺ، فهم بدخولهم النارَ يُسمَّون الأشقياء، وبدخولهم الجنةَ يُسمَّون السُّعداء، كما روى الضَّحَّاك عن ابن عباس إذ قال: الذين سُعِدوا شَقُوا بدخول النار، ثم سُعِدوا بالخروج منها ودخولِهم الجنةَ(١).

وقرأ الأعمش وحفصٌ وحمزة والكِسائي: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا﴾ بضمِّ السين. وقال أبو عمرو: والدليل على أنه سَعِدوا أنَّ الأول شَقُوا، ولم يقل أُشقوا. قال النحاس(٢): ورأيت عليَّ بنَ سليمان يتعجب من قراءة الكسائي: «سُعِدوا» مع علمه بالعربية! إذ كان هذا لحناً لا يجوز؛ لأنه إنما يقال: سَعِد فلانٌ وأسعده الله، وأُسعد مثل أُمرِض، وإنما احتجَّ الكسائيُّ بقولهم: مسعود، ولا حجَّة له فيه؛ لأنه يقال: مكان مسعودٌ فيه، ثم يُحذف فيه ويسمَّى به.

قال المهدوي: ومَن ضمَّ السين مِن «سُعدوا» فهو محمولٌ على قولهم: مسعود، وهو شاذٌّ قليل؛ لأنه لا يقال: سعده الله، إنما يقال: أسعده الله(٣). وقال الثعلبي: «سُعِدوا» بضم السين، أي: رُزقوا السَّعادة، يقال: سُعِد وأُسعِد بمعنى واحد.

وقرأ الباقون: «سَعِدوا» بفتح السين قياساً على «شَقُوا» واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم. وقال الجوهري(٤): والسعادة خلافُ الشَّقاوة، تقول: سَعِد الرجلُ ـ بالكسر ـ فهو سعيد، مثل: سَلِم فهو سليم، وسُعِد فهو مسعود، ولا يقال فيه: مُسْعَد، كأنهم استغنَوا عنه بمسعود. وقال القشيريُّ أبو نصر عبدُ الرحيم: وقد ورد: سَعَده اللهُ فهو مسعود، وأَسعده اللهُ مُسْعَد، فهذا يقوِّي قولَ الكوفيين. وقال سيبويه: لا يقال: سُعِد

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٥٠٥ بنحوه.

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٣٠٣ ، وما قبله منه. وقراءة حفص وحمزة والكسائي في السبعة ص٣٣٩ ، والتيسير ص١٢٦ .

(٣) ينظر مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٧٤ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٠٩ .

(٤) في الصحاح (سعد).

فلانٌ، كما لا يقال: شُقي فلان؛ لأنه مما لا يتعدّى[١].

﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي: غيرَ مقطوع، مِن جَذَّه يَجُذُّه، أي: قطعه، قال النابغة:

تَجُذُّ السَّلُوقِيَّ المضاعَفَ نَسْجُهُ وتُوقِدُ بالصُّفَّاح نارَ الحُبَاحِبِ[٢]

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ﴾ جزم بالنهي، وحذفت النونُ لكثرة الاستعمال. ﴿فِي مِرْيَةٍ﴾ أي: في شكّ. ﴿مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مِن الآلهة أنها باطل. وأحسنُ مِن هذا: أي: قل يا محمد لكلِّ مَن شكَّ: «لا تَكُ في مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هؤلاءِ» إنَّ الله عزَّ وجلَّ ما أمرهم به، وإنما يعبدونها كما كان آباؤهم يفعلون؛ تقليداً لهم[٣].

﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ فيه ثلاثةُ أقوال:

أحدها: نصيبهم من الرِّزق؛ قاله أبو العالية[٤].

الثاني: نصيبهم من العذاب؛ قاله ابن زيد.

الثالث: ما وُعِدوا به من خيرٍ أو شرٍّ؛ قاله ابن عباس رضي الله عنهما[٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ الكلمة: أنَّ الله عزَّ وجلَّ حكم

---

(١) ينظر الحجة للقراء السبعة ٤/ ٣٧٨.

(٢) ديوان النابغة الذبياني ص١١، وفيه: تقدّ، بدل: تَجُذُّ، وسيرد ص٣١٩ من هذا الجزء. قوله: السلوقي؛ نسبةٌ إلى سَلُوق؛ قرية باليمن تنسب إليها الدروع والكلاب. والصُّفَّاح: حجارة عِراض رِقاق. والحُباحب: ذبابٌ يطير بالليل له شعاع كالسراج، ومنه: نار الحُباحب، أو هي ما اقتدح من شرر النار في الهواء من تصادم الحجارة. القاموس (سلق) (صفح) (حبب). ويصف النابغة في هذا البيت السيوف أنها تقدُّ الدروعَ التي ضوعف نسجُها والفارس والفرس حتى تبلغ الأرض، فتنقدح النار بها من الحجارة. الشعر والشعراء ١/ ١٧٠.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٤.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٢٥٠) ٦/ ٢٠٨٩.

(٥) أخرج هذا القول والذي قبله الطبري ١٢/ ٥٩١ - ٥٩٢.

أنْ يؤخِّرَهم إلى يوم القيامة لِمَا عَلِمَ في ذلك من الصلاح، ولولا ذلك لَقَضى بينهم أجلَهم بأن يُثيبَ المؤمن ويُعاقبَ الكافر(١). قيل: المراد بين المختلِفين في كتاب موسى، فإنهم كانوا بين مُصَدِّقٍ به ومُكَذِّب. وقيل: بين هؤلاء المختلفين فيك يا محمدُ بتعجيل العقاب، ولكنْ سبق الحكمُ بتأخير العقاب عن هذه الأمَّة إلى يوم القيامة(٢). ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ إن حُملت على قوم موسى، أي: لفي شكٍّ من كتاب موسى، فهم في شكٍّ من القرآن.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: إنَّ كلًّا من الأُمم التي عَدَدْناهم يَرون جزاءَ أعمالهم، فكذلك قومُك يا محمد.

واختلف القرَّاء في قراءة ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا﴾ فقرأ أهل الحرمين؛ نافعٌ وابنُ كثير وأبو بكر معهم: «وَإِنْ كُلًّا» بالتخفيف(٣)، على أنها «إنْ» المخفَّفةُ من الثقيلة مُعْمَلةً، وقد ذكر هذا الخليلُ وسيبويه(٤)، قال سيبويه(٥): حدَّثنا من أثق به أنه سمع العرب تقول: إن زيداً لَمنطلقٌ، وأنشد قولَ الشاعر:

كأنْ ظَبْيَةً تَعْطُو إلى وَارِقِ السَّلَمْ(٦)

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٤ .

(٢) ينظر تفسير الطبري ١٢/ ٥٩٢ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢١٠ .

(٣) السبعة ص٣٣٩ ، والتيسير ص١٢٦ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٥ .

(٥) الكتاب ٢/ ١٤٠ .

(٦) هذا عجز بيت، وصدره: ويوماً تُوافينا بوجهٍ مُقسَّمٍ. وقد اختُلف في قائله، فنسبه سيبويه في الكتاب ٢/ ١٣٤ لابن صَريم اليَشكري، ونسبه الأصمعي في الأصمعيات ص١٧٥ ، والأخفش الأصغر علي بن سليمان في الاختيارين ص٢٠٥ لِعِلباء بن أرقم اليشكري. وقد نُسب لغيرهما. ينظر شرح أبيات المغني للبغدادي ١/ ١٥٩ - ١٦٠ . تعطو، أي: تتناول أوراق الشجر مُرتعية. والوارق: المُورق. والسَّلَم: شجر بعينه. تحصيل عين الذهب ص٢٨٥ .

أراد: كأنها ظبية، فخفَّف ونصب ما بعدها، والبصريون يُجوِّزون تخفيفَ «إنّ» المشدَّدةِ مع إعمالها، وأنكر ذلك الكسائيُّ وقال: ما أدري على أيِّ شيءٍ قرئ: ﴿وَإِنْ كُلًّا﴾! وزعم الفراء أنه نُصب «كلًّا» في قراءة مَن خفَّف بقوله: «لَيُوفينَّهم» أي: وإن لَيوفينَّهم كلًّا، وأنكر ذلك جميعُ النحويين، وقالوا: هذا من كبير الغَلَط، لا يجوز عند أحد: زيداً لَأضربنَّه[1].

وشدَّد الباقون «إنَّ» ونصبوا بها «كلًّا» على أصلها.

وقرأ عاصمٌ وحمزةُ وابن عامر: ﴿لَّمَّا﴾ بالتشديد. وخفَّفها الباقون[2] على معنى: وإن كلًّا لَيوفينَّهم، جعلوا «ما» صلة. وقيل: دخلت لِتَفصِلَ بين اللامين اللتين تتلقَّيان القَسَم، وكلاهما مفتوح، ففصل بينهما بـ «ما»[3].

وقال الزجاج: لام «لمَا» لام «إنَّ» و«ما» زائدة مؤكِّدة[4]، تقول: إنَّ زيداً لمنطلق، فإنَّ تقتضي أن يدخلَ على خبرها أو اسمها لامٌ كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨] وقولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ [الزمر: ٢١]. واللام في «لَيوفِّينَّهم» هي التي يُتَلقَّى بها القسم، وتدخل على الفعل، ويلزمها النون المُشدَّدةُ أو المُخفَّفة، ولمَّا اجتمعت اللامان فصل بينهما بـ «ما»، و«ما» زائدة مؤكِّدة[5].

وقال الفرَّاء[6]: «ما» بمعنى «مَن»، كقوله: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ [النساء: ٧٢]، أي: وإنّ كلًّا لَمَن لَيوفِينهم، واللام في «لَيوفِّنَّهم» للقسم. وهذا يرجع معناه إلى قول

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٥ . وكلام الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٩ - ٣٠ وقال فيه: وهو وجهٌ لا أشتهيه.

(٢) السبعة ص٣٣٩ ، والتيسير ص١٢٦ .

(٣) مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٧٤ - ٣٧٥ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٨١ .

(٥) ينظر الحجة للقراء السبعة ٤/ ٣٨٥ .

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٢٨ - ٢٩ .

الزجَّاج، غير أنَّ «ما» عند الزجاج زائدة، وعند الفراء اسمٌ بمعنى «من».

وقيل: ليست بزائدة، بل هي اسمٌ دخل عليها لامُ التأكيد، وهي خبر «إن»، و«ليوفينهم» جوابُ القسم، التقدير: وإنَّ كلًّا خَلْقٌ ليوفينهم ربُّك أعمالهم[١].

وقيل: «ما» بمعنى «مَن» كقوله: ﴿فَأَنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣] أي: مَنْ، وهذا كلُّه هو قولُ الفراءِ بعينه.

وأما مَن شدَّد «لمّا» وقرأ: «وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا» بالتشديد فيهما ـ وهو حمزةُ ومَن وافقه ـ فقيل: إنه لحنٌ، حُكي عن محمد بنِ يزيد أنَّ هذا لا يجوز، ولا يقال: إنَّ زيداً إلَّا لأضرِبَنَّه، ولا لَمَّا لأضربنَّه[٢] وقال الكِسائي: اللهُ أعلمُ بهذه القراءة، وما أعرف لها وجهاً. وقال هو وأبو عليٍّ الفارسي[٣]: التشديد فيهما مُشكِل.

قال النحاس[٤] وغيره: وللنحويين في ذلك أقوال:

الأول: أنَّ أصلها «لَمَن ما» فقلبت النون ميماً، واجتمعت ثلاثُ ميمات، فحذفت الوسطى، فصارت «لمَّا». و«ما» على هذا القولِ بمعنى «مَن» تقديره: وإن كلًّا لَمَن الذين، كقولهم:

وإنِّي لَمِمَّا[٥] أُصْدِرُ الأمرَ وجهَهُ إذا هو أَعيا بالسَّبيل مصادرُه

وزيَّف الزجاج[٦] هذا القول، وقال: «مَن» اسمٌ على حرفين، فلا يجوز حذفه.

---

(١) الكشف عن وجوه القراءات السبع ١/ ٥٣٧ .

(٢) في (ز) و(ظ): ضربته، وفي (م): لضربته، والمثبت موافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٥ والكلام منه.

(٣) الحجة للقراء السبعة ٤/ ٣٨٧ .

(٤) في إعراب القرآن ٢/ ٣٠٦ .

(٥) في (د) و(ظ) و(م): لما، والمثبت من (ز) و(ف) وهو موافق لما في معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٩ ، وتفسير الطبري ١٢/ ٥٩٣ ، وهو شاهد على حذف ميم عند توالي الميمات لا على أن «ما» بمعنى «مَن» لأن «لمما» التي في البيت أصلها: لَمِنْ ما، مِن حرف جر. وينظر تعليق الشيخ محمود شاكر رحمه الله على هذا البيت في تفسير الطبري (طبعته) ١٥/ ٤٩٤ .

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٨١ .

الثاني: أنَّ الأصل: لَمِن ما، فحذفت الميمُ المكسورة لاجتماع الميمات، والتقدير: وإنَّ كُلًّا لَمِنْ خَلْقٍ لَيوفينهم(١).

وقيل: «لمًّا» مصدر «لَمَّ» وجاءت بغير تنوين حملاً للوصل على الوقف(٢)، فهي على هذا كقوله: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ [الفجر:١٩] أي: جامعاً للمال المأكول، فالتقدير على هذا: وإن كلًّا ليوفينهم ربُّك أعمالهم توفيةً لمًّا، أي: جامعةً لأعمالهم جمعاً، فهو كقولك: قياماً لأقومنَّ.

وقد قرأ الزُّهري: «لَمًّا» بالتشديد والتنوينِ على هذا المعنى(٣).

الثالث: أنَّ «لمَّا» بمعنى «إلَّا»؛ حكى أهلُ اللغة: سألتك بالله لمَّا فعلت، بمعنى: إلَّا فعلت، ومثلُه قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق:٤] أي: إلَّا عليها، فمعنى الآية: ما كلٌّ واحدٍ منهم إلَّا لَيوفينهم.

قال القُشيريّ: وزيَّف الزجاجُ هذا القولَ بأنه لا نفيَ لقوله: «وإنْ كلًّا لما» حتى تقدَّرَ «إلَّا» ولا يقال: ذهب الناسُ لمَّا زيد(٤).

الرابع: قال أبو عثمان المازني: الأصل: وإن كلًّا لَمَا بتخفيف «لَمَّا» ثم ثُقِّلت كقوله:

لقد خَشِيتُ أنْ أرى جِدَبَّا ... في عامنا ذا بعد ما أخصَبَّا(٥)

وقال أبو إسحاق الزجَّاج(٦): هذا خطأ، إنما يُخفَّف المثقَّل، ولا يُثقَّل المُخفَّف.

---

(١) ذكره الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٩ ، واستشهد له بالبيت السالف.

(٢) ذكره مكي في الكشف عن وجوه القراءات ١/ ٥٣٧ ، وقال: وهو قول ضعيف في الإعراب.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٥ ، والقراءات الشاذة ص٦١ ، والمحتسب ١/ ٣٢٨ .

(٤) هذا القول لم يُزيِّفه الزجاج كما نقل المصنف عن القشيري، بل قال الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٨١-٨٢ : لا يجوز غيره عندي، وسيأتي قريباً، والذي ضعَّف هذا القول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٩ فقال: وأما من جعل «لما» بمنزلة «إلا» فإنه وجه لا نعرفه.

(٥) الرجز لرؤبة، وهو في ديوانه ص١٦٩ .

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٨١ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٠٦ .

الخامس: قال أبو عُبيد القاسمُ بنُ سلَّام: يجوز أن يكون التشديدُ من قولهم: لَمَمْتُ الشيءَ أَلُمُّه لَمًّا: إذا جمعته، ثم بنَى منه فَعْلَى، كما قُرئ: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون: ٤٤] بغير تنوينٍ وبتنوين. فالألف على هذا للتأنيث، وتُمال على هذا القولِ لأصحاب الإمالة.

قال أبو إسحاق[١]: القول الذي لا يجوز غيرُه عندي أنَّ «إن» تكون مُخفَّفةً من الثقيلة، وتكون بمعنى «ما»، مثل: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾، وكذا أيضاً تُشدَّد على أصلها، وتكون بمعنى «ما»، و«لمَّا» بمعنى «إلا»، حكى ذلك الخليلُ وسيبويه وجميع البصريين، وأنَّ «لمَّا» يُستعمل بمعنى «إلا».

قلت: هذا القول الذي ارتضاه الزجَّاجُ حكاه عنه النحاس وغيرُه، وقد تقدَّم مثلُه وتضعيفُ الزجاجِ له، إلا أنَّ ذلك القولَ صوابُه: «إنْ» فيه نافية، وهنا مخففة من الثقيلة فافترقا[٢].

وبقيت قراءتان. قال أبو حاتم: وفي حرف أُبَيّ: «وَإِنْ كلًّا إِلَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ»[٣]. وروي عن الأعمش: «وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا» بتخفيف «إن»، ورفع «كل»، وبتشديد «لمَّا»[٤].

قال النحاس[٥]: وهذه القراءات المخالفةُ للسواد تكون فيها «إنْ» بمعنى «ما» لا غير، وتكون على التفسير؛ لأنه لا يجوز أن يُقرأ بما خالف السَّوادَ إلا على هذه

---

(١) هو الزجاج، وكلامه في معاني القرآن ٣/ ٨١ .

(٢) ذكر محققو (م) أنه ورد في حواشي إحدى النسخ ما نصه: صواب ما ذكره الشيخ رحمه الله أن يقول: إلا أن هذا القول «إن» فيه نافية، والقول المتقدِّم «إن» فيه مخففة من الثقيلة فافترقا.

(٣) في (م): «وإنْ كلٌّ إلا لَيوفِّينَّهم»، وفي إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٥ (والكلام منه): «وإنْ كلٌّ إلا لَيوفِّينَّ ربُّك أعمالَهم». وفي الدر المصون ٦/ ٣٩٨ : قال أبو حاتم: الذي في مصحف أُبيّ: «وإنْ من كلٍّ إلا لَيوفِّيَنَّهم». وذكر السمين في الدر ٦/ ٣٩٧ قراءةً أُخرى لأُبيّ، وهي: «وإنْ كلٌّ لمَّا...» بتخفيف «إنْ» ورفع «كلّ» وتشديد «لمَّا».

(٤) ذكر ابن جني في المحتسب ١/ ٣٢٨ والسمين في الدر المصون ٦/ ٣٩٧ أن الأعمش قرأ: «وإنْ كلٌّ إلَّا ليوفِّيَنَّهم». والقراءة التي ذكرها المصنف هي لأُبيّ كما في التعليق السابق.

(٥) في إعراب القرآن ٢/ ٣٠٥ ، وما قبله منه.

الجِهة .﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ تهديدٌ ووعيد.

قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ الخطاب للنبيِّ ﷺ ولغيرِه.

وقيل: له، والمراد أمتُه؛ قاله السُّدِّيُّ. وقيل: «اسْتقِمْ»: اطلب الإقامةَ على الدِّين من الله واسأله ذلك. فتكونُ السين سينَ السؤال، كما تقول: أستغفر الله: أَطلبُ الغفرانَ منه.

والاستقامةُ: الاستمرارُ في جهةٍ واحدة من غير أخذٍ في جهة اليمين والشمال، أي[1]: فاستقم على امتثال أمر الله.

وفي «صحيح» مسلم[2] عن سفيان بن عبد اللهِ الثقفيِّ قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسألُ عنه أحداً بعدَك. قال: «قُلْ آمنتُ باللهِ، ثم اسْتَقِمْ».

وروى الدارميُّ أبو محمد في «مسنده» عن عثمان بن حاضِر الأزديِّ قال: دخلتُ على ابن عباس فقلت: أَوْصِني، فقال: نعم، عليك بتقوى اللهِ والاستقامةِ، اتَّبِعْ ولا تَبتدعْ[3].

﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ أي: استقم أنت وهُم، يريد أصحابَه الذين تابوا من الشِّرك، ومَن بعده ممن اتَّبعه من أمَّته. قال ابن عباس: ما نَزَل على رسول اللهِ ﷺ آيةٌ هي أشدُّ ولا أشَقُّ من هذه الآية عليه، ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له: لقد أسرع إليك الشيبُ! فقال: «شيَّبتني هودٌ وأخواتُها». وقد تقدَّم في أول السورة[4].

---

(١) قوله: أي، من (ز) و(ف).

(٢) برقم (٣٨)، وسلف ٢/ ٢٢٧ .

(٣) مسند الدارمي (١٤١)، وأخرجه أيضاً ابن وضاح في البدع ص٢٥ ، وبنحوه المروزي في السنة (٨٣) من طريق طاوس عن ابن عباس.

(٤) ص٦٣ من هذا الجزء وهو حديث ضعيف، سلف الكلام عليه ثمة.

ورُوي عن أبي عبد الرحمن السُّلَميّ، قال: سمعت أبا عليٍّ الشَّبُّوِي[١] يقول: رأيتُ النبيَّ ﷺ في المنام فقلتُ: يا رسول الله! رُوِيَ عنك أنك قلت: «شيَّبتني هود». فقال: نعم، فقلت له: ما الذي شيَّبك منها؟ قصصُ الأنبياءِ وهلاكُ الأمم! فقال: لا، ولكنْ قولُه: فاستَقِمْ كما أُمِرْتَ[٢].

﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ نهيٌ عن الطُّغيان، والطُّغيانُ: مجاوزةُ الحد، ومنه: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقة: ١١][٣]. وقيل: أي: لا تتجبَّروا على أحد.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟﴾ الرُّكون حقيقتُه[٤]: الاستنادُ والاعتماد، والسكونُ إلى الشيء والرضا به. قال قتادة: معناه: لا تَوَدُّوهم ولا تُطيعوهُم[٥]. ابن جريج: لا تَميلوا إليهم[٦]. أبو العالية: لا تَرضَوْا أعمالَهم. وكلُّه متقارب. وقال ابن زيد: الرُّكون هنا: الإِدْهَان، وذلك ألَّا يُنْكِر عليهم كفرهم[٧].

الثانية: قرأ الجمهور: «تَرْكَنُوا» بفتح الكاف، قال أبو عمرو: هي لغةُ أهلِ الحجاز. وقرأ طلحةُ بنُ مُصرِّفٍ وقتادةُ وغيرُهما: «تركُنوا» بضمِّ الكاف؛ قال الفرَّاء:

---

(١) تحرف في النسخ وشعب الإيمان إلى: «السَّري»، وهو محمد بن عمر بن شَبّويه الشَّبُّوِي المرزوي، راوي صحيح البخاري عن أبي عبد الله الفِربري توفي نحو (٣٨٠) هـ. السير ١٦/ ٤٢٣، توضيح المشتبه ٥/ ٢٩١، التقييد لابن نقطة ١/ ٨٥.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٤٣٩)، وأورده القشيري في الرسالة: ٩٤ والسيوطي في الدر المنثور ٨/ ٩، والذهبي في السير ١٦/ ٤٢٣ وابن رجب في جامع العلوم ١/ ٥٠٩ - ٥١٠.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٢١٢.

(٤) في (م): حقيقة.

(٥) لم نقف عليه عن قتادة، وإنما عن عكرمة كما في معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٨٥، والوسيط للواحدي ٢/ ٥٩٣، وذكره السيوطي في الدر ٣/ ٣٥١ عن عكرمة أيضاً، وعزاه لأبي الشيخ.

(٦) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٠١ من طريق ابن جريج عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره عن ابن عباس أيضاً الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٥٠٨، والواحدي في الوسيط ٢/ ٥٩٣.

(٧) أخرج قول أبي العالية وابن زيد الطبري ١٢/ ٦٠٠ و ٦٠١.

وهي لغةُ تميم وقيس[(١)]. وجوَّز قومٌ ركَن يركَن، مثل منَعَ يَمنَع[(٢)].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ قيل: أهل الشرك. وقيل: هي عامَّةٌ فيهم وفي العصاة، على نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ الآية [الأنعام:٦٨] وقد تقدَّم. وهذا هو الصحيحُ في معنى الآية، وأنها دالَّةٌ على هجران أهلِ الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم؛ فإنَّ صحبتهم كفرٌ أو معصية؛ إذ الصحبةُ لا تكون إلا عن مودَّة؛ وقد قال حكيم[(٣)]:

عن المرء لا تَسأَلْ وسَلْ عن قَرينه ... فكلُّ قَرينٍ بالمُقَارِن يَقْتَدي

فإن كانت الصحبة عن ضرورة وتَقيَّة؛ فقد مضى القول فيها في «آل عمران» و«المائدة»[(٤)]. وصحبةُ الظالم على التقيَّة مستثناةٌ من النَّهي بحالِ الاضطرارِ[(٥)]. والله أعلم.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: تُحْرِقكم، بمخالطتهم ومصاحبتهم، وممالأتِهم على إعراضهم، وموافقتِهم في أمورهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ لم يختلف أحدٌ من أهل

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٦ ، والقراءة في القراءات الشاذة ص٦١ ، والمحتسب ١/ ٣٢٩ .

(٢) المحتسب ١/ ٣٢٩ ، وقراءة العامة من: رَكِن يركَن، بكسر العين في الماضي كعلِم. ينظر تهذيب اللغة ١٠/ ١٨٩ ، والدر المصون ٦/ ٤١٨ .

(٣) هو طرفة بن العبد، والبيت في ديوانه ص٤٤ ، وقيل إنه لعدي بن زيد، وسلف ٥/ ٢٧٣ ، والكلام من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٥٤ .

(٤) ٥/ ٨٧ في تفسير «آل عمران»، ولم نقف عليه في تفسير «المائدة».

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٥٤ .

التأويل في أنَّ الصلاة في هذه الآية يُراد بها الصلواتُ المفروضة[(١)]؛ وخصَّها بالذِّكر لأنها ثانيةُ الإيمان، وإليها يُفزع في النوائب؛ وكان النبيُّ ﷺ إذا حَزَبَه أمرٌ فزع إلى الصلاة[(٢)].

وقال شيوخ الصُّوفية: إنَّ المراد بهذه الآية استغراقُ الأوقات بالعبادة فرضاً ونفلاً؛ قال ابن العربي[(٣)]: وهذا ضعيفٌ، فإنَّ الأمر لم يتناول ذلك؛ لا[(٤)] واجباً [فإنها خمس صلوات، و] لا نَفْلاً، فإنَّ الأوراد معلومةٌ، وأوقات النوافل المرغَّبِ فيها محصورةٌ، وما سواها من الأوقات يسترسل عليها النَّدْبُ على البدل لا على العموم، وليس ذلك في قوة بشَرٍ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ قال مجاهد: الطَّرفُ الأول صلاةُ الصبح، والطرفُ الثاني صلاةُ الظهر والعصر. واختاره ابن عطية[(٥)].

وقيل: الطَّرفان: الصبحُ والمغرب؛ قاله ابن عباس والحسن[(٦)].

وعن الحسن أيضاً: الطرفُ الثاني: العصرُ وحدَه. وقاله قتادةُ والضّحاك[(٧)].

وقيل: الطَّرفان: الظهر والعصر، والزُّلَف: المغرب والعشاء والصبح. كأنَّ هذا القائل راعَى جَهْرَ القراءة[(٨)].

وحكى الماورديُّ: أنَّ الطرف الأوّل صلاةُ الصبح باتِّفاق[(٩)].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢١٢ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٥٦ .

(٢) سلف ١/ ٢٦٢ من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٥٧ ، وما قبله وما سيأتي بين حاصرتين منه، وقول شيوخ الصوفية في نقل ابن العربي من لطائف الإشارات ٢/ ١٦١ .

(٤) في النسخ: إلا، والمثبت من أحكام القرآن.

(٥) في المحرر الوجيز ٣/ ٢١٢ ، وأخرجه عن مجاهد الطبري ١٢/ ٦٠٢ .

(٦) أخرجه عنهما الطبري ١٢/ ٦٠٣ .

(٧) أخرج قولهم الطبري ١٢/ ٦٠٤ - ٦٠٥ .

(٨) المحرر الوجيز ٣/ ٢١٢ ، وذكر القول الطبري ١٢/ ٦٠٥ .

(٩) النكت والعيون ٢/ ٥٠٨ .

قلتَ: وهذا الاتفاقُ ينقضُه القول الذي قبله.

ورجَّح الطَّبريُّ[١] أنَّ الطرفين: الصبحُ والمغرب، وأنه الظاهر؛ قال ابن عطية: ورُدَّ عليه بأنَّ المغرب لا تدخل فيه لأنَّها من صلاة الليل[٢].

قال ابن العربي: والعَجب من الطبري الذي يرى أنَّ طرَفي النهارِ الصبحُ والمغرب، وهما طرفا الليل! فقَلَب القوسَ ركْوةً[٣]، وحاد عن البُرْجَاس غَلْوة[٤]؛ قال الطبريُّ: والدليلُ عليه إجماعُ الجميع على أنَّ أحد الطرفين الصبح، فدلَّ على أنَّ الطَّرف الآخَر المغرِب. ولم يُجْمِعْ معه على ذلك أحد[٥].

قلت: هذا تحامُلٌ من ابن العربيِّ في الردِّ، وأنه لم يُجمع معه على ذلك أحدٌ، وقد ذكرنا عن مجاهد أنَّ الطرف الأول صلاةُ الصبح، وقد وقع الاتفاق ـ إلَّا مَن شذَّ ـ بأنَّ مَن أكل أو جامَعَ بعد طلوع الفجر متعمِّداً أنَّ يومه ذلك يومُ فِطْر، وعليه القضاءُ والكفارة، وما ذلك إلا وما[٦] بعدَ طلوعِ الفجر من النهار؛ فدلَّ على صحَّة ما قاله الطبريُّ في الصبح، وتبقى عليه المغربُ، والردُّ عليه فيه ما تقدَّم. واللهُ أعلم.

---

(١) في تفسيره ١٢/ ٦٠٥ ، والكلام لابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢١٢ .

(٢) لم نقف على هذا القول في المحرر الوجيز، وقول ابن عطية الذي قاله إثر قول الطبري: إلا أن عموم الصلوات الخمس بالآية أولى. والرد الذي ذكره المصنف هو لابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٠٥٦ .

(٣) الرّكوة مثلثة: زورق صغير، وصارت القوس ركوة، يضرب في الإدبار وانقلابِ الأمور. القاموس (ركو).

(٤) البُرْجاس: غرض في الهواء على رأس رمح ونحوه يُرمى به. تاج العروس (برجس). والغرض: الهدف الذي يرمى فيه الشيء المقصود. والغَلْوة: هي ثلاث مئة إلى أربع مئة ذراع، أو هي قدر رمية سهم أبعد ما تقدر. معجم متن اللغة (غرض) و(غلو) وورد شرح البرجاس في (ظ) و(ف) أقحمه الناسخان ضمن المتن. فجاء فيهما بعد قوله البرجاس، ما نصه: غرض في الهواء يرمى فيه. وأظنه مولداً. قاله الجوهري.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٥٦ - ١٠٥٧ . وذِكْرُ الطبري للإجماع هو في تفسيره ١٢/ ٦٠١-٦٠٢ و ٦٠٥ .

(٦) في (ظ): أن، بدل: وما.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ أي: في زُلَفٍ من الليل، والزُّلَف: الساعات القريبةُ بعضُها من بعض؛ ومنه سميت المزْدلِفَة؛ لأنها منزلٌ بعد عَرَفة بقربِ مكة[1].

وقرأ ابن القَعْقاع وابن أبي إسحاق وغيرُهما: «وَزُلُفاً»؛ بضمِّ اللام جمع زَلِيف؛ لأنه قد نُطِق بزليف[2]. ويجوز أن يكون واحدُه «زُلْفة» لغة، كبُسْرة وبُسُر، في لغةِ مَن ضمَّ السين[3].

وقرأ ابن محيصن: «وَزُلْفاً من الليل»، بإسكان اللام، والواحدة «زُلْفة» تُجمع جمعَ الأجناس التي هي أشخاصٌ، كدرَّةٍ ودُرٍّ، وبُرَّة وبُرٍّ[4].

وقرأ مجاهد وابنُ محيصن أيضاً: «زُلْفَى» مثل قُرْبَى[5]. وقرأ الباقون: «وزُلَفاً» بفتح اللام كغُرْفة وغُرَف. قال ابن الأعرابي: الزُّلَف: الساعات، واحدُها: زُلْفَة. وقال قوم: الزُّلْفةُ أولُ ساعةٍ من الليل[6] بعد مغيب الشمس، فعلى هذا يكون المراد بزُلَفِ اللَّيلِ صلاةَ العَتَمة؛ قاله ابن عباس. وقال الحسن: المغرب والعشاء[7]. وقيل: المغرب والعشاء والصبح، وقد تقدَّم. وقال الأخفش: يعني صلاة الليل ولم يعيِّن.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ذهب جمهورُ المتأوِّلين من

---

(١) ينظر تفسير الطبري ١٢/٦٠٦ ، ومعاني القرآن للنحاس ٣/٣٨٧ والنكت والعيون ٢/٥٠٨ - ٥٠٩ والمحرر الوجيز ٣/٢١٢ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/٣٠٧ ، والقراءة عن أبي جعفر يزيد بن القعقاع في النشر ٢/٢٩١ - ٢٩٢ ، وعن ابن أبي إسحاق في المحتسب ١/ ٣٣٠ .

(٣) المحتسب ١/ ٣٣٠ . ويجوز أيضاً أن يكون «زُلُفاً» اسماً مفرداً كعُنُق. ينظر الدر المصون ٦/ ٤٢٠ .

(٤) المحتسب ١/ ٣٣٠ ، وقال ابن جني: وذلك أن الزُّلْفة جنس من المخلوقات وإن لم يكن جوهراً.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٣/٣٨٧ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢١٢ . قال النحاس: إلا أنَّ ابن محيصن نوَّن في الإدراج.

(٦) ذكره الأزهري في تهذيب اللغة ١٣/ ٢١٤ عن الليث قال: الزُّلَف أول ساعات الليل.

(٧) أخرج قول ابن عباس وقول الحسن الطبري ١٢/٦٠٨ ، ٦٠٩ .

الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين: إلى أنَّ الحسنات هاهنا هي الصلواتُ الخمس. وقال مجاهد: الحسناتُ قولُ الرجلِ: سبحانَ الله والحمدُ لله ولا إله إلا اللهُ واللهُ أكبر؛ قال ابن عطية[١]: وهذا على جهة المثال في الحسنات، والذي يظهر أنَّ اللفظ عامٌّ في الحسنات خاصٌّ في السيِّئات؛ لقوله[٢] ﷺ: «ما اجتُنِبَت الكبائر»[٣].

قلت: سببُ النزول يعضُدُ قولَ الجمهور؛ نزلت في رجل من الأنصار، قيل: هو أبو اليَسَر بن عمرو. وقيل: اسمه عَبَّاد. خلا بامرأةٍ فقبَّلها وتلذَّذ بها فيما دون الفرْج[٤].

روى الترمذيُّ عن عبد الله قال: جاء رَجُلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: إنِّي عالجتُ امرأةً في أقصى المدينة، وإنِّي أصبتُ منها ما دونَ أن أمسَّها، وأنا هذا، فاقضِ فيَّ كما شئتَ. فقال له عمر: لقد سترَك اللهُ، لو سترتَ على نفسك! فلم يردَّ عليه رسولُ الله ﷺ شيئاً، فانطلق الرجل، فأتْبعه رسولُ الله ﷺ رجلاً فدعاه، فتلا عليه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ إلى آخر الآية، فقال رجلٌ من القوم: هذا له خاصة؟ قال: «لا، بل للناس كافة». قال الترمذيُّ: حديث حسن صحيح[٥].

وخرَّج أيضاً عن ابن مسعود، أنَّ رجلاً أصاب من امرأةٍ قُبلةَ حرام، فأتى النبيَّ ﷺ فسأله عن كفَّارتها، فنزلت: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فقال الرجل: ألي هذه يا رسول الله؟ فقال: «لك ولمن عَمِلَ بها مِن

---

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ٢١٢ - ٢١٣، وما قبله منه.

(٢) في المحرر الوجيز: بقوله.

(٣) أخرجه أحمد (٨٧١٥)، ومسلم (٢٣٣) من حديث أبي هريرة ﷺ بلفظ: «الصلواتُ الخمسُ، والجمعةُ إلى الجمعة، كفاراتٌ لمَا بينهنَّ ما اجتُنبت الكبائر».

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٢١٣، وذكر الحافظ في الفتح ٨/ ٣٥٦ - ٣٥٧ الاختلاف على اسم صاحب القصة وما ورد فيه من روايات، ثم قال: وأمَّا قصة عباد فحكاها القرطبي ولم يَعزُها، وعباد اسم جد أبي اليسر، فلعله نُسب ثم سقط شيء، وأقوى الجميع أنه أبو اليسر. اهـ. وسيأتي خبر أبي اليسر فيما سيرد من أخبار.

(٥) سنن الترمذي (٣١١٢)، وأخرجه أيضاً مسلم (٢٧٦٣): (٤٢)، وبنحوه عند أحمد (٤٢٥٠).

أمَّتي». قال الترمذيُّ: هذا حديث حسنٌ صحيح[١].

وروى عن أبي اليَسَر قال: أتتني امرأةٌ تَبتاعُ تمراً فقلت: إنَّ في البيت تمراً أطيبَ من هذا، فدخلَت معي في البيت، فأهويتُ إليها فقبَّلتُها، فأتيتُ أبا بكر فذكرتُ ذلك له، فقال: استر على نفسك وتُبْ، ولا تخبر أحداً. فلم أصبر، فأتيتُ عمرَ، فذكرتُ ذلك له، فقال: استُرْ على نفسك وتُبْ، ولا تُخْبِر أحداً. فلم أَصْبِرْ، فأتيتُ رسولَ الله ﷺ فذكرتُ ذلك له فقال: «أَخَلَفْتَ غازياً في سبيل الله في أهله بمثل هذا؟!» حتى تمنَّى أنه لم يكن أسلم إلَّا تلك الساعة، حتى ظنَّ أنه من أهل النار. قال: وأطرقَ رسولُ الله ﷺ حتى أوحى اللهُ إليه: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ قال أبو اليَسَر: فأتيتُه فقرأها عليَّ رسولُ الله ﷺ، فقال أصحابه: يا رسول الله! أَلِهذا خاصةً، أم للناس عامة؟ فقال: «بل للناس عامةً». قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ غريب، وقيس بنُ الربيع ضعَّفه وَكِيعٌ وغيره[٢].

وقد رُوي أنَّ النبيَّ ﷺ أعرضَ عنه، وأقيمت صلاة العصر، فلمَّا فرغَ منها نزل جبريل عليه السلام عليه بالآية، فدعاه فقال له: «أشهِدتَ معنا الصلاة؟» قال: نعم! قال: «اذهبْ، فإنَّها كفَّارةٌ لمَا فَعَلْت»[٣].

ورُوي أنَّ النبيَّ ﷺ لمَّا تلا عليه هذه الآيةَ قال له: «قُمْ فَصَلِّ أربعَ ركعاتٍ»[٤].

---

(١) سنن الترمذي (٣١١٤)، وهو عند أحمد (٣٦٥٣)، والبخاري (٥٢٦) و(٤٦٨٧)، ومسلم (٢٧٦٣): (٣٩).

(٢) سنن الترمذي (٣١١٥). ووقع في المطبوع: حسن صحيح، وما ذكره المصنف موافق لما في التحفة ٣٠٧/٨. وقال الترمذي أيضاً: وروى شريك عن عثمان بن عبد الله هذا الحديث مثل رواية قيس بن الربيع. اهـ قلنا: أخرجه من طريق شريك المذكور النسائي في الكبرى (٧٢٨٦).

(٣) ذكره الزمخشري في الكشاف ٢٩٧/٢، وعزاه الحافظ في الفتح ٣٥٦/٨ لابن منده من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. وأخرجه بنحوه أحمد (٢٢١٦٣)، ومسلم (٢٧٦٥) من حديث أبي أمامة ﷺ. وأخرجه بنحوه أيضاً البخاري (٦٨٢٣)، ومسلم (٢٧٦٤) من حديث أنس ﷺ.

(٤) أخرجه البزار (٢٢١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: وأخرجه عبد الرزاق في التفسير =

والله أعلم.

وخرَّج الترمذيُّ الحكيم في «نوادر الأصول» من حديث ابن عباس عن رسول الله ﷺ، قال: «لم أرَ شيئاً أَحْسَنَ طَلَباً ولا أَسْرعَ إدراكاً من حسنةٍ حديثةٍ لذنب قديم: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾»[(١)].

الخامسة: دلَّت الآيةُ مع هذه الأحاديث على أنَّ القُبلة الحرام، واللَّمسَ الحرام، لا يجب فيهما الحدُّ، وقد يُستدلُّ به على أن لا حدَّ ولا أدبَ على الرجل والمرأة وإن وُجدا في ثوبٍ واحد، وهو اختيار ابن المنذر[(٢)]؛ لأنه لمَّا ذَكَر اختلافَ العلماء في هذه المسألة ذَكَر هذا الحديثَ، مشيراً إلى أنه لا يجب عليهما شيءٌ، وسيأتي ما للعلماء في هذا في «النور»[(٣)] إن شاء الله تعالى.

السادسة: ذكَر الله سبحانه في كتابه الصلاةَ بركوعها وسجودِها وقيامِها وقراءتِها وأسمائها، فقال: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآية [لقمان:١٧]. وقال: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ الآية [الإسراء:٧٨] وقال: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم:١٧-١٨]. وقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه:١٣٠]. وقال: ﴿ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ [الحج:٧٧]. وقال:

= ١/ ٣١٥ ، والطبري ١٢/ ٦٢٣ - ٦٢٤ من طريق يحيى بن جعدة أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ، فذكر القصة. وأخرجه الترمذي (٣١١٣) من طريق عبد الرحمن بن أبي ليلى عن معاذ ﵁، وفيه: ...فأمره أن يتوضأ ويصلي...، قال الترمذي: هذا حديث ليس إسناده بمتصل؛ عبد الرحمن بن أبي ليلى لم يسمع من معاذ.

(١) نوادر الأصول ص٢٣٨ ، وأخرجه العقيلي ٤/ ٤٢١ ، والطبراني في الكبير (١٢٧٩٨)، وابن عبد البر في التمهيد ٢٢/ ٢١٣ . قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٣٩ : في إسناده مالك بن يحيى بن عمرو النُّكري، وهو ضعيف، وكذلك أبوه. وقال العقيلي: يحيى بن عمرو النكري لا يتابع على حديثه. وأخرجه ابن المبارك في الزهد (٧٥ - زوائد نعيم)، وابن أبي شيبة ١٣/ ٤٧٥ عن فضيل بن زيد الرقاشي قوله.

(٢) في الإشراف ٢/ ٥٥ .

(٣) عند تفسير الآية الثانية منها.

﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]. وقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ [الأعراف: ٢٠٤] على ما تقدَّم. وقال: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠] أي: بقراءتك. وهذا كلُّه مجمَلٌ أَجْمَلَه في كتابه، وأحال على نبيِّه في بيانه، فقال جلَّ ذِكْرُه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، فبيَّن ﷺ مواقيتَ الصلاة، وعددَ الركعاتِ والسَّجَدات، وصفةَ جميعِ الصلوات فَرْضِها وسُنَنِها، وما لا تصحُّ الصلاةُ إلا به من الفرائض، وما يُستحبُّ فيها من السُّنَن والفضائل، فقال في «صحيح» البخاريِّ: «صلُّوا كما رأيتُموني أصلِّي»[1]. ونقل ذلك عنه الكافَّةُ عن الكافة، على ما هو معلومٌ، ولم يَمت النبيُّ ﷺ حتى بيَّن جميعَ ما بالناس الحاجةُ إليه، فكمَّل الدِّين، وأوضح السبيل؛ قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ أي: القرآنُ موعظةٌ وتوبةٌ لمن اتَّعظ وتَذَكَّر، وخَصَّ الذاكرين بالذِّكر؛ لأنهم المنتفعون بالذكرى. والذكرى مصدرٌ جاء بألف التأنيث.

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ أي: على الصلاة، كقوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]. وقيل: المعنى: واصبر يا محمدُ على ما تَلْقَى من الأذى. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يعني المصلين.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ﴾ أي: فهلَّا كان ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: من الأمم التي قبلكم ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾ أي: أصحابُ طاعةٍ ودينٍ وعقلٍ وبَصَر ﴿يَنْهَوْنَ﴾ قومَهم ﴿عَنِ

---

(١) صحيح البخاري (٦٣١)، وسلف ١/ ٦٧ .

﴿ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لِمَا أعطاهم اللهُ تعالى من العقول، وأراهم من الآيات. وهذا توبيخٌ للكفار.

وقيل: «لولا» هاهنا للنفي؛ أي: ما كان مِن قَبْلِكم، كقوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ [يونس:٩٨] أي: ما كانت.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استثناءٌ منقطع، أي: لكنْ قليلاً[١] ﴿مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ نَهَوْا عن الفساد في الأرض. قيل: هم قومُ يونس؛ لقوله: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ [يونس:٩٨]. وقيل: هم أتباعُ الأنبياء وأهل الحق. ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: أشركوا وعَصَوا ﴿مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ﴾ أي: من الاشتغال بالمال واللذات، وإيثارِ ذلك على الآخرة ﴿وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: أهلَ القرى ﴿بِظُلْمٍ﴾ أي: بشرك وكفر ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ أي: فيما بينهم في تعاطي الحقوق، أي: لم يكن لِيهلكَهم بالكفر وحدَه حتى ينضاف إليه الفسادُ، كما أَهْلَكَ قومَ شعيبٍ ببَخْس المكيال والميزان، وقومَ لوطٍ باللواط[٢]. ودلَّ هذا على أنَّ المعاصيَ أقربُ إلى عذاب الاستئصال في الدنيا من الشِّرك، وإن كان عذابُ الشِّرك في الآخرة أصعب. وفي «صحيح» الترمذيِّ من حديث أبي بكر الصدِّيق ﵁ قال: سمعت رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «إنَّ الناس إذا رأوا الظالمَ فلم يأخذوا على يديه، أَوْشَكَ أن يَعمَّهم اللهُ بعقابٍ من عنده». وقد تقدَّم[٣].

---

(١) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٢١٤.

(٢) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ١٤٦ - ١٤٧.

(٣) ٣/ ٣٨٦، وهو في سنن الترمذي (٢١٦٨)، وفي قول المصنف: صحيح الترمذي، تجوّز.

وقيل: المعنى: وما كان ربُّك ليهلك القرى بظلمٍ وأهلُها مسلمون، فإنه يكون ذلك ظلماً لهم ونقصاً من حقِّهم، أي: ما أهلك قوماً إلا بعد إعذارٍ وإنذار.

وقال الزَّجَّاج: يجوز أن يكون المعنى: ما كان ربُّك ليهلك أحداً وهو يظلمُه وإن كان على نهايةِ الصلاح؛ لأنه تصرّف[1] في ملكه؛ دليلُه قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا﴾ [يونس: ٤٤][2].

وقيل: المعنى: وما كان اللهُ ليهلكَهم بذنوبهم وهم مصلحون، أي: مُخْلِصون في الإيمان. فالظلمُ المعاصي على هذا[3].

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ﴾ قال سعيد بن جُبير: على ملَّة الإسلام وحدَها. وقال الضَّحاك: أهل دينٍ واحدٍ، أهل ضلالة أو أهل هدى[4]. ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ﴾ أي: على أديانٍ شتَّى؛ قاله مجاهد وقتادة[5].

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ﴾ استثناءٌ منقطع؛ أي: لكن مَن رَحِم ربُّك بالإيمان والهدى، فإنه لم يختلف[6].

وقيل: مختلفين في الرزق، فهذا غنيٌّ وهذا فقير ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ﴾ بالقناعة؛ قاله الحسن[7].

---

(١) في (ز) و(ظ): لأن تصرفه.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٨٣ دون قوله: وإن كان على نهاية الصلاح لأنه تصرف في ملكه.

(٣) ذكر هذا القول ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢١٥ ، ورجح أن يكون معنى «بظلم» أي: بظلم منه لهم، تعالى عن ذلك.

(٤) النكت والعيون ٢/ ٥١١ .

(٥) ذكره الماوردي في النكت والعيون عن مجاهد وعطاء، وأخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٩٣ (١١٢٨٢) عن الحسن، ولم نقف عليه عن قتادة.

(٦) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٨٣ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤٠٦ . وقال أبو حيان في البحر ٥/ ٢٧٣ : هو استثناء متصل من قوله: «ولا يزالون مختلفين» ولا ضرورة تدعو إلى أنه بمعنى لكن فيكون استثناء منقطعاً.

(٧) النكت والعيون ٢/ ٥١١ . وأخرجه بنحوه الطبري ١٣/ ٦٣٦ .

﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال الحسن ومقاتل وعطاء ويَمَان: الإشارةُ للاختلاف، أي: وللاختلافِ خَلَقهم(١).

وقال ابن عباس ومجاهد وقَتَادة والضَّحاك: ولرحمته خَلَقهم(٢). وإنما قال: «ولذلك»، ولم يقل: ولتلك، والرحمةُ مؤنثةٌ؛ لأنه مصدر، وأيضاً فإنَّ تأنيث الرحمة غيرُ حقيقي، فحُمِلت على معنى الفضل(٣).

وقيل: الإشارةُ بـ «ذلك» للاختلاف والرحمة، وقد يشار بـ «ذلك» إلى شيئين مُتَضادَّين، كقوله تعالى: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة:٦٨](٤) ولم يقل بين ذينك ولا تينك، وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:٦٧] وقال: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:١١٠] وكذلك قوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس:٥٨]. وهذا أحسنُ الأقوال إن شاء اللهُ تعالى؛ لأنه يعمُّ، أي: ولِمَا ذُكِر خَلَقَهم.

وإلى هذا أشار مالكٌ رحمه اللهُ فيما روى عنه أشهب؛ قال أشهب: سألتُ مالكاً عن هذه الآية، قال: خَلَقهم ليكون فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير(٥). أي: خلَق أهل الاختلاف للاختلاف، وأهلَ الرحمة للرحمة.

وروي عن ابن عباس أيضاً قال: خَلَقهم فريقين؛ فريقاً يرحمه، وفريقاً لا يرحمه(٦).

قال المهدويُّ: وفي الكلام على هذا التقدير تقديمٌ وتأخير، المعنى: ولا يزالون

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٥١١ عن الحسن وعطاء، والوسيط ٢/ ٥٩٧ عن الحسن ومقاتل.

(٢) أخرج قولهم الطبري ١٣/ ٦٣٩ - ٦٤٠ .

(٣) تفسير الرازي ١٨/ ٧٩ .

(٤) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٦٤٠ - ٦٤١ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢١٥ ، والبحر ٥/ ٢٧٣ . واختار الطبري هذا القول وقال: فمعنى اللام في قوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ بمعنى على، كقولك للرجل: أكرمتك على برِّك بي. وأكرمتك لبرِّك بي.

(٥) تفسير البغوي ٢/ ٤٠٦ ، وأخرجه الطبري ١٣/ ٦٣٩ .

(٦) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٣٨ .

مختلفين إلَّا مَن رحِم ربك، وتمَّت كلمةُ ربِّك لأملأنَّ جهنمَ من الجِنة والناس أجمعين، ولذلك خلَقهم[١].

وقيل: هو متعلِّق بقوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ [هود: ١٠٣] والمعنى: ولشُهودِ ذلك اليوم خلقهم. وقيل: هو متعلِّق بقوله: ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ﴾ [هود: ١٠٥] أي: للسّعادة والشّقاوة خلقهم[٢].

قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ معنى «تمت»: ثَبَتَ ذلك كما أخبر وقدَّر في أزَلِه، وتمامُ الكلمة: امتناعُها عن قبول التغيير والتبديل. ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ «مِن» لبيان الجنس، أي: من جنس الجِنة وجنس الناس. «أجمعين» تأكيد، وكما أخبر أنه يملأ نارَه كذلك أخبر على لسان نبيِّه ﷺ أنه يملأ جَنَّته بقوله: «ولكلٍّ واحدةٍ منكما مِلْؤُها». خرَّجه البخاريُّ من حديث أبي هريرة وقد تقدّم[٣].

قوله تعالى: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ١٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ﴾ «كُلًّا» نصب بـ«نقصُّ»، معناه: وكلُّ الذي تحتاج إليه من أنباء الرسل نقصُّ عليك[٤]. وقال الأخفش: «كُلًّا» حالٌ مقدَّمة، كقولك: كُلًّا ضربتُ القوم[٥]. ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: من أخبارهم وصبرِهم على أذى قومهم.

﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾ أي: على أداء الرسالة، والصبرِ على ما يَنالُك فيها من الأذى. وقيل: نزيدك به تثبيتاً ويقيناً. وقال ابن عباس: ما نشدُّ به قلبَك[٦]. وقال ابن

---

(١) ذكر قول المهدوي أبو حيان في البحر ٥/ ٢٧٣ وقال: وهذا بعيد جدًّا من تراكيب كلام العرب.

(٢) ذكر القولين الأخيرين ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢١٥ ، وقال: وهذان المعنيَان وإن صحَّا، فهذا العَوْدُ المتباعِدُ ليس بجيِّد.

(٣) ١/ ٣٥٦ - ٣٥٧ ، وهو عند البخاري (٤٨٥٠).

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٨٤ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٨ ، وينظر معاني القرآن للأخفش ٢/ ٥٨٥ .

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط ٢/ ٥٩٨ بلفظ: ليزيدك يقيناً ويقوِّي قلبك.

جُريج: نُصبِّرُ به قلبَك حتى لا تجزع. وقال أهل المعاني: نُطيِّب، والمعنى متقارب. و«ما» بدلٌ من «كلًّا» المعنى: نقصُّ عليك من أنباء الرسل ما نثبِّت به فؤادك[١].

﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: في هذه السورة؛ عن ابن عباس وأبي موسى[٢] وغيرهما. وخَصَّ هذه السورة لأنَّ فيها أخبارَ الأنبياء والجنةِ والنار. وقيل: خصَّها بالذِّكر تأكيداً، وإنْ كان الحقُّ في كلِّ القرآن[٣].

وقال قَتادة والحسن: المعنى: في هذه الدنيا، يريد النبوَّة[٤].

﴿وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الموعظة: ما يُتَّعظ به من إهلاك الأممِ الماضية، والقرونِ الخالية المكذِّبة. وهذا تشريفٌ لهذه السُّورة؛ لأنَّ غيرها من السُّور قد جاء فيها الحقُّ والموعظة والذِّكرى، ولم يقل فيها كما قال في هذه على التَّخصيص. «وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ» أي: يتذكَّرون ما نزَل بمن هلك فيتوبون، وخَصَّ المؤمنين لأنهم المتَّعظون إذا سمعوا قصصَ الأنبياء.

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ تهديدٌ ووعيد. ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾. ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ تهديدٌ آخَرُ، وقد تقدَّم معناه[٥].

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: غيبُهما وشهادتُهما؛ فحذف لدلالة المعنى. وقال ابن عباس: خزائنُ السماوات والأرض. وقال الضحَّاك: جميعُ

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٨٤.

(٢) النكت والعيون ٢/ ٥١٢، وأخرج قولهما الطبري ١٣/ ٦٤٣ - ٦٤٤، وأخرجه عن ابن عباس أيضاً سعيد بن منصور في سننه (١١٠٨ - تفسير).

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٨٤ - ٨٥.

(٤) زاد المسير ٤/ ١٧٣، وأخرج قولهما الطبري ١٢/ ٦٤٧.

(٥) ينظر ٩/ ١٣٣ و ص٥٨ من هذا الجزء.

ما غاب عن العباد فيهما[١].

وقال الباقون: غيب السماوات والأرض: نزولُ العذاب من السماء، وطلوعُه من الأرض.

وقال أبو عليٍّ الفارسيُّ: وَلِله علمُ[٢] غَيْب السَّمَاوَات والأَرْضِ، أي: عِلم ما غاب فيهما[٣]؛ أضاف الغيب ـ وهو مضافٌ إلى المفعول ـ توسُّعاً؛ لأنه حَذَفَ حرفَ الجرّ؛ تقول: غِبْتُ في الأرض وغبت ببلد كذا.

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ أي: يومَ القيامة؛ إذ ليس لمخلوق أمرٌ إلا بإذنه. وقرأ نافع وحفص: ﴿يُرْجَعُ﴾ بضمِّ الياء وبفتح الجيم[٤]؛ أي: يُرَدّ. ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ أي: الجأْ إليه وثِقْ به.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: يجازي كلًّا بعمله. وقرأ أهل المدينة والشام وحفصٌ بالتاء على المخاطبة. الباقون بياءٍ على الخبر[٥]. قال الأخفش سعيد[٦]: «يعملون» إذا لم يخاطِب النبيَّ ﷺ معهم، قال: وقال بعضهم: «تعملون» بالتاء لأنه خاطب النبيَّ ﷺ، أو قال: قل لهم: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

وقال كعب الأحبار: خاتمةُ التوراة خاتمةُ «هود»[٧] من قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى آخرِ السورة.

تمت سورةُ هود، ويتلوها سورة يوسف عليه السلام.

---

(١) ذكر قول ابن عباس وقول الضحاك الطبرسي في مجمع البيان ١٢/ ٢٣٨ .

(٢) قوله: علم، من (ز) و(ظ).

(٣) الوسيط ٢/ ٥٩٨ ، وزاد المسير ٤/ ١٧٥ .

(٤) وقرأ الباقون بفتح الياء وكسر الجيم. السبعة ص٣٤٠ ، والتيسير ص١٢٦ .

(٥) قرأ نافع وابن عامر وحفص: «تعملون» بالتاء، والباقون بالياء. السبعة ص٣٤٠ ، والتيسير ص١٢٦ .

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٥٨٦ .

(٧) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٤٩ ، وسلف ٨/ ٣١١ .

سُورَةُ هُودٍ

مَكِّيَّةٌ، وهيَ مئةٌ وثلاثٌ وعشرونَ آيةً(١)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿الٓر كِتَٰبٌ﴾ مُبتدأٌ وخبرٌ، أو ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبرُ مُبتدَأٍ مَحذوفٍ.

﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾: نُظِمَتْ نَظْمًا مُحكَمًا لا يعتريهِ اختلالٌ مِن جهَةِ اللَّفظِ والمعنى.

أو: مُنِعَت مِن الفَسادِ والنَّسخِ فإنَّ المُرادَ آياتُ السُّورَةِ، وليس فيها مَنسوخٌ.

أو: أُحكِمَت بالحُجَجِ والدَّلائلِ.

أو: جُعِلَت حَكِيمَةً، مَنقولٌ من «حَكُمَ» بالضَّمِّ: إذا صارَ حَكِيمًا؛ لأنَّها مُشتَمِلَةٌ على أُمَّهاتِ الحِكَمِ النَّظَرِيَّةِ والعَمَلِيَّةِ.

﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ بالفوائدِ: مِن العَقائدِ والأحكامِ والمَواعظِ والأخبارِ، أو بجَعْلِهَا سُوَرًا، أو بالإنزالِ نجمًا نَجمًا، أو فصَّلَ فيهَا ولُخِّصَ ما يُحتاجُ إليهِ.

وقُرِئَ: «ثمَّ فَصَلَتْ»(٢)؛ أي: فَرَقَتْ بينَ الحَقِّ والباطلِ.

و: «أَحْكَمْتُ آياتِه ثمَّ فَصَّلْتُ» على البناءِ للمُتكَلِّمِ(٣).

---

(١) انظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص: ١٦٥)، وفيه: «وهي مئة وإحدى وعشرون آية في المدني الأخير والمكي والبصري، واثنتان في المدني الأول والشامي، وثلاث في الكوفي، اختلافها سبع آيات...».

(٢) نسبت لعكرمة والضحاك والجحدري وزيد بن علي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٣)، و«المحتسب» (١/ ٣١٨)، و«الكشاف» (٤/ ١٠٨)، و«البحر المحيط» (١٢/ ١٩٦).

(٣) انظر: «الكشاف» (٤/ ١٠٨) دون نسبة. وذكرها أبو حيان في «البحر المحيط» (١٢/ ١٩٧) وعزاها للزمخشري، وكأنه لم يقف عليها عند غيره على الرغم من استقصائه في جمع القراءات.

و﴿ثُمَّ﴾ للتَّفاوُتِ في الحكمِ، أو للتَّراخِي في الإخبارِ.

﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ صِفَةٌ أُخرى للكِتابِ، أو خبرٌ بعدَ خَبرٍ، أو صِلَةٌ لـ﴿أُحْكِمَتْ﴾ أو ﴿فُصِّلَتْ﴾، وهو تقريرٌ لإحكامِهَا وتَفصيلِهَا على أكمَلِ ما يَنْبَغِي باعتبارِ ما ظهرَ أمرُهُ وما خَفِيَ.

(٢) ـ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾: لأَنْ لا تَعبُدُوا، وقيلَ: «أنْ» مفسِّرةٌ؛ لأنَّ في تَفصيلِ الآياتِ مَعنى القولِ[1]، ويجوزُ أَنْ يكونَ كلامًا مُبتدأً للإغراءِ على التَّوحيدِ، أو الأمرِ بالتَّبرِّي عن عبادَةِ الغَيرِ؛ كأَنَّهُ قيلَ: تركَ عبادةِ غيرِ اللهِ، بمعنى: الْزَموهُ، أو: اتركوها تَرْكًا.

﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ﴾: مِن اللهِ ﴿نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ بالعقابِ على الشِّركِ والثَّوابِ على التَّوحيدِ.

(٣) ـ ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ عطفٌ على ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾: ثمَّ توصَّلُوا إلى مَطلُوبِكُم بالتَّوبةِ، فإنَّ المُعْرِضَ عَن طريقِ الحَقِّ لا بدَّ له مِن رجوعٍ.

وقيلَ: استغفِرُوا مِن الشِّركِ ثمَّ تُوبُوا إلى اللهِ بالطَّاعةِ.

ويجوزُ أَنْ يكونَ ﴿ثُمَّ﴾ لتفاوُتِ ما بين الأمرينِ.

﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾: يُعيِّشْكُم في أمنٍ ودعَةٍ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو آخرُ أَعمارِكُم المُقدَّرَةِ، أو: لا يُهلِكْكُم بعذابِ الاستئصالِ، والأَرزاقُ والآجالُ وإن كانَت مُتعلِّقَةً بالأعمال لكنَّها مُسمَّاةٌ بالإضافَةِ إلى كلِّ أحدٍ فلا تتغيَّرُ[2].

---

(١) كأنه قيل: «قال: لا تعبدوا إلاَّ الله». انظر: «الكشاف» (٤/ ١٠٨).

(٢) قوله: «والأرزاق والآجال» بمعنى: الأعمار «متعلقة بالأعمال»؛ أي: المأخوذةِ من قوله: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ بمعنى أنها مترتِّبةٌ عليها عادةً «لكنها مسماة»؛ أي: معيَّنةٌ عند الله تعالى «بالإضافة إلى كل أحد، فلا تتغير» بعملٍ ولا بتركِه، وأما نحوُ خبرِ: «صلةُ الرَّحِمِ تزيدُ في العُمرِ» فمحمولٌ على زيادةِ البركةِ، أو على زيادةِ ما في اللوح المحفوظ، لا ما في أمِّ الكتاب، وهو ما كتبَه في الأزَلِ. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٢٠١).

﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾: ويعطِ كلَّ ذِي فَضْلٍ في دِينِه جزاءَ فضلِه في الدُّنيَا والآخرةِ[١]، وهو وعدٌ للموحِّدِ التَّائبِ بخيرِ الدَّارينِ.

﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾: وإن تتولَّوْا ﴿فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾: يوم القِيامَةِ، وقيلَ: يوم الشَّدائدِ، وقد ابتُلوا بالقحطِ حتَّى أكلُوا الجِيَفَ.

وقُرِئَ: «وإِنْ تُوَلُّوا» مِن وَلَّى[٢].

(٤) ـ ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾: رجوعُكُم في ذلك اليَومِ، وهو شاذٌّ عن القِياسِ.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدِرُ على تَعذيبِهِم أشدَّ عَذابٍ، وكأنَّه تَقريرٌ لكِبَرِ اليَومِ.

(٥) ـ ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾: يَثْنونَها عَن الحقِّ ويَنحرِفُونَ عنه، أو: يعطفونَها على الكُفرِ وعَداوةِ النَّبيِّ عليهِ السَّلامُ، أو: يُوَلُّونَ ظُهورَهُم.

وقُرِئَ: «تَثْنُونِي» بالتَّاءِ واليَاءِ[٣] مِن اثْنَوْنَى وهو بناءُ المُبالغَةِ.

و: «تَثْنَونُّ»[٤] وأصلُه: تَثْنَوْنِنُ مِن الثِّنِّ وهـو الكلأُ الضَّعيفُ، أرادَ بِهِ ضعفَ قلوبِهِم، أو مُطاوعَةَ صُدورِهِم للثَّنْي.

---

(١) في نسخة الخيالي: «في الدُّنيا أو في الآخرة».

(٢) نسبت لعيسى بن عمر، ومحمد بن السَّمَيْفَعِ اليَماني، والأعرج. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٣)، و«المحتسب» (١/ ٣١٨).

(٣) نسبت القراءة بالتاء لجمع من الأئمة منهم ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعلي بن الحسين وابناه زيد ومحمد، ويحيى بن يعمر وغيرهم. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٤)، و«المحتسب» (١/ ٣١٨)، و«البحر» (١٢/ ٢٠٢).

والقراءة بالياء نسبت لابن عباس ومجاهد وابن أبي إسحاق وابن يعمر. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٤)، و«البحر» (١٢/ ٢٠٢).

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٤)، و«المحتسب» (١/ ٣١٩)، عن ابن عباس، وزاد في «البحر» (١٢/ ٢٠٢) نسبتها لعروة وابن أبزى والأعشى.

و: «تَثْنَئِنُّ»[(١)] مِن اثْنَأَنَّ كـ: ابْيَأَضَّ بالهمزَةِ، و: «تَثْنَوِي»[(٢)].

﴿لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ﴾: مِن اللهِ بسرِّهِم، ولا يُطلِعَ رَسولَهُ والمُؤمنينَ عليه.

قيلَ: إنَّها نَزَلَت في طائفَةٍ مِن المشركينَ قالُوا: إذا أرخَيْنَا سُتورَنَا واستَغْشَيْنَا ثِيابنَا وطوَيْنَا صُدورَنَا على عَداوَةِ مُحمَّدٍ كيفَ يَعلَمُ[(٣)]؟

وقيلَ: نَزَلَت في المُنافقينَ[(٤)]. وفيه نظرٌ إذ الآيَةُ مَكِّيَّةٌ والنِّفاقُ حدثَ بالمدينَةِ.

﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾: ألا حينَ يَأْوُونَ إلى فِراشِهِم ويَتغطَّونَ بثِيابِهِم ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ في قُلوبِهِم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بأَفْواهِهِم، يَستَوِي في عِلْمِه سِرُّهُم وعَلَنُهُم، فكيفَ يَخْفَى عليه ما عَسَى يُظهِرُونَهُ؟

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: بالأسرارِ ذاتِ الصُّدورِ، أو بالقلوبِ وأحوالِها.

---

(١) انظر: «المحتسب» (١/ ٣١٩)، و«البحر» (١٢/ ٢٠٢) عن عروة ومجاهد.

(٢) ذكرها في «الكشاف» (٤/ ١١١) دون نسبة، وانظر هذه القراءات مع زيادة عليها ومَن قرأ بكل منها في «البحر» (١٢/ ٢٠٢). وقد عُنينا بضبطها وتخريجها في تحقيقنا للكتاب المذكور والحمد لله.

(٣) ذكره الزجاج في «معاني القرآن» (٣/ ٣٨). وقال السيوطي في «الحاشية» (٧/ ٣١٢): «الثَّابتُ في «صَحيحِ البُخاري» أنَّها نزلَتْ في ناسٍ كانوا يستحيونَ أَنْ يَتخلَّوا أو يجامِعوا فيُفضُوا بفُروجِهِم إلى السَّماءِ، فعلى هذا ثنيُ الصُّدورِ على ظاهرِه لا مجازٌ ولا كنايَةٌ». قلت: رواه البخاري (٤٦٨١) و(٤٦٨٢) عن ابن عباس. وهذا رغم صحته إلا أن فيه ملاحظة لطيفة ذكرها العلامة الطيب بن عاشور في «التحرير والتنوير» (١١/ ٣٢٢) حيث قال: «وهذا التَّفسيرُ لا يناسبُ موقع الآية ولا اتِّساقَ الضَّمائر، فلعل مراد ابن عباسٍ أنَّ الآيةَ تَنْطَبِقُ على صنيعِ هؤلاء ولَيس فِعلُهُم هو سببُ نزولِها».

(٤) رواه الطبري (١٢/ ٣١٧) عن عبد الله بن شداد بن الهاد قال: ﴿لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ﴾: من رسول الله ﷺ؛ كان المنافقون إذا مرُّوا به ثنى أحدهم صدره، ويطأطئ رأسه، فقال الله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ الآية. ولعله إن صح فينسحب عليه ما قاله الطيب بن عاشور في خبر ابن عباس السابق.

(٦) ـ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾: غِذاؤُها ومَعاشُها؛ لتكفُّلِه إيَّاه تَفضُّلًا ورحمةً، وإنَّما أتى بلفظِ الوُجوبِ تَحقيقًا لوُصولِه وحملًا على التَّوكُّلِ فيه.

﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَا﴾: أماكِنَها في الحياةِ والمماتِ، أو الأصلابِ والأرحامِ، أو مساكنَها مِن الأرضِ حينَ وُجِدَتْ بالفعلِ ومُودَعَها مِن الموادِّ والمقارِّ حينَ كانَتْ بعدُ بالقوَّةِ.

﴿كُلٞ﴾: كلُّ واحدٍ مِن الدَّوابِّ وأحوالِها ﴿فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ مذكورٌ في اللوحِ المحفوظِ.

وكأنَّه أريدَ بالآية بيانُ كونِه عالِمًا بالمَعلوماتِ كلِّها، وبما بعدَها بيانُ كونِه قادرًا على المُمكِنَاتِ بأسرِهَا، تَقريرًا للتَّوحيدِ، ولِمَا سبقَ مِن الوَعدِ والوَعيدِ.

(٧) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾؛ أي: خَلَقَهُما وما فيهِمَا كمَا مَرَّ بَيانُه في الأَعرافِ، أو: ما في جِهَتَي العُلْوِ والسفلِ، وجمَعَ السَّماواتِ دونَ الأرضِ لاختلافِ العُلْوِيَّاتِ بالأصلِ والذَّاتِ دونَ السُّفليَّاتِ.

﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ قبلَ خلقِهِما، لم يَكُن حائِلٌ بينَهُما، لا أنَّه كانَ مَوضوعًا على متنِ الماءِ، واستُدلَّ به على إمكانِ الخلاءِ، وأنَّ الماءَ أوَّلُ حادثٍ بعدَ العرشِ مِن أجرامِ هذا العالَمِ.

وقيلَ: كانَ الماءُ على متنِ الرِّيحِ، واللهُ أعلَمُ بذلك.

﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿خَلَقَ﴾؛ أي: خلَقَ ذلكَ كخلقِ مَن خَلَقَ ليُعامِلَكُم معاملةَ المُبتلِي لأحوالِكُم كيفَ تعمَلُونَ؟ فإنَّ جُملةَ ذلك أسبابٌ ومَوَادُّ لوُجودِكُم ومَعاشِكُم وما تَحتاجُ إليه أَعمالُكُم، ودَلائلُ وأَماراتٌ تَستَدِلُّونَ بها وتَستنبطونَ مِنْها.

وإنَّما جازَ تَعليقُ فعلِ البَلْوَى لِمَا فيه مِن مَعنى العلمِ مِن حيثُ إنَّه طَريقٌ إليهِ كالنَّظرِ والاستماعِ، وإنَّما ذكرَ صِيغَةَ التَّفضيلِ والاختبارِ الشَّاملِ لِفِرَقِ المكلَّفينَ باعتبارِ الحُسْنِ والقُبْحِ؛ للتَّحريضِ على أحاسِنِ المَحاسنِ، والتَّحضيضِ على التَّرقِّي دائمًا في مراتبِ العلمِ والعَمَلِ، فإنَّ المُرادَ بالعَملِ ما يعُمُّ عملَ القَلبِ والجَوارحِ، ولذلك قالَ النَّبيُّ ﷺ: «أَيُّكُم أحسَنُ عَقْلًا، وأورَعُ عَن مَحارمِ اللهِ، وأسرَعُ في طاعةِ اللهِ»[1]، والمعنى: أَيُّكُم أكمَلُ عِلْمًا وعَمَلًا.

﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: ما البعثُ، أو القولُ به، أو القرآنُ المتضمِّنُ لذكرِه، إلَّا كالسِّحرِ في الخَديعَةِ أو البُطلانِ.

وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ: ﴿إلا ساحِرٌ﴾[2] على أنَّ الإشارةَ إلى القائلِ.

وقُرِئَ: «أَنَّكُم» بالفتحِ[3] على تضمُّنِ ﴿قُلْتَ﴾ مَعنى: ذَكَرْتَ، أو يكونُ «أنَّ» بمعنى «علَّ» أي: ولئن قلتَ علَّكُم مَبعوثونَ، بمَعنى: توقَّعُوا بَعْثَكُم ولا تَبتُّوا بإنكارِهِ لَعَدُّوهُ مِن قَبيلِ ما لا حقيقةَ له مُبالغَةً في إنكارِه.

---

(١) رواه داود بن المحبر في كتاب «العقل»، ومن طريقه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» (٨٣١ - زوائد)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٣٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٠٦)، والدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (٢/ ١٢٥)، وداود بن المحبر ساقط كما في «الكافي الشاف» (ص: ٨٦). وقال الدارقطني: كتاب «العقل» وضعه أربعة: وضعه ميسرة بن عبد ربه، ثم سرقه داود بن المحبر منه فركبه بأسانيد غير ميسرة، وسرقه عبد العزيز بن أبي رجاء فركبه بأسانيد أخر، ثم سرقه سليمان بن عيسى السجزي وركبه بأسانيد أخرى. انظر: «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (٢/ ١٤٥).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٤٩)، و«التيسير» (ص: ١٠٢).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٤) عن عيسى.

(٨) ـ ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ ﴾ الموعودَ ﴿إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾: إلى جماعَةٍ مِن الأوقاتِ قليلةٍ ﴿لَّيَقُولُنَّ ﴾ استهزاءً: ﴿مَا يَحْبِسُهُ ﴾: ما يمنعُهُ مِن الوُقوعِ؟

﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ ﴾ كيومِ بدرٍ ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ ﴾: ليسَ العَذابُ مَدفوعًا عَنْهُم، و﴿يَوْمَ ﴾ منصوبٌ بخبرِ ﴿لَيْسَ﴾ مُقدَّمٌ عليه، وهو دليلٌ على جوازِ تَقديمِ خبرِهَا عليها.

﴿وَحَاقَ بِهِم ﴾: وأحاطَ بهِمْ، وضعَ الماضي موضِعَ المُستقبلِ تَحقيقًا ومُبالغَةً في التَّهديدِ.

﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾؛ أي: العذابُ الَّذي كانُوا به يَستَعجلونَ، فوضعَ ﴿يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ مَوضِعَ «يَستعجِلُونَ» لأنَّ استعجالَهم كانَ استهزاءً.

(٩) ـ ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ﴾: ولئِنْ أعطيناهُ نِعمَةً بحيثُ يَجِدُ لَذَّتَها ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ ﴾: ثمَّ سَلَبْنَا تلكَ النِّعمةَ منه ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ ﴾: قَطوعٌ رجاءَهُ مِن فضلِ اللهِ لقِلَّةِ صَبرِهِ وعدمِ ثِقَتِه به ﴿كَفُورٌ ﴾: مبالغٌ في كفرانِ ما سلفَ لَهُ مِن النِّعمَةِ.

(١٠) ـ ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ ﴾ كصِحَّةٍ بعدَ سَقَمٍ، وغِنًى بعدَ عَدَمٍ، وفي اختلافِ الفِعْلَينِ نكتَةٌ لا تَخفَى.

﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ﴾؛ أي: المصائبُ الَّتي ساءَتْنِي.

﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ ﴾: بَطِرٌ بالنِّعَمِ مُغتَرٌّ بها ﴿فَخُورٌ ﴾ على النَّاسِ مَشغولٌ عَن الشُّكرِ والقيامِ بحقِّها.

وفي لفظِ الإذاقَةِ والمسِّ تَنبيهٌ على أنَّ ما يَجِدُه الإنسانُ في الدُّنيا مِن النِّعَمِ والمِحَنِ كالأُنموذَجِ لِمَا يَجِدُه في الآخرةِ، وأنَّه يقَعُ في الكفرانِ والبطرِ بأدنى شيءٍ؛ لأنَّ الذَّوقَ: إدراكُ الطعمِ، والمسَّ مبدأُ الوُصولِ.

(١١) ـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على الضَّرَّاءِ إيمانًا باللهِ واستِسْلَامًا لقضائِه ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ شكرًا لآلائِه سابِقِها ولاحِقِهَا.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذُنوبِهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أقلُّهُ الجنَّةُ، والاستثناءُ مِن ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ لأنَّ المُرادَ به الجنسُ، فإذَا كانَ مُحَلًّى باللَّامِ أفادَ الاستغراقَ، ومَن حملَهُ على الكفارِ لسَبْقِ ذِكرِهم جعلَ الاستثناءَ مُنقَطِعًا.

(١٢) ـ ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ تتركُ تَبليغَ بعضِ ما يُوحَى إليك ـ وهو ما يُخالِفُ رأيَ المشركينَ ـ مخافَةَ ردِّهِم واستِهزَائِهِم، ولا يلزَمُ مِن تَوقُّعِ الشَّيءِ ـ لوُجودِ ما يَدْعُو إليه ـ وقوعُهُ؛ لجوازِ أنْ يكونَ[١] ما يَصرفُ عنه وهو عصمَةُ اللهِ الرُّسُلَ عَن الخيانَةِ في الوحيِ والتقيةِ[٢] في التَّبليغِ هاهنا[٣].

﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾: وعارضٌ لك أحيانًا ضيقُ صَدرِكَ بأَنْ تَتْلُوَهُ عليهِم مخافَةَ ﴿أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ ينفقُه في الاستتباعِ كالملوكِ ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ يصدِّقُهُ.

وقيلَ: الضَّميرُ في ﴿بِهِۦ﴾ مُبهَمٌ يفسِّرُه ﴿أَن يَقُولُواْ﴾.

---

(١) كتب تحتها في نسخة الطبلاوي: «أي: يوجد»، على أنه من «كان» التامة، وانظر التعليق الآتي.

(٢) «التقية»: الترك بسبب الخوف. انظر: «حاشية الشهاب».

(٣) قوله: «هاهنا» من نسخة الطبلاوي والخيالي، وفي نسخة التفتازاني بدلاً منه: «مانع». وفي «حاشية شيخ زاده» (١٠/ ٣٥): «مانعًا»، وفي «حاشية القونوي» (١٠/ ٣٥): «مانعًا هاهنا» والمعنى على هذا واضح، أما على ما أثبتناه وهو الموافق لما في «حاشية الشهاب»، و«حاشية ابن التمجيد» (١٠/ ٣٥) فيستقيم المعنى بجعل «يكون» في قوله: «لجواز أن يكون ما يصرف...» تامة بمعنى: يوجد، كما ذكر الشهاب وابن التمجيد وكما شرحت في نسخة الطبلاوي على ما تقدم في التعليق السابق.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾: ليسَ عليكَ إلَّا الإنذارُ بما أُوحِيَ إليك ولا عليكَ رَدُّوا أو اقترَحُوا فما بالُكَ يضيقُ به صدرُكَ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ فتوكَّلْ عليهِ فإنَّه عالِمٌ بحَالِهِم وفاعلٌ بهم جزاءَ أَقوالِهم وأَفعالِهم.

(١٣) ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ «أم» مُنقَطِعَةٌ والهاء لِـ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾ ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ في البَيانِ وحُسنِ النَّظمِ، تَحدَّاهُم أَوَّلًا بعشرِ سُوَرٍ، ثمَّ لَمَّا عَجَزُوا عنها سَهَّلَ الأمرَ عليهم وتحدَّاهُم بسورَةٍ، وتوحيدُ المثلِ باعتبارِ كلٍّ واحدٍ.

﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾: مُختَلَقَاتٍ مِن عندِ أَنفُسِكُم إن صحَّ أَنِّي اختَلَقْتُه مِن عندِ نَفسي، فإنَّكُم عربٌ فُصَحاءُ مِثلي تَقدِرُونَ على مثلِ ما أَقدِرُ عليه، بَلْ أَنْتُم أقدَرُ لتَعَلُّمِكُم القصصَ والأشعارَ، وتعوُّدِكُم القَريضَ والنَّظمَ.

﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إلـى المعاونـةِ علـى المعارضَـةِ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنَّـه مُفْتَـرًى.

(١٤) ـ ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟﴾ بإتيانِ ما دَعَوْتُم إليه، وجمعُ الضَّميرِ: إمَّا لتَعظيمِ الرَّسولِ، أو لأنَّ المؤمنينَ أيضًا كانُوا يَتحَدَّوْنَهُم، وكانَ أمرُ الرَّسولِ متناولًا لَهُم مِن حيثُ إنَّه يجبُ اتِّباعُهُ عليهِم في كلِّ أمرٍ إلَّا ما خصَّهُ الدَّليلُ، وللتَّنبيهِ على أنَّ التَّحدِّيَ ممَّا يوجِبُ رُسوخَ إيمانِهِم وقوَّةَ يَقينِهِم فلا يغفلونَ عنه، ولذلك رتَّبَ عليهِ قوله:

﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾: مُلْتَبِسًا بما لا يعلَمُهُ إلَّا اللهُ ولا يقدِرُ عليه سِواهُ.

﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: واعلَمُوا أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ؛ لأنَّه العالمُ القادِرُ بما لا يعلَمُ ولا يقدِرُ عليه غيرُه، ولظهورِ عَجزِ آلِهَتِهِم، ولتَنصيصِ هذا الكلامِ الثَّابتِ صدقُهُ بإعجازِهِ عليه(١)، وفيه تَهديدٌ وإقناطٌ مِن أَنْ يُجيرَهُمْ مِن بأسِ اللهِ آلهتُهُم.

---

(١) قوله: «ولتنصيص هذا الكلام»؛ أي: وهو قوله: ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ «الثَّابت صدقه» صفة لـ(هذا الكلامِ) «بإعجازه» متعلق بـ(صدقُه) «عليه» متعلق بـ(تنصيص). انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٢٠٨).

﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾: ثابتونَ على الإسلامِ راسِخُونَ فيه مُخلِصُونَ إذا تَحقَّقَ عِندَكُم إعجازُهُ مُطلَقًا.

ويجوزُ أَنْ يكونَ الكُلُّ خطابًا للمُشركينَ، والضَّميرُ في ﴿لم يستجيبوا﴾ لِمَن استعظَمَ؛ أي: فإن لم يَستجِيبُوا لكم إلى المُظاهرَةِ لعَجزِهِم، وقد عَرَفْتُم مِن أنفُسِكُم القُصورَ عَن المُعارضَةِ، فاعلَمُوا أنَّه نظمٌ لا يَعْلَمُهُ إلَّا اللهُ، وأنَّه منزلٌ مِن عندِهِ، وأنَّ ما دَعاكُم إليه مِن التَّوحيدِ حقٌّ، فهل أنتم داخِلُونَ في الإسلامِ بعدَ قِيامِ الحُجَّةِ القاطِعَةِ؟ وفي مثلِ هذا الاستفهامِ إيجابٌ بَلِيغٌ؛ لِمَا فيه مِن مَعْنَى الطَّلبِ والتَّنبيهِ على قيامِ الموجِبِ وزوالِ العذرِ.

(١٥) ـ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ بإحسانِه وبِرِّهِ ﴿نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا﴾: نوصِلْ إليهِم جزاءَ أعمالِهِم في الدُّنْيا مِن الصِّحَّةِ والرِّئاسَةِ وسَعَةِ الرِّزقِ وكثرةِ الأَولادِ.

وقُرِئَ: «يُوَفِّ» بالياءِ[1]؛ أي: يُوَفِّ اللهُ.

و: «تُوَفَّ» على البناءِ للمَفعولِ[2].

و: «نُوفِي» بالتَّخفيفِ والرَّفعِ[3] لأنَّ الشَّرطَ ماضٍ؛ كقولِه:

---

(١) نسبت لطلحة بن مصرف وميمون بن مهران، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٤)، و«الكامل في القراءات» للهذلي (ص: ٥٧٠)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ١٥٦)، و«البحر» (١٢/ ٢٢٠).

(٢) أي: (تُوَفَّ إليهم أعمالُهم). انظر: «الكامل في القراءات» للهذلي (ص: ٥٧٠) عن الزعفراني، و«الكشاف» (٤/ ١١٩)، و«البحر» (١٢/ ٢٢٠) دون نسبة.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٤)، و«الكشاف» (٤/ ١١٩)، و«البحر» (١٢/ ٢٢١)، عن الحسن.

وَإِنْ أَتَاهُ كَرِيمٌ يَوْمَ مَسْغَبَةٍ يَقُولُ لَا غَائِبٌ مَالِي وَلَا حَرِمُ[1]

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾: لا يُنقصونَ شَيئًا مِن أُجورِهِم.

والآيةُ في أهلِ الرِّياءِ، وقيلَ: في المنافقينَ، وقيلَ: في الكفرةِ وبرِّهِم.

(١٦) - ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ مُطلَقًا في مُقابلَةِ ما عَمِلُوا؛ لأنَّهُم استَوْفَوْا ما تَقتَضِيهِ صُوَرُ أَعمالِهِم الحَسَنَةِ وبَقِيَتْ لَهُم أَوزارُ العَزائِمِ السَّيِّئَةِ.

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ لأنَّه لَمْ يبقَ لَهُ ثَوابٌ في الآخرةِ أو لَمْ يَكُن؛ لأنَّهُم لَمْ يُريدُوا بِهِ وجهَ اللهِ، والعُمدَةُ في اقتضاءِ ثوابِها هو الإخلاصُ، ويجوزُ تَعليقُ الظَّرفِ بـ﴿صَنَعُواْ﴾ على أنَّ الضَّميرَ للدُّنْيَا.

﴿وَبَٰطِلٌ﴾ في نفسِه ﴿مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ لأنَّه لَمْ يُعْمَل على ما يَنبَغِي، وكأنَّ كلَّ واحِدَةٍ مِن الجُملتينِ عِلَّةٌ لِمَا قبلَها.

وقُرِئَ: «وباطلًا»[2] على أنَّهُ مَفعولُ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ و«ما» إبهاميَّةٌ أو في مَعنى المصدرِ[3]؛ كقولِه:

وَلَا خَارِجًا مِن فِيَّ زُورُ كَلَامِ[4]

و: «بَطَلَ» على الفعلِ[5].

---

(١) هو من معلقة زهير بن أبي سلمى. انظر: «ديوان زهير» بشرح الشنتمري (ص: ١٥٣)، و«الكتاب» (٣/ ٦٦)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (٩/ ٧٠)، وتقدم عند تفسير الآية (٧٨) من سورة النساء.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٤) عن أبيٍّ، و«المحتسب» (١/ ٣٢٠) عن أبيٍّ وابن مسعود.

(٣) إبهاميَّةٌ بمعنى: وباطلاً أَيَّ باطلٍ كانوا يعملون، وبمعنى المصدر على: وبَطَل بُطلانًا ما كانوا يعملون. انظر: «الكشاف» (٤/ ١٢٠).

(٤) عجز بيت للفرزدق، وهو في ديوانه (٢/ ٢١٢)، و«الكتاب» (١/ ٣٤٦)، وأراد كما قال سيبويه: ولا يخرج خروجًا. وتقدم عند تفسير الآية (٧٩) من سورة النساء.

(٥) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٤)، و«البحر» (١٢/ ٢٢١)، عن يحيى بن يعمر وزيد بن علي.

(١٧) ـ ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾: برهانٍ مِن اللهِ يَدُلُّهُ على الحقِّ والصَّوابِ فيما يأتيهِ ويذَرُهُ، والهَمزَةُ لإنكارِ أن يُعْقَبَ مَن هذا شأنُهُ هؤلاءِ المُقصِرينَ هِمَمَهُم وأفكارَهُم على الدُّنيَا، وأن يُقارَبَ بينَهُم في المنزلةِ، وهو الَّذي أغنَى عَن ذكرِ الخبرِ وتَقديرُه: أفمَنْ كانَ على بَيِّنَةٍ كمَن يُريدُ الحياةَ الدُّنْيَا، وهو حكمٌ يَعُمُّ كلَّ مُؤمِنٍ مُخلِصٍ.

وقيلَ: المرادُ بِهِ النَّبيُّ عليهِ السَّلامُ، وقيلَ: مؤمِنُو أهلِ الكِتابِ.

﴿وَيَتْلُوهُ﴾: ويَتْبعُ ذلك البرهانَ الَّذي هـو دليلُ العَقْلِ ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾: شـاهـدٌ مِن اللهِ يشهَدُ بصِحَّتِه، وهو القُرآنُ ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾: ومِن قبلِ القُرآنِ ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ يعني: التَّوراةَ، فإنَّها أيضًا تَتْلُوهُ في التَّصديقِ.

أو البيِّنَةُ هو القرآنُ ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ مِن التِّلاوَةِ، والشَّاهِدُ جبريلُ أو لسانُ الرَّسولِ عليهِ السَّلامُ على أنَّ الضَّميرَ له، أو من التُّلُوِّ والشاهدُ ملكٌ يحفَظُهُ، والضَّميرُ في «يتلوهُ» إمَّا لـ«مَن»، أو للبيِّنَةِ باعتبارِ المعنى، ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ جملةٌ مبتدأَةٌ.

وقُرِئَ: «كتابَ» بالنَّصبِ[١] عَطْفًا على الضَّميرِ في ﴿يتلوه﴾؛ أي: يتلو القرآنَ شاهِدٌ ممَّنْ كانَ على بيِّنَةٍ دالَّةٍ على أنَّهُ حَقٌّ كقولِه: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأحقاف: ١٠] ويقرأُ من قبلِ القرآنِ التَّوراةَ.

﴿إِمَامًا﴾: كتابًا مُؤتَمًّا به في الدِّينِ ﴿وَرَحْمَةً﴾ على المنزلِ عليهِم؛ لأنَّهُ الوُصلَةُ إلى الفوزِ بخيرِ الدَّارينِ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى مَن كانَ على بَيِّنَةٍ ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾: بالقرآنِ ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ مِن أَهلِ مَكَّةَ ومَـن تحزَّبَ مَعَهُم على رَسولِ اللهِ ﷺ ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ يَرِدُها لا مَحالةَ.

---

(١) نسبت لمحمد بن السائب الكلبي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٤).

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾: مِن المَوعدِ، أو القرآنِ. وقُرِئَ «مُريَة» بالضَّمِّ[1]، وهما: الشكُّ.

﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لقِلَّةِ نَظَرِهم واختلالِ فِكْرِهم.

(١٨) ـ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ كأنْ أسندَ إليه ما لَمْ يُنزِلْهُ، أو نفى عنهُ ما أنزلَهُ ﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ في الموقفِ بأَنْ يُحبَسُوا وتُعْرَض أَعْمَالُهُم.

﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ﴾ من الملائكةِ والنَّبيِّينَ، أو مِن جَوارِحِهِم، وهو جمعُ شاهِدٍ كأَصحابٍ، أو شهيدٍ كأَشْرافٍ:

﴿هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ تهـويلٌ عظيمٌ ممَّا يحيقُ بهم حينئذٍ لظُلمِهِم بالكذبِ على اللهِ.

(١٩) ـ ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾: عَن دينِه ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾: ويصفونَها بالانحرافِ عَن الحقِّ والصَّوابِ، أو: يبغونَ أهلَها أَنْ يَعُوجُوا بالردَّةِ.

﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾: والحالُ أنَّهم كافرونَ بالآخرةِ، وتكريرُ ﴿هُمْ﴾ لتأكيدِ كُفْرِهِم واختصاصِهِم بهِ.

(٢٠) ـ ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: ما كانُوا مُعجزينَ اللهَ في الدُّنيَا أن يُعاقِبَهُم ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ يمنعونَهُم مِن العقابِ، ولكنَّه أَخَّرَ عِقابَهُم إلى هذا اليَومِ ليكونَ أشدَّ وأدوَمَ.

---

(١) نسبت لعلي رضي الله عنه والحسن وقتادة وأبي عبد الرحمن السُّلَمي وأبي رجاء وغيرهم، وهي لغة أسد وتميم، والكسر لغة أهل الحجاز. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٤)، و«الكامل» للهُذَلي (ص: ٥٧٠)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ١٥٩)، و«البحر» (١٢/ ٢٢٦).

﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ استئنافٌ. وقرأ ابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ ويعقوبُ: ﴿يُضعَّف﴾ بالتَّشديدِ[1].

﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ لتصامِّهم عن الحقِّ وبُغضِهم له ﴿وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾ لتَعامِيهِم عَن آياتِ اللهِ، وكأنَّهُ العِلَّةُ في مُضاعفَةِ العَذابِ.

وقيلَ: هو بيانُ ما نفاهُ مِن وِلايَةِ الآلهةِ بقولِه: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ فإنَّ ما لا يسمَعُ ولا يُبصِرُ لا يَصلُحُ للوِلايةِ، وقولُه: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ اعتراضٌ.

(٢١) ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ باشتراءِ عبادةِ الآلهَةِ بعبادةِ اللهِ.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ مِن الآلهةِ وشَفاعتِها.

أو: خسرُوا بما بدَّلُوا وضاعَ عَنْهُم ما حصَّلُوا، فلم يبقَ مَعَهُم سِوَى الحَسرةِ والنَّدامَةِ.

(٢٢) ـ ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ لا أحدَ أبينُ وأكثرُ خُسرانًا مِنْهُم.

(٢٣) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: اطمأنُّوا إليه وخَشَعُوا له، من الخَبْتِ: وهو الأرضُ المُطمَئِنَّةُ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: دائمونَ.

(٢٤) ـ ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾: الكافرِ والمُؤمنِ ﴿كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ يجوزُ أَنْ يُرادَ بهِ:

تَشبيهُ الكافرِ بالأَعْمَى لتَعاميهِ عَن آياتِ اللهِ، وبالأصمِّ لتَصامِّه عَن استِماعِ كَلامِ

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ١٨٤ ـ ١٨٥)، و«التيسير» (ص: ٨١)، و«النشر» (٢/ ٢٢٨).

اللهِ وتَأَبِّيهِ عَن تَدبُّرِ مَعانيه، وتَشبيهُ المُؤمِنِ بالسَّميعِ والبَصيرِ لأنَّ أمرَهُ بالضِّدِّ، فيكونُ كلٌّ مِنْهُما مُشبَّهًا باثنينِ باعتبارِ وَصفينِ.

أو تَشبيهُ الكافرِ بالجامعِ بين العَمَى والصَّممِ والمؤمنِ بالجامعِ بينَ ضِدَّيْهِمَا، والعاطفُ لعطفِ الصِّفَةِ على الصِّفَةِ كقولِه:

الصَّابِـــحِ فالغَانِـــمِ فالآيِـــبِ[1]

وهذا مِن بابِ اللفِّ والطِّباقِ.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾: هل يَستَوِي الفَريقانِ ﴿مَثَلًا﴾؛ أي: تمثيلًا[2]، أو صِفَةً، أو حالًا.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ بضَربِ الأمثالِ والتَّأمُّلِ فيها.

(٢٥) ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نوحًا إلى قومِهِ أَنِّي لَكُمْ﴾ بأَنِّي لَكُم. وقرأَ نافِعٌ وعاصِمٌ وابنُ عامرٍ وحمزةُ بالكسرِ[3] على إرادةِ القَولِ.

---

(١) قطعة من بيت لابن زيابة التيمي، وهو في «الحماسة» بشرح المرزوقي (ص: ١٠٩)، و«خزانة الأدب» (٥/ ١١٠)، وتقدم عند تفسير الآية (٤) من سورة البقرة. وتمامه:

يَـا لَهـفَ زَيَّابَـةَ للحـارِثِ الصْـ ... ـصَـابِـحِ فالـغَـانِـم فالآيِـبِ

(٢) في نسخة الطبلاوي: «ممثلًا»، ومثله في «حاشية القونوي» (١٠/ ٦٠)، و«حاشية الأنصاري» (٣/ ٢١٤)، والمثبت من باقي النسخ وهو الموافق لما في «حاشية الشهاب»، و«حاشية شيخ زاده» (٤/ ٦٣٦)، وذكر شيخ زاده أنه على هذا يكون المثل اسما بمعنى التمثيل كالسلام بمعنى التسليم. قال: «و﴿مَثَلًا﴾ تمييز منقول عن الفاعل، والأصل: هل يستوي مثَلُهما؛ أي: تشبيههما».

قلت: ولفظ الزمخشري في «الكشاف» (٤/ ١٢٦): «﴿مَثَلًا﴾ تشبيها» يؤيد هذا، و«ممثلاً» يحتمل المصدرية فيكون كالتمثيل، ويحتمل أن يكون اسم مفعول وإليه يشير كلام القونوي حيث قال: والمعنى: «لا يستويان ممثلاً إذ ممثَّل الأول هو الكافر كالجامع بين العمى والصمم، وممثَّل الثاني المؤمن كالجامع بين السمع والبصر النافعين». وعلى كل فالمؤدى واحد.

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٢)، و«التيسير» (ص: ١٢٤).

﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾: أبيِّنُ لكُم مُوجباتِ العَذابِ ووجهَ الخَلاصِ.

(٢٦) ـ ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ بدلٌ مِن ﴿أَنِّي لَكُمْ﴾[1] أو مفعولُ ﴿مُّبِينٌ﴾، ويجوزُ أَنْ تكونَ ﴿أَن﴾ مُفسِّرَةً مُتعلِّقَةً بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾ أو بـ﴿نَذِيرٌ﴾.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٖ﴾: مؤلِم، وهو في الحقيقةِ صِفَةُ المعذِّب[2]، لكنْ يُوصفُ به العذابُ وزمانُه على طريقةِ: «جَدَّ جِدُّهُ» و«نهارُكَ صائِمٌ» للمُبالَغَةِ.

(٢٧) ـ ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثْلَنَا﴾ لا مَزيَّةَ لكَ علينا تَخُصُّكَ بالنبوَّةِ ووجوبِ الطَّاعةِ.

﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾: أَخِسَّاؤُنا، جمعُ أَرْذَلَ فإنَّه بالغَلَبَةِ صارَ مِثلَ الاسمِ كالأكبرِ، أو أرذُلٍ جمعُ رَذْلٍ.

﴿بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾: ظاهرَ الرَّأيِ مِن غيرِ تَعَمُّقٍ؛ مِن البُدُوِّ، أو: أولَ الرَّأيِ مِن البدءِ، والياءُ مُبدلَةٌ مِن الهمزةِ لانكسارِ ما قبلَها.

وقرأَ أبو عَمرٍو بالهمزِ[3].

وانتصابُهُ بالظَّرفِ على حَذفِ المُضافِ؛ أي: وقتَ حُدوثِ بادي الرَّأيِ، والعاملُ فيه: ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾ وإنَّما استَرْذَلُوهُم لذلك، أو لفَقْرِهم فإنَّهم لَمَّا لم يَعْلَمُوا إلَّا ظاهرًا مِن الحياةِ الدُّنيا كانَ الأحظُّ بها أشرَفَ عِنْدَهُم والمحرومُ مِنْهَا أرذَلَ.

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ﴾: لك ولِمُتَّبِعيكَ[4] ﴿عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ يُؤهِّلُكُم للنُّبُوَّةِ واستحقاقِ المُتابعَةِ.

---

(١) البدلية على قراءة الفتح. انظر: «حاشية الشهاب».

(٢) بكسر الذال المشددة؛ أي: الله لأنه الموجد للألم. انظر: «حاشية الشهاب».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٢)، و«التيسير» (ص: ١٢٤).

(٤) في نسخة الطبلاوي والخيالي: «لك ولمن اتَّبعك».

﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ إيَّاكَ في دَعْوَى النُّبوَّةِ وإيَّاهُم في دَعْوَى العلمِ بصِدْقِكَ، فغلَّبَ المخاطبُ على الغائبينَ.

(٢٨) ـ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ﴾: أَخبِرُوني ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾: حجَّةٍ شاهِدَةٍ بصِحَّةِ دَعْوَايَ ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ بإيتاءِ البيِّنَةِ أو النبوَّةِ ﴿فعَمِيَتْ عليكُمْ﴾: فخَفِيَتْ عليكُم فلَم تَهْدِكُم، وتوحيدُ الضَّميرِ لأنَّ البَيِّنَةَ في نَفسِها هي الرَّحمَةُ، أو لأنَّ خفاءَهَا يوجِبُ خفاءَ النُّبوَّةِ، أو على تقديرِ: فعَمِيَتْ عليكُم بعدَ البَيِّنَةِ، وحذفُها للاختصارِ، أو لأنَّه لكلِّ واحدَةٍ مِنْهُما.

وقرأَ حمزةُ والكِسائيُّ وحَفصٌ: ﴿فَعُمِّيَتْ﴾[1]؛ أي: أُخْفِيَت.

وقُرِئَ: «فعَمَّاهَا»[2] على أنَّ الفعلَ للهِ.

﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾: أَنُلْزِمُكُم على الاهتداءِ بها ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ لا تختارونَها ولا تَتأمَّلُونَ فيها؟ وحيثُ اجتمعَ ضميرانِ وليسَ أَحدُهُما مرفوعًا وقدِّمَ الأعرفُ مِنْهُما جازَ في الثَّاني الفَصْلُ والوَصْلُ.

(٢٩) ـ ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾: على التَّبليغِ، وهو وإنْ لم يَذْكُر فمعلومٌ ممَّا ذُكرَ ﴿مَالًا﴾: جعلًا ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ فإنَّهُ المَأمولُ مِنه.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ جوابٌ لَهُم حينَ سَألوا طردَهُم ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ فيخاصِمونَ طارِدَهُم عندَهُ، أو: إنهم يلاقونَهُ ويَفوزونَ بقُربِهِ فكيفَ أطردُهُم؟

﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ بلقاءِ رَبِّكُم، أو: بأقدارِهِم، أو: في الْتماسِ طَردِهِم، أو: تتسفَّهُونَ عليهِمْ بأنْ تَدْعوهُم أراذِلَ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٢)، و«التيسير» (ص: ١٢٤).

(٢) نسبت لأبي وابن مسعود رضي الله عنهما. انظر: «تفسير الطبري» (١٢/ ٣٨٢)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٤).

(٣٠) ـ ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ بدفعِ انتِقامِه ﴿إِن طَرَدتُّهُمۡ﴾ وهم بتلكَ الصِّفَةِ والمثابةِ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ لتعرِفُوا أنَّ الْتِماسَ طَردِهِم وتوقيفَ الإيمانِ عليه ليسَ بصَوابٍ.

(٣١) ـ ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾: رزقُهُ وأموالُه حتَّى جَحَدْتُم فَضْلِي ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ عطفٌ على ﴿عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ولا أقولُ لكم: أنا أعلَمُ الغيبَ، حتَّى تكذبوني استبعادًا، أو حتَّى أعلَمَ أنَّ هؤلاءِ اتَّبعوني باديَ الرَّأيِ مِن غيرِ بَصيرَةٍ ولا عقدِ قلبٍ، وعلى الثَّاني يجوزُ عَطْفُه على ﴿أَقُولُ﴾.

﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ حتَّى تَقولُوا: ما أنتَ إلَّا بشرٌ مِثلُنا.

﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ﴾: ولا أقولُ في شأنِ مَن استَرْذَلْتُمُوهُم لفَقرِهِم: ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًا﴾ فإنَّ ما أعدَّه اللهُ لَهُم في الآخرةِ خَيرٌ ممَّا آتاكُمْ في الدُّنيَا.

﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إن قلت شيئًا مِن ذلك.

والازدراءُ: افْتِعالٌ مِن زَرَى عليه: إذا عابَهُ، قُلِبَت تاؤُه دَالًا لتُجانِسِ الزَّايَ في الجَهرِ، وإسنادُهُ إلى الأعيُنِ للمُبالغَةِ، والتَّنبيهِ على أنَّهُم استَرْذَلُوهُم بادِيَ الرُّؤيَةِ مِن غيرِ رَوِيَّةٍ بما عايَنُوا مِن رَثاثَةِ حالِهِم وقِلَّةِ مَنالِهِم دونَ تَأمُّلٍ في مَعانيهِم وكَمالاتِهِم.

(٣٢) ـ ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا﴾: خاصَمْتَنا ﴿فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾: فأطَلْتَه، أو أتيتَ بأنواعِه ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ مِن العَذابِ ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في الدَّعوَى والوَعيدِ، فإنَّ مُناظرتَكَ لا تُؤثِّرُ فينا.

(٣٣) ـ ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ عاجلًا أو آجِلًا ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ بدفعِ العَذابِ أو الهربِ مِنه.

(٣٤) ـ ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ﴾ شرطٌ ودليلُ جوابٍ، والجملةُ

دليلُ جوابِ قولِه: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ وتقديرُ الكلامِ: إنْ كانَ اللهُ يريدُ أَنْ يُغوِيَكُم فإِنْ أردْتُ أنْ أنصَحَ لَكُم لا يَنفَعُكُم نُصحِي، ولذلك نقول: لو قالَ الرَّجلُ: «أنتِ طالِقٌ إنْ دَخَلْتِ الدَّارَ إنْ كَلَّمْتِ زَيْدًا» فدَخَلَتْ ثمَّ كَلَّمَتْ لم تَطْلُق، وهو جوابٌ لِمَا أَوهَموا مِن أنَّ جدالَه كَلامٌ بلَا طائلٍ، وهو دليلٌ على أنَّ إرادَةَ اللهِ يَصِحُّ تَعلُّقُها بالإغواءِ وأنَّ خِلافَ مُرادِه مُحالٌ.

وقيلَ: ﴿أَن يُغْوِيَكُمْ﴾: أَنْ يُهْلِكَكُم، مِن غَوِيَ الفَصِيلُ غَوًى: إذا بَشِمَ فهَلَك.

﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾: خالقُكُم والمُتصرِّفُ فيكُم وَفْقَ إرادَتِه ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيُجازِيكُم على أَعمالِكُم.

(٣٥) ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى﴾: وبالُه. وقُرِئَ: «أَجْرامِي» على الجمعِ[1].

﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾: مِن إجرامِكُم في إسنادِ الافتراءِ إليَّ.

(٣٦) ـ ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أَقْنَطَهُ اللهُ مِن إيمانِهم ونَهاهُ أَنْ يَغْتَمَّ بما فَعَلُوهُ مِن التَّكذيبِ والإيذاءِ.

(٣٧) ـ ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾: مُلْتَبِسًا بأعيُنِنا، عبَّرَ بكثرَةِ آلةِ الحسِّ ـ الَّذي به يُحفظُ الشَّيءُ ويُراعَى عَن الاختلالِ والزَّيغِ ـ عن المُبالغَةِ في الحفظِ والرِّعايَةِ على طريقَةِ التَّمثيلِ.

﴿وَوَحْيِنَا﴾ إليكَ كيفَ تَصْنَعُها.

---

(١) نسبها الهذلي في «الكامل في القراءات» (ص: ٣٨٨) للزعفراني، وذكرها ابن خالويه في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٤) وقال: حكاه الفراء. وبالعودة لـ«معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٣) فهو لم يذكرها قراءة بل تجويزًا في المعنى، ولفظه: وجاء فِي التفسير: فَعَلَيَّ آثامي، فلو قرئت: (أجرامي) على التفسير كَانَ صوابًا.

﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾: وَلَا تُراجِعْنِي فيهِمْ ولا تَدْعُنِي باستدفاعِ العَذابِ عَنْهُم.

﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾: محكومٌ عَلَيهِم بالإغراقِ فلا سبيلَ إلى كَفِّهِ.

(٣٨) ـ ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ حكايةُ حالٍ ماضيَةٍ ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ﴾: استهزَؤُوا به بعمَلِه[١] السَّفينةَ؛ فإنَّه كانَ يَعمَلُها في برِّيَّةٍ بَعيدَةٍ مِن الماءِ أوانَ عزَّتِه، وكانُوا يضحَكُونَ مِنهُ ويقولون: صِرتَ نَجَّارًا بعدما كنتَ نبيًّا.

﴿قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ إذا أخذَكُم الغرَقُ في الدُّنيا والحَرْقُ في الآخرةِ، وقيلَ: المرادُ بالسُّخريةِ الاستِجْهَالُ.

(٣٩) ـ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ يعني به إيَّاهُم وبالعذابِ الغرقَ ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾: وينزلُ، أو: يَحِلُّ عليه حلولَ الدَّينِ الَّذي لا انفكاكَ عنه ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾: دائمٌ وهو عذابُ النَّارِ.

(٤٠) ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ غايةٌ لقولِه: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ وما بينَهُما حالٌ مِن الضَّميرِ فيه، أو ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هي الَّتي يَبتَدِئُ بعدَها الكلامُ.

﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾: نبعَ الماءُ مِنْهُ وارتفَعَ كالقِدْرِ تفورُ، و﴿ٱلتَّنُّورُ﴾: تَنُّورُ الخُبزِ، ابتدأَ منهُ النُّبوعُ على خرقِ العادةِ، وكانَ في الكوفَةِ في موضعِ مَسجِدِهَا[٢]، أو في الهندِ[٣]، أو بعينِ وردَةَ مِن أرضِ الجزيرةِ[٤].

---

(١) في نسخة التفتازاني: «لعمله». وعبارة «الكشاف»: ﴿سَخِرُواْ مِنْهُ﴾ ومن عمله السفينة.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٢٨) عن محمد بن علي بلفظ: فار التَّنُّورُ مِن مسجدِ الكوفة مِن قِبَلِ أبوابِ كِنْدَةَ. وقال: وروي عن حذيفة والشعبي ومجاهد نحو ذلك، وقد روي عن علي. وروى الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٠٥) عن الشعبي: أنه كان يحلف بالله ما فار التَّنُّور إلا من ناحية الكوفة.

(٣) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٣١١) من طريق النَّضرِ أبي عمرَ الخَزَّاز، عن عكرمةَ، عن ابن عباسٍ. وصححه، فتعقبه الذهبي بقوله: النضر ضعفوه.

(٤) عين وردة: هو رأس عين المدينة المشهورة بالجزيرة. انظر: «معجم البلدان» (٤/ ٤٧ و١٨٠). =

وقيلَ: ﴿ٱلتَّنُّورُ﴾: وَجهُ الأَرضِ، أو أشرفُ مَوضِعٍ فيهَا.

﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا﴾: في السَّفينَةِ ﴿مِن كُلٍّ﴾: مِـن كـلِّ نَوعٍ مِـن الحيواناتِ المُنتفَعِ بها ﴿زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾: ذكرٍ وأُنثى، هذا على قراءَةِ حَفْصٍ، والباقونَ أَضَافُوا[1] على مَعنى: احملِ اثنينِ من كلِّ زوجين؛ من كلِّ صنفٍ ذكرٍ ومن كلِّ صِنفٍ أُنثى.

﴿وَأَهْلَكَ﴾ عطفٌ على ﴿زَوْجَيْنِ﴾ أو ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ والمرادُ: امرأَتُه وبنوهُ ونِساؤُهُم.

﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ بأنَّه مِن المُغرقينَ، يريدُ ابنَه كنعانَ وأُمَّهُ واعلةَ فإنَّهما كانا كافِرَينِ.

﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾: والمؤمنينَ مِـن غَيرِهِم ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ كانُوا تِسعةً وسبعينَ: زوجتُهُ المسلمَةُ وبنوه الثَّلاثَةُ حامٌ وسامٌ ويافِثُ ونساؤُهُم، واثنانِ وسَبعونَ رَجُلًا وامرأَةً مِن غيرهِم[2].

رُوِيَ أنَّه عليهِ السَّلامُ اتَّخذَ السَّفينَةَ في سنتينِ من السَّاجِ، وكانَ طُولُها ثَلاثَ مئةِ ذراعٍ وعرضُها خمسينَ، وسمكُها ثلاثينَ، وجعلَ لها ثلاثةَ بُطونٍ، فحملَ في أسفَلِهَا الدَّوابَّ والوحشَ، وفي أوسَطِها الإنسَ، وفي أعلاهَا الطَّيرَ[3].

= وروى ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٢٩) من طريق عكرمة عن ابن عباس: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾: العين التي بالجزيرة عين الوردة.

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٣)، و«التيسير» (ص: ١٢٤).

(٢) رواه بنحوه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٤١)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٢/ ٢٤٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما من طريق الكلبي، وفيه: فركب نوح السفينة معه بنوه هؤلاء (أي: الثلاثة المذكورين) وكنائنه نساء بنيه هؤلاء وثلاثة وسبعون من بني شيث ممن آمن به فكانوا ثمانين في السفينة.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٣٥٢)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ١٧٤)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (٨/ ١٩٧)، عن ابن عباس.

(٤١) ـ ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾؛ أي: صِيرُوا فيها، وجعلَ ذلك ركوبًا لأنَّها في الماءِ كالمركوبِ في الأرضِ ﴿بسم الله مُجْراها ومُرْساها﴾ مُتَّصِلٌ بـ﴿ٱرۡكَبُواْ﴾ حالٌ مِن الواوِ؛ أي: اركَبُوا فيها مُسَمِّينَ اللهَ، أو قائلينَ: باسم اللهِ وقتَ جريِها وإرسائِهَا، أو مكانَهُما، على أنَّ المُجرَى والمُرسَى للوَقتِ أو المكانِ، أو للمصدرِ والمضافُ مَحذوفٌ كقَوْلِهم: آتيك خفوقَ النَّجمِ(١).

وانتِصابُهُما بمَا قدَّرْناهُ حالًا(٢)، ويجوزُ رَفعُهُما بـ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾(٣) على أنَّ المرادَ بهما المصدَرُ، أو جُملَةٌ مِن مُبتدَأٍ وخبرٍ؛ أي: إجراؤُهَا بسمِ اللهِ، على أنَّ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ خبرٌ، أو صِلَةٌ والخبرُ مَحذوفٌ(٤)، وهي إمَّا جُملَةٌ مُقتضَبةٌ لا تعلقَ لها بما قبلَها، أو حالٌ مُقدَّرَةٌ مِن الواوِ أو الهاءِ(٥).

---

(١) قوله: «أو للمصدر، والمضاف محذوف» تقديره: وقتَ إجرائها وإرسائها. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٢٢١).

قلت: فهو على هذا عائد إلى معنى الوقت في المجرى والمرسى، ويدل عليه عبارة «الكشاف» (٤/ ١٤١) ففيه: اركبوا فيها مُسمِّينَ اللهَ، أو قائلين: بسم الله وقتَ إجرائها ووقت إرسائها، إما لأن المُجرى والمُرْسى للوقت، وإمَّا لأنهما مصدران كالإجراء والإِرْساء حُذف منهما الوقتُ المضاف؛ كقولهم: خُفوقَ النَّجم ومَقْدَمَ الحاجِّ، ويجوز أن يراد مكانُ الإجراء والإرساء.

(٢) قوله: «وانتصابهما بما قدرناه حالًا»؛ أي: وهو «مسمِّينَ اللهَ»، أو «قائلِينَ: باسمِ اللهِ». انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٢٢١).

(٣) قوله: «ويجوز رفعهما»؛ أي: على الفاعلية (بـ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾)؛ أي: استقرَّ باسم الله إجراؤها وإرساؤها. المصدر السابق.

(٤) قوله: «أو صلةٌ»؛ أي: أو صلة الإجراء والإرساء على أنهما مصدران «والخبر محذوف» تقديرُه: إجراؤها وإرساؤها بسم الله واقعان أو كائنان. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١٠/ ٨٢).

(٥) قوله: «أو حال مقدرة»؛ بمعنى: اركبوا فيها مقدِّرين الإجراء والإرساء؛ لأنهما لم يكونا حالَ الركوب فيها؛ كقولك: اركب الفرسَ سائراً على اسم الله. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٢٢١).

ورُوِيَ أنَّه كانَ إذا أرادَ أَنْ تَجرِيَ قالَ: بسمِ اللهِ، فجَرَتْ، وإن أرادَ أن تَرْسُوَ قالَ: بسمِ اللهِ، فرَسَتْ[1].

ويجوزُ أَنْ يكونَ الاسمُ مُقحَمًا كقولِه:

ثـمَّ اسـمُ السَّـلامُ عَلَيْكُمَـا[2]

وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ وعاصِمٌ بروايَةِ حفصٍ: ﴿مجريها﴾ بالفتحِ مِن جرى[3].

وقُرِئَ: «مَرساها» أيضًا مِن رَسَا، وكلاهِمُا يَحتمِلُ الثَّلاثةَ[4].

و: «مُجريهَا ومُرْسِيها» بلفظِ الفاعلِ[5] صِفَتينِ لله.

﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: لولا مَغفِرَتُه لفَرَطاتِكُم ورَحمَتُه إيَّاكُم لَمَا نَجَّاكُم.

(٤٢) ـ ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾ مُتَّصِلٌ بمَحذوفٍ دلَّ عليه ﴿ارْكَبُوا﴾؛ أي: فرَكِبُوا مُسـمِّينَ وهـي تَجرِي وهُم فيهـا ﴿فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾: فـي مَوجٍ مِـن الطُّوفانِ، وهو

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (١٢/ ٤١٦) عن الضحاك.

(٢) جزء من بيت للبيد بن ربيعة الشاعر المشهور، وهو في «ديوانه» (ص: ٥١)، و«الكشاف» (٤/ ١٤١)، وتمامه:

إلى الحول ثم اسمُ السلام عليكما ... ومَن يَبْكِ حولًا كاملًا فقد اعتذرْ

قال الزمخشري: ويراد: بالله إجراؤها وإرساؤها؛ أي: بقدرته وأمره.

(٣) وباقي السبعة بالضم، واتفق العشرة على ضم الميم في ﴿مُرساها﴾. انظر: «التيسير» (ص: ١٢٤)، و«النشر» (٢/ ٢٨٨).

(٤) أي: (مَجْراها ومَرْساها) بفتح الميم من جَرَى ورَسَى: إما مصدرين، أو وقتين، أو مكانين. نسبت لابن مسعود وعيسى الثقفي والأعمش وغيرهم. انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٦٩)، و«الكشاف» (٤/ ١٤٢)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ١٧٢)، و«البحر» (١٢/ ٢٦٠).

(٥) نسبت لمجاهد. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٤)، و«الكشاف» (٤/ ١٤٢)، و«البحر» (١٢/ ٢٦٠).

مـا يرتفِعُ مِـن الماءِ عنـدَ اضطِرَابِه كلُّ مَوجَـةٍ مِنْهَا كجَبَـلٍ في تَراكُمِهَـا وارتِفاعِهَا.

وما قيلَ مِن أنَّ الماءَ طَبَّقَ ما بينَ السَّماءِ والأَرضِ وكانَت السَّفينَةُ تجري في جَوفِه= ليسَ بثابتٍ، والمشهورُ أنَّه علا شوامِخَ الجبالِ خمسةَ عشرَ ذِرَاعًا، وإن صَحَّ فلعلَّ ذلك قبلَ التَّطبيقِ.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ كنعانَ. وقُرِئَ: «ابنَها»، و: «ابنَهَ» بحذفِ الأَلفِ[1]، على أنَّ الضَّميرَ لامرأتِه وكانَ رَبيبَهُ.

وقيلَ: كانَ لغيرِ رِشدَةٍ لقولِه تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾[التحريم: ١٠][2]. وهو خَطَأٌ؛ إذ الأنبياءُ عُصِمَت مِن ذلك، والمرادُ بالخيانَةِ: الخيانةُ في الدِّينِ.

وقُرِئَ: «ابناه» على النُّدبةِ[3]، ولكونِها حِكايةً سُوِّغَ حذفُ الحرفِ.

﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ عزلَ فيه نفسَهُ عَن أبيهِ أو عَن دِينِهِ، مَفْعِلٌ للمَكانِ مِن عَزَلَهُ عنهُ: إذا أبعدَه:

﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ فـي السَّـفينَةِ، والجُمهـورُ كَسَـرُوا اليـاءَ ليَـدُلَّ علـى ياءِ الإضافَـةِ المَحذوفَـةِ فـي جميـعِ القـرآنِ، غيـرَ ابنِ كثيـرٍ فإنَّه وقـفَ عليها فـي لُقمانَ فـي الموضـعِ الأوَّلِ باتِّفاقِ الـرُّواةِ، وفي الثَّالثِ في روايـةِ قُنْبُلٍ[4]، وعاصِـمٍ فإنَّه فتحَ

---

(١) القراءتان في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٥)، و«المحتسب» (١/ ٣٢٢)، و«الكشاف» (٤/ ١٤٣) الأولى عن عليٍّ رضي الله عنه، والثانية عن محمد بن عليٍّ وعروة بن الزبير.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٢٧)، ولفظه: «عن سعيد عن قتادة قال: سمعت الحسن، يقرأ هذه الآية: (إنه ليس من أهلك إنه عَمِلَ غيرَ صالحٍ)، فقال عند ذلك: والله ما كان ابنه، ثم قرأ هذه الآية: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠] قال سعيد: فذكرت ذلك لقتادة، قال: ما كان ينبغي له أن يحلف».

(٣) نسبت للسدي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٥)، و«المحتسب» (١/ ٣٢٢).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٤)، و«النشر» (٢/ ٢٨٩).

هاهنـا اقتصـارًا علـى الفَتحِ مِن الألـفِ المبدلَةِ مِن يـاءِ الإضافَةِ، واختلـفَ الرواةُ عنه في سـائرِ المَواضعِ[1].

وقد أدغمَ الباءَ في الميمِ أبو عمرٍو والكِسائيُّ وحَفْصٌ لتَقارُبِهِمَا[2].

﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في الدِّينِ أو الانعزالِ[3].

(٤٣) ـ ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ أَنْ يُغـرِقَنِي ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾: إلَّا الرَّاحِـمُ وهـوَ اللهُ تَعالـى، أو: إلَّا مـكانَ مَـن رَحِمَهُـم اللهُ وهُـم المُؤمنـونَ، ردَّ بذلـك أن يكـونَ اليـومَ مُعتصَـمٌ مِن جبـلٍ ونحوِه يعصِـمُ اللائـذَ بـه إلَّا مُعتصَـمَ المؤمنين وهوَ السَّـفينَةُ.

وقيلَ: ﴿لَا عَاصِمَ﴾ بمَعنى: لا ذا عِصْمَةٍ؛ كقولِه: ﴿فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١].

وقيلَ: الاستثناءُ مُنقَطِعٌ؛ أي: لكِنْ مَن رَحِمَهُ اللهُ يَعصِمُه.

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾: بينَ نُوحٍ وابنِه، أو بين ابنِه والجبلِ ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾: فصارَ مِن المُهلَكِينَ بالماءِ.

(٤٤) ـ ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ نودِيَا بما يُنادَى به أُولو العِلمِ، وأُمِرَا بمَا يُؤمَرُونَ، تمثيلًا لكَمالِ قُدرَتِه وانقيادِهِما لِمَا يشاءُ تَكوينَهُ فيهِمَا بالآمرِ

---

(١) روى حفص عن عاصم فتحَ الياء في كلِّ القرآن، وروى أبو بكر عنه فتحَ الياء هنا فقط، وكَسْرَها في سائر القرآن. انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٤)، و«التيسير» (ص: ١٢٤).

(٢) قرأ بالإظهار قالون والبزي وخلادٌ بخُلف عنهم، وقرأه بالإظهار بلا خلافٍ ورش وابن عامر، وخَلَف عن حمزة، وفي اختياره، وأبو جعفر، والباقون بالإدغام قولًا واحدًا، وهم: قنبل ويعقوب وأبو عمرو والكسائي وعاصم. انظر: «التيسير» (ص: ٤٥)، و«النشر» (٢/ ١١)، و«البدور الزاهرة» (ص: ١٥٦).

(٣) في نسخة الخيالي: «والاعتزال».

المُطاعِ الَّذي يأمرُ المنقادَ لِحُكمِه المُبادِرَ إلى امتثالِ أمرِه؛ مَهابةً مِن عَظَمَتِه وخَشيةً مِن أليمِ عِقابِهِ.

والبَلْعُ: النَّشْفُ،، والإقلاعُ: الإمساكُ.

﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾: نقصَ ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ وأُنجزَ ما وعدَ مِن إهلاكِ الكافرينَ وإنجاءِ المُؤمنينَ.

﴿وَٱسْتَوَتْ﴾: واستقرَّتِ السَّفينةُ ﴿عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾: جبلٌ بالموصلِ، وقيلَ: بالشَّامِ، وقيلَ: بآمُل.

رُوِيَ أنَّه ركبَ السَّفينَةَ عاشرَ رجبٍ ونزلَ عنهَا عاشِرَ المحرَّمِ، فصامَ ذلك اليومَ وصارَتْ سُنَّةً[1].

﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: هلاكًا لَهُم، يُقال: بَعِدَ بُعْدًا وبَعَدًا: إذا أَبْعدَ بُعدًا بعيدًا بحيثُ لا يُرجَى عَوْدُه، ثمَّ استُعيرَ للهَلاكِ وخُصَّ بدُعاءِ السُّوءِ.

والآيةُ في غايةِ الفَصاحَةِ؛ لفَخامةِ لفظِهَا وحُسنِ نَظمِهَا، والدَّلالةِ على كُنْهِ الحالِ مع الإيجازِ الخالي عَن الإخلالِ، وفي إيرادِ الأخبارِ على البناءِ للمَفعولِ دلالةٌ على تَعظيمِ الفاعلِ، وأنَّه مُتعيِّنٌ في نفسِهِ مُستَغْنٍ عَن ذكرِه إذ لا يذهَبُ الوَهمُ إلى غيرِه؛ للعلمِ بأنَّ مِثلَ هذه الأَفعالِ لا يَقدِرُ عليه سِوَى الواحدِ القَهَّارِ.

(٤٥) ـ ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾: وأرادَ نِداءَهُ، بدَليلِ عَطفِ قولِه: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ فإنَّهُ نِداءٌ.

﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾: وإنَّ كلَّ وَعْدٍ تَعِدُهُ حقٌّ لا يَتطرَّقُ إليه الخُلْفُ، وقد

---

(١) قطعة من خبر طويل رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٤٠ ـ ٤١) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. ورواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٢٠) عن قتادة بلفظ: هبط نوح من السفينة يوم العاشر من المحرم، فقال لمن معه: من كان منكم اليوم صائمًا فليتم صومه، ومن كان مفطرًا فليصم.

وعـدتَ أَنْ تُنْجِـيَ أهلِـي فمـا حالُه؟ أو: فما لـه لم يَنْجُ؟ ويجـوزُ أَنْ يكونَ هـذا النِّداءُ قبـلَ غَرَقِه.

﴿وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ لأنَّك أعلَمُهُم وأعدَلُهُم، أو لأنَّكَ أكثَرُ حِكْمَةً مِن ذَوِي الحِكَمِ، على أنَّ الحاكِمَ مِن الحكمَةِ كالدَّارِعِ مِن الدِّرعِ.

(٤٦) ـ ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ لقطعِ الوِلايَةِ بينَ المُؤمِنِ والكافرِ، وأشارَ إليهِ بقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ فإنَّه تَعليلٌ لنَفْيِ كونِه مِن أَهلِهِ، وأَصلُهُ: إنَّه ذو عَمَلٍ فاسِدٍ، فجعلَ ذاتَهُ ذاتَ العملِ للمُبالغَةِ كقولِ الخَنساءِ تَصِفُ ناقَةً:

تَرْتَـعُ مَـا رَتَـعَتْ حَـتَّـى إِذَا ادَّكَـرَتْ ... فَـإِنَّـمَـا هِـيَ إِقْبَـالٌ وَإِدْبَـارُ[1]

ثمَّ بدَّلَ الفاسِدَ بغيرِ الصَّالحِ تَصْرِيحًا بالمناقضَةِ بينَ وَصفَيْهِمَا، وانتفاءِ ما أوجبَ النَّجاةَ لِمَن نَجا مِن أَهلِه عَنْه.

وقرأَ الكِسائيُّ ويعقوب: ﴿إِنَّه عَمِلَ غيرَ صالحٍ﴾[2]؛ أي: عَمِلَ عَمَلًا غيرَ صالحٍ.

﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾: ما لا تعلَمُ أصوابٌ هو أم ليسَ كذلك؟ وإنَّما سَمَّى نِداءَهُ سُؤالًا لتضمُّنِ ذكرِ الوعدِ بنَجاةِ أهلِهِ استنجازَهُ في شأنِ وَلدِه، أو استفسارَ المانعِ للإنجازِ في حقِّهِ، وإنَّما سَمَّاه جَهلًا وزجرَ عنه بقولِه: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ لأنَّ استثناءَ مَن سبقَ عليه القولُ مِن أهلِه قد دلَّهُ على الحالِ وأغناه عَن السُّؤالِ، لكنْ شغلَهُ حبُّ الولدِ عنه حتَّى اشْتَبَهَ الأمرُ عليه.

وقـرأَ ابنُ كَثيـرٍ بفتحِ الـلَّامِ والنُّونِ الشَّـديدةِ، وكذا نافـعٌ وابنُ عامرٍ غيـرَ أَنَّهُما كَسَـرا النُّـونَ علـى أنَّ أصلَـهُ: تَسـأَلَنَّنِي، فحُذفَـت نـونُ الوِقايَـةِ لاجتمـاعِ النُّونـاتِ

---

(١) للخنساء انظر: «الديوان» (ص: ٤٨)، و«الكتاب» (١/ ٣٣٧)، و«الكامل» للمبرد (١/ ٢٢٨).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٤)، و«التيسير» (ص: ١٢٥)، و«النشر» (٢/ ٢٨٩). د

وكُسِرَت الشَّـديدةُ للياءِ ثـمَّ حُذِفَـت اكتفـاءً بالكَسـرةِ، وأَثْبَتَهـا نافعٌ بروايـةِ ورشٍ في الوصـل(١).

(٤٧) ـ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ﴾ فيمـا يُسـتقبلُ ﴿مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾: مـا لا عِلـمَ لـي بصِحَّتِـه ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي﴾: وإن لم تَغفِـرْ لي ما فَـرَطَ مِنِّي من السُّـؤالِ ﴿وَتَرۡحَمۡنِيٓ﴾ بالتَّوبَةِ والتَّفضُّلِ عليَّ ﴿أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

(٤٨) ـ ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾: انزِلْ مِن السَّفينَةِ مُسَلَّمًا مِن المكارهِ مِن جِهَتِنا، أو: مُسلَّمًا عليك.

﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾: ومباركًا عليك، أو زياداتٍ في نَسْلِكَ حتَّى تَصيرَ آدمًا(٢) ثانيًا.

وقُرِئَ: «اهبُط» بالضَّمِّ(٣)، «وبركةٍ» على التَّوحيدِ(٤) وهو الخيرُ النَّامِي.

﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَ﴾: وعلى أُمَمٍ هم الَّذينَ معكَ، سُمُّوا أُمَمًا لتَحزُّبِهم، أو لتَشَعُّبِ الأُمَمِ مِنْهُم، أو: وعلى أُمَمٍ ناشئةٍ ممَّنْ معكَ، والمرادُ بهم المؤمنونَ؛ لقولِه: ﴿وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾؛ أي: وممَّن معكَ أُمَمٌ سنُمَتِّعُهُم في الدُّنيَا ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ في الآخرةِ، والمرادُ بهم الكفَّارُ مِن ذُرِّيَّةِ مَن معَه، وقيلَ: هُمْ قَومُ هودٍ وصالحٍ ولُوطٍ وشُعَيبٍ، والعذابُ: ما نزلَ بهم.

---

(١) وأثبتها في الوصلِ أيضًا لكنْ بعد النون الخفيفة أبو عمرٍو، وكذا أثْبتها يعقوبُ من العشرة في الحالين. انظر: «التيسير» (ص: ١٢٥)، و«النشر» (٢/ ٢٩٢).

(٢) قوله: «حتى تصير آدمًا ثانيًا»؛ أي: كآدمَ في كثرة نَسْلِه، وإنما صرَفَه؛ لأنَّه الآنَ في معنى النكرة. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٠٤).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٥) عن عيسى.

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٥) عن عبد العزيز بن يحيى الكناني.

(٤٩) ـ ﴿تِلْكَ﴾ إشارةٌ إلى قصَّةِ نُوحٍ، ومحلُّهَا الرَّفعُ بالابتداءِ وخبرُها: ﴿مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: بَعضُها ﴿نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾ خبرٌ ثانٍ والضَّميرُ لها[1]؛ أي: مُوحاةٌ إليك، أو حالٌ مِن الأنباءِ، أو هو الخبرُ و﴿مِنْ أَنبَآءِ﴾ مُتعلِّقٌ به أو حالٌ من الهاءِ.

﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ خبرٌ آخرُ؛ أي: مجهولةٌ عِندَكَ وعندَ قومِكَ مِن قبلِ إيحائِنَا إليك، أو حالٌ من الهاءِ في ﴿نُوحِيهَآ﴾، أو الكافِ في ﴿إِلَيْكَ﴾؛ أي: جاهِلًا أنتَ وقومُكَ بها، وفي ذكرِهِم تنبيهٌ على أنَّه لَمْ يَتعلَّمْهُ إذ لم يُخالِطْ غيرَهُم، وأنَّهُم مع كَثرَتِهِم لَمَّا لَمْ يَسْمَعوهُ فكيفَ بواحِدٍ[2] منهم.

﴿فَٱصْبِرْ﴾ على مشاقِّ الرِّسالةِ وأذيَّةِ القَومِ كما صبرَ نوحٌ ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ﴾ في الدُّنيَا بالظَّفرِ وفي الآخرةِ بالفوزِ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ عَن الشِّركِ والمَعاصِي.

(٥٠) ـ ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ عطفٌ على قولِه: ﴿نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾، و﴿هُودًا﴾ عطفُ بيانٍ.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحدَهُ ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ وقُرِئَ بالجرِّ[3] حملًا على المجرورِ وحدَه.

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ على اللهِ باتِّخاذِ الأَوْثانِ شُركاءَ وجَعْلِهَا شُفَعاءَ.

(٥١) ـ ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾ خاطبَ كُلُّ رَسولٍ بِهِ قومَه؛ إزاحَةً للتُّهمَةِ، وتَمحيضًا للنَّصيحَةِ، فإنَّها لا تنجَعُ ما دامَتْ مَشُوبَةً بالمَطامِعِ.

---

(١) قوله: «والضمير لها»؛ أي: للقصة، والرابط لجملة الخبر. انظر: «حاشية القونوي» (١٠/ ٢٢٦).

(٢) في نسخة التفتازاني: «يؤخذ»، وفي نسخة الطبلاوي: «برجل».

(٣) وهي قراءة الكسائي، وقرأ الباقون بالرفع، انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٤)، و«التيسير» (ص: ١١٠).

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: أفلا تَستعمِلُونَ عُقولَكُم فتَعرِفُوا المُحِقَّ مِن المُبطِلِ والصَّوابَ مِن الخَطأِ.

(٥٢) ـ ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾: اطلُبُوا مَغفرةَ اللهِ بالإيمانِ ثمَّ توسَّلُوا إليهَا بالتَّوبَةِ، وأيضًا التَّبرُّؤُ عن الغيرِ إنَّما يكونُ بعدَ الإيمانِ باللهِ والرَّغبَةِ فيمَا عِندَهُ.

﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾: كثيرَ الدرِّ ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾: ويُضاعِفْ قُوَّتَكُم، وإنَّما رَغَّبَهُم بكثرةِ المَطرِ وزِيادَةِ القُوَّةِ لأنَّهُم كانُوا أصحابَ زُروعٍ وعماراتٍ.

وقيلَ: حبَسَ اللهُ عَنهُم القطرَ وأعقَمَ أرحامَ نِسائِهم ثلاثَ سنين[1]، فوعدَهُم هودٌ عليهِ السَّلامُ على الإيمانِ والتَّوبَةِ بكَثرةِ الأَمطارِ وتَضاعُفِ القُوَّةِ بالتَّناسُلِ.

﴿وَلَا تَتَوَلَّوْاْ﴾: ولا تُعرِضُوا عمَّا أدعوكُم إليه ﴿مُجْرِمِينَ﴾: مُصرِّينَ على إجرامِكُم.

(٥٣) ـ ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾: بحُجَّةٍ تَدُلُّ على صِحَّةِ دَعواكَ، وهو لفَرْطِ عِنادِهِم وعَدمِ اعتدادِهِم بما جاءَهُم مِن المُعجِزاتِ.

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا﴾: بتاركِي عِبادَتِهِم ﴿عَن قَوْلِكَ﴾: صادرينَ عَن قولِكَ، حالٌ مِن الضَّميرِ في ﴿تاركي﴾.

﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ إقناطٌ له مِن الإجابةِ والتَّصديقِ.

(٥٤ ـ ٥٥) ـ ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ﴾: ما ﴿نَّقُولُ إِلَّا﴾ قولَنا: ﴿ٱعْتَرَىٰكَ﴾؛ أي: أصابَكَ، مِن عَرَاهُ يَعرُوهُ: إذا أصابَه.

---

(١) في نسخة الخيالي: «ثلاثين سنة» والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في «تفسير الثعلبي» (١٤/ ٣٨٢)، و«البسيط» للواحدي (١١/ ٤٤٤)، و«الكشاف» (٤/ ١٥٤)، وغيرها.

﴿بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾: بجُنونٍ لسَبِّكَ إيَّاهَا وصَدِّكَ عَنْها، ومِن ذلك تَهذِي وتَتكَلَّمُ بالخُرافاتِ، والجُملَةُ مَقولُ القَولِ، و﴿إِلَّا﴾ لغوٌ لأنَّ الاستثناءَ مُفَرَّغٌ.

﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ أجابَ به عن مَقالَتِهم الحَمقاءِ بأنْ أشهَدَ اللهَ تَعالى على بَراءَتِه مِن آلِهَتِهم وفراغِه عَن إضرارِهم تأكيدًا لذلك وتَثبيتًا له، وأَمَرَهُم بأَنْ يَشهَدُوا عليه استهانَةً بهِمْ، وأَنْ يُجمِعُوا على الكيدِ في إهلاكِهِ مِن غيرِ إنظارٍ، حتَّى إذا اجتَهَدُوا فيه ورَأَوْا أنَّهم عَجَزُوا عَن آخرِهم ـ وهُم الأقوِيَاءُ الأَشِدَّاءُ ـ أَنْ يَضُرُّوهُ لم يبقَ لَهُم شبهَةٌ؛ لأنَّ آلِهَتَهُم الَّتي هي جمادٌ لا تَضُرُّ ولا تَنفَعُ لا تتمكَّنُ مِن إضرارِهِ انتقامًا منه.

وهَذا مِن جُملَةِ مُعجزاتِه، فإنَّ مواجهةَ الواحدِ الجمَّ الغَفيرَ من الجبابرةِ الفُتَّاكِ العِطاشِ إلى إراقَةِ دمِهِ بهذا الكَلامِ ليس إلَّا لثِقَتِه باللهِ، وتثبطَهُم عَن إضرارِه ليسَ إلَّا بعِصمَتِه إيَّاه، ولذلكَ عَقَّبَه بقولِه:

(٥٦) ـ ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ﴾ تقريرًا له، والمَعنى: إنَّكُم وإن بَذَلْتُم غايَةَ وُسعِكُم لم تَضُرُّونِي فإنِّي مُتوكِّلٌ على اللهِ واثقٌ بكَلامِه، وهو مالِكِي ومالكُكُم، لا يَحيقُ بي ما لم يُرِدْه، ولا تقدرونَ على ما لم يُقدِّرْه، ثمَّ بَرْهَن عليه بقولِه:

﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾؛ أي: إلَّا وهوَ مالِكٌ لها قادِرٌ علَيْهَا يُصَرِّفُها على ما يريدُ بها، والأخذُ بالنَّواصِي تَمثيلٌ لذلك.

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾؛ أي إنَّه على الحقِّ والعدلِ لا يَضيعُ عندَهُ معتصِمٌ ولا يَفوتُه ظالمٌ.

(٥٧) ـ ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾: فإنْ تَتوَلَّوْا ﴿فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ﴾: فقَدْ أدَّيتُ ما عليَّ مِن الإبلاغِ وإلزامِ الحُجَّةِ، فلا تفريطَ مِنِّي ولا عُذرَ لَكُم، فقَدْ أَبلَغْتُكُم ما أُرسِلْتُ بهِ إليكُم.

﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ استئنافٌ بالوَعيدِ لَهُم بأَنَّ اللهَ يُهْلِكُهُم ويَستَخْلِفُ قَوْمًا آخرينَ في دِيارِهِم وأَموالِهِم، أو عطفٌ على الجوابِ بالفاءِ، ويؤيِّدُه القراءَةُ بالجَزمِ[١] على الموضعِ كأنَّه قيلَ: وإِنْ تَتَوَلَّوْا يَعْذُرْني رَبِّي ويَستَخْلِفْ.

﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ﴾ بتولِّيكُم ﴿شَيْـًٔا﴾ مِن الضَّرَرِ، ومَن جَزَمَ «يَسْتَخْلِفْ» أسقطَ النُّونَ مِنه[٢].

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ رقيبٌ فلا تَخْفَى عليه أَعمالُكُم ولا يَغفُلُ عَن مَجازاتِكُم، أو: حافظٌ مُستَوْلٍ عليه فلا يمكنُ أَنْ يَضُرَّهُ شَيءٌ.

(٥٨) ـ ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾: عذابُنا، أو: أَمرُنا بالعذابِ ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ وكانُوا أربعةَ آلافٍ ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ تكريرٌ لبَيانِ ما نجَّاهُم منه وهو السَّمومُ، كانَتْ تدخلُ أنوفَ الكَفَرةِ وتخرجُ مِن أَدبارِهِم فتقطِّعُ أعضاءَهُم، والمرادُ به: تَنْجِيَتُهُم مِن عذابِ الآخرةِ أيضًا، والتَّعريضُ بأَنَّ المُهلَكِينَ كما عُذِّبُوا في الدُّنيا بالسَّمومِ فهم مُعذَّبونَ في الآخرةِ بالعَذابِ الغَليظِ.

(٥٩) ـ ﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ أَنَّثَ اسمَ الإشارةِ باعتبارِ القَبيلَةِ، أو لأنَّ الإشارةَ إلى قُبورِهِم وآثارِهِم ﴿جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾: كفرُوا بها ﴿وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾ لأَنَّهُم عَصَوْا رَسُولَهُم، ومَنْ عَصَى رَسُولًا فكأَنَّما عَصَى الكُلَّ لأَنَّهُم أُمِرُوا بطاعَةِ كُلِّ رَسولٍ.

﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ يعني: كُبَراءَهُم الطَّاغينَ، و﴿عَنِيدٍ﴾ مِن عَنَدَ عَنَدًا

---

(١) أي: في (يستخلف) وكذلك: (ولا تضرُّوه)، نسبت لابن مسعود رضي الله عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٠)، و«الكامل في القراءات» للهذلي (ص: ٥٧٢)، و«الكشاف» (٤/ ١٥٨)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ١٨٢).

(٢) انظر التعليق السابق.

وعَنَدًا وعُنُودًا: إذا طَغَى، والمعنى: عَصَوْا مَن دَعاهُم إلى الإيمانِ وما يُنجيهِم، وأطاعُوا مَن دَعَاهُم إلى الكُفرِ وما يُرديهِم.

(٦٠) ـ ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: جُعِلَت اللَّعنَةُ تابِعَةً لَهُم في الدَّارينِ تَكُبُّهُم في العَذابِ ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾: جَحَدُوهُ وكَفَرُوا نِعَمَهُ، أو: كَفَرُوا بهِ، فحُذِفَ الجارُّ.

﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ﴾ دعاءٌ عليهِمْ بالهَلاكِ، والمُرادُ بهِ: الدَّلالَةُ على أَنَّهُم كانُوا مُسْتَوْجِبينَ لِمَا نزلَ عليهِمْ بسببِ ما حُكِيَ عَنْهُم، وإنَّما كرَّرَ ﴿أَلَا﴾ وأعادَ ذِكرَهُم تَفظيعًا لأَمرِهِم وحَثًّا على الاعتبارِ بحالِهِم.

﴿قَوْمِ هُودٍ﴾ عطفُ بيانٍ لـ﴿عاد﴾ وفائدَتُه: تمييزُهُم عَن عادٍ الثَّانيَةِ عادِ إِرَمَ، والإيماءُ إلى أنَّ[1] استحقاقَهُم للبُعدِ بما جَرَى بينَهُم وبينَ هُودٍ.

(٦١) ـ ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾: هو كوَّنَكُم مِنْها لا غيرُه، فإنَّه خلقَ آدمَ وموادَّ النُّطَفِ الَّتي خُلِقَ نَسلُهُ مِنْها مِن التُّرابِ.

﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾: عَمَّرَكُم فيها واستَبْقَاكُم، مِن العمرِ، أَوْ: أقدَرَكُم على عِمارَتِها وأمرَكُم بها.

وقيلَ: هو مِن العُمْرَى بمعنى: أَعْمَرَكُم فيهَا دِيارَكُم ويرثُها مِنكُم بعدَ انصرامِ أَعمارِكُم، أو: جَعَلَكُم مُعمِّرينَ دِيارَكُم تَسكُنُونَها مُدَّةَ عُمرِكُم ثُمَّ تَتْرُكونَها لِغَيرِكُم.

﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ﴾: قريبُ الرَّحمةِ ﴿مُّجِيبٌ﴾ لداعيه.

---

(١) «أن» ليست في نسخة التفتازاني.

(٦٢) ـ ﴿قَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ﴾ ـ لِمَا نَرى فيكَ مِن مَخايلِ الرُّشدِ والسَّدادِ ـ أَنْ تكونَ لَنا سَيِّدًا ومُستشارًا[1] في الأُمورِ، أو: أَنْ تُوافِقَنا في الدِّينِ، فلمَّا سَمِعْنَا هذا القَوْلَ مِنكَ انقطَعَ رَجاؤُنا عنكَ.

﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ على حكايةِ الحالِ الماضيةِ.

﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ مِن التَّوحيدِ والتَّبرِّي عَن الأَوثانِ ﴿مُرِيبٍ﴾: موقِعٍ في الرِّيبَةِ، مِن أَرَابَهُ، أو: ذي رِيبَةٍ، على الإسنادِ المَجازيِّ مِن أرابَ في الأَمرِ.

(٦٣) ـ ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾: بيانٍ وبَصيرةٍ، وحرفُ الشَّكِّ باعتبارِ المُخاطَبينَ ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾: نُبوَّةً ﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ﴾: فمَنْ يَمْنَعُنِي مِن عَذابِه ﴿إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ في تبليغِ رِسالَتِه والمنعِ عَن الإشراكِ بهِ.

﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى﴾ إذَنْ باستِتْباعِكُم إيَّاي ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾: غيرَ أَنْ تُخسِرُوني بإبطالِ ما مَنَحني اللهُ به والتَّعرُّضِ لعَذابِه، أو: فمَا تَزيدونَني بما تَقولونَ لي غيرَ أَنْ أنسبَكُم إلى الخُسرانِ.

(٦٤) ـ ﴿وَيَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ انتصبَ ﴿ءَايَةً﴾ على الحالِ، وعامِلُها معنى الإشارةِ، و﴿لَكُمْ﴾ حالٌ مِنها تَقدَّمَت عليهَا لتَنكيرِهَا.

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾: تَرْعَ نَباتَها وتَشرَبْ ماءَها ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾: عاجِلٌ لا يَتراخَى عَن مَسِّكُم لها بالسُّوءِ إلَّا يَسيرًا وهو ثَلاثةُ أيامٍ.

(٦٥) ـ ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ﴾: عيشُوا في مَنازِلِكُم، أو في دارِكُم الدُّنيا ﴿ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ الأربعاءَ والخَميسَ والجُمعَةَ ثمَّ تَهلِكُونَ ﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾؛ أي: غيرُ مَكذوبٍ فيه، فاتُّسِعَ فيه بإجرائِهِ مُجرى المفعولِ به؛ كقولِه:

---

(١) في نسخة التفتازاني: «أو مستشارًا».

ويـومٍ شَـهِدْنَاهُ سُـلَيْمًا وَعَامِـرًا[(١)]

أو: ﴿غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾ على المجازِ، وكأنَّ الواعِدَ قالَ له: «أفي بِكَ» فإنْ وَفَى به صدَقَهُ وإلَّا كذبَهُ.

أو: وعدٌ غيرُ كذبٍ، على أنَّه مصدَرٌ كالمجلودِ والمعقولِ.

(٦٦) ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍ﴾؛ أي: ونجَّيْنَاهُم مِن خزيِ يَومئذٍ، وهـو هَـلَاكُهُم بالصَّيحَةِ، أو ذُلُّـهُـم وفَضِيحَتُهُم يومَ القِيامَةِ.

وقرأَ نافعٌ والكسائيُّ: ﴿يومَئِذٍ﴾ بالفتحِ على اكتساءِ المُضافِ البناءَ مِن المضافِ إليه هنا وفي المعارجِ في قولِه: ﴿مِنۡ عَذَابِ يومَئِذٍ﴾ [المعارج: ١١][(٢)].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾: القادرُ على كُلِّ شَيءٍ والغالِبُ عليهِ.

(٦٧) ـ ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ قـد سـبـقَ تَفسيرُ ذلك في سُورَةِ الأعرافِ.

(٦٨) ـ ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡ﴾ قرأ حفصٌ وحمزةُ: ﴿إِنَّ ثَمُودَاْ﴾ هاهنا وفي الفرقان والعنكبوت بفتح الدال من غير تنوين، ونوَّنه الكسائيُّ بخفض الدالِ في قولِه: ﴿أَلَا بُعْدًا لثمودٍ﴾[(٣)] ذهابًا إلى الحيِّ أو الأبِ الأكبرِ.

---

(١) صدر بيت لرجل من بني عامر، وهو في «الكتاب» لسيبويه (١/ ١٧٨)، و«أمالي ابن الشجري» (١/ ٧)، وعجزه:

قليـلٍ سِـوىَ الطَّعْـنِ النَهـالِ نَوافِلُـهْ

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٦)، و«التيسير» (ص: ١٢٥).

(٣) في النسخ الثلاث: «نوَّنه أبو بكرٍ هاهنا وفي النَّجم، والكسائيُّ في جميع القرآنِ، وابنُ كثيرٍ ونافعٌ وابنُ عامرٍ وأبو عمرٍو في قوله: ﴿ألا بعدًا لثمودٍ﴾»، والمثبت من نسخة ذكرها بعض المحشين، وقالوا: وهو =

(٦٩) ـ ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ يَعني: المَلائِكَةَ، قيلَ: كانُوا تِسعَةً، وقيل: ثلاثَةً: جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ.

﴿بِٱلْبُشْرَىٰ﴾: ببشارةِ الوَلَدِ، وقيلَ: بهلاكِ قَومِ لُوطٍ.

﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾: سَلَّمْنَا عليكَ سلامًا، ويجوزُ نَصبُه بـ﴿قَالُواْ﴾ على مَعنى: ذكروا سلامًا.

﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾؛ أي: أمرُكُم ـ أو: جَوابي ـ سَلامٌ، أو: وعليكُم سَلامٌ، رفعَهُ إجابةً بأحسنَ مِن تحيَّتِهِم.

وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ: ﴿سِلْمٌ﴾[1] وكذلك في الذَّارِيَاتِ، وهما لُغتَانِ كحِرْمٍ وحَرَامٍ، وقيلَ: المرادُ بِهِ الصلحُ.

﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾: فمَا أبطأَ مجيئُه بهِ، أو: فمَا أبطأَ في المجيءِ به، أو: فمَا تأخَّرَ عنه، والجارُّ مُقدَّرٌ أو مَحذوفٌ[2].

والحنيذُ: المَشويُّ بالرَّضْفِ، وقيلَ: الَّذي يَقطرُ وَدَكُهُ، مِن حَنَذْتُ الفرسَ: إذا عرَّقتَهُ بالجِلالِ[3]؛ لقولِه: ﴿بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦].

= الموافق لما في كتب القراءات، لا ما في الأخرى المذكورة في النسخ الثلاث. انظر: «حاشية الشهاب»، و«حاشية القونوي» (١٠/ ٣٣). وانظر: «السبعة» (ص: ٣٣٧)، و«التيسير» (ص: ١٢٥).

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٣٧ ـ ٢٣٨)، و«التيسير» (ص: ١٢٥).

(٢) قوله: «فما أبطأ مجيئه به...» إلى آخره: ذكر في تفسير الآية ثلاثةَ أوجهٍ: في تفسير ﴿لَبِثَ﴾ وجهين: (أبطأَ) كما في الوجهين الأولين، و(تأخَّرَ) في الوجه الثالث، وفي فاعله وجهين أيضًا: ﴿أَن جَآءَ﴾ في الوجه الأول و(إبراهيم) في الوجهين الأخيرين. وذكر في الأخيرين أنَّ الجارَّ ـ وهو (في) في أولهما، و(عن) في ثانيهما ـ مقدَّر أو محذوف. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٢٣٥).

(٣) الوَدَكُ: الدَّسَم، وعَرَّقتُه: هيأتُه للعرق بالدِّثَار، والجِلاَلُ: جمع جُلٍّ بضمها وتفتح، وهو ما يُدثَّر به =

(٧٠) ـ ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾: لا يَـمُـدُّونَ إليـهِ أيديَهُم ﴿نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾: أنكرَ ذلك مِنْهُم وخافَ أَنْ يُرِيدُوا به مكروهًا، ونكِرَ وأَنْكَرَ واستَنْكَر بمعنًى.

والإيجاسُ: الإدراكُ، وقيلَ: الإضمارُ.

﴿قَالُوا﴾ له لَمَّا أحسُّوا منهُ أثرَ الخَوفِ: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾: إنَّا مَلائِكَةٌ مُرسلَةٌ إليهِم بالعَذابِ، وإنَّما لم نَمُدَّ إليه أَيدِيَنا لأنَّا لا نَأكلُ.

(٧١) ـ ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ﴾ وراءَ السِّترِ تسمَعُ مُحاورَتَهم، أو: على رُؤوسِهِم للخَدَمَةِ ﴿فَضَحِكَتْ﴾ سرورًا بزوالِ الخيفَةِ، أو بهلاكِ أهلِ الفَسادِ، أو بإصابةِ رَأيِها فإنَّها كانَتْ تَقولُ لإبراهيمَ: اضمُمْ إليكَ لُوطًا فإني أعلَمُ أنَّ العذابَ يَنزِلُ بهذا القومِ.

وقيلَ: ﴿فَضَحِكَتْ﴾: فحاضَتْ[١]، قالَ:

وعَهْـدِي بسَـلْمَى ضَاحِـكًا فـي لُبابَةٍ وَلَـمْ يَعْـدُ حُقًّـا ثَدْيُهـا أَنْ تَحَلَّمَـا[٢]

= الخيل ويُصان، ومعناه على التفسير الثاني: أنَّ الدَّسَمَ الذي يتقاطر منه كالعرق الذي يسيل من الدابة المجللة بالدثار. انظر: «حاشية الشهاب».

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٢١٢) عن عكرمة. ورواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٧٦) عن مجاهد وعكرمة. ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٥٥) عن ابن عباس.

وتعقب هذا الوجه ابن المنير في «الانتصاف» (٢/ ٤١٠) بقوله: «ويبعد هذا التأويل أنها قالت بعد: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ فلو كان حيضها قبل بشارتها لما تعجبت، إذ لا عجب في حمل من تحيض، والحيض في العادة مهماز على إمكان الحمل».

وللآلوسي في «روح المعاني» (١٢/ ١٦ ـ ١٧) مناقشة حسنة بين المؤيدين لهذا القول والمعارضين له فلتنظر ثمة.

(٢) في نسخة التفتازاني: «تحلبا». والبيت ذكره العوتبي في «الإبانة» (٣/ ٤١٢)، ونسبه للباهلي، ولم أقف على اسمه، وقال الشهاب في «الحاشية»: معناه: إنه قريب العهد بها طفلة، يصف صغر سنها، =

ومنه ضَحِكَت السَّمُرَةُ: إذا سالَ صَمْغُها.

وقُرِئَ بفتحِ الحاءِ[١].

﴿فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ﴾ نصبَهُ ابنُ عامرٍ وحمزَةُ وحَفصٌ بفعلٍ يُفسِّرُه ما دلَّ عليهِ الكَلامُ، وتَقديرُه: ووَهَبْناها مِن وراءِ إسحاقَ يعقوبَ.

وقيلَ: إنَّه مَعطوفٌ على مَوضِعِ ﴿بِإِسْحَـٰقَ﴾ أو على لفظِ ﴿إسحاق﴾، وفَتْحتُه للجَرِّ فإنَّه غيرُ مَصروفٍ. ورُدَّ للفَصلِ بينَهُ وبينَ ما عُطِفَ عليه بالظَّرفِ.

وقرأَ الباقونَ بالرَّفعِ[٢] على أنَّه مُبتدأٌ خبرُه الظَّرفُ؛ أي: ويعقوبُ مَولودٌ من بعدِهِ.

وقيلَ: الوراءُ وَلَدُ الوَلَدِ[٣]. ولعلَّه سُمِّيَ بهِ لأنَّه بعدَ الولدِ، وعلى هذا تكونُ

= و(لبابة) بباءين موحدتين في النسخ، ولم يضبطوه، لكن منهم من فسَّره بثوب يُغطَّى به، ومنهم من فسره بجماعة النساء، و(تحلَّما) ظهرت حلمتهما، وهي رأس الثدي، وفي نسخة: تحلَّبا بالباء، كأنَّ معناه خروج لبنهما.

(١) انظر: «المحتسب» (١/ ٣٢٣) عن محمد بن زياد الأعرابي، وهي في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٥) عن بعضهم.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٨)، و«التيسير» (ص: ١٢٥).

(٣) رواه سعيد بن منصور في «سننه» (١٠٩٦)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٧٩ ـ ٤٨٠)، عن الشعبي. وروى معناه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٧٩ و٤٨٠) عن ابن عباس والحسن:

أما الأول: فرواه عن حبيب بن أبي ثابت قال: جاء رجل إلى ابن عباس ومعه ابن ابنه فقال: مَن هذا معك؟ قال: هذا ابن ابني، قال: هذا ولدُك من الوراء! قال: فكأنه شقَّ على ذلك الرجل، فقال ابن عباس: إن الله يقول: ﴿فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ﴾، فولد الولد هم الوراء.

وأما الثاني: فرواه عن أبي اليسع إسماعيل بن حماد بن أبي المغيرة مولى أبي موسى الأشعري، قال: كنت إلى جنب جدي أبي المغيرة بن مهران في مسجد عليّ بن زيد، فمر بنا الحسنُ بن أبي الحسن فقال: يا أبا المغيرة من هذا الفتى؟ قال: ابني من ورائي، قال الحسن: ﴿فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ﴾.

إِضافَتُه إلى إسحاقَ ليسَ مِن حيثُ إن يعقوبَ وراءَهُ، بَلْ مِن حيثُ إِنَّهُ وراءَ إبراهيمَ مِن جِهَتِه، وفيه نَظَرٌ.

والاسمانِ يُحتمَلُ وقوعُهُما في البِشارَةِ كيَحْيَى، ويحتملُ وقوعُهُما في الحكايةِ بعدَ أَنْ وُلِدَا فسُمِّيَا به.

وتوجيهُ البِشارَةِ إليها للدَّلالةِ على أنَّ الولدَ المُبشَّرَ بهِ يكونُ مِنْها، ولأَنَّها كانَتْ عقيمَةً حريصَةً على الولدِ.

(٧٢) ـ ﴿قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ﴾: يا عَجَبًا، وأصلُه في الشَّرِّ فأُطلِقَ في كلِّ أَمرٍ[١] فَظيعٍ. وقُرِئَ باليَاءِ على الأصلِ[٢].

﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ ابنةُ تِسعينَ، أو تِسعٍ وتِسعينَ ﴿وَهَـٰذَا بَعْلِى﴾: زَوْجِي، وأصلُه: القائِمُ بالأمرِ ﴿شَيْخًا﴾ ابنُ مئةٍ وعِشرينَ، ونصبُهُ على الحالِ، والعامِلُ فيها مَعنى اسمِ الإشارةِ.

وقُرِئَ بالرَّفعِ[٣] على أنَّه خَبرُ مَحذوفٍ؛ أي: هـو شَيخٌ، أو خبرٌ بعدَ خبرٍ، أو هو الخبرُ و﴿بَعْلِى﴾ بدلٌ.

﴿إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ يعني: الولدَ مِن هَرِمَيْنِ، وهو استِعجابٌ مِن حيثُ العادةُ دونَ القُدرَةِ، ولذلك قالُوا:

(٧٣) ـ ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ مُنكِرينَ عليهَا، فإنَّ خوارِقَ العاداتِ باعتبارِ أهلِ بَيتِ النُّبوَّةِ ومَهبِطِ المُعجزاتِ، وتخصيصَهم بمزيدِ

---

(١) في نسخة الخيالي: «فأطلق في كل موضع»، وفي نسخة الطبلاوي: «فأطلق على كل أمر».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٥) عن الحسن وابن قطيب.

(٣) انظر: «المحتسب» (١/ ٣٢٣) عن الأعمش، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٥) عن ابن مسعود.

النعم والكراماتِ ليسَ ببِدْعٍ ولا حقيقٍ بأَنْ يَستغرِبَهُ عاقِلٌ فضلًا عمَّنْ نَشَأَتْ وشابَتْ في مُلاحظَةِ الآياتِ.

و﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ نَصبٌ على المَدحِ، أو النِّداءِ لقَصدِ التَّخصيصِ كقَولِهِم: «اللهمَّ اغفِرْ لَنا أَيَّتُها العِصابَةُ».

﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ﴾: فاعلٌ ما يَستَوجِبُ بِهِ الحمدَ ﴿مَّجِيدٌ﴾ كثيرُ الخَيرِ والإحسانِ.

(٧٤) ـ ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾: ما أوجَسَ مِن الخِيفَةِ، واطمَأَنَّ قلبُه بعِرفانِهِم ﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بدلَ الرَّوعِ ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ يُجادِلُ رسلَنا في شَأنِهِم، ومُجادلتُه إيَّاهُم قولُه: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ [العنكبوت: ٣٢]، وهو إمَّا جَوابُ «لَمَّا» جيءَ به مُضارعًا على حكايةِ الحالِ أو لأنَّه في سِياقِ الجوابِ بمَعنى الماضي كجوابِ «لو»، أو دليلُ جوابِه المحذوفِ مثل: اجترأَ على خِطابِنا، أو: شَرَعَ في جِدالِنا، أو متعلَّقٌ به مُقامٌ مُقامَه مثلَ: أخذَ ـ أو: أقبلَ ـ يُجادِلُنا.

(٧٥) ـ ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾: غيرُ عَجولٍ على الانتقامِ مِن المُسيءِ إليه ﴿أَوَّٰهٌ﴾: كثيرُ التَّأَوُّهِ مِن الذُّنوبِ والتَّأسُّفِ على النَّاسِ ﴿مُّنِيبٌ﴾: راجعٌ إلى اللهِ، والمقصودُ مِن ذلك بيانُ الحاملِ له على المجادلَةِ، وهو رِقَّةُ قَلبِه وفَرْطُ تَرحُّمِه.

(٧٦) ـ ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ على إرادةِ القَولِ؛ أي: قالت الملائكةُ: يا إبراهيمُ ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ الجدالِ.

﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ قدَّرَه بمقتضَى قضائِه الأزليِّ بعَذابِهِم وهو أعلَمُ بحالِهِم ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾: مَصروفٍ بجدالٍ ولا دعاءٍ ولا غيرِ ذلك.

(٧٧) ـ ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ﴾: ساءَهُ مَجيئُهُم لأنَّهُم جاؤوا في صورَةِ غِلمانٍ، فظنَّ أنَّهُم أناسٌ فخافَ عليهم أَنْ يقصدَهُم قومُهُ فيعجزَ عَن مُدافَعَتِهِم

وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ والكسائيُّ: ﴿سيء﴾ و﴿سيئتْ﴾ بإشمامِ السينِ الضمَّ، وفي العنكبوت والملك، والباقون بإخلاصِ حركة السين[1].

﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾: وضاقَ بمكانِهم صدرُهُ، وهو كِنايَةٌ عن شدَّةِ الانقباضِ للعَجزِ عَن مُدافعَةِ المكروهِ والاحتيالِ فيه.

﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾: شديدٌ، مِن عَصَبَه: إذا شدَّه.

(٧٨) ـ ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾: يُسرعونَ إليه كأنَّهُم يدفعونَ دفعًا لطلبِ الفاحِشَةِ مِن أضيافِه.

﴿وَمِن قَبْلُ﴾: ومـن قبـلِ ذلك الوَقتِ ﴿كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: الفواحشَ، فتمرَّنُوا بها ولم يَستَحْيُوا منها حتَّى جاؤوا يُهرَعونَ لها مُجاهرينَ.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾ فدَى بهنَّ أضيافَهُ كرمًا وحَمِيَّةً، والمَعنى: هـؤلاءِ بَناتي فتَزوَّجُوهنَّ، وكانُوا يطلبونَهُنَّ قبلُ فلا يجيبهُمْ؛ لخبثِهم وعدمِ كَفاءَتِهم، لا لحرمَةِ المسلماتِ على الكفَّارِ فإنَّه شَرْعٌ طارئٌ، أو مبالغةً[2] في تَناهي خبثِ ما يرومونَهُ حتَّى إنَّ ذلك أهونُ منه، أو إظهارًا لشدَّةِ امتعاضِه[3] مِن ذلك كَيْ يَرِقُّوا له.

وقيلَ: المرادُ بالبناتِ نساؤُهُم، فإنَّ كلَّ نبيٍّ أبو أمَّتِه من حيثُ الشَّفقَةُ والتَّربيَةُ، وفي حرفِ ابنِ مَسعودٍ: «وأزواجُهُ أُمَّهاتُهُم وهو أَبٌ لَهُم»[4].

---

(١) انظر: «التيسير» (ص: ١٢٥).

(٢) قوله: «مبالغة» عطف على قوله: «كرمًا». انظر: «حاشية القونوي» (١٠/ ١٤٩).

(٣) كتب تحتها في نسخة الخيالي: «غضبه».

(٤) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٣٥)، ورويت عن أبي بن كعب رضي الله عنه في «تفسير عبد الرزاق» (٢/ ٢١١)، وعن ابن عباس رضي الله عنهما في «المستدرك» (٣٥٥٦).

﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾: أنظَفُ فِعلًا، أو أقلُّ فُحشًا؛ كقولِك: «الميتةُ أطيَبُ مِن المَغصوبِ وأحلُّ مِنه»(١).

وقُرِئَ: «أطهَرَ» بالنصبِ(٢) على أنَّ ﴿هُنَّ﴾ خبرُ ﴿بَنَاتِي﴾ كقولِك: «هذا أخي هُو» لا فصلٌ فإنَّه لا يقعُ بينَ الحالِ وصاحبِها.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بتركِ الفواحشِ، أو بإيثارِهنَّ عليهم ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾: ولا تَفضَحونِ، مِن الخِزْيِ، أو: ولا تُخجِلونِ، مِن الخِزايَةِ بمَعنى الحياءِ.

﴿فِي ضَيْفِي﴾: في شَأنِهم، فإنَّ إخزاءَ ضيفِ الرَّجُلِ إخزاؤُهُ.

﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ يَهتَدِي إلى الحقِّ وَيَرْعَوِي عَن القَبيحِ.

(٧٩) ـ ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾: حاجَةٍ ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ وهو إتيانُ الذُّكرانِ.

---

(١) قوله: «أقل فحشا»؛ أي: قبحًا، وهو ما إذا لم يكن بطريق التزوج، فإن فيه فحشًا أيضا لكن الفحش في فعلتهم أشد وأشنع، كما أنّ الميتة والمغصوب لا حلَّ فيهما، ولكنه جعل الميتة لعدم تعلق حق الغير أحل منه، فالصيغة مجاز فيه، وهذا استعمال لأفعل قريب من نمط: الخل أحلى من العسل. انظر: «حاشية القونوي» (١٠/ ١٥٠).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٥) عن ابن مروان وعيسى بن عمر، و«المحتسب» (١/ ٣٢٥) عن سعيد بن جبير والحسن بخلاف ومحمد بن مروان وعيسى الثقفي وابن أبي إسحاق. وقد نقل سيبويه في «الكتاب» (٢/ ٣٩٦) عن يونس أن أبا عمرو رآه لحناً، وقال: احتبى ابنُ مروان في ذِه في اللحن ـ يقول: لحنَ، كما تقول: اشتمل بالخطأ ـ وذلك أنه قرأ: (هؤلاء بناتي هن أطهرَ لكم)، فنصب.

وفي «شرح الكتاب» لأبي سعيد السيرافي (٣/ ١٦٢): وذكر الأصمعي أنه قال: قلت لأبي عمرو بن العلاء: إنّ عيسى بن عمر حدثنا أنَّ ابن مروان قرأ: (هنّ أطهرَ) بالنّصب، فقال: (احتبى ابن مروان في لحنه).

(٨٠ ـ ٨١) ـ ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾: لو قَويتُ بنفسِي على دَفعِكُم ﴿أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾: إلى قَوِيٍّ أَتمنَّعُ به عَنْكُم، شبَّهَهُ بركنِ الجبلِ في شِدَّتِه.

وعن النَّبيِّ ﷺ: «رَحِمَ اللهُ أَخِي لُوطًا كانَ يَأْوِي إلى رُكنٍ شَديدٍ»(١).

وقُرِئَ: «أَوْ آوِيَ» بالنَّصبِ بإضمارِ «أنْ»(٢)؛ كأَنَّهُ قالَ: لو أنَّ لي بِكُم قوَّةً أو أُوِيًّا.

وجوابُ «لو» مَحذوفٌ تَقديرُهُ: لدَفَعْتُكُم.

رُوِيَ: أنَّه أغلقَ بابَهُ دونَ أَضيافِه وأخذَ يُجادِلُهُم مِن وَراءِ البابِ، فتَسوَّرُوا الجدارَ، فلَمَّا رَأَت الملائكةُ ما عَلى لُوطٍ مِن الكربِ ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾: لَن يَصِلُوا إلى إضرارِكَ بإضرارِنَا، فهَوِّنْ عليكَ ودَعْنَا وإيَّاهُم، فخَلَّاهُم أَنْ يدخُلوا، فضربَ جِبريلُ بجَنَاحِه وُجوهَهُم فطَمَسَ أَعيُنَهُم وأعماهُم، فخرَجُوا يقولون: النَّجاءَ النَّجاءَ، فإنَّ في بيتِ لوطٍ سَحرةً(٣).

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ بالقَطْعِ مِن الإسراءِ، وقرأَ ابنُ كثيرٍ ونافِعٌ بالوصلِ حيثُ وقعَ في القُرآنِ مِن السُّرَى(٤).

﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾: بطائفَةٍ منه ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾: ولا يتخلَّفْ، أو: ولا ينظرْ إلى ورائِه، والنَّهيُ في اللَّفظِ لـ﴿أَحَدٌ﴾ وفي المَعنى لِلُوطٍ.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٧٢)، ومسلم (١٥١).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٥)، و«المحتسب» (١/ ٣٢٦) عن شيبة وأبي جعفر.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥١٩) عن حجاج عن ابن جريج، وعن أبي بكر بن عبد الله، وعن قتادة عن حذيفة، دخل حديث بعضهم في بعض.

وبنحوه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥١٨) عن ابن عباس. والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥١٩) عن السدي.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٨)، و«التيسير» (ص: ١٢٥).

﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ استثناءٌ مِن قولِه: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ ويدلُّ عليه أنَّه قُرِئَ: «فأسرِ بأهلكَ بقطعٍ مِن اللَّيلِ إلَّا امرأتَكَ»(١)، وهذا إنَّما يَصِحُّ على تأويلِ الالتفاتِ بالتَّخلُّفِ، فإنَّه إن فسِّرَ بالنَّظرِ إلى الوراءِ في الذَّهابِ ناقضَ ذلك قراءةَ ابنِ كثيرٍ وأبي عمرٍو بالرَّفعِ(٢) على البدلِ مِن ﴿أَحَدٌ﴾، ولا يجوزُ حملُ القراءتينِ على الرِّوايتينِ ـ في أنَّه خَلَّفَها مع قومِها(٣)، أو أخرجَها فلَمَّا سَمِعَت صوتَ العَذابِ التَفَتَتْ وقالت: يا قوماه! فأدركَها حجرٌ فقتلَها(٤) ـ لأنَّ القواطِعَ لا يَصِحُّ حملُها على المَعاني المتناقضَةِ(٥).

والأَوْلَى جعلُ الاستثناءِ في القِراءتينِ مِن قولِه: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ﴾ مثلُه في قولِه تعالى: ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٦٦]، ولا يَبعدُ أن يكونَ أكثَرُ القرَّاءِ على غيرِ الأَفصَحِ، ولا يلزَمُ من ذلك أمرُها بالالتفاتِ، بل عدمُ نهيِها عنه استصلاحًا، ولذلك علَّلَه على طريقَةِ الاستئنافِ بقولِه: ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ ولا يحسُنُ جعلُ الاستثناءِ مُنقطِعًا على قراءةِ الرَّفعِ.

﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ كأنَّه علَّةُ الأمرِ بالإسراءِ ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ جوابٌ لاستعجالِ لوطٍ واستبطائِه العَذابَ.

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١٢/ ٥٢٤)، و«المصاحف» لابن أبي داود (ص: ١٧٧)، و«الكشاف» (٤/ ١٧٩)، و«البحر» (١٢/ ٣٢٥)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٨)، و«التيسير» (ص: ١٢٥).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٥٠٩) عن المفسرين.

(٤) رواه بنحوه الطبري في «التفسير» (١٢/ ٥١٧) عن حذيفة رضي الله عنه.

(٥) يعني: القراءتان الثَّابتتان قطعا لا يجوز حملهما على ما يوجب بطلان إحداهما. وانظر: «روح المعاني» (١٢/ ٤٥).

(٨٢) ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾: عذابُنـا، أو: أمرُنـا بـه، ويُؤيِّـدُه الأصـلُ(١)، وجَعْلُ التَّعذيـبِ مسـبَّبًا عنـه بقولِـه: ﴿جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ فإنَّـه جـوابُ «لَمَّـا»، وكانَ حقُّـه: جعَلُـوا عاليَهـا؛ أي: الملائكةُ المأمورونَ به، فأسـندَ إلى نَفسِـهِ مِـن حيثُ إنَّه المُسـبِّبُ تَعظيمًـا للأمـرِ، فإنَّـه رُوِيَ أنَّ جبريـلَ عليـهِ السَّـلامُ أدخلَ جناحَـهُ تحتَ مَدائِنِهِـم ورفعَهـا إلـى السَّـماءِ حتَّـى سـمعَ أهـلُ السَّـماءِ نُبـاحَ الـكلابِ وصيـاحَ الدِّيَكَـةِ ثـمَّ قلبَهَـا عليهِم(٢).

﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا﴾: على المُدنِ، أو: على شذاذِها ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾: مِن طينٍ مُتحجِّرٍ؛ كقولِه: ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣]، وأصلُه: سَنْكِكَل(٣) فعُرِّبَ.

وقيلَ: إنَّه مِن أسجَلَهُ: إذا أرسَلَهُ، أو أدرَّ عَطِيَّتَهُ، والمعنى: مِن مثلِ الشَّيءِ المرسَلِ، أو: من مثل العطيَّةِ في الإدرارِ.

أو مِن السجلِّ؛ أي: ممَّا كتبَ اللهُ أن يُعذِّبَهُم به.

وقيلَ: أصلهُ: مِن سِجِّين؛ أي: مِن جَهنَّم، فأُبدِلَت لامُه نونًا.

﴿مَّنضُودٖ﴾: نُضِدَ مُعَدًّا لعذابِهِم، أو: نُضِدَ في الإرسالِ بتتابُعِ بَعضِه بعضًا(٤) كقطارِ الأمطارِ، أو: نُضِدَ بعضُه على بَعضٍ وأُلصِقَ به.

---

(١) قوله: «ويؤيده الأصل»؛ أي: أن الأصلَ في إطلاق الأمرِ الحقيقةُ.

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٢١٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٦٦)، عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه موقوفًا. ورواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥١٥ ـ ٥١٦) عن سعيد بن جبير، و(١٢/ ٥١٧ ـ ٥١٨) عن قتادة.

(٣) رواه ابن أبي شيبة (٢٩٩٧٨)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٢٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٦٨)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وزاد بعضهم فيه: (حجر وطين).

(٤) في نسخة التفتازاني: «بعضه على بعض».

(٨٣) ـ ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ مُعْلَمةً للعَذابِ، وقيلَ: مُعْلمةً ببياضٍ وحُمرَةٍ، أو بسِيمَا تتميزُ به عَن حجارةِ الأرضِ، أو باسمِ مَن يُرمَى به.

﴿عِندَ رَبِّكَ﴾: في خزَائِنِه ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ فإنَّهُم بظُلمِهِم حَقيقٌ بأَنْ تُمطِرَ عَلَيهِم، وفيهِ وَعيدٌ لكلِّ ظالمٍ، وعنهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: أنَّه سألَ جِبريلَ عليهِ السَّلامُ فقالَ: «يعني: ظالِمِي أُمَّتِك، ما مِن ظالمٍ مِنْهُم إلَّا وهو بعُرْضِ حجرٍ يسقُطُ عليهِ مِن ساعَةٍ إلى ساعَةٍ»(١).

وقيلَ: الضَّميرُ للقُرَى؛ أي: هيَ قَريبَةٌ مِن ظالِمِي مَكَّةَ يَمرُّونَ بها في أَسفارِهِم إلى الشَّامِ.

وتذكيرُ البَعيدِ على تَأويلِ الحجرِ أو المكانِ.

(٨٤) ـ ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أرادَ: أولادَ مَدْيَنَ بنِ إبراهيمَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، أو أهلَ مَدْيَنَ وهو بلدٌ بناهُ فسُمِّيَ باسمِه.

﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ أمَرَهُم بالتَّوحيدِ أَوَّلًا فإنَّه مِلاكُ الأَمرِ، ثمَّ نَهاهُم عمَّا اعتادُوهُ مِن البَخْسِ المُنافِي للعَدلِ المخلِّ بحِكمَةِ التَّعاوُضِ.

﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾: بسَعَةٍ تُغنِيكُمْ عَن البخسِ، أو: بنعمَةٍ حقُّها أَنْ تَتفَضَّلُوا على النَّاسِ شُكرًا عليهَا لا أن تنقصُوا حُقوقَهُم، أو: بسَعَةٍ فلا تُزيلُوها بما أنتُم عليه، وهو في الجملةِ عِلَّةُ النَّهيِ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٤٣٢)، والواحدي في «البسيط» (١١/ ٥١٩) من حديث أنس رضي الله عنه بلا إسناد. قال الولي العراقي: ذكره الثعلبي بغير إسناد، ولم أقف له على إسناد. انظر: «الفتح السماوي» للمناوي (٢/ ٧٢٠).

وقوله: «وهو بعرض حجر» قال الشهاب في «الحاشية»: بضم العين المهملة وسكون الراء المهملة والضاد المعجمة؛ أي: مستعد ومعرَّض له، من قولهم: هو عرضة للَّوائم.

﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ لا يَشذُّ مِنه أحدٌ مِنكُم.

وقيلَ: عذابٌ مُهلِكٌ، مِن قوله: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف: ٤٢] والمرادُ: عذابُ يومِ القِيامَةِ أو عذابُ الاستئصالِ، وتَوصيفُ اليومِ بالإحاطةِ وهي صِفَةُ العَذابِ لاشتمالِهِ عليه.

(٨٥) - ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ صَرَّحَ بالأمرِ بالإيفاءِ بعدَ النَّهيِ عَن ضِدِّهِ؛ مُبالَغَةً وتَنبيهًا على أنَّه لا يَكفيهِم الكَفُّ عَن تَعمُّدِ التَّطفيفِ، بَلْ يَلزَمُهُم السَّعيُ في الإيفاءِ ولو بزيادَةٍ لا يَتأَتَّى دونَها[1].

﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾: بالعَدلِ والسَّوِيَّةِ مِن غَيرِ زِيادَةٍ ولا نُقصانٍ، فإنَّ الازديادَ إيفاءٌ، وهو مَندوبٌ غيرُ مَأمورٍ به، وقد يكونُ مَحظورًا[2].

﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ تَعميمٌ بعدَ تَخصيصٍ، فإنَّه أَعَمُّ مِن أَنْ يكونَ في المقدارِ أو في غيرِهِ، وكذا قولُه: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ فإنَّ العُثُوَّ يعمُّ تنقيصَ الحُقوقِ وغيرَه مِن أنواعِ الفَسادِ.

وقيلَ: المرادُ بالبخسِ: المكسُ؛ كأخذِ العُشورِ في المُعاملاتِ، والعُثُوِّ: السَّرِقَةُ وقطعُ الطَّريقِ والغارَةُ.

وفائدةُ الحالِ: إخراجُ ما يُقصدُ به الإصلاحُ كما فعلَهُ الخضرُ عليهِ السَّلامُ.

وقيلَ: معناهُ: ولا تعثَوْا في الأرضِ مُفسِدينَ أمرَ دينِكُم ومَصالِحَ آخرَتِكُم.

---

(١) قولـه: «ولـو بزيـادَةٍ لا يَتأَتَّـى دونَهـا»؛ أي: الزيـادة التـي لا يتأَتَّـى الإيفـاءُ بدونها لازمـة؛ لأنَّ ما لا يتـم الواجـب إلَّا بـه واجـب، فـلا ينافـي قولـه الآتي: «مـن غير زيـادة ولا نقصـان». قاله الشـهاب في «الحاشـية».

(٢) قوله: «وقد يكون محظورًا»؛ أي: كما في الرِّبا. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٢٤٥).

(٨٦) ـ ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾: ما أبقاهُ لَكُم مِن الحلالِ بعدَ التَّنزُّهِ عمَّا حرَّمَ عَلَيْكُم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ممَّا تجمَعونَ بالتَّطفيفِ.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: بشرطِ أَنْ تُؤمِنُوا، فإِنَّ خَيْرِيَّتَها باستتباعِ الثَّوابِ مع[1] النَّجاةِ، وذلك مَشروطٌ بالإيمانِ، أو: إن كنتُم مُصَدِّقينَ لي في قَوْلِي لَكُم.

وقيل البَقيَّةُ: الطاعَةُ؛ كقولِه: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ [الكهف: ٤٦].

وقُرِئَ: «تقيَّةُ الله» بالتاء[2]، وهي تَقواه الَّتي تكفُّ عَن المَعاصِي.

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أحفَظُكُم عن القَبائحِ، أو أحفَظُ عليكُم أعمالَكُم فأُجازِيكُم علَيْهَا، وإنَّما أنا ناصِحٌ مُبَلِّغٌ، وقد أَعْذَرْتُ حينَ أَنْذَرْتُ.

أو: لستُ بحافظٍ عليكُم نِعَمَ[3] اللهِ لو لم تتركُوا سوءَ صَنيعِكُم.

(٨٧) ـ ﴿قالوا يا شعيبُ أَصَلَوَاتُكَ تأمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤنا﴾ مِن الأصنامِ، أجابُوا به ـ بعدَ أمرِهم بالتَّوحيدِ ـ على الاستهزاءِ به والتَّهكُّمِ بصَلاتِه، والإشعارِ بأَنَّ مِثلَهُ لا يدعو إليه داعٍ عَقليٌّ، وإنَّما دعاكَ إليه خطراتٌ ووساوسُ من جنسِ ما تُواظِبُ عليه، وكانَ كثيرَ الصَّلاةِ فلذلك جمعُوا وخَصُّوا بالذِّكرِ.

وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ وحفصٌ على الإفرادِ[4]، والمعنى: «أصلاتُكَ تَأمُرُكَ بتكليفِ أَنْ نتركَ؟» فحُذِفَ المضافُ؛ لأنَّ الرَّجُلَ لا يُؤمَرُ بفعلِ غيرِه.

﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ عطفٌ على ﴿مَا﴾؛ أي: وأَنْ نتركَ فِعلَنا ما نشاءُ في أموالنا.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «بعد».

(٢) نسبت للحسن. انظر: «البحر المحيط» (١٢/ ٣٣٧).

(٣) في نسخة التفتازاني: «نعمة».

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٣١٧)، و«التيسير» (ص: ١١٩).

وقُرِئَ بالتَّاءِ فيهما[١] على أنَّ العَطفَ على ﴿أَن نَّتْرُكَ﴾.

وهو جوابُ النَّهيِ عَن التَّطفيفِ والأمرِ بالإيفاءِ[٢].

وقيلَ: كانَ يَنهاهُم عَن تَقطيعِ الدَّراهِم والدَّنانيرِ، وأرادوا به ذلك[٣].

﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ تهكَّمُوا به وقَصَدُوا وَصفَهُ بضدِّ ذلك، أو علَّلُوا إنكارَ ما سَمِعُوا منه واستبعادَه بأنَّه مَوسومٌ بالحِلمِ والرُّشدِ المانعَين عن المبادرَةِ إلى أمثالِ ذلك.

(٨٨) ـ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ إشـارةٌ إلـى ما آتاهُ اللهُ مِن العِلْمِ والنُّبوَّةِ.

﴿وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ إشارةٌ إلى ما آتاهُ مِن المالِ الحَلالِ.

وجوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ تَقديرُه: فهل يَسَعُ لي مع هذا الإنعامِ الجامعِ للسَّعاداتِ الرُّوحانيةِ والجسمانيَّةِ أن أخونَ في وحيِهِ وأُخالِفَهُ[٤] في أمرِه ونهيِه، وهو اعتذارٌ عمَّا أنكَرُوا عليهِ مِن تَغييرِ المألوفِ والنَّهيِ عَن دينِ الآباءِ، والضَّميرُ في ﴿مِنْهُ﴾ لله؛ أي: مِن عندِه وإعانته بلا كدٍّ مِنِّي في تَحصيلِه.

---

(١) أي: «أو أنْ تَفْعَلَ في أموالِنا ما تَشاءُ»، نسبت للسلمي والضحاك بن قيس، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٥)، ونسبها الزمخشري في «الكشاف» (٤/ ١٨٦) لابن أبي عبلة.

(٢) قوله: « وهو جوابُ النَّهيِ عَن التَّطفيفِ والأمرِ بالإيفاءِ»؛ هذا في المعطوف وهو قولهم: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ...﴾ أما قولهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ ...﴾ فهو جواب النهي عن عبادة غير الله بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ فإن الأمر بالشيء في ضمنه النهي عن غيره. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١٠/ ١٧٤).

(٣) قوله: «وأرادوا به ذلك»؛ أي: أرادوا بالفعل المدلول عليه بقولهم: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ﴾ ذلك التقطيع والحذف للدراهم والدنانير في معاملاتهم. المصدر السابق.

(٤) في نسخة الخيالي: «وأخالف» وفي نسخة الطبلاوي: «فأخالفه».

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾؛ أي: وما أريدُ أَنْ آتيَ ما أنهاكُم عنه لأَستَبِدَّ به، فلو كانَ صَوابًا لآثرتُهُ ولم أُعْرِض عنه فَضلًا عَن أَنْ أَنهَى عنه، يُقالُ: خالَفْتُ زَيدًا إلى كذا: إذا قصدتَهُ وهو مولٍّ عنه، وخالَفْتُه عنه: إذا كانَ الأمرُ بالعَكسِ.

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾: ما أريدُ إلَّا أَنْ أُصلِحَكُم بأمري بالمعروفِ ونَهيِي عَن المنكَرِ ما دمتُ أَستطيعُ الإصلاحَ، فلو وجدتُ الصَّلاحَ فيما أنتُم عليه لَمَا نَهَيْتُكُم عنه.

ولهذه الأجوبَةِ الثَّلاثَةِ على هذا النَّسقِ شَأنٌ وهو: التَّنبيهُ على أنَّ العاقِلَ يجبُ أَنْ يُراعِيَ في كلِّ ما يأتيهِ ويذرُهُ أحدَ حُقوقٍ ثلاثَةٍ: أهمُّها وأَعلاها: حقُّ اللهِ، وثانيها: حقُّ النَّفسِ، وثالثُها: حقُّ النَّاسِ، وكلُّ ذلك يَقتَضي أَنْ آمرَكُم بما أمرتُكُم به وأنهاكُم عمَّا نَهَيْتُكُم عنه.

و﴿ما﴾ مَصدريَّةٌ واقعَةٌ موقِعَ الظَّرفِ، وقيلَ: خبريَّةٌ بدلٌ مِن ﴿ٱلْإِصْلَٰحَ﴾؛ أي: المقدارَ الَّذي استطَعْتُه، أو: إصلاحَ ما استطَعْتُه، فحُذِفَ المُضافُ[(١)].

﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾: وما توفيقي لإصابَةِ الحقِّ والصَّوابِ إلَّا بهدايَتِه ومَعونَتِه.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فإنَّه القادرُ المُتمكِّنُ مِن كلِّ شَيءٍ، وما عداهُ عاجِزٌ في حَدِّ ذاتِه، بل مَعدومٌ ساقِطٌ عَن دَرجةِ الاعتبارِ، وفيه إشارةٌ إلى محضِ التَّوحيدِ الَّذي هو أَقْصَى مَراتبِ العلمِ بالمبدأ.

﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ إشارةٌ إلى مَعرِفَةِ المعادِ، وهو أيضًا يفيدُ الحَصْرَ بتَقديمِ الصِّلَةِ عَلى الفعلِ.

---

(١) تفصيل ما ذكر: أن ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ إما ظرفٌ؛ أي: مدَّةَ استطاعتي للإصلاح، وما دُمتُ متمكِّنًا منه، لا آلو فيه جُهْدًا، أو بدلٌ من ﴿ٱلْإِصْلَٰحَ﴾؛ أي: المقدارَ الذي استطعتُه منه، ويجوز أن يكون على تقديرِ حذفِ المضاف، على قولك: إلَّا الإصلاحَ إصلاحَ ما استطعتُ. انظر: «الكشاف» (٤/ ١٨٨).

وفي هذه الكلماتِ: طلبُ التَّوفيقِ لإصابَةِ الحَقِّ فيما يأتيه ويَذَرُه مِن اللهِ، والاستعانةُ بهِ في مجامِعِ أَمرِهِ، والإقبالُ عليه بشراشرِه، وحسمُ أطماعِ الكُفَّارِ، وإظهارُ الفراغِ عَنْهُم وعدمِ المبالاةِ بمُعاداتِهِم، وتَهديدُهم بالرُّجوعِ إلى اللهِ للجَزاءِ.

(٨٩) ـ ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾: لا يكسِبَنَّكُم ﴿شِقَاقِيٓ﴾ معاداتي ﴿أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ﴾ من الغرقِ ﴿أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ﴾ مِن الرِّيحِ ﴿أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖ﴾ مِن الرَّجفَةِ.

و«أَنْ» بصِلَتِها ثاني مفعولَي «جَرَمَ» فإنَّه يُعدَّى إلى واحدٍ وإلى اثنينِ كـ«كَسَبَ».

وعن ابنِ كثيرٍ: «يُجْرِمَنَّكُم» بالضَّمِّ[1]، وهو منقولٌ مِن المتعدِّي إلى مفعولٍ، والأوَّلُ أفصَحُ فإنَّ «أَجْرَمَ» أقلُّ دَورانًا على ألسنَةِ الفُصَحاءِ.

وقُرِئَ: «مثلَ» بالفتحِ[2] لإضافَتِه إلى المبنيِّ كقولِه:

لَـمْ يَمْنَعِ الشُّـرْبَ منها غيرَ أَنْ نَطَقَتْ ... حَـمَـامَــةٌ فــي غُصــونٍ ذاتِ أَوْقَالِ[3]

---

(١) انظر: «المحتسب» (١/ ٣٢٧) عن يحيى بن وثاب والأعمش. والمشهور عن ابن كثير بفتح الياء كقراءة الجماعة.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٥) عن مجاهد وابن أبي إسحاق وابن كثير في رواية، و«الكشاف» (٤/ ١٩٠) عن أبي حيوة ونافع. والمشهور عن ابن كثير وكذا عن نافع الضم كقراءة الجماعة.

(٣) البيت لأبي قيس بن الأسلت كما في «خزانة الأدب» للبغدادي (٣/ ٤٠٨)، ثم قال (٣/ ٤١٣): وقد نسبه الزَّمخشري في بعض كتبه إِلَى الشماخ وقد راجعت ديوانه فلم أجده فيه، ونسبه بعض شرَّاح شواهد «كتاب سيبويه» لرجل من كِنانة، ونسبه بعض فضلاء العجم فِي «شرح أبيات المفصل» تبعاً للزمخشري فِي «شرح أبيات الكتاب» لأبي قيس بن رِفاعة الأنصارِيّ، ولم يُوجد فِي كتب الصَّحَابَة من يُقال له: أبو قيس بن رِفاعة، وإنما الموجود قيس بن رِفاعة.

قلت: وذكر أبو محمد السيرافي في «شرح أبيات سيبويه» (٢/ ١٧١) أنه لأبي قيس بن رِفاعة من الأنصار، وهو في «الكتاب» (٢/ ٣٢٩) منسوب للكناني، وورد البيت دون نسبة في «معاني القرآن» =

﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ زمانًا أو مَكانًا، فإن لم تَعْتَبِرُوا بمَنْ قبلَهُم فاعتَبِرُوا بهم.

أو: ليسوا ببعيدٍ مِنْكُم في الكفرِ والمساوئِ فلا يبعدُ عَنْكُم ما أصابَهُم.

وإفرادُ البعيدِ لأنَّ المرادَ: وما إهلاكُهُم ـ أو: وما هُمْ ـ بشَيءٍ بعيدٍ، ولا يبعدُ أَنْ يُسوَّى في أمثالِه بينَ المُذكَّرِ والمؤنَّثِ لأنَّه على زِنَةِ المصادرِ كالصَّهيلِ والشَّهيقِ.

(٩٠) ـ ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ عمَّا أنْتُم عليه ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ﴾: عظيمُ الرَّحمةِ للتَّائبينَ ﴿وَدُودٌ﴾ فاعلٌ بِهِم مِن اللُّطفِ والإحسانِ ما يفعل البَليغُ المودَّةِ بمَن يَوَدُّهُ، وهو وعدٌ على التَّوبَةِ بعدَ الوَعيدِ على الإصرارِ.

(٩١) ـ ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ﴾: ما نفهَمُ ﴿كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ كوُجوبِ التَّوحيدِ وحرمَةِ البخسِ، وما ذكَرْتَ دليلًا عليهما؛ لقُصورِ عَقلِهم وعدمِ تَفكُّرِهِم.

وقيلَ: قالوا ذلكَ استِهانَةً بكَلامِهِ، أو لأنَّهُم لم يُلْقُوا إليه أذهانَهم لشِدَّةِ نفرَتِهِم عنه.

﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾: لا قوَّةَ لك فتَمتَنِعَ مِنَّا إنْ أَرَدْنا بكَ سُوءًا[1]، أو: مَهينًا لا عزَّ لك.

= للفراء (١/ ٣٨٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٤٩) و(٥/ ٥٢).

ضمير «منها» راجع للناقة، و«الشربَ» مفعول «يمنع» و«غيرَ» فاعله، لكنه بني على الفتح جوازًا لإضافته إلى مبنيٍّ، وروي الرّفعُ أيضا. و«نطقت»: صوَّتت وصدحت، عبر عنه بالنطق مجَازًا. و«في» بمعنى: على. و«ذات» بالجرِّ صفة لـ«غصونٍ» لا بالرَّفع صفةً لـ«حمامةٌ» كما وهم بعض شراح شواهد «المفصل». والأوقال: جمع «وَقْلٍ» بفتح الواو وسكون القاف، وفي «كتاب النَّبات» للدينوري: المقل إذا كان رطباً لم يدرك فهو البهش فإذا يبس فهو الوقل، والدَّوم: شجر المقل. وأنشد هذا البيت. انظر: «خزانة الأدب» للبغدادي (٣/ ٤٠٩).

(١) في نسخة الخيالي: «إن أردناك بسوء».

وقيلَ: أَعْمَى بلُغَةِ حِمْيَرَ، وهو مع عدمِ مُناسبتِهِ يردُّهُ التَّقييدُ بالظَّرفِ، ومنَعَ بعضُ المعتزلَةِ استنباءَ الأعمى قياسًا على القضاءِ والشهادة، والفرقُ بَيِّنٌ.

﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾: قومُكَ وعزَّتُهم عندَنا لكونِهم على مِلَّتِنا لا لخوفٍ مِن شَوكتِهم فإنَّ الرَّهطَ مِن الثلاثةِ إلى العشرةِ، وقيلَ: إلى السَّبعةِ.

﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾: لقتلناكَ برَمي الأحجارِ، أو بأصعبِ وَجهٍ.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ فتمنعَنا عِزَّتُك عَن الرَّجمِ.

وهذا ديدنُ السَّفيهِ المَحجوجِ؛ يقابِلُ الحُجَجَ والآياتِ بالسَّبِّ والتَّهديدِ، وفي إيلاءِ ضَميرِهِ حرفَ النَّفي تَنبيهٌ على أنَّ الكَلامَ فيهِ لا في ثبوتِ العِزَّةِ، وأنَّ المانِعَ لَهُم عَن إيذائِه عزَّةُ قومِه ولذلك:

(٩٢) - ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾: وجعَلْتُموهُ كالمَنسِيِّ المنبوذِ وراءَ الظَّهرِ بإشراكِكُم بهِ والإهانةِ برَسُولِه، فلا تُبقونَ عليَّ للهِ وتُبْقونَ عليَّ لرَهطِي، وهو يحتمِلُ الإنكارَ والتَّوبيخَ والردَّ والتَّكذيبَ.

والظِّهْرِيُّ مَنسوبٌ إلى الظَّهرِ، والكسرُ مِن تَغييراتِ النَّسَب.

﴿إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ فلا يَخْفَى عليه شيءٌ مِنْها فيُجازي عليها.

(٩٣) - ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ سبقَ مِثلُه في سورةِ الأنعامِ، والفاءُ في ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥] ثَمَّ للتَّصريحِ بأنَّ الإصرارَ والتَّمكُّنَ فيما عليه سببٌ لذلك، وحذفُها هاهنا لأنَّه جوابُ سائلٍ قالَ: فماذا يَكونُ بعدَ ذلك؟ فهوَ أبلَغُ في التَّهويلِ.

﴿وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ عطفٌ على ﴿مَن يَأْتِيهِ﴾ لا لأنَّهُ قَسيمٌ له كقولِك: «ستعلَمُ

الصَّادِقَ والكاذِبَ» بل لأنَّهم لَمَّا أَوْعَدُوهُ وكذَّبُوه قالَ: سوفَ تَعلَمُونَ مَن المعذَّبُ والكاذِبُ منِّي ومِنْكم.

وقيلَ: كانَ قِياسُه: ومَن هو صادِقٌ؛ لينصرِفَ الأوَّلُ إليهم والثَّاني إليه، لكنَّهم لمَّا كانُوا يَدْعونَهُ كاذِبًا قالَ: ﴿وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ على زَعمِهم.

﴿وَٱرْتَقِبُوٓاْ﴾: وانتظروا ما أقولُ لَكُم ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾: منتظِرٌ، فَعِيلٌ بمَعنى الرَّاقبِ كالصَّريمِ، أو المراقبُ كالعَشيرِ، أو المُرتَقِب كالرَّفيعِ.

(٩٤) ـ ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ إنَّما ذكرَهُ بالواوِ كما في قِصَّةِ عادٍ إذ لم يسبِقْهُ ذكرُ وَعدٍ يجري مَجرى السَّببِ له، بخِلافِ قِصَّتَيْ صالحٍ ولُوطٍ فإنَّه ذُكرَ بعدَ الوَعدِ، وذلك قولُه: ﴿وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]، وقولُه: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ [هود: ٨١]، فلذلك جاءَ بفاءِ السَّببيَّةِ.

﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ قيلَ: صاحَ بِهِم جِبريلُ فهَلَكوا ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾: مَيِّتينَ، وأَصلُ الجُثُومِ: اللُّزُومُ في المَكانِ.

(٩٥) ـ ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾: كأَنْ لَمْ يُقيمُوا فيها ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ شَبَّهَهُم بِهِم لأنَّ عَذَابَهُم كانَ أيضًا بالصَّيحَةِ، غيرَ أنَّ صيحَتَهُم كانَتْ مِن تَحتِهِم وصيحَةَ مَدينَ كانَتْ مِن فَوقِهِم.

وقُرِئَ: «بَعُدَت» بالضَّمِّ على الأصلِ[1]؛ فإنَّ الكسرَ تَغييرٌ لتَخصيصِ مَعنى البُعْدِ بما يكونُ بسبب الهلاكِ، والبُعْدُ مَصدرٌ لهما، والبَعَدُ مَصدرُ المكسورِ.

---

(١) نسبت لمعاذ وعلي رضي الله عنهما، وعيسى بن عمر وأبي عبد الرحمن السُّلَمي وأبي حيوة وغيرهم. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٥ ـ ٦٦)، و«المحتسب» (١/ ٣٢٧)، و«الكامل» للهُذلي (ص: ٥٧٣)، و«الكشاف» (٤/ ١٩٦)، و«البحر» (١٢/ ٣٤٩).

(٩٦) ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: بالتَّوراةِ أو المُعجزاتِ ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ هو المُعجزاتُ القاهِرَةُ، أو العَصا وإفرادُها لأنَّها أبهرُهَا.

ويجوزُ أن يُرادَ بهمَا واحِدٌ؛ أي: ولقَدْ أَرْسَلنَاهُ بالجامعِ بينَ كَونِهِ آياتِنا وسُلطانًا له على نبوَّتِه؛ واضِحًا في نفسِهِ، أو موضحًا إيَّاهَا، فإنْ «أبانَ» جاءَ لازِمًا ومُتَعدِّيًا، والفرقُ بينَهما: أنَّ الآيَةَ تعمُّ الأمارةَ والدَّليلَ القاطِعَ، والسُّلطانَ يَخُصُّ القاطِعَ، والمبينَ يُخَصُّ بما فيه جَلاءٌ.

(٩٧) ـ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾: فاتَّبَعُوا أمرَهُ بالكفرِ بمُوسى، أو: فما اتَّبعوا موسى الهادي إلى الحقِّ المؤيَّدِ بالمُعجزاتِ الباهرَةِ، واتَّبعُوا طريقَةَ فِرعونَ المنهمِكِ في الضَّلالِ والطُّغيانِ الدَّاعي إلى ما لا يَخْفَى فَسادُهُ على مَن لَهُ أَدْنَى مُسكَةٍ مِن العَقلِ؛ لفرطِ جَهَالَتِهم وعدمِ استِبْصارِهِم.

﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾: مُرشِدٍ، أو: ذي رُشْدٍ، وإنَّما هو غَيٌّ مَحْضٌ وضَلالٌ صَريحٌ.

(٩٨) ـ ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إلى النَّارِ كما كانَ يَقدُمُهم في الدُّنيا إلى الضَّلالِ، يُقالُ: قَدَمَ، بمَعنى: تقدَّمَ.

﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ ذكرَهُ بلفظِ الماضي مُبالغَةً في تَحقيقِه، ونزَّلَ لَهُم النَّارَ مَنزِلَةَ الماءِ فسمَّى إِتيانَها مَورِدًا، ثمَّ قالَ:

﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾؛ أي: بِئسَ المورِدُ الَّذي وَرَدُوه النارُ، فإنَّه[1] يُرادُ لتَبريدِ الأَكبادِ وتَسكينِ العطشِ والنَّارُ بالضدِّ.

والآيةُ كالدَّليلِ على قولِه: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾؛ فإنَّ مَن هذا عاقِبَتُه

---

(١) «فإنه»؛ أي: المورد.

لـم يَكُـن فـي أمـره رشـدٌ، أو تفسـيرٌ له علـى أنَّ المـرادَ بالرُّشـدِ: مـا يكـونُ مأمونَ العاقبـةِ حميدَها.

(٩٩) ـ ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: يُلعنونَ في الدُّنيا والآخرةِ.

﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾: بئسَ العَوْنُ المُعانُ، أو: العَطاءُ المُعطَى، وأصـلُ الرفدِ: ما يُضافُ إلى غيرِه ليَعْمِدَه، والمَخصوصُ بالذمِّ مَحذوفٌ؛ أي: رفدُهُم، وهو اللعنَةُ في الدَّارينِ.

(١٠٠) ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ذلك النبأُ ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ﴾ المُهلَكَةِ ﴿نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾: مَقصوصٌ عليك.

﴿مِنْهَا قَآئِمٌ﴾: مِن تلكَ القُرَى باقٍ كالزَّرعِ القائمِ ﴿وَحَصِيدٌ﴾ ومِنها عافي الأثرِ كالزَّرعِ المَحصودِ، والجُملَةُ مُستأنفَةٌ، وقيلَ: حالٌ مِن الهاءِ في ﴿نَقُصُّهُۥ﴾ وليس بصَحيحٍ إذ لا واوَ ولا ضَميرَ.

(١٠١) ـ ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بإهلاكِنا إيَّاهُم ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بأَنْ عَرَّضُوها له بارتكابِ ما يُوجِبُه ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ﴾: فما نَفَعَتْهُم ولا قَدَرَتْ أن تدفعَ عَنْهُم ﴿ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ حينَ جاءَهُم عذابُهُ ونقمَتُه ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾: هلاكٍ، أو تَخسيرٍ.

(١٠٢) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: ومثلُ ذلك الأَخذِ ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾، وقُرِئَ: «أَخذَ رَبُّك» بالفعلِ[١]، فيكونُ محلُّ الكافِ النَّصبَ على المصدرِ.

﴿إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾؛ أي: أهلَها، وقُرِئَ: «إذ»[٢] لأن المَعنى على المُضِيِّ.

---

(١) نسبت لعاصم الجحدري وأبي رجاء العطاردي، انظر: «تفسير الطبري» (١٢/ ٥٧٢)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٥ ـ ٦٦)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٢٠٦).

(٢) نسبت للجحدري. انظر: «تفسير الطبري» (١٢/ ٥٧٢).

﴿وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ﴾ حالٌ مِن ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾، وهي في الحَقيقَةِ لأهلِهَا، لكنَّها لَمَّا أُقيمَتْ مُقامَها أُجرِيَت عليها، وفائدَتُها: الإشعارُ بأنَّهُم أُخذوا لظُلْمِهِم، وإنذارُ كلِّ ظالمٍ ظلَمَ نفسَهُ أو غيرَهُ مِن وَخامةِ العاقِبَةِ.

﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾: وجيعٌ غيرُ مَرجُوٍّ الخلاصُ منه[1]، وهو مُبالغَةٌ في التَّهديدِ والتَّحذيرِ.

(١٠٣) ـ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾؛ أي فيما نزلَ بالأُمَمِ الهالِكَةِ، أو فيما قصَّهُ اللهُ تَعالى مِن قَصَصِهِم ﴿لَءَايَةً﴾: لعِبرَةً ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يَعتبرُ به عِظَمَهُ[2]؛ لعلمِهِ بأنَّ ما حاقَ بهم أنموذَجٌ ممَّا أعدَّ اللهُ للمُجرمينَ في الآخرةِ، أو ينزجرُ به عَن مُوجِباتِه لعلمِهِ بأنَّها مِن إلهٍ مُختارٍ يُعذِّبُ مَن يَشاءُ ويَرحَمُ مَن يَشاءُ، فإنَّ مَن أنكرَ الآخرةَ وأحالَ فناءَ هذا العالمِ لم يَقُلْ بالفاعلِ المُختارِ، وجعلَ تلكَ الوَقائعَ لأسبابٍ فَلَكيَّةٍ اتَّفقَت في تلك الأيَّامِ لا لذنوبِ المهلَكينَ بها.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى يومِ القيامَةِ وعذابِ الآخرةِ، دلَّ عليه: ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾؛ أي: يُجمَعُ له النَّاسُ، والتَّغييرُ للدلالةِ على ثَباتِ مَعنى الجمعِ لليومِ[3]، وأنَّه مِن شأنِهِ لا محالةَ، وأنَّ النَّاسَ لا ينفكُّونَ عنه، فهو أبلَغُ مِن قولِهِ: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩].

---

(١) في نسخة التفتازاني: «عنه».

(٢) قولُهُ: «يعتبرُ بهِ عِظَمَهُ...» يعني: أنَّ مَن يُقِرُّ بالآخرَةِ وما فيهَا إذا رأى ما وقعَ في الدُّنيا مِنَ العذابِ الأليمِ اعتبرَ بهِ؛ لأنَّهُ قليلٌ مِن كثيرٍ.

(٣) قولُهُ: «والتَّغييرُ»؛ أي: العدولُ عن «يُجمَعُ» إلى ﴿مَّجْمُوعٌ﴾؛ أي: من الفعل إلى اسم المفعول ومُخالفَةُ الظَّاهرِ «للدَّلالَةِ» على أن اليومَ موصوفٌ بذلك الوصفِ وصفاً لازماً، وأن الناس لا ينفكُّون عن الجمع باعتبارِ أنَّ أصلَ الاسمِ الدَّلالَةُ على الثُّبوتِ.

ومَعنى الجمعِ لهُ: الجمعُ لِمَا فيه مِن المحاسبَةِ والمجازاةِ.

﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾؛ أي: مَشهودٌ فيه أهلُ السَّماواتِ والأرضينَ، فاتُّسعَ فيه بإجراءِ الظَّرفِ مُجرى المَفعولِ به[1]؛ كقولِه:

فـي محفـلٍ مِـن نَواصِي النَّـاسِ مَشـهودِ[2]

أي: كثيرٍ شاهِدُوه، ولو جُعلَ اليومُ مَشهودًا في نفسِهِ لبطلَ الغرضُ مِن تَعظيمِ اليوم وتمييزِه، فإنَّ سائرَ الأيَّامِ كذلك.

(١٠٤) ـ ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾؛ أي: اليـومَ ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾: إلَّا لانتهـاءِ مُـدَّةٍ مَعـدودَةٍ مُتناهِيَـةٍ، علـى حـذفِ المُضـافِ وإرادةِ مُـدَّةِ التأجيـلِ كلِّهـا بالأجـلِ، لا مُنتهاهـا فإنَّـه غيـرُ مَعدودٍ.

(١٠٥) ـ ﴿يومَ يأتي﴾؛ أي: الجزاءُ، أو: اليومُ كقولِه: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ [الحج: ٥٥] على أنَّ ﴿يَوْمَ﴾ بمعنى «حينَ»، أو: اللهُ عزَّ وجلَّ، كقولِه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠] ونحوِه.

---

(١) قولُهُ: «مشهودٌ فيهِ أهلُ السَّماواتِ والأَرَضينَ فاتُّسِعَ فيهِ..»؛ قال الشهاب في «الحاشية»: أي: أصلُهُ: «مشهودٌ فيهِ» فحُذفَ الجارُّ، وجعلَ الضَّميرُ مفعولًا توسُّعاً فأُقيمَ مقامَ الفاعلِ واستتَرَ، وليسَ المُرادُ أنَّ اليومَ نفسَهُ مشهودٌ؛ لأنَّ سائِرَ الأيَّامِ كذلكَ، بل مشهودٌ فيهِ جميعُ الخلائِقِ.

(٢) عجز بيت لأم قيس الضبية كما في «بلاغات النساء» لابن طيفور (ص: ١٧٧)، و«الحماسة» بشرح المرزوقي (ص: ٧٤١)، ودون نسبة في «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٨٣)، و«الصحاح» (مادة: نصا). وقبله:

مَـن لِلخصـومِ إذا جَدَّ الضجاجُ بهم ... بعــدَ ابنِ سـعدٍ ومَـن لِلضمَّرِ القودِ

ومَشْـهَدٍ قـد كَفَيْـتُ الغائبيـن به ... فـي محفـلٍ......................

«ومشهدٍ» مجرورٌ معطوفٌ على الخصومِ؛ أي: ومَن لِمَشهدٍ ونادٍ كنتَ تكفي في مهمَّاتهِ عمَّن غابَ.

«نواصي الناس»: رؤساؤهم «مشهود»؛ أي: فيه.

وقرأ ابنُ عامرٍ وعاصِمٌ وحمزَةُ: ﴿يَأْتِ﴾ بحذفِ الياءِ اجتزاءً عنها بالكسرةِ[١].

﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾: لا تتكلَّمُ نفسٌ بما ينفَعُ ويُنجي مِن جوابٍ أو شَفاعَةٍ، وهو النَّاصِبُ للظَّرفِ، ويحتملُ نصبُهُ بإضمارِ: اذكُرْ، أو بالانتهاءِ المحذوفِ[٢].

﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾: إلَّا بإذنِ اللهِ؛ كقولِه: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [النبأ: ٣٨] وهذا في موقفٍ، وقولُه: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥] في موقفٍ آخرَ، أو المأذونُ فيه هي الجواباتُ الحقَّةُ والممنوعُ عنه هي الأعذارُ الباطِلَةُ.

﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ﴾ وجبَتْ له النَّارُ بمُقتَضَى الوَعيدِ ﴿وَسَعِيدٌ﴾ وجبَتْ لَهُ الجنَّةُ بمُوْجَبِ الوَعدِ، والضَّميرُ لأَهلِ المَوقفِ وإن لم يُذكر؛ لأنَّه مَعلومٌ مدلولٌ عليه بقولِه: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾، أو للنَّاسِ.

(١٠٦) ـ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ الزَّفيرُ: إخراجُ النَّفَسِ، والشَّهيقُ: رَدُّهُ، واستعمالُهُما في أوَّلِ النَّهيقِ وآخرِه[٣]، والمرادُ بهما: الدَّلالَةُ على شِدَّةِ كَربِهم وغَمِّهِم، وتَشبيهُ حَالِهِم بمَن استَوْلَت الحرارَةُ على قلبِه وانحصرَ فيه روحُه، أو تشبيهُ صراخِهِم بأصواتِ الحَميرِ.

وقُرِئَ: «شُقُوا» بالضَّمِّ[٤].

---

(١) وأثبتها في الحالين ابن كثير، وأثبتها في الوصل نافع وأبو عَمْرو والكسائيّ. انظر: «التيسير» (ص: ١٢٧).

(٢) الانتهاءُ المحذوفُ: هوَ الَّذي قدَّرَهُ في قولِهِ: ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾: إلاَّ لانتهاءِ مُدَّةٍ مَعدودَةٍ.

(٣) قولُهُ: «واستعمالُهُمَا..»؛ أي في الأكثر، وإلا فلا كلام في استعمالهما في غير النهيق وهو صوت الحمير، ثمَّ إنَّ أوَّلَ النَّهيقِ يحصلُ بإخراجِ النَّفَسِ، وآخرَهُ بإدخالِهِ، وكُنِّيَ بهِ عنِ الغَمِّ والكربِ؛ لأنَّهُ يعلو معَهُ النَّفَسُ غالبًا.

(٤) المنطوقُ هنا قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، والمفهوم: ما فُهِم من التقييد بدَوام السماوات والأرض.

(١٠٧) - ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ ليسَ لارتباطِ دَوامِهِم في النَّارِ بدَوامِهِما؛ فإنَّ النُّصوصَ دالَّةٌ على تأبيدِ دوامِهِم وانقطاعِ دَوامِهِما، بل للتَّعبيرُ عَن التَّأبيدِ والمُبالغَةِ بما كانَت العربُ يعبِّرونَ به عنه على سَبيلِ التَّمثيلِ، ولو كانَ للارتباطِ لم يلزَمْ أيضًا مِن زَوالِ السَّماواتِ والأَرضِ زوالُ عذابِهم ولا مِن دوامِهِ دَوامُهُمَا إلَّا من قِبَلِ المفهومِ؛ لأنَّ دَوامَهُما كالملزومِ لدَوامِه، وقد عرفتَ أَنَّ المفهومَ لا يقاوِمُ المنطوقَ[1].

وقيلَ: المرادُ: سماواتُ الآخرةِ وأرضُها، ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وأنَّ أهلَ الآخرةِ لا بُدَّ لَهُم مِن مُظِلٍّ ومُقِلٍّ.

وفيه نظرٌ؛ لأنَّه تَشبيهٌ بما لا يَعرِفُ أكثر الخلقِ وجودَهُ ودوامَهُ، ومَن عرفَهُ فإنَّما يَعْرِفُه بما يدلُّ على دوامِ الثَّوابِ والعقابِ فلا يُجْدِي له التَّشبيهُ.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ استثناءٌ مِن الخلودِ في النَّارِ؛ لأنَّ بعضَهُم وهُم فُسَّاقُ الموحِّدينَ يخرجونَ منها، وذلك كافٍ في صِحَّةِ الاستثناءِ؛ لأنَّ زَوالَ الحُكمِ عَن الكلِّ يكفيهِ زوالُهُ عن البعضِ، وهم المرادُ بالاستثناءِ الثَّاني، فإنَّهُم مُفارِقُونَ عَن الجنَّةِ أيامَ عَذابِهِم، فإنَّ التَّأبيدَ مِن مبدأٍ مُعيَّنٍ يَنتقِضُ باعتبارِ الابتداءِ كما ينتقِضُ باعتبارِ الانتهاءِ، وهؤلاء وإنْ شَقُوا بعِصيانِهم فقد سُعِدُوا بإيمانهم.

ولا يُقالُ: فعَلَى هذا لم يَكُن قولُه: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ تقسيمًا صَحيحًا؛ لأنَّ مِن شَرطِهِ أن تكونَ صِفَةُ كلِّ قسمٍ مُنتفيَةً عَن قَسيمِهِ= لأنَّ ذلك[2] الشَّرطَ حيثُ التَّقسيمُ لانفصالٍ حَقيقِيٍّ أو مانعٍ مِن الجمعِ، وهاهنا المرادُ أنَّ أهلَ الموقف لا يَخرجونَ عَن القِسمينِ، وأنَّ حالَهُم لا يَخْلُو عَن السَّعادةِ والشَّقاوَةِ، وذلك لا يمنَعُ

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٦) عن الحسن.

(٢) قوله: «لأن ذلك»؛ علة لقوله: «لا يقال». انظر: «حاشية القونوي» (١٠/ ٢١٢).

اجتماعَ الأمرينِ في شخصٍ باعتبارينِ، أو لأنَّ أهلَ النَّارِ يُنقلونَ مِنْها إلى الزَّمهريرِ وغيرِهِ مِن العذابِ أحيانًا، وكذلك أهلُ الجنَّةِ يُنعَّمونَ بما هو أعلى مِن الجنَّةِ كالاتِّصالِ بجنابِ القُدسِ والفوزِ برضوانِ اللهِ ولقائِه.

أو من أصلِ الحكمِ[1]، والمستثنَى زمانُ تَوقُّفِهم في الموقفِ للحِسابِ؛ لأنَّ ظاهرَهُ يَقتضي أن يكونوا في النَّارِ حينَ يأتي اليومُ، أو مدَّةُ لبثِهم في الدُّنيا والبرزَخِ إن كانَ الحكمُ مُطلقًا غير مقيَّدٍ باليومِ، وعلى هذا التَّأويلِ يحتملُ أن يكونَ الاستثناءُ مِن الخلودِ على ما عرفتَ.

وقيلَ: هو مِن قولِه: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾.

وقيلَ: ﴿إِلَّا﴾ هاهنا بمَعنى: سوى؛ كقولِك: «عليَّ ألفٌ إلَّا الألفانِ القَديمانِ»، والمعنى: سوى ما شاءَ ربُّكَ مِن الزِّيادَةِ الَّتي لا آخِرَ لها على مدَّةِ بقاءِ السَّماواتِ والأرضِ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ مِن غيرِ اعتراضٍ.

(١٠٨) - ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾: غيرَ مَقطوعٍ، وهو تَصريحٌ بأنَّ الثَّوابَ لا يَنقَطِعُ، وتنبيهٌ على أنَّ المُرادَ مِن الاستثناءِ في الثَّوابِ ليسَ الانقطاعَ، ولأجلِه فرَّقَ بين الثَّوابِ والعقابِ في التَّأبيدِ.

وقرأَ حمزَةُ والكِسائِيُّ وحفصٌ: ﴿سُعِدُواْ﴾ على البناءِ للمَفعولِ[2] مِن سَعَدَهُ اللهُ بمعنى: أَسْعَدَه.

---

(١) قوله: «أو من أصل الحكم»؛ أي: وهو كونُهم في النار، عطفٌ على «من الخلود في النار». انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٢٥٨).

(٢) وقرأ الباقون: ﴿سَعِدُوا﴾ انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٩)، و«التيسير» (ص: ١٢٦).

و﴿عَطَآءً﴾ نَصبٌ على المصدرِ المؤكِّدِ؛ أي: أُعْطُوا عطاءً، أو الحالِ مِن ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾.

(١٠٩) ـ ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ﴾: شكٍّ بعد ما أُنزلَ عليك من مآلِ النَّاسِ ﴿مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: مِن عبادةِ هؤلاءِ المشركينَ في أنَّها ضَلالٌ مُؤَدٍّ إلى مثلِ ما حلَّ بمَنْ قبلَهُم ممَّن قَصَصْتُ عليك سوءَ عاقبَةِ عِبادَتِهِم، أو من حال ما يعبدونَهُ في أنَّه يضرُّ ولا ينفعُ.

﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ استئنافٌ معناه تَعليلُ النَّهيِ عَن المريةِ؛ أي: هُم وآباؤُهُم سواءٌ في الشِّركِ؛ أي: ما يعبدونَ عبادةً إلَّا كعِبادَةِ آبائِهِم، أو: ما يعبدونَ شيئًا إلَّا مثلَ ما عَبدُوهُ مِن الأَوثانِ، وقد بلغكَ ما لحقَ آباءَهُم من ذلك فسَيلْحَقُهُم مثلُه؛ لأنَّ التَّماثُلَ في الأسبابِ يَقتَضِي التماثُلَ في المسبَّباتِ.

ومعنى ﴿كَمَا يَعْبُدُ﴾: كما كانَ يعبدُ، فحُذفَ للدلالةِ ﴿قبلُ﴾ عليه.

﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾: حظَّهُم مِن العَذابِ كآبائِهِم، أو من الرِّزقِ فيكونُ عذرًا لتأخيرِ العذابِ عَنْهُم مع قيامِ ما يُوجِبُه.

﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ مِن النَّصيبِ لتَقييدِ التوفيَةِ، فإنَّكَ تَقولُ: وَفَيْتُهُ حقَّهُ، وتريدُ به وفاءَ بعضِهِ ولو مجازًا.

(١١٠) ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ فآمنَ بِهِ قَومٌ وكفرَ به قومٌ كما اختلفَ هؤلاءِ في القرآنِ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ يعني: كلمةَ الإنظارِ إلى يومِ القيامةِ ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ بإنزالِ ما يَستَحِقُّهُ المبطِلُ ليتميَّزَ به عَن المحقِّ.

﴿وَإِنَّهُمْ﴾: وإن كفَّارَ قومِكَ ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾: مِن القُرآنِ ﴿مُرِيبٍ﴾ مُوْقِعٍ في الرِّيبَةِ.

(١١١) ـ ﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾: وإنَّ كلَّ المُختلفينَ المؤمنينَ مِنْهُم والكافرينَ، والتَّنوينُ بَدَلُ المضافِ إليه.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وأبو بكرٍ بالتَّخفيفِ مع الإعمالِ[١] اعتبارًا للأصلِ.

﴿لَمَا لَيُوَفِّيَنَّهم ربُّكَ أعمالَهُم﴾ اللّامُ الأولى موطِّئةٌ للقَسَمِ والثَّانيةُ للتَّأكيدِ أو بالعكسِ، و«ما» مزيدَةٌ بينَهُمَا للفصلِ.

وقرأَ ابنُ عامرٍ وعاصِمٌ وحمزةُ ﴿لَمَّا﴾ بالتَّشديدِ[٢] على أنَّ أصلَهُ: لَمِنْ مَا، فقُلِبَت النُّونُ ميمًا للإدغامِ، فاجتمعَتْ ثلاثُ ميماتٍ فحُذِفَت أولاهُنَّ، والمعنى: لَمِنَ الَّذينَ يُوفِّيَنَهم ربُّكَ جزاءَ أعمالِهِم.

وقُرِئَ: «لَمًّا» بالتَّنوينِ[٣]؛ أي: جميعًا؛ كقولِه: ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ [الفجر: ١٩].

و: «وإنْ كلٌّ لَمَّا»[٤] على أنَّ «إنْ» نافيةٌ و«لَمَّا» بمعنى: إلَّا، وقد قُرِئَ بِهِ[٥].

﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فلا يفوتُه شَيءٌ منه وإن خَفِيَ.

---

(١) أي: ﴿وإنْ كلاًّ﴾ وانظر التعليق الآتي.

(٢) وتفصيل قراءات السبعة في الآية: قرأ عاصم في رواية أبي بكر: ﴿وإنْ كلاً لمَّا﴾ بتخفيف ﴿إنْ﴾ وتشديد ﴿لَمَّا﴾. وقرأ ابنُ كثير ونافع: ﴿وإنْ كلًّا لَمَا﴾ بتخفيفهما. وقرأ ابنُ عامر وحمزة وحفص عن عاصم ﴿وإنَّ كلًّا لمَّا﴾ بتشديدهما. وقرأ أبو عمرو والكسائي: ﴿وإنَّ كلًّا لَمَا﴾ بتشديد ﴿إنَّ﴾ وتخفيف ﴿لَمَا﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٩)، و«التيسير» (ص: ١٢٦).

(٣) أي: (وإنَّ كلاً لَمًّا) نسبت للزهري وسليمان بن أرقم. انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٨٥)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٦)، و«المحتسب» (١/ ٣٢٨)، و«الكشاف» (٤/ ٢١١)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٢١٠).

(٤) انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٨٥) عن الأعمش، و«الكشاف» (٤/ ٢١١) عن أبيٍّ رضي الله عنه، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٢١٠) عن الحسن.

(٥) أي: (وإنْ كلٌّ إلاَّ ليوفِّيَنَّهم)، نسبت لأبيٍّ وابن مسعود والأعمش. انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٨٥)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٦)، و«المحتسب» (١/ ٣٢٨)، و«الكشاف» (٤/ ٢١١)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٢١٠).

(١١٢) ـ ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ لَمَّا بيَّنَ أمرَ المُختلِفِينَ في التَّوحيدِ والنُّبوَّةِ، وأَطْنَبَ في شرحِ الوعدِ والوَعيدِ، أمرَ رَسولَهُ عليهِ السَّلامُ بالاستقامةِ مثلَما أُمرَ بها، وهي شامِلَةٌ للاستقامةِ في العقائدِ: كالتَّوسُّطِ بينَ التَّشبيهِ والتَّعطيلِ بحيثُ يبقى العقلُ مَصُونًا من[١] الطَّرفينِ، والأعمالِ: مِن تبليغِ الوَحيِ، وبَيانِ الشَّرائعِ كما أُنزِلَ، والقيامِ بوظائفِ العِباداتِ مِن غيرِ تَفريطٍ وإفراطٍ مفوِّتٍ للحُقوقِ ونحوِها، وهيَ في غايةِ العُسرِ ولذلك قالَ عليهِ السَّلامُ: «شيَّبَتْنِي سورةُ هودٍ»[٢].

﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾؛ أي: تابَ مِن الشِّركِ والكفرِ وآمنَ معكَ، وهو عطفٌ على المستكنِّ في «استَقِمْ» وإن لم يؤكَّدْ بمُنْفَصِلٍ لقيامِ الفاصلِ مقامَهُ.

﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾: ولا تخرجُوا عمَّا حُدَّ لَكُم ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فهو مُجازِيكُم عليه، وهو في مَعنى التَّعليلِ للأَمْرِ والنَّهيِ، وفي الآيةِ دليلٌ على وجوبِ اتِّباعِ النُّصوصِ مِن غيرِ تَصرُّفٍ وانحرافٍ بنحو قياسٍ واستحسانٍ.

(١١٣) ـ ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾: ولا تَمِيلُوا إليهِمْ أَدْنَى مَيْلٍ، فإنَّ الرُّكونَ هو الميلُ اليَسيرُ؛ كالتَّزيِّي بزيِّهم وتَعظيمِ ذِكْرِهم.

﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ برُكُونِكُم إليهم، وإذا كانَ الرُّكونُ إلى مَن وُجدَ مِنهُ ما يُسمَّى ظُلْمًا كذلك، فما ظنُّكَ بالرُّكونِ إلى الظَّالمينَ ـ أي: الموسومينَ بالظُّلمِ ـ ثمَّ بالميلِ إليهِمْ كلَّ الميلِ، ثمَّ بالظُّلمِ نَفسِهِ والانهماكِ فيهِ؟

---

(١) في نسخة التفتازاني: «عن».

(٢) رواه الترمذي (٣٢٩٧) من حديث ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما، ولفظه: قال أبو بكر: يا رسول الله قد شبت، قال: «شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت»، قال الترمذي: «حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث ابن عبّاسٍ إلا من هذا الوجه».

وذكر الدارقطني هذا الحديث وأطال الكلام عليه في «علله» (١/ ١٩٤ ـ ٢١٠) وذكر الاختلاف فيه فلينظر ثمة.

ولعلَّ الآيةَ أبلَغُ ما يُتصوَّرُ في النَّهيِ عن الظُّلمِ والتَّهديدِ عليه، وخطابُ الرَّسولِ ومن معَه مِن المؤمنينَ بها للتَّثبيتِ على الاستقامَةِ الَّتي هي العَدلُ، فإنَّ الزَّوالَ عنها بالميلِ إلى أحدِ طرفي إفراطٍ وتَفريطٍ فإنَّه ظلمٌ على نفسِهِ أو غيرِهِ، بل ظلمٌ في نفسِهِ[1].

وقُرِئَ: «تِرْكَنُوا»، «فتِمَسَّكُم» بكسرِ التَّاءِ[2] على لغةِ تميمٍ، و: «تُرْكَنُوا» على البناءِ للمَفعولِ[3] مِن أركنَهُ.

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾: مِن أنصارٍ يمنعونَ العذابَ عَنْكُم، والواوُ للحالِ.

﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾؛ أي: ثمَّ لا ينصرُكُم اللهُ إذ سبقَ في حكمِهِ أن يعذِّبَكُم ولا يُبقيَ عليكُم.

و﴿ثُمَّ﴾ لاستبعادِ نَصرِه إيَّاهُم وقد أوعدَهُم بالعذابِ عليه وأوجبَهُ لهم، ويجوزُ أَنْ يكونَ مُنَزَّلًا منزلةَ الفاءِ بمَعنى الاستبعادِ، فإنَّه لَمَّا بيَّنَ أنَّ اللهَ مُعذِّبُهُم وأنَّ غيرَهُ لا يقدرُ على نصرِهِمْ أنتجَ ذلك أنَّهُم لا يُنصرونَ أصلًا.

(١١٤) ـ ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾: غدوةً وعَشِيَّةً، وانتصابُهُ على الظَّرفِ لأنَّه مُضافٌ إليه ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾: وساعاتٍ مِنهُ قريبةً مِن النَّهارِ، فإنَّه مِن أَزْلَفَهُ: إذا قَرَّبَه، وهو جمعُ زُلفَةٍ.

---

(١) قولُهُ: «في نفسِهِ» قال الشهاب: أي: بقطعِ النَّظرِ عن كونِهِ على نفسِهِ أو غيرِهِ؛ لأنَّهُ وضعُ الشَّيءِ في غيرِ محلِّهِ مُطلقًا.

(٢) بالأول قرأ يحيى بن وَثَّاب ومحبوب عن أبي عمرو، وبالثاني ابن وَثَّاب والأعمش وطلحة بن مُصَرِّف بخلاف. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٦)، و«المحتسب» (١/ ٣٢٩ ـ ٣٣٠)، و«الكامل» للهُذلي (ص: ٥٧٤).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٦)، و«الكامل» للهُذلي (ص: ٥٧٤)، عن ابن أبي عبلة.

وصلاةُ الغداةِ: صلاةُ الصُّبحِ؛ لأنَّها أقرَبُ الصَّلواتِ مِن أوَّلِ النَّهارِ، وصَلاةُ العَشِيَّةِ: العصرُ، وقيلَ: الظُّهرُ والعَصرُ؛ لأنَّ ما بعدَ الزَّوالِ عشيٌّ، وصلاةُ الزُّلفِ: المَغربُ والعِشاءُ.

وقُرِئَ: ﴿وزُلُفًا﴾ بضمَّتينِ[١]، وضمةٍ وسُكونٍ[٢]؛ كبُسُرٍ وبُسْرٍ في بُسْرَة.

و: «زُلْفَى»[٣] بمَعنى: زُلفَةٍ؛ كقُرْبَى وقُرْبَةٍ.

﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: يُكفِّرْنَها، وفي الحديث: «إنَّ الصَّلاةَ إلى الصَّلاةِ كفَّارَةٌ لِمَا بينَهُما ما اجتُنِبَت الكَبائِرُ»[٤].

وفي سببِ النُّزولِ: أنَّ رَجُلًا أتى النبيَّ ﷺ فقالَ: إنِّي قد أَصَبْتُ مِن امرأةٍ غيرَ أنِّي لَمْ آتِهَا، فنزَلَت[٥].

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى قولِه: ﴿فَٱسْتَقِمْ﴾ وما بعدَهُ، وقيلَ: إلى القُرآنِ.

﴿ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾: عِظَةٌ للمُتَّعظينَ.

(١١٥) ـ ﴿وَٱصْبِرْ﴾ على الطَّاعاتِ وعن المعاصِي ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ عدولٌ عَن الضَّميرِ ليكونَ كالبُرهانِ على المقصودِ، ودليلًا على أنَّ الصَّلاةَ والصَّبرَ إحسانٌ، وإيماءً بأَنَّهُ لا يُعتَدُّ بهما دونَ الإخلاصِ.

---

(١) وهي قراءة أبي جعفر من العشرة، وباقي العشرة بفتح اللام. انظر: «النشر» (٢/ ٢٩١).

(٢) نسبت لابن محيصن في «المحرر الوجيز» (٣/ ٢١٢)، وهي في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٦) عن مجاهد لكن قيدها بالإمالة.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٦) عن الحسن وابن محيصن واليماني، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٢١٢) عن مجاهد.

(٤) رواه مسلم (٢٣٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) رواه البخاري (٥٢٦)، ومسلم (٢٧٦٣)، مِن حديثِ ابنِ مَسعودٍ، ورواه الترمذي (٣١١٥)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٧٢٨٦)، مِن حَديثِ أبي اليسر.

(١١٦) ـ ﴿فَلَوْلَا كَانَ﴾: فهلَّا كانَ ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾ مِن الرَّأيِ والعقلِ، أو: أُولو فَضلٍ، وإنَّما سُمِّيَ بقيَّةً لأنَّ الرَّجُلَ يَستبقِي أفضَلَ ما يُخرِجُهُ، ومنه يُقالُ: فلانٌ مِن بقيَّةِ القَومِ؛ أي: مِن خِيارِهِم، ويجوزُ أَنْ يكونَ مَصدَرًا كالتَّقِيَّةِ؛ أي: ذوو إبقاءٍ على أنفُسِهِم وصيانةٍ لها مِن العَذابِ، ويُؤيِّدُه أنَّه قُرِئَ: «بَقْيَةٍ»[1] وهي المرَّةُ مِن مصدرِ بَقَاهُ يَبْقِيهِ: إذا راقبَهُ.

﴿يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾: لكِنْ قليلًا مِنْهُم أنجيناهُم لأنَّهُم كانُوا كذلك، ولا يَصِحُّ اتِّصالُه إلَّا إذا جُعلَ استثناءً مِن النَّفيِ اللازمِ للتَّحضيضِ.

﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ﴾: ما أُنعِمُوا فيه مِن الشَّهواتِ واهتَمُّوا بتَحصيلِ أَسبابِها وأعرَضُوا عمَّا وراءَ ذلك.

﴿وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾: كافرينَ؛ كأنَّه أرادَ أَنْ يبيِّنَ ما كانَ السَّببَ لاستئصالِ الأُمَمِ السَّالِفَةِ، وهو فشوُّ الظُّلمِ فيهِم واتِّباعُهُم للهَوَى، وتركُ النَّهيِ عَن المنكراتِ مع الكفرِ.

وقولُه: ﴿وَٱتَّبَعَ﴾ عطفٌ على مضمَرٍ دلَّ عليه الكَلامُ؛ إذ المعنى: فلم يَنهوا عن الفَسادِ واتَّبع الَّذينَ ظلَمُوا، ﴿وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ عطفٌ على «اتَّبع» أو اعتراضٌ.

وقُرِئَ: «وأُتْبِعَ»[2]؛ أي: وأُتبِعُوا جزاءَ مَا أُترِفُوا، فتكونُ الواوُ للحَالِ، ويجوزُ أَنْ تفسَّرَ به المشهورَةُ، ويعضُدُه تقدُّمُ الإنجاءِ.

---

(١) انظر: «الكامل» للهذلي (ص: ٥٧٤) ونسبها للهاشمي عن أبي جعفر، وابن أبي أويس عن نافع، وابن حماد عن شيبة.

(٢) نسبت لجعفر بن محمد والضحاك والعلاء بن سَيَابَة، ورواها الحُسَين الجُعفي عن أبي عمرو. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٦)، و«المحتسب» (١/ ٣٣١)، و«الكامل» للهُذلي (ص: ٥٧٤).

(١١٧) ـ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾: بشركٍ ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ فيمَا بينَهُم لا يضمُّونَ إلى شركِهم فَسادًا وتَباغِيًا، وذلك لفَرْطِ رَحمَتِه ومُسامَحتِه في حُقوقِه، ومن ذلك قدَّمَ الفُقهاءُ عندَ تَزاحُمِ الحُقوقِ حقوقَ العِبادِ.

وقيلَ: المُلْكُ يَبْقَى مَع الشِّركِ[1] ولا يَبْقَى مع الظُّلمِ.

(١١٨ ـ ١١٩) ـ ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ مُسلمينَ كلَّهم، وهو دَليلٌ ظاهِرٌ على أنَّ الأمرَ غيرُ الإرادَةِ، وأنَّه تَعالى لم يُرِد الإيمانَ مِن كلِّ أحَدٍ، وأنَّ ما أرادَه يَجِبُ وقوعُه.

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ بَعْضُهُم على الحقِّ وبَعضُهُم على الباطلِ لا تَكادُ تَجِدُ اثنينِ يَتَّفِقَانِ مُطلقًا ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾: إلَّا ناسًا هَدَاهُم اللهُ مِن فَضلِه فاتَّفقُوا على ما هو أصولُ دينِ الحقِّ والعُمدَةُ فيه.

﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ إن كانَ الضَّميرُ للنَّاسِ فالإشارَةُ إلى الاختِلافِ واللَّامُ للعاقبَةِ، أو إليه وإلى الرَّحمَةِ، وإن كانَ لِـ﴿مَن﴾ فإلى الرَّحْمة.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾: وعيدُه، أو قَولُه للمَلائِكَةِ ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾؛ أي: مِن عُصاتِهما ﴿أَجْمَعِينَ﴾، أو: منهما أجمعين لا مِن أَحدِهما.

(١٢٠) ـ ﴿وَكُلًّا﴾ وكُلَّ نَبأٍ ﴿نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾: نُخبِرُكَ به ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ بيانٌ لـ﴿كلًّا﴾ أو بدلٌ مِنه، وفائِدَتُه: التَّنبيهُ على المقصودِ مِن الاقتصاصِ وهو زِيادَةُ يَقينِه وطُمأنينةُ قلبِه، وثَباتُ نَفْسِه على أداءِ الرِّسالَةِ واحتمالِ أذى الكُفَّارِ.

أو مفعولٌ، و«كُلًّا» منصوبٌ على المصدرِ بِمعنى: كلَّ نوعٍ مِن أنواعِ الاقتصاصِ نَقُصُّ عليكَ ما نثبِّتُ به فؤادَكَ من أنباءِ الرُّسُلِ.

---

(١) في نسخة الخيالي والتفتازاني: «الكفر».

﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ﴾ السَّورَةِ، أو الأنباءِ المُقتَصَّةِ عليك ﴿ٱلۡحَقُّ﴾: ما هُوَ حَقٌّ ﴿وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إشارةٌ إلى سائرِ فوائدِه العامَّةِ.

(١٢١ ـ ١٢٢) ـ ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾: على حالِكُم ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ على حالِنَا ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ بِنا الدَّوائِرَ ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ أن ينزلَ بِكُم نحوُ ما نزلَ على أَمثالِكُم.

(١٢٣) ـ ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ خاصَّةً لا يَخْفَى عليه خافِيَةٌ مما فيهما ﴿وإليه يَرجِعُ الأمرُ كلُّه﴾ فيرجِعُ لا مَحالةَ أمرُهُم وأمرُكَ إليهِ.

وقرأَ نافِعٌ وحَفصٌ: ﴿يُرۡجَعُ﴾ على البناءِ للمَفعولِ(١).

﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ فإنَّه كافيكَ، وفي تَقديمِ الأَمرِ بالعِبادَةِ على التَّوكُّلِ تنبيهٌ على أَنَّهُ إنَّما ينفعُ العابِدَ.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ أنتَ وهُمْ فيُجازِي ما يَستَحِقُّهُ.

وقرَأَ نافِعٌ وحَفصٌ وابنُ عامرٍ بالتَّاءِ هُنَا وفي آخرِ النَّملِ(٢).

عَن رَسولِ اللهِ ﷺ: «مَن قرأَ سُورَةَ هُودٍ أُعطِيَ مِن الأَجرِ عشرَ حَسَناتٍ بعدَدِ مَن صدَّقَ بنُوحٍ ومَن كذَّبَ بِهِ، وهودٍ وصالحٍ وشعيبٍ ولوطٍ وإبراهيمَ ومُوسَىٰ، وكانَ يومَ القِيامَةِ من السُّعداءِ إنْ شاءَ اللهُ تعالى»(٣).

***

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٤٠)، و«التيسير» (ص: ١٢٦).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٤٠)، و«التيسير» (ص: ١٢٦).

(٣) رواه الواحدي في «التفسير الوسيط» (٢/ ٥٦٣)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٧٣ ـ ١٧٤)، وقال: مصنوع بلا شكٍّ. وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور، وقد تقدم الكلام عليه. وانظر: «الفتح السماوي» (٢/ ٧٢٤)، و«الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(١١) سورة هود مكية
وآياتها ثلاث وعشرون ومائة

بسم الله الرحمن الرحيم

الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾

تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هنا وبالله التوفيق، وأما قوله: ﴿أحكمت آياته ثم فصلت﴾ أي هي محكمة في لفظها، مفصلة في معناها فالقرآن كامل صورة ومعنى، هذا معنى ما روي عن مجاهد وقتادة واختاره ابن جرير، وقوله: ﴿من لدن حكيم خبير﴾ أي من عند الله الحكيم في أقواله وأحكامه، الخبير بعواقب الأمور ﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾ أي أنزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له، وقوله: ﴿إنني لكم نذير وبشير﴾ أي إني لكم نذير من العذاب إن خالفتموه، وبشير بالثواب إن أطعتموه، كما جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ صعد الصفا، فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب، فاجتمعوا، فقال: «يا معشر قريش أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تصبّحكم ألستم مصدقيّ؟» فقالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، وقوله: ﴿وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه﴾ أي وآمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة والتوبة منها إلى الله عزّ وجلّ فيما تستقبلونه، وأن تستمروا على ذلك: ﴿يمتعكم متاعاً حسناً﴾ أي في الدنيا، ﴿إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله﴾ أي في الدار الآخرة، قاله قتادة، كقوله: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾ الآية، وقد جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لسعد: «وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها حتى ما تجعل في فيّ امرأتك»، عن ابن مسعود في قوله: ﴿ويؤت كل ذي فضل فضله﴾، قال: من عمل سيئة كتبت عليه سيئة، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات، فإن عوقب بالسيئة التي كان عملها في الدنيا، بقيت له عشر حسنات، وإن لم

يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات، ثم يقول: هلك من غلب آحاده على أعشاره[1]. وقوله: ﴿فإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾، هذا تهديد شديد لمن تولى عن أوامر الله تعالى، وكذّب رسله فإن العذاب يناله يوم القيامة لا محالة ﴿إلى الله مرجعكم﴾ أي معادكم يوم القيامة، ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ أي وهو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه وانتقامه من أعدائه، وإعادة الخلائق يوم القيامة، وهذا مقام ترهيب كما أن الأول مقام ترغيب.

* أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾

قال ابن عباس: كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم وحال وقاعهم، فأنزل الله هذه الآية، وفي لفظ آخر له: أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا، فيفضوا إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم،[2] قال البخاري: ﴿يستغشون﴾ يغطون رؤوسهم، وقال ابن عباس في رواية أخرى في تفسير هذه الآية: يعني به الشك في الله وعمل السيئات، أي أنهم كانوا يثنون صدورهم إذا قالوا شيئاً أو عملوه، فيظنون أنهم يستخفون من الله بذلك، فأخبرهم الله تعالى أنهم حين يستغشون ثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل ﴿يعلم ما يسرون﴾ من القول، ﴿وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور﴾ أي يعلم ما تكن صدورهم من النيات والضمائر والسرائر، وما أحسن ما قال (زهير بن أبي سلمى) في معلقته المشهورة

فلا تكتمن الله ما في قلوبكم   ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

وقال عبدالله بن شداد: كان أحدهم إذا مر برسول الله ﷺ ثنى عنه صدره وغطى رأسه فأنزل الله ذلك، وعود الضمير إلى الله أولى، لقوله: ﴿ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾.

* وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾

أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب الأرض، صغيرها وكبيرها وأنه يعلم مستقرها، أي يعلم أين منتهى سيرها في الأرض وأين تأوي إليه من وكرها وهو مستودعها، عن ابن عباس: ﴿ويعلم مستقرها﴾ أي حيث تأوي ﴿ومستودعها﴾ حيث تموت، وعن مجاهد: ﴿مستقرها﴾ في الرحم ﴿ومستودعها﴾ في الصلب، فجميع ذلك مكتوب في كتاب عند الله كقوله: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾، وقوله: ﴿ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري.

(٢) أخرجه البخاري عن ابن عباس.

وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾

يخبر تعالى عن قدرته على كل شيء وأنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك، كما روى الإمام أحمد، عن عمران بن حصين قال، قال رسول الله ﷺ: «اقبلوا البشرى يا بني تميم»، قالوا: قد بشرتنا فأعطنا، قال: «اقبلوا البشرى يا أهل اليمن»، قالوا: قد قبلنا، فأخبرنا عن أول هـذا الأمر كيف كان؟ قال: «كان الله قبل كل شيء، وكان عرشه على الماء، وكتب في اللوح المحفوظ ذكر كل شيء»، قال، فأتاني آت فقال: يا عمران انحلت ناقتك من عقالها، قال: فخرجت في إثرهـا، فلا أدري ما كان بعدي[1]،

وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»، قال مجاهد: ﴿وكان عرشه على الماء﴾ قبل أن يخلق شيئاً، وقال قتادة: ﴿وكان عرشه على الماء﴾ ينبئكم كيف كان بـدء خلقه قبل أن يخلق السماوات والأرض، وقال ابن عباس: إنما سمي العرش عرشاً لارتفاعه، وعن سعيد بن جبير: سئل بن عباس عن قول الله: ﴿وكان عرشه على الماء﴾ على أي شيء كان الماء؟ قال: على متن الريح.

وقوله تعالى: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ أي خلق السماوات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه ولا يشركوا بـه شيئاً ولم يخلق ذلك عبثاً، كقوله: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً﴾، وقال تعالى: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ◦ فتعالى الله الملك الحق﴾، وقوله: ﴿ليبلوكم﴾ أي ليختبركم ﴿أيكم أحسن عملاً﴾ ولم يقل أكثر عملاً، بل ﴿أحسن عملا﴾، ولا يكون العمل حسناً حتى يكون خالصاً لله عزّ وجلّ، على شريعة رسول الله ﷺ، فمتى فقد العمل واحداً من هذين الشرطين حبط وبطل، وقوله: ﴿ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت﴾ الآية، يقول تعالى ولئن أخبرت يا محمد هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي خلق السماوات والأرض، وهم مع هذا ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة، الذي هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداءة، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾، وقولهم: ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾ أي يقولون كفراً وعناداً ما نصدقك على وقوع البعث، وما يذكر ذلك إلا من سحرته فهو يتبعك على ما تقول، وقوله: ﴿ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة﴾ الآية، يقول تعالى: ولئن أخرنا عنهم العذاب والمؤاخذة إلى أجل معدود وأمد محصور، وأوعدناهم إلى مدة مضروبة ليقولن

(١) قال ابن كثير: وهذا الحديث مخرج في صحيحي البخاري ومسلم بألفاظ كثيرة، فمنها قالوا: جئناك نسألك عن أول هذا الأمر، فقال: كان الله ولم يكن شيء قبله، وفي رواية غيره، وفي رواية منه كان عرشه على الماء.

تكذيباً واستعجالاً ﴿ما يحبسه﴾ أي يؤخر هـذا العذاب عنا، فإن سجاياهم قـد ألفت التكذيب والشك، فلم يبق لهم محيص عنه ولا محيد؛ والأمة تستعمل القرآن في معان متعـددة، فيراد بهـا الأمد كقوله في هـذه الآيـة: ﴿إلى أمة معدودة﴾، وقوله في يوسف: ﴿وادّكر بعد أمة﴾، وتستعمل في الإمام المقتدى بـه، كقوله: ﴿إن إبراهيم كان أمة﴾، وتستعمل في الملة والدين كقول: المشركين: ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾، وتستعمـل في الجماعة كقوله: ﴿وجد عليه أمة من النـاس يسقون﴾، وتستعمل في الفرقة والطائفة كقوله تعالى: ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾.

وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾

يخبر تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة، إلا من رحم الله، أنه إذا أصابته شدة بعد نعمة حصل له يأس وقنوط بالنسبة إلى المستقبل، وكفر وجحود لماضي الحال، كأنه لم ير خيراً ولم يرج بعد ذلك فرجـاً، وهكذا إن أصابته نعمة بعد نقمة ﴿ليقولن ذهب السيئات عني﴾ أي يقول ما ينالني بعد هذا ضيم ولا سوء، ﴿إنه لفرح فخور﴾ أي فرح بما في يده بطر فخور على غيره، قال الله تعالى: ﴿إلا الذين صبروا﴾ أي على الشدائد والمكاره، ﴿وعملوا الصالحات﴾ أي في الرخاء والعـافية، ﴿أولئك لهم مغفرة﴾ أي بمـا يصيبهم من الضراء ﴿وأجر كبير﴾ بما أسلفوه في زمن الرخـاء، كما جاء في الحديث: «والذي نفسي بيده لا يصيب المؤمن هم ولا غم ولا نصب ولا وصب ولا حزن حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياه، وفي الصحيحين: «والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له، وليس ذلك لأحد غير المؤمن».

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى مسلياً لرسوله ﷺ عما كان يتعنت بـه المشركون فيما كانوا يقولونه عن الرسول كما أخبر تعالى عنهم في قوله: ﴿وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً﴾، فأمر الله تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليـه وأرشده إلى أن لا يضيق بذلك منهم صدره، ولا يصدنه ذلك ولا يثنيه عن دعائهم إلى الله عزّ وجلّ آناء الليـل

وأطراف النهار، كما قال تعالى: ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون﴾ الآية، وقال ههنا: ﴿فلعلك تارك بعض ما يُوحَى إليك وضائق بـه صدرك أن يقولوا﴾ أى لقولهم ذلك، فإنما أنت نذير ولك أسوة بإخوانك من الرسل قبلك فإنهم كُذّبوا وأوذوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله عزّ وجّل، ثم بين تعالى إعجاز القرآن، وأنـه لا يستطيع أحـد أن يأتي بمثله ولا بعشر سور مثله، ولا بسورة من مثله، لأن كلام الرب تعالى لا يشبه كلام المخلوقين كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات، وذاته لا يشبهها شيء، تعالى وتقدس وتنزه، ثم قال تعالى: ﴿فإن لم يستجيبوا لكم﴾ أي فإن لم يأتوا بما دعوتموهم إليه، فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك، وأن هذا الكلام منزل من عند الله متضمن علمه وأمره ونهيه ﴿وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون﴾ .

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

قال ابن عباس: إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم في الدنيا، وذلك أنهم لا يظلمون نقيراً، يقول: من عمل صالحاً التماس الدنيا صوماً أو صلاة لا يعمله إلا التماس الدنيا، أوفّيه الذي التمس في الدنيا من المثابة وحبط عمله الذي كان يعمله وهو في الآخرة من الخاسرين، وقال أنس والحسن: نزلت في اليهود والنصارى، وقال مجاهد: نزلت في أهل الرياء، وقال قتادة: من كانت الدنيا همه ونيته وطلبته، جازاه الله بحسناته في الدنيا، ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء، وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾ ، وقال تعالى: ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزدْ له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب﴾ .

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

يخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى، التي فطر عليها عباده، كما قال تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ الآية . وفي الصحيحين : (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) الحديث . وفي صحيح مسلم : (يقول الله تعالى إني خلقت عبادي حنفاء ، فجاءتهم الشياطين ، فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم . وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل بـه سلطاناً) . فالمؤمن باق على هذه الفطرة، وقوله: ﴿ويتلوه شاهد منه﴾ أي وجاءه شاهد من الله، وهو ما أوحـاه إلى الأنبياء من الشرائع المطهرة المكملة المعظمة، المختتمة بشريعة محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولهذا

قال ابن عباس ومجاهد: ﴿ ويتلوه شاهد منه ﴾ إنه جبريل عليه السلام، وعن علي والحسن وقتادة: هو محمد ﷺ، وكلاهما قريب في المعنى، لأن كلا من جبريل ومحمد صلوات الله عليهما بلغ رسالة الله تعالى، ولهذا قال تعالى: ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ﴾ وهو القرآن بلّغه جبريل إلى النبي ﷺ وبلّغه النبي إلى أمته، ثم قال تعالى: ﴿ ومن قبله كتاب موسى ﴾ أي ومن قبل القرآن كتاب موسى وهو التوراة ﴿ إماماً ورحمة ﴾ أي أنزله الله تعالى إلى تلك الأمة إماماً لهم، وقدوة يقتدون بها ورحمة من الله بهم، فمن آمن به حق الايمان قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن، ولهذا قال تعالى: ﴿ أولئك يؤمنون به ﴾، ثم قال تعالى متوعداً لمن كذب بالقرآن أو بشيء منه، ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ أي ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض، مشركهم وكافرهم وأهل الكتاب وغيرهم من سائر طوائف بني آدم ممن بلغه القرآن، كما قال تعالى: ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾، ﴿ فالنار موعده ﴾ كما ورد في الصحيح (والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار)[1]، وقال سعيد بن جبير: كنت لا أسمع بحديث عن النبي ﷺ على وجهه إلا وجدت تصديقه في القرآن، فبلغني أن النبي ﷺ قال: «لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني فلا يؤمن بي إلا دخل النار»، فجعلت أقول: أين مصداقه في كتاب الله؟ حتى وجدت هذه الآية: ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾، قال: من الملل كلها، وقوله: ﴿ فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك ﴾ الآية، أي القرآن حق من الله لا مرية ولا شك فيه، كما قال تعالى: ﴿ تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾، وقال تعالى: ﴿ الم، ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾، وقوله: ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾، كقوله تعالى: ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾، وقوله: ﴿ وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾.

۞ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَـٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾

يبيّن تعالى حال المفترين عليه وفضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الخلائق، كما ورد عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عزّ وجلّ يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره من الناس، ويقرره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول:

(١) أخرجه مسلم عن أبي موسى الأشعري.

﴿ الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ »[١] الآية. وقوله: ﴿ الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ﴾ أي يردون الناس عن اتباع الحق، وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله عزّ وجلّ، ﴿ ويبغونها عوجاً ﴾ أي ويريدون أن يكون طريقهم ﴿ عوجاً ﴾ غير معتدلة، ﴿ وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ أي جاحدون بها مكذبون بوقوعها، ﴿ أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء ﴾ أي بل كانوا تحت قهره وغلبته، وفي قبضته وسلطانه، وهو قادر على الانتقام منهم، ولكنْ ﴿ يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾، وفي الصحيحين: « إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، » ، ولهذا قال تعالى: ﴿ يضاعف لهم العذاب ﴾، الآية، أي يضاعف عليهم العذاب، وذلك أن الله تعالى جعل لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم، بل كانوا صماً عن سماع الحق، عمياً عن اتباعه، كما أخبر تعالى عنهم حين دخولهم النار ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أي خسروا أنفسهم لأنهم أدخلوا ناراً حامية، فهم معذبون فيها لا يفتر عنهم من عذابها، كما قال تعالى: ﴿ كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾، ﴿ وضل عنهم ﴾ أي ذهب عنهم، ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ من دون الله من الأنداد والأصنام فلم تجد عنهم شيئاً بل ضرتهم كل الضرر ، كما قال تعالى: ﴿ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾، وقال تعالى: ﴿ سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ﴾، وقال الخليل لقومه: ﴿ ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار ومالكم من ناصرين ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على خسرهم ودمارهم، ولهذا قال: ﴿ لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون ﴾، يخبر تعالى عن مآلهم بأنهم أخسر الناس في الآخرة، لأنهم اعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آن، وعن الحور العين بطعام من غسلين، وعن القصور العالية بالهاوية، فلا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ * مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء، ثنّى بذكر السعداء، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وبهذا ورثوا الجنات، المشتملة على الغرف العاليات، والقطوف الدانيات، والحسان الخيرات، والفواكه المتنوعات، والنظر إلى خالق الأرض والسماوات، وهم في ذلك خالدون لا يموتون ولا يهرمون ولا يمرضون ولا يبصقون ولا يتمخطون، إن هو إلا رشح مسك يعرقون؛ ثم ضرب تعالى مثل الكافرين والمؤمنين فقال: ﴿ مثل الفريقين ﴾ أي الذين وصفهم أولا بالشقاء، والمؤمنين بالسعادة، فأولئك كالأعمى والأصم، وهؤلاء كالبصير والسميع، فالكافر أعمى لا يهتدي إلى خير ولا يعرفه، أصم عن سماع الحجج فلا يسمع ما ينتفع به، ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ﴾، وأما المؤمن

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما .

ففطن ذكي، بصير بالحق يميز بينه وبين الباطل، فيتبع الخير ويترك الشر، سميع للحجة فلا يروج عليه باطل، فهل يستوي هذا وهذا ؟ ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أفلا تعتبرون فتفرقون بين هؤلاء وهؤلاء كما قـال تعالى: ﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾، وكقوله: ﴿ وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الأحياء ولا الأموات ﴾ .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين عبدة الأصنام أنه قال لقومه: ﴿ إني لكم نذير مبين ﴾ أي ظاهر النذارة لكم من عذاب الله إن أنتم عبدتم غير الله، ولهذا قال: ﴿ أن لا تعبدوا إلا الله ﴾، وقوله: ﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴾ أي إن استمررتم على ما أنتم عليه عذّبكم الله عذاباً أليماً، ﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ﴾، والملأ هم (السادة والكبراء) من الكافرين منهم ﴿ ما نراك إلا بشراً مثلنا ﴾، أي لست بملك ولكنك بشر، فكيف أوحي إليك من دوننا ؟ ثم ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنـا كالباعة والحاكة وأشباههم ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء منا، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن فكر ولا نظر، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك، ولهذا قالوا: ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ﴾ أي في أول بادئ ﴿ وما نرى لكم علينا من فضل ﴾، يقولون: ما رأينا لكم علينا فضيلة في خَلْق ولا خُلُق لمـا دخلتم في دينكم هذا، ﴿ بل نظنكم كاذبين ﴾ أي فيما تدعونه لكم من البر والصلاح والعبادة والسعادة. هذا اعتراض الكافرين على نوح عليه السلام وأتباعه، وهو دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم، فإنه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه، سواء اتبعه الأشراف أو الأراذل، بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف ولو كانوا فقراء، والذين يأبونه هم الأراذل ولو كانوا أغنياء. والغالب على الأشراف والكبراء مخالفة الحق، كما قال تعالى: ﴿ قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾، ولمـا سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان : أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم ؟ قال: بل ضعفاؤهم، فقال هرقل: هم أتباع الرسل[1]، وقولهم: بادي الرأي ليس بمذمة ولا عيب، لأن الحق إذا وضح لا يبقى للرأي ولا للفكر مجال، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إنمـا جاءوا بأمر جلي واضح، وفي الحديث: « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير (أبي بكر)، فإنه لم يتلعثم »[2] أي ما تردّد ولا تروّى، لأنه رأى أمراً عظيماً واضحاً فبادر إليه وسارع، وقوله: ﴿ وما نرى لكم علينا من فضل ﴾، هم لا يرون ذلك لأنهم عميٌ عن الحق لا يسمعون ولا يبصرون، بل هم في ريبهم يترددون، وفي الآخرة هم الأخسرون .

* قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا

(١) أخرجه البخاري وهو جزء من حديث طويل . (٢) أخرجه الشيخان في فضائل أبي بكر

وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى مخبراً عما رد بـه نوح على قومه في ذلك: ﴿أرأيتم إن كنت على بينة من ربي﴾ أي على يقين وأمر جلي ونبوة صادقة وهي الرحمة العظيمة من الله به وبهم، ﴿فعُمِّيت عليكم﴾ أي خفيت عليكم فلم تهتدوا إليها ولا عرفتم قدرها بل بادرتم إلى تكذيبها وردها ﴿أنلزمكموها﴾ أي نغصبكم بقبولها وأنتم لها كارهون.

وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾

يقول لقومه: ولا أسألكم على نصحي ﴿مالاً﴾ أجرة آخذها منكم، إنمـا أبتغي الأجر من الله عزّ وجلّ، ﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا﴾ طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه احتشاماً أن يجلسوا معهم، كما سأل أمثالهم خاتم الرسل ﷺ أن يطرد عنهم جماعة من الضعفاء ويجلس معهم مجلساً خاصاً، فأنزل الله تعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾.

وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾

يخبرهم أنه رسول من الله يدعو إلى عبادة الله وحده، ولا يسألهم على ذلك أجراً، ثم هو يدعو الشريف والوضيع، فمن استجاب له فقد نجا، ويخبرهم أنه لا قدرة له على التصرف في خزائن الله، ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه، وليس هو بملك من الملائكة، بل هو بشرٌ مرسل مؤيد بالمعجزات، ولا أقول عن هؤلاء الذين تحتقرونهم وتزدرونهم، إنهم ليس لهم عند الله ثواب على أعمالهم ﴿الله أعلم بمـا في أنفسهم﴾، فإن كانوا مؤمنين، فلهم جزاء الحسنى.

قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن استعجال قوم نوح نقمة الله وعذابه – والبلاء موكلٌ بالمنطق – قالوا: ﴿يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا﴾ أي حاججتنا فأكثرت من ذلك ونحن لا نتبعك، ﴿فأتنا بمـا تعدنا﴾ أي من النقمة والعذاب ادع علينا بما شئت فليأتنا ما تدعو به، ﴿إن كنت من الصادقين قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين﴾ أي إنما الذي يعاقبكم ويعجلها لكم الله الذي لا يعجزه شيء، ﴿ولا ينفعكم نصحي ان أردت أن أنصح لكم إن كان الله

يريد أن يغويكم﴾ أي أيُّ شيء يجدي عليكم إبلاغي لكم وإنذاري إياكم ونصحي﴿ إن كان الله يريد أن يغويكم﴾ أي اغواءكم ودماركم، ﴿ هو ربكم وإليه ترجعون﴾ أي هو مالك أزمة الأمور، المتصرف الحاكم العادل الذي لا يجور، له الخلق وله الأمر وهو المبدئ المعيد.

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾

هذا كلام معترض في وسط هذه القصة، مؤكد لها مقرر لها، يقول تعالى لمحمد ﷺ أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون افترى هذا وافتعله من عنده، ﴿ قل إن افتريته فعليّ إجرامي﴾ أي قائم ذلك علي، ﴿ وأنا بريء مما تجرمون﴾ أي ليس ذلك مفتعلاً ولا مفترى، لأني أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه.

وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾

يخبر تعالى أنه أوحى إلى نوح، لما استعجل قومه نقمة الله بهم وعذابه لهم، فدعا عليهم نوح دعوته: ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾، ﴿ فدعا ربه أني مغلوبٌ فانتصر﴾ فعند ذلك أوحى الله إليه: ﴿ أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾ فلا تحزن عليهم ولا يهمنك أمرهم، ﴿ واصنع الفلك﴾ يعني السفينة، ﴿ بأعيننا﴾ أي بمرأى منا، ﴿ ووحينا﴾ أي تعليمنا لك ما تصنعه، ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾. قال قتادة: كان طولها ثلثمائة ذراع في عرض خمسين، وعن الحسن: طولها ستمائة ذراع وعرضها ثلثمائة، وقيل غير ذلك، قالوا: وكان ارتفاعها في السماء ثلاثين ذراعاً، ثلاث طبقات كل طبقة عشرة أذرع، فالسفلى للدواب والوحوش، والوسطى للإنس، والعليا للطيور، وكان بابها في عرضها ولها غطاء من فوقها مطبق عليها.

وقوله تعالى: ﴿ ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه﴾ أي يهزأون به ويكذبون بما يتوعدهم به من الغرق، ﴿ قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم﴾ الآية. وعيد شديد وتهديد أكيد، ﴿ من يأتيه عذاب يخزيه﴾ أي يهينه في الدنيا، ﴿ ويحل عليه عذاب مقيم﴾ أي دائم مستمر أبداً.

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾

هذه موعدة من الله تعالى لنوح عليه السلام، إذا جاء أمر الله من المطر الهتّان، الذي لا يقلع ولا يفتر، كما

قال تعالى: ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر • وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر﴾، واما قوله: ﴿ وفار التنور ﴾، فعن ابن عباس: التنور وجه الأرض، أي صارت الأرض عيوناً تفور، حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار صارت تفور ماء، وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف، فحينئذ أمر الله نوحاً عليه السلام أن يحمل معه في السفينة ﴿ من كل زوجين اثنين﴾ من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح، وغيرها من النباتات اثنين ذكراً وأنثى، وقوله: ﴿ وأهلك إلا من سبق عليه القول﴾ أي واحمل فيها أهلك وهم أهل بيته وقرابته، ﴿ إلا من سبق عليه القول﴾ منهم ممن لم يؤمن بالله، فكان منهم ابنه (يام) الذي انعزل وحده، وامرأة نوح وكانت كافرة بالله ورسوله، وقوله: ﴿ ومن آمن﴾ أي من قومك، ﴿ وما آمن معه إلا قليل﴾ أي نزر يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فعن ابن عباس: كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم، وعن كعب الأحبار: كانوا اثنين وسبعين نفساً، وقيل كانوا عشرة، والله أعلم.

* وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى إخباراً عن نوح عليه السلام للذين أمر بحملهم معه في السفينة أنه قال: ﴿ اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها﴾ أي بسم الله يكون جريها على وجه الماء، وبسم الله يكون منتهى سيرها وهو رسوها. قال تعالى: ﴿ فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين﴾، ولهذا تستحب التسمية في ابتداء الأمور، عند الركوب على السفينة وعلى الدابة، كما روى الطبراني، عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «أمان أمتي من الغرق إذا ركبوا في السفن أن يقولوا: بسم الله الملك ﴿ وما قدروا الله حق قدره﴾ - الآية - ﴿ بسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم﴾»، وقوله: ﴿ إن ربي لغفور رحيم﴾ مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين فذكر أنه غفور رحيم كقوله: ﴿ إن ربك لسريع العقاب • وإنه لغفور رحيم﴾، وقوله: ﴿ وهي تجري بهم في موج كالجبال﴾ أي السفينة سائرة بهم على وجه الماء، الذي قد طبق جميع الأرض، حتى طغت على رؤوس الجبال، وارتفع عليها بخمسة عشر ذراعاً، وقيل بثمانين ميلاً، وهذه السفينة جارية على وجه الماء بإذن الله وكنفه وعنايته، كما قال تعالى: ﴿ إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية • لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية﴾، وقال تعالى: ﴿ تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر﴾، وقوله: ﴿ ونادى نوح ابنه﴾ الآية، هذا هو الابن الرابع واسمه يام[1] وكان كافراً، دعاه أبوه أن يؤمن ويركب معهم، ولا يغرق مثل ما يغرق الكافرون، ﴿ قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾ اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رؤوس الجبال، وأنه لو تعلق في رأس جبل لنجّاه ذلك من الغرق، فقال له أبوه نوح عليه السلام ﴿ لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم﴾ أي ليس شيء

(١) وقيل اسمه كنعان، وهو الهالك، وأما الناجي من ولد آدم فهو (سام، وحام، ويافث).

يعصم اليوم من أمر الله، وقيل إنّ ﴿ عاصم﴾ بمعنى (معصوم) كما يقال طاعم وكاس، بمعنى مطعوم ومكسو ﴿ وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾ .

وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

يخبر تعالى أنه لما أغرق أهل الأرض كلهم إلا أصحاب السفينة، أمر الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها واجتمع عليها، وأمر السماء أن تقلع عن المطر ﴿ وغيض الماء﴾، أي شرع في النقص، ﴿ وقضي الأمر﴾ أي فرغ من أهل الأرض قاطبة ممن كفر بالله لم يبق منهم ديار، ﴿ واستوت﴾ السفينة بمن فيها ﴿ على الجودي﴾، قال مجاهد: وهو جبل بالجزيرة أرست عليه سفينة نوح عليه السلام، وقال قتادة: استوت عليه شهراً حتى نزلوا منها وأبقى الله السفينة على الجودي عبرة وآية، حتى رآها أوائل هذه الأمة، وكم من سفينة قد كانت بعدها فهلكت وصارت رماداً، وقال الضحاك: الجودي جبل بالموصل، وقال بعضهم: هو الطور ، وقال كعب الأحبار : إن السفينة طافت ما بين المشرق والمغرب قبل أن تستقر على الجودي، وقال قتادة وغيره: ركبوا في عاشر شهر رجب فساروا مائة وخمسين يوماً، واستقرت بهم على الجودي شهراً، وكان خروجهم من السفينة في يوم عاشوراء من المحرم، وقد ورد نحو هذا في حديث مرفوع رواه ابن جرير، وأنهم صاموا يومهم ذلك، والله أعلم، وقوله: ﴿ وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾ أي هلاكاً وخساراً لهم وبعداً من رحمة الله، فإنهم قد هلكوا عن آخرهم فلم يبق لهم بقية، وقد روى ابن جرير عن عائشة زوج النبي ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «لو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم أم الصبي» .

وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾

هذا سؤال استعلام من نوح عليه السلام عن حال ولده الذي غرق: ﴿ قال رب إن ابني من أهلي﴾ أي وقد وعدتني بنجاة أهلي ووعدك الحق الذي لا يخلف، فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين، ﴿ قال يا نوح إنه ليس من أهلك﴾ أي الذين وعدت إنجاءهم لأني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك، ولهذا قال: ﴿ وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم﴾ فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق، لكفره ومخالفته أباه نبي الله نوحاً عليه السلام، قال ابن عباس: هو ابنه غير أنه خالفه في العمل والنية، وقال عكرمة: إنه عمل عملاً غير صالح، ويروى أن رسول الله ﷺ قرأ بذلك .

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾

قال محمد بن إسحاق: لما أراد الله أن يكف الطوفان أرسل ريحاً على وجه الأرض فسكن الماء، وانسدت ينابيع الأرض وأبواب السماء، يقول الله تعالى: ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك﴾ الآية، فجعل الماء ينقص ويغيض ويدبر، وكان استواء الفلك على الجودي فيما يزعم أهل التوراة في الشهر السابع لسبع عشرة ليلة مضت منه، وفي أول يوم من الشهر العاشر رأى رؤوس الجبال، وظهر البر، وكشف نوح غطاء الفلك ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركاتٍ عليك وعلى أمم ممن معك﴾ الآية.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾

يقول تعالى لنبيّه ﷺ هذه القصة وأشباهها ﴿من أنباء الغيب﴾ يعني من أخبار الغيوب السالفة نوحيها إليك على وجهها كأنك شاهدها ﴿نوحيها إليك﴾ أي نعلمك بها وحياً منا إليك، ﴿ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾ أي لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها حتى يقول من يكذبك إنك تعلمتها منه، بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح، كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك، فاصبر على تكذيب من كذبك من قومك وأذاهم لك فإنا سننصرك ونحوطك بعنايتنا، ونجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة، كما فعلنا بالمرسلين حيث نصرناهم على أعدائهم ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا﴾ الآية، ﴿فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

يقول تعالى: ﴿و﴾ لقد أرسلنا ﴿إلى عاد أخاهم هوداً﴾ آمراً لهم بعبادة الله وحده لا شريك له ناهياً لهم عن الأوثان التي افتروها واختلقوا لها أسماء الآلهة، وأخبرهم أنه لا يريد منهم أجرة على هذا النصح والبلاغ من الله إنما يبغي ثوابه من الله الذي فطره، ﴿أفلا تعقلون﴾ من يدعوكم إلى ما يصلحكم في الدنيا والآخرة من غير أجرة، ثم أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة وبالتوبة عما يستقبلون، ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه وسهل عليه أمره وحفظ شأنه، ولهذا قال: ﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾، وفي الحديث: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب».

﴿قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٦﴾

يخبر تعالى أنهم قالوا لنبيهم: ﴿ما جئتنا بينة﴾ أي بحجة وبرهان على ما تدعيه، ﴿وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك﴾ أي بمجرد قولك اتركوهم نتركهم ﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾ بمصدقين، ﴿إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾ يقولون ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخبل في عقلك، بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها، ﴿قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه﴾، يقول: إني بريء من جميع الأنداد والأصنام، ﴿فكيدوني جميعاً﴾ أي أنتم وآلهتكم إن كانت حقاً ﴿ثم لا تُنْظرون﴾ أي طرفة عين. وقوله: ﴿إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها﴾ أي تحت قهره وسلطانه، وهو الحاكم العادل الذي لا يجور في حكمه، فإنه على صراط مستقيم، وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة، ودلالة قاطعة على صدق ما جاء هم به، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام، التي لا تنفع ولا تضر، بل هي جماد لا تسمع ولا تبصر، ولا توالي ولا تعادي، وإنما يستحق إخلاص العبادة الله وحده، الذي ما من شيء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه، فلا إلّه إلا هو ولا رب سواه.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ۝٥٧ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَـٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٨ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝٥٩ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ۝٦٠﴾

يقول لهم هود: فإن تولوا عما جئتكم به من عبادة الله ربكم وحده لا شريك له، فقد قامت عليكم الحجة بإبلاغي إياكم رسالة الله التي بعثني بها، ﴿ويستخلف ربي قوماً غيركم﴾ يعبدونه وحده ولا يشركون به ولا يبالي بكم فإنكم لا تضرونه بكفركم بل يعود وبال ذلك عليكم، ﴿إن ربي على كل شيء حفيظ﴾ أي شاهد وحافظ لأقوال عباده وأفعالهم، ﴿ولما جاء أمرنا﴾ وهو الريح العقيم أهلكهم الله عن آخرهم ونجى هوداً وأتباعه من عذاب غليظ برحمته تعالى ولطفه، ﴿وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم﴾ كفروا بها وعصوا رسل الله وذلك أن من كفر بنبي فقد كفر بجميع الأنبياء، فنزّل كفرهم منزلة من كفر بجميع الرسل ﴿واتبعوا أمر كل جبار عنيد﴾ تركوا اتباع رسولهم الرشيد، واتبعوا أمر كل جبار عنيد، فلهذا اتبعوا في هذه الدنيا لعنة كلما ذكروا، وينادى عليهم يوم القيامة

على رؤوس الأشهاد ﴿ ألا إن عاداً كفروا ربهم ﴾ الآية، قال السُّدي : ما بعث نبي بعد عاد إلا لعنوا على لسانه .

* وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾

يقول تعالى : ﴿ و ﴾ لقد أرسلنا ﴿ إلى ثمود ﴾ وهم الذين كانوا يسكنون مدائن الحجر بين تبوك والمدينة وكانوا بعد عـاد فبعث الله منهم ﴿ أخاهم صالحاً ﴾ فأمرهم بعبادة الله وحده، ولهذا قال : ﴿ هو أنشأكم من الأرض ﴾ أي ابتدأ خلقكم منها خلق منها أباكم آدم، ﴿ واستعمركم فيها ﴾ أي جعلكم عماراً تعمرونها وتستغلونها، ﴿ فاستغفروه ﴾ لسالف ذنوبكم ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ فيما تستقبلونه، ﴿ إن ربي قريب مجيب ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ الآية .

قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾

يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح عليه السلام وبين قومه وما كان عليه قومه من الجهل والعناد في قولهم : ﴿ قد كنت فينا مرجواً قبل هذا ﴾ أي كنا نرجوك في عقلك قبل أن تقول ما قلت ﴿ أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ﴾ ، وما كان عليه أسلافنا، ﴿ وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب ﴾ أي شك كثير، ﴿ قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ﴾ فيما أرسلني به إليكم على يقين وبرهان، ﴿ وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته ﴾ ، وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده، فلو تركته لما نفعتموني ولما زدتموني ﴿ غير تخسير ﴾ أي خسارة .

وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

تقدم الكلام على هذه القصة مستوفى في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته هاهنا وبالله التوفيق .

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣)﴾

يقول تعالى: ﴿ولقد جاءت رسلنا﴾ وهم الملائكة إبراهيم بالبشرى، قيل تبشره بإسحاق، وقيل بهلاك قوم لوط، ويشهد للأول قوله تعالى: ﴿ولما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط﴾، ﴿قالوا سلاماً قال سلام﴾ أي عليكم، قال علماء البيان: هذا أحسن مما حيوه به لأن الرفع يدل على الثبوت والدوام ﴿فما لبث أن جاء بعجلٍ حنيذ﴾ أي ذهب سريعاً، فأتاهم بالضيافة وهو عجل فتى البقر، ﴿حنيذ﴾ مشوي على الرضف وهي الحجارة المحماة، هذا معنى ما روي عن ابن عباس وقتادة وغير واحد، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم قال ألا تأكلون﴾ وقد تضمنت هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة، وقوله: ﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم﴾ ينكرهم، ﴿وأوجس منهم خيفة﴾ وذلك أن الملائكة لاهمة لهم إلى الطعام ولا يشتهونه ولا يأكلونه، فلهذا رأى حالهم معرضين عما جاء به فارغين عنه بالكلية، فعند ذلك نكرهم ﴿وأوجس منهم خيفة﴾ قال السدي: لما بعث الله الملائكة لقوم لوط أقبلت تمشي في صور رجال شبان حتى نزلوا على إبراهيم فتضيفوه، فلما رآهم أجلَّهم ﴿فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين﴾ فذبحه ثم شواه في الرضف وأتاهم به فقعد معهم، وقامت سارة تخدمهم، فذلك حين يقول ﴿وامرأته قائمة﴾[1] وهو جالس، فلما قربه إليهم ﴿قال ألا تأكلون﴾؟ قالوا: يا إبراهيم إنا لا نأكل طعاماً إلا بثمن، قال: فإن لهذا ثمناً، قالوا: وما ثمنه؟ قال: تذكرون اسم الله على أوله وتحمدونه على آخره، فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال: حق لهذا أن يتخذه ربه خليلاً ﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم﴾، يقول فلما رآهم لا يأكلون فزع منهم وأوجس منهم خيفة، وقالت سارة: عجباً لأضيافنا نخدمهم بأنفسنا كرامة لهم وهم لا يأكلون طعامنا؟! ﴿قالوا لا تخف﴾ أي قالوا لا تخف منا إنا ملائكة أرسلنا إلى قوم لوط لنهلكهم، فضحكت سارة استبشاراً بهلاكهم لكثرة فسادهم، وغلظ كفرهم وعنادهم، قال ابن عباس: ﴿فضحكت﴾ أي حاضت، وقول وهب بن منبه: إنما ضحكت لما بشرت بإسحاق، فمخالف لهذا السياق، فإن البشارة صريحة مرتبة على ضحكها ﴿فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب﴾ أي بولد لها يكون له ولد وعقب ونسل، فإن يعقوب ولد إسحاق، ومن هنا استدل من استدل بهذه الآية على أن الذبيح إنما هو (إسماعيل) وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق لأنه وقعت البشارة به، وأنه سيولد له يعقوب، فكيف يؤمر إبراهيم

---

(١) امرأة إبراهيم: هي سارة، والغلام الذي بشرت به - كما ذكره السهيلي - هو إسحاق، قال: ولم تلد سارة لإبراهيم غيره، وأما إسماعيل فهو بكره من هاجر القبطية.

بذبحه وهو طفل صغير ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده، ووعد الله حق لا خلف فيه، فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه، فتعين أن يكون هو إسماعيل، وهذا من أحسن الاستدلال وأصحه وأبينه ولله الحمد، ﴿قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً﴾ الآية، حكى قولها في هذه الآية كما حكى فعلها في الآية الأخرى، فإنها ﴿قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز﴾، وفي الذاريات ﴿فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم﴾، كما جرت بـه عادة النساء في أقوالهن وأفعالهن عند التعجب، ﴿قالوا أتعجبين من أمر الله﴾ أي قالت الملائكة لها: لا تعجبي من أمر الله فإنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، فلا تعجبي من هذا وإن كنت عجوزاً عقيماً وبعلك شيخاً كبيراً فإن الله على ما يشاء قدير، ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾ أي هو الحميد في جميع أفعاله وأقواله، محمود ممجد في صفاته وذاته.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾

يخبر تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه لما ذهب عنه الروع، وهو ما أوجس من الملائكة خيفة حين لم يأكلوا وبشروه بعد ذلك بالولد وأخبروه بهلاك قوم لوط، أخذ يقول: أتهلكون قرية فيها ثلثمائة مؤمن؟ قالوا: لا، قال: أفتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن؟ قالو: لا، حتى بلغ خمسة، قالوا: لا، قال: أرأيتكم أن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا، فقال إبراهيم عليه السلام عند ذلك: ﴿إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته﴾ الآية، فسكت عنهم واطمأنت نفسه،[1] وقوله: ﴿إن إبراهيم لحليم أواه منيب﴾ مدحٌ لإبراهيم بهذ الصفات الجميلة، وقد تقدم تفسيرها. وقوله تعالى: ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك﴾ الآية، أي أنه قد نفذ فيهم القضاء وحقت عليهم الكلمة بالهلاك وحلول البأس الذي لا يرد عن القوم المجرمين.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾

يخبر تعالى عن قدوم الملائكة بعدما أعلموا إبراهيم بهلاكهم وفارقوه، فانطلقوا من عنده فأتوا لوطاً عليه السلام، وهم في أجمل صورة تكون على هيئة شبان حسان الوجوه، ابتلاءً من الله – وله الحكمة والحجة البالغة – فساءه شأنهم وضاقت نفسه بسببهم، وخشي أن يضيفهم أحد من قومه فينالهم بسوء، ﴿وقال هذا يوم عصيب﴾، قال ابن عباس: شديد بلاؤه، وذلك أنه علم أنه سيدافع عنهم ويشق عليه ذلك. وذكر قتادة أنهم أتوه وهو في أرض

---

(١) قاله سعيد بن جبير رضي الله عنه.

له فتضيفوه فاستحيا منهم، فانطلق أمامهم وقال لهم في أثناء الطريق كالمعرض لهم بأن ينصرفوا عنه: ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء، ثم مشى قليلاً، ثم أعـاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات، قال قتادة: وقد كانوا أمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك، قال السدي: خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط فبلغوا نهر سدوم نصف النهار، ولقوا بنت لوط تستقي، فقالوا: يا جارية هل من منزل؟ فقالت: مكانكم حتى آتيكم وفَرِقت عليهم من قومها فأتت أباها، فقالت: يا أبتاه أدرك فتياناً على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم أحسن منهم لا يأخذهم قومك، وكان قومه نهوه أن يضيف رجلاً، فقالوا: خل عنا فلنضيف الرجال، فجاء بهم فلم يعلم بهم أحد إلا أهل بيته، فخرجت امرأته فأخبرت قومها فجاءوا يهرعون إليه، وقوله: ﴿يهرعون إليه﴾ أي يسرعون ويهرولون من فرحهم بذلك، وقوله: ﴿ومن قبل كانوا يعملون السيئات﴾ أي لم يزل هذا من سجيتهم حتى أخذوا وهم على ذلك الحال، وقوله: ﴿قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم﴾ يرشدهم إلى نسائهم، فإن النبي للأمة بمنزلة الوالد، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون﴾، ﴿قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين﴾، وقال في هذه الآية الكريمـة: ﴿هؤلاء بناتي هن أطهر لكم﴾ قال مجاهد: لم يكن بناته ولكن كن من أمته وكل نبي أبو أمته، وكذا روي عن قتادة وغير واحد. وقوله: ﴿فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي﴾ أي اقبلوا ما آمركم بـه من الاقتصار على نسائكم، ﴿أليس منكم رجل رشيد﴾ أي فيه خير، يقبل ما آمره بـه ويترك ما أنهاه عنه، ﴿قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق﴾ أي إنك لتعلم أن نساءنا لا أرب لنـا فيهن ولا نشتهيهن، ﴿وإنك لتعلم ما نريد﴾ أي ليس لنا غرض إلا في الذكور وأنت تعلم ذلك، فأي حاجة في تكرار القول علينا في ذلك؟ قال السدي: ﴿وإنك لتعلم ما نريد﴾ إنما نريد الرجال.

قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيّه لوط عليه السلام إن لوطاً توعدهم بقوله: ﴿لو أن لي بكم قوة﴾ الآية، أي لكنت نكلت بكم وفعلت بكم الأفاعيل بنفسي وعشيرتي، ولهذا ورد في الحديث: «رحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد – يعني الله عزّ وجلّ – فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه»، فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم رسل الله إليه، وأنهم لا وصول لهم إليه، ﴿قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك﴾ وأمروه أن يسري بأهله من آخر الليل وأن يتبع أدبارهم، أي يكون ساقة لأهله، ﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾ أي إذا سمعت ما نزل بهـم ولا تهولنكم تلك الأصوات المزعجة، وقوله: ﴿ولا يلتفت منكم أحـد إلا امرأتك﴾، ذكروا أنها خرجت معهم وأنها لمـا سمعت الوجبة التفتت وقالت: واقوماه، فجاءها حجر من السماء فقتلها، ثم قربوا له هلاك قومه تبشيراً له لأنه قال لهم أهلكوهم الساعة، فقالوا: ﴿إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب﴾؟ هذا وقوم لوط وقوف على

الباب وعكوف، قد جاءوا يهرعون إليه من كل جانب، ولوط واقف على الباب يدافعهم ويردعهم وينهاهم عما هم فيه، وهم لا يقبلون منه، بل يتوعدونه ويتهددونه، فعند ذلك خرج عليهم جبريل عليه السلام، فضرب وجوههم بجناحه فطمس أعينهم، فرجعوا وهم لا يهتدون الطريق؛ كما قال تعالى: ﴿ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر﴾ الآية .

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾

يقول تعالى: ﴿فلما جاء أمرنا﴾ وكان ذلك عند طلوع الشمس ﴿جعلنا عاليها﴾ وهي سدوم ﴿سافلها﴾، كقوله: ﴿فغشاها ما غشى﴾، ﴿وأمطرنا عليها حجارة من سجيل﴾ أي حجارة من طين، قاله ابن عباس وغيره. وقد قاله في الآية الأخرى: ﴿حجارة من طين﴾ أي مستحجرة قوية شديدة، وقال بعضهم: مشوية، وقال البخاري: ﴿سجيل﴾: الشديد الكبير، سجيل وسجين اللام والنون اختان، وقوله: ﴿منضود﴾ قال بعضهم: منضودة في السماء أي معدة لذلك. وقال آخرون: ﴿منضود﴾ أي يتبع بعضهم بعضاً في نزولها عليهم، وقوله: ﴿مسومة﴾ أي معلمة كل حجر مكتوب عليه اسم الذي ينزل عليه، فبينا أحدهم يكون عند الناس يتحدث، إذ جاءه حجر من السماء فسقط عليه من بين الناس فدمره، فتتبعهم الحجارة من سائر البلاد حتى أهلكتهم عن آخرهم، فلم يبق منهم أحد، وقال مجاهد: أخذ جبريل قوم لوط من سرحهم ودورهم، حملهم بمواشيهم وأمتعتهم ورفعهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم، ثم كفأها؛ وكان حملهم على خوافي جناحه الأيمن، ولما قلبها كان أول ما سقط منها شرفاتها . وقال قتادة وغيره: بلغنا أن جبريل عليه السلام لما أصبح نشر جناحه فانتسف بها أرضهم بما فيها من قصورها ودوابها وحجارتها وشجرها وجميع ما فيها، فضمها في جناحه، فحواها وطواها في جوف جناحه، ثم صعد بها إلى السماء الدنيا حتى سمع سكان السماء أصوات الناس والكلاب، وكانوا أربعة آلاف ألف، ثم قلبها، فأرسلها إلى الأرض منكوسة، ودمدم بعضها على بعض، فجعل عاليها سافلها، ثم أتبعها حجارة من سجيل، قال تعالى: ﴿جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل﴾ فأهلكها الله وما حولها من المؤتفكات. وقال السدي: لما أصبح قوم لوط نزل جبريل فاقتلع الأرض من سبع أرضين فحملها حتى بلغ بها السماء، حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم وأصوات ديوكهم ثم قلبها فقتلهم فذلك قوله: ﴿والمؤتفكة أهوى﴾، ومن لم يمت حتى سقط للأرض أمطر الله عليه وهو تحت الأرض الحجارة، ومن كان منهم شاذاً في الأرض يتبعهم في القرى، فكان الرجل يتحدث فيأتيه الحجر فيقتله؛ فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وأمطرنا عليهم﴾ أي في القرى حجارة من سجيل، وقوله: ﴿وما هي من الظالمين ببعيد﴾ أي وما هذه النقمة ممن تشبه بهم في ظلمهم ببعيد عنه .

﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾

يقول تعالى: ﴿ولقد أرسلنا إلى مدين﴾ وهم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام قريباً من معان، بلاداً تعرف بهم يقال لها (مـدين) ، فأرسل الله إليهم شعيباً وكان من أشرفهم نسباً، ولهذا قال: ﴿أخاهم شعيباً﴾ يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له وينهاهم عن التطفيف في المكيال والميزان، ﴿إني أراكم بخير﴾ أي في معيشتكم ورزقكم، وإني أخاف أن تسلبوا ما أنتم فيه بانتهاككم محارم الله، ﴿وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾ أي في الدار الآخرة .

﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾

نهاهم أولاً عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن، ونهـاهم عن العثو في الأرض بالفساد وقد كانوا يقطعون الطريق، وقوله: ﴿بقية الله خير لكم﴾، قال ابن عباس: رزق الله خير لكم، وقال الحسن: رزق الله خير لكم من بخسكم النـاس، وقال الربيع: وصية الله خير لكم، وقال مجاهد: طاعة الله، وقال قتادة: حظكم من الله خير لكم. وقال ابن جرير: أي ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخـذ أموال الناس، قلت: ويشبه قوله قوله تعالى: ﴿قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾ الآية، وقوله: ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ أي برقيب ولا حفيظ، أي افعلوا ذلك لله عزّ وجلّ، لا تفعلوا ليراكم الناس بل لله عزّ وجلّ .

﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾

يقولون له على سبيل التهكم – قبحهم الله – ﴿أصلاتك﴾ أي قراءتك[1] ، ﴿تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا﴾ أي الأوثان والأصنام، ﴿أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء﴾ فنترك التطفيف عن قولك، وهي أموالنا نفعل فيها ما نريد، قـال الحسن في الآية: أي والله إن صلاته لتأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم، وقال الثوري في قوله: ﴿أو أن نفعل في أموالنـا ما نشاء﴾ ؟ يعنون الزكاة، ﴿إنك لأنت الحليم الرشيد ؟!﴾ يقول ذلك أعداء الله على سبيل الاستهزاء قبحهم الله ولعنهم وقد فعل .

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾

(١) قاله الأعشى .

يقول لهم أرأيتم يا قوم ﴿إن كنت على بينة من ربي﴾ أي على بصيرة فيما أدعو إليه، ﴿ورزقني منه رزقاً حسناً﴾ قيل: أراد النبوة، وقيل: أراد الرزق الحلال ويحتمل الأمرين، قال الثوري: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾ أي لا أنهاكم عن الشيء وأخالف أنا في السر فأفعله خفية عنكم، وقال قتادة: لم أكن أنهاكم عن أمر وأرتكبه، ﴿إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت﴾ أي فيما آمركم وأنهاكم إنما أريد إصلاحكم جهدي وطاقتي، ﴿وما توفيقي﴾ في إصابة الحق فيما أريده ﴿إلا بالله عليه توكلت﴾ في جميع أموري ﴿وإليه أنيب﴾ أي أرجع، قاله مجاهد. روى الإمام أحمد عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن الأنصاري قال: سمعت أبا حميد أو أبا أسيد يقول عنه ﷺ أنه قال: «إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم، وتلين له أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم قريب فأنا أولاكم به، وإذا سمعتم الحديث عني تنكره قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم بعيد فأنا أبعدكم منه»[1]. ومعناه والله أعلم: مهما بلغكم عني من خير فأنا أولاكم به، ومهما يكن من مكروه فأنا أبعدكم منه ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾، قال أبو سليمان الضبي: كانت تجيئنا كتب (عمر بن عبد العزيز) فيها الأمر والنهي، فيكتب في آخرها: وما كانت من ذلك إلا كما قال العبد الصالح ﴿وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾.

وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾

يقول لهم: ﴿ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي﴾ أي لا تحملنكم عداوتي وبغضي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط من النقمة والعذاب، وقال قتادة: ﴿ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي﴾ يقول: لا يحملنكم فراقي، وقال السدي: عداوتي، على أن تمادوا في الضلال والكفر فيصيبكم من العذاب ما أصابهم، ولما أحاط الناس بعثمان بن عفان أشرف عليهم من داره فقال: ﴿يا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح﴾، يا قوم لا تقتلوني، إنكم إن قتلتموني كنتم هكذا، وشبك بين أصابعه[1]، وقوله: ﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ قيل: المراد في الزمان، قال قتادة: يعني إنما هلكوا بين أيديكم بالأمس، وقيل: في المكان، ويحتمل الأمران، ﴿واستغفروا ربكم﴾ من سالف الذنوب، ﴿ثم توبوا إليه﴾ فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة ﴿إن ربي رحيم ودود﴾ لمن تاب.

قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

يقولون: ﴿يا شعيب ما نفقه﴾ ما نفهم ﴿كثيراً﴾ من قولك، ﴿وإنا لنراك فينا ضعيفاً﴾[1]، قال السدي: أنت واحد، وقال أبو روق: يعنون ذليلاً، لأن عشيرتك ليسوا على دينك، ﴿ولولا رهطك لرجمناك﴾ أي قومك ﴿لرجمناك﴾ قيل: بالحجارة، وقيل: لسببناك، ﴿وما أنت علينا بعزيز﴾ أي ليس عندنا لك معزة، ﴿قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله﴾، يقول: أتتركوني لأجل قومي، ولا تتركوني إعظاماً لجناب الرب تبارك وتعالى أن تنالوا نبيّه بمساءة وقد اتخذتم جانب الله ﴿وراءكم ظهرياً﴾ أي نبذتموه خلفكم لا تطيعونه ولا تعظمونه، ﴿إن ربي بما تعملون محيط﴾ أي هو يعلم جميع أعمالكم وسيجزيكم عليها.

* وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

لما يئس نبي الله شعيب من استجابتهم له قال: يا قوم ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ أي طريقتكم، وهذا تهديد شديد ﴿إني عامل﴾ على طريقتي، ﴿سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب﴾، أي مني ومنكم، ﴿وارتقبوا﴾ أي انتظروا، ﴿إني معكم رقيب﴾، قال الله تعالى: ﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾، وقوله: ﴿جاثمين﴾ أي هامدين لا حراك بهم. وذكر ههنا أنه أتتهم صيحة، وفي الأعراف رجفة، وفي الشعراء ﴿عذاب يوم الظلة﴾، وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها، وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه، وقوله: ﴿كأن لم يغنوا فيها﴾ أي يعيشوا في دارهم قبل ذلك ﴿ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود﴾ وكانوا جيرانهم قريباً منهم في الدار، وشبيهاً بهم في الكفر وكانوا عرباً مثلهم.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾

يقول تعالى مخبراً عن إرسال موسى بآياته ودلالاته الباهرة إلى فرعون ملك القبط وملئه ﴿فاتبعوا أمر فرعون﴾ أي منهجه ومسلكه وطريقته في الغي، ﴿وما أمر فرعون برشيد﴾ أي ليس فيه رشد ولا هدى، وإنما هو جهل وضلال وكفر وعناد؛ وكما أنهم اتبعوه في الدنيا وكان مقدمهم ورئيسهم، كذلك هو يقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم، ﴿يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار، وبئس الورد المورود﴾، وكذلك شأن المتبوعين يكونون موفرين في

---

(١) روي عن سعيد بن جبير والثوري أنهما قالا: كان شعيب ضرير البصر.

العذاب يوم القيـامة، كما قال تعالى: ﴿ لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾، وقال تعالى: ﴿ ربنا آتهم ضعفين من العذاب﴾ الآية، وقوله: ﴿ وأتبعوا في هـذه لعنة ويوم القيامة﴾ الآية، أي أتبعناهم زيادة على عذاب النار لعنة في الدنيا، ﴿ ويوم القيامة بئس الرفد المرفود﴾. قال مجاهد: زيدوا لعنة يوم القيامة فتلك لعنتان، وقال ابن عباس: لعنة الدنيا والآخرة[1]، وهو كقوله: ﴿ وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾ .

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾

لما ذكر تعالى خبر الأنبياء وما جرى لهم مع أممهم وكيف أهلك الكافرين ونجى المؤمنين، قال: ﴿ ذلك من أنباء القرى﴾ أي أخبارهم، ﴿ نقصه عليك منها قائم﴾ أي عامر، ﴿ وحصيد﴾ أي هالك، ﴿ وما ظلمناهم﴾ أي إذ أهلكناهم ﴿ ولكن ظلموا أنفسهم﴾ بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم، ﴿ فما أغنت عنهم آلهتهم﴾ أوثانهم التي يعبدونها ويدعونها ﴿ من دون الله من شيء﴾ ما نفعوهم ولا أنقذوهم بإهلاكهم، ﴿ وما زادوهم غير تتبيب﴾. قال مجاهد وقتادة: أي غير تخسير، وذلك أن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة، فلهذا خسروا في الدنيا والآخرة .

وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾

يقول تعالى: وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسلنا كذلك نفعل بأشباههم، ﴿ إن أخذه أليم شديد﴾. وفي الصحيحين عن أبي موسى رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته »، ثم قرأ ﷺ: ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة﴾ الآية .

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾

يقول تعالى: إن في إهلاكنا الكافرين وإنجائنا المؤمنين ﴿ لآية﴾ أي عظة واعتباراً على صدق موعودنا في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين﴾ الآية. وقوله: ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس﴾ أي أولهم وآخرهم، كقوله: ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً﴾، ﴿ وذلك يوم مشهود﴾ أي عظيم تحضره الملائكة، ويجتمع فيه الرسل وتحشر الخلائق بأسرهم، من الإنس والجن والطير والوحوش والدواب، ويحكم فيه العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة، وقوله: ﴿ وما نؤخره إلا لأجل معدود﴾ أي ما نؤخر إقامة القيامة إلا لأنه قد سبقت كلمة

(١) وكذا قال الضحاك وقتادة .

الله في وجود أناس معدودين من ذرية آدم، ضرب مدة معينة إذا انقطعت وتكامل وجود أولئك المقدر خروجهم قامت الساعة، ولهذا قال: ﴿وما نؤخره إلا لأجل معدود﴾ أي لمدة مؤقتة لا يزاد عليها ولا ينتقص منها، ﴿يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه﴾ أي يوم يأتي يوم القيامة لا يتكلم أحد إلا بإذن الله، كقوله: ﴿لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً﴾، وفي الصحيحين في حديث الشفاعة: «ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلّمْ سلّمْ»، وقوله: ﴿فنهم شقي وسعيد﴾ أي فن أهل الجمع شقي ومنهم سعيد، كما قال: ﴿فريق في الجنة وفريق في السعير﴾، ثم بيّن تعالى حال الأشقياء وحال السعداء فقال:

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾

يقول تعالى: ﴿لهم فيها زفير وشهيق﴾، قال ابن عباس: الزفير في الحلق، والشهيق في الصدر، أي تنفسهم زفير وأخذهم النفس شهيق، لما هم فيه من العذاب، ﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾ قال ابن جرير: من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبداً قالت: هذا دائم، دوام السماوات والأرض، وكذلك يقولون: هو باق ما اختلف الليل والنهار، يعنون بذلك كله أبداً، فخاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم، فقال: ﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾ **قلت**: ويحتمل أن المراد بما دامت السماوات والأرض الجنس، لأنه لا بد في عالم الآخرة من سماوات وأرض، كما قال تعالى: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾، ولهذا قال الحسن البصري في قوله: ﴿ما دامت السموات والأرض﴾ قال: يقول سماء غير هذه السماء وأرض غير هذه، فما دامت تلك السماء وتلك الأرض، وعن ابن عباس قال: لكل جنة سماء وأرض، وقال ابن أسلم: ما دامت الأرض أرضاً والسماء سماء، وقوله: ﴿إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد﴾، كقوله: ﴿النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم﴾، وقد اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة نقل كثيراً منها ابن جرير رحمه الله، واختار أن الاستثناء عائد على (العصاة) من أهل التوحيد، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين، ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين، فتخرج من لم يعمل خيراً قط، وقال يوماً من الدهر ﴿لا إله إلا الله﴾، كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها، وهذا الذي عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً، وقال السدي: هي منسوخة بقوله: ﴿خالدين فيها أبداً﴾.

* وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾

يقول تعالى: ﴿وأما الذين سعدوا﴾ وهم أتباع الرسل ﴿ففي الجنة﴾ أي فمأواهم الجنة، ﴿خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها أبداً، ﴿ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك﴾ معنى الاستثناء ههنا أن دوامهم فيما هم فيه من

النعيم ليس أمراً واجباً بذاته، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى، فله المنة عليهم دائماً، وعقّب ذلك بقوله: ﴿عطاء غير مجذوذ﴾ أي غير مقطوع[1]، لئلا يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة أن ثم انقطاع أو لبس أو شيء، بل حتم له بالدوام وعدم الانقطاع، ﴿إن ربك فعال لما يريد﴾، كقوله: ﴿لا يسئل عما يفعل وهم يسألون﴾، وهنا طيَّب القلوب وثبَّت المقصود بقوله: ﴿عطاءً غير مجذوذ﴾. وقد جاء في الصحيحين: «يوتى بالموت في صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار، ثم يقال يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت»، وفي الصحيح أيضاً: «فيقال: يا أهل الجنة إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً».

فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾

يقول تعالى: ﴿فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء﴾ المشركون إنه باطل وجهل وضلال، فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل، أي ليس لهم مستند فيما هم فيه إلا اتباع الآباء في الجهالات وسيجزيهم الله على ذلك أتم الجزاء، قال سفيان الثوري، عن ابن عباس: ﴿وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص﴾، قال: ما وعدوا من خير أو شر، وقال ابن أسلم: لموفوهم من العذاب نصيبهم غير منقوص، ثم ذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب فاختلف الناس فيه فمن مؤمن به ومن كافر به، فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يا محمد أسوة، فلا يغيظنك تكذيبهم لك، وقوله تعالى: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم﴾. قال ابن جرير: لولا ما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم لقضى الله بينهم، ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه كما قال: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾، ثم أخبر تعالى أنه سيجمع الأولين والآخرين من الأمم ويجزيهم بأعمالهم فقال: ﴿وإن كلاً لما ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير﴾ أي عليم بأعمالهم جميعاً، جليلها وحقيرها صغيرها وكبيرها، وقوله: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا﴾ قال ابن عباس: هو الركون إلى الشرك، وقال أبو العالية: لا ترضوا بأعمالهم؛ وقال ابن جرير عن ابن عباس: ولا تميلوا إلى الذين ظلموا؛ وهذا القول حسن، أي لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بأعمالهم، ﴿فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون﴾ أي ليس لكم من دونه من ولي ينقذكم، ولا ناصر يخلصكم من عذابه.

فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾

---

(١) قاله مجاهد وابن عباس وأبو العالية وغير واحد.

يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ومخالفة الأضداد، وينهى عن الطغيان وهو البغي، فإنه مصرعة حتى ولو كان على مشرك، وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد لا يغفل عن شيء ولا يخفى عليه شيء.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾

قال ابن عباس: ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار﴾ قال: يعني الصبح والمغرب، وقال الحسن: هي الصبح والعصر، وقال مجاهد: هي الصبح في أول النهار والظهر والعصر مرة أخرى، ﴿وزلفاً من الليل﴾ يعني صلاة العشاء[١]، وقال مجاهد والضحاك: إنها صلاة المغرب والعشاء، وقد يحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان: صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها، وفي أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة، ثم نسخ في حق الأمة، وثبت وجوبه عليه، ثم نسخ عنه أيضاً، والله اعلم.

وقوله: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ يقول: إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه، وإذا حدثني عنه أحد استحلفته فإذا حلف لي صدقته، وحدثني أبو بكر - وصدق أبو بكر - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يذنب ذنباً فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غفر له»، وفي الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان: أنه توضأ لهم كوضوء رسول الله ﷺ ثم قال: هكذا رأيت رسول يتوضأ وقال: «من توضأ وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيها نفسه، غفر له ما تقدم من ذنبه». وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر. وقال البخاري، عن ابن مسعود، أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فأنزل الله: ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات﴾، فقال الرجل: يا رسول الله ألي هذا؟ قال: «لجميع أمتي كلهم»[٢].

وروى الإمام أحمد، عن عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفسي بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه» قال، قلنا: وما بوائقه يا نبي الله؟ قال: «غشه وظلمه، ولا يكسب عبد مالاً حراماً فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيء بالسيء، ولكن يمحو السيء بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث»، وروى الإمام أبو جعفر بن جرير عن أبي اليسر (كعب بن عمرو

(١) وهو قول ابن عباس ومجاهد والحسن البصري وغيرهم.

(٢) أخرجه البخاري ورواه مسلم وأحمد وأصحاب السنن إلا أبا داود.

الأنصاري) قال: أتتني امرأة تبتاع مني بدرهم تمراً، فقلت: إن في البيت تمراً أجود من هــذا، فدخلت فأهويت إليها فقبلتها، فأتيت عمر فسألته فقال: اتق الله واستر على نفسك، ولا تخبرنّ أحداً، فلم أصبر حتى أتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال: « أخلفتَ رجلاً غازياً في سبيل الله في أهله بمثل هذا ؟ » حتى ظننت أني من أهل النار، حتى تمنيت أني أسلمت ساعتئذ »، فأطرق رسول الله ﷺ ساعة، فنزل جبريل، فقال: أبو اليسر: فجئت فقرأ عليَّ رسول الله ﷺ: ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ فقال إنسان: يا رسول الله أله خاصة أم للناس عامة ؟ قال: « للناس عامة ». وعن أبي ذر، أن رسول الله ﷺ قال: « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن »[1]، وفي رواية عنه قال، قلت: يا رسول الله أوصني، قال: « إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها »، قال، قلت: يا رسول الله أمن الحسنات (لا إله إلا الله) ؟ قال: « هي أفضل الحسنات » رواه أحمد.

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

يقول تعالى: فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير، ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض، وقوله: ﴿ إلا قليلاً ﴾ أي قد وجد منهم من هذا الضرب قليل لم يكونوا كثيراً وهم الـذين أنجاهم الله عند حلول غضبه وفجأة نقمته، ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾، وفي الحديث: « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب »، وقوله: ﴿ واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه ﴾ أي استمروا على ما هم عليه من المعاصي والمنكرات، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك حتى فجأهم العذاب، ﴿ وكانوا مجرمين ﴾، ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهي ظالمة لنفسها، ولم يأت قرية مصلحة نقمته وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين، كما قال تعالى: ﴿ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ وقال: ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾.

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة من إيمان أو كفر، كما قال تعالى: ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ﴾، وقوله: ﴿ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ﴾ أي ولا يزال الخلف بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم، قال عكرمة: مختلفين في الهدى، وقوله: ﴿ إلا من

---

(١) أخرجه الإمام أحمد.

رحم ربك﴾ أي إلا المرحومين من أتباع الرسل الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين، أخبرتهم به رسل الله إليهم ولم يزل ذلك دأبهم، حتى كان النبي وخاتم الرسل والأنبياء فاتبعوه وصدقوه ووازروه، ففاز بسعادة الدنيا والآخرة، لأنهم الفرقة الناجية، وقال عطاء: ﴿ولا يزالون مختلفين﴾ يعني اليهود والنصارى والمجوس ﴿إلا من رحم ربك﴾ يعني الحنيفية، وقال قتادة: أهل رحمة الله: أهل الجماعة وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم، وأهل معصيته أهل الفرقة، وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم. وقوله: ﴿ولذلك خلقهم﴾، قال الحسن البصري: وللاختلاف خلقهم. وقال ابن عباس: خلقهم فريقين كقوله: ﴿فنهم شقي وسعيد﴾، وعن ابن عباس قال: للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب. ويرجع معنى هذا القول إلى قوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾، وقيل: بل المراد وللرحمة وللاختلاف خلقهم، كما قال الحسن البصري في رواية عنه في قوله: ﴿ولا يزالون مختلفين﴾، قال: الناس مختلفون على أديان شتى ﴿إلا من رحم ربك﴾، فمن رحم ربك غير مختلف، فقيل له لذلك خلقهم، قال: خلق هؤلاء لجنته، وخلق هؤلاء لناره، وخلق هؤلاء لعذابه، وقال ابن وهب: سألت مالكاً عن قوله تعالى: ﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾ قال: فريق في الجنة وفريق في السعير، وقد اختار هذا القول ابن جرير، وقوله: ﴿وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ يخبر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدره لعلمه التام وحكمته النافذة أن ممن خلقه من يستحق الجنة، ومنهم من يستحق النار، وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين (الجن والإنس) وله الحجة البالغة والحكمة التامة، وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «اختصمت الجنة والنار، فقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم، وقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، فقال الله عزّ وجلّ للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء، وقال للنار: أنت عذابي أنتقم بك ممن أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها، فأما الجنة فلا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً يسكن فضل الجنة، وأما النار فلا تزال تقول: ﴿هل من مزيد﴾ حتى يضع عليها رب العزة قدمه فتقول: قط قط وعزتك».

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

يقول تعالى: وكل أخبار نقصها عليك من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أممهم، وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين وخذل أعداءه الكافرين، كل هذا مما ﴿نثبت به فؤادك﴾ أي قلبك يا محمد ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة، وقوله: ﴿وجاءك في هذه الحق﴾ أي في هذه السورة، قاله ابن عباس ومجاهد وجماعة من السلف، وعن الحسن وقتادة: في هذه الدنيا، والصحيح في هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء، وكيف أنجاهم الله والمؤمنين بهم، وأهلك الكافرين، جاءك فيها قصص حق ونبأ صدق وموعظة يرتدع بها الكافرون، وذكرى يتذكر بها المؤمنون.

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد ﴿ اعملوا على مكانتكم ﴾ أي على طريقتكم ومنهجكم، ﴿ إنا عاملون ﴾ أي على طريقتنا ومنهجنا، ﴿ وانتظروا إنا منتظرون ﴾ أي ﴿ فستعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون ﴾، وقد أنجز الله لرسوله وعده ونصره وأيده، وجعل كلمته هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى والله عزيز حكيم.

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه عالم غيب السماوات والأرض وأنه إليه المرجع والمآب، وسيؤتي كل عامل عمله يوم الحساب، فله الخلق والأمر، فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه. فإنه كاف من توكل عليه وأناب إليه، وقوله: ﴿ وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ أي ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمد بل هو عليم بأحوالهم وأقوالهم، وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء في الدنيا والآخرة وسينصرك وحزبك عليهم في الدارين.

* * *

تفسير سورة هود

[وهى مكية] (١).

قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا خلف بن هشام البزار، حدثنا أبو الأحوص، عن أبى إسحاق، عن عِكْرِمة قال: قال أبو بكر: سألت رسول الله ﷺ: ماشيّبك؟ قال: «شيبتنى هود، والواقعة، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت»(٢).

وقال أبو عيسى الترمذى: حدثنا أبو كُرَيْبْ محمد بن العلاء، حدثنا معاوية بن هشام، عن شيبان، عن أبى إسحاق، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يارسول الله، قد شبت؟ قال: «شيبتنى هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت» (٣) وفى رواية: «هود وأخواتها».

وقال الطبرانى: حدثنا عبدان بن أحمد، حدثنا حماد (٤) بن الحسن، حدثنا سعيد بن سلام، حدثنا عمر بن محمد، عن أبى حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «شيبتنى هود وأخواتها: الواقعة، والحاقة، وإذا الشمس كورت» وفى رواية: «هود وأخواتها»(٥).

وقد روى من حديث ابن مسعود، فقال الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى فى معجمه الكبير: حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة، حدثنا أحمد بن طارق الرائشى(٦)، حدثنا عمرو بن ثابت، عن أبى إسحاق، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه؛ أن أبا بكر قال: يارسول الله، ما شيبك؟ قال: «هود، والواقعة»(٧).

عمرو بن ثابت متروك، وأبو إسحاق لم يدرك ابن مسعود. والله أعلم.

---

(١) زيادة من ت، أ.

(٢) مسند أبى يعلى (١/ ١٠٢) وهو منقطع وقد تكلم عليه والذى بعده، الحافظ الدارقطنى فى العلل (٣/ ١٩٣ ـ ٢١١) بما يكفى.

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٢٩٧) وقال الترمذى: «هذا حديث حسن غريب لانعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه».

(٤) جميع النسخ: «حجاج» والتصويب من المعجم الكبير.

(٥) المعجم الكبير (٦/ ١٨٣) ورواه الدارقطنى فى العلل (١/ ٢١٠) من طريق أحمد بن طارق به، وقال الهيثمى فى المجمع (٣/ ١٩٢): «عمر بن صهبان متروك» وسعيد بن سلام كذاب.

(٦) فى ت، أ، والمعجم الكبير: «الوابشى» ولم أجد ترجمته.

(٧) المعجم الكبير (١٠/ ١٢٥، ١٢٦) وهو عنده من طريق عمرو بن ثابت عن أبى إسحاق عن أبى الأحوص عن ابن مسعود فلعله سقط من نسخة ابن كثير والله أعلم.

وللاستزادة فى أحاديث الباب: فقد توسع الفاضل محمد طرهونى فى تتبعها انظر كتابه: موسوعة فضائل القرآن (١/ ٢٩٥ـ ٣٠٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤) ﴾.

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء فى أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هاهنا، وبالله التوفيق.

وأما قوله: ﴿ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ أى: هى محكمة فى لفظها، مفصلة فى معناها، فهو كامل صورة ومعنى. هذا معنى ماروى عن مجاهد، وقتادة، واختاره ابن جرير.

وقوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أى: من عند الله الحكيم فى أقواله، وأحكامه، الخبير بعواقب الأمور.

﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ﴾ أى: نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة [١] الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، قال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقوله: ﴿إِنَّنِي [٢] لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أى: إنى لكم نذير من العذاب إن خالفتموه، وبشير بالثواب إن أطعتموه، كما جاء فى الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ صعد الصفا، فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب، فاجتمعوا، فقال[٣]: «يامعشر قريش، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا تصبحكم[٤]، ألستم مصدقى؟» فقالوا: ماجربنا عليك كذبا. قال: «فإنى نذير لكم بين [٥] يدى عذاب شديد»[٦].

وقوله: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أى: وآمركم [٧] بالاستغفار من الذنوب السالفة والتوبة منها إلى الله عز وجل فيما تستقبلونه، وأن تستمروا [٨] على ذلك، ﴿ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا﴾ أى: فى الدنيا ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أى: فى الدار الآخرة، قاله قتادة، كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ

---

(١) فى ت، أ: «بعباده». (٢) فى ت، أ: «إنى». (٣) فى ت: «فقالوا».

(٤) فى ت: «تصحبكم». (٥) فى أ: « من».

(٦) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٩٧١) من حديث ابن عباس، رضى الله عنه.

(٧) فى ت، أ: «يأمركم». (٨) فى ت، أ: «يستقبلونه وأن يستمروا».

فَلَنُحْيِيَنَّهُ [١] حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا [٢] يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧]، وقد جاء فى الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لسعد: «وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله، إلا أجرت بها، حتى ما تجعل فى فِيّ [٣] امرأتك» [٤].

وقال ابن جرير: حدثت عن المسيب بن شريك، عن أبى بكر، عن سعيد بن جُبير، عن ابن مسعود فى قوله: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ قال: من عمل سيئة كتبت عليه سيئة، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات. فإن عوقب بالسيئة التى كان عملها فى الدنيا بقيت له عشر حسنات، وإن لم يعاقب بها فى الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات. ثم يقول: هلك من غلب آحاده أعشاره [٥].

وقوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾: هذا تهديد شديد لمن تولى عن أوامر الله تعالى، وكذب رسله، فإن العذاب يناله يوم معاده [٦] لا محالة، ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أى: معادكم يوم القيامة، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾أى: وهو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه، وانتقامه من أعدائه، وإعادة [٧] الخلائق يوم القيامة، وهذا مقام الترهيب، كما أن الأول مقام ترغيب.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥)﴾.

قال ابن عباس: كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم، وحال وقاعهم، فأنزل الله هذه الآية. رواه البخارى من حديث ابن جُرَيْج، عن محمد بن عباد بن جعفر؛ أن ابن عباس قرأ: «أَلا إِنَّهُمْ تَثْنونى [٨] صُدُورَهُم»، فقلت: يا أبا عباس، ماتثنونى [٩] صدورهم؟ قال: الرجل كان يجامع امرأته فيستحيى ـ أو: يتخلى فيستحيى فنزلت: «أَلا إِنَّهُمْ تَثْنونى [١٠] صُدُورَهُم».

وفى لفظ آخر له: قال ابن عباس: أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا، فيفضوا إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم.

ثم قال: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو قال: قرأ [١١] ابن عباس: «أَلا إِنَّهُمْ يَثْنونى صُدُورَهُم لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُم».

---

(١) فى ت: «فليحيينه». (٢) فى ت: «بأحسن الذى كانوا». (٣) فى ت، أ: «فى فم».
(٤) صحيح البخارى برقم (٦٣٧٣) وصحيح مسلم برقم (١٦٢٨).
(٥) تفسير الطبرى (١٥/ ٢٣١).
(٦) فى ت: «معاذه». (٧) فى ت، أ: «وإعادته».
(٨، ٩) فى ت، أ: «تثنون». (١٠) فى ت، أ: «يثنون». (١١) فى ت: «قال».

قال البخارى: وقال غيره، عن ابن عباس: ﴿يَسْتَغْشُونَ﴾: يغطون رؤوسهم[(١)].

وقال ابن عباس فى رواية أخرى فى تفسير هذه الآية: يعنى به الشك فى الله، وعمل السيئات، وكذا روى عن مجاهد، والحسن، وغيرهم: أى أنهم كانوا يثنون صدورهم إذا قالوا شيئاً أو عملوه، يظنون أنهم يستخفون من الله بذلك، فأعلمهم الله تعالى أنهم[(٢)] حين يستغشون ثيابهم عند منامهم فى ظلمة الليل، ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾[(٣)] من القول: ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾أى: يعلم ماتكن صدورهم من النيات والضمائر والسرائر. وما أحسن ما قال زهير بن أبى سلمى فى معلقته المشهورة:

فَلا تكْتُمُنَّ الله مافى نفوسكـم ... ليخفى، فمهمـا يُكتم[(٤)] الله يَعْلَـم

يُؤخَر فيوضَع فى كتاب فَيُدخَر ... ليوم حساب، أو يُعَجل فَيُنْقمِ[(٥)] [(٦)]

فقد اعترف هذا الشاعر الجاهلى بوجود الصانع وعلمه بالجزئيات، وبالمعاد وبالجزاء، وبكتابة الأعمال فى الصحف ليوم القيامة.

وقال عبد الله بن شداد: كان أحدهم إذا مر برسول الله ﷺ ثنى[(٧)] صدره، وغطى رأسه فأنزل الله ذلك.

وعود الضمير[(٨)] على الله أولى؛ لقوله: ﴿أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

وقرأ ابن عباس: «أَلا إِنَّهُمْ تَثْنونى[(٩)] صُدُورَهُم»، برفع الصدور على الفاعلية، وهو قريب المعنى.

﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦)﴾.

أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات، من سائر دواب الأرض، صغيرها وكبيرها، بحريها، وبريها، وأنه ﴿يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أى: يعلم أين مُنتهى سيرها فى الأرض، وأين تأوى إليه من وكرها، وهو مستودعها.

وقال على بن أبى طلحة وغيره، عن ابن عباس: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ أى: حيث تأوى، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾، حيث تموت.

وعن مجاهد: ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ فى الرحم، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ فى الصلب، كالتى فى الأنعام: وكذا روى عن ابن عباس والضحاك، وجماعة. وذكر[(١٠)] ابن أبى حاتم أقوال المفسرين هاهنا، كما ذكره

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٦٨١ ـ ٤٦٨٣).

(٢) فى ت، أ: «أنه». (٣) فى ت، أ: «يسرونه». (٤) فى ت: «تكتم».

(٥) فى ت: «فينتقم».

(٦) البيت فى تفسير الطبرى (١٥/ ٢٣٣).

(٧) فى ت، أ: «ثنى عنه». (٨) فى ت، أ: «الضمير أولا».

(٩) فى ت، أ: «يثنونى». (١٠) فى أ: «وقال».

عند تلك الآية:[١]، فالله أعلم، وأن جميع ذلك مكتوب فى كتاب عند الله مبين عن جميع ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[الأنعام:٣٨]، وقوله[٢]: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩].

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٨)﴾.

يخبر تعالى عن قدرته على كل شىء، وأنه خلق السموات والأرض فى ستة أيام، وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن جامع بن شَدَّاد، عن صفوان بن مُحْرِزْ، عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «اقبلوا البشرى يابنى تميم». قالوا: قد بشرتنا فأعطنا. قال: «اقبلوا البشرى ياأهل اليمن». قالوا: قد قبلنا، فأخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان؟ قال: «كان الله قبل كل شىء، وكان عرشه على الماء، وكتب فى اللوح المحفوظ ذكر كل شىء». قال: فأتانى آت فقال: يا عمران، انحلت ناقتك من عقالها. قال: فخرجت فى إثرها، فلا أدرى ما كان بعدى[٣].

وهذا الحديث مخرج فى صحيحى البخارى ومسلم بألفاظ كثيرة[٤]؛ فمنها: قالوا: جئناك نسألك عن أول هذا الأمر فقال: «كان الله ولم يكن شىء قبله ـ وفى رواية: غيره ـ وفى رواية: معه ـ وكان عرشه على الماء، وكتب فى الذكر كلّ شىء، ثم خلق السموات والأرض».

وفى صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قدّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»[٥].

وقال البخارى فى تفسير هذه الآية: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، حدثنا أبو الزِّنَاد، عن الأعرج، عن أبى هريرة، رضى الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل: أَنفِق أُنفِقْ

(١) عند تفسير الآية: ٩٨ من سورة الأنعام.
(٢) فى ت، أ: «وقال تعالى».
(٣) المسند (٤/ ٤٣١).
(٤) صحيح البخارى برقم (٣١٩٠، ٣١٩١، ٤٣٦٥، ٤٣٨٦، ٧٤١٨) ولم أعثر عليه فى صحيح مسلم.
(٥) صحيح مسلم برقم (٢٦٥٣).

عليك». وقال: «يد الله ملأى لا يَغيضها نفقة، سحَّاءَ الليلَ والنهار» وقال «أفرأيتم [١] ما أنفق منذ خلق السماء والأرض، فإنه لم يَغض مافى يده، وكان عرشه على الماء، وبيده الميزان يخفض ويرفع»[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا حماد بن سلمة، عن يَعْلَى بن عَطَاء، عن وَكِيع بن عُدُس، عن عمه أبى رَزِين ـ واسمه لَقِيط بن عامر بن المنتفق [٣] العُقَيْلى ـ قال: قلت: يارسول الله، أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: «كان فى عَمَاء، ما تحته هواء وما فوقه هواء، ثم خلق العرش بعد ذلك».

وقد رواه الترمذى فى التفسير، وابن ماجه فى السنة من حديث يزيد بن هارون به [٤]. وقال الترمذى: هذا حديث حسن.

وقال مجاهد: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ قبل أن يخلق شيئا. وكذا قال وهب بن مُنَبِّه، وضمرة بن حبيب، وقاله قتادة، وابن جرير، وغير واحد.

وقال قتادة فى قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾: ينبئكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات والأرض.

وقال الربيع بن أنس: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾، فلما خلق السموات والأرض، قسم ذلك الماء قسمين، فجعل نصفاً تحت العرش، وهو البحر المسجور.

وقال ابن عباس: إنما سمى العرش عرشا لارتفاعه.

وقال إسماعيل بن أبى خالد، سمعت سعداً الطائى يقول: العرش ياقوتة حمراء.

وقال محمد بن إسحاق فى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾: فكان كما [٥]وصف نفسه تعالى، إذ ليس إلا الماء وعليه العرش، وعلى العرش ذو الجلال والإكرام، والعزة والسلطان، والملك والقدرة، والحلم والعلم، والرحمة والنعمة، الفعال لما يريد.

وقال الأعمش، عن المِنْهَال بن عمرو، عن سعيد بن جبير قال: سئل ابن عباس عن قول الله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾: على أى شىء كان الماء؟ قال: على متن الريح.

وقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾أى: خلق السموات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه وحده لا شريك له، ولم يخلق ذلك عبثا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ[٦] وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص:٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا

---

(١) فى ت، أ: «أرأيت».

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٦٨٤).

(٣) فى ت، أ: «المتفق».

(٤) المسند (٤/١١) وسنن الترمذى برقم (٣١٠٩) وسنن ابن ماجه برقم (١٨٢).

(٥) فى ت: «مما». (٦) فى أ: «السموات».

خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون . فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقوله: ﴿ليبلوكم﴾ أى: ليختبركم ﴿أيكم أحسن عملا﴾، ولم يقل: أكثر عملا، بل ﴿أحسن عملا﴾، ولا يكون العمل حسنا حتى يكون خالصا لله عز وجل، على شريعة رسول الله ﷺ. فمتى فقد العمل واحدا من هذين الشرطين بطل وحبط.

وقوله: ﴿ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾: يقول تعالى: ولئن أخبرت يامحمد هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم، مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذى خلق السموات والأرض، [كما قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض](١) وسخر الشمس والقمر ليقولن الله﴾ [العنكبوت: ٦١]، وهم مع هذا ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة، الذى هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداءة، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ [الروم: ٢٧]، وقال: تعالى: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾[لقمان: ٢٨] وقولهم(٢): ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾ أى: يقولون كفرا وعنادا مانصدقك(٣) على وقوع البعث، وما يذكر ذلك(٤) إلا من سحرته، فهو يتبعك على ماتقول.

وقوله: ﴿ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه﴾. يقول تعالى: ولئن أخرنا العذاب والمؤاخذة عن هؤلاء المشركين إلى أجل معدود وأمد محصور، وأوعدناهم به إلى مدة مضروبة، ليقولن تكذيبا واستعجالا: ﴿ما يحبسه﴾ أى: يؤخر هذا العذاب عنا، فإن سجاياهم قد ألفت التكذيب والشك، فلم يبق لهم محيص عنه ولا محيد.

و«الأمة» تستعمل فى القرآن والسنة فى معان متعددة، فيراد بها: الأمد، كقوله فى هذه الآية: ﴿إلى أمة معدودة﴾ وقوله فى [سورة](٥) يوسف: ﴿وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة﴾[يوسف: ٤٥]، وتستعمل فى الإمام المقتدى به، كقوله: ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين﴾ [النحل: ١٢٠]، وتستعمل فى الملة والدين، كقوله إخبارا عن المشركين أنهم قالوا: ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾[الزخرف: ٢٣]، وتستعمل فى الجماعة، كقوله: ﴿ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون﴾ [القصص: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾[النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون﴾[يونس: ٤٧].

والمراد من الأمة هاهنا: الذين يبعث فيهم الرسول(٦) مؤمنهم وكافرهم، كما [جاء](٧) فى

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى ت، أ: «وقوله». (٣) فى ت: «مايصدقك».
(٤) فى ت: «وماتذكره من ذلك». (٥) زيادة من أ. (٦) فى أ: «الرسل». (٧) زيادة من ت.

صحيح مسلم : «والذى نفسى بيده، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة، يهودى ولا نصرانى، ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار»[١].

وأما أمة الأتباع، فهم المصدقون للرسل، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وفى الصحيح: «فأقول: أمتى أمتى».

وتستعمل الأمة فى الفرقة والطائفة، كقوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١)﴾.

يخبر تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة، إلا من رحم الله من عباده المؤمنين، فإنه إذا أصابته شدة بعد نعمة، حصل له يأس [٢] وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل، وكفر وجحود لماضى الحال، كأنه لم ير خيرا، ولم يَرْجُ[٣] بعد تلك فرجا. وهكذا إن [٤] أصابته نعمة بعد نقمة ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ أى: يقول: ما بقى ينالنى بعد هذا ضَيْم ولا سوء، ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أى: فرح بما فى يده، بطر فخور على غيره. قال الله تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أى: فى الشدائد والمكاره، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: فى الرخاء والعاقبة، ﴿أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أى: بما يصيبهم من الضراء، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ بما أسلفوه فى زمن الرخاء، كما جاء فى الحديث: «والذى نفسى بيده، لا يصيب المؤمن هَمٌّ ولا غَمٌّ، ولا نَصَب ولا وَصَب، ولا حَزَن حتى الشوكة يشاكها، إلا كَفَّرَ اللهُ عنه بها من خطاياه[٥]»[٦]، وفى الصحيحين: «والذى نفسى بيده، لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له، إن أصابته سراء فشكر كان[٧] خيرا له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له، وليس ذلك لأحد غير المؤمن»[٨]، وهكذا قال الله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ . إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [سورة العصر]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا . إِلاَّ الْمُصَلِّينَ﴾ الآية [المعارج: ١٩ ـ ٢٢].

---

(١) صحيح مسلم برقم (١٥٣) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه.

(٢) فى ت: «إياس». (٣) فى ت، أ: «ولا يرجوا». (٤) فى ت: «إذا».

(٥) فى ت، أ: «ولا حزن إلا كفر الله بها من خطاياه حتى الشوكة يشاكها».

(٦) روى مسلم نحوه فى صحيحه من حديث أبى هريرة وأبى سعيد (٢٥٧٣) ومن حديث أبى هريرة وحده (٢٥٧٤).

(٧) فى ت: «فكان».

(٨) صحيح مسلم برقم (٢٩٩) بلفظ: «عجباً للمؤمن إن أمره كله خير» من حديث صهيب الرومى رضى الله عنه وليس فى صحيح البخارى.

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٤) ﴾.

يقول تعالى مسليًا لرسوله ﷺ، عما كان يتعنت به المشركون، فيما كانوا يقولونه عن الرسول ـ كما أخبر تعالى عنهم ـ: ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا . أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٧، ٨]. فأمر الله تعالى رسوله، صلوات الله تعالى وسلامه عليه، وأرشده إلى ألا يضيق بذلك منهم صَدْرُه، ولا يهيدنّه ذلك ولا يُثْنِيَنَّه عن دعائهم إلى الله عز وجل آناء الليل وأطراف النهار، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ . وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧ ـ ٩٩]، وقال هاهنا: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا﴾ أى: لقولهم ذلك، فإنما أنت نذير، ولك أسوة بإخوانك من الرسل قبلك، فإنهم كُذبُوا وأوذُوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله عز وجل.

ثم بين تعالى إعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر الإتيان بمثله، ولا بعشر سور [من][1] مثله، ولا بسورة من مثله؛ لأن كلام الرب لا يشبهه كلام المخلوقين، كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات[2]، وذاته لا يشبهها شيء، تعالى وتقدس وتنزه، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ أى: فإن لم يأتوا بمعارضة ما دعوتموهم[3] إليه، فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك، وأن هذا الكلام منزل من عند الله، متضمن[4] علمه وأمره ونهيه، ﴿وَأَن لاَّ[5] إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦) ﴾.

قال العوفى، عن ابن عباس، فى هذه الآية: إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم فى الدنيا، وذلك أنهم لا يظلمون نقيرا، يقول: من عمل صالحا التماس الدنيا، صوما أو صلاة أو تهجدا بالليل، لا

---

(١) زيادة من ت. (٢) فى ت، أ: «المخلوقين». (٣) فى ت، أ: «ما دعوتهم».
(٤) فى ت: «متضمنا». (٥) فى ت: «وأنه».

يعمله[١] إلا التماس الدنيا، يقول الله: أوفيه الذى التمس فى الدنيا من المثابة، وحبط عمله الذى كان يعمله التماس الدنيا، وهو فى الآخرة من الخاسرين.

وهكذا روى عن مجاهد، والضحاك، وغير واحد.

وقال أنس بن مالك، والحسن: نزلت فى اليهود والنصارى. وقال مجاهد وغيره: نزلت فى أهل الرياء[٢].

وقال قتادة: من كانت الدنيا همه وسَدَمه[٣] وطَلَبَته ونيته، جازاه الله بحسناته فى الدنيا، ثم يفضى إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء. وأما المؤمن فيجازى بحسناته فى الدنيا ويثاب عليها فى الآخرة.

وقد ورد فى الحديث المرفوع نحو من هذا[٤].

وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ[٥] لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا . كُلاًّ نُّمِدُّ هَٰؤُلاءِ وَهَٰؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا . انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ١٨ ـ ٢١]، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (١٧)﴾.

يخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى التى فطر عليها عباده، من الاعتراف له بأنه لا إله إلا هو، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]، وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدانه ويُنَصِّرانه ويُمَجِّسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جَمْعاء، هل تُحِسُّون فيها من جدعاء؟»[٦]. وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار، عن رسول الله ﷺ

(١) فى ت: «لا يعلمه». (٢) فى ت: «الربا». (٣) فى ت: «وشدته».

(٤) لعل الحافظ يقصد الحديث الذى رواه البزار والطبرانى من حديث أنس ولفظه: «من كانت الدنيا همته وسدمه، ولها شخص وإياها ينوى، جعل الله الفقر بين عينيه وشتت عليه ضيعته، ولم يأته منها إلا ما كتب له منها، ومن كانت الآخرة همته وسَدَمه، ولها شخص، وإياها ينوى، جعل الله عز وجل الغنى فى قلبه وجمع عليه ضيعته وأتته الدنيا وهى صاغرة». ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢٤٦٥) عن أنس بأخصر من هذا، ورواه ابن ماجه فى السنن عن زيد بن ثابت مرفوعاً بنحوه.

(٥) فى ت: «ما يشاء».

(٦) صحيح البخارى برقم (١٣٨٥) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٨).

قال: «يقول الله تعالى: إنى خلقت عبادى حُنَفَاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحَرَّمَتْ عليهم ما أحللت لهم»(١). وفى المسند والسنن: «كل مولود يولد على هذه الملة، حتى يُعرِب عنه لسانه»(٢) الحديث، فالمؤمن باق على هذه الفطرة.

[وقوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أى](٣): وجاءه شاهد من الله، وهو ما أوحاه إلى الأنبياء، من الشرائع المطهرَة المُكَمَّلَة المعظَّمة المُخْتَتَمَة بشريعة محمد، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. ولهذا قال ابن عباس، ومجاهد، وعكْرمة، وأبو العالية، والضحاك، وإبراهيم النَّخَعى، والسُّدِّى، وغير واحد فى قوله تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ إنه جبريل عليه السلام.

وعن على، والحسن، وقتادة: هو محمد ﷺ.

وكلاهما قريب فى المعنى؛ لأن كلا من جبريل ومحمد، صلوات الله عليهما، بلَّغ رسالة الله تعالى، فجبريل إلى محمد، ومحمد إلى الأمة(٤).

وقيل: هو علىّ. وهو ضعيف لا يثبت له قائل، والأول والثانى هو الحق؛ وذلك أن المؤمن عنده من الفطرة ما يشهد للشريعة من حيث الجملة، والتفاصيل تؤخذ من الشريعة، والفطرة تصدقها وتؤمن بها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ وهو القرآن، بلّغه جبريل إلى النبى [محمد](٥) ﷺ، وبلغه النبى محمد إلى أمته.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ﴾ أى: ومن قبل [هذا](٦) القرآن كتاب موسى، وهو التوراة، ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أى: أنزله الله تعالى إلى تلك الأمة إماما لهم، وقدوة(٧) يقتدون بها، ورحمة من الله بهم. فمن آمن بها حق الإيمان قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ .

ثم قال تعالى متوعدا لمن كذب بالقرآن أو بشىء منه: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ أى: ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض مشركيهم: أهل(٨) الكتاب وغيرهم، من سائر طوائف بنى آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم، ممن بلغه القرآن، كما قال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾. وفى صحيح مسلم، من حديث شعبة، عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن أبى موسى الأشعرى، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «والذى نفسى بيده، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى أو نصرانى، ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار»(٩).

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٨٦٥).

(٢) رواه الإمام أحمد فى المسند (٣/٣٥٣) من طريق أبى جعفر عن الربيع بن أنس عن الحسن عن جابر به.

(٣) زيادة من ت، أ. (٤) فى أ: «أمته». (٥) زيادة من ت، أ.

(٦) زيادة من أ. (٧) فى ت: «وقد». (٨) فى ت: «وأهل»

(٩) كذا، والحديث فى صحيح مسلم برقم (١٥٣) من حديث أبى هريرة، وإنما رواه بهذا السند الطبرى فى تفسيره (١٥/ ٢٨١) وأحمد فى مسنده (٤/٣٩٦) وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٨/ ٢٦١).

وقال أيوب السختيانى، عن سعيد بن جبير قال: كنت لا أسمع بحديث عن رسول الله ﷺ على وجهه إلا وجدت مصداقه ـ أو قال: تصديقه ـ فى القرآن، فبلغنى أن رسول الله ﷺ قال: «لا يسمع بى أحد من هذه الأمة، ولا يهودى ولا نصرانى، فلا يؤمن بى إلا دخل النار». فجعلت أقول: أين مصداقه فى كتاب الله؟ قال: وقلما سمعت عن رسول الله ﷺ إلا وجدت له تصديقا فى القرآن، حتى وجدت هذه الآية: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾، قال: «من الملل كلها»[١].

قوله: ﴿فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أى: القرآن حق من الله، لا مرية فيه ولا شك، كما قال تعالى: ﴿الم . تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿الم . ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ [هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ][٢]﴾ [البقرة: ١، ٢].

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠]

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَٰؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ (٢٢)﴾.

يبين تعالى حال المفترين عليه وفضيحتهم فى الدار الآخرة على رؤوس الخلائق؛ من الملائكة، والرسل، والأنبياء، وسائر البشر والجان، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا بَهْز وعفان قالا: أخبرنا هَمَّام، حدثنا قتادة، عن صفوان بن مُحْرِز قال: كنت آخذاً بيد ابن عمر، إذ عرض له رجل قال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى يوم القيامة؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ: يقول: «إن الله عز وجل يدنى المؤمن، فيضع عليه كنَفَه، ويستره من الناس، ويقرره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذنب كذا[٣]؟ أتعرف ذنب كذا[٤]؟ أتعرف ذنب كذا[٥]؟ حتى إذا قَرَّره بذنوبه، ورأى فى نفسه أنه قد هلك قال: فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا، وإنى أغفرها لك اليوم. ثم يعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول: ﴿الأَشْهَادُ هَٰؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ

---

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٥/ ٢٨٠).

(٢) زيادة من ت، أ.

(٣ ـ ٥) فى أ: «كذا وكذا».

﴿أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ .

أخرجه البخارى ومسلم فى الصحيحين، من حديث قتادة به[(١)].

وقوله: **﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾** أى: يردُّون الناسَ عن اتباع الحق وسلوك طريق[(٢)] الهدى الموصلة إلى الله عز وجل ويجنبوهم[(٣)] الجنة، **﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾** أى: ويريدون أن يكون طريقهم[(٤)] عوجا غير معتدلة، **﴿وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾** أى: جاحدون بها مكذبون بوقوعها وكونها.

﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أى: بل كانوا تحت قهره وغَلَبَته، وفى قبضته وسلطانه، وهو قادر على الانتقام منهم فى الدار الدنيا قبل الآخرة، ولكن **﴿يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾** [إبراهيم: ٤٢]، وفى الصحيحين: «إن الله ليُملى للظالم، حتى إذا أخذَه لم يُفْلته»[(٥)]؛ ولهذا قال تعالى: **﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾** أى: يضاعف عليهم العذاب، وذلك لأن الله تعالى جعل لهم سمعا وأبصارا وأفئدة، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم [من شىء][(٦)]، بل كانوا صُمًّا عن سماع الحق، عُميا عن اتباعه، كما أخبر تعالى عنهم حين دخولهم النار: **﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾** [الملك: ١٠]، وقال تعالى: **﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾** [النحل: ٨٨]؛ ولهذا يعذبون على كل أمر تركوه، وعلى كل نهى ارتكبوه؛ ولهذا كان أصحَّ الأقوال أنهم مكلفون بفروع الشرائع أمرها ونهيها بالنسبة إلى الدار الآخرة.

وقوله: **﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾** أى: خسروا أنفسهم لأنهم دخلوا[(٧)] نارا حامية، فهم معذبون فيها لا يُفَتَّر عنهم من عذابها طرفة عين، كما قال تعالى: **﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾** [الإسراء: ٩٧].

و**﴿ضَلَّ عَنْهُم ﴾** أى: ذهب عنهم **﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾** من دون الله من الأنداد والأصنام، فلم تُجْد عنهم شيئاً، بل ضرتهم كل الضرر، كما قال تعالى: **﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾** [الأحقاف: ٦]، وقال تعالى: **﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ[(٨)] عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾** [مريم: ٨١، ٨٢]، وقال الخليل لقومه: **﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ[(٩)] الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾** [العنكبوت: ٢٥]، وقال تعالى: **﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ**

---

(١) المسند (٢/ ٧٤) وصحيح البخارى برقم (٤٦٨٥) وصحيح مسلم برقم (١٧٦٨).

(٢) فى ت: «طرق». (٣) فى ت: «ويبحجة». (٤) فى ت، أ: «طريق الحق».

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٦٨٦) وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٣) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه.

(٦) زيادة من أ. (٧) فى ت: «أدخلوا». (٨) فى ت: «ويكونوا».

(٩) فى ت: «ويوم».

وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]؛ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على خسرهم[(١)] ودمارهم؛ ولهذا قال: ﴿لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾. يخبر تعالى عن حالهم أنهم أخسر الناس صفقة فى الدار الآخرة؛ لأنهم استبدلوا بالدركات عن الدرجات، واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آن، وعن شرب الرحيق المختوم، بَسمُوم وحميم، وظِلٍّ من يحموم، وعن الحور العين بطعام من غِسْلين، وعن القصور العالية بالهاوية، وعن قرب الرحمن، ورؤيته بغضب الديان وعقوبته، فلا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٢٤)﴾.

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثَنَّى بذكر السُّعَداء، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فآمنت قلوبهم وعَملت جوارحهم الأعمال الصالحة قولا وفعلا، من الإتيان بالطاعات وترك المنكرات، وبهذا ورثوا الجنات، المشتملة على الغرف العاليات، والسرر المصفوفات، والقطوف الدانيات، والفرش المرتفعات، والحسان الخيرات، والفواكه المتنوعات، والمآكل المشتهيات[(٢)]، والمشارب المستلذات، والنظر إلى خالق الأرض والسموات، وهم فى ذلك خالدون، لا يموتون ولا يهرمون ولا يمرضون، وينامون[(٣)] ولا يتغطَّون، ولا يبصقون ولا يتمخطون، إن هو إلا رَشْحُ مسك يعرقون.

ثم ضرب [الله][(٤)] تعالى مثل الكافرين والمؤمنين، فقال: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ أى: الذين وصفهم أولا بالشقاء والمؤمنين السُّعَداء، فأولئك كالأعمى والأصم، وهؤلاء كالبصير والسميع. فالكافر أعمى عن وجه الحق فى الدنيا، وفى الآخرة لا يهتدى إلى خير ولا يعرفه، أصم عن سماع الحجَج، فلا[(٥)] يسمع ما ينتفع به، ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وأما المؤمن ففَطِن ذكى لبيب، بصير الحق، يميز[(٦)] بينه وبين الباطل، فيتبعُ الخير ويترك الشر، سميع للحجة، يفرق بينها وبين الشبهة، فلا يَرُوج[(٧)] عليه باطل، فهل يستوى هذا وهذا.

﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تعتبرون وتفرقون بين هؤلاء وهؤلاء، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠] وقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ. وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ. وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ. وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ. إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ. إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ١٩ ـ ٢٤].

---

(١) فى ت، أ: «خسارهم».
(٢) فى ت: «المشهوات».
(٣) فى ت، أ: «لا ينامون».
(٤) زيادة من ت، أ.
(٥) فى ت، أ: «ولا».
(٦) فى ت: «مميز».
(٧) فى ت: «فلا يزوح».

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) ﴾.

يخبر تعالى عن نوح، عليه السلام، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين عَبَدة الأصنام أنه قال لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أى: ظاهر النِّذَارَة لكم من عذاب الله إن أنتم عبدتم غير الله؛ ولهذا قال: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾، وقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ أى إن استمررتم على ما أنتم عليه عذَّبكم الله عذابا أليما مُوجعاً شاقًا فى الدار الآخرة.

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾: والملأ هم: السادة والكبراء من الكافرين منهم: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ أى: لست بملك، ولكنك بشر، فكيف أوحى إليك من دوننا؟ ثم ما نراك[١] اتبعك إلا أراذلنا[٢] كالباعة والحاكة وأشباههم ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء [منا][٣]، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن تَرَوٍّ منهم ولا فكرة ولا نظر، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك[٤]؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ أى: فى أول بادئ الرأى، ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ يقولون: ما رأينا لكم علينا فضيلة فى خَلْق ولا خُلُق، ولا رزق ولا حال، لَمَّا دخلتم فى دينكم هذا، ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ أى: فيما تَدَّعونه[٥] لكم من البر والصلاح والعبادة، والسعادة فى الدار الآخرة إذا صرتم إليها.

هذا اعتراض الكافرين على نوح، عليه السلام، وأتباعه، وذلك دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم، فإنه ليس بعار على الحق رَذَالة من اتبعه، فإن الحق فى نفسه صحيح، وسواء اتبعه الأشراف أو الأراذل[٦]، بل الحق الذى لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف، ولو كانوا فقراء، والذين يأبونه هم الأراذل، ولو كانوا أغنياء. ثم الواقع غالبا أن ما يتبع الحق ضعفاء الناس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ[٧] إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبى ﷺ، قال له فيما قال: أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. فقال هرقل: هم أتباع الرسل.

وقولهم[٨]: «بادى الرأى» ليس بمذمة ولا عيب؛ لأن الحق إذا وضح لا يبقى للتروى[٩] ولا للفكر مجال، بل لابد من اتباع الحق والحالة هذه لكل ذى زكاء وذكاء، ولا يفكر وينزوى هاهنا إلا عَيِيّ أو غبى[١٠]. والرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، إنما جاؤوا بأمر جلى واضح. وقد

---

(١) فى ت، أ: «لا نراك». (٢) فى ت: «أرذلنا». (٣) زيادة من ت، أ.
(٤) فى ت، أ: «واتبعوك». (٥) فى ت: «تدعوهم»، وفى أ: «تدعونهم». (٦) فى ت، أ: «الأرذال».
(٧) فى ت: «من نبى». (٨) فى ت: «وقوله». (٩) فى ت: «للروى»، وفى أ: «للردى».
(١٠) فى ت، أ: «غنى».

جاء فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كَبْوَة، غير أبى بكر، فإنه لم يَتَلَعْثَم»[١] أى: ما تردد ولا تروَّى، لأنه رأى أمرا جليا عظيما واضحا، فبادر إليه وسارع.

وقولهم: ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ هم لا يرون ذلك؛ لأنهم عُمْى عن الحق، لا يسمعون ولا يبصرون: بل هم فى ريبهم يترددون، فى ظلمات الجهل يعمهون، وهم الأفاكون الكاذبون، الأقلون الأرذلون، وفى الآخرة هم الأخسرون.

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نوح ما ردَّ على قومه فى ذلك: ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أى: على يقين وأمر جلى، ونبوة صادقة، وهى الرحمة العظيمة من الله به وبهم، ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أى: خفيت عليكم، فلم تهتدوا إليها، ولا عرفتم قدرها، بل بادرتم إلى تكذيبها وردها، ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أى: نَغْضبكم[٢] بقبولها وأنتم لها كارهون.

﴿ وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣٠) ﴾.

يقول لقومه: لا أسألكم على نصحى [لكم][٣] مالا؛ أجرة آخذها منكم، إنما أبتغى الأجر من الله عز وجل، ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ، كأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه، احتشاما ونفاسة منهم أن يجلسوا معهم، كما سأل أمثالهم خاتم[٤] الرسل ﷺ أن يطرد عنهم[٥] جماعة من الضعفاء ويجلس معهم مجلسا خاصا، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢]، ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ الآيات [الأنعام: ٥٣].

﴿ وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١) ﴾.

---

(١) ذكره المؤلف فى البداية والنهاية (٣/ ٢٧) عن ابن إسحاق وهو منقطع.
(٢) فى ت: «نغصبكم».
(٣) زيادة من ت، أ.
(٤) فى ت: «الخاتم».
(٥) فى ت: «عنه».

يخبرهم أنه رسولٌ من الله، يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، بإذن الله له فى ذلك، ولا يسألهم على ذلك أجرا، بل هو يدعو من لقيه من شريف ووضيع، فمن استجاب له فقد نجا. ويخبرهم[١] أنه لا يَقدِر على التصرف فى خزائن الله، ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه، وليس هو بمَلَك من الملائكة، بل بشر مرسل، مؤيد بالمعجزات. ولا أقولُ عن هؤلاء الذين تحتقرونهم وتزدرونهم[٢]: إنه[٣] ليس لهم عند الله ثواب على إيمانهم الله أعلم بما فى أنفسهم، فإن كانوا مؤمنين باطناً، كما هو الظاهر من حالهم، فلهم جزاء الحسنى، ولو قطع لهم أحد بشر بعد ما آمنوا، لكان ظالما قائلا ما لا أعلم له به.

﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن استعجال قوم نوح نقمة الله وعذابه وسخطه، والبلاء موكل بالمنطق: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ أى: حاججتنا فأكثرت من ذلك، ونحن لا نتبعك ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ أى: من النقمة والعذاب، ادع علينا بما شئت، فليأتنا ما تدعو به[٤]، ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أى: إنما الذى يعاقبكم ويعجلها لكم الله الذى لا يُعجزُه شىء، ﴿وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ أي: أيّ شيء يُجدى عليكم إبلاغى لكم وإنذارى إياكم ونصحى، إن كان الله يريد إغواءكم ودماركم، ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أى: هو مالك أزمة الأمور، والمتصرف[٥] الحاكم العادل الذى لا يجور، له الخلق وله الأمر، وهو المبدئ المعيد، مالك الدنيا والآخرة.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) ﴾.

هذا كلام معترض فى وسط هذه القصة، مؤكد لها ومقرر بشأنها[٦]. يقول تعالى لمحمد[٧] ﷺ: أم يقول[٨] هؤلاء الكافرون الجاحدون: افترى هذا وافتعله من عنده ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ أى: فإثم ذلك على، ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ أى: ليس ذلك مفتعلا، ولا مفترى[٩]، لأنى أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه.

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا

---

(١) فى ت: «وتخبرهم». (٢) فى ت، أ: «يحتقرونهم ويزدرونهم». (٣) فى أ: «إنهم».
(٤) فى ت: «من تدعونه»، وفى أ: «بدعوته». (٥) فى ت: «المتصرف». (٦) فى ت: «لشأنها».
(٧) فى ت، أ: «لنبيه». (٨) فى ت: «أم يقولون». (٩) فى ت: «مفترياً».

يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩)﴾.

يخبر تعالى أنه أوحى إلى نُوح لما استعجل قومُه نقمة الله بهم وعذابه لهم، فدعا عليهم نوحُ دعوته التي قال الله تعالى[1] مخبراً عنه أنه قال: ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]، فعند ذلك أوحى الله تعالى إليه: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ﴾، فلا تحزن عليهم ولا يَهُمَّنك أمرهم.

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ يعنى: السفينة ﴿بأعيننا﴾ أى: بمرأىّ منا، ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أى: وتعليمنا لك ماذا تصنعه، ﴿وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾.

فقال بعض السلف: أمره الله تعالى أن يغرز[2] الخشب ويقطِّعه وييبسه، فكان ذلك فى مائة سنة، ونَجَرها فى مائة سنة أخرى، وقيل: فى أربعين سنة، فالله[3] أعلم.

وذكر محمد بن إسحاق عن التوراة: أن الله أمره أن يصنعها من خشب الساج، وأن يجعل طولها ثمانين ذراعا وعرضها خمسين ذراعا.

وأن يطلى باطنها وظاهرها بالقار، وأن يجعل لها جؤجؤا أزور يشق الماء. وقال قتادة: كان طولها ثلاثمائة ذراع، فى عرض خمسين.

وعن الحسن: طولها ستمائة ذراع وعرضها ثلاثمائة ذراع.

وعنه مع ابن عباس: طولها ألف ومائتا ذراع، فى عرض ستمائة.

وقيل: طولها ألفا ذراع، وعرضها مائة ذراع، فالله أعلم.

قالوا كلهم: وكان ارتفاعها فى السماء ثلاثين ذراعا، ثلاث طبقات، كل طبقة عشرة أذرع، فالسفلى للدواب والوحوش: والوسطى للإنس: والعليا للطيور. وكان بابها فى عرضها، ولها غطاء من فوقها مطبق عليها.

وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير أثرا غريبا، من حديث على بن زيد بن جُدْعَان، عن يوسف ابن مِهْران، عن عبد الله بن عباس؛ أنه قال: قال الحواريون لعيسى ابن مريم: لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة فحدّثنا عنها. قال: فانطلق بهم حتى أتى[4] إلى كَثِيب من تراب، فأخذ كفا من ذلك التراب بكفه، قال[5]: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا كعب[6] حام بن نوح. قال: وضرب الكثيب بعصاه، قال: قم بإذن الله فإذا هو قائم ينفُض التراب عن رأسه، قد شاب. قال له

---

(١) فى أ: «عز وجل». (٢) فى أ: «يغرس». (٣) فى ت: «والله».
(٤) فى ت، أ: «انتهى». (٥) فى أ: «فقال». (٦) فى أ: «قبر».

عيسى، عليه السلام: هكذا هلكت؟ قال: لا. ولكنى متّ وأنا شابّ، ولكننى ظننت أنها الساعة، فمن ثَمَّ شبت. قال: حدِّثنا عن سفينة نوح؟ قال: كان طولها ألف ذراع ومائتى[1] ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وكانت ثلاث طبقات، فطبقة فيها الدواب والوحش، وطبقة فيها الإنس، وطبقة فيها الطير، فلما كثر أرواث الدواب، أوحى الله عز وجل إلى نوح، عليه السلام، أن اغمز ذَنَب الفيل، فغمزه، فوقع منه خنزير وخنزيرة، فأقبلا على الروث، فلما وقع الفأر بخَرَز السفينة يقرضه وحبالها، أوحى إلى نوح؛ أن اضرب بين عينى الأسد، فخرج من منخره سنَّور وسنورة، فأقبلا على الفأر. فقال له عيسى، عليه السلام: كيف علم نوح أن البلاد قد غرقت؟ قال: بعث الغراب يأتيه بالخبر، فوجد جيفة فوقع عليها، فدعا عليه بالخوف، فلذلك لا يألف البيوت قال: ثم بعث الحمامة، فجاءت بورق زيتون بمنقارها، وطين برجليها، فعلم أن البلاد قد غَرِقت. قال: فطوّقَها الخضرة التى فى عنقها، ودعا لها أن تكون فى أنس وأمان، فمن ثم تألف البيوت. قال: فقلنا: يا رسول الله، ألا ننطلق به[2] إلى أهلينا فيجلس معنا ويحدثنا؟ قال: كيف يتبعكم من لا رزق له؟ قال: فقال له: عد بإذن الله، فعاد ترابا[3].

وقوله: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ أى: يَطْنِزُون به ويكذبون بما يتوعدهم به من الغرق، ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ. فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، وعيد شديد، وتهديد أكيد، ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أى: يهنه فى الدنيا، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أى: دائم مستمر أبدا.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (٤٠)﴾.

هذه مُواعدة من الله تعالى لنوح، عليه السلام، إذا جاء أمر الله من الأمطار المتتابعة، والهتَّان الذى لا يُقْلع ولا يَفتُر، بل هو كما قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ. وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ. وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ. تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١١ ـ ١٤].

وأما قوله: ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾، فعن ابن عباس: التنور: وجه الأرض، أى: صارت الأرض عيونا تفور، حتى فار الماء من التنانير التى هى مكان النار، صارت تفور ماء، وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف.

وعن على بن أبى طالب، رضى الله عنه: التنور: فَلَق الصبح، وتنوير الفجر، وهو ضياؤه وإشراقه.

---

(١) فى أ: «ومائتا». (٢) فى أ: «بنا».
(٣) تفسير الطبرى (١٥/ ٣١١).

والأول أظهر.

وقال مجاهد والشعبي: كان هذا التنور بالكوفة، وعن ابن عباس: عين بالهند. وعن قتادة: عين بالجزيرة، يقال لها: عين الوردة.

وهذه أقوال غريبة.

فحينئذ أمر الله نوحا، عليه السلام، أن يحمل معه فى السفينة من كل زوجين ـ من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح، قيل: وغيرها من النباتات ـ اثنين. ذكرا وأنثى، فقيل: كان أول من أدخل من الطيور الدرة، وآخر من أدخل من الحيوانات الحمار، فدخل إبليس متعلقاً بذنبه، فدخل بيده(١)، وجعل يريد أن ينهض فيثقله إبليس وهو متعلق بذنبه، فجعل يقول له نوح: مالك؟ ويحك. ادخل. فينهض ولا يقدر، فقال: ادخل وإن كان إبليس معك فدخلا فى السفينة.

وذكر أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود أنهم لم يستطيعوا أن يحملوا معهم الأسد، حتى ألقيت عليه الحمى.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبد الله بن صالح كاتب الليث، حدثنى الليث، حدثنى هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم. عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «لما حمل نوح فى السفينة من كل زوجين اثنين، قال أصحابه: وكيف يطمئن أو: تطمئن ـ المواشى ومعها(٢) الأسد؟ فسلط الله عليه الحمى، فكانت أول حُمَّى نزلت الأرض، ثم شكوا الفأرة فقالوا: الفُوَيسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا. فأوحى الله إلى الأسد، فعطس، فخرجت الهرة منه، فتخبأت الفأرة منها(٣).

وقوله: ﴿وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ أى: «واحمل فيها أهلك، وهم أهل بيته وقرابته» إلا من سبق عليه القول منهم، ممن لم يؤمن بالله، فكان منهم ابنه «يام» الذى انعزل وحده، وامرأة نوح وكانت كافرة بالله ورسوله.

وقوله: ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ أى: من قومك، ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ أى: نَزْر(٤) يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاما، فعن ابن عباس: كانوا ثمانين نفسا منهم(٥) نساؤهم. وعن كعب الأحبار: كانوا اثنين وسبعين نفسا. وقيل: كانوا عشرة. وقيل: إنما كانوا نوح وبنوه(٦) الثلاثة سام، وحام، ويافث، وكنائنه الأربع نساء هؤلاء الثلاثة وامرأة يام. وقيل: بل امرأةُ نوح كانت

---

(١) فى ت: «بيديه». (٢) فى ت: «ومعنا».

(٣) وهذا مرسل، وقد ورد فى سفينة نوح غير ما ذكره الحافظ وأكثرها من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. قال ابن حبان: «كان ممن يقلب الأخبار حتى كثر ذلك فى روايته من رفع المراسيل وإسناد الموقوف، فاستحق الترك». ومما رواه فى شأن سفينة نوح ما أورده ابن حجر فى التهذيب (٦/ ١٧٩) عن الساجى قال: حدثنا الربيع، حدثنا الشافعى قال: قيل لعبد الرحمن بن زيد: حدثك أبوك عن جدك أن رسول الله ﷺ قال: «إن سفينة نوح طافت بالبيت وصلت خلف المقام ركعتين؟!» قال: نعم. وقد ذكر رجل لمالك حديثاً منقطعاً، فقال: اذهب إلى عبد الرحمن بن زيد يحدثك عن أبيه عن نوح!!. وانظر كتاب: الإسرائيليات فى كتب التفسير لمحمد أبو شهبة (ص ٢١٨).

(٤) فى ت، أ: «نفر». (٥) فى أ: «معهم».

(٦) فى أ: «إنما كان وبنوه».

معهم فى السفينة، وهذا فيه نَظَرٌ، بل الظاهر أنَّها هلكت؛ لأنها كانت على دين قومها، فأصابها ما أصابهم، كما أصاب امرأة لوط ما أصاب قَومها، والله أعلم وأحكم.

﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) ﴾.

يقول تعالى إخباراً عن نوح، عليه السلام، أنه قال للذين أمر بحملهم معه فى السفينة: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ أى: باسم الله يكون جَرْيُها على وجه الماء، وباسم الله يكون منتهى سيرها، وهو رُسُوّها.

وقرأ أبو رجاء العَطاردى: «بِسْمِ الله مُجْرِيَها ومُرْسِيهَا».

وقال الله تعالى[1]: ﴿فَإِذَا[2] اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨، ٢٩]؛ ولهذا تستحب التسمية فى ابتداء الأمور: عند الركوب على السفينة وعلى الدابة، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ . لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢ ـ ١٤]، وجاءت السنة بالحث على ذلك، والندب إليه، كما سيأتى فى سورة «الزخرف»، إن شاء الله وبه الثقة.

وقال أبو القاسم الطبرانى: حدثنا إبراهيم بن هاشم البغوى، حدثنا محمد بن أبى بكر المقدمى ـ وحدثنا زكريا بن يحيى الساجى، حدثنا محمد بن موسى الحَرَشى ـ قالا: حدثنا عبد الحميد بن الحسن الهلالى، عن نَهْشَل بن سعيد، عن الضحاك، عن ابن عباس، عن النبى ﷺ قال: «أمان أمتي من الغرق إذا ركبوا فى السفن أن يقولوا: بسم الله الملك، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3]».

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، مناسب عند[4] ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين ذكْرُ أنه غفور رحيم، كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، إلى غير ذلك من الآيات التى

---

(١) فى أ: «عز وجل». (٢) فى ت، «وإذا» وهو خطأ.

(٣) المعجم الكبير (١٢/ ١٢٤) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٣٢): «فيه نهشل بن سعيد وهو متروك».

(٤) فى ت، أ: «عندما».

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، إلى غير ذلك من الآيات التى يقرن فيها بين انتقامه ورحمته.

وقوله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ أى: السفينة سائرة بهم على وجه الماء، الذى قد طَبَّق[1] جميع الأرض، حتى طفت[2] على رؤوس الجبال، وارتفع عليها بخمسة عشرة ذراعا، وقيل: بثمانين ميلا، وهذه السفينة على وجه الماء سائرة بإذن الله وتحت كَنَفه وعنايته[3]، وحراسته وامتنانه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ. لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ. تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ. وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٣ ـ ١٥].

وقوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ هذا هو الابن الرابع، واسمه «يام»، وكان كافرا، دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يؤمن ويركب معهم ولا يغرق مثل ما يغرق الكافرون، ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾. وقيل: إنه اتخذ له مركبا من زُجاج، وهذا من الإسرائيليات، والله أعلم بصحته. والذى نص عليه القرآن أنه قال: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾، اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رؤوس الجبال، وأنه لو تعلق فى رأس جبل لنجّاه ذلك من الغرق، فقال له أبوه نوح، عليه السلام: ﴿لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ﴾ أى: ليس شىء يعصِم اليوم من أمر الله. وقيل: إن عاصما بمعنى معصوم، كما يقال: «طاعم وكاس»، بمعنى مطعوم ومكسُوّ، ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾.

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) ﴾.

يخبر تعالى أنه لما غرق[4] أهل الأرض إلا أصحاب السفينة، أمر[5] الأرض أن تبلع ماءها الذى نبع منها واجتمع عليها، وأمر السماء أن تُقلعَ عن المطر، ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ أى: شَرَع فى النقص، ﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ أى: فُرِغَ من أهل الأرض قاطبة، ممن كفر بالله، لم يبق منهم ديّار، ﴿وَاسْتَوَتْ﴾ السفينة بمن فيها ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾. قال مجاهد: وهو جبل بالجزيرة، تشامخت الجبال يومئذ من الغرق وتطاولت، وتواضع هو لله عز وجل، فلم يغرق، وأرست عليه سفينة نوح عليه السلام.

وقال قتادة: استوت عليه شهرا حتى نزلوا منها، قال قتادة: قد أبقى[6] الله سفينة نوح، عليه السلام، على الجُودى من أرض الجزيرة عِبرة وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة، ، وكم من سفينة قد

(١) فى ت: «طبق به». (٢) فى أ: «طفف».
(٣) فى ت: «وغايته»، وفى أ: «ورعايته». (٤) فى ت، أ: «أغرق». (٥) فى ت، أ: «أنه أمر».
(٦) فى ت، أ: «أقفى».

كانت بعدها فهلكت، وصارت رماداً[١].

وقال الضحاك: الجُودىّ: جبل بالموصل: وقال بعضهم: هو الطور.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عمرو بن رافع، حدثنا محمد بن عبيد، عن توبة[٢] بن سالم قال: رأيت زِرّ بن حُبَيش يصلى فى الزاوية حين يُدخل من أبواب كِندة على يمينك، فسألته إنك لكثير[٣] الصلاة هاهنا يوم الجمعة:! قال: بلغنى أن سفينة نوح أرْسَتْ من هاهنا.

وقال عِلْباء بن أحمد، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس قال: كان مع نوح فى السفينة ثمانون رجلا، معهم أهلوهم، وإنهم كانوا فى السفينة مائة وخمسين يوما، وإن الله وجّه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يوما، ثم وجهها الله إلى الجُودِىّ فاستقرت عليه، فبعث نوح الغرابَ ليأتيه بخبر الأرض، فذهب فوقع على الجِيف فأبطأ عليه فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون، ولطخت رجليها بالطين، فعرف نوح، عليه السلام، أن الماء قد نضب، فهبط إلى أسفل الجُودِىّ، فابتنى قرية وسماها ثمانين، فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة، إحداها اللسان[٤] العربى. فكان بعضهم لا يفقه كلام بعض، وكان نوح عليه السلام يُعبّر عنهم.

وقال كعب الأحبار: إن السفينة طافت ما بين المشرق والمغرب قبل أن تستقر على الجودىّ.

وقال قتادة وغيره: ركبوا فى عاشر شهر رجب فساروا مائة وخمسين واستقرت بهم على الجودى شهراً، وكان خروجهم من السفينة فى يوم عاشوراء من المحرم. وقد ورد نحو هذا فى حديث مرفوع رواه ابن جرير[٥]. وأنهم صاموا يومهم ذاك[٦]، فالله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو جعفر، حدثنا عبد الصمد بن حبيب الأزدى، عن أبيه حَبِيب بن عبد الله، عن شُبَيل، عن أبى هريرة قال: مر النبى ﷺ بأناس من اليهود، وقد صاموا يوم عاشوراء، فقال: ما هذا الصوم؟ قالوا: هذا اليوم الذى نجى الله موسى وبنى إسرائيل من الغرق، وغرق فيه فرعون، وهذا يوم استوت[٧] فيه السفينة على الجُودِىّ، فصامه[٨] نوح وموسى، عليهما السلام، شكراً لله عز وجل. فقال النبى ﷺ: «أنا أحق بموسى، وأحق بصوم هذا اليوم». فصام، وقال لأصحابه: «من كان أصبح منكم صائما فليتم صومه، ومن كان أصاب من غَداء أهله، فليتم بقية يومه»[٩].

وهذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه، ولبعضه شاهدٌ فى الصحيح[١٠].

---

(١) فى ت: «مداداً».

(٢) فى ت، أ: «تربة». (٣) فى أ: «لتكثر». (٤) فى ت: «لسان».

(٥) تفسير الطبرى (١٥/ ٣٣٥) وهو موضوع.

(٦) فى أ: «ذلك». (٧) فى ت، أ: «استقرت». (٨) فى ت، أ: «فصام».

(٩) المسند (٢/ ٣٥٩).

(١٠) فى صحيح البخارى برقم (٤٦٨٠) من حديث عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال: قدم النبى ﷺ المدينة واليهود تصوم عاشوراء، فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون، فقال النبى ﷺ لأصحابه: «أنتم أحق بموسى منهم، فصوموا».

وقوله: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أى: هلاكاً وخسارا[١] لهم، وبعدا[٢] من رحمة الله، فإنهم قد هلكوا عن آخرهم، فلم يبق لهم بقية.

وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير والحبر أبو محمد بن أبى حاتم فى تفسيريهما[٣]، من حديث موسى بن يعقوب[٤] الزمعى، عن قائد ـ مولى عبيد الله بن أبى رافع ـ أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبى ربيعة أخبره: أن عائشة زوج النبى ﷺ أخبرته: أن النبى ﷺ قال: «لو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم أم الصبى»، قال رسول الله ﷺ: «كان نوح، عليه السلام، مكث فى قومه ألف سنة [إلا خمسين عاما][٥]، يعنى وغرس مائة سنة الشجر، فعظمت وذهبت كل مذهب، ثم قطعها، ثم جعلها سفينة ويمرون عليه ويسخرون منه ويقولون: تعمل[٦] سفينة فى البرّ، فكيف تجرى؟ قال: سوف تعلمون. فلما فرغ ونَبَع الماء، وصار فى السكك خشيت أمّ الصبى عليه، وكانت تحبه حبا شديداً، فخرجت إلى الجبل، حتى بلغت ثلثه[٧]، فلما بلغها الماء [ارتفعت حتى بلغت ثلثيه، فلما بلغها الماء][٨] خرجت به حتى استوت على الجبل، فلما بلغ رقبتها رفعته بيديها فغرقا فلو رحم الله منهم أحدا لرحم أم الصبى»[٩].

وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وقد روى عن كعب الأحبار، ومجاهد بن جبر قصةُ هذا الصبى وأمه بنحو من هذا.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧)﴾.

هذا سؤال استعلام وكشف من نوح، عليه السلام، عن حال ولده الذى غرق، ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أى: وقد وعدتنى بنجاة أهلى، ووعدُك الحق الذى لا يخلف، فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين؟ ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أى: الذين وعدت إنجاءهم[١٠]؛ لأنى[١١] إنما وعدتك[١٢] بنجاة من آمن من أهلك؛ ولهذا قال: ﴿وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾[هود: ٤٠]، فكان هذا الولد

(١) فى ت، أ: «هلاك وخسار». (٢) فى ت، أ: «وبعد». (٣) فى ت، أ: «تفسيرهما».
(٤) فى ت، أ: «يعقوب بن موسى». (٥) زيادة من الدر المنثور. مستفاد من ط. الشعب. (٦) فى ت: «يعمل».
(٧) فى ت، أ: «قتله». (٨) زيادة من الدر المنثور. مستفاد من ط. الشعب.
(٩) تفسير الطبرى (١٥/ ٣١٠) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٣٤٢) من طريق سعيد بن أبى مريم عن موسى بن يعقوب به نحوه، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وتعقبه الذهبى قلت: «إسناده مظلم وموسى بن يعقوب ليس بذاك».
(١٠) فى أ: «نجاتهم». (١١) فى ت: «الذين أى: ليس من أهلك وعدت بنجاتهم لأنما».
(١٢) فى ت، أ: «وعدناك».

ممن سَبَق عليه القول بالغرق لكفره ومخالفته أباه نبيّ الله نوحا، عليه السلام.

وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب فى تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه، وإنما كان ابن زِنْية[١]، ويحكى القول بأنه ليس بابنه، وإنما كان ابن امرأته عن مجاهد، والحسن، وعُبَيد بن عُمَير، وأبى جعفر الباقر، وابن جُرَيج، واحتج بعضهم بقوله: ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾، وبقوله: ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ [التحريم: ١٠]، فممن قاله الحسن البصرى، احتج بهاتين الآيتين. وبعضهم يقول: كان ابن امرأته. وهذا يحتمل[٢] أن يكون أراد ما أراد الحسن، أو أراد أنه نسب إليه مجازا، لكونه كان ربيباً عنده، فالله أعلم.

وقال ابن عباس، وغير واحد من السلف: ما زنت امرأة نبى قط، قال: وقوله: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ أى: الذين وعدتك نجاتهم[٣].

وقولُ ابن عباس فى هذا هو الحق الذى لا محيد عنه، فإن الله سبحانه[٤] أغير من أن يمكن[٥] امرأة نبى من الفاحشة[٦]، ولهذا غضب الله على الذين رمَوا أم المؤمنين عائشة بنتَ الصّديق زوجَ النبى ﷺ[٧]، وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا وأشاعوه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إلى قوله: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١١ ـ ١٥].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن قتادة وغيره، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس قال: هو ابنه غير أنه خالفه فى العمل والنية. قال عكرمة: فى بعض الحروف: «إنه عَمِل عملاً غير صالح»، والخيانة تكون على غير باب.

وقد ورد فى الحديث أن رسول الله قرأ بذلك، فقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن أسماء بنت يزيد قالت، سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: «إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ»، وسمعته يقول[٨]: ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ ولا يبالى ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣][٩].

وقال أحمد أيضا: حدثنا وَكِيع، حدثنا هارون النحوى، عن ثابت البُنَانى، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن أم سلمة أن رسول الله قرأها: «إنه عَمِل غَيْرَ صَالِحٍ»[١٠].

أعاده أحمد أيضاً فى مسنده[١١].

---

(١) فى ت، أ: «ليس منك إنما هو ولد زنية».
(٢) فى ت: «محتمل».
(٣) فى ت: «بنجاتهم».
(٤) فى ت: «تعالى».
(٥) فى ت: «يمكن من».
(٦) فى ت: «هذه الفاحشة».
(٧) فى أ: «زوج النبى ﷺ بالفاحشة».
(٨) فى ت: «يقرأ».
(٩) المسند (٦/ ٤٥٤).
(١٠) المسند (٦/ ٢٩٤).
(١١) المسند (٦/ ٣٢٢).

أم سلمة هى[١] أم المؤمنين، والظاهر ـ والله أعلم ـ أنها أسماء[٢] بنت يزيد، فإنها تكنى بذلك أيضا[٣].

وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا الثورى وابن عيينة، عن موسى بن أبى عائشة، عن سليمان بن قَتَّة قال: سمعت ابن عباس ـ سُئِل ـ وهو إلى جَنْب الكعبة ـ عن قول الله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠]، قال: أما وإنه لم يكن بالزنا، ولكن كانت هذه تخبر الناس أنه مجنون، وكانت هذه تدل على الأضياف. ثم قرأ: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾: قال ابن عيينة: وأخبرنى عمار الدُهْنى[٤] أنه سأل سعيد ابن جبير عن ذلك فقال: كان ابن نوح، إن الله لا يكذب! قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوح ابنه﴾، قال: وقال بعض العلماء: ما فجرت امرأة نبى قط[٥].

وكذا رُوى عن مجاهد أيضاً، وعكرمة، والضحاك، وميمون بن مِهْران وثابت بن الحجاج، وهو اختيار أبى جعفر بن جرير، وهو الصواب [الذى][٦] لا شك فيه.

[وقوله][٧]:

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) ﴾.

يخبر تعالى عما قيل لنوح، عليه السلام، حين أرست السفينة على الجوديّ، من السلام عليه، وعلى من معه من المؤمنين، وعلى كل مؤمن من ذريته إلى يوم القيامة، كما قال محمد بن كعب: دخل فى هذا السلام كلّ مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، وكذلك فى العذاب والمتاع كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة.

وقال محمد بن إسحاق: ولما أراد أن يكف[٨] الطوفان أرسل ريحا على وجه الأرض، فسكن الماء، وانسدت ينابيع الأرض الغمر الأكبر[٩] وأبواب السماء، يقول الله تعالى[١٠]: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي

---

(١) فى ت، أ: «هند». (٢) فى ت: «إنما هى أسماء».

(٣) قال الطبرى فى تفسيره (١٥/٣٤٨): «ولا نعلم هذه القراءة قرأ بها أحد من قرأة الأمصار إلا بعض المتأخرين، واعتل فى ذلك بخبر روى عن رسول الله ﷺ أنه قرأ ذلك كذلك، غير صحيح السند، وذلك حديث روى عن شهر بن حوشب، فمرة يقول: عن أم سلمة، ومرة يقول عن أسماء بنت يزيد. ،ولا نعلم أبنت يزيد يريد؟ ولا نعلم لشهر سماعاً يصح عن أم سلمة». وانظر: حاشية الأستاذ محمود شاكر عليه فقد أفاد وأجاد.

(٤) فى ت: «الذهبى».

(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (١٥/٣٤٣).

(٦) زيادة من ت، أ. (٧) زيادة من ت. (٨) فى ت: «يكف ذلك».

(٩) قال الأستاذ محمود شاكر فى حاشيته على الطبرى (١٥/٢٣٩): «هكذا فى المخطوطة والمطبوعة: «الغمر الأكبر». وأنا أرجح أنه خطأ محض، وأن الصواب: «الغوط الأكبر» وبهذا اللفظ رواه صاحب اللسان فى مادة (غوط)».

(١٠) فى ت، أ: «يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ».

مَاءَكِ [وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ](١)﴾ فجعل الماء ينقص ويَغيض ويُدْبِرُ، وكان استواء الفلك على الجودى، فيما يزعم أهل التوراة، فى الشهر السابع لسبع عشرة ليلة مضت منه، وفى أول يوم من الشهر العاشر، رُئى رؤوس الجبال. فلما مضى بعد ذلك أربعون يوماً، فتح نوح كُوّة الفُلْك التى ركب(٢) فيها، ثم أرسل الغرابَ لينظر له ما صنع الماء، فلم يرجع إليه. فأرسل الحمامة فرجعت إليه، لم تجد لرجيلها موضعا، فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها. ثم مضى(٣) سبعة أيام، ثم أرسلها لتنظر له، فرجعت حين أمست، وفى فيها ورَق زيتون(٤)، فعلم نوح أن الماء قد قَلّ عن وجه الأرض. ثم مكث سبعة أيام، فلم ترجع، فعلم نوح أن الأرض قد بَرَزَت، فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان إلى أن أرسل نوح الحمامة، ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنتين، برز وجه الأرض ،وظهر اليَبَس(٥)، وكشف نوح غطاء الفلك ورأى وجه الأرض، وفى الشهر الثانى من سنة اثنتين، فى سبع وعشرين ليلة منه ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا [وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ](٦)﴾ [إلى آخر](٧) الآية(٨).

﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩)﴾.

يقول تعالى لنبيه [ورسوله محمد](٩) ﷺ(١٠). هذه القص وأشباهها(١١) ﴿مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ﴾ يعنى: من أخبار الغيوب السالفة نوحيها إليك على وجهها [وجليتها](١٢)، كأنك شاهدها(١٣)، ﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾، أى: نعلمك بها وحيا(١٤) منا إليك، ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا﴾ أى: لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها، حتى يقول من يكذبك: إنك تعلمتها(١٥) منه، بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح، كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك، فاصبر على تكذيب من كذبك من قومك، وأذاهم لك، فإنا سننصرك(١٦) ونحوطك بعنايتنا، ونجعل العاقبة لك ولأتباعك فى الدنيا والآخرة، كما فعلنا [بإخوانك](١٧) بالمرسلين(١٨) حيث نصرناهم على أعدائهم، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا [فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ . يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ

---

(١) زيادة من ت، أ، وفى هـ: «الآية».
(٢) فى ت، أ: «صنع»
(٣) فى ت، أ: «مضت».
(٤) فى ت: «زيتونة».
(٥) فى ت:«النسر»، وفى أ: «البشر».
(٦) زيادة من ت، أ.
(٧) زيادة من ت، أ.
(٨) تفسير الطبرى (١٥/٣٣٨).
(٩) زيادة من ت، أ.
(١٠) فى أ: «صلوات الله وسلامه عليه»،
(١١) فى ت: «وما أشبهها».
(١٢) زيادة من ت، أ.
(١٣) فى ت: «مشاهد لها».
(١٤) فى ت: «بوحى».
(١٥) فى أ: «تعلمها».
(١٦) فى ت: «سنؤيدك: ونبصرك»، وفى أ: «فإنا سنؤيدك».
(١٧) زيادة من ت،أ.
(١٨) فى ت، أ: «من المرسلين».

اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّار]^(١)﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ . [وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ]^(٢)﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢)﴾.

يقول تعالى: ولقد أرسلنا، ﴿إِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ آمرا لهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ناهيا لهم^(٣) عن [عبادة]^(٤) الأوثان التى افتروها واختلقوا لها أسماء الآلهة، وأخبرهم أنه لا يريد منهم أجرة على هذا النصح والبلاغ من الله، إنما يبغى ثوابه [على ذلك وأجره]^(٥) من الله الذى فطره ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ من يدعوكم إلى ما يصلحكم فى الدنيا والآخرة من غير أجرة^(٦).

ثم أمرهم بالاستغفار الذى فيه تكفير الذنوب السالفة، وبالتوبة عما يستقبلون [من الأعمال السابقة]^(٧)، ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه، وسهل عليه أمره وحفظ [عليه]^(٨) شأنه [وقوته]^(٩)؛ ولهذا قال: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح: ١١]، و[كما جاء]^(١٠) وفى الحديث: «من لزم^(١١) الاستغفار جعل الله له من كل هَم فرجا، ومن كل ضيق مخرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب».

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦)﴾.

يخبر^(١٢) تعالى [إخباراً عن قوم هود]^(١٣) أنهم قالوا لنبيهم: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أى: بحجة [ولا دلالة]^(١٤) [ولا]^(١٥) وبرهان على ما تدعيه، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ أى: بمجرد قولك: «اتركوهم» نتركهم، ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [أى]^(١٦): بمصدقين، ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾، يقولون: ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخبَل فى عقلك بسبب نهيك عن

(١، ٢) زيادة من ت، أ، وفى هـ: «الآية». (٣) فى ت، أ: «ونهاهم». (٤، ٥) زيادة من ت، أ.
(٦) فى ت، أ: «من غير جعل ولا أجر». (٧ ـ ١٠) زيادة من ت، أ. (١١) فى ت، أ: «أكثر من».
(١٢) فى ت، أ: «يقول». (١٣ ـ ١٦) زيادة من ت، أ.

عبادتها وعيبك لها ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا﴾ ، [أى أنتم أيضا](١) ﴿أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ(٢) . مِن دُونِهِ﴾، يقول: إنى برىء من جميع الأنداد والأصنام، ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ أى: أنتم وآلهتكم إن كانت حقا، [ف ذروها تكيدنى](٣)، ﴿ثُمَّ لا تُنظِرُونِ﴾ أى: طرفة عين [واحدة](٤).

وقوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ أى: [هى](٥) تحت قهره وسلطانه، وهو الحاكم العادل الذى لا يجور فى حكمه، فإنه على صراط مستقيم.

قال الوليد بن مسلم، عن صفوان بن عمرو(٦)، عن أيفع بن عبد الكلاعى أنه قال فى قوله تعالى: ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ، قال: فيأخذ بنواصى عباده فيلقى المؤمن(٧) حتى يكون له(٨) أشفق من الوالد لولده(٩)، ويقال للكافر: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦].

وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التى لا تنفع ولا تضر، بل هى جَمَاد لا تسمع ولا تبصر، ولا تُوالى ولا تُعادى، وإنما يستحق إخلاص العبادة الله وحده لا شريك له، الذى بيده الملك، وله التصرف، وما من شىء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠) ﴾.

يقول لهم [رسولهم](١٠) هود: فإن تولوا عما جئتكم به من عبادة الله ربكم وحده لا شريك له، فقد قامت عليكم الحجة بإبلاغى إياكم رسالة الله التى بعثنى بها، ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي(١١) قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يعبدونه وحده لا يشركون به [شيئاً](١٢) ولا يبالى بكم: فإنكم لا تضرونه بكفركم بل(١٣) يعود وبَال ذلك عليكم، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أى: شاهد وحافظ لأقوال عباده وأفعالهم ويجزيهم(١٤) عليها إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

---

(١) زيادة من ت، أ.
(٢) فى ت: «تدعون» وهو خطأ.
(٣ ـ ٥) زيادة من ت، أ.
(٦) فى أ: «محرز».
(٧) فى ت: «للمؤمن».
(٨) فى ت: «لهم».
(٩) فى ت: «بولده».
(١٠) زيادة من ت، أ.
(١١) فى ت، أ: «الله» وهو خطأ.
(١٢) زيادة من ت،أ.
(١٣) فى ت، أ: «وكفركم وإنما».
(١٤) فى ت: «وتجزيهم».

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾، وهو [ما أرسل الله عليهم من][١] الريح العقيم [التي لا تمر بشيء إلا جعلته كالرميم][٢]، فأهلكهم الله عن آخرهم، ونجى [من بينهم رسولهم][٣] هودا وأتباعه [المؤمنين][٤] من عذاب غليظ برحمته تعالى ولطفه.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ [أي][٥]: كفروا بها، وعصَوا رسل الله، وذلك أن من كفر بنبي فقد كفر بجميع الأنبياء، لأنه لا فرق بين أحد منهم في وجوب الإيمان به، فعاد كفروا بهود، فنزل كفرهم [به][٦] منزلة من كفر بجميع الرسل، ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، تركوا اتباع رسولهم الرشيد، واتبعوا أمر كل جبار عنيد. فلهذا اتبعوا في هذه الدنيا لعنة من الله ومن عباده المؤمنين كلما ذكروا، وينادى عليهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد[٧]، ﴿أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ [أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ][٨]﴾.

قال السُّدِّي: ما بُعث نبي بعد عاد إلا لعنوا على لسانه.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١)﴾.

يقول تعالى: ولقد أرسلنا ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ وهم الذين كانوا يسكنون[٩] مدائن الحجر بين تبوك والمدينة، وكانوا بعد عاد، فبعث الله منهم[١٠] ﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾، فأمرهم[١١] بعبادة الله وحده [لا شريك له الخالق الرازق][١٢]؛ ولهذا قال: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أي: ابتدأ خلقكم منها، [من الأرض التي][١٣] خلق منها أباكم آدم، ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي: جعلكم [فيها][١٤] عُمَّارًا تعمرونها وتستغلونها، ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ لسالف ذنوبكم، ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ فيما تستقبلونه؛ ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ الآية [البقرة: ١٨٦].

﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣)﴾.

يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح، عليه السلام، وبين قومه، وما كان عليه قومه من الجهل والعناد في قولهم: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا﴾ أي: كنا نرجوك في عقلك قبل أن تقول ما

(١ ـ ٥) زيادة من ت، أ.
(٦) زيادة من أ.
(٧) في ت: «عليهم على رؤوس الخلائق يوم القيامة».
(٨) زيادة من ت، أ، وفي هـ: «الآية».
(٩) في ت: «يستكبرون».
(١٠) في ت، أ: «فيهم».
(١١) في أ: «فأمره».
(١٢) زيادة من أ
(١٣، ١٤) زيادة من ت، أ.

قلت! ﴿أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾، وما كان عليه أسلافنا، ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ أي: [في][1] شك كثير[2].

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾، فيما أرسلني به إليكم على يقين وبرهان [من الله][3]، ﴿وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾، وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده، فلو تركته[4] لما نفعتموني ولما زدتموني ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أي: خسارة».

﴿وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ (٦٨)﴾.

وتقدم الكلام على هذه القصة مستوفى في سورة «الأعراف»[5] بما أغنى عن إعادته هاهنا، وبالله التوفيق.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣)﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾، وهم الملائكة، إبراهيم بالبشرى، قيل: تبشره[6] بإسحاق، وقيل: بهلاك قوم لوط. ويشهد للأول قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤]، ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ أي: عليكم.

قال علماء[7] البيان: هذا أحسن مما حيّوه به؛ لأن الرفع يدل على الثبوت والدوام[8].

﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ أي: ذهب[9] سريعا، فأتاهم بالضيافة، وهو عجل: فتى البقر،

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) في ت، أ: «كبير». (٣) زيادة من ت، أ.
(٤) في ت، أ: «فلو تركت ذلك».
(٥) عند تفسير الآيات: ٧٣ ـ ٧٨.
(٦) في ت: «تبشيره». (٧) في ت: «علمنا». (٨) في ت، أ: «والاستقرار».
(٩) في ت: «فذهب».

حَنِيذ: [وهو][١] مَشْوى [شيأً ناضجاً][٢] على الرَّضْف، وهى الحجارة المُحْماة.

هذا معنى ما روى عن ابن عباس [ومجاهد][٣]، وقتادة [والضحاك، والسدى][٤]، وغير واحد، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ . فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٦، ٢٧].

وقد تضمنَّت هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة.

وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ تَنكرهم، ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾. وذلك أن الملائكة لاهمة لهم إلى الطعام ولا يشتهونه ولا يأكلونه؛ فلهذا رأى حالهم معرضين [٥] عما جاءهم به، فارغين عنه بالكلية فعند ذلك نكرهم، ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾.

قال السدّى: لما بعث الله الملائكة لقوم لوط[٦]، أقبلت تمشى فى صُور رجال شبان[٧]، حتى نزلوا على إبراهيم فتضيفوه، فلما رآهم [إبراهيم] [٨] أجلَّهم، ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾، فذبحه ثم شواه فى الرضف[٩]. [فهو الحنيذ حين شواه] [١٠] وأتاهم به فقعد معهم، وقامت سارة تخدمهم[١١]، فذلك حين يقول: «وامرأته قائمة وهو جالس» فى قراءة ابن مسعود: «فلما قَربه إليهم قال ألا تأكلون قالوا: يا إبراهيم إنا لا نأكل طعاما إلا بثمن. قال فإن لهذا ثمنا. قالوا[١٢]: وماثمنه؟ قال: تذكرون اسم الله على أوله، وتحمدونه على آخره فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال: حُق لهذا أن يتخذه ربه خليلا»، ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ يقول: فلما رآهم لا يأكلون فزع منهم، وأوجس منهم خيفة، فلما نظرت إليه [١٣] سارة أنه قد أكرمهم وقامت هى تخدمهم، ضحكت وقالت: عجبا لأضيافنا هؤلاء، [إنا] [١٤] نخدمهم بأنفسنا كرامة [١٥] لهم، وهم لا يأكلون طعامنا.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا نصر بن على، [حدثنا] [١٦] نوح بن قيس، عن عثمان بن مِحْصن فى ضيف إبراهيم قال: كانوا أربعة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ورفائيل. قال نوح بن قيس: فزعم نوح بن أبى شداد أنهم لما دخلوا على إبراهيم، فقرب إليهم العجل، مسحه جبريل بجناحه، فقام يدرج حتى لحق بأمه، وأم العجل فى الدار.

وقوله تعالى إخبارا عن الملائكة: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ [إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ . وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ][١٧]﴾ أى قالوا: لا تخف منا، إنا ملائكة أُرسلنا إلى قوم لوط لنهلكهم[١٨]. فضحكت[١٩] سارة استبشاراً [منها] [٢٠] بهلاكهم، لكثرة فسادهم، وغِلَظ كفرهم وعنادهم، فلهذا جوزيت بالبشارة

(١ ـ ٤) زيادة من ت، أ. (٥) فى ت، أ: «معرضاً». (٦) فى ت، أ: «الملائكة لمهلك قوم لوط».
(٧) فى ت، أ: «شباب». (٨) زيادة من ت، أ. (٩) فى ت: «الرصف».
(١٠) زيادة من ت، أ. (١١) فى ت، أ: «عليهم». (١٢) فى ت: «قال».
(١٣) فى ت: «إليهم». (١٤) زيادة من ت، أ. (١٥) فى ت: «تكرمة».
(١٦، ١٧) زيادة من ت، أ.
(١٨) فى ت: «إلى قوم لوط لندمر عليهم ونهلكهم كما ذكر فى الآية الأخرى».
(١٩) فى ت: «وضحكت». (٢٠) زيادة من ت، أ.

بالولد بعد الإياس.

وقال قتادة: ضحكت [امرأته] (١) وعجبت [من] (٢) أن قوما يأتيهم (٣) العذاب وهم فى غفلة [فضحكت من ذلك وعجبت فبشرناها بإسحاق](٤).

وقوله: ﴿ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوب ﴾: قال العوفى، عن ابن عباس: ﴿ فَضَحِكَت﴾ أى: حاضت.

وقول محمد بن قيس: إنها إنما ضحكت من أنها ظنت أنهم يريدون أن يعملوا كما يعمل قوم لوط، وقول الكلبى إنها إنما ضحكت لما رأت من الروع بإبراهيم ـ ضعيفان جدا، وإن كان ابن جرير قد رواهما بسنده إليهما، فلا يلتفت إلى ذلك، والله أعلم.

وقال وهب بن مُنَبِّه: إنما ضحكت لما بشرت بإسحاق. وهذا مخالف لهذا السياق، فإن البشارة صريحة مُرتبة على ضحكها.

﴿ فَبَشَّرْنَاهَا(٥) بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوب ﴾ أى: بولد لها يكون له ولد وعقب ونسل؛ فإن يعقوب ولد إسحاق، كما قال فى آية البقرة: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣].

ومن هاهنا استدل من استدل بهذه الآية، على أن الذبيح إنما هو إسماعيل، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق؛ لأنه وقعت البشارة به، وأنه سيولد له يعقوب، فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل(٦) صغير، ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده. ووعد الله حق لا خُلْفَ فيه، فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه، فتعين أن يكون هو إسماعيل وهذا من أحسن الاستدلال وأصحه وأبينه، ولله الحمد.

﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا [إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ](٧)﴾: حكى قولها فى هذه الآية، كما حكى فعلها فى الآية الأخرى، فإنها: ﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ ﴾، وفى الذاريات: ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيم ﴾[الذاريات: ٢٩]، كما جرت به عادة النساء فى أقوالهن وأفعالهن عند التعجب. ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾؟ أى: قالت الملائكة لها، لا تعجبى من أمر الله، فإنه إذا أراد شيئاً أن (٨) يقول له: «كن» فيكون، فلا تعجبى من هذا، وإن كنت عجوزا [كبيرة] (٩) عقيما، وبعلك [وهو زوجها الخليل عليه السلام، وإن كان] (١٠) شيخا كبيرا، فإن الله على ما يشاء قدير.

(١، ٢) زيادة من ت، أ.
(٣) فى ت: «أتاهم».
(٤) زيادة من ت.
(٥) فى ت: «فبشرت».
(٦) فى ت: «غلام».
(٧) زيادة من ت،أ، وفى هـ: «الآية».
(٨) فى ت: «إنما».
(٩، ١٠) زيادة من ت، أ.

﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ أى: هو الحميد فى جميع أفعاله وأقواله محمود، ممجد فى صفاته وذاته؛ ولهذا ثبت فى الصحيحين أنهم قالوا: قد علمنا السلام عليك، فكيف الصلاة عليك يارسول الله؟ قال: قولوا: «اللهم صَلِّ على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على [إبراهيم و][1] آل إبراهيم، إنك حميد مجيد»[2].

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) ﴾.

يخبر تعالى عن [خليله] [3] إبراهيم، عليه السلام، أنه لما ذهب عنه الروع، وهو ما أوْجَس من الملائكة خيفة، حين لم يأكلوا، وبشروه بعد ذلك بالولد[وطابت نفسه][4]، وأخبروه بهلاك قوم لوط، أخذ يقول كما قال [5] [عنه] [6] سعيد بن جبير فى الآية[7]، قال: لما جاءه جبريل ومن معه، قالوا له[8]: ﴿ إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ [إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ][9]﴾ [العنكبوت: ٣١]، قال لهم [إبراهيم][10]: أتأهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قالوا: لا. قال: أفتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن؟ قالوا: لا. قال: أفتهلكون قرية فيها أربعون مؤمنا؟ قالوا: لا. قال: ثلاثون؟ قالوا لا حتى بلغ خمسة قالوا: لا قال: أرأيتكم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا. فقال إبراهيم عليه السلام عند ذلك: ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ الآية [العنكبوت: ٣٢]، فسكت عنهم واطمأنت نفسه.

وقال قتادة وغيره قريبا من هذا ـ زاد ابن إسحاق: أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد؟ قالوا: لا. قال: فإن كان فيها لوط يدفع به عنهم العذاب، قالوا: ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا [لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ][11]﴾ [العنكبوت: ٣٢].

وقوله: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾، مدح[12] إبراهيم بهذه الصفات الجميلة، وقد تقدم تفسيرها [فى سورة براءة][13].

وقوله تعالى: ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ [وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ][14]﴾

(١) زيادة من ت، والبخارى.
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٧٩٧) وصحيح مسلم برقم (٤٠٦) من حديث كعب بن عجرة، رضى الله عنه.
(٣، ٤) زيادة من ت، أ. (٥) فى ت: «قاله». (٦) زيادة من ت.
(٧) فى ت، أ: «فى قوله: يجادلنا فى قوم لوط». (٨) فى أ: «فقالوا لإبراهم».
(٩) زيادة من ت، أ. (١٠) زيادة من ت. (١١) زيادة من ت، أ. وفى هـ: «الآية».
(١٢) فى ت، أ: «مدح له». (١٣) زيادة من ت، أ.
(١٤) زيادة من ت، أ، وفى هـ: «الآية».

أى: إنه قد نفذ فيهم القضاء، وحَقَّت عليهم الكلمة بالهلاك، وحلول اليأس الذى لا يُرد عن القوم المجرمين.

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) ﴾.

يخبر تعالى عن قُدوم رسله من الملائكة [١] بعد ما أعلموا [٢] إبراهيم بهلاكهم، وفارقوه وأخبروه بإهلاك الله قوم لوط هذه الليلة. فانطلقوا من عنده، فأتوا لوطا[٣]، عليه السلام، وهو ـ على ما [٤] قيل ـ فى أرض له [يعمرها][٥]، وقيل: [بل كان] [٦]فى منزله، ووردوا عليه وهم فى أجمل صورة تكون، على هيئة شبان [٧] حسان الوجوه، ابتلاء من الله [واختبارا][٨]، وله الحكمة والحجة البالغة، [فنزلوا عليه] [٩] فساء شأنهم وضاقت نفسه بسببهم، وخشى إن لم يُضِفْهم[١٠] أن يُضيفهم أحد من قومه، فينالهم بسوء، ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾.

قال ابن عباس [ومجاهد وقتادة ومحمد بن إسحاق][١١]، وغير واحد [من الأئمة] [١٢] شديد بلاؤه وذلك أنه علم أنه سيدافع [قومه] [١٣] عنهم، ويشق عليه ذلك.

وذكر قتادة أنهم أتوه وهو فى أرض له [يعمل فيها][١٤]، فتضيّفوه [١٥] فاستحيا منهم، فانطلق أمامهم وقال [١٦] لهم فى أثناء الطريق، كالمعرض لهم بأن ينصرفوا عنه: إنه والله ياهؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء. ثم مشى قليلا، ثم أعاد ذلك عليهم، حتى كرره أربع مرات قال قتادة: وقد كانوا أمروا ألا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك.

وقال السدى: خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية [١٧] لوط[١٨]، فبلغوا [١٩]نهر سدون نصف النهار، ولقوا بنت [٢٠] لوط تستقى[من الماء لأهلها وكانت له ابنتان اسم الكبرى رثيا والصغرى زغرتا][٢١]، فقالوا [لها][٢٢]: ياجارية، هل من منزل؟ فقالت [لهم][٢٣]: مكانكم حتى آتيكم، وفَرقت عليهم من قومها، فأتت أباها فقالت: ياأبتاه، أدرك فتيانا على باب المدينة، ما رأيت

---

(١) فى ت، أ: «من الملائكة الذين فارقوا إبراهيم الخليل عليه السلام بعد»
(٢) فى ت، أ: «أعلموه». (٣) فى ت: «فأتوا على لوط»، وفى أ: «فأتوا لوط». (٤) فى ت، أ: «وهو فيما».
(٥، ٦) زيادة من ت، أ. (٧) فى ت، أ: «شباب». (٨، ٩) زيادة من ت، أ.
(١٠) فى ت، أ: «يضيفهم». (١١ ـ ١٤) زيادة من ت، أ. (١٥) فى ت، أ: «فيضيفوه».
(١٦) فى ت، أ: «فقال». (١٧) فى ت: «قوم».
(١٨) فى ت، أ: «لوط فأتوها نصف النهار، فبلغوا».
(١٩) فى ت، أ: «فلما بلغوا». (٢٠) فى ت، أ: «ابنة». (٢١ ـ ٢٣) زيادة من ت،أ.

وجوه قوم [هى] (١) أحسن منهم، لا يأخذهم قومك فيفضحوهم، و[قد](٢) كان قومه نهوه أن يضيف رجلا، فقالوا: خل عنا فلْنُضِف (٣) الرجال. فجاء بهم، فلم يعلم بهم أحد إلا أهل بيته(٤)، فخرجت امرأته فأخبرت قومها [فقالت: إن فى بيت لوط رجالاً ما رأيت مثل وجوههم قط](٥)، فجاؤوا (٦) يهرعون إليه.

وقوله: ﴿ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أى: يسرعون ويهرولون [فى مشيتهم ويجمرون] (٧) من فرحهم بذلك [وروى فى هذا عن ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدى وقتادة وشمر بن عطية وسفيان بن عيينة](٨).

وقوله: ﴿ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ أى: لم يزل هذا من سجيتهم [إلى وقت آخر] (٩) حتى أخذوا وهم على ذلك الحال.

وقوله: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾: يرشدهم إلى نسائهم، فإن النبى للأمة بمنزلة الوالد[للرجال والنساء](١٠)، فأرشدهم إلى ماهو أنفع (١١) لهم فى الدنيا والآخرة، كما قال لهم فى الآية الأخرى: ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ . وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦]، وقوله فى الآية الأخرى: ﴿ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [الحجر: ٧٠] أى: ألم(١٢) ننهك عن ضيافة الرجال﴿ قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ . لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧١، ٧٢]، وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ قال (١٣) مجاهد: لم يكن بناته، ولكن كن من أمَّتِه، وكل نبى أبو أمَّتِه.

وكذا روى عن قتادة، وغير واحد.

وقال ابن جُرَيْج: أمرهم أن يتزوجوا النساء، لم يعرض عليهم سفاحا.

وقال سعيد بن جبير: يعنى نساءهم، هن بَنَاته، وهو أب لهم(١٤)، ويقال فى بعض القراءات(١٥): «النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم».

وكذا روى عن الربيع بن أنس، وقتادة، والسدى، ومحمد بن إسحاق، وغيرهم.

وقوله: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ﴾ أى: اقبلوا ما آمركم به من الاقتصار على نسائكم(١٦)، ﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ أى: [ليس منكم رجل](١٧): فيه خير، يقبل ما آمره به، ويترك ما أنهاه

(١، ٢) زيادة من ت،أ. (٣) فى ت، أ: «فلنضيف». (٤) فى ت، أ: «بيت لوط».
(٥) زيادة من ت، أ. (٦) فى ت، أ: «فجاءه قومه». (٧ ـ ١٠) زيادة من ت، أ.
(١١) فى ت: «الأنفع». (١٢) فى ت، أ:«أو لم». (١٣) فى ت، أ: «وقال».
(١٤) فى ت، أ: «هن بناته هو نبيهم». (١٥) فى ت، أ: «القراءة».
(١٦) فى ت، أ: «أى اقبلوا ما آمركم به من إتيانكم نساءكم واقتصاركم عليهن وترككم الفواحش من إتيان الذكران من العالمين».
(١٧) زيادة من ت ، أ.

عنه؟

﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أى: إنك تعلم [١] أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولانشتهيهن، ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ أى: ليس لنا غرض إلا فى الذكور، وأنت تعلم ذلك، فأى حاجة فى تكرار القول علينا فى ذلك؟

قال السدى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾: إنما نريد الرجال.

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط، عليه السلام: إن لوطا توعدهم بقوله[٢]: ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً [أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ][٣] ﴾ أى: لكنت نكلت بكم وفعلت بكم الأفاعيل[من العذاب والنقمة وإحلال البأس بكم][٤] بنفسى وعشيرتى، ولهذا ورد فى الحديث، من طريق محمد بن عمرو بن علقمة، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «رحمة الله على لوط، لقد كان يأوى إلى ركن شديد ـ يعنى: الله عز وجل ـ فما بعث الله بعده من نبى إلا فى ثروة من قومه»[٥].

[وروى من حديث الزهرى عن أبى سلمة وسعيد بن المسيب عن أبى هريرة مرفوعاً ومن حديث أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة به، ومن حديث ابن لهيعة عن أبى يونس سمع أبا هريرة به وأرسله الحسن وقتادة][٦].

فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم [٧]رُسُل الله إليه،و[وبشروه] [٨] أنهم لاوصول لهم إليه [ولا خلوص][٩]، ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾، وأمروه أن يسرى بأهله من آخر الليل، وأن يتَّبع أدبارهم، أى: يكون ساقة لأهله، ﴿ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أى: إذا سمعت [١٠] ما نزل بهم، ولاتهولنَّكم [١١] تلك الأصوات المزعجة، ولكن استمروا ذاهبين[كما أنتم][١٢].

﴿ إِلاَّ امْرَأَتَكَ ﴾: قال الأكثرون: هو استثناء من المثبت[١٣] ،وهو قوله: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾، تقديره: ﴿ إِلاَّ امْرَأَتَكَ ﴾ .وكذلك قرأها ابن مسعود ونصب هؤلاء امرأتك؛ لأنه من مثبت[١٤]،

---

(١) فى ت، أ: «التعلم». (٢) فى ت، أ: «عليه السلام إنه توعدهم بهذا الكلام وهو قوله».
(٣) زيادة من ت، أ، وفى هـ: «الآية». (٤) زيادة من ت، أ.
(٥) رواه الترمذى فى السنن برقم (٣١١٦) من طريق الفضل بن موسى عن محمد بن عمرو به، ورواه عن طريق عبدة وعبد الرحيم عن محمد بن عمرو ونحو حديث الفضل بن موسى، وقال الترمذى: «وهذا ـ أى الطريق الثانى ـ أصح من رواية الفضل بن موسى وهذا حديث حسن».
(٦) زيادة من ت، أ. (٧) فى ت: «بأنهم». (٨، ٩) زيادة من ت، أ.
(١٠) فى ت،أ: «إذا سمعتم». (١١) فى ت: «ولاتهيلنكم». (١٢) زيادة من ت، أ.
(١٣) فى ت: «من المبيت». (١٤) فى ت: «من مبيت».

فوجب نصبه عندهم.

وقال آخرون من القراء والنحاة: هو استثناء من قوله: ﴿ **وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ** ﴾، فجوّزوا الرفع والنصب، وذكر هؤلاء [وغيرهم من الإسرائيليات] [١] أنها خرجت معهم، وأنها لما سمعت الوَجْبَة التفتت وقالت [٢]: واقوماه. فجاءها حجر من السماء فقتلها [٣].

ثم قرّبوا له هلاك قومه تبشيراً له؛ لأنه قال لهم: «أهلكوهم الساعة»، فقالوا: ﴿ **إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ** ﴾، هذا وقومُ لُوطٍ وقُوف على الباب وعُكوف قد جاؤوا يُهرعون إليه من كل جانب، ولوط واقف على [٤] الباب يدافعهم ويردعهم وينهاهم عما هم فيه، وهم لايقبلون منه، بل يتوعدونه، فعند ذلك خرج عليهم جبريل، عليه السلام، فضرب وجوههم بجناحه، فطمس أعينهم، فرجعوا وهم لا يهتدون الطريق، كما قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ** .[**وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ . فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ**] [٥] ﴾ [القمر: ٣٧ ـ ٣٩].

وقال مَعْمَر، عن قتادة، عن حذيفة بن اليمان قال: كان إبراهيم، عليه السلام، يأتى [٦] قوم لوط، فيقول: أنَهاكم [٧] الله أن تَعَرّضوا لعقوبته؟ فلم يطيعوه، حتى إذا بلغ الكتاب أجله [لمحل عذابهم وسطوات الرب بهم قال] [٨]: انتهت الملائكة إلى لوط وهو يعمل فى أرض له، فدعاهم إلى الضيافة فقالوا: إنا ضيوفك [٩] الليلة، وكان الله قد عهد إلى جبريل ألا يُعذبهم حتى يشهد عليهم لوط ثلاث شَهادات فلما توجه بهم لوط إلى الضيافة، ذكر ما يعمل قومه من الشر [والدواهى العظام] [١٠]، فمشى معهم ساعة، ثم التفت إليهم فقال: أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية؟ ما أعلم على وجه الأرض شرا منهم. أين أذهب بكم؟ إلى قومى وهم [من] [١١] أشر خلق الله، فالتفت جبريل إلى الملائكة فقال: احفظوها [١٢]، هذه واحدة. ثم مشى معهم ساعة، فلما توسط القرية وأشفق عليهم واستحيا منهم قال: أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية؟ ما أعلم على وجه الأرض أشر منهم، إن قومى أشر خلق الله. فالتفت جبريل إلى الملائكة فقال: احفظوا، هاتان اثنتان، فلما انتهى إلى باب الدار بكى حياء منهم وشفقة عليهم فقال [١٣]: إن قومى أشر من خلق الله؟ أما تعلمون مايعمل أهل هذه القرية؟ ما أعلم على وجه الأرض أهل قرية شراً [١٤] منهم. فقال جبريل للملائكة: احفظوا، هذه ثلاث، قد حق العذاب. فلما دخلوا ذهبت عجوز السوء فصعدت فلوّحت بثوبها، فأتاها الفساق يُهرَعون سراعا، قالوا: ماعندك؟ قالت: ضَيَّف لوطاً قوم [١٥]، ما رأيت قط أحسن وجوها منهم، ولا أطيب ريحاً منهم. فهُرعوا يسارعون إلى الباب، فعالجهم لوط على الباب، فدافعوه طويلا، هو داخل وهم خارج، يناشدهم الله ويقول: ﴿ **هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ** ﴾ فقام

(١) زيادة من ت، أ.
(٢) فى ت: «فقالت».
(٣) فى ت: «فقتلتها».
(٤) فى ت، أ: «فى».
(٥) زيادة من ت، أ، وفى هـ: «الآية».
(٦) فى ت، أ: «يأتيهم يعنى».
(٧) فى ت، أ: «أنهاكم الله عن».
(٨) زيادة من ت، أ، والطبرى.
(٩) فى ت؛ «مضيفوك».
(١٠، ١١) زيادة، ت، أ.
(١٢) فى ت، أ: «احفظوا».
(١٣) فى ت: «وقال».
(١٤) فى ت، أ: «أشر».
(١٥) فى ت، أ: «الليلة».

الملك فَلَزّ[١] بالباب ـ يقول: فسده [٢]ـ واستأذن جبريل فى عقوبتهم، فأذن الله له، فقام فى الصورة التى يكون فيها فى السماء، فنشر جناحه. ولجبريل جناحان، وعليه وشاح من درّ منظوم، وهو براق الثنايا، أجلى الجبين، ورأسه حُبُكٌ حُبُك مثل المرجان وهو اللؤلؤ، كأنه الثلج، ورجلاه إلى الخضرة. فقال يا لوط: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾، امض يا لوط عن الباب ودعنى وإياهم، فتنحى لوط عن الباب، فخرج إليهم، فنشر جناحه، فضرب به وجوههم ضربة شدخ أعينهم، فصاروا عُمْيًا لا يعرفون الطريق [ولا يهتدون بيوتهم][٣] ثم أمر لوط فاحتمل بأهله فى ليلته قال: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾[٤].

وروى عن محمد بن كعب [القرظى][٥]، وقتادة، والسدى نحو هذا.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)﴾.

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وكان ذلك عند طلوع الشمس، ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا﴾، وهى [قريتهم العظيمة وهى][٦] سَدُوم [ومعاملتها][٧] ﴿سَافِلَهَا﴾ كقوله[٨]: ﴿[وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ][٩]. فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم: ٥٣، ٥٤] أى: أمطرنا[١٠] عليها حجارة من «سجيل»، وهى بالفارسية: حجارة من طين، قاله ابن عباس وغيره.

وقال بعضهم: أى من «سنك» وهو الحجر، و«كل»[١١] وهو الطين، وقد قال فى الآية الأخرى: ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣] أى: مستحجرة قوية شديدة. وقال بعضهم: مشوية، [وقال بعضهم: مطبوخة قوية صلبة][١٢]، وقال البخارى. «سِجيل»: الشديد الكبير. سجيل وسجين واحد، اللام والنون أختان، وقال تميم بن مُقبِل:

وَرَجْلَةٍ يَضْرِبُون البَيْضَ ضَاحِيَةً ... ضَرْباً تواصَت به الأبطال[١٣] سِجّينا[١٤]

وقوله: ﴿مَّنضُودٍ﴾: قال بعضهم: منضودة فى السماء، أى: معدة لذلك.

وقال آخرون: ﴿مَّنضُودٍ﴾ أى: يتبع بعضها بعضا فى نزولها عليهم.

وقوله: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أى مُعْلَمَة مختومة، عليها أسماء أصحابها، كل حجر مكتوب عليه اسم الذى ينزل عليه.

---

(١) فى أ: «فكن».
(٢) فى ت: «فشده»، وفى أ: «نسده».
(٣) زيادة من ت، أ، والطبرى.
(٤) رواه الطبرى فى تفسيره (١٥/ ٤٢٩).
(٥ ـ ٧) زيادة من ت، أ.
(٨) فى ت: «كما قال تعالى».
(٩) زيادة من ت، أ.
(١٠) فى ت، أ: «أمطر».
(١١) فى ت: «وحل»، وفى أ: «وجيل».
(١٢) زيادة من ت، أ.
(١٣) فى أ: «الأباطل».
(١٤) صحيح البخارى (٨/ ٣٥٢) «فتح».

وقال قتادة وعِكْرِمة: ﴿ مُسَوَّمَةً ﴾ [أى][1]: مُطَوّقة، بها نَضْحٌ من حُمّرةٍ.

وذكروا أنها نزلت على أهل البلد، وعلى المتفرقين فى القرى مما حولها، فبينا أحدهم يكون عند[2] الناس يتحدّث، إذ جاءه حجر من السماء فسقط عليه من بين الناس، فدمّره، فتتبعهم[3] الحجارة من سائر البلاد، حتى أهلكتهم عن آخرهم فلم يبق منهم أحد.

وقال مجاهد: أخذ جبريلُ قوم لوط من سَرْحهم ودورهم، حملهم بمواشيهم وأمتعتهم، ورفعهم حتى سمع أهل السماء نُباح كلابهم ثم أكفأهم[4] [وقال][5] وكان حملهم على خوافى[6] جناحه الأيمن. قال: ولما قلبها كان أول ما سقط منها شُذانها[7].

وقال قتادة: بلغنا أن جبريل أخذ بعروة[8] القرية الوسطى، ثم ألوَى بها إلى جو السماء، حتى سمع أهل السماء[9] ضواغى كلابهم، ثم دمر بعضها على بعض، ثم اتبع شُذّاذ القوم سُخْراً[10] ـ قال: وذكر لنا أنهم كانوا أربع قرى، فى كل قرية مائة ألف ـ وفى رواية: [كانوا][11] ثلاث قرى، الكبرى منها سدوم. قال: وبلغنا أن إبراهيم، عليه السلام، كان يشرف على سَدُوم، ويقول: سدوم، يومٌ، مالَك؟.

وفى رواية عن قتادة وغيره: بلغنا أن جبريل، عليه السلام، لما أصبح نشر جناحه، فانتسف به أرضهم بما فيها من قُصُورها ودوابها وحجارتها وشجرها، وجميع ما فيها، فضمها فى جناحه، فحواها وطواها فى جوف جناحه، ثم صعد بها إلى السماء الدنيا، حتى سمع سكان السماء أصوات الناس والكلاب، وكانوا أربعة آلاف ألف، ثم قلبها، فأرسلها إلى الأرض منكوسة، وَدَمْدَم بعضها على بعض، فجعل عاليها سافلها، ثم أتبعها حجارة من سجيل.

وقال محمد بن كعب القُرَظى: كانت قرى قوم لوط خمس قريات: «سدوم»، وهى العظمى، و«صعبة»[12] و«صعوة» و«عثرة»[13]، و«دوما»، احتملها جبريل بجناحه، ثم صعد بها، حتى إنّ أهل السماء الدنيا ليسمعون نابحة كلابها، وأصوات دجاجها، ثم كفأها على وجهها، ثم أتبعها الله بالحجارة، يقول الله تعالى: ﴿ **جَعَلْنَا**[14] **عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيل** ﴾، فأهلكها الله وما حولها من المؤتفكات.

وقال السدى: لما أصبح قوم لوط، نزل جبريل فاقتلع الأرض من سبع أرضين، فحملها حتى بلغ بها السماء، حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم، وأصوات ديوكهم، ثم قلبها فقتلهم، فذلك

---

(١) زيادة من ت، أ.
(٢) فى ت، أ: «بين».
(٣) فى ت: «فيتبعهم».
(٤) فى ت، أ: «أكفاها».
(٥) زيادة من ت.
(٦) فى ت، أ: «حوافى».
(٧) فى ت: «شرفاتها».
(٨) فى ت: «بعزوة».
(٩) فى ت، أ: «سمع الملائكة».
(١٠) فى ت، أ: «صخراً».
(١١) زيادة من ت، أ.
(١٢) فى ت، أ: «صبعة».
(١٣) فى ت، أ: «وعمرة».
(١٤) فى ت، أ: «فجعلنا».

قوله[١]: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ [النجم: ٥٣]، ومن لم يمت حين سقط للأرض، أمطر الله عليه وهو تحت الأرض الحجارة، ومن كان منهم شاذا فى الأرض يتبعهم فى القرى، فكان الرجل يتحدث فيأتيه الحجر فيقتله، فذلك قوله[٢] عز وجل: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم﴾ أى: فى القرى حجارة من سجيل. هكذا قال السدى.

وقوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيد﴾ أى: وما هذه النقمة ممن تَشَبَّه بهم فى ظلمهم، ببعيد[٣] عنه.

وقد ورد فى الحديث المروى فى السنن[٤]، عن ابن عباس مرفوعاً[٥]: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به»[٦].

وذهب الإمام الشافعى فى قول عنه وجماعة من العلماء إلى أن اللائط يقتل، سواء كان محصناً أو غير[٧] محصن، عملا بهذا الحديث.

وذهب الإمام أبو حنيفة [رحمه الله إلى][٨] أنه يلقى من شاهق، ويُتبَع بالحجارة، كما فعل الله بقوم لوط، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) ﴾.

يقول تعالى: ولقد أرسلنا إلى مدين ـ وهم قبيلة من العرب، كانوا يسكنون بين الحجاز والشام، قريباً من بلاد معان، فى بلد يعرف بهم، يقال لها «مدين» فأرسل الله إليهم شعيبا، وكان من أشرفهم[٩] نسباً. ولهذا قال: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده، وينهاهم عن التطفيف[١٠] فى المكيال والميزان ﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عظيم﴾ أى: فى معيشتكم ورزقكم فأخاف أن تُسلَبوا ما أنتم فيه بانتهاككم محارم الله، ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ[١١]﴾ أى: فى الدار الآخرة.

---

(١) فى ت، أ: «فذلك حين يقول». (٢) فى ت، أ: «قول الله». (٣) فى ت: «ببعد».
(٤) فى ت، أ: «فى السنن من حديث عمرو بن أبى عمرو عن عكرمة». (٥) فى ت، أ: «عن رسول الله ﷺ أنه قال».
(٦) سنن أبى داود برقم (٤٤٦٢) وسنن الترمذى برقم (١٤٥٦) وسنن ابن ماجة برقم (٢٥٦١)، وقال الترمذى: «وإنما يعرف هذا الحديث عن ابن عباس عن النبى ﷺ من هذا الوجه، وروى محمد بن إسحاق هذا الحديث عن عمرو بن أبى عمرو فقال: «ملعون من عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط» ولم يذكر فيه القتل وذكر فيه: «ملعون من أتى بهيمة».
(٧) فى ت، أ: «أو لم يكن محصناً». (٨) زيادة من ت، أ. (٩) فى ت، أ: «أشرافهم».
(١٠) فى أ: «الطفيف». (١١) فى ت: «عظيم».

﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) ﴾.

ينهاهم[1] أولا عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط آخذين ومعطين، ونهاهم عن العيث[2] فى الأرض بالفساد، وقد كانوا يقطعون الطريق.

وقوله: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: قال ابن عباس: رزق الله خير لكم.

وقال الحسن: رزق الله خير [لكم][3] من بخسكم الناس.

وقال الربيع بن أنس: وصية الله خير لكم.

وقال مجاهد: طاعة الله [خير لكم][4].

وقال قتادة: حظكم من الله خير لكم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «الهلاك» فى العذاب، و«البقية» فى الرحمة.

وقال أبو جعفر بن جرير: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أى: ما يفضُل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أى: من أخذ أموال الناس قال: وقد روى هذا عن ابن عباس.

قلت: ويشبه قوله تعالى: ﴿قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠].

وقوله: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أى: برقيب ولا حفيظ، أى: افعلوا ذلك لله عز وجل. لا تفعلوه[5] ليراكم الناس، بل لله عز وجل.

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) ﴾.

يقولون له على سبيل التهكم، قبَّحهم الله: ﴿أَصَلاتُكَ﴾[6]، قال الأعمش: أى: قرآنك[7]، ﴿تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أى: الأوثان والأصنام، ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾، فنترك التطفيف[8] على قولك، هى أموالنا نفعل فيها ما نريد.

[قال الحسن][9] فى قوله: ﴿أَصَلاتُكَ[10] تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾: إىْ والله، إن صلاته

---

(١) فى ت، أ: «نهاهم».
(٢) فى ت: «العيب».
(٣، ٤) زيادة من ت، أ.
(٥) فى ت: «لا تفعلوا».
(٦) فى ت: «أصلواتك».
(٧) فى أ: «قراءتك».
(٨) فى أ: «الطفيف».
(٩) زيادة من ت، أ.
(١٠) فى ت: «أصلواتك».

لتأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم.

وقال الثورى فى قوله: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾: يعنون الزكاة.

وقولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾: قال ابن عباس، وميمون بن مِهْرَان، وابن جُرَيْج، وابن أسلم، وابن جرير: يقولون ذلك ـ أعداء الله ـ على سبيل الاستهزاء، قبحهم الله ولعنهم عن رحمته، وقَد فَعَلْ.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨)﴾.

يقول لهم أرأيتم يا قوم ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أى: على بصيرة فيما أدعو إليه، ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾، قيل: أراد النبوة. وقيل: أراد الرزق الحلال، ويحتمل الأمرين.

وقال الثورى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ أى: لا أنهاكم عن شىء[(١)] وأخالف أنا فى السر فأفعله خفية[(٢)] عنكم، كما قال قتادة فى قوله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾، يقول: لم أكن لأنهاكم عن أمر وأركَبَه[(٣)]، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ أى: فيما آمركم وأنهاكم، إنما مرادى إصلاحكم جهدى وطاقتى، ﴿وَمَا تَوْفِيقِي﴾ أى: فى إصابة الحق فيما أريده ﴿إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فى جميع أمورى، ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أى: أرجع، قاله مجاهد وغيره.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا أبو قَزْعَةَ سُوَيد بن حُجَير[(٤)] الباهلى، عن حكيم بن معاوية، عن أبيه: أن أخاه مالكاً قال: يا معاوية، إن محمداً أخذ جيرانى، فانطَلَق إليه، فإنه قد كلمك وعرفك، فانطلقت معه فقال: دع لى جيرانى، فقد كانوا أسلموا. فأعرض عنه. [فقام متَمَعِّطاً][(٥)]، فقال: أما والله لئن فَعلتَ إن الناس يزعمون أنك تأمر بالأمر وتخالف إلى غيره. وجعلت أجرّه وهو يتكلم، فقال رسول الله ﷺ «ما تقول؟» فقال: إنك والله لئن فعلت ذلك، إن الناس ليزعمون أنك لتأمر بالأمر وتخالف إلى غيره. قال: فقال: «أوَ قد قالوها ـ أو: قائلهم ـ ولئن فعلت ذلك ما ذاك إلا علىّ، وما عليهم من ذلك من شىء، أرسلوا له جيرانه»[(٦)].

وقال أحمد أيضاً: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن بَهْز[(٧)] بن حكيم، عن أبيه، عن جده

---

(١) فى ت، أ: «الشىء».
(٢) فى ت: «خيفة».
(٣) فى أ: «وأرتكبه».
(٤) فى ت: «ابن حجر».
(٥) زيادة من ت، أ، والمسند.
(٦) المسند (٤/٤٤٧).
(٧) فى ت، أ: «شهر».

قال: أخذ النبى ﷺ ناساً من قومى فى تُهَمة فحبسهم، فجاء رجل من قومى إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب، فقال: يا محمد، علام تحبس جيرتى؟ فصَمت رسول الله ﷺ [عنه][(١)] فقال: إن ناساً ليقولون: إنك تنهى عن الشىء وتستخلى به، فقال النبى ﷺ: «ما يقول؟» قال: فجعلت أعرض بينهما الكلام مخافة أن يسمعها فيدعو على قومى دَعوة لا يفلحون بعدها أبداً، فلم يزل رسول الله ﷺ به حتى فهمها، فقال: «أو قد قالوها ـ أو: قائلها منهم ـ والله لو فعلتُ لكان علىّ وما كان عليهم، خلوا له عن جيرانه»[(٢)].

ومن هذا القبيل الحديث الذى رواه الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا سليمان بن بلال، عن ربيعة بن أبى عبد الرحمن، عن عبد الملك بن سعيد بن سويد الأنصارى قال: سمعت أبا حميد وأبا أسيد يقولان: قال رسول الله ﷺ: «إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم، وتلين له أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم قريب، فأنا أولاكم به، وإذا سمعتم الحديث عنى تُنكره قلوبكم، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم بعيد فأنا أبعدكم منه»[(٣)].

هذا [(٤)] إسناد صحيح، وقد أخرج مسلم بهذا السند حديث: «إذا دخل أحدكم المسجد فليقل: اللهم، افتح لى أبواب رحمتك وإذا خرج فليقل: اللهم، إنى أسألك من فضلك»[(٥)].

ومعناه ـ والله أعلم ـ: مهما بلغكم عنى من خير فأنا أولاكم به ومهما يكن من مكروه فأنا أبعدكم منه، ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ [عَنْهُ][(٦)]﴾.

وقال قتادة، عن عَزْرَة[(٧)]، عن الحسن العُرَنى، عن يحيى بن الجزار، عن مسروق، أن امرأة جاءت ابن مسعود قالت[(٨)]: أتنهى عن الواصلة؟ قال: نعم. فقالت [المرأة] [(٩)] فلعله فى بعض نسائك؟ فقال: ماحفظت إذا وصية العبد الصالح: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾.

وقال عثمان بن أبى شيبة: حدثنا جرير، عن أبى سليمان العتبى [(١٠)] قال: كانت تجيئنا كتب عمر ابن عبد العزيز فيها الأمر والنهى، فيكتب فى آخرها: وما كانت [(١١)] من ذلك إلا كما قال العبد الصالح: ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

---

(١) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٢) المسند (٥/٢) ورواه أبو داود فى السنن برقم (٣٦٣٠) عن عبد الرزاق والترمذى فى السنن برقم (١٤١٧) عن ابن المبارك كلاهما من طريق معمر به مختصراً جداً، وقال الترمذى: «حديث بهز عن أبيه عن جده حديث حسن».

(٣) المسند (٣/٤٩٧).

(٤) فى ت، أ: «وهذا».

(٥) صحيح مسلم برقم (٧١٣).

(٦) زيادة من ت، أ. (٧) فى ت، أ: «عروة». (٨) فى ت: «فقالت».

(٩) زيادة من ت، أ. (١٠) فى ت، أ: «الضبى». (١١) فى ت: «وما كنت»، وفى أ: «وما كتب».

﴿وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠)﴾.

يقول لهم: ﴿وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ أى: لاتحملنكم عداوتى وبغضى على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط من النقمة والعذاب.

قال قتادة: ﴿وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ يقول: لا يحملنكم فراقى.

وقال السدى: عداوتى، على أن تتمادوا فى الضلال والكفر، فيصيبكم من العذاب ما أصابهم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا أبو المغيرة عبد القدوس بن الحجاج، حدثنا ابن أبى غَنِيَّة، حدثنى عبد الملك بن أبى سليمان، عن أبى ليلى الكندى قال: كنت مع مولاى أمسك دابته، وقد أحاط الناس بعثمان بن عفان؛ إذ أشرف علينا من داره فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾، ياقوم، لاتقتلونى، إنكم إن تقتلونى كنتم هكذا، وشبَّك بين أصابعه.

وقوله: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ ،[قيل: المراد فى الزمان، كما قال قتادة فى قوله: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ يعنى][(١)]: إنما أهلكوا [(٢)] بين أيديكم بالأمس، وقيل: فى المكان، ويحتمل الأمران، ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾، أى: استغفروه من سالف الذنوب ، وتوبوا فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة، ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾أى: لمن تاب وأناب.

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢)﴾.

يقولون ﴿يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾أى: مانفهم ولانعقل كثيراً من قولك، وفى آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب. ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾.

قال [(٣)] سعيد بن جبير، والثورى: كان ضرير البصر. قال الثورى: وكان يقال له: خطيب الأنبياء.

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى ت: «هلكوا». (٣) فى ت: «وقال».

[وقال السدى: ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ قال: أنت واحد][(١)].

[وقال أبو روق: ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ يعنون: ذليلا؛ لأن عشيرتك ليسوا على دينك، فأنت ذليل ضعيف][(٢)].

﴿ وَلَوْلا رَهْطُكَ﴾ أى: قومك وعشيرتك؛ لولا معزة قومك علينا لرجمناك، قيل[(٣)]: بالحجارة، وقيل: لسبَبْنَاك، ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أى: ليس لك عندنا معزة.

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾: يقول: أتتركونى لأجل قومى، ولاتتركونى إعظاما لجناب الله أن تنالوا نبيه بمساءة. وقد اتخذتم جانب الله ﴿ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أى: نبذتموه خلفكم، لاتطيعونه ولاتعظمونه، ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أى: هو يعلم جميع أعمالكم وسيجزيكم بها.

﴿ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥) ﴾.

لما يئس نبى الله شعيب من استجابة قومه له، قال: ياقوم، ﴿ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أى: على طريقتكم، وهذا تهديد ووعيد شديد، ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾، على طريقتى ومنهجى ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أى: فى الدار الآخرة، ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ أى: منى ومنكم، ﴿ وَارْتَقِبُوا ﴾ أى: انتظروا ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ.﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، وهم قومه، ﴿الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ وقوله: ﴿جَاثِمِينَ﴾ أى: هامدين لاحراك بهم. وذكر هاهنا أنهم أتتهم صيحة، وفى الأعراف رجفة، وفى الشعراء عذاب يوم الظلة، وهم أمة واحدة، اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقمُ كلها. وإنما ذكر فى كل سياق ما يناسبه، ففى الأعراف لما قالوا: ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا﴾ [الأعراف:٨٨]، ناسب أن يذكر هناك الرجفة، فرجفت بهم الأرض التى ظلموا بها، وأرادوا إخراج نبيهم منها، وهاهنا لما أساؤوا الأدب فى مقالتهم على نبيهم ناسب ذكر الصيحة التى أسكتتهم [(٤)] وأخمدتهم، وفى الشعراء لما قالوا: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[الشعراء: ١٨٧]، قال: ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء:١٨٩]، وهذا من الأسرار الغريبة الدقيقة، ولله الحمد والمنة كثيراً دائماً.

(١، ٢) زيادة من ت، أ. (٣) فى ت: «قتل». (٤) فى ت، أ: «أسكنتهم».

وقوله: ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أى: يعيشوا فى دارهم قبل ذلك، ﴿ أَلا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾، وكانوا جيرانهم قريباً منهم فى الدار، وشبيهاً بهم فى الكفر وقَطْع الطريق، وكانوا عربًا شبههم.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩) ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن إرساله موسى، عليه السلام، بآياته وبيناته وحججه ودلائله الباهرة القاطعة إلى فرعون لعنه الله، وهو ملك ديار مصر على أمة القبط، ﴿ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أى: مسلكه ومنهجه وطريقته فى الغى والضلال، ﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ أى: ليس فيه رشد ولا هدى، وإنما هو جهل وضلال، وكفر وعناد، وكما أنهم أتبعوه فى الدنيا، وكان مُقَدمهم ورئيسهم، كذلك هو يَقْدُمهم يوم القيامة إلى نار جهنم، فأوردهم إياها، وشربوا من حياض[1] رَدَاها، وله فى ذلك الحظ الأوفر، من العذاب الأكبر، كما قال تعالى: ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً ﴾ [المزمل: ١٦]، وقال تعالى: ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ . ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ. فَحَشَرَ فَنَادَىٰ. فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ. فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَىٰ. إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ [النازعات: ٢١ ـ ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾، وكذلك شأن المتبوعين يكونون مُوفرين فى العذاب يوم المعاد، كما قال تعالى: ﴿[قَالَ][2] لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف: ٣٨]، وقال تعالى إخباراً عن الكفَرة أنهم يقولون فى النار: ﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا. رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨].

وقال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْم، حدثنا أبو الجهم، عن الزهرى، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «امرؤ القيس حامل لواء شعراء الجاهلية إلى النار»[3].

وقوله: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾أى: أتبعناهم زيادة على ما جازيناهم من عذاب النار لعنة فى هذه الحياة الدنيا، ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾.

قال مجاهد: زيدوا لعنة يوم القيامة، فتلك لعنتان.

وقال على بن أبى طلحة،عن ابن عباس: ﴿ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ قال: لعنة الدنيا والآخرة، وكذا

(١) فى ت: «خاص».
(٢) زيادة من ت، أ.
(٣) المسند (٢/ ٢٢٨).

قال الضحاك، وقتادة، وهكذا قوله [١] تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ. وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ [القصص: ٤١، ٤٢]، وقال تعالى: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦].

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) ﴾.

لما ذكر تعالى خبر هؤلاء الأنبياء، وماجرى لهم مع أممهم، وكيف أهلك الكافرين ونَجّى المؤمنين قال: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ ﴾ أي: من أخبارها ﴿ نَقُصُّهُ [٢] عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ ﴾ أي: عامر، ﴿ وَحَصِيدٌ ﴾ أي: هالك دائر، ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ أي: إذ أهلكناهم، ﴿ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ أي: بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم، ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ ﴾ أي: أصنامهم وأوثانهم التي كانوا يعبدونها ويدعونها، ﴿ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ أي: مانفعوهم ولا أنقذوهم لما جاء أمر الله بإهلاكهم، ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ [٣] ﴾.

قال مجاهد، وقتادة، وغيرهما: أي غير تخسير، وذلك أن سبب هلاكهم ودَمَارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة وعبادتهم إياها [٤]، فبهذا أصابهم ما أصابهم، وخسروا بهم، في الدنيا والآخرة.

﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) ﴾.

يقول تعالى: وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسلنا كذلك نفعل بنظائرهم وأشباههم وأمثالهم، ﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليُملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفلته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [٥].

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) ﴾.

---

(١) في ت، أ: «وهذا كقوله». (٢) في ت: «نقصها» وهو خطأ.
(٣) في ت: «تثبيت». (٤) في ت: «إياهم».
(٥) صحيح البخاري برقم (٤٦٨٦) وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٣).

واعتبارا على صدق موعودنا فى الدار الآخرة، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ. وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٣، ١٤].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ(١) يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾أى: أولهم وآخرهم، فلا يبقى منهم أحد، كما قال: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

﴿ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أى: يوم عظيم تحضره الملائكة كلهم، ويجتمع فيه الرسل جميعهم، وتحشر فيه الخلائق بأسرهم، من الإنس والجن والطير والوحوش والدواب، ويحكم فيهم (٢) العادل الذى لا يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها.

وقوله: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أى: ما نؤخر إقامة يوم القيامة إلا لأنه (٣) قد سبقت كلمة الله وقضاؤه وقدره، فى وجود أناس معدودين من ذرية آدم، وضرب مدة معينة إذا انقضت وتكامل وجود أولئك المقدر خروجهم من ذرية آدم، أقام الله الساعة؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أى: لمدة مؤقتة لا يزاد عليها ولا ينقص منها، ﴿يَوْمَ يَأْتِ(٤) لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾، يقول: يوم يأتى هذا اليوم وهو يوم القيامة، لا يتكلم أحد [يومئذ] (٥) إلا بإذن الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]، وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ فى حديث الشفاعة الطويل: «ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلّم سلّم(٦)»(٧).

وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾أى: فمن أهل الجمع شقى ومنهم سعيد، كما قال: ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ [الشورى: ٧].

وقال الحافظ أبو يعلى فى مسنده: حدثنا موسى بن حيان، حدثنا عبد الملك بن عمرو، حدثنا سليمان بن(٨) سفيان، حدثنا عبد الله بن دينار، عن ابن عمر، عن عمر (٩) رضى الله عنه، قال: لما نزلت ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾، سألت النبى ﷺ، قلت(١٠): يارسول الله، علام نعمل(١١)؟ على شىء قد فُرِغ منه، أم على شىء لم يفرغ منه؟ فقال: «على شىء قد فرغ منه ياعمر وجرت به الأقلام،

---

(١) قبلها فى ت، أ: « إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة».
(٢) فى أ: «فيه». (٣) فى ت، أ: «إلا أنه». (٤) فى ت: «يأتى» وفى أ. «يأتيهم».
(٥) زيادة من ت. (٦) فى ت: «اللهم سلم اللهم سلم».
(٧) صحيح البخارى برقم (٨٠٦) وصحيح مسلم برقم (١٨٢).
(٨) فى ت، أ: «أبو». (٩) فى أ: «عمر بن الخطاب». (١٠) فى ت: «فقلت».
(١١) فى ت: «على ما يعمل».

ولكن كل ميسر لما خلق له»[1].

ثم بين [2] تعالى حال الأشقياء وحال السعداء، فقال:

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) ﴾.

يقول تعالى: ﴿ **لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ** ﴾، قال ابن عباس: الزفير فى الحلق، والشهيق فى الصدر أى: تنفسهم زفير، وأخذهم النفس شهيق، لما هم فيه من العذاب، عياذاً بالله من ذلك.

﴿**خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ**﴾: قال الإمام أبو جعفر بن جرير: من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشىء بالدوام أبداً قالت: «هذا دائم دوامَ السموات والأرض»، وكذلك يقولون: هو باق ما اختلف الليلُ والنهار، وما سمر ابنا سَمير، وما لألأت العُفْر [3] بأذنابها. يعنون بذلك كلمة: «أبدا»، فخاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم، فقال: ﴿**خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ**﴾.

قلت: ويحتمل أن المراد بما دامت السموات والأرض: الجنس؛ لأنه لابدّ فى عالم الآخرة من سموات وأرض، كما قال تعالى: ﴿ **يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ**﴾ [إبراهيم: ٤٨]؛ ولهذا قال الحسن البصرى فى قوله: ﴿ **مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ**﴾، قال: تبدل سماء غير [4] هذه السماء، وأرض غير هذه الأرض، فما دامت تلك السماء وتلك الأرض.

وقال ابن أبى حاتم: ذكر عن سفيان بن حسين، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباس قوله: ﴿ **مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ**﴾، قال: لكل جنة سماء وأرض.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: مادامت الأرض أرضاً، والسماء سماءً.

وقوله: ﴿**إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ** ﴾، كقوله تعالى: ﴿ **النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ**﴾ [الأنعام: ١٢٨].

وقد اختلف المفسرون فى المراد من هذا الاستثناء، على أقوال كثيرة، حكاها الشيخ أبو الفرج بن الجوزى فى كتابه «زاد المسير»[5]، وغيره من علماء التفسير، ونقل كثيراً منها الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله، فى كتابه [6] واختار هو مانقله عن خالد بن مَعْدَان، والضحاك، وقتاده، وأبى سِنَان، ورواه ابن أبى حاتم عن ابن عباس والحسن أيضاً: أن الاستثناء عائد على العُصاة من أهل التوحيد، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين، من الملائكة والنبيين والمؤمنين، حين يشفعون

---

(١) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣١١١) عن بندار، عن أبى عامر العقدى ـ عبد الملك بن عمرو به ـ وقال الترمذى: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه لانعرفه إلا من حديث عبد الملك بن عمرو».

(٢) فى أ: «وبين». (٣) فى ت: «الغفر». (٤) فى ت: «يبدل بهما غير».

(٥) زاد المسير (٤/ ١٦٠، ١٦١).

(٦) تفسير الطبرى (١٥/ ٤٨٥).

التوحيد، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين، من الملائكة والنبيين والمؤمنين، حين يشفعون فى أصحاب الكبائر، ثم تأتى رحمة أرحم الراحمين، فتخرج من النار من لم يعمل خيرا قط، وقال يوما من الدهر: لا إله إلا الله. كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ بمضمون ذلك من حديث أنس، وجابر، وأبى سعيد، وأبى هريرة، وغيرهم من الصحابة[(١)]، ولايبقى بعد ذلك فى النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ولا محيد له عنها. وهذا الذى عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً فى تفسير هذه الآية الكريمة.

وقد روى فى تفسيرها عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وابن عباس، وابن مسعود[(٢)]، وأبى هريرة، وعبد الله بن عمرو، وجابر، وأبى سعيد، من الصحابة. وعن أبى مِجْلَز، والشعبى، وغيرهما من التابعين. وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وإسحاق بن راهويه وغيرهما من الأئمة ـ أقوال غريبة. وورد حديث غريب فى معجم الطبرانى الكبير، عن أبى أمامة صُدَىّ بن عَجْلان الباهلى، ولكن سنده ضعيف، والله أعلم.

وقال قتادة: الله أعلم بثنياه.

وقال السدى: هى منسوخة بقوله: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾[النساء:٥٧].

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨) ﴾.

يقول تعالى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا ﴾ وهم أتباع الرسل، ﴿ فَفِي الْجَنَّةِ ﴾ أى: فمأواهم الجنة، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: ماكثين مقيمين فيها أبدا، ﴿ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾، معنى الاستثناء هاهنا: أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم، ليس أمرا واجبا بذاته، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى، فله المنة عليهم [دائماً][(٣)]، ولهذا يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النَّفس.

وقال الضحاك، والحسن البصرى: هى فى حق عصاة الموحدين الذين كانوا فى النار، ثم أخرجوا منها. وعقب ذلك بقوله: ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أى: غير مقطوع[(٤)] ـ قاله ابن عباس، ومجاهد، وأبو العالية وغير واحد، لئلا يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة أن ثم انقطاعاً، أو لبسا، أو شيئاً[(٥)]، بل ختم له بالدوام وعدم الانقطاع. كما بين هنا[(٦)] أن عذاب أهل النار فى النار دائما مردود إلى مشيئته، وأنه[(٧)] بعَدْله وحكمته عذبهم؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود:١٠٧]، كما قال: ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣]، وهنا طيب القلوب وثَبَّت المقصود بقوله: ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾.

(١) انظر أحاديث الشفاعة عند تفسير سورة الإسراء فى أولها.
(٢) فى ت: «وابن مسعود وابن عباس».
(٣) زيادة من ت، أ.
(٤) فى أ: «منقطع».
(٥) فى ت: «ثم انقطاع أو لبس أو شىء».
(٦) فى ت، أ: «هناك».
(٧) فى ت: «وأن».

ياأهل الجنة، خُلُود فلا (١) موت، ويا أهل النار، خلود فلا (٢) موت»(٣).

وفى الصحيحين (٤) أيضا: «فيقال(٥): يا أهل الجنة، إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدا، وإن لكم أن تشبوا فلا تَهْرَموا أبدا، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا»(٦).

﴿فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ (١٠٩) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١١٠) وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١)﴾.

يقول تعالى: ﴿فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ﴾ المشركون، أنه باطل وجَهل وضلال، فإنهم إنما يعبدون مايعبد آباؤهم من قبل، أى: ليس لهم مُستَنَد فيما هم فيه إلا اتباع الآباء فى الجهالات، وسيجزيهم الله على ذلك أتم الجزاء فيعذب كافرهم عذاباً لا يعذبه أحدا من العالمين، وإن كان لهم حسنات فقد وفاهم الله إياها فى الدنيا قبل الآخرة.

قال سفيان الثورى، عن جابر الجُعْفى، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾، قال: ما (٧)وعدوا فيه من خير أو شر.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لموفوهم من العذاب نصيبهم غير منقوص. ثم ذكر تعالى أنه أتى موسى الكتاب، فاختلف الناس فيه، فمن مؤمن به، ومن كافر به، فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يامحمد أسوة، فلا يغيظنك تكذيبهم لك، ولايهيدنَّك ذلك.

﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾: قال ابن جرير: لولا ماتقدم من تأجيله العذاب (٨) إلى أجل معلوم، لقضى الله بينهم.

ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة أنه لا يعذب أحدا إلا بعدم (٩) قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه، كما قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥]؛ فإنه قد قال فى الآية الأخرى: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى. فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [طه: ١٢٩، ١٣٠].

(١، ٢) فى ت، أ: «بلا».

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٧٣٠) وصحيح مسلم برقم (٢٨٤٩) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه.

(٤) فى أ: «وفى الصحيح». (٥) فى ت، أ: «فقال».

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٨٣٧) من حديث أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنهما، ولم أعثر عليه فى البخارى.

(٧) فى ت: «وبما». (٨) فى ت: «العباد» وفى أ: «الميعاد». (٩) فى ت، أ: «إلا بعد».

ثم أخبر أن الكافرين فى شك ـ مما جاءهم به الرسول ـ قوى، فقال: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾.

ثم أخبرنا [(١)] تعالى أنه سيجمع الأولين والآخرين من الأمم، ويجزيهم بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فقال: ﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أى: عليم بأعمالهم جميعها، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها.

وفى هذه الآية قراءات كثيرة، ويرجع معناها إلى هذا الذى ذكرناه، كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٣٢].

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ (١١٣) ﴾.

يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ومخالفة الأضداد ونهى عن الطغيان، وهو البغى، فإنه مَصرَعة حتى ولو كان على مشرك. وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد، لا يغفل عن شىء، ولا يخفى عليه شىء.

وقوله: ﴿ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: لا تُدهنُوا.

وقال العوفى، عن ابن عباس: هو الركون إلى الشرك.

وقال أبو العالية: لا ترضوا أعمالهم.

وقال ابن جُرَيْج، عن ابن عباس: ولا تميلوا إلى الذين ظلموا وهذا القول حسن، أى: لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بباقى صنيعهم، ﴿ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴾ أى: ليس لكم من دونه [(٢)] من ولى ينقذكم، ولاناصر يخلصكم من عذابه.

﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥) ﴾.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ ﴾ قال: يعنى الصبح والمغرب وكذا قال الحسن، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال الحسن ـ فى رواية ـ وقتادة، والضحاك، وغيرهم: هى الصبح والعصر.

وقال مجاهد: هى الصبح فى أول النهار، والظهر والعصر من آخره. وكذا قال محمد بن كعب القُرَظى، والضحاك فى رواية عنه.

---

(١) فى ت، أ: «ثم أخبر».

(٢) فى أ: «من دون الله».

وقوله: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغيرهم: يعنى صلاة العشاء.

وقال الحسن ـ فى رواية ابن المبارك، عن مبارك بن فَضَالة، عنه: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ يعنى: المغرب والعشاء قال رسول الله ﷺ: «هما زُلْفتَا [١] الليل: المغرب والعشاء»[٢]. وكذا قال مجاهد، ومحمد بن كعب، وقتادة، والضحاك: إنها صلاة المغرب والعشاء.

وقد يحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء؛ فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان: صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها. وفى أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة، ثم نسخ فى حق الأمة، وثبت وجوبه عليه، ثم نسخ عنه أيضاً، فى قول، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾، يقول: إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن، عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب قال: كنت إذا سمعتُ من رسول الله ﷺ حديثا نفعنى الله بما شاء أن ينفعنى منه، وإذا حدثنى عنه أحد استحلفته، فإذا حلف لى صدقته، وحدثنى أبو بكر ـ وصدق أبو بكر ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مامن مسلم يذنب ذنبا، فيتوضأ ويصلى ركعتين، إلا غفر له»[٣].

وفى الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان: أنه توضأ لهم كوُضوء رسول الله ﷺ، ثم قال: هكذا رأيتُ رسول الله يتوضأ، وقال: «من توضأ نحو وضوئى هذا، ثم صلى ركعتين لا يُحَدِّث فيهما نفسه، غُفِرَ له ماتقدم من ذنبه»[٤].

وروى الإمام أحمد، وأبو جعفر بن جرير، من حديث أبى عَقِيل زُهْرَة بن مَعْبَد: أنه سمع الحارث مولى عثمان يقول: جلس عثمان يوما وجلسنا معه، فجاءه المؤذن، فدعا عثمان بماء فى إناء أظنه سيكون فيه قدر مُدّ، فتوضأ، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئى هذا، ثم قال: «من توضأ وضوئى هذا، ثم قام فصلى [٥] صلاة الظهر، غُفِر له ما كان بينه وبين صلاة الصبح، ثم صلى العصر غفر له مابينه وبين صلاة الظهر، ثم صلى المغرب غفر له ما بينه وبين صلاة العصر، ثم صلى العشاء غفر له مابينه وبين صلاة المغرب، ثم لعله يبيت يتمرغ ليلته، ثم إن قام فتوضأ وصلى الصبح غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء، وهن الحسنات يذهبن السيئات»[٦].

وفى الصحيح [٧] عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أرأيتم لو أن

(١) فى ت: «زلفيا».

(٢) رواه الطبرى فى تفسيره (١٥/٥٠٨).

(٣) المسند (١/٢) وسنن أبى داود برقم (١٥٢١) وسنن الترمذى برقم(٤٠٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٢٤٧) وسنن ابن ماجه برقم (١٣٩٥) وقال الترمذى: «حديث على حديث حسن، لانعرفه إلا من هذا الوجه».

(٤) صحيح البخارى برقم (١٥٩) وصحيح مسلم برقم (٢٤٥).

(٥) فى ت: «يصلى».

(٦) المسند (١/ ٧١) وتفسير الطبرى (١٥/ ٥١١).

(٧) فى ت: «وفى الصحيحين».

بباب أحدكم نهراً غَمْراً يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، هل يُبقى من درنه شيئا؟» قالوا: لا، يارسول الله. قال: «وكذلك الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الذنوب والخطايا»(١).

وقال مسلم فى صحيحه: حدثنا أبو الطاهر(٢) وهارون بن سعيد قالا: حدثنا ابن وَهْب، عن أبى صخر: أن عمر بن إسحاق مولى زائدة حدّثه عن أبيه، عن أبى هريرة؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مُكَفِّرَات ما بينهن إذا(٣) اجتنبت الكبائر»(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحكَم بن نافع(٥)، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن ضَمْضَم بن زُرْعَة، عن شُرَيْح بن عبيد، أن أبا رُهْم السمعى كان يحدّث: أن أبا أيوب الأنصارى حدثه أن النبى ﷺ كان يقول: «إن كل صلاة تحطّ ما بين يديها من خطيئة»(٦).

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا محمد بن عوف(٧)، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا أبى، عن ضمضم بن زرعة، عن شريح بن عبيد، عن أبى مالك الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «جعلت الصلوات كفارات لما بينهن؛ فإن الله قال: ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾»(٨).

وقال البخارى: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا يزيد بن زُرَيع، عن سليمان التيمى، عن أبى عثمان النهدى، عن ابن مسعود؛ أن رجلا أصاب من امرأة قُبْلَة، فأتى النبى ﷺ فأخبره، فأنزل الله: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾، فقال الرجل: ألى هذا يا رسول الله؟(٩) قال: «لجميع أمتى كلهم».

هكذا رواه فى كتاب الصلاة، وأخرجه فى التفسير عن مُسَدَّد، عن يزيد بن زُرَيع، بنحوه(١٠). ورواه مسلم، وأحمد، وأهل السنن إلا أبا داود، من طرق عن أبى عثمان النهدى، واسمه عبدالرحمن ابن مُلّ، به(١١).

وروى الإمام أحمد، ومسلم، وأبو داود، والترمذى، والنسائى، وابن جرير ـ وهذا لفظه ـ

---

(١) صحيح البخارى برقم (٥٢٨) وصحيح مسلم برقم (٦٦٧).

(٢) فى ت: «أبو طاهر». (٣) فى ت: «ما».

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٣٣).

(٥) فى أ: «بن رافع».

(٦) المسند (٥/ ٤١٣).

(٧) فى ت: «عون».

(٨) تفسير الطبرى (١٥/ ٥١٣) ومحمد بن إسماعيل ضعيف ولم يسمع من أبيه.

(٩) فى ت: «يا رسول الى هذا».

(١٠) صحيح البخارى برقم (٥٢٦) وبرقم (٤٦٨٧).

(١١) وصحيح مسلم برقم (٢٧٦٣) والمسند (١/ ٣٨٥) وسنن الترمذى برقم (٣١١٤) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٢٤٧) وسنن ابن ماجه برقم (١٣٩٨).

من طُرُق: عن سِمَاك بن حرب: أنه سمع إبراهيم بن يزيد يُحدِّث عن علقمة والأسود، عن ابن مسعود قال: جاء رجل إلى النبى[١] ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى وجدت امرأة فى بستان، ففعلت بها كل شىء، غير أنى لم أجامعها، قَبَّلتها ولزمتها، ولم أفعل غير ذلك، فافعل بى ما شئت. فلم يقل رسول الله ﷺ شيئا، فذهب الرجل، فقال عمر: لقد ستر الله عليه، لو ستر على نفسه. فأتبعه رسول الله ﷺ بصره ثم قال: «ردوه علىّ». فردّوه عليه، فقرأ عليه: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴾. فقال معاذ ـ وفى رواية عمر ـ: يا رسول الله، أله وحده، أم للناس كافة؟ فقال: «بل للناس كافة»[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا أبان بن إسحاق، عن الصباح بن محمد، عن مُرّة الهَمْدانى، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم[٣]، كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطى[٤] الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطى الدين[٥] إلا من أحب. فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذى نفسى بيده، لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه». قال: قلنا: وما بوائقه يا نبى الله[٦]؟ قال: «غشه وظلمه، ولا يكسِبُ عبد مالا حراما فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زادَه إلى النار، إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكنه يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث»[٧].

وقال ابن جرير: حدثنا أبو السائب، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم قال: كان فلان بن معتب رجلا من الأنصار، فقال: يا رسول الله، دخلت على امرأة فنلْتُ منها ما ينال الرجل من أهله، إلا أنى لم أجامعها فلم يدر رسول الله ﷺ ما يجيبه، حتى نزلت هذه الآية: ﴿ وَأَقِمِ[٨] الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴾. فدعاه رسول الله، فقرأها عليه[٩].

وعن ابن عباس: أنه عمرو بن غَزِيَّة الأنصارى التمار. وقال مقاتل: هو أبو نفيل عامر بن قيس الأنصارى، وذكر الخطيب البغدادى أنه أبو اليَسر: كعب بن عمرو.

---

(١) فى ت، أ: «رسول الله».

(٢) المسند (١/ ٤٤٥) وصحيح مسلم برقم (٢٧٦٣) وسنن أبى داود برقم (٤٤٦٨) وسنن الترمذى برقم (٣١١٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٧٣٢٣) وتفسير الطبرى (١٥/ ٥١٥).

(٣) فى ت، أ: «آجالكم». (٤) فى ت: «معطى». (٥) فى ت، أ: «الآخرة».

(٦) فى أ: «يا رسول الله».

(٧) المسند (١/ ٣٨٧).

(٨) فى ت، أ: «أقم» وهو خطأ.

(٩) تفسير الطبرى (١٥/ ٥١٩).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس وعفان قالا: حدثنا حماد ـ يعنى: ابن سلمة ـ عن على بن زيد ـ قال عفان: أنبأنا على بن زيد، عن يوسف بن مِهْرَان، عن ابن عباس؛ أن رجلا أتى عمر قال[١]: امرأة جاءت تبايعه، فأدخلتها الدولج، فأصبت منها ما دون الجماع، فقال: ويحك. لعلها مُغِيبة فى سبيل الله؟ قال: أجل. قال: فائت أبا بكر فاسأله[٢]. قال: فأتاه فسأله، فقال: لعلها مُغِيبة فى سبيل الله؟ فقال مثل قول عمر، ثم أتى النبى ﷺ فقال له مثل ذلك، قال: «فلعلها مُغيبة فى سبيل الله». ونزل القرآن: ﴿وَأَقِمِ[٣] الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ إلى آخر الآية، فقال: يا رسول الله، إلىَّ خاصة أم للناس عامة؟ فضرب ـ يعنى: عمر ـ صدره[٤] بيده وقال: لا، ولا نُعمَة عين، بل للناس عامة. فقال رسول الله ﷺ: «صدق عمر»[٥].

وروى الإمام أبو جعفر بن جرير من حديث قيس بن الربيع، عن عثمان بن موهب، عن موسى ابن طلحة، عن أبى اليسر كعب بن عمرو الأنصارى قال: أتتنى امرأة تبتاع منى بدرهم تمرا، فقلت: إن فى البيت تمرا أطيب وأجود من هذا، فدخلت، فأهويت إليها فقبلتها، فأتيت عمر فسألته، فقال: اتق الله، واستر على نفسك، ولا تخبرنّ أحدا. فلم أصبر حتى أتيت أبا بكر فسألته، فقال: اتق الله، واستر على نفسك، ولا تخبرنّ أحدا. قال: فلم أصبر حتى أتيت النبى ﷺ، فأخبرته، فقال: «أخَلَفتَ رجلا غازيا فى سبيل الله فى أهله بمثل هذا؟» حتى ظننت أنى من أهل النار، حتى تمنيت أنى أسلمت ساعتئذ. فأطرق رسولُ الله ﷺ ساعة، فنزل جبريل، فقال: «[أين][٦] أبو اليسر؟». فجئت، فقرأ على: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ إلى ﴿ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾، فقال إنسان: يارسول لله، أله خاصة أم للناس عامة؟ قال[٧]: «للناس عامة»[٨].

وقال الحافظ أبو الحسن الدارقطنى: حدثنا الحسين بن إسماعيل المحاملى، حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا جرير، عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن معاذ بن جبل؛ أنه كان قاعدا عند النبى ﷺ فجاءه رجل فقال: يا رسول الله، ما تقول فى رجل أصاب من امرأة لا تحل له، فلم يدع شيئا يصيبه الرجل من امرأته إلا قد أصاب منها، غير أنه لم يجامعها؟ فقال له النبى ﷺ: «توضأ وضوءا حَسَنا، ثم قم فصل»[٩]. قال: فأنزل الله عز وجل هذه الآية، يعنى قوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾، فقال معاذ: أهى له خاصة أم للمسلمين عامة؟ قال: «بل للمسلمين عامة».

---

(١) فى ت: «فقال». (٢) فى ت: «فسله». (٣) فى ت، أ: «أقم» وهو خطأ.
(٤) فى ت: «عن صدره».
(٥) المسند (١/ ٢٤٥) وعلى بن زيد ضعيف.
(٦) زيادة من ت، أ، والطبرى. (٧) فى ت: «فقال».
(٨) تفسير الطبرى (١٥/ ٥٢٣).
(٩) فى ت: «فصلى».

ورواه ابن جرير من طرق، عن عبد الملك بن عمير، به[١].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا محمد بن مسلم، عن عمرو بن دينار، عن يحيى بن جعدة؛ أن رجلا من أصحاب النبى ﷺ ذكر امرأة وهو جالس مع رسول الله ﷺ، فاستأذنه لحاجة، فأذن له، فذهب يطلبها فلم يجدها، فأقبل الرجل يريد أن يبشر النبى ﷺ بالمطر، فوجد المرأة جالسة على غدير، فدفع فى صدرها وجلس بين رجليها، فصار ذكره مثل الهُدْبة، فقام نادما حتى أتى النبى ﷺ فأخبره بما صنع، فقال له: «استغفر ربك، وصلّ أربع ركعات». قال: وتلا عليه: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ﴾ الآية[٢].

وقال ابن جرير: حدثنى عبد الله بن أحمد بن شَبّويه، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنى عمرو ابن الحارث حدثنى عبد الله بن سالم، عن الزبيدى، عن سليم بن عامر؛ أنه سمع أبا أمامة يقول: إن رجلا أتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، أقم فىّ حد الله ـ مرة أو ثنْتين ـ فأعرض عنه رسول الله ﷺ، ثم أقيمت الصلاة، فلما فرغ النبى ﷺ من الصلاة قال: «أين هذا الرجل القائل: أقم فىّ حد الله؟» قال: أنا ذا: قال: «أتممت الوضوء وصليت معنا آنفا؟» قال: نعم. قال: «فإنك من خطيئتك كما ولدتك أمك، ولا تعد». وأنزل الله على رسول الله ﷺ[٣]: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴾[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أنبأنا على بن زيد، عن أبى عثمان قال: كنت مع سلمان الفارسى تحت شجرة، فأخذ منها غُصْنا يابسا فهزّه حتى تحاتَّ ورقة[٥]، ثم قال: يا أبا عثمان، ألا تسألنى لم أفعل هذا؟ فقلت: لم تفعله[٦]؟ قال: هكذا فعل بى رسول الله ﷺ وأنا معه تحت شجرة، فأخذ منها يابساً فهزه حتى تحاتّ ورقة، فقال: «يا سلمان، ألا تسألنى: لم أفعل هذا؟». قلت: ولم تفعله؟ فقال: «إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم صلى الصلوات الخمس، تحاتت خطاياه كما يتحات[٧] هذا الورق. وقال: ﴿وَأَقِمِ[٨] الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِين ﴾»[٩].

وقال الإمام أحمد: حدثنا وَكِيع، حدثنا سفيان، عن حبيب بن أبى ثابت، عن ميمون بن أبى

---

(١) سنن الدارقطنى (١/ ١٣٤) وتفسير الطبرى (١٥/ ٥٢٠ ـ ٥٢٢) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣١١٣) من طريق عبد الملك بن عمير به، وقال الترمذى: «هذا حديث ليس إسناده بمتصل، عبد الله بن أبى ليلى لم يسمع من معاذ، وروى شعبة هذا الحديث عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن النبى ﷺ، مرسل».

(٢) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٧٤).

(٣) فى ت: «على رسوله».

(٤) تفسير الطبرى (١٥/ ٥٢١) ورواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٧٦٥) من طريق شداد بن عبد الله، عن أبى أمامة بنحوه.

(٥) فى ت، أ: «ورقه». (٦) فى ت: «قلت ولم يفعله». (٧) فى ت: «يتحاتت».

(٨) فى ت: «أقم» وهو خطأ.

(٩) المسند (٥/ ٤٣٧).

شبيب، عن معاذ، رضى الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال له: «يا معاذ، أتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»(١).

وقال الإمام أحمد، رضى الله عنه: حدثنا وَكِيع، حدثنا سفيان، عن حبيب، عن ميمون بن أبى شبيب، عن أبى ذر؛ أن رسول(٢) الله ﷺ قال: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»(٣).

وقال أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن شَمْر بن عطية، عن أشياخه، عن أبى ذر قال: قلت: يا رسول الله، أوصنى. قال: «إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها». قال: قلت: يا رسول الله، أمن الحسنات: لا إله إلا الله؟ قال: «هى أفضل الحسنات»(٤).

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى: حدثنا هذيل بن إبراهيم الجُمَّانى، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن الزهرى، من ولد سعد بن أبى وقاص، عن الزهرى، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما قال عَبْد: لا إله إلا الله، فى ساعة من ليل أو نهار، إلا طَلَست ما فى الصحيفة من السيئات، حتى تسكن إلى مثلها من الحسنات»(٥).

عثمان بن عبد الرحمن، يقال له: الوقاصى. فيه ضعف.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا بشر بن آدم وزيد بن أخرم قالا: حدثنا الضحاك بن مَخْلَد، حدثنا مستور بن عباد، عن ثابت، عن أنس؛ أن رجلا قال: يا رسول الله، ما تركت من حاجة ولا داجة، فقال رسول الله ﷺ: «تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله؟». قال: بلى. قال: «فإن هذا يأتى على ذلك»(٦).

تفرد به من هذا الوجه مستور.

﴿ فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) ﴾.

يقول تعالى: فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير، ينهون عما كان يقع بينهم من

(١) المسند (٥/ ٢٢٨).

(٢) فى ت، أ: «أن النبى».

(٣) المسند (٥/ ١٥٣).

(٤) المسند (٥/ ١٦٩)

(٥) مسند أبى يعلى (٦/ ٢٠٤) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٨٢): «فيه عثمان بن عبد الرحمن الزهرى، وهو متروك».

(٦) مسند البزار برقم (٣٠٦٧) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٨٣): «رجاله ثقات».

الشرور والمنكرات والفساد فى الأرض.

وقوله: ﴿إلاَّ قَليلاً﴾ أى: قد وُجد منهم من هذا الضرب قليل، لم يكونوا كثيرا، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غيَره، وفجأة نقَمه؛ ولهذا أمر تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. وفى الحديث: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيّروه، أوشك أن يَعُمَّهُم الله بعقاب»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ أى: استمروا على ما هم فيه من المعاصى والمنكرات، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك، حتى فَجَأهم العذابُ، ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهى ظالمة [لنفسها][1]، ولم يأت قرية مصلحة بأسه وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١]، وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)﴾.

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كُلِّهم أمة واحدة، من إيمان أو كفران[2]، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

وقوله: ﴿وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ أى: ولا يزال الخُلْفُ بين الناس فى أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم.

قال[3] عكرمة: ﴿مُخْتَلِفِينَ﴾ فى الهدى[4]. وقال الحسن البصرى: ﴿مُخْتَلِفِينَ﴾ فى الرزق، يُسخّر بعضهم بعضا، والمشهورُ الصحيح الأول.

وقوله: ﴿إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ أى: إلا المرحومين من أتباع الرسل، الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين[5]. أخبرتهم به رسل الله إليهم، ولم يزل ذلك دأبهم، حتى كان النبى ﷺ الأمى خاتم الرسل والأنبياء، فاتبعوه وصدقوه، ونصروه ووازروه، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة؛ لأنهم الفرقة الناجية، كما جاء فى الحديث المروى فى المسانيد والسنن، من طرق يشد بعضها بعضا: «إن اليهود افترقت على

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى ت، أ: «وكفران». (٣) فى ت، أ: «وقال».
(٤) فى ت، أ: «الهوى». (٥) فى ت: «الذى»، وفى أ: «الذين».

إحدى[١] وسبعين فرقة، وإن النصارى افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتى[٢] على ثلاث وسبعين فرقة، كلها فى النار إلا فرقة واحدة». قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابى».

رواه الحاكم فى مستدركه بهذه الزيادة[٣].

وقال عطاء: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ يعنى: اليهود والنصارى والمجوس ﴿إِلا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ يعنى: الحنَيفيَّة.

وقال قتادة: أهلُ رحمة الله أهلُ الجماعة، وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم، وأهل معصيته أهل فرقة، وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم.

وقوله: ﴿ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾: قال الحسن البصرى ـ فى رواية عنه ـ: وللاختلاف خلَقهم.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: خ لقهم فريقين، كقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٥].

وقيل: للرحمة خلقهم. قال ابن وهب: أخبرنى مسلم بن خالد، عن ابن أبى نَجيح، عن طاوس؛ أن رجلين اختصما إليه فأكثرا[٤]، فقال طاوس: اختلفتما فأكثرتما[٥]! فقال أحد الرجلين: لذلك خلقنا. فقال طاوس: كذبت. فقال: أليس الله يقول: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾، قال: لم يخلقهم ليختلفوا، ولكن خلقهم للجماعة والرحمة. كما قال الحكم بن أبان، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس قال: للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب. وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة. ويرجع معنى هذا القول إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقيل: بل المراد: وللرحمة والاختلاف خلقهم، كما قال الحسن البصرى فى رواية عنه فى قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال: الناس مختلفون على أديان شتى، ﴿إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾، فمن رحم ربك غير مختلف. قيل له: فلذلك خلقهم؟ [قال][٦] خلق هؤلاء لجنته، وخلق هؤلاء لناره، وخلق هؤلاء لرحمته، وخلق هؤلاء لعذابه.

وكذا[٧] قال عطاء بن أبى ربَاح، والأعمش.

وقال ابن وَهْب: سألت مالكا عن قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾، قال: فريق فى الجنة وفريق فى السعير.

---

(١) فى أ: «اثنين».
(٢) فى أ: «هذه الأمة».
(٣) سبق تخريجه عند تفسير الآية: ٩٣ من سورة يونس.
(٤) فى ت: «فأكثروا».
(٥) فى ت: «وأكثرتما».
(٦) زيادة من ت.
(٧) فى ت: «وكذلك».

وقد اختار هذا القول ابن جرير، وأبو عبيدة(١)، والفراء.

وعن مالك فيما رويناه عنه فى التفسير: ﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ قال: للرحمة، وقال قوم: للاختلاف.

وقوله: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ : يخبر تعالى أنه قد سبق فى قضائه وقدره، لعلمه التام وحكمته النافذة، أن ممن(٢) خلقه من يستحق الجنة، ومنهم من يستحق النار، وأنه لابد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين الجن والإنس، وله الحجة البالغة والحكمة التامة. وفى الصحيحين عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «اختصمت الجنة والنار، فقالت الجنة: مالى لا يدخلنى إلا ضَعَفَةُ الناس وسَقَطُهم؟ وقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين. فقال الله عز وجل للجنة، أنت رحمتى أرحم بك من أشاء. وقال للنار: أنت عذابى، أنتقم بك ممن أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها. فأما الجنة فلا يزال فيها فضل، حتى ينشئ الله لها خلقا يسكن فضل الجنة، وأما النار فلا تزال تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع عليه ربّ العزة قَدمه، فتقول: قَطْ قط، وعزتك»(٣).

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) ﴾.

يقول تعالى: وكل أخبار نقصها عليك، من أنباء الرسل المتقدمين قبلك مع أممهم، وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين وخذل أعداءه الكافرين ـ كل هذا مما نثبت به فؤادك ـ يا محمد ـ أى: قلبك، ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسْوة.

وقوله: ﴿ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ ﴾ أى: [فى](٤) هذه السورة. قاله ابن عباس، ومجاهد، وجماعة من السلف. وعن الحسن ـ فى رواية عنه ـ وقتادة: فى هذه الدنيا.

والصحيح: فى هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء وكيف نَجّاهم(٥) الله والمؤمنين بهم، وأهلك الكافرين، جاءك فيها قَصَصُ حق، ونبأ صدق، وموعظة يرتدع بها الكافرون، وذكرى يتوقر(٦) بها المؤمنون.

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٢٢) ﴾.

---

(١) فى ت، أ: «وأبو عبيد». (٢) فى ت، أ: «من».
(٣) صحيح البخارى برقم (٧٤٤٩) وصحيح مسلم برقم (٢٨٤٦).
(٤) زيادة من أ. (٥) فى ت، أ: «أنجاهم». (٦) فى ت، أ: «يتذكر».

يقول تعالى آمرا رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد: ﴿ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ أي: على طريقتكم ومنهجكم، ﴿ إِنَّا عَامِلُون ﴾ أي: على طريقتنا ومنهجنا، ﴿ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ أي: فستعلمون من تكون له عاقبة الدار، إنه لا يفلح الظالمون.

وقد أنجز الله لرسوله وعده، ونصره وأيده، وجعل كلمته هى العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، والله عزيز حكيم.

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣) ﴾ .

يخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض، وأنه إليه المرجع والمآب، وَسيُوَفِّى كل عامل عمله يوم الحساب، فله الخلق والأمر. فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه؛ فإنه كاف من توكل عليه وأناب إليه.

وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ [١]﴾ أى: ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمد، بل هو عليم بأحوالهم وأقوالهم وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء فى الدنيا والآخرة، وسينصرك وحزبك عليهم فى الدارين.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا زيد بن الحباب، عن جعفر بن سليمان، عن أبى عمران الجَوْنى، عن عبد الله بن رباح، عن كعب[٢] قال: خاتمة «التوراة» خاتمة «هود» [والله أعلم][٣].

---

(١) فى ت: «يعملون». (٢) فى أ: «كعب الاحبار». (٣) زيادة من أ.

/ سورة هود [١١٠ظ]

وهي[١] مائة وثلاث وعشرون آيةً، كلُّها مكيّة إلّا قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾... إلخ [هود، ١١/١١٤].[٢]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ①﴾

﴿الٓر﴾ محلُّه الرفع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف. وقيل: على أنّه مبتدأ.[٣] والأوّل هو الأظهر، كما أُشير إليه في سورة يونسَ عليه السلام.[٤] أو النصبُ بتقدير فِعل يناسب المقام نحو "اذكُر" أو "اقرأ"،[٥] على تقدير كونه اسمًا للسورة على ما عليه إطباقُ الأكثر، أو لا محلَّ له مِن الإعراب مسرودٌ على نمط التعديد حسبما فُصِّل في أخوَاته.[٦]

وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبرٌ له على الوجه الثاني، ولِمبتدأ محذوف على الوجوه الباقية.

﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ نُظمت نظمًا مُتقنًا لا يعتريه خلل بوجه مِن الوجوه، أو جُعلت حكيمةً لانطوائها على جلائل الحِكَم البالغة ودقائِقها، أو مُنعت مِن النسخ بمعنى: التغيير مطلقًا، أو أُيّدت بالحُجج القاطعة الدالّة على كونِها مِن عند الله عزّ وجلّ، أو على ثبوت مدلولاتها، فالمراد بـ"الآيات": جميعُها، أو على حقّيّة ما تشتمل عليه مِن الأحكام الشرعيّة، فالمراد بها:

---

١ س: مكيّة، وهي.
٢ س - كلُّها مكيّة إلّا قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾... إلخ.
٣ انظر: التبيان للعكبري، ٢/٦٨٨؛ واللباب لابن عادل، ١٠/٤٢٧.
٤ في الكلام على الآية الأولى منها.
٥ هذا الوجه في الكشّاف للزمخشري، ١/٣٥ (البقرة، ٢/١).
٦ انظر تفصيله في الكشّاف للزمخشري، ١/٣٣-٣٥ (البقرة، ٢/١).

بعضُها المشتمِل عليها، كما إذا فُسِّر الإحكامُ بالمنع مِن النسخ بمعنى تبديل الحُكمِ الشرعي خاصّةً.

وأمّا تفسيرُه بالمنع مِن الفساد أخذًا مِن قولهم: "أحكمتُ الدابّة" إذا وضعتَ عليها الحَكَمة[1] لتمنعَها مِن الجِماح،[2] ففيه إيهامُ ما لا يكاد يليق بشأن الآيات الكريمة مِن التداعي إلى الفساد لولا المانع. وفي إسناد "الإحكام" على الوجوه المذكورة إلى آيات الكتاب دون نفسِه لا سيّما على الوجوه الشاملة لكلّ آيةٍ آيةٍ منه مِن حُسن الموقع والدلالة على كونه في أقصى غايةٍ منه ما لا يخفى.

﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ أي جُعلت فُصولًا مِن الأحكام والدلائل والمواعظ والقِصص، أو فُصِل فيها مهمّات العباد / في المَعاش والمَعادِ على الإسناد المجازي. [١١١و]
والتفسير بجعلها آيةً آيةً[3] لا يساعده المقام؛ لأنّ ذلك مِن الأوصاف الأوّليّة لها، فلا يناسبُ عطفُه على إحكامها بكلمة التراخي.

وأمّا المعنيان الأوّلان فهما وإن كانا مع الإحكام زمانًا -حيث لم تزَل الآيات مُحكَمةً مفصَّلة لا أنّها أُحكِمَت أو فُصِّلَت بعد أن لم تكن كذلك، إذ الفعلان مِن قَبيل قولهم: سُبحان مَن صغَّر البعوض وكبَّر الفيل- إلّا أنّهما حيث كانا مِن صفات الآيات باعتبار نسبة بعضِها إلى بعضٍ على وجه يستتبعُ أحكامًا مخصوصة وآثارًا مُعتدًّا بها وبملاحظة مصالح العبادِ ناسَب أن يشار إلى تراخي رتبتِهما عن رتبة الإحكام.

وإن حُمل جَعْلها آيةً آيةً على معنى تفريق بعضها عن بعض يكون مِن هذا القبيل إلّا أنّه ليس في مثابته في استتباع ما يستتبعه مِن الأحكام والآثار، أو فُرِّقت في التنزيل منجَّمة بحسب المصالح، فإن أريدَ تنزيلها المنجَّم بالفعل فالتراخي زمانيٌّ، وإن أريدَ جَعْلها في نفسها بحيث يكون نزولُها منجَّمًا

---

[1] الحَكَمة: حديدة في اللجام تكون على أنف الفَرس وحنَكه تمنعه عن مخالفة راكبه. لسان العرب لابن منظور، «حكم».

[2] القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٨١.

[3] كما في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٨١.

حسبما يقتضيه الحِكمة والمصلحة فهو رُتبيٌّ، لأنّ ذلك وصف لازم لها حقيق بأن يُرتَّب على وصف إحكامها.

وقُرئ: "أَحْكَمْتُ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلْتُ"[١] على صيغة التكلّم، وعن عكرمةَ والضحّاك "ثُمَّ فَصَلَتْ"،[٢] أي: فَرَقتْ بين الحقّ والباطل.

﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ صفة لـ"الكتاب" وُصف بها بعد ما وُصف بإحكام آياتِه وتفصيلِها الدالَّين على عُلوّ رتبته مِن حيث الذاتُ / إبانةً لجلالة [١١١ظ] شأنه مِن حيث الإضافةُ، أو خبرٌ بعد خبر للمبتدأ المذكور أو المحذوف، أو صلةٌ للفعلين. وفي بنائهما للمفعول ثمّ إيرادِ الفاعل بعنوان الحِكمة البالغة والإحاطة بجلائلها ودقائقها منكَّرًا بالتنكير التفخيمي وربطِهما به لا على النهج المعهود في إسناد الأفاعيل إلى فواعلها مع رعاية حُسنِ الطباقِ، مِن الجزالة[٣] والدلالة على فخامتهما وكونِهما على أكمل ما يكون ما لا يُكتنه كُنهُه.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣﴾

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ مفعول له حُذف عنه اللامُ مع فقدان الشرطِ، أعني: كونَه فعلًا لفاعل الفعل المُعلَّل جريًا على سَنن القياس المطَّرد في حذف حرف الجرّ مع "أنْ" المصدريّة، كأنّه قيل: كتابٌ أُحكمَت آياتُه ثمّ فُصّلت لئلّا تعبدوا إلّا اللهَ، أي: لِتتركوا عبادة غير الله عزّ وجلّ وتتمحَّضوا في عبادته، فإنّ الإحكام والتفصيل على ما فُصِّل مِن المعاني ممّا يدعوهم إلى الإيمان والتوحيد

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الزّعفراني وعُبيد بن عُمير واليماني. **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ٩٧٧.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة والضحّاك والجَحدري وزيد بن عليّ وأبو البرَهسَم. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٦٣؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٣١؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ٩٧٧.

٣ السياق: وفي بنائهما... مِن الجزالة...

وما يتفرّع عليه مِن الطاعات قاطبة. وقيل: "أنْ" مُفسِّرةٌ لِما في التفصيل مِن معنى القول، أي قيل: لا تعبدوا إلّا اللهَ.[١]

﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ﴾ مِن جهة الله تعالى ﴿نَذِيرٌ﴾ أُنذركم عذابه إن لـم تتركوا ما أنتم عليه مِن الكُفر وعبادة غير الله تعالى ﴿وَبَشِيرٌ﴾ أُبشِّركم بثوابه إن آمنتُم به وتمحّضتُم في عبادته.

ولمّا ذُكر شئون الكتاب مِن إحكام آياته وتفصيلها وكونِ ذلك مِن قِبَل الله تعالى، وأوردَ مُعظم ما نُظم في سِلك الغاية أو الأمرِ مِن التوحيد وتركِ الإشراك، وُسِّط[٢] بينه وبين قرينيه -أعني: الاستغفارَ والتوبة- ذِكرُ أنّ مَن نُزِّل عليه ذلك

[١١٢و] / الكتاب مُرسَل مِن عند الله تعالى لتبليغ أحكامه وترشيحها بالمؤيِّدات مِن الوعد والوعيدِ، للإيذان بأنّ التوحيد في أقصى مراتب الأهميّة حتّى أُفرد بالذِّكر وأُيِّد إيجابه بالخطاب غِبَّ الكتاب، مع تلويحٍ بأنّه كما لا يتحقّق في نفسه إلّا مقارِنًا للحكم برسالته صلّى الله عليه وسلّم، كذلك في الذِّكر لا ينفكّ أحدهما عن الآخر. وقد رُوعيَ في سَوق الخطاب بتقديم الإنذار على التبشير ما رُوعيَ في الكتاب مِن تقديم النفي على الإثبات والتخلية على التحلية، ليَتجاوبَ أطرافُ الكلام.

ويجوز أن يكون قولُه تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ كلامًا منقطِعًا عمّا قبله واردًا على لسانه عليه السلام إغراءً لهم على اختصاصه تعالى بالعبادة، كأنّه صلّى الله عليه وسلّم قال: تَرْكَ عبادةِ غير الله، أي: الزموه على معنى: اتركوا عبادةَ غير الله تركًا مستمِرًّا إنّني لكم مِن جهة الله نذيرٌ وبشير،[٣] أو: نذيرٌ أُنذِركم مِن عقابه على تقدير استمراركم على الكفر، وبشيرٌ أُبشِّركم بثوابه على تقدير ترككِم له وتوحيدكم.

ولمّا سِيق إليهم حديثُ التوحيدِ وأُكِّد ذلك بخطاب الرسول صلّى الله عليه وسلّم على وجه الإنذار والتبشير شُرع في ذِكر ما هو مِن تتمّاته على وجه يتضمّن تفصيل ما أُجمِل في وصف البشير والنذير، فقيل: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ وهو معطوف على ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ على ما ذُكر مِن الوجهين: فعلى الأوّل

---

١ هذا الوجه في **الكشّاف** للزمخشري، ٢٨١/٢.

٢ السياق: ولمّا ذُكر... وُسِّط...

٣ هذا الوجه في **الكشّاف** للزمخشري، ٢٨١/٢-٢٨٢.

"أنْ" مصدريّة لجواز كون صلتها أمرًا أو نهيًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [يونس، ١٠/١٠٥]، لأنّ مدار جواز كونها فعلًا إنّما هو دلالته على المصدر وهو موجود فيهما، ووجوبُ كونها خبريّة في صلة الموصول الاسمي إنّما هو للتوصّل إلى وصف المعارف / بالجمل، وهي لا تُوصَف بها [١١٢ظ] إلّا إذا كانت خبريّة، وأمّا الموصول الحرفيُّ فليس كذلك.[١] ولمّا كان الخبرُ والإنشاءُ في الدلالة على المصدر سواءً ساغ وقوعُ الأمر والنهي صلةً حسب مَساغ وقوع الفعل، فيتجرّد عند ذلك عن معنى الأمر والنهي نحو تجرُّد الصلة الفعليّة عن معنى المُضيّ والاستقبال.

﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ عطفٌ على ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ﴾ والكلامُ فيه كالكلام فيه، والمعنى: فُعِل ما فُعِل مِن الإحكام والتفصيل لتخصُّوا الله تعالى بالعبادة وتطلُبوا منه سَتر ما فرط منكم مِن الشِّرك ثمّ ترجِعوا إليه بالطاعة، أو تستمرُّوا على ما أنتُم عليه مِن التوحيد والاستغفار، أو تستغفروا مِن الشرك وتتوبوا مِن المعاصي، وعلى الثاني "أنْ" مُفسِّرة، أي: قيل في أثناء تفصيل الآيات: لا تعبدوا إلّا الله واستغفِروه ثمّ توبوا إليه.

والتعرّض لوصف الربوبيّة تلقين للمخاطَبين وإرشادٌ لهم إلى طريق الابتهال في السؤال وترشيحٌ لِما يعقُبه مِن التمتيع وإيتاءِ الفضل بقوله: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ أي: تمتيعًا، وانتصابُه على أنّه مصدر حُذف عنه الزوائد، كقوله تعالى: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح، ٧١/١٧]، أو على أنّه مفعول به، وهو اسم لِما يُتمتَّع به مِن منافع الدنيا مِن الأموال والبنين وغير ذلك، والمعنى: يُعشْكُم عَيشًا مَرضيًّا لا يفوتكم فيه شيء ممّا تشتهون ولا يُنغِّصه شيء مِن المُكدِّرات. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ مُقدَّر عند الله عزّ وجلّ، وهو آخرُ أعماركم، ولمّا كان ذلك غايةً لا يَطمح وراءها طامح جرى التمتيع إليها مَجرى التأبيد عادةً؛ أو لا يُهلككم بهلاك الاستئصال.

﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ﴾ في الطاعة والعملِ ﴿فَضْلَهُۥ﴾ جزاءَ فضله إمّا في الدنيا أو في الآخرة. وهذه تكملة لِما أُجمِل مِن التمتيع / إلى أجل مسمّى، [١١٣و]

---

[١] مضى هذا الكلام للمُصنِّف في سورة يونس، ١٠/١٠٥، وانظر تخريج هذه المسألة ثمّة.

وتبيينٌ لِما عسى يعسُر فهمُ حِكمتِه مِن بعض ما يتّفق في الدنيا مِن تفاوت الحال بين العاملِين، فرُبّ إنسانٍ له فضلُ طاعة وعمل لا يُمتَّع في الدنيا أكثرَ ممّا مُتّع آخرُ دونه في الفضل، ورُبّما يكون المفضول أكثرَ تمتيعًا، فقيل: ويُعطِ كلَّ فاضل جزاءَ فضلِه إمّا في الدنيا كما يتّفق في بعض الموادّ، وإمّا في الآخرة، وذلك ممّا لا مردَّ له.[1] وهذا ضربُ تفصيلٍ لما أُجمل فيما سبق مِن البِشارة.

ثمّ شُرع في الإنذار فقيل: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي: تتولّوا عمّا أُلقي إليكم مِن التوحيد والاستغفار والتوبة، وإنّما أُخِّر عن البِشارة جريًا على سَنَن تقدُّم الرحمة على الغضب، أو لأنّ العذاب قد عُلِّق بالتولّي عمّا ذُكر مِن التوحيد والاستغفار والتوبة، وذلك يستدعي سابقة ذِكره. وقُرئ: "تُوَلُّوا"[2] مِن ولّى.

﴿فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ بموجَب الشفقة والرأفة، أو أتوقّع ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ هو يوم القيامة، وُصف بالكِبَر كما وُصف بالعِظَم في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين، ٨٣/٤-٥]، إمّا لكونه كذلك في نفسه، أو وُصف بوَصْف ما يكون فيه كما وُصف بالثِّقل في قوله تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف، ١٨٧/٧]. وقيل: يوم الشدائد، وقد ابتلُوا بقَحطٍ أكلوا فيه الجِيَف.[3] وأيًّا ما كان ففي إضافة العذاب إليه تهويل وتفظيع له.

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٤﴾

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ رجوعُكم بالموت ثمّ البعث للجزاء في مثل ذلك اليوم لا إلى غيره، جميعًا لا يتخلّف منكم أحد.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيندرج في تلك الكلّيّة قدرتُه على إماتتكم ثمّ بعثِكم وجزائِكم فيعذِّبكم بأفانين العذاب. / وهو تقرير لِما سلف مِن كِبر اليوم، وتعليلٌ [١١٣ظ]
للخوف. ولمّا أُلقيَ إليهم فحوى الكتاب على لسان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم

---

[1] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٨٢/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢١/٢.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر واليماني والأعرج وسهل بن شُعيب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٣؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ٩٧٨.

[3] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢١/٢.

وسِيق إليهم ما ينبغي أن يُساق مِن الترغيب والترهيب وقَع في ذهن السامع أنّهم بعد ما سمِعوا مثلَ هذا المقال الذي تخِرُّ له صُمُّ الجبال، هل قابلوه بالإقبال أم تمادَوا فيما كانُوا عليه مِن الإعراض والضلال؟ فقيل: مصدَّرًا بكلمة التنبيه إشعارًا بأنّ ما يَعقُبها مِن هَناتهم أمر يجب أن يُفهم ويُتعجَّب منه.

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾ يزوَرُّون[١] عن الحقّ وينحرفون عنه، أي: يستمرُّون على ما كانوا عليه مِن التولّي والإعراض، لأنّ مَن أعرض عن شيء ثنى عنه صدره وطوى عنه كَشْحه،[٢] وهذا معنىً جَزْل مناسب لِما سبق، وقد نحا نحوَه العلّامة الزمخشري،[٣] ولكن حيث لم يصلُح التولّي سببًا للاستخفاء في قوله عزّ وجلّ: ﴿لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُ﴾ التجأ إلى إضمار الإرادة حيث قال: ويريدون لِيستخفوا مِن الله تعالى فلا يُطلِعَ رسولَه والمؤمنين على إعراضهم، وجَعْلُه في قَود المعنى إليه مِن قبيل الإضمار في قوله تعالى: ﴿ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء، ٦٣/٢٦]، أي: فضرَب فانفلق.[٤]

ولا يخفى أنّ انسياق الذهن إلى توسيط الإرادةِ بين ثَنْيِ الصدر وبين الاستخفاء ليس كانسياقه إلى توسيط الضرب بين الأمرِ به وبين الانفلاق،[٥] ولعلّ الأظهرَ أنّ معناه: يعطِفون صدورَهم على ما فيها مِن الكفر والإعراض عن الحقّ وعداوة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، بحيث يكون ذلك مَخفيًّا مستورًا فيها، كما يُعطَف الثياب على ما فيها مِن الأشياء المستورة.

وإنّما لم يُذكَر ذلك استهجانًا بذِكره / أو إيماءً إلى أنّ ظهورَه مُغنٍ عن ذِكره، أو لِيَذهبَ ذِهن السامع إلى كلّ ما لا خيرَ فيه مِن الأمور المذكورة [١١٤و]

---

١ ازورّ عن الشيء: عدَل عنه وانحرفَ. لسان العرب لابن منظور، «زور».

٢ طوى فلان كشحه عنّي، أي: أعرَض عنّي مُهاجرًا. لسان العرب لابن منظور، «طوي».

٣ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٨٢/٢.

٤ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٨٢/٢.

٥ وفي هامش م: بين عِلّته ومعلوله، أعني: الأمر به والانفلاق.

فيَدخُل فيه ما ذُكر مِن تولّيهم عن الحقّ الذي أُلقيَ إليهم دخولًا أوّليًا، فحينئذ يظهَر وجهُ كون ذلك سببًا للاستخفاء.

ويُؤيّده ما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله تعالى عنهما أنّها نزلت في الأخنس بن شَريق وكان رجلًا حلوَ المنطِق حسنَ السياق للحديث، يُظهر لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم المحبّة ويُضمِر في قلبه ما يضادُّها.[١] وقال ابن شدّاد:[٢] إنّها نزلت في بعض المنافقين، كان إذا مرَّ برسول الله صلّى الله عليه وسلّم ثنى صدره وظهره وطأطأ رأسَه وغطّى وجهَه كيلا يراه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم.[٣] فكأنّه إنّما كان يصنع ما يصنع؛ لأنّه لو رآه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لم يُمكِنه التخلُّف عن حضور مجلِسه والمصاحبة معه، وربّما يؤدّي ذلك إلى ظهور ما في قلبه مِن الكفر والنفاق.

وقُرئ: "يَثْنَوْنِيْ صُدُورُهَـمْ"[٤] بالياء والثاء مِن "اثنونى": "افعَوْعَلَ" مِن الثَّني، كـ"احلَوْلى" مِن الحَلاوة، وهو بناءُ مبالغة،[٥] وعن ابن عبّاس رضيَ الله عنهما "لَتَثْنَوْنِيْ".[٦] وقُرئ: "تَثْنَوِنُّ"،[٧] وأصله "تَثْنَوْنِنُ" مِن "تَفْعَوْعِلُ" مِن الثِّنّ: وهو ما هشّ مِن الكلأ وضعُف،[٨] يريد مطاوعةَ صدرورهم للثَّني كما يَنْثَني الهشُّ مِن النبات،

---

[١] معالم التنزيل للبغوي، ١٦٠/٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٨٢/٢؛ اللباب لابن عادل، ٢٣٧/١٠-٢٣٨.

[٢] هو عبد الله بن شدّاد بن الهاد الليثي، أبو الوليد (ت. ٨٢هـ/٧٠١م). الفقيه المدني ثم الكوفي، وهو مِن تابعي أهل المدينة، كان ثقة قليلَ الحديث شيعيًا، وأمّه سلمى بنت عُميس. وُلد في عهد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وروى عن أبويه وخالاته ميمونة أمّ المؤمنين وأمّ الفضل زوج العبّاس وأسماء بنت عُميس وعن عمرَ وعليّ وابن مسعود وطلحة ومعاذ وغيرهم، وروى عنه مِن التابعين رِبعي بن حرش وطاوس وغيرهم. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي ٤٨٨/٣؛ والإصابة لابن حجر، ١٣/٥.

[٣] جامع البيان للطبري، ٣١٧/١٢-٣١٨؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٦٠/٤؛ اللباب لابن عادل، ٢٣٧/١٠-٢٣٨.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وابن مِقسَم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٤؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ٩٧٩.

[٥] انظر: المحتسب لابن جنّي، ٣١٩/١؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٨٢/٢.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٤.

[٧] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس والضحّاك ومجاهد ويحيى بن يعمَر وجعفر بن أبي المُغيرة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٤؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٢؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ٩٧٩.

[٨] انظر: المحتسب لابن جنّي، ٣١٩/١؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٨٢/٢.

أو أراد ضعفَ إيمانهم ورخاوةَ قلوبهم.[١] وقُرئ: "تَثْنَئِنُّ"[٢] مِن "اثنانَّ": "افعالَّ" منه، ثمّ هُمِز، كما قيل: "ابْيَأَضّتْ" و"ادْهَأَمّتْ".[٣] وقُرئ: "تَثْنَوِيْ"[٤] بوزن "تَرعَوي".

[١١٤ظ] / ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: يتغطّونها للاستخفاء على ما نُقل عن ابن شدّاد،[٥] أو حين يأوون إلى فراشهم ويتدثّرون بثيابهم، فإنّ ما يقع حينئذ حديثُ النفس عادة. وقيل: كان الرجل مِن الكفّار يدخُل بيته ويُرخي سِتره ويَحني ظهره ويتغشّى بثوبه ويقول: هل يعلَم الله ما في قلبي.[٦] ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ أي: يُضمِرون في قلوبهم. ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: يستوي بالنسبة إلى عِلمه المحيط سِرُّهم وعلنُهم، فكيف يخفى عليه ما عسى يُظهرونه؟

وإنّما قُدّم السرُّ على العلَن نعيًا عليهم مِن أوّل الأمر ما صنعوا، وإيذانًا بافتضاحهم ووقوعِ ما يحذرونه، وتحقيقًا للمساواة بين العِلمين على أبلَغ وجه، فكأنّ عِلمه بما يُسرُّونه أقدمُ منه بما يُعلنونه. ونظيره قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ [آل عمران، ٢٩/٣]، حيث قُدم فيه الإخفاء على الإبداء على عكس ما وقع في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة، ٢٨٤/٢]؛ إذ لم يتعلّق بإشعار أنّ المحاسبة بما يُخفونه أَولى منها بما يُبدونه غرضٌ؛ بل الأمرُ بالعكس، وأمّا ههنا فقد تعلّق بإشعار كون تعلُّق عِلمه تعالى بما يُسرّونه أَولى منه بما يُعلنونه غرضٌ مُهِمٌّ مع كونهما على السويّة، كيف لا، وعِلمُه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصولِ الصورة؛ بل وجودُ كلّ شيء في نفسه عِلمٌ بالنسبة إليه تعالى، وفي هذا المعنى لا يختلف الحال بين الأشياء البارزة والكامنة.

وأمّا قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة، ٣٣/٢]، فحيث كان واردًا بصدد الخطاب مع الملائكة / عليهم السلام المنزَّهِ مقامُهم عن اقتضاء [١١٥و]
التأكيد والمبالغة في الإخبار بإحاطة عِلمه تعالى بالظاهر والباطن لم يُسلَك فيه

---

١ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٨٢/٢.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عروة الأعشى. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٢.
٣ انظر: المحتسب لابن جنّي، ٣١٩/١-٣٢٠؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٨٢/٢.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حاتم عن ابن عبّاس والأعرج وابن عُيينة ويحيى بن يعمَر وابن أبي إسحاق. المغني في القراءات للنَّوزاوازي، ص ٩٧٩.
٥ مضى بتخريجه آنفًا.
٦ القول في معالم التنزيل للبغوي، ١٦١/٤.

ذلك المسلكُ مع أنّه وقع الغُنية عنه بما قبله مِن قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنِّىٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة، ٣٣/٢]. ويجوز أن يكون ذلك باعتبار أنّ مَرتبة السرّ متقدِّمة على مَرتبة العلن إذ ما مِن شيء يُعلَن إلّا وهو أو مَباديه قبل ذلك مُضمَر في القلب، فتعلُّق عِلمه سبحانه بحالته الأُولى متقدِّم على تعلُّقه بحالته الثانية.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تعليل لِما سبق وتقرير له واقع موقع الكبرى مِن القياس. وفي صيغة الفعيل وتحلية الصدور بلام الاستغراق والتعبير عن الضمائر بعنوان صاحبيّتها مِن البراعة ما لا يصفه الواصفون، كأنّه قيل: إنّه مبالغ في الإحاطة بمضمَرات جميع الناس وأسرارهم الخفيّة المستكنّة في صدورهم بحيث لا تُفارقها أصلًا، فكيف يخفى عليه ما يُسرُّون وما يُعلِنون، ويجوز أن يُراد بذات الصدور القلوبُ مِن قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج، ٤٦/٢٢]، والمعنى: إنّه عليم بالقلوب وأحوالها فلا يخفى عليه سرّ مِن أسرارها.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلًاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ غذاؤها اللائق بها مِن حيث الخلقُ ومِن حيث الإيصالُ إليها بطريق طبيعي أو إرادي لتكفّله إيّاه تفضُّلًا ورحمةً، وإنّما جيء به على طريق الوجوب اعتبارًا لسبق الوعدِ وتحقيقًا لوصوله إليها البتّةَ، وحملًا للمكلَّفين على الثقة به تعالى والإعراضِ عن إتعاب النفس في طلبه.

[١١٥ظ] ﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا﴾ محلَّ قرارِها / في الأصلاب ﴿وَمُسۡتَوۡدَعَهَا﴾ موضعَها في الأرحام وما يجري مَجراها مِن البَيض ونحوها. وإنّما خُصّ كلّ مِن الاسمين بما خُصّ به مِن المَحلَّين لأنّ النطفة بالنسبة إلى الأصلاب في حيّزها الطبيعي ومَنشئها الخلقي، وأمّا بالنسبة إلى الأرحام وما يجري مَجراها فهي مُودَعة فيها

إلى وقت معيَّن، أو مَسكنَها[1] مِن الأرض حين وُجدت بالفعل، ومُودَعَها مِن الموادّ والمقارّ حين كانت بعدُ بالقوّة. ولعلّ تقديمَ محلِّها باعتبار حالتها الأخيرة لرعاية المناسبة بينها وبين عنوان كونها دابّة في الأرض.

والمعنى: مَا مِن دابّة في الأرض إلّا يرزقها الله تعالى حيث كانت مِن أماكنها يسوقُه إليها، ويعلَم موادَّها المتخالفة المندرِجة في مراتب الاستعدادات المتفاوتة المتطوّرة في الأطوار المتباينة ومقارَّها المتنوّعة، ويُفيض عليها في كلّ مرتبةٍ ما يليق بها مِن مبادي وجودها وكمالاتها المتفرِّعة عليه. وقد فُسِّر المستودَع بأماكنها في الممات،[2] ولا يلائمه مقام التكفّل بأرزاقها.

﴿كُلٌّ﴾ مِن الدوابّ ورزقها ومستقرِّها ومستودِعِها. ﴿فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي: مُثبتٍ في اللوح المحفوظ البيّن لمَن ينظر فيه مِن الملائكة عليهم السلام، أو المُظهِر لِما أُثبت فيه للناظرين.

ولمّا انتهى الأمر إلى أنّه سبحانه محيط بجميع أحوال ما فى الأرض مِن المخلوقات التي لا تكاد تُحصى مِن مبدأ فطرتها إلى منتهاها اقتضى الحال / التعرّض [١١٦و]
لمبدأ خَلْق السماوات والأرض والحكمة الداعية إلى ذلك فقيل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ السماوات في يومين والأرض في يومين وما عليها مِن أنواع الحيوان والنبات وغير ذلك في يومين، حسبما فُصِّل في سورة حم السجدة،[3] ولم يُذكر خلقُ ما في الأرض لكونه مِن تتمّات خلقها، وهو السرّ في جَعْل زمان خلقه تتمّةً لزمان خلقها في قولِه تعالى: ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت، ١٠/٤١]، أي: في تتمّة أربعة أيّام، والمراد بالأيّام: الأوقات، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾ [الأنفال، ١٦/٨]، أي: في ستّة أوقات، أو مقدار ستّة أيّام، فإنّ اليوم في المتعارَف: زمانُ كون الشمس فوق الأرض، ولا يتصوَّر ذلك حين لا أرض ولا سماء.

وفي خَلْقها مُدرَّجًا مع القدرة التامّة على خَلْقها دفعةً دليلٌ على أنّه قادر مختار، واعتبارٌ للنُّظّار، وحثٌّ على التأنّي في الأمور. وأمّا تخصيص ذلك بالعدد

---

١ السياق: موضعَها في الأرحام... أو مسكنَها...
٢ كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٢/٢.
٣ يعني: الآيات ٩-١٢ مِن سورة فصِّلت.

المعيَّن فأمرٌ استأثر بعِلم ما يقتضيه علّام الغيوب جلّت حِكمته. وإيثارُ صيغة الجمع في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لِما هو المشهور مِن الإشارة إلى كونها أجرامًا مختلفة الطبائع ومتفاوتة الآثار والأحكام.

﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ﴾ قبل خلقِهما ﴿عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ ليس تحته شيء غيرُه، سواءٌ كان بينهما فُرجة أو كان موضوعًا على متنه، كما ورد في الأثر،[١] فلا دلالةَ فيه على إمكان الخلاء، كيف لا، ولو دلّ لدلّ على وجوده لا على إمكانه فقط، ولا على كون الماء أوّلَ ما حدث في العالم بعد العرش، وإنما يدلّ على أنّ خَلْقهما أقدم مِن خلق السماوات والأرض مِن غير تعرُّض للنسبة بينهما.

[١١٦ظ] ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾ متعلّق بـ﴿خَلَقَ﴾، أي: خلق / السماواتِ والأرض وما فيها[٢] مِن المخلوقات التي مِن جملتها أنتم، ورتَّب فيهما جميع ما تحتاجون إليه مِن مبادي وجودكم وأسباب مَعايشكم، وأودَع في تضاعيفهما مِن تعاجيب الصنائع والعِبَر ما تستدلُّون به على مطالبكم الدينيّة ليُعاملَكم معاملة مَن يبتليكم ﴿أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾، فيُجازيكم بالثواب والعقاب غِبّ ما تبيَّن المحسن مِن المسيء، وامتازت درجات أفراد كلّ مِن الفريقين حسب امتياز طبقاتِ علومِهم واعتقاداتِهم المترتِّبة على أنظارهم فيما نُصب مِن الحُجج والدلائل والأمارات والمَخايل ومراتب أعمالهم المتفرِّعة على ذلك، فإنّ العمل غير مختصّ بعمل الجوارح، ولذلك فسَّره صلّى الله عليه وسلّم بقوله: «أيّكم أحسنُ عقلًا وأورَعُ عن محارمِ الله وأسرعُ في طاعةِ الله»،[٣] فإنّ لكلّ مِن القلب والقالَب عملًا مخصوصًا به، فكما أنّ الأوّل أشرف مِن الثاني فكذا الحالُ في عمله، كيف لا، ولا عملَ بدون معرفة الله عزّ وجلّ الواجبة على العباد آثرَ ذي أثير، وإنّما طريقُها النظري التفكّر في بدائع صنائع المَلِك الخلّاق والتدبّر في آياته البيِّنات المنصوبة في الأنفس والآفاق، ولا طاعةَ بدون فَهْم ما في مطاوي الكتاب الحكيم مِن الأوامر والنواهي وغيرِ ذلك ممّا له مَدخلٌ في الباب.

---

١ انظر تلك الآثار في جامع البيان للطبري، ١٢/٣٣١-٣٣٤.

٢ س: فيهما.

٣ جامع البيان للطبري، ١٢/٣٣٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٨٣. وانظر لتفصيل تخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢/١٤٥-١٤٦.

وقد رُوي عنِ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «لا تُفضِّلوني على يونسَ بن مَتّى فإنّه كان يُرفع له كلّ يومٍ / مثلُ عمل أهلِ الأرض»،[1] قالوا: وإنّما كان ذلك التفكّر في أمر الله عزّ وجلّ الذي هو عمل القلب، لأنّ أحدًا لا يقدر على أن يعمل في اليوم بجوارحه مثلَ عمل أهل الأرض. [١١٧و]

وتعليقُ فعل البلوى، أي: تعقيبُه بحرف الاستفهام لا التعليقُ المشهور الذي يقتضي عدم إيراد المفعول أصلًا مع اختصاصه بأفعال القلوب لِما فيه مِن معنى العِلم باعتبار عاقبته كالنظر ونظائره، ولذلك أُجريَ مُجراه بطريق التمثيل أو الاستعارة التبَعيّة.

وإيراد صيغة التفضيل مع أنّ الابتلاء شامل للفريقين باعتبار أعمالهم المُنقسِمة إلى الحسَن والقبيح أيضًا لا إلى الحسَن والأحسن فقط، للإيذان بأنّ المراد بالذات والمقصودَ الأصلي ممّا ذُكر مِن إبداع تلك البدائع على ذلك النمط الرائع إنّما هو ظهور كمال إحسان المُحسنين، وأنّ ذلك لكونه على أتمّ الوجوه اللائقةِ وأكملِ الأساليب الرائقة يُوجِب العمل بموجبه بحيث لا يَحيد أحد عن سَننه المستبين؛ بل يهتدي كلُّ فرد إلى ما يُرشد إليه مِن مطلق الإيمان والطاعة، وإنّما التفاوت بينهم في مراتبهما بحسب القوّة والضعف والكثرة والقِلّة.

وأمّا الإعراضُ عن ذلك والوقوعُ في مهاوي الضلال فبمَعزِل مِن الاندراج تحت الوقوع فضلًا عن أن يُنظَم ظهورُه في سِلك العِلّة الغائيّة لذلك الصُّنع البديع، وإنّما هو عمل يصدُر عن عامله بسوء اختياره مِن غير مصحِّح له ولا تقريب. ولا يخفى ما فيه مِن الترغيبِ في الترقّي إلى معارج العلوم ومدارجِ الطاعات والزجر عن مباشرة نقائضها. والله تعالى أعلمُ.

﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ﴾ على ما يُوجبه قضيّةُ الابتلاء ليترتَّبَ عليه الجزاء المتفرّعُ على ظهور مراتب الأعمال. ﴿لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ إن وُجِّه الخطاب في قوله تعالى إنكم إلى جميع / المكلّفين فالموصول مع صلته [١١٧ظ]

---

[1] لم أجده في مظانّه. وهو في الكشّاف للزمخشري، ١/٣٤٧ (آل عمران، ٣/١٩١). وقال عنه الزّيلعيّ في تخريج أحاديث الكشّاف، ١/٢٦٤: «غريب جدًّا».

للتخصيص، أي: ليقُولَنّ الكافرون منهم، وإن وُجّه إلى الكافرين منهم فهو واردٌ على طريقة الذمّ.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: مثلُه في الخديعة أو البطلان. وهذا إشارة إلى القول المذكور، أو إلى القرآن فإنّ الإخبار عن كونهم مبعوثين وإن لم يجب كونه بطريق الوحي المتلوّ إلّا أنّهم عند سماعهم ذلك تخلّصوا إلى القرآن لإنبائه عنه في كلّ موضع وكونه علَمًا عندهم في ذلك، فعمَدوا إلى تكذيبه وتسميته سِحرًا تماديًا منهم في العِناد وتفاديًا عن سَنن الرشاد. وقيل: هو إشارة إلى نفس البعث.[١] ولا يلائمه التسميةُ بالسِّحر فإنّه إنّما يُطلَق على شيء موجود ظاهرًا لا أصلَ له في الحقيقة، ونفسُ البعث عندهم معدوم بحت.

وتعلّقُ الآية الكريمة بما قبلها إمّا مِن حيثُ إنّ البعث كما أُشيرَ إليه مِن تتمّات الابتلاء المذكور، فكأنّه قيل: الأمرُ كما ذُكر، ومع ذلك إن أخبرتَهم بمقدِّمة فذّة مِن مقدِّماته وقضيّة فَرْدة مِن تتمّاته لا يتلعثمون في الردّ ويعدّون ذلك مِن قبيلِ ما لا صحّةَ له أصلًا فضلًا عن تصديق ما هذه مِن تتمّاته، وإمّا مِن حيثُ إنّ البعث خَلْق جديد، فكأنّه قيل: وهو الذي خلق جميع المخلوقات ابتداءً لهذه الحكمة البالغة، ومع ذلك إن أخبرتَهم بأنّه يُعيدهم تارة أخرى وهو أهونُ عليه يقولون ما يقولون، فسبحانَ الله عمّا يصفون.

وقرأ حمزة[٢] والكسائي "إلّا سَاحِرٌ"[٣] على أنّ الإشارة إلى القائل أو إلى القرآن، على أسلوب "شِعرٌ شاعرٌ". وقُرئ بالفتح[٤] على تضمين ﴿قُلْتَ﴾ معنى "ذكرتَ"،

---

[١] كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٢٢.

[٢] هو حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل التيمي الزيّات (ت. ١٥٦هـ/٧٧٣م). الإمام القدوة، وأحد القرّاء السبعة، أصله فارسي، وكان مولى التيم فنُسب إليهم، كان إمامًا قيّمًا لكتاب الله، قانتًا لله، ثخين الورع، رفيع الذِّكر، عالمًا بالحديث والفرائض. أدرك الصحابة بالسنّ فيحتمل أن يكون رأى بعضهم. وكان يجلب الزيت مِن الكوفة إلى حلوان ويجلب الجبن والجوز إلى الكوفة. ومات بحلوان. تلا عليه حمران بن أعين والأعمش وابن أبي ليلى وغيرهم، وحدّث حمزة عن عديّ بن ثابت والحَكَم وعمرو بن مُرّة وغيرهم، وأخذ عنه القراءة عدد كبير كسُليم بن عيسى، والكسائي وعابد بن أبي عابد. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٧/٩٠؛ وغاية النهاية لابن الجزري، ١/٢٦١؛ والأعلام للزركلي، ٢/٢٧٧.

[٣] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٦.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٤.

/ أو على أنّ "أنك" بمعنى "عنك" في "علّك"، أي: ولئن قلتَ لعلّكم مبعوثون [١١٨و]
على أنّ الرجاء والتوقّع باعتبار حال المخاطَبين، أي: توقّعوا ذلك، ولا تبتُّوا القول بإنكاره، أو على أنّه مجاراة معهم في الكلام على نَهْج المساعدة لئلا يسارعوا إلى اللَّجاج والعِناد ريثما قَرَع أسماعَهم بتُّ القول، بخلاف ما أَلِفوا وأَلْفَوا عليه آباءهم مِن إنكار البعث، ويكون ذلك أدعى لهم إلى التأمّل والتدبّر، وما فعلوه قاتلهم الله أنّى يُؤفكون.

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٨﴾

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ المترتِّب على بَعْثهم، أو العذابَ الموعود في قوله تعالى: ﴿وَإِن[١] تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾.[٢] وقيل: عذاب يوم بدر.[٣] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه قَتْلُ جبريلَ عليه السلام للمستهزئين.[٤] والظاهر أنّ المراد به العذابُ الشامل للكفرة دون ما يُخَصّ ببعض منهم، على أنّه لم يكن موعودًا يستعجل منه المجرمون. ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ إلى طائفة مِن الأيّام قليلةٍ؛ لأنّ ما يحصُره العدُّ قليل.

﴿لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ أي: أيُّ شيء يمنعه مِن المجيء، فكأنّه يريده فيَمنعه مانعٌ، وإنّما كانوا يقولونه بطريق الاستعجال استهزاء لقوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ومرادهم إنكار المجيء والحبسِ رأسًا، لا الاعترافُ به والاستفسارُ عن حابسه.

﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ ذلك ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا﴾ محبوسًا ﴿عَنْهُمْ﴾، على معنى أنّه لا يرفعه رافع أبدًا إن أُريد به عذاب الآخرة، أو لا يدفعه عنكم دافع؛ بل هو واقع بكم إن أريدَ به عذاب الدنيا. و﴿يَوْمَ﴾ منصوب بخبر ﴿لَيْسَ﴾ مقدَّمًا عليه.
واستدلّ به البصريّون على جواز تقديمه على "ليس"؛ إذ المعمول / تابع للعامل [١١٨ظ]

---

[١] م س: فإن.
[٢] هود، ٣/١١.
[٣] القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٨٤/٢.
[٤] عن ابن عبّاس في التفسير البسيط للواحدي، ٣٥٨/١١؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٨٤/٢. ولم أقف عليه في مظانّه.

فلا يقع إلّا حيث يقع متبوعه. ورُدّ بأنّ الظرف يُجوِّز فيه ما لا يُجوِّز في غيره توسُّعًا، وبأنّه قد يُقدَّم المعمول حيث لا مجالَ لتقدُّم العامل، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى، ٩٣/٩-١٠]، فإنّ ﴿ٱلْيَتِيمَ﴾ و﴿ٱلسَّآئِلَ﴾ مع كونهما منصوبَين بالفعلين المجزومين قد تقدَّما على "لا" الناهية مع امتناع تقدُّم الفعلين عليها. قال أبو حيّان: وقد تتبَّعتُ جملة مِن دواوين العرب فلم أظفَر بتقديم خبر "ليس" عليها، ولا بتقديم معموله، إلّا ما دلّ عليه ظاهرُ هذه الآية الكريمة وقولُ الشاعر:[1]

فيأبى فما يزدادُ إلّا لجاجةً وكنتُ أبيًّا في الخَنا لست أُقدِمُ[2]

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: أحاط بهم ﴿مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: العذابُ الذي كانوا يستعجلون به استهزاءً. وفي التعبير عنه بالموصول تهويلٌ لمكانه، وإشعارٌ بعلِّيّة ما ورد في حيّز الصلة مِن استهزائهم به لنزوله وإحاطته. والتعبير عنها بالماضي وارد على عادة الله تعالى في أخباره؛ لأنّها في تحقّقها وتيقّنها بمنزلة الكائنة الموجودة، وفي ذلك مِن الفخامة والدلالة على علوّ شأن المُخبِر وتقرير وقوع المُخبَر به ما لا يخفى.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩﴾

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ أي: أعطيناه نعمةً مِن صحّة وأمن وجِدَة وغيرها وأوصلناها إليه بحيث يجد لذّتها، ﴿ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ﴾ أي: سلبناه إيّاها. وإيرادُ النزع للإشعار بشِدّة تعلُّقه بها وحِرصه عليها.

﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ﴾ شديدُ القُنوط مِن رَوْح الله، قَطوعٌ رجاءَه مِن عَود أمثالها عاجلًا أو آجلًا بفَضل الله تعالى لقِلّة صبره وعدم توكّله عليه وثِقته به،

---

[1] الكلام مِن قوله: "واستدلّ به البصريّون" بلفظ قريب جدًّا في اللباب لابن عادل، ١٠/٤٤٣. وهو بمعناه في البحر المحيط لأبي حيّان، ٦/١٢٧. وانظر تفصيل هذه المسألة في الإنصاف للأنباري، ١/١٦٠-١٦٤.

[2] ما عرفتُ قائله. والبيت بلا نسبة في البحر المحيط لأبي حيّان، ٦/١٢٧؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٦/٢٩٢؛ واللباب لابن عادل، ١٠/٤٤٣. والخنا: الفُحش وقبيح الكلام. انظر: لسان العرب لابن منظور، «خنا».

/ ﴿كَفُورٌ﴾ عظيمُ الكُفران لِما سلف مِن النِّعم. وفيه إشارة إلى أنّ النزع إنّما كان [١١٩و]
بسبب كفرانهم بما كانوا يتقلّبون فيه مِن نِعَم الله عزّ وجلّ. وتأخيره عن وصف يأسِهم مع تقدّمه عليه لرعاية الفواصل، على أنّ اليأس مِن فضل الله سبحانه وقَطْعَ الرجاء عن إفاضة أمثاله في العاجل وإيصالِ أجره في الآجل مِن باب الكُفران للنعمة السالفة أيضًا.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ١٠﴾

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ كصِحّة بعد سَقَم وجِدَة بعد عَدَم وفرَج بعد شِدّة. وفي التعبير عن مُلابَسة الرحمة والنعماء بـ"الذوق" المؤذِن بلذّتهما وكونهما ممّا يُرغب فيه، وعن مُلابَسة الضرّاء بـ"المسّ" المُشعِر بكونها في أدنى ما ينطلِق عليه اسم المُلاقاة مِن مراتبها، وإسنادِ الأوّل إلى الله عزّ وجلّ دون الثاني، ما لا يخفى مِن الجزالة[١] والدلالة على أنّ مراده تعالى إنّما هو إيصال الخير المرغوب فيه على أحسن ما يكون، وأنّه إنّما يُريد بعباده اليُسر دون العُسر وإنّما ينالهم ذلك بسوء اختيارهم نيلًا يسيرًا كأنّما يُلاصق البشرة مِن غير تأثير، وأمّا نزعُ الرحمة فإنّما صدَر عنه بقضيّة الحِكمة الداعية إلى ذلك وهي كفرانهم بها كما سبق. وتنكيرُ الرحمة باعتبار لحوق النزع بها.

﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ﴾ أي: المصائب التي تَسوءني، ولن يعترِيَني بعدُ أمثالُها كما هو شأنُ أولئك الأشرار، فإنّ الترقّب لورود أمثالها مما يُكدِّر السرور ويُنغِّص العيش. ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ﴾ بطِر وأشِر بالنِّعم مغترٌّ بها. ﴿فَخُورٌ﴾ على الناس
بما أُوتيَ مِن النِّعم، / مشغولٌ بذلك عن القيام بحقّها، واللام في ﴿لَئِنْ﴾ في [١١٩ظ]
الآيات الأربع مُوطِّئة للقسَم وجوابه سادّ مسدَّ جواب الشرط.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ١١﴾

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على ما أصابهم مِن الضرّاء سابقًا أو لاحقًا إيمانًا بالله واستسلامًا لقضائه، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ شكرًا على آلائه السالفة والآنفة.

---

[١] السياق: وفي التعبير... ما لا يخفى...

واللام في ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾[1] إمّا لاستغراق الجنس فالاستثناءُ متّصل، أو للعهد فمُنقطعٌ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتّصافه بما في حيّز الصلة وما فيه مِن معنى البعد للإيذان بعُلوّ درجتهم وبُعدِ منزلتهم في الفضل، أي: أولئك الموصوفون بتلك الصفات الحميدة ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ عظيمة لذنوبهم وإن جمّت ﴿وَأَجۡرٞ﴾ ثواب لأعمالهم الحسنة ﴿كَبِيرٞ﴾.

ووجهُ تعلُّق الآيات الثلاثِ بما قبلهنّ مِن حيث إنّ إذاقة النَّعماء ومِساسَ الضّراء فصل مِن باب الابتلاء واقعٌ موقعَ التفصيل مِن الإجمال الواقع في قوله تعالى: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾.[2] والمعنى أنّ كلًّا مِن إذاقة النَّعماء ونزعها مع كونه ابتلاء للإنسان أيَشكُر أم يكفُر لا يهتدي إلى سَنن الصواب؛ بل يحيد في كلتا الحالتين عنه إلى مهاوي الضلال فلا يَظهر منه حُسن عمل إلّا مِن الصابرين الصالحين، أو مِن حيث إنّ إنكارهم بالبعث واستهزائَهم بالعذاب بسبب بطَرهم وفخرهم، كأنّه قيل: إنّما فعلوا ما فعلوا لأنّ طبيعة الإنسان مجبولة على ذلك.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ١٢﴾

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ مِن البيّنات الدالّة على حقّيّة نبوّتك المنادية بكونها مِن عند الله عزّ وجلّ لمَن له أُذنٌ واعية. ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ أي: عارض لك ضِيقُ صَدر بتلاوته / عليهم وتبليغه إليهم في أثناء الدعوة والمُحاجّة. [١٢٠و]

﴿أَن يَقُولُواْ﴾ لأن يقولوا تعامِيًا عن تلك البراهين التي لا تكاد تخفى صحّتُها على أحد ممّن له أدنى بصيرة وتماديًا في العِناد على وجه الاقتراح: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ﴾ مال خطير مخزون يدلّ على صِدقه، ﴿أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ يُصدِّقه. قيل: قاله عبد الله بن أميّةَ المخزوميُّ.[3] ورُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما:

---

[1] هود، ٩/١١.

[2] هود، ٧/١١.

[3] معالم التنزيل للبغوي، ١٦٤/٤.

أنّ رؤساءَ مكّةَ قالوا: «يا محمّد، اجعل لنا جبال مكّةَ ذهبًا إن كنتَ رسولًا»، وقال آخرون: «ائتنا بالملائكة يشهدوا بنبوّتك»، فقال: «لا أقدِر على ذلك»، فنزلت.[١]

فكأنّه صلّى الله عليه وسلّم لمّا عايَن اجتراءهم على اقتراح مثل هذه العظائم غيرَ قانعين بالبيّنات الباهرة التي كانت تضطرّهم إلى القبول لو كانوا مِن أرباب العقول، وشاهَد ركوبهم مِن المُكابَرة متن كلّ صَعْب وذَلول مُسارعين إلى المقابلة بالتكذيب والاستهزاء وتسميتِها سحرًا، مُثِّل[٢] حاله عليه السلام بحال مَن يُتوقّع منه أن يضيق صدره بتلاوة تلك الآيات الساطعة عليهم وتبليغها إليهم، فحُمل على الحذر منه بما في "لعلّ" مِن الإشفاق فقيل: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ ليس عليك إلّا الإنذار بما أُوحي إليك غيرَ مُبالٍ بما صدر عنهم مِن الردّ والقَبول.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ يحفظ أحوالك وأحوالهم، فتوكّل عليه في جميع أمورك فإنّه فاعل بهم ما يليق بحالهم، والاقتصارُ على النذير في أقصى غاية مِن إصابة المَحزّ.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أُضرِب بـ﴿أَمْ﴾ المنقطِعة عن ذِكر تَرْك اعتدادهم[٣] بما يُوحى وتهاوِنهم به وعدمِ اقتناعهم بما فيه مِن المعجزات الظاهرة الدلالة على كونه مِن عند الله عزّ وجلّ، / وعلى حقّيّة نبوّته صلّى الله عليه وسلّم، وشُرع [١٢٠ظ]
في ذِكر ارتكابهم لِما هو أشدّ منه وأعظمُ. وما فيها مِن معنى الهمزة للتوبيخ والإنكار والتعجيب. والضمير المستكنّ في ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم، والبارزُ لِما يوحى، أي: بل أيقولون افتراه وليس مِن عند الله؟

﴿قُلْ﴾ إن كان الأمر كما تقولون ﴿فَأْتُوا۟﴾ أنتم أيضًا ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ في البلاغة وحُسن النظم، وهو نعت لـ﴿سُوَرٍ﴾، أي: أمثاله، وتوحيدُه إمّا باعتبار

---

[١] مرويّ عن ابن عبّاس في تفسير الرازي، ٣٢٣/١٧؛ واللباب لابن عادل، ٤٤٧/١٠. ولم أقف عليه في مظانّه.

[٢] السياق: لمّا عاين... مُثِّل...

[٣] س: اعتداد.

مماثلة كلّ واحدة منها، أو لأنّ المطابقة ليست بشرط حتّى يوصَفُ[١] المثنّى بالمفرد، كما في قوله تعالى: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون، ٤٧/٢٣]، أو للإيماء إلى أنّ وجه الشبَه ومدار المماثلة في الجميع شيء واحد هو البلاغة المؤدّية إلى مرتبة الإعجاز، فكأنّ الجميع واحد.

﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ صفة أخرى لـ﴿سُوَرٍ﴾، أُخِرت عن وصفها بالمماثلة لِما يُوحى؛ لأنّها الصفة المقصودة بالتكليف، إذ بها يظهَر عجزهم وقعودهم عن المعارضة، وأمّا وَصْف الافتراء فلا يتعلّق به غرض يدور عليه شيء في مقام التحدّي، وإنّما ذُكر على نهج المساهلة وإرخاء العِنان، ولأنّه لو عُكس الترتيب لَربّما تُوهِّم أنّ المراد هو المماثلة في الافتراء، والمعنى: فأتوا بعشر سُور مماثلة له في البلاغة مُختلَقات مِن عند أنفسكم إن صحّ أنّي اختلقتُه مِن عندي، فإنكم أقدَر على ذلك منّي؛ لأنكم عرَب فصحاءُ بُلغاءُ قد مارستُم مبادي ذلك مِن الخُطَب والأشعار، وحفظتُم الوقائع والأيّام، وزاولتُم أساليب النظم والنثر.

﴿وَٱدْعُواْ﴾ للاستظهار في المعارضة ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾ دعاءَه والاستعانة به مِن آلهتكم التي تزعمون أنّها مُمِدّةٌ لكم في كلّ ما تأتون وتذرون، والكهَنةِ ومَدارهِكم[٢] الذين تلجئون إلى آرائهم في المُلمّات ليُسعدوكم فيها. ﴿مِن دُونِ
[١٢١و] ٱللَّهِ﴾ متعلِّق بـ﴿ٱدْعُواْ﴾، أي: متجاوزين الله / تعالى. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنّي افتريتُه، فإنّ ذلك يستلزِم إمكان الإتيان بمثله، وهو أيضا يستلزم قدرتَكم عليه. والجواب محذوف يدلّ عليه المذكور.

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ أي: فإن لم يفعلوا ما كُلِّفوه مِن الإتيان بمِثله، كقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾ [البقرة، ٢٤/٢]. وإنّما عُبِّر عنه بالاستجابة إيماءً إلى أنّه صلّى الله عليه وسلّم على كمال أمن مِن أمره، كأنّ أمْره لهم بالإتيان بمِثله دعاءٌ لهم

---

١ ضُبط بالرفع في م.

٢ المَدَاره جمع مِدْرَه: زعيم القوم وخطيبهم والمُتكلِّم عنهم والذي يرجعون إلى رأيه. انظر: لسان العرب لابن منظور، «دره».

إلى أمر يُريد وقوعه. والضمير في ﴿لَكُمْ﴾ للرسول عليه السلام، والجمعُ للتعظيم، كما في قول مَن قال:

وإن شئتِ حرَّمتُ النساءَ سواكمُ[1]

أو له[2] وللمؤمنين لأنّهم أتباع له عليه السلام في الأمر بالتحدّي. وفيه تنبيهٌ لطيف على أنّ حقّهم ألّا ينفكّوا عنه عليه السلام ويُناصبوا معه لمعارضة المعاندين كما كان يفعلونه في الجهاد، وإرشادٌ إلى أنّ ذلك ممّا يفيد الرسوخ في الإيمان والطمأنينةَ في الإيقان، ولذلك رُتِّب عليه قوله عزّ وجلّ: ﴿فَاعْلَمُوٓا۟﴾ أي: اعلموا حين ظهر لكم عجزُهم عن المعارضة مع تهالكهم عليها عِلمًا يقينيًّا مُتاخمًا لعين اليقين بحيث لا مجالَ معه لشائبة ريب بوجه مِن الوجوه، كأنّ ما عداه مِن مراتب العلم ليس بعِلم، لكن لا للإشعار بانحطاط تلك المراتب؛ بل بارتفاع هذه الرتبة، وبه يتّضح سرّ إيراد كلمة الشكّ مع القطع بعدم الاستجابة، فإنّ تنزيل سائر المراتب منزلةَ العدم مُستتبع لتنزيل الجزم بعدم الاستجابة منزلةَ الشكّ فيه، أو اثبُتوا[3] واستمِرّوا على ما كنتُم عليه مِن العِلم.

﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ﴾ ملتبِسًا ﴿بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ المخصوصِ به، بحيث لا تحوم حوله العقول والأفهامُ مستبدًّا بخصائص الإعجاز مِن جهتَي النظم الرائق والإخبارِ بالغيب.

﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: واعلموا أيضًا ألّا شريكَ له في الألوهيّة وأحكامها، ولا يقدِر على ما يقدِر عليه أحد. ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: مخلِصون في الإسلام أو ثابتون عليه، وهذا مِن باب التثبيت والترقية إلى معارج اليقين.

ويجوز أن يكون الخطاب في الكلّ للمشركين مِن جهة الرسول صلّى الله عليه وسلّم داخلًا تحت الأمر بالتحدّي، والضمير في ﴿لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾ لـ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾،[4] أي: فإن لم يستجب لكم / آلهتكم وسائر مَن إليهم تجأرون [١٢١ظ]
في مُهمّاتكم ومُلمّاتكم إلى المعاونة والمظاهَرة، فاعلموا أنّ ذلك خارج

---

[1] وفي هامش م: تمامه:
وإن شئتِ لم أطعَم نُقاخًا ولا بَرْدا
البيت لعمر بن أبي ربيعة. ومضى بتخريجه في سورة البقرة، ٢/٢٤٩.

[2] أي: الرسول عليه السلام.

[3] السياق: اعلموا حين ظهر... أو اثبتوا واستمِرُّوا...

[4] في الآية السابقة.

عن دائرة قُدرة البشر، وأنّه مُنزّل مِن خالق القُوى والقُدَر، فإيرادُ كلمة الشكّ[١] حينئذ مع الجزم بعدم الاستجابة مِن جهة آلهتهم تهكُّم بهم، وتسجيلٌ عليهم بكمال سخافة العقل.

وترتيبُ الأمر بالعِلم على مجرّد عدم الاستجابة مِن حيث إنّه مسبوق بالدعاء المسبوق بعجزهم واضطرارهم، فكأنّه قيل: فإن لم يستجيبوا لكم عند التجائكم إليهم بعد ما اضطُررتُم إلى ذلك وضاقت عليكم الحِيَل وعيَّت بكم العِلَل، أو مِن حيث إنّ مَن يستمِدّون بهم أقوى منهم في اعتقادهم، فإذا ظهَر عجزهم بعدم استجابتهم وإن كان ذلك قبل ظهور عَجْز أنفسهم يكون عجزهم أظهرَ وأوضحَ، واعلموا أيضًا أنّ آلهتكم بمَعزِل عن رتبة الشِّركة في الألوهيّة وأحكامها، فهل أنتم داخلون في الإسلام؟ إذ لم يبقَ بعدُ شائبة شُبهة في حقّيّته وفي بُطلان ما كنتُم فيه مِن الشِّرك، فيدخُل فيه الإذعان لكون القرآن مِن عند الله تعالى دُخولًا أوّليًا، أو منقادون للحقّ الذي هو كون القرآن مِن عند الله تعالى وتاركون لِما كنتُم فيه مِن المكابرة والعِناد. وفي هذا الاستفهام إيجابٌ بليغ لِما فيه مِن معنى الطلب والتنبيهِ على قيام المُوجب وزوالِ العُذر، وإقناطٌ مِن أن يُجيرهم آلهتُهم مِن بأس الله عزّ سلطانه.

هذا، والأوّل أنسبُ لِما سلف مِن قوله تعالى: ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾،[٢] ولِما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ﴾،[٣] وأشدُّ ارتباطًا بما يعقُبه، كما ستُحيط به خُبرًا.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٦ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٧﴾

---

١ أي: لفظ "إنْ".

٢ هود، ١١/١٢.

٣ هود، ١١/١٧.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي: ما يُزيّنها ويُحسِّنها مِن الصحّة والأمن والسَّعة في الرزق وكثرةِ الأولاد والرياسة وغير ذلك، والمراد بالإرادة ما يحصُل عند مباشرة الأعمال لا مجرّدُ الإرادة / القلبيّة، لقوله تعالى: ﴿نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا﴾. [١٢٢و]

وإدخال ﴿كَانَ﴾ عليها[١] للدلالة على استمرارها منهم بحيث لا يكادون يريدون الآخرة أصلًا. وليس المراد بأعمالهم أعمالَ كلِّهم، فإنّه لا يجِد كلُّ مُتمَنٍّ ما يتمنّاه ولا كلُّ أحدٍ ينال كلّ ما يهواه، فإنّ ذلك مَنوط بالمشيئة الجارية على قضيّة الحكمة، كما نطق به قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء، ١٨/١٧]، ولا كلُّ أعمالِهم؛ بل بعضُها الذي يترتّب عليه الأمور المذكورة بطريق الأجر والجزاء مِن أعمال البرّ، وقد أُطلقت وأُريد بها ثمراتها، فالمعنى: نُوصِل إليهم ثمراتِ أعمالهم في الحياة الدنيا كاملةً.

وقُرئ: "يُوفِّ"[٢] على الإسناد إلى الله عزّ وجلّ، و"تُوَفَّ"[٣] بالفوقانيّة على البناء للمفعول ورفعِ ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، وقُرئ: "نُوْفِي"[٤] بالتخفيف والرفع لكون الشرط ماضيًا، كقوله:

وإن أتـاه خـليـلٌ يـوم مَـسغَـبةٍ   يقـول لا غـائـبٌ مـالي ولا حـرِمُ[٥]

﴿وَهُمۡ فِيهَا﴾ أي: في الحياة الدنيا ﴿لَا يُبۡخَسُونَ﴾ أي: لا يُنقَصون، وإنّما عُبّر عن ذلك بـ"البَخْس" الذي هو نقصُ الحقّ مع أنّه ليس لهم شائبة حقّ فيما أُوتُوه، كما عُبِّر عن إعطائه بـ"التوفية" التي هي إعطاءُ الحقوقِ، مع أنّ أعمالهم

---

[١] وفي هامش م: أي: على الإرادة. «منه».

[٢] قراءة شاذّة، مَرويّة عن أبي حَيْوَة وابن مِقسَم وأبي البَرَهسَم وميمون بن مهران والفيّاض عن طلحة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٤؛ المغني في القراءات للنَّوزاوازي، ص ٩٨٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ميمون بن مهران وأبي واقد والجرّاح والزعفراني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٣؛ المغني في القراءات للنَّوزاوازي، ص ٩٨٢.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي واقد والحسن وزيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٣؛ المغني في القراءات للنَّوزاوازي، ص ٩٨٢.

[٥] البيت لزهير بن أبي سُلمى في ديوانه، ص ١٢٠، وهو له في كتاب سيبويه، ٦٦/٣؛ والمفصّل للزمخشري، ص ٣٢٧، وفيها جميعًا «مسألة» مكان «مسغبة». وعجزه بلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٢٨٦/٢.

بمَعزِل مِن كونها مُستوجِبة لذلك، بناءً للأمر على ظاهر الحال[١] ومحافظةً على صُور الأعمال ومبالغةً في نفي النقص، كأنّ ذلك نقصٌ لحقوقهم فلا يدخُل تحت الوقوع والصدورِ عن الكريم أصلًا، والمعنى: أنّهم فيها خاصّةً لا يُنقصون ثمراتِ أعمالِهم وأجورَها نقصًا كلِّيًا مطَّردًا، ولا يُحرَمونها حِرمانًا كلِّيًا.

وأمّا في الآخرة فهم في الحِرمان المطلَق واليأسِ المُحقَّق، كما ينطق [١٢٢ظ] به قوله تعالى: / ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾... إلى آخره، فإنّه إشارة إلى المذكورين باعتبار إرادتهم الحياة الدنيا، أو باعتبار توفيتِهم أجورَهم مِن غير بَخْس، أو باعتبارهما معًا. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذانِ ببُعد منزلتِهم في سوء الحال، أي: أولئك المريدون للحياة الدنيا وزينتِها المُوفَّون فيها ثمراتِ أعمالِهم مِن غير بَخْس.

﴿ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ﴾ لأنّ هِمَمهم كانت مصروفة إلى الدنيا وأعمالَهم مقصورة على تحصيلها، وقد اجتنبوا ثمرتَها ولم يكونوا يريدون بها شيئًا آخرَ، فلا جرمَ لم يكن لهم فى الآخرة إلّا النارُ وعذابُها المخلَّد.

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ أي: ظهر في الآخرة حُبوطُ ما صنعوه مِن الأعمال [١٢٣و] التي كانت تؤدِّي إلى الثواب لو كانت معمولةً للآخرة، / أو حبِط ما صنعوه في الدنيا مِن أعمال البِرّ، إذ شَرْطُ الاعتداد بها الإخلاصُ.

﴿وَبَٰطِلٞ﴾ أي: في نفسه ﴿مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ في أثناء تحصيل المطالب الدنيويّة، ولأجل أنّ الأوّل مِن شأنه استتباعُ الثواب والأجر وأنّ عدمه لعدم مقارنته للإيمان والنيّة الصحيحة وأنّ الثانيَ ليس له جهةٌ صالحة قطُّ، عُلِّق بالأوّل الحُبوط المؤذِن بسقوط أجره بصيغة الفعل المُنبئ عن الحدوث، وبالثاني البطلان المُفصِح عن كونه بحيث لا طائلَ تحته أصلًا بالاسميّة الدالّة على كون ذلك وصفًا لازمًا له ثابتًا فيه. وفي زيادة "كان" في الثاني دون الأوّل إيماءٌ إلى أنّ صدور أعمال البِرّ منهم وإن كان لغرض فاسد ليس في الاستمرار والدوام كصدور الأعمالِ التي هي مِن مقدِّمات مطالبِهم الدنيّة.

---

١ السياق: وإنّما عُبّر... بناءً للأمر...

وقُرِئ: "وَبَطَلَ"[١] على الفعل، أي: ظهَر بطلانه حيث عُلم هناك أنّ ذلك وما يستتبعه مِن الحظوظ الدنيويّة ممّا لا طائلَ تحته، أو انقطع أثره الدنيوي فبطَل مطلقًا. وقُرِئ: "وَبَاطِلًا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"[٢] على أنّ "ما" إبهاميّة،[٣] أو في[٤] معنى[٥] المصدر،[٦] كقوله:

ولا خارجًا مِن فِيّ زُورُ كلامِ[٧]

وعن أنس رضي الله عنه: أنّ المراد بقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾... إلخ: اليهود والنصارى، إن أعطَوا سائلًا أو وصلوا رحِمًا عُجِّل لهم جزاء ذلك بتَوسعة في الرزق وصِحّة في البدن.[٨] وقيل: هم الذين جاهدوا مِن المنافقين مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأسهَم لهم في الغنائم.[٩] وأنت خبيرٌ بأنّ ذلك / إنّما كان بعد الهجرة، والسورة مكّيّة. وقيل: هم أهل الرياء، يقال للقرّاء منهم: أردتَ أن يقال: فلان قارئ؟ فقد قيل ذلك، وهكذا لغيره ممّن يعمل أعمال البِرّ لا لوجه الله تعالى.[١٠] فعلى هذا لا بدّ مِن تقييد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ بأن ليس لهم بسبب أعمالهم الريائيّة إلّا ذلك. [١٢٣ظ]

والذي يقتضيه جزالة النظم الكريم أنّ المراد به مطلق الكفَرة، بحيث يندرج فيهم القادحون في القرآن العظيم اندراجًا أوّليًا، فإنّه عزّ وعلا لمّا أمر

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ ويحيى بن يعمر وأبي السّمّال والقُورُسي وميمونة عن جعفر والأزرق وعِصمة عن عاصم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٤؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٣؛ المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ٩٨٣.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ وابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٤؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٣.

٣ وفي هامش م: أي: وباطلًا أيّ باطلٍ كانوا يعملون. «منه».

٤ س - في.

٥ س: بمعنى.

٦ ط - في معنى المصدر؛ ط: مصدريّة. | وفي هامش م: أي: بطل بطلانًا ما كانوا يعملون. «منه».

٧ عجز بيت للفرزدق، وصدره:
على قسَمٍ لا أشتمُ الدهرَ مُسلِمًا
في ديوانه، ص ٥٣٩. وهو له شاهدًا على ما نحن فيه في كتاب سيبويه، ١/٣٤٦، وفيه «حَلفةٍ» مكان «قسَمٍ»؛ وجامع البيان للطبري، ٢٣/٤٧٣ (القيامة، ٧٥/٤)؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٢٣/٤٧٨ (القيامة، ٧٥/٤).

٨ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٨٦؛ وبعضه في اللباب لابن عادل، ١٠/٤٥١. ولم أقف عليه في مَظانّه.

٩ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٨٦.

١٠ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٨٦؛ واللباب لابن عادل، ١٠/٤٥١.

نبيّه صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين بأن يزدادوا علمًا ويقينًا بأنّ القرآن مُنزَل بعِلم الله وبألّا قُدرةَ لغيره على شيء أصلًا، وهيَّجهم على الثبات على الإسلام والرسوخ فيه عند ظهور عَجْز الكفَرة وما يدعون مِن دون الله عن المعارضة، وتبيّن أنّهم ليسوا على شيء أصلًا، اقتضى الحال[1] أن يَتعرَّض لبعض شئونهم الموهِمة لكونهم على شيء في الجملة، مِن نيلهم الحظوظَ العاجلة، واستوائِهم على المطالب الدنيويّة، وبيانِ أنّ ذلك بمَعزِل عن[2] الدلالة عليه،[3] ولقد بُيِّن ذلك أيَّ بيان.

ثمّ أعيدَ الترغيب فيما ذُكر مِن الإيمان بالقرآن والتوحيد والإسلام فقيل: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: برهان نيّر عظيمِ الشأن يدلّ على حقّيّة ما رُغِّب في الثبات عليه مِن الإسلام وهو القرآن، وباعتباره أو بتأويل البرهان ذُكر الضمير الراجع إليها في قوله تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ أي: يتبعُه ﴿شَاهِدٌ﴾ يشهد بكونه مِن عند الله تعالى، وهو الإعجاز في نظمه المطَّرد في كلّ مقدارِ / سورة منه، [١٢٤و]
أو ما وقع في بعض آياته مِن الإخبار بالغيب، وكلاهما وصف تابع له شاهد بكونه مِن عند الله عزّ وجلّ غيرَ أنّه على التقدير الأوّل يكون في الكلام إشارة إلى حال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين في تمسُّكهم بالقرآن عند تبيُّن كونه منزلًا بعِلم الله بشهادة الإعجاز.

﴿مِّنْهُ﴾ أي: مِن القرآن غيرُ خارج عنه، أو مِن جهة الله تعالى، فإنّ كلًّا منهما وارد مِن جهته تعالى للشهادة. ويجوز على هذا التقدير أن يُراد بـ"الشاهد" المعجزات الظاهرة على يدَي رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم، فإنّ ذلك أيضًا مِن الشواهد التابعة للقرآن الواردةِ مِن جهته تعالى. فالمراد بـ"مَن" في قوله: ﴿أَفَمَن﴾: كلُّ مَن اتّصف بهذه الصفة الحميدة، فيدخُل فيه المخاطَبون بقوله: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ﴾، ﴿فَهَلْ أَنتُم﴾[4] دخولًا أوّليًا.

---

١ السياق: لمّا أمر نبيّه... اقتضى الحال...

٢ م: مِن.

٣ وفي هامش م: أي: على كونهم على شيء. «منه».

٤ هود، ١٤/١١.

وقيل: هو النبيّ صلّى الله عليه وسلّم.[١] وقيل: مؤمنو أهلِ الكتاب كعبدِ الله بن سلام وأضرابه. وقيل: المراد بـ"البيّنة": دليل العقل، وبـ"الشاهد": القرآن، فالضمير في ﴿مِنْهُ﴾ لله عزّ وجلّ.[٢] أو "البيّنة": القرآن، و﴿يَتْلُوهُ﴾ مِن التلاوة، و"الشاهد": جبريلُ، أو لسان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، على أنّ الضمير له، أو مِن التُّلُوّ، و"الشاهد": مَلَك يحفظه.[٣] والأَولى هو الأوّل.

ولمّا كان المراد بتُلوّ الشاهد للبرهان إقامةَ الشهادة بصحّته وكونِه مِن عند الله تعالى تابعًا له بحيث لا يفارقه في مشهد مِن المشاهد، فإنّ القرآن بيّنة باقية على وجه الدهر مع شاهدها الذي يشهد بأمرها إلى يوم القيامة عند كلّ مؤمن وجاحد، عُطف كتاب موسى[٤] في قوله عزّ قائلًا: / ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ [١٢٤ظ]
على فاعله مع كونه مقدَّمًا عليه في النزول، فكأنّه قيل: أفمَن كان على بيّنة مِن ربّه ويشهَد به شاهد منه وشاهد آخرُ مِن قبله هو كتابُ موسى. وإنّما قُدِّم في الذِّكر المُؤخَّرُ في النزول لكونه وصفًا لازمًا له غيرَ مفارِق عنه، ولعراقته في وصف التُّلوّ. والتنكير في ﴿بَيِّنَةٍ﴾ و﴿شَاهِدٌ﴾ للتفخيم.

﴿إِمَامًا﴾ أي: مؤتمًّا به في الدِّين ومقتدًى. وفي التعرّض لهذا الوصف بصدد بيان تلوّ الكتاب ما لا يخفى مِن تفخيم شأن المتلوّ. ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: نعمة عظيمة على مَن أُنزل إليهم ومَن بعدهم إلى يوم القيامة باعتبار أحكامه الباقية المؤيَّدة بالقرآن العظيم وهما حالان مِن "الكتاب".

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفة الحميدة، وهي الكون على بيّنة مِن الله ولِما أنّ ذلك عبارة عن مطلق التمسّك بها، وقد يكون ذلك بطريق التقليد لمَن سلف مِن عظماء الدِّين مِن غير عُثور على دقائق الحقائق وصَفهم بأنّهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: يُصدِّقونه حقَّ التصديق حسبما تشهد[٥] به الشواهدُ الحقّة المعرِبة عن حقّيته.

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٥/٢.
٢ القولان للزمخشري في الكشّاف، ٢٨٦/٢.
٣ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٥/٢.
٤ السياق: ولمّا كان... عُطف...
٥ م: يشهد.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن ولم يصدِّق بتلك الشواهد الحقّة. ﴿مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ مِن أهل مكّةَ ومَن تحزَّب معهم على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم. ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ يردّها لا محالةَ حسبما نطق به قوله عزّ وعلا: ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾.[1] وفي جعلها موعدًا إشعارٌ بأنّ له فيها / ما لا يُوصَف مِن أفانين العذاب. [١٢٥و]

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: في شكّ مِن أمر القرآن وكونه مِن عند الله عزّ وجلّ غِبّما شهِدت به الشواهد المذكورة وظهَر فضل مَن تمسّك به. ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ الذي يُربّيك في دِينك ودنياك. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بذلك إمّا لقصور أنظارهم واختلال أفكارهم، وإمّا لعِنادهم واستكبارهم فـ﴿مَن﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ مبتدأ حُذف خبره لإغناء الحال عن ذِكره، وتقديرُه أفمَن كان على بيّنة مِن ربّه كأولئك الذين ذُكرت أعمالهم وبيِّن مصيرهم ومآلُهم، يعني: أنّ بينهما تفاوتًا عظيمًا بحيثُ لا يكاد يتراءى ناراهما.

وإيراد "الفاء" بعد "الهمزةِ" لإنكار ترتُّب توهُّم المماثلة على ما ذُكر مِن صفاتهم وعُدِّد مِن هَناتهم، كأنّه قيل: أَبَعْد ظهور حالهم في الدنيا والآخرة كما وُصف يُتوهَّم المماثلة بينهم وبين مَن كان على أحسن ما يكون في العاجل والآجل، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الرعد، ١٦/١٣]، أي: أبَعْد أن عَلِمتُموه ربَّ السماواتِ والأرض اتّخذتُم مِن دونه أولياء، وقولِه تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد، ١٩/١٣].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن نسَب إليه ما لا يليق به، كقولهم للملائكة: "بناتُ الله" تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا، وقولهم لآلهتهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس، ١٨/١٠]، يعني أنّهم مع كفرهم بآيات الله تعالى مفترون

---

[1] في الآية السابقة.

عليه كذبًا. وهذا التركيب وإن كان سبكه على / إنكار أن يكون أحد أظلمَ منهم [١٢٥ظ]
مِن غير تعرّض لإنكار المساواة ونفيها ولكنّ المقصود به قصدًا مطّردًا إنكارُ المساواة ونفيها وإفادة أنّهم أظلم مِن كلّ ظالم، كما ينبئ عنه ما سيتلى مِن قوله عزّ وجلّ: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [هود، ٢٢/١١]، فإذا قيل: مَن أكرم مِن فلان؟ أو لا أفضلَ منه، فالمراد منه حتمًا أنّه أكرم مِن كلّ كريم، وأفضلُ مِن كلّ فاضل.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالظلم البالغ الذي هو الافتراء على الله تعالى، وبهذه الإشارة حصلت الغُنية عن إسناد العَرْض إلى أعمالهم واكتُفيَ بإسناده إليهم، حيث قيل: ﴿يُعْرَضُونَ﴾ لأنّ عَرْضهم مِن تلك الحيثيّة وبذلك العنوان عَرْضٌ لأعمالهم على وجه أبلغَ، فإنّ عَرْض العامل بعمله أفظع مِن عَرْض عمله مع غَيْبته. ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ الحقّ، وفيه إيماء إلى بطلان رأيهم في اتّخاذهم أربابًا مِن دون الله عزّ وجلّ.

﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ عند العَرْض مِن الملائكة والنبيّين أو مِن جوارحهم، وهو جَمْع "شاهد" أو "شهيد" كأصحاب وأشراف: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ بالافتراء عليه، كأنّ ذلك أمر واضح غنيّ عن الشهادة بوقوعه، وإنّما المحتاج إلى الشهادة تعيينُ مَن صدر عنه ذلك، فلذلك لا يقولون: هؤلاء كذبوا على ربّهم.

ويجوز أن يكون المراد بالأشهاد الحُضّارَ، وهم جميع أهل الموقفِ على ما قاله قتادة ومقاتل،[١] ويكون قولهم: هؤلاء الذين كذبوا على ربّهم ذمًّا لهم بذلك لا شهادةً عليهم، كما يُشعر به قوله: ﴿وَيَقُولُ﴾ دون "ويشهد"... إلخ، وتوطئةً لِما يعقُبه مِن قوله: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالافتراء المذكور.
ويجوز أن يكون هذا على الوجه الأوّل مِن كلام الله عزّ وجلّ، / وفيه تهويلٌ [١٢٦و]
عظيم لِما يَحيق بهم مِن عاقبة ظُلمهم. اللّهمّ إنّا نعوذُ بك مِن الخِزي على رءوس الأشهاد.

---

١ انظر: جامع البيان للطبري، ٣٦٧/١٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٦٨/٤.

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ١٩﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ أي: كلُّ مَن يقدِرون على صدّه أو يفعلون الصدّ. ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن دِينه القويم ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ انحرافًا، أي: يصفونها بذلك، وهو أبعد شيءٍ منه، أو يبغون أهلَها أن ينحرفوا عنها، يقال: بغَيتُك خيرًا أو شرًّا، أي: طلبتُ لك، وهذا شامل لتكذيبهم بالقرآن وقولِهم: إنّه ليس مِن عند الله.

﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي: يصِفونها بالعِوَج، والحالُ أنّهم كافرون بها لا أنّهم يُؤمنون بها ويزعُمون أنّ لها سبيلًا سويًّا يهدون الناسَ إليه. وتكرير الضمير لتأكيد كفرهم واختصاصهم به كأنّ كفر غيرهم ليس بشيء عند كفرهم.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ٢٠﴾

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ مع ما وُصف مِن أحوالهم الموجبةِ للتدمير ﴿لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ﴾ الله تعالى مُفلِتين بأنفسهم مِن أَخذه لو أرادوا ذلك. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مع سَعتها وإن هربوا منها كلّ مَهرب، ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ ينصُرونهم مِن بأسه، ولكن أُخِر ذلك لحكمة تقتضيه. والجمع إمّا باعتبار أفراد الكفَرة كأنّه قيل: وما كان لأحد منهم مِن وليّ أو باعتبار تعدُّد ما كانوا يدعون مِن دون الله تعالى، فيكون ذلك بيانًا لحال آلهتهم مِن سقوطها عن رتبة الولاية.

﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ استئناف يتضمّن حكمة تأخير المؤاخذة. وقرأ ابن كثير[١]

---

[١] هو عبد الله بن كثير بن عمرو الداري المكي، مختلف في كنيته والأصحّ أنّه أبو معبد (ت.١٢٠هـ/٧٣٨م). الإمام العلم الثقة أحد القرّاء السبعة، ومُقرئ مكّة وقاضي الجماعة فيها، وُلد ومات بمكّة، وهو فارسيّ الأصل، وكان عطّارًا وكانوا يسمّون العطّار داريًّا فعُرف بالداري. قرأ على مجاهد ودرباس مولى ابن عبّاس، وحدّث عن ابن الزبير وعكرمة ومجاهد وغيرهم، وهو قليل الحديث، روى القراءة عنه راويان البزّي وقنبل وغيرهما. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣١٨/٥؛ وغاية النهاية لابن الجزري، ٤٤٣/١-٤٤٤؛ والأعلام للزركلي، ١١٥/٤.

وابن عامر ويعقوبُ[١] بالتشديد.[٢]

﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ لفَرْط تصامِّهم عن الحقّ وبُغضِهم له كأنّهم لا يقدِرون على السمع، ولمّا كان قُبح حالِهم في عدم إذعانهم للقرآن الذي طريقُ تلقّيه السمعُ أشدَّ منه / في عدم قَبولِهم لسائر الآيات المنوطةِ بالإبصار، [١٢٦ظ] بالغَ في نفي الأوّلِ عنهم،[٣] حيث نفى عنهم الاستطاعة واكتفى في الثاني بنفي الإبصارِ فقال: ﴿وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾ لتعاميهم عن آيات الله المبسوطة في الأنفس والآفاق، وهو استئناف وقَع تعليلًا لمضاعفة العذاب.

وقيل: هو بيان لِما نُفي مِن ولاية الآلهة، فإنّ ما لا يسمع ولا يُبصر بمَعزِل مِن الولاية، وقوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ اعتراضٌ وُسِّط بينهما نعيًا عليهم مِن أوّل الأمر سوءَ العاقبة.[٤]

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنعوتون بما ذُكر مِن القبائح ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ باشتراء عبادة الآلهة بعبادة الله عزّ سلطانه. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ مِن الآلهة وشفاعتها، أو خَسِروا ما بذلوا وضاع عنهم ما حصّلوا فلم يبقَ معهم سوى الحسرة والندامة.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾

---

١ هو يعقوب بن إسحاق بن زيد بن عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي البصري، أبو محمّد (ت. ٢٠٥هـ/٨٢١م). المقرئ المشهور، وأحد القرّاء العشرة، إمام أهل البصرة ومقرئها. له علم بالقراءات والعربيّة وكلام العرب والروايات الكثيرة للحروف والفقه. روى عن حمزة حروفًا، وسمع الحروف مِن أبي الحسن الكسائي. وقيل: قرأ على أبي عمرو. انظر: **وفيات الأعيان** لابن خلّكان، ٣٩٠/٦؛ و**غاية النهاية** لابن الجزري، ٣٨٦/٢؛ و**الأعلام** للزركلي، ١٩٥/٨.

٢ قرأ بها ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب. **النشر** لابن الجزري، ٢٢٨/٢.

٣ السياق: ولمّا كان قُبح... بالغ في نفي...

٤ القول في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٢٦/٢.

﴿لَا جَرَمَ﴾ فيه ثلاثةُ أوجه: الأوّلُ: أنّ ﴿لَا﴾ نافيةٌ لِما سبق، و﴿جَرَمَ﴾ فعل بمعنى: حقَّ، و﴿أَنَّ﴾ مع[1] ما في حيّزه فاعلُه، والمعنى: لا ينفعهم ذلك الفعلُ حقَّ، ﴿أَنَّهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ وهذا مذهبُ سيبويه؛ والثاني: ﴿جَرَمَ﴾ بمعنى: كسَبَ، وما بعده مفعولُه، وفاعلُه ما دلّ عليه الكلام، أي: كسَبَ ذلك خُسرانَهم، فالمعنى: ما حصل مِن ذلك إلّا ظهورُ خسرانهم؛ والثالثُ: أنّ ﴿لَا جَرَمَ﴾ بمعنى: لا بدّ، أي: لا بدّ أنّهم في الآخرة هم الأخسرون.[2]

وأيًّا ما كان فمعناه أنّهم أخسرُ مِن كلّ خاسر فتبيَّن أنّهم أظلمُ مِن كلّ ظالم، وهذه الآيات الكريمة كما ترى مقرّرةٌ لِما سبق مِن إنكار المماثلة بين مَن كان على بيّنة مِن ربّه وبين مَن كان يريد الحياة الدنيا أبلغَ تقرير، فإنّهم حيث كانوا أظلمَ مِن كلّ ظالم / وأخسَرُ مِن كلّ خاسر، لم يُتصوَّر مماثلةٌ بينهم [١٢٧و] وبين أحد مِن الظلَمة الأخسرين، فما ظنُّك بالمماثلة بينهم وبين مَن هو في أعلى مدارج الكمال؟

ولمّا ذُكر فريق الكفّار وأعمالهم وبُيّن مصيرهم ومآلهم شُرع في بيان حال أضدادهم، أعني فريق المؤمنين وما يئول إليه أمرهم مِن العواقب الحميدة تكملة لِما سلف مِن محاسنهم المذكورة في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ الآية، [هود، ١٧/١١]، ليتبيَّن ما بينهما مِن التباين البيّن حالًا ومآلًا، فقيل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: بكلّ ما يجب أن يُؤمَن به، فيندرج تحته ما نحن بصدده مِن الإيمان بالقرآن الذي عُبّر عنه بالكون على بيّنة مِن الله، وإنّما يحصُل ذلك باستماع الوحي والتدبّر فيه ومشاهدة ما يؤدّي إلى ذلك في الأنفس والآفاق، أو فعلوا الإيمان، كما في "يُعطي ويمنع".[3]

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: اطمأنّوا إليه وانقطعوا إلى عبادته بالخضوع والتواضع، مِن الخَبْت: وهي الأرضُ المطمئنّة، ومعنى أخبتَ: دخل

---

[1] س - مع.

[2] الوجوه الثلاثة مع وجهين آخرين في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣٠٣/٦-٣٠٤؛ واللباب لابن عادل، ٤٦١/١٠-٤٦٢. وقول سيبويه في الكتاب، ١٣٩/٣.

[3] أي: يفعل الإعطاء والمنع.

في الخَبْت، كـ"أَتْهَم" و"أَنْجَد": دخلَ في تِهامةَ[1] ونجد. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنعوتون بتلك النعوت الجميلة ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ دائمون.

وبعد بيان تباين حالَيهما عقلًا أُريدَ بيانُ تبايُنهما حِسًّا، فقيل: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ المذكورَين، أي: حالهما العجيب، لأنّ المَثَل لا يُطلق إلّا على ما فيه غرابة مِن الأحوال والصفات.

﴿كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ أي: كحال هؤلاء / فيكون ذواتُهم كذواتهم، والكلامُ وإن أمكَن أن يُحمَل على تشبيه الفريق **الأوّل** بالأعمى وبالأصمّ وتشبيه الفريق **الثاني** بالبصير وبالسميع؛ لكنّ الأدخَل في المبالغة والأقربَ إلى ما يُشير إليه لفظ المَثَل والأنسبَ بما سبق مِن وصف الكفرة بعدم استطاعة السمع وبعدم الإبصار أن يُحمَل على تشبيه الفريق **الأوّل** بمَن جمَع بين العمى والصمَم، وتشبيهِ الفريق **الثاني** بمَن جمَع بين البصر والسمع، على أن تكون الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَصَمِّ﴾ وفي قوله: ﴿وَٱلسَّمِيعِ﴾ لعطف الصفةِ على الصفة، كما في قول مَن قال: [١٢٧ظ]

إلى المَلِك القَرْم وابن الهُمامِ   وليثِ الكتيبةِ في المُزدحَمْ[2]

وأيًّا ما كان فالظاهر أنّ المراد بالحال المدلول عليها بلفظ المَثَل وهي التي يدور عليها أمر التشبيه: ما يُلائم الأحوال المذكورة المعتبرة في جانب المشبَّه به:

مِن تعامي الفريق **الأوّل** عن مشاهدة آيات الله المنصوبة في العالم والنظر إليها بعين الاعتبار وتصامِّهم عن استماع آيات **القرآن الكريم** وتلقّيها بالقَبول،

---

[1] تِهامة: بالكسر واد باليمامة. قيل: تساير البحر ومنها مكّة. وقيل: تهامة إلى عرق اليمن إلى أسياف البحر إلى الحجفة وذات عرق. وقيل: ما سال مِن الحرّتين حرّة سليم وحرّة ليلى فهو تهامة والغور حتّى يقطع البحر. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ٢/٦٣، ١٣٧.

[2] لا يُعرَف قائله. وهو بلا نسبة في **تفسير الطبري**، ٣/٨٩ (البقرة، ٢/١٧٧)؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ١/٤٦ (البقرة، ٢/٤)؛ و**شرح الرضيّ على الكافية**، ١/٢٦٥، ٢/٣٣٢، ٤/٤٠. والقرم: الفحل المُكرَم الذي يُترك مِن الركوب والعمل، ولذلك سُمّيَ سيّد القوم بالقرم، وهو المقصود ههنا. **لسان العرب** لابن منظور، «قرم». والمُزدَحم: المعركة.

حسبما ذُكر في قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا[١] يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾.[٢] وإنّما لـم يُراعَ هـذا الترتيب هنا لكون الأعمى أظهرَ وأشهرَ في سوء الحال مِن الأصمّ.

ومِن استعمال الفريقِ الثاني لكلّ مِن أبصارهم وأسماعِهم فيما ذُكر كما ينبغي، المدلولِ عليه بما سبق مِن الإيمان والعمل الصالح والإخبات حسبما فُسِّر به فيما مرّ، فلا يكون / التشبيهُ تمثيليًا. [١٢٨و]

لا جميعُ[٣] الأحوال المعدودةِ لكلّ مِن الفريقين ممّا ذُكر، وما يؤدّي إليه مِن العذاب المضاعَف والخسران البالغ في أحدهما ومِن النعيم المقيم في الآخر، فإنّ اعتبار ذلك ينزع إلى كون التشبيه تمثيليًا: بأن يُنتزَع مِن حال الفريق الأوّل في تصامّهم وتعاميهم المذكورَين ووقوعهم بسبب ذلك في العذاب المضاعَف والخُسران الذي لا خسرانَ فوقه هيئةٌ، فتُشبَّهَ بهيئة مُنتزَعة ممّن فقَدَ مَشعرَي البصر والسمع فتخبَّط في مَسلَكه فوقع في مهاوي الردى ولم يجِد إلى مقصِده سبيلًا، ويُنتزَعَ مِن حال الفريق الثاني في استعمال مشاعرهم في آيات الله تعالى حسبما ينبغي وفوزهم بدار الخلود هيئةٌ فتُشبَّهَ بهيئة مُتنزَعة ممّن له بصَر وسَمْع يستعملهما في مهمّاته فيهتدي إلى سبيله وينال مَرامه.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ يعني الفريقين المذكورين، والاستفهامُ إنكاري مُذكِّر لِما سبق مِن إنكار المماثلة في قوله عزّ وجلّ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾، الآية.[٤] ﴿مَثَلًا﴾ أي: حالًا وصفة، وهو تمييز مِن فاعل ﴿يَسْتَوِيَانِ﴾.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أتشكُّون في عدم الاستواء وما بينهما مِن التبايُن؟ أو أتغفُلون عنه فلا تتذكَّرونه بالتأمّل فيما ضُرب لكم مِن المَثَل؟ فيكون الإنكارُ واردًا على المعطوفَين معًا، أو أتسمعون هذا فلا تتذكَّرون؟ فيكون راجعًا إلى عدم التذكّر بعد تحقّق ما يُوجِب وجوده وهو المَثَل المضروب، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ [آل عمران، ٣/١٤٤]، / فإنّ "الفاء" [١٢٨ظ]

---

١ م س - ما كانوا؛ م س + لا.

٢ هود، ١١/٢٠.

٣ وفي هامش م: عطفٌ على خبر "إنّ"، وهو قوله: "ما يُلائم الأحوال المذكورة". «منه».

٤ هود، ١١/١٧.

هناك لإنكار الانقلاب بعد تحقّق ما يُوجِب عدمه مِن علمهم بخلوّ الرسل قبل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

أو أفلا تفعلون التذكّر؟ أو أفلا تعقِلون؟ ومعنى الهمزة إنكارُ عدم التذكّر واستبعاد صدوره عن المخاطَبين وأنّه ليس ممّا يصحّ أن يقع، لا مِن قبيل الإنكارِ في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾،[1] وقولِه تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾، فإنّ ذلك لنفي المماثلة ونفي الاستواء.

ولمّا بُيّن مِن فاتحة السورة الكريمة إلى هذا المقام أنّها كتاب محكَم الآيات مفصَّلُها نازلٌ في شأن التوحيد وتركِ عبادة غير الله سبحانه، وأنّ الذي أُنزل عليه نذير وبشير مِن جهته تعالى، وقُرِّر في تضاعيف ذلك ما له مَدخَل في تحقيق هذا المرام مِن الترغيب والترهيب وإلزام المعاندين بما يقارنه مِن الشواهد الحقّة الدالّة على كونه مِن عند الله تعالى، وتسليةِ الرسول صلّى الله عليه وسلّم ممّا عراه مِن ضيق الصدر العارض له مِن اقتراحاتهم الشنيعة وتكذيبهم له، وتسميتِهم للقرآن تارة سِحرًا وأخرى مفترًى وتثبيتِه عليه السلام والمؤمنين على التمسّك به والعملِ بمُوجَبه على أبلغ وجه وأبدع أسلوب، شُرِع[2] في تحقيق ما ذُكر وتقريره بذِكر قصص الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين المشتملة على ما اشتمل عليه فاتحةُ السورة الكريمة ليتأكّد ذلك بطريقين: **أحدُهما**: أنّ ما أُمر به مِن التوحيد وفروعه ممّا أطبق عليه الأنبياء قاطبة، **والثاني**: أنّ ذلك إنّما عِلمه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بطريق الوحي فلا يبقى في حقّيّته كلام أصلًا، وليتسلّى بما يشاهده مِن معاناة الرسل / قبله مِن أممهم ومُقاساتهم الشدائدَ مِن جهتهم. [١٢٩و]

فقيل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ "الواو" ابتدائيّة، و"اللام" جواب قسَم محذوف، وحرفه الباء لا الواو، كما في سورة الأعراف، لئلّا يجتمع واوان، ولا تكاد تطلق هذه اللامُ إلّا مع "قد"، لأنّها مَظِنّة التوقّع وأنّ المخاطَب إذا سمعها توقّع وقوع ما صُدّر بها. ونوحٌ هو ابن لمك بن متوشلح بن إدريسَ عليهما السلام، وهو أوّل نبيّ بُعث بعده.

---

[1] هود، ١١/١٧.

[2] السياق: ولمّا بيّن... شُرع...

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: بُعث عليه السلام على رأس أربعين مِن عُمره، ولبِث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنةً، وعاش بعد الطوفان ستين سنةً، وكان عمره ألفًا وخمسين سنةً. وقال مقاتل: بُعث وهو ابن مائة سنةٍ. وقيل: وهو ابن خمسين سنةً. وقيل: وهو ابن مائتين وخمسين سنةً، ومكَث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنةً، وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنةً، فكان عمره ألفًا وأربعمائة وخمسين سنةً.[١]

﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ بالكسر على إرادة "القول"، أي: فقال أو قائلًا، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بالفتح[٢] على إضمار حرف الجرّ، أي: أرسلناه ملتبسًا بذلك الكلام، وهو ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ بالكسر، فلمّا اتّصل به الجارّ فُتح كما فُتح في "كأنّ"، والمعنى على الكسر، وهو قولك: إنّ زيدًا كالأسد، واقتُصر على ذِكر كونه عليه السلام نذيرًا، لا لأنّ دعوته عليه السلام كانت بطريق الإنذار فقط، ألا يُرى إلى قوله عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾... إلخ [نوح، ٧١/١٠-١١]؛ بل لأنّهم لم يغتنموا مغانمَ إبشاره عليه السلام.

﴿مُبِينٌ﴾ أُبيّن لكم موجِبات العذاب ووجهَ الخلاص عنه، لأنّ الإنذار إعلام المحذور، لا لمجرَّد التخويف والإزعاج؛ بل للحذر منه فتتعلّق صفتُه / بكلا وصفَيه. [١٢٩ظ]

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ۝٢٦ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ۝٢٧﴾

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: بألّا تعبدوا، على أنّ ﴿أَن﴾: مصدريّة، والباء متعلِّقة بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾،[٣] و﴿لَا﴾ ناهية، أي: أرسلناه ملتبسًا بنهيهم عن الشرك إلّا أنّه وُسِّط بينهما بيانُ بعض أوصافه وأحواله عليه السلام، وهو كونه نذيرًا مبينًا ليكون أدخلَ في القبول، ولم يُفعل ذلك في صَدْر السورة لئلّا يُفرَق

---

١ الأقوال الأربعة في معالم التنزيل للبغوي، ١٧٠/٤.

٢ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٨٨/٢.

٣ في الآية السابقة.

بين الكتاب ومضمونه بما ليس مِن أوصافه وأحواله؛ أو مفسِّرة[١] متعلّقةٌ به، أو بـ﴿نَذِيرٌ﴾،[٢] أو مفعول لـ﴿مُبِينٌ﴾،[٣] وعلى قراءة الفتح بدلٌ مِن "أنّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ"،[٤] وتعيينٌ لِما يُوجب وقوعَ المحذورِ وتبيينٌ لوجه الخلاصِ، وهو عبادةُ الله تعالى.

وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾ تعليل لمُوجَب النهي وتصريحٌ بالمحذور وتحقيقٌ للإنذار، والمراد به يوم القيامة أو يوم الطوفان. ووصفُه بـ"الأليم" على الإسناد المجازي للمبالغة، كما في نحو[٥] "نهارُه صائمٌ".

وهذه المقالة وما في معناها ممّا قاله عليه السلام في أثناء الدعوة على ما عُزِي إليه في سائر السور، لمّا لم تصدُر عنه عليه السلام مرّةً واحدة؛ بل كان يكرّرها عليهم في تلك المدّة المتطاولة على ما نطق به قولُه تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا﴾ الآيات، [نوح، ٧١/٥]، عُطِف[٦] على فعل الإرسال المقارِن لها، أو القولِ المقدّر بعده جوابُهم المتعرِّضُ لأحوال المؤمنين الذين اتّبعوه عليه السلام بعد اللّتيا والتي[٧] بالفاء التعقيبيّة، فقيل: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾ أي: الأشراف منهم، مِن قولهم: فلان مليء بكذا، أي: مُطيقٌ له؛ لأنّهم مُلِئوا بكفايات الأمور، أو لأنّهم ملئوا القلوبَ هيبة والمجالسَ أُبّهة، أو لأنّهم ملأ بالأحلام والآراء الصائبة. ووصفُهم بالكفر لذمّهم والتسجيل عليهم بذلك مِن أوّل الأمر، لا لأنّ بعض أشرافهم ليسوا بكفَرة.

﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا﴾ مرادهم: ما أنت إلّا بشر مثلنا ليس فيك مزيّة تخصُّك مِن دوننا بما تدّعيه مِن النبوّة، ولو كان كذلك لرأيناه، لا أنّ ذلك محتمِل ولكن لا نراه. وكذا الحالُ في قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾، فالفعلان / مِن رؤية العين. [١٣٠و]

---

١ السياق: مصدريّة... أو مفسِّرة...

٢ في الآية السابقة.

٣ في الآية السابقة.

٤ مضت القراءة بتخريجها في الآية السابقة.

٥ س – نحو.

٦ السياق: لمّا لم تصدُر... عُطِف...

٧ اللّتيا والّتي: يكنى بهما عن الشدّة، واللّتيا: تصغير التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. مجمع الأمثال للميداني، ١٦٤/١.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ حال مِن المفعول، وكذا قوله تعالى: ﴿أَتَّبَعَكَ﴾ في موضع الحال منه، إمّا على حاله، أو بتقدير "قد" عند مَن يشترِط ذلك. ويجوز أن يكون مِن رؤية القلب، وهو الظاهر. فهما المفعول الثاني، وتعلّقُ الرأي في الأوّل بالمِثليّة لا بالبشريّة فقط، وإنّما لم يبتُّوا القول بذلك مع جزمهم به وإصرارهم عليه إراءة بأنّ ذلك لم يصدُر عنه جزافًا؛ بل بعد التأمّل في الأمر والتدبّر فيه، ولذلك اقتصروا على ذِكر الظنّ فيما سيأتي وتعريضًا مِن أوّل الأمر برأي المُتَّبِعين، فكأنّ قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ﴾ جواب عمّا يرِد عليهم مِن أنّه عليه السلام ليس مثلَهم حيث عايَن دلائل نبوّته واغتنم اتّباعُه مَن له عين تُبصر وقلب يُدرك فزعموا أنّ هؤلاء أراذلنا، أي: أخسّاؤنا وأدانينا جَمْع "أَرْذَل"، فإنّه صار بالغلَبة جاريًا مَجرى الاسم كالأكبر والأكابر، أو جَمْع "أرذُل" جَمْع "رَذْل" كأكالِب وأكلُب وكَلْب، يعنون أنّه لا عِبرةَ باتّباعهم لك؛ إذ ليس لهم رزانةُ عقل ولا أصالةُ رأي، وقد كان ذلك منهم في بادي الرأي، أي: ظاهره مِن غير تعمُّق مِن البدو، أو في أوّله مِن البدء والياء مبدلَة مِن الهمزة لانكسار ما قبلها، وقد قرأه أبو عمرو بها.[١]

وانتصابُه على الظرفيّة على حذف المضاف، أي: وقتَ حدوث بادي الرأي، والعاملُ فيه ﴿أَتَّبَعَكَ﴾ وإنّما استرذلوهم مع كونهم أولي الألباب الراجحة لفقرهم، فإنّهم لمّا لم يعلموا إلّا ظاهرَ الحياة الدنيا كان الأشرفُ عندهم الأكثرَ منها حظًّا والأرذلُ مَن حُرِمها ولم يفقهوا أنّ ذلك لا يزِن عند الله جناح بعوضة وأنّ النعيم إنّما هو نعيم الآخرة، والأشرفُ مَن فاز به / والأرذلُ مَن حُرِمه. نعوذ بالله تعالى مِن ذلك. [١٣٠ظ]

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ﴾ أي: لك ولمتّبِعيك فغُلِّب المخاطَب على الغائبين. ﴿عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ يعنُون أنّ اتّباعهم لك لا يدلّ على نبوّتك ولا يُجديكم فضيلة تَستتبع اتّباعنا لكم واقتصارُهم ههنا على ذِكر عدم رؤية الفضل بعد تصريحهم برذالتهم فيما سبق باعتبار حالهم السابق واللاحق، ومرادهم أنّهم كانوا أراذل قبل اتّباعهم لك، ولا نرى فيهم وفيك بعد الاتّباع فضيلةً علينا.

---

١ قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ١/٤٠٧، ٢/٢٨٨.

﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ جميعًا لكون كلامكم واحدًا ودعواكم واحدة، أو إيّاك في دعوى النبوّة وإيّاهم في تصديقك، واقتصارُهم على الظنّ احتراز منهم عن نسبتهم إلى المجازفة ومجاراةٌ معه عليه السلام بطريق الإراءة على نهج الإنصاف.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني، وفيه إيماء إلى ركاكة رأيهم المذكور. ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ برهانٍ ظاهر ﴿مِّن رَّبِّي﴾، وشاهدٍ يشهَد بصِحّة دعوايَ، ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ هي النبوّة، ويجوز أن تكون هي البيّنة نفسها جيء بها إيذانًا بأنّها مع كونها بيّنةً مِن الله تعالى رحمةٌ ونعمة عظيمة مِن عنده، فوَجهُ إفرادِ الضمير في قوله: ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ حينئذ ظاهرٌ.

وإن أريدَ بها النبوّةُ وبالبيّنة البرهانُ الدالُّ على صحّتها فالإفراد لإرادة كلّ واحدةٍ منهما، أو لكون الضمير للبيّنة والاكتفاء بذلك لاستلزام خفائها خفاءَ النبوّة، أو لتقدير فعل آخرَ بعد البيّنة، ومعنى عُمِّيَت: أُخفيَت. وقُرِئ: "عَمِيَتْ"،[1] ومعناه: خَفِيَت. وحقيقته أنّ الحجّة كما تُجعَل مُبصِرة وبصيرة تُجعَل عمياءَ، لأنّ الأعمى لا يهتدي ولا يهدي غيرَه. / وفي قراءة أُبيّ "فَعَمَّاهَا عَلَيْكُمْ"[2] على الإسناد إلى الله عزّ وجلّ. [١٣١و]

﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أي: أنُكرِهُكم على الاهتداء بها؟ وهو جواب ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، وسادٌّ مَسدَّ جواب الشرط. وقرأ أبو عمرو بإخفاء حركة الميم.[3] وحيث اجتمع ضميران منصوبان وقد قُدِّم أعرفُهما، جاز في الثاني الوصل والفصلُ، فوُصل كما في قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة، ١٣٧/٢].

﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ لا تختارونها ولا تتأمّلون فيها. ومحصولُ الجواب: أخبروني إن كنتُ على حجّة ظاهرة الدلالة على صِحّة دعوايَ إلّا أنّها

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر عنه ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٨٨/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٤.

٣ قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢٨٨/٢.

خافية عليكم غيرُ مُسلَّمة عندكم، أيمكنُنا أن نُكرِهَكم على قبولها وأنتم معرضون عنها غيرَ متدبّرين فيها؟ أي: لا يكون ذلك، وظاهرُه مُشعِر بصدوره عنه عليه السلام بطريق إظهار اليأس عن إلزامهم والقعود عن مُحاجَّتهم، كقوله: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِى﴾... إلخ [هود، ١١/٣٤]، لكنّه محمول على أنّ مراده عليه السلام ردُّهم عن الإعراض عنها وحثُّهم على التدبّر فيها بصرف الإنكار إلى الإلزام حالَ كراهتهم لها لا إلى الإلزام مطلقًا.

هذا، ويجوز أن يكون المراد بـ"البيّنة" دليلَ العقل الذي هو ملاك الفضل، وبحسبه يمتاز أفراد البشر بعضُها عن بعض، وبه يناط الكرامة عند الله عزّ وجلّ والاجتباءُ للرسالة؛ وبـ"الكون عليها" التمسُّكَ به والثبات عليه؛ وبـ"خفائها" على الكفَرة، على أن يكون الضمير للبيّنة عدمَ إدراكهم لكونه عليه السلام عليها؛ وبـ"الرحمة" النبوّةَ التي أنكروا اختصاصه عليه السلام بها بين ظَهرانَيهم.

[١٣١ظ] والمعنى أنّكم زعمتُم أنّ عهد النبوّة لا ينال إلّا مَن له فضيلةٌ على / سائر الناس مستتبِعةٌ لاختصاصه به دونهم، أخبروني إن امتزتُ عنكم بزيادة مزيّة وحِيازةِ فضيلة مِن ربّي، وآتاني بحسبها نبوّةً مِن عنده، فخفِيَت عليكم تلك البيّنةُ ولم تُصيبوها ولم تنالوها ولم تعلموا حيازتي لها وكوني عليها إلى الآن، حتّى زعمتُم أنّي مثلكم، وهي متحقِّقة في نفسها، أنُلزِمكم قَبول نُبوّتي التابعةِ لها والحال أنّكم كارهون لذلك؟ فيكون الاستفهام للحمل على الإقرار. وهو الأنسب بمقام المُحاجّة، وحينئذ يكون كلامه عليه السلام جوابًا عن شُبَههم التي أدرجوها في خلال مقالهم مِن كونه عليه السلام بشرًا، قُصارى أمره أن يكون مثلَهم مِن غير فضل له عليهم، وقطعًا لشأفة آرائهم الركيكة.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًاۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على ما قلتُه في أثناء دعوتكم ﴿مَالًا﴾ تؤدّونه إليّ بعد إيمانكم واتّباعِكم لي، فيكون ذلك أجرًا لي في مقابلة اهتدائكم،

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ الذي يُثيبني في الآخرة. وفي التعبير عنه حين نُسب إليهم بالمال ما لا يخفى مِن المزيّة.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ جواب عمّا لوّحوا به بقولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾[1] مِن أنّه لو اتبعه الأشراف لوافقوهم، وأنّ اتّباع الفقراء مانعٌ لهم عن ذلك، كما صرّحوا به في قولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء، ١١١/٢٦]، فكان ذلك التماسًا منهم لطردهم وتعليقًا لإيمانهم به عليه السلام بذلك أنفةً مِن الانتظام معهم في سِلك واحد.

﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ تعليل لامتناعه عليه السلام عن طردهم، أي: إنّهم فائزون في الآخرة بلقاء الله عزّ وجلّ، كأنّه قيل: لا أطردهم ولا أُبعِدهم عن / مجلسي لأنّهم مقرّبون في حضرة القدس. والتعرّض لوصف الربوبيّة لتربية وجوب رعايتهم وتحتُّم الامتناع عن طردهم، أو مصدِّقون في الدنيا بلقاء ربّهم موقِنون به عالِمون أنّهم ملاقوه لا محالةَ فكيف أطرُدهم؟ [١٣٢و]

وحَمْلُه على معنى أنّهم يُلاقونه فيُجازيهم على ما في قلوبهم مِن إيمان صحيح ثابت كما ظهر لي، أو على خلاف ذلك ممّا تعرِفونهم به مِن بناء إيمانهم على بادي الرأي مِن غير نظر وتفكُّر، وما عليّ أن أشُقّ عن قلوبهم وأتعرَّفَ سرَّ ذلك منهم حتّى أطرُدهم إن كان الأمرُ كما تزعُمون،[2] يأباه الجزمُ[3] بترتُّب غضب الله تعالى على طَرْدهم كما سيأتي، وأيضًا فهم إنّما قالوا: إنّ اتّباعهم لك إنّما هو بحسب بادي الرأي بلا تأمُّل وتفكُّر، وهذا لا يكاد يصلُح مدارًا للطرد في الدنيا ولا للمُؤاخذة في الآخرة، غايتُه ألّا يكونوا في مرتبة الموقنين. وادّعاءُ أنّ بناء الإيمان على ظاهر الرأي يؤدِّي إلى الرجوع عنه عند التأمّل، فكأنّهم قالوا: إنّهم اتّبعوك بلا تأمُّل فلا يثبُتون على دينك؛ بل يرتدُّون عنه، تعسّفٌ لا يخفى.[4]

﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ بكلّ ما ينبغي أن يُعلم، ويدخُل فيه جهلهم بلقاء الله عزّ وعلا وبمنزلتهم عنده وباستيجاب طَرْدهم لغضب الله كما سيأتي،

---

[1] هود، ٢٧/١١.

[2] كما في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٩٠.

[3] السياق: وحَمْلُه على معنى... يأباه الجزم...

[4] السياق: وادّعاء... تعسُّف...

وبركاكة رأيهم في التماس ذلك وتوقيف إيمانهم عليه أنفةً عن الانتظام معهم في سِلك واحدٍ وزعمًا منهم أنّ الرذالةَ بالفقر والشرفَ بالغنى. وإيثار صيغة الفعل للدلالة على التجدّد والاستمرار، أو تتسافهون على المؤمنين بنسبتهم إلى الخساسة.

﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠﴾

[١٣٢ظ] ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ بدفع حلول سخطِه عنّي. / ﴿إِن طَرَدتُّهُمۡ﴾ فإنّ ذلك أمرٌ لا مردَّ له لكون الطرد ظلمًا موجبًا لحلول السّخط قطعًا، وإنّما لم يُصرَّح به إشعارًا بأنّه غنيٌّ عن البيان لاسيّما غِبَّ ما قُدّم ما يلوحُ به مِن أحوالهم، فكأنّه قيل: مَن يدفع عنّي غضب الله تعالى إن طردتُهم وهم بتلك المثابة مِن الكرامة والزُلفى؟ كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أتستمرُّون على ما أنتم عليه مِن الجهل المذكور، فلا تتذكّرون ما ذُكر مِن حالهم حتّى تعرِفوا أنّ ما تأتونه بمَعزِل عن الصواب؟ ولكون هذه العلّة مستقلّة بوجه مخصوص ظاهر الدلالة على وجوب الامتناع عن الطرد أُفرِدت عن التعليل السابق وصُدِّرت بـ﴿يَٰقَوۡمِ﴾.

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١﴾

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ﴾ حين أدّعي النبوّة: ﴿عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ أي: رِزقُه وأموالُه حتّى تستدلّوا بعدمها على كذبي بقولكم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾،[١] فإنّ النبوّة أعزُّ مِن أن تُنال بأسباب دنيويّة، ودعواها بمَعزِل عن ادّعاء المال والجاه.

﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ أي: لا أدّعي في قولي: ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾،[٢] ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾[٣] علمَ الغيب حتّى تُسارعوا إلى الإنكار والاستبعاد، ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ حتّى تقولوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا﴾،[٤] فإنّ البشريّة ليست

---

١ هود، ٢٧/١١.
٢ هود، ٢٥/١١.
٣ هود، ٢٦/١١.
٤ هود، ٢٧/١١.

مِن موانع النبوّة؛ بل مِن مباديها، يعني أنكم اتّخذتم فقدان هذه الأمور الثلاثة ذريعة إلى تكذيبي، والحال أنّي لا أدّعي شيئًا مِن ذلك ولا الذي أدّعيه يتعلّق بشيء منها، وإنّما يتعلّق بالفضائل النفسانيّة التي بها تتفاوت مقادير البشر.

[١٣٣و] ﴿وَلَآ أَقُولُ﴾ مساعدةً لكم كما تقولون ﴿لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ / أي: تَقتَحِمُهم وتَحتقِرُهم، مِن زراه إذا عابه. وإسناد الازدراءِ إلى أعينهم بالنظر إلى قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾،[١] وإمّا للإشعار بأنّ ذلك لقصور نظرهم ولو تدبَّروا في شأنهم ما فعلوا ذلك، أي: لا أقول في شأن الذين استرذلتموهم لفقرهم مِن المؤمنين ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ في الدنيا أو في الآخرة، فعسى الله أن يُؤتيَهم خيرَي الدارين.

إن قلتَ: هذا القول ليس ممّا يستنكره الكفَرة ولا ممّا يتوهّمون صُدوره عنه عليه السلام أصالةً أو استتباعًا كادّعاء المَلَكيّة وعِلم الغيب وحِيازة الخزائن ممّا نفاه عليه السلام عن نفسه بطريق التبرّؤ والتنزّه عنه، فمِن أيّ وجه عُطِف نفيُه على نفيها؟ قلتُ: مِن جهة أنّ كلا النفيَين ردٌّ لقياسهم الباطل الذي تمسَّكوا به فيما سلف، فإنّهم زعموا أنّ النبوّة تستتبع الأمورَ المذكورة وأنّها لا تتسنّى ممّن ليس على تلك الصفات، وأنّ العثور على مكانها واغتنامَ مغانمها ليس مِن دأب الأراذل، فأجاب عليه السلام بنفي ذلك جميعًا، فكأنّه قال: لا أقول: وجودُ تلك الأشياءِ مِن مواجب النبوّة ولا عدمُ المال والجاه مِن موانع الخير.

﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ مِن الإيمان، وإنّما اقتُصر على نفي القول المذكور مع أنّه عليه السلام جازم بأنّ الله سبحانه سيُؤتيهم خيرًا عظيمًا في الدارين، وأنّهم على يقين راسخ في الإيمان جريًا على سَنَن الإنصاف مع القوم واكتفاء [١٣٣ظ] بمخالفة كلامهم وإرشادًا لهم إلى مَسلَك الهداية، بأنّ اللائق لكلّ أحد / ألّا يبُتَّ القول إلّا فيما يعلَمه يقينًا، ويَبنيَ أمورَه على الشواهد الظاهرة، ولا يجازفَ فيما ليس فيه على بيّنة ظاهرة.

---

[١] هود، ١١/٢٧.

﴿إِنِّيٓ إِذٗا﴾ أي: إذا قلتُ ذلك[١] ﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لهم بحطّ مرتبتِهم ونقصِ حقوقهم، أو مِن الظالمين لأنفسهم بذلك، فإنّ وباله راجع إلى أنفسهم. وفيه تعريضٌ بأنّهم ظالمون في ازدرائهم واسترذالِهم. وقيل: إذا قلتُ شيئًا ممّا ذُكر مِن ادّعاء المَلَكيّة وعِلم الغيب وحيازة الخزائن.[٢] وهو بعيدٌ؛ لأنّ تَبِعة تلك الأقوال مُغنية عن التعليل بلزوم الانتظام في زُمرة الظالمين.

﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣٢﴾

﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا﴾ خاصمتنا ﴿فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾ أي: أطلتَه أو أتيتَه بأنواعه، فإنّ إكثار الجدال يتحقّق بعد وقوع أصله فلذلك عُطف عليه بـ"الفاء"، أو أردتَ ذلك فأكثرتَه، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ [النحل، ١٦/٩٨].

ولمّا حجّهم عليه السلام وأبرز لهم بيّناتٍ واضحةَ المدلول وحُججًا تتلقّاها العقول بالقَبول، وألقمهم الحجر بردّ شُبَههم الباطلة ضاقت عليهم الحِيَل وعيّت بهم العِلَل، وقالوا: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ مِن العذاب المُعجَّل، أو العذابِ الذي أُشيرَ إليه في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾،[٣] على تقدير ألّا يكون المراد باليوم يومَ القيامة. ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيما تقول.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٣٣﴾

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ يعني أنّ ذلك ليس موكولًا إليّ، ولا هو
[١٣٤و] ممّا يدخُل تحت قدرتي، وإنّما يتولّاه الله الذي كفرتُم به / وعصيتُموه، يأتيكم به عاجلًا أو آجلًا إن تعلّق به مشيئته التابعة للحكمة. وفيه ما لا يخفى مِن تهويل الموعود، فكأنّه قيل: الإتيان به أمر خارج عن دائرة القُوى البشريّة، وإنّما يفعله الله عزّ وجلّ.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ بالهرَب أو بالمدافعة كما تُدافعونني في الكلام.

---

١ وفي هامش م: أي: ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًا﴾. «منه».
٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٩٠-٢٩١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٢٩.
٣ هود، ١١/٢٦.

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ﴾ النُصح كلمة جامعة لكلّ ما يدور عليه الخير مِن فعل أو قول، وحقيقتُه: إمحاضُ إرادة الخير والدلالة عليه، ونقيضُه الغِشُّ. وقيل: هو إعلام مَوقعِ الغَيّ ليُتّقى وموضعِ الرشد ليُقتفى.

﴿إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ شرطٌ حُذف جوابُه لدلالة ما سبق عليه، والتقدير: إن أردتُ أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي، وهذه الجملة دليل على ما حُذف مِن جواب قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾، والتقدير: إن كان الله يريد أن يُغويَكم فإن أردتُ أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي.

هذا على ما ذهب إليه البصريّون مِن عدم تقديم الجزاء على الشرط، وأمّا على ما ذهب إليه الكوفيّون مِن جوازه فقوله عزّ وعلا: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ﴾ جزاء للشرط الأوّل، والجملة جزاء للشرط الثاني، وعلى التقديرين فالجزاء متعلِّق بالشرط الأوّل، وتعلُّقه به معلَّق بالشرط الثاني، وهذا الكلام متعلِّقٌ بقولهم: ﴿قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾،[1] صدر عنه عليه السلام إظهارًا للعجز عن إلزامهم بالحُجَج والبيِّنات لتماديهم في العناد، وإيذانًا بأنّ ما سبق منه ليس بطريق الجدال والخصام؛ بل بطريق النصيحة لهم والشفَقة عليهم، / وبأنّه [١٣٤ظ]
لم يألُ جُهدًا في إرشادهم إلى الحقّ وهدايتِهم إلى سبيله المستبين وإمحاضِ النصح لهم، ولكن لا ينفعهم ذلك عند إرادة الله تعالى لإغوائهم.

وتقييد عدمِ نفع النصح بإرادته مع أنّه محقَّق لا محالةَ للإيذان بأنّ ذلك النصح منه مقارِن للإرادة والاهتمام به ولتحقيق المقابلة بين ذلك وبين ما وقع بإزائه مِن إرادته تعالى لإغوائهم، وإنّما اقتُصر في ذلك على مجرَّد إرادة الإغواء دون نفسِه -حيث لم يُقل: إن كان الله يغويكم- مبالغةً في بيان غلَبة جنابِه عزّ وجلّ، حيث دلّ ذلك على أنّ نصحه المقارِن للاهتمام به لا يُجديهم عند مجرَّد إرادة الله سبحانه لإغوائهم، فكيف عند تحقيق ذلك وخلقِه فيهم؟

---

[1] هود، ٣٢/١١.

وزيادة ﴿كَانَ﴾ للإشعار بتقدّم إرادته تعالى زمانًا كتقدّمه رتبةً، وللدلالة على تجدّدها واستمرارِها.

وإنّما قُدِّم على هذا الكلامِ ما يتعلّق بقولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾[١] مِن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾[٢] ردًّا عليهم مِن أوّل الأمر وتسجيلًا عليهم بحلول العذابِ مع ما فيه مِن اتِّصال الجواب بالسؤال. وفيه دليل على أنّ إرادته تعالى يصِحّ تعلُّقها بالإغواء، وأنّ خِلاف مراده غيرُ واقع. وقيل: معنى ﴿أَن يُغْوِيَكُمْ﴾: أن يُهلككم، مِن غَوِيَ الفصيلُ غَوًى إذا بشِم[٣] وهلَك.[٤]

﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ خالقُكم ومالكُ أمركم ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على أعمالكم لا محالةَ.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ قال ابن عبّاس رضيَ الله عنهما: «يعني نوحًا عليه [١٣٥و] السلام».[٥] ومعناه: بل أيقول قوم نوحٍ: إنّ نوحًا افترى ما جاء به / مسنِدًا إلى الله عزّ وجلّ. ﴿قُلْ﴾ يا نوح ﴿إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ بالفَرْض البَحْت ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِى﴾ إثمي ووبالُ إجرامي، وهو كسبُ الذنب. وقُرِئ: بلفظ الجمع،[٦] وينصُره أن فسّره الأوّلون بآثامي.[٧]

﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ مِن إجرامكم في إسناد الافتراء إليّ، فلا وجهَ لإعراضكم عنّي ومعاداتِكم لي. وقال مقاتل: «يعني محمدًا صلّى الله عليه وسلّم».[٨] ومعناه: بل أيقول مشركو مكّةَ: افترى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خبرَ نوحٍ، فكأنّه إنّما جيء به في تضاعيف القصّة عند سَوْق طرَف منها تحقيقًا

---

١ هود، ٣٢/١١.
٢ هود، ٣٣/١١.
٣ البشَم: تُخمة على الدَّسم، وربّما بشِم الفصيل مِن كثرة شرب اللبن فيهلِك. انظر: **لسان العرب** لابن منظور، «بشم».
٤ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٢٩١/٢.
٥ **معالم التنزيل** للبغوي، ١٧٣/٤.
٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الزّعفراني. **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ٩٨٨.
٧ انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٢٩١/٢.
٨ **معالم التنزيل** للبغوي، ١٧٣/٤.

لحقّيتها وتأكيدًا لوقوعها وتشويقًا للسامعين إلى استماعها، لا سيّما وقد قُصّ منها طائفة متعلّقة بما جرى بينه عليه السلام وبين قومه مِن المُحاجّة، وبقيَت طائفة مستقلّة متعلّقة بعذابهم.

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ﴾ أي: المُصِرّين على الكفر، وهو إقناط له عليه السلام مِن إيمانهم، وإعلامٌ لكونه كالمُحال الذي لا يصِحّ توقُّعه. ﴿إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ إلّا مَن قد وُجد منه ما كان يُتوقَّع مِن إيمانه، وهذا الاستثناء على طريقة قوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء، ٢٢/٤].

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أي: لا تحزَن حزنَ بائس مستكين، ولا تغتمّ بما كانوا يتعاطَونه مِن التكذيب والاستهزاء والإيذاء في هذه المدّة الطويلة، فقد انتهى أفعالهم وحان وقت الانتقام منهم.

﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ ملتبِسًا ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بحفظنا وكلاءتِنا، كأنّ معه مِن الله عزّ وجلّ حُفّاظًا وحُرّاسًا يكلؤنه بأعينهم مِن التعدّي مِن الكفَرة ومِن الزَّيغ / في الصَّنْعة. ﴿وَوَحْيِنَا﴾ إليك كيف تصنعها وتعليمِنا وإلهامِنا. [١٣٥ظ]

عن ابن عبّاس: «لم يعلم كيف صنعة الفُلك، فأوحى الله تعالى إليه أن يصنعها مثلَ جُؤجُؤ[1] الطائر».[2] والأمرُ للوجوب؛ إذ لا سبيلَ إلى صيانة الرُّوح مِن الغرق إلّا به، فيَجب كوجوبها. و"اللامُ" إمّا للعهد، بأن يُحمَل على أنّ هذا مسبوق بوحي الله تعالى إليه عليه السلام أنّه سيُهلكهم بالغرق، ويُنجّيه ومَن معه بشيء سيصنعه بأمره تعالى ووحيه مِن شأنه كيتَ وكيتَ واسمُه كذا، وإمّا للجنس.

---

[1] الجؤجؤ: الصدر. انظر: لسان العرب لابن منظور، «جأجأ».

[2] جامع البيان للطبري، ٣٩٢/١٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٩٢/٢.

قيل: صنعها عليه السلام في سنتين،[١] وقيل: في أربعمائة سنةٍ.[٢] وكانت مِن خشب الساج، وجُعلت ثلاثةَ بطون: حُمل في البطن الأوّل الوحوشُ والسباع والهوامّ، وفي البطن الأوسطِ الدوابُّ والأنعام، وفي البطن الأعلى جنسُ البشر هو ومَن معه مع ما يحتاجون إليه مِن الزاد.[٣] وحَمل معه جسدَ آدمَ عليه السلام. وقيل: جَعل في الأوّل الدوابَّ والوحوش، وفي الثاني الإنسَ، وفي الأعلى الطيرَ.[٤] قيل: كان طولُها ثلاثمائة ذراعٍ وعَرضُها خمسين ذراعًا، وسَمْكُها ثلاثين ذراعًا.[٥] وقال الحسن: «كان طولُها ألفًا ومائتي ذراعٍ، وعَرضُها ستّمائة ذراعٍ».[٦]

وقيل: إنّ الحَواريّين قالوا لعيسى عليه السلام: «لو بعثتَ لنا رجلًا شهد السفينة يحدِّثنا عنها»، فانطلق بهم حتّى انتهى إلى كثيب مِن تراب فأخذ كفًّا / مِن ذلك التراب، فقال: «أتدرون مَن هذا؟» قالوا: «الله ورسوله أعلَم»، قال: [١٣٦و] «هذا كعبُ بنُ حام»، قال فضرب بعصاه فقال: «قُم بإذن الله»، فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه وقد شاب، فقال له عيسى عليه السلام: «أهكذا هلكتَ؟» قال: «لا، مِتُّ وأنا شابّ ولكنّني ظننتُ أنّها الساعة فمِن ثَمّةَ شِبتُ»، فقال: «حدِّثنا عن سفينة نوح»، قال: «كان طولها ألفًا ومائتي ذراعٍ وعَرضُها ستّمائة ذراعٍ، وكانت ثلاث طبقاتٍ: طبقة للدوابّ والوَحش، وطبقة للإنس، وطبقة للطير». ثمّ قال: «عُد بإذن الله تعالى كما كنت» فعاد ترابًا.[٧]

﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ أي: لا تُراجعني فيهم ولا تدعُني باستدفاع العذاب عنهم. وفيه مِن المبالغة ما ليس فيما لو قيل: ولا تدعُني فيهم، وحيث كان فيه ما يُلوِّح بما يستتبِعه أُكِّد التعليل فقيل: ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ أي: محكوم عليهم

---

١ مَرويّ عن ابن عبّاس في معالم التنزيل للبغوي، ١٧٤/٤، وبلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٢٩٢/٢.
٢ انظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ٢٨١/٢.
٣ مَرويٌّ عن ابن عبّاس في معالم التنزيل للبغوي، ١٧٤/٤-١٧٥.
٤ ورد هذا القول بمعناه في أثناء خبر الحواريّين مع عيسى عليه السلام المرويّ عن ابن عبّاس في جامع البيان للطبري، ٢٩٥/١٢؛ وهو عن كعب الأحبار في معالم التنزيل للبغوي، ١٧٥/٤.
٥ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٩٢/٢.
٦ جامع البيان للطبري، ٢٩٥/١٢؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٧٥/٤.
٧ هو بهذا اللفظ بلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٢٩٢/٢. وهو لابن عبّاس بلفظ قريب مع زيادات في جامع البيان للطبري، ٢٩٥/١٢-٢٩٦.

بالإغراق قد مضى به القضاء وجفّ القلم فلا سبيلَ إلى كفّه، ولزِمتْهم الحُجّة فلم يبقَ إلّا أن يُجعلوا عِبرةً للمعتبِرين ومَثلًا للآخِرين.

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ حكاية حال ماضية لاستحضار صورتها العجيبة. وقيل: تقديره وأخذ يصنع الفُلك، أو أقبل يصنعها فاقتُصر على ﴿يَصْنَعُ﴾.[١]

وأيًّا ما كان ففيه ملاءمة للاستمرار المفهوم مِن الجملة الواقعة حالًا مِن ضميره، أعني قوله تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ استهزءوا به لعمله السفينة، إمّا لأنّهم ما كانوا يعرفونها ولا كيفيّةَ استعمالها والانتفاعِ بها، فتعجّبوا مِن ذلك وسخِروا منه، وإمّا لأنّه كان يصنعها في / برّيّة يهماءَ[٢] في أبعَد [١٣٦ظ]
موضع مِن الماء وفي وقت عِزّته عِزّةً شديدة، وكانوا يتضاحكون ويقولون: «يا نوحُ صرتَ نجّارًا بعد ما كنت نبيًّا!»، وقيل: لأنّه عليه السلام كان يُنذرهم الغرق فلمّا طال مُكْثه فيهم ولم يُشاهِدوا منه عينًا ولا أثرًا عدُّوه مِن باب المُحال، ثمّ لمّا رأوا اشتغاله بأسباب الخلاص مِن ذلك فعلوا ما فعلوا.[٣] ومدار الجميع إنكارُ أن يكون لعمله عليه السلام عاقبةٌ حميدة، مع ما فيه مِن تحمّل المَشاقّ العظيمة التي لا تكاد تُطاق واستجهاله عليه السلام في ذلك.

﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا﴾ مستجهلين لنا فيما نحن فيه ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ أي: نستجهلكم فيما أنتم عليه. وإطلاق السُّخرية عليه للمشاكلة. وجمعُ الضمير في ﴿مِنَّا﴾ إمّا لأنّ سُخريتهم منه عليه السلام سُخرية مِن المؤمنين أيضًا، أو لأنّهم كانوا يسخرون منهم أيضًا، إلّا أنّه اكتُفيَ بذكر سُخريتهم منه عليه السلام، ولذلك تعرَّض الجميع للمُجازاة في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾... إلخ، فتكافأ الكلام مِن الجانبين.

---

١ القول في اللباب لابن عادل، ٤٨٢/١٠.

٢ اليهماء: الأرض التي لا أثر فيها ولا طريقَ ولا عَلَم. انظر: لسان العرب لابن منظور، «يهم».

٣ القول في اللباب لابن عادل، ٤٨٣/١٠.

وتعليقُ استجهاله عليه السلام إيّاهم بما فعلوا مِن السُّخرية باعتبار إظهاره ومشافهته عليه السلام إيّاهم بذلك، وإلا فعَدُّه عليه السلام إيّاهم جاهلين فيما يأتون ويذرون أمرٌ مطَّرد لا تعلُّق له بسُخريتهم منهم، لكنّه عليه السلام لم يكن يتصدّى لإظهاره جريًا على نهج الأخلاق الحميدة، وإنّما أظهره جزاءً بما صنعوا بعد اللُّتيّا والتي،[1] فإنّ سُخريتهم كانت مستمرّة ومتجدِّدةً حسب تجدُّد مرورهم به،[2] ولم يكن يُجيبهم في كلّ مرّة، وإلّا لَقيل: ويقول إن تسخروا منّا... إلخ؛ بل إنّما أجابهم بعد بلوغ أذاهم الغاية كما يؤذِن به الاستئناف، فكأنّ سائلًا سأل فقال: [١٣٧و] فما صنع نوح عند بلوغِهم منه هذا المبلغ؟ فقيل: قال: / إن تسخروا منّا، أي: إن تنسُبونا فيما نحن بصدده مِن التأهّب والمباشرة لأسباب الخلاص مِن العذاب إلى الجهل وتسخَروا منّا لأجله، فإنّا ننسُبكم إليه فيما أنتم فيه مِن الإعراض عن استدفاعه بالإيمان والطاعة، ومِن الاستمرار على الكفر والمعاصي والتعرّضِ لأسباب حلول سخط الله تعالى التي مِن جملتها استجهالُكم إيّانا وسُخريتُكم منّا.

والتشبيه في قوله عزّ وجلّ: ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ إمّا في مجرَّد التحقّق والوقوع، أو في التجدّد والتكرّر حسبما صدر عن ملأ غِبَّ ملأ، لا في الكيفيّات والأحوال التي لا تليق بشأن النبيّ عليه السلام، فكلا الأمرين واقع في الحال. وقيل: نسخر منكم في المستقبل سُخريةً مثلَ سُخريتكم إذا وقع عليكم الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة.[3] ولعلّ مرادَه نُعاملكم معاملةَ مَن يفعل ذلك؛ لأنّ نفسَ السُّخرية ممّا لا يكاد يليق بمنصِب النبوّة، ومع ذلك لا سَدادَ له؛ لأنّ حالهم إذ ذاك ليس ممّا يلائمه السُّخرية أو ما يجري مجراها فتأمّلْ.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ٣٩﴾

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ وهو عذاب الغرَق ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ حلولَ الدَّين المؤجَّل ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ هو عذاب النار الدائم، وهو تهديد بليغ.

---

[1] اللُّتيّا والّتي: يكنى بهما عن الشدّة، واللُّتيّا: تصغير التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. مجمع الأمثال للميداني، ١٦٤/١.

[2] ط س: منه. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[3] القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٩٢/٢.

و﴿مَن﴾ عبارةٌ عنهم، وهي إمّا استفهاميّة في حيّز الرفع، أو موصولة في محلّ النصب بـ﴿تَعْلَمُونَ﴾، وما في حيّزها سادّ مَسدَّ مفعولين، أو مفعولٍ واحدٍ إن جُعل العِلم بمعنى المعرفة.

ولمّا كان مدار سُخريتهم استجهالَهم إيّاه عليه السلام في مكابدة المَشاقّ الفادحة لدَفْع ما لا يكاد يدخُل تحت الصحّة على زعمهم مِن الطوفان ومُقاساةِ الشدائد في بناء السفينة وكانوا يعدّونه / عذابًا، قيل بعد استجهالِهم: فسوف [١٣٧ظ] تعلمون مَن يأتيه العذاب، يعني: أن ما أُباشره ليس فيه عذاب لاحق بي فسوف تعلمون مَن المعذَّبُ. ولقد أصاب العِلمُ بعد استجهالهم مَحزّه. ووصفُ العذاب بالإخزاء لِما في الاستهزاء والسُخرية مِن لُحوق الخِزي والعار عادة. والتعرّض لحلول العذاب المقيم للمبالغة في التهديد، وتخصيصُه بالمؤجَّل وإيرادُ الأوّل بالإتيان في غاية الجزالة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٤٠﴾

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هي التي يُبتدأ بها الكلامُ دخلت على الجملة الشرطيّة، وهي مع ذلك غاية لقوله: ﴿وَيَصْنَعُ﴾،[١] وما بينهما حال مِن الضمير فيه، و﴿سَخِرُواْ مِنْهُ﴾[٢] جواب لـ﴿كُلَّمَا﴾،[٣] و﴿قَالَ﴾[٤] استئناف على تقدير سؤال سائل كما ذكرناه. وقيل: هو الجواب، و﴿سَخِرُواْ مِنْهُ﴾ بدلٌ مِن ﴿مَرَّ﴾، أو صفة لـ﴿مَلَأٌ﴾.[٥] وقد عرفتَ أنّ الحقّ هو الأوّل؛ لأنّ المقصود بيان تناهيهم في إيذائه عليه السلام وتحمّلِه لأذيّتهم، لا مسارعتُه عليه السلام إلى جوابهم كلّما وقع منهم ما يؤذيه مِن الكلام.

﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ نبع منه الماء وارتفع بشدّة كما يفور القِدر بغَليانها، والتنّور: تنّور الخبز، وهو قول الجمهور.[٦] رُوي أنّه قيل لنوح عليه السلام: إذا رأيتَ الماء يفور مِن التنّور فاركبْ ومَن معك في السفينة، فلمّا نبع الماء أخبرته امرأته فركب.

---

١ هود، ١١/٣٨.
٢ هود، ١١/٣٨.
٣ هود، ١١/٣٨.
٤ هود، ١١/٣٨.
٥ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٩٣.
٦ الكلام في معالم التنزيل للبغوي، ٤/١٧٥.

وقيل: كان تنوّرَ آدمَ عليه السلام وكان مِن حجارة فصار إلى نوح، وإنّما نبع منه وهو أبعد شيء مِن الماء على خرق العادة، وكان في الكوفة في موضع مسجدها عن يمين الداخل ممّا يلي باب كِنْدة، وكان عَمِل السفينة في ذلك
[١٣٨و] الموضع، / أو في الهند أو في موضع بالشام يقال له: عين وردة.[١] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما وعِكرمةَ والزُّهريّ: أنَّ التنوّر وجه الأرض.[٢] وعن قتادةَ: أشرفُ موضع في الأرض، أي: أعلاه.[٣] وعن عليّ رضي الله عنه: فار التنور: طلع الفجرُ.[٤]

﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا﴾ أي: في السفينة وهو جوابُ ﴿إِذَا﴾. ﴿مِن كُلٍّ﴾ أي: مِن كلّ نوع لا بدّ منه في الأرض ﴿زَوْجَيْنِ﴾ الزوجُ: ما له مُشاكِل مِن نوعه، فالذَّكرُ زوج للأنثى كما هي زوج له، وقد يُطلَق على مجموعهما فيُقابل الفرد، ولإزالة ذلك الاحتمالِ قيل: ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ كلٌّ منهما زوج للآخر. وقُرئ على الإضافة.[٥]

وإنّما قُدِّم ذلك على أهله وسائر المؤمنين لكونه عريقًا فيما أُمر به مِن الحمل؛ لأنّه يحتاج إلى مزاولة الأعمال منه عليه السلام في تمييز بعضه مِن بعض وتعيينِ الأزواج، فإنّه رُوي أنّه عليه السلام قال: يا ربّ كيف أحمِل مِن كلّ زوجين اثنين؟ فحشر الله تعالى إليه السباع والطير وغيرها، فجعل يضرِب بيديه في كلّ جنس فيقع الذَّكر في يده اليمنى والأنثى في اليسرى فيجعلها في السفينة.[٦] وأمّا البشر فإنّما يدخُل الفُلكَ باختياره فيخِفّ فيه معنى الحَمْل، أو لأنّها إنّما تحمِلُ بمباشرة البشر وهم إنّما يدخُلونها بعد حَمْلهم إيّاها.

[١٣٨ظ] ﴿وَأَهْلَكَ﴾ عطفٌ على ﴿زَوْجَيْنِ﴾ أو على ﴿ٱثْنَيْنِ﴾، / والمراد امرأته وبنوه ونساؤهم. ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ بأنّه مِن المُغرَقين بسبب ظلمهم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ الآية،[٧] والمراد به: ابنه كنعان وأُمُّه واغلةُ فإنّهما كانا كافرين، والاستثناءُ منقطِع إن أُريد بالأهل الأهل إيمانًا، وهو الظاهر

---

١ هذه الأقوال في معالم التنزيل للبغوي، ١٧٥/٤.
٢ انظر: جامع البيان للطبري، ٤٠١/١٢-٤٠٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٧٥/٤.
٣ انظر: جامع البيان للطبري، ٤٠٤/١٢.
٤ انظر: جامع البيان للطبري، ٤٠٣/١٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٧٥/٤.
٥ قرأ بها العشرة إلّا حفصًا عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢٨٨/٢.
٦ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ١٧٥/٤.
٧ هود، ٣٧/١١.

كما ستعرفه؛ أو متّصلٌ إن أريدَ به الأهل قرابة، ويكفي في صحّة الاستثناء المعلوميّة عند المراجعة إلى أحوالهم والتفحّص عن أعمالهم.

وجيء بـ"على" لكون السابق ضارًّا لهم، كما جيء باللام فيما هو نافع لهم في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات، ١٧١/٣٧]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء، ١٠١/٢١].

﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ مِن غيرهم. وإفراد الأهل منهم للاستثناء المذكور. وإيثار صيغة الإفراد في ﴿ءَامَنَ﴾ محافظةً على لفظ ﴿مَنْ﴾ للإيذان بقلّتهم، كما أعرب عنه قوله عزّ قائلًا: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

قيل: كانوا ثمانية: نوحٌ عليه السلام وأهله وبنوه الثلاثة ونساؤهم.[1] وعن ابن إسحاقَ كانوا عشرة: خمسةَ رجال وخمسَ نسوة. وعنه أيضًا أنّهم كانوا عشرة سوى نسائِهم.[2] وقيل: كانوا اثنين وسبعين رجلًا وامرأةً، وأولادُ نوحٍ: سامٌ وحامٌ ويافث ونساؤُهم، فالجميع ثمانية وسبعون نصفُهم رجال ونصفُهم نساء.[3] واعتبارُ المعيّة في إيمانهم للإيماء إلى المعيّة في مقرّ الأمان والنجاة.

﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٤١﴾

﴿وَقَالَ﴾ أي: نوحٌ عليه السلام لمَن معه مِن المؤمنين، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، / ولو رجع الضمير إلى الله تعالى لَناسَب أن يقال: [١٣٩و]
إنّ ربّكم، ولعلّ ذلك بعد إدخالِ ما أُمر بحَمْله في الفُلك مِن الأزواج، كأنّه قيل: فحَمَل الأزواج أو أدخلها في الفُلك، وقال للمؤمنين: ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا﴾، كما سيأتي مثلُه في قوله تعالى: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ﴾ [هود، ٤٢/١١].

والركوب: العلوُّ على شيء متحرِّك، ويتعدّى بنفسه. واستعماله ههنا بكلمة "في" ليس لأنّ المأمور به كونُهم في جوفها لا فوقَها كما ظُنّ، فإنّ أظهرَ الروايات

---

[1] مَرويٌّ عن قتادة وابن جُريج ومحمّد بن كعب القُرظي. جامع البيان للطبري، ٤١٠/١٢-٤١١؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٧٦/٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٩٣/٢.

[2] جامع البيان للطبري، ٤١١/١٢-٤١٢؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٧٦/٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٩٣/٢.

[3] القول في معالم التنزيل للبغوي، ١٧٦/٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٩٣/٢.

أنّه عليه السلام جعَل الوحوشَ ونظائرها في البطن الأسفل والأنعامَ في الأوسط وركب هو ومَن معه في الأعلى؛[١] بل لرعاية جانب المحليّة والمكانيّة في الفُلك. والسرُّ فيه أنّ معنى الركوبِ: العلوُّ على شيء له حركة إمّا إراديّة كالحيوان أو قسريّة كالسفينة والعجَلة ونحوهما، فإذا استُعمل في الأوّل يوفَّر له حظُّ الأصل فيقال: "ركبتُ الفرسَ"، وعليه قوله عزّ مِن قائل: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ [النحل، ٨/١٦]، وإن استُعمل في الثاني يُلوَّح بمحليّة المفعول بكلمة "في" فيقال: "ركبتُ في السفينة"، وعليه الآية الكريمة وقولُه عزّ قائلًا: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ﴾ [العنكبوت، ٦٥/٢٩]، وقوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ [الكهف، ٧١/١٨].

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ متعلِّق بـ﴿ٱرْكَبُواْ﴾ حال مِن فاعله، أي: اركبوا مُسمِّين الله تعالى، أو قائلين: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾. ﴿مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ نصب على الظرفيّة، أي: وقتَ إجرائها وإرسائها، على أنّهما اسما زمان أو مصدران كالإجراء والإرساء بحذف الوقت، كقولك: "آتيكَ خفوقَ النجم"، أو اسما مكان انتصبا بما في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ مِن معنى الفعل أو إرادة القول.

[١٣٩ظ] ويجوز أن يكون ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ / مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ مستقلّةً مِن مبتدأ وخبر في موضع الحال مِن ضمير ﴿ٱلْفُلْكَ﴾، أي: اركبوا فيها مُجراةً ومُرساةً باسم الله تعالى بمعنى التقدير، كقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر، ٧٣/٣٩]؛ أو جملةً مقتضبةً على أنّ نوحًا عليه السلام أمرهم بالركوب فيهم ثمّ أخبرهم بأنّ إجراءها وإرساءها باسم الله تعالى، فيكونان كلامين له عليه السلام. قيل: كان عليه السلام إذا أراد أن يُجرِيَها يقول: بسم الله فتجري، وإذا أراد أن يُرسِيَها يقول: بسم الله فترسو.[٢] ويجوز أن يكون الاسم مُقحَمًا، كما في قوله:

إلى الحَول ثمّ اسمُ السلامِ عليكما[٣]

---

١ مضى بتخريجه في الكلام على هود، ٣٧/١١.

٢ مرويٌّ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٤١٦/١٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٧٨/٤.

٣ صدر بيت للبيد، عجزه: ومَن يبكِ حولًا كاملًا فقد اعتذرْ في ديوانه، ص ٢١٤؛ وهو له في جامع البيان للطبري، ١١٥/١ (الفاتحة، ١/١)، شاهدًا على ما نحن فيه.

ويُراد: بالله إجراؤها وإرساؤها، أي: بقدرته وأمره، وقُرئ: "مُجْرِيهَا ومُرسِيهَا"[١] على صيغة الفاعل مجرورَي المحلّ صفتين لله عزّ اسمه، و"مَجْرَاها ومَرْسَاهَا"[٢] بفتح الميم مصدرين أو زمانين أو مكانين مِن "جرى" و"رسا".

﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ﴾ للذنوب والخطايا ﴿رَحِيمٌ﴾ بعباده، ولذلك نجّاكم مِن هذه الطآمّة والداهية التامّة، ولولا ذلك لَما فعله. وفيه دلالة على أنّ نجاتهم ليست بسبب استحقاقهم لها؛ بل بمحض فضل الله سبحانه وغفرانه ورحمته، على ما عليه رأيُ أهل السنّة.

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾ متعلّق بمحذوف دلّ عليه الأمر بالركوب، أي: فركبوا فيها مُسمِّين وهي تجري ملتبسةً بهم ﴿فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ وهو ما ارتفع مِن الماء عند اضطرابه، كلُّ موجة مِن ذلك كجبل في ارتفاعها وتراكُمها.

وما قيل مِن أنّ الماءَ طبّق ما بين السماء والأرض وكانت السفينة تجري في جوفه كالحوت،[٣] فغيرُ ثابت. والمشهور أنّه علا شوامخَ الجبال خمسةَ عشرَ ذراعًا أو أربعين ذراعًا، ولئن صحّ ذلك فهذا الجريان إنّما هو قبل أن يتفاقم الخَطْبِ، / كما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾، فإنّ ذلك إنّما يُتصوَّر قبل أن تنقطِع [١٤٠و] العلاقةُ بين السفينة والبَرّ، إذ حينئذ يمكن جرَيان ما جرى بين نوحٍ عليه السلام وبين ابنه مِن المفاوضة بالاستدعاء إلى السفينة والجوابِ بالاعتصام بالجبل.

وقُرئ: "ابنَهَا"،[٤] و"ابنَهَ"[٥] بحذف الألِف، على أنّ الضمير لامرأته وكان ربيبَه.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد والجَحدري. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وقتادة والأعمش والمُفضّل وزيد بن أسلَم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٥.

٣ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٩٤.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب وعروة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٥؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٥.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب ومحمّد بن عليّ وجعفر بن محمّد وعروة بن الزُّبير وهشام بن عروة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٥؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٥.

وما يقال مِن أنّه كان لغير رِشدةٍ[1] لقوله تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم، ١٠/٦٦]، فارتكابُ عظيمةٍ لا يُقادَر قدرُها؛ فإنّ جناب الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم وسلامه أرفعُ مِن أن يشار إليه بإصبع الطعن، وإنّما المراد بالخيانة الخيانةُ في الدين.[2] وقُرئ: "ابنَاهْ"[3] على النُّدبة، ولكونها حكايةً سُوّغ حذف حرفها. وأنت خبيرٌ بأنّه لا يلائمه الاستدعاء إلى السفينة، فإنّه صريح في أنّه لم يقع مِن حياته يأسٌ بعدُ.

﴿وَكَانَ فِى مَعۡزِلٍ﴾ أي: في مكان عزَل فيه نفسَه عن أبيه وإخوته وقومه، بحيث لم يتناوله الخطاب بـ﴿ٱرۡكَبُواْ﴾،[4] واحتاج إلى النداء المذكور. وقيل: في مَعزِل مِن الكفّار قد انفرد عنهم، وظنّ نوحٌ أنّه يريد مفارقتهم ولذلك دعاه إلى السفينة. وقيل: كان ينافق أباه فظنّ أنّه مؤمنٌ. وقيل: كان يعلم أنّه كافر إلى ذلك الوقت، لكنّه عليه السلام ظنّ أنّه عند مشاهدة تلك الأهوال ينزجر عمّا كان عليه ويقبَل الإيمان. وقيل: لم يكن الذي تقدّم مِن قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾[5] نصًّا في كون ابنه داخلًا تحته؛ بل كان كالمُجمِل فحملته شفقة الأبوّة على ذلك.

﴿يَٰبُنَيَّ﴾ قُرئ بكسر الياء[6] اقتصارًا عليه مِن ياء الإضافة، وبالفتح[7] اقتصارًا عليه مِن الألف المُبْدلةِ / مِن ياء الإضافة في قولك: "يا بنيّا"، أو سقطت الياء والألف لالتقاء الساكنين؛ لأنّ الراء بعدهما ساكنة. [١٤٠ظ]

﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾ قرأ أبو عمرو والكسائيُّ وحفص بإدغام الباء في الميم[8] لتقاربهما في المَخرَج، وإنّما أُطلق الركوب عن ذِكر الفُلك لتعيُّنها وللإيذان بضِيق المقام، حيث «حالَ الجَريض دون القريض»،[9] مع إغناء المعيّةِ عن ذلك.

---

١ يقال: هذا ولدُ رِشدة إذا كان لنكاح صحيح، كما يقال في ضدّه: وَلدُ زِنْيَة. انظر: لسان العرب لابن منظور، «رشد».

٢ القول مع ردّه بلفظ قريب في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٣٢/٢؛ وبلفظ أوجز في الكشّاف للزمخشري، ٢٩٤/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن السدّي وابن أبي ليلى. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٥.

٤ في الآية السابقة.

٥ هود، ٤٠/١١.

٦ قرأ بها العشرة إلّا عاصمًا. النشر لابن الجزري، ٢٨٩/٢.

٧ قرأ بها عاصم. النشر لابن الجزري، ٢٨٩/٢.

٨ قرأ أبو عمرو والكسائي ويعقوب بالإدغام، وقرأ ابن كثير وعاصم وقالون وخلّاد بالإدغام والإظهار. النشر لابن الجزري، ١١/٢.

٩ مجمع الأمثال للميداني، ١٩١/١. وفيه: «الجريض: الغُصّة... والقريض: الشِّعر... يُضرَب للأمر يُقدَر عليه أخيرًا حين لا ينفع».

﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: في المكان، وهو وجه الأرض خارجَ الفُلك لا في الدِّين، وإن كان ذلك ممّا يُوجِبه كما يُوجِب ركوبُه معه عليه السلام كونَه معه في الإيمان؛ لأنه عليه السلام بصَدد التحذير عن المَهلكة فلا يلائمه النهي عن الكفر.

﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ﴾ مِن الجبال ﴿يَعْصِمُنِي﴾ بارتفاعه ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ زعمًا منه أن ذلك كسائر المياه في أزمنة السيول المعتادة التي ربّما يُتّقى منها بالصعود إلى الرُّبى، وأنّى له ذلك وقد «بلَغ السَّيل الزُّبى»،[1] وجهلًا بأنّ ذلك إنّما كان لإهلاك الكفَرة وألّا محيصَ مِن ذلك سوى الالتجاء إلى ملجأ المؤمنين، فلذلك أراد عليه السلام أن يُبيّن له حقيقة الحال ويصرِفه عن ذلك الفكر المُحال.

وكان مقتضى الظاهر أن يُجيب بما ينطبق على كلامه ويتعرّضَ لنفي ما أثبته للجبل مِن كونه عاصمًا له مِن الماء بأن يقول: "لا يعصِمك منه" مفيدًا لنفي وصف العصمة عنه فقط مِن غير تعرّضٍ لنفيه عن غيره ولا لنفي الموصوف أصلًا، لكنّه عليه السلام حيث ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ سلَك طريقة نفي الجنس المنتظِم لنفي جميع أفراد العاصم ذاتًا وصفةً كما في قولهم: ليس فيه داعٍ ولا مجيبٌ، أي: أحد مِن الناس، للمبالغة في نفي كون الجبل عاصمًا بالوجهين / المذكورَين. [١٤١و]

وزاد ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ للتنبيه على أنّه ليس كسائر الأيّام التي تقع فيها الوقائع وتُلِمّ فيها المُلِمّات المعتادة التي ربّما يُتخلّص مِن ذلك بالالتجاء إلى بعض الأسباب العاديّة، وعُبّر عن الماء في محلّ إضماره بأمر الله، أي: عذابِه الذي أُشير إليه حيث قيل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾[2] تفخيمًا لشأنه وتهويلًا لأمره، وتنبيهًا لابنه

---

[1] مجمع الأمثال للميداني، ١/٩١. وفيه: «الزُّبى جمع زُبية... وأصلها الرابية لا يعلوها الماء، فإذا بلغها السيلُ كان جارفًا مُجحفًا».

[2] هود، ١١/٤٠.

على خطئه في تسميته ماءً وتوهُّمِ أنّه كسائر المياه التي يُتفصّى[١] منها بالهرب إلى بعض المهارب المعهودة، وتعليلًا للنفي المذكور فإنّ أمر الله لا يُغالَب وعذابَه لا يُرَدّ، وتمهيدًا لحصر العِصمة في جَناب الله عزّ جاره بالاستثناء، كأنّه قيل: لا عاصمَ مِن أمر الله إلّا هو.

وإنّما قيل: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ تفخيمًا لشأنه الجليل بالإبهام ثمّ التفسير وبالإجمال ثمّ التفصيل، وإشعارًا بعلّيّة رحمته في ذلك بموجَب سبقتها على غضبه، وكلُّ ذلك لكمال عنايته عليه السلام بتحقيق ما يتوخّاه مِن نجاة ابنه ببيان شأن الداهية، وقَطْعِ أطماعه الفارغة، وصرفِه عن التعلّل بما لا يُغني عنه شيئًا، وإرشادِه إلى العياذ بالمَعاذ الحقّ عزَّ حِماه. وقيل: لا مكانَ يعصِم مِن أمر الله إلّا مكانُ مَن رحمه الله وهو الفُلك. وقيل: معنى ﴿لَا عَاصِمَ﴾: لا ذا عصمةٍ إلّا مَن رحمه الله تعالى.[٢]

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ أي: بين نوحٍ وبين ابنه فانقطع ما بينهما مِن المجاوبة لا بين ابنه وبين الجبل، لقوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ إذ هو إنّما يتفرّع على حيلولة الموج بينه عليه السلام وبين ابنه لا بينه وبين الجبل؛ لأنه بمَعزِل مِن كونه عاصمًا وإن لم يحُل بينه وبين الملتجئ إليه موج، وفيه دلالة على هلاك
[١٤١ظ] / سائر الكفَرة على أبلغ وجهٍ فكأنّ ذلك أمر مقرَّر الوقوع غير مُفتقِر إلى البيان. وفي إيراد "كان" دون "صار" مبالغةٌ في كونه منهم.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٤﴾

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي﴾ أي: انشَفي، استُعير له مِن ازدراد الحيوان ما يأكله للدلالة على أنّ ذلك ليس كالنشَف المعتاد التدريجي. ﴿مَآءَكِ﴾ أي: ما على وجهك مِن ماء الطوفان دون المياه المعهودة فيها مِن العيون والأنهار. وعُبّر عنه بالماء

---

١ التفصّي: التخلّص، وأصله أن يكون الشيء في مضيق ثمّ يخرج إلى غيره. انظر: لسان العرب لابن منظور، «فصي».

٢ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٩٤-٢٩٥.

بعدما عُبّر عنه فيما سلف بأمر الله تعالى؛ لأنّ المقام مقام النقص والتقليل لا مقامُ التفخيم والتهويل.

﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ أي: أمسكي عن إرسال المطر، يقال: أقلعت السماء إذا انقطع مطرها، وأقلعت الحُمّى، أي: كفّت.

﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ أي: نُقِص ما بين السماء والأرض مِن الماء ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: أُنجِز ما وعد الله تعالى نوحًا مِن إهلاك قومه وإنجائه بأهله، أو أُتِمّ الأمر ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ استقرّت الفُلك ﴿عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ هو جبل بالمَوصِل أو بالشام أو بآمُل.[١] رُويَ أنّه عليه السلام ركب في الفُلك في عاشر رجب، ونزل عنها في عاشر المحرَّم، فصام ذلك اليوم شكرًا فصار سُنّة.[٢]

﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: هلاكًا لهم. والتعرّض لوصف الظلم للإشعار بعلّيته للهلاك ولتذكير ما سبق مِن قوله: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾.[٣]

ولقد بلغت الآية الكريمة مِن مراتب الإعجاز قاصيتَها وملكت مِن غُرر المزايا ناصيتَها، وقد تصدّى لتفصيلها المهَرة المتقنون، ولَعَمري إنّ ذلك فوق ما يصفه الواصفون، فحريٌّ بنا أن نُوجز الكلام في هذا الباب، / ونُفوِّضَ الأمر [١٤٢و]
إلى تأمُّل أولي الألباب، والله عنده عِلمُ الكتاب.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾ أي: أراد ذلك، بدليل "الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ وقد وعدتني إنجاءَهم في ضمن الأمر بحَمْلهم في الفُلك، أو النداءُ على الحقيقة و"الفاء" لتفصيل ما فيه مِن الإجمال.

---

١ آمُل: أكبر مدينة بطبرستان في السهل؛ لأنّ طبرستان سهل وجبل. وخرج منها علماء كُثر لكنّهم قلّما ينسبون إلى غير طبرستان فيقال لهم: الطبريُّ، منهم إمام المفسّرين أبو جعفر محمّد بن جرير الطبريُّ، أصله ومولده مِن آمُل. انظر: معجم البلدان للحمَوي، ١/٥٧.

٢ انظر: جامع البيان للطبري، ١٢/٤١٩-٤٢٠؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٤/١٧٩.

٣ هود، ١١/٣٧.

﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: وعدَك ذلك، أو إنّ كلّ وَعْد تعده حقّ لا يتطرّق إليه خُلْف فيدخل فيه الوعد المعهود دخولًا أوّليًا. ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ لأنّك أعلمهم وأعدلهم، أو أنت أكثر حكمةً مِن ذوي الحِكَم، على أنّ الحاكم مِن الحكمة كالدارع مِن الدِّرْع. وهذا الدعاء منه عليه السلام على طريقة دعاء أيّوبَ عليه السلام: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء، ٢١/٨٣].

﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿قَالَ يَٰنُوحُ﴾ لمّا كان دعاؤه عليه السلام بتذكير وعده جلّ ذِكره مبنيًا على كون كنعانَ مِن أهله نُفيَ أوّلًا كونُه منهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: ليس منهم أصلًا؛ لأنّ مدار الأهليّة هو القرابة الدينيّة، ولا علاقةَ بين المؤمن والكافر، أو ليس مِن أهلِك الذين أمزتُك بحملهم في الفُلك لخروجه عنهم بالاستثناء، وعلى التقديرين ليس هو مِن الذين وُعد بإنجائهم، ثمّ عُلِّل عدم كونه منهم على طريقة الاستئناف التحقيقي بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ أصله: إنّه ذو عمل غيرِ صالح، فجُعل نفسَ العمل مبالغةً، كما في قول الخنساء:

فـإنّـمـا هـي إقـبـالٌ وإدبـارُ[١]

وإيثار ﴿غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ على "فاسد": إمّا لأنّ الفاسد ربّما يُطلَق على ما فسد ومِن شأنه الصلاحُ، فلا يكون نصًّا فيما هو مِن قبيل الفاسد المَحض كالقتل والمظالم؛ / وإمّا للتلويح بأنّ نجاة مَن نجا إنّما هي لصلاحه. وقرأ الكسائي [١٤٢ظ] ويعقوب "إنَّه عَمِلَ غيرَ صَالِحٍ"،[٢] أي: عملًا غيرَ صالح.

---

[١] وفي هامش م: صدره:

ترتَع ما رتعَتْ حتّى إذا ادّكرتْ

في ديوانها بشرح ثعلب، ص ٣٨٣. وهو لها في كتاب سيبويه ١/٣٣٧، والبيان والتبيين للجاحظ ٣/٢٠١، ودلائل الإعجاز للجرجاني، ص ٣٠٠، وعجزه بلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٩٦. وقال ثعلب في شرحه: «تقول: كأنّي وحشيّة إذا غفَلت رعَتْ، وإذا تذكَّرتْ فَقْدَ ولدها لم يقرّها قرار».

[٢] النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٩.

ولمّا كان دعاؤه عليه السلام مبنيًا على ما ذُكر مِن اعتقاد كون كنعانَ مِن أهله، وقد نُفيَ ذلك وحُقِّق ببيان عِلّته فُرّع على ذلك النهي عن سؤال إنجائه، إلّا أنّه جيء بالنهي على وجه عامّ يندرج فيه ذلك اندراجًا أوّليًا فقيل: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ﴾ أي: إذا وقفتَ على جليّة الحال فلا تطلُب منّي ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: مَطلَبًا لا تعلم يقينًا أنّ حصوله صواب وموافق للحكمة، على تقدير كونِ ﴿مَا﴾ عبارةً عن المسئول الذي هو مفعول للسؤال، أو طلبًا لا تعلَم أنّه صواب، على تقدير كونه عبارةً عن المصدر الذي هو مفعول مطلَق، فيكون النهيُ واردًا بصريحه في كلّ مِن معلوم الفسادِ ومُشتبِه الحال.

ويجوز أن يكون المعنى: ما ليس لك عِلم بأنّه صواب أو غيرُ صواب، فيكون النهيُ واردًا في مشتبِه الحال ويُفهَم منه حال معلوم الفساد بالطريق الأَولى. وعلى التقديرين فهو عامّ يندرج تحته ما نحن فيه كما ذكرناه.

وهذا كما ترى صريح في أنّ نداءَه عليه السلام ربَّه عزّ وعلا ليس استفسارًا عن سبب عدم إنجاء ابنه مع سبق وعدِه بإنجاء أهله، وهو منهم كما قيل، فإنّ النهيَ عن استفسار ما لم يُعلَم غيرُ موافق للحكمة، إذ عدمُ العِلم بالشيء داعٍ إلى الاستفسار عنه لا إلى تَرْكه؛ بل هو دعاء منه لإنجاء ابنه حين حالَ الموجُ / بينهما ولم يَعلم بهلاكه بعدُ، إمّا بتقريبه إلى الفُلك بتلاطم الأمواج أو بتقريبها إليه. وقيل: أو بإنجائه في قُلّة الجبل. ويأباه تذكير الوعد في الدعاء فإنّه مخصوص بالإنجاء في الفُلك. [١٤٣و]

وقوله: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾،[١] ومجرّد حيلولة الموج بينهما لا يستوجب هلاكه فضلًا عن العِلم به لظهور إمكان عصمة الله تعالى إيّاه برحمته، وقد وُعد بإنجاء أهله ولم يكن ابنه مجاهرًا بالكفر كما ذكرناه حتّى لا يجوزَ عليه عليه السلام أن يدعوَه إلى الفُلك أو يدعوَ ربّه لإنجائه.

واعتزاله عنه عليه السلام وقصدُه الالتجاء إلى الجبل ليس بنصّ في الإصرار على الكفر لظهور جواز أن يكون ذلك لجهله بانحصار النجاة في الفُلك وزعمِه

[١] هود، ٤٣/١١.

أنّ الجبل أيضًا يجري مَجراه، أو لكراهة الاحتباس في الفُلك؛ بل قولُه: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾[1] بعد ما قال له نوحٌ عليه السلام: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[2] ربّما يُطمِعه عليه السلام في إيمانه، حيث لـم يقل: "أكونُ معهم" أو "سنأوي" أو "يعصمُنا"، فإنّ إفراد نفسه بنسبة الفعلين المذكورَين ربّما يُشعر بانفراده مِن الكافرين واعتزالِه عنهم وامتثالِه ببعض ما أمره به نوحٌ عليه السلام، إلّا أنّه عليه السلام لو تأمّل في شأنه حقَّ التأمُّل وتفحّص عن أحواله في كلّ ما يأتي ويذر لَما اشتبه عليه أنّه ليس بمؤمن وأنه المستثنى مِن أهله، ولذلك قيل: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ فعُبّر عن تَرْك الأولى بذلك. وقُرِئ: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ﴾ بغير ياء الإضافة،[3] وبالنون الثقيلة بياء،[4] وبغير ياء.[5]

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ﴾ أي: أطلب منك مِن بعدُ ﴿مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ
عِلْمٌ﴾ أي: مطلوبًا لا أعلم أنّ حصوله مقتضي الحكمة أو طلبًا لا أعلم / أنّه [١٤٣ظ]
صواب سواء كان معلومَ الفساد أو مشتبِهَ الحال، أو لا أعلم أنّه صواب أو غير صواب على ما مرّ، وهذه توبة منه عليه السلام ممّا وقع منه. وإنّما لـم يقُل: "أعوذ بك منه" أو "مِن ذلك" مبالغةً في التوبة وإظهارًا للرغبة والنشاطِ فيها وتبرّكًا بذِكر ما لقّنه الله تعالى، وهو أبلغُ مِن أن يقول: "أتوب إليك أن أسألك" لِما فيه مِن الدلالة على كون ذلك أمرًا هائلًا محذورًا لا محيصَ منه إلّا بالعَوْذ بالله تعالى وأنّ قدرته قاصرةٌ عن النجاة مِن المكاره إلّا بذلك.[6]

﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى﴾ ما صدر عنّي مِن السؤال المذكور ﴿وَتَرْحَمْنِىٓ﴾ بقَبول توبتي ﴿أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ أعمالًا بسبب ذلك، فإنّ الذهول عن شكر الله تعالى

---

١ هود، ١١/٤٣.

٢ هود، ١١/٤٢.

٣ قرأ بها عاصم وحمزة والكسائي ونافع برواية ورش عنه وخلف. النشر لابن الجزري، ١٨٠/٢-١٨٣، ٢٨٩.

٤ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ١٨٠/٢-١٨٣، ٢٨٩.

٥ قرأ بها ابن كثير بفتح النون، وهشام بفتحها وكسرها. النشر لابن الجزري، ١٨٠/٢-١٨٣، ٢٨٩.

٦ السياق: إلّا بالعوذ... إلّا بذلك...

لاسيّما عند وصول مثل هذه النعمة الجليلة التي هي النجاة وهلاك الأعداء، والاشتغالَ بما لا يعني خصوصًا بمبادي خلاص مَن قيل في شأنه: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾،[١] والتضرّعَ إلى الله تعالى في أمره معاملةٌ[٢] غير رابحة أو خسران مُبين.

وتأخيرُ ذكر هذا النداء عن حكاية الأمر الوارد على الأرض والسماء وما يتلوه مِن زوال الطوفان وقضاء الأمر واستواء الفُلك على الجودي والدعاءِ بالهلاك على الظالمين، مع أن حقّه أن يُذكر عَقيب قوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾[٣] حسبما وقع في الخارج؛ إذ حينئذ يُتصوَّر الدعاء بالإنجاء لا بعد العِلم بالهلاكِ، ليس لِما قيل[٤] مِن استقلاله بغرض مُهمّ هو جعلُ قرابة الدِّين غامرة لقرابة النسب، وألّا يُقدَّم في الأمور الدينيّةِ الأصوليّة إلّا بعد اليقين قياسًا على ما وقع في قصّة البقرة مِن تقديم ذِكر الأمر بذبحها على ذِكر القتيل الذي هو أوّل القصّة، وكان حقُّها أن يقالَ: وإذ قتلتُم نفسًا فادّارأتُم فيها فقلنا: اذبحوا بقرة فاضرِبوه / ببعضها، كما قُرِّر في موضعه، فإنّ تغيير الترتيب هناك للدلالة على كمال سوء حال اليهود بتعديد جناياتِهم المتنوّعة وتثنيةِ التقريع عليهم بكلّ نوعٍ نوعٍ على حِدَة، فقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ﴾... إلخ [البقرة، ٦٧/٢]، لتقريعهم على الاستهزاء وتركِ المُسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك، وقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا﴾ [البقرة، ٧٢/٢]... إلخ، للتقريع على قتل النفس المُحرَّمةِ وما تبِعه مِن الأمور العظيمة، ولو قُصّت القِصّة على ترتيبها لَفَات الغرض الذي هو تثنية التقريع ولَظُنّ أنّ المجموع تقريع واحد. وأمّا ما نحن فيه فليس ممّا يمكن أن يُراعى فيه مثلُ تلك النُكتة أصلًا. وما ذُكر مِن جَعْل القرابة الدينيّة غامرةً للقرابة النسبيّة... إلخ، لا يفوت على تقدير سَوق الكلام على ترتيب الوقوع أيضًا. [١٤٤و]

بل لأنّ ذِكر[٥] هذا النداءِ كما ترى مُستدعٍ لذِكر ما مرّ مِن الجواب المستدعي لذِكر ما مرّ مِن توبته عليه السلام المؤدّي ذِكرُها إلى ذِكر قَبولها في ضمن الأمر

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] السياق: فإنّ الذهول... معاملة...

[٣] هود، ٤٣/١١.

[٤] السياق: وتأخير ذكر هذا النداء... ليس لِما قيل...

[٥] السياق: وتأخير النداء... ليس لِما قيل... بل لأنّ ذِكر...

الوارد بنزوله عليه السلام مِن الفُلك بالسلام والبركات الفائضةِ عليه وعلى المؤمنين حسبما سيجيء مفصَّلًا. ولا ريبَ في أنّ هذه المعانيَ آخذٌ بعضها بحُجْزة[1] بعض، بحيث لا يكاد يُفرَّق الآيات الكريمة المنطوية عليها بعضُها مِن بعض وأنّ ذلك إنّما يتمّ بتمام القِصّة، ولا ريبَ أنّ ذلك إنّما يكون بتمام الطوفان، فلا جرمَ اقتضى الحال ذِكرَ تمامه[2] قبل هذا النداء، وذلك إنّما يكون عند ذِكر كون كنعانَ مِن المُغرَقين، ولهذه النكتة ازداد حُسن موقع الإيجاز البليغ.

وفيه فائدة أخرى هي التصريح بهلاكه مِن أوّل الأمر، ولو ذُكر النداء الثاني
[١٤٤ظ] عَقيب / قوله: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾[3] لربّما تُوهِّم مِن أوّل الأمر إلى أن يرِد قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾... إلخ،[4] أنّه ينجو بدعائه عليه السلام فنُصّ على هلاكه مِن أوّل الأمر، ثمّ ذُكر الأمر الوارد على الأرض والسماء الذي هو عبارةٌ عن تعلّق الإرادة الربانيّة الأزليّة بما ذُكر مِن الغيض والإقلاع وبُيِّن بلوغ أمر الله محلَّه وجريانُ قضائه ونفوذ حُكمه عليهم بهلاك مَن هلَك ونجاةِ مَن نجا بتمام الطوفان واستواءِ الفُلك على الجودي، فقُصّت القِصّة إلى هذه المرتبةِ وبُيِّن ذلك أيَّ بيان.

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾

ثمّ تُعرِّض لِما وقع فِي تضاعيف ذلك ممّا جرى بين نوحٍ وبين ربّ العزّة جلّت حكمتُه فذُكر بعد توبته عليه السلام قبولُها بقوله: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ﴾ أي: انزل مِن الفُلك. وقُرئ بضمّ الباء.[5] ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ ملتبِسًا بسلامة مِن المكاره كائنة ﴿مِّنَّا﴾، أو بسلام وتحيّة منّا عليك، كما قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات، ٧٩/٣٧].

---

١ أصل الحُجزة: موضع شدّ الإزار، يُستعار للالتجاء والاعتصام والتمسّك والتعلّق به. والأخير هو المراد ههنا. انظر: لسان العرب لابن منظور، «حجز».

٢ ط س: تمامها. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٣ هود، ٤٣/١١.

٤ في الآية السابقة.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر والأعمش. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٥؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٩٢.

﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾ أي: خيرات نامية في نسلِك وما يقوم به معاشك ومعاشهم مِن أنواع الأرزاق، وقُرئ: "بَرَكَةٍ".[١] وهذا إعلام وبِشارة مِن الله تعالى بقَبول توبته وخلاصه مِن الخسران بفيضان أنواع الخيرات عليه في كلّ ما يأتي وما يذر. ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ﴾ ناشئة ﴿مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ متشعِّبة منهم، فـ"مِن" ابتدائيّة، والمراد: الأمم المؤمنة المتناسلة ممّن معه إلى يوم القيامة.

﴿وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾ أي: ومنهم على أنّه خبرٌ حُذف لدلالة ما سبق عليه، فإنّ إيراد الأمم المُبارَك عليهم المُتشعِّبة منهم نكرةً يدلّ على أنّ بعض مَن يتشعَّب منهم / ليسوا على صفتهم، يعني: ليس جميع مَن تشعَّب منهم مُسلَّمًا [١٤٥و] ومباركًا عليه؛ بل منهم أُمَم ممتَّعون في الدنيا معذَّبون في الآخرة، وعلى هذا لا يكون الكائنون مع نوح عليه السلام مُسلَّمًا ومبارَكًا عليهم صريحًا، وإنّما يُفهَم ذلك مِن كونهم مع نوح عليه السلام ومِن كون ذريّاتِهم كذلك بدلالة النصّ.

ويجوز أن تكون "مِن" بيانيّة، أي: وعلى أمم هم الذين معك، وإنّما سُمّوا أُمَمًا لأنّهم أُمَم متحزِّبة وجماعات متفرِّقة، أو لأنّ جميع الأمم إنّما تشعَّبت منهم فحينئذ يكون المراد بالأُمم المشار إليهم في قوله تعالى: ﴿وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾ بعضَ الأمم المتشعِّبة منهم، وهي الأُمَم الكافرة المتناسلة منهم إلى يوم القيامة، ويبقى أمر الأُمَم المؤمنة الناشئة منهم مُبهَمًا غيرَ متعرَّضٍ له ولا مدلولٍ عليه، ومع ذلك ففي دلالة المذكور على خبره المحذوف خفاءٌ؛ لأنّ "مِن" المذكورةَ بيانيّة والمحذوفةَ تبعيضيّةٌ أو ابتدائيّة. فتأمَّل.

﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم﴾ إمّا في الآخرة أو في الدنيا أيضًا ﴿مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾. عن محمّد بن كعب القُرظي: دخل في ذلك السلام كلُّ مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، وفيما بعده مِن المتاع والعذابِ كلُّ كافر.[٢] وعن ابن زيد: هبطوا والله عنهم راضٍ،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد العزيز بن يحيى الكناني. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٥.

٢ بلفظ قريب جدًا في جامع البيان للطبري، ٤٣٨/١٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٨٢/٤؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٢٩٨/٢.

ثمّ أَخرج منهم نسلًا منهم مَن رَحِم ومنهم مَن عذّب.[١] وقيل: المراد بالأُمَم الممتَّعة: قومُ هودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ عليهم السلام، وبالعذاب: ما نزَل بهم.[٢]

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ۝٤٩﴾

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى ما قُصّ مِن قصّة نوحٍ عليه السلام، إمّا لكونها بتقضِّيها في حُكم البعيد، أو للدلالة على بُعد منزلَتها. وهي مبتدأ، خبرُه ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: مِن جنسها، أي ليست مِن قبيل سائر الأنباء؛ بل هي نسيجُ وحدِها منفرِدة عمّا عداها أو بعضِها.

[١٤٥ظ] ﴿نُوحِيهَآ / إِلَيْكَ﴾ خبر ثانٍ، والضمير لها، أي: مُوحاة إليك، أو هو الخبرُ، و﴿مِنْ أَنۢبَآءِ﴾ مُتعلِّق به، فالتعبير بصيغة المضارع لاستحضار الصورة، أو حال مِن ﴿أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾، أي: مُوحاةً إليك.

﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾ خبر آخرُ، أي: مجهولة عندك وعند قومك ﴿مِن قَبْلِ هَـٰذَا﴾ أي: مِن قبل إيحائنا إليك وإخبارِك بها، أو مِن قبل هذا العِلم الذي كسبْتَه بالوحي، أو مِن قَبل هذا الوقت، أو حالٌ مِن الهاء في ﴿نُوحِيهَا﴾، أو الكافِ في ﴿إِلَيْكَ﴾، أي: جاهلًا أنت وقومك بها. وفي ذِكر جهلِهم تنبيهٌ على أنّه عليه السلام لم يتعلّمه، إذ لم يخالِط غيرهم، وأنّهم مع كثرتهم لمّا لم يعلموه فكيف يؤخذ منهم.

﴿فَٱصْبِرْ﴾ متفرّع على الإيحاء أو العِلمِ المستفادِ منه المدلول عليه بقوله: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا﴾، أي: وإذ قد أوحيناها إليك أو علِمتَها بذلك فاصبِر على مشاقّ تبليغ الرسالة وأذيّةِ قومك كما صبر نوحٌ على ما سمعتَه مِن أنواع البلايا في هذه المدَّة المتطاولة، وهذا ناظرٌ إلى ما سبق مِن قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ[٣] تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾... إلخ [هود، ١١/١٢].

---

[١] بلفظ قريب جدًا في جامع البيان للطبري، ١٢/٤٣٩؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٩٨.

[٢] القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٩٨.

[٣] م س: ولعلّك.

﴿إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ﴾ بالظفر في الدنيا وبالفوز في الآخرة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ كما شاهدتَه في نوحٍ عليه السلام وقومه، ولك فيه أُسوةٌ حسنة، وهي تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم وتعليل للأمر بالصبر، فإنّ كون العاقبة الحميدة للمتّقين وهو عليه السلام[١] في أقصى درجات التقوى والمؤمنون كلُّهم متّقون ممّا يُسلّيه عليه السلام، ويُهوِّن عليه الخطوب، ويُذهِب عنه ما عسى أن يعتريَه مِن ضيق صدره، وهذا على تقدير أن يُراد بالتقوى المرتبة[٢] الأُولى منه، / أعني التوقّيَ مِن العذاب المُخلَّد بالتبرُّؤ عن الشرك، وعليه قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الفتح، ٢٦/٤٨]. [١٤٦و]

ويجوز أن يُراد الدرجة[٣] الثالثة منه، وهي أن يَتنزّه عمّا يشغَل سِرَّه عن الحقّ ويتبتَّلَ إليه بشراشِره،[٤] وهو التقوى الحقيقيُّ المطلوب بقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران، ١٠٢/٣]، فإنّ التقوى بهذا المعنى مُنطوٍ على الصبر المذكور، فكأنّه قيل: فاصبر فإنّ العاقبةَ للصابرين.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾ متعلِّق بمضمَر معطوف على قوله تعالى: ﴿أَرْسَلْنَا﴾[٥] في قصّة نوحٍ، وهو الناصب لقوله تعالى: ﴿أَخَاهُمْ﴾ أي: وأرسلنا إلى عاد أخاهم، أي: واحدًا منهم في النسَب كقولهم: "يا أخا العربِ". وتقديم المجرور على المنصوب ههنا للحِذار عن الإضمار قبل الذكر. وقيل: متعلِّق بالفعل المذكور فيما سبق، و﴿أَخَاهُمْ﴾ معطوف على ﴿نُوحًا﴾،[٦] وقد مرّ في سورة الأعراف.

وقوله تعالى: ﴿هُودًا﴾ عطفُ بيان لـ﴿أَخَاهُمْ﴾، وكان عليه السلام مِن جملتهم، فإنّه هودُ بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن[٧] عَوص بن إرمَ بن

---

١ س - عليه السلام.

٢ م س: الدرجة [صُحّح في هامش م].

٣ هامش م: المرتبة. | ولعلّه تصحيح منه.

٤ الشراشر: النفس والمحبّة جميعًا. وقيل: جميع الجسد. وألقى عليه شراشره: وهو أن يُحبّه حتّى يستهلك في حُبّه. والشراشر: الأثقال. انظر: لسان العرب لابن منظور، «شرر».

٥ هود، ٢٥/١١.

٦ هود، ٢٥/١١. والقول في الكشّاف للزمخشري، ٢٩٨/٢.

٧ ط س - عاد بن.

سامِ بن نوحٍ. وقيل: هودُ بن شالح بن إرفخشذَ بن سام بن نوحٍ ابنِ عمّ أبي عاد. وإنّما جُعل منهم لأنّهم أفهمُ لكلامه وأعرفُ بحاله وأرغبُ في اقتفائه.

﴿قَالَ﴾ لمّا كان ذِكر إرساله عليه السلام إليهم مَظِنّة للسؤال عمّا قال لهم ودعاهم إليه أُجيب عنه بطريق الاستئنافِ، فقيل: قال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: وحدَه كما يُنبئ عنه قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، فإنّه استئناف يجري مَجرى البيان للعبادة المأمور بها. والتعليل للأمر بها كأنّه قيل: خُصّوه بالعبادة ولا تُشركوا به شيئًا؛ إذ ليس لكم مِن إله سواه. و﴿غَيْرُهُۥٓ﴾ بالرفع صفة لـ﴿إِلَٰهٍ﴾ باعتبار محلّه. وقُرئ بالجرّ[١] حملًا له[٢] على لفظه.

﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ ما أنتم باتّخاذكم الأصنام شركاءَ له، أو بقولكم: إنّ الله أمرنا بعبادتها. ﴿إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ عليه تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا.

﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾

[١٤٦ظ] ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ / إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾ خاطَب به كلُّ نبيّ قومَه إزاحةً لِما عسى يتوهّمونه وإمحاضًا للنصيحة، فإنّها ما دامت مشوبةً بالمطامع بمَعزِل مِن[٣] التأثير. وإيراد الموصول للتفخيم. وجعلُ الصلة فِعْل الفطرةِ لكونه أقدم النعم الفائضة مِن جَناب الله تعالى المستوجبة للشكر الذي لا يتأتّى إلّا بالجرَيان على موجَب أمرِه الغالب، مُعرِضًا عن المطالب الدنيويّة التي مِن جملتها الأجر.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أتغفُلون عن هذه القضيّة؟ أو ألا تتفكّرون فيها فلا تعقِلونها، أو أتجهلون كلَّ شيءٍ فلا تعقلون شيئًا أصلًا؟ فإنّ هذا ممّا لا ينبغي أن يخفى على أحد مِن العقلاء.

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

---

[١] قراءة شاذّة، غيرُ منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٩٨.

[٢] ط س - له.

[٣] ط س: عن. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ أي اطلُبوا مغفرته لِما سلف منكم مِن الذنوب بالإيمان والطاعة ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ أي: توسّلوا إليه بالتوبة، وأيضًا التبرُّؤ عن[١] الغير إنّما يكون بعد الإيمان بالله تعالى والرغبةِ فيما عنده. ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ﴾ أي: المطرَ ﴿عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ أي: كثيرَ الدُّرور ﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً﴾ مضافةً ومنضمّةً[٢] ﴿إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ أي: يُضاعفُها لكم، وإنّما رغّبهم بكثرة المطر؛ لأنّهم كانوا أصحاب زروع وعمارات. وقيل: حبس الله تعالى عنهم القطر، وأعقَم أرحامَ نسائهم ثلاث سنينَ، فوعدهم عليه السلام كثرةَ الأمطارِ وتضاعُفَ القوّة بالتناسل على الإيمان والتوبة.[٣]

﴿وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ﴾ أي: لا تُعرضوا عمّا دعوتُكم إليه ﴿مُجۡرِمِينَ﴾ مُصِرّين على ما كنتُم عليه مِن الإجرام.

﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ٥٣﴾

﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾ أي: بحجّة تدلّ على صحّة دعواك، وإنّما قالوه لفَرْط عنادهم وعدمِ اعتدادهم بما جاءهم مِن البيّنات الفائتة للحصر. / ﴿وَمَا نَحۡنُ [١٤٧و]
بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا﴾ أي: بتاركي عبادتها ﴿عَن قَوۡلِكَ﴾ أي: صادرين عنه، أي: صادرًا تركُنا عن ذلك بإسناد حال الوصف إلى الموصوف. ومعناه التعليلُ على أبلغ وجه لِدلالته على كونه علّة فاعليه، ولا يُفيده الباء واللام، وهذا كقولهم المنقول عنهم في سورة الأعراف: ﴿أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف، ٧/٧٠].

﴿وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ أي بمصدِّقين في شيء ممّا تأتي وتذر، فيَندرِج تحته ما دعاهم إليه مِن التوحيد وتركِ عبادة الآلهة. وفيه مِن الدلالة على شدّة الشكيمة وتجاوزِ الحدّ في العتوّ ما لا يخفى.

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦﴾

---

١ م: عن.
٢ س: ومتضمّنة.
٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٣٥.

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ﴾ أي: ما نقول إلّا قولَنا: اعتراك، أي: أصابك. ﴿بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ بجنون لسبّك إيّاها وصدِّك عن عبادتها وحطِّك لها عن رتبة الألوهيّة والمعبوديّة، بما مرّ مِن قولِك: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾.[١] والتنكير في ﴿سُوٓءٍ﴾ للتقليل، كأنّهم لم يُبالغوا في العتوّ، كما يُنبئ عنه نسبة ذلك إلى بعض آلهتِهم دون كلِّها. والجملة مقول القولِ، و﴿إِلَّا﴾ لَغْوٌ؛ لأنّ الاستثناء مفرَّغ. وهذا الكلام مقرِّر لِما مرّ مِن قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.[٢]

فإنّ اعتقادهم بكونه عليه السلام كما قالوا -وحاشاه عن ذلك- يُوجِب عدم الاعتداد بقوله وعدِّه مِن قَبيل الخُرافات فضلًا عن التصديق والعمل بمقتضاه، يَعنون: إنّا لا نعتقد كلامك إلّا مِن قبيل ما لا يحتمل الصِّدق والكذِب مِن الهذَيانات الصادرة عن المجانين، فكيف نُصدِّقه ونُؤمن به ونعمل بموجَبه.

[١٤٧ظ] / ولقد سلكوا في طريقة المخالفة والعِناد إلى سبيل الترقّي مِن الأدنى إلى الأعلى، حيث أخبَروا أوّلًا عن عدم مجيئه عليه السلام بالبيّنة مع احتمال كون ما جاء به عليه السلام حجّة في نفسه وإن لم تكن واضحة الدلالة على المراد، وثانيًا عن ترك الامتثالِ بقوله عليه السلام بقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾،[٣] مع إمكان تحقُّق ذلك بتصديقهم له عليه السلام في كلامه، ثمّ نفَوا تصديقهم له عليه السلام بقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾،[٤] مع كون كلامه عليه السلام ممّا يقبل التصديق، ثمّ نفَوا عنه تلك المرتبة أيضًا حيث قالوا ما قالوا، قاتَلهم الله أنّى يؤفكون.

﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۞ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: مِن إشراككم مِن دون الله، أي: مِن غير أن ينزِّل به سلطانًا كما قال في سورة الأعراف: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [الأعراف، ٧١/٧]، أو ممّا تشركونه مِن آلهة غير الله.

---

١ هود، ٥٠/١١.
٢ في الآية السابقة.
٣ في الآية السابقة.
٤ في الآية السابقة.

أجاب به عن مقالتهم الحمقاء المَبنيّة على اعتقاد كون آلهتهم ممّا يضُرّ أو ينفع وإنّها بمَعزِل مِن ذلك. ولمّا كان ما وقع أوّلًا منه عليه السلام في حقّ آلهتهم مِن كونها بمَعزِل عن[1] الألوهيّة إنّما وقع في ضمن الأمر بعبادة الله تعالى واختصاصِه بها، وقد شقّ عليهم ذلك وعدّوه ممّا يُورِث شَينًا، حتّى زعموا أنّها تصيبه عليه السلام بسوءٍ مُجازاةً لصنيعه معها، صرّح[2] عليه السلام بالحقّ وصدَع به، حيث أُخبر ببراءته القديمة عنها بالجملة الاسميّة المُصدَّرة بـ"إنّ"، وأَشهدَ الله تعالى على ذلك، وأمرهم بأن يسمعوا ذلك ويشهدوا به استهانةً بهم.

ثمّ أمرهم بالاجتماع والاحتشاد مع آلهتهم جميعًا دون بعض منها، حسبما يُشعر به قولُهم: ﴿بَعْضُ ءَالِهَتِنَا﴾، والتعاونِ في إيصال / الكيد إليه عليه السلام، [١٤٨و] ونهاهم عن الإنظار والإمهال في ذلك، فقال: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ أي: إن صحّ ما لوّحتم به مِن كون آلهتكم ممّا يقدِر على إضرار مَن ينال منها ويصُدّ عن عبادتها ولو بطريق ضِمني، فإنّي بريء منها، فكونوا أنتم معها جميعًا وباشروا كيدي، ثمّ لا تُمهلوني ولا تُسامحوني في ذلك. فـ"الفاء" لتفريع الأمر على زعمهم في قدرة آلهتِهم على ما قالوا وعلى البراءة كِليهما.

وهذا مِن أعظم المعجزات، فإنّه عليه السلام كان رجلًا مُفرَدًا بين الجمّ الغفير والجمع الكثير مِن عُتاة عادٍ الغِلاظ الشِّداد، وقد خاطبهم بما خاطبهم وحقّرهم وآلهتَهم وهيَّجهم على مباشرة مبادي المُضادّة والمُضارّة، وحثّهم على التصدّي لأسباب المُعازّة والمُعارّة،[3] فلم يقدروا على مباشرة شيءٍ ممّا كُلِّفوه، وظهَر عجزهم عن ذلك ظهورًا بيّنًا، كيف لا، وقد التجأ إلى ركن مَنيع رفيع، واعتصم بحبل متين، حيث قال: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ يعني: أنكم وإن بذلتم في مُضارّتي مجهودكم لا تقدرون على شيء ممّا تريدون بي، فإنّي متوكِّل على الله تعالى -وإنّما جيء بلفظ الماضي لكونه أدلّ على الإنشاء

---

١ م: مِن.

٢ السياق: ولمّا كان... صرّح...

٣ المُعازّة: المُغالَبة. المُعارّة: سوء الخلق والشرّ والأذى. انظر: لسان العرب لابن منظور، «عزز»، «عرر».

المناسب للمقام- وواثق بكلاءتي وحفظي عن غوائلكم وهو مالكي ومالككم لا يصدُر عنكم شيء ولا يصيبني أمر إلّا بإرادته ومشيئته.

ثمّ برهن عليه بقوله: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ أي: إلّا هو مالك لها قادر عليها يُصرّفها كيف يشاء غيرَ مستعصية عليه، فإنّ الأخذ بالناصية تمثيل لذلك. ﴿إِنَّ رَبِّى / عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تعليل لِما يدل عليه التوكّل مِن عدم [١٤٨ظ] قدرتهم على إضراره، أي: هو على الحقّ والعدل فلا يكاد يسلِّطكم عليّ، إذ لا يَضيعُ عنده معتصِم ولا يفتات عليه ظالمٌ. والاقتصار على إضافة "الربّ" إلى نفسه إمّا بطريق الاكتفاء لظهور المراد، وإمّا لأنّ فائدة كونه تعالى مالكًا لهم أيضًا راجعة إليه عليه السلام.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي: تتولّوا بحذف إحدى التاءين، أي: إن تستمرّوا على ما كنتُم عليه مِن التولّي والإعراض ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾ أي: لم أعاتَب على تفريط في الإبلاغ وكنتُم محجوجين بأن بلغكم الحقّ فأبيتُم إلّا التكذيب والجحود.

﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ استئناف بالوعيد لهم بأنّ الله تعالى يُهلكهم ويستخلف في ديارهم وأموالِهم قومًا آخرين، أو عطفٌ على الجواب بالفاء، ويُؤيّده قراءةُ ابن مسعود رضي الله عنه بالجزم[1] عطفًا على الموضع، كأنّه قيل: فإن تولّوا يعذِرْني ويُهلكْكم ويستخلفْ مكانكم آخرين. وفي اقتصار إضافة الربّ عليه عليه السلام رمز إلى اللُّطف به والتدميرُ للمخاطَبين.

﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ﴾ بتولّيكم ﴿شَيْـًٔا﴾ مِن الضرر لاستحالة ذلك عليه، ومَن جزَم ﴿وَيَسْتَخْلِفُ﴾ أسقَط منه النون.[2] ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي: رقيب مهيمِن

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٦.

[2] يريد أن مَن جزمه جزم المعطوف عليه، فيصير "ولا تضروه".

فلا يخفى عليه أعمالكم فيُجازيكم بحسبها، أو حافظٌ مُستولٍ على كلّ شيء فكيف يضُرّه شيء وهو الحافظ للكلّ.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٨﴾

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي: نزل عذابنا. وفي التعبير عنه بالأمر مضافًا إلى ضميره جلّ جلاله وعن نزوله بالمجيء ما لا يخفى مِن التفخيم والتهويل، أو ورَد أمرنا بالعذاب.

﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ وكانوا أربعةَ آلافٍ. / ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ عظيمة كائنة [١٤٩و]
﴿مِّنَّا﴾، وهي الإيمانُ الذي أنعمنا به عليهم بالتوفيق له والهدايةِ إليه.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: كانت تلك التنجية تنجيةً مِن عذاب غليظ، وهي السَّموم التي كانت تدخل أنوف الكفَرة وتخرج مِن أدبارهم فتقطعهم إرْبًا إرْبًا. وقيل: أريدَ بالثانية التنجية مِن عذاب الآخرة، ولا عذابَ أغلظُ منه وأشدُّ. وهذه التنجية وإن لم تكن مقيَّدةً بمجيء الأمر لكن جيء بها تكملةً للنعمة عليهم، وتعريضًا بأنّ المهلَكين كما عُذِّبوا في الدنيا بالسَّموم فهم معذَّبون في الآخرة بالعذاب الغليظ.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝٥٩﴾

﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ أُنِّث اسم الإشارة باعتبار القبيلة، أو لأنّ الإشارة إلى قبورهم وآثارهم.

﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ كفروا بها بعد ما استيقنوها ﴿وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ﴾ جُمِع الرسل مع أنّه لم يُرسَل إليهم غيرُ هودٍ عليه السلام تفظيعًا لحالهم وإظهارًا لكمال كفرهم وعنادهم، ببيان أنّ عصيانهم له عليه السلام عصيان لجميع الرسل السابقين واللاحقين لاتّفاق كلمتهم على التوحيد، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة، ٢/٢٨٥]، فيجوز أن يُراد بالآيات ما أتى به هودٌ وغيره مِن الأنبياء عليهم السلام، وفيه زيادةُ ملاءمة لِما تقدَّم مِن جَمْع الآيات، وما تأخَّر مِن قوله:

﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾ مِن كُبرائهم ورؤسائهم الدعاة إلى الضلال وإلى تكذيب الرسل، فكأنّه قيل: عصَوا كلّ رسول واتّبعوا أمر كلّ جبّار. وهذا الوصف ليس كما سبق مِن جحود الآيات وعصيانِ الرسل في الشمول لكلّ فردٍ فردٍ منهم، فإنّ الاتّباع للأمر مِن أوصاف الأسافل / دون الرؤساء. [١٤٩ظ]

و﴿عَنِيدٖ﴾: فَعِيل مِن "عَنَد عَنْدًا وعَنَدًا" إذا طغى، والمعنى: عصَوا مَن دعاهم إلى الهدى وأطاعوا مَن حداهم إلى الردى.

﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ٦٠﴾

﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ﴾ إبعادًا عن الرحمة وعن كلّ خير، أي: جُعلت اللعنة لازمةً لهم، وعُبِّر عن ذلك بالتبعيّة للمبالغة، فكأنّها لا تُفارقهم وإن ذهبوا كلَّ مَذهَب؛ بل تدور معهم حيثما داروا، ولوقوعه في صحبة اتّباعهم رؤساءهم، يعني أنّهم لمّا اتّبعوهم أُتبعوا ذلك[١] جزاءً لصنيعهم جزاءً وِفاقًا.

﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي: أُتبِعوا يوم القيامة أيضًا لعنةً وهي: عذاب النار المُخلَّد، حُذفت لدلالة الأُولى عليها، وللإيذان بكون كلّ مِن اللعنتين نوعًا برأسه لم تُجمعا في قرَن[٢] واحد بأن يقال: وأُتبِعوا في هذه الدنيا ويومَ القيامة لعنةً، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [الأعراف، ١٥٦/٧]، إيذانًا باختلاف نوعَي الحسنتَين، فإنّ المراد بالحسنة الدنيويّة نحو: الصحّة والكَفاف والتوفيق للخير، وبالحسنة الأخرويّة: الثوابُ والرحمة.

﴿أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾ أي: بربّهم أو نعمةَ ربّهم، حملًا له على نقيضه الذي هو الشكر، أو جحدوه. ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ﴾ دعاء عليهم بالهلاك مع كونهم هالكين أيَّ هلاكٍ، تسجيلًا عليهم باستحقاق الهلاك واستيجاب الدمار. وتكرير حرف التنبيه وإعادةُ "عادٍ" للمبالغة في تفظيع حالهم والحثِّ على الاعتبار بقصّتهم.

---

[١] هامش م: لعنة.

[٢] القرَن: الحبل يُقرن به البعيران. انظر: لسان العرب لابن منظور، «قرن».

﴿قَوۡمِ هُودٖ﴾ عطفُ بيان لـ"عاد"، فائدتُه التمييز عن "عاد" الثانية / عادِ إرمَ. [١٥٠و]
والإيماء إلى أنّ استحقاقهم للبُعد بسبب ما جرى بينهم وبين هودٍ عليه السلام وهم قومه.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ٦١﴾

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗا﴾ عطفٌ على ما سبق مِن قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗا﴾،[١] وثمود: قبيلة مِن العرب سُمّوا باسم أبيهم الأكبر ثمودَ بن عابر بن إرمَ بن سام. وقيل: إنّما سُمّوا بذلك لقِلّة مائهم مِن الثَّمْد وهو: الماء القليل.

وصالح عليه السلام هو ابن عبيد بن آسف بن ماشح بن عبيد بن خادر بن ثمود، ولمّا كان الإخبار بإرساله إليهم مَظِنّة لأنّ يُسأل ويقال: ماذا قال لهم؟ قيل جوابًا عنه بطريق الاستئنافِ: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: وحدَه، وعُلِّل ذلك بقوله: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾، ثمّ زِيد فيما يبعثهم على الإيمان والتوحيد ويحثّهم على زيادة الإخلاصِ فيه بقوله: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: هو كوّنكم وخلَقكم منها لا غيرُه، قصر قَلْب أو قصر إفراد، فإنّ خَلْق آدمَ عليه السلام منها خلقٌ لجميع أفراد البشر منها لِما مرّ مرارًا مِن أنّ خِلقته عليه السلام لم تكن مقصورةً على نفسه؛ بل كانت أُنموذجًا منطويًا على خَلْق جميع ذرّيّاته التي ستُوجد إلى يوم القيامة انطواءً إجماليًّا. وقيل: إنّ خَلْق آدمَ عليه السلام وإنشاءَ موادِّ النُّطَف التي منها خُلِق نسلُه مِن التراب إنشاءٌ لجميع الخلقِ مِن الأرض،[٢] فتدبّر.

﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ﴾ مِن العُمر، أي: عمَّركم واستبقاكم ﴿فِيهَا﴾، أو مِن العِمارة، أي: أقدَركم على عِمارتها أو أمَركم بها. وقيل: هو مِن العُمْرى،[٣] بمعنى:

---

١ هود، ٥٠/١١.

٢ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٣٧/٢.

٣ انظر: جامع البيان للطبري، ٤٥٣/١٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٨٥/٤. يقال: أعمرتُه الدار عُمْرى، أي: جعلتُها له يسكُنها مُدّة عُمره، فإذا مات عادت إليّ. وأصل العُمرى مأخوذ مِن العُمر. انظر: لسان العرب لابن منظور، «عمر».

أعمرَكم فيها ديارَكم ويرِثها منكم بعد انصرام أعماركم، أو جعلكم مُعمِّرين ديارَكم تسكُنونها مدَّةَ عُمركم ثمّ تتركونها لمِثلكم.

﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ فإنّ ما فُصّل مِن فنون الإحسان داعٍ إلى الاستغفار عمّا وقع منهم مِن التفريط والتوبة عمّا كانوا يُباشرونه مِن القبائح، وقد زِيد / في [١٥٠ظ] بيان ما يُوجِب ذلك فقيل: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ﴾ أي: قريبُ الرحمة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف، ٥٦/٧]. ﴿مُّجِيبٞ﴾ لمَن دعاه وسأله. وقد روعيَ في النظم الكريم نكتة، حيث قُدِّم ذِكر العِلّة الباعثة المتقدِّمة على الأمر بالاستغفار والتوبة وأُخّر عنه ذِكر الغائيّة المتأخِّرة عنهما في الوجود، أعني الإجابة.

﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ۝٦٢﴾

﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا﴾ أي: كنّا نرجو منك لِما كنّا نرى منك مِن دلائل السَّداد ومَخايل الرشاد أن تكون لنا سيِّدًا ومستشارًا في الأمور. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «فاضلًا خيّرًا نُقدِّمك على جميعنا».[١] وقيل: كنّا نرجو أن تدخُلَ في ديننا وتوافقَنا على ما نحن عليه.[٢] ﴿قَبۡلَ هَٰذَآ﴾ الذي باشرتَه مِن الدعوة إلى التوحيد وتركِ عبادة الآلهة، أو قبل هذا الوقت، فكأنّهم لم يكونوا إلى الآن على يأس مِن ذلك ولو بعد الدعوة إلى الحقّ، فالآن قد انصرم عنك رجاؤنا. وقرأ طلحة "مَرْجُوءًا" بالمدّ والهمز.[٣]

﴿أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ أي: عبَدوه. والعدول إلى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية. ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ مِن التوحيد وتركِ عبادة الأوثان وغيرِ ذلك مِن الاستغفار والتوبة. ﴿مُرِيبٖ﴾ أي: مُوقِع في الريبة، مِن أرابه، أي: أوقَعه في الرِّيبة، أي: قلقِ النفس وانتفاءِ الطمأنينة، أو مِن "أراب" إذا كان ذا رِيبة، وأيّهما كان فالإسنادُ مجازي، والتنوينُ فيه وفي ﴿شَكّٖ﴾ للتفخيم.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٣٠٢/٢. وبلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ١٨٥/٤.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٢/٢.

٣ ما وقفتُ عليها فيما بين يديَّ مِن المظانّ.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ٦٣﴾

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ﴾ أي: أخبروني. ﴿إِن كُنتُ﴾ في الحقيقة / ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٖ﴾ أي: [١٥١و]
حجّةٍ ظاهرة وبرهان وبصيرة ﴿مِّن رَّبِّي﴾ مالكي ومُتولّي أمري. ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ﴾ مِن جهته ﴿رَحۡمَةٗ﴾ نبوّةً. وهذه الأمور وإن كانت محقَّقة الوقوع، لكنّها صُدِّرت بكلمة الشكّ اعتبارًا لحال المخاطَبين ورعايةً لحُسن المحاوَرة لاستنزالهم مِن المكابرة.

﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: منجيًا مِن عذابه. والعدول إلى الإظهار لزيادة التهويل. و"الفاء" لترتيب إنكار النُّصرة على ما سبق مِن إيتاء النبوّة وكونِه على بيّنة مِن ربّه على تقدير العصيان، حسبما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿إِنۡ عَصَيۡتُهُۥ﴾ أي: بالمساهَلة في تبليغ الرسالة والمجاراة معكم فيما تأتون وتذرون، فإنّ العصيان ممّن ذلك شأنه أبعدُ والمؤاخذةَ عليه ألزمُ وإنكارَ نُصرته أدخلُ.

﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾ إذن باستتباعكم إيايَ، كما يُنبئ عنه قولُهم: ﴿قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآ﴾،[١] أي: لا تُفيدونني إذ لم يكن فيه أصل الخُسران حتّى يزيدوه ﴿غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ﴾ أي: غيرَ أن تجعلوني خاسرًا بإبطال أعمالي وتعريضي لسخط الله تعالى، أو فما تزيدونني بما تقولون غيرَ أن أنسُبَكم إلى الخسران وأقولَ لكم: إنكم لخاسرون، فالزيادة على معناه، و"الفاء" لترتيب عدم الزيادة على انتفاء الناصر المفهوم مِن إنكاره على تقدير العصيان مع تحقّق ما ينفيه مِن كونه عليه السلام على بيّنة مِن ربّه وإيتائه النبوّةَ.

﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٤﴾

﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ الإضافة للتشريف والتنبيهِ على أنّها مفارِقة لسائر ما يجانسها مِن حيث الخِلْقة ومِن حيث الخَلْق. ﴿لَكُمۡ ءَايَةٗ﴾ معجزةً دالّة على صِدق نبوّتي، وهي حال مِن ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾، والعاملُ ما في ﴿هَٰذِهِۦ﴾ مِن معنى الفعلِ.

---

١ في الآية السابقة.

و﴿لَكُمْ﴾ حال مِن ﴿ءَايَةً﴾ متقدِّمةً عليها لكونها نكرة، ولو تأخَّرت لكانت صفةً لها. ويجوز أن يكون ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ بدلًا مِن ﴿هَٰذِهِۦ﴾ أو عطفَ بيان، و﴿لَكُمْ﴾ خبرًا وعاملًا.

﴿فَذَرُوهَا﴾ خلُّوها وشأنَها ﴿تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ ترعى نباتها وتشرب ماءها. وإضافة "الأرض" إلى ﴿ٱللَّهِ﴾ عزّ وجلّ لتربية استحقاقها لذلك وتعليلِ الأمر بتركها وشأنَها. ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ بُولغ في النهي عن التعرّض لها بما يضرّها، حيث نُهيَ عن المسّ الذي هو مِن مبادي الإصابة ونُكِّر "السوء"، أي: لا تضربوها ولا تطردوها ولا تقرَبوها بشيء مِن السُّوء فضلًا عن عَقرها وقتلها ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ أي: قريبُ النزول.

[١٥١ظ] رُوي أنّهم / طلبوا منه أن يُخرِج مِن صخرة تُسمّى "الكاثبة" ناقةً عُشَراءَ[١] مُخترَجةً[٢] جوفاءَ وَبْراءَ، وقالوا: «إن فعلتَ ذلك صدّقناك»، فأخذ صالح عليهم مواثيقَهم: «لئن فعلتُ ذلك ليُؤمِنُنّ؟» فقالوا: «نعم»، فصلّى ودعا ربَّه فتمخَّضت الصخرة تمخُّضَ النَّتُوج[٣] بولدها، فانصدعت عن ناقة عُشراءَ كما وصفوا وهم ينظرون، ثمّ أنتجت ولدًا مثلَها في العِظَم، فآمن به جُندَع بن عمرو[٤] في جماعة، ومَنَع الباقين مِن الإيمان دؤاب[٥] بن عمرو والحُباب صاحب أوثانهم وربابُ كاهنهم، فمكث الناقة مع ولدها ترعى الشجر وتَرِد الماء غِبًّا فما ترفع رأسها مِن البئر حتّى تشرب كلَّ ما فيها، ثمّ تتفحّج[٦] فيحلبون ما شاءوا حتّى تمتلئ أوانيهم

---

[١] ناقة عُشَراء: مضى لحملها عشرة أشهر. انظر: لسان العرب لابن منظور، «عشر».

[٢] في جامع البيان للطبري، ١٠/٢٨٧ (الأعراف، ٧/٧٣): «المُختَرَجة: ما شاكلت البُخت مِن الإبل». وهي التي جُبلت على خِلقة الجمل، وهي أكبر منه وأعظم. انظر: لسان العرب لابن منظور، «خرج».

[٣] النتوج: الحامل مِن الدواب. انظر: لسان العرب لابن منظور، «نتج».

[٤] هو جندع بن عمرو بن الدبيل بن إرم بن ثمود، كان مِن رؤساء قوم ثمود، وبُعث صالح في أيّامه وآمن بالناقة، وقيل: كفر مع مَن كفر. انظر: البداية والنهاية لابن كثير، ١/٣١١؛ وتاريخ ابن خلدون، ٢/٢٣.

[٥] كذا في الأصول الخطّيّة، وفي مطبوع معالم التنزيل وجامع البيان: ذؤاب.

[٦] التفحُّج: تفريجُ ما بين الرِّجلين. انظر: لسان العرب لابن منظور، «فحج».

فيشربون ويدَّخرون، وكانت تَصيف بظهر الوادي فتهرُب منها أنعامهم إلى بطنه، وتشتو ببطنه فتهرب مواشيهم إلى ظهره، فشقّ عليهم ذلك.[١]

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ٦٥﴾

﴿فَعَقَرُوهَا﴾ قيل: زَيَّنت عقرَها لهم عُنيزةُ أمُّ غَنم وصدَقةُ بنت المختار.[٢] فعقروها واقتسموا لحمها فرَقِيَ سَقْبُها[٣] جبلًا اسمه قارة فرغا[٤] ثلاثًا، فقال صالح لهم: أدرِكوا الفصيل عسى أن يُرفَع عنكم العذاب فلم يقدِروا عليه، وانفجرت الصخرة بعد رغائه فدخلها.

﴿فَقَالَ﴾ لهم صالح: ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ أي: عِيشوا ﴿فِى دَارِكُمۡ﴾ أي: في منازلكم، أو في الدنيا ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖ﴾ قيل: قال لهم: تصبح وجوهكم غدًا مُصفرَّةً، وبعد غدٍ مُحمرَّةً، واليومَ الثالثَ مُسودَّةً، ثمّ يُصبِّحكم العذاب.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما يدلّ عليه الأمر بالتمتّع ثلاثةَ أيّام مِن نزول العذاب عَقيبَها، والمراد بما فيه مِن معنى البُعد تفخيمُه. ﴿وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾ / أي: غيرُ مكذوب فيه، فحُذف الجارّ للاتّساع المشهور، كقوله: [١٥٢و]

ويـــومٍ شـــهِـدنـاه سُـلـيـمًـا وعـامـرًا[٥]

أو غيرُ مكذوب، كأنّ الواعد قال له: "آتي بك"، فإن وفى به صدَقه وإلّا كذَبه، أو وعدٌ غيرُ كذِب على أنّه مصدر كالمجلود والمعقول.

---

[١] القصّة بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٢٤٩/٣-٢٥٠ (الأعراف، ٧٩/٧)، وبعضها في جامع البيان للطبري، ٢٨٧/١٠-٢٨٨ (الأعراف، ٧٣/٧).

[٢] انظر: جامع البيان للطبري، ٢٨٩/١٠ (الأعراف، ٧٣/٧)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٥٠/٣ (الأعراف، ٧٩/٧)، وفيهما أنّ اسم الثانية: صَدوف بنت المُحيّا.

[٣] السَّقْب: ولد الناقة. انظر: لسان العرب لابن منظور، «سقب».

[٤] الرُّغاء: صوت الإبل. رغا البعيرُ والناقة ترغو رُغاءً: صوَّتت فضجَّت. انظر: لسان العرب لابن منظور، «رغو».

[٥] لا يُعرَف قائله، وعجزه:

قليلٍ سوى الطَّعنِ النِّهالِ نوافلُه

وهو بلا نسبة في كتاب سيبويه، ١٧٨/١؛ والكامل للمُبرّد، ٤٩/١؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٠٢/٢، ١٣٢/٣ (الحج، ٧٨/٢٢). والتقدير فيه: شهِدنا فيه.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾[1] أي: عذابنا أو أمرنا بنزوله، وفيه ما لا يخفى مِن التهويل. ﴿نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ متعلّق بـ﴿نَجَّيْنَا﴾، أو بـ﴿ءَامَنُوا۟﴾. ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ بسبب رحمة عظيمة ﴿مِّنَّا﴾ وهي بالنسبة إلى صالح النبوّةُ وإلى المؤمنين الإيمانُ كما مرّ، أو مُلتبِسين برحمة ورأفة منّا. ﴿وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾ أي: ونجيناهم مِن خزي يومئذ، وهو هلاكهم بالصيحة، كقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود، ٥٨/١١]، على معنى أنّه: وكانت تلك التنجيةُ تنجيةً مِن خزي يومئذ، أي: مِن ذلّه ومهانته، أو ذلُّهم وفضيحتُهم يوم القيامة، كما فُسِّر به العذاب الغليظ فيما سبق، فيكون المعنى: ونجّيناهم مِن عذاب يوم القيامة بعد تنجيتنا إيّاهم مِن عذاب الدنيا.

وعن نافع[2] بالفتح على اكتساء المضاف البناءَ مِن المضاف إليه هنا وفي "المعارج" في قوله: ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾ [المعارج، ١١/٧٠]،[3] وقُرئ بالتنوين ونصب ﴿يَوْمِئِذٍ﴾.[4]

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم. ﴿هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ القادر على كلّ شيء، والغالبُ عليه لا غيرُه.

[١٥٢ظ] ولكون الإخبار / بتنجية الأولياء لاسيّما عند الإنباء بحلول العذاب أهمَّ ذكَرها أوّلًا ثمّ أخبر بهلاك الأعداء فقال: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ عُدل عن المُضمَر إلى المُظهَر تسجيلًا عليهم بالظلم وإشعارًا بعلّيّته لنزول العذاب بهم.

---

[1] وفي هامش م تعليق مِن المُصنِّف لم أتبيّنه.

[2] هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم الليثي بالولاء المدني، مختلف في كنيته وأشهره أبو رويم (ت. ١٦٩هـ/٧٨٥م). المقرئ المدني، أحد القرّاء السبعة وإمام أهل المدينة، وهو في الطبقة الثالثة بعد الصحابة رضوان الله عليهم، وكان أسود اللون حالكًا صبيحَ الوجه حسَن الخُلق محتسبًا فيه دُعابة. قيل: أصله مِن أصبهان. قرأ على أبي ميمونة مولى أمّ سلمة رضي الله عنها، وله راويان ورش وقالون. ومات في المدينة وقد أقرأ الناس نيّفًا وسبعين سنةً. انظر: **وفيات الأعيان** لابن خلّكان، ٣٨/٥؛ و**غاية النهاية** لابن الجزري، ٣٣/٢؛ و**الأعلام** للزركلي، ٥/٨.

[3] قرأ به في الموضعين نافع والكسائي وأبو جعفر. **النشر** لابن الجزري، ٢٨٩/٢.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني وابن قُطيب وخارجة بن نافع. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٣٦.

﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾ أي: صيحةُ جبريلَ عليه السلام. وقيل: أتتهم مِن السماء صيحة فيها صوتُ كلّ صاعقة وصوتُ كلّ شيء في الأرض فتقطّعت قلوبهم في صدورهم.[1] وفي سورة الأعراف: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ [الأعراف، ٧٨/٧]، ولعلّها وقعت عَقيبَ الصيحة المستتبِعة لتموُّج الهواء.

﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾ أي: صاروا ﴿فِي دِيَٰرِهِمۡ﴾ أي: بلادهم أو مساكنهم ﴿جَٰثِمِينَ﴾ هامدين موتى لا يتحرّكون، والمراد كونهم كذلك عند ابتداء نزول العذاب بهم مِن غير اضطراب وحركة، كما يكون ذلك عند الموت المعتاد، ولا يخفى ما فيه مِن الدلالة على شدّة الأخذ وسرعته. اللّٰهمّ إنّا نعوذ بك مِن حلول غضبك.

قيل: لمّا رأوا العلامات التي بيّنها صالحٌ مِن اصفرار وجوههم واحمرارها واسودادها عمَدوا إلى قتله عليه السلام، فنجاه الله تعالى إلى أرض فلسطين، ولمّا كان ضحوة اليوم الرابع وهو يوم السبت تحنّطوا وتكفّنوا بالأنطاع، فأتتهم الصيحةُ فتقطعت قلوبُهم فهلكوا.

﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدًا لِّثَمُودَ ٦٨﴾

﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ﴾ أي: كأنّهم لم يقيموا ﴿فِيهَا﴾ في بلادهم أو في مساكنهم، وهو في موقع الحال، أي: أصبحوا جاثمين مماثلين لمَن لم يُوجَد ولم يُقِم في مقام قطُّ.

﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ﴾ وُضع موضعَ المضمر لزيادة البيان، ونوّنه أبو بكر هنا وفي "النجم"،[2] وقرأ حفص هنا وفي "الفرقان" و"العنكبوت" بغير تنوين.[3] ﴿كَفَرُواْ رَبَّهُمۡ﴾ صرّح بكفرهم مع كونه معلومًا / ممّا سبق مِن أحوالهم تقبيحًا لحالهم [١٥٣و]
وتعليلًا لاستحقاقهم بالدعاء عليهم بالبعد والهلاكِ في قوله تعالى: ﴿أَلَا بُعۡدًا لِّثَمُودَ﴾. وقرأ الكسائي بالتنوين.[4]

---

[1] في معالم التنزيل للبغوي، ١٨٧/٤.

[2] قرأ أبو بكر بالتنوين هنا، وبغير تنوين في "النجم". النشر لابن الجزري، ٢٨٩/٢-٢٩٠.

[3] قرأ بغير تنوين حمزة ويعقوب وحفص، ووافقهم أبو بكر في "النجم". النشر لابن الجزري، ٢٨٩/٢-٢٩٠.

[4] قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٢٩٠/٢.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۝٦٩﴾

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وهم الملائكةُ. عن ابن عبّاس: أنّهم جبريلُ عليه السلام وملَكان.[١] وقيل: هم جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ عليهم السلام. وقال الضحّاك: كانوا تسعةً. وعن محمّد بن كعب: جبريلُ ومعه سبعة. وعن السُّدّيّ: أحدَ عشرَ على صور الغلمان الوِضاءِ وجوهُهم. وعن مقاتل: كانوا اثني عشر ملَكًا عليهم السلام.[٢]

وإنّما أُسنِد إليهم مُطلَق المجيء بالبشرى دون الإرسال[٣] لأنّهم لم يكونوا مرسَلين إليه عليه السلام؛ بل إلى قوم لوط لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾،[٤] وإنّما جاءوه لداعية البُشرى. ولمّا كان المقصود في السورة الكريمةِ ذِكرَ سُوء صنيع الأُمم السالفةِ مع الرسل المُرسَلة إليهم ولحوقِ العذاب بهم بسبب ذلك، ولم يكن جميع قوم إبراهيمَ عليه السلام ممّن لحِق بهم العذابُ؛ بل إنّما لحِق بقوم لوط منهم خاصّة، غُيِّر[٥] الأسلوب المُطَّرد فيما سبق مِن قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾،[٦] ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾،[٧] ثمّ رُجع إليه حيث قيل: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾.[٨]

﴿بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ أي: مُلتبِسين بها قيل: هي مطلق البشرى المنتظمة للبِشارة بالولد مِن سارَةَ لقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ الآية،[٩] وقولِه: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ[١٠] بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات، ١٠١/٣٧]، وقوله: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات، ٢٨/٥١]، وللبِشارة بعدم لحوق الضررِ به[١١] لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ

---

١ عن ابن عبّاس في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٣/٢، وبلا نسبة في جامع البيان للطبري، ٤٦٥/١٢.
٢ هذه الأقوال الخمسة في معالم التنزيل للبغوي، ١٨٧/٤؛ وبعضها في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٣/٢.
٣ وفي هامش م: مصدر مِن المبنيّ للمفعول. «منه».
٤ في الآية التالية.
٥ السياق: ولمّا كان... غُيِّر...
٦ هود، ٥٠/١١.
٧ هود، ٦١/١١.
٨ سيأتي في هود، ٨٤/١١.
٩ سيأتي في هود، ٧١/١١.
١٠ م س: وبشّرناه.
١١ م + لقوله: لا تخف. | كأنّ المصنِّف ضرب عليها، وليست في س.

﴿وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾،[١] لظهور تفرُّع المجادلة على مجيئها كما سيأتي. وقيل: هي البِشارةُ بهلاك قوم لوط.[٢] ويأباه مجادلته عليه السلام في شأنهم. والأظهر أنّها البِشارة بالولد، وستعرِف سرّ تفرُّع المجادلة على ذلك.

ولمّا كان الإخبارُ بمجيئهم بالبشرى مَظِنَّةً لسؤال السامع بأنّهم ما قالوا / أجيبَ بأنّهم ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ أي: سلّمنا، أو نسلّم عليك سلامًا. ويجوز أن يكون نَصْبُه بـ﴿قَالُواْ﴾، أي: قالوا قولًا ذا سلام، أو ذكَروا سلامًا. ﴿قَالَ سَلَٰمٞ﴾ أي: عليكم سلامٌ، أو سلامٌ عليكم. حيّاهم بأحسنَ مِن تحيَّتهم.[٣] وقُرئ: "سِلْمٌ"[٤] كـ"حِزم" في "حَرام"، وقرأ ابن أبي عبلة: "قَالَ سَلَامًا"،[٥] وعنه أنّه قرأ بالرفع فيهما.[٦] [١٥٣ظ]

﴿فَمَا لَبِثَ﴾ أي: إبراهيمُ. ﴿أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ﴾ أي: في المجيء به، أو ما لبث مجيئُه بعِجل. ﴿حَنِيذٖ﴾ أي: مشويّ بالرَّضْف[٧] في الأُخدود. وقيل: سمين يقطُر وَدَكُه،[٨] كقوله: "بعجل سمين" مِن "حنذتُ الفَرس" إذا عرَّقتَه بالجِلال.[٩]

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ٧٠﴾

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ﴾ لا يمُدّون إليه أيديَهم للأكل ﴿نَكِرَهُمۡ﴾ أي: أنكرهم يقال: "نكِره وأنكره واستنكره" بمعنى، وإنّما أنكرهم لأنّهم كانوا إذا نزل بهم ضيف ولم يأكُل مِن طعامهم ظنُّوا أنّه لم يجئ بخير، وقد رُوي أنّهم كانوا ينكُتون بقِداح كانت في أيديهم في اللحم ولا تصل إليه أيديهم.[١٠]

---

١ سيأتي في هود، ٧٤/١١.
٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٣/٢.
٣ انظر تفصيل ذلك في الكشّاف للزمخشري، ٢٦/١ (الفاتحة، ٢/١).
٤ قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢٩٠/٢.
٥ قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٧.
٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٩٦.
٧ الرَّضْف: الحجارة التي حمِيت بالشمس أو بالنار. انظر: لسان العرب لابن منظور، «رضف».
٨ الوِدك: الدَّسم، وقيل: دسم اللحم. انظر: لسان العرب لابن منظور، «ودك».
٩ أي: ألقيتُ عليه الجِلال ليَعرَق. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٠٣/٢.
١٠ انظر: جامع البيان للطبري، ٤٧١/١٢؛ والمُحرَّر الوجيز لابن عطيّة، ١٨٨/٣.

وهذا الإنكار منه عليه السلام راجعٌ إلى فِعلهم المذكور، وأمّا إنكاره المتعلِّق بأنفسهم فلا تعلُّقَ له برؤية عدم أكلهم، وإنّما وقع ذلك عند رؤيته لهم لعدم كونِهم مِن جنس ما كان يعهده مِن الناس، ألا يُرى إلى قوله تعالى في سورة الذاريات: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات، ٥١/٢٥].

﴿وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ﴾ أي: أحسّ أو أضمَر مِن جهتهم ﴿خِيفَةً﴾ لِما ظُنّ أنّ نزولَهم لأمر أنكره الله تعالى عليه أو لتعذيب قومِه. وإنّما أُخِّر المفعول الصريح عن الظرف، لأنّ المراد الإخبار بأنّه عليه السلام أوجس مِن جهتهم شيئًا هو الخِيفة لا أنّه أوجس الخِيفةَ مِن جهتهم لا مِن جهة غيرِهم. وتحقيقه أنّ تأخير ما حقُّه التقديم يُوجِب ترقُّب النفس إليه، فيتمكَّن عند وروده عليها فضلَ تمكُّن.

﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ﴾ ما قالوه بمجرَّد ما رأوا منه مخايلَ الخوف إزالةً له منه؛ بل بعد إظهاره عليه السلام له، قال تعالى في سورة الحِجر: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ﴾ [الحجر، ١٥/٥٢]، ولم يُذكَر ذلك ههنا اكتفاءً بذلك. ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ﴾ ظاهره أنّه استئناف في معنى التعليل للنهي المذكور، كما أنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ [الحجر، ١٥/٥٣] تعليلٌ لذلك، فإنّ إرسالهم إلى قوم آخرين يُوجِب أمنهم مِن الخوف، أي: أُرسلنا بالعذاب ﴿إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٍ﴾ خاصّة إلّا أنّه ليس كذلك، فإنّ قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۞ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٍ مُّجۡرِمِينَ﴾ [الحجر، ١٥/٥٧-٥٨] صريحٌ في أنّهم قالوه جوابًا عن سؤاله عليهم السلام، وقد أُوجزَ الكلام اكتفاء بذلك.

﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾

[١٥٤و] ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ﴾ / وراء الستر بحيث تسمع محاورتهم، أو على رءوسهم للخدمة حسبما هو المعتاد. والجملة حال مِن ضمير ﴿قَالُوٓاْ﴾،[١] أي: قالوه وهي قائمة تسمع مقالتهم.

﴿فَضَحِكَتۡ﴾ سرورًا بزوال الخوف، أو بهلاك أهل الفساد، أو بهما جميعًا. وقيل: بوقوع الأمر حسبما كانت تقول فيما سلف، فإنّها كانت تقول لإبراهيمَ

---

[١] في الآية السابقة.

اضمُم إليك لوطًا فإنّي أرى أنّ العذاب نازلٌ بهؤلاء القوم.[١] وقيل: ضحِكت: حاضَت، ومنه "ضحِكت الشجرة" إذا سال صمغُها.[٢] وهو بعيد. وقُرئ بفتح الحاء.[٣]

﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ أي: عقّبنا سرورها بسرور أتمّ منه على ألسنة رُسلنا.

﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ بالنصب على أنّه مفعول لِما دلّ عليه قوله: ﴿بَشَّرْنَٰهَا﴾،[٥] أي وهبنا لها مِن وراء إسحاقَ يعقوبَ، وقُرئ بالرفع[٤] على الابتداء خبرُه الظرف، أي: مِن بعد إسحاقَ يعقوبُ مولودٌ أو موجودٌ. وكلا الاسمين داخل في البِشارة كـ"يحيى"، أو واقعٌ في الحكاية بعد أن وُلدا فسُمِّيا بذلك. وتوجيهُ البِشارة هنا إليها مع أنّ الأصل في ذلك إبراهيمُ عليه السلام، وقد وُجِّهت إليه حيث قيل: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات، ١٠١/٣٧]، ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات، ٢٨/٥١] للإيذان بأنّ ما بُشِّر به يكون منهما ولكونها عقيمة حريصة على الولد.

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾

﴿قَالَتْ﴾ استئناف وردَ جوابًا عن سؤال مَن سأل وقال: فما فعلتْ إذ بُشِّرتْ بذلك؟ فقيل: قالت: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ أصل الويل: الخزيُ، ثمّ شاع في كلّ أمر فظيع، والألف مُبدَلة مِن ياء الإضافة كما في "يا لَهْفَا" و"يا عَجَبا". وقرأ الحسن على الأصل،[٦] وأمالها أبو عمرو وعاصم[٧] في رواية.[٨] / ومعناه: يا ويلتي احضري [١٥٤ظ]

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٤/٢.

٢ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤٠/٢؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٠٤/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن محمّد بن زيد الأعرابي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٧.

٤ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر عنه وأبو جعفر ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٩٠/٢.

٥ م س: وبشّرناه.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن قُطيب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٥.

٧ هو عاصم بن أبي النَّجود الكوفي مولى بني أسد، أبو بكر (ت. ١٢٧هـ). الإمام الكبير، وأحد القرّاء السبعة والمشار إليه في القراءات. وكان ذا أدب ونُسُك وفصاحة وصوت جميل. أخذ القراءة مِن أبي عبد الرحمن السُّلمي وزِرّ بن حُبيش، وأخذ عنه أبو بكر بن عيّاش وحفص بن سليمان وغيرهما كثير. مات بالكوفة. انظر: وفيات الأعيان لابن خلّكان، ٩/٣؛ وسير أعلام النبلاء للذهبي، ٢٥٦/٥-٢٥٩؛ وغاية النهاية لابن الجزري، ٣٤٦/١.

٨ ما نقله المصنّف ههنا هو المذكور في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣٥٧/٦؛ واللباب لابن عادل، ٥٢٦/١٠. والمذكور في كتب القراءات أنّ الإمالة فيها قراءة حمزة والكسائي وخلف، وأبو عمرو في رواية الدُّوري ونافع في رواية ورش عنه بخلاف يُميلانها بين بين. النشر لابن الجزري، ٣٧/٢، ٤٨، ٥١، ٥٣.

فهذا أوانُ حضورِك. وقيل: هي ألفُ النُّدبةِ ويوقف عليها بهاء السكت.[١] ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ بنت تسعين أو تسع وتسعين سنةً.

﴿وَهَٰذَا﴾ الذي تُشاهدونه ﴿بَعْلِي﴾ أي: زوجي، وأصل البَعل: القائمُ بالأمر. ﴿شَيْخًا﴾ وكان ابنَ مائة وعشرين سنةً، ونصبُه على الحال، والعاملُ معنى الإشارة. وقُرئ بالرفع[٢] على أنّه خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هو شيخ أو خبرٌ بعد خبر، أو هو الخبر و﴿بَعْلِي﴾ بدل مِن اسم الإشارة، أو بيانٌ له، وكلتا الجملتين وقعَت حالًا مِن الضمير في ﴿ءَأَلِدُ﴾ لتقرير ما فيه مِن معنى[٣] الاستبعاد وتعليله، أي: أألد وكلانا على حالة منافية لذلك؟

وإنّما قدِّمت بيانَ حالها على بيان حاله عليه السلام لأنّ مُباينة حالها لِما ذُكر مِن الولادة أكثرُ؛ إذ ربّما يُولد للشيوخ مِن الشوابّ، أمّا العجائز داؤهنّ عُقام، ولأنّ البِشارة متوجِّهة إليها صريحًا، ولأنّ العكس في البيان ربّما يُوهِم مِن أوّل الأمر نسبة المانِع عن الولادة إلى جانب إبراهيمَ عليه السلام، وفيه ما لا يخفى مِن المحذور. واقتصارها الاستبعاد على ولادتها مِن غير تعرّض لحال النافلة لأنّها المُستبعَد، وأمّا ولادةُ ولدها فلا يتعلّق بها استبعاد.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي ما ذُكر مِن حصول الولد مِن هَرِمَين مثلِنا. ﴿لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ بالنسبة إلى سُنّة الله تعالى المسلوكة فيما بين عباده، وهذه الجملة لتعليل الاستبعاد بطريق الاستئناف التحقيقي، ومقصدُها استعظام نعمة الله عزّ وجلّ عليها في ضمن الاستعجاب العادي، لا استبعادُ ذلك بالنسبة إلى قدرته سبحانه وتعالى.

﴿قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾

[١٥٥و] / ﴿قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: قدرتِه وحكمته أو تكوينه أو شأنِه، أنكروا عليها تعجُّبها مِن ذلك لأنّها كانت ناشئة في بيت النبوّة ومَهبِط الوحي والآيات

---

١ القول في اللباب لابن عادل، ٥٢٦/١٠-٥٢٧.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والأعمش وكِرداب عن يعقوب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٥؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٧؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٩٧.

٣ م ط – معنى.

ومَظهَر المعجزات والأمور الخارقة للعادات، فكان حقُّها أن تتوفَّر ولا يزدهِيَها ما يزدهي سائرَ النساء مِن أمثال هذه الخوارقِ مِن ألطاف الله الخفيّة ولطائفِ صنعِه الفائضة على كلّ أحد ممّن يتعلّق بذلك مشيئته الأزليّة، لاسيّما على أهل بيت النبوّة التي ليست مرتبتُهم عند الله سبحانه كمراتب سائرِ الناس، وأن تُسبّح الله تعالى وتحمَدَه وتُمجّدَه، وإلى ذلك أشاروا بقوله تعالى: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ﴾ التي وسِعت كلّ شيء واستتبعت كلّ خير، وإنّما وُضع المظهَر موضعَ المُضمَر لزيادة تشريفِها.

﴿وَبَرَكَـٰتُهُۥ﴾ أي: خيراته النامية المُتكاثرة في كلّ باب التي مِن جملتها هِبةُ الأولاد. وقيل: الرحمة: النبوّة، والبركات: الأسباط مِن بني إسرائيلَ لأنّ الأنبياءَ منهم وكلُّهم مِن ولد إبراهيمَ عليهم السلام.[1]

﴿عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ نَصب على المدح أو الاختصاصِ لأنّهم أهل بيت خليل الرحمن. وصَرفُ الخطاب مِن صيغة الواحدة إلى جمع المذكّر لتعميم حُكمِه لإبراهيمَ عليه السلام أيضًا، ليكون جوابهم لها جوابًا له أيضًا إن خطر بباله مثلُ ما خطر ببالها. والجملة كلام مستأنَف عُلِّل به إنكار تعجُّبها، كأنّه قيل: ليس المقام مقامَ التعجّب، فإنّ الله تعالى على كلّ شيء قدير، ولستُم يا أهل بيت النبوّة والكرامة والزُّلفى كسائر الطوائف؛ بل رحمتُه المستتبِعة لكلّ خير الواسعةُ لكلّ شيء، و﴿وَبَرَكَـٰتُهُۥ﴾، أي: خيراته النامية الفائضة / منه بواسطة [١٥٥ظ] تلك الرحمة الواسعة لازمة لكم لا تُفارقكم.

﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ﴾ فاعلُ ما يستوجب الحمدَ ﴿مَّجِيدٌ﴾ كثيرُ الخير والإحسان إلى عباده. والجملة لتعليل ما سبق مِن قوله: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾ أي: ما أوجس منهم مِن الخِيفة واطمأنّ قلبه بعِرفانهم وعِرفان سبب مجيئهم. و"الفاءُ" لربط بعض أحوال إبراهيمَ عليه السلام

---

[1] القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٣٠٤.

ببعضٍ غِبَّ انفصالها بما ليس بأجنبي مِن كلّ وجه؛ بل له مَدخَل تامّ في السِّباق والسِّياق. وتأخير الفاعل عن الظرف لأنّه مَصَبّ الفائدة، فإنّ بتأخير ما حقُّه التقديم تبقى النفس مُترقِّبة مُنتظِرةً إلى وروده فيتمكّن فيها عند وروده إليها فضلَ تمكُّن.

﴿وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ إن فُسِّرت البُشرى بقولهم: ﴿لَا تَخَفۡ﴾[١] فسببيّتُه ذهاب الخوف ومجيء السرور للمجادلة المدلول عليها بقوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ﴾ أي: جادَل رسلنا في شأنهم، وعُدل إلى صيغة الاستقبال لاستحضار صورتها أو طفِق يجادلنا، ظاهرةٌ.[٢]

وأمّا إن فُسِّرت ببِشارة الولدِ أو بما يعُمُّها فلعلّ سببيّتَها لها مِن حيث إنّها تفيد زيادة اطمئنان قلب بسلامته وسلامة أهله كافةً، ومجادلتُه إيّاهم أنّه قال لهم حين قالوا له: ﴿إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ [العنكبوت، ٣١/٢٩]: «أرأيتُم لو كان فيها خمسون رجلًا مِن المؤمنين أتُهلكونها؟» قالوا: «لا»، قال: «فأربعون؟» قالوا: «لا»، قال: «فثلاثون؟» قالوا: «لا»، حتّى بلغ العشرةَ قالوا: «لا»، قال: «أرأيتم إن كان فيها رجلٌ مسلمٌ أتُهلكونها؟» قالوا: «لا»، فعند ذلك قال: «إن فيها لوطًا»، قالوا: «نحن أعلمُ بمن فيها لَنُنجِّينّه وأهلَه».[٣]

إن قيل: المتبادر مِن هذا الكلامِ أن يكون إبراهيمُ عليه السلام قد علِم أنّهم مُرسَلون لإهلاك قومِ لوطٍ قبل ذهابِ الرَّوع عن نفسه، ولكن لم يقدِر على مُجادلتهم في شأنهم لاشتغاله / بشأن نفسه، فلمّا ذهب عنه الرَّوع فرَغ [١٥٦و] لها، مع أنّ ذهاب الرَّوع إنّما هو قبل العِلم بذلك لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٍ﴾؛[٤] قلنا: كان لوطٌ عليه السلام على شريعة إبراهيمَ عليه السلام وقومُه مُكلَّفين بها، فلمّا رأى مِن الملائكة ما رأى خاف على نفسه وعلى كافّة أمّتِه التي مِن جملتهم قومُ لوطٍ، ولا ريب في تقدّم هذا الخوف على قولهم:

---

١ هود، ٧٠/١١.

٢ وفي هامش م: خبر لقوله: فسببيّته ذهاب الخوف. «منه».

٣ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٠٥/٢؛ وتفسير الرازي، ٣٧٦/١٨.

٤ هود، ٧٠/١١.

﴿لَا تَخَفْ﴾،[١] وأمّا الذي عِلِمه عليه السلام بعد النهي عن الخوف فهو اختصاص قوم لوطٍ بالهلاك لا دخولُهم تحت العموم. فتأمّل، والله الموفِّق.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٥﴾

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ غيرُ عَجول على الانتقام ممّن أساء إليه، ﴿أَوَّٰهٌ﴾ كثيرُ التأوُّه على الذنوب والتأسُّفِ على الناس، ﴿مُّنِيبٌ﴾ راجع إلى الله تعالى. والمقصود بتعداد صفاته الجميلة المذكورة بيانُ ما حَمله عليه السلام على ما صدر عنه مِن المجادلة.

﴿يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ۝٧٦﴾

﴿يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ أي: قالت الملائكة: يا إبراهيمُ ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ﴾ الجِدال ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الشأنَ ﴿قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي: قَدَرُه الجاري على وَفق قضائه الأزلي الذي هو عبارة عن الإرادة الأزليّة والعِناية الإلهيّة المُقتضية لنظام الموجودات على ترتيب خاصّ حسب تعلُّقها بالأشياء في أوقاتها، وهو المعبَّر عنه بالقدَر.

﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ لا بجِدال ولا بدعاء ولا بغيرهما.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝٧٧﴾

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: انطلَقوا مِن عند إبراهيمَ عليه السلام إلى لوطٍ عليه السلام وبين القريتين أربعةُ فراسخَ، ودخلوا عليه في صوَر غِلمان مُرْد حِسان الوجوه،[٢] فلذلك ﴿سِىٓءَ بِهِمْ﴾ أي: ساءه مجيئهم لِظنّه أنّهم أناس، فخاف أن يقصِدهم قومه ويعجِزَ عن مدافعتهم. / وقرأ نافع وابن عامر والكسائي وأبو عمرو: "سِيءَ" و"سِيئَتْ" [الملك، ٢٧/٦٧] [١٥٦ظ] بإشمام السين الضمَّ.[٣]

---

١ هود، ٧٠/١١.

٢ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤١/٢.

٣ قرأ بها الكسائي ونافع وأبو جعفر وابن عامر في رواية هشام عنه ويعقوب في رواية رويس عنه. النشر لابن الجزري، ٢٠٨/٢.

رُوي أنّ الله تعالى قال للملائكة: «لا تُهلكوهم حتّى يشهَد عليهم لوطٌ أربعَ شهادات»، فلمّا مشى معهم منطلِقًا بهم إلى منزله قال لهم: «أمَا بلَغكم أمر هذه القرية؟» قالوا: «وما أمرُها؟» قال: «أشهَد بالله إنّها لشرُّ قريةٍ في الأرض عملًا»، يقول ذلك أربعَ مرّات، فدخلوا معه منزله، ولم يعلم بذلك أحد، فخرجت امرأته فأخبرت به قومها وقالت: «إن في بيت لوط رجالًا ما رأيتُ مثلَ وجوههم قطّ».[1]

﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي: ضاق بمكانهم صدره أو قلبه، أو وُسعه وطاقته، وهو كناية عن شدّة الانقباض للعجز عن مدافعة المكروه والاحتيال فيه. وقيل: ضاقت نفسُه عن هذا الحادث، وذِكرُ الذَّرْع مَثَل، وهو المِساحة، وكأنّه قدْرُ البدن مجازًا، أي: إنّ بدنه ضاق قدرُه مِن احتمال ما وقع. وقيل: الذِّراع اسم للجارحة مِن المِرفق إلى الأنامل، والذَّرْعُ: مدُّها، ومعنى ضِيق الذَّرع في قوله: ﴿ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾: قِصَرُها، كما أنّ معنى سَعتها وبسطتها: طُولها. ووجهُ التمثيل بذلك أنّ القصير الذَّرع إذا مدَّها ليتناول ما يتناوله الطويل الذَّرعِ تقاصر عنه وعجِز عن تعاطيه، فضُرب مثلًا للذي قصُرت طاقتُه دون بلوغ الأمر.

﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ شديدٌ، مِن "عصَبه إذا شدّه".

﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾

﴿وَجَآءَهُۥ﴾ أي: لوطًا وهو في بيته مع أضيافه ﴿قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: يُسرِعون كأنّما يُدفَعون دَفعًا لطلب الفاحشة مِن أضيافه. والجملة حال مِن قومه، وكذا قوله: / ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبلِ هذا الوقت. ﴿كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: [١٥٧و]
جاءوا مُسرعين والحال أنّهم كانوا مُنهمِكين في عمل السيّئات فضَرُوا[2] بها وتمرّنوا فيها حتّى لم يبقَ عندهم قباحتُها، ولذلك لم يستحيُوا ممّا فعلوا مِن مجيئهم مُهرِعين مُجاهِرين.

---

[1] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٣٠٥.
[2] ضريَ به ضرًا وضراوة: لَهِج. والضراوة: العادة، يقال: ضريَ الشيءُ بالشيء إذا اعتاده فلا يكاد يصبر عليه. انظر: لسان العرب لابن منظور، «ضري».

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ فتزوّجوهنّ، وكانوا يطلُبونهنّ مِن قبلُ ولا يُجيبهم لخُبثهم وعدمِ كفاءتهم لا لعدم مشروعيّته، فإنّ تزويج المسلماتِ مِن الكفّار كان جائزًا، وقد زوّج النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ابنتيه مِن عُتبةَ بن أبي لهَبٍ[١] وأبي العاص بن الرَّبيع[٢] قبل الوحي وهما كافران.[٣] وقيل: كان لهم سيّدان مُطاعان فأراد أن يُزوّجهما ابنتيه.[٤]

وأيًا ما كان فقد أراد به وقاية ضيفه وذلك غاية الكرَم. وقيل: ما كان ذلك القول منه مُجرًى على الحقيقة مِن إرادة النكاح؛ بل كان ذلك مبالغةً في التواضع لهم وإظهارًا لشدّة امتِعاضِه ممّا أوردوا عليه طمعًا في أن يستحيوا منه ويرِقّوا له إذا سمعوا ذلك فينزجروا عما أقدموا عليه، مع ظهور الأمر واستقرارِ العلم عنده وعندهم جميعا بألّا مُناكحةَ بينهم، وهو الأنسبُ بقولهم: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ﴾،[٥] كما ستقف عليه.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بترك الفواحش أو بإيثارهنّ عليهم. ﴿وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ﴾ أي: لا تفضحوني في شأنهم فإنّ إخزاء ضيفِ الرجل وجارِه إخزاءٌ له، أو لا تُخجلوني

---

١ هو عتبة بن عبد العزّى المعروف بأبي لهب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ، وأمّه أمّ جميل بنت حرب بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ، وهو ابن عمّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وقد تزوّج ابنته رقيّة قبل النبوّة، وقيل: قبل الهجرة، ولمّا نزلت الآية: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾ [المسد، ١/١١١] أمره أبوه بطلاقها ففعل، وتزوّجها عثمان بن عفّان رضي الله عنه. دعا عليه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «اللّهمّ سلِّط عليه كلبًا مِن كلابك»، فأكله أسدٌ وهو هارب إلى الشام. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٢٥١/٢؛ والإصابة لابن حجر، ٣٨٧/١٣.

٢ هو أبو العاص بن الربيع بن عبد العُزّى بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ بن كلاب القرشي، وأمّه هالة بنت خويلد، مختلف باسمه، قيل: لقيط، وقيل: الزبير، وقيل: هشيم. وكان يلقب جرو البطحاء، وقيل: الأمين (ت. ١٢هـ/٦٣٣م). وهو زوج زينب بنت النبيّ عليه الصلاة والسلام وابن خالتها، وقصّة إسلامه مفصّلة في كتب التراجم. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣٣٠/١؛ والإصابة لابن حجر، ٤٠٧/١٢-٤١٠.

٣ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٦/٢، وفيه «أبي العاص بن وائل» مكان «أبي العاص بن الرّبيع»، فصحّحه المُصنِّف، ونبّه على خطأ الزمخشري في ذلك ابن حجر في الكافي الشاف، ص ٨٦-٨٧، وتخريجه فيه وفي تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ١٤٦/١-١٤٧.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٦/٢.

٥ في الآية التالية.

مِن الخَزاية وهي الحياء. ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ يهتدي إلى الحقّ الصريح ويرعوي عن الباطل القبيح.

﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾

﴿قَالُواْ﴾ معرضِين عمّا نصحهم به مِن الأمر بتقوى الله تعالى والنهي عن إخزائه مجيبين عن أوّل كلامه: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ / مستشهِدين بعلِمه بذلك، يعنُون إنّك قد علمتَ ألّا سبيلَ إلى المناكحة بيننا وبينك وما عرضُك إلّا عرضٌ سابريّ[1] ولا مَطمعَ لنا في ذلك. ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ مِن إتيان الذُّكران. [١٥٧ظ]

ولمّا يئس عليه السلام مِن ارعوائهم عمّا هم عليه مِن الغَي ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً﴾ أي: لفعلتُ بكم ما فعلتُ وصنعتُ ما صنعتُ، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ[2] أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد، ١٣/٣١].

﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ عطفٌ على ﴿أَنَّ لِى بِكُمْ﴾... إلخ، لِما فيه مِن معنى الفعل، أي: لو قوِيتُ على دفعكم بنفسي أو أويتُ إلى ناصر عزيز قويّ أتمنّع به عنكم، شَبّهه برُكن الجبل في الشدّة والمَنَعة. ورُوي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «رحِم الله أخي لوطًا كان يأوي إلى ركن شديد».[3]

رُوي أنّه عليه السلام أغلق بابه دون أضيافه وأخذ يُجادِلهم مِن وراء الباب، فتسوّروا الجدار، فلمّا رأت الملائكة ما على لوطٍ مِن الكَرْب[4] ﴿قَالُواْ﴾ أي:

---

[1] قول العامة: عرضٌ سابريٌّ، أي: رقيق ليس بمُحقَّق، يقال لمَن يُعرَض عليه الشيء عرضًا لا يُبالغ فيه؛ لأنّ السابري مِن أجود الثياب يُرغَب فيه بأدنى عَرْض. وفي تفسيره أقوال أخرى. انظر: لسان العرب لابن منظور، «سبر»، «عرض». وقد يُدرَج هذا القول في الأمثال. انظر: جمهرة الأمثال للعسكري، ٤٨/٢.

[2] م س - ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾.

[3] بلفظ قريب في صحيح البخاري، ١٤٧/٤ (٣٣٧٢)؛ وصحيح مسلم، ١٣٣/١ (٢٣٨). وبلفظه ههنا في جامع البيان للطبري، ٥١٠/١٢؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٠٧/٢.

[4] انظر: معالم التنزيل للبغوي، ١٩٢/٦؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤٢/٢.

الرسل لمّا شاهدوا عَجْزه عن مُدافَعة قومه: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ﴾ بضرر ولا مكروه، فافتح الباب ودَعنا وإيّاهم، ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريلُ عليه السلام ربَّه ربَّ العزّة جلّ جلاله في عقوبتهم، فأذِن له فقام في الصورة التي يكون فيها فنشر جناحه، وله جناحان وعليه وِشاح مِن دُرّ منظوم وهو برّاق الثنايا، فضرب بجناحه وجوههم فطمَس أعينهم وأعماهم، كما قال عزّ وعلا: ﴿فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ﴾ [القمر، ٣٧/٥٤]، فصاروا لا يعرِفون الطريق، فخرجوا وهم يقولون: النجاءَ النجاءَ فإنّ في بيت لوطٍ قومًا سَحَرة.[1]

/ ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ﴾ بالقَطع مِن "الإسراء"، وقرأ ابن كثير ونافع بالوصل حيث جاء في القرآن[2] مِن السُّرى، و"الفاء" لترتيب الأمر بالإسراء على الإخبار برسالتهم المُؤذِنة بورود الأمر والنهي مِن جنابه عزّ وجلّ إليه عليه السلام. [١٥٨و]

﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ بطائفة منه ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ﴾ أي: لا يتخلّف أو لا ينظُر إلى ورائه ﴿أَحَدٌ﴾ منك ومِن أهلك، وإنما نُهوا عن ذلك ليجِدّوا في السير فإنّ مَن يلتفت إلى ما وراءه لا يخلو عن أدنى وقفة، أو لئلّا يرَوا ما ينزل بقومهم مِن العذاب فيرِقّوا لهم.

﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ﴾ استثناء مِن قوله تعالى: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ﴾، ويُؤيّده أنّه قُرئ: "فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا امْرَأَتَكَ"،[3] وقُرئ بالرفع[4] على البدل مِن ﴿أَحَدٌ﴾، فالالتفاتُ بمعنى التخلّف، لا بمعنى النظر إلى الخَلف كيلا يلزمَ التناقضُ بين القراءتين المتواترتين، فإنّ النصب يقتضي كونه عليه السلام غيرَ مأمور بالإسراء بها، والرفعَ كونَه مأمورًا بذلك.

والاعتذار بأنّ مقتضى الرفع إنّما هو مجرَّد كونها معهم، وذلك لا يستدعي الأمر بالإسراء بها حتّى يلزَم المُناقضةَ؛ لجواز أن تسريَ هي بنفسها، كما يُرى

---

[1] انظر: معالم التنزيل للبغوي، ١٩٣/٦.

[2] قرأ بذلك ابن كثير ونافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٩٠/٢.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ٢٣٧.

[4] قراءة شاذّة، غير منسوبة، أوردها الزمخشري في الكشّاف، ٣٠٧/٢-٣٠٨.

أنّه عليه السلام لمّا أسرى بأهله تبِعَتْهم، فلمّا سمعت هِدّة العذاب التفتت وقالت: «يا قوماه»، فأدرَكها حجر فقتلها؛[١] وأن يسريَ بها عليه السلام مِن غير أمرٍ بذلك، إذ مُوجَب النصبِ إنّما هو عدم الأمر بالإسراء بها لا النهيُ عن الإسراء بها حتّى يكونَ عليه السلام بالإسراء بها مخالفًا للنهي، لا يجدي نفعًا؛[٢] لأنّ انصراف الاستثناء إلى الالتفات يستدعي / بقاء "الأهل" على العموم،[٣] [١٥٨ظ] فيكون الإسراء بها مأمورًا به قطعًا. وفي حَمْل الأهليّة في إحدى القراءتين على الأهليّة الدينيّة وفي الأخرى على النَّسَبيّة -مع أنّ فيه ما لا يخفى مِن التحكّم والاعتساف- كرٌّ على ما فُرّ منه مِن المناقضة.

فالأَولى حينئذ جَعْل الاستثناء على القراءتين مِن قوله: ﴿لَا يَلْتَفِتْ﴾ مثلَ الذي في قوله تعالى: ﴿مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء، ٤/٦٦]، فإنّ ابن عامر قرأه بالنصب،[٤] وإن كان الأفصح الرفعَ على البدل، ولا بُعد في كون أكثر القرّاء على غير الأفصح. ولا يلزَم مِن ذلك أمرها بالالتفات؛ بل عدمُ نهيها عنه بطريق الاستصلاح، ولذلك علّله على طريقة الاستئناف بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ مِن العذاب، وهو إمطارُ الحَجَر وإن لم يصبها الخَسْف. والضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ للشأن. وقوله تعالى: ﴿مُصِيبُهَا﴾ خبر. وقوله: ﴿مَآ أَصَابَهُمْ﴾ مبتدأ، والجملة خبر لـ﴿إِنَّ﴾ الذي اسمه ضمير الشأن. وفيه ما لا يخفى مِن تفخيم شأن ما أصابهم. ولا يحسُن جَعْل الاستثناء منقطِعًا على قراءة الرفع.

﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ أي: موعدَ عذابهم وهلاكهم. تعليلٌ للأمر بالإسراء والنهي عن الالتفات المُشعِر بالحثّ على الإسراع.

﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ تأكيد للتعليل، فإنّ قُرب الصبح داعٍ إلى الإسراع في الإسراء للتباعُد عن مواقع العذاب. ورُوي أنّه قال للملائكة عليهم السلام: «متى موعد هلاكهم؟» قالوا: «الصبحُ»، قال: «أُريد أسرعَ مِن ذلك»، فقالوا:

---

[١] انظر: جامع البيان للطبري، ١٢/٥١٦؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٦/١٩٣؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٣٠٨.

[٢] السياق: والاعتذار... لا يجدي نفعًا...

[٣] وفي هامش م: عمومه.

[٤] النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٠.

«ذلك».[1] وإنّما جُعل مِيقات هلاكِهم الصبحَ / لأنّه وقت الدَّعة والراحة، فيكون [١٥٩و] حلول العذاب حينئذ أفظعَ، ولأنّه أنسب بكون ذلك عِبرة للناظرين.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي: وقتُ عذابنا وموعده، وهو الصبح ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا﴾ أي: عاليَ قُرى قوم لوطٍ وهي التي عُبِّر عنها بـ﴿ٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ [التوبة، ٧٠/٩]، وهي خمس مدائنَ فيها أربعمائة ألفِ ألفٍ.[2]

﴿سَافِلَهَا﴾ أي: قلبناها على تلك الهيئة، وجُعِل ﴿عَٰلِيَهَا﴾ مفعولًا أوّل للجَعْل و﴿سَافِلَهَا﴾ مفعولًا ثانيًا له، وإن تحقَّق القلب بالعكس أيضًا لتهويل الأمر وتفظيع الخَطْب؛ لأنّ جَعْل عالِيها الذي هو مَقارّهم ومساكنهم سافلَها أشدُّ عليهم وأشقُّ مِن جَعْل سافِلها عالِيَها وإن كان مُستلزِمًا له. رُوي أنّه جعلَ جبريلُ عليه السلام جناحه في أسفلها ثمّ رفعها إلى السماء حتّى سمع أهل السماء نُباحَ الكلاب وصياحَ الدِّيَكة، ثمّ قلبها عليهم.[3] وإسنادُ الجَعْل والإمطار إلى ضميره سبحانه باعتبار أنّه المسبِّب لتفخيم الأمر وتهويل الخطب.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ على أهل المدائنِ أو شُذّاذهم ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ مِن طين متحجِّر، كقوله: ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات، ٣٣/٥١]. وأصلُه "سنك كل"[4] فعُرِّب، وقيل: هو مِن "أسْجَله" إذا أرسله، أو "أدرّ عطيّته"،[5] والمعنى: مِن مِثل الشيء المرسَل أو مِثلَ العطيّة في الإدرار، أو مِن السِّجِلّ، أي: ممّا كتب الله تعالى أن يعذِّبهم به. وقيل: أصله "مِن سِجِّين" أي مِن جهنّم، فأُبدِلت لامه نونًا.[6]

---

[1] انظر: جامع البيان للطبري، ٥١٥/١٢-٥١٦؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٩٣/٦.

[2] انظر: معالم التنزيل للبغوي، ١٩٣/٦.

[3] انظر: جامع البيان للطبري، ٥١٦/١٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٩٣/٦؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٠٨/٢.

[4] انظر: جامع البيان للطبري، ٥٢٦/١٢-٥٢٩؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٠٨/٢. و"سنك كل" معناها بالفارسيّة: الحجر والطين. انظر لتفصيل الكلام عليه والأقوال فيه: المُعرَّب للجواليقي، ص ٣٦٤-٣٦٦، وحواشي مُحقِّقه.

[5] القول في جامع البيان للطبري، ٥٢٨/١٢؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٠٨/٢.

[6] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤٣/٢.

﴿مَنضُودٍ﴾ نُضِد في السماء نَضْدًا مُعدًّا للعذاب. وقيل: يُرسَل بعضه إثرَ بعض كقِطار الأمطار.[١]

﴿مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾

﴿مُسَوَّمَةً﴾ مُعْلَمة للعذاب، وقيل: مُعْلَمةً ببياض وحُمرة أو بسِيما تتميَّز
[١٥٩ظ] به عن حجارة الأرض، أو باسم مَنْ ترمى به.[٢] ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ / في خزائنه التي لا يتصرَّف فيها غيره عزّ وجلّ.

﴿وَمَا هِىَ﴾ أي: الحجارة الموصوفة. ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مِن كلّ ظالم ﴿بِبَعِيدٍ﴾ فإنّهم بسبب ظلمِهم مستحقُّون لها وملابَسون بها. وفيه وعيدٌ شديد لأهل الظلم كافّة.

وعن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّه سأل جبريلَ عليه السلام فقال: «يعني ظالمي أمّتِك ما مِن ظالم منهم إلّا وهو بعرض حَجرٍ يسقط عليه مِن ساعة إلى ساعة».[٣] وقيل: الضمير للقُرى، أي: هي قريبة مِن ظالمي مكّةَ يمرّون بها في مَسايرهم وأسفارِهم إلى الشام.

وتذكيرُ "البعيد" على تأويل الحِجارة بالحَجر، أو إجرائه على موصوف مذكَّر، أي: بشيء بعيد أو بمكان بعيد، فإنّها وإن كانت في السماء وهي في غاية البُعد مِن الأرض إلّا أنّها حين هَوَت منها فهي أسرعُ شيء لحُوقًا بهم، فكأنّها بمكان قريبٍ منهم. أو لأنّه على زِنة المصدر كالزفير والصهيل، والمصادر يستوي في الوصف بها المذكّر والمؤنّث.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٨/٢.

٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٠٨/٢؛ وجامع البيان للطبري، ٥٣١/١٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٩٣/٦.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٣٠٨/٢؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٥١٩/١١؛ واللباب لابن عادل، ٥٤٢/١٠. وأورده البغوي بقوله: «وفي بعض الآثار» في معالم التنزيل، ١٩٤/٦. ولم أجِده في مظانّه. وقال عنه الزَّيلعيُّ في تخريج أحاديث الكشّاف، ١٤٨/٢: «غريب».

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ أي: أولاد مدينَ بن إبراهيمَ عليه السلام، أو جُعِل اسمًا للقبيلة بالغَلَبة، أو أهل مدينَ وهو بلد بناه مَدينُ فسُمّي باسمه. ﴿أَخَاهُمْ﴾ أي: نسيبَهم ﴿شُعَيْبًا﴾ وهو ابن ميكيلَ بن يشجرَ بن مدينَ، وكان يقال له خطيب الأنبياء لحُسن مراجعتِه قومَه. والجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾،[1] أي: وأرسلنا إلى مدينَ شعيبًا.

/ ﴿قَالَ﴾ استئناف وقع جوابًا عن سؤال نشأ عن صدر الكلام، فكأنّه قيل: [١٦٠و] فماذا قال لهم؟ فقيل: قال كما قال مَن قبله مِن الرسل عليهم السلام: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وحدَه ولا تشركوا به شيئًا، ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ تحقيق للتوحيد وتعليل للأمر به، وبعد ما أمرهم بما هو ملاكُ أمر الدين وأوّلُ ما يجب على المكلّفين نهاهم عن ترتيب مبادي ما اعتادوه مِن البَخس والتطفيف عادةً مستمرّة، فقال: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ كي تتوسّلوا بذلك إلى بَخْس حقوق الناس.

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ أي: ملتبسين بثروة وسَعة تُغنيكم عن ذلك، أو بنعمة مِن الله تعالى حقُّها أن تُقابَل بغير ما تأتونه مِن المُسامَحة والتفضّل على الناس شكرًا عليها، أو أَراكم بخير فلا تُزيلوه بما أنتم عليه مِن الشرّ، وهو على كلّ حال علّة للنهي عُقِّبت بعلّة أخرى، أعني قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن لم تنتهوا عن ذلك ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ لا يشِذّ منه شاذٌّ منكم.

وقيل: عذابَ يوم مُهلِك، مِن قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف، ٤٢/١٨]، وأصلُه مِن إحاطة العدوّ.[2] والمراد عذاب يوم القيامة، أو عذابُ الاستئصال. ووصفُ اليوم بالإحاطة وهي حال العذاب على الإسناد المجازي، وفيه مِن المبالغة ما لا يخفى، فإنّ "اليوم" زمان يشتمِل على ما وقع فيه مِن الحوادث، فإذا أحاط بعذابه فقد اجتمع للمعذَّب ما اشتمل عليه منه، كما إذا أحاط بنعيمه، ويجوز أن يكون هذا تعليلًا للأمر والنهي جميعًا.

---

[1] هود، ٦١/١١.

[2] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٨/٢.

﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۝٨٥﴾

﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ أي: بالعدل مِن غير زيادة ولا نقصان، فإنّ الزيادة في الكيل والوزن وإن كان تفضُّلًا مندوبًا إليه، لكنّها في الآلة محظورة كالنقص، فلعلّ الزائدَ للاستعمال عند الاكتيال والناقصَ للاستعمال وقتَ الكيل، وإنّما أُمر بتسويتهما وتعديلِهما صريحًا / بعد النهي عن نقصهما [١٦٠ظ] مبالغةً في الحمل على الإيفاء والمنعِ مِن البخس، وتنبيهًا على أنّه لا يكفيهم مجرَّد الكفِّ عن النقص والبَخس؛ بل يجب عليهم إصلاح ما أفسدوه وجعلوه معيارًا لظلمهم وقانونًا لعدوانهم.

﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ﴾ بسبب نقصِهما وعدم اعتدالِهما ﴿أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ التي يشترونها بهما، وقد صُرِّح بالنهي[١] عن البَخس بعد ما عُلم ذلك في ضمن النهي عن نَقْص المِعيار والأمرِ بإيفائه اهتمامًا بشأنه وترغيبًا في إيفاء الحقوق بعد الترهيب والزجر عن نقصها. ويجوز أن يكون المراد بالأمر بإيفاء المكيال والميزان الأمرَ بإيفاء المَكيلاتِ والموزونات، ويكونَ النهيُ عن البخس عامًّا للنقص في المقدار وغيره تعميمًا بعد التخصيص، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾، فإنّ العَثْيَ يعمّ نقص الحقوق وغيرَه مِن أنواع الفساد. وقيل: البَخس: المَكس، كأخذ العشور في المعامَلات.[٢] قال زُهير بن أبي سُلمى:

أفــي كــلّ أســواق الــعــراقِ إتــاوةٌ وفي كلّ ما باع امرؤ مَكْسُ[٣] درهمِ[٤]

والعَثْيُ في الأرض: السرقة وقَطْع الطريق والغارة. وفائدةُ الحال إخراج ما يُقصَد به الإصلاح كما فعله الخَضِر عليه السلام مِن خرق السفينة وقتلِ الغلام. وقيل: معناه: ولا تعثَوا في الأرض مفسِدين أمْرَ آخرتكم ومصالحَ دينكم.[٥]

---

١ س: النهي.
٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٣٠٩.
٣ وفي هامش م: بخس.
٤ تابَع المُصنِّفُ الزمخشري في نسبة هذا البيت إلى زهير في الكشّاف، ٢/٣٠٩. والصواب أنّه لجابر بن حُنَيّ التغلبي كما في المفضّليّات للضبّي، ص ٢١١؛ والحيوان للجاحظ، ١/٢١٥؛ وأساس البلاغة للزمخشري، «أتي».
٥ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٤٤.

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ۝٨٦﴾

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ أي: ما أبقاه لكم مِن الحلال بعد التنزّه عن تعاطي المُحرّمات ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ممّا تجمعون بالبَخْس والتطفيف، فإنّ ذلك هباء منثور؛ بل شرّ محض، وإن زعمتُم أنّ فيه خيرًا كقوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة، ٢/٢٧٦].

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بشرط أن تؤمنوا، فإنّ خيريّتها / باستتباع الثوابِ مع النجاة، وذلك مشروط بالإيمان لا محالةَ، أو إن كنتم مصدِّقين بي في مقالتي لكم. وقيل: البقيّة: الطاعة، كقوله عزّ وعلا: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾ [الكهف، ١٨/٤٦].[١] وقُرئ: "تَقِيَّةُ اللهِ"[٢] بالفوقانيّة، وهي تقواه عن المعاصي. [١٦١و]

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أحفظكم مِن القبائح، أو أحفظ عليكم أعمالكم فأجازيكم، وإنّما أنا ناصح مُبلِّغ، وقد أعذرتُ إذ أَنْذرتُ ولم آلُ في ذلك جُهدًا، أو ما أنا بحافظ ومُستبقٍ عليكم نِعمَ الله تعالى إن لم تتركوا ما أنتم عليه مِن سوء الصنيع.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ۝٨٧﴾

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ مِن الأوثان، أجابوا بذلك أمرَه عليه السلام إيّاهم بعبادة الله تعالى وحدَه المتضمِّنَ لنهيهم عن عبادة الأصنام، ولقد بالغوا في ذلك وبلغوا أقصى مراتب الخلاعة والمجون والضلال، حيث لم يكتفوا بإنكار الوحي الآمر بذلك حتّى ادّعَوا ألّا آمرَ به مِن العقل واللُّبّ أصلًا، وأنّه مِن أحكام الوسوسة والجنون، وعلى ذلك بنَوا استفهامهم وقالوا بطريق الاستهزاء: أصلاتُك التي هي مِن نتائج الوسوسة وأفاعيلِ المجانين تأمُركَ بأن نترُك عبادة الأوثان التي توارَثْناها أبًا عن جدّ؟

---

[١] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٣٠٩.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ٢٣٨.

وإنّما جعلوه عليه السلام مأمورًا مع أنّ الصادر عنه إنّما هو الأمر بعبادة الله تعالى وغيرُ ذلك مِن الشرائع، لأنّه عليه السلام لم يكن يأمرهم بذلك مِن تلقاء نفسه؛ بل مِن جهة الوحي، وأنّه كان يُعلِمهم بأنّه مأمور بتبليغه إليهم. وتخصيصُهم بإسناد الأمر إلى الصلاة / مِن بين سائر أحكام النبوّة لأنّه عليه السلام كان كثير [١٦١ظ] الصلاة معروفًا بذلك، وكانوا إذا رأوه يصلّي يتغامزون ويتضاحكون، فكان هي مِن بين سائر شعائر الدِّين ضُحْكةً لهم. وقُرئ: "أَصَلَوَاتُكَ".[١]

﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْ﴾ جواب عن أمره عليه السلام[٢] بإيفاء الحقوق ونهيِه عن البَخْس والنقصِ معطوفٌ على ﴿مَا﴾، أي: أو أن نتركَ أن نفعل في أموالنا ما نشاء مِن الأخذ والإعطاءِ والزيادة والنقص، وقُرئ بالتاء في الفعلين[٣] عطفًا على مفعول ﴿تَأْمُرُكَ﴾، أي: أصلاتُك تأمرك أن تفعل أنت في أموالنا ما تشاء؟ وتجويزُ العطف على ﴿مَا﴾ على ما قيل[٤] يستدعي أن يُراد بالترك معنيان متخالفان.[٥]

والمراد بفعله عليه السلام إيجابُ الإيفاء والعدلِ في معاملاتهم، لا نفسُ الإيفاء، فإنّ ذلك ليس مِن أفعاله عليه السلام؛ بل مِن أفعالهم. وإنّما لم يقُل عطفًا على ﴿أَن نَّتْرُكَ﴾؛ لأنّ الترك ليس مأمورًا به على الحقيقة، بل المأمورُ به تكليفه عليه السلام إيّاهم وأمرُه بذلك، والمعنى: أصلاتُك تأمرُك أن تُكلِّفَنا أن نترك ما يعبد آباؤنا. وحملُه على معنى: أصلاتُك تأمرك بما ليس في وُسعك وعُهدتك مِن أفاعيل غيرِك؟ ليكون ذلك تعريضًا منهم بركاكة رأيه عليه السلام واستهزاءً به مِن تلك الجهة، يأباه دخول الهمزة على الصلاة دون الأمر، ويستدعي أن يصدُر عنه عليه السلام في أثناء الدعوة ما يدلّ على ذلك أو يُوهِمه، وأنّى ذلك؟ فتأمّل.

---

١ قرأ بذلك نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر عنه وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٠.

٢ س – عليه السلام.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ وابن أبي عبلة والوليد بن مسلم. **المغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ٩٩٩.

٤ وفي هامش م: قاله صاحب اللباب. | انظر: اللباب لابن أبي عادل، ١٠/٥٤٦.

٥ وفي هامش م: الرفض في الأوّل والترك على حاله في الثاني. «منه».

وقُرئ بالنون في الأوّل والتاء في الثاني[١] عطفًا على ﴿أَن نَّتْرُكَ﴾، أي: أو أن نفعل نحن في أموالنا عند المعاملة ما تشاء أنت مِن التسوية والإيفاء.

/ ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ وصفوه عليه السلام بالوصفَين على طريقة التهكُّم، وإنّما أرادوا بذلك وصفه بضدّيهما كقول الخزَنة: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان، ٤٤/٤٩]، ويجوز أن يكون تعليلًا لِما سبق مِن استبعاد ما ذكروه على معنى: إنّك لأنت الحليم الرشيد على زعمك، وأمّا وصفه بهما على الحقيقة فيأباه مقامُ الاستهزاء، اللّٰهمّ إلّا أن يُراد بالصلاة الدِّين كما قيل. [١٦٢و]

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ أي: حجّةٍ واضحة وبرهان نيّر، عُبّر بهما عمّا آتاه الله تعالى مِن النبوّة والحكمة ردًّا على مقالتهم الشنعاء في جَعْلهم أمرَه ونهيَه غيرَ مستنِد إلى سَند. ﴿مِّن رَّبِّي﴾ ومالكِ أموري. وإيرادُ حرف الشرط مع جزمه عليه السلام بكونه على ما هو عليه مِن البيّنات والحُجج لاعتبار حال المخاطَبين ومراعاةِ حُسن المحاورة معهم، كما ذكرناه في نظائره.

﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ﴾ أي مِن لدنه ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ هو النبوّة والحِكمة أيضًا، عُبّر عنهما بذلك تنبيهًا على أنّهما مع كونهما بيّنة رِزق حسَن، كيف لا، وذلك مناط الحياة الأبديّة له ولأمّته. وجواب الشرط محذوف يدلّ عليه فحوى الكلام، أي: أتقولون في شأني ما تقولون؟

والمعنى: إنكم نظمتُموني في سِلك السُّفهاء الغُواة وعدَدتُم ما صدر عنّي مِن الأوامر والنواهي مِن قبيل ما لا يصِحّ أن يتفوّه به عاقل، وجعلتموه مِن أحكام الوسوسة والجنون، واستهزأتُم بي وبأفعالي حتّى قلتُم إنّ ما أمرتُكم به مِن التوحيد وتركِ عبادة الأصنام والاجتناب عن البَخْس والتطفيف ليس ممّا يأمُر به

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس والسُّلمي والضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٨.

[١٦٢ظ] آمرُ العقل ويقضي به قاضيُ الفِطنة، / وإنّما تأمُر به صلاتك التي هي مِن أحكام الوسوسة والجنون، فأخبِروني إن كنتُ مِن جهة ربّي ومالك أموري ثابتًا على النبوّة والحِكمة التي ليس وراءها غاية للكمال ولا مطمَح لطامح ورزقني بذلك رِزقًا حسنًا: أتقولون في شأني وشأن أفعالي ما تقولون ممّا لا خيرَ فيه ولا شرَّ وراءه؟ هذا هو الجواب الذي يستدعيه السِّباق ويساعده النظم الكريم.

وأمّا ما قيل مِن أن المحذوفَ: أيصِحّ لي ألّا آمُرَكم بترك عبادة الأوثان والكفّ عن المعاصي؟ أو هل يسَع لي مع هذا الإنعام الجامع للسعادات الروحانيّة والجسمانيّة أن أخُون في وحيه وأخالفَه في أمره ونهيِه فبمَعزِل مِن ذلك.

وإنّما يُناسب تقديرُه إن حُمِل كلامهم على الحقيقة وأُريدَ بالصلاة الدِّينُ، على معنى: أدينُك يأمرك أن تُكلِّفنا بترك عبادة آلهتنا القديمة وتركِ التصرّفِ المُطلَق في أموالنا وتُخالفَنا في ذلك وتشُقَّ عَصانا؟ وهذا ممّا لا ينبغي أن يصدُر عنك؛ فإنّك أنت المشهور بالحلم الفاضل والرُّشد الكامل فيما بيننا. كما كان قول قوم صالح: ﴿قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآ﴾ [هود، ٦٢/١١] مسرودًا على ذلك النمط فأُجيبوا بما أُجيبوا به، وعلى هذا الوجه يكون المراد بـ"الرزق الحسَن" الحلالَ الذي آتاه الله تعالى، والمعنى حينئذ: أخبروني إن كنتُ نبيًّا مِن عند الله تعالى ورزقني مالًا حلالًا أستغني به عن العالمين: أيصِحّ أن أُخالِف أمره وأوافقَكم فيما تأتون وما تذَرون؟

﴿وَمَآ أُرِيدُ﴾ بنهيي إيّاكم عمّا أنهاكم[١] عنه مِن البَخْس والتطفيف. ﴿أَنۡ
[١٦٣و] أُخَالِفَكُمۡ / إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُ﴾ أي: أقصِدَه بعد ما ولَّيتُم عنه وأَستبِدَّ به دونكم. يقال: "خالفتُ زيدًا إلى كذا" إذا قصدتَه وهو مُوَلٍّ عنه، و"خالفتُه عن كذا" إذا كان الأمر على العكس.[٢]

﴿إِنۡ أُرِيدُ﴾ أي: ما أُريد بما أُباشره مِن الأمر والنهي ﴿إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ﴾ إلّا أن أُصلِحكم بالنصيحة والموعظة ﴿مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ أي: مقدارَ ما استطعتُه مِن الإصلاح.

---

١ س – عمّا أنهاكم.

٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣١١/٢.

والتقييد به للاحتراز عن الاكتفاء بالإصلاح في الجملة، لا عن إرادة ما ليس في وُسعه منه.

﴿وَمَا تَوْفِيقِي﴾ أي: كوني موفَّقًا لتحقيق ما أنتحيه مِن إصلاحكم ﴿إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: بتأييده ومعونتِه؛ بل الإصلاح مِن حيث الخلقُ مُستنِدٌ إليه سبحانه، وإنّما أنا مِن مباديه الظاهرة، قاله عليه السلام تحقيقًا للحقّ وإزاحة لِما عسى يُوهِمه إسنادُ الاستطاعة إليه بإرادته مِن استبداده بذلك.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في ذلك مُعرِضًا عمّا عداه فإنّه القادر على كلّ مقدور، وما عداه عاجز مَحض في حدّ ذاته؛ بل معدوم ساقط عن درجة الاعتبار بمَعزِل مِن مرتبة الاستمداد به والاستظهار. ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: أرجِع فيما أنا بصدَده. ويجوز أن يكون المراد: وما كوني موفَّقًا لإصابة الحقّ والصواب في كلّ ما آتي وأذر إلّا بهدايته ومعونته، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وهو إشارةٌ إلى مَحْض التوحيد الذاتي / والفعلي، ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: عليه أُقبِل بشراشِر نفسي[1] في مجامع أموري. [١٦٣ظ]

وإيثارُ صيغة الاستقبال على الماضي الأنسبِ للتقرّر والتحقّق كما في التوكّل لاستحضار الصورة والدلالةِ على الاستمرار. ولا يخفى ما في جوابه عليه السلام مِن مراعاة لُطف المراجعة ورِفق الاستنزال، والمحافظةِ على قواعد حسن المُجاراة والمحاورة، وتمهيدِ معاقد الحقّ بطلب التوفيق مِن جَناب الله عزّ وجلّ والاستعانةِ به في أموره، وحسمِ أطماع الكفّار وإظهارِ الفراغ عنهم وعدمِ المبالاة بمُعاداتهم، وأمّا تهديدهم بالرجوع إلى الله تعالى للجزاء كما قيل فلا؛ لأنّ الإنابة إنّما هي الرجوع الاختياري بالفعل إلى الله تعالى لا الرجوعُ الاضطراريُّ للجزاء أو ما يعمّه.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ٨٩ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ٩٠﴾

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي لا يَكسِبنكم، مِن "جرَمتُه ذنبًا" مثلُ "كسبتُه مالًا".

---

[1] الشراشر: النفس والمحبّة جميعًا. وقيل: جميع الجسد. وألقى عليه شراشره: وهو أن يُحبّه حتّى يستهلك في حُبّه. والشراشر: الأثقال. انظر: لسان العرب لابن منظور، «شرر».

﴿شِقَاقِيٓ﴾ مُعاداتي، وأصلُهما أنّ أحد المتعادِيَين يكون في عُدوةٍ وشقّ والآخرُ في آخرَ.

﴿أَن يُصِيبَكُم﴾ مفعول ثانٍ لـ﴿يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾، أي: لا يكسِبنّكم معاداتُكم لي أن يُصيبكم ﴿مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ﴾ مِن الغرق ﴿أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ﴾ مِن الريح ﴿أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖ﴾ مِن الصيحة والرجفة.

وقرأ ابن كثير بضمّ الياء[1] مِن "أجرمتُه ذنبًا" إذا جعلتَه جارِمًا له،[2] أي: كاسبًا، وهو منقول مِن "جَرَم" المتعدّي إلى مفعول واحد، / كما نُقِل "أكسَبه المالَ" مِن "كسَب المالَ"، فكما لا فرقَ بين "كسَبتُه مالًا" و"أكسبتُه إيّاه" لا فرقَ بين "جَرَمتُه ذنبًا" و"أجرمتُه إيّاه" في المعنى، إلّا أنّ الأوّل أصحّ وأدوَرُ على ألسنة الفصحاء.[3] [١٦٤و]

وقرأ أبو حَيْوَة: "مثلَ مَا أَصَابَ"[4] بالفتح لإضافته إلى غير متمكّن، كقوله:

لم يَمنَعِ الشُّربَ منها غيرَ أن نطَقتْ حمامةٌ في غُصون ذاتُ أوقالِ[5]

وهذا وإن كان بحسب الظاهر نهيًا للشقاق عن كسب إصابة العذاب لكنّه في الحقيقة نهيٌ للكَفرة عن مشاقّته عليه السلام على ألطَف أسلوب وأبدعِه كما مرّ في سورة المائدة عند قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ﴾ الآية، [المائدة، ٥/٨].

﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ زمانًا أو مكانًا، فإن لم تعتبِروا بمَن قَبلهم مِن الأُمم المعدودة فاعتبِروا بهم، فكأنّه إنّما غُيِّر أسلوب التحذير بهم ولم يُصرِّح

---

[1] لم أجِدها منسوبة إليه فيما وقفتُ عليه مِن كتب القراءة، ولعلّ المُصنِّف تابع في ذلك الزمخشريَّ في **الكشّاف**، ٢/٣١١؛ والبيضاويَّ في **أنوار التنزيل**، ٢/١٤٦. وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والأعمش وابن أبي ليلى. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٣٨؛ **المغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ١٠٠٠.

[2] س: إليه.

[3] انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٣١١.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وابن أبي إسحاق والجَحدري وابن حَيْوَة وابن أبي عبلة والشافعي وابن كثير في رواية وأبي قُرّة عن نافع والقُورُسي عن أبي جعفر. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٦٥؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٣٨؛ **المغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ١٠٠٠.

[5] البيت للكناني في **كتاب سيبويه**، ٢/٣٢٩. ولأبي قيس بن الأسلت في **شرح أبيات مغني اللبيب** للبغدادي، ٣/٣٩٦. وبلا نسبة في **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٣١٢؛ و**أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢/١٤٦، وهو فيها جميعًا شاهد لِما نحن فيه. و"الأوقال" جمع "وَقْل"، وهي: الثمار. انظر: **لسان العرب** لابن منظور، «وقل».

بما أصابهم؛ بل اكتُفيَ بذِكْر قربهم إيذانًا بأنّ ذلك مُغنٍ عن ذِكْره لشُهرة كونه منظومًا في سِمْطِ[1] ما ذُكر مِن دواهي الأُمم المرقومة. أو ليسوا ببعيد منكم في الكفر والمعاصي، فلا يبعُد أن يُصيبَكم مثلُ ما أصابهم، وإفرادُ البعيد مع تذكيره لأنّ المراد: "وما إهلاكُهم" على نيّة المضاف. أو وما هم بشيء بعيد، لأنّ المقصود إفادةُ عدم بُعدِهم على الإطلاق لا مِن حيث خصوصيّةُ كونِهم قومًا. أو ما هم في زمان بعيد أو مكان بعيد، ولا يبعُد أن يكون ذلك لكونه على زِنة المصادر كـ"النهيق" و"الشهيق".

ولمّا أنذَرهم عليه السلام بسوء عاقبة صنيعهم عقّبه طمعًا في ارعوائهم عمّا كانوا فيه يعمهون مِن طغيانهم بالحمل على الاستغفار والتوبة / فقال: [١٦٤ظ]
﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾، مرّ تفسيرُ مِثله في أوّل السورة.[2]

﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ﴾ عظيمُ الرحمة للتائبين ﴿وَدُودٌ﴾ مبالِغٌ في فَعل ما يفعل البليغ المودّةِ بمَن يودّه مِن اللطف والإحسان، وهذا تعليل للأمر بالاستغفار والتوبة وحثّ عليهما.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۝٩١ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ۝٩٢﴾

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ الفِقه: معرفة غرض المتكلِّم مِن كلامه، أي: ما نفهَم مرادك، وإنّما قالوه بعد ما سمعوا منه دلائلَ الحقّ المُبين على أحسن وجه وأبلغِه، وضاقت عليهم الحِيَل، وعيَّتْ بهم العِلَل، فلم يجدوا إلى محاورته سبيلًا سوى الصدود عن منهاج العقل والسلوك إلى سبيل الشقاء، كما هو ديدَن المُفحَم المحجوج يقابل البيّنات بالسبّ والإبراق والإرعاد، فجعلوا كلامه المُشتمِلَ على فنون الحِكَم والمواعظ وأنواعِ العلوم والمعارف

---

[1] السِّمط: خيط النظم مادام فيه الخَرَز، وإلّا فهو سِلك. انظر: لسان العرب لابن منظور، «سمط».

[2] في الآية الثالثة منها.

مِن قبيل ما لا يُفهَم معناه ولا يُدرَك فحواه، وأدمجوا في ضمن ذلك أنّ في تضاعيفه ما يستوجب أقصى ما يكون مِن المؤاخَذة والعقاب، ولعلّ ذلك ما فيه مِن التحذير مِن عواقب الأُمم السالفة، ولذلك قالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا﴾ فيما بيننا ﴿ضَعِيفًا﴾ لا قوّة لك ولا قدرةَ على شيء مِن الضرّ والنفع والإيقاع والدفع.

﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ لولا مراعاةُ جانبهم، لا لولاهم يُمانعوننا ويُدافعوننا
[١٦٥و] ﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾ فإنّ ممانعة الرهط وهو اسم للثلاثة / إلى السبعة أو إلى العشرة لهم، وهم ألوف مؤلَّفة ممّا لا يكاد يُتوهَّم، وقد أُيِّد ذلك بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ مُكرَّم محترَم حتّى نمتنع مِن رجمك، وإنّما نكفّ عنه للمحافظة على حُرمة رهطك الذين ثبتوا على ديننا ولم يختاروك علينا ولم يتَّبعوك دوننا. وإيلاءُ الضمير حرفَ النفي وإن لم يكن الخبرُ فعليًّا غيرُ خالٍ عن الدلالة على رجوع النفي إلى الفاعل دون الفعل لا سيّما مع قرينة قولِه: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾، كأنّه قيل: وما أنت علينا بعزيز؛ بل رهطُك هم الأعزّة علينا.

وحيث كان غرضهم مِن عظيمتهم هذه عائدًا إلى نفي ما فيه عليه السلام مِن القوّة والعِزّة الربّانيّتين حسبما يوجبه كونُه على بيّنة مِن ربّه مُؤيَّدًا مِن عنده وتقتضيه قضيّة طلب التوفيق منه والتوكّلِ عليه والإنابةِ إليه، وإلى إسقاط ذلك كلِّه عن درجة الاعتداد به والاعتبار.

﴿قَالَ﴾ عليه السلام في جوابهم ﴿يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فإنّ الاستهانة بمَن لا يَتعزّز إلّا به عزّ وجلّ استهانةٌ بجَنابه العزيز، وإنّما أنكر عليهم أعزِّيّة رهطِه منه تعالى مع أنّ ما أثبتوه إنّما هو مُطلَق عزّة رهطه لا أعزّيّتهم منه عزّ وجلّ مع الاشتراك في أصل العزّة لتثنية التقريع وتكرير التوبيخ، حيث أنكر عليهم أوّلًا ترجيح جنَبة الرهطِ على جنَبة الله تعالى، وثانيًا بنفي العِزّة بالمرّة، والمعنى: أرهطي أعزّ عليكم مِن الله؟ فإنّه ممّا لا يكاد يصحّ والحال أنّكم لم تجعلوا له تعالى حظًّا مِن العِزّة أصلًا.

[١٦٥ظ] ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ﴾ / بسبب عدم اعتدادكم بمَن لا يَرِد ولا يصدُر إلّا بأمره. ﴿وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أي: شيئًا منبوذًا وراء الظهر مَنسيًّا لا يُبالى به، منسوبٌ إلى الظهر،

والكسر لتغيير النسب كـ"الإمسيّ" في النِّسبة إلى "الأمس".[١]

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مِن الأعمال السيّئة التي مِن جملتها عدم مراعاتِكم لجانبه ﴿مُحِيطٌ﴾ لا يخفى عليه منها خافية، وإن جعلتموه منسيًّا فيُجازيكم عليها. ويحتمل أن يكون الإنكار للردّ والتكذيب، فإنّهم لمّا ادَّعَوا أنّهم لا يكفُّون عن رجمه عليه السلام لقوّته وعزّته؛ بل لمراعاة جانب رهطه ردّ عليهم ذلك بأنكم ما قدَّرتم الله حقَّ قَدْره العزيز، ولم تُراعُوا جَنابه القويَّ، فكيف تُراعون جانب رهطي الأذِلّة؟

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ﴾ لمّا رأى عليه السلام إصرارهم على الكفر وأنّهم لا يَرْعَوون عمّا هم عليه مِن المعاصي حتّى اجترءوا على العظيمة التي هي الاستهانة به والعزيمة على رجمه لولا حُرمة رهطه، قال لهم على طريقة التهديد: اعملوا ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: على غاية تمكّنِكم واستطاعتكم، يقال: "مَكُن مَكانةً" إذا تمكّن أبلغَ التمكّن.[٢] وإنّما قاله عليه السلام ردًّا لِما ادَّعَوا أنّهم أقوياء قادرون على رَجمه وأنّه ضعيفٌ فيما بينهم لا عِزّةَ له، أو على ناحيتكم وجِهَتكم التي أنتم عليها مِن قولهم: "مكان" و"مَكانة" كـ"مَقام" و"مَقامة"، والمعنى: اثبُتوا على ما أنتم عليه مِن الكفر والمُشاقّة لي وسائرِ ما أنتم عليه ممّا لا خيرَ فيه، وابذُلوا جُهدكم في مضارّتي / وإيقاعي ما في نيّتكم وإخراج ما في أمنيّتكم مِن القوّة إلى الفعل. [١٦٦و]

﴿إِنِّي عَٰمِلٌ﴾ على مكانتي حسبما يُؤيّدني الله ويُوفّقني بأنواع التأييد والتوفيق. ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ لمّا هدّدهم عليه السلام بقوله: ﴿ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ﴾ كان مَظِنّةَ أن يسأل منهم سائل فيقول: فماذا يكون بعد ذلك؟ فقيل: سوف تعلمون.

---

١ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٣١٣.

٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٣١٣.

﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ وُصِف العذاب بالإخزاء تعريضًا بما أوعدوه عليه السلام به مِن الرجم، فإنّه مع كونه عذابًا فيه خِزي ظاهر، حيث لا يكون إلّا بجِناية عظيمة تُوجِبه.

﴿وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ عطفٌ على ﴿مَن يَأْتِيهِ﴾ لا على أنّه قسيمه؛ بل حيث أوعدوه بالرجم وكذبوه قيل: سوف تعلمون مَن المُعذِّبُ والكاذب. وفيه تعريض بكذبهم في ادّعائهم القوّةَ والقُدرةَ على رجمه عليه السلام، وفي نسبته إلى الضعف والهوان، وفي ادّعائهم الإبقاءَ عليه لرعاية جانب الرهط. والاختلاف بين المعطوفَين بالفعليّة والاسميّة لأنّ كَذِب الكاذب ليس بمُرتقَب كإتيان العذاب؛ بل إنّما المُرتقَب ظهور الكذب السابق المُستمرّ. و﴿مَن﴾ إمّا استفهاميّة معلّقة للعِلم عن العمل، كأنّه قيل: سوف تعلمون أيُّنا يأتيه عذابٌ يُخزيه وأيُّنا كاذبٌ؛ وإمّا موصولة، أي: سوف تعرِفون الذي يأتيه عذاب والذي هو كاذب.

﴿وَٱرْتَقِبُوٓاْ﴾ وانتظروا مآلَ ما أقول ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ منتظِر، "فعيل" بمعنى: [١٦٦ظ] "الراقب" / كـ"الصريم"،[١] أو "المُراقِب" كـ"العشير"،[٢] أو "المُرتقِب" كـ"الرفيع".[٣] وفي زيادة ﴿مَعَكُمْ﴾ إظهار منه عليه السلام لكمال الوثوق بأمره.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٩٤﴾

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي: عذابُنا، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾،[٤] أو وقتُه، فإنّ الارتقاب مؤذِن بذلك.

﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ وهي[٥] الإيمان الذي وفّقناهم له، أو بمَرحمة كائنةٍ منّا لهم، وإنّما ذُكر بالواو كما في قصّة عاد[٦] لِما أنّه لم يسبِقه فيها ذِكر وعدٍ يجري مَجرى السبب المقتضي لدخول الفاء في معلوله، كما في قصّتَي

---

[١] بمعنى: الصارم. الكشّاف للزمخشري، ٢/٣١٣.
[٢] بمعنى: المُعاشِر.
[٣] بمعنى: المُرتفِع. الكشّاف للزمخشري، ٢/٣١٣.
[٤] في الآية السابقة.
[٥] وفي هامش م: بالنسبة إلى شعيب النبوّة وبالنسبة إلى المؤمنين الإيمان. «منه».
[٦] وفي هامش م: هود.

صالح ولوط. فإنّه قد سبق هنالك سابقة الوعد بقوله: ﴿ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾ [هود، ٦٥/١١]، وقوله: ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُ﴾ [هود، ٨١/١١].

﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ عُدل إليه عن الضمير تسجيلًا عليهم بالظلم وإشعارًا بأنّ ما أخذهم إنّما أخذهم بسبب ظلمِهم الذي فُصِّل فيما سبق فنونُه. ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾ قيل: صاح بهم جبريلُ عليه السلام فهلَكوا،[1] وفي سورة الأعراف ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ [الأعراف، ٧٨/٧]، وفي سورة العنكبوت ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ [العنكبوت، ٣٧/٢٩] أي: الزلزلة، ولعلّها مِن روادف الصيحة المستتبِعة لتموُّج الهواء المُفضي إليها، كما مرّ فيما قبل.

﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ ميّتين لازمين لأماكنهم لا بَراحَ لهم منها، ولمّا لم يُجعل متعلَّقُ العِلم في قوله تعالى: ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ﴾...[2] إلخ، نفسَ مجيءِ العذاب؛ بل مَن يجيئه ذلك[3] جُعل مجيئه بعد ذلك أمرًا مُسلَّمَ الوقوع غنيًّا عن الإخبار به، حيث جُعل شرطًا / وجُعل تنجية شعيب عليه السلام وإهلاكُ الكفرة [١٦٧و] جوابًا له ومقصودَ الإفادة. وإنّما قُدّم تنجيتُه اهتمامًا بشأنها وإيذانًا بسبق الرحمةِ التي هي مقتضى الربوبيّة على الغضب الذي يظهر أثرُه بموجب جرائرهم وجرائمهم.

﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ٩٥﴾

﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ﴾ أي: لم يقيموا ﴿فِيهَآ﴾ متصرّفين في أطرافها متقلّبين في أكنافها.

﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾ العدول عن الإضمار إلى الإظهار ليكون أدلَّ على طغيانهم الذي أدّاهم إلى هذه المرتبة، وليكون أنسبَ بمَن شُبّه هلاكُهم بهلاكهم، أعني: ثمودَ، وإنما شُبّه هلاكُهم بهلاكهم لأنّهما أُهلكتا بنوع مِن العذاب وهو الصيحة، غير أنّ هؤلاء صِيح بهم مِن فوقهم وأولئك مِن تحتهم. وقُرئ: "بَعُدَتْ" بالضمّ على الأصل، فإنّ الكسر تغيير لتخصيص معنى البُعد بما يكون بسبب الهلاك، والبُعدُ مصدر لهما والبَعدُ مصدر للمكسور.

---

١ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ١٩٧/٤.

٢ في الآية السابقة.

٣ وفي هامش م: أي: العذاب المذكور. «منه».

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ۝٩٦ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۝٩٧﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ وهي الآيات التسع المفصّلات التي هي: العصا، واليد البيضاء، والطوفان، والجراد، والقُمّل، والضفادع، والدم، ونقص الثمراتِ والأنفسِ،[1] ومنهم مَن جعلهما آية واحدة وعدّ منها إظلالَ الجبل.[2] وليس كذلك، فإنّه لقَبول أحكام التوراة حين أباه بنو إسرائيلَ. و"الباء" متعلقةٌ بمحذوف وقع حالًا مِن مفعول ﴿أَرْسَلْنَا﴾، أو نعتًا لمصدره المُؤكَّد، أي: أرسلناه حال كونه ملتبسًا بآياتنا، أو أرسلناه إرسالًا ملتبِسًا بها. ﴿وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ هو المعجزات الباهرة منها، أو هو العصا.

والإفراد بالذِّكر لإظهار شرفِها لكونها أبهرَها، أو المرادُ بـ"الآيات" ما عداها، أو هما عبارتان عن شيء واحد، أي: أرسلناه بالجامع بين كونه آياتِنا وبين كونه سلطانًا له على نبوّته واضحًا في نفسه أو موضِحًا / إيّاها، مِن "أبان" لازمًا ومتعدِّيًا، أو هو الغلَبة والاستيلاء، كقوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا﴾ [القصص، ٣٥/٢٨]. ويجوز أن يكون المراد ما بيَّنه عليه السلام في تضاعيف دعوته حين قال له فرعونُ: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ [طه، ٤٩/٢٠]، ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه، ٥١/٢٠] مِن الحقائق الرائقة والدقائقِ اللائقة. [١٦٧ظ]

وجعلُه عبارةً عن التوراة أو إدراجُها في جملة الآيات يردّه قولُه عزّ وجلّ: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾، فإنّ نزولها إنّما كان بعد مهلِك فرعونَ وقومه قاطبةً ليعمل بها بنو إسرائيلَ فيما يأتون وما يذرون، وأمّا فرعونُ وقومه فإنّما كانوا مأمورين بعبادة ربّ العالمين عزّ سلطانُه وتركِ العظيمة[3] الشنعاء التي كان يدّعيها الطاغيةُ وتقبلها منه فئتُه الباغية، وبإرسال بني إسرائيلَ مِن الأسر والقسر.

---

[1] وفي هامش م: هكذا ذكره صاحب اللباب. والصحيح ما ذُكِر في "الأعراف" مِن السنين [الأعراف، ١٣٠/٧]. ولعلّه أدرج في نقص الثمرات نقص الحبوب، وأراد بنقص الأنفس الطاعون. «منه». | انظر: اللباب لابن عادل، ٥٥٧/١٠.

[2] نقله ابن عادل في اللباب، ٥٥٧/١٠.

[3] وفي هامش م: أي: قول اللّعين: أنا ربّكم الأعلى. «منه».

وتخصيص ملئِه بالذِّكر مع عموم رسالته عليه السلام لقومه كافّة لأصالتهم في الرأي وتدبير الأمور واتّباع غيرهم لهم في الورود والصدور، وإنّما لم يُصرِّح بكفر فرعونَ بآيات الله تعالى وانهماكه فيما كان عليه مِن الضلال والإضلال؛ بل اقتُصر على ذِكر شأن ملئِه، فقيل: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَ﴾ أي: أمرَه بالكفر بما جاء به موسى عليه السلام مِن الحقّ المُبين للإيذان بوضوح حالِه، فكأنّ كفره وأمْرَ ملئِه بذلك أمرٌ مُحقَّقُ الوجود غيرُ محتاج إلى الذِّكر صريحًا، وإنّما المحتاج إلى ذلك شأن ملئِه المتردِّدين بين هادٍ إلى الحقّ وداعٍ إلى الضلال، فنعى عليهم / سوءَ اختيارهم. [١٦٨و]

وإيرادُ الفاء في اتّباعهم المترتِّب على أَمْر فرعونَ المَبنيّ على كفره المسبوق بتبليغ الرسالة للإشعار بمفاجأتهم في الاتّباع ومسارعةِ فرعونَ إلى الكفر وأمرِهم به، فكأنّ ذلك كلّه لم يتراخَ عن الإرسال والتبليغ؛ بل وقع جميع ذلك في وقت واحد فوقع إثرَ ذلك اتّباعُهم.

ويجوز أن يُراد بـ﴿أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَ﴾: شأنُه المشهور وطريقتُه الزائغة، فيكون معنى ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ﴾: فاستمرّوا على الاتّباع، و"الفاء" مثل ما في قولك: "وعظتُه فلم يتّعظ وصِحتُ به فلم ينزجِر"، فإنّ الإتيان بالشيء بعد ورود ما يُوجِب الإقلاع عنه وإن كان استمرارًا عليه لكنّه بحسب العنوان فِعل جديد وصُنْع حادث، فتأمَّل.

وتركُ الإضمار لدفع توهّم الرجوع إلى موسى عليه السلام مِن أوّل الأمر ولزيادة تقبيح حال المتّبِعين، فإنّ فرعونَ عَلَم في الفساد والإفساد والضلال والإضلال فاتّباعُه لفَرْط الجهالة وعدمِ الاستبصار، وكذا الحالُ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾ الرُّشدُ: ضدّ الغيّ، وقد يراد به محموديّة العاقبة، فهو على الأوّل بمعنى المُرشِد أو ذي الرَّشَد حقيقةٌ لغويّةٌ والإسنادُ مجازي، وعلى الثاني مجازٌ والإسنادُ حقيقي.

﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ٩٨﴾

﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ﴾ جميعًا مِن الأشراف وغيرهم ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي: يتقدّمهم، مِن قَدَمَه بمعنى تقدّمه، وهو استئناف لبيان حالِه في الآخرة، أي: كما كان قدوةً لهم

[١٦٨ظ] في الضلال كذلك يتقدَّمهم إلى النار وهم يتّبعونه، أو لتوضيح عدم / صلاح مآلِ أمره وسوءِ عاقبته.

﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ أي: يُورِدُهم. وإيثارُ صيغة الماضي للدلالة على تحقّق الوقوع لا محالةَ، شُبّه فرعونُ بالفارط الذي يتقدّم الواردة إلى الماء، وأتباعُه بالواردة، والنارُ بالماء الذي يَرِدُونه، ثمّ قيل: ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ أي: بئس الوِردُ الذي يرِدونه النارُ، لأنّ الوِرد إنّما يُراد لتسكين العطش وتبريدِ الأكباد والنارُ على ضدّ ذلك.

﴿وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ۝٩٩﴾

﴿وَأُتْبِعُواْ﴾ أي: الملأ الذين اتّبعوا أمرَ فرعونَ ﴿فِى هَٰذِهِۦ﴾ أي: في الدنيا ﴿لَعْنَةً﴾ عظيمةً حيث يلعنهم مَن بعدهم مِن الأمم إلى يوم القيامة.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أيضًا حيث يلعنهم أهل الموقف قاطبة، فهي تابعة لهم حيثما ساروا دائرةً معهم أينما داروا في الموقف، فكما اتّبعوا فرعونَ اتّبعتهم اللعنة في الدارين جزاء وفاقًا، واكتُفيَ ببيان حالهم الفظيع وشأنهم الشنيع عن بيان حال فرعونَ، إذ حين كان حالُهم هكذا فما ظنُّك بحال مَن أغواهم وألقاهم في هذا الضلال البعيد، وحيث كان شأن الأتباع أن يكونوا أعوانًا للمتبوع جُعلت اللعنة رِفدًا لهم على طريقة التهكّم فقيل: ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ أي: بئس العون المُعان.

وقد فُسّر الرِّفد بالعطاء،[١] ولا يلائمه المقام. وأصلُه ما يضاف إلى غيره ليَعمِده. والمخصوص بالذمّ محذوف، أي: رفدُهم، وهي اللعنة في الدارين، وكونُه مرفودًا مِن حيث أنّ كلّ لعنة منها مُعِينة ومُمِدّة لصاحبتها ومؤيِّدة لها.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ۝١٠٠﴾

[١٦٩و] ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما قُصّ مِن أنباء الأُممِ، وبُعده باعتبار تقضّيه / في الذِّكر. والخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وهو مبتدأ، خبرُه ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ﴾ المُهلَكة بما جنَته أيدي أهلها.

---

[١] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣١٣/٢.

﴿نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَ﴾ خبرٌ بعد خبر، أي: ذلك النبأ بعض أنباء القرى مقصوص عليك ﴿مِنۡهَا﴾ أي: مِن تلك القرى ﴿قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ﴾ أي: ومنها حصيد، حُذف لدلالة الأوّل عليه، شُبِّه ما بقيَ منها بالزرع القائم على ساقه وما عفا وبطَل بالحصيد، والجملة مستأنَفة لا محلّ لها مِن الإعراب.

﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ﴿١٠١﴾﴾

﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾ بأن أهلكناهم ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بأن جعلوها عُرضةً للهلاك باقتراف ما يُوجبه، ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ﴾ فما نفعتهم ولا دفعت بأسَ الله تعالى عنهم ﴿ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ﴾ أي: يعبدونها ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أُوثر صيغة المضارع حكايةً للحال الماضية، أو دلالة على استمرار عبادتِهم لها.

﴿مِن شَيۡءٖ﴾ في موضع المصدر، أي: شيئًا مِن الإغناء ﴿لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَ﴾ أي: حين مجيء عذابه، وهو منصوب بـ﴿أَغۡنَتۡ﴾، وقُرئ: "آلهَتُهُم اللَّاتي"،[1] و"يُدْعَونَ"[2] على البناء للمجهول.

﴿وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾ أي: إهلاك وتخسير، فإنّهم إنّما هلَكوا وخسِروا بسبب عبادتهم لها.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثلَ ذلك الأخذ الذي مرّ بيانه، وهو رفع على الابتداء، وخبرُه قوله: ﴿أَخۡذُ رَبِّكَ﴾. وقُرئ: "أَخَذَ رَبُّكَ"،[3] فمحلُّ الكاف النصب على أنّه مصدر مؤكِّد.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أصحاب ابن مسعود والأعمش وابن مِقسَم والحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٨؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٠٠١.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أصحاب ابن مسعود والأعمش والزعفراني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٨؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٠٠١.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة والجَحدري والجريري عن يعقوبَ وعصمة واللؤلئي عن أبي عمرو. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٠٠١.

﴿إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: أهلَها، وإنّما أُسنِد إليها للإشعار بسَريان أثره إليها حسبما ذُكر، وقُرئ: / "إذ[1] أَخَذَ".[2] ﴿وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ حال مِن ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾، وهي في [١٦٩ظ]
الحقيقة لأهلها، لكنّها لمّا أُقيمت مُقامهم في الأخذ أُجريت الحال عليها، وفائدتُها الإشعار بأنّهم إنّما أُخذوا بظلمهم ليكون ذلك عبرةً لكلّ ظالم.

﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ وجيع صعب على المأخوذ لا يُرجى منه الخلاص. وفيه ما لا يخفى مِن التهديد والتحذير.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: في أَخْذه تعالى للأمم المُهلَكة أو في قصصهم ﴿لَءَايَةً﴾ لعِبرةً ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾، فإنّه المُعتبَر به حيث يُستدلّ بما حاق بهم مِن العذاب الشديد بسبب ما عملوا مِن السيّئات على أحوال عذاب الآخرة، وأمّا مَن أنكر الآخرة وأحال فناء العالم وزعم أن ليس هو ولا شيء مِن أحواله مستندًا إلى الفاعل المختار، وأنّ ما يقع فيه مِن الحوادث فإنّما يقع لأسباب تقتضيه مِن أوضاع فلكيّة تتّفق في بعض الأوقات، لا لِما ذُكر مِن المعاصي التي يقترفها الأُمم الهالكة، فهو بمَعزِل[3] مِن هذا الاعتبارِ، تبًّا لهم ولِما لهم مِن الأفكار.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى يوم القيامة المدلولِ عليه بذِكر الآخرة. ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ أي: يُجمَع له الناس للمحاسبة والجزاء، والتغييرُ للدلالة على ثبات معنى الجَمْع وتحقُّق وقوعه لا محالةَ وعدم انفكاك الناس عنه، فهو أبلغ مِن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ [التغابن، ٩/٦٤].

﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي: يومُ القيامة مع ملاحظة عنوان جَمْع الناس له ﴿يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾
[١٧٠و] / أي: مشهود فيه حيث يشهد فيه أهل السماوات والأرَضِين، فاتُّسع فيه بإجراء

---

[1] ط س: إذا. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة والجَحدري والجريري عن يعقوبَ وعصمة واللؤلئي عن أبي عمرو. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٠٠١.

[3] السياق: وأمّا مَن أنكر... فهو بمَعزِل...

الظرف مُجرى المفعول به، كما في قوله:

في مَحفَل مِن نواصي الناس مشهودِ[١]

أي: كثيرٌ شاهِدوه، ولو جُعل نفس اليوم مشهودًا لَفات ما هو الغرض مِن تعظيم اليوم وتهويله وتمييزه عن غيره، فإنّ سائر الأيّام أيضًا كذلك.

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعۡدُودٍ ١٠٤﴾

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ أي: ذلك اليومَ الملحوظ بعنوانَي الجَمْع والشهود. ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعۡدُودٍ﴾ إلّا لانقضاء مدّة قليلة مضروبة حسبما يقتضيه الحكمة.

﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ١٠٥﴾

﴿يَوۡمَ يَأۡتِ﴾ أي: حين يأتي ذلك اليوم المؤخَّر بانقضاء أجله، كقوله تعالى: ﴿أَوۡ[٢] تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ [يوسف، ١٢/١٠٧]. وقيل: يومَ يأتي الجزاء الواقع فيه. وقيل: أي: الله عزّ وجلّ،[٣] فإنّ المقام مقامُ تفخيمِ شأنِ اليوم. وقُرئ بإثبات الياء على الأصل.[٤]

﴿لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ﴾ أي: لا تتكلَّم بما ينفع وينجّي مِن جواب أو شفاعة، وهو العامل في الظرف، أو الانتهاءُ المحذوف في قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعۡدُودٍ﴾،[٥] أي: ينتهي الأجل يومَ يأتي أو المضمَر المعهود، أعني: "اذكر".

﴿إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ عزّ سلطانه في التكلّم، كقوله تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [النبأ، ٧٨/٣٨]. وهذا في موطن مِن مواطن ذلك اليوم، وقوله عزّ وجلّ: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ۞ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ﴾ [المرسلات، ٧٧/٣٥-٣٦] في موقف آخرَ مِن مواقفه، كما أنّ قوله سبحانه: ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾ [النحل، ١٦/١١١] في آخرَ منها. والمأذون فيه / الجوابات الحقّة، [١٧٠ظ]

١ عجز بيت، صدره:

ومَشهَد قد كفيتُ الغائبين بهِ

وهو بلا نسبة في الفائق للزمخشري، ٣/٤٣٤؛ وعجزه بلا نسبة في الكشّاف ١/٣١٦، وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٤٩.

٢ م س: أن.

٣ القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٥٠.

٤ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/١٨٢.

٥ في الآية السابقة.

والممنوع عنه الأعذار الباطلة، نعم قد يُؤذَن فيها أيضًا لإظهار بطلانها كما في قول الكفَرة: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام، ٦/٢٣] ونظائرِه.

﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ﴾ وجبت له النارُ بموجَب الوعيد، ﴿وَسَعِيدٌ﴾ أي: ومنهم سعيدٌ، حُذف الخبر لدلالة الأوّل عليه، وهو مَن وجبت له الجنّة بمقتضى الوعد، والضميرُ لأهل الموقف المدلول عليهم بقوله: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾ أو للناس، وتقديمُ الشقي على السعيد لأنّ المقام مقام التحذير والإنذار.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ١٠٦﴾

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟﴾ أي: سبَقَت لهم الشقاوة ﴿فَفِى ٱلنَّارِ﴾ أي: مستقرّون فيها ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ الزفير: إخراجُ النفَسِ، والشهيق: ردُّه، واستعمالُهما في أوّل النهيق وآخرِه، قال الشمّاخ يصف حمارَ الوحش:

بعيدُ مَدى التطريبِ[١] أوّلُ صوتِه زفيرٌ ويتلوه شهيقٌ مُحَشرَجِ[٢]

والمراد بهما وصفُ شدّة كربهم وتشبيهُ حالهم بحال مَن استولت على قلبه الحرارة وانحصر فيه روحُه، أو تشبيهُ صراخهم بأصوات الحمير. وقُرئ: "شُقُوا"[٣] بالضمّ.[٤] والجملة مستأنَفة، كأنّ سائلًا قال: ما شأنُهم فيها؟ فقيل: لهم فيها كذا وكذا، أو منصوبةُ المحلّ على الحاليّة مِن ﴿ٱلنَّارِ﴾، أو مِن الضمير في الجارّ والمجرور، كقوله عزّ اسمه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ خلا أنّه إن أريدَ حدوث كونهم في النار فالحال مقدَّرة.

---

١ وفي هامش م: التطريب في الصوت: مدُّه وتحسينه. ص [اختصارًا مِن "الصحاح"]. | انظر: **الصحاح** للجوهري، «طرب».

٢ وفي هامش م: حشرجة الحمار: صوتُه يردّده في حلقه. ص [اختصارًا مِن "الصحاح"]. | انظر: **الصحاح** للجوهري، «حشرج». والبيت في ديوان الشمّاخ بن ضِرار، ص ٨٨، والرِّواية فيه:
بعيد مدى التطريب أُولى نُهاقِه
سحيلٌ وأُخراه خَفيٌّ المُحشرَجِ
وهو بروايته ههنا في **الكشّاف** للزمخشري، ٣١٧/٢؛ و**اللباب** لابن عادل، ٥٦٦/١٠، وجاء الرَّويُّ مرفوعًا في مطبوعهما، والصواب الكسر.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعمش وطلحة وأبي حَيْوَة. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٦٥؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٣٩.

٤ وفي هامش م: شقاه الله وأشقاه. **قاموس**. | انظر: **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، «شقي».

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾

﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي: مدّةَ دوامِهما، وهذا التوقيت عبارة عن التأبيد ونفي الانقطاع بتًّا / على منهاج قولِ العرب: "ما دام تِعارٌ"،[١] و"ما أقامَ ثَبيرٌ"،[٢] و"ما لاح كوكب"، و"ما اختلف الليل والنهار"، و"ما طما[٣] البحرُ"، وغيرِ ذلك مِن كلمات التأبيد،[٤] لا تعليقِ قرارهم فيها[٥] بدوام هذه السماوات والأرض، فإنّ النصوص القاطعة دالّة على تأبيد قرارهم فيها وانقطاع دوامهما، وإن أُريدَ التعليق فالمراد سماوات الآخرة وأرضها، كما تدلّ على ذلك النصوصُ، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم، ٤٨/١٤]، وقولِه تعالى: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر، ٧٤/٣٩]، وجَزْمُ كلّ أحد بأنّ أهل الآخرةِ لا بدّ لهم مِن مُظِلّة ومُقِلّة دائمتين يكفي في تعليق دوام قرارهم فيها بدوامهما، ولا حاجةَ إلى الوقوف على تفاصيل أحوالهما وكيفيّاتهما. [١٧١و]

﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ استثناء مِن الخلود على طريقة قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان، ٥٦/٤٤]، وقولِه: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء، ٢٢/٤]، وقولِه: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف، ٤٠/٧] غيرَ أنّ استحالة الأمور المذكورة معلومةٌ بحكم العقل، واستحالةَ تعلّق المشيئةِ بعدم الخلودِ معلومةٌ بحكم النقل، يعني أنّهم مستقرّون في النار في جميع الأزمنة إلّا في زمان مشيئة الله تعالى لعدم قرارهم فيها.

وإذ لا إمكانَ لتلك المشيئة ولا لزمانها بحكم النصوص القاطعة الموجبة للخلود فلا إمكانَ لانتهاء مدّة قرارهم فيها ولدفع ما عسى يُتوّهم مِن كون استحالة تعلُّق مشيئة الله تعالى بعدم الخلود / بطريق الوجوبِ على الله تعالى، [١٧١ظ] قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ يعني أنّه في تخليد الأشقياء في النار بحيث يستحيل وقوع خلافه فعّالٌ بموجَب إرادته، قاضٍ بمقتضى مشيئتِه الجارية

---

[١] تِعارٌ: جبل في بلاد قيس. انظر: معجم البلدان للحموي، ٣٣/٢.

[٢] ثَبير: جبل مِن جبال مكّة بينها وبين عرفة، ويُطلق على غيره. انظر: معجم البلدان للحموي، ٧٢/٢.

[٣] طما الماء: علا وغمر، وطما البحر: ارتفع موجه. انظر: لسان العرب لابن منظور، «طما».

[٤] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣١٧/٢.

[٥] السياق: عبارة عن التأبيد... لا تعليق قرارهم...

على سَنن حكمته الداعية إلى ترتيب الأجزيةِ على أفعال العباد. والعدولُ مِن الإضمار إلى الإظهار لتربية المَهابة وزيادةِ التقرير.

وقيل: هو استثناء مِن الخلود في عذاب النار، فإنّهم لا يخلّدون فيه؛ بل يُعذَّبون بالزَّمْهَرير وبأنواع أُخرَ مِن العذاب، وبما هو أغلظُ منها كلِّها وهو سخط الله تعالى عليهم وخَسْؤه لهم وإهانتُه إيّاهم.[١] وأنت تدري أنّا وإن سلّمنا أنّ المراد بالنار ليس مطلقَ دار العذاب المشتملةِ على أنواع العذاب؛ بل نفسَ النار فما خلا عذابَ الزَّمْهَرير مِن تلك الأنواع مقارِن لعذاب النار فلا مِصداقَ في ذلك للاستثناء.

ولك أن تقول إنّهم ليسوا بمخلَّدين في العذاب الجسماني الذي هو عذاب النار؛ بل لهم مِن أفانين العذاب ما لا يعلمه إلّا الله سبحانه، وهي العقوبات والآلام الروحانيّة التي لا يقف عليها في هذه الحياة الدنيا المنغمِسون في أحكام الطبيعةِ المقصورُ إدراكُهم على ما أَلِفوا مِن الأحوال الجسمانيّة، وليس لهم استعدادٌ لتلقّي ما وراء ذلك مِن الأحوال الروحانيّة إذا أُلقيَ إليهم، ولذلك لم يُتعرَّض لبيانه واكتُفي بهذه المرتبة الإجماليّة المنبئة عن التهويل، وهذه العقوبات / وإن كانت تعتريهم وهم في النار لكنّهم ينسَون بها عذاب النار ولا [١٧٢و]
يُحِسُّون بها، وهذه المرتبة كافية في تحقيق معنى الاستثناء هذا.

وقد قيل: إلّا بمعنى "سوى"، وهو أوفَق بما ذُكر.[٢] وقيل: ﴿مَا﴾ بمعنى "مَن"، على إرادة معنى الوصفيّة، فالمعنى: إنّ الذين شَقُوا في النار مقدِّرين الخلود فيها إلّا الذين شاء الله عدم خلودهم فيها وهم عُصاة المؤمنين.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝١٠٨﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ الكلام فيه كالكلام فيما سبق، خلا أنّه لم يُذكَر ههنا أنّ لهم فيها بهجةً وسرورًا كما ذُكر في أهل النار مِن أنّه لهم فيها زفيرٌ وشهيق، لأنّ المقام مقام التحذير والإنذار.

---

[١] كما في **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٣١٧.

[٢] القول في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢/١٥١.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ إن حُمل على طريقة التعليق بالمُحال فقوله سبحانه: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ نَصْب على المصدريّة مِن معنى الجملة، لأنّ قوله: ﴿فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ يقتضي إعطاءً وإنعامًا، فكأنّه قيل: يُعطيهم عطاءً. وهو إمّا اسم مصدر هو الإعطاء، أو مصدرٌ بحذف الزوائد كقوله تعالى: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح، ١٧/٧١].[١]

وإن حُمل على ما أعدّ الله تعالى لعباده الصالحين مِن النعيم الروحاني الذي عُبّر عنه بما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمِعت ولا خطَر على قلب بشر،[٢] فهو نصبٌ على الحاليّة مِن المفعول المقدَّر للمشيئة، أو تمييزٌ فإنّ نسبة مشيئة الخروج إلى الله تعالى يحتمل أن يكون على جهة عطاء مجذوذ، وعلى جهة عطاء غير مجذوذ، فهو رافع للإبهام عن النسبة.

قال ابن زيد: «أخبرنا الله تعالى بالذي يشاء لأهل الجنّة فقال: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾، ولم يُخبرنا بالذي يشاء لأهل النار».[٣] ويجوز أن يتعلّق بكلا النعيمين، أو بالأوّل دفعًا لِما يُتوهَّم مِن ظاهر الاستثناء مِن انقطاعه.

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ﴾ أي: في شكّ، / و"الفاء" لترتيب النهي على ما قُصّ مِن القصص وبيِّن في تضاعيفها مِن العواقب الدنيويّة والأخرويّة. [١٧٢ظ]

﴿مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: مِن جهة عبادة هؤلاء المشركين وسوء عاقبتها، أو مِن حال ما يعبدونه مِن الأوثان في عدم نفعه لهم. ولمّا كان مَساق النظم الكريم

---

١ وفي هامش م: لباب ابن عادل. | انظر: اللباب لابن عادل، ١٠/٥٧٣-٥٧٤.

٢ وفي هامش م: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. واقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ الآية، [السجدة، ١٧/٣٢]. صحيح البخاري. | انظر: صحيح البخاري، ٤/١١٨ (٣٢٤٤).

٣ جامع البيان للطبري، ١٢/٥٨٣-٥٨٤؛ معالم التنزيل للبغوي، ٤/٢٠١؛ اللباب لابن عادل، ١٠/٥٧٤.

قُبيل الشروع في القصص لبيان غايةِ سوء حال الكفَرة وكمالِ حسن حال المؤمنين، وقد ضُرب لهم مَثل فقيل: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود، ٢٤/١١]، وقد قُصّ عَقيبَ ذلك مِن أنباء الأُمم السالفة مع رُسلهم المبعوثة إليهم ما يتذكَّر به المتذكِّر نُهي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن كونه في شكّ مِن مصير أمر هؤلاءِ المشركين في العاجل والآجل، ثمّ عُلِّل ذلك بطريق الاستئناف فقيل: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم﴾ الذين قُصَّت عليك قصصهم ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: هم وآباؤهم سواء في الشِّرك، ما يعبدون عبادةً إلّا كعبادتهم، أو ما يعبدون شيئًا إلّا مثلَ ما عبدوه مِن الأوثان، والعدولُ إلى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضيةِ لاستحضار صورتها، أو مثلَ ما كانوا يعبدونه فحُذف "كان" لدلالة قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ عليه، ولقد بلغك ما لحِق بآبائهم فسيلحقهم مثلُ ذلك فإنّ تماثُل الأسباب يقتضي تماثُل المسبَّبات.

﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ﴾ أي: هؤلاء الكفرة ﴿نَصِيبَهُمْ﴾ أي: حظَّهم المُعيَّن لهم حسب جرائمهم وجرائرهم مِن العذاب عاجلًا وآجلًا، كما وفّينا آباءهم أنصباءهم المُقدَّرة لهم، أو مِن الرِّزق المقسوم لهم، فيكون بيانًا لوجه تأخّر العذاب عنهم مع تحقّق ما يُوجِبه.

[١٧٣و] ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ حال مؤكِّدة مِن النصيب كقوله تعالى: / ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة، ٢٥/٩]، وفائدته دفعُ توهّمِ التجوّز، وجعلُها مُقيدِّةً له لدفع احتمال كونه منقوصًا في حدّ نفسه مبنيٌّ على الذهول عن كون العامل هو التوفيةَ. فتأمَّل.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة. ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ أي: في شأنه وكونه مِن عند الله تعالى فآمن به قوم وكفر به آخرون، فلا تبالِ باختلاف قومك فيما آتيناك مِن القرآن وقولِهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ [هود، ١٢/١١]، وزعمِهم أنّك افتريتَه.

﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي كلمة القضاء بإنظارهم إلى يوم القيامةِ على حسب الحِكمة الداعية إلى ذلك. ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: لأُوقِع القضاء بين المختلفين مِن قومك بإنزال العذاب الذي يستحقه المبطِلون ليتميّزوا به عن المُحِقّين. وقيل: بين قوم موسى،[١] وليس بذاك.

﴿وَإِنَّهُمۡ﴾ أي: وإنّ كفّار قومك، أريدَ به بعضُ مِن رجَع إليهم ضميرُ ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ للأمن مِن الإلباس. ﴿لَفِي شَكّٖ﴾ عظيم ﴿مِّنۡهُ﴾ أي: مِن القرآن وإن لم يجْرِ له ذِكرٌ، فإنّ ذِكر إيتاء كتاب موسى ووقوعِ الاختلاف فيه لاسيّما بصدَد التسلية ينادي به نداءً غيرَ خفيّ. ﴿مُرِيبٖ﴾ مُوقِع في الرِّيبة.

﴿وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١١﴾

﴿وَإِنَّ كُلّٗا﴾ التنوين عِوض مِن المضاف إليه، أي: وإنّ كلّ المختلِفين فيه المؤمنين منهم والكافرين. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر بالتخفيف مع الإعمال[٢] اعتبارًا للأصل.

﴿لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي: أجزِيةَ أعمالِهم، و"اللام" الأُولى مُوطِّئةٌ للقسَم والثانيةُ جواب للقسَم المحذوف. و﴿لَّمَّا﴾ مركَّبةٌ مِن "مِن" الجارّة و"ما" الموصولة أو الموصوفة، وأصلها "لمِن ما" فقُلِبت النون ميمًا للإدغام فاجتمع ثلاث ميماتٍ فحُذفت أُولاهنّ، والمعنى: لَمِن الذين أو لمِن خلْقٍ أو لمِن فريقٍ واللهِ ليوفّينّهم ربُّك.[٣] وقُرئ: "لَمَا"[٤] بالتخفيف على أنّ "ما" مزيدة للفصل بين اللامين، والمعنى: وإنّ جميعهم واللهِ ليوفِّينهم الآية. وقُرئ: "لَمًّا"[٥] بالتنوين، أي: جميعًا كقوله سبحانه: ﴿أَكۡلٗا لَّمّٗا﴾ [الفجر، ١٩/٨٩]. وقرأ أُبيّ: "وإنْ كلٌّ لَمّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ"[٦] على أنّ "إنْ" نافية و"لمّا" بمعنى "إلّا"، وقد قُرئ به.[٧]

---

١ كما في الكشّاف للزمخشري، ٣١٩/٢.

٢ النشر لابن الجزري، ٢٩٠/٢-٢٩١.

٣ انظر: اللباب لابن عادل، ٥٧٧/١٠.

٤ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٩١/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الزُّهري وسليمان بن الأرقم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٦؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٩.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٦.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٦.

[١٧٣ظ] ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بما يعمله / كلُّ فردٍ مِن المختلِفين مِن الخير والشرّ ﴿خَبِيرٌ﴾ بحيث لا يخفى عليه شيء مِن جلائله ودقائقه، وهو تعليل لِما سبق مِن توفية أجزية أعمالهم، فإنّ الإحاطة بتفاصيل أعمال الفريقين وما يستوجبه كلُّ عمل بمقتضى الحكمة مِن الجزاء المخصوص يُوجِب توفيةَ كلّ ذي حقّ حقَّه، إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشرّ.

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ لمّا بُيِّن في تضاعيف القصص المَحكيّة عن الأُمم الماضية سوءُ عاقبة الكفر وعصيانِ الرسل، وأشيرَ إلى أنّ حال هؤلاء الكفَرة في الكفر والضلال واستحقاق العذاب مِثلُ أولئك المعذَّبين، وأنّ نصيبهم مِن العذاب واصل إليهم مِن غير نقص،[١] وأنّ تكذيبهم للقرآن مثلُ تكذيب قوم موسى عليه السلام للتوراة، وأنّه لو لم تسبِق كلمة القضاء بتأخير عقوبتهم العامّة ومؤاخذتهم التامّة إلى يوم القيامة لفُعِل بهم ما فُعِل بآبائهم مِن قبلُ، وأنّهم يُوفَّون نصيبهم غيرَ منقوص،[٢] وأنّ كلّ واحد مِن المؤمنين والكافرين يوفّى جزاءَ عمله، أُمر رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم بالاستقامة،[٣] كما أُمِر به في العقائد والأعمال المشترَكة بينه وبين سائر المؤمنين، ولاسيّما الأعمال الخاصّة به مِن تبليغ الأحكام الشرعيّة والقيام بوظائف النبوّة وتحمُّل أعباء الرسالة، بحيث يدخُل تحته ما أُمِر به فيما سبق مِن قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ الآية، [هود، ١١/١٢].

وبالجملة فهذا الأمر منتظِم لجميع محاسن الأحكام الأصليّة والفرعيّة والكمالات النظريّة والعمليّة، والخروجُ عن عُهدته في غاية ما يكون مِن الصعوبة،

---

١ وفي هامش م: كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾. «منه».

٢ وفي هامش م: أي: كما يلوّح به قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾ الآية، وإفراد توفية نصيب هؤلاء بالذِّكر دون الاكتفاء باندراجها تحت بيان توفية أجزية أعمال الكفرة قاطبة حسبما يُفصح عنه ما بعده مِن قوله: "وأنّ كلّ واحد"... إلخ، للمسارعة إلى بيان تحتُّم وقوع عقوبتهم المؤخَّرة قطعًا، والمبادرة إلى قطع أطماعهم عن الخلاص بالمرّة. «منه».

٣ السياق: لمّا بُيِّن... أُمِر...

ولذلك قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «شيّبتني سورةُ هود».[١]

﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ أي: تاب مِن الشِّرك والكفرِ وشاركك في الإيمان وهو المعنيُّ بالمعيّة، وهو معطوف على المستكنّ في قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ﴾، وحسُن مِن غير تأكيد / لمكان الفاصل القائم مَقامَه، وفي الحقيقة هو مِن عطف الجملة [١٧٤و] على الجملة، إذ المعنى وليَستقم مَن تاب معك. وقيل: هو منصوب على أنّه مفعول معه، كما قاله أبو البقاء،[٢] والمعنى: استقم مصاحبًا لمَن تاب معك.

﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ ولا تنحرفوا عما حُدّ لكم بإفراط أو تفريط، فإنّ كلا طرفي قَصْدِ الأمور ذميم، وإنّما سُمّي ذلك طغيانًا، وهو تجاوزُ الحدّ تغليظًا أو تغليبًا لحال سائر المؤمنين على حاله عليه السلام.

﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيُجازيكم على ذلك وهو تعليل للأمر والنهي، وفي الآية دلالةٌ على وجوب اتّباع المنصوص عليه مِن غير انحراف بمجرَّد الرأي، فإنّه طغيان وضلال، وأمّا العمل بمقتضى الاجتهاد التابع لعِلَل النصوص فذلك مِن باب الاستقامة كما أُمِر على موجَب النصوص الآمرة بالاجتهاد.

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ﴾ أي: لا تميلوا أدنى مَيْل ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: إلى الذين وُجِد منهم الظلم في الجملة، ومدارُ النهي هو الظلمُ، والجمعُ باعتبار جمعيّة المخاطَبين. وما قيل مِن أن ذلك للمبالغة في النهي مِن حيث إنّ كونهم جماعةً مَظِنّة الرُّخصة في مُداهنتهم إنّما يتمّ أن لو كان المراد النهي عن الركون إليهم مِن حيث إنّهم جماعة وليس كذلك. ﴿فَتَمَسَّكُمُ﴾ بسبب ذلك ﴿ٱلنَّارُ﴾.

وإذا كان حال المَيْل في الجملة إلى مَن وُجد منه ظلم ما في الإفضاء إلى مِساس النار هكذا، فما ظنُّك بمَن يميل إلى الراسخين في الظلم والعُدوان

---

[١] سنن الترمذي، ٤٠٢/٥ (٣٢٩٧)؛ المعجم الكبير للطبراني، ١٤٨/٦ (٥٨٠٤)؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٠٣/٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٣١٩/٢.

[٢] انظر: التبيان للعكبري، ٧١٧/٢.

ميلًا عظيمًا، ويتهالك على مصاحبتهم ومنادمتِهم، ويُلقي شراشِرَه على مؤانستهم ومعاشرتهم، ويبتهج بالتزيّي بزيّهم، ويمُدّ عينيه إلى زهرتهم الفانية، ويغبِطهم بما أوتوا مِن القطوف الدانية، وهو في الحقيقة مِن الحبّة طفيف ومِن جناح البعوض خفيف، بمَعزِل مِن أن تميل إليه القلوب، ضعُف الطالب والمطلوب.

والآيةُ أبلغُ ما يُتصوَّر في النهي عن الظلم والتهديد عليه. وخطابُ الرسول صلّى الله عليه وسلّم ومَن معه مِن المؤمنين للتثبيت على الاستقامة التي هي العدل، فإنّ المَيْل إلى أحد طرفي الإفراط والتفريط ظلم على نفسه أو على غيره. وقُرئ: "تِرْكَنُوا"[١] على لغة تميم، و"تُرْكَنُوا"[٢] / على صيغة البناء للمفعول مِن "أركَنه". [١٧٤ظ]

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ أي: مِن أنصار يُنقِذونكم مِن النار، والجملة نَصْب على الحاليّة مِن قوله: ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾. ونفيُ الأولياء ليس بطريق نفيِ أن يكون لكلّ واحدٍ منهم أولياءُ حتّى يصدُق مع أن يكون له وليٌّ؛ بل لمكان ﴿لَكُم﴾ بطريق انقسام الآحادِ على الآحاد، لكن لا على معنى نفي استقلال كلّ منهم بنصير، بل على معنى نفي أن يكون لواحد منهم نصير، بقرينة المقام.

﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ مِن جهة الله سبحانه إذ قد سبق في حكمه أن يعذِّبكم بركونكم إليهم ولا يُبقيَ عليكم، و﴿ثُمَّ﴾ لتراخي رتبة كونهم غيرَ منصورين مِن جهته تعالى بعدما أوعَدهم بالعذاب وأوجَبه عليهم. ويجوز أن يكون منزَّلًا منزلة الفاء بمعنى الاستبعاد،[٣] فإنّه لمّا بيّن أن الله تعالى معذِّبهم وأنّ غيره لا ينقذهم أنتج أنّهم لا يُنصرون أصلًا.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: غُدوةً وعَشيّةً. وانتصابه على الظرفيّة لكونه

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن وثّاب ومحبوب عن أبي عمرو. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٦؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٩.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة وابن أبي عبلة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٦؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٩.

[٣] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٣٢١.

مضافًا إلى الوقت. ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ أي: ساعاتٍ منه قريبةً مِن النهار، فإنّه مِن "أزلفه" إذا قرّبه، جمعُ "زُلفة"، عطفٌ على ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ والمراد بصلاتهما صلاةُ الغداة والعصر[1] -وقيل: الظُّهر موضعَ العصر،[2] لأنّ ما بعد الزوال عشيٌّ- وبصلاة الزُّلَف المغربُ والعشاء.[3] وقُرئ: "زُلُفًا" بضمّتين[4] وضمّة وسكون،[5] كـ"يُسُر ويُسْر"، و"زُلفى" بمعنى "زُلفة"، كـ"قُربى" و"قُربة".

﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ﴾ التي مِن جُملتها؛ بل عُمدتُها ما أُمِرتَ به مِن الصلوات ﴿يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ التي قلّما يخلو منها البشر، أي: يُكفِّرنَها، وفي الحديث: «إنّ الصلاة إلى الصلاة كفّارة لِما بينهما ما اجتُنب الكبائرُ».[6] وقيل: نزلت في أبي اليَسَر الأنصاري إذ قبّل امرأة ثمّ ندِم، فأتى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأخبره بما فعل، فقال صلّى الله عليه وسلّم: «أنتظرُ أمرَ ربّي»، فلمّا صلّى صلاة العصر نزلت،[7] فقال[8] عليه السلام: «نعم،[9] اذهبْ فإنّها كفّارة لِما عمِلتَ».[10] أو يمنعنَ مِن اقترافها،[11] كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت، ٢٩/٤٥].

---

[1] وفي هامش م: قاله الضحّاك. «منه». | مرويٌّ عنه في جامع البيان للطبريُ، ٦٠٤/١٢.

[2] وفي هامش م: قاله مقاتل. «منه». | انظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ٣٠٠/٢.

[3] وفي هامش م: وقيل الفجر والظهر والعصر. «منه». | عن محمّد بن كعب القُرظبي في جامع البيان للطبري، ٦٠٢/١٢-٦٠٣.

[4] قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٩١/٢.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن مُحيصن واليماني ومجاهد وأبي السّمّال وخارجة وابن المنادي عن نافع ونصر بن عليّ عن أبي عمرو. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٦؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٠٠٥.

[6] بمعناه في المعجم الكبير للطبراني، ١٤٧/٩ (٨٧٣٨)؛ وجامع البيان للطبري، ٦١٢/١٢-٦١٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٠٥/٤.

[7] ط س - نزلت.

[8] ط س: قال.

[9] وفي هامش م: أي: نعم تقبل توبتك. «منه».

[10] وفي هامش م: وفي رواية: فلمّا صلّى صلاة العصر قال عليه السلام أين أبو اليَسَر؟ فقال: ها أنا يا رسول الله، قال: أشهِدتَ معنا صلاة العصر؟ قال: نعم، قال: اذهب، فإنّها كفّارة لِما عملتَ. «منه». | والرّواية الأولى بلفظها ههنا في الكشّاف للزمخشري، ٣٢١/٢-٣٢٢؛ والثانية بلفظها في الكشف والبيان للثعلبي، ٤٦٨/١٤. والروايتان بمعناهما في سنن الترمذي، ٢٩٢/٥ (٣١١٥)؛ وجامع البيان للطبري، ٦١٧/١٢-٦١٨؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٠٥/٤.

[11] السياق: يُكفِّرنها... أو يمنعنَ...

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ﴾[1] فما بعده، وقيل: إلى القرآن.[2] ﴿ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ أي: عظةٌ للمتّعظين.

﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾

[١٧٥و] ﴿وَٱصْبِرْ﴾ على مشاقّ ما أُمِرتَ به في تضاعيف / الأوامر السابقة، وأمّا ما نُهِيَ عنه مِن الطغيان والرُّكون إلى الذين ظلموا فليس في الانتهاء عنه مشقّةٌ، فلا وجهَ لتعميم الصبر له، اللّٰهمّ إلّا أن يُراد به ما لا يمكن عادة خلوُّ البشرِ عنه مِن أدنى مَيْل بحُكم الطبيعة مِن الاستقامة المأمورِ بها، ومِن يسير مَيْل بحُكم البشريّة إلى مَن وُجد منه ظلم ما، فإنّ في الاحتراز عن أمثاله مِن المشقّة ما لا يخفى.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: يُوفِّيهم أجورَ أعمالهم مِن غير بَخْس أصلًا، وإنّما عُبّر عن ذلك بنفي الإضاعة مع أنّ عدم إعطاء الأجر ليس بإضاعة حقيقةً، كيف لا، والأعمالُ غير موجِبةٍ للثواب حتّى يلزَم مِن تخلُّفه عنها ضَياعها، لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يمتنع صدوره عنه سبحانه مِن القبائح وإبرازِ الإثابة في معرض الأمور الواجبة عليه، وإنّما عُدِل عن الضمير ليكون كالبرهان على المقصود مع إفادة فائدة عامّة لكلّ مَن يتّصف به، وهو تعليل للأمر بالصبر. وفيه إيماءٌ إلى أنّ الصبر على ما ذُكِر مِن باب الإحسان.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾

﴿فَلَوْلَا كَانَ﴾ فهلا كان ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ الكائنة ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ على رأي مَن جوّز حذفَ الموصول مع بعض صلته، أو كائنةً مِن قبلكم ﴿أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ﴾ مِن الرأي والعقل أو أولو فضل وخير، وسُمِّيا بها لأنّ الرجل إنّما يستبقي ممّا يُخرِجه عادة أجودَه وأفضله، فصار مثلًا في الجَودة والفضل، ويقال: فلان مِن بقيّة القوم،

---

[1] هود، ١١٢/١١.

[2] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥٤/٢.

أي: مِن خِيارهم، ومنه ما قيل: «في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا»،[1] ويجوز أن يكون "البقيّة" بمعنى "البَقوى" كـ"التَّقيّة" مِن "التقوى"، أي: فهلّا كان منهم ذوو إبقاء على أنفسهم وصيانة لها مِن سخط الله تعالى وعقابه، يؤيّده أنّه قُرئ: "أُولُو بَقْيَةٍ"[2] وهي المرّةُ مِن مصدر "بَقاه يَبْقيه": إذا راقبه وانتظره، أي: أولو مراقبة وخشية مِن عذاب الله، كأنّهم ينتظرون نزوله لإشفاقهم.

﴿يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الواقع منهم حسب ما حُكيَ عنهم.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ استثناء منقطِع، أي: لكنّ قليلًا منهم أنجيناهم لكونهم على تلك الصفة، على أنّ ﴿مَنْ﴾ للبيان لا للتبعيض، لأنّ جميع الناجين ناهون، ولا صحّة للاتّصال على ظاهر الكلام، لأنّه يكون تحضيضًا لأولي البقيّة على النهي المذكور إلّا للقليل مِن الناجين منهم، كما إذا قلتَ: هلّا قرأ قومك القرآن إلّا الصلحاءَ منهم، مريدًا لاستثناء الصلحاء مِن المُحضَّضين على القراءة، نعم يصِحّ ذلك إن جُعل استثناءً مِن النفي اللازم للتحضيض، فكأنّه قيل: ما كان مِن القرون أولو بقية إلّا قليلًا منهم، لكنّ الرفع هو الأفصح حينئذ[3] على البدليّة.

﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بمباشرة الفساد وتَرْكِ النهيِ عنه ﴿مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ﴾ أي: أُنعموا مِن الشهوات واهتموا بتحصيلها، أمّا المباشِرون فظاهرٌ وأمّا المساهِلون فلِما لهم في ذلك مِن نَيل حظوظِهم الفاسدة. وقيل: المرادُ بهم تاركو النهي.[4] وأنت خبير بأنّه يلزم منه عدم دخول مباشِري الفساد في الظلم والإجرام عبارةً.

﴿وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ أي: كافرين، فهو بيان لسبب استئصال الأمم المُهلَكة وهو فشوّ الظلم واتباعُ الهوى فيهم وشيوعُ تَرْكِ النهي عن المنكرات مع الكفر.

وقوله: ﴿وَٱتَّبَعَ﴾ عَطْف على مضمَر دلّ عليه الكلام، أي: لم ينهَوا واتّبع... إلخ، فيكون العدول إلى المُظهَر لإدراج المباشِرين معهم في الحُكم والتسجيل عليهم بالظلم، وللإشعار بعلّيّة ذلك لِمَا حاق بهم مِن العذاب؛

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ٣٢٢/٢.

[2] قراءة شاذّة، مَرويّة عن الهاشمي عن أبي جعفر وابن أبي أُويس عن نافع ونصر بن عليّ عن أبي عمرو. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٠٠٦.

[3] س - حينئذ.

[4] كما في الكشّاف للزمخشري، ٣٢٣/٢.

أو على استئنافٍ[١] يترتّب على قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: إلّا قليلًا ممّن أنجينا منهم نهَوا عن الفساد واتّبع الذين ظلموا مِن مباشِري الفساد وتاركي النهي عنه، فيكون الإظهارُ مقتضى الظاهِر.

وقوله: ﴿وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ عَطْف على ﴿أُتْرِفُواْ﴾ أي: اتّبعوا الإتراف وكونَهم مجرمين، لأنّ تابع الشهواتِ مغمور بالآثام، أو أُريد بالإجرام إغفالُهم للشكر،[٢] أو على ﴿ٱتَّبَعَ﴾ أي: اتّبعوا شهواتِهم وكانوا بذلك الاتّباع مجرمين. / ويجوز أن يكون [١٧٥ظ] اعتراضًا وتسجيلًا عليهم بأنّهم قوم مجرمون.[٣] وقُرئ: "وَأُتْبِعَ"[٤] أي: أُتبعوا جزاءَ ما أُترفوا، فيكون الواو للحال، ويجوز أن تُفسَّر به المشهورة، ويعضُده تقدُّم الإنجاء.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ١١٧﴾

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: ما صحّ وما استقام؛ بل استحال في الحكمة أن يُهلِك القرى التي أهلكها حسبَ ما بلغك أنباؤها، ويُعلَم مِن ذلك حال باقيها مِن القرى الظالمة، و"اللام" لتأكيد النفي.

وقوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾ أي: ملتبِسًا به، قيل: هو حال مِن الفاعل،[٥] أي: ظالمًا لها. والتنكير للتفخيم والإيذانِ بأنّ إهلاك المصلحين ظلم عظيم. والمراد تنزيه الله تعالى عن ذلك بالكلّيّة بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى، وإلّا فلا ظلمَ فيما فعله الله تعالى بعباده كائنًا ما كان، لِما تقرّر مِن قاعدة أهل السنة، وقد مرّ تفصيله في سورة آل عمرانَ عند قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران، ١٨٢/٣].

وقوله تعالى: ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ حال مِن المفعول والعاملُ عامله، ولكن لا باعتبار تقيُّده بما وقع حالًا مِن فاعله أعني بظلم لدلالته على تقيّد نفي الإهلاك ظلمًا بحال كون أهلها مصلِحين، ولا ريبَ في فساده؛ بل مطلقًا عن ذلك.

---

[١] السياق: عطف على مضمر... أو على استئناف...

[٢] كما في الكشّاف للزمخشري، ٣٢٣/٢.

[٣] كما في الكشّاف للزمخشري، ٣٢٣/٢.

[٤] قراءة شاذّة، مَرويّة عن الحسين الجُعفي والهمداني والأزرق كلُّهم عن أبي عمرو والضحّاك والعلاء بن سباتة وجعفر بن محمّد وأبي البَرَهسم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٦؛ المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ١٠٠٥.

[٥] كما في الكشّاف للزمخشري، ٣٢٣/٢.

وقيل: المراد بالظلم الشِّرك، والباء للسببيّة، أي: لا يُهلِك القرى بسبب إشراك أهلِها وهم مصلِحون يتعاطَون الحقّ فيما بينهم، ولا يضمُّون إلى شِركهم فسادًا آخرَ،[١] وذلك لفرط رحمته ومسامحته في حقوقه تعالى، وعن ذلك قدَّم الفقهاء عند تزاحُم الحقوق حقوقَ العباد الفقراءِ على حقوق الله الغنيّ الحميد. وقيل: المُلكُ يبقى مع الشِّرك ولا يبقى مع الظلم.[٢]

وأنت تدري أنّ مقام النهي عن المنكَرات التي أقبحُها الإشراك بالله لا يلائمه، فإنّ الشِّرك داخل في الفساد في الأرض دخولًا أوّليًا، ولذلك كان ينهى كلٌّ مِن الرسل الذين قُصّت أنباؤهم أمّتَه أوّلًا عن الإشراك ثمّ عن سائر المعاصي التي كانوا يتعاطَونها. فالوجهُ حَمْل الظلم على مطلَق الفساد الشامل للشِّرك وغيره مِن أصناف المعاصي، وحَمْلُ الإصلاح على إصلاحه والإقلاع عنه بكون بعضهم متصدِّين للنهي عنه وبعضِهم متوجِّهين إلى الاتّعاظ غيرَ مُصرِّين على ما هم عليه مِن الشرك وغيره مِن أنواع الفساد.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ مجمِعةً على الحقّ ودين الإسلام، بحيث لا يكاد يختلف فيه أحد، ولكن لم يشأ ذلك فلم يكونوا متّفقة على الحقّ ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ في الحقّ، أي: مخالِفين له كقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة، ٢/٢١٣].

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ إلّا قومًا قد هداهم الله تعالى بفضله إلى الحقّ فاتّفقوا عليه ولم يختلفوا فيه، أي: لم يخالِفوه. وحملُه على مطلَق الاختلاف الشامل لِما يصدُر مِن المُحقّ والمُبطِل،[٣] يأباه الاستثناء المذكور. ﴿وَلِذَٰلِكَ﴾ أي: لِما ذُكِر مِن الاختلاف ﴿خَلَقَهُمْ﴾ أي: الذين بقُوا بعد الثُّنيا[٤] وهم المختلِفون، فـ"اللام" للعاقبة

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٣٢٣.
٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٥٥.
٣ كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٥٥.
٤ الثُّنيا والثُّنوى: ما استثنيته. لسان العرب لابن منظور، «ثنو».

أو للرُّحم، فالضميرُ لـ﴿مَن﴾ و"اللام" في معناها، أو لهما معًا، فالضميرُ للناس كافةً و"اللام" بمعنى مجازي عامّ لكلا المعنيين.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ أي: وعيده.[1] وقيل: قولُه للملائكة: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي: مِن عُصاتهما أجمعين، أو منهما أجمعين، لا مِن أحدهما.

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

﴿وَكُلًّا﴾ أي: وكلَّ نبأ، فالتنوينُ عِوَض مِن المضاف إليه. ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ نُخبِرك به، وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ﴾ بيان لـ﴿كُلًّا﴾، وقولُه تعالى: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ بدل منه. والأظهر أن يكون المضاف إليه المحذوف / في ﴿كُلًّا﴾ المفعولَ المطلق [١٧٦و] لـ﴿نَقُصُّ﴾، أي: كلَّ اقتصاص، أي: كلّ أسلوب مِن أساليبه نقصُّ عليك مِن أنباء الرسل. وقوله سبحانه: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ مفعولُ ﴿نَقُصُّ﴾، وفائدتُه التنبيه على أنّ المقصود بالاقتصاص زيادةُ يقينه عليه السلام وطمأنينةُ قلبه وثباتُ نفسه على أداء الرسالة واحتمالِ أذيّة الكفّار بالوقوف على تفاصيل أحوالِ الأمم السالفة في تماديهم في الضلال وما لقيَ الرُّسل مِن جهتهم مِن مكابَدة المَشاقّ.

﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ﴾ السورة أو الأنباءِ المقصوصة عليك ﴿الْحَقُّ﴾ الذي لا محيدَ عنه ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: الجامع بين كونه حقًّا في نفسه وكونِه موعظةً وذكرى للمؤمنين، ولكون الوصف الأوّل حالًا له في نفسه، حُلّي بـ"اللام" دون ما هو وصف له بالقياس إلى غيره.

وتقديم الظرف، أعني: ﴿فِي هَذِهِ﴾ على الفاعل؛ لأنّ المقصود بيانُ منافع السورة أو الأنباءِ المقصوصة فيها واشتمالِها على ما ذُكر مِن المنافع المفصّلة، لا بيانُ كون ذلك فيها لا في غيرها، ولأنّ عند تأخير ما حقُّه التقديم تبقى النفس مترقّبة إليه فيتمكّن فيها عند الورود فضل تمكّن، ولأنّ في المُؤخّر نوعَ طول

---

[1] وفي هامش م: بقوله تعالى: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف، ١٨/٧]، وقوله تعالى: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص، ٨٤/٣٨-٨٥]، كما سيأتي تحقيقه في سورة ص. «منه».

يُخِلّ تقديمه بتجاوُب أطراف النظم الكريم.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ۝١٢١ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ۝١٢٢﴾

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بهذا الحقّ ولا يتّعظون به ولا يتذكّرون: ﴿ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالكم وجِهتِكم التي هي عدم الإيمان، ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ على حالنا وهو الإيمان به والاتّعاظ والتذكّر به.

﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ بنا الدوائرَ ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ أن ينزل بكم نحوُ ما نزَل بأمثالكم مِن الكفَرة.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝١٢٣﴾

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ فيرجع لا محالةَ أمرك وأمرهم إليه. وقُرئ على البناء للفاعل[1] مِن "رجَع رجوعًا". ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فإنّه كافيك، و"الفاءُ" لترتيب الأمر بالعبادة والتوكّل على كون مرجع الأمور كلّها إلى الله عزّ وجلّ. وفي تأخير الأمر بالتوكّل عن الأمر بالعبادة إشعارٌ بأنّه لا ينفع دونها.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيهم بموجبه. وقُرئ: "تَعْمَلُونَ"[2] على تغليب المخاطَب، أي: أنت وهم، فيُجازي كلًّا منك ومنهم بموجَب الاستحقاق.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة هودٍ أُعطيَ عشر حسناتٍ بعدد مَن صدّق كلّ واحد مِن الأنبياء المعدودين فيها عليهم السلام، وبعدد مَن كذّبهم، وكان يوم القيامة مِن السعداء بفضل الله سبحانه وتعالى».[3]

---

١ قرأ بها العشرة إلّا نافعًا وحفصًا. النشر لابن الجزري، ٢/٢٠٩.

٢ وفي هامش م: وهي قراءة حفص. «منه». | قرأ بها نافع وابن عامر وحفص ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٢. | وليس من عادته التنبيه على قراءة حفص، لأنّها الأصل المُعوّل عليه في تفسيره.

٣ بلفظ قريب في التفسير الوسيط للواحدي، ٢/٥٦٣ (هود، ١١/١)؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٣٢٤. وهو جزء من حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠. وانظر الكلام عليه في تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢/١٥٥.

١١

سُورَةُ هُودٍ

مكية إلاّ «وأقم الصلاة» الآيَةَ وإلاّ «فلعلك تارك» الآيَةَ و«أولئك يؤمنون به» الآيَةَ، مِائَةٌ وثنتان أو ثلاث وعشرون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿الر﴾ اللهُ أعلم بمُراده بذلك.

هذا ﴿كِتابٌ أُحكِمَتْ آياتُهُ﴾ بعجيب النظم وبديع المعاني، ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾: بُيِّنَتْ بالأحكام والقِصص والمواعظ ﴿مِن لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أي: اللهِ، ٢ ـ ﴿أَنْ﴾ أي: بأن ﴿لا تَعبُدُوا إلاّ اللهَ ـ إِنَّني لَكُم مِنهُ نَذِيرٌ﴾ بالعذاب إن كفرتم ﴿وبَشِيرٌ﴾ بالثواب إن آمنتم ـ ٣ ـ ﴿وأنِ استَغفِرُوا رَبَّكُم﴾ من الشِّرك، ﴿ثُمَّ تُوبُوا﴾: ارجِعوا ﴿إليهِ﴾ بالطاعة،...

سُورَةُ هُودٍ

قولُه: (هذَا) إشارةٌ إلى أنَّ ﴿كتاب﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ.

قولُه: (بُيِّنَتْ) و﴿ثمَّ﴾ للتَّفاوتِ في الحكْمِ، أو للتَّراخِي في الإخبارِ.

قولُه: (بأَنْ) الأظهرُ: لأنْ، وقيل: ﴿أن﴾ مفسِّرةٌ لما في تفصيلِ الآياتِ مِن معنَى القولِ، وقيل: منصُوبٌ على الإغراءِ؛ أي: احذرُوا عبادةَ غيرِ اللهِ.

قولُه: (بالعَذابِ) وقولُه تعالى: ﴿منه﴾ أي: مِن اللهِ.

قولُه: (من الشِّرْكِ) عطفٌ على ﴿أن لا تعبدوا﴾.

قولُه: (ارجِعُوا) و﴿ثمَّ﴾ لتفاوُتِ ما بينَ الأمرَينِ.

﴿يُمَتِّعْكُم﴾ في الدنيا ﴿مَتاعًا حَسَنًا﴾ بطِيب عيش وسَعة رِزق، ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ هو الموت، ﴿ويُؤتِ﴾ في الآخِرة ﴿كُلَّ ذِي فَضلٍ﴾ في العمل ﴿فَضلَهُ﴾: جزاءه، ﴿وإن تَوَلَّوا﴾ - فيه حذف إحدى التاءين - أي: تُعرِضوا ﴿فإنِّيَ أخافُ عَلَيكُم عذابَ يَومٍ كَبِيرٍ﴾، هو يوم القِيامة. ٤ - ﴿إلَى اللهِ مَرجِعُكُم، وهُوَ علَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾، ومنه الثواب والعذاب.

ونزل كما رواه البخاريّ عن ابن عبّاس، فيمن كان يستحيي أن يتخلّى أو يُجامعَ فيُفضيَ إلى السماء، وقيل: في المنافقين: ٥ - ﴿ألا إنَّهُم يَثنُونَ صُدُورَهُم، لِيَستَخفُوا مِنهُ﴾ أي: اللهِ. ﴿ألا حِينَ يَستَغشُونَ ثِيابَهُم﴾: يتغطّون بها ﴿يَعلَمُ﴾ تعالى ﴿ما يُسِرُّونَ وما يُعلِنُونَ﴾، فلا يُغني استخفاؤهم. ﴿إنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما في القُلوب، ٦ - ﴿وما مِن﴾ - زائدةٌ - ﴿دابَّةٍ في الأرضِ﴾ هي ما دبَّ عليها ﴿إلاّ علَى اللهِ رِزقُها﴾ تكفّل به فضلاً منه، ﴿ويَعلَمُ مُستَقَرَّها﴾: مسكنها في الدنيا............

قولُه: (بطِيْبِ عَيشٍ) في أمنٍ.

قولُه: (فِي الآخِرَةِ) قالَ القاضِي[1]: في الدُّنيا والآخرَةِ، وهو وعدٌ للموحِّدِ التَّائبِ بخيرِ الدَّارينِ.

قولُه تعالى: (﴿إلى اللهِ مرجِعُكم﴾) أي: رجوعُكم في ذلكَ اليومِ.

قولُه: (فيمَنْ كَان يَستَحْيِي) أي: مِن المسلمينَ، فثَنْيُ الصُّدورِ لا تأويلَ فيه، لكنْ فيه إشكالٌ؛ إذ هذا الاستحياءُ مندوبٌ لقولِه ﷺ: «واللهُ أحقُّ أنْ يُستَحْيَى منه»[2] والمؤمنونَ ما كانُوا يظنُّونَ أنَّه يمكنُ أن يستخفِيَ مِن اللهِ شيءٌ، فتأمَّل.

قولُه: (وقيلَ: فِي المُنافِقِينَ) وفيه نظرٌ؛ إذ الآيةُ مكِّيَّةٌ، والنِّفاقُ حدثَ بالمدينةِ، وقيل: إنَّها نزلَتْ في طائفةٍ مِن المشركينَ قالوا: إذا أرْخَينا سُتُورَنا، واستغْشَينا ثيابَنا، وطوَينا صُدورَنا على عداوةِ محمَّدٍ وكيف يعلَمُ؟ فثنيُ الصُّدورِ كنايةٌ عن الإعراضِ والانحرافِ عن الحقِّ.

قولُه: (أي: بمَا فِي القُلُوبِ) أو بالأسرارِ ذاتِ الصُّدور، أو بالقُلوبِ وأحوالِها.

قولُه: (فَضْلاً) وإنَّما أتى بلفظِ الوجُوبِ تحقيقاً لوصُولِه، وحمْلاً على التَّوكُّلِ فيهِ.

قولُه: (فِي الدُّنيَا) أي: الحياةُ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١٢٧).

(٢) رواه أبو داود (٤٠١٧)، والترمذي (٢٧٦٩)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٩٢٣)، وابن ماجه (١٩٢٠)، وأحمد في «مسنده» (٢٠٠٣٤) من حديث بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده.

قال الترمذي: هذا حديث حسن.

أو الصُّلبِ ﴿ومُستَودَعَها﴾ بعد الموت أو في الرحِم، ﴿كُلٌّ﴾ ممّا ذُكر ﴿في كِتابٍ مُبِينٍ﴾: بيِّن، هو اللوح المحفوظ.

٧ ـ ﴿وهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ في سِتَّةِ أيَّامٍ﴾ أوّلُها الأحد وآخِرها الجمعة، ﴿وكانَ عَرشُهُ﴾ قبل خلقهما ﴿علَى الماءِ﴾ وهو على متن الرِّيح، ﴿لِيَبلُوَكُم﴾: مُتعلّق بـ «خلق» أي: خلقَهما وما فيهما من منافع لكم ومصالح لِيَختبرَكم: ﴿أيُّكُم أحسَنُ عَمَلاً﴾ أي: أطوَعُ لِلهِ؟ ﴿ولَئِنْ قُلتَ﴾ ـ يا مُحمّد ـ لهم: ﴿إنَّكُم مَبعُوثُونَ مِن بَعدِ المَوتِ. لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا: إنْ﴾:..................

قولُه: (﴿كُلٌّ﴾ ممَّا ذُكِرَ) أو كلُّ واحدٍ مِن الدَّوابِّ وأحوالِها مذكورٌ.

قولُه: (قَبْلَ خَلقِهِمَا) قال القاضِي[1]: لم يكُنْ حائلٌ بينهما، لا أنَّه كانَ موضُوعاً على متنِ الماءِ، وقيل: كان الماءُ على متنِ الرِّيحِ، واللهُ أعلمُ بذلك. انتهى.

واختارَه الشَّيخُ لأنَّه صحَّ عن ابنِ عبَّاسٍ[2] على ما ذكرَه في «الدُّر»[3].

قولُه: (لِيَختَبِرَكُم) أي: ليعَاملَكُم معاملةَ المختبِرِ.

قولُه: (أطوَعُ للهِ) في حديثٍ مرفُوعٍ رواهُ الحاكمُ[4]: «أيُّكم أحسَنُ عقلاً، وأورَعُ عن محارمِ اللهِ، وأسرَعُ في طاعةِ اللهِ» وقيل: أزهَدُ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١٢٨).

(٢) روى عبد الرزاق في «التفسير» (١١٨٥)، والطبري في «تفسيره» (١٧٩٨٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٦٩٧)، والحاكم في «المستدرك» (٣٢٩٣)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٠٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه سئل عن قوله عز وجل: ﴿وكان عرشه على الماء﴾ [هود: ٧] على أي شيء كان الماء؟ قال: على متن الريح.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي.

(٣) انظر: «الدر المنثور» (٤/ ٤٠٣).

(٤) رواه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» (٨٣١)، والطبري في «تفسيره» (١٧٩٨٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٠٦) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

قال ابن حجر في «المطالب العالية» (١٣/ ٧٢٥): هذه الأحاديث من كتاب العقل لداود بن المحبر، كلها موضوعة، ذكرها الحارث في «مسنده» انتهى.

ولم أجد الحديث عند الحاكم، إلا أنه قال في «المدخل إلى الصحيح» (ص: ١٣٥): داود بن المحبر بن قحذم كنيته أبو سليمان حدث ببغداد عن جماعة من الثقات بأحاديث موضوعة حدثونا عن الحارث بن أبي أسامة عنه بكتاب العقل وأكثر ما أودع ذلك الكتاب من الحديث موضوع على رسول الله ﷺ كذبه أحمد بن حنبل جزاه الله عن نبيه ﷺ خيراً.

ما ﴿هذا﴾ القُرآنُ الناطق بالبعث أو الذي تقوله ﴿إلاّ سِحرٌ مُبينٌ﴾: بيِّن. وفي قراءةٍ «ساحِرٌ»، والمُشار إليه النبيّ.

٨ ـ ﴿ولَئِنْ أَخَّرْنا عَنهُمُ العَذابَ إلَى﴾ مجيء ﴿أُمَّةٍ﴾: أوقاتٍ ﴿مَعدُودةٍ، لَيَقُولُنَّ﴾ استهزاءً: ﴿ما يَحبِسُهُ﴾: ما يمنعه من النزول؟ قال تعالى: ﴿ألا يَومَ يأتِيهِم لَيسَ مَصرُوفًا﴾: مدفوعًا ﴿عَنهُم، وحاقَ﴾: نزل ﴿بِهِم ما كانُوا بِهِ يَستَهزِئُونَ﴾ من العذاب.

٩ ـ ﴿ولَئِنْ أذَقْنا الإنسانَ﴾ الكافر ﴿مِنّا رَحْمةً﴾: غِنًى وصِحّة، ﴿ثُمَّ نَزَعْناها مِنهُ، إنَّهُ لَيَؤُوسٌ﴾: قَنوطٌ من رحمة الله ﴿كَفُورٌ﴾: شديدُ الكُفر به، ١٠ ـ ﴿ولَئِنْ أذَقْناهُ نَعْماءَ بَعدَ ضَرّاءَ﴾: فقرٍ وشِدّة ﴿مَسَّتهُ لَيَقُولَنَّ: ذَهَبَ السَّيِّئاتُ﴾: المصائب ﴿عَنِّيَ﴾، ولم يتوقّع زوالها ولا شكرَ عليها.........

قولُه: (أو الَّذِي تقولُه) أي: البعثُ، أو القولُ بالبعثِ.

قولُه: (بيِّنٌ) أي: إلّا كالسِّحرِ في الخدِيعةِ أو البُطلانِ.

قولُه: (وفِي قرَاءةٍ) أي: لحمزةَ والكِسائيِّ[1].

قولُه: (النَّبيُّ) أو القائلُ.

قولُه: (أَوقَاتٍ) أي: جماعةٍ من الأوقاتِ قليلةٍ.

قولُه: (مَدْفُوعاً) أي: ليسَ العذابُ مدفوعاً كيومِ بدرٍ، و﴿يوم﴾ منصوبٌ بخبرِ ﴿ليسَ﴾ مقدَّم عليه.

قولُه: (نزَلَ) وأحاطَ، وضعَ الماضِي موضِع المستقبلِ تحقِيقاً ومبالَغةً في التَّهديدِ.

قولُه: (مِن العَذَابِ) بيانٌ لِـ﴿ما﴾ أي: العذابِ الَّذي كانُوا به يستعجِلونَ؛ لأنَّ استعجالَهم كان استهزاءً.

قولُه: (قَنُوطٌ) قطوعُ رجائِه؛ لقلَّةِ صبرِه وعدمِ ثقتِه.

قولُه: (شَدِيدُ الكُفْر) أو مبالغٌ في كُفرانِ ما سلفَ من النِّعمةِ.

قولُه: (﴿بعدَ ضَرَّاءَ﴾ فقرٍ) وسقمٍ.

قولُه: (المَصَائبُ) التي ساءَتنِي.

قولُه: (زَوَالَها) أي: النَّعماءِ.

قولُه: (ولَا شَكَرَ) ماضٍ عُطِفَ على «لم يتوقَّعْ».

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٤٩)، «حجة القراءات» (ص: ٢٣٩).

﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ﴾ [فَرَح] بطرٍ ﴿فَخُورٌ﴾ على الناس بما أُوتي. ١١ ـ ﴿إِلَّا﴾: لكن ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على الضرّاءِ ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ في النعماءِ ﴿أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ هو الجنّة.

١٢ ـ ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾ فلا تُبلّغهم إيّاه لتهاونهم به، ﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾: بتلاوته عليهم لأجل ﴿أَن يَقُولُوا: لَوْلَا﴾: هلاّ ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ، أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ يُصدّقه كما اقترحنا. ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ﴾، فلا عليك إلاّ البلاغ لا الإتيان بما اقترحوه، ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾: حفيظٌ فيُجازيهم.

قولُه: (بَطِرٌ) بالنِّعمِ مغترٌّ بها.

قولُه: (بِمَا أُوتِيَ) مشغولٌ عن الشُّكرِ والقيامِ بحقِّها، وفي لفظِ الإذاقةِ والمسِّ تنبيهٌ على أنَّ ما يجِدُه الإنسانُ في الدُّنيا من النِّعمِ والمِحَنِ كالأُنموذَجِ لِمَا يجِدُه في الآخرةِ، وأنَّه يقعُ في الكفرانِ والبطَرِ بأدنى شيءٍ؛ لأنَّ الذَّوقَ إدراكُ الطَّعمِ، والمسَّ مبدأُ الوصولِ.

قولُه: (لكِنْ) قال القاضي[1]: الاستثناءُ مِن الإنسانِ؛ لأنَّ المرادَ به الجنسُ، فإذا كانَ محلًّى باللَّامِ أفادَ الاستغراقَ، ومَن حملَهُ على الكافرِ لسَبْقِ ذكره جعلَ الاستثناءَ منقطعاً.

قولُه: (عَلى الضَّرَّاء) إيماناً باللهِ واستسلاماً لقضائهِ.

قولُه: (فِي النَّعمَاءِ) شكراً لآلائهِ سابقِها ولاحِقِها.

قولُه: (فَلَا تبلِّغهُم) أي: تاركٌ بتَركِ تبليغِهِ مخافةَ ردِّهِم واستهزائهم به، ولا يلزمُ مِن توقُّعِ الشَّيءِ لوجُودِ ما يدعُو إليه وقوعُه بجوازِ أنْ يكونَ ما يصرِفُ عن وقوعِهِ؛ وهو عِصْمةُ الرُّسلِ عن الخيانةِ في الوحيِ والتَّقيةِ في التَّبليغِ مانعاً هاهُنا.

قولُه: (بتِلَاوَتِه) أي: عارضٌ لك أحياناً ضيقُ صدرٍ بتلاوته، فالضَّميرُ راجعٌ إلى ﴿بَعْضَ ما يوحَى﴾ بتقديرِ مُضافٍ.

قولُه: (لأَجْلِ) أو مخافةَ، وهو الأظهرُ.

قالَ تعَالى: (﴿كنز﴾) ينفقُهُ في الاستتباعِ كالملوكِ.

قولُه: (لا الإِتْيانُ) إشارةٌ إلى أنَّ الحصرَ إضافيٌّ.

قولُه: (حَفِيظٌ) فتوكَّلْ عليه، فإنَّه عالمٌ بحالِهم وفاعلٌ بهم جزاءَ أقوالِهم وأفعالِهم.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١٢٩).

١٣ ـ ﴿أم﴾: بل أ ﴿يَقُولُونَ: افتَراهُ﴾ أي: القرآنَ؟ ﴿قُلْ: فائتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثلِهِ﴾ في الفصاحة والبلاغة ﴿مُفتَرَياتٍ﴾ ـ فإنكم عربيّون فُصحاءُ مِثلي. تحدّاهم بها أوّلاً ثمّ بسُورة ـ ﴿وادعُوا﴾ للمُعاونة على ذلك ﴿مَنِ استَطَعتُم مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: غيرَه، ﴿إن كُنتُم صادِقِينَ﴾ في أنه افتراء، ١٤ ـ ﴿فإنْ لَم يَستَجِيبُوا لكُم﴾ أي: مَن دعوتموهم للمُعاونة ﴿فاعلَمُوا﴾ ـ خِطاب للمُشركين ـ ﴿أنّما أُنزِلَ﴾ مُلتبسًا ﴿بِعِلمِ اللهِ﴾ وليس افتراء عليه، ﴿وأنْ﴾: مُخفّفةٌ أي: أنّه ﴿لا إلـٰهَ إلاّ هُوَ. فهَل أنتُم مُسلِمُونَ﴾ بعد هذه الحُجّة القاطعة؟ أي: أسلِموا.

١٥ ـ ﴿مَن كانَ يُرِيدُ الحَياةَ الدُّنيا وزِينتَها﴾ بأن أصَرَّ على الشِّرك ـ وقيل: هي في المُرائينَ ـ ﴿نُوَفِّ إلَيهِم أعمالَهُم﴾ أي: جزاء ما عملوه من خير كصدقة وصلة رحِم ﴿فِيها﴾ بأن نُوسع عليهم رِزقهم، ﴿وهُم فِيها﴾..

قولُه: (بَل) يعني: ﴿أم﴾ منقطِعةٌ.

قولُه: (أي: القُرآنَ) الأظهرُ: ما يوحَى.

قولُه: (ثمّ بسُورَةٍ) أي: ثمّ لمّا عجَزُوا عن العَشْرِ سهَّلَ الأمرَ عليهم وتحدَّاهُم بسُورةٍ، وتوحيدُ المثلِ والظَّاهرُ أمثالُه باعتبارِ كلِّ واحدةٍ.

قولُه: (عَلَى ذلِكَ) أي: المعارَضةِ.

قولُه: (افتِرَاءٌ) الظَّاهرُ: مُفترًى.

قولُه: (للمُعَاوَنَة) لعجزِهِم، وقد عرَفتُم مِن أنفُسِكُم القصُورَ عن المعارَضةِ.

قولُه: (فِي المُرائِينَ) قالَه ابنُ عبَّاسٍ ومجاهدٌ والضَّحاكُ وغيرُهم[1]، وقيل: في المنافقينَ[2]، وقال أنسُ بنُ مالكٍ[3] والحسنُ[4]: في اليهودِ والنَّصارى.

قولُه: (بأَن نُوسِعَ) وبالصِّحةِ والرِّياسةِ وكثرَةِ الأولادِ ودَفعِ المكارِه وطُولِ الأعمارِ.

---

(١) ذكره المصنف بالمعنى، فقد جاء عنهم بأطول من ذلك.
فرواه الطبري في «تفسيره» (١٨٠١٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٧٣٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما.
ورواه الطبري في «تفسيره» (١٨٠٢٧) عن مجاهد.
ورواه الطبري في «تفسيره» (١٨٠٢٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٧٤٠) عن الضحاك.

(٢) ذكره أبو الليث في «بحر العلوم» (٢/ ١٤١) من قول الحسن.

(٣) رواه أبو داود في «الزهد» (٣٦٩)، والطبري في «تفسيره» (١٨٠٢٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٧٣٦).

(٤) لم أقف عليه مسنداً.

أي: في الدنيا ﴿لا يُبخَسُونَ﴾: يُنقَصُونَ شيئًا. ١٦ ـ ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ لَيسَ لَهُم في الآخِرةِ إلاّ النّارُ، وحَبِطَ﴾: بَطَلَ ﴿ما صَنَعُو﴾هُ ﴿فِيها﴾ أي: في الآخِرة فلا ثواب له، ﴿وباطِلٌ ما كانُوا يَعمَلُونَ﴾.

١٧ ـ ﴿أفمَن كانَ علَى بَيِّنةٍ﴾: بيانٍ ﴿مِن رَبِّهِ﴾ ـ وهو النبيُّ أو المؤمنون ـ وهي القرآن، ﴿ويَتلُوهُ﴾: يتبعه ﴿شاهِدٌ﴾ يُصدّقه ﴿مِنهُ﴾ أي: من اللهِ ـ وهو جِبريلُ ـ ﴿ومِن قَبلِهِ﴾ أي: القُرآنِ ﴿كِتابُ مُوسَى﴾: التوراة شاهد له أيضًا ﴿إمامًا ورَحْمةً﴾: حالٌ كمن ليس كذلك؟ لا. ﴿أُولئِكَ﴾ أي: من كان على بيّنة ﴿يُؤمِنُونَ بِهِ﴾ أي: بالقُرآن فلهم الجنّة، ﴿ومَن يَكفُرْ بِهِ مِنَ الأحزابِ﴾: جميع الكُفّار ﴿فالنّارُ مَوعِدُهُ. فلا تَكُ في مِرْيةٍ﴾: شكٍّ ﴿مِنهُ﴾: من القُرآن. ﴿إنَّهُ الحَقُّ مِن رَبِّكَ، ولكِنَّ أكثَرَ النّاسِ﴾ أي: أهلِ مكّة ﴿لا يُؤمِنُونَ﴾.

قولُه: (شَيئاً) مِن ثوابِ أعمالِهم.

قولُه تعَالى: (﴿إلَّا النَّارُ﴾) مُطلقاً في مُقابَلةِ ما عمِلوا؛ لأنَّهم استوفوا ما تقتَضيهِ صُورةُ أعمالِهم الحسَنةِ، وبقيَتْ لهم أوزارُ العزائمِ السَّيِّئةِ.

قولُه: (الآخِرَةِ) متعلِّقٌ «بطلَ» ويجوزُ التَّعلُّقُ بـ﴿صنعوا﴾ على أنَّ الضَّميرَ للدُّنيا.

قولُه: (فَلا ثَوَابَ لهُ) أي: لِمَا صَنعُوا؛ يعني: لأنَّه لم يبقَ لهم ثوابٌ، أو لم يكُنْ؛ لأنَّهم لم يريدُوا بهِ وجْهَ اللهِ.

وقولُه تعَالى: (﴿وباطلٌ﴾) أي: في نفسِهِ؛ لأنَّه لم يعمَلْ على ما ينبغِي.

قولُه: (بَيَانٍ) أي: برهانٍ يدلُّه على الحقِّ والصَّوابِ فيما يأتيهِ ويذَرُه.

قولُه: (وهُو) أي: ﴿مِنْ﴾.

قولُه: (أَو المُؤمِنُونَ) وفي نسخةٍ: «والمؤمنونَ» فهو حكمٌ يعمُّ كلَّ مؤمنٍ مخلِصٍ.

قولُه: (وهِي) أي: البيِّنةُ.

قولُه: (القُرآنُ) وقيل: دليلُ العقلِ.

قولُه: (وهُو جبرِيلُ) أو القرآنُ.

قولُه: (حَالٌ) أي: كتاباً مؤتمًّا به في الدِّين ورحمةً على المنزلِ عليهم؛ لأنَّه الوصلةُ إلى الفَوزِ بخيرِ الدَّارَينِ.

قولُه: (كمَن ليسَ كذلِكَ) أو كمَن كان يريدُ الحياةَ الدُّنيا.

قولُه: (مِنَ القُرآنِ) أو الموعدِ.

١٨ ـ ﴿ومَن﴾ أي: لا أحدَ ﴿أظلَمُ مِمَّنِ افترَى علَى اللهِ كَذِبًا﴾ بنِسبة الشريك والولد إليه؟ ﴿أُولئِكَ يُعرَضُونَ علَى رَبِّهِم﴾ يوم القِيامة في جُملة الخلق، ﴿ويَقُولُ الأشهادُ﴾: جمع شاهد، وهم الملائكة يشهدون للرسل بالبلاغ وعلى الكُفّار بالتكذيب: ﴿هؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا علَى رَبِّهِم. ألا لَعنَةُ اللهِ علَى الظَّالِمِينَ﴾: المُشركِين، ١٩ ـ ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾: دِين الإسلام، ﴿ويَبغُونَها﴾: يطلبون السبيل ﴿عِوَجًا﴾: مُعْوَجّة، ﴿وهُم بالآخِرةِ هُم﴾: تأكيد ﴿كافِرُونَ﴾.

٢٠ ـ ﴿أُولئِكَ لَم يَكُونُوا مُعجِزِينَ﴾ اللهَ ﴿في الأرضِ، وما كانَ لَهُم مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: غيرِه ﴿مِن أَولِياءَ﴾: أنصارٍ يمنعونهم من عذابه، ﴿يُضاعَفُ لَهُمُ العَذابُ﴾ بإضلالهم غيرَهم، ﴿ما كانُوا يَستَطِيعُونَ السَّمعَ﴾ للحقّ، ﴿وما كانُوا يُبصِرُونَـ﴾ـهُ، أي: لفَرط كراهتهم له كأنهم لا يستطيعون ذلك. ٢١ ـ ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أنفُسَهُم﴾ لمصيرهم إلى النار المُؤبّدة عليهم، ﴿وضَلَّ﴾: غاب ﴿عَنهُم ما كانُوا يَفتَرُونَ﴾ على الله من دعوى الشريك، ٢٢ ـ ﴿لاَ جَرَمَ﴾: حقًّا ﴿أَنَّهُم في الآخِرةِ هُمُ الأخسَرُونَ﴾.

قولُه: (في جُملةِ الخَلْقِ) بأن يحاسَبوا أو تُعرَضَ أعمالُهم.

قولُه: (جمعُ شَاهِدٍ) كأصحابٍ، أو شهيدٍ كأشرافٍ.

قولُه: (وهُم المَلائِكَةُ) أو هم النَّبيُّون، أو جوارِحُهم.

قولُه: (مُعوَجَّةً) أي: يصِفُونها بالانحرافِ عن الحقِّ والصَّوابِ، أو يبغُونَ أهلَها أن يعوَجُّوا بالرِّدَّة.

قولُه: (تأكِيْدٌ) لكفرِهم والجملةُ حالٌ.

قولُه: (اللهَ) أن يُعاقبَهُم في الدُّنيا.

قولُه: (من عَذَابِهِ) ولكنَّه أخَّرَ عقابَهم إلى هذا اليومِ ليكونَ أشدَّ وأدوَمَ.

قولُه: (لَهُ) للحقِّ.

قولُه: (ذلكَ) أي: السَّمعَ.

قولُه: (لمصِيرِهِم) أو باشتراءِ عبادةِ الآلهةِ بعبادةِ اللهِ.

قولُه: (الشَّرِيكِ) وشفاعتِهِ، أو خسِرُوا بما بذَلوا وضاعَ عنهُم ما حصَّلوا، فلم يبْقَ معهم سِوى الحسْرةِ والنَّدامَةِ.

قولُه: (حقًّا) يعنِي: أنَّه لفظٌ مركَّبٌ بمعنَى حقًّا، وقيلَ: ﴿لا﴾ لنفي الفائدَةِ، و﴿جَرَمَ﴾ بمعنى: كسَبَ، تعليلٌ للنَّفيِ؛ أي: لا فائدةَ لهم؛ إذْ كسبُ كفرِهِم الخسارةُ، أو المعنى: لا بدَّ ولا محالةَ، أو لا انفصالَ ولا انقطاعَ. كذا أفادَه الفاضِلُ.

٢٣ ـ ٢٤ ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ، وأخبَتُوا﴾: سكنوا واطمأنّوا أو أنابوا ﴿إِلَى رَبِّهِم أُولئِكَ أصحابُ الجَنَّةِ، هُم فِيها خالِدُونَ. مَثَلُ﴾: صِفةُ ﴿الفَرِيقَينِ﴾: الكُفّارِ والمُؤمنين ﴿كالأعمَى والأصَمِّ﴾ ـ هذا مَثَلُ الكافر ـ ﴿والبَصِيرِ والسَّمِيعِ﴾. هذا مَثل المُؤمن. ﴿هَل يَستَوِيانِ مَثَلاً﴾؟ لا. ﴿أفلا تَذَّكَّرُونَ﴾ فيه إدغام التاء في الأصل في الذال: تتّعظون؟

٢٥ ـ ﴿ولَقَد أرسَلْنا نُوحًا إِلَى قَومِهِ أَنِّي﴾ أي: بأني ـ وفي قراءة بالكسر على حذف القول ـ ﴿لَكُم نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾: بيّنُ الإنذارِ، ٢٦ ـ ﴿أَنْ﴾ أي: بأن ﴿لا تَعبُدُوا إلاّ اللهَ. إِنِّيَ أخافُ علَيكُم﴾، إن عبدتم غيره، ﴿عَذابَ يَومٍ أَلِيمٍ﴾: مؤلم في الدنيا والآخِرة. ٢٧ ـ ﴿فقالَ المَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَومِهِ﴾ وهم الأشرافُ: ﴿ما نَراكَ إلاّ بَشَرًا مِثلَنا﴾ ولا فضل لك علينا، ﴿وما نَراكَ اتَّبَعَكَ إلاّ الَّذِينَ هُم أراذِلُنا﴾: أسافِلُنا كالحاكة والأساكفة ﴿بادِيَ الرَّأيِ﴾، بالهمز وتركه، ....

قولُه: (فيهِ إِدْغامُ التَّاءِ) وقرأ حفصٌ وحمزةُ والكِسائيُّ بالتَّخفيفِ[١].

قولُه: (بأَنِّي) أي: بدعواهُ أنِّي.

قولُه: (وفِي قِرَاءةٍ) لنافعٍ وعاصمٍ وابنِ عامرٍ وحمزةَ[٢].

قولُه: (عَلى حَذْفِ) الأولى: إرادَةِ.

قولُه: (بيِّنُ الإنذَارِ) فأبانَ لازمٌ، أو أُبيِّنُ لكُم موجِباتِ العذابِ ووَجهَ الخلاصِ.

قولُه: (أي: بأَنْ) بدلٌ من ﴿أني لكم﴾ أو مفعولُ ﴿مُبين﴾ ويجوزُ أن تكونَ مفسِّرةً متعلِّقةً بـ﴿أرسلنا﴾ أو بـ﴿نذير﴾.

قولُه: (وهُم) أي: ﴿الملأ﴾.

قولُه: (الأَشْرافُ) لأنَّهم يملؤونَ الأعيُنَ، أو المجالِسَ بخدَمِهم وحشَمِهم.

قولُه: (لا فَضْلَ) يخصُّكَ بالنُّبوَّةِ ووجوبِ الطَّاعةِ.

قولُه: (والأَسَاكِفةِ[٣]) والفقراءِ.

قولُه: (بالهَمْزِ) بَصريٌّ[٤].

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٧٢)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٠٨).

(٢) انظر المصادر السابقة: (ص: ٣٣٢)، (ص: ١٢٤).

(٣) هي جمع الإسكاف، وهو عند العرب: كل صانع سوى الخفاف، فإنه الأَسْكَف، كأحمد، وذلك إذا أرادوا معنى الإسكاف في الحضر. «تاج العروس» (٢٣/ ٤٥٠).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٣٢)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٣٨).

أي: ابتداءً من غير تفكّر فيك ـ ونصبُه على الظرف، أي: وقتَ حُدوثِ أوّل رأيهم ـ ﴿وما نَرَى لَكُم علَينا مِن فَضلٍ﴾ فتستحقّون به الاتّباع منّا، ﴿بَل نَظُنُّكُم كاذِبِينَ﴾ في دعوى الرسالة. أدرجوا قومَه معه في الخِطاب.

٢٨ ـ ﴿قالَ: يا قَومِ، أرَأيتُم﴾: أخبِروني ﴿إن كُنتُ على بَيِّنَةٍ﴾: بيان ﴿مِن رَبِّي، وآتاني رَحمَةً﴾: نُبوّة ﴿مِن عِندِهِ فعَمِيَتْ﴾: خَفِيَتْ ﴿علَيكُم﴾ ـ وفي قراءة بتشديد الميم والبناء للمفعول ـ ﴿أنُلزِمُكُمُوها﴾: أنُجبِرُكم على قَبولها، ﴿وأنتُم لَها كارِهُونَ﴾؟ لا نقدِرُ على ذلك، ٢٩ ـ ﴿ويا قَومِ، لا أسألُكُم علَيهِ﴾: على تبليغ الرسالة ﴿مالاً﴾ تُعطونيه ـ ﴿إنْ﴾: ما ﴿أجرِيَ﴾: ثوابي ﴿إلاّ علَى اللهِ ـ وما أنا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كما أمرتموني ـ ﴿إنَّهُم مُلاقُو رَبِّهِم﴾ بالبعث فيُجازيهم، ويأخذ لهم ممّن ظلَمَهم وطرَدَهم ـ

قولُه: (عَلى الظَّرفِ) على حذفِ المضافِ، والعاملُ ﴿اتبعكَ﴾.

قولُه: (في الخِطَابِ) أي: أنتَ في دعْوَى النُّبوَّةِ، وهُم في دعْوى العلمِ بصِدقِكَ، فغلَّبَ المخاطبَ على الغائبينَ، وكذا قولُه: ﴿وما نرى لكُم﴾ أي: لك ولمتَّبعيكَ.

قولُه: (بَيَانٍ) حجَّةٍ شاهدةٍ بصحَّةِ دعوَتي.

قولُه: (نُبوَّةً) أي: بإيتاءِ النُّبوَّة أو البيِّنةِ.

قولُه: (خفيَتْ) أي: البيِّنةُ عليكم فلم تهدِكُم، وتوحيدُ الضَّميرِ؛ لأنَّ البيِّنةَ في نفسِها هي الرَّحمةُ، أو لأنَّ خفاءَها يوجبُ خفاء النُّبوَّة، أو عمِيَتِ الرَّحمةُ لقُربِها، أو عمِيَتِ النُّبوَّةُ بعدَ البيِّنةِ، وحذفُها للاختصارِ، أو لكلِّ واحدةٍ منهما.

قولُه: (وفي قِرَاءةٍ) لحمزةَ والكِسائيِّ وحفصٍ[1].

قولُه: (عَلى قَبُولِهَا) أو أنُلزِمُكم على الاهتداءِ بها.

قولُه: (عَلى ذلِكَ) أي: الإلزامِ.

قولُه: (عَلى تبليغِ) وهو وإنْ لم يُذكَرْ فمعلومٌ ممَّا ذُكِرَ.

قولُه: (تُعطُونِيهِ) أي: جُعلاً وأجْراً.

قولُه: (فيُجَازِيهِم) فيفوزُونَ بقُربِهِ، فكيفَ أطرُدُهُم؟ أو فيُجازيهِم وهو أعلمُ بنيَّاتِهم، وأنا أحكمُ بالظَّاهرِ فلا أطرُدُهم لأنَّ الكفَّارَ طعنُوا في إخلاصِ المؤمنينَ.

---

(١) انظر المصادر السابقة.

﴿ولكنِّيَ أراكُم قومًا تَجهَلُونَ﴾ عاقبةَ أمركم، ٣٠ ـ ﴿ويا قَومِ، مَن يَنصُرُني﴾: يمنعُني ﴿مِنَ اللهِ﴾ أي: عذابِه، ﴿إن طَرَدتُهُم﴾؟ أي: لا ناصر لي. ﴿أفلا﴾: أفهلاّ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾، بإدغام التاء الثانية في الأصل في الذال، تتّعظون؟ ٣١ ـ ﴿ولا أقُولُ لَكُم: عِندِي خَزائنُ اللهِ. ولا﴾ إني ﴿أعلَمُ الغَيبَ، ولا أقُولُ: إنِّي مَلَكٌ﴾ بل أنا بشر مِثلكم، ﴿ولا أقُولُ لِلَّذِينَ تَزدَرِي﴾: تحتقر ﴿أعيُنُكُم: لَن يُؤتِيَهُمُ اللهُ خَيرًا. اللهُ أعلَمُ بما في أنفُسِهِم﴾: قلوبهم. ﴿إنِّيَ إذًا﴾: إن قلت ذلك ﴿لَمِنَ الظّالِمِينَ﴾.

٣٢ ـ ﴿قالُوا: يا نُوحُ، قَد جادَلتَنا﴾: خاصمتنا، ﴿فأكثَرتَ جِدالَنا. فائتِنا بِما تَعِدُنا﴾ به من العذاب، ﴿إن كُنتَ مِنَ الصّادِقِينَ﴾ فيه. ٣٣ ـ ﴿قالَ: إنَّما يأتِيكُم بِهِ اللهُ، إن شاءَ﴾ تعجيلَه لكم، فإنّ أمره إليه لا إليَّ، ﴿وما أنتُم بِمُعجِزِينَ﴾: بفائتِين اللهَ،..

قولُه: (عاقِبَةَ أمرِكُم) أو بلقاءِ ربِّكم، أو في التماسِ طردِهِم.

قولُه: (فهَلَّا) لعلَّه: (فألَّا) فصُحِّفَ؛ يعنِي: أصلُ ﴿أفَلا﴾ فألا، وقُدِّمَتْ همزةُ الاستفهامِ لصدارتِها، والجملةُ الاستفهاميَّةُ معطوفةٌ على ما قبلَهَا مِن بابِ عطفِ الجُملِ على الجُملِ، ولا يمكنُ تصحِيحُ كلامِ الشَّيخ بأنَّه إذا كان أصلُ ﴿أفلا﴾ فألا، و«ألا» يأتي للتَّحضيضِ، فيكونُ معناه: فهَلَّا؛ لأنَّ المرادَ بالأصلِ أصلُ التَّركيبِ، لا أصلُ الكلمةِ، فتأمَّلْ.

وفي نسخةٍ: «أفهَلَّا» ولا وجهَ له أصلاً، أو تقديرُ الآيةِ: أتُنكِرونَ وتُعرِضونَ فلا تتَّعظونَ؟ أو تأمرونَ بطرْدِهم فلا تذكرونَ لتعرِفُوا أنَّ التِماسَ طردِهم ليس بصوابٍ.

قولُه: (بإدغَامِ [التَّاء] الثَّانيَةِ) تقدَّم قريباً ومراداً قبلَه.

قولُه: (﴿خَزَائِنُ اللَّهِ﴾) أي: خزائنُ رزقهِ وأموالِهِ حتَّى جحَدتُم فضْلي.

قولُه: (إنِّي) إشارةٌ إلى أنَّه عطفٌ على ﴿عندي﴾ أي: ولا أقولُ: إنِّي أعلمُ الغيبَ حتَّى تكذِّبُوني استبعاداً.

وقولُه: (﴿ولا أقولُ إنِّي ملَكٌ﴾) حتَّى تقولوا: ما أنت إلَّا بشرٌ مثلُنا.

قولُه: (تحتَقِرُ) أي: ولا أقولُ في شأنِ مَن استرذَلتُموهُم لفقرِهم.

قولُه: (ذلكَ) أي: شيئاً مِن ذلك.

وقولُه: (﴿فأكثرْتَ﴾) أي: أطلتَه، أو أتيتَ بأنواعِهِ.

قولُه: (فيهِ) أي: في الوعيدِ والدَّعوَى؛ فإنَّ مناظرَتَك لا تؤثِّرُ فينا.

قولُه: (تعجِيْلَه) أو تأجِيلَه.

قولُه: (بفَائتِينَ اللهَ) بدفعِ العذابِ أو الهرَبِ منه.

٣٤ ـ ﴿ولا يَنفَعُكُم نُصحِيَ، إن أَرَدتُ أن أنصَحَ لكُم، إن كانَ اللهُ يُرِيدُ أن يُغوِيَكُم﴾ أي: إغواءكم. وجواب الشرط دلّ عليه «ولا يَنفعُكم نُصحي». ﴿هُوَ رَبُّكُم، وإلَيهِ تُرجَعُونَ﴾.

٣٥ ـ قال تعالى: ﴿أم﴾: بل أ ﴿يَقُولُونَ﴾ أي: كُفّارُ مكّة: ﴿افتراهُ﴾: اختلق مُحمّد القُرآنَ؟ ﴿قُلْ: إنِ افتَرَيتُهُ فعلَيَّ إجرامِي﴾: أي: عُقوبتُه، ﴿وأنا بَرِيءٌ مِمّا تُجرِمُونَ﴾: من إجرامكم في نِسبة الافتراء إليّ.

٣٦ ـ ﴿وأُوحِيَ إلَى نُوحٍ أنَّهُ لَن يُؤمِنَ مِن قَومِكَ إلاّ مَن قَد آمَنَ. فلا تَبتَئِسْ﴾: تحزنْ ﴿بِما كانُوا يَفعَلُونَ﴾ من الشِّرك، فدعا عليهم بقوله: «رَبِّ، لا تَذَرْ عَلَى الأرضِ» إلى آخره، فأجاب الله ـ تعالى ـ دُعاءه وقال: ٣٧ ـ ﴿واصنَعِ الفُلكَ﴾: السفينةَ ﴿بِأعيُنِنا﴾: بمرأى منّا وحِفظِنا ﴿ووَحْيِنا﴾: أمرِنا، ﴿ولا تُخاطِبْنِي في الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: كفروا بترك إهلاكهم. ﴿إنَّهُم مُغرَقُونَ﴾.

٣٨ ـ ﴿ويَصنَعُ الفُلكَ﴾ ـ حكايةُ حال ماضية ـ ﴿وكُلَّما مَرَّ علَيهِ مَلأٌ﴾: جماعة ﴿مِن قَومِهِ سَخِرُوا مِنهُ﴾: استهزؤوا به. ﴿قالَ: إن تَسخَرُوا مِنّا فإنّا نَسخَرُ مِنكُم كَما تَسخَرُونَ﴾، إذا نجونا وغرقتم. ٣٩ ـ ﴿فَسَوفَ تَعلَمُونَ مَن﴾: موصولةٌ مفعول العِلم ﴿يأتِيهِ عَذابٌ يُخزِيهِ، ويَحِلُّ﴾: ينزل ﴿علَيهِ عَذابٌ مُقِيمٌ﴾: دائم.

قولُه: (وجَوابُ الشَّرطِ) أي: الثَّاني، والتَّحقِيقُ أنَّ ما قبلَ الشَّرطِ الثَّاني شرطٌ ودليلُ جوابٍ، والجملةُ دليلُ جوابِ الثَّاني، وتقديرُ الكلامِ: إن كانَ اللهُ يريدُ أن يُغويَكُم فإنْ أردتُ أن أنصحَ لكُم لا ينفعُكُم نُصْحِي.

قولُه: (عُقُوبتُه) وقُرِئ: (أَجْرَامِي)(١) على الجمعِ.

قولُه: (أَمْرِنَا) أو وحينا إليك كيفَ تصْنعُها.

قولُه: (بتَركِ إهلَاكِهم) أي: لا تراجِعْني فيهم، ولا تدْعُني باستدفاعِ العذابِ عنهم.

(﴿إنهم مُغرَقون﴾) محكومٌ عليهم بالإغرَاقِ، فلا سبيلَ إلى كفِّهِ.

قولُه: (استَهْزَؤُوا بِهِ) لعملِهِ السَّفينةَ، فإنَّه كانَ يعملُها في برِّيَّةٍ بعيدَةٍ من الماءِ أوانَ عزَّتِهِ، وكانُوا يضحَكونَ منه ويقولونَ له: صِرْتَ نجَّاراً بعدَما كنتَ نبيًّا.

قولُه: (وغرِقْتُم) في الدُّنيا، وحُرِقتُم في العُقبَى.

قولُه: (مَوصُولَةٌ) يعنِي بها: إيَّاهُم، وبالعذابِ الغرَقَ.

قولُه: (دَائِمٌ) هو عذابُ النَّار.

---

(١) وهي قراءة شاذة، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ٦٤) حكاه الفراء.

٤٠ ـ ﴿حَتَّى﴾: غايةٌ للصنع ﴿إذا جاءَ أمرُنا﴾ بإهلاكهم، ﴿وفارَ التَّنُّورُ﴾ للخبّاز بالماء ـ وكان ذلك علامة لنُوح ـ ﴿قُلْنا: احمِلْ فِيها﴾: في السفينة ﴿مِن كُلٍّ زَوجَينِ﴾ أي: ذكرٍ وأُنثى، أي: من كُلّ أنواعهما ﴿اثنَينِ﴾ ذكرًا وأُنثى، وهو مفعولٌ ـ وفي القِصّة أنّ الله حشر لنُوح السباع والطير وغيرهما، فجعل يضرِب بيده في كُلّ نوع، فتقع يده اليُمنى على الذكر واليُسرى على الأُنثى، فيحملهما في السفينة ـ ﴿وأهلَكَ﴾ أي: زوجتَه وأولاده، ﴿إلاّ مَن سَبَقَ علَيهِ القَولُ﴾ أي: منهم بالإهلاك ـ وهو زوجته واعلةُ وولده كنعانُ بخلاف سامٍ وحامٍ ويافثَ، فحملهم وزوجاتِهم ثلاثةً ـ ﴿ومَن آمَنَ. وما آمَنَ مَعَهُ إلاّ قَلِيلٌ﴾. قيل: كانوا ستّة رجال ونساءهم. وقيل: جميع من كان في السفينة ثمانون، نصفهم رجال ونصفهم نساء.

قولُه: (غايَةٌ للصُّنْعِ) أي: لقولِه: ﴿ويصْنَعُ﴾ وما بينهما حالٌ من الضَّميرِ فيه، أو ﴿حتَّى﴾ هي التي يُبتدَأُ بعدَها الكلامُ.

قولُه: (بالمَاءِ) أي: نبعَ الماءُ فيه وارتفعَ، كالقدْرِ يفورُ، والتَّنُّورُ تنورُ الخُبزِ ابتدأَ منه على طريقِ خَرقِ العادةِ، وكانَ في الكوفَةِ في موضعِ مسجدِها، أو في الهندِ أربعينَ وردةً مِن أرضِ الجزيرَةِ، وقيل: التَّنُّور وجهُ الأرضِ، أو أشرفُ موضعٍ فيها.

قولُه: (وهُو مَفعُولٌ) وقرأ حفصٌ بتنوينِ ﴿كلٍّ﴾[1] أي: من كلِّ نوعٍ مِن الحيواناتِ المنتفعِ بها فـ﴿زَوجَين﴾ مفعولٌ و﴿اثنينِ﴾ تأكيدٌ.

قولُه: (أي: زَوجَتَه) عطفٌ على ﴿زَوجَينِ﴾ أو ﴿اثنين﴾.

قولُه: (وأَوْلَادَه) أي: بنيه ونساءهم.

قولُه: (أي: مِنهُم) أي: من أهلكَ.

قولُه: (بالإِهلَاكِ) متعلِّقٌ بالقولِ.

قولُه: (وهُوَ زوجَتُهُ) واعِلةُ ـ بالعينِ المهملةِ ـ أُمّ كنعَانَ، فإنَّهما كانا كافرَينِ[2].

وقولُه تعَالى: (﴿ومن آمن﴾) أي: والمؤمنينَ مِن غيرِهِم.

قولُه: (وقِيلَ) هذا مرويٌّ عن ابنِ عبَّاسٍ[3]، وأخرجَ ابنُ أبي حاتمٍ[4] في آثارٍ عن قتادةَ وكعبِ الأحبارِ

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٣٣)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٣٩).

(٢) وانظر: «التفسير الوسيط» (٢/ ٥٧٣)، و«أنوار التنزيل» (٣/ ١٣٥).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨١٧٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٨٦٥).

(٤) انظر: «تفسيره» (٦/ ٢٠٣١ ـ ٢٠٣٢).

٤١ ـ ﴿وقالَ﴾ نُوحٌ: ﴿اركَبُوا فِيها، بِاسمِ اللهِ مَجراها ومَرساها﴾، بفتح الميمين وضمّهما، مصدران أي: جريُها ورُسوُّها، أي: منتهى سيرها. ﴿إنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ حيثُ لم يُهلِكنا ـ ٤٢ ـ ﴿وهْيَ تَجري بِهِم في مَوجٍ كالجِبالِ﴾ في الارتفاع والعِظم ـ ﴿ونادَى نُوحٌ ابنَهُ﴾ كنعانَ، ﴿وكانَ في مَعزِلٍ﴾ عن السفينة: ﴿يابُنَيَّ، اركَبْ مَعَنا، ولا تَكُنْ مَعَ الكافِرِينَ﴾.

٤٣ ـ ﴿ قالَ: سآوِي إلَى جَبَلٍ، يَعصِمُنِي﴾: يمنعني ﴿مِنَ الماءِ. قالَ: لا عاصِمَ اليَومَ مِن أمرِ اللهِ﴾: عذابِه. ﴿إلاّ﴾: لكن ﴿مَن رَحِمَ﴾ اللهُ فهو المعصوم. قال تعالى: ﴿وحالَ بَينَهُما المَوجُ، فكانَ مِنَ المُغرَقِينَ﴾.

ومحمَّدِ بنِ عبَّادِ بن جعفرٍ ومطرٍ وغيرِهم أنَّه كانَ معه اثنانِ وسبعونَ مؤمناً؛ هو وزوجتُه وأولادُه الثَّلاثةُ وزوجاتُهم، وأنَّه ركبَها في عَشْرٍ خلونَ من رجبٍ، ونزلَ عنها في عشْرٍ خلونَ من محرَّمٍ، كذا في «المبهَماتِ»[1].

قولُه: (بفَتحِ المِيمَينِ) أمَّا فتحُ الأَولى معَ إمالةِ الرَّاء فلحمزةَ والكِسائيِّ وحفصٍ[2]، وأمَّا فتحُ الثَّانيةِ فشاذٌّ[3].

قولُه: (مَصْدَرانِ) أي: اركبُوا فيها قائلينَ بسمِ اللهِ وقتَ إجرائِهَا وإرسائِهَا.

قولُه: (أي: مُنتَهَى سَيْرِها) تفسيرٌ لـ«رسوِّها».

قولُه: (فِي الارتِفَاعِ) الموج ما يرتفِعُ مِن الماءِ عندَ اضطرابِهِ.

قولُه: (كَنْعَانَ) وقيل: يامَ.

قولُه: (عن السَّفِينَةِ) أو عن أبيهِ، أو عن دينِهِ.

وقولُه: (﴿يَا بُنيَّ﴾) بفتحِ الياءِ عاصمٌ، وبإدغامِ الباءِ في الميمِ قالونُ والبزِّيُّ وخلَّادٌ بخُلفِهم وأبو عَمرٍو وعاصمٌ والكِسائيُّ[4].

قولُه: (يمنَعُني) أي: مِن الماءِ أن يُغرِقَني.

قولُه: (لكِنْ) يعني: الاستثناءُ منقطعٌ، أو التَّقديرُ: لا عاصمَ إلَّا الرَّاحمُ؛ وهو اللهُ تعالى.

(قالَ تعَالى: ﴿وحال بينهما﴾) أي: بينَ نوحٍ وابنِه، أو بينَ ابنِهِ والجبلِ.

---

(١) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ٥٥).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٣٣)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٤٠).

(٣) انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٢٣٥) ونسبت للحسن وقتادة والأعمش والمفضل وزيد بن أسلم.

(٤) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٤٥، ١٢٤)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ١١٢، ٣٣٠).

٤٤ ـ ﴿وقِيلَ: يا أرضُ، ابلَعِي ماءَكِ﴾ الذي نبع منك ـ فشربَتْه دُون ما نَزل من السماء فصار أنهارًا وبحارًا ـ ﴿ويا سَماءُ، أقلِعِي﴾: أمسِكي عن المطر. فأمسكتْ، ﴿وغِيضَ﴾: نَقَص ﴿الماءُ، وقُضِيَ الأمرُ﴾: تمّ أمر هلاك قوم نُوح، ﴿واستَوَتْ﴾: وقفَتِ السفينةُ ﴿علَى الجُودِيِّ﴾: جبل بالجزيرة بقرب المَوصل، ﴿وقِيلَ: بُعْدًا﴾: هلاكًا ﴿لِلقَومِ الظّالِمِينَ﴾: الكافرين.

٤٥ ـ ﴿ونادَى نُوحٌ رَبَّهُ، فقالَ: رَبِّ، إنَّ ابنِي﴾ كنعانَ ﴿مِن أهلِي﴾، وقد وعدتَني بنجاتهم، ﴿وإنَّ وَعدَكَ الحَقُّ﴾ الذي لا خُلف فيه، ﴿وأنتَ أحكَمُ الحاكِمِينَ﴾: أعلَمهم وأعدَلهم.

٤٦ ـ ﴿قالَ﴾ تعالى: ﴿يا نُوحُ، إنَّهُ لَيسَ مِن أهلِكَ﴾ الناجين، أو من أهلِ دِينك. ﴿إنَّهُ﴾ أي: سُؤالَك إيّاي بنجاته ﴿عَمَلٌ غَيرُ صالِحٍ﴾. فإنه كافر، ولا نجاة للكافرين. وفي قراءةٍ بكسر ميمِ «عَمِلَ»:.........

قولُه: (نبَعَ مِنْكِ) أي: كوني بالعَةً، فالأمرُ للتَّكوينِ.

قولُه: (نَقَصَ) الأولى ضبطُه بالمجهولِ. قال البيضاويُّ[1]: والآيةُ في غايةِ الفصاحةِ لفخامةِ لفظِهَا، وحُسنِ نظمِهَا، والدِّلالةِ على كُنهِ الحالِ مع الإيجازِ الخالي عن الإخلالِ، وإيرادِ الأخبارِ على البناءِ للمفعولِ دالَّةً على تعظيمِ الفاعلِ، وأنَّه متعيِّنٌ في نفسِهِ مستَغنٍ عن ذكرِهِ؛ إذ لا يذهبُ الوَهمُ إلى غيرِه للعلمِ بأنَّ مثلَ هذه الأفعالِ لا يقدِرُ عليها سوى الواحدِ. انتهى.

رُوِيَ: أنَّ العربَ كانُوا قد علَّقوا القصائدَ السَّبعَ على بابِ الكعبةِ، ويقولون: لا نُنزِلُها حتَّى نطَّلعَ على ما هو أفصَحُ منها، وكانوا يعاندونَ في أفصحيَّةِ ما نزلَ مِن آياتِ القرآنِ حتَّى نزلَتْ هذه الآيةُ، فلم يبقَ لهم طريقٌ إلى العنادِ وأذعَنوا لها لِما أدرَكوا مِن كمالِ بلاغتِها، وأنت تعلمُ أنَّ الفضلَ هو ما شَهِدَتْ به الخصُومُ والأعداءُ، كذا أفادَه الكافِيَجيُّ.

قولُه: (يَا ﴿رَبِّ﴾) أي: أرادَ نوحٌ نداءَهُ بدليلِ عطفِ قولِه: ﴿فقال رب﴾ فإنَّه للنِّداءِ.

قولُه: (لَا خُلفَ فيهِ) وقد وعدْتَ أن تُنجِّيَ أهلِي، فما حالُه؟ أو فما له لم ينجُ؟ ويجوزُ أن يكونَ هذا النِّداءُ قبلَ غرقِهِ.

قالَ تعَالى: (﴿غير صالح﴾) أي: فاسدٌ، أو التَّقديرُ: إنَّه؛ أي: ابنُك ذو عَملٍ فاسدٍ، فجعلَ ذاتَه ذاتَ العَملِ مبالغةً.

قولُه: (وفِي قِرَاءةٍ) للكِسائيِّ[2].

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١٣٦).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٣٤)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٤١).

فعلٌ، ونصبِ «غيرَ» فالضمير لابنه. ﴿فلا تَسأَلْنِي﴾ ـ بالتشديد والتخفيف ـ ﴿ما لَيسَ لَكَ بِهِ عِلمٌ﴾ من إنجاء ابنك. ﴿إنِّيَ أعِظُكَ أن تَكُونَ مِنَ الجاهِلِينَ﴾، بسؤالك ما لم تعلم. ٤٧ ـ ﴿قالَ: رَبِّ، إنِّي أعُوذُ بِكَ﴾ من ﴿أن أسأَلَكَ ما لَيسَ لِي بِهِ عِلمٌ، وإلاَّ تَغفِرْ لِي﴾ ما فَرَط منّي ﴿وتَرحَمْنِي أكُنْ مِنَ الخاسِرِينَ﴾.

٤٨ ـ ﴿قِيلَ: يا نُوحُ، اهبِطْ﴾: انزِلْ من السفينة ﴿بِسَلامٍ﴾: بسلامة أو بتحيّة ﴿مِنّا وبَرَكاتٍ﴾: خيرات ﴿عَلَيكَ، وعَلَى أُمَمٍ مِمَّن مَعَكَ﴾ في السفينة، أي: من أولادهم وذُرّيّتهم ـ وهم المؤمنون ـ ﴿وأُمَمٌ﴾، بالرفع، ممّن معك ﴿سَنُمَتِّعُهُم﴾ في الدنيا، ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِنّا عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخِرة. وهم الكُفّار.

٤٩ ـ ﴿تِلكَ﴾ أي: هذه الآياتُ المُتضمّنة قِصّةَ نُوح ﴿مِن أنباءِ الغَيبِ﴾: أخبارِ ما غاب عنك،....

قولُه: (ونَصبِ (غيرَ)[1]) أي: عمِلَ عملاً غيرَ صالحٍ.

قولُه: (بالتَّخفيفِ) أبو عَمرٍو وكوفيٌّ، والباقونَ بالتَّشديدِ، والمكِّيُّ فتحَ النُّونَ، وأثبتَ الياءَ أبو عَمرٍو وورشٌ وصلاً[2].

قالَ تعالى: (﴿إني أعظك أن تكون﴾) أي: مانعاً أو كراهةَ، أو لئلَّا.

قولُه: (بسُؤالِكَ) لأنَّ الاستثناءَ لمن سبقَ عليه القولُ مِن أهلِهِ؛ قد دلَّ على الحالِ، وأغناه عن السُّؤالِ، لكنْ شغَلَه حبُّ الولدِ عنه حتَّى اشتبَه الأمرُ عليهِ.

قولُه: (مِن ﴿أن أسألَكَ﴾) فيما يُستقبَلُ.

قولُه: (مَا فرَطَ) أي: سبقَ من السُّؤالِ (﴿وترحَمْني﴾) بالتَّوبةِ والتفضُّلِ عليَّ.

قولُه: (بِسَلَامةٍ...) إلخ؛ أي: مُسلَّماً من المكارِه، أو مُسلَّماً عليكَ.

وقولُه تعالى: (﴿منا﴾) أي: من جهتِنا.

قولُه: (خَيرَاتٍ) أو زياداتٍ في نسلِكَ حتَّى تصيرَ آدمَ ثانياً، أو مباركاً عليك.

قولُه: (مِن أولَادِهِم) الضَّميرُ لـ﴿من معك﴾ أي: ﴿على أممٍ﴾ ناشئةٍ ﴿ممَّن معَكَ﴾ فـ﴿مِنْ﴾ ابتدائيَّةٌ.

قولُه: (وهُم) يعني: الأولادَ والذُّرِّيَّةَ، المرادُ بهم: المؤمنُونَ؛ لقولِه تعالى: ﴿وأممٌ﴾.

قولُه: (وهُم الكفَّارُ) من ذرِّيَّةِ مَن معه.

قولُه: (أخبَارِ) أي: بعضُها.

---

(١) انظر المصادر السابقة.

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٣٥، ٣٣٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٤٣، ٣٤٤).

﴿نُوحِيها إِلَيكَ﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿ما كُنتَ تَعلَمُها أنتَ ولا قَومُكَ مِن قَبلِ هذا﴾ القُرآنِ. ﴿فاصبِرْ﴾ على التبليغ وأذى قومك كما صبر نُوح. ﴿إِنَّ العاقِبةَ﴾ المحمودةَ ﴿لِلمُتَّقِينَ﴾.

٥٠ ـ ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إِلَى عادٍ أخاهُم﴾ من القبيلة ﴿هُودًا. قالَ: يا قَوم، اعبُدُوا اللهَ﴾: وحِّدوه ـ ﴿ما لَكُم مِن﴾: زائدةٌ ﴿إِلـٰـهٍ غَيرُهُ. إنْ﴾: ما ﴿أنتُم﴾ في عِبادتكم الأوثانَ ﴿إلاّ مُفتَرُونَ﴾: كاذبون على الله.

٥١ ـ ٥٢ ـ ﴿يا قَومِ، لا أسأَلُكُم عليهِ﴾: على التوحيد ﴿أجرًا. إنْ﴾: ما ﴿أجرِيَ إلاّ على الَّذِي فَطَرَنِي﴾: خلقني. ﴿أفلا تَعقِلُونَ؟ ويا قَومِ، استَغفِرُوا رَبَّكُم﴾ من الشِّرك، ﴿ثُمَّ تُوبُوا﴾: ارجِعوا ﴿إِلَيهِ﴾ بالطاعة، ﴿يُرسِلِ السَّماءَ﴾: المطرَ ـ وكانوا قد مُنِعوه ـ ﴿عليكُم مِدرارًا﴾: كثير الدُّرور، ﴿ويَزِدْكُم قُوَّةً إِلَى﴾: معَ ﴿قُوَّتِكُم﴾ بالمال والولد، ﴿ولا تَتَوَلَّوا مُجرِمِينَ﴾: مُشرِكِينَ.

قولُه: (المَحمُودَةَ) في الدُّنيا بالظَّفرِ، وفي الآخرةِ بالفوزِ.

قولُه: (أَرسَلْنا) إشارةٌ إلى أنَّه عطفٌ على قولِه: ﴿نوحاً﴾ و﴿هوداً﴾ عطفُ بيانٍ.

قولُه: (وحِّدُوهُ) وفي البيضاويِّ[1] كما في نسخةٍ هنا: «وحِّده».

قولُه: (زائِدَةٌ) و﴿غيرُه﴾ بالرَّفع بدلٌ من محلِّهِ، وقرأَ الكِسائيُّ[2] بالجرِّ صفةً لـ﴿إله﴾ وتعبيرُ البيضاويِّ[3] بـ«قرئ» غيرُ مناسبٍ.

قولُه: (عَلَى التَّوحِيدِ) أي: تعليمهِ وتبليغهِ.

قولُه: (خَلَقَني) خاطبَ كلُّ رسولٍ به قومَه إزاحةً للتُّهمةِ وتمحِيضاً للنَّصيحةِ؛ فإنَّها لا تؤثِّرُ ما دامَتْ مَشُوبةً بالطَّمعِ.

قولُه: (قَد مُنِعُوهُ) وأُعقِمَ أرحامُ نسائهم ثلاثَ سنينَ.

قولُه: (كَثِيرَ الدُّرُورِ) أي: السَّيلانِ.

قولُه: (والوَلَدِ) والشَّدِّ في الأعضاءِ. وقال الحسنُ بنُ عليٍّ[4]: مَن كثُرَ استغفارُه كثُرَ نسلُه.

قولُه: (مُشرِكِينَ) أي: لا تُعرِضُوا عمَّا أَدعُوكُم إليهِ مصرِّين على إجرامِكُم.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١٣٧).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٨٤).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١٣٧).

(٤) لم أقف عليه، وذكره الزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٤٠٢) بأتم مما هنا، ولم أقف عليه مسنداً أيضاً.

٥٣ ـ ٥٤ ـ ﴿قالُوا: يا هُودُ، ما جِئتَنا بِبَيِّنَةٍ﴾: بُرهانٍ على قولك، ﴿وما نَحنُ بِتارِكِي آلِهَتِنا عَن قَولِكَ﴾ أي: لقولك، ﴿وما نَحنُ لَكَ بِمُؤمِنِينَ. إنْ﴾: ما ﴿نَقُولُ﴾ في شأنك ﴿إلاّ: اعتَراكَ﴾: أصابك ﴿بَعضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ﴾، فخَبَّلك لِسبّك إياها فأنت تهذي.

﴿قالَ: إنِّي أُشهِدُ اللهَ﴾ عليَّ، ﴿واشهَدُوا أنِّي بَرِيءٌ مِمّا تُشرِكُونَ﴾ ـهُ به ٥٥ ـ ﴿مِن دُونِهِ فكِيدُونِي﴾: احتالوا في هلاكي ﴿جَمِيعًا﴾ أنتم وأوثانكم، ﴿ثُمَّ لا تُنظِرُونِ﴾: تُمهِلُونِ. ٥٦ ـ ﴿إنِّي تَوَكَّلتُ علَى اللهِ رَبِّي ورَبِّكُم. ما مِن﴾: زائدةٌ ﴿دابّةٍ﴾: نَسَمة تدِبّ على الأرض ﴿إلاّ هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها﴾ أي: مالكُها وقاهرها. فلا نفع ولا ضرر إلاّ بإذنه. وخَصَّ الناصيةَ بالذكر لأنّ مَن أُخِذ بناصيته يكون في غاية الذلّ. ﴿إنَّ رَبِّي علَى صِراطٍ مُستَقِيمٍ﴾ أي: طريق الحقّ والعدل. ٥٧ ـ ﴿فإن تَوَلَّوا﴾، فيه حذف إحدى التاءين، أي: تُعرِضوا ﴿فقَد أبلَغتُكُم ما أُرسِلتُ بِهِ إلَيكُم، ويَستَخلِفُ رَبِّي قَومًا غَيرَكُم، ولا تَضُرُّونَهُ شَيئًا﴾ بإشراككم! ﴿إنَّ رَبِّي علَى كُلِّ شَيءٍ حَفِيظٌ﴾: رقيبٌ.

قولُه: (عَلى قَولِكَ) أي: على صحَّةِ دعواكَ، وهو لفَرطِ عنادِهِم وعدمِ اعتدادِهِم بما جاءَهُم مِن المعجِزاتِ.

قولُه: (لِقَولِكَ) أي: بتاركِي عبادَتِها لأجلِ قولكَ، أو صَادِرينَ عن قولكَ، حالٌ مِن الضَّميرِ في ﴿تاركي﴾.

قولُه: (أَصَابكَ) أي: إلَّا قولُنا: ﴿اعتراك﴾.

قولُه: (تَهذِي) أي: تتكلَّمُ بالهذَيان.

قولُه: (عَلى الأَرْضِ) أو غيرِها.

قولُه: (غَايَةِ الذُّلِّ) والانقيادِ، فالأخذُ بالنَّواصِي تمثيلٌ لذلكَ، ومِن اللَّطائفِ استخراجُ بعضِ الأُدَباءِ مِن هذه الآيةِ الهاديةِ مُعَمًّى[1] باسمِ هُودٍ، فإنَّ لفظَ ﴿هو﴾ إذا أخذَ ناصيةَ الدَّابةِ التي هي الدَّالُ تحصلُ: هودٌ، وهذا تصديقٌ لقولِ حبرِ الأمَّةِ[2]:

جَمِيعُ العِلْمِ فِي القُرْآنِ لكِنْ ... تَقَاصَرَ عنْهُ أفْهَامُ الرِّجَالِ

قولُه: (أي: طَرِيقِ الحَقِّ) أي: دالٌّ عليه، أو أنَّه على الحقِّ والعدلِ، لا يضيعُ عندَه معتَصمٌ، ولا يفوتُه ظالمٌ.

قولُه: (بإِشْراكِكُم) الأظهرُ: بإعراضِكُم.

---

(١) المعمى قريب من اللغز، والفرق بينهما: بأن الكلام إذا دل على اسم شيء من الأسماء بذكر صفات له تميزه عما عداه، كان ذلك لغزاً، وإذا دل على اسم خاص بملاحظة كونه لفظاً بدلالة بينة تؤثره، سمي ذلك معمى. «معجم الفروق اللغوية» (ص: ٤٦٦).

(٢) اجتهدت في طلبه مسنداً، فلم أقف عليه.

٥٨ ـ ﴿ولَمّا جاءَ أمرُنا﴾: عذابنا ﴿نَجَّينا هُودًا والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ﴾: هِداية ﴿مِنّا، ونَجَّيناهُم مِن عَذابٍ غَلِيظٍ﴾: شديد. ٥٩ ـ ﴿وتِلكَ عادٌ﴾ إشارةٌ إلى آثارهم، أي: فسيحوا في الأرض، وانظروا إليها. ثم وصفَ أحوالهم فقال: ﴿جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِم، وعَصَوا رُسُلَهُ﴾ ـ جَمَعَ لأنّ من عصى رسولاً عصى جميع الرسل لاشتراكهم في أصل ما جاؤوا به، وهو التوحيد ـ ﴿واتَّبَعُوا﴾ أي: السَّفَلَةُ ﴿أمرَ كُلِّ جَبّارٍ عَنِيدٍ﴾: مُعارضٍ للحق من رُؤسائهم، ٦٠ ـ ﴿وأُتبِعُوا في هذِهِ الدُّنيا لَعْنَةً﴾ من الناس، ﴿ويَومَ القِيامَةِ﴾ لعنةً على رُؤوس الخلائق. ﴿ألا إنَّ عادًا كَفَرُوا﴾: جحدوا ﴿رَبَّهُم. ألا بُعدًا﴾ من رحمة الله ﴿لِعادٍ قَومِ هُودٍ﴾.

٦١ ـ ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلَى ثَمُودَ أخاهُم﴾ من القبيلة ﴿صالِحًا. قالَ: يا قَومِ، اعبُدُوا اللهَ﴾: وحِّدوه. ﴿مالَكُم مِن إلٰـهٍ غَيرُهُ. هُوَ أنشَأَكُم﴾: ابتدأ خلقكم ﴿مِنَ الأرضِ﴾ بخلق أبيكم آدم منها، ﴿واستَعمَرَكُم فِيها﴾: جعلكم عُمّارًا تسكنون بها..........................

قولُه: (عَذَابُنا) أو أمرُنا بالعذابِ.

قولُه: (هِدَايَةٍ) وكانُوا أربعةَ آلافٍ.

قولُه: (إِشَارَةٌ إِلَى آثَارِهِمْ) أو أَنَّثَ اسمَ الإشارةِ باعتبارِ القبيلَةِ.

قولُه: (مِنَ النَّاسِ) قال السُّدِّيُّ[1]: ما بُعِثَ مِن نبيٍّ بعدَ عادٍ إلَّا لُعِنُوا على لسانِهِ.

قولُه: (لَعنةً) أي: جُعِلَتِ اللَّعنةُ تابعةً لهم في الدَّارينِ.

قولُه: (جَحَدُوا) أو كفرُوا به، فحذفَ الجارَّ وأوصلَ الفعلَ، أو ﴿كفروا﴾ نعمَهُ.

قولُه: (مِن رحمَةِ اللهِ) دعاءٌ عليهِم بالهلاكِ، قيل: يُنادَى في القيامةِ بقولِه: ﴿ألا إن عاداً...﴾ إلخ.

وقولُه تعالى: (﴿قوم هود﴾) عطفُ بيانٍ لـ﴿عاد﴾ وفائدتُه تمييزُهُم من عادٍ الثَّانيةِ عادِ إرَمَ.

قولُه: (مِنَ القَبِيلةِ) أي: واحداً منهم.

قولُه: (تَسكُنُونَ بهَا) مدَّةَ عمُرِكم ثمَّ تتركُونَها لغيرِكُم، أو عمَّرَكُم فيها، واستبقاكُم من العُمرِ.

عن الضَّحَّاك[2]: أطالَ عمُرَكم فيها، فإنَّ الواحدَ منهم يعيشُ ثلاثمئةٍ إلى ألفِ سنةٍ.

قلتُ: فيه إشكالٌ؛ إذ المشهورُ أنَّ عمُرَ الدُّنيا سبعةُ آلافٍ[3].

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٩٧٩).

(٢) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٢/ ٤٥٤).

(٣) انظر: «الحاوي للفتاوى» (٢/ ١٠٥).

﴿فاستَغفِرُوهُ﴾ من الشِّرك، ﴿ثُمَّ تُوبُوا﴾: ارجِعوا ﴿إِلَيهِ﴾ بالطاعة. ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ﴾ من خلقه بعلمه، ﴿مُجِيبٌ﴾ لمن سأله. ٦٢ ـ ﴿قالُوا: يا صالِحُ، قَد كُنتَ فِينا مَرجُوًّا﴾: نرجو أن تكون سيّدًا ﴿قَبلَ هذا﴾ الذي صدر منك. ﴿أَتَنهانا أن نَعبُدَ ما يَعبُدُ آباؤُنا﴾ من الأوثان؟ ﴿وإنَّنا لَفِي شَكٍّ مِمّا تَدعُونا إِلَيهِ﴾ من التوحيد ﴿مُرِيبٍ﴾: مُوقعٍ في الرَّيب.

٦٣ ـ ﴿ قالَ: يا قَومِ، أَرَأيتُم إن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ﴾: بيان ﴿مِن رَبِّي، وآتانِي مِنهُ رَحمَةً﴾: نُبوّة، ﴿فَمَن يَنصُرُنِي﴾: يمنعني ﴿مِنَ اللهِ﴾ أي: عذابه، ﴿إن عَصَيتُهُ؟ فما تَزِيدُونَنِي﴾ بأمركم لي بذلك ﴿غَيرَ تَخسِيرٍ﴾: تضليل. ٦٤ ـ ﴿ويا قَومِ، هذِهِ ناقَةُ اللهِ لَكُم آيَةً﴾: حالٌ عاملُه الإشارة. ﴿فذَرُوها، تأكُلْ في أرضِ اللهِ، ولا تَمَسُّوها بِسُوءٍ﴾: عَقرٍ، ﴿فيأخُذَكُم عَذابٌ قَرِيبٌ﴾، إن عقرتمُوها. ٦٥ ـ ﴿فعَقَرُوها﴾: عقرها قُدارٌ بأمرهم، ﴿فقالَ﴾ صالح: ﴿تَمَتَّعُوا﴾: عيشوا ﴿في دارِكُم ثَلاثَةَ أيّامٍ﴾، ثمّ تَهلِكون. ﴿ذلِكَ وَعدٌ غَيرُ مَكذُوبٍ﴾ فيه.

٦٦ ـ ﴿فلَمّا جاءَ أمرُنا﴾ بإهلاكهم ﴿نَجَّينا صالِحًا والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ ـ وهم أربعة آلاف ـ ﴿بِرَحمَةٍ مِنّا، و﴾ نجّيناهم ﴿مِن خِزيِ يَومِئِذٍ﴾، بكسرِ الميم إعرابًا،........................

قولُه: (بعِلمِه) أو قريبُ الرَّحمة، أو ﴿قريبٌ﴾ يسمعَ دعاءَ مَن يدعُوهُ.

قولُه: (سَيِّداً) ومستشاراً في الأمُورِ، وأنْ تُوافِقَنا في الدِّين.

قولُه: (صَدرَ منكَ) فلمَّا سمعْنا هذا القولَ منك انقطَعَ رجاؤنا عنك.

قولُه: (منَ الأَوْثَانِ) على حكايةِ الحالِ الماضيَةِ.

قولُه: (بيَانٍ) وبصيرةٍ، وحرفُ الشَّكِّ باعتبارِ المخاطَبينَ.

قولُه: (تَضليلٍ) أي: غيرَ أن تُخسِرُوني بإبطالِ ما منحَنِي اللهُ به والتَّعرُّضِ لعذابِهِ، أو ﴿فما تزيدُونَنِي﴾ بما تقولونَ لي غيرَ أنْ أنسبَكُم إلى الخسرانِ.

قولُه: (الإشَارةُ) أي: معناها، و﴿لكم﴾ حالٌ منها تقدَّمَتْ عليها لتنكيرِها.

قولُه: (عقْرٍ) الأعمُّ: إثم.

قولُه: (فيهِ) فاتُّسِعَ فيه بإجرائهِ مجرَى المفعولِ به، أو وعدٌ غيرُ كذِبٍ على أنّه مصدرٌ.

= وقال السخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص: ٦٩٣): كل ما ورد مما فيه تحديد لوقت يوم القيامة على التعيين فإما أن يكون لا أصل له... أو لا يثبت إسناده.

وفتحِها بناءً لإضافته إلى مبنيٍّ وهو الأكثر ـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾: الغالب ـ ٦٧ ـ ﴿وأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيحةُ، فأصبَحُوا في دِيارِهِم جاثِمِينَ﴾: باركِين على الرُّكب، ميِّتينَ، ٦٨ ـ ﴿كأنْ﴾: مُخفَّفةٌ واسمُها محذوف، أي: كأنَّهم ﴿لَم يَغنَوا﴾: يُقيموا ﴿فِيها﴾: في ديارهم. ﴿ألا إنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُم. ألا بُعدًا لِثَمُودٍ﴾، بالصرفِ وتركِه على معنى الحيّ والقبيلة.

٦٩ ـ ﴿ولَقَد جاءَتْ رُسُلُنا إبراهِيمَ بِالبُشرَى﴾ بإسحاقَ ويعقوبَ بعده، ﴿قالُوا: سَلامًا﴾: مصدرٌ. ﴿قالَ: سَلامٌ﴾ عليكم. ﴿فما لَبِثَ أن جاءَ بِعِجلٍ حَنِيذٍ﴾: مَشويّ، ٧٠ ـ ﴿فلَمّا رأَى أيدِيَهُم لا تَصِلُ إلَيهِ نَكِرَهُم﴾ بمعنى: أنكرهم، ﴿وأَوجَسَ﴾: أضمرَ في نفسه ﴿مِنهُم خِيفةً﴾: خوفًا. ﴿قالُوا: لا تَخَفْ. إنّا أُرسِلْنا إلَى قَومِ لُوطٍ﴾ لنُهلكَهم..

قولُه: (وفتحِها) نافعٌ والكِسائيُّ[1].

قولُه: (وهوَ الأكثرُ) أي: استعمالاً.

قولُه: (وتَركِهِ) أي: فيهما، أمَّا الأوَّلُ فلحفصٍ وحمزةَ، وأمَّا الثَّاني فلغَيرِ الكِسائيِّ[2]، وعبارةُ البيضاويِّ[3] غيرُ محرَّرة.

قولُه: (بإسحَاقَ) وقيل: بهلاكِ قومِ لوطٍ.

قولُه: (مَصدَر) أي: لفعلٍ محذوفٍ تقديرُه: سلَّمنَا عليك سلاماً، ويجوزُ نصبُه بـ﴿قالوا﴾ على معنَى: ذكروا سلاماً.

قولُه: (علَيْكُم) أو عليكُم سلامٌ، وهو الأولى، أو أمرُكم سلامٌ، أو جوابي سلامٌ رفعَه إجابةً بأحسنَ مِن تحيَّتِهم، وقرأَ حمزةُ والكِسائيُّ: (سِلْمٌ)[4] وهما لغتانِ.

قولُه: (مَشوِيٌّ) بالرَّضْفِ، وهو الحجارةِ المُحْمَاة؛ أي: فما أبطأَ مجيئه بهِ، أو في المجيءِ بهِ.

قولُه: (أضمَرَ) أو أدركَ.

قولُه: (خَوْفاً) أن يريدُوا به مكرُوهاً.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٣٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٤٤).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٣٧)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٤٤، ٣٤٥).

(٣) وعبارته: نونه أبو بكر هاهنا، وفي النجم، والكسائي في جميع القرآن وابن كثير ونافع وابن عامر وأبو عمرو في قوله: ﴿ألا بعدا لثمود﴾ ذهابًا إلى الحي أو الأب الأكبر. انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١٤٠).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٣٧)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٤٦).

٧١ ـ ﴿وامرأتُهُ﴾ أي: امرأة إبراهيمَ سارةُ ﴿قائمةٌ﴾ تخدُمهم، ﴿فضَحِكَتْ﴾ استبشارًا بهلاكهم، ﴿فبَشَّرْناها بإسحاقَ، ومِن وَراءِ﴾: بعدِ ﴿إسحاقَ يَعقُوبُ﴾ ولدُه تَعيشُ إلى أن تراه.

٧٢ ـ ﴿قالَتْ: يا وَيلَتا﴾ ـ كلمةٌ تُقال عند أمر عظيم، والألف مبدلة من ياء الإضافة ـ ﴿أألِدُ وأنا عَجُوزٌ﴾ لي تسعٌ وتسعون سنة، ﴿وهذا بَعلِي شَيخًا﴾ له مِائَةٌ أو وعشرون سنة؟ ونصبُه على الحال والعامل فيه ما في «ذا» من الإشارة. ﴿إنَّ هذا لَشَيءٌ عَجِيبٌ﴾ أن يُولد ولد لهرِمَينِ. ٧٣ ـ ﴿قالُوا: أتَعجَبِينَ مِن أمرِ اللهِ﴾: قُدرته؟ ﴿رَحْمةُ اللهِ وبَرَكاتُهُ عليكُم﴾، يا ﴿أهلَ البَيتِ﴾: بيتِ إبراهيم. ﴿إنَّهُ حَمِيدٌ﴾: محمود ﴿مَجِيدٌ﴾: كريم.

قولُه: (تَخدُمُهم) أي: ﴿قائمةٌ﴾ على رؤوسِهم للخدمةِ، أو وراءَ السِّترِ تسمعُ محاورتَهم.

قولُه: (بهَلاكِهِم) أي: بهلاكِ أهلِ الفَسادِ، أو بزوالِ الخيفَةِ، وقيل: فحاضَتْ.

قولُه: (ولَدَه) نصبَه ابنُ عامرٍ وحمزةُ وحفصٌ بفعلٍ يفسِّرُه ما دلَّ عليه الكلامُ، وتقديرُه: ووهبْنَا من وراءِ إسحاقَ يعقوبَ، والباقونَ بالرَّفعِ[1] على أنَّه مبتدأٌ خبرُه الظَّرفُ؛ أي: ويعقوبُ مولودٌ مِن بعدِه، والاسمانِ يحتَمِلُ وقوعُهما في البشارَةِ كيحيى، ووقوعُهما في الحكايةِ بعدَ أن وُلِدا، فسُمِّيا به، وتوجِيهُ البِشارةِ إليها للدَّلالةِ على أنَّ الولدَ المبشَّرَ به منها، ولأنَّها كانت عَقِيمةً حَريصةً على الولدِ.

قولُه: (كلِمَةٌ) أي: يا عَجباً، وأصلُه في الشَّرِّ، فأُطلِقَ في كلِّ أمرٍ فظيعٍ.

قولُه: (مُبدَلَةٌ) وقُرِئَ بالياءِ[2] على الأصلِ.

قولُه: (أَو) في نسخَةٍ، وفي أخرى: «وعشرونَ».

قولُه: (منَ الإِشَارةِ) أي: معناها، أو مِن التَّنبيهِ.

قولُه: (أن يولَدَ) يعنِي: بهذا الولدِ مِن هَرِمَين، وهو استعجابٌ مِن حيثُ العادةُ دونَ القدرةِ، ولذلك قالوا مُنكِرِينَ عليها، فإنَّ خوارقَ العاداتِ باعتبارِ أهلِ بيتِ النُّبوةِ ليست بِبِدْعٍ، ولا يستغرِبُها عاقلٌ، فضلاً عمَّن نشأَتْ وشابت في ملاحظةِ الآياتِ.

قولُه: (يَا) إشارةٌ إلى أنَّه نصبٌ على النِّداءِ لقصدِ التَّخصيصِ، وقيل: نصبٌ على المدحِ.

قولُه: (مَحمُودٌ) فاعلُ ما يستوجِبُ به الحمدَ.

قولُه: (كَرِيمٌ) كثيرُ الخيرِ والإحسانِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٣٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٤٧).

(٢) أي: (يا ويلتي) وهي قراءة شاذة، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ٦٥) ونسبت للحسن وابن قطيب.

٧٤ ـ ٧٥ ـ ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إبراهِيمَ الرَّوعُ﴾: الخوف، ﴿وجاءَتْهُ البُشْرَى﴾ بالولد، أخذ ﴿يُجادِلُنا﴾: يُجادل رُسلنا ﴿في﴾ شأن ﴿قَومِ لُوطٍ. إنَّ إبراهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾: كثير الأناة ﴿أوّاهٌ مُنِيبٌ﴾: رَجّاع. فقال لهم: أتُهلِكون قرية فيها ثلاثُمِائَةِ مؤمنٍ؟ قالوا: لا. قال: أفتُهلكون قرية فيها مِائَتا مؤمنٍ؟ قالوا؟ لا. قال: أفتُهلِكون قرية فيها أربعون مؤمنًا؟ قالوا: لا. قال: أفتُهلِكون قرية فيها أربعةَ عشَرَ مؤمنًا؟ قالوا: لا. قال: أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد؟ قالوا: لا. «قالَ: إنَّ فِيها لُوطًا. قالُوا: نَحنُ أعلَمُ بِمَن فِيها» إلى آخره. فلمّا أطال مُجادلتهم قالوا: ٧٦ ـ ﴿يا إبراهيمُ، أعرِضْ عَنْ هذا﴾ الجدال. ﴿إنَّهُ قَد جاءَ أمرُ رَبِّكَ﴾ بهلاكهم، ﴿وإنَّهُم آتِيهِم عَذابٌ غَيرُ مَردُودٍ﴾.

٧٧ ـ ﴿ولَمّا جاءَت رُسُلُنا لُوطًا سِيءَ بِهِم﴾: حَزِنَ بسببهم، ﴿وضاقَ بِهِم ذَرعًا﴾ صدرًا لأنهم حِسانُ الوجوه في صُورة أضياف، فخاف عليهم قومه، ﴿وقالَ: هذا يَومٌ عَصِيبٌ﴾: شديد. ٧٨ ـ ﴿وجاءَهُ قَومُهُ﴾ لمّا علموا بهم، ﴿يُهرَعُونَ﴾: يُسرعون ﴿إلَيهِ، ومِن قَبلُ﴾: قبلِ مجيئهم ﴿كانُوا يَعمَلُونَ السَّيِّئاتِ﴾.......

قولُه: (بالوَلَدِ) بدلَ ﴿الرَّوع﴾ وهو الخوفُ الذي يُدخِلُ الرَّوعَ.

قولُه: (أخَذَ) أو أقبلَ، أو شرعَ؛ يعني: ﴿يجادلنا﴾ متعلِّقٌ بجوابِ ﴿لما﴾ فقامَ مقامَه ومجادلتُهُ إيَّاهم قولُه: ﴿إنَّ فيهَا لُوطاً﴾.

قولُه: (كَثِير الأَنَاةِ) أي: التَّأنِّي؛ يعنِي: غيرُ عَجُولٍ على الانتقامِ مِن المسيءِ.

وقولُه تعالى: (﴿أوَّاه﴾) كثيرُ التَّأَوُّه من الذُّنوبِ، والتَّأسُّف على الناسِ.

قولُه: (رَجَّاع) الظَّاهرُ: راجعٌ إلى اللهِ، والإنابةُ أعلى مِن الأَوْبةِ، وهي أعلى من التَّوبةِ، فالأخيرةُ مِن العوامِّ عن المحظوراتِ، والوسطى مِن المقتصِدينَ عن الغفلاتِ، والأُولى مِن السَّابقينَ عن الخطراتِ، والمقصودُ من بيانِ الصِّفاتِ المذكُورةِ له ﷺ بيانُ الحاملِ له على المجادلةِ، وهو رقَّةُ قلبِهِ، وفرطُ ترحُّمِهِ.

قولُه: (بهَلَاكِهِم) وهو أعلمُ بحالِهِم.

قولُه تعَالى: (﴿غير مردود﴾) أي: مصروفٍ بجدالٍ ولا دُعاءٍ ولا غيرِهما.

قولُه: (حَزِنَ) أي: ساءَهُ مجيئُهم.

قولُه: (لأَنَّهم حِسَانُ الوُجُوهِ) أي: جاؤوا في صُورةِ غلمَانٍ، فظنَّ أنَّهم أناسٌ، فخافَ عليهم أن يقصِدَهم قومُه فيعجزَ عن مُدافعتِهِم.

قولُه: (يُسرعُون) كأنَّهم يُدفَعونَ دفعاً لطلبِ الفاحشَةِ مِن أضيافِهِ.

هي إتيان الرجال في الأدبار. ﴿قالَ﴾ لوط: ﴿يا قومِ، هؤُلاءِ بَناتِي﴾ فتزوّجوهنّ، ﴿هُنَّ أطهَرُ لَكُم. فاتَّقُوا اللهَ ولا تُخزُونِ﴾: تَفضحوني ﴿في ضَيفِي﴾: أضيافي. ﴿أليسَ مِنكُم رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؟

٧٩ـ ﴿قالُوا: لَقَد عَلِمتَ: ما لَنا في بَناتِكَ مِن حَقٍّ﴾: حاجة، ﴿وإنَّكَ لَتَعلَمُ ما نُرِيدُ﴾ من إتيان الرجال.

٨٠ـ ﴿قالَ: لَو أنَّ لِي بِكُم قُوَّةً﴾: طاقة، ﴿أو آوِي إلى رُكنٍ شَدِيدٍ﴾: عشيرة تنصرني، لبطشتُ بكم.

فلمّا رأتِ الملائكة ذلك ٨١ـ ﴿قالُوا: يا لُوطُ، إنّا رُسُلُ رَبِّكَ. لَن يَصِلُوا إلَيكَ﴾ بسوء. ﴿فأسْرِ بِأهلِكَ بِقِطْعٍ﴾: طائفة ﴿مِنَ اللَّيلِ، ولا يَلتَفِتْ مِنكُم أحَدٌ﴾ لئلاّ يرى عظيمَ ما ينزل بهم، ﴿إلاّ امرأتُكَ﴾ ـ بالرفع بدل من «أحدٌ»، ....

قولُه: (هيَ إتيَانُ الرِّجَالِ) فـ﴿السَّيِّئاتِ﴾ بمعنى الفواحشِ، والفاحشةُ: إتيانُهم الدُّبُرَ؛ يعني: فتمرَّنوا بها ولم يستحيُوا منها، حتَّى جاؤوا مُجاهرينَ.

قولُه: (فتزوَّجُوهُنَّ) فدا بهنَّ أضيافَهُ كَرامةً وحميةً، وكانُوا يطلبُونَه قبلُ فلا يُجيبُهم لخُبثِهم وعدمِ كفاءتِهم.

قولُه: (يأمُرُ) الظَّاهرُ: يهتدِي إلى الحقِّ ويرعَوِي عن القُبحِ.

قولُه: (طَاقَةٌ) أي: لو قَوِيتُ بنفسِي على دفعِكُم.

قولُه: (عَشِيرةٍ) أي: إلى قويٍّ أتمنَّعُ به عنكم، شبَّهَه برُكنِ الجبلِ في شدَّتِه، ولذلك قالت الملائكةُ وقد وجدَتْ ـ أي: غضبَتْ ـ عليه: إنَّ ركنَكَ لشَديدٌ، وذلك لأنَّ كلامَه يدلُّ على إقناطٍ كلِّيٍّ مِن أن يكونَ له ناصرٌ، وقد قالَ تعالى: ﴿أليسَ اللهُ بكاف عبده﴾ [الزمر: ٣٦] ومِن ثَمَّ قال ﷺ: «رحمَ اللهُ أخِي لوطاً، كانَ يأْوي إلى رُكنٍ شَديدٍ»[(١)].

قالَ الطِّيبيُّ[(٢)]: كأنَّه ﷺ استغربَ هذا القولَ منه، وعدَّه بادِرةً منه؛ إذْ لا ركنَ أشدُّ ممَّا كان يأوي إليه.

قولُه: (لَبطَشتُ بكُمْ) ودفعتُكم.

قولُه: (طائِفَةٍ) قرأَ نافعٌ وابنُ كثيرٍ: (فاسرِ) بهمزِ الوصلِ، والباقونَ بهمزِ القطعِ حيثُ جاءَ[(٣)].

قولُه: (بالرَّفعِ) مكِّيٌّ وبَصريٌّ[(٤)].

---

(١) رواه البخاري (٣٣٧٢)، ومسلم (١٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «فتوح الغيب» (٨/ ١٤٨).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٣٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٤٧).

(٤) انظر المصادر السابقة.

وفي قراءة بالنصب استثناءً من الأهل، أي: فلا تُسْرِ بها ـ ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا ما أصابَهُم﴾. فقيل: لم يخرج بها. وقيل: خرجتْ والتفتتْ، فقالت: واقوماه. فجاءها حجر فقتلها. وسألهم عن وقت هلاكهم، فقالوا: ﴿إِنَّ مَوعِدَهُمُ الصُّبحُ﴾. فقال: أريد أعجَلَ من ذلك. قالوا: ﴿أَلَيسَ الصُّبحُ بِقَرِيبٍ﴾؟

٨٢ ـ ﴿فلَمّا جاءَ أمرُنا﴾ بإهلاكهم ﴿جَعَلْنا عالِيَها﴾ أي: قُراهم ﴿سافِلَها﴾ بأن رفعَها جِبريل إلى السماء وأسقطها مقلوبة إلى الأرض، ﴿وأمطَرْنا علَيها حِجارةً مِن سِجِّيلٍ﴾: طينٍ طُبِخ بالنار ﴿مَنضُودٍ﴾: متتابع، ٨٣ ـ ﴿مُسَوَّمَةً﴾: مُعلَمة عليها اسمُ من يُرمى بها، ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾: ظرف لها. ﴿وما هِيَ﴾: الحجارةُ أو بلادُهم ﴿مِنَ الظّالِمينَ﴾ أي: أهلِ مكّة ﴿بِبَعِيدٍ﴾.

٨٤ ـ ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى مَدْيَنَ أخاهُم شُعَيبًا. قالَ: يا قَومِ، اعبُدُوا اللهَ﴾: وحِّدوه ـ ﴿مالَكُم مِن إلـٰهٍ غَيرُهُ ـ ولا تَنقُصُوا المِكيالَ والمِيزانَ ـ إنِّيَ أراكُم بِخَيرٍ﴾: نِعمة تُغنيكم عن التطفيف، ﴿وإنِّيَ أخافُ علَيكُم﴾، إن لم تُؤمنوا، ﴿عَذابَ يَومٍ مُحِيطٍ﴾ بكم يُهلككم........................

قولُه: (مِنَ الأَهلِ) والأولى جعلُ الاستثناءِ في القراءتينِ عن قولِهِ: ﴿لا يلتفتْ﴾ كذا قالَه القاضِي[1]، فراجِعْه إن أردْتَ توضيحَهُ.

قولُه: (بِإِهلَاكِهِم) أو جاء عذابُنا.

قولُه: (بِأَنْ رفَعَها) فأسندَ إلى نفسِهِ من حيثُ إنَّه المسببُ تعظيماً للأمرِ.

قولُه: (إِلَى السَّمَاءِ) حتَّى سمعَ أهلُ السَّماء نُباحَ الكلابِ وصياحَ الدِّيَكةِ.

وقولُه تعَالى: (﴿وأمطرنا عليها﴾) أي: على المدُنِ، أو على شُذَّاذِها.

قولُه: (طِينٍ) مُتحجِّرٍ، وأصلُه «سَنْكِ كِل» معرَّبٌ[2].

قولُه: (مُتَتابِعٍ) في الإرسالِ.

قولُه: (لهَا) أيْ: لـ﴿مسوَّمة﴾ أي: في خزائنِهِ أو في حُكمِهِ.

قولُه: (الحِجَارةُ أو بلادُهُم) وتذكيرُ البعيدِ على تأويلِ الحجَرِ أو المكانِ.

قولُه: (الطَّفِيفِ) القليلِ الغيرِ التَّامِّ، وفي نسخةٍ: «التَّطفيفِ».

قولُه: (يُهلِكُكُم) لا يشُذُّ منه أحدٌ منكُم.

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١٤٣).

(٢) انظر: «لسان العرب» (١١/ ٣٢٧).

ووصفُ اليوم به مجاز، لوقوعه فيه ـ ٨٥ ـ ﴿ويا قوم، أَوفُوا المِكيالَ والمِيزانَ﴾: أتمّوهما ﴿بالقِسطِ﴾: بالعدل، ﴿ ولا تَبخَسُوا النّاسَ أشياءَهُم﴾: لا تَنقُصوهم من حقّهم شيئًا، ﴿ولا تَعثَوا في الأرضِ مُفسِدِينَ﴾ بالقتل وغيره. من: عَثِيَ، بكسر المُثلّثة: أفسدَ. ومفسدين: حال مؤكِّدة لمعنى عاملها: تعثَوا. ٨٦ ـ ﴿بَقِيَّةُ اللهِ﴾: رِزقُه الباقي لكم بعد إيفاء الكيل والوزن ﴿خَيرٌ لَكُم﴾ من البخس، ﴿إن كُنتُم مُؤمِنِينَ، وما أنا علَيكُم بِحَفِيظٍ﴾: رقيبٍ أُجازيكم بأعمالكم، إنما بُعثتُ نذيرًا.

٨٧ ـ ﴿قالُوا﴾ له استهزاء: ﴿يا شُعَيبُ، أَصَلَواتُكَ تأمُرُكَ﴾ بتكليفِ ﴿أن نَترُكَ ما يَعبُدُ آباؤُنا﴾ من الأصنام، ﴿أو﴾ نتركَ ﴿أن نَفعلَ في أموالِنا ما نَشاءُ﴾؟ المعنى: هذا أمر باطل، لا يدعو إليه داعي خير. ﴿إنَّكَ لَأنتَ الحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾. قالوا ذلك استهزاءً.

قولُه: (لوُقُوعِهِ فيهِ) والمرادُ: عذابُ يومِ القيامةِ، أو عذابُ الاستئصالِ.

قولُه: (أتمُّوهُما) ولو بزيادةٍ لا يتأتّى دونها.

قولُه: (لا تُنقِصُوهُم) تعميمٌ بعدَ تخصِيصٍ؛ فإنَّه أعمُّ مِن أن يكُونَ في المقدارِ أو في غيرِه كالمعدُودِ والمذرُوعِ والثَّمنِ، وكالخيانةِ والسَّرقةِ والغصْبِ.

قولُه: (حالٌ) وفائدةُ الحالِ إخراجُ ما يُقصَدُ به الإصلاحُ كما فعلَه الخَضِرُ، وقيل: المرادُ بالبَخْسِ: المَكسُ[1]، والعَثْوُ: السَّرقةُ، وقطعُ الطَّريقِ، والغارَةُ[2].

قولُه: (رِزْقُه الباقِي) الأولى: ما أبقاهُ لكم مِن الحلالِ بعدَ التَّنزُّه عمَّا حرَّمَ عليكم، وقيل: البقيَّةُ: الطَّاعةُ؛ لقولِه تعالى: ﴿والباقيات الصّالحات﴾[الكهف: ٤٦] وقُرِئ: (تقية اللهِ) بالتَّاءِ[3]، وهي تقواهُ التي تكُفُّ عن المعَاصِي.

قولُه: (أُجازِيكُم) أو أحفظُكُم عن القبائحِ.

قولُه: (بتكلِيفِ) فحذفَ المضافُ؛ لأنَّ الرَّجلَ لا يُؤمَرُ بفعلِ غيرِه، و«صلاتك» بالتَّوحيدِ حمزةُ والكِسائيُّ وحفصٌ[4].

قولُه: (نَترُكَ) إشارةٌ إلى أنَّه عطفٌ على ﴿ما﴾ أي: أو أن نترُكَ فعلَنا ما نشاءُ في أموالِنَا.

قولُه: (قالُوا ذلكَ) وقصَدُوا وصفَهُ بضدِّ ذلك مِن السَّفهِ والضَّلالِ.

---

(١) انظر: «تاج العروس» (١٥/ ٤٣٧).

(٢) انظر المصدر السابق: (٥/ ٣٠٥).

(٣) وهي قراءة شاذة، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ٦٥) ونسبت للحسن ومجاهد وابن عباس.

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣١٧)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٤٨).

٨٨ ـ ﴿قَالَ: يا قَومِ، أَرَأَيتُم إن كُنتُ علَى بَيِّنَةٍ مِن رَبِّي، ورَزَقَنِي مِنهُ رِزقًا حَسَنًا﴾: حلالاً، أفأشوبه بالحرام من البخس والتطفيف؟ ﴿وما أُرِيدُ أن أخالِفَكُم﴾: وأذهبَ ﴿إلَى ما أنهاكُم عَنهُ﴾ فأرتكبه ـ ﴿إن﴾: ما ﴿أُرِيدُ إلاّ الإصلاحَ﴾ لكم بالعدل ﴿ما استَطَعتُ، وما تَوفِيقِيَ﴾: قُدرتي على ذلك وغيره من الطاعات ﴿إلاّ بِاللهِ. علَيهِ تَوَكَّلتُ، وإلَيهِ أُنِيبُ﴾: أرجِعُ ـ ٨٩ ـ ﴿ويا قَومِ، لا يَجرِمَنَّكُم﴾: يُكسِبَنَّكم ﴿شِقاقِيَ﴾: خِلافي، فاعلُ «يَجرِم» والضمير مفعول أوّل، والثاني: ﴿أن يُصِيبَكُم مِثلُ ما أصابَ قَومَ نُوحٍ، أو قَومَ هُودٍ أو قَومَ صالِحٍ﴾ من العذاب ـ ﴿وما قَومُ لُوطٍ﴾ أي: منازلُهم أو زمنُ هلاكهم ﴿مِنكُم بِبَعِيدٍ﴾. فاعتبِروا ـ ٩٠ ـ ﴿واستَغفِرُوا رَبَّكُم، ثُمَّ تُوبُوا إلَيهِ، إنَّ رَبِّي رَحِيمٌ﴾ بالمُؤمنين ﴿وَدُودٌ﴾: مُحبّ لهم.

قولُه: (حَلَالاً) والضَّميرُ في ﴿منه﴾ للهِ تعالى؛ أي: مِن عندِه وبإعانتِهِ بلا كدٍّ منّي في تحصيلِهِ.

قولُه: (أفأَشُوبُه) إشارةٌ إلى أنَّ جوابَ الشَّرطِ محذوفٌ.

قولُه: (وأَذْهبَ) وقالَ القاضِي[1]: ما أريدُ أن آتيَ ما أنهاكُم عنه.

قولُه: (لكُم بالعَدْلِ) أي: ما أريدُ إلَّا أن أصلِحَكم بأمْري بالمعروفِ ونهْيي عن المنكرِ ما دُمْتُ أستطيعُ الإصلاحَ، و﴿ما﴾ مصدَريةٌ واقعةٌ موقعَ الظَّرفِ، وقيل: خبريَّةٌ بدلٌ مِن ﴿الإصلاح﴾ أي: المقدارَ الذي استطعتُه.

قولُه: (قُدرَتِي) وفي «المدارِكِ»[2]: كَوني موفَّقاً.

قولُه: (أرجِعُ) إشارةٌ إلى مَعْرفةِ المعادِ، كما أنَّ ما قبلَه إشارةٌ إلى محضِ التَّوحيدِ الذي هو أقصَى مراتبِ العلمِ بالمبدَإِ.

قولُه: (خِلافِي) أي: معاداتِي، وقولُ البيضاويِّ[3]: وعن ابنِ كثيرٍ: (يُجرِمَنَّكم) بالضَّمِّ. لا يصِحُّ[4].

قولُه: (منَ العَذَابِ) أي: الغرَقِ والرِّيحِ والرَّجفَةِ.

قولُه: (فاعتَبِرُوا) بهم إنْ لم تعتَبروا بمَن قبلَهم، وإفرادُ البَعيدِ للفْظِ ﴿قوم﴾ أو لأنَّ المرادَ: وما إهلاكُهُم، أو ما هُم بشَيءٍ بعيدٍ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١٤٥).

(٢) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٧٩).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١٤٦).

(٤) وإنما جاء: (يُجرِمَنّكم) في قراءة شاذة، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٢٣٨) ونسبت لابن مسعود والأعمش.

٩١ ـ ﴿قالُوا﴾ إيذانًا بقِلّة المُبالاة: ﴿يا شُعَيبُ، ما نَفقَهُ﴾: نفهم ﴿كَثِيرًا مِمّا تَقُولُ، وإنّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفًا﴾: ذليلاً، ﴿ولَولا رَهطُكَ﴾: عشيرتك ﴿لَرَجَمْناكَ﴾ بالحِجارة، ﴿وما أنتَ عَلَينا بِعَزِيزٍ﴾: كريم عن الرجم، وإنما رهطك هم الأعِزّة.

٩٢ ـ ﴿قالَ: يا قَومِ، أرَهطِيَ أعَزُّ علَيكُم مِنَ اللهِ﴾، فتتركون قتلي لأجلهم ولا تحفظوني لله، ﴿واتَّخَذتُمُوهُ﴾ أي: الله ﴿وَراءَكُم ظِهرِيًّا﴾: منبوذًا خلف ظُهوركم، لا تُراقبونه؟ ﴿إنَّ رَبِّي بِما تَعمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ عِلمًا فيُجازيكم. ٩٣ ـ ﴿ويا قَومِ، اعمَلُوا علَى مَكانَتِكُم﴾: حالَتِكم ـ ﴿إنِّي عامِلٌ﴾ على حالتي. ﴿سَوفَ تَعلَمُونَ مَن﴾: موصولة مفعول العِلم ﴿يَأتِيهِ عَذابٌ يُخزِيهِ، ومَن هُوَ كاذِبٌ ـ وارتَقِبُوا﴾: انتظروا عاقبة أمركم. ﴿إنِّي مَعَكُم رَقِيبٌ﴾: منتظر.

٩٤ ـ ﴿ولَمّا جاءَ أمرُنا﴾ بإهلاكهم ﴿نَجَّينا شُعَيبًا والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمةٍ مِنّا، وأخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيحةُ﴾ صاحَ بهم جبريل، ﴿فأصبَحُوا في دِيارِهِم جاثِمِينَ﴾ باركين على الرُّكب ميّتِينَ، ٩٥ ـ ﴿كأنْ﴾: مُخففةٌ أي: كأنّهم ﴿لَم يَغنَوا﴾: يُقيموا ﴿فِيها. ألا بُعدًا لِمَدْيَنَ كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾.

٩٦ ـ ﴿ولَقَد أرسَلْنا مُوسَى بِآياتِنا وسُلطانٍ مُبِينٍ﴾: برهانٍ بيّنٍ ظاهرٍ..........

قولُه: (إيذاناً...) إلخ؛ أي: استِهانةً بكلامِه.

قولُه: (نفهَمُ) كوجُوبِ التَّوحيدِ وحُرمةِ البَخْسِ، أو ما نفْهَم صحَّةَ ما تقولُ؛ إذ كيفَ لا ينْفَهِم وهو خطيبُ الأنبياءِ؟!

قولُه: (هُم الأعِزَّةُ) عندَنا لكونِهم على ملَّتِنَا، لا لخوفٍ مِن شوكتِهِم؛ فإنَّ الرَّهطَ من الثَّلاثةِ إلى العَشَرةِ.

قولُه: (أي: اللهَ) يعني: جعَلْتمُوه.

قولُه: (مَنبُوذاً) كالمَنْسِيِّ المنبُوذِ، و﴿ظِهرِيًّا﴾ منسُوبٌ إلى الظَّهرِ والكسرِ من تغييراتِ النَّسبِ.

قولُه: (مَوصُولَةٌ) ﴿ومن هو﴾ عطفٌ عليهِ؛ أي: مَن هو كاذبٌ يستحِقُّ العذابَ، أو صدقَ مَن هو كاذبٌ في زعمِكُم.

قولُه: (ظَاهِرٍ) هو العصا، وإفرادُها لأنَّها أبهرُها، والمرادُ بالآياتِ: المعجزاتُ، وقولُ البيضاويِّ[1]: بالتَّوراةِ. غيرُ صحيحٍ؛ إذ نزُولُها إنَّما كان بعدَ هلاكِ فرعونَ؛ لقولِه تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى﴾ [القصص: ٤٣] أي: فرعونَ وقومَه.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١٤٧).

٩٧ ـ ﴿إِلَى فِرعَونَ ومَلَئِهِ، فاتَّبَعُوا أمرَ فِرعَونَ، وما أَمرُ فِرعَونَ بِرَشِيدٍ﴾: سديدٍ. ٩٨ ـ ﴿يَقدُمُ﴾: يتقدّم ﴿قَومَهُ يَومَ القِيامةِ﴾، فيتّبعونه كما اتّبعوه في الدنيا، ﴿فأَورَدَهُمُ﴾: أدخلَهم ﴿النَّارَ، وبِئسَ الوِردُ المَورُودُ﴾ هي! ٩٩ ـ ﴿وأُتبِعُوا في هذِهِ﴾ أي: الدنيا ﴿لَعْنَةً، ويَومَ القِيامةِ﴾ لعنةً، ﴿بِئسَ الرِّفدُ﴾: العونُ ﴿المَرفُودُ﴾ رِفدُهم!

١٠٠ ـ ﴿ذلِكَ﴾ المذكور مبتدأ خبرُه: ﴿مِن أنباءِ القُرَى، نَقُصُّهُ عليكَ﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿مِنها﴾ أي: القُرى ﴿قائمٌ﴾: هَلَكَ أهله دونه، ﴿و﴾ منها ﴿حَصِيدٌ﴾: هلَكَ بأهله فلا أثر له كالزرع المحصود بالمَناجل. ١٠١ ـ ﴿وما ظَلَمْناهُم﴾ بإهلاكهم بغير ذنب، ﴿ولكِن ظَلَمُوا أنفُسَهُم﴾ بالشِّرك، ﴿فما أغنَتْ﴾: دفعتْ ﴿عَنهُم آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدعُونَ﴾: يعبدون ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: غيرِه ﴿مِن﴾: زائدةٌ ﴿شَيءٍ! لَمّا جاءَ أمرُ رَبِّكَ﴾: عذابُه، ﴿وما زادُوهُم﴾ بعِبادتهم لها ﴿غَيرَ تَتبِيبٍ﴾: تخسير.

١٠٢ ـ ﴿وكَذلِكَ﴾: مِثلُ ذلك الأخذِ ﴿أخذُ رَبِّكَ، إذا أخَذَ القُرَى﴾ ـ أُريدَ أهلُها ـ ﴿وهِيَ ظالِمةٌ﴾ بالذنوب، أي: فلا يغني عنهم من أخذِه شيء. ﴿إنَّ أخذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾. روى الشيخان عن أبي مُوسَى الأشعريّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ لَيُملِي لِلظّالِمِ، حَتَّى إذا أخَذَهُ لم يُفلِتْهُ»، ثم قرأ ﷺ: «وكَذلِكَ أخذُ رَبِّكَ» الآيَةَ..........................

قولُه: (سَدِيدٍ) أي: بمُرشِدٍ، أو ذي رُشدٍ، وإنَّما هو غَيٌّ محضٌ وضلالٌ صريحٌ.

قولُه: (هيَ) أي: بئسَ الموردُ الَّذي وردوه فإنَّه يُرادُ لتبريدِ الأكبادِ، وتسكينِ العطشِ، والنَّارُ بالضِّدِّ.

قولُه: (رِفدُهُم) أي: بئسَ العونُ المعانُ، والعطاءُ المعطَى، والمخصُوصُ بالذَّمِّ محذوفٌ؛ أي: رِفدُهُم؛ وهو اللَّعنةُ في الدَّارين.

قولُه: (المَذكُورُ) الأولى: النَّبأ.

قولُه: (خبرُهُ ﴿مِن أَنبَاءِ﴾) و﴿نقصه﴾ خبرٌ بعدَ خبرٍ؛ أي: مقصُوصٌ.

قولُه: (أي: القُرَى) من تلكَ القرَى باقٍ كالزَّرعِ القائمِ، والجملةُ مستأنفةٌ.

قولُه: (دفعَتْ) ونفعَتْ.

قولُه: (عذابُهُ) أو بعذابِهِ.

قولُه: (تخسِيرٍ) أو هلاكٍ.

قولُه: (بالذُّنُوبِ) حالٌ مِن ﴿القُرى﴾.

قولُه: (لَم يُفلِتْهُ) الإفلاتُ: التَّخلُّصُ فجاةً.

١٠٣ ـ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكورِ من القِصص ﴿لَآيَةً﴾: لَعِبرةً ﴿لِمَن خافَ عَذابَ الآخِرةِ. ذلِكَ﴾ أي: يومُ القِيامة ﴿يَومٌ مَجمُوعٌ لَهُ﴾ فيه ﴿النّاسُ، وذلِكَ يَومٌ مَشهُودٌ﴾: يشهده جميع الخلائق، ١٠٤ ـ ﴿وما نُؤَخِّرُهُ إلاّ لِأجَلٍ مَعدُودٍ﴾: لوقت معلوم عند الله.

١٠٥ ـ ﴿يَومَ يأتِي﴾ ذلك اليومُ ﴿لا تَكَلَّمُ﴾ ـ فيه حذف إحدى التاءين ـ ﴿نَفسٌ إلاّ بِإذنِهِ﴾ تعالى. ﴿فَمِنهُم﴾ أي: الخلقِ ﴿شَقِيٌّ و﴾ منهم ﴿سَعِيدٌ﴾، كُتب كُلٌّ في الأزل.

١٠٦ ـ ﴿فأمّا الَّذِينَ شَقُوا﴾ في عِلمه ـ تعالى ـ ﴿فَفِي النّارِ، لَهُم فِيها زَفِيرٌ﴾: صوت شديد ﴿وشَهِيقٌ﴾: صوت ضعيف، ١٠٧ ـ ١٠٨ ـ ﴿خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ والأرضُ﴾ أي: مُدّةَ دوامهما في الدنيا، ﴿إلاّ﴾: غيرَ ﴿ما شاءَ رَبُّكَ﴾ من الزيادة على مُدّتهما ممّا لا مُنتهى له، والمعنى: خالدين فيها أبدًا ـ ﴿إنَّ رَبَّكَ فَعّالٌ لِما يُرِيدُ ـ وأمّا الَّذِينَ سَعِدُوا﴾، ....

قولُه: (أي: يومُ القِيامَةِ) وعذابُ الآخرَةِ.

قولُه: (يَشهَدُهُ) قالَ القاضِي[١]: أي: مشهُودٌ فيه أهلُ السَّمواتِ والأرضينَ، فاتُّسِعَ فيه بإجراءِ الظَّرفِ مجرَى المفعولِ، ولو جُعِلَ اليومُ مشهوداً في نفسِهِ لبطَلَ الغرضُ من تعظيمِ اليومِ وتميُّزِه، فإنَّ سائرَ الأيّام كذلكَ انتهى.

قلتُ: هذه شهادةٌ مِن اللهِ على أنَّ الخلائقَ جميعاً يشهدونَه ويحضرونَهُ، فأيُّ تعظيمٍ أعظمُ مِن هذا وهو متضمِّنٌ للوعدِ والوعيدِ بأبلغِ وجهٍ.

قولُه: (ذلكَ اليَومُ) فـ﴿يوم﴾ بمعنى: حينَ، أو ﴿يومَ يأتي﴾ الجزاءُ أو اللهُ؛ أي: أمرُه، وأثبتَ الياءَ نافعٌ وأبو عمرٍو والكِسائيُّ وصلاً، وابنُ كثيرٍ مطلقاً[٢].

قولُه: (فيهِ حَذفُ إحدَى التَّاءَينِ) وكذا قرأَ البَزِّيُّ بإدغامِه وصلاً[٣].

قولُه: (أي: الخَلقِ) يعني: الضَّميرُ لأهلِ الموقفِ وإن لم يُذكَرْ؛ لأنَّه معلومٌ مدلولٌ عليهِ بقولِه: ﴿لا تكلم﴾ أو للنَّاسِ.

قولُه: (صَوتٌ ضَعِيفٌ) الزَّفيرُ إخراجُ النَّفَس، والشَّهيقُ ردُّه، واستعمالُهما في أوَّلِ النَّهيقِ وآخرِه.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١٤٨).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٣٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٤٨).

(٣) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٨٣)، و«العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٠٨).

بفتح السين وضمّها، ﴿ففِي الجَنّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ والأرضُ، إلاّ﴾: غيرَ ﴿ما شاءَ رَبُّكَ﴾ كما تقدَم، ودلّ عليه فيهم قوله ﴿عَطاءً غَيرَ مَجذُوذٍ﴾: مقطوع. وما تقدّم من التأويل هو الذي ظهر، وهو خالٍ من التكلف. والله أعلم بمُراده.

١٠٩ ـ ﴿فلا تَكُ﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿في مِرْيةٍ﴾: شكّ ﴿مِمّا يَعبُدُ هؤُلاءِ﴾ من الأصنام، أنّما نُعذّبهم كما عذّبنا مَن قبلهم. وهذا تسلية للنبيّ. ﴿ما يَعبُدُونَ إلاّ كَما يَعبُدُ آباؤُهُم﴾ أي: كعِبادتهم ﴿مِن قَبلُ﴾، وقد عذّبناهم، ﴿وإنّا لَمُوَفُّوهُم﴾ مِثلَهم ﴿نَصِيبَهُم﴾: حظّهم من العذاب ﴿غَيرَ مَنقُوصٍ﴾ أي: تامًّا.

١١٠ ـ ﴿ولَقَد آتَينا مُوسَى الكِتابَ﴾: التوراة، ﴿فاختُلِفَ فِيهِ﴾ بالتصديق والتكذيب كالقُرآن ـ....

قولُه: (وضَمِّها) حمزةُ والكِسائيُّ وحفصٌ[1]، وقولُ أبي البقاءِ[2]: الضمُّ ضعيفٌ. ضعيفٌ لقوّةِ المتواتِر، ولقولِهم: مسعودٌ.

قولُه: (هُو الَّذِي ظَهرَ) المتبادرُ منه أنَّ هذا التَّأويلَ[3] ظهرَ له خاصَّةً، وليسَ كذلك؛ فإنَّ البيضاويَّ[4] ذكرَه بـ«قيلَ»، وكذا البغويُّ[5].

قولُه: (يا محمَّد) الخطابُ له، والمرادُ غيرُه، أو الخطابُ للشَّاكِّ، أو الخطابُ له عليه السَّلامُ، والمرادُ به الثَّباتُ والدَّوامُ.

قولُه: (منَ الأصْنَامِ) يريدُ: أنَّه بيانُ ﴿ما يعبد﴾ والظَّاهرُ أنَّ ﴿ما﴾ مصدريَّةٌ؛ أي: من عبادةِ هؤلاءِ المشركينَ في أنّها ضلالٌ مؤدٍّ إلى مثلِ ما حلَّ بمَن قبلَهُم ممَّن قصصْتُ عليك سوءَ عاقبتِهم.

قولُه: (أنَّا نعذِّبُهم) أي: لا تكُ في شكٍّ في أنَّا نعذِّبُهم، وفي نسخةٍ: «أنَّما يُعذِّبُهم» وهو تصحيفٌ.

وقولُه تعالى: (﴿إلَّا كمَا يعبدُ﴾) أي: كما كانَ، فحُذِفَ لِدلالةِ ﴿قَبْلُ﴾ عليه.

قولُه: (وقَدْ عذَّبنَاهُمْ) أي: من قبلِهم، وهذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ وأحبابِه، وتهديدٌ ووعيدٌ لأعدائِه.

قولُه: (مِثلَهُمْ) أي: مثلَ مَن قبلَهُم، وفي نسخةٍ: «مُنِيلهم» بضمِّ الميم وكسر النُّون، وهو تصحيفٌ.

قولُه: (كالقُرآنِ) أي: كما اختلفَ هؤلاءِ في القُرآنِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٣٩)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٤٨).

(٢) انظر: «التبيان في إعراب القرآن» (٢/ ٧١٥).

(٣) أي قوله: ﴿إلا﴾ غير ﴿ما شاء ربك﴾ من الزيادة على مدتهما مما لا منتهى له.

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١٤٩).

(٥) انظر: «معالم التنزيل» (٢/ ٤٦٦).

﴿ولَوْلا كَلِمةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأخير الحِساب والجزاء للخلائق إلى يوم القيامة ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ في الدنيا، فيما اختلفوا فيه ـ ﴿وإنَّهُم﴾، أي: المكذّبين به، ﴿لَفِي شَكٍّ مِنهُ مُرِيبٍ﴾: مُوقع في الرِّيبة،

١١١ ـ ﴿وإنَّ﴾، بالتشديد والتخفيف، ﴿كُلًّا﴾ أي: كُلَّ الخلائق ﴿لَما﴾ ـ ما: زائدةٌ، واللام: مُوطِّئةٌ لقسم مُقدَّر، أو فارقةٌ. وفي قراءة بتشديد «لَمّا» بمعنى: إلاّ. فإنْ: نافيةٌ ـ ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُم رَبُّكَ أعمالَهُم﴾ أي: جزاءها. ﴿إنَّهُ بِما يَعمَلُونَ خَبِيرٌ﴾: عالم ببواطنه كظواهره.

١١٢ ـ ﴿فاستَقِمْ﴾ على العمل بأمر ربّك والدُّعاء إليه ﴿كَما أُمِرْتَ، و﴾ لْيستقم ﴿مَن تابَ﴾:....

قولُه: (فِي الدُّنيَا) بإنزالِ ما يستحقُّه المبطلُ يتميَّزُ به عن المحقِّ.

قولُه: (فيهِ) أي: في القُرآنِ، أو في يومِ القيامةِ.

قولُه: (والتَّخفِيفِ) الحرميَّان وأبو بكرٍ[1] على أنَّ ﴿إن﴾ مخفَّفةٌ من الثَّقيلة، وعملَتْ في ﴿كُلًّا﴾ اعتباراً للأصلِ.

قولُه: (كلَّ الخَلَائقِ) والتَّنوينُ بدلٌ من المضافِ إليه.

قولُه: (زائِدَةٌ) أي: بين اللَّامين للفصلِ.

قولُه: (واللَّامُ) أي: الأُولى موطِّئةٌ، والثَّانيةُ للتَّأكيدِ، أو بالعكسِ.

قولُه: (لقسَمٍ مُقدَّر) وفي نسخةٍ: «عن قسَمٍ مقدَّر».

قولُه: (أَو فارِقَةٌ) يعني: على قراءةِ تخفيفِ ﴿إن﴾.

قولُه: (وفِي قِرَاءةٍ) لشاميٍّ وعاصمٍ وحمزةَ[2].

قولُه: (فـ﴿إِنْ﴾ نافِيَةٌ) يعني: على قراءةِ تخفيفِ ﴿إن﴾ وأمَّا على التَّشديدِ فأصلُه: لَمِنَ ما، فقُلِبت النُّونُ ميماً للإدغامِ، فاجتمعَتْ ثلاثُ ميماتٍ، فحُذِفَ أولاهُنَّ، والمعنى: لَمِنَ الذين يوفينَّهم أو لخلقٍ.

قولُه: (عَلى العَمَلِ بأَمرِ ربِّكَ) ولصُعوبتِه قال ﷺ: «شيَّبتني هودٌ» رواه التِّرمذيُّ وحسَّنه[3].

قولُه: (﴿و﴾ لْيَسْتقِمْ) عطفٌ على المستكنِّ في ﴿استقم﴾ وإن لم يؤكَّدْ بمنفصلٍ، لقيامِ الفاصلِ مقامَه، والمعنى: وليستقِمْ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٣٩).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٣٩).

(٣) رواه الترمذي (٣٢٩٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

آمن ﴿مَعَكَ، ولا تَطْغَوا﴾: تُجاوِزوا حُدود الله ـ ﴿إِنَّهُ بِما تَعمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيُجازيكم به ـ ١١٣ ـ ﴿ولا تَركَنُوا﴾: تَميلوا ﴿إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بمودّة أو مُداهنة أو رضًا بأعمالهم، ﴿فتَمَسَّكُمُ﴾: تُصيبَكم ﴿النَّارُ، وما لَكُم مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: غيرِه ﴿مِن﴾: زائدةٌ ﴿أَولِياءَ﴾ يحفظونكم منه، ﴿ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾: تُمنعون من عذابه.

١١٤ ـ ﴿وأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ﴾: الغداةَ والعشيَّ، أي: الصُّبحَ والظهرَ والعصر، ﴿وزُلَفًا﴾: جمعُ زُلفةٍ أي: طائفةٍ ﴿مِنَ اللَّيلِ﴾،.........................

قولُه: (آمنَ) أي: تابَ مِن الشِّرك وآمنَ.

قولُه: (تَمِيْلُوا) أدنى مَيلٍ، فإنَّ الرُّكونَ هو الميلُ اليسيرُ.

قولُه: (بمَوَدَّةٍ) بيانُ الميلِ.

قولُه: (تُصِيبَكُم) بركونِكُم إليهم، وإذا كان الرُّكونُ إلى مَنْ وُجِدَ منه ما يُسمَّى ظلماً كذلك فما ظنُّكَ بالرُّكونِ إلى الظَّالمينَ الموسُومينَ بالظُّلمِ، ثمَّ بالميلِ إليهم كلَّ الميلِ، ثمَّ بالظُّلمِ نفسهِ والانهماكِ فيهِ؟ ولعلَّ الآيةَ أبلغُ ما يُتصوَّرُ في النَّهي عن الظُّلمِ والتَّهديدِ عليه، وخطابُ الرَّسولِ ومَن معَه مِن المؤمنينَ بها للتَّثبيتِ على الاستقامةِ التي هي العدلُ، فإنَّ الزَّوالَ عنها بالميلِ إلى أحدِ طرفَي إفراطٍ وتفريطٍ ظلمٌ على نفسهِ أو غيرِه، بل ظلمٌ في نفسهِ.

قال القطبُ الرَّبانيُّ الشَّيخُ عبدُ الكبيرِ اليَمانيُّ لبعضِ مشايخِ العَجمِ: ما الظُّلمُ؟ فقال: قال العلماءُ: الظُّلمُ وضْعُ الشَّيءِ في غيرِ موضِعهِ، فقال الشَّيخُ: مَن وضَعَ في قلبِهِ غيرَ ذكرِ اللهِ وحبِّه فقد ظلمَ نفسَه، ولذا قال العارفُ[1]:

ولـو خطـرَتْ لـي فـي سِـواكَ إرادةٌ عَلـى خَاطِـري سَـهْواً حكمْـتُ بردَّتـي

وسأَلَ خيَّاطٌ ابنَ المباركِ وقال: إنِّي أخيطُ للظَّلَمةِ، فهل أكونُ مِن أعوانِهم؟ فقال: لا، أنت مِن الظَّلَمَةِ، وأمَّا مَن يبيعُكَ الخيطَ والإبرةَ فهو مِن أعوانِهم[2]. وإنَّما أكثرْتُ هنا الكلامَ لكثرةِ الظُّلمِ في هذه الأيَّامِ، والميلِ إلى الظَّلَمةِ مِن الأنامِ.

قولُه: (والظُّهرَ والعَصرَ) لأنَّ ما بعدَ الزَّوالِ عشيٌّ.

قولُه: (أي: طَائفةٍ) أي: ساعاتٍ منه قريبةً مِن النَّهارِ.

---

(١) هو ابن الفارض، انظر: «ديوانه» (ص: ٥٢).

(٢) ذكره أبو طالب في «قوت القلوب» (٢/ ٤٣٤)، والزمخشري في «ربيع الأبرار» (٣/ ١١٦).
وذكره الذهبي في «الكبائر» (ص: ١١٢)، وابن حجر الهيتمي في «الزواجر» (٢/ ٢٠٢)، ولكن من قول سفيان الثوري.

أي: المغربَ والعِشاءَ ـ ﴿إِنَّ الحَسَناتِ﴾، كالصلوات الخمس، ﴿يُذهِبنَ السَّيِّئاتِ﴾: الذنوبَ الصغائر. نزلتْ فيمن قَبَّلَ أجنبيّةً فأخبره ﷺ، فقال ألِيَ هذا؟ قال: «لِجَمِيعِ أُمّتِي كُلِّهِم». رواه الشيخان. ﴿ذلِكَ ذِكرَى لِلذّاكِرِينَ﴾: عِظةٌ للمُتَّعظين ـ ١١٥ ـ ﴿واصبِرْ﴾، يا مُحمّد، على أذى قومك أو على الصلاة. ﴿فإنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أجرَ المُحسِنِينَ﴾ بالصبر على الطاعة.

١١٦ ـ ١١٧ ـ ﴿فلَولا﴾: فهلاً ﴿كانَ مِنَ القُرُونِ﴾: الأُممِ الماضية ﴿مِن قَبلِكُم أُولُو بَقِيّةٍ﴾: أصحابُ دِين وفضل، ﴿يَنهَونَ عَنِ الفَسادِ في الأرضِ﴾، المُرادُ به النفيُ أي: ما كان فيهم ذلك، ﴿إلّا﴾: لكنّ ﴿قَليلاً مِمَّن أنجَينا مِنهُم﴾ نهَوا فنجَوا ـ ومِن: للبيان ـ ﴿واتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالفساد وتركِ النهي ﴿ما أُترِفُوا﴾: نَعِموا ﴿فِيهِ، وكانُوا مُجرِمِينَ، وما كانَ رَبُّكَ لِيُهلِكَ القُرَى بِظُلمٍ﴾ منه لها، ﴿وأهلُها مُصلِحُونَ﴾: مُؤمنون.

قولُه: (عِظةٌ) والإشارةُ إلى قولِه: ﴿فاستقم﴾ فما بعدَه، وقيلَ: إلى القُرآنِ.

قولُه: (أو عَلى الصَّلاةِ) أو على حُكمِنا.

قولُه: (فهلّا) للتَّنديمِ.

قولُه: (وفَضْلٍ) سُمِّيَ ﴿بقيَّةٍ﴾ لأنَّ الباقيَ مِن النَّاسِ إنَّما هو الدِّينُ والفضلُ والإحسانُ، وقيل: أولُو بقيَّةٍ مِن الرَّأيِ والعقلِ.

قولُه: (لكنَّ) قال البيضاويُّ[1]: لكنَّ قليلاً منهم أنجيناهُم؛ لأنَّهم كانوا كذلك، ولا يصحُّ اتصالُه إلَّا إذا جُعِلَ استثناءً من النَّفيِ اللَّازمِ للتَّحضيضِ. انتهى.

والعجَبُ أنَّ الشَّيخَ حملَ التَّحضيضَ على النَّفيِ، وجعلَ الاستثناء منقطعاً.

قولُه: (و﴿مِن﴾ للبيَانِ) أي ﴿مِن﴾ الأُولى.

قولُه: (نَعِمُوا) فيه من الشَّهواتِ، واهتمُّوا بتحصيلِ أسبابِها، وأعرَضوا عمَّا وراءَ ذلك.

قولُه: (منهُ) أي: من اللهِ، فـ﴿بظلم﴾ حالٌ من الفاعلِ؛ أي: لا يصحُّ أن يُهلِكَ اللهُ القُرى ظالماً لها وأهلُها قومٌ مصلحونَ؛ تنزيهاً لذاتِه عن الظُّلمِ، والأظهرُ تفسيرُ الظُّلم بالشِّركِ، والصَّلاحِ بعدمِ الفسادِ والتَّباغِي، وذلك لفَرطِ رحمتِه ومسامحتِه في حقوقِه، ومِن ذلك قدَّمَ الفقهاءُ عندَ تزاحُمِ الحقُوقِ حقوقَ العبادِ، وقيل: الملكُ يبقَى معَ الكفرِ، ولا يبقَى مع الظُّلمِ؛ أي: التَّعدِّي على الغيرِ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١٥٢).

١١٨ ـ ﴿ولَو شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النّاسَ أُمَّةً واحِدةً﴾: أهلَ دِين واحد، ﴿ولا يَزالُونَ مُختَلِفِينَ﴾ في الدِّين ـ ١١٩ ـ ﴿إلاَّ مَن رَحِمَ رَبُّكَ﴾: أراد لهم الخير فلا يختلفون فيه. ﴿ولِذلِكَ خَلَقَهُم﴾ أي: أهلَ الاختلاف له وأهلَ الرحمة لها، ﴿وتَمَّتْ كَلِمةُ رَبِّكَ﴾، وهي ﴿لَأَملَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ﴾: الجنّ ﴿والنّاسِ أجمَعِينَ﴾.

١٢٠ ـ ﴿وكُلًّا﴾ نُصبَ بـ «نقصّ»، وتنوينه عوضٌ من المضاف إليه، أي: كلَّ ما يُحتاج إليه ﴿نَقُصُّ علَيكَ مِن أنباءِ الرُّسُلِ، ما﴾: بدل من «كلًّا» ﴿نُثَبِّتُ﴾: نُطَمِّنُ ﴿بِهِ فُؤادَكَ﴾: قلبك، ﴿وجاءَكَ في هذِهِ﴾: الأنباءِ أو الآياتِ ﴿الحَقُّ ومَوعِظةٌ وذِكرَى لِلمُؤمِنِينَ﴾. خُصّوا بالذكر لانتفاعهم بها في الإيمان بخلاف الكُفّار.

١٢١ ـ ﴿وقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤمِنُونَ: اعمَلُوا علَى مَكانَتِكُم﴾: حالتكم ـ ﴿إنّا عامِلُونَ﴾ على حالتنا، تهديدٌ لهم ـ ١٢٢ ـ ﴿وانتَظِرُوا﴾ عاقبة أمركم. ﴿إنّا مُنتَظِرُونَ﴾ ذلك.

قولُه: (أهلَ دِينٍ واحِدٍ) مسلمينَ كلَّهم.

قولُه: (فيهِ) أي: في أصلِ الدِّين الحقِّ.

قولُه: (أي: أهلَ الاختِلَافِ) فالإشارةُ إلى الاختلافِ والرَّحمةِ، والضَّميرُ للنَّاس، وقيل: الإشارةُ إلى الاختلافِ، واللَّامُ للعاقبةِ، وقيل: الضَّميرُ لـ﴿مَن﴾ والإشارةُ إلى الرَّحمةِ.

قولُه: (وهيَ) يعني: قولَه للملائكةِ.

قولُه: (الجِنِّ) أي: من عُصاتِهِمَا أجمعينَ، أو منهما أجمعينَ لا مِن أحدِهما.

قولُه: (يُحتَاجُ إلَيهِ) بالخطابِ، أو الياءِ وهو أعمُّ.

وقولُه تعالى: (﴿مِن أنباء﴾) بيانٌ لـ﴿كلًّا﴾ أو حالٌ من مفعولِ ﴿نقص﴾.

قولُه: (بدَلٌ) يعني: الموصُولَ بصلتِهِ.

قولُه: (نُطمِّنُ) ما وجدتُ له أصلاً في اللُّغة، فهو تفسيرٌ بما هو أغرَبُ كما لا يخفَى، فالأولى أن يفسَّرَ ﴿نثبت﴾ بـ: نقوِّي ونسكِّن.

قولُه: (الأَنباءِ) المقتصَّةِ عليك.

قولُه: (أو الآيَاتِ) أو السُّورةِ.

وقولُه تعالى: (﴿الحقُّ﴾) أي: ما هو الحقُّ.

قولُه: (ذلكَ) أي: عاقبةَ أمرِكُم، أو عاقبةَ أمرِنَا.

١٢٣ ـ ﴿وللهِ غَيبُ السَّماواتِ والأرضِ﴾ أي: عِلمُ ما غاب فيهما، ﴿وإلَيهِ يَرجعُ﴾، بالبناء للفاعل: يَعودُ، وللمفعول: يُردّ ﴿الأمرُ كُلُّهُ﴾ فينتقم ممّن عصى. ﴿فاعبُدْهُ﴾: وحِّدْه، ﴿وتَوَكَّلْ علَيهِ﴾: ثِقْ به. فإنه كافيكَ. ﴿وما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمّا يَعمَلُونَ﴾، وإنّما يُؤخّرهم لوقتهم. وفي قراءة بالفَوقانيّة.

قولُه: (يَعُودُ) ويصيرُ.

قولُه: (وللمَفعُولِ) نافعٌ وحفصٌ[1].

قولُه: (يُرَدُّ) مجهُولٌ.

قولُه: (فينتَقِمُ) ويُنعِمُ على مَن أطاعَ.

قولُه: (وحِّدْهُ) يحتملُ احتمالَين.

قولُه: (وفِي قِرَاءةٍ) لنافعٍ وشاميٍّ وحفْصٍ[2].

قولُه: (بالفَوقَانيَّة) أي: أنتَ وهُم، فيُجَازِي كلًّا ما يستحقُّه، واللهُ أعلَمُ.

* * *

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٤٠)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٥٣).

(٢) انظر المصادر السابقة.

سورة هود

مكية، كما أخرج ذلك ابن النحاس في «ناسخه»[1]. وأبو الشيخ وابن مردويه من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما، وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما[2]، ولم يستثنيا منها شيئاً، وإلى ذلك ذهب الجمهور.

واستثنى بعضهم منها ثلاث آيات: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ﴾ [الآية: ١٢]، ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الآية: ١٧]، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ [الآية: ١١٤] ورُوي استثناء الثالثة عن قتادة، قال الجلال السيوطي: ودليله ما صح من عدة طرق أنها نزلت بالمدينة في حق أبي اليَسَر[3].

وهي كما قال الداني في كتاب «العدد»: مئة وإحدى وعشرون آية في المدني الأخير، واثنتان في المدني الأول، وثلاث في الكوفي[4].

ووجه اتصالها بسورة «يونس» عليه السلام أنه ذكر في سورة «يونس» قصة نوح عليه السلام مختصرة جدّاً مجملة، فَشُرحت في هذه السورة، وبسطت فيها ما لم تبسط في غيرها من السور، ولا سورة «الأعراف» على طولها، ولا سورة ﴿إِنَّآ

---

(١) في (م)، والدر المنثور ٣/٣١٩: في تاريخه. والخبر في الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس ٢/ ٤٧٢.

(٢) الدر المنثور ٣/ ٣١٩.

(٣) الإتقان ١/ ٤٥، وستأتي قصة أبي اليَسَر عند تفسير الآية.

(٤) البيان في عدِّ آي القرآن لأبي عمرو الداني ص ٦٥. وقداختَلف في عدّ آي القرآن الكريم أهلُ المدينة ومكة والشام والبصرة والكوفة. ولأهل المدينة عددان: الأول لأبي جعفر يزيد بن القعقاع وشيبة بن نصاح، والثاني لإسماعيل بن جعفر بن أبي كثير. وعدد أهل الكوفة لحمزة بن حبيب الزيات والكسائي وخلف. الإتقان ١/ ٢١١، وانظر فيه الأعداد الأخرى.

﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ [نوح: ١] التي أفردت لقصته، فكانت هذه السورة شرحاً لما أُجمل في تلك السورة وبسطاً له.

ثم إنَّ مطلعها شديدُ الارتباط بمطلع تلك، فإن قوله تعالى هنا: (الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ) نظير قوله سبحانه هناك: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١].

بل بين مَطْلع هذه وختامِ تلك شدةُ ارتباطٍ أيضاً، حيث ختمت بنفي الشِّرك واتِّباع الوحي، وافتتحت هذه ببيان الوحي والتحذير من الشرك.

وورد في فضلها ما ورد، فقد أخرج الدارمي وأبو داود في «مراسيله» والبيهقي في «شعب الايمان» وغيرهم عن كعب قال: قال رسولُ الله ﷺ: «اقرؤوا هوداً يومَ الجمعة»(١).

وأخرج الترمذي وحسَّنه، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في «البعث والنشور» من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، قد شِبْتَ. قال: «شيَّبتني هود والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت»(٢).

وأخرج ابن عساكر من طريق يزيد الرَّقاشي عن أنس عن الصديق رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله، أسرعَ إليك الشيبُ. قال: «أجل، شيَّبتني سورة هود وأخواتها؛ الواقعة، والقارعة، والحاقَّة، وإذا الشمس كُوِّرت، وسأل سائل»(٣).

وقد جاء في بعض الروايات أيضاً أن عمر رضي الله عنه قال له عليه الصلاة والسلام:

---

(١) سنن الدارمي (٣٤٠٤)، ومراسيل أبي داود (٥٩)، وشعب الإيمان (٢٤٣٨).

(٢) سنن الترمذي (٣٢٩٧)، والمستدرك ٢/ ٣٤٣، والبعث والنشور (استدراكات) (٧٢)، وأخرجه ابن سعد ١/ ٤٣٦، وسعيد بن منصور في سننه (١١١٠- تفسير)، وأبو يعلى (١٠٧) و(١٠٨) وغيرهم من طريق عكرمة مرسلاً، وهذا المرسل هو الذي رجحه أبو حاتم كما في العلل لابنه ٢/ ١١٠، وينظر العلل للدارقطني ١/ ١٩٣-٢١١.

(٣) تاريخ مدينة دمشق ٤/ ١٧٤. وأخرجه أيضاً ابن سعد في الطبقات ١/ ٤٣٦، وإسناده ضعيف لضعف يزيد الرقاشي.

أسرعَ إليك الشيبُ يا رسول الله. فأجابه بنحو ما ذُكر، إلا أنه ذكر من الأخوات: الواقعة، وعمَّ، وإذا الشمس كُوِّرت[(١)].

وفي رواية أخرى عن سعد بن أبي وقاص قال: قلت: يا رسولَ الله، لقد شبتَ. فقال: «شيَّبتني هودٌ، والواقعة..» إلى آخر ما في خبر عمر[(٢)].

وفي بعضها الاقتصارُ على «شيَّبتني هودٌ وأخواتها»[(٣)]، وفي بعض آخر بزيادة: «وما فُعِلَ بالأمم من قبلي» وقد أخرج ذلك ابن عساكر عن جعفر بن محمد عن أبيه رضي الله عنهما مرفوعاً[(٤)].

وأخرج ابن مردويه وغيره عن عمران بن حصين، أن رسول الله ﷺ قال له أصحابه: أسرعَ إليك الشيبُ، فقال «شيَّبتني هودٌ وأخواتُها من المُفصَّل والواقعة»[(٥)].

وكلُّ ذلك يدلُّ على خَطَرها وعِظَم ما اشتملتِ عليه وأشارَتْ إليه، وهو الذي صار سبباً لإسراع الشيب إليه ﷺ. وفسَّره بعضُهم بذكر يوم القيامة وقصص الأُمم، ويشهدُ له بعضُ الآثار.

وأخرج البيهقي في «شعب الإيمان» عن أبي علي الشَّبَوي[(٦)] قال: رأيت النبي ﷺ في المنام: فقلت: يا رسولَ الله، رُوي عنك أنك قلت: «شيَّبتني هودٌ» قال: «نعم». فقلت: ما الذي شيَّبك منها؛ قصص الأنبياء عليهم السلام وهلاكُ الأمم؟ قال: «لا، ولكن قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [الآية: ١١٢]»

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ١/ ٣٥٨ من طريق عطية عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وعطية وهو العوفي، ضعيف.

(٢) أخرجه أبو الشيخ وابن مردويه كما في الدر المنثور ٣/ ٣١٩.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير ١٧/ ٢٨٧ من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٤) تاريخ مدينة دمشق ٤/ ١٧٦، وأخرجه أيضاً ابن سعد ١/ ٤٣٥، وهو حديث مرسل.

(٥) الدر المنثور ٣/ ٣١٩-٣٢٠، وقد تكلم في حديث عمران هذا الدارقطني رحمه الله، وينظر كلامه عليه في تاريخ بغداد ٣/ ١٤٥.

(٦) في الأصل و(م): الشتري، وفي شعب الإيمان (٢٤٣٩): السري، والصواب ما أثبتناه. وهو أبو علي محمد بن عمر بن شبُّويه الشبوي المروزي، من كبار مشايخ الصوفية. سير أعلام النبلاء ١٦/ ٤٢٣.

وهذا هو الذي اعتمد عليه بعضُ السادة الصوفية قدَّس الله تعالى أسرارَهم[1]، وبيَّنه بما بيَّنه.

والحقُّ أن الذي شيَّبه ﷺ ما تضمَّنته هذه السورة أعم من هذا الأمر وغيره مما عَظُم أمره على رسول الله ﷺ بمقتضى عِلْمه الجليل ومقامه الرفيع، وهذا هو المُنقَدح لذهن السامع، ولذلك لم يسأله ﷺ أصحابُه عما شيَّبه منها ومن أخواتها، بل اكتفَوْا بما يتبادر من أمثال ذلك الكلام.

ودعوى أن المُتبادر لهم ﷺ ما خَفِيَ على أبي عليّ، فلذلك لم يسألوا ـ على تقدير تسليمها ـ يبقى أنهم لِمَ لم يسألوا عما شيَّبه عليه الصلاة والسلام من الأخوات مع أنه ليس فيها إلا ذِكْر يوم القيامة وهلاك الأمم دون ذلك الأمر؟! وكونهم علموا أنّ المشيِّب فيها ذلك، وفي أخواتها شيء آخر هو ذكر يوم القيامة وهلاك الأمم يأباه ما في خبر أبي عليّ من نَفْيه ﷺ، وكون ما ذكر مُشيِّباً مفهوماً من سورة دون أخرى لا يخفى حاله، وبالجملة لا ينبغي التعويل على هذه الرواية وإنْ سُلِّم أنها صحَّتْ عن أبي عليّ، واتّهام الرائي بعدم الحفظ أو بعدم تحقيق المَرْئي أهونُ من القول بصحة الرؤية والتكلُّف لتوجيه ما فيها، وسيأتي في آخر السورة إن شاء الله تعالى تمامُ الكلام في هذا المقام فليفهم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر﴾ اسم للسورة على ما ذهب إليه الخليل وسيبويه وغيرهما، أو للقرآن على ما رُوي عن الكلبي والسدي.

وقيل: إنها إشارةٌ إلى اسم من أسمائه تعالى أو صفة من صفاته سبحانه.

وقيل: هي إقسام منه تعالى بما هو من أصول اللغات ومبادي كتبه المنزلة ومباني أسمائه الكريمة.

وقيل وقيل، وقد تقدم الكلامُ فيما ينفعك هنا على أتمِّ تفصيل.

---

(١) بعدها في الأصل: الشيخ الأكبر قدس سره.

واختار غيرُ واحد من المتأخِّرين كونها اسماً للسورة، وأنها خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هذه السورة مسماة بـ «الر»، وقيل: محلُّها الرفع على الابتداء أو النصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو اذكُر أو اقرأ.

وقوله سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبرٌ لها على تقدير ابتدائيتها، أو لمبتدأ محذوف على غيره من الوجوه، والتنوين فيه للتعظيم، أي: كتاب عظيم الشأن جليل القدر ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي: نظمت نظماً مُحكماً لا يطرأ عليه اختلالٌ، فلا يكون فيه تناقضٌ أو مخالفةٌ للواقع والحِكمة أو شيءٌ مما يخلُّ بفصاحته وبلاغته، فالإحكام مستعارٌ من إحكام البناء، بمعنى إتقانه.

أو: مُنِعَتْ من النسخ لبعضها أو لكلِّها بكتاب آخر كما وقع للكتب السالفة، فالإحكام مِن أَحكمه إذا منعه، ويقال: أحكمتُ السفيهَ: إذا منعته من السفاهة، ومنه قول جرير:

أبني حنيفة أَحْكِموا سفهاءكم إني أخاف عليكمُ أن أغضبا[(١)]

وقيل: المراد: مُنعَتْ من الفساد، أخذاً مِن: أَحْكَمْتُ الدابَّة؛ إذا جعلتَ في فمها الحَكَمة، وهي حديدة تُجعل في فم الدابة تمنعها من الجِماح، فكأن ما فيها من بيان المبدأ والمعاد بمنزلة دابّة منعها الدلائل من الجماح[(٢)]، ففي الكلام استعارة تمثيلية أو مَكْنية.

وتُعقِّب بأن تشبيهها بالدابة مُستهجَنٌ لا داعيَ إليه، ولعل الذوق يُفرِّق بين ذلك وبين تشبيهها بالجَمَل الأنوف الوارد في بعض الآثار؛ لانقيادها مع المتأولين؛ لكثرة وجوه احتمالاتها الموافقة لأغراضهم.

واعترض بعضهم على إرادة المنع من الفساد بأن فيه إيهامَ ما لا يكاد يَليق بشأن الآيات الكريمة من التداعي إلى الفساد لولا المانع، فالأولى[(٣)] إذ يُراد معنى المنع

---

(١) ديوان جرير ١/٤٦٦.

(٢) عبارة الشهاب في الحاشية ٥/٦٧ (والكلام منه): فكأن ما فيه من بيان المبدأ والمعاد بمنزلة دابة منعتها حَكَمَتُها من الجماح.

(٣) في (م): فالأول.

أنْ يُرادَ المنع من النسخ، ويُراد من الكتاب القرآن، وعدم نسخه كلّاً أو بعضاً على حسب ما أشرنا إليه؛ وكون ذلك خلافَ الظاهر في حيز المنع.

وادَّعى بعضُهم أن المرادَ بالآيات آياتُ هذه السورة، وكلُّها محكمة غير منسوخة بشيء أصلاً، ورُوي ذلك عن ابن زيد، وخُولف فيه، وادُّعي أن فيها من المنسوخ أربعَ آيات: قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ [الآية:١٢] ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ [الآية:١٢١] والتي تليها، ونُسخَتْ جميعاً بآية السيف و﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ [الآية:١٥]، ونُسخَتْ بقوله سبحانه ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء:١٨]. ولا يخلو عن نظر.

ويجوز أن يكون المعنى: مُنعت من الشبه بالحجج الباهرة، وأُيِّدت بالأدلة الظاهرة، أو جعلت حكيمة، أي: ذات حِكمة لاشتمالها على أصول العقائد والأعمال الصالحة والنصائح والحِكَم، والفعل على هذا منقولٌ من حَكُم - بالضم - إذا صار حكيماً، ومنه قول نمر بن تَوْلب:

وأبغض بغيضك بغضاً رويداً ... إذا أنت حاولت أن تَحكُما[1]

فقد قال الأصمعي: إن المعنى: إذا حاولت أن تكون حكيماً.

وفي إسناد الإحكام على الوجوه المذكورة إلى الآيات دون الكتاب نفسه لاسيما إذا أُريدَ ما يَشمل كلَّ آيةٍ آيةٍ من حُسْنِ الموقع والدلالةِ على كونه في أقصى غاياته = ما لا يخفَى.

﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ أي: جُعلت مفصَّلة كالعِقْد المُفصَّل بالفرائد التي تُجعل بين اللآلئ، ووَجْهُ جَعْلِها كذلك اشتمالُها على دلائل التوحيد والأحكام والمواعظ والقصص، أو فُصِّل فيها مَهمات العباد في المعاش والمَعَاد على الإسناد المجازي. أو جُعلت فصلاً فصلاً من السور، ويراد بالكتاب القرآن، وقيل: يصحُّ أن يُرادَ به هذه السورة أيضاً على أن المعنى: جُعلت معاني آياتها في سُورٍ، ولا يخفى أنه تكلُّفٌ لا حاجةَ إليه.

---

(١) منتهى الطلب ١/ ٢٨٧، وخزانة الأدب ١٠/ ٢٥٤.

أو فُرِّقت في التنزيل، فلم تنزل جُملةً، بل نزلت نجماً نجماً على حسب ما تقتضيه الحِكمة والمصلحة، و«ثم» على هذا ظاهِرة في التراخي الزماني؛ لِمَا أن المُتبادر من التنزيل المُنجَّم فيه التنزيل المنجم بالفعل. وإن أُريد جَعْلُها في نفسها بحيث يكون نزولها منجَّماً حسب الحِكمة فهو رتبي؛ لأن ذلك وصفٌ لازم لها حقيقٌ بأن يرتب على وصف أحكامها، وهي على الأوجه الأُول للتراخي الرتبي لا غير، وقيل: للتراخي بين الإخبارين. واعترض بأنه لا تراخي هناك إلا أن يُرادَ بالتراخي الترتيب مجازاً، أو يقال بوجوده باعتبار ابتداء الخبر الأول وانتهاء الثاني.

وأنت تعلم أن القول بالتراخي في الرتبة أَولى، خلا أن تراخي رتبة التفصيل بأحد المعنيين الأولين عن رتبة الإحكام أمرٌ ظاهرٌ، وبالمعنى الثالث فيه نوعُ خَفاء، ولا يخفى عليك أن الاحتمالات في الآية الحاصلة من ضرب معاني الإحكام الأربعة في معاني التفصيل كذلك، وضرب المجموع في احتمالات المراد بـ «ثم» تبلغ اثنين وثلاثين أو ثمانية وأربعين احتمالاً ولا حَجْرَ.

والزمخشريُّ ذكَر للإحكام ـ على ما في «الكشف» ـ ثلاثةَ أوجه، أَخذه مِن: إحكام البناء، نظراً إلى التركب البالغ حدَّ الإعجاز. أو مِنَ الإحكام، جعلها حكيمةً. أو جعلها ذاتَ حَكَمة، فيُفيد معنى المنع من الفساد.

وللتفصيل أربعةً: جَعْلُها كالقلائد المُفصَّلة بالفرائد لما فيها من دلائلِ التوحيد وأخواتها. وجَعْلُها فصولاً سورة سورة وآية آية. وتفريقُها في التنزيل، وتفصيلُ ما يحتاج إليه العبادُ وبيانُه فيها[1]، رُوي هذا عن مجاهد.

وقال[2]: إنَّ معنى «ثم» ليس التراخي في الوقت، ولكن في الحال كما تقول: هي مُحكمة أحسنَ الإحكامِ، ثم مُفصَّلة أحسنَ التفصيل، وفلانٌ كريمُ الأصل ثم كريم الفعل. والظاهر أنه أرادَ أنها في جميع الاحتمالات كذلك.

وفيه أيضاً: أنه إذا أُريد بالإحكام أحدُ الأولين وبالتفصيل أحدُ الطرفين فالتراخي رُتبي؛ لأن الإحكام بالمعنى الأول راجعٌ إلى اللفظ، والتفصيل إلى

(١) الكشاف ٢/ ٢٥٧-٢٥٨.

(٢) يعني الزمخشري في الكشاف ٢/ ٢٥٨.

المعنى، وبالمعنى الثاني وإن كان معنوياً لكن التفصيل إكمالٌ لِمَا فيه من الإجمال. وإن أريد أحدُ الأوسطين فالتراخي على الحقيقة؛ لأنَّ الإحكامَ بالنظر إلى كل آية في نفسها وجَعْلها فصولاً بالنظر إلى بعضها مع بعض، أو لأن كلَّ آيةٍ مُشتمِلةٌ على جمل من الألفاظ المرصفة، وهذا تراخٍ وجودي، ولما كان الكلامُ من السائلات كان زمانيّاً أيضاً، ولكن الزمخشري آثَرَ التراخي في الحال مطلقاً، حملاً على التراخي في الإخبار في هذين الوجهين لِيطابق اللفظُ الوضعَ، ولِيظهرَ وجه العدول من الفاء إلى «ثم». وإنْ أُريد الثالث، وبالتفصيل أحد الطرفين فرتبي، وإلا فإخباري. والأحسن أن يُراد بالإحكام الأول وبالتفصيل أحدُ الطرفين، وعليه ينطبق المطابقة بين «حكيم» و«خبير» و«أُحكمت» و«فصلت»، ثم قال: ومنه ظهر أن التراخي في الحال يشمل التراخي الرتبي والإخباري. انتهى، فليتأمل.

وقرئ: «أَحكمتُ» بالبناء للفاعل المتكلِّم(١)، و«فَصَلَت» بفتحتين مع التخفيف، ورُوي هذا عن ابن كثير(٢)، والمعنى: ثم فَرقَتْ بين الحق والباطل. وقيل: «فصلت» هنا مثلُها في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ [يوسف: ٩٤] أي: انفصلَتْ وصَدَرت.

﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ صفةٌ لـ «كتاب» وُصِفَ بها بعد ما وُصِفَ بإحكام آياته وتفصيلها الدالَّين على علوِّ مرتبته من حيث الذاتُ إبانةً لجلالة شأنه من حيث الإضافة. أو خبرٌ ثانٍ للمبتدأ الملفوظ أو المقدر. أو هو معمولٌ لأحد الفعلين على التنازع مع تعلُّقه بهما معنى، أي: مِنْ عنده إحكامُها وتفصيلُها. واختار هذا في «الكشف». وفي «الكشاف»: أن فيه طباقاً حسناً، لأن المعنى: أحكمها حكيمٌ، وفصَّلها ـ أي: بيَّنها وشرحها ـ خبيرٌ عالم بكيفيات الأمور(٣). ففي الآية اللَّفّ والنشر.

وأصل الكلام على ما قال الطيبي: أَحكمَ آياتِه الحكيمُ وفَصَّلها الخبير، ثم عَدَل عنه إلى: أُحكمت حكيم وفُصِّلت خبير، على حد قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا

(١) البحر المحيط ٥/ ٢٠٠.

(٢) القراءات الشاذة ص٥٩، والمحتسب ١/ ٣١٨، وهي غير المشهورة عن ابن كثير.

(٣) الكشاف ٢/ ٢٥٨.

بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ * رِجَالٌ﴾ [النور:٣٦] على قراءة البناء للمفعول[١]، وقوله:

لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ لخصومة ومُختبطٌ مما تُطيح الطوائح[٢]

ثم إلى ما في النظم الجليل لما في الكناية من الحُسن مع إفادةِ التعظيم البالغ الذي لا يَصِلُ إلى كُنهه وصفُ الواصف، لاسيما وقد جيء بالاسمين الجليلين مُنكَّرين بالتنكير التفخيمي.

و«لدن» من الظروف المبنية، وهي لأول غاية زمان أو مكان، والمراد هنا الأخير مجازاً، وبُنيت لِشَبَهِها بالحرف في لزومها استعمالاً واحداً، وهي كونُها مبدأ غاية وامتناع الإخبار بها وعنها، ولا يُبنى عليها المبتدأ، بخلاف عند ولَدَى، فإنهما لا يلزمان استعمالاً واحداً، بل يكونان لابتداء الغاية وغيرها، ويُبنى عليهما المبتدأ كما في قوله سبحانه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام:٥٩] ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥].

قيل: ولقوة شَبَهِها بالحرف وخُروجها عن نظائرها لا تُعرب إذا أُضيفت. نعم جاء عن قيس إعرابُها تشبيهاً بعند، وعلى ذلك خُرِّجت قراءة عاصم[٣]: ﴿بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُۦ﴾ [الكهف:٢] بالجر وإشمام الدال الساكنة الضم.

واقترانُها بمِنْ كما في الآية، وكذا إضافتُها إلى مفرد كيفما كان، هو الغالب، وقد تتجرَّد عن مِنْ، وقد تُضاف إلى جملة اسمية كقوله:

وتذكرُ نُعماهُ لَدُنْ أنتَ يافع[٤]

وفعلية كقوله:

---

(١) قرأ بها ابن عامر وشعبة. التيسير ص١٦٢، والنشر ٢/ ٣٣٢.

(٢) الضارع: الذليل الخاضع، والمختبط: الطالب المعروف، وتطيح: تذهب وتهلك. والشاهد فيه رفع الضارع بإضمار فعل دل عليه ما قبله. وقد سلف البيت ٥/ ٣٦٩ وتكلّمنا ثمة عن قائله والاختلاف فيه.

(٣) في رواية شعبة. التيسير ص١٤٢، والنشر ٢/ ٣١٠.

(٤) خزانة الأدب ٧/ ١١١، والدرر اللوامع على همع الهوامع ٣/ ١٣٦، وعجزه: إلى أنت ذو فَوْدين أبيض كالنسر.

صريعُ غوانٍ راقَهُنَّ ورُقْنَه   لَدُنْ شبَّ حتى شابَ سودُ الذوائب[(١)]

ومنع ابنُ الدَّهان[(٢)] من إضافتها إلى الجملة، وأَوَّلَ ما ورد من ذلك على تقدير «أنْ» المصدرية، بدليل ظهورها معها في قوله:

وُلِيتَ فلم تَقْطَعْ لَدُنْ أن وَلِيتَنا   قرابةَ ذي قُربى ولا حقَّ مُسْلم[(٣)]

ولا يخفى ما في التزام ذلك من التكلُّف، لاسيما في مثل: لَدُن أنتَ يافع.

وتتمحَّض للزمان إذا أُضيفت إلى الجملة. وجاء نصبُ غدوة بعدها في قوله:

لدن غُدوةً حتى دنت لغروب[(٤)]

وخُرِّج على التميز، وحكى الكوفيون رَفْعَها بعدها، وخُرِّج على إضمار كان.

وفيها ثمانِ لُغات؛ فمنهم من يقول: لَدُنْ، بفتح اللام وضم الدال وسكون النون، وهي اللغة المشهورة، وتُخفَّف بحذف الضمة كما في عَضْد، وحينئذٍ يلتقي ساكنان. فمنهم مَن يحذفُ النون لذلك، فيبقى لَدْ، بفتح اللام وسكون الدال. ومنهم مَن لا يحذف، ويُحرِّك الدال فتحاً فيقول: لَدَنْ، بفتح اللام والدال وسكون النون، ومنهم من لا يحذف ويحرك الدال كسراً فيقول: لَدِنْ، بفتح اللام وكسر الدال وسكون النون، ومنهم مَن لا يحذف ويُحرِّك النون بالكسر فيقول: لَدْنِ، بفتح اللام وسكون الدال وكسر النون، وقد يُخفَّف بنقلِ ضَمَّةِ الدال إلى اللام كما يقال في عَضُد: عُضْد بضم العين وسكون الضاد على قِلَّة، وحينئذٍ يلتقي ساكنان أيضاً، فمنهم مَن يحذف النون لذلك فيقول: لُدْ، بضم اللام وسكون الدال. ومنهم مَن لا يحذف، ويُحرِّك النون بالكسر فيقول: لُدْنِ، بضم اللام وسكون الدال وكسر النون فهذه سبع لغات. وجاء لَدُ بحذف نون لدن التي هي أُمّ الجميع، وبذلك تتم

(١) البيت للقطامي، وهو في ديوانه ص٤٤.

(٢) سعيد بن مبارك بن علي بن الدهان البغدادي، أبو محمد، من مصنفاته: شرح الإيضاح، وشرح اللمع، والدروس، وغيرها، توفي سنة (٥٦٩ هـ). إنباه الرواة ٢/ ٤٧.

(٣) خزانة الأدب ٧/ ١١١، والدرر اللوامع ٣/ ١٣٦.

(٤) البيت لأبي سفيان بن حرب قاله يوم أحد، وأوله: وما زال مُهْري مَزْجَر الكلب منهم. الدرر اللوامع ٣/ ١٣٨، واللباب لابن عادل ٥/ ٤٦.

الثمانية، ويدلُّ على أن أصلَ لد: لدن، أنك إذا أضفتَه لمضمر جئتَ بالنون فتقول: مِنْ لدنك، ولا يجوز: مِنْ لدك، كما نَبَّه عليه سيبويه[١]، وذكر لها في «همع الهوامع» عشر لغات ما عدا اللغة القيسية[٢]، فليراجع.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ في موضع العلة للفعلين السابقين على جعل «أن» مصدرية، وتقدير اللام معها كأنه قيل: كتاب أُحكمت آياته ثم فُصِّلتْ لئلا تعبدوا إلا الله، أي: لتتركوا عبادةَ غيره عز وجل وتتمحَّضوا لعبادته سبحانه، فإن الإحكام والتفصيل مما يدعوهم إلى الإيمان والتوحيد وما يتفرَّع عليه من الطاعات قاطبةً.

وجوز أن تكون مُفَسِّرة؛ لما في التفصيل من معنى القول دون حروفه، كأنه قيل: فصَّل وقال: لا تعبدوا إلا الله، أو: أَمر أنْ لا تعبدوا إلا الله.

وقيل: إن هذا كلامٌ منقطع عما قبله غيرُ متصل به اتصالاً لفظياً، بل هو ابتداءُ كلام قُصِدَ به الإغراء على التوحيد على لسانه ﷺ، و«أن» وما بعدها في حيِّز المفعول به لمقدَّرٍ، كأنه قيل: اِلزموا تركَ عبادةِ غيره تعالى. واحتمالُ أن يكون ما قبلُ أيضاً مفعولاً به بتقدير «قُلْ» أولَ الكلام خلافُ الظاهر، ومثله احتمال كون «أن» والفعل في موقع المفعول المطلق، وقد صرَّح بعضُ المحقِّقين أن ذلك مما لا يحسُن، أَوْ لا يجوز[٣]، فلا ينبغي أن يُلتفت إليه.

﴿إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢﴾ ضمير الغائب المجرور لله تعالى و«من» لابتداء الغاية، والجار والمجرور في الأصل صفة النكرة فلما قُدِّم عليها صار حالاً كما هو المعروف في أمثاله، أي: إني لكم من جهته تعالى نذيرٌ أُنذِرُكم عذابَه إن لم تتركوا ما أنتم عليه من عبادة غيره سبحانه، وبشير أُبشِّركم ثوابَه إنْ آمنتم وتمحَّضتم في عبادته عز وجل.

---

(١) الكتاب ٣/ ٢٨٦.

(٢) همع الهوامع ٢/ ٢١٩-٢٢٠، والدرر اللوامع على همع الهوامع ٣/ ١٣٦، ويعني باللغة القيسية كونها معربة كما سلف.

(٣) حاشية الشهاب ٥/ ٦٩.

وجُوِّز كون «من» صلةَ النذير، والضمير إما له تعالى أيضاً، والمعنى حينئذ ـ على ما قال أبو البقاء[1] ـ: نذيرٌ من أجل عذابه. وإما للكتاب على معنى: إني لكم نذيرٌ من مخالفته، وبشيرٌ لمن آمن به.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ عطفٌ على (أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ) سواء كان نهياً أو نفياً، وفي «أن» الاحتمالان السابقان، وقد علمتَ أن الحقَّ أنَّ «أن» المصدرية تُوصل بالأمر والنهي كما تُوصل بغيرهما.

وفي توسيط جملة «إني لكم» إلخ بين المتعاطفين ما لا يخفى من الإشارة إلى عُلوِّ شأن التوحيد، ورفعةِ قَدْرِ النبي ﷺ، وقد رُوعي في تقديم الإنذار على التبشير ما رُوعي في الخطاب من تقديم النفي على الإثبات، والتخلية على التحلية لِتتجاوبَ الأطراف.

والتعرُّضُ لوصف الربوبية تلقينٌ للمخاطَبين، وإرشادٌ لهم إلى طريق الابتهال في السؤال، وترشيحٌ لما يُذكر من التمتيع وإيتاء الفضل.

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ عطفٌ على «استغفروا» واختُلف في توجيهِ توسيط «ثم» بينهما مع أنَّ الاستغفارَ بمعنى التوبة في العُرف، فقال الجُبَّائي: إنَّ المرادَ بالاستغفار هنا التوبةُ عمَّا وقع من الذنوب، وبالتوبةِ الاستغفارُ عما يقع منها بعد وقوعه، أي: استغفروا ربَّكم من ذنوبكم التي فعلتموها، ثم توبوا إليه من ذنوبٍ تفعلونها، فكلمة «ثم» على ظاهرها من التراخي في الزمان.

وقال الفراء: إنَّ «ثم» بمعنى الواو كما في قوله:

بِهَزٍّ كَهَزِّ الرُّدينيّ[2] جرى في الأنابيبِ ثم اضطربْ

والعطف تفسيري. وقيل: لا نُسلِّم أن الاستغفارَ هو التوبة، بل هو ترك المعصية، والتوبةُ هي الرجوعُ إلى الطاعة، ولئن سُلِّم أنهما بمعنى فـ «ثمَّ» للتراخي

(١) في إملاء ما من به الرحمن ٣/ ٢٥٨.
(٢) كذا وقع هذا الشطر في (م) والأصل: بهزٍّ كهزِّ الرُّدينيّ، وهو في مغني اللبيب ص١٦٠، وشرح شواهد العيني بهامش خزانة الأدب ٤/ ١٣١ بلفظ: كهزِّ الرديني تحت العجاج، وفي المعاني الكبير لابن قتيبة ١/ ٥٨: كهز الرُّدينيِّ بين الأكف. والبيت لأبي دؤاد الإيادي يصف فرسه، فيشبه مِشيته باهتزاز الرمح.

في الرُّتبة، والمراد بالتوبة الإخلاص فيها والاستمرارُ عليها، وإلى هذا ذهب صاحبُ «الفرائد».

وقال بعض المُحقِّقين: الاستغفارُ هو التوبةُ، إلا أنَّ المرادَ بالتوبة في جانب المعطوف التوصُّلُ إلى المطلوب مجازاً من إطلاق السبب على المُسبَّب، و«ثم» على ظاهرها، وهي قرينةٌ على ذلك.

وأنت تعلم أنَّ أصلَ معنى الاستغفار طلبُ الغَفْر، أي: السَّتْر، ومعنى التوبة الرُّجوع، ويُطلق الأولُ على طلب سَتْر الذنب من الله تعالى والعفو عنه، والثاني على الندم عليه مع العَزْم على عَدَم العَوْد، فلا اتّحاد بينهما، بل ولا تلازمَ عقلاً، لكن اشْتُرِطَ شرعاً لصحة ذلك الطلَب وقبوله النَّدمُ على الذنب مع العَزْم على عدم العَوْد إليه، وجاء أيضاً استعمالُ الأول في الثاني، والاحتياجُ إلى توجيه العطف على هذا ظاهر، وأما على ذاك فلأن الظاهرَ أن المرادَ من الاستغفار المأمورِ به الاستغفارُ المسبوق بالتوبة بمعنى الندم، فكأنه قيل: استغفروا ربّكم بعد التوبة، ثم توبوا إليه، ولا شُبهة في ظهور احتياجِهِ إلى التوجيه حينئذ، والقلبُ يميل فيه إلى حمل الأمر الثاني على الإخلاص في التوبة والاستمرارِ عليها، والتراخي عليه يجوز أن يكون رُتْبياً، وأن يكون زمانياً كما لا يخفى.

﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ مجزوم بالطلب، ونصب «متاعاً» على أنه مفعولٌ مطلق من غير لفظه، كقوله تعالى: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح:١٧]. ويجوز أن يكون مفعولاً به على أنه اسمٌ لما يُنتفع به من منافع الدنيا من الأموال والبنين وغير ذلك، والمعنى ـ كما قيل ـ: يُعِشْكم في أَمْن وراحة، ولعلَّ هذا لا يُنافي كونَ الدنيا سجنَ المؤمن وجنةَ الكافر، ولا كونَ أشدِّ الناس بلاءً الأَمْثَلَ فالأمثل؛ لأن المرادَ بالأمن أَمْنُه من غير الله تعالى ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣] وبالراحةِ طيبُ عَيْشه برجاء الله تعالى والتقرب إليه حتى يَعُدَّ المحنةَ مِنْحةً:

وتَعذيبكم عذبٌ لديَّ وجورُكم ... عليَّ بما يقضي الهوى لكم عَدْلُ(١)

وقال الزجاج: المراد: يُبقيكم ولا يستأصلكم بالعذاب كما استأصل أهلَ

---

(١) البيت لابن الفارض، وهو في ديوانه ص١٣٥.

القُرى الذين كفروا(١). والخطاب لجميع الأُمَّة بقطع النظر عن كل فرد فرد.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ مقدَّر عند الله تعالى، وهو آخرُ أعماركم، أو آخرُ أيام الدنيا كما يقتضيه كلامُ الزجَّاج. ولا دلالة في الآية على أن للإنسان أجلين كما زعمه المعتزلة.

﴿وَيُؤْتِ﴾ أي: يُعْطِ ﴿كُلَّ ذِى فَضْلٍ﴾ أي: زيادة في العمل الصالح ﴿فَضْلَهُۥ﴾ أي: جزاء فَضْله في الدنيا أو في الآخرة؛ لأن العمل لا يُعطى، وقد يقال: لا حاجةَ إلى تقدير المضاف، والمراد المبالغة على حدّ ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ [الأنعام: ٣٩] والضمير لـ «كل»، ويجوز أن يعودَ إلى الربّ، والمراد بالفضل الأول ما أُريد به أولاً وبالثاني زيادة الثواب بقرينة أنَّ الإعطاءَ ثوابٌ، وحينئذ يُستغنى عن التأويل.

واختار بعضُ المُحقِّقين(٢) التفسيرَ الأول، ثم قال: وهذه تكملةٌ لما أجمل من التمتيع إلى أجلٍ مسمًّى، وتبيينٌ لما عسى أن يَعسُرَ فَهْمُ حكمته من بعض ما يتفق في الدنيا من تفاوت الحال بين العاملين، فَرُبَّ إنسانٍ له فضلُ طاعة وعمل لا يُمتَّع في الدنيا أكثرَ مما مُتِّعَ آخرُ دونَه في الفَضْل، وربما يكون المفضولُ أكثرَ تمتيعاً، فقيل: ويُعطِ كلَّ فاضل جزاءَ فَضْله، إما في الدنيا، كما يتفق في بعض المواد، وإما في الآخرة، وذلك مما لا مَردَّ له. انتهى.

ويُفهم من كلام بعضهم عدمُ اعتبار الانفصال على أنه سبحانه يُنعم على ذي الفضل في الدنيا والآخرة، ولا يختص إحسانه بإحدى الدارين، ولا شكَّ أن كلَّ ذي عمل صالح مُنْعَمٌ عليه في الآخرة بما يعلمه الله تعالى، وكذا في الدنيا بتزيين العمل الصالح في قلبه والراحةِ حسب تعليق الرجاء بربِّه ونحو ذلك، ولا إشكالَ في ذلك كما هو ظاهر للمتأمِّل.

وقيل: في الآية لفٌّ ونَشْرٌ، فإن التمتيعَ مرتَّبٌ على الاستغفار، وإيتاءَ الفضل مُرتَّبٌ على التوبة. انتهى.

وأيّاً مّا كان ففي الكلام ضربُ تفصيل لما أُجمل فيما سبق من البشارة.

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٨.

(٢) هو أبو السعود في تفسيره ٤/ ١٨٤.

ثم شرع في الإنذار بقوله سبحانه:

﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: تستمروا على الإعراض عما ألقي إليكم من التوحيد والاستغفار والتوبة، وأصلُه: تتولوا، فهو مضارع مبدوء بتاء الخطاب؛ لأن ما بعدَه يقتضيه، وحُذفت منه إحدى التاءين كما فُعل في أمثاله.

وقيل: إن «تولوا» ماضٍ غائبٌ، فلا حذف، ويقدّر فيما بعدُ: فقل لهم. وهو خلاف الظاهر.

وأُخّر الإنذار عن البشارة جرياً على سَنَن تقدُّمِ الرحمة على الغضب، أو لأَنَّ العذابَ قد عُلِّق بالتولِّي عما ذكر من التوحيد وما معه، وذلك يستدعي سابقةَ ذكره.

وقرأ عيسى بن عمر واليماني: «تُوَلُّوا» بضم التاء وفتح الواو وضم اللام[1]، وهو مضارع وَلَّى من قولهم: وَلَّى هارباً، أي: أدْبر.

﴿فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ بمقتضى الشفقة والرأفة، أو أتوقَّع ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣﴾ هو يوم القيامة، وُصِفَ بذلك لِكِبَرِ ما يكون فيه، ولذا وُصِفَ بالثِّقل أيضاً، وجُوِّز وصفُه بالكِبَر لكونه كذلك في نفسه. وقيل: المراد به زمانٌ ابتلاهم الله تعالى فيه في الدنيا، وقد رُوي أنهم ابتُلوا بقَحْطٍ عظيم أكلوا فيه الجِيَف. وأيّاً ما كان ففي إضافة العذاب إليه تهويلٌ وتفظيعٌ له.

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ مصدرٌ ميمي، وكان قياسُه فتحَ الجيم؛ لأنه من باب ضَرَبَ، وقياس مصدره الميمي ذلك كما عُلم في[2] محلِّه، أي: إليه تعالى رجوعُكم بالموت، ثم البعث للجزاء في مثل ذلك اليوم، لا إلى غيره، جميعاً لا يتخلَّف منكم أحدٌ.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤﴾ فيندرج في تلك الكُلِّية قدرتُه سبحانه على إماتتكم، ثم بعثكم وجزائكم، فيعذِّبكم بأفانين العذاب، وهذا تقريرٌ وتأكيدٌ لما سلف من ذكر اليوم، وتعليلٌ للخوف.

---

(١) القراءات الشاذة ص٥٩.

(٢) في (م): من.

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ﴾ كأنه جوابُ سؤال مقدَّر؛ وذلك أنه لما أُلقي إليهم ما أُلقي، وسيق إليهم ما سِيق من الترغيب والترهيب، وَقَع في ذهن السامع أنهم بعد ما سمعوا مثلَ هذا المقال الذي تَخِرُّ له صُمُّ الجبال، هل قابلوه بالإقبال أَمْ تمادَوْا فيما كانوا عليه من الإعراض والضلال؟ فقيل ـ مصدَّراً بكلمة التنبيه إشعاراً بأنَّ ما بعدها من هناتهم أمرٌ ينبغي أن يُفهم ويُتعجَّب منه ـ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ﴾ إلخ. فضمير «إنهم» للمشركين المُخاطَبين فيما تقدَّم، و«يَثنون» بفتح الياء مضارع ثنى الشيءَ: إذا لواه وعطفه، ومنه ـ على ما قيل ـ الاثنان، لِعطف أحدهِما على الآخر، والثناءُ لِعَطْفِ المناقب بعضها على بعض، وكذا الاستثناء للعطف على المستثنى منه بالإخراج. وأصلُه يثنيون فأُعلَّ الإعلالَ المعروف في نحو يرمون.

وفي المراد منه احتمالات: منها أن الثَّنْي كنايةٌ أو مجازٌ عن الإعراضُ عن الحق؛ لأنَّ مَن أقبل على شيء واجهه بصدره، ومن أَعرض صَرَفَهُ عنه، أي: إنهم يثنون صدورهم عن الحق وينحرفون عنه. والمراد استمرارُهم على ما كانوا عليه من التولِّي والإعراض المشار إليه بقوله سبحانه: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ إلخ.

ومنها أنه مجاز عن الإخفاء لأن ما يُجعل داخل الصدر فهو خفيٌّ، أي: إنهم يُضمرون الكُفْرَ والتولِّيَ عن الحق وعداوةَ النبي ﷺ.

ومنها أنه باقٍ على حقيقته، والمعنى: إنهم إذا رأَوا النبي عليه الصلاة والسلام فعلوا ذلك، وولَّوه ظهورهم.

والظاهر أن اللام متعلقة بـ «يثنون» على سائر الاحتمالات، وكأن بعضَهم(١) رأى عدمَ صحةِ التعلُّق على الاحتمال الأول؛ لِمَا أنَّ التولِّي عن الحق لا يصلحُ تعليلهُ بالاستخفاء، لعدم السببية، فقدَّر لذلك متعلِّقاً فعل الإرادة على أنه حال، أو معطوف على ما قبله، أي: ويُريدون لِيَسْتَخْفوا من الله تعالى، فلا يُطلِعُ رسولَه عليه الصلاة والسلام والمؤمنين على إعراضهم(٢)، وجعله في قَوْدِ المعنى إليه من قَبيل

---

(١) هو الزمخشري في الكشاف ٢/٢٥٨، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي السعود في تفسيره ٤/١٨٥.

(٢) في الأصل و(م): أغراضهم، والمثبت من تفسير أبي السعود، وجاء في الكشاف بدلاً منها: ازورارهم.

الإضمار في قوله تعالى: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣] أي: فضرب فانفلق، لكن لا يخفى أن انسياقَ الذهن إلى توسيطِ الإرادة بين ثني الصدور والاستخفاء ليس بمثابة انسياقه إلى توسيط الضرب بين الأمر والانفلاق، كما ذكره العلامة القَسْطَلَّاني وغيره.

وقيل: إنه لا حاجةَ إلى التقدير في الاحتمالين الأولين؛ لأنَّ انحرافَهم عن الحقّ بقلوبهم، وعطف صدورهم على الكفر، والتولِّي، وعداوة النبي ﷺ، وعدم إظهارهم ذلك يجوز أن يكون للاستخفاء من الله تعالى لجهلهم بما لا يجوزُ على الله تعالى، وأما على الاحتمال الثالث فالظاهر أنه لا بدَّ من التقدير، إلا أنْ يُعادَ الضميرُ «منه» إلى الرسول ﷺ، وهو الذي يقتضيه سببُ النزول على ما ذكره أبو حيان[١] من أن الآية نزلت في بعض الكُفَّار الذين كانوا إذا لَقِيهم النبيُّ ﷺ تطامنوا وثَنوا صدورَهم كالمُستتر، ورَدُّوا إليه ظهورَهم، وغشَّوا وجوههم بثيابهم، تباعداً منه وكراهةً للقائه عليه الصلاة والسلام، وهم يظنُّون أنه يخفى عليه ﷺ، لكن ظاهر قوله تعالى الآتي: (يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ) يقتضي عَوْدَ الضمير إليه تعالى.

واختار بعضُ المُحقِّقين الاحتمالَ الثاني من الاحتمالات الثلاث، وأَمْرُ التعليل والضمير عليه ظاهر، وأيَّده بما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلَتْ في الأخنس بن شريق، وكان رجلاً حلوَ المنطق، حسنَ السِّياق للحديث يُظهِرُ لرسول الله ﷺ المحبةَ ويُضمِرُ في قلبه ما يُضادُّها[٢]، لكنه ليس بمُجْمَعٍ عليه لما سمعتَ عن أبي حيان.

وقيل: إنه كان الرجلُ من الكُفَّار يدخل بيتَه ويُرخي ستره ويَحني ظهره ويتغشَّى بثوبه ويقول: هل يعلم الله ما في قلبي فنزلت.

وأخرج ابنُ جرير[٣] وغيره عن عبد الله بن شداد أنها نزلَتْ في المنافقين، كان أحدُهم إذا مرَّ بالنبي ﷺ ثَنى صدره وتغشَّى لئلا يراه. وهو في معنى ما تقدَّم عن

(١) في البحر المحيط ٥/ ٢٠٣.
(٢) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٢٦٨.
(٣) في تفسيره ١٢/ ٣١٧.

أبي حيان إلا أن فيه بعض الكفار دون المنافقين، فلا يَرِدُ عليه ما أُورد على هذا من أنَّ الآية مكية والنِّفاق إنما حدثَ بالمدينة، فكيف يتسنَّى القولُ بأنها نزلَتْ في المنافقين؟!

وقد أُجيبَ عن ذلك بأنه ليس المرادُ بالنفاق ظاهرَه، بل ما كان يصدُر من بعض المشركين الذين كان لهم مداراةٌ تُشبه النِّفاق، وقد يقال: إنَّ حديثَ حدوث النِّفاق بالمدينة ليس إلا، غيرُ مُسلَّم، بل ظهورُه إنما كان فيها، والامتيازُ إلى ثلاث طوائف [وقع بها](1).

ثم لو سُلِّم فلا إشكال، بل يكون على أسلوب قوله سبحانه: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ [الحجر: ٩٠] إذا فسر باليهود، ويُراد به ما جرى على بني قُريظة، فإنه إخبارٌ عما سيقع، وجعله كالواقع لتحقُّقه، وهو من الإعجاز؛ لأنه وقع كذلك، فكذا ما نحن فيه.

نعم الثابت في «صحيح البخاري»، وأخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم، وابن مردويه من طريق محمد بن عبَّاد بن جعفر أنه سمع ابنَ عباس يقرأ الآية، فسأله عنها فقال: أناسٌ كانوا يَستحيون أن يتخلَّوا فيُفْضُوا إلى السماء، وأن يُجامعوا نساءهم فيُفْضُوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم(2).

وليس في الروايات السابقة ما يُكافئ هذه الرواية في الصِّحة. وأمر «يثنون» عليها ظاهر خلا أنه إذا كان المرادُ بالأناس جماعةً من المسلمين كما صرَّح به الجلال السيوطي أشكلَ الأمر، وذلك لأن الظاهرَ من حال المسلم إذا استحيا من ربه سبحانه فلم يَكْشِفْ عورتَه مثلاً في خلوة كان مقصودُه مجرَّدَ إظهارِ الأدب مع الله تعالى مع علمه بأنه جلَّ شأنه لا يحجبُ بصرَه حاجبٌ، ولا يمنع عِلْمَه شيء، ومثلُ هذا الحياء أمرٌ لا يكادُ يذمُّه أحدٌ، بل في الآثار ما هو صريحٌ في الأمر به، وهو شعارُ كثير من كبار الأُمَّة، والقول بأنَّ استحياءَ أولئك المسلمين كان مقروناً بالجهل بصفاته عز وجل فَظَنُّوا أن الثَّني يحجبُ عن الله سبحانه فردَّ عليهم بما ردَّ لا أظنُّك

---

(١) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٥/ ٧٢.

(٢) صحيح البخاري (٤٦٨١)، والدر المنثور ٣/ ٣٣٠.

تَقْبلُه؛ وبالجملة الأمر على هذه الرواية لا يخلو عن إشكال، ولا يكاد يندفع بسلامة الأمر، والذي يقتضيه السياق ويستدعيه رَبْطُ الآيات كونُ الآية في المشركين حسبما تقدَّم، فتدبَّر، والله تعالىٰ أعلم.

وقرأ الحِبْر رضي الله عنه ومجاهد وغيرهما: «تَثْنَوْني» بالتاء لتأنيث الجمع وبالياء التحتية[١]؛ لأن التأنيثَ غير حقيقي، وهو مضارع اثْنَوْنَى كاحْلَوْلَى، فوزنه تَفْعَوْعِل بتكرير العين، وهو من أبنيةِ المزيدِ الموضوعة للمبالغة؛ لأنه يقال: حَلِيَ، فإذا أُريد المبالغة قيل: احْلَوْلى، وهو لازمٌ، فـ «صدورُهم» فاعلُه، ويُراد منه ما أُريد من المعاني في قراءة الجمهور، إلا أن المبالغةَ ملحوظةٌ في ذلك فيقال: المعنى مثلاً: تنحرف صدورهم انحرافاً بليغاً.

وعن الحِبر أيضاً وعروة وغيرهما أنهم قرؤوا: «تَثْنَوِنُّ» بفتح التاء المثناة من فوق وسكون الثاء وفتح النون وكسر الواو وتشديد النون الأخيرة[٢]، والأصل تَثْنَوْنِن بوزن تَفْعَوْعِل من الثِّنّ بكسر الثاء وتشديد النون، وهو ما هشَّ وضَعُفَ من الكَلأ، أنشد أبو زيد:

يـا أيـهـا الـفُـصَـيِّـلُ[٣] الـمُـعَـنِّـي
إنـك ريَّـان فَـصَـمِّـتْ عـنـي
تـكـفـي الـلَّـقـوحَ أكـلـةٌ مـن ثِـنِّ[٤]

ولَزِمَ الإدغام لتكرير العين إذا كان غير ملحق، و«صدورهم» على هذه مرفوع أيضاً على الفاعلية، والمعنى على وصف قلوبهم بالسخافة والضَّعف كذلك النبتِ

---

(١) القراءات الشاذة ص ٥٩، والمحتسب ١/٣١٨، والبحر ٥/٢٠٢.
(٢) القراءات الشاذة ص٥٩، والمحتسب ١/٣١٩، والبحر ٥/٢٠٢.
(٣) في الأصل من (م): المفضل، والمثبت من المصادر.
(٤) المحتسب ١/٣١٩، وعزاه ابن بري كما في اللسان (ثنن) للأخوص -بخاء معجمة- بن عبد الله الرِّياحي، وهو دون نسبة في المعاني الكبير لابن قتيبة ١/٤٠٥. قال ابن قتيبة: صَمِّتْ عني: أسكت عني ضيفي، يقول: إذا صرفتُ اللبن عنكَ وسقيتُهم سكتوا عني. إنك ريَّان: أي: إنك ستروى. تكفي اللقوح، أي: أمّك. أكلة من ثِنّ -وهو نبات- فيرجع هذا اللبن الذي أسقيته ضيفي فيها، فتَشْربُ، فتروى.

الضعيف، فالصدور مجازٌ عما فيها من القلوب. وجوز أن يكون مطاوع ثَنَاه، فإنه يقال: ثَنَاه فانثنى واثنونى، كما صرَّح به ابنُ مالك في «التسهيل»[1] فقال: وافْعَوْعَل للمبالغة، وقد يُوافق استفعل، ويُطاوع فَعَلَ، ومثَّلوه بهذا الفعل، فالمعنى أن صدورَهم قَبِلَتْ الثني، ويُؤول إلى معنى انحرفَتْ، كما فسر به قراءة الجمهور.

وعن مجاهد وكذا عروة الأعشى أنه قرأ: «تَثْنَئِنّ» كتطمئنّ[2]، وأصله تَثْنَانُّ فقلبت الألف همزةً مكسورةً رغبةً في عدم التقاء الساكنين وإن كان على حده، ويقال في ماضيه: اثنأَنَّ كاحْمَأَرَّ وابيأَضَّ. وقيل: أصله تَثْنونّ بواو مكسورة، فاستثقلت الكسرة على الواو، فقلبت همزة كما قيل في وشاح: إشاح، وفي وسادة: إسادة، فوزنُه على هذا: تفعوعِل[3]، وعلى الأول: تَفْعَالّ، ورجح باطّراده، وهو من الثِّنّ، الكلأ الضعيف أيضاً.

وقرئ: «تَثْنَوي» كتَرْعوي، ونُسب ذلك إلى ابن عباس أيضاً[4]. وغُلِّط النقلُ بأنه لا حظَّ للواو في هذا الفعل، إذ لا يقال: ثنوتُه فانثوى، كرعوته فارْعَوى، ووزن ارعَوَى من غريب الأوزان، وفي «الصحاح» تقديره: افْعَوَل، ووزنه افْعَلَل، وإنما لم يُدغَم لسكون الياء[5]. وتمام الكلام فيه يُطلب من محلِّه.

وقُرئ بغير ذلك، وأوصَلَ بعضُهم القراءات إلى ثلاثَ عشرةَ، وفصَّلها في «الدر المصون»[6].

ومن غريبها أنه قُرئ: «يُثْنُون» بالضم واستشكل ذلك ابن جني[7] بأنه لا يقال: أَثنيته بمعنى ثَنَيته، ولم يسمع في غير هذه القراءة. وقال أبو البقاء[8]: لا يُعرف

---

(١) ص٢٠٠.
(٢) المحتسب ١/٣١٩، والبحر ٥/٢٠٢.
(٣) في (م): تفوعل، وهو خطأ، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٥/٧١، والكلام منه.
(٤) البحر المحيط ٥/٢٠٢، والدر المصون ٦/٢٨٧.
(٥) الصحاح (رعو).
(٦) ٦/٢٨٤.
(٧) في المحتسب ١/٣١٩-٣٢٠، ونسبها لسعيد بن جبير.
(٨) إملاء ما من به الرحمن ٣/٢٥٨.

ذلك في اللغة إلا أنْ يقال: معناه: عرضوها للانثناء، كما تقول: أَبَعْتُ الفرسَ، إذا عَرَضْتَه للبيع.

﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: يجعلونها أغشيةً، ومنه قول الخنساء:

أرْعَى النجومَ وما كُلِّفتُ رِعْيتَها وتارةً أتغشَّى فَضْلَ أطماري[(١)]

وحاصلُه: حين يأوون إلى فراشهم ويلتحفون بما يَلتحفُ به النائمُ، وهو وقتٌ كثيراً ما يقع فيه حديثُ النفس عادةً، وعن ابن شدَّاد: حين يتغطَّون بثيابهم للاستخفاء. وأيّاً ما كان فالمرادُ من الثياب معناه الحقيقي. وقيل: المراد به الليلُ، وهو يستر كما تَستر الثياب، ومن ذلك قولهم: الليلُ أخفى للويل[(٢)].

والظرف متعلّق بقوله سبحانه: ﴿يَعْلَمُ﴾ أي: ألا يعلم ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ حين يستغشون ثيابَهم؛ ولا يلزم منه تقييدُ علم الله تعالى بذلك الوقت؛ لأن من يعلم فيه يعلم في غيره بالطريق الأولى.

وجُوِّز تعلّقه بمحذوف، وقدَّره السمين وأبو البقاء: يستخفون[(٣)]، وبعضهم: يُريدون.

و«ما» في الموضعين إما مصدرية أو موصولة عائدُها محذوف، أي: الذي يُسرونه في قلوبهم والذي يُعلنونه أيَّ شيء كان، ويدخل ما يقتضيه السِّياق دخولاً أولياً، وخصَّه بعضُهم به.

وقدم هنا السِّر على العَلَن نَعْياً عليهم من أول الأمر ما صنعوا، وإيذاناً بافتضاحهم ووقوع ما يَحذرونه، وتحقيقاً للمساواة بين العِلْمينِ على أبلغِ وجه، فكأنَّ عِلْمَه سبحانه بما يُسِرُّونه أقدمُ منه بما يُعلنونه، وحاصل المعنى: يستوي بالنسبة إلى عِلْمه المحيط سرُّهم وعَلَنهم، فكيف يَخفى عليه سبحانه ما عسى أن يُظهروه؟

---

(١) ديوان الخنساء ص٣٣.

(٢) ذكره الميداني في مجمع الأمثال ٢/ ١٩٣.

(٣) الدر المصون ٦/ ٢٨٩.

وقرأ ابن عباس: «على حين يستغشون» قال ابنُ عطية[1]: ومن هذا الاستعمال قولُ النابغة:

على حينَ عاتبتُ المشيبَ على الصبا[2]

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾ تعليلٌ لما سبق وتقريرٌ له، والمرادُ بذات الصدور الأسرارُ المُستكنَّة فيها، أو القلوب التي في الصدور، وأيّاً ما كان فليست الذات مقحمةً كما في ذات غدوةٍ، ولا من إضافة المُسمَّى إلى اسمه كما تُوهِّم، أي: إنه تعالى مبالغٌ في الإحاطة بمضمرات جميع الناس وأسرارهم، أو بالقلوب وأحوالها، فلا يخفى عليه سرٌّ من أسرارها، فكيف يخفى عليه ما يُسِرُّون وما يُعلنون؟

وكان التعبيرُ بالجملة الاسميةِ للإشارة إلى أنه سبحانه لم يَزَلْ عالماً بذلك، وفيه دليلٌ على أنه تعالى يعلم الأشياءَ قبل وجودِها الخارجي، وهذا مما لا يُنكره أحدٌ سوى شِرْذمةٍ من المعتزلة قالوا: إنه تعالى إنما يعلم الأشياءَ بعد حدوثها، تعالى عن ذلك عُلُوّاً كبيراً، ولا يلزمُ هذا بعض المُتكلِّمين المُنكرين للوجود الذهني؛ لأنهم إذا لم يقولوا بهِ مع إنكار الوجود الذهني يلزمهم القولُ بتعلّق العلم بالمعدوم الصِّرف، وامتناعه من أجلِّ البديهيات، والإنكارُ مكابرةٌ، أو جهل بمعنى التعلّق بالمعدوم الصِّرف، وقد أورد ذلك عليهم المحقِّق الدواني، وهو ناشئٌ ـ على ما قيل ـ عن الذهول عن معنى إنكار الوجود الذهني، وبعد تحقيق المراد منه يندفع ذلك.

وبيانه أنه ليس معنى إنكارهم ذلك أنه لا يحصلُ صورة عند العقل إذا تصوَّرنا شيئاً، أو صدَّقنا به؛ لأن حصولَها عنده في الواقع بديهي لا يُنكره إلا مُكابر، وكيف يُنكره الجمهور والعلمُ الحادث مخلوقٌ عندهم، والخلقُ إنما يتعلَّق بأعيانِ الموجودات؛ بل هو بمعنى أنَّ ذلك الحصولَ ليس نحواً آخرَ من وجود الماهية المعلومة بأن يكون لماهية واحدة ـ كالشمس مثلاً ـ وجودان، أحدُهما خارجيٌّ والآخرُ ذهني كما يقول به مُثبتوه، فهم لا يُنكرون الوجودَ عن صور الأشياء

---

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ١٥١.

(٢) ديوان النابغة ص٧٩، وعجزه: وقلت ألمَّا أصحُ والشيب وازع. وسلف ٧/ ٥٠٨.

وأشباحها، وهي موجوداتٌ خارجية وكيفياتٌ نفسانية، وهي المخلوقة عندهم، وإنما يُنكرون الوجودَ الذهني عن أَنْفُس تلك الأشياء، وذلك بشهادة أدلَّتهم حيث قالوا: لو حصلت النار في الأذهان لاحترقَتِ الأذهان بتصوُّرها، واللازم باطلٌ، فإنه كما ترى إنما ينفي الوجودَ عن نفس النار لا عن شبحها ومثالها، فالحقُّ أن الجمهورَ إنما أنكروا ما ذهب إليه مُحقِّقو الحكماء من أن الحاصلَ في الأذهان أَنْفُسُ ماهيات الأشياء، ولم يُنكروا ما ذهب إليه أهلُ الأشباح. وحينئذ يقال: علمُ الواجب عندهم إما تعلُّقه بأشباح الأشياء أو صفةٌ ذات ذلك التعلُّق، فلا يلزمهم القول بما قاله الشِّرْذمة، ولا يتَّجه عليهم أن التعلُّق بتلك الأشباح الموجودة في الأزل لكونه نسبة بينها وبينه تعالى متأخِّر عنها فيلزم إيجاد تلك الأشباح بلا علم، وهو مُحال، لأنا نقول: لما كان الواجب تعالى موجباً في علمه وسائر صفاته الذاتية كان وجودُ تلك الصور الإدراكية التي هي تلك الأشباحُ مقتضى ذاته تعالى، فلا بأس في كونها سابقةً على العلم بالذات، وإنما المسبوق بالعلم هو أفعالُه الاختيارية.

ثم ينبغي أن يعلمَ أنه ليس معنى قولهم: إن علمَ الواجب تبارك وتعالى بالأشياء أزليٌّ، وتعلّقه بها حادثٌ أنه ليس هناك إلا تعلُّقٌ حادثٌ؛ لأنه يلزم حدوثَ نفس العلم فيعود ما ارتكبه الشِّرذمةُ للقطع بأنه لا يصير المعلومُ معلوماً قبل تعلُّق العلم به، وهو من الفساد بمكان، بل معناه أن التعلُّقَ الذي لا تقتضيه حقيقةُ العلم حادثٌ.

وهناك تعلّق تقتضيه تلك الحقيقة، وهو قديم. وذلك لأنَّ الأشباحَ والأمثال معلومةٌ بالذات، وبواسطتها تُعلَم الأشياء، فتعلُّق العلم عندهم أعمُّ من تعلُّقه بذاتِ الشيء المعلوم، أو بمثاله وشبحِهِ، ولما لم يُمكن وجودُ الحوادث في الأزل كان العلم المُمكن بالنسبة إليها بالتعلُّق بأمثالها وأشباحها، وبعد حدوثها يتجدَّد التعلُّق بأن يكون بذاتِ تلك الحوادث.

وبالجملة تعلُّقُ العلم بأمثالِ الحوادث وأشباحها أزليٌّ، وبأنفسها وذواتها حادثٌ، ولا إشكالَ فيه أصلاً.

وبهذا التحقيق يندفع شُبهاتٌ كثيرة كما قيل، لكن أورد عليه أنَّ برهانَ التطبيق

جارٍ في هاتيك الأشباح لما أنها متميزةُ الآحاد في نفس الأمرِ فيلزم أحد المَحذورين.

وفي المقام أبحاثٌ طويلةُ الذَّيل، وقد بَسَطَ الكلامَ في ذلك مولانا إسماعيل أفندي الكلنبوي[1] في «حواشيه» على شرح العضدية، وللمولى الشيخ إبراهيم الكوراني تحقيقٌ على طرز آخر ذكره في كتابه «مطلع الجود» فارجع إليه.

وبالجملة لا تخفى صعوبةُ هذه المسألة، وهي مما زلَّت فيها أقدامُ أقوام، ولعل الله سبحانه يرزقُكَ تحقيقَها بمنِّه سبحانه، وقد قال به أفضلُ المتأخِّرين مولانا إسماعيل أفندي الكلنبوي.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ الدابةُ اسمٌ لكل حيوان ذي روح ذكراً كان أو أُنثى عاقلاً أو غيره، مأخوذٌ من الدَّبيب، وهو في الأصل المشي الخفيف، ومنه قوله:

زَعَمتنِي شيخاً ولستُ بشيخ   إنما الشيخُ من يَدِبُّ دبيبا[2]

واختُصَّت في العُرف بذوات القوائم الأربع، وقد تختصُّ بالفرس، والمرادُ بها هنا المعنى اللُّغوي باتِّفاق المفسِّرين، أي: وما من حيوان يَدِبُّ على الأرض إلا على الله تعالى غذاؤه ومعاشُه، والمرادُ أن ذلك كالواجب عليه تعالى، إذ لا وجوبَ عليه سبحانه عند أهل الحقِّ كما بيِّن في الكلام، فكلمة «على» المستعملة للوجوب مستعارةٌ استعارةً تبعيَّة لما يُشبهه، ويكون من المَجاز بمرتبتين.

وذكر الإمام أن الرزقَ واجبٌ بحسب الوعد والفَضْل والإحسان[3]. على معنى أنه باقٍ على تفضُّله، لكن لمَّا وعدَه سبحانه ـ وهو جلَّ شأنه لا يخلُّ بما وعدَ ـ صوَّره بصورة الوجوب لفائدتين: التحقيق لوصوله، وحمل العباد على التوكُّل فيه.

ولا يمنع من التوكُّل مباشرةُ الأسباب مع العلم بأنه سبحانه المُسبِّب لها؛ ففي

---

(١) إسماعيل بن مصطفى بن محمود، أبو الفتح الرومي، ويعرف بشيخ زاده، قاضٍ حنفي عثماني، اشتهر بالرياضيات والمنطق. الأعلام ١/ ٣٢٧.

(٢) البيت في كتاب العين ١/ ٣٦٦، والبحر المحيط ٣/ ٢٧٦، وصدره في المغني ص ٧٧٥.

(٣) تفسير الرازي ١٧/ ١٨٦.

الخبر: «اعقِلْ وتوكَّلْ»[١] وجاء: «لن تموتَ نفسٌ حتى تستكملَ رِزْقَها وأجلَها، فاتقوا الله تعالى، وأَجْملوا في الطلب»[٢].

ولا ينبغي أن يعتقدَ أنه لا يحصل الرزقُ بدون مباشرة سببٍ، فإنه سبحانه يرزقُ الكثيرَ من دون مباشرة سبب أصلاً، وفي بعض الآثار: إن موسى عليه السلام عند نزول الوحي تعلَّق قلبُه بأحوال أهله، فأمرهُ الله تعالى بأن يضربَ بعصاه صخرةً، فضرب فانشقَّت الصخرةُ وخرجَتْ صخرةٌ ثانية، فضربها فخرجَتْ ثالثةٌ، فضربها، فانشقَّتْ عن دودة كالذَّرَّة وفي فمها شيءٌ يجري مجرى الغذاء لها، وسمعها تقول: سبحان مَن يراني، ويسمع كلامي، ويعرف مكاني، ويذكرني ولا ينساني.

وما أحسن قول ابنِ أُذينة[٣]:

لقد علمتُ وما الإسرافُ من خُلقي ... أنَّ الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى إليه فَيُعيِيني تطلُّبه ... ولو أقمتُ أتاني لا يُعنِّيني

وقد صدَّقه الله تعالى في ذلك يومَ وفدَ على هشام فقرَّعه بقوله هذا، فرجَع إلى المدينة، فندِمَ هشامٌ على ذلك، وأرسل بجائزته إليه.

ويقربُ من قصته قصةُ الثقفيِّ مع عبيد الله بن عامرٍ[٤] خالِ عثمان بن عفان ﷺ، وهي مشهورة حكاها ابنُ أبي الدنيا، ونقلها غيرُ واحد[٥].

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٧٣١) من حديث عمرو بن أمية الضمري، ولفظه: قال رجل للنبي ﷺ: أُرْسلُ ناقتي وأتوكَّل؟ قال: «اعقلها وتوكَّل».

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢١٤٤) من حديث جابر ﷺ، وأخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١١٥١) من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٣) هو عروة بن أُذينة، يُكنى أبا عامر، شاعر غزل مقدَّم من شعراء المدينة، وهو معدود من شعراء الفقهاء والمحدِّثين. الأغاني ١٨/ ٣٢٢، وفيه البيتان التاليان والقصة التي ذكرها المصنف.

(٤) كذا في الأصل و(م)، والصواب: عبد الله بن عامر. كما في كتب التراجم والسير.

(٥) ذكر القصة ابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٩/ ٢٦٧-٢٦٨ من طريق ابن أبي الدنيا، أن جابر بن عبد الله الأنصاري ورجلاً من ثقيف قصدا ابن عامر والي العراق، فلما وصلا صلَّيا ركعتين، ثم قال جابر: إني لما صلَّيت هاتين الركعتين فكرت، فاستحييت من ربي أن يراني طالباً رزقاً من غيره، اللهم رازق ابن عامر، ارزقني من فضلك، ثم رجع إلى المدينة، ودخل الثقفي =

وقد ألغى أمرَ الأسباب جدّاً من قال:

مَثَلُ الرزق الذي تطلبه مَثَلُ الظل الذي يمشي معك
أنتَ لا تُدركه متَّبعاً وإذا وَلَّيت عنه تَبِعك[1]

وبالجملة ينبغي الوثوقُ بالله تعالى وربطُ القلب به سبحانه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

واحتجَّ أهلُ السنَّة بالآية على أن الحرامَ رزقٌ، وإلا فمن لم يأكل طولَ عُمره إلا من الحرام يلزم أن لا يكونَ مرزوقاً.

وأُجيبَ بأنَّ هذا مجردُ فرض، إذْ لا أقلَّ من التغذِّي بلبن الأم مثلاً، وهو حلالٌ، على أن المرادَ أن كلَّ حيوان يحتاجُ إلى الرزق، إذا رُزِقَ فإنما رِزْقُه من الله تعالى، وهو لا يُنافي أن يكونَ هناك من لا رزقَ له، كالمتغذِّي بالحرام، وكذا من لم يُرزق أصلاً حتى مات جوعاً، ورُوي هذا عن مجاهد، وقد تقدَّم الكلامُ في ذلك[2].

﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ موضعَ قَرارِها في الأصلاب ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ مَوْضِعَها في الأرحام وما يجري مجراها من البيض ونحوه، فالمستقَرُّ والمستودَع اسما مكان. وجُوِّز فيهما أن يكونا مصدرين، وأن يكون المستودعُ اسمَ مفعول لتعدِّي فِعْله، ولا يجوز في المستقرِّ ذلك؛ لأنَّ فِعْلَه لازمٌ. والأول هو الظاهر.

وإنما خُصَّ كلٌّ من الاسمين بما خُصَّ به من المحل ـ كما قال بعض الفُضَلاء ـ لأنَّ النطفةَ مثلاً بالنسبة إلى الأصلاب في حيِّزها الطبيعي ومنشئها الخَلْقي، وأما بالنسبة إلى الأرحام مثلاً فهي مُودَعة فيها إلى وقتٍ معين.

وعن عطاء تفسير المستقَرّ بالأرحام والمستودَع بالأصلاب، وكأنه أخذ تفسير الأول بذلك من قوله سبحانه: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ [الحج: ٥].

= البصرة، وأخبر ابن عامر بقصة جابر، فبكى ابن عامر وقال: والله ما قالها أشراً ولا بطراً، ولكن رأى مجرى الرزق ومخرج النعمة. فأمر للثقفي بأربعة آلاف وأضعف ذلك لجابر.

(١) البيتان لمحمد بن إدريس بن علي المعروف بابن مرج الكحل، وهما في نفح الطيب ٥/ ٥٤.

(٢) ينظر ١/ ٣٥٩ وما بعد.

وجوز أن يكون المرادُ بالمستقَرّ مساكنَها من الأرض حيث وُجدت بالفعل، وبالمستودع محلَّها من الموادّ والمَقارِّ حين كانت بعدُ بالقوة، وهذا عامٌّ لجميع الحيوانات بخلاف الأول، إذْ من الحيوانات ما لم يستقرَّ في صُلب، كالمتكوِّن من عفونة الأرض مثلاً. ولعل تقديمَ محلِّها باعتبار حالتها الأخيرة لرعاية المناسبة بينها وبين عنوان كونها دابَّةً في الأرض، والمعنى على ما قيل: ما من دابّة في الأرض إلا يرزقها اللهُ تعالى حيث كانت من أماكنها يسوقه إليها، ويعلم موادَّها المختلفة المُندرجة في مراتبِ الاستعدادات المُتفاوتة المتطورة في الأطوار المُتباينة، ومقارَّها المتنوعة، ويُفيض عليها في كل مرتبة ما يَليق بها من مبادي وجودها وكمالاتها المُتفرِّعة عليها. ولا يخلو عن حُسن إلا أن فيه بُعداً.

وأخرج عبد الرزاق وجماعةٌ عن ابن عباس رضي الله عنهما أن «مستقَرَّها» حيث تأوي و«مستودعها» حيث تموت[1]. وتُعقِّبَ بأن تفسيرَ المُستودَع بذلك لا يُلائم مقامَ التكفُّل بأرزاقها.

وقد يقال: لعلَّ ذلك إشارةٌ إلى نهاية أمدِ ذلك التكفُّل، وفي خبر ابنِ مسعود رضي الله عنه إشارةٌ إلى ما هو كالمبدأ له أيضاً؛ فقد أخرج عنه ابن جرير والحاكم ـ وصحَّحه ـ أنه قال: «مستقرّها» الأرحام، و«مستودعها» حيث تموت[2]. فكأنه قيل: إنه سبحانه مُتكفِّل برزق كلِّ دابَّة ويعلم مكانَها أول ما تحتاج إلى الرزق ومكانَها آخرَ ما تحتاج إليه، فهو سبحانه يسوقه إليها ولا بدَّ إلى أن ينتهي أمدُ احتياجها.

وجوِّز في هذه الجملة أن تكون استئنافاً بيانيّاً، وأن تكون معطوفةً على جملة ﴿عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ داخلةً في حيِّز «إلا»، وعليه اقتصر الأجهوري.

﴿كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾ أي: كلُّ واحدٍ من الدوابِّ ورزقُها ومستقرُّها ومستودعُها، أوكل ما ذكر وغيره مثبتٌ في اللوح المحفوظ البيِّن لمن ينظر فيه من الملائكة عليهم السلام، أو المُظهِر لما أُثبت فيه للناظرين.

---

(١) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٣٠٢.

(٢) تفسير الطبري ١٢/ ٣٢٧، والمستدرك ٢/ ٣٤١.

والجملة ـ على ما قال الطيبي ـ كالتتميم لمعنى وجوبِ تكفُّل الرِّزق، كمن أقرَّ بشيء في ذمَّتِه، ثم كتب عليه صكّاً.

وفي «الكشف»: إن الأظهر أنها تحقيقٌ للعلم، وكأنه تعالى لما ذكر أنه يعلم ما يُسِرُّون وما يُعلنون أردفَه بما يدلُّ على عموم عِلْمه، ثم أتى سبحانه بما يدلُّ على عظيم قُدرته جلَّ شأنه من قوله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ تقريراً للتوحيد لأن من شَمِلَ علمُه وقُدرتُه هو الذي يكون إلهاً لا غيره مما لا يَعلم ولا يَقدِر على ضُرٍّ ونفع، وتأكيداً لما سبق من الوعد والوعيد، لأنَّ العالِم القادر يُرجى ويُخشى.

وجُوِّز أن تكون الآيةُ تقريراً لقوله سبحانه: (يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ) وما بعدها تقريراً لقوله سبحانه: (وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ). وفيه بُعدٌ.

وكأن المرادَ بخلق السماواتِ والأرض... إلخ خَلْقُهما وما فيهما، أو تجعل السماوات مجازاً عن العُلويات فَتَشْمَلها وما فيها، وتجعل الأرضَ مجازاً بمعنى السُّفليات فتشمَلها وما فيها من غير تقدير. واحتيج لذلك لاقتضاءِ المقام إيَّاه، وإلا فخَلْقُهما في تلك المدة لا يُنافي خلقَ غيرهما فيها.

والمراد باليوم الوقت مطلقاً لا المتعارف، إذ لا يُتَصوَّر ذلك حين لا شمسَ ولا أرضَ، وقيل: أُريد به مدة زمان دور المحدَّد المسمى بالعرش دورة تامةً، وإليه ذهب الشيخ الأكبر قُدِّسَ سِرُّه، وقد علمتَ حاله فيما تقدَّم[1]، وقيل غير ذلك.

وفي عدم خلقهما دفعةً كما علمت دليلٌ ـ كما قال غيرُ واحد ـ على كونه سبحانه قادراً مختاراً مع ما فيه من الاعتبار للنُّظَّار والحثِّ على التأنِّي في الأمور، وقد تقدَّم ما قيل في وجهِ تخصيص هذا العدد دون الزائد عليه كالسبعة أو الناقص عنه كالخمسة للخَلْق[2]، ولعلنا نُحقِّق ذلك في موضعٍ آخرَ.

وإيثارُ صيغة الجمع في السماوات لاختلافها بالأصل والذات دون الأرض، وإن قيل: إنها مثل السماء في كونها سبعاً طباقاً بين كل أرض وأرض مسافة وفيها

---

(١) ينظر ما سلف ص١٨-١٩ من هذا الجزء.

(٢) ينظر ما سلف في الموضع السابق.

مخلوقات، وبذلك فُسِّر قولُه سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ الطلاق: ١٢]. والكثيرُ على أن الأرضَ كرةٌ واحدةٌ منقسمةٌ إلى سبعةِ أقاليم وحملوا الآية على ذلك.

﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ عطف على جملة «خلق» مع ضميره المستتر، أو حال من الضمير بتقدير «قد» على ما هو المشهورُ في الجملة الحالية الماضوية من اشتراط «قد» ظاهرةً أو مقدَّرةً، والمُضي المستفاد مِن «كان» بالنسبة للحكم لا للتكلم، أي: كان عرشُه على الماء قبلَ خَلْقهما، وهو الذي يقتضيه كلامُ مجاهد، وبه صرَّح القاضي البيضاوي، ثم قال: لم يكن حائلٌ بينهما ـ أي: العرش والماء ـ لا أنه كان موضوعاً على متن الماء، واستدلَّ به على إمكان الخَلاء، وأن الماءَ أولُ حادثٍ بعد العرش من أَجْرام هذا العالم، انتهى[1].

وكذا صرَّح به العلامةُ أبو السعود مفتي الديار الرومية، لكنه قال: ليس تحته ـ يعني العرش ـ شيء غيره، أي: الماء، سواء كان بينهما فرجة، أو [كان] موضوعاً على مَتْنه كما ورد في الأثر، فلا دلالةَ فيه على إمكان الخلاء، كيف لا ولو دلَّ لدلَّ على وجوده لا على إمكانه فقط، ولا على كون الماء أولَ ما حدث في العالم بعد العرش، وإنما يدلُّ على أنَّ خَلْقَهما أقدمُ من خلق السماوات والأرض، من غير تعرُّض للنسبة بينهما[2]. انتهى.

ولا يخفى ما بين القاضي والمُفتي من المخالفة، والأكثرون على أن الحقَّ مع المُفتي كما ستعلمه إن شاء الله تعالى.

وانتصر بعضُهم للقاضي بأنه لو كان موضوعاً على متن الماء لَلَزِمَ قبل خَلْق تمام العالم أحدُ الأمور الستة: إما خروجُ الماء عن حيِّزه الطبيعي، أو خروجُ العرش عن حيِّزه الطبيعي، أو تخلخل الماء، أو نموُّه، أو تخلخل العرش، أو نموُّه. وحين خَلْقِ العالم أحدُ الأمور الخمسة: إما حركةُ العرش بالاستقامة إلى حيِّزه الطبيعي، أو تكاثف الماء، أو ذبوله، أو تكاثف العرش، أو ذبوله. وهذه الأمور باطلةٌ كما لا يخفى على مَن تدرَّب في الحِكمة، ويحمل الإمكان في كلامه على الإمكان

---

(١) تفسير البيضاوي (مع حاشية الشهاب) ٥/ ٧٣.

(٢) تفسير أبي السعود ٤/ ١٨٧، وما بين حاصرتين منه.

الوقوعي، أو يُراد به الإمكان الذاتي، وبالخَلاء الخَلاء في عالمنا هذا، فإنه المتنازعُ فيه، فكأنه قيل: واستدلَّ به على أن الخَلاء في عالمنا ممكنٌ بالإمكان الذاتي، وتوجيه الاستدلال به حينئذ على ذلك هو أن الخَلاء قبل عالمنا هذا كان واقعاً، ووقوعُ شيء في وقت شيء من الأوقات دليلٌ على إمكانه الذاتي في جميع الأوقات، فإنَّ ثبوتَ الإمكان للممكن واجبٌ، فالممكن في وقتٍ ممكنٌ في وقتٍ آخر كما حقَّقه شارحُ «حكمة العين».

ووجهُ الدلالة على أن الماءَ أولُ حادثٍ بعد العرش أنَّ كلَّ جسم بسيط فله مكانٌ طبيعيٌّ، وأنَّ المكانَ من لوازمِ وجودِ الجسم، فإن الفاعلَ إذا أَوجد الجسمَ أوجده لا محالة في مكان كما صرَّحوا به، والمكان للخفيف من الأجسام هو الفوق، وللثقيل التحت على حسب الثِّقل والخِفَّة، وتحدُّدهما إنما هو بالفلك الأعظم، فوجود الماء في جوف العرش يتوقَّف على وجودِ مكانه المتوقِّف على وجود العرش، فيتأخَّر عنه حدوثاً.

ولا يخفى ما في هذا الوجه من النظر، ولا أقلَّ من أن يقال: لِمَ لا يجوز أن يَخلُقَ اللهُ تعالى العرشَ والماء معاً؟ على أنه قد جاء في بعض الآثار ما هو ظاهرٌ في أن الماءَ كان مخلوقاً قبل العرش، فقد أخرجَ الطيالسي وأحمد والترمذي ـ وحسنه ـ وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في «الأسماء والصفات» وغيرهم عن أبي رَزِين العُقَيلي قال: قلتُ: يا رسولَ الله، أين كان ربُّنا قبل أن يَخلُقَ السماوات والأرض؟ قال: «كان في عَمَاء ما تحته هواء وما فوقه هواء، وخَلَقَ عَرْشَه على الماء»[1].

وقال بعضٌ في بيان وجه ذلك: إنه لما كان معنى كون العرش على الماء أنه موضوعٌ فوقَه لا مُماسَّه، وأن خلق السماوات والأرض إنما كان بعدَهما، اقتضى ذلك أن العرشَ مخلوقٌ قبلُ، وأن الماء أولُ حادث بعدَه، وهو من فحوى الخطاب، وقوله: لا أنه كان موضوعاً. . . إلخ؛ لأن سياقَه لبيان قُدرته تعالى يقتضيه. وفيه ما فيه كما لا يخفى.

(١) مسند الطيالسي (١٠٩٣)، ومسند أحمد (١٦١٨٨)، وسنن الترمذي (٣١٠٩)، وسنن ابن ماجه (١٨٢)، وتفسير الطبري ١٢/ ٣٣١، والأسماء والصفات ص٢٧٦.

وتعقب بعضُ فُضَلاء الروم ما ذكر أولاً، بأنَّ حاصلَه أن الشقَّ الثاني من الشِّقَّين المذكورين في كلام العلامة الثاني مستلزم لأحد أمورٍ تَقرَّر في علم الحِكمة بُطلانُها، فيتعيَّن الأول منهما، وهو الذي ذهب إليه العلامة الأول، وهو إنما يتم أن لو كانت المُقدِّمات المذكورة في إبطال تلك الأمور يقينيةً، وهو ممنوعٌ، فإن أكثرَها مبنيٌّ على أصول الفلاسفة، وقد بيَّن القاضي نفسُه بطلانَ أكثرِها في «الطوالع»[(١)]، وهو إنما يُراعي القواعدَ الحكمية إذا لم تكن مُخالِفةً للقواعد الإسلامية.

على أن في كلام ذلك المنتصر خَللاً من وجوه:

الأول: أن قوله يلزم إما خروج الماء على حيِّزه الطبيعي... إلخ. يقال في جوابه: إنه يجوز أن يخرج الماء عن حيِّزه الطبيعي، وذلك غيرُ مُحال، وإن كان خروجه بنفسه بطريق السيلان عن حيِّزه الطبيعي محالاً، ويشهد لذلك أنهم ذكروا أن الماءَ لِثقله الإضافي يقتضي أن يكونَ فوقَ الأرض، والأرضَ لثقلها الحقيقي تقتضي أن تكونَ مغمورةً بأَسْرِها فيه، بحيث يُمكن أن يُفرضَ في جوفها نقطة تكون الخطوطُ الخارجة منها إلى سطح الماء متساويةً من جميع الجهات، مع أن الأمرَ اليومَ ليس كذلك؛ لانكشاف ربعٍ شماليٍّ من الأرض، وانحسار الماء عنه؛ إما بسبب قُرب الشمس من الجنوب إلى الأرض عند كونها في الحضيض بقَدْرٍ ثخن المتمم المحوى كما قيل، أو لأمرٍ آخرَ يعلمه اللهُ تعالى.

الثاني أن ما ذكره[(٢)] من استحالة تَخَلْخُل الماءِ ممنوعٌ عندهم أيضاً، وما يقال: إن القول بالتخلخل لا يُتَصوَّر في البسائط الحقيقية لِلزوم تركيب ما فيه مدفوعٌ، فقد صرَّح في «حِكمة العين» و«شرحها» بأن التخلخلَ الحقيقيَّ ـ وهو أن يَزداد مقدارُ الجسم من غير أن يُزَادَ عليه شيء من خارج ـ ممكنٌ، وحقَّقه سيِّدُ المُحقِّقين في «حواشيه»[(٣)] بأن الجسم سواء كان مركَّباً من الهيولى والصورة أو لم يكن، يُمكن

(١) طوالع الأنوار، مختصر في علم الكلام للقاضي البيضاوي. كشف الظنون ٢/ ١١١٦.
(٢) في (م): ذكروه.
(٣) يعني حاشية السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني على شرح شمس الدين محمد بن مبارك شاه الشهير بميرل البخاري لحكمة العين للعلامة نجم الدين علي بن محمد القزويني. كشف الظنون ١/ ٦٨٥.

التخلخل والتكاثُفُ فيه؛ لأن مقدارَ الجسم زائدٌ عليه، والجسم من حيث هو لا مقدارَ له في ذاته، فنسبته إلى جميع المقادير على السواء، فأمكن أن يتَّصف بأكبرَ مما هو متَّصف به أو أصغرَ. وأيضاً الجسمُ متَّصلٌ واحدٌ والمقدارُ زائدٌ عليه، والجسم البسيطُ جزؤه يُساوي كلَّه، فإذا اتَّصف الكل بمقدار خاصٍّ فجزؤه إذا انفردَ وجب أن يكون قابلاً للاتِّصاف بذلك المقدار، والكلُّ بالعكس ضرورةَ تساوي المتماثلات في الأحكام، وحينئذ يتحقَّق إمكانُ ذلك.

والثالث: أن التوجيهَ بحمل الإمكان على الإمكان الذاتي.. إلخ، منظورٌ فيه؛ إذ لا يلزمُ من وقوع شيء في وقت من الأوقات إلا إمكانُ وجودِه في ذلك الوقتِ وإنْ كان ذلك الإمكان مستمرّاً واجباً في جميع الأوقات، فقوله: إنَّ ثبوتَ الإمكان للممكن واجبٌ فالممكن في وقت ممكنٌ في كل وقت ـ إنْ أرادَ به أنَّ إمكانَه أمرٌ ثابتٌ له في كل وقت ـ على أنَّ قولَه: في كلِّ وقت ظرفٌ للإمكان، فهو مسلَّم، لكن اللازم منه أن يكونَ ذلك الشيء متصفاً بالإمكان إمكاناً مستمرّاً دائماً غيرَ مسبوق بعدم الاتِّصاف، ولا سابقَ عليه، ولا يلزمُ منه أن يكونَ وجودُه في كلِّ وقت ممكناً؛ لجوازِ أن يكونَ وجودُ الشيء في الجملة ممكناً إمكاناً مستمرّاً، ولا يكون وجودُه في كل وقت ممكناً، بل ممتنع؛ ولا يلزم من هذا أن يكون الشيء من قَبيل المُمتنعات دون المُمكنات؛ فإنَّ إمكانَ الشيء ليس معناه جوازَ اتِّصافه بجميع أنحاء الوجود، بل معناه جوازُ اتِّصافه بوجود مّا في الجملة، فيكفي في إمكان الشيء جوازُ اتِّصافه بالوجود الواقع في وقت، والممتنع هو الذي لا يقبل الوجودَ بوجه من الوجوه، وإنْ أراد أنه ممكن الوجود في كل وقت ـ على أن يكون في كل وقت ظرفاً للوجود ـ فهو ممنوعٌ ولا يتفرَّع على كون ثبوت الإمكان للممكن واجباً، فإنه قد حقَّق المُحقِّق الدواني في بعض تصانيفه أن إمكانَ الممكن وإن كان مستمرّاً في جميع الأزمنة لا يستلزمُ إمكانَ وجودِ ذلك المُمكن في تلك الأزمنة، وعلى هذا اعتمد المُتكلِّمون في الجواب على استدلال الفلاسفة على قِدَم العالم بأنه مُمكن الوجود في الأزل وإلا لَزِم الانقلابَ، وهو محالٌ بالضرورة، وقُدرة الباري تعالى أزليةٌ بالاتِّفاق، فلو كان العالم حادثاً لزم تركُ الجود، وهو إفاضةُ الوجود وما يتبعه من الكمالات على المُمكنات مدةً غيرَ متناهية، وهو مُحالٌ على الجواد الحقِّ الكريم.

وحاصل الجواب: أنَّ قولَكم: العالم ممكنُ الوجود في الأزل، إنْ أردتُم به أنه يمكن له الوجود الأزلي على أن يكون في الأزل متعلِّقاً بالوجود، فهو ممنوعٌ لجوازِ أن يكونَ وجودُه في الأزل ممتنعاً، وإنْ أردتم به أنَّ إمكانَ وجودِه في الجملة مستمرٌّ في الأزل على أن يكون الظرفُ متعلقاً بالإمكان فمسلمٌ، ولا يلزم أن يكونَ وجودُ العالم في الأزل ممكناً؛ لجواز أن يكون وجودُه في الأزل مستحيلاً، مع أنه في الأزل متَّصفٌ بإمكان وجوده فيما لا يزال. وهذا ما يقال: إنّ أزليةَ الإمكان لا تستلزمُ إمكانَ الأزلية، وما قيل في إثباتِ الاستلزام: إنَّ إمكانَه إذا كان مستمرّاً في الأزل لم يكن هو في ذاته مانعاً من قَبول الوجود في شيء من أجزاءِ الأزل، فيكون عدمُ منعه أمراً مستمرّاً في جميع تلك الأجزاء، فإذا نظر إلى ذاته من حيث هو لم يمنع من اتِّصافه بالوجود في شيء منها، بل جاز اتِّصافُه به في كلٍّ منها [لا] بدلاً فقط بل معاً أيضاً، وجوازُ اتصافه في كل منها هو إمكانُ اتصافه بالوجود المستمر في جميع أجزاء الأزل بالنظر إلى ذاته، فأزلية الإمكان مستلزمة لإمكان الأزلية = صحيح إلى قوله: لم يمنع من اتِّصافه بالوجود في شيء منها، فإنه إن أراد أن ذاتَه لا تمنع في شيء من أجزاء الأزل من الاتِّصاف بالوجود في الجملة بأن يكون قولُه: في شيء منها، متعلقاً بعدم المنع، فيكون معناه أنه لا يمنع في شيء من أجزاء الأزل من الوجود بعدَه فهو بعينه أزلية الإمكان، ولا يلزم منه عدمُ منعه من الوجود الأزلي الذي هو إمكان الأزلية، وإنْ أرادَ به أن ذاتَه لا تمنع من الوجود في شيء من أجزاء الأزل بأنْ يكونَ الجار متعلقاً بالوجود فهو بعينه إمكانُ الأزلية، والنزاعُ إنما وقع فيه، فهو مصادرة على المطلوب. وليت شعري كيف صدر هذا الكلام من قائله مع أنَّ من الموجودات ما هو إلى الوجود كبعض الحروف ومع التصريح بأنَّ ماهيةَ الزمان تقتضي لذاتها عدمَ اجتماع أجزائها وتقدُّم بعضِها على بعضٍ؛ إذ يلزم منه إمكانُ وجود كلٍّ من تلك الأجزاء في الأزل نظراً إلى ذاته، وتمامُ الكلام في ذلك يطلب من «شرح المواقف»(١) و«حواشيه».

وأورد على كون المراد بالخلاء الخلاء في عالمنا لأنه المتنازع فيه، أنه صرَّح غيرُ واحد بأن المتنازع فيه إنما هو الخَلاء داخلَ العالم، وحقيقته أن يكون

---

(١) ينظر: شرح المواقف لعلي بن محمد الجرجاني ٣/ ١٧٦ وما بعد، وما سلف بين حاصرتين منه.

الجسمان بحيث لا يتماسَّان، وليس بينهما ما يُماسُّهما، بناءً على كونه متقدراً قطعاً، وأما الخلاء خارجَ العالم فمتفقٌ عليه، إذ لا تقدّر هناك بحسب نفس الأمر، فالنزاع إنما هو في التسمية بالبُعد، فالفلاسفُة يقولون: حقُّه أن لا يُسمَّى بُعداً ولا خلاءً. والمُتكلِّمون يُسمُّونه بُعداً موهوماً، ولا شك أنَّ عالمَ كون العرش على الماء من داخل العالم، فالخلاء فيه داخلٌ في المُتنازع فيه، وقد نصَّ عليه أيضاً بعضُ المتأخرين.

ومن الناس من اعترضَ على قوله: إنه لو كان موضوعاً على متن الماء لَلَزِمَ... إلخ[1]. بأنَّ الأمورَ التي يلزم أحدُها ذلك التقدير ـ وهي فاسدة ـ أكثرُ مما ذكر، وسوَّد وجه القرطاس ببيان ذلك، وهو مما لا يُحتاجُ إليه، بل ولا يُعوَّل عليه.

وزعم البعضُ أنَّ ما راعاه القاضي في هذا الفصل ليس شيء منه مخالفاً للقواعد الإسلامية، ووسوسَتْ له نفسُه أن خروجَ الماء عن حيِّزه مما لا يجوز، لأن الله سبحانه إنْ كان مُوجباً بالذات، فلا يُتَصوَّر الإخراج منه سبحانه؛ لأن نسبتَه إليه على السوية بحسب الأوقات، فلا يُمكن كونه قاصراً في بعضٍ دون بعض، وإن كان مختاراً يقال: إن ذلك الخروجَ ممتنعٌ في نفسه، وهو سبحانه لا يفعل المُمتنع، ولا تتعلَّق قُدرته به، وكذا يقال في التخلخل والتكاثف، ولا يجوز أن يكونا بالطبع، وإلا لكانا دائمين؛ لأن مقتضى الذات لا يتخلَّف عنه. وممن ذهب إلى امتناعهما[2] الأصفهاني في «شرح حكمة المطالع» ثم تكلَّم منتصراً لنفسه وللقاضي بما لا يُسمن ولا يُغني.

وقال ابن صدر الدين[3] بعد نقل كلام العلَّامتين: قد تقرَّر في علم الأبعاد والأجرام أن ليس لمجموع كرات العناصر بالنسبة إلى الفلك الأعظم الذي هو

---

(١) هو قول مَن انتصر للقاضي، كما سلف ص٣٤٧ من هذا الجزء.
(٢) في الأصل: امتناعها.
(٣) محمد الأمين بن صدر الدين الشرواني نزيل قسطنطينية، أحد أئمة التحقيق، له: تعليقات على تفسير البيضاوي، والفوائد الخاقانية، ورسالة المبتدأ والمعاد، وغيرها، توفي سنة (١٠٣٦هـ). خلاصة الأثر ٣/ ٤١٥، وهدية العارفين ٢/ ٢٧٥.

المراد بالعرش قَدْرٌ محسوس، فلا يُتَصوَّر كونه موضوعاً على متن كرة الماء، فإنَّ ذلك إنما يكون إذا كان عِظَم كرة الماء بحيث يملأ جوفَ العرش مماسّاً محدَّبُه مُقَعَّرَه، وإلا لم يكن موضوعاً على متنه الذي هو عبارة عن السطح المحدَّب، بل إما أن لا يتماسّا أصلاً، أو يتماسَّا بنقطة على ما يشهد به التخيُّل الصحيح، وكيف يُتصوَّر كونه مالئاً له وهو الآن لم يمتلئ إلا بالسماوات والأرض والكرسي والعناصر بجملتها؟

وليس لك أن تقول: لعلَّ الماء في ابتداء الخِلْقة قد كان على هذا المِقدار الصغير الذي الآن عليه، فتخلخل إلى حيث ملأ جوفَه؛ لامتناع الخَلاء، فلما خلق سائر الأجرام العُلوية والسُّفلية عاد بطبعه إلى ما تراه؛ لأنَّا نقول: التَّخلخل عبارة عن ازدياد مِقدار الجسم من غير أن ينضمَّ إليه شيء فيستدعي حركة أينية، وهي تستدعي وجودَ فضاء خال عن الشاغل، وهو المراد بالخَلاء.

وكذا ليس لك أن تقول: فليكن في ابتداء الخِلْقة عظيمَ المقدار بحيث يملأ جوفَ العرش وتكاثَفَ بعدَ خلق سائر الأجرام إلى هذا المقدار الصغير. لأنا نقول أيضاً: التكاثف الذي هو عبارة عن انتقاص مقدار الجسم من غير أن ينقصَ منه شيء، سببُه على ما تقرَّر عندهم أمران:

أحدُهما: التخلخل السابق العارض له بما يُوجبه، فإذا زال ذلك العارض عاد بطبعه إلى مقدارِه الأول كما في المدّ والجَزْر، وفي الصورة المذكورة لا يُتصوَّر هذا؛ لأن المفروضَ أنه خُلِقَ ابتداءً عظيمَ المقدار بحيث يملأ جوفَ العرش، فكيف يُتصوَّر أن يتخلخلَ بعارضٍ حتى يعود عند زواله إلى مقداره الطبيعي الصغير، وهو ظاهر.

وثانيهما: الانجماد باستيلاء البرودة الشديدة، وهذا أيضاً لا يُتصوَّر هاهنا.

أما أولاً: فلأن الماءَ المنعقدَ جمداً، وإنْ كان أصغرَ مقداراً منه غيرَ منعقد، لكنه لا إلى مرتبة لا يكون له قَدْرٌ محسوسٌ بالنسبة إلى مقداره الأول، بل يقربُ منه في الحس كما يُشاهد في المياه المنعقدة، ولا قَدْرَ لكرة الماء الموجود الآن بالنسبة إلى المالئ جوفَ العرش، وهذا مثل أن ينعقدَ البحر فيصير كالعدسة، ولا يلتزمه عاقل.

وأما ثانياً: فلأنَّ كرةَ الماء على ما يُشاهَد غيرُ متجمدة، بل باقية على طبعها من الذوبان.

فإن قلت: بقي على تقدير كون الماء في ابتداء الخِلْقة عظيمَ المقدار مالئاً لجوف العرش احتمالٌ آخر، وهو أن يفرز بعض أجزاء هذه الكرة العظيمة، ويجعل مادةً لسائر الأجرام السماوية والأرضية كما في صورة[1] انقلاب بعض العناصر إلى بعض.

ويُؤيده ما ورد في الأثر من أن العرش كان قبلَ خلق السماوات والأرض على الماء، ثم إنه تعالى أحدثَ في الماء اضطراباً فأزبدَ فارتفع منه دخانٌ وبقي الزبد على وجه الماء، فخلقَ فيه اليُبوسة فصار أرضاً، وخلق من الدخان السماوات، وإلى ذلك يُشير قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١][2].

قلنا: إن هذا الاحتمال غيرُ واقع:

أما على تقدير تركّب الجسم من الهيولى والصورة على ما ذهب إليه المشاؤون من الفلاسفة، فلأن هيولى العناصر وإن كانت واحدةً بالشخص قابلةً لأَنْ يتواردَ عليها صورُ العناصر بواسطة استعدادات متعاقبة تعرض، إلا أن هيولى كلِّ فلك مخالفةٌ لهيولى فلك آخر لا تقبل إلا الصورة التي حصلت فيها.

وأما على تقدير تركبه من الجواهر الفردة على ما هو مذهب أهلِّ الحق، فلأنها متخالفة الحقائق عند محقِّقي المتأخرين على ما صرَّحوا به، فما يتركب منه الماء لا يجوز أن يتركَّبَ منه سائرُ الأجسام.

وأما ما ورد في الأثر وأشارت إليه الآية من جعل الدخان المرتفع من الماء مادةً للسماوات فمصروف عن ظاهره، إذ الدخان أجزاءٌ نارية خالطها أجزاءٌ صغار أرضية تلطفت بالحرارة، ولا تمايز بينهما في الحسّ لغاية الصغر، فقبل خلق السماوات والأرض بما فيهما لم تكن نارٌ وأرضٌ، فمن أين يتولَّد الدخان؟ وكذا إن

---

(١) في (م): سورة، وهو تصحيف.

(٢) أخرجه الطبري ١/ ٤٦٢بنحوه ومطولاً عن ابن مسعود وناس من الصحابة رضوان الله عليهم.

أُريد بالدخان البخار لأنه أجزاءٌ هوائية مازجتها أجزاءٌ صغار مائية تلطَّفت بالحرارة بحيث لا تَمايز بينهما في الحسّ أيضاً، فحيث لا هواء لا بخار، ولهذا قال القاضي في تفسير ﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١]: أمر ظلماني، ولعله أراد به مادَّتها أو الأجزاءَ المتصغرة التي رُكِّبت منها(١).

ومن هنا ظهر أن ما في الأثر لا يؤيِّد كونَ العرش موضوعاً على متن الماء ملتصقاً به، بل يؤيِّد أن لا يكون بينهما حائلٌ؛ إذ ارتفاع الدخان والبخار يستدعي وجودَ فضاء تتحرك فيه تلك الأجزاء، وفي صورة الالتصاق لا يمكن ذلك كما لا يخفى على من له تخيُّل سليم.

ويُعلم مما ذكر أنه يجب تفسيرُ الآية بما فسَّرها به القاضي، ولا مجال للقول بالوضع على المتن فيتمّ الاستدلال، وأما قول أبي السعود: إنه لو دلَّ... إلخ(٢)، ففيه أن الوقوعَ أدلُّ دليلٍ على إمكان الشيء، ومثل هذا الاستدلال شائعٌ ذائع في كلامهم، وأما أن المراد بالإمكان الإمكانُ الوقوعي فكلّا؛ إذ النزاعُ في الإمكان لا الوقوع، وما يُنقل عن الأصمعي من أن هذا كقولهم: السماء على الأرض، مع أن أحدَهما ليس ملتصقاً بالآخر، وحينئذ يكون معنى قول القاضي: لم يكن حائلٌ بينهما(٣)، أنه لم يكن حائلٌ محسوس بينهما، وكان حائلٌ غير محسوس، وهو الهواء؛ ليس بشيء، ولا يصلح ما ذكر معنًى لذلك؛ إذ الفوقية كانت قبلَ خلق جميع أجرامِ هذا العالم، فعلى تقدير عدمِ الالتصاق لا يتصوَّر حائلٌ أصلاً. ثم بيَّن(٤) وجه دلالة الآية على أن الماء أولُ حادث بعد العرش بنحو ما قدَّمنا ذكره. انتهى المراد منه.

وأقول: إنَّ هذا الاحتمالَ الذي أجاب عنه بزعمه قويٌّ جدّاً، وما ذكره عن محقِّقي المتأخرين صرَّح الجمهورُ بخلافه، وقد حقَّق ذلك في موضعه، فلا مانع من أن يخلق اللهُ تعالى من الماء الأجرامَ السماوية والأرضية، بل وكلَّ شيء.

---

(١) تفسير البيضاوي ٧/ ٣٩١ (مع حاشية الشهاب).
(٢) سلف عند بداية تفسير الآية.
(٣) سلف عند بداية تفسير الآية.
(٤) يعني ابن صدر الدين.

وما ذكره في حيِّز تعليل صرف الأثر عن ظاهره ليس بشيء أصلاً، إذ يجوز أن يُحيل سبحانه بعضَ ذلك الماء المالئ أجزاءً نارية وبعضَه أجزاءً أرضية، ويجعل المجموع دخاناً، وكذا يجوز أن يُحيل البعضَ أجزاءً هوائية فتُمازج أجزاء صغاراً مائية متلطفة بحرارة يخلُقها حيث شاءَ فتكوّن البخار، وفي الأثر عن وهب بن منبه أنه جلَّ شأنه قبضَ قبضةً من الماء، ثم فتح القبضةَ فارتفع الدخان، ثم قضاهُنَّ سبعَ سماوات في يومين. ويؤوّل حديث الارتفاع بما لا يستدعي الفضاء، نحو أن يكونَ المعنى: فوجد بعضه دخاناً مرتفعاً، وقد يقال: يجوز أن يكون الماءُ في ابتداء الخِلْقة مالئاً للعرش، ثم إنه سبحانه لما أراد أن يخلقَ ما يخلق أفنى منه ما أراد، وخلق بلا فاصل يتحقق معه الخَلاء بدله ما خلق لا من شيءٍ، والقول باستحالة هذا الخَلْق مُفضٍ إلى فساد عظيم وخطبٍ جسيم لا يكاد يستسهله أحدٌ من المسلمين، وهو ظاهرٌ.

وما ذكره في دَفْع قول شيخ الإسلام: أنه لو دلَّ لدل... إلخ، غيرُ ظاهر فيه، قيل: إذ الاعتراضُ بطريق أنه لو دلَّ لدلَّ على وجود الخَلاء، لا على إمكانه الصّرف؛ لأن الشيء إذا كان موجوداً كان وجوده ضروريّاً لا ممكناً صرفاً على ما بيّن في محلِّه، وينادي على أنَّ الاعتراضَ كذلك تقييدُ الإمكان في عبارته بقيدٍ فقط مع القول بالدلالة على الوجود.

وأورد بعضُهم على قوله: قد تقرَّر في علم الأبعاد والأجرام... إلخ، أنَّ ذلك مبنيٌّ على ظنٍّ أن الماء في الآية هو الماء العنصري، وأنه من بعض الظن؛ إذْ ذاك إنما خُلق بعد خَلْقِ الأرض، فكيف يتصوَّر أن يكونَ العرشُ الذي خُلق قبل السماوات والأرض عليه، فضلاً على أن يكون موضوعاً على مَتْنه أو غيرَ موضوع عليه من غير حائلٍ بينهما، وإنما هو الماءُ الطبيعي النوري العَمائي الذي تكوَّن العرشُ منه، وفيه صرفُ اللفظ عن ظاهره. ونظير ذلك ما قاله الكاملُ ابن الكمال: ليس المرادُ من العرش تاسعَ الأفلاك، ولا مِن الماء أحدَ العناصر لما شَهِدَ بذلك شهادةً صحيحةً لا مردَّ لها ما أخرجه مسلم في «صحيحه» من قوله ﷺ: «كان اللهُ تعالى ولم يكن معه شيء، وكان عرشُه على الماء، وكتب في الذِّكر كلَّ شيء، ثم خلق السماواتِ والأرض»(١)

(١) لم نقف عليه في صحيح مسلم، وأخرجه البخاري (٣١٩١) من حديث عمران بن حصين، وسيذكره المصنف قريباً، وسنذكر تتمة تخريجه ثمة.

فلا وجهَ للاستدلال به على إمكان الخَلاء، وأن الماء أولُ حادث، بل عرشه سبحانه عبارة عن قَيُّوميته بناءً على أنه في الأصل سريرُ الملك، وهو مظهر سلطانه، والماء إشارةٌ إلى صفةِ الحياة باعتبار أنَّ منه كلَّ شيء حيّ، فمعنى «وكان عرشه على الماء»: وكان حيّاً قيوماً، وفي لفظة «على» تنبيهٌ على ترتُّب أحدِهما على الآخر، فتدبر. انتهى.

ولعل وجهَ شهادة الخبر بذلك النفي تضمُّنُه على تقدير الإثبات ما يُنافي ما تضمَّنه النفي؛ إذ يكون حينئذ شيئان معه سبحانه فضلاً عن شيء، ولا يخفى أن هذا إنما يتم لو كانت الجملةُ الماضوية في موضع الحال، والظاهر أنها كغيرها معطوفةٌ على الجملة المستأنفة، وليس في الكلام ما يقتضي أن المعنى: وكان عرشُه على الماء مع وجودِه تعالى بدون معية شيء له لِيضطر إلى حمل الماء والعَرْش، على ما علمتَ من صفتيه تعالى، ولا أرى في الحديث أكثرَ من إفادة ثبوتِ ما تضمَّنته المتعاطفات قبلَ خلق السماوات والأرض، وأما أن كونه تعالى ولم يكن معه شيء، وكون عرشِهِ سبحانه على الماء، وكتابه في الذِّكر ما كَتَبَ كلُّها في وقت واحد هو وقتُ وجودِه تعالى الواقعُ بعدَه خلقُ السماوات والأرض بمهلة وتراخٍ، فلا أراه.

وقد جاء في بعض الروايات عطفُ الخَلْق على ما قبله بالواو كسائر المعطوفات؛ أخرج أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وغيرهم عن عمران بن حُصين قال: قال أهلُ اليمن: يا رسولَ الله، أَخْبِرْنا عن أولِ هذا الأمر كيف كان؟ قال: «كان اللهُ تعالى قبلَ كلِّ شيء، وكان عرشُه على الماء، وكتبَ في اللوح المحفوظِ ذِكْرَ كلِّ شيء، وخلق السماواتِ والأرض» الخبر[(١)].

ثم إنه لا يتم أمرُ الشهادة بمجرد ما تقدَّم، بل لا بدَّ أيضاً من حمل الكتابة في الذِّكر على التقدير، ونفي أن يكون هناك كتابةٌ ومكتوبٌ فيه حسبما يتبادر منهما، ويلتزم هذا في الخبر الثاني أيضاً، ومع ذلك يعكر على القول بكون زمن التقدير متحداً كزمن قَيُّومِيَّته وحياته تبارك وتعالى مع زمن وجوده سبحانه ما أخرجه مسلم

---

(١) مسند أحمد (١٩٨٧٦)، وصحيح البخاري (٣١٩١)، وسنن الترمذي (٣٩٥١) - مختصراً -، وسنن النسائي الكبرى (١١١٧٦).

والترمذي والبيهقي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ تعالى قدَّر مقاديرَ الخلائقِ قبلَ أن يَخْلُقَ السماواتِ والأرضَ بخمسين ألف سنة وعرشُه على الماء»[(١)] لأن أجزاءَ الزمان الموهوم الفاصلِ بين زمان وجوده تعالى ووجود صفاته وزمانِ وجود الخَلْق غيرُ متناهية، فكيف تقدَّر بخمسين ألف سنة؟ وضربُها في نفسها وضربُ الحاصل من ذلك بنفسه ألفَ ألفِ مرة أقلُّ قليل، بل لا شيء يُذكر بالنسبة إلى غير المتناهي.

ويُعارض هذه الشهادة أيضاً ما تقدَّم في حديث أبي رَزِين العُقيلي من قوله عليه الصلاة والسلام: «وخَلَقَ عرشَه على الماء»[(٢)] فإنه نصٌّ في أن العرشَ مخلوقٌ، ولا يجوز أن تكون القيومية مخلوقةً. وكذا ما رُوي عن كعب من أنه سبحانه خلق ياقوتةً خضراءَ، فنظر إليها بالهيبة فصارت ماءً، ثم خلقَ الريحَ فجعل الماء على مَتْنها، ثم وضع العرشَ على الماء[(٣)].

وجاء حديث كون الماء على مَتْن الريح عن ابن عباس، وقد أخرج ذلك عنه ابنُ جرير وابن المنذر والحاكم وصحَّحه والبيهقي وغيرهم[(٤)]. وإباءُ ما ذُكِرَ كونَ الماء بمعنى صفة الحياة له تعالى ظاهرٌ، ومثلُه ما أخرجه ابنُ أبي حاتم وأبو الشيخ عن الربيع بن أنس أنه قال: كان عرشُه سبحانه على الماء فلما خلق السماواتِ والأرضَ قسم ذلك الماء قسمين، فجعل نصفاً تحت العرش - وهو البحرُ المسجور - فلا تقطرُ منه قطرةٌ حتى ينفخ في الصور، فينزل منه مثلُ الطَّلِّ، فتنبت منه الأجسام، وجعل النصفَ الآخر تحت الأرض السُّفلى[(٥)].

ولعلَّ وجه الأمر بالتدبُّر في كلام هذا الفاضل الإشارةُ إلى ما ذكرنا.

وبالجملة لا شكَّ أن المتبادر من الماء ما هو أحدُ العناصر، ومن العرش

---

(١) صحيح مسلم (٢٦٥٣)، وسنن الترمذي (٢١٥٦)، والأسماء والصفات للبيهقي (٧٩٨) وعبارة: «وعرشه على الماء» ليست عند الترمذي والبيهقي.

(٢) سلف تخريجه ص٣٤٨ من هذا الجزء.

(٣) ذكره البغوي في تفسيره ٢/ ٣٧٤، وهذا الخبر من الإسرائيليات التي يرويها كعب.

(٤) تفسير الطبري ١٢/ ٣٣٣-٣٣٤، والمستدرك ٢/ ٣٤١، والأسماء والصفات للبيهقي (٨٠٢).

(٥) الدر المنثور ٣/ ٣٢٢.

الجسم الذي جاء في الأخبار من وصفه ما يبهرُ العقولَ، وشهادةُ الخبر السابق ـ مع كَوْنها شهادةَ نفي عارضتها شهاداتُ إثبات ـ غيرُ نصٍّ في المطلوب كما علمت، ومن كون العرش على الماء ما يعمُّ الشِّقين: كونُه موضوعاً على مَتْنه مماسّاً له، وكونُه فوقَه من غير أن يكون بينهما ما يماسُّهما، وتخصيصُه بالشِّق الثاني مما لا يَتِمُّ له دليلٌ، ولا يصفو عن القال والقيل. وأن الآية لا تصلح دليلاً على كون الماء أولَ حادث بعد العرش، ومن رَجَعَ إلى الأخبار المُعوَّل عليها رأى بعضَها كخبر أبي رَزِين الذي حسَّنه الترمذي ظاهراً في أن الماء قبل العرش.

وقُصارى ما يقال في هذا المقام: إنَّ الحقَّ مع شيخ الإسلام، وإن نُصرة القاضي ـ وإن كان ناصرَ الدين ـ نُصرةٌ خارجة عن الطريق المُستبين، فلا تلتفت هداك الله سبحانه إلى مَن أطال في ذلك بلا طائل، وأتى بكلام لا يُشبه كلامَ عاقل، وزعم أن ذاك من الحكمة وهو عنها ـ علم الله ـ بمراحل، ولولا الوقوعُ في العَبَثِ لَنقلناه ونبَّهنا على ما فيه، وإنْ كان حالُ ظاهره مُؤْذِناً بحال خافيه.

نعم قد يقال: إنَّ البيضاوي إنما ذكر أنه استُدلَّ بالآية على كذا وكذا، ولم يدَّعِ أن فيها دليلاً على ذلك، فما يتوجَّه من الاعتراضات إنما يتوجَّه على المُستدِلّ دونه، وكأن من وجَّه إليه ذلك ادَّعى ارتضاءه للاستدلال بدليل ما وطَّأه له من المقال.

وزعم الجُبَّائي أن في الآية دلالةً على أنه كان قبلَ خلق السماواتِ والأرض حي مكلف، لأن خلقَ العرش على الماء لا وجهَ لحسنه إلا أن يكون فيه لطف بمكلَّف يُمكنه الاستدلال به، وردَّه علي بن عيسى بأنه لا يلزمُ ذلك، ويُكتفى بكون الإخبار به نافعاً للمكلَّفين، واختاره المرتضى، ومنشأُ ذلك الاعتزالُ، والله تعالى الموفق للصواب، وإليه المَرجِعُ والمآب.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ اللام للتعليل مجازاً متعلِّقة بـ «خلق»، أي: خلق السماواتِ والأرضَ وما فيهما من المخلوقات التي من جملتها أنتم، ورتَّب فيهما جميعَ ما تحتاجون إليه من مبادي وجودكم وأسبابِ مَعَاشِكم، وأودع في تضاعيفهما ما تستدلُّون به من تعاجيب الصنائع والعِبَر على مطالبكم الدينية لِيعاملكم معاملةَ مَنْ يختبركم ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فيجازيَكم حسبَ أعمالكم.

قيل: متعلِّقٌ بفعل مقدَّر، أي: أَعْلَمَ بذلك «ليبلوكم». وقيل: التقدير: وخَلَقكم «ليبلوكم». وقيل: في الكلام جملَةٌ محذوفةٌ، أي: وكان خَلْقُه لهما لمنافعَ يعودُ عليكم نفعُها في الدنيا دون الآخرة، وفعل ذلك «ليبلوكم». والكلُّ كما ترى.

والابتلاء في الأصل: الاختبار، والكلامُ خارجٌ مخرجَ التمثيل والاستعارة، ولا يصحُّ إرادة المعنى الحقيقي؛ لأنه إنما يكون لمن لا يعرفُ عواقبَ الأمور.

وقيل: إنه مجازٌ مرسلٌ عن العلم للتلازم بين العلم والاختبار، وهو مُحوِجٌ إلى تكلُّف أن يُرادَ: ليظهرَ تعلُّق عِلْمه الأزلي، وإلا فالعلم القديم الذاتي ليس متفرِّعاً على غيره، وما تقدَّم لا تكلُّفَ فيه، وهو مع بلاغته مصادفٌ محزَّه.

والمراد بالعمل ما يشمل عملَ القلب وعملَ القالب، ويُؤيِّد ذلك ما أخرجه ابنُ جرير وابن أبي حاتم والحاكم في «التاريخ» وابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: تلا رسولُ الله ﷺ هذه الآية ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ إلخ فقلت: ما معنى ذلك يا رسولَ الله؟ قال: «ليبلوكم أيُّكم أحسنُ عقلاً» ثم قال: «وأحسنُكم عقلاً أَوْرعُكم عن محارم الله تعالى وأعملُكم بطاعة الله تعالى»(١) لكن ذكر الحافظ السيوطي أن سنده واه(٢).

وأخرج ابنُ أبي حاتم عن سفيان أن معنى ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾: أزهدُ في الدنيا(٣). وعن مقاتل: أتقى لله تعالى. وعن الضحاك: أكثرُهم شكراً.

ولعلَّ أَخْذَ العمل شاملاً للأمرين أولى، وأفضلها ما كان عملَ القلب، كيف لا ومدارُ العبادة القالبية الواجبة على العباد معرفة الله تعالى التي تحل القلب، وقد يُرفع به للعبد في يوم مثلُ عمل أهلِ الأرض، وفي بعض الآثار: «تفكُّرُ ساعة يعدِلُ عبادةَ سبعين سنة»(٤).

---

(١) تفسير الطبري ١٢/ ٣٣٥، وتفسير ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٠٦ والدر المنثور ٣/ ٣٢٢.

(٢) في إسناده داود بن المُحبَّر صاحب كتاب العقل، قال أحمد: لا يدري ما الحديث. وقال الدارقطني: متروك. ميزان الاعتدال ٢/ ٢٠.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٠٦.

(٤) سلف ٥/ ٢٠٩ بعدة ألفاظ، ينظر تخريجها ثمة.

واعتبار خلق السماوات في ضمن المفرَّع عليه لِمَا أن في السماوات مما هو من مبادي النظر وتهيئة أسباب المَعاش الأرضية التي بها قوامُ القالب[١] ما لا يخفى. وقريبٌ من هذا أن ذِكْرَ السماواتِ وخلقها لتكون أمكنةَ الكواكب والملائكة العاملين فيها لأجل الإنسان.

وقال بعضُ المُحقِّقين: إنَّ كونَ خلق الأرض وما فيها للابتلاء ظاهرٌ، وأما خلق السماوات فذُكر تتميماً واستطراداً، مع أن السماواتِ مقرُّ الملائكة الحفظة وقِبلةُ الدعاء ومَهبطُ الوحي، إلى غير ذلك مما له دخل في الابتلاء في الجملة. ولعل ما أُشير إليه أولاً أولى.

وجملة الاستفهام في موضع المفعول الثاني لفعلِ البلوى على المشهور، وجعل في «الكشاف»[٢] الفعل هنا معلَّقاً؛ لِمَا فيه من معنى العلم، ومنعَ في سورة «الملك» تسمية ذلك تعليقاً مُدَّعياً أنه إنما يكون إذا وقع بعد الفعل ما يسدُّ مَسَدَّ المفعولين جميعاً كـ: علمت أيّهما فعل كذا. وعلمت أزيد منطلق[٣]. وبَيْنَ كلاميه في السورتين اضطرابٌ بحسب الظاهر، وأجاب عنه في «الكشف» بما حاصله: أن للتعليق معنيين: مصطلح ويُعدَّى بعن، وهو المنفي في تلك السورة. ولُغوي، ويُعدَّى بالباء وعلى، وهو خاصٌّ بفعل القلب من غير تخصيص بالسبعة المتعدِّية إلى مفعولين، ولا يكون إلا في الاستفهام خاصة دون ما فيه لام الابتداء ونحوه، ومعنى تعليق الفعل على ما فيه ذلك أن يرتبطَ به معنًى وإعراباً، سواء كان لفظاً أو محلاً، وهو المُثبت هاهنا.

وقال الطيبي: يمكن أن يكون ما هنا على إضمار العلم، كأنه قيل: ليبلوكم فيعلم أيكم أحسن عملاً، والتعليق فيه ظاهر، وما هناك على تضمين الفعل معنى العلم، كأنه قيل: ليعلمكم أيُّكم... إلخ فيصحّ النفي. ولا يخفى على مَن راجع كلامه أن فيه ما يأبى ذلك.

(١) في الأصل: القلب.
(٢) ٢/ ٢٥٩.
(٣) الكشاف ٤/ ١٣٤.

وقد يقال: إن التعليقَ لا يختصُّ بما كان من الأفعال بمعنى العلم، كما ذهب إليه ثعلب والمبرد وابن كيسان[1]، وإن وجَّهه إدريس[2] بما في «همع الهوامع»[3]، ورجَّحه الشَّلَوْبِين، ولا بالفعل القلبي مطلقاً، بل يكون فيه وفي غيره مما ألحق به، لكن مع الاستفهام خاصة، واقتصر بعضهم في الملحق على أبصر[4]، وتفكَّر، وسأل. وزاد ابن خروف: نظر، ووافقه ابن عصفور وابن مالك، وزاد الأخير: نسي[5]، كما في قوله:

ومَـن أنـتـم إنَّـا نـسـيـنـا مَـنْ أنـتـم[6]

ونازعه أبو حيان بأن «مَنْ» تحتمل الموصولية والعائد محذوف، أي: مَنْ هم أنتم.

وكذا زاد[7] أيضاً ما قارب المذكورات من الأفعال التي لها تعلُّق بفعل القلب، كـ «ترى» البصرية في قوله:

أمـا تـرى أيُّ بـرق هـاهـنـا[8]

وكـ: «يستنبئون» في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾ [يونس: ٥٣] وكـ «نبلو» فيما نحن فيه، ونازعه أبو حيان بأن ترى في الأول علمية، و«أيّكم» في الأخير موصولة حُذف صدر صلتها، فبُنِيت، وهي بدل من ضمير الخطاب بدل بعض،

---

(١) فقد ذهبوا إلى أنه لا يعلق من الأفعال إلا ما كان بمعنى العلم. همع الهوامع ١/ ٥٥٧.

(٢) في الأصل و(م): أويس، والمثبت من همع الهوامع ١/ ٥٧٧، وينظر التعليق الذي بعده.

(٣) ١/ ٥٧٧، وفيه: ووجّهه إدريس بأن آلة التعليق في الأصل حرف الاستفهام وحرف التأكيد؛ أما التحقيق فلا يكون بعد الظن لأنه نقيضه، وأما الاستفهام فتردُّدٌ والظن أيضاً تردُّدٌ فلا يدخل على مثله.

(٤) في (م): بصر.

(٥) التسهيل ص٧٢، ونقله المصنف عنه بواسطة السيوطي في همع الهوامع ١/ ٥٥٩.

(٦) قائله زياد الأعجم، وعجزه: وريحكم مِنْ أيِّ ريح الأعاصر. شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/ ١٥٣٩، والكلام من همع الهوامع.

(٧) يعني ابن مالك كما في همع الهوامع ١/ ٥٥٩.

(٨) في الأصل و(م): هنالك، بدل: هاهنا، وفي الهمع: هنا، والمثبت من مغني اللبيب ص٥٤٤، ولم نقف على قائل هذا البيت.

ونقل ذلك عنه الجلال السيوطي[١]، ولم أجده في بحره.

وفي الرضي أن جميعَ أفعال الحواسّ تُعلَّق عن العمل، وفي «التسهيل»[٢] ما يُؤيِّده، وأجاز يونس تعليقَ كل فعل غير ما ذكر، وخرَّج عليه ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ﴾ [مريم: ٦٩]، والجمهور لم يُوافقوه على ذلك.

وقد ذكر بعض الفضلاء أن الفعل القلبي وما جرى مَجراه إما متعدٍّ إلى واحد أو اثنين، فالأول يجوز تعليقُه سواء تعدَّى بنفسه كعَرَفَ، أو بحرف كتفكَّر؛ لأن معمولَه لا يكون إلا مفرداً، وبالتعليق بطل عملُه في المفرد الذي هو مقتضاه وتعلق بالجملة، ولا معنى للتعليق إلا إبطال العمل لفظاً لا محلّاً، وإن تعدَّى لاثنين، فإما أن يجوزَ وقوعُ الثاني جملة كما في باب علم أَوْ لا، فإن جاز علِّق عن المفعولين نحو: علمتُ لَزيدٌ قائمٌ، لا عن الثاني؛ لأنه يكون جملةً بدون تعليق، فلا وجه لِعَدِّه منه إذ لا فرق بين [وجود][٣] أداة التعليق وعدمها، فالتعليق لا يُبطل عملَ الفعل أصلاً، كما في: علمتُ زيداً أبوه قائم، و: علمتُ زيداً لأبوه قائم، فإنَّ عمله في محل الجملة لا فرقَ فيه بين وجود حرف التعليق وعدمه، وإن لم يَجُزْ وورد فيه كلمة تعليق كان منه، نحو: (يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ) فإنَّ المسؤول عنه لا يكون إلا مفرداً. والفعل فيما نحن فيه يحتمل أن يكون عاملاً فيما بعدَه، وهو المُختبر به، غير متضمِّنٍ علماً، وفِعْلُ البلوى إذا كان كذلك يتعدَّى بالباء إلى المُختبر به، ولا يكون إلا مفرداً كما في قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ﴾ [البقرة: ١٥٥] والاستفهام قد أبطل مقتضاه لفظاً، وهو التعليق، ويحتمل أن يكون متضمناً معنى العلم ويكون العلم عاملاً فيه، وهو مفعوله الثاني، وحينئذ لا تعليق، ومن هنا يظهر أنَّ تعليقَ الفعل في الآية إنما هو على تقدير إعمال فعل البلوى، وعدم تعليقهِ على تقدير إعمال العلم، فلا مُنافاة بين الكلامين. انتهى. وهو تفصيلٌ حسن.

وفي «الهمع»: أن الجملة بعد المُعلَّق في باب عَلِمَ وأخواتها في موضع المفعولين، فإن كان التعليقُ بعد استيفاء المفعول الأول، فهي في موضع المفعول

(١) في همع الهوامع.
(٢) ص٧٢.
(٣) ما بين حاصرتين في حاشية الشهاب ٥/ ٧٤، والكلام منه.

الثاني، وأما في غير هذا الباب فإنْ كان الفعل مما يتعدَّى بحرف الجر فالجملة في موضع نصب بإسقاطه، نحو: فكَّرت أهذا صحيحٌ أَمْ لا، وجعل ابن مالك منه ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ [الكهف: ١٩] وإنْ كان مما يتعدَّى لواحد فهي في موضعه، نحو: عَرَفتُ أيهم زيد، فإنْ كان مفعوله مذكوراً نحو: عَرَفتُ زيداً أبو مَنْ هو، فالجملة بدلٌ منه على ما اختاره السيرافي وابن مالك، وهو بدلُ كلٍّ مِن كل بتقدير مضاف ـ أي: قصةَ زيد أو أَمْرَه ـ عند ابن عصفور، والتزم ذلك ليكون المُبدل منه جملةً في المعنى، وبدل اشتمال ولا حاجةَ إلى التقدير عند ابن الصائغ[١]، وذهب المبرد والأعلم وابن خروف وغيرهم إلى أنَّ الجملة في موضع نصب على الحال، وذهب الفارسي إلى أنها في موضع المفعول الثاني لِعرَفتُ على تضمينه معنى عَلِمْتُ، واختاره أبو حيان[٢].

وفيه نوعُ مُخالفةٍ في الظاهر لما تقدَّم تظهر بالتأمُّل، إلا أنه اعترض القول بأنَّ ما بعدَ فعل البلوى مُختبرٌ به بأن المُختبر به إنما هو خلق السماوات والأرض.

وأُجيب بأنَّ ذلك وإن كان في نفس الأمر مُختبراً عنه، والمُختبر به ما ذُكر إلا أنه جعل مختبراً به باعتبار ترتُّبه على ذلك، ولا يخفى ما فيه.

وقال بعضُ أرباب التحقيق[٣] في دفع المُخالفة: إنَّ الزمخشري جعل قولَه سبحانه هنا: (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) بجملته استعارةً تمثيليةً، فتكون مفرداتُه مستعملةً في معناها الحقيقي معطاةً ما تستحقُّه، وفِعْلُ البلوى يعلق عن المفعول الثاني، لأنه لا يكون جملةً إذ هو يتعدَّى له بالباء، وحرف الجر لا يدخل على الجُمل، وجرى التعليق فيه بناءً على أنه مناسبٌ لفعل القلوب معنًى، وقد صرَّح غيرُ واحد بجَريانه في ذلك، وجَعَله ثمة[٤] مستعاراً لمعنى العلم، والفعل إذْ[٥] تجوز به عن معنى فعل آخر عَمِلَ عملَه وجرى عليه حُكمه، وعَلِمَ لا يعلق عن المفعول الثاني،

---

(١) كذا في الأصل و(م)، ولعل الصواب: ابن الضائع، وهو أبو الحسن علي بن محمد الإشبيلي شيخ أبي حيان.

(٢) همع الهوامع ١/ ٥٦٠.

(٣) هو الشهاب في الحاشية ٥/ ٧٥.

(٤) يعني في سورة الملك، وقوله: جعله، يعني به الزمخشري.

(٥) في الحاشية: إذا.

فكذا ما هو بمعناه، فيكون قد سلك في كلٍّ من الموضعين مَسْلكاً؛ تفنناً، وكثيراً ما يفعل ذلك في كتابه، ولعله لم يعكس الأمر؛ لأن ما فعله في كلٍّ أنسبُ بما قبله مِنْ خَلْق السماوات والأرض وما فيها من النعم والمنافع وخلق الموت والحياة.

ولا يخفى أنَّ هذا قريبٌ مما تقدَّم، وفيه ما فيه.

والإتيان بصيغة التفضيل الدالَّة على الاختصاص بالمُختبرين الأحسنين أعمالاً مع شمول الاختبار لفرق المُكلَّفين وتفاوت[1] أعمال الكفار منهم إلى حَسَن شرعي وقبيح، لا إلى حسن وأحسن كما في أعمال المؤمنين، للتحريض على أحاسنِ المحاسن، والتحضيض على الترقِّي دائماً؛ لدلالته على أن الأصلَ المقصود بالاختبار ذلك الفريق لِيُجازيهم أكملَ الجزاء، فكأنه قيل: المقصود أن يظهرَ أفضليتكم لأفضلكم، فإن ذلك مفروغٌ عنه لا يَحيد عنه ذو لبّ. وجوز أن يكون من باب الزيادة المطلقة، وأن يكونَ من باب: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ [مريم: ٧٣]. وأيّاً ما كان فالخطاب ليس خاصّاً بالمؤمنين؛ لأن إظهارَ حال غيرهم مقصودٌ أيضاً، لكنه لا بالذات على الوجه الأول.

﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ أي: مثله في الخَديعة والبطلان، فالتركيبُ من التشبيه البليغ، والإشارةُ إلى القولِ المذكور، وجوز أن تكون للقرآن، كأنه قيل: لو تلوتَ عليهم من القرآن ما فيه إثباتُ البعث لقالوا: هذا المَتلوُّ سحرٌ، والمرادُ إنكارُ البعث بطريق الكناية الإيمائية؛ لأن إنكارَ البعث إنكارٌ للقرآن.

وقيل: إنَّ الإخبارَ عن كونهم مبعوثين وإن لم يجب عن كونه بطريق الوحي المتلو إلا أنهم عند سماعهم ذلك تخلَّصوا إلى القرآن لإنبائه عنه في كل موضع وكونه علماً عندهم في ذلك، فعمدوا إلى تكذيبه وتسميته سحراً؛ تمادياً منهم في العناد وتفادياً عن سَنَن الرَّشاد. وهو خلاف الظاهر.

وقيل: الإشارة إلى نفس البعث. وتُعقِّب بأنه لا يُلائمه التسمية بالسحر، فإنه إنما يطلق على شيء موجود ظاهراً لا أصلَ له في الحقيقة، ونفس البعث عندهم

---

(١) في (م): وتتفاوت.

معدومٌ بحت، وفيه بحثٌ؛ لجواز أنهم أرادوا من السحر الأمرَ الباطل والشيء الذي لا أصلَ له ولا حقيقةَ لِشيوعه فيما بينهم بذلك حتى كأنه عَلَمٌ له.

وجُوِّز أن تكون الإشارة إلى القائل، والإخبار عنه بالسحر للمبالغة.

والخطاب في «إنكم» إنْ كان لجميع المُكلَّفين فالموصول مع صِلته للتخصيص، أي: لَيقولَنَّ الكافرون منهم. وإنْ كان للكافرين فذكر الموصول لِيتوصَّل به إلى ذَمِّهم بعنوان الصِّلة.

وتَعلُّقُ الآية الكريمة بما قبلها إما من حيث إن البعثَ من تَتمات الابتلاء المذكور فيه، كأنه قيل: الأمرُ كما ذكر، ومع ذلك إنْ أخبرتَهم بمقدِّمة فذَّة من مُقدِّماته وقضية فردة من تتماته يقولون ما يقولون فضلاً عن أنهم يُصدِّقون بما وقع هذا تتمة له، وإما من حيث إن البعثَ خلقٌ جديد، فكأنه قيل: وهو الذي خلق جميعَ المخلوقاتِ ليترتَّب عليها ما يترتَّب، ومع ذلك إن أخبرتَهم بأنه سبحانه يُعيدهم تارةً أُخرة وهو أهونُ عليه يعدُّون ذلك ما يعدُّون، فسبحان الله عما يَصِفون.

وقرأ عيسى الثقفي: «ولئن قلتُ» بضم التاء على أن الفعل مسندٌ إليه تعالى[١]، أي: ولئن قلتُ ذلك في كتابي المُنزل عليكَ ليقولنَّ الذين كفروا... إلخ، وفي «البحر» أن المعنى على ذلك: ولئن قلتُ مستدِلّاً على البعث من بعد الموت، إذ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ إلخ دلالة على القدرة العظيمة، فمتى أخبر بوقوعِ ممكنٍ وَقَعَ لا محالة، وقد أخبر بالبعث فوجب قبولُه وتيقُّنُ وقوعه[٢]. انتهى. وهو لدى الذوق السليم كماء البحر.

وقرأ الأعمش: «أَنَّكم» بفتح الهمزة[٣] على تضمين «قلتَ» معنى ذكرتَ، أي: ولئن قلت ذاكراً أنكم مبعوثون. فـ «أنَّ» وما بعدها في تأويل مصدر مفعول للذِّكر، واستظهر بعضُهم كونَ القول بمعنى الذكر مجازاً، وتُعقِّب بأنَّ الذِّكر والقول

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٢٠٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٥٩ عن عيسى.

مترادفان، فلا معنى للتجوّز حينئذ، ولما كان القول باقياً في التضمين جاء الخطاب على مقتضاه.

وجوّز أن تكون «أنَّ» بمعنى علَّ، ونقل ذلك عن سيبويه، وجاء: ائت السوقَ علَّك تشتري لحماً، و: أنَّك تشتري لحماً، وهي لتوقُّع المخاطب، لكن لا على سبيل الإخبار، فإنهم لا يتوقَّعون البعثَ، بل على سبيل الأمر، كأنه قيل: توقَّعوا بَعْثكم، ولا تَبتُّوا القولَ بإنكاره، وبذلك يندفعُ ما يقال: إنَّ النبيَّ ﷺ قاطعٌ بالبعث، فكيف يقول: لعلَّكم مبعوثون، وأيضاً القراءةُ المشهورة صريحةٌ في القطع والبتّ، وهذه صريحةٌ في خلافه فيَتنافيان. ومنهم من قال: يجوز أن يكون هذا من الكلام المنصف والاستدراج، فربما ينتبهون إذا تفكَّروا، ويقطعون بالبعث إذا نَظَروا.

وقرأ حمزة والكسائي: «إلا ساحر»(١) والإشارة إلى القائل، ولا مبالغةَ في الإخبار كما كانت على هذا الاحتمال في قراءة الجمهور، ويجوز أن تكون للقول أو للقرآن، وفيه من المبالغة ما في قولهم: شعر شاعر.

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: المُترتِّبَ على بعثهم، أو الموعودَ بقوله سبحانه: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣] وقيل: عذاب يوم بدر، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قَتْلُ جبريلَ عليه السلام المستهزئين، وهم خمسةُ نفر أهلكوا قبل بدر.

والظاهر أن المرادَ العذابُ الشامل لِلكَفَرة، ويُؤيِّد ذلك ما أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال: لما نزل ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١] قال ناسٌ: إن الساعة قد اقتربَتْ فتناهوا، فتناهى القومُ قليلاً ثم عادوا إلى أعمالهم أعمالِ السوء، فأنزل الله سبحانه ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] فقال أناسٌ من أهل الضلالة: هذا أمرُ الله تعالى قد أتى. فتناهى القومُ ثم عادوا إلى عِكْرهم عِكْرِ السوء(٢)، فأنزل الله تعالى هذه الآية(٣).

---

(١) التيسير ص ١٠١، والنشر ٢/٢٥٦.

(٢) في هامش الأصل: لعله كذا: أي: إلى أصل مذهبهم الرديء، ومنه المثل: عادت لِعِكْرها لميس، وقيل: العِكْرُ العادة والديون، وروي: عَكَرهم بفتحتين؛ ذهاباً إلى الدنس والدرن، من عَكَر الزيت. والوجه الأول. اهـ. قلنا: هذا كلام ابن الأثير في النهاية (عكر).

(٣) الدر المنثور ٣/٣٢٢.

﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعۡدُودَةٍ﴾ أي: طائفة من الأيام قليلة؛ لأنَّ ما يحصرُه العَدُّ قليلٌ.

وقيل: المراد من الأمة الجماعة من الناس، أي: ولئن أَخَّرنا عنهم العذابَ إلى جماعة يتعارفون ولا يكون فيهم مؤمن، ونقل هذا عن علي بن عيسى.

وعن الجبائي أن المعنى: إلى أُمَّة بعد هؤلاء نُكَلِّفهم فيعصون، فتقتضي الحكمةُ إهلاكَهم وإقامةَ القيامة.

وروى الإمامية ـ وهم بيت الكذب ـ عن أبي جعفر وأبي عبد الله ﵄ أن المرادَ بالأُمَّة المعدودةِ أصحابُ المهدي في آخر الزمان، وهم ثلاث مئة وبضعة عشر رجلاً كعِدَّة أهل بدر(١).

﴿لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓ﴾ أي: أيُّ شيء يمنعه من المجيء، فكأنه يُريده ويمنعه مانع، وكانوا يقولون ذلك بطريق الاستعجال، وهو كناية عن الاستهزاء والتكذيب؛ لأنهم لو صدَّقوا به لم يستعجلوه، وليس غرضُهم الاعترافَ بمجيئه والاستفسار عن حابسه كما يُرشد إليه ما بعد.

﴿أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ﴾ ذلك العذابُ الأُخروي أو الدنيوي ﴿لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ﴾ أي: أنه لا يرفعه رافعٌ أبداً، أو لا يدفعه عنهم دافعٌ، بل هو واقعٌ بهم، والظاهر أن «يوم» منصوب بـ «مصروفاً» الواقع خبرَ «ليس»، واستدل بذلك جمهور البصريين على جواز تقديم خبرها عليها كما يجوز تقديمه على اسمها بلا خلافٍ معتَدٍّ به، لأن تقديمَ المعمول يُؤذن بتقديم العامل بطريق الأولى، وإلا لَزِمَ مزية الفرع على أصله، وذهب الكوفيون والمبرد إلى عدم الجواز، وادَّعوا أن الآيةَ لا تصلحُ حُجةً؛ لأنَّ القاعدةَ المشار إليها غير مُطَّردة، ألا ترى قوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾ [الضحى: ٩] كيف تقدَّم معمول الفعل مع امتناع تقديمه؛ لأن الفعل لا يلي «أما»، وجاء عن الحجازيين أنهم يقولون: ما اليومَ زيد ذاهباً، مع أنه لا يجوز تقديمُ خبر «ما» اتفاقاً، وأيضاً المعمول فيها ظرف والأمر فيه مبني على التسامح، مع أنه قيل: إنه متعلق بفعل محذوف دلَّ عليه ما بعده، والتقدير: ألا يصرف عنهم العذاب أو يلازمهم يوم يأتيهم، ومنهم مَن جعله متعلِّقاً بيخافون محذوفاً، أي: ألا يخافون يومَ... إلخ.

(١) مجمع البيان ١٢/١١٩.

وقيل: هو مبتدأ لا متعلق بـ «مصروفاً» ولا بمحذوف، وبُني على الفتح لإضافته للجملة، ونظيرُ ذلك قوله سبحانه: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [المائدة: ١١٩] على قراءة الفتح[١].

وأنت تعلم أن في بناء الظرف المضاف لجملة صَدْرُها مضارع مُعرب خلافاً بين النحاة، وأن الظاهرَ تعلُّقه بـ «مصروفاً»، نعم عدم صلاحية الآية للاحتجاج بما لا ريب فيه، وفي «البحر»[٢]: قد تَتَبَّعتُ جملةً من دواوين العرب فلم أَظْفَرْ بتقديم خبرِ ليس عليها ولا بتقديمِ معموله إلا ما دلَّ عليه ظاهرُ هذه الآية الكريمة، وقول الشاعر:

فيأبى فما يزدادُ إلا لَجاجةً وكنت أبيّاً في الخنا[٣] لستُ أُقدِمُ

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: نزل وأحاط، وأصله حقَّ، فهو كَزَلَّ وزال، وذمَّ وذامَ. والمراد: يحيق بهم ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ⑧﴾ إلا أنه عبَّر بالماضي لتحقق الوقوع.

والمرادُ بالموصول العذابُ، وعبَّر به عنه تهويلاً لمكانه، وإشعاراً بعلية ما ورد في حيِّز الصلة من استهزائهم به لِنزوله وإحاطته، ووُضِعَ الاستهزاء موضعَ الاستعجال لأنه كان استهزاءً.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ أي: أعطيناه نعمةً من صحةٍ وأمنٍ وجِدَةٍ وغيرها، وأوصلناها إليه بحيث يَجِدُ لَذَّتها، فالإذاقةُ مجازٌ عن هذا الإعطاء ﴿ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا﴾ أي: سلبنا تلك الرحمة ﴿مِنْهُ﴾ صلة النزع، والتعبير به[٤] للإشعار بشدة تعلُّقه بها وحِرْصه عليها ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ﴾ شديدُ اليأس كثيرُه قطوع رجاءه من عَوْد مِثْلِ تلك النعمة عاجلاً أو آجلاً بفضل الله تعالى، لعدم صبره وتوكُّله عليه سبحانه وثقته به.

﴿كَفُورٌ ⑨﴾ كثير الكفران لما سلف لله تعالى عليه من النعم، وتأخيرُ هذا

---

(١) وهي قراءة نافع. التيسير ص١٠١، والنشر ٢/٢٥٦.
(٢) ٥/٢٠٦.
(٣) في البحر المحيط: الخفا، ولم نقف على البيت في غيره.
(٤) يعني التعبير بالنزع.

الوصفِ عن وَصْفِ يأسهم لرعايةِ الفواصل، على أن اليأس من باب الكفران للنعمة السالفة أيضاً.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَهُ نَعْمَآءَ﴾ كصحةٍ وأمنٍ وجِدَة ﴿بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ كسقم وخوف وعُدْم. وفي إسناد الإذاقة إليه تعالى دون المس إشعارٌ بأنَّ إذاقةَ النعمة مقصودةٌ بالذات دون مسِّ الضر، بل هو مقصود بالعرض، ومن هنا قال بعضهم: إنه ينبغي أن تُجعل «من» في قوله سبحانه: «منه» للتعليل، أي: نزعناها من أجل شؤمه وسوءِ صنيعه وقُبحِ فِعْله، ليكون «منَّا» و«منه» مشيراً إلى هذا المعنى ومنطبقاً عليه، كما قال سبحانه: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ﴾ [النساء: ٧٩].

ولا يخفى أن تفسيرَ «منه» بذلك خلافُ الظاهر المتبادر، ولا ضرورة تدعو إليه.

وإنما لم يؤتَ ببيان تحوّل النعمة إلى الشدة وبيان العكس على طرْز واحد، بل خُولف التعبيرُ فيهما، حيث بُدئ في الأول بإعطاء النعمة وإيصال الرحمة، ولم يبدأ في الثاني بإيصال الضُّرِّ على نمطه؛ تنبيهاً على سبق الرحمة على الغضب واعتناءً بشأنها.

وفي التعبير عن ملابسة الرحمة والنعماء بالذوق المُؤذِنِ ـ على ما قيل ـ بلذتهما وكونهما مما يُرغَب فيه، وعن ملابسة الضراء بالمس المُشعر بكونها في أدنى ما يُطلق عليه اسمُ الملاقاة من مراتبها، من اللُّطف ما لا يخفى، ولعلَّه يقوِّي عظم شأن الرحمة.

وذكر البعض أن في لفظِ الإذاقةِ والمَسّ بناءً على أنَّ الذوقَ ما يختبر به الطعوم، والمَسَّ أولُ الوصول = تنبيهاً على أنَّ ما يَجِدُ الإنسانُ في الدنيا من المِنح والمحن نموذجٌ لما يجده في الآخرة، وأنه يقع في الكفران والبطر بأدنى شيء.

﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ﴾ أي: المصائب التي تسوءني ولن يَعتريَني بعدُ أمثالُها ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ﴾ بَطِرٌ بالنعمةُ مغترٌّ بها، وأصله: فارح، إلا أنه حُوِّل لما ترى؛ للمبالغة، وفي «البحر»(١) أنَّ فَعِلاً ـ بكسر العين ـ هو قياسُ اسم الفاعل من فَعِلَ اللازم.

---

(١) ٥/٢٠٦.

وقرئ: «فَرُح» بضم الراء[١]، كما تقول: نَدُس، ونَطُس، وأكثرُ ما ورد الفرح في القرآن للذمِّ، فإذا قُصِدَ المدح قُيِّد؛ كقوله سبحانه: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

﴿فَخُورٌ ۝١٠﴾ مُتعاظِمٌ على الناس بما أُوتي من النعم، مشغولٌ بذلك عن القيام بحقِّها.

واللام في «لئن» في الآيات الأربع موطئة للقسم، وجوابُه سادٌّ مسدَّ جواب الشرط كما في قوله:

لئن عادَ لي عبدُ العزيز بمثلها وأمكنني منها إذن لا أُقيلُها[٢]

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ استثناءٌ من الإنسان، وهو متصلٌ إنْ كانت «أل» فيه لاستغراق الجنس، وهو الذي نَقله الطبرسي[٣] ـ مُخالفاً للخازن[٤] ـ عن الفراء، ومنقطعٌ إنْ كانت للعهد إشارةً إلى الإنسان الكافر مطلقاً.

وعن ابن عباس أن المرادَ منه كافرٌ معيّن، وهو الوليد بن المغيرة. وقيل: هو عبد الله بن أمية المخزومي، وذكره الواحدي[٥]. وحديث الانقطاع على الروايتين متصل، ونُسِب غيرَ مقيَّدٍ بهما إلى الزجاج والأخفش[٦]، وأيًّا ما كان فالمراد: صبروا على ما أصابهم من الضرَّاء سابقاً أو لاحقاً إيماناً بالله تعالى واستسلاماً لقضائه تعالى.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ شكراً على نعمه سبحانه السابقةِ واللاحقة.

قال المدقق في «الكشف»: لَمَّا تضمَّن اليأسُ عدمَ الصبر، والكفرانُ عدمَ الشكر، كان المستثنى من ذلك ضدَّه ممن اتَّصفَ بالصبر والشكر، فلما قيل: (إلَّا

---

(١) القراءات الشاذة ص٥٩.

(٢) البيت لكثير عزة، وهو في ديوانه ص٢٦٨.

(٣) في مجمع البيان ١٢/ ١٢٠.

(٤) في تفسيره ٢/ ٢٢٠.

(٥) في الوسيط ٢/ ٥٦٦.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤١، ومعاني القرآن للأخفش ٢/ ٥٧٥.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ إلخ كان بمنزلة: إلا الذين صبروا وشكروا، وذلك من صفاتِ المؤمن، فكنَى بهما عنه، فلذا فسَّره الزمخشري[١] بقوله: إلا الذين آمنوا، فإنَّ عادتَهم إذا أَتَتْهم رحمةٌ أن يشكروا وإذا زالَتْ عنهم نعمةٌ أن يصبروا، فلذا حَسُنت الكناية به عن الإيمان.

ثم عرَّض[٢] بشيخه الطيبي بقوله: وأما دلالة «صبروا» على أن العمل الصالحَ شكرٌ؛ لأنه ورد في الأثر: «الإيمان نصفان: نصفٌ صبر، ونصفٌ شكر»[٣]، ودلالة «عملوا» على أنَّ الصَّبر إيمانٌ لأنهما مجتمعان[٤] في الأكثر، فغيرُ مُطابقٍ لما نحن فيه، إلا أنْ يُرادَ وجهٌ آخر، كأنه قيل: إلا المؤمنَ الصالحَ الصابرَ الشاكرَ، وهو وجه، لكن القول ما قالت حَذامِ[٥]؛ لأن الكنايةَ تُفيد ذلك مع ما فيها من الحسن والمبالغة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيِّز الصلة، وما فيه من معنى البعد لما مر غير مرة، أي: أولئك الموصوفون بتلك الصفات الحميدة ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ عظيمةٌ لذنوبهم ما كانت ﴿وَأَجۡرٞ﴾ ثوابٌ لأعمالهم الحسنة. ﴿كَبِيرٞ ۝١١﴾ وُصِفَ بذلك لما احتوى عليه من النعيم السرمدي، ورَفْعِ التكاليف، والأَمْنِ من العذاب، ورضا الله سبحانه عنهم، والنظرِ إلى وجهه الكريم في جنة عرضُها السماوات والأرض.

ووجهُ تعلُّقِ الآيات الثلاث بما قبلهنَّ على ما في «البحر»: أنه تعالى لَمَّا ذكر أن عذابَ الكفَّار وإن تأخر لا بدَّ أن يحيق بهم ذَكَر ما يدلُّ على كُفرهم وكونهم

---

(١) في الكشاف ٢/ ٢٦٠.

(٢) يعني صاحب الكشف.

(٣) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١٥٩) من حديث أنس بن مالك ﷺ، وفي إسناده عتبة بن السكن ويزيد بن أبان الرقاشي، وهما متروكان. ميزان الاعتدال ٣/ ٢٨ و٤/ ٤١٨. وأخرج نحوه ابن أبي الدنيا في الشكر (٥٧) عن الشعبي قوله.

(٤) في (م): ضميمتان.

(٥) ذكره الميداني في مجمع الأمثال ٢/ ١٠٦، وهو جزء من بيت شعر هو:

إذا قالت حذام فصدِّقوها ... فإن القول ما قالت حذامِ

وحذام هي امرأة القائد لُجيم بن صعب.

مستحقين العذابَ؛ لِمَا جُبلوا عليه من كُفر نعماء الله تعالى، وما يترتَّب على إحسانه تعالى إليهم مما لا يليق بهم من البَطَر والفخر[1].

قيل: وهو إشارةٌ إلى أن الوجه تضمُّن الآياتِ تعليل الحيق، ويُبعده تعليله بما في حيِّز الصلة قبلُ، واختار بعضهم أنه الاشتراك في الذم، فما تضمنه الآياتُ قبلُ بيانُ بعض هناتهم، وما تضمنته هذه بيانُ بعض آخر.

وقال بعض المحققين[2]: إن وجه التعلُّق من حيث إنَّ إذاقةَ النعماء ومساسَ الضراء فصلٌ من باب الابتلاء واقعٌ موقعَ التفصيل من الإجمال في قوله سبحانه: (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) والمعنى: إن كلّاً من إذاقةِ النعماء ونزعها مع كونه ابتلاءً للإنسان أيشكُر أمْ يَكفُر لا يهتدي إلى سَنَن الصواب، بل يحيد في كلتا الحالتين عنه إلى مَهاوي الضلال، فلا يظهر منه حُسْنُ عمل إلا من الصابرين الصالحين. أو من حيث إن إنكارهم البعثَ واستهزاءهم بالعذاب بسبب بَطَرهم وفَخْرهم، كأنه قيل: إنما فعلوا ما فعلوا لأنَّ طبيعةَ الإنسان مجبولةٌ على ذلك. انتهى، ولا يخفى ما في الأول من البعد، والثاني أقربُ، والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿الٓر﴾ إشارةٌ إلى ما مرَّت الإشارة إليه ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي: حقائقُه وأعيانه في العالم الكلّي، فلا تتبدَّل ولا تتغير ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ في العالم الجزئي، وجُعلت مبيَّنة معيَّنة بقَدْرٍ معلوم ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ﴾ فلذا أُحكمت ﴿خَبِيرٍ﴾ فلذا فصلت.

وقد يقال: الإشارة إلى آيات القرآن قد «أُحكمت» في قلوب العارفين «ثم فصلت» أحكامُها على أبدان العاملين.

وقيل: «أُحكمت» بالكرامات «ثم فصلت» بالبيِّنات.

---

(١) البحر ٥/٢٠٦.

(٢) هو أبو السعود في تفسيره ٤/ ١٩٠.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ أي: أن لا تُشركوا في عبادته سبحانه، وخَصِّصوه عز وجل بالعبادة ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ﴾ عقاب الشرك وتَبِعته ﴿وَبَشِيرٌ﴾ بثواب التوحيد وفائدته.

وقيل: «نذير» بعظائم قهره «وبشير» بلطائف وَصْله.

﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ اطلبوا منه سبحانه أن يَسْتُرَكم عن النظر إلى الغير حتى أفعالكم وصفاتكم ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ ارجعوا بالفناء ذاتاً.

وقيل: «استغفروا ربّكم» من الدعاوى «وتوبوا إليه» من الخَطَرات المذمومة.

﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ بتوفيقكم لاتِّباع الشريعة حالَ البقاء بعد الفناء. ويقال: المتاعُ الحسن صفاءُ الأحوال، وسناءُ الأذكار، وحلاوة الأفكار، وتجلِّي الحقائق، وظهور اللطائف، والفرح برضوان الله تعالى، وطِيبُ العيش بمشاهدة أنواره سبحانه، والمتاعُ كلُّ المتاع مشاهدةُ المحبِّ حبيبَه، ولله دَرُّ مَنْ قال:

مُنايَ من الدنيا لقاؤك مَرَّةً ... فإنْ نِلتُها استوفيتُ كلَّ مَنائيا

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو وقتُ وفاتكم ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ﴾ بالسعي والاجتهاد وبذلِ النفس ﴿فَضْلَهُۥ﴾ في الدرجات والقرب إليه سبحانه.

ويقال: «يُؤتِ كلَّ ذي فَضل» في الاستعداد «فَضْلَه» في الكمال. وسُئل أبو عثمان عن معنى ذلك فقال: يُحقِّق آمالَ من أحسن به ظنَّه.

﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي: تُعرضوا عن امتثال الأمر والنهي ﴿فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ وهو يومُ الرجوع إلى الله تعالى الذي يظهر فيه عجزُ ما سواه تعالى، ويتبين قبحُ مُخالفةِ ما أُمر به وفظاعةِ ارتكاب ما نهى عنه.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ﴾ يعطفون ﴿صُدُورَهُمْ﴾ على ما فيها من الصِّفات المذمومةِ ﴿لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ﴾ وذلك لمزيد جَهْلهم بما يجوز عليه جلَّ شأنُه وما لا يجوز ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ﴾ من الأقوال والأفعال وسائر الأحوال.

وقيل: «ما يُسِرُّون» من الخَطَرات «وما يعلنون» من النَّظَرات.

وقيل: «ما يُسِرُّون» بقلوبهم «وما يُعلنون» بأفواههم.

وقيل: «ما يُسِرُّون» بالليل «وما يُعلنون» بالنهار. والتعميمُ أولى.

ومن الناس مَنْ جعلَ ضميرَ «منه» للرسول ﷺ، وقد علمتَ أنه يُبعِدُه ظهورُ أنَّ ضمير «يعلم» له تعالى، لكن ذكر في «أسرارِ القرآن» أنه تعالى كسا أنوارَ جلاله أفئدةَ الصدِّيقين فيرون بأبصارِ قلوبهم ما يجري في صدور الخلائق من المُضمرات والخَطَرات، كما يرونَ الظواهرَ بالعيون الظاهرة، وقد جاء: «اتقوا فِراسةَ المؤمن، فإنه ينظرُ بنور الله تعالى»(١) وعلى هذا فيمكن أن يكون ضميرُ «يعلم» للرسول عليه الصلاة والسلام، وأيّاً ما كان فالآية نازلةٌ في غير المؤمنين حسبما يقتضيه الظاهر، وقد تقدَّم لك أنَّ الأمرَ على ما رُوي عن الحِبْر رضي الله تعالى عنه(٢) مُشكل.

وقال بعضُ أرباب الذوق: إنَّ الآية عليه إشارة إلى أنَّ أولئك الأُناس لم يَصِلوا إلى مقام الجمع، ولم يتحقَّقوا بأعلى مراتبِ التوحيد، وفيه خَفاءٌ أيضاً فتفطَّن.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ أي: ما تتغذَّى به شبحاً وروحاً، ويقال: لكلٍّ رزقٌ عليه تعالى بَقْدرِ حوصلته، فرزقُ الظاهر للأشباح، ورزقُ المُشاهدةِ للأرواح، ورزقُ الوصلة للأسرار، ورزقُ الرهبة للنفوس، ورزقُ الرغبةِ للعقول، ورزقُ القربة(٣) للقلوب، وهذا بالنظر إلى الإنسان، وأما بالنظرِ إلى سائر الحيوانات فلها أيضاً رزقٌ محسوس ورزقٌ معقولٌ يعلمه اللهُ تعالى.

﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ فمستقرُّ الجميع أصلابُ العَدَم، ومستودعُها أرحامُ الحدوث.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وما في كلٍّ ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ أي: كان حيّاً قيوماً. كما قال ابن الكمال.

وقيل: الماء إشارة إلى المادة الهيولانية، والمعنى: وكان عرشه قبلَ خلق السماوات والأرض بالذات لا بالزمان، مستعلياً على المادة فوقها بالرُّتبة. وقيل غير ذلك.

وإنْ شئتَ التطبيقَ على ما في تفاصيل وُجودك، فالمعنى على ما قيل: خلق

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٢٧) من حديث أبي سعيد الخدري، وسلف ١١٦/١٠.

(٢) سلف خبر ابن عباس رضي الله عنه ص٣٣٦ من هذا الجزء.

(٣) في الأصل: الغربة.

سماوات قوى الروحانية وأرض الجسد في الأشهر الستة التي هي أقلُّ مُدَّةِ الحَمْل، وكان عرشُه الذي هو قلبُ المؤمن على ماءِ مادة الجسد مستولياً عليه، متعلِّقاً به تعلُّقَ التصوير والتدبير.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قيل: جعلَ غايةَ الخَلْق ظهورَ الأعمال، أي: خلقنا ذلك لنعلمَ العلمَ التفصيليَّ التابعَ للوجود الذي يترتَّب عليه الجزاء أيكم أحسن عملا.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ إلخ تضمن الإشارة إلى أنه ينبغي للعبد أن يكون في السراء والضراء واثقاً بربِّه تعالى، متوكِّلاً عليه، غيرَ مُحتجبٍ عنه برؤية الأسبابِ، لئلا يحصل له اليأسُ والكُفران والبَطَر والفخر بذلك وجوداً وعَدماً، فإن آتاه رحمة شَكَرَه أولاً برؤية ذلك منه جلَّ شأنُه بقلبه، وثانياً باستعمال جوارحِهِ في مراضيه وطاعاتِهِ والقيام بحقوقه تعالى فيها، وثالثاً بإطلاق لسانِه بالحمد والثناءِ على الله تعالى، وبذلك يتحقَّق الشُّكر المُشارُ إليه بقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] وإلى ذلك أشار مَن قال:

أفادَتْكُم النعماءُ مني ثلاثةً ... يدي ولساني والضميرَ المُحَجَّبا[١]

وبالشكر تزدادُ النعم كما قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

وعن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه: إذا وصلَتْ إليكم أطرافُ النعم فلا تُنفِّروا أقصاها بقلة الشُّكر.

ثم إنْ نزعها منه فَلْيصبِرْ ولا يَتَّهم الله تعالى بشيء، فإنه تعالى أبرُّ بالعبدِ وأرحمُ وأخبرُ بمصلحته وأعلمُ، ثم إذا أعادها عليه لا ينبغي أن يَبْطَرَ ويغترَّ ويفتخر بها على الناس، فإنَّ الاغترارَ والافتخارَ بما لا يملكه مِن الجَهْل بمكان، وقد أفاد سبحانه أنَّ من سجايا الإنسان في الشِّدة بعد الرحمة اليأسَ والكُفرانَ، وبالنعماء بعد الضرَّاء الفَرَحَ والفَخْرَ.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ مع الله تعالى في حالتي النعماء والضرَّاء، والشدةِ والرَّخاء، فالفقر والغنى مثلاً عندهم مَطيتانِ لا يُبالون أيهما امتطَوْا ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ما فيه

---

(١) سلف ٦/ ٣٥٩.

صلاحهم في كل أحوالهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ من ذنوب ظهور النفس باليأس والكُفران والفَرح والفخر ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ من ثوابِ تجلِّيات الأفعال والصفات وجنانهما. والله تعالى وليُّ التوفيق.

❁ ❁ ❁

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ أي: تترك تبليغَ بعضِ ما يُوحى إليك، وهو ما يخالفُ رأيَ المشركين مخافةَ ردِّهم واستهزائهم به، فاسمُ الفاعل للمستقبل ولذا عَمِلَ، و«لعل» للترجِّي، وهو يقتضي التوقُّع، ولا يلزم من توقُّع الشيء وقوعُه، ولا ترجُّحُ وقوعِهِ؛ لجواز أن يوجد ما يمنع منه، فلا يُشكل بأنَّ توقُّعَ التبليغ منه ﷺ مما لا يليق بمقام النبوة، والمانع من ذلك فيه عليه الصلاة والسلام عصمتُه كسائر الرُّسُل الكرام عليهم السلام عن كَتْم الوحي المأمور بتبليغه والخيانة فيه وتركه تَقِيَّةً، والمقصودُ من ذلك تحريضُه ﷺ وتهييجُ داعيته لأداء الرسالة، ويقال نحو ذلك في كل توقُّعٍ نظير هذا التوقع.

وقيل: إن التوقُّعَ تارةً يكون للمتكلِّم وهو الأصل، لأن المعاني الإنشائية قائمةٌ به، وتارةً للمخاطب، وأخرى لغيره ممن له تعلُّقٌ وملابسةٌ به، ويَحتمِلُ أن يُراد هنا هذا الأخيرَ ويجعل التوقُّع للكُفَّار، والمعنى: أنك بلغ بكَ الجهد في تبليغهم ما أُوحي إليك أنهم يتوقَّعون منك ترك التبليغ لبعضه.

وقيل: إن «لعل» هنا ليست للترجِّي، بل هي للتبعيد، وقد تستعمل لذلك كما تقول العرب: لعلك تفعلُ كذا، لمن لا يقدرُ عليه، فالمعنى: لا تترك.

وقيل: إنها للاستفهام الإنكاري، كما في الحديث «لعلنا أعجلناك»(١).

واختار السمين(٢) وغيره كونَها للترجِّي بالنسبة إلى المُخاطَب على ما علمت آنفاً.

ولا يجوز أن يكون المعنى: كأني بك ستتركُ بعضَ ما أُوحي إليك مما شقَّ عليك بإذني ووحي مني، وهو أن يُرخَّصَ لك فيه، كأمر الواحدِ بمقاومة عشرة، إذْ

---

(١) أخرجه أحمد (١١١٦٢)، ومسلم (٣٤٥) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) في الدر المصون ٦/ ٢٩٣.

أُمروا بمقاومة الواحد لاثنين، وغير ذلك من التخفيفات؛ لأنه وإنْ زال به الإشكالُ إلا أن قوله تعالى بعدُ: (أَن يَقُولُوا) يأباه.

نعم قيل: لو أُريد تركُ الجِدال بالقرآن إلى الجلاد والضرب والطعان ـ لأنَّ هذه السورة مكية نازلةٌ قبلَ الأمر بالقتال ـ صح، لكن في «الكشف» بعدَ كلام: اعلَمْ لو أخذت التأمل لاستبانَ لك أنَّ مَبْنى هذه السورة الكريمة على إرشادِه تعالى كبرياؤه نبيَّه ﷺ إلى كيفية الدعوة من مُفتتحها إلى مُختتمها، وإلى ما يعتري لمن تصدَّى لهذه الرُّتبة السَّنية من الشدائد، واحتماله لما يترتَّب عليه في الدارين من العوائد، لا على التسلِّي له عليه الصلاة والسلام، فإنه لا يُطابق المقام، وانظُر إلى الخاتمة الجامعة ـ أعني قوله سبحانه: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] ـ تَقْضِ العجب، وهو يُبعد هذه الإرادة إنْ قلنا: إنّ ذلك من باب التخفيف المُؤذن بالتسلِّي، فتأمَّله.

والضمير في قوله سبحانه: ﴿وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ﴾ لـ «ما يُوحَى»، أو للبعض، وهو الظاهر عند أبي حيان[١]. وقيل: للتبليغ أو للتكذيب. وقيل: هو مبهم يُفسِّره «أن يقولوا...» إلخ.

والواو للعطف، و«ضائقٌ» قيل: عطف على «تارك» وقوله تعالى: ﴿صَدْرُكَ﴾ فاعلُه، وجوز أن يكون الوصف خبراً مقدَّماً و«صدرك» مبتدأ والجملة معطوفةٌ على «تارك».

وقيل: يتعيَّن أن تكونَ الواو للحال، والجملة بعدَها حالية؛ لأنَّ هذا واقع لا متوقَّع، فلا يصح العطف. ونُظِرَ فيه بأن ضيقَ صدره عليه الصلاة والسلام بذلك[٢] إنْ حُمل على ظاهره ليس بواقع، وإنما يضيق صدرُه الشريف لما يَعرِضُ له في تبليغه من الشدائد.

وعُدل عن ضَيِّق الصفة المشبهة إلى «ضائق» اسم الفاعل ليدلَّ على أن الضيقَ مما يعرض له ﷺ أحياناً، وكذا كلُّ صفة مشبهة إذا قُصد بها الحدوثُ تحول إلى

---

(١) في البحر المحيط ٥/ ٢٠٧.
(٢) في الأصل: لذلك.

فاعل، فتقول في سيد وجواد وسمين مثلاً: سائد وجائد وسامن، وعلى ذلك قولُ بعض اللصوص يَصِفُ السجنَ ومَنْ سُجِنَ فيه:

بمنزلةٍ أما اللئيمُ فسامِنٌ بها وكرامُ الناس بادٍ شحوبُها[(١)]

وظاهر كلام «البحر» أن ذلك مقيسٌ، فكل ما يُبنى من الثلاثي للثبوت والاستقرار على غير وزن فاعل يُرَدُّ إليه إنْ أُريد معنى الحدوث من غير توقُّفٍ على سماع، وقيل: إنَّ العدولَ لمشاركة «تارك» وليس بذلك.

﴿أَن يَقُولُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ أي: مالٌ كثير، وعبَّروا بالإنزال دون الإعطاء؛ لأنَّ مُرادهم التعجيزُ بكون ذلك على خلاف العادة؛ لأن الكنوزَ إنما تكون في الأرض ولا تنزلُ من السماء، ويَحتمِلُ أنهم أرادوا بالإنزال الإعطاءَ من دون سببٍ عادي كما يُشير إليه سببُ النزول، أي: لو لا أُعطي ذلك لِيتحقَّقَ عندنا صِدْقُه.

﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ يُصدِّقه لِنُصدِّقه، رُوي أنهم قالوا: اجعل لنا جبالَ مكة ذهباً، أو ائتنا بملائكة يشهدون بنبوتك إنْ كنتَ رسولاً، فنزلَتْ.

ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن كلّاً من القولين قالته طائفةٌ، فقال عليه الصلاةُ والسلام: لا أقدرُ على ذلك. فنزلَتْ[(٢)].

وقيل: القائل لكلٍّ عبدُ الله بن أُميةَ المخزومي[(٣)]، ووَجْهُ الجمع عليه يعلم مما مرَّ غير مرة.

ومحل «أن يقولوا» نصب أو جر، وكان الأصل: كراهةَ أو مخافةَ (أَن يَقُولُوا) أو لئلا، أو لأنْ، أو بأنْ يقولوا، ولوقوع القول قالوا: إنَّ المضارعَ بمعنى الماضي، و«أن» المصدرية خارجةٌ عن مُقتضاها، ورجَّحوا تقديرَ الكراهة على المَخافة لذلك، وقد يُراد عند تقديرها مخافَة أن يُكرِّروا هذا القول؛ واختار بعضٌ أن يكونَ المعنى على الجميع: بأن يقولوا مثلَ قولهم لولا . . . إلخ، فـ «أن» على مُقتضاها، ولا يَرِدُ شيء.

(١) ذكره أبو حيان في البحر ٥/ ٢٠٧.
(٢) ذكره الرازي في تفسيره ١٧/ ١٩٢-١٩٣.
(٣) ذكره البغوي في تفسيره ٢/ ٣٧٦.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ أي: ليس عليك إلا الإنذارُ بما أُوحي غير مبالٍ بما يصدرُ عنهم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ⑫﴾ أي: قائمٌ به وحافظٌ له، فيحفظ أحوالَكَ وأحوالَهم، فتوكَّل عليه في جميع أمورك، فإنه فاعلٌ بهم ما يَليق بحالهم، والاقتصار على النذير في أقصى غايةٍ من إصابة المَحَزّ.

والآية قيل: منسوخة. وقيل: محكمة.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ إضرابٌ بأَمْ المنقطعة عن ذكر ترك اعتدادهم بما يُوحى وعدم اكتفائهم بما فيه من المُعجزات الظاهرةِ الدالة على صدقِ الدعوى، وشروعٌ في ذِكْر ارتكابِهم لما هو أشدُّ منه وأعظمُ، وتُقدَّر بِبَلْ والهمزةِ الإنكارية، أي: بل أيقولون. وذهب ابنُ القشيري إلى أنَّ «أَمْ» متصلة، والتقدير: أيكتفون بما أوحينا إليك أم يقولون: إنه ليس من عند الله، والأولُ أظهرُ، وأيّاً ما كان فالضمير البارز في «افتراه» لما يُوحى.

﴿قُلْ﴾ إنْ كان الأمرُ كما تقولون ﴿فَأْتُوا۟﴾ أنتم أيضاً ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ في البلاغةِ وحُسنِ النَّظْمِ، وهو نعتٌ لـ «سور» وكان الظاهرُ مطابقته لها في الجمع لكنه أُفرد باعتبار مماثلة كلٍّ واحدة منها إذْ هو المقصودُ، لا مماثلة المجموع.

وقيل: «مثل» وإنْ كان مفرداً يجوز فيه المطابقةُ وَعَدَمُها، فَيُوصَف به الواحدُ وغيره نظراً إلى أنه مصدرٌ في الأصل؛ كقوله تعالى: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: ٤٧] وقد يُطابق؛ كقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

وقيل: إنه هنا صفةٌ لمفرد مُقدَّر، أي: قَدْر عشر سور مثله.

وقيل: إنه وصفٌ لمجموع العَشْر؛ لأنها كلامٌ وشيء واحد، وأيضاً «عشر» ليس بصيغة جمع، فَيُعطى حكمَ المفرد، كـ ﴿نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠].

وقوله سبحانه: ﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ نعتٌ آخرُ لـ «سور» قيل: أُخِّر عن نَعْتها بالمُماثلة لما يُوحى؛ لأنه النعت المقصودُ بالتكليف؛ إذْ به قُعودهم على العَجْز عن المعارضة، وأما نَعْت الافتراء فلا يتعلَّق به غرضٌ يدور عليه شيء في مقام التحدِّي، وإنما ذُكر على نهج المُساهلة وإرخاء العنان، ولأنه لو عُكس الترتيبُ لربما تُوُهِّم أنَّ المرادَ هو المُماثلةُ له في الافتراء، والمعنى: فأتوا بعشر سور مُماثلةٍ

له في البلاغة مُختلَقاتٍ من عند أنفسكم إنْ صحَّ أني اختلقتُه من عند نفسي، فإنكم عربٌ فُصَحاءُ بُلَغاء، ومَبادي ذلك فيكم من ممارسةِ الخُطب والأشعار ومُزاولةِ أساليبِ النَّظْم والنَّثْرِ وحِفْظِ الوقائع والأيام أتمُّ.

والكثيرُ على أن هذا التحدِّي وقع أولاً، فلما عَجَزوا تحدَّاهم ﴿بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ كما نطقَتْ به سورةُ البقرة[١] ويونس[٢]، وهو وإن تأخَّر تلاوةً متقدِّمٌ نزولاً، وأنه لا يجوز العكس إذْ لا معنى للتحدِّي بعشرٍ لمن عَجَزَ عن التحدِّي بواحدةٍ، وأنه ليس المرادُ تعجيزَهم عن الإتيان بعشرِ سورٍ مُماثلاتٍ لعشرٍ مُعيَّنة من القرآن.

ورُوي عن ابن عباس أن المراد ذلك، وجَعَلَ العشرَ ما تقدَّم من السور إلى هنا، واعترضه أبو حيان[٣] بأنَّ أكثرَ ما ذُكر مدني، وهذه السورة حسبما علمتَ مكيةٌ، فكيف تَصِحُّ الحوالة بمكةَ على ما لم ينزلْ بعد؟!، ثم قال: ولعلَّ هذا لا يصحُّ عن ابن عباس ﵄.

وذهب ابنُ عطية[٤] إلى أن هذا التحدِّي إنما وقع بعد التحدِّي بسورة. ورُوي هذا عن المبرّد[٥]، وأنكر تقدُّمَ نزولِ هذه السورة على نزول تينك السورتين، وقال: بل نزلَتْ سورة يونس أولاً، ثم نزلَتْ سورةُ هود.

وقد أخرجَ ذلك ابن الضُّريس في «فضائل القرآن»، عن ابن عباس ﵄، ووجَّه ذلك بأنَّ ما وقع أولاً هو التحدِّي بسورةٍ مِثْلِه في البلاغة والاشتمالِ على ما اشتمل عليه من الإخبار عن المغيبات والأحكام وأخواتها، فلما عَجَزوا عن ذلك أمرهم بأن يأتوا بعشرِ سور مثلهِ في النَّظم، وإن لم تشتملْ على ما اشتملَ عليه. وضعَّفه في «الكشف»، وقال: إنه لا يطرد في كلِّ سورة من سور القرآن، وهَبْ أن السورة متقدِّمة النزول، إلا أنها لما نزلَتْ على التدريج جاز أن تتأخَّر تلك الآية عن هذه، ولا يُنافي تقدم السورة على السورة. انتهى.

---

(١) الآية (٢٣) منها.

(٢) الآية (٣٨) وهي: «أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله...».

(٣) في البحر ٥/ ٢٠٨.

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ١٥٥.

(٥) ذكره عنه البغوي في تفسيره ٢/ ٣٧٦.

وتعقَّبه الشهابُ[1] بأنَّ قوله: لا يطَّرد، مما لا وجهَ له؛ لأنَّ مرادَ المبرّد اشتماله على شيء من الأنواع التسعة[2] ولا يخلو شيء من القرآن عنها، وادّعاء تأخُّر نزولِ تلك الآية خلافُ الظاهر، ومثلُه لا يقال بالرأي. وادّعى أن الحقَّ ما قاله المبرّد مِن أنه عليه الصلاة والسلام تحدَّاهم أولاً بسورة مثلِهِ في النَّظم والمعنى، ثم تنزل فتحدَّاهم بعشر سور مثله في النظم من غير حَجْرٍ في المعنى، ويشهد له توصيفها بمفتريات.

وأيَّد بعضُهم نظر المبرد بأنَّ التكليفَ في آية البقرة كان بسبب الرَّيب، ولا يُزيل الرَّيب إلا العلمُ بأنهم لا يقدرون على المُماثلة التامَّة، وهو في هذه الآيةِ ليس إلا بسبب قولهم: «افتراه» فكلِّفوا نحو ما قالوا.

وفيه أن الأمر في سورة يونس كالأمر هنا مسبوقٌ بحكاية زَعْمهم الافتراء قاتَلهم الله تعالى مع أنهم لم يُكلَّفوا إلا بنحو ما كُلِّفوا به في آية البقرة، على أنَّ في قوله: ولا يُزيل الريب... إلخ، منعاً ظاهراً، وللعلامة الطِّيبي هاهنا كلام زعم أنه الذي يقتضيه المقام، وهو على قِلَّة جدواه لا وجهَ لما أسَّسه عليه كما بيَّن ذلك صاحب «الكشف».

هذا، ونقل الإمام[3] أنه استدلَّ بهذه الآية على أن إعجازَ القرآن بفصاحته لا باشتماله على المغيبات وكثرةِ العلوم، إذ لو كان كذلك لم يكن لقوله سبحانه: ﴿مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ معنى، أما إذا كان وجهُ الإعجاز الفصاحةَ صحَّ ذلك؛ لأن فصاحةَ الكلام تَظْهَرُ إنْ صدقاً وإنْ كذباً.

واعترض عليه الفاضل الجلبي بما هو مبنيٌّ على الغفلة عن معنى الافتراء والاختلاق، نعم ما ذكر إنما يدلُّ على صحةِ كون وجه الإعجاز ذلك، ولا يمنع احتمالَ كونه الأسلوبَ الغريب وعدمَ اشتماله على التناقضِ كما قيل به.

---

(١) حاشية الشهاب ٥/ ٨٠.

(٢) في الأصل و(م): السبعة، والمثبت من حاشية الشهاب، والأنواع التسعة الموجودة في القرآن نظمها بعضهم ـ كما ذكر المصنف ٩/ ١٢١ ـ بقوله:

حلال حرام محكم متشابه ... بشير نذير قصة عظة مثل

(٣) تفسير الرازي ١٧/ ١٩٤.

﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾ أي: استعينوا بمن أمكنكم أن تستعينوا به من آلهتكم التي تزعُمون أنها مُمِدَّة لكم في كل ما تأتون وما تذرون، والكَهَنةِ الذين تلجؤون إلى آرائهم في المُلِمَّات لِيُسعدوكم في ذلك.

﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ «ادعوا»، أي: مُتجاوزين الله تعالى، وفيه على ما قال غيرُ واحد إشارةٌ إلى أنه لا يقدر على مِثْله إلا الله عز وجل.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ في أني افتريته، فإنَّ ذلك يستلزم الإتيانَ بمثله، وهو أيضاً يستلزم قُدرتَكم عليه، وجواب «إنْ» محذوفٌ دلَّ عليه المذكور قبلُ.

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾ الخطابُ على ما رُوي عن الضحاك للمأمورين بدعاء مَن استطاعوا، وضمير الجمع الغائب عائدٌ إلى «مَنْ»، أي: فإنْ لم يستجبْ لكم مَن تدعونه من دون الله تعالى إلى الإسعاد والمظاهرة على المعارضة، لِعِلْمهم بالعَجْز عنه وأنَّ طاقتهم أقصرُ مِن أن تبلُغه ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما أُنزل إلا مُلتبساً بعلمه تعالى لا بعلم غيره على ما تقتضيه كلمةُ «أنما» فإنها تُفيد الحَصْرَ كالمكسورة على الصحيح، قيل: وهو معنى قولِ مَنْ قال: أي: ملتبساً بما لا يعلمه إلا الله تعالى، ولا يقدر عليه سواه. وادَّعى بعضُهم أن الحصرَ إنما أفادته الإضافة، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾[1] [الجن: ٢٦].

والمرادُ بما لا يعلمه غيره تعالى الكيفياتُ والمزايا التي بها الإعجاز والتحدِّي، وذِكْر عدم قُدرة غيره سبحانه مما يقتضيه السِّياق، وإلا فالمذكور في النظم الكريم العلم دون القدرة، وقيل ذلك؛ لأن نفي العلم بالشيء يستلزم نفيَ القُدرة؛ لأنه لا يقدر أحدٌ على ما لا يعلم.

والجملة الشرطية داخلة في حيز القول، وإيرادُ كلمة الشكِّ مع الجزم بعدم الاستجابة من جهة مَنْ يدْعونه تَهكُّم بهم وتسجيلٌ عليهم بكمال سَخافة العقل.

وترتيبُ الأمر بالعلم على مجرد عدمِ الاستجابة من حيث إنه مسبوقٌ بالدعاء المسبوق بتعجيزهم واضطرارهم، فكأنه قِيل: فإنْ لم يستجيبوا لكم عند التجائكم إليهم بعد ما اضطررتُم إلى ذلك وضاعَتْ عليكم الحِيل وعيَّتْ بكم العلل

(١) أي: على غيبه المخصوص بعلمه. حاشية الشهاب ٥/ ٨١.

فاعلموا. . . إلخ، أو مِن حيث إن مَنْ يدعونهم إلى المُعارضة أقوى منهم في اعتقادهم، فإذا ظهر عَجْزُهم بعدم استجابتهم وإن كان ذلك قبلَ ظهور عَجْزِ أنفسهم[1] يكون عجزُهم أظهرَ وأوضحَ.

وبمجموع ما ذكرنا يظهر أنْ لا إشكالَ في الآية، ومما يقضي منه العجب قول العز بن عبد السلام في «أماليه»: إنَّ ترتيبَ هذا المشروط ـ يعني العلم ـ على ذلك الشرط ـ يعني عدم الاستجابة ـ مُشكِلٌ، وكذا قوله سبحانه: (أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ) مُشكِلٌ أيضاً، إذ لا تصلحُ الباء للسببية، إذ ليس العلم سبباً في إنزاله، ولا للمصاحبة إذْ العلم لا يَصْحبه في إنزاله، وأن الجواب أنه ليس المرادُ بالعلم إلا علمنا نحن، وأضيف إليه عزَّ وجلَّ لأنه مخلوقٌ له تعالى، ونظيرُ ذلك ما في قوله جلَّ وعلا: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١٠٦] حيث أُضيفت الشهادة إلى الله سبحانه باعتبارِ أنه تعالى شَرَعَها، والقرآن قد نزلَ بأدلة العلم بأحكام اللهِ تبارك اسمُه، فعبَّر بالمدلول عن الدليل، والتقدير: فاعلموا أنما أُنزلَ مصحوباً بانتشار علم الأحكام، وهي الأدلةُ، ولا شكَّ أنه يُناسب إذا عَجزوا عن مُعارضته أن يعلموا أنَّ هذه الآياتِ أدلةُ أحكام الله تعالى. انتهى.

وليت شعري كيف غَفَل هذا العالمُ الماهر عن ذلك التفسير الظاهر، ولعله كما قيل: من شدة الظُّهور الخَفاء.

﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: واعلموا أيضاً أنه تعالى المختصُّ بالألوهية وأحكامها، وأنَّ آلهتكم بمعْزِل عن رُتبة الشركة له تعالى في ذلك.

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٤﴾ أي: داخلون في الإسلام؛ إذْ لم يبقَ بعدُ شائبةُ شُبهةٍ في حقِّيته وفي بُطلان ما أنتم فيه من الشِّرك، فيدخلُ فيه الإذعان بكون القرآن من عند الله تعالى دخولاً أوليّاً، أو: مُنقادون للحقِّ الذي هو كونُ القرآن من عند الله تعالى، وتاركون ما أنتم عليه من المُكابرة والعِناد، وفي هذا الاستفهامِ إيجابٌ بليغٌ لما فيه من معنى الطلب والتنبيه على قيام المُوجب وزوال المانع، ولهذا جِيء بالفاء.

---

(١) في (م): أنفسكم.

وفي التعبير بـ «مسلمون» دون تُسلمون تأييدٌ لما يقتضيه ترتيبُ ما ذُكر على ما قبله بها من وجوبه بلا مُهلة. قيل: وفي ذلك أيضاً إقناطٌ لهم من أنْ يُجيرهم آلهتُهم من بأس الله تعالى شأنُه وعزَّ سلطانه.

وجُوِّز أن يكون الضميرُ في «لكم» للرسول ﷺ، ويُؤيِّده أنه جاء في آية أُخرى ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ﴾ [القصص: ٥٠]، ورُوي ذلك عن مجاهد، وكان المناسبُ للأمر بـ «قل» الإفراد، لكنه جمع للتعظيم، وهو لا يختصُّ بضمير المُتكلِّم كما قاله الرَّضي، ومِن ذلك:

وإنْ شئتِ حَرَّمتُ النساءَ سواكم[١]

والجملةُ غيرُ داخلةٍ في حيِّز القول، بل هي مِنْ قِبله تعالى للحُكم بِعَجْزهم، كقوله سبحانه: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ [البقرة: ٢٤] وعبَّر بالاستجابة إيماءً إلى أنه ﷺ على كمالِ الأمن من أمره، كأنَّ أمرَه عليه الصلاة والسلام لهم بالإتيان بمثله دعاءٌ لهم إلى أمر يُريد وقوعَه.

ويجوز أن يكون الضميرُ له ﷺ وللمؤمنين، لأنهم أتباعٌ له ﷺ في الأمر بالتحدِّي، وفيه تنبيهٌ لطيفٌ على أنَّ حقَّهم أن لا ينفكُّوا عنه عليه الصلاةُ والسلام، ويناصبوا معه لمعارضةِ المُعاندين كما كانوا يفعلونه في الجهاد، وإرشادٌ إلى أن ذلك مما يُفيد الرُّسوخَ في الإيمان، ولذلك رتَّب عليه ما ترتب[٢].

والمراد بالعلم المأمور به ما هو في المرتبة العليا التي كأنَّ ما عداها من مَراتبِ العلم ليس بعلم، لكن لا للإشعار بانحطاط تلك المَراتب، بل بارتفاع هذه المَرْتبة، ويُعلم من ذلك سرُّ إيرادِ كلمة الشكّ مع القطع بعدم الاستجابة، فإنَّ تنزيلَ سائر المراتب منزلةَ العَدَم مستتبعٌ لتنزيل الجزم بعدمِ الاستجابة منزلةَ الشكّ.

ويجوز أن يكون المأمورُ به الاستمرارَ على ما هم عليه من العلم، ومعنى «مسلمون»: مُخلصون في الإسلام، أو ثابتون عليه، والكلام من باب التثبيت والترقية إلى معارج اليقين، واختار تفسيرَ الآية بذلك الجُبائي وغيره، وذكر شيخُ

---

(١) شطر بيت لعمر بن أبي ربيعة، وهو في ديوانه ص٣٦٨، وسلف ٣/ ٣٦٨.

(٢) في الأصل: ولذلك رتب ما رتب عليه.

الإسلام[١] أنه أنسب بما[٢] سلف من قوله تعالى: (وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ) ولما سيأتي إنْ شاء الله تعالى من قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ﴾ [الآية: ١٧] وأشد [ارتباطاً] بما يعقبه، وقد يُؤيَّد أيضاً بما أشرنا إليه.

لكن لا يخفى أنَّ الكلامَ على التفسير الأول موافقٌ لما قبله؛ لأنَّ ضميرَ الجمع في الآية المتقدِّمة للكفار، والضميرُ في هذه ضميرُ الجمع، فليكن لهم أيضاً، ولأنَّ الكفارَ أقربُ المذكورين، فرجوعُ الضمير إليهم أولى، ولأنَّ في التفسير الثاني تأويلاتٍ لا يُحتاج إليها في الأول.

ومن هنا استظهره أبو حيان[٣] واستحسنه الزمخشري[٤]، ولعلَّ مُرجِّحاته أقوى من مُرجِّحات الأخير عند مَن تأمَّل، فلذا قدَّمناه، وإن قيل: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبُك.

ويكتب «فإلم» في المصحف ـ على ما قال الأجهوري ـ بغير نون.

وقرأ زيدُ بن علي رضي الله عنهما: «نَزَّل» بفتح النون والزاي وتشديدها[٥]، وفي «البحر»: أن «ما» يَحتمِلُ أن تكونَ مصدريةً، أي: أنَّ التنزيلَ، وأن تكون موصولةً بمعنى الذي، أي: أنَّ الذي نَزَّله، وحذفُ العائد المنصوب في مثل ما ذكر شائعٌ، وفاعل «نَزَّل» ضميره تعالى، وجوز بعضهم كون «ما» موصولةً على قراءة الجمهور أيضاً، ويبعدُ ذلك بحسب المعروف في مثله أنها موصولة، فافهم.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾ أي: بأعماله الصالحة بحسب الظاهر ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي: ما يُزيِّنها ويُحسِّنها من الصحة والأمن وكثرةِ الأموال والأولاد والرِّياسة وغيرِ ذلك. وإدخال «كان» للدلالة على الاستمرار، أي: مَن يريدُ ذلك بحيث لا يكاد يُريد الآخرة أصلاً ﴿نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا﴾ أي: نُوصل إليهم أجورَ أعمالهم في الدنيا وافيةً، فالكلامُ على حذف مضاف.

---

(١) هو أبو السعود في تفسيره ٤/ ١٩٣، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٢) في تفسير أبي السعود: لما.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٢٠٩.

(٤) الكشاف ٢/ ٢٦٢.

(٥) ذكرها أبو حيان في البحر ٥/ ٢٠٩.

وقيل: الأعمالُ عبارةٌ عن الأجور مجازاً، وإليه يُشير كلامُ شيخ الإسلام[١]، والأول أَولى.

و«نُوَفِّ» متضمنٌ معنى نُوصل، ولذا عُدِّي بـ «إلى»، وإلا فهو مما يتعدَّى بنفسه، وقيل: إنه مجاز عن ذلك.

وقرأ طلحةُ بن ميمون[٢]: «يُوَفِّ» بالياء وإسنادِ الفعل إلى الله تعالى. وقرأ زيدُ بن علي رضي الله عنهما: «يُوْفِ» بالياء مُخففاً مضارع أوفى[٣]. وقرئ: «تُوَفَّ» بالتاء مبنياً للمفعول ورفعِ «أعمالهم»، والفعل في كلٍّ ذلك مجزوم على أنه جواب الشرط، كما انجزم في قوله سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٠]. وحكى الفراء[٤] أنَّ «كان» زائدة، ولذا جزم الجواب، وتعقَّبه أبو حيان[٥] بأنه لو كانت زائدةً لكان فعل الشرط «يريد» وكان يكون مجزوماً. وأُجيب بأنه يحتمل أنه أراد بكونها زائدةً أنها غير لازمةٍ في المعنى.

وقرأ الحسن: «نُوفي» بالتخفيف وإثباتِ الياء[٦]، وذلك إما على لغةِ من يجزم المنقوص بحذف الحركة المُقدَّرة كما في قوله:

ألـم يـأتـيـكَ والأنـبـاءُ تَـنـمـي[٧]

أو على ما سُمع في كلام العرب إذا كان الشرط ماضياً من عدم جزمِ الجزاء، وإما لأنَّ الأداةَ لمَّا لم تعمل في الشرط القريب ضَعُفَتْ عن العمل في لفظ الجزاء البعيد فعملت في محله.

---

(١) هو أبو السعود في تفسيره ٤/ ١٩٣.

(٢) كذا في البحر المحيط ٥/ ٢٠٩ وعنه نقل المصنف، والصواب: طلحة وميمون. وطلحة هو ابن مصرِّف وميمون هو ابن مهران. والتصويب من المحرر الوجيز ٣/ ١٥٦ وقد ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٥٩ عن ميمون بن مهران.

(٣) البحر ٥/ ٢٠٩.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٥.

(٥) في البحر المحيط ٥/ ٢٠٩-٢١٠.

(٦) القراءات الشاذة ص٥٩، والبحر المحيط ٥/ ٢١٠.

(٧) البيت لقيس بن زهير، وعجزه: بما لاقت لبون بني زياد. وهو في الكتاب ٣/ ٣١٦، وشرح المفصل ٨/ ٢٤، والخزانة ٨/ ٣٦١.

ونُقل عن عبد القاهر أنها لا تعمل فيه أصلاً لضعفها. والمشهورُ فيه عن النحاة مذهبان: كون الجزاء في نية التقديم. وكونه على تقدير الفاء والمبتدأ، ويُمكن أن يُرَدَّ ذلك إلى هذا، وليس هذا مخصوصاً فيما إذا كان الشرط كان ـ على الصحيح ـ لمجيئه في غيره كثيراً، ومنه:

وإنْ أتاه خليلٌ يوم مَسْغَبةٍ يقول لا غائبٌ مالي ولا حَرِمُ[1]

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥﴾ أي: لا يُنقَصون، والظاهر أن الضمير المجرور للحياة الدنيا. وقيل: الأظهرُ أن يكون للأعمال؛ لئلا يكون تكراراً بلا فائدة. ورُدَّ بأنَّ فائدتَه إفادتُه من أول الأمر أنَّ عدمَ البخس ليس إلا في الدنيا، فلو لم يُذكر تُوُهِّم أنه مطلق، على أنه يجوز[2] أن يكون للتأكيد، ولا ضَرَرَ فيه.

وإنما عبَّر عن ذلك بالبخس الذي هو نقصُ الحقّ، ولذلك قال الراغب: هو نقصُ الشيء على سبيل الظلم[3]، مع أنه ليس لهم شائبةُ حقٍّ فيما أُوتوه، كما عبَّر عن إعطائه بالتوفية التي هي إعطاءُ الحقوق مع أنَّ أعمالَهم بمعْزِل من كونها مستوجبةً لذلك ـ كما قال بعضُ المُحقِّقين ـ بناءً للأمر على ظاهر الحال، ومحافظةً على صور الأعمال، ومبالغةً في نَفْي النقص، كأنَّ ذلك نقصٌ لحقوقهم، فلا يدخل تحت الوقوع والصدور عن الكريم أصلاً، لكن ينبغي أن يُعلم أن هذا ليس على إطلاقه، بل الأمرُ دائرٌ على المشيئة الجارية على قضية الحِكمة كما نَطَق به قوله سبحانه: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨].

وأخرج النحاس في «ناسخه» عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ هذه الآيةَ نَسَخَت الآية التي نحن فيها[4]، وأنت تعلم أنه لا نَسْخَ في الأخبار، ولعلَّ هذا ـ إنْ صحَّ ـ محمولٌ على المُسامحة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المذكورين باعتبار استمرارِهم على إرادة الحياة الدنيا، أو

---

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى، وسلف ٤/ ١٢١.
(٢) في (م): لا يجوز.
(٣) مفردات الراغب (بخس).
(٤) الناسخ والمنسوخ (٦٢٥).

باعتبار توفيتهم أجورَهم فيها من غير بَخْس، أو باعتبارهما معاً، وما فيه من معنى البُعد للإيذان بِبُعد منزلتهم في سوء الحال.

﴿الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ لأنَّ هِممهم كانت مصروفةً إلى اقتناص الدنيا، وأعمالَهم كانت ممدودةً ومقصورةً على تحصيلها؛ وقد ظَفِروا بما يترتَّب على ذلك، ولم يُريدوا به شيئاً آخرَ، فلا جرمَ لم يكن لهم في الآخرة إلا النارُ وعذابُها المُخلد.

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ أي: في الآخرة كما هو الظاهر، فالجار متعلِّق بـ «حبط»، و«ما» تحتمل المصدرية والموصولية، أي: ظهر في الآخرة حبوطُ صُنعهم، أو: الذي صنعوه من الأعمال التي كانت تُؤدِّي إلى الثواب الأُخروي لو كانت معمولةً للآخرة. ويجوز أن يعودَ الضميرُ إلى الدنيا، فيكون الجارّ متعلقاً بـ «صنعوا» و«ما» على حالها.

والمرادُ بحبوط الأعمال عدمُ مجازاتهم عليها لِفَقْد الاعتدادِ بها لعدمِ الإخلاص الذي هو شرطُ ذلك، وقيل: لجزائهم عليها في الدنيا.

﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ قال أبو حيان[1]: هو تأكيدٌ لقوله سبحانه: (وَحَبِطَ) إلخ، والظاهر أنه حمل «ما كانوا يعملون» على معنى «ما صنعوا»، والبطلانَ على عدمِ النفع، وهو راجعٌ إلى معنى الحبوط.

ولما رأى بعضُهم أن التأسيسَ أولى من التأكيد أبقى «ما يعملون» على ذلك المعنى، وحمل بطلانَ ذلك على فسادِه في نفسه لعدمِ شرطِ الصحة، وقال: كأنَّ كلّاً من الجملتين علةٌ لما قبلها على معنى: ليس لهم في الآخرةِ إلا النار، لحبوطِ أعمالهم وعدمِ ترتُّب الثواب عليها لِبطلانها وكونها ليست على ما ينبغي.

والأَولى ما صنعه المولى أبو السعود عليه الرحمةُ[2]، حيث حملَ البُطلانَ على الفسادِ في نَفْسه، و«ما كانوا يعملون» على أعمالهم في أثناء تحصيل المطالبِ الدنيوية، ثم قال: ولأَجْل أنَّ الأولَ من شأنه استتباعُ الثواب والأجر، وأنَّ عدمَه

---

(١) في البحر المحيط ٥/ ٢١٠.

(٢) في تفسيره ٤/ ١٩٤.

لعدم مقارنته للإيمان والنية الصحيحة، وأن الثاني ليس له جهةٌ صالحة قطّ، علّق بالأول الحبوط المُؤذن بسقوط أَجْره بصيغة الفعل المُنبئ عن الحدوث، وبالثاني البطلان المُفصح عن كونه بحيث لا طائلَ تحته أصلاً بالاسمية الدالَّة على كون ذلك وصفاً لازماً ثابتاً فيه. وفي زيادة «كان» في الثاني دون الأول إيماءٌ إلى أنَّ صدورَ أعمال البرِّ منهم وإنْ كان لغرض فاسدٍ ليس في الاستمرار والدوام كصدورِ الأعمال التي هي مُقدِّمات مطالبهم الدنيئة. انتهى.

ويَحتمِلُ عندي على بُعدٍ أنْ يُراد بـ «ما كانوا يعملون» هو ما استمرُّوا عليه من إرادة الحياة الدنيا، وهو غير ما صنعوه من الأعمال التي نُسب إليها الحبوط، وإطلاقُ مثل ذلك على الإرادة مما لا بأس به، لأنها من أعمال القلب، ووجهُ الإتيان بـ «كان» فيه موافقتُه لما أشار هو إليه، وفي الجملة تصريحٌ باستمرار بُطلان تلك الإرادة، وشرح حالها بعد شرح المُريد وشرح أعماله أراد بها الحياة الدنيا وزينتها.

وأيّاً ما كان فالظاهرُ أنَّ «باطل» خبرٌ مقدَّم و«ما كانوا» هو المبتدأ، وجوز في «البحر»[1] كون «باطلٌ» خبراً بعد خبر، و«ما» مرتفعة به على الفاعلية.

وقرئ: «وبَطَلَ» بصيغة الفعل[2]، أي: ظهر بُطلانُه حيث علم هناك أنَّ ذاك وما يَسْتَتْبعه من الحظوظِ الدُّنيوية مما لا طائلَ تحته، أو انقطع أثرُه الدنيوي فبطلَ مطلقاً.

وقرأ أُبيّ وابن مسعود: «وباطلاً» بالنصب، ونسب ذلك إلى عاصم[3]، وخرجه صاحب «اللوامح» على أن «ما» سيف خطيب و«باطل» مفعول لـ «يعملون»، وفيه تقديمُ معمول «كان»، وفيه ـ كتقديم الخبر ـ خلافٌ، والأصحُّ الجوازُ لظاهرِ قوله تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠]، ومَن مَنَعَ تأوّل.

---

(١) ٥/ ٢١٠.

(٢) القراءات الشاذة ص٥٩ عن يحيى بن يعمر، ونسبها أبو حيان في البحر ٥/ ٢١٠ لزيد بن علي.

(٣) القراءات الشاذة ص٥٩، والمحتسب ١/ ٣٢٠، وهي غير المشهورة عن عاصم، والقراءة المشهورة عنه كقراءة الجمهور.

وجُوِّز أن يكون منصوباً بـ «يعملون» و«ما» إبهامية صفة له، أي: باطلاً أيَّ باطل، ونظيرُ ذلك:

حديثٌ ما على قِصَره[١]

و: لأمرٍ ما جَدَعَ قصيرٌ أنفه[٢].

وأنْ يكونَ مصدراً بوزن فاعل، وهو منصوب بفعل مقدَّر، و«ما» اسم موصول فاعلُه، أي: بطل بطلاناً الذي كانوا يعملونه، ونظيره خارجاً في قول الفرزدق:

ألم تَرَني عاهدتُ ربِّي وإنني لبَيْنَ رِتَاج قائماً ومَقام
على حَلْفةٍ لا أَشْتِمُ الدهرَ مسلماً ولا خارجاً من فِيَّ زورُ كلام[٣]

فإنه أراد: ولا يخرج مِن فيَّ زور كلام خروجاً، وفي ذلك على ما في «البحر»[٤] إعمالُ المصدر الذي هو بدلٌ من الفعل في غير الاستفهام والأمر.

هذا، والظاهر أنَّ الآيةَ في مطلق الكَفَرة الذين يعملون البِرَّ لا على الوجه الذي ينبغي.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرُهما عن أنس ﷺ أنها نزلَتْ في اليهود والنصارى[٥]. ولعل المراد ـ كما قال ابن عطية[٦] ـ أنهم سببُ النزول، فيدخلون فيها، لا أنها خاصة بهم ولا يدخل فيها غيرُهم.

وقال الجبائي: هي في الذين جاهدوا من المنافقين مع رسول الله ﷺ، جعل الله

---

(١) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٢٧، وصدره:

وحديث الركب يوم هنا

(٢) من أمثال العرب، قالته الزَّبَّاء لما رأت قصيراً مجدوعاً. وهو في مجمع الأمثال ٢/ ١٩٦.

(٣) ديوان الفرزدق ٢/ ٢١٢، والكامل ١/ ١٥٥، والخزانة ٤/ ٤٦٣، ورواية الديوان: قائم، بدل: قائماً، وعلى قسم، بدل: على حلفة. وذكر المبرد أن الفرزدق قال هذا الشعر آخر عمره وهو متعلق بأستار الكعبة. والرِّتاج: الباب العظيم، أو الباب المغلق. اللسان (رتج).

(٤) ٥/ ٢١٠.

(٥) تفسير الطبري ١٢/ ٣٥٠، وتفسير ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠١٠.

(٦) في المحرر الوجيز ٣/ ١٥٦.

تعالى حظَّهم من ذلك سهمهم في الغنائم. وفيه أن ذلك إنما كان بعد الهجرة والآية مكية.

وقيل: في أهل الرِّياء؛ يقال لقارئ القرآن منهم: أردتَ أن يقال: فلانٌ قارئ، فقد قيل، اذهَبْ فليس لك عندنا شيء، وهكذا لغيره من المتصدِّقِ والمقتولِ في الجهاد وغيرهما ممن عَمِلَ من أعمال البِرِّ لا لوجهِ الله تعالى، وربما يُؤيِّد ذلك ما رُوي عن معاوية رضي الله عنه حين حدَّثه أبو هريرة بما تضمن ذلك فبكى، وقال: صدقَ اللهُ ورسولُهُ ﷺ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1] وعليه فلا بدّ من تقييدِ قوله عزَّ وجل: ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ بأن ليس لهم بسببِ أعمالهم الريائية إلا ذلك، وهو خلافُ الظاهر، والسياقُ يقتضي أنها في الكفرة مطلقاً وبِرِّهم كما قلنا، ومن هنا اشتَهر أنَّ الكافرَ يُعجَّل له ثوابُ أعماله في الدنيا بتوسعة الرزقِ وصحةِ البدن وكثرةِ الولد ونحو ذلك، وليس له[2] في الآخرة من نصيب، لكن ذهبَ جماعةٌ إلى أنه يُخفَّف بها عنه من عذابِ الآخرة، ويشهد له قصةُ أبي طالب[3]، وذهب آخرون إلى أن ما يتوقَّف على النية من الأعمال لا ينتفع الكافر به في الآخرة أصلاً لفقدان شرطهِ، إذْ لم يكن من أهلِ النية لِكُفره وما لا ينتفع به ويخفف به عذابه، وبذلك يجمع بين الظواهر المُقتضي بعضُها للانتفاع في الجملة وبعضها لعدمه أصلاً، فتدبَّر.

ووجهُ ارتباطِ هذه الآية بما قبلها على ما في «مجمع البيان»[4] أنه سبحانه لما قال: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ فكأنَّ قائلاً قال: إنْ أظهرنا الإسلامَ لسلامة النفسِ والمال يكون ماذا؟ فقيل: «مَنْ كان يريدُ الحياةَ الدنيا» إلخ. أو يقال: إنَّ فيما قبلُ

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٨٢)، وابن حبان (٤٠٨)، وفيهما أن الذي حدث معاوية به هو شُفيٌّ الأصحبي، وهو سمعه من أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه مسلم (١٩٠٥) دون ذكر قصة معاوية.

(٢) في (م): لهم.

(٣) يريد حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه حيث قال للنبي ﷺ: ما أغنيت عن عمك، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: «هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار». أخرجه أحمد (١٧٦٨)، والبخاري (٣٨٨٣)، ومسلم (٢٠٩).

(٤) ١٢/ ١٢٧.

ما يتضمَّن إقناطَ الكَفَرة من أنْ يُجيرهم آلهتُهم من بأس الله عزَّ سلطانه كما تقدَّم، وذكره بعضُ المُحقِّقين، فلا يبعدُ أن يكون سماعُهم ذلك سبباً لِعَزْمهم على إظهارِ الإسلام، أو فعلِ بعضِ الأعمال الصالحة ظنّاً منهم أن ذلك مما يُجيرهم وينفعهم، فشرحَ لهم حُكْمَ مِثْلِ ذلك بقوله سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾ إلخ، لكن أنت تعلم أنَّ هذا يحتاج إلى ادِّعاء أن ذلك العزمَ من باب الاحتياط.

وفي «البحر»[(١)] في بيان المناسبة: أنه سبحانه لما ذكرَ شيئاً من أحوال الكُفَّار في القرآن ذكرَ شيئاً من أحوالهم الدنيوية وما يؤولون إليه في الآخرة.

وأبو السعود[(٢)] بَيَّن ذلك على وجه يُقوِّي به ما ادَّعاه من أنسبيةِ كون الخطاب فيما سلف له عليه الصلاة والسلام والمؤمنين، فقال: والذي يقتضيه جزالةُ النظم الكريم أنَّ المرادَ مطلقُ الكفرة بحيث يندرجُ فيهم القادحون في القرآن العظيم اندراجاً أولياً فإنه عز وجل لما أمر نبيَّه ﷺ والمؤمنين بأن يزدادوا علماً ويقيناً بأنَّ القرآن منزلٌ بعلم اللهِ سبحانه، وبأن لا قُدرة لغيره سبحانه على شيء أصلاً، وهَيَّجهم على الثَّبات على الإسلام والرُّسوخ فيه عند ظهور عَجْزِ الكَفَرة وما يَدْعون من دون الله تعالى عن المعارضة، وتبين أنهم ليسوا على شيء أصلاً، اقتضى الحال أن يتعرَّض لبعض شؤونهم المُوهمة لكونهم على شيء في الجملة من نَيْلهم الحظوظَ العاجلة واستوائهم على المطالب الدنيوية، وبيان أن ذلك بمعزلٍ عن الدلالة عليه، ولقد بيَّن ذلك أيَّ بيان. انتهى.

ولا يخفى أنه يمكن أن يقرَّر هذا على وجه لا يحتاج فيه إلى توسيط حديث جعل الخطاب السابق له ﷺ والمؤمنين، فَلْيفهم.

واستدل في الأحكام بالآية على أنَّ ما سبيلُه أن لا يُفعل إلا على وجهِ القُربة لا يجوز أخذ الأجرة عليه؛ لأن الأجرةَ من حظوظ الدنيا، فمن أخذَ عليه الأُجرةَ خرج من أن يكون قربةً بمقتضى الكتاب والسنَّة، وادَّعى الكِيا أنها مثل قوله ﷺ: «إنما الأعمالُ بالنيات»[(٣)] وتدلُّ على أنَّ من صام في رمضانَ لا عن رمضان لا يقع

---

(١) ٥/ ٢٠٩.

(٢) في تفسيره ٤/ ١٩٤.

(٣) أخرجه أحمد (١٦٨)، والبخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧) من حديث عمر رضي الله عنه.

عن رمضان، وعلى أن مَنْ توضأ للتبرُّد أو التنظُّف لا يصح وضوؤه[1]. وفي ذلك خلافٌ مبسوطٌ بمالَه وعليه في محلِّه.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ تدلُّ على الحقِّ والصواب فيما يأتيه ويَذَره، ويدخل في ذلك الإسلام دخولاً أوليّاً، واقتصر عليه بعضُهم بناءً على أنه المناسبُ لما بَعْدُ، وأصلُ البيِّنة كما قيل: الدلالةُ الواضحة، عقليةً كانت أو محسوسةً، وتُطلق على الدليل مطلقاً، وهاؤها للمبالغة، أو النقل، وهي وإنْ قيل: إنها مِن بانَ، بمعنى تَبيَّن واتَّضح، لكنه اعتُبر فيها دلالةُ الغير والبيان له، وأَخذها بعضُهم من صيغةِ المبالغة.

والتنوين فيها هنا للتعظيم، أي: بيِّنة عظيمة الشأن، والمرادُ بها القرآن، وباعتبارِ ذلك أو البرهان ذكّر الضمير الراجع إليها في قوله سبحانه: ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ أي: يتبعه ﴿شَاهِدٌ﴾ عظيمٌ يشهد بكونه من عند الله تعالى شأنه، وهو ـ كما قال الحسين بن الفضل ـ الإعجازُ في نَظْمه، ومعنى كون ذلك تابعاً له أنه وصفٌ له لا ينفكُّ عنه حتى يَرِثَ اللهُ تعالى الأرضَ ومن عليها، فلا يستطيع أحدٌ من الخَلْق جيلاً بعد جيل معارضَته ولو كان بعضُهم لبعض ظهيراً.

وكذا الضمير في ﴿مِّنْهُ﴾ وهو متعلِّق بمحذوف وقع صفةً لـ «شاهد»، ومعنى كونه منه أنه غيرُ خارجٍ عنه.

وجوّز أن يكون هذا الضميرُ راجعاً إلى الربِّ سبحانه، ومعنى كونه منه تعالى أنه واردٌ من جهته سبحانه للشهادة، وعلى هذا يجوز أن يُرادَ بالشاهد المعجزات الظاهرة على يدِ رسول الله ﷺ؛ فإنها من الشواهد التابعة للقرآن الواردةِ من قِبَلهِ عزَّ وجل، وأمرُ التبعية فيها ظاهر.

والمرادُ بالموصول كلُّ من اتَّصف بتلك الكينونة من المؤمنين.

وعن أبي العالية أنه النبي عليه الصلاة والسلام، ولا يَخفى أن قولَه سبحانه الآتي: (أُوْلَٰٓئِكَ) إلخ لا يُلائمه، إلا أن يُحملَ على التعظيم، وأيضاً إنَّ

---

(١) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٢٥، ونقله المصنف عنه بواسطة السيوطي في الإكليل ص١٥٠.

السياقَ ـ كما ستعلم إنْ شاء الله تعالى ـ للفرق بين الفريقين: المؤمنين ومَنْ يُريد الحياة الدنيا، لا بينهم وبين النبيِّ ﷺ.

وفسَّر بعضُهم البيِّنةَ بالدليل العقلي، والشاهد بالقرآن، وضمير «منه» لله تعالى، و«من» ابتدائية، أو للقرآن، فقد تقدَّم ذكره، و«من» حينئذ إما بيانية، وإما تبعيضية بناءً على أن القرآنَ ليس كلُّه شاهداً، وليس من التجريد على ما توهَّم الطيبي، فيكون في الآية إشارةٌ إلى الدليلين العقلي والسمعي، ومعنى كون الثاني تابعاً للأول ـ على ما قيل ـ: أنه موافق له لا يُخالفه أصلاً، ومن هنا قالوا: إنَّ النقل الصحيح لا يُخالف العقلَ الصريح، ولذا أوَّلوا الدليلَ السمعيَّ إذا خالف ظاهرُه الدليلَ العقلي، ولعلَّ في التعبير عن الأول بالبيِّنة التي جاء إطلاقُها في كلام الشارع على شاهدين، وعن الثاني بالشاهد الإيماءَ إلى أنَّ الدليلَ العقليَّ أقوى دلالةً من الدليل السمعي؛ لأنَّ دلالةَ الأول قطعيةٌ ودلالةَ الثاني ظنيةٌ غالباً؛ للاحتمالات الشهيرة التي لا يُمكن القطعُ معها، وقد يقال: إنَّ التعبير عن الثاني بالشاهد لمكان التُّلُو.

وعن ابن عباس ومجاهد والنخعي والضحاك وعكرمة وأبي صالح وسعيد بن جُبير: أن البيِّنةَ القرآن، والشاهدَ هو جبريلُ عليه السلام، و«يتلو» من التلاوة لا التُّلُو، وضمير «منه» لله تعالى.

وفي رواية عن مجاهد أنَّ الشاهدَ مَلَكٌ يحفظُ القرآنَ، أي: يصونه[1]، وليس المرادُ الحفظَ المُتعارفَ؛ لأنه ـ كما قال ابنُ حجر ـ خاصٌّ بجبريل عليه السلام، وضمير «منه» كما في سابقه إلا أن «يتلو» من التُّلُوّ، والضمير المنصوب للبيِّنة، وقيل: لمن كان عليها.

وعن الفراء[2] أن الشاهد هو الإنجيل، «ويتلوه» وضمير «منه» على طرز ما رُوي عن مجاهد سوى أن ضمير «يتلوه» للقرآن.

وأخرج أبو الشيخ عن محمد بن الحنفية أنَّ الشاهدَ لسانُه ﷺ، وقد ذكر أهلُ

(١) قوله: أي: يصونه، ليس في (م).
(٢) في معاني القرآن ٢/٦.

اللغة ذلك؛ وكذا المَلَك من معانيه(١)، و«يتلو» حينئذ من التلاوة، والإسناد مجازي ومفعوله للبيِّنة، وضمير «منه» للرسول ﷺ بناءً على أنه المرادُ بالموصول، و«مِن» تبعيضية.

وقيل: الشاهدُ صورتُه عليه الصلاة والسلام ومَخايله؛ لأنَّ كلَّ عاقل يراه يعلم أنه عليه الصلاة والسلام رسولُ الله.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه قال: ما مِنْ رجلٍ من قريش إلا نَزَلَ فيه طائفةٌ من القرآن، فقال له رجل: ما نَزَل فيك؟ قال: أما تقرأُ سورةَ هود: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ الآية، مَنْ كان على بيِّنة مِن ربِّه رسولُ الله ﷺ، وأنا شاهدٌ منه(٢). وأخرج المِنهال عن عُبادةَ بن عبد الله مثله(٣).

وأخرج ابنُ مردويه بوجه آخر عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أفمن كان على بيِّنة من ربِّه» أنا «ويتلوه شاهدٌ» عليٌّ»(٤).

وأخرج الطبرسي(٥) نحوَ ذلك عن بعض أهل البيت ﵈، وتعلَّق به بعضُ الشيعة في أنَّ علياً كرَّم الله تعالى وجهه هو خليفةُ رسول الله ﷺ؛ لأنَّ الله تعالى سَمَّاه شاهداً كما سمَّى نبيَّه عليه الصلاة والسلام كذلك في قوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـٰذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥] والمراد: شاهداً على الأمة، كما يشهد له عطفُ «مبشراً ونذيراً» عليه، فينبغي أن يكون مقامُه كرَّم الله تعالى وجهه بين الأُمة كمقامه عليه الصلاة والسلام بينهم، وحيث أَخبر سبحانه أنه يتلوه، أي: يعقبه ويكون بعدَه، دلَّ على أنه خليفتُه.

وأنت تعلم أن الخبرَ مما لا يكادُ يصح، وفيما سيأتي في الآية إنْ شاء الله تعالى إباءٌ عنه، ويُكذبه ما أخرجه ابنُ جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ

---

(١) يعني من معاني الشاهد اللسان والمَلَك. حاشية الشهاب ٥/ ٨٥.
(٢) الدر المنثور ٣/ ٣٢٤.
(٣) ذكره أبو حيان في البحر المحيط ٥/ ٢١١.
(٤) الدر المنثور ٣/ ٣٢٤، وهو في تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠١٥. وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: هو ضعيف لا يثبت قائله.
(٥) مجمع البيان ١٢/ ١٣٠.

والطبراني في «الأوسط» عن محمد بن الحنفية رضي الله عنه قال: قلتُ لأبي كرَّم الله تعالى وجهه: إنَّ الناسَ يزعُمون في قوله تعالى: (وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ) أنكَ أنتَ التالي. قال: وَدِدْتُ أني هو، ولكنه لسانُ محمد ﷺ[١]. على أنَّ في تقرير الاستدلالِ ضَعْفاً وركاكةً بلغتِ الغايةَ القُصوى كما لا يخفى على مَنْ له أدنى فِطنة.

ونقل أبو حيان[٢] أنَّ هذا الشاهدَ هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه وفيه ما فيه.

وفي عطف «يتلوه» احتمالان: الأول أن يكون على ما وقع صفةً لـ «بَيِّنة»، والثاني أن يكون على جملة «كان» ومرفوعها.

وقوله سبحانه: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ عطف على «شاهد» والضمير المجرور له، وقد توسَّط الجار والمجرور بينهما، والظاهر أنه متعلِّق بمحذوف وقع حالاً من الكتاب، أي: «ويتلوه» في التصديق «كتابُ موسى» مُنزلاً مِن قَبْله، وحاصِلُه: «أفمن كان على بيِّنة من ربِّه» ويشهد لِصدقه شاهدٌ منه وشاهدٌ آخرُ من قَبْله وهو كتاب موسى. قيل: وإنما قدّم في الذكر المؤخَّر في النزول لكونه وصفاً لازماً له غيرَ مُفارق عنه، ولعراقته في وصف التُّلُوّ، وهذا على تقدير أن يكون المرادُ بالشاهد الإعجاز كما اختاره بعضُ المُحقِّقين. وقد يقال: إنَّ تأخيرَ بيانِ شهادة هذا الشاهدِ عن بيان شهادةِ الشاهدِ الأولِ، لأنها ليست في الظُّهور عند الأمة كشهادة الأول، وهو جارٍ على غير ذلك التقدير أيضاً.

وتخصيصُ كتاب موسى عليه السلام بالذِّكر بناءً على عدم إرادة الإنجيل فيما تقدَّم؛ لأن المِلَّتين مجتمعتان على أنه من عند الله تعالى بخلاف الإنجيل، فإنَّ اليهودَ مُخالفون فيه، فكان الاستشهاد بما تقوم به الحُجة على الفريقين أولى.

وأوجب بعضُهم كونَ «ومِنْ قبله كتابُ موسى» جملةً مبتدأةً غيرَ داخلة في حيِّز شيء مما قبلها، وهو مبنيٌّ على كثير من الاحتمالات السابقة في الشاهد.

وقرأ محمدُ بن السائب الكلبي وغيره: «كتابَ» بالنصب[٣] على أنه معطوفٌ

---

(١) تفسير الطبري ١٢/ ٣٥٤، وتفسير ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠١٤، والمعجم الأوسط (٦٨٢٨).

(٢) في البحر المحيط ٥/ ٢١١.

(٣) القراءات الشاذة ص٥٩، والكشاف ٢/ ٢٦٢.

على مفعول «يتلوه» أو منصوبٌ بفعل مقدر، أي: ويتلو كتابَ موسى، والأولُ أولى؛ لأنَّ الأصلَ عدمُ التقدير، و«يتلو» في هذه القراءة من التلاوة، والضمير المنصوب للقرآن والمجرور لـ «مِن»، و«من» تبعيضية لا تجريدية، والمعنى على ما يقتضيه كلامُ «الكشاف»[1]: «أفمن كان على بيِّنة» على أنَّ القرآنَ حقٌّ لا مُفترى، والمرادُ به أهلُ الكتاب ممن كان يعلم أنَّ رسولَ الله ﷺ على الحقّ وأنَّ كتابَه هو الحقّ لِمَا كانوا وجدوه في التوراة، ويقرأ القرآنَ شاهدٌ من هؤلاء، ويقرأ مِن قَبْلِ القرآن كتابَ موسى، والمرادُ بهذا الشاهد ما أُريد به في قوله سبحانه: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾ [الأحقاف: ١٠] وهو عبدُ الله بن سلام رضي الله عنه، ففي الآية مدحُ أهل الكتاب وخصَّ من بينهم تالي الكتابَيْن وشاهدَهم بالذِّكر دلالةً على مَزيد فَضْله وتنبيهاً على أنهم مُشايعون في اتّباع الحقّ وإنْ لم يبلغوا رُتبةَ الشاهد، وفي قوله تعالى: «يتلوه» استحضارٌ للحال ودلالةٌ على استمرار التلاوة، وهو ـ كما قيل ـ في غاية التطابق للكلام.

﴿إِمَامًا﴾ أي: مؤتَمّاً به في الدين ومُقتَدى، وفي التعرُّض لهذا الوصف مع بيانِ تلو الكتاب ما لا يخفى من تفخيم شأن المَتْلو، والتنوين فيه للتعظيم، وكذا في قوله سبحانه: ﴿وَرَحۡمَةً﴾ أي: نعمةً عظيمة على مَن أنزل إليهم ومَن بعدَهم إلى يوم القيامة باعتبار أحكامه الباقيةِ المُؤيَّدة بالقرآن العظيم، وهما حالان من الكتاب.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الموصوفون بتلك الصفة الحميدة، وهي الكونُ على بينة ﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ﴾ أي: يُصدِّقون بالقرآن حقَّ التصديق حسبما يشهد به تلك الشواهد الحقَّة المُعرِبة عن حَقّيته، ولا يُقلِّدون أحداً من عظماءِ الدين؛ فالضميرُ للقرآن.

وقيل: إنه لكتاب موسى عليه السلام، لأنه أقربُ. ولا يُناسب ما بعدُ، وإنْ لم يكُ خالياً عن الفائدة.

وقيل: إنه للنبي ﷺ.

﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن ولم يعتدَّ بتلك الشواهد الحَقَّةِ ولم يُصدِّق بها ﴿مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ من أهل مكة ومَن تحزَّب معهم على رسولِ الله ﷺ، قاله بعضُهم.

---

(١) ٢/ ٢٦٢.

وأخرج عبدُ الرزاق عن قتادة أنَّ الأحزابَ الكُفَّار مطلقاً؛ فإنهم تحزَّبوا على الكُفر، ورَوى ذلك عن ابن جُبير[١].

وفي رواية أبي الشيخ عن قتادة أنهم اليهود والنصارى[٢].

وقال السدي: هم قريش.

وقال مقاتل: هم بنو أمية وبنو المغيرة بن عبد الله المَخزومي، وآل أبي طلحة بن عُبيد الله.

﴿فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ﴾ أي: يَرِدُها لا مَحالةَ حسبما نطقَ به قوله سبحانه: ﴿لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ﴾ [هود: ١٦] وآياتٌ أُخَرُ. والموعدُ اسمُ مكان الوعد كما في قول حسان:

أَورَدْتموها حِياضَ الموت ضاحيةً فالنارُ موعِدُها والموتُ لاقيها[٣]

وفي جَعْلِ النارِ موعداً إشعارٌ بأنَّ له فيها ما لا يُوصف من أفانين العذاب.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ﴾ أي: في شكٍّ من أمر القرآن وكونهِ من عند الله تعالى غِبَّ[٤] ما شهدَتْ به الشواهدُ وظهرَ فضلُ مَنْ تمسَّك به، أو: لا تَكُ في شكٍّ من كون النار موعدَهم. وادَّعى بعضُهم أنه الأظهرُ، وليس كذلك.

وأيّاً ما كان فالخطابُ إنْ كان عامّاً لمن يصلح له فالمرادُ التحريضُ على النظر الصحيح المُزيل للشكّ، وإنْ كان للنبي ﷺ فهو بيانٌ لأنه ليس محلاً للشكّ، تعريضاً بمن شكَّ فيه، ولا يلزم من نهيه عليه الصلاة والسلام عنه وقوعُه ولا توقُّعه منه ﷺ.

وقرأ السُّلمي وأبو رجاء وأبو الخطاب السدوسي والحسن: «مُرْية» بضم الميم[٥]، وهي لغة أسد وتميم، والكسر لغةُ أهل الحجاز.

---

(١) تفسير عبد الرزاق ١/ ٣٠٣.

(٢) الدر المنثور ٣/ ٣٢٥.

(٣) ديوان حسان ص٤٨٥، وفيه: والقتل، بدل: والموت.

(٤) قوله: غِبَّ، أي: بَعْدَ. المعجم الوسيط (غبب).

(٥) القراءات الشاذة ص٥٩.

﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: الذي يُربِّيك في دينك ودنياك ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾ بذلك إما لِقصور أنظارهم واختلالِ أفكارهم، وإما لاستكبارهم وعِنادهم. و«الناس» ـ على ما رُوي عن ابن عباس ـ أهلُ مكة، وقال صاحب «الغنيان»[١]: جميع الكفار.

هذا والهمزة في «أفمن» قيل: للتقرير و«من» مبتدأ والخبر محذوف، أي: أفمن كان كذا كمن يُريد الحياةَ الدنيا وزينتها، وحُذِفَ معادِلُ الهمزة، ومثلُه كثير، واختار هذا أبو حيان[٢].

والذي يقتضيه كلامُ الزمخشري[٣] ـ ولعله الأولى ـ خلافه، حيث قال: المعنى: أمَن كان يريد الحياةَ الدنيا كمن كان على بينة، أي: لا يعقبونهم ولا يُقاربونهم في المنزلة، إلى آخر ما قال. وحاصله على ما في «الكشف»: أن الفاء عاطفة للتعقيب، مُستدعيةٌ ما يعطفُ عليه، وهو الدالُّ عليه قولُه سبحانه: «مَنْ كان» الآية، فالتقدير: أمَن كان يُريد الحياة الدنيا ـ على أنها موصولةٌ ـ فمن كان على بيِّنة من ربِّه، والخبرُ محذوفٌ لدلالة الفاءِ، أي: يعقبونهم أو يَقْربونهم، والاستفهام للإنكار، فيفيد أنْ لا تَقارب بين الفريقين فضلاً عن التماثل، فلذلك صار أبلغَ من نحو قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ [السجدة: ١٨] وأما أنها عطفٌ على قوله تعالى: (مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا) فلا وجهَ له؛ لأنه يصيرُ من عطف الجملة، ولا يدلُّ على إنكار التماثل، ولا معنى لتقدير الاستفهام في الأول، فإنَّ الشرطَ والجزاءَ لا إنكارَ عليه. انتهى. وهو جارٍ على أحد مذهبين للنحاة في مثله.

ويعلم مما تقرَّر أن الآيةَ مرتبطةٌ بقوله سبحانه: «من كان» إلخ، ومساقُها عند

---

(١) في الأصل و(م): الغينان، وهو تصحيف، والصواب ما أثبتناه، وكتاب الغنيان في تفسير القرآن لبشير بن حامد الزينبي التبريزي الشافعي شيخ الحرم، المتوفى سنة (٦٤٦ هـ). العقد الثمين ٣/ ٣٧١. ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٥/ ٢١١، وتحرف فيه إلى: العتيان.

(٢) في البحر المحيط ٥/ ٢١٠.

(٣) في الكشاف ٢/ ٢٦٢.

شيخ الإسلام[1] للترغيب أيضاً فيما ذكر من الإيمان بالقرآن والتوحيد والإسلام، وادّعى الطبرسي[2] أنها مرتبطةٌ بقوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [الآية: ١٣] وأنَّ المرادَ أنهم إذا لم يأتوا بذلك فقل لهم: «أفمنْ كان على بيِّنة». ولا بيِّنة له على ذلك.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأنْ نسبَ إليه ما لا يَليقُ به، كقولهم: الملائكةُ بناتُ الله، تعالى الله عن ذلك عُلوّاً كبيراً، وقولهم لآلهتهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. والمرادُ من الآية ذمّ أولئك الكَفَرة بأنهم مع كُفرهم بآيات الله تعالى مُفترون عليه سبحانه.

ويجوز أن تكونَ لنوعٍ آخرَ من الدلالة على أن القرآنَ ليس بمفترًى، فإنَّ من يعلمُ حالَ مَنْ يَفتري على الله سبحانه كيف يرتكبه؟!

وأن تكون من الكلام المنصف، أي: لا أحدَ أظلمُ مني أنْ أقولَ لما ليس بكلام الله تعالى: إنه كلامه كما زعمتم، أو: منكم إنْ كنتم نَفَيْتُم أن يكونَ كلامَه سبحانه مع تحقُّق أنه كلامُه جلّ وعلا، وفيه من الوعيد والتهويل ما لا يخفى.

ويجوز عندي إذا كان ما قبلُ في مؤمني أهل الكتاب أن يكون هذا في بيان حالِ كَفَرتهم الذين أسندوا إليه سبحانه ما لم يُنزله من المُحَرَّف الذي صنعوه، ونَفَوا عنه سبحانه ما أَنزله من القرآن، أو من نَعْتِ النبي ﷺ. وأيّاً ما كان فالمرادُ نَفْي أن يكون أظلمَ من ذلك، أو مساوياً في الظلم على ما تقدَّم.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي: الموصوفون بالظلم البالغ، وهو الافتراء ﴿يُعْرَضُونَ﴾ من حيث إنهم موصوفون بذلك ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: مالِكهم الحقّ، والمُتصرِّف فيهم حسبما يُريد. وفيه على ما قيل: إيماءٌ إلى بُطلان رأيهم في اتِّخاذهم أرباباً من دونه سبحانه وتعالى.

وجعل بعضُهم الكلامَ على تقدير المضاف، أي: تُعرَضُ أعمالُهم، أو على ارتكابِ المَجاز، ولا يُحتاج إلى ذلك على ما أُشير إليه؛ لأن عرضَهم من تلك

---

(١) هو أبو السعود في تفسيره ٤/ ١٩٤.
(٢) في مجمع البيان ١٢/ ١٣٣.

الحيثية وبذلك العنوان عرضٌ لأعمالهم على وجهٍ أبلغَ، فإن عرض العامل بعمله أفظعُ من عرض عملهِ مع غيبته.

والظاهر أنه لا حذفَ في قوله سبحانه: (عَلَىٰ رَبِّهِمْ) ويفوض من يقف على الله.

وقيل: هناك مضافٌ محذوف، أي: على ملائكة ربِّهم، أو أنبياءِ ربِّهم، وهم المرادُ بالأشهاد في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ وتفسيرهم بالملائكة مطلقاً هو المرويُّ عن مجاهد. وعن ابن جُريج تفسيرهم بالحَفَظة من الملائكة عليهم السلام. وقيل: المرادُ بهم الملائكة والأنبياء والمؤمنون، وقيل: جوارحهم. وعن مقاتل وقتادة: هم جميعُ أهل المَوْقف.

وهو جمعُ شاهد بمعنى حاضر، كصاحب وأصحاب؛ بناءً على جواز جمع فاعل على أفعال، أو جمع شهيد بمعناه، كشريف وأشراف، أي: ويقول الحاضرون عند العرض أو في موقف القيامة: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ يحتمِلُ[1] أن يكون شهادةً على تعيين مَن صَدَر منه الكذب كأنَّ وقوعَه أمرٌ واضحٌ غنيٌّ عن الشهادة، وإنما المحتاج إليها ذلك[2]، ولذا لم يقولوا: هؤلاء كَذَبوا، بدون الموصول.

ويحتمل أن يكون ذمّاً لهم بتلك الفِعْلة الشنيعة لا شهادةً عليهم كما يُشعر به قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ﴾ دون: ويشهد، وتوطئةً لما يعقبه من قوله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ أي: بالافتراء المذكور. والظاهرُ أنَّ هذا من كلام الأشهادِ على الاحتمالين، ويُؤيِّده ما أخرجه الشيخان وخلقٌ كثير عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ اللهَ تعالى يُدني المؤمنَ حتى يَضَعَ كَنَفَه عليه ويستره من الناس ويُقرِّره بذنوبه، ويقول له: أَتعرفُ ذَنْبَ كذا؟ أتعرفُ ذَنْبَ كذا؟ فيقول: ربِّ أعرفُ. حتى إذا قَرَّره بذنوبه ورأى في نَفْسه أنه قد هلك قال: فإني قد سترتُها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته، وأما الكفارُ والمنافقون فيقول الأشهاد: (هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ)»[3].

(١) في (م): ويحتمل.

(٢) أي: تعيين من صدر منه الكذب. ينظر تفسير أبي السعود ٤/١٩٦.

(٣) صحيح البخاري (٢٤٤١)، وصحيح مسلم (٢٧٦٨)، وأخرجه أحمد (٥٤٣٦).

وجوّز على الاحتمال الأول أن يكونَ من كلام الله تعالى، وحينئذ يجوز أن يُرادَ بالظالمين ما يعمُّ الظالمين بالافتراء، والظالمين بغير ذلك، ويدخل فيه الأوَّلون دُخولاً أولياً، ويُؤيِّده ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران قال: إنَّ الرجلَ لَيُصلِّي ويلعن نَفْسَه في قراءته فيقول: (أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ) وهو ظالم[1].

وربما يجوز ذلك على الاحتمال الثاني أيضاً.

وأيّاً ما كان ف «هؤلاء الذين» مبتدأ وخبر. واحتمال أن يكون «هؤلاء» مبتدأ، و«الذين» تابعٌ له، وجملة «ألا لعنة الله على الظالمين» خبره. وقد أُقيم الظاهرُ مقامَ المُضمر، أي: عليهم، لِذَمِّهم بمبدأ الاشتقاق مع الإشارة إلى عِلَّة الحكم = كما ترى.

وجملة «يقول الأشهاد» قيل: مستأنفة على أنها جوابُ سؤال مُقدَّر، كأنَّ سائلاً سأل إذْ سمع أنهم يُعرَضون على ربِّهم: ماذا يكون إذْ ذاك؟ فأُجيبَ بما ذكر.

وقيل ـ وهو الظاهرُ ـ: إنها معطوفةٌ على جملة «يُعرضون»، على معنى: أولئك يُعرَضون ويقول الأشهاد في حقِّهم، أو ويقول أشهادُهم والحاضرون عند عَرْضهم: «هؤلاء» إلخ. وكأنَّ هذا لِبيانِ أنها مرتبطةٌ في التقدير بالمبتدأ كارتباط الجُملة المعطوفة هي عليها به، وقيل: كفى اسمُ الإشارة القائمِ مقامَ الضمير للتحقير رابطاً. فتدبَّر.

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ أي: كل مَنْ يقدرون على صدِّه، أو يفعلون الصدّ ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: دينه القويم. وإطلاقُ ذلك عليه كالصراطِ المستقيم مجازٌ.

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يطلبون لها انحرافاً، والمرادُ أنهم يصفونها بذلك وهي أبعدُ شيء عنه، وإطلاقُ الطلب على الوصف مجازٌ من إطلاق السبب على المسبَّب.

ويجوز أن يكون الكلامُ على حذف مضاف، أي: يبغون أهلَها أن ينحرفوا عنها ويرتدُّوا.

وقيل: المعنى: يطلبونها على عِوَج.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٦/٢٠١٧.

ونُصِبَ «عوجاً» على أنه مفعولٌ به، وقيل: على أنه حالٌ ويُؤوَّل بمعوجِّين.

﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝١٩﴾ أي: والحالُ أنهم لا يؤمنون بالآخرة، وتكريرُ الضمير لتأكيدِ كُفرهم واختصاصِهم به، لأنه بمنزلة الفصل فيفيدُ الاختصاصَ وضرباً من التأكيد، والاختصاص ادّعائي مبالغة في كُفرهم بالآخرة، كأنَّ كُفْرَ غيرهم بها ليس بكفر في جَنْبه، وقيل: إنَّ التكريرَ للتأكيد.

وتقديم «بالآخرة» للتخصيص، والأولى كونُ تقديمه لرؤوس الآي.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما يُوجب التدمير ﴿لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ﴾ لله تعالى مُفلتين أنفسهم من أخذه لو أراد ذلك ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مع سَعتها وإنْ هربوا منها كلَّ مَهْرَب، وجعلها بعضُهم كنايةً عن الدنيا.

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ ينصرونهم من بأسهِ، ولكن أخَّر ذلك لِحكمة تقتضيه، و«من» زائدة لاستغراق النفي، وجُمع «أولياء» إما باعتبار أفراد الكَفَرَة؛ كأنه قيل: وما كان لأحدٍ منهم من ولي، أو باعتبار تعدُّد ما كانوا يَدْعون من دون الله تعالى، فيكون ذلك بياناً لحال آلهتهم من سُقوطها عن رُتبة الولاية.

﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ جملة مستأنفة بيّن فيها ما يكون لهم ويحلُّ بهم، وادُّعي أنها تتضمَّن حكمةَ تأخير المؤاخذةِ، وزَعْمُ بعضِهم أنها من كلام الأشهاد، وهي دُعائيةٌ، ليس بشيء.

وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب: «يُضَعَّف» بالتشديد[١].

﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ أي: أنهم كانوا يستثقلون سماعَ الحقِّ الذي جاء به الرسولُ ﷺ ويستكرهونه إلى أقصى الغاياتِ، حتى كأنهم لا يستطيعونه، وهو نظيرُ قول القائل: العاشقُ لا يستطيع أن يسمعَ كلامَ العاذل، ففي الكلام استعارةٌ تصريحية تبعيةٌ، ولا مانعَ من اعتبار الاستعارةِ التمثيلية بدلَها وإنْ قيل به، وبالجملة لا تردُ الآيةُ على المعتزلة، وكذا على أهل السُّنة؛ لأنهم لا ينفون الاستطاعة رأساً وإن منعوا إيجادَ العبد لشيء ما، وكأنه لما كان قبحُ حالهم في عدم إذعانهم للقرآن

(١) التيسير ص٨١، والنشر ٢/٢٢٨. وهي قراءة أبي جعفر أيضاً.

الذي طريقُ تلقِّيه السمعُ أشدَّ منه في عدم قَبولهم سائرَ الآيات المَنوطة بالإبصار، بالغ سبحانه في نفي الأول عنهم حسبما عَلِمتَ، واكتفى في الثاني بنفي الإبصار، فقال عزَّ قائلاً: ﴿وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ۝٢٠﴾ أي أنهم كانوا يتعامَوْن عن آيات الله تعالى المبسوطةِ في الأنفس والآفاق، وكأنَّ الجملةَ جوابُ سؤال مُقدَّر عن علَّة مُضاعفة العذاب، كأنه قيل: ما لهم استوجبوا تلك المُضاعفة؟ فقيل: لأنهم كَرِهوا الحقَّ أشدَّ الكراهة، واستثقلوا سماعَه أعظمَ الاستثقال، وتعامَوْا عن آيات الملك المُتعال، ولا يُشكل على هذا قولُه سبحانه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠] بناءً على أن المرادَ بمثل السيئة ما تقتضيه من العقاب عند الله تعالى، فلعلَّ ما فعلوه من السيئات يقتضي تلك المُضاعفة، فتكون هي المِثْلَ، كما أنَّ مِثْلَ سيئة الكُفر هو الخُلود في النار.

وقيل: إن المضاعفةَ لافترائهم وكَذِبهم على ربِّهم، وصَدِّهم عن سبيل الله تعالى، وبَغْيهم إيَّاها العِوَجَ، وكُفرِهم بالآخرة ـ على ما يدلُّ عليه نسبةُ مُضاعفةِ العذاب إلى هؤلاء الموصوفين بتلك الصفات ـ وبه جمع بين ما هنا وقولِهِ سبحانه: (وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ) الآية، ولعلَّ التعليل بما تُفيده الجملةُ على هذا لأنه الأصلُ الأصيلُ لسائر قبائحهم ومعاصيهم.

وزعم بعضُهم أن المضاعفةَ لحفظِ الأصل إذْ لولا ذلك لارتفعَ، ولم يبقَ عذاباً للإلفِ بطول الأمَد، وفيه ما فيه.

وقيل: إنَّ الجملةَ بيانٌ لما نَفى من ولاية الآلهة، فإن ما لا يسمعُ ولا يُبصر بمعزل عن الولاية، وقوله سبحانه: «يضاعف» إلخ اعتراضٌ وُسِّط بينهما نعياً عليهم من أول الأمر بسوء العاقبة. وفيه أنه مُخالِفٌ للسِّياق ومستلزمٌ تفكيكَ الضمائر.

وجوَّز أبو البقاء[1] أن تكون «ما» مصدرية ظرفية، أي: يُضاعف لهم العذابُ مدةَ استطاعتهم السَّمعَ وإبصارِهم، والمعنى: أن العذابَ وتضعيفَه دائمٌ لهم مُتمادٍ.

---

(١) في إملاء ما من به الرحمن ٣/ ٢٦٥ (بهامش الفتوحات الإلهية).

وأجاز الفراء[١] أن تكونَ مصدريةً، وحُذف حرفُ الجرِّ منها كما يُحذَف من أَنْ وأنَّ، وفيه بُعْدٌ لفظاً ومعنى.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك القبائح ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ باشتراء عبادةِ الآلهة بعبادة الله تعالى شأنه. وقيل: «خسروا» بسبب تبديلهم الهدايةَ بالضلالة والآخرةَ بالدنيا، وضاع عنهم ما حصَّلوه بذلك التبديل من متاع الحياة الدنيا والرِّياسة.

وفي «البحر»[٢] أنه على حذف مضاف، أي: خسروا سعادةَ أنفسهم وراحتَها، فإنَّ أنفسَهم باقيةٌ معذَّبة.

وتُعقِّب بأنَّ إبقاءه على ظاهره أولى لأنَّ البقاءَ في العذاب كلابقاء.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾﴾ من الآلهة وشفاعتها.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: لا أحدَ أبينُ أو أكثرُ خُسراناً منهم، فأفعل للزيادة إما في الكم أو الكيف، وتعريفُ المسند بلام الجنس لإفادةِ الحصر، وإنْ جُعل «هم» ضميرَ فصل أفادَ تأكيدَ الاختصاص، وإنْ جُعل مبتدأ وما بعدَه خبره والجملةُ خبر «أنَّ» أفاد تأكيدَ الحكم.

وفي «لا جَرَمَ» أقوال: ففي «البحر»[٣] عن الزجَّاج[٤]: أنَّ «لا» نافيةٌ ومَنْفِيُّها محذوفٌ، أي: لا ينفعهم فعلُهم مثلاً، و«جرم» فعلٌ ماضٍ بمعنى كسب يقال: جَرَمْت الذنب، إذا كسبته؛ وقال الشاعر:

نَصَبنا رَأسَه في جِذْعِ نَخْلٍ ... بما جَرَمَتْ يداه وما اعتَدينا[٥]

وما بعده مفعولُه، وفاعلُه ما دلَّ عليه الكلامُ، أي: كسب ذلك أظهرية أو أكثرية خُسرانهم، وحُكي هذا عن الأزهري[٦].

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٨.
(٢) ٥/ ٢١٢.
(٣) ٥/ ٢١٣.
(٤) في معاني القرآن ٣/ ٤٦.
(٥) ذكره ابن الأنباري في الزاهر ١/ ٢٧٢، والبغدادي في الخزانة ١٠/ ٢٨٦ دون نسبة.
(٦) تهذيب اللغة ١١/ ٦٦.

ونُقل عن سيبويه أنَّ «لا» نافيةٌ حسبما نُقل عن الزجاج، و«جرم» فعلٌ ماضٍ بمعنى حقّ، وما بعدُ فاعلُه، كأنه قيل: لا ينفعهم ذلك الفعلُ حقَّ أنهم في الآخرة... إلخ.

وذكر أبو حيان أنَّ مذهبَ سيبويه وكذا الخليل أيضاً كونُ مجموع «لا جرم» بمعنى حقَّ، وأنَّ ما بعدَه رُفع به على الفاعلية[1].

وقيل: «لا» صلة و«جرم» فعل بمعنى كَسَبَ أو حقَّ.

وعن الكسائي أن «لا» نافية، «وجرم» اسمها مبنيٌّ معها على الفتح، نحو: لا رجلَ، والمعنى: لا صدَّ ولا مَنْعَ، والظاهر أن الخبرَ على هذا محذوفٌ، وحذف حرفُ الجر من «أنَّ» ويقدَّر حسبما يقتضيه المعنى.

وقيل: إنَّ «جرم» اسم «لا» ومعناه القطعُ من جَرَمْت الشيء، أي: قطعته، والمعنى: لا قطع لِثبوت أكثرية خُسرانهم، أي: إنَّ ذلك لا ينقطع في وقت فيكون خلافه.

ونقل السِّيرافي عن الزجَّاج أنَّ «لا جرم» في الأصل بمعنى: لا يُدْخِلَنَّكم في الجُرم، أي: الإثم، كأثَّمه، أي: أدخله في الإثم، ثم كَثُر استعمالُه حتى صار بمعنى لا بد، ونقل هذا المعنى عن الفراء، وفي «البحر»[2] أنَّ «جرم» عليه اسم «لا».

وقيل: إنَّ «جرم» بمعنى باطل، إما على أنه موضوعٌ له، وإما أنه بمعنى كسب، والباطل مُحتاجٌ له، ومن هنا يُفسَّر «لا جرم» بمعنى حقّاً؛ لأن الحقَّ نقيضُ الباطل، وصار: لا باطلَ، يميناً، كـ«لا كذب» في قول النبي ﷺ: «أنا النبي لا كذب»[3].

وفي «القاموس» أنه يقال: لا جَرَمَ، ولا ذا جَرَمَ، ولا أنْ ذا جَرَمَ، ولا عن ذا جَرَمَ، ولا جَرُمَ، كَكَرُمَ، ولا جُرم ـ بالضم ـ أي: لا بُدَّ، أو حقّاً، أو لا محالةَ،

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٢١٢، وينظر الكتاب ٣/ ١٣٨.

(٢) ٥/ ٢١٣.

(٣) أخرجه أحمد (١٨٤٦٨)، والبخاري (٣٠٤٢)، ومسلم (١٧٧٦) من حديث البراء بن عازب ﷺ.

وهذا أصلُه، ثم كَثُرَ حتى تحوَّل إلى معنى القَسَم، فلذلك يُجاب عنه باللام، فيقال: لا جَرَمَ لآتينك. انتهى[1].

وفيه مُخالفةٌ لما نقله السِّيرافي عن الزجاج، وما ذَكَره مِنْ «لا جَرُم» كَكَرُمَ رواه بعضُهم عن أبي عمرو في الآية[2]، ومِنْ «لا ذا جرم» حكاه الفراءُ عن بني عامر[3]، وحكي أيضاً «لا جُرم» - بالضم - عن أُناس من العرب، ولكن قال الشهاب[4]: إنَّ في ثُبوت هذه اللغة في فصيح كلامهم تردُّداً. و«جرم» فيها يحتمل أن يكون اسماً وأن يكون فعلاً مجهولاً سكن للتخفيف.

وحكى بعضُهم: لا ذو جَرَم، ولا عن جَرَم، ولا جَرَ، بحذف الميم لكَثْرة الاستعمال، كما حُذفت الفاء من سوف لذلك في قولهم: سو ترى.

والظاهر أن المُقحمات بين «لا» و«جرم» زائدة، وإليه يُشير كلامُ بعضهم.

وحكي: بغير لا جَرم أنك أنتَ فعلتَ ذاك، ولعلَّ المرادَ أنَّ كونَك الفاعلَ لا يحتاجُ إلى أن يقال فيه: لا جَرَمَ. فليراجَعْ ذاك، والله تعالى يتولَّى هُداك.

ثم إنه تعالى لما ذكر فريق[5] الكفار وأعمالَهم وبيَّن مصيرَهم ومآلَهم شَرَعَ في شرح حال أضدادهم، وهم المؤمنون، وبيانِ ما لهم[6] من العواقب الحَميدة تكملةً لما سلفَ من محاسن المؤمنين المذكورة عند جَمْعٍ في قوله سبحانه: (أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ) الآية ليَتَبيَّنَ ما بينهما من التباين البيِّن حالاً ومآلاً، فقال عزَّ مِن قائل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: صدَّقوا بكل ما يجب التصديقُ به من القرآن وغيره، ولا يكون ذلك إلا باستماع الحقِّ ومشاهدةِ الآيات الآفاقيَّةِ والأَنْفُسية والتدبُّر فيها، أو المعنى: فعلوا الإيمانَ واتَّصفوا به، كما في فلانٌ يُعطي ويمنع ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: الأعمالَ الصالحات، ولعلَّ المرادَ بها ما يشمل الترغيبَ في سلوك سبيل الله عزَّ

---

(١) القاموس المحيط (جرم).

(٢) البحر ٥/ ٢١٣، والدر المصون ٦/ ٣٠٥.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٩، وفيه: بني كلاب، بدل: بني عامر.

(٤) في الحاشية ٧/ ٣٧٤.

(٥) في (م): طريق.

(٦) في الأصل: حالهم وجاء في تفسير أبي السعود ٤/ ١٩٧ بدلاً منها: ما يؤول إليه أمرهم.

وجلَّ ونحوه مما على ضدِّه فريقُ الكفار ﴿وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: اطمأنُّوا إليه سبحانه، وخشعوا له، وأصلُ الإخبات نزولُ الخَبْت، وهو المُنخفِض من الأرض، ثم أُطلق على اطمئنانِ النفس والخشوع تشبيهاً للمعقول بالمحسوس، ثم صار حقيقةً فيه، ومنه الخبيت بالتاء المثناة للدنيء، وقيل: إن التاء بدل من الثاء المثلثة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنعوتون بتلك النعوتِ الجليلة الشأن ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ دائمون أبداً، وليس المرادُ حصرَ الخلودِ فيهم؛ لأن العُصاةَ من المؤمنين يدخلون الجنةَ عند أهل الحقّ ويخلُدون فيها، ولعلَّ مَنْ يدَّعي ذلك يُريد بنفي الخُلود عن العُصاة نَقْصَه من أوله، كما قيل به فيما ستسمعه إن شاء الله تعالى.

﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ المذكورَيْن من المؤمنين والكُفَّار، أي: حالهما العجيب، وأصلُ المَثَل كالمِثْل: النظيرُ؛ ثم استُعير لقولٍ شبِّه مَضْربُه بمَوْرِدِه، ولا يكون إلا لما فيه غرابة، وصار في ذلك حقيقةً عُرفية، ومن هنا يُستعار للقصة والحال والصفة العجيبة.

﴿كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ أي: كحال من جَمَع بين العمى والصَّمَم، ومَنْ جمع بين البصر والسَّمْع، فهناك تشبيهان: الأول: تشبيهُ حال الكَفَرة الموصوفين بالتعامي والتصامِّ عن آيات الله تعالى بحالِ من خُلق أعمى أصمَّ لا تنفعه عبارةٌ ولا إشارة. والثاني: تشبيهُ حال الذين آمنوا وعملوا الصالحات فانتفعوا بأسماعهم وأبصارهم اهتداء إلى الجنة وانكفاءً عما كانوا خابطين فيه من ضلال الكُفر والدُّجُنَّة بحالِ من هو بصيرٌ سميع يستضيء بالأنوار في الظلام ويستفيء بمغانم الإنذار والإبشار فوزاً بالمرام. والعطفُ لِتنزيل تغاير الصِّفات منزلةَ تغايُرِ الذوات كما في قوله:

يا لهفَ زيَّابةَ للحارث الصَّـ ... ـابحِ فالغانمِ فالآيبِ[1]

ويحتمل أن يكونَ هناك أربعُ تشبيهات بأنْ يعتبر تشبيه حال كلٍّ من الفَريقين الفريقِ الكافر والفريقِ المؤمن بحال اثنين، أي: مَثَلُ الفريق الكافر كالأعمى، ومَثَلُه

---

(١) البيت لابن زيَّابة التيمي، وهو في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/١٤٧، وأمالي ابن الشجري ٢/٥٠٨، والخزانة ٥/١٠٧، وزيَّابة اسم أم الشاعر، فيما قاله البغدادي.

أيضاً كالأصمِّ، ومَثَلُ الفريق المؤمن كالبصير ومَثَلُه أيضاً كالسميع. وقد يُعتبر تنويع كلٍّ من الفريقين إلى نوعين، فَيُشَبَّه نوعٌ من الكُفَّار بالأعمى ونوع منهم بالأصمِّ، ويُشَبَّه نوعٌ من المؤمنين بالبصير ونوعٌ منهم بالسميع. واستُبعد ذلك؛ إذْ تقسيمُ الكُفَّار إلى مُشَبَّه بالأول ومُشَبَّه بالثاني، وكذلك المؤمنون، غيرُ مقصود البتَّة، بدليل نظائره في الآيات الأُخر كقوله سبحانه: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٩ وغافر: ٥٨][(١)]، وكقوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] في الكُفَّار الخُلَّص، وقوله تبارك وتعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: ١٨] في المنافقين.

وللآية على احتمالاتها شَبَهٌ في الجُملة بقول امرئ القيس:

كأنَّ قلوبَ الطيرِ رَطْباً ويابساً   لدى وَكْرِها العُنَّابُ والحَشَفُ البالي[(٢)]

فتدبَّره.

وقد يُعتبر التشبيه تمثيلياً بأنْ يُنتَزَعَ من حال الفريق الأول في تصامِّهم وتعاميهم المذكورَيْن ووقوعهم بسبب ذلك في العذاب المُضاعف والخُسران الذي لا خُسرانَ فوقَه هيئةٌ [فَتُشَبَّه بهيئة][(٣)] مُنتزعة ممن فقد مَشْعَري[(٤)] البصر والسمع، فتخبَّط في مَسْلكه فوقع في مَهاوي الرَّدى، ولم يَجِدْ إلى مَقْصِده سبيلاً، ويُنتَزَعَ من حال الفريق الثاني في استعمال مشاعرهم في آيات الله تعالى حسبما ينبغي، وفوزِهم بدار الخلود هيئةٌ تُشَبَّه بهيئةٍ مُنتَزَعة ممن له بصرٌ وسمعٌ يستعملهما في مَهَمَّاته فيهتدي إلى سبيله ويَنَال مَرامَه. ولا يخفى أنه خِلافُ الظاهر، ولعلَّ أظهرَ الاحتمالات ما أُشير إليه أولاً، والكلامُ من باب اللفِّ والنَّشر، واللَّفُّ إما تقديريٌ إنْ اعتُبر في الفريقين، لأنه في قوة الكافرين والمؤمنين، أو تحقيقيٌ إنْ اعتُبر فيما دلَّ عليه قولُه تعالى: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ) إلخ، وقوله سبحانه: (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا) الآية، وأَمرُ النَّشر ظاهرٌ، ولا يخفى ما فيه من الطِّباق بين الأعمى والبصير وبين الأصمِّ والسميع، وقُدِّم

---

(١) في الأصل و(م): وما يستوي الأعمى والأصم، وهو خطأ.

(٢) ديوان امرئ القيس ص٣٨، والعُنَّاب: ثمر، والحشف: اليابس الفاسد من التمر. اللسان (عنب) و(حشف).

(٣) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٤/ ١٩٨.

(٤) المشعر: الحاسَّة. المعجم الوسيط (شعر).

ما للكافرين، قيل: مراعاةً لما تقدَّم، ولأن السِّياقَ لبيانِ حالهم، وقُدِّم الأعمى على الأصمِّ لكونه أظهرَ وأشهرَ في سوء الحال منه.

وفي «البحر»[1] إنما لم يجئ التركيبُ: كالأعمى والبصير، والأصمِّ والسميع؛ ليكون كلٌّ من المُتقابلين على إثر مُقابله؛ لأنه تعالى لما ذَكر انسدادَ العين أتبعه بانسدادِ السَّمع، ولما ذكَر انفتاحَ البصر أتبعه بانفتاح السَّمع، وذلك هو الأسلوبُ في المُقابلة، والأتمُّ في الإعجاز. وسيأتي إنْ شاء الله تعالى نظيرُ ذلك في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨-١١٩].

ثم الظاهرُ مما تقدَّم أن الكلامَ على حذفِ مضاف، وهو مجرورٌ بالكاف، والجار والمجرور متعلِّقٌ بمحذوف وقع خبراً عن «مَثَل».

وجُوِّز أن تكون الكافُ نَفْسُها خبرَ المبتدأ، ويكون معناها معنى المثل، ولا حاجةَ إلى تقدير مضاف أي: مَثَلُ الفريقين مثلُ الأعمى والأصم والبصير والسميع.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ يعني الفريقين المذكورين، والاستفهامُ إنكاريٌّ مذكِّر ـ على ما قيل ـ لما سبق من إنكار المُماثلة في قوله سبحانه: (أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ) إلخ.

﴿مَثَلًا﴾ أي: حالاً وصفةً، ونصبُه على التمييز المُحوَّل عن الفاعل، والأصلُ: هل يستوي مثلُهما. وجَوَّز ابنُ عطية[2] أن يكونَ حالاً، وفيه بُعْدٌ.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٢٤﴾ أي: أَتَشُكُّون في عدم الاستواء وما بينهما من التباين، أو تَغْفُلون عنه، فلا تتذكرونه بالتأمُّل فيما ذكرنا[3] لكم من المَثل، فالهمزة للاستفهام الإنكاري، وهو واردٌ على المعطوفين معاً:

أو أتسمعون هذا فلا تتذكَّرون، فيكون الإنكار وارداً على عَدَم التذكُّر بعد تحقُّق ما يُوجب وجودَه، وهو المَثَلُ المضروب، أي: أفلا تفعلون التذكّر، أو

---

(١) ٥/ ٢١٣.

(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ١٦٢.

(٣) في (م): فيما ذكر.

أفلا تعقِلون، ومعنى إنكار عدم التذكّر استبعادُه من المُخاطَبين، وأنه مما لا يَصِحُّ أن يَقَعَ، وليس من قَبيل الإنكار في «أفمن كان على بينة من ربه» و«هل يستويان» فإن ذلك لنفي المُماثلة ونفي الاستواء.

ثم إنه تعالى شَرَعَ في ذِكْر قصص الأنبياء الداعِين إلى الله تعالى وبيانِ حالهم مع أُممهم لِيزدادَ ﷺ تشميراً في الدعوة وتحمُّلاً لما يُقاسيه من المُعانِدين، فقال عزَّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ الواو ابتدائيةٌ، واللام واقعةٌ في جواب قسم محذوف، ويُقدَّر حرفه باءً لا واواً وإن كان هو الشائع؛ لئلا يجتمع واوان، وبعضُهم يُقدِّرها ولا يُبالي بذلك.

ونوح في المشهور ابنُ لمك بن متوشلخ بن إدريس عليه السلام، وأنه أولُ نبيٍّ بُعث بعده، قال ابن عباس رضي الله عنهما: بُعِثَ عليه السلام على رأس أربعين من عُمره، ولَبِثَ يدعو قومَه ما قصَّ اللهُ تعالى؛ ألفَ سنةٍ إلا خمسين عاماً؛ وعاش بعد الطُّوفان ستين سنة، وكان عُمره ألفاً وخمسين سنة.

وقال مقاتل: بُعث وهو ابنُ مئة سنة. وقيل: ابنُ خمسين.

وقيل: ابن مئتين وخمسين، ومكثَ يدعو قومَه ما قصَّ الله سبحانه، وعاش بعدَ الطُّوفان مئتين وخمسين سنة، فكان عُمره ألفاً وأربع مئة وخمسين سنة.

﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ بالكسر على إرادة القول، أي: فقال، أو قائلاً. وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو والكسائي بالفتح[1] على إضمار حرف الجرّ، أي: مُلتبساً بذلك الكلام، وهو «إني لكم نذير» فلما اتَّصل الجارُّ فتح كما فتح في كأنَّ والمعنى على الكسر، وهو قولُك: إنَّ زيداً كالأسد، بناءً على أنَّ كأنَّ مركبة، وليست حرفاً برأسه، وليس في ذلك خروجٌ من الغَيبة إلى الخِطاب، خلافاً لأبي عليّ[2].

ولعلّ الاقتصارَ على ذِكْر كونه عليه السلام نذيراً؛ لأنهم لم يغتنموا مغانمَ إبشاره عليه السلام.

﴿مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾ أي: مُوضح لكم مُوجباتِ العذاب ووجهَ الخلاص منه.

---

(١) التيسير ص١٢٤، والنشر ٢/٢٨٨.

(٢) في الحجة ٤/٣١٦، حيث ذكر أن في قراءة الفتح خروجاً من الغيبة إلى الخطاب.

﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ أي: بأنْ لا تعبدوا إلا اللهَ، على أنَّ «أنْ» مصدرية والباء متعلقة بـ «أرسلنا» و«لا» ناهية، أي: أرسلناه ملتبساً بنهيهم عن الإشراك، إلا أنه وَسَّط بينهما بيانَ بعض أوصافه لِيكونَ أدخلَ في القَبول، ولم يفعل ذلك في صدرِ السورة، لئلا يكونَ من قَبيل الفصل بين الشجر ولحائه.

وجُوِّز كون «أن» وما بعدها في تأويل مصدر مفعولاً لـ «مبين»، أي: مُبيناً النهي عن الإشراك. ويجوز أن تكون «أن» مُفسِّرة متعلِّقة بـ «أرسلنا»، أو بـ «نذير» أو بـ «مبين»، أي: أرسلناه بشيء، أو نذير بشيء، أو مُبين شيئاً، هو «أن لا تعبدوا إلا الله»، لكن قيل: الإنذار في هذا غيرُ ظاهر، وهذا على قراءة الكسر فيما مرّ.

وأما على قراءة الفتح ف «أنْ لا» إلخ بدل من «أني لكم» إلخ، ويُقدَّر القولُ بعدَ «أنْ» فيكون التقديرُ: أرسلناه بقوله: إني لكم نذيرٌ بقوله[1]: لا تعبدوا، فهو بدلُ البعض أو الكل على المبالغة وادِّعاءِ أنَّ الإنذارَ كأنه[2] هو. وجاز أنْ لا يُقدَّر القول، فالأظهر حينئذ بدلُ الاشتمال، ومَن زعم أنه كذلك مطلقاً إذْ لا علاقةَ بينهما بجزئيةٍ أو كلِّيةٍ فقد غَفَلَ عن أنه على تقدير القول يكون قولُه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ٢٦﴾ المُعلَّلُ به النهيُ من جملة المَقول، وهو إنذارٌ خاصٌّ، فيكون ذلك بعضاً له، أو كلاًّ على الادِّعاء.

والظاهرُ أن المرادَ باليوم يوم القيامة، وجوّز أن يكونَ يومَ الطُّوفان، ووَصْفُه بالأليم ـ أي: المُؤلم ـ على الإسناد المَجازي؛ لأنَّ المُؤلِمَ هو اللهُ سبحانه، نزل الظَّرف منزلةَ الفاعل نفسهِ لِكَثْرةِ وُقوع الفعل فيه، فجعل كأنه وقع الفعلُ منه، وكذا وَصْفُ العذابِ بذلك في غير موضع من القرآن العظيم، ويُمكن اعتباره هنا أيضاً، وجَعْلُ الجرِّ للجوار، ووجه التجوّز حينئذ أنه جعل وصف الشيء لِقوة تَلَبُّسه به كأنه عينُه، فأُسند إليه ما يُسند إلى الفاعل، ونظيرُ ذلك على الوجهين: نهارُه صائمٌ، وجَدَّ جدُّه. وقد يقال: إنَّ وصفَ العذابِ بالإيلام حقيقةٌ عُرفية، ومِثْلُه يُعَدُّ فاعلاً في اللغة، فيقال: آلمه العذابُ، من غير تجوُّز.

---

(١) في (م): وبقوله، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٥/ ٨٩، والكلام منه.

(٢) في الأصل و(م): كلّه، والمثبت من حاشية الشهاب.

قيل: وهذه المَقالة، وكذا ما في معناها مما قصَّ في غير آية، لَمَّا لم تَصْدُرْ عنه عليه السلام مرةً واحدةً، بل كان يُكرِّرها في مدته المتطاولة حسبما نَطَقَ به قولُه تعالى حكاية عنه: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ الآيات [نوح: ٥]، عَطَفَ على فعل الإرسال المُقارِنِ لها أو القولِ المُقدَّر بعدَه جوابَهم المُتعرِّض لأحوال المؤمنين الذين اتَّبعوه بعد اللُّتيا والتي بالفاء التعقيبية، فقال سبحانه: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ أي: الأشرافُ منهم، وهو ـ كما قال غير واحد ـ من قولهم: فلانٌ مليء بكذا، إذا كان قادراً عليه؛ لأنهم مُلئوا بكفاية الأمور وتدبيرها، أو لأنهم مُتمالئون، أي: مُتظاهرون مُتعاونون، أو لأنهم يملؤون القلوبَ جلالاً والعيونَ جمالاً والأَكُفَّ نَوالاً، أو لأنهم مملوءون بالآراء الصائبة والأحلامِ الراجحة، على أنه من الملء[1] لازماً، ومتعدياً ووَصْفُهم بالكُفر لِذَمِّهم والتسجيلِ عليهم بذلك مِن أول الأمر، لا لأنَّ بعضَ أشرافِهم ليسوا بِكَفَرة.

﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ أرادوا: ما أنت إلا بشرٌ مثلنا، ليس فيكَ مَزِيَّةٌ تَخُصُّك من بيننا بالنبوة، ولو كان ذلك لرأيناه، لا أنَّ ذلك مُحتملٌ لكن لا نراه، وكذا الحال في ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ فالفعلان من رؤية العين و«بشراً» و«اتَّبعك» حالان من المفعول بتقدير «قد» في الثاني أو بدونه على الخِلاف، ويجوز أن يكونا من رؤية القلب، وهو الظاهرُ، فهما حينئذ المفعول الثاني، وتعلق الرأي في الأول بالمثلية لا البشرية فقط.

ويُفهم من «الكشاف»[2] أن في الآية وجهين:

الأول: أنهم أرادوا التعريضَ بأنهم أحقُّ بالنبوة، كأنهم قالوا: هَبْ أنك مِثْلنا في الفضيلة والمَزِيَّة من كَثْرة المال والجاه، فَلِمَ اختصصْتَ بالنبوة مِن دوننا.

والثاني: أنهم أرادوا أنه ينبغي أن يكونَ مَلَكاً لا بشراً. وتُعُقِّبَ هذا بأنَّ فيه اعتزالاً خفيّاً، وقد بيَّنه العلامة الطِّيبي، ونُوزع في ذلك، ففي «الكشف» أن قولهم: «مثلنا» عليه لِتحقيق البشرية، وقولهم: «وما نراك اتَّبعك» إلخ استدلالٌ بأنهم ضُعفاء

---

(١) في الأصل و(م): الملأ، والمثبت من حاشية الشهاب ٥/ ٩٠.

(٢) ٢/ ٢٦٥.

العقول لا تمييزَ لهم، فجوَّزوا أن يكون الرسولُ بشراً، وقولهم الآتي: «وما نرى لكم علينا من فضل» تسجيلٌ بأنَّ دعوى النبوة باطلةٌ؛ لإدخالِهِ عليه السلام والأراذل في سلك، على أسلوب يدلُّ أنهم أنقصُ البشر فضلاً عن الارتقاء، وليس في هذا الكلام اعتزالٌ خفيّ، ولا المُقام عنه أبيّ. انتهى.

وفي «الانتصاف»: يجوز أن يكونوا قد أرادوا الوجهين جميعاً، كأنهم قالوا: مِنْ حقِّ الرسول أنْ يكونَ مَلَكاً لا بشراً وأنت بشر، وإنْ جاز أن يكون الرسولُ بشراً فنحن أحقُّ منك بالرسالة، ويشهدُ لإرادتهم الأُولى قولُه في الجواب: «ولا أقول إني ملك» ويشهدُ لإرادتهم الثانية «وما نرى لكم» إلخ، والظاهرُ أن مقصودَهم ليس إلا إثبات أنه عليه السلام مثلُهم وليس فيه مَزِيَّةٌ يترتَّب عليها النبوة ووجوبُ الإطاعة والاتّباع، ولعل قولَهم: «وما نراك اتبعك» إلخ جوابٌ عما يَرِدُ عليهم من أنه عليه السلام ليس مِثْلَهم حيث اتَّبعه من وُفِّق لاتِّباعه، فكأنهم قالوا: إنه لم يُميِّزك اتِّباعُ من اتَّبعك فيُوجب علينا اتِّباعك؛ لأنه لم يتَّبعك إلا الذين هم أراذلنا، أي: أَخِسَّاؤنا وأدانينا، وهو جمع أَرْذل، الأغلبُ الأقيس في مثله إذا أُريد جمعه أن يُجمع جمعَ سلامة، كالأخسرون جمع أَخْسر، لكنه كُسِّر هنا لأنه صار بالغَلبة جارياً مَجرى الاسم، ولذا جعل في «القاموس» الرَّذْل والأَرْذل بمعنى[1]، وهو الخَسيس الدنيء، ومعنى جَريانه مجرى الاسم أنه لا يكاد يُذكر الموصوف معه، كالأبطح والأبرق.

وجُوِّز أن يكون جمع أَرْذُل جمع رَذْل، فهو جمعُ الجمع، ونظيرُ ذلك أكالب وأَكْلُب وكَلْب، وكونه جمعَ رَذْل مُخالِفٌ للقياس.

وإنما لم يقولوا: إلا أراذِلُنا، مبالغةً في استرذالهم، وكأنهم إنما استرذلوهم لِفقرهم؛ لأنهم لما لم يعلموا إلا ظاهراً من الحياة الدنيا كان الأشرفُ عندهم الأكثرَ منها حظّاً والأرذلُ مَنْ حُرِمها، ولم يفقهوا أنَّ الدنيا بحذافيرها لا تَعدِلُ عند الله تعالى جناحَ بعوضة، وأن النعيمَ إنما هو نعيمُ الآخرة، والأشرف مَنْ فازَ به والأرذل مَنْ حُرِمه، ومثلُ هؤلاء في الجهل كثيرٌ من أهل هذا الزمان عافانا الله سبحانه مما هم فيه من الخِذْلان والحِرْمان.

---

(١) القاموس (رذل).

وكان القوم ـ على ما في بعض الأخبار ـ حاكةً وأساكفةً وحجَّامين.

وأرادوا بقولهم: «بادي الرأي» ظاهرَه، وهو ما يكون من غير تعمُّق، والرأيُ من رؤية الفِكر والتأمل، وقيل: من رؤية العين، وليس بذاك.

وجوَّز أن يكون البادي بمعنى الأول.

وهو على الأول من البُدُوّ، وعلى الثاني من البَدْء، والياء مُبدلة من الهمزة لانكسارِ ما قبلَها، وقد قرأ أبو عمرو وعيسى الثقفي بها[(١)].

وانتصابه على القراءتين على الظرفية لـ «اتَّبعك»، على معنى: اتَّبعوك في ظاهرِ رأيهم أو أوَّله، ولم يتأمَّلوا، ولم يتثبَّتوا، ولو فعلوا ذلك لم يتَّبعوك، وغرضُهم من هذا المبالغةُ في عدم اعتبار ذلك الاتِّباع، وجَعَلَ ذلك بعضُهم علَّةَ الاسترذال، وليس بشيء. وقيل: المعنى: إنهم اتَّبعوك في أول رأيهم أو ظاهره، وليسوا معك في الباطن.

واستُشكل هذا التعلُّق بأنَّ ما قبل «إلا» لا يعمل فيما بعدها إلا إذا كان مستثنًى منه، نحو: ما قام إلا زيداً القومُ، أو مستثنى نحو: جاء القومُ إلا زيداً، أو تابعاً للمستثنى منه نحو: ما جاءني أحدٌ إلا زيداً خيرٌ من عمرو، و«بادي الرأي» ليس واحداً من هذه الثلاثة في بادي الرأي. وأُجيب بأنه يُغتفر ذلك في الظرف؛ لأنه يتَّسع فيه ما لا يتَّسع في غيره.

واستُشكل أمرُ الظرفية بأنَّ فاعلاً ليس بظرف في الأصل. وقال مكي[(٢)]: إنما جاز في فاعل أن يكون ظرفاً كما جاز في فَعيل كقَريب ومليء، لإضافته إلى الرأي، وهو كثيراً ما يُضاف إليه[(٣)] المصدر الذي يجوز نصبُه على الظرفية، نحو: جهدَ رأيي أنك مُنطلق.

وقال الزمخشري[(٤)] ـ وتابعه غيره ـ: إن الأصلَ: وقتَ حدوث أول أمرهم، أو

(١) قراءة أبي عمرو في التيسير ص١٢٤، والنشر ١/ ٤٠٧، وقراءة عيسى الثقفي في البحر ٥/ ٢١٥.
(٢) في مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٥٩.
(٣) في (م): إلى.
(٤) في الكشاف ٢/ ٢٦٥.

وقتَ حُدوث ظاهرِ رأيهم، فحذف ذلك، وأُقيم المُضاف إليه مُقامه. ولعلَّ تقديرَ الوقت ليكونَ نائباً عن الظرف، فينتصبَ على الظرفية، واعتبار الحدوث بناءً على أنَّ اسمَ الفاعل لا ينوبُ عن الظرف وينتصب، والمصدر ينوبُ عنه كثيراً، فأشاروا بذكره إلى أنه متضمنٌ معنى الحدوث بمعنيَيْه، فلذا جاز فيه ذلك، وليس مرادُهم أنه محذوفٌ إذْ لا داعيَ لذلك في المعنى على التفسيرين، وما ذكروه هنا من أن الصِّفاتِ لا ينوبُ منها عن الظرف إلى فعيل من الفوائدِ الغريبة كما قال الشهاب، لكن استدركه بالمنع؛ لأن فاعلاً وقع ظرفاً كثيراً كفَعيل، وذلك مثل: خارجَ الدار، وباطنَ الأمر، وظاهره، وغير ذلك مما هو كثيرٌ في كلامهم(١).

وقيل: هو ظرفٌ لـ «نراك»، أي: ما نراكَ في أول رأينا، أو فيما يظهر منه.

وقيل: لـ «أراذِلُنا»، أي: أنهم أراذلُ في أول النظر، أو ظاهره؛ لأنَّ رذالتَهم مكشوفةٌ لا تحتاجُ إلى تأمُّل.

وقيل: هو نعتٌ لـ «بشراً».

وقيل: منصوبٌ على أنه حال من ضمير نوح في «اتَّبعك»، أي: وأنت مكشوف الرأي لا حَصافةَ فيك.

وقيل: انتصب على النداء لنوح عليه السلام، أي: يا باديَ الرأي، أي: ما في نفسك من الرأي ظاهرٌ لكلِّ أحد.

وقيل: هو مصدرٌ على فاعل منصوب على المفعولية المطلقة، والعامل فيه ما تقدَّم على تقدير الظرفية.

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ﴾ خطابٌ له عليه السلام ولمتَّبعيه جميعاً على سبيل التغليب، أي: وما نرى لك ولمتَّبعيكَ ﴿عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي: زيادة تُؤَهِّلكم لاتِّباعنا لكم، وعن ابن عباس تفسير ذلك بالزيادة في الخَلْق والخُلُق، وعن بعضهم تفسيره بِكَثْرة المُلك والمِلك، ولعلَّ ما ذكرناه أولى. وكأنَّ مُرادَهم نَفْيُ رؤيةِ فَضْلٍ بعد الاتِّباع، أي: ما نرى فيك وفيهم بعد الاتِّباع فضيلةً علينا لِنتَّبع،

---

(١) حاشية الشهاب ٥/ ٩١.

وإلا فَهُمْ قد نَفَوْا أولاً أفضليته عليه السلام في قولهم: «ما نراك» إلخ وصرَّحوا بأنَّ متَّبعيه ـ وحاشاهم ـ أراذلُ، وهو مُستلزِمٌ لنفي رؤيةِ فَضْلٍ لهم عليهم. وقيل: إنَّ هذا تأكيدٌ لما فُهم أولاً.

وقيل: الخطابُ لأتْباعه عليه السلام فقط، فيكون التفاتاً، أي: ما نرى لكم علينا شرفٌ في تلك التَّبعية لِنوافِقَكم فيها.

وحَمْلُ الفَضْل على التفضُّل والإحسان في احتمالي الخِطاب، على أن يكونَ مرادُ الملأ من جوابهم له عليه السلام حين دعاهم إلى ما دعاهم إليه: أنَّا لا نَتَّبعكَ ولا نتركُ ما نحن عليه لقولك، لأنكَ بَشَرٌ مثلُنا ليس فيك ما يستدعي نُبوَّتَكَ وكونَكَ رسولَ الله تعالى إلينا بذلك، وأَتْباعَكَ أراذلُ، اتَّبعوك من غير تأمُّل وتَثَبُّت، فلا يدلُّ اتِّباعُهم على أنَّ فيكَ ما يَستدعي ذلك وخَفِيَ علينا، وأيضاً لستَ ذا تفضُّل علينا لِيكونَ تَفضُّلك داعياً لنا لموافقتكَ كيفما كنتَ، ولا أَتْباعُك ذوو تفضُّلٍ علينا لِنوافِقَهم ـ وإن كانوا أراذلَ ـ مُراعاةً لحقِّ التفضُّل، فإن الإنسانَ قد يُوافق الرَّذيلَ لتفضُّله، ولا يُبالي بكونه رذيلاً لذلك = مما يدور في الخلد[1]، إلا أنَّ في القلبِ منه شيئاً.

﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ۝٢٧﴾ جميعاً؛ لكون كلامِكم واحداً ودعوتِكم واحدةً، أو إيَّاك في دعوى النبوة وإيَّاهم في تصديقك، قيل: واقتصروا على الظنِّ احترازاً منهم عن نِسبتهم إلى المُجازفة، كما أنهم عبَّروا بما عبَّروا أولاً لذلك، مع التعريض من أول الأمر برأي المُتَّبعين، ومُجاراةً معه عليه السلام بطريق الإراءة[2] على نهج الإنصاف.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ بياني ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني، وفيه إيماءٌ إلى رَكاكةِ رأيهم المذكور ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ حُجَّةٍ ظاهرة ﴿مِّن رَّبِّي﴾ وشاهدٍ يشهدُ لي بصحة دعواي.

﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ هي النبوة على ما رُوي عن ابن عباس ﷺ، وجُوِّز أن

---

(١) قوله: مما يدور في الخلد... يعود على قوله: وحمل الفضل على التفضل...

(٢) في (م): الآراء.

تكونَ هي البينةَ نفسَها جِيء بها إيذاناً بأنها مع كونها بينةً من الله تعالى رحمةٌ ونعمةٌ عظيمة منه سبحانه، ووجهُ إفرادِ الضمير في قوله تعالى: ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ - أي: أُخفيت - على هذا ظاهرٌ، وإن أُريد بها النبوة، وبالبينةِ البرهان الدالّ على صحتها، فالإفراد لإرادةِ كلٍّ واحدة منهما، أو لكون الضميرِ للبيِّنة، والاكتفاءُ بذلك لاستلزام خَفاءِ البينة خَفاءَ المُدَّعى، وجملة «وآتاني رحمة» على هذا معترضةٌ. أو لكونه للرحمة، وفي الكلام مُقدَّر، أي: أُخفيت الرحمةُ بعد إخفاء البيِّنة وما يدلُّ عليها، وحُذِف للاختصار، وقيل: إنه معتبر في المعنى دون تقدير، أو لتقدير عُميت غير المذكور بعد لفظ البينة، وحُذف اختصاراً، وفيه تقديرُ جملةٍ قبلَ الدليل.

وقرأ أكثر السبعة: «فَعَمِيَتْ» بفتح العين وتخفيف الميم مَبنياً للفاعل[(١)]، وهو من العمى ضدّ البصر، والمرادُ به هنا الخَفاء مجازاً، يقال: حُجَّةٌ عمياء، كما يقال: مُبصِرة، للواضحة، وفي الكلام استعارة تبعية من حيث إنه شبَّه خفاءَ الدليل بالعَمى في أن كلّاً منهما يمنع الوصولَ إلى المقاصد، ثم فعل ما لا يخفى عليك. وجُوِّز أن يكون هناك استعارةٌ تمثيلية بأنْ شبَّه الذي لا يهتدي بالحُجَّة لخفائها عليه بمن سَلكَ مَفازةً لا يعرف طُرقَها واتَّبع دليلاً أعمى فيها.

وقيل: الكلامُ على القلب، والأصلُ: فَعَمِيْتُم عنها، كما تقول العرب: أدخلتُ القَلَنْسُوةَ في رأسي، ومنه قولُ الشاعر:

تـرى الـثـورَ فـيـهـا مُـدْخِـلَ[(٢)] الـظِّـلِّ رأسَـه

وقولُه سبحانه: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُۥٓ﴾ [إبراهيم: ٤٧].

وتعقَّبه أبو حيان[(٣)] بأنَّ القلب عند أصحابنا مطلقاً لا يجوز إلا في الضرورة، وقول الشاعر ليس منه، بل من باب الاتِّساع في الظرف، وكذا الآية ليست منه أيضاً؛ لأن أَخْلَفَ يتعدَّى إلى مفعولين، والوصفُ منه كذلك، ولك أن تُضيفه إلى

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص بضم العين وتشديد الميم، وقرأ الباقون بفتح العين وتخفيف الميم. التيسير ص١٢٤، والنشر ٢/ ٢٨٨.

(٢) في الأصل و(م): يدخل، والمثبت من المصادر. والبيت في الكتاب ١/ ١٨١، والبحر ٥/ ٢١٦، والخزانة ٤/ ٢٣٥. وهو من الخمسين التي لم يعرف قائلها.

(٣) في البحر المحيط ٥/ ٢١٦.

أيهما شئتَ، على أنه لو كان ما ذكر من القلب لكان التعدِّي بعن دون على، ألا ترى أنك تقول: عَمِيتُ عن كذا، ولا تقول: عَمِيتُ على كذا.

وروى الأعمش عن [ابن] وثّاب: «وَعَمِيَتْ» بالواو خفيفة[1]. وقرأ أُبيّ والسُّلمي والحسن وغيرهم: «فَعمَّاها عليكم» على أن الفعل لله تعالى، وقرئ بالتصريح به[2].

وظاهر ذلك مع أهل السُّنة القائلين بأن الحَسَن والقَبيح منه تعالى، ولذا أوَّله الزمخشري[3] حفظاً لعقيدته.

﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أي: أَنُكْرِهُكم على الاهتداء بها، وهو جوابُ «أرأيتم» وسادٌّ مَسَدَّ جوابِ الشرط.

وفي «البحر»[4] أنه في موضع المفعول الثاني له، ومفعوله الأول البينة مقدراً، وجوابُ الشرط محذوفٌ دلَّ عليه «أرأيتم»، أي: «إنْ كنتُ» إلخ فأخبروني، وحيث اجتمع ضميران منصوبان وقد قُدِّمَ أعرفُهما ـ وهو ضميرُ المُخاطَب الأعرف من ضمير الغائب ـ جاز في الثاني الوصلُ والفصلُ، فيجوز في غير القرآن: أَنُلْزِمُكم إيَّاها، وهو الذي ذهب إليه ابنُ مالك في «التسهيل»[5] ووافقه عليه بعضُهم. وقال ابنُ أبي الربيع: يجب الوصلُ في مثل ذلك، ويشهدُ له قولُ سيبويه في «الكتاب»[6]: فإذا كان المفعولان اللذان تعدَّى إليهما فعلُ الفاعل مُخاطباً وغائِباً، فبدأت بالمخاطب قبلَ الغائب، فإنَّ علامةَ الغائب العلامةُ التي لا يقعُ موقعها إيَّاه، وذلك نحو أعطيتُكَهُ، وقد أعطاكَهُ، قال الله تعالى: (أَنُلْزِمُكُمُوهَا) فهذا كهذا إذْ بدأت بالمخاطب قبل الغائب. انتهى، ولو قُدِّم الغائب وجب الانفصال على الصحيح فيقال: أَنُلْزمها إيَّاكم.

---

(١) في (م): الخفيفة. والمثبت من الأصل والبحر ٥/ ٢١٦، والكلام وما بين حاصرتين منه.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٢١٦، والدر المصون ٦/ ٣١٣.
(٣) في الكشاف ٢/ ٢٦٦.
(٤) ٥/ ٢١٦.
(٥) ص٢٧.
(٦) ٢/ ٣٦٤.

وأجاز بعضهم الاتصال واستشهد بقول عثمان رضي الله عنه: أَراهُمُني[١]، ولم يقل: أَراهم إيَّاي، وتمامُ الكلام على ذلك في محلِّه.

وجيء بالواو تتمةً لميم الجمع، وحُكي عن أبي عمرو إسكانُ الميم الأُولى تخفيفاً[٢] ويجوز مثلُ ذلك عند الفراء[٣]، وقال الزجاج: أجمع النحويون البصريون على أنه لا يجوز إسكانُ حركةِ الإعراب إلا في ضرورةِ الشعر[٤]. كقوله:

فاليومَ أَشْربْ غيرَ مُسْتَحْقِبٍ　　إثماً من اللهِ ولا واغلِ[٥]

وقوله:

وناعٍ يُخبِّرنا بمهلِكِ سيِّد　　تَقَطَّعُ من وَجْد عليه الأنامِلُ[٦]

وأما ما رُوي عن أبي عمرو من الإسكان فلم يَضْبطه عنه الراوي، وقد روى عنه سيبويه أنه كان يُخفِّفُ الحركة ويختلسها، وهذا هو الحقّ، وذكر نحو ذلك الزمخشري[٧]، وقال: إنَّ الإسكانَ الصريح لحنٌ عند الخليل وسيبويه وحُذَّاق البصريين.

وفي قراءة أبيّ: «أَنُلزِمُكموها من شَطْر أنفسنا»، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ: «من شَطْر قُلوبنا»[٨] أي: من تِلقائها وجِهتها، وفي «البحر»[٩] أن ذلك على جهة التفسير، لا على أنه قرآنٌ؛ لمخالفته سوادَ المصحف.

---

(١) ذكره ابن الأثير في النهاية، وتمامه: أراهمني الباطلُ شيطاناً.

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف ٢/٢٦٦، وهو غير المشهور عن أبي عمرو.

(٣) في معاني القرآن ٢/١٢.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/٤٨، والكلام فيه بنحوه.

(٥) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٢٢، والبحر ٥/٢١٧، ورواية الديوان: فاليومَ أُسقى. قال شارحه: قوله: غير مستحقب إثماً من الله، أي: غير مكتسبه ولا محتمله، وأصله من حمل الشيء في الحقيبة، فضربه مثلاً. والواغل: الداخل على القوم يشربون ولم يُدْعَ.

(٦) لم نهتد إلى قائله، وهو في معاني القرآن للفراء ٢/١٢.

(٧) في الكشاف ٢/٢٦٦.

(٨) ذكر القراءتين ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/١٦٥.

(٩) ٥/٢١٧.

﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ۝٢٨﴾ أي: لا تختارونها ولا تتأمّلون فيها، والجملة في موضع الحال؛ قال السمين[١]: إما من الفاعل، أو من أحد المفعولين. واختير أنها في موضع الحال من ضمير المُخاطبين، وقُدِّم الجارُّ رعايةً للفواصل.

ومحصولُ الجواب: أخبروني إنْ كنتُ على حُجَّة ظاهرةِ الدلالة على صحة دعوايَ، إلا أنها خافيةٌ عليكم غيرُ مُسَلَّمة لديكم، أَيُمكننا أن نُكْرِهَكُم على قَبولها وأنتم مُعرضون عنها غير متدبِّرين فيها، أي: لا يكون ذلك. كذا قرَّره شيخ الإسلام[٢]، ثم قال: وظاهرُه مُشعِرٌ بصدوره عنه عليه السلام بطريق إظهارِ اليأس عن إلزامهم والقعود عن مُحاجَّتهم، كقوله: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ﴾ إلخ [هود: ٣٤]، لكنه محمولٌ على أن مُرادَه عليه السلام ردُّهم عن الإعراض عنها، وحَثُّهم على التدبُّر فيها بصرف الإنكار المُستفاد من الهمزة إلى الإلزام حالَ كراهتهم لا إلى الإلزام مطلقاً.

وقال مولانا سعدي جلبي: إنَّ المرادَ من الإلزام هنا الجَبْر بالقتل ونحوه، لا الإيجاب لأنه واقعٌ، فَلْيُفهم.

وجوَّز أن يُراد بالبينةِ دليلُ العقل الذي هو ملاكُ الفضل، وبحَسبِهِ يمتازُ أفرادُ البشر بعضها عن بعض، وبه تُناط الكرامةُ عند الله عز وجل والاجتباء للرسالة، وبالكونِ عليها التمسُّكُ به والثَّباتُ عليه، وبخفائها على الكَفَرة ـ على أن يكونَ الضميرُ للبيِّنة ـ عدمُ إدراكهم لكونه[٣] عليه السلام عليها، وبالرحمةِ النبوةُ التي أَنْكَروا اختصاصَه عليه السلام بها بين ظَهْرانَيْهم. ويكون المعنى: إنكم زعمتُم أنَّ عهدَ النبوة لا يَنالُه إلا مَنْ له فضيلةٌ على سائر الناس مُستتبعةٌ لاختصاصِهِ به دونهم، أخبروني إنْ امتزتُ عليكم بزيادة مَزِيَّةٍ وحِيازة فضيلةٍ من ربي، وآتاني بحسبها نبوةً من عنده، فَخَفِيَتْ عليكم تلك البيِّنةُ، ولم تُصيبوها، ولم تنالوها، ولم تعلموا حِيازتي لها، وكوني عليها إلى الآن، حتى زعمتم أني مِثْلُكم، وهي مُتحقِّقةٌ في نفسها؛ أَنُلْزِمُكم قَبولَ نبوَّتي التابعةِ لها والحال أنكم كارهون لذلك؟!

(١) في الدر المصون ٦/ ٣١٧.
(٢) في تفسيره ٤/ ٢٠١.
(٣) في (م): لكونهم.

ثم قيل: فيكون الاستفهام للحمل على الإقرار، وهو الأنسبُ بمقام المُحاجَّة، وحينئذ يكون كلامُه عليه السلام جواباً عن شُبهتهم التي أدرجوها في خلال مقالهم من كونه عليه السلام بشراً قُصارى أمرِه أن يكون مِثْلَهم، من غيرِ فَضْلٍ له عليهم، وقطعاً لِشأفة آرائهم الركيكة. انتهى.

وفيه أن كون معنى «أنلزمكموها»: أَنُلْزِمُكم قَبولَ نبوَّتي التابعة لها، غيرُ ظاهر، على أن في أمر التبعية نظراً كما لا يخفى. ولعلَّ الإتيانَ بما أتى به من الشرط من باب المُجاراة.

وإسنادُ الإلزام لضمير الجماعة إما للتعظيم، أو لاعتبارِ مُتَّبعيه عليه السلام معه في ذلك.

﴿وَيَٰقَوْمِ﴾ ناداهم بذلك تَلَطُّفاً بهم واستدراجاً لهم ﴿لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: التبليغ المفهوم مما تقدَّم، وقيل: الضمير للإنذار، وإفرادِ الله سبحانه بالعبادة، وقيل: للدُّعاء إلى التوحيد، وقيل غيرُ ذلك، وكلُّها أقوالٌ متقاربةٌ، أي: لا أطلبُ منكم على ذلك ﴿مَالًا﴾ تؤدُّونه إليَّ بعد إيمانكم، وأجراً[1] لي في مقابلة اهتدائكم ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ فهو سبحانه يُثيبني على ذلك في الآخرة ولا بدَّ حسب وعدِه الذي لا يُخلَف. فالمرادُ بالأجر الأجرُ على التبليغ، وجوَّز أن يُرادَ الأجر على الطاعة مطلقاً، ويدخل فيه ذلك دخولاً أوليّاً.

وفي التعبير بالمال أولاً وبالأجر ثانياً ما لا يخفى من مَزِيَّة ما عند الله تعالى على ما عندهم.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ قيل: هو جوابٌ عما لَوَّحوا به بقولهم: «وما نراك اتَّبعك إلا الذين هم أراذِلُنا» من أنه لو اتَّبعه الأشراف لوافقوهم، وأنَّ اتِّباعَ الفقراء مانعٌ لهم عن ذلك كما صرَّحوا به في قولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١] فكان ذلك التماساً منهم لِطَرْدهم، وتعليقاً لإيمانهم به عليه السلام بذلك أَنَفةً من الانتظام معهم في سلكٍ واحد. انتهى.

والمَروي عن ابن جُريج أنهم قالوا له: يا نوح، إنْ أحببتَ أن نتَّبعكَ فاطْرُدْ

---

(١) في الأصل: أجراً، دون واو.

هؤلاء، وإلا فلن نرضى أن نكونَ نحن وهم في الأمر سواء؛ وذلك كما قال قريش للنبي ﷺ في فقراء الصحابة ﭫ: اطرُدْ هؤلاءِ عنك ونحن نتَّبعك، فإنا نستحي أن نجلسَ معهم في مَجْلسك. فهو جوابٌ عما لم يُذكر في النظم الكريم، لكن فيه نوعُ إشارةٍ إليه.

وقُرئ: «بطاردٍ» بالتنوين[1]؛ قال الزمخشري: على الأصل[2]. يعني أنَّ اسمَ الفاعل إذا كان بمعنى الحال أو الاستقبال، فأصلُه أن يعملَ ولا يُضاف، وهو ظاهرُ كلام سيبويه.

واستدركَ عليه أبو حيان[3] بأنه قد يقال: إنَّ الأصلَ الإضافةُ، لأنه قد اعتَوره شَبَهان: أحدهما شَبَهُهُ بالمضارع، وهو شَبَهٌ بغير جنسه، والآخر شَبَهُهُ بالأسماء إذا كانت فيها الإضافة، وإلحاقُه بجنسه أولى من إلحاقهِ بغير جنسه. انتهى.

وربما يقال: إنَّ أولويةَ إلحاقه بالأسماء إنما يَتِمُّ القولُ بها إذا كانت الإضافةُ في الأسماء هي الأصلَ، وليس فليس.

﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ تعليلٌ للامتناع من طَرْدهم، كأنه قيل: لا أَطردهم ولا أُبْعِدُهم عن مجلسي؛ لأنهم من أهل الزُّلفى المُقرَّبون الفائزون عند الله تعالى؛ وانفهام الفوز بمعونة المقام، وإلا فملاقاةُ اللهِ تعالى تكون للفائزِ وغيره. أو: إنهم ملاقو ربِّهم، فَيُخاصِمون طارِدَهم عنده، فَيُعاقِبه على ما فعل.

وحملُه على أنهم مُصَدِّقون في الدنيا بلقاء ربهم، مُوقنون به، عالمون أنهم مُلاقوه لا محالةَ فكيف أطردهم؟! خلافُ الظاهر، على أن هذا التصديقَ من توابعِ الإيمان.

وقيل: المعنى: إنهم يُلاقونه تعالى فَيُجازيهم على ما في قلوبهم من إيمانٍ صحيح ثابت كما ظهر لي، أو على خلاف ذلك مما تعرفونهم به من بِناءِ أمرهم على بادئ الرأي من غير تعمُّقٍ في الفِكر، وما عليَّ أن أشقَّ عن قلوبهم وأتعرَّفَ سرَّ ذلك منهم حتى أطرُدَهم إن كان الأمرُ كما تَزعُمون.

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٠، ونسبها لأبي حيوة.

(٢) الكشاف ٢/٢٦٦.

(٣) في البحر المحيط ٥/٢١٨.

وفيه أنه مع كونه مبنياً على أن سؤالَ الطَّردِ لِعدم إخلاصِهم لا لاسترذالهم، وحالُه أظهرُ من أن يخفى، يأباه الجَزْمُ بترتُّب غضبِ الله تعالى على طَرْدِهم كما سيأتي إنْ شاء الله تعالى.

﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: بكل ما ينبغي أن يُعلَم، ويدخلُ فيه جهلُهم بمنزلتهم عند الله تعالى، وبما يترتَّب من المحذور على طَرْدِهم، وبركاكة رأيهم في التماسِ ذلك، وتوقيف إيمانهم عليه، وغير ذلك. وإيثارُ صيغةِ الفعل للدَّلالة على التجدُّد والاستمرار، وعبَّر بالرؤية موافقةً لتعبيرهم، وجوَّز أن يكون الجهلُ بمعنى الجناية على الغير وفعلِ ما يشقُّ عليه، لا بمعنى عَدَمِ العلم المذموم، وهو معنًى شائعٌ كما في قوله:

ألا لا يَـجْـهـلَـنْ أحدٌ عـلـيـنـا فنجهلَ فوقَ جَهْلِ الجاهلينا[1]

أي: ولكني أراكم قوماً تتسفَّهون على المؤمنين بنسبتهم إلى الخَساسة.

﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: مَن يَصُونُني منه تعالى ويدفعُ عني حلولَ سَخَطِهِ. والاستفهامُ للإنكار، أي: لا ينصرني أحدٌ من ذلك ﴿إِن طَرَدتُّهُمْ﴾ وأبعدتهم عني وهم بتلك المَثابةِ والزُّلفى منه تعالى، وفي الكلام ما لا يخفى من تهويلِ أَمْرِ طَرْدِهم.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي: أَتستمرون على ما أنتم عليه من الجهل، فلا تتذكَّرون ما ذكر من حالهم حتى تعرِفوا أنَّ ما تأتونه بمعْزِل عن الصواب، قيل: ولكون هذه العلَّة مستقلةً بوجهٍ مخصوصٍ ظاهرِ الدلالة على وجوبِ الامتناع عن الطَّرد أُفرِدَتْ عن التعليل السابق، وصُدِّرتْ بـ «يا قوم».

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ شُروعٌ ـ على ما قال غيرُ واحد ـ في دَفْع الشُّبَه التي أوردوها تفصيلاً، وذلك من قَبيل النشر المشوش ثقةً بعلم السامع، وتخلَّل ما تخلَّل بين شُبههم وجوابِها ـ على ما قال العلامة الطيبي ـ لأنه مُقدِّمة وتمهيدٌ للجواب، وبيَّنه بأن قوله: «يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من

---

(١) البيت لعمرو بن كلثوم، وهو من معلقته الشهيرة. ينظر شرح المعلقات ص١١٧ بشرح ابن كيسان، وشرح القصائد السبع لابن الأنباري ص٤٢٦.

عنده» إثباتٌ لنبوته، يعني: ما قلت لكم: «إني لكم نذير مبين أن لا تعبدوا إلا الله» إلا عن بيِّنة على إثبات نبوتي وصحةِ دعوتي، لكن خَفِيتْ عليكم وعَمِيتْ حتى أوردتم تلك الشُّبَه الواهية، ومع ذلك ليس نظري فيما ادَّعيت إلا إلى الهداية، وإني لا أطمعُ بمالٍ حتى أُلازمَ الأغنياءَ منكم وأطردَ الفقراء، وأنتم تجهلون هذا المعنى حيث تقولون: اطرُدِ الفقراءَ، وإن الله سبحانه ما بعثني إلا للترغيب في طلبِ الآخرة ورَفْضِ الدنيا، فمَن ينصرني إنْ كنتُ أخالفُ ما جئتُ به، ثم شرعَ فيما شرعَ.

وفي «الكشف»: إنَّ قولَه «أرأيتم» الآية جوابٌ إجمالي عن الشُّبه كلِّها مع التعبير بأنهم لا يرجعون فيما يرمون إلى أدنى تدبُّر. وقولَه: «ويا قوم لا أسألكم» تتميمٌ للتعبير وحثٌّ على ما ضمَّنه من التشويق إلى ما عنده، وقولَه: «ما أنا بطارد» تصريحٌ بجواب ما ضمَّنوه في قولهم: «وما نراكَ اتَّبعك إلا الذين هم أراذلنا» من خِسّة الشُّركاء، وأنه لولا مكانُهم لكان يُمكن الاتِّباع إظهاراً للتصلُّب فيما هو فيه، وأن ما يُورده ويُصدره عن برهانٍ من الله تعالى يُوافيه، وأنَّى يدعُ الحقَّ الأبلجَ بالباطل اللَّجْلج. ثم شرعَ في الجواب التفصيلي بقوله: «ولا أقول» إلخ. وهو أحسنُ مما ذكره الطيبي.

وجعلوا هذا ردّاً لقولهم: «وما نرى لكم» إلخ، كأنه يقول: عدمُ اتِّباعي وتكذيبي إنْ كان لِنَفْيكم عني فضلَ المال والجاه، فأنا لم أَدَّعِهِ، ولم أقل لكم: إن خزائنَ رزق الله تعالى وماله عندي، حتى إنكم تنازعوني في ذلك وتُنكرونه، وإنما كان مني دعوى الرسالة المُؤيَّدة بالمعُجِزات، ولعلَّ جوابَه عليه السلام عن ذلك من حيث إنه معنيّ به مُستتبعٌ للجواب عنه من حيث إنه عني به مُتَّبعوه عليه السلام أيضاً.

وجعلُه جواباً عن قولهم: «ما نراك إلا بشراً مثلنا» ـ كما جوَّزه الطبرسي[1] ـ ليس بشيء.

وحملُ الخزائن على ما أشرنا إليه هو المُعوَّل عليه. وقال الجبائي وأبو مسلم: إنَّ المرادَ بها مقدورات الله تعالى، أي: لا أقولُ لكم حين أَدَّعي النبوةَ: عندي

---

(١) في مجمع البيان ١٢/ ١٤٠-١٤١.

مقدورات الله تعالى، فأفعلُ ما أشاء. وأُعطي ما أشاء، وأمنعُ ما أشاء. وليس بشيء.

ومثله - بل أدهى وأمرُّ - قولُ ابن الأنباري: إنَّ المرادَ بها غيوبُ الله تعالى وما انطوى عن الخَلْق.

وجعل الخازن(١) هذه الجملة عطفاً على «لا أسألكم» إلخ، والمعنى عنده: لا أسألُكم عليه مالاً ولا أقول لكم عندي خزائن الله التي لا يُفنيها شيء فأدعوكم إلى اتِّباعي عليها لأعطيكم منها.

﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ عطفٌ على «عندي خزائن الله» المَقول للقول، وذكر معه النفي مع أن العطفَ على مَقولِ القول المنفي منفيٌّ أيضاً من غير أن يُذكر معه أداة نفي؛ لتأكيدِ النفي السابق؛ والتذكيرِ به، ودَفْعِ احتمال أن لا يقول هذا المجموع، فلا يُنافي أن يقول أحدَهما، أي: ولا أقول: أنا أعلمُ الغيب حتى تُكذِّبوني لاستبعاد ذلك، وما ذكرتُ من دعوى النبوة والإنذار بالعذاب إنما هو بوحي وإعلامٍ من الله تعالى، مُؤَيَّدٍ بالبينة. والغيبُ ما لم يُوحَ به، ولم يَقُمْ عليه دليلٌ، ولعله إنما لم ينفِ عليه السلام القولَ بعلم الغيب على نحو ما فعل في السابق واللاحق مبالغةً في نفي هذه الصفة التي ليس لأحدٍ سوى الله تعالى منها نصيبٌ أصلاً.

ويجوز عطفُه على «أقول»، أي: لا أقولُ لكم ذلك، ولا أدَّعي علمَ الغيب في قولي: إني نذيرٌ مبينٌ إني أخافُ عليكم عذابَ يوم أليم حتى تُسارعوا إلى الإنكار والاستبعاد.

وقيل: هو معطوفٌ على هذا أو ذاك، إلا أنَّ المعنى: لا أعلمُ الغيبَ حتى أعلمَ أن هؤلاء اتَّبعوني بادي الرأي من غير بصيرةٍ وعَقْدِ قلبٍ. ولا يخفى حاله.

واعتُرض على الأول بأنه غيرُ ملائم للمقام، ثم قيل: والظاهر أنه ﷺ حين ادَّعى النبوة سألوه عن المُغَيَّبات، وقالوا له: إن كنتَ صادقاً أخبرنا عنها، فقال: أنا أدَّعي النبوة بآية من ربي، ولا أعلمُ الغيبَ إلا بإعلامهِ سبحانه، ولا يلزمُ أن يُذكَرَ ذلك في النظم الكريم، كما أنَّ سؤالَ طَرْدِهم كذلك. انتهى.

---

(١) في تفسيره ٢/٢٢٨، وفيه قول ابن الأنباري السالف.

وفيه أنَّ زَعْمَ عدمِ المُلائمة ليس على ما ينبغي، وأيضاً لا يخفى أنه لا قرينةَ تدلُّ على وقوعه جواباً لمَا لم يُذكَر، وأما سؤالُ طردهم فَإنَّ الاستحقارَ قرينةٌ عليه في الجملة، وقد صرَّح بعضُ السلف به، ومثلُه لا يقال من قبل الرأي.

﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ ردٌّ لقولهم: «ما نراك إلا بشراً مثلنا» أي: لا أقولُ ترويجاً لما أدَّعيه من النبوة: إني مَلَكٌ، حتى تقولوا لي ذلك وتُكذِّبوني، فإن البشريةَ ليست من موانع النبوة، بل من مَباديها. يعني كما قيل: إنكم اتَّخذتم فُقدانَ هذه الأمور الثلاثةِ ذريعةً إلى تَكْذيبي، والحال أني لا أدَّعي شيئاً من ذلك، ولا الذي يتعلَّق بشيء منها، وإنما الذي أدَّعيه يتعلَّق بالفضائل التي تتفاوت بها مقاديرُ البشر.

وقيل: أراد بهذا: لا أقولُ: إني رُوحاني غيرُ مخلوق من ذَكَرٍ وأُنثى، بل إنما أنا بشرٌ مثلُكم، فلا معنى لردِّكم عليَّ بقولكم: «ما نراك إلا بشراً مثلنا».

وعلى القولين لا دليلَ فيه على أن الملائكةَ أفضلُ من الأنبياء عليهم السلام، خلافاً لمن استدلَّ به. وجعلُ ذلك كلاماً آخرَ، ليس ردّاً لما قالوه سابقاً، مما لا وجهَ له. فتدبَّر.

﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ أي: تستحقِرُهم، والأصلُ: تزتري بالتاء، إلا أنها قُلبت دالاً لِتُجانِس الزاي في الجهر، لأنها من المهموسة، وأصلُ الازدراء الإعابةُ، يقال: ازدراه، إذا عابَه، والتعبيرُ بالمضارع للاستمرار، أو لحكايةِ الحال؛ لأن الازدراء قد وقع، وإسنادُه إلى الأعين مجازٌ للمبالغة - في رَأْي - من حيث إنه إسنادٌ إلى الحاسَّة التي لا يُتَصَّور منها تَعييبُ أحدٍ، فكأنَّ من لا يُدرِكُ ذلك يُدركه، وللتنبيهِ على أنهم استحقروهم بادي الرؤية بما[1] عايَنوا من رَثاثة حالهم وقِلَّةِ مَنالهم دون تأمُّل وتدبُّر في معانيهم وكمالاتهم.

وعائدُ الموصول محذوفٌ كما أشرنا إليه، واللامُ للأَجْلِ لا للتبليغ، وإلا لقيل فيما بعد: يؤتيكم، أي: لا أقولُ مساعدةً لكم ونزولاً على هواكم في شأن الذين استرذلتموهم واستحقرتموهم لِفقرهم من المؤمنين ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ في الدنيا أو في الآخرة، فعسى الله سبحانه يؤتيهم خيري الدارين.

---

(١) في الأصل و(م): وبما، والمثبت من تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ٩٣.

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ مما يستعدُّون به لإيتاء ذلك، وفي «إرشاد العقل السليم»[١]: من الإيمان، وفيه توجيهٌ لعطف نفي هذا القول الذي ليس مما يَستنكره الكَفَرة، ولا مما يتوهَّمون صدوره عنه عليه السلام أصالةً واستتباعاً، على نفي هاتيك الأقوال التي هي مما يستنكرونه ويتوهَّمون صُدُورَه عنه عليه السلام، أن ذلك من جهة أنَّ كِلَا النَّفيين ردٌّ لِقياسهم الباطل الذي تمسَّكوا به فيما سلف، فإنهم زعموا أنَّ النبوةَ تستتبعُ الأمورَ المذكورة من ادِّعاء الملكية وعلم الغيب وحيازةِ الخزائن، وأن العثورَ على مكانها واغتنامَ مَغانمها ليس من دَأْبِ الأراذل، فأجاب عليه السلام بنفي ذلك جميعاً؛ فكأنه قال: لا أقولُ: وجودُ تلك الأشياء من مواجب النبوة، ولا عَدَمُ المال والجاه من موانع الخير. واقتصر عليه السلام على نفي القول المذكور مع أنه عليه السلام جازمٌ بأنَّ الله سبحانه سيؤتيهم خيراً عظيماً في الدارين، وأنهم على يقين راسخٍ في الإيمان، جرياً على سَنَن الإنصاف مع القوم، واكتفاءً بمخالفة كلامهم، وإرشاداً لهم إلى مَسْلك الهدايةِ بأنَّ اللائقَ لكل أحدٍ أن لا يبتَّ القولَ إلا فيما يعلمه يقيناً، ويَبني أُمورَه على الشواهدِ الظاهرة، ولا يُجازف فيما ليس فيه على بيِّنة. انتهى.

وأنت تعلم أنه عليه السلام قد بَتَّ القولَ بفوز هؤلاء في قوله: «وما أنا بِطاردِ الذين آمنوا إنهم مُلاقوا ربِّهم» بناءً على أنهم المَعنيُّون بالذين آمنوا، وأن المراد من كونهم «مُلاقوا ربهم» أنهم مُقَرَّبون في حَضْرة القُدس - كما قال به غيرُ واحد - وكذا الحُكم إذا كان المعنيُّ بالموصول مَن اتَّصف بعنوان الصِّلة مطلقاً إذْ يدخلون فيه دخولاً أوليّاً لما أنَّ المسؤولَ صريحاً أو تلويحاً طردُهم، ولعلَّ البتَّ تارةً وعدمَه أُخرى لاقتضاء المقام ذلك، وأن في كون الكَفَرة قد زَعَموا أن العثورَ على مكان النبوة واغتنام مَغانمها ليس من دَأْبِ الأراذل خفاءً مع دعوى أنهم لوَّحوا بقولهم: «وما نراك اتَّبعك» إلخ الذي هو مَظِنَّةُ ذلك الزَّعْم إلى التماس طَرْدِهم وتعليق إيمانهم به عليه السلام بذلك أنفةً من الانتظام معهم في سِلْك واحد.

وفي «البحر»[٢] أن معنى «ولا أقول للذين» إلخ: ليس احتقارُكم إيَّاهم ينقصُ

---

(١) ٤/ ٢٠٣.

(٢) ٥/ ٢١٨.

ثوابَهم عند الله تعالى ولا يُبطل أُجورَهم، ولستُ أحكمُ عليهم بشيء من هذا، وإنما الحُكم بذلك للذي يعلم ما في أنفسهم فيجازيهم عليه، وقيل: إن هذا ردٌّ لقولهم: «وما نراك اتبعك» إلخ على معنى: لستُ أحكمُ عليهم بأنْ لا يكونَ لهم خيرٌ لِظنِّكم بهم أن بواطِنَهم ليست كظواهرهم، اللهُ أعلمُ بما في نفوسهم. انتهى. ولا يخفى ما فيه.

وقد أخرج أبو الشيخ عن السُّدي أنه فسَّر الخيرَ بالإيمان[1]، أي: لا أقولُ للذين تزدري أعينُكم: لن يُؤتيهم اللهُ إيماناً. واستُشْكِلَ بأنَّ الظاهرَ أن المُرادَ بالموصول أولئك المُتَّبِعون المُسترذَلون، وهم مؤمنون عندهم، فلا معنى لنفي القول بإيتاء الله تعالى إيَّاهم الإيمانَ مساعدةً لهم ونزولاً على هواهم.

وأُجيب بأنَّ المرادَ من هذا الإيمان هو المُعتدُّ به، الذي لا يزول أصلاً كما يُنبئ عن ذلك التعبيرُ عنه بالخيرِ، وهم إنما أثبتوا لهم الاتِّباع بادي الرأي، وأرادوا بذلك أنهم آمنوا إيماناً لا ثَباتَ له، ويجعلُ ذلك ردّاً لذلك القول، ويُراد من «لن يُؤتيهم» ما آتاهم، فكأنَّهم قالوا: إنهم اتَّبعوك وآمنوا بك بلا تأمُّل، ومثلُ ذلك الإيمان في مَعْرِض الزَّوال، فهم لا يَثْبُتون عليه ويرتدُّون، فردَّ عليهم عليه السلام بأني لا أَحْكُمُ على أولئك بأنَّ الله تعالى ما آتاهم إيماناً لا يزول، وأنهم سيرتَدُّون كما زَعَمتُم. ويكون قولُه عليه السلام: «اللهُ أعلمُ بما في أنفسهم» تفويضاً للحكم بذلك إليه تعالى، أو إشارةً إلى جَلالةِ ما آتاهم اللهُ تعالى إيَّاه من الإيمان، كما يقال: اللهُ تعالى أعلمُ بما يُقاسي زيدٌ من عمرو، إذا كان ما يُقاسيه منه أمراً عظيماً لا يُستطاع شَرْحُه، فكأنه قيل: إنَّ إيمانَهم عظيمُ القَدْر جليلُ الشأن، فكيف أقولُ: لن يُؤتيهم اللهُ تعالى إيماناً ثابتاً؟! وفيه من التكلُّف والتعسُّف ما اللهُ تعالى به أعلم.

وحَمْلُ الموصوف على أُناس مُسترذَلين جدّاً غيرَ أولئك ولم يؤمنوا بعد، أي: لا أقولُ للذين تَزدريهم أعينُكم ولم يؤمنوا بعدُ: لن يُوفِّقَهم الله تعالى للإيمان، حيث كانوا في غايةٍ من رَثاثة الحال والدَّناءةِ التي تزعُمونها مانعةً من الخير «الله

(١) الدر المنثور ٣/ ٣٢٦.

أعلم بما في أنفسهم» مما يتأهَّلون به لإفاضة التوفيق عليهم، وهو المَدارُ لذلك لا الأحوالُ الظاهرة = مما لا أقولُ به.

﴿إِنِّيٓ إِذٗا﴾ أي: إذا قلتُ ذلك ﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١﴾ لهم بحطِّ مَرْتَبتهم ونقصِ حقوقهم، أو من الظالمين لأنفسهم بذلك، وفيه تعريضٌ بأنهم ظالمون في ازدرائهم واسترذالهم.

ويجوز أن يكون: إذا قلت شيئاً مما ذُكر من حِيازة الخزائن وادِّعاء علم الغيب والملكية، ونفي إيتاءِ الله تعالى أولئك الخيرَ، والقومُ لمزيد جِهْلهم مُحتاجون لأنْ يُعلل لهم نحو الأقوال الأُول بلزوم الانتظام في زمرة الظالمين.

﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا﴾ أي: خاصمتَنا ونازعتَنا، وأصلُه من: جَدَلْت الحبلَ، أي: أَحْكَمت فَتْلَه، ومنه الجَدِيل، وجَدَلْت البناء، أي: أحكمته، ودرعٌ مَجدولة، والأَجْدلُ: الصقر المُحكم البُنْيَة، والمِجْدَل: القصرُ المُحكم البناء، وسُمِّيت المُنازعة جِدالاً؛ لأن المُتجادلَيْنِ كأنهما يَفْتِلُ كلُّ واحد منهما الآخرَ عن رأيه.

وقيل: الأصل في الجِدال الصِّراع وإسقاطُ الإنسان صاحبَه على الجَدَالة، وهي الأرض الصُّلبة ﴿فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾ عطفٌ على ما قبلَه على معنى: شَرَعْتَ في جِدالنا فأَطَلْته، أو أتيتَ بنوعٍ من أنواعِ الجِدال فأَعقبتَه بأنواع أُخر، فالفاء على ظاهرها، ولا حاجةَ إلى تأويل «جادلتنا» بـ: أردتَ جِدالنا، كما قاله الجمهور في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ٩٨] ونظيرُ ذلك: جادل فلانٌ فأكثر، وجعل بعضُهم مجموعَ ذلك كنايةً عن التمادي والاستمرار.

وقرأ ابنُ عباس رضي الله عنهما: «جَدَلَنا» وهو ـ كما قال ابنُ جني[1] ـ اسم بمعنى الجِدال.

ولما حجَّهم عليه السلام، وأبرز لهم ما ألقمهم به الحَجَرَ[2] ضاقَتْ عليهم الحِيَل، وعيَّتْ بهم العلل، وقالوا: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذابِ المُعجَّل، وجوَّز

---

(١) في المحتسب ١/ ٣٢١.

(٢) قوله: ألقمهم الحَجَرَ، مثلٌ عربي، يُضرب للمُجيب بجواب مُسكت. المستقصى في أمثال العرب ١/ ٣٣٨.

أن يكون المرادُ به العذابَ الذي أُشير إليه في قوله: «إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم» بناءً على أن لا يكونَ المرادُ باليوم يومَ القيامة.

و«ما» موصولة والعائدُ محذوفٌ، أي: بالذي تَعِدُنا به، وفي «البحر»[1]: تعدناه، وجوّز أن تكون مصدريةً، وفيه نوعُ تكَلُّف.

﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ في حُكمك بِلُحوقِ العذاب إنْ لم نُؤمن بك.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ أي: إنَّ ذلك ليس إليَّ، ولا مما هو داخلٌ تحت قُدرتي، وإنما هو لله عزَّ وجل الذي كفرتُم به وعَصَيْتُم أمرَه يأتيكم به عاجلاً أو آجلاً إن تعلَّقت به مشيئتُه التابعةُ للحِكمة، وفيه ـ كما قيل ـ: ما لا يخفى من تهويلِ الموعود، فكأنه قيل: الإتيان به أمرٌ خارجٌ عن دائرة القُوى البشرية، وإنما يفعله اللهُ تعالى. وفي الإتيان بالاسم الجليل الجامعِ تأكيدٌ لذلك التهويل.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: بِمُصَيِّريهِ سبحانه وتعالى عاجزاً بدَفْعِ العذاب أو الهربِ منه، والباء زائدةٌ للتأكيد، والجملةُ الاسمية للاستمرار، والمرادُ استمرارُ النفي وتأكيدُه لا نفي الاستمرار والتأكيد، وله نظائرُ.

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ﴾ النُّصح تحرِّي قولٍ أو فعلٍ فيه صلاحٌ، وهو كلمةٌ جامعة. وقيل: هو إعلامُ مواقعِ الغي لِيُتَّقى، ومواضعِ الرُّشد لِيُقتفَى، وهو من قولهم: نصحتُ له الودَّ، أي: أَخلَصْته، وناصحُ العسل خالصُه، أو من قولهم: نصحتُ الجِلدَ: خِطْته، والناصح الخيَّاط، والنِّصاح الخيط.

وقرأ عيسى بن عمر الثقفي: «نَصْحي» بفتح النون، وهو مصدر، وعلى قراءة الجماعة ـ على ما قال أبو حيان[2] ـ يحتمل أن يكون مصدراً كالشُّكر، وأن يكون اسماً.

﴿إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ شرطٌ حُذف جوابُه لدلالةِ ما سبق عليه، وليس جواباً له لامتناع تقدُّم الجوابِ على الشرط على الأصحّ الذي ذهب إليه البصريون، أي: إن أردتُ[3] أنْ أنصحَ لكم لا ينفعُكم نُصحي.

---

(١) ٥/ ٢١٩.

(٢) في البحر المحيط ٥/ ٢١٩، وفيه قراءة عيسى الثقفي السالفة.

(٣) في (م): أردتم.

والجملة كلُّها دليلُ جوابِ قوله سبحانه: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ والتقدير: إنْ كان اللهُ يريدُ أن يُغويكم فإنْ أردتُ أنْ أنصحَ لكم لا ينفعكم نُصحي. وجعلوا الآيةَ من باب اعتراضِ الشرط على الشرط، وفي شرح «التسهيل» لابن عَقيل: أنه إذا توالى شرطان مثلاً، كقولك: إنْ جئتَني إنْ وعدتُك أحسنتُ إليك، فالجواب للأول، واستُغني به عن جواب الثاني.

وزعم ابنُ مالك أن الشرطَ للثاني مُقيِّدٌ للأول بمنزلة الحال، فكأنه قيل في المثال: إنْ جئتَني في حال وَعْدي لك أحسنتُ إليك.

والصحيح في المسألة أنَّ الجوابَ للأول، وجوابُ الثاني محذوفٌ لدلالة الشرط الثاني وجوابه عليه، فإذا قلت: إنْ دخلتَ الدارَ إنْ كلَّمتَ زيداً إنْ جاء إليك فأنتَ حُرّ، ف: أنت حُرٌّ، جوابُ إنْ دخلتَ، وهو وجوابه دليلُ جواب إنْ كلَّمتَ، وإنْ كلَّمتَ وجوابُه دليلُ جواب إنْ جاء، والدليلُ على الجواب جوابٌ في المعنى، والجوابُ مُتأخِّرٌ، فالشرط الثالثُ مقدَّم، وكذا الثاني، فكأنه قيل: إنْ جاء فإن كلَّمتَ فإن دخلْتَ فأنت حُرٌّ، فلا يَعْتِقُ إلا إذا وقع هكذا: مجيء، ثم كلام، ثم دخول، وهو مذهبُ الشافعي عليه الرحمة، وذكر الجصَّاص[1] أن فيها خلافاً بين محمد وأبي يوسف رحمهما الله تعالى، وليس مذهبَ الإمام الشافعي فقط.

وقال بعضُ الفقهاء: إنَّ الجوابَ للأخير، والشرط الأخير وجوابه جوابُ الثاني، والشرط الثاني وجوابه جوابُ الأول، وعلى هذا لا يَعْتِقُ حتى يوجدَ هكذا: دخول، ثم كلام، ثم مجيء. وقال بعضُهم: إذا اجتمعَتْ حصل العِتْق من غير ترتيب، وهذا إذا كان التوالي بلا عاطف، فإن عُطِفَ بأو فالجواب لأحدِهما دون تعيين نحو: إنْ جئتَني أو إنْ أكرمْتَ زيداً أحسنتُ إليك، وإنْ كان بالواو فالجوابُ لهما، وإن كان بالفاء فالجوابُ للثاني، وهو وجوابُه جوابُ الأول، فتخرج الفاء عن العطف.

وادَّعى ابنُ هشام[2] أن في كون الآيةِ من ذلك الباب نظراً؛ قال: إذْ لم يتوالَ

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٦٤.

(٢) في مغني اللبيب ص٨٠١.

شرطان وبعدهما جواب كما فيما سمعتَ من الأمثلة، وكما في قول الشاعر:

إنْ تَستغيثوا بنا إنْ تُذْعَروا تَجدوا   منا معاقِلَ عِزٍّ زانها كرمُ[1]

إذ لم يُذكَر فيها جوابٌ، وإنما تقدَّم على الشرطين ما هو جوابٌ في المعنى للأول، فينبغي أن يُقدَّر إلى جانبه ويكون الأصل: إنْ أردتُ أن أنصحَ لكم فلا يَنفعُكم نُصحي إنْ كان اللهُ يُريد أن يُغوِيَكم، وأما أنْ يُقدَّر الجوابُ بعدَهما، ثم يُقدَّر بعد ذلك مقدَّماً إلى جانب الشرط الأول فلا وجهَ له. انتهى.

وقد ألف في المسألة رسالة ـ كما قال الجلال السيوطي وأوردها في حاشيته على «المغني» ـ حسنة، ولا يخفى عليك أنَّ المُقدَّر في قوة المذكور، والكثير في توالي شرطين بدون عاطف تأخُّره سماعاً، فيقدَّر كذلك، ويجري عليه حكمه.

والكلامُ على ما تقدَّم مُتضمِّن لِشرطين مختلفين: أحدُهما جوابٌ للآخر، وقد جعل المتأخِّر في الذكر متقدِّماً في المعنى على ما هو المعهود في المسألة، وهو عند الزمخشري[2] على ما قيل شرطية واحدة مُقيَّدة، حيث جعل «لا ينفعكم» دليلَ الجواب لـ «أنْ كان»، وجعل «إنْ أردتُ» قيداً لذلك نظير: إنْ أحسنتَ إليَّ أحسنتُ إليك إنْ أمكنني. فتأمَّل.

والكلامُ متعلِّق بقولهم: «قد جادلتَنا فأكْثرتَ جِدالنا» صدرَ عنه عليه السلام إظهاراً للعَجْزِ عن رَدِّهم عمَّا هم عليه من الضلال بالحُجَجِ والبيِّنات لِفَرْطِ تماديهم في العِناد، وإيذاناً بأنَّ ما سبق منه إنما كان بطريق النصيحة لهم والشَّفقةِ عليهم، وأنه لم يألُ جُهداً في إرشادهم إلى الحق وهدايتهم إلى سبيله المُستبين، ولكن لا ينفعهم ذلك عند إرادته سبحانه لإغوائهم، وتقييدُ عدمِ نفع النُّصح بإرادته مع أنه مُحقَّق لا مَحالة للإيذان بأنَّ ذلك النُّصح مُقارِنٌ للإرادة والاهتمام به، ولِتحقيق المُقابلة بين ذلك وبين ما وقع بإزائه من إرادته تعالى لإغوائِهم، وإنما اقتصرَ في ذلك على مُجرَّد إرادة الإغواء دون نَفْسِه حيث لم يقل: إنْ كان اللهُ يُغويكم، مبالغةً في بيان غَلَبَةِ جَنابه جلَّ جلالُه، حيث دلَّ ذلك على أنَّ نُصحَه المقارنَ للاهتمام به

(١) البيت في مغني اللبيب ص٨٠١، وسلف ٥/ ٣١٠.
(٢) في الكشاف ٢/ ٢٦٧.

لا يُجديهم نَفْعاً عند مجرَّد إرادةِ الله تعالى إغواءهم، فكيف عند تحققُّه وخَلْقِه فيهم، وزيادة «كان» للإشعار بتقدُّم إرادته تعالى زماناً كتقدُّمه رُتْبةً، وللدلالة على تجدُّدها واستمرارها، وقُدِّم على هذا الكلام ما يتعلَّق بقولهم: «فأتنا بما تعدنا» من قوله: «إنما يأتيكم به الله إن شاء» ردّاً عليهم من أول الأمر، وتسجيلاً عليهم بحلول العذابِ، مع ما فيه من اتِّصال الجوابِ بالسؤال. قال ذلك مولانا شيخُ الإسلام(١).

ثم إنَّ «إنْ أردتُ» إنْ أبقي على الاستقبال لا يُنافي كونَه نَصَحَهم في الزمن الماضي، وقيل: إنه مُجاراةٌ لهم لاستظهار الحُجَّة؛ لأنهم زعموا أنَّ ما فعلَه ليس بِنُصْح إذْ لو كان نُصحاً قُبِلَ منه، واللامُ في «لكم» ليست للتقوية كما قد يُتَوهَّم لِتعدِّي الفعل بنفسه كما في قوله:

نَصَحْتُ بني عوفٍ فلم يَتَقبَّلوا   رسولي ولم تَنْجَحْ لديهم رسائلي(٢)

لما في «الصحاح»(٣) أنه باللام أفصح.

وفي الآية دليلٌ على أنَّ إرادةَ الله تعالى مما يَصِحُّ تعلُّقها بالإغواء، وأن خلافَ مُراده سبحانه مُحالٌ، وإلا لم تصدق الشرطية الدالة على لزوم الجواب للشرط، والمُعتزلة وقعوا في حيص بيص منها، واختلفوا في تأويلها، فقيل: إنَّ «يُغويكم» بمعنى يُهلككم، من غوِي الفَصِيلُ: إذا بَشِمَ من كَثْرة شُرب اللبن فَهَلكَ، وقد رَوَى مجيء الغَوَى بمعنى الهلاك الفراءُ وغيره، وأنكره مَكِّيٌّ(٤).

وقيل: إنَّ الإغواءَ مجازٌ عن عقوبته، أي: إنْ كان اللهُ يريد عقوبةَ إغوائكم الخَلْقَ وإضلالكم إيَّاهم.

وقيل: إنَّ قومَ نوح كانوا يعتقدون أن اللهَ تعالى أراد إغواءهم، فأخرج عليه السلام ذلك مخرجَ التعجب والإنكار، أي: إنَّ نُصحي لا ينفعكم إنْ كان الأمر كما تزعُمون.

---

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٠٥.
(٢) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص٩٣، وروايته: وسائلي، بدل: رسائلي.
(٣) الصحاح (نصح).
(٤) ذكر ذلك أبو حيان في البحر ٥/ ٢١٩.

وقيل: سُمِّيَ تركُ إلجائهم وتخليتهم وشأنَهم إغواءً مجازاً.

وقيل: «إنْ» نافية، أي: ما كان اللهُ يُريد أنْ يُغوِيَكم، ونفيُ ذلك دليلٌ على نفي الإغواء، ويكون «لا ينفعكم نصحي» إلخ إخباراً منه عليه السلام لهم وتعزيةً لِنفسه عنهم لِمَا رأى من إصرارِهم وتماديهم على الكُفر، ولا يخفى ما في ذلك من مُخالفة الظاهر المعروف في الاستعمال، وارتكابِ ما لا ينبغي ارتكابُ مثله في كلام الملك المتعال.

ومن الناس من اعترضَ الاستدلال بأنَّ الشرطية لا تدل على وقوع الشرط ولا جوازه، فلا يتم ولا يُحتاج إلى التأويل ولا إلى القال والقيل. ودُفِعَ بأنَّ المقام ينبو عنه لعدم الفائدة في مجرد فرض ذلك، فإنْ أرادوا إرجاعَه إلى قياس استثنائي، فإما أن يستثنى عين المقدَّم فهو المطلوب، أو نقيض التالي فخلافُ الواقع لعدم حصول النفع.

وبالجملة الآية ظاهرةٌ جدّاً فيما ذهب إليه أهلُ السنة، والله سبحانه المُوفِّق.

﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ أي: خالقُكم ومالكُ أمركم ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ فَيُجازيكم على أفعالكم لا مَحالةَ.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: يعني نوحاً عليه السلام. أي: بل أيقول قومُ نوح: إن نوحاً افترى ما جاء مُسنِداً إلى الله عز وجل ﴿قُلْ﴾ يا نوح ﴿إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾ بالفَرْض البَحْت.

﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ أي: وبالُه، فهو على تقدير مضاف، أو على التجوُّز بالسبب عن المُسبَّب، وفُسِّر الإجرامُ بكسب الذنب(١)، وهو مصدر أجرم، وجاء على قِلَّةٍ: جَرَمَ، ومن ذلك قوله:

طريدُ عشيرةٍ ورهينُ ذَنْبٍ ... بما جَرَمَتْ يدي وجَنَى لساني(٢)

---

(١) في الأصل: الذنوب.

(٢) نسبة أبو عُبيدة في مجاز القرآن ١/٢٨٨ للهَيْرُوان السعدي، وأورده دون نسبة القرطبي في تفسيره ١١/١٠٧، وفيه: جرم، بدل: ذنب.

وقرئ: «أجرامي» بفتح الهمزة[1] على أنه كما قال النحاس[2]: جمع جُرْم.

واستشكل العزُّ بن عبد السلام الشرطية بأنَّ الافتراءَ المفروضَ هنا ماضٍ، والشرط يخلصُ للاستقبال بإجماع أئمةِ العربية.

وأجاب بأن المراد ـ كما قال ابنُ السرَّاج ـ: إنْ ثبتَ أني افتريتُه فعليَّ إجرامي؛ على ما قيل في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ [المائدة: ١١٦].

﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: من إجْرامكم في إسنادِ الافتراء إليَّ، قيل: والأصلُ: إن افتريتُه فعليَّ عقوبةُ افترائي، ولكنه فَرْضٌ مُحال، وأنا بريءٌ من افترائكم، أي: نِسبتكم إيَّاي إلى الافتراء، وعُدل عنه إدماجاً لكونهم مجرمين، وأن المسألة معكوسة. وحُملت «ما» على المصدرية لما في الموصولية من تكلُّف حذف العائد مع أنَّ ذلك هو المناسبُ لقوله «إجرامي» فيما قبل.

وما يقتضيه كلامُ ابن عباس من أن الآيةَ من تتمة قصة نوح عليه السلام وفي شأنه هو الظاهرُ، وعليه الجمهور.

وعن مقاتل أنه في شأنِ النبي ﷺ مع مشركي مكة، أي: بل أيقول مُشركو مكةَ: افترى رسولُ الله ﷺ خبرَ نوح، قيل: وكأنه إنما جيء به في تضاعيف القصة عند سوق طرفٍ منها تحقيقاً لحقِّيَّتها[3]، وتأكيداً لوقوعها، وتشويقاً للسامعين إلى استماعها، لاسيما وقد قصَّ منها طائفة متعلقة بما جرى بينه عليه السلام وبين قومه من المُحَاجَّة، وبقيت طائفةٌ مستقلةٌ متعلِّقة بعذابهم. ولا يخفى أن القولَ بذلك بعيدٌ، وإنْ وُجِّه بما وُجِّه.

وقال في «الكشف»: إن كونَها في شأن النبي ﷺ أظهرُ وأنسبُ من كونها من تتمة قصة نوح عليه السلام؛ لأن «أم يقولون افتراه» كالتكرير لقوله سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [الآية: ١٣] دلالة على كمال العِناد، وأن مثلَه بعد الإتيان بالقصة على هذا الأسلوب المُعجز مما لا ينبغي أن يُنسب إلى افتراء، فجاء زيادةَ إنكارٍ

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٠.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٣٤٦.

(٣) في (م): لحقيقتها.

على إنكار؛ كأنه قيل: بل أمع هذا البيان أيضاً يقولون: «افتراه» وهو نظيرُ اعتراض قوله سبحانه في سورة العنكبوت: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ [الآية:١٨] بين قصة إبراهيم عليه السلام في أحد الوجهين. انتهى. ولا أراه معوّلاً عليه.

﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ إقناطٌ له عليه السلام من إيمانهم، وإعلامٌ بأنه لم يبقَ فيهم من يُتوقَّع إيمانُه، أخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر عن ابن عباس قال: إنَّ نوحاً عليه السلام كان يُضرَبُ ثم يُلَفُّ في لبد، فَيُلقى في بيته يَرَوْنَ أنه قد مات، ثم يخرجُ فيدعوهم، واتفق أنْ جاءه رجلٌ ومعه ابنُه وهو يتوكأ على عصا فقال: يا بني انظر هذا الشيخ لا يغرنك. قال: يا أبت أَمكنِّي من العصا. فأخذ العصا، ثم قال: ضعني على الأرض. فوضعه فمشى إليه فضربه فشجَّه مُوضحةً في رأسه وسالت الدماءُ، فقال نوح عليه السلام: رَبِّ قد ترى ما يفعلُ بي عبادُك، فإن يكُ لك في عبادك حاجةٌ فاهدِهم، وإنْ يكُنْ غيرَ ذلك فصبِّرني إلى أن تَحكُمَ، وأنت خيرُ الحاكمين. فأوحى الله تعالى إليه وآيسه من إيمان قومه، وأخبره أنه لم يبقَ في أصلابِ الرجال ولا في أرحام النساء مؤمنٌ، وقال سبحانه: يا نوح إنه ﴿لَن يُؤْمِنَ﴾ إلخ[1].

والمرادُ بمن آمن، قيل: من استمرَّ على الإيمان، وللدوام حكمُ الحدوث، ولذا لو حَلَفَ: لا يلبس هذا الثوب، وهو لابِسُه، فلم ينزعه في الحال حَنِثَ.

وقيل: المرادُ: إلا مَن قد استعدَّ للإيمان وتُوقِّع منه، ولا يُراد ظاهره. وإلا كان المعنى: إلا مَنْ آمن فإنه يُؤمن. وأُورد عليه أنه مع بُعدِهِ يقتضي أنَّ من القوم مَنْ آمن بعد ذلك، وهو يُنافي تقنيطَه من إيمانهم.

وقد يقال: المرادُ ما هو الظاهر، والاستثناءُ على حدِّ الاستثناء في قوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٣] على ما قاله غيرُ واحد، فَيُفيد الكلامُ الإقناطَ على أتمِّ وجه وأبلغِهِ، أي: لن يُحدِثَ من قومك إيماناً

(١) الدر المنثور ٣/٣٢٧ وهو في تاريخ ابن عساكر ٦٢/ ٢٤٨ من طريق إسحاق بن بشر عن مقاتل وعبد الله بن زياد وجويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس.

ويُحصِّلَه بعدُ إلا مَنْ قد أَحْدَثه وحَصَّله قبلُ، وذلك مما لا يُمكن لما فيه من تحصيل الحاصل وإحداثِ المُحدَث، فإحداثُ الإيمان وتحصيلُه بعدُ مما لا يكون أصلاً.

وفي «الحواشي الشهابية»: لو قيل: إنَّ الاستثناءَ منقطعٌ، وإنَّ المعنى: لا يُؤمن أحدٌ بعدَ ذلك غيرَ هؤلاء لكان معنًى بليغاً. فتدبَّر[1].

وقرأ أبو البرهسم[2]: «وأَوْحَى» مبنيّاً للفاعل و«إنه» بكسر الهمزة على إضمار القول على مذهب البصريين، وعلى إجراء أوحى مجرى قال على مذهب الكوفيين.

واستدلَّ بالآية من أجاز التكليف بما لا يُطاق.

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: لا تلتزم البؤسَ، ولا تحزن بما كانوا يتعاطَوْنه من التكذيب والاستهزاء والإيذاء في هذه المُدَّة الطويلة، فقد حان وقتُ الانتقام منهم.

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ عطف على «فلا تبتئس»، والأمر قيل: للوجوب، إذْ لا سبيلَ إلى صيانةِ الروح من الغَرق إلا به، فيجب كوجوبها[3]. وقيل: للإباحة، وليس بشيء.

و«أل» في «الفلك» إما للجنس أو للعهد؛ بناءً على أنه أُوحي إليه عليه السلام مِنْ قبلُ أنَّ الله سبحانه سَيُهلِكُهم بالغَرق، ويُنجيه ومَنْ معه بشيء يصنعه بأمره تعالى من شأنهِ كيت وكيت، واسمه كذا. والباء للملابسة، والجار والمجرور في موضع الحال من الفاعل.

والأعينُ حقيقة في الجارحة، وهي جاريةٌ مَجرى التمثيل، كأنَّ للهِ سبحانه أَعْيُناً تكلؤه مِن تعدِّي الكَفَرة، ومن الزَّيغ في الصنعة، والجمع للمبالغة، وقد انسلخ عنه لإضافته ـ على ما قيل ـ معنى القِلَّة، وأُريد به الكَثْرة، وحينئذ يقوى أمرُ المبالغة.

وزعم بعضُهم أن الأَعْيُنَ بمعنى الرُّقباء، وأن في ذلك ما هو من أبلغِ أنواعِ

---

(١) حاشية الشهاب ٥/ ٩٦.
(٢) عمران بن عثمان الزبيدي الشامي صاحب القراءة الشاذة. طبقات القراء ١/ ٦٠٤ وقراءته ذكرها أبو حيان في البحر ٥/ ٢٢٠.
(٣) في الأصل: لوجوبها.

التجريد، وذلك أنهم ينتزعون من نَفْسِ الشيء آخرَ مثلَه في صفته مبالغةً بكمالها كما أَنشد أبو علي:

أفاءتْ بنو مروان ظُلماً دماءَنا وفي اللهِ إنْ لم يعدِلوا حَكَمٌ عدل[١]

وقد جرد هاهنا من ذات المُهيمن جماعة الرقباء، وهو سبحانه الرقيبُ نفسُه.

وقيل: إنَّ ملابسةَ العين كنايةٌ عن الحفظ، وملابسةَ الأعين لمكان الجمع كنايةٌ عن كمال الحِفْظ والمبالغة فيه، ونظيرُ ذلك: بسط اليد وبسط اليدين، فإن الأولَ كنايةٌ عن الجود، والثاني كناية عن المبالغة فيه. وجُوِّز أن يكون المرادُ الحفظَ الكامل على طريقة المجاز المرسل لما أنَّ الحفظ من لوازم العين الجارحة.

وقيل: المرادُ من «أعيننا» ملائكتُنا الذين جعلناهم عيوناً على مواضع حفظك ومعونتك، والجمع حينئذ على حقيقته لا للمبالغة.

ويُفهم من صنيع بعضهم أنَّ هذا من المُتشابه، والكلام فيه شهير، ففي «الدر المنثور»[٢] عند الكلام على هذه الآية: أخرج البيهقي عن سفيان بن عيينة قال: ما وصفَ اللهُ تبارك وتعالى به نفسَه في كتابه، فقراءتُه تفسيره، ليس لأحدٍ أنْ يُفَسِّره بالعربية ولا بالفارسية.

وقرأ طلحة بن مُصَرِّف[٣]: «بأَعْيُنَّا». بالإدغام.

﴿وَوَحۡيِنَا﴾ إليك كيف تصنعها، وتعليمِنا، أخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر عن ابن عباس ﷺ: أنه عليه السلام لم يعلم كيف صنعةُ الفلك، فأوحى الله تعالى إليه أن اجعَلْ رأسَها كرأس الدِّيك، وجؤجؤَها[٤] كجؤجؤ الطير، وذنبها كذنب

---

(١) قائله أبو الخطار الكلبي كما في الحماسة البصرية ١/ ٨١، والحماسة الشجرية ١/ ٩، وروايته فيهما:

أقادت بنو مروان قيساً دماءنا وفي الله إن لم ينصفوا حكم عدل

وأورده بلفظ المصنف ابن جني في الخصائص ٢/ ٤٧٥ دون نسبة.

(٢) ٣/ ٣٢٧.

(٣) في الأصل و(م): أبو طلحة بن مصرف، والمثبت من المصادر. ينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٦٩، والبحر المحيط ٥/ ٢٢٠، والدر المصون ٦/ ٣٢٢.

(٤) جؤجؤ الطائر والسفينة: صدرُهما. مختار الصحاح (جأجأ).

الدِّيك، واجعَلْ لها أبواباً في جنبها وشُدَّها بِدُسُر(١). وأمره أن يَطْليها بالقارِ، ولم يكن في الأرض قارٌ، ففجَّر اللهُ تعالى له عينَ القار ـ حيث يَنْحِتُها ـ يغلي غلياناً حتى طلاها، الخبر. وفيه أنَّ الله تعالى بعث جبريلَ عليه السلام فعلَّمه صنعتها(٢).

وقيل: كانت الملائكةُ عليهم السلام تُعلِّمه.

﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ أي: لا تُراجعني فيهم، ولا تَدْعُني باستدفاع العذاب عنهم، وفيه من المبالغةِ ما ليس فيما لو قيل: ولا تَدْعُني فيهم، وحيث كان فيه ما يلوِّح بما يستتبعه أكَّد التعليل فقيل: ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أي: محكومٌ عليهم بالإغراق؛ وقد جرى به القضاء وجفَّ القلم، فلا سبيلَ إلى كَفِّه.

والظاهر أنَّ المرادَ من الموصول من لم يؤمنْ من قومه مطلقاً. وقيل: المرادُ واعلةُ زوجتُه وكنعانُ ابنُه، وليس بشيء.

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ حكايةُ حالٍ ماضية لاستحضارِ صورتها العجيبة. وقيل: تقديره: وأخذ، أو: أقبل يصنع الفُلك.

وكانت على ما رُوي عن قتادة وعكرمة والكلبي من خشب الساج، وقد غَرسه بنفسه، ولم يقطَعْه حتى صار طُولُه أربعَ مئة ذراع ـ والذراع إلى المَنْكِب ـ في أربعين سنة على ما رُوي عن سلمان الفارسي(٣). وقيل: أبقاه عشرين سنة. وقيل: مكثَ مئة سنة يغرِسُ ويقطع ويُيبِّس.

وقال عمرو بن الحارث: لم يَغْرِسْه، بل قطعه من جَبَل لبنان.

وعن ابن عباس: أنها كانت من خَشَبِ الشمشاذ(٤)، وقطعه من جبل لبنان.

وقيل: إنه ورد في التوراة أنها كانت من الصنوبر.

---

(١) الدُّسُر جمع الدِّسار، وهي خيوط تُشَدُّ بها ألواح السفينة، وقيل: هي المسامير. مختار الصحاح (دسر).

(٢) الدر المنثور ٣/٣٢٧، وهو في تاريخ ابن عساكر ٦٢/٢٤٨ - ٢٤٩.

(٣) في الأصل و(م): سليمان الفراسي، ولم نعرفه، والخبر في تاريخ الطبري ١/١٨١، وتفسير القرطبي ١١/١١١، والمثبت منهما.

(٤) الشمشاذ، معرَّب شمشاد، وهو شجر السرو. تاج العروس (شمذ).

ورُوي أنه كان سام وحام ويافث يَنْحِتون معه، وفي رواية أنه عليه السلام كان معه أيضاً أُناسٌ استأجرهم يَنْحِتُون. وذُكر أن طولَها ثلاث مئة ذراع، وعرضها خمسون، وارتفاعها في السماء ثلاثون.

وأخرج ابنُ جرير[1] وغيره عن الحسن قال: كان طولُها ألفَ ذراع ومئتي ذراع، وعرضُها ست مئة ذراع، وصنع لها باباً في وسطها.

وأتمَّ صنعها على ما رُوي عن مجاهد في ثلاث سنين. وعن كعب الأحبار: في أربعين سنة، وقيل: في ستين، وقيل: في مئة سنة، وقيل: في أربع مئة سنة.

واختلف في أنه في أي موضع صَنَعها؟ فقيل: في الكوفة، وقيل: في الهند، وقيل: في أرض الجزيرة، وقيل: في أرض الشام.

وسفينةُ الأخبار في تحقيق الحال ـ فيما أرى ـ لا تصلحُ للركوب فيها؛ إذْ هي غيرُ سالمةٍ عن عيب، فالحَرِيُّ بحال من لا يَميل إلى الفُضول أن يؤمنَ بأنه عليه السلام صنعَ الفُلك حسبما قصَّ اللهُ تعالى في كتابه، ولا يخوض في مقدارِ طولها وعرضِها وارتفاعِها، ومن أيِّ خشب صَنَعها، وبكم مُدَّة أتمَّ عملَها، إلى غير ذلك مما لم يَشْرحه الكتابُ، ولم تُبيِّنه السنة الصحيحة.

هذا وفي التعبير بـ «يصنع» ـ على ما قيل ـ ملاءمةٌ للاستمرار المفهوم من الجُملة الواقعة حالاً من ضميره، أعني قوله تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ أي: استهزؤوا به لعمله السفينة، إما لأنهم ما كانوا يعرفونها ولا كيفيةَ استعمالها، فتعجَّبوا من ذلك وسَخِروا منه، ويشهدُ لِعَدَم معرفتهم ما رُوي عن ابن عباس أنه عليه السلام حين قال الله تعالى له: «اصنع الفلك» قال: يا ربّ، وما الفُلك؟ قال: بيتٌ من خَشَب يَجري على وجه الماء. قال يا رب: وأين الماء؟ قال: إني على ما أشاءُ قدير. وإما لأنه عليه السلام كان يصنعها في بَرِّيَّةٍ بعيدة عن الماء، وكانوا يتضاحكون، ويقولون: يا نوحُ، صرتَ نجاراً بعد ما كنت نبيّاً. وهذا مَبنيٌّ على أنَّ السفينة كانت معروفةً بينهم. ويشهد له ما أخرجه ابنُ جرير والحاكم وصحَّحه ـ وضعَّفه الذهبي ـ عن عائشة قالت: قال

---

(١) في تفسيره ١٢/ ٣٩٥.

رسولُ الله ﷺ: «كان نوحٌ قد مكث في قومه ألفَ سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم، حتى كان آخر زمانه غرس شجرةً فَعَظُمَتْ وذَهبتْ كلَّ مَذْهب، ثم قَطَعها، ثم جعل يعملُها سفينةً. فَيَرَوْنه ويسألونَه، فيقول: أعملُها سفينةً. فيسخرون منه ويقولون: تعمل سفينةً في البرّ! وكيف تجري؟! فيقول: سوف تعلمون»(١) الحديثَ.

والأكثرون ـ كما قال ابن عطية(٢) ـ على أنهم لم يكونوا رأوا سفينة قط، ولا كانت إذ ذاك.

وقد ذكر في كُتب الأوَّليات أنَّ نوحاً عليه السلام أولُ من عَمِلَ السفينة، والحقُّ أنه لا قَطْعَ بذلك. و«كلّ» منصوبٌ على الظرفية و«ما» مصدرية وقتية، أي: كلَّ وقتِ مرورٍ، والعامل فيه جوابه وهو «سخروا».

وقوله سبحانه: ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأن سائلاً سأل فقال: فما صنع نوحٌ عليه السلام عند بلوغهم منه هذا المَبْلغ؟ فقيل: قال: «إن تسخروا منا» لهذا العمل ومباشرةِ أسبابِ الخَلاص من العذاب «فإنا نسخر منكم» لما أنتم فيه من الإعراض عن استدفاعهِ بالإيمان والطاعة، ومن الاستمرارِ على الكُفر والمعاصي، والتعرُّضِ لأسباب حُلول سخط اللهِ تعالى التي من جُملتها سُخْريتكم منّا واستهزاؤكم بنا.

وإطلاقُ السُّخرية عليهم حقيقةٌ وعليه عليه السلام لِلمُشاكلة؛ لأنها لا تَليق بالأنبياء عليهم السلام، وفسَّرها بعضُهم بالاستجهال، وهو مجازٌ؛ لأنه سببٌ للسُّخرية، فأُطلقت السُّخرية وأُريد سببُها.

وقيل: إنها منه عليه السلام لمَّا كانت لجزائهم مِن جِنْس صَنيعهم لم تَقْبُحْ، فلا حاجةَ لارتكاب خلافِ الظاهر.

وجُمع الضمير في «منا» إما لأنَّ سُخريتهم منه عليه السلام سُخرية من المؤمنين أيضاً، أو لأنهم كانوا يسخرون منهم أيضاً، إلا أنه اكتفى بذِكرِ سُخريتهم منه عليه

---

(١) تفسير الطبري ١٢/ ٣٩٤، والمستدرك ٢/ ٣٤٢.

(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ١٧٠.

السلام، ولذلك تعرَّض الجميعُ للمجازاة في قوله: «نَسْخَرُ منكم» فتكافأ الكلامُ من الجانبين.

والتشبيهُ في قوله سبحانه: ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ ۝٣٨﴾ إما في مجرَّد التحقُّق والوقوع، وإما في التجدُّد والتكرُّر حسبما صدرَ عن ملأ بعد ملأ، وقيل: لا مانعَ من أنْ يُرادَ الظاهرُ، ولا ضررَ في ذلك لحديث الجزاء. ومن هنا قال بعضُهم: إنَّ في الآية دليلاً على جواز مُقابلةِ نحو الجاهل والأحمق بمثل فِعْله ويشهدُ له قولُه تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٤] ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦] إلى غير ذلك. والظاهرُ أنَّ كِلَا الفعلين واقعٌ في موقع[(١)] الحال.

وقال ابنُ جُريج: المعنى: «إنْ تسخروا مِنّا» في الدنيا «فإنا نَسْخرُ منكم» في الآخرة. وقيل: في الدنيا عند الغَرَق، وفي الآخرة عند الحَرَق، قال الطبرسي[(٢)]: إنَّ المرادَ من «نسخر منكم» على هذا: نُجازيكم على سُخريتكم، أو نَشْمتُ بكم عند غَرَقِكم وحَرقكم، وفيه خَفاءٌ.

هذا، وجُوِّز أن يكون عامل «كلما» «قال»، وهو الجواب، وجملة «سخروا» صفة لـ «ملأ»، أو بدل من «مرَّ» بدلَ اشتمال؛ لأنّ مرورَهم للسُّخرية، فلا يضرُّ كونُ السُّخرية ليست بمعنى المرور ولا نوعاً منه، وأبو حيان جعل ذلك مُبعِداً للبدلية[(٣)]، وليس بذلك.

ويلزم على هذا التجويز استمرارُ هذا القولِ منه عليه السلام، وهو ظاهر، وعلى الإعراب قيل: لا استمرارَ، وإنما أَجابهم به في بعض المرَّات، ورُجِّح بأنَّ المقصودَ بيانُ تناهيهم في إيذائه عليه السلام وتحمُّله لأذيَّتهم، لا مسارعته عليه السلام إلى الجواب كلما وقع منهم ما يؤذيه من الكلام.

وقد يقال: إنَّ في ذلك إشارةً إلى أنه عليه السلام بعد أن يَئِسَ من إيمانهم لم

---

(١) قوله: موقع، ليس في (م).
(٢) في مجمع البيان ١٢/ ١٤٩.
(٣) البحر ٥/ ٢٢١.

يُبالِ بإغضابهم، ولذا هدَّدهم التهديدَ البليغ بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: يَفْضَحُه، أو يُذِلُّه، أو يُهْلِكُه، وهي أقوالٌ متقاربةٌ، والمرادُ بذلك العذاب الغَرَقُ ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ حلولَ الدَّين المُؤَجَّل ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ أي: دائمٌ، وهو عذابُ النار.

و«مَن» عبارة عنهم، وهي موصولة في محلّ نصب مفعول للعلم، وهو بمعنى المعرفة فيتعدَّى إلى واحد. وجوَّز ابنُ عطية[١] أنْ يُرادَ العلم المتعدِّي إلى مفعولين، لكنه اقتصر على واحد، وتعقَّبه في «البحر»[٢] بأنه لا يجوز حذفُ الثاني اقتصاراً؛ لأن أصلَه خبرُ مبتدأ، ولا اختصاراً هنا؛ لأنه لا دليلَ على حَذْفِهِ.

وقيل: إنَّ «مَنْ» استفهامية مبتدأ، والجملةُ بعدَها خبر، وجملةُ المبتدأ والخبر مُعلَّق عنها سادَّة مَسَدَّ المفعول أو المفعولين.

قيل: ولما كان مدارُ سُخريتهم استجهالَهم إيَّاه عليه السلام في مُكابدة المَشَاقِّ الفادحة لِدَفْعِ ما لا يكاد يدخلُ تحت الصِّحة ـ على زَعْمهم ـ من الطُّوفان، ومُقاساةِ الشدائد في عمل السفينة، وكانوا يَعُدُّونه عذاباً = قيل بعد استجهالهم: «فسوف» إلخ، يعني: إن ما أُباشِرُه ليس فيه عذابٌ لاحِقٌ بي «فسوف تعلمون» مَنْ يُعذَّب، ولقد أصاب العلم بعد استجهالهم مَحَزَّه. انتهى. وهو ظاهرٌ على تقدير حَمْلِ السُّخرية المنسوبة إليه عليه السلام على الاستجهال. ولعله يُمكن إجراؤه على تقدير حَمْلها على ظاهرِها أيضاً بأدنى عناية. فافهم.

ووصفُ العذاب بالإخزاء لما في الاستهزاء والسُّخرية من لُحوق الخِزْي والعار عادةً، والتعرُّضُ لحلول العذاب المُقيم للمبالغة في التهديد، وفيه من المَجاز ما لا يخفى، وتخصيصُه بالمُؤَجَّل، وإيرادُ الأول بالإتيان [في][٣] غاية الجزالة.

وحكى الزهراوي أنه قُرئ: «يَحُلُّ» بضم الحاء[٤].

---

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ١٧٠.

(٢) ٥/ ٢٢٢.

(٣) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٤/ ٢٠٧، والكلام منه.

(٤) ذكرها أبو حيان في البحر المحيط ٥/ ٢٢٢.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ غايةٌ لقوله سبحانه: «يصنع الفُلك» و«حتى» إما جارّةٌ متعلِّقة به، و«إذا» لمجرّد الظرفية، وإما ابتدائية داخلةٌ على الشرط وجوابه، والجملةُ لا محلَّ لها من الإعراب، وحال ما وقع في البين قد مرت الإشارة إليه.

والأمرُ إما واحدُ الأوامر، أي: الأمرُ بركوب السفينة، أو بالفوران، أو للسحاب بالإرسال، أو للملائكة عليهم السلام بالتصرُّف فيما يُراد، أو نحو ذلك. وإما واحدُ الأمور، وهو الشأنُ، أعني نزول العذاب بهم.

﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ أي: نَبَعَ منه الماء وارتفع بشدَّة كما تفور القِدْرُ بِغَلَيانها، وفيه من الاستعارة ما لا يخفى.

والمرادُ من التنُّور تَنُّور الخبز عند الجمهور، وكان ـ على ما رُوي عن الحسن ومجاهد ـ تنوراً لحواء تخبزُ فيه، ثم صار لنوح عليه السلام، وكان من حِجارة.

وقيل: هو تنُّورٌ في الكوفة في موضع مسجدِها عن يمين الداخل مما يلي باب كندة، وجاء ذلك في روايةٍ عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه.

وقيل: تنورٌ بالهند.

وقيل: بعين وردة من أرض الجزيرة العمرية[1]، أو من أرض الشام.

وقيل: ليس المرادُ به تنوراً معيَّناً، بل الجنس، والمرادُ: فار الماءُ من التنانير، وفي ذلك من عجيبِ القُدرة ما لا يخفى.

ولا تنافي بين هذا وقوله سبحانه: ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا﴾ [القمر: ١٢] إذْ يمكن أن يكونَ التفجيرُ غيرَ الفوران، فحصل الفورانُ للتنور والتفجيرُ للأرض، أو يُراد بالأرض أماكنُ التنانير.

ووَزْنُه تَفْعول من النور، وأصله تَنْوور، فقلبت الواو الأُولى همزة لانضمامها، ثم حُذفت تخفيفاً، ثم شُدِّدتْ النون عوضاً عما حُذف، ونُقل هذا عن ثعلب.

وقال أبو علي الفارسي: وزنه فَعُّول. وقيل على هذا: إنه أعجمي، ولا اشتقاق

---

(١) عين وردة: هي رأس عين، المدينة المشهورة بالجزيرة، وبقربها يقع جبل طورزيتا عند قنطرة الخابور. ينظر معجم البلدان ٤/٤٧- و١٨٠.

له، ومادَّته تنر، وليس في كلام العرب نون قبل راء، ونرجس مُعرَّب أيضاً، والمشهورُ أنه مما اتَّفق فيه لغة العرب والعجم، كالصابون والسَّمُّور.

وعن ابن عباس وعكرمة والزهري: أن «التنُّور» وجه الأرض هنا. وعن قتادة أنه أشرفُ موضع منها، أي: أعلاه وأرفعُه. وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وغيرهما عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه أنه تنوير الصبح[(١)]. والظاهر أنه لم يستعمل في اللغة العَجَمية بهذه المعاني الأخيرة.

وجُوِّز أن يكون فورانُ التنُّور مجازاً عن ظهور العذاب وشِدَّة الهول، وهذا كما جاء في الخبر: «حَمِيَ الوطيس»[(٢)] مجازاً عن شِدَّة الحرب، وليس بين الجُملتين كثيرُ فرق في المعنى، وهو معنًى حسنٌ لكنه بعيدٌ عما جاءت به الأخبار.

﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا﴾ أي: في الفلك، وأنَّث الضميرَ لأنه بمعنى السفينة، والجملةُ استئنافٌ أو جواب إذا. ﴿مِن كُلٍّ﴾ أي: من كلِّ نوع من الحيوانات يَنتفع به الذين ينجون من الغَرق وذراريهم بعدُ، ولم تكن العادةُ جاريةً بخلقه من غير ذكر وأُنثى.

والجار والمجرور متعلِّق بـ «احمل»، أو بمحذوف وقع حالاً من مفعوله، أعني قوله سبحانه: ﴿زَوْجَيْنِ﴾ وهو تثنيةُ زوج، والمرادُ به الواحدُ المُزدوِج بآخرَ من جنسه، فالذكرُ زوجٌ للأنثى كما هي زوجٌ له، وقد يُطلق على مجموعهما، وليس بمراد، وإلا لَزِمَ أن يحمل من كلِّ صنفٍ أربعة، ولئلا يُرادَ ذلك وصف بقوله تعالى: ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ وحاصلُ المعنى: احمل ذكراً وأُنثى من كل نوع من الحيوانات.

وقرأ الأكثرون: «مِنْ كلِّ زوجين» بالإضافة[(٣)]، فـ «اثنين» على هذا مفعول «احمل»، و«من كلِّ زوجين» حال منه، ولو أُخِّر لكان صفةً له، أي: احمل اثنين من كلِّ زوجين، أي: صنف ذَكر وصنف أُنثى. وقيل: «مِن» زائدة، وما بعدَها مفعولُ

---

(١) تفسير الطبري ١٢/ ٤٠١-٤٠٣.

(٢) قطعة من حديث طويل أخرجه أحمد (١٧٧٥)، ومسلم (١٧٧٥). والوطيس: التنور. قاله السندي كما في حاشية المسند.

(٣) قرأ حفص: «كلٍّ» بالتنوين، وقرأ الباقون بالإضافة. التيسير ص١٢٤، والنشر ٢/ ٢٨٨.

«احمل»، و«اثنين» نعت لـ «زوجين» بناءً على جواز زيادة «من» في الموجب.

ثم ما ذكرناه في تفسير العموم هو الذي مال إليه البعضُ، وأدرج فيه أناسٌ الهوامَّ والطير.

وذكر أنه رُوي أنه عليه السلام جعل للسفينة ثلاثةَ بطون، وحمل في البطن الأسفل الوحوشَ والسِّباعَ والهوامَّ، وفي البطن الأوسط الدوابَّ والأنعام، ورَكِبَ هو ومَن معه في البطن الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد، وحمل معه جسدَ آدم عليه السلام، وجعله مُعترضاً بين الرجال والنساء، وكان حمله بوصية منه عليه السلام وتوارثها وَلدُه حتى وصلَتْ إلى نوح عليه السلام.

ويُعارض هذا التقسيم ما رُوي أنَّ الطبقةَ السُّفلى للوحش والوسطى للطعام والعليا له عليه السلام ولمن آمن.

وتوسَّع بعضُهم في العموم فأدرج فيه ما ليس من جنس الحيوان، وأيّد بما أخرجه إسحاق بن بشر وغيره عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه مرفوعاً «أنَّ نوحاً عليه السلام حَمل معه في السفينة مِن جميع الشجر»[1]. وبما أخرجه أبو الشيخ عن جعفر بن محمد رضي الله عنهما قال: أُمِرَ نوحٌ عليه السلام أن يحمِلَ معه مِن كلٍّ زوجين اثنين، فحمل من التمر العجوة واللون[2].

وأخرج النَّسائي عن أنس بن مالك أنَّ نوحاً عليه السلام نازعه الشيطانُ في عود الكرم، فقال: هذا لي. وقال نوحٌ: هو لي. فاصطلحا على أنَّ لنوح ثُلُثَها وللشيطان ثُلثيها[3].

ولا يكادُ يُعَوَّل على مثل هذه الأخبار عند التنقير[4]. ومما يُحمل معها في

---

(١) أخرجه إسحاق بن بشر في المبتدأ كما في كنز العمال ٢/ ٤٣٧، ومن طريقه أخرجه ابن عساكر ٦٢/ ٢٦١.

(٢) الدر المنثور ٣/ ٣٣٠، والعجوة: ضرب من أجود التمر بالمدينة. واللون: الدَّقَل، وهو أردأ أنواع التمر. اللسان (عجو) و(لون) و(دقل) وقد تحرفت العبارة في مطبوع الدر المنثور إلى: فحمل من اليمن العجوة واللوز.

(٣) المجتبى ٨/ ٣٣٠.

(٤) التنقير: البحث. اللسان (نقر).

سفينة ما أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: تأذَّى أهلُ السفينة بالفأر، فعطس الأسدُ فخرجَ من مَنْخِريهِ سِنَّوران ذكرٌ وأُنثى، فأكلا الفأرَ إلا ما أراد اللهُ تعالى أن يبقى منه، وتأذَّوا بأذى أهلِ السفينة، فعطس الفيلُ فخرج من مَنْخِريه خنزيران ذكر وأُنثى، فأكلا أذى أهلِ السفينة(١).

وفي روايةِ الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» وابن جرير وغيرهما عنه أنَّ نوحاً عليه السلام شكا إلى الله تعالى قرضَ الفأر حبالَ السفينة، فأوحى الله إليه، فمسح جبهةَ الأسد فخرجَ سِنَّوران، وشكا عَذِرَةً في السفينة، فأَوحى إليه سبحانه، فمسح ذنبَ الفيل، فخرج خنزيران، فأكلا العَذرَةَ(٢).

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق زيد بن أسلم عن أبيه مرفوعاً أن أهلَ السفينة شكَوا الفأرةَ فقالوا: الفُويسقة تُفسد علينا طعامَنا ومتاعَنا، فأوحى اللهُ تعالى إلى الأسد فعطسَ، فخرجت الهِرَّةُ منه، فتخبَّأت الفأرة منها(٣).

ولم يذكر فيه بحث الخنزير، ويُفهم منها على ما فيها أنَّ الهِرَّة لم تكن عند الحمل، ومن الأولين أنها والخنزير لم يكونا، وفي بعض الآثار ما يُخالفه، فقد أخرج أحمد في «الزهد» وأبو الشيخ عن وَهْب بن مُنَبِّه قال: لما أمر اللهُ تعالى نوحاً عليه السلام بالحمل قال: كيف أصنعُ بالأسد والبقرة؟ وكيف أصنع بالعَنَاق(٤) والذئب؟ وكيف أصنع بالحمام والهِرّ؟ فقال الله تعالى: مَنْ أَلقَى بينهما العداوة؟ قال: أنت يا رب. قال: فإني أُؤَلِّف بينهم حتى لا يتضارُّون(٥).

ولا يخفى ما بين هذا وبين التقسيم الأول أيضاً.

وجاء في شأن الأسد روايات مختلفة: ففي روايةٍ أن أصحابَه عليه السلام قالوا: كيف نَطْمئنُّ ومعنا الأسد؟ فسلَّط الله تعالى عليه الحُمَّى، وكانت أولَ حُمَّى نزلت الأرض.

---

(١) الدر المنثور ٣/ ٣٣١.

(٢) نوادر الأصول ص١٣١، وتفسير الطبري ١٢/ ٤٠٠.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٣١.

(٤) العَناق: الأنثى من ولد المَعْز. مختار الصحاح (عنق).

(٥) الدر المنثور ٣/ ٣٣٠، ولم نقف عليه في مطبوع الزهد لأحمد.

وفي رواية: أنه كان يُؤذيهم في السفينة، فأُلقيتْ عليه الحُمَّى ليشتغلَ بنفسه.

وفي أُخرى: أنه عليه السلام حين أمر بالحمل قال: يا رب، كيف بالأسد والفيل؟ فقال له سبحانه: سأُلقي عليهما الحُمَّى، وهي ثقيلة.

وفي أُخرى عن أبي عُبيدة أنه عليه السلام حين أُمر بالحمل لم يستطع أن يحملَ الأسدَ حتى أُلقيت عليه الحُمَّى، فحمله فأَدخله.

ولا يخفى أنها مع دلالة بعضها على أنَّ إلقاءَ الحُمَّى قبلَ الدخول، وبعضها على أنه بعدَه، وكان يُغني عن إلقائها بعدُ ـ دفعاً لأذاه[1] ـ التأليفُ بينه وبين الإنسان، كما أُلِّف بين ما مرَّ بعضهِ مع بعض، ولعلَّ لِدَفْع الأذى بالحُمَّى دون التأليف ـ إنْ صحَّ ذلك ـ حكمةً، لكنها غيرُ ظاهرة لنا.

وجاء في بعض الآثار ما يُفهم منه أنه كان معه عليه السلام في السفينة من الجن ما كان، وفي بعضها أنَّ إبليسَ ـ عليه اللعنة ـ كان أيضاً؛ فعن ابن عباس أنه لما أراد اللهُ تعالى أن يُدخل الحمارَ السفينة أخذَ نوحٌ بأذني الحمار، وأخذَ إبليسُ بذنبه، فجعل نوحٌ يَجذِبُه، وجعل إبليسُ يجذبه، فقال نوح عليه السلام: ٱدْخُل شيطان، فدخل الحمار ودخل إبليسُ معه، فلما سارت السفينةُ جلسَ في ذنبها يتغنَّى، فقال له نوح: ويلك مَنْ أذِنَ لك؟ قال: أنت، قال: متى؟ قال: إذْ قلتَ للحمار: ادخُلْ شيطان، فدخلت بإذنٍ منك.

وفي رواية أُخرى عنه أن نوحاً عليه السلام قال للحمار: ويحك، ادخُلْ وإنْ كان الشيطانُ معك، كلمة جَرَتْ على لسانه، فدخل ودخلَ معه الشيطان[2].

وأخرج ابنُ عساكر عن عطاء أن اللعينَ جاء لِيركَبَ السفينةَ فدفَعه نوحٌ عليه السلام فقال: يا نوحُ، إني منظورٌ، ولا سبيل لك عليَّ. فعرف أنه صادقٌ، فأمره أن يجلسَ على خَيْزُرانِ السفينة. وهو بظاهره مُخالفٌ لما رُوي عن ابن عباس[3].

---

(١) في (م): لأذاء.

(٢) تفسير الرازي ١٢/ ٢٩٨.

(٣) أورد هذه الأخبار السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٣٠-٣٣١، وهي من الإسرائيليات التي لا أساس لها.

واختلفوا في أنه كيف جُمعت الحيواناتُ على تفرُّقها في أكناف الأرض، فقيل: إنها أَحسَّتْ بالعذاب فاجتمعت.

وعن الزهري أن اللهَ تعالى بعثَ ريحاً فحمل إليه من كلٍّ زوجين اثنين من الطير والسِّباع والوحش والبهائم.

وعن جعفر بن محمد رضي الله عنهما أن الله تعالى بعثَ جبريلَ عليه السلام فحشرها، فجعل عليه السلام يضربُ بيديه على الزوجين فتقع يدُه اليُمنى على الذَّكَر واليُسرى على الأُنثى، فيُدْخِلُهما السفينة، حتى أدخل عِدَّةَ ما أمر اللهُ تعالى به.

وروى إسحاقُ بن بِشْر وغيرُه عن زيدِ بن ثابت أنه استعصَتْ عليهِ عليهِ السلام الماعزةُ، فدفعها في ذنبها فمن ثَمَّ انكسر وبدا حياها، ومضت النعجةُ حتى دخلَتْ، فمسح على ذنبها فَسُتِرَ حياها.

وفي كتب الأخبار كثيرٌ من هذه الآثار التي يقضى منها العجب، وأنا لا أعتقدُ سوى أنَّ الله تعالى ـ عزَّتْ قُدرته ـ خلق الماعزةَ والنعجةَ من قبلُ على ما هما عليه اليوم، وأنه سبحانه لم يخلقِ الهِرَّةَ من الأسد وإنْ أَشبهته صورةً، ولا الخنزير من الفيل وإنْ كان بينهما شبهٌ ما كما شاهدناه عامَ مَجيء الفيل إلى بغداد، ولو كُلِّفَ الفيلُ أكلَ العَذِرة لكان أحبَّ إلى أهل السفينة من زيادة خنْزير فيها، وأحبُّ من ذلك كلِّه إليهم أن لا يكونَ في السفينة غيرُهم، أو يكون حيوانٌ واحدٌ يخلُقُ لهم من عُطاسهِ ما يُريدونه من الحيوانات ويحتاجون إليه بعد!

والذي يميلُ القلبُ إليه أن الطوفان لم يكن عامّاً ـ كما قال به البعضُ ـ وأنه عليه السلام لم يُؤمر بحمل ما جَرَتِ العادةُ بتكوُّنه من عُفونةِ الأرض كالفأرِ والحشرات، بل أمر بحمل ما يُحتاج إليه إذا نجا ومَنْ معه من الغَرق لئلا يغتمُّوا لِفَقْده ويتكلَّفوا مشقَّة جَلَبهِ من الأصقاع النائية التي لم يَصِلْها الغرقُ، فكأنَّه قيل: قلنا: احمِلْ فيها من كل ما تحتاجونه إذا نجوتم زوجين اثنين.

وإنْ قلنا بعموم الغرق نقول أيضاً: إنه عليه السلام لم يُكلَّفْ بحمل شيء من المُتكوِّنات من العُفونة، بل كُلِّف بالحمل مما يتناسلُ من الحيوانات لمصلحةِ بقاء النوع، وكانت السفينةُ بحيث تسعُ ذلك عادةً أو مُعجزةً، وقُدرةُ الله تعالى أجلُّ من أن تضيقَ عن ذلك.

وإن قيل بالعموم على وجهٍ يبقى معه بعضُ الجبال جاز أن يقال: إنه عليه السلام لم يحملْ إلا مما لا مهربَ له ويضرُّ فقده بجماعته.

ولو قيل: إن العمومَ على إطلاقه، وإنه عليه السلام لم يحمل في السفينة إلا ما تتَّسعُ له عادةً مما يُحتاج إليه، لئلا يضيقَ أصحابه ذرعاً بفقده بالكُلِّية حسبما تقتضيه الطِّباع البشرية، وغَرِقَ ما عدا ذلك، لكن الله تعالى جلَّت قُدرته خلق نظيرَ ما غَرِقَ بعدُ على الوجهِ الذي فعل قبلُ، لم يكن ذلك بِدْعاً ممن أَمْرُه بين الكافِ والنون جلَّ شأنُه وعَظُمَ سلطانه.

هذا، وإنما قُدِّم ذلك على أهلِهِ وسائر المؤمنين قيل: لكونه عريقاً بالحمل المأمورِ به؛ لأنه يحتاج إلى مُزاولةِ الأعمال منه عليه السلام في تمييز بعضٍ عن بعض وتعيين الأزواج، وأما البشرُ فإنما يدخلُ الفُلك باختياره، فيخفُّ فيه معنى الحمل، أو لأنَّ ذلك إنما يُحمل بمباشرة البشر، وهم إنما يدخلونها بعد حَمْلهم إيَّاه، ويجوز أن يكون التقديم حفظاً للنظم الكريم عن الانتشار، وأيّاً ما كان فقولُه سبحانه: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ عطفٌ على «زوجين» أو على «اثنين».

والمرادُ بأهله على ما في بعض الآثار: امرأتُه المسلمة وبنوه منها، وهم سام عليه السلام ـ وهو أبو العرب ـ وأصله على ما قال البكري: بالشين المعجمة[(١)]، وحام ـ وهو أبو السودان ـ قيل: إنه أصابَ زوجته في السفينة فدعا نوحٌ عليه السلام أن تُغيَّر نطفته فَغُيِّرتْ، وأخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق ابن جُريج عن أبي صالح[(٢)]. ويافِث ـ كصاحب ـ وهو أبو الترك ويأجوج ومأجوج، وزوجة كلٍّ منهم.

﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ بأنه من المُغْرَقين، لِظُلمهم، وذلك في قوله سبحانه: (وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ) الآية، والمرادُ زوجةٌ له أُخرى تُسمَّى واعلة، بالعين المهملة ـ وفي رواية والقة ـ وابنه منها كنعان، وكان اسمه فيما قيل: يام، وهذا لَقَبُه عند أهل الكتاب، وكانا كافرين، وفي هذا دلالةٌ على أنَّ الأنبياء عليهم السلام

---

(١) معجم ما استعجم ٣/ ٧٧٣، والذي فيه: واسمه سام بالسين المهملة، فَعُرِّب، فقيل: شام، بالشين المعجمة.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٣٢.

يحلُّ لهم نكاحُ الكافرة بخلاف نبيِّنا ﷺ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ﴾ الآية [الأحزاب: ٥٠].

والاستثناءُ جوِّز أن يكون متصلاً إنْ أُريد بالأهل الأهلُ إيماناً، وأن يكون منقطعاً إنْ أُريدَ به الأهلُ قَرابةً، ويكفي في صحةِ الاستثناء المعلومية عند المراجعة إلى أحوالهم والتفحّصِ عن أعمالهم، وجِيء بـ «على» لكون السابق ضارّاً لهم، كما جِيء باللام فيما هو نافعٌ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٧١] وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ عطفٌ على الأهل، أي: والمؤمنين من غيرهم، وإفرادُ أولئك منهم للاستثناء المذكور، وإيثارُ صيغة الإفراد في «آمن» محافظة على لفظ «من» للإيذان بالقِلَّة كما أفصحَ عن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ قيل: كانوا سبعةً: زوجتُه وأبناؤه الثلاثة، وكنائنه الثلاث، ورُوي هذا عن قتادة والحكم بن عقبة وابن جُريج ومحمد بن كعب، ويَردُّه عطفُ «ومَنْ آمن» على الأهل إلا أن يكونَ الأهلُ بمعنى الزوجة، فإنه قد ثبتَ بهذا المعنى، لكن قيل: إنه خلافُ الظاهر، والاستثناءُ عليه منقطعٌ أيضاً.

وعن ابن إسحاق أنهم كانوا عشرةً: خمسة رجال وخمس نسوة. وعنه أنهم كانوا مع نوح عليه السلام عشرين نصفهم رجال ونصفهم الآخر نساؤهم.

وقيل: كانوا ثمانيةً وسبعين نصفهم ذكور ونصفهم أناث.

وقيل: كانوا ثمانين رجلاً وثمانين امرأة.

وقيل وقيل، والروايةُ الصحيحة أنهم كانوا تسعةً وسبعين؛ زوجته وبنوه الثلاثة ونساؤهم واثنان وسبعون رجلاً وامرأة من غيرهم من بني شيث.

واعتبارُ المعية في الإيمان للإيماء إلى المعية في مَقَرِّ الإيمان والنجاة.

﴿وَقَالَ﴾ أي: نوحٌ عليه السلام لمن معه من المؤمنين كما يُنبئ عنه قوله تعالى: (إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ).

وقيل: الضمير لله تعالى. وفيه أنه لو كان كذلك لكان المناسبُ: إنَّ ربَّكم. . . إلخ.

ولعل هذا القولَ بعد إدخال ما أُمر بحمله في الفُلك من الأزواج، كأنه قيل: فحمل الأزواجَ حسبما أُمر، أو أَدخلَها في الفُلك، وقال للمؤمنين: ﴿ٱرْكَبُواْ فِيهَا﴾ أي: صيروا فيها، وجعل ذلك ركوباً؛ لأنها في الماء كالمركوب في الأرض، ففيه استعارةٌ تبعية من حيث تشبيهُ الصيرورةِ فيها بالركوب، وقيل: استعارةٌ مَكْنية، والتعدية بفي لاعتبار الصيرورة، وإلا فالفعل يتعدَّى بنفسه، وإلى هذا ذهب القاضي البيضاوي(١). وقيل: التعدية بذلك لأنه ضُمِّن معنى «ادخلوا». وقيل: تقديره اركبوا الماءَ فيها، وقيل: في زائدة للتوكيد. وكأنَّ الأول أولى.

وقال بعض المُحقِّقين(٢): الركوبُ العلو على شيء متحرِّك، ويتعدَّى بنفسه، واستعمالُه هاهنا بفي ليس لأنَّ المأمورَ به كونهم في جوفها لا فوقَها كما ظُنَّ، فإن أظهرَ الروايات أنه عليه السلامَ رَكِبَ هو ومن معه في الأعلى، بل لرعاية جانب المَحلِّية والمكانية في الفُلك. والسرُّ فيه أن معنى الركوب العلو على شيء له حركة، إما إرادية، كالحيوان، أو قَسْرية كالسفينة والعَجَلة ونحوهما، فإذا استُعمل في الأول توفَّر له حظُّ الأصل فيقال: رَكِبْتُ الفرسَ، وعليه قولُه تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ [النحل: ٨] وإن استُعمل في الثاني يلوحُ بمحلية المفعول بكلمة في، فيقال: رَكِبْتُ في السفينة، وعليه الآيةُ الكريمة وقولُه سبحانه: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ﴾ [العنكبوت: ٦٥] و﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ [الكهف: ٧١]. انتهى، وظاهرُه أنَّ الركوبَ هاهنا حقيقي، وصرَّح بعضُهم أنه ليس به.

وقال الراغب: الركوبُ في الأصل كونُ الإنسان على ظهر حيوان، وقد يُستعمل في السفينة(٣). وفيه تأكيدٌ لما صرَّح به البعض.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ حال من فاعل «اركبوا» والباء للملابسة، ولما كانت ملابسةُ اسم الله عزَّ اسمه بذكره قالوا: المعنى: اركبوا مُسمِّين الله، وجوَّزوا أن تكون الحال محذوفةً، وهذا معمولٌ لها سادٌّ مَسَدَّها، ولذلك سمَّوه حالاً، والأصلُ: «اركبوا» قائلين: «بسم الله».

---

(١) في تفسيره (بهامش حاشية الشهاب) ٥/٩٨.

(٢) هو أبو السعود في تفسيره ٤/٢٠٩.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن (ركب).

﴿مَجْرِنهَا وَمُرْسَنهَآ﴾ نصب على الظرفية، أي: وقتَ إجرائها وإرسائها على أنهما اسما زمان، أو مصدران ميميان بمعنى الإجراء والإرساء، ويُقدَّر مضاف محذوف، وهو وقت، كما في قولك: أتيتُكَ خُفوقَ النجم، فإنَّ التقدير: وقتَ خُفوقه، إلا أنه لما حُذِفَ المضاف سدَّ المضافُ إليه مَسَدَّه، وانتصب انتصابَه، وهو كثيرٌ في المصادر. ويجوز أن يكونا اسميْ مكان.

وانتصابُهما بالاستقرار الذي تعلَّق به الجار والمجرور، أو بقائلين، ولا يجوز أن يكون بـ «اركبوا» إذْ ليس المعنى على: اركبوا في وقت الإجراء والإرساء، أو في مكانهما، وإنما المعنى: مُتبرِّكين، أو قائلين فيهما، وتُعُقِّب القولُ بانتصابهما مطلقاً بأنهما محدودان، ومحدودُ المكان لا بدَّ له من في، وبعضُهم يُجوِّز النصبَ في مثل ذلك بما فيه من الإبهام.

وجوّز رفعُهما فاعلين[1] بالظرف لاعتماده على ذي الحال، أو على أنهما مبتدأ ومعطوفٌ عليه، و«بسم الله» خبرٌ، أو الخبر محذوف تقديره: متحققان ونحوه، وهو صلة لهما، والجملةُ إما مُقتضَبةٌ منقطعةٌ عما قبلَها لاختلافهما خبراً وطلباً على أنَّ نوحاً عليه السلام أَمرهم بالركوب في السفينة، ثم أخبرهم بأنَّ إجراءها وإرساءها باسم الله تعالى، أو بأنَّ إجراءها وإرساءَها باسمه تعالى متحقِّقان لا يُشَكُّ فيهما، وفي ذلك حثٌّ على الركوب وإزالةٌ لما عسى يختلجُ في قلوبهم من خوف الغَرَق ونحوه، ويُروى عن الضحاك أنه عليه السلام كان إذا أراد أن يُجريها، يقول: «بسم الله» فتجري، وإذا أراد أنْ يُرسِيَها قال: «بسم الله» فترسُو، وإما في موضع الحال من ضمير الفلك، أي: اركبوا فيها مجراة ومرساة باسم الله، وهي حال مقدَّرة، إذْ لا إجراءَ ولا إرساءَ وقتَ الركوب. كذا قيل.

وتعقَّبه في «التقريب» بأنَّ الحال إنما تكون مُقدَّرة إذا كانت مفردة، كمجراة، أما إذا كانت جملةً فلا؛ لأن معنى الجملة: اركبوا وإجراؤها بسم الله، وهذا واقعٌ حال الركوب. انتهى.

---

(١) في الأصل: مصدرين.

وأجاب عنه في «الكشف» بأنه لا فرقَ بين قوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] وقول القائل: ادخلوها وأنتم مُخلَّدون، في عدمِ المُقارنة والرجوعِ إلى الحال المُقدَّرة، فكذلك ما نحن فيه. واعترض على المُجيب بأنَّ مرادَ ذلك القائل إجراؤها مجرى المُفرد على نحو: كلَّمته فوهُ إلى فيَّ، بأنه تكلُّفٌ لا حاجةَ إليه، وهو غير مُسلَّم في المُستشهد به أيضاً، وإنما ذلك في قول القائل: كلَّمته فاه إلى فيَّ. انتهى.

وكأنه لم ينكشِفْ له مُرادُ صاحب «التقريب»، فإنهم ذكروا أن الفرقَ بين الحال إذا كانت مفردةً وإذا كانت جملةً أن الثانيةَ تقتضي التحقُّق في نفسها والتلبُّس بها، وربما أشعرت بوقوعها قبل العامل واستمرارها معه، كما إذا قلتَ: جاءني وهو راكبٌ، فإنه يقتضي تلبُّسه بالركوب واستمراره عليه، وهذا يُنافي كونها مُنتظرةً، ولا أقلَّ من أنْ لا يحسنَ الحملُ عليه حيث تيسَّر الإفراد فافهم.

وجوِّز أن تكون حالاً مقدَّرة أيضاً من فاعل «اركبوا»، واعتُرض بأنه لا عائدَ على ذي الحال، وضميرُ «بسم الله» للمبتدأ، وتقديره: أي: فإجراؤها معكم أو بكم كائن بسم الله تكلُّف، والقول بأنَّ الرضي قد ذكر أن الجملةَ الحالية إذا كانت اسميةً قد تخلو من الرابطين عند ظهور المُلابسة نحو: خرجت زيدٌ على الباب، ليس بشيء لضعف ما ذكر في العربية، فلا ينبغي التخريجُ عليه، نعم كون الاسميةِ لا بدَّ فيها من الواو، والقول بأنَّ الحال المُقدَّرة لا تكون جملة مطلقاً، كلٌّ منهما في حيِّز المنع كما لا يخفى.

وجُوِّز أن يكون الاسم مُقحماً كما في قول لبيد:

فقوما وقُولا بالذي قد عَرَفْتُما ... ولا تَخْمِشا وجهاً ولا تَحْلِقا الشَّعَر
إلى الحولِ ثمَّ اسمُ السلام عليكما ... ومَنْ يبكِ حولاً كاملاً فقد اعتذَر(١)

ويُراد: بالله إجراؤها وإرساؤها، أي: بقدرته، أو بأمره، أو بإذنه، ويقدَّر ذلك أو يُراد معنًى. وخَصَّ بعضهم هذا الجوازَ بما إذا لم يقدَّر مُسمِّين أو قائِلين، إذْ لا يظهر المعنى حينئذ، ويجري على تقديري الكلام الواحد والكلامين، وكذا

(١) شرح ديوان لبيد ص٢١٣-٢١٤، وفيه: شعر، بدل: الشعر.

على تقدير الزمان والمكان في رأي، ويُعتبر الإسنادُ مَجازيّاً من قَبيل: نهارُه صائمٌ وطريق بَرٌّ.

وقُرئ: «مَجريها ومَرساها» بفتح الميم[١] مصدرين، أو زمانين، أو مكانين على أنهما من جَرى ورَسا الثُّلاثيين.

وقرأ مجاهد: «مُجرِيها ومُرسِيها» بصيغة اسم الفاعل[٢]. وخرَّج ذلك أبو البقاء[٣] على أنهما صفتان للاسم الجليل، وقيل عليه: إنَّ إضافةَ اسم الفاعل إذا كان بمعنى المستقبل لفظية، فهو نكرةٌ لا يَصِحُّ توصيفُ المعرفة به، فالحقُّ البدلية، والقولُ بأنَّ مرادَ المُعرب الصفةُ المعنوية لا النعت النحوي فلا يُنافي البدلية بعيدٌ، لكن عن الخليل: إنَّ ما كانت إضافته غير مَحْضة قد يَصِحُّ أن تُجعل محضةً فتُعرَّف، إلا ما كان من الصفة المُشبهة فلا تتمحَّض إضافتُها فلا تُعرَّف.

والرُّسوُّ الثُّبوت والاستقرار، ومنه قول الشاعر:

فَصَبرتُ نَفْساً عند ذلك حُرَّةً ترسُو إذا نفسُ الجَبانِ تَطلَّعُ[٤]

﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝﴾ قيل: الجملةُ مستأنفةٌ لبيان المُوجب، أي: لولا مغفرتُه لفرطاتكم ورحمتُه إياكم لما أنجاكم من هذه الطَّامة إيمانُكم، وفيه دلالةٌ على أنَّ نجاتَهم لم تكن عن استحقاق بسبب أنهم كانوا مؤمنين، بل بمحض رحمةِ الله تعالى وغُفرانه على ما عليه أهلُ السنة.

ومَنْعُ صلاحية كونها علَّةً لـ «اركبوا» لعدم المناسبة، فيقدَّر ما يصح به الكلام بأن يقال: امتثلوا هذا الحُكمَ لِيُنجيكم من الهلاك بمغفرته ورحمته، أو يقال:

---

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف: «مَجْريها» بفتح الميم، وقرأ الباقون بالضم. واتفق العشرة على ضم الميم في «مُرساها». التيسير ص١٢٤، والنشر ٢/ ٢٨٨. وقرأ ابن مسعود وعيسى الثقفي وزيد بن علي والأعمش: «مَرْساها» بفتح الميم. البحر المحيط ٥/ ٢٢٥.

(٢) القراءات الشاذة ص٦٠، والبحر المحيط ٥/ ٢٢٥.

(٣) في إملاء ما من به الرحمن (بهامش الفتوحات الإلهية) ٣/ ٢٧٥.

(٤) البيت لعنترة، وهو في ديوانه ص٤٩، وفيه: فَصَبَرْتُ عارفةً لذلك...

اركبوا فيها ذاكرين الله تعالى، ولا تخافوا الغَرَقَ لما عسى فَرَطَ منكم من التقصير؛ لأن الله تعالى شأنه غفورٌ للخطايا والذنوب رحيمٌ بعباده.

وجعلها بعضُهم تعليلاً بالنظر إلى ما فيها من الإشارة إلى النجاة، فكأنه قيل: اركبوا لِيُنجِيَكم الله سبحانه.

وقوله سبحانه: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ جُوِّز فيه ثلاثةُ أوجه: الأول: أن يكون مستأنفاً. الثاني: أن يكون حالاً من الضمير المُستتر في «بسم الله» أي: جَريانها استقرَّ بسم الله حالَ كونها جارية. الثالث: أنه حالٌ من شيء محذوف دلَّ عليه السياق، أي: فركبوا فيها جارية، والفاء المُقدَّرة للعطف. و«بهم» متعلِّقٌ بـ «تجري»، أو بمحذوف، أي: مُلتبسة، والمضارع لحكايةِ الحال الماضية، ولا معنى للحالية من الضمير المُستتر في الحال الأولى كما لا يخفى.

والموجُ ما ارتفع من الماء عند اضطرابه، واحدُه مَوْجة.

و«كالجبال» في موضع الصفة لـ «موج»، أي: في موجٍ مرتفعٍ مُتفاوِتٍ في الارتفاع مُتراكم. وقيل: إنها جَرَتْ بهم في موج كذلك وقد بقي منها فوق الماء ستةُ أذرع، واستشكل هذا الجَريان مع ما رُوي أن الماء طبقَ ما بين السماء والأرض، وأنَّ السفينةَ كانت تجري في داخله كالسمك.

وأُجيب بأنَّ الرواية مما لا صحةَ لها ويكادُ العقلُ يأبى ذلك، نعم أخرج ابنُ أبي شيبة وابن جرير وابن عساكر وعبد بن حُميد من طريق مجاهد عن عُبيد بن عُمير قال: إنَّ الماء علا رأسَ كل جبل خمسةَ عشرَ ذراعاً[1]. على أنه لو سُلِّم صحةُ ما ذُكر فهذا الجَريان كان في ابتداء الأمر قبلَ أن يتفاقمَ الخطبُ كما يدلُّ عليه قولُه سبحانه: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ إلخ، فإن ذلك إنما يُتَصوَّر قبل أن تنقطعَ العلاقةُ بين السفينة والبر، إذْ حينئذ يمكن جريان ما جرى بين نوح عليه السلام وبين ابنه من المُفاوضةِ والاستدعاءِ إلى السفينة والجوابِ بالاعتصام بالجبل.

وقال بعض المُحقِّقين: إنَّ هذا النداءَ إنما كان قبلَ الركوب في السفينة، والواو

---

(١) الدر المنثور ٣/ ٣٣٢.

لا تدلُّ على الترتيب، وعن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنه قرأ: «ابنها»[١] على أنَّ ضميرَ التأنيث لامرأته، وفي إضافته إليها إشعارٌ بأنه رَبيبُه؛ لأن الإضافةَ إلى الأم مع ذِكْر الأب خلافُ الظاهر وإنْ جوَّزوه، ووُجِّهَ بأنه نُسب إليها لكونه كافراً مثلها، وما يقال: من أنه كان لغير رِشْدة[٢] لقوله سبحانه: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠] فارتكابُ عظيمة لا يُقادر قَدْرها، فإن اللهَ تعالى قد طهَّر الأنبياءَ عليهم السلام عما هو دون ذلك من النقص بمراحلَ، فحاشاهم ثم حاشاهم أن يُشار إليهم بأصبع الطَّعن، وإنما المرادُ بالخيانةِ الخيانةُ في الدين، ونِسبةُ هذا القول إلى الحسن ومجاهد ـ كما زعم الطبرسي[٣] ـ كذبٌ صريح.

وقرأ محمد بن علي وعروة بن الزبير ﷺ: «ابنهَ»[٤] بهاء مفتوحة دون ألف اكتفاءً بالفتحة عنها[٥]، وهو لغة كما قال ابنُ عطية[٦]، ومن ذلك قوله:

أما تقودُ بها شاةً فتأكُلها ... أو أنْ تَبيعَهَ في بعض الأراكيبِ[٧]

قيل: وهو ضعيفٌ في العربية حتى خَصَّه بعضُهم بالضرورة، والضمير للأم أيضاً.

وقرأ ابنُ عباس: «ابنَهْ» بسكون الهاء[٨]، وهي ـ على ما قال ابنُ عطية[٩] وأبو الفضل الرازي ـ لغةُ أزد، فإنهم يُسكنون هاءَ الكناية من المُذكَّر، ومنه قوله:

ومِطْواي[١٠] مُشتاقان لَهْ أَرِقانِ

(١) القراءات الشاذة ص٦٠.
(٢) الرِّشْدة ضد الزِّنْية. يقال للولد إذا كان من نكاح لا من زنًى وسفاح: هو لرِشْدة. حاشية الشهاب ٥/ ١٠٠.
(٣) في مجمع البيان ١٢/ ١٦٤.
(٤) القراءات الشاذة ص٦٠، والمحتسب ١/ ٣٢٢.
(٥) في الأصل و(م): اكتفاءً بالألف عنها. والمثبت من حاشية الشهاب ٥/ ٩٩.
(٦) في المحرر الوجيز ٣/ ١٧٣.
(٧) البيت في رصف المباني ص١٥، وخزانة الأدب ٥/ ٢٧٢.
(٨) المحتسب ١/ ٣٢٢.
(٩) في المحرر الوجيز ٣/ ١٧٣.
(١٠) في الأصل و(م): ونضواي، والمثبت من المصادر، والبيت ليعلى الأحول الأزدي، =

وقيل: إنها لغةٌ لبني كلاب وعَقيل، ومن النحويين مَن يخصُّ هذا السكون بالضرورة ويُنشد:

وأَشربُ الماءَ ما بي نحوه عَطَشٌ إلا لأنَّ عيونَهْ سيلُ وادِيها[1]

وقرأ السدي: «ابناه» بألف وهاء سكت[2]، وخرج ذلك على الندبة، واستُشْكل بأنَّ النُّحاةَ صرَّحوا بأنَّ حرف النداء لا يُحذف في النُّدبة، وأُجيب بأنَّ هذا حكاية، والذي منعوه في النُّدبة نفسُها لا في حكايتها.

وعن ابن عطية: «أَبناه» بفتح همزة القطع التي للنداء[3]، وفيه أنه لا يُنادَى المندوب بالهمزة، وأن الروايةَ بالوصل فيها، والنداءُ بالهمزة لم يَقَعْ في القرآن.

ويُبعِد القولَ بالنُّدبة أنها لا تُلائم الاستدعاءَ إلى السفينة بعدُ كما لا يخفى. ولو قيل: إنَّ «ابناه» ـ على هذه القراءة ـ مفعول «نادى» أيضاً كما في غيرها من القراءات، والألف للإشباع، والهاءُ الساكنة هاءُ الضمير في بعض اللُّغات، لم يكن هناك محذورٌ من جهةِ المعنى، وهو ظاهر، نعم يتوقَّف القول بذلك على السَّماع في مثله، ومتى ثبتَ تعيَّن عندي تخريجُ القراءة ـ إنْ صحَّت ـ عليه.

وقرأ الجمهور: «ابنَهُ» بالإضافةِ إلى ضمير نوح، ووصلوا بالهاء واواً، وتوصل في الفصيح.

وتنوينُ «نوح» مكسورٌ عند الجمهور دَفْعاً لالتقاء الساكنين، وقرأ وكيع بِضمِّه إتْباعاً لحركة الإعراب[4]. وقال أبو حاتم: هي لغةُ سوء لا تُعرف.

﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ أي: مكانٍ عَزَلَ فيه نَفْسَه عن أبيه وإخوته ومَن آمن مِن قومه. والمرادُ بُعْدُه عنهم إمَّا حسّاً أو معنًى. وحاصلُه المخالفةُ لهم في الدين،

= وصدره: فَبِتُّ لدى البيت العتيق أُريغه... وهو في الخصائص ١/ ٣٧٠، والخزانة ٥/ ٢٦٩. وقوله: مطواي: مثنى مطو، وهو الصاحب. قاله البغدادي.

(١) لم نهتد إلى قائله، وهو في المحتسب ١/ ٢٤٤، والخزانة ٥/ ٢٧٠.

(٢) القراءات الشاذة ص٦٠، والمحتسب ١/ ٣٢٢.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١٧٣، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ١٠٠.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ١٧٤، وفيه قول أبي حاتم الذي بعده.

ف «معْزِل» ـ بالكسر ـ اسمُ مكان العُزلة، وهي إما حقيقيةٌ أو مَجازيةٌ، وقد يكون اسمَ زمان، وإذا فتح كان مصدراً.

وقيل: المراد: كان في مَعْزِل عن الكُفَّار قد انفردَ عنهم، وظنَّ نوحٌ عليه السلام أنه يُريد مفارقَتهم، ولذلك دعاه إلى السفينة.

وقيل: إنما ناداه لأنه كان يُنافقه، فظنَّ أنه مؤمن، واختاره كثيرٌ من المُحقِّقين، كالماتريدي[1] وغيره.

وقيل: كان يعلم أنه كافرٌ إلى ذلك الوقت، لكنه عليه السلام ظَنَّ أنه عند مشاهدةِ تلك الأهوال وبلوغِ السيل الزُّبى ينزجز عما كان عليه، ويقبل الإيمان.

وقيل: لم يَجْزِمْ بدخوله في الاستثناء لما أنه كان كالمُجمل، فحملَتْه شَفقةُ الأُبُوَّة على أنْ ناداه.

﴿يَٰبُنَيَّ﴾ بفتح الياء التي هي لامُ الكلمة اجتزاءً بالفتحة على الألف المُبدلة من ياء الإضافة في قوله: يا بُنَيّا، وقيل: إنها سقطَتْ لالتقائها ساكنةً مع الراء الساكنة بعدَها، ويُؤَيِّد الأول أنه قُرئ كذلك حيث لا ساكنَ بعد. ومن الناس مَن قال: فيه ضعف، على ما حكاه يونس من ضَعْفِ: يا أبَ ويا أُمَّ، بحذف الألف والاجتزاء عنها بالفتحة.

وقرأ الجمهور بالكسر[2] اقتصاراً عليه من ياء الإضافة، وقيل: إنها حُذفت لالتقاء الساكنين كما قيل ذلك في الألف.

ونداؤه بالتصغير من باب التحنُّن والرأفة، وكثيراً ما يُنادي الوالدُ ولدَه كذلك.

﴿ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ أي: في السفينة، ولِتعيُّنها وللإيذان بضيقِ المُقام حيث حال الجَريضُ دون القَريضِ[3] مع إغناء المعية عن ذِكْرها لم تُذْكَر، وأَطلق الركوبَ.

---

(١) في التأويلات ٢/٥٢٩.

(٢) قرأ عاصم: «يا بُنَيَّ» بفتح الياء، وقرأ الباقون بكسرها. التيسير ص١٢٤، والنشر ٢/٢٨٩.

(٣) قوله: حال الجَريضُ دون القَريض. مَثَلٌ يضرب للأمر يقدر عليه أخيراً حين لا ينفع. ذكره الميداني في مجمع الأمثال ١/١٩١، والجريض: الغُصَّة، من الجَرَض، وهو الريق يُغَصُّ به. والقريض: الشِّعر.

وتخفيفُ الباء وإدغامُها في الميم قراءتان سبعيتان[1]، ووجُه الإدغام التقاربُ في المَخْرج.

﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ تأكيدٌ للأمر، وهو نهيٌ عن مُشايعة[2] الكَفَرة والدخولِ في غمارهم، وقَطْعٌ بأنَّ الدخولَ فيه يُوجب الغَرَق على الطريق البرهاني.

﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ﴾ أي: سأنضمّ ﴿إِلَىٰ جَبَلٍ﴾ من الجبال، وقيل: عنى طورزيتا ﴿يَعْصِمُنِى﴾ أي: يحفظُني بارتفاعه ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ فلا يَصِلُ إليَّ. قال ذلك زعماً منه أن ذلك كسائر المياه في أَزمنةِ السُّيول المُعتادة التي ربما يُتَّقى منها بالصعود إلى مرتفع، وجهلاً منه بأنَّ ذلك إنما كان لإهلاك الكَفَرة، فلا بدَّ أنْ يُدرِكَهم ولو كانوا في قُلَل الجبال.

﴿قَالَ﴾ مُبيِّناً له حقيقةَ الحال، وصارفاً له عن ذلك الفِكر المُحال: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ نفيٌ لجنس العاصم المُنتظِم لنفي جميع أفراده ذاتاً وصفةً للمبالغة في نفي كون الجبل عاصماً، وزاد «اليوم» للتنبيه على أنه ليس كسائر الأيام التي تقع فيها الوقائع وتلمُّ فيها المُلِمَّات المعتادة التي ربما يُتخلَّص منها بالالتجاء إلى بعض الأسباب العادية.

وعبَّر عن الماء في محل إضماره بأمر الله، أي: عذابه الذي أُشير إليه أولاً بقوله سبحانه: (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا) تفخيماً لشأنه وتهويلاً لأمره، وتنبيهاً لابنه على خطئه في تسميته ماءً، وتَوَهُّمِه أنه كسائر المياه التي يُتخَلَّص منها بالهرب إلى بعض المَهارب المعهودة، وتعليلاً للنفي المذكور؛ فإنَّ أمرَ الله سبحانه لا يُغالَب، وعذابَه لا يُرَدّ، وتمهيداً لحصر العصمة في جَناب الله تعالى عزَّ جاره بالاستثناء، كأنه قيل: لا عاصمَ من أمر الله تعالى إلا هو تعالى. وإنما قيل: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ تفخيماً لشأنه الجليل جلَّ شأنه وإشعاراً بعلية رحمته بموجب سَبْقها غَضَبَه.

---

(١) قرأ بالإظهار قالون والبزي وخلاد بخلف عنهم، وقرأه بالإظهار بلا خلاف ورش وابن عامر وخلف عن حمزة وفي اختياره وأبو جعفر. والباقون بالإدغام قولاً واحداً؛ وهم: قُنبل والبصريان والكسائي وعاصم. النشر ٢/ ١١، والبدور الزاهرة ص١٥٦.

(٢) في الأصل: متابعة.

كلُّ ذلك لكمال عنايته عليه السلام بتحقيق ما يتوخَّاه من نجاة ابنهِ ببيان شأن الداهيةِ، وقطع أطماعه الفارغة، وصَرْف عنانه عن التعلُّل بما لا يُغني عنه شيئاً، وإرشاده إلى العِياذِ بالمُعاذ الحق عزَّ حِماه، ولذا عَدَلَ عما يقتضيه الظاهر من الجواب بقوله: لا يعصمك الجبلُ منه. كذا ذكره بعض المُحقِّقين، وهو أحدُ أوجهٍ في الآية وأقواها.

والوجه الثاني: أنَّ عاصماً صيغةُ نسبة، والمراد بالموصول المرحوم، أي: لا ذا عصمة، أي: معصوم إلا مَنْ رَحِمه الله تعالى، وأيّد ذلك بأنه قُرئ: «إلا مَنْ رُحِم» بالبناء للمفعول(١).

واعترضه في «الكشف» بأن فاعلاً بمعنى النسبة قليل.

وأُجيب بأنه إنْ أراد قِلَّته في نَفْسه فممنوع، وإنْ بالنسبة إلى الوَصْف فلا يضرّ.

والثالث: أن عاصماً على ظاهره، و«مَنْ رَحِم» بمعنى المرحوم، والاستثناءُ منقطعٌ لا مُتَّصل كما في الوجهين الأولين، أي: لا عاصمَ من أمرِ الله، لكن مَنْ رَحِمه اللهُ تعالى فهو معصومٌ.

وأُورد عليه بأنَّ مثلَ هذا المنقطع قليلٌ؛ لأنه في الحقيقة جملةٌ منقطعة تخالف الأُولى لا في النفي والإثبات فقط، بل في الاسمية والفعلية أيضاً، والأكثرُ فيه مثل: ما جاءني القومُ إلا حماراً.

والرابع: أنَّ عاصماً بمعنى معصوم، كدافق بمعنى مَدْفوق وفاتن بمعنى مفتون في قوله:

بطيءِ القيام رخيمُ الكلا م أمسى فؤادي به فاتنا(٢)

و«مَنْ رَحِم» بمعنى الراحم، والاستثناء منقطعٌ أيضاً، أي: لا معصوم إلا الراحم، على معنى: لكن الراحمُ يَعْصِمُ مَن أراد.

والخامس: أن الكلام على إضمار المكان، والاستثناء متصلٌ، أي: لا عاصمَ

---

(١) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٢/ ٢٧١، وأبو حيان في البحر ٥/ ٢٢٧.

(٢) البيت في الصحاح (متن)، وتفسير القرطبي ١١/ ١٢٥، والبحر المحيط ٥/ ٢٢٧، ورواية الصحاح: رخيم الكلام قطيع القيام. . . .

إلا مكان مَن رَحِمه الله من المؤمنين، وهو السفينة، قيل: وهو وجهٌ حسنٌ، فيه مُقابلةٌ لقوله: «يعصمني» وهو المُرجَّح بعد الأول، والعاصمُ على هذا حقيقة، لكن إسناده إلى المكان مجازيٌّ. وقيل: إنه مجازٌ مُرسَل عن مكان الاعتصام، والمعنى: لا مكانَ اعتصام إلا مكان مَنْ رَحِمه الله، وادُّعي أنه أرجحُ من الكُلِّ؛ لأنه ورد جواباً عن قوله: «سآوي إلى جبل» إلخ، وليس بمسلَّم.

والسادس: ما أبداه صاحب «الكشف» عنده، وهو أن المعنى: لا معصوم إلا مكان مَن رحمه الله تعالى، ويُراد به عصمة من فيه على الكِناية، فإن السفينةَ إذا عُصِمَتْ عُصِمَ مَنْ فيها.

والسابع: أن الاستثناءَ مُفرَّغ، والمعنى: لا عاصمَ اليوم أحداً أو لأحد إلا من رحمه الله أو لمن رحمه الله سبحانه، وعدَّه بعضُهم أَقْرَبَها.

ولا أظنُّك تعدِلُ بالوجه الأول وجهاً، وهو الذي أختاره.

والظاهر على ما قال أبو حيان[1]: أنَّ خبر «لا» محذوفٌ للعلم به، أي: «لا عاصم» موجودٌ، والأكثرُ الحذفُ في مثل ذلك عند الحجازيين، والتزم الحذفَ فيه بنو تميم. ويكون «اليوم» منصوباً على إضمار[2] فعل يدلُّ عليه «عاصم»، أي: «لا عاصم» يعصمُ اليومَ؛ والجار والمجرور متعلِّقٌ بذلك الفعل، ومنع جواز أن يكون «اليوم» منصوباً باسم «لا» وأن يكون الجار مُتعلِّقاً به؛ لأنه يلزم حينئذ أن يكون مُعرباً مُنوَّناً للطول.

وجوَّز الحوفي أن يكون «اليوم» متعلِّقاً بمحذوف وقع خبراً لـ «لا»، والجار متعلِّق بذلك المحذوف أيضاً، وأن يكون متعلِّقاً بمحذوف هو الخبر، و«اليوم» في موضع النعت لـ «عاصم».

وردَّ أبو البقاء[3] خبريَّة «اليوم» بأنه ظرفُ زمان، وهو لا يكون خبراً عن الجُثَّة، والتزم كونه معمول «من أمر الله»، وكونَ الخبر هو الجار والمجرور.

---

(١) في البحر المحيط ٥/ ٢٢٧.

(٢) في (م): إضماره.

(٣) في إملاء ما من به الرحمن (بهامش الفتوحات الإلهية) ٣/ ٢٨٢.

وردَّ أبو حيان[1] جوازَ النعتية بأنَّ ظرفَ الزمان لا يكون نعتاً للجُثث كما لا يكون خبراً عنها.

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ أي: بين نوح عليه السلام وابنهِ، فانقطع ما بينهما من المُجاوبة، قيل: كانا يتراجعان الكلام، فما استتمَّت المراجعة حتى جاءت موجةٌ عظيمةٌ وكان راكباً على فرس قد بَطِرَ وأُعجب بنفسه فالتقمَتْه وفرسَه، وليس في الآية هنا إلا إثباتُ الحيلولة، وأما عِلْمُه عليه السلام بغرقهِ فلم يحصل إلا بعدُ.

وقال الفراء[2]: «بينهما» أي: بين ابن نوح عليه السلام والجبل، وأخرج ذلك ابن أبي حاتم[3] وأبو الشيخ عن القاسم بن أبي بزة.

وتعقَّبه العلامةُ أبو السعود[4] بأنَّ قوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ إنما يتفرَّع على حيلولة الموج بينه عليه السلام وبين ابنهِ، لا بينه وبين الجبل؛ لأنه بمعزل عن كونه عاصماً وإنْ لم يَحُلْ بينه وبين المُلتجأ إليه موج.

وأجيب بأن التفريع لا يُنافي ذلك؛ لأن المرادَ: فكان من غير مُهلة، أو هو بناء على ظنِّه أن الماء لا يصل إليه.

وفي الآية دلالةٌ على غرق سائر الكَفرة على أبلغ وجه، فكأنَّ ذلك أمرٌ مُقرَّرُ الوقوع غير مُفتقِرٍ إلى البيان، وفي إيراد «كان» دون صار مبالغة في كونه منهم.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى﴾ أي: أنشفي، استُعير من ازدراد الحيوان ما يأكله للدلالة على أنَّ ذلك ليس كالنَّشف المُعتاد التدريجي، وتخصيصُ البلع بما يُؤكل هو المشهور عن اللُّغويين، وقال الليث: يقال: بَلِعَ الماءَ، إذا شَرِبه، وهو ظاهرٌ في أنه غير خاصٍّ بالمأكول، وذكر السيدُ أن ذلك مجازٌ. وأخرج ابن المنذر وغيره عن وهب بن مُنَبِّه أن البَلع بمعنى الازدراد لغةٌ حبشية[5]. وأخرج أبو الشيخ عن

---

(١) في البحر المحيط ٥/ ٢٢٧.
(٢) في معاني القرآن ٢/ ١٧.
(٣) في تفسيره ٦/ ٢٠٣٥.
(٤) في تفسيره ٤/ ٢١١.
(٥) وأخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٣٦.

جعفر بن محمد عن أبيه أنه بمعنى الشُّرب لغةٌ هندية(١).

﴿مَآءَكِ﴾ أي: ما على وجهك من ماء الطُّوفان، وعبَّر عنه بالماء بعد ما عبَّر عنه فيما سلف بأمر الله تعالى؛ لأن المَقامَ مقامُ النقص والتقليل لا مقام التفخيم والتهويل.

﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ أي: أمسكي عن إرسال المطر، يقال: أَقلعتِ السماءُ، إذا انقطع مَطَرُها؛ وأقلعت الحُمَّى إذا كَفَّتْ. والظاهرُ أنَّ المطر لم ينقطع حتى قيل للسماء ما قيل، وهل فورانُ الماء كان مستمرّاً حتى قيل للأرض ما قيل أَمْ لا؟ لم أرَ فيه شيئاً، والآية ليست نصّاً في أحد الأمرين.

﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ أي: نَقَصَ؛ يقال: غاضه، إذا نَقَصَه، وجميعُ معانيه راجعةٌ إليه.

وقولُ الجوهري(٢): غاض الماء، إذا قلَّ ونَضَبَ، وغيضَ الماءُ: فُعِلَ به ذلك، لا يُخالفه، فإنَّ القِلَّة عينُ النُّقصان، وتفسيرُ ذلك بالنقص مرويٌّ عن مجاهد.

﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: أُنجز ما وعد اللهُ تعالى نوحاً عليه السلام من إهلاك كُفَّار قومه وإنجائه بأهله المؤمنين، وجُوِّز أن يكون المعنى: أُتِمَّ الأمر.

﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ استقرَّت يقال: استوى على السرير، إذا استقرَّ عليه ﴿عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ بتشديد الياء، وقرأ الأعمش وابن أبي عَبْلَةَ بتخفيفها(٣)، وهما لغتان كما قال ابن عطية(٤). وهو جبلٌ بالمَوْصل، أو بالشام، أو بآمُل؛ بالمد وضم الميم(٥)، والمشهور الأول.

وجاء في بعض الآثار أن الجبال تشامَختْ إذْ ذاك وتواضعَ هو لله تعالى شأنه، فأكرمه الله سبحانه باستواء السفينة عليه، ومَن تواضعَ لله سبحانه رَفَعه.

---

(١) الدر المنثور ٣/ ٣٣٥.

(٢) في الصحاح (غيض).

(٣) القراءات الشاذة ص٦٠، والدر المصون ٦/ ٣٣٤.

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ١٧٦.

(٥) آمُل: بضم الميم اسم أكبر مدينة بطبرستان. معجم البلدان ١/ ٥٧. وجاء في معاني الزجاج ٣/ ٥٥: آمِد. قال ياقوت في معجمه ١/ ٥٦: آمِد، بكسر الميم: أعظم مدن ديار بكر وأجلها قدراً.

وكان استواؤها عليه يومَ عاشوراء؛ فقد أخرج أحمد وغيره عن أبي هريرة قال: مرَّ النبيُّ ﷺ بأُناسٍ من اليهود وقد صاموا يومَ عاشوراء، فقال: «ما هذا الصوم؟» فقيل: هذا اليومُ الذي أنجى الله تعالى فيه موسى عليه السلام وبني إسرائيل من الغَرَق، وغَرَّقَ فيه فرعونَ، وهذا يومٌ استوَتْ فيه السفينةُ على الجوديّ، فصامه نوحٌ وموسى عليهما السلام شكراً لله تعالى. فقال النبي ﷺ: «أنا أحقُّ بموسى عليه السلام، وأحقُّ بصوم هذا اليوم» فصامه وأمر أصحابه بالصوم(١).

وأخرج الأصبهاني في «الترغيب» عنه رضي الله عنه أنه اليوم الذي وُلِدَ فيه عيسى عليه السلام أيضاً، وأنَّ صيامَهَ يعدِلُ سنةً مبرورة(٢).

وكان ركوبُه عليه السلام ـ فيما رُوي عن قتادة ـ في عَشْرٍ خَلَوْنَ من رجب(٣).

وأخرج ابن جرير عن عبد العزيز بن عبد الغفور عن أبيه مرفوعاً: «أنه عليه السلام رَكِبَ في أول يوم من رجب، فصام هو ومَنْ معه، وجَرَتْ بهم السفينة ستةَ أشهر، فانتهى ذلك إلى المُحرَّم، فأرسَتْ السفينة على الجُوديّ يومَ عاشوراء، فصام نوحٌ عليه السلام وأمر جميعَ من معه من الوحش والدوابِّ فصامُوا شكراً لله»(٤).

وفي بعض الآثار أنها طافَتْ بهم الأرضَ كلَّها، ولم تدخل الحرم لكنها طافَتْ به أسبوعاً(٥)، وأنَّ الحجرَ الأسود خُبِئ في جبل أبي قُبيس(٦)، وأنَّ البيتَ رُفع إلى السماء.

---

(١) مسند أحمد (٨٧١٧)، وفي إسناده عبد الصمد بن حبيب الأزدي عن أبيه. وعبد الصمد ضعيف، ووالده مجهول. تقريب التهذيب. وأخرجه-دون ذكر قصة نوح عليه السلام- البخاري (٢٠٠٤)، ومسلم (١١٣٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) الدر المنثور ٣/ ٣٣٥.

(٣) أخرجه الطبري ١٢/ ٤٢١.

(٤) تفسير الطبري ١٢/ ٤١٩. وأورده الحافظ ابن حجر في الإصابة ٧/ ٣٣٦ بهذا الإسناد ثم قال: وهذا مقلوب، وفيه انقطاع، والصواب رواية عبد الغفور عن أبيه عبد العزيز، عن أبيه سعيد، هذا من حيث السند، وإلا فرجاله ما بين ضعيف ومجهول.

(٥) أي: سبع مرات. النهاية (سبع)، وهذا من الإسرائيليات الباطلة التي لا أساسَ لها من الصحة.

(٦) هو جبل بمكة. القاموس المحيط (قبس).

وفي رواية ابن عساكر عن مجاهد أنه لم يدخل الحرم من الماء شيء(١). والظاهرُ على هذا أنه لا خبء كما أنه لا رَفْعَ، وعندي أنَّ روايةَ ثُبوتهما جميعاً مما لا تكاد تَصِحُّ، وبفرض صِحَّتها لا يظهر لي سرُّ رَفْع البيت بلا حجر، وخبء الحَجَر بلا بيت، بل عندي في رفع البيت مطلقاً تردُّدٌ، وإنْ كنتُ ممن لا يتردَّد في أن الله تعالى على كلّ شيء قدير.

﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ أي: هلاكاً لهم، واللامُ صلةُ المصدر، وقيل: متعلِّق بقيل، وأنَّ المعنى: قيل لأجلهم: بُعداً. وهو خلافُ الظاهر.

والتعرُّض لوصف الظلم للإشعار بعليته للهلاك، ولِتذكير ما سبق في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾.

ولا يخفى ما في هذه الآية أيضاً من الدلالة على عموم هلاك الكَفرة، ويشهد لذلك آياتٌ أُخَر وأخبارٌ كثيرة، بل فيها ما هو على علَّاته ظاهرٌ في عموم هلاك من على الأرض ما عدا أهل السفينة؛ فعن عُبيد بن عُمير أنَّ فيمن أصاب الغَرق امرأةً معها صبيٌّ لها، فوضَعَتْه على صَدْرها، فلما بلغها الماء وضعته على مَنْكِبها، فلما بلغها الماء وضعته على يديها، فقال الله سبحانه: لو رَحِمتُ أحداً من أهل الأرض لرحمتها، ولكن حقَّ القولُ مني(٢).

وزعم بعضُهم أنه لم ينجُ أحدٌ من الكفَّار سوى عُوج بن عُوق، وكان الماء يصل إلى حُجْزته(٣)، وسبب نجاته أن نوحاً عليه السلام احتاجَ إلى خشب ساج، فلم يُمكِنه نَقْله، فحملَه عُوج من الشام إليه عليه السلام، فنجَّاه الله تعالى من الغَرَق لذلك، وظاهرُ كلام «القاموس» يقتضي نَجاته؛ فقد ذكر فيه عُوج بن عُوق ـ بضمِّهما ـ رجلٌ وُلِدَ في منزلِ آدمَ عليه السلام، فعاش إلى زمن موسى عليه السلام(٤).

---

(١) تاريخ ابن عساكر ٦٢/ ٢٥٠.

(٢) الدر المنثور ٣/ ٣٣٢، وهو قطعة من حديث أخرجه الطبري ١٢/ ٣٩٤، والحاكم ٢/ ٣٤٢ من حديث عائشة رضي الله عنها، وفي إسناده موسى بن يعقوب، قال الذهبي في التلخيص: إسناده مظلم، وموسى ليس بذاك.

(٣) حُجزة الإزار: مَعْقِدُه. مختار الصحاح (حجز).

(٤) القاموس المحيط (عوج).

والحقُّ أنه لم يَنْجُ أحدٌ من الكُفَّار أصلاً، وخبر عُوج يرويه هيَّان ابن بيَّان، فلا تَعُجْ إلى القول به.

ولا يُشكل إغراقُ الأطفال الذين لا ذنبَ لهم؛ لِمَا أنه مجرد سبب للموت بالنسبة إليهم، وأيُّ محذور في إماتةِ مَنْ لا ذنبَ له؟ وفي كلِّ وقت يُميت الله سبحانه مِن ذلك ما لا يُحصى، وهو جلَّ شأنه المالك الحقُّ والمتصرِّف المُطلق، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يُريد. ولا يُحتاج في الجواب إلى ما أخرجه إسحاق بن بشر وابن عساكر عن عبد الله بن زياد بن سمعان عن رجال سمَّاهم، أنَّ الله تعالى أعقمَ رجالَهم قبل الطُّوفان بأربعين عاماً، وأعقمَ نساءهم، فلم يتوالدوا أربعين عاماً منذ دعا نوحٌ عليه السلام حتى أدركَ الصغيرُ فبلغَ الحِنْثَ، وصارت لله تعالى عليهم الحُجَّة، ثم أنزل السماءَ عليهم بالطُّوفان[(١)]. إذْ يبقى عليه ـ مع ضَعْفه والتعارُضِ بينه وبين الخبر السابق آنفاً ـ أمرُ إهلاكِ ما لم يكن في السفينةِ من الحيوانات، وقد جاء عن جعفر الصادق رضي الله عنه أنَّ نوحاً عليه السلام لما حَمَلَ مَنْ حَمَلَ في السفينة رأتِ البهائم والوحشُ والسِّباعُ العذابَ، فجعلَتْ تلحسُ قَدَمَه عليه السلام وتقول: اِحْمِلنا معك، فيقول: إنما أُمرتُ أنْ أحملَ مِنْ كلِّ زوجين اثنين. ولم يحملها.

وكذا لا يُحتاج إلى الجواب بأنَّ الله تعالى إنما أهلك أولئك الأطفال لِعلمه جلَّ شأنه بما كانوا فاعلين ـ وذلك كما يقال في وجه إدخالِ أطفالِ الكُفَّار النار يومَ القيامة، على قول مَنْ يراه ـ لِمَا أنَّ فيه ما فيه.

وبالجملة إماتةُ الأحياء بأيِّ سببٍ كان دفعةً أو تدريجاً مما لا مَحذورَ فيه، ولا يُسأل عنه.

هذا، واعلم أنَّ هذه الآيةَ الكريمةَ قد بلغت من مراتبِ الإعجاز أقاصيَها، واستذلَّتْ مصاقعَ العرب فسفعَتْ بنواصيها، وجَمعتْ من المحاسن ما يضيقُ عنه نِطاق البيان، وكانت من سَمْهَري[(٢)] البلاغة مكان السِّنان، يُروى أنَّ كُفَّار قريش

---

(١) تاريخ ابن عساكر ٦٢/ ٢٤٩.

(٢) السَّمهري: الرمح الصلب، والمنسوب إلى سَمْهر زوج ردينة، وكانا مُثَقِّفَيْن للرماح. القاموس المحيط (سمهر).

قصدوا أنْ يُعارِضوا القرآنَ، فعكفوا على لُباب البُرّ ولحوم الضأن وسُلاف الخمر[١] أربعين يوماً لِتصفو أذهانُهم، فلما أخذوا فيما قصدوه، وسمعوا هذه الآيةَ قال بعضُهم لبعض: هذا الكلام لا يُشبه كلامَ المخلوقين فتركوا ما أخذوا فيه، وتفرَّقوا[٢].

ويروى أيضاً أن ابن المُقَفَّع ـ وكان كما في «القاموس» فصيحاً بليغاً[٣]، بل قيل: إنه أفصحُ أهل وقته ـ رام أن يعارض القرآن، فنَظَم كلاماً وجعله مفصَّلاً وسمَّاه سوراً، فاجتاز يوماً بصبيٍّ يقرؤها في مكتبٍ، فرجع ومحا ما عمل، وقال: أشهد أنَّ هذا لا يُعارَضُ أبداً، وما هو من كلام البشر.

ولا يخفى أنَّ هذا لا يستدعي أن لا يكون سائر آيات القرآن العظيم معجزاً، لِمَا أنَّ حدَّ الإعجاز هو المرتبةُ التي يعجزُ البشر عن الإتيان بمثلها، ولا تدخل على قُدرته قطعاً، وهي تشتمل على شيئين:

الأول: الطرفُ الأعلى من البلاغة، أعني ما ينتهي إليه البلاغةُ ولا يتصوَّر تجاوزُها إياه.

والثاني: ما يَقْرُبُ من ذلك الطرف، أعني المراتبَ العَلِية التي تتقاصَرُ القوى البشريةُ عنها أيضاً.

ومعنى إعجازِ آيات الكتاب المجيد بأسرها هو كونُها مما تتقاصَرُ القوى البشريةُ عن الإتيان بمثلها سواءٌ كانت من القسم الأول أو الثاني، فلا يضرُّ تفاوُتُها في البلاغة، وهو الذي قاله علماءُ هذا الشأن، وأنشد بعضُ الفرس في ذلك:

---

(١) سُلاف الخمر: أخلصُها وأفضلُها، وذلك إذا تحلَّب من العنب بلا عصر ولا مَرْث. اللسان ومعجم متن اللغة (سلف).

(٢) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٢/ ١٦٠.

(٣) القاموس (قفع)، وابن المقفع واسمه بعد إسلامه عبد الله كان من مجوس فارس، فأسلم على يد الأمير عيسى عمِّ السفاح، وهو الذي عرَّب كليلة ودِمْنة، وكان مع سعة فضله وفرط ذكائه فيه طيش، وكان يُتَّهم بالزندقة، قُتل بأمر المنصور سنة (١٤٥ هـ). السير ٦/ ٢٠٨، ولسان الميزان ٣/ ٣٦٦.

دَرْ بَيَان ودَرْ فَصَاحَتْ كي بُوَدْ يَكْسَان سُخَنْ
وَرْجه كوينْدَه بُودْ جون حافظ وجون أصمعي
دَرْ كـلامِ إيـزد بـيـجـون كـه وَحْـي مَـنْـزِلَـسْـت
كي بُوَدْ تَبَّتْ يَدَا جون قيل يا أرض ابلعي(١)

وقد فصَّل بعضَ مزايا هذه الآيةِ المَهَرةُ المُتْقِنون، وتركوا من ذلك ما لا يكاد يَصِفُه الواصفون، ولا بأس بذكر شيء مما ذُكر؛ إفادةً لجاهلٍ وتذكيراً لفاضلٍ غافلٍ، فنقول: ذكر العلَّامة السكاكي أنَّ النظر فيها من أربع جهات: من جهة علم البيان، ومن جهة علم المعاني، وهما مرجعا البلاغة. ومن جهة الفصاحة المعنوية، ومن جهة الفصاحة اللفظية.

أمَّا النظرُ فيها من جهة علم البيان، وهو النظرُ فيما فيها من المجاز والاستعارة والكناية، وما يتَّصلُ بذلك من القرينة والترشيح والتعريض، فهو أنه عزَّ سلطانُه لَمَّا أراد أن يبيِّن معنى: أردنا أن نَردَّ ما انفجر من الأرض إلى بطنها فارتدَّ، وأن نقطعَ طوفان السماء فانقطع، وأن نغيضَ الماء النازل من السماء فغاض، وأن نقضي أمر نوحٍ عليه السلام وهو إنجازُ ما كنَّا وعدناه من إغراق قومه فقُضي، وأن نسوِّي السفينة على الجوديِّ فاستوت، وأبقينا الظَّلَمَة غَرْقَى = بَنَى سبحانه الكلامَ على تشبيه المراد منه بالمأمور الذي لا يتأتَّى منه ـ لكمال هيبته من الآمر ـ العصيانُ، وتشبيهِ تكوينِ المراد بالأمر الجَزْمِ النافذ في تكوُّن المقصود، تصويراً لاقتداره سبحانه العظيم، وأنَّ هذه الأجرامَ العظيمة من السماوات والأرض تابعةٌ لإرادته تعالى إيجاداً وإعداماً، ولمشيئته فيها تغييراً وتبديلاً، كأنها عقلاء مميِّزون قد عرفوه جلَّ شأنُه حقَّ معرفته، وأحاطوا علماً بوجوب الانقياد لأمره والإذعان لحُكْمِه، وتحتَّم بذلُ المجهود عليهم في تحصيل مراده، وتصوَّروا مزيدَ اقتدارِه، فعظُمَتْ مهابتُه في نفوسهم، وضَرَبَتْ سرادقها في أفنية ضمائرهم، فكما يلوحُ لهم إشارته سبحانه كان المشارُ إليه مقدَّماً، وكما يَرِدُ عليهم أمرُه تعالى

---

(١) ومعناه بالعربية: متى كان الكلام سواءً في الفصاحة والبيان، ولو كان لقائل مثل حافظ الشيرازي والأصمعي؟ وفي كلام الله الذي منزلته الوحي، كيف يكون «تبت يدا» مثل «قيل يا أرض ابلعي»؟.

شأنُه كان المأمور به متمماً، لا تَلقِّيَ لإشارته بغير الإمضاء والانقياد، ولا لأَمْرِه بغير الإذعان والامتثال.

ثم بنى على مجموع التشبيهين نَظْمَ الكلام، فقال جل وعلا: ﴿وَقِيلَ﴾ على سبيل المجازِ عن الإرادة من باب ذِكْرِ المسبَّب وإرادةِ السبب؛ لأنَّ الإرادة تكون سبباً لوقوع القول في الجملة، وجَعَلَ قرينة هذا المجاز خطابَ الجماد وهو «يا أرض» و«يا سماء»، إذ يصحُّ أن يراد حصولُ شيءٍ متعلِّقٍ بالجماد ولا يصحُّ القولُ له، ثم قال سبحانه كما ترى: ﴿يَٰٓأَرْضُ﴾ ﴿وَيَٰسَمَآءُ﴾ مخاطباً لهما على سبيل الاستعارة للشَّبَهِ المذكور[1].

والظاهر أنه أراد أنَّ هناك استعارةً بالكناية، حيث ذُكر المشبَّهُ، أعني السماءَ والأرضَ المرادَ منهما حصولُ أمرٍ، وأُريد المشبَّهُ به، أعني المأمورَ الموصوفَ بأنه لا يتأتَّى منه العصيان ادِّعاءً بقرينةِ نسبة الخطاب إليه ودخولِ حرف النداء عليه، وهما من خواصِّ المأمور المطيع، ويكون[2] هذا تخييلاً.

وقد يقال: أراد أنَّ الاستعارة هاهنا تصريحيةٌ تبعيةٌ في حرف النداء بناءً على تشبيه تعلُّق الإرادة بالمراد منه بتعلُّق النداء والخطاب بالمنادى المخاطَب، وليس بشيءٍ؛ إذ لا يحسنُ هذا التشبيهُ ابتداءً، بل تبعاً للتشبيه الأول، فكيف يُجعل أصلاً لمتبوعه؟! على أنَّ قوله: للشبه المذكور، يدفع هذا الحمل.

ثم استعار لغورِ الماء في الأرض البلعَ الذي هو إعمالُ الجاذبة في المطعوم للشَّبه بينهما، وهو الذهابُ إلى مقرٍّ خفيٍّ[3].

وفي «الكشاف» جَعَلَ البَلْعَ مستعاراً لنَشْفِ الأرضِ الماءَ[4]، وهو أولى، فإنَّ النشفَ دالٌّ على جَذْبٍ من أجزاء الأرضِ لِمَا عليها كالبلع بالنسبة إلى الحيوان، ولأنَّ النشف فعلُ الأرض والغور فعلُ الماء، مع الطباق بين الفعلين تعدِّياً.

---

(١) مفتاح العلوم ص٤١٧-٤١٨.
(٢) في الأصل: وقد يكون.
(٣) مفتاح العلوم ص٤١٨.
(٤) الكشاف ٢/ ٢٧١.

ثم استعار الماء للغذاء استعارةً بالكناية تشبيهاً له بالغذاء، لتقوِّي الأرضِ بالماء في الإنبات للزروع والأشجار تقوِّيَ الآكل بالطعام، وجَعَل قرينةَ الاستعارة لفظةَ «ابلعي» لكونها موضوعةً للاستعمال في الغذاء دون الماء(١).

ولا يخفى عليك إذا اعتبر مذهب السلف في الاستعارة يكون «ابلعي» استعارةً تصريحيةً، ومع ذلك يكون بحسب اللفظ قرينةً للاستعارة بالكناية في الماء، على حدِّ ما قالوا في ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧] وأما إذا اعتبر مذهبه فينبغي أن يكون البلع باقياً على حقيقته كالإنبات في: أنبت الربيعُ البقلَ، وهو بعيد، أو يُجعل مستعاراً لأمرٍ متوهَّمٍ كما في: نطقت الحالُ، فيلزمه القول بالاستعارة التبعية كما هو المشهورُ.

ثم إنه تعالى أَمَرَ على سبيل الاستعارة للتشبيه الثاني، وخاطب في الأمر ترشيحاً لاستعارة النداء(٢).

والحاصل أنَّ في لفظ «ابلعي» باعتبارِ جوهره استعارةً لغور الماء، وباعتبارِ صورته ـ أعني كونَه صورةَ أمرٍ ـ استعارة أخرى لتكوين المراد، وباعتبار كونه أمرَ خطاب ترشيح للاستعارة المكنية التي في المنادى فإن قرينتها النداء، وما زاد على قرينة المكنية يكون ترشيحاً لها. وأمَّا جَعْلُ النداء استعارةً تصريحيةً تبعيةً حتى يكون خطابُ الآمر ترشيحاً لها فقد عَرَفْتَ ما فيه.

ثم قال جلَّ وعلا: «ماءك» بإضافة الماء إلى الأرض على سبيل المجاز تشبيهاً لاتِّصال الماء بالأرض باتِّصال الملك بالمالك، واختار ضمير الخطاب لأَجْلِ الترشيح(٣).

وحاصلُه أنَّ هناك مجازاً لغويّاً في الهيئة الإضافية الدالَّة على الاختصاص الملكيِّ، ولهذا جعل الخطاب ترشيحاً لهذه الاستعارة من حيث إنَّ الخطاب يدلُّ على صلوح الأرض للمالكية، فما قيل: إنَّ المجاز عقليٌّ والعبارة مصروفةٌ عن الظاهر، ليس بشيءٍ.

---

(١) مفتاح العلوم ص٤١٨.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.

ثم اختار لاحتباس المطر الإقلاعَ الذي هو تركَ الفاعِلِ الفعلَ؛ للشبه بينهما في عُدْمِ ما كان من المطر أو الفعل[١]. ففي «أقلعي» استعارةٌ باعتبارِ جوهره، وكذا باعتبار صيغته أيضاً، وهي مبنيةٌ على تشبيه تكوين المراد بالأمر الجزم النافذ، والخطابُ فيه أيضاً ترشيحٌ لاستعارة النداء، والحاصلُ أنَّ الكلام فيه مثلُ ما مرَّ في «ابلعي».

ثم قال سبحانه: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا﴾ فلم يصرِّح جلَّ وعلا بمن غاضَ الماء، ولا بمن قَضَى الأمر وسوَّى السفينةَ وقال بُعْداً، كما لم يصرِّح سبحانه بقائل «يا أرض» «ويا سماء» في صدر الآية سلوكاً في كلِّ واحدٍ في ذلك لسبيل الكناية؛ لأنَّ تلك الأمورَ العظامَ لا تَصْدُرُ إلَّا من ذي قدرةٍ لا يُكْتَنَه، قهَّارٍ لا يغالَبُ، فلا مجال لذهاب الوهم إلى أن يكون غيرُه جلَّت عظمتُه قائلاً: «يا أرض» «ويا سماء»، ولا غائضَ ما غاضَ، ولا قاضي مثلَ ذلك الأمرِ الهائل، أو أن يكون تسويةُ السفينة وإقرارُها بتسويةِ غيره[٢].

والحاصلُ أنَّ الفعل إذا تعيَّن لفاعلٍ بعينه استتبع لذلك أن يُتْرَكَ ذكرُه ويُبْنَى الفعلُ لمفعوله، أو يُذْكَر ما هو أثرٌ لذلك الفعل على صيغة المبنيِّ للفاعل ويُسند إلى ذلك المفعول، فيكون كنايةً عن تخصيص الصفة التي هي الفعلُ بموصوفها.

وهذا أولى مما قيل في تقرير الكناية هنا: إنَّ ترك ذكرِ الفاعل وبناءَ الفعل للمفعول من لوازم العلم بالفاعل وتعيُّنِه لفاعلية ذلك الفعل، فذُكر اللازمُ وأريدَ الملزومُ لِمَا أنَّ «استوت» غيرُ مبنيٍّ للمفعول كـ «قيل» و«غيض».

ثم إنه تعالى خَتَم الكلامَ بالتعريض، تنبيهاً لسالكي مسلكِ أولئك القوم في تكذيب الرسل عليهم السلام ظلماً لأنفسهم لا غير، خَتْمَ إظهارٍ لمكانِ السخطِ ولجهةِ استحقاقِهم إياه، وأنَّ قيامةَ الطُّوفان وتلك الصورةَ الهائلةَ ما كانت إلا لظلمهم[٣]، كما يؤذِنُ بذلك الدعاءُ بالهلاك بعد هلاكهم، والوصف بالظلم مع تعليق الحكم به.

---

(١) المصدر السابق دون قوله: من المطر أو الفعل.

(٢) مفتاح العلوم ص٤١٩.

(٣) المصدر السابق.

وذَكَر بعضُهم أنَّ البعد في الأصل ضدُّ القرب، وهو باعتبارِ المكان ويكون في المحسوس، وقد يقال في المعقول نحو ﴿ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٦٧] واستعمالُه في الهلاك مجازٌ، قال ناصر الدين: يقال: بَعُدَ بُعْداً بضمٍّ فسكون وبَعَداً بالتحريك، إذا بَعُدَ بُعْداً بعيداً بحيث لا يُرْجَى عودُه، ثم استُعير للهلاك وخُصَّ بدعاء السوء[١]. ولم يفرِّق في «القاموس»[٢] بين صيغتي الفعل في المعنيين حيث قال: البعدُ معروفٌ والموتُ، وفعلُهما ككَرُمَ وفَرِحَ[٣]، بُعْداً وبَعَداً. فافهم.

وزعم بعضُهم أنَّ الأرض والسماء أُعطيتا ما يعقلان به الأمرَ، فقيل لهما حقيقةً ما قيل، وأنَّ القائل «بعداً» نوحٌ عليه السلام ومَن معه من المؤمنين.

ولا يخفى أنَّ هذا خلافُ الظاهر، ولا أثرَ فيه يعوَّلُ عليه، والكلامُ على الأول أبلغ.

وأمَّا النظرُ فيها من جهة علم المعاني، وهو النظرُ في فائدة كلِّ كلمةٍ فيها، وجهةِ كلِّ تقديمٍ وتأخيرٍ فيما بينَ جُملها، فذلك أنه اختير «يا» دون سائر أخواتها لكونها أكثرَ في الاستعمال، وأنها دالَّةٌ على بُعْدِ المنادَى الذي يستدعيه مقامُ إظهارِ العظمةِ، وإبداءِ شأن العزَّة والجبروت، وهو تبعيدُ المنادَى المؤذِنُ بالتهاوُن به.

ولم يقل: يا أرضِ - بالكسر -؛ لأنَّ الإضافة إلى نفسه جلَّ شأنه تقتضي تشريفاً للأرض وتكريماً لها، فترك إمداداً للتهاوُن. ولم[٤] يقل: يا أيتها الأرض، مع كثرته في نداء أسماء الأجناس، قصداً إلى الاختصار والاحترازِ عن تكلُّفِ التنبيه المشعِرِ بالغفلة التي لا تُناسِبُ ذلك المقام.

---

(١) تفسير البيضاوي (مع حاشية الشهاب) ٥/١٠٢.

(٢) مادة (بعد).

(٣) قال صاحب التاج: ظاهره أن فعلهما معاً من البابين بالمعنيين، وليس كذلك؛ فإن الأكثر على منع ذلك، والتفرقةِ بينهما، وأن البُعد الذي هو خلاف القرب الفعلُ منه بالضم ككرُم، والبَعَد - محرَّكةً - الذي هو الهلاك الفعل منه بَعِد بالكسر كفَرِح، ومَن جوَّز الاشتراك فيهما أشار إلى أفصحية الضم في خلاف القرب وأفصحية الكسر في معنى الهلاك. حققه شيخنا.

(٤) في (م): لم، والمثبت من الأصل والمفتاح ص٤١٩، والكلام منه.

واختير لفظُ الأرض والسماء على سائر أسمائهما ـ كالمقلة والغبراء، وكالمُظِلَّة والخضراء ـ لكونهما أَخْصَرَ وأَوْرَدَ[١] في الاستعمال، وأَوْفَى بالمطابقة؛ فإنَّ تقابُلَهما إنما اشتهر بهذين الاسمين.

واختير لفظ «ابْلَعي» على ابتلعي؛ لكونه أَخْصَرَ وأَوْفَرَ تجانساً بـ «أقلعي»؛ لأن همزة الوصل إن اعتُبرتْ تَسَاوَيا في عدد الحروف، وإلا تقارَبا فيه، بخلاف ابتلعي.

وقيل: «ماءك» بالإفراد دون الجمع لِمَا فيه من صورة الاستكثار المتأبِّي عنها مقامُ إظهارِ الكبرياء، وهو الوجهُ في إفراد الأرض والسماء.

وإنما لم يقل: «ابلعي» بدون المفعول؛ لئلَّا يستلزمَ تركُه ما ليس بمرادٍ من تعميم الابتلاع للجبال والتلال والبحار وساكناتِ الماء بأسرهنَّ، نظراً إلى مقام عظمةِ الآمِر المهيب وكمالِ انقياد المأمور.

ولَما عُلِمَ أنَّ المراد بَلْعُ الماء وحدَه عُلِمَ أنَّ المقصود بالإقلاع إمساكُ السماء عن إرسال الماء، فلم يذكر متعلِّق «أقلعي» اختصاراً واحترازاً عن الحشو المستغنَى عنه، وهذا هو السببُ في ترك ذِكْرِ حصول المأمور به بعدَ الأمر، فلم يقل: قيل يا أرض ابلعي فبلَعَتْ، و: يا سماء أقلعي فأقلعت[٢]؛ لأنَّ مقامَ الكبرياء وكمال الانقياد يغني عن ذكره الذي ربما أوهم إمكانَ المخالفة.

واختير «غيض» على غيَّضَ المشدَّدِ لكونه أخصر.

وقيل: «الماء»، دون: ماء طوفان السماء، وكذا: «الأمر» دون: أمرُ نوح، وهو إنجازُ ما وُعِدَ؛ لقصد الاختصار، والاستغناءِ بحرف التعريف عن ذلك؛ لأنه إما بدلٌ من المضاف إليه كما هو مذهبُ الكوفية، وإمَّا لأنه يغني غناءَ الإضافة في الإشارة إلى المعهود.

واختير «استوت» على سوِّيَتْ ـ أي: أُقرَّتْ ـ مع كونه أنسبَ بأخواته المبنيةِ للمفعول؛ اعتباراً لكون الفعل المقابل للاستقرار أعني الجريان منسوباً إلى السفينة

---

(١) في المفتاح: وأدور.

(٢) في الأصل و(م): فقلعت، والمثبت من المفتاح.

على صيغة المبنيِّ للفاعل في قوله تعالى: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ﴾ مع أنَّ «استَوَتْ» أخصرُ من سوِّيَتْ.

واختير المصدر أعني «بعداً» على: ليبعد القومُ، طلباً لتأكيد معنى الفعل بالمصدر، مع الاختصار في العبارة وهو نزولُ «بعداً» وحده منزلةَ: ليبعدوا بعداً، مع فائدةٍ أخرى هي الدلالةُ على استحقاقِ الهلاك بذكر اللام، وإطلاقُ الظلم عن مقيِّداته في مقام المبالغة يفيدُ تناولَ كلِّ نوعٍ، فيدخلُ فيه ظلمهم على أنفسهم لزيادة التنبيه على فظاعة سوء اختيارهم في التكذيب، من حيث إنَّ تكذيبهم للرسل ظلمٌ على أنفسهم؛ لأن ضرره يعود إليهم. هذا من حيث النظر إلى تركيب الكلم.

وأمَّا من حيث النظرُ إلى ترتيب الجمل، فذلك أنه قدَّم النداء على الأمر، فقيل: «يا أرضُ ابلعي» «ويا سماء أقلعي» دون أن يقال: ابلعي يا أرضُ، وأقلعي يا سماء، جرياً على مقتضى اللازم فيمَن كان مأموراً حقيقةً، من تقديم التنبيه ليتمكَّن الأمرُ الواردُ عقيبه في نفس المنادَى، قصداً بذلك لمعنى الترشيح للاستعارة المكنية في الأرض والسماء. ثم قدَّم أمر الأرض على أمر السماء لكونها الأصلَ نظراً إلى كون ابتداء الطوفان منها، حيث فار تنُّورُها أولاً. ثم جعل قوله سبحانه: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ تابعاً لأمر الأرض والسماء لاتصاله بقصة الماء وأَخْذِه بحجزتها، ألا ترى أصل[1] الكلام: قيل يا أرضُ ابلعي ماءك فبلعَتْ ماءَها، ويا سماءُ أقلعي عن إرسال الماء فأَقْلَعتْ عن إرساله، وغيضَ الماء النازلُ من السماء فغاض[2]. وقيَّد الماء بالنازل وإنْ كان في الآية مطلقاً؛ لأنَّ ابتلاع الأرض ماءَها فُهِمَ من قوله سبحانه: ﴿ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾.

واعتُرض بأنَّ الماء المخصوصَ بالأرض إنْ أريد به ما على وجهها فهو يتناولُ القبيلين الأرضيَّ والسمائيَّ، وإن أريد به ما نبع منها فاللفظُ لا يدلُّ عليه بوجهٍ، ولهذا حمل الزمخشريُّ الماء على مطلقه، وأشعر كلامه بأنَّ «غيض الماء» إخبارٌ عن الحصول المأمورِ به من قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾[3] فالتقدير: قيل لهما ذلك فامتثلا الأمر ونقص الماء.

---

(١) قبلها في الأصل: أن، والمثبت من (م) والمفتاح.

(٢) مفتاح العلوم ص٤١٩-٤٢٠.

(٣) ينظر الكشاف ٢/ ٢٧١.

ورجَّح الطيبيُّ ما ذهب إليه السكاكيُّ زاعماً أنَّ معنى الغيض حينئذٍ ما قاله الجوهريُّ[(١)]، وهو عنده مخالفٌ للمعنى الذي ذكره الزمخشريُّ، فقال: إنَّ إضافة الماء إلى الأرض لَمَّا كانت ترشيحاً للاستعارة تشبيهاً لاتِّصاله بها باتصال الملك بالمالك، ولذا جيء بضمير الخطاب، اقتضت إخراجَ سائر المياه سوى الذي بسببه صارت الأرض مهيأةً للخطاب بمنزلة المأمور المطيع، وهو المعهودُ في قوله تعالى: (وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ) وبهذا الاعتبار يحصلُ التواغُل[(٢)] في تناسي التشبيه والترشيح، ولو أجريت الإضافة على غير هذا تكون كالتجريد، وكم بينهما، هذا ولو حمل على العموم لاستلزمَ تعميمَ ابتلاعه المياهَ بأسرها؛ لورود الأمر من مقام العظمة كما علمتَ من كلام السكاكي، وليس بذاك.

وتعقَّبه في «الكشف» بأنه دعوى بلا دليلٍ وردٌّ يمين إذ لا معهود، والظاهر ما على وجه الأرض من الماء، ولا ينافي الترشيحَ وإضافةَ المالكية، ثم الظاهرُ من تنزيل الماء منزلة الغذاء أن تجعل الإضافة من باب إضافة الغذاء إلى المغتذي في النفع والتقوية، وصيرورته جزءاً منه، ولا نظر فيه إلى كونه مملوكاً أو غيرَ ذلك، وأمَّا التعميمُ فمطلوبٌ وحاصلٌ على التفسيرين؛ لانحصار الماء في الأرضيِّ والسمائيِّ، وقد قلتُم بنضوبهما من قوله سبحانه: فبلعت[(٣)]، وقوله تعالى: (وَغِيضَ)، ولا شكَّ أنَّ ما عندنا من الماء غيرُ ماء الطوفان.

هذا والمطابقُ تفسيرُ الزمخشريِّ، ألا ترى إلى قوله جلَّ وعلا: ﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ﴾ [القمر: ١٢] أي: الأرضيُّ والسمائيُّ، وهاهنا تقدَّم الماءان في قوله سبحانه: (مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي) لأنَّ تقديره: عن إرسال الماء، على زعمهم، فإذا قيل: «وغيض الماء» رجع إليهما لا محالةَ لتقدُّمِهما، ثم إذا جعل من توابع «أقلعي» خاصةً لم يَحْسُنْ عطفُه على أصل القصة، أعني «وقيل يا أرض ابلعي»، كيف وفي إيثار هذا التفسير الإشارةُ إلى أنه زال كونُه طوفاناً؛ لأنَّ نقصان الماء غيرُ الإذهاب بالكلية،

---

(١) سلف كلامه ص٤٦٦ من هذا الجزء.

(٢) في الأصل: التوغل.

(٣) وهذه الكلمة ليست من الآية، وإنما هي من تقدير السكاكي في معنى الآية، كما سلف عنه من أن أصل الكلام: قيل يا أرض ابلعي ماءك فبلعت. . .

وإلى أنَّ الأجزاء الباطنة من الأرض لم تبقَ على ما كانت عليه من قوَّة الإنباع، ورَجَعتْ إلى الاعتدال المطلوب، وليس في الاختصاص بالنضوب هذا المعنى البتة. انتهى.

وزعم الطبرسيُّ أنَّ أئمة البيتِ ﷺ على أنَّ الماء المضافَ هو ما نبع وفار، وأنه هو الذي ابتُلع وغاض لا غير، وأنَّ ماء السماء صار بحاراً وأنهاراً[١]. وأخرج ابن عساكر من طريق الكلبيِّ عن ابن عباس ما يؤيِّدُه[٢]. وهذا مخالفٌ لِمَا يقتضيه كلامُ السكاكيِّ مخالفةً ظاهرة، وفي القلب من صحته ما فيه.

ثم إنه تعالى أَتْبعَ غَيْضَ الماء ما هو المقصودُ الأصليُّ من القصة، وهو قولُه جلَّت عظمته: ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ ثم أَتْبعَ ذِكْرَ المقصود حديثَ السفينة لتأخُّره عنه في الوجود، ثم خُتمت القصةُ بالتعريض الذي علمتَه.

هذا[٣] كلُّه نظرٌ في الآية من جانبي البلاغة، وأمَّا النظرُ فيها من جانب الفصاحة المعنوية، فهي كما ترى: نَظْمٌ للمعاني لطيفٌ، وتأديةٌ لها ملخَّصةً مبيَّنةً لا تعقيدَ يُعثِّر الفكرَ في طلب المراد، ولا الْتِواءَ يشيكُ الطريقَ إلى المرتاد، بل إذا جرَّبْتَ نفسك عند استماعها وجدْتَ ألفاظها تسابقُ معانيها، ومعانيها تُسابقُ ألفاظها، فما من لفظةٍ فيها تسبقُ إلى أذنك إلَّا ومعناها أسبقُ إلى قلبك.

وأمَّا النظرُ فيها من جانب الفصاحة اللفظية فألفاظُها على ما ترى عربيةٌ مستعملةٌ جاريةٌ على قوانين اللغة، سليمةٌ عن التنافر، بعيدةٌ عن البشاعة، عَذْبةٌ على العذبات، سَلِسَةٌ على الأسلات، كلٌّ منها كالماء في السّلالةِ، وكالعَسَلِ في الحلاوة، وكالنسيم في الرِّقَّة، ولله تعالى درُّ التنزيل ماذا جمعت آياته:

وعلى تفنُّنِ واصفيه بحُسْنِه ... يَفْنَى الزمانُ وفيه ما لم يُوْصَفِ[٤]

وما ذُكر في شرح مزايا هذه الآيةِ بالنسبة إلى ما فيها قطرةٌ من حِياضٍ، وزهرةٌ

---

(١) مجمع البيان ١١/١٥٩.
(٢) تاريخ ابن عساكر ٦٢/٢٤٥-٢٤٦، وأخرجه أيضاً ابن سعد في الطبقات ١/٤٠-٤٢.
(٣) في الأصل: وهذا، والمثبت من (م) ومفتاح العلوم ص٤٢١.
(٤) البيت لابن الفارض، وهو في ديوانه ص١٥٤، وسلف ١/٢٤٣، و١٠/٥٩١.

من رياضٍ، وقد ذكر ابنُ أبي الإصبع أنَّ فيها عشرين ضرباً من البديع مع أنها سبعَ عَشْرةَ لفظةً، وذلك: المناسبةُ التامة في «ابْلعي» و«أَقْلعي»، والاستعارةُ فيهما، والطِّباقُ بين الأرض والسماء، والمجازُ في «يا سماء» فإنَّ الحقيقة: يا مطر السماء، والإشارة في «وغيض الماء» فإنه عبَّر به عن معانٍ كثيرةٍ؛ لأنَّ الماء لا يغيضُ حتى يقلعَ مطرُ السماء وتبلعَ الأرض ما يخرج منها، فينقصُ ما على وجه الأرض. والإرداف في «واستَوتْ»، والتمثيلُ في «وقضي الأمر»، والتعليلُ فإنَّ «غيض الماء» علَّةٌ للاستواء، وصحة التقسيم فإنه استوعبَ أقسام الماء حالَ نَقْصِه، والاحتراس في الدعاء لئلَّا يتوهَّم أنَّ الغرق لعمومه شمل مَن لا يستحقُّ الهلاك، فإنَّ عَدْلَه تعالى يمنع أن يدعو على غير مستحِقٍّ، وحُسْنُ النسقِ، وائتلافُ اللفظ مع المعنى، والإيجازُ فإنه سبحانه قصَّ القصة مستوعَبةً بأَخْصَرِ عبارةٍ، والتسهيم لأنَّ أول الآية يدلُّ على آخرها، والتهذيبُ لأنَّ مفرداتها موصوفةٌ بصفاتِ الحسن، وحُسْنُ البيان من جهةِ أنَّ السامع لا يتوقَّف في فَهْم معنى الكلام، ولا يُشْكِلُ عليه شيءٌ منه، والتمكينُ لأنَّ الفاصلة مستقرَّةٌ في محلِّها مطمئنَّةٌ في مكانها، والانسجام[(١)].

وزاد الجلال السيوطيُّ بعد أن نقل هذا عن ابن أبي الإصبع: الاعتراض[(٢)].

وزاد آخرون أشياءَ كثيرةً، إلا أنها ككلام ابن أبي الإصبع قد أُشير إليها بإصبع الاعتراض.

وقد ألَّف شيخُنا علاء الدين ـ أَعْلَى الله تعالى درجته في أعلى علِّيين ـ رسالةً في هذه الآية الكريمة، جمع فيها ما ظهر له ووقف عليه من مزاياها، فبلغ ذلك مئةً وخمسين مزيَّةً، وقد تطلَّبْتُ هذه الرسالةَ لأَذْكُر شيئاً من لطائفها فلم أظفر بها،

---

(١) هو أن يكون الكلام لخلوِّه من العقادة منحدراً كتحدُّر الماء المنسجم، ويكاد لسهولة تركيبه وعذوبة ألفاظه أن يسيل رقةً، والقرآن كله كذلك. الإتقان ٢/٩٠٨.

(٢) الإتقان ٢/٩٣٩. والاعتراض هو الإتيان بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب في أثناء كلام أو كلامين اتصلا معنًى، لنكتةٍ غير دفع الإبهام. وفي الآية اعترض بقوله تعالى ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ بين ﴿وَغِيضَ﴾و﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ لأن الاستواء يحصل عقب الغيض. الإتقان ٢/ ٨٧٢.

وكأنَّ طوفان الحوادث أغرقها، ولعل فيما نقلناه سداداً من عوزٍ، والله تعالى الموفِّقُ للصواب، وعنده علمُ الكتاب.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾ أي: أراد ذلك؛ بدليل تفريعِ قوله سبحانه: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ عليه. وقيل: النداء على حقيقته، والعطفُ بالفاء لكون حقِّ التفصيل يعقب الإجمال ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: وإنَّ وعدك ذلك، أو: كلُّ وعدٍ تَعِدُه حقٌّ لا يتطرَّق إليه خُلْفٌ، فيدخلُ فيه الوعدُ المعهود[1] دخولاً أولياً.

﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ لأنَّك أعلمُهم وأعدلُهم، وقد ذُكر أنه إذا بُني أفعل من الشيء الممتنع من التفضيل والزيادة، يُعتبر فيما يناسبُ معناه معنى الممتنع، وقال العزُّ بن عبد السلام في «أماليه»: إنَّ هذا ونحوَه من «أرحم الراحمين» و«أحسن الخالقين» مُشْكِلٌ؛ لأنَّ أفعل لا يضاف إلَّا إلى جنسه، وهنا ليس كذلك؛ لأنَّ الخلق من الله سبحانه بمعنى الإيجاد ومن غيرِه بمعنى الكسب، وهما متباينان، يعني على المشهور من مذهب الأشاعرة، والرحمةُ من الله تعالى إن حُملت على الإرادة أو جُعلت من مجاز التشبيه صحَّ، وإن أريد إيجادُ فعل الرحمة كان مشكلاً أيضاً؛ إذ لا موجدَ سواه سبحانه.

وأجاب الآمديُّ بأنه بمعنى: أعظمُ مَنْ يُدعى بهذا الاسم. واستشكل بأنَّ فيه جَعْلَ التفاضُل في غير ما وُضِعَ اللفظُ بإزائه، وهو يناسبُ مذهبَ المعتزلة فافهم.

وقيل: المعنى هنا: أنك أكثرُ حكمةً من ذوي الحكم على أنَّ الحاكم من الحِكْمة[2]، كالدَّارع من الدِّرع. واعتُرض عليه بأنَّ الباب ليس بقياسيٍّ، وأنه لم يُسمع حاكم بمعنى حكيم، وأنَّه لا يُبنى منه أفعل إذاً؛ لأنَّه ليس جارياً على الفعل، لا يقال: ألْبنُ وأتْمرُ من فلان، إذ لا فعلَ بذلك المعنى، والجوابُ بأنه قد كثر في كلامهم فجوِّز على أن يكون وجهاً مرجوحاً، وبأنه من قبيل: أحنك الشاتين[3]، لا يخلو عن تعسُّف كما في «الكشف».

---

(١) في الأصل: المذكور.

(٢) في الأصل و(م): الحكم، والمثبت من الكشاف ٢/ ٢٧٢، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ١٠٢، وتفسير أبي السعود ٤/ ٢١٢.

(٣) أي: آكَلُهما بالحنك. اللسان (حنك).

وتُعقِّب بأنَّ للحكمة فعلاً ثلاثياً وهو حَكُمَ، وأفعل من الثلاثي مقيس، وأيضاً سمع: احتنك الجراد، وألبن، وأتمر، فغايتُه أن يكون من غيرِ الثلاثيِّ. ولا يخفى ما فيه. ومنهم مَن فسَّره على هذا بأعلمهم بالحكمة، كقولهم: آبَل، من أَبِل، بمعنى: أعلم وأحذق بأمر الإبل.

وأيّاً ما كان فهذا النداءُ منه عليه السلام يقطر منه الاستعطافُ وجميلُ التوسُّل إلى مَن عَهِدَه منعماً مفضلاً في شأنه أوّلاً وآخراً، وهو على طريقة دعاء أيوبَ عليه السلام ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] فيكون ذلك قبلَ الغرق، والواوُ لا تقتضي الترتيب. وقيل: إنَّ النداء إنما كان بعدَه والمقصودُ منه الاستفسارُ عن سبب عدم إنجائِه مع سَبْقِ وعدِه تعالى بإنجاءِ أهله وهو منهم، وسيأتي إن شاء الله تعالى قريباً تمامُ الكلام في ذلك.

﴿قَالَ﴾ استئناف بيانيٌّ، كأنه قيل: ما قال له ربُّه سبحانه حين ناداه بذلك؟ فقيل: قال: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: ليس منهم أصلاً؛ لأنَّ مدار الأهليَّة هو القرابةُ الدينيَّة، وقد انقطعتْ بالكفر، فلا علاقةَ بين مسلمٍ وكافرٍ ولذا لم يتوارثا، وقد ذكروا أنَّ قرابة الدِّين أقربُ من قرابة النَّسب، كما أشار إلى ذلك أبو فراسٍ بقوله:

كانت مودَّةُ سلمانَ له نسباً ... ولم يكن بين نوحٍ وابنِه رَحِمُ[(١)]

أو: ليس من أهلك الذين أمرتُكَ بحَمْلهم في الفُلك؛ لخروجه عنهم بالاستثناء، وحُكي هذا عن ابن جرير[(٢)] وعكرمة، والأوّل عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، وعلى القولين ليس هو من الذين وُعد بإنجائهم، وكأنه لَمَّا كان دعاؤُه عليه السلام بتذكير وعدِه جلَّ ذِكْرُه مبنيّاً على كون كنعان من أهله، نفى أولاً كونَه منهم، ثم علَّل عدمَ كونِه منهم على طريقة الاستئناف التحقيقيِّ بقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ وأصلُه: إنه ذو عملٍ فاسدٍ، فحذف «ذو» للمبالغة بجَعْلِه عينَ عملِه لمداومته عليه. ولا يقدَّر المضاف لأنَّه حينئذٍ تفوتُ المبالغةُ المقصودة منه، ونظيرُ ذلك ما في قول الخنساء ترثي أخاها صخراً:

---

(١) ديوان أبي فراس ص٣٥٣.

(٢) في تفسيره ١٢/ ٤٣٣، وفيه: تأويل ذلك: إنه ليس من أهلك الذين وعدتُك أن أنجيهم.

ما أمُّ سَقْبٍ على بوٍّ تحنُّ له ... قد ساعدتْها على التَّحنان آظارُ
ترتعُ ما رتعتْ حتَّى إذا ادَّكرتْ ... فإنما هي إقبالٌ وإدبارُ
يوماً بأوجعَ منِّي حينَ فارقني ... صخرٌ وللعيش إحلاءٌ وإمرارُ[(١)]

وأبدل فاسد بـ «غير صالح» إمَّا لأنَّ الفاسدَ ربما يُطلق على ما فَسَدَ ومِن شأنه الصَّلاح، فلا يكون نصّاً فيما هو من قبيل الفاسد المحض كالمظالم، وإمَّا للتلويح بأنَّ نجاة مَن نجا إنَّما هو لصلاحه.

وقرأ الكسائيُّ ويعقوب: «إنه عَمِلَ غيرَ صالح» على صيغة الفعل الماضي، ونَصْبِ «غير»[(٢)]، وهي قراءة عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه، وابنِ عبَّاس، وأنسٍ، وعائشةَ ﷺ، وقد روتْها هي وأمُّ سلمةَ عن النبيِّ ﷺ[(٣)]، والأصلُ: عَمِلَ عَمَلاً غيرَ

---

(١) ديوان الخنساء ص٤٨، والخزانة ١/ ٤٣١-٤٣٢، وحاشية الشهاب ٥/ ١٠٣، والثاني في الكتاب ١/ ٣٣٧، ودلائل الإعجاز ص٣٠٠. والشاهد فيه قولها: فإنما هي إقبال وإدبار. وذكر الجرجاني أنها لم تُرِدْ بالإقبال والإدبار غير معناهما، جعلتها لكثرة ما تُقبل وتُدبر كأنها تجسمت من الإقبال والإدبار، وليس هذا على حذف مضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، لأنَّا إذا جعلنا المعنى فيه كالمعنى إذا قلنا: فإنما هي ذات إقبال وإدبار، أفسدنا الشعر على أنفسنا، وخرجنا إلى شيء مغسول، وإلى كلام عاميٍّ مرذول.
والسقب: الذَّكَر من ولد الناقة. والبوّ: جلدُ ولدِ الناقة، إذا مات حين تلد أمه يُحْشَى تبناً وهي لا تراه، ويُدنى منها فتشمه فتدر عليه اللبن. والآظار: جمع ظئر، وهي التي تحن على ولد غيرها. إحلاء وإمرار، أي: سرور وحزن. الخزانة ١/ ٤٣٢-٤٣٣. ورواية البيت الأول في الديوان:

وما عجولٌ على بوٍّ تُطيف به ... لها حنينان إعلان وإسرار

(٢) التيسير ص١٢٥، والنشر ٢/ ٢٨٩.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١٧٧، والبحر ٥/ ٢٢٩، وأخرجه أحمد (٢٦٥١٨)، وأبو داود (٣٩٨٣)، والترمذي (٢٩٣١)، وحفص الدوري في قراءات النبي (٦٣) من حديث أم سلمة ﷺ، وفي إسناده شهر بن حوشب، وهو ضعيف، وينظر الكلام عليه في حاشية المسند. وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير ١/ ٢٨٦-٢٨٧، والفراء في معاني القرآن ٢/ ١٧-١٨، وحفص الدوري في قراءات النبي (٦٢)، والحاكم ٢/ ٢٤١ من طريق محمد بن جحادة، عن أبيه، عن عائشة عن النبي ﷺ. وجحادة لم يرو عنه غير ابنه. وأخرجه الطبراني في الأوسط (٤٣٠٠) من طريق حميد الأزرق عن مسروق عن عائشة. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٥٥: فيه حميد الأزرق، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

صالح، وبه قرئ أيضاً كما روي عن عكرمة[١]، فحُذف الموصوفُ وأُقيمت صفتُه مقامه، وذلك شائعٌ مطَّرد عند انكشاف المعنى وزوالِ اللَّبْس.

وضعَّفه بعضُهم هنا بأنَّ العربَ لا تكاد تقول: عَمِلَ غيرَ صالحٍ، وإنما تقول: عَمِلَ عَمَلاً غيرَ صالح، وليس بشيء.

وأُيِّد بهذه القراءة كونُ ضميرِ «إنه» في القراءة الأولى لابن نوح لأنَّه فيها له قطعاً، فيضعَّف ما قيل: إنَّه في الأولى لتركِ الرُّكوبِ معهم والتخلُّف عنهم، أي: إنَّ ذلك التركَ عملٌ غيرُ صالح، على أنَّه خلافُ الظاهر في نفسه كما لا يخفى.

ومثلُه في ذلك ما قيل: إنَّه لنداء نوح عليه السلام، أي: إنَّ نداءك هذا عملٌ غيرُ صالح، وتخرجُ بذلك الجملةُ عن أن تكونَ تعليلاً لِمَا تقدَّم، ويفوتُ ما في ذاك من الفائدة، ولا يكون الكلامُ على مساقٍ واحد، نعم روي عن ابن عبَّاس ما يقتضيه، فقد أخرج ابنُ أبي حاتم وأبو الشيخ عنه أنه قال: إنَّ نساءَ الأنبياء عليهم السلام لا يَزْنِينَ، ومعنى الآية: مسألتُكَ إياي يا نوحُ عملٌ غيرُ صالح لا أرضاه لك[٢].

وفي رواية ابن جرير عنه: سؤالُك ما ليس لكَ به عِلمٌ عملٌ غيرُ صالح[٣].

ولعلَّ ذلك لم يثبتْ عن هذا الحبر، لأنَّ الظاهر من الرواية الأولى أنَّه إنما جعل الضميرَ للمسألة دونَ ابن نوح؛ لما في ذلك من نسبة الزنا إلى مَن لا يُنسب إليه، وهو ﷺ أجلُّ قَدْراً من أن يَخْفَى عليه أنَّه لا يلزم من ذلك هذا المحذور.

ثمَّ إنه لَمَّا كان دعاؤُه عليه السلام مبنيّاً على كون كنعان من أهله، وقد نُفي ذلك وحقِّق ببيانِ علَّته، فرَّع على ذلك النهيُ عن سؤال إنجائه، إلَّا أنه جيء بالنهي على وجهٍ عامٍّ يندرج فيه ما ذكر اندراجاً أوَّليّاً، فقال سبحانه: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ﴾ أي: إذا وقفتَ على جليَّة الحال فلا تطلبْ منِّي ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: مطلباً لا تعلم يقيناً أنَّ حصولَه صوابٌ وموافقٌ للحكمة، على تقديرِ كون «ما» عبارةً عن المسؤول

(١) أخرج الرواية بذلك عن عكرمة عبد الرزاق ٢/ ٣٠٧، والطبري ١٢/ ٤٢٩.
(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٤٠، وعزاه لأبي الشيخ السيوطي في الدر ٣/ ٣٣٥.
(٣) تفسير الطبري ١٢/ ٤٣٤.

الذي هو مفعولٌ للسؤال، أو: طلباً لا تعلم أنَّه صوابٌ، على تقديرِ كونه عبارةً عن المصدر الذي هو مفعولٌ مطلقٌ، فيكون النهيُ وارداً بصريحه في كلٍّ من معلومِ الفساد ومشتبهِ الحال، قاله شيخ الإسلام[١].

وجوَّز أن يكون: ما ليس لك علمٌ بأنَّه صوابٌ أو غير صواب ـ وهو الذي ذهب إليه القاضي[٢] ـ فيكون النهيُ وارداً في مشتبه الحال، ويُفهم منه حالُ معلومِ الفسادِ بالطريق الأَوْلَى، وأيّاً ما كان فهو عامٌّ يندرجُ تحتَه ما نحن فيه كما ذكرنا.

وسمِّي النداءُ سؤالاً لتضمُّنِه إيَّاه وإن لم يصرَّح به كما لا يخفى، و«به» على ما نُقِلَ عن أبي عليٍّ[٣] إما متعلِّق بما يدلُّ عليه العلم المذكورُ وإن لم يتسلَّط عليه كقوله:

ربَّيـــتـــه حـــتـــى إذا تـــمـــعـــدَدا   كـان جـزائي بـالـعَـصـا أن أُجـلـدا[٤]

وإمَّا أن يتعلَّق بالمستقرِّ في «لك»[٥]، وكذا الكلامُ فيما سيأتي إن شاء الله تعالى.

والآية ظاهرةٌ في أنَّ نداءه عليه السلام لم يكن استفساراً عن سبب عدم إنجائه مع تحقُّق سبب الإنجاء فيما عنده كما جوَّزه القاضي[٦] بناءً على أنه كان بعدَ الغرق، بل هو دعاءٌ منه عليه السلام لإنجاء ابنِه حين حالَ الموجُ بينهما ولم يعلم بهلاكه بعدُ، إما بتقريبه إلى الفُلك بتلاطُم الأمواج مثلاً، أو بتقريبها إليه. وقيل: أو بإنجائه بسببٍ آخرَ، ويأباه تذكيرُ الوعد في الدعاء؛ فإنه مخصوصٌ بالإنجاء في الفلك، ومجرَّدُ حيلولة الموج لا يستوجبُ الهلاكَ فضلاً عن العلم به؛ لظهور إمكانِ عصمة الله تعالى إيَّاه[٧] برحمتِه، وقد وعده بإنجاءِ أهله، ولم يعتقدْ أنَّ فيه مانعاً من الانتظام في

---

(١) في تفسيره ٤/ ٢١٢.
(٢) هو البيضاوي في تفسيره مع حاشية الشهاب ٥/ ١٠٣.
(٣) في الحجة ٤/ ٣٤٤.
(٤) الرجز لعجاج كما في المحتسب ٢/ ٣١٠، والخزانة ٨/ ٤٣٠، وسلف ٧/ ٤٩.
(٥) في (م): ذلك، وهو تصحيف.
(٦) في تفسيره مع حاشية الشهاب ٥/ ١٠٢.
(٧) قبلها في (م): عليه، وهو خطأ، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ٢١٣.

سلكهم لمكان النِّفاق وعدم المجاهرة بالكفر؛ لما في ذلك لفظاً من الاحتياج إلى القولِ بالحذف والإيصال[1]، ومعنًى من أنَّ النهيَ عن الاستفسار عمَّا لا يعلم غيرُ موافقٍ للحكمة؛ إذ عدمُ العلم بالشيء داعٍ إلى الاستفسار عنه لا إلى تركه.

وقيل: إنَّ السؤالَ عن موجب عدم النَّجاة مع ما فيه من الجرأة وشِبْهِ الاعتراض فيه أنَّه تعيَّن له عليه السلام أنه من المستثنَيْنَ بهلاكه، فهو غيرُ سديدٍ، كيف ونداؤُه ذاك مِمَّا يقطر منه الاستعطاف؟

وقيل: إنَّ النهي إنما هو عن سؤالٍ ما لا حاجةَ إليه: إمَّا لأنه لا يهمُّ، أو لأنَّه قامتِ القرائنُ على حاله، لا عن السؤال للاسترشادِ، فلا ضَير إذن في كلام القاضي. وهو كما ترى، ولا يُصْلِحُ العطارُ ما أَفْسَدَ الدهرُ.

فالحقُّ أنَّ ذلك مسألةُ الإنجاء، وكان قبل تحقُّق الغرق عند رؤيةِ المشارَفةِ عليه[2]، ولم يكن عالماً بكُفره إذ ذاك لأنَّه لم يكن مجاهراً به، وإلا لم يَدْعُ له، بل يَدعُه أيضاً، و«لا تَكُنْ مع الكافرين» لا يدلُّ على أنَّه كافرٌ عندَه، بل هو نهيٌ عن الدُّخول في غمارهم، وقَطْعٌ بأنَّ ذلك يوجبُ الغرقَ على الطريق البرهانيِّ كما قدَّمنا[3]، وكأنه عليه السلام حمل مقاولتَه على غير المكابرة والتعنُّت؛ لغلبة المحبَّة وذهوله عن إعطاءِ التأمُّل حقَّه، فلذلك طَلَب ما طَلَبَ، فعُوتب بأنَّ مثله في معرضِ الإرشادِ والقيام بأعباء الدَّعوة تلك المدَّة المتطاولةَ لا ينبغي أن يشتَبِه عليه كلامُ المسترشِد والمعانِد، ويرجع هذا إلى تَرْك الأَوْلى، وهو المرادُ بقوله سبحانه: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٤٦﴾.

وذكر شيخ الإسلام أنَّ اعتزالَه وقصدَه[4] الالتجاءَ إلى الجبل ليس بنصٍّ في الإصرار على الكفر؛ لظهورِ جوازِ أن يكون ذلك لجهلِه بانحصارِ النَّجاة في الفُلك،

---

(١) قوله: لما في ذلك لفظا... إلخ، لما في القول بكون نداءه عليه السلام استفساراً عن سبب عدم الإنجاء. وقوله: من الحذف والإيصال، أي: إذا كان النداء للاستفسار لا للدعاء فالأصل أن يقال: عما ليس لك... إلخ؛ لأن السؤال الاستفساري يتعدَّى بعن، والطلبي بنفسه. ينظر حاشية الشهاب ٥/ ١٠٣.

(٢) في (م): عليها.

(٣) ص٤٦٢ من هذا الجزء.

(٤) في الأصل و(م): قصده، والمثبت من تفسير أبي السعود.

وزَعْمِه أنَّ الجبل أيضاً يجري مجراه، أو لكراهةِ الاحتباس في الفلك، بل قولُه: «سآوي إلى جبل يعصمني من الماء» بعد ما قال له نوح: «ولا تكن مع الكافرين» ربَّما يُطْمِعُه عليه السلام في إيمانه، حيث لم يقلْ: أكونُ معهم، أو: سنأوي، أو: يعصمنا، فإنَّ إفرادَ نفسِه بنسبة الفعلين المذكورين ربَّما يُشْعِرُ بانفرادِه من الكافرين، واعتزاله عنهم؛ وامتثالِه ببعض ما أمرَه به نوحٌ عليه السلام، إلا أنَّه عليه السلام لو تأمَّل في شأنه حقَّ التأمل وتفحَّص عن أحواله في كلٍّ ما يأتي وما يذر، لَما اشتبه عليه أنه ليس بمؤمنٍ، وأنَّه مستثنًى من أهله، ولذلك قيل له: «إني» إلخ[(١)].

وهو ظاهرٌ في أنَّ مدارَ العتاب الاشتباهُ كما ذكرنا، وإليه ذهب الزمخشريُّ؛ قال: إنَّ الله تعالى قدَّم إليه عليه السلام الوعدَ بإنجاء أهله مع استثناء مَنْ سبق عليه القولُ منهم، فكان عليه أن يعتقد أنَّ في الجملة مَنْ هو مستوجبٌ للعذاب لكونه غيرَ صالح، وأنَّ كلَّهم ليسوا بناجين، وأنْ لا تخالجَه شبهةٌ حين شارف ولدُه الغرقَ في أنه من المستثنين لا من المستثنى منهم، فعُوتب على أنِ اشْتَبَهَ عليه ما يجبُ أنْ لا يشتبه[(٢)].

وكأنه أرادَ أنَّ الاستثناء دلَّ على أنَّ المعنى المعتبرَ الصلاحُ لا القرابةُ، فكان ينبغي أن يجعلَه الأصلَ ويتفحَّص في الأهل عن وجوده، وأنْ يجعلَ كلَّهم سواسيةً في استحقاق العذاب إلَّا مَن علم صلاحَه وإيمانَه، لا أنْ يجعل كونَه من الأهل أصلاً، فيسألَ إنجاءَه مع الشَّكِّ في إيمانه، فقد قصَّر فيما كان عليه بعضَ التقصير، وأولو العزم مؤاخَذون بالنَّقير والقِطمير، وحسناتُ الأبرار سيِّئاتُ المقرَّبين.

وابن المنيِّر لم يرضَ كونَ ذلك عتاباً، قال: في كلام الزمخشريّ ما يدلُّ على أنه يعتقد أنَّ نوحاً عليه السلام صدر منه ما أوجبَ نسبةَ الجهل إليه ومعاتبته على ذلك، وليس الأمر كما تخيَّله.

ثم قال: ونحن نوضِّح[(٣)] الحقَّ في الآية منزلاً على نصِّها، مع تبرئةِ نوح عليه السلام مما توهَّم الزمخشريُّ نسبتَه إليه، فنقول: لَمَّا وُعد عليه السلام بتنجية أهلِه

---

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ٢١٣.

(٢) الكشاف ٢/ ٢٧٣-٢٧٤.

(٣) بعدها في (م): أن.

إلَّا من سبقَ عليه القولُ منهم ولم يكن كاشفاً لحالِ ابنه ولا مطَّلعاً على باطنِ أمره، بل كان معتقداً بظاهر الحال أنه مؤمنٌ، بقي على التمسُّك بصيغة العموم للأهلية الثابتة، ولم يعارضْها يقينٌ في كفر ابنِه حتى يخرج من الأهل ويدخلَ في المستثنين، فسأل الله تعالى فيه بناءً على ذلك، فبيَّن له أنه في علمِه من المستثنين، وأنه هو لا علمَ له بذلك، فلذلك سأل فيه، وهذا بأنْ يكون إقامةَ عذرٍ أَوْلَى منه من أن يكون عتباً، فإنَّ نوحاً عليه السلام لا يكلِّفه الله تعالى علمَ ما استأثر به غيباً. وأما قولُه سبحانه: (إِنِّىٓ أَعِظُكَ) إلخ فالمرادُ النهيُ عن وقوع السؤال في المستقبل بعدَ أن أعْلَمه سبحانه باطنَ أمرِه، وأنه إنْ وقع في المستقبل في السؤال كان من الجاهلين، والغرضُ من ذلك تقديمُ ما يُبقيه عليه السلام على سمتِ العصمة، والموعظةُ لا تستدعي وقوعَ ذنبٍ، بل المقصدُ منها أنْ لا يقعَ الذنبُ في الاستقبال، ولذلك امتثل عليه السلام ذلك، واستعاذَ بالله سبحانه أن يقع منه ما نُهي عنه[١]. كما يدلُّ عليه قوله سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

ولا يخفى سقوطُه على ما علمتَ، وهو خلافُ الظاهر جدّاً، وقد جاء عن الفضيل بن عياض أنه قال: بلغني أنَّ نوحاً عليه السلام بكى عن قولِ الله تعالى له ما قال أربعين يوماً. وأخرج أحمدُ في «الزهد» عن وهيب بن الورد الحضرميِّ قال: لَمَّا عاتبَ الله تعالى نوحاً في ابنه، وأنزل عليه (إِنِّىٓ أَعِظُكَ) بكى ثلاث مئة عامٍ حتَّى صار تحتَ عينيه مثلُ الجدول من البكاء[٢].

وزعم الواحديُّ أنَّ السؤالَ قبل الغرق ومع العلم بكفره، وذلك أنَّ نوحاً عليه السلام لم يعلم: أنَّ سؤاله ربَّه نجاةَ ولده محظورٌ عليه مع إصراره على الكفر حتى أعلمه اللهُ تعالى ذلك[٣].

واعتُرض بأنَّه إذا كان عالماً بكفره مع التصريح بأنَّ في أهله مَن يستحقُّ العذابَ، كان طلبُ النجاة منكَراً من المناكير، فتدبَّر.

---

(١) الانتصاف مع الكشاف ٢/ ٢٧٣-٢٧٤.

(٢) الزهد ص٦٦، ووهيب بن الورد هو أبو أمية، ويقال: أبو عثمان المكي، مولى بني مخزوم، توفي سنة (١٥٣هـ). سير أعلام النبلاء ٧/ ١٩٨.

(٣) ينظر الوسيط ٢/ ٥٧٦.

والظاهرُ على ما قرَّرنا أنَّ قولَه: «ربِّ» إلخ توبةٌ مما وقع منه عليه السلام، و«ما» هنا أيضاً عبارةٌ إمَّا عن المسؤول أو عن السؤال، أي: أعوذ بك أنْ أطلب منك من بعدُ مطلوباً لا أعلم أنَّ حصولَه مقتضى الحكمة، أو طلباً لا أعلم أنَّه صوابٌ سواءٌ كان معلومَ الفساد، أو مُشْتبهَ الحال، أو لا أَعْلَمُ أنَّه صوابٌ أو غيرُ صواب، ولم يقل: أعوذُ بك منه أو من ذلك؛ مبالغةً في التوبة، وإظهاراً للرغبة والنشاط فيها، وتبرُّكاً بذكرِ ما لقَّنه الله تعالى، وهو أبلغُ من أن يقول: أتوبُ إليك أنْ أسألك؛ لِمَا فيه من الدلالة على كونِ ذلك أمراً هائلاً محذوراً لا محيصَ منه إلا بالعوذ بالله تعالى، وأنَّ قدرتَه عليه السلام قاصرةٌ عن النجاة من المكاره إلا بذلك، كما في «إرشاد العقل السليم»(١).

واحتمالُ أن يكون فيه ردٌّ وإنكارٌ نظير ما في «البقرة» من قول موسى عليه السلام: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الآية: ٦٧] مِمَّا لا يكاد يمرُّ بفكرِ أحدٍ من الجاهلين.

هذا وفي مصحف ابن مسعود: «إنَّه عملٌ غيرُ صالحٍ أن تسألني»(٢). ورجَّح به كونُ ضميرِ «إنه» في القراءة المتواترة للنداء المتضمِّن للسؤال.

وقرأ ابنُ كثير: «فلا تسألَنَّ» بفتح اللام وتشديدِ النُّون مفتوحة(٣)، وهي قراءةُ ابنِ عبَّاس رضي الله عنهما(٤). وكذا قرأ نافعٌ وابنُ عامر غيرَ أنهما كسرا النُّون(٥) على أنَّ أصله: تسألنَّني، فحذفت نونُ الوقايةِ لاجتماعِ النُّونات، وكُسرت الشديدةُ للياء، ثم حُذفت الياء اكتفاءً بالكسرة.

وقرأ أبو جعفر وشيبةُ وزيدُ بن علي رضي الله عنهما كذلك، إلا أنهم أثبتوا الياءَ بعد النون(٦)، وأمرُه ظاهر.

---

(١) ٤/ ٢١٣.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ١٧٧، والبحر ٥/ ٢٢٩.
(٣) التيسير ص١٢٥، والنشر ٢/ ٢٨٩.
(٤) البحر ٥/ ٢٢٩.
(٥) التيسير ص١٢٥، والنشر ٢/ ٢٨٩.
(٦) البحر ٥/ ٢٢٩.

وقرأ الحسنُ وابنُ أبي مليكة: «تَسَالني» من غير همز من سالَ يَسَالُ فهما يتساولان[1]، وهي لغةٌ سائرة.

وقرأ باقي السبعة بالهمز وإسكانِ اللام وكسرِ النُّون وتخفيفها. وأثبت الياءَ في الوصل ورشٌ وأبو عمرو، وحذَفَها الباقون.

﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي﴾ ما صدر عنِّي من السؤال المذكور ﴿وَتَرْحَمْنِيٓ﴾ بقبولِ توبتي ﴿أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ أعمالاً بسبب ذلك.

وتأخيرُ ذكر هذا عن حكاية الأمر الواردِ على الأرض والسماء وما يتلوه، مع أنَّ حقَّه أن يُذكر عقيبَ قوله سبحانه: (فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ) حسبما وقع في الخارج، على ما علمتَ من أنَّ النِّداء كان لطلبِ الإنجاء قبل العلم بالهلاك؛ قيل: ليكونَ على أسلوب قصَّة «البقرة» في سورتها[2] دلالةً على استقلال هذا المعنى بالغرض لِمَا فيه من النكت مِن جَعْلِ قرابةِ الدِّين غامرةً لقرابة النسب، وأنْ لا يقدمَ في الأمور الدينيَّة الأصوليَّة إلا بعد اليقين.

وتُعقِّب بالفرق بين ما هنا وما هناك عندَ مَنْ كان ذا قلبٍ، وما ذُكر مِن جَعْلِ قرابة الدِّين غامرةً لقرابة النسب إلخ لا يفوتُ على تقدير سوقِ الكلام على ترتيبِ الوقوع أيضاً.

واختار بعضُ المحقِّقين[3] أنَّ ذلك لأنَّ ذكرَ هذا النِّداء كما ترى مستدعٍ لِمَا مرَّ من الجواب المستدعي لذكر توبته عليه السلام المؤدِّي إلى ذِكْر قبولها في ضمن الأمر بهبوطه عليه السلام من الفُلك بالسلام والبركاتِ الفائضةِ عليه وعلى المؤمنين حسبما يجيء إن شاء الله تعالى، ولا ريبَ أنَّ هذه المعاني آخذٌ بعضُها بحُجْزةِ بعضٍ بحيث لا تكاد تفرِّق الآيات الكريمةَ المنطويةَ عليها بعضَها من بعضٍ، وأنَّ

---

(١) في الأصل و(م): يساولان، والمثبت من البحر ٥/ ٢٢٩، والكلام منه.

(٢) وهو تقديم ذكر الأمر بذبحها على ذكر القتيل الذي هو أول القصة، وكان حقها أن يقال: وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة فاضربوه ببعضها، فإن تغيير الترتيب للدلالة على كمال سوء حال اليهود بتعديد جناياتهم المتنوعة وتثنية التقريع عليهم بكل نوع على حدة. ينظر تفسير أبي السعود ٤/ ٢١٤، وينظر كذلك ما سلف ٢/ ٢٢٨-٢٢٩.

(٣) هو أبو السعود في تفسيره ٤/ ٢١٤.

ذلك إنما يتمُّ بتمام القصَّة، وذلك إنما يكون بتمام الطُّوفان، فلا جرمَ اقتضى الحالُ ذكرَ تمامها قبل هذا النداء، وهو إنَّما يكون عند ذِكر كونِ كنعان من المغرَقين، ولهذه النُّكتة ازداد حُسن موقعِ الإيجاز البليغ.

وفيه فائدةٌ أخرى هي التصريح بهلاكه من أوَّل الأمر، ولو ذكر النِّداء بعدَ «فكان من المغرقين» لربَّما تُوُهِّم من أوَّل الأمر إلى أنْ يَرِد «إنه ليس من أهلك» إلخ أنَّه ينجو بدعائه، فنصَّ على هلاكه، ثمَّ ذكر القصة على وجهٍ أفحم مصاقعَ البلغاء، ثم تعرَّض لما وقع في تضاعيف ذلك مِمَّا جرى بين نوحٍ عليه السلام وربِّ العزَّة جلَّت حكمتُه وعلتْ كلمتُه، ثم ذكر بعد توبتِه عليه السلام قبولَها بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ﴾ إلخ، وهو من الحُسْنِ بمكان.

وبُني الفعل لِمَا لم يسمَّ فاعله لظهور أنَّ القائل هو الله تعالى. وقيل: القائلُ الملائكة عليهم السلام. والهبوطُ: النزول، قيل: أي: انزل من الفُلك.

وقيل: من الجبل إلى الأرض، وذلك أنَّه روي أنَّ السفينة استوتْ على الجوديِّ في عاشرِ ذي الحجَّة، فأقامَ بمن معه هناك شهراً، ثم قيل له: اهبط. فهبط بأرضِ الموصل؛ وبنى قربَ الجبل قريةً يقال لها: قريةُ الثمانين، عدد مَن في السفينة، وفي روايةٍ عن ابن عبَّاس: أنه بنى كلٌّ منهم بيتاً، فسُمِّيت سوق الثمانين.

وأخرج ابنُ مردويه عن عمر ﷺ قال: لَمَّا استقرَّت السفينةُ على الجودي، لبثَ نوحٌ عليه السلام ما شاء الله تعالى، ثمَّ إنه أُذن له بالهبوط فهبط على الجبل، فدعا الغرابَ فقال: ائتني بخبر الأرض، فانحدر إلى الأرض وفيها الغرقى من قومِ نوحٍ، فوقع على جيفةٍ منهم فأبطأ عليه فلعنه، ودعا الحمامةَ، فوقفتْ[1] على كفِّه، فقال: اهبطي فأتني بخبر الأرض، فانحدرت فلم تلبث قليلاً حتى جاءت تنفضُ ريشها بمنقارها، فقالت: اهبطْ فقد أنبتت الأرضُ، فقال نوح: باركَ الله تعالى فيكِ وفي بيتٍ يأويك، وحبَّبكِ إلى الناس، ولولا أن يغلبكِ الناسُ على نفسك لدعوتُ الله سبحانه أن يجعلَ رأسك من الذهب.

---

(١) في الأصل: فوقعت.

والظاهرُ عندي أنَّ الهبوط من الجوديِّ الذي استقرَّت عليه السفينةُ إلى الأرض، وليس في الكلام ما يستدعي أن يكون بعد الاستقرار بلا مُهلة ليقال: إنَّ ما تحت الجبل مغمورٌ إذ ذاك بالماء، والتعبير بالهبوط على هذا في غاية الظهور، ولعلَّ ذلك على أن يكون المراد من السفينة لمكان الركوب. وخبرُ الحمامة والغرابِ قد طار في الآفاق وأُولع به القصَّاصون، والله تعالى أعلم بصحَّته، وغالبُ الظنِّ أنه لم يصحَّ. وكذا اشتهر خبرُ قرية الثمانين في أرض الموصلِ، وأنَّها لما ضاقتْ عليهم تحوَّلوا إلى بابل فبنَوها.

وأخرج ابنُ عساكر عن كعبِ الأحبار أنَّه قال: أوَّل حائطٍ وُضع على وجه الأرض بعد الطُّوفان حائطُ حرَّان ودمشقَ، ثمَّ بابل(١).

وقرئ: «اهْبُطْ» بضمِّ الباء(٢).

﴿بِسَلَٰمٍ﴾ أي: ملتبساً بسلامةٍ مما تكره كائنةٍ ﴿مِّنَّا﴾ أي: من جهتنا. ويجوز أن يكون السَّلام بمعنى التسليم والتحيَّة، أي: مسلِّماً عليك من جهتنا.

﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾ أي: خيراتٍ ناميةٍ في نَسْلِكَ، وما يقومُ به معاشكَ ومعاشُهم من أنواع الأرزاق، أو مباركاً عليك، أي: مدعوّاً لك بالبركة بأن يقال: باركَ الله تعالى فيك. وهو مناسبٌ لكون السَّلام بمعنى التسليم، فيكون كقوله: السلامُ عليك ورحمة الله تعالى وبركاته.

وأصلُ البَرْكِ كما قال الراغبُ: صدرُ البعير؛ يقال: بَرَكَ البعيرُ: إذا ألقى بركه، واعتُبر فيه اللزومُ، ولذا سمِّي محتَبَسُ الماءِ برْكةً، والبَرَكةُ ثبوتُ الخيرِ الإلهي في الشيء، سمِّي بذلك لثبوتِ الخير فيه ثبوتَ الماء في البِرْكة، ولما كان الخيرُ الإلهي يصدُرُ على وجهٍ لا يحسُّ ولا يُحصى، قيل لكلِّ ما يشاهَدُ فيه زيادةٌ غيرُ محسوسةٍ: هو مبارَكٌ وفيه بَرَكةٌ(٣). ولِمَا في ذلك من الإشعار باللزوم وكونه غيرَ محسوس اختصَّ «تبارك» بالاستعمال في الله تبارك وتعالى كما قيل.

---

(١) تاريخ ابن عساكر ١/١١.
(٢) القراءات الشاذة ص٦٠، والبحر ٥/٢٣١.
(٣) مفردات الراغب (برك).

وفي «الكشف» كلُّ شيء ثبت وأقام فقد بَركَ، وأُخذ بروكُ البعير منه، ثمَّ البركُ بمعنى الصدرِ من الثاني لأنه آلةُ بروكه أظهرُ.

وحكى عبد العزيز بنُ يحيى عن الكسائيِّ أنه قرأ: «وبَرَكةٍ» بالتوحيد[1].

وفي الآية على القراءتين صنعةُ الاحتباك؛ لأنَّه حُذف من الثاني ما ذُكر في الأول، وذُكر فيه ما حُذف من الأول، والتقدير: سلام منَّا عليك وبركات ـ أو: وبركة[2] ـ منَّا عليك، وهذا منه تعالى إعلامٌ وبشارةٌ بقبول توبتِه عليه السلام وخلاصِه من الخسران، مع الإشارة إلى عَود الأرض إلى حالها من الإنبات وغيرِه.

﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ﴾ ناشئةٍ ﴿مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ متشعِّبةٍ منهم، فـ «مِنْ» ابتدائية، والمرادُ الأممُ المؤمنةُ المتناسلة مِمَّن معه إلى يوم القيامة، والمرادُ ممن معه أولادُه، من إطلاقِ العامِّ وإرادةِ الخاصِّ، بناءً على ما قيل: إنَّه لم يُعْقِب غيرُهم، فالناسُ كلُّهم على هذا من نسلِ نوحٍ عليه السلام، ومن هنا سمِّي عليه السلام آدمَ الثاني وآدمَ الأصغر، واستُدلَّ لذلك بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧].

وقد يقال ببقاء «مَن» على عمومه بناءً على ما عليه أكثرُ المفسِّرين من عدم اختصاص النَّسل بأولاده عليه السلام، بل لمن معه نسْلٌ باقٍ أيضاً، والكلامُ في استدلال الأوَّلين سيأتي إن شاء الله تعالى.

وقولُه سبحانه: ﴿وَأُمَمٌ﴾ بالرفع ـ وهو على ما ذهب إليه الزمخشريُّ ـ مبتدأ، وجملةُ قوله تعالى: ﴿سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ صفتُه، والخبر محذوف، أي: ومنهم أمم[3]. وساغ ذلك لدلالةِ ما سبق عليه، فإنَّ إيرادَ الأمم المباركِ عليهم المتشعِّبةِ منهم نكرةً يدلُّ على أنَّ بعضَ مَن يتشعَّب منهم ليسوا على صفتِهم، والمعنى: ليس جميعُ مَن يتشعَّب منهم مشاركاً له في السَّلام والبركات، بل منهم أممٌ يُمتَّعون في الدنيا ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم﴾ فيها أو في الآخرة أو فيهما ﴿مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾.

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٠.

(٢) في الأصل: بركة.

(٣) الكشاف ٢/ ٢٧٤.

وجوَّز أبو حيَّان أن يكون «أمم» مبتدأً محذوفَ الصِّفة، وهي المسوِّغةُ للابتداء بالنَّكرة، والتقديرُ: وأممٌ منهم، وجملة «سنمتِّعهم» هو الخبر، كما قالوا: السمن مَنَوانِ بدرهم[1]، وأن يكون مبتدأً ولا يقدّر له صفة والخبر أيضاً «سنمتعهم»، ومسوِّغُ الابتداءِ كونُ المكان مكانَ تفصيلٍ، فكان مثلَ قول الشاعر:

إذا ما بكى مِن خَلْفها انحرفتْ له ... بشقٍّ وشقٌّ عندنا لم يُحوَّلِ[2]

وقول القرطبي: إنَّه ارتفع «أمم» على معنى: ويكون أممٌ[3]، إن أراد به تفسيرَ معنًى فحسنٌ، وإن أراد الإعرابَ فليس بجيِّد؛ لأنَّ هذا ليس من مواضعِ إضمار «يكون».

وقال الأخفش: هذا كما تقول: كلَّمتُ زيداً وعمرٌو جالسٌ[4]، يحتمل أن يكونَ من باب العطف، ويحتملُ أن يكون الواوُ للحال، وتكونُ الجملة هنا حالاً مقدَّرة؛ لأنَّ وقتَ الأمر بالهبوط لم تكن تلكَ الأممُ موجودةً[5].

وقال أبو البقاء: إنَّ «أمم» معطوفٌ على الضمير في «اهبط»، والتقدير: اهبط أنت وأمم. وكان الفصل بينهما مُغنياً عن التأكيد، و«سنمتعهم» نعتٌ لأمم[6]. وفيه أنَّ الذين كانوا مع نوحٍ عليه السلام في السفينة كلّهم مؤمنون، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ ءَامَنَۚ﴾، ولم يكونوا قسمين كفاراً ومؤمنين ليؤمر الكفارُ بالهبوط معه، اللهمَّ إلا أن يلتزمَ أنَّ من أولئك المؤمنين مَن عَلِم اللهُ سبحانه أنه يكفُر بعد الهبوط، فأخبر عنهم بالحالةِ التي يَؤُولون إليها، وفيه بُعدٌ.

وجوَّز أن تكونَ «مِن» في «ممن معك» بيانيَّةً، أي: وعلى أممٍ هم الذين معك،

---

(١) أي: منوان منه، والمنوان مثنى، مفرده: المنا، وهو كيل يكال به السمن. معجم متن اللغة (منا).

(٢) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٢.

(٣) تفسير القرطبي ١١/ ١٣٩ نقلاً عن إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٥-٣٥٦.

(٤) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٥٧٨، وقوله فيه: «وأمم سنمتعهم» رفع على الابتداء نحو قولك: ضربت زيداً وعمرو لقيته، على الابتداء.

(٥) البحر ٥/ ٢٣١.

(٦) الإملاء ٣/ ٢٨٤-٢٨٥.

وسُمُّوا أمماً لأنَّهم أممٌ متحزِّبة وجماعاتٌ متفرِّقة، أو لأنَّ جميع الأمم إنَّما تشعَّبت منهم، فهم أممٌ مجازاً، فحينئذٍ يكون المرادُ بالأمم المشارِ إليهم في قوله سبحانه: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ بعضَ الأمم المتشعِّبة منهم، وهي الأممُ الكافرةُ المتناسلةُ منهم إلى يوم القيامة.

وفي «الكشاف» أنَّ الوجهَ هو الأوَّل[1]، قيل: ليقابل قوله تعالى: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ ولأنَّه أشملُ، ولأنَّ «من» الابتدائية لاسيما في المنكَّر أكثرُ، وللنكتةِ في إدخال الناشئين في المسلَّم عليهم، وقَطْعِ الممتَّعين عنهم من الدلالة، على ما صرَّح به قوله سبحانه: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ ولهذه النُّكتة حذف «منهم» في الثاني، واكتفى بسلامِ نوح عليه السلام عن سلامِ مؤمني قومِه؛ لأنَّ النبيَّ زعيمُ أمَّتِه، وكفاهم هذا التعظيمُ والاتحاد معه عليه السلام، فلا يَرِدُ أنَّ الحملَ على البيانيَّة أرجحُ لئلَّا يلزم أنْ لا يكون مسلَّماً عليهم، على أنَّ لفظ الأمم في الإطلاق على مَن معه بأحدِ الاعتبارين لا فخامةَ فيه؛ لأنَّ تسميةَ الجماعة القليلة بالأمَّة لا يناسبُ فكيف بالأمم، ولا مبالغةَ في هذا المقام فيه فلا يُعدلُ عن الحقيقة، وإن جُعل من باب ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠] لم يلائمْ تفخيمَ نوحٍ عليه السلام.

وقد ذُكر أنه يبقى على البيانيَّة أمرُ الأمم المؤمنةِ الناشئةِ من الذين معه عليه السلام مبهماً غيرَ متعرَّضٍ له ولا مدلولٍ عليه، إلا أن يقال: حيثُ كان المراد بـ «من معك» المؤمنين يعلم أنَّ المشاركين لهم في وصف الإيمان مثلُهم فيما تقدَّم، نعم قيل: إنَّ في دلالة المذكور على الخبر المحذوف على ذلك الوجه خفاءً؛ لأنَّ «من» المذكورة بيانيَّة، والمحذوفة تبعيضيَّة أو ابتدائيَّة، وربَّما يجاب عنه أيضاً بإلزام أنْ لا حذف أصلاً، كما هو أحدُ الأوجه التي ذكرناها آنفاً، فتدبَّر جميعَ ما ذُكر.

والمأثورُ عدمُ تخصيص الأمم في الموضعين بمؤمنين معيَّنين وكافرين كذلك، فقد أخرج ابنُ جرير وابنُ المنذر وغيرُهما عن محمد القرظيِّ قال: دخل في ذلك السَّلامِ والبركاتِ كلُّ مؤمنٍ ومؤمنة إلى يوم القيامة، ودخل في ذلك المتاعِ والعذاب الأليم كلُّ كافرٍ وكافرةٍ إلى يوم القيامة[2].

---

(١) وهو كون «من» لابتداء الغاية. الكشاف ٢/ ٢٧٤.

(٢) تفسير الطبري ١٢/ ٤٣٨، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٣٧.

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن أنه قال في الآية: ما زال الله تعالَى يأخذُ لنا بسهمنا وحظِّنا، ويَذْكُرُنا من حيث لا نَذْكُر أنفسنا، كلَّما هلكت أمَّة خَلَقَنا في أصلابِ مَن ينجو بلطفِه، حتى جَعَلَنا في خيرِ أمةٍ أُخرجت للناس[1].

وقيل: المراد بالأمم الممتَّعةِ قومُ هودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ عليهم السلام، وبالعذاب ما نزل بهم.

وبالغ بعضُهم في عموم الأمم في الأول فجعلها شاملةً لسائر الحيوانات التي كانت معه عليه السلام، فإنَّ الله تعالى جعل فيها البركةَ، وليس بشيء كما لا يخفى.

وهاهنا لطيفةٌ، وهي أنه قد تكرَّر في هذه الآية حرفٌ واحد مرَّات مع غايةِ الخفَّة، ولم تتكرَّر الراءُ مثلَه في قوله:

وقـبـرُ حـربٍ بـمـكـانٍ قَـفْـر وليس قُـرْبَ قـبـرِ حـربٍ قـبـرُ[2]

مع[3] ما ترى فيه من غاية الثِّقل وعُسْرِ النُّطق، ولله تعالى شأنُ التنزيل ما أكثرَ لطائفه.

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى قصَّة نوح عليه السلام وهي لتقضِّيها في حكم البعيد، ويحتملُ أنه أشير بأداة البُعد إلى بُعد منزلتها. وقيل: إنَّ الإشارة إلى آيات القرآن، وليس بذاك. وهي في محلِّ الرفع على الابتداء.

وقوله سبحانه: ﴿مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: بعض أخباره التي لها شأنٌ، وكونُها بعضَ ذلك باعتبارِ أنَّها على التفصيل لم تبق لطولِ العهد معلومةً لغيره تعالى، حتى إنَّ المجوسَ ـ على ما قيل ـ: ينكرونها رأساً.

وقيل: إنَّ كونها من الغيب لغيرِ أهل الكتاب، وقد ذكر غيرُ واحد أنَّ الغيبَ قسمان: ما لا يتعلَّق به علمُ مخلوقٍ أصلاً، وهو الغيبُ المطلق، وما لا يتعلَّق به

---

(١) عزاه لأبي الشيخ السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٣٦، وأخرجه أيضاً ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٤٢.

(٢) ذكره الجاحظ في البيان ١/ ٦٥ دون نسبة، وعزاه في الحيوان ٦/ ٢٠٧ للجن، وذكره دون نسبة أيضاً العباسي في معاهد التنصيص ١/ ٣٤.

(٣) في (م): ومع.

علمُ مخلوقٍ معيَّنٍ، وهو الغيبُ المضاف بالنِّسبة إلى ذلك المخلوق، وهو مرادُ الفقهاء في تكفير الحاكمِ على الغَيب.

وقوله سبحانه: ﴿نُوحِيهَآ﴾ خبر ثان لـ «تلك» والضميرُ لها، أي: موحاةٌ ﴿إِلَيْكَ﴾ أو هو الخبر و«من أنباء» متعلِّق به، وفائدةُ تقديمه نفيُ أن يكون علمُ ذلك بكهانةٍ أو تعلُّمٍ من الغير، والتعبيرُ بصيغة المضارع لحكايةِ الحال الماضية. أو «من أنباء» هو الخبر، وهذا في موضع الحال من «أنباء». والمقصودُ من ذكر كونها موحاةً إلجاءُ قومِه ﷺ للتصديق بنبوَّته عليه الصلاة والسلام وتحذيرُهم مما نزل بالمكذِّبين.

وقوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾ خبرٌ آخرُ، أي: مجهولةٌ عندك وعندَ قومك ﴿مِن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ أي: الإيحاءِ إليك المعلومِ مما مرَّ. وقيل: أي الوقت. وقيل: أي: العلم المكتسب بالوحي.

وفي مصحف ابنِ مسعود «من قبل هذا القرآن»[1].

ويحتمل أن يكون حالاً من الهاء في «نوحيها» أو الكاف من «إليك»، أي: غيرَ عالمٍ أنت ولا قومُك بها.

وذكرُ القومِ معه ﷺ من باب الترقِّي، كما تقول: هذا الأمر لا يعلمه زيدٌ ولا أهلُ بلدِه؛ لأنهم مع كثرتهم إذا لم يعلموا ذلك، فكيفَ يعلمُه واحدٌ منهم وقد عُلم أنه لم يخالط غيرَهم؟!

﴿فَاصْبِرْ﴾ متفرِّعٌ على الإيحاء أو على العِلم المستفادِ منه، المدلولِ عليه بما تقدَّم «من قبل هذا»، أي: وإذ قد أوحيناها إليك أو علمتها بذلك فاصبرْ على مشاقِّ تبليغِ الرسالة وأذيَّة قومِك كما صبر نوحٌ عليه السلام على ما سمعتَه من أنواع البلايا في هذه المدَّة المتطاولة. قيل: وهذا ناظرٌ إلى ما سبق من قوله سبحانه: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ إلخ.

﴿إِنَّ الْعَٰقِبَةَ﴾ بالظَّفَر في الدنيا وبالفوز في الآخرة[2] ﴿لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ كما سمعتَ ذلك في نوح عليه السلام وقومِه، قيل: وهو تعليلٌ للأمر بالصبر وتسليةٌ له ﷺ،

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٢٣٢.

(٢) في (م): بالآخرة.

والمراد بالتَّقوى الدرجةُ الأولى منها، وجوَّز أن يرادَ بها الدرجة الثالثة، وهي بذلك المعنى منطويةٌ على الصبر، فكأنَّه قيل: فاصبر فإنَّ العاقبةَ للصابرين.

وقيل: الآية فذلكةٌ[1] لما تقدَّم، وبيانٌ للحكمة في إيحاء ذلك، من إرشادِه ﷺ، وتهديدِ قومه المكذِّبين له، والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ إلخ لَمَّا كان مقتضَى الطِّباع البشريَّة عدمَ نشاط المتكلِّم إذا لم يجدْ محلّاً قابلاً لكلامِه، وضِيقَ صدره من ذلك، هيَّج جلَّ شأنُه نشاطَ نبيِّه ﷺ بما أنزل عليه من هذه الآيةِ الكريمة، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ﴾ ولا يخلو الإنذار عن إحدى فائدتين: رفع الحجاب عمَّن وُفِّق، وإلزامُ الحجَّة لمن خُذل ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٌ﴾ فكِلِ الهدايةَ إليه.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾ بعمله الذي هو بظاهرِه من أعمال الآخرة ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ كالجاه والمدح ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: جزاءَها ﴿فِيهَا﴾ إن شئنا ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ أي: لا يُنقصون شيئاً منها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ﴾ لتعذّب قلوبهم بالحُجُب الدنيوية ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ من أعمالِ البرِّ فلم ينتفعوا بها، وجاء: «إنَّما الأعمال بالنيات ولكلِّ امرئٍ ما نوى» الحديث[2].

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: يقينٍ برهانيٍّ عقلي، أو وجدانيٍّ كَشْفيٍّ ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٞ مِّنْهُ﴾ وهو القرآنُ المصدِّق لذلك، ومن هنا تؤيَّد الأدلةُ العقليَّة بالآيات النقليَّة القرآنية، ويُحكم بكون الكشف صحيحاً إذا شهدتْ له ووافقتْه، ولذا قالوا: كلُّ كشفٍ خالفَ ما جاء عن الله تعالى ليس بمعتبَر.

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أي: يَتْبعُ البرهانُ من قبل هذا الكتاب كتابَ موسى عليه السلام في حالةِ كونه ﴿إِمَامٗا﴾ يُؤتمُّ به في تحقيق المطالب ﴿وَرَحْمَةًۚ﴾ لمن

(١) الفذلكة: مجملُ ما فصِّل وخلاصتُه. الوسيط (فذلك).

(٢) أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧) من حديث عمر رضي الله عنه، وسلف ص٣٩٣ من هذا الجزء.

يهتدي به، وهذا وجهٌ في الآية ذكره بعضُهم، وقد قدَّمنا ما فيها من الاحتمالات، وقد ذكروا أنَّ المراد بيانُ بُعْدِ ما بين مرتبتي مَنْ يريد الحياةَ الدنيا ومَن هو على بيِّنةٍ من ربِّه.

وللصوفية قُدِّستْ أسرارُهم عباراتٌ شتَّى في البيِّنة، فقال رويم: هي الإشراف على[1] القلوب، والحكمُ على الغيوب. وقال سيِّد الطائفة: هي حقيقةٌ يؤيِّدها ظاهرُ العلم. وقيل غيرُ ذلك.

وعن أبي بكر بن طاهر[2] أن مَن كان على بيِّنةٍ من ربِّه كانت جوارحُه وقفاً على الطاعات والموافقات، ولسانُه مشغولاً بالذِّكر ونشرِ الآلاء والنعماءِ، وقلبُه منوَّراً بأنوارِ التوفيق وضياءِ التحقيق، وسرُّه وروحُه مشاهِدَيْنِ للحقِّ في جميع الأوقات، وكان عالماً بما يبدو من مكنون الغيوب، ورؤيتُه يقينٌ لا شكَّ فيه، وحكمُه على الخَلْق كحكمِ الحقِّ، لا ينطقُ إلا بالحقِّ، ولا يرى إلا الحقَّ؛ لأنَّه مستغرقٌ به فأنَّى يرى سواه.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ إلخ جَعَله بعضُهم إشارةً إلى المثبتين لغيرِه سبحانه وجوداً، وهم أهلُ الكثرة والحجاب، وفسّر ﴿ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ بالموحِّدين الذين لا يشهدون في الدَّار غيرَه سبحانه ديَّاراً.

ومن الناس مَن عكس الأمرَ وجَعَلَها ردّاً على أهل الوحدةِ القائلين: إنَّ كلَّ ما شاهدْتَه بعينكَ أو تصوَّرْتَه بفكرِك فهو الله سبحانه، بمعنى كفر النَّصارى إيمان بالنسبة إليه، وحاشا أهلَ الله تعالى من القولِ به على ما يُشعر به ظاهرُه.

ومنهم مَن جعلَها مشيرةً إلى حال من يزعمُ أنه وليُّ الله تعالى، ويتزيَّا بزيِّ السادات ويتكلَّم بكلماتهم، وهو في الباطن أفسقُ من قردٍ، وأجهلُ من حمار توما[3].

---

(١) في (م): عن.
(٢) هو عبد الله بن طاهر بن حاتم أبو بكر الطائي الأبهري، كان من أكبرِ وأجلِّ مشايخ الصوفية، من أقران الشبلي، توفي بعد الثلاثين والثلاث مئة بقليل. التدوين في أخبار قزوين ٣/٢٢٨-٢٢٩.
(٣) يشير إلى قول الشاعر كما في المثل السائر ٢/٣٥٨:
=

﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ قيل: «البصير»: مَنْ عايَنَ ما يرادُ به وما يجري له وعليه في جميع أوقاته، و«السميع» مَن يسمعُ ما يخاطَبُ من تقريعٍ وتأديبٍ وحثٍّ وندبٍ لا يغفل عن الخطاب في حالٍ من الأحوال.

وقيل: «البصير» الناظر إلى الأشياء بعينِ الحقِّ، فلا ينكر شيئاً ولا يتعجَّب من شيءٍ، و«السميع»: مَن يسمع من الحقِّ فيميِّز الإلهامَ من الوسواس.

وقيل: «البصير» هو الذي يشهد أفعالَه بعلم اليقين، وصفاته بعينِ اليقين، وذاتَه بحقِّ اليقين، فالغائباتُ له حضورٌ، والمستوراتُ له كشفٌ. و«السميع»: مَن يسمعُ من دواعي العلم شرعاً، ثمَّ من خواطر التعريف قَدْراً، ثمَّ يكاشَفُ بخطابٍ من الحقِّ سِرّاً.

وقيل: «السميع»: مَن لا يسمعُ إلا كلامَ حبيبِه، و«البصير»: من لا يشاهدُ إلا أنوارَه، فهو في ضيائِها ليلاً ونهاراً، وإلى هذا يشير قولُ قائلهم:

ليلي مِنْ وجهك شمسُ الضُّحى وإنَّما السُّدفة(١) في الجَوْ
الناسُ في الظُّلمة من ليلِهم ونحن من وَجهِك في الضَّوْ

وفُسِّر كلٌّ من «الأعمى» و«الأصمِّ» بضدِّ ما فُسِّر به «البصير والسميع».

والمراد من قوله سبحانه: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ أنَّهما لا يستويان؛ لِمَا بينهما من التقابُل والتباعُد إلى حيث لا تتراءى ناراهما.

ثم إنَّه تعالى ذكر من قصَّة نوحٍ عليه السلام مع قومه ما فيه إرشادٌ وتهديدٌ، وعِظةٌ ما عليها مزيد ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ أي: الأشراف المليئون بأمور الدُّنيا، الذين حُجبوا بما هم فيه عن الحقِّ ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ لكونهم واقفين عند حدِّ العقل المشوبِ بالوَهم، فلا يرون لأحدٍ طوراً وراءَ ما بلغوا إليه، ولم يشعروا بمقامِ النبوَّة ومعناها.

= قال حمار الطبيب توما لو أنصفوني لكنت أركب
لأنني جاهل بسيط وراكبي جهله مركَّب

(١) السدفة في لغة نجد: الظلمة، وفي لغة غيرهم: الضوء، وهو من الأضداد. الصحاح (سدف).

﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ وصفوهم بذلك لفقرِهم، حيثُ كانوا لا يعلمون إلَّا ظاهراً من الحياةِ الدنيا، ولم يعلموا أنَّ الشَّرف بالكَمال لا بالمال.

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ وتقدُّمٍ يؤهِّلُكم لِمَا تدَّعونه ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ فلا نبوَّة لك، ولا علمَ لهم.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ يجبُ عليكم الإذعانُ بها ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً﴾ هدايةً خاصَّة كشفيَّة متعاليةً عن درجةِ البرهان ﴿مِّنْ عِندِهِۦ﴾ فوقَ طورِ عقولكم؛ من العُلوم اللدنيَّة ومقام النبوة ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ لاحتجابكم بالظَّاهر عن الباطن، وبالخليقةِ عن الحقيقةِ ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ ونجبرُكم عليها ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ لا تلتفتون إليها.

كأنَّه عليه السلام أرادَ أنه لا يكون إلزامُ ذلك مع الكراهة، لكنْ إن شئتم تلقِّيه فزكُّوا أنفسَكم، واتركوا إنكارَكم حتَّى يظهر عليكم أثرُ نورِ الإرادة فتقبَّلوا ذلك، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ المنكِرَ لا يمكنُ له الاستفاضةُ من أهل الله تعالى، ولا يكادُ ينتفعُ بهم ما دامَ منكراً، ومَن لم يعتقد لم ينتفع.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾ أي: ليس لي مطمحٌ في شيءٍ من أموالكم التي ظننتم أنَّ الشرفَ بها ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ فهو يثيبُني بما هو خيرٌ وأبقى ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ أي: إنهم أهلُ الزُّلفى عندَه تعالى، وهم حمائمُ أبراجِ الملكوت، وبُزاةُ معارجِ الجبروت ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ تسفَّهون عليهم وتؤذونهم.

﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ﴾ كما تريدون وهم بتلك المثابة ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ لتعرفُوا أنَّ(١) التماسَ طردِهم ضلالٌ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الإعراض عن فقراء المؤمنين مؤدٍّ إلى سخطِ ربِّ العالمين.

قال أبو عثمان في الآية: «ما أنا» بمُعرِضٍ عمَّن أقبل على الله تعالى، فإنَّ مَن أَقبل على الله تعالى بالحقيقة أقبل الله تعالى عليه، ومَن أعرضَ عمَّن أقبل اللهُ تعالى عليه فقد أعرضَ عن الله سبحانه.

---

(١) قوله: أن، ليس في (م).

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ إلخ، أي: أنا لا أدَّعي الفضلَ بكثرةِ المال، بالاطِّلاع على الغيب، ولا بالملكيَّة، حتَّى تنكروا فضلي بفقدان ذلك، وبمنافاةِ البشريَّة لِمَا أنا عليه.

﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ﴾ تنظرون إليهم بعين الحقارة ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ كما تقولون أنتم؛ إذ الخيرُ عندي ما عندَ الله تعالى لا المال ﴿أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ من الخير منِّي ومنكم، وهو أعلمُ بقَدْرِهم وخطرِهم ﴿إِنِّىٓ إِذًا﴾ أي: إذ نفيت ﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مثلكم.

﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ قيل: فيه إشارةٌ إلى عين الجمع المشارِ إليه بخبر «لا زالَ عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل» الحديث[1].

وقيل: أي: كنْ في أعين رعايتنا وحفظِنا، ولا تكنْ في رؤية عملِكَ والاعتمادِ عليه، فإنه[2] مَن نظر إلى غيري احتجبَ به عنِّي.

وقال بعضُهم: أي أَسْقِطْ عن نفسك تدبيرَك واصنعْ ما أنتَ صانعٌ من أفعالِكَ على مشاهدتنا دونَ مشاهدةِ نفسك أو أحدٍ من خلقي. وقيل: أي اصنع الفلكَ ولا تعتمدْ عليه فإنك بأعيننا رعايةً وكلاءةً، فإن اعتمدتَ على الفُلْك وُكلت إليه وسقطْتَ من أعيننا.

﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى رقَّة قلبه عليه السَّلام بعد احتمالِ جَفْوتهم وأذِيَّتهم، وهكذا شأنُ الصِّدِّيقين.

والكلامُ في باقي الآية ظاهرٌ، ولا يخفى أنَّه يجب الإيمانُ بظاهرِها والتصديقُ بوقوع الطُّوفان حسبما قصَّ الله سبحانه، وإنكارُ ذلك كفرٌ صريح.

لكن ذكر بعضُ السَّادة أنَه بعد الإيمان بذلك يمكن احتمالُ التأويل على أنه حظُّ الصوفيِّ من الآية، وذلك بأنْ يؤوَّل الفُلْكُ بشريعةِ نوحٍ عليه السلام التي نجا بها هو ومَنْ آمن معه، والطُّوفانُ باستيلاءِ بحرِ الهيولى وإهلاكِ مَن لم يتجرَّدْ عنها بمتابعةِ نبيٍّ وتزكيةِ نفسٍ كما جاء في مخاطبات إدريس عليه السَّلام لنفسه ما معناه: إنَّ هذه

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ١/ ١٣٢.

(٢) في (م): فإن.

الدنيا بحرٌ مملوءٌ ماءً فإن اتَّخذت سفينةً تركبُها عند خرابِ البدنِ نجوتَ منها إلى عالَمِكَ، وإلَّا غرقْتَ فيها وهلكْتَ. وعلى هذا يقال: معنى ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾: يتَّخذ شريعةً من ألواح الأعمال الصالحةِ ودُسُرِ العلوم تنتظم بها الأعمال وتحكم.

﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ كما هو المشاهَدُ في أربابِ الخلاعَة الممتطين غاربَ[1] الهوى يسخرون من المتشرِّعين المتقيِّدين بقيود الطاعة.

﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا﴾ بجهلكم ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ عند ظهور وخامةِ عاقبتِكم ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عند ذلك ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ في الدنيا، من حلولِ ما لا يلائِم غرضَه وشهوتَه ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ في الآخرة من استيلاءِ نيران الحِرمان وظهورِ هيئاتِ الرَّذائل المظلمة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ بإهلاك أمَّته ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ باستيلاءِ الأخلاط الفاسدةِ والرُّطوبات الفضلية على الحرارةِ الغريزيَّة، وقوَّةِ طبيعةِ ماء الهيولى على نارِ الرُّوح الحيوانية، أو «أمرنا» بإهلاكهم المعنوي «وفار التنُّور» باستيلاء ماءِ هوى الطبيعةِ على القلب، وإغراقِه في بحر الهيولى الجسماني ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ أي: من كلٍّ صنفين من نوعٍ اثنين هما صورتاهما النوعيَّة والصنفيَّة الباقيتان عند فناء الأشخاص.

ومعنى حملِهما فيها علمُه ببقائهما مع بقاءِ الأرواح الإنسيَّة، فإنَّ علمَه جزءٌ من السفينة المتركِّبة من العِلم والعمل، فمعلوميتُهما محموليتُهما، وعالميَّته بهما حامِليَّته إياهما فيها.

﴿وَأَهْلَكَ﴾ ومَن يتَّصل بك في سيرتِكَ من أقاربك ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: الحكمُ بإهلاكه في الأزل لكُفرِه ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ من أمَّتِك.

﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ أي: باسم الله تعالى الأعظم الذي هو وجودُ كلِّ عارفٍ كاملٍ من أفراد نوع الإنسان إجراءُ أحكامِها، وترويجُها في

(١) غاربُ كل شيء: أعلاه. اللسان (غرب).

بحر العالم الجسماني، وإثباتُها وإحكامُها كما ترى من إجراءِ كلِّ شريعة وإحكامها بوجود الكامل مِمَّن ينسب إليها.

﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ﴾ لهيئات نفوسكم البدنيَّةِ المظلمة، وذنوبِ ملابس الطبيعة المهلكة إياكم المغرقةِ في بحرها، وذلك بمتابعةِ الشريعة ﴿رَّحِيمٌ﴾ بإفاضة المواهبِ العلميَّة والكشفيَّة والهيئات النورانية التي ينجيكم بها.

﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ﴾ من بحرِ الطبيعة الجسمانية ﴿كَٱلْجِبَالِ﴾ الحاجبةِ للنَّظر المانعةِ من السَّير، وهم لا يبالون بذلك، محفوظون من أنْ يصيبَهم شيءٌ من ذلك الموج، وهذا الجريانُ يَعْرِضُ للسَّالك في ابتداء أمره، ولولا أنَّه محفوظ في لزوم سفينةِ الشَّرع لهلك. ولعل في الآية على هذا تغليباً.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ المحجوبَ بالعقل المشوب بالوهم ﴿وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ لذلك الحجاب عن الدِّين والشريعة ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ أي: ادخلْ في ديننا ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ المحجوبين الهالكين بأمواجِ هوى النفس، المُغرَقين في بحر الطبع.

﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ أي: سألتجئ إلى الدِّماغ وأستعصم بالعقل المُشرِقِ هناك ليحفظني من استيلاء بحرِ الهيولى فلا أغرق فيه ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ وهو الله الذي رحم أهلَ التوحيد، وأفاضَ عليهم من شآبيب[1] لطفِه ما عرفوا به دينهم[2] الحقَّ.

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ أي: موجُ هوى النفسِ واستيلاء ماء بحرِ الطبيعة، وحُجِبَ عن الحقِّ ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ في بحر الهيولى الجسمانية.

﴿وَقِيلَ﴾ من جهةِ الحقِّ على لسان الشَّرع لأرض الطبيعة: ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ وقِفي على حدِّ الاعتدال، ولسماء العقلِ المحجوبة بالعادة والحسِّ، المشوبة بالوهم، المغيمةِ بغيم الهوى ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ عن إمداد الأرض ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ أي: ماءُ قوَّة الطبيعة الجسمانية، ومددُ الرطوبة الحاجبة لنورِ الحقِّ المانعة للحياة

(١) الشآبيب: جمع شؤبوب، وهو الدُّفعة من المطر وغيره. اللسان (شأب).
(٢) في (م): دينه.

الحقيقية ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ بإنجاء مَن نجا وإهلاكِ من هلك ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ أي: سفينةُ شريعته ﴿عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ وهو جبل وجود نوح ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين عبدُوا الهوى دونَ الحقِّ، ووضعوا الطبيعةَ مكانَ الشريعة.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾ إلخ، الكلامُ على هذا الطرزِ فيه ظاهر.

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ﴾ من محلِّ الجمع وذروةِ مقامِ الولاية والاستغراق في التوحيد إلى مقامِ التفصيل وتشريعِ النبوَّة بالرجوع إلى الخَلْق، ومشاهدةُ الكثرةِ في عين الوحدةِ غيرُ معطِّلٍ للمراتب ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ أي: سلامةٍ عن الاحتجاب بالكثرة ﴿وَبَرَكَٰتٍ﴾ من تقنينِ قوانين الشَّرع ﴿عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ﴾ ناشئة ﴿مِّمَّن مَّعَكَ﴾ على دينك إلى آخرِ الزمان ﴿وَأُمَمٌ﴾ أي: وينشأ مِمَّن معك أممٌ ﴿سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ في الدنيا ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا﴾ في العُقبى ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بإحراقهم بنارِ الآثار وتعذيبِهم بالهيئاتِ المظلمة.

هذا ثمَّ ذُكر أنه إذا شئتَ التطبيق على ما في الأنفس أوَّلت نوحاً بروحك، والفُلْكَ بكمالك العلميِّ والعمليِّ الذي به نجاتُك عند طوفان بحرِ الهيولى، والتنُّورَ بتنور البدن، وفورانُه استيلاءُ الرطوبة الغريبة والأخلاط الفاسدة، وما أشار إليه «من كلٍّ زوجين اثنين» بجيوش القوى الحيوانيَّة والطبيعيَّة وطيورِ القوى الروحانية. وأوَّلت ما جاء في القصة من البنين الثلاثة والزوجة، بحامِ القلب، وسامِ العقل النظريِّ، ويافث العقل العملي، وزوجةِ النفس المطمئنَّة، والابن الآخر الوهم، والزوجة الأخرى الطبيعة الجسمانية التي يتولَّد منها الوهم، والجبلَ بالدِّماغ، واستواءَها على الجودي وهبوطَه بمثل نزولِ عيسى عليه السلام في آخر الزمان. انتهى.

ومَن نظر بعين الإنصاف لم يعوِّل إلا على ظاهرِ القصَّة، وكان له به غنًى عن هذا التأويل، واكتفى بما أشار إليه من أنَّ النسب إذا لم يُحَطْ بالصَّلاح كان غريقاً في بحر العدم:

فما ينفع الأصلُ من هاشمٍ إذا كانتِ النفسُ من باهلة(١)

(١) ذكره ابن خلكان في وفيات الأعيان ٤/ ٩٠، والبغدادي في خزانة الأدب ٩/ ٨٢ دون نسبة.

ومن أنه ينبغي للإنسان التحرِّي بالدُّعاء، وأنْ لا تشغلَه الشفقةُ عن ذلكَ إلى غيرِ ما ذكر.

والآيةُ نصٌّ في كفرِ قوم نوحٍ عليه السلام الذين أغرقَهم الله تعالى، وفي «فصوصِ الحِكَم» للشيخ الأكبر قُدِّس سرُّه ما هو نصٌّ في إيمانهم ونجاتهم من العذاب يومَ القيامة، وذلك أمرٌ لا نفهمه من كتابٍ ولا سنَّة، وفوقَ كلِّ ذي علم عليمٌ، والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل.

❁ ❁ ❁

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ معطوفٍ على قوله سبحانه: «أرسلنا» في قصَّة نوحٍ، وهو الناصبُ لقوله تعالى: ﴿أَخَاهُمْ﴾ أي: وأرسلنا إلى عادٍ أخاهم، أي: واحداً منهم في النسب، كقولهم: يا أخا العرب، وقدِّم المجرورُ ليعودَ الضمير عليه.

وقيل: إنَّ «إلى عاد أخاهم» عطف على قوله تعالى: «نوحاً إلى قومه»، المنصوبُ على المنصوب، والجارُّ والمجرور على الجارِّ والمجرور، وهو من العطفِ على معمولي عاملٍ واحد، وليس من المسألة المختلَف فيها، نعم الأوَّل أقربُ ـ كما في «البحر»[1] ـ لطول الفصلِ بالجُمل الكثيرة بين المفردات المتعاطفة.

وقوله سبحانه: ﴿هُودًا﴾ عطفُ بيان لـ «أخاهم»، وجوِّز أن يكون بدلاً منه، وكان عليه السلام ابنَ عمِّ أبي عادٍ، وأُرسل إليهم مَن هو منهم ليكونَ ذلك أدعى إلى اتِّباعه.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ حيث كان إرسالُه عليه السلام مظنَّةً للسؤال عمَّا قال لهم ودعاهم، كأنه قيل: فما قال لهم حين أُرسل إليهم؟ فقيل: قال: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ ناداهم بذلك استعطافاً لهم.

وقرأ ابنُ محيصن: «يا قومُ» بالضمِّ[2]. وهي لغةٌ في المنادى المضاف إلى الياء حكاها سيبويه[3] وغيره.

---

(١) ٥/ ٢٣٢.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٢٣٢.

(٣) في الكتاب ٢/ ٢٠٩.

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي: وحدَه، وكانوا مشركين يعبدون الأصنام، ويدلُّ على أنَّ المراد ذلك قولُه تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ فإنه استئنافٌ يجري مجرى البيان للعبادة المأمورِ بها، والتعليلِ للأمر بها، كأنه قيل: أَفرِدُوه بالعبادة ولا تُشركوا به شيئاً إذ ليس لكم إلهٌ غيرُه سبحانه، على أنَّه لا اعتدادَ بالعبادة مع الإشراك، فالأمر بها يستلزمُ الأمرَ بإفراده سبحانَه بها، و«غيرُه» بالرفع صفةٌ لـ «إله» باعتبار محلِّه لأنَّه فاعلٌ للظرف لاعتماده على النفي. وقرأ الكسائيُّ بالجرِّ(١) على أنَّه صفةٌ له جارٍ على لفظه.

﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ ما أنتم بجَعْلِكم الألوهيةَ لغيرِه تعالى كما قال الحسن، أو بقولكم: إنَّ الله تعالى أمَرَنا بعبادة الأصنام ﴿إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ عليه، تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً.

﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ خاطب به كلُّ رسولٍ قومَه إزاحةً لِمَا عسى أن يتوهَّموه، وتمحيضاً للنصيحة؛ فإنها ما دامت مشوبةً بالمطامع بمعزلٍ عن التأثير. وإيرادُ الموصول للتفخيم، وجَعَلَ الصِّلةَ فِعْلَ الفَطْر الذي هو الإيجادُ والإبداعُ لكونه أبعدَ من أنْ يُتوهَّم نسبتُه إلى شركائهم ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] مع كونه أقدمَ النِّعم الفاضلة من جنابِ الله تعالى المستوجبةِ للشُّكر الذي لا يتأتَّى إلَّا بالجريان على موجبِ أمرِه سبحانه الغالبِ، مُعْرِضاً عن المطالب الدنيويَّة التي من جُملتها الأجرُ. ولعلَّ فيه إشارةً إلى أنَّه عليه السلام غنيٌّ عن أجرهم الذي إنما يرغبُ فيه للاستعانة به على تدبير الحالِ وقوام العيش بالله تعالى الذي أوجدَه بعد أن لم يكنْ، وتكفَّل له بالرِّزق كما تكفَّل لسائر مَن أوجدَه من الحيوانات.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ أي: أتغفلون عن ذلك فلا تعقلون نصيحةَ مَن لا يطلبُ عليها أجراً إلا من الله تعالى، ولا شيءَ أنفى للتُّهمة من ذلك، فتنقادون لِمَا يدعوكم إليه، أو: أتجهلون كلَّ شيءٍ فلا تعقلون شيئاً أصلاً، فإنَّ الأمر مِمَّا لا ينبغي أن يَخْفَى على أحدٍ من العقلاء.

---

(١) التيسير ص١١٠.

﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ من الشِّرك ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ أي: ارجعوا إليه تعالى بالطاعة، أو: توبوا إليه سبحانه وأخلصوا التوبةَ واستقيموا عليها.

وقيل: الاستغفارُ كنايةٌ عن الإيمان لأنَّه من روادفه، وحيثُ إنَّ الإيمان بالله سبحانه لا يستدعي الكفرَ بغيره لغةً قيل: «ثم توبوا»، فكأنه قيل: آمنوا به ثمَّ توبوا إليه تعالى من عبادة غيره.

وتُعقِّب بأنَّ قولَه سبحانه: «اعبدوا الله» دلَّ على اختصاصه تعالى بالعبادة، فلو حُمل «استغفروا» على ما ذُكر لم يُفدْ فائدةً زائدةً سوى ما علِّق عليه، وقد كان يمكن تعليقُه بالأوَّل، والحملُ على غير الظاهر مع قلَّة الفائدةِ مما يجب الاحترازُ عنه في كلام الله تعالى المعجِزِ.

وقيل: المرادُ بالاستغفار التوبةُ عن الشِّرْك، وبالتوبةِ التوبةُ عمَّا صدر منهم غير الشِّرك. وأُوْرِدَ عليه أيضاً أنَّ الإيمان يجُبُّ ما قبله.

وقيل: المراد بالأوَّل طلبُ المغفرة بالإيمان، وبالثاني التوسُّل إليه سبحانه بالتوبة عن الشِّرْك. وأورد عليه أنَّ التوسُّلَ المذكورَ لا ينفكُّ عن طلب المغفرة بالإيمان؛ لأنَّه من لوازمه، فلا يكون بعدَه كما تؤذن به «ثم».

وقيل وقيل، وقد تقدَّم بعضُ الكلام في ذلك أوَّلَ السورة.

﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ﴾ أي: المطرَ كما في قوله:

إذا نزل السماءُ بأرضِ قومٍ رعيناه وإن كانوا غضابا[1]

﴿عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ كثيرَ الدرِّ متتابِعَه من غير إضرارٍ، فمِفْعال للمبالغة كمِعطار ومِقدام.

﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ أي: عِزّاً مضموماً إلى عِزِّكم، أو مع عِزِّكم، ويرجع هذا إلى قوله تعالى: ﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ﴾ [نوح: ١٢] لأنَّ العِزَّ الدنيويَّ بذلك. وعن الضحاك تفسيرُ القوَّة بالخصب. وعن عكرمةَ تفسيرُها بولدِ الولدِ. وقيل:

(١) البيت لمعود الحكماء معاوية بنِ مالك، وهو في شرح الحماسة للمرزوقي ٣/ ١٤٣٢، وخزانة الأدب ٤/ ١٥٦.

المراد بها قوَّةُ الجسم، ورغَّبهم عليه السلام بكثرة المطرِ وزيادةِ القوَّة لأنَّهم كانوا أصحابَ زروع وبساتين وعمارات.

وقيل: حبس الله تعالى عنهم القطرَ وأعقم أرحامَ نسائهم ثلاثَ سنين، فوعدهم هودٌ عليه السلام على الاستغفار والتوبة كثرةَ الأمطار وتضاعُفَ القوَّة بالتناسُل.

وقيل: القوَّة الأولى في الإيمان، والثانية في الأبدان، أي: يزدكم قوَّةً في إيمانكم إلى قوَّةِ أبدانكم.

﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا﴾ أي: لا تُعْرضوا عمَّا دعوتُكم إليه ﴿مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ مصرِّين على ما كنتم[1] عليه من الإجرام.

وقيل: مجرمين بالتولِّي. وهو تكلُّف.

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي: بحُجَّةٍ واضحةٍ تدلُّ على صحَّة دعواك، وإنَّما قالوه لفرطِ عنادِهم أو لشدَّة عماهم عن الحقِّ، وعدمِ نظرهم في الآيات، فاعتقدوا أنَّ ما هو آيةٌ ليس بآيةٍ، وإلَّا فهو وغيرُه من الأنبياءِ عليهم السلام جاؤوا بالبيِّنات الظاهرة والمعجزاتِ الباهرةِ وإن لم يعيَّن لنا بعضها، ففي الخبر: «ما من نبيٍّ إلا وقد أوتي من الآيات ما مثلُه آمنَ عليه البَشر»[2].

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا﴾ أي: بتاركي عبادتها ﴿عَنْ قَوْلِكَ﴾ أي: بسبب قولك المجرَّد عن البيِّنة، فـ«عن» للتعليل، كما قيل في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤] وإلى هذا يشير كلامُ ابنِ عطية[3] وغيرِه، فالجارُّ والمجرورُ متعلِّق بـ«تاركي».

وذهب بعضُ المحقِّقين إلى أنَّه متعلقٌ بمحذوفٍ وقع حالاً من الضمير المستتر فيه، أي: صادرين، وهو من الصدر مقابل الورد بمعنى الرجوع عن الماء، وقد شاع في كلامهم استعمالُ الصدر والورد كنايةً عن العمل والتصرُّف، ومنه قوله:

---

(١) في (م): أنتم، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ٢١٧، والكلام منه.

(٢) أخرجه أحمد (٨٤٩١)، والبخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ١٨١.

ما أمسَّ الزمانَ حاجاً إلى مَن ... يتولَّى الإيرادَ والإصدارا[1]

أي: يتصرَّفُ في الأمور بصائبِ رأيه، وقد يُكتفَى بالصَّدرِ في ذلك لاستلزامه للورد، فيقولون: لا يُصْدَرُ إلا عن رأيه، والمعنى هنا حينئذٍ: ما نحن بتاركي آلهتنا عاملين بقولك، والنفي فيه راجعٌ إلى القيدِ والمقيَّدِ جميعاً؛ لأنَّهم لا يتركون آلهتَهم ولا يعملون بقولِه عليه السلام.

وقيل: إنَّ صادرين بمعنى مُعْرِضين، وهو قيدٌ للنفي، والمعنى: انتفى تركُنا عبادةَ آلهتنا مُعْرِضين عن قولك، ويكون هذا جواباً لقوله: «لا تتولَّوا» وجَعَلَ بعضُهم إرادةَ ذلك من باب التضمين، لا من بابِ تقدير المتعلَّق بقرينةِ «عن» وجَعْلِه كناية كما علمتَ، وكلامُ الزمخشريّ ظاهرٌ في هذا[2] كما يكشف عنه كلامُ «الكشف».

﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ أي: بمصدِّقين فيما جئتَ به، أو: في كلٍّ ما تأتي وتذر، ويندرجُ فيه ذلك.

وقد بالغوا في الإباء عن الإجابة، فأنكروا الدَّليل على نبوَّته عليه السلام، ثمَّ قالوا مؤكِّدين لذلك: «وما نحن بتاركي» إلخ، ثم كرَّروا ما دلَّ عليه الكلامُ السابق من عدم إيمانهم بالجملةِ الاسميَّة، مع زيادة الباء وتقديمِ المسند إليه المفيدِ للتقوِّي دلالةً على أنهم لا يُرجى منهم ذلك بوجهٍ من الوجوه، وفي ذلك من الدَّلالة على الإقناط ما فيه.

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ﴾ أي: أصابك، من عَرَاه يعروه، وأصلُه من اعتراه بمعنى: قَصَدَ عَرَاه، أي: محلَّه وناحيتَه ﴿بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ أرادوا به ـ قاتَلَهم الله تعالى ـ الجنونَ، والباءُ للتعدية، والتنكيرُ فيه قيل: للتقليل، كأنَّهم لم يبالغوا في العتوِّ كما ينبئُ عنه نسبةُ ذلك إلى بعضِ آلهتهم دونَ كلِّها[3].

---

(١) حاشية الشهاب ٥/ ١٠٦.

(٢) ينظر الكشاف ٢/ ٢٧٥، وفيه: «عن قولك» حال من الضمير في «تاركي آلهتنا»، كأنه قيل: وما نترك آلهتنا صادرين عن قولك.

(٣) جاء في هامش الأصل: جميعها، وكتب فوقها: صح.

وقيل: للتكثير، إشارةً إلى أنَّ ما قاله لا يصدرُ إلا عمَّن أُصيب بكثيرِ سوءٍ، مبالغةً في خروجه عن قانون العقل، وذُكِرَ البعضُ تعظيماً لأمر آلهتهم، وأنَّ البعضَ منها له من التأثير ما له.

والجملةُ مقولُ القول و«إلَّا» لغوٌ؛ لأنَّ الاستثناء مفرَّغٌ، وأصلُه: إنْ نقول قولاً إلَّا قولَنا هذا، فحذف المستثنى منه وحُذِفَ القول المستثنى وأقيم مقولُه مقامَه. أو «اعتراك» هو المستثنى لأنه أريد به لفظُه، فلا حاجةَ إلى تقديرِ قولٍ بعد «إلا» وليس مما استثني فيه الجملة، ومعنى هذا: إنَّه أفسد عقلَك بعضُ آلهتنا لسبِّك[1] إياها وصدِّك عن عبادتها وحطِّك لها عن رتبة الألوهية بما مرَّ من قولك: «ما لكم من إلهٍ غيرُه إنْ أنتم إلا مفترون»، وغرضُهم من هذا على ما قيل: بيانُ سبب ما صدر عن هودٍ عليه السلام بعدَ ما ذكروا من عدم التفاتِهم لقولِه عليه السلام.

وقيل: هو مقرِّرٌ لِمَا مرَّ من قولهم: «وما نحن بتاركي» إلخ، «وما نحن لك» إلخ؛ فإنَّ اعتقادَهم بكونه عليه السلام كما قالوا ـ وحاشاه عن ذلك ـ يوجبُ عدمَ الاعتداد بقوله، وعدَّه من قبيل الخرافات، فضلاً عن التصديق والعملِ بمقتضاه، يعنون: إنَّا لا نعتقدُ كلامَك إلَّا ما لا يحتمل الصِّدق من الهذيانات الصادرةِ عن المجانين، فكيف نؤمِنُ به ونعملُ بموجبه؟! ولقد سلكوا طريقَ المخالفة والعنادِ إلى سبيل الترقِّي من السيِّئ إلى الأسوأ، حيثُ أخبروا أوَّلاً عن عدم مجيئِه بالبيِّنة مع احتمال كون ما جاء به حجَّةً في نفسه وإن لم تكن واضحةَ الدلالة على المراد، وثانياً عن ترك الامتثال لقولِه عليه السلام بقولهم: «وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك» مع إمكان تحقُّق ذلك بتصديقهم له في كلامه، ثم نفَوا[2] تصديقَهم له عليه السلام بقولهم: «وما نحن لك بمؤمنين» مع كونِ كلامه عليه السلام مما يقبلُ التصديقَ، ثم نفَوا عنه تلك المرتبةَ أيضاً حيث قالوا ما قالوا قاتلهم الله أنَّى يُؤفكون. انتهى.

وللبحث فيه مجال، ولعلَّ الإتيان بهذه الجملةِ غيرَ مقترنةٍ بالعاطف كالجملتين الأوليين يؤيِّد كونَها ليست مسوقةً للتأكيد مثلهما، نعم تضمُّنُها لتقريرِ ما تقدَّم مما لا يكادُ يُنكر، فتدبَّر.

---

(١) في الأصل: بسبك، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٤/ ٢١٧.

(٢) بعدها في (م): عنه، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود.

﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ﴾ أي: مِمَّا أنتم تجعلونه شريكاً وهو سبحانه لم يجعله شريكاً ولم يُنزِّل به سلطاناً، ف «ما» موصولة، و«من دونه» متعلِّقٌ بـ «تشركون»، لا حالٌ من فاعله أي: تشركون مجاوزين الله تعالى في هذا الحكم، إذ لا فائدةَ في التقييد به. وجوِّز أن تكون مصدريةً أيضاً، أي: من إشراككم.

وقد جوَّز كِلَا الاحتمالين الزمخشريُّ، فقال: أي: من إشراككم آلهةً من دونه، أو مما تشركونه آلهةً من دونه[1] وأمرُ تعلُّق الجارِّ فيهما واحدٌ، وتقديرُ «آلهة» لإيضاح المعنى، والإشارةِ إلى أنَّ المفعولَ مرادٌ لسَوق الكلام، ولا يصلحُ أن يكون الظَّرف صفةً له على الوجهين؛ لأنَّ بيانَه حاصلَهما بنحوِ ما ذكرناه في بيان حاصل الأوَّل إنَّما يستقيم إذا تعلَّق المذكور، وليس المعنى على: آلهة غير الله، على ذلك التفسير، وللطِّيبي ما يخالف ذلك، وليس بذاك.

و«أنِّي بريء» متنازَعٌ فيه للفعلين قبلَه، وقد يتنازع المختلفان في التعدِّي الاسمَ الذي يكون صالحاً لأنْ يعملا فيه، تقول: أعطيتُ ووهبتُ لعمرو درهماً. كما يتنازع اللازمُ والمتعدِّي نحو: قام وضربتُ زيداً.

وقد أجاب عليه السَّلام بهذا عن مقالتهم الشنعاء المبنيَّةِ على اعتقادِ كونِ آلهتهم تضرُّ وتنفع، ولَمَّا كان ما وقع أوَّلاً منه عليه السَّلام في حقِّها من كونها بمعزلٍ عن الألوهية إنَّما وقع في ضمن الأمر بعبادة الله تعالى واختصاصِه بها، وقد شقَّ ذلك عليهم وعَدُّوه مما يُوْرِثُ شيناً حتى زعموا ما زعموا، صرَّح عليه السلام بالحقِّ وصدعَ به حيث أخبر ببراءته القديمةِ عنها بالجملة الاسمية المصدَّرة بـ «إنَّ»، وأكَّد ذلك بـ «أُشهِدُ الله» فإنَّه كالقسم في إفادة التأكيد، وأمرهم بأنْ يسمعوا ذلك ويشهدوا به، والمقصودُ منه الاستهانةُ والاستهزاءُ، كما يقول الرجل لخصمِه إذا لم يُبالِ به: إِشْهَدْ على أنِّي قائلٌ لك كذا، وكأنَّه غايرَ بين الشهادتين لذلك، وعطفُ الإنشاءِ على الإخبار جائزٌ عند بعض، ومَن لم يجوِّزه قدَّر قولاً، أي: وأقول: اشهدوا. ويحتمل أن يكون إشهادُ الله تعالى إنشاءً أيضاً وإن كان في صورة الخبر، وحينئذٍ لا قيل ولا قال.

(١) الكشاف ٢/ ٢٧٦.

وجوِّز أن يكون إشهادُه عليه السلام لهم حقيقةً؛ إقامةً للحجَّة عليهم، وعُدِل عن الخبر فيه تمييزاً بين الخطابين، فهو خبرٌ في المعنى كما هو المشهورُ في الأوَّل، لكنَّ الأَوْلَى الحملُ على المجاز.

ثم أَمَرهم بالاجتماع والاحتشادِ مع آلهتهم جميعاً دونَ بعضٍ منها حسبما يُشعر به قولهم: «بعضُ آلهتنا»، والتعاونِ في إيصال الكيد إليه عليه السَّلام، ونهاهم عن الإنظار والإمهال في ذلك، فقال: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ أي: إنْ صحَّ ما لوَّحتمْ به من كون آلهتكم مِمَّا يقدرون على إضرارِ مَنْ ينالُ منها ويصدُّ عن عبادتها ولو بطريقٍ ضمنيٍّ فإنِّي بريءٌ منها، فكونوا أنتم معها جميعاً وباشِرُوا كيدي ثم لا تمهلوني ولا تسامحوني في ذلك، فالفاءُ لتفريع الأمر على زعْمِهم من قدرة آلهتهم على ما قالوا وعلى البراءة كليهما، والخطابُ للقوم وآلهتِهم، ويُفهم من كلام بعضٍ أنَّه للقومِ فقط، وفيه نفيُ قدرةِ آلهتهم على ضرِّه بطريقٍ برهانيٍّ، فإنَّ الأقوياءَ الأشداءَ إذا لم يقدروا مع اجتماعهم واحتشادِهم على الضرِّ، كان عدمُ قدرةِ الجمادات عليه معلوماً من باب أولى.

وأيّاً ما كان فذاك من أعظم المعجزات بناءً على ما قيل: إنَّه كان عليه السلام مفرَداً بين جمع عتاةٍ جبابرةٍ عطاشٍ إلى إراقة دمه يرمونه عن قوسٍ واحدة، وقد خاطبهم بما خاطبهم وحقَّرهم وآلهتَهم وهيَّجهم على ما هيَّجهم فلم يقدرُوا على مباشرةِ شيءٍ مما كلَّفوه، وظهر عجزُهم عن ذلك ظهوراً بيِّناً وفي ذلك دلالةٌ على مزيدِ ثقتِه بالله سبحانه وكمالِ عنايته به وعصمتِه له، وقد قرَّر ذلك بإظهار التوكُّل على مَن كفاه ضُرَّهم في قوله:

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ وفيه تعليلٌ لنفي ضُرِّهم بطريق برهانيٍّ، يعني إنَّكم وإنْ لم تُبقُوا في القوس منزعاً وبذلتُم في مضارَّتي[1] مجهودَكم لا تقدرون على شيءٍ مما تريدون بي، فإنِّي متوكِّلٌ على الله تعالى واثقٌ بكلاءَته، وهو مالكي ومالكُكم لا يصدرُ عنكم شيءٌ ولا يصيبني أمرٌ إلا بإرادته، وجيء بلفظِ الماضي لأنَّه أدلُّ على الإنشاء المناسبِ للمقام.

---

(١) في (م): مضادتي.

ثم إنه عليه السلام برْهنَ على عدم قدرتِهم على ضرِّه مع توكُّله عليه سبحانه بقوله: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ أي: إلَّا هو مالكٌ لها قادرٌ عليها يصرِّفُها كيف يشاء، غير مستعصيةٍ عليه سبحانه. والناصيةُ مقدَّمُ الرأس، وتُطلق على الشَّعَر النابتِ عليها، واستعمالُ الأخذ بالناصية في القُدرة والتسلُّط مجازٌ أو كناية، وفي «البحر» أنه صار عُرْفاً في القدرة على الحيوان، وكانت العربُ تجزُّ الأسيرَ الممنونَ عليه علامةً على أنه قد قُدِر عليه وقُبض على ناصيته[1].

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ مندرجٌ في البرهان، وهو تمثيلٌ واستعارةٌ؛ لأنه تعالى مطَّلعٌ على أمور العباد، مُجازٍ لهم بالثواب والعقاب، كافٍ لمن اعتصم به، كمن وقف على الجادَّة فحفظها ودفعَ ضرر السابلةِ بها، وهو كقوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

وقيل: معناه: إنَّ مصيرَكم إليه تعالى للجزاء وفَصْلِ القضاء. ولعلَّ الأوَّل أولى.

وفي «الكشف»: إنَّ في قوله: «إني توكَّلت» الآيةَ من اللطائفِ ما يُبهرك تأمُّله من حُسْنِ التعليل، وما يعطيه أنَّ مَن توكَّل عليه لم يبالِ بِهَولِ ما ناله، ثمَّ التدرُّج إلى تعكيس التخويف بقوله: «ربِّي وربِّكم»، فكيف يُصاب مَن لزم سدَّةَ[2] العبوديَّة، وينجو مَن تولَّى؟ مع ما يعطيه مِن وجوبِ التوكُّل عليه سبحانه إذا كان كذلك، وترشيحه بقوله: «ما من دابَّةٍ» إلى تمام التمثيلِ، فإنَّه في الاقتدار على المُعْرِض أظهرُ منه في الرَّأفة على المُقْبِل، خلاف الصفة الأولى، وما فيه من تصوير ربوبيَّته واقتداره تعالى وتصويرِ ذلِّ المعبودين بين يدي قهره أيّاً ما كان، والختم بما يفيد الغرضين على القَطْع: كفايةَ مَن إيَّاه تولَّى، وخزايةَ مَن أعرض عن ذكره وتولَّى، بناءً على أنَّ معناه أنه سبحانه على الحقِّ والعدلِ لا يضيعُ عنده معتصمٌ ولا يفوته ظالمٌ.

وفي قوله: «ربِّي» من غيرِ إعادةِ «وربِّكم» كما في الأوَّل نكتةٌ سريَّةٌ بعد اختصار المعنى عن الحشوِ فيه ما يدلُّ على زيادةِ اختصاصه به، وأنَّه ربُّ الكلِّ استحقاقاً، وربُّه دونَهم تشريفاً وإرفاقاً.

---

(١) البحر ٥/ ٢٣٤.

(٢) في الأصل: شدة.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: تتولَّوا، فهو مضارعٌ حُذف منه إحدى التاءين، وحُمل على ذلك لاقتضاء «أبلغتُكم» له. وجوَّز ابنُ عطيَّة[1] كونَه ماضياً، وفي الكلام التفاتٌ. ولا يظهرُ حسنُه، ولذا قدَّر غيرُه مِمَّن جَعَله كذلك: فقل أبلغتكم، لكنه لا حاجةَ إليه. ويؤيِّد ذلك قراءةُ الأعرج وعيسى الثقفي: «تُولُّوا» بضمِّ التاء واللام مضارع ولَّى[2]. والمراد: فإن تستمرُّوا على ما كنتم عليه من التولِّي والإعراضِ، لوقوع ذلك منهم فلا يصلحُ للشرط. وجوِّز أن يبقى على ظاهرِه بحمله على التولِّي الواقع بعدما حجَّهم.

والظاهرُ أنَّ الضمير لقوم هودٍ والخطاب معهم، وهم من تمام الجُمَل المقولة قبلُ. وقال التبريزي[3]: إنَّ الضميرَ لكفَّار قريش، وهو من تلوين الخطاب، وقد انتقل من الكلامِ الأوَّل إلى الإخبارِ عمَّن بحضرةِ الرسولِ ﷺ، وكأنه قيل: أخبرهم عن قصَّة قومِ هودٍ وادْعُهم إلى الإيمان بالله تعالى لئلَّا يصيبَهم كما أصاب قومَ هودٍ عليه السلام، فإن تولَّوا فقل لهم: قد أبلغتكم إلخ. وهو من البُعد بمكانٍ كما لا يخفى.

وقوله سبحانه: ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾ دليلُ جوابِ الشرط، أي: إن تتولَّوا لم أعاتَبْ على تفريطٍ في الإبلاغ، فإنَّ ما أرسلتُ به إليكم قد بلغكم، فأبيتُم إلَّا تكذيبَ الرسالة وعداوةَ الرسول.

وقيل: التقديرُ: إن تتولَّوا فما عليَّ كبيرُ همٍّ منكم؛ فإنَّه قد برئتْ ساحتي بالتبليغ، وأنتم أصحابُ الذَّنب في الإعراض عن الإيمانِ.

وقيل: إنه الجزاءُ باعتبار لازمِ معناه المستقبل باعتبارِ ظهورِه، أي: فلا تفريطَ منِّي ولا عُذْرَ لكم.

وقيلَ: إنَّه جزاءٌ باعتبار الإخبار؛ لأنَّه كما يُقصدُ ترتُّبُ المعنى يُقصدُ ترتُّبُ الإخبار، كما في ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] على ما مرَّ.

---

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ١٨٢.
(٢) القراءات الشاذة ص٥٩، والبحر ٥/ ٢٣٤.
(٣) كما في البحر ٥/ ٢٣٤.

وكلُّ ذلك لِمَا أنَّ الإبلاغ واقعٌ قبلَ تولِّيهم، والجزاءُ يكون مستقبلاً بالنَّظر إلى زمانِ الشَّرط.

وزعم أبو حيَّان أنَّ صحَّةَ وقوعه جواباً؛ لأنَّ في إبلاغه إليهم رسالتَه تضمُّنَ ما يحلُّ بهم من العذاب المستأصِلِ، فكأنَّه قيل: فإنْ تتولَّوا استُؤصلتم بالعذاب، ويدلُّ على ذلك الجملةُ الخبريَّة، وهي قولُه سبحانه: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾[(1)]. وفيه منعٌ ظاهر، وهذا كما قال غيرُ واحد: استئنافٌ بالوعيد لهم بأنَّ الله تعالى يهلكهم ويستخلفُ قوماً آخرين في ديارهم وأموالهم، وهو استئنافٌ نحويٌّ عند بعضٍ بناءً على جوازِ تصديره بالواو.

وقال الطِّيبي: المراد به أنَّ الجملة ليست بداخلةٍ في الجملة الشرطية جزاءً، بل تكون جملةً برأسها معطوفةً على الجملة الشرطية، وهو خلافُ الظاهر من العبارة، وعليه تكون مرتَّبةً على قوله سبحانه: (إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) والمعنى: إنَّه على العدل ينتقمُ منكم ويهلكُكم.

وقال الجلبي: لا مانعَ عندي من حَمْلِه على الاستئناف البيانيِّ جواباً عمَّا يترتَّب على التولِّي، وهو الظاهر، كأنه قيل: ما يُفعلُ بهم إذا تولَّوا؟ فقيل: «يستخلف» إلخ.

وتعقَّبه بعضُهم بأنَّ الاستئناف البيانيَّ لا يقترن بالواو.

وجوَّز أن يكون عطفاً على الجواب، لكنْ على ما بعد الفاء؛ لأنه الجواب في الحقيقة والفاءُ رابطةٌ له، ودخول[(2)] الفاء على المضارع هنا لأنَّه تابعٌ يُتسامح فيه، وقيل: تقديرُه: فقل يستخلفُ... إلخ.

وقرأ حفصٌ برواية هبيرةَ: «يستخلفْ» بالجزم[(3)]، وهو عطفٌ على موضع الجملة الجزائيَّة مع الفاء، كأنَّه قيل: فإنْ تولَّوا يَعْذُرْني ويُهْلِكْكُم ويستخلفْ مكانكم آخرين. وجوَّز أبو البقاء كونَ ذلك تسكيناً لتوالي الحركات[(4)].

---

(١) البحر ٥/ ٢٣٤.

(٢) في الأصل: وعدم دخول، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٥/ ١٠٨، والكلام منه.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١٨٢، والبحر ٥/ ٢٣٤.

(٤) الإملاء ٣/ ٢٨٧-٢٨٨.

وقرأ عبدُ الله كذلك، وبجزم قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾[1]. وقيل: إنَّ مَن جَزَمَ الأوَّلَ جَزَمَ هذا؛ لِعَطْفِه عليه، وهو الظاهر.

والمعنى: لا تضرُّونه بهلاكِكم شيئاً، أي: لا ينتقصُ ملكُه ولا يختلُّ أمره، ويؤيِّد هذا المعنى[2] ما رُوي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّه قرأ: «ولا تنقصونه شيئاً»[3].

ونصب «شيئاً» على أنَّه مفعولٌ مطلقٌ لتضرُّون، أي: شيئاً من الضرر؛ لأنَّه لا يتعدَّى لاثنين، وجَعَله بعضُهم مفعولاً ثانياً مفسِّراً له بما يتعدَّى لهما لمكان الرواية.

وجوَّز ابنُ عطية[4] أن يكون المعنى: إنَّكم لا تقدرون إذا أهلككم على إضرارِه بشيءٍ، ولا على الانتصار منه، ولا تقابلون فعلَه بشيء يضرُّه، تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً. والأوَّل أظهر.

وقدَّر بعضُهم التولِّي بدل الإهلاك، أي: ولا تضرُّونه بتولِّيكم شيئاً من الضرر؛ لاستحالة ذلك عليه سبحانه.

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾ أي: رقيبٌ محيطٌ بالأشياء عِلْماً فلا يخفى عليه أعمالُكم ولا يغفل عن مؤاخَذَتِكم. فالحفظُ كنايةٌ عن المجازاة.

ويجوز أن يكون الحفيظُ بمعنى الحافظ بمعنى الحاكم المستولي، أي: إنه سبحانه حافظ[5] مستولٍ على كلِّ شيءٍ، ومَنْ شأنُه ذلك كيف يضرُّه شيء.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أي: نزل عذابُنا، على أنَّ الأمر واحدُ الأمور، قيل: أو المأمور به، وفي التعبير عنه بذلك مضافاً إلى ضميره جلَّ جلالُه، وعن نزوله بالمجيء، ما لا يخفى من التَّفخيم والتَّهويل.

وجوِّز أن يكون واحدَ الأوامر، أي: ورد أمرُنا بالعذاب، والكلامُ على الحقيقة

---

(١) البحر ٥/ ٢٣٤، والثانية في القراءات الشاذة ص٦٠.
(٢) قوله: المعنى، ليس في (م).
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١٨٢، والبحر ٥/ ٢٣٥.
(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ١٨٢.
(٥) في الأصل: حاكم.

إن أريد أمرُ الملائكة عليهم السلام، ويجوزُ أن يكون ذلك مجازاً عن الوقوع على سبيل التمثيل.

﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ قيل: كانوا أربعةَ آلاف. وقيل: ثلاثةَ آلاف. ولعلَّ الانتصار للأنبياء عليهم السلام يكون مأذوناً به للمؤمنين إذ ذاك، فلا ينافي ما تقدَّم نقلُه من أنَّه عليه السلام كان وحدَه، ولذا عُدَّ مواجهتُه للجمِّ الغفير معجزةً له ﷺ، لكنْ لا بدَّ لهذا من دليل كدعوى انفرادِه عنهم حين المقاولة، وفي «الحواشي الشهابية» أنَّه لا مانع من ذلك باعتبار حالَين وزمانين، فتأمَّل[1].

والظاهر أنَّ ما كان من المقاولة إنَّما هو في ابتداء الدعوة، ومجيءُ الأمر كان بعدُ بكثيرٍ، وإيمانُ مَن آمن كان في البَيْن، فترتفع المنافاة.

﴿بِرَحْمَةٍ﴾ عظيمةٍ كائنةٍ ﴿مِّنَّا﴾ وهي الإيمانُ الذي أنعمنا به عليهم، وروي هذا عن ابن عباس والحسن، وذكره الزمخشريُّ[2]، ولشمِّ بعضهم[3] منه رائحةَ الاعتزال لم يلتفتْ إليه.

ولا بأس بأنْ تُحملَ الرحمةُ على[4] الفضل، فيفيدُ أنَّ ذلك بمحض فضل الله تعالى؛ إذ له سبحانه تعذيبُ المطيع كما أنَّ له جلَّ وعلا إثابةَ العاصي.

والجارُّ[5] الأوَّل متعلِّقٌ بـ «نجَّينا»، وهو الظاهرُ الذي عليه كثير من المفسرين.

وجوَّز أبو حيَّان كونَه متعلِّقاً بـ «آمنوا»، أي: إنَّ إيمانَهم بالله تعالى ورسوله عليه السلام برحمةٍ من الله تعالى إذ وفَّقهم إليه[6].

ولعلَّ ترتيبَ الإنجاء على النزول باعتبارِ ما تضمَّنه من تعذيبِ الكفَّار، فيكون

(١) حاشية الشهاب ٥/ ١٠٩.

(٢) في الكشاف ٢/ ٢٧٧.

(٣) هو البيضاوي. ينظر حاشية الشهاب مع تفسير البيضاوي ٥/ ١٠٨-١٠٩.

(٤) في (م): عن، وهو تصحيف.

(٥) في (م): والجار والمجرور.

(٦) البحر ٥/ ٢٣٥.

قد صرَّح بالإنجاء اهتماماً، ورتَّب باعتبارِ الآخرِ إشارةً إلى أنَّه مقصودٌ منه. ويجوز أن تكون «لَمَّا» لمجرد الحين.

﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾ تكريرٌ لأجْلِ بيانِ ما نَجَّاهم عنه، وهي الريح التي كانت تحملُ الظعينة، وتهدمُ المساكنَ، وتدخلُ في أنوف أعداءِ الله تعالى وتخرُج من أدبارهم فتقطِّعهم إرباً إرباً. أو المراد بهذا الإنجاءُ من عذاب الآخرة وبالأوَّل الإنجاءُ من عذاب الدنيا.

ورجِّح الأوَّل بأنه أوفقُ لمقتضى المقام، وحاصلُه أنَّ الأوَّل إخبارٌ بأنَّ الإيمان الذي وُفِّقوا له صار سببَ إنجائهم، والثاني بأنَّ ذلك الإنجاءَ كان من عذابٍ أيِّ عذابٍ دلالةً على كمالِ الامتنان وتحريضاً على الإيمان، وليس من أسلوبِ: أعجبني زيدٌ وكرمُه، في شيء كما ظنَّه العلَّامةُ الطِّيبيُّ.

وقد أُورِدَ على الثاني أنَّ إنجاءهم من عذاب الآخرة ليس في وقتِ نزول العذاب في الدنيا ولا مسبَّباً عنه، إلَّا أنْ يجابَ بأنه عطفٌ على القيد والمقيَّد، كما قيل في قوله سبحانه: ﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ: ٣٠]. قيل: ولا يخفى ما فيه من التكلُّف من غير داعٍ؛ لأنَّ الموافقَ للتعبير بالماضي المفيدِ لتحقُّقه حتَّى كأنَّه وقع أن يُجعل باعتبارِ ذلك واقعاً في وقت النزول تجوُّزاً، أو المعنى: حكمنا بذلك وتبيَّن ما يكون لهم لأنَّ الدنيا أنموذجُ الآخرة.

وأيّاً ما كان فالمرادُ بغلظِ العذاب تضاعفُه، وقد يقال على الاحتمال الأوَّل: في وصف العذاب ـ الذي كان بالريح ـ بالغلظ الذي هو ضدُّ الرِّقة التي هي صفةُ الريح: ما لا يخفى من اللُّطف، وفيه أيضاً مناسَبةٌ لحالهم؛ فإنهم كانوا غلاظاً شداداً.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ أنّث اسمُ الإشارة باعتبار القبيلة على ما قيل، فالإشارةُ إلى ما في الذِّهن، وصيغةُ البعيد لتحقيرِهم، أو لتنزيلهم منزلةَ البعيد لعدمِهم، أو الإشارةُ إلى قبورهم ومصارعهم، وحينئذٍ الإشارةُ للبعيد المحسوس والإسنادُ مجازيٌّ، أو هو من مجاز الحذف، أي: تلك قبورُ عاد، وجوَّز أن يكون بتقدير: أصحاب تلك عاد. والجملةُ مبتدأٌ وخبرٌ، وكأنَّ المقصود الحثُّ على الاعتبار بهم والاتِّعاظِ بأحوالهم.

وقولُه سبحانه: ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ إلخ استئنافٌ لحكايةِ بعضِ قبائحهم، أي: كفروا بآيات ربِّهم التي أيَّد بها رسولَه الداعي إليه، ودلَّ بها على صدقِه، وأنكروها فقالوا: يا هودُ ما جئتنا ببيِّنة، أو أنكروا آياته سبحانه في الآفاق والأنفس الدَّالَّة عليه تعالى حسبما قال لهم هودٌ عليه السلام.

وجوِّز أن يراد بها الآياتُ التي أتى بها هودٌ وغيرُه من الرسل عليهم الصلاة والسلام، ويلائمُه جمعُ الرُّسل الآتي على قول.

وعدِّي «جحد» بالباء حملاً له على «كَفَر» لأنَّه المراد، أو بتضمينه معناه كما أن «كَفَر» يجري مجرى «جَحَد» فيعدَّى بنفسه، نحو قوله سبحانه: (أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ)، وقيل: كَفَر كشَكَر يتعدَّى بنفسه وبالباء، وظاهرُ كلام «القاموس» أنَّ «جحد» كذلك[1].

﴿وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ﴾ قيل: المراد بالرُّسل هودٌ عليه السلام والرسلُ الذين كانوا معه من قبله. وهو خلافُ الظاهر.

وقيل: المرادُ بهم هودٌ عليه السلام وسائرُ الرسل من قِبَلِه تعالى للأمم مِن قَبْلِه ومِن بَعْدِه عليه السلام، بناءً على أنَّ عصيانَه عليه السلام وكذا عصيان كلِّ رسول بمنزلةِ عصيانِ الرسل جميعِهم؛ لأنَّ الجميعَ متَّفقون على التوحيد، فعصيانُ واحدٍ عصيانٌ للجميع فيه، أو على أنَّ القومَ أَمَرهم كلُّ رسول من قبلُ بطاعةِ الرسل والإيمان بهم إن أدركوهم، فلم يمتثلوا ذلكَ الأمرَ.

﴿وَاتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ﴾ متعالٍ عن قبولِ الحقِّ. وقال الكلبيُّ: هو الذي يقتلُ على الغضبِ ويعاقبُ على المعصية. وقال الزجَّاج: هو الذي يجبرُ الناسَ على ما يريد[2]. وذكر ابنُ الأنباري[3] أنَّه العظيمُ في نفسه المتكبِّرُ على العباد.

﴿عَنِيدٍ ٥٩﴾ أي: طاغٍ، من «عَنَدَ» بتثليث النون «عَنْداً» بالإسكان «وعَنَداً» بالتحريك «وعُنوداً» بضم العين: إذا طغا وجاوَزَ الحدَّ في العصيان. وفسَّره الراغبُ

(١) القاموس (جحد).
(٢) معاني القرآن للزجاج ٢/١٦٣.
(٣) كما في البحر ٥/٢٣٥، وما قبله منه.

بالمعجَب بما عنده[١]. والجوهريُّ: بمن خالفَ الحقَّ وردَّه وهو يعرفه[٢]. وكذا «عانِد» ويُطلق الأخيرُ على البعير الذي يجور عن الطريق ويَعْدِلُ عن القصد، وجمعُه «عُنَّد» كراكع ورُكَّع، وجمعُ العنيد «عُنُد» كرغيف ورُغُف.

والعَنود قيل: بمعنى العنيد. وزعم بعضهم أنه يقال: بعيرٌ عَنودٌ، ولا يقال: عنيد، ويجمع الأوَّل على «عَنَدَة»، والثاني على «عند». وآخر: أنَّ العنود العادلُ عن الطريق المحسوس، والعنيد العادلُ عن الطريق في الحكم، وكلاهما من «عَنَدَ».

وأصل معناه على ما قيل: اعْتَزَلَ في جانبٍ؛ لأنَّ «العَنَد» بالتحريك الجانب، يقال: يمشي وَسَطاً لا عَنَداً، ومنه «عِنْد» الظرفية، ويقال للناحية أيضاً: العنْد مثلَّثة.

وهذا الحُكْمُ ليس كالحُكْمين السَّابقين من جحودِ الآيات وعصيان الرُّسُل في الشمولِ لكلِّ فردٍ فردٍ منهم، فإنَّ اتِّباع الأمر من أحكام الأسافلِ دون الرؤساء.

وقيل: هو مثلُ ذلك في الشمول، والمراد بالأمرِ الشأنُ، وبـ «كلِّ جبارٍ عنيدٍ» مَن هذه صفتُه من الناس، لا أناسٌ مخصوصون من عادٍ متَّصفون بذلك، والمراد باتِّباع الأمر ملازمتُه أو الرِّضا به على أتمِّ وجهٍ، ويَؤُولُ ذلك إلى الاتِّصاف، أي: إنَّ كلّاً منهم اتَّصف بصفةِ كلِّ جبَّار عنيدٍ. ولا يخفى ما فيه من التكلُّف الظاهر، وقد يدَّعَى العمومُ من غيرِ حاجةٍ إلى ارتكاب مثله.

والمراد على ما تقدَّم أنهم عصَوا مَنْ دعاهم إلى سبيل الهدى، وأطاعوا مَنْ حداهم إلى مهاوي الرَّدى.

﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي: إبعاداً عن الرحمة وعن كلِّ خير، أي: جُعلت اللعنةُ لازمةً لهم، وعبَّر عن ذلك بالتبعيّة للمبالغة، فكأنَّها لا تفارقهم وإن ذهبوا كلَّ مذهب، بل تدور معهم حسبما داروا، أو لوقوعه في صحبة اتِّباعهم. وقيل: الكلامُ على التمثيل بجعلِ اللعنةِ كشخصٍ تبعَ آخرَ ليدفعه في هوَّةٍ قدامَه.

وضميرُ الجمع لعاد مطلقاً كما هو الظاهر، وجوِّز أن يكون للمتَّبِعين للجبَّارين

---

(١) مفردات الراغب (عند).

(٢) الصحاح (عند).

منهم، وما حالُ قوم قدَّامهم الجبَّارون أهلُ النار وخلفَهم اللعنةُ والبوار؟! ويُعلم من لعنةِ هؤلاءِ لعنةُ غيرِهم المتبوعين ـ على ما قيل ـ بالطريق الأَوْلى.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: وأُتبعوا يومَ القيامة أيضاً لعنةً؛ وهي عذابُ النار المخلَّد، حُذف ذلك لدلالة الأوَّل عليه. وللإيذان بأنَّ كلّاً من اللَّعنين نوعٌ برأسه لم يجتمعا في قرنٍ واحدٍ بأن يقال: وأُتبعوا في هذه الدنيا ويومَ القيامة لعنةً، ونظيرُ هذا قوله تعالى: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وعبَّر بـ «يوم القيامة» بدلَ: الآخرة، هنا للتهويلِ الذي يقتضيه المقام.

﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾ أي: بربِّهم، أو: كفروا نعمتَه ولم يشكروها بالإيمان، أو: جحدوه.

﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ﴾ دعاءٌ عليهم بالهلاك مع أنَّهم هالكون أيَّ هلاك؛ تسجيلاً عليهم باستحقاقِ ذلك والاستئهال له، ويقال في الدعاء بالبقاء واستحقاقه: لا يبعد فلان، وهو في كلام العرب كثيرٌ، ومنه قوله:

لا يَبْعَدَنْ قومي الذين هُمُ سُمُّ العُداةِ وآفةُ الجُزْرِ[(١)]

وجوِّز أن يكون دعاءً باللَّعن، كما في «القاموس»: البُعد والبِعاد: اللَّعن[(٢)].

واللام للبيان كما في قولهم: سقياً لك[(٣)]. وقيل: للاستحقاق، وليس بذاك.

وتكريرُ حرف التنبيه وإعادةُ «عاد» للمبالغة في تفظيع حالِهم، والحثُّ على الاعتبار بقصَّتهم.

وقولُه سبحانه: ﴿قَوْمِ هُودٍ ۝٦٠﴾ عطفُ بيانٍ على «عاد»، وفائدتُه الإشارةُ إلى أنَّ عاداً كانوا فريقين: عاداً الأولى، وعاداً الثانية، وهي عادُ إرَم في قولٍ، وذكر الزمخشريُّ في «الفجر» أنَّ عَقِبَ عاد بنِ عوص بن إرم بن سام بن نوح قيل لهم:

---

(١) البيت للخِرْنِق بنت بدر أخت طرفة بن العبد لأمه، وهو في ديوانها ص٢٩، والكتاب ١/ ٢٠٢ و٢/ ٦٤، والخزانة ٥/ ٤١. قال شارح الديوان: أي: هم لأعدائهم كالسمِّ، وهم آفة الجزر؛ لأنهم ينحرونها للأضياف.

(٢) القاموس (بعد).

(٣) جاء في هامش الأصل: والجار والمجرور في مثله خبر لمبتدأ واجب الحذف.

عاد، كما يقال لبني هاشم: هاشم، ثم قيل: للأوَّلين منهم: عاد الأولى وإرم؛ تسميةً لهم باسم جدِّهم، ولمن بعدهم عاد الأخيرة، وأنشد لابن الرقيَّات:

مَــجْــداً تَــلــيــداً بــنــاه أوَّلُــهُ   أدركَ عــاداً وقــبــلَــهــا إرمــا[1]

ولعله الأوفقُ للنَّقل، مع الإيماء إلى أنَّ استحقاقَهم للبُعد بسببِ ما جرى بينهم وبين هودٍ عليه السلام وهم قومُه، وليس ذلك لدفع اللَّبس؛ إذ لا لَبْسَ في أنَّ عاداً هذه ليست إلا قومَ هودٍ عليه السلام؛ للتصريح باسمه وتكريرِه في القصَّة.

وقيل: ذُكر ليفيدَ مزيدَ تأكيدٍ بالتنصيص عليهم، مع ما في ذلك من تناسُبِ فواصل[2] الآي.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ الكلامُ فيه كالكلام في نظيره السابق آنفاً، وجمهورُ القراء على منع صرف «ثمود» ذهاباً إلى القبيلة. وقرأ ابنُ وثَّاب والأعمش بالصَّرف على إرادة الحيِّ[3].

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ابتدأ خَلْقَكم منها فإنَّها المادَّةُ الأُولى، وآدمُ الذي هو أصل البشر خُلق منها. وقيل: الكلام على حذف مضافٍ، أي: أنشأ أباكم. وقيل: «من» بمعنى في، وليس بشيءٍ.

والمراد الحصرُ كما يُفْهِمُه كلامُ بعض الأجلَّة، كأنَّ القومَ لعدم أدائهم حقَّه سبحانه قد اعتقدوا أنَّ الفاعل لذلك غيرُه تعالى، أو هو مع غيرِه، فخوطبوا على وجهِ قَصْرِ القَلْبِ أو قَصْرِ الإفراد بذلك، واحتمالُ أنَّهم كانوا يعتقدون أحدَ الأمرين حقيقةً لا تنزيلاً يستدعي القولَ بأنَّهم كانوا طبيعيةً أو ثَنَوِيَّةً، وإلا فالوثنيَّة - وإن عبدوا معه سبحانه غيرَه - لا يعتقدون خالقيَّةَ غيرِه لهم بوجهٍ من الوجوه.

وأُخذ الحصرُ على ما قيل: من تقديم الفاعل المعنوي، وقيل: إنَّه مستفادٌ من السِّياق؛ لأنه لَمَّا حصر الإلهية فيه تعالى اقتضى حَصْرَ الخالقيَّة أيضاً، فبيانُ ما خُلقوا منه بعد بيانِ أنَّه الخالق لا غيره يقتضي هذا، فتدبَّر.

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٥٠، والبيت في ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ص١٥٥.

(٢) في الأصل: رؤوس.

(٣) القراءات الشاذة ص٤٤، والبحر ٥/ ٢٣٨، والكلام منه.

والظاهر أنَّ مَن يقول بالحصر هنا يقولُ به في قوله سبحانه: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ لمكان العطفِ وكونِه معطوفاً بعد اعتبار التقديم، فلا ينسحبُ على ما بعدَه مما لا فائدةَ في التزامه، أي: وهو الذي جعلكم عُمَّارها وسكَّانها، فالاستفعالُ بمعنى الإفعال؛ يقال: أعمرتُه الأرضَ واستعمرتُه: إذا جعلتَه عامرَها وفوَّضتَ إليه عمارتها، وإلى هذا ذهب الراغب[1] وكثيرٌ من المفسرين.

وقال زيد بن أسلم: المعنى: أمركم بعمارةِ ما تحتاجون إليه، من بناءِ مساكنَ، وحفرِ أنهار، وغرسِ أشجار، وغيرِ ذلك، فالسينُ للطلب. وإلى هذا ذهب الكيا، واستدلَّ بالآية على أنَّ عمارة الأرض واجبةٌ لهذا الطلب[2].

وقسَّمها في «الكشاف»[3] إلى: واجب كعمارة القناطر اللازمة والمسجدِ الجامع، ومندوبٍ كعمارة المساجد، ومباحٍ كعمارة المنازل، وحرامٍ كعمارة الخانات، وما يبنى للمباهاة أو من مال حرام، كأبنيةِ كثيرٍ من الظَّلَمة.

واعتُرض على الكيا بأنَّه لم يكن هناك طلبٌ حقيقةً، ولكن نزِّل جعلُهم محتاجين لذلك، وإقدارُهم عليه، وإلهامُهم كيف يعمرون، منزلةَ الطلب.

وقال الضحَّاك: المعنى: عمَّركم فيها واستبْقاكم، وكان أحدُهم يعمَّر طويلاً حتى إنَّ منهم مَن يعمَّر ألفَ سنة. والمشهور أنَّ الفعل من العمر وهو مدَّة الحياة بالتشديد، ومن العمارةِ نقيض الخراب بالتخفيف، ففي أخذ ذلك من العمر تجوُّز.

وعن مجاهد: أنَّ استعمر من العُمْرَى بضمٍّ فسكون مقصور، وهي ـ كما قال الراغبُ ـ في العطيَّة أن تجعل له شيئاً مدَّةَ عمرك أو عمرِه[4]. والمعنى: أعمركم فيها دياركم[5]، أي: أعطاكم ذلك ما دمتم أحياء، ثمَّ هو سبحانه وارثُها منكم، أو

---

(١) في مفرداته (عمر).

(٢) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٢٦.

(٣) ٢/ ٢٧٨.

(٤) مفردات الراغب (عمر).

(٥) في (م): ورباكم، والمثبت من الأصل، والكشاف ٢/ ٢٧٨، والبحر ٥/ ٢٣٨، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ١١٠، وتفسير أبي السعود ٤/ ٢٢١.

المعنى: جعلكم معمِّرين ديارَكم فيها؛ لأنَّ الرجل إذا ورَّث دارَه مَن بعده فكأنَّما أعمرَه إياها؛ لأنه يسكنُها عمرَه ثمَّ يتركها لغيره.

﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ تفريعٌ على ما تقدَّم، فإنَّ ما ذُكر من صنوف إحسانِه سبحانه داعٍ إلى الاستغفار والتوبة.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ﴾ أي: قريبُ الرحمة؛ لقوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] والقرآن يفسِّر بعضُه بعضاً ﴿مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ لمن دعاه وسأله زيادةً في بيان ما يوجبُ ذلك، والأوَّل علَّةٌ باعثة، وهذا علَّةٌ غائيَّة، وما ألطفَ التقديم والتأخير.

وصرَّح بعضُهم أنَّ «قريب» ناظر لـ «توبوا» و«مجيب» لـ «استغفروا»، كأنه قيل: ارجعوا إلى الله تعالى فإنه سبحانه قريبٌ منكم أقربُ من حبلِ الوريد، واسألوه المغفرةَ فإنه جلَّ وعلا مجيب السائلين. ولا يخلو عن حُسن.

﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا﴾ أي: فيما بيننا ﴿مَرْجُوًّا﴾ فاضلاً خيِّراً نقدِّمك على جميعنا، على ما روي عن ابن عباس.

وقال ابنُ عطيَّة[1]: مشوراً[2] نؤمِّلُ فيك[3] أن تكون سيِّداً سادّاً مسدَّ الأكابر.

وقال كعب: كانوا يرجونه للملك بعد ملكِهم، لأنَّه كان ذا حَسَبٍ وثروة.

وقال مقاتل: كانوا يرجون رجوعَه إلى دينهم؛ إذ كان يبغضُ أصنامَهم ويعدلُ عن دينهم ﴿قَبْلَ هَٰذَآ﴾ أي: الذي باشَرْتَه من الدعوة إلى التوحيد وتركِ عبادةِ الآلهة، فلمَّا سمعنا منكَ ما سمعناه انقطع عنكَ رجاؤُنا.

وقيل: كانوا يرجون دخولَه في دينهم بعد دعواه إلى الحقِّ، ثمَّ انقطع رجاؤُهم، فـ «قبل هذا»: قبل هذا الوقت، لا قبلَ الذي باشره من الدَّعوة.

وحكى النقَّاش عن بعضِهم أنَّ «مرجوّاً» بمعنى حقيراً، وكأنه فسَّره أولاً بمؤخَّراً

---

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ١٨٣، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٥/ ٢٣٨.
(٢) في المحرر الوجيز: مسوداً.
(٣) في (م): نأمل منك.

غير معتنًى به ولا مهتمٌ بشأنه، ثم أراد منه ذلك، وإلَّا فمرجوٌّ[١] بمعنى حقير لم يأتِ في كلام العرب.

وجاء قولهم: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ على جهة التوجُّد والاستبشاع لتلك المقالة منه. والتعبير بـ «يعبد» لحكاية الحال الماضية.

وقرأ طلحة: «مرجوءاً» بالمدِّ والهمز[٢].

﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد وتركِ عبادة الآلهة، وغيرِ ذلك من الاستغفار والتوبة.

﴿مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ اسم فاعلٍ من أرابه المتعدِّي بنفسه: إذا أوقعه في الرِّيبة؛ وهي قلقٌ وانتفاءُ الطمأنينة باليقين، أو من أراب الرجلُ اللازمِ: إذا كان ذا ريبة.

والإسناد على الوجهين مجازيٌّ، إلا أنَّ بينهما ـ كما قال بعضُ المحقِّقين ـ فرقاً؛ وهو أنَّ الأوَّل منقولٌ من الأعيان إلى المعنى، والثاني منقولٌ من صاحب الشكِّ إلى الشكِّ؛ كما تقول: شِعْرٌ شاعر، فعلى الأول هو من باب الإسناد إلى السبب؛ لأنَّ وجودَ الشكِّ سببٌ لتشكيك المشكِّك، ولولاه لما قَدَر على التشكيك.

والتنوينُ في «مريبٍ» وفي «شكٌّ» للتفخيم.

«وإننا» بثلاثِ نوناتٍ، ويقال: إنَّا بنونين، وهما لغتان لقريش. قال الفرَّاء: مَن قال: إنَّنا، أخرج الحرفَ على أصلِه؛ لأنَّ كنايةَ المتكلِّمين «نا» فاجتمعتْ ثلاثُ نوناتٍ، ومَن قال: إنَّا، استثقلَ اجتماعَها فأسقطَ الثالثة وأبقى الأُولَيين.

واختار أبو حيَّان[٣] أنَّ المحذوفَ النونُ الثانية لا الثالثة؛ لأنَّ في حَذْفِها إجحافاً بالكلمة، إذ لا يبقى منها إلا حرفٌ واحدٌ ساكنٌ، دونَ حَذْفِ الثانية لظهورِ بقاء حرفين بعدَه، على أنَّه قد عُهد حذفُ النون الثانية من إنَّ مع غيرِ ضمير المتكلِّمين ولم يُعهد حذفُ نون «نا»، ولا ريبَ في أنَّ ارتكابَ المعهود أَولى من ارتكاب غيرِ المعهود.

---

(١) في (م): فمرجوا.
(٢) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٢١.
(٣) في البحر ٥/ ٢٣٨، وعنه نقل المصنف قول الفراء.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ حجَّةٍ ظاهرةٍ وبرهانٍ وبصيرةٍ ﴿مِّن رَّبِّي﴾ مالكي ومتولِّي أموري ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ﴾ من قِبَلِه سبحانه ﴿رَحْمَةً﴾ نبوَّة، وهذا من الكلام المنصفِ والاستدراج؛ إذ لا يُتصوَّر منه عليه السلام شكٌّ فيما في حيِّز «إنْ»، وأصلُ وضعها أنَّها لشكِّ المتكلِّم.

﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي فمن يمنعُني من عذابه، ففي الكلام مضافٌ مقدَّر، والنُّصرةُ مستعمَلةٌ في لازمِ معناها، أو أنَّ الفعلَ مضمَّن معنى المنع، ولذا تعدَّى بـ «من»، والعدول إلى الإظهار لزيادة التهويل، والفاءُ لترتيب إنكارِ النَّصر على ما سبق من كونه على بيِّنة وإيتاءِ الرحمة، على تقدير العصيان حسبما يُعرب عنه قولُه: ﴿إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ أي: في المساهلة في تبليغ الرسالة، والمنعِ عن الشرك به تعالى، والمجاراةِ معكم فيما تشتهون، فإنَّ العصيانَ مِمَّن ذلك شأنُه أبعدُ، والمؤاخَذةَ عليه ألزمُ، وإنكارَ نصرته أدخلُ.

﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾ إذنْ باستتباعكم إيَّاي، أي: لا تُفيدونني؛ إذ لم يكنْ فيه أصلُ الخسران حتى يزيدوه ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾ أي: غيرَ أن تجعلوني خاسراً بإبطال أعمالي، وتعريضي لسخطِ الله تعالى.

أو: فما تزيدونني بما تقولون غيرَ أنْ أنسبكم إلى الخسران، وأقولَ لكم: إنَّكم لخاسرون، لا أنْ أتَّبعكم، ورُوي هذا عن الحسن بن الفضل. فالفاعلُ على الأوَّل هم والمفعولُ صالح، وعلى الثاني بالعكس، والتفعيلُ كثيراً ما يكون للنسبة، كفسَّقْتُه وفجَّرتُه، والزيادةُ على معناها.

والفاءُ لترتيب عدمِ الزيادة على انتفاء الناصر المفهوم من إنكاره على تقديرِ العصيان، مع تحقُّق ما ينفيه من كونه عليه السلام على بيِّنةٍ من ربِّه وإيتائه النبوَّة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ المعنى: فما تزيدونني غيرَ بصارَةٍ[1] في خسرانكم. فالكلامُ على حذفِ مضافٍ.

---

(١) في الأصل و(م): مضارة، والمثبت من تفسير البغوي ٢/ ٣٩١، وزاد المسير ٤/ ١٢٤، والبحر ٥/ ٩٠، والكلام منه، وذكره القرطبي ١١/ ١٥٣ بلفظ: فما تزيدونني باحتجاجكم بدين آبائكم غير بصيرة بخسارتكم.

وعن مجاهد: ما تزدادون أنتم باحتجاجكم بعبادةِ آبائكم إلا خساراً، وأضاف الزيادةَ إلى نفسه لأنَّهم أعطَوه ذلك وكان قد سألهم الإيمان.

وقال ابنُ عطيَّة[1]: المعنى: فما تعطوني فيما أقتضيه منكم من الإيمان غير تخسير لأنفسكم، وأضافَ الزيادةَ إلى نفسه من حيثُ إنه مقتضٍ لأقوالهم موكَّلٌ بإيمانهم، كما تقول لمن توصيه: أنا أريدُ بك خيراً وأنتَ تزيدني[2] شرّاً[3]، وكان الوجهُ البيِّن أن تقول: وأنت تزيد[4] شرّاً، لكن من حيث كنتَ مريدَ خيرٍ ومقتضي ذلك حَسُنَ أن تضيفَ الزيادة إلى نفسك.

وقيل: المعنى: فما تزيدونني غيرَ تخسيري إيَّاكم، حيث إنكم كلَّما ازددتم تكذيباً إيَّاي ازدادتْ خسارتُكم. وهي أقوال كما ترى.

﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ الإضافةُ للتشريف والتنبيهِ على أنَّها مفارِقةٌ لسائرِ ما يُجانسها خَلْقاً وخُلُقاً.

﴿لَكُمۡ ءَايَةٗ﴾ معجزةً دالَّةً على صدقي في دعوى النبوَّة، وهي حالٌ من «ناقة الله»، والعاملُ ما في اسم الإشارة من معنى الفعل. وقيل: معنى التنبيه. والظاهر أنَّها حالٌ مؤسِّسة، وجوِّز فيها أن تكون مؤكِّدةً، كهذا أبوك عطوفاً، لدلالة الإضافة على أنَّها آية. و«لكم» كما في البحر[5] وغيرِه حال منها تقدمت[6] عليها لتنكيرِها، ولو تأخَّرت لكانت صفةً لها. واعتُرض بأنَّ مجيء الحال من الحال لم يقلْ به أحدٌ من النحاة؛ لأنَّ الحالَ من الحال تبيِّن هيئةَ الفاعل أو المفعول، وليست الحالُ شيئاً منهما.

وأُجيب بأنَّها في معنى المفعول للإشارة؛ لأنها متَّحدةٌ مع المشارِ إليه الذي هو مفعولٌ في المعنى. ولا يخفى ما فيه من التكلُّف.

---

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ١٨٤، وذكر قوله أيضاً أبو حيان في البحر ٥/ ٢٣٩.
(٢) في الأصل و(م) والمحرر: تريد بي، وفي البحر، تريدني، والصواب ما أثبتناه.
(٣) في الأصل و(م) والبحر: سوءاً، والمثبت من المحرر الوجيز.
(٤) في الأصل و(م) والبحر: تريد، والمثبت من المحرر الوجيز.
(٥) ٥/ ٢٣٩.
(٦) في (م): فقدمت.

وقيل: الأولى أن يقال: إنَّ هذه الحالَ صفةٌ في المعنى، لكنْ لم يُعْرِبوها صفةً لأمرٍ تَواضَعَ النحويُّون عليه من منع تقدُّم ما يسمُّونه تابعاً على المتبوع، فحديثُ أنَّ الحال تبيِّنُ الهيئةَ مخصوصٌ بغيرِ هذه الحال.

واعتُرض بأنَّ هذا ونحوَه لا يحسم مادَّة الاعتراض؛ لأنَّ المعترض نفى قولَ أحدٍ من النحاة بمجيء الحال من الحال، وبما ذُكر لا يثبتُ القول، وهو ظاهر.

نعم، قد يقال: إنَّ اقتصار أبي حيَّان والزمخشريِّ ـ وهما مَن تعلَمُ في العربية ـ على هذا النحو من الإعراب كافٍ في الغرض على أتمِّ وجهٍ. وأراد الزمخشريُّ بالتعلُّق في كلامه التعلُّقَ المعنويَّ لا النحويَّ[1]، فلا تناقضَ فيه، على أنه بحثٌ لا يضرُّ.

وقيل: «لكم» حالٌ من «ناقة»، و«آية» حالٌ من الضمير فيه، فهي متداخلة، ومعنى كونِ الناقة للمخاطبين أنَّها نافعةٌ لهم ومختصَّةٌ بهم هي ومنافعها، فلا يَرِدُ أنَّه لا اختصاصَ لذات الناقة بهم وإنما المختصُّ كونُها آيةً لهم.

وقيل: «لكم» حالٌ من الضمير في «آية»؛ لأنها بمعنى المشتقِّ[2]، والأظهرُ كونُ «لكم» بيانَ مَن هي آيةٌ له.

وجوِّز كونُ «ناقة» بدلاً أو عطفَ بيان من اسم الإشارة، و«لكم» خبرُه، و«آيةً» حالٌ من الضمير المستتر فيه.

﴿فَذَرُوهَا﴾ دعوها ﴿تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ فليس عليكم مؤنتُها، والفعلُ مجزومٌ لوقوعه في جواب الطلب. وقرئ بالرفع على الاستئناف أو على الحال، كما في «البحر»[3].

---

(١) قال الزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٧٩: فإن قلت: فيم يتعلق «لكم»؟ قلت: بآية حالاً منها متقدمة؛ لأنها لو تأخرت لكانت صفة لها. وتعقبه أبو حيان في البحر ٥/ ٢٣٩ بقوله: وهذا متناقض؛ لأنه من حيث تعلُّق «لكم» بـ «آية» كان معمولاً لـ «آية»، وإذا كان معمولاً لها امتنع أن يكون حالاً منها؛ لأن الحال تتعلق بمحذوف. وتعقبه السمين في الدر المصون ٦/ ٣٤٨ بما ذكره المصنف من التعلُّق المعنويّ.

(٢) أي: معلَّمة. حاشية الشهاب ٥/ ١٤٢.

(٣) ٥/ ٢٣٩.

والمتبادرُ من الأكل معناه الحقيقي، لكن قيل: في الآية اكتفاء[1]، أي: تأكل وتشرب. وجوّز أن يكونَ مجازاً عن التغذّي مطلقاً والمقامُ قرينةٌ لذلك.

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ أي: بشيء منه فضلاً عن العَقْر والقتل، والنهيُ هنا على حدِّ النهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ إلخ [الأنعام: ١٥٢] ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ لذلك ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾ عاجلٌ لا يستأخر عن مسِّكم إيَّاها بسوءٍ إلا يسيراً، وذلك ثلاثة أيام ثمَّ يقع عليكم.

وقيل: أرادَ مِن وَصْفِه بالقُرب كونَه في الدنيا. وإلى الأول ذهب غيرُ واحد من المفسِّرين، وكان الإخبار عن وحيٍ من الله تعالى.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي: فخالفوا ما أُمروا به فعقروها. والعقرُ، قيل: قطعُ عضو يؤثِّر في النفس. وقال الراغبُ: يقال: عَقَرْتُ البعير: إذا نحرته[2]. ويجيء بمعنى الجَرْحِ أيضاً، كما في «القاموس»[3].

وأسند العقرَ إليهم مع أنَّ الفاعل له[4] واحدٌ منهم، وهو قُدار - كهمام - في قول، ويقال له: أحمر ثمود، وبه يُضرب المثلُ في الشُّؤْم لرضاهم بفعله، وقد جاء أنَّهم اقتسموا لَحمَها جميعاً.

﴿فَقَالَ﴾ لهم صالحٌ عليه السلام ﴿تَمَتَّعُوا۟﴾ عيشوا ﴿فِى دَارِكُمْ﴾ أي: بلدكم، وتسمَّى البلادُ الدِّيارَ لأنَّها يُدار فيها، أي: يُتَصرَّف؛ يقال: ديارُ بكرٍ، لبلادهم، وتقول العرب الذين حوالي مكَّة: نحنُ من عرب الدَّار، يريدون: من عرب البلد. وإلى هذا ذهب الزمخشريُّ[5].

وقال ابنُ عطيَّة: هو جمعُ دارة، كساحة وساحٍ وسُوح، ومنه قول أميَّة بنِ أبي الصَّلت يمدحُ عبدَ الله بنَ جدعان:

---

(١) الاكتفاء: هو أن يقتضي المقام شيئين بينهما تلازمٌ وارتباط، فيكتفى بأحدهما عن الآخر لنكتة. الإتقان ٢/ ٨٣٠.
(٢) مفردات الراغب (عقر).
(٣) مادة (عقر).
(٤) قوله: له، ليس في (م).
(٥) في الكشاف ٢/ ٢٧٩.

لــه داعٍ بـمـكــةَ مُـشْـمَـعِـلٌّ وآخــرُ فــوقَ دارتـــهِ يـنــادي[1]

ويمكن أنْ يسمَّى جميعُ مسكن الحيِّ داراً، وتُطلق الدَّارُ على الدنيا أيضاً، وبذلك فسَّرها بعضُهم هنا.

وفسَّر الطبرسيُّ[2] التمتُّعَ بالتلذُّذ، أي: تلذَّذُوا بما تريدون ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ ثمَّ يأخذُكم العذاب.

قيل: إنَّهم لَمَّا عقروا الناقةَ، صعد فصيلُها الجبلَ ورغا ثلاثَ رغواتٍ، فقال صالحٌ عليه السلام: لكلِّ رغوةٍ أَجَلُ يوم.

وابتداء الأيام ـ على ما في بعض الروايات ـ الأربعاء.

وروي أنه عليه السلام قال لهم: تصبحُ وجوهُكم غداً مصفرَّة، وبعد غدٍ محمرَّة، واليوم الثالث مسودَّة، يصبِّحكم العذابُ. فكان كما قال.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما يدلُّ عليه الأمر بالتمتُّع ثلاثةَ أيام من نزول العذاب عقيبها، وما فيه من معنى البُعد للتفخيم.

﴿وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ أي: غيرُ مكذوب فيه، فحُذف الجارُّ وصار المجرورُ مفعولاً على التوسُّع؛ لأنَّ الضميرَ لا يجوز نصبُه على الظرفية، والجارُّ لا يعمل بعد حذفه، ويسمُّون هذا الحذفَ والإيصال، وهو كثيرٌ في كلامهم، ويكون في الاسم كـ: مُشْتَرَك[3]، وفي الفعل كقوله:

ويـومٍ شـهـدنـاه سُـلَـيـمـاً وعـامـراً قليلٍ سوى طعن النِّهال نوافلُه[4]

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١٨٥، والبيت في ديوان أمية ص٦٣. المشمعلُّ: الجادُّ في الأمر الخفيف في جميع ما أخذ فيه من العمل. الخزانة ٤/ ٢٣٦.

(٢) في مجمع البيان ١٢/ ١٧٩.

(٣) وهذا كما يقال: طريق مشتَرَك، والأصل: مشترك فيه، المصباح المنير (شرك).

(٤) البيت لرجل من بني عامر، وسلف ١/ ٢٨٤. قال الشهاب في الحاشية ٥/ ١١٣: شهد بمعنى حفر متعدٍّ لواحدٍ وهو سليماً وعامراً، وهما اسما قبيلتين صرفا باعتبار الحي. فشهدناه أصله: شهدنا فيه. وقليل صفة يوم المجرور بعد واو رب، ونوافلُه فاعله، وهو جمع نافلة، وهي العطية. والنهال جمع ناهل بمعنى عطشان، أي: ليس في ذلك اليوم عطايا سوى الطعان.

أو «غير مكذوب» على المجاز، كأنَّ الواعدَ قال له: أفي بك، فإن وَفَى به صَدَقه وإلا كَذَبه، فهناك استعارة مكنيَّة تخييليَّة. وقيل: مجازٌ مرسل بجعل «مكذوب» بمعنى باطل ومُتَخَلِّف.

أو: وعدٌ غيرُ كَذِبٍ، على أنَّ «مكذوب» مصدرٌ على وزن مفعول، كمجلود ومعقول بمعنى: عَقْلٍ وجَلْدٍ، فإنه سُمع منهم ذلك لكنَّه نادر. ولا يخفى ما في تسمية ذلك وعداً من المبالغة في التهكُّم.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي: عذابُنا، أو: أمرُنا بنزوله، وفيه ما لا يخفى من التَّهويل ﴿نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ متعلِّقٌ بـ «نجَّينا» أو بـ «آمنوا» ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أي: بسببها، أو مُلْتَبِسينَ بها، وفي التَّنوين والوصفِ نوعان من التعظيم ﴿وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾ أي: نجَّيناهم من خزي يومئذٍ، وهو الهلاكُ بالصَّيْحة، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨] على معنى: إنَّا نجيناهم، وكانت تلك التنجيةُ من خزي يومئذٍ، وجوِّز أن يرادَ: ونجَّيناهم من ذلِّ وفضيحةِ يوم القيامة، أي: من عذابه، فهذه الآيةُ كآية هود سواء بسواء.

وتعقَّب أبو حيَّان[١] هذا بأنه ليس بجيِّد؛ إذ لم تتقدَّم جملة فيها ذكرُ يوم القيامة ليكون التنوينُ عوضاً عن ذلك، والمذكور إنَّما هو «جاء أمرنا»، فليقدَّر: يوم إذ جاء أمرنا. وهو جيِّد، والدفعُ بأنَّ القرينة قد تكون غيرَ لفظية كما هنا فيه نظر. وقيل: القرينةُ قوله سبحانه فيما مرَّ: ﴿عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، وفيه ما فيه.

وقيل: الواو زائدة، فيتعلَّق «من» بـ «نجينا» المذكور، وهذا لا يجوز عند البَصريين؛ لأنَّ الواوَ لا تُزاد عندهم، فيوجبون هنا التعلُّق بمحذوف، وهو معطوفٌ على ما تقدَّم.

وقرأ طلحة وأبان: «ومن خزيٍ» بالتنوين، ونصب «يومَئذٍ» على الظرفية معمولاً لـ «خزي»[٢].

---

(١) في البحر ٥/ ٢٤٠، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ١١٣.
(٢) البحر ٥/ ٢٤٠، والقراءة في المحرر الوجيز ٣/ ١٨٦ دون نسبة.

وعن نافع والكسائيِّ أنهما قرأا بالإضافة وفتحِ «يوم»[1] لأنه مضاف إلى «إذ» وهو غيرُ متمكِّنٍ، وهذا كما فُتح «حينَ» في قول النابغة:

على حينَ عاتبتُ المشيبَ على الصِّبا ... فقلت: ألمَّا أصْحُ والشَّيبُ وازِعُ[2]

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ خطابٌ لرسول الله ﷺ ﴿هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾ أي: القادرُ على كلِّ شيء، والغالبُ عليه في كلِّ وقتٍ، ويندرجُ في ذلك الإنجاءُ والإهلاك في ذلك اليوم.

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: قوم صالح، وعَدَل عن الضمير إلى الظاهر تسجيلاً عليهم بالظُّلم، وإشعاراً بعليته لنزولِ العذاب بهم.

﴿الصَّيْحَةُ﴾ أي: صيحةُ جبريل، أو صيحةٌ من السماء فيها كلُّ صاعقة وصوتٍ مفزع، وهي على ما في «البحر» فَعْلَة، للمرَّة الواحدة من الصِّياح، يقال: صاح يصيحُ إذا صوَّت بقوة[3]. وأصلُ ذلك ـ كما قال الراغب ـ تشقيقُ الصوت، من قولهم: انصاحَ الخشبُ أو الثوبُ: إذا انشقَّ فسُمع منه صوتٌ، وصيح الثوبُ كذلك[4]. وقد يعبَّر بالصَّيحة عن الفزع، وفي «الأعراف»: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [الآية: ٧٨] قيل: ولعلَّها وقعتْ عقيبَ الصَّيحة المستتبعةِ لتموُّج الهواء، وقد تقدَّم الكلام منَّا في ذلك.

﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ﴾ أي: منازلهم ومساكنهم، وقيل: بلادِهم ﴿جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ هامدين موتى لا يتحرَّكون، وقد مرَّ تمامُ الكلام في ذلك معنًى وإعراباً.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا﴾ أي: كأنهم لم يقيموا ﴿فِيهَا﴾ أي: في ديارهم.

والجملة قيل: في موضع الحال، أي: أصبحوا جاثمين مماثِلين لمن لم يوجَد ولم يُقِمْ في مقام قط.

﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَا﴾ وُضع موضعَ الضمير لزيادة البيان، ومنعَه من الصَّرف حفصٌ

(١) التيسير ص١٢٥، والنشر ٢/ ٢٨٩، وهي قراءة أبي جعفر.
(٢) ديوان النابغة الذبياني ص٧٩، وسلف ٧/ ٥٠٨.
(٣) البحر ٥/ ٢٣٦.
(٤) مفردات الراغب (صاح).

وحمزةُ نظراً إلى القبيلة[1]. وصرفه أكثرُ السبعة نظراً إلى الحيِّ كما قدَّمنا آنفاً، وقيل: نظراً إلى الأبِ الأكبر، يعني يكون المرادُ به الأبَ الأوَّلَ وهو مصروفٌ، وحينئذٍ يقدَّر مضافٌ كنسل وأولاد ونحوه. وقيل: المراد أنَّه صُرف نظراً لأوَّلِ وَضْعِه وإن كان المرادُ به هنا القبيلة.

﴿كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ صرَّح بكفرِهم مع كونه معلوماً مما سبق من أحوالهم؛ تقبيحاً لحالهم وتعليلاً لاستحقاقهم الدعاءَ عليهم بالبُعد والهلاك في قوله سبحانه: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ۝٦٨﴾ وقرأ الكسائيُّ لا غير بالتنوين[2]. وقد تقدَّم الكلامُ في شرح قصَّتهم على أتمِّ وجه.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾

(١) التيسير ص١٢٥، والنشر ٢/ ٢٨٩، وهي قراءة يعقوب.
(٢) التيسير ص١٢٥، والنشر ٢/ ٢٨٩-٢٩٠.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وهم الملائكة؛ رُوي عن ابن عباس أنَّهم كانوا اثني عشر مَلَكاً. وقال السُّدِّي: أحد عشر على صورة الغِلمان في غاية الحُسن والبهجة. وحكى صاحب «الغنيان»[1] أنَّهم عشرةٌ منهم جبريل. وقال الضحَّاك: تسعة. وقال محمدُ بن كعب: ثمانية. وحكى الماورديُّ أنَّهم أربعة ولم يسمِّهم[2].

وجاء في روايةٍ عن عثمان بن محصن[3] أنَّهم: جبريل، وإسرافيلُ، وميكائيلُ، ورفائيلُ عليهم السلام. وفي روايةٍ عن ابن عباس وابنِ جبير أنَّهم ثلاثةٌ الأولون فقط. وقال مقاتل: جبريل، وميكائيل، وملكُ الموت عليهم السلام.

واختار بعضُهم الاقتصارَ على القول بأنهم ثلاثة؛ لأنَّ ذلك أقلُّ ما يدلُّ عليه الجمع، وليس هناك ما يعوَّل عليه في الزائد.

وإنَّما أسند إليهم المجيء دونَ الإرسال؛ لأنهم لم يكونوا مرسَلين إليه عليه السلام بل إلى قومِ لوطٍ؛ لقوله تعالى: (إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ) وإنما جاؤوه لداعية البشرى.

---

(١) كما في البحر ٥/ ٢٤١، ووقع في الأصل و(م): الغينان، وهو تصحيف. وكتاب الغُنيان في تفسير القرآن لبشير بن حامد الزينبي التبريزي البغدادي الشافعي، شيخ الحرم الشريف، المتوفى سنة (٦٤٦هـ). العقد الثمين للفاسي ٣/ ٣٧١.

(٢) كذا ذكر، والذي قاله الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٤٢٨: الرسل جبريل ومعه ملكان، قيل: إنهما ميكائيل وإسرافيل. ثم ذكر عن ابن عباس ما سلف من أنهم كانوا اثني عشر ملكاً. وذكر عند تفسير الآية (٢٤) من سورة الذاريات ما سيأتي من كلام عثمان بن محصن.

(٣) في الأصل و(م): محيصن، والصواب ما أثبتناه، وعثمان بن محصن يروي عن ابن عباس، مرسل، روى عنه نوح بن قيس الحداني. الجرح والتعديل ٦/ ١٦٧.

قيل: ولمَّا كان المقصودُ في السورة الكريمة ذكرَ [سوء] صنيع الأمم السالفة مع الرسل المرسلة إليهم، ولحوقِ العذاب بهم ـ ولم يكن جميعُ قوم إبراهيم عليه السلام ممَّنْ(١) لحق بهم العذابُ، بل إنَّما لحق بقوم لوط منهم خاصَّة(٢) ـ غيَّر الأسلوب المطَّرد فيما سبق من قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ ثم رجع إليه حيث قيل: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾.

والباء في قوله تعالى: ﴿بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ للمُلابَسة، أي: مُلْتبِسين بالبشرى، والمرادُ بها؛ قيل: مطلقُ البشارة المنتظِمَةِ للبشارة(٣) بالولد من سارة؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ الآية، وقوله سبحانه: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١] إلى غير ذلك، وللبشارة بعدم لحوقِ الضَّرر به لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ لظهور تفرُّع المجادلة على مجيئها. وكانت البشارةُ الأولى ـ على ما قيل ـ من ميكائيل، والثانية من إسرافيل عليهما السلام.

وقيل: المرادُ بها البشارةُ بهلاك قوم لوط عليه السلام؛ فإنَّ هلاك الظَّلمة من أجلِّ ما يُبشَّر به المؤمن. واعتُرض بأنه يأباه مجادلتُه عليه السلام في شأنهم.

واستظهر الزمخشري(٤) أنَّها البشارةُ بالولد، وهي المرادةُ بالبشرى فيما سيأتي، وسرُّ تفرُّع المجادلة عليها سيذكر إنْ شاء الله تعالى.

وعلَّل في «الكشف» استظهارَ ذلك بقوله: لأنَّه الأنسبُ بالإطلاق، ولقوله سبحانه في «الذاريات»: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الآية: ٢٨] ثم قال بعده: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [الذاريات: ٣١]. ثم قال: وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ إلخ، وإن كان يحتمل أنَّ ثَمَّةَ بشارتين، فيُحْمَلُ في كلِّ موضعٍ على واحدة، لكنَّه خلافُ الظاهر. انتهى.

---

(١) في الأصل و(م): من، والمثبت من تفسير أبي السعود ٤/ ٢٢٤، والكلام وما سلف بين حاصرتين منه.
(٢) جاء في هامش الأصل: ستعلم ما في هذا من الكلام قريباً إن شاء الله تعالى.
(٣) في (م): بالبشارة، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود.
(٤) في الكشاف ٢/ ٢٨٠.

ولما كان الإخبارُ بمجيء الرسل عليهم السلام مظنَّةً لسؤال السامع بأنَّهم: ما قالوا؟ أُجيب بأنهم ﴿قَالُواْ سَلَٰمًاۖ﴾ أي: سلَّمنا ـ أو نسلِّم ـ عليك سلاماً، فهو منصوبٌ بفعلٍ محذوف، والجملةُ مقولُ القول.

قال ابنُ عطية: ويصحُّ أن يكون مفعولَ «قالوا» على أنه حكايةٌ لمعنى ما قالوا، لا حكايةٌ للَفْظِهم، وروي ذلك عن مجاهد والسُّدي، ولذلك عَمِل فيه القولُ، وهذا كما تقولُ لرجل قال: لا إله إلا الله: قلتَ حقًّا وإخلاصاً[1].

وقيل: إنَّ النصب بـ «قالوا» لِمَا فيه من معنى الذِّكر، كأنه قيل: ذكروا سلاماً.

﴿قَالَ سَلَٰمٌۖ﴾ أي: عليكم سلام[2]، أو: سلامٌ عليكم. والابتداءُ بنكرةٍ مثلِه سائغٌ كما قُرِّر في النحو. وقد حياهم عليه السَّلام بأحسنَ من تحيَّتهم؛ لأنَّها بجملةٍ اسمية دالَّةٍ على الدوام والثبات فهي أبلغُ، وأصلُ معنى السَّلام: السلامةُ مما يضرُّ.

وقرأ حمزة والكسائي: «سِلْم» في الثاني بدون ألفٍ مع كَسْرِ السين وسكونِ اللام[3]، وهو ـ على ما قيل ـ لغةٌ في «سلام» كحِرْمٍ وحرام، ومنه قولُه:

مررنا فقلنا إيه سِلْمٌ فسلَّمت … كما اكتلَّ بالبَرقِ الغمامُ اللوائحُ[4]

وقال ابنُ عطية: ويحتمل أن يُراد بالسِّلم ضدُّ الحرب[5]. ووجِّه بأنَّهم لَمَّا امتنعوا من تناول طعامِه وخاف منهم قاله، أي: أنا مسالمٌ لا محاربٌ؛ لأنَّهم كانوا لا يأكلون طعامَ مَنْ بينَهم وبينه حربٌ.

واعتُرض بأنه يدلُّ على أنَّ قوله هذا بعد تقديم الطعام، وقولُه سبحانه: ﴿فَمَا لَبِثَ﴾ إلخ صريحٌ في خلافه، وذكر في «الكشاف» أنَّ حمزة والكسائيَّ قرأا

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١٨٧.

(٢) جاء في هامش الأصل عند هذا الموضع: والخبر واجب الحذف هنا كما تقرر في العربية.

(٣) التيسير ص١٢٥، والنشر ٢/ ٢٩٠.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١، والكشاف ٢/ ٢٨٠، والبحر ٥/ ٢٤١، واللسان (طلح) و(كلب)، وفيه: اكتل الغمام بالبرق: لمع، يقول: لَمَّا سلمنا عليهن بدت ثغورهن كبرقٍ في جانب غمام. والبيت في الصحاح، واللسان (سلم)، وعجزه فيهما برواية: فما كان إلا وَمْؤُها بالحواجب.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ١٨٧.

بكسر السِّين وسكون اللَّام في الموضعين[١]، وهو مخالفٌ للمنقول في كتب القراءات.

وقرأ ابنُ أبي عبلة: «قال سلاماً» بالنصب كالأول، وعنه: أنه قرأ بالرَّفع فيهما[٢].

﴿فَمَا لَبِثَ﴾ أي: فما أبطأ إبراهيم عليه السَّلام ﴿أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾ أي: في مجيئِه به، أو عن مجيئِه به فـ «ما» نافية، وضمير «لبث» لإبراهيم، و«أن جاء» بتقديرِ حرف جرٍّ متعلِّقٍ بالفعل، وحَذْفُ الجارِّ قبل «أنَّ» و«أنْ» مطَّرد. وحكى ابنُ العربيِّ[٣] أنَّ «أنْ» بمعنى حتى.

وقيل: «أنْ» وما بعدها فاعلُ «لبث»، أي: فما تأخَّر مجيئُه، ورُوي ذلك عن الفرَّاء[٤]، واختاره أبو حيَّان[٥].

وقيل: «ما» مصدريَّة والمصدر مبتدأ، أو هي اسم موصول بمعنى الذي كذلك، و«أن جاء» على حذف مضاف، أي: قَدْر، وهو الخبر، أي: فلبْثُه ـ أو الذي لَبِثَه ـ قَدْرُ مجيئه. وليس بشيء.

والعجل ولدُ البقرة، ويسمَّى الحسيل والخبش بلغة أهل السَّراة[٦]، والباءُ فيه للتعدية أو الملابسة، والحنيذُ: السَّمين الذي يقطر وَدَكُه، من حنذتُ الفرس: إذا عرَّقْتَه بالجِلال[٧]، كأنَّ ودكه كالجِلال عليه، أو كأنَّ ما يسيلُ منه عرقُ[٨] الدَّابة المجلَّلة للعرق.

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٨٠، وليس فيه نسبة القراءة لأحدٍ من القراء، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٠ عن يحيى بن وثاب والأعمش.
(٢) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٢٤.
(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٥٠.
(٤) في معاني القرآن ٢/ ٢١.
(٥) في البحر ٥/ ٢٤١.
(٦) الكشاف ٢/ ٢٨٠.
(٧) بكسر الجيم: جمع جُلٍّ بضمها وتفتح، وهو ما تدثَّر به الخيل وتصان. والوَدَك: الدسم. حاشية الشهاب ٥/ ١١٤.
(٨) في الأصل: كعرق. وينظر حاشية الشهاب ٥/ ١١٤.

واقتصر السُّدِّيُّ على السَّمين في تفسيره لقوله تعالى: ﴿بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾[1].

وقيل: هو المشويُّ بالرَّضْف[2] في أخدود. وجاء ذلك في روايةٍ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة.

وفي رواية عن مجاهد تفسيرُه بالمطبوخ.

وإنما جاء عليه السلام بالعجل؛ لأنَّ مالَه كان البقرَ، وهو أطيبُ ما فيها، وكان من دأبه عليه السلام إكرامُ الضَّيف، ولذا عجَّل القِرى، وذلك من أدب الضيافة لِمَا فيه من الاعتناء بشأن الضَّيف، وفي مجيئه بالعجل كلِّه مع أنَّهم بحسب الظاهر يكفيهم بعضُه دليلٌ على أنَّه من الأدب أن يُحْضَرَ للضيف أكثرُ مما يأكل.

واختلف في هذا العِجْل: هل كان مهيَّأً قبل مجيئهم، أو أنه هُيِّئ بعد أن جاؤوا؟ قولان اختار أبو حيَّان[3] أوَّلَهما؛ لدلالة السُّرعة بالإتيان به على ذلك، ويختارُ الفقيرُ ثانيهما؛ لأنه أَزْيَدُ في العناية وأبلغُ في الإكرام، وليست السرعةُ نصًّا في الأوَّل كما لا يخفى.

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ كناية عن أنَّهم لا يمدُّون إليه أيديَهم، ويلزمه أنَّهم لا يأكلون.

وقيل: لا كنايةَ، بناءً على ما روي أنهم كانوا ينكتون اللحمَ بقداحٍ في أيديهم. وليس بشيء، وفي القلب من صحَّة هذه الرواية شيءٌ؛ إذ هذا النكتُ أشبهُ شيءٍ بالعبث، والملائكةُ عليهم السلام يُجلُّون عن مثلِه.

و«رأى» قيل: عِلْمية، فجملة «لا تصل» مفعولٌ ثانٍ. والظاهر أنَّها بصريَّةٌ، والجملةُ في موضع الحال، ففيه دليلٌ على أنَّ من أدب الضيافةِ النظرُ إلى الضيف هل يأكل أوْ لا؟ لكن ذكروا أنَّه ينبغي أن يكون بتلفُّتٍ ومسارَقةٍ لا بتحديدِ النظر؛ لأنَّ ذلك مما يجعل الضيفُ مقصِّراً في الأكل.

---

(١) في الأصل و(م): بعجل سمين.

(٢) حجارة تحمى ويلقى عليها اللحم ليُشوى. حاشية الشهاب ٥/ ١١٤.

(٣) في البحر ٨/ ١٣٩.

أي: لَمَّا شاهد منهم ذلك ﴿نَكِرَهُمْ﴾ أي: نفرهم ﴿وَأَوْجَسَ﴾ أي: استشعرَ وأدْرك. وقيل: أَضْمَرَ ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من جهتهم ﴿خِيفَةً﴾ أي: خوفاً، وأصلُها: الحالةُ التي عليها الإنسان من الخوف، ولعلَّ اختيارها بالذِّكر للمبالغة، حيثُ تفرَّس لذلك مع جهالته لهم من قبلُ وعدمِ معرفته من أيِّ الناس يكونون، كما ينبئُ عنه ما في «الذاريات» من قوله سبحانه حكايةً عنه: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥] أنَّهم ملائكة، وظنَّ أنهم أُرسلوا لعذاب قومِه، أو لأمرٍ أنكَره الله تعالى عليه.

﴿قَالُوا۟﴾ حين رأَوا أثرَ ذلك عليه عليه السَّلام، أو أعلمهم اللهُ تعالى به، أو بعد أنْ قال لهم ما في «الحجر»: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ [الآية: ٥٢] فإنَّ الظاهر منه أنَّ هناك قولاً بالفعل لا بالقوَّة[١] كما هو احتمالٌ فيه على ما ستراه إن شاء الله تعالى.

وجوِّز أن يكون ذلك لعلمهم أنَّ عِلْمَه عليه السلام أنَّهم ملائكة يوجب الخوف؛ لأنَّهم لا ينزلون إلا بعذاب.

وقيل: إنَّ الله تعالى جعل للملائكة مطلقاً ما لم يجعلْ لغيرهم من الاطِّلاع، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٢] وفي الصحيح: «قالت الملائكةُ: ربِّ عبدُك هذا يريد أن يعملَ سيِّئة» الحديثَ[٢]. وهو قولٌ بأنَّ الملائكة يعلمون الأمورَ القلبية، وفي الأخبار الصحيحة ما هو صريحٌ بخلافه[٣]، والآيةُ والخبرُ المذكوران لا يصلحان دليلاً لهذا المطلب.

وإسنادُ القول إليهم ظاهرٌ في أنَّ الجميع قالوا: ﴿لَا تَخَفْ﴾، ويحتمل أنَّ القائل بعضُهم، وكثيراً ما يُسند فعلُ البعض إلى الكلِّ في أمثال ذلك.

وظاهر قوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ﴾ أنَّه استئنافٌ في معنى التعليل للنهي المذكور، كما أنَّ قوله سبحانه: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ [الحجر: ٥٣] استئنافٌ كذلك، فإنَّ

---

(١) القوة: هي التهيؤ الموجود في الشيء، وضده الفعل، وهو بروز ذلك الشيء. معجم متن اللغة (قوي).

(٢) صحيح مسلم (١٢٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، وهو عند أحمد (٨٢١٩).

(٣) ينظر حديث أنس عند البزار (٣٤٣٥ كشف)، والطبراني في الأوسط (٢٦٢٤) و(٦١٢٩)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب ١/٨٩: رواه البزار والطبراني بإسنادين، رواة أحدهما رواة الصحيح.

إرسالَهم إلى قومٍ آخرين يوجبُ أَمْنَه من الخوف، أي: أُرسلنا بالعذاب ﴿إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٠﴾ خاصَّةً.

ويُعلم مما ذكرنا أنَّه عليه السلام أحسَّ بأنَّهم ملائكة، وإليه ذهب ابنُ عباس رضي الله عنهما، وقد يُستدلُّ له بقولهم: «لا تخف إنا أرسلنا» فإنَّه كما لا يخفى على مَن له أدنى ذوقٍ إنما يقال لمن عرفهم ولم يعرفْ فيمَ أُرسلوا فخاف، وأنَّ الإنكارَ المدلول عليه بـ «نكرهم» غيرُ المدلول عليه بما في «الذاريات»، فلا إشكالَ في كون الإنكار هناك قبلَ إحضار الطَّعام وهنا بعده.

وأصلُ الإنكار ضدُّ العرفان، ونَكِرْتُ وأنكرتُ واستنكرتُ بمعنى. وقيل: إنَّ أنكر فيما لا يُرى من المعاني، ونَكِرَ فيما يُرى بالبصر، ومن ذلك قولُ الشاعر:

وأنكرتْني وما كان الذي نَكِرتْ ... من الحوادثِ إلا الشَّيبَ والصَّلَعا[1]

فإنَّه أراد في الأوَّل على ما قيل: أنكرتْ مودَّتي. وقال الراغب: إنَّ أصلَ ذلك أن يَرِدَ على القلب ما لا يتصوَّرُه، وذلك ضربٌ من الجهل[2]. وبه فسِّر ما في الآية.

وفرَّق بعضُهم بين ما هنا وبين ما وقع في «الذاريات» بأنَّ الأوَّل راجعٌ إلى حالهم حين قدَّم إليهم العجلَ، والثاني متعلِّقٌ بأنفسهم ولا تعلُّقَ له برؤية عدمِ أكلهم، بل وقع عند رؤيتِه عليه السلام لهم؛ لعدم كونِهم من جنس ما يعهده من الناس، ويحتاج هذا إلى اعتبار حذفِ المضاف أو ملاحظةِ الحيثية. واعترض ما قدمناه بأنَّ فيه ارتكابَ مجاز، ولعلَّ الأمرَ فيه سهل.

وذهب بعضُهم إلى أنه عليه السلام لم يعرفْ أنهم ملائكة حتى قالوا له: «لا تخفْ إنا أرسلنا» وكأنَّ سبب خوفِه منهم أنهم لم يتحرَّموا بطعامه، فظنَّ أنهم يريدون به سوءاً، إذ كانت العادةُ إذ ذاك كذلك، وكان عليه السلام نازلاً في طرفٍ

---

(١) البيت في ديوان الأعشى ص١٠٥ ضمن قصيدة طويلة في مدح هوذة بن علي الحنفي. وذكر أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٢٩٣ عن أبي عمرو قوله: أنا الذي زدت هذا البيت في شعر الأعشى إلى آخره فذهب، فأتوب إلى الله منه. اهـ. وفي العقد الفريد ٥/ ٣٠٧ أن الذي زاده في شعر الأعشى هو حماد الراوية.

(٢) مفردات الراغب (نكر).

من الأرض منفرداً عن قومه، وهي روايةٌ عن ابن عباس أخرجها إسحاق بن بشر وابنُ عساكر من طريق جويبر عن الضحاك عنه[1].

وقيل: كان سببُ خوفه أنَّهم دخلوا بغيرِ إذنٍ وبغيرِ وقت.

وقال العلامة الطِّيبي: الحقُّ أنَّ الخوفَ إنما صدر عن مجموعِ كونِهم منكَرين وكونِهم ممتنعين من الطعام كما يعلم من الآيات الواردة في هذه القصة، ولأنه لو عرفهم بأنَّهم ملائكة لم يُحضر بين أيديهم الطعامَ ولم يحرِّضهم على الأكل[2]، وإنَّما عدلوا إلى قولهم: «إنا أرسلنا إلى قوم لوط» ليكون جامعاً للمعاني بحيث يُفهم منه المقصودُ أيضاً. انتهى.

وفيه إشارةٌ إلى الردِّ على الزمخشريِّ، وقد اختلف كلامُه في تعليل الخوف، فعلَّله تارةً بعرفانه أنَّهم ملائكة[3]، وأخرى بأنهم لم يتحرَّموا طعامه[4]. ولعلَّه أرادَ بذلك العرفانِ العرفانَ بعد إحضار الطعام، وما ذكره الطِّيبي من أنَّه لو عرفهم بأنَّهم ملائكة لم يُحضر. . .إلخ غيرُ قادح؛ إذ يجوز أن يخافهم بعد الإحضار أوَّلاً لعدم التحرُّم، ثم بعد تفرُّس أنَّهم ملائكة خافَهم؛ لأنَّهم ملائكة أُرسلوا للعذاب، والزمخشريُّ حكى أحدَ الخوفين في موضع والآخرَ في آخر.

قال بعض المحقِّقين: والتعليل بأنهم ملائكةٌ هو الوجهُ؛ لينتظم قولُه سبحانه: ﴿لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣] مع ما قبله، إذ لو كان الوجلُ لكونهم على غير زيٍّ مَن عرف ونحوه، لم يحسُن التعليلُ بقوله تعالى: (إِنَّا نُبَشِّرُكَ) فإنه إنما هو تعليلٌ للنهي عن الوَجَل من أنَّهم ملائكةٌ أُرسلوا للعذاب، كأنهم قالوا: «لا تَوْجَلْ إنَّا نبشِّرك بغلام عليم» و«إنَّا أرسلنا إلى قوم لوط» فجاء على اختصاراتِ القرآن بذكرِ أحد التعليلين في أحدِ الموضعين والآخر في الآخر، ولا شكَّ أنَّ في «الحجر» اختصاراً لطيِّ حديث الرَّواغ، والتعجيل بالعِجْل الحنيذ وعدم تحرُّمهم بطعامه، لما أنَّ المقصودَ من سَوق القصَّة هنالك الترغيبُ والترهيبُ؛ للاعتبار بحال

---

(١) الدر المنثور ٣/ ٣٣٩، وهو في تاريخ ابن عساكر ٥٠/ ٣١٠.

(٢) في (م): الأول.

(٣) الكشاف ٢/ ٢٨١.

(٤) الكشاف ٤/ ١٨.

إبراهيمَ عليه السَّلام وما لقي من البُشرى والكرامة، وحالِ قوم لوط عليه السلام وما مُنُوا به من السُّوأى والملامة، ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إلى قوله جلَّ وعلا: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحجر: ٤٩-٥١] فاقتصر على ما يفيدُ ذلك الغرضَ؟ وأمَّا في هذه السُّورة فجيء بها للإرشاد الذي بنى عليه السُّورة الكريمة، مع إدماج التَّسلية وردِّ ما رمَوه به عليه الصلاة والسلام من الافتراء، وفي كلٍّ من أجزاء القصَّة ما يسدُّ[1] من هذه الأغراض، فسُرد على وجهها، وفي سورة الذاريات للأخيرين فقط فجيء بما يفيد ذلك، فلا عليك إنْ رأيت اختصاراً أن تنقلَ إليه من المبسوط ما يتمُّ به الكلام بعد أن تعرف نكتةَ الاختصار، وهذا من خواصِّ كتاب الله تعالى الكريم. انتهى.

ولا يخلو عن حُسن، وفيه ذهابٌ إلى كون جملة «إنا أُرسلنا إلى قوم لوط» استئنافاً في موضع التعليل كما هو الظاهر. وقال شيخ الإسلام عليه الرحمة: الظاهرُ ما ذُكر؛ إلا أنه ليس كذلك؛ فإنَّ قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ * قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ [الحجر: ٥٧-٥٨، والذاريات: ٣١-٣٢] صريحٌ في أنهم قالوه جواباً عن سؤاله عليه السلام، وقد أوجز الكلام اكتفاءً بذلك. انتهى[2].

وتعقِّب بأنَّه قد يقال: إنَّ ذلك لا يقدح في الحمل على الظاهر؛ لجواز أن يكونُوا قالوا ذلك على معنى التَّعليل للنَّهي عن الخوف، ولكنَّه وإن أريد منه الإرسالُ بالعذاب لقوم لوط عليه السلام مجملٌ لم يُؤتَ به على وجهٍ يظهرُ منه ما نوع هذا العذابِ؛ هل هو استئصالٌ أم لا؟ فسأل عليه السَّلام لتحقيق ذلك، فكأنَّه قال: أيُّها المرسلون إلى قوم لوطٍ، ما هذا الأمرُ العظيم الذي أُرسلتم به؟ فأجابوه بما يتضمَّن بيانَ ذلك مع الإشارة إلى علَّة نزول ذلك الأمرِ بهم وهو قولُهم: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الآية [الحجر: ٥٨-٥٩] فإنَّ انفهامَ عذاب الاستئصالِ لقوم لوط عليه السلام من ذلك ظاهرٌ، وكذا الإشارة إلى العِلَّة.

---

(١) في الأصل: يشد.
(٢) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٢٥.

والحاصلُ أنَّ السؤال في تلك الآية عن الخطب، وهو في الأصل: الأمرُ العظيم الذي يكثرُ فيه التخاطب، ويُراد من السؤال عنه تحقيقُ أمر لم يعلمْه عليه السلام من كلامهم قبلُ: إمَّا لأنَّه لم يعلم ذلك منه، أو لأنَّه كان مشغولاً عن كمال التوجُّه ليعلمَ عليه السلام منه ذلك.

وفي خطابه عليه السَّلام لهم عليهم السَّلام بعنوانِ الرسالة ما يؤيِّد تقدُّم قولهم: «إنَّا أُرسلنا» على هذا السؤال، لكنَّه أُسقط هناك تعويلاً على ما هنا، ولا بدعَ في الإسقاط من المتأخِّر تعويلاً على المتقدِّم، وتأخُّر «الحجر» و«الذاريات» عن «هود» تلاوةً مِمَّا لا كلامَ فيه، وتأخُّرهما نزولاً مما رواه ابن ضُريس في «فضائل القرآن» عن محمد بن عبد الله بنِ أبي جعفر الرازيِّ، عن عمرَ بن هارون، عن عثمان بن عطاء الخراسانيِّ، عن أبيه، عن ابن عباس، وذكر أنَّها كلَّها نزلت بمكَّة، وأنَّ بين هودٍ والحِجْر سورةٌ واحدة، وبين الحِجْر والذاريات ثلاثَ عَشْرةَ سورةً[(١)] فليتأمَّل في هذا المقام.

ويُفهم من كلام بعضِهم أنَّه عليه السلام لم يتحقَّق كونَهم ملائكةً إلا بعد أنْ مسح جبريلُ عليه السلام العجلَ بجناحِه، فقام يدرجُ حتى لحق بأمِّه، فحينئذ عرفهم وأَمِنَ منهم.

ولم يتحقَّق صحَّةُ الخبر عندي، والذي أميلُ إليه أنَّه عليه السلام عرفهم قبلَ ذلك، وأنَّ خوفَه منهم لكونهم ملائكةً لم يَدْرِ لأيِّ شيءٍ نزلوا، ويَبْعدُ عند مَن عَرَف حالَ إبراهيم عليه السلام القولُ بأنَّه خاف بشراً وبلغ منه الخوفُ حتى قال: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ [الحجر: ٥٢] لاسيما إذا قلنا: إنَّ مَن خافهم كانوا ثلاثةً، وإنَّه عليه السلام لم يكنْ في طَرَفٍ من الأرض بل كان بين أصحابه، أو كان هناك لكنْ بين خَدَمِه وغلمانه.

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ سارة بنتُ هاران بن ناحور، وهي بنتُ عمِّه ﴿قَآئِمَةٌ﴾ في الخدمة، كما أخرجه ابنُ أبي حاتم عن مجاهد[(٢)]. وكانت نساؤُهم لا تحتجبُ لاسيما العجائز منهنَّ، وكانت رضي الله عنها عجوزاً.

---

(١) فضائل القرآن لابن الضريس ص٣٤، وفيه: اثنتي عشرة، بدل: ثلاث عشرة.
(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٥٥.

وقال وهب: كانت قائمةً وراءَ السِّتْر تسمعُ محاورتَهم، وأخذ منه بعضُهم أن تستُّر النساء كان لازماً، والظاهرُ أنه لم يكن كذلك لتأخُّر آية الحجاب، ويجوز أن يقال: إنَّ القيام وراءَ السِّتر كان اتفاقيًّا.

وعن ابن إسحاق أنها كانت قائمةً تصلِّي.

وقال المبرِّد: كانت قائمةً عن الولد. وهو خلافُ المشهور في الاستعمال.

وأخرج ابنُ المنذر عن المغيرة قال: في مصحف ابن مسعود: «وامرأتُه قائمةٌ وهو جالس»[١] وفي «الكشاف» بَدَلَ «وهو جالس»: «وهو قاعد»[٢].

وعن ابن عطية بدل «وامرأتُه قائمة»: «وهي قائمة»[٣]. ففيه الإضمارُ من غير تقدُّم ذكرٍ، وكأنَّ ذلك ـ إنْ صحَّ ـ للتعويل على انفهام المرجع من سياق الكلام. والجملةُ إمَّا في موضع الحال من ضمير «قالوا»، وإمَّا مستأنفةٌ للإخبار.

﴿فَضَحِكَتْ﴾ من الضَّحك المعروف، والمرادُ به حقيقتُه عند الكثير، وكان ذلك عند بعضهم سروراً بزوال الخوف عن إبراهيمَ عليه السَّلام، والنساءُ لا يملكنَ أنفسهنَّ كالرجال إذا غلب عليهنَّ الفرح.

وقيل: كان سروراً بهلاك أهل الفساد. وقيل: بمجموع الأمرين.

وقال ابن الأنباري: إنَّ ضحكها كان سروراً بصدق ظنِّها؛ كانت تقول لإبراهيم: اضمُمْ إليك لوطاً؛ فإني أرى العذابَ سينزل بقومه، وكان لوطٌ ابنَ أخيه. وقيل: ابنَ خالته. وقيل: كان أخا سارة. وقد مرَّ آنفاً أنَّها بنت عمِّ إبراهيم عليه السَّلام.

وعن ابن عباس أنَّها ضحكت من شدَّة خوفِ إبراهيمَ وهو في أهله وغلمانه، والذين جاؤوه ثلاثةٌ وهي تعهده يغلبُ الأربعين. وقيل: المئة.

وقال قتادة: كان ذلك من غفلةِ قوم لوط وقربِ العذاب منهم.

---

(١) الدر المنثور ٣/ ٣٤٠، وذكرها الطبري ١٢/ ٤٧٣.

(٢) الكشاف ٢/ ٢٨١.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١٨٨.

وقال السدِّيُّ: ضحكتْ من إمساكِ الأضياف عن الأكل، وقالت: عجباً لأضيافنا نخدمُهم بأنفسنا وهم لا يأكلون طعامَنا.

وقال وهبُ بن منبه، وروي أيضاً عن ابن عباس: إنَّها ضحكتْ من البشارة بإسحاق، وفي الكلام على ذلك تقديمٌ وتأخير.

وقيل: ضحكت من المعجزِ الذي تقدَّم نقلُه عن جبريل عليه السلام(١).

ولعلَّ الأظهرَ ما ذكرناه أوَّلاً عن البعض.

وذهبَ بعضُهم إلى أنَّ المرادَ بالضَّحك التبسُّمُ، ويستعمل في السرور المجرَّد نحو ﴿مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ﴾ [عبس: ٣٨-٣٩]، ومنه قولهم: روضةٌ تضحك.

وأخرج عبدُ بنُ حميد وأبو الشيخ وغيرُهما عن ابن عبَّاس: أنَّ «ضحكت» بمعنى حاضت(٢). وروي ذلك عن ابن عمر ﷺ ومجاهد وعكرمة، وقولُهم: ضحكت الأرنبُ، بهذا المعنى أيضاً. وأنكر أبو عبيدة وأبو عبيد والفرَّاء مجيء ضَحِكَ بمعنى حاضَ(٣) وأثبت ذلك جمهورُ اللغويين، وأنشدوا له قوله:

وضِحْكُ الأرانب فوقَ الصَّفا ... كمثلِ دمِ الجَوْف يوم اللِّقا(٤)

وقوله:

وعهدي بسلمى ضاحكاً في لبابةٍ ... ولم يَعْدُ حُقًّا ثديها أنْ تحلَّما(٥)

وقوله:

---

(١) جميع هذه الأقوال نقلها المصنف عن البحر ٥/ ٢٤٢-٢٤٣.
(٢) الدر المنثور ٣/ ٣٤٠، وأخرجه أيضاً ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٥٥.
(٣) ذكره عنهم السمين في الدر ٦/ ٣٥٤، وقول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٢.
(٤) تفسير الطبري ١٢/ ٤٧٧، والمحرر الوجيز ٣/ ١٨٩.
(٥) ذكره البيضاوي في تفسيره مع حاشية الشهاب ٥/ ١١٥. قال الشهاب: معناه أنه قريب العهد بها طفلة، يصف صغر سنها، فعهدي مبتدأ وخبره محذوف، أي: قريب، وقوله: ضاحكاً لم يؤنّثه لاختصاصه بالنساء كحائض وطامث. ولبابة بباءين موحَّدتين، ولم يضبطوه، لكنْ منهم مَن فسَّره بثوب يغطى به، ومنهم مَن فسَّره بجماعة النساء، وقيل: إنها اسم موضع. ولم يَعْدُ، أي: لم يجاوز. وحُقًّا تثنية حُقٍّ، وبه يشبَّه الثدي في الصغر. وتحلَّما أصله: تتحلَّما، أي: تظهر حلمته وتكبر، وفي نسخة: تحلَّبا بالباء، كأن معناه خروج لبنهما.

إني لآتي العِرْسَ عند طُهورها وأهجرُها يوماً إذا تكُ ضاحكا[١]

والمثبِتُ مقدَّمٌ على النافي، ومَن حَفِظَ حجَّةٌ على مَنْ لم يحفظ، نعم قال ابن المنيِّر: إنه يُبْعِدُ الحملَ على ذلك هنا قولُها: «أأَلِدُ وأنا عجوز» إلخ، فإنه لو كان الحيضُ قبل البشارة لَما تعجَّبت؛ إذ لا عجبَ في حَمْلِ مَنْ تحيضُ، والحيض في العادة معيارٌ على إمكان الحمل[٢].

ودُفع بأنَّ الحيض في غير أوانه مؤكِّدٌ للتعجُّب أيضاً، ولأنَّه يجوز أن تظنَّ أنَّ دمَها ليس بحيضٍ بل استحاضة فلذا[٣] تعجَّبت.

وقرأ محمد بن زياد الأعرابيُّ من قرَّاء مكَّةَ: «فضَحَكتْ» بفتح الحاء[٤]. وزعم المهدويُّ أنَّه غير معروف، وأن «ضَحِكَ» بالكسر هو المعروف، ومصدرُه ضَحْكاً وضِحْكاً بسكون الحاء وفَتْحِ الضاد وكَسْرِها، وضَحِكاً وضِحِكاً بكسر الحاء مع فتح الضاد وكسرها.

والظاهرُ أنَّ هذه مصادرُ «ضحك» بأيِّ معنًى كان، ويفهم من «مجمع البيان»[٥] أنَّ مصدر «ضحك» بمعنى حاضت إنما هو ضَحْكاً بفتح الضَّاد وسكون الحاء، ولم نرَ هذا التخصيصَ في غيره.

وعن بعضهم أنَّ فتح الحاء في الماضي مخصوصٌ بضحك بمعنى حاض، وعليه فالقراءةُ المذكورة تؤيِّد تفسير «ضحكت» على قراءةِ الجمهور بحاضت.

﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ قيل: أي عقَّبنا سرورَها بسرورٍ أتمَّ منه على ألسنةِ رسلنا ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ۝٧١﴾ بالنَّصب، وهي قراءةُ ابنِ عامر وحمزة وحفص، وزيد بن عليٍّ ﵄[٦]، على أنَّه منصوبٌ بتقدير فعلٍ يفسِّره ما يدلُّ عليه الكلام،

---

(١) أورده أبو الشيخ كما في الدر المنثور ٣/ ٣٤٠.
(٢) الانتصاف ٢/ ٢٨١.
(٣) في الأصل: فلهذا.
(٤) المحتسب ١/ ٣٢٣، والبحر ٥/ ٢٤٣، وهي في القراءات الشاذة ص٦٠ دون نسبة.
(٥) ١٢/ ١٨٩.
(٦) التيسير ص١٢٥، والنشر ٢/ ٢٩٠ عن حفص وحمزة وابن عامر، والكلام من البحر ٥/ ٢٤٤.

أي: ووهبنا لها من وراءِ إسحاق يعقوبَ. ورجَّح ذلك أبو علي(١).

واعترضه البعضُ بأنه حينئذٍ لا يكون ما ذكر داخلاً تحت البشارة. ودُفع بأنَّ ذكر هذه الهبة قبلَ وجود الموهوب بشارةٌ معنًى.

وقيل: هو معطوفٌ على محلِّ «بإسحاق» لأنه في محلٍّ نصب. واعتُرض أنه إنما يتأتي العطفُ على المحلِّ إذا جاز ظهورُ المحلِّ في فصيح الكلام كقوله:

ولـسـنـا بـالـجـبـال ولا الـحـديـدا(٢)

وبَشَّرَ لا تسقطُ باؤه من المبشَّر به في الفصيح.

وزعم بعضُهم أنَّ العطف على «بإسحاق» على توهُّم نصبِه؛ لأنَّه في معنى: وهبنا لها إسحاق، فيكون كقوله:

مشائيمُ ليسوا مُصلحِين عشيرةً ولا ناعِبٍ إلا ببَيْنٍ غُرابُها(٣)

إلا أنَّه تَوهَّم في هذا وجودَ الباء في المعطوف عليه على عكس ما في الآية الكريمة، ويقال لمثل هذا: عطف التوهُّم، ولا يخفى ما في هذه التسميةِ هنا من

---

(١) في الحجة ٤/ ٣٦٤.

(٢) وصدره: مُعاويَ إننا بشرٌ فأَسْجِحْ، والبيت لعُقَيْبَةَ بن هبيرة، كما في الكتاب ١/ ٦٧ و٢/ ٢٩٢ و ٣٤٤ و ٤٨٨، وسمط اللآلي ١/ ١٤٨، والإنصاف ١/ ٣٣٢. وهو في الشعر والشعراء ١/ ٩٩، وأمالي القالي ١/ ٣٦، وشرح المفصل ٢/ ١٠٩ و ٤/ ٩، والخزانة ٢/ ٢٦٠ برواية: ولا الحديدِ، بجر القافية.
وقد ردَّ ابن قتيبة في الشعر والشعراء، والمبرد والعسكري كما في الخزانة ٢/ ٢٦٠ على سيبويه روايته لهذا البيت بالنصب، وقال العسكري: وقد غلط على الشاعر؛ لأن هذه القصيدة مشهورة، وهي مخفوضة كلها، وهذا البيت أولها.
وقيل: إن هذا البيت روي مع أبيات منصوبة ومع أبيات مجرورة. ينظر الخزانة ٢/ ٢٦٢.

(٣) نسبه سيبويه في الكتاب ٣/ ٢٩ للفرزدق، ونسبه أيضاً ١/ ٣٠٦ للأخوص الرياحي، وهو زيد بن عمرو اليربوعي، ونسب للأخوص أيضاً في البيان والتبيين ٢/ ٢٦١، والإنصاف ١/ ١٩٣، وشرح المفصل ٢/ ٥٢، والخزانة ٤/ ١٥٩-١٦٠. قال البغدادي: عطف ناعب بالجر على مصلحين المنصوب على كونه خبر ليس؛ لتوهُّم الباء، فإنها تجوز زيادتها في خبر ليس.
وأنشده سيبويه ١/ ١٦٥ برواية: ولا ناعباً بالنصب عطفاً على مصلحين.

البشاعة، على أنَّ هذا العطفَ شاذٌّ لا ينبغي التخريجُ عليه مع وجود غيره، وبهذا اعتَرَضَ على الزمخشريِّ مَن حَمَلَ كلامه ـ حيث قال: وقرئ بالنصب، كأنه قيل: وهبنا لها إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، على طريقة قوله: مشائيم، البيت[(١)] ـ عليه؛ لما أنه الظاهر منه.

وقال في «الكشف» أراد أنه عطفٌ معنويٌّ، ومثلُه شائعٌ مستفيضٌ في العطف والإضمارِ على شريطة التَّفسير وغيرهما، وإنما شبَّهه بقوله: ولا ناعبٍ، تنبيهاً على أنَّ ذلك مع بُعْدِه لَمَّا كان واقعاً فهذا أجدر، والغرضُ من التشبيه أنَّ غير الموجود في اللفظ جُعل بمنزلته وأعمل. ولا يخفى أنَّه خلافُ المتبادر من عبارته.

وقيل: إنَّه معطوفٌ على لفظِ «إسحاق» وفتحتُه للجرِّ؛ لأنَّه غيرُ مصروف للعَلَميَّة والعُجمة، وعلى هذا دخولُه في البشارة ظاهرٌ، إلا أنَّه قيل عليه: إنَّه يلزمه الفصلُ بين نائب الجارِّ ومجروره، وهو أبعدُ منه بين الجارِّ ومجروره[(٢)].

وفي «البحر» أنَّ مَن ذهب إلى أنَّه معطوف على ما ذكر فقولُه ضعيف؛ لأنَّه لا يجوز الفصلُ بالظرف أو المجرور بين حرف العطف ومعطوفِه المجرور، فلا يجوز: مررتُ بزيد اليومَ وأمس عمرٍو، فإنْ جاء ففي شعر، فإن كان المعطوفُ منصوباً أو مرفوعاً ففي جواز ذلك خلافٌ، نحو: قام زيدٌ واليومَ عمرو. وضربتُ زيداً واليومَ عَمْراً[(٣)].

وقرأ الحِرْميَّان والنحويان وأبو بكر ويعقوب بالرفع على الابتداء[(٤)]، و«من وراء» الخبر، كأنه قيل: ومِن وراء إسحاق يعقوبُ كائنٌ، أو موجودٌ، أو مولودٌ. قال النحَّاس: والجملةُ حالٌ داخلةٌ في البشارة، أي: فبشرناها بإسحاق متَّصلاً به يعقوب[(٥)].

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٨١.

(٢) أي: أن العاطف ناب مناب العامل وهو حرف الجر هنا، فكما لا يجوز الفصل بينه وبين مجروره لا يجوز الفصل بين المجرور وما قام مقام الجارِّ، فلا بد من تقديم المجرور أو إعادة الجارِّ. حاشية الشهاب ٥/ ١١٥.

(٣) البحر ٥/ ٢٤٤.

(٤) التيسير ص١٢٥، والنشر ٢/ ٢٩٠، وهي قراءة أبي جعفر وخلف.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٣.

وأجاز أبو عليٍّ[١] أن يرتفع بالجارِّ والمجرور كما أجازه الأخفش[٢]. وقيل: إنَّه جائزٌ على مذهب الجمهور أيضاً؛ لاعتماده على ذي الحال. وتُعقِّب بأنَّه وهم؛ لأنَّ الجارَّ والمجرور إذا كان حالاً لا يجوز اقترانُه بالواو، فليتدبَّر.

وجوَّز النحاس[٣] أيضاً أن يكون فاعلاً بإضمار فعلٍ تقديرُه: ويحدثُ من وراء إسحاق يعقوب.

قال ابنُ عطيَّة: وعلى هذا لا يدخل في البشارة[٤]. وقد مرَّ ما يعلم منه الجواب.

و«وراء» هنا بمعنى خَلْف، وبذلك فسَّرها الراغب[٥] وغيرُه هنا. وهو روايةٌ عن ابن عباس. وفي روايةٍ أخرى عنه تفسيرُها بولد الولد، وهو أحدُ معانيها كما في «الصحاح» و«القاموس»[٦]، وبذلك قال الشعبيُّ، واختاره أبو عبيدة.

واستشكل بأنَّ «يعقوب» ولدُ إسحاق عليه السَّلام لصُلبه لا ولدُ ولده، ولدَفْع ذلك قال الزمخشريُّ فيما نُقِلَ عنه: إنَّ وجه هذا التفسير أن يرادَ بيعقوب أولادُه، كما يقال: هاشم، ويرادُ أولادُه، فكأنه قيل: من ولدِ ولدِ إسحاق أولادُ يعقوب، ويتضمَّن ذلك البشارةَ بيعقوب من طريق الأَوْلَى[٧].

وقيل: وجهُ ذلك أنَّه سمِّي ولدُ إسحاق «وراء» بالنسبة إليها، أي: وراؤها[٨] من إسحاق، كأنَّهم بشَّروها بأنْ تعيشَ حتَّى ترى ولدَ ولدِها، أو بأن يولدَ لولدِها ولدٌ. قيل: وهذا أقربُ، والمنقول عن الزمخشريِّ أظهر، والمعوَّلُ عليه تفسيرُه بمعنى خَلْف؛ إذ في كلا الوجهين تكلُّفٌ لا يخفى.

---

(١) في الحجة ٤/ ٣٦٤.
(٢) في معاني القرآن ٢/ ٥٧٩.
(٣) في إعراب القرآن ٢/ ٢٩٣.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ١٨٩.
(٥) في مفرداته (ورى).
(٦) مادة (ورى).
(٧) لم يزد الزمخشري في الكشاف ٢/ ٢٨١ على قوله: وقيل: الوراء ولد الولد، وعن الشعبي أنه قيل له: أهذا ابنك؟ فقال: نعم من الوراء. وكان ولدَ ولدِه.
(٨) في الأصل: ورائها.

والاسمان يحتمل وقوعُهما في البشارة كما في قوله تعالى: ﴿نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾ [مريم: ٧] وهو الأظهر؛ وروي عن السُّدِّي. ويحتمل أنها بُشِّرت بولدٍ وولدِ ولدٍ من غير تسميةٍ، ثمَّ سُمِّيا بعد الولادة.

وتوجيهُ البشارة إليها مع أنَّ الأصل في ذلك إبراهيم عليه السلام، وقد وُجِّهت إليه في آيتي «الحجر»(١) و«الذاريات»(٢)؛ للإيذان بأنَّ ما بُشِّر به يكون منها(٣)، ولكونها عقيمةً حريصةً على الولد، وكانت قد تمنَّته حينما وُلد لهاجرَ إسماعيلُ عليه السلام.

﴿قَالَتْ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّ سائلاً سأل: ما فَعلَتْ حين بُشِّرت؟ فقيل: قالت ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ من الويل وأصلُه الخزيُ، ويستعمل في كلِّ أمر فظيع، والمرادُ هنا التعجُّب، وقد كثُرت هذه الكلمة على أفواهِ النساء إذا طرأ عليهنَّ ما يتعجَّبنَ منه. والظاهرُ أنَّ الألف بدلٌ من ياء المتكلِّم، ولذا أمالها أبو عمرو وعاصم في رواية(٤). وبهذا يُلغز فيقال: ما ألفٌ هي ضميرُ مفردٍ متكلِّم؟ وقرأ الحسن: «يا ويلتي» بالياء على الأصل(٥). وقيل: إنَّها ألفُ الندبة، ولذا يُلحقونها الهاءَ فيقولون: يا ويلتاه.

﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ ابنةُ تسعين سنةً، على ما روي عن ابن إسحاق، أو تسعٍ وتسعين على ما روي عن مجاهد.

﴿وَهَٰذَا﴾ الذي تشاهدونه ﴿بَعْلِى﴾ أي: زوجي، وأصلُ البعل: القائمُ بالأمر، فأُطلق على الزوج لأنَّه يقوم بأمر الزوجة.

وقال الراغب: هو الذَّكَر من الزوجين، وجمعُه بُعُولة، نحو: فحل وفحولة، ولَمَّا تصوَّروا من الرَّجُل استعلاءً على المرأة فجُعلَ سائسَها والقائمَ عليها وسمِّي به، شُبِّه كلُّ مُسْتَعْلٍ على غيرِه به فسمِّي باسمه، ومن هنا سمَّى العربُ معبودَهم

---

(١) الآية (٥٣).

(٢) الآية (٢٨).

(٣) في الأصل و(م): منهما، والمثبت من تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ١١٦.

(٤) البحر ٥/ ٢٤٤، والدر المصون ٨/ ٣٥٧، وينظر مذاهب القراء في الإمالة في التيسير ص٤٦-٤٨، والنشر ٢/ ٣٧، والبدور الزاهرة ص١٥٨.

(٥) القراءات الشاذة ص٦٠، والبحر ٥/ ٢٤٤.

الذي يتقرَّبون به إلى الله تعالى بعلاً؛ لاعتقادِهم ذلك فيه[1].

﴿شَيۡخًاۖ﴾ ابنَ مئة سنة، أو مئةٍ وعشرين، وهو مِن شاخ يشيخُ. وقد يقال للأنثى شيخة، كما قال:

وتضحكُ منِّي شيخةٌ عبشميَّة[2]

ويُجمع على أشياخ وشُيوخ وشِيْخَان. ونصبُه على الحال عند البصريين، والعاملُ فيه ما في «هذا» من معنى الإشارة أو التنبيه.

قال الزجَّاج: ومثل هذه الحال من لطيفِ النحو وغامضِه؛ إذ لا تجوزُ إلا حيث يُعرف الخبر، ففي قولك: هذا زيدٌ قائماً، لا يقال إلا لمن يعرفُه، فيُفيده قيامَه، ولو لم يكن كذلك لَزِم أن لا يكونَ زيداً عند عدم القيام، وليس بصحيح[3]. فهنا بَعْليَّتُه معروفة، والمقصودُ بيانُ شيخوخته، وإلَّا لزم أن لا يكون بعلَها قبل الشيخوخة. قاله الطيبي.

ونُظر فيه بأنَّه إنما يتوجَّه إذا لم تكن الحالُ لازمةً غيرَ منفكَّة، أما في نحو: هذا أبوك عطوفاً، فلا يلزم المحذور، والحالُ هاهنا مبيِّنةٌ هيئةَ الفاعل أو المفعول؛ لأنَّ العاملَ فيها ما أشير إليه، وبذلك التأويل يتَّحد عاملُ الحال وذيها. وذهب الكوفيُّون إلى أنَّ «هذا» يعمل عمل كان، و«شيخاً» خبرُه وسمَّوه تقريباً.

وقرأ ابنُ مسعود ـ وهو في مصحفه ـ والأعمش: «شيخٌ» بالرفع[4] على أنَّه خبرُ محذوفٍ، أي: هو شيخٌ، أو خبرٌ بعدَ خبر، وفي «البحر»[5]: أنَّ الكلام على هذا كقولهم: هذا حلوٌ حامض[6]. أو هو الخبر، و«بعلي» بدل من اسم الإشارة أو بيان له. وجوَّز أن يكون «بعلي» الخبر، و«شيخ» تابعاً له.

---

(١) مفردات الراغب (بعل).
(٢) وعجزه: كأنْ لم تَرَيْ قبلي أسيراً يمانيا، والبيت لعبد يغوث الحارثي اليمني كما في الأغاني ١٦/ ٣٣٤، والخزانة ٢/ ٢٠١.
(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٦٣- ٦٤بنحوه.
(٤) القراءات الشاذة ص٦٠، والمحتسب ١/ ٣٢٤، والبحر ٥/ ٢٤٤.
(٥) ٥/ ٢٤٤.
(٦) أي: هما خبران في معنى خبر واحد. الدر المصون ٦/ ٣٥٧.

وكلتا الجملتين وقعت حالاً من الضمير في «أألد»؛ لتقريرِ ما فيه من الاستبعاد وتعليلِه، أي: أألد وكلانا على حالةٍ منافيةٍ لذلك. وإنما قدَّمت بيانَ حالها على بيان حاله عليه السلام لأنَّ مُباينةَ حالها لِمَا ذُكر من الولادة أكثرُ؛ إذ ربَّما يولدُ للشيوخ من الشوابِّ، أما العجائز داؤهنَّ عقام، ولأنَّ البشارةَ متوجِّهةٌ إليها صريحاً، ولأنَّ العكس في البيان ربَّما يوهم من أوَّل الأمر نسبةَ المانع عن الولادة إلى جانب إبراهيم عليه السلام، وفيه ما لا يخفى من المحذور، واقتصارُها في الاستبعاد على ولادتها من غير تعرُّضٍ لحال النافلة؛ لأنها المستبعدة، وأما ولادةُ ولدها فلا يتعلَّق بها استبعاد. قاله شيخ الإسلام(١).

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: ما ذكر من حصولِ الولد من هَرِمَيْنِ مثلِنا، وقيل: هو إشارةٌ إلى الولادة أو البشارة بها، والتذكيرُ لأنَّ المصدر في تأويلِ «أنْ» مع الفعل، ولعلَّ المآل: إنَّ هذا الفعل ﴿لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢﴾ أي: من سنَّة الله تعالى المسلوكةِ في عباده. والجملةُ تعليلٌ بطريق الاستئناف التحقيقيِّ، ومقصدُها كما قيل: استعظامُ نعمة الله تعالى عليها في ضمن الاستعجاب العادي، لا استبعادُ ذلك من حيث القدرة.

﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ أي: قدرتِه وحكمتِه، أو تكوينِه وشأنِه سبحانه، أنكروا عليها تعجُّبَها لأنها كانت ناشئةً في بيت النبوَّة ومهبطِ الوحي ومحلِّ الخوارق، فكان حقُّها أن تتوقَّر ولا يَزْدَهيها ما يزدهي سائرَ النساء من أمثال هذه الخوارق من ألطاف الله سبحانه الخفيَّة، ولطائفِ صنعه الفائضة على كلِّ أحدٍ مِمَّن يتعلَّق بإفاضته عليه مشيئتُه تعالى الأزليَّة، لاسيما أهل بيتِ النبوَّة الذين هم هم، وأن تسبِّحَ الله تعالى وتمجِّدَه وتحمده.

وإلى ذلك أشاروا بقوله تعالى: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ﴾ المستتبعةُ كلَّ خير، ووُضع المُظهَر موضعَ المضمَر لزيادةِ تشريفِها والإيماء إلى عظمتها. ﴿وَبَرَكَٰتُهُۥ﴾ أي: خيراتُه التامَّة المتكاثرة التي من جملتها هبةُ الأولاد.

وقيل: الرحمة: النبوَّة، والبركاتُ: الأسباط من بني إسرائيل؛ لأن الأنبياء عليهم السلام منهم، وكلُّهم من ولد إبراهيمَ عليه السلام.

---

(١) هو أبو السعود في تفسيره ٤/ ٢٢٥-٢٢٦.

وقيل: رحمتُه تحيَّتُه، وبركاتُه فواضلُ خيرِه بالخلَّة والإمامة.

﴿عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ نصبٌ على المدح أو الاختصاص كما ذهب إليه كثيرٌ من المعرِبين؛ قال أبو حيَّان: وبينهما فرقٌ ولذلك جعلهما سيبويه في بابين؛ وهو أنَّ المنصوبَ على المدح لفظ يتضمَّن بوضعه المدحَ كما أنَّ المنصوب على الذمِّ يتضمَّن بوضعه الذمَّ، والمنصوب على الاختصاص يُقصد به المدحُ أو الذمُّ، لكن لفظه لا يتضمَّن بوضعه ذلك، كقول رؤبة:

بنا تميماً يُكْشفُ الضباب[(1)]

انتهى.

وفي «الهمع»[(2)] أنَّ النصب في الاختصاص بفعلٍ واجبِ الإضمار، وقدَّره سيبويه[(3)] بـ «أعني»، ويختصُّ بأيّ الواقعةِ بعد ضمير المتكلِّم، كـ: أنا أفعلُ كذا أيُّها الرجل، وكاللَّهم اغفرْ لنا أيتها العصابة، وحُكْمُها في هذا الباب ـ إلا عند السيرافيِّ والأخفش ـ حُكْمُها في باب النداء[(4)]، ويقومُ مَقامها في الأكثر ـ كما قال سيبويه ـ «بنو» نحو قوله:

نحن بني ضبَّة أصحابُ الجَمَل[(5)]

ومنه قوله:

نحن بنات طارق   نمشي على النَّمارق[(6)]

---

(١) البحر ٥/ ٢٤٥، والرجز في ديوان رؤبة ص١٦٩، وقبله: راح وراحت كعصا السيساب.

(٢) ٢/ ٢٨.

(٣) ينظر الكتاب ٢/ ٣٣١-٣٣٦.

(٤) وهو بناؤها على الضم محكوماً على موضعها بالنصب، ووصفُها باسم الجنس ملتزماً فيه الرفع. همع الهوامع ٢/ ٢٨.

(٥) الرجز في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي منسوب للأعرج المعني، وفي تاريخ الطبري ٤/ ٥٣٠ لعمرو بن يثربي، وهو ما صححه التبريزي في شرح ديوان الحماسة ١/ ١٥٤. ودون نسبة في الجمل في النحو المنسوب للخليل ص٦٧، والكامل ١/ ١٤٦ و ٢/ ٥١٠، والعقد الفريد ٤/ ٣٢٧. وبعده عند الطبري: ننزل بالموت إذا الموت نزل. وفي العقد الفريد: الموت أحلى عندنا من العسل.

(٦) نسب في أدب الكاتب ص٩٠، وثمار القلوب ص٢٩٧ لهند بنت عتبة. وهو دون نسبة في =

و«معشر» كقوله:

لنا معشرَ الأنصار مجدٌ مؤثَّل ... بإرضائنا خيرَ البريَّة أحمدا[(١)]

وفي الحديث: «نحنُ معاشرَ الأنبياء لا نُورَث»[(٢)].

وآل وأهل؛ وأبو عمرو لا ينصبُ غيرها[(٣)]، وليس بشيءٍ. وقلَّ كونُ ذلك عَلَماً كما في بيت رؤبةَ السابق في كلام أبي حيَّان. ولا يكون اسمَ إشارة ولا غيرَه ولا نكرة البتة.

ولا يجوز تقديمُ اسم الاختصاص على الضمير، وقلَّ وقوعُ الاختصاص بعدَ ضمير المخاطب، كسبحانك اللهَ العظيم، وبعد لفظ غائبٍ في تأويل المتكلِّم أو المخاطب، نحو: على المُضارِبِ الوضيعةُ أيُّها البائع، فالمضاربُ لفظُ غيبةٍ لأنَّه ظاهرٌ لكنَّه في معنى: عليَّ، أو: عليك، ومنع ذلك الصفَّار البتة؛ لأنَّ الاختصاصَ شِبْهُ النداء، فكما لا ينادَى الغائبُ، فكذلك لا يكون فيه الاختصاصُ. انتهى، مع أدنى زيادةٍ وتغيير، ومنه يُعلم بعضُ ما في كلام أبي حيَّان، وأنَّ حَمْلَ ما في الآية الكريمة على الاختصاص من ارتكابِ ما قلَّ في كلامهم.

وجوَّز في «الكشاف»[(٤)] نصبَه على النِّداء، وقدَّمه على احتمال النَّصب على الاختصاص، ولعلَّه أشار بذلك إلى ترجيحِه على الاحتمال الثاني، لكنْ ذكر بعضُ الأفاضل أنَّ في ذلك فواتَ معنى المدح المناسب للمقام.

والمراد من البيت كما في «البحر»: بيتُ السكنى[(٥)]. وأصلُه: مأوى الإنسان

= المغني ص٥٠٧. وقال البطليوسي في الاقتضاب ٣/ ٧٧: هذا الشعر ليس لهند بنت عتبة، وإنما تمثلت به، وإنما هو لهند بنت بياضة بن رياح بن طارق الإيادي. ويروى «بنات» بالرفع والنصب، فمن رفعه فعلى خبر المبتدأ، ومن نصبه فعلى المدح والتخصيص، ويكون الخبر: نمشي على النمارق.

(١) شرح شذور الذهب ص٢٨٣.

(٢) سلف ٢/ ٢٨٧، وينظر تخريجه ثمة.

(٣) في (م): غيرهما، والمثبت من الأصل، وهو الصواب، وعبارة الهمع ٢/ ٢٩: وقال أبو عمرو: العرب تنصب في الاختصاص هذه الأربعة، ولا ينصبون غيرها.

(٤) ٢/ ٢٨٢.

(٥) البحر ٥/ ٢٤٥.

بالليل، ثمَّ قد يُقال من غيرِ اعتبارِ الليل فيه، ويقعُ على المتَّخَذِ من حجر، ومن مدر، ومن صوف ووبر، وعبِّر عن مكان الشيء بأنه بيتُه. ويُجمع على بيوت وأبيات، وجمعُ الجمع: أبابيت، وبيوتات، وأبياوات، ويصغَّر على: بُيَيْت وبِيَيْت بالكسر، ولا[1] يقال: بُويت كما تقوله العامَّة.

وصرفُ الخطاب من صيغة الواحدة إلى الجمع؛ ليكونَ جوابُهم عليهم السلام لها جواباً لمن يخطر بباله مثلُ ما خطرَ ببالها من سائر أهلِ البيت.

والجملة كلامٌ مستأنف عُلِّل به إنكارُ تعجُّبها، فهي جملةٌ خبريَّة، واختاره جمعٌ من المحققين. وقيل: هي دعائية، وليس بذاك.

واستُدلَّ بالآية على دخولِ الزوجة في أهل البيت، وهو الذي ذهب إليه السنِّيُّون، ويؤيِّده ما في سورة الأحزاب[2]، وخالف في ذلك الشيعة[3] فقالوا: لا تدخُل إلا إذا كانتْ قريبَ الزوج ومِن نَسَبه، فإنَّ المراد من البيت بيتُ النَّسب لا بيتُ الطِّين والخشب، ودخولُ سارةَ رضي الله عنها هنا لأنَّها بنت عمِّه. وكأنَّهم حملوا البيتَ على الشَّرف كما هو أحدُ معانيه، وبه فسِّر في قول العباس رضي الله عنه يمدحُ النبيَّ ﷺ:

حتَّى احتوى بيتُك المهيمنُ من ... خندفَ علياءَ تحتها النُّطُقُ[4]

ثم خَصُّوا الشرفَ بالشرف النَّسَبيِّ، وإلا فالبيتُ بمعنى النَّسب مما لم يَشِعْ عند اللغويين، ولعلَّ الذي دعاهم لذلك بغضُهم لعائشةَ رضي الله عنها، فرامُوا إخراجَها من حُكم

---

(١) قوله: لا، ساقط من (م)، وينظر القاموس (بيت).

(٢) الآية: (٣٣).

(٣) في الأصل: الرافضة.

(٤) أمالي الزجاجي ص٦٦، والشفا ١/ ٣٢٨، والوافي بالوفيات ١٦/ ٦٣٣، وورد ضمن حديث أخرجه الطبراني في الكبير (٤١٦٧)، والحاكم ٣/ ٣٢٦-٣٢٧ عن خريم بن أوس رضي الله عنه.
قوله: المهيمن، أي: الشاهد بفضلك. وخندف ـ بكسر الخاء وسكون النون وكسر الدال وقد تفتح ـ: امرأة إلياس بن مضر سميت بها القبيلة، واسمها ليلى، وهي القضاعية أم عرب الحجاز، فهو غير منصرف. علياء، أي: منزلة علياء، مفعول احتوى. والنُّطق: أعراضٌ ونواحٍ من جبالٍ بعضها فوق بعض، شبهت بالنُّطُق التي تشد بها الأوساط، ضربه مثلاً له في ارتفاعه وتوسطه في عشيرته، أي: حتى احتوى شرفك الشاهدُ بفضلك أعلى مكان من نسب خندف. شرح الشفا للملا علي القاري ١/ ٣٦٣-٣٦٤.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] وسيأتي إن شاء الله تعالى تفصيلُ الكلام في هذا المقام.

واستُدلَّ بالآية على كراهةِ الزيادة في التحيَّة على: السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ورُوي ذلك عن غيرِ واحد من الصحابة ﷺ؛ أخرج البيهقيُّ في «الشعب» عن ابن عمرَ ﵄ أنَّ رجلاً قال له: سلامٌ عليك ورحمةُ الله وبركاتُه ومغفرته، فانتهره ابنُ عمر وقال: حسبُك ما قال الله تعالى(١).

وأخرج عن ابن عباس أنَّ سائلاً قام على الباب وهو عند ميمونةَ، فقال: السلامُ عليكم أهلَ البيت ورحمةُ الله وبركاتُه وصلواتُه ومغفرتُه. فقال: انتهوا بالتحيَّة إلى ما قال الله سبحانه(٢).

وفي روايةٍ عن عطاء قال: كنتُ جالساً عند ابن عباس، فجاء سائلٌ فقال: السلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاتُه ومغفرتُه ورضوانُه، فقال: ما هذا السَّلام؟! ـ وغضب حتى احمرَّتْ وجنتاه ـ إنَّ الله تعالى حدَّ للسلام حدًّا ثم انتهى، ونَهى عمَّا وراءَ ذلك، ثم قرأ: (رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ)(٣).

﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ﴾ قال أبو الهيثم: أي: تُحمد أفعاله. وفي «الكشاف» أي: فاعلٌ ما يستوجبُ به الحمدَ من عبادِه(٤). ففعيل بمعنى مفعول. وجوَّز الراغبُ(٥) أن يكون «حميد» هنا بمعنى حامد، ولعلَّ الأوَّلَ أولى.

﴿مَّجِيدٌ ۝٧٣﴾ أي: كثيرُ الخير والإحسان، وقال ابنُ الأعرابي: هو الرفيع. يقال: مجد ـ كنَصَر وكَرُم ـ مجداً ومجادةً، أي: كرُم وشرُف؛ وأصلُه من مَجَدَتِ الإبلُ: إذا وقعتْ في مرعًى كثيرٍ واسع، وقد أمْجدَها الراعي: إذا أوقعها في ذلك. وقال الأصمعيُّ: يقال: أمجدتُ الدابةَ: إذا أكثرت علفَها. وقال الليث: أَمْجَدَ فلانٌ عطاءَه ومجَّده: إذا كثَّره، ومن ذلك قولُ أبي حيَّة النميريِّ:

---

(١) شعب الإيمان (٨٨٨٠).
(٢) الشعب (٣٩٨٠).
(٣) الشعب (٨٨٧٨).
(٤) الكشاف ٢/ ٢٨٢.
(٥) في مفرداته (حمد).

تـزيـدُ عـلـى صـواحـبـهـا ولـيـسـتْ بـمـاجـدةِ الـطـعـام ولا الـشَّـراب[(١)]

أي: ليست بكثيرةِ الطعام ولا الشراب.

ومن أمثالهم: في كلِّ شجرٍ نارٌ، واستَمْجَدَ المرخُ والعَفار[(٢)]، أي: استكثر من ذلك.

وقال الراغب[(٣)]: أي: يُجري[(٤)] السَّعةَ في بذل الفضل المختصِّ به.

وقال ابنُ عطية: مجدَ الشيءُ إذا حسُنتْ أوصافُه[(٥)].

والجملة على ما في «الكشف» تذييلٌ حَسَنٌ لبيانِ أنَّ مقتضَى حالها أنْ تحمدَ مستوجبَ الحمدِ المحسِنَ إليها بما أَحْسَنَ، وتمجِّدَه إذ شرَّفها بما شرَّف.

وقيل: هي تعليلٌ لِمَا سبق من قوله سبحانه: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾ أي: الخوفُ والفزعُ، قال الشاعر:

إذا أَخَـذَتْـهـا هِـزَّةُ الـرَّوْع أمـسـكـتْ بمنكبِ مِقدامٍ على الهَوْل أرْوَعا[(٦)]

والفعلُ: راعَ، ويتعدَّى بنفسِه كما في قوله:

مـا رَاعَـنـي إلا حـمـولـةُ أهـلِـهـا وسْطَ الدِّيار تَسَفُّ حبَّ الخِمْخِم[(٧)]

والرُّوع بضم الراء النَّفْسُ، وهي محلُّ الروع.

والفاءُ لربط بعضِ أحوال إبراهيم عليه السلام ببعضٍ غِبَّ انفصالِها بما ليس

(١) البحر ٥/ ٢٣٧، وهو في تهذيب اللغة ١٠/ ٦٨٣، واللسان (مجد) بلفظ: وليست بماجدةٍ للطعام ولا الشراب.

(٢) جمهرة الأمثال ٢/ ٩٢، ومجمع الأمثال ٢/ ٧٤، والمستقصى ٢/ ١٨٣. قال العسكري: يضرب في تفضيل الرجال بعضهم على بعض، أي: لكل واحد من هؤلاء فضل، إلا أن فلاناً أفضل. والمرخ والعفار نوعان من الشجر.

(٣) في مفرداته (مجد).

(٤) في الأصل و(م): تحرى، والمثبت من مفردات الراغب.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ١٩٢.

(٦) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٢٤٢.

(٧) البيت لعنترة، وهو في ديوانه ص١٧، والخِمْخِم: نبت يُعلف حبّه الإبل. الصحاح (خمم).

بأجنبيٍّ من كلِّ وجهٍ، بل له مدخلٌ في السِّياق والسباق.

وتأخُّر الفاعل عن الظَّرف لكونه مصبَّ الفائدة، والمعنى: لَمَّا زال عنه ما كان أوجسَه منهم من الخِيفة، واطمأنَّتْ نفسُه بالوقوف على جليَّةِ أمرهم ﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾ أي: يجادل رسلَنا في حالهم وشأنهم، ففيه مجازٌ في الإسناد.

وكانت مجادلتُه عليه السلام لهم ما قصَّه الله سبحانه في قوله سبحانه في سورة العنكبوت: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ﴾ [العنكبوت: ٣١-٣٢] فقوله عليه السلام: «إنَّ فيها لوطاً» مجادلةٌ، وعُدَّ ذلك مجادلةً لأنَّ مآلَه على ما قيل: كيف تهلك قرية فيها مَن هو مؤمنٌ غيرُ مستحقٍّ للعذاب؟ ولذا أجابوه بقولهم: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ [العنكبوت: ٣٢] وهذا القدْرُ من القول هو المتيقَّن.

وعن حذيفةَ أنَّهم لَمَّا قالوا له عليه السَّلام ما قالوا، قال: أرأيتُم إنْ كان فيها خمسون من المسلمين أتُهلكونَها؟ قالوا: لا، قال: فثلاثون؟ قالوا: لا، قال: فعشرون؟ قالوا: لا، قال: فإنَّ كان فيهم عشرةٌ، أو خمسة؟ ـ شكَّ الراوي ـ قالوا: لا، قال: أرأيتُم إنْ كان فيها رجلٌ واحد من المسلمين أتهلكونها؟ قالوا: لا، فعندَ ذلك قال: (إِنَّ فِيهَا لُوطًا) فأجابوه بما أجابوه[1]. ورويَ نحوَ ذلك عدَّةُ روايات اللهُ تعالى أعلم بصحَّتها.

وفسَّر بعضُهم المجادلةَ بطلب الشفاعة، وقيل: هي سؤالُه عن العذاب؛ هل هو واقعٌ بهم لا محالة، أمْ على سبيل الإخافةِ ليرجعوا إلى الطاعة؟ وأيًّا ما كان فـ «يجادلنا» جوابُ «لَمَّا»، وكان الظاهرُ: جادلنا، إلا أنه عبَّر بالمضارع لحكايةِ الحال الماضية واستحضارِ صورتها. وقيل: إنَّ «لَمَّا» كـ «لو» تقلبُ المضارعَ ماضياً، كما أنَّ «إنْ» تقلبُ الماضي مستقبلاً.

---

(١) البحر ٥/ ٢٤٥، وأخرجه ابن أبي شيبة ١١/ ٥٢٣-٥٢٤، وابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٥٧ إلى قوله: شك الراوي.

وقيل: الجواب محذوفٌ، وهذه الجملةُ في موضع الحال من فاعلِه، أي: أَخَذَ ـ أو أقبل ـ مجادلاً لنا، وآثَرَ هذا الوجهَ الزجَّاجُ، ولكنَّه جَعَلَه مع حكايةِ الحال وجهاً واحداً؛ لأنه قال: ولم يذكر في الكلام أخذ لأنَّ الكلام إذا أريد به حكايةُ حالٍ ماضية قدِّر فيه أخذ وأقبل؛ لأنَّك إذا قلت: قام زيد. دلَّ على فعلٍ ماض، وإذا قلت: أخذ زيد يقوم. دلَّ على حالٍ ممتدَّة من أجلها ذكر أخذَ وأقبل[1]. وصنيعُ الزمخشري[2] يدلُّ على أنهما وجهان، وتحقيقُه على ما في «الكشف» أنَّه إذا أريد استمرارُ الماضي فهو كما ذكره الزجَّاج، وإن أريد التصوير المجرَّد، فلا.

وقيل: الجواب محذوف، والجملة مستأنفةٌ استئنافاً نحويًّا أو بيانيًّا، وهي دليلٌ عليه، والتقدير: اجترأ على خطابنا، أو فطن بمجادلتنا، وقال: كيت وكيت، واختاره في «الكشاف»[3].

وقيل: إنَّ هذه الجملة ـ وكذا الجملةُ التي قبلها ـ في موضع الحال من «إبراهيم» على الترادُفِ أو التداخُلِ، وجوابُ «لَمَّا»: قلنا، يقدَّر قبل (يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآ).

وأقربُ الأقوال أوَّلُها.

والبشرى إن فسِّرت بقولهم: «لا تخف» فسببيَّةُ ذهابِ الخوف ومجيء السُّرور للمجادلةِ ظاهرةٌ، وأمَّا إن فسِّرت ببشارة الولد ـ كما أخرجه ابنُ جرير وابنُ المنذر وغيرُهما عن قتادة[4]، واختاره جمع ـ أو بما يعمُّها، فلعلَّ سببيَّتَها لها من حيث إنها تفيدُ زيادةَ اطمئنانِ قلبِه عليه السلام بسلامته وسلامةِ أهله كافةً، كذا قاله مولانا شيخُ الإسلام[5].

ثم قال: إن قيل: إنَّ المتبادر من هذا الكلام أنْ يكون إبراهيمُ عليه السلام قد

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٦٤-٦٥، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ١١٧.

(٢) في الكشاف ٢/ ٢٨٢.

(٣) ٢/ ٢٨٢.

(٤) تفسير الطبري ١٢/ ٤٨٦، وتفسير ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٥٧، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٣/ ٣٤١.

(٥) هو أبو السعود في تفسيره ٤/ ٢٢٦-٢٢٧.

علم أنَّهم مرسلون لإهلاك قوم لوطٍ قبل ذهاب الرَّوع عن نفسه، ولكنْ لم يقدر على مجادلتهم في شأنهم لاشتغاله بشأن نفسه، فلمَّا ذهب عنه الرَّوعُ فَرَغَ لها، مع أنَّ ذهاب الرَّوع إنَّما هو قبل العِلم بذلك لقوله سبحانه: ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾.

قلنا: كان لوط عليه السلام على شريعة إبراهيمَ عليه السلام، وقومُه مكلَّفين بها، فلما رأى من الملائكة عليهم السلام ما رأى، خاف على نفسه وعلى كافَّة أمته التي من جُملتهم قومُ لوط، ولا ريبَ في تقدُّم هذا الخوف على قولهم: ﴿لَا تَخَفْ﴾ وأمَّا الذي علمه عليه السلام بعد النهي فهو اختصاصُ قومِ لوط بالهلاك لا دخولُهم[1] تحت العموم فتأملْ. انتهى.

وفيه أنَّ كون الكلِّ أمَّتَه في حيِّز المنع، وما أشار إليه من اتِّحاد الشريعتين إنْ أراد به الاتِّحادَ في الأصول كاتِّحاد شريعة نبيِّنا ﷺ مع شريعة إبراهيمَ عليه السلام، فمسلَّم لكن لا يلزم منه ذلك، وإنْ أراد به الاتحادَ في الأصول والفروع فغيرُ مسلَّم، ولو سُلِّم ففي لزوم كونِ الكلِّ أمَّتَه له تردُّد.

على أنَّه لو سلَّمنا كلَّ ذلك، فلقائل أن يقول: سلَّمنا أنه عليه السَّلام لَمَّا رأى من الملائكة عليهم السلام ما رأى حصل له خوفٌ على نفسه وعلى كافَّة أمته التي من جملتهم قومُ لوط عليه السلام، لكنْ لا نسلِّم أنَّ هذا الخوفَ كان عن عِلمٍ بأنَّ أولئك الملائكة كانوا مرسَلِين لإهلاك الكلِّ المندرجِ فيه قومُ لوطٍ، بل عن تردُّدٍ وتحيُّرٍ في أمرهم، وحينئذٍ لا ينحلُّ السؤال بهذا الجواب كما لا يخفى على المتبصِّر، وكأنه لذلك أَمَرَ بالتأمُّل.

وقد يقال: المفهومُ من الكلام تحقُّقُ المجادلة بعد تحقُّق مجموع الأمرين؛ ذهابِ الروع ومجيءِ البشارة، وهو لا يستدعي إلا سَبْقَ العلم بأنَّهم مرسلون لإهلاك قومِ لوط على تحقُّق المجموع، ويكفي في ذلك سَبْقُه على تحقُّق البشارة، وهذا العلم مستفادٌ من قولهم له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾، وكأنه عليه السلام إنَّما لم يجادلْ بعد هذا العلم، وأخَّر المجادلة إلى مجيءِ البشارة؛ ليرى

---

(١) في الأصل و(م): لا دخول لهم، والمثبت من تفسير أبي السعود.

ما ينتهي إليه كلامُ الملائكة عليهم السلام، أو لأنَّه لم يقعْ فاصلُ سكوتٍ في البَيْن ليجادلَ فيه، إلا أنَّ هذا لا يتمُّ إلَّا أنْ يكون الإخبارُ بالإرسال إلى قوم لوطٍ سابقاً على البشارة بالولد، وفيه تردُّد.

وفي بعض الآيات ما هو ظاهرٌ في سبق البشارة على الإخبار بذلك، نعم يمكن أن يلتزمَ سَبْقُ الإخبار على البشارة، ويقالَ: إنَّهم أخبروه أوَّلاً ثم بشَّروه ثانياً، ثمَّ بعد أن تحقَّق مجموع الأمرين قال: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [الذاريات: ٣١] ويقالَ: المراد منه السؤالُ عن حال العذاب، هل هو واقعٌ بهم لا محالةَ، أم هو على سبيل الإخافة ليرجعوا إلى الإيمان؟ وتفسير(١) المجادلة به كما مرَّ عن بعضٍ، فتدبَّر ذاك والله سبحانه يتولَّى هُداك.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ غيرُ عجولٍ على الانتقام إلى المسيء(٢) إليه ﴿أَوَّٰهٌ﴾ كثيرُ التأوُّهِ من الذنوب والتأسُّفِ على الناس ﴿مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ راجعٌ إلى الله تعالى، والمقصودُ من وَصْفِه عليه السلام بهذه الصِّفات المنبئةِ عن الشفقة ورقة القلب بيانُ ما حَمَلَه على ما صَدَر عنه من المجادلة.

وحَمْلُ الحلم على عدم العجلة والتأنِّي في الشيء مطلقاً، وجَعْلُ المقصود من الوصف بتلك الصِّفاتِ بيانَ ما حمله على المجادلة وإيقاعها بعد أن تحقَّق ذهابُ الرَّوع ومجيءُ البشرى، لا يخفى حالُه.

﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ على تقدير القولِ ليرتبط بما قبلُ، أي: قالت الملائكة، أو قلنا: يا إبراهيم ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ الجدالِ ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الشأن ﴿قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي: قَدَرُه تعالى المقضيُّ بعذابهم.

وقد يفسَّر بالعذاب، ويرادُ بالمجيء المشارفةُ، فلا يتكرَّر مع قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾ أي: لا بجدالٍ ولا بدعاءٍ، ولا بغيرِهما، إذ حاصلُ ذلك حينئذٍ: شارَفَهم ثمَّ وقع بهم.

---

(١) في الأصل: وتفسر.

(٢) كذا في الأصل و(م)، ولعل الصواب: من المسيء، كما في تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/١١٧ والكلام منه، وجاء في تفسير أبي السعود ٤/٢٢٧: ممن أساء.

وقيل: لا حاجةَ إلى اعتبار المشارَفة، والتكرارُ مدفوعٌ بأنَّ ذاك توطئةٌ لذكرِ كونه غيرَ مردود.

وقرأ عمرو بن هرم: «وإنهم أتاهم» بلفظ الماضي، و«عذابٌ» فاعلٌ به، وعبَّر بالماضي لتحقيق الوقوع[1].

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ عن ابن عباس ﷺ قال: انطلقوا من عند إبراهيمَ عليه السلام وبين القريتين أربعةُ فراسخ، ودخلوا عليه في صُوَر[2] غلمان مُردٍ حسانِ الوجوه، فلذلك ﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾ أي: أَحْدثَ له عليه السلام مجيئُهم المساءةَ؛ لظنِّه أنهم أناسٌ، فخاف أن يقصدَهم قومُه ويعجز عن مدافعتهم.

وقيل: كان بين القريتين ثمانيةُ أميال فأتوها عشاء. وقيل: نصفُ النهار، ووجدوا لوطاً في حَرْثٍ له.

وقيل: وجدوا بنتاً له تستقي ماءً من نهرِ سَدُوم، وهي أكبرُ محلٍّ للقوم، فسألوها الدلالةَ على مَن يُضيفهم، ورأت هيأتَهم فخافتْ عليهم من قومِ أبيها، فقالت لهم: مكانَكم وذهبتْ إلى أبيها فأخبرته، فخرج إليهم فقالوا: إنَّا نريد أن تُضيفنا الليلةَ. فقال: أوَ ما سمعتُم بعملِ هؤلاء القوم؟ فقالوا: وما عملُهم؟ فقال: أشهد بالله تعالى إنهم شرُّ قوم في الأرض. وقد كان الله تعالى قال للملائكة لا تعذِّبوهم حتى يشهدَ عليهم لوطٌ أربعَ شهادات، فلمَّا قال هذه قال جبريل عليه السلام: هذه واحدةٌ. وتكرَّر القولُ منهم حتَّى كرَّر لوطٌ الشهادةَ، فتمَّت الأربعُ، ثمَّ دخل المدينة فدخلوا معه منزلَه.

﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي: طاقةً وجهداً، وهو في الأصل مصدرُ ذَرَعَ البعيرُ بيديه، يَذْرَعُ في مسيره: إذا سار مادًّا خَطْوَه، مأخوذٌ من الذِّراع وهي العضوُ المعروف، ثم تُوسِّع فيه فوُضع موضعَ الطاقة والجهد، وذلك أنَّ اليدَ كما تُجعل مجازاً عن القوة، فالذراعُ المعروفةُ كذلك.

---

(١) البحر ٥/ ٢٤٥. وعمرو بن هرم هو الأزدي البصري، روى عن سعيد بن جبير وقتادة وغيرهما، ووثقه أحمد وابن معين وأبو داود وغيرهم، وتوفي قبل قتادة. التهذيب ٣/ ٣٠٩.

(٢) في (م): صورة.

وفي «الصحاح»: يقال: ضِقْتُ بالأمر ذَرْعاً: إذا لم تُطِقْه ولم تقوَ عليه. وأصلُ الذَّرع بسطُ اليد، فكأنك تريدُ: مددتُ يدي إليه فلم تَنَلْه، وربَّما قالوا: ضقتُ به ذِراعاً، قال حميد بن ثور يصفُ ذئباً:

وإن بات وَحْشاً ليلةً لم يَضِقْ بها ذِراعاً ولم يُصبحْ لها وهو خاشِعُ[١]

وفي «الكشاف»: جَعَلَتِ العربُ ضِيقَ الذِّراع والذَّرْعِ عبارةً عن فَقْدِ الطاقة، كما قالوا: رَحْبُ الذِّراع بكذا، إذا كان مطيقاً له، والأصلُ فيه أنَّ الرجل إذا طالت ذراعُه نال ما لا ينالُه القصيرُ الذِّراع، فضُرب ذلك مثلاً في العجز والقدرة[٢].

ونصبُه على أنه تمييزٌ محوَّلٌ عن الفاعل، أي: ضاق بأمرهم وحالِهم ذَرْعُه. وجوِّز أن يكون الذَّرْع كنايةً عن الصَّدر والقلب، وضِيقُه كنايةً عن شدَّة الانقباض؛ للعَجْز عن مدافعة المكروه والاحتيالِ فيه، وهو على ما قيل: كنايةٌ متفرِّعةٌ على كنايةٍ أخرى مشهورة. وقيل: إنَّه مجاز؛ لأنَّ الحقيقة غيرُ مرادةٍ هنا.

وأبعدَ بعضُهم في تخريج هذا الكلام، فخرَّجه على أنَّ المرادَ أنَّ بدنه ضاق قدره[٣] عن احتمالِ ما وقع.

﴿وَقَالَ هَٰذَا﴾ اليومُ ﴿يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾ أي: شديد، وأصلُه من العَصْبِ بمعنى الشدِّ، كأنَّه لشدَّة شرِّه عُصِبَ بعضُه ببعض، وقال أبو عبيدة: سمِّي بذلك لأنه يَعصِبُ الناس بالشرِّ، قال الراجز:

يومٌ عصيبٌ يَعْصِبُ الأبطالا عَصْبَ القويِّ السَّلَمَ الطِّوالا[٤]

وفي معناه العَصَبْصَب والعَصَوْصَب.

﴿وَجَآءَهُۥ﴾ أي: لوطاً وهي في بيته مع أضيافه ﴿قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ قال

---

(١) الصحاح (ذرع)، والبيت في ديوان حميد بن ثور ص١٠٤ برواية: وهو خاضع.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٠٥.

(٣) في (م): قدر، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ٢٢٨، وعنه نقل المصنف هذا التخريج.

(٤) مجاز القرآن ١/ ٢٩٣-٢٩٤، وذكر البيت أيضاً الطبري ١٢/ ٤٩٨، والقرطبي ١١/ ١٧٤. والسَّلَم: شجر من العضاه (الشول). الصحاح (سلم).

أبو عبيدة: أي: يُستحثُّون إليه[١]. كأنه يحثُّ بعضُهم بعضاً، أو يحثُّهم كبيرهم ويسوقُهم، أو الطمع في الفاحشة.

والعامَّة على قراءتِه مبنيًّا للمفعول، وقرأ جماعة: «يَهرعون» بفتح الياء مبنيًّا للفاعل من هرع[٢].

وأصلُه من الهَرع: وهو الدَّم الشديدُ السيلان، كأنَّ بعضَه يدفع بعضاً، وجاء: أَهْرَعَ القومُ: إذا أسرعوا، وفسَّر بعضُهم الإهراعَ بالمشي بين الهرولة والجَمْز.

وعن ابن عباس أنه سُئل عمَّا في الآية، فقال: المعنى: يُقْبِلون إليه بالغضب، ثم أنشد قولَ مُهلهِل:

فجاؤوا يُهْرَعون وهُم أُسارى ... نَقودُهمُ على رَغْمِ الأُنُوف[٣]

وفي رواية أخرى عنه أنَّه فسَّر ذلك بيُسرعون، وهو بيانٌ للمراد، ويستقيم على القراءتين.

وجملة «يهرعون» في موضع الحال من «قومه»، أي: جاؤوا مُهرعين إليه. وروي أنَّه لَمَّا جاء لوطٌ بضيفِه لم يعلم ذلك أحدٌ إلا أهلُ بيته، فخرجت امرأتُه حتى أتتْ مجالسَ قومِها فقالت: إنَّ لوطاً قد أضاف الليلةَ فتيةً ما رؤي مثلُهم جمالاً، فحينئذٍ جاؤوا يُهرعون إليه.

﴿وَمِن قَبْلُ﴾ أي: من قبلِ وقت مجيئهم. وقيل: «من قبل» بعثِ لوطٍ رسولاً إليهم ﴿كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قيل: المراد سيِّئةُ إتيان الذُّكور، إلا أنَّها جُمعت باعتبار تكرُّرِها أو باعتبارِ فاعليها.

وقيل: المراد ما يعمُّ ذلك، وإتيانَ النساء في محاشهنَّ، والمكاءَ، والصفيرَ، واللعبَ بالحمام، والقمارَ، والاستهزاءَ بالناس، وغيرَ ذلك.

والمرادُ من ذِكْر عملهم السيئات من قبلُ بيانُ أنَّهم اعتادوا المنكرَ فلم يستحيُوا

---

(١) مجاز القرآن ١/ ٢٩٤.

(٢) البحر ٥/ ٢٤٦.

(٣) أخرجه الطستي كما الدر المنثور ٣/ ٣٤٢، والبيت في تفسير الطبري ١٢/ ٥٠٠، وتهذيب اللغة ١/ ١٤١، والمحرر الوجيز ٣/ ١٩٤.

فلِذلك أسرعوا لطلب الفاحشةِ من ضيوفه مُظْهِرين غيرَ مكترثين، فالجملةُ معترضةٌ لتأكيد ما قبلها.

وقيل: إنَّها بيانٌ لوجه ضيق صدره؛ لِمَا عرف من عادتِهم. وجَعَلَها شيخُ الإسلام في موضع الحال كالتي قبلها، أي: جاؤوا مسرعين، والحالُ أنَّهم كانوا منهمكين في عمل السيئات(١).

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ فتزوَّجوهنَّ، وكانوا يطلبونهنَّ من قبلُ ولا يجيبهم لِخُبثهم وعدمِ كفاءتهم، لا لعدم مشروعيَّة تزويجِ المؤمنات من الكفَّار؛ فإنه كان جائزاً، وقد زوَّج النبيُّ ﷺ ابنتَه زينب لأبي العاص بن الربيع، وابنتَه رقيَّة لعتبةَ بن أبي لهب قبل الوحي، وكانا كافرينِ، إلا أنَّ عتبةَ لم يدخلْ بها وفارقها بطلب أبيه حين نزلتْ (تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ)، فتزوَّجها عثمانُ ﷺ، وأبا العاص كان قد دخل بها لكنْ لَمَّا أُسر يومَ بدرٍ وفادى نفسَه، أخذ النبيُّ ﷺ العهدَ عليه أن يردَّها إذا عاد، فأرسل عليه الصلاة والسلام زيدَ بن حارثة ورجلاً من الأنصار في طلبها، فجاءا بها، ثمَّ إنه أسلم وأتى المدينة، فردَّها عليه الصلاة والسلام إليه بنكاحٍ جديد أو بدونهِ على الخلاف(٢).

وقال الحسينُ بن الفَضل(٣): إنه عليه السَّلام عرضَ بناته عليهم بشرطِ الإسلام. وإلى ذلك ذهب الزجَّاج(٤)، وهو مبنيٌّ على أنَّ تزوُّج المسلمات من الكفَّار لم يكن جائزاً إذ ذاك.

---

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٢٨.

(٢) حديث أن النبي ﷺ ردَّ زينب على أبي العاص بالنكاح الأول أخرجه أحمد (١٨٧٦)، وأبو داود (٢٢٤٠). وحديث أن النبي ﷺ ردَّها بمهر جديد ونكاح جديد أخرجه أحمد (٦٩٣٨)، والترمذي (١١٤٢) عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ، وقال الترمذي: في إسناده مقال. وينظر معالم السنن ٣/ ٢٥٩-٢٦٠، ونصب الراية ٣/ ٢٠٩-٢١٢، وينظر كذلك ما سيأتي عند تفسير الآية (٣) من سورة النور.

(٣) في الأصل و(م): الحسن بن الفضل، والمثبت من تفسير البغوي ٢/ ٣٩٥، وعنه نقل المصنف، والحسين بن الفضل هو أبو عليٍّ البجلي الكوفي ثم النيسابوري، المفسر اللغوي المحدث، إمام عصره في معاني القرآن، توفي سنة (٢٨٢هـ). سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤١٤.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٦٧.

وقيل: كان لهم سيِّدان مطاعان، فأراد أن يزوِّجهما ابنتيه، ولم يكن له عليه السَّلام سواهما، واسمُ إحداهما ـ على ما في بعض الآثار ـ زعوراء، والأخرى زيتاء.

وقيل: كان له عليه السَّلام ثلاثُ بنات، وأخرجه الحاكم وصحَّحه عن ابن عباس[1]، ويؤيِّده ظاهرُ الجمع وإن جاء إطلاقُه على اثنين. وأيًّا ما كان فقد أرادَ عليه السَّلام بذلك وقايةَ ضيفِه، وهو غايةُ الكرم، فلا يقال: كيف يليقُ عليه السَّلام أن يعرضَ بناتِه على أعدائه ليزوِّجهنَّ إيَّاهم؟!

نعم استشكل عرضُ بناته ـ بناءً على أنهنَّ اثنتان كما هو المشهور، أو ثلاثٌ كما قيل ـ على أولئك المهرعين ليتزوَّجوهنَّ مع القول بأنَّهم أكثرُ منهنَّ؛ إذ لا يَسُوغُ القولُ بحلِّ تزوُّج الجماعة بأقلَّ منهم في زمانٍ واحد، ومن هنا قال بعضُ أجلَّة المفسرين: إنَّ ذلك القولَ لم يكن منه عليه السَّلام مجريًّا على الحقيقة من إرادةِ النكاح، بل كان ذلك مبالغةً في التواضُعِ لهم، وإظهاراً لشدَّة امتعاضه مِمَّا أوردوا عليه؛ طمعاً في أن يستحيوا منه ويَرِقُّوا له إذا سمعوا ذلك فيتركوا ضيوفَه، مع ظهور الأمر واستقرارِ العلم عنده وعندَهم أن لا مناكحةَ بينَه وبينهم، وهو الأنسبُ بجوابهم الآتي.

وأخرج أبو الشيخ[2] عن ابن عبَّاس، وابن جرير وابنُ أبي حاتم عن ابن جبير ومجاهد[3]، وابنُ أبي الدنيا وابنُ عساكر عن السُّدِّيِّ[4] أنَّ المراد ببناته عليه السَّلام نساءُ أمَّتِه، والإشارةُ بـ «هؤلاء» لتنزيلهنَّ منزلةَ الحاضر عنده، وإضافتهنَّ إليه؛ لأنَّ كلَّ نبيٍّ أبٌ لأمَّته.

وفي قراءة ابن مسعود ﷺ: «النبيُّ أَوْلَى بالمؤمنين من أنفسِهم وهو أبٌ لهم

---

(١) المستدرك ٢/ ٣٤٤-٣٤٥.

(٢) كما في الدر المنثور ٣/ ٣٤٢.

(٣) تفسير الطبري ١٢/ ٥٠٣-٥٠٤، وتفسير ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٦٢. وقوله: وابن جرير، ساقط من (م).

(٤) الدر المنثور ٣/ ٣٤٢، وهو في تاريخ ابن عساكر ٥٠/ ٣١٧.

وأزواجُه أمَّهاتهم»[١]. وقرأ أبيٌّ ﷺ مثلَ ذلك لكنَّه قدَّم «وأزواجه أمهاتهم» على «وهو أبٌ لهم»[٢].

وأراد عليه السلام بقوله: «هنَّ أطهرُ لكم» أنظفُ فِعْلاً، أو: أقلُّ فُحشاً، كقولك: الميتةُ أطيبُ من المغصوب وأحلُّ منه، ويُراد من الطَّهارة على الأوَّل الطهارةُ الحسيَّة، وهي الطهارة عمَّا في اللِّواطة من الأذى والخبث، وعلى الثاني الطهارةُ المعنويَّة، وهي التنزُّه عن الفُحش والإثم، وصيغةُ أفعل في ذلك مجازٌ.

والظاهرُ أن «هؤلاء بناتي» مبتدأ وخبر، وكذلك «هنَّ أطهر لكم»، وجوَّز أبو البقاء[٣] كونَ «بناتي» بدلاً أو عطفَ بيان، و«هنَّ» ضميرَ فَصْلٍ، و«أطهر» هو الخبر، وكونَ «هنَّ» مبتدأ ثانياً، و«أطهر» خبرَه، والجملةُ خبر «هؤلاء».

وقرأ الحسن وزيدُ بن عليٍّ وعيسى الثقفيُّ وسعيد بنُ جبير والسُّدِّيُّ «أطهرَ» بالنصب[٤]. وقد خفي وجهُه حتى قال ابنُ العلاء[٥]: إنَّ مَن قرأ «أطهر» بالنَّصب، فقد تربَّع في لحنه؛ وذلك لأنَّ انتصابَه على أنْ يُجعل حالاً عمل فيها ما في «هؤلاء» من الإشارة أو التنبيه، أو ينصب «هؤلاء» بفعلٍ مضمر كأنَّه قيل: خذوا هؤلاء، و«بناتي» بدل، ويعمل هذا المضمر في الحال، و«هن» في الصورتين فصلٌ، وهذا لا يجوز؛ لأنَّ الفصلَ إنما يكون بين المسندِ والمسندِ إليه، ولا يكون بين الحال وذِيها، كذا قيل. وهذا المنعُ هو المرويُّ عن سيبويه[٦]. وخالف في ذلك الأخفش[٧] فأجاز توسُّط الفصل بين الحالِ وصاحبها، فيقول: جاء زيدٌ هو ضاحكاً، وجَعَل من ذلك هذه الآيةَ على هذه القراءة.

---

(١) القراءات الشاذة ص١١٩.
(٢) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٨.
(٣) في الإملاء ٣/ ٢٩٧.
(٤) القراءات الشاذة ص٦٠، والمحتسب ١/ ٣٢٥، والبحر ٥/ ٢٤٧.
(٥) في (م): عمر بن العلاء. والمثبت من الأصل، وهو أبو عمرو بن العلاء وكلامه في الكتاب ٢/ ٣٩٦-٣٩٧، والكشاف ٣/ ٢٨٣، والبحر ٥/ ٢٤٧.
(٦) الكتاب ٢/ ٣٩٥، والبحر ٥/ ٢٤٧.
(٧) في معاني القرآن ١/ ٥٨١.

وقيل: بوقوعه شذوذاً كما في قولهم: أكثرُ أكلي التفاحةَ هي نضيجةً، ومَن منع ذلك خرَّج هذا على إضمارِ كان، والآيةَ الكريمة على أنَّ «هنَّ» مبتدأ و«لكم» الخبر، و«أطهرَ» حال من الضمير في الخبر. واعتُرض بأنَّ فيه تقديمَ الحالِ على عاملها الظرفي، والأكثرون على منعِه.

أو على أن يكون «هؤلاء» مبتدأ، و«بناتي هنَّ» جملة في موضع خبر المبتدأ، كقولك: هذا أخي هو، ويكون «أطهر» حالاً، وروي هذا عن المبرِّد وابنِ جنِّي[1].

أو على أن يكون «هؤلاء» مبتدأ و«بناتي» بدلاً منه، أو عطفَ بيان، و«هن» خبر، و«أطهرَ» على حاله.

وتُعقِّب بأنَّه ليس فيه معنى طائلٌ. ودُفع بأنَّ المقصودَ بالإفادة الحالُ، كما في قولك: هذا أبوك عطوفاً.

وادَّعى في «الكشف» أنَّ الأَوْجَه أن يقدِّروا: خذوا هؤلاء أطهرَ لكم، وقوله: «بناتي هنَّ» جملةٌ معترضةٌ تعليلاً للأمر وكونهنَّ أَوْلَى قُدِّمت للاهتمام، كأنَّه قيل: خذوا هؤلاء العفائفَ أطهرَ لكم إنَّ بناتي هنَّ، وأنتم تعلمون طهارتي وطهارةَ بناتي. ويجوز أن يقال: «هنَّ» تأكيدٌ للمستكنِّ في «بناتي» لأنَّه وصفٌ مشتقٌّ لاسيما على المذهب الكوفيِّ، فافهم ولا تغفل.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بتركِ الفواحش، أو بإيثارهنَّ عليهم ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ﴾ أي: لا تفضحوني في شأنهم، فإنَّ إخزاءَ ضيفِ الرجل إخزاءٌ له، أو: لا تُخجلوني فيهم، والمصدر على الأوَّل الخزي، وعلى الثاني الخزاية.

وأصلُ معنى خَزِيَ: لَحِقَه انكسارٌ إمَّا من نفسه وهو الحياءُ المُفْرِط، وإمَّا من غيره وهو الاستخفافُ والتفضيحُ.

والضيف في الأصل مصدر، ولذا إذا وُصف به المثنَّى أو المجموع لم يطابق على المشهور، وسُمع فيه: ضيوف، وأضياف، وضيفان.

---

(١) في المحتسب ١/٣٢٦.

و«لا» ناهية، والفعلُ مجزومٌ بحذفِ النون، والموجودةُ نونُ الوقاية، والياءُ محذوفة اكتفاءً بالكسرة. وقرئ بإثباتها على الأصل[١].

﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾ يهتدي إلى الحقِّ الصريح، ويرعوي عن الباطل القبيح. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عبَّاس أنه قال: يأمرُ بمعروفٍ أو ينهى عن منكر[٢]. وهو إما بمعنى ذو رشدٍ، أو بمعنى مُرْشِدٍ، كالحكيم بمعنى المحكم. والاستفهامُ للتعجُّب، وحملُه على الحقيقة لا يناسبُ المقام.

﴿قَالُوا﴾ مُعْرِضين عمَّا نصحهم به من الأمر بالتَّقوى والنهيِ عن الإخزاء، مجيبين[٣] عن أوَّل كلامه: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي: حقٌّ، وهو واحدُ الحقوق، وعنَوا به قضاءَ الشهوة، أي ما لنا حاجةٌ في بناتك.

وقد يفسَّر بما يخالف الباطل، أي: ما لنا في بناتك نكاحٌ حقٌّ، لأنَّك لا ترى جواز نكاحِنا للمسلمات، وما هو إلا عَرَضٌ سابريٌّ[٤]، كذا قيل، وهو ظاهرٌ في أنه كان من شريعتِه عليه السَّلام عدمُ حلِّ نكاح الكافر المسلمةَ.

وقيل: إنَّما نفَوا أن يكون لهم حقٌّ في بناته؛ لأنَّهم كانوا قد خطبوهنَّ فردَّهم، وكان من سنَّتهم أنَّ مَن رُدَّ في خطبة امرأة لم تحلَّ له أبداً.

وقيل: إنَّهم لَمَّا اتخذوا إتيانَ الذكور مذهباً، كان عندهم هو الحقَّ، وأنَّ نكاح الإناث من الباطل، فقالوا ما قالوا.

وقيل: قالوا ذلك لأنَّ عادتَهم كانت أن لا يتزوَّج الرجلُ منهم إلا واحدةً، وكانوا كلُّهم متزوجين.

﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾ أي: من إتيان الذكور، والظاهرُ أنَّ «ما» مفعولٌ

---

(١) أثبتها أبو عمرو وأبو جعفر وصلاً، ويعقوب في الحالين. التيسير ص١٢٧، والنشر ٢/ ٢٩٢.

(٢) الدر المنثور ٣/ ٣٤٣.

(٣) قوله: مجيبين، ساقط من (م)، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ٢٢٨، والكلام منه.

(٤) أي: رقيق ليس بمُحَقَّقٍ، وفي المثل: عَرْضٌ سابِريٌّ، يقوله مَن يُعْرَضُ عليه الشيء عرضاً لا يبالَغ فيه؛ لأن السابريَّ من أجود الثياب يُرغَبُ فيه بأدنى عَرْض. اللسان (سبر).

لـ «تعلم»، وهو بمعنى تعرف، وهي موصولةٌ والعائد محذوف، أي: الذي نريده. وقيل: إنَّها مصدريَّة فلا حذفَ، أي: إرادتَنا.

وجوِّز أن تكون استفهاميَّةً وقعت مفعولاً لـ «نريد»، وهي حينئذٍ معلِّقةٌ لـ «تعلم».

ولَمَّا يئس عليه السَّلام من ارعوائهم عمَّا هم عليه من الغيِّ ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً﴾ أي: لو ثَبتَ أنَّ لي قوَّةً ملتبسةً بكم بالمقاومة على دفعكم بنفسي لفعلتُ، فـ «لو» شرطيةٌ وجوابُها محذوف كما حذف في قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ [الرعد: ٣١] وجوِّز أن تكون للتمنِّي.

و«بكم» حالٌ من «قوة» كما هو المعروفُ في صفةِ النكرة إذا قُدِّمت عليها، وضعِّف تعلُّقه بها؛ لأنَّ معمولَ المصدر لا يتقدَّم عليه في المشهور.

وقوله: ﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ عطفٌ على ما قبله بناءً على ما علمتَ من معناه الذي يقتضيه مذهبُ المبرِّد[١] والمضارعُ واقعٌ موقعَ الماضي، واستظهر ذلك أبو حيَّان[٢]، وقال الحوفيُّ: إنَّه عطف على ما تقدَّم باعتبارِ أنَّ المراد: أو أنِّي آوي. وجوَّز ذلك أبو البقاء، وكذا جوَّز أن تكون الجملةُ مستأنفةً[٣].

والركن في الأصل: الناحيةُ من البيت أو الجبلِ، ويقال: رُكُن بضمِّ الكاف، وقد قرئ به[٤]. ويُجمع على أركان. وأراد عليه السَّلام به القويَّ، شبَّهه بركن الجبل في شدَّته ومَنَعَتِه، أي: أو أنضمُّ إلى قويٍّ أتمنَّع به عنكم وأنتصرُ به عليكم، وقد عدَّ رسول الله ﷺ هذا القولَ منه عليه السلام بادرةً واستغربه، فقد أخرج البخاريُّ ومسلم عن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنَّه ﷺ قال: «رحم الله تعالى أخي لوطاً كان يأوي إلى ركنٍ شديد»[٥] يعني عليه الصلاة والسلام به الله تعالى؛ فإنه لا ركنَ أشدُّ منه عزَّ وجلَّ:

---

(١) ويعني به تقدير فعل مثل «ثبت» بعد «لو» تكون «أن» مرفوعةً به، كما سلف قريباً. البحر ٥/٢٤٧، والدر المصون ٦/٣٦٣.

(٢) في البحر ٥/٢٤٧.

(٣) الإملاء ٣/٢٩٨.

(٤) القراءات الشاذة ص٦١ عن عمرو بن عبيد وسعيد بن أبي عروبة.

(٥) صحيح البخاري (٣٣٨٧)، وصحيح مسلم (١٥١)، وسلف ١٠/٣٥٤.

إذا كان غيرُ الله للمرء عُدَّةً ... أتتْه الرَّزَايا من وجوهِ الفوائد[1]

وجاء أنه سبحانه ـ لهذه الكلمة ـ لم يبعث بعدَ لوطٍ نبيًّا إلا في منعةٍ من عشيرته.

وفي «البحر» أنه يجوز ـ على رأي الكوفيين ـ أن تكون «أو» بمعنى بل، ويكون عليه السَّلام قد أضرب عن الجملة السابقة، وقال: بل آوي في حالي معكم إلى ركنٍ شديد، وكَنَى به عن جناب الله تعالى[2]. ولا يخفى أنه يأبى الحملَ على هذه الكناية تصريحُ الأخبار الصحيحة بما يخالفها.

وقرأ شيبة وأبو جعفر: «آويَ» بالنَّصب[3] على إضمارِ أنْ بعد «أو»، فيقدَّر بالمصدر عطفاً على «قوة»، ونظيرُ ذلك قوله:

ولولا رجالٌ من رِزَامٍ أعِزَّةٌ ... وآلِ سُبَيعٍ أو أَسُوءَكَ عَلْقَما[4]

أي: لو أنَّ لي بكم قوَّةً أو أُوِيًّا. روي أنه عليه السلام أغلق بابَه دون أضيافه، وأخذ يجادل قومَه عنهم من وراء الباب، فتسوَّروا الجدارَ، فلمَّا رأت الملائكةُ عليهم السلام ما على لوط من الكرب ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ بضررٍ ولا مكروهٍ، فافتح البابَ ودعنا وإيَّاهم، ففتح الباب فدخلوا، فاستأذن جبريلُ عليه السلام ربَّ العزَّة في عقوبتهم فأذن له، فلمَّا دنوا طَمَسَ أعينَهم فانطلقوا عُمياً يركب بعضُهم بعضاً، وهم يقولون: النجاءَ النجاءَ، فإنَّ في بيت لوط قوماً سحرة.

وفي رواية أنَّه عليه السلام أغلق الباب على ضيفه، فجاؤوا فكسروا البابَ، فطمس جبريلُ أعينهم فقالوا: يا لوط جئتنا بسحرةٍ، وتوعَّدوه، فأوجس في نفسه خيفةً قال: يذهب هؤلاء ويذروني. فعندها قال جبريل عليه السلام: لا تخف «إنَّا رسلُ ربك».

---

(١) البيت لأبي فراس، وهو في ديوانه ص٨٣.

(٢) البحر ٥/ ٢٤٧.

(٣) القراءات الشاذة ص٦٠-٦١، والمحتسب ١/ ٣٢٦، والبحر ٥/ ٢٤٧.

(٤) البيت للحصين بن الحمام، كما في الكتاب ٣/ ٤٩-٥٠، والمفضليات ص٦٦، ومنتهى الطلب ٢/ ١٥٣، والخزانة ٣/ ٣٢٤. قوله: أسوءَكَ، منصوب بإضمار «أن»، والمعنى: لولا هؤلاء الموصوفون وأن أسوءك لفعلت كذا، والبيت مُضمَّنٌ تمامُه فيما بعده، ورزام وسبيع قبيلتان. شرح الشواهد للأعلم ص٤٠٢.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ بالقَطْعِ من الإسراء. وقرأ ابنُ كثير ونافع بالوصل[1] حيث جاء في القرآن، من السُّرَى، وقد جاء سَرَى، وهما بمعنًى واحدٍ عند أبي عبيدة والأزهريِّ[2]. وعن الليث: أسرى: سار أوَّلَ الليل، وسرى: سار آخرَه، ولا يقال في النهار إلا سار، وليس هو مقلوب سَرَىَ.

والفاءُ لترتيب الأمر بالإسراء على الإخبار برسالتهم المُؤذِنةِ بورود الأمر والنهي من جنابه عزَّ وجلَّ إليه عليه السلام. والباءُ للتعدية أو للمُلابسة، أي: سِرْ مُلابِساً بأهلك.

﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ قال ابنُ عباس: بطائفةٍ منه. وقال قتادةُ: بعد مضيِّ صَدْرٍ منه. وقيل: نصفه.

وفي روايةٍ أخرى عن الحبر: آخرَه، وأنشد قولَ مالك بن كنانةَ:

ونائحةٍ تقومُ بقِطْعِ ليلٍ … على رَجُلٍ أهانَتْه شَعوبُ[3]

وليس من باب الاستدلال، وإلى هذا ذهب محمدُ بنُ زياد[4]؛ لقوله سبحانه: ﴿نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤]. وتعقَّبه ابنُ عطية[5] بأنَّه يحتمل أنَّه أسرى بأهله من أوَّل الليل حتى جاوزوا البلدَ المقتلَعَ، ووقعتْ نجاتُهم بسَحَر.

وأصلُ القِطْع: القطعة من الشيء، لكن قال ابنُ الأنباري: إنَّ ذلك يختصُّ بالليل، فلا يقال: عندي قِطْعٌ من الثوب. وفسَّر بعضُهم القِطْعَ من الليل بطائفةٍ من ظلمتِه، وعن الحَبْر أيضاً تفسيرُه بنفسِ السَّواد، ولعلَّه من باب المساهلة.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أي: لا يتخلَّف، كما رُوي عن ابن عباس. أو: لا ينظرْ إلى ورائهِ، كما روي عن قتادة؛ قيل: وهذا هو المعنى المشهورُ الحقيقُ

---

(١) التيسير ص١٢٥، والنشر ٢/ ٢٩٠، وهي قراءة أبي جعفر من العشرة.

(٢) مجاز القرآن ١/ ٢٩٥، وتهذيب اللغة ٣/ ٥٢.

(٣) قطعة من خبر ابن عباس الطويل في جوابه على سؤالات نافع بن الأزرق، وأخرجه ابن الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٨٥، والسيوطي في الإتقان ١/ ٤٠٠، وفيه: شعوب، أي: داهية.

(٤) هو الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٤، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٥/ ٢٤٨.

(٥) في المحرر الوجيز ٣/ ١٩٦.

للالتفاتِ، وأمَّا الأوَّل فلأنه يقال: لفتُّه عن الأمر: إذا صرفتَه عنه، فالتفت أي: انصرف، والتخلُّف انصرافٌ عن المسير، قال تعالى: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ [يونس: ٧٨] أي: تَصْرِفنا، كذا قال الراغب[1]. وفي «الأساس» أنه معنًى مجازيٌّ[2].

والنهيُ في اللفظ لـ «أحد» وفي المعنى للوطٍ عليه السَّلام، على ما نُقل عن المبرِّد، وهذا كما تقول لخادمك: لا يقُمْ أحدٌ، في أنَّ النهي في الظاهر لأحدٍ، وهو في الحقيقة للخادم أنْ لا يدع أحداً يقوم، فالمعنى هنا: فأسْرِ بأهلك ولا تَدَعْ أحداً منهم يلتفت، ولا يَخْفَى أنه على هذا تتمُّ المناسبةُ بين المعطوف عليه والمعطوف؛ لأنَّ الأول لأمره عليه السلام، والثاني لنهيه.

ويعلم من هذا أنَّ ضمير «منكم» للأهل، وقد صرَّح بذلك شهابُ فلكِ الفضل الخفاجيُّ، فقال: وهاهنا لطيفةٌ، وهو أنَّ المتأخِّرين من أهل البديع اخترعوا نوعاً من البديع سمَّوه: تسمية النوع، وهو أنْ يؤتى بشيءٍ من البديع ويُذكرَ اسمُه على سبيل التورية، كقوله في البديعية في الاستخدام:

واستخدموا العينَ منِّي فَهْي جاريةٌ وكم سمحتُ بها في يوم بَينِهِمُ

وتبجَّحوا باختراعه، وأنا بمنِّ الله تعالى أقول: إنَّه وقع في القرآن في هذه الآية؛ لأنَّ قولَه سبحانه: (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ) إلخ وقعَ فيه ضميرُ «منكم» للأهل، فقوله جلَّ وعلا: «لا يلتفت» من تسمية النوع، وهذا من بديع النُّكات. انتهى[3].

وسرُّ النهي عن الالتفات بمعنى التخلُّف ظاهرٌ، وأما سرُّه إذا كان بمعنى النظر إلى وراء، فهو أن يجدُّوا في السير، فإنَّ مَن يلتفتُ إلى ورائِهِ لا يخلو عن أدنى وقفةٍ. أو: أنْ لا يرَوا ما ينزل بقومِهم من العذاب فيَرِقُّوا لهم.

وذكر بعضُهم أنَّ النهيَ وَكذا الضميرُ للوطٍ عليه السلام ولأهله، أي: لا يلتفتْ أحدٌ منك ومن أهلك.

---

(١) في مفرداته (لفت).
(٢) أساس البلاغة (لفت)، وفيه: ومن المجاز: لفتُّه عن رأيه: صرفته.
(٣) حاشية الشهاب ٥/ ١٢١.

﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ﴾ بالنصب، وهو قراءةُ أكثر السبعة. وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو بالرفع(١). وقد كثر الكلامُ في ذلك؛ فقال الزمخشريُّ(٢): إنَّه سبحانه استثناها من قوله: «فأسر بأهلك»، ويدلُّ عليه قراءةُ عبد الله: «فأسْرِ بأهلك بقِطعٍ من الليل إلا امرأتك» ويجوزُ أن ينتصب من «لا يلتفت» على أصلِ الاستثناء، وإن كان الفصيحُ هو البدل، أعني قراءةَ مَن قرأ بالرفع فأبدلَها من «أحد».

وفي إخراجها مع أهله روايتان: روي أنَّه أخرجها معهم، وأمر أنْ لا يلتفتَ منهم أحدٌ إلا هي، فلما سمعتْ هدَّة العذاب التفتَتْ وقالت: يا قوماه، فأدْرَكها حجرٌ فقتلها. وروي أنَّه(٣) أمر أنْ يخلِّفها مع قومِها فإنَّ هواها إليهم، فلم يسْرِ بها. واختلافُ القراءتين لاختلاف الروايتين، انتهى.

وأورد عليه ابنُ الحاجب ما خلاصتُه: أنه إمَّا أن يسريَ بها فالاستثناءُ من «أحد» متعيِّنٌ، أوْ لا فيتعيَّن من «فأسر بأهلك»، والقصة واحدةٌ فأحدُ التأويلين باطلٌ قطعاً، والقراءتان الثابتتان قطعاً لا يجوز حملُهما على ما يوجب بطلانَ أحدهما، فالأوْلَى أن يكون «إلا امرأتك» رفعاً ونصباً مثل ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنۡهُمۡ﴾ [النساء: ٦٦] ولا يبعدُ أنْ يكون بعضُ القرَّاء على الوجه الأقوى وأكثرُهم على ما دونه، بل جوَّز بعضُهم أن تتَّفق القرَّاء على القراءة بغير الأقوى.

وأجاب عنه بعضُ المغاربة بما أشار إليه في «الكشف» من منع التنافي؛ لأنَّ الاستثناءَ من الأهل يقتضي أن لا يكون لوطٌ عليه السلام مأموراً بالإسراء بها، ولا يمنعُ أنها سَرَتْ بنفسها، ويكفي لصحَّة الاستثناءين هذا المقدارُ، كيف ولم يُنْهَ عن إخراجها ولكنَّه أُمر بإخراجِ غيرها. نعم يَرِدُ على قوله: واختلافُ القراءتين لاختلاف الروايتين أنَّه يلزمُ الشَّكُّ في كلامٍ لا ريبَ فيه من ربِّ العالمين.

ويجاب بأنَّ معناه: اختلافُ القراءتين جالبٌ وسببٌ لاختلاف الروايتين، كما تقول: السلاحُ للغزو، أي: أداةٌ وصالحٌ ـ مثلاً ـ له، ولم يُرِدْ أنَّ اختلاف القراءتين لأجْلِ اختلافِ الروايتين قد حصل، ولا شكَّ أنَّ كلَّ روايةٍ تناسبُ قراءةً

(١) التيسير ص١٢٥، والنشر ٢/ ٢٩٠.
(٢) في الكشاف ٢/ ٢٨٤.
(٣) بعدها في (م): لما، والمثبت من الأصل والكشاف.

وإن أمكن الجمع. وأمَّا قولُه: وأمر أنْ لا يلتفت منهم أحدٌ إلا هي. فنقلٌ للروايةِ لا تفسيرٌ للَفْظِ القرآن، وإنما الكائنُ فيه استثناؤها عن الحكم الذي للاستصلاح إذ لم يُعنَ بها.

وإلى معنى ما أشار إليه صاحب «الكشف» في مَنْعِ التنافي أشار أبو شامة فقال: وقع في تصحيح ما أعربَه النُّحاة معنًى حسنٌ، وذلك أن يكونَ في الكلام اختصارٌ نبَّه عليه اختلافُ القراءتين، فكأنَّه قيل: فأسْرِ بأهلك إلا امرأتك، كما قرأ به عبدُ الله ورواه أبو عبيدة عن مصحفِه، فهذا دليلٌ على أنَّ استثناءها من السُّرى بهم، ثم كأنه قال سبحانه: فإن خرجتْ معكم وتبعتْكُم من غير أن تكون أنت سريتَ بها، فَانْهَ أهلك عن الالتفات غيرها، فإنَّها ستهلك ويصيبُها ما يصيب قومَها، فكانت قراءةُ النصب دالَّةً على المعنى المتقدِّم، وقراءةُ الرفع دالَّة على هذا المعنى المتأخِّر، ومجموعُهما دالٌّ على جملة المعنى المشروح.

ولا يخفى ما في ذلك من التكلُّف كما قال ابنُ مالك، ولذا اختار أنَّ الرفعَ على أنَّ الاستثناء منقطعٌ، و«امرأتُك» مبتدأ، والجملةُ بعدها خبرُه، و«إلا» بمعنى لكن(١).

وقال ابن هشام في «المغني»(٢) في الجهة الثامنة من الباب الخامس: إنَّ ما ذكره الزمخشريُّ ـ وقد سَبَقَه إليه غيرُه ـ في الآية خلافُ الظاهر، والذي حَمَلَ القائلين عليه أنَّ النصبَ قراءةُ الأكثرين، فإذا قدِّر الاستثناء من «أحد» كانت قراءتهم على الوجه المرجوح، وقد التزم بعضُهم جوازَ مجيء الأمرين مستدلًّا بقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] فإن النصبَ في ذلك عند سيبويه(٣) على حدِّ قولهم: زيداً ضربتُه، ولم يرَ خوف إلْباسِ المفسِّر بالصفة مرجِّحاً(٤) كما رآه بعضُ المتأخرين.

---

(١) شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح لابن مالك ص٤٢.
(٢) ص٧٧٩-٧٨٠.
(٣) في الكتاب ١/١٤٨.
(٤) أي: لم يَرَ سيبويه خوفَ إلباس المفسَّر ـ وهو «خلقناه» ـ بالصفة إذا رفع الاسم مرجِّحاً للنصب على الرفع. حاشية الشمني على المغني ٢/٢٤١، وينظر تتمة الشرح فيه.

ثم قال: والذي أجزمُ به أنَّ قراءةَ الأكثرين لا تكون مرجّحة[1]، وأنَّ الاستثناء على القراءتين من جملة الأمر بدليل سقوط «ولا يلتفت» إلخ في قراءة ابن مسعود، والاستثناءُ منقطع بدليل سقوطِه في آية «الحجر» ولأنَّ المرادَ بالأهل المؤمنون وإن لم يكونوا من أهل بيتِه، لا أهلُ بيته وإن لم يكونوا مؤمنين، كما في قوله تعالى لنوح عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ [هود: ٤٦] ووجهُ الرفع أنَّه على الابتداء، وما بعده الخبر، والمستثنى الجملة، ونظيره: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ﴾ [الغاشية: ٢٢-٢٤].

واختار أبو شامة ما اخترتُه من أنَّ الاستثناء منقطعٌ، لكنَّه قال: وجاء النصبُ على اللغة الحجازيَّة، والرفعُ على التميميَّة، وهذا يدلُّ على أنَّه جعل الاستثناء من جملة النهي، وما قدَّمتُه أولى؛ لضعفِ اللغة التميميَّة، ولِمَا قدَّمتُ من سقوطِ جملة النهي في قراءة عبد الله. انتهى.

واستظهر ذلك الحمصي[2] في «حواشيه» على «التصريح»، واستحسنه غيرُ واحد. وقد نقل أبو حيَّان القولَ بالانقطاع على القراءتين وتخريجَ النصب على اللغة الحجازية والرفع عن الأخرى، ثمَّ قال: إنَّه كلامٌ لا تحقيقَ فيه؛ فإنه إذا لم يقصد إخراجَها من المأمور بالإسراءِ بهم ولا من المنهيِّين عن الالتفات، وكان المعنى: لكن امرأتك يجري عليها كذا وكذا، كان من الاستثناء الذي لا يتوجَّه إليه العامل، وهذا النوعُ من الاستثناء المنقطع يجبُ فيه النصبُ بإجماع العرب، وإنَّما الخلاف في المنقطع الذي يمكن توجُّهُ العامل إليه[3].

وفيه نظر، ففي «التوضيح» لابن مالك[4]: حقُّ المستثنى بإلَّا من كلام تامٍّ مُوْجَبٍ ـ مفرداً كان أو مكمَّلاً معنًى بما بعده كقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ [الحجر: ٥٩-٦٠] ـ النصبُ، ولا يَعرف أكثرُ

---

(١) كذا في الأصل و(م)، وفي المغني: مرجوحة، وكذا نقل عنه الشهاب في الحاشية ٥/ ١٢٢.

(٢) هو ياسين بن زين الدين الحمصي الشافعي الشهير بالعليمي، نزيل مصر، شيخ العربية، من كتبه: حاشية على المطول، وحاشية على المختصر، وحاشية على التصريح شرح التوضيح، وحاشية على شرح الألفية، وغيرها، توفي سنة (١٠٦١هـ). خلاصة الأثر ٤/ ٤٩١.

(٣) البحر ٥/ ٢٤٩.

(٤) ص٤١-٤٢.

المتأخِّرين من البصريين إلا النصبَ، وقد غفلوا عن وروده مرفوعاً بالابتداء ثابتَ الخبر، كقول أبي قتادة: أَحْرَموا كلُّهم إلَّا أبو قتادة لم يُحرم[1]، ومحذوفَه نحو: «لا تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموتُ إلَّا اللهُ»[2] و«إلا» في ذلك بمعنى لكنْ، أي: لكنْ أبو قتادة لم يُحرم، ولكن اللهُ يعلم. انتهى. وما نحن فيه من قبيل هذا.

وفي «حاشيتي» البدر الدماميني، وتقي الدين الشمني أنَّ الرَّضيَّ قد أجاب بما يقتضي أنَّ الاستثناء متَّصلٌ ولا تناقضَ، وذلك أنَّه قال: ولَمَّا تقرَّر أنَّ الإتباع هو الوجهُ مع الشرائط المذكورة، وكان أكثرُ القرَّاء على النصب في «ولا يلتفت» إلخ تكلَّف الزمخشريُّ لئلا تكون قراءةُ الأكثر محمولةً على وجهٍ غيرِ مختارٍ بما تكلَّف. واعترضه ابنُ الحاجب بلزوم التناقض؛ لأنَّ الاستثناء من «أَسْرِ بأهلك» يقتضي كونَها غيرَ مُسرًى بها، ومن «لا يلتفت منكم أحد» يقتضي كونَها مُسرًى بها؛ لأنَّ الالتفاتَ بالإسراء. والجواب أنَّ الإسراءَ وإن كان مطلقاً في الظاهر إلا أنَّه في المعنى مقيَّدٌ بعدم الالتفات، فمآلُه: أُسْرِ بأهلك إسراءً لا التفاتَ فيه إلا امرأتك فإنك تسري بها إسراءً مع الالتفات، فاستثْنِ على هذا إن شئتَ من «أسرِ» أو «لا يلتفتْ» ولا تناقضَ، وهذا كما تقول: امشِ ولا تتبختر، أي: امش مشياً لا تتبختر فيه، فكأنه قيل: ولا يلتفتْ منكم أحدٌ في الإسراء، وكذا: امشِ ولا تتبختر في المشي، فحُذف الجارُّ والمجرورُ للعلم به[3]. انتهى.

وأورد عليه السيِّد السند في «حواشيه» أنَّ الاستثناء إذا رجع إلى القيد، كان المعنى: فأسْرِ بجميع أهلك إسراءً لا التفاتَ فيه إلا من امرأتِك، فيكونُ الإسراء بها داخلاً في المأمور به، وإذا رجع إلى المقيَّد لم يكن الإسراء بها داخلاً في المأمور به، فيكون المحذور باقياً بحاله، ولا مخلِّصَ عنه إلا بأنْ يقال: إنَّ تناول العامِّ إياها ليس قطعيًّا لجوازِ أن يكون مخصوصاً، فلا يلزمُ من رجوعِ الاستثناء إلى قوله

---

(١) قطعة من حديث أخرجه البخاري (١٨٢٤)، ومسلم (١١٩٦) عن أبي قتادة ﷺ، وجاء في بعض الروايات: إلا أبا قتادة؛ قال الحافظ في الفتح ٤/ ٢٩: قوله: إلا أبا قتادة، كذا للكشميهني، ولغيره: إلا أبو قتادة بالرفع، ووقع بالنصب عند مسلم وغيره من هذا الوجه، ثم نقل كلام ابن مالك في التوضيح.

(٢) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٧٣٧٩) عن ابن عمر ﷺ.

(٣) حاشية الشمني على المغني ٢/ ٢٤١ دون قوله: فكأنه قيل ولا يلتفت... إلخ.

تعالى: (وَلَا يَلْتَفِتْ) كونُه عليه السلام مأموراً بالإسراء بها، وحينئذٍ يوجَّه الاستثناء بما ذكر من أنَّها تَبعتْهم أو أسرى بها مع كونِه غيرَ مأمور بذلك؛ إذ لا يلزم من عدم الأمر به النهيُ عنه، فتأمَّل. انتهى.

وبحث فيه الشهابُ ولم يرتضِ احتمالَ التخصيص، لِمَا أنَّه لا دليلَ عليه، ويُفْهِمُ صنيعُه ارتضاءَ كلام الرضي، ثم قال: ومرادُه بالتقييد أنه ذكر شيئان متعاطفان، فالظاهرُ أنَّ المرادَ الجمع بينهما لا أنَّ الجملة حاليَّة، فلا يَرِدُ عليه أنَّ الحمل على التقييد مع كونِ الواو للنسق ممنوعٌ، وكذا جعلها للحالِ مع «لا» الناهية، وأيضاً القراءةُ بإسقاطِها تدلُّ على عدم اعتبار ذلك التقييدِ(١). ولا يخلو عن شيء.

هذا وقد أُلِّفتْ في تحقيق هذا الاستثناءِ عدَّةُ رسائل، منها: رسالة للحمصي، وأخرى للعلامة الكافِيجي ألَّفها لبعض سلاطين آلِ عثمان غمرَهم الله سبحانه بصنوفِ الفَضْل والإحسان، حين طلب منه ـ لبحثٍ وقع في مجلسِه ـ ذلك.

وبالجملة: القولُ بالانقطاع أقلُّ تكلُّفاً فيما يظهر، والقول بأنَّه حينئذٍ لا يبقى ارتباطٌ لقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ ناشئٌ عن عدم الالتفات، فلا ينبغي أن يُلتفت إليه، كما لا يخفى على مَن أحاط خُبْراً بما تقدَّم نقلُه، فتأمل.

وضمير «إنه» للشأن، و«ما أصابهم» مبتدأ، و«مصيبها» خبرُه، والجملةُ خبر «إنَّ» الذي اسمُه ضميرُ الشأن، وفي «البحر»: أنَّ «مصيبها» مبتدأ، و«ما أصابهم» خبرُه، والجملةُ خبرُ «إنَّ»، ويجوز على مذهب الكوفيين أن يكون «مصيبها» خبر «إنَّ» و«ما» فاعل به؛ لأنَّهم يجوِّزون: إنَّه قائم أخواك، ومذهب البصريين أنَّ ضميرَ الشأن لا يكون خبرُه إلا جملةً مصرَّحاً بجزأيها، فلا يجوز هذا الإعراب عندهم(٢). والأَوْلى ما ذُكر أوَّلاً.

والجملةُ إمَّا تعليلٌ على طريقة الاستئناف، أو خبرٌ لـ «امرأتك» على قراءة الرفع. والمراد من «ما»: العذاب، ومن «أصابهم»: يصيبهم، والتعبير به دونه للإيذان بتحقُّق الوقوع، وفي الإبهام واسميةِ الجملة والتأكيدِ ما لا يخفى.

---

(١) حاشية الشهاب ٥/ ١٢٢-١٢٣.

(٢) البحر ٥/ ٢٤٩.

﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ أي: موعد عذابهم وهلاكهم ذلك، وكأنَّ هذا ـ على ما قيل ـ تعليلٌ للأمر بالإسراء، والنهي عن الالتفات المُشْعِر بالحثِّ على الإسراع.

وقولُه سبحانه: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ تأكيدٌ للتعليل، فإنَّ قُرْبَ الصُّبح داعٍ إلى الإسراع للتباعُدِ عن مواقع العذاب، ورُوي أنَّه عليه السلام سألَ الملائكةَ عليهم السلام عن وقتِ هلاكهم فقالوا: موعدُهم الصُّبح، فقال: أريد أسرع من ذلك، فقالوا له: «أليس الصبح بقريب».

ولعلَّه إنما جعل ميقات هلاكهم الصُّبح لأنَّه وقتُ الدَّعة والراحة، فيكون حلولُ العذاب حينئذٍ أفظعَ، ولأنَّه أنسبُ بكون ذلك عبرةً للناظرين.

وقرأ عيسى بن عمر: «الصُّبُحُ» بضم الباء[1]؛ قيل: وهي لغةٌ، فلا يكون ذلك إتباعاً.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي: عذابُنا، أو الأمرُ به، فالأمرُ على الأوَّل واحدُ الأمور، وعلى الثاني واحد الأوامر، قيل: ونسبةُ المجيء إليه بالمعنيين مجازيَّة، والمرادُ: لَمَّا حان وقوعُه، ولا حاجةَ إلى تقدير الوقت مع دلالةِ «لَمَّا» عليه.

وقيل: إنَّه يقدَّر على الثاني، أي: جاء وقتُ أمرنا؛ لأنَّ الأمرَ نفسه وَرَدَ قبله، ونحن في غنًى عن ادِّعاء تكراره.

ورجِّح تفسيرُ الأمر بما هو واحدُ الأوامر ـ أعني ضدَّ النهي ـ بأنَّه الأصل فيه؛ لأنه مصدرُ أَمَرَه، وأمَّا كونُه بمعنى العذاب فيُخرجه عن المصدريَّة الأصلية وعن معناه المشهورِ الشائع، وبجَعْل[2] التعذيب مسبَّباً عنه بقوله سبحانه: ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ فإنه جواب «لَمَّا» والتعذيبُ نفسُ إيقاع العذاب، فلا يحسُنُ جعلُه مسبَّباً عن ذلك، بل العكس أولى إلَّا أن يؤوَّل المجيء بإرادته.

وضمير «عاليها» و«سافلها» لمدائن قومِ لوطٍ المعلومةِ من السِّياق، وهي المؤتفكات، وهي خمسُ مدائن: ميعة، وصعرة، وعصرة، ودوما، وسدوم.

---

(١) القراءات الشاذة ص٦١، والبحر ٥/ ٢٤٩.

(٢) قوله: وبجعل، معطوف على قوله: بأنه الأصل فيه.

وقيل: سبعٌ أعظمُها سَدوم، وهي القرية التي كان فيها لوطٌ عليه السلام، وكان فيها على ما روي عن قتادةَ أربعةُ آلافِ ألفِ إنسان أو ما شاء الله تعالى من ذلك. وقيل: إنَّ هذا العددَ إنما كان في المدائن كلِّها. وقيل: إنَّ ما كان في المدائن أكثرُ من ذلك بكثير، والله تعالى أعلم.

ونُصب «عاليها» و«سافلها» على أنَّهما مفعولان للجعل، والمرادُ: قَلَبْناها على تلكَ الهيئة، وهو جَعْلُ العالي سافلاً، وإنَّما قُلبت كذلك ولم يعكس تهويلاً للأمر، وتفظيعاً للخطب؛ لأنَّ جَعْلَ عاليها الذي هو مقرُّهم ومسكنُهم سافلَها أشقُّ من جَعْلِ سافلها عاليَها وإن كان مستلزماً له.

ورُوي أنَّ لوطاً عليه السلام سرى بِمَنْ معه قبل الفجر، وطوى اللهُ تعالى له الأرض حتَّى وصل إلى إبراهيم عليه السلام، ثمَّ إنَّ جبريل عليه السلام اقتلع المدائنَ بيده، وفي رواية: أدخل جناحَه تحت المدائن فرفعها حتى سمع أهلُ السماء صياحَ الدِّيكة ونباحَ الكلاب، ثمَّ قلبها. وما أعظمَ حكمةَ اللهِ تعالى في هذا القلب الذي هو أشبهُ شيءٍ بما كانوا عليه من إتيان الأعجاز، والإعراض عمَّا تقتضيه الطباعُ السليمة!

ولا ينبغي أن يُجعلَ الكلامُ كنايةً عن إنزال أمرٍ عظيم فيها، كما يقول القائل: اليومَ قلبتُ الدنيا على فلانٍ؛ لِمَا فيه من العدول عن الظاهر، والانحرافِ عمَّا نطقتْ به الآثارُ من غير داعٍ سوى استبعادِ مثل ذلك، وما ذلك ببعيد.

وإسنادُ الجعل إلى ضميره تعالى باعتبار أنه المسبِّب، فهو إسنادٌ مجازيٌّ باعتبار اللغة وإن كان سبحانه هو الفاعلُ الحقيقيُّ، والنكتةُ في ذلك: تعظيمُ الأمر وتهويلُه، فإنَّ ما يتولَّاه العظيمُ من الأمور فهو عظيم، ويقوِّي ذلك ضميرُ العظمة أيضاً.

وعلى هذا الطرزِ قولُه سبحانه: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أي: على المدائن، أو شُذَّاذِ أهلها ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ وكان ذلك زيادةً في تفظيع حالهم، أو قَطْعاً لشأفتهم واستئصالاً لهم، وروي أنَّ رجلاً منهم كان بالحرم، فبقي حجرٌ معلَّقٌ بالهواء حتى خرج منه فوقع عليه وأهلكه.

والسجيل: الطين المتحجِّر؛ لقوله تعالى في الآية الأخرى: (حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ) والقرآنُ يفسِّر بعضُه بعضاً، ويتعيَّن إرجاعُ بعضه إلى بعضٍ[1] في قصَّة واحدة؛ وهو كما أخرج عبدُ بنُ حميد عن ابن عباسٍ ومجاهدٍ معرَّبُ: سنك كل[2].

وقال أبو عبيدة[3]: السجِّيلُ كالسجِّين: الشديدُ من الحجارة.

وقيل: هو مِن أَسْجَلَه: إذا أرسلَه، أو أدرَّ عطيَّته، والمعنى: حجارة كائنة من مثلِ الشيء المرسَل، أو مثل العطيَّة في الإدرار، وهو على هذا خارجٌ مخرجَ التهكُّم.

وقيل: من السِّجلّ ـ بتشديد اللام ـ وهو الصكُّ، ومعنى كونِه من ذلك أنه مما كتب الله تعالى عليهم أنْ يعذِّبَهم به.

وقيل: أصلُه من سجِّين، وهو اسمٌ لجهنَّم أو لوادٍ فيها، فأبدلتْ نونُه لاماً.

وقال أبو العالية وابن زيد: السِّجيل اسمٌ لسماء الدنيا؛ قال أبو حيَّان: وهو ضعيفٌ؛ لوصفِه بقوله سبحانه: ﴿مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾[4] أي: نُضد ووُضع بعضُه على بعض معدًّا لعذابهم، أو: نُضد في الإرسال يرسَلُ بعضُه إثرَ بعضٍ كقطار الأمطار، ولا يخفى أنَّ هذه المعاني كما تَأبَى ما قال أبو العالية وابنُ زيد تَأْبَى بحسب الظاهر ما قيل: إنَّ المراد جهنم، وتكلَّف بعضُهم فقال: يمكن وصفُ جهنَّم بذلك باعتبار المعنى الأول بناءً على أنها دركاتٌ بعضُها فوقَ بعض، أو أنَّ الأصلَ: منضود فيه، فاتّسع، وقد يتكلَّف بنحو هذا لِمَا قاله أبو العالية وابن زيد.

وجوَّز أن يكون «منضود» صفةَ «حجارة» على تأويل الحجر، وجرُّه للجوار، وعليه فالأمرُ ظاهرٌ إلَّا أنه من التكلُّف بمكان.

---

(١) في (م): لبعض.

(٢) الدر المنثور ٣/ ٣٤٥-٣٤٦، وفيه: سنك وكل، وزاد بعده في خبر ابن عباس: حجر وطين.

(٣) في مجاز القرآن ١/ ٢٩٦.

(٤) البحر ٥/ ٢٤٩.

﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي: عليها سِيْما يُعلم بها أنها ليستْ من حجارة الأرض؛ قاله ابنُ جريج. وقيل: معلَّمة ببياضٍ وحُمرة؛ ورُوي ذلك عن ابن عبَّاس والحسن. وجاء في روايةٍ أخرى عن ابن عباس أنه كان بعضُها أسودَ فيه نقطةٌ بيضاءُ، وبعضُها أبيض فيه نقطةٌ سوداء. وعن الربيع أنَّها كانت معلَّمةً باسم مَن يُرمَى بها. وكان بعضُها ـ كما قيل ـ: مثل رؤوس الإبل، وبعضُها مثلَ مَبارِكها، وبعضُها مثلَ قبضةِ الرجل.

﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: في خزائنه التي لا يملكها غيرُه سبحانه، ولا يتصرَّف بها سواه عزَّ وجلَّ، والظرفُ قيل: منصوبٌ بـ «مسوَّمة»، أو متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع صفةً له.

والمرويُّ عن مقاتل أنَّ المعنى أنها جاءت من عند ربِّك. وعن أبي بكر الهذليِّ أنَّها معدَّةٌ عنده سبحانه.

وقال ابنُ الأنباري: المراد: أُلزم هذا التسويمُ للحجارة عنده تعالى إيذاناً بقدرته وشدَّةِ عذابه، فليفهم.

﴿وَمَا هِيَ﴾ أي: الحجارة الموصوفة بما ذكر ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ من كلِّ ظالم ﴿بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ فإنهم بسبب ظلمهم مستحِقُّون لها، وفيه وعيدٌ لأهل الظُّلم كافَّةً، ورُوي هذا عن الربيع.

وأخرج ابنُ جرير وغيرُه عن قتادة أنَّ المرادَ من «الظالمين» ظالمو هذه الأمَّة[1]. وجاء في خبر ذكرَه الثعلبيُّ ـ وقال فيه العراقي: لم أقف له على إسناد ـ أنَّه ﷺ سألَ جبريلَ عليه السلام عن ذلك، فقال: يعني ظالمي أمَّتِك، ما من ظالم منهم إلا وهو بعُرْضٍ[2] حجرٍ يسقطُ عليه من ساعةٍ إلى ساعة.

وقيل: المراد بالظالمين قومُ لوطٍ عليه السلام، والمعنى: لم تكن الحجارةُ لتُخطِئَهم.

وعن ابن عباس أنَّ المعنى: وما عقوبتُهم مِمَّن يعمل عملَهم ببعيد. وظاهرُه أنَّ الضمير للعقوبة المفهومةِ من الكلام، و«الظالمين» مَن يُشْبِههم من الناس، ويمكن أن يقال: إنَّ مرادَه بيانُ حاصل المعنى لا مرجع الضمير.

---

(١) تفسير الطبري ١٢/ ٥٣٣.

(٢) بضم العين وسكون الراء، أي: مستعدٌّ ومعرَّضٌ له. حاشية الشهاب ٥/ ١٢٤.

وذهب أبو حيَّان[1] إلى أنَّ الظاهرَ أن يكون ضمير «هي» للقرى التي جُعِلَ عاليها سافلَها، والمراد من «الظالمين» ظالمو مكَّة، وقد كانت قريبةً إليهم يمرُّون عليها في أسفارهم إلى الشام.

وتذكيرُ البعيد يحتمل أن يكون على تأويل الحجارة بالحجرِ المرادِ به الجنس، أو إجرائه على موصوفٍ مذكَّر، أي: بشيءٍ بعيد، أو بمكانٍ بعيد، فإنها وإن كانت في السماء وهي في غاية البُعد من الأرض إلا أنَّها هَوَتْ منها فهي أسرعُ شيءٍ لحوقاً بهم، فكأنَّها بمكانٍ قريبٍ منهم. أو لأنَّه على زنةِ المصدر ـ كالزفير والصهيل ـ والمصادرُ يستوي في الوصف بها المذكَّرُ والمؤنثُ.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ أي: أولادِ مدين بن إبراهيم عليه السَّلام، فُحذف المضافُ أو جُعل اسماً بالغلبة للقبيلة، وكثيراً ما تسمَّى القبيلةُ باسم أبيهم ـ كمضر وتميم ـ ولعلَّ هذا أولى.

وجوِّز أن يرادَ بمدين المدينة التي بناها مدينُ فسمِّيت به، فيقدَّر حينئذ مضافٌ، أي: وإلى أهل مدين.

﴿أَخَاهُمْ﴾ نسيبَهم ﴿شُعَيْبًا﴾ قد مرَّ ما قيل في نسبه عليه السلام[2]. والجملةُ معطوفةٌ على قوله سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾، أي: وأرسلنا إلى مدين شعيباً.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ أمرٌ بالتوحيد على وجهٍ أكيدٍ، ولَمَّا كان ملاكَ الأمر قدَّمه على النهي عمَّا اعتادوه من البَخْسِ المنافي للعَدْل، المخلِّ بحكمة التعاوُضِ وإيصالِ الحقوقِ لأصحابها، بقوله:

﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ قيل: أي: لا تنقصوا الناسَ من المكيال والميزان، يعني مِمَّا يُكال ويُوزن على ذِكْر المحلِّ وإرادةِ الحالِّ، واستُظهر أنَّ المرادَ: لا تَنْقُصوا حجمَ المكيال عن المعهود، وكذا الصنجات، وقد تقدَّم في «الأعراف» ﴿ٱلْكَيْلَ﴾ [الآية: ٨٥] بدل (ٱلْمِكْيَالَ)، فتذكَّر وتأمَّل.

---

(١) في البحر ٥/ ٢٥٠.
(٢) ٩/ ٢٢٧.

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ أي: ملتبسين بثروةٍ واسعةٍ تُغنيكم عن ذلك، أو بنعمةٍ من الله تعالى حقُّها أن تقابلَ بغير ما أنتم عليه، بأنْ تتفضَّلوا على الناس شُكراً عليها، فإنَّ أجلَّ شكرِ النعم الإحسانُ والتفضُّلُ على عباد الله تعالى. أو: أراكم بخيرٍ وغنًى فلا تزيلوه بما تأتونه من الشرِّ. وعلى كلِّ حالٍ الجملةُ في موضع التعليل للنهي.

وعقَّب بعلَّةٍ أخرى، أعني قولَه تعالى: ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ إنْ لم تنتهوا عن ذلك ﴿عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ٨٤﴾ وجوِّز أن يكون تعليلاً للأمر والنهي جميعاً. وفُسِّر المحيط بما لا يشذُّ منه أحدٌ منهم.

وفسَّره الزمخشريُّ بالمُهْلِكِ، أَخْذاً من قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف: ٤٢] وأصلُه من إحاطَة العدو. وادَّعى أنَّ وَصْفَ اليوم بالإحاطة أبلغُ من وصف العذاب؛ لأنَّ اليوم زمان يشتملُ على الحوادث، فإذا أحاط بعذابه فقد اجتمع للمعذَّب ما اشتمل عليه منه، كما إذا أحاط بنعيمه(١).

يعني أنَّ اليومِ لَمَّا كان زماناً مشتملاً على الحوادثِ الكائنةِ فيه عذاباً أو غيرَه، فإذا أحاط بالمعذَّب ملتبساً بعذابه لأنَّه حادثة، فقد اجتمع للمعذَّب الأمرُ الذي يشتمل عليه اليومُ وهو العذاب، كما إذا أحاط ملتبساً بنعيمِه.

والحاصلُ أنَّ إحاطةَ اليوم تدلُّ على إحاطة كلِّ ما فيه من العذاب، وأما إحاطةُ العذاب على قوم فقد يكون بأن يصيب كلَّ فردٍ منهم فرداً من أفراد العذاب، وأمَّا فيما نحنُ فيه فيدلُّ عل إحاطةِ أنواعِ العذاب المشتمل عليها اليوم بكلِّ فردٍ، ولا شكَّ في أبلغية هذا، كذا في «الكشف» وتمامُ الكلام فيه.

وقال بعضُ المحققين في بيان الأبلغية: إنَّ اليوم زمانٌ لجميع الحوادث، فيومُ العذاب زمانُ جميعِ أنواع العذاب الواقعة فيه، فإذا كان محيطاً بالمعذَّب فقد اجتمع أنواعُ العذاب له، وهذا كقوله:

إنَّ المروءةَ والسماحةَ والنَّدى ... في قُبَّةٍ ضُرِبت على ابن الحشرج(٢)

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٨٥.

(٢) البيت لزياد الأعجم، وهو في ديوانه ص٧٧، وابن الحشرج هو عبد الله بن الحشرج أحد سادات قيس. الأغاني ١٢/ ٢٣.

فإنَّ وقوعَ العذاب في اليوم كوجود الأوصاف في القبة، وجَعْلُ اليوم محيطاً بالمعذَّب كضَرْب القبة على الممدوح، فكما أنَّ هذا كنايةٌ عن ثبوت تلك الأوصاف له، كذلك ذاك كنايةٌ عن ثبوت أنواعِ العذاب للمعذَّب. وأما وصفُ العذاب بالإحاطة ففيه استعارةُ إحاطته لاشتماله على المعذَّب، فكما أنَّ المحيط لا يفوتُه شيءٌ من أجزاء المحاط، لا يفوتُ العذابَ شيءٌ من أجزاءِ المعذَّب، وهذه الاستعارةُ تفيد أنَّ العذاب لكلِّ المعذَّب، وتلك الكنايةُ تفيد أنَّ كلَّ العذاب له، ولا يخفى ما بينهما من التفاوُت في الأبلغية.

وجوِّز أن يكون «محيط» نعتاً لـ «عذاب» وجُرَّ للجوار. وقيل: هو نعتٌ لـ «يوم» جارٍ على غيرِ مَن هو له، والتقديرُ: عذابَ يومٍ محيطٍ عذابُه، وليس بشيء كما لا يخفى.

وأيًّا ما كان فالمراد عذابُ يوم القيامة أو عذابُ الاستئصال في الدنيا.

وأخرج ابنُ جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس ﵄ أنَّه فسَّر الخيرَ برُخْصِ السعر، والعذابَ بغلائه[(١)].

﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ أي: أَتِمُّوهما. وفائدةُ التصريح بذلك مع أنَّ الانتهاء المطلوبَ من النهي السابق لا يتحقَّق بدون الإتمام، فيكون مطلوباً تبعاً، وهذا مسلَّمٌ على المذاهبِ جَعْلُ النهي عن الشيء عينَ الأمر بالضدِّ، أو مستلزماً له تضمُّناً أو التزاماً؛ لأن الخلافَ في مقتضى اللفظ، لا أنَّ التحريم أو الوجوب ينفكُّ عن مقابلة الضدِّ غير واحدة = النعيُ بما كانوا عليه من القبيح ـ وهو النقصُ ـ مبالغةً في الكفِّ، ثمَّ الأمرُ بالضدِّ مبالغةً في الترغيب، وإشعاراً بأنَّه مطلوبٌ أصالةً وتبعاً، مع الإشعار بتبعيَّة الكفِّ عكساً، وتقييده بقوله سبحانه: ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ أي: بالعدل من غيرِ زيادة ولا نقصان، ثمَّ إدماجُ أنَّ المطلوبَ من الإتمام العدلُ، ولهذا قد يكون الفضل محرَّماً كما في الرِّبويَّات، وإلى هذا يشير كلامُ الزمخشريِّ[(٢)]، وظاهرُه حملُ المكيال والميزان على ما يُكال ويوزن.

(١) تفسير الطبري ١٢/ ٥٣٨-٥٣٩، وعزاه لأبي الشيخ السيوطي في الدر ٣/ ٣٤٦.
(٢) في الكشاف ٣/ ٢٨٥.

وحَمَلَهما بعضُهم في الموضعين على الآلتين المعروفتين، وفسَّر القسطَ بما ذكرنا، ثمَّ قال: إنَّ الزيادة في الكيل والوزنِ وإن كانت تفضُّلاً مندوباً إليه لكنَّها في الآلة محظورةٌ كالنقص، فلعلَّ الزائدَ للاستعمال عند الاكتيال والناقصَ للاستعمال عند الكيل، وفائدةُ الأمر بتسوية الآلتين وتعديلهما بعد النهي عن نقصهما المبالغةُ في الحمل على الإيفاء، والمنعِ من البَخْس[1]، والتنبيهُ على أنَّه لا يكفيهم مجرَّدُ الكفِّ عن النقص والبخس، بل يجبُ عليهم إصلاحُ ما أفسدوه وجعلوه معياراً لظلمهم وقانوناً لعدوانهم. وفيه حملُ اللفظ على المتبادر منه، فإنَّ الحملَ على المعنى الآخر مجازٌ كما أشرنا إليه.

وادَّعى الفاضل الجلبي أنَّ هذا الأمرَ بعد النهي السابق ليس من باب التكرار في شيءٍ، فقال: إنَّ النهي قد كان عن نقص حجمِ المكيال وصنجاتِ الميزان، والأمر بإيفاء المكيال والميزان حقَّهما بأنْ لا ينقصَ في الكيل والوزن، وهذا الأمر بعد مساواة المكيال والميزان للمعهود فلا تكرارَ، كيف ولو كان تكريراً للتأكيد والمبالغة لم يكن موضعُ الواو لكمال الاتِّصال بين الجملتين. انتهى.

وتعقَّب[2] بأنَّ حمل هذين اللفظين ـ وقد تكرَّرا ـ في أحد الموضعين على أحد معنيين متغايرين خلافُ الظاهر. وأنَّ في التكرار من الفوائد ما جعله أقوى من التأسيس، فلا ينبغي الهربُ منه. وأمَّا العطفُ فلأنَّ اختلافَ المقاصد في ذينك المتعاطفين جَعَلهما كالمتغايرين، فحسُنَ لذلك، وقد صرَّح به أهلُ المعاني في قوله سبحانه: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦]. انتهى. وفي ورود ما تعقَّب به أوَّلاً تأمُّل، فتأمَّل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ يحتملُ أن يكون تعميماً بعد تخصيص، فإنه يشملُ الجودةَ والرداءةَ وغيرَ المكيل والموزون أيضاً، فهو تذييلٌ وتتميمٌ لِمَا تقدَّم، وكذا قولُه سبحانه: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ فإنَّ

---

(١) في الأصل و(م): والمنع والبخس، والمثبت من تفسير أبي السعود ٤/ ٢٣١، والكلام منه.
(٢) المتعقب هو الشهاب في الحاشية ٥/ ١٢٥.

العثيَّ يعمُّ تنقيصَ الحقوق وغيرَه؛ لأنَّه عبارةٌ عن مطلق الفساد، وفعلُه من باب رَمَى وسَعَى ورَضِيَ وجاء واويًّا ويائيًّا(١).

ويحتمل أن يكون نهياً عن بخس المكيل والموزون بعد النهي عن نقص المعيار والأمرِ بإيفائه، أي: لا تنقصوا الناسَ بسبب نقص المكيال والميزان وعدمِ اعتدالهما أشياءَهم التي يشترونها بهما. والتصريحُ بهذا النهي بعد ما عُلم في ضمن النهي والأمرين السابقين للاهتمام بشأنِه، والترغيبِ في إيفاء الحقوق بعد الترهيبِ والزَّجْرِ عن نَقْصِها. وإلى كلٍّ من الاحتمالين ذهب بعضٌ، وهو مبنيٌّ على ما علمتَ من الاختلاف السابق في تفسير ما سبق.

وقيل: المرادُ بالبخس المكسُ، كأخذِ العشور على نحوِ ما يُفعل اليوم، والعثيُّ السرقةُ وقطعُ الطريق والغارة.

و«مفسدين» حال من ضمير «تعثوا»، وفائدةُ ذلك إخراجُ ما يُقْصَدُ به الإصلاحُ كما فعل الخضرُ عليه السلام من قَتْلِ الغلام وخرقِ السفينة، فهو حالٌ مؤسِّسة.

وقيل: ليس الفائدةُ الإخراجَ المذكور، فإنَّ المعنى: لا تعثوا في الأرض بتنقيص الحقوق مثلاً مفسدين مصالحَ دينِكم وأمرَ آخرتِكم، ومآلُ ذلك ـ على ما قيل ـ إلى تعليل النهي، كأنه قيل: لا تفسدوا في الأرض فإنه مفسدٌ لدينكم وآخرتِكم.

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس: أي: ما أبقاه سبحانه من الحلال بعد الإيفاء ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما تجمعون بالبخس فإنَّ ذلك هباءٌ منثورٌ، بل هو شرٌّ محضٌ وإن زعمتم أنه خير ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَۚ﴾ أي: بشرط أن تؤمنوا؛ إذ مع الكفر لا خيرَ في شيءٍ أصلاً، أو: إنْ كنتم مصدِّقين بي في مقالتي لكم.

وفي رواية أخرى عن الحَبْر أنَّه فسَّر البقية بالرِّزق. وقال الربيع: هي وصيَّتُه تعالى. وقال مقاتل: ثوابُه في الآخرة. وقال الفرَّاء(٢): مراقبتُه عزَّ وجلَّ. وقال قتادة: ذخيرتُه. وقال الحسن: فرائضُه سبحانه.

---

(١) في القاموس (عثا): عثا كرمى وسعى ورضي عُثِيًّا وعَثَياناً، وعثا يعثو عُثُوًّا.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٢٥.

وزعم ابنُ عطية أنَّ كلَّ هذا لا يعطيه لفظُ الآية، وإنَّما معناه الإبقاءُ[١]. وهو مأخوذٌ مما روي عن ابن جريج أنَّه قال: المعنى إبقاءُ الله تعالى النعيمَ عليكم خيرٌ لكم مما يحصلُ من النقص بالتطفيف.

وأيًّا ما كان فجوابُ الشرط محذوفٌ يدلُّ عليه ما قبلَه على ما ذهب إليه جمهور البَصريين، وهو الصحيح.

وقرأ إسماعيلُ بنُ جعفر عن أهل المدينة: «بَقِيَة» بتخفيف الياء، قال ابن عطية: وهي لغة[٢]. قال أبو حيَّان: إنَّ حقَّ وصفِ فَعِلَ اللازمِ أن يكون على وزن فَعِل[٣]، نحو شَجِيَتِ المرأةُ فهي شَجِيَة، فإذا شدِّدت الياء كان على وزن فعيل للمبالغة[٤].

وقرأ الحسن: «تقيةُ الله» بالتاء[٥]، والمرادُ تقواه سبحانه ومراقبتُه الصارفةُ عن المعاصي.

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ٨٦﴾ أحفظُكم من القبائح، أو: أحفظُ عليكم أعمالَكم وأجازيكم بها، وإنَّما أنا ناصحٌ مبلِّغٌ، وقد أَعْذَرْتُ إذ أَنْذَرْتُ ولم آلُ جهداً. أو: ما أنا بحافظٍ عليكم نِعَمَ الله تعالى لو لم تتركوا سوءَ صنيعكم.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ من الأصنام، أجابوا بذلك أمرَه عليه السلام إيَّاهم بعبادة الله تعالى وحده المتضمِّن لنهيهم عن عبادةِ الأصنام، وغرضُهم منه إنكارُ الوحيِ الآمر، لكنَّهم بالغوا في ذلك إلى حيث أنكروا أنْ يكون هناك آمِرٌ من العقل، وزعموا أنَّ ذلك من أحكام الوسوسة والجنون. قاتلهم الله تعالى أنى يؤفكون.

وعلى هذا بَنوا استفهامَهم وأخرجوا كلامَهم، وقالوا بطريق الاستهزاء: أصلاتك التي هي من نتائج الوسوسة وأفاعيلِ المجانين تأمرك بأنْ نتركَ ما استمرَّ

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١٩٩.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ١٩٩، وذكر القراءة أيضاً أبو حيان في البحر ٥/ ٢٥٢.
(٣) في (م): فاعل، وهو خطأ.
(٤) البحر ٥/ ٢٥٢.
(٥) المصدر السابق.

على عبادتِه آباؤنا جيلاً بعد جيل من الأوثان والتماثيل؟ وإنَّما جعلوه عليه السلام مأموراً مع أنَّ الصادرَ عنه إنما هو الأمر بعبادة الله تعالى وغير ذلك من الشرائع؛ لأنه عليه السلام لم يكن يأمرُهم من تلقاء نفسِه، بل من جهةِ الوحي، وأنَّه كان يُعْلِمُهم بأنه مأمورٌ بتبليغه إليهم.

وتخصيصهم بإسناد[١] الأمر إلى الصلاة من بين سائر أحكام النبوة؛ لأنَّه عليه السلام كان كثيرَ الصلاة معروفاً بذلك، بل أخرج ابنُ عساكر[٢] عن الأحنف أنَّه عليه السلام كان أكثرَ الأنبياء صلاةً. وكانوا إذا رأوه يصلِّي يتغامزون ويتضاحكون، فكانت هي من بين شعائر الدِّين ضحكةً لهم.

وقيل: إنَّ ذلك لأنَّه عليه السلام كان يصلِّي ويقول لهم: إنَّ الصلاة تأمرُ بالمعروف وتنهى عن الفحشاء والمنكر. وروي هذا عن ابن عباس ﵄، وإلى الأوَّل ذهب غيرُ واحد. وهذا الإسناد حقيقيٌّ لا مجازيٌّ، غايةُ ما في الباب أنهم قصدوا الحقيقةَ تهكُّماً، واختيارُ المضارع ليدلَّ على العموم بحسب الزمان.

وقوله سبحانه: (أَن نَّتْرُكَ) على تقدير: بتكليف أن نترك، فُحذف المضافُ وهو تكليف، فدخل الجارُّ على «أن» ثم حُذف، وحَذْفُه قبلَها مطَّرد، وعُرفُ التخاطبِ في مثله يقتضي ذلك. وقيل: إنَّ الداعي إليه أنَّ الشخص لا يكلَّف بفعل غيره؛ لأنه غيرُ مقدور له أصلاً.

وقيل: لا تقدير، والمعنى: أصلاتك تأمرُك بما ليس في وسعكَ وعهدتكَ من أفاعيل غيرِك؟ وغرضُهم من ذلك التعريضُ بركاكة رأيه ـ وحاشاه عليه السلام ـ والاستهزاءُ به من تلك الجهة.

وتعقِّب بأنَّه يأباه دخولُ الهمزة على الصلاة دون الأمر، ويستدعي أن يصدر عنه عليه السلام في أثناء الدعوة ما يدلُّ على ذلك أو يوهمه، وأنَّى ذلك، فتأمل.

وقرأ أكثر السبعة: «أصلواتك» بالجمع[٣]. وأمرُ الجمع بين القراءتين سهل.

---

(١) في (م): إسناد.
(٢) كما في الدر المنثور ٣/٣٤٦.
(٣) التيسير ص١١٩، والنشر ٢/ ٢٩٠، وقرأ بالتوحيد حفص وحمزة والكسائي، ومن العشرة خلف.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ أجابوا به أمره عليه السلام بإيفاء الحقوق ونهيَه عن البخس والنقص، وهو عطفٌ على «ما»، و«أو» بمعنى الواو، أي: وأن نترك فِعْلَنا ما نشاءُ في أموالنا من التطفيف وغيره. ولا يصحُّ عطفُه على «أن نترك» لاستحالة المعنى، إذ يصير حينئذ: تأمرك بفعلنا في أموالنا ما نشاءُ من التطفيف وغيره. وهم منهيُّون عن ذلك لا مأمورون به.

وحملُ «ما» على ما أشرنا إليه هو الظاهر، وقيل: كانوا يَقرضون الدراهم والدنانير ويُجرونها مع الصحيحة على جهة التدليس، فنُهوا عن ذلك فقالوا ما قالوا. وروي هذا عن محمد بن كعب. وأدخل بعضُهم ذلك الفعل في العثيِّ في الأرض، فيكون النهيُ عنه نهياً عنه، ولا مانعَ من اندراجه في عموم «ما».

وقرأ الضحاك بن قيس وابن أبي عبلة وزيد بن علي بالتاء في الفعلين على الخطاب[(١)]، فالعطف على مفعول «تأمرك»، أي: أصلاتك تأمُرك أن تفعل في أموالنا ما تشاء، أي: من إيفاء المكيال والميزان كما هو الظاهر، وقيل: من الزكاة، فقد كان عليه السلام يأمرُهم بها كما روي عن سفيان الثوري.

قيل: وفي الآية على هذا مع حمل الصلاة على ما يتبادرُ منها دليلٌ على أنَّه كان في شريعته عليه السلام صلاةٌ وزكاة، وأُيِّد بما روي عن الحسن أنه قال: لم يبعثِ الله تعالى نبيًّا إلا فرضَ عليه الصلاة والزكاة.

وأنت تعلم أنَّ حمل «ما تشاء» على الزكاة غيرُ متعيِّن، بل هو خلافُ ظاهر السَّوق، وحمل الصلاة على ذلك وإن كان ظاهراً إلا أنَّه رَوَى ابنُ المنذر وغيرُه عن الأعمش تفسيرَها بالقراءة[(٢)]، ونُقِل عن غيره تفسيرُها بالدعاء الذي هو المعنى اللغويُّ لها.

وعن أبي مسلم وعطاء[(٣)] تفسيرها بالدِّين لأنها من أجلِّ أموره. وعلى تقديرِ أنْ يُرادَ منها الصلاةُ بالمعنى الآخَرِ لا تدلُّ الآية على أكثرَ من أن يكون له عليه السلام

---

(١) البحر ٥/ ٢٥٣، ويعني بالفعلين: «نفعل» و «نشاء».
(٢) عزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٣/ ٣٤٦، وأخرجه أيضاً الطبري ١٢/ ٥٤٦-٥٤٧.
(٣) قوله: وعطاء، ساقط من (م).

صلاةٌ، ولا تدلُّ على أنها من الأمور المكلَّفِ بها أحدٌ من أمته، فيمكن أن يكون ذلك من خصوصيَّاته عليه السلام، وما روي عن الحسن ليس نصًّا في الغرض كما لا يخفى.

هذا وجوِّز أن يكون العطفُ على هذه القراءة على «ما»، وتعقِّب بأنه يستدعي أن يُحمل التركُ على معنيين مختلفين، ولا يتركَ على ما يتبادر منه.

وقرأ أبو عبد الرحمن وطلحةُ بالنون في الأول والتاءِ في الثاني[1]، والعطفُ على مفعول «تأمرك»، والمعنى ظاهر مما تقدَّم.

﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ۝٨٧﴾ وَصَفوه عليه السَّلام بهذين الوصفين الجليلين على طريقةِ الاستعارة التهكُّمية، فالمراد بهما ضدُّ معناهما، وهذا هو المرويُّ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وإليه ذهب قتادةُ والمبرِّد.

وجوِّز أن يكونوا وصفوه بذلك بناءً على الزَّعم، والجملةُ تعليلٌ لِمَا سبق من استبعاد ما ذكروه، كأنَّهم قالوا: كيف تكلِّفنا بما تكلِّفنا مع أنَّك أنتَ الحليم الرشيد بزعمك.

وقيل: يجوز أن يكون تعليلاً باقياً على ظاهره بناءً على أنه عليه السلام كان موصوفاً عندهم بالحِلْم والرُّشد، وكان ذلك بزَعْمِهم مانعاً من صدور ما صدر منه عليه السلام.

ورُجِّح الأوَّل بأنه الأنسبُ بما قبله لأنَّه تهكُّم أيضاً، ورجِّح الأخيرُ بأنه يكون الكلامُ عليه نظيرَ ما مرَّ في قصَّة صالح عليه السلام من قولهم له: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ [هود: ٦٢] وتعقيبُه بمثل ما عقِّب به ذلك ـ حَسْبَما تضمَّنه قولُه سبحانه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ حجَّةٍ ظاهرة ﴿مِّن رَّبِّى﴾ ومالكِ أموري[2] ﴿وَرَزَقَنِى مِنْهُ﴾ من لدنه سبحانه ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ هو النبوَّةُ والحكمةُ ـ يدلُّ على ذلك، والجوابُ عليه من باب إرخاءِ العنان والكلامِ المُنْصِف، كأنَّه عليه السلام قال: صَدَقْتُم فيما قلتم أنِّي لم أزل مرشداً لكم

(١) البحر ٥/ ٢٥٣، وهي في القراءات الشاذة ص٦١ عن علي رضي الله عنه والضحاك.
(٢) في الأصل: أمري.

حليماً فيما بينكم، لكن ما جئتُ به ليس غيرَ الإرشاد والنصيحة لكم، انظروا بعين الإنصاف وأنتم ألبَّاءُ: إن كنتُ على حجَّة واضحةٍ ويقينٍ من ربي، وكنتُ نبيًّا على الحقيقة، أيصحُّ لي وأنا مرشدُكم والناصحُ لكم أنْ لا آمرَكم بترك عبادةِ الأوثان والكفِّ عن المعاصي، والأنبياءُ لا يُبعثون إلا لذلك؟ ثم إنه عليه السلام أكَّد معنى الإرشاد وأدرج معنى الحلم فيما سيأتي من كلامه ﷺ. كذا قرَّره العلَّامة الطِّيبي.

واختار شيخُ الإسلام[1] عدمَ كونه باقياً على الظاهر لِمَا أنَّ مقام الاستهزاء آبٍ عنه وذَكر قدِّس سرُّه أنَّ المرادَ بالبيِّنة والرزق الحسن النبوةُ والحكمةُ، وأنَّ التعبيرَ عنهما بذلك للتنبيه على أنَّهما مع كونهما بيِّنةً رزقٌ حسن، كيف لا وذلك مناطُ الحياة الأبديَّة له عليه السلام ولأمَّتِه، وأنَّ هذا الكلام منه عليه السلام ردٌّ على مقالتهم الشنعاءِ المتضمِّنةِ زعْمَ عدم استناد أمره ونهيه إلى سند.

ثم قال: وجوابُ الشرط محذوفٌ يدلُّ عليه فحوى الكلام، أي: أتقولون، والمعنى أنَّكم عَدَدْتُم ما صدر عنِّي من الأوامر والنواهي من قبيل ما لا يصحُّ أن يتفوَّه به عاقل، وجعلتُموه من أحكام الوسوسة والجنون؛ واستهزأتم بي وبأفعالي، وقلتم ما قلتم، فأخبروني إن كنت من جهة ربي ومالكِ أموري ثابتاً على النبوَّة والحكمةِ التي ليس وراءَها غايةٌ للكمال ولا مطمحٌ لطامح، ورزقني لذلك رزقاً حسناً، أتقولون في شأني وشأنِ أفعالي ما تقولون مِمَّا لا خيرَ فيه ولا شرَّ وراءه؟! وادَّعى أنَّ هذا هو الجواب الذي يستدعيه السِّياق، ويساعدُه النظمُ الكريم[2].

وفسَّر القاضي[3] الرزقَ الحسنَ بما آتاه الله تعالى من المالِ الحلالِ، ومعنى كونِ ذلك منه تعالى أنَّه من عنده سبحانه وبإعانته بلا كدٍّ في تحصيله، وقدَّر جواب الشرط: فهل يَسعُ لي مع هذا الإنعام الجامعِ للسعادة الروحانية والجسمانية أنْ أخونَ في وحيه وأخالفه في أمرِه ونهيه، وذكر أنَّ هذا الكلامَ منه عليه السلام اعتذارٌ

(١) هو أبو السعود في تفسيره ٤/ ٢٣٣.
(٢) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٣٣.
(٣) هو البيضاوي في تفسيره مع حاشية الشهاب ٥/ ١٢٧.

عمَّا أنكروا عليه من تغيير المألوف والنهيِ عن دين الآباء. وقدَّر بعضُهم ما قدَّره العلَّامة الطِّيبي[١].

وزعم شيخُ الإسلام أنَّ ذينك التقديرين بمعزلٍ عمَّا يستدعيه السِّياق، وأنهما إنما يناسبان إنْ حُمل كلامُهم على الحقيقة، وأُريد بالصلاة الدِّينُ حَسْبما نُقل عن أبي مسلم وعطاء، ويكون المرادُ بالرزق الحسن على ذلك ما آتاهُ الله تعالى من الحلالِ فقط كما روي عن الضَّحَّاك، ويكون المعنى حينئذٍ: أخبروني إن كنت نبيًّا من عند الله تعالى ورزقني مالاً حلالاً أستغني به عن العالمين، أيصحُّ أن أخالفَ أمرَه أو أوافقَكم فيما تأتون وما تذرون[٢]. انتهى.

وأقول: لا يخفى أنَّ المناسب للمقام حملُ الرزق الحسن على ما آتاه الله تعالى من الحلال الخالي عن التطفيف والبخس، وتقديرُ جواب الشَّرط نحو ما قدَّره القاضي ليس في الكلام ما يأبى عنه، ولا يتوقَّف على حمل الكلام على الحقيقة والصَّلاةِ على الدِّين، بل يتأتَّى تقديرُ ذلك ولو كان الكلامُ على سبيل التهكُّم والصلاةُ بالمعنى المتبادر، بأن يقال: إنَّهم ـ قاتلهم الله تعالى ـ لَمَّا قالُوا[٣] في ظِلال الضَّلال، وقالوا ما قالوا في حقِّ نبيِّهم وما صدر منه من الأفعال، لم يكن لهم مقصودٌ إلا تركَ الدَّعوة وتركَهم وما يفعلون، ولم يتعرَّض عليه السلام صريحاً لردِّ قولهم المتضمِّن لرميه ـ وحاشاه ـ بالوسوسة والجنون والسَّفه والغواية، إيذاناً بأنَّ ذلك مما لا يستحقُّ جواباً لظهور بطلانه، وتعرَّض لجوابهم عمَّا قصدوه بكلامهم ذلك مما يكون فيه قطعُ أطماعهم من أوَّل الأمر، مع الإشارة إلى ردِّ ما تضمنته مقالتُهم الشنعاء، فكأنه عليه السلام قال لهم: يا قوم إنَّكم اجترأتُم على هذه المقالة الشنيعةِ وضمَّنتُموها ما هو ظاهرُ البطلان لقصدِ أن أترككم وشأنكم من عبادة الأوثان ونقصِ المكيال والميزانِ، فأخبروني إن كنتُ نبيًّا من عند الله تعالى، ومستغنياً بما رزقني من المال الحلال عنكم وعن غيركم، أيصحُّ أن أخالفَ وحيَه

---

(١) أي أن المحذوف: أيصح لي أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان والكف عن المعاصي، وقد سلف عن الطيبي قريباً، وينظر تفسير أبي السعود ٤/ ٢٣٣.

(٢) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٣٤.

(٣) من القيلولة.

وأوافق هواكم؟ لا يكون ذلك منِّي أصلاً، فإذن لا فائدةَ لكم في هذا الكلام الشنيع.

وربَّما يقال: إنَّ في هذا الجواب إشارةً إلى وصفِهم بنحو ما وصفوه به عليه السلام، كأنه قال: إنَّ طلبكم منِّي تركَ الدعوة وموافقةَ الهوى مع أنِّي مأمور بدعوتكم وغنيٌّ عنكم مِمَّا لا يصدر عن عاقل، ولا يرتكبه إلا سفيهٌ غاوٍ، وكأنَّ التعرُّض لذِكر الرزق مع الكون على بيِّنةٍ للإشارة إلى وجود المقتضي وارتفاعِ ما يُظنُّ مانعاً، ولا يخفى ما في إخراج الجواب على هذا الوجه من الحُسن، فتأمل.

بقي أنَّ الذي ذكره النُّحاة على ما قال أبو حيَّان(١) في مثل هذا الكلام - أعني «أرأيتم إن كنت» إلخ - أنْ تقدَّر الجملةُ الاستفهامية على أنَّها في موضع المفعول الثاني لـ «أرأيتم» المتضمِّنةِ معنى أخبروني المتعدِّيةِ إلى مفعولين، والغالب في الثاني أن يكون جملةً استفهامية، وجوابُ الشرط ما يدلُّ عليه الجملةُ السابقة مع متعلَّقها، والتقدير: إن كنتُ على بيِّنةٍ من ربِّي فأخبروني هل يَسَعُ لي... إلخ، فافهم ولا تغفل.

﴿وَمَآ أُرِيدُ﴾ بنهيي إيَّاكم عمَّا أنهاكم عنه من البَخْس والتطفيف ﴿أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ أي: أَقْصِدَه بعدَ ما ولَّيتم عنه، فأستبدَّ به دونَكم، كما هو شأنُ بعضِ الناس في المنع عن بعض الأمور، يقال: خالفني فلانٌ إلى كذا: إذا قصدَه وأنت مولٍّ عنه، وخالفني عنه: إذا ولَّى عنه وأنتَ قاصدُه.

قال في «البحر»: والظاهرُ ما ذكروه أنَّ «أن أخالفكم» في موضع المفعول به لـ «أُريدُ» أي: وما أريد مخالفتَكم، ويكون خالَفَ بمعنى خَلَفَ، نحو جاوَزَ وجازَ، ويكون المعنى: وما أريد أن أكون خَلَفاً منكم، و«إلى» متعلِّقة بـ «أخالف»، أو بمحذوف أي: مائلاً إلى ما أنهاكم عنه. وقيل: في الكلام فعلٌ محذوف معطوفٌ على المذكور، أي: وأميلَ إلى... إلخ. ويجوز أن يبقى «أخالف» على ظاهرِه من المخالفة، ويكون «أن» وما بعدها في موضع المفعول به لـ «أريد» ويقدر: مائلاً إلى، كما تقدَّم، أو يكون «أن» وما بعدها في موضع المفعول له، و«إلى ما» متعلِّقاً

---

(١) في البحر ٥/ ٢٥٤، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ١٢٧.

بـ «أريد» أي: وما أقصد لأجْل مخالفتكم إلى ما أنهاكم عنه. وقال الزجَّاج في معنى ذلك: أي: ما أقصد بخلافكم إلى ارتكاب ما أنهاكم عنه(١).

﴿إِنْ أُرِيدُ﴾ أي: ما أريد بما أقول لكم ﴿إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ﴾ أي: إلا أنْ أُصْلِحَكم بالنَّصيحة والموعظة ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ أي: مدَّة استطاعتي ذلك وتمكُّني منه لا آلو فيه جهداً، فـ «ما» مصدريَّة ظرفية.

وجوِّز فيها أن تكون موصولةً بدلاً من «الإصلاح»، أي: المقدار الذي استطعته، أو: إلا الإصلاحَ إصلاحَ ما استطعتُ، وهي إمَّا بدلُ بعضٍ أو كلٍّ؛ لأنَّ المتبادر من الإصلاح ما يقدر عليه. وقيل: بدلُ اشتمال، وعليه وعلى الأول يقدَّر ضمير، أي: منه؛ لأنَّه في مثل ذلك لا بدَّ منه. وجوِّز أيضاً أن تكون مفعولاً به للمصدر المذكور كقوله:

ضعيفُ النكايةِ أعداءَهُ يخالُ الفرارَ يراخي الأجلْ(٢)

أي: ما أريد إلا أنْ أصلحَ ما استطعتُ إصلاحَه من فاسدكم.

والأبلغُ الأظهرُ ما قدمناه؛ لأنَّ في احتمال البدلية إضماراً وفواتَ المبالغة. وفي الاحتمال الأخير إعمال المصدر المعرَّفِ في المفعول به، وفيه ـ مع أنَّه لا يجوز عند الكوفيين، ويقلُّ عند البصريين ـ فواتُها، وزيادةُ إضمارِ مفعول «استطعت».

﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ﴾ أي: ما كوني موفَّقاً لتحقيق ما أتوخَّاه من إصلاحكم ﴿إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: بتأييدِه سبحانه ومعونتِه.

واختار بعضُهم أن يكون المراد: وما توفيقي لإصابة الحقِّ والصوابِ في كلِّ ما آتي وأَذَرُ إلا بهدايته تعالى ومعونته.

والظاهرُ أنَّ المراد: وما كلُّ فردٍ من أفراد توفيقي؛ لِمَا صرَّحوا به من أنَّ المصدر المضافَ من صيغ العموم، ويؤُول إلى هذا ما قيل: إنَّ المعنى: ما جنسُ

---

(١) البحر ٥/ ٢٥٤، وقول الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٧٣.

(٢) الكتاب ٣/ ١٣٨، والخزانة ٨/ ١٢٧. وهو من أبيات سيبويه الخمسين التي لا يعرف قائلها، كما ذكر البغدادي.

توفيقي؛ لأن انحصارَ الجنس يقتضي انحصارَ أفراده، لكنْ على الأول بطريق المفهوم، وعلى الثاني بطريق المنطوق.

وتقديرُ المضاف بعد الباء مما التزمه كثيرٌ، وفيه ـ على ما قيل ـ دفعُ الإشكال بأنَّ فاعل التوفيق هو الله تعالى، وأهلُ العربية يستقبحون نسبةَ الفعل إلى الفاعل بالباء لأنها تدخل على الآلة، فلا يحسنُ: ضربني بزيد، وإنما يقال: من زيد، فالاستعمالُ الفصيحُ بناءً على هذا: وما توفيقي إلا من عند الله، ووجهُ الدفع بذلك التقدير ظاهر؛ لأنَّ الدخولَ ليس على الفاعل حينئذ.

وجوّز أن يكون ذلك التقديرُ؛ لِمَا أنَّ التوفيق ـ وهو كونُ فعلِ العبد موافقاً لِمَا يحبُّه الله تعالى ويرضاه ـ لا يكون إلا بدلالةِ الله تعالى عليه، ومجرَّدُ الدلالة لا يجدي بدون المعونة منه عزَّ شأنُه.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في ذلك، أو: في جميع أموري، لا على غيرِه؛ فإنه سبحانه القادرُ المتمكِّن من كلِّ شيءٍ، وغيرُه سبحانه عاجزٌ في حدِّ ذاته، بل معدومٌ ساقطٌ عن درجة الاعتبار، كما أشار إليه الكتابُ وعاينه أولو البصائر والألباب.

﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ أي: أَرْجِعُ فيما أنا بصدده، أو: أُقْبِلُ بِشراشِري[1] في مجامع أموري لا إلى غيره. والجملةُ معطوفة على ما قبلها، وكأنَّ إيثارَ صيغة الاستقبال فيها على الماضي الأنسبِ للتقرُّر والتحقُّق كما في التوكُّل لاستحضارِ الصورة والدِّلالة على الاستمرار، ولا يخفى ما في جوابه عليه السلام مما لا يكاد يوجدُ في كلامِ خطيبٍ إلا أنْ يكون نبيًّا.

وفي «أنوار التنزيل» أنَّ لأجوبته عليه السلام الثلاثةِ، يعني «يا قوم أرأيتم» إلخ، و«ما أريد أن أخالفكم» إلخ، و«إنْ أريد» إلخ على هذا النَّسق شأناً، وهو التنبيهُ على أنَّ العاقل يجب أن يراعيَ في كلِّ ما يأتيه ويذرُه ثلاثةَ حقوق؛ أهمُّها وأعلاها: حقُّ الله تعالى؛ فإن الجواب الأوَّل متضمِّن بيانَ حقِّ الله تعالى من شكرِ نعمته والاجتهادِ في خدمته. وثانيها: حقُّ النَّفس، فإن الجوابَ الثاني متضمِّنٌ بيانَ حقِّ نفسه من كفِّها عمَّا ينبغي أن ينتهي عنه غيرُه. وثالثُها: حقُّ الناس؛ فإنَّ الجواب

(١) الشراشر: النفس، والأثقال، وجميع الجسد، والمحبة. القاموس (شرر).

الثالثَ متضمِّن للإشارة إلى أنَّ حقَّ الغير عليه إصلاحُه وإرشادُه[1].

وإنما لم يعطف قوله: «إن أريد» إلخ على ما قبله؛ لكونه مؤكِّداً ومقرِّراً له؛ لأنَّه لو أراد الاستئثارَ بما نَهَى عنه لم يكن مريداً للإصلاح، ولا ينافي هذا كونه متضمِّناً لجوابٍ آخر، وكأنَّ قوله: «وما توفيقي» إلخ إزاحةٌ لِمَا عسى أن يوهمَه إسنادُ الاستطاعة إليه بإرادته من استبداده[2] بذلك، ونظير ذلك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وفيه مع ما بعده إشارةٌ إلى محض التوحيد.

وقال غيرُ واحد: إنَّه قد اشتمل كلامُه عليه السلام على مراعاة لطفِ المراجعة، ورفقِ الاستنزال، والمحافظةِ على حسن المجاراة والمحاورة، وتمهيدِ معاقد الحقِّ بطلب التوفيق من جانبه تعالى، والاستعانة به عزَّ شأنُه في أموره، وحسمِ أطماع الكفَّار، وإظهارِ الفراغ عنهم، وعدمِ المبالاة بمعاداتهم.

قيل: وفيه أيضاً تهديدُهم بالرجوع إلى الله تعالى للجزاء، وذلك من قوله: «وإليه أنيب»؛ لأنَّ الرجوعَ إليه سبحانه يُكْنَى به عن الجزاء، وهو وإن كان هنا مخصوصاً به لاقتضاء المقام له، لكنَّه لا فرقَ فيه بينه وبين غيره.

وفيه ـ مع خفاء وجهِ الإشارة ـ أنَّ الإنابة إنَّما هي الرجوع الاختياري بالفعل إليه سبحانه، لا الرجوعُ الاضطراري للجزاء وما يعمُّه.

وقد يقال: إنَّ في قوله: «عليه توكَّلتُ» إشارةً أيضاً إلى تهديدهم؛ لأنَّه عزَّ وجلَّ الكافي المعينُ لمن توكَّل عليه، لكنْ لا يتعيَّن أن يكون ذلك تهديداً بالجزاء يوم القيامة.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي: لا يكسبنكم ﴿شِقَاقِيٓ﴾ أي: معاداتي، وأصلُها أنَّ أحد المتعاديين يكون في عدوةٍ وشقٍّ. والآخَرُ[3] في آخَرَ، وروي هذا عن السُّدِّي. وعن الحسن: ضراري، وعن بعضٍ: فراقي. والكلُّ متقارب.

وهو فاعل «يجرمنَّكم»، والكافُ مفعوله الأول، وقولُه سبحانه: ﴿أَن

---

(١) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ١٢٧.

(٢) في الأصل: استعداده، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٤/ ٢٣٤.

(٣) في الأصل: والآخر يكون.

﴿يُصِيبَكُم﴾ مفعوله الثاني، وقد جاء تعدِّي «جَرَمَ» إلى مفعولين كما جاء تعدِّيها لواحد، وهي مثلُ «كسب» في ذلك، ومن الأوَّل قولُه:

ولقد طعنتَ أبا عُيينةَ طعنةً جَرَمَتْ فزارةَ بعدَها أن يغضبُوا(١)

وإضافةُ «شقاق» إلى ياء المتكلِّم من إضافة المصدر إلى مفعوله، أي: لا يكسبنَّكم شقاقُكم إيَّاي أن يصيبَكم ﴿مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ من الغَرَق ﴿أَوْ قَوْمَ هُودٍ﴾ من الرِّيح ﴿أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ﴾ من الرَّجفة والصَّيحة. ونهي الشقاق مجازٌ أو كناية عن نهيهم، وهو أبلغُ من توجيه النهي إليهم؛ لأنه إذا نُهي وهو لا يَعْقِلُ عُلِمَ نهيُ المشاقِّين بالطريق الأَوْلى.

وقرأ ابن وثاب والأعمش: «يُجْرِمنَّكم» بضمِّ الياء(٢)، وحُكي أيضاً عن ابن كثير(٣)، وهو حينئذٍ من أَجْرَمْتُه ذَنْباً: إذا جعلتَه جارماً له، أي: كاسباً، والهمزةُ للنقل من جَرَم المتعدِّي إلى مفعولٍ واحد، ونظيره في النَّقْل كذلك: كَسَبَ المال فإنه يقال فيه(٤): أَكْسَبَه المالَ، والقراءتان سواءٌ في المعنى، إلا أنَّ المشهورةَ جاريةٌ على ما هو الأكثرُ استعمالاً في كلام الفصحاء من العرب الموثوقِ بعربيَّتهم.

وقرأ مجاهد والجحدريُّ وابنُ أبي إسحاق: «مثلَ» بالفتح(٥). وروي ذلك عن نافع(٦). وخرَّجه جمعٌ على أنَّ «مثلَ» فاعلٌ أيضاً، إلا أنَّه بُني على الفتح لإضافته إلى غيرِ متمكِّنٍ، وقد جوِّز فيه وكذا في «غير» مع «ما» و«أن» المخفَّفةِ والمشدَّدةِ ذلك كالظروف المضافة للمبنيِّ، وعلى هذا جاء قولُه:

لم يمنع الشربَ منها غير أنْ نطقَتْ حَمامةٌ في غصونٍ ذاتِ أَوْقالِ(٧)

---

(١) الكتاب ٣/ ١٣٨، والخزانة ١٠/ ٢٨٣، وسلف ٧/ ٢٤.

(٢) المحتسب ١/ ٣٢٧، والبحر ٥/ ٢٥٥.

(٣) نسبها إليه الزمخشري في الكشاف ٢/ ٢٨٨، والمشهور عنه القراءة بفتح الياء.

(٤) في الأصل: في.

(٥) القراءات الشاذة ص٦١، والبحر ٥/ ٢٥٥.

(٦) البحر ٥/ ٢٥٥، والمشهور عنه القراءة بالضم.

(٧) الكتاب ٢/ ٣٢٩، والأصول في النحو ١/ ٢٧٦، وسر صناعة الإعراب ٢/ ٥٠٧، والإنصاف ١/ ٢٨٧ و ٢٩٠، والمغني ١/ ٦٧١، والخزانة ٣/ ٤٠٦، وفيه: نطقت: صوَّتت وصدحت. وذات صفة لغصون. والأوقال جمع وَقْل، وفي كتاب النبات للدينوري، المقل إذا كان رطباً =

وبعضٌ: على أنَّه نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ والفتحةُ إعراب، أي: إصابةً مثلَ إصابةِ قوم نوحٍ، وفاعلُ «يصيبكم» ضمير مستتر يعودُ على العذاب المفهوم من السِّياق، وفيه تكلُّف.

﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾ زماناً كما رُوي عن قتادة، أو مكاناً كما رُوي عن غيره، ومرادُه عليه السلام: أنكم إن لم تعتبروا بِمَنْ قبلُ لِقِدَم عهدٍ أو بُعدِ مكانٍ فاعتبروا بهؤلاء، فإنَّهم بِمَرْأى ومَسْمعٍ منكم، وكأنَّه إنما غيَّرَ أسلوبَ التحذير بهم واكتفى بذِكْر قُربهم إيذاناً بأنَّ ذلك مُغْنٍ عن ذِكْرِ ما أصابهم لشُهرة كونه منظوماً في سمط ما ذكر من دواهي الأمم المرقومة.

وجوَّز أن يرادَ بالبُعد البعدُ المعنويُّ، أي: ليسوا ببعيدٍ منكم في الكفر والمَساوي، فاحذروا أن يحلَّ بكم ما أحلَّ بهم من العذاب، وقد أخذ هذا المعنى بعضُ المتأخِّرين فقال:

فإنْ لم تكونوا قومَ لوطٍ بعينهمْ فما قومُ لوطٍ منكمُ ببعيدِ[1]

وإفرادُ «بعيد» وتذكيرُه مع كون المخبَر عنه وهو «قوم» اسمَ جمعٍ، ومؤنثاً لفظاً على ما نصَّ عليه الزمخشريُّ، واستَدلَّ له بتصغيره على قُويمة، وذلك يقتضي أن يقال: ببعيدةٍ موافَقةً للَّفظ، وببُعدَاءَ موافقةً للمعنى = لأنَّ المراد: وما إهلاكُهم، أو: وما هم بشيءٍ بعيد، أو: وما هم في زمان بعيد أو مكان بعيد، وجوَّز أن يكون ذلك لأنَّه يستوي في «بعيد» المذكَّرُ والمؤنَّثُ لكونه على زنةِ المصادر، كالنهيق والصهيل[2].

وفي «الكشف» عن الجوهري: أنَّ القوم يذكَّر ويؤنَّث؛ لأنَّ أسماءَ الجموع التي لا واحدَ لها من لَفْظِها إذا كانت للآدميين تذكَّر وتؤنَّث، مثل رهط ونفر وقوم، وإذا صَغَّرت لم تُدخِلْ فيه الهاءَ، وقلتَ: قُوَيْم، ورُهَيْط، ونُفَيْر، ويدخل الهاء فيما يكون

= لم يدرك فهو البهش، فإذا يبس فهو الوَقْل. اهـ. والمقل: حملُ الدوم، والدوم: شجر عظام من الفصيلة النخيلية. المعجم الوسيط (دوم) و (مقل). والبيت لأبي قيس بن الأسلت أو لأبي قيس بن رفاعة. ينظر الخزانة ٣/ ٤١٣.

(١) البيت لبهاء الدين زهير بن محمد، وهو في ديوانه ص٨٣.

(٢) الكشاف ٢/ ٢٨٨ و٣/ ١١٩-١٢٠.

لغير الآدميين، مثل الإبل والغنم؛ لأن التأنيثَ لازمٌ[(١)]. وبينَه وبين ما نقل عن الزمخشريِّ بونٌ بعيد، وعليه فلا حاجةَ إلى التأويل.

هذا، ثم إنَّه عليه السلام لَمَّا أنذرهم سوءَ عاقبةِ صنيعهم عقَّبه طمعاً في ارعِوائهم عمَّا هم فيه من الضلال بالحَمْل على الاستغفار والتوبة، فقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ مرَّ تفسيرُ مثله ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ﴾ عظيمُ الرحمة، فيرحمُ مَن يَطْلبُ منه المغفرةَ ﴿وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ أي: كثيرُ الودِّ والمحبَّة، فيحبُّ مَن يتوبُ ويرجع إليه، والمشهورُ جعلُ الودود مجازاً باعتبار الغاية، أي: مبالغٌ في فِعْلِ ما يفعلُ البليغُ المودَّة بمن يودُّه من اللطفِ والإحسان. وجوِّز أن يكون كنايةً عندَ مَن لم يشترط إمكانَ المعنى الأصلي.

والداعي لارتكاب المجاز أو الكناية على ما قيل: أنَّ المودة بمعنى الميل القلبي، وهو مِمَّا لا يصحُّ وصفُه تعالى به، والسلفي يقول: المودةُ فينا الميلُ المذكور، وفيه سبحانه وراءَ ذلك مِمَّا يليق بجلال ذاتِه جلَّ جلالُه.

وقيل: معنى «ودود» متحبِّب إلى عباده بالإحسان إليهم. وقيل: محبوبُ المؤمنين. وتفسيرُه هنا بما تقدَّم أولى.

والجملة في موضع التعليل للأمر السَّابق، ولم يَعْتَبِرِ الأكثر ما أشرنا إليه من نحو التوزيع، فقال: عظيمُ الرحمة للتائبين، مبالغٌ في اللطف والإحسان بهم، وهو مما لا بأس به.

﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ أي: ما نفهمُ ذلك، كأنَّهم جعلوا كلامَه المشتملَ على فنون الحِكَم والمواعظ، وأنواعِ العلوم والمعارف، إذ ضاقتْ عليهم الحِيَل، وعيَّتْ بهم العِلَل، ولم يجدوا إلى محاورته عليه السلام سبيلاً، من قبيل التخليط والهذيان الذي لا يُفهم معناه ولا يُدرَك فحواه.

وقيل: قالوا ذلك استهانةً به عليه السلام، كما يقول الرجل لمن لا يعبأ به: لا أدري ما تقول. وليس فيه كثيرُ مغايرة للأول.

---

(١) الصحاح (قوم).

ويحتمل أن يكون ذلك لعدمِ توجُّههم إلى سماع كلامه عليه السلام؛ لمزيدِ نفرتِهم عنه، أو لغباوتِهم وقصورِ عقولهم.

قيل: وقولهم: «كثيراً» للفرار عن المكابرة، ولا يصحُّ أن يراد به الكلُّ وإن ورد في اللغة؛ لأنَّ «مما تقول» يأبى ذلك، كما أنَّ «كثيراً» نفسه يأبى حملَ كلامهم هذا على أنَّه كنايةٌ عن عدم القبول.

وزعم بعضُهم أنَّهم إنَّما لم يفقهوا كثيراً مِمَّا يقول لأنه عليه السَّلام كان أَلْثَغَ، وأظنُّ أنه لم يُفصِحْ بذلك خبرٌ صحيح، على أنَّ ظاهر ما جاء من وصفِه عليه السلام بأنَّه خطيبُ الأنبياء يأبى ذلك. ولعلَّ صيغة المضارع للإيذان بالاستمرار.

﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا﴾ أي: فيما بيننا ﴿ضَعِيفًا﴾ لا قوةَ لك ولا قدرةَ على شيءٍ من الضرِّ والنفعِ والإيقاعِ والدَّفعِ.

وروي عن ابن عباس وابن جبير وسفيان الثوري وأبي صالح تفسيرُ الضعيف بالأعمى، وهي لغةُ أهل اليمن، وذلك كما يطلقون عليه ضريراً، وهو من باب الكناية على ما نصَّ عليه البعضُ، وإطلاقُ البصير عليه كما هو شائعٌ من باب الاستعارة تلميحاً.

وضعَّف هذا التفسير بأنَّ التقييد بقولهم: «فينا» يصير لغواً؛ لأنَّ مَن كان أعمى يكون أعمًى فيهم وفي غيرهم، وإرادةُ لازمه وهي الضعفُ بين مَن ينصره ويعاديه لا يَخْفَى تكلُّفه، ومن هنا قال الإمام: جوَّز بعضُ أصحابنا العمى على الأنبياء عليهم السلام، لكن لا يحسنُ الحملُ عليه هنا[١].

وأنتَ تعلم أنَّ المصحَّحَ عند أهل السنَّة أنَّ الأنبياء عليهم السلام ليس فيهم أعمى، وما حكاهُ الله تعالى عن يعقوبَ عليه السلام كان أمراً عارضاً وذهب.

والأخبارُ المرويَّة عمَّن ذكرنا في شعيب عليه السلام لم نقفْ على تصحيحٍ لها سوى ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما فإنَّ الحاكم صحح بعضَ طرقِه[٢]، لكنَّ تصحيح الحاكم كتضعيفِ ابنِ الجوزي غيرُ معوَّل عليه، وربَّما يقال فيه نحوُ ما قيل في

---

(١) تفسير الرازي ١٨/٤٩.
(٢) المستدرك ٢/٥٦٨.

يعقوب عليه السَّلام، فقد أخرج الواحديُّ وابنُ عساكر عن شدَّاد بن أوس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «بكى شعيبٌ عليه السلام من حبِّ الله تعالى حتى عمي، فردَّ الله تعالى عليه بصرَه، وأَوْحَى إليه: يا شعيبُ ما هذا البكاءُ، أشوقاً إلى الجنة أم خوفاً من النار؟ فقال: لا، ولكن اعتقدتُ حبَّكَ بقلبي، فإذا نظرتُ إليك فلا أبالي ما الذي تصنع بي. فأوحى الله تعالى إليه: يا شعيب، إن يكن ذلك حقًّا فهنيئاً لك لقائي، يا شعيب لذلك أخدمتُكَ موسى بن عمران كليمي»[1].

وذهب بعضُ المعتزلة إلى أنَّه لا يجوز استنباء الأعمى لكونه صفةً منفِّرةً؛ لعدم الاحترازِ معه عن النجاسات، ولأنه يُخلُّ بالقضاء والشهادة، فإخلالُه بمقام النبوَّة أَوْلَى.

وأجيبَ بأنَّا لا نسلِّم عدمَ الاحتراز معه عن النجاسات؛ فإنَّ كثيراً مِمَّن نشاهدُه من العميان أكثرُ احترازاً عنها من غيره، وبأنَّ القاضي والشاهد يحتاجان إلى التمييز بين المدَّعي والمدَّعَى عليه، والنبيُّ لا يحتاج لتمييز مَن يَدْعوه، مع أنَّه معصومٌ فلا يخطئ كغيرِه. كذا قيل، فلينظر.

﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ أي: جماعتُك، قال الراغبُ: هم ما دون العشرة[2].

وقال الزمخشري: من الثلاثة إلى العشرة، وقيل: إلى السبعة[3]. وقيل: بل يقال: إلى الأربعين. ولا يقعُ فيما قيل ـ كالعُصبة والنَّفر ـ إلا على الرجال، ومثله الراهط، وجمعه أَرْهُط، وجمع الجمع أراهِط، وأصله على ما نقل عن الرمَّانيِّ الشدُّ، ومنه الرهيط لشدَّة الأكل، والرَّاهِطاء لِجُحْر اليَرْبوع؛ لأنه يتوثَّقُ به ويَخْبَأ فيه ولدَه.

والظاهر أنَّ مرادَهم: لولا مراعاةُ جانب رهطك ﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾ أي: لقتلناك برمي الأحجار، وهو المرويُّ عن ابن زيد.

وقيل: ذلك كنايةٌ عن نكايةِ القتل، كأنَّهم قالوا: لقتلناك بأصعبِ وجهٍ.

---

(١) تاريخ ابن عساكر ٩/ ١٩، وعزاه للواحدي السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٤٨، وهو حديث باطل لا أصل له كما قال الذهبي في الميزان ١/ ٢٣٩.
(٢) مفردات الراغب (رهط).
(٣) الكشاف ٢/ ٢٨٩.

وقال الطبريُّ[(١)]: أرادوا: لسَبَبْناك، كما في قوله تعالى: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦].

وقيل: لأبعدناكَ وأخرجناكَ من أرضِنا.

ولم يجوِّزوا أن يكون المرادُ: لولا ممانعةُ رهطِك ومدافعتُهم؛ لأنَّ ممانعة الرهط وهم عددٌ نزرٌ لألوفٍ مؤلَّفةٍ مما لا يكاد يتوهَّم.

ومعنى ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۝٩١﴾: ما أنت بمكرمٍ محترَمٍ حتَّى نمتنع من رَجْمِك، وإنَّما نكفُّ عنك للمحافظة على حرمةِ رَهْطِكَ الَّذين ثبتوا على ديننا ولم يختاروكَ علينا.

والجارُّ الأوَّلُ متعلِّق بـ«عزيز» وجاز لكونِ المعمول ظرفاً والباءِ مزيدةً، ولك أن تجعلَه متعلِّقاً بمحذوف يفسِّره الظاهرُ، وهو خبرُ «أنت». وقد صرَّح السَّكاكي في «المفتاح» أنَّه قُصد بتقديمِ هذا الضمير الذي هو فاعلٌ معنويٌّ ـ وإن لم يكن الخبرُ فعلاً بل صفةً مشبَّهةً ـ وإيلائه النفيَ الحصرُ والاختصاص[(٢)]، أي: اختصاص النفي، بمعنى أنَّ عدم العزَّة مقصورٌ عليك لا يتجاوزُك إلى رهطك، لا بمعنى نفي الاختصاص بمعنى: لستَ منفرداً بالعزَّة، وهو ظاهر؛ قاله العلَّامة الثاني. قال السِّيد السند: إنَّه قصد فيه نفيُ العزَّة عن شعيب عليه السلام وإثباتُها لرهطِه، فيكونُ تخصيصاً للعزَّة بهم، ويلزمُه تخصيصُ عَدَمِها به، إلا أنَّ المتبادر كما يشهدُ به الذوقُ السليم هو القصدُ إلى الأوَّل.

واستدلَّ السكاكي على كون ذلك للاختصاص بقوله عليه السلام في جواب هذا الكلام ما حكي بقوله عزَّ شأنه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: من نبيِّ الله على ما قال عليه الرحمة[(٣)].

ووجه الاستدلال كما قال العلَّامة وغيرُه: أنَّه لو لم يكن قصدُهم اختصاصَه بنفي العزَّة بل مجرَّد الإخبار بعدم عزَّته عليهم، لم يستقمْ هذا الجواب ولم يكن مطابقاً

(١) في تفسيره ١٢/ ٥٥٤.
(٢) مفتاح العلوم ص٢٣١-٢٣٢.
(٣) مفتاح العلوم ص٢٣٢.

لمقالهم؛ إذ لا دلالةَ لنفي العزَّة عنه على ثبوتها للغير، وإنَّما يدل على ذلك اختصاصُه بنفي العزَّة.

واعترض صاحب «الإيضاح»(١) بأنَّ هذا من باب: أنا عارف، وهو لا يفيدُ الاختصاصَ وفاقاً، وإنَّما يفيدُه التقديم على الفعل مثل: أنا عرفتُ، وكون المشتقَّات قريبةً من الأفعال في التقوِّي لا يقتضي كونَها كالأفعال في الاختصاص، والتمسُّكُ بالجواب ضعيفٌ؛ لجواز أن يكون جواباً لقولهم: «لولا رهطُكَ لرجمناك» فإنه يدلُّ على أنَّ رهطَه هم الأعزَّة حيثُ كان الامتناعُ عن رجمه بسببهم لا بسببه، ومعلومٌ بحسب الحال والمقام أنَّ ذلك لعزَّتهم لا لخوفهم.

وتعقَّبه السِّيد السند بأنَّ صاحب «الكشاف» صرَّح بالتخصيص في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٠](٢) فكيف يقال: بابُ أنا عارفٌ لا يفيدُ الاختصاصَ اتفاقاً؟ وأنَّ جَعْلَه جواباً لـ «ما أنت عليه بعزيز» هو الظاهر بأن يجعل التنوين للتعظيم فيدلّ على ثبوت أصلِ العزَّة له عليه السلام ولا دلالة لقولهم: «ولولا رهطك لرجمناك» على اشتراك العزَّة، فلا يلائمه «أرهطي أعزُّ عليكم».

ثم قال: فإن قيل: شرطُ التخصيص عند السَّكاكي أن يكون المقدَّم بحيث إذا أُخِّر كان فاعلاً معنويًّا(٣)، ولا يتصوَّر ذلك فيما نحن فيه.

قلنا: إنَّ الصِّفة بعد النفي تستقلُّ مع فاعلها كلاماً، فجاز أن يقال: ما عزيزٌ أنتَ، على أن يكون «أنت» تأكيداً للمستتر، ثمَّ يقدّم ويدخلُ الباء على «عزيز» بعد تقديم «أنت» وجعله مبتدأ، وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [هود: ٢٩] ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ [الأنعام: ١٠٧] مما يلي حرف النفي وكان الخبرُ صفة، وقد صرَّح صاحبُ «الكشَّاف» وغيرُه بإفادة التقديم الحصرَ في ذلك كلِّه(٤)، وأما صورةُ الإثبات نحو: أنا عارف، فلا يجري فيها ذلك، فلا يفيدُ عنده تخصيصاً، وإن كان مفيداً إيَّاه عند مَن لا يشترط ذلك.

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة ١/ ٦٢.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٢، وينظر حاشية الشهاب ٥/ ١٣٠.

(٣) ينظر مفتاح العلوم ص٢٢١ و ٢٢٢ و٢٣١، والإيضاح ١/ ٥٩.

(٤) ينظر الكشاف ٢/ ٢٥٦ و ٣/ ٤٦٠.

وأجاب صاحب «الكشف» عما قاله صاحب «الإيضاح» بعد نقل خلاصته: بأنَّ ما فيه الخبرُ وصفاً كما يقارب ما فيه الخبرُ فعلاً في إفادة التقوِّي على ما سلَّمه المعترِضُ يقاربه في إفادة الحَصْر لذلك الدليل بعينه، وأنَّ قولهم: «ولولا رهطُك لرجمناك» كفى به دليلاً أنَّ حقَّ الكلام أن يُفاد التخصيصُ لا أصلُ العزَّة[1] ففهْمُه من ذلك لا ينافي كونَه جواباً لهذا الكلام بل يؤكِّده، وقد صرَّح الزمخشري بإفادة نحو هذا التركيب الاحتمالين في ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٠][2].

وقال العلَّامة الطِّيبي: إنَّ قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾، وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ من باب الطَّرد والعكس[3] عناداً منهم، فلا بدَّ من دلالتي المنطوق والمفهوم في كلٍّ من اللفظين. انتهى.

ويُعلم من جميع ما ذُكر ضعفُ اعتراض صاحب «الإيضاح»، والعجبُ من العلَّامة حيث قال: إنَّه اعتراضٌ قويٌّ.

وأشار السَّكاكي بتقدير المضاف[4] إلى دَفْع الإشكال بأنَّ كلامَهم إنَّما وقع في شعيبٍ عليه السَّلام وفي رَهْطِه، وأنَّهم هم الأعزَّة دونَه، من غيرِ دلالةٍ على أنَّهم أعزُّ من الله تعالى.

وأجيب أيضاً بأنَّ تهاوُنَهم بنبيِّ الله تعالى تهاوُنٌ به سبحانه، فحين عزَّ عليهم رهطُه دونَه كان رهطُه أعزَّ عليهم من الله تعالى، أو بأنَّ المعنى: أرهطي أعزُّ عليكم

---

(١) في (م): العز.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٢، قال: هو قائلها لا محالة، أو: هو قائلها وحده، وينظر حاشية الشهاب ٥/ ١٣٠.

(٣) الطرد والعكس كما عرَّفه الطيبي: هو أن يؤتى بكلامين يقرِّر الأول بمنطوقه مفهوم الثاني، وبالعكس، كقوله: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ إلى قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ﴾ فمنطوق الأمر بالاستئذان في تلك الأوقات خاصة مقرِّرٌ لمفهوم رفع الجناح فيما عداها، وبالعكس. قال السيوطي: وهذا النوع يقابله في الإيجاز نوع الاحتباك، وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني، ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول. ينظر الإتقان ٢/ ٨٣١ و٨٧٠.

(٤) أي: بتقدير: من نبيِّ الله، في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ كما سلف قريباً.

من الله تعالى حتى كان امتناعُكم عن رجمي بسبب انتسابي إليهم وأنَّهم رهطي، لا بسبب انتسابي إلى الله تعالى وأنِّي رسولُه.

ثم ما ذكره السِّيد قُدِّس سرُّه مِن جَعْلِ التنوين في «عزيز» للتعظيم، وحينئذٍ يدلُّ الكلامُ على ثبوتِ أصلِ العزَّة له عليه السَّلام فيلائمه: «أرهطي أعزُّ» إلخ = صحيحٌ في نفسِه، إلَّا أنَّ ذلك بعيد جدًّا من حال القوم، فإنَّ الظاهرَ أنهم إنما قصدوا نفيَ العزَّة عنه عليه السلام مطلقاً وإثباتَها لرهطِه، لا نفيَ العزَّةِ العظيمة عنه وإثباتَها لهم ليدلَّ الكلامُ على اشتراكهما في أصل العزَّة وزيادتِها فيهم، وذلك لأنَّ العزَّة وإن لم تكن عظيمةً تمنعُ القَتْل بالحجارة الذي هو من أشرِّ أنواع القتل، ولا أظنُّ إنكارَ ذلك إلا مكابَرةً.

وكأنَّه لهذا لم يعتبر مولانا أبو السُّعود عليه الرحمة جَعْلَ التنوين للتعظيم لتتأتَّى المشاركةُ فيظهر وجهُ إنكار الأعزِّيَّة، فاحتاج للكشف عن ذلك مع عدم المشاركة، فقال(١): وإنَّما أنكر عليه السلام عليهم أعزِّيَّة رهطِه منه تعالى مع أنَّ ما أثبتوه إنَّما هو مطلقُ عزَّةِ رهطِه لا أعزِّيتُهم منه عزَّ وجلَّ مع الاشتراك في أصل العزَّة؛ لتثنية التقريع وتكريرِ التوبيخ، حيثُ أنكر عليهم أوَّلاً ترجيحَ جنبةِ الرَّهط على جنبةِ الله تعالى، وثانياً نفيَ العزَّة بالمرَّة، والمعنى: أرهطي أعَزُّ عليكم من الله فإنه مما لا يكاد يصحُّ والحال أنكم لم تجعلوا له تعالى حظًّا من العِزَّة أصلاً ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ﴾ بسبب عدم اعتدادِكم بِمَنْ لا يردُ ولا يصدرُ إلا بأمره ﴿وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّا﴾ شيئاً منبوذاً وراء الظهر منسيًّا. انتهى.

وأنا أقول: قد ذكر الرضيُّ أنَّ المجرورَ بـ «مِن» التفضيليَّة لا يخلو من مشاركة المفضَّل في المعنى؛ إمَّا تحقيقاً كما في: زيدٌ أحسن مِن عمرو، أو تقديراً كقول عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه: لأنْ أصومَ يوماً من شعبان أحبُّ إليَّ من أنْ أفطرَ يوماً من رمضان(٢). وذلك لأنَّ إفطارَ يومِ الشكِّ الذي يمكن أن يكون من رمضان محبوبٌ عند المخالف، فقدَّره عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه محبوباً إلى نفسه أيضاً، ثم فضَّل صومَ شعبان عليه، فكأنَّه قال: هبْ أنه محبوبٌ عندي أيضاً، أليس صومُ يومٍ من شعبان أحبَّ منه؟ انتهى.

---

(١) في تفسيره ٤/ ٢٣٦.

(٢) أخرجه الدارقطني في سننه (٢٢٠٥).

وما في الآية يمكن تخريجُه على طِرْزِ الأخير، فيكون إنكارُه عليه السَّلام عليهم أعزِّيَّةَ رَهْطِه منه تعالى على تقديرِ أنْ يكون عزَّ وجلَّ عزيزاً عندهم أيضاً، ويُعلم من ذلك إنكارُ ما هم عليه بطريقِ الأَوْلَى، وكأنَّ هذا هو الداعي لاختيار هذا الأسلوب من الإنكار، ووقوعُه في الجواب لا يأبى ذلك. وإن قيل بجواز خلوِّ المجرور بـ «من» من مشاركة المفضَّل، وإرادةِ مجرَّد المبالغة من أفعل المقرونِ بها بناءً على مجيء ذلك بقلَّة كما قال الجلال السيوطي في «همع الهوامع»، نحو: العسل أحلى من الخلِّ، والصيف أحرُّ من الشتاء[1]، واعتُمد هنا على قرينة السِّباق والسِّياق = فالأمرُ واضحٌ.

واستُحسن كونُ قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ﴾ إلخ اعتراضاً، وفائدتُه تأكيدُ تهاوُنِهم بالله تعالى ببيانِ أنَّهم قومٌ عادتُهم أن لا يعبؤوا بالله تعالى ويجعلوه كالشيء المنبوذ. وجوَّز بعضٌ كونَه عطفاً على ما قبله على معنى: أفضَّلتم رَهْطي على الله سبحانه، وتهاوَنْتُم به تعالى ونسيتُموه ولم تخشَوا جزاءَه عزَّ وجلَّ.

وقال غيرُ واحد: إنه يحتمل أن يكون الغرضُ من قوله عليه السلام «أرهطي» إلخ الردَّ والتكذيبَ لقومه، فإنَّهم لَمَّا ادَّعَوا أنَّهم لا يكفُّون عن رجمه عليه السلام لعزَّته بل لمراعاةِ جانبِ رهطه، ردَّ عليهم ذلك بأنَّكم ما قدَّرتُم الله تعالى حقَّ قَدْرِه، ولم تُراعوا جَنَابَه القويَّ، فكيف تُراعونَ رهطي الأذلَّة؟!

وأيًّا ما كان فضمير «اتخذتموه» عائدٌ إلى الله تعالى، وهو الذي ذهب إليه جمهور المفسرين، وروي عن ابن عباس والحسن وغيرهما.

والظِّهريُّ: منسوبٌ إلى الظَّهر، وأصلُه: المَرْميُّ وراءَ الظهر، والكسرُ من تغييراتِ النسب، كما قالوا في النسبة إلى أمس: إمسِيّ بالكسر، وإلى الدهر: دُهري بالضم، ثم توسَّعوا فيه فاستعملوه للمنسيِّ المتروك، وذكروا أنه يحتمل أن يكون في الكلام استعارةٌ تصريحية وأن يكون استعارةٌ تمثيلية.

وزعم بعضُهم أنَّ الضمير له تعالى، و الظِّهريُّ: العونُ وما يتقوَّى به، والجملةُ في موضع الحال، والمعنى: أفضَّلتم الرهطَ على الله تعالى ولم تُراعوا حقَّه سبحانه

---

(١) همع الهوامع ٣/ ٩٨.

والحالُ أنَّكم تتخذونه سندَ ظهوركم وعمادَ آمالكم. ونقل ابنُ عطيَّة هذا المعنى عن جماعةٍ[١].

وقيل: الظِّهريُّ: المنسيُّ، والضميرُ عائدٌ على الشرع الذي جاء به شعيب عليه السلام وإن لم يُذكر صريحاً، ورُوي عن مجاهدٍ: أو على أمر الله، ونُقل عن الزَّجَّاج[٢].

وقيل: الظِّهريُّ بمعنى المُعين، والضمير لله تعالى، وفي الكلام مضافٌ محذوف، أي: عصيانه، والمعنى على ما قرَّره أبو حيَّان[٣]: واتخذتُم عصيانَه تعالى عوناً وعدَّةً لدفعي.

وقيل: لا حذفَ والضميرُ للعصيان، وهو الذي يقتضيه كلامُ المبرِّد.

ولا يخفى ما في هذه الأقوال من الخروج عن الظاهر من غيرِ فائدة. ومما يُنظم في سلكها تفسيرُ العزيز بالملك زَعْماً أنهم كانوا يسمُّون الملك عزيزاً، على أنَّ مَن له أدنى ذوقٍ لا يكاد يسلِّم صحَّةَ ذلك، فتفطَّن.

ونُصِبَ «ظِهريًّا» على أنه مفعولٌ ثانٍ لـ «اتَّخذتموه» والهاء مفعولُه الأوَّل، و«وراءكم» ظرفٌ له، أو حال من «ظهريًّا».

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٣﴾﴾ تهديدٌ عظيم لأولئك الكفرةِ الفجرة، أي: إنه سبحانه قد أحاط علماً بأعمالكم السيئةِ التي من جملتها رعايتُكم جانبَ الرَّهط دون رعايةِ جنابه جلَّ جلالُه فيَّ، فيجازيكم على ذلك.

وكذا قولُه: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: غايةِ تمكُّنكم من أمركم، وأقصى استطاعتِكم وإمكانِكم، وهو مصدرُ «مَكُنَ» يقال: مَكُنَ مكانةً إذا تمكَّن أبلغ تمكُّنٍ، والميم على هذا أصليَّة. وفي «البحر»: يقال: المكان والمكانة مَفعل ومفعلة من الكون، والميم حينئذ زائدة[٤].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٠٣.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٧٥.

(٣) في البحر ٥/ ٢٥٦.

(٤) البحر ٤/ ٢٢٦.

وفسَّر ابنُ زيد المكانةَ بالحال، يقال: على مكانتكَ يا فلانُ، إذا أمرتَه أن يثبتَ على حالِه، كأنك قلت: اثبتْ على حالكَ التي أنت عليها لا تنحرفْ، وهو من استعارةِ العين للمعنى كما نصَّ عليه غيرُ واحد، وحاصل المعنى هاهنا: اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والمشاقَّة لي وسائرِ ما لا خيرَ فيه.

وقرأ أبو بكر: «مكاناتكم» على الجمع[1]، وهو باعتبار جمعِ المخاطبين كما أنَّ الإفرادَ باعتبار الجنس.

والجارُّ والمجرورَ كما قال بعضُهم: يحتمل أن يكون متعلِّقاً بما عنده على تضمين الفِعْل[2] معنى البناء ونحوِه، كما تقول: عَمِلَ على الجدِّ وعلى القوَّة ونحوهما، وأن يكون في موضع الحال، أي: اعملوا قارِّين وثابتين على مكانتكم.

﴿إِنِّي عَٰمِلٌ﴾ على مكانتي حَسْبما يؤيِّدني الله تعالى، ويوفِّقُني بأنواع التأييد والتوفيق، وكأنَّه حذف على مكانتي للاختصار، ولما فيه من زيادةِ الوعيد.

وقوله سبحانه: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ استئنافٌ وقع جوابَ سؤالٍ مقدَّرٍ ناشئٍ من تهديده عليه السَّلام إيَّاهم بقوله «اعملوا» إلخ، كأنَّ سائلاً منهم سأل: فماذا يكون بعد ذلك؟ فقيل: «سوف تعلمون» ولذا سقطت الفاءُ، وذكرت في آية «الأنعام»[3] للتصريح بأنَّ الوعيد ناشئٌ ومتفرِّعٌ عن إصرارهم على ما هم عليه والتمكُّنِ فيه، وما هنا أبلغُ في التهويل للإشعار بأنَّ ذلك مما يُسأل عنه ويُعتنى به، والسؤالُ المقدَّر يدلُّ على ما دلَّت عليه الفاء، مع ما في ذلك من تكثير المعنى بتقليلِ اللفظ، وكأنَّ الداعي إلى الإتيان بالأبلغ هنا دونَ ما تقدَّم أنَّ القومَ ـ قاتلهم الله تعالى ـ بالغوا في الاستهانة به عليه السَّلام، وبلغوا الغايةَ في ذلك، فناسب أنْ يبالغَ لهم في التهديد ويبلغَ فيه الغاية، وإن كانوا في عدم الانتفاعِ كالأنعام، وما فيها نحو ذلك.

---

(١) التيسير ص١٠٧، والنشر ٢/ ٢٦٣.

(٢) بعدها في (م): على.

(٣) وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ [الآية: ١٣٥].

وقال بعضُ أجلَّة الفضلاء: إنَّ اختيار إحدى الطريقين ثَمَّةَ والأخرى هنا وإن كان مثله لا يسأل عنه لأنَّه دوريٌّ؛ لأنَّ أوَّل الذِّكرين يقتضي التصريحَ فيناسبُ في الثاني خلافَه. انتهى. وهو دون ما قلناه.

و«مَن» في قوله سبحانه: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ قيل: موصولةٌ مفعولُ العلم وهو بمعنى العرفان، وجملة «يأتيه عذاب» صلةُ الموصول، وجملةُ «يخزيه» صفةُ «عذاب»، ووصفُه بالإخزاء تعريضاً بما أَوْعَدوه عليه السَّلام من الرَّجم، فإنه مع كونه عذاباً فيه خزيٌ ظاهر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ عطفٌ على «مَن يأتيه» و«مَن» أيضاً موصولةٌ.

وجوِّز أن تكون «مَن» في الموضعين استفهاميَّة، والعلمُ على بابه، وهي معلِّقةٌ له عن العمل. واستظهر أبو حيَّان الموصوليَّة[1].

وليس هذا العطفُ من عطفِ القَسيم على قسيمِه كما في: سيعلم الصادق والكاذب، إذ ليس القصدُ إلى ذكر الفريقين، وإنَّما القصدُ إلى الردِّ على القوم في العزم على تعذيبه بقولهم: «لرجمناك»، والتصميمِ على تكذيبه بقولهم: «أصلاتك تأمرك» إلخ، فكأنَّهُ قيل: سيظهرُ لكم مَن المعذَّبُ أنتم أم نحن، ومَن الكاذب في دعواه أنا أم أنتم. وفيه إدراجُ حال الفريقين أيضاً.

وفي «الإرشاد» أنَّ فيه تعريضاً بكذبهم في ادِّعائهم القوَّةَ والقدرةَ على رجمِهِ عليه السلام، وفي نسبته إلى الضَّعف والهوان، وفي إدعائهم الإبقاءَ عليه لرعايةِ جانبِ الرهط[2].

وقال الزمخشريُّ: إنَّه كان القياس: ومَن هو صادقٌ، بدلَ هذا المعطوف؛ لأنه قد ذكر عملهم على مكانتهم وعمله على مكانته، ثم أَتْبَعه ذكرَ عاقبة العاملين منه ومنهم، فحينئذ ينصرفُ «مَن يأتيه» إلخ إلى الجاحدين، و«مَن هو صادق» إلى النبيِّ المبعوث، ولكنَّهم لَمَّا كانوا يَدعونه عليه السلام كاذباً قال: و«مَن هو كاذب»،

---

(١) البحر ٥/٢٥٧.

(٢) تفسير أبي السعود ٤/٢٣٧.

بمعنى: في زعمكم ودعواكم، تجهيلاً لهم[1]. يعني أنَّه عليه السلام جرى في الذِّكر على ما اعتادوه في تسميته كاذباً تجهيلاً لهم، والمعنى: ستعلمون حالَكم وحالَ الصَّادق الذي سمَّيتموه كاذباً لجهلكم، وليس المرادُ: ستعلمون أنَّه كاذب في زَعْمِكم، فلا يَرِدُ ما توهِّم من أنَّ كذبَه في زعمهم واقعٌ معلومٌ لهم الآن فلا معنى لتعليق علمِه على المستقبل.

وقال ابن المنيِّر: الظاهر أنَّ الكلامين جميعاً لهم، فـ «مَن يأتيه» إلخ متضمِّنٌ ذِكْرَ جزائهم، «ومَن هو كاذبٌ» متضمِّنٌ ذكرَ جُرمهم الذي يجازَوْن به وهو الكذب، وهو مِن عَطْفِ الصِّفة على الصفة والموصوفُ واحدٌ، كما تقول لمن تهدِّده: ستعلمُ مَن يُهانُ ومَن يعاقَبُ، وأنت تعني المخاطب في الكلامين، فيكون في ذكر كَذِبهم تعريضٌ لصِدْقه، وهو أبلغُ وأوقعُ من التصريح، ولذلك لم يذكر عاقبةَ شعيب عليه السلام استغناءً بذكر عاقبتهم. وقد مرَّ مثلُ ذلك أولَ السورة في قوله سبحانه: (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾) حيث اكتفى بذلك عن أنْ يقول: ومَن هو على خلافِ ذلك، ونظيرُه ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ [الأنعام: ١٣٥] حيث ذكر فيه إحدى العاقبتين؛ لأنَّ المراد بهذه العاقبة عاقبةُ الخير؛ لأنها متى أطلقتْ لا يعني إلا ذلك، نحو: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] ولأنَّ اللام في «له» يدلُّ على أنَّها ليست عليه، واستغنى عن ذكر مقابلها[2]. انتهى، وتعقَّبه الطيبيُّ بما ردَّه عليه الفاضل الجلبي.

﴿وَٱرْتَقِبُوٓا۟﴾ أي: انتظروا ما أقولُ لكم من حلول ما أعِدُكم به وظهورِ صدقِه ﴿إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾ أي: منتظرٌ ذلك.

وقيل: المعنى: انتظروا العذابَ إنِّي منتظرٌ النصرةَ والرحمة، وروي ذلك عن ابن عباس.

و«رقيب» إما بمعنى مرتقب، كالرفيع بمعنى المرتفع، أو راقب كالصَّريم بمعنى الصارم، أو مراقبٌ كعشير بمعنى معاشر، والأنسبُ ـ على ما قيل ـ بقوله: «ارتقبوا»

(١) الكشاف ٢/ ٢٩٠.
(٢) الانتصاف ٣/ ٢٩٠.

الأوَّلُ وإنْ كان مجيءُ فعيل بمعنى اسم الفاعل المزيد غيرَ كثير. وفي زيادة «معكم» إظهارٌ منه عليه السلام لكمال الوثوق بأمره.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي: عذابُنا، كما ينبئ عنه قولُه سبحانه: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ إلخ، أو: وقتُه، فإنَّ الارتقاب مُؤْذِنٌ بذلك ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ وهو الإيمانُ الذي وفَّقناهم له، أو بمرحمةٍ كائنةٍ منَّا لهم.

وإنما جيء بالفاء في قصَّتي ثمود ولوط حيث قيل: «فلما جاء أمرنا» وبالواو هاهنا وفي قصَّة عادٍ حيث قيل: «ولما جاء» إلخ لأنَّه قد سبق هناك سابقةُ الوعد بقوله سبحانه: (ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ) وقوله تعالى: (إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ) وهو يجري مجرى السبب المقتضي لدخول الفاء في معلوله، وأمَّا هاهنا وفي قصَّة عادٍ فلم يسبق مثل ذلك، بل ذُكِرَ مجيءُ العذاب[1] على أنه قصَّةٌ بنفسه وما قبله قصَّةٌ أخرى لكنَّهما متعلِّقان بقومٍ واحد، فهما متشاركان من وجهٍ مفترقان من آخرَ، وذلك مقامُ الواو، كذا قيل.

وتعقِّب بأنَّ في الكلام هاهنا ذكرَ الوعد أيضاً، وهو قولُه سبحانه: (وَيَٰقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ) إلى قوله عزَّ وجلَّ: (رَقِيبٌ)، غايةُ الأمر أنه لم يُذكَرْ بلفظِ الوعد، ومثلُه لا يكفي في الفرق.

وقيل: إنَّ ذكرَ الفاء في الموضعين لقُرْبِ عذاب قومِ صالح ولوط للوعد المذكور، فإنَّ بين الأوَّلينَ والعذابِ ثلاثةَ أيام، وبين الآخرينَ وبينَه ما بين قول الملائكة: «إن موعدهم الصبح» والصبحِ، وهي سويعاتٌ يسيرة، ولا كذلك عذابُ قومي شعيبٍ وهودٍ عليهما السلام، بل في قصَّة شعيب عليه السلام ما يُشعر بعدم تضييق زمان مجيء العذاب بناءً على الشائع في استعمال «سوف». على أنَّ مَن أنصف من نفسه لم يشكَّ في الفَرْق بين الوعد في قصَّتي صالح ولوط عليهما السلام والوعدِ في غيرهما، فإنَّ الإشعار بالمجيء فيهما ظاهرٌ فحسُنَ تفريعُه بالفاء، ولا كذلك في غيرهما. كذا قيل، وفيه ما لا يخفى.

---

(١) بعدها في الأصل: يدل، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٥/ ١٣٢.

ولعلَّ الاقتصارَ على التفرقة بالقرب وعدمِه أقلُّ غائلةً مما قيل، وكذا مما يقال من أنَّ الإتيان بالفاء لتقدمُّ الوعد، وتركَها وإن كان هناك وعدٌ للإشارة إلى سوءِ حال أولئك القومَيْن ومزيدِ فظاعته، حتى إنَّ العذابَ حلَّ بهم لا لسببِ سَبْقِ الوعدِ بل لمجرَّد ظلمِهم، وكأنَّ وجهَ اعتبار ذلك فيهم دون قومي لوط وصالح عليهما السلام أنَّهم امتازوا عنهم برمي ذينك النبيَّين بالجنون، ومشافهتهما بما لم يشافِهْ به كلٌّ من قومَي صالح ولوط نبيَّه فيما قُصَّ عنهما في هذه السورة الكريمة = فإنَّ في ذلك ما لا يكاد يَخْفَى عليك فتدبَّر.

﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ عدل عن الضمير تسجيلاً عليهم بالظُّلم، وإشعاراً بالعِلِّية، أي: وأخذتْ أولئك الظالمين بسبب ظلمهم الذي فصِّل ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾ قيل: صاح بهم جبريلُ عليه السلام فهلكوا، وكانت صيحةً على الحقيقة.

وجوَّز البلخيُّ أن يكون المرادُ بها نوعاً من العذاب، والعربُ تقول: صاح بهم الزمانُ، إذا هلكوا، وقال امرؤ القيس:

فدَعْ عنكَ نهباً صِيْح في حَجَراته ... ولكنْ حديثٌ ما حديثُ الرواحلِ[1]

والمعوَّل عليه الأول، وقد سبق في «الأعراف»: ﴿ٱلرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ٩١] ـ أي: الزلزلة ـ بَدَلَها، ولعلها كانت من مباديها فلا منافاة، وقيل غيرُ ذلك فتذكَّر.

﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ أي: ميتين، من جثَمَ الطائرُ: إذا أَلْصقَ بطنَه بالأرض، ولذا[2] خُصَّ الجثمانُ بشخص الإنسان قاعداً[3]، ثمَّ توسَّعوا فاستعملوا الجثومَ بمعنى الإقامة، ثمَّ استُعير من هذا الجاثمُ للميت لأنَّه لا يبرح مكانَه.

ولَمَّا لم يُجعل متعلّقُ العلم في قوله سبحانه: (سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ) إلخ نفسَ مجيءِ العذاب بل مَن يجيئه ذلك، جُعل مجيئه بعدُ أمراً مسلَّم

---

(١) ديوان امرئ القيس ص٩٤، وفيه: حديثا، بدل: حديث. قال الشارح: يقول: دَعْ عنك ذكرك نهباً أُغِيرَ عليه وصيح في نواحيه، والحجَرات: النواحي، ولكن حدِّثنا حديثاً عن الرواحل كيف ذُهب بها أيضاً.

(٢) في الأصل: وإنما، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٥/ ١٣٢، والكلام منه.

(٣) جاء في هامش الأصل: قاله بعضهم وفيه تردُّد.

الوقوع غنيًّا عن الإخبار به، حيث جُعل شرطاً، وجُعل تنجيةُ شعيب عليه السَّلام والمؤمنين وإهلاكُ الكفرة الظالمين جواباً له ومقصودَ الإفادة، وإنَّما قدَّم التنجية اهتماماً بشأنها وإيذاناً بسبقِ الرَّحمة على الغضب. قاله شيخ الإسلام[(١)].

و«أصبح» إمَّا ناقصةٌ أو تامَّة، أي: صاروا جاثمين، أو: دخلوا في الصباح حالَ كونهم جاثمين.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا﴾ أي: لم يقيموا ﴿فِيهَآ﴾ متصرِّفين في أطرافها متقلِّبين في أكنافها، والجملةُ إما خبرٌ بعد خبر، أو حالٌ بعد حال.

﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ العدولُ عن الإضمار إلى الإظهار للمبالغة في تفظيع حالهم، وليكون أنسبَ بمن شُبِّه هلاكُهم بهلاكهم، وإنما شُبِّه هلاكُهم بهلاكهم لأنَّ عذابَ كلٍّ كان بالصَّيحة، غيرَ أنه روى الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ صيحةَ ثمودَ كانت من تحتهم، وصيحةَ مدينَ كانت من فوقِهم.

وقرأ السُّلمي وأبو حيوة: «بَعُدَتْ» بضم العين[(٢)]. والجمهور بكسرِها على أنَّه من بعِد يبعَد، بكَسْرِ العين في الماضي وفتحها في المضارع، بمعنى: هلك، ومنه قولُه:

يقولون لا تَبْعَدْ وهم يدفنونني ... وأين مكانُ البُعْدِ إلَّا مكانيا[(٣)]

وأما بعُد يبعُد بالضم فهو من[(٤)] البُعد ضد القرب، قاله ابنُ قتيبة[(٥)]؛ قيل: أرادت العربُ بهذا التغيير الفرقَ بين المعنيين.

وقال ابنُ الأنباري: من العرب مَن يسوِّي بين الهلاك والبُعد الذي هو ضدُّ القرب.

---

(١) في تفسيره ٤/ ٢٣٧.
(٢) القراءات الشاذة ص٦١، والمحتسب ١/ ٣٢٧، والبحر ٥/ ٢٥٧.
(٣) البيت لمالك بن الريب كما في جمهرة أشعار العرب ٢/ ٧٦٣، والعقد الفريد ٣/ ٢٤٧، وذيل الأمالي ص١٣٧، والخزانة ٢/ ٢٠٥، والبحر ٥/ ٢٥٨.
(٤) قوله: من، ليس في (م).
(٥) في تفسير غريب القرآن ص٢٠٩.

وفي «القاموس»: البعد معروف، والموتُ، وفعلُهما ككَرُم وفَرِح، بُعداً وبَعَداً بفتحتين[1].

وقال المهدويُّ: إنَّ «بَعُدَ» بالضمِّ يستعمل في الخير والشر، وبَعِد بالكسر في الشرِّ خاصَّة.

وكيفما كان الأمرُ فالمرادُ بـ «بعُدَتْ» على تلك القراءة أيضاً: هلكت، غاية الأمر أنَّه في ذلك إمَّا حقيقة أو مجاز، ومَنْ هلك فقد بَعُدَ ونأى كما قال الشاعر:

مَن كان بينَكَ في التراب وبينَه ... شبرانِ فهو بغايةِ البُعد[2]

وفي الآية ما يسمَّى الاسْتطراد[3]، قيل: ولم يَرِدْ في القرآن من هذا النوع إلا ما في هذا الموضع[4]، وقد استعملته العرب في أشعارها، ومن ذلك قولُ حسان رضي الله عنه:

إنْ كنتِ كاذبةَ الذي حدَّثتِني ... فنجوتِ مَنْجى الحارثِ بن هِشام

ترَكَ الأحبَّةَ أن يقاتِلَ دونَهُمْ ... ونجا برأسِ طِمِرَّةٍ ولجامِ[5]

❁ ❁ ❁

هذا ومن باب الإشارة في الآيات: قوله سبحانه في قصَّة هود عليه السلام: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ كلَّ ذي نَفْسٍ تحتَ قَهْرِه سبحانه وسلطانِه، أسيرٌ في يد تصرُّفه وملكتِه، عاجزٌ عن الفعل إلا بإذنه، وأنَّه عزَّ وجلَّ لا يسلِّط أحداً على أحدٍ إلا عن استحقاقِ ذنبٍ، أو رَفْعِ درجةٍ وإعلاءِ منزلةٍ؛ لأنه تبارك وتعالى على طريقِ العدل الذي لا اعْوِجاجَ فيه.

---

(١) القاموس (بعد).

(٢) البيت في الديوان المنسوب لعلي رضي الله عنه ص٣٧، وهو دون نسبة في بهجة المجالس لابن عبد البر ٣/ ٣٤٠، والدر المصون ٦/ ٣٨١، واللباب لابن عادل ١٠/ ٥٥٦، وحاشية الشهاب ٥/ ١٣٢، ووقع في الأصل و(م): شهران، وفي حاشية الشهاب: شبر فذا في غاية....، والمثبت من باقي المصادر.

(٣) وهو التعريض بعيب إنسان بذكر عيب غيره. البرهان ٣/ ٣٠٠.

(٤) وذكر الزركشي آيتين غيرها، وهما قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]، وقوله: ﴿وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ [إبراهيم: ٤٥].

(٥) ديوان حسان ص٤١٩، والطمرَّة: الفرس الطويل القوائم الخفيف. القاموس (طمر).

وذكر الشيخُ الأكبرُ قدِّس سرُّه في «فصوصه»: أنَّ كلَّ ما سوى الحقِّ فهو دابَّةٌ فإنه ذو روحٍ، وما ثَمَّ مَن يدبُّ بنفسِه وإنما يدبُّ بغيره بحكم التبعيَّة للذي هو على صراطٍ مستقيم، فكلُّ ماشٍ فهو على الصراط المستقيم، وحينئذٍ فلا مغضوب عليه ولا ضالّ من هذا الوجه. نعم إنَّ الناس على قسمين: أهلِ الكشف، وأهلِ الحجاب. فالأوَّلون يمشون على طريقٍ يعرفونها ويعرفون غايتَها، فهي في حقِّهم صراطٌ مستقيم كما أنَّها في نفس الأمر كذلك، والآخَرون يمشون على طريقٍ يجهلونها ولا يعرفون غايتَها، وأنَّها تنتهي إلى الحقِّ، فهي في حقِّهم ليست صراطاً مستقيماً وإن كانت عند العارف وفي(١) نفس الأمر صراطاً مستقيماً، واستنبط قدِّس سرُّه من الآية أنَّ مآلَ الخلق كلِّهم إلى الرحمة التي وسعت كلَّ شيء، وهي الرحمةُ السَّابقةُ على الغضب، وادَّعى أنَّ فيها بشارةً للخَلْقِ أيَّ بشارة.

وقال القيصريُّ(٢) في تفسيرها: أي: ما من شيءٍ موجودٍ إلا هو سبحانه آخِذٌ بناصيته، وإنما جُعِلَ دابةً لأنَّ الكلَّ عند صاحب الشهودِ وأهل الوجود حيٌّ، فالمعنى: ما من حيٍّ إلا والحقُّ آخذٌ بناصيته ومتصرِّفٌ فيه بحسب أسمائه، يسلك به أيَّ طريقٍ شاء من طرقه، وهو على صراطٍ مستقيم. وأشار بقوله سبحانه: ﴿ءَاخِذُۢ﴾ إلى هوية الحقِّ الذي مع كلٍّ من الأسماء ومظاهرها، وإنما قال: «إنَّ ربِّي على صراطٍ مستقيم» بإضافة الرَّبِّ إلى نفسه وتنكيرِ الصراط تنبيهاً على أنَّ كلَّ ربٍّ على صراطِه المستقيم الذي عيّن له من الحضرة الإلهية. والصراطُ المستقيم الجامعُ للطرق هو المخصوصُ بالاسم الإلهيِّ ومظهره، لذلك قال في «الفاتحة» المختصَّة بنبيِّنا ﷺ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ بلام العهد أو الماهية التي منها تتفرَّع جزئيَّاتُها، فلا يقال: إذا كان كلُّ أحدٍ على الصراط المستقيم فما فائدةُ الدعوة؟ لأنَّا نقول: الدعوةُ إلى الهادي من المضلِّ، وإلى العدل من الجائرِ، كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥]. انتهى بحروفه.

---

(١) قوله: في، ليس في (م).

(٢) شرف الدين داود بن محمود بن محمد، أديب من علماء الروم من أهل قيصرية، من مصنفاته: مطلع خصوص الكلم في معاني فصوص الحكم، ويعرف بمقدمة شرح الفصوص، توفي سنة (٧٥١هـ). كشف الظنون ٢/ ١٧٢٠، وهدية العارفين ١/ ٣٦١، والأعلام ٢/ ٣٣٥.

وأعظمُ من هذا إشكالاً التكليفُ مع القول بالوحدة، وكذا التنعيم والتعذيب، فإنَّ الظاهر من التقرير لكلام المحقِّقين من الصوفية أنَّ المكلَّف عبارةٌ عن موجودٍ هو حصَّةٌ من الوجود المطلق المفاضِ على حقائقِ الممكنات، المتعيِّن بتعيُّناتٍ مختلفةٍ اقتضتْها الاستعداداتُ الذاتيَّة للحقائق التي هي المعدومات المتميِّزة في نفس الأمر، المستعدَّة باستعداداتٍ ذاتية غيرِ مجعولة، فالمكلَّف مقيَّدٌ من مقيَّدات الوجود المطلقِ المفاضِ، والمقيَّد لا يوجدُ بدون المطلق لأنَّه قيُّومه، والمطلقُ من حيثُ الإطلاقُ عينُ الحقِّ، ولا شكَّ أن قاعدةَ التكليف تقتضي أن يكون بينهما مغايرةٌ ومباينةٌ حقيقيَّةٌ ذاتيَّةٌ حتى يصحَّ التكليف وما يترتَّب عليه من التنعيم والتعذيب.

وأجيب بأنَّ حقيقةَ الممكن أمرٌ معدومٌ متميِّزٌ في نفسه بتميُّزٍ ذاتيٍّ غيرِ مجعولٍ، ووجودُه خاصٌّ مقيَّدٌ بخصوصيَّةٍ مّا اقتضاها استعدادُه الذاتيُّ لماهيته العدميَّة، فهو مركَّبٌ من الوجود والعدم، وحقيقتُه مغايِرةٌ لوجودِه تعقُّلاً لتمايُزهما ذهناً، ولا ينافي ذلك قولَ الأشعري: وجودُ كلِّ شيء عينُ حقيقتِه؛ لما بُيِّن في محلِّه، وحقيقةُ الحقِّ تعالى لا تُغايِرُ وجودَه، ووجودُه سبحانه هو الوجودُ المطلَق بالإطلاق الحقيقيِّ حسبما حقَّقه محقِّقو الصُّوفية، فالمغايرةُ الذاتية بين المكلَّف والمكلِّف في غاية الظهور؛ لأنَّ المكلَّف هو المعدومُ اللابسُ لحصةٍ من الوجود المتعيِّنُ بمقتضى حقيقتِه، والمكلِّفُ سبحانه هو الحقُّ عزَّ وجلَّ الذي هو عينُ الوجود المطلَق الغير المقترن بماهيَّةٍ عدميَّة.

وبعبارة أخرى: إنَّ حقيقةَ الممكن أمرٌ معدوم، وحقيقةَ الواجب سبحانه الوجودُ المطلَق حتَّى عن قيدِ الإطلاق، وقد وقع في البَيْنِ تجلِّي الهوية في العبد، وذلك التجلِّي هو الجامعُ للقدرة وغيرِها من الكمالات التي يتوقَّف عليها التكليف بمقتضى الحكمةِ ومحققُ المغايرة.

وحاصلُ ذلك أنَّ حقيقةَ المزج بين تجلِّي الهوية والصورة الخَلْقيَّة المتعيِّنةِ بمقتضى الحقيقة العَدَميَّة هي التي أحدثت ما به يصحُّ التكليفُ وما يترتَّب عليه، وكونُ الحقِّ سبحانه قيُّوماً للوجود المقيَّد غيرُ قادحٍ في ذلك، بل القيُّوميَّةُ هي المصحِّحة له، لما تبيَّن من النصوص أنَّه لا تكليفَ إلَّا بالوسعِ، ولا وسعَ للممكن

إلا بقيُّوميَّته تعالى بنصِّ ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩] وما هو بالله فهو لله تعالى.

والبحثُ في ذلك طويل، وبعضُ كلماتهم يتراءى منها عدمُ المغايرة بين المكلَّف والمكلِّف، من ذلك ما قيل:

لقد كنتُ دهراً قبل أنْ يُكشفَ الغطا ... إخالُكَ أنِّي ذاكرٌ لك شاكرُ
فلمَّا أضاء الليلُ أصبحْتُ شاهداً ... بأنَّك مذكورٌ وذكرٌ وذاكر

لكنْ ينبغي أنْ لا يبادِرَ سامعُها بالإنكار، ويرجعَ في المراد منها إلى العارفين بدقائق الأسرار.

هذا وقد تقدَّم الكلام في ناقة صالح عليه السَّلام.

وفيما قصَّ اللهُ تعالى هاهنا عن إبراهيم عليه السلام إشارةٌ إلى بعض آداب الفتوَّة، فقد قالوا: إنَّ مِنْ آدابها إذا نزل الضيفُ أن يبدأ بالكرامة في الإنزال[1]، ثمَّ يثنِّي بالكرامة بالطعام، وإنَّما أَوْجَسَ عليه السَّلام في نفسه خيفةً لأنَّه ظنَّ الغضب، والخليلُ يخشى غضبَ خليله ومُناهُ رضاه، ولله درُّ مَن قال:

لعلَّك غضبان ولستُ بعالم ... سلامٌ على الدَّارين إنْ كنت راضيا

وفي هذه القصَّة دليلٌ على أنَّه قد ينسدُّ بابُ الفراسة على الكاملين لِحِكَم يريدُها الله تعالى، ومن ذلك لم يعرف إبراهيمُ وكذا لوطٌ عليهما السلامُ الملائكةَ عليهم السلام في أوَّل الأمر، وكانت مجادلتُه عليه السلام من آثار مقام الإدلال على ما قيل.

وقولُه تعالى عن لوطٍ عليه السلام: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ قيل: يشيرُ بالقوَّة إلى الهمَّة، وهي عندهم القوَّةُ المؤثِّرة في النفوس؛ لأنَّ القوَّة منها جسمانية ومنها روحانية، وهذه المسمَّاة بالهمَّة، وهي أقوى تأثيراً؛ لأنَّها قد تؤثِّر في أكثر العالم أو كلِّه بخلاف الجسمانية.

وقَصَدَ عليه السلام بالرُّكن الشديد القبيلةَ؛ لأنَّه يعلم أنَّ أفعال الله تعالى لا تظهرُ

(١) في الأصل: بالإنزال.

في الخارج إلا على أيدي المُظاهر، فتوجَّه إلى الله سبحانه وطلب منه أن يجعل له أنصاراً ينصرونه على أعداءِ الله تعالى، وردَّد الأمر بين ذلك وأن يجعل له همَّةً مؤثِّرةً من نفسه ليقاومَ بها الأعداء. وقد علمتَ ما روي عن النبيِّ ﷺ من قوله: «يرحم الله تعالى أخي لوطاً» الخبر[١]، وذكر الشيخُ الأكبر قدِّس سرُّه أنه عليه الصلاة والسلام نبَّه بذلك الخبر أنَّ لوطاً كان مع الله تعالى من أنَّه سبحانه ركنٌ شديدٌ.

والإشارةُ في قصَّة شعيبٍ عليه السلام إلى أنَّه ينبغي لمن كان في خيرٍ[٢] أنْ لا يعصيَ الله تعالى، وللواعظ أنْ لا يخالفَ فعلُه قولَه:

لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وتأتيَ مثلَه عارٌ عليك إذا فَعَلْتَ عظيمُ[٣]

وأنَّه لا ينبغي أن يكون عند العبد شيء[٤] أعزَّ عليه من الله تعالى، إلى غيرِ ذلك، والله تعالى الهادي إلى سبيل الرشاد.

❁ ❁ ❁

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وهي الآياتُ التِّسع: العصا، واليدُ البيضاء، والطُّوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدَّم، والنقصُ من الثمرات والأنفس. والباء متعلِّقةٌ بمحذوفٍ وقع حالاً من مفعول «أرسلنا»، أو نعتاً لمصدره المؤكِّد، أي: أرسلناه حالَ كونِه ملتبساً بآياتنا، أو: أرسلناه إرسالاً ملتبساً بها.

﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾﴾ هو المعجزاتُ الباهرةُ منها، أو هو[٥] العصا، والإفرادُ بالذِّكر لإظهار شرفِها لكونها أبهرَها، والمرادُ بالآيات ما عداها.

ويجوز أن يرادَ بهما واحدٌ، والعطف باعتبارِ التغايُر الوصفي، أي: أرسلناه

---

(١) صحيح البخاري (٣٣٨٧)، وصحيح مسلم (١٥١)، عن أبي هريرة، وسلف ١٠/ ٣٥٤، وص٤١ من هذا الجزء.

(٢) في (م): حيز.

(٣) سلف ١٠/ ٨٨.

(٤) في (م): شيء عند العبد.

(٥) في الأصل و(م): وهو، والمثبت من تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ١٣٣، وتفسير أبي السعود ٤/ ٢٣٨.

بالجامع بين كونه آياتنا وكونِه سلطاناً له على نبوَّته، واضحاً في نفسه أو موضِّحاً إيَّاها، من «أبان» لازماً بمعنى تبيَّن ومتعدِّياً[1] بمعنى «بيَّن».

وجَعَل بعضُهم الآيات والسلطانَ شيئاً واحداً في نفس الأمر، إلا أنَّ في ذلك تجريداً، نحو مررتُ بالرجلِ الكريم والنسمة المباركة[2]، كأنه جرَّد من الآيات الحجَّة وجعلَها غيرَها وعطف[3] عليها لذلك.

وجوَّز أن يكون المرادُ بالآيات ما سمعتَ، وبالسلطان ما بيَّنه عليه السلام في تضاعيف دعوتِه حين قال له فرعون: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ [طه: ٤٩] ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١] من الحقائقِ الرائقة، والدَّقائقِ اللائقة. أو هو الغلبةُ والاستيلاءُ كما في قوله سبحانه: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ [القصص: ٣٥].

وجَعْلُه عبارةً عن التوراة، أو إدراجُها في جملةِ الآيات، يردُّه كما قال أبو حيَّان قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ فإنَّ نزولها إنَّما كان بعد مهلكِ فرعون وقومِه قاطبةً[4]؛ ليعملَ بها بنو إسرائيل فيما يأتون ويَذَرون، وأمَّا فرعونُ وقومُه فإنما كانوا مأمورين بعبادةِ ربِّ العالمين، وتركِ العظيمةِ الشنعاء التي كان يدَّعيها الطاغيةُ وتقبَّلَها منه فئتُه الباغية، وبإرسال بني إسرائيل من الأَسْر والقَسْر.

ومن هذا يعلم ما في عدِّ النقص من الثمرات والنقصِ من الأنفس آيةً واحدة من الآيات التِّسع وعدِّ إظلال الجبل منها؛ لأنَّ ذلك إنما كان لقبولِ التوراة حين أباه بنو إسرائيل، فهو متأخِّرٌ أيضاً ضرورةً، ومثلُ ذلك عَدُّ فَلْقِ البحر وإظلالِ الغمام بدلهما؛ لأنَّ هذا الإظلال أيضاً متأخِّر عن مهلكِ فرعون وقومِه.

---

(١) في الأصل: أو متعدياً.

(٢) التجريد: هو أن ينتزع من أمرٍ ذي صفة آخر مثله مبالغةً في كمالها فيه. وفي المثال الذي ذكره المصنف جردوا من الرجل الكريم آخر مثله متصفاً بصفة البركة، وعطفوه عليه كأنه غيره، وهو هو، ومن أمثلته في القرآن أيضاً: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ [فصلت: ٢٨] ليس المعنى أن الجنة فيها دار خلد وغير دار خلد، بل هي نفسها دار الخلد، فكأنه جرَّد من الدار داراً. الإتقان ٢/ ٩١٧-٩١٨.

(٣) في (م): وعطفت، وفي حاشية الشهاب ٥/ ١٣٣ (والكلام منه): وعطفها.

(٤) البحر ٥/ ٢٥٨.

وأجاب بعضُ الأفاضل عن الاعتراض على جعل التوراةِ من الآيات بأنَّ التصحيح ممكنٌ:

أما أوَّلاً: فبما صرَّحوا به من جواز إرجاعِ الضمير وتعلُّق الجارِّ ونحوِه بالمطلق الذي في ضمن المقيَّد، فقوله سبحانه: «إلى فرعون» يجوز أن يتعلَّق بالإرسال المطلَق لا المقيَّد بكونه بالتوراة.

وأما ثانياً: فبأنْ يقال: إنَّ موسى عليه السَّلام كما أُرسل إلى الفراعنة أُرسل إلى بني إسرائيل أيضاً، فيجب أن يُحمل ملأُ فرعون على ما يشملُهم، فيجيءُ الكلامُ على التوزيع، على معنى: أرسلناه إلى فرعونَ بسلطانٍ مبينٍ وإلى ملئه بالتوراةِ، فيكون لفًّا ونشراً غيرَ مرتَّب، ويقال نحوُ هذا على تقدير عدِّ إظلالِ الجبل أو الغمامِ من الآيات.

وفي مجموعة سريِّ الدِّين المصري: أنَّ هذا السؤال مما أَورد الحافظ الطاشكندي[1] على مخدوم المُلْكِ[2]، فأجاب بأنَّ قوله سبحانه: «بآياتنا» حالٌ مقدَّرة، أي: مقدِّرين تلبُّسه أو نصرتَه بالآيات والسلطان إلى فرعونَ وملئه، فلا يقدحُ فيه ظهورُ بعضها بعد هلاك فرعون، كالتوراة، وانفجارِ الماء، وغيرِ ذلك. وبأنه قيل: إنَّ إعطاء التوراة مجموعاً مرتَّباً مكتوباً في الألواح بعد غرق فرعون، وأوحي بها إلى موسى عليه السَّلام في حياة فرعون، وكان يأمر بها قومَه ويبلِّغها إلى فرعون وملئه، ويؤيِّده ما قيل: إنَّ بعض الألواح كان منزَّلاً قبل نزول التوراة بتمامها، وكانت تلك الألواح من خشبٍ، والألواح التي كانت فيها التوراة بتمامها كانت من زمرُّد، أو من ياقوت أحمرَ، أو من صخرةٍ صمَّاءَ. انتهى.

ولا يخفى أنَّ الذهاب إلى كون الحال مقدَّرةً مما لا يكاد يقبله الذوقُ السليم. وما حَكَى من أنَّ إعطاءَ التوراة مجموعاً كان بعدُ والإيحاء بها كان قبلُ.. إلخ، مما لا مستندَ له من الأخبار الصحيحة.

(١) لعله محمد كمال الدين الشاشي الفركندي الحنفي النقشبندي نزيل الروم، المتوفى سنة (٩٨٠هـ)، له حاشية على تفسير البيضاوي. إيضاح المكنون ١/ ١٤١.

(٢) هو عبد الله الأنصاري السلطانبوري الهندي المتوفى سنة (١٠٠٦هـ)، من تصانيفه: عفيفة الأنبياء، وكشف الغمة عن بصائر الأئمة، ومنهاج الدين. هدية العارفين ١/ ٤٧٣.

وما ذكر أوّلاً من حديث التعلُّق بالمطلق، وثانياً من حمل الملأ على ما يشمل بني إسرائيل. إلخ، مِمَّا ينبغي أن ينزَّه ساحةُ التنزيل عنه، وكيف يُحمل الملأ على ما يشمل بني إسرائيل مع الإضافة إليهم وجَعْلِهم من أهل النار، ولا أظنُّك في مِرْيةٍ من القول بعدمِ صحَّة ذلك.

وقيل: لو جُعل «إلى فرعون» متعلِّقاً «بسلطانٍ مبين» لفظاً أو معنًى على تقديرِ: وسلطانٍ مرسَلٍ به إلى فرعون، لم يَبْعُدْ، مع المناسبة بينه وبين السلطان. وفيه ما لا يخفى، فتأمَّل.

وتخصيصُ الملأ بالذِّكر مع عموم رسالة موسى عليه السلام للقوم كافَّة؛ لأصالتهم في الرَّأي وتدبيرِ الأمور، واتِّباعِ الغير لهم في الورود والصدور.

ولم يصرِّح بكفر فرعون بالآيات وانهماكِه فيما كان عليه من الضَّلال والإضلال، بل اقتُصر على ذكرِ شأنِ ملئِه، فقيل: ﴿فَاتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: أمْرَه بالكفر بما جاء به موسى عليه السَّلام من الحقِّ = للإيذان بوضوح حالِه، فكأنَّ كفرَه وأَمْرَ ملئه بذلك أمرٌ متحقِّقُ الوجود غيرُ محتاج إلى الذِّكر صريحاً، وإنَّما المحتاجُ إلى ذلك شأنُ ملئه المتردِّدين بين هادٍ إلى الحقِّ وهو موسى عليه السلام، وداعٍ إلى الضَّلال وهو فرعون، فنعى عليهم سوءَ اختيارهم. وإيرادُ الفاء للإشعار بمفاجأتهم في الاتِّباع، ومسارعةِ فرعونَ إلى الكفر والأمرِ به، فكأنَّ ذلك لم يتراخَ عن الإرسال والتبليغ. وجوِّز أن يرادَ من الأمر الطريقةُ والشأنُ.

وقيل: معنى «فاتَّبعوا»: فاستمروا على الاتِّباع، والفاءُ مثل ما في قولك: وَعَظْتُه فلم يتَّعظْ، وزجرتُه فلم يَنْزَجِرْ؛ فإن الإتيان بالشيء بعدَ ورودِ ما يوجبُ الإقلاعَ عنه وإن كان استمراراً عليه لكنَّه بحسب العنوان فعلٌ جديد وصنعٌ حادث.

ويجوز أن يكون المراد: فاتَّصَفوا بما اتَّصف به فرعونُ من الكفر بما جاء به موسى عليه السَّلام والتكذيبِ له، ووافقوه في ذلك، وإيرادُ الفاء للإشعار بمفاجأتهم في الموافقة لفرعون في الكفر ومسارعتِه إليه، فكأنَّه حين حصل الإرسالُ والتبليغُ حصلَ كفرُ فرعون بما جاء به موسى عليه السَّلام، ووقع على أثرِه الموافقةُ منهم، ولا تتوهَّمنَّ أنَّ هذه الموافقةَ كانت حاصلةً لهم قبلُ؛ لأنَّها تتوقَّف على اتِّصاف فرعونَ بالكفر بما جاء به موسى عليه السَّلام، وذلك إنَّما تجدَّد له بعد

الإرسال والتبليغ، فلا ضرورةَ إلى الحمل على الاستمرار، وجَعْلِ الفاء كما في قولك: زجرتُه فانزجر، فتأمل.

وعُدل عن: أمره، إلى «أمرِ فرعون»؛ لدَفْع توهُّم رجوع الضميرِ إلى موسى عليه السَّلام من أوَّل الأمر، ولزيادةِ تقبيحِ حالِ المتَّبِعين، فإن فرعون عَلَمٌ في الفساد والإفساد، والضَّلال والإضلال، فاتِّباعُه لفَرْطِ الجهالة وعدمِ الاستبصار.

وكذا الحالُ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾ أي: براشدٍ، أو بذي رَشَد، والرَّشَدُ ضدُّ الغيِّ، وإسنادُه إلى الأمر مجازيٌّ، وكأنَّ في العدول عن: وأمرُ فرعون غيٌّ وضلالٌ، إلى ما في النَّظم الكريم زيادةً في تقبيح فعلِهم، وتحسيراً لهم على فوات ما فيه صلاحُ الدَّارين، أعني الرشد.

ويجوز أن يجعل الرَّشَد كنايةً عن المحموديَّة والإسنادُ حقيقيٌّ، أي: وما أمرُ فرعونَ بصالحٍ حميدِ العاقبة.

وقوله سبحانه: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ على الأوَّل استئنافٌ وقعَ جواباً لمن سأل عن حالِ المتبوع والتابع مآلاً، وعلى الثاني تفسيرٌ وإيضاحٌ لعدم صلاح عاقبته، أي: كيف يرشدُ أمرُ مَنْ هذه عاقبتُه؟

وجملة «وما أَمْرُ» إلخ جوِّز أن تكون حالاً من فاعل «اتَّبعوا» وأن تكون حالاً من مفعوله، قيل: وهو مختارُ الزمخشريِّ[1]. والمرادُ بالقوم ما يشمل الملأ وغيرهم.

و«يقدُم» كينصُر، من قَدَمَ كنَصَر بمعنى تقدَّم، ومنه قادِمةُ الرَّحْل، وهذا كما يقال: قَدَمه بمعنى تقدَّمه، ومنه مقدِّمةُ الجيش، وأَقْدَم بمعنى تقدَّم، ومنه مُقْدِمُ العين؛ فإنَّه بالكسر لا غير كما قاله المرزوقي، ومثله مُؤْخِر العين كما في «المزهر»[2].

---

(١) في الكشاف ٢/ ٢٩١.

(٢) المزهر في علوم اللغة وأنواعها ٢/ ٢٩٢، وعنه نقل المصنف قول المرزوقي، ومُؤْخِر العين مثل مؤمن: الذي يلي الصُّدْغ. ومُقْدِمها الذي يلي الأنف، ومؤخر العين ومقدمها جاء في العين بالتخفيف خاصة. اللسان (أخر).

والمراد مِن أَوْرَدَهم: يُورِدُهم، والتعبيرُ به دونه للإيذان بتحقُّق وقوعِه لا محالة. والقول بأنَّه باقٍ على حقيقته، والمراد: فأوردهم في الدنيا النارَ، أي: مُوْجِبَها وهو الكفر، ليس بشيءٍ.

ونصب «النار» على أنَّه مفعول ثانٍ لـ «أوردهم»، وهي استعارةٌ مكنيَّة تهكُّمية للضدِّ وهو الماء، وفي قرينتها احتمالاتٌ كما شاع في ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٥] وعلى احتمال المجاز يكون الإيرادُ مستعاراً استعارةً تبعيَّة لسوقهم إلى النار.

وجوَّز أن يقال: إنه شبَّه فرعون بالفارِطِ، وهو الذي يتقدَّم القومَ للماء، ففيه استعارةٌ مكنيَّة، وجَعْلُ أتباعه واردةً وإثباتُ الورود لهم تخييلٌ، وجوَّز أيضاً جَعْلُ المجموعِ تمثيلاً.

وجوَّز بعضُهم كونَ «يقدم» و«أَوْرَدَ» متنازعَيْنِ في «النار» إلا أنه أَعمل الثاني وحَذَف معمولَ الأوَّل[1]، وليس بذلك[2].

﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ أي: بئس الوِرْدُ الذي يَردونه النارُ؛ لأنَّ الوِرْدَ إنَّما يورَدُ لتسكينِ العطش وتبريدِ الأكباد، وفي النار تقطُّعُ الأكبادِ واشتعالُها، كذا قيل، فالوِرْدُ على هذا بمعنى النَّصيبِ من الماء «والمورود» صفتُه، والمخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ وهو النار.

وتُعقِّب بأنه لا بدَّ من تصادُقِ فاعل «بئس» ومخصوصِها، ولا تَصادُقَ على هذا، وأيضاً في جواز وصفِ فاعل «نعم وبئس» خلافٌ، وابن السرَّاج والفارسيُّ على عدم الجواز[3].

---

(١) في (م): مفعول الأول.

(٢) ولعل هذا بسبب ما ذكره السمين في الدر المصون ٦/ ٣٨٢ من أنَّ «يقدم» يصح أن يتسلط على «النار» بحرف الجر، أي: يقدم قومه إلى النار، وهنا قد أعمل الثاني للحذف من الأول، ولو أعمل الأول لتعدَّى بـ «إلى».

(٣) الأصول في النحو لابن السراج ١/ ١٢٠-١٢١، وذكره عن الفارسي وابن السراج ابنُ هشام في المغني ص٧٦٥، ونقل عن ابن مالك قوله: يمتنع نعته إذا قصد بالنعت التخصيص مع إقامة الفاعل مقام الجنس؛ لأن تخصيصه حينئذ منافٍ لذلك القصد، فأما إذا تُؤُوِّل بالجامع لأكمل الخصال فلا مانع من نعته حينئذ، لإمكان أن يُنوى في النعت ما نُوِي في المنعوت.

وجوَّز ابنُ عطية[١] كونَ «المورود» صفةً والمخصوص «النار»، إلا أنَّه جعل الكلام على حذف المضاف وإقامةِ المضاف إليه مقامه، فالتصادُقُ حاصلٌ في الحقيقة، أي: بئس مكانُ الوردِ[٢] الموردُ النارُ.

ومنهم مَن يجعلُ «المورود» هو المخصوصَ بالذَّم، والمراد به النار، ويقدِّر المضافَ ليحصلَ التصادقُ أيضاً، أي: بئس مكانُ الوردِ النار.

ومَن يجعلُ «الورد» فاعلَ «بئس» ويفسِّره بالجمع الوارد و«المورود» صفة لهم، والمخصوصُ بالذَّمِّ ضميرهم المحذوف، أي: بئس القومُ المورود بهم هم، فيكون ذمًّا للواردين لا لموضعِ الورود.

﴿وَأُتْبِعُوا۟﴾ أي: الملأ الذين اتَّبعوا أمرَ فرعون، وقيل: القوم مطلقاً ﴿فِى هَٰذِهِۦ﴾ أي: في الدنيا ﴿لَعْنَةً﴾ عظيمةً حيثُ يلعنهم مَن بعدَهم من الأمم ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾ أيضاً حيث يلعنُهم أهلُ الموقف قاطبةً، فهي تابعةٌ لهم حيثما ساروا، ودائرةٌ أينما داروا، فكما اتَّبعوا أمرَ فرعون اتَّبعتهم اللعنةُ في الدارين جزاءً وفاقاً.

وقال الكلبيُّ: اللعنة في الدنيا من المؤمنين أو بالغرق، ويومَ القيامة من الملائكةِ أو بالنار.

﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾ أي: بئس العونُ المعانُ كما نُقل عن أبي عبيدة[٣]، والمخصوصُ بالذَّمِّ محذوف، أي: رفدُهم. ويكون «الرفد» بمعنى العطيَّة كما يكون بمعنى العون.

قال أبو حيَّان: يقال: رَفَد الرجلَ يَرْفِدُه رَفداً ورِفداً: إذا أعطاه وأعانَه، من رفدَ الحائطَ: دَعَمه. وعن الأصمعيِّ الرَّفد بالفتح القَدَح، والرِّفد بالكسر ما فيه من الشَّراب. وقال الليث: أصلُ الرفد العطاءُ والمعونةُ، ومنه رفادةُ قريش: وهي معاونتُهم للحاجِّ بشيءٍ يخرجونه للفقراء، ويقال رفدَه رِفداً ورَفداً بكسر الراء وفتحها، ويقال: بالكسر الاسم، وبالفتح المصدر[٤].

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ٢٠٥.
(٢) في (م): الورود.
(٣) مجاز القرآن ١/ ٢٩٨.
(٤) البحر ٥/ ٢٥١.

وفسَّره هنا بالعطاء غيرُ واحد، وزَعْمُ أنَّ المقام لا يلائمه ليس بشيءٍ، نعم تفسيرُه بالعَوْنِ جاء في «صحيح» البخاري[1]. والمراد به على التفسيرين اللعنةُ، وتسميتُها عوناً على التفسير الأوَّل من باب الاستعارة التهكُّمية، وأما كونُها معاناً فلأنها أُرفدت في الآخرة بلعنةٍ أخرى لتكونا هاديتَيْن إلى صراط الجحيم، وكان القياسُ أن يسندَ المرفود إليهم؛ لأنَّ اللعنة في الدنيا تتبعهم وكذا في الآخرة؛ لقوله سبحانه: «وأتبعوا» إلخ، ولكن أُسند إلى «الرِّفد» الذي هو اللعنة على الإسناد المجازيِّ نحو جدَّ جدُّه، وجنونك مجنون، وكذا يعتبر الاستعارة والمجاز المذكوران على التفسير الثاني، كذا قيل.

وقال بعض المدقِّقين: إنَّ في قول الزمخشريِّ في بيان الآية على المعنى الأوَّل المنقولِ عن أبي عبيدة: وذلك أنَّ اللعنةَ في الدنيا رفدٌ للعذاب ومددٌ له، وقد رُفدت باللعنة في الآخرة[2]. ما يشعرُ بأنه ليس من الاستعارة التهكُّمية في شيءٍ، إذ لو كان رفداً للمعذَّبين لكان من ذلك القبيل، ثمَّ قال: وجعْلُه من باب جدَّ جدُّه أبعدُ وأبعدُ، لأنه ذكر أنه رفدٌ أُعين برفدٍ، أما لو فُسِّر بالتفسير الثاني ففيه الأوَّل لا الثاني؛ لأنَّه ليس مصدراً وإنَّما العطاءُ بمعنى ما يُعْطَى، فكثيراً ما يُطلق عليه. انتهى، وفيه نظرٌ لا يخفى.

ثم إنَّ القول بأنَّ هناك لعنتَيْن رُفِدتْ إحداهما بالأخرى هو المرويُّ عن مجاهد وغيرِه، فـ «يوم» معطوفٌ على محلِّ «في الدنيا».

وذهب قوم إلى أنَّ التقسيم هو أنَّ لهم في الدنيا لعنةً ويومَ القيامة بئسَ ما يرفدون به، فهي لعنةٌ واحدة أوَّلاً، وقبحُ إرفادٍ آخِراً. انتهى.

وتعقَّبه في «البحر» بأنَّ هذا لا يصحُّ؛ لأنَّه يدلُّ على أنَّ «يوم» معمولُ «بئس»، وهي لا تتصرَّفُ فلا يتقدَّم معمولُها عليها، ولو كان «يوم» متأخِّراً، صحَّ ذلك كما قال الشاعر:

---

(١) قبل الحديث (٤٦٨٦).

(٢) الكشاف ٢/ ٢٩١.

ولـنِـعْـمَ حَـشْـوُ الـدِّرع أنـت إذا دُعِـيـتْ نـزالِ ولُـجَّ فـي الـذُّعـر(١)

وهو كلامٌ وجيه.

والآية ظاهرةٌ في سوء حال فرعون يومَ القيامة؛ لأنَّه إذا كان حالُ الأتباع ما قَصَّ الله سبحانه، فما ظنُّك بحال مَن أغواهم وألقاهم في هذا الضَّلال البعيد؟ وهذا يعكِّرُ على مَن ذهب إلى أنَّه قُبض طاهراً مطهَّراً، بل قال بعضُهم: إنَّها نصٌّ في ردِّ ذلك؛ لأنَّه تعالى سلب عنه فيها الرَّشاد بعد موته، والمؤمن الطاهرُ المطهَّر لا يُسلب عنه الرَّشاد بعد الموت، ولعلَّ مَن ذهب إلى ذلك يقول: بابُ التأويل واسع، وبابُ الرَّحمة أوسعُ منه(٢).

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما قصَّ من أنباء الأمم وبعده باعتبار تقضِّيه، أو باعتبارِ ما قيل في غير موضع. والخطابُ لرسول الله ﷺ، وهو مبتدأ خبرُه ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ﴾ المُهْلَكةِ بما جنَتْه أيدي أهلِها فـ «أل» فيها للعهد السابق تقديراً بذكر أربابها(٣) ﴿نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾ خبر بعد خبر، أي: ذلك النبأُ بعضُ أنباء القرى مقصوصٌ عليك، وجوِّز أن يكون «من أنباء» في موضع الحالِ وهذا هو الخبر، وجوِّز أيضاً عكس ذلك.

﴿مِنْهَا﴾ أي: من تلك القرى ﴿قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ۝١٠٠﴾ أي: ومنها حصيدٌ، فالعطفُ من عَطْفِ الجملة على الجملة، وهو الذي يقتضيه المعنى كما لا يخفى، وقد شبِّه ما بقي منها بالزرع القائم على ساقه، وما عفا وبطلَ بالحصيد، فالمعنى: منها باقٍ ومنها عافٍ، وهو المرويُّ عن قتادة. ونحوُه ما روي عن الضحاك: «قائم» لم يخسف «وحصيد» قد خسف.

قيل: وحصيد الزَّرع جاء في كلامهم بمعنى الفناءِ، كما في قوله:

والـنـاس فـي قَـسْـم الـمـنـيَّـة بـيـنـهـم كـالـزَّرع مـنـه قـائـمٌ وحـصـيـد(٤)

---

(١) البحر ٥/ ٢٥٩، والبيت لزهير بن أبي سلمى، وهو في ديوانه ص٨٩. قال ثعلب شارح الديوان: أي: تتابَعَ الناس في الذعر.

(٢) ينظر ما سلف ١١/ ٢٨٣ وما بعدها.

(٣) في الأصل: أهلها.

(٤) البيت في النكت والعيون ٢/ ٥٠٣، وتفسير القرطبي ١١/ ٢٠٦، والبحر ٥/ ٢٦٠.

وصيغة فعيل بمعنى مفعول، أي: محصود كما قال الأخفش[١]، وجمعُه حَصْدَى وحِصاد مثل مَرضى ومِراض.

وجملة «منها قائم» إلخ مستأنفةٌ استئنافاً نحويًّا للتحريض على النَّظر في ذلك والاعتبار به، أو بيانيًّا كأنَّه سُئِل لَمَّا ذكرت: ما حالُها؟ فأجيب بذلك. وقال أبو البقاء: هي في موضع الحال من الهاء في «نقصُّه»[٢]. وجوَّز الطِّيبيُّ كونَها حالاً من «القرى».

وادَّعى صاحبُ «الكشف» أنَّ جَعْلَها حالاً من ضمير «نقصُّه» فاسدٌ لفظاً ومعنًى، ومن «القرى» كذلك؛ وفي «الحواشي الشهابية»[٣]: أراد بالفساد اللفظيِّ في الأوَّل خلوَّ الجملة من الواو والضمير، وفي الثاني مجيءَ الحال من المضاف إليه في غيرِ الصور المعهودة، وبالفساد المعنويِّ أنَّه يقتضي أنه ليس من المقصوص، بل هو حالٌ خارجةٌ عنها، وليس بمرادٍ، ولا يَسُوغُ جَعْلُ ما بعدَه ابتداءَ المقصوص، وفيه فسادٌ لفظيٌّ أيضاً.

وزعم بعضٌ أنه أراد بالفساد الأوَّل في الأوَّل ما ذكر، وفي الثاني وقوعَ الجملة الاسمية حالاً بالضمير وحدَه، وبالمعنوي[٤] تخصيصَ كونها مقصوصةً بتلك الحالة، فإنَّ المقصوصيَّةَ ثابتةٌ لها وللنَّبأ وقتَ قيام بعضها أيضاً. وقد أصاب بعضاً وأخطأ بعضاً.

ووجَّه الجلبيُّ الخلو عن الواو والضمير بأنَّ المقصودَ من الضمير الرَّبط، وهو حاصلٌ لارتباط ذلك بمتعلِّق ذي الحال وهو[٥] «القرى»، فالمعنى: نقصُّ عليك بعضَ أنباء القرى وهي على هذه الحالة تشاهدون فِعْلَ الله تعالى بها.

وتُعقِّب بأنَّ الاكتفاء في الربط بما ذكر مع خفائه مذهبٌ تفرَّد به الأخفش، ولم يذكره في الحال، وإنما ذكره في خبر المبتدأ. وقولُ أبي حيَّان: إنَّ الحال أبلغُ في

(١) في معاني القرآن ٢/ ٥٨٢.
(٢) الإملاء ٣/ ٣٠٣.
(٣) ٥/ ١٣٤-١٣٥.
(٤) في الأصل و(م): وبالضمير، والمثبت من حاشية الشهاب ٥/ ١٣٥.
(٥) في (م): وهي، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٥/ ١٣٤.

التخويف وضربِ المثل للحاضرين[(١)] [لا يُجدي][(٢)]، مع ما سمعتَ نفعاً، والحقُّ أنه لا وجهَ لِمَا ذكره أبو البقاء يعوَّل عليه إلا الذُّهول.

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ قيل: الضمير للقرى مراداً بها أهلُها، وقد أريد منها أوَّلاً حقيقتُها، ففي الكلام استخدامٌ[(٣)].

وقيل: الضمير لأهل القرى؛ لأنَّ هناك مضافاً مقدَّراً، أي: ذلك من أنباء أهل القرى، والضمائرُ منها ما يعود إلى المضاف، ومنها ما يعود إلى المضاف إليه، ومتى وضح الأمرُ جاز مثلُ ذلك.

وقيل: القرى على ظاهرِها، وإسنادُ الأنباء إليها مجازٌ، وضمير «منها» لها، وضمير «ظلمناهم» للأهل المفهوم منها.

وقيل: «القرى» مجازٌ على أهلها، والضميران راجعان إليها بذلك الاعتبار، أو يقدَّر المضافُ والضميران له أيضاً، وعلى هذا خُرِّج ما حكي عن بعضهم من أنَّ معنى «منها قائم وحصيد»: منها باقٍ نسلُه، ومنها منقطعٌ نسلُه.

وأيًّا ما كان ففي الكلام إيذانٌ بإهلاك الأهل، فيكون المعنى هنا: وما ظلمناهم بإهلاكنا إياهم ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ حيث اقترفوا بسوءِ استعدادهم ما يترتَّب عليه ذلك بمقتضى الحكمة ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ﴾ أي: ما نفعتهم ولا دفعتْ بأسَ الله تعالى عنهم ﴿ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ﴾ أي: يعبدونها ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أُوثر صيغةُ المضارع لحكايةِ الحال الماضية، أو للدلالةِ على استمرار عبادتِهم لها ﴿مِن شَىْءٍ﴾ أي: شيئاً من الإغناء، أو شيئاً من الأشياء.

فـ «ما» نافيةٌ لا استفهامية، وإن جوَّزه السَّمين[(٤)]، وتَعلَّق «عن» بما عنده لِمَا فيه من معنى الدفع، و«من» الأخيرة صلةٌ ومجرورُها مفعولٌ مطلق، أو مفعولٌ به للدفع.

---

(١) البحر ٥/ ٢٦٠.

(٢) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٥/ ١٣٥.

(٣) الاستخدام: أن يؤتى بلفظ له معنيان فأكثر مراداً أحد معانيه، ثم يؤتى بضميره مراداً به المعنى الآخر. ولهم فيه عبارة أخرى، وهي: أن يؤتى بلفظ مشترك، ثم بلفظين يفهم من أحدهما أحد المعنيين، ومن الآخر الآخر. الإتقان ٢/ ٩٠١.

(٤) في الدر المصون ٦/ ٣٨٥.

وقوله سبحانه: ﴿لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ أي: حين مجيء عذابِه، منصوبٌ بـ «أغنت» وهذا ـ على ما في «البحر» ـ بناء على خلافِ مذهب سيبويه؛ لأنَّ مذهبَه أنَّ «لَمَّا» حرفُ وجوبٍ لوجوبٍ(١).

وقرئ: «آلهتهم اللاتي» و«يُدْعَون» بالبناء للمفعول(٢)، وهو وصفٌ للآلهة كالتي في المشهورة، وفيه مطابقةٌ للموصوفِ ليست في «التي»، لكن قيل ـ كما في «جمع الجوامع» للجلال السيوطي ـ إنَّ «التي» في جمعِ غيرِ عالمٍ أكثرُ من اللاتي، نعم إنَّ الآلهة قد عوملت في الآية معاملةَ العقلاء؛ لأن عبَدَتها نزَّلوها منزلةَ العقلاء في اعتقادهم فيها أنها تنفع وتضرُّ، فقيل: ﴿وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ١٠١﴾ ومن هنا قيل: إنَّ «اللاتي» في تلك القراءة واقعٌ موقعَ الأُلَى أو الذين.

و«التتبيب» على ما في «البحر»: التخسير، يقال: تبَّ خَسِر، وتبَّبه خسَّره(٣). وذكر الجوهري أنَّ التبَّ الخسران والهلاك، والتتبيب الإهلاك(٤). وفي «القاموس»: التبُّ والتَّبَبُ والتَّباب والتَّتبيب: النَّقص والخسار(٥).

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عمر ومجاهدٍ تفسيرَ ذلك بالتخسير(٦). وكذا أخرج الطستي عن ابن عباس ﵄، إلا أنه استشهد عليه بقول بشر بن أبي خازم:

هُمُ جَدَعوا الأنوفَ فأذهبُوها ... وهُمْ تركوا بني سعدٍ تبابا(٧)

وحينئذٍ فالمعنى: فما زادوهم غيرَ تخسيرٍ ـ أو خسارةٍ ـ لنفوسهم، حيث استحقُّوا العذابَ الأليم الدائمَ على عبادتهم لها، نسألُ الله تعالى العفوَ والعافية.

---

(١) البحر ٥/ ٢٦٠، وينظر الكتاب ٤/ ٢٣٤.
(٢) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٤٠.
(٣) البحر ٥/ ٢٥١.
(٤) الصحاح (تبب).
(٥) القاموس (تبب).
(٦) تفسير الطبري ١٢/ ٥٧٠، والدر المنثور ٣/ ٣٤٩.
(٧) ذكره عن الطستي السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٤٩، وأخرجه من طريق الطستي في الإتقان ١/ ٣٩٩، والبيت في ديوان بشر ص٧٧ برواية يبابا. وجاء في المصادر: فأوعبوها، بدل: فأذهبوها.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلُ ذلك الأخذِ والإهلاكِ الذي مرَّ بيانُه، وهو على ما قال السَّمين: خبرٌ مقدَّم، وقولُه سبحانه: ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾ مبتدأٌ مؤخَّر(١). وقيل: بالعكس. والكافُ يحتمل أن تكونَ اسميَّةً وأن تكون حرفيَّة، وقد يجعل المشارُ إليه الأخذَ المذكورَ بعدُ كما تحقَّق قبلُ.

وفي قراءة عبد الله: «كذلك» بغير واو(٢).

﴿إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: أهلَها، وإنَّما أسند إليها للإشعار بسريانِ أثرِه.

وقرأ الجحدريُّ وأبو رجاء: «وكذلك أَخَذَ ربُّك إذ أخذ»(٣) على أنَّ «أَخَذَ ربُّك» فعلٌ وفاعل، والظرفُ لِمَا مضى، وهو إخبارٌ عمَّا جرت به عادةُ الله تعالى في إهلاك مَن تقدَّم من الأمم، و«كذلك» على هذا سادٌّ مسدَّ المصدر النوعيِّ، ولا مانعَ من تقدُّمه على الفعل.

و«القرى» متنازعٌ للمصدر والفعل.

وقولُه سبحانه: ﴿وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ﴾ في موضع الحال من «القرى»، ولذا أنَّث الضمير و«ظالمة»، إلَّا أنَّ وصفَ القرى بالظُّلم مجازٌ، وهو في الحقيقة صفةُ أهلها. وجَعْلُه حالاً من المضاف المقدَّر أوَّلاً وتأنيثُه مكتسبٌ من المضاف إليه تكلُّفٌ.

وفائدةُ هذه الحال: الإشعارُ بأنَّ أَخْذَهم بسبب ظلمهم، وفي ذلك من إنذار الظالمِ ما لا يخفى.

والمرادُ بالظلم إما الكفرُ أو ما هو أعمُّ، وظاهرُ صنيع بعضهم أخذاً من إطلاقه أنه شاملٌ لظلم المرء نفسَه وغيرَه.

﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ﴾ وجيعٌ ﴿شَدِيدٌ ١٠٢﴾ لا يُرجى منه الخلاصُ، وهذا مبالغةٌ في التهديد والتحذير، أخرج الشيخان في «صحيحيهما» والترمذيُّ والنسائيُّ وابنُ ماجه

(١) الدر المصون ٦/ ٣٨٥.

(٢) أخرجها ابن أبي داود كما في الدر المنثور ٣/ ٣٤٩.

(٣) البحر ٥/ ٢٦١، والدر المصون ٦/ ٣٨٥. ووقع في الأصل و(م): إذا، بدل: إذ، وهي كذلك على قراءة طلحة بن مصرف كما ذكر أبو حيان والسمين عنه أنه قرأ: «وكذلك أَخَذَ ربُّك إذا أَخَذَ».

وآخرون عن أبي موسى الأشعريِّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى ليُمْلي للظالم حتى إذا أَخذَه لم يُفْلِتْه» ثم قرأ: (وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ) إلى قوله تعالى: (إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ)[١].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في أخذِه سبحانه للأمم المهلَكة، أو فيما قصَّ من أخبارهم ﴿لَآيَةً﴾ أي: لعلامةً، وفسَّرها بعضُهم بالعبرة لِمَا أنَّها تلزمُها، وهو حسنٌ، والتنوين للتعظيم، أي: لَعبرةً عظيمة ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾ فإنَّه إذا رأى ما وقع في الدنيا بالمجرمين من العذاب الأليم اعتَبر به حالَ العذابِ الموعود، فإنَّه عصاً من عُصيَّة[٢]، وقليلٌ من كثير، وانزجر بذلك عن المعاصي التي يترتَّب عليها العذابُ، وأكبَّ على التقوى والخشية من الله تعالى.

وقد أقيم «من خاف» إلخ مُقام مَن صدَّق بذلك؛ لما بينهما من اللزوم، ولأنَّ الاعتبار إنَّما ينشأ من الخوف، وذكر هذا القيد لأنَّ مَن أنكر الآخرةَ وأحالَ فناءَ هذا العالم، أسندَ الحوادث إلى أسبابٍ فلكيَّة وأوضاعٍ مخصوصة، فلم يعتبر بذلك أصلاً، ولم يَنْزجر عن الضلالة قطعاً، وقال: إنَّ ما وقع إنَّما وقع لهاتيك الأسبابِ والأوضاع، لا للمعاصي التي اقترفتْها الأممُ المُهلَكة.

وقيل: المرادُ: إنَّ فيما ذكر دليلاً على عذاب المجرمين في الآخرة؛ لأنَّهم إذا عذِّبوا في الدنيا لإجرامهم وهي دارُ العمل، فلَأَنْ يعذَّبوا في الآخرة عليه ـ وهي دارُ الجزاء ـ أَولى.

وقيل: المراد: إنَّ فيه دليلاً على البَعث والجزاء، وذلك أنَّ الأنبياء عليهم السلام قد أَخبروا باستئصال من كذَّبهم وأشرك بالله، ووقع ما أخبرُوا به وفقَ إخبارهم، وذلك أحدُ الشواهد على صِدْقهم، فيكونون صادقين فيما يُخبرون به من البَعث والجزاءِ، فلا بدَّ أن يقع لا محالةَ، والتقييدُ بما ذكر هنا كالتقييد في قوله سبحانه: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]. وهو كما ترى.

---

(١) صحيح البخاري (٤٦٨٦)، وصحيح مسلم (٢٥٨٣)، وسنن الترمذي (٣١١٠)، وسنن النسائي الكبرى (١١١٨١)، وسنن ابن ماجه (٤٠١٨).

(٢) في المثل: إن العصا من العصية، والعصا فرس جذيمة، والعصية أمها، أي: بعضُ الأمر من بعضٍ. المستقصى ١/ ٣٣٤، والقاموس (عصا).

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى يوم القيامة المدلول عليه بذكرِ الآخرة ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ أي: يُجمعُ له الناسُ للمحاسبة والجزاء، فـ «الناسُ» نائبُ فاعلِ «مجموعٌ»، وأجاز ابنُ عطيةَ أن يكون مبتدأً، و«مجموعٌ» خبرُه[1]. وفيه بُعدٌ؛ إذ الظاهرُ حينئذٍ أن يكون مجموعاً[2].

وعدل عن الفعل ـ وكان الظاهرَ ـ ليدلَّ الكلامُ على ثبوت معنى الجمع وتحقُّقِ وقوعه لا محالةَ، وأنَّ الناس لا ينفكُّون عنه، فهو أبلغُ من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩] وإيضاحُه: أنَّ في هذا دلالةً على لزومِ الوصف ولزومِ الإسناد، وفي ذلك على حدوث تعلُّق الجمع بالمخاطبين واختصاصِه باليوم، ولهذا استدركه بقوله: «الجمع»، فأضاف اليوم إليه ليدلَّ على لزومه له، وإنَّما الحادثُ جمعُ الأوَّلين والآخِرين دفعةً.

﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي: يوم القيامة مع ملاحظة عنوان جمعِ الناس له ﴿يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ أي: مشهودٌ فيه، فاتَّسع في الجارِّ والمجرور، ووصل الفعل إلى الضمير إجراءً له مجرى المفعولِ به، كما في قوله:

ويوماً شهدناه سُلَيماً وعامراً قليل سوى طَعْنِ الدّراك نوافلُه[3]

أي: يشهدُ فيه الخلائقُ الموقفَ لا يغيبُ عنه أحدٌ، وإنما لم يُجعل نفسُ اليوم مشهوداً بل جُعل مشهوداً فيه ولم يُذكر المشهودُ، تهويلاً وتعظيماً أن يجري على اللسان، وذهاباً إلى أنْ لا مجال لالتفاتِ الذِّهن إلى غيره.

وقد يقال: المشهودُ هو الذي كثُر شاهدوه، ومنه قولهم: لفلانٍ مجلسٌ مشهودٌ، وطعامٌ محضورٌ، ولأمِّ قيسٍ الضبِّيةِ:

ومشهدٍ قد كَفيتَ الناطقين به في محفلٍ من نواصي الناس مشهودِ[4]

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٠٦.

(٢) أي: مجموعون، كما يقال: الناس قائمون ومضروبون، ولا يقال: قائم ومضروبٌ، إلا بضعف. الدر المصون ٦/ ٣٨٦.

(٣) البيت لرجل من بني عامر، وسلف ١/ ٢٨٤، و١١/ ٥٣١.

(٤) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/ ١٠٦٠، واللسان (نصو)، وحاشية الشهاب ٥/ ١٣٦، وذكره دون نسبة الجوهري في الصحاح (نصا)، وهو في هذه المصادر برواية: الغائبين، =

واعتبروا كثرةَ شاهِدِيهِ نظراً إلى أنَّه الذي يستحقُّ أن يطلقَ اسمُ المشهود على الإطلاق عليه، ولو جُعِلَ اليومُ نفسُه مشهوداً من غير هذا الاعتبارِ لم يحصل الغرضُ من تعظيم اليوم وتمييزِه، فإنَّ سائر الأيام كذلك، لكنْ جاء الامتيازُ من ذلك لِمَا أُضيف إليه من الكثرة المهولةِ المميِّزة، وبما ذكر يُعلم سقوطُ ما قيل: الشهودُ الحضور، واجتماع الناس حضورهم، فـ «مشهود» بعد «مجموع» مكرَّر.

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ أي: ذلك اليوم الملحوظ بعنوان الجمع والشهود، ونقل الحوفيُّ رجوعَ الضمير للجزاء. وقرأ الأعمشُ ويعقوب: «يؤخِّره» بالياء[1].

﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ أي: لانتهاء مدَّةٍ قليلة، فالعدُّ كنايةٌ عن القلَّة، وقد يُجعلُ كنايةً عن التناهي. والأجَلُ عبارةٌ عن جميع المدَّة المعيَّنة للشيء، وقد يُطلق على نهايتِها، ومنعُ إرادة ذلك هنا لأنَّه لا يوصفُ بالعدِّ في كلامهم بوجهٍ. وجوَّزها بعضُهم بناءً على أنَّ الكناية لا يُشترط فيها إمكانُ المعنى الأصلي. وتُعقِّب بأنَّه عدولٌ عن الظاهر، وتقديرُ المضاف أسهلُ منه.

واللامُ للتوقيت، وفي «المجمع» أنَّها تدلُّ على الغرضِ، وأنَّ الحكمة اقتضت التأخيرَ، ولذا عُدل عن «إلى» إليها[2].

وفي الآية ردٌّ على الدهريَّة والفلاسفة، الزاعمين أنَّه لا انقضاءَ لمدَّة الدنيا، وهو بحثٌ مفروغ منه.

﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ أي: ذلك اليومُ المؤخَّرُ بانقضاءِ أجلِه المضروبِ حَسْبَما تقتضيه الحكمةُ، وهو المرويُّ عن ابن جريج.

وقيل: الضميرُ للجزاء أيضاً.

= بدل: الناطقين. وذكر عجزه الزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٩٢. وهو في الأغاني ١٨/ ٣٠٣ دون نسبة برواية: وموقفٍ قد كفيت الناطقين به.
قال المرزوقي في شرح البيت: نواصي الناس، أي: أشرافهم والمقدَّمين فيهم، تقول: ربَّ مشهدٍ عظيم الشأن تكلمت فيه عن نفسك، ونُبت عن الغائبين من مُعْتَلِقِي حَبْلِكَ، واليوم يومٌ مشهودٌ، ورؤساء الناس وأماثلهم فيه شهود.

(١) تفسير البغوي ٢/ ٤٠١، وزاد المسير ٤/ ١٥٧، والبحر ٥/ ٢٦١.

(٢) مجمع البيان ١٢/ ٢١٦.

وقيل: لله تعالى، وفيه من تفخيم شأن اليوم ما لا يخفى، ويعضدُه قراءةُ «وما يؤخره» بالياء، ونسبةُ الإتيان ونحوِه إليه سبحانه أتت في غير ما آية.

واعتُرض الأوَّل بأنَّ التقديرَ عليه: يوم إتيانِ ذلك اليوم، ولا يصحُّ لأنَّ تعرُّف اليوم بالإتيان يأبى تعرُّف الإتيان به، ولأنَّ إتيانَ اليوم لا ينفكُّ عن يوم الإتيان، فيكفي الإسناد وتلغو الإضافةُ، ونقل العلَّامة الطيبيُّ نصًّا على عدم جوازه، كما لا تقول: جئتك يوم يسرُّك.

وأجيبَ أنَّ كلَّ زمانٍ له شأنٌ يعتبرُ تجدُّده، كالعيد، والنيروز، والساعة مثلاً، يجري مَجرى الزمانيِّ وإن كان في نفسه زماناً، فباعتبار تغايُر الجهتين صحَّت الإضافةُ والإسنادُ، كما يصحُّ أن يقال: يومَ تقومُ الساعة، ويومَ يأتي العيدُ، والعيدُ في يوم كذا، فالأوَّلُ زمانٌ وضميرُه ـ أعني فاعلَ الفعل ـ زمانيٌّ، وإذا حسُن مثلُ قوله:

فسَقَى الغضى والسَّاكنيه وإن هُمُ شبُّوه بين جَوانحي وضُلُوعي[(١)]

فهذا أحسنُ.

وقرأ النحويان ونافع: «يأتي» بإثبات الياء وصلاً وحذفِها وقفاً، وابنُ كثير بإثباتها وصلاً ووقفاً، وهي ثابتةٌ في مصحف أبيٍّ، وقرأ باقي السبعة بِحَذْفِها وصلاً ووقفاً[(٢)]. وسقطت في مصحف عثمان رضي الله عنه[(٣)].

وإثباتُها وَصْلاً وَوَقْفاً هو الوجهُ، ووجهُ حَذْفِها في الوقف التشبيهُ بالفواصل، ووصلاً ووقفاً التخفيف، كما قالوا: لا أدر ولا أبالِ، وذكر الزمخشريُّ أنَّ الاجتزاء بالكسرةِ عن الياء كثيرٌ في لغة هذيل[(٤)]، ومن ذلك قوله:

---

(١) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص للعباسي ٢/ ٢٦٩، والتاج (غضا)، والبيت للبحتري، وهو في ديوانه ١/ ٢٤٦، برواية: شبُّوه بن جوانحٍ وقلوبِ. قال العباسي: هكذا هو في ديوانه، وإن كان في كثير من نسخ التلخيص، بل وفي كثير من كتب هذا الفن بلفظ: بين جوانحي وضلوعي. وقال صاحب التاج: أعاد ضمير شبُّوه إلى الغضا، وأراد به ناره؛ إذ هو من أجود الوقود.

(٢) التيسير ص١٢٧، والنشر ٢/ ٢٩٢، والبحر ٥/ ٢٦١، والكلام منه.

(٣) المقنع للداني ص٣١-٣٣، والبحر ٥/ ٢٦١، والكلام منه.

(٤) الكشاف ٢/ ٢٩٣.

كـفَّـاكَ كـفٌّ مـا تُـلِـيـقُ درهـمـاً جوداً وأخرى تُعْطِ بالسيف الدِّما[١]

وقرأ الأعمش: «يوم يأتون» بواو الجمع، وكذا في مصحف عبد الله[٢]، أي: يوم يأتي الناسُ، أو أهلُ الموقف.

﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾ أي: لا تتكلَّم بما ينفعُ وينجي من جوابٍ أو شفاعة. وهذا الفعلُ على الأظهر هو الناصبُ للظرف السابق. وجوِّز أن يكون منصوباً بالانتهاء المضافِ إلى الأجل، وأنْ يكون مفعولاً به لـ «اذكر» محذوفاً.

وهذه الجملة في موضع الحال من ضميرِ اليوم. وأجاز الحوفيُّ وابن عطية كونَها نعتاً لـ «يوم»[٣]. وتُعقِّب بأنه يقتضي أنَّ إضافتَه لا تفيده تعريفاً، وهو ممنوع، ولعلَّ مَن يدَّعي ذلك يقول: إنَّ الجمل بمنزلة النَّكرات حتَّى أطلقوا عليها ذلك، فالإضافة إليها كالإضافة إليها.

﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: إلا بإذن الله تعالى شأنُه وعزَّ سلطانُه في التكلُّم، كقوله سبحانه: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [النبأ: ٣٨]. وهذا في موقفٍ من مواقفِ ذلك اليوم، وقولُه تبارك وتعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۞ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥-٣٦] في موقف آخرَ من مواقفِه، كما أنَّ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١] في آخر منها، وروي هذا عن الحسن.

وقد ذكر غيرُ واحد أنَّ المأذونَ فيه الأجوبةُ الحقَّة، والممنوعَ منه الأعذارُ الباطلة، نعم قد يُؤْذَنُ فيها أيضاً لإظهار بطلانها كما في قول الكفرة: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] ونظائرِه. والقولُ بأنَّ هذا ليس من قبيل الأعذار وإنَّما هو إسنادُ الذَّنب إلى كبرائهم وأنَّهم أضلُّوهم، ليس بشيءٍ كما لا يخفى.

وفي «الدُّرر والغُرر» للسيِّد المرتضى أنَّ بين قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/٢٧، والأضداد لابن الأنباري ص٢٦٤، ودرة الغواص ص١٦٥. قوله: ما تليق درهماً، أي: ما تحبسه. اللسان (ليق).

(٢) المحرر الوجيز ٣/٢٠٦-٢٠٧، والبحر ٥/٢٦٢.

(٣) المحرر الوجيز ٣/٢٠٧، وذكره عنه وعن الحوفي أبو حيان في البحر ٥/٢٦٢.

نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ وقوله سبحانه: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥-٣٦] وكذا قوله جلَّ وعلا: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧] اختلافاً بحسب الظاهر. وأجاب قومٌ من المفسرين عن ذلك بأنَّ يومَ القيامة يومٌ طويل ممتدٌّ، فيجوز أن يُمنعوا النُّطقَ في بعضه ويؤذَنَ لهم في بعضٍ آخرَ منه.

ويُضعف هذا الجوابَ أنَّ الإشارة إلى يوم القيامة بطولِه، فكيف يجوزُ أن تكون الآياتُ فيه مختلفة؟ وعلى ما ذكروه يكون معنى (هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ): هذا يوم لا ينطقون في بعضه، وهو خلافُ الظاهر.

والجواب السَّديد عن ذلك أن يقال: إنَّما أريدَ نفيُ النُّطق المسموعِ المقبولِ الذي ينتفعون به، ويكونُ لهم في مثلِه إقامةُ حجَّةٍ وخلاصٌ، لا نفيُ النُّطق مطلقاً بحيث يعمُّ ما ليس له هذه الحالة، ويجري هذا المجرى قولُهم: خَرِسَ فلانٌ عن حجَّته، و: حَضَرْنا فلاناً يناظر فلاناً فلم نرهُ قال شيئاً، وإن كان الذي وُصِف بالخرس والذي نُفي عنه القولُ قد تكلَّم بكلامٍ كثير، إلا أنَّه من حيثُ لم يكنْ فيه حجَّةٌ ولم يتضمَّن منفعةً جاز إطلاقُ ما حكيناه عليه، ومثلُه قولُ الشاعر:

أعمى إذا ما جارتي خَرجَتْ حتَّى يواري جارتي الخدرُ
ويصمُّ عمَّا كان بينهما سمعي وما بي غيرَه وقرُ[1]

وعلى هذا فلا اختلافَ؛ لأنَّ التساؤُلَ والتلاوُمَ مثلاً لا حجَّة فيه.

وأمَّا قوله سبحانه: (وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) فقد قيل فيه: إنَّهم غيرُ مأمورين بالاعتذار فكيف يعتذرون؟ ويحمل الإذن على الأمر، وإنما لم يؤمروا به لأنَّ تلك الحالةَ لا تكليفَ فيها، والعبادُ ملجؤون عند مشاهدةِ الأهوال إلى الاعترافِ والإقرار، وأحسنُ من هذا أن يُحملَ (وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ) أنه لا يُسمعُ لهم ولا يُقبل عذرُهم[2]. انتهى.

وأنت تعلم أن تضعيفَه لِمَا أجاب به القوم من امتدادِ يوم القيامة، وجوازِ كون المنع من النُّطق في بعضٍ منه والإذنِ في بعضٍ آخرَ، ليس بمرتضًى عند ذي الفكرِ

(١) البيتان لمسكين الداري، وقد سلفا ١/ ٤٧٣.
(٢) أمالي المرتضى غرر الفوائد ودرر القلائد ١/ ٤٣-٤٤.

الرضيّ؛ لظهورِ صحَّة وقوعِ الزمان الممتدّ ظرفاً للنقيضين فيما إذا لم يقتضِ كلٌّ منهما أو أحدُهما جميعَ ذلك الزمان، وقد شاع دفعُ التناقض بين الكلامين بمثل ما فعلوا، ومرجعُه إلى القول باختلاف الزمان كما أنَّ مرجعَ ما روي عن الحسن إلى القول باختلافِ المكان، واتِّحادُ الزمان والمكان من شروط تناقُضِ القضيَّتين، وليس هذا الذي فعلوه بأبعدَ مِمَّا فعله المرتضى، على أنَّ في كلامه بعدُ ما لا يخفى.

وقال بعض الفضلاء: لا منافاةَ بين هذه الآية والآيات التي تدلُّ على التكلُّم يومَ القيامة؛ لأنَّ المرادَ من «يوم يأتي»: حين يأتي، والقضيَّةُ المشتملةُ على ذلك وقتيَّةٌ حُكم فيها بسلب المحمول عن جميع أفرادِ الموضوع في وقتٍ معيَّنٍ، وهذا لا ينافي ثبوتَ المحمول للموضوع في غير ذلك الوقت.

وقال ابن عطية: لا بدَّ من أحدِ أمرين: إمَّا أن يقال: إنَّ ما جاء في الآيات من التلاوُم والتساؤُل والتجادُل ونحوِ ذلك مما هو صريحٌ في التكلُّم كان عن إذن، وإمَّا أن يحملَ التكلُّم هنا على تكلُّمِ شفاعةٍ أو إقامةِ حجَّة[1]. وكلَا القولين كما ترى.

والاستثناء قيل: من أعمِّ الأسباب، أي: لا تكلَّم نفسٌ بسببٍ من الأسباب إلا بسببِ إذنه تعالى؛ وهو متَّصل. وجوَّز أن يكون منقطعاً ويقدَّر ما لا يتناول المستثنى، أي: لا تكلَّمُ نفسٌ باقتدارٍ من عندها إلَّا بإذنه تعالى، ولا يخفى أنَّ هذا استثناءٌ مفرَّغ، وقد طرقَ سمعَك ما هو الأصحُّ فيه. وقرئ كما في «المصاحف» لابن الأنباري: «يوم يأتون لا تكلَّم دابَّة إلا بإذنه»[2].

﴿فَمِنْهُمْ﴾ أي: من[3] أهل الموقفِ المدلولِ عليه بقوله سبحانه: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾، أو الجميعِ الذي تضمَّنه «نفس» إذ هو اسمُ جنس أريدَ به الجميعُ على ما نقله أبو حيَّان عن ابن عطيَّة[4]، أو الناسِ المذكورِ في قوله سبحانه: ﴿مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٠٧.

(٢) الدر المنثور ٣/ ٣٤٩، والقارئ هو عمر بن ذر.

(٣) قوله: من، ليس في (م).

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٢٠٧، والبحر ٥/ ٢٦٢.

ونقل ابنُ الأنباري أنَّ الضميرَ لأمةِ محمدٍ ﷺ، وهو من الغرابةِ بمكان، وكأنَّه قَصَدَ هذا القائلُ بذلك تمهيداً لتوجيه(١) الاستثناء الآتي، وهو ولله الحمدُ غنيٌّ عن ذلك.

والظاهرُ أنَّ «مِن» للتبعيض، والجارُّ والمجرورُ خبرٌ مقدَّم، وقوله سبحانه: ﴿شَقِيٌّ﴾ مبتدأ. وقوله تعالى: ﴿وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ بتقدير: ومنهم سعيد، وحذف منهم لدلالة الأوَّل عليه.

والسعادةُ على ما قال الراغب: معاونةُ الأمور الإلهية للإنسان على نَيل الخير، ويضادُّها الشقاوة(٢). وفسَّر في «البحر» الشقاوةَ بنكدِ العيش و سوئِه، ثم قال: والسَّعادة ضدُّها(٣). وفي القاموس ما يقرُبُ من ذلك(٤)، فالشقيُّ والسعيدُ هما المتَّصفان بما ذُكر.

وفسَّر غيرُ واحد الأوَّل بمن استحقَّ النار بمقتضى الوعيد، والثاني بمن استحقَّ الجنَّة بموجبِ الوعد، وهذا هو المتعارَفُ بين الشَّرْعِيِّينَ.

وتقديمُ الشقيِّ على السعيد لأنَّ المقامَ مقامُ الإنذار والتحذير.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ أي: سَبَقتْ لهم الشَّقاوة ﴿فَفِى ٱلنَّارِ﴾ أي: مستقرُّون فيها ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾﴾ قال أهلُ اللغة من الكوفية والبصريَّة: الزفيرُ بمنزلة ابتداءِ صوت الحمار، والشهيقُ بمنزلة آخرِ نهيقه، قال رؤبة:

حَشْرَجَ في الصَّدْر صهيلاً أو شَهَقْ ... حتَّى يقال ناهقٌ وما نَهَقْ(٥)

وقال ابن فارس: الزفير إخراجُ النَّفَس، والشهيق ردُّه(٦). قال الشَّمَّاخ في حمارِ وحشٍ:

---

(١) في الأصل: تمهيد التوجيه.
(٢) مفردات الراغب (سعد).
(٣) البحر ٥/٢٥١.
(٤) القاموس (سعد) و (شقي).
(٥) ديوان رؤبة ص١٠٦، والبحر ٥/٢٥١، ورواية الديوان: حشرج في الجوف سميلاً أو شهق...
(٦) مجمل اللغة ١/٥١٤.

بعيدُ مَدَى التَّطريبِ أوَّلُ صوتِه زفيرٌ ويتلوه شهيقٌ مُحشرج[(١)]

وقال الراغب: الزفير: ترديدُ النَّفَس حتى تنتفخَ الضُّلوع منه، من زَفَر فلانٌ: إذا حَمَلَ حملاً بِمشقَّةٍ فتردَّد فيه نَفَسُه، ومنه قيل للإماء الحاملات الماءَ: زوافر. والشهيق: طولُ الزفير، وهو ردُّ النَّفَس، والزفير مدُّه، وأصله من: جبلٍ شاهقٍ، أي: مُتناهٍ في الطول[(٢)].

وعن ابن السائب[(٣)] أنَّ الزفير للحمير، والشهيق للبغال. وهو غريبٌ.

ويُراد بهما الدّلالةُ على كَرْبِهم وغمِّهم، وتشبيهُ حالهم بحالِ مَن استولتْ على قلبه الحرارةُ وانحصر فيه روحُه، أو تشبيهُ أصواتهم بأصوات الحمير، ففي الكلام استعارةٌ تمثيليَّة أو استعارةٌ مصرَّحة.

والمأثورُ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: يريد ندامةً، ونَفَساً عالياً، وبكاءً لا ينقطع.

وقرأ الحسن: «شُقُوا» بضمِّ الشين[(٤)]. فاستُعمل متعدِّياً؛ لأنه يقال: شقاه الله تعالى، كما يقال: أشقاه.

وجملة «لهم فيها زفير» إلخ مستأنفةٌ، كأنَّ سائلاً قال: ما شأنُهم فيها؟ فقيل: لهم فيها كذا وكذا. وجوِّز أن تكون منصوبةَ المحلِّ على الحاليَّة من «النار» أو من الضمير في الجارِّ والمجرور، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ خلا أنه إن أُريد حدوثُ كونِهم في النار، فالحالُ مقدَّرة.

﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي: مدَّةَ دوامهما، وهذا عبارةٌ عن التأبيد ونفي الانقطاع، على منهاجِ قول العرب: لا أفعلُ كذا ما لاحَ كوكبٌ، وما أضاءَ الفجرُ،

---

(١) ديوان الشماخ ص٨٨، والكشاف ٢/ ٢٩٣، والبحر ٥/ ٢٥١، ورواية الديوان:

بعيدُ مدى التطريبِ أُولى نهاقِه سحيلٌ وأُخراه خفيٌّ المحشرج

(٢) مفردات الراغب (زفر) و (شهق).

(٣) في الأصل و(م): وعن السائب، والمثبت من زاد المسير ٢/ ١٥٩، والبحر ٥/ ٢٦٣، وهو محمد بن السائب الكلبي.

(٤) القراءات الشاذة ص٦١، والبحر ٥/ ٢٦٤.

وما اختلف الليلُ والنهار، وما بلَّ بحرٌ صوفةً، وما تغنَّت حمامةٌ، إلى غيرِ ذلك من كلمات التأبيد عندَهم، لا تعليقِ قرارِهم فيها بدوامِ هذه السماوات والأرض، فإنَّ النصوصَ القاطعةَ دالَّةٌ على تأبيد قرارِهم فيها وانقطاعِ دوامهما، وروي هذا عن ابن جرير[١].

وجوَّز أن يحملَ ذلك على التعليق، والمرادُ بالسماوات والأرض سماواتُ الآخرة وأرضُها، وهي دائمةٌ للأبد؛ قال الزمخشريُّ: والدليل على أنَّ لها سماواتٍ وأرضاً قولُه سبحانه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وقوله سبحانه: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر: ٧٤] ولأنه لا بدَّ لأهل الآخرة مما يقلُّهم ويظلُّهم، إما سماء يخلقُها الله تعالى أو يظلُّهم العرش، وكلُّ ما أظلَّك فهو سماء[٢]. انتهى.

قال القاضي: وفيه نظر؛ لأنه تشبيهٌ بما لا يَعْرفُ أكثرُ الخلق وجودَه ودوامَه، ومَن عرفه فإنما عَرفَه بما يدلُّ على دوام الثواب والعقاب، فلا يُجدي له التشبيه[٣].

وأجاب عنه صاحب «الكشف» بأنَّه إذا أُريدَ ما يظلُّهم وما يقلُّهم فهو ظاهرُ السقوط؛ لأن هذا القَدْرَ معلومُ الوجود لكلِّ عاقلٍ، وأمَّا الدَّوامُ فليس مستفاداً من دليلِ دوام الثواب والعقاب، بل مما يدلُّ على دوام الجنَّة والنَّار، سواءٌ عُرف أنَّهما دارُ الثواب والعقاب وأنَّ أهلَهما السعداءُ والأشقياءُ من الناس أوْ لا، على أنه ليس من تشبيهِ ما يُعرف بما لا يُعرف بل العكس. انتهى.

وتعقَّبه الجلبيُّ بأنَّ قوله: لكلِّ عاقلٍ، غيرُ صحيح؛ فإنَّه لا يعترفُ بذلك إلا المؤمنون بالآخرة، وقوله: الدوامُ مستفادٌ مما يدلُّ على دوام الجنَّة والنَّار، لا يدفعُ ما ذكره القاضي؛ لأنَّه يريد أنَّ المشبَّه به ليس أعرفَ من المشبَّه، لا عند المتديِّن لأنه يعرِفُ كليهما من قِبَلَ الأنبياء عليهم السلام، وليس فيه ما يوجبُ أعرفيَّةَ دوام سماوات الآخرة وأرضِها، وليس مرادُه أن دوامهما مستفادٌ من

---

(١) في تفسيره ١٢/ ٥٧٨.

(٢) الكشاف ٢/ ٢٩٣-٢٩٤.

(٣) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ١٣٨.

خصوص الدليل الدَّالِّ على الثواب والعقاب بعينه، فإنه لا يهمه ليمنعَ، ولا عندَ غير المتديِّن؛ فإنه لا يعترفُ به ولا بها ولا يعرفه. وقوله: على أنَّه ليس من تشبيه.. إلخ، مبنيٌّ على أنَّه تشبيهُ تلك الدَّار بهذه الدَّار، وليس بذلك، وإنَّما المرادُ التشبيهُ الضِّمني لدوامهم بدوامِهما. انتهى، وفيه بحث.

والحقُّ أنَّ صحَّةَ إرادةِ ذلك مما لا ينبغي أن ينتطحَ فيه كبشان، وفي الأخبار عن ابن عباس والحسن والسُّدِّي وغيرِهم ما يقتضيه، ومَن تأمَّل مُنْصِفاً بعد تسليم أنَّ هناك تشبيهاً يَظهرُ له أنَّ المشبَّه به أعرفُ من المشبَّه وأقربُ إلى الذهن، واتحادُ طريق العلم بهما لا يضرُّ في ذلك شيئاً بداهةَ أنَّ ثبوتَ الحيِّز أعرفُ وأقربُ إلى الذهن من ثبوتِ ما تحيَّز فيه وإن وردَا من طرقِ السمع كما لا يخفى، على أنَّ اشتراط كون المشبَّه به أعرفَ في كلِّ تشبيهٍ غيرُ مسلَّم عند الناظر في المعاني.

نعم المتبادِر من السماوات والأرض هذه الأجرامُ المعهودةُ عندنا، فالأَولى أن تبقى على ظاهرِها، ويُجعلَ الكلامُ خارجاً مخرج ما اعتادته العربُ في محاوراتهم عند إرادة التبعيد والتأبيد، وهو أكثرُ من أن يُحصى. ولعلَّ هذا أولى أيضاً مما في «تفسير ابنِ كثيرٍ»[1] من حمل السماوات والأرض على الجنسِ الشاملِ لِمَا في الدنيا والآخرة، أي: المظلِّ والمقلِّ في كلِّ دار.

وجاء في رواية عن الحبر: أن السماوات والأرض في الآخرة يُردَّان إلى النور الذي أُخِذتا منه، فهما دائمتان أبداً في نور العرش، فتأمل[2].

وفي «الدرر»[3] أنه يمكن أن يكون المرادُ أنهم خالدون بمقدارِ مدَّة بقاء السماوات والأرض التي يعلم[4] انقطاعها، ثم يزيدهم سبحانه على ذلك ويخلِّدهم ويؤبِّد مُقامهم.

---

(١) عند تفسير هذه الآية.

(٢) من قوله: وجاء في رواية عن الحبر، إلى هذا الموضع، ليس في (م).

(٣) في الأصل: الدر المنثور، وهو خطأ، والكلام من غرر الفوائد ودرر القلائد للمرتضى ٢/ ٩١.

(٤) في الأصل: يمكن، وفي الغرر والدرر: يعلم الله.

ولعلَّه أراد مدَّةَ بقائهما منذ خلقَهما الله تعالى إلى أنْ يبدِّلَهما، لا مدَّةَ بقائهما بعدَ دخولهم النارَ يوم القيامة؛ لأنَّهما يبدَّلان قبل دخولهم، والآيةُ على هذا من قبيل قوله سبحانه: ﴿لَّبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ [النبأ: ٢٣].

﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ قيل: هو استثناءٌ من الضمير المستكنِّ في «خالدين»، وتكونُ «ما» واقعةً على نوعِ مَن يَعْقِلُ، كما في قوله سبحانه: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣]، أو واقعةً على مَن يَعْقِلُ على مذهبِ مَن يرى وقوعَها عليه مطلقاً. والمراد بمن شاء: فُسَّاقُ الموحِّدين، فإنهم يُخْرَجون منها كما نطقتْ به الأخبارُ، وذلك كافٍ في صحَّة الاستثناء؛ لأنَّ زوالَ الحكمِ عن الكلِّ يكفيه زوالُه عن البعض، وهم المرادُ بالاستثناء الثاني؛ فإنَّهم مفارقون عن الجنة أيامَ عذابهم، والتأبيدُ من مبدأ معيَّنٍ ينتقضُ باعتبار الابتداء كما ينتقضُ باعتبار الانتهاء، ألا ترى أنَّك إذا قلت: مكثتُ يومَ الخميس في البستان إلا ثلاثَ ساعات، جاز أن يكون ذلك الزمانُ الواقعُ فيه عدمُ المكث من أوَّله ومن آخره، وهؤلاء وإن شَقُوا بعصيانهم فقد سُعِدُوا بإيمانهم.

ولا يقال: فعلى هذا لا يكون قولُه سبحانه: (فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ) تقسيماً صحيحاً؛ لأنَّ مِن شَرْطِه أن تكونَ صفةُ كلِّ قسمٍ منفيةً عن قسيمه. لأنَّ ذلك الشرطَ حيث الانفصالُ حقيقيٌّ أو مانعٌ من الجمع، وهاهنا المرادُ أنَّ أهلَ الموقف لا يخرجون من القسمين، وأنَّ حالَهم لا تخلو عن السَّعادة والشقاوة، وذلك لا يمنعُ اجتماعَ الأمرين في شخصٍ واحد باعتبارين. انتهى، وهو ما ذكره الإمام[1] وآثَره القاضي[2].

واعتُرض بأنَّه لا دلالةَ في اللفظ على المبدأ المعيَّن، ولو سُلِّم فالاستثناء يقتضي إخراجاً عن حكم الخلودِ، وهو لا محالةَ بعد الدخول، فكيف ينتقضُ بما سبق عليه؟ وكيف وقد سبق قولُه تعالى: (فَفِى ٱلْجَنَّةِ)؟ ثم قيل: فإن قلتَ: زمانُ تفرُّقِهم عن الموقف هو الابتداءُ، وهو آخِرُ «يوم يأتي». قلت: إن ادُّعي أنَّ الابتداءَ من ابتداء ذلك الزمان جاز أن يسلَّمَ دلالةُ اللفظ عليه، ولا ينفع؛ لأنَّ الكلَّ في

(١) هو الرازي في تفسيره ١٨/ ٦٣.
(٢) في تفسيره مع حاشية الشهاب ٥/ ١٣٨-١٣٩.

الدارين غيرُ خالدين على هذا التقدير، وأمَّا جَعْلُ ابتداء المدَّة من انتهائه فلا. وبأنَّ تقابلَ الحُكْمين يدلُّ على تقابل القسمين بمعنى منع الجمعِ مطلقاً.

وأجيب ـ بعد غَمْضِ العين عمَّا في ذلك من الخروج عن آداب المناظرة ـ بأنَّ مبدأ زمان خلودِ أهل الجنَّة من زمانِ دخولِ أهل النار في النار، ويدلُّ على ذلك اتحادُ معيارِ الخلودين، وهو «ما دامت السماوات والأرض» فإنه يدلُّ على زمان خلودِهما، ولا اتحادَ مع الاختلاف في المبدأ، والاستثناءُ عن حكم الخلود من مبدأ معيَّنٍ يكون بالإخراج عن حُكم الدخول الذي يتضمَّنه الخلودُ فيها لا محالة.

وخلاصةُ المعنى على هذا: أنَّ السعداء كلَّهم خالدون في الجنة من زمانِ دخولِ أهل النارِ في النار إلَّا العصاةَ منهم الذين أرادَ الله سبحانه دخولَهم في النار مدَّةً معيَّنة عِلْمُها عنده جلَّ وعلا، وما ذكر من حديثِ تقابُل الحكمين إن أريدَ تقابلُهما بمعنى منع الجمع فلا تقابلَ فيهما بهذا المعنى لاجتماعهما في العصاة، وإن أريد مطلقاً فلا دلالةَ على تقابل القسمين بذلك المعنى. انتهى.

ولا يخفى على المُنصف ما في ذلك القولِ من التكلُّف ومخالفةِ الظاهر، والانتصارُ له بما ذُكر لا يُجديه نفعاً.

وقيل: هو استثناءٌ من الضمير المتقدِّم إلَّا أنَّ الحكم الخلودُ في عذاب النار، وكذا يقال فيما بعدُ: إنَّ الحكم فيه الخلودُ في نعيم الجنة، وأهلُ النار يُنقلُون منها إلى الزمهرير وغيرِه من العذاب أحياناً، وكذلك أهلُ الجنة ينعَّمون بما هو أعلى منها، كالاتِّصال بجناب القُدس، والفوزِ برضوان الله تعالى الذي هو أكبرُ، وما يتفضَّل به عليهم سوى ثوابِ الجنة مما لا يَعرف كنْهَه إلا هو سبحانه وتعالى، وإلى هذا ذهب الزمخشري(١) سالًّا سيف البَغي والاعتزال، وقد ردَّه العلَّامة الطِّيبيُّ وأطالَ الكلامَ في ذلك.

وقال صاحب «الكشف»: إنَّ ذلك في أهل النار ظاهرٌ؛ لأنَّهم يُنقَلُون من حرِّ النار إلى بردِ الزمهرير، والردُّ بأنَّ النارَ عبارةٌ عن دار العقاب غيرُ وارد؛ لأنَّا لا نُنكر استعمالَ النار فيها تغليباً، أمَّا دعوى الغلبة حتى يُهجر الأصل فكلَّا، ألا ترى إلى

(١) في الكشاف ٢/ ٢٩٤.

قوله تعالى: ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤] ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾؟ [التحريم: ٦] وكم وكم، وأمَّا رضوان الله تعالى عن أهل الجنَّة وهم فيها فيأبى الاستثناءَ، كيف وقولُه سبحانه: (خَٰلِدِينَ فِيهَا) لا يدلُّ بظاهرِه على أنَّهم منعَّمون بها فضلاً عن انفرادِها بتنعُّمهم، إلا أنْ يخصَّص بجنَّة الثواب لا محضِ التفضُّل، وكفاه بطلاناً التخصيصُ من غير دليل.

واعتُرض بأنَّ لك أن تقول: هجرُ الأصل في الآيتين اللتين ذُكرتا عُلم من الوصف، وفي هذه الآية ذِكْرُها في مقابلة الجنة يعضدُ أنَّ المرادَ بها دارُ العقاب مطلقاً.

وقيل: إنَّ الاستثناء مفرَّغٌ من أعمِّ الأوقات، و«ما» على أصلِها لِمَا لا يعقل وهو الزمانُ، والحكمُ الكونُ في النار، والمعنى: أمَّا الذين شَقُوا ففي النار في كلِّ زمانٍ بعد إتيان ذلك اليوم، إلا زماناً شاء اللهُ تعالى فيه عدمَ كونِهم فيها، وهو زمانُ موقفِ الحساب.

واعترض بأنَّ عصاةَ المؤمنين الدَّاخلين النارَ إمَّا سعداءُ فيلزم أنْ يخلدوا في الجنة فيما سوى الزمانِ المستثنى، وليس كذلك. أو أشقياءُ فيلزم أنْ يخلدوا في النَّار، وهو خلافُ مذهبِ أهل السنَّة. وأيضاً تأخُّره عن الحال ـ ولا مدخلَ لها في الاستثناء ـ لا يُفصح[1]، والإبهامُ بقوله سبحانه: (إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ)، والتفخيمُ الذي يعطيه لا يبقى له رَوْنقٌ.

وأجيب بأنَّه قد يقال: إنَّ القائل بذلك يخصُّ الأشقياء بالكفار والسعداءَ بالأتقياءِ، ويكونُ العصاةُ مسكوتاً عنهم هنا، فلا يَرِدُ عليه شيءٌ إن كان سنِّيًّا، وإن كان معتزليًّا فقد وافق سَنَنَ طبعِه، ويُجاب عمَّا بعدُ بالمنع.

وقيل: أمرُ الاستثناء ما علمتَ، إلا أنَّ المستثنى مدَّةُ لبثهم في الدنيا أو البرزخ، ويقطع النظر عن «يوم يأتي»، والمعنى أنَّهم في النار جميعَ أزمان وجودِهم إلا زماناً شاء الله تعالى لبثَهم في الدنيا أو البرزخ، والمراد مع زمانِ الموقف؛ إذ ليسوا في زمانه أيضاً في النار، إلَّا أنْ يرادَ بالنار العذابُ فلا يحتاج للمعيَّة، لكنْ

---

(١) كذا في الأصل و(م)، وفي حاشية الشهاب ٥/ ١٣٩: لا يتضح.

يَرِدُ أنَّهم معذَّبون في البرزخ أيضاً، إلا أنْ يقال: لا يعتدُّ بذلك لأنَّه عذابٌ غيرُ تامٍّ؛ لعدمِ تمام حياتِهم فيه.

وأَورد عليه ما أورد على ما قبله، وأُجيب بأنه إنَّما يَرِدُ لو كان المستثنى في الاستثناء الثاني هو ذلك الزمانُ المستثنى في الاستثناء الأوَّل، وهو غيرُ مسلَّم، فليكن المستثنى منه زمانَ لبثهم في النار مع ذلك الزمان المستثنى في الآية الأولى، فإنَّ المستثنى ليس فيه ما يدلُّ على تعيين زمانٍ حتى لا يمكن الزيادةُ عليه. وهو كما ترى.

وقيل: هو استثناءٌ من قوله سبحانه: (لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ). ورُدَّ بأنَّ المقابل لا يجري فيه هذا، ويبقى الإشكال. وأُجيب بأنَّ المرادَ ذكرُ ما تحتملُه الآيةُ، والاطِّراد ليس بلازم. وتُعقِّب بأنه ليس المرادُ إلا بيانَ ضعف هذا الوجه، وكفى بعدمِ الاطِّراد ضعفاً.

وقيل: «إلا» بمعنى سوى، كقولك: لك عليَّ ألفان إلا الألف التي كانت، يعني سواها، ونُقل ذلك عن الزجَّاج، والفرَّاء، والسجاونديِّ، والمعنى: سوى ما شاء ربُّك من الزيادة التي لا آخرَ لها على مدَّة بقاء السماوات والأرض[(١)]، والاستثناءُ في ذلك منقطعٌ.

ويحتمل أنْ يريدوا أنَّ «إلا» بمعنى غير صفةٌ لِمَا قبلها، والمعنى: يخلدون فيها مقدارَ مدَّةِ السماوات والأرض سوى ما شاء الله تعالى مِمَّا لا يتناهى. وضعِّف هذا القيلُ بأنه يلزمُ حملُ السماوات والأرض على هذين الجسمين المعروفين من غيرِ نظرٍ إلى معنى التأبيد، وهو فاسدٌ.

وقيل: «إلا» بمعنى الواو، أي: وما شاء ربُّك زائداً على ذلك، واستشهد على مجيئِها بمعنى الواو بقوله:

وكلُّ أخٍ مفارقُه أخوه لعمرُ أبيكَ إلَّا الفرْقَدان[(٢)]

وفيه أنَّ هذا قولٌ مردودٌ عند النحاة.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٨، وللزجاج ٣/ ٧٩.

(٢) سلف ٣/ ٣٧٠. وذكر هذا الوجه المرتضى في الأمالي ٢/ ٨٨، وأبو حيان في البحر ٥/ ٢٦٤.

وقال العلَّامة الطيبي: الحقُّ الذي لا محيدَ عنه أنْ يُحمل «ما» على مَن؛ لإرادةِ الوصفيَّة وهي المرحومية، و«خالدين» حالٌ مقدَّرةٌ من ضميرِ الاستقرار، أي: في النار، والمعنى: وأما الذين شَقُوا ففي النَّار مقدَّرين الخلودَ إلا المرحوم الذي شاء الله تعالى أن لا يستقرَّ مخلَّداً، فيفيدُ أن لا يستقرَّ فيها مطلقاً أو يستقرَّ غيرَ مخلَّد، وأحوالُ العصاةِ على هذا النهج كما عُلم من النصوص، وفي ذلك إيذانٌ بأنَّ إخراجَهم بمحضِ رحمة الله تعالى فينطبقُ عليه قولُه سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾.

وتُعقِّب بأنَّه لا يجري في المقابل إلا بتأويلِ الإمام، وقد مرَّ ما فيه، أو بجَعْلِه من أصل الحكمِ ويقتضي أن لا يدخلوا أصلاً، وإذا أوِّل بمقدَّرين فلو جُعل استثناءً من مقدَّرين لم يتَّجه، ومن قوله تعالى: (فَفِي ٱلنَّارِ) فلا يكون لهم دخولٌ أصلاً، ودلالة «ما» لإبهامها إمَّا على التفخيم أو التحقير ولا يطابقُ المقام.

وقيل وقيل، والأوجَهُ أن يقال: إنَّ الاستثناء في الموضعين مبنيٌّ على الفرض والتقدير، فمعنى «إلا ما شاء»: إن شاء، أي: لو فُرِضَ أنَّ الله تعالى شاء إخراجَهم من النار أو الجنَّة في زمانٍ لكان مستثنًى من مدَّة خلودِهم، لكنَّ ذلك لا يقعُ لدلالةِ القواطع على عدمِ وقوعه، وهذا كما قال الطيبي من أسلوب ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، و﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦]، وذكر أنَّه وَقَفَ على نصٍّ من قِبَلِ الزَّجَّاج يوافق ذلك(١).

وفي «المعالم» عن الفرَّاء أيضاً ما يوافقه، حيثُ نُقل عنه أنه قال: هذا استثناءٌ استثناه سبحانَه ولا يفعلُه، كقولك: والله لأضربنَّك إلا أنْ أرى غيرَ ذلك، وعزيمتُك أن تضربَه. وحذو القذةِ بالقذةِ ما نقله قبلُ عن بعضهم أنَّ المعنى: لو شاء لأخرجَهم لكنَّه لا يشاء؛ لأنَّه سبحانه حكم لهم بالخلود(٢).

وفي «البحر» عن ابن عطية نقلاً عن بعضٍ ما هو بمعناه أيضاً، حيث قال: وأمَّا قولُه تعالى: (إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ) فقيل فيه: إنَّه على طريق الاستثناء الذي ندب الشرعُ

---

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٧٩.

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٤٠٢، وما نقله عن الفراء مذكور في معاني القرآن له ٢/ ٢٨.

إلى استعمالِه في كلِّ كلامٍ، فهو على نحوِ قوله جلَّ وعلا: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] استثناء في واجب، وهذا الاستثناءُ في حكم الشرطِ، كأنَّه قيل: إن شاء ربُّك، فليس يحتاج أن يوصفَ بمتَّصلٍ ولا منقطع(١).

ومِمَّن ذهب إلى ذلك أيضاً الفاضلُ ميرزاجان الشيرازي في «تعليقاته» على تفسير البيضاوي(٢) ونصَّ على أنَّه من قبيل التعليق بالمُحالِ حتى يُثبِتَ محاليَّةَ المعلَّق، ويكون كدعوى الشيء مع بيِّنة.

وهو أحدُ الأَوجُه التي ذكرها السيِّد المرتضى في «درره»(٣). وتفسيرُ الاستثناء الأول بالشرط أخرجه ابنُ مردويه عن جابر عن رسولِ الله ﷺ كما ذكر ذلك الجلالُ السيوطيُّ في «الدر المنثور»(٤)، ولعلَّ النُّكتةَ في هذا الاستثناء على ما قيل: إرشادُ العبادِ إلى تفويض الأمور إليه جلَّ شأنُه، وإعلامُهم بأنَّها مَنوطةٌ بمشيئته جلَّ وعلا يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا حقَّ لأحدٍ عليه ولا يجبُ عليه شيء، كما قال تبارك وتعالى: (إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ).

وذكر بعضُ الأفاضل أنَّ فائدتَه دفعُ توهُّم كون الخلود أمراً واجباً عليه تعالى لا يمكن له سبحانه نقضُه كما ذهبَ إليه المعتزلةُ، حيث أَخبر به جلَّ وعلا مؤكِّداً، والمراد بـ «الذين شَقُوا» على هذا الوجه الكفَّارُ فقط، فإنَّهم الأحقَّاءُ بهذا الاسم على الحقيقة، وبـ «الذين سُعدوا» المؤمنون كافَّة مطيعُهم وعاصيهم، فيكونُ التقسيم في قوله سبحانه: (فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ) للانفصال الحقيقيِّ، ولا ينافيه قولُه تعالى: (فَفِى ٱلْجَنَّةِ) لأنَّه يَصْدُقُ بالدخول في الجملة.

وفي «الكشف» بعد نقل أنَّ الاستثناءَ من باب ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ﴾ [الأعراف: ٤٠]: فإن قلتَ: فقد حصلَ مغزى الزمخشريِّ من خلودِ الفُسَّاق. قلت: لا كذلك لأنَّهم داخلون في السعداء، والآية تقتضي خلودَ السعيد وذلك بعدَ دخوله فيها لا محالة،

(١) البحر ٥/ ٢٦٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٠٨.
(٢) في (م): القاضي.
(٣) ٢/ ٨٩-٩٠.
(٤) ٣/ ٣٥٠، ولفظه: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ قال رسول الله ﷺ: «إن شاء ربك أن يُخرج أناساً من الذين شقوا من النار فيدخلهم الجنة فعل».

ولا تنفي كينونته في النار قبل دخولِه في الجنة، فإنَّ اللفظ لا يقتضي أنْ يدخلوا ـ أعني السعداءَ ـ كلُّهم في الجنة معاً، كيف والقاطع يدلُّ على دخولهم أوَّلاً فأوَّلاً على حسب مراتبهم. انتهى، فتأمَّلْ فإنَّ الآية من المُعْضِلات.

وإنَّما لم يضمر في «إنَّ ربَّك» إلخ كما هو الظاهرُ؛ لتربيةِ المهابة وزيادةِ التقرير. واللام في «لِمَا» قيل: للتقوية، أي: فعَّالٌ ما يريدُه سبحانه لا يتعاصَى عليه شيءٌ بوجهٍ من الوجوه.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ الكلامُ فيه ما علمتَ خلا أنَّه لم يذكر هاهنا أنَّ لهم بهجةً وسروراً كما ذكر في أهل النار: «لهم فيها زفيرٌ وشهيق» لأنَّ المقامَ مقامُ التحذيرِ والإنذار.

و«سُعدوا» بالبناء للمفعول قراءةُ حمزةَ والكسائيِّ وحفص[(١)]، ونُسبت إلى ابن مسعود وطلحةَ بنِ مصرِّف وابنِ وثاب والأعمش، وقرأ جمهور السبعة: «سَعِدوا» بالبناء للفاعل، واختار ذلك عليُّ بن سليمان، وكان يقول: عجباً من الكسائيِّ كيف قرأ: «سُعِدوا» مع علمه بالعربية[(٢)].

وهذا عجيبٌ منه فإنَّه ما قرأ إلَّا ما صحَّ عنده، ولم يقرأ بالرأي ولم يتفرَّد بذلك، وروي عنه أنَّه احتجَّ لذلك بقولهم: مسعود. وتُعقِّب بأنَّه لا حجَّةَ فيه؛ لاحتمال أنه كان: مسعود فيه[(٣)].

وذُكر أنَّ الفرَّاء حكى أنَّ هذيلاً تقول: سَعَدَه اللهُ تعالى بمعنى أسعدَه، وقال الجوهريُّ: سَعِد بالكسرة فهو سعيد، مثل قولهم: سَلِم فهو سليم، وسُعِدَ فهو مسعود.

وقال أبو نصر عبد الرحيم القُشيري: ورَدَ: سَعَدَه الله تعالى فهو مَسعود، وأَسْعَدَه الله تعالى فهو مُسْعَد[(٤)].

---

(١) التيسير ص١٢٦، والنشر ٢/ ٢٩٠، وهي قراءة خلف من العشرة.

(٢) البحر ٥/ ٢٦٤، وعلي بن سليمان هو الأخفش الصغير، أبو الحسن، المتوفى سنة (٣١٥هـ). السير ١٤/ ٤٨٠-٤٨١.

(٣) البحر ٥/ ٢٦٤، وقال أبو حيان: ثم حذف «فيه» وسمِّي به.

(٤) نقل المصنف هذه الأقوال بواسطة أبي حيان في البحر ٥/ ٢٥١، وقول الجوهري في الصحاح (سعد).

وما ألطفَ الإشارة في «شَقُوا» و«سُعدوا» على قراءةِ البناء للفاعل في الأوَّل والبناءِ للمفعول في الثاني، فمَنْ وجدَ ذلك فليَحْمَدِ الله تعالى، ومَن لم يجدْ فلا يلومنَّ إلا نفسَه.

﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ أي: غيرَ مقطوعٍ عنهم ولا مخترَم، ومصدرُه الجذُّ، وقد جاء: جذَذْتُ وجَدَدْتُ بالذال المعجمة والدَّال كما قال ابنُ قتيبة[1]، وبالمعجمة أكثر.

ونُصب «عطاء» على المصدريَّة من معنى الجملة؛ لأن قولَه سبحانه: (فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا) يقتضي إعطاءً وإنعاماً، فكأنَّه قيل: يعطيهم إعطاءً، وهو إمَّا اسمُ مصدرٍ هو الإعطاء، أو مصدرٌ بحذفِ الزوائد، كقوله تعالى: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧].

وقيل: هو نصبٌ على الحالية من المفعول المقدَّر للمشيئة، أو تمييزٌ؛ فإنَّ نسبةَ مشيئة الخروج إلى الله تعالى تحتمل أن تكون على جهةِ عطاءٍ مجذوذ، وعلى جهةِ عطاءٍ غيرِ مجذوذ، فهو رافعٌ للإبهام عن النسبة، ولعلَّ النصبَ على المصدريَّة أولى.

وكأنَّه جيء بذلك اعتناءً ومبالغةً في التأبيد، ودفعاً لِمَا يُتوهَّم من ظاهرِ الاستثناء من الانقطاع. وقيل: إنَّ ذلك لبيان أنَّ ثوابَ أهل الجنَّة ـ وهو إما نفسُ الدخول، أو ما هو كاللازم البيِّن له ـ لا ينقطع، فيُعلَم منه أنَّ الاستثناء ليس للدَّلالةِ على الانقطاع كما في العقاب، بل للدلالةِ على ترادفِ نعمٍ ورضوانٍ من الله تعالى، أو لبيان النقصِ من جانب المبدأ، ولهذا فرّق في النظم بين التأبيدين[2]، حيث تَمَّم الأوَّلَ بقوله سبحانه: (إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ) للدَّلالة على أنه ينعِّمُ بعضَ مَن يعذِّبه ويبقي غيرَه كما يشاء ويختار، والثاني بقوله تعالى: (عَطَآءً) إلخ بياناً لأنَّ إحسانَه لا ينقطع.

ومن الناس مَن تمسَّك بصَدْر الآية أنَّه لا يبقى في النار أحدٌ، ولم يقل بذلك في الجنة، وتقوَّى مطلبُه ذاك بما أخرجه ابنُ المنذر عن الحسن قال: قال عمرُ: لو لبثَ أهلُ النار في النار كقَدْرِ رَمْلِ عالج لكان لهم يومٌ يخرجون فيه[3].

---

(١) في تفسير غريب القرآن ص٢١٠.

(٢) في (م): بين التأبيد من.

(٣) الدر المنثور ٣/ ٣٥٠، وأخرجه أيضاً عبد بن حميد في تفسيره كما في فتح الباري ١١/ ٤٢٢، وهو منقطع كما قال ابن حجر، وقال في تخريج أحاديث الكشاف ص٧٨: ومراسيل الحسن عندهم واهية لأنه كان يأخذ من كل أحد.

وبما أخرج إسحاق بن راهويه عن أبي هريرة[١] قال: سيأتي على جهنَّم يومٌ لا يبقى فيها أحد، وقرأ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟﴾ الآية.

وأخرج ابنُ المنذر وأبو الشيخ عن إبراهيم قال: ما في القرآن آيةٌ أرجى لأهل النار من هذه الآية: (خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ) قال: وقال ابنُ مسعود: ليأتينَّ عليها زمانٌ تصفقُ فيه أبوابها[٢].

وأخرج ابنُ جرير عن الشعبيِّ قال: جهنَّمُ أسرعُ الدَّارين عمراناً وأسرعُهما خراباً[٣]. إلى غير ذلك من الآثار.

وقد نصَّ ابن الجوزيِّ على وضع بعضِها كخبرٍ عن عبد الله بن عمرو بن العاص: يأتي على جهنم يومٌ ما فيها من ابنِ آدمَ أحدٌ، تصفقُ أبوابُها كأنها أبواب الموحِّدين[٤]. وأوَّلَ البعضُ بعضَها، ومرَّ شيء من الكلام في ذلك[٥].

وأنت تعلم أنَّ خلودَ الكفار مِمَّا أجمع عليه المسلمون، ولا عبرةَ بالمخالف،

---

(١) كما في الدر المنثور ٣/ ٣٥٠.

(٢) الدر المنثور ٣/ ٣٥٠.

(٣) تفسير الطبري ١٢/ ٥٨٢.

(٤) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (١٧٣٥) بهذا اللفظ من حديث أبي أمامة ﷺ مرفوعاً، ولم نقف عليه عنده من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ. وحديث عبد الله بن عمرو أخرجه الفسوي في المعرفة والتاريخ ٢/ ١٠٣ قال: حدثنا بندار، عن أبي داود، عن شعبة، عن أبي بَلْج، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله بن عمرو قال: ليأتينَّ على جهنم زمان تخفق أبوابها ليس فيها أحد. ونقل الفسوي عن ثابت البناني أنه سأل الحسن عن هذا الحديث فأنكره. وذكره الذهبي في الميزان ٤/ ٣٨٥ على أنه من بلايا أبي بلج (واسمه يحيى بن سليم، أو ابن أبي سليم) ثم قال: وهذا منكر.
قلت: وأخرجه البزار في مسنده (٢٤٧٨) عن محمد بن بشير، عن أبي داود، بإسناد الفسوي ولفظِه، وفي آخره: ليس فيها أحد، يعني من الموحدين. قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص٨٧: كذا فيه، والتفسير لا أدري ممن هو، ورجاله ثقات، ويؤيِّده ما رواه ابن عدي عن أنس ﷺ مرفوعاً: «ليأتين على جهنم يوم تصفق أبوابها ما فيها من أمة محمد أحد». اهـ. قلت: ولعل قوله: «يعني من الموحِّدين» هو من كلام البزار، أو كلام شيخِه محمد بن بشير، فإنها لم ترد عند الفسوي.

(٥) ينظر ما سلف ١/ ٤٠٥-٤١٥.

والقواطعُ أكثرُ من أن تُحصى، ولا يقاوم واحداً منها كثيرٌ من هذه الأخبار، ولا دليلَ في الآية على ما يقولُه المخالفُ؛ لِمَا علمتَه من الوجوه فيها، ولا حاجةَ إلى دعوى النَّسخ فيها كما روي عن السدِّي، بل لا يكاد يصحُّ القول بالنسخ في مثل ذلك.

هذا وقد ذُكر أنَّ في الآية صيغةَ الجمع مع التفريق والتقسيم؛ أمَّا الجمعُ ففي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ فإنَّ النفس كما تَقرَّر عامةٌ لكونها نكرةً في سياق النفي، وأمَّا التفريقُ ففي قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾، وأمَّا التقسيمُ ففي قوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟﴾ إلخ، ونظيرُها في ذلك قول الشريف القيرواني:

لمختلفي الحاجات جمعٌ ببابه فهذا له فنٌّ وهذا له فنُّ
فللخامل العليا وللمُعْدَم الغِنَى وللمذنب العُتْبَى وللخائف الأمنُ[(١)]

ومن هنا يُعلَمُ حالُ الفاءين: فاءِ «فمنهم» وفاءِ «فأمَّا» إلخ. قيل: وفي العدول عن: فأمَّا الشقيُّ ففي النار خالداً فيها.. إلخ وأما السعيد ـ أو المسعود ـ ففي الجنة خالداً فيها.. إلخ، إلى ما في النظم الجليل إشارةٌ إلى سَبْقِ هذه الشقاوة والسعادة، وأنَّ ذلك أمرٌ قد فُرِغَ منه، كما يدلُّ عليه ما أخرجه أحمد والترمذيُّ والنسائيُّ عن ابن عمرو[(٢)] ﵄ قال: خرج علينا رسولُ الله ﷺ وفي يده كتابان، فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان؟» قلنا: لا يا رسول الله، أمَا تُخبِرُنا؟ فقال للَّذي في يده اليمنى: «هذا كتابٌ من ربِّ العالمين فيه أسماءُ أهل الجنة وآبائهم وقبائلهم، ثم أجملهم على آخرهم فلا يُزاد فيهم ولا يُنْقَصُ منهم أبداً» ثم قال للذي في شماله: «هذا كتابٌ من ربِّ العالمين فيه أسماءُ أهل النار وآبائهم وقبائلهم، ثم أجملهم على آخرهم فلا يُزاد فيهم ولا يُنقَصُ منهم أبداً» فقال أصحابه: ففيم العمل يا رسول الله إن كان أمرٌ قد فرغ منه؟ فقال: «سدِّدوا وقارِبوا، فإنَّ صاحب الجنة يُختم له بعملِ

---

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة ص٤٠٨، ومعاهد التنصيص ٢/ ٣١٠، والقيرواني هو أبو الفضل جعفر بن محمد بن أبي سعيد بن شرف، نزيل الأندلس، توفي سنة (٥٣٤هـ). الوافي بالوفيات ١١/ ١٤٩.

(٢) في الأصل و(م): عمر، والمثبت من مصادر التخريج.

أهلِ الجنة وإنْ عَمِلَ أيَّ عَمَلٍ، وإنَّ صاحب النار يُختم له بعمل أهل النار وإنْ عَمِلَ أيَّ عَمَلٍ» ثم قال ﷺ بيده فنبذهما وقال: «فرغ ربُّكم من العباد، فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير»(١).

وجاء في حديثٍ: «الشقيُّ مَن شَقِيَ في بطن أمِّه، والسعيدُ مَن سَعِدَ في بطن أمِّه»(٢). وحَمَلَ ذلك بعضُهم على ظهور الأمر للمَلَكِ الموكَّل بالنطفة، وإلا فالأمرُ قبل ذلك.

وبعضُهم فسَّر الأمَّ بالثبوت العلميِّ الذي يظهر المعلوم منه إلى هذا الوجود الخارجيِّ، وهو ضربٌ من التأويل كما لا يخفى، ولا يأبى هذه الإشارةَ عند التأمُّل ما أخرجه الترمذيُّ وحسَّنه، وأبو يعلى وابنُ مردويه وغيرُهم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لَمَّا نزلت: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ قلت: يا رسول الله، فعَلَام نعمل: على شيءٍ قد فُرغ منه، أو على شيءٍ لم يُفْرَغْ منه؟ قال: «بل على شيء قد فُرِغَ منه وجَرَتْ به الأقلامُ يا عمر، ولكنْ كلٌّ ميسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له»(٣).

وقيل: كان الظاهرُ هنا التعبيرَ بالمضارع، إلا أنه عبَّر بالماضي إشارةً إلى تحقُّق الوقوع.

وأتى بالموصول جمعاً إيذاناً بأنَّ المراد بـ «شقيّ وسعيد»: فريقٌ شقيٌّ وفريقٌ سعيد، ولم يقل: أشقياءُ وسعداء؛ لأنَّ الإفراد أوفقُ بما قبلُ.

---

(١) مسند أحمد (٦٥٦٣)، وسنن الترمذي (٢١٤١)، وسنن النسائي الكبرى (١١٤٠٩). قال الترمذي: حديث حسن غريب صحيح.

(٢) أخرجه البزار (٢١٥٠)، والطبراني في الصغير (٧٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، واقتصر الطبراني على الشطر الثاني. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٩٣: رواه البزار والطبراني في الصغير، ورجال البزار رجال الصحيح. اهـ. وصححه ابن حجر في مختصر زوائد مسند البزار ٢/ ١٥١.
وطرفه الأول أخرجه مسلم (٢٦٤٥) من طريق عامر بن واثلة عن ابن مسعود رضي الله عنه موقوفاً، وأخرجه من طريق آخر عن ابن مسعود موقوفاً أيضاً عبد الرزاق (٢٠٠٧٦) مطولاً، ورفعه ابن ماجه (٤٦)، وإسناد المرفوع ضعيف كما قال البوصيري في مصباح الزجاجة ١/ ٤٨.

(٣) الحديث بهذا اللفظ في سنن الترمذي (٣١١١)، وقال الترمذي: حديث حسن غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن عمر. وأخرجه أيضاً الترمذي (٢١٣٥)، وأبو يعلى (٥٥٧١) بنحوه دون ذكر الآية، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وقيل: الإفرادُ أولاً للإشارة إلى أنَّ كلَّ فريقٍ من حيث اتِّصافُه بالشقاوة أو السعادة كشيءٍ واحد، وجمع ثانياً لِمَا أنَّ دخول كلِّ فريقٍ في الجنة والنار ليس جملةً واحدةً، بل جمعاً جمعاً وزمرةً زمرةً، وله شواهدُ من الكتاب والسنَّة.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ أي: في شكٍّ، والفاءُ لترتيب النهي على ما قصَّ من القصص، وبيَّن في تضاعيفها من العواقب الدنيوية والأخروية، أي: فلا تكُ في شكٍّ بعد أن بيَّن لك ما بيِّن.

﴿مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: من عبادة هؤلاء المشركين في أنها ضلالٌ مؤدٍّ إلى مثلِ ما حلَّ بمن قبلهم ممن قصَصْتُ عليك سوءَ عاقبةِ عبادتهم، فـ «من» ابتدائية، وجوِّز أن تكون بمعنى في. و«ما» مصدرية، وجوِّز أن تكون موصولةً وفي الكلام مضافٌ محذوفٌ، أي: من حالِ ما يعبدونه من أنه لا يضرُّ ولا ينفع؛ إذ لا معنى للمرية في أنفسهم.

﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ وقع تعليلاً في المعنى للنهي عن المرية، والاستثناءُ إمَّا من مصدرٍ مقدرٍ، أو من[1] مفعولٍ محذوفٍ، أي: هم وآباؤهم سواءٌ في الشرك ما يعبدون عبادةً إلا كعبادةِ آبائهم، أو: ما يعبدون شيئاً إلا مثلَ الذي عبدوه من الأوثان، وقد بلغك ما لحق آباءهم[2] بسبب ذلك، فيلحقُهم مثلُه لأنَّ التماثل في الأسباب يقتضي التماثُل في المسبَّبات.

ومعنى «كما يعبد»: كما كان يعبد[3]، فحُذف لدلالةِ «من[4] قبل» عليه، وكأنَّ اختيارَ هذا للإشارة إلى أنَّ ذلك كان عادةً مستمرَّةً لهم.

﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ﴾ يعني هؤلاء الكفرة ﴿نَصِيبَهُمْ﴾ حظَّهم من العذاب كما وفَّينا آباءهم حظوظَهم، أو من الرِّزق فيكون عذراً لتأخُّر العذاب عنهم مع قيام ما يوجبُه،

---

(١) قوله: من، ليس في (م).
(٢) في الأصل: آبائهم، وفي (م): أباؤهم، والمثبت من تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ١٤١.
(٣) في الأصل و(م): عبد، والمثبت من تفسير البيضاوي، وقال الشهاب: وتقدير كان لأن مقتضى الظاهر: كما عبد.
(٤) في الأصل: ما، وليست في (م)، والمثبت من حاشية الشهاب.

وفي هذا من الإشارة إلى مزيدِ فضل الله تعالى وكرمِه ما لا يخفى، حيثُ لم يَقطعْ رزقَهم مع ما هم عليه من عبادةِ غيره. وفي التعبير بالنَّصيب على الأوَّل تهكُّم؛ لأنَّه ما يُطلبُ ويُراد، والعذاب بمعزلٍ عن ذلك، وتفسيرُه بما ذكر مرويٌّ عن ابن زيد، وبالرزق عن أبي العالية. وعن ابن عباس: أنَّ المرادَ به ما قُدِّر من خيرٍ أو شرٍّ.

وقرأ ابنُ محيصن: «لموْفُوهم» مخفَّفاً من أَوْفَى[1].

﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾ حالٌ مؤكِّدة من النصيب، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥] وفائدتُه دفعُ توهُّم التجوُّز، وإلى هذا ذهب العلَّامة الطِّيبي، وقال: إنَّه الحقُّ.

وفي «الكشاف»[2] أنه جيء بهذه الحال عن النَّصيب الموفَّى لأنَّه يجوز أن يوفَّى وهو ناقصٌ ويوفَّى وهو كامل، ألا تراكَ تقول: وفَّيته شطرَ حقِّه، وثلثَ حقِّه، وحقَّه كاملاً وناقصاً. انتهى.

وتعقَّبه أبو حيَّان بأنَّ هذه مغلطةٌ؛ لأنَّه إذا قيل: وفَّيته شطرَ حقِّه، فالتوفيةُ إنَّما وقعت في الشطر، وكذا ثلث حقِّه، والمعنى: أعطيتُه الشطرَ أو الثلثَ كاملاً لم أنقصْه منه شيئاً، وأما قولك: وفَّيته حقَّه كاملاً، فالحالُ فيه مؤكِّدة؛ لأنَّ التوفيةَ تقتضي الإكمال، وأمَّا قولك: وفَّيته حقَّه ناقصاً، فغيرُ صحيح للمنافاة[3]. انتهى.

وقال ابنُ المنيِّر: إنَّه وهم؛ لأنَّ التوفية تقتضي عدمَ نقصان الموفَّى كاملاً كان أو بعضاً، فقولك: وفَّيته نصفَ حقِّه يستلزمُ عدمَ نقصان النصف الموفَّى، فالسؤالُ عن وجهِ انتصاب هذه الحال قائمٌ بعد، والأوجَهُ أن يقال: استُعملت التوفيةُ بمعنى الإعطاءِ كما استُعمل التوفِّي بمعنى الأخذ. ومَن قال: أعطيتُ فلاناً حقَّه، كان جديراً أن يؤكِّده بقوله: غيرَ منقوص[4]. انتهى.

---

(١) القراءات الشاذة ص٦١.

(٢) ٢/ ٢٩٥.

(٣) البحر ٥/ ٢٦٦.

(٤) الانتصاف ٢/ ٢٩٥.

وفي «الكشف»: أقول: في تعليق التوفية بالنِّصف مع أنَّ الكلَّ حقُّه ما يدلُّ على مطلوبه؛ إذ لا فرقَ بين قولك: نصفَ حقِّه، وحقَّه منصَّفاً. فجاز: وفَّيته نصيبَه منصَّفاً، ونصيبَه ناقصاً، ويحسن فائدة التأكيد، ويظهرُ أنَّ الواهمَ مَن هو؟ فتأمل.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ أي: في شأن الكتاب وكونِه من عند الله تعالى، فآمن به قومٌ وكفر به آخرون، فلا تُبالِ باختلاف قومِك فيما آتيناكَ من القرآن، وقولِهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢] وزَعْمِهم أنك افتريته.

وجوَّز رجوعُ الضمير إلى موسى، وهو خلافُ الظاهر، وإن كان الاختلافُ فيه عليه السلام هل هو نبيٌّ أم لا؟ مستلزماً للاختلاف في كتابه هل هو من الله تعالى أم لا؟ وقيل: إنَّ «في» على هذا الاحتمال بمعنى على، أي: فاختلف قومُه عليه وتعنَّتوا كما فعل قومُك معك.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي كلمةُ القضاء بتأخيرِ العذاب إلى الأجل المعلوم على حسبِ الحكمة الدَّاعية إلى ذلك ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لأُوقع القضاءُ بين المختلفين من قومك بإنزالِ العذاب الذي يستحقُّه المبطِلون ليتميَّزوا به عن المحقِّين.

وفي «البحر» أنَّ الظاهر عودُ الضمير على قومِ موسى[1]؛ قيل: وليس بذاك.

وقال ابنُ عطية: عودُه على القومين أحسنُ عندي[2]. وتُعقِّب بأنَّ قوله سبحانه: «وإن كلًّا» إلخ ظاهرٌ في التعميم بعد التخصيص، وفيه نظر، والأَولى عندي الأوَّل.

﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: وإنَّ كفَّارَ قومك، أُريدَ بالضمير بعضُ مَن رجع إليهم ضميرُ «بينهم» للأمن من الإلباس ﴿لَفِى شَكٍّ﴾ عظيم ﴿مِّنْهُ﴾ أي: من القرآن، وإنْ لم يجرِ له ذكرٌ؛ فإنَّ ذكرَ إيتاء كتابِ موسى ووقوعِ الاختلافِ فيهِ لاسيما بصددِ التَّسلية يناديه نداءً غيرَ خفيٍّ.

وقيل: الضميرُ للوعيد المفهوم من الكلام.

---

(١) البحر ٥/ ٢٦٦.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢١٠.

﴿مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾ أي: مُوقِعٍ في الرِّيبة، وجوِّز أنْ يكون من أراب: إذا صار ذا ريبةٍ.

﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾ التنوينُ عوضٌ عن المضافِ إليه كما هو المعروفُ في تنوين «كلّ» عند قوم من النُّحاة، وقيل: إنه تنوينُ تمكينٍ لكنَّه لا يمنعُ تقدير المضاف إليه أيضاً، أي: وإنَّ كلَّ المختلفين المؤمنين والكافرين.

وقال مقاتل: يعني به كفَّارَ هذه الأمة.

﴿لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: أجزيةَ أعمالهم، ولام «ليوفِّينَّهم» واقعةٌ في جواب القسم، أي: والله ليوفينَّهم. و«لَمَّا» بالتشديد، وهو مع تشديد «إنَّ» قراءةُ ابنِ عامر وحمزة وحفص وأبي جعفر[1]، وتخريجُ الآية على هذه القراءة مُشْكِلٌ حتى قال المبرِّد: إنها لحنٌ. وهو من الجسارةِ بمكانٍ لتواترِ القراءة، وليته قال كما قال الكسائيُّ: ما أدري ما وجهُ هذه القراءة.

واختلفوا في تخريجها فقال أبو عبيد[2]: إنَّ أصلَ «لَمَّا» هذه لَمًّا منوَّناً، وقد قرئ كذلك[3]، ثمَّ بني على فَعْلَى، وهو مأخوذٌ من لَمَمْتُه إذا جمعته. ولا يقال: إنها «لَمَّا» المنوَّنة وُقف عليها بالألف وأُجري الوصلُ مجرى الوقف؛ لأنَّ ذلك على ما قال أبو حيَّان: إنَّما يكون في الشِّعر. واستَبْعَدَ هذا التخريجَ بأنَّه لا يُعرف بناءُ فَعْلَى من لمَّ، وبأنه يلزمُ لمن أمالَ فعلى أن يُميلها، ولم يُملْها أحدٌ بالإجماع، وبأنَّه كان القياس أنْ تُكتب بالياء ولم تُكتب بها[4]. وسيُعلم إعرابُ الآية على هذا مما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وقيل: هي[5] «لماً» المخفَّفةُ وشُدِّدت في الوقف، ثم أُجري الوصلُ مجرى

---

(١) التيسير ص١٢٦، والنشر ٢/ ٢٩٠-٢٩١.

(٢) في الأصل و(م): عبيدة، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٦، وتفسير القرطبي ١١/ ٢٢٣، والبحر ٥/ ٢٦٧ والكلام منه، وهو القاسم بن سلام كما نص على ذلك النحاس والقرطبي.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٥، والقراءات الشاذة ص٦١، والمحتسب ١/ ٣٢٨، وتفسير القرطبي ١١/ ٢٢٢، والبحر ٥/ ٢٦٧.

(٤) البحر ٥/ ٢٦٧.

(٥) قوله: هي، ليس في (م).

الوقف، وحينئذٍ فالإعراب ما ستعرفُه أيضاً إن شاء الله تعالى، وهو بعيدٌ جدًّا.

وقيل: إنَّها بمعنى «إلا»، و«إلَّا» تقعُ زائدةً كما في قوله:

حلفتُ يميناً غيرَ ذي مثْنويَّةٍ يمينَ امرئٍ إلا بها غيرَ آثمِ[1]

فلا يبعدُ أنَّ «لَمَّا» التي بمعناها زائدةٌ، وهو وجهٌ ضعيف مبنيٌّ على وجهٍ ضعيف في «إلا».

وعن المازنيِّ: أنَّ «إنَّ» المشدَّدةَ هنا نافيةٌ، و«لَمَّا» بمعنى إلَّا غير زائدة. وهو باطلٌ؛ لأنَّه لم يُعهد تثقيلُ «إنْ» النافية، ولِنَصْبِ «كلّ» والنافيةُ لا تَنْصِب.

وقال الحوفيُّ: «إنَّ» على ظاهرها، و«لَمَّا» بمعنى «إلَّا» كما في قولك: نشدتُكَ بالله إلَّا فعلتَ. وضعَّفه أبو علي[2] بأنَّ «لَمَّا» هذه لا تفارقُ القسم قبلها. وليس كما ذَكَرَ فقد تُفارِق، وإنَّما يضعِّف ذلك بل يُبطلُه كما قال أبو حيَّان[3]: أنَّ الموضعَ ليس موضعَ دخول إلا، ألا ترى أنَّك لو قلت: إنَّ زيداً إلَّا ضربتُ، لم يكن تركيباً عربيًّا.

وقيل: إنَّ «لمَّا» هذه أصلها: لَمَنْ ما، فهي مركَّبة من اللام ومَن الموصولةِ أو الموصوفة وما الزائدة، فقُلبت النونُ ميماً للإدغام، فاجتمعت ثلاثُ ميمات فحذفت الوُسطى منها، ثم أُدغم المثلان، وإلى هذا ذهب المهدويُّ.

وقال الفرَّاء[4] ـ وتبعه جماعةٌ منهم نصر الشيرازي[5] ـ: إنَّ أصلَها: لَمِنْ ما، بِمِن الجارَّةِ وما الموصولة أو الموصوفة، وهي على الاحتمالين واقعةٌ على مَن يعقلُ، فعُمِل بذلك نحوُ ما عُمِلَ على الوجه الذي قبلَه، وقد جاء هذا الأصل في قوله:

---

(١) البيت لربيعة بن ثابت الرقي، كما في وفيات الأعيان ٦/ ٣٢٣، والخزانة ٦/ ٢٨٧، وهو في الأول برواية: آلِ، بدل: إلا، وفي الثاني برواية: آلى.

(٢) في الحجة ٤/ ٣٨٧، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٥/ ٢٦٧.

(٣) في البحر ٥/ ٢٦٧.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٢٩.

(٥) كما في البحر ٥/ ٢٦٧، وهو نصر بن علي بن محمد، أبو عبد الله الشيرازي الفارسي الفَسَوي النحوي، يعرف بابن أبي مريم، صنف: التفسير، وشرح الإيضاح للفارسي، قرئ عليه سنة (٥٦٥هـ). طبقات المفسرين للداودي ٢/ ٣٤٤.

وإنَّا لَمِمَّا نضربُ الكبشَ ضربةً على رأسه تُلقي اللسانَ من الفم(١)

واللامُ على هذين الوجهين قيل: موطِّئةٌ للقسم، ونُقل عن الفارسيِّ(٢)، وهو مخالفٌ لِمَا اشْتَهرَ عن النُّحاة من أنَّ الموطِّئة هي الداخلةُ على شرطٍ مقدَّمٍ على جواب قسمٍ تقدَّم لفظاً أو تقديراً لتؤذنَ بأنَّ الجوابَ له، نحو: والله لئن أكرمتني لأكرمنَّكَ، وليس ما دخلتْ عليه جوابَ القسم بل ما يأتي بعدَها، وكأنَّ مذهبه كمذهب الأخفش أنَّه لا يجبُ دخولها على الشرط، وإنَّما هي ما دلَّت على أنَّ ما بعدها صالحٌ لأنْ يكون جواباً للقسم مطلقاً.

وقيل: إنَّها اللام الداخلةُ في خبر «إنَّ»، و«مَن» موصولاً أو موصوفاً على الوجه الأوَّل من الوجهين هو الخبرُ، والقسمُ وجوابُه صلةٌ أو صفةٌ، والمعنى: وإنَّ كلًّا للَّذين أو الخَلْقُ واللهِ ليوفينَّهم ربُّك. و«مِن» ومجرورُها على الوجه الثاني في موضع الخبر لـ «إنَّ»، والجملةُ القَسَميَّة وجوابُها صلةٌ أو صفةٌ أيضاً لكنْ لـ «ما»، والمعنى: وإنَّ كلًّا لَمِن الذين أو لَمِنْ خَلْقٍ واللهِ ليوفِّينَّهم ربُّك.

قال في «البحر»: وهذان الوجهان ضعيفان جدًّا، ولم يُعهد حذفُ نون مَنْ وكذا حذفُ نونِ مِنْ الجارَّةِ إلَّا في الشعر إذا لقيتْ لامَ التعريف أو شِبْهَها غيرَ المدغمة، نحو قولهم: مِلْمال، يريدون: من المال(٣).

وفي «تفسير» القاضي وغيره: إنَّ الأصلَ: لمِنْ ما، بمن الجارَّةِ قُلبت النونُ ميماً فاجتمعت ثلاثُ ميمات فحُذفت أولاهنَّ(٤). وفيه أيضاً ما فيه، ففي «المغني» أنَّ حذف هذه الميم استثقالاً لم يثبت(٥). انتهى.

وقال الدَّمامينيُّ: كيف يستقيمُ تعليل الحذفِ بالاستثقال وقد اجتمعتْ في قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ [هود: ٤٨] ثماني ميمات. انتهى.

---

(١) البيت لأبي حية النميري، وهو في الكتاب ٣/ ١٥٦، والخزانة ١٠/ ٢١٤، والبحر ٥/ ٢٦٧.
(٢) في الحجة ٤/ ٣٨٥.
(٣) البحر ٥/ ٢٦٧.
(٤) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ١٤٢.
(٥) المغني ص٣٧١.

وأنشد الفرَّاء على ما ذهب إليه قولَ الشاعر:

وإني لَمِمَّا أُصدِرُ الأمرَ وجْهَه إذا هو أعيا بالسَّبيل مصادرُه[١]

وزعم بعضُهم أنَّ «لَمَّا» بمعنى حين، وفي الكلام حذفٌ، أي: لَمَّا عَمِلوا ما عَمِلوا، أو نحو ذلك، والحذفُ في الكلام كثير، نحو قوله:

إذا قلت سيروا إنَّ ليلى لعلَّها جرى دونَ ليلى مائلُ القَرْن أعْضَبُ[٢]

أراد: لعلَّها تلقاني، أو تصلُني، أو نحو ذلك. وهو كما ترى.

وقال أبو حيَّان بعد أن ذكر أنَّ هذه التخريجات مما تُنزَّه ساحةُ التنزيل عن مثلها: كنتُ قد ظهر لي وجهٌ جارٍ على قواعد العربية عارٍ من التكلُّف، وهو أنَّ «لَمَّا» هذه هي الجازمةُ حُذف فعلُها المجزومُ لدلالةِ المعنى عليه، كما حذفوه في قولهم: قاربْتُ المدينةَ ولَمَّا، يريدون: ولَمَّا أدخُلْها، والتقدير هنا: وإنَّ كلًّا لَمَّا يُنْقَصْ من جزاء عَمَلِه، ويدلُّ عليه: «ليوفينَّهم ربُّك أعمالَهم»، وكنت أعتقدُ أنِّي ما سُبِقتُ إلى ذلك حتى تحقَّقتُ أنَّ ابنَ الحاجب وُفِّق لذلك، فرأيتُ في كتاب «التحرير» نقلاً عنه أنه قال: «لَمَّا» هذه هي الجازمةُ، حُذِفَ فعلُها للدلالة عليه، وقد ثبت الحذفُ في قولهم: خرجتُ ولَمَّا، وسافرتُ ولَمَّا، ونحوِه، وهو سائغٌ فصيحٌ، فيكون التقديرُ: لَمَّا يُتركوا أو لما يُهمَلوا، ويدلُّ عليه تفصيلُ المجموعين ومجازاتهم، ثم قال: وما أعرفُ وجهاً أشبهَ من هذا، وإن كانت النفوسُ تستبعده من جهةِ أنَّ مثلَه لم يقعْ في القرآن[٣]. انتهى.

ولا يخفى عليك أنَّ الأَولى أن يقدَّر: لَمَّا يوفَّوا أعمالَهم، أي: إلى الآن لم يوفَّوها وسيوفَّونها، وإلى ذلك ذهب ابنُ هشام؛ لِمَا يلزم على التقديراتِ السابقةِ ـ على ما هو المشهورُ في معنى «لَمَّا» ـ أنَّهم سيُنْقَصون من جزاءِ أعمالهم،

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٩، وذكره أيضاً الطبري ١٢/ ٥٩٣، والقرطبي ١١/ ٢٢١. ووقع في الأصل و(م): وإني لما أصدر. . . .، والمثبت من المصادر.

(٢) أمالي المرتضى ٢/ ٧٣، ومغني اللبيب ص٨٢٦. الأعضب: المكسور القرن، شبَّه ما يحول بينهم وبين مرجوِّهم في القبح وسوء الحال بكبش مال قرنه وعضب. حاشية الشمني على المغني ٢/ ٢٥٩.

(٣) البحر ٥/ ٢٦٧-٢٦٨.

وأنَّهم سيُتركون ويُهملون، وذلك بمعزلٍ عن أنْ يرادَ وهو ظاهرٌ، وهذا وجهُ النظر الذي عناه ابنُ هشام في قوله معترضاً على ابن الحاجب: وفي هذا التقدير نظر[١].

وقال الجلبيُّ: وجهه أنَّ الدالَّ على المحذوف سابقٌ عليه بكثير، مع أنَّ ذلك المحذوفَ ليس من لفظِ هذا الذي قيل: إنه دالٌّ عليه. وليس بذاك.

ثم المرجَّح عند كثيرٍ من المفسرين ما ذهب إليه الفرَّاء.

وقرأ نافع وابن كثير: «إنْ» و«لِمَا» بالتخفيف[٢]. وخرِّجتْ هذه القراءة على أنَّ «إنْ» عاملة وإن خفِّفت اعتباراً للأصل في العمل وهو شَبَهُ الفعل، ولا يضرُّ زوالُ الشَّبه اللفظي، وإلى ذلك ذهب البصريُّون، وذكر أبو حيَّان أنَّ مذهبَهم جوازُ إعمالها إذا خُفِّفت لكنْ على قلَّةٍ إلَّا مع المُضْمَر، فلا يجوز إلَّا إنْ ورد في شعر. ونَقَل عن سيبويه منهم أنه قال: أخبرني الثقةُ أنَّه سمع بعضَ العرب يقول: إنْ عَمْراً لَمنطلقٌ[٣].

وزعم بعضٌ من النَّحْويين أنَّ المكسورة إذا خُفِّفت لا تعمل، وتأوَّل الآية بِجَعْلِ «كلًّا» منصوباً بفعلٍ مقدَّر، أي: وإنْ أرى كلًّا، مثلاً. وليس بشيء. وجَعَل هذا في «البحر» مذهبَ الكوفيين[٤]. وفي «الارتشاف»: إنَّ الكوفيين لا يجوِّزون تخفيفَ المكسورة لا مُهْمَلةً ولا مُعْمَلةً[٥]. وذكر بعضُهم مثلَه وأنَّ ما يعدُّها البصريون مخفَّفةً يعدُّها الكوفيون نافيةً، واستُثني منهم الكسائيُّ فإنَّه وافق البصريين، ومذهبُهم في ذلك هو الحقُّ.

و«كلًّا» اسمُها، واللامُ هي الداخلةُ على خبر «إن»، و«ما» موصولةٌ خبرُ «إنْ» والجملةُ القسميَّة وجوابُها صلةٌ، وإلى هذا ذهب الفرَّاء[٦]، واختار الطبريُّ في اللام مذهبَه، وفي «ما» كونَها نكرةً موصوفةً، والجملة صفتها، أي: وإنْ كلًّا لخَلْقٌ أو

(١) المغني ص٣٧١-٣٧٢.
(٢) التيسير ص١٢٦، والنشر ٢/ ٢٩٠-٢٩١.
(٣) البحر ٥/ ٢٦٦، وكلام سيبويه في الكتاب ٢/ ١٤٠.
(٤) البحر ٥/ ٢٦٦.
(٥) ارتشاف الضَّرب من لسان العرب لأبي حيان ٣/ ١٢٧١.
(٦) في معاني القرآن ٢/ ٢٨، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٥/ ٢٦٦.

لفريقٌ موفًّى عملَه[١]. واختار أبو عليٍّ في اللّام ما اختاراه، وجَعَل الجملةَ القسميَّة خبراً[٢] و«ما» مزيدةً بين اللّامين[٣]، وقد عُهِدتْ زيادتُها في غير ما موضع.

وقرأ أبو بكر عن عاصم بتخفيف «إنْ» وتشديدِ «لمَّا» وقرأ الكسائيُّ وأبو عمرو بعكس ذلك[٤]، وتخريج القراءتين لا يخفى على مَن أحاط خُبراً بما ذُكر في تخريج القراءتين قبلُ.

وقرأ أبيٌّ، والحسن بخلاف عنه، وأبان بن تغلب: «وإنْ» بالتخفيف «كلٌّ» بالرفع «لَمَّا» بالتشديد[٥]. وخُرِّجت على أنَّ «إنْ» نافية، و«كلٌّ» مبتدأ، والجملةُ القسمية وجوابُها خبرُه، و«لَمَّا» بمعنى إلَّا، أي: ما كلٌّ إلا أُقسم والله ليوفينَّهم، وأنكر أبو عبيد[٦] مجيء «لَمَّا» بمعنى إلَّا في كلام العرب، وقال الفرَّاء: إنَّ جعْلَها هنا بمعنى إلَّا وجهٌ لا نعرفه، وقد قالت العربُ مع اليمين: باللهِ لَمَّا قمتَ عنَّا، وإلَّا قمتَ عنَّا، وأمَّا في غير ذلك فلم نسمعْ مجيئها بمعنى إلَّا لا في نثرٍ ولا في شعر. ويلزم القائل أن يجوِّز: قام الناسُ لَمَّا زيداً، على معنى: إلا زيداً[٧].

ولا التفاتَ إلى إنكارهما، والقراءةُ المتواترةُ في ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٣٢] ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤] تثبتُ ما أنكراه، وقد نصَّ الخليلُ وسيبويه والكسائيُّ على مجيء ذلك؛ ومَن حَفِظَ حُجَّةٌ على مَن لم يَحْفَظْ، وكونُ العرب خصَّصت مجيئها كذلك ببعض التراكيب لا يضرُّ شيئاً، فكم من شيءٍ خُصَّ بتركيبٍ دون ما أشبهه.

وقرأ الزهريُّ وسليمان بن أرقم: «وإن كلًّا لَمًّا» بتشديد الميم والتنوين[٨]، ولم

---

(١) البحر ٥/ ٢٦٧، وينظر تفسير الطبري ١٢/ ٥٩٧-٥٩٨.

(٢) في الأصل: خبر إن.

(٣) الحجة ٤/ ٣٨٥-٣٨٦، والبحر ٥/ ٢٦٧.

(٤) التيسير ص١٢٦، والنشر ٢/ ٢٩١.

(٥) البحر ٥/ ٢٦٦.

(٦) في الأصل و(م): عبيدة، والمثبت من البحر ٥/ ٢٦٨، والدر المصون ٦/ ٤٠٨.

(٧) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٩، والبحر ٥/ ٢٦٨.

(٨) القراءات الشاذة ص٦١، والمحتسب ١/ ٣٢٨، والبحر ٥/ ٢٦٦، والكلام منه.

يتعرَّضوا في النقل عنهما لتشديدِ «إن» ولا لتخفيفها، وهي في هذه القراءة مصدرٌ من قولهم: لممتُ الشيءَ، إذا جمعته كما مرَّ(١)، ونصبُها على الحالية من ضمير المفعول في «ليوفِّينهم» عند أبي البقاء، وضعَّفه(٢).

وقال أبو علي: إنَّها صفةٌ لـ «كلّ» ويقدَّر مضافاً إلى نكرةٍ ليصحَّ وصفُه بالنكرة(٣). وكأنَّ المصدر حينئذٍ بمعنى اسم المفعول. وذكر الزمخشريُّ في معنى الآية على هذه القراءة أنَّه: وإن كلًّا ملمومين بمعنى مجموعين، كأنه قيل: وإن كلًّا جميعاً، كقوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: ٣٠، ص: ٧٣](٤). وجعل ذلك الطيبيُّ منه ميلاً إلى القول بالتأكيد.

وقال ابنُ جنِّي(٥): إنَّها منصوبة بـ «ليوفينهم»، على حدِّ قولهم: قياماً لأقومنَّ(٦)، والتقدير: توفيةً جامعةً لأعمالهم ليوفينَّهم، وخبر «إنَّ» في ذلك جملةُ القسم وجوابُه.

وروى أبو حاتم أنَّ في مصحف أبيٍّ: «وإنْ من كلٌّ إلا ليوفينَّهم»(٧) وخُرِّج على أنَّ «إنْ» نافية و«من» زائدة.

وقرأ الأعمش نحوَ ذلك إلا أنَّه أسقط «مِن»، وهو حرفُ ابنِ مسعود رضي الله عنه(٨)، والوجهُ ظاهر.

قيل: وقد تضمَّنت هذه الجملةُ عدَّةَ مؤكِّدات من «إنَّ» و«اللام» و«ما» إذا كانت زائدةً، والقسم، ونون التوكيد، وذلك للمبالغة في وَعْدِ الطائعين ووعيدِ العاصين.

---

(١) ص١٢٨ من هذا الجزء.
(٢) الإملاء ٣/ ٣٠٧.
(٣) الحجة ٤/ ٣٨٨، والبحر ٥/ ٢٦٨.
(٤) الكشاف ٢/ ٢٩٥.
(٥) في المحتسب ١/ ٣٢٨، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٥/ ٢٦٨.
(٦) في (م): لا أقومن، وهو تصحيف.
(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٢١٠، والبحر ٥/ ٢٦٦.
(٨) القراءات الشاذة ص٦١، والمحتسب ١/ ٣٢٨، والبحر ٥/ ٢٦٦.

﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١١﴾ أي: إنه سبحانه بما يعمله كلُّ فردٍ من المختلفين من الخيرِ والشرِّ عليمٌ على أتمِّ وجهٍ، بحيث لا يخفى عليه شيءٌ من جلائله ودقائِقه. والجملةُ قيل: توكيدٌ للوعد والوعيد؛ فإنه سبحانه لَمَّا كان عالماً بجميع المعلومات، كان عالماً بمقاديرِ الطاعات والمعاصي، وما يقتضيه كلُّ فردٍ منها من الجزاءِ بمقتضى الحكمة، وحينئذٍ تتأتَّى توفيةُ كلِّ ذي حقٍّ حقَّه، إنْ خيراً فخيرٌ وإنْ شرًّا فشرّ.

وقرأ ابن هرمز: «تعملون» على الالتفاتِ من الغيبة إلى الخطاب(١).

﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ لَمَّا بيَّن أمرَ المختلفين في التوحيد والنبوَّة، وأطنبَ سبحانه في شرح الوعد والوعيد، أمرَ رسولَه ﷺ بالاستقامة مثل الاستقامةِ التي أُمر بها، وهذا يقتضي أَمْرَه ﷺ بوحيٍ آخرَ ولو غيرَ متلوٍّ، كما قاله غيرُ واحد. والظاهرُ أنَّ هذا أمرٌ بالدوام على الاستقامة، وهي لزومُ المنهج المستقيم، وهو المتوسِّط بين الإفراط والتفريط.

وهي كلمةٌ جامعةٌ لكلِّ ما يتعلَّق بالعلم والعمل وسائرِ الأخلاق، فتشمل العقائدَ والأعمال المشتركةَ بينه ﷺ وبين سائرِ المؤمنين، والأمورَ الخاصَّةَ به عليه الصلاة والسلام: من تبليغ الأحكام، والقيامِ بوظائف النبوَّة، وتحمُّلِ أعباء الرسالة وغيرِ ذلك.

وقد قالوا: إنَّ التوسُّط بين الإفراط والتفريط، بحيث لا يكونُ ميلٌ إلى أحدِ الجانبين قيدَ عرضِ شعرة، مما لا يحصلُ إلا بالافتقار إلى الله تعالى، ونَفْيِ الحول والقوَّة بالكلِّية، ومثَّلوا الأمرَ المتوسِّط بين ذينك الطرفين بخطٍّ يكون بين الشمس والظلِّ ليس بشمسٍ ولا ظلٍّ، بل هو أمرٌ فاصلٌ بينهما، ولعمري إنَّ ذلك لدقيقٌ، ولهذا قالوا: لا يُطيق الاستقامةَ إلَّا مَن أُيِّد بالمشاهدات القوية، والأنوارِ السَّنِيَّة، ثم عُصِم بالتشبُّث بالحقِّ ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤].

وجَعَل بعضُ العارفين الصراطَ الذي هو أدقُّ من الشعرة وأحدُّ من السيف إشارةً

---

(١) البحر ٥/ ٢٦٨.

إلى هذا المنهج المتوسِّط، ومما يدلُّ على شدَّة هذا الأمر ما أخرج ابنُ أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن أنَّه قال: لَمَّا نزلت هذه الآيةُ قال ﷺ: «شمِّروا شمِّروا» وما رؤي بعدَها ضاحكاً[١].

وعن ابن عباس ﵄ أنَّه قال: ما نزلتْ على رسول الله ﷺ آيةٌ أشدُّ من هذه الآيةِ ولا أشقُّ.

واستدلَّ بعضُ المفسرين على عُسرِ الاستقامة بما شاع من قوله ﷺ: «شيبتني هودٌ»[٢]. وأنت تعلم أنَّ الأخبار متضافرةٌ بضمِّ سورٍ أخرى إليها وإن اختلفتْ في تعيين المضموم كما مرَّ أوَّل السورة، وحينئذٍ لا يخفى ما في الاستدلال من الخفاء، ومن هنا قال صاحب «الكشف»: التخصيصُ بهودٍ لهذه الآية غيرُ لائحٍ؛ إذ ليس في الأخوات ذكرُ الاستقامة.

وذكر في «قوت القلوب» أنه لَمَّا كان القريبَ الحبيبَ ﷺ شيَّبه ذِكْرُ البُعدِ وأهلِه، ثم قال: ولعلَّ الأظهرَ أنه عليه الصلاة والسلام شيَّبه ذكرُ أهوالِ القيامة، وكأنَّه - بأبي هو وأمي - شاهَدَ منه يوماً يجعل الولدان شيباً[٣]. انتهى.

وبعضُهم استدلَّ للتخصيص برؤيا أبي علي الشَّبُّوي[٤] السَّابقة، وفيه بعد تسليم صحَّة الرواية أنَّ رؤيا النبي ﷺ وإن كانت حقًّا حيث إنَّ الشيطانَ لا يتمثَّل به عليه الصلاة والسلام، إلَّا أنه من أين يُجزمُ بضبطِ الرائي وتحقيقِه ما رأى، على أنَّ مما يوهنُ أمرَ هذه الرؤيا ويقوِّي ظنَّ عدمِ ثبوتها ما أخرجه ابنُ عساكر عن جعفر بن محمد، عن أبيه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «شيبتْني هودٌ وأخواتُها وما فُعِلَ بالأمم قبلي»[٥].

---

(١) الدر المنثور ٣/ ٣٥١.

(٢) تقدم ١١/ ٣٢٠، وهو حديث ضعيف، وقد سلف الكلام عليه ثمة.

(٣) قوت القلوب لأبي طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي ١/ ٢٢٩.

(٤) في الأصل و(م): الشتري، والصواب ما أثبتناه، وقد سلفت ترجمته والكلام على رؤياه ١١/ ٣٢١. وينظر توضيح المشتبه ٥/ ٢٩١، والتقييد لابن نقطة ص٨٥.

(٥) تاريخ ابن عساكر ٤/ ١٧٥-١٧٦، وسلف ١١/ ٣٢١.

وذكر الشِّهاب[١] ما يقوِّي اعتراضَ صاحبِ «الكشف» من أنَّه ليس في الطرق المرويَّة في هذا الباب الاقتصارُ على «هودٍ»، بل ذُكر معها أخواتُها، وليس فيها الأمر المذكور مع أنَّه وقع في غيرِها من آل حاميم.

ثمَّ ذَكر أنَّه لاح له ما يدفعُ الإشكال، وذلك أنَّ مَبْنَى هذه السورةِ الكريمة على إرشادِه تعالى شأنُه نبيَّه ﷺ إلى كيفية الدعوة من مُفتَتحِها إلى مُختَتَمها، وإلى ما يعتري مَن تصدَّى لهذه المرتبة السنيَّة من الشدائد، واحتماله لِمَا يترتَّب عليه من الفوائدِ، لا على التسلية إذ لا يطابقُ المقامَ حسبما تقدَّم لك عن صاحب «الكشف»، ولَمَّا كانت هذه السورةُ جامعةً لإرشاده من أوَّل أمره إلى آخره، وهذه الآيةُ فذلكة لها، فحينما نزلتْ هذه السورة هالَهُ ما فيها من الشدائدِ، وخاف من عدمِ القيام بأعبائها، حتى إذا لقي الله تعالى في يوم الجزاء ربما مسَّه نَصَبٌ من السؤال عنها، فذِكْرُ القيامة في تلك السُّور يخوِّفه هولَها لاحتمال تفريطِه فيما أرشدَه الله تعالى له في هذه، وهذا لا ينافي عصمتَه عليه الصلاة والسلام وقربَه لكونه الأعلمَ بالله تعالى والأخوفَ منه، فالخوفُ منها يذكِّره بما تضمَّنته هذه السورة، فكأنها هي المشيِّبة له ﷺ من بينها، ولذا بدأ بها في جميع الروايات، ولَمَّا كانت تلك الآيةُ فذلكةً لها كانت هي المشيِّبةَ في الحقيقة، فلا منافاةَ بين نسبة التشييب لتلك السُّوَر ولا لهذه السورةِ وحدَها كما فَعَلَه من فعله، ولا لتلكَ الآية كما وقع في تلك الرؤيا. انتهى. وسيأتي[٢] إن شاء الله تعالى وجهٌ آخرُ لنسبةِ التشييب لهذه السورة، فليتأمَّل.

وذهب بعضُ المحققين إلى كونِ الكاف في «كما» بمعنى «على»، كما في قولهم: كنْ كما أنت عليه، أي: على ما أنت عليه. ومن هنا قال ابنُ عيينة[٣] وجماعةٌ: المعنى: استقم على القرآن. وقال مقاتل: امضِ على التوحيد. وقال جعفر الصَّادق رضي الله عنه: استقمْ على الإخبار عن الله تعالى بصحَّة العزم. والأظهرُ إبقاء

---

(١) في حاشيته على تفسير البيضاوي ٥/ ١٤٣.

(٢) في الأصل: وسيأتي قريباً.

(٣) في الأصل و(م): ابن عطية، وهو تصحيف، والمثبت من زاد المسير ٤/ ١٦٤، والبحر ٥/ ٢٦٨، وعنه نقل المصنف.

«ما» على العموم، أي: استقم على جميع ما أُمرتَ به، والكلام في حذف مثل هذا الضمير أمرٌ شائع، وقد مرَّ التنبيهُ عليه.

ومال بعضُهم إلى كون الكافِ للتشبيه حسبما هو الظاهرُ منها، إلَّا أنه قال: إنَّها في حكم «مِثْل» في قولهم: مثلُكَ لا يبخل، فكأنه قيل: استقم الاستقامةَ التي أُمرْتَ بها، فراراً من تشبيه الشيء بنفسه، ولا يخفى أنه ليس بلازم.

ومن الغريب ما نُقل عن أبي حيَّان أنَّه قال في «تذكرته»[1]: فإن قلتَ: كيف جاء هذا التشبيه للاستقامة بالأمر؟ قلتُ: هو على حذفِ مضافٍ تقديرُه: مثلَ مطلوبِ الأمر، أي: مدلوله. فإن قلت: الاستقامةُ المأمورُ بها هي مطلوبُ الأمر، فكيف يكون مِثْلاً لها؟ قلت: مطلوبُ الأمر كلِّيٌّ والمأمور جزئيٌّ، فحصلت المغايرةُ وصحَّ التشبيه، كقولك: صلِّ ركعتين كما أُمرت.

وأَبْعَدَ بعضُهم فجعل الكافَ بمعنى على واسْتَفْعِلْ للطلب، كاستَغْفِر الله تعالى، أي: اطلب الغفرانَ منه، وقال: المعنى: اطلب الإقامةَ على الدِّين.

﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ أي: تاب من الشِّرْك وآمنَ معك، فالمعيَّةُ باعتبار اللازم من غيرِ نظرٍ إلى ما تقدَّمه وغيره، وقد يقال: يكفي الاشتراك في التوبة والمعيَّةُ فيها مع قَطْع النَّظر عن المتوب عنه، وقد كان ﷺ يستغفرُ الله تعالى في اليوم أكثرَ من سبعين مرَّة[2]. واستظهر ذلك الجلبيُّ.

و«مَن» على ما اختاره أبو حيَّان[3] وجماعةٌ عطفٌ على الضمير المستكنِّ في «استقم»، وأغنَى الفصلُ بالجارِّ والمجرور عن تأكيده بضميرٍ منفصلٍ لحصول الغرض به، وفي الكلام تغليبٌ لحكمِ الخطاب على الغَيبة في لفظِ الأمر.

واختار كثيرٌ أنه فاعلٌ لفعلٍ محذوف، أي: ولْيَسْتَقِمْ مَن... إلخ؛ لأنَّ الأمر لا يرفع الظاهر، وحينئذٍ فالجملةُ معطوفةٌ على الجملة الأولى، ومَن ذهب إلى

---

(١) كما في حاشية الشهاب ٥/ ١٤٣.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٠٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) في البحر ٥/ ٢٦٩.

الأوَّل رجَّحه بعدم احتياجه إلى التقدير، ودفع المحذور بأنَّه يُغتفر في التابع ما لا يُغتفر في المتبوع.

وجوَّز أبو البقاء(١) كونَه منصوباً على أنَّه مفعولٌ معه، والمعنى: استقمْ مصاحباً لمن تاب، قيل: وهو في المعنى أتمُّ وإن كان في اللفظ نوعُ نَبْوَةٍ عنه.

وقيل: إنَّه مبتدأ والخبرُ محذوفٌ، أي: فليستقم. وجوِّز كونُ الخبر «معك».

﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ أي: لا تنحرفوا عمَّا حُدَّ لكم بإفراطٍ أو تفريطٍ، فإنَّ كِلَا طَرَفَيْ قَصْدِ الأمورِ ذميمٌ، وسمِّي ذلك طغياناً ـ وهو مجاوزةُ الحدِّ ـ تغليظاً، أو تغليباً لحالِ سائر المؤمنين على حالِه ﷺ.

وعن ابن عبَّاس أنَّ المعنى: لا تطغَوا في القرآن فتُحِلُّوا وتحرِّموا ما لم تُؤْمروا به. وقال ابنُ زيد: لا تعصُوا ربَّكم. وقال مقاتل: لا تخلطُوا التوحيدَ بالشِّرك. ولعلَّ الأوَّلَ أولى.

﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١١٢﴾ فيجازيكم على ذلك، وهو تعليلٌ للأمر والنهي السابقين، كأنَّه قيل: استقيموا ولا تطغَوا؛ لأنَّ الله تعالى ناظرٌ لأعمالكم فيجازيكم عليها.

وقيل: إنَّه تتميمٌ للأمر بالاستقامة. والأوَّل أحسن وأتمُّ فائدةً.

وقرأ الحسن والأعمش: «يعملون» بياء الغيبة، ورُوي ذلك عن عيسى الثقفيِّ أيضاً(٢).

وفي الآية ـ على ما قال غيرُ واحد ـ دليلٌ على وجوب اتِّباع المنصوص عليه من غيرِ انحراف بمجرَّد التشهِّي وإعمالِ العقلِ الصِّرف؛ فإن ذلك طغيانٌ وضلال، وأمَّا العمل بمقتضى الاجتهادِ التابع لعللِ النُّصوص، فذلك من باب الاستقامة كما أُمر على موجبِ النصوص الآمرة بالاجتهاد.

وقال الإمام: وعندي لا يجوزُ تخصيص النَّص بالقياس؛ لأنه لَمَّا دلَّ عمومُ

(١) في الإملاء ٣/ ٣٠٧.
(٢) البحر ٥/ ٢٦٩.

النصِّ على حُكْمٍ وجبَ الحكمُ بمقتضاه؛ لقوله تعالى: (فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ)، والعملُ بالقياس انحرافٌ عنه، ولذا لَمَّا ورد القرآنُ بالأمر بالوضوء وجيء بالأعضاء مرتَّبة في اللفظ، وجب الترتيبُ فيها، ولَمَّا ورد الأمرُ في الزكاة بأداءِ الإبل من الإبل والبقرِ من البقر، وجب اعتبارُها، وكذا القولُ في كلِّ ما ورد أمرُ الله تعالى به، كلُّ ذلك للأمر بالاستقامة كما أمر[1]. انتهى.

وأنت تعلم أنَّ إيجابَ الترتيب في الوضوء لذلك ليس بشيءٍ، ويلزمُه أن يوجب الترتيبَ في الأوامر المتعاطفة بالواو، مثل ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣] وكذا في نحو ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥] بعين ما ذُكر في الوضوء، وهو كما ترى، وكأنَّه عفا الله تعالى عنه يجزمُ بأنَّ الحنفيَّة الذين لا يوجبون الترتيبَ في أعمال الوضوء طاغون خارجون عمَّا حَدَّ الله تعالى لا احتمالَ للقول بأنَّهم مستقيمون، وهو من الظُّلم بمكان.

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: لا تميلوا أدنى ميل، والمرادُ بهم المشركون كما روى ذلك ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما[2].

وفسِّر الميلُ بميلِ القلب إليهم بالمحبة، وقد يفسَّر بما هو أعمُّ من ذلك، كما يفسَّر «الذين ظلموا» بمن وُجِدَ منه ما يسمَّى ظلماً مطلقاً، قيل: ولإرادةِ ذلك لم يقلْ: إلى الظالمين، ويشمل النهيُ حينئذٍ مداهنتَهم وتركَ التغيير عليهم مع القدرة، والتَّزيِّي بزيِّهم، وتعظيمَ ذِكْرِهم، ومجالستَهم من غيرِ داعٍ شرعيٍّ، وكذا القيام لهم ونحو ذلك.

ومدارُ النهي على الظُّلم، والجمعُ باعتبارِ جمعيَّة المخاطبين. وقيل: إنَّ ذلك للمبالغة في النهي من حيث إنَّ كونَهم جماعةً مظنَّةُ الرخصةِ في مداهنتهم مثلاً. وتعقِّب بأنَّه إنما يتمُّ أنْ لو كان المراد النهيَ عن الرُّكون إليهم من حيث إنهم جماعةٌ، وليس فليس.

﴿فَتَمَسَّكُمُ﴾ أي: فتصيبَكم بسبب ذلك، كما تُؤْذِنُ به الفاءُ الواقعة في جواب النهي ﴿ٱلنَّارُ﴾ وهي نارُ جهنم.

---

(١) تفسير الرازي ١٨/ ٧١.

(٢) تفسير الطبري ١٢/ ٦٠٠، وتفسير ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٩٠.

وإلى التفسير الثاني - وما أصعبه على الناس اليوم بل في غالب الأعاصير من تفسيرٍ - ذهبَ أكثرُ المفسِّرين، قالوا: وإذا كان حالُ الميل في الجملة إلى مَن وُجِدَ منه ظلم ما في الإفضاء إلى مساسِ النار[1]، فما ظنُّك بمن يميلُ إلى الراسخين في الظُّلم كلَّ الميل، ويتهالك على مصاحبتهم ومنادَمَتِهم، ويُتعبُ قلبَه وقالبَه في إدخال السرور عليهم، ويستنهضُ الرَّجِلَ والخيلَ في جلب المنافع إليهم، ويبتهجُ بالتزيِّي بزيِّهم والمشاركةِ لهم في غيِّهم، ويمدُّ عينه إلى ما مُتِّعوا به من زهرةِ الدنيا الفانية، ويغبطُهم بما أوتوا من القطوف الدانية، غافلاً عن حقيقة ذلك، ذاهلاً عن منتهى ما هنالك؟ وينبغي أن يعدَّ مثلُ ذلك من الذين ظلموا لا من الراكنين إليهم بناءً على ما روي أنَّ رجلاً قال لسفيان: إنِّي أخيطُ للظَّلَمة، فهل أُعَدُّ مِنْ أعوانهم؟ فقال له: لا، أنت منهم، والذي يبيعُك الإبرةَ من أعوانهم.

وما أحسنَ ما كتبه بعضُ الناصحين للزهريِّ حين خالط السلاطين، وهو: عافانا الله تعالى وإيَّاك أبا بكرٍ من الفتن، فقد أصبحتَ بحالٍ ينبغي لمن عرفكَ أن يدعوَ لك الله تعالى ويرحمَك، أصبحتَ شيخاً كبيراً، وقد أثقلتْكَ نِعَمُ الله تعالى بما فهَّمك من كتابه، وعلَّمك من سنَّة نبيِّك ﷺ، وليس كذلك أَخَذَ الله تعالى الميثاقَ على العلماء، قال سبحانه: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧] واعلم أنَّ أيسرَ ما ارتكبتَ، وأخفَّ ما احتملتَ أنَّك آنستَ وحشةَ الظالم، وسهَّلْتَ سبيلَ الغيِّ بدنوِّك مِمَّن لم يؤدِّ حقًّا ولم يترك باطلاً حين أدناك، اتخذوك قطباً تدور عليك رحى باطلِهم، وجسراً يعبرون عليك إلى بلائِهم، وسُلَّماً يصعدون فيك إلى ضلالِهم، يُدخلون الشكَّ بكَ على العلماء، ويقتادون بك قلوبَ الجهلاء، فما أيسرَ ما عَمَروا لك في جنبِ ما خربُوا عليك، وما أكثرَ ما أخذوا منك فيما أفسدوا عليك من دينك، فما يؤمنُك أن تكونَ مِمَّن قال الله تعالى فيهم: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩] فإنَّكَ تُعامل مَن لا يجهل، ويحفظ عليك مَن لا يغفلْ، فداوِ دينَكَ فقد دخلَه سقمٌ، وهيِّئْ زادكَ فقد حضر السفرُ البعيد، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء، والسلام[2].

---

(١) في (م): إلى مساس الناس النار.

(٢) أخرجه مطولاً أبو نعيم في الحلية ٣/ ٢٤٦، وصاحب الرسالة هو أبو حازم الأعرج، ونقلها المصنف عن الكشاف ٢/ ١٩٦.

وعن الأوزاعيِّ: ما من شيء أبغضُ إلى الله تعالى من عالمٍ يزور عاملاً.

وعن محمد بن سلمة: الذُّباب على العذرةِ أحسنُ من قارئٍ على باب هؤلاء.

وفي الخبر: مَن دعا لظالمٍ بالبقاء فقد أحبَّ أنْ يُعصَى اللهُ تعالى في أرضه[1].

ولعمري إنَّ الآية أبلغُ شيءٍ في التحذير عن الظَّلمة والظلم، ولذا قال الحسن: جُمِعَ الدِّين في لاءين، يعني «لا تطغوا» و«لا تركنوا».

ويُحْكَى أنَّ الموفَّق أبا أحمد طلحةَ العباسي[2] صلَّى خلف الإمام، فقرأ هذه الآيةَ، فغُشي عليه، فلما أفاق قيل له، فقال: هذا فيمَنْ ركن إلى مَن ظَلَم، فكيف الظالم؟

هذا وخطابُ النبيِّ ﷺ ومَن معه من المؤمنين بهذين النهْيَيْن بعد الأمر بالاستقامة للتثبيت عليها، وقد تُجعل تأكيداً لذلك إذا كان المرادُ به الدَّوامَ والثبات.

وعن أبي عمرو أنه قرأ: «تِرْكَنوا» بكسرِ التاء على لغة تميم[3].

وقرأ قتادة وطلحةُ والأشهبُ، ورُوِيَتْ عن أبي عمرو: «تركُنوا» بضمِّ الكاف[4]، مضارع رَكَن بفتحها، وهي على ما في «البحر» لغةُ قيسٍ وتميم، وقال الكسائيُّ: إنَّها لغةُ أهل نجدٍ. وشذَّ «يَركَن» بالفتح مضارع رَكَن كذلك[5].

وقرأ ابن أبي عبلة: «ولا تُركَنوا» مبنيًّا للمفعول[6]، من أرْكَنَه إذا أماله.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٧/ ٥٣-٥٤ من قول سفيان الثوري، و ٨/ ٢٤٠ من قول يوسف بن أسباط، وأخرجه البيهقي في الشعب (٩٤٣٢) من قول الحسن.

(٢) ابن المتوكل على الله جعفر بن المعتصم محمد بن الرشيد العباسي، أخو الخليفة المعتمد، ووالد أمير المؤمنين المعتضد، توفي سنة (٢٨٧هـ). السير ١٣/ ١٦٩.

(٣) البحر ٥/ ٢٦٩، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦١ عن يحيى بن وثاب. والمشهور عن أبي عمرو القِراءة بفتح التاء كقراءة الجمهور.

(٤) القراءات الشاذة ص٦١، والمحتسب ١/ ٣٢٩، والبحر ٥/ ٢٦٩.

(٥) البحر ٥/ ٢٦٩.

(٦) البحر ٥/ ٢٦٩، وهي في القراءات الشاذة ص٦١ عن أبي حيوة.

وقراءة الجمهور: «تَرْكَنوا» بفتح الكاف، والماضي «رَكِنَ» بكسرها، وهي لغة قريش، وهي الفصحى على ما قال الأزهريُّ[(١)].

وقرأ ابنُ وثَّاب وعلقمة والأعمش وابنُ مصرِّفٍ، وحمزةُ فيما يروى عنه: «فتِمَسَّكم» بكسر التاء على لغة تميم أيضاً[(٢)].

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ من أنصارٍ يمنعون العذابَ عنكم، والمراد نفيُ أن يكونَ لكلٍّ نصيرٌ، والمقامُ قرينةٌ على ذلك. والجملةُ في موضع الحال من ضمير «تمسَّكم».

﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ من جهتِه تعالى إذ قد سبق في حُكْمِه تعالى أن يعذِّبَكم بركونِكم إليهم ولا يُبْقي عليكم. و«ثم» قيل: لاستبعاد نَصْرِه سبحانه إيَّاهم وقد أَوْعَدَهم العذابَ على ذلك، وأوجبه لهم.

وتُعقِّب بأنَّ أثر الحرف إنما هو في مدخولِه، ومدخولُ «ثم» عدمُ النُّصرة وليس بمستبعَدٍ، وإنما المستبْعد نصرُ الله تعالى لهم، فالظاهرُ أنَّها للتراخي في الرتبة؛ لأنَّ عدمَ نصر الله تعالى أشدُّ وأفظعُ من عدمِ نصرةِ غيره. وأُجيب بما لا يخلو عن تكلُّف. وأيًّا ما كان فالمقامُ مقامُ الواو إلا أنَّه عدل عنها لما ذُكر.

وجوَّز القاضي أن تكون منزَّلةً منزلةَ الفاء بمعنى الاستبعاد، فإنه سبحانه لَمَّا بيَّن أنه معذِّبهم وأنَّ أحداً لا يقدر على نصرهم أنتج ذلك أنَّهم لا يُنصرون أصلاً[(٣)]. ووجِّه ذلك بأنَّه كان الظاهرُ أن يؤتى بالفاء التفريعيةِ المقارِنةِ للنتائج؛ إذ المعنى: إنَّ الله تعالى أوجب عليكم عقابَه ولا مانعَ لكم منه، فإذن أنتم لا تنصرون، فعدل عنه إلى العطف بـ «ثم» الاستبعادية إلى الوجه الذي ذكره، واستبعادُ الوقوع يقتضي النفي والعدم الحاصل الآن، فهو مناسبٌ لمعنى تسبُّب النفي، ودُفع بذلك ما قيل عليه: إنَّ الداخل على النتائج هي الفاءُ السببيَّة لا الاستبعاديَّة. ولا يخفى قوَّةُ الاعتراض.

---

(١) في تهذيب اللغة ١٠/١٨٩.

(٢) المحتسب ١/٣٣٠، والبحر ٥/٢٦٩.

(٣) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/١٤٥، وما سيأتي هو من كلام الشهاب.

وفُرِّق بين وجهي الاستبعاد السابق والتنزيلِ المذكور بأنَّ المنفيَّ على الأوَّل نصرةُ الله تعالى لهم، وعلى الثاني مطلقُ النصرة.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: المكتوبةَ، ومعنى إقامتها أداؤُها على تمامها. وقيل: المداومةُ عليها. وقيل: فعلُها في أوَّل وقتها.

﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: أوَّلَه وآخرَه، وانتصابُه على الظرفية لـ «أقم». ويضعَّف كونُه ظرفاً للصلاة، ووجهُ انتصابه على ذلك إضافتُه إلى الظرف.

﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ أي: ساعاتٍ منه قريبةً من النهار، فإنَّه من أزلفه: إذا قرَّبه. وقال الليث: هي طائفة من أوَّل الليل، وكذا قال ثعلبُ.

وقال أبو عبيدةَ والأخفشُ وابنُ قتيبة: هي مطلقُ ساعاته وآناؤه، وكلُّ ساعة زلفة، وأنشدوا للعجاج:

ناجٍ طواه الأينُ مِمَّا وجفا
طيَّ الليالي زُلَفاً فزُلَفا
سماوَةَ الهلالِ حتى احقوقفا[1]

وهو عطفٌ على «طرفي النهار»، و«من الليل» في موضع الصِّفة له.

والمراد بصلاة الطرفين؛ قيل: صلاة الصبح والعصر، وروي ذلك عن الحسن وقتادة والضحاك، واستظهر ذلك أبو حيَّان[2] بناءً على أنَّ طرف الشيءِ يقتضي أن يكون من الشيء، والتزم أنَّ أوَّل النهار من الفجر، وقد يطلق طرفُ الشيءِ على الملاصق لأوَّله وآخرِه مجازاً، فيمكن اعتبارُ النهار من طلوع الشمس مع صحَّة ما ذكروه في صلاة الطرف الأوَّل بجعل التثنيةِ هنا مثلَها في قولهم: القلمُ أحدُ اللسانين. إلا أنه قيل بشذوذِ ذلك.

---

(١) مجاز القرآن ١/ ٣٠٠، وتفسير غريب القرآن ص٢١٠، والرجز في ديوان العجاج ص٤٢٦، وهو في وصف بعير، وقال الأصمعي شارح الديوان: الأين: الفترة. وطواه: أضمره. والوجيف: ضرب من السير. وزُلفاً فزلفاً، أي: منزلة بعد منزلة. وسماوة الهلال: شخصه. واحقوقف: اعْوَجّ. وينظر اللسان (زلف) و (سما).

(٢) في البحر ٥/ ٢٧٠.

وروي عن ابن عباس - واختاره الطبريُّ[(١)] - أنَّ المرادَ صلاةُ الصبح والمغرب، فإن كان النهارُ من أول الفجر إلى غروب الشمس فالمغربُ طرفٌ مجازاً، وهو حقيقةً طرفُ الليل، وإن كان من طلوع الشمس إلى غروبها، فالصبحُ كالمغرب طرفٌ مجازيٌّ.

وقال مجاهد ومحمد بن كعب القرظي: الطرفُ الأوَّل الصبح، والثاني الظهر والعصر، واختار ذلك ابنُ عطية[(٢)]، وأنت تعلم أنَّ في جَعْلِ الظهر من الطرف الثاني خفاءً، وإنما الظهر نصفُ النهار، والنصفُ لا يسمَّى طَرَفاً إلا بمجاز بعيد.

والمرادُ بصلاة الزلف عند الأكثر صلاةُ المغرب والعشاء، وروى الحسن في ذلك خبراً مرفوعاً[(٣)]. وعن ابن عباس أنه فسَّر صلاة الزُّلف بصلاةِ العتمةِ، وهي ثلثُ الليل الأوَّل بعد غيبوبة الشَّفق، وقد تُطلقُ على وقتِ صلاة العشاء الآخرة.

وأغربَ مَن قال: صلاة الطرفين صلاةُ الظهر والعصر، وصلاةُ الزُّلف صلاةُ المغرب والعشاء والصبح.

وقيل: معنى «زلفاً»: قُرَباً، وحقُّه على هذا - كما في «الكشاف» - أن يُعطف على الصلاة، أي: أَقم الصلاةَ طرفي النهار وأَقِمْ زُلفاً من الليل، أي: صلواتٍ تتقرَّب بها إلى الله عزَّ وجلَّ[(٤)]. انتهى؛ قيل: والمرادُ بها على هذا صلاةُ العشاء والتهجُّد، وقد كان واجباً عليه عليه الصلاة والسلام، أو العشاء والوتر على ما ذهب إليه أبو حنيفةَ ﷺ، أو المجموع كما يقتضيه ظاهرُ الجمع، وقد تُفسَّر بصلاة المغرب والعشاء، واختاره البعضُ. وقد جاء إطلاقُ الجمع على الاثنين فلا حاجةَ إلى التزام أنَّ ذلك باعتبار أنَّ كلَّ ركعة قربةٌ فتحقَّق قربٌ فوقَ الثلاث فيما ذكر.

وقرأ طلحةُ وابنُ أبي إسحاق وأبو جعفر: «زُلُفاً» بضمِّ اللام[(٥)]، إمَّا على أنه جمعُ زلفة أيضاً، ولكن ضمَّت عينُه إتْباعاً لفائه، أو على أنَّه اسمٌ مفردٌ كعُنُق، أو جمع زَلِيف بمعنى زلفى، كرغيف ورُغُف.

---

(١) في تفسيره ١٢/٦٠٣ و ٦٠٥.

(٢) في المحرر الوجيز ٣/٢١٢.

(٣) أخرجه الطبري ١٢/٦١٠، وهو من مراسيل الحسن.

(٤) الكشاف ٢/٢٩٧.

(٥) النشر ٢/٢٩١ عن أبي جعفر، والكلام من البحر ٥/٢٧٠.

وقرأ مجاهد وابن محيصن بإسكان اللام[١]، كبُسْرٍ بالضمِّ والسكون في بُسْرةٍ، وهو على هذا ـ على ما في «البحر»[٢] ـ اسمُ جنس، وفي رواية عنهما أنهما قرأا: «زُلْفَى» كحبلى[٣]، وهو بمعنى زُلْفة فإنَّ تاء التأنيث وأَلِفَه قد يتعاقبان، نحو: قُربى وقربة، وجوِّز أن تكون هذه الألف بدلاً من التنوين إجراءً للوصل مجرى الوقف.

﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: يكفِّرْنَها ويُذهبْنَ المؤاخذةَ عليها، وإلا فنفسُ السيئات أعراضٌ وُجِدت فانعدمت. وقيل: يمحينها[٤] من صحائفِ الأعمال، ويشهدُ له بعض الآثار.

وقيل: يمنعنَ من اقترافها، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وهو مع بُعدِه في نفسه مخالفٌ للمأثور عن الصحابة والتابعين ﵃، فلا ينبغي أن يعوَّل عليه.

والظاهرُ أنَّ المراد من «الحسنات» ما يعمُّ الصلواتِ المفروضةَ وغيرَها من الطاعات المفروضةِ وغيرِها. وقيل: المرادُ الفرائضُ فقط لرواية: «الصلواتُ الخمسُ والجمعةُ إلى الجمعة ورمضانُ إلى رمضان مكفِّرات ما بينهنَّ»[٥].

وفيه أنه قد صحَّ من حديث أبي هريرة ﵁ قال: سمعتُ رسولُ الله ﷺ يقول: «إذا أمَّن الإمام فأمِّنوا فإنَّ الملائكة تؤمِّنُ، فمَنْ وافق تأمينُه تأمينَ الملائكة غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه»[٦]، وفي روايةٍ تفرَّد بحر بن نصر[٧] ـ وهو من الثقات ـ بزيادة: «وما تأخَّر»[٨].

---

(١) المحتسب ١/ ٣٣٠، والبحر ٥/ ٢٧٠.
(٢) ٥/ ٢٧٠.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٢١٢، والبحر ٥/ ٢٧٠.
(٤) في الأصل: تمحيها.
(٥) أخرجه مسلم (٢٣٣): (١٦) من حديث أبي هريرة ﵁، وجاء في آخره: «إذا اجْتَنَبَ الكبائر»، وسلف ٥/ ٢٣١.
(٦) أخرجه أحمد (٩٩٢١)، والبخاري (٧٨٠)، ومسلم (٤١٠).
(٧) في الأصل و(م): يحيى بن نصير، والصواب ما أثبتناه، وهو بحر بن نصر بن سابق الخولاني مولاهم، المصري، وثقه يونس بن عبد الأعلى وابن أبي حاتم وابن خزيمة، وقال مسلمة بن قاسم الأندلسي: كان ثقة فاضلاً مشهوراً. توفي سنة (٢٦٣هـ). التهذيب ١/ ٢١٣.
(٨) أخرج هذه الرواية الجرجاني في أماليه، كما ذكر الحافظ في فتح الباري ٢/ ٢٦٥، وقال: وهي زيادة شاذة. وينظر تتمة كلامه ثمة.

وصحَّ أنَّ صيامَ يوم عرفة تكفِّر السنة الماضية والمستقبلة[١]. وأخرج أبو داود في «السنن» بإسنادٍ حسن عن سهلِ بن معاذ بنِ أنس، عن أبيه، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَن أكل طعاماً ثمَّ قال: الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعامَ ورزقنيه من غيرِ حولٍ منِّي ولا قوَّةٍ، غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه، ومَن لبس ثوباً وقال: الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غيرِ حولٍ منِّي ولا قوَّةٍ، غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر»[٢] إلى غير ذلك من الأخبار الواردة في تكفير أفعالٍ ليست بمفروضةٍ ذنوباً كثيرة.

وقيل: المرادُ بها الصلواتُ المفروضة؛ لما في بعض طُرقِ خبرِ سبب النزول من أنَّ أبا اليَسَر من الأنصار قبَّل امرأةً، ثم ندم فأتى رسولَ الله ﷺ فأخبره بما فعل، فقال عليه الصلاة والسلام: «أنتظرُ أمرَ ربِّي» فلمَّا صلى صلاةً قال ﷺ: «نعم، اذهب بها فإنَّها كفَّارةٌ لِمَا عَمِلْتَ»[٣].

وروي هذا القول عن ابن عباس وابن مسعود وابن المسيب، والظاهرُ أنَّ ذلك منهم اقتصارٌ على بعضٍ مهمٍّ من أفراد ذلك العامِّ، وسببُ النزول لا يأبى العمومَ كما لا يخفى.

وفي روايةٍ عن مجاهدٍ أنَّها قولُ: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حولَ ولا قوَّة إلا بالله العليِّ العظيم. وفيه ما فيه.

---

(١) أخرجه مسلم (١١٦٢) من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

(٢) سنن أبي داود (٤٠٢٣)، وأخرج شطره الأول أحمد (١٥٦٣٢)، والترمذي (٣٤٥٨) وقال: حديث حسن غريب.

(٣) أخرجه بنحوه البخاري (٦٨٢٣)، ومسلم (٢٧٦٤) من حديث أنس رضي الله عنه. وأخرجه البخاري بنحوه أيضاً (٥٢٦)، ومسلم (٢٧٦٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وأخرجه بنحوه أيضاً مسلم (٢٧٦٥) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وليس في الصحيحين ذكر اسم الرجل. وأخرجه الترمذي (٣١١٥) من حديث أبي اليسر قال: أتتني امرأة تبتاع تمراً، فقلت: إن في البيت تمراً أطيب من هذا، فدخلت معي في البيت، فأهويت إليها فقبَّلتها...، فذكر نحوه. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وقيس بن الربيع (وهو أحد رجال الإسناد عند الترمذي) ضعفه وكيع وغيره. ووقع في مطبوع الترمذي: حسن صحيح، والمثبت من التحفة ٨/ ٣٠٧. وقد اختلف في اسم صاحب القصة، وقال الحافظ في الفتح ٨/ ٣٥٧ بعد أن ذكر الاختلاف على ذلك: وأقوى الجميع أنه أبو اليسر.

والمراد بالسيئات عند الأكثرين الصغائرُ؛ لأنَّ الكبائرَ لا يكفِّرها ـ على ما قالوا ـ إلا التوبة، واستدلُّوا لذلك بما رواه مسلم من رواية العلاء: «الصلوات الخمسُ كفَّارة لما بينها ما اجتُنبت الكبائرُ»(١). واستشكل بأنَّ الصغائرَ مكفَّرة باجتناب الكبائر بنصِّ ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١] فما الذي تكفِّره الصلوات الخمس؟

وأجاب البلقيني بأنَّ ذلك غيرُ وارد؛ لأنَّ المراد بالآية: إن تجتنبوا في جميع العُمُر، ومعناه الموافاةُ على هذه الحالة من وقتِ الإيمان أو التكليفِ إلى الموت، والذي في الحديث أنَّ الصلوات تكفِّر ما بينها ـ أي: يومها ـ إذا اجتُنبت الكبائر في ذلك اليوم، فلا تعارُضَ.

وتعقَّبه السمهوديُّ بقوله: ولك أن تقول: لا يتحقَّق اجتنابُ الكبائر في جميع العُمُر إلا مع الإتيان بالصلوات الخمس فيه كلَّ يوم، فالتكفيرُ حاصلٌ بما تضمَّنه الحديثُ، فما فائدةُ الاجتناب المذكور في الآية؟

ثم قال: ولك أن تجيب بأنَّ ذلك من باب فِعْل شيئين كلٌّ منهما مكفِّرٌ، وقد قال بعض العلماء: إنَّه إذا اجتمعت مكفِّرات فحُكمُها أنَّها إذا ترتَّبت فالمكفِّرُ السَّابقُ، وإن وقعتْ معاً فالمكفِّر واحدٌ منها يشاؤه الله تعالى، وأما البقيةُ فثوابُها باقٍ له، وذلك الثواب على كلٍّ منها يكون بحيث يَعْدِلُ تكفيرَ الصغائر لو وُجدت، وكذا إذا فعل واحداً من الأمور المكفِّرة ولم يكن قد ارتكب ذنباً.

وفي «شرح مسلم» للنووي نحوُ ذلك، غير أنَّه ذكر أنه لو صادف فِعْلُ المكفِّر كبيرةً أو كبائرَ ولم يصادفْ صغيرةً رجونا أن يخفِّف من الكبائر(٢).

ويَرِدُ على قوله: إنَّ المراد: إنْ تجتنبوا في جميع العُمُر، منعٌ ظاهر. والظاهرُ أنَّ المرادَ من ذلك أنَّ ثوابَ اجتناب الكبائر في كلِّ وقتٍ يكفِّر الصغائرَ الواقعةَ فيه، وفي تفسير القاضي ما يؤيِّده(٣).

---

(١) صحيح مسلم (٢٣٣): (١٤) من طريق العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب مولى الحُرَقة، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ٣/ ١١٣.

(٣) تفسير البيضاوي، عند قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢].

وكذا ما ذكره الإمام حجّة الإسلام في الكلام على التوبة من أنَّ حكم الكبيرة أنَّ الصلواتِ الخمسَ لا تكفِّرها، وأنَّ اجتنابَ الكبائر يكفِّر الصغائر بموجب قوله سبحانه: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ﴾ إلخ [النساء: ٣١]، ولكن اجتناب الكبيرة إنَّما يكفِّر الصغيرةَ إذا اجتنبها مع القُدرة والإرادة، كمَن يتمكَّن من امرأةٍ ومن مواقعتها فيكفُّ نفسَه عن الوقوع، ويقتصر على النَّظر واللمس، فإنَّ مجاهدته نفسَه في الكفِّ عن الوقاع أشدُّ تأثيراً في تنوير قلبه من إقدامِه على النَّظر في إظلامه، فهذا معنى تكفيره، فإن كان عنِّيناً ولم يكن امتناعه إلا بالضَّرورة للعجز، أو كان قادراً ولكن امتنع لخوفٍ من آخر، فهذا لا يصلحُ للتكفير أصلاً، فكلُّ مَن لا يشتهي الخمر بطبعه ولو أبيحَ له ما شربه فاجتنابُه لا يكفِّر عنه الصغائرَ التي هي من مقدِّماته كسماع الملاهي والأوتار[1]. وهذا ظاهرٌ يدلُّ عليه: «إنَّ الحسنات يذهبن السيئات»، ولا شكَّ أنَّ اجتناب الكبائر إذا قارن القصدَ حسنةٌ، وإنَّما قيَّدنا بذلك وإن كان الخروج عند عُهدة النهي لا يتوقَّف عليه لأنَّه لا يُثاب على الاجتناب بدون ذلك.

فالأَولى في الجواب عن الإشكال أن يقال: «ما اجتنبت الكبائر» في الخبر ليس قيداً لأصل التكفير، بل لشمولِ التَّكفير سائرَ الذنوب التي بين الصلوات الخمس، فهو بمثابة استثناءِ الكبائر من الذُّنوب، وكأنه قيل: الصلواتُ الخمسُ كفَّارةٌ لجميع الذنوب التي بينها، وتكفيرُها للجميع في المدَّة التي اجتُنبت فيها الكبائر، أو مقيَّد باجتناب الكبائر، وإلا فليست الصَّلوات كفَّارةً لجميع الذنوب بل للصغائر فقط، وهذا وإن كان خلافَ الظاهر من عَوْد القَيْد لأصل التكفير، لكن قرينة الآية دعتْ للعدول عنه إلى ذلك جمعاً بين الأدلة، ولا بدَّ في هذا من اعتبار ما قالوا في اجتماع الأمور المكفِّرة للصغائر.

وذكر الحافظ ابنُ حجر بعد نقله لكلام البلقينيِّ ما لفظُه: وعلى تقدير ورودِ السؤال، فالتخلُّص عنه سهلٌ؛ وذلك لأنَّه لا يتمُّ اجتنابُ الكبائر إلا بفعل الصلوات الخمس، فمن لم يفعلها لم يُعدَّ مجتنباً للكبائر؛ لأنَّ تَرْكَها من الكبائر فيتوقَّف التكفير على فِعلها[2]. انتهى، ولا يخلو عن بحث.

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/ ٢١-٢٢.

(٢) فتح الباري ٢/ ١٢.

ومِمَّن صرَّح بأنَّ «ما اجتُنبت» إلخ بمعنى الاستثناء نقلاً عن بعضهم المحبُّ الطبريُّ، فقد قال في «أحكامه»: اختلف العلماءُ في أمر تكفير الصغائر بالعبادات، هل هو مشروطٌ باجتناب الكبائر؟ على قولين: أحدُهما: نعم، وهو ظاهرُ قوله ﷺ: «ما اجتُنبت الكبائر» فإنَّ ظاهرَه الشرطية كما يقتضيه: «إذا اجتنبت» الآتي في بعض الروايات[١]، فإذا اجتُنبت الكبائرُ كانت مكفِّرةً لها وإلا فلا، وإليه ذهب الجمهور على ما ذكره ابنُ عطية[٢]. وقال بعضُهم: لا يشترط، والشرطُ في الحديث بمعنى الاستثناء، والتقديرُ: مكفِّراتٌ لِمَا بينها إلا الكبائرَ، وهو الأظهر.

هذا وقد ذكر الزركشيُّ[٣] أنَّهم اختلفوا في أنَّ التكفيرَ هل يُشترط فيه التوبةُ أم لا؟ فذهب إلى الاشتراط طائفةٌ وإلى عدمه أخرى، وفي «البحر» أنَّ الاشتراط نصُّ حُذَّاق الأصوليين[٤]. ولعلَّ الخلاف مبنيٌّ على الخلاف في اشتراط الاجتناب وعدمِه، فمَنْ جعل اجتنابَ الكبائر شرطاً في تكفير الصغائر لم يَشترط التوبةَ، وجعل هذه خصوصيةً لمجتنب الكبائر، ولم يشترطْه إلا مَن اشترطها، ويدلُّ عليه خبرُ أبي اليَسَر، فإنَّ الرواياتِ متضافرةٌ على أنَّه جاء نادماً والنَّدمُ توبة، وأنَّ إخبارَه ﷺ له بأنَّ صلاةَ العصر كفَّرت عنه ما فعل إنَّما وقع بعد نَدَمِه، لكن ظاهر إطلاق الحديث يقتضي أنَّ التكفيرَ كان بنفس الصلاة، فإنَّ التوبة بمجرَّدِها تَجُبُّ ما قبلها، فلو اشترطناها مع العبادات لم تكن العباداتُ مكفِّرة، وقد ثبت أنَّها مكفِّراتٌ فيسقط اعتبارُ التوبة معها. انتهى ملخَّصاً مع زيادة.

ولا يخفى أنَّ هذا يحتاجُ إلى التزامِ القول بأنَّ ندمَ أبي اليَسَر لم يكن توبةً صحيحة، وإلا لكان التكفيرُ به لأنَّه السابق، وبعضٌ التزم القولَ بكونه توبةً صحيحةً إلا أنه توبةٌ لم تُقبل ولم تكفِّر الذَّنب، وأنت تعلم أنَّ في عدم تكفير التوبة الذَّنب مقالاً، والمنقول عن السُّبْكي أنه قال: إنَّ قبولَ التوبة عن الكُفر مقطوعٌ به تفضُّلاً، وفي القَطع بقبول توبة العاصي قولان لأهل السنة، والمختار عندَ إمام الحرمين أنَّ

---

(١) وردت هذه الرواية عند مسلم (٢٣٣): (١٦).

(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٢١٣.

(٣) في المنثور في القواعد ١/ ٤١٩-٤٢٠.

(٤) البحر ٥/ ٢٧١.

تكفيرَ التوبة للذَّنب مظنون، وادَّعى النوويُّ أنه الأصحُّ[١]، وفي «شرح البرهان»: الصحيح عندنا القطعُ بالتكفير، وقال الحليمي[٢]: لا يجبُ على الله تعالى قبولُ التوبة، لكنَّه لَمَّا أخبر عن نفسه أنَّه يقبلُ التوبةَ عن عباده ولم يجزْ أن يُخلفَ وعدَه، عَلِمنا أنَّه سبحانه وتعالى لا يردُّ التوبة الصحيحةَ فضلاً منه تعالى وكرماً[٣].

ومثلُ هذا الخلافِ الخلافُ في التكفير باجتناب الكبائر ونحوِه، هل هو قطعيٌّ أو ظنِّي؟ وفي كلام العلَّامة نجم الدِّين النسفي[٤] وصَدْرِ الشريعة وغيرهما أنَّ العقاب على الصغائر جائزُ الوقوع سواءٌ اجتَنَب مرتكِبُها الكبائرَ أم لا؛ لدخولها تحتَ قوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٢٩] ولقوله تعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩] والإحصاءُ إنما يكون للسؤال والمجازاة، إلى غيرِ ذلك من الآيات والأحاديث.

وخالفت المعتزلةُ في ذلك فلم يُجيزوا وقوعَ التعذيب إذا اجتُنبت الكبائر، واستدلُّوا بآيةِ (إِن تَجْتَنِبُوا) إلخ. ويجابُ بأنَّ المراد بالكبائر الكفرُ، والجمعُ لتعدُّد أنواعه أو تعدُّدِ مَن اتَّصف به، ومعنى الآية: إن تجتنبوا الكفرَ نجعلكم صالحين لتكفيرِ سيئاتكم. ولا يخفى ما في استدلالهم من الوَهن، وجوابُهم عن استدلال المعتزلة لَعمري أوهنُ منه.

وذهب صاحبُ «الذخائر»[٥] إلى أنَّ من الحسنات ما يكفِّر الصغائر والكبائر؛ إذ قد صحَّ في عدَّة أخبارٍ: مَنْ فعل كذا غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر. وفي بعضها: «خرج من ذُنوبه كيومَ ولدتْه أمّه»، ومتى حُمِلَتِ الحسناتُ في الآية على الاستغراق فالمناسبُ حَمْلُ السيئات عليه أيضاً، والتخصيصُ خلافُ الظاهر،

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ١٧/ ٦٠.
(٢) في كتاب المنهاج في شعب الإيمان ٣/ ١٢٣.
(٣) قوله: وكرماً، ليس في (م).
(٤) محمد بن محمد بن أحمد، أبو حفص السمرقندي، الفقيه الحنفي، من مصنفاته: الأكمل الأطول في تفسير القرآن، وتطويل الأسفار لتحصيل الأخبار، ودعوات المستغفرين، والعقائد، توفي سنة (٥٣٣هـ). هدية العارفين ١/ ٧٨٣.
(٥) جواهر الذخائر في شرح الكبائر والصغائر، لرضي الدين محمد بن يوسف بن أبي اللطف المقدسي. كشف الظنون ١/ ٦١٤.

وفضلُ الله تعالى واسعٌ. وإلى هذا مال ابنُ المنذر[1]، وحكاه ابنُ عبد البَرِّ عن بعض المعاصرين له ـ وعَنَى فيما قيل: أبا محمد المحدِّث[2] ـ لكنْ رَدَّ عليه، فقال: بعضُهم يقول: إنَّ الكبائر والصغائر تكفِّرها الطهارةُ والصَّلاة لظاهر الأحاديث، وهو جَهْلٌ بيِّنٌ وموافَقةٌ للمرجئة في قولهم، ولو كان كما زَعَم لم يكن للأمر بالتوبة معنًى، وقد أجمع المسلمون على أنَّها فرضٌ، وقد صحَّ أيضاً من حديث أبي هريرة: «الصلواتُ كفاراتٌ لما بينهنَّ ما اجْتُنِبَتِ الكبائر»[3]. انتهى.

وفيه أنَّ دعوى أنَّ ذلك جهلٌ لا يخلو عن الإفراط، إذا الفرقُ بين القول بعموم التكفير ومذهبِ المرجئة في غاية الوضوح، ولو صحَّ أنَّ ذلك ذهابٌ إلى قولهم للزمه مثلُه بالنِّسبة إلى التوبة، فإنه يسلِّم أنَّها تكفِّر الصغائر والكبائر وهي من جملة أعمال العبد، فكما جاز أن يجعل الله سبحانه هذا العمل سبباً لتكفير الجميع يجوز أن يَجعل غيرَه من الأعمال كذلك.

وقوله: ولو كان كما زعم... إلخ، مردودٌ؛ لأنَّه لا يلزم من تكفير الذنوب الحاصلةِ عدمُ الأمر بالتوبة وكونِها فرضاً؛ إذ تركُها من الذنوب المتجدِّدة التي لا يشملُها التكفيرُ السابق بفعل الوضوء مثلاً، ألا ترى أنَّ التوبةَ من الصغائر واجبةٌ على ما نُقل عن الأشعريِّ، وحَكَى إمامُ الحرمين[4] وتلميذُه الأنصاريُّ الإجماعَ عليه، ومع ذلك فجميعُ الصغائر مكفَّرةٌ بنصِّ الشارع وإن لم يتبْ، على ما سمعتَ من الخلاف.

وتحقيقُ ذلك أنَّ التوبة واجبةٌ في نفسها على الفور، ومَن أخَّرها تكرَّر عصيانُه بتكرُّر الأزمنة، كما صرَّح به الشيخ عزُّ الدِّين بن عبد السلام، ولا يلزمُ من تكفيرِ الله تعالى ذنوبَ عبده سقوطُ التكليف بالتوبة التي كلِّف بها تكليفاً مستمرًّا، وقريبٌ من

---

(١) في كتاب الإشراف، كما في فيض القدير ٦/ ١٩١.

(٢) الأصيلي، كما في فيض القدير ٦/ ١٩١، وهو عبد الله بن إبراهيم أبو محمد الأصيلي، شيخ المالكية، عالم الأندلس، له كتاب الدلائل في اختلاف مالك وأبي حنيفة والشافعي، توفي سنة (٣٩٢هـ). سير أعلام النبلاء ١٦/ ٥٦٠.

(٣) التمهيد ٤/ ٤٤-٤٥، ونقله المصنف عنه بواسطة المناوي في فيض القدير ٦/ ١٩١.

(٤) في الإرشاد ص٣٣٩.

هذا ارتفاعُ الإثم عن النائم إذا أخرجَ الصلاةَ عن وقتها مع الأمر بقضائها، وما رُوي من حديث أبي هريرة إنَّما ورد في أمرٍ خاصٍّ فلا يتعدَّاه؛ إذ الأصلُ بقاءُ ما عَدَاه على عمومه، وهذا مِمَّا لا مجال للقياس فيه حتى يخصَّ بالقياس على ذلك، فلا يليق نسبةُ ذلك القائل إلى الجهل، والرجاء بالله تعالى شأنُه قويٌّ، كذا قيل، وفي المقام بَعْدُ أبحاثٌ تركنا ذِكرها خوفَ الإملال، فإن أردتها فعليك بالنظر في الكتب المفصَّلة في علم الحديث.

﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ أي: عظةٌ للمتَّعظين، وخصَّهم بالذِّكر لأنَّهم المنتفعون بها، والإشارةُ إلى ما تقدَّم من الوصية بالاستقامة، والنهي عن الطغيانِ، والركونِ إلى الذين ظلموا، وإقامةِ الصلوات في تلك الأوقات، بتأويل المذكور، وإلى هذا ذهب «الزمخشري»[(١)]، واستظهر «أبو حيَّان»[(٢)] كونَ ذلك إشارةً إلى إقامة الصَّلاة، وأمرُ التذكير سهلٌ.

وقيل: هي إشارةٌ إلى الإخبار بأنَّ الحسنات يُذهبن السيِّئات.

وقال الطَّبريُّ: إشارة إلى الأوامر والنواهي في هذه السُّورة[(٣)]. وقيل: إلى القرآن، وبعضُ مَن جَعَلَ الإشارة إلى الإقامة فسَّر الذِّكرى بالتوبة.

﴿وَٱصْبِرْ﴾ أي: على مشاقِّ امتثالِ ما كُلِّفْتَ به، في «الكشاف»: إنَّ هذا كرورٌ منه تعالى إلى التذكير بالصَّبر بعد ما جاء بما هو خاتمةٌ للتذكير؛ لفضل خصوصيَّةٍ ومزيَّةٍ، وتنبيهٌ على مكان الصَّبر ومحلِّه، كأنه قال: وعليك بما هو أهمُّ مما ذُكِّرت به وأحقُّ بالتوصية، وهو الصَّبرُ على امتثال ما أُمرت به، والانتهاءُ عمَّا نُهيت عنه، فلا يتمُّ شيءٌ منه إلا به[(٤)]. انتهى.

ووجهُ كونه كريراً إلى ما ذُكر بأنَّ الأمرَ بالاستقامة أمرٌ بالثبات قولاً وفعلاً وعقداً، وهو الصبرُ على طاعة الله تعالى، ويتضمَّن الصبرَ عن معصيتِه ضرورةً، على أنَّ ما ذكره سبحانه كلَّه لا يتمُّ إلا بالصَّبر، ففي ضمن الأمرِ به أمرٌ بالصبر.

---

(١) في الكشاف ٢/ ٢٩٧.
(٢) في البحر ٥/ ٢٧١.
(٣) تفسير الطبري ١٢/ ٦١٧، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٥/ ٢٧١.
(٤) الكشاف ٢/ ٢٩٧.

واعتُرض اعتبارُ الانتهاء عمَّا نُهي عنه من متعلّقات الصبر؛ إذ لا مشقَّةَ في ذلك، واعتُذر عن ذلك بأنَّه يمكن أن يرادَ بما نُهي عنه من الطغيان والرُّكونِ ما لا يمكن عادةً خلوُّ البشر عنه من أدنى ميلٍ بحكم الطبيعة من الاستقامة المأمورِ بها، ومِن يسير ميلٍ بحكم البشرية إلى مَنْ وُجد منه ظلمٌ، فإنَّ في الاحتراز عن أمثاله من المشقَّة ما لا يخفى.

وتُعقِّب بأنَّ ما هو من توابع الطبيعة لا يكون من متعلَّقات النهي، ولهذا ذكروا أنَّ حبَّ المسلم لولده الكافر مثلاً لا إثمَ فيه، فالأولى أن يقال: إنَّ وجود المشقَّة في امتثال مجموع ما كلِّف به يكفي في الغرض.

وقيل: المراد من الصبر المأمور به المداومةُ على الصلاة، كأنَّه قيل: أقم الصلاةَ، أي: أدِّها تامَّةً وداوِمْ عليها، نظير قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ أي: يوفِّيهم ثوابَ أعمالهم من غير بَخْسٍ أصلاً، وعبّر عن ذلك بنفي الإضاعة بياناً لكمال نزاهتِه تعالى عن حِرمانهم شيئاً من ثوابهم، وعُدِل عن الضمير ليكونَ كالبرهان على المقصود، مع إفادة فائدةٍ عامَّةٍ لكلِّ مَن يتَّصف بذلك، وهو تعليلٌ للأمر بالصبر، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ الصبرَ على ما ذكر من باب الإحسان.

وعن مقاتلٍ أنَّه فسَّر الإحسانَ هنا بالإخلاص. وعن ابن عبَّاس أنه قال: المُحسِنون المصلُّون، وكأنَّه نَظَرَ إلى سياق الكلام.

هذا ومن البلاغةِ القرآنية أنَّ الأوامر بأفعال الخيرِ أُفردت للنبيِّ ﷺ وإن كانت عامَّة في المعنى، والمناهي جُمعتْ للأمة، وما أعظم شأنَ الرسول عليه الصلاة والسلام عند ربِّه جلَّ وعلا!.

﴿فَلَوْلَا كَانَ﴾ تحضيضٌ فيه معنى التفجُّع مجازاً، أي: فهلا كان ﴿مِنَ الْقُرُونِ﴾ أي: الأقوام المقترنة في زمان واحد ﴿مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ﴾ أي: ذوو خصلةٍ باقيةٍ من الرأي والعقل، أو ذوو فضلٍ، على أنْ يكون البقيةُ اسماً للفضلِ والهاء للنقل، وأطلق عليه ذلك على سبيل الاستعارةِ من البقيَّة التي يصطفيها المرءُ لنفسه ويدَّخرها

مما ينفعه، ومن هنا يقال: فلانٌ من بقية القوم، أي: من خِيارِهم، وبذلك فسِّر بيتُ الحماسة:

إنْ تُذنبوا ثم يأتيني بقيَّتُكم فما عليَّ بذنبٍ عندَكم فَوْتُ[1]

ومنه قولهم: في الزوايا خبايا، وفي الرجال بقايا[2].

وجوِّز أن تكون البقيَّةُ بمعنى البَقْوَى كالتقيَّة بمعنى التقوى، أي: فهلَّا كان منهم ذوُو إبقاءٍ لأنفسهم وصيانةٍ لها عمَّا يُوجبُ سخطَ الله تعالى وعقابَه. والظاهرُ أنَّها على هذا مصدر، وقيل: اسم مصدر. ويؤيِّد المصدريَّة أنَّه قرئ: «بَقْيَة» بزِنَةِ المرَّة[3]، وهو مصدر بَقَاه يَبْقِيه كرماه يَرميه بمعنى انتظره وراقبَه، وفي الحديث عن معاذ بن جبل قال: «بقينا رسولَ الله ﷺ وقد تأخَّر عن[4] صلاة العشاء حتى ظنَّ الظانُّ أنه ليس بخارج» الخبر[5]، أراد معاذ: انتظرناه. وأما الذي من البقاء ضدّ الفناء، ففِعْلُه بقيَ يبقى كرضي يرضى، والمعنى على هذه القراءة: فهلَّا كان منهم ذوو مراقبةٍ لخشية الله تعالى وانتقامِه.

وقرئ: «بَقِيَة» بتخفيف الياء اسم فاعل من بقي، نحو شَجِيَتْ فهي شَجِيَة[6].

وقرأ أبو جعفر وشيبة: «بُقْية» بضم الباء وسكون القاف[7].

﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ الواقع فيما بينهم حسبما ذكر في قصصهم، وفسَّر الفساد في «البحر» بالكفر وما اقترن به من المعاصي[8].

---

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ١٦٨-١٦٩، ونسبه لرويشد بن كثير الطائي.
(٢) هو من كلام الخوارزمي الذي جرى مجرى الأمثال. يتيمة الدهر ٤/ ٢٢٦.
(٣) البحر ٥/ ٢٧١.
(٤) قوله: عن، ساقط من (م).
(٥) أخرجه أبو داود (٤٢١).
(٦) البحر ٥/ ٢٧١، والتقدير على هذه القراءة: أولو طائفةٍ بَقِيَةٍ، أي: باقية. الدر المصون ٦/ ٤٢٣.
(٧) كذا نقل المصنف عن أبي حيان في البحر ٥/ ٢٧١، وقد وهَّم صاحب النشر ٢/ ٢١٢ أبا حيان في هذه القراءة، فقال: روى ابن جماز بكسر الباء وإسكان القاف وتخفيف الياء، وهي قراءة شيبة... وقد ترجمها أبو حيان بضم الباء فوهم. اهـ. قلنا: وليس هذا الكلام من أبي حيان، فقد سبقه إليه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢١٤.
(٨) البحر ٥/ ٢٧١.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ استثناءٌ منقطع، أي: ولكن قليلاً منهم أنجيناهم لكونهم كانوا ينهون. وقيل: أي: ولكن قليلاً ممن أنجينا من القرون نَهَوا عن الفساد وسائرُهم تاركون للنهي، و«من» الأولى بيانيَّة لا تبعيضية؛ لأنَّ النجاةَ إنما هي للناهين وحدَهم بدليل قوله سبحانه: ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الأعراف: ١٦٥] وإلى ذلك ذهب الزمخشري، ومنع اتصالَ الاستثناء على ما عليه ظاهرُ الكلام؛ لاستلزامِه فسادَ المعنى؛ لأنه يكون تحضيضاً لأولي البقية على النهي عن الفساد إلَّا للقليل من الناجين منهم(١)، ثم قال: وإن قلت: في تحضيضهم على النهي عن الفساد معنى نفيه عنهم، فكأنَّه قيل: ما كان من القرون أولو بقيَّة إلَّا قليلاً، كان استثناءً متَّصلاً ومعنًى صحيحاً، وكان انتصابُه على أصل الاستثناء، إن كان الأفصحُ أن يُرفع على البدل(٢).

والحاصل أنَّ في الكلام اعتبارين: التحضيضَ والنفيَ، فإن اعتُبر التحضيضُ، لا يكون الاستثناءُ متَّصلاً؛ لأنَّ المتصلَ يَسلبُ ما للمستثنى منه عن المستثنى أو يُثبتُ له ما ليس له، والتحضيضُ معناه: لمَ ما نَهَوْا، ولا يجوز أن يقال: إلَّا قليلاً فإنهم لا يقال لهم: لمَ ما نَهَوْا؛ لفسادِ المعنى؛ لأنَّ القليل ناهون. وإن اعتُبر النفي كان متَّصلاً؛ لأنه يفيدُ أنَّ القليل الناجين ناهون.

وأَوْرَدَ على ذلك القطبُ أنَّ صحة السلب أو الإثبات بحسب اللفظ لازمٌ في الخبر، وأما في الطلب فيكونُ بحسب المعنى، فإنك إذا قلت: اضْرِبِ القومَ إلا زيداً، فليس المعنى على أنَّه ليس اضرب، بل على أنَّ القومَ مأمورٌ بضربهم إلا زيداً فإنه غيرُ مأمورٍ به، فكذا هنا يجوز أن يقال: «أولو بقية» محضوضون على النهي «إلا قليلاً» فإنهم ليسوا محضوضين عليه لأنَّهم نَهوا، فالاستثناءُ متَّصلٌ قطعاً كما ذهب إليه بعضُ السلف.

وقد يُدفع ما أوردَه بأنَّ مقتضى الاستثناء أنَّهم غيرُ محضوضين، وذلك إمَّا لكونهم نَهوا، أو لكونهم لا يُحضُّون عليه لعدمِ توقُّعه منهم، فإمَّا أن يكون قد جعل احتمال الفساد إفساداً، أو ادَّعى أنَّه هو المفهوم من السِّياق.

---

(١) كما تقول: هلا قرأ قومك القرآن إلا الصلحاءَ منهم، تريد استثناء الصلحاء من المحضَّضين على قراءة القرآن. الكشاف ٢/٢٩٨.

(٢) الكشاف ٢/٢٩٨.

ثم إنَّ المدقِّق صاحبَ «الكشف» قال: إنَّ ظاهرَ تقريرِ كلامِ الزمخشريِّ يُشعر بأنَّ «ينهون» خبرُ «كان»، جعل «من القرون» خبراً آخر أو حالاً قدّمت؛ لأنَّ تحضيض أولي البقية على النهي على ذلك التقدير، حتى لو جُعل صفةً و«من القرون» خبراً، كان المعنى تنديمَ أهل القرون على أنْ لم يكنْ فيهم أولو بقيَّة ناهون، وإذا جعل خبراً لا يكون معنى الاستثناء: ما كان من القرون أولو بقية إلا قليلاً، بل كان: ما كان منهم أولو بقيَّة ناهين إلا قليلاً فإنَّهم نَهَوا، وهو فاسد.

والانقطاعُ على ما آثره الزمخشريُّ أيضاً يفسُدُ؛ لِمَا يلزمُ منه أن يكون «أولو بقيَّة» غيرَ ناهين؛ لأنَّ في التحضيض والتنديم دلالةً على نفيه عنهم، فالوجه أنْ يؤوَّل بأنَّ المقصودَ مِن ذِكْر الاسم الخبرُ وهو كالتمهيد له، كأنَّه قيل: فلولا كان من القرون من قبلكم ناهون إلَّا قليلاً، وفي كلامه إشارةٌ إلى أنه لا يتخلف نفي الناهي وأولو البقيَّة، وإنَّما عدل إلى المنزَلِ مبالغةً لأنَّ أصحابَ فضلِهم وبقاياهم إذا حضِّضوا على النهي وندِّموا على التَّرك، فهُمْ أولى بالتحضيض والتنديم، وفيه مع ذلك الدلالةُ على خلوِّهم عن الاسم لخلوِّهم عن الخبرِ؛ لأنَّ ذا البقية لا يكونُ إلا ناهياً، فإذا انتفى اللازم انتفى الملزوم، وهو من باب:

ولا تـرى الـضَّـبَّ بـهـا يَـنْـجَـحِـر[1]

وقولك: ما كان شجعانُهم يحمون عن الحقائق، في معرض الذَّمِّ، تريد أنْ لا شجاعَ ولا حمايةَ، لكنْ بالغْتَ في الذَّمِّ حتَّى خيَّلتَ أنَّه لو كان لهم شجاعٌ كان كالعدمِ، فهذا هو الوجه الكريمُ والمطابق لبلاغةِ القرآن العظيم. انتهى، وهو تحقيقٌ دقيقٌ أنيقٌ.

وادَّعى بعضُهم أنَّ الظاهر أنَّ «كان» تامةٌ، و«أولو بقية» فاعلُها، وجملةُ «ينهون» صفتُه، و«من القرون» حالٌ متقدِّمة عليه، و«من» تبعيضيَّة، و«من قبلكم» حالٌ من «القرون»، ويجوز أن يكون صفةً لها ـ أي: الكائنة ـ بناءً على رأي مَن جوَّز حذفَ الموصول مع بعضِ صلتِه.

---

(١) وصدره: لا تفزع الأرنبَ أهوالها، والبيت لابن أحمر، وهو في ديوانه ص٦٧، وسلف ٥/ ٥٦.

واعترُض بأنَّه يلزمُ منه كونُ التحضيض على وجود أولئك فيهم، وكذا يلزمُ كونُ المنفيِّ ذلك، وليس بذاك، بل المدارُ على النهي تحضيضاً ونفياً. والتزامُ توجُّهِ الأمرين إليه لكون الصفة قيداً في الكلام، والاستعمالُ الشائعُ توجُّهُ نحوِ ما ذُكر إلى القيد كما قيل، زيادةُ نغمةٍ في الطُّنبور من غير طربٍ، ومثلُه يعدُّ من النَّصب.

﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم تاركو النهي عن الفساد ﴿مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ ما أُنعموا فيه من الثروة والعيش الهنيِّ والشهواتِ الدنيويَّة، وأصلُ التَّرف: التوسُّع في النعمة. وعن الفرَّاء[١]: معنى أُترف: عوِّد الترفةَ وهي النعمة.

وقيل: «أُترفوا» أي: طغَوا، من أترفتْه النِّعمُ: إذا أَطْغَتْه، فـ «في» إمَّا سببيَّة أو ظرفيَّة مجازية. وتُعقِّب بأنَّ هذا المعنى خلافُ المشهور وإن صحَّ هنا.

ومعنى اتِّباعِ ذلك الاهتمامُ به وتركُ غيرِه، أي: اهتموا بذلك ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ أي: مرتكبي جرائمَ غير ذلك، أو كافرين متَّصفين بما هو أعظمُ الإجرام، ولكلٍّ من التفسيرين ذهب بعضٌ.

وحمل بعضُهم «الذين ظلموا» على ما يعمُّ تاركي النهيِ عن الفسادِ والمباشرين له، ثم قال: وأنتَ خبيرٌ بأنه يلزمُ من التحضيض بالأوَّلينَ عدمُ دخول مباشري الفساد في الظُّلم والإجرام عبارةً، ولعلَّ الأمرَ في ذلك هيِّنٌ فلا تغفل.

والجملةُ عند أبي حيَّان مستأنفةٌ للإخبار عن حالِ هؤلاءِ الذين ظلموا، وبيانِ أنَّهم مع كونهم تاركي النهي عن الفساد كانوا ذوي جرائمَ غير ذلك[٢].

وجوَّز بعضُ المحقِّقين أن تكون عطفاً على مقدَّرٍ دلَّ عليه الكلامُ، أي: لم يَنْهَوا واتَّبع... إلخ، وقيل: التقدير: إلَّا قليلاً مِمَّن أنجينا منهم نَهَوا عن الفساد واتبع الذين... إلخ. وأن تكون استئنافاً يترتَّب على قوله سبحانه: (إِلَّا قَلِيلًا)، أي: إلا قليلاً مِمَّن أنجينا منهم نَهَوا عن الفساد واتَّبع الذين ظلموا من مباشري الفساد وتاركي النهي عنه. وجُعل الإظهار على هذا مقتضَى الظاهر، وعلى الأوَّل

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٣١.
(٢) البحر ٥/ ٢٧٢.

لإدراج المباشرين مع التاركين في الحكم، والتسجيلِ عليهم بالظُّلم، وللإشعار بعلِّيَّة ذلك لِمَا حاق بهم من العذاب.

وفي «الكشاف» ما يقضي ظاهرُه بأنَّ العطف على «نَهَوا» الواقعِ خبر لكن[1]، فيلزمُ أن يكونَ المعطوفُ خبراً أيضاً مع خلوِّه عن الرابط، وأُجيب تارةً بأنه في تأويل سائرهم أو مقابلوهم، وأخرى بأنَّ «نهوا» جملةٌ مستأنفة استؤنفتْ بعد اعتبار الخبرِ فعُطف عليها، وفي ذلك ما فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ عطفٌ على «اتَّبع الذين» إلخ مع المغايرة بينهما. وجوِّز أن يكون العطفُ تفسيريًّا على معنى: وكانوا مجرمين بذلك الاتِّباع، وفيه بُعدٌ.

وأن يكون على «أترفوا» على معنى: اتَّبعوا الإتراف وكونَهم مجرمين؛ لأنَّ تابع الشهوات مغمورٌ بالآثام، أو أُريد بالإجرام إغفالُهم للشكر. وتعقَّبه صاحبُ «التقريب» بقوله: وفيه نظر؛ لأنَّ «ما» في «ما أترفوا» موصولةٌ لا مصدريَّةٌ؛ لعودِ الضمير من «فيه» إليه، فكيف يقدَّر «كانوا» مصدراً، إلا أن يقال: يرجع الضميرُ إلى الظُّلم بدلالةِ «ظلموا» فتكون «ما» مصدريَّةً.

وأن تكون الجملةُ اعتراضاً بناءً على أنه قد يكونُ في آخر الكلام عند أهل المعاني.

وقرأ أبو جعفر[2] والعلاء بن سَيابة وأبو عمرو في رواية الجُعفي: «وأُتْبِع» بضمِّ الهمزة المقطوعةِ وسكونِ التاء وكسرِ الباء على البناء للمفعول من الإتباع. قيل: ولا بدَّ حينئذٍ من تقديرِ مضاف، أي: أُتبعوا جزاءَ ما أُترفوا، و«ما» إما مصدريَّةٌ أو موصولةٌ، والواوُ للحال، وجَعَلَها بعضُهم للعطف على «لم يَنْهَوا» المقدَّر، والمعنى على الأوَّل: إلا قليلاً نجَّيناهم وقد هلك سائرُهم. وأمَّا قوله سبحانه: ﴿وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ فقد قالوا: إنه لا يحسُنُ جَعْلُه قيداً للإنجاء إلا من حيث إنه يجري مَجرى

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٩٨.

(٢) كذا في الأصل و(م) وحاشية الشهاب، والذي في المحتسب ١/ ٣٣١، والبحر ٥/ ٢٧٢، والدر المصون ٦/ ٤٢٦: جعفر بن محمد، وهي في القراءات الشاذة ص٦١ عن الضحاك والعلاء والجعفي عن أبي عمرو.

العلَّة لإهلاك السائر، فيكون اعتراضاً أو حالاً من «الذين ظلموا»، والحالُ الأوَّلُ من مفعول «أنجينا» المقدَّر.

وجوِّز أن يفسَّر بذلك القراءةُ المشهورة، وتقدُّمُ الإنجاء للناهين يناسب أن يبيِّن هلاك الذين لم يَنْهَوا، والواوُ للحال أيضاً في القول الشائع، كأنَّه قيل: أنجينا القليلَ وقد اتَّبع الذين ظلموا جزاءهم فهلكوا. وإذا فسِّرت المشهورةُ بذلك فقيل: فاعل «اتَّبع»: «ما أُترفوا»، أو الكلامُ على القلب، فتدبَّر.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: ما صحَّ وما استقام بل استحالَ في الحكمة أنْ يهلك القرى التي أهلكها وبلغتْك أنباؤُها، أو ما يعمُّها وغيرَها من القرى الظالمِ أهلُها، واللامُ في مثل ذلك زائدةٌ لتأكيدِ النفي عند الكوفيَّة، وعند البصريَّة متعلِّقةٌ بمحذوفٍ توجَّه إليه النَّفي.

وقوله سبحانه: ﴿بِظُلْمٍ﴾ أي: ملتبساً به، قيل: هو حالٌ من الفاعل، أي: ظالماً لها، والتنكيرُ للتفخيم والإيذانِ بأنَّ إهلاكَ المصلحين ظلمٌ عظيمٌ، والمراد تنزيهُ الله تعالى عن ذلك على أبلغِ وجهٍ، وإلَّا فلا ظُلْمَ منه تعالى فيما يفعله بعبادِه كائناً ما كان، لِمَا عُلم من قاعدةِ أهل السنة.

وقولُه جل وعلا: ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ١١٧﴾ حالٌ من المفعول، والعاملُ فيه عاملُه، ولكن لا باعتبارِ تقييده بالحال السابقة لدلالتِه على تقييدِ نفي الإهلاك ظلماً بحال كونِ أهلها مصلحين، وفيه من الفسادِ ـ على ما قيل ـ ما فيه، بل مطلقاً عن ذلك، وهذا ما اختاره ابنُ عطية[1].

ونقل الطَّبري[2] أنَّ المرادَ بالظُّلم الشِّرك، والباءُ للسببية، أي: لا يُهلك القرى بسبب إشراكِ أهلِها وهم مصلحون في أعمالهم يتعاطَون الحقَّ فيما بينهم، بل لا بدَّ في إهلاكهم من أنْ يَضمُّوا إلى شركهم فساداً وتباغياً، وذلك لفَرْطِ رحمته ومسامحتِه في حقوقه سبحانه، ومن ذلك قدَّم الفقهاءُ ـ عند تزاحُم الحقوق ـ حقوقَ العباد في الجملة ما لم يمنعْ منه مانعٌ.

---

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ٢١٤.

(٢) في تفسيره ٢/ ٦٣٢.

قال ابن عطيَّة: وهذا ضعيف. وكأنَّه ذهب قائلُه إلى ما قيل: الملكُ يبقى مع الكُفر ولا يبقى مع الظُّلم والجور(١).

ولعلَّ وجهَ ضعفِه ما ذكره بعضُ المحقِّقين من أنَّ مقامَ النهي عن المنكرات التي أقبحُها الإشراكُ بالله تعالى لا يلائمه، فإنَّ الشرك داخلٌ في الفساد في الأرض دخولاً أوليًّا، ولذلك كان يَنهى كلٌّ من الرسل عليهم السلام أُمَّتَه عنه ثمَّ عن سائر المعاصي، فالوجهُ كما قال: حملُ الظُّلم على مُطلقِ الفسادِ الشامل لسائرِ القبائحِ والآثام، وحملُ الإصلاح على إصلاحِه والإقلاع عنه بكون البعضِ متصدِّياً للنهي، والبعضِ الآخَر متوجِّهاً إلى الاتِّعاظ، غيرَ مصرٍّ على ما هو عليه من الشِّرك وغيرِه من أنواع الفساد. انتهى، لكن أخرج الطبرانيُّ وابن مردويه وأبو الشيخ والديلميُّ عن جريرٍ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يُسألُ عن تفسير هذه الآية ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ فقال عليه الصلاة والسلام: «وأهلُها يُنْصِفُ بعضُهم بعضاً»(٢). وأخرجه ابن أبي حاتم والخرائطيُّ في «مساوئ الأخلاق» عن جريرٍ موقوفاً(٣)، وهو ظاهرٌ في المعنى الذي نقله الطبريُّ، ولعلَّه لم يثبتْ عن رسول الله ﷺ، وإلَّا فالأمرُ مشكلٌ، وجَعْلُ التصدِّي للنهي من بعضٍ والاتِّعاظِ من بعضٍ آخرَ من إنصافِ البعضِ البعضَ كما ترى، فافهم.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ مجتمعين على الدِّين الحقِّ بحيث لا يقع من أحدٍ منهم كفرٌ، لكنَّه لم يشأْ سبحانه ذلك، فلم يكونوا مجتمعين على الدِّين الحقِّ، ونظيرُ ذلك قولُه سبحانه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣] وروي هذا عن ابن عباس وقتادة.

وروي عن الضحَّاك أنَّ المراد: لو شاء لَجَمَعَهم على هدًى أو ضلالة.

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ بعضُهم على الحقِّ وبعضُهم على الباطل؛ أخرج

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢١٥.

(٢) المعجم الكبير (٢٠٨١)، والفردوس بمأثور الخطاب (٧٢٠٤)، وعزاه لأبي الشيخ وابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٥٦. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٣٩: فيه عبيد بن القاسم الكوفي وهو متروك.

(٣) الدر المنثور ٣/ ٣٥٦.

ذلك ابنُ أبي حاتم عن ابن عباس(١). ولعلَّ المراد الاختلافُ في الحقِّ والباطل من العقائد التي هي أصولُ الدين بقرينةِ المقام.

وقيل: المرادُ ما يشمل الاختلافَ في العقائد والفروع وغيرِهما من أمور الدِّين؛ لعدم ما يدلُّ على الخصوص في النظم.

فالاستثناءُ في قوله سبحانه: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ متَّصلٌ على الأوَّل، وهو الذي اختاره أبو حيَّان(٢) وجماعةٌ، وعلى الثاني منقطعٌ حيث لم يخرجْ مَن رَحِمَه الله تعالى من المختلفين كأئمَّةِ أهل الحقِّ، فإنَّهم أيضاً مختلفون فيما سوى أصولِ الدِّين من الفروع، وإلى هذا ذهب الحوفي ومَن تَبِعَه.

﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي: الناس، والإشارة ـ كما روي عن الحسن وعطاء ـ إلى المصدر المفهوم من «مختلفين»، ونظيرُه:

إذا نُـهـي الـسَّـفـيـهُ جـرى إلـيـه(٣)

كأنه قيل: وللاختلاف خُلق الناسُ، على معنى: لثمرة الاختلاف من كون فريقٍ في الجنَّة وفريقٍ في السعير خَلَقَهم، واللامُ لامُ العاقبة والصيرورة؛ لأنَّ حكمةَ خَلْقِهم ليس هذا؛ لقوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ولأنَّه لو خلقهم له لم يعذِّبْهم على ارتكاب الباطل، كذا قال غيرُ واحد، وروي عن الإمام مالك ما يقتضيه.

وعندي أنَّه لا ضيرَ في الحمل على الظَّاهر، ولا منافاةَ بين هذه الآية والآيةِ التي ذكروها؛ لِمَا ستعلمه إن شاء الله تعالى من تفسيرها في «الذاريات»، وما يروى فيها من الآثار، وأنَّ الخلقَ من توابع الإرادةِ التابعة للعلم التابع للمعلوم في نفسه، والتعذيبُ أو الإثابةُ ليس إلا لأمرٍ أُفيض على المعذَّب والمثاب بحسبِ الاستعداد

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٩٣.

(٢) في البحر ٥/ ٢٧٣.

(٣) وعجزه: وخالَفَ والسفيهُ إلى خلاف، وهو في مجالس ثعلب ص٦٠، والخصائص ٣/ ٤٩، والمحتسب ١/ ١٧٠، وأمالي ابن الشجري ١/ ٢٧٣، والخزانة ٥/ ٢٢٦. وجاء في رواية: إذا زُجر السفيه...، وقوله: جرى إليه، أي: جرى إلى السفه.

الأصليّ، وربَّما يرجع هذا بالآخرة إلى أنَّ التعذيبَ والإثابة من توابع ذلك الاستعدادِ الذي عليه المعذَّب أو المثاب في نفسه، ومن هنا قالوا: إنَّ المعصيةَ والطاعة أمارتان على الشَّقاوة والسَّعادة لا مقتضيتان لهما، وبذلك يندفع قولُهم: ولأنَّه لو خلقهم له لم يعذِّبْهم، ولِمَا قرَّرناه شواهدُ كثيرةٌ من الكتاب والسُّنَّة لا تخفى على المستعدِّين لإدراك الحقائق.

وقيل: ضميرُ «خَلَقهم» لـ «مَن» باعتبار معناه، والإشارة للرحمةِ المفهومةِ من «رَحِم»، والتذكير لتأويلها بأنْ والفعل، أو لكونها بمعنى الخير، ورُوي ذلك عن مجاهد وقتادة.

وروي عن ابن عباس أنَّ الضمير للناسِ، والإشارة للرحمة والاختلاف، أي: لاختلافِ الجميع ورحمةِ بعضِهم «خلقهم»، وجاءت الإشارةُ لاثنين كما في قوله تعالى: ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨]. واللام على هذا قيل: بمعنًى مجازيٍّ عامٍّ للمعنى الظاهرِ والصيرورةِ، وعلى ما قبلَه على معناها.

وأظهرُ الأقوال في الإشارة والضمير ما قدَّمناه، والقولان الآخَران دونَه. وأمَّا القولُ بأنَّ الإشارة لِمَا بعدُ، وفي الكلام تقديمٌ وتأخير، أي: وتمت كلمةُ ربِّك لأملأنَّ جهنَّم إلخ ولذلك ـ أي: لملء جهنَّم ـ خَلَقهم، فبعيدٌ جدًّا من تراكيب كلام العرب. ومن هذا الطرز ما قيل: إنَّ «ذلك» إشارةٌ إلى شهودِ ذلك اليوم المشهودِ.

وكذا ما قيل: إنَّه إشارةٌ إلى قوله تعالى: (فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ)، أو إلى الشَّقاوة والسَّعادة المفهومتَين من ذلك، أو إلى أن يكونَ فريقٌ في الجنَّة وفريقٌ في السعير، أو إلى النَّهي المفهوم من قوله سبحانه: (يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ)، أو إلى الجنَّة والنار، أو إلى العبادة. إلى غير ذلك من الأقوال التي يُتعجَّب منها.

وذهب بعضُ المحقِّقين(١) في معنى الآية إلى أنَّ المرادَ من الوحدة الوحدةُ في الدِّين الحقِّ، ومن الاختلافِ الاختلافُ فيه على معنى المخالفةِ له، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٣] والمراد بـ «مَن رَحِم»: الذين هداهم الله تعالى ولم يخالفوا الحقَّ، والإشارة

(١) هو أبو السعود في تفسيره ٤/ ٢٤٨.

للاختلافِ بمعنى المخالفة، وضمير «خَلَقهم» للذين بقوا بعد الثُّنْيا، وهم المختلفون المخالفون، واللامُ للعاقبة، كأنَّه قيل: ولو شاء ربُّك لجعل الناسَ على الحقِّ ودينِ الإسلام، لكنَّه لم يشأْ فلم يجعل، ولا يزالون مخالفين للحقِّ إلا قوماً هداهم سبحانَه بفضلِه فلم يخالفوا الحقَّ، ولما ذكر من الاختلاف خلق المختلفين المخالفين. ولا يخفى ما فيه من ارتكابِ خلافِ الظاهر وإن أخرج ابنُ جرير وأبو الشيخ عن مجاهدٍ ما يقتضي بعضَه[1].

ومن الغريب ما روي عن الحسن أنَّ المراد من الاختلاف الاختلافُ في الأرزاق والأحوالِ وتسخيرِ بعضِهم بعضاً.

وقال ابنُ بحر: المرادُ أنَّ بعضَهم يخلُفُ بعضاً، فيكون الآتي خَلَفاً للماضي، ومنه: ما اختلف الجديدان[2]، أي: ما خَلَفَ أحدُهما صاحبَه. وإلى هذا ذهب أبو مسلم، إلَّا أنه قال: يخلفُ بعضُهم بعضاً في الكفر تقليداً. وفي ذلك ما فيه.

وأيًّا ما كان فالظاهرُ من الناس العمومُ، وليتأمَّل عليه[3] هذه الآية مع قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [يونس: ١٩] فإنه يُتراءى بينهما ـ على ما قيل ـ المنافاة، والتزم بعضهم في دفعها حَمْلَ الاختلاف على ما يعمُّ الاختلافَ في الدِّين وغيره، وقال آخرون: إن «الناس» هناك العرب، وهنا ما يعمهم، فلا منافاة[4].

وقال الفاضل الجلبيُّ: ليس في هذه الآية ما يدلُّ على عموم «الناس» حتى تخالف «وما كان الناس» إلخ. وفيه نظر[5].

---

(١) تفسير الطبري ١٢/ ٦٣٣ و ٦٣٦، وعزاه لأبي الشيخ السيوطي في الدر ٣/ ٣٥٦، ولفظه: «ولا يزالون مختلفين» قال: أهل الباطل، «إلا مَن رحم ربك» قال: أهل الحق.

(٢) أي: الليل والنهار، ومن أمثالهم: لا أفعل ذلك ما اختلف الجديدان. الصحاح (جدد)، والمستقصى ٢/ ٢٤٥.

(٣) قوله: عليه، ليس في (م).

(٤) من قوله: فإنه يتراءى، إلى هذا الموضع ليس في (م)، وجاء فيها بدلاً منه: وليراجع تفسير ذلك.

(٥) قوله: وفيه نظر، ليس في الأصل.

وقيل: إن الحكم تمَّ باعتبار الأكثر الغالب. وقيل: المراد هنا: لو شاء لآمن هذا النوع من الناس بحيث لا يقع بين أفراده اختلاف في الدين أصلاً، ولكنه سبحانه لم يشأ، وهذا لا ينافي وقوعَ الاتفاق بين الأفراد في بعض الأوقات كما لا يخفى. وقيل غير ذلك، فافهم وتذكَّر[1].

والجارُّ والمجرور ـ أعني «لذلك» ـ متعلِّقٌ بـ «خلق» بعدَه، والظاهرُ أنَّ الحصرَ المستفادَ من التقديم إذا قلنا: إنَّ التقديمَ له إضافيٌّ، والمضافُ هو إليه مختلفٌ حَسْبَ اختلاف الأقوال في تعيين المشارِ إليه، وهو على الأوَّل الاتِّفاق، وعلى ما عداه يظهرُ أيضاً بأدنى التفاتٍ.

هذا واستُدِلَّ بالآية على أنَّ الأمر غيرُ الإرادة، وأنَّه تعالى لم يُرِدِ الإيمان من كلٍّ، وأنَّ ما أراده سبحانه يجبُ وقوعُه.

وذكر بعضُ العارفين أنَّ منشأ تشييبِ سورة هودٍ له ﷺ اشتمالُها على أمرِه عليه الصلاة والسلام بالاستقامةِ على الدَّعوة مع إخبارِه أنَّه سبحانه إنَّما خلقَ الناسَ للاختلافِ، وأنَّه لا يشاءُ اجتماعَهم على الدِّين الحقِّ، وهو كما ترى.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ أي: نَفَذَ قضاؤه وحقَّ أمرُه، وقد تُفسَّر الكلمةُ بالوعيد مجازاً، وقد يُراد منها الكلامُ الملقى على الملائكة عليهم السلام، والأوَّلُ أولى. والجملةُ متضمِّنةٌ معنى القَسَم، ولذا جيء باللام في قوله سبحانه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

والجِنَّةُ والجنُّ بمعنًى واحدٍ، وفي تفسير ابنِ عطية: أنَّ الهاء في الجِنَّة للمبالغة، وإن كان الجنُّ يقع على الواحد فالجِنَّة جمعُه[2]. انتهى. فيكون من الجموع التي يفرَّق بينها وبين مُفْرَدِها بالهاء، ككَمْءٍ وكمأةٍ، على ما ذكرناه في تعليقاتنا على «الألفية».

وفي الآية سؤالٌ مشهورٌ، وهو أنَّها تقتضي بظاهرها دخولَ جميع الفريقين في جهنَّم، والمعلومُ من الآيات والأخبار خلافُه.

---

(١) من قوله: وقيل إن الحكم تم، إلى هذا الموضع، ليس في (م).
(٢) المحرر الوجيز ٣/٢١٦.

وأجاب عن ذلك القاضي[1] بما حاصلُه: أنَّ المراد بـ «الجِنَّة والناس» إمَّا عصاتُهما، على أنَّ التعريف للعهدِ والقرينةُ عقليَّةٌ لِمَا عُلِمَ من الشرع أنَّ العذابَ مخصوصٌ بهم، وأنَّ الوعيد ليس إلا لهم، وفي معنى ذلك ما قيل: المرادُ بـ «الجنة والناس» أتباعُ إبليسَ لقوله سبحانه في «الأعراف» و«ص»: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[2] فاللازمُ دخول جمع تابعيه في جهنَّم ولا محذورَ فيه، والقرآنُ يفسِّر بعضُه بعضاً، ولا حاجةَ إلى تقدير «عصاة» مضافاً إلى الفريقين كما قيل، فـ «أجمعين» لاستغراق الأفراد المرادةِ حسبما علمتَ.

وإمَّا ما يتبادر منهما، ويُراد من التأكيد بيانُ أنَّ ملءَ جهنَّم من الصِّنفين لا من أحدِهما فقط، وهذا لا يقتضي شمولَ أفراد كِلَا الفريقين، ويكون الدَّاخلوها منهما مسكوتاً عنه موكولاً إلى شيءٍ آخرَ.

واعتُرض الأخير بأنَّه مبنيٌّ على وقوع «أجمعين» تأكيداً للمثنَّى، وهو خلافُ ما صرَّحوا به.

وفيه أنَّ ذلك إذا كان لمثنًّى حقيقيٍّ لا إذا كان كلُّ فردٍ منه جمعاً؛ فإنه حينئذٍ تأكيدٌ للجمع في الحقيقة، فلا ورود لِمَا ذُكر.

نعم يَرِدُ على الشِّقِّ الأوَّل أنَّ التأكيد يقتضي دخولَ جميع العصاة في النار، والمعلومُ من النُّصوص خلافُه، اللهمَّ إلا أن يقال: المرادُ العصاةُ الذين قدَّر الله تعالى أن يدخلوها.

وأجاب بعضُهم بأنَّ ذلك لا يقتضي دخولَ الكلِّ بل قَدْرَ ما يملأ جهنم، كما إذا قيل: ملأتُ الكيسَ من الدراهم، لا يقتضي دخولَ جميع الدراهم في الكيس.

وردَّه الجلالُ الدواني بأنه نظيرُ أن يقال: ملأتُ الكيس من جميعِ الدراهم، وهو بظاهره يقتضي دخولَ جميع الدَّراهم فيه، والسؤالُ عليه كما في الآية باقٍ بحاله. ثم قال: والحقُّ في الجواب أن يقال: إنَّ[3] المرادَ بلفظ «أجمعين» تعميمُ

---

(١) هو البيضاوي في تفسيره مع حاشية الشهاب ٥/ ١٥٠.

(٢) الآية (٨٥) من سورة ص، وآية الأعراف هي: ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٨].

(٣) قوله: إن، ليس في (م).

الأصناف، وذلك لا يقتضي دخولَ جميع الأفراد، كما إذا قلت: ملأتُ الجِرابَ من جميع أصنافِ الطعام، لا يقتضي ذلك إلَّا أنْ يكون فيه شيءٌ من كلِّ صنفٍ من الأصناف، لا أنْ يكون فيه جميعُ أفرادِ الطعام، وكقولك: امتلأ المجلسُ من جميع أصنافِ الناس، فإنَّه لا يقتضي أن يكونَ في المجلس جميعُ أفراد الناس، بل أنْ يكون فيه من كلِّ صنفٍ فردٌ، وهو[1] ظاهر. وعلى هذا يظهرُ فائدةُ لفظ «أجمعين»؛ إذ فيه ردٌّ على اليهود وغيرهم مِمَّن زعم أنهم لا يدخلون النار. انتهى.

وتعقّبه ابنُ الصَّدر[2] بقوله: فيه بحثٌ؛ لأنَّهم صرَّحوا بأنَّ فائدةَ التأكيد بـ «كلّ وأجمعين» دفعُ توهُّم عدمِ الشمول والإحاطة بجميع الأفراد، وما ذكره من المثالين فإنَّما نشأ شمولُ الأصناف فيه من إضافة لفظِ الجميع إلى الأصناف، كيف ولو قيل: ملأتُ الجرابَ من جميع الطعام. بإسقاط لفظ الأصناف كان الكلامُ فيه كالكلامِ فيما نحن فيه.

وأيضاً ما ذكره من أنَّ في ذلك ردًّا على اليهود إلخ غيرُ صحيح؛ لأنَّ اليهود قالوا ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠] فكيف يزعمون أنَّهم لا يدخلونها أصلاً. فتدبَّر ذاك والله سبحانه يتولَّى هداك.

وأجاب بعضُهم بمنزعٍ صوفيٍّ، وهو أنَّ المرادَ من «الجِنَّة والناس»: الذين بَقُوا في مرتبة الجنِّيَّة والإنسيَّة، حيث انغمسوا في ظلماتِ الطبيعة، وانتكسوا في مقرِّ الأجرام العنصريَّة، ولم يرتفعوا[3] إلى العالم الأعلى، واطمأنُّوا بالحياة الدنيا ورضوا بها، وانسلخوا عن عالم المجرَّدات، وهم المشركون الذين قيل في حقِّهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ [التوبة: ٢٨] إلخ؛ فإنَّهم لا يستأهلون دارَ الله تعالى وقُرْبَه، ثم قال: ولهذا ترى الله تعالى شأنُه يذمُّ الإنسان ويدعو عليه في غير ما موضع.

(١) في الأصل: وهذا.
(٢) محمد الأمين بن صدر الدين الشرواني نزيل القسطنطينية، له حاشية على شرح العقائد العضدية للجلال الدواني، وتعليقات على أماكن من تفسير البيضاوي، والفوائد الخاقانية، توفي سنة (١٠٣٦هـ). خلاصة الأثر ٣/ ٤٧٥.
(٣) في (م): وانتكبوا في مقر الأجرام العنصرية ولم يرفعوا.

﴿وَكُلًّا﴾ أي: وكلَّ نبأ، فالتنوينُ للتعويض عن المضاف إليه المحذوف، ونصب «كلّ» على أنَّه مفعولٌ به لقوله سبحانه: ﴿نَّقُصُّ عَلَيْكَ﴾ أي: نخبرك به، وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ﴾ صفةٌ لذلك المحذوف لا لـ «كلًّا»؛ لأنَّها لا تُوصف في الفصيح كما في إيضاح المفصَّل، و«من» تبعيضيَّة، وقيل: بيانيَّة.

وقوله عزَّ وجل: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ قيل: عطفُ بيان لـ «كلًّا»، بناءً على عدم اشتراط توافُق البيانِ والمبيَّن تعريفاً وتنكيراً، والمعنى: هو ما نثبِّت إلخ. وجوِّز أن يكون بدلاً منه بدلَ كلٍّ أو بعض. وفائدةُ ذلك التنبيهُ على أنَّ المقصودَ من الاقتصاص زيادةُ يقينه ﷺ وطمأنينة قلبه، وثبات نفسه على أداء الرسالة واحتمالِ أذى الكفار.

وجوِّز أيضاً أن يكون مفعولَ «نقصُّ»، و«كلًّا» حينئذٍ منصوبٌ إمَّا على المصدريَّة، أي: كلَّ نوعٍ من أنواع الاقتصاصِ نقصُّ عليك الذي نثبِّت به فؤادَك من أنباء الرُّسل، وإمَّا على الحاليَّة من «ما» أو من الضمير المجرور في «به» على مذهب مَن يرى جوازَ تقديم حالِ المجرور بالحرفِ عليه، وهو حينئذٍ نكرةٌ بمعنى جميعاً، أي: نقصُّ عليك من أنباء الرُّسل الأشياءَ التي نثبِّت بها فؤادَك جميعاً.

واستظهر أبو حيَّان كونَ «كلًّا» مفعولاً به لـ «نقص»، و«من أنباء» في موضع الصِّفة له، وهو مضافٌ في التقدير إلى نكرة، و«ما» صلةٌ كما هي في قوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤٢](١). ولا يخفى ما فيه.

﴿وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ﴾ أي: الأمرُ الثابتُ المطابقُ للواقع، والإشارةُ بـ «هذه» إلى السُّورة كما جاء ذلك من عدَّة طُرقٍ عن ابن عباس وأبي موسى الأشعري وقتادة وابن جبير.

وقيل: الإشارةُ إليها مع نظائرها. وليس بذاك، ككونها إشارةً إلى دار الدنيا وإن جاء في روايةٍ عن الحسن. وقيل: إلى الأنباء المقتصَّة، وهو مما لا بأس به.

﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ عطفٌ على «الحق»، أي: جاءك الجامعُ المتَّصفُ بكونه حقًّا في نفسه وكونِه موعظةً وذكرى للمؤمنين، ولعلَّ تحليةَ الوصف

---

(١) البحر ٥/ ٢٧٤.

الأوَّل باللام دونَ الأخيرينِ لِمَا قيل من أنَّ الأوَّلَ حالٌ للشيء في نفسه، والأخيران وصفان له بالقياس إلى غيره.

وقال الشِّهاب[1]: الظاهرُ أن يقال: إنَّما عُرِّف الأوَّل لأنَّ المرادَ منه ما يختصُّ بالنبيِّ ﷺ، من إرشادِه إلى الدَّعوة وتسليتِه بما هو معروفٌ معهودٌ عنده، وأمَّا الموعظةُ والتذكيرُ فأمرٌ عامٌّ لم ينظرْ فيه لخصوصيةٍ، ففرِّق بين الوصفين للفَرْق بين الموصوفين، وفي التخصيص بهذه السورة ما يشهدُ له؛ لأنَّ مبناها على إرشادِه ﷺ على ما سمعتَ من صاحب «الكشف»[2].

وتقديمُ الظرف على الفاعل ليتمكَّن المؤخَّر عند[3] وروده أفضَلَ تمكُّنٍ، ولأنَّ في المؤخَّر نوعَ طولٍ يخلُّ تقديمُه بتجاوُبِ النَّظم الكريم.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: جهتِكم وحالِكم التي أنتم عليها ﴿إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ على جهتِنا وحالِنا التي نحن عليها ﴿وَانتَظِرُوا﴾ بنا الدوائر ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ أن ينزلَ بكم نحوُ ما نزل بأمثالِكم من الكفرة.

وصيغةُ الأمر في الموضعين للتهديد والوعيد، والآيتان محكمتان. وقيل: المرادُ الموادعةُ، فهما منسوختان.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: أنه سبحانه يعلم كلَّ ما غاب في السماوات والأرض، ولا يعلم ذلك أحدٌ سواه جلَّ وعلا ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره عزَّ شأنُه ﴿يُرْجَعُ الْأَمْرُ﴾ أي: الشأن ﴿كُلُّهُ﴾ فيرجع لا محالةَ أمرُك وأمرُهم إليه.

وقرأ أكثرُ السبعة: «يَرْجِعُ» بالبناء للفاعل[4]، مِن رَجَع رجوعاً.

﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فإنه سبحانه كافيك، والفاءُ لترتيب الأمر بالعبادة والتوكُّلِ على كونِ مَرْجِعِ الأمورِ كلِّها إليه. وقيل: على ذلك، وكونِه تعالى عالماً بكلِّ غيب أيضاً.

---

(١) في الحاشية ٥/ ١٥٠-١٥١.
(٢) ينظر كلامه ١١/ ٣٧٨ و١٢/ ١٣٧.
(٣) في (م): عنه، وهو تصحيف.
(٤) التيسير ص١٢٦، والنشر ٢/ ٢٠٨، وقرأ نافع وحفص: «يُرْجَع».

وفي تأخير الأمر بالتوكُّل عن الأمر بالعبادة تنبيهٌ على أنَّ التوكُّل لا ينفع دونَها، وذلك لأن تقدُّمه في الذِّكر يُشعر بتقدُّمه في الرُّتبة أو الوقوع.

وقيل: التقديمُ والتأخير لأنَّ المراد من العبادة امتثالُ سائر الأوامر من الإرشاد والتبليغ وغيرِ ذلك؛ ومن التوكُّل التوكُّلُ فيه، كأنَّه قيل: امتثلْ ما أُمرتَ به، وداوِمْ على الدَّعوة والتبليغ، وتوكَّل عليه في ذلك، ولا تُبالِ بالذين لا يؤمنون، ولا يَضِقْ صدرُك منهم.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ بتاء الخطاب على تغليبِ المخاطب، وبذلك قرأ نافع وابن عامر وحفصٌ وقتادةُ والأعرجُ وشيبةُ وأبو جعفرٍ والجحدريُّ[(١)]، أي: وما ربُّك بغافل عمَّا تعملُ أنتَ وما يعملون هم، فيجازي كلًّا منك ومنهم بموجبِ الاستحقاق.

وقرأ الباقون من السبعة بالياء على الغيبة، وذلك ظاهر.

هذا وفي «زوائد الزُّهد» لعبد الله بن أحمدَ بنِ حنبل، و«فضائل القرآن» لابن الضُّرَيس عن كعب أنَّ فاتحةَ التوراة فاتحةُ «الأنعام» وخاتمتَها خاتمةُ «هود»: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى آخر السورة[(٢)]، والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ﴾ كاملُ الشقاوة، ومنهم سعيدٌ كاملُ السعادة. ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ﴾ أي: نارِ الحرمان عن المرادِ، وآلام ما اكتسبوه من الآثام وهو عذابُ النفس ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ فيُخرجون من ذلك إلى ما هو أشدُّ منه، من نيرانِ القلب وذلك بالسّخطِ والإذلال، ونيرانِ الرُّوح وذلك بالحجْبِ واللَّعن والقهر ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ لا حجرَ عليه سبحانه.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: جنَّةِ حصول المرادات واللذَّات، وهي جنَّةُ

---

(١) التيسير ص١٢٦، والنشر ٢/ ٢٣، والبحر ٥/ ٢٧٥، وهي قراءة يعقوب من العشرة.

(٢) الدر المنثور ٣/ ٣٥٧، وهو في فضائل القرآن لابن الضريس ص٩٥.

النفس ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ فيخرجون من ذلك إلى ما هو أعلى وأعلى من جنَّات القلب في مقام تجلِّيات الصِّفات، وجنَّاتِ الرُّوح في مقام الشهود، وهناك ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعت ولا خطرَ على قلبِ بشر. وقد يُحمل التنوينُ على النوعية ويؤوَّل الاستثناءُ بخروج الشقيِّ من النار بالترقِّي من مقامِه إلى الجنَّة بزكاء نفسِه عمَّا حالَ بينَه وبينها.

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ أي: في القيام بحقوقِ الحقِّ والخلق، وذلك بالمحافظة على حقوقِه تعالى والتعظيم لأمره والتسديدِ لِخَلْقِه، مع شهود الكثرة في الوحدة والوحدةِ في الكثرة من غير إخلالٍ مّا بشرطٍ من شرائط التعظيم ﴿وَمَن تَابَ﴾ عن إنيته وذنبِ وجوده ﴿مَعَكَ﴾ من المؤمنين الموحِّدين إلى مقامِ البقاء بعد الفناء.

وقيل: إنَّ الاستقامةَ المأمورَ بها ﷺ فوقَ الاستقامة المأمورِ بها مَنْ معه عليه الصلاة والسلام، والعطفُ لا يقتضي أكثرَ من المشاركة في مطلَقِ الفعل كما يُرشِدُ إليه قولُه تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨] على قول، ومن هنا قال الجنيد قدِّس سرُّه: الاستقامةُ مع الخوف والرجاء حالُ العابدين، والاستقامةُ مع الهيبة والرجاء حالُ المقرَّبين، والاستقامةُ مع الغيبة عن رؤية الاستقامةِ حالُ العارفين.

﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ ولا تخرجوا عمَّا حُدَّ لكم من الشريعة؛ فإنَّ الخروج عنها زندقةٌ.

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ﴾ أي: لا تَميلوا أدنى ميلٍ ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ وهي النفوسُ المظلمةُ المائلةُ إلى الشرورِ في أصل الخِلْقَة، كما قيل:

الظُّلم من شِيَمِ النُّفوس فإنْ تجدْ ... ذا عِفَّة فلعلَّةٍ لا يَظْلمُ[1]

ورُوي ذلك عن عليّ بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر ﵃.

وقيل: المعنى: لا تقتدوا بالمُرائين والجاهلين وقرناءِ[2] السوء.

وقيل: لا تَصْحَبوا الأشرارَ ولا تُجالسوا أهلَ البدع.

---

(١) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ٤/٢٥٣، ووقع في الأصل و(م): لم يظلم.
(٢) في الأصل: وقراء.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ﴾ أمرٌ بإقامة الصَّلاة المفروضة على ما علمتَ، وقد ذكروا أنَّ الصلاة معراجُ المؤمن، وفي الأخبار ما يدلُّ على علوِّ شأنها، والأمرُ غني عن البيان.

﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ قال الواسطي: أنوارُ الطاعات تَذْهَبُ بظُلَم المعاصي.

وقال يحيى بن معاذ: إنَّ الله سبحانه لم يرضَ للمؤمن بالذَّنب حتى ستَر، ولم يرضَ بالسَّتْر حتى غفَر، ولم يرضَ بالغفران حتى بدَّل، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ وقال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ [الفرقان: ٧٠].

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر من إقامة الصَّلاة في الأوقات المشارِ إليها، وإذهابِ الحسنات السيئات، ﴿ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ تذكيرٌ لمن يذكرُ حاله عند الحضورِ مع الله تعالى في الصفاءِ والجمعية والأُنس والذَّوق.

﴿وَٱصْبِرْ﴾ بالله سبحانه في الاستقامة، ومع الله تعالى بالحضور في الصلاة وعدمِ الرُّكون إلى الغير ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الذين يشاهدونه في حال القيام بالحقوق.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فيه حضٌّ على الأمر بالمعروفِ والنهيِ عن المنكر.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ قيل: «القرى» فيه إشارةٌ إلى القلوب و«أهلها» إشارةٌ إلى القُوى.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةًۖ﴾ متساويةً في الاستعداد، متَّفقةً على دِين التوحيد ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ في الوجهة والاستعداد ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ﴾ بهدايتِه إلى التوحيد وتوفيقِه للكمال، فإنهم متَّفقون في المذهب والمقصد، متوافقون في السِّيرة والطَّريقة، قبلتُهم الحقُّ، ودينُهم التوحيد والمحبَّةُ وإن اختلفتْ عباراتُهم، كما قيل:

عباراتُنا شتَّى وحسنُك واحدٌ ... وكلٌّ إلى ذاك الجمالِ يُشيرُ(١)

---

(١) ذكره الزركشي في البرهان ٢/ ١٦٠.

﴿وَلِذَٰلِكَ﴾ الاختلافِ ﴿خَلَقَهُمْ﴾، وذلك ليكونوا مظاهرَ جمالِه وجلالِه ولطفِه وقهرِه. وقيل: ليتمَّ نظامُ العالم ويحصلَ قوامُ الحياة الدنيا.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ أي: أُحكِمتْ وأُبرمت «لأملأنَّ جهنم من الجِنَّة والنَّاس أجمعين» لأنَّ جهنَّمَ رتبةٌ من مراتبِ الوجود لا يجوزُ في الحكمة تعطيلُها وإبقاؤُها في كتم العدمِ مع إمكانها.

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ لِمَا اشتملتْ عليه من مُقاساتهم الشدائدَ من أممهم، مع ثباتِهم وصبرِهم وإهلاكِ أعدائهم.

﴿وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ﴾ السورةِ ﴿الْحَقُّ﴾ الذي لا ينبغي المحيدُ عنه ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وتخصيصُ هذه السورة بالذِّكر لِمَا أشرنا إليه، وقيل: للتشريف، وإلا فالقرآنُ كلُّه كذلك، والكلُّ يَغرفُ من بحرِه على ما يوافقُ مشْربه، ومن هنا قيل: العمومُ متعلِّقون بظاهره، والخصوصُ هائمون بباطنه، وخصوصُ الخصوصِ مستغرقون في تجلِّي الحقِّ سبحانه فيه.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ﴾ على اختلافِ معانيها ﴿وَالْأَرْضِ﴾ كذلك ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ أي: كلُّ شأنٍ من الشؤون، فإنَّ الكلَّ منه ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ أسقِطْ عنك حظوظَ نفسِك وقِفْ مع الأمر بشرط الأدب ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ لا تهتمَّ بما قد كُفِيْتَه واهتمَّ بما نُدِبْتَ إليه ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فيجازي كلًّا حَسْبَما تقتضيه الحكمةُ.

والله تعالى وليُّ التوفيق، وبيدِه أزِمَّةُ التحقيقِ، لا ربَّ غيرُه ولا يُرجى إلَّا خيرُه.

انتهى ما وفِّقنا له من تفسير سورةِ هود بمنِّ مَنْ بيده الكرمُ والجودُ، ونسأله سبحانَه أن يُيسِّر لنا إتمامَ ما قَصَدْناه، ويوفِّقَنا لفَهْم معاني كلامِه على ما يحبُّه ويرضاه، والحمدُ لله حقَّ حمدِه، والصَّلاة والسلام على مَن لا نبيَّ من بعدِه، وعلى آله وصحبه وجندِه وحزبِه، ما غرَّدت الأقلامُ في رياض التَّحرير، ووَرَدَت الأفهامُ من حياضِ التفسير.

(١٢) سورة يوسف مكية
وآياتها إحدى عشرة ومائة

بين يدي السورة : سورة يوسف إحدى السور المكية ، التي تناولت أهداف السور المكية ومن ضمنها « قصص الأنبياء » وقد جاءت السورة مفصلةً قصة « يوسف الصدِّيق » وما لاقاه من إخوته من ضروب المحن والشدائد ، ولهذا سميت بسورة يوسف ، والمقصودُ بها تسلية النبي ﷺ بما لاقاه من أذى القريب والبعيد .

والسورة الكريمة أسلوبٌ فذٌّ فريد ، في ألفاظها ، وتعبيرها ، وتركيبها ، وقصصها الممتع اللطيف ، تسري مع النفس سريان الدم في العروق ، وتجري – برقتها وسلاستها – في القلب جريان الروح في الجسد ، فهي وإن كانت من السور المكية التي تحمل – في الغالب – طابَعَ الإنذار والتهديد ، إلا أنها اختلفت عنها في هذا المَيْدان ، فجاءت نديَّةً طرية ، في أسلوبٍ سَلِسٍ ممتع ، لطيفٍ رقيق ، يحمل جوَّ الأنس والرحمة ، والرأفة والحنان ، ولهذا قال خالدُ بن مَعْدان : « سورة يوسف ومريم مما يتفكه بهما أهل الجنة في الجنة » وقال عطاء : « لا يسمع سورةَ يوسفَ محزونٌ إلا استراح إليها » . نزلت هذه السورة الكريمة على رسول ﷺ بعد سورة « هود » في تلك الفترة الحرجة العصيبة من حياة الرسول الأعظم ﷺ .. حيث توالت الشدائد والنكبات ، على الرسول وعلى المؤمنين ، واشتد عليهم اذى المشركين ، وبوجهٍ خاص عندما فَقَد عليه الصلاة والسلام نصيريه : زوجه الطاهرة

الحنون « خديجة » التي كانت كثيراً ما تخفف عنه الآلام والأحزان ، وتشجّعه وتصبّره ، وفقد فيه عمه الشهم المناضل « أبا طالب » الذي كان يناصره ويدافع عنه ، وكان له خيرَ معين ، وخيرَ نصير ، مع أنه لم يدخل في الإسلام ، ولكنه كان يعتقد بصدق ابن أخيه فكان يدفع الأذى عنه بكل ما أوتي من قوة .. وبموتهما اشتد الأذى والبلاء على رسول الله ﷺ حتى عُرف ذلك العام بعام الحزن ، **قال المقريزي في إمتاع الأسماع** : « فعظمت المصيبةُ على رسول الله ﷺ بموتهما ، وسمّاه عليه السلام « عامَ الحزن » وقال : « ما نالتْ قريشٌ مني شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب » لأنه لم يكن في عشيرته وأعمامه حامياً ولاذاباً عنه غيره .

في تلك الفترة العصيبة من حياة الرسول الكريم ، وفي ذلك الوقت الذي كان يعاني فيه عليه السلام الوحشة ، والغربة ، والانقطاع في جاهلية قريش ، وتعاني معه الجماعة المسلمة هذه الشدة ، كان الله سبحانه ينزّل على نبيه الكريم هذه السورة الكريمة ، تسلية له ، وتخفيفاً لآلامه بذكر قصص المرسلين ، وما تحملوه في سبيل تبليغ دعوة الله ، حتى يصبر كما صبروا « فاصبر كما صبر أو لو العزم من الرسل » . وكأنَّ الله سبحانه وتعالى يقول لنبيه الكريم : لا تحزن يا محمد لتكذيب قومك وإيذائهم لك ، فإنَّ بعد الشدة فرجاً ، وإنَّ بعد الضيق مخرجاً ، بدَّ أن يأتي اليسر بعد العسر والفَرَجُ بعد تلك الشدائد والأهوال .. انظر إلى أخيك « يوسف » وتمعَّنْ بما حدث له من صنوف المحن ، وما جرى له من ألوان المكاره والابتلاء : محنةِ حسدِ أُخوته له ، ومحنة كيد إخوته له ، ومحنة رميه في الجب ، ومحنة الرق وهو ينتقل كالسلعة من يد إلى يد ، ومحنة كيد امرأة العزيز بالمراودة والإغراء ، ومحنة السجن بعد رغد العيش .. إلى غير ذلك مما لاقاه من المحن

والكوارث والنكبات ، كيف أنه لما صبر على الأذى في سبيل الله ، نقله الله من السجن إلى القصر ، وجعله عزيزاً في أرض مصر ، فكان هو السيد المطاع ، والعزيز المكرَّم .. وهكذا أفعل بأوليائي ، ومن صبر على بلائي ، فلا بدَّ أن يكون لك به أُسوة ، وبأمثاله من الأنبياء والمرسلين قدوة « أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده .. » . وهكذا جاءت « قصة يوسف » في هذه السورة الكريمة ، فيها عِبَرٌ وعظات ، ودروسٌ حافلات بروائع الأخبار المثيرة ، والأنباء العجيبة ﴿ لقد كان في قصصهم عبرةٌ لأولي الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ولكنْ تصديقَ الذي بين يديه وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ وهكذا تتوالى النكبات إثْرَ النكبات على الأنبياء والمرسلين ، والدعاة المخلصين ، ولكنْ لا بدَّ من الفرج بعد الضيق ، والنصرة بعد الشدة ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ .

هذا هو جو السورة وهذه إيحاءاتها .. تبشّر بقرب النصر لمن سار على طريق الأنبياء والمرسلين ، وقد جرت عادة القرآن بتكرير القصص في مواطن متعددة من الكتاب العزيز ، بقصد العظة والعبرة ، ولكنْ بإيجازٍ دون توسع ، وفي كل موطنٍ يُذكر فيه جانبٌ من جوانب القصة ، لاستكمال جميع حلقاتها ، وأما سورة يوسف فقد جاءت هنا بإسهاب وإطناب ، لأن فيها عظاتٍ بليغة ، وحِكَماً جليلة ، وأسراراً عميقة « لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » ولم تكرر في كثير من السور كعادة قصص الأنبياء ، لتشير إلى « إعجاز القرآن » في الإيجاز والإطناب ، والمكرر وغير المكرر ، فسبحان الملك العلاّم ! !

قال القرطبي : ذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن ، وكررها بمعنى واحد في وجوهٍ مختلفة ، بألفاظٍ متباينة على درجات البلاغة ، وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها ، فلم يقدر مخالف على معارضة ما

تكرر ، ولا على معارضة غير المتكرر ، والإعجاز لمن تأمل. **عصمة يوسف الصديق** : ولا بدَّ لنا هنا من وقفةٍ قصيرة حول ما نُسب إلى هذا النبي الكريم « يوسف الصدّيق » وما قيل عنه من أقوال لا تليقُ بمقام الأتقياء فضلاً عن مقام الأنبياء فنقول ومن الله نستمد العون والتوفيق : لقد شطَّ القلمُ وزَلِقَ القدمُ ببعض المفسرين عند قول الله تبارك وتعالى في سورة يوسف « ولقد همَّتْ به وهمَّ بها لولا أن رآى برهانَ ربه » حين زعموا أن يوسف عليه السلام قد همَّ بمقارفة فاحشة الزنى ، وشُحنتْ بعضُ كتب التفسير بكثيرٍ من الروايات الإسرائيلية الواهية ، بل المنكرة الباطلة في تفسير « الهمّ » والبرهان ، حتى زعم بعضهم أن يوسف عليه السلام لما راودته امرأة العزيز رضخ إليها وحلَّ رباط سر واله وجلس منها مجلس الرجل من امرأته ، وهمَّ بمقارفة الفاحشة معها ثم رأى صورة أبيه « يعقوب » عليه السلام على جدار الغرفة عاضاً على أُصبعه بفمه ، فقام عنها خجلاً وحياءً ، إلى غير ما هنالك من أقوالٍ واهية ، ورواياتٍ باطلة ، لازِمَامَ لها ولا خِطَام. ولستُ أدري كيف سرت تلك الروايات المنكرة إلى بعض كتب التفسير ، وتقبَّلها بعضُهم بقبولٍ حسنٍ وكلُّها كما يقول العلامة - أبو السعود - في تفسيره خرافاتٌ وأباطيل ، تمجُّها الآذانُ وتردُّها العقول والأذهان ! ؟ ثم كيف غاب عن أولئك المفسرين أن يوسف عليه السلام نبيٌّ كريم ، ابنُ نبيٍّ كريم اصطفاه الله لرسالته ، واختاره لهداية خلقه ، وأثنى عليه بقوله ﴿ إنه من عبادنا المُخْلَصِين﴾ فهل يكون مُخْلَصاً لله من همَّ بالفاحشة وعزم على معصية رب العالمين ؟ وكيف غاب عن هؤلاء أن « العِصْمَةَ » من صفات الأنبياء ، وأن الله تقدست أسماؤه لا يختار لهذا المنصب الجليل . إلاَّ أكرمَ خلقه وأفضلَ وأشرفَ عباده ؟ ! يا قوم تفكّروا وتدبَّروا ونزّهوا هذه الكتب عن أمثال هذه الأساطير والأباطيل ، إن

الزنى جريمةٌ من أشنع الجرائم وأقبح الرذائل حرَّمتها الشرائع السماوية فكيف يرتكبها نبيٌّ من الأنبياء أو يهمُّ بها تقيٌّ من الأتقياء؟ وهاكُمُ الأدلةَ أذكرها باختصار وأسوقها من كتاب الله عز وجل فقط من عشرة وجوه وكلُّها صريحة في كمال عفته ونزاهته . **الوجه الأول** : امتناع يوسف عليه السلام عن مطاوعتها حين دعته إلى نفسها ، ووقوفه في وجهها بكل صلابة وعزم ﴿وقالتْ هيْتَ لكَ! قال معاذَ اللهِ إنَّهُ ربي أَحْسَنَ مَثْوايَ إنه لا يفلح الظالمون﴾ . **الوجه الثاني** : فراره منها بعد أن أحكمتْ إغلاقَ الأبواب ، وحاصرتْهُ وضيَّقت عليه الخناق ، ولو همَّ بها لما فرَّ منها لأن الذي يريد الاستمتاع يُقْدِمُ ولا يفر ﴿واستبقا البابَ وقدَّتْ قميصَه من دُبُرٍ وألفيا سيّدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يُسْجن أو عذابٌ أليم﴾ قال العلماء : هذا من اختصار القرآن المعجز فإنها لما راودته عن نفسه وأبى عليها عزمت على أن تقضيَ منه وطرها بالعسر والإكراه فهرب منها فتسابقا نحو الباب فأدركتْهُ قبل أن يخرج وشقَّت ثوبه من خلفه ، فاختصر القرآن ذلك كلَّه بتلك العبارة الموجزة ﴿واستبقا البابَ﴾ **الوجه الثالث** : تفضيلُه عليه السلام السجن على الفاحشة ، وهذا من أعظم الدلائل والبراهين على براءته وعفته ﴿قال ربِّ السجنُ أحبُّ إليَّ مما يدعونني إليه﴾ فكيف يختار السَجن من همَّ بالفاحشة؟ **الوجه الرابع** : ثناءُ الله تعالى عليه في عدةِ مواطنَ من السورة الكريمةِ منها قولُه ﴿آتيناه حُكْماً وعلماً﴾ وقولُه ﴿إنه من عبادنا المُخْلَصِين﴾ وقولُه ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء﴾ قال العلامة أبو السعود : هذه آيةٌ بينة وحجةٌ قاطعة ، على أنه عليه السلام لم يقع منه همٌّ بالمعصية ولا توجَّهَ إليها قطَّ وإلا لقيل : كذلك لنصرفه عن السوء والفحشاء فلما قال تعالى ﴿لنصرف عنه السوءَ والفحشاء﴾ تبيَّن أن ذلك من خارج

فصرفه الله تعالى عنه بما فيه من موجبات العِفَّة والعصمة . **الوجه الخامس** : شهادة الطفلِ الذي أنطقه الله — وكان في المهد — لتبرئة يوسف الصدّيق ، وهو أحد الثلاثة الذين تكلموا بالمهد وقد جاء بالحجة الدامغة والبرهان الساطع ﴿وشهد شاهدٌ من أهلها إن كان قميصُه — أي ثوبُه — قُدَّ من قُبُل — أي شُقَّ من الأمام — فصَدَقتْ وهو من الكاذبين . وإن كان قميصُه قُدَّ من دُبُر فكذبتْ وهو من الصادقين فلما رأى قميصَهُ قدَّ من دُبُر قال إنه من كيدكنَّ إن كيدكنَّ عظيم﴾ **الوجه السادس** : الاعتراف الصريح الواضح من النسوة بعفته وبراءته ﴿قال ما خطبكنَّ إذْ راودتُنَّ يوسف عن نفسِه ؟ قلن حاش للهِ ما علمنا عليه من سوء ..﴾ **الوجه السابع** : اعترافُ امرأةِ العزيز نفسها على أنها هي التي راودته وأنه أبى واستعصم ﴿قالت امرأة العزيز الآنَ حَصْحَصَ الحق — أي ظهرو بان — أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين﴾ وقولُها أيضاً ﴿ولقد راودتُه عن نفسه فاستعصم﴾ . **الوجه الثامن** : تضرعُ يوسف الصدّيق واستغاثتُه بربه لينجيه من كيدهن ﴿فاستجاب له ربُّه فصرفَ عنه كيدهنَّ إنه هو السميع العليم﴾ **الوجه التاسع** : ظهور جميع الأماراتِ الواضحة والبراهين الساطعة لدى عزيز مصر وحاشيته على براءته عليه السلام ﴿ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجُنُنَّه حتى حين﴾ **الوجه العاشر** : عدم قبول يوسف عليه السلام الخروج من السجن حتى تُبرأَ ساحتُه من التهمة ﴿فلما جاءه الرسولُ قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بالُ النسوة اللاتي قطَّعْنَ أيديهن إن ربي بكيدهن عليم﴾ هذه عشرة وجوه اقتبستُها من كتاب الله عز وجل وكلها صريحةٌ في عصمة يوسف ونزاهته ، والله يقول الحق ويهدي السبيل وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

سورة يوسف

[٥١٨م] روى الحاكم وغيره(١) عن سعد بن أبي وقاص قال: أنزل على النبي [ﷺ] القرآن فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله لو حدثتنا، فنزل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾(٢) الآية. زاد ابن أبي حاتم فقالوا يا رسول الله: لو ذكرتنا، فأنزل الله: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ﴾(٣) الآية.

[٥١٩] وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: قالوا يا رسول الله لو قصصت علينا، فنزل: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾(٤) وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود مثله.

* * *

[٥١٨م] (١) ورواه الواحدي في أسباب النزول ص (١٥٥) من طريق عمرو بن قيس الملائي عن عمرو بن مرة عن مصعب بن سعد عن أبيه مثله.

(٢) سورة الزمر: الآية (٢٣).

(٣) سورة الحديد: الآية (١٦).

[٥١٩] (٤) سورة يوسف: الآية (٣).

سورة يوسف

مكية إلا الآيات ١ و٢ و٣ و٧ فمدنية وآياتها: ١١١، نزلت بعد سورة هود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝﴾

وقد ذكرنا في أول سورة يونس تفسير: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١] فقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى آيات هذه السورة أي تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة المسماة ﴿الٓر﴾ هي ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ وهو القرآن، وإنما وصف القرآن بكونه مبينًا لوجوه: الأول: أن القرآن معجزة قاهرة وآية بينة لمحمد ﷺ. والثاني: أنه بين فيه الهدى والرشد، والحلال والحرام، ولما بينت هذه الأشياء فيه كان الكتاب مبينًا لهذه الأشياء. الثالث: أنه بينت فيه قصص الأولين وشرحت فيه أحوال المتقدمين.

ثم قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: روي أن علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين، سلوا محمدًا لِمَ انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر، وعن كيفية قصة يوسف، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وذكر فيها أنه تعالى عبر عن هذه القصة بألفاظ عربية، ليتمكنوا من فهمها ويقدروا على تحصيل المعرفة بها. والتقدير: إنا أنزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصة يوسف في حال كونه قرآنا عربيًا، وسمى بعض القرآن قرآنًا، لأن القرآن اسم جنس يقع على الكل والبعض.

المسألة الثانية: احتج الجبائي بهذه الآية على كون القرآن مخلوقًا من ثلاثة أوجه:

الأول: أن قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ يدل عليه، فإن القديم لا يجوز تنزيله وإنزاله وتحويله من حال إلى حال.

الثاني: أنه تعالى وصفه بكونه عربيًا والقديم لا يكون عربيًا ولا فارسيًا.

الثالث: أنه لما قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ دل على أنه تعالى كان قادرًا على أن ينزله لا عربيًا، وذلك يدل على حدوثه.

الرابع: أن قوله: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ يدل على أنه مركب من الآيات والكلمات، وكل ما كان مركبًا كان محدثًا.

والجواب عن هذه الوجوه بأسرها أن نقول: إنها تدل على أن المركب من الحروف والكلمات والألفاظ والعبارات محدث وذلك لا نزاع فيه، إنما الذي ندعي قدمه شيء آخر فسقط هذا الاستدلال.

المسألة الثالثة: احتج الجبائي بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فقال: كلمة (لعل) يجب حملها على الجزم، والتقدير: إنا أنزلناه قرآنًا عربيًّا لتعقلوا معانيه في أمر الدين، إذ لا يجوز أن يراد بلعلكم تعقلون؟ الشك لأنه على الله محال، فثبت أن المراد أنه أنزله لإرادة أن يعرفوا دلائله، وذلك يدل على أنه تعالى أراد من كل العباد أن يعقلوا توحيده وأمر دينه، من عرف منهم، ومن لم يعرف، بخلاف قول المجبرة.

والجواب: هب أن الأمر ما ذكرتم إلا أنه يدل على أنه تعالى أنزل هذه السورة، وأراد منهم معرفة كيفية هذه القصة ولكن لم قلتم: إنها تدل على أنه تعالى أراد من الكل الإيمان والعمل الصالح.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: روى سعيد بن جبير أنه تعالى لما أنزل القرآن على رسول الله ﷺ وكان يتلوه على قومه، فقالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا فنزلت هذه السورة فتلاها عليهم، فقالوا: لو حدثتنا فنزل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا﴾ [الزمر: ٢٣]، فقالوا: لو ذكّرتنا فنزل: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦].

المسألة الثانية: القصص إتباع الخبر بعضه بعضًا وأصله في اللغة: المتابعة قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١] أي اتبعي أثره، وقال تعالى: ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤] أي اتباعًا وإنما سميت الحكاية قصصًا؛ لأن الذي يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئًا فشيئًا كما يقال: تلا القرآن إذا قرأه لأنه يتلو أي يتبع ما حفظ منه آية بعد آية والقصص في هذه الآية يحتمل أن يكون مصدرًا بمعنى الاقتصاص يقال: قص الحديث يقصه قصًّا وقصصًا إذا طرده وساقه كما يقال أرسله يرسله إرسالاً ويجوز أن يكون من باب تسمية المفعول بالمصدر كقولك: هذا قدرة الله تعالى أي مقدوره وهذا الكتاب علم فلان أي معلومه وهذا رجاؤنا أي مرجونا، فإن حملناه على المصدر كان المعنى نقص عليك أحسن الاقتصاص، وعلى هذا التقدير فالحسن يعود إلى حسن البيان لا إلى القصة، والمراد من هذا الحسن كون هذه الألفاظ فصيحة بالغة في الفصاحة إلى حد الإعجاز، ألا ترى أن هذه القصة مذكورة في كتب التواريخ مع أن شيئًا منها لا يشابه هذه السورة في الفصاحة والبلاغة وإن حملناه على المفعول كان معنى كونه

أحسن القصص لما فيه من العبر والنكت والحكم والعجائب التي ليست في غيرها، فإن إحدى الفوائد التي في هذه القصة أنه لا دافع لقضاء الله تعالى ولا مانع من قدر الله تعالى وأنه تعالى إذا قضى للإنسان بخير ومكرمة فلو أن أهل العالم اجتمعوا عليه لم يقدروا على دفعه .

والفائدة الثانية: دلالتها على أن الحسد سبب للخذلان والنقصان .

والفائدة الثالثة: أن الصبر مفتاح الفرج كما في حق يعقوب عليه السلام، فإنه لما صبر فاز بمقصوده، وكذلك في حق يوسف عليه السلام .

فأما قوله: ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ فالمعنى بوحينا إليك هذا القرآن، وهذا التقدير: إن جعلنا (ما) مع الفعل بمنزلة المصدر .

ثم قال: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ﴾ يريد من قبل أن نوحي إليك ﴿لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ عن قصة يوسف وإخوته؛ لأنه عليه السلام إنما علم ذلك بالوحي، ومنهم من قال: المراد أنه كان من الغافلين عن الدين والشريعة قبل ذلك كما قال تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢] .

قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: تقدير الآية: اذكر ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ﴾ قال صاحب (الكشاف): الصحيح أنه اسم عبراني، لأنه لو كان عربيًا لانصرف لخلوه عن سبب آخر سوى التعريف، وقرأ بعضهم (يوُسِف) بكسر السين و(يُوسَف) بفتحها. وأيضًا روى في يونس هذه اللغات الثلاث، وعن النبي ﷺ قال: «إِذَا قِيلَ مَنِ الْكَرِيمُ فَقُولُوا: الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السلام»[(١)] .

المسألة الثانية: قرأ ابن عامر (يا أبتَ) بفتح التاء في جميع القرآن، والباقون بكسر التاء. أما الفتح فوجهه أنه كان في الأصل يا أبتاه على سبيل الندبة، فحذفت الألف والهاء. وأما الكسر فأصله يا أبي، فحذفت الياء واكتفى بالكسرة عنها ثم أدخل هاء الوقف فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ ثم كثر استعماله حتى صار كأنه من نفس الكلمة فأدخلوا عليه الإضافة، وهذا قول ثعلب وابن الأنباري .

واعلم أن النحويين طولوا في هذه المسألة، ومن أراد كلامهم فليطالع (كتبهم) .

المسألة الثالثة: أن يوسف عليه السلام رأى في المنام أن أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر سجدت له، وكان له أحد عشر نفرًا من الإخوة، ففسر الكواكب بالإخوة، والشمس والقمر

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في (الأدب المفرد) (١/ ٢١٢) حديث رقم/ ٦٠٥، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٣٣٢) حديث رقم/ ٨٣٧٣، كلاهما من طريق محمد بن عمرو قال حدثنا أبو سلمة عن أبي هريرة. . . به .

بالأب والأم، والسجود بتواضعهم له ودخولهم تحت أمره، وإنما حملنا قوله: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ على الرؤيا لوجهين: الأول: أن الكواكب لا تسجد في الحقيقة، فوجب حمل هذا الكلام على الرؤيا. والثاني: قول يعقوب عليه السلام: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ [يوسف: ٥] وفي الآية سؤالات:

السؤال الأول: قوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ فقوله: ﴿سَٰجِدِينَ﴾ لا يليق إلا بالعقلاء، والكواكب جمادات، فكيف جازت اللفظة المخصوصة بالعقلاء في حق الجمادات.

قلنا: إن جماعة من الفلاسفة الذين يزعمون أن الكواكب أحياء ناطقة احتجوا بهذه الآية، وكذلك احتجوا بقوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] والجمع بالواو والنون مختص بالعقلاء. وقال الواحدي: إنه تعالى لما وصفها بالسجود صارت كأنها تعقل، فأخبر عنها كما يخبر عمن يعقل كما قال في صفة الأصنام ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨] وكما في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ [النمل: ١٨].

السؤال الثاني: قال: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ ثم أعاد لفظ الرؤيا مرة ثانية، وقال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ فما الفائدة في هذا التكرير؟

الجواب: قال القفال رحمه الله: ذكر الرؤية الأولى لتدلَّ على أنه شاهد الكواكب والشمس والقمر، والثانية لتدل على مشاهدة كونها ساجدة له، وقال بعضهم: إنه لما قال: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ فكأنه قيل له: كيف رأيت؟ فقال: رأيتهم لي ساجدين، وقال آخرون: يجوز أن يكون أحدهما من الرؤية والآخر من الرؤية، وهذا القائل لم يبين أن أيهما يحمل على الرؤيا وأيهما الرؤيا فذكر قولاً مجملاً غير مُبيَّن.

السؤال الثالث: لم أخر الشمس والقمر؟

قلنا: أخرهما لفضلهما على الكواكب، لأن التخصيص بالذكر يدل على مزيد الشرف كما في قوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨].

السؤال الرابع: المراد بالسجود نفس السجود أو التواضع كما في قوله[1]:

تَرَى الأُكَمَ فِيهِ سُجَّدًا لِلْحَوَافِرِ

قلنا: كلاهما محتمل، والأصل في الكلام حمله على حقيقته ولا مانع أن يرى في المنام أن الشمس والقمر والكواكب سجدت له.

السؤال الخامس: متى رأى يوسف عليه السلام هذه الرؤيا؟

قلنا: لا شك أنه رآها حال الصغر، فأما ذلك الزمان بعينه فلا يعلم إلا بالإخبار. قال وهب:

---

(١) هذا عجز ببيت من البحر الطويل لزيد الخيل الطائي والبيت هكذا:

بِجَيْشٍ تَضِلُّ البُلْقُ في حَجَراتِهِ   تَرى الأُكمَ مِنهُ سُجَّداً لِلحَوافِرِ

وأما زيد الخيل فقد تقدمت ترجمته.

رأى يوسف عليه السلام وهو ابن سبع سنين أن إحدى عشرة عصًا طوالاً كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدائرة وإذا عصا صغيرة وثبت عليها حتى ابتلعتها فذكر ذلك لأبيه فقال: إياك أن تذكر هذا لإخوتك ثم رأى وهو ابن ثنتي عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له فقصها على أبيه فقال: لا تذكرها لهم فيكيدوا لك كيدًا. وقيل: كان بين رؤيا يوسف ومصير إخوته إليه أربعون سنة وقيل: ثمانون سنة.

واعلم أن الحكماء يقولون: إن الرؤيا الرديئة يظهر تعبيرها عن قريب، والرؤيا الجيدة إنما يظهر تعبيرها بعد حين. قالوا: والسبب في ذلك أن رحمة الله تقتضي أن لا يحصل الإعلام بوصول الشر إلا عند قرب وصوله حتى يكون الحزن والغم أقل، وأما الإعلام بالخير فإنه يحصل متقدمًا على ظهوره بزمان طويل حتى تكون البهجة الحاصلة بسبب توقع حصول ذلك الخير أكثر وأتم.

السؤال السادس: قال بعضهم: المراد من الشمس والقمر أبوه وخالته فما السبب فيه؟

قلنا: إنما قالوا ذلك من حيث ورد في الخبر أن والدته توفيت وما دخلت عليه حال ما كان بمصر قالوا: ولو كان المراد من الشمس والقمر أباه وأمه لما ماتت؛ لأن رؤيا الأنبياء عليهم السلام لا بد وأن تكون وحيًا وهذه الحجة غير قوية لأن يوسف عليه السلام ما كان في ذلك الوقت من الأنبياء.

السؤال السابع: وما تلك الكواكب؟

قلنا: روى صاحب (الكشاف) أن يهوديًا جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد أخبرني عن النجوم التي رآهن يوسف فسكت رسول الله ﷺ فنزل جبريل عليه السلام وأخبره بذلك فقال عليه الصلاة والسلام لليهودي: «إِنْ أَخْبَرْتُكَ هَلْ تُسْلِمُ» قال: نعم قال: «جَرْبَانُ وَالطَّارِقُ وَالذَّيَّالُ وَقَابِسٌ وَعَمُودَانُ وَالْفَلَيْقُ وَالْمُصْبِحُ وَالضَّرُوحُ وَالْفَرْغُ وَوَثَّابٌ وَذُو الْكَتِفَيْنِ رَآهَا يُوسُفُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ نَزَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ وَسَجَدَتْ لَهُ» فقال اليهودي: أي والله إنها لأسماؤها. واعلم أن كثيرًا من هذه الأسماء غير مذكور في الكتب المصنفة في صورة الكواكب والله أعلم بحقيقة الحال.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حفص ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ بفتح الياء والباقون بالكسر.

المسألة الثانية: أن يعقوب عليه السلام كان شديد الحب ليوسف وأخيه فحسده إخوته لهذا السبب، وظهر ذلك المعنى ليعقوب عليه السلام بالأمارات الكثيرة فلما ذكر يوسف عليه السلام هذه الرؤيا وكان تأويلها أن إخوته وأبويه يخضعون له فقال: لا تخبرهم برؤياك فإنهم يعرفون تأويلها فيكيدوا لك كيدًا.

المسألة الثالثة: قال الواحدي: الرُّؤيا مصدر كالبُشْرى والسُّقْيا والشُّوْرى إلا أنه لما صار اسمًا لهذا المتخيل في المنام جرى مجرى الأسماء. قال صاحب (الكشاف): الرؤيا بمعنى الرؤية إلا أنها مختصة بما كان منها في المنام دون اليقظة فلا جرم فرق بينهما بحرفي التأنيث، كما قيل: القُرْبة والقُربْى وقرئ (روياك) بقلب الهمزة واوًا وسمع الكسائي يقرأ رُيَّاك ورِيَّاك بالإدغام وضم الراء وكسرها وهي ضعيفة.

ثم قال تعالى: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ﴾ وهو منصوب بإضمار أن، والمعنى إن قصصتها عليهم كادوك.

فإن قيل: فلم لم يقل فيكيدوك كما قال: ﴿فَكِيدُونِي﴾ [هود: ٥٥].

قلنا: هذه اللام تأكيد للصلة كقوله ﴿لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣]، وكقولك: نصحتُك ونصحتُ لك وشكرتك وشكرتُ لك، وقيل: هي من صلة الكيد على معنى فيكيدوا كيدًا لك. قال أهل التحقيق: وهذا يدل على أنه قد كان لهم علم بتعبير الرؤيا وإلا لم يعلموا من هذه الرؤيا ما يوجب حقدًا وغضبًا.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ والسبب في هذا الكلام أنهم لو أقدموا على الكيد لكان ذلك مضافًا إلى الشيطان، ونظيره قول موسى عليه السلام: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِۖ﴾ [القصص: ١٥]، ثم إن يعقوب عليه السلام قصد بهذه النصيحة تعبير تلك الرؤيا وذكروا أمورًا: أولها: قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ يعني وكما اجتباك بمثل هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز وكبر شأن كذلك يجتبيك لأمور عظام. قال الزجاج: الاجتباء مشتق من جبيت الشيء إذا خلَّصْتَه لنفسك، ومنه جبيت الماء في الحوض، واختلفوا في المراد بهذا الاجتباء، فقال الحسن: يجتبيك ربك بالنبوة، وقال آخرون: المراد منه إعلاء الدرجة وتعظيم، المرتبة فأما تعيين النبوة فلا دلالة في اللفظ عليه. وثانيها: قوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾.

وفيه وجوه:

الأول: المراد منه تعبير الرؤيا سماه تأويلاً لأنه يئول أمره إلى ما رآه في المنام يعني تأويل أحاديث الناس فيما يرونه في منامهم. قالوا: إنه عليه السلام كان في علم التعبير غاية.

والثاني: تأويل الأحاديث في كتب الله تعالى والأخبار المروية عن الأنبياء المتقدمين، كما أن الواحد من علماء زماننا يشتغل بتفسير القرآن وتأويله، وتأويل الأحاديث المروية عن الرسول ﷺ.

والثالث: الأحاديث جمع حديث، والحديث هو الحادث، وتأويلها مآلها، ومآل الحوادث إلى قدرة الله تعالى وتكوينه وحكمته، والمراد من تأويل الأحاديث كيفية الاستدلال بأصناف المخلوقات الروحانية والجسمانية على قدرة الله تعالى وحكمته وجلالته، وثالثها: قوله: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ .

واعلم أن من فسر الاجتباء بالنبوة لا يمكنه أن يفسر إتمام النعمة هاهنا بالنبوة أيضًا وإلا لزم التكرار، بل يفسر إتمام النعمة هاهنا بسعادات الدنيا وسعادات الآخرة. أما سعادات الدنيا فالإكثار من الأولاد والخدم والأتباع والتوسع في المال والجاه والحشم وإجلاله في قلوب الخلق وحسن الثناء والحمد. وأما سعادات الآخرة: فالعلوم الكثيرة والأخلاق الفاضلة والاستغراق في معرفة الله تعالى. وأما من فسر الاجتباء بنيل الدرجات العالية، فهاهنا يفسر إتمام النعمة بالنبوة ويتأكد هذا بأمور:

الأول: أن إتمام النعمة عبارة عما به تصير النعمة تامة كاملة خالية عن جهات النقصان. وما ذاك في حق البشر إلا بالنبوة، فإن جميع مناصب الخلق دون منصب الرسالة ناقص بالنسبة إلى كمال النبوة، فالكمال المطلق والتمام المطلق في حق البشر ليس إلا النبوة.

والثاني: قوله: ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ ومعلوم أن النعمة التامة التي بها حصل امتياز إبراهيم وإسحاق عن سائر البشر ليس إلا النبوة، فوجب أن يكون المراد بإتمام النعمة هو النبوة.

واعلم أنا لما فسرنا هذه الآية بالنبوة لزم الحكم بأن أولاد يعقوب كلهم كانوا أنبياء، وذلك لأنه قال: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ وهذا يقتضي حصول تمام النعمة لآل يعقوب، فلما كان المراد من إتمام النعمة هو النبوة لزم حصولها لآل يعقوب ترك العمل به في حق من عدا أبناءه فوجب أن لا يبقى معمولاً به في حق أولاده. وأيضًا إن يوسف عليه السلام قال: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ وكان تأويله أحد عشر نفسًا لهم فضل وكمال ويستضيء بعلمهم ودينهم أهل الأرض، لأنه لا شيء أضوأ من الكواكب وبها يهتدى وذلك يقتضي أن يكون جملة أولاد يعقوب أنبياء ورسلاً.

فإن قيل: كيف يجوز أن يكونوا أنبياء وقد أقدموا على ما أقدموا عليه في حق يوسف عليه السلام؟

قلنا: ذاك وقع قبل النبوة، وعندنا العصمة إنما تعتبر في وقت النبوة لا قبلها.

القول الثاني: أن المراد من قوله: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ خلاصه من المحن، ويكون وجه التشبيه في ذلك بإبراهيم وإسحاق عليهما السلام هو إنعام الله تعالى على إبراهيم بإنجائه من النار وعلى ابنه إسحاق بتخليصه من الذبح.

والقول الثالث: أن إتمام النعمة هو وصل نعمة الله عليه في الدنيا بنعم الآخرة بأن جعلهم في

الدنيا أنبياء وملوكًا ونقلهم عنها إلى الدرجات العلى في الجنة.

واعلم أن القول الصحيح هو الأول، لأن النعمة التامة في حق البشر ليست إلا النبوة، وكل ما سواها فهي ناقصة بالنسبة إليها، ثم إنه عليه السلام لما وعده بهذه الدرجات الثلاثة ختم الكلام بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فقوله: ﴿عَلِيمٌ﴾ إشارة إلى قوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[الأنعام: ١٢٤] وقوله: ﴿حَكِيمٌ﴾ إشارة إلى أن الله تعالى مقدس عن السفه والعبث، لا يضع النبوة إلا في نفس قدسية وجوهرة مشرقة علوية.

فإن قيل: هذه البشارات التي ذكرها يعقوب عليه السلام هل كان قاطعًا بصحتها أم لا؟ فإن كان قاطعًا بصحتها، فكيف حزن على يوسف عليه السلام، وكيف جاز أن يشتبه عليه أن الذئب أكله، وكيف خاف عليه من إخوته أن يهلكوه، وكيف قال لإخوته ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ۝١٣﴾[يوسف: ١٣]، مع علمه بأن الله سبحانه سيجتبيه ويجعله رسولاً، فأما إذا قلنا: إنه عليه السلام ما كان عالمًا بصحة هذه الأحوال، فكيف قطع بها؟ وكيف حكم بوقوعها حكمًا جازمًا من غير تردد؟.

قلنا: لا يبعد أن يكون قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ مشروطًا بأن لا يكيدوه، لأن ذكر ذلك قد تقدم، وأيضًا فبتقدير أن يقال: إنه عليه السلام كان قاطعًا بأن يوسف عليه السلام سيصل إلى هذه المناصب إلا أنه لا يمتنع أن يقع في المضايق الشديدة ثم يتخلص منها ويصل إلى تلك المناصب فكان خوفه لهذا السبب، ويكون معنى قوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾[يوسف: ١٣] الزجر عن التهاون في حفظه وإن كان يعلم أن الذئب لا يصل إليه.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨﴾

في هذه الآية مسائل:

المسألة الأولى: ذكر صاحب (الكشاف) أسماء إخوة يوسف: يهودا، روبيل، شمعون لاوي، ربالون، يشجر، دينة، دان، نفتالي، جاد، آشر. ثم قال: السبعة الأولون من ليا بنت خالة يعقوب والأربعة الآخرون من سريتين زلفة وبلهة، فلما توفيت ليا تزوج يعقوب أختها راحيل فولدت له بنيامين ويوسف.

المسألة الثانية: قوله: ﴿ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ قرأ ابن كثير: (آيةٌ) بغير ألف حمله على شأن يوسف، والباقون ﴿ءَايَٰتٌ﴾ على الجمع لأن أمور يوسف كانت كثيرة وكل واحد منها آية بنفسه.

المسألة الثالثة: ذكروا في تفسير قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ وجوهًا:

الأول: قال ابن عباس: دخل حبر من اليهود على النبي ﷺ فسمع منه قراءة يوسف فعاد إلى اليهود فأعلمهم أنه سمعها منه كما هي في التوراة، فانطلق نفر منهم فسمعوا كما سمع، فقالوا له

من علمك هذه القصة؟ فقال: الله علمني، فنزل: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ وهذا الوجه عندي بعيد؛ لأن المفهوم من الآية أن في واقعة يوسف آيات للسائلين وعلى هذا الوجه الذي نقلناه ما كانت الآيات في قصة يوسف، بل كانت الآيات في أخبار محمد ﷺ عنها من غير سبق تعلم ولا مطالعة وبين الكلامين فرق ظاهر.

والثاني: أن أهل مكة أكثرهم كانوا أقارب الرسول عليه الصلاة والسلام وكانوا ينكرون نبوته ويظهرون العداوة الشديدة معه بسبب الحسد فذكر الله تعالى هذه القصة وبيَّن أن إخوة يوسف بالغوا في إيذائه لأجل الحسد وبالآخرة فإن الله تعالى نصره وقواه وجعلهم تحت يده ورايته، ومثل هذه الواقعة إذا سمعها العاقل كانت زجرًا له عن الإقدام على الحسد، والثالث: أن يعقوب لما عبَّر رؤيا يوسف وقع ذلك التعبير ودخل في الوجود بعد ثمانين سنة، فكذلك أن الله تعالى لما وعد محمدًا عليه الصلاة والسلام بالنصر والظفر على الأعداء، فإذا تأخر ذلك الموعود مدة من الزمان لم يدل ذلك على كون محمد عليه الصلاة والسلام كاذبًا فيه فذكر هذه القصة نافع من هذا الوجه. الرابع: أن إخوة يوسف بالغوا في إبطال أمره، ولكن الله تعالى لما وعده بالنصر والظفر كان الأمر كما قدره الله تعالى لا كما سعى فيه الأعداء، فكذلك واقعة محمد ﷺ فإن الله لما ضمن له إعلاء الدرجة لم يضره سعي الكفار في إبطال أمره. وأما قوله: ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ فاعلم أن هذه القصة فيها آيات كثيرة لمن سأل عنها، وهو كقوله تعالى: ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت: ١٠].

ثم قال تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قوله: ﴿لَيُوسُفُ﴾ اللام لام الابتداء، وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة. أرادوا أن زيادة محبته لهما أمر لا شبهة فيه وأخوه هو بنيامين، وإنما قالوا: أخوه، وهم جميعًا إخوة؛ لأن أمهما كانت واحدة والعصبة والعصابة العشرة فصاعدًا، وقيل: إلى الأربعين سموا بذلك لأنهم جماعة تعصب بهم الأمور، ونقل عن علي عليه السلام أنه قرأ: (وَنَحْنُ عُصْبَةً) بالنصب قيل: معناه ونحن نجتمع عصبة.

المسألة الثانية: المراد منه بيان السبب الذي لأجله قصدوا إيذاء يوسف، وذلك أن يعقوب كان يفضل يوسف وأخاه على سائر الأولاد في الحب وأنهم تأذوا منه لوجوه: الأول: أنهم كانوا أكبر سنًّا منهما. وثانيها: أنهم كانوا أكثر قوة وأكثر قيامًا بمصالح الأب منهما. وثالثها: أنهم قالوا: إنا نحن القائمون بدفع المفاسد والآفات، والمشتغلون بتحصيل المنافع والخيرات. إذا ثبت ما ذكرناه من كونهم متقدمين على يوسف وأخيه في هذه الفضائل، ثم إنه عليه السلام كان يفضل يوسف وأخاه عليهم لا جرم قالوا: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يعني هذا حيف ظاهر وضلال بين. وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول: إن من الأمور المعلومة أن تفضيل بعض الأولاد على بعض يورث الحقد والحسد، ويورث الآفات، فلما كان يعقوب عليه السلام عالمًا بذلك فَلِمَ أقدم على هذا التفضيل وأيضًا الأسن والأعلم والأنفع أفضل، فَلِمَ قلب هذه القضية؟

والجواب: أنه عليه السلام ما فضلهما على سائر الأولاد إلا في المحبة، والمحبة ليست في وسع البشر فكان معذورًا فيه ولا يلحقه بسبب ذلك لوم.

السؤال الثاني: أن أولاد يعقوب عليه السلام إن كانوا قد آمنوا بكونه رسولاً حقًّا من عند الله تعالى فكيف اعترضوا عليه، وكيف زيفوا طريقته وطعنوا في فعله، وإن كانوا مكذبين لنبوته فهذا يوجب كفرهم.

والجواب: أنهم كانوا مؤمنين بنبوة أبيهم مُقرِّين بكونه رسولاً حقًّا من عند الله تعالى، إلا أنهم لعلهم جوزوا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن يفعلوا أفعالاً مخصوصة بمجرد الاجتهاد، ثم إن اجتهادهم أدى إلى تخطئة أبيهم في ذلك الاجتهاد، وذلك لأنهم كانوا يقولون هما صبيان ما بلغا العقل الكامل ونحن متقدمون عليهما في السن والعقل والكفاية والمنفعة وكثرة الخدمة والقيام بالمهمات وإصراره على تقديم يوسف علينا يخالف هذا الدليل. وأما يعقوب عليه السلام فلعله كان يقول: زيادة المحبة ليست في الوسع والطاقة، فليس لله علي فيه تكليف. وأما تخصيصهما بمزيد البر فيحتمل أنه كان لوجوه:

أحدها: أن أمهما ماتت وهما صغار. **وثانيها**: لأنه كان يرى فيه من آثار الرشد والنجابة ما لم يجد في سائر الأولاد، **وثالثها**: لعله عليه السلام وإن كان صغيرًا إلا أنه كان يخدم أباه بأنواع من الخِدَم أشرف وأعلى مما كان يصدر عن سائر الأولاد، والحاصل أن هذه المسألة كانت اجتهادية، وكانت مخلوطة بميل النفس وموجبات الفطرة، فلا يلزم من وقوع الاختلاف فيها طعن أحد الخصمين في دين الآخر أو في عرضه.

السؤال الثالث: أنهم نسبوا أباهم إلى الضلال المبين، وذلك مبالغة في الذم والطعن، ومن بالغ في الطعن في الرسول كفر، لا سيما إذا كان الطاعن ولدًا فإن حق الأبوة يوجب مزيد التعظيم.

والجواب: المراد منه الضلال عن رعاية المصالح في الدنيا لا البعد عن طريق الرشد والصواب.

السؤال الرابع: أن قولهم: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ محض الحسد، والحسد من أمهات الكبائر، لا سيما وقد أقدموا على الكذب بسبب ذلك الحسد، وعلى تضييع ذلك الأخ الصالح وإلقائه في ذل العبودية وتبعيده عن الأب المشفق، وألقوا أباهم في الحزن الدائم والأسف العظيم، وأقدموا على الكذب فما بقيت خصلة مذمومة ولا طريقة في الشر والفساد إلا وقد أتوا بها، وكل ذلك يقدح في العصمة والنبوة.

والجواب: الأمر كما ذكرتم، إلا أن المعتبر عندنا عصمة الأنبياء عليهم السلام في وقت حصول النبوة. وأما قبلها فذلك غير واجب، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾

واعلم أنه لما قوي الحسد وبلغ النهاية قالوا: لا بد من تبعيد يوسف عن أبيه، وذلك لا يحصل إلا بأحد طريقين: القتل أو التغريب إلى أرض يحصل اليأس من اجتماعه مع أبيه ولا وجه في الشر يبلغه الحاسد أعظم من ذلك، ثم ذكروا العلة فيه وهي قولهم: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ والمعنى أن يوسف شغله عنا وصرف وجهه إليه، فإذا أفقده أقبل علينا بالميل والمحبة ﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ وفيه وجوه:

الأول: أنهم علموا أن ذلك الذي عزموا عليه من الكبائر فقالوا: إذا فعلنا ذلك تبنا إلى الله ونصير من القوم الصالحين.

والثاني: أنه ليس المقصود هاهنا صلاح الدين بل المعنى يصلح شأنكم عند أبيكم ويصير أبوكم محبًّا لكم مشتغلاً بشأنكم.

الثالث: المراد أنكم بسبب هذه الوحشة صرتم مشوشين لا تتفرغون لإصلاح مهم، فإذا زالت هذه الوحشة تفرغتم لإصلاح مهماتكم، واختلفوا في أن هذا القائل الذي أمر بالقتل من كان؟ على قولين:

أحدهما: أن بعض إخوته قال هذا.

والثاني: أنهم شاوروا أجنبيًّا فأشار عليهم بقتله، ولم يقل ذلك أحد من إخوته، فأما من قال بالأول فقد اختلفوا فقال وهب: إنه شمعون، وقال مقاتل: روبيل.

فإن قيل: كيف يليق هذا بهم وهم أنبياء؟

قلنا: من الناس من أجاب عنه بأنهم كانوا في هذا الوقت مراهقين وما كانوا بالغين، وهذا ضعيف؛ لأنه يبعد من مثل نبي الله تعالى يعقوب عليه السلام أن يبعث جماعة من الصبيان من غير أن يكون معهم إنسان عاقل يمنعهم من القبائح. وأيضًا أنهم قالوا: ﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ وهذا يدل على أنهم قبل التوبة لا يكونون صالحين، وذلك ينافي كونهم من الصبيان، ومنهم من أجاب بأن هذا من باب الصغائر، وهذا أيضًا بعيد لأن إيذاء الأب الذي هو نبي معصوم، والكذب معه والسعي في إهلاك الأخ الصغير كل واحد من ذلك من أمهات الكبائر، بل الجواب الصحيح أن يقال: إنهم ما كانوا أنبياء، وإن كانوا أنبياء إلا أن هذه الواقعة إنما أقدموا عليها قبل النبوة.

ثم إنه تعالى حكى أن قائلاً قال: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ قيل: إنه كان روبيل وكان ابن خالة يوسف وكان أحسنهم رأيًا فيه فمنعهم عن القتل، وقيل: يهودا، وكان أقدمهم في الرأي والفضل والسن.

ثم قال: ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ نافع (فِي غَيَابَاتِ الجُبِّ) على الجمع في الحرفين، هذا والذي بعده، والباقون ﴿غَيَٰبَتِ﴾ على الواحد في الحرفين. أما وجه الغيابات فهو أن للجب أقطارًا ونواحي، فيكون فيها غيابات، ومن وَحَّد قال: المقصود موضع واحد من الجب يغيب فيه يوسف، فالتوحيد أخص وأدل على المعنى المطلوب. وقرأ الجحدري (فِي غَيْبَةِ الجُبِّ).

المسألة الثانية: قال أهل اللغة: الغيابة: كل ما غيب شيئًا وستره، فغيابة الجب غوره، وما غاب منه عن عين الناظر وأظلم من أسفله. والجب: البئر التي ليست بمطوية سميت جبًّا، لأنها قطعت قطعًا ولم يحصل فيها غير القطع من طي أو ما أشبه ذلك، وإنما ذكرت الغيابة مع الجب دلالة على أن المشير أشار بطرحه في موضع مظلم من الجب لا يلحقه نظر الناظرين فأفاد ذكر الغيابة هذا المعنى إذ كان يحتمل أن يلقى في موضع من الجب لا يحول بينه وبين الناظرين.

المسألة الثالثة: الألف واللام في الجب تقتضي المعهود السابق، اختلفوا في ذلك الجب فقال قتادة: هو بئر ببيت المقدس، وقال وهب: هو بأرض الأردن، وقال مقاتل: هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب، وإنما عينوا ذلك الجب للعلة التي ذكروها وهي قولهم: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ وذلك لأن تلك البئر كانت معروفة وكانوا يردون عليها كثيرًا، وكان يعلم أنه إذا طرح فيها يكون إلى السلامة أقرب، لأن السيارة إذا جازوا وردوها، وإذا وردوها شاهدوا ذلك الإنسان فيها، وإذا شاهدوه أخرجوه وذهبوا به فكان إلقاؤه فيها أبعد عن الهلاك.

المسألة الرابعة: الالتقاط: تناول الشيء من الطريق، ومنه: اللقطة واللقيط، وقرأ الحسن (تلتقطه) بالتاء على المعنى، لأن بعض السيارة أيضًا سيارة، والسيارة الجماعة الذين يسيرون في الطريق للسفر. قال ابن عباس: يريد المارة وقوله: ﴿ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ فيه إشارة إلى أن الأولى أن لا تفعلوا شيئًا من ذلك، وأما إن كان ولا بد فاقتصروا على هذا القدر، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦] يعني الأولى أن لا تفعلوا ذلك.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾

اعلم أن هذا الكلام يدل على أن يعقوب عليه السلام كان يخافهم على يوسف ولولا ذلك وإلا لما قالوا هذا القول.

واعلم أنهم لما أحكموا العزم ذكروا هذا الكلام وأظهروا عند أبيهم أنهم في غاية المحبة ليوسف وفي غاية الشفقة عليه، وكانت عادتهم أن يغيبوا عنه مدة إلى الرعي فسألوه أن يرسله معهم وقد كان عليه السلام يحب تطييب قلب يوسف فاغتر بقولهم وأرسله معهم.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): ﴿لَا تَأۡمَنَّا﴾ قرئ بإظهار النونين وبالإدغام بإشمام وبغير إشمام، والمعنى لم تخافنا عليه ونحن نحبه ونريد الخير به.

المسألة الثانية: في ﴿يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ﴾.

خمس قراءات:

القراءة الأولى: قرأ ابن كثير: بالنون، وبكسر عين نَرتعِ من الارتعاء، ويلعب بالياء والارتعاء افتعال من رعيت، يقال: رعت الماشية الكلأ ترعاه رعيًا إذا أكلته، وقوله: (نرتع) الارتعاء للإبل والمواشي، وقد أضافوه إلى أنفسهم، لأن المعنى نرتع إبلنا، ثم نسبوه إلى أنفسهم لأنهم هم السبب في ذلك الرعي، والحاصل أنهم أضافوا الارتعاء والقيام بحفظ المال إلى أنفسهم لأنهم بالغون كاملون وأضافوا اللعب إلى يوسف لصغره.

القراءة الثانية: قرأ نافع: كلاهما بالياء وكسر العين من يرتع أضاف الارتعاء إلى يوسف بمعنى أنه يباشر رعي الإبل ليتدرب بذلك فمرة يرتع ومرة يلعب كفعل الصبيان.

القراءة الثالثة: قرأ أبو عمرو وابن عامر (نَرتعْ) بالنون وجزم العين ومثله (نَلْعَبْ). قال ابن الأعرابي: الرتع الأكل بشره، وقيل: إنه الخصب، وقيل: المراد من اللعب الإقدام على المباحات وهذا يوصف به الإنسان، وأما نلعب فروي أنه قيل لأبي عمرو: كيف يقولون نلعب وهم أنبياء؟ فقال: لم يكونوا يومئذ أنبياء، وأيضًا جاز أن يكون المراد من اللعب الإقدام على المباحات لأجل انشراح الصدر كما روي عن النبي ﷺ أنه قال لجابر: «فَهَلاَّ بِكْرًا تُلاَعِبُهَا وَتُلاَعِبُكَ»[1] وأيضًا كان لعبهم الاستباق، والغرض منه تعلم المحاربة والمقاتلة مع الكفار، والدليل عليه قولهم: إنا ذهبنا نستبق وإنما سموه لعبًا لأنه في صورته.

القراءة الرابعة: قرأ أهل الكوفة: كليهما بالياء وسكون العين، ومعناه إسناد الرتع واللعب إلى يوسف عليه السلام.

القراءة الخامسة: (يرتع) بالياء (ونلعب) بالنون وهذا بعيد، لأنهم إنما سألوا إرسال يوسف معهم ليفرح هو باللعب لا ليفرحوا باللعب، والله أعلم.

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (الجهاد) باب (استئذان الرجل الإمام) (٦/ ١٤١) حديث رقم/ ٢٩٦٧، من طريق المغيرة... به، ومسلم في كتاب (المساقاة) باب (بيع البعير واستثنار ركوبه) (٣/ ١١٠/ ١٢٢١)، من طريق المغيرة... به، كلاهما (المغيرة، سيار) عن الشعبي... به.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ۝١٣ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝١٤﴾

اعلم أنهم لما طلبوا منه أن يرسل يوسف معهم اعتذر إليهم بشيئين: أحدهما: أن ذهابهم به ومفارقتهم إياه مما يحزنه لأنه كان لا يصبر عنه ساعة. والثاني: خوفه عليه من الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم أو لعبهم لقلة اهتمامهم به. قيل: إنه رأى في النوم أن الذئب شد على يوسف، فكان يحذره فمن هذا ذكر ذلك، وكأنه لقنهم الحجة، وفي أمثالهم: البلاء موكل بالمنطق. وقيل: الذئاب كانت في أراضيهم كثيرة، وقرئ (الذئب) بالهمز على الأصل وبالتخفيف. وقيل: اشتقاقه من تذاءبت الريح: إذا أتت من كل جهة، فلما ذكر يعقوب عليه السلام هذا الكلام أجابوا بقولهم: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ وفيه سؤالات:

السؤال الأول: ما فائدة اللام في قوله: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾.

والجواب من وجهين: الأول: أن كلمة (إن) تفيد كون الشرط مستلزمًا للجزاء، أي إن وقعت هذه الواقعة فنحن خاسرون، فهذه اللام دخلت لتأكيد هذا الاستلزام. الثاني: قال صاحب (الكشاف) هذه اللام تدل على إضمار القسم تقديره: والله لئن أكله الذئب لكنا خاسرين.

السؤال الثاني: ما فائدة الواو في قوله: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾.

الجواب: أنها واو الحال حلفوا لئن حصل ما خافه من خطف الذئب أخاهم من بينهم وحالهم أنهم عشرة رجال بمثلهم تعصب الأمور وتكفى الخطوب إنهم إذًا لقوم خاسرون.

السؤال الثالث: ما المراد من قولهم: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾.

الجواب فيه وجوه: الأول: خاسرون أي هالكون ضعفًا وعجزًا، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤] أي لعاجزون، الثاني: أنهم يكونون مستحقين لأن يدعى عليهم بالخسارة والدمار وأن يقال: خسرهم الله تعالى ودمرهم حين أكل الذئب أخاهم وهم حاضرون. الثالث: المعنى أنا إن لم نقدر على حفظ أخينا فقد هلكت مواشينا وخسرناها. الرابع: أنهم كانوا قد أتعبوا أنفسهم في خدمة أبيهم واجتهدوا في القيام بمهماته وإنما تحملوا تلك المتاعب ليفوزوا منه بالدعاء والثناء فقالوا: لو قصرنا في هذه الخدمة فقد أحبطنا كل تلك الأعمال وخسرنا كل ما صدر منا من أنواع الخدمة.

السؤال الرابع: أن يعقوب عليه السلام اعتذر بعذرين فلِمَ أجابوا عن أحدهما دون الآخر؟

والجواب: أن حقدهم وغيظهم كان بسبب العذر الأول، وهو شدة حبه له فلما سمعوا ذكر ذلك المعنى تغافلوا عنه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾

اعلم أنه لا بد من الإضمار في هذه الآية في موضعين:

الأول: أن تقدير الآية قالوا: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ فأذن له وأرسله معهم ثم يتصل به قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ﴾ .

والثاني: أنه لا بد لقوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ من جواب إذ جواب (لما) غير مذكور وتقديره فجعلوه فيها، وحذف الجواب في القرآن كثير بشرط أن يكون المذكور دليلاً عليه وهاهنا كذلك. قال السدي: إن يوسف عليه السلام لما برز مع إخوته أظهروا له العداوة الشديدة، وجعل هذا الأخ يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه ولا يرى فيهم رحيمًا فضربوه حتى كادوا يقتلونه وهو يقول: يا يعقوب لو تعلم ما يصنع بابنك، فقال يهودا: أليس قد أعطيتموني موثقًا أن لا تقتلوه فانطلقوا به إلى الجب يُدْلُونَه فيه وهو متعلق بشفير البئر فنزعوا قميصه، وكان غرضهم أن يلطخوه بالدم ويعرضوه على يعقوب، فقال لهم: ردوا علي قميصي لأتوارى به، فقالوا: ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبًا لتؤنسك، ثم دلوه في البئر حتى إذا بلغ نصفها ألقوه ليموت، وكان في البئر ماء فسقط فيه ثم آوى إلى صخرة فقام بها وهو يبكي فنادوه فظن أن رحمة أدركتهم فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه بصخرة فقام يهودا فمنعهم وكان يهودا يأتيه بالطعام، وروي أنه عليه السلام لَمَّا أُلْقِيَ فِي الْجُبِّ قَالَ يَا شَاهِدًا غَيْرَ غَائِبٍ. وَيَا قَرِيبًا غَيْرَ بَعِيدٍ. وَيَا غَالِبًا غَيْرَ مَغْلُوبٍ. اجْعَلْ لِي مِنْ أَمْرِي فَرَجًا وَمَخْرَجًا[1]، وروي أن إبراهيم عليه السلام لما ألقي في النار جرد عن ثيابه فجاءه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة وألبسه إياه، فدفعه إبراهيم إلى إسحاق، وإسحاق إلى يعقوب، فجعله يعقوب في تميمة وعلقها في عنق يوسف عليه السلام فجاء جبريل عليه السلام فأخرجه وألبسه إياه.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ .

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ قولان:

أحدهما: أن المراد منه الوحي والنبوة والرسالة، وهذا قول طائفة عظيمة من المحققين، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا في أنه عليه السلام هل كان في ذلك الوقت بالغًا أو كان صبيًا قال

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه ابن أبي الدنيا في (الفرج بعد الشدة) (١/ ٤١) حديث رقم/ ٤٠، من طريق الخطاب بن عثمان حدثنا محمد بن عمر عن رجل من أهل الكوفة أن جبريل عليه السلام. . . فذكره، وفي إسناده رجل لم يسم مع إرساله.

بعضهم: إنه كان في ذلك الوقت بالغًا وكان سنه سبع عشرة سنة، وقال آخرون: إنه كان صغيرًا إلا أن الله تعالى أكمل عقله وجعله صالحًا لقبول الوحي والنبوة كما في حق عيسى عليه السلام.

والقول الثاني: إن المراد من هذا الوحي الإلهام كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: ٧] وقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] والأول أولى لأن الظاهر من الوحي ذلك.

فإن قيل: كيف يجعله نبيًا في ذلك الوقت وليس هناك أحد يبلغه الرسالة؟

قلنا: لا يمتنع أن يشرفه بالوحي والتنزيل ويأمره بتبليغ الرسالة بعد أوقات ويكون فائدة تقديم الوحي تأنيسه وتسكين نفسه وإزالة الغم والوحشة عن قلبه.

المسألة الثانية: في قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قولان:

الأول: المراد أن الله تعالى أوحى إلى يوسف إنك لتخبرن إخوتك بصنيعهم بعد هذا اليوم وهم لا يشعرون في ذلك الوقت أنك يوسف، والمقصود تقوية قلبه بأنه سيحصل له الخلاص عن هذه المحنة ويصير مستوليًا عليهم ويصيرون تحت قهره وقدرته. وروي أنهم حين دخلوا عليه لطلب الحنطة وعرفهم وهم له منكرون دعا بالصواع فوضعه على يده، ثم نقره فطن، فقال: إنه ليخبرني هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف فطرحتموه في البئر وقلتم لأبيكم أكله الذئب. **والثاني:** أن المراد إنا أوحينا إلى يوسف عليه السلام في البئر بأنك تنبئ إخوتك بهذه الأعمال، وهم ما كانوا يشعرون بنزول الوحي عليه، والفائدة في إخفاء نزول ذلك الوحي عنهم أنهم لو عرفوه فربما ازداد حسدهم فكانوا يقصدون قتله.

المسألة الثالثة: إذا حملنا قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ على التفسير الأول، كان هذا أمرًا من الله تعالى نحو يوسف في أن يستر نفسه عن أبيه وأن لا يخبره بأحوال نفسه، فلهذا السبب كتم أخبار نفسه عن أبيه طول تلك المدة، مع علمه بوجد أبيه به خوفًا من مخالفة أمر الله تعالى، وصبر على تجرع تلك المرارة، فكان الله سبحانه وتعالى قد قضى على يعقوب عليه السلام أن يوصل إليه تلك الغموم الشديدة والهموم العظيمة ليكثر رجوعه إلى الله تعالى، وينقطع تعلق فكره عن الدنيا فيصل إلى درجة عالية في العبودية لا يمكن الوصول إليها إلا بتحمل المحن الشديدة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

اعلم أنهم لما طرحوا يوسف في الجب رجعوا إلى أبيهم وقت العشاء باكين، ورواه ابن جني

عُشّي بضم العين والقصر وقال: عشوا من البكاء فعند ذلك فزع يعقوب وقال: هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا: لا قال: فما فعل يوسف؟ قالوا: ﴿ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ﴾ فبكى وصاح وقال: أين القميص؟ فطرحه على وجهه حتى تخضب وجهه من دم القميص، وروي أن امرأة تحاكمت إلى شريح فبكت فقال الشعبي: يا أبا أمية ما تراها تبكي؟ قال: قد جاء إخوة يوسف يبكون وهم ظلمة كذبة لا ينبغي للإنسان أن يقضي إلا بالحق، واختلفوا في معنى الاستباق قال الزجاج: يسابق بعضهم بعضًا في الرمي، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «لاَ سَبقَ إلاَّ فِي خُفٍّ أَوْ نَصْلٍ أَوْ حَافِرٍ» يعني بالنصل: الرمي، وأصل السبق في الرمي بالسهم هو أن يرمي اثنان ليتبين أيهما يكون أسبق سهمًا وأبعد غلوة، ثم يوصف المتراميان بذلك فيقال: استبقا وتسابقا إذا فعلا ذلك ليتبين أيهما أسبق سهمًا، ويدل على صحة هذا التفسير ما روي أن في قراءة عبدالله (إِنَّا ذَهَبْنَا نَنْتَضِلُ).

والقول الثاني: في تفسير الاستباق ما قاله السدي ومقاتل: (ذهبنا نَسْتَبِقُ) نشتد ونعدو ليتبين أينا أسرع عدوًا.

فإن قيل: كيف جاز أن يستبقوا وهم رجال بالغون وهذا من فعل الصبيان؟

قلنا: الاستباق منهم كان مثل الاستباق في الخيل وكانوا يجربون بذلك أنفسهم ويدربونها على العدو لأنه كالآلة لهم في محاربة العدو ومدافعة الذئب إذا اختلس الشاة وقوله: ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ﴾ قيل: أكل الذئب يوسف وقيل عرَّضوا وأرادوا أكل الذئب المتاع، والوجه هو الأول.

ثم قالوا: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ليس المعنى أن يعقوب عليه السلام لا يصدق من يعلم أنه صادق، بل المعنى لو كنا عندك من أهل الثقة والصدق لاتهمتنا في يوسف لشدة محبتك إياه ولظننت أنا قد كذبنا، والحاصل إنا وإن كنا صادقين لكنك لا تصدقنا لأنك تتهمنا. وقيل: المعنى: إنا وإن كنا صادقين فإنك لا تصدقنا لأنه لم تظهر عندك أمارة تدل على صدقنا.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الإيمان في أصل اللغة عبارة عن التصديق، لأن المراد من قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ أي بمصدق، وإذا ثبت أن الأمر كذلك في أصل اللغة وجب أن يبقى في عرف الشرع كذلك، وقد سبق الاستقصاء فيه في أول سورة البقرة في تفسير قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة: ٣].

ثم قال تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: إنما جاءوا بهذا القميص الملطخ بالدم ليوهم كونهم صادقين في مقالتهم.

قيل: ذبحوا جديًا ولطخوا ذلك القميص بدمه. قال القاضي: ولعل غرضهم في نزع قميصه عند إلقائه في غيابة الجب أن يفعلوا هذا توكيدًا لصدقهم، لأنه يبعد أن يفعلوا ذلك طمعًا في نفس القميص ولا بد في المعصية من أن يقرن بها الخذلان، فلو خرقوه مع لطخه بالدم لكان الإيهام أقوى، فلما شاهد يعقوب القميص صحيحًا علم كذبهم.

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾ أي وجاءوا فوق قميصه بدم كما يقال: جاءوا على جمالهم بأحمال.

المسألة الثالثة: قال أصحاب العربية وهم الفراء والمبرد والزجاج وابن الأنباري ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي مكذوب فيه، إلا أنه وصف بالمصدر على تقدير دم ذي كذب ولكنه جعل نفسه كذبًا للمبالغة قالوا: والمفعول والفاعل يسميان بالمصدر كما يقال: ماء سكب، أي مسكوب ودرهم ضرب الأمير وثوب نسج اليمن، والفاعل كقوله: ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ [الملك: ٣٠] ورجل عدل وصَوْم، ونساء نوح ولما سميا بالمصدر سمي المصدر أيضًا بهما فقالوا: للعقل المعقول، وللجلد المجلود، ومنه قوله تعالى ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٦] وقوله: ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: ٧] قال الشعبي: قصة يوسف كلها في قميصه، وذلك لأنهم لما ألقوه في الجب نزعوا قميصه ولطخوه بالدم وعرضوه على أبيه، ولما شهد الشاهد قال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ [يوسف: ٢٦] ولما أتي بقميصه إلى يعقوب عليه السلام فألقى على وجهه ارتد بصيرًا، ثم ذكر تعالى أن إخوة يوسف لما ذكروا ذلك الكلام واحتجوا على صدقهم بالقميص الملطخ بالدم قال يعقوب عليه السلام: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾.

قال ابن عباس: معناه: بل زينت لكم أنفسكم أمرًا. والتسويل: تقدير معنى في النفس مع الطمع في إتمامه، قال الأزهري: كأن التسويل تفعيل من سؤال الإنسان، وهو أمنيته التي يطلبها فتزين لطالبها الباطل وغيره. وأصله مهموز غير أن العرب استثقلوا فيه الهمز، وقال صاحب (الكشاف): ﴿سَوَّلَتْ﴾ سهلت من السول وهو الاسترخاء.

إذا عرفت هذا فنقول: قوله: ﴿بَلْ﴾ رد لقولهم: ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ كأنه قال: ليس كما تقولون: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾ في شأنه ﴿أَمْرًا﴾ أي زينت لكم أنفسكم أمرًا غير ما تصفون، واختلفوا في السبب الذي به عرف كونهم كاذبين على وجوه: الأول: أنه عرف ذلك بسبب أنه كان يعرف الحسد الشديد في قلوبهم. والثاني: أنه كان عالمًا بأنه حي لأنه عليه الصلاة والسلام قال ليوسف: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف: ٦] وذلك دليل قاطع على أنهم كاذبون في ذلك.

القول الثالث: قال سعيد بن جبير: لما جاءوا على قميصه بدم كذب، وما كان متخرقًا، قال كذبتم لو أكله الذئب لخرق قميصه، وعن السدي أنه قال: إن يعقوب عليه السلام قال: إن هذا الذئب كان رحيمًا، فكيف أكل لحمه ولم يخرق قميصه؟ وقيل: إنه عليه السلام لما قال ذلك قال بعضهم: بل قتله اللصوص، فقال: كيف قتلوه وتركوا قميصه وهم إلى قميصه أحوج منه

إلى قتله؟ فلما اختلفت أقوالهم عرف بسبب ذلك كذبهم. ثم قال يعقوب عليه السلام: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: منهم من قال: إنه مرفوع بالابتداء، وخبره محذوف، والتقدير: فصبر جميل أولى من الجزع، ومنهم من أضمر المبتدأ، قال الخليل: الذي أفعله صبر جميل. وقال قطرب: معناه: فصبري صبر جميل. وقال الفراء: فهو صبر جميل.

المسألة الثانية: كان يعقوب عليه السلام قد سقط حاجباه وكان يرفعهما بخرقة، فقيل له: ما هذا؟ فقال: طول الزمان وكثرة الأحزان، فأوحى الله تعالى إليه يا يعقوب أتشكوني؟ فقال: يا رب خطيئة أخطأتها فاغفرها لي. وروي عن عائشة رضي الله عنها في قصة الإفك أنها قالت: والله لئن حلفت لا تصدقوني وإن اعتذرت لا تعذروني، فمثلي ومثلكم كمثل يعقوب وولده ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ فأنزل الله عز وجل في عذرها ما أنزل [١].

المسألة الثالثة: عن الحسن أنه سئل النبي ﷺ عن قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ فقال: «صَبْرٌ لاَ شَكْوَى فِيهِ فَمَنْ بَثَّ لَمْ يَصْبِرْ» [٢] ويدل عليه من القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] وقال مجاهد: فصبر جميل، أي من غير جزع، وقال الثوري: من الصبر أن لا تحدث بوجعك ولا بمصيبتك، ولا تزكي نفسك، وهاهنا بحث وهو أن الصبر على قضاء الله تعالى واجب فأما الصبر على ظلم الظالمين، ومكر الماكرين فغير واجب، بل الواجب إزالته لا سيما في الضرر العائد إلى الغير، وهاهنا أن إخوة يوسف لما ظهر كذبهم وخيانتهم فلِمَ صبر يعقوب على ذلك؟ ولِمَ لم يبالغ في التفتيش والبحث سعيًا منه في تخليص يوسف عليه السلام عن البلية والشدة إن كان في الأحياء وفي إقامة القصاص إن صح أنهم قتلوه، فثبت أن الصبر في هذا المقام مذموم. ومما يقوي هذا السؤال أنه عليه الصلاة والسلام كان عالمًا بأنه حي سليم لأنه قال له: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٦] والظاهر أنه إنما قال هذا الكلام من الوحي وإذا كان عالمًا بأنه حي سليم فكان من الواجب أن يسعى في طلبه. وأيضًا إن يعقوب عليه السلام كان رجلاً عظيم القدر في نفسه، وكان من بيت عظيم شريف، وأهل العلم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب (الأنبياء) باب قول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ [يوسف: ٦] (٣/ ١٢٣٩) حديث رقم/ ٣٢٠٨، وأحمد في (مسنده) (٦/ ٣٦٧) حديث رقم/ ٢٧١١٥، كلاهما من طريق مسروق عن أم رويان عن عائشة... به.

(٢) إسناده ضعيف جدًا: أخرجه ابن أبي حاتم في (تفسيره) (٨/ ٤٣٧) حديث رقم/ ١٢٧٥٢، من طريق عقبة عن عبد الرحمن بن زياد الأفريقي عن مسلم بن يسار ومع الحديث... ثم ذكره، وفي إسناده عبد الرحمن الأفريقي وهو ضعيف، وأخرجه تمام في (فوائده) (٣/ ١٩) حديث رقم/ ١٠١٩، طريق سليمان بن عبد الرحمن حدثنا ثابت ابن عمرو حدثنا مقاتل بن حبان عن قيس بن سكن عن ابن مسعود... به، وأورده الألباني في (الضعيفة) (٦٩٢)، وقال: ضعيف جدًا.

كانوا يعرفونه ويعتقدون فيه ويعظمونه فلو بالغ في الطلب والتفحص لظهر ذلك واشتهر ولزال وجه التلبيس فما السبب في أنه عليه السلام مع شدة رغبته في حضور يوسف عليه السلام، ونهاية حبه له لم يطلبه مع أن طلبه كان من الواجبات، فثبت أن هذا الصبر في هذا المقام مذموم عقلاً وشرعًا.

والجواب عنه: أن نقول: لا جواب عنه إلا أن يقال: إنه سبحانه وتعالى منعه عن الطلب تشديدًا للمحنة عليه، وتغليظًا للأمر عليه، وأيضًا لعله عرف بقرائن الأحوال أن أولاده أقوياء وأنهم لا يمكنونه من الطلب والتفحص، وأنه لو بالغ في البحث فربما أقدموا على إيذائه وقتله، وأيضًا لعله عليه السلام علم أن الله تعالى يصون يوسف عن البلاء والمحنة وأن أمره سيعظم بالآخرة، ثم لم يرد هتك أستار سرائر أولاده وما رضي بإلقائهم في ألسنة الناس وذلك لأن أحد الولدين إذا ظلم الآخر وقع الأب في العذاب الشديد لأنه إن لم ينتقم يحترق قلبه على الولد المظلوم وإن انتقم فإنه يحترق قلبه على الولد الذي ينتقم منه، فلما وقع يعقوب عليه السلام في هذه البلية رأى أن الأصوب الصبر والسكوت وتفويض الأمر إلى الله تعالى بالكلية.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ يدل على أن الصبر على قسمين منه ما قد يكون جميلاً وما قد يكون غير جميل، فالصبر الجميل هو أن يعرف أن منزل ذلك البلاء هو الله تعالى، ثم يعلم أن الله سبحانه مالك الملك ولا اعتراض على المالك في أن يتصرف في ملك نفسه فيصير استغراق قلبه في هذا المقام مانعًا له من إظهار الشكاية.

والوجه الثاني: أنه يعلم أن منزل هذا البلاء حكيم لا يجهل، وعالم لا يغفل، عليم لا ينسى رحيم لا يطغى، وإذا كان كذلك، فكان كل ما صدر عنه حكمة وصوابًا، فعند ذلك يسكت ولا يعترض.

والوجه الثالث: أنه ينكشف له أن هذا البلاء من الحق، فاستغراقه في شهود نور المبلى يمنعه من الاشتغال بالشكاية عن البلاء ولذلك قيل: المحبة التامة لا تزداد بالوفاء ولا تنقص بالجفاء، لأنها لو ازدادت بالوفاء لكان المحبوب هو النصيب والحظ وموصل النصيب لا يكون محبوبًا بالذات بل بالعرض، فهذا هو الصبر الجميل. أما إذا كان الصبر لا لأجل الرضا بقضاء الحق سبحانه بل كان لسائر الأغراض، فذلك الصبر لا يكون جميلاً، والضابط في جميع الأفعال والأقوال والاعتقادات أن كل ما كان لطلب عبودية الله تعالى كان حسنًا وإلا فلا، وهاهنا يظهر صدق ما روي في الأثر «اسْتَفْتِ قَلْبَكَ، وَلَوْ أَفْتَاكَ الْمُفْتُونَ»(١) فليتأمل الرجل تأملاً شافيًا، أن

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في (مسنده) (٤/ ٢٢٨) حديث رقم/ ١٧٩٢٤، قال: حدثنا يزيد بن هارون... به، وفي (٤/ ٢٢٨) قال: حدثنا عفان... به، والدارمي في كتاب (البيوع) باب (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك)، (٢/ ١١٤) حديث رقم/ ٢٥٣٣، من طريق سليمان بن حرب... به، ثلاثتهم (يزيد، عفان، سليمان) قالوا: حدثنا حماد بن سلمة عن الزبير أبي عبد السلام عن أيوب عن عبد الله بن مكرز... به.

الذي أتى به هل الحامل والباعث عليه طلب العبودية أم لا؟ فإن أهل العلم لو أفتونا بالشيء مع أنه لا يكون في نفسه كذلك لم يظهر منه نفع ألبتة. ولما ذكر يعقوب قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ قال: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ والمعنى: أن إقدامه على الصبر لا يمكن إلا بمعونة الله تعالى، لأن الدواعي النفسانية تدعوه إلى إظهار الجزع وهي قوية والدواعي الروحانية تدعوه إلى الصبر والرضا، فكأنه وقعت المحاربة بين الصنفين، فما لم تحصل إعانة الله تعالى لم تحصل الغلبة، فقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ يجري مجرى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] وقوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ يجري مجرى قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ۝١٩ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ۝٢٠﴾

اعلم أنه تعالى بيَّن كيف سهل السبيل في خلاص يوسف من تلك المحنة، فقال: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ يعني رفقة تسير للسفر. قال ابن عباس: جاءت سيارة أي قوم يسيرون من مدين إلى مصر فأخطأوا الطريق فانطلقوا يهيمون على غير طريق، فهبطوا على أرض فيها جب يوسف عليه السلام، وكان الجب في قفرة بعيدة عن العمران لم يكن إلا للرعاة، وقيل: كان ماؤه ملحًا فعذب حين ألقي فيه يوسف عليه السلام فأرسلوا رجلاً يقال له: مالك بن ذعر الخزاعي ليطلب لهم الماء، والوارد: الذي يرد الماء ليستقي القوم ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ ونقل الواحدي عن عامة أهل اللغة أنه يقال: أدلى دلوه إذا أرسلها في البئر ودلاَّها إذا نزعها من البئر يقال: أدلى يدلي إدلاء إذا أرسل ودلاً يدلو دلوًا إذا جذب وأخرج، والدلو معروف، والجمع دلاء ﴿قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ﴾ وهاهنا محذوف، والتقدير: فظهر يوسف قال المفسرون: لما أدلى الوارد دلوه وكان يوسف في ناحية من قعر البئر تعلق بالحبل فنظر الوارد إليه ورأى حسنه نادى، فقال: يا بشرى.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قرأ عاصم وحمزة والكسائي (بشرى) بغير الألف وبسكون الياء، والباقون: (يا بُشْرَايَ) بالألف وفتح الياء على الإضافة.

المسألة الثانية: في قوله: ﴿يَـٰبُشْرَىٰ﴾ قولان:

القول الأول: أنها كلمة تذكر عند البشارة ونظيره قولهم: يا عجبًا من كذا، وقوله: ﴿يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤] وعلى هذا القول ففي تفسير النداء وجهان: الأول: قال الزجاج: معنى النداء في هذه الأشياء التي لا تجيب تنبيه المخاطبين وتوكيد القصة فإذا قلت: يا عجباه فكأنك قلت اعجبوا. الثاني: قال أبو علي: كأنه يقول: يا أيتها البشرى هذا الوقت وقتك، ولو كنت ممن يخاطب لخوطبت الآن ولأمرت بالحضور.

واعلم أن سبب البشارة هو أنهم وجدوا غلامًا في غاية الحسن وقالوا: نبيعه بثمن عظيم ويصير ذلك سببًا لحصول الغنى.

والقول الثاني: وهو الذي ذكره السدي أن الذي نادى صاحبه وكان اسمه، فقال: يا بشرى كما تقول يا زيد. وعن الأعمش أنه قال: دعا امرأة اسمها بشرى (يَا بُشْرَى) قال أبو علي الفارسي: إن جعلنا البشرى اسمًا للبشارة، وهو الوجه جاز أن يكون في محل الرفع كما قيل: يا رجل لاختصاصه بالنداء، وجاز أن يكون في موضع النصب على تقدير: أنه جعل ذلك النداء شائعًا في جنس البشرى، ولم يخص كما تقول: يا رجلاً و﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِۚ﴾ [يس: ٣٠].

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةًۚ﴾ .

ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: الضمير في ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ إلى من يعود؟

فيه قولان:

الأول: أنه عائد إلى الوارد وأصحابه أخفوا من الرفقة أنهم وجدوه في الجب، وذلك لأنهم قالوا: إن قلنا للسيارة التقطناه شاركونا فيه، وإن قلنا اشتريناه: سألونا الشركة، فالأصوب أن نقول: إن أهل الماء جعلوه بضاعة عندنا على أن نبيعه لهم بمصر.

والثاني: نقل عن ابن عباس أنه قال: ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ يعني: إخوة يوسف أسروا شأنه، والمعنى: أنهم أخفوا كونه أخًا لهم، بل قالوا: إنه عبد لنا أبق منا وتابعهم على ذلك يوسف لأنهم توعدوه بالقتل بلسان العبرانية، والأول أولى؛ لأن قوله: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةًۚ﴾ يدل على أن المراد أسروه حال ما حكموا بأنه بضاعة، وذلك إنما يليق بالوارد لا بإخوة يوسف.

المسألة الثانية: البضاعة: القطعة من المال تجعل للتجارة من بضعت اللحم إذا قطعته. قال الزجاج: وبضاعة منصوبة على الحال كأنه قال: وأسروه حال ما جعلوه بضاعة.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ والمراد منه أن يوسف عليه السلام لما رأى الكواكب والشمس والقمر في النوم سجدت له وذكر ذلك حسده إخوته عليه واحتالوا في إبطال ذلك الأمر عليه فأوقعوه في البلاء الشديد حتى لا يتيسر له ذلك المقصود، وأنه تعالى جعل وقوعه في ذلك البلاء سببًا إلى وصوله إلى مصر، ثم تمادت وقائعه وتتابع الأمر إلى أن صار ملك مصر وحصل ذلك الذي رآه في النوم فكان العمل الذي عمله الأعداء في دفعه عن ذلك المطلوب صيره الله تعالى سببًا لحصول ذلك المطلوب، فلهذا المعنى قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ .

ثم قال تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنِۭ بَخْسٖ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٖ﴾ أما قوله: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ .

ففيه قولان:

القول الأول: المراد من الشراء هو البيع، وعلى هذا التقدير ففي ذلك البائع قولان:

القول الأول: قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن إخوة يوسف لما طرحوا يوسف في الجب ورجعوا عادوا بعد ثلاث يتعرفون خبره، فلما لم يروه في الجب ورأوا آثار السيارة طلبوهم فلما رأوا يوسف قالوا: هذا عبدنا أبق منا فقالوا لهم: فبيعوه منا فباعوه منهم، والمراد من قوله: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ أي باعوه يقال: شريت الشيء إذا بعته، وإنما وجب حمل هذا الشراء على البيع، لأن الضمير في قوله: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ وفي قوله: ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ عائد إلى شيء واحد لكن الضمير في قوله: ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ عائد إلى الإخوة فكذا في قوله: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ يجب أن يكون عائدًا إلى الإخوة، وإذا كان كذلك فهم باعوه فوجب حمل هذا الشراء على البيع.

والقول الثاني: أن بائع يوسف هم الذين استخرجوه من البئر، وقال محمد بن إسحاق: ربك أعلم أإخوته باعوه أم السيارة، وهاهنا قول آخر وهو أنه يحتمل أن يقال: المراد من الشراء نفس الشراء، والمعنى أن القوم اشتروه وكانوا فيه من الزاهدين، لأنهم علموا بقرائن الحال أن إخوة يوسف كذابون في قولهم: إنه عبدنا، وربما عرفوا أيضًا أنه ولد يعقوب فكرهوا شراءه خوفًا من الله تعالى، ومن ظهور تلك الواقعة، إلا أنهم مع ذلك اشتروه بالآخرة لأنهم اشتروه بثمن قليل مع أنهم أظهروا من أنفسهم كونهم فيه من الزاهدين، وغرضهم أن يتوصلوا بذلك إلى تقليل الثمن، ويحتمل أيضًا أن يقال إن الإخوة لما قالوا: إنه عبدنا أبق صار المشتري عديم الرغبة فيه. قال مجاهد: وكانوا يقولون استوثقوا منه لئلا يأبق.

ثم اعلم أنه تعالى وصف ذلك الثمن بصفات ثلاث:

الصفة الأولى: كونه بخسًا. قال ابن عباس: يريد حرامًا لأن ثمن الحر حرام، وقال كل بخس في كتاب الله نقصان إلا هذا فإنه حرام، قال الواحدي: سموا الحرام بخسًا لأنه ناقص البركة، وقال قتادة: بخس: ظلم والظلم نقصان، يقال ظلمه أي نقصه، وقال عكرمة والشعبي: قليل، وقيل: ناقص عن القيمة نقصانًا ظاهرًا، وقيل كانت الدراهم زيوفًا ناقصة العيار. قال الواحدي رحمه الله تعالى: وعلى الأقوال كلها، فالبخس مصدر وضع موضع الاسم، والمعنى بثمن مبخوس.

الصفة الثانية: قوله: ﴿دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ قيل: تعد عدًا ولا توزن، لأنهم كانوا لا يزنون إلا إذا بلغ أوقية، وهي الأربعون ويعدون ما دونها فقيل للقليل معدود، لأن الكثيرة يمتنع من عدها لكثرتها، وعن ابن عباس: كانت عشرين درهمًا، وعن السدي: اثنين وعشرين درهمًا. قالوا والإخوة كانوا أحد عشر فكل واحد منهم أخذ درهمين إلا يهوذا لم يأخذ شيئًا.

الصفة الثالثة: قوله: ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ ومعنى الزهد قلة الرغبة يقال زهد فلان في كذا إذا لم يرغب فيه، وأصله القلة. يقال: رجل زهيد إذا كان قليل الطمع، وفيه وجوه: أحدها: أن إخوة يوسف باعوه، لأنهم كانوا فيه من الزاهدين. والثاني: أن السيارة الذين باعوه كانوا فيه من الزاهدين، لأنهم التقطوه والملتقط للشيء متهاون به لا يبالي بأي شيء يبيعه أو لأنهم خافوا

أن يظهر المستحق فينزعه من يدهم، فلا جرم باعوه بأوكس الأثمان. والثالث: أن الذين اشتروه كانوا فيه من الزاهدين، وقد سبق توجيه هذه الأقوال فيما تقدم، والضمير في قوله: ﴿فِيهِ﴾ يحتمل أن يكون عائد إلى يوسف عليه السلام، ويحتمل أن يكون عائدًا إلى الثمن البخس، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه ثبت في الأخبار أن الذي اشتراه إما من الإخوة أو من الواردين على الماء ذهب به إلى مصر وباعه هناك. وقيل: إن الذي اشتراه قطفير أو إطفير وهو العزيز الذي كان يلي خزائن مصر والملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق، وقد آمن بيوسف ومات في حياة يوسف عليه السلام فملك بعده قابوس بن مصعب فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى واشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة وأقام في منزله ثلاث عشرة سنة واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله الملك والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة. وقيل: كان الملك في أيامه فرعون موسى عاش أربعمائة سنة بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [غافر: ٣٤] وقيل: فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف، وقيل اشتراه العزيز بعشرين دينارًا، وقيل أدخلوه السوق يعرضونه فترافعوا في ثمنه حتى بلغ ثمنه ما يساويه في الوزن من المسك والورق والحرير فابتاعه قطفير بذلك الثمن. وقالوا: اسم تلك المرأة زليخا، وقيل: راعيل.

واعلم أن شيئًا من هذه الروايات لم يدل عليه القرآن، ولم يثبت أيضًا في خبر صحيح وتفسير كتاب الله تعالى لا يتوقف على شيء من هذه الروايات، فالأليق بالعاقل أن يحترز من ذكرها.

المسألة الثانية: قوله: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ أي منزله ومقامه عندك من قولك: ثويت بالمكان إذا أقمت به، ومصدره الثواء، والمعنى: اجعلي منزله عندك كريمًا حسنًا مرضيًا بدليل قوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ وقال المحققون: أمر العزيز امرأته بإكرام مثواه دون إكرام نفسه، يدل على أنه كان ينظر إليه على سبيل الإجلال والتعظيم، وهو كما يقال: سلام الله على المجلس العالي، ولما أمرها بإكرام مثواه علل ذلك بأن قال: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ﴾ أي يقوم بإصلاح مهماتنا، أو نتخذه ولدًا، لأنه كان لا يولد له ولد، وكان حصورًا.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي كما أنعمنا عليه بالسلامة من الجب مكناه بأن عطفنا عليه قلب العزيز، حتى توصل بذلك إلى أن صار متمكنًا من الأمر والنهي في أرض مصر.

واعلم أن الكمالات الحقيقية ليست إلا القدرة والعلم وأنه سبحانه لما حاول إعلاء شأن يوسف ذكره بهذين الوصفين، أما تكميله في صفة القدرة والمكنة فإليه الإشارة بقوله: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وأما تكميله في صفة العلم، فإليه الإشارة بقوله: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ وقد تقدم تفسير هذه الكلمة.

واعلم أنا ذكرنا أنه عليه السلام لما ألقى في الجب قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ [يوسف: ١٥] وذلك يدل ظاهرًا على أنه تعالى أوحى إليه في ذلك الوقت. وعندنا الإرهاص جائز، فلا يبعد أن يقال: إن ذلك الوحي إليه في ذلك الوقت ما كان لأجل بعثته إلى الخلق، بل لأجل تقوية قلبه وإزالة الحزن عن صدره ولأجل أن يستأنس بحضور جبريل عليه السلام، ثم إنه تعالى قال هاهنا ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ والمراد منه إرساله إلى الخلق بتبليغ التكاليف، ودعوة الخلق إلى الدين الحق، ويحتمل أيضًا أن يقال: إن ذلك الوحي الأول كان لأجل الرسالة والنبوة، ويحمل قوله: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ على أنه تعالى أوحى إليه بزيادات ودرجات يصير بها كل يوم أعلى حالاً مما كان قبله، وقال ابن مسعود: أشد الناس فراسة ثلاثة: العزيز حين تفرس في يوسف فقال لامرأته: أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا، والمرأة لما رأت موسى، فقالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ [القصص: ٢٦] وأبو بكر حين استخلف عمر.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾.

وفيه وجهان:

الأول: غالب على أمر نفسه؛ لأنه فعال لما يريد لا دافع لقضائه ولا مانع عن حكمه في أرضه وسمائه.

والثاني: والله غالب على أمر يوسف، يعني أن انتظام أموره كان إلهيًا، وما كان بسعيه وإخوته أرادوا به كل سوء ومكروه والله أراد به الخير، فكان كما أراد الله تعالى ودبر، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن الأمر كله بيد الله. واعلم أن من تأمل في أحوال الدنيا وعجائب أحوالها عرف وتيقن أن الأمر كله لله، وأن قضاء الله غالب.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: وجه النظم أن يقال: بيَّن تعالى أن إخوته لما أساءوا إليه، ثم إنه صبر على تلك الشدائد والمحن مكنه الله تعالى في الأرض، ثم لما بلغ أشده آتاه الله الحكم والعلم، والمقصود بيان أن جميع ما فاز به من النعم كان كالجزاء على صبره على تلك المحن، ومن الناس من قال: إن النبوة جزاء على الأعمال الحسنة، ومنهم من قال: إن من اجتهد وصبر على بلاء الله تعالى وشكر نعماء الله تعالى وجد منصب الرسالة. واحتجوا على صحة قولهم: بأنه

تعالى لما ذكر صبر يوسف على تلك المحن ذكر أنه أعطاه النبوة والرسالة.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وهذا يدل على أن كل من أتى بالطاعات الحسنة التي أتى بها يوسف، فإن الله يعطيه تلك المناصب، وهذا بعيد لاتفاق العلماء على أن النبوة غير مكتسبة.

واعلم أن من قال: إن يوسف ما كان رسولاً ولا نبيًّا ألبتة، وإنما كان عبدًا أطاع الله تعالى فأحسن الله إليه، وهذا القول باطل بالإجماع. وقال الحسن: إنه كان نبيًّا من الوقت الذي قال الله تعالى في حقه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ [يوسف: ١٥] وما كان رسولاً، ثم إنه صار رسولاً من هذا الوقت أعني قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف: ٢٢] ومنهم من قال: إنه كان رسولاً من الوقت الذي ألقى في غيابة الجب.

المسألة الثانية: قال أبو عبيدة: تقول العرب: بلغ فلان أَشُدَّه إذا انتهى منتهاه في شبابه وقوته قبل أن يأخذ في النقصان، وهذا اللفظ يستعمل في الواحد والجمع يقال: بلغ أشده وبلغوا أشدهم، وقد ذكرنا تفسير الأشد في سورة الأنعام عند قوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام: ١٥٢] وأما التفسير فروى ابن جرير عن مجاهد عن ابن عباس، ولما بلغ أشده قال: ثلاثًا وثلاثين سنة، وأقول هذه الرواية شديدة الانطباق على القوانين الطبية وذلك لأن الأطباء قالوا: إن الإنسان يحدث في أول الأمر ويتزايد كل يوم شيئًا فشيئًا إلى أن ينتهي إلى غاية الكمال، ثم يأخذ في التراجع والانتقاص إلى أن لا يبقى منه شيء، فكانت حالته شبيهة بحال القمر، فإنه يظهر هلالاً ضعيفًا ثم لا يزال يزداد إلى أن يصير بدرًا تامًّا، ثم يتراجع إلى أن ينتهي إلى العدم والمحاق.

إذا عرفت هذا فنقول: مدة دور القمر ثمانية وعشرون يومًا وكسر فإذا جعلت هذه الدورة أربعة أقسام، كان كل قسم منها سبعة أيام، فلا جرم رتبوا أحوال الأبدان على الأسابيع فالإنسان إذا ولد كان ضعيف الخلقة نحيف التركيب إلى أن يتم له سبع سنين، ثم إذا دخل في السبعة الثانية حصل فيه آثار الفهم والذكاء والقوة ثم لا يزال في الترقي إلى أن يتم له أربع عشرة سنة. فإذا دخل في السنة الخامسة عشرة دخل في الأسبوع الثالث. وهناك يكمل العقل ويبلغ إلى حد التكليف وتتحرك فيه الشهوة، ثم لا يزال يرتقي على هذه الحالة إلى أن يتم السنة الحادية والعشرين، وهناك يتم الأسبوع الثالث ويدخل في السنة الثانية والعشرين، وهذا الأسبوع آخر أسابيع النشوء والنماء، فإذا تمت السنة الثامنة والعشرون فقد تمت مدة النشوء والنماء، وينتقل الإنسان منه إلى زمان الوقوف وهو الزمان الذي يبلغ الإنسان فيه أشده، وبتمام هذا الأسبوع الخامس يحصل للإنسان خمسة وثلاثون سنة، ثم إن هذه المراتب مختلفة في الزيادة والنقصان؛ فهذا الأسبوع الخامس الذي هو أسبوع الشدة والكمال يبتدأ من السنة التاسعة والعشرين إلى الثالثة والثلاثين، وقد يمتد إلى الخامسة والثلاثين، فهذا هو الطريق المعقول في هذا الباب، والله أعلم بحقائق الأشياء.

المسألة الثالثة: في تفسير الحكم والعلم، وفيه أقوال:

القول الأول: أن الحُكْم والحِكْمة أصلهما حبس النفس عن هواها، ومنعها مما يشينها، فالمراد من الحكم الحكمة العملية، والمراد من العلم الحكمة النظرية. وإنما قدم الحكمة العملية هنا على النظرية، لأن أصحاب الرياضات يشتغلون بالحكمة العملية ثم يترقون منها إلى الحكمة النظرية. وأما أصحاب الأفكار العقلية والأنظار الروحانية فإنهم يصلون إلى الحكمة النظرية أولاً، ثم ينزلون منها إلى الحكمة العملية، وطريقة يوسف عليه السلام هو الأول، لأنه صبر على البلاء والمحنة ففتح الله عليه أبواب المكاشفات، فلهذا السبب قال: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾.

القول الثاني: الحكم هو النبوة، لأن النبي يكون حاكمًا على الخلق، والعلم: علم الدين.

والقول الثالث: يحتمل أن يكون المراد من الحكم صيرورة نفسه المطمئنة حاكمة على نفسه الأمارة بالسوء مستعلية عليها قاهرة لها ومتى صارت القوة الشهوانية والغضبية مقهورة ضعيفة فاضت الأنوار القدسية والأضواء الإلهية من عالم القدس على جوهر النفس وتحقيق القول في هذا الباب أن جوهر النفس الناطقة خلقت قابلة للمعارف الكلية والأنوار العقلية، إلا أنه قد ثبت عندنا بحسب البراهين العقلية وبحسب المكاشفات العلوية أن جواهر الأرواح البشرية مختلفة بالماهيات فمنها ذكية وبليدة ومنها حرة ونذلة ومنها شريفة وخسيسة، ومنها عظيمة الميل إلى عالم الروحانيات وعظيمة الرغبة في الجسمانيات فهذه الأقسام كثيرة وكل واحد من هذه المقامات قابل للأشد والأضعف والأكمل والأنقص فإذا اتفق أن كان جوهر النفس الناطقة جوهرًا مشرقًا شريفًا شديد الاستعداد لقبول الأضواء العقلية واللوائح الإلهية، فهذه النفس في حال الصغر لا يظهر منها هذه الأحوال، لأن النفس الناطقة إنما تقوى على أفعالها بواسطة استعمال الآلات الجسدانية وهذه الآلات في حال الصغر تكون الرطوبات مستولية عليها، فإذا كبر الإنسان واستولت الحرارة الغريزية على البدن نضجت تلك الرطوبات وقلت واعتدلت، فصارت تلك الآلات البدنية صالحة لأن تستعملها النفس الإنسانية وإذا كانت النفس في أصل جوهرها شريفة فعند كمال الآلات البدنية تكمل معارفها وتقوى أنوارها ويعظم لمعان الأضواء فيها، فقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ إشارة إلى اعتدال الآلات البدنية، وقوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾ إشارة إلى استكمال النفس في قوتها العملية والنظرية، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

اعلم أن يوسف عليه السلام كان في غاية الجمال والحسن، فلما رأته المرأة طمعت فيه ويقال أيضًا إن زوجها كان عاجزًا يقال: راود فلان جاريته عن نفسها وراودته هي عن نفسه إذا حاول

كل واحد منهما الوطء والجماع ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ والسبب أن ذلك العمل لا يؤتى به إلا في المواضع المستورة لا سيما إذا كان حرامًا، ومع قيام الخوف الشديد، وقوله: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ أي أغلقتها، قال الواحدي: وأصل هذا من قولهم في كل شيء تشبث في شيء فلزمه: قد غَلِقَ يقال: غَلِقَ في الباطل وغَلِقَ في غضبه، ومنه غلق الرهن، ثم يعدى بالألف فيقال: أغلق الباب إذا جعله بحيث يعسر فتحه. قال المفسرون: وإنما جاء غلقت على التكثير؛ لأنها غلقت سبعة أبواب، ثم دعته إلى نفسها. ثم قال تعالى: ﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الواحدي: هيت لك اسم للفعل نحو: رويدًا، وصه، ومه. ومعناه هلم في قول جميع أهل اللغة، وقال الأخفش: ﴿هَيۡتَ لَكَۚ﴾ مفتوحة الهاء والتاء، ويجوز أيضًا كسر التاء ورفعها. قال الواحدي: قال أبو الفضل المنذري: أفادني ابن التبريزي عن أبي زيد قال: هيت لك بالعبرانية هيا لح، أي تعال عربه القرآن، وقال الفراء: إنها لغة لأهل حوران سقطت إلى بكة فتكلموا بها. قال ابن الأنباري: وهذا وفاق بين لغة قريش وأهل حوران كما اتفقت لغة العرب والروم في (القسطاس) ولغة العرب والفرس في (السجيل) ولغة العرب والترك في (الغساق) ولغة العرب والحبشة في (ناشئة الليل).

المسألة الثانية: قرأ نافع وابن عامر في رواية ابن ذكوان (هِيتَ) بكسر الهاء وفتح التاء، وقرأ ابن كثير (هَيْتُ لك) مثل حَيثُ، وقرأ هشام بن عمار عن أبي عامر (هِئتُ لك) بكسر الهاء وهمز الياء وضم التاء مثل جئت من تهيأت لك، والباقون بفتح الهاء وإسكان الياء وفتح التاء، ثم إنه تعالى قال: إن المرأة لما ذكرت هذا الكلام قال يوسف عليه السلام: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ فقوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾ أي أعوذ بالله معاذًا، والضمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ للشأن والحديث ﴿رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ أي ربي وسيدي ومالكي أحسن مثواي حين قال لك: أكرمي مثواه، فلا يليق بالعقل أن أجازيه على ذلك الإحسان بهذه الخيانة القبيحة ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الذين يجازون الإحسان بالإساءة، وقيل: أراد الزناة لأنهم ظالمون أنفسهم أو لأن عملهم يقتضي وضع الشيء في غير موضعه

وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول: أن يوسف عليه السلام كان حرًا وما كان عبدًا لأحد فقوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾ يكون كذبًا وذلك ذنب وكبيرة.

والجواب: أنه عليه السلام أجرى هذا الكلام بحسب الظاهر وعلى وفق ما كانوا يعتقدون فيه من كونه عبدًا له وأيضًا أنه رباه وأنعم عليه بالوجوه الكثيرة فعنى بكونه ربًا له كونه مربيًا له، وهذا من باب المعاريض الحسنة، فإن أهل الظاهر يحملونه على كونه ربًا له وهو كان يعني به أنه كان مربيًا له ومنعمًا عليه.

السؤال الثاني : هل يدل قول يوسف عليه السلام: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ على صحة مذهبنا في القضاء والقدر.

والجواب : أنه يدل عليه دلالة ظاهرة لأن قوله عليه السلام أعوذ بالله معاذًا، طلب من الله أن يعيذه من ذلك العمل، وتلك الإعاذة ليست عبارة عن إعطاء القدرة والعقل والآلة، وإزاحة الأعذار، وإزالة الموانع وفعل الألطاف، لأن كل ما كان في مقدور الله تعالى من هذا الباب فقد فعله، فيكون ذلك إما طلبًا لتحصيل الحاصل، أو طلبًا لتحصيل الممتنع وأنه محال فعلمنا أن تلك الإعاذة التي طلبها يوسف من الله تعالى لا معنى لها، إلا أن يخلق فيه داعية جازمة في جانب الطاعة وأن يزيل عن قلبه داعية المعصية، وذلك هو المطلوب، والدليل على أن المراد ما ذكرناه ما نقل أن النبي ﷺ لما وقع بصره على زينب قال: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ» وكان المراد منه تقوية داعية الطاعة، وإزالة داعية المعصية فكذا هاهنا، وكذا قوله عليه السلام: «قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ» فالمراد من الأصبعين داعية الفعل، وداعية الترك وهاتان الداعيتان لا يحصلان إلا بخلق الله تعالى، وإلا لافتقرت إلى داعية أخرى ولزم التسلسل فثبت أن قول يوسف عليه السلام: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ من أدل الدلائل على قولنا، والله أعلم.

السؤال الثالث : ذكر يوسف عليه السلام في الجواب عن كلامها ثلاثة أشياء:

أحدها: قوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ .

والثاني: قوله تعالى عنه: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ .

والثالث: قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فما وجه تعلق بعض هذا الجواب ببعض؟

والجواب : هذا الترتيب في غاية الحسن، وذلك لأن الانقياد لأمر الله تعالى وتكليفه أهم الأشياء لكثرة إنعامه وألطافه في حق العبد فقوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى أن حق الله تعالى يمنع عن هذا العمل، وأيضًا حقوق الخلق واجبة الرعاية، فلما كان هذا الرجل قد أنعم في حقي يقبح مقابلة إنعامه وإحسانه بالإساءة، وأيضًا صون النفس عن الضرر واجب، وهذه اللذة لذة قليلة يتبعها خزي في الدنيا، وعذاب شديد في الآخرة، واللذة القليلة إذا لزمها ضرر شديد، فالعقل يقتضي تركها والاحتراز عنها فقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ إشارة إليه، فثبت أن هذه الجوابات الثلاثة مرتبة على أحسن وجوه الترتيب.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾

اعلم أن هذه الآية من المهمات التي يجب الاعتناء بالبحث عنها وفي هذه الآية مسائل:

المسألة الأولى: في أنه عليه السلام هل صدر عنه ذنب أم لا؟ وفي هذه المسألة قولان:

الأول: أن يوسف عليه السلام هم بالفاحشة. قال الواحدي في كتاب (البسيط) قال المفسرون:

الموثوق بعلمهم المرجوع إلى روايتهم همَّ يوسف أيضًا بهذه المرأة همًّا صحيحًا وجلس منها مجلس الرجل من المرأة، فلما رأى البرهان من ربه زالت كل شهوة عنه. قال جعفر الصادق رضي الله عنه بإسناده عن علي عليه السلام أنه قال: طَمِعَتْ فِيهِ وَطَمِعَ فِيهَا فَكَانَ طَمَعُهُ فِيهَا أَنَّهُ هَمَّ أَنْ يَحِلَّ التِّكَّةَ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حَلَّ الْهِمْيَانَ وَجَلَسَ مِنْهَا مَجْلِسَ الخَاتِنِ وعنه أيضًا أنها استلقت له وجلس بين رجليها ينزع ثيابه، ثم إن الواحدي طَوَّل في كلمات عديمة الفائدة في هذا الباب، وما ذكر آية يحتج بها ولا حديثًا صحيحًا يعول عليه في تصحيح هذه المقالة، وما أمعن النظر في تلك الكلمات العارية عن الفائدة روي أن يوسف عليه السلام لما قال: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢] قال له جبريل عليه السلام: ولا حين هممت يا يوسف فقال يوسف عند ذلك: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾ [يوسف: ٥٣]، ثم قال: والذين أثبتوا هذا العمل ليوسف كانوا أعرف بحقوق الأنبياء عليهم السلام وارتفاع منازلهم عند الله تعالى من الذين نفوا لهَمَّ عنه، فهذا خلاصة كلامه في هذا الباب.

والقول الثاني: أن يوسف عليه السلام كان بريئًا عن العمل الباطل، والهم المحرم، وهذا قول المحققين من المفسرين والمتكلمين، وبه نقول وعنه نذب.

واعلم أن الدلائل الدالة على وجوب عصمة الأنبياء عليهم السلام كثيرة، ولقد استقصيناها في سورة البقرة في قصة آدم عليه السلام فلا نعيدها إلا أنا نزيد هاهنا وجوهًا:

فالحجة الأولى: أن الزنا من منكرات الكبائر والخيانة في معرض الأمانة أيضًا من منكرات الذنوب، وأيضًا مقابلة الإحسان العظيم بالإساءة الموجبة للفضيحة التامة والعار الشديد أيضًا من منكرات الذنوب، وأيضًا الصبي إذا تربى في حجر إنسان وبقي مكفي المؤنة مصون العرض من أول صباه إلى زمان شبابه وكمال قوته فإقدام هذا الصبي على إيصال أقبح أنواع الإساءة إلى ذلك المنعم المعظم من منكرات الأعمال.

إذا ثبت هذا فنقول: إن هذه المعصية التي نسبوها إلى يوسف عليه السلام كانت موصوفة بجميع هذه الجهات الأربع ومثل هذه المعصية لو نسبت إلى أفسق خلق الله تعالى وأبعدهم عن كل خير لاستنكف منه، فكيف يجوز إسنادها إلى الرسول عليه الصلاة والسلام المؤيد بالمعجزات القاهرة الباهرة. ثم إنه تعالى قال في غير هذه الواقعة: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ [يوسف: ٢٤] وذلك يدل على أن ماهية السوء والفحشاء مصروفة عنه، ولا شك أن المعصية التي نسبوها إليه أعظم أنواع المعاصي وأفحش أقسام الفحشاء فكيف يليق برب العالمين أن يشهد في عين هذه الواقعة بكونه بريئًا من السوء مع أنه كان قد أتى بأعظم أنواع السوء والفحشاء. وأيضًا فالآية تدل على قولنا من وجه آخر، وذلك لأنا نقول: هب أن هذه الآية لا تدل على نفي هذه المعصية عنه، إلا أنه لا شك أنها تفيد المدح العظيم والثناء البالغ، فلا يليق بحكمة الله تعالى أن يحكى عن إنسان إقدامه على معصية عظيمة ثم إنه يمدحه ويثني عليه بأعظم المدائح والأثنية

عقيب أن حكى عنه ذلك الذنب العظيم، فإن مثاله ما إذا حكى السلطان عن بعض عبيده أقبح الذنوب وأفحش الأعمال ثم إنه يذكره بالمدح العظيم والثناء البالغ عقيبه، فإن ذلك يستنكر جدًّا فكذا هاهنا والله أعلم. الثالث: أن الأنبياء عليهم السلام متى صدرت منهم زلة، أو هفوة استعظموا ذلك وأتبعوها بإظهار الندامة والتوبة والتواضع، ولو كان يوسف عليه السلام أقدم هاهنا على هذه الكبيرة المنكرة لكان من المحال أن لا يتبعها بالتوبة والاستغفار ولو أتى بالتوبة لحكى الله تعالى عنه إتيانه بها كما في سائر المواضع وحيث لم يوجد شيء من ذلك علمنا أنه ما صدر عنه في هذه الواقعة ذنب ولا معصية. الرابع: أن كل من كان له تعلق بتلك الواقعة فقد شهد ببراءة يوسف عليه السلام من المعصية.

واعلم أن الذين لهم تعلق بهذه الواقعة: يوسف عليه السلام، وتلك المرأة وزوجها، والنسوة والشهود ورب العالمين شهد ببراءته عن الذنب، وإبليس أقر ببراءته أيضًا عن المعصية، وإذا كان الأمر كذلك، فحينئذ لم يبق للمسلم توقف في هذا الباب. أما بيان أن يوسف عليه السلام ادعى البراءة عن الذنب فهو قوله عليه السلام: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾ [يوسف: ٢٦] وقوله عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ [يوسف: ٣٣] وأما بيان أن المرأة اعترفت بذلك فلأنها قالت للنسوة: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ﴾ [يوسف: ٣٢] وأيضًا قالت: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١] وأما بيان أن زوج المرأة أقر بذلك، فهو قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ٢٨ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ﴾ [يوسف: ٢٨-٢٩] وأما الشهود فقوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [يوسف: ٢٦] وأما شهادة الله تعالى بذلك فقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] فقد شهد الله تعالى في هذه الآية على طهارته أربع مرات: أولها: قوله: ﴿لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ﴾ واللام للتأكيد والمبالغة.

والثاني: قوله: ﴿وَٱلۡفَحۡشَآءَ﴾ أي كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء.

والثالث: قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ مع أنه تعالى قال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان: ٦٣].

والرابع: قوله: ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ وفيه قراءتان: تارة باسم الفاعل وأخرى باسم المفعول فوروده باسم الفاعل يدل على كونه آتيًا بالطاعات والقربات مع صفة الإخلاص. ووروده باسم المفعول يدل على أن الله تعالى استخلصه لنفسه واصطفاه لحضرته، وعلى كلا الوجهين فإنه من أدل الألفاظ على كونه منزهًا عما أضافوه إليه، وأما بيان أن إبليس أقر بطهارته، فلأنه قال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٨٣﴾ [ص: ٨٢-٨٣] فأقر بأنه لا يمكنه إغواء المخلصين ويوسف من المخلصين لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ فكان هذا إقرارًا من إبليس بأنه ما أغواه وما أضله عن طريقة الهدى، وعند هذا نقول: هؤلاء الجهال الذين نسبوا إلى

يوسف عليه السلام هذه الفضيحة إن كانوا من أتباع دين الله تعالى فليقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته وإن كانوا من أتباع إبليس وجنوده فليقبلوا شهادة إبليس على طهارته ولعلهم يقولون كنا في أول الأمر تلامذة إبليس إلى أن تخرجنا عليه فزدنا عليه في السفاهة كما قال الخوارزمي:

وَكُنْتُ امْرَأً مِنْ جُنْدِ إِبْلِيسَ فَارْتَقَى ... بِيَ الدَّهْرُ حَتَّى صَارَ إِبْلِيسُ مِنْ جُنْدِي[1]

فَلَوْ مَاتَ قَبْلِي كُنْتُ أُحْسِنُ بَعْدَهُ ... طَرَائِقَ فِسْقٍ لَيْسَ يُحْسِنُهَا بَعْدِي

فثبت بهذه الدلائل أن يوسف عليه السلام بريء عما يقوله هؤلاء الجهال.

وإذا عرفت هذا فنقول: الكلام على ظاهر هذه الآية يقع في مقامين:

المقام الأول: أن نقول لا نسلم أن يوسف عليه السلام هم بها. والدليل عليه: أنه تعالى قال: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ وجواب (لولا) هاهنا مقدم، وهو كما يقال: قد كنت من الهالكين لولا أن فلانًا خلصك، وطعن الزجاج في هذا الجواب من وجهين: الأول: أن تقديم جواب (لولا) شاذ وغير موجود في الكلام الفصيح. الثاني: أن (لولا) يجاب جوابها باللام، فلو كان الأمر على ما ذكرتم لقال: ولقد همت ولهم بها لولا. وذكر غير الزجاج سؤالاً ثالثًا وهو أنه لو لم يوجد الهم لما كان لقوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ فائدة.

واعلم أن ما ذكره الزجاج بعيد، لأنا نسلم أن تأخير جواب (لولا) حسن جائز، إلا أن جوازه لا يمنع من جواز تقديم هذا الجواب، وكيف ونقل عن سيبويه أنه قال: إنهم يقدمون الأهم فالأهم، والذي هم بشأنه أعنى، فكان الأمر في جواز التقديم والتأخير مربوطًا بشدة الاهتمام. وأما تعيين بعض الألفاظ بالمنع فذلك مما لا يليق بالحكمة، وأيضًا ذكر جواب (لولا) باللام جائز. أما هذا لا يدل على أن ذكره بغير اللام لا يجوز، ثم إنا نذكر آية أخرى تدل على فساد قول الزجاج في هذين السؤالين، وهو قوله تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠].

وأما السؤال الثالث: وهو أنه لو لم يوجد الهم لم يبق لقوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ فائدة. فنقول: بل فيه أعظم الفوائد، وهو بيان أن ترك الهم بها ما كان لعدم رغبته في النساء، وعدم قدرته عليهن بل لأجل أن دلائل دين الله منعته عن ذلك العمل، ثم نقول: إن الذي يدل على أن جواب (لولا) ما ذكرناه أن (لولا) تستدعي جوابًا، وهذا المذكور يصلح جوابًا له، فوجب الحكم بكونه جوابًا له لا يقال إنا نضمر له جوابًا، وترك الجواب كثير في القرآن، لأنا نقول: لا نزاع أنه كثير في القرآن، إلا أن الأصل أن لا يكون محذوفًا. وأيضًا فالجواب إنما يحسن تركه

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الطويل للشاعر مُتَمم بن نُوَيرَة بن حمزة بن شداد اليربوعي التميمي أبو نهشل؟- ٣٠ هـ/ ؟- ٦٥٠ م، شاعر فحل، صحابي، من أشراف قومه، اشتهر في الجاهلية والإسلام، وكان قصيراً أعور، أشهر شعره رثاؤه لأخيه مالك ومنه قوله:

وكنا كندماني جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

وحذفه إذا حصل في اللفظ ما يدل على تعينه، وهاهنا بتقدير أن يكون الجواب محذوفًا فليس في اللفظ ما يدل على تعين ذلك الجواب، فإن هاهنا أنواعًا من الإضمارات يحسن إضمار كل واحد منها، وليس إضمار بعضها أولى من إضمار الباقي فظهر الفرق. والله أعلم.

المقام الثاني: في الكلام على هذه الآية أن نقول: سلمنا أن الهم قد حصل إلا أنا نقول: إن قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ لا يمكن حمله على ظاهره لأن تعليق الهم بذات المرأة محال لأن الهم من جنس القصد والقصد لا يتعلق بالذوات الباقية، فثبت أنه لا بد من إضمار فعل مخصوص يجعل متعلق ذلك الهم وذلك الفعل غير مذكور فهم زعموا أن ذلك المضمر هو إيقاع الفاحشة بها ونحن نضمر شيئًا آخر يغاير ما ذكروه وبيانه من وجوه:

الأول: المراد أنه عليه السلام هم بدفعها عن نفسه ومنعها عن ذلك القبيح لأن الهم هو القصد، فوجب أن يحمل في حق كل أحد على القصد الذي يليق به، فاللائق بالمرأة القصد إلى تحصيل اللذة والتنعيم والتمتع واللائق بالرسول المبعوث إلى الخلق القصد إلى زجر العاصي عن معصيته وإلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقال: هممت بفلان أي بضربه ودفعه.

فإن قالوا: فعلى هذا التقدير لا يبقى لقوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ فائدة.

قلنا: بل فيه أعظم الفوائد وبيانه من وجهين: الأول: أنه تعالى أعلم يوسف عليه السلام أنه لو هم بدفعها لقتلته أو لكانت تأمر الحاضرين بقتله، فأعلمه الله تعالى أن الامتناع من ضربها أولى صونًا للنفس عن الهلاك.

والثاني: أنه عليه السلام لو اشتغل بدفعها عن نفسه فربما تعلقت به، فكان يتمزق ثوبه من قدام، وكان في علم الله تعالى أن الشاهد يشهد بأن ثوبه لو تمزق من قدام لكان يوسف هو الخائن، ولو كان ثوبه ممزقًا من خلف لكانت المرأة هي الخائنة، فالله تعالى أعلمه بهذا المعنى، فلا جرم لم يشتغل بدفعها عن نفسه بل ولى هاربًا عنها، حتى صارت شهادة الشاهد حجة له على براءته عن المعصية.

الوجه الثاني: في الجواب أن يفسر الهم بالشهوة، وهذا مستعمل في اللغة الشائعة. يقول القائل فيما لا يشتهيه: مايهمني هذا، وفيما يشتهيه هذا أهم الأشياء إلي، فسمى الله تعالى شهوة يوسف عليه السلام همًّا، فمعنى الآية: ولقد اشتهته واشتهاها لو لا أن رأى برهان ربه لدخل ذلك العمل في الوجود. الثالث: أن يفسر الهم بحديث النفس، وذلك لأن المرأة الفائقة في الحسن والجمال إذا تزينت وتهيأت للرجل الشاب القوي فلا بد وأن يقع هناك بين الحكمة والشهوة الطبيعية وبين النفس والعقل مجاذبات ومنازعات، فتارة تقوى داعية الطبيعة والشهوة وتارة تقوى داعية العقل والحكمة. فالهم عبارة عن جواذب الطبيعة، ورؤية البرهان عبارة عن جواذب العبودية، ومثال ذلك أن الرجل الصالح الصائم في الصيف الصائف، إذا رأى الجلاب المبرد بالمثلج فإن طبيعته تحمله على شربه، إلا أن دينه وهداه يمنعه منه، فهذا لا يدل على حصول

الذنب، بل كلما كانت هذه الحالة أشد كانت القوة في القيام بلوازم العبودية أكمل، فقد ظهر بحمد الله تعالى صحة هذا القول الذي ذهبنا إليه ولم يبق في يد الواحدي إلا مجرد التصلف وتعديد أسماء المفسرين، ولو كان قد ذكر في تقرير ذلك القول شبهة لأجبنا عنها إلا أنه ما زاد على الرواية عن بعض المفسرين.

واعلم أن بعض الحشوية روى عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا كَذَبَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلاَّ ثَلَاثَ كِذْبَاتٍ»(١) فقلت: الأولى أن لا نقبل مثل هذه الأخبار، فقال على طريق الاستنكار فإن لم نقبله لزمنا تكذيب الرواة فقلت له: يا مسكين إن قبلناه لزمنا الحكم بتكذيب إبراهيم عليه السلام وإن رددناه لزمنا الحكم بتكذيب الرواة ولا شك أن صون إبراهيم عليه السلام عن الكذب أولى من صون طائفة من المجاهيل عن الكذب.

إذا عرفت هذا الأصل فنقول للواحدي: ومن الذي يضمن لنا أن الذين نقلوا هذا القول عن هؤلاء المفسرين كانوا صادقين أم كاذبين، والله أعلم.

المسألة الثانية: في أن المراد بذلك البرهان ما هو؟ أما المحققون المثبتون للعصمة فقد فسروا رؤية البرهان بوجوه: الأول: أنه حجة الله تعالى في تحريم الزنا والعلم بما على الزاني من العقاب، والثاني: أن الله تعالى طهر نفوس الأنبياء عليهم السلام عن الأخلاق الذميمة. بل نقول: إنه تعالى طهر نفوس المتصلين به عنها كما قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] فالمراد برؤية البرهان هو حصول تلك الأخلاق وتذكير الأحوال الرادعة لهم عن الإقدام على المنكرات. والثالث: أنه رأى مكتوبًا في سقف البيت ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، والرابع: أنه النبوة المانعة من ارتكاب الفواحش، والدليل عليه أن الأنبياء عليهم السلام بعثوا لمنع الخلق عن القبائح والفضائح فلو أنهم منعوا الناس عنها، ثم أقدموا على أقبح أنواعها وأفحش أقسامها لدخلوا تحت قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣] وأيضًا أن الله تعالى عيَّر اليهود بقوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤] وما يكون عيبًا في حق اليهود كيف ينسب إلى الرسول المؤيد بالمعجزات.

وأما الذين نسبوا المعصية إلى يوسف عليه السلام فقد ذكروا في تفسير ذلك البرهان أمورًا:

الأول: قالوا: إن المرأة قامت إلى صنم مكلل بالدر والياقوت في زاوية البيت فسترته بثوب فقال يوسف: لم فعلت ذلك؟ قالت: أستحي من إلهي هذا أن يراني على معصية، فقال يوسف: أتستحين من صنم لا يعقل ولا يسمع، ولا أستحي من إلهي القائم على كل نفس بما كسبت

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الأنبياء) باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] (٣/ ١٢٢٥) حديث رقم/ ٣١٧٩، ومسلم في (صحيحه) (٤/ ١٨٤٠/ ٢٣٧١)، من طريق أيوب السختياني عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة... به.

فوالله لا أفعل ذلك أبدًا قالوا: فهذا هو البرهان.

الثاني: نقلوا عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه تمثل له يعقوب فرآه عاضًا على أصابعه ويقول له: أتعمل عمل الفجار وأنت مكتوب في زمرة الأنبياء فاستحى منه. قال وهو قول عكرمة ومجاهد والحسن وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك ومقاتل وابن سيرين قال سعيد بن جبير: تمثل له يعقوب فضرب في صدره فخرجت شهوته من أنامله.

والثالث: قالوا: إنه سمع في الهواء قائلاً يقول: يا ابن يعقوب لا تكن كالطير يكون له ريش فإذا زنا ذهب ريشه.

والرابع: نقلوا عن ابن عباس رضي الله عنهما أن يوسف عليه السلام لم ينزجر برؤية صورة يعقوب حتى ركضه جبريل عليه السلام فلم يبق فيه شيء من الشهوة إلا خرج، ولما نقل الواحدي هذه الروايات تصلف وقال: هذا الذي ذكرناه قول أئمة التفسير الذين أخذوا التأويل عمن شاهد التنزيل فيقال له: إنك لا تأتينا ألبتة إلا بهذه التصلفات التي لا فائدة فيها فأين هذا من الحجة والدليل، وأيضًا فإن ترادف الدلائل على الشيء الواحد جائز، وأنه عليه الصلاة والسلام كان ممتنعًا عن الزنا بحسب الدلائل الأصلية، فلما انضاف إليها هذه الزواجر قوي الانزجار وكمل الاحتراز والعجب أنهم نقلوا أن جروًا دخل حجرة النبي ﷺ وبقي هناك بغير علمه قالوا: فامتنع جبريل عليه السلام من الدخول عليه أربعين يومًا، وهاهنا زعموا أن يوسف عليه السلام حال اشتغاله بالفاحشة ذهب إليه جبريل عليه السلام، والعجب أنهم زعموا أنه لم يمتنع عن ذلك العمل بسبب حضور جبريل عليه السلام، ولو أن أفسق الخلق وأكفرهم كان مشتغلاً بفاحشة فإذا دخل عليه رجل على زي الصالحين استحيا منه وفر وترك ذلك العمل، وهاهنا أنه رأى يعقوب عليه السلام عض على أنامله فلم يلتفت إليه، ثم إن جبريل عليه السلام على جلالة قدره دخل عليه فلم يمتنع أيضًا عن ذلك القبيح بسبب حضوره حتى احتاج جبريل عليه السلام إلى أن يركضه على ظهره فنسأل الله أن يصوننا عن الغي في الدين، والخذلان في طلب اليقين فهذا هو الكلام المخلص في هذه المسألة، والله أعلم.

المسألة الثالثة: في الفرق بين السوء والفحشاء وفيه وجوه: الأول: أن السوء جناية اليد والفحشاء هو الزنا. الثاني: السوء مقدمات الفاحشة من القبلة والنظر بالشهوة، والفحشاء: هو الزنا. أما قوله: (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِين) أي الذين أخلصوا دينهم لله تعالى ومن فتح اللام أراد الذين خلصهم الله من الأسواء، ويحتمل أن يكون المراد أنه من ذرية إبراهيم عليه السلام الذي قال الله فيهم: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ﴾ [ص: ٤٦].

المسألة الرابعة: قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو (الْمُخْلِصِين) بكسر اللام في جميع القرآن والباقون بفتح اللام.

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عنها أنها (همت) أتبعه بكيفية طلبها وهربه فقال: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ والمراد أنه هرب منها وحاول الخروج من الباب وعدت المرأة خلفه لتجذبه إلى نفسها، والاستباق طلب السبق إلى الشيء، ومعناه تبادرا إلى الباب يجتهد كل واحد منهما أن يسبق صاحبه فإن سبق يوسف فتح الباب وخرج، وإن سبقت المرأة أمسكت الباب لئلا يخرج، وقوله: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ أي استبقا إلى الباب كقوله: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي من قومه.

واعلم أن يوسف عليه السلام سبقها إلى الباب وأراد الخروج والمرأة تعدو خلفه فلم تصل إلا إلى دبر القميص فقدته، أي قطعته طولاً، وفي ذلك الوقت حضر زوجها وهو المراد من قوله ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ أي صادفا بعلها تقول المرأة لبعلها سيدي، وإنما لم يقل سيدهما لأن يوسف عليه السلام ما كان مملوكًا لذلك الرجل في الحقيقة، فعند ذلك خافت المرأة من التهمة فبادرت إلى أن رمت يوسف بالفعل القبيح، وقالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ والمعنى ظاهر. وفي الآية لطائف: إحداها: أن (ما) يحتمل أن تكون نافية، أي ليس جزاؤه إلا السجن، ويجوز أيضًا أن تكون استفهامية يعني أي شيء جزاؤه إلا أن يسجن كما تقول: من في الدار إلا زيد. وثانيها: أن حبها الشديد ليوسف حملها على رعاية دقيقتين في هذا الموضع وذلك لأنها بدأت بذكر السجن، وأخرت ذكر العذاب، لأن المحب لا يسعى في إيلام المحبوب، وأيضًا أنها لم تذكر أن يوسف يجب أن يعامل بأحد هذين الأمرين، بل ذكرت ذلك ذكرًا كليًا صونًا للمحبوب عن الذكر بالسوء والألم، وأيضًا قالت: ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ﴾ والمراد أن يسجن يومًا أو أقل على سبيل التخفيف. فأما الحبس الدائم فإنه لا يعبر عنه بهذه العبارة، بل يقال: يجب أن يجعل من المسجونين ألا ترى أن فرعون هكذا قال حين تهدد موسى عليه السلام في قوله: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩] وثالثها: أنها لما شاهدت

من يوسف عليه السلام أنه استعصم منها مع أنه كان في عنفوان العمر وكمال القوة ونهاية الشهوة، عظم اعتقادها في طهارته ونزاهته فاستحيت أن تقول: إن يوسف عليه السلام قصدني بالسوء، وما وجدت من نفسها أن ترميه بهذا الكذب على سبيل التصريح بل اكتفت بهذا التعريض، فانظر إلى تلك المرأة ما وجدت من نفسها أن ترميه بهذا الكذب وأن هؤلاء الحشوية يرمونه بعد قريب من أربعة آلاف سنة بهذا الذنب القبيح. ورابعها: أن يوسف عليه السلام أراد أن يضربها ويدفعها عن نفسه، وكان ذلك بالنسبة إليها جاريًا مجرى السوء فقولها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ﴾ جاريًا مجرى التعريض فلعلها بقلبها كانت تريد إقدامه على دفعها ومنعها وفي ظاهر الأمر كانت توهم أنه قصدني بما لا ينبغي.

واعلم أن المرأة لما ذكرت هذا الكلام ولطخت عرض يوسف عليه السلام احتاج يوسف إلى إزالة هذه التهمة فقال: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾، وأن يوسف عليه السلام ما هتك سترها في أول الأمر إلا أنه لما خاف على النفس وعلى العرض أظهر الأمر.

واعلم أن العلامات الكثيرة كانت دالة على أن يوسف عليه السلام هو الصادق:

فالأول: أن يوسف عليه السلام في ظاهر الأمر كان عبدًا لهم والعبد لا يمكنه أن يتسلط على مولاه إلى هذا الحد.

والثاني: أنهم شاهدوا أن يوسف عليه السلام كان يعدو عدوًا شديدًا ليخرج والرجل الطالب للمرأة لا يخرج من الدار على هذا الوجه.

والثالث: أنهم رأوا أن المرأة زينت نفسها على أكمل الوجوه، وأما يوسف عليه السلام فما كان عليه أثر من آثار تزيين النفس فكان إلحاق هذه الفتنة بالمرأة أولى.

الرابع: أنهم كانوا قد شاهدوا أحوال يوسف عليه السلام في المدة الطويلة فما رأوا عليه حالة تناسب إقدامه على مثل هذا الفعل المنكر، وذلك أيضًا مما يقوي الظن.

الخامس: أن المرأة ما نسبته إلى طلب الفاحشة على سبيل التصريح بل ذكرت كلامًا مجملاً مبهمًا، وأما يوسف عليه السلام فإنه صرح بالأمر ولو أنه كان متهمًا لما قدر على التصريح باللفظ الصريح فإن الخائن خائف.

السادس: قيل: إن زوج المرأة كان عاجزًا وآثار طلب الشهوة في حق المرأة كانت متكاملة فإلحاق هذه الفتنة بها أولى، فلما حصلت هذه الأمارات الكثيرة الدالة على أن مبدأ هذه الفتنة كان من المرأة استحيا الزوج وتوقف وسكت لعلمه بأن يوسف صادق والمرأة كاذبة، ثم إنه تعالى أظهر ليوسف عليه السلام دليلاً آخر يقوي تلك الدلائل المذكورة ويدل على أنه بريء عن الذنب وأن المرأة هي المذنبة، وهو قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ وفي هذا الشاهد ثلاثة أقوال:

الأول: أنه كان لها ابن عم وكان رجلاً حكيمًا، واتفق في ذلك الوقت أنه كان مع الملك يريد أن

يدخل عليها فقال قد سمعنا الجلبة من وراء الباب وشق القميص إلا أنا لا ندري أيكما قدام صاحبه، فإن كان شق القميص من قدامه فأنت صادقة والرجل كاذب وإن كان من خلفه فالرجل صادق وأنت كاذبة فلما نظروا إلى القميص ورأوا الشق من خلفه، قال ابن عمها: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾ أي من عملكن. ثم قال ليوسف أعرض عن هذا واكتمه، وقال لها استغفري لذنبك، وهذا قول طائفة عظيمة من المفسرين.

والثاني: وهو أيضًا منقول عن ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير والضحاك: إن ذلك الشاهد كان صبيًا أنطقه الله تعالى في المهد، فقال ابن عباس: تكلم في المهد أربعة صغار: شاهد يوسف، وابن ماشطة بنت فرعون، وعيسى بن مريم، وصاحب جريج الراهب، قال الجبائي: والقول الأول أولى لوجوه: **الأول:** أنه تعالى لو أنطق الطفل بهذا الكلام لكان مجرد قوله: إنها كاذبة كافيًا وبرهانًا قاطعًا، لأنه من البراهين القاطعة القاهرة، والاستدلال بتمزيق القميص من قبل ومن دبر دليل ظني ضعيف والعدول عن الحجة القاطعة حال حضورها وحصولها إلى الدلالة الظنية لا يجوز. **الثاني:** أنه تعالى قال: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ وإنما قال: ﴿مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ ليكون أولى بالقبول في حق المرأة لأن الظاهر من حال من يكون من أقرباء المرأة ومن أهلها أن لا يقصدها بالسوء والإضرار، فالمقصود بذكر كون ذلك الرجل من أهلها تقوية قول ذلك الرجل وهذه الترجيحات إنما يصار إليها عند كون الدلالة ظنية، ولو كان هذا القول صادرًا عن الصبي الذي في المهد لكان قوله حجة قاطعة ولا يتفاوت الحال بين أن يكون من أهلها، وبين أن لا يكون من أهلها وحينئذ لا يبقى لهذا القيد أثر. **والثالث:** أن لفظ الشاهد لا يقع في العرف إلا على من تقدمت له معرفة بالواقعة وإحاطة بها.

والقول الثالث: أن ذلك الشاهد هو القميص، قال مجاهد: الشاهد كون قميصه مشقوقًا من دبر، وهذا في غاية الضعف لأن القميص لا يوصف بهذا ولا ينسب إلى الأهل. واعلم أن القول الأول عليه أيضًا إشكال وذلك لأن العلامة المذكورة لا تدل قطعًا على براءة يوسف عليه السلام عن المعصية لأن من المحتمل أن الرجل قصد المرأة لطلب الزنا فالمرأة غضبت عليه فهرب الرجل فعدت المرأة خلف الرجل وجذبته لقصد أن تضربه ضربًا وجيعًا فعلى هذا الوجه يكون القميص متخرقًا من دبر مع أن المرأة تكون برية عن الذنب والرجل يكون مذنبًا.

وجوابه: أنا بينا أن علامات كذب المرأة كانت كثيرة بالغة مبلغ اليقين فضموا إليها هذه العلامة الأخرى لا لأجل أن يعولوا في الحكم عليها، بل لأجل أن يكون ذلك جاريًا مجرى المقويات والمرجحات.

ثم إنه تعالى أخبر وقال: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ﴾ وذلك يحتمل السيد الذي هو زوجها ويحتمل الشاهد فلذلك اختلفوا فيه، قال: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ﴾ أي أن قولك: ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا من كيدكن إن كيدكن عظيم.

فإن قيل: إنه تعالى لما خلق الإنسان ضعيفًا فكيف وصف كيد المرأة بالعظم، وأيضًا فكيد الرجال قد يزيد على كيد النساء.

والجواب عن الأول: أن خلقة الإنسان بالنسبة إلى خلقة الملائكة والسموات والكواكب خلقة ضعيفة وكيد النسوان بالنسبة إلى كيد البشر عظيم ولا منافاة بين القولين وأيضًا فالنساء لهن في هذا الباب من المكر والحيل ما لا يكون للرجال ولأن كيدهن في هذا الباب يورث من العار ما لا يورثه كيد الرجال.

واعلم أنه لما ظهر للقوم براءة يوسف عليه السلام عن ذلك الفعل المنكر حكى تعالى عنه أنه قال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ فقيل: إن هذا من قول العزيز، وقيل: إنه من قول الشاهد، ومعناه: أعرض عن ذكر هذه الواقعة حتى لا ينتشر خبرها ولا يحصل العار العظيم بسببها، وكما أمر يوسف بكتمان هذه الواقعة أمر المرأة بالاستغفار فقال: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ وظاهر ذلك طلب المغفرة، ويحتمل أن يكون المراد من الزوج ويكون معنى المغفرة العفو والصفح، وعلى هذا التقدير فالأقرب أن قائل هذا القول هو الشاهد، ويحتمل أن يكون المراد بالاستغفار من الله، لأن أولئك الأقوام كانوا يثبتون الصانع، إلا أنهم مع ذلك كانوا يعبدون الأوثان بدليل أن يوسف عليه السلام قال: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] وعلى هذا التقدير: فيجوز أن يكون القائل هو الزوج. وقوله: ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ نسبة لها إلى أنها كانت كثيرة الخطأ فيما تقدم، وهذا أحد ما يدل على أن الزوج عرف في أول الأمر أن الذنب للمرأة لا ليوسف، لأنه كان يعرف عنها إقدامها على ما لا ينبغي. وقال أبو بكر الأصم: إن ذلك لزوج كان قليل الغيرة فاكتفى منها بالاستغفار. قال صاحب (الكشاف): وإنما قال: ﴿مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ بلفظ التذكير، تغليبًا للذكور على الإناث، ويحتمل أن يقال: المراد إنك من نسل الخاطئين، فمن ذلك النسل سرى هذا العرق الخبيث فيك. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: لم لم يقل: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾

قلنا لوجهين:

الأول: أن النسوة اسم مفرد لجمع المرأة، وتأنيثه غير حقيقي فلذلك لم يلحق فعله تاء التأنيث.

الثاني: قال الواحدي: تقديم الفعل يدعو إلى إسقاط علامة التأنيث على قياس إسقاط علامة التثنية والجمع.

المسألة الثانية: قال الكلبي: هن أربع: امرأة ساقي العزيز. وامرأة خبازه وامرأة صاحب سجنه. وامرأة صاحب دوابه، وزاد مقاتل: وامرأة الحاجب. والأشبه أن تلك الواقعة شاعت في البلد واشتهرت وتحدث بها النساء. وامرأة العزيز هي هذه المرأة المعلومة ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ الفتى الحدث الشاب والفتاة الجارية الشابة ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: أن الشغاف فيه وجوه: **الأول:** أن الشغاف جلدة محيطة بالقلب يقال لها غلاف القلب يقال: شغفت فلانًا إذا أصبت شغافه كما تقول: كبدته أي أصبت كبده فقوله: ﴿شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي دخل الحب الجلد حتى أصاب القلب. **والثاني:** أن حبه أحاط بقلبها مثل إحاطة الشغاف بالقلب، ومعنى إحاطة ذلك الحب بقلبها هو أن اشتغالها بحبه صار حجابًا بينها وبين كل ما سوى هذه المحبة فلا تعقل سواه ولا يخطر ببالها إلا إياه. **والثالث:** قال الزجاج: الشغاف: حبة القلب وسويداء القلب. والمعنى: أنه وصل حبه إلى سويداء قلبها، وبالجملة فهذا كناية عن الحب الشديد والعشق العظيم.

المسألة الثانية: قرأ جماعة من الصحابة والتابعين (شَعَفَها) بالعين. قال ابن السكيت: يقال شعفه الهوى إذا بلغ إلى حد الاحتراق، وشعف الهناء البعير إذا بلغ منه الألم إلى حد الاحتراق، وكشف أبو عبيدة عن هذا المعنى فقال: الشعف بالعين إحراق الحب القلب مع لذة يجدها، كما أن البعير إذا هُنِئ بالقطران يبلغ منه مثل ذلك ثم يستروح إليه. وقال ابن الأنباري: الشعف: رؤوس الجبال، ومعنى شعف بفلان إذا ارتفع حبه إلى أعلى المواضع من قلبه.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿حُبًّا﴾ نصب على التمييز.

ثم قال: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي في ضلال عن طريق الرشد بسبب حبها إياه كقوله: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨].

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: المراد من قوله: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أنها سمعت قولهن، وإنما سمي قولهن مكرًا لوجوه:

الأول: أن النسوة إنما ذكرت ذلك الكلام استدعاء لرؤية يوسف عليه السلام والنظر إلى وجهه لأنهن عرفن أنهن إذا قلن ذلك عرضت يوسف عليهن ليتمهد عذرها عندهن.

الثاني: أن امرأة العزيز أسرت إليهن حبها ليوسف وطلبت منهن كتمان هذا السر، فلما أظهرن السر كان ذلك غدرًا ومكرًا.

الثالث: أنهن وقعن في غيبتها، والغيبة إنما تذكر على سبيل الخفية فأشبهت المكر.

المسألة الثانية: أنها لما سمعت أنهن يلمنها على تلك المحبة المفرطة أرادت إبداء عذرها فاتخذت مائدة ودعت جماعة من أكابرهن وأعتدت لهن متكأ، وفي تفسيره وجوه: الأول: المتكأ: النمرق الذي يتكأ عليه. الثاني: أن المتكأ هو الطعام. قال العتبي والأصل فيه أن من دعوته ليطعم عندك فقد أعددت له وسادة فسمى الطعام متكأ على الاستعارة، والثالث: متكأ أترجًا، وهو قول وهب وأنكر أبو عبيد ذلك ولكنه محمول على أنها وضعت عندهن أنواع الفاكهة في ذلك المجلس. والرابع: متكأ طعامًا يحتاج إلى أن يقطع بالسكين، لأن الطعام متى كان كذلك احتاج الإنسان إلى أن يتكأ عليه عند القطع. ثم نقول: حاصل ذلك أنها دعت أولئك النسوة وأعدت لكل واحدة منهن مجلسًا معينًا وآتت كل واحدة منهن سكينًا أي لأجل أكل الفاكهة أو لأجل قطع اللحم ثم إنها أمرت يوسف عليه السلام بأن يخرج إليهن ويعبر عليهن وأنه عليه السلام ما قدر على مخالفتها خوفًا منها ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾.

وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: في (أكبرنه) قولان: الأول: أعظمنه. والثاني: (أكبرن) بمعنى حِضْن. قال الأزهري: والهاء للسكت يقال: أكبرت المرأة إذا حاضت، وحقيقته دخلت في الكبر لأنها بالحيض تخرج من حد الصغر إلى حد الكبر وفيه وجه آخر، وهو أن المرأة إذا خافت وفزعت فربما أسقطت ولدها فحاضت، فإن صح تفسير الإكبار بالحيض فالسبب فيه ما ذكرناه وقوله: ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ كناية عن دهشتهن وحيرتهن، والسبب في حسن هذه الكناية أنها لما دهشت فكانت تظن أنها تقطع الفاكهة وكانت تقطع يد نفسها، أو يقال: إنها لما دهشت صارت بحيث لا تميز نصابها من حديدها وكانت تأخذ الجانب الحاد من ذلك السكين بكفها فكان يحصل الجراحة في كفها.

المسألة الثالثة: اتفق الأكثرون على أنهن إنما أكبرنه بحسب الجمال الفائق والحسن الكامل قيل: كان فضل يوسف على الناس في الفضل والحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وعن النبي ﷺ قال: «مَرَرْتُ بِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْلَةَ عُرِجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ فَقُلْتُ لِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ هَذَا يُوسُفُ فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللَّه كَيفَ رَأَيْتَهُ؟ قَالَ: كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ»(١) وقيل: كان يوسف إذا سار في أزقة مصر يرى تلألؤ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس من السماء عليها، وقيل: كان يشبه آدم يوم خلقه ربه، وهذا القول هو الذي اتفقوا عليه، وعندي أنه يحتمل وجهًا آخر وهو أنهن إنما أكبرنه لأنهن رأين عليه نور النبوة وسيما الرسالة، وآثار الخضوع والاحتشام، وشاهدن منها مهابة النبوة، وهيئة الملكية وهي عدم الالتفات إلى المطعوم والمنكوح، وعدم الاعتداد بهن، وكان الجمال العظيم مقرونًا بتلك الهيبة والهيئة فتعجبن من تلك الحالة فلا جرم أكبرنه وعظمنه، ووقع الرعب والمهابة منه في قلوبهن، وعندي أن حمل الآية على هذا الوجه أولى.

---

(١) أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٧/ ٣٤٥)، من طريق الزهري عن ابن المسيب. . . به.

فإن قيل: فإذا كان الأمر كذلك فكيف ينطبق على هذا التأويل قولها: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ وكيف تصير هذه الحالة عذرًا لها في قوة العشق وإفراط المحبة؟

قلنا: قد تقرر أن الممنوع متبوع فكأنها قالت لهن مع هذا الخلق العجيب وهذه السيرة الملكية الطاهرة المطهرة فحسنه يوجب الحب الشديد وسيرته الملكية توجب اليأس عن الوصول إليه فلهذا السبب وقعت في المحبة، والحسرة، والأرق والقلق، وهذا الوجه في تأويل الآية أحسن والله أعلم.

المسألة الثالثة: قرأ أبو عمرو (وَقُلْنَ حَاشَا للَّه) بإثبات الألف بعد الشين وهي رواية الأصمعي عن نافع وهي الأصل لأنها من المحاشاة وهي التنحية والتبعيد، والباقون بحذف الألف للتخفيف وكثرة دورها على الألسن اتباعًا للمصحف (وحاشا) كلمة تفيد معنى التنزيه، والمعنى هاهنا تنزيه الله تعالى من المعجز حيث قدر على خلق جميل مثله. أما قوله: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾[يوسف: ٥١] فالتعجب من قدرته على خلق عفيف مثله.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

فيه وجهان:

الوجه الأول: وهو المشهور أن المقصود منه إثبات الحسن العظيم له قالوا: لأنه تعالى ركز في الطباع أن لا حي أحسن من الملك، كما ركز فيها أن لا حي أقبح من الشيطان، ولذلك قال تعالى في صفة جهنم ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[الصافات: ٦٥] وذلك لما ذكرنا أنه تقرر في الطباع أن أقبح الأشياء هو الشيطان فكذا هاهنا تقرر في الطباع أن أحسن الأحياء هو الملك، فلما أرادت النسوة المبالغة في وصف يوسف عليه السلام بالحسن لا جرم شبهنه بالملك.

والوجه الثاني: وهو الأقرب عندي أن المشهور عند الجمهور أن الملائكة مطهرون عن بواعث الشهوة، وجواذب الغضب، ونوازع الوهم والخيال فطعامهم توحيد الله تعالى وشرابهم الثناء على الله تعالى، ثم إن النسوة لما رأين يوسف عليه السلام لم يلتفت إليهن ألبتة ورأين عليه هيبة النبوة وهيبة الرسالة، وسيما الطهارة قلن إنا ما رأينا فيه أثرًا من أثر الشهوة، ولا شيئًا من البشرية، ولا صفة من الإنسانية، فهذا قد تطهر عن جميع الصفات المغروزة في البشر، وقد ترقى عن حد الإنسانية ودخل في الملكية.

فإن قالوا: فإن كان المراد ما ذكرتم فكيف يتمهد عذر تلك المرأة عند النسوة؟ فالجواب قد سبق. والله أعلم.

المسألة الخامسة: القائلون بأن الملك أفضل من البشر احتجوا بهذه الآية فقالوا: لا شك إنهن إنما ذكرن هذا الكلام في معرض تعظيم يوسف عليه السلام. فوجب أن يكون إخراجه من البشرية وإدخاله في الملكية سببًا لتعظيم شأنه وإعلاء مرتبته، وإنما يكون الأمر كذلك لو كان الملك أعلى حالاً من البشر، ثم نقول: لا يخلو إما أن يكون المقصود بيان كمال حاله في

الحسن الذي هو الخلق الظاهر، أو كمال حاله في الحسن الذي هو الخلق الباطن، والأول باطل لوجهين: الأول: أنهم وصفوه بكونه كريمًا، وإنما يكون كريمًا بسبب الأخلاق الباطنة لا بسبب الخلقة الظاهرة، والثاني: أنا نعلم بالضرورة أن وجه الإنسان لا يشبه وجوه الملائكة ألبتة. أما كونه بعيدًا عن الشهوة والغضب معرضًا عن اللذات الجسمانية متوجهًا إلى عبودية الله تعالى مستغرق القلب، والروح فيه فهو أمر مشترك فيه بين الإنسان الكامل وبين الملائكة.

وإذا ثبت هذا فنقول: تشبيه الإنسان بالملك في الأمر الذي حصلت المشابهة فيه على سبيل الحقيقة أولى من تشبيهه بالملك فيما لم تحصل المشابهة فيه ألبتة، فثبت أن تشبيه يوسف عليه السلام بالملك في هذه الآية إنما وقع في الخلق الباطن، لا في الصورة الظاهرة، وثبت أنه متى كان الأمر كذلك وجب أن يكون الملك أعلى حالاً من الإنسان في هذه الفضائل، فثبت أن الملك أفضل من البشر، والله أعلم.

المسألة السادسة: لغة أهل الحجاز إعمال (ما) عمل ليس وبها ورد قوله: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ ومنها قوله: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ [المجادلة: ٢] ومن قرأ على لغة بني تميم. قرأ (مَا هَٰذَا بَشَرٌ) وهي قراءة ابن مسعود وقرئ (مَا هَٰذَا بِشِرى) أي ما هو بعبد مملوك للبشر ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ثم نقول: ما هذا بِشِرًا، أي حاصل بِشِرًا بمعنى هذا مشترى، وتقول: هذا لك بِشِرًا أم بِكِرًا، والقراءة المعتبرة هي الأولى لموافقتها المصحف، ولمقابلة البشر للملك.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

اعلم أن النسوة لما قلن في امرأة العزيز قد شغفها حبًا إنا لنراها في ضلال مبين، عظم ذلك عليها فجمعتهن ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ فعند ذلك ذكرت أنهن باللوم أحق لأنهن بنظرة واحدة لحقهن أعظم مما نالها مع أنه طال مكثه عندها.

فإن قيل: فلم قالت: ﴿فَذَٰلِكُنَّ﴾ مع أن يوسف عليه السلام كان حاضرًا؟

والجواب عنه من وجوه: الأول: قال ابن الأنباري: أشارت بصيغة ذلكن إلى يوسف بعد انصرافه من المجلس. والثاني: وهو الذي ذكره صاحب (الكشاف) وهو أحسن ما قيل: إن النسوة كن يقلن إنها عشقت عبدها الكنعاني، فلما رأينه ووقعن في تلك الدهشة قالت: هذا الذي رأيتموه هو ذلك العبد الكنعاني الذي لمتنني فيه يعني: أنكن لم تتصورنه حق تصوره ولو حصلت في خيالكن صورته لتركتن هذه الملامة.

واعلم أنها لما أظهرت عذرها عند النسوة في شدة محبتها له كشفت عن حقيقة الحال فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾.

واعلم أن هذا تصريح بأنه عليه السلام كان بريئًا عن تلك التهمة، وعن السدي أنه قال:

﴿فَٱسۡتَعۡصَمَ﴾ بعد حل السراويل، وما الذي يحمله على إلحاق هذه الزيادة الفاسدة الباطلة بنص الكتاب.

ثم قال: ﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ والمراد أن يوسف عليه السلام إن لم يوافقها على مرادها يوقع في السجن وفي الصغار، ومعلوم أن التوعد بالصغار له تأثير عظيم في حق من كان رفيع النفس عظيم الخطر مثل يوسف عليه السلام، وقوله: ﴿وَلَيَكُونٗا﴾ كان حمزة والكسائي يقفان على ﴿وَلَيَكُونٗا﴾ بالألف، وكذلك قوله: ﴿لَنَسۡفَعٗا﴾ [العلق: ١٥] والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٤﴾

واعلم أن المرأة لما قالت: ﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢] وسائر النسوة سمعن هذا التهديد فالظاهر أنهن اجتمعن على يوسف عليه السلام وقلن لا مصلحة لك في مخالفة أمرها وإلا وقعت في السجن وفي الصغار فعند ذلك اجتمع في حق يوسف عليه السلام أنواع من الوسوسة: أحدها: أن زليخا كانت في غاية الحسن. والثاني: أنها كانت ذات مال وثروة، وكانت على عزم أن تبذل الكل ليوسف بتقدير أن يساعدها على مطلوبها. والثالث: أن النسوة اجتمعن عليه وكل واحدة منهن كانت ترغبه وتخوفه بطريق آخر، ومكر النساء في هذا الباب شديد، والرابع: أنه عليه السلام كان خائفًا من شرها وإقدامها على قتله وإهلاكه، فاجتمع في حق يوسف جميع جهات الترغيب على موافقتها وجميع جهات التخويف على مخالفتها، فخاف عليه السلام أن تؤثر هذه الأسباب القوية الكثيرة فيه.

واعلم أن القوة البشرية والطاقة الإنسانية لا تفي بحصول هذه العصمة القوية، فعند هذا التجأ إلى الله تعالى وقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ وقرئ (السَّجْنُ) بالفتح على المصدر، وفيه سؤالان:

السؤال الأول: السجن في غاية المكروهية، وما دعونه إليه في غاية المطلوبية، فكيف قال: المشقة أحب إلي من اللذة؟

والجواب: أن تلك اللذة كانت تستعقب آلامًا عظيمة، وهي الذم في الدنيا والعقاب في الآخرة، وذلك المكروه وهو اختيار السجن كان يستعقب سعادات عظيمة، وهي المدح في الدنيا والثواب الدائم في الآخرة، فلهذا السبب قال: ﴿ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾.

السؤال الثاني: أن حبسهم له معصية كما أن الزنا معصية، فكيف يجوز أن يحب السجن مع أنه معصية.

والجواب: تقدير الكلام أنه إذا كان لا بد من التزام أحد الأمرين أعني الزنا والسجن، فهذا

أولى، لأنه متى وجب التزام أحد شيئين كل واحد منهما شر فأخفهما أولاهما بالتحمل.

ثم قال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أصب إليهن: أمل إليهن يقال: صبا إلى اللهو يصبو صبوًا إذا مال، واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن الإنسان لا ينصرف عن المعصية إلا إذا صرفه الله تعالى عنها قالوا: لأن هذه الآية تدل على أنه تعالى إن لم يصرفه عن ذلك القبيح وقع فيه، وتقريره: أن القدرة والداعي إلى الفعل والترك إن استويا امتنع الفعل، لأن الفعل رجحان لأحد الطرفين ومرجوحية للطرف الآخر وحصولهما حال استواء الطرفين جمع بين النقيضين وهو محال، وإن حصل الرجحان في أحد الطرفين فذلك الرجحان ليس من العبد وإلا لذهبت المراتب إلى غير النهاية بل هو من الله تعالى فالصرف عبارة عن جعله مرجوحًا لأنه متى صار مرجوحًا صار ممتنع الوقوع لأن الوقوع رجحان، فلو وقع حال المرجوحية لحصل الرجحان حال حصول المرجوحية، وهو يقتضي حصول الجمع بين النقيضين وهو محال، فثبت بهذا أن انصراف العبد عن القبيح ليس إلا من الله تعالى. ويمكن تقرير هذا الكلام من وجه آخر، وهو أنه كان قد حصل في حق يوسف عليه السلام جميع الأسباب المرغبة في تلك المعصية وهو الانتفاع بالمال والجاه والتمتع بالمنكوح والمطعوم وحصل في الإعراض عنها جميع الأسباب المنفرة، ومتى كان الأمر كذلك، فقد قويت الدواعي في الفعل وضعفت الدواعي في الترك، فطلب من الله سبحانه وتعالى أن يحدث في قلبه أنواعًا من الدواعي المعارضة النافية لدواعي المعصية إذ لو لم يحصل هذا المعارض لحصل المرجح للوقوع في المعصية خاليًا عما يعارضه، وذلك يوجب وقوع الفعل وهو المراد بقوله: ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن زوج المرأة لما ظهر له براءة ساحة يوسف عليه السلام فلا جرم لم يتعرض له، فاحتالت المرأة بعد ذلك بجميع الحيل حتى تَحْمِل يوسف عليه السلام على موافقتها على مرادها، فلم يلتفت يوسف إليها، فلما أيست منه احتالت في طريق آخر وقالت لزوجها: إن هذا العبد العبراني فضحني في الناس يقول لهم: إني راودته عن نفسه، وأنا لا أقدر على إظهار عذري، فإما أن تأذن لي فأخرج وأعتذر وإما أن تحبسه كما حبستني، فعند ذلك وقع في قلب العزيز أن الأصلح حبسه حتى يسقط عن ألسنة الناس ذكر هذا الحديث وحتى تقل

الفضيحة، فهذا هو المراد من قوله ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ لأن البداء عبارة عن تغير الرأي عما كان عليه في الأول، والمراد من الآيات براءته بقد القميص من دبر، وخمش الوجه، وإلزام الحكم إياها بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨] وذكرنا أنه ظهرت هناك أنواع أخر من الآيات بلغت مبلغ القطع ولكن القوم سكتوا عنها سعيًا في إخفاء الفضيحة.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿بَدَا لَهُم﴾ فعل وفاعله في هذا الموضع قوله: ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ﴾ وظاهر هذا الكلام يقتضي إسناد الفعل إلى فعل آخر، إلا أن النحويين اتفقوا على أن إسناد الفعل إلى الفعل لا يجوز، فإذا قلت خرج ضرب لم يفد ألبتة، فعند هذا قالوا: تقدير الكلام ثم بدا لهم سجنه، إلا أنه أقيم هذا الفعل مقام ذلك الاسم، وأقول: الذوق يشهد بأن جعل الفعل مخبر عنه لا يجوز وليس لأحد أن يقول الفعل خبرًا فجعل الخبر مخبرًا عنه لا يجوز، لأنا نقول: الاسم قد يكون خبرًا كقولك: زيد قائم فقائم اسم وخبر فعلمنا أن كون الشيء خبرًا لا ينافي كونه مخبرًا عنه، بل نقول في هذا المقام شكوك، أحدها: أنا إذا قلنا: ضرب فعل فالمخبر عنه بأنه فعل هو ضرب، فالفعل صار مخبرًا عنه.

فإن قالوا: المخبر عنه هو هذه الصيغة وهي اسم فنقول: فعلى هذا التقدير يلزم أن يكون المخبر عنه بأنه فعل اسم لا فعل وذلك كذب وباطل، بل نقول المخبر عنه بأنه فعل إن كان فعلاً فقد ثبت أن الفعل يصح الإخبار عنه وإن كان اسمًا كان معناه: أنا أخبرنا عن الاسم بأنه فعل ومعلوم أنه باطل، وفي هذا الباب مباحث عميقة ذكرناها في (كتب المعقولات).

المسألة الثالثة: قال أهل اللغة: الحين: وقت من الزمان غير محدود يقع على القصير منه، وعلى الطويل، وقال ابن عباس: يريد إلى انقطاع المقالة وما شاع في المدينة من الفاحشة، ثم قيل: الحين هاهنا خمس سنين، وقيل: بل سبع سنين، وقال مقاتل بن سليمان: حبس يوسف اثنتي عشر سنة، والصحيح أن هذه المقادير غير معلومة، وإنما القدر المعلوم أنه بقي محبوسًا مدة طويلة لقوله تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥].

أما قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ فهاهنا محذوف، والتقدير: لما أرادوا حبسه حبسوه وحذف ذلك لدلالة قوله: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ عليه قيل: هما غلامان كانا للملك الأكبر بمصر أحدهما صاحب طعامه، والآخر صاحب شرابه رفع إليه أن صاحب طعامه يريد أن يسمه وظن أن الآخر يساعده عليه فأمر بحبسهما بقي في الآية سؤالات:

السؤال الأول: كيف عرفا أنه عليه السلام عالم بالتعبير؟

والجواب: لعله عليه السلام سألهما عن حزنهما وغمهما فذكرا: إنا رأينا في المنام هذه الرؤيا، ويحتمل أنهما رأياه وقد أظهر معرفته بأمور منها تعبير الرؤيا فعندها ذكرا له ذلك.

السؤال الثاني: كيف عرف أنهما كانا عبدين للملك؟

الجواب: لقوله: ﴿فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٤١] أي مولاه، ولقوله: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢].

السؤال الثالث: كيف عرف أن أحدهما صاحب شراب الملك، والآخر صاحب طعامه؟

والجواب: رؤيا كل واحد منهما تناسب حرفته لأن أحدهما رأى أنه يعصر الخمر، والآخر كأنه يحمل فوق رأسه خبزًا.

السؤال الرابع: كيف وقعت رؤية المنام؟

والجواب: فيه قولان:

القول الأول: أن يوسف عليه السلام لما دخل السجن قال لأهله: إني أعبر الأحلام فقال أحد الفتيين، هلم فلنخبر هذا العبد العبراني برؤيا نخترعها له فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئًا. قال ابن مسعود: ما كانا رأيا شيئًا وإنما تحالما ليختبرا علمه.

والقول الثاني: قال مجاهد: كانا قد رأيا حين دخلا السجن رؤيا فأتيا يوسف عليه السلام فسألاه عنها، فقال الساقي: أيها العالم إني رأيت كأني في بستان فإذا بأصل عنبة حسنة فيها ثلاثة أغصان عليها ثلاثة عناقيد من عنب فجنيتها وكأن كأس الملك بيدي فعصرتها فيه وسقيتها الملك فشربه فذلك قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ وقال صاحب الطعام: إني رأيت كأن فوق رأسي ثلاث سلال فيها خبز وألوان وأطعمه وإذا سباع الطير تنهش منه فذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ﴾.

السؤال الخامس: كيف عرف يوسف عليه السلام أن المراد من قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ رؤيا المنام؟

الجواب: لوجوه: الأول: أنه لو لم يقصد النوم كان ذكر قوله: ﴿أَعْصِرُ﴾ يغنيه عن ذكر قوله ﴿أَرَىٰنِيٓ﴾ والثاني: دل عليه قوله: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ [يوسف: ٣٦].

السؤال السادس: كيف يعقل عصر الخمر؟

الجواب: فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن يكون المعنى أعصر عنب خمر، أي العنب الذي يكون عصيره خمرًا فحذف المضاف. الثاني: أن العرب تسمي الشيء باسم ما يئول إليه إذا انكشف المعنى ولم يلتبس يقولون فلان يطبخ دبسًا وهو يطبخ عصيرًا. والثالث: قال أبو صالح: أهل عمان يسمون العنب بالخمر فوقعت هذه اللفظة إلى أهل مكة فنطقوا بها، قال الضحاك: نزل القرآن بألسنة جميع العرب.

السؤال السابع: ما معنى التأويل في قوله: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾.

الجواب: تأويل الشيء ما يرجع إليه وهو الذي يئول إليه آخر ذلك الأمر.

السؤال الثامن: ما المراد من قوله: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

الجواب من وجوه: الأول: معناه: إنا نراك تؤثر الإحسان وتأتي بمكارم الأخلاق وجميع

الأفعال الحميدة. قيل: إنه كان يعود مرضاهم، ويؤنس حزينهم فقالوا: إنك من المحسنين أي في حق الشركاء والأصحاب، وقيل: إنه كان شديد المواظبة على الطاعات من الصوم والصلاة فقالوا: إنك من المحسنين في أمر الدين، ومن كان كذلك فإنه يوثق بما يقوله في تعبير الرؤيا، وفي سائر الأمور، وقيل: المراد ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في علم التعبير، وذلك لأنه متى عبر لم يُخْطِ كما قال ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ١٠١].

السؤال التاسع: ما حقيقة علم التعبير؟

الجواب: القرآن والبرهان يدلان على صحته. أما القرآن فهو هذه الآية، وأما البرهان فهو أنه قد ثبت أنه سبحانه خلق جوهر النفس الناطقة بحيث يمكنها الصعود إلى عالم الأفلاك، ومطالعة اللوح المحفوظ والمانع لها من ذلك اشتغالها بتدبير البدن وفي وقت النوم يقل هذا التشاغل فتقوى على هذه المطالعة فإذا وقعت الروح على حالة من الأحوال تركت آثارًا مخصوصة مناسبة لذلك الإدراك الروحاني إلى عالم الخيال فالمعبر يستدل بتلك الآثار الخيالية على تلك الإدراكات العقلية فهذا كلام مجمل، وتفصيله مذكور في «الْكُتُبِ الْعَقْلِيَّةِ»، والشريعة مؤكدة له روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**الرُّؤْيَا ثَلَاثَةٌ: رُؤْيَا مَا يُحَدِّثُ بِهِ الرَّجُلُ نَفْسَهُ، وَرُؤْيَا تَحْدُثُ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَرُؤْيَا الَّتِي هِيَ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ الحَقَّة**»[1] وهذا تقسيم صحيح في العلوم العقلية وقال عليه السلام: «**رُؤْيَا الرَّجُلِ الصَّالِحِ جُزْءٌ مِنْ ستة وأربعين جزءًا من النبوة**»[2].

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن المذكور في هذه الآية ليس بجواب لما سألا عنه فلا بد هاهنا من بيان الوجه الذي لأجله عدل عن ذكر الجواب إلى هذا الكلام، والعلماء ذكروا فيه وجوهًا: **الأول**: أنه لما

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (التفسير) باب (القيد في المنام)، (١٢/ ٤٢٢) حديث رقم/ ٧٠١٧، من طريق عوف... به، ومسلم في كتاب (الرؤيا) باب (في فاتحته) (٤/ ٢/ ١٧٧١)، من طريق يحيى بن سعيد... به، كلاهما (يحيى، عبد ربه) عن أبي سلمة... به.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (التفسير) باب (الرؤية الصالحة جزء من تسع وتسعون جزءًا من النبوة) (١٢/ ٣٨٩) حديث رقم/ ٦٩٨٧، من طريق شعبة... به، ومسلم في كتاب (الرؤية) باب (الرؤية الصالحة) (٤/ ٧/ ١٧٧٤)، من طريق شعبة... به، جميعًا من طريق شعبة... به.

كان جواب أحد السائلين أنه يصلب، ولا شك أنه متى سمع ذلك عظم حزنه واشتدت نفرته عن سماع هذا الكلام، فرأى أن الصلاح أن يقدم قبل ذلك ما يؤثر معه بعلمه وكلامه، حتى إذا جاء بها من بعد ذلك خرج جوابه عن أن يكون بسبب تهمة وعداوة. **الثاني:** لعله عليه السلام أراد أن يبين أن درجته في العلم أعلى وأعظم مما اعتقدوا فيه، وذلك لأنهم طلبوا منه علم التعبير، ولا شك أن هذا العلم مبني على الظن والتخمين، فبيّن لهما أنه يمكنه الإخبار عن الغيوب على سبيل القطع واليقين مع عجز كل الخلق عنه، وإذا كان الأمر كذلك فبأن يكون فائقًا على كل الناس في علم التعبير كان أولى، فكان المقصود من ذكر تلك المقدمة تقرير كونه فائقًا في علم التعبير واصلاً فيه إلى ما لم يصل غيره، **والثالث:** قال السدي: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦ﴾ في النوم بين ذلك أن علمه بتأويل الرؤيا ليس بمقصور على شيء دون غيره، ولذلك قال: ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾. **الرابع:** لعله عليه السلام لما علم أنهما اعتقدا فيه وقبلا قوله، فأورد عليهما ما دل على كونه رسولاً من عند الله تعالى، فإن الاشتغال بإصلاح مهمات الدين أولى من الاشتغال بمهمات الدنيا، **والخامس:** لعله عليه السلام لما علم أن ذلك الرجل سيصلب اجتهد في أن يدخله في الإسلام حتى لا يموت على الكفر، ولا يستوجب العقاب الشديد ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]. **والسادس:** قوله: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ محمول على اليقظة، والمعنى: أنه لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا أخبرتكما أي طعام هو، وأي لون هو، وكم هو، وكيف يكون عاقبته؟ أي إذا أكله الإنسان فهو يفيد الصحة أو السقم، وفيه وجه آخر، قيل: كان الملك إذا أراد قتل إنسان صنع له طعامًا فأرسله إليه، فقال يوسف: لا يأتيكما طعام ألا أخبرتكما أن فيه سمًّا أم لا، هذا هو المراد من قوله: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ وحاصله راجع إلى أنه ادعى الإخبار عن الغيب، وهو يجري مجرى قول عيسى عليه السلام، ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩] فالوجوه الثلاثة الأول لتقرير كونه فائقًا في علم التعبير، والوجوه الثلاثة الأخر لتقرير كونه نبيًّا صادقًا من عند الله تعالى.

فإن قيل: كيف يجوز حمل الآية على ادعاء المعجزة مع أنه لم يتقدم ادعاء للنبوة؟

قلنا: إنه وإن لم يذكر ذلك لكن يعلم أنه لا بد وأن يقال: إنه كان قد ذكره، وأيضًا ففي قوله: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ وفي قوله: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ﴾ ما يدل على ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ أي لست أخبركما على جهة الكهانة والنجوم، وإنما أخبرتكما بوحي من الله وعلم حصل بتعليم الله.

ثم قال: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: لقائل أن يقول: في قوله: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ توهم أنه عليه السلام كان في هذه الملة. فنقول جوابه من وجوه: **الأول:** أن الترك عبارة عن عدم التعرض

للشيء وليس من شرطه أن يكون قد كان خائضًا فيه. **والثاني:** وهو الأصح أن يقال إنه عليه السلام كان عبدًا لهم بحسب زعمهم واعتقادهم الفاسد، ولعله قبل ذلك كان لا يظهر التوحيد والإيمان خوفًا منهم على سبيل التقية، ثم إنه أظهره في هذا الوقت، فكان هذا جاريًا مجرى ترك ملة أولئك الكفرة بحسب الظاهر.

المسألة الثانية: تكرير لفظ (هم) في قوله: ﴿وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ لبيان اختصاصهم بالكفر، ولعل إنكارهم للمعاد كان أشد من إنكارهم للمبدأ، فلأجل مبالغتهم في إنكار المعاد كرر هذا اللفظ للتأكيد.

واعلم أن قوله: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ إشارة إلى علم المبدأ. وقوله: ﴿وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ إشارة إلى علم المعاد، ومن تأمل في القرآن المجيد وتفكر في كيفية دعوة الأنبياء عليهم السلام علم أن المقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب صرف الخلق إلى الإقرار بالتوحيد وبالمبدأ والمعاد، وأن ما وراء ذلك عبث.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

وفيه سؤالات:

السؤال الأول: ما الفائدة في ذكر هذا الكلام.

الجواب: أنه عليه السلام لما ادعى النبوة وتحدى بالمعجزة وهو علم الغيب قرن به كونه من أهل بيت النبوة، وأن أباه وجده وجد أبيه كانوا أنبياء الله ورسله، فإن الإنسان متى ادعى حرفة أبيه وجده لم يستبعد ذلك منه، وأيضًا فكما أن درجة إبراهيم عليه السلام وإسحاق ويعقوب كان أمرًا مشهورًا في الدنيا، فإذا ظهر أنه ولدهم عظموه ونظروا إليه بعين الإجلال، فكان انقيادهم له أتم وأثر قلوبهم بكلامه أكمل.

السؤال الثاني: لما كان نبيًّا فكيف قال: إني اتبعت ملة آبائي، والنبي لا بد وأن يكون مختصًّا بشريعة نفسه. قلنا: لعل مراده التوحيد الذي لم يتغير، وأيضًا لعله كان رسولاً من عند الله، إلا أنه كان على شريعة إبراهيم عليه السلام.

السؤال الثالث: لم قال: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ وحال كل المكلفين كذلك؟

والجواب: ليس المراد بقوله: ﴿مَا كَانَ لَنَآ﴾ أنه حرم ذلك عليهم، بل المراد أنه تعالى طهر آباءه عن الكفر، ونظيره قوله: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم: ٣٥].

السؤال الرابع: ما الفائدة في قوله: ﴿مِن شَىْءٍ﴾.

الجواب: أن أصناف الشرك كثيرة، فمنهم من يعبد الأصنام، ومنهم من يعبد النار، ومنهم من يعبد الكواكب، ومنهم من يعبد العقل والنفس والطبيعة، فقوله: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ رد على كل هؤلاء الطوائف والفرق، وإرشاد إلى الدين الحق، وهو أنه لا موجد إلا الله ولا خالق إلا الله ولا رازق إلا الله.

ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾

وفيه مسألة:

وهي أنه قال: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ . ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ فقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من عدم الإشراك، فهذا يدل على أن عدم الإشراك وحصول الإيمان من الله. ثم بيَّن أن الأمر كذلك في حقه بعينه، وفي حق الناس. ثم بيَّن أن أكثر الناس لا يشكرون، ويجب أن يكون المراد أنهم لا يشكرون الله على نعمة الإيمان، حكي أن واحدًا من أهل السنة دخل على بشر بن المعتمر، وقال: هل تشكر الله على الإيمان أم لا. فإن قلت: لا، فقد خالفت الإجماع، وإن شكرته فكيف تشكره على ما ليس فعلاً له، فقال له بشر: إنا نشكره على أنه تعالى أعطانا القدرة والعقل والآلة، فيجب علينا أن نشكره على إعطاء القدرة والآلة، فأما أن نشكره على الإيمان مع أن الإيمان ليس فعلاً له، فذلك باطل، وصعب الكلام على بشر، فدخل عليهم ثمامة بن الأشرس وقال: إنا لا نشكر الله على الإيمان، بل الله يشكرنا عليه كما قال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾ [الإسراء: ١٩] فقال بشر: لما صعب الكلام سهل.

واعلم أن الذي ألزمه ثمامة باطل بنص هذه الآية، وذلك لأنه تعالى بيَّن أن عدم الإشراك من فضل الله، ثم بيَّن أن أكثر الناس لا يشكرون هذه النعمة، وإنما ذكره على سبيل الذم فدل هذا على أنه يجب على كل مؤمن أن يشكر الله تعالى على نعمة الإيمان وحينئذ تقوى الحجة وتكمل الدلالة. قال القاضي قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إن جعلناه إشارة إلى التمسك بالتوحيد فهو من فضل الله تعالى لأنه إنما حصل بألطافه وتسهيله، ويحتمل أن يكون إشارة إلى النبوة.

والجواب: أن ذلك إشارة إلى المذكور السابق، وذاك هو ترك الإشراك فوجب أن يكون ترك الإشراك من فضل الله تعالى، والقاضي يصرفه إلى الألطاف والتسهيل، فكان هذا تركًا للظاهر وأما صرفه إلى النبوة فبعيد، لأن اللفظ الدال على الإشارة يجب صرفه إلى أقرب المذكورات وهو هاهنا عدم الإشراك.

قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ يريد صاحبيَّ في السجن، ويحتمل أيضًا أنه لما

حصلت مرافقتهما في السجن مدة قليلة أضيفا إليه، وإذا كانت المرافقة القليلة كافية في كونه صاحبًا فمن عرف الله وأحبه طول عمره أولى بأن يبقى عليه اسم المؤمن العارف المحب.

المسألة الثانية: اعلم أنه عليه السلام لما ادعى النبوة في الآية الأولى وكان إثبات النبوة مبنيًّا على إثبات الإلهيات لا جرم شرع في هذه الآية في تقرير الإلهيات، ولما كان أكثر الخلق مقرين بوجود الإله العالم القادر وإنما الشأن في أنهم يتخذون أصنامًا على صورة الأرواح الفلكية ويعبدونها ويتوقعون حصول النفع والضر منها لا جرم كان سعي أكثر الأنبياء في المنع من عبادة الأوثان، فكان الأمر على هذا القانون في زمان يوسف عليه السلام، فلهذا السبب شرع هاهنا في ذكر ما يدل على فساد القول بعبادة الأصنام وذكر أنواعًا من الدلائل والحجج.

الحجة الأولى: قوله: ﴿مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ وتقرير هذه الحجة أن نقول: إن الله تعالى بين أن كثرة الآلهة توجب الخلل والفساد في هذا العالم وهو كقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] فكثرة الآلهة توجب الفساد والخلل، وكون الإله واحدًا يقتضي حصول النظام وحسن الترتيب فلما قرر هذا المعنى في سائر الآيات قال هاهنا: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ والمراد منه الاستفهام على سبيل الإنكار.

والحجة الثانية: أن هذه الأصنام معمولة لا عاملة ومقهورة لا قاهرة، فإن الإنسان إذا أراد كسرها وإبطالها قدر عليها فهي مقهورة لا تأثير لها، ولا يتوقع حصول منفعة ولا مضرة من جهتها وإله العالم فعَّال قهَّار قادر يقدر على إيصال الخيرات ودفع الشرور والآفات فكان المراد أن عبادة الآلهة المقهورة الذليلة خير أم عبادة الله الواحد القهار، فقوله: ﴿ءَأَرْبَابٌ﴾ إشارة إلى الكثرة فجعل في مقابلته كونه تعالى واحدًا وقوله: ﴿مُّتَفَرِّقُونَ﴾ إشارة إلى كونها مختلفة في الكبر والصغر، واللون والشكل، وكل ذلك إنما حصل بسبب أن الناحت والصانع يجعله على تلك الصورة فقوله: ﴿مُّتَفَرِّقُونَ﴾ إشارة إلى كونها مقهورة عاجزة وجعل في مقابلته كونه تعالى قهارًا فبهذا الطريق الذي شرحناه اشتملت هذه الآية على هذين النوعين الظاهرين.

والحجة الثالثة: أن كونه تعالى واحدًا يوجب عبادته، لأنه لو كان له ثان لم نعلم من الذي خلقنا ورزقنا ودفع الشرور والآفات عنا، فيقع الشك في أنا نعبد هذا أم ذاك، وفيه إشارة إلى ما يدل على فساد القول بعبادة الأوثان وذلك لأن بتقدير أن تحصل المساعدة على كونها نافعة ضارة إلا أنها كثيرة فحينئذ لا نعلم أن نفعنا ودفع الضرر عنا حصل من هذا الصنم أو من ذلك الآخر أو حصل بمشاركتهما ومعاونتهما، وحينئذ يقع الشك في أن المستحق للعبادة هو هذا أم ذاك أما إذا كان المعبود واحدًا ارتفع هذا الشك وحصل اليقين في أنه لا يستحق للعبادة إلا هو ولا معبود للمخلوقات والكائنات إلا هو، فهذا أيضًا وجه لطيف مستنبط من هذه الآية.

الحجة الرابعة: أن بتقدير أن يساعد على أن هذه الأصنام تنفع وتضر على ما يقوله أصحاب الطلسمات إلا أنه لا نزاع في أنها تنفع في أوقات مخصوصة وبحسب آثار مخصوصة، والإله

تعالى قادر على جميع المقدورات فهو قهار على الإطلاق نافذ المشيئة والقدرة في كل الممكنات على الإطلاق فكان الاشتغال بعبادته أولى.

الحجة الخامسة: وهي شريفة عالية، وذلك لأن شرط القهار أن لا يقهره أحد سواه وأن يكون هو قهارًا لكل ما سواه وهذا يقتضي أن يكون الإله واجب الوجود لذاته إذ لو كان ممكنًا لكان مقهورًا لا قاهرًا ويجب أن يكون واحدًا، إذ لو حصل في الوجود واجبان لما كان قاهرًا لكل ما سواه، فالإله لا يكون قهارًا إلا إذا كان واجبًا لذاته وكان واحدًا، وإذا كان المعبود يجب أن يكون كذلك فهذا يقتضي أن يكون الإله شيئًا غير الفلك وغير الكواكب وغير النور والظلمة وغير العقل والنفس. فأما من تمسك بالكواكب فهي أرباب متفرقون وهي ليست موصوفة بأنها قهارة، وكذا القول في الطبائع والأرواح والعقول والنفوس فهذا الحرف الواحد كاف في إثبات هذا التوحيد المطلق وأنه مقام عال فهذا مجموع الدلائل المستنبطة من هذه الآية بقي فيها سؤالان:

السؤال الأول: لم سماها أربابًا وليست كذلك.

والجواب: لاعتقادهم فيها أنها كذلك، وأيضًا الكلام خرج على سبيل الفرض والتقدير: والمعنى أنها إن كانت أربابًا فهي خير أم الله الواحد القهار.

السؤال الثاني: هل يجوز التفاضل بين الأصنام وبين الله تعالى حتى يقال: إنها خير أم الله الواحد القهار؟

الجواب: أنه خرج على سبيل الفرض، والمعنى: لو سلمنا أنه حصل منها ما يوجب الخير فهي خير أم الله الواحد القهار.

ثم قال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ وفيه سؤال: وهو أنه تعالى قال فيما قبل هذه الآية: ﴿مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ وذلك يدل على وجود هذه المسميات. ثم قال عقيب تلك الآية: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ وهذا يدل على أن المسمى غير حاصل وبينهما تناقض.

الجواب: أن الذات موجودة حاصلة إلا أن المسمى بالإله غير حاصل وبيانه من وجهين: الأول: أن ذوات الأصنام وإن كانت موجودة إلا أنها غير موصوفة بصفات الإلهية، وإذا كان كذلك كان الشيء الذي هو مسمى بالإله في الحقيقة غير موجود ولا حاصل، الثاني: يروى أن عبدة الأوثان مشبهة فاعتقدوا أن الإله هو النور الأعظم وأن الملائكة أنوار صغيرة ووضعوا على صورة تلك الأنوار هذه الأوثان ومعبودهم في الحقيقة هو تلك الأنوار السماوية، وهذا قول المشبهة فإنهم تصوروا جسمًا كبيرًا مستقرًا على العرش ويعبدونه وهذا المتخيل غير موجود ألبتة فصح أنهم لا يعبدون إلا مجرد الأسماء.

واعلم أن جماعة ممن يعبدون الأصنام قالوا: نحن لا نقول: إن هذه الأصنام آلهة للعالم بمعنى أنها هي التي خلقت العالم إلا أنا نطلق عليها اسم الإله ونعبدها ونعظمها لاعتقادنا أن الله

أمرنا بذلك، فأجاب الله تعالى عنه، فقال: أما تسميتها بالآلهة فما أمر الله تعالى بذلك وما أنزل في حصول هذه التسمية حجة ولا برهانًا ولا دليلاً ولا سلطانًا، وليس لغير الله حكم واجب القبول ولا أمر واجب الالتزام بل الحكم والأمر والتكليف ليس إلا له، ثم إنه أمر أن ألا تعبدوا إلا إياه، وذلك لأن العبادة نهاية التعظيم والإجلال فلا تليق إلا بمن حصل منه نهاية الإنعام وهو الإله تعالى لأن منه الخلق والإحياء والعقل والرزق والهداية، ونعم الله كثيرة وجهات إحسانه إلى الخلق غير متناهية ثم إنه تعالى لما بيّن هذه الأشياء قال ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وتفسيره أن أكثر الخلق يسندون حدوث الحوادث الأرضية إلى الاتصالات الفلكية والمناسبات الكوكبية لأجل أنه تقرر في العقول أن الحادث لا بد له من سبب فإذا رأوا أن تغير أحوال هذا العالم في الحر والبرد والفصول الأربعة، إنما يحصل عند تغير أحوال الشمس في أرباع الفلك ربطوا الفصول الأربعة بحركة الشمس، ثم لما شاهدوا أن أحوال النبات والحيوان مختلفة بحسب اختلاف الفصول الأربعة ربطوا حدوث النبات وتغير أحوال الحيوان باختلاف الفصول الأربعة، فبهذا الطريق غلب على طباع أكثر الخلق أن المدبر لحدوث الحوادث في هذا العالم هو الشمس والقمر وسائر الكواكب، ثم إنه تعالى إذا وفق إنسانًا حتى ترقى من هذه الدرجة وعرف أنها في ذواتها وصفاتها مفتقرة إلى موجد ومبدع قاهر قادر عليم حكيم، فذلك الشخص يكون في غاية الندرة، فلهذا قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾

اعلم أنه عليه السلام لما قرر أمر التوحيد والنبوة عاد إلى الجواب عن السؤال الذي ذكراه، والمعنى ظاهر، وذلك لأن الساقي لما قص رؤياه على يوسف، وقد ذكرنا كيف قص عليه قال له يوسف: ما أحسن ما رأيت أما حسن العنبة فهو حسن حالك، وأما الأغصان الثلاثة فثلاثة أيام يوجه إليك الملك عند انقضائهن فيردك إلى عملك فتصير كما كنت بل أحسن، وقال للخباز: لما قص عليه بئسما رأيت السلال الثلاث ثلاثة أيام يوجه إليك الملك عند انقضائهن فيصلبك وتأكل الطير من رأسك، ثم نقل في التفسير أنهما قالا ما رأينا شيئًا فقال: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ واختلف فيما لأجله قالا: ما رأينا شيئًا فقيل إنهما وضعا هذا الكلام ليختبرا علمه بالتعبير مع أنهما ما رأيا شيئًا وقيل: إنهما لما كرها ذلك الجواب قالا ما رأينا شيئًا.

فإن قيل: هذا الجواب الذي ذكره يوسف عليه السلام ذكره بناء على الوحي من قبل الله تعالى أو بناء على علم التعبير، والأول باطل لأن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما نقل أنه إنما ذكره على سبيل التعبير، وأيضًا قال تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ [يوسف: ٤٢] ولو كان ذلك التعبير مبنيًّا على الوحي لكان الحاصل منه القطع واليقين لا الظن والتخمين، والثاني: أيضًا

باطل لأن علم التعبير مبني على الظن والحسبان.

الجواب: لا يبعد أن يقال: إنهما لما سألاه عن ذلك المنام صدقا فيه أو كذبا فإن الله تعالى أوحى إليه أن عاقبة كل واحد منهما تكون على الوجه المخصوص، فلما نزل الوحي بذلك الغيب عند ذلك السؤال وقع في الظن أنه ذكره على سبيل التعبير، ولا يبعد أيضًا أن يقال: إنه بنى ذلك الجواب على علم التعبير، وقوله: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ ما عنى به أن الذي ذكره واقع لا محالة بل عنى به أنه حكمه في تعبير ما سألاه عنه ذلك الذي ذكره.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في أن الموصوف بالظن هو يوسف عليه السلام أو الناجي فعلى الأول كان المعنى، وقال الرجل الذي ظن يوسف عليه السلام كونه ناجيًا، وعلى هذا القول وجهان: الأول: أن تحمل هذا الظن على العلم واليقين، وهذا إذا قلنا بأنه عليه السلام إنما ذكر ذلك التعبير بناء على الوحي. قال هذا القائل: وورود لفظ الظن بمعنى اليقين كثير في القرآن. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦] وقال: ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠] والثاني: أن تحمل هذا الظن على حقيقة الظن، وهذا إذا قلنا: إنه عليه السلام ذكر ذلك التعبير لا بناء على الوحي، بل على الأصول المذكورة في ذلك العلم، وهي لا تفيد إلا الظن والحسبان.

والقول الثاني: أن هذا الظن صفة الناجي، فإن الرجلين السائلين ما كانا مؤمنين بنبوة يوسف ورسالته، ولكنهما كانا حسني الاعتقاد فيه، فكان قوله لا يفيد في حقهما إلا مجرد الظن.

المسألة الثانية: قال يوسف عليه السلام لذلك الرجل الذي حكم بأنه يخرج من الحبس ويرجع إلى خدمة الملك ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ أي عند الملك. والمعنى: اذكر عنده أنه مظلوم من جهة إخوته لما أخرجوه وباعوه، ثم إنه مظلوم في هذه الواقعة التي لأجلها حبس، فهذا هو المراد من الذكر.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ . **وفيه قولان:**

الأول: أنه راجع إلى يوسف، والمعنى أن الشيطان أنسى يوسف أن يذكر ربه، وعلى هذا القول ففيه وجهان:

أحدهما: أن تمسكه بغير الله كان مستدركًا عليه، وتقريره من وجوه:

الأول: أن مصلحته كانت في أن لا يرجع في تلك الواقعة إلى أحد من المخلوقين وأن لا يعرض حاجته على أحد سوى الله، وأن يقتدي بجده إبراهيم عليه السلام، فإنه حين وضع في

المنجنيق ليرمى إلى النار جاءه جبريل عليه السلام وقال: هَلْ مِنْ حَاجَةٍ، فَقَالَ: أَمَّا إِلَيْكَ فَلاَ(١)، فلما رجع يوسف إلى المخلوق لا جرم وصف الله ذلك بأن الشيطان أنساه ذلك التفويض، وذلك التوحيد، ودعاه إلى عرض الحاجة إلى المخلوقين، ثم لما وصفه بذلك ذكر أنه بقي لذلك السبب في السجن بضع سنين، والمعنى أنه لما عدل عن الانقطاع إلى ربه إلى هذا المخلوق عوقب بأن لبث في السجن بضع سنين، وحاصل الأمر أن رجوع يوسف إلى المخلوق صار سببًا لأمرين: أحدهما: أنه صار سببًا لاستيلاء الشيطان عليه حتى أنساه ذكر ربه، الثاني: أنه صار سببًا لبقاء المحنة عليه مدة طويلة.

الوجه الثاني: أن يوسف عليه السلام قال في إبطال عبادة الأوثان ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] ثم إنه هاهنا أثبت ربًّا غيره حيث قال: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ومعاذ الله أن يقال إنه حكم عليه بكونه ربًّا بمعنى كونه إلهًا، بل حكم عليه بالربوبية كما يقال: رب الدار، ورب الثوب على أن إطلاق لفظ الرب عليه بحسب الظاهر يناقض نفي الأرباب.

الوجه الثالث: أنه قال في تلك الآية: ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء، وذلك نفي للشرك على الإطلاق، وتفويض الأمور بالكلية إلى الله تعالى، فهاهنا الرجوع إلى غير الله تعالى كالمناقض لذلك التوحيد.

واعلم أن الاستعانة بالناس في دفع الظلم جائزة في الشريعة، إلا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين فهذا وإن كان جائزًا لعامة الخلق إلا أن الأولى بالصديقين أن يقطعوا نظرهم عن الأسباب بالكلية وأن لا يشتغلوا إلا بمسبب الأسباب.

الوجه الثاني: في تأويل الآية أن يقال: هب أنه تمسك بغير الله وطلب من ذلك الساقي أن يشرح حاله عند ذلك الملك، إلا أنه كان من الواجب عليه أن لا يخلي ذلك الكلام من ذكر الله مثل أن يقول إن شاء الله أو قدر الله فلما أخلاه عن هذا الذكر وقع هذا الاستدراك.

القول الثاني: أن يقال: إن قوله: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ راجع إلى الناجي والمعنى: أن الشيطان أنسى ذلك الفتى أن يذكر يوسف للملك حتى طال الأمر ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ

---

(١) إسناده ضعيف: البيهقي في (شعب الإيمان) (٢/ ٢٩) حديث رقم/ ١٠٧٧، من طريق علي بن عثام قال: قال بشر بن الحارث... به، وأبو نعيم في (حلية الأولياء) (١/ ٢٠)، من طريق إسحاق بن بشر قال: قال مقاتل وسعيد... فذكره، والطبري في (تفسيره) (١٧/ ٤٥)، من طريق الحسين قال حدثنا المعتمر بن سليمان التيمي عن بعض أصحابه... به، وكل هذا الإسناد مراسيل بل فيها معضل والصواب كما جاء عند البخاري في (صحيحه) (٤/ ١٦٦٢) حديث رقم/ ٤٢٨٧، من طريق أبي حصين عن أبي عن ابن عباس قال حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار وقالها محمد ﷺ حين قالوا إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل.

أبي حصين عن أبي عن ابن عباس قال حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار وقالها محمد ﷺ حين قالوا إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل.

بِضۡعَ سِنِينَ﴾ بهذا السبب، ومن الناس من قال القول الأول أولى لما روي عنه عليه السلام قال: «رَحِمَ اللَّه يُوسُفَ لَوْ لَمْ يَقُلِ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ مَا لَبِثَ فِي السِّجْنِ»[(١)] وعن قتادة أن يوسف عليه السلام عوقب بسبب رجوعه إلى غير الله، وعن إبراهيم التيمي: أنه لما انتهى إلى باب السجن قال له صاحبه: ما حاجتك؟ قال: أن تذكرني عند رب سوى الرب الذي قال يوسف، وعن مالك لما قال يوسف للساقي اذكرني عند ربك قيل: يا يوسف اتخذت من دوني وكيلاً لأطيلن حبسك فبكى يوسف وقال: طول البلاء أنساني ذكر المولى فقلت هذه الكلمة فويل لإخوتي.

قال مصنف الكتاب فخر الدين الرازي رحمه الله، والذي جربته من أول عمري إلى آخره أن الإنسان كلما عول في أمر من الأمور على غير الله صار ذلك سببًا إلى البلاء والمحنة، والشدة والرزية، وإذا عول العبد على الله ولم يرجع إلى أحد من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه فهذه التجربة قد استمرت لي من أول عمري إلى هذا الوقت الذي بلغت فيه إلى السابع والخمسين، فعند هذا استقر قلبي على أنه لا مصلحة للإنسان في التعويل على شيء سوى فضل الله تعالى وإحسانه ومن الناس من رجح القول الثاني لأن صرف وسوسة الشيطان إلى ذلك الرجل أولى من صرفها إلى يوسف الصديق، ولأن الاستعانة بالعباد في التخلص من الظلم جائزة.

واعلم أن الحق هو القول الأول، وما ذكره هذا القائل الثاني تمسك بظاهر الشريعة وما قرره القائل الأول تمسك بأسرار الحقيقة ومكارم الشريعة، ومن كان له ذوق في مقام العبودية وشرب من مشرب التوحيد عرف أن الأمر كما ذكرناه، وأيضًا ففي لفظ الآية ما يدل على أن هذا القول ضعيف، لأنه لو كان المراد ذلك لقال فأنساه الشيطان ذكره لربه.

المسألة الثالثة: الاستعانة بغير الله في دفع الظلم جائزة في الشريعة لا إنكار عليه إلا أنه لما كان ذلك مستدركًا من المحققين المتوغلين في بحار العبودية لا جرم صار يوسف عليه السلام مؤاخذًا به، وعند هذا نقول: الذي يصير مؤاخذًا بهذا القدر لأن يصير مؤاخذًا بالإقدام على طلب الزنا ومكافأة الإحسان بالإساءة كان أولى فلما رأينا الله تعالى آخذه بهذا القدر، ولم يؤاخذه في تلك القضية ألبتة، وما عابه بل ذكره بأعظم وجوه المدح والثناء علمنا أنه عليه السلام كان مبرأ مما نسبه الجهال والحشوية إليه.

المسألة الرابعة: الشيطان يمكنه إلقاء الوسوسة، وأما النسيان فلا، لأنه عبارة عن إزالة العلم عن القلب، والشيطان لا قدرة له عليه، وإلا لكان قد أزال معرفة الله تعالى عن قلوب بني آدم.

وجوابه: أنه يمكنه من حيث إنه بوسوسته يدعو إلى سائر الأعمال واشتغال الإنسان بسائر الأعمال يمنعه عن استحضار ذلك العلم وتلك المعرفة.

---

(١) **إسناده صحيح**: أخرجه ابن حبان في (صحيحه) (١٤/ ٨٦) حديث رقم/ ٦٢٠٦، وابن أبي حاتم في (تفسيره) (٨/ ٣٦٨) حديث رقم/ ١٢٤٨٧، كلاهما من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة... به.

المسألة الخامسة: قوله: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ .

فيه بحثان:

البحث الأول: بحسب اللغة، قال الزجاج: اشتقاقه من بَضَعْتُ بمعنى قطعت، ومعناه القطعة من العدد، قال الفراء: ولا يذكر البضع إلا مع عشرة أو عشرين إلى التسعين، وذلك يقتضي أن يكون مخصوصًا بما بين الثلاثة إلى التسعة، وقال: هكذا رأيت العرب يقولون: وما رأيتهم يقولون بضع ومائة، وروى الشعبي أن النبي عليه الصلاة والسلام قال لأصحابه: «كَم الْبِضْعُ» قالوا: الله ورسوله أعلم قال: «مَا دُونَ الْعَشَرَةِ»(١) واتفق الأكثرون على أن المراد هاهنا ببضع سنين سبع سنين قالوا: إن يوسف عليه السلام حين قال لذلك الرجل: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ كان قد بقي في السجن خمس سنين ثم بقي بعد ذلك سبع سنين. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما تضرع يوسف عليه السلام إلى ذلك الرجل كان قد اقترب وقت خروجه فلما ذكر ذلك لبث في السجن بعده سبع سنين، وروي أن الحسن روى قوله صلوات الله عليه وسلامه: «رَحِمَ اللَّه يُوسُفَ لَوْلاَ الْكَلِمَةُ الَّتِي قَالَهَا لَمَا لَبِثَ فِي السِّجْنِ هَذِهِ الْمُدَّةَ الطَّوِيلَةَ» ثم بكى الحسن وقال: نحن إذا نزل بنا أمر تضرعنا إلى الناس.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

اعلم أنه تعالى إذا أراد شيئًا هيأ له أسبابًا، ولما دنا فرج يوسف عليه السلام رأى ملك مصر في النوم سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات عجاف فابتلعت العجاف السمان، ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها، وسبعًا أخر يابسات، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها فجمع الكهنة وذكرها لهم وهو المراد من قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ﴾ فقال القوم هذه الرؤيا مختلطة فلا نقدر على تأويلها وتعبيرها، فهذا ظاهر الكلام.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الليث: العجف: ذهاب السمن والفعل عَجَف يَعْجُفُ والذكر أعجف والأنثى عجفاء والجمع عجاف في الذكران والإناث. وليس في كلام العرب أفعل وفعلاء جمعًا على فعال غير أعجف وعجاف وهي شاذة حملوها على لفظ سمان فقالوا: سمان وعجاف لأنهما نقيضان ومن دأبهم حمل النظير على النظير، والنقيض على النقيض، واللام في قوله: ﴿لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ على قول البعض زائدة لتقدم المفعول على الفعل، وقال صاحب (الكشاف):

(١) **إسناده مرسل**: الشعبي، وهو عامر بن شراحيل ثقة فاضل من أواسط التابعين.

يجوز أن تكون الرؤيا خبر كان كما تقول: كان فلان لهذا الأمر إذا كان مستقلاً به متمكنًا منه وتعبرون خبرًا آخر أو حالاً، ويقال عبرت الرؤيا أَعْبُرُها وعبرتها تعبيرًا إذا فسرتها، وحكى الأزهري أن هذا مأخوذ من العبر، وهو جانب النهر، ومعنى عبرت النهر والطريق: قطعته إلى الجانب الآخر فقيل لعابر الرؤيا عابر، لأنه يتأمل جانبي الرؤيا فيتفكر في أطرافها وينتقل من أحد الطرفين إلى الآخر، والأضغاث: جمع الضغث وهو الحزمة من أنواع النبت والحشيش بشرط أن يكون مما قام على ساق واستطال قال تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ [ص: ٤٤].

إذا عرفت هذا فنقول: الرؤيا إن كانت مخلوطة من أشياء غير متناسبة كانت شبيهة بالضغث.

المسألة الثانية: أنه تعالى جعل تلك الرؤيا سببًا لخلاص يوسف عليه السلام من السجن، وذلك لأن الملك لما قلق واضطرب بسببه، لأنه شاهد أن الناقص الضعيف استولى على الكامل القوي فشهدت فطرته بأن هذا ليس بجيد وأنه منذر بنوع من أنواع الشر، إلا أنه ما عرف كيفية الحال فيه والشيء إذا صار معلومًا من وجه وبقي مجهولاً من وجه آخر عظم تشوف الناس إلى تكميل تلك المعرفة وقويت الرغبة في إتمام الناقص لا سيما إذا كان الإنسان عظيم الشأن واسع المملكة، وكان ذلك الشيء دالاً على الشر من بعض الوجوه فبهذا الطريق قوى الله داعية ذلك الملك في تحصيل العلم بتعبير هذه الرؤيا، ثم إنه تعالى أعجز المعبرين الذين حضروا عند ذلك الملك عن جواب هذه المسألة وعماه عليهم ليصير ذلك سببًا لخلاص يوسف من تلك المحنة.

واعلم أن القوم ما نفوا عن أنفسهم كونهم عالمين بعلم التعبير، بل قالوا: إن علم التعبير على قسمين منه ما تكون الرؤيا فيه منتسقة منتظمة فيسهل الانتقال من الأمور المتخيلة إلى الحقائق العقلية الروحانية ومنه ما تكون فيه مختلطة مضطربة ولا يكون فيها ترتيب معلوم وهو المسمى بالأضغاث والقوم قالوا: إن رؤيا الملك من قسم الأضغاث ثم أخبروا أنهم غير عالمين بتعبير هذا القسم وكأنهم قالوا هذه الرؤيا مختلطة من أشياء كثيرة وما كان كذلك فنحن لا نهتدي إليها ولا يحيط عقلنا بها وفيها إيهام أن الكامل في هذا العلم والمتبحر فيه قد يهتدي إليها، فعند هذه المقالة تذكر ذلك الشرابي واقعة يوسف فإنه كان يعتقد فيه كونه متبحرًا في هذا العلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

اعلم أن الملك لما سأل الملأ عن الرؤيا واعترف الحاضرون بالعجز عن الجواب قال الشرابي: إن في الحبس رجلاً فاضلاً صالحًا كثير العلم كثير الطاعة قصصت أنا والخباز عليه منامين فذكر تأويلهما فصدق في الكل وما أخطأ في حرف فإن أذنت مضيت إليه وجئتك بالجواب. فهذا هو قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا﴾.

وأما قوله: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ فنقول: سيجيء ادَّكَرَ في تفسير قوله تعالى: ﴿مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر: ٥١] في سورة القمر قال صاحب (الكشاف) ﴿وَٱدَّكَرَ﴾ بالدال هو الفصيح عن الحسن (واذَّكر) بالذال أي تذكر، وأما الأمة ففيه وجوه: **الأول:** ﴿بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ أي بعد حين، وذلك لأن الحين إنما يحصل عند اجتماع الأيام الكثيرة كما أن الأمة إنما تحصل عند اجتماع الجمع العظيم، فالحين كان أمة من الأيام والساعات، **والثاني:** قرأ الأشهب العقيلي (بعد إِمَّةٍ) بكسر الهمزة، والإمة: النعمة قال عدي:

ثُمَّ بَعْدَ الْفَلَاحِ وَالْمُلْكِ وَالْإِمَّةِ وَارَتْهُمْ هُنَاكَ الْقُبُورُ(١)

والمعنى: بعدما أنعم عليه بالنجاة. الثالث: قرئ (بعد أَمَهٍ) أي بعد نسيان يقال أَمَهَ يَأْمَهُ أمهًا إذا نسي والصحيح أنها بفتح الميم وذكره أبو عبيدة بسكون الميم، وحاصل الكلام أنه إما أن يكون المراد وادكر بعد مضي الأوقات الكثيرة من الوقت الذي أوصاه يوسف عليه السلام بذكره عند الملك، والمراد وادكر بعد وجدان النعمة عند ذلك الملك أو المراد وادَّكر بعد النسيان.

فإن قيل: قوله: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ يدل على أن الناسي هو الشرابي وأنتم تقولون الناسي هو يوسف عليه السلام.

قلنا: قال ابن الأنباري: ادَّكر بمعنى ذكر وأخبر، وهذا لا يدل على سبق النسيان فلعل الساقي إنما لم يذكره للملك خوفًا من أن يكون ذلك اذكارًا لذنبه الذي من أجله حبسه فيزداد الشر ويحتمل أيضًا أن يقال: حصل النسيان ليوسف عليه السلام وحصل أيضًا لذلك الشرابي. وأما قوله: ﴿فَأَرۡسِلُونِ﴾ خطاب إما للملك والجمع أو للملك وحده على سبيل التعظيم، أما قوله: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ ففيه محذوف، والتقدير: فأرسل وأتاه وقال أيها الصديق، والصديق هو البالغ في الصدق وصفه بهذه الصفة لأنه لم يجرب عليه كذبًا وقيل: لأنه صدق في تعبير رؤياه وهذا يدل على أن من أراد أن يتعلم من رجل شيئًا فإنه يجب عليه أن يعظمه، وأن يخاطبه بالألفاظ المشعرة بالإجلال ثم إنه أعاد السؤال بعين اللفظ الذي ذكره الملك ونعم ما فعل، فإن تعبير الرؤيا قد يختلف بسبب اختلاف اللفظ كما هو مذكور في ذلك العلم.

أما قوله تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ فالمراد لعلي أرجع إلى الناس بفتواك لعلهم يعلمون فضلك وعلمك وإنما قال: لعلي أرجع إلى الناس بفتواك لأنه رأى عجز سائر المعبرين عن جواب هذه المسألة فخاف أن يعجز هو أيضًا عنها، فلهذا السبب قال: ﴿لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾.

---

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الخفيف وهو هكذا.

ثُمَّ بَعدَ الفلاحِ وَالمُلكِ وَالنعِـ ـمة وارتـهـم هُـنـاكَ الـقُـبـورُ

والشاعر هو عدي بن زيد تقدمت ترجمته.

قوله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

اعلم أنه عليه السلام ذكر تعبير تلك الرؤيا فقال: ﴿تَزْرَعُونَ﴾ وهو خبر بمعنى الأمر، كقوله: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٨] ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ﴾ [البقرة: ٢٣٣] وإنما يخرج الخبر بمعنى الأمر، ويخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في الإيجاب، فيجعل كأنه وجد فهو يخبر عنه والدليل على كونه في معنى الأمر قوله: ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ وقوله: ﴿دَأَبًا﴾ قال أهل اللغة: الدأب: استمرار الشيء على حالة واحدة وهو دائب بفعل كذا إذا استمر في فعله، وقد دَأَبَ يَدْأَبُ دأبًا ودأبًا أي زراعة متوالية في هذه السنين. قال أبو علي الفارسي: الأكثر في دأب الإسكان ولعل الفتحة لغة، فيكون كشَمْع وشَمَع، ونَهْر ونَهَر. قال الزجاج: وانتصب دأبًا على معنى تدأبون دأبًا. وقيل: إنه مصدر وضع في موضع الحال، وتقديره تزرعون دائبين فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون كل ما أردتم أكله فدوسوه ودعوا الباقي في سنبله حتى لا يفسد ولا يقع السوس فيه، لأن إبقاء الحبة في سنبله يوجب بقاءها على الصلاح ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ أي سبع سنين مجدبات، والشداد: الصعاب التي تشتد على الناس، وقوله: ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ هذا مجاز، فإن السنة لا تأكل فيجعل أكل أهل تلك السنين مسندًا إلى السنين. وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ الإحصان: الإحراز، وهو إلقاء الشيء في الحصن يقال: أحصنه إحصانًا إذا جعله في حرز، والمراد إلا قليلاً مما تحرزون أي تدخرون وكلها ألفاظ ابن عباس رضي الله عنهما، وقوله: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ قال المفسرون: السبعة المتقدمة سِنِو الخصب وكثرة النعم والسبعة الثانية سنو القحط والقلة وهي معلومة من الرؤيا، وأما حال هذه السنة فما حصل في ذلك المنام شيء يدل عليه بل حصل ذلك من الوحي فكأنه عليه السلام ذكر أنه يحصل بعد السبعة المخصبة والسبعة المجدبة سنة مباركة كثيرة الخير والنعم، وعن قتادة زاده الله علم سنة.

فإن قيل: لما كانت العجاف سبعًا دل ذلك على أن السنين المجدبة لا تزيد على هذا العدد، ومن المعلوم أن الحاصل بعد انقضاء القحط هو الخصب وكان هذا أيضًا من مدلولات المنام، فلم قلتم: إنه حصل بالوحي والإلهام؟

قلنا: هب أن تبدل القحط بالخصب معلوم من المنام، أما تفصيل الحال فيه، وهو قوله: ﴿فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ لا يعلم إلا بالوحي، قال ابن السكيت يقال: غاث الله البلاد يغيثها غيثًا إذا أنزل فيها الغيث وقد غيثت الأرض تغاث، وقوله: ﴿يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ معناه يمطرون، ويجوز أن يكون من قولهم: أغاثه الله إذا أنقذه من كرب أو غم، ومعناه ينقذ الناس فيه من كرب الجدب،

وقوله: ﴿وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾ أي يعصرون السمسم دهنًا والعنب خمرًا والزيتون زيتًا، وهذا يدل على ذهاب الجدب وحصول الخصب والخير، وقيل: يحلبون الضروع، وقرئ (يُعْصَرون) من عصره إذا نجاه، وقيل: معناه يمطرون من أعصرت السحابة إذا عصرت بالمطر، ومنه قوله: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا﴾ [النبأ: ١٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ۝٥٠ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٥١ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ۝٥٢﴾

اعلم أنه لما رجع الشرابي إلى الملك وعرض عليه التعبير الذي ذكره يوسف عليه السلام استحسنه الملك فقال: ائتوني به، وهذا يدل على فضيلة العلم، فإنه سبحانه جعل علمه سببًا لخلاصه من المحنة الدنيوية، فكيف لا يكون العلم سببًا للخلاص من المحن الأخروية، فعاد الشرابي إلى يوسف عليه السلام قال: أجب الملك، فأبى يوسف عليه السلام أن يخرج من السجن إلا بعد أن ينكشف أمره وتزول التهمة بالكلية عنه. وعن النبي ﷺ قال: «عَجِبْتُ مِنْ يُوسُفَ وَكَرَمِهِ وَصَبْرِهِ واللَّه يَغْفِرُ لَهُ حِينَ سُئِلَ عَنِ الْبَقَرَاتِ الْعِجَافِ وَالسِّمَانِ وَلَوْ كُنْتُ مَكَانَهُ لَمَا أَخْبَرْتُهُمْ حَتَّى اشْتَرَطْتُ أَنْ يخرجوني وَلَقَدْ عَجِبْتُ مِنْهُ حِينَ أَتَاهُ الرَّسُولُ فَقَالَ: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وَلَوْ كُنْتُ مَكَانَهُ وَلَبِثْتُ في السجن ما لبثت لأسرعت الإجابة وَبَادَرْتُهُمْ إِلَى الْبَابِ وَلَمَا ابْتَغَيْتُ الْعُذْرَ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا ذَا أَنَاةٍ»(١).

واعلم أن الذي فعله يوسف من الصبر والتوقف إلى أن تفحص الملك عن حاله هو اللائق بالحزم والعقل، وبيانه من وجوه: **الأول**: أنه لو خرج في الحال فربما كان يبقى في قلب الملك من تلك التهمة أثرها، فلما التمس من الملك أن يتفحص عن حال تلك الواقعة دل ذلك على براءته من تلك التهمة فبعد خروجه لا يقدر أحد أن يلطخه بتلك الرذيلة وأن يتوسل بها إلى الطعن فيه. **الثاني**: أن الإنسان الذي بقي في السجن اثنتي عشرة سنة إذا طلبه الملك وأمر بإخراجه الظاهر أنه يبادر بالخروج، فحيث لم يخرج عرف منه كونه في نهاية العقل والصبر والثبات، وذلك يصير سببًا لأن يعتقد فيه بالبراءة عن جميع أنواع التهم، ولأن يحكم بأن كل ما قيل فيه كان كذبًا وبهتانًا. **الثالث**: أن التماسه من الملك أن يتفحص عن حاله من تلك النسوة يدل أيضًا على

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٦/ ١٣٦) حديث رقم/ ١٩٤٠٣، وابن أبي حاتم في (تفسيره) (٨/ ٣٨١) حديث رقم/ ١٢٥٣٨، كلاهما من طريق ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن عكرمة... به، وهذا مرسل.

شدة طهارته إذ لو كان ملوثًا بوجه ما، لكان خائفًا أن يذكر ما سبق. **الرابع:** أنه حين قال للشرابي: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] فبقي بسبب هذه الكلمة في السجن بضع سنين وهاهنا طلبه الملك فلم يلتفت إليه ولم يقم لطلبه وزنًا، واشتغل بإظهار براءته عن التهمة، ولعله كان غرضه عليه السلام من ذلك أن لا يبقى في قلبه التفات إلى رد الملك وقبوله، وكان هذا العمل جاريًا مجرى التلافي لما صدر من التوسل إليه في قوله: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] ليظهر أيضًا هذا المعنى لذلك الشرابي، فإنه هو الذي كان واسطة في الحالتين معًا.

أما قوله: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾.

ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: قرأ ابن كثير والكسائي (فَسَلْهُ) بغير همز، والباقون (فاسأله) بالهمز، وقرأ عاصم برواية أبي بكر عنه (النُّسوة) بضم النون والباقون بكسر النون، وهما لغتان.

المسألة الثانية: اعلم أن هذه الآية فيها أنواع من اللطائف: **أولها:** أن معنى الآية: فسل الملك يأن يسأل ما شأن تلك النسوة وما حالهن ليعلم براءتي عن تلك التهمة، إلا أنه اقتصر على أن يسأل الملك عن تلك الواقعة لئلا يشتمل اللفظ على ما يجري مجرى أمر الملك بعمل أو فعل، **وثانيها:** أنه لم يذكر سيدته مع أنها هي التي سعت في إلقائه في السجن الطويل، بل اقتصر على ذكر سائر النسوة. **وثالثها:** أن الظاهر أن أولئك النسوة نسبنه إلى عمل قبيح وفعل شنيع عند الملك، فاقتصر يوسف عليه السلام على مجرد قوله: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ﴾ وما شكا منهن على سبيل التعيين والتفصيل. ثم قال يوسف بعد ذلك: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾ وفي المراد من قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ وجهان:

الأول: أنه هو الله تعالى، لأنه تعالى هو العالم بخفيات الأمور.

والثاني: أن المراد الملك وجعله ربًّا لنفسه لكونه مربيًا له وفيه إشارة إلى كون ذلك الملك عالمًا بكيدهن ومكرهن.

واعلم أن كيدهن في حقه يحتمل وجوهًا:

أحدها: أن كل واحدة منهن ربما طمعت فيه، فلما لم تجد المطلوب أخذت تطعن فيه وتنسبه إلى القبيح. **وثانيها:** لعل كل واحدة منهن بالغت في ترغيب يوسف في موافقة سيدته على مرادها، ويوسف علم أن مثل هذه الخيانة في حق السيد المنعم لا تجوز، فأشار بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾ إلى مبالغتهن في الترغيب في تلك الخيانة. **وثالثها:** أنه استخرج منهن وجوهًا من المكر والحيل في تقبيح صورة يوسف عليه السلام عند الملك فكان المراد من هذا اللفظ ذاك، ثم إنه تعالى حكى عن يوسف عليه السلام أنه لما التمس ذلك، أمر الملك بإحضارهن وقال لهن: ﴿مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾.

وفيه وجهان:

الأول: أن قوله: ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ وإن كانت صيغة الجمع، فالمراد منها الواحدة كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

والثاني: أن المراد منه خطاب الجماعة. ثم ههنا وجهان: **الأول:** أن كل واحدة منهن راودت يوسف عن نفسها. **والثاني:** أن كل واحدة منهن راودت يوسف لأجل امرأة العزيز فاللفظ محتمل لكل هذه الوجوه، وعند هذا السؤال ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ وهذا كالتأكيد لما ذكرن في أول الأمر في حقه وهو قولهن: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

واعلم أن امرأة العزيز كانت حاضرة، وكانت تعلم أن هذه المناظرات والتفحصات إنما وقعت بسببها ولأجلها فكشفت عن الغطاء وصرحت بالقول الحق وقالت: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: هذه شهادة جازمة من تلك المرأة بأن يوسف صلوات الله عليه كان مبرأ عن كل الذنوب مطهرًا عن جميع العيوب، وهاهنا دقيقة، وهي أن يوسف عليه السلام راعى جانب امرأة العزيز حيث قال: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ فذكرهن ولم يذكر تلك المرأة ألبتة فعرفت المرأة أنه إنما ترك ذكرها رعاية لحقها وتعظيمًا لجانبها وإخفاء للأمر عليها، فأرادت أن تكافئه على هذا الفعل الحسن فلا جرم أزالت الغطاء والوطاء واعترفت بأن الذنب كله كان من جانبها وأن يوسف عليه السلام كان مبرأ عن الكل، ورأيت في بعض الكتب أن امرأة جاءت بزوجها إلى القاضي وادعت عليه المهر، فأمر القاضي بأن يكشف عن وجهها حتى تتمكن الشهود من إقامة الشهادة، فقال الزوج: لا حاجة إلى ذلك، فإني مقر بصدقها في دعواها، فقالت المرأة: لما أكرمتني إلى هذا الحد فاشهدوا أني أبرأت ذمتك من كل حق لي عليك.

المسألة الثانية: قال أهل اللغة: ﴿حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ معناه: وضح وانكشف وتمكن في القلوب والنفوس من قولهم: حصحص البعير في بروكه: إذا تمكن واستقر في الأرض. قال الزجاج: اشتقاقه في اللغة من الحصة، أي بانت حصة الحق من حصة الباطل.

المسألة الثالثة: اختلفوا في أن قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ كلام من؟

وفيه أقوال:

القول الأول: وهو قول الأكثرين: أنه قول يوسف عليه السلام. قال الفراء: ولا يبعد وصل كلام إنسان بكلام إنسان آخر إذا دلت القرينة عليه، ومثاله قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ [النمل: ٣٤] وهذا كلام بلقيس. ثم إنه تعالى قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ

يَفۡعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤] وأيضًا قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٍ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾ [آل عمران: ٩] كلام الداعي.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩] بقي على هذا القول سؤالات:

السؤال الأول: قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الغائب، والمراد هاهنا: الإشارة إلى تلك الحادثة الحاضرة.

والجواب: أجبنا عنه في قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ٢] وقيل: ذلك إشارة إلى ما فعله من رد الرسول كأنه يقول ذلك الذي فعلت من ردي الرسول إنما كان، ليعلم الملك أني لم أخنه بالغيب.

السؤال الثاني: متى قال يوسف عليه السلام هذا القول؟

الجواب: روى عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن يوسف عليه السلام لما دخل على الملك قال ذلك ليعلم وإنما ذكره على لفظ الغيبة تعظيمًا للملك عن الخطاب والأولى أنه عليه السلام إنما قال ذلك عند عود الرسول إليه لأن ذكر هذا الكلام في حضرة الملك سوء أدب.

السؤال الثالث: هذه الخيانة وقعت في حق العزيز فكيف يقول: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾.

والجواب: قيل المراد ليعلم الملك أني لم أخن العزيز بالغيبة، وقيل: إنه إذا خان وزيره فقد خانه من بعض الوجوه، وقيل: إن الشرابي لما رجع إلى يوسف عليه السلام وهو في السجن قال ذلك ليعلم العزيز أني لم أخنه بالغيب ثم ختم الكلام بقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ ولعل المراد منه أني لو كنت خائنًا لما خلصني الله تعالى من هذه الورطة، وحيث خلصني منها ظهر أني كنت مبرأ عما نسبوني إليه.

والقول الثاني: أن قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ كلام امرأة العزيز، والمعنى: أني وإن أحلت الذنب عليه عند حضوره لكني ما أحلت الذنب عليه عند غيبته، أي لم أقل فيه وهو في السجن خلاف الحق. ثم إنها بالغت في تأكيد الحق بهذا القول، وقالت: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ يعني أني لما أقدمت على الكيد والمكر لا جرم افتضحت وأنه لما كان بريئًا عن الذنب لا جرم طهره الله تعالى عنه. قال صاحب هذا القول: والذي يدل على صحته أن يوسف عليه السلام ما كان حاضرًا في ذلك المجلس حتى يقال لما ذكرت المرأة قولها: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ففي تلك الحالة يقول يوسف: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ بل يحتاج فيه إلى أن يرجع الرسول من ذلك المجلس إلى السجن ويذكر له تلك الحكاية، ثم إن يوسف يقول ابتداء ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ ومثل هذا الوصل بين الكلامين الأجنبيين ما جاء ألبتة في نثر ولا نظم فعلمنا أن هذا من تمام كلام المرأة.

المسألة الرابعة: هذه الآية دالة على طهارة يوسف عليه السلام من الذنب من وجوه كثيرة:

التقديرين، أما إذا قلنا: إن هذا كلام يوسف عليه السلام فالحشوية تمسكوا به وقالوا: إنه عليه السلام لما قال: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ قال جبريل عليه السلام: ولا حين هممت بفك سراويلك فعند ذلك قال يوسف: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ أي بالزنا ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ﴾ أي عصم ربي ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ﴾ للهم الذي هممت به ﴿رَّحِيمٌ﴾ أي لو فعلته لتاب علي.

واعلم أن هذا الكلام ضعيف فإنا بينا أن الآية المتقدمة برهان قاطع على براءته عن الذنب بقي أن يقال: فما جوابكم عن هذه الآية فنقول:

فيه وجهان:

الوجه الأول: أنه عليه السلام لما قال: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ كان ذلك جاريًا مجرى مدح النفس وتزكيتها، وقال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢] فاستدرك ذلك على نفسه بقوله: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ﴾ والمعنى: وما أزكي نفسي إن النفس لأمارة بالسوء ميالة إلى القبائح راغبة في المعصية.

والوجه الثاني: في الجواب أن الآية لا تدل ألبتة على شيء مما ذكروه، وذلك لأن يوسف عليه السلام لما قال: ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ بيَّن أن ترك الخيانة ما كان لعدم الرغبة ولعدم ميل النفس والطبيعة، لأن النفس أمارة بالسوء والطبيعة تواقة إلى اللذات فبين بهذا الكلام أن الترك ما كان لعدم الرغبة، بل لقيام الخوف من الله تعالى. أما إذا قلنا: إن هذا الكلام من بقية كلام المرأة ففيه وجهان: الأول: وما أبرئ نفسي عن مراودته ومقصودها تصديق يوسف عليه السلام في قوله: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ﴾ [يوسف: ٢٦] الثاني: أنها لما قالت: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢] قالت وما أبرئ نفسي عن الخيانة مطلقًا فإني قد خنته حين قد أحلت الذنب عليه وقلت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥] وأودعته السجن؛ كأنها أرادت الاعتذار مما كان.

فإن قيل: جعل هذا الكلام كلامًا ليوسف أولى أم جعله كلامًا للمرأة؟

قلنا: جعله كلامًا ليوسف مشكل، لأن قوله: ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ [يوسف: ٥١] كلام موصول بعضه ببعض إلى آخره، فالقول بأن بعضه كلام المرأة والبعض كلام يوسف مع تخلل الفواصل الكثيرة بين القولين وبين المجلسين بعيد، وأيضًا جعله كلامًا للمرأة مشكل أيضًا، لأن قوله: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ﴾ كلام لا يحسن صدوره إلا ممن احترز عن المعاصي، ثم يذكر هذا الكلام على سبيل كسر النفس، وذلك لا يليق بالمرأة التي استفرغت جهدها في المعصية.

المسألة الثانية: قالوا: ﴿وَمَا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ﴾ بمعنى (من) والتقدير: إلا من رحم ربي، وما ومن كل واحد منهما يقوم مقام الآخر كقوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣] وقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ۚ﴾ [النور: ٤٥] وقوله: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ﴾ استثناء

الأول: أن الملك لما أرسل إلى يوسف عليه السلام وطلبه فلو كان يوسف متهمًا بفعل قبيح وقد كان صدر منه ذنب وفحش لاستحال بحسب العرف والعادة أن يطلب من الملك أن يتفحص عن تلك الواقعة، لأنه لو كان قد أقدم على الذنب ثم إنه يطلب من الملك أن يتفحص عن تلك الواقعة كان ذلك سعيًا منه في فضيحة نفسه وفي تجديد العيوب التي صارت مندرسة مخفية والعاقل لا يفعل ذلك، وهب أنه وقع الشك لبعضهم في عصمته أو في نبوته إلا أنه لا شك أنه كان عاقلاً، والعاقل يمتنع أن يسعى في فضيحة نفسه وفي حمل الأعداء على أن يبالغوا في إظهار عيوبه. والثاني: أن النسوة شهدن في المرة الأولى بطهارته ونزاهته حيث قلن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١] وفي المرة الثانية حيث قلن: ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ والثالث: أن امرأة العزيز أقرت في المرة الأولى بطهارته حيث قالت: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢] وفي المرة الثانية في هذه الآية.

واعلم أن هذه الآية دالة على طهارته من وجوه: أولها: قول المرأة: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ وثانيها: قولها: ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وهو إشارة إلى أنه صادق في قوله: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ [يوسف: ٢٦] وثالثها: قول يوسف عليه السلام: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ والحشوية يذكرون أنه لما قال يوسف هذا الكلام، قال جبريل عليه السلام: ولا حين هممت؟ وهذا من رواياتهم الخبيثة وما صحت هذه الرواية في كتاب معتمد، بل هم يلحقونها بهذا الموضع سعيًا منهم في تحريف ظاهر القرآن. ورابعها: قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ يعني أن صاحب الخيانة لا بد وأن يفتضح، فلو كنت خائنًا لوجب أن افتضح وحيث لم افتضح وخلصني الله تعالى من هذه الورطة، فكل ذلك يدل على أني ما كنت من الخائنين، وهاهنا وجه آخر وهو أقوى من الكل، وهو أن في هذا الوقت تلك الواقعة صارت مندرسة، وتلك المحنة صارت منتهية، فإقدامه على قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ مع أنه خانه بأعظم وجوه الخيانة إقدام على وقاحة عظيمة، وعلى كذب عظيم من غير أن يتعلق به مصلحة بوجه ما، والإقدام على مثل هذه الوقاحة من غير فائدة أصلاً لا يليق بأحد من العقلاء، فكيف يليق إسناده إلى سيد العقلاء، وقدوة الأصفياء؟ فثبت أن هذه الآية تدل دلالة قاطعة على براءته مما يقوله الجهال والحشوية.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن تفسير هذه الآية يختلف بحسب اختلاف ما قبلها لأنا إن قلنا إن قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢] كلام يوسف كان هذا أيضًا من كلام يوسف، وإن قلنا: إن ذلك من تمام كلام المرأة كان هذا أيضًا كذلك ونحن نفسر هذه الآية على كلا

متصل أو منقطع، فيه وجهان: الأول: أنه متصل، وفي تقريره وجهان: الأول: أن يكون قوله: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ أي إلا البعض الذي رحمه ربي بالعصمة كالملائكة. الثاني: إلا ما رحم ربي أي إلا وقت رحمة ربي يعني أنها أمّارة بالسوء في كل وقت إلا في وقت العصمة.

والقول الثاني: أنه استثناء منقطع أي ولكن رحمة ربي هي التي تصرف الإساءة كقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ۝ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ [يس: ٤٣-٤٤].

المسألة الثالثة: اختلف الحكماء في أن النفس الأمارة بالسوء ما هي؟ والمحققون قالوا إن النفس الإنسانية شيء واحد، ولها صفات كثيرة فإذا مالت إلى العالم الإلهي كانت نفسًا مطمئنة، وإذا مالت إلى الشهوة والغضب كانت أمارة بالسوء، وكونها أمارة بالسوء يفيد المبالغة والسبب فيه أن النفس من أول حدوثها قد ألفت المحسوسات والتذت بها وعشقتها، فأما شعورها بعالم المجردات وميلها إليه، فذلك لا يحصل إلا نادرًا في حق الواحد، فالواحد وذلك الواحد فإنما يحصل له ذلك التجرد والانكشاف طول عمره في الأوقات النادرة فلما كان الغالب هو انجذابها إلى العالم الجسداني وكان ميلها إلى الصعود إلى العالم الأعلى نادرًا لا جرم حكم عليها بكونها أمارة بالسوء، ومن الناس من زعم أن النفس المطمئنة هي النفس العقلية النطقية، وأما النفس الشهوانية والغضبية فهما مغايرتان للنفس العقلية، والكلام في تحقيق الحق في هذا الباب مذكور في المعقولات.

المسألة الرابعة: تمسك أصحابنا في أن الطاعة والإيمان لا يحصلان إلا من الله بقوله: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ قالوا: دلت الآية على أن انصراف النفس من الشر لا يكون إلا برحمته؛ ولفظ الآية مشعر بأنه متى حصلت تلك الرحمة حصل ذلك الانصراف. فنقول: لا يمكن تفسير هذه الرحمة بإعطاء العقل والقدرة والألطاف كما قاله القاضي لأن كل ذلك مشترك بين الكافر والمؤمن فوجب تفسيرها بشيء آخر، وهو ترجيح داعية الطاعة على داعية المعصية وقد أثبتنا ذلك أيضًا بالبرهان القاطع وحينئذ يحصل منه المطلوب.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝٥٤ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝٥٥﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في هذا الملك فمنهم من قال: هو العزيز، ومنهم من قال: بل هو الريان الذي هو الملك الأكبر، وهذا هو الأظهر لوجهين: الأول: أن قول يوسف: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ يدل عليه. الثاني: أن قوله: ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ يدل على أنه قبل ذلك ما كان خالصًا له، وقد كان يوسف عليه السلام قبل ذلك خالصًا للعزيز، فدل هذا على أن هذا الملك هو الملك الأكبر.

المسألة الثانية: ذكروا أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام وهو في الحبس وقال: «قُلِ اللَّهُمَّ اجْعَلْ لِي مِنْ عِنْدِكَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا وَارْزُقْنِي مِنْ حَيْثُ لاَ أَحْتَسِبُ» فقبل الله دعاءه وأظهر هذا السبب في تخليصه من السجن، وتقرير الكلام: أن الملك عظم اعتقاده في يوسف لوجوه: **أحدها**: أنه عظم اعتقاده في علمه، وذلك لأنه لما عجز القوم عن الجواب وقدر هو على الجواب الموافق الذي يشهد العقل بصحته مال الطبع إليه. **وثانيها**: أنه عظم اعتقاده في صبره وثباته، وذلك لأنه بعد أن بقي في السجن بضع سنين لما أذن له في الخروج ما أسرع إلى الخروج بل صبر وتوقف وطلب أولاً ما يدل على براءة حاله عن جميع التهم. **وثالثها**: أنه عظم اعتقاده في حسن أدبه، وذلك لأنه اقتصر على قوله: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٥٠] وإن كان غرضه ذكر امرأة العزيز فستر ذكرها، وتعرض لأمر سائر النسوة مع أنه وصل إليه من جهتها أنواع عظيمة من البلاء وهذا من الأدب العجيب. **ورابعها**: براءة حاله عن جميع أنواع التهم فإن الخصم أقر له بالطهارة والنزاهة والبراءة عن الجرم. **وخامسها**: أن الشرابي وصف له جده في الطاعات واجتهاده في الإحسان إلى الذين كانوا في السجن. **وسادسها**: أنه بقي في السجن بضع سنين، وهذه الأمور كل واحد منها يوجب حسن الاعتقاد في الإنسان، فكيف مجموعها، فلهذا السبب حسن اعتقاد الملك فيه وإذا أراد الله شيئًا جمع أسبابه وقواها.

إذا عرفت هذا فنقول: لما ظهر للملك هذه الأحوال من يوسف عليه السلام رغب أن يتخذه لنفسه فقال: ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ روي أن الرسول قال ليوسف عليه السلام: قم إلى الملك متنظفًا من درن السجن بالثياب النظيفة والهيئة الحسنة فكتب على باب السجن هذه منازل البلوى وقبور الأحياء وشماتة الأعداء وتجربة الأصدقاء، ولما دخل عليه قال اللهم إني أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره ثم دخل عليه وسلم ودعا له بالعبرانية، والاستخلاص: طلب خلوص الشيء من شوائب الاشتراك وهذا الملك طلب أن يكون يوسف له وحده وأنه لا يشاركه فيه غيره لأن عادة الملوك أن ينفردوا بالأشياء النفيسة الرفيعة فلما علم الملك أنه وحيد زمانه وفريد أقرانه أراد أن ينفرد به.

روي أن الملك قال ليوسف عليه السلام: ما من شيء إلا وأحب أن تشركني فيه إلا في أهلي وفي أن لا تأكل معي فقال يوسف عليه السلام، أما ترى أن آكل معك، وأنا يوسف بن يعقوب بن إسحاق الذبيح ابن إبراهيم الخليل عليه السلام، ثم قال: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أن المراد فلما كلم الملك يوسف عليه السلام قالوا لأن في مجالس الملوك لا يحسن لأحد أن يبتدئ بالكلام وإنما الذي يبتدئ به هو الملك، والثاني: أن المراد: فلما كلم يوسف الملك قيل: لما صار يوسف إلى الملك وكان ذلك الوقت ابن ثلاثين سنة، فلما رآه الملك حدثًا شابًا قال للشرابي: هذا هو الذي علم تأويل رؤياي مع أن السحرة والكهنة ماعلموها قال: نعم، فأقبل على يوسف وقال: إني أحب أن أسمع تأويل الرؤيا منك شفاهًا، فأجاب بذلك الجواب

شفاهًا وشهد قلبه بصحته، فعند ذلك قال له: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ يقال: فلان مكين عند فلان بيِّن المكانة أي المنزلة، وهي حالة يتمكن بها صاحبها مما يريد. وقوله: ﴿أَمِينٌ﴾ أي قد عرفنا أمانتك وبراءتك مما نسبت إليه.

واعلم أن قوله: ﴿مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ كلمة جامعة لكل ما يحتاج إليه من الفضائل والمناقب، وذلك لأنه لا بد في كونه مكينًا من القدرة والعلم. أما القدرة فلأن بها يحصل المكنة. وأما العلم فلأن كونه متمكنًا من أفعال الخير لا يحصل إلا به إذ لو لم يكن عالمًا بما ينبغي وبما لا ينبغي لا يمكنه تخصيص ما ينبغي بالفعل، وتخصيص ما لا ينبغي بالترك، فثبت أن كونه مكينًا لا يحصل إلا بالقدرة والعلم. أما كونه أمينًا فهو عبارة عن كونه حكيمًا لا يفعل الفعل لداعي الشهوة بل إنما يفعله لداعي الحكمة، فثبت أن كونه مكينًا أمينًا يدل على كونه قادرًا، وعلى كونه عالمًا بمواقع الخير والشر والصلاح والفساد، وعلى كونه بحيث يفعل لداعي الحكمة لا لداعية الشهوة، وكل من كان كذلك فإنه لا يصدر عنه فعل الشر والسفه فلهذا المعنى لما حاولت المعتزلة إثبات أنه تعالى لا يفعل القبيح قالوا إنه تعالى لا يفعل القبيح لأنه تعالى عالم بقبح القبيح عالم بكونه غنيًا عنه وكل من كان كذلك لم يفعل القبيح قالوا: وإنما يكون غنيًا عن القبيح إذا كان قادرًا، وإذا كان منزهًا عن داعية السفه فثبت أن وصفه بكونه مكينًا أمينًا نهاية ما يمكن ذكره في هذا الباب ثم حكى تعالى أن يوسف عليه السلام قال في هذا المقام ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال المفسرون: لما عبر يوسف عليه السلام رؤيا الملك بين يديه قال له الملك: فما ترى أيها الصديق قال: أرى أن تزرع في هذه السنين المخصبة زرعًا كثيرًا وتبني الخزائن وتجمع فيها الطعام فإذا جاءت السنون المجدبة بعنا الغلات فيحصل بهذا الطريق مال عظيم فقال الملك: ومن لي بهذا الشغل فقال يوسف: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ أي على خزائن أرض مصر وأدخل الألف واللام على الأرض، والمراد منه المعهود السابق. روى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيﷺ في هذه الآية أنه قال: «رَحِمَ اللَّه أَخِي يُوسُفَ لَوْ لَمْ يَقُلِ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ لَاسْتَعْمَلَهُ مِنْ سَاعَتِهِ لَكِنَّهُ لَمَّا قَالَ ذَلِكَ أَخَّرَهُ عَنْهُ سَنَةً»(١) وأقول هذا من العجائب لأنه لما تأبى عن الخروج من السجن سهل الله عليه ذلك على أحسن الوجوه، ولما

(١) أورده الثعلبي في (الكشف والبيان) (٥/ ٢٣١)، وقال: روى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس... فذكره، وجويبر متروك الحديث، وأورده الألباني في (الضعيفة) (١/ ٣٣١) حديث رقم/ ٣٢٩، وقال: قال الحافظ ابن حجر في (تخريج الكشاف) (٤/ ٩٠): أخرجه الثعلبي عن ابن عباس من رواية إسحاق بن بشر عن جويبر عن الضحاك عنه، وهذا إسناد ساقط ومن طريق الثعالبي رواه الواحدي في (تفسيره) (٩٣/ ١).

تسارع في ذكر الالتماس أخر الله تعالى ذلك المطلوب عنه وهذا يدل على أن ترك التصرف والتفويض بالكلية إلى الله تعالى أولى.

المسألة الثانية: لقائل أن يقول: لم طلب يوسف الإمارة والنبي عليه الصلاة والسلام قال لعبد الرحمن بن سمرة: «لاَ تَسْأَلِ الإِمَارَةَ» (١) وأيضًا فكيف طلب الإمارة من سلطان كافر، وأيضًا لِمَ لَمْ يصبر مدة ولِمَ أظهر الرغبة في طلب الإمارة في الحال، وأيضًا لم طلب أمر الخزائن في أول الأمر، مع أن هذا يورث نوع تهمة وأيضًا كيف جوز من نفسه مدح نفسه بقوله: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ مع أنه تعالى يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢] وأيضًا فما الفائدة في قوله: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ وأيضًا لم ترك الاستثناء في هذا فإن الأحسن أن يقول: إني حفيظ عليم إن شاء الله بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤] فهذه أسئلة سبعة لا بد من جوابها فنقول: الأصل في جواب هذه المسائل أن التصرف في أمور الخلق كان واجبًا عليه، فجاز له أن يتوصل إليه بأي طريق كان، إنما قلنا: إن ذلك التصرف كان واجبًا عليه لوجوه: الأول: أنه كان رسولاً حقًّا من الله تعالى إلى الخلق، والرسول يجب عليه رعاية مصالح الأمة بقدر الإمكان، والثاني: وهو أنه عليه السلام علم بالوحي أنه سيحصل القحط والضيق الشديد الذي ربما أفضى إلى هلاك الخلق العظيم، فلعله تعالى أمره بأن يدبر في ذلك ويأتي بطريق لأجله يقل ضرر ذلك القحط في حق الخلق، والثالث: أن السعي في إيصال النفع إلى المستحقين ودفع الضرر عنهم أمر مستحسن في العقول.

وإذا ثبت هذا فنقول: إنه عليه السلام كان مكلفًا برعاية مصالح الخلق من هذه الوجوه، وما كان يمكنه رعايتها إلا بهذا الطريق، وما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب، فكان هذا الطريق واجبًا عليه ولما كان واجبًا سقطت الأسئلة بالكلية، وأما ترك الاستثناء فقال الواحدي: كان ذلك من خطيئة أوجبت عقوبة وهي أنه تعالى أخر عنه حصول ذلك المقصود سنة، وأقول: لعل السبب فيه أنه لو ذكر هذا الاستثناء لاعتقد فيه الملك أنه إنما ذكره لعلمه بأنه لا قدرة له على ضبط هذه المصلحة كما ينبغي فلأجل هذا المعنى ترك الاستثناء، وأما قوله لم مدح نفسه فجوابه من وجوه: الأول: لا نسلم أنه مدح نفسه لكنه بيَّن كونه موصوفًا بهاتين الصفتين النافعتين في حصول هذا المطلوب، وبين البابين فرق وكأنه قد غلب على ظنه أنه يحتاج إلى ذكر هذا الوصف لأن الملك وإن علم كماله في علوم الدين لكنه ما كان عالمًا بأنه يفي بهذا الأمر، ثم نقول هب أنه مدح نفسه إلا أن مدح النفس إنما يكون مذمومًا إذا قصد الرجل به التطاول والتفاخر والتوصل

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الأيمان) باب قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥] (١١/ ٥٢٥) حديث رقم/ ٦٦٢٢، من طريق محمد بن الفضل... به، ومسلم في كتاب (الأيمان) باب (من حلف يمينًا ثم رأى خيرًا منها) (٣/ ١٩/ ١٢٧٣) من طريق شيبان بن فروخ... به، كلاهما عن جرير بن حازم... به.

إلى غير ما يحل، فأما على غير هذا الوجه فلا نسلم أنه محرم فقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [النجم: ٣٢] المراد منه تزكية النفس حال مايعلم كونها غير متزكية، والدليل عليه قوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢] أما إذا كان الإنسان عالمًا بأنه صدق وحق فهذا غير ممنوع منه، والله أعلم.

قوله ما الفائدة في وصفه نفسه بأنه حفيظ عليم؟

قلنا: إنه جار مجرى أن يقول: حفيظ بجميع الوجوه التي منها يمكن تحصيل الدخل والمال، عليم بالجهات التي تصلح لأن يصرف المال إليها، ويقال: حفيظ بجميع مصالح الناس، عليم بجهات حاجاتهم أو يقال: حفيظ لوجوه أياديك وكرمك، عليم بوجوب مقابلتها بالطاعة والخضوع، وهذا باب واسع يمكن تكثيره لمن أراده.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٦ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٥٧﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن يوسف عليه السلام لما التمس من الملك أن يجعله على خزائن الأرض لم يحك الله عن الملك أنه قال: قد فعلت، بل الله سبحانه قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فهاهنا المفسرون قالوا: في الكلام محذوف وتقديره: قال الملك قد فعلت، إلا أن تمكين الله له في الأرض يدل على أن الملك قد أجابه إلى ما سأل. وأقول: ما قالوه حسن، إلا أن هاهنا ما هو أحسن منه وهو أن إجابة الملك له سبب في عالم الظاهر وأما المؤثر الحقيقي: فليس إلا أنه تعالى مكنه في الأرض، وذلك لأن ذلك الملك كان متمكنًا من القبول ومن الرد، فنسبة قدرته إلى القبول وإلى الرد على التساوي، وما دام يبقى هذ التساوي امتنع حصول القبول، فلا بد وأن يترجح القبول على الرد في خاطر ذلك الملك، وذلك الترجح لا يكون إلا بمرجح يخلقه الله تعالى، إذا خلق الله تعالى ذلك المرجح حصل القبول لا محالة، فالتمكين ليوسف في الأرض ليس إلا مِنْ خلق الله تعالى في قلب ذلك الملك بمجموع القدرة والداعية الجازمة اللتين عند حصولهما يجب حصول الأثر، فلهذا السبب ترك الله تعالى ذكر إجابة الملك واقتصر على ذكر التمكين الإلهي، لأن المؤثر الحقيقي ليس إلا هو.

المسألة الثانية: روي أن الملك تَوَّجَهُ وأخرج خاتم الملك وجعله في أصبعه وقلده سيفه ووضع له سريرًا من ذهب مكللاً بالدر والياقوت، فقال يوسف عليه السلام: أما السرير فأشد به ملكك وأما الخاتم فأدبر به أمرك، وأما التاج فليس من لباسي ولا لباس آبائي، وجلس على السرير ودانت له القوم، وعزل الملك قطفير زوج المرأة المعلومة ومات بعد ذلك وزوجه الملك امرأته، فلما

دخل عليها قال: أليس هذا خيرًا مما طلبت، فوجدها عذراء فولدت له ولدين أفرايم وميشا وأقام العدل بمصر وأحبته الرجال والنساء، وأسلم على يده الملك وكثير من الناس وباع من أهل مصر في سني القحط الطعام بالدراهم والدنانير في السنة الأولى ثم بالحلي والجواهر في السنة الثانية ثم بالدواب ثم بالضياع والعقار ثم برقابهم حتى استرقهم سنين فقالوا: والله ما رأينا ملكًا أعظم شأنًا من هذا الملك حتى صار كل الخلق عبيدًا له فلما سمع ذلك قال: إني أشهد الله أني أعتقت أهل مصر عن آخرهم ورددت عليهم أملاكهم، وكان لا يبيع لأحد ممن يطلب الطعام أكثر من حمل البعير لئلا يضيق الطعام على الباقين هكذا رواه صاحب (الكشاف) والله أعلم.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الكاف منصوبة بالتمكين، وذلك إشارة إلى ما تقدم يعني به: ومثل ذلك الإنعام الذي أنعمنا عليه في تقريبنا إياه من قلب الملك وإنجائنا إياه من غم الحبس، وقوله: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أقدرناه على ما يريد برفع الموانع وقوله: ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ يتبوأ في موضع نصب على الحال تقديره: مكناه مُتبوأ وقرأ ابن كثير: (نشاء) بالنون مضافًا إلى الله تعالى والباقون بالياء مضافًا إلى يوسف.

واعلم أن قوله: ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ يدل على أنه صار في الملك بحيث لا يدافعه أحد، ولا ينازعه منازع بل صار مستقلاً بكل ما شاء وأراد ثم بيَّن تعالى ما يؤكد أن ذلك من قِبَله فقال: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾.

واعلم أنه تعالى ذكر أولاً أن ذلك التمكين كان من الله لا من أحد سواه وهو قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ثم أكد ذلك ثانيًا بقوله: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾.

وفيه فائدتان:

الفائدة الأولى: أن هذا يدل على أن الكل من الله تعالى. قال القاضي: تلك المملكة لما لم تتم إلا بأمور فعلها الله تعالى صارت كأنها حصلت من قبله تعالى.

وجوابه: أنا ندعي أن نفس تلك المملكة إنما حصلت من قبل الله تعالى، لأن لفظ القرآن يدل على قولنا، والبرهان القاطع الذي ذكرناه يقوي قولنا، فصرف هذا اللفظ إلى المجاز لا سبيل إليه.

الفائدة الثانية: أنه آتاه ذلك الملك بمحض المشيئة الإلهية والقدرة النافذة. قال القاضي: هذه الآية تدل على أنه تعالى يجري أمر نعمه على ما يقتضيه الصلاح.

قلنا: الآية تدل على أن الأمور معلقة بالمشيئة الإلهية والقدرة المحضة فأما رعاية قيد الصلاح، فأمر اعتبرته أنت من نفسك مع أن اللفظ لا يدل عليه.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وذلك لأن إضاعة الأجر إما أن يكون للعجز أو للجهل أو للبخل والكل ممتنع في حق الله تعالى، فكانت الإضاعة ممتنعة.

واعلم أن هذا شهادة من الله تعالى على أن يوسف عليه السلام كان من المحسنين ولو صدق

القول بأنه جلس بين شعبها الأربع لامتنع أن يقال: إنه كان من المحسنين، فهاهنا لزم إما تكذيب الله في حكمه على يوسف بأنه كان من المحسنين وهو عين الكفر أو لزم تكذيب الحشوي فيما رواه وهو عين الإيمان والحق.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في تفسير هذه الآية قولان:

القول الأول: المراد منه أن يوسف عليه السلام وإن كان قد وصل إلى المنازل العالية والدرجات الرفيعة في الدنيا إلا أن الثواب الذي أعده الله له في الآخرة خير وأفضل وأكمل وجهات الترجيح قد ذكرناها في هذا الكتاب مرارًا وأطوارًا، وحاصل تلك الوجوه أن الخير المطلق هو الذي يكون نفعًا خالصًا دائمًا مقرونًا بالتعظيم، وكل هذه القيود الأربعة حاصلة في خيرات الآخرة ومفقودة في خيرات الدنيا.

القول الثاني: أن لفظ الخير قد يستعمل لكون أحد الخيرين أفضل من الآخر كما يقال: الجلاب خير من الماء، وقد يستعمل لبيان كونه في نفسه خيرًا من غير أن يكون المراد منه بيان التفضيل كما يقال: الثريد خير من الله يعني الثريد خير من الخيرات حصل بإحسان من الله.

إذا ثبت هذا فقوله: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ إن حملناه على الوجه الأول لزم أن تكون ملاذ الدنيا موصوفة بالخيرية أيضًا، وأما إن حملناه على الوجه الثاني لزم أن لا يقال: إن منافع الدنيا أيضًا خيرات بل لعله يفيد أن خير الآخرة هو الخير، وأما ما سواه فعبث.

المسألة الثانية: لا شك أن المراد من قوله: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ شرح حال يوسف عليه السلام فوجب أن يصدق في حقه أنه من الذين آمنوا وكانوا يتقون، وهذا تنصيص من الله عز وجل. على أنه كان في الزمان السابق من المتقين، وليس هاهنا زمان سابق ليوسف عليه السلام يحتاج إلى بيان أنه كان فيه من المتقين إلا ذلك الوقت الذي قال الله فيه: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾[يوسف: ٢٤] فكان هذا شهادة من الله تعالى على أنه عليه السلام كان في ذلك الوقت من المتقين، وأيضًا قوله: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ شهادة من الله تعالى على أنه عليه السلام كان من المحسنين، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[يوسف: ٢٤] شهادة من الله تعالى على أنه من المخلصين فثبت أن الله تعالى شهد بأن يوسف عليه السلام كان من المتقين ومن المحسنين ومن المخلصين، والجاهل الحشوي يقول: إنه كان من الأخسرين المذنبين، ولا شك أن من لم يقل بقول الله سبحانه وتعالى مع هذه التأكيدات كان من الأخسرين.

المسألة الثالثة: قال القاضي: قوله تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ يدل على بطلان قول المرجئة: الذين يزعمون أن الثواب يحصل في الآخرة لمن لم يتق الكبائر.

قلنا: هذا ضعيف، لأنا إن حملنا لفظ خير على أفعل التفضيل لزم أن يكون الثواب الحاصل

للمتقين أفضل ولا يلزم أن لا يحصل لغيرهم أصلاً، وإن حملناه على أصل معنى الخيرية، فهذا يدل على حصول هذا الخير للمتقين ولا يدل على أن غيرهم لا يحصل لهم هذا الخير.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٥٩ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ۝٦٠ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ۝٦١﴾

اعلم أنه لما عم القحط في البلاد، ووصل أيضًا إلى البلدة التي كان يسكنها يعقوب عليه السلام وصعب الزمان عليهم فقال لبنيه: إن بمصر رجلاً صالحًا يمير الناس فاذهبوا إليه بدراهمكم وخذوا الطعام فخرجوا إليه وهم عشرة ودخلوا على يوسف عليه السلام وصارت هذه الواقعة كالسبب في اجتماع يوسف عليه السلام مع إخوته وظهور صدق ما أخبر الله تعالى عنه في قوله ليوسف عليه السلام حال ما ألقوه في الجب ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥] وأخبر تعالى أن يوسف عرفهم وهم ما عرفوه ألبتة، أما أنه عرفهم فلأنه تعالى كان قد أخبره في قوله: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ﴾ [يوسف: ١٥] بأنهم يصلون إليه ويدخلون عليه، وأيضًا الرؤيا التي رآها كانت دليلاً على أنهم يصلون إليه، فلهذا السبب كان يوسف عليه السلام مترصدًا لذلك الأمر، وكان كل من وصل إلى بابه من البلاد البعيدة يتفحص عنهم ويتعرف أحوالهم ليعرف أن هؤلاء الواصلين هل هم إخوته أم لا فلما وصل إخوة يوسف إلى باب داره تفحص عن أحوالهم تفحصًا ظهر له أنهم إخوته، وأما أنهم ما عرفوه فلوجوه:

الأول: أنه عليه السلام أمر حجابه بأن يوقفوهم من البعد وما كان يتكلم معهم إلا بالواسطة ومتى كان الأمر كذلك لا جرم أنهم لم يعرفوه لا سيما مهابة الملك وشدة الحاجة يوجبان كثرة الخوف، وكل ذلك مما يمنع من التأمل التام الذي عنده يحصل العرفان.

والثاني: هو أنهم حين ألقوه في الجب كان صغيرًا. ثم إنهم رأوه بعد وفور اللحية، وتغير الزي والهيئة فإنهم رأوه جالسًا على سريره، وعليه ثياب الحرير، وفي عنقه طوق من ذهب، وعلى رأسه تاج من ذهب، والقوم أيضًا نسوا واقعة يوسف عليه السلام لطول المدة. فيقال: إن من وقت ما ألقوه في الجب إلى هذا الوقت كان قد مضى أربعون سنة، وكل واحد من هذه الأسباب يمنع من حصول المعرفة، لا سيما عند اجتماعها، والثالث: أن حصول العرفان والتذكير بخلق الله تعالى، فلعله تعالى ما خلق ذلك العرفان والتذكير في قلوبهم تحقيقًا لما أخبره عنه بقوله: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥] وكان ذلك من معجزات يوسف عليه السلام.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ قال الليث: جهزت القوم تجهيزًا إذا تكلفت لهم جهازهم للسفر، وكذلك جهاز العروس والميت وهو ما يحتاج إليه في وجهه. قال: وسمعت أهل البصرة يقولون: الجِهَاز بالكسر. قال الأزهري: القراء كلهم على فتح الجيم، والكسر لغة ليست بجيدة، قال المفسرون: حمل لكل رجل منهم بعيرًا وأكرمهم أيضًا بالنزول وأعطاهم ما احتاجوا إليه في السفر، فذلك قوله: ﴿جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ ثم بيَّن تعالى أنه لما جهزهم بجهازهم قال: ﴿ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾.

واعلم أنه لا بد من كلام سابق حتى يصير ذلك الكلام سببًا لسؤال يوسف عن حال أخيهم، وذكروا فيه وجوهًا:

الوجه الأول: وهو أحسنها إن عادة يوسف عليه السلام مع الكل أن يعطيه حمل بعير لا أزيد عليه ولا أنقص، وإخوة يوسف الذين ذهبوا إليه كانوا عشرة، فأعطاهم عشرة أحمال، فقالوا: إن لنا أبًا شيخًا كبيرًا وأخًا آخر بقي معه، وذكروا أن أباهم لأجل سنه وشدة حزنه لم يحضر، وأن أخاهم بقي في خدمة أبيه ولا بد لهما أيضًا من شيء من الطعام فجهز لهما أيضًا بعيرين آخرين من الطعام فلما ذكروا ذلك قال يوسف: فهذا يدل على أن حب أبيكم له أزيد من حبه لكم، وهذا شيء عجيب لأنكم مع جمالكم وعقلكم وأدبكم إذا كانت محبة أبيكم لذلك الأخ أكثر من محبته لكم دل هذا على أن ذلك أعجوبة في العقل، وفي الفضل والأدب فجيئوني به حتى أراه فهذا السبب محتمل مناسب.

والوجه الثاني: أنهم لما دخلوا عليه، عليه السلام وأعطاهم الطعام قال لهم: من أنتم؟ قالوا: نحن قوم رعاة من أهل الشام أصابنا الجهد فجئنا نمتار فقال: لعلكم جئتم عيونًا فقالوا معاذ الله نحن إخوة بنو أب واحد شيخ صديق نبي اسمه يعقوب قال: كم أنتم؟ قالوا: كنا اثني عشر فهلك منا واحد وبقي واحد مع الأب يتسلى به عن ذلك الذي هلك، ونحن عشرة وقد جئناك قال: فدعوا بعضكم عندي رهينة وائتوني بأخ لكم من أبيكم ليبلغ إلي رسالة أبيكم فعند هذا أقرعوا بينهم فأصابت القرعة شمعون، وكان أحسنهم رأيا في يوسف فخلفوه عنده.

والوجه الثالث: لعلهم لما ذكروا أباهم قال يوسف: فلم تركتموه وحيدًا فريدًا؟ قالوا: ما تركناه وحيدًا، بل بقي عنده واحد. فقال لهم: لم استخلصه لنفسه ولم خصه بهذا المعنى لأجل نقص في جسده؟ فقالوا: لا. بل لأجل أنه يحبه أكثر من محبته لسائر الأولاد فعند هذا قال يوسف: لما ذكرتم أن أباكم رجل عالم حكيم بعيد عن المجازفة، ثم إنه خصه بمزيد المحبة وجب أن يكون زائدًا عليكم في الفضل، وصفات الكمال مع أني أراكم فضلاء علماء حكماء فاشتاقت نفسي إلى رؤية ذلك الأخ فائتوني به، والسبب الثاني: ذكره المفسرون، والأول والثالث محتمل، والله أعلم.

ثم إنه تعالى حكى عنه أنه قال: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾ أي أتمه ولا أبخسه، وأزيدكم حمل

بعير آخر لأجل أخيكم، وأنا خير المنزلين، أي خير المضيفين لأنه حين أنزلهم أحسن ضيافتهم. وأقول: هذا الكلام يضعف الوجه الثاني وهو الذي نقلناه عن المفسرين، لأن مدار ذلك الوجه على أنه اتهمهم ونسبهم إلى أنهم جواسيس، ولو شافههم بذلك الكلام فلا يليق به أن يقوم لهم: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ وأيضًا يبعد من يوسف عليه السلام مع كونه صديقًا أن يقول لهم: أنتم جواسيس وعيون، مع أنه يعرف براءتهم عن هذه التهمة، لأن البهتان لا يليق بحال الصديق.

ثم قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾.

واعلم أنه عليه السلام لما طلب منهم إحضار ذلك الأخ جمع بين الترغيب والترهيب. أما الترغيب: فهو قوله: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ وأما الترهيب: فهو قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ وذلك لأنهم كانوا في نهاية الحاجة إلى تحصيل الطعام، وما كان يمكنهم تحصيله إلا من عنده، فإذا منعهم من الحضور عنده كان ذلك نهاية الترهيب والتخويف، ثم إنهم لما سمعوا هذا الكلام من يوسف قالوا: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ أي سنجتهد ونحتال على أن ننزعه من يده، وإنا لفاعلون هذه المراودة، والغرض من التكرير التأكيد، ويحتمل أن يكون ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ أي نجيئك به، ويحتمل ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ كل ما في وسعنا من هذا الباب.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

في الآية مسائل:

المسائل الأولى: قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: (لفتيانه) بالألف والنون، والباقون (لفتيته) بالتاء من غير ألف، وهما لغتان كالصِّبيان والصِّبية، والإخوان، والإخوة قال أبو علي الفارسي الفتية جمع فتى في العدد القليل والفتيان للكثير، فوجه البناء الذي للعدد القليل أن الذين يحيطون بما يجعلون بضاعتهم فيه من رحالهم يكونون قليلين لأن هذا من باب الأسرار فوجب صونه إلا عن العدد القليل ووجه الجمع الكثير أنه قال: ﴿ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ والرحال تفيد العدد الكثير فوجب أن يكون الذين يباشرون ذلك العمل كثيرين.

المسألة الثانية: اتفق الأكثرون على أن إخوة يوسف ما كانوا عالمين بجعل البضاعة في

رحالهم، ومنهم من قال: إنهم كانوا عارفين به، وهو ضعيف لأن قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾ يبطل ذلك ثم اختلفوا في السبب الذي لأجله أمر يوسف بوضع بضاعتهم في رحالهم على وجوه:

الأول: أنهم متى فتحوا المتاع فوجدوا بضاعتهم فيه، علموا أن ذلك كان كرمًا من يوسف وسخاء محضًا فيبعثهم ذلك على العود إليه والحرص على معاملته.

الثاني: خاف أن لا يكون عند أبيه من الوَرِق ما يرجعون به مرة أخرى.

الثالث: أراد به التوسعة على أبيه لأن الزمان كان زمان القحط.

الرابع: رأى أن أخذ ثمن الطعام من أبيه وإخوته مع شدة حاجتهم إلى الطعام لؤم.

الخامس: قال الفراء: إنهم متى شاهدوا بضاعتهم في رحالهم وقع في قلوبهم أنهم وضعوا تلك البضاعة في رحالهم على سبيل السهو وهم أنبياء وأولاد الأنبياء فرجعوا ليعرفوا السبب فيه، أو رجعوا ليردوا المال إلى مالكه.

السادس: أراد أن يحسن إليهم على وجه لا يلحقهم به عيب ولا منة.

السابع: مقصوده أن يعرفوا أنه لا يطلب ذلك الأخ لأجل الإيذاء والظلم ولا لطلب زيادة في الثمن.

الثامن: أراد أن يعرف أبوه أنه أكرمهم وطلبه له لمزيد الإكرام فلا يثقل على أبيه إرسال أخيه.

التاسع: أراد أن يكون ذلك المال معونة لهم على شدة الزمان، وكان يخاف اللصوص من قطع الطريق، فوضع تلك الدراهم في رحالهم حتى تبقى مخفية إلى أن يصلوا إلى أبيهم.

العاشر: أراد أن يقابل مبالغتهم في الإساءة بمبالغته في الإحسان إليهم.

ثم إنه تعالى حكى عنهم أنهم لما رجعوا إلى أبيهم قالوا: ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ وفيه قولان: الأول: أنهم لما طلبوا الطعام لأبيهم وللأخ الباقي عنده منعوا منه، فقولهم: ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ إشارة إليه. والثاني: أنه منع الكيل في المستقبل وهو إشارة إلى قول يوسف: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾ [يوسف: ٦٠] والدليل على أن المراد ذلك قولهم: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ قرأ حمزة والكسائي: (يكتل) بالياء، والباقون بالنون، والقراءة الأولى تقوى القول الأول، والقراءة الثانية تقوي القول الثاني ثم قالوا: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ ضمنوا كونهم حافظين له، فلما قالوا ذلك قال يعقوب عليه السلام: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ والمعنى أنكم ذكرتم قبل هذا الكلام في يوسف وضمنتم لي حفظه حيث قلتم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢] ثم هاهنا ذكرتم هذا اللفظ بعينه فهل يكون هاهنا أماني إلا ما كان هناك يعني لما لم يحصل الأمان هناك فكذلك لا يحصل هاهنا.

ثم قال: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ قرأ حمزة والكسائي (حافِظاً) بالألف على التمييز والتفسير على تقدير: هو خير لكم حافظًا كقولهم: هو خيرهم رجلاً ولله دره فارسًا، وقيل: على الحال، والباقون: (حِفْظًا) بغير ألف على المصدر يعني خيركم حفظًا يعني حَفْظُ الله

لبنيامين خيرٌ من حفظكم، وقرأ الأعمش (فاللَّه خَيْرُ حَافِظٍ) وقرأ أبو هريرة رضي الله عنه (خَيْرُ الْحَافِظِينَ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) وقيل: معناه: وثقت بكم في حفظ يوسف عليه السلام فكان ما كان فالآن أتوكل على الله في حفظ بنيامين.

فإن قيل: لم بعثه معهم وقد شاهد ما شاهد؟

قلنا: لوجوه: أحدها: أنهم كبروا ومالوا إلى الخير والصلاح، وثانيها: أنه كان يشاهد أنه ليس بينهم وبين بنيامين من الحسد والحقد مثل ما كان بينهم وبين يوسف عليه السلام، وثالثها: أن ضرورة القحط أحوجته إلى ذلك، ورابعها: لعله تعالى أوحى إليه وضمن حفظه وإيصاله إليه.

فإن قيل: هل يدل قوله: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ على أنه أذن في ذهاب ابنه بنيامين في ذلك الوقت.

قلنا: الأكثرون قالوا: يدل عليه. وقال آخرون: لا يدل عليه، وفيه وجهان: الأول: التقدير أنه لو أذن في خروجه معهم لكان في حفظ الله لا في حفظهم. الثاني: أنه لما ذكر يوسف قال: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ أي ليوسف لأنه كان يعلم أنه حي.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾

اعلم أن المتاع ما يصلح لأن يستمتع به وهو عام في كل شيء، ويجوز أن يراد به هاهنا الطعام الذي حملوه، ويجوز أن يراد به أوعية الطعام.

ثم قال: ﴿وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ﴾ واختلف القراء في ﴿رُدَّتْ﴾ فالأكثرون بضم الراء، وقرأ علقمة بكسر الراء. قال صاحب (الكشاف): كسرة الدال المدغمة نقلت إلى الراء كما في قِيل وبِيع. وحكى قطرب أنهم قالوا في قولنا: ضِرْب زَيْد على نقل كسرة الراء فيمن سكنها إلى الضاد. وأما قوله: ﴿مَا نَبْغِى ۖ﴾ ففي كلمة (ما) قولان:

القول الأول: أنها للنفي، وعلى هذا التقدير ففيه وجوه: الأول: أنهم كانوا قد وصفوا يوسف بالكرم واللطف وقالوا: إنا قدمنا على رجل في غاية الكرم أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلاً من آل يعقوب لمافعل ذلك، فقولهم: ﴿مَا نَبْغِى ۖ﴾ أي بهذا الوصف الذي ذكرناه كذبًا ولا ذكر شيء لم يكن. الثاني: أنه بلغ في الإكرام إلى غاية ما وراءها شيء آخر، فإنه بعد أن بالغ في إكرامنا أمر ببضاعتنا فردت إلينا. الثالث: المعنى أنه رد بضاعتنا إلينا، فنحن لا نبغي منك عند رجوعنا إليه بضاعة أخرى، فإن هذه التي معنا كافية لنا.

والقول الثاني: أن كلمة (ما) هاهنا للاستفهام، والمعنى: لما رأوا أنه رد إليهم بضاعتهم قالوا: ما نبغي بعد هذا، أي أعطانا الطعام، ثم رد علينا ثمن الطعام على أحسن الوجوه، فأي

شيء نبغي وراء ذلك؟

واعلم أنا إذا حملنا «ما» على الاستفهام صار التقدير أي شيء نبغي فوق هذا الإكرام إن الرجل رد دراهمنا إلينا فإذا ذهبنا إليه نمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير بسبب حضور أخينا. قال الأصمعي: يقال: مَارَه يَمِيرُه ميرًا إذا أتاه بميرة أي بطعام، ومنه يقال: ما عنده خير ولا مير، وقوله: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ معناه: أن يوسف عليه السلام كان يكيل لكل رجل حمل بعير فإذا حضر أخوه فلا بد وأن يزداد ذلك الحمل، وأما إذا حملنا كلمة «ما» على النفي كان المعنى: لا نبغي شيئًا آخر هذه بضاعتنا ردت إلينا فهي كافية لثمن الطعام في الذهاب الثاني، ثم نفعل كذا وكذا.

وأما قوله: ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ .

ففيه وجوه:

الأول: قال مقاتل: ذلك كيل يسير على هذا الرجل المحسن لسخائه وحرصه على البذل وهو اختيار الزجاج.

والثاني: ذلك كيل يسير، أي قصير المدة ليس سبيل مثله أن تطول مدته بسبب الحبس والتأخير.

والثالث: أن يكون المراد ذلك الذي يدفع إلينا دون أخينا شيء يسير قليل فابعث أخانا معنا حتى نتبدل تلك القلة بالكثرة.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾

اعلم أن الموثق مصدر بمعنى الثقة، ومعناه: العهد الذي يوثق به فهو مصدر بمعنى المفعول يقول: لن أرسله معكم حتى تعطوني عهدًا موثوقًا به وقوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي عهدًا موثوقًا به بسبب تأكده بإشهاد الله وبسبب القسم بالله عليه، وقوله: ﴿لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ﴾ دخلت اللام هاهنا لأجل أنا بينا أن المراد بالموثق من الله اليمين فتقديره: حتى تحلفوا بالله لتأتنني به. وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ .

فيه بحثان:

البحث الأول: قال صاحب (الكشاف): هذا الاستثناء متصل. فقوله: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ مفعول له، والكلام المثبت الذي هو قوله: ﴿لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ﴾ في تأويل المنفي، فكان المعنى: لا تمتنعون من الإتيان به لعلة من العلل إلا لعلة واحدة.

البحث الثاني: قال الواحدي: للمفسرين. **فيه قولان:**

القول الأول: أن قوله: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ﴾ معناه الهلاك قال مجاهد: إلا أن تموتوا كلكم فيكون ذلك عذرًا عندي، والعرب تقول: أحيط بفلان إذا قرب هلاكه قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف: ٤٢]أي أصابه ما أهلكه. وقال تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ [يونس: ٢٢] وأصله أن من أحاط به العدو وانسدت عليه مسالك النجاة دنا هلاكه، فقيل لكل من هلك: قد أحيط به.

والقول الثاني: ما ذكره قتادة: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ﴾ إلا أن تصيروا مغلوبين مقهورين، فلا تقدرون على الرجوع.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾ يريد شهيد، لأن الشهيد وكيل بمعنى أنه موكول إليه هذا العهد فإن وفيتم به جازاكم بأحسن الجزاء، وإن غدرتم فيه كافأكم بأعظم العقوبات.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧﴾

اعلم أن أبناء يعقوب لما عزموا على الخروج إلى مصر. وكانوا موصوفين بالكمال والجمال وأبناء رجل واحد قال لهم: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾.

وفيه قولان:

الأول: وهو قول جمهور المفسرين أنه خاف من العين عليهم ولنا هاهنا مقامان.

المقام الأول: إثبات أن العين حق والذي يدل عليه وجوه:

الأول: إطباق المتقدمين من المفسرين على أن المراد من هذه الآية ذلك.

والثاني: ما روي أن رسول الله ﷺ كان يعوذ الحسن والحسين فيقول: «**أُعِيذُكُمَا** بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لامَّةٍ» وَيَقُولُ: هَكَذَا كَانَ يُعَوِّذُ إِبْرَاهِيمُ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ (١).

والثالث: ما روى عبادة بن الصامت قال: دخلت على رسول الله ﷺ في أول النهار فرأيته

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري في كتاب (أحاديث الأنبياء) باب (رقم ١٠) (٦/ ٤٧٠) حديث رقم/ ٣٣٧١، وأبو داود في كتاب (السنة) باب (في القرآن) (٤/ ٢٠٢٣) حديث رقم/ ٤٧٣٧، والترمذي في كتاب (الطب) باب (رقم ١٨)، (١/ ٣٤٦) حديث رقم/ ٢٠٦٠، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه في كتاب (الطب) باب (ما عَوَّذ به النبي ﷺ وما عُوِّذ به) (٢/ ١١٦٤) حديث رقم/ ٣٥٢٥، والإمام أحمد في (مسنده) (١/ ٣٤٦)، جميعًا من طريق منصور . . . به.

شديد الوجع ثم عدت إليه آخر النهار فرأيته معافى فقال: «إِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَانِي فَرَقَانِي فَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ وَحَاسِدِ اللَّهِ يَشْفِيكَ»(١) قال: فأفقت.

والرابع: روي أن بني جعفر ابن أبي طالب كانوا غُلْمانًا بيضًا فقالت أسماء: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الْعَيْنَ إِلَيْهِمْ سَرِيعَةٌ أَفَأَسْتَرْقِي لَهُمْ مِنَ الْعَيْنِ فَقَالَ لَهَا نَعَمْ(٢).

والخامس: دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْتَ أُمِّ سَلَمَةَ وَعِنْدَهَا صَبِيٌّ يَشْتَكِي فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَصَابَتْهُ الْعَيْنُ فَقَالَ أَفَلَا تَسْتَرْقُونَ لَهُ مِنَ الْعَيْنِ(٣).

والسادس: قوله عليه السلام: «الْعَيْنُ حَقٌّ وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ يَسْبِقُ الْقَدَرَ لَسَبَقَتِ الْعَيْنُ الْقَدَرَ»(٤).

والسابع: قالت عائشة رضي الله عنها: كان يَأْمُرُ الْعَائِنَ أَنْ يَتَوَضَّأَ ثُمَّ يَغْسِلَ مِنْهُ الْمَعِينُ الَّذِي أُصِيبَ بِالْعَيْنِ(٥).

---

(١) هذا الحديث رواه جماعة من أصحاب النبي ﷺ بألفاظ متقاربة منهم عبادة بن الصامت، وأبو سعيد الخدري أما حديث عباس، أخرجه ابن ماجه في كتاب (الطب) باب: (ما يعوذ به من الحمى) (٢/ ١١٦٥) حديث رقم/ ٣٥٢٧، من طريق ابن ثوبان عن عمير... به، وأحمد في مسنده(٥/ ٣٢٣) حديث رقم/ ٢٢٨١٢، من طريق زيد بن حباب... به، وابن حبان في (صحيحه) (٣/ ٢٣٤) حديث رقم/ ٩٥٣، من طريق زيد بن الحباب حدثنا ابن ثوبان... به، والحاكم في (المستدرك) (٤/ ٤٥٧) حديث رقم/ ٨٢٦٨، من طريق زيد بن الحباب حدثنا عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان... به، قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وابن أبي شيبة في مصنفة (٧/ ٤٠٥) حديث رقم/ ٢٤٠٣٩، من طريق جنادة عن عبادة... به، والبزار في مسنده (٧/ ١٣١) حديث رقم/ ٢٦٨٤، من طريق عمير بن هاني عن جنادة بن أمية عن عبادة بن الصامت... به، وإسناده حسن.

وأما حديث أبو سعيد الخدري: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٤/ ١٧١٨/ ٢١٨٦)، والترمذي في (سننه) (٣/ ٣٠٣) حديث رقم/ ٩٧٢، والنسائي في (سننه الكبرى) (٦/ ٢٤٩) حديث رقم/ ١٠٨٤٣، جميعًا من طريق عبد العزيز بن صهيب عن أبي خضرة عن أبي سعيد... به، وأحمد في (مسنده) (٣/ ٧٥) حديث رقم/ ١١٧٢٧، من طريق داود عن أبي نضرة عن أبي سعيد أو عن جابر بن عبد الله... به.

(٢) **إسناده صحيح:** أخرجه الترمذي في (سننه) (٤/ ٣٩٥) حديث رقم/ ٢٠٥٩، من طريق ابن عيينة... به، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في (سننه الكبرى) (٤/ ٣٦٥) حديث رقم/ ٧٥٣٧، من طريق عمرو بن دينار... به، وأحمد في (مسنده) (٦/ ٤٣٨) حديث رقم/ ٢٧٥٨٠، قال حدثنا سفيان... به.

(٣) **صحيح:** أخرجه مالك في (الموطأ) (٢/ ٩٤٠) حديث رقم/ ١٦٨١، من طريق يحيى بن سعيد عن سليمان بن يسار بن عروة... فذكره، وأخرجه أبو يعلى في (مسنده موصولاً) (١٢/ ٣٠٣) حديث رقم/ ٦٨٧٩، والطبراني في (الكبير) (٢٣/ ٢٦٨) حديث رقم/ ٥٦، كلاهما من طريق أبي معاوية الضرير حدثنا يحيى بن سعيد عن سليمان بن يسار عن عروة عن أم سلمة... به.

والرواية متفق عليها عند البخاري ومسلم: أخرجه البخاري في (صحيحه) (٥/ ٢١٦٧) حديث رقم/ ٥٢٠٧، ومسلم في (صحيحه) (٤/ ١٧٢٥/ ٢١٩٧)، كلاهما من طريق: الزهري عن عروة بن الزبير عن زينب بنت أبي سلمة عن أم سلمة رضي الله عنها ثم أن النبي ﷺ رأى في بيتها جارية في وجهها سفعة فقال استرقوا لها فإن بها النظرة وقال عقيل عن الزهري أخبرني عروة عن النبي ﷺ تابعه عبد الله بن سالم عن الزبيدي (واللفظ للبخاري).

(٤) تقدم تخريجه من قبل.

(٥) **صحيح:** أخرجه أبو داود في كتاب (الطب) باب (ما جاء في العين) (٤/ ١٦٧٠) حديث رقم/ ٣٨٨٠، والبيهقي في (السنن الكبرى) (٩/ ٣٥١)، من طريق عثمان بن أبي شيبة... به.

المقام الثاني: في الكشف عن ماهيته فنقول: إن أبا علي الجبائي أنكر هذا المعنى إنكارًا بليغًا ولم يذكر في إنكاره شبهة فضلاً عن حجة، وأما الذين اعترفوا به وأقروا بوجوده فقد ذكروا فيه وجوهًا:

الأول: قال الحافظ: إنه يمتد من العين أجزاء فتتصل بالشخص المستحسن فتؤثر فيه وتسري فيه كتأثير اللسع والسم والنار، وإن كان مخالفًا في جهة التأثير لهذه الأشياء قال القاضي: وهذا ضعيف لأنه لو كان الأمر كما قال، لوجب أن يؤثر في الشخص الذي لا يستحسن كتأثيره في المستحسن واعلم أن هذا الاعتراض ضعيف وذلك لأنه إذا استحسن شيئًا فقد يحب بقاءه كما إذا استحسن ولد نفسه وبستان نفسه، وقد يكره بقاءه أيضًا كما إذا أحس الحاسد بشيء حصل لعدوه، فإن كان الأول فإنه يحصل له عند ذلك الاستحسان خوف شديد من زواله والخوف الشديد يوجب انحصار الروح في داخل القلب فحينئذ يسخن القلب والروح جدًّا، ويحصل في الروح الباصرة كيفية قوية مسخنة، وإن كان الثاني: فإنه يحصل عند ذلك الاستحسان حسد شديد وحزن عظيم بسبب حصول تلك النعمة لعدوه. والحزن أيضًا يوجب انحصار الروح في داخل القلب ويحصل فيه سخونة شديدة، فثبت أن عند الاستحسان القوي تسخن الروح جدًّا فيسخن شعاع العين بخلاف ما إذا لم يستحسن فإنه لا تحصل هذه السخونة فظهر الفرق بين الصورتين، ولهذا السبب أمر الرسول ﷺ العائن بالوضوء ومن أصابته العين بالاغتسال.

الوجه الثاني: قال أبو هاشم وأبو القاسم البلخي: إنه لا يمتنع أن تكون العين حقًّا، ويكون معناه أن صاحب العين إذا شاهد الشيء وأعجب به استحسانًا كان المصلحة له في تكليفه أن يغير الله ذلك الشخص وذلك الشيء حتى لا يبقى قلب ذلك المكلف متعلقًا به، فهذا المعنى غير ممتنع، ثم لا يبعد أيضًا أنه لو ذكر ربه عند تلك الحالة وعدل عن الإعجاب وسأل ربه تقية ذلك، فعنده تتعين المصلحة ولما كانت هذه العادة مطردة لا جرم قيل: العين حق.

الوجه الثالث: وهو قول الحكماء قالوا: هذا الكلام مبني على مقدمة وهي أنه ليس من شرط المؤثر أن يكون تأثيره بحسب هذه الكيفيات المحسوسة أعني الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة بل قد يكون التأثير نفسانيًّا محضًا، ولا يكون للقوى الجسمانية بها تعلق، والذي يدل عليه أن اللوح الذي يكون قليل العرض إذا كان موضوعًا على الأرض، قدر الإنسان على المشي عليه ولو كان موضوعًا فيما بين جدارين عاليين لعجز الإنسان عن المشي عليه، وما ذاك إلا لأن خوفه من السقوط منه يوجب سقوطه، فعلمنا أن التأثيرات النفسانية موجودة، وأيضًا أن الإنسان إذا تصور كون فلان مؤذيًا له حصل في قلبه غضب، ويسخن مزاجه جدًّا فمبدأ تلك السخونة ليس إلا ذلك التصور النفساني، ولأن مبدأ الحركات البدنية ليس إلا التصورات النفسانية، فلما ثبت أن تصور النفس يوجب تغير بدنه الخاص لم يبعد أيضًا أن يكون بعض النفوس بحيث تتعدى تأثيراتها إلى سائر الأبدان. فثبت أنه لا يمتنع في العقل كون النفس مؤثرة في سائر الأبدان

وأيضًا جواهر النفوس مختلفة بالماهية فلا يمتنع أن يكون بعض النفوس بحيث يؤثر في تغيير بدن حيوان آخر بشرط أن يراه ويتعجب منه، فثبت أن هذا المعنى أمر محتمل والتجارب من الزمن الأقدم ساعدت عليه والنفوس النبوية نطقت به فعنده لا يبقى في وقوعه شك.

وإذا ثبت هذا ثبت أن الذي أطبق عليه المتقدمون من المفسرين في تفسير هذه الآية بإصابة العين كلام حق لا يمكن رده.

القول الثاني: وهو قول أبي علي الجبائي: أن أبناء يعقوب اشتهروا بمصر وتحدث الناس بهم وبحسنهم وكمالهم. فقال: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟﴾ تلك المدينة ﴿مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾ على ما أنتم عليه من العدد والهيئة فلم يأمن عليهم حسد الناس أو يقال: لم يأمن عليهم أن يخافهم الملك الأعظم على ملكه فيحبسهم، واعلم أن هذا الوجه محتمل لا إنكار فيه إلا أن القول الأول قد بينا أنه لا امتناع فيه بحسب العقل والمفسرون أطبقوا عليه فوجب المصير إليه، ونقل عن الحسن أنه قال: خاف عليهم العين، فقال: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾ ثم رجع إلى علمه وقال: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ وعرف أن العين ليست بشيء، وكان قتادة يفسر الآية بإصابة العين ويقول: ليس في قوله: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ إبطال له لأن العين وإن صح فالله قادر على دفع أثره.

القول الثالث: أنه عليه السلام كان عالمًا بأن ملك مصر هو ولده يوسف إلا أن الله تعالى ما أذن له في إظهار ذلك فلما بعث أبناءه إليه قال: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ وكان غرضه أن يصل بنيامين إلى يوسف في وقت الخلوة، وهذا قول إبراهيم النخعي، فأما قوله: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ فاعلم أن الإنسان مأمور بأن يراعي الأسباب المعتبرة في هذا العالم، ومأمور أيضًا بأن يعتقد ويجزم بأنه لا يصل إليه إلا ما قدره الله تعالى وأن الحذر لا ينجي من القدر، فإن الإنسان مأمور بأن يحذر عن الأشياء المهلكة، والأغذية الضارة، ويسعى في تحصيل المنافع ودفع المضار بقدر الإمكان ثم إنه مع ذلك ينبغي أن يكون جازمًا بأنه لا يصل إليه إلا ما قدره الله ولا يحصل في الوجود إلا ما أراده الله فقوله عليه السلام: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ فهو إشارة إلى رعاية الأسباب المعتبرة في هذا العالم، وقوله: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ إشارة إلى عدم الالتفات إلى الأسباب وإلى التوحيد المحض والبراءة عن كل شيء سوى الله تعالى، وقول القائل: كيف السبيل إلى الجمع بين هذين القولين، فهذا السؤال غير مختص به، وذلك لأنه لا نزاع في أنه لا بد من إقامة الطاعات، والاحتراز عن المعاصي والسيئات مع أنا نعتقد أن السعيد من سعد في بطن أمه، وأن الشقي من شقي في بطن أمه فكذا هاهنا نأكل ونشرب ونحترز عن السموم وعن الدخول في النار مع أن الموت والحياة لا يحصلان إلا بتقدير الله تعالى، فكذا هاهنا، فظهر أن هذا السؤال غير مختص بهذا المقام، بل هو بحث عن سر مسألة الجبر والقدر، بل الحق أن العبد يجب عليه أن يسعى بأقصى الجهد والقدرة، وبعد ذلك السعي البليغ والجد الجهيد فإنه يعلم أن كل ما يدخل

في الوجود فلا بد وأن يكون بقضاء الله تعالى ومشيئته وسابق حكمه وحكمته ثم إنه تعالى أكد هذا المعنى، فقال: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ .

واعلم أن هذا من أدل الدلائل على صحة قولنا في القضاء والقدر، وذلك لأن الحكم عبارة عن الإلزام والمنع من النقيض وسميت حَكَمَةُ الدابة بهذا الاسم، لأنها تمنع الدابة عن الحركات الفاسدة والحكم إنما سمي حكمًا لأنه يقتضي ترجيح أحد طرفي الممكن على الآخر بحيث يصير الطرف الآخر ممتنع الحصول، فبيَّن تعالى أن الحكم بهذا التفسير ليس إلا لله سبحانه وتعالى، وذلك يدل على أن جميع الممكنات مستندة إلى قضائه وقدره ومشيئته وحكمه، إما بغير واسطة وإما بواسطة ثم قال: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ومعناه أنه لما ثبت أن الكل من الله ثبت أنه لا توكل إلا على الله وأن الرغبة ليست إلا في رجحان وجود الممكنات على عدمها وذلك الرجحان المانع عن النقيض هو الحكم، وثبت بالبرهان أنه لا حكم إلا لله فلزم القطع بأن حصول كل الخيرات ودفع كل الآفات من الله، ويوجب أنه لا توكل إلا على الله فهذا مقام شريف عال ونحن قد أشرنا إلى ما هو البرهان الحق فيه والشيخ أبو حامد الغزالي رحمه الله أطنب في تقرير هذا المعنى في كتاب التوكل من كتاب: (إحياء علوم الدين) فمن أراد الاستقصاء فيه فليطالع ذلك الكتاب.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

قال المفسرون: لما قال يعقوب: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [يوسف: ٦٧] صدقه الله في ذلك فقال: وما كان ذلك التفرق يغني من الله من شيء.

وفيه بحثان:

البحث الأول: قال ابن عباس رضي الله عنهما: ذلك التفرق ما كان يرد قضاء الله ولا أمرًا قدره الله. وقال الزجاج: إن العين لو قدر أن تصيبهم لأصابتهم وهم متفرقون كما تصيبهم وهم مجتمعون. وقال ابن الأنباري: لو سبق في علم الله أن العين تهلكهم عند الاجتماع لكان تفرقهم كاجتماعهم، وهذه الكلمات متقاربة، وحاصلها أن الحذر لا يدفع القدر.

البحث الثاني: قوله: ﴿مِن شَىْءٍ﴾ يحتمل النصب بالمفعولية والرفع بالفاعلية.

أما الأول: فهو كقوله: ما رأيت من أحد، والتقدير: ما رأيت أحدًا، فكذا هاهنا تقدير الآية: أن تفرقهم ما كان يغني من قضاء الله شيئًا، أي ذلك التفرق ما كان يخرج شيئًا من تحت قضاء الله تعالى.

وأما الثاني: فكقولك: ما جاءني من أحد، وتقديره ما جاءني أحد فكذا هاهنا، التقدير: ما كان يغني عنهم من الله شيء مع قضائه.

أما قوله: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ فقال الزجاج: إنه استثناء منقطع، والمعنى: لكن حاجة في نفس يعقوب قضاها، يعني أن الدخول على صفة التفرق قضاء حاجة في نفس يعقوب قضاها، ثم ذكروا في تفسير تلك الحاجة وجوهًا:

أحدها: خوفه عليهم من إصابة العين.

وثانيها: خوفه عليهم من حسد أهل مصر.

وثالثها: خوفه عليهم من أن يقصدهم ملك مصر بشر.

ورابعها: خوفه عليهم من أن لا يرجعوا إليه، وكل هذه الوجوه متقاربة.

وأما قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ فقال الواحدي: يحتمل أن تكون (ما) مصدرية والهاء عائدة إلى يعقوب، والتقدير: وإنه لذو علم من أجل تعليمنا إياه، ويمكن أن تكون (ما) بمعنى الذي والهاء عائدة إليها، والتأويل: وإنه لذو علم للشيء الذي علمناه، يعني أنا لما علمناه شيئًا حصل له العلم بذلك الشيء، وفي الآية قولان آخران:

الأول: أن المراد بالعلم الحفظ، أي إنه لذو حفظ لما علمناه ومراقبة له.

والثاني: لذو علم لفوائد ما علمناه وحسن آثاره وهو إشارة إلى كونه عاملاً بما علمه، ثم قال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وفيه وجهان:

الأول: ولكن أكثر الناس لا يعلمون مثل ما علم يعقوب.

والثاني: لا يعلمون أن يعقوب بهذه الصفة والعلم، والمراد بأكثر الناس المشركون، فإنهم لا يعلمون بأن الله كيف أرشد أولياءه إلى العلوم التي تنفعهم في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾

اعلم أنهم لما أتوه بأخيه بنيامين أكرمهم وأضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقي بنيامين وحده فبكى وقال: لو كان أخي يوسف حيًا لأجلسني معه فقال يوسف: بقي أخوكم وحيدًا فأجلسه معه على مائدة ثم أمر أن ينزل منهم كل اثنين بيتًا وقال: هذا لا ثاني له فاتركوه

معي فآواه إليه، ولما رأى يوسف تأسفه على أخ له هلك قال له: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك قال: من يجد أخًا مثلك ولكنك لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف عليه السلام وقام إليه وعانقه وقال: إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون.

إذا عرفت هذا فنقول: قوله: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾ أي أنزله في الموضع الذي كان يأوي إليه. وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ فيه قولان: قال وهب: لم يرد أنه أخوه من النسب، ولكن أراد به إني أقوم لك مقام أخيك في الإيناس لئلا تستوحش بالتفرد. والصحيح ما عليه سائر المفسرين من أنه أراد تعريف النسب، لأن ذلك أقوى في إزالة الوحشة وحصول الأنس، ولأن الأصل في الكلام الحقيقة، فلا وجه لصرفه عنها إلى المجاز من غير ضرورة.

وأما قوله: ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾ فقال أهل اللغة: تبتئس تفتعل من البؤس وهو الضرر والشدة والابتئاس: اجتلاب الحزن والبؤس. وقوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

فيه وجوه:

الأول: المراد بما كانوا يعملون من إقامتهم على حسدنا والحرص على انصراف وجه أبينا عنا.

الثاني: أن يوسف عليه السلام ما بقي في قلبه شيء من العداوة وصار صافيًا مع إخوته، فأراد أن يجعل قلب أخيه صافيًا معه أيضًا، فقال: ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي لا تلتفت إلى ما صنعوه فيما تقدم، ولا تلتفت إلى أعمالهم المنكرة التي أقدموا عليها.

الثالث: أنهم إنما فعلوا بيوسف ما فعلوه، لأنهم حسدوه على إقبال الأب عليه وتخصيصه بمزيد الإكرام، فخاف بنيامين أن يحسدوه بسبب أن الملك خصه بمزيد الإكرام، فأمَّنه منه وقال: لا تلتفت إلى ذلك فإن الله قد جمع بيني وبينك.

الرابع: روى الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن إخوة يوسف عليه السلام كانوا يعيرون يوسف وأخاه بسبب أن جدهما أبا أمهما كان يعبد الأصنام، وأن أم يوسف أمرت يوسف فسرق جونة كانت لأبيها فيها أصنام رجاء أن يترك عبادتها إذا فقدها. فقال له: ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي من التعيير لنا بما كان عليه جدنا. والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ﴾ وقد مضى الكلام في الجهاز والرحل، أما السقاية فقال صاحب (الكشاف): مشربة يسقي بها وهو الصواع قيل: كان يسقى بها الملك ثم جعلت صاعًا يكال به، وهو بعيد لأن الإناء الذي يشرب الملك الكبير منه لا يصلح أن يجعل صاعًا، وقيل: كانت الدواب تسقى بها ويكال بها أيضًا وهذا أقرب، ثم قال: وقيل كانت من فضة مموهة بالذهب، وقيل: كانت من ذهب، وقيل: كانت مرصعة بالجواهر، وهذا أيضًا بعيد لأن الآنية التي يسقى الدواب فيها لا تكون كذلك، والأولى أن يقال: كان ذلك الإناء شيئًا له قيمة، أما إلى هذا الحد الذي ذكروه فلا.

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ يقال: أذنه أي أعلمه وفي الفرق بين أَذَّن

وبين آذن وجهان: قال ابن الأنباري: أذن معناه أعلم إعلامًا بعد إعلام لأنه فعل يوجب تكرير الفعل قال: ويجوز أن يكون إعلامًا واحدًا من قبيل أن العرب تجعل فعل بمعنى أفعل في كثير من المواضع، وقال سيبويه: أَذَّنْتُ وآذنت معناه أعلمت لا فرق بينهما، والتأذين معناه: النداء والتصويت بالإعلام.

وأما قوله تعالى: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾ قال أبو الهيثم: كل ما سير عليه من الإبل والحمير والبغال فهو عير، وقول من قال: العير الإبل خاصة باطل، وقيل: العير: الإبل التي عليها الأحمال لأنها تعير أي تذهب وتجيء، وقيل: هي قافلة الحمير، ثم كثر ذلك حتى قيل لكل قافلة عِير كأنها جمع عَيْر وجمعها فُعُل كسَقْف وسُقُف.

إذا عرفت هذا فنقول: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ﴾ المراد أصحاب العير كقوله: يا خيل الله اركبي، وقرأ ابن مسعود: (وَجَعَلَ السِّقَايَةَ) على حذف جواب (لما) كأنه قيل فلما جهزهم بجهازهم وجعل السقاية في رحل أخيه أمهلهم حتى انطلقوا ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾.

فإن قيل: هل كان ذلك النداء بأمر يوسف أو ما كان بأمره؟ فإن كان بأمره فكيف يليق بالرسول الحق من عند الله أن يتهم أقوامًا وينسبهم إلى السرقة كذبًا وبهتانًا، وإن كان الثاني وهو أنه ما كان ذلك بأمره فهلا أنكره وهلا أظهر براءتهم عن تلك التهمة.

قلنا: العلماء ذكروا في الجواب عنه وجوهًا: **الأول:** أنه عليه السلام لما أظهر لأخيه أنه يوسف قال له: إني أريد أن أحبسك هاهنا، ولا سبيل إليه إلا بهذه الحيلة فإن رضيت بها فالأمر لك فرضي بأن يقال في حقه ذلك، وعلى هذا التقدير لم يتألم قلبه بسبب هذا الكلام فخرج عن كونه ذنبًا. **والثاني:** أن المراد: إنكم لسارقون يوسف من أبيه إلا أنهم ما أظهروا هذا الكلام والمعاريض لا تكون إلا كذلك. **والثالث:** أن ذلك المؤذن ربما ذكر ذلك النداء على سبيل الاستفهام، وعلى هذا التقدير يخرج عن أن يكون كذبًا. **الرابع:** ليس في القرآن أنهم نادوا بذلك النداء عن أمر يوسف عليه السلام، والأقرب إلى ظاهر الحال أنهم فعلوا ذلك من أنفسهم لأنهم لما طلبوا السقاية وما وجدوها وما كان هناك أحد إلا هم غلب على ظنونهم أنهم هم الذين أخذوها ثم إن إخوة يوسف ﴿قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي (تُفْقِدُون) من أفقدته إذا وجدته فقيدًا قالوا: تفقد صواع الملك. قال صاحب (الكشاف): قرئ صُوَاع وصَاع وصَوع وصُوع بفتح الصاد وضمها، والعين معجمة وغير معجمة. قال بعضهم: جمع صُوَاع صِيعَان، كغُرَاب وغِربَان، وجمع صَاع أَصْوَاع، كبَاب وأَبْوَاب. وقال آخرون: لا فرق بين الصَّاع والصُّواع، والدليل عليه قراءة أبي هريرة: (قالوا نَفْقِد صَاعَ المَلِكِ) وقال بعضهم: الصُّواع اسم، والسِّقَاية وصف، كقولهم: كوز وسقاء، فالكوز اسم والسقاء وصف.

ثم قال: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ أي من الطعام ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ قال مجاهد: الزعيم هو المؤذن الذي أذن. وتفسير زعيم: كفيل. قال الكلبي: الزعيم: الكفيل بلسان أهل اليمن. وروى

أبو عبيدة عن الكسائي: زَعَمَتْ به تَزْعُم زَعْمًا وزَعامة. أي كفلت به، وهذه الآية تدل على أن الكفالة كانت صحيحة في شرعهم، وقد حكم بها رسول الله ﷺ في قوله: «الزَّعِيمُ غَارِمٌ» (١).

فإن قيل: هذه كفالة بشيء مجهول؟

قلنا: حمل بعير من الطعام كان معلومًا عندهم، فصحت الكفالة به إلا أن هذه كفالة مال لرد سرقة، وهو كفالة بما لم يجب لأنه لا يحل للسارق أن يأخذ شيئًا على رد السرقة، ولعل مثل هذه الكفالة كانت تصح عندهم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

قال البصريون: الواو في (والله) بدل من التاء، والتاء بدل من الواو فضعفت عن التصرف في سائر الأسماء وجعلت فيما هو أحق بالقسم وهو اسم الله عز وجل. قال المفسرون: حلفوا على أمرين: أحدهما: على أنهم ما جاءوا لأجل الفساد في الأرض لأنه ظهر من أحوالهم امتناعهم من التصرف في أموال الناس بالكلية لا بالأكل ولا بإرسال الدواب في مزارع الناس، حتى روي أنهم كانوا قد سدوا أفواه دوابهم لئلا تعبث في زرع، وكانوا مواظبين على أنواع الطاعات، ومن كانت هذه صفته فالفساد في الأرض لا يليق به. والثاني: أنهم ما كانوا سارقين، وقد حصل لهم فيه شاهد قاطع، وهو أنهم لما وجدوا بضاعتهم في رحالهم حملوها من بلادهم إلى مصر ولم يستحلوا أخذها، والسارق لا يفعل ذلك ألبتة ثم لما بينوا براءتهم عن تلك التهمة قال أصحاب يوسف عليه السلام: ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ﴾ فأجابوا وقالوا ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ قال ابن عباس كانوا في ذلك الزمان يستعبدون كل سارق بسرقته وكان استعباد السارق في شرعهم يجري مجرى وجوب القطع في شرعنا، والمعنى جزاء هذا الجرم من وجد المسروق في رحله، أي ذلك الشخص هو جزاء ذلك الجرم، والمعنى: أن استعباده هو جزاء ذلك الجرم، قال الزجاج: وفيه وجهان:

أحدهما: أن يقال جزاؤه مبتدأ ومن ﴿مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ﴾ خبره. والمعنى: جزاء السرقة هو الإنسان الذي وجد في رحله السرقة، ويكون قوله: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ زيادة في البيان كما تقول جزاء السارق القطع فهو جزاؤه.

---

(١) **صحيح:** أخرجه أبو داود في كتاب (البيوع) باب (في تضمين العور) (٣/ ١٥٤١) حديث رقم/ ٣٥٦٥، والترمذي في كتاب (الوصايا) باب (لا وصية لوارث) (٤/ ٣٧٦) حديث رقم/ ٢١٢٠، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وابن ماجه في كتاب (الوصايا) باب (لا وصية لوارث) (٢/ ٩٠٥) حديث رقم/ ٢٧١٣، وأحمد في (مسنده) (٥/ ٢٦٧)، والبيهقي في (سننه) (٦/ ٢٦٤). جميعًا من طريق إسماعيل بن عياش... به.

الثاني: أن يقال: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ مبتدأ وقوله: ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ جملة وهي في موضع خبر المبتدأ. والتقدير: كأنه قيل: جزاؤه من وجد في رحله فهو هو، إلا أنه أقام المضمر للتأكيد والمبالغة في البيان وأنشد النحويون:

لاَ أَرَى الْمَوْتَ يَسْبِقُ الموت شيء نغص الموت الْغِنَى وَالْفَقِيرَا(١)

وأما قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي مثل هذا الجزاء جزاء الظالمين يريد إذا سرق استرق ثم قيل: هذا من بقية كلام أخوة يوسف. وقيل: إنهم لما قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه، فقال أصحاب يوسف: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴿٧٦﴾﴾

اعلم أن إخوة يوسف لما أقروا بأن من وجد المسروق في رحله فجزاؤه أن يسترق قال لهم المؤذن: إنه لا بد من تفتيش أمتعتكم، فانصرف بهم إلى يوسف ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ لإزالة التهمة والأوعية جمع الوعاء وهو كل ما إذا وضع فيه شيء أحاط به ﴿ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ﴾، وقرأ الحسن (وُعَاء أخيه) بضم الواو وهي لغة، وقرأ سعيد بن جبير (إعاء أخيه) فقلب الواو همزة.

فإن قيل: لم ذَكَّر ضمير الصواع مرات ثم أنثه؟

قلنا: قالوا رجع ضمير المؤنث إلى السقاية وضمير المذكر إلى الصواع أو يقال: الصواع يؤنث ويذكر، فكان كل واحد منهما جائزًا أو يقال: لعل يوسف كان يسميه سقاية وعبيده صواعًا فقد وقع فيما يتصل به من الكلام سقاية وفيما يتصل بهم صواعًا، عن قتادة أنه قال: كان لا ينظر في وعاء إلا استغفر الله تائبًا مما قذفهم به، حتى إنه لما لم يبق إلا أخوه قال: ما أرى هذا قد أخذ شيئًا، فقالوا: لا نذهب حتى تتفحص عن حاله أيضًا، فلما نظروا في متاعه استخرجوا الصواع من وعائه والقوم كانوا قد حكموا بأن من سرق يسترق، فأخذوا برقبته وجروا به إلى دار يوسف.

ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾.

وفيه بحثان:

الأول: المعنى: ومثل ذلك الكيد كدنا ليوسف، وذلك إشارة إلى الحكم باسترقاق السارق، أي مثل هذا الحكم الذي ذكره إخوة يوسف حكمنا ليوسف.

الثاني: لفظ الكيد مشعر بالحيلة والخديعة، وذلك في حق الله تعالى محال إلا أنا ذكرنا قانونًا

---

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الخفيف للشاعر عدي بن زيد وتقدمت ترجمته.

معتبرًا في هذا الباب، وهو أن أمثال هذه الألفاظ تحمل على نهايات الأغراض لا على بدايات الأغراض، وقررنا هذا الأصل في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٦] فالكيد السعي في الحيلة والخديعة، ونهايته إلقاء الإنسان من حيث لا يشعر في أمر مكروه ولا سبيل له إلى دفعه، فالكيد في حق الله تعالى محمول على هذا المعنى. ثم اختلفوا في المراد بالكيد هاهنا فقال بعضهم: المراد أن إخوة يوسف سعوا في إبطال أمر يوسف، والله تعالى نصره وقواه وأعلى أمره. وقال آخرون: المراد من هذا الكيد هو أنه تعالى ألقى في قلوب إخوته أن حكموا بأن جزاء السارق هو أن يسترق، لا جرم لما ظهر الصواع في رحله حكموا عليه بالاسترقاق، وصار ذلك سببًا لتمكن يوسف عليه السلام من إمساك أخيه عند نفسه.

ثم قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾ والمعنى: أنه كان حكم الملك في السارق أن يضرب ويغرم ضعفي ما سرق، فما كان يوسف قادرًا على حبس أخيه عند نفسه بناء على دين الملك وحكمه، إلا أنه تعالى كاد له ما جرى على لسان إخوته أن جزاء السارق هو الاسترقاق فقد بينا أن هذا الكلام توسل به إلى أخذ أخيه وحبسه عند نفسه، وهو معنى قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ ثم قال: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قرأ حمزة وعاصم والكسائي ﴿دَرَجَٰتٖ﴾ بالتنوين غير مضاف، والباقون بالإضافة.

المسألة الثانية: المراد من قوله: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ﴾ هو أنه تعالى يريه وجوه الصواب في بلوغ المراد، ويخصه بأنواع العلوم، وأقسام الفضائل، والمراد هاهنا هو أنه تعالى رفع درجات يوسف على إخوته في كل شيء.

واعلم أن هذه الآية تدل على أن العلم أشرف المقامات وأعلى الدرجات، لأنه تعالى لما هدى يوسف إلى هذه الحيلة والفكرة مدحه لأجل ذلك فقال: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ﴾ وأيضًا وصف إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ﴾ عند إيراده ذكر دلائل التوحيد والبراءة عن إلهية الشمس والقمر والكواكب ووصف هاهنا يوسف أيضًا بقوله: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ﴾ لما هداه إلى هذه الحيلة وكم بين المرتبتين من التفاوت.

ثم قال تعالى: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ والمعنى أن إخوة يوسف عليه السلام كانوا علماء فضلاء، إلا أن يوسف كان زائدًا عليهم في العلم.

واعلم أن المعتزلة احتجوا بهذه الآية على أنه تعالى عالم بذاته لا بالعلم فقالوا: لو كان عالمًا بالعلم لكان ذا علم ولو كان كذلك، لحصل فوقه عليم تمسكًا بعموم هذه الآية وهذا باطل.

واعلم أن أصحابنا قالوا دلت سائر الآيات على إثبات العلم لله تعالى وهي قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤] ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦] ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٥]

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فاطر: ١١] وإذا وقع التعارض فنحن نحمل الآية التي تمسك الخصم بها على واقعة يوسف وإخوته خاصة غاية ما في الباب أنه يوجب تخصيص العموم، إلا أنه لا بد من المصير إليه لأن العالم مشتق من العلم، والمشتق مركب والمشتق منه مفرد، وحصول المركب بدون حصول المفرد محال في بديهة العقل فكان الترجيح من جانبنا.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾

اعلم أنه لما خرج الصواع من رحل أخي يوسف نكس إخوته رءوسهم وقالوا: هذه الواقعة عجيبة أن راحيل ولدت ولدين لصين، ثم قالوا: يا بني راحيل ما أكثر البلاء علينا منكم، فقال بنيامين: ماأكثر البلاء علينا منكم ذهبتم بأخي وضيعتموه في المفازة، ثم تقولون لي هذا الكلام، قالوا له: فكيف خرج الصواع من رحلك، فقال: وضعه في رحلي من وضع البضاعة في رحالكم.

واعلم أن ظاهر الآية يقتضي أنهم قالوا للملك: إن هذا الأمر ليس بغريب منه فإن أخاه الذي هلك كان أيضًا سارقًا، وكان غرضهم من هذا الكلام أنا لسنا على طريقته ولا على سيرته، وهو وأخوه مختصان بهذه الطريقة لأنهما من أم أخرى، واختلفوا في السرقة التي نسبوها إلى يوسف عليه السلام على أقوال:

الأول: قال سعيد بن جبير: كان جده أبو أمه كافرًا يعبد الأوثان فأمرته أمه بأن يسرق تلك الأوثان ويكسرها فلعله يترك عبادة الأوثان ففعل ذلك، فهذا هو السرقة.

والثاني: أنه كان يسرق الطعام من مائدة أبيه ويدفعه إلى الفقراء، وقيل سرق عناقًا من أبيه ودفعه إلى المسكين وقيل دجاجة.

والثالث: أن عمته كانت تحبه حبًا شديدًا فأرادت أن تمسكه عند نفسها، وكان قد بقي عندها منطقة لاسحاق عليه السلام وكانوا يتبركون بها فشدتها على وسط يوسف ثم قالت: بأنه سرقها وكان من حكمهم بأن من سرق يسترق، فتوسلت بهذه الحيلة إلى إمساكه عند نفسها.

والرابع: أنهم كذبوا عليه وبهتوه وكانت قلوبهم مملوءة بالغضب على يوسف بعد تلك الوقائع، وبعد انقضاء تلك المدة الطويلة، وهذه الواقعة تدل على أن قلب الحاسد لا يطهر عن الغل ألبتة.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ واختلفوا في أن الضمير في قوله: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ﴾ إلى أي شيء يعود على قولين: قال الزجاج: فأسرها إضمار على شريطة التفسير، تفسيره: أنتم شر مكانًا وإنما أنث لأن قوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ جملة أو كلمة لأنهم يسمون الطائفة من الكلام كلمة كأنه قال: فأسر الجملة أو الكلمة التي هي قوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ

مَّكَانًا﴾ وفي قراءة ابن مسعود (فَأَسَرَّهُ) بالتذكير يريد القول أو الكلام، وطعن أبو علي الفارسي في هذا الوجه فيما استدركه على الزجاج من وجهين:

الوجه الأول: قال الإضمار على شريطة التفسير يكون على ضربين: **أحدهما**: أن يفسر بمفرد كقولنا: نعم رجلاً زيد ففي نعم ضمير فاعلها، ورجلاً تفسير لذلك الفاعل المضمر، والآخر أن يفسر بجملة وأصل هذا يقع في الابتداء كقوله: ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنبياء: ٩٧] ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الصمد: ١] والمعنى القصة شاخصة أبصار الذين كفروا والأمر الله أحد. ثم إن العوامل الداخلة على المبتدأ والخبر تدخل عليه أيضًا نحو إن كقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ [طه: ٧٤] ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الحج: ٤٦]. إذا عرفت هذا فنقول: نفس المضمر على شريطة التفسير في كلا القسمين متصل بالجملة التي حصل منها الإضمار، ولا يكون خارجًا عن تلك الجملة ولا مباينًا لها. وهاهنا التفسير منفصل عن الجملة التي حصل منها الإضمار فوجب أن لا يحسن. **والثاني**: أنه تعالى قال: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ وذلك يدل على أنه ذكر هذا الكلام، ولو قلنا: إنه عليه السلام أضمر هذا الكلام لكان قوله إنه قال ذلك كذبًا. واعلم أن هذا الطعن ضعيف لوجوه:

أما الأول: فلأنه لا يلزم من حسن القسمين الأولين قبح قسم ثالث. **وأما الثاني**: فلأنا نحمل ذلك على أنه عليه السلام قال ذلك على سبيل الخفية وبهذا التفسير يسقط هذا السؤال.

والوجه الثاني: وهو أن الضمير في قوله: ﴿فَأَسَرَّهَا﴾ عائد إلى الإجابة كأنهم قالوا: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ فأسر يوسف إجابتهم في نفسه في ذلك الوقت ولم يبدها لهم في تلك الحالة إلى وقت ثان ويجوز أيضًا أن يكون إضمارًا للمقالة. والمعنى: أسر يوسف مقالتهم، والمراد من المقالة متعلق تلك المقالة كما يراد بالخلق المخلوق وبالعلم المعلوم يعني أسر يوسف في نفسه كيفية تلك السرقة، ولم يبين لهم أنها كيف وقعت وأنه ليس فيها ما يوجب الذم والطعن. روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: عوقب يوسف عليه السلام ثلاث مرات لأجل همه بها، عوقب بالحبس وبقوله: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] عوقب بالحبس الطويل وبقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧] عوقب بقولهم: ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ ثم حكى تعالى عن يوسف أنه قال: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي أنتم شر منزلة عند الله تعالى لما أقدمتم عليه من ظلم أخيكم وعقوق أبيكم فأخذتم أخاكم وطرحتموه في الجب، ثم قلتم لأبيكم: إن الذئب أكله وأنتم كاذبون، ثم بعتموه بعشرين درهمًا، ثم بعد المدة الطويلة والزمان الممتد ما زال الحقد والغضب عن قلوبكم فرميتموه بالسرقة.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ يريد أن سرقة يوسف كانت رضًا لله، وبالجملة فهذه الوجوه المذكورة في سرقته لا يوجب شيء منها عود الذم واللوم إليه، والمعنى: والله أعلم بأن هذا الذي وصفتموه به هل يوجب عود مذمة إليه أم لا.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٧٨ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ۝٧٩﴾

اعلم أنه تعالى بيَّن أنهم بعد الذي ذكروه من قولهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧] أحبوا موافقته والعدول إلى طريقة الشفاعة فإنهم وإن كانوا قد اعترفوا أن حكم الله تعالى في السارق أن يستعبد، إلا أن العفو وأخذ الفداء كان أيضًا جائزًا، فقالوا: يا أيها العزيز إن له أبًا شيخًا كبيرًا أي في السن، ويجوز أن يكون في القدر والدين، وإنما ذكروا ذلك لأن كونه ابنًا لرجل كبير القدر يوجب العفو والصفح.

ثم قالوا: ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ يحتمل أن يكون المراد على طريق الاستعباد ويحتمل أن يكون المراد على طريق الرهن حتى نوصل الفداء إليك. ثم قالوا: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وفيه وجوه:

أحدها: إنا نراك من المحسنين لو فعلت ذلك.

وثانيها: إنا نراك من المحسنين إلينا حيث أكرمتنا وأعطيتنا البذل الكثير وحصلت لنا مطلوبنا على أحسن الوجوه ورددت إلينا ثمن الطعام.

وثالثها: نقل أنه عليه السلام لما اشتد القحط على القوم ولم يجدوا شيئًا يشترون به الطعام، وكانوا يبيعون أنفسهم منه فصار ذلك سببًا لصيرورة أكثر أهل مصر عبيدًا له ثم إنه أعتق الكل، فلعلهم قالوا: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إلى عامة الناس بالإعتاق فكن محسنًا أيضًا إلى هذا الإنسان بإعتاقه من هذه المحنة، فقال يوسف: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي أعود بالله معاذًا أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده، أي أعوذ بالله أن آخذ بريئًا بمذنب.

قال الزجاج: موضع (أن) نصب، والمعنى: أعوذ بالله من أخذ أحد بغيره فلما سقطت كلمة (من) انتصب الفعل عليه وقوله: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ﴾ أي لقد تعديت وظلمت إن آذيت إنسانًا بجرم صدر عن غيره.

فإن قيل: هذه الواقعة من أولها إلى آخرها تزوير وكذب، فكيف يجوز من يوسف عليه السلام مع رسالته الإقدام على هذا التزوير والترويج وإيذاء الناس من غير سبب لا سيما ويعلم أنه إذا حبس أخاه عند نفسه بهذه التهمة فإنه يعظم حزن أبيه ويشتد غمه، فكيف يليق بالرسول المعصوم المبالغة في التزوير إلى هذا الحد؟

والجواب: لعله تعالى أمره بذلك تشديدًا للمحنة على يعقوب ونهاه عن العفو والصفح وأخذ البدل كما أمر تعالى صاحب موسى بقتل من لو بقي لطغى وكفر.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنهم لما قالوا: ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ [يوسف: ٧٨] وهو نهاية ما يمكنهم بذله فقال يوسف في جوابه: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: ٧٩] فانقطع طمعهم من يوسف عليه السلام في رده، فعند هذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ وهو مبالغة في يأسهم من رده ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢] أي تفردوا عن سائر الناس يتناجون ولا شبهة أن المراد يتشاورون ويتحيلون الرأي فيما وقعوا فيه، لأنهم إنما أخذوا بنيامين من أبيهم بعد المواثيق المؤكدة وبعد أن كانوا متهمين في حق يوسف فلو لم يعيدوه إلى أبيهم لحصلت محن كثيرة: أحدها: أنه لو لم يعودوا إلى أبيهم وكان شيخًا كبيرًا فبقاؤه وحده من غير أحد من أولاده محنة عظيمة. وثانيها: أن أهل بيتهم كانوا محتاجين إلى الطعام أشد الحاجة. وثالثها: أن يعقوب عليه السلام ربما كان يظن أن أولاده هلكوا بالكلية وذلك غم شديد ولو عادوا إلى أبيهم بدون بنيامين لعظم حياؤهم فإن ظاهر الأمر يوهم أنهم خانوه في هذا الابن كما أنهم خانوه في الابن الأول، ولكان يوهم أيضًا أنهم ما أقاموا لتلك المواثيق المؤكدة وزنا ولا شك أن هذا الموضع موضع فكرة وحيرة، وذلك يوجب التفاوض والتشاور طلبًا للأصلح الأصوب فهذا هو المراد من قوله: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾.

المسألة الثانية: قال الواحدي: روي عن ابن كثير (اسْتَايَسُوا) و(حَتَّى إِذَا اسْتَايَسَ الرُّسُلُ) [يوسف: ١١٠] بغير همز وفي ييئس لغتان يَئِسَ ويَيأَس مثل حَسِب ويَحسَب ومن قال (اسْتَأْيَس) قلب العين إلى موضع الفاء فصار استَعْفَل وأصله استيأس ثم خففت الهمزة. قال صاحب (الكشاف): استيأسوا يئسوا، وزيادة السين والتاء للمبالغة كما في قوله: ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢] وقوله: ﴿خَلَصُوا۟﴾ قال الواحدي: يقال خلص الشيء يخلص خلوصًا إذا ذهب عنه الشائب من غيره، ثم فيه وجهان:

الأول: قال الزجاج: خلصوا أي انفردوا، وليس معهم أخوهم.

والثاني: قال الباقون: تميزوا عن الأجانب، وهذا هو الأظهر. وأما قوله: ﴿نَجِيًّا﴾ فقال صاحب (الكشاف): النجي على معنيين يكون بمعنى المناجي كالعشير والسمير بمعنى المعاشر والمسامر. ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢] وبمعنى المصدر الذي هو التناجي كما قيل: النجوى بمعنى المتناجين، فعلى هذا معنى ﴿خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ اعتزلوا وانفردوا عن الناس

خالصين لا يخالطهم سواهم ﴿نَجِيًّا﴾ أي مناجيًا. روي (نجوى) أي فوجًا ﴿نَجِيًّا﴾ أي مناجيًا لمناجاة بعضهم بعضًا، وأحسن الوجوه أن يقال: إنهم تمحضوا تناجيًا، لأن من كمل حصول أمر من الأمور فيه وصف بأنه صار غير ذلك الشيء، فلما أخذوا في التناجي على غاية الجد صاروا كأنهم في أنفسهم، صاروا نفس التناجي حقيقة.

أما قوله تعالى: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ فقيل: المراد كبيرهم في السن وهو روبيل، وقيل: كبيرهم في العقل وهو يهودا، وهو الذي نهاهم عن قتل يوسف، ثم حكى تعالى عن هذا الكبير أنه قال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما قال يوسف عليه السلام: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: ٧٩] غضب يهودا، وكان إذا غضب وصاح فلا تسمع صوته حامل إلا وضعت ويقوم شعره على جسده فلا يسكن حتى يضع بعض آل يعقوب يده عليه فقال لبعض إخوته: اكفوني أسواق أهل مصر وأنا أكفيكم الملك، فقال يوسف عليه السلام لابن صغير له: مِسَّه فمسَّه فذهب غضبه وهم أن يصيح فَرَكَلَ يوسف عليه السلام رجله على الأرض وأخذ بملابسه وجذبه فسقط فعنده قال: يا أيها العزيز، فلما أيسوا من قبول الشفاعة تذاكروا وقالوا: إن أبانا قد أخذ علينا موثقًا عظيمًا من الله. وأيضًا نحن متهمون بواقعة يوسف فكيف المخلص من هذه الورطة؟

المسألة الثانية: لفظ (ما) في قوله: ﴿مَا فَرَّطتُمْ﴾.

فيها وجوه:

الأول: أن يكون أصله من قبل هذا فرطتم في شأن يوسف عليه السلام، ولم تحفظوا عهد أبيكم.

الثاني: أن تكون مصدرية ومحله الرفع على الابتداء وخبره الظرف، وهو من قبل. ومعناه وقع من قبل تفريطكم في يوسف.

الثالث: النصب عطفًا على مفعول ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟﴾ والتقدير: ألم تعلموا أخذ أبيكم موثقكم وتفريطكم من قبل في يوسف.

الرابع: أن تكون موصولة بمعنى: ومن قبل هذا ما فرطتموه أي قدمتموه في حق يوسف من الخيانة العظيمة، ومحله الرفع والنصب على الوجهين المذكورين، ثم قال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي فلن أفارق أرض مصر حتى يأذن لي أبي في الانصراف إليه أو يحكم الله لي بالخروج منها أو بالانتصاف ممن أخذ أخي أو بخلاصه من يده بسبب من الأسباب وهو خير الحاكمين، لأنه لا يحكم إلا بالعدل والحق، وبالجملة فالمراد ظهور عذر يزول معه حياؤه وخجله من أبيه أو غيره قاله انقطاعًا إلى الله تعالى في إظهار عذره بوجه من الوجوه.

قوله تعالى: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

واعلم أنهم لما تفكروا في الأصوب ما هو ظهر لهم أن الأصوب هو الرجوع، وأن يذكروا لأبيهم كيفية الواقعة على الوجه من غير تفاوت، والظاهر أن هذا القول قاله ذلك الكبير الذي قال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾[يوسف: ٨٠] قيل: إنه روبيل، وبقي هو في مصر وبعث سائر إخوته إلى الأب.

فإن قيل: كيف حكموا عليه بأنه سرق من غير بينة، لا سيما وهو قد أجاب بالجواب الشافي، فقال: الذي جعل الصواع في رحلي هو الذي جعل البضاعة في رحلكم.

والجواب عنه من وجوه:

الوجه الأول: أنهم شاهدوا أن الصواع كان موضوعًا في موضع ما كان يدخله أحد إلا هم، فلما شاهدوا أنهم أخرجوا الصواع من رحله غلب على ظنونهم أنه هو الذي أخذ الصواع، وأما قوله: وضع الصواع في رحلي مَنْ وضع البضاعة في رحالكم فالفرق ظاهر، لأن هناك لما رجعوا بالبضاعة إليهم اعترفوا بأنهم هم الذين وضعوها في رحالهم، وأما هذا الصواع فإن أحدًا لم يعترف بأنه هو الذي وضع الصواع في رحله فظهر الفرق فلهذا السبب غلب على ظنونهم أنه سرق، فشهدوا بناء على هذا الظن، ثم بيَّن أنهم غير قاطعين بهذا الأمر بقولهم: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾.

والوجه الثاني: في الجواب أن تقدير الكلام ﴿إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ في قول الملك وأصحابه ومثله كثير في القرآن. قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾[هود: ٨٧] أي عند نفسك، وقال تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾[الدخان: ٤٩] أي عند نفسك وأما عندنا فلا فكذا هاهنا.

الوجه الثالث: في الجواب: أن ابنك ظهر عليه ما يشبه السرقة ومثل هذا الشيء يسمى سرقة فإن إطلاق اسم أحد الشبيهين على الشبيه الآخر جائز في القرآن قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[الشورى: ٤٠].

الوجه الرابع: أن القوم ما كانوا أنبياء في ذلك الوقت فلا يبعد أن يقال: إنهم ذكروا هذا الكلام على سبيل المجازفة لا سيما وقد شاهدوا شيئًا يوهم ذلك.

الوجه الخامس: أن ابن عباس رضي الله عنهما كان يقرأ (إِنَّ ابْنَكَ سُرِّقَ) بالتشديد، أي نسب إلى السرقة فهذه القراءة لا حاجة بها إلى التأويل لأن القوم نسبوه إلى السرقة، إلا أنا ذكرنا في هذا الكتاب أن أمثال هذه القراءات لا تدفع السؤال، لأن الإشكال إنما يدفع إذا قلنا القراءة الأولى باطلة، والقراءة الحقة هي هذه. أما إذا سلمنا أن القراءة الأولى حقة كان الإشكال باقيًا

سواء صحت هذه القراءة الثانية أو لم تصح، فثبت أنه لا بد من الرجوع إلى أحد الوجوه المذكورة أما قوله: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ فمعناه ظاهر لأنه يدل على أن الشهادة غير العلم بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ وذلك يقتضي كون الشهادة مغايرة للعلم ولأنه عليه السلام قال: إذا علمت مثل الشمس فاشهد، وذلك أيضًا يقتضي ما ذكرنا وليست الشهادة أيضًا عبارة عن قوله: أشهد لأن قوله أشهد إخبار عن الشهادة والإخبار عن الشهادة غير الشهادة.

إذا ثبت هذا فنقول: الشهادة عبارة عن الحكم الذهني وهو الذي يسميه المتكلمون بكلام النفس، وأما قوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾.

ففيه وجوه:

الأول: أنا قد رأينا أنهم أخرجوا الصواع من رحله، وأما حقيقة الحال فغير معلومة لنا فإن الغيب لا يعلمه إلا الله.

والثاني: قال عكرمة معناه: لعل الصواع دس في متاعه بالليل، فإن الغيب اسم لليل على بعض اللغات.

والثالث: قال مجاهد والحسن وقتادة: وما كنا نعلم أن ابنك يسرق، ولو علمنا ذلك ما ذهبنا به إلى الملك وما أعطيناك موثقًا من الله في رده إليك.

والرابع: نقل أن يعقوب عليه السلام قال لهم: فهب أنه سرق ولكن كيف عرف الملك أن شرع بني إسرائيل أن من سرق يسترق، بل أنتم ذكرتموه له لغرض لكم فقالوا عند هذا الكلام: إنا قد ذكرنا له هذا الحكم قبل وقوعنا في هذه الواقعة وما كنا نعلم أن هذه الواقعة نقع فيها فقوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ إشارة إلى هذا المعنى.

فإن قيل: فهل يجوز من يعقوب عليه السلام أن يسعى في إخفاء حكم الله تعالى على هذا القول.

قلنا: لعله كان ذلك الحكم مخصوصًا بما إذا كان المسروق منه مسلمًا فلهذا أنكر ذكر هذا الحكم عند الملك الذي ظنه كافرًا.

ثم حكى تعالى عنهم أنهم قالوا: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾.

واعلم أنهم لما كانوا متهمين بسبب واقعة يوسف عليه السلام بالغوا في إزالة التهمة عن أنفسهم فقالوا: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ والأكثرون اتفقوا على أن المراد من هذه القرية مصر وقال قوم: بل المراد منه قرية على باب مصر جرى فيها حديث السرقة والتفتيش.

ثم فيه قولان:

الأول: المراد: واسأل أهل القرية إلا أنه حذف المضاف للإيجاز والاختصار، وهذا النوع من المجاز مشهور في لغة العرب، قال أبو علي الفارسي: ودافع جواز هذا في اللغة كدافع الضروريات وجاحد المحسوسات.

والثاني: قال أبو بكر الأنباري: المعنى: اسأل القرية والعير والجدار والحيطان فإنها تجيبك وتذكر لك صحة ما ذكرناه لأنك من أكابر أنبياء الله فلا يبعد أن ينطق الله هذه الجمادات معجزة لك حتى تُخبَر بصحة ما ذكرناه، وفيه وجه ثالث: وهو أن الشيء إذا ظهر ظهورًا تامًّا كاملاً فقد يقال فيه: سل السماء والأرض وجميع الأشياء عنه، والمراد أنه بلغ في الظهور إلى الغاية التي ما بقي للشك فيه مجال.

أما قوله: ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ فقال المفسرون: كان قد صحبهم قوم من الكنعانيين فقالوا: سلهم عن هذه الواقعة. ثم إنهم لما بالغوا في التأكيد والتقرير قالوا: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ يعني سواء نسبتنا إلى التهمة أو لم تنسبنا إليها فنحن صادقون، وليس غرضهم أن يثبتوا صدق أنفسهم بأنفسهم لأن هذا يجري مجرى إثبات الشيء بنفسه، بل الإنسان إذا قدَّم ذكر الدليل القاطع على صحة الشيء فقد يقول بعده: وأنا صادق في ذلك يعني فتأمل فيما ذكرته من الدلائل والبينات لتزول عنك الشبهة.

قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾

اعلم أن يعقوب عليه السلام لما سمع من أبنائه ذلك الكلام لم يصدقهم فيما ذكروا كما في واقعة يوسف فقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ فذكر هذا الكلام بعينه في هذه الواقعة إلا أنه قال في واقعة يوسف عليه السلام: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] وقال هاهنا: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال بعضهم: إن قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ ليس المراد منه هاهنا الكذب والاحتيال كما في قوله في واقعة يوسف عليه السلام حين قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ لكنه عنى سولت لكم أنفسكم إخراج بنيامين عني والمصير به إلى مصر طلبًا للمنفعة فعاد من ذلك شر وضرر وألححتم عليَّ في إرساله معكم ولم تعلموا أن قضاء الله إنما جاء على خلاف تقديركم وقيل: بل المعنى سولت لكم أنفسكم أمرًا: خيلت لكم أنفسكم أنه سرق وما سرق.

المسألة الثانية: قيل: إن روبيل لما عزم على الإقامة بمصر أمره الملك أن يذهب مع إخوته فقال اتركوني وإلا صحت صيحة لا تبقى بمصر امرأة حامل إلا وتضع حملها فقال يوسف: دعوه ولما رجع القوم إلى يعقوب عليه السلام وأخبروه بالواقعة بكى وقال: يا بني لا تخرجوا من عندي مرة إلا ونقص بعضكم، ذهبتم مرة فنقص يوسف، وفي الثانية نقص شمعون، وفي هذه الثالثة نقص روبيل وبنيامين، ثم بكى وقال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ وإنما حكم بهذا الحكم لوجوه:

الأول: أنه لما طال حزنه وبلاؤه ومحنته علم أنه تعالى سيجعل له فرجًا ومخرجًا عن قريب فقال ذلك على سبيل حسن الظن برحمة الله.

والثاني: لعله تعالى قد أخبره من بعد محنة يوسف أنه حي أو ظهرت له علامات ذلك وإنما قال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ لأنهم حين ذهبوا بيوسف كانوا اثني عشر فضاع يوسف وبقي أحد عشر، ولما أرسلهم إلى مصر عادوا تسعة لأن بنيامين حبسه يوسف واحتبس ذلك الكبير الذي قال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي﴾[يوسف: ٨٠] فلما كان الغائبون ثلاثة لا جرم قال ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾.

ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ يعني هو العالم بحقائق الأمور الحكيم فيها على الوجه المطابق للفضل والإحسان والرحمة والمصلحة.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾

واعلم أن يعقوب عليه السلام لما سمع كلام أبنائه ضاق قلبه جدًا وأعرض عنهم وفارقهم ثم بالآخرة طلبهم وعاد إليهم.

أما المقام الأول: وهو أنه أعرض عنهم، وفر منهم فهو قوله: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾.

واعلم أنه لما ضاق صدره بسبب الكلام الذي سمعه من أبنائه في حق بنيامين عظم أسفه على يوسف عليه السلام: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ وإنما عظم حزنه على مفارقة يوسف عند هذه الواقعة لوجوه:

الوجه الأول: أن الحزن الجديد يقوي الحزن القديم الكامن والقدح إذا وقع على القدح كان أوجع، وقال متمم بن نويرة:

وَقَدْ لامَنِي عِنْدَ الْقُبُورِ عَلَى الْبُكَا ... رَفِيقِي لِتِذْرَافِ الدُّمُوعِ السَّوَافِكِ(١)

---

(١) هذه الأبيات ضمن قصيدة من البحر الطويل لمتمم بن نويرة رضي الله عنه هو: مُتَمِّم بن نُوَيرَة بن حمزة بن شداد اليربوعى التميمي أبو نهشل، ؟- ٣٠هـ/ ؟- ٦٥٠ م، شاعر فحل، صحابي، من أشراف قومه، اشتهر في الجاهلية والإسلام، وكان قصيراً أعور، أشهر شعره رثاؤه لأخيه مالك ومنه قوله:

وكنا كندماني جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

فَقَالَ أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرٍ رَأَيْتَهُ لِقَبْرٍ ثَوَى بَيْنَ اللِّوَى وَالدَّكَادِكِ
فَقُلْتُ لَهُ إِنَّ الأَسَى يَبْعَثُ الأَسَى فَدَعْنِي فَهَذَا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكِ

وذلك لأنه إذا رأى قبرًا فتجدد حزنه على أخيه مالك فلاموه عليه، فأجاب بأن الأسى يبعث الأسى. وقال آخر:

فَلَمْ تُنْسِنِي أوفي المصيبات بعده ولكن نكاء الْقَرْحِ بِالْقَرْحِ أَوْجَعُ

والوجه الثاني: أن بنيامين ويوسف كانا من أم واحدة وكانت المشابهة بينهما في الصورة والصفة أكمل، فكان يعقوب عليه السلام يتسلى برؤيته عن رؤية يوسف عليه السلام، فلما وقع ما وقع زال ما يوجب السلوة فعظم الألم والوجد.

الوجه الثالث: أن المصيبة في يوسف كانت أصل مصائبه التي عليها ترتب سائر المصائب والرزايا، وكان الأسف عليه أسفًا على الكل. الرابع: أن هذه المصائب الجديدة كانت أسبابها جارية مجرى الأمور التي يمكن معرفتها والبحث عنها. وأما واقعة يوسف فهو عليه السلام كان يعلم كذبهم في السبب الذي ذكروه، وأما السبب الحقيقي فما كان معلومًا له، وأيضًا أنه عليه السلام كان يعلم أن هؤلاء في الحياة وأما يوسف فما كان يعلم أنه حي أو ميت، فلهذه الأسباب عظم وجده على مفارقته وقويت مصيبته على الجهل بحاله.

المسألة الثانية: من الجهال من عاب يعقوب عليه السلام على قوله: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ قال: لأن هذا إظهار للجزع وجار مجرى الشكاية من الله وأنه لا يجوز، والعلماء بينوا أنه ليس الأمر كما ظنه هذا الجاهل، وتقريره أنه عليه السلام لم يذكر هذه الكلمة ثم عظم بكاؤه، وهو المراد من قوله: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ ثم أمسك لسانه عن النياحة، وذكر مالا ينبغي، وهو المراد من قوله: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ثم إنه ما أظهر الشكاية مع أحد من الخلق بدليل قوله: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وكل ذلك يدل على أنه لما عظمت مصيبته وقويت محنته فإنه صبر وتجرع الغصة وما أظهر الشكاية فلا جرم استوجب به المدح العظيم والثناء العظيم. روي أن يوسف عليه السلام سأل جبريل: هل لك علم بيعقوب؟ قال: نعم قال: وكيف حزنه؟ قال: حزن سبعين ثكلى وهي التي لها ولد واحد ثم يموت. قال: فهل له فيه أجر؟ قال: نعم أجر مائة شهيد.

فإن قيل: روي عن محمد بن علي الباقر قال: مر بيعقوب شيخ كبير فقال له: أنت إبراهيم فقال: أنا ابن ابنه والهموم غيرتني وذهبت بحسني وقوتي، فأوحى الله تعالى إليه: **«حتى متى تشكوني إلى عبادي وعزتي وجلالي لو لم تشكني لأبدلتك لحمًا خيرًا من لحمك ودمًا خيرًا من دمك»** فكان من بعد يقول: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وعن النبي ﷺ أنه قال: **«كَانَ لِيَعْقُوبَ أَخٌ مُوَاخٍ»** فقال له: ما الذي أذهب بصرك وقوَّس ظهرك فقال: الذي أذهب بصري البكاء على يوسف وقوس ظهري الحزن على بنيامين، فأوحى الله تعالى إليه **«أَمَا تَسْتَحِي تَشْكُونِي إِلَى غَيْرِي»**

فقال: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله، فقال: يا رب أما ترحم الشيخ الكبير قوست ظهري، وأذهبت بصري، فاردد عليَّ ريحانتي يوسف وبنيامين فأتاه جبريل عليه السلام بالبشرى وقال: لو كانا ميتين لنشرتهما لك فاصنع طعامًا للمساكين، فإن أحب عبادي إلي الأنبياء والمساكين (١)، وكان يعقوب عليه السلام إذا أراد الغداء نادى مناديه: من أراد الغداء فليتغد مع يعقوب، وإذا كان صائمًا نادى مثله عند الإفطار. وروي أنه كان يرفع حاجبيه بخرقة من الكبر، فقال له رجل: ما هذا الذي أراه بك، قال: طول الزمان وكثرة الأحزان، فأوحى الله إليه «أَتَشْكُونِي يَا يَعْقُوبُ» فقال: يارب خطيئة أخطأتها فاغفرها لي.

قلنا: إنا قد دللنا على أنه لم يأت إلا بالصبر والثبات وترك النياحة. وروي أن ملك الموت دخل على يعقوب عليه السلام فقال له: جئت لتقبضني قبل أن أرى حبيبي فقال: لا، ولكن جئت لأحزن لحزنك وأشجو لشجوك، وأما البكاء فليس من المعاصي. وروي أن النبي عليه الصلاة والسلام: بكى على ولده إبراهيم عليه السلام وقال: «**إِنَّ الْقَلْبَ لَيَحْزَنُ وَالْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَلاَ نَقُولُ مَا يُسْخِطُ الرَّبَّ وَإِنَّا عَلَيْكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**» (٢) وأيضًا فاستيلاء الحزن على الإنسان ليس باختياره، فلا يكون ذلك داخلاً تحت التكليف وأما التأوه وإرسال البكاء فقد يصير بحيث لا يقدر على دفعه، وأما ما ورد في الروايات التي ذكرتم فالمعاتبة فيها إنما كانت لأجل أن حسنات الأبرار سيئات المقربين. وأيضًا ففيه دقيقة أخرى وهي أن الإنسان إذا كان في موضع التحير والتردد لا بد وأن يرجع إلى الله تعالى، فيعقوب عليه السلام ما كان يعلم أن يوسف بقي حيًّا أم صار ميتًا، فكان متوقفًا فيه وبسبب توقفه كان يكثر الرجوع إلى الله تعالى وينقطع قلبه عن الالتفات عن كل ما سوى الله تعالى إلا في هذه الواقعة، وكانت أحواله في هذه الواقعة مختلفة، فربما صار في بعض الأوقات مستغرق الهم بذكر الله تعالى، فإن عَنَّ تذكر هذه الواقعة، فكان ذكرها كلا سواها، فلهذا السبب صارت هذا الواقعة بالنسبة إليه، جارية مجرى الإلقاء في النار

---

(١) ضعيف: قلت: رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٤٨) من طريق أبي بكر بن أبي شيبة، عن يحيى بن عبد الملك بن أبي غنية، عن حفص بن عمر ابن الزبير، عن أنس بنحوه، وقال الحاكم: (حفص بن عمر بن الزبير، وأظن الزبير وهما من الراوي فإنه حفص بن عمر بن عبد الله بن أبي طلحة الأنصاري).

ورواه إسحاق بن راهويه ومن طريقه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٤٨) من طريق يحيى بن عبد الملك، عن أنس بن مالك مرسلا. ورواه ابن أبي الدنيا في (الفرج بعد الشدة) برقم (٤٧) من طريق بن سليمان عن يحي بن عبد الملك عن رجل، عن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا. ورواه الطبراني في الأوسط برقم (٣٣٤١) (مجمع البحرين) من طريق وهب بن بقية عن يحيى بن عبد المطلب عن حصين بن عمر الأحمسي عن أبي الزبير عن أنس مرفوعًا. وبهذا يتبين أن الحديث مضطرب.

وأورده ابن كثير في (تفسيره) (٤/ ٤٠٦)، وقال: وهذا حديث غريب وفيه نكارة.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الجنائز) باب (قول النبي: إنا بك لمحزونون) (٣/ ٢٦) حديث رقم/ ١٣٠٣، ومسلم في كتاب (العيال) باب (رحمة النبي ﷺ بالصبية والعيال) (٤/ ١٨٠٧/ ٦٢)، كلاهما من طريق سليمان بن المغيرة... به.

للخليل عليه السلام ومجرى الذبح لابنه الذبيح .

فإن قيل: أليس أن الأولى عند نزول المصيبة الشديدة أن يقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] حتى يستوجب الثواب العظيم المذكور في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧] .

قلنا: قال بعض المفسرين: إنه لم يعط الاسترجاع أمة إلا هذه الأمة فأكرمهم الله تعالى إذا أصابتهم مصيبة وهذا عندي ضعيف لأن قوله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ إشارة إلى أنا مملوكون لله وهو الذي خلقنا وأوجدنا، وقوله: ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ إشارة إلى أنه لا بد من الحشر والقيامة، ومن المحال أن أمة من الأمم لا يعرفون ذلك فمن عرف عند نزول بعض المصائب به أنه لا بد في العاقبة من رجوعه إلى الله تعالى، فهناك تحصل السلوة التامة عند تلك المصيبة، ومن المحال أن يكون المؤمن بالله غير عارف بذلك .

المسألة الثالثة: قوله: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ نداء الأسف وهو كقوله: «يا عَجَبًا» والتقدير كأنه ينادي الأسف ويقول: هذا وقت حصولك وأوان مجيئك وقد قررنا هذا المعنى في مواضع كثيرة منها في تفسير قوله: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٣١] والأسف الحزن على ما فات. قال الليث: إذا جاءك أمر فحزنت له ولم تطقه فأنت أسيف أي حزين ومتأسف أيضًا. قال الزجاج: الأصل ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ﴾ إلا أن ياء الإضافة يجوز إبدالها بالألف لخفة الألف والفتحة .

ثم قال تعالى: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ .

وفيه وجهان:

الوجه الأول: أنه لما قال: يا أسفى على يوسف غلبه البكاء، وعند غلبة البكاء يكثر الماء في العين فتصير العين كأنها ابيضت من بياض ذلك الماء وقوله: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ كناية عن غلبة البكاء، والدليل على صحة هذا القول أن تأثير الحزن في غلبة البكاء لا في حصول العمى فلو حملنا الابيضاض على غلبة البكاء كان هذا التعليل حسنًا ولو حملناه على العمى لم يحسن هذا التعليل، فكان ما ذكرناه أولى وهذا للتفسير مع الدليل رواه الواحدي في (البسيط) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

والوجه الثاني: أن المراد هو العمى قال مقاتل: لم يبصر بهما ست سنين حتى كشف الله تعالى عنه بقميص يوسف عليه السلام وهو قوله: ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٣] قيل إن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام حينما كان في السجن فقال إن بصر أبيك ذهب من الحزن عليك فوضع يده على رأسه وقال: ليت أمي لم تلدني ولم أك حزنًا على أبي، والقائلون بهذا التأويل قالوا: الحزن الدائم يوجب البكاء الدائم وهو يوجب العمى، فالحزن كان سببًا للعمى بهذه الواسطة، وإنما كان البكاء الدائم يوجب العمى، لأنه يورث كدورة في سوداء العين، ومنهم من قال: ما عمي لكنه صار بحيث يدرك إدراكًا ضعيفًا. قيل: ما جفت عينا

يعقوب من وقت فراق يوسف عليه السلام إلى حين لقائه، وتلك المدة ثمانون عامًا، وما كان على وجه الأرض عبدًا أكرم على الله تعالى من يعقوب عليه السلام.

أما قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ فاعلم أنه قرئ (من الحُزْن) بضم الحاء وسكون الزاي، وقرأ الحسن بفتح الحاء والزاي. قال الواحدي: واختلفوا في الحزن والحزن فقال قوم: الحُزْن البُكَاء والحزن ضد الفرح، وقال قوم: هما لغتان يقال أصابه حزن شديد، وحزن شديد، وهو مذهب أكثر أهل اللغة، وروى يونس عن أبي عمرو قال: إذا كان في موضع النصب فتحوا الحاء والزاي كقوله: ﴿تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا﴾[التوبة: ٩٢] وإذا كان في موضع الخفض أو الرفع ضموا الحاء كقوله: ﴿مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ وقوله: ﴿أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ قال هو في موضع رفع بالابتداء.

وأما قوله تعالى: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ فيجوز أن يكون بمعنى الكاظم وهو الممسك على حزنه فلا يظهره، قال ابن قتيبة: ويجوز أن يكون بمعنى المكظوم، ومعناه المملوء من الحزن مع سد طريق نفسه المصدورُ من كظم السقاء إذا اشتد على ملئه، ويجوز أيضًا أن يكون بمعنى مملوء من الغيظ على أولاده.

واعلم أن أشرف أعضاء الإنسان هذه الثلاثة، فبيَّن تعالى أنها كانت غريقة في الغم فاللسان كان مشغولاً بقوله: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ﴾ والعين بالبكاء والبياض والقلب بالغم الشديد الذي يشبه الوعاء المملوء الذي شد ولا يمكن خروج الماء منه وهذه مبالغة في وصف ذلك الغم.

أما قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قال ابن السكيت يقال: ما زلت أفعله وما فتئت أفعله وما برحت أفعله ولا يتكلم بهن إلا مع الجحد. قال ابن قتيبة يقال: ما فتيت وما فتئت لغتان فتيا فنوًا إذا نسيته وانقطعت عنه، قال النحويون وحرف النفي هاهنا مضمر على معنى قالوا: ما تفتؤ ولا تفتؤ وجاز حذفه لأنه لو أريد الإثبات لكان باللام والنون نحو والله لتفعلن فلما كان بغير اللام والنون عرف أن كلمة لا مضمرة وأنشدوا قول امرئ القيس:

فَقُلْتُ يَمِينُ اللَّه أَبْرَحُ قَاعِدًا(١)

والمعنى: لا أبرح قاعدًا ومثله كثير. وأما المفسرون فقال ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة لا تزال تذكره، وعن مجاهد لا تفتر من حبه كأنه جعل الفتور والفتوء أخوين.

المسألة الثانية: حكى الواحدي عن أهل المعاني أن أصل الحرض فساد الجسم والعقل للحزن والحب، وقوله: حرَّضت فلانًا على فلان تأويله أفسدته وأحميته عليه، وقال تعالى:

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الطويل وهو لامرئ القيس وتقدمت ترجمته.

﴿حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥].

إذا عرفت هذا فنقول: وصف الرجل بأنه حَرَض إما أن يكون لإرادة أنه ذو حرض فحذف المضاف أو لإرادة أنه لما تناهى في الفساد والضعف فكأنه صار عين الحرض ونفس الفساد. وأما الحَرِض بكسر الراء فهو الصفة وجاءت القراءة بهما معًا.

إذا عرفت هذا فنقول: للمفسرين فيه عبارات: أحدها: الحَرَض والحارض هو الفاسد في جسمه وعقله. وثانيها: سأل نافع بن الأزرق ابن عباس عن الحرض فقال: الفاسد الدنف. وثالثها: أنه الذي يكون لا كالأحياء ولا كالأموات، وذكر أبو روق أن أنس بن مالك قرأ: (حتى تكون حُرْضًا) بضم الحاء وتسكين الراء قال يعني مثل عود الأشنان، وقوله: ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ أي من الأموات، ومعنى الآية أنهم قالوا لأبيهم: إنك لا تزال تذكر يوسف بالحزن والبكاء عليه حتى تصير بذلك إلى مرض لا تنتفع بنفسك معه أو تموت من الغم كأنهم قالوا: أنت الآن في بلاء شديد ونخاف أن يحصل ما هو أزيد منه وأقوى وأرادوا بهذا القول منعه عن كثرة البكاء والأسف.

فإن قيل: لِمَ حلفوا على ذلك مع أنهم لم يعلموا ذلك قطعًا؟

قلنا: إنهم بنوا هذا الأمر على الظاهر.

فإن قيل: القائلون بهذا الكلام وهو قوله: ﴿تَٱللَّهِ﴾ من هم؟

قلنا: الأظهر أن هؤلاء ليسوا هم الإخوة الذين قد تولى عنهم، بل الجماعة الذين كانوا في الدار من أولاد أولاده وخدمه.

ثم حكى تعالى عن يعقوب عليه السلام أنه قال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يعني أن هذا الذي أذكره لا أذكره معكم وإنما أذكره في حضرة الله تعالى، والإنسان إذا بث شكواه إلى الله تعالى كان في زمرة المحققين كما قال عليه الصلاة والسلام: «**أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَأَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ غَضَبِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ**» (١) والله هو الموفق، والبث هو التفريق قال الله تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [البقرة: ١٦٤] فالحزن إذا ستره الإنسان كان همًّا وإذا ذكره لغيره كان بثًّا وقالوا: البث أشد الحزن والحزن أشد الهم، وذلك لأنه متى أمكنه أن يمسك لسانه عن ذكره لم يكن ذلك الحزن مستوليًا عليه، وأما إذا عظم وعجز الإنسان عن ضبطه وانطلق اللسان بذكره شاء

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الصلاة) باب (ما يقال في الركوع والسجود) (١/ ٢٢٢/ ٣٥٢) وفيه لفظ (فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد) من طريق أبي بكر بن أبي شيبة عن أبي أمامة... به. وأبو داود في كتاب (الصلاة) باب (في الدعاء في الركوع والسجود) (١/ ٢٣١) حديث رقم/ ٨٧٩ ولم يذكر أنها لمست قدميه. ومن طريق محمد بن سليمان الأنباري عن عبيدة... به. والنسائي في كتاب (الطهارة) باب (ترك الوضوء من مس الرجل امرأته من غير شهوة)، (١/ ١٨٢) حديث رقم/ ١٦٩، وابن ماجه في كتاب (الدعاء) باب (ما تعوذ رسول الله ﷺ)، (٢/ ١٢٦٢) حديث رقم/ ٣٨٤١، من طريق أبي بكر بن أبي شيبة عن أبي أسامة... به. كلاهما (أبو أسامة، وعبيدة) عن عبيد الله بن عمر... به.

أم أبى كان ذلك بثًّا وذلك يدل على أن الإنسان صار عاجزًا عنه وهو قد استولى على الإنسان، فقوله: ﴿بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي لا أذكر الحزن العظيم ولا الحزن القليل إلا مع الله، وقرأ الحسن: (وحَزَني) بفتحتين و(حُزُني) بضمتين، قيل: دخل على يعقوب رجل وقال: يا يعقوب ضعف جسمك ونحف بدنك وما بلغت سنًّا عاليًا فقال الذي بي لكثرة غمومي، فأوحى الله إليه يا يعقوب أتشكوني إلى خلقي، فقال يارب خطيئة أخطأتها فاغفرها لي فغفرها له، وكان بعد ذلك إذا سئل قال: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وروي أنه أوحى الله إليه إنما وجدت عليكم لأنكم ذبحتم شاة فقام ببابكم مسكين فلم تطعموه، وإن أحب خلقي إليَّ الأنبياء والمساكين فاصنع طعامًا وادع إليه المساكين، وقيل: اشترى جارية مع ولدها فباع ولدها فبكت حتى عميت.

ثم قال يعقوب عليه السلام: ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي أعلم من رحمته وإحسانه ما لا تعلمون، وهو أنه تعالى يأتي بالفرج من حيث لا أحتسب، فهو إشارة إلى أنه كان يتوقع وصول يوسف إليه. وذكروا لسبب هذا التوقع أمورًا:

أحدها: أن ملك الموت أتاه فقال له: يا ملك الموت هل قبضت روح ابني يوسف؟ قال: لا يا نبي الله ثم أشار إلى جانب مصر وقال: اطلبه هاهنا.

وثانيها: أنه علم أن رؤيا يوسف صادقة، لأن أمارات الرشد والكمال كانت ظاهرة في حق يوسف ورؤيا مثله عليه السلام لا تخطئ.

وثالثها: لعله تعالى أوحى إليه أنه سيوصله إليه، ولكنه تعالى ما عين الوقت فلهذا بقي في القلق.

ورابعها: قال السدي: لما أخبره بنوه بسيرة الملك وكمال حاله في أقواله وأفعاله طمع أن يكون هو يوسف وقال: يبعد أن يظهر في الكفار مثله.

وخامسها: علم قطعًا أن بنيامين لا يسرق وسمع أن الملك ما آذاه وما ضربه فغلب على ظنه أن ذلك الملك هو يوسف فهذا جملة الكلام في المقام الأول.

والمقام الثاني: أنه رجع إلى أولاده وتكلم معهم على سبيل اللطف وهو قوله: ﴿ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ .

واعلم أنه عليه السلام لما طمع في وجدان يوسف بناء على الأمارات المذكورة قال لبنيه: تحسسوا من يوسف، والتحسس: طلب الشيء بالحاسة وهو شبيه بالسمع والبصر، قال أبو بكر الأنباري يقال: تحسست عن فلان ولا يقال من فلان، وقيل هاهنا: من يوسف لأنه أقام (من) مقام (عن)، قال: ويجوز أن يقال: من للتبعيض، والمعنى تحسسوا خبرًا من أخبار يوسف، واستعلموا بعض أخبار يوسف فذكرت كلمة ﴿مِن﴾ لما فيها من الدلالة على التبعيض، وقرئ (تجسسوا) بالجيم كما قرىء بهما في الحجرات.

ثم قال: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ قال الأصمعي: الروح: ما يجده الإنسان من نسيم الهواء فيسكن إليه وتركيب الراء والواو والحاء يفيد الحركة والاهتزاز، فكلُّ ما يهتز الإنسان له ويلتذ بوجوده فهو روح. وقال ابن عباس: لا تيئسوا من روح الله يريد من رحمة الله، وعن قتادة: من فضل الله، وقال ابن زيد: من فرج الله، وهذه الألفاظ متقاربة، وقرأ الحسن وقتادة: (من رُوح الله) بالضم أي من رحمته.

ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن المؤمن من الله على خير يرجوه في البلاء ويحمده في الرخاء.

واعلم أن اليأس من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا إذا اعتقد الإنسان أن الإله غير قادر على الكمال أو غير عالم بجميع المعلومات أو ليس بكريم بل هو بخيل وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر، فإذا كان اليأس لا يحصل إلا عند حصول أحد هذه الثلاثة، وكل واحد منها كفر ثبت أن اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافرًا والله أعلم، وقد بقي من مباحث هذه الآية سؤالات:

السؤال الأول: أن بلوغ يعقوب في حب يوسف إلى هذا الحد العظيم لا يليق إلا بمن كان غافلاً عن الله، فإن من عرف الله أحبه ومن أحب الله لم يتفرغ قلبه لحب شيء سوى الله تعالى، وأيضًا القلب الواحد لا يتسع للحب المستغرق لشيئين، فلما كان قلبه مستغرقًا في حب ولده امتنع أن يقال: إنه كان مستغرقًا في حب الله تعالى.

والسؤال الثاني: أن عند استيلاء الحزن الشديد عليه كان من الواجب أن يشتغل بذكر الله تعالى، وبالتفويض إليه والتسليم لقضائه.

وأما قوله: ﴿يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ فذلك لا يليق بأهل الدين والعلم فضلاً عن أكابر الأنبياء.

والسؤال الثالث: لا شك أن يعقوب كان من أكابر الأنبياء، وكان أبوه وجده وعمه كلهم من أكابر الأنبياء المشهورين في جميع الدنيا، ومن كان كذلك ثم وقعت له واقعة هائلة صعبة في أعز أولاده عليه لم تبق تلك الواقعة خفية، بل لا بد وأن يبلغ في الشهرة إلى حيث يعرفها كل أحد لا سيما وقد انقضت المدة الطويلة فيها وبقي يعقوب على حزنه الشديد وأسفه العظيم، وكان يوسف في مصر وكان يعقوب في بعض بلاد الشام قريبًا من مصر، فمع قرب المسافة يمتنع بقاء هذه الواقعة مخفية.

السؤال الرابع: لِمَ لم يبعث يوسف عليه السلام أحدًا إلى يعقوب ويعلمه أنه في الحياة وفي السلامة ولا يقال: إنه كان يخاف إخوته لأنه بعد أن صار ملكًا قاهرًا كان يمكنه إرسال الرسول إليه وإخوته ما كانوا يقدرون على دفع الرسول.

والسؤال الخامس: كيف جاز ليوسف عليه السلام أن يضع الصاع في وعاء أخيه ثم يستخرجه منه ويلصق به تهمة السرقة مع أنه كان بريئًا عنها.

السؤال السادس: كيف رغب في إلصاق هذه التهمة به وفي حبسه عند نفسه مع أنه كان يعلم

أنه يزداد حزن أبيه ويقوى؟

والجواب عن الأول: أن مثل هذه المحنة الشديدة تزيل عن القلب كل ما سواه من الخواطر. ثم إن صاحب هذه المحنة الشديدة يكون كثير الرجوع إلى الله تعالى كثير الاشتغال بالدعاء والتضرع فيصير ذلك سببًا لكمال الاستغراق.

والجواب عن الثاني: أن الدواعي الإنسانية لا تزول في الحياة العاجلة فتارة كان يقول: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤] وتارة كان يقول: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] وأما بقية الأسئلة فالقاضي أجاب عنها بجواب كلي حسن، فقال هذه الوقائع التي نقلت إلينا إما يمكن تخريجها على الأحوال المعتادة أو لا يمكن فإن كان الأول فلا إشكال، وإن كان الثاني فنقول: كان ذلك الزمان زمان الأنبياء عليهم السلام وخرق العادة في هذا الزمان غير مستبعد، فلم يمتنع أن يقال: إن بلدة يعقوب عليه السلام مع أنها كانت قريبة من بلدة يوسف عليه السلام، ولكن لم يصل خبر أحدهما إلى الآخر على سبيل نقض العادة.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾

اعلم أن المفسرين اتفقوا على أن هاهنا محذوفًا والتقدير: أن يعقوب لما قال لبنيه: ﴿اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ قبلوا من أبيهم هذه الوصية فعادوا إلى مصر ودخلوا على يوسف عليه السلام فقالوا له: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾.

فإن قيل: إذا كان يعقوب أمرهم أن يتحسسوا أمر يوسف وأخيه فلماذا عدلوا إلى الشكوى وطلبوا إيفاء الكيل؟

قلنا: لأن المتحسسين يتوسلون إلى مطلوبهم بجميع الطرق والاعتراف بالعجز وضيق اليد ورقة الحال وقلة المال وشدة الحاجة مما يرقق القلب فقالوا: نجربه في ذكر هذه الأمور فإن رق قلبه لنا ذكرنا له المقصود وإلا سكتنا. فلهذا السبب قدموا ذكر هذه الواقعة وقالوا ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ والعزيز هو الملك القادر المنيع ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ وهو الفقر والحاجة وكثرة العيال وقلة الطعام وعنوا بأهلهم من خلفهم ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾.

وفيه أبحاث:

البحث الأول: معنى الإزجاء في اللغة، الدفع قليلاً قليلاً ومثله التزجية يقال الريح تزجي

السحاب. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ [النور: ٤٣] وزجيت فلانًا بالقول دافعته، وفلان يزجي العيش أي يدفع الزمان بالحيلة.

والبحث الثاني: إنما وصفوا تلك البضاعة بأنها مزجاة إما لنقصانها أو لرداءتها أو لهما جميعًا والمفسرون ذكروا كل هذه الأقسام: قال الحسن: البضاعة المزجاة: القليلة، وقال آخرون: إنها كانت رديئة واختلفوا في تلك الرداءة، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت دراهم رديئة لا تقبل في ثمن الطعام، وقيل: خلق الغرارة والحبل وأمتعة رثة، وقيل: متاع الأعراب الصوف والسمن. وقيل: الحبة الخضراء، وقيل: الأقط، وقيل: النعال والأدم، وقيل: سويق المقل، وقيل: صوف المعز، وقيل: إن دراهم مصر كانت تنقش فيها صورة يوسف والدراهم التي جاءوا بها ما كان فيها صورة يوسف فما كانت مقبولة عند الناس.

البحث الثالث: في بيان أنه لِمَ سميت البضاعة القليلة الرديئة مزجاة؟ وفيه وجوه:

الأول: قال الزجاج: هي من قولهم: فلان يزجي العيش أي يدفع الزمان بالقليل، والمعنى إنا جئنا ببضاعة مزجاة ندافع بها الزمان، وليست مما ينتفع به وعلى هذا الوجه فالتقدير ببضاعة مزجاة بها الأيام.

الثاني: قال أبو عبيد: إنما قيل للدراهم الرديئة مزجاة، لأنها مردودة مدفوعة غير مقبولة ممن ينفقها، قال وهي من الإزجاء، والإزجاء عند العرب السوق والدفع.

الثالث: ببضاعة مزجاة أي مؤخرة مدفوعة عن الإنفاق لا ينفق مثلها إلا من اضطر واحتاج إليها لفقد غيرها مما هو أجود منها.

الرابع: قال الكلبي: مزجاة: لغة العجم، وقيل: هي من لغة القبط قال أبو بكر الأنباري: لا ينبغي أن يجعل لفظ عربي معروف الاشتقاق والتصريف منسوبًا إلى القبط.

البحث الرابع: قرأ حمزة والكسائي (مُزْجاة) بالإمالة، لأن أصله الياء، والباقون بالنصب والتفخيم.

واعلم أن حاصل الكلام في كون البضاعة مزجاة إما لقلتها أو لنقصانها أو لمجموعهما ولما وصفوا شدة حالهم ووصفوا بضاعتهم بأنها مزجاة قالوا له: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ والمراد أن يساهلهم إما بأن يقيم الناقص مقام الزائد أو يقيم الرديء مقام الجيد، ثم قالوا: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ والمراد المسامحة بما بين الثمنين وأن يسعر لهم بالرديء كما يسعر بالجيد، واختلف الناس في أنه هل كان ذلك طلبًا منهم للصدقة فقال سفيان بن عيينة: إن الصدقة كانت حلالاً للأنبياء قبل محمد ﷺ بهذه الآية [1] وعلى هذا التقدير، كأنهم طلبوا القدر الزائد على سبيل الصدقة، وأنكر الباقون ذلك وقالوا حال الأنبياء وحال أولاد الأنبياء ينافي طلب الصدقة لأنهم يأنفون من

---

(١) أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٦/ ٢٤٢) حديث رقم/ ١٩٧٨٦، من طريق القاسم قال: يحكى عن سفيان بن عيينة... فذكره بنحوه.

الخضوع للمخلوقين ويغلب عليهم الانقطاع إلى الله تعالى والاستغاثة به عمن سواه، وروي عن الحسن ومجاهد: أنهما كرها أن يقول الرجل في دعائه: اللهم تصدق علي، قالوا: لأن الله لا يتصدق إنما يتصدق الذي يبتغي الثواب، وإنما يقول: اللهم أعطني أو تفضل، فعلى هذا التصدق هو إعطاء الصدقة والمتصدق المعطي، وأجاز الليث أن يقال للسائل: متصدق، وأباه الأكثرون. وروي أنهم لما قالوا: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ وتضرعوا إليه اغرورقت عيناه فعند ذلك ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ وقيل: دفعوا إليه كتاب يعقوب فيه: من يعقوب إسرائيل الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر. أما بعد: فإنا أهل بيت موكل بنا البلاء أما جدي فشدت يداه ورجلاه ورمي في النار ليحرق فنجاه الله وجعلها بردًا وسلامًا عليه، وأما أبي فوضع السكين على قفاه ليقتل ففداه الله، وأما أنا فكان لي ابن وكان أحب أولادي إلي فذهب به إخوته إلى البرية ثم أتوني بقميصه ملطخًا بالدم وقالوا: قد أكله الذئب فذهبت عيناي من البكاء عليه، ثم كان لي ابن وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به فذهبوا به إليك ثم رجعوا وقالوا: إنه قد سرق وإنك حبسته عندك وإنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقًا، فإن رددته علي وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك. فلما قرأ يوسف عليه السلام الكتاب لم يتمالك وعيل صبره وعرفهم أنه يوسف.

ثم حكى تعالى عن يوسف عليه السلام في هذا المقام أنه قال: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ قيل إنه لما قرأ كتاب أبيه يعقوب ارتعدت مفاصله واقشعر جلده ولان قلبه وكثر بكاؤه وصرح بأنه يوسف. وقيل: إنه لما رأى إخوته تضرعوا إليه ووصفوا ما هم عليه من شدة الزمان وقلة الحيلة أدركته الرقة فصرح حينئذ بأنه يوسف، وقوله: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ استفهام يفيد تعظيم الواقعة، ومعناه: ما أعظم ما ارتكبتم في يوسف وما أقبح ما أقدمتم عليه، وهو كما يقال للمذنب هل تدري من عصيت وهل تعرف من خالفت؟

واعلم أن هذه الآية تصديق لقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥] وأما قوله: ﴿وَأَخِيهِ﴾ فالمراد ما فعلوا به من تعريضه للغم بسبب إفراده عن أخيه لأبيه وأمه، وأيضًا كانوا يؤذونه ومن جملة أقسام ذلك الإيذاء قالوا في حقه: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧] وأما قوله: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ فهو يجري مجرى العذر كأنه قال: أنتم إنما أقدمتم على ذلك الفعل القبيح المنكر حال ما كنتم في جهالة الصبا أو في جهالة الغرور، يعني والآن لستم كذلك، ونظيره ما يقال في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الأنفطار: ٦] قيل: إنما ذكر تعالى هذا الوصف المعين ليكون ذلك جاريًا مجرى الجواب وهو أن يقول العبد يا رب غرني كرمك فكذا هاهنا إنما ذكر ذلك الكلام إزالة للخجالة عنهم وتخفيفًا للأمر عليهم. ثم إن إخوته قالوا: ﴿أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ﴾ قرأ ابن كثير (إنك) على لفظ الخبر، وقرأ نافع (أينك لانت يوسف) بفتح الألف غير ممدودة وبالياء، وأبو عمرو (آينك)

بمد الألف وهو رواية قالون عن نافع، والباقون (أئنك) بهمزتين وكل ذلك على الاستفهام، وقرأ أبي (أَوَ أَنْتَ يوسف) فحصل من هذه القراءات أن من القراء من قرأ بالاستفهام ومنهم من قرأ بالخبر.

أما الأولون فقالوا: إن يوسف لما قال لهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُم﴾ وتبسم فأبصروا ثناياه، وكانت كاللؤلؤ المنظوم شبهوه بيوسف، فقالوا له استفهامًا ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ ويدل على صحة الاستفهام أنه ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ﴾ وإنما أجابهم عما استفهموا عنه. وأما من قرأ على الخبر فحجته ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن إخوة يوسف لم يعرفوه حتى وضع التاج عن رأسه، وكان في فرقه علامة وكان ليعقوب وإسحاق مثلها شبه الشامة، فلما رفع التاج عرفوه بتلك العلامة، فقالوا: (إنك لأنت يوسف) ويجوز أن يكون ابن كثير أراد الاستفهام ثم حذف حرف الاستفهام وقوله: ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ﴾.

فيه بحثان:

البحث الأول: اللام لام الابتداء، وأنت مبتدأ ويوسف خبره، والجملة خبر إن.

البحث الثاني: أنه إنما صرح بالاسم تعظيمًا لما نزل به من ظلم إخوته وماعوضه الله من الظفر والنصر؛ فكأنه قال: أنا الذي ظلمتموني على أعظم الوجوه والله تعالى أوصلني إلى أعظم المناصب، أنا ذلك العاجز الذي قصدتم قتله وإلقاءه في البئر ثم صرت كما ترون، ولهذا قال: ﴿وَهَٰذَآ أَخِى﴾ مع أنهم كانوا يعرفونه لأن مقصوده أن يقول: وهذا أيضًا كان مظلومًا كما كنت ثم إنه صار منعمًا عليه من قبل الله تعالى كما ترون وقوله: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: بكل عز في الدنيا والآخرة، وقال آخرون: بالجمع بيننا بعد التفرقة وقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ معناه: من يتق معاصي الله ويصبر على أذى الناس ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ والمعنى: إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجرهم فوضع المحسنين موضع الضمير لاشتماله على المتقين.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: اعلم أن يوسف عليه السلام وصف نفسه في هذا المقام الشريف بكونه متقيًا ولو أنه قدم على ما يقوله الحشوية في حق زليخا لكان هذا القول كذبًا منه وذكر الكذب في مثل هذا المقام الذي يؤمن فيه الكافر ويتوب فيه العاصي لا يليق بالعقلاء.

المسألة الثانية: قال الواحدي: روي عن ابن كثير في طريق قنبل: (إِنَّه مَن يَتَّقِي) بإثبات الياء في الحالين ووجهه أن يجعل (من) بمنزلة الذي فلا يوجب الجزم ويجوز على هذا الوجه أن يكون قوله: ﴿وَيَصْبِرْ﴾ في موضع الرفع إلا أنه حذف الرفع طلبًا للتخفيف كما يخفف في عَضُد وشمع والباقون بحذف الياء في الحالين.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾

اعلم أن يوسف عليه السلام لما ذكر لإخوته أن الله تعالى منَّ عليه وأن من يتق المعاصي ويصبر على أذى الناس فإنه لا يضيعه الله صدقوه فيه، واعترفوا له بالفضل والمزية ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ قال الأصمعي: يقال: آثرك إيثارًا، أي فضلك الله، وفلان آثر عبد فلان، إذا كان يؤثره بفضله وصلته، والمعنى: لقد فضلك الله علينا بالعلم والحلم والعقل والفضل والحسن والملك، واحتج بعضهم بهذه الآية على أن إخوته ما كانوا أنبياء، لأن جميع المناصب التي تكون مغايرة لمنصب النبوة كالعدم بالنسبة إليه فلو شاركوه في منصب النبوة لما قالوا: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ وبهذا التقدير يذهب سؤال من يقول: لعل المراد كونه زائدًا عليهم في الملك وأحوال الدنيا وإن شاركوه في النبوة لأنا بينا أن أحوال الدنيا لا يعبأ بها في جنب منصب النبوة.

وأما قوله: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ قيل الخاطئ هو الذي أتى بالخطيئة عمدًا وفرق بين الخاطئ والمخطئ، فلهذا الفرق يقال لمن يجتهد في الأحكام فلا يصيب إنه مخطئ، ولا يقال إنه خاطئ وأكثر المفسرين على أن الذي اعتذروا منه هو إقدامهم على إلقائه في الجب وبيعه وتبعيده عن البيت والأب، وقال أبو علي الجبائي: إنهم لم يعتذروا إليه من ذلك، لأن ذلك وقع منهم قبل البلوغ فلا يكون ذنبًا فلا يعتذر منه، وإنما اعتذروا من حيث إنهم أخطأوا بعد ذلك بأن لم يظهروا لأبيهم ما فعلوه، ليعلم أنه حي وأن الذئب لم يأكله وهذا الكلام ضعيف من وجوه:

الوجه الأول: أنا بينا أنه لا يجوز أن يقال: إنهم أقدموا على تلك الأعمال في زمن الصبا لأنه من البعيد في مثل يعقوب أن يبعث جمعًا من الصبيان غير البالغين من غير أن يبعث معهم رجلاً عاقلاً يمنعهم عما لا ينبغي ويحملهم على ما ينبغي.

الوجه الثاني: هب أن الأمر على ما ذكره الجبائي إلا أنا نقول غاية ما في الباب أنه لا يجب الاعتذار عن ذلك إلا أنه يمكن أن يقال إنه يحسن الاعتذار عنه، والدليل عليه أن المذنب إذا تاب زال عقابه ثم قد يعيد التوبة والاعتذار مرة أخرى، فعلمنا أن الإنسان أيضًا قد يتوب عندما لا تكون التوبة واجبة عليه.

واعلم أنهم لما اعترفوا بفضله عليهم وبكونهم مجرمين خاطئين قال يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

وفيه بحثان:

البحث الأول: التثريب: التوبيخ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «**إِذَا زَنَتْ أَمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيَضْرِبْهَا الْحَدَّ وَلاَ يُثَرِّبْهَا**»(١) أي ولا يعيرها بالزنا، فقوله: ﴿لَا تَثۡرِيبَ﴾ أي لا توبيخ ولا عيب وأصل التثريب: من الثرب وهو الشحم الذي هو غاشية الكرش، ومعناه إزالة الثرب كما أن التجليد إزالة الجلد، قال عطاء الخراساني: طلب الحوائج إلى الشباب أسهل منها إلى الشيوخ ألا ترى إلى قول يوسف عليه السلام لإخوته ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ﴾ وقوله يعقوب: ﴿سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ﴾ [يوسف: ٩٨].

البحث الثاني: إن قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ متعلق بماذا.

وفيه قولان:

القول الأول: إنه متعلق بقوله: ﴿لَا تَثۡرِيبَ﴾ أي لا أُثَرِّبُكم اليوم وهو اليوم الذي هو مظنة التثريب فما ظنكم بسائر الأيام، وفيه احتمال آخر وهو أني حكمت في هذا اليوم بأن لا تثريب مطلقًا لأن قوله: ﴿لَا تَثۡرِيبَ﴾ نفي للماهية ونفي الماهية يقتضي انتفاء جميع أفراد الماهية، فكان ذلك مفيدًا للنفي المتناول لكل الأوقات والأحوال فتقدير الكلام: اليوم حكمت بهذا الحكم العام المتناول لكل الأوقات والأحوال ثم إنه لما بيَّن لهم أنه أزال عنهم ملامة الدنيا طلب من الله أن يزيل عنهم عقاب الآخرة فقال: ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ والمراد منه الدعاء.

والقول الثاني: أن قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ متعلق بقوله: ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ كأنه لما نفى التثريب مطلقًا بشرهم بأن الله غفر ذنبهم في هذا اليوم، وذلك لأنهم لما انكسروا وخجلوا واعترفوا وتابوا فالله قَبِل توبتهم وغفر ذنبهم، فلذلك قال: ﴿ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ روي أن الرسول عليه الصلاة والسلام أخذ بعضادتي باب الكعبة يوم الفتح، وقال لقريش: «**مَا تَرَوْنِي فَاعِلاً بِكُمْ**» فقالوا نظن خيرًا أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت، فقال: «**أَقُولُ مَا قَالَ أَخِي يُوسُفُ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ**» وروي أن أبا سفيان لما جاء ليسلم قال له العباس: إذا أتيت رسول الله ﷺ فاتل عليه: ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ ففعل، فقال رسول الله ﷺ: «**غَفَرَ اللَّهُ لَكَ وَلِمَنْ عَلَّمَكَ**»(٢) وروي أن إخوة يوسف لما عرفوه أرسلوا إليه إنك تحضرنا في مائدتك بكرة وعشيًا ونحن نستحي منك لما صدر منا من الإساءة إليك، فقال يوسف عليه السلام: إن أهل مصر وإن ملكت فيهم فإنهم ينظرونني بالعين الأولى ويقولون: سبحان من بلَّغ عبدًا بيع بعشرين درهمًا ما بلغ، ولقد شرفت الآن بإتيانكم وعظمت في العيون لما جئتم وعلم الناس أنكم إخوتي وأني من حفدة إبراهيم عليه السلام.

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (البيوع) باب (بيع العبد الزاني) (٤/ ٤٣٢) حديث رقم/ ٢١٥٢، ومسلم في كتاب (الحدود) باب (رجم اليهود أهل الذمة في الزنى) (٣/ ٣٠/ ١٣٢٨). من طريق أبي سعيد المقبري... به.
(٢) أورده الزيلعي في (تخريج أحاديث وآثار تفسير الكشاف) (٢/ ١٧٩)، وقال: غريب جدًا.

ثم قال يوسف عليه السلام: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا﴾ قال المفسرون: لما عرفهم يوسف سألهم عن أبيه فقالوا: ذهبت عيناه، فأعطاهم قميصه، قال المحققون: إنما عرف أن إلقاء ذلك القميص على وجهه يوجب قوة البصر بوحي من الله تعالى ولولا الوحي لما عرف ذلك، لأن العقل لا يدل عليه ويمكن أن يقال: لعل يوسف عليه السلام علم أن أباه ما صار أعمى إلا أنه من كثرة البكاء وضيق القلب ضعف بصره فإذا ألقى عليه قميصه فلا بد أن ينشرح صدره وأن يحصل في قلبه الفرح الشديد، وذلك يقوي الروح ويزيل الضعف عن القوي، فحينئذ يقوى بصره، ويزول عنه ذلك النقصان، فهذا القدر مما يمكن معرفته بالقلب فإن القوانين الطبية تدل على صحة هذا المعنى، وقوله: ﴿يَأۡتِ بَصِيرٗا﴾ أي يصير بصيرًا ويشهد له ﴿فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ﴾ [يوسف: ٩٦] ويقال: المراد يأت إلي وهو بصير، وإنما أفرده بالذكر تعظيمًا له، وقال في الباقين: ﴿وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ قال الكلبي: كان أهله نحوًا من سبعين إنسانًا وقال مسروق: دخل قوم يوسف عليه السلام مصر. وهم ثلاثة وتسعون من بين رجل وامرأة، وروي أن يهودا حمل الكتاب وقال: أنا أحزنته بحمل القميص الملطخ بالدم إليه فأفرحه كما أحزنته. وقيل: حمله وهو حاف وحاسر من مصر إلى كنعان وبينهما مسيرة ثمانين فرسخًا.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ۝٩٤ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ۝٩٥ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٩٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ۝٩٧ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩٨﴾

يقال: فصل فلان من عند فلان فصولاً إذا خرج من عنده. وفصل مني إليه كتابًا إذا أنفذ به إليه. وفصل يكون لازمًا ومتعديًا وإذا كان لازمًا فمصدره الفصول وإذا كان متعديًا فمصدره الفصل قال: لما خرجت العير من مصر متوجهة إلى كنعان قال يعقوب عليه السلام لمن حضر عنده من أهله وقرابته وولد ولده ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ ولم يكن هذا القول مع أولاده لأنهم كانوا غائبين بدليل أنه عليه السلام قال لهم: ﴿ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧] واختلفوا في قدر المسافة فقيل: مسيرة ثمانية أيام، وقيل عشرة أيام، وقيل ثمانون فرسخًا. واختلفوا في كيفية وصول تلك الرائحة إليه، فقال مجاهد: هبت ريح فصفقت القميص ففاحت روائح الجنة في الدنيا واتصلت بيعقوب فوجد ريح الجنة فعلم عليه السلام أنه ليس في الدنيا من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص، فمن ثم قال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ﴾ وروى الواحدي بإسناده عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: أما قوله: ﴿ٱذۡهَبُواْ

بِقَمِيصِي هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٣] فإن نمروذ الجبار لما ألقى إبراهيم في النار نزل عليه جبريل عليه السلام بقميص من الجنة وطنفسة من الجنة فألبسه القميص وأجلسه على الطنفسة وقعد معه يحدثه، فكسا إبراهيم عليه السلام ذلك القميص إسحاق وكساه إسحاق يعقوب وكساه يعقوب يوسف فجعله في قصبة من فضة وعلقها في عنقه فألقى في الجب والقميص في عنقه فذلك قوله: ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـٰذَا﴾ (١) والتحقيق أن يقال: إنه تعالى أوصل تلك الرائحة إليه على سبيل إظهار المعجزات لأن وصول الرائحة إليه من هذه المسافة البعيدة أمر مناقض للعادة فيكون معجزة ولا بد من كونها معجزة لأحدهما والأقرب أنه ليعقوب عليه السلام حين أخبر عنه ونسبوه في هذا الكلام إلى ما لا ينبغي، فظهر أن الأمر كما ذكر فكان معجزة له. قال أهل المعاني: إن الله تعالى أوصل إليه ريح يوسف عليه السلام عند انقضاء مدة المحنة ومجيء وقت الروح والفرح من المكان البعيد ومنع من وصول خبره إليه مع قرب إحدى البلدتين من الأخرى في مدة ثمانين سنة وذلك يدل على أن كل سهل فهو في زمان المحنة صعب وكل صعب فهو في زمان الإقبال سهل، ومعنى: لأجد ريح يوسف أشم وعبر عنه بالوجود لأنه وجدان له بحاسة الشم، وقوله: ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ قال أبو بكر ابن الأنباري: أفند الرجل إذا حزن وتغير عقله وفند إذا جهل ونسب ذلك إليه، وعن الأصمعي إذا كثر كلام الرجل من خرف فهو المفند قال صاحب (الكشاف): يقال شيخ مفند ولا يقال عجوز مفندة، لأنها لم تكن في شبيبتها ذات رأي حتى تفند في كبرها فقوله: ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أي لولا أن تنسبوني إلى الخرف، ولما ذكر يعقوب ذلك قال الحاضرون عنده: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ وفي الضلال هاهنا وجوه:

الأول: قال مقاتل: يعني بالضلال هاهنا الشقاء، يعني شقاء الدنيا والمعنى: إنك لفي شقائك القديم بما تكابد من الأحزان على يوسف، واحتج مقاتل بقوله: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٢٤] يعنون لفي شقاء دنيانا، وقال قتادة: لفي ضلالك القديم، أي لفي حبك القديم لا تنساه ولا تذهل عنه وهو كقولهم: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨] ثم قال قتادة: قد قالوا كلمة غليظة ولم يكن يجوز أن يقولوها لنبي الله، وقال الحسن: إنما خاطبوه بذلك لاعتقادهم أن يوسف قد مات وقد كان يعقوب في ولوعه بذكره ذاهبًا عن الرشد والصواب وقوله: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ في (أن) قولان: الأول: أنه لا موضع لها من الإعراب وقد تذكر تارة كما هاهنا، وقد تحذف كقوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾ [هود: ٧٤] والمذهبان جميعًا موجودان في أشعار العرب. والثاني: قال البصريون: هي مع (ما) في موضع رفع بالفعل المضمر تقديره: فلما ظهر أن جاء البشير، أي ظهر مجيء البشير فأضمر الرافع، قال جمهور المفسرين: البشير هو يهودا قال: أنا

---

(١) لم أجده إلا عند أهل التفسير بدون إسناد.

ذهبت بالقميص الملطخ بالدم وقلت: إن يوسف أكله الذئب فأذهب اليوم بالقميص فأفرحه كما أحزنته قوله: ﴿أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي طرح البشير القميص على وجه يعقوب أو يقال: ألقاه يعقوب على وجه نفسه ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ أي رجع بصيرًا ومعنى الارتداد انقلاب الشيء إلى حالة قد كان عليها وقوله: ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ أي صيره الله بصيرًا كما يقال: طالت النخلة والله تعالى أطالها واختلفوا فيه، فقال بعضهم: إنه كان قد عمي بالكلية فالله تعالى جعله بصيرًا في هذا الوقت. وقال آخرون: بل كان قد ضعف بصره من كثرة البكاء وكثرة الأحزان، فلما ألقوا القميص على وجهه، وبشر بحياة يوسف عليه السلام عظم فرحه وانشرح صدره وزالت أحزانه، فعند ذلك قوي بصره وزال النقصان عنه، فعند هذا قال: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ والمراد علمه بحياة يوسف من جهة الرؤيا، لأن هذا المعنى هو الذي له تعلق بما تقدم، وهو إشارة إلى ما تقدم من قوله: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦] روي أنه سأل البشير وقال: كيف يوسف؟ قال: هو ملك مصر، قال: ما أصنع بالملك على أي دين تركته قال: على دين الإسلام قال: الآن تمت النعمة، ثم إن أولاد يعقوب أخذوا يعتذرون إليه ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وظاهر الكلام أنه لم يستغفر لهم في الحال، بل وعدهم بأنه يستغفر لهم بعد ذلك، واختلفوا في سبب هذا المعنى على وجوه:

الأول: قال ابن عباس رضي الله عنهما والأكثرون: أراد أن يستغفر لهم في وقت السحر، لأن هذا الوقت أوفق الأوقات لرجاء الإجابة.

الثاني: قال ابن عباس رضي الله عنهما: في رواية أخرى أخر الاستغفار إلى ليلة الجمعة، لأنها أوفق الأوقات للإجابة.

الثالث: أراد أن يعرف أنهم هل تابوا في الحقيقة أم لا، وهل حصلت توبتهم مقرونة بالإخلاص التام أم لا.

الرابع: استغفر لهم في الحال، وقوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾ معناه أني أداوم على هذا الاستغفار في الزمان المستقبل، فقد روي أنه كان يستغفر لهم في كل ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة، وقيل: قام إلى الصلاة في وقت فلما فرغ رفع يده إلى السماء وقال: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي جَزَعِي عَلَى يُوسُفَ وَقِلَّةَ صَبْرِي عَلَيْهِ، وَاغْفِرْ لِأَوْلَادِي مَا فَعَلُوهُ فِي حَقِّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ**» فأوحى الله تعالى إليه: قد غفرت لك ولهم أجمعين. وروي أن أبناء يعقوب عليه السلام قالوا ليعقوب وقد غلبهم الخوف والبكاء: ما يغني عنا إن لم يغفر لنا، فاستقبل الشيخ القبلة قائمًا يدعو، وقام يوسف خلفه يؤمن وقاموا خلفهما أذلة خاشعين عشرين سنة حتى قل صبرهم فظنوا أنها الهلكة فنزل جبريل عليه السلام وقال: «**إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَجَابَ دَعْوَتَكَ فِي وَلَدِكَ وَعَقَدَ مَوَاثِيقَهُمْ بَعْدَكَ عَلَى النُّبُوَّةِ**» وقد اختلف الناس في نبوتهم وهو مشهور.

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾

اعلم أنه روي أن يوسف عليه السلام وجه إلى أبيه جهازًا ومائتي راحلة ليتجهز إليه بمن معه وخرج يوسف عليه السلام والملك في أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم تلقوا يعقوب عليه السلام وهو يمشي يتوكأ على يهودا فنظر إلى الخيل والناس فقال: يا يهودا هذا فرعون مصر؟ قال: لا هذا ولدك يوسف فذهب يوسف يبدأ بالسلام فمنع من ذلك فقال يعقوب عليه السلام: السلام عليك وقيل إن يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة وخرجوا منها مع موسى والمقاتلون منهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلاً سوى الصبيان والشيوخ.

أما قوله: ﴿ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾

ففيه بحثان:

البحث الأول: في المراد بقوله أبويه قولان: الأول: المراد أبوه وأمه، وعلى هذا القول فقيل إن أمه كانت باقية حية إلى ذلك الوقت، وقيل: إنها كانت قد ماتت، إلا أن الله تعالى أحياها وأنشرها من قبرها حتى سجدت له تحقيقًا لرؤيا يوسف عليه السلام.

والقول الثاني: أن المراد أبوه وخالته، لأن أمه ماتت في النفاس بأخيه بنيامين، وقيل: بنيامين بالعبرانية ابن الوجع، ولما ماتت أمه تزوج أبوه بخالته فسماها الله تعالى بأحد الأبوين، لأن الرابة تدعى، أُمًّا لقيامها مقام الأم أو لأن الخالة أم كما أن العم أب، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ [البقرة: ١٣٣].

البحث الثاني: آوى إليه أبويه ضمهما إليهما واعتنقهما.

فإن قيل: ما معنى دخولهم عليه قبل دخولهم مصر؟

قلنا: كأنه حين استقبلهم نزل بهم في بيت هناك أو خيمة فدخلوا عليه وضم إليه أبويه وقال لهم: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ ﴾.

أما قوله: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾.

ففيه أبحاث:

البحث الأول: قال السدي: إنه قال هذا القول قبل دخولهم مصر؛ لأنه كان قد استقبلهم

وهذا هو الذي قررناه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: المراد بقوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ﴾ أي أقيموا بها آمنين، سمى الإقامة دخولاً لاقتران أحدهما بالآخر.

البحث الثاني: الاستثناء وهو قول: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾

فيه قولان:

الأول: أنه عائد إلى الأمن لا إلى الدخول، والمعنى: ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله، ونظيره قوله تعالى: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] وقيل: إنه عائد إلى الدخول على القول الذي ذكرناه أنه قال لهم هذا الكلام قبل أن دخلوا مصر.

البحث الثالث: معنى قوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾ يعني على أنفسكم وأموالكم وأهليكم لا تخافون أحدًا، وكانوا فيما سلف يخافون ملوك مصر وقيل: آمنين من القحط والشدة والفاقة، وقيل: آمنين من أن يضرهم يوسف بالجرم السالف.

أما قوله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ قال أهل اللغة: العرش: السرير الرفيع قال تعالى: ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ [النمل: ٢٣] والمراد بالعرش هاهنا السرير الذي كان يجلس عليه يوسف، وأما قوله: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾ ففيه إشكال، وذلك لأن يعقوب عليه السلام كان أبا يوسف وحق الأبوة عظيم قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] فقرن حق الوالدين بحق نفسه، وأيضًا أنه كان شيخًا، والشاب يجب عليه تعظيم الشيخ.

والقول الثالث[1]: أنه كان من أكابر الأنبياء ويوسف وإن كان نبيًا إلا أن يعقوب كان أعلى حالاً منه.

والقول الرابع: أن جد يعقوب واجتهاده في تكثير الطاعات أكثر من جد يوسف ولما اجتمعت هذه الجهات الكثيرة فهذا يوجب أن يبالغ يوسف في خدمة يعقوب فكيف استجاز يوسف أن يسجد له يعقوب هذا تقرير السؤال.

والجواب عنه من وجوه:

الوجه الأول: وهو قول ابن عباس في رواية عطاء أن المراد بهذه الآية أنهم خروا له أي لأجل وجدانه سجدًا لله تعالى، وحاصل الكلام: أن ذلك السجود كان سجودًا للشكر فالمسجود له هو الله، إلا أن ذلك السجود إنما كان لأجله والدليل على صحة هذا التأويل أن قوله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾ مشعر بأنهم صعدوا ذلك السرير، ثم سجدوا له، ولو أنهم سجدوا ليوسف لسجدوا له قبل الصعود على السرير لأن ذلك أدخل في التواضع.

فإن قالوا: فهذا التأويل لا يطابق قوله: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ والمراد منه قوله: ﴿إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

---

(١) القول الأول: كون يعقوب عليه السلام أبا يوسفگ والقول الثاني كونه شيخًا.

قلنا: بل هذا مطابق ويكون المراد من قوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] لأجلي أي أنها سجدت لله لطلب مصلحتي وللسعي في إعلاء منصبي، وإذا كان هذا محتملاً سقط السؤال. وعندي أن هذا التأويل متعين، لأنه لا يستبعد من عقل يوسف ودينه أن يرضى بأن يسجد له أبوه مع سابقته في حقوق الولادة والشيخوخة والعلم والدين وكمال النبوة.

والوجه الثاني: في الجواب أن يقال: إنهم جعلوا يوسف كالقبلة وسجدوا لله شكرًا لنعمة وجدانه. وهذا التأويل حسن فإنه يقال: صليت للكعبة كما يقال: صليت إلى الكعبة. قال حسان شعرًا:

مَا كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّ الْأَمْرَ مُنْصَرِفٌ عَنْ هَاشِمٍ ثُمَّ مِنْهَا عَنْ أَبِي حَسَنِ
أَلَيْسَ أَوَّلَ مَنْ صَلَّى لِقِبْلَتِكُمْ وَأَعْرَفَ النَّاسِ بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ

وهذا يدل على أنه يجوز أن يقال فلان صلى للقبلة، وكذلك يجوز أن يقال سجد للقبلة وقوله: ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ أي جعلوه كالقبلة ثم سجدوا لله شكرًا لنعمة وجدانه.

الوجه الثالث: في الجواب قد يسمى التواضع سجودًا كقوله:

تَرَى الْأُكْمَ فِيهَا سُجَّدًا لِلْحَوَافِرِ (١)

وكان المراد هاهنا التواضع إلا أن هذا مشكل، لأنه تعالى قال: ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ والخرور إلى السجدة مشعر بالإتيان بالسجدة على أكمل الوجوه وأجيب عنه بأن الخرور قد يعنى به المرور فقط قال تعالى: ﴿لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣] يعني لم يمروا.

الوجه الرابع: في الجواب أن نقول: الضمير في قوله: ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ﴾ غير عائد إلى الأبوين لا محالة، وإلا لقال: وخروا له ساجدين، بل الضمير عائد إلى إخوته، وإلى سائر من كان يدخل عليه لأجل التهنئة، والتقدير: ورفع أبويه على العرش مبالغة في تعظيمهما، وأما الإخوة وسائر الداخلين فخروا له ساجدين.

فإن قالوا: فهذا لا يلائم قوله: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾.

قلنا: إن تعبير الرؤيا لا يجب أن يكون مطابقًا للرؤيا بحسب الصورة والصفة من كل الوجوه فسجود الكواكب والشمس والقمر، تعبير عن تعظيم الأكابر من الناس له ولا شك أن ذهاب يعقوب مع أولاده من كنعان إلى مصر لأجله في نهاية التعظيم له، فكفى هذا القدر في صحة الرؤيا فأما أن يكون التعبير مساويًا لأصل الرؤيا في الصفة والصورة فلم يوجبه أحد من العقلاء.

الوجه الخامس في الجواب: لعل الفعل الدال على التحية والإكرام في ذلك الوقت هو السجود، وكان مقصودهم من السجود تعظيمه، وهذا في غاية البعد لأن المبالغة في التعظيم كانت أليق بيوسف منها بيعقوب، فلو كان الأمر كما قلتم، لكان من الواجب أن يسجد يوسف ليعقوب عليه السلام.

---

(١) هذا البيت لزيد الخيل وتقدمت ترجمته.

والوجه السادس فيه: أن يقال: لعل إخوته حملتهم الأنفة والاستعلاء على أن لا يسجدوا له على سبيل التواضع، وعلم يعقوب عليه السلام أنهم لو لم يفعلوا ذلك لصار ذلك سببًا لثوران الفتن ولظهور الأحقاد القديمة بعد كمونها فهو عليه السلام مع جلالة قدره وعظم حقه بسبب الأبوة والشيخوخة والتقدم في الدين والنبوة والعلم فعل ذلك السجود، حتى تصير مشاهدتهم لذلك سببًا لزوال الأنفة والنفرة عن قلوبهم ألا ترى أن السلطان الكبير إذا نصب محتسبًا فإذا أراد ترتيبه مكنه في إقامة الحسبة عليه ليصير ذلك سببًا في أن لا يبقى في قلب أحد منازعة ذلك المحتسب في إقامة الحسبة فكذا هاهنا.

الوجه السابع: لعل الله تعالى أمر يعقوب بتلك السجدة لحكمة خفية لا يعرفها إلا هو كما أنه أمر الملائكة بالسجود لآدم لحكمة لا يعرفها إلا هو، ويوسف ما كان راضيًا بذلك في قلبه إلا أنه لما علم أن الله أمره بذلك سكت.

ثم حكى تعالى أن يوسف لما رأى هذه الحالة قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ **وفيه بحثان:**

البحث الأول: قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنه لما رأى سجود أبويه وإخوته هاله ذلك واقشعر جلده منه، وقال ليعقوب: هذا تأويل رؤياي من قبل، وأقول: هذا يقوي الجواب السابع كأنه يقول: يا أبت لا يليق بمثلك على جلالتك في العلم والدين والنبوة أن تسجد لولدك إلا أن هذا أمر أمرت به وتكليف كلفت به، فإن رؤيا الأنبياء حق كما أن رؤيا إبراهيم ذبح ولده صار سببًا لوجوب ذلك الذبح عليه في اليقظة فكذلك صارت هذه الرؤيا التي رآها يوسف وحكاها ليعقوب سببًا لوجوب ذلك السجود، فلهذا السبب حكى ابن عباس رضي الله عنهما أن يوسف عليه السلام لما رأى ذلك هاله واقشعر جلده ولكنه لم يقل شيئًا، وأقول: لا يبعد أن يكون ذلك من تمام تشديد الله تعالى على يعقوب كأنه قيل له: إنك كنت دائم الرغبة في وصاله ودائم الحزن بسبب فراقه، فإذا وجدته فاسجد له، فكان الأمر بذلك السجود من تمام التشديد. والله أعلم بحقائق الأمور.

البحث الثاني: اختلفوا في مقدار المدة بين هذا الوقت وبين الرؤيا فقيل ثمانون سنة، وقيل: سبعون، وقيل: أربعون، وهو قول الأكثرين، ولذلك يقولون: إن تأويل الرؤيا إنما صحت بعد أربعين سنة، وقيل ثماني عشرة سنة وعن الحسن أنه ألقي في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة، وبقي في العبودية والسجون ثمانين سنة، ثم وصل إلى أبيه وأقاربه، وعاش بعد ذلك ثلاثًا وعشرين سنة فكان عمره مائة وعشرين سنة والله أعلم بحقائق الأمور.

ثم قال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ﴾ أي إلي، يقال: أحسن بي وإليَّ. قال كثير:

أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لاَ مَلُومَةٌ   لدينا ولا مقلية إن تقلت[1]

(١) هذا البيت لكثير عزة وتقدمت ترجمته.

إذا أخرجني من السجن ولم يذكر إخراجه من البئر لوجوه:

الأول: أنه قال لإخوته ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢] ولو ذكر واقعة البئر لكان ذلك تثريبًا لهم فكان إهماله جاريًا مجري الكرم.

الثاني: أنه لما خرج من البئر لم يصر ملكًا بل صيروه عبدًا، أما لما خرج من السجن صيروه ملكًا فكان هذا الإخراج أقرب من أن يكون إنعامًا كاملاً.

الثالث: أنه لما أخرج من البئر وقع في المضار الحاصلة بسبب تهمة المرأة فلما أخرج من السجن وصل إلى أبيه وإخوته وزالت التهمة فكان هذا أقرب إلى المنفعة.

الرابع: قال الواحدي: النعمة في إخراجه من السجن أعظم لأن دخوله في السجن كان بسبب ذنب هم به، وهذا ينبغي أن يحمل على ميل الطبع ورغبة النفس، وهذا وإن كان في محل العفو في حق غيره إلا أنه ربما كان سببًا للمؤاخذة في حقه لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

ثم قال: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: في الآية قولان:

القول الأول: جاء بكم من البدو أي من البادية، وقال الواحدي: البدو بسيط من الأرض يظهر فيه الشخص من بعيد وأصله من بدا يبدو بدوًا، ثم سمي المكان باسم المصدر فيقال: بدو وحضر، وكان يعقوب وولده بأرض كنعان أهل مواشٍ وبرية.

والقول الثاني: قال ابن عباس رضي الله عنهما كان يعقوب قد تحول إلى بدا وسكنها، ومنها قدم على يوسف وله بها مسجد تحت جبلها، قال ابن الأنباري: بدا اسم موضع معروف يقال هو بين شعب وبدا وهما موضعان ذكرهما جميعًا كثير فقال:

وأنت التي حببت شعبا إِلَى بَدَا ... إِلَيَّ وَأَوْطَانِي بِلَادٌ سِوَاهُمَا

فالبدو على هذا القول معناه قصد هذا الموضع الذي يقال: له بدا يقال بدا القوم يبدون بدوا إذا أتوا بدًا كما يقال: غار القوم غورًا إذا أتوا الغور فكان معنى الآية وجاء بكم من قصد بدا، وعلى هذا القول كان يعقوب وولده حضريين لأن البدو لم يرد به البادية لكن عنى به قصد بدا إلى هاهنا كلام قاله الواحدي في (البسيط).

المسألة الثانية: تمسك أصحابنا بهذه الآية على أن فعل العبد خلق الله تعالى، لأن خروج العبد من السجن أضافه إلى نفسه بقوله: ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ ومجيئهم من البدو وأضافه إلى نفسه سبحانه بقوله: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ وهذا صريح في أن فعل العبد بعينه فعل الله تعالى وحمل هذا على أن المراد أن ذلك إنما حصل بإقدار الله تعالى وتيسيره عدول عن الظاهر.

ثم قال: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ﴾ قال صاحب (الكشاف): (نَزَغ) أفسد بيننا وأغوى وأصله من نزغ الراكض الدابة وحملها على الجري: يقال: نزغه ونسغه إذا نخسه.

واعلم أن الجبائي والكعبي والقاضي: احتجوا بهذه الآية على بطلان الجبر قالوا: لأنه تعالى أخبر عن يوسف عليه السلام أنه أضاف الإحسان إلى الله وأضاف النزغ إلى الشيطان، ولو كان ذلك أيضًا من الرحمن لوجب أن لا ينسب إلا إليه كما في النعم.

والجواب: أن إضافته هذا الفعل إلى الشيطان مجاز، لأن عندكم الشيطان لا يتمكن من الكلام الخفي وقد أخبر الله عنه فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢] فثبت أن ظاهر القرآن يقتضي إضافة هذا الفعل إلى الشيطان مع أنه ليس كذلك. وأيضًا فإن كان إقدام المرء على المعصية بسبب الشيطان فإقدام الشيطان على المعصية إن كان بسبب شيطان آخر لزم التسلسل وهو محال وإن لم يكن بسبب شيطان آخر فليقل مثله في حق الإنسان، فثبت أن إقدام المرء على الجهل والفسق ليس بسبب الشيطان وليس أيضًا بسبب نفسه لأن أحدًا لا يميل طبعه إلى اختيار الجهل والفسق الذي يوجب وقوعه في ذم الدنيا وعقاب الآخرة، ولما كان وقوعه في الكفر والفسق لا بد له من موقع، وقد بطل القسمان لم يبق إلا أن يقال ذلك من الله تعالى، ثم الذي يؤكد ذلك أن الآية المتقدمة على هذه الآية وهي قوله: ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ صريح في أن الكل من الله تعالى.

ثم قال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ والمعنى أن حصول الاجتماع بين يوسف وبين أبيه وإخوته مع الألفة والمحبة وطيب العيش وفراغ البال كان في غاية البعد عن العقول إلا أنه تعالى لطيف فإذا أراد حصول شيء سهل أسبابه فحصل وإن كان في غاية البعد عن الحصول.

ثم قال: ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أعني أن كونه لطيفًا في أفعاله إنما كان لأجل أنه عليم بجميع الاعتبارات الممكنة التي لا نهاية لها فيكون عالمًا بالوجه الذي يسهل تحصيل ذلك الصعب وحكيم أي محكم في فعله، حاكم في قضائه، حكيم في أفعاله مبرأ عن العبث والباطل والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: روي أن يوسف عليه السلام أخذ بيد يعقوب وطاف به في خزائنه فأدخله خزائن الذهب والفضة وخزائن الحلي وخزائن الثياب وخزائن السلاح، فلما أدخله مخازن القراطيس قال: يا بني ما أغفلك، عندك هذه القراطيس وما كتبت إلي على ثمان مراحل قال: نهاني جبريل عليه السلام عنه قال: سله عن السبب قال: أنت أبسط إليه فسأله فقال جبريل عليه

السلام: أمرني الله بذلك لقولك وأخاف أن يأكله الذئب فهلا خفتني وروي أن يعقوب عليه السلام أقام معه أربعًا وعشرين سنة ولما قربت وفاته أوصى إليه أن يدفنه بالشام إلى جنب أبيه إسحاق فمضى بنفسه ودفنه ثم عاد إلى مصر وعاش بعد أبيه ثلاثًا وعشرين سنة، فعند ذلك تمنى ملك الآخرة فتمنى الموت. وقيل: ما تمناه نبي قبله ولا بعده فتوفاه الله طيبًا طاهرًا، فتخاصم أهل مصر في دفنه كل أحد يحب أن يُدفن في محلتهم حتى هموا بالقتال فرأوا أن الأصلح أن يعملوا له صندوقًا من مرمر ويجعلوه فيه ويدفنوه في النيل بمكان يمر الماء عليه ثم يصل إلى مصر لتصل بركته إلى كل أحد، وولد له افرائيم وميشا، وولد لافرانيم نون ولنون يوشع فتى موسى، ثم دفن يوسف هناك إلى أن بعث الله موسى فأخرج عظامه من مصر ودفنها عند قبر أبيه.

المسألة الثانية: (من) في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾ للتبعيض، لأنه لم يؤت إلا بعض ملك الدنيا أو بعض ملك مصر وبعض التأويل. قال الأصم: إنما قال من الملك، لأنه كان ذو ملك فوقه.

واعلم أن مراتب الموجودات ثلاثة: المؤثر الذي لا يتأثر وهو الإله تعالى وتقدس، والمتأثر الذي لا يؤثر وهو عالم الأجسام، فإنها قابلة للتشكيل والتصوير والصفات المختلفة والأعراض المتضادة فلا يكون لها تأثير في شيء أصلاً، وهذان القسمان متباعدان جدًّا ويتوسطهما قسم ثالث، وهو الذي يؤثر ويتأثر، وهو عالم الأرواح، فخاصية جوهر الأرواح أنها تقبل الأثر والتصرف عن عالم نور جلال الله، ثم إنها إذا أقبلت على عالم الأجسام تصرفت فيه وأثرت فيه، فتعلق الروح بعالم الأجسام بالتصرف والتدبير فيه، وتعلقه بعالم الإلهيات بالعلم والمعرفة. وقوله تعالى: ﴿قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ إشارة إلى تعلق النفس بعالم الأجسام وقوله: ﴿وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾ إشارة إلى تعلقها بحضرة جلال الله، ولما كان لا نهاية لدرجات هذين النوعين في الكمال والنقصان والقوة والضعف والجلاء والخفاء، امتنع أن يحصل منهما للإنسان إلا مقدار متناه، فكان الحاصل في الحقيقة بعضًا من أبعاض الملك، وبعضًا من أبعاض العلم، فلهذا السبب ذكر فيه كلمة (من) لأنها دالة على التبعيض، ثم قال: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

وفيه أبحاث:

البحث الأول: في تفسير لفظ الفاطر بحسب اللغة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما كنت أدري معنى الفاطر حتى احتكم إلي أعرابيان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها وأنا ابتدأت حفرها. قال أهل اللغة: أصل الفطر في اللغة الشق يقال: فطر ناب البعير إذ بدا وفطرت الشيء فانفطر، أي شققته فانشق، وتفطرت الأرض بالنبات والشجر بالورق إذا تصدعت، هذا أصله في اللغة، ثم صار عبارة عن الإيجاد، لأن ذلك الشيء حال عدمه كأنه في ظلمة وخفاء فلما دخل في الوجود صار كأنه انشق عن العدم وخرج ذلك الشيء منه.

البحث الثاني: أن لفظ (الفاطر) قد يظن أنه عبارة عن تكوين الشيء عن العدم المحض بدليل الاشتقاق الذي ذكرناه، إلا أن الحق أنه لا يدل عليه ويدل عليه وجوه: أحدها: أنه قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١] ثم بيَّن تعالى أنه إنما خلقها من الدخان حيث قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١] فدل على أن لفظ الفاطر لا يفيد أنه أحدث ذلك الشيء من العدم المحض. وثانيها: أنه قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] مع أنه تعالى إنما خلق الناس من التراب. قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥] وثالثها: أن الشيء إنما يكون حاصلاً عند حصول مادته وصورته مثل الكوز، فإنه إنما يكون موجودًا إذا صارت المادة المخصوصة موصوفة بالصفة المخصوصة، فعند عدم الصورة ما كان ذلك المجموع موجودًا، وبإيجاد تلك الصورة صار موجدًا لذلك الكوز فعلمنا أن كونه موجدًا للكوز لا يقتضي كونه موجدًا لمادة الكوز، فثبت أن لفظ الفاطر لا يفيد كونه تعالى موجدًا للأجزاء التي منها تركبت السموات والأرض، وإنما صار إلينا كونه موجدًا لها بحسب الدلائل العقلية لا بحسب لفظ القرآن.

واعلم أن قوله: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١] يوهم أن تخليق السموات مقدم على تخليق الأرض عند من يقول: الواو تفيد الترتيب، ثم العقل يؤكده أيضًا، وذلك لأن تعين المحيط يوجب تعين المركز وتعينه فإنه لا يوجب تعين المحيط، لأنه يمكن أن يحيط بالمركز الواحد محيطات لا نهاية لها، أما لا يمكن أن يحصل للمحيط الواحد إلا مركز واحد بعينه. وأيضًا اللفظ يفيد أن السماء كثيرة والأرض واحدة، ووجه الحكمة فيه قد ذكرناه في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١].

البحث الثالث: قال الزجاج: نصبه من وجهين: أحدهما: على الصفة لقوله: ﴿رَبِّ﴾ وهو نداء مضاف في موضع النصب. والثاني: يجوز أن ينصب على نداء ثان.

ثم قال: ﴿أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ والمعنى: أنت الذي تتولى إصلاح جميع مهماتي في الدنيا والآخرة فوصل الملك الفاني بالملك الباقي، وهذا يدل على أن الإيمان والطاعة كلمة من الله تعالى إذ لو كان ذلك من العبد لكان المتولي لمصالحه هو هو، وحينئذ يبطل عموم قوله: ﴿أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾.

ثم قال: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن النبي عليه الصلاة والسلام حكى عن جبريل عليه السلام عن رب العزة أنه قال: «**مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ**» فلهذا المعنى من أراد الدعاء فلا بد وأن يقدم عليه ذكر الثناء على الله فهاهنا يوسف عليه السلام لما أراد أن يذكر الدعاء قدم عليه الثناء وهو قوله: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ ثم ذكر عقيبه الدعاء وهو قوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ونظيره ما فعله الخليل صلوات الله عليه في قوله: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨] من هنا إلى قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ [الشعراء: ٨٣] ثناء على الله ثم قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي﴾ إلى آخر الكلام دعاء فكذا هاهنا.

المسألة الثانية: اختلفوا في أن قوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ هل هو طلب منه للوفاة أم لا؟ فقال قتادة: سأل ربه اللحوق به ولم يتمن نبي قط الموت قبله، وكثير من المفسرين على هذا القول، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: في رواية عطاء يريد إذا توفيتني فتوفني على دين الإسلام، فهذا طلب لأن يجعل الله وفاته على الإسلام وليس فيه ما يدل على أنه طلب الوفاة.

واعلم أن اللفظ صالح للأمرين ولا يبعد في الرجل العاقل إذا كمل عقله أن يتمنى الموت ويعظم رغبته فيه لوجوه كثيرة منها: أن كمال النفس الإنسانية على ما بيناه في أن يكون عالمًا بالإلهيات، وفي أن يكون ملكًا ومالكًا متصرفًا في الجسمانيات، وذكرنا أن مراتب التفاوت في هذين النوعين غير متناهية والكمال المطلق فيهما ليس إلا لله وكل ما دون ذلك فهو ناقص والناقص إذا حصل له شعور بنقصانه وذاق لذة الكمال المطلق بقي في القلق وألم الطلب، وإذا كان الكمال المطلق ليس إلا لله، وما كان حصوله للإنسان ممتنعًا لزم أن يبقى الإنسان أبدًا في قلق الطلب وألم التعب فإذا عرف الإنسان هذه الحالة عرف أنه لا سبيل له إلى دفع هذا التعب عن النفس إلا بالموت، فحينئذ يتمنى الموت.

والسبب الثاني: لتمنى الموت أن الخطباء والبلغاء وإن أطنبوا في مذمة الدنيا إلا أن حاصل كلامهم يرجع إلى أمور ثلاثة: **أحدها:** أن هذه السعادات سريعة الزوال مشرفة على الفناء والألم الحاصل عند زوالها أشد من اللذة الحاصلة عند وجدانها. **وثانيها:** أنها غير خالصة بل هي ممزوجة بالمنغصات والمكدرات. **وثالثها:** أن الأراذل من الخلق يشاركون الأفاضل فيها بل ربما كان حصة الأراذل أعظم بكثير من حصة الأفاضل، فهذه الجهات الثلاثة منفرة عن هذه اللذات، ولما عرف العاقل أنه لا سبيل إلى تحصيل هذه اللذات إلا مع هذه الجهات الثلاثة المنفرة لا جرم يتمنى الموت ليتخلص عن هذه الآفات.

والسبب الثالث: وهو الأقوى عند المحققين رحمهم الله أجمعين أن هذه اللذات الجسمانية لا حقيقة لها، وإنما حاصلها دفع الآلام، فلذة الأكل عبارة عن دفع ألم الجوع، ولذة الوقاع عبارة عن دفع الألم الحاصل بسبب الدغدغة المتولدة من حصول المني في أوعية المني. ولذة الإمارة والرياسة عبارة عن دفع الألم الحاصل بسبب شهوة الانتقام وطلب الرياسة وإذا كان حاصل هذه اللذات ليس إلا دفع الألم لا جرم صارت عند العقلاء حقيرة خسيسة نازلة ناقصة وحينئذ يتمنى الإنسان الموت ليتخلص عن الاحتياج إلى هذه الأحوال الخسيسة.

والسبب الرابع: أن مداخل اللذات الدنيوية قليلة وهي ثلاثة أنواع: لذة الأكل ولذة الوقاع ولذة

الرياسة ولكل واحدة منها عيوب كثيرة. أما لذة الأكل ففيها عيوب:

أحدها: أن هذه اللذات ليست قوية فإن الشعور بألم القولنج الشديد والعياذ بالله منه أشد من الشعور باللذة الحاصلة عند أكل الطعام.

وثانيها: أن هذه اللذة لا يمكن بقاؤها فإن الإنسان إذا أكل شبع وإذا شبع لم يبق شوقه للالتذاذ بالأكل فهذه اللذة ضعيفة، ومع ضعفها غير باقية.

وثالثها: أنها في نفسها خسيسة فإن الأكل عبارة عن ترطيب ذلك الطعام بالبزاق المجتمع في الفم ولا شك أنه شيء منفر مستقذر ثم لما يصل إلى المعدة تظهر فيه الاستحالة إلى الفساد والنتن والعفونة، وذلك أيضًا منفر.

ورابعها: أن جميع الحيوانات الخسيسة مشاركة فيها فإن الروث في مذاق الجعل كاللوزنيج في مذاق الإنسان وكما أن الإنسان يكره تناول غذاء الجعل، فكذلك الجعل يكره تناول غذاء الإنسان، وأما اللذة فمشتركة فيما بين الناس.

وخامسها: أن الأكل إنما يطيب عند اشتداد الجوع وتلك حاجة شديدة والحاجة نقص وافر.

وسادسها: أن الأكل يستحقر عند العقلاء. قيل: من كان همته ما يدخل في بطنه فقيمته ما يخرج من بطنه، فهذا هو الإشارة المختصرة في معايب الأكل، وأما لذة النكاح، فكل ما ذكرناه في الأكل حاصل هاهنا مع أشياء أخرى، وهي أن النكاح سبب لحصول الولد، وحينئذ تكثر الأشخاص فتكثر الحاجة إلى المال فيحتاج الإنسان بسببها إلى الاحتيال في طلب المال بطرق لا نهاية لها، وربما صار هالكًا سبب طلب المال، وأما لذة الرياسة فعيوبها كثيرة والذي نذكره هاهنا سبب واحد وهو أن كل أحد يكره بالطبع أن يكون خادمًا مأمورًا ويحب أن يكون مخدومًا آمرًا، فإذا سعى الإنسان في أن يصير رئيسًا آمرًا كان ذلك دالاً على مخالفة كل ما سواه، فكأنه ينازع كل الخلق في ذلك، وهو يحاول تحصيل تلك الرياسة، وجميع أهل الشرق والغرب يحاولون إبطاله ودفعه، ولا شك أن كثرة الأسباب توجب قوة حصول الأثر وإذا كان كذلك كان حصول هذه الرياسة كالمعتذر ولو حصل فإنه يكون على شرف الزوال في كل حين وأوان بكل سبب من الأسباب وكان صاحبها عند حصولها في الخوف الشديد من الزوال وعند زوالها في الأسف العظيم والحزن الشديد بسبب ذلك الزوال.

واعلم أن العاقل إذا تأمل هذه المعاني علم قطعًا أنه لا صلاح له في طلب هذه اللذات والسعي في هذه الخيرات ألبتة. ثم إن النفس خلقت مجبولة على طلبها، والعشق الشديد عليها، والرغبة التامة في الوصول إليها وحينئذ ينعقد هاهنا قياف، وهو أن الإنسان ما دام يكون في هذه الحياة الجسمانية فإنه يكون طالبًا لهذه اللذات وما دام يطلبها كان في عين الآفات وفي لجة الحسرات، وهذا اللازم مكروه فالملزوم أيضًا مكروه فحينئذ يتمنى زوال هذه الحياة الجسمانية والسبب في الأمور المرغبة في الموت أن موجبات هذه اللذة الجسمانية متكررة ولا

يمكن الزيادة عليها والتكرير يوجب الملالة أما سعادات الآخرة فهي أنواع كثيرة غير متناهية.

قال الإمام فخر الدين الرازي رحمة الله عليه وهو مصنف هذا الكتاب أنار الله برهانه. أنا صاحب هذه الحالة والمتوغل فيها، ولو فتحت الباب وبالغت في عيوب هذه اللذات الجسمانية فربما كتبت المجلدات وما وصلت إلى القليل منها فلهذا السبب صرت مواظبًا في أكثر الأوقات على ذكر هذا الذي ذكره يوسف عليه السلام وهو قوله: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

المسألة الثالثة: تمسك أصحابنا في بيان أن الإيمان من الله تعالى بقوله ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾ وتقريره أن تحصيل الإسلام وإبقاءه إذا كان من العبد كان طلبه من الله فاسدًا وتقريره كأنه يقول افعل يا من لا يفعل والمعتزلة أبدًا يشنعون علينا ويقولون: إذا كان الفعل من الله فكيف يجوز أن يقال للعبد افعل مع أنك لست فاعلاً، فنحن نقول هاهنا أيضًا إذا كان تحصيل الإيمان وإبقاؤه من العبد لا من الله تعالى، فكيف يطلب ذلك من الله قال الجبائي والكعبي معناه: اطلب اللطف لي في الإقامة على الإسلام إلى أن أموت عليه. فهذا الجواب ضعيف لأن السؤال وقع على الإسلام فحمله على اللطف عدول عن الظاهر وأيضًا كل ما في المقدور من الألطاف فقد فعله فكان طلبه من الله محالاً.

المسألة الرابعة: لقائل أن يقول: الأنبياء عليهم السلام يعلمون أنهم يموتون لا محالة على الإسلام، فكان هذا الدعاء حاصله طلب تحصيل الحاصل وأنه لا يجوز.

والجواب: أحسن ما قيل فيه إن كمال حال المسلم أن يستسلم لحكم الله تعالى على وجه يستقر قلبه على ذلك الإسلام ويرضى بقضاء الله وقدره، ويكون مطمئن النفس منشرح الصدر منفسح القلب في هذا الباب، وهذه الحالة زائدة على الإسلام الذي هو ضد الكفر، فالمطلوب هاهنا هو الإسلام بهذا المعنى.

المسألة الخامسة: أن يوسف عليه السلام كان من أكابر الأنبياء عليهم السلام، والصلاح أول درجات المؤمنين، فالواصل إلى الغاية كيف يليق به أن يطلب البداية. قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من المفسرين: يعني بآبائه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، والمعنى: ألحقني بهم في ثوابهم ومراتبهم ودرجاتهم، وهاهنا مقام آخر من تفسير هذه الآية على لسان أصحاب المكاشفات، وهو أن النفوس المفارقة أذا أشرقت بالأنوار الإلهية واللوامع القدسية، فإذا كانت متناسبة متشاكلة انعكس النور الذي في كل واحدة منها إلى الأخرى بسبب تلك الملازمة والمجانسة، فتعظم تلك الأنوار وتقوى تلك الأضواء، ومثال تلك الأحوال المرآة الصقيلة الصافية إذا وضعت وضعًا متى أشرقت الشمس عليها انعكس الضوء من كل واحدة منها إلى الأخرى، فهناك يقوى الضوء ويكمل النور، وينتهي في الإشراق والبريق واللمعان إلى حد لا تطيقه العيون والأبصار الضعيفة، فكذا هاهنا.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

اعلم أن قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ رفع بالابتداء وخبره ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ و﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ خبر ثان ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي ما كنت عند إخوة يوسف ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ﴾ أي عزموا على أمرهم وذكرنا الكلام في هذا اللفظ عند قوله: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ﴾[يونس: ٧١] وقوله: ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ أي بيوسف، واعلم أن المقصد من هذا إخبار عن الغيب فيكون معجزًا. بيان إنه إخبار عن الغيب أن محمدًا ﷺ ما طالع الكتب ولم يتلمذ لأحد وما كانت البلدة بلدة العلماء فإتيانه بهذه القصة الطويلة على وجه لم يقع فيه تحريف ولا غلط من غير مطالعة ولا تعلم، ومن غير أن يقال: إنه كان حاضرًا معهم لا بد وأن يكون معجزًا وكيف يكون معجزًا وقد سبق تقرير هذه المقدمة في هذا الكتاب مرارًا، وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي وما كنت هناك ذكر على سبيل التهكم بهم، لأن كل أحد يعلم أن محمدًا ﷺ ما كان معهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

اعلم أن وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن كفار قريش وجماعة من اليهود طلبوا هذه القصة من رسول الله ﷺ على سبيل التعنت، واعتقد رسول الله ﷺ أنه إذا ذكرها فربما آمنوا، فلما ذكرها أصروا على كفرهم فنزلت هذه الآية، وكأنه إشارة إلى ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[القصص: ٥٦] قال أبو بكر بن الأنباري: جواب (لو) محذوف، لأن جواب (لو) لا يكون مقدمًا عليها فلا يجوز أن يقال قمت لو قمت. وقال الفراء في (المصادر) يقال: حَرَص يَحْرِصُ حِرْصًا، ولغة أخرى شاذة: حَرِصَ يَحْرَصُ حَرِيصًا. ومعنى الحرص: طلب الشيء بأقصى ما يمكن من الاجتهاد. وقوله: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ معناه ظاهر وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي هو تذكرة لهم في دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد والقصص والتكاليف والعبادات، ومعناه: أن هذا القرآن يشتمل على هذه المنافع العظيمة، ثم لا تطلب منهم مالاً ولا جعلاً، فلو كانوا عقلاء لقبلوا ولم يتمردوا. وقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ يعني: أنه لا عجب إذا لم

يتأملوا في الدلائل الدالة على نبوتك، فإن العالم مملوء من دلائل التوحيد والقدرة والحكمة ثم إنهم يمرون عليها ولا يلتفتون إليها.

واعلم أن دلائل التوحيد والعلم والقدرة والحكمة والرحمة لابد وأن تكون من أمور محسوسة، وهي إما الأجرام الفلكية وإما الأجرام العنصرية، أما الأجرام الفلكية: فهي قسمان: إما الأفلاك وإما الكواكب. أما الأفلاك: فقد يستدل بمقاديرها المعينة على وجود الصانع وقد يستدل بكون بعضها فوق البعض أو تحته، وقد يستدل بأحوال حركاتها إما بسبب أن حركاتها مسبوقة بالعدم فلا بد من محرك قادر، وإما بسبب كيفية حركاتها في سرعتها وبطئها، وإما بسبب اختلاف جهات تلك الحركات. وأما الأجرام الكوكبية فتارة يستدل على وجود الصانع بمقاديرها أحيازها وحركاتها، وتارة بألوانها وأضوائها، وتارة بتأثيراتها في حصول الأضواء والأظلال والظلمات والنور، وأما الدلائل المأخوذة من الأجرام العنصرية: فإما أن تكون مأخوذة من بسائط، وهي عجائب البر والبحر، وإما من المواليد وهي أقسام:

أحدها: الآثار العلوية كالرعد والبرق والسحاب والمطر والثلج والهواء وقوس قزح.

وثانيها: المعادن على اختلاف طبائعها وصفاتها وكيفياتها.

وثالثها: النبات وخاصية الخشب والورق والثمر واختصاص كل واحد منها بطبع خاص وطعم خاص وخاصية مخصوصة.

ورابعها: اختلاف أحوال الحيوانات في أشكالها وطبائعها وأصواتها وخلقتها.

وخامسها: تشريح أبدان الناس وتشريح القوى الإنسانية وبيان المنفعة الحاصلة فيها فهذه مجامع الدلائل. ومن هذا الباب أيضًا قصص الأولين وحكايات الأقدمين وأن الملوك الذين استولوا على الأرض وخربوا البلاد وقهروا العباد ماتوا ولم يبق منهم في الدنيا خبر ولا أثر، ثم بقي الوزر والعقاب عليهم هذا ضبط أنواع هذه الدلائل والكتاب المحتوي على شرح هذه الدلائل هو شرح جملة العالم الأعلى والعالم الأسفل والعقل البشري لا يفي بالإحاطة به فلهذا السبب ذكره الله تعالى على سبيل الإبهام قال صاحب (الكشاف) قرئ (والأرضُ) بالرفع على أنه مبتدأ و﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ خبره وقرأ السدي (والأرضَ) بالنصب على تقدير أن يفسر قوله: ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ بقولنا يطوفونها، وفي مصحف عبدالله (والأرض يمشون عليها) برفع الأرض.

أما قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ فالمعنى: أنهم كانوا مقرين بوجود الإله بدليل قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] إلا أنهم كانوا يثبتون له شريكًا في المعبودية، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هم الذين يشبهون الله بخلقه وعنه أيضًا أنه قال: نزلت هذه الآية في تلبية مشركي العرب لأنهم كانوا يقولون: لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك، وعنه أيضًا أن أهل مكة قالوا: الله ربنا وحده لا شريك له

والملائكة بناته فلم يوحدوا، بل أشركوا، وقال عبدة الأصنام: ربنا الله وحده والأصنام شفعاؤنا عنده.

وقالت اليهود: ربنا الله وحده وعزير ابن الله، وقالت النصارى: ربنا الله وحده لا شريك له والمسيح ابن الله، وقال عبدة الشمس والقمر: ربنا الله وحده وهؤلاء أربابنا، وقال المهاجرون والأنصار: ربنا الله وحده ولا شريك معه، واحتجت الكرامية بهذه الآية على أن الإيمان عبارة عن الإقرار باللسان فقط، لأنه تعالى حكم بكونهم مؤمنين مع أنهم مشركون، وذلك يدل على أن الإيمان عبارة عن مجرد الإقرار باللسان، وجوابه معلوم، أما قوله: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي عقوبة تغشاهم وتنبسط عليهم وتغمرهم ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي فجأة. وبغتة نصب على الحال يقال: بغتهم الأمر بغتًا وبغتة إذا فاجأهم من حيث لم يتوقعوا وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ كالتأكيد لقوله: ﴿بَغْتَةً﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

قال المفسرون: قل يا محمد لهم هذه الدعوة التي أدعو إليها، والطريقة التي أنا عليها سبيلي وسنتي ومنهاجي، وسمي الدين سبيلاً لأنه الطريق الذي يؤدي إلى الثواب، ومثله قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٢٥].

واعلم أن السبيل في أصل اللغة: الطريق، وشبهوا المعتقدات بها لما أن الإنسان يمر عليها إلى الجنة ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ وحجة وبرهان ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ إلى سيرتي وطريقتي وسيرة أتباعي الدعوة إلى الله، لأن كل من ذكر الحجة وأجاب عن الشبهة فقد دعا بمقدار وسعه إلى الله وهذا يدل على أن الدعاء إلى الله تعالى إنما يحسن ويجوز مع هذا الشرط وهو أن يكون على بصيرة مما يقول وعلى هدى ويقين، فإن لم يكن كذلك فهو محض الغرور وقال عليه الصلاة والسلام: «**الْعُلَمَاءُ أُمَنَاءُ الرُّسُلِ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ مِنْ حَيْثُ يَحْفَظُونَ لِمَا تَدْعُونَهُمْ إِلَيْهِ**»[١].

وقيل أيضًا يجوز أن ينقطع الكلام عند قوله ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ثم ابتدأ وقال: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾.

وقوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ عطف على قوله: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ أي قل: هذه سبيلي وقل سبحان الله تنزيهًا لله عما يشركون ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين اتخذوا مع الله ضدًا وندًا وكفؤًا وولدًا، وهذه الآية تدل على أن حرفة الكلام وعلم الأصول حرفة الأنبياء عليهم السلام وأن الله ما بعثهم إلى الخلق إلا لأجلها.

---

(١) أخرجه القزويني في (التدوين) (٢/ ٤٤٥). من طريق إبراهيم بن رستم المروزي حديث أبو حفص الآبار عن إسماعيل بن سميع عن أنس... بنحوه.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩﴾

اعلم أنه قرأ حفص عن عاصم ﴿نُّوحِيٓ﴾ بالنون، والباقون بالياء (أفلا يعقلون) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو، ورواية حفص عن عاصم: ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ بالتاء على الخطاب، والباقون: بالياء على الغائب.

واعلم أن من جملة شِبَه منكري نبوته عليه الصلاة والسلام أن الله لو أراد إرسال رسول لبعث ملكًا، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ فلما كان الكل هكذا فكيف تعجبوا في حقك يا محمد والآية تدل على أن الله ما بعث رسولاً إلى الخلق من النسوان وأيضًا لم يبعث رسولاً من أهل البادية. قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ بَدَا جَفَا وَمَنِ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ»

ثم قال: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ﴾ إلى مصارع الأمم المكذبة وقوله: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ﴾ والمعنى دار الحالة الآخرة، لأن للناس حالتين حال الدنيا وحال الآخرة، ومثله قوله صلاة الأولى أي صلاة الفريضة الأولى، وأما بيان أن الآخرة خير من الأولى فقد ذكرنا دلائله مرارًا.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠﴾

اعلم أنه قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿كُذِبُواْ﴾ بالتخفيف وكسر الذال، والباقون بالتشديد، ومعنى التخفيف من وجهين: أحدهما: أن الظن واقع بالقوم، أي حتى إذا استيأس الرسل من إيمان القوم فظن القوم أن الرسل كذبوا فيما وعدوا من النصر والظفر.

فإن قيل: لم يجر فيما سبق ذكر المرسل إليهم فكيف يحسن عود هذا الضمير إليهم.

قلنا: ذكر الرسل يدل على المرسل إليهم وإن شئت قلت أن ذكرهم جرى في قوله: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾[يوسف: ١٠٩] فيكون الضمير عائدًا إلى الذين من قبلهم من مكذبي الرسل والظن هاهنا بمعنى التوهم والحسبان.

والوجه الثاني: أن يكون المعنى أن الرسل ظنوا أنهم قد كذبوا فيما وعدوا وهذا التأويل منقول عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس رضي الله عنهما قالوا: وإنما كان الأمر كذلك لأجل ضعف البشرية إلا أنه بعيد، لأن المؤمن لا يجوز أن يظن بالله الكذب، بل يخرج بذلك عن الإيمان فكيف يجوز مثله على الرسل، وأما قراءة التشديد ففيها وجهان: الأول: أن الظن بمعنى اليقين، أي وأيقنوا أن الأمم كذبوهم تكذيبًا لا يصدر منهم الإيمان بعد ذلك، فحينئذ دعوا عليهم

فهنالك أنزل الله سبحانه عليهم عذاب الاستئصال، وورود الظن بمعنى العلم كثير في القرآن قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦] أي يتيقنون ذلك. والثاني: أن يكون الظن بمعنى الحسبان، والتقدير حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم فظن الرسل أن الذين آمنوا بهم كذبوهم، وهذا التأويل منقول عن عائشة رضي الله عنها وهو أحسن الوجوه المذكورة في الآية، روي أن ابن أبي مليكة نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: وظن الرسل أنهم كذبوا، لأنهم كانوا بشرًا ألا ترى إلى قوله: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤] قال فذكرت ذلك لعائشة رضي الله عنها فأنكرته وقالت: ما وعد الله محمدًا ﷺ شيئًا إلا وقد علم أنه سيوفيه ولكن البلاء لم يزل بالأنبياء حتى خافوا من أن يكذبهم الذين كانوا قد آمنوا بهم وهذا الرد والتأويل في غاية الحسن من عائشة.

وأما قوله: ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ أي لما بلغ الحال إلى الحد المذكور ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ﴾ قرأ عاصم وابن عامر ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ﴾ بنون واحدة وتشديد الجيم وفتح الياء على ما لم يسم فاعله، واختاره أبو عبيدة لأنه في المصحف بنون واحدة. وروي عن الكسائي: إدغام إحدى النونين في الأخرى وقرأ بنون واحدة وتشديد الجيم وسكون الياء، قال بعضهم: هذا خطأ لأن النون متحركة فلا تدغم في الساكن، ولا يجوز إدغام النون في الجيم، والباقون بنونين، وتخفيف الجيم وسكون الياء على معنى: ونحن نفعل بهم ذلك.

واعلم أن هذا حكاية حال، ألا ترى أن القصة فيما مضى، وإنما حكى فعل الحال كما أن قوله: ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: ١٥] إشارة إلى الحاضر والقصة ماضية.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

اعلم أن الاعتبار عبارة عن العبور من الطرف المعلوم إلى الطرف المجهول، والمراد منه التأمل والتفكر، ووجه الاعتبار بقصصهم أمور:

الأول: أن الذي قدر على إعزاز يوسف بعد إلقائه في الجب، وإعلائه بعد حبسه في السجن وتمليكه مصر بعد أن كانوا يظنون به أنه عبد لهم، وجمعه مع والديه وإخوته على ما أحب بعد المدة الطويلة، لقادر على إعزاز محمد ﷺ وإعلاء كلمته.

الثاني: أن الإخبار عنه جار مجرى الإخبار عن الغيب، فيكون معجزة دالة على صدق محمد ﷺ، الثالث: أنه ذكر في أول السورة ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] ثم ذكر في آخرها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ تنبيهًا على أن حسن هذه القصة إنما كان بسبب أنه يحصل منها العبرة ومعرفة الحكمة والقدرة. والمراد من قصصهم قصة يوسف عليه

السلام وإخوته وأبيه، ومن الناس من قال: المراد قصص الرسل لأنه تقدم في القرآن ذكر قصص سائر الرسل إلا أن الأولى أن يكون المراد قصة يوسف عليه السلام.

فإن قيل: لم قال: ﴿عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ مع أن قوم محمد ﷺ كانوا ذوي عقول وأحلام، وقد كان الكثير منهم لم يعتبر بذلك.

قلنا: إن جميعهم كانوا متمكنين من الاعتبار، والمراد من وصف هذه القصة بكونها عبرة كونها بحيث يمكن أن يعتبر بها العاقل، أو نقول: المراد من أولي الألباب الذين اعتبروا وتفكروا وتأملوا فيها وانتفعوا بمعرفتها، لأن (أولى الألباب) لفظ يدل على المدح والثناء فلا يليق إلا بما ذكرناه، واعلم أنه تعالى وصف هذه القصة بصفات.

الصفة الأولى: كونها ﴿عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وقد سبق تقريره.

الصفة الثانية: قوله: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾.

وفيه قولان:

الأول: أن المراد الذي جاء به وهو محمد ﷺ لا يصح منه أن يفترى لأنه لم يقرأ الكتب ولم يتلمذ لأحد ولم يخالط العلماء فمن المحال أن يفتري هذه القصة بحيث تكون مطابقة لما ورد في التوراة من غير تفاوت.

والثاني: أن المراد أنه ليس يكذب في نفسه، لأنه لا يصح الكذب منه، ثم إنه تعالى أكد كونه غير مفترى فقال: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وهو إشارة إلى أن هذه القصة وردت على الوجه الموافق لما في التوراة وسائر الكتب الإلهية، ونصب تصديقًا على تقدير ولكن كان تصديق الذي بين يديه كقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٠] قاله الفراء والزجاج، ثم قال: ويجوز رفعه في قياس النحو على معنى: ولكن هو تصديق الذي بين يديه.

والصفة الثالثة: قوله: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

وفيه قولان:

الأول: المراد وتفصيل كل شيء من واقعة يوسف عليه السلام مع أبيه وإخوته.

والثاني: أنه عائد إلى القرآن، كقوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] فإن جعل هذا الوصف وصفًا لكل القرآن أليق من جعله وصفًا لقصة يوسف وحدها، ويكون المراد: ما يتضمن من الحلال والحرام وسائر ما يتصل بالدين. قال الواحدي على التفسيرين جميعًا: فهو من العام الذي أريد به الخاص كقوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] يريد: كل شيء يجوز أن يدخل فيها وقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣].

الصفة الرابعة والخامسة: كونها هدى في الدنيا وسببًا لحصول الرحمة في القيامة لقوم يؤمنون خصهم بالذكر لأنهم هم الذين انتفعوا به كما قررناه في قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] والله

أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب قال المصنف رحمه الله تعالى تم تفسير هذه السورة بحمد الله تعالى يوم الأربعاء السابع من شعبان، ختم بالخير والرضوان، سنة إحدى وستمائة، وقد كنت ضيق الصدر جدًّا بسبب وفاة الولد الصالح محمد تغمده الله بالرحمة والغفران وخصه بدرجات الفضل والإحسان وذكرت هذه الأبيات في مرثيته على سبيل الإيجاز:

فَلَوْ كَانَتِ الأَقْدَارُ مُنْقَادَةً لَنَا فَدَيْنَاكَ مِنْ حِمَاكَ بِالرُّوحِ وَالْجِسْمِ
وَلَوْ كَانَتِ الأَمْلاكُ تأخذ رِشْوَةً خَضَعْنَا لَهَا بِالرِّقِّ فِي الْحُكْمِ وَالاِسْمِ
وَلَكِنَّهُ حُكْمٌ إِذَا حَانَ حِينُهُ سَرَى مِنْ مَقَرِّ الْعَرْشِ فِي لُجَّةِ الْيَمِّ
سَأَبْكِي عَلَيْكَ الْعُمْرَ بِالدَّمِ دَائِمًا وَلَمْ أَنْحَرِفْ عَنْ ذَاكَ فِي الْكَيْفِ وَالْكَمِّ
سَلامٌ عَلَى قَبْرٍ دُفِنْتَ بِتُرْبِهِ وَأَتْحَفَكَ الرَّحْمَنُ بِالْكَرَمِ الْجَمِّ
وَمَا صَدَّنِي عَنْ جَعْلِ جَفْنِي مَدْفَنًا لِجِسْمِكَ إِلاَّ أَنَّهُ أَبَدًا يَهْمِي
وَأُقْسِمُ إِنْ مَسُّوا رُفَاتِي وَرِمَّتِي أَحَسُّوا بِنَارِ الْحُزْنِ فِي مَكْمَنِ الْعَظْمِ
حَيَاتِي وَمَوْتِي وَاحِدٌ بَعْدَ بُعْدِكُمْ بَلِ الْمَوْتُ أَوْلَى مِنْ مُدَاوَمَةِ الْغَمِّ
رَضِيتُ بِمَا أَمْضَى الإِلَهُ بِحُكْمِهِ لِعِلْمِي بِأَنِّي لاَ يُجَاوِزُنِي حُكْمِي

وأنا أوصي من طالع كتابي واستفاد ما فيه من الفوائد النفيسة العالية أن يخص ولدي ويخصني بقراءة الفاتحة، ويدعو لمن قد مات في غربة بعيدًا عن الإخوان والأب والأم بالرحمة والمغفرة فإني كنت أيضًا كثير الدعاء لمن فعل ذلك في حقي وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا آمين والحمد لله رب العالمين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة يوسف عليه السلام

وهي مكيَّةٌ كلُّها. وقال ابن عباس وقتادة: إلَّا أربعَ آيات منها[1]. ورُويَ أنَّ اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف، فنزلت السُّورة، وسيأتي[2].

وقال سعد بن أبي وقَّاص: أُنزِل القرآن على رسول الله ﷺ، فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: لو قصَصْت علينا، فنزل: [﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ إلى قوله:] ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ فتلاه عليهم زماناً فقالوا: لو حدَّثْتنا، فنزل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣][3].

قال العلماء: وذكر الله أقاصيصَ الأنبياء في القرآن وكرَّرها بمعنًى واحدٍ في وجوهٍ مختلفة، بألفاظٍ متباينةٍ على درجاتِ البلاغة، وقد ذكر قصَّة يوسف ولم يكرِّرها، فلم يَقْدِر مخالفٌ على معارضة ما تكرَّر، ولا على معارضةِ غيرِ المتكرِّر، والإعجازُ لمن تأمَّل.

قوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١﴾

قوله تعالى: ﴿الٓرۚ﴾ تقدَّم القولُ فيه[4]، والتقدير هنا: «تلك آياتُ الكتاب» على

(١) النكت والعيون ٣/ ٥ .

(٢) ص٢٤٢ و٢٥٩ من هذا الجزء.

(٣) أخرجه البزار (١١٥٢) و(١١٥٣)، وأبو يعلى (٧٤٠)، والطبري ١٣/ ٨ ، وابن حبان (٦٢٠٩)، والواحدي في أسباب النزول ص٢٧٣ ، وما بين حاصرتين من المصادر.

(٤) ١/ ٢٣٧ وما بعدها ، و ١٠/ ٤٤٥ - ٤٤٦ .

الابتداء والخبر(١). وقيل: «الٓر» اسمُ السورة، أي: هذه السورةُ المسماة «الٓر».

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ يعني بالكتاب المبين: القرآن المبين، أي: المبيِّن حلالُه وحرامه، وحدودُه وأحكامه، وهُداه وبركته(٢).

وقيل: أي: هذه تلك الآياتُ التي كنتم توعَدون بها في التّوراة(٣).

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ يجوز أن يكون المعنى: إنَّا أنزلنا القرآن عربيًّا(٤)، نصب «قرآناً» على الحال، أي: مجموعاً، و«عربيًّا» نعتٌ لقوله «قرآناً». ويجوز أنْ يكون توطئةً للحال، كما تقول: مررتُ بزيدٍ رجلاً صالحاً، و«عربيًّا» على الحال، أي: يُقرأ بلغتكم يا معشر العرب. [ومعنى] أَعْرَبَ: بَيَّنَ، ومنه: «الثَّيِّبُ تُعرِبُ عن نفسها»(٥).

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: لكي تعلموا معانيَه، وتفهموا ما فيه(٦). وبعضُ العرب يأتي بأنْ مع «لعل» تشبيهاً بعسى. واللام في «لعل» زائدةٌ للتوكيد، كما قال الشاعر:

يـا أَبَـتَـا عَـلَّـكَ أَوْ عَـسَـاكـا(٧)

وقيل: «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» أي: لتكونوا على رجاءٍ من تَدَبُّره، فيعود معنى الشَّكِّ إليهم لا إلى الكتاب، ولا إلى الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٩ .

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٤٠٨ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٨٧ ، وللنحاس ٣/ ٣٩٥ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٩٥ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٩ ، وما سلف بين حاصرتين منه. وقوله: «الثيب تعرب...» قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٧٧٢٢)، وابن ماجه (١٨٧٢) من طريق عدي بن عدي الكندي عن أبيه.

(٦) تفسير البغوي ٢/ ٤٠٨ .

(٧) الرجز للعجاج، وهو في ديوانه ص١٨١ ، والكتاب ٢/ ٣٧٥ ، والخزانة ٥/ ٣٦٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٩ ، والكلام منه.

وقيل: معنى «أَنْزَلْنَاهُ»، أي: أنزلنا خبر يوسف؛ قال النحاس[١]: وهذا أشبهُ بالمعنى؛ لأنه يُروى أنَّ اليهود قالوا: سَلُوه لِمَ انتقل آلُ يعقوبَ من الشَّام إلى مصر، وعن خبر يوسف. فأنزلَ الله عزَّ وجلَّ هذا بمكة موافقاً لمَا في التوراة، وفيه زيادةٌ ليست عندهم. فكان هذا للنبيِّ ﷺ ـ إذْ أخبرهم ولم يكنْ يقرأ كتاباً قطُّ ولا هو في موضع كتاب ـ بمنزلةِ إحياءِ عيسى عليه السلام الميِّتَ، على ما يأتي فيه[٢].

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ ابتداءٌ وخبر. ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ بمعنى المصدر، والتقدير: قصصاً[٣] أحسنَ القَصَص.

وأصلُ القَصَص: تتبُّع الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١] أي: تتبَّعي أثرَه، فالقاصُّ يتبع[٤] الآثار فيُخْبِرُ بها. والحُسْنُ يعود إلى القَصَص لا إلى القصَّة. يقال: فلانٌ حَسَنُ الاقتصاص للحديث؛ أي: جيِّدُ السِّياقةِ له. وقيل: القَصَص ليس مصدراً، بل هو في معنى الاسم، كما يقال: الله رجاؤنا، أي: مرجوُّنا، فالمعنى على هذا: نحن نخبرك بأحسن الأخبار[٥].

﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: بوحينا، فـ «ما» مع الفعل بمنزلة المصدر. ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ نصب القرآن على أنَّه نعتٌ لـ «هذا»، أو بدلٌ منه، أو عطفُ بيان[٦].

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٣٩٦.

(٢) ص٢٥٩ من هذا الجزء.

(٣) في (د) و(ز) و(م): قصصنا، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٠، والكلام منه.

(٤) في (ظ): فالقصاص يتتبع.

(٥) ينظر تفسير الرازي ١٨/ ٨٥.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٢١٩، وضعَّف ابن عطية كونه عطف بيان.

وأجاز الفراء الخفضَ؛ قال: على التكرير(١). وهو عند البصريين على البدل من «ما»(٢). وأجازَ أبو إسحاق(٣) الرفعَ على إضمارِ مبتدأ؛ كأنَّ سائلاً سأله عن الوحي فقيل له: هو هذا القرآن(٤). ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ أي: من الغافلين عمَّا عرَّفْناكَه(٥).

مسألة: واختلف العلماء لِمَ سُمِّيتْ هذه السورة أحسنَ القَصَص من بين سائر الأقاصيص؟

فقيل: لأنَّه ليست قصةٌ في القرآن تتضمَّن من العِبر والحكم ما تتضمَّن هذه القصّة، وبيانُه قوله في آخرها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الآية: ١١١].

وقيل: سمَّاها أحسنَ القَصص لحُسْنِ مجازاةِ(٦) يوسفَ إخوتَه(٧)، وصَبْرِه على أذاهم، وعَفْوِه عنهم ـ بعد الالتقاء بهم ـ عن ذكر ما تعاطَوْه [معه]، وكرمِه في العفو عنهم، حتى قال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢].

وقيل: لأنَّ فيها ذِكْرَ الأنبياء والصالحين، والملائكة والشياطين، والجنِّ والإنس، والأنعام والطير، وسيرَ الملوك والمماليك(٨) والتجّار، والعلماء والجُهَّال،

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٢ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣١٠ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٠ ، وقال الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٨٨ : فيكون المعنى: نحن نقص عليك أحسن القصص بهذا القرآن. ولا تقرأنَّ بها.

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٨٨ .

(٤) في (د) و(ز) و(ظ): هو القرآن، وفي (ف) ومعاني القرآن للزجاج: هذا القرآن، والمثبت من (م).

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٠ .

(٦) في النسخ الخطية: محاوزة، وفي (م): مجاوزة، والمثبت من عرائس المجالس ص١١٠ ، والكلام وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٧) في (م): عن إخوته.

(٨) في (م): الممالك.

والرِّجال والنِّساء وحِيَلهنَّ ومَكْرهنَّ، وفيها ذكر التَّوحيد والفقه[١] والسِّيَر، وتعبير الرؤيا، والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش، وجُمَل الفوائد التي تصلح للدين والدنيا.

وقيل: لأنَّ فيها ذكرَ الحبيب والمحبوب وسِيَرِهما. وقيل: «أَحْسَنَ» هنا بمعنى: أَعْجبَ.

وقال بعضُ أهل المعاني: إنَّما كانت أحسنَ القَصَص لأنَّ كلَّ مَن ذُكر فيها كان مآلُه السعادةَ؛ انظر إلى يوسفَ وأبيه وإخوته، وامرأةِ العزيز: قيل: والمَلِكُ أيضاً أسلمَ بيوسفَ وحَسُن إسلامه، ومُسْتعبِرُ الرؤيا الساقي، والشاهدُ فيما يقال[٢]، فما كان أمرُ الجميع إلَّا إلى خير.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ﴾ «إذْ» في موضع نصبٍ على الظرف، أي: اذكر لهم حين قال يوسف. وقراءةُ العامة بضمِّ السين. وقرأ طلحة بن مُصَرِّف: «يُؤْسِف» بالهمز وكَسْرِ السين. وحكى أبو زيد: «يؤسَف» بالهمز وفتح السين. ولم ينصرف لأنَّه أعجميّ[٣]. وقيل: هو عربيّ[٤].

وسئل أبو الحسن الأقطعُ ـ وكان حكيماً ـ عن «يوسف» فقال: الأسفُ في اللغة الحزن؛ والأسِيف: العبد، وقد اجتمعا في يوسفَ؛ فلذلك سُمِّي يوسف[٥].

---

(١) في عرائس المجالس: والعفة.

(٢) وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يوسف: ٢٦].

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٠ ، وينظر القراءات الشاذة ص٦٢ .

(٤) ذكره الزمخشري ٢/ ٣٠١ وقال: وليس بصَحيح؛ لأنه لو كان عربيًّا لانصرف، لخُلُوِّه عن سببٍ آخَرَ سوى التعريف.

(٥) عرائس المجالس ص١١٠ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤٠٩ .

﴿لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ﴾ بكسر التاء، قراءةُ أبي عمرو وعاصم ونافع وحمزة والكسائي[(١)]، وهي عند البصريين علامةُ التأنيث؛ أُدخلت على الأب في النداء خاصةً بدلاً من ياء الإضافة، وقد تدخل علامةُ التأنيث على المذكَّر فيقال: رجل نُكَحَة وهُزَأة[(٢)]؛ قال النحاس[(٣)]: إذا قلت: «يَا أَبَتِ» بكسر التاء، فالتاءُ عند سيبويه[(٤)] بدلٌ من ياء الإضافة؛ ولا يجوز على قوله الوقفُ إلَّا بالهاء، وله على قوله دلائلُ؛ منها: أنَّ قولك: «يا أبه» يؤدِّي عن معنى «يا أبي»، وأنَّه لا يقال: «يا أبه»[(٥)] إلَّا في المعرفة، ولا يقال: جاءني أبةٌ، ولا تستعمل العربُ هذا إلَّا في النداء خاصة، ولا يقال: «يا أبتي»؛ لأنَّ التاء بدلٌ من الياء فلا يُجمع بينهما.

وزعم الفراء[(٦)] أنَّه إذا قال: يَا أَبتِ ـ فكَسَر ـ وَقَفَ على التاء[(٧)] لا غير؛ لأنَّ الياء في النية. وزعم أبو إسحاق[(٨)] أنَّ هذا خطأٌ، والحقُّ ما قال؛ كيف تكون الياء في النية وليس يقال: يا أبتي؟!

وقرأ أبو جعفر والأعرج وعبدُ الله بن عامر: «يا أبتَ» بفتح التاء[(٩)]؛ قال البصريون: أرادوا: يا أبتي بالياء، ثم أُبدلت الياءُ ألفاً فصارت: يا أبتا، فحُذفت الألف وبقيت الفتحة على التاء[(١٠)].

---

(١) وقرأ بها أيضاً ابن كثير. السبعة ص٣٤٤ ، والتيسير ص٦٠ و ١٢٧ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٨٩ بنحوه.

(٣) في إعراب القرآن ٢/ ٣١٠ .

(٤) ينظر الكتاب ٢/ ٢١٠ - ٢١١ .

(٥) في (م): يا أبت، وكذا اللفظة بعدها، والمثبت من النسخ الخطية وإعراب القرآن للنحاس.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٣٢ .

(٧) في (م): دل على الياء.

(٨) هو الزجاج، وكلامه في معاني القرآن ٣/ ٨٩ .

(٩) السبعة ص٣٤٤ ، والتيسير ص١٢٧ عن ابن عامر، والنشر ٢/ ٢٩٣ عن ابن عامر وأبي جعفر، وذكرها عنهم جميعاً النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣١٠ .

(١٠) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٩٠ .

وقيل: الأصلُ الكسر، ثم أُبدل من الكسرة فتحةٌ، كما يُبدَل من الياء ألف؛ فيقال [في: يا غلامي أقْبِل]: يا غلاماً أقبل(١). وأجاز الفراء(٢): «يا أبتُ» بضمِّ التاء.

﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ ليس بين النحويين اختلافُ أنَّه يقال: جاءني أحدَ عَشَرَ، ومررتُ بأحَدَ عَشَرَ، وكذلك ثلاثةَ عَشَرَ وتسعةَ عَشَرَ وما بينهما؛ جعلوا الاسمين اسماً واحداً وأعربوهما بأخفِّ الحركات(٣).

قال السُّهيليُّ(٤): أسماءُ هذه الكواكب جاء ذِكْرُها مُسْنَداً؛ رواه الحارث بن أبي أسامة قال: جاء بستانة(٥) ـ وهو رجلٌ من أهل الكتاب ـ فسأل النبيَّ ﷺ عن الأحَدَ عَشَرَ كوكباً الذي رأى يوسفُ، فقال: «الحرثان وطارق والذيال وقابِس والنطح والطروح وذو الكنفان وذو الفرع والفَيلق ووَثّاب والعَمُودَان، رآها يوسف عليه السلام تسجد له»(٦).

قال ابن عباس وقَتَادة وابن جريج(٧): الكواكبُ إخوته، والشمس أمُّه، والقمر أبوه.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٢، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٢، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣١٠.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٢.

(٤) في التعريف والإعلام ص٧٩.

(٥) في النسخ الخطية: بستان، والمثبت من (م) وهو الموافق لبعض مصادر التخريج على ما يأتي، ووقع في التعريف والإعلام وبعض المصادر: بستاني.

(٦) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (١١١١ - تفسير)، والبزار (٢٢٢٠ - كشف)، والطبري ١٣/ ١٠، وابن حبان في المجروحين ١/ ٢٥٠ - ٢٥١، والعقيلي في الضعفاء ١/ ٢٥٩، والبيهقي في الدلائل ٦/ ٢٧٧، وابن الجوزي في الموضوعات (٧٠) واختلفت أسماء الكواكب في المصادر اختلافاً كثيراً، وقد أثبتنا ما اتفقت عليه غالب نسخنا وكان موافقاً للتعريف والإعلام وبعض مصادر التخريج.
قال البزار: لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد. وقال ابن حبان: هذا حديث لا أصل له من حديث رسول الله ﷺ. وقال ابن الجوزي: هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ. قال العقيلي: لا يصح من هذا المتن عن النبي ﷺ شيء من وجه يثبت. وينظر الفوائد المجموعة ص٤٦٤.

(٧) قوله: وابن جريج، من (ظ)، وقد أخرج قولهم الطبري ١٣/ ١٢ - ١٣.

وقال قتادة أيضاً: الشمسُ خالته؛ لأنَّ أمَّه كانت قد ماتت، وكانت خالته تحت أبيه[١].

﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ توكيد. وقال: «رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ» فجاء مذكَّراً، فالقولُ عند الخليل وسيبويه أنَّه لمَّا أخبر عن هذه الأشياء بالطاعة والسّجود وهما من أفعال مَن يَعْقِلُ أخبر عنها كما يخبر عمَّن يعقل[٢]. وقد تقدَّم هذا المعنى في قوله: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٩٨]. والعربُ تَجمع ما لا يَعقِل جَمْعَ مَن يعقل إذا أنزلوه منزلتَه، وإنْ كان خارجاً عن الأصل.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾

فيه إحدى عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ أي: يحتالوا في هلاكك؛ لأنَّ تأويلها ظاهر، فربما يحملهم الشيطان على قَصْدِكَ بسوءٍ حينئذٍ. واللامُ في «لك» تأكيدٌ، كقوله: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾[٣].

الثانية: الرؤيا حالةٌ شريفة، ومنزلةٌ رفيعة؛ قال ﷺ: «لم يَبْقَ بعدي من المبشِّرات إلَّا الرؤيا الصالحةُ الصادقة يراها الرجلُ الصالح، أو تُرى له»[٤]. وقال «أَصْدَقُكم رؤيا أَصْدَقُكم حديثاً»[٥]. وحَكَم ﷺ بأنَّها: «جزءٌ من ستةٍ وأربعين جزءاً من النبوَّة»[٦].

---

(١) ذكره البغوي ٢/ ٤٠٩ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٣ ، وينظر البيان لابن الأنباري ٢/ ٣٣ .

(٣) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ١٤ - ١٥ . وينظر أيضاً ما سلف ص١١٩ من هذا الجزء.

(٤) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٩٠٠)، ومسلم (٤٧٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٧٦٤٢)، ومسلم (٢٢٦٣): (٦) عن أبي هريرة ﷺ.

(٦) قطعة من الحديث الذي قبله. وأخرجه أيضاً أحمد (١٢٠٣٧)، والبخاري (٦٩٨٣)، ومسلم (٢٢٦٤) من حديث أنس ﷺ. وأخرجه أحمد (٢٢٦٩٧)، والبخاري (٦٩٨٧)، ومسلم (٢٢٦٤) من حديث عبادة ابن الصامت ﷺ وأخرجه البخاري (٦٩٨٨) عن أبي هريرة ﷺ، و(٦٩٨٩) عن أبي سعيد الخدري ﷺ. وينظر التمهيد لابن عبد البر ١/ ٢٨٠ .

ورُوي: «من سبعين جزءاً من النبوَّة»[١]. ورُوي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «جزءٌ من أربعين جزءاً من النبوَّة»[٢]. ومن حديث ابن عمرو[٣]: «جزءٌ من تسعةٍ وأربعين جزءاً». ومن حديث العباس: «جزءٌ من خمسين جزءاً من النبوَّة»[٤]. ومن حديث أنس: «من ستةٍ وعشرين»[٥] وعن عُبادة بن الصّامت: «من أربعةٍ وأربعين من النبوَّة»[٦].

والصحيحُ منها حديثُ الستة والأربعين، ويتلوه في الصحة حديثُ السبعين؛ ولم يُخرِّج مسلمٌ في صحيحه غيرَ هذين الحديثين، أمَّا سائرُها فمِن أحاديث الشيوخ؛ قاله ابن بَطّال[٧].

قال أبو عبد الله المازَريُّ: والأكثر والأصحُّ عند أهل الحديث: «من ستة وأربعين»[٨].

قال الطَّبريّ: والصواب أنْ يقال: إنَّ عامَّةَ هذه الأحاديث أو أكثرَها صحاحٌ، ولكلِّ حديثٍ منها مخرجٌ معقول؛ فأمَّا قوله: «إنَّها جزءٌ من سبعين جزءاً من النبوَّة»

(١) أخرجه أحمد (٤٦٧٨)، ومسلم (٢٢٦٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وأخرجه أحمد (٢٨٩٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) ذكره عن ابن عباس القاضي عياض في إكمال المعلم ٧/ ٢١١ ، وأبو العباس في المفهم ٦/ ١٢ ، وابن حجر في الفتح ١٢/ ٣٦٣ ، وعزاه ابن حجر للطبري ، وأخرجه أحمد (١٦١٨٣)، والترمذي (٢٢٧٨) وابن عبد البر في التمهيد ١/ ٢٨٣ من حديث أبي رزين العُقَيلي ﷺ.

(٣) في النسخ: ابن عمر، والمثبت من إكمال المعلم ٧/ ٢١١ ، وكذلك أخرجه أحمد (٧٠٤٤)، والطبري ٢١٨/١٢ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه مطولاً البزار (٢١٢٤ - كشف)، وابن عبد البر في التمهيد ١/ ٢٨١ . قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٧٢ - ١٧٣ : فيه ابن إسحاق، وهو مدلس، وبقية رجاله ثقات.

(٥) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١/ ٢٨٢ وقال: حسن الإسناد.

(٦) أخرجه الطبري ٢١٨/١٢ ، وضعَّف إسناده ابن عبد البر في التمهيد ١/ ٢٨١ .

(٧) ذكر قول ابن بطال أيضاً ابن حجر في الفتح ١٢/ ٣٦٥ .

(٨) المفهم ٦/ ١٢ ، وينظر المعلم للمازري ٣/ ١١٧ - ١١٨ .

فإنَّ ذلك قولٌ عامٌّ في كلِّ رؤيا صالحةٍ صادقة، ولكلِّ مسلم رآها في منامه على أي أحواله كان. وأما قوله: إنَّها من أربعين أو ستةٍ وأربعين؛ فإنَّه يريد بذلك مَن كان صاحبُها بالحال التي ذُكِرت عن الصدِّيق - ﷺ - أنَّه كان بها؛ فَمَن كان من أهلِ إسباغِ الوضوء في السَّبَرات[1]، والصبرِ في الله على المكروهات، وانتظارِ الصَّلاة بعد الصَّلاة، فرؤياه الصالحةُ - إن شاء الله - جزءٌ من أربعين جزءاً من النبوَّة، ومَن كانت حالُه في ذاته بين ذلك فرؤياه الصادقةُ بين الجزءين؛ ما بين الأربعين إلى الستِّين[2]، لا تَنقصُ عن سبعين، وتزيد على الأربعين.

وإلى هذا المعنى أشار أبو عمر بنُ عبد البر[3] فقال: اختلافُ الآثار في هذا الباب في عدد أجزاء الرؤيا ليس ذلك عندي اختلافَ تضادٍّ وتدافُعٍ والله أعلم؛ لأنَّه يَحتمل أنْ تكون الرؤيا الصالحةُ من بعض مَن يراها على حَسَب ما يكون من صِدْقِ الحديث، وأداءِ الأمانة، والدِّين المتين، وحُسْنِ اليقين؛ فعلى قَدْرِ اختلاف النَّاس فيما وَصَفْنا تكونُ الرؤيا منهم على الأجزاء المختلفة العدد، فمن خَلَصت[4] له نيَّته في عبادة ربِّه ويقينه وصدق حديثه، كانت رُؤْياه أصدق، وإلى النبوَّة أقرب، كما أنَّ الأنبياءَ يتفاضلون [والنبوة كذلك]؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥].

قلت: فهذا التأويل يجمعُ شتاتَ الأحاديث، وهو أولى من تفسير بعضِها دون بعض وطَرْحِه.

ذكر أبو سعيد الأَسْفاقُسِي[5] عن بعض أهل العلم قال: معنى قوله: «جزءٌ من ستةٍ

---

(١) جمع سَبْرة بسكون الباء، وهي شدة البرد. النهاية (سبر).

(٢) كذا وقع، ولعل الصواب: السبعين وقد نقل كلام الطبري بنحوه المازري في المعلم ٣/ ١١٨ ، وأبو العباس في المفهم ٦/ ١٥ - ١٦ وابن حجر في الفتح ١٢/ ٣٦٥ .

(٣) في التمهيد ١/ ٢٨٣ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) في (د) و(ظ) و(ف): حصلت.

(٥) ذكره ابن حجر في الفتح ١٢/ ٣٦٤ بلفظ: السفاقسي، ونقل كلامه عن ابن بطال، وما سيرد بين حاصرتين منه.

وأربعين جزءاً من النبوّة» فإنَّ الله تعالى أوحى إلى محمدٍ ﷺ [في المنام ستةَ أشهر، ثم أوحى إليه بعد ذلك] في النبوّة ثلاثةً وعشرين عاماً ـ فيما رواه عكرمةُ وعمرو بنُ دينار عن ابنِ عباس رضي الله تعالى عنهما[١] ـ فإذا نَسَبْنا ستةَ أشهرٍ من ثلاثةٍ وعشرين عاماً، وَجَدْنا ذلك جزءاً من ستةٍ وأربعين جزءاً.

وإلى هذا القول أشار المازَريُّ في كتابه «المعلم»[٢]، واختاره الغزنويّ[٣] في تفسيره من سورة يونس، عند قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الآية: ٦٤]. وهو فاسدٌ من وجهين:

أحدهما: ما رواه أبو سَلَمةَ عن ابن عباس وعائشةَ: بأنَّ مدَّة الوحي كانت عشرين سنة[٤]، وأنَّ النبيَّ ﷺ بُعِثَ على رأس أربعين، فأقام بمكَّةَ عَشْرَ سنين؛ وهو قول عروة والشعبيِّ وابنِ شهابٍ والحسن وعطاءٍ الخراسانيِّ، وسعيد بن المسيِّب على اختلافٍ عنه، وهي روايةُ ربيعة وأبي غالب عن أنس[٥]، وإذا ثبت هذا الاختلافُ[٦] بطَل ذلك التأويل.

الثاني: أنَّ سائر الأحاديث في الأجزاءِ المختلفة تبقى بغير معنى.

الثالثة: إنَّما كانت الرؤيا جزءاً من النبوّة؛ لأنَّ فيها ما يُعجز ويَمتنع، كالطيران وقلبِ الأعيان، والاطِّلاع على شيءٍ من علم الغيب، كما قال عليه الصلاة والسلام:

(١) رواية عكرمة عن ابن عباس عند أحمد (٢٢٤٢) والبخاري (٣٨٥١). ورواية عمرو بن دينار عن ابن عباس عند مسلم (٢٣٥١).

(٢) ٣/ ١١٧.

(٣) في (م): القونوي، وفي (د): القرنوي، وفي (ظ): العزيزي، والمثبت من باقي النسخ.

(٤) أخرجه أحمد (٢٦٩٦)، والبخاري (٤٤٦٤ ، ٤٤٦٥) بلفظ: أنَّ النبيَّ ﷺ لبث بمكة عشر سنين ينزل عليه القرآن، وبالمدينة عشراً.

(٥) التمهيد ٣/ ١٦ ، ورواية ربيعة (وهو ابن أبي عبد الرحمن) عن أنس عند أحمد (١٣٥١٩)، والبخاري (٣٥٤٧) ومسلم (٢٣٤٧). ورواية أبي غالب عن أنس عند أحمد (١٢٥٢٩)، وينظر التمهيد ٣/ ٩-١٢ .

(٦) في (م): الحديث، وفي (د) و(ف): الخلاف.

«إنَّه لم يبقَ من مبشِّرات النبوَّة إلا الرؤيا الصَّادقةَ في النوم» الحديث[١]. وعلى الجملة فإن الرؤيا الصادقةَ من الله، وإنَّها من النبوَّة؛ قال ﷺ: «الرؤيا من الله، والحُلُم من الشيطان»[٢]. وإنَّ التصديقَ بها حقٌّ، ولها التأويلُ الحَسَنُ، وربَّما أغنى بعضُها عن التأويل، وفيها من بديع [حكمة] الله ولُطْفِه ما يزيد المؤمن في إيمانه؛ ولا خلافَ في هذا بين أهل الدين والحقِّ من أهل الرأي والأثر، ولا يُنكر الرؤيا إلَّا أهلُ الإلحاد، وشِرذمةٌ من المعتزلة[٣].

الرابعة: إن قيل: إذا كانت الرؤيا الصادقةُ جزءاً من النبوَّة؛ فكيف يكون الكافر والكاذب والمُخلِّط أهلاً لها؟ وقد وقعت من بعض الكفَّار وغيرِهم ممن لا يُرضى دينُه مناماتٌ صحيحةٌ صادقة؛ كمنام رؤيا المِلك الذي رأى سبْعَ بقرات، ومنامِ الفَتَيَيْن في السجن، ورؤيا بُخْتَنَصَّر، التي فسَّرها دانيال في ذهاب مُلكه، ورؤيا كسرى في ظهور النبيِّ ﷺ[٤]، ومنامِ عاتكةَ عمَّةِ رسول الله ﷺ في أمره وهي كافرة[٥]. وقد ترجم البخاريُّ: باب رؤيا أهل السجن[٦].

فالجواب: أنَّ الكافرَ والفاجر والفاسق والكاذب، وإنْ صدقت رؤياهم في بعض الأوقات، لا تكون من الوحي ولا من النبوَّة؛ إذْ ليس كلُّ مَن صَدَقَ في حديث عن غيبٍ يكون خبرُه ذلك نبوّةً؛ وقد تقدَّم في «الأنعام»[٧] أنَّ الكاهن وغيرَه قد يخبر

(١) سلف في المسألة الثانية.

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢٢٥٢٥)، والبخاري (٣٢٩٢)، ومسلم (٢٢٦١) عن أبي قتادة ﷺ.

(٣) التمهيد ١/ ٢٨٥ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) التمهيد ١/ ٢٨٥ ، وينظر خبر هذه الرؤيا في تاريخ الطبري ٢/ ١٦٦ ، ودلائل النبوة للبيهقي ١/ ١٢٦-١٢٩ ، والبداية والنهاية ٣/ ٣٩٥ .

(٥) التمهيد ١/ ٢٨٥ ، وخبر رؤيا عاتكة في سيرة ابن هشام ١/ ٢٠٧ عن ابن إسحاق قال: أخبرني مَن لا أتَّهم عن عكرمة مولى ابن عباس، عن ابن عباس. ويزيد بن رومان، عن عروة قال: وقد رأت عاتكة، وذكر الخبر مطولاً.

(٦) صحيح البخاري، قبل الحديث (٦٩٩٢) بلفظ: باب رؤيا أهل السجون والفساد والشرك.

(٧) ٨/ ٤٠٥ .

بكلمة الحقِّ فيَصْدُق، لكنَّ ذلك على النُّدور والقلَّة، فكذلك رؤيا هؤلاء[١].

قال المهلَّب: إنَّما ترجمَ البخاريُّ بهذا لجواز أنْ تكون رؤيا أهل الشِّرك رؤيا صادقةً، كما كانت رؤيا الفتيين صادقة، إلا أنَّه لا يجوز أنْ تُضاف إلى النبوَّة إضافة رؤيا المؤمنِ إليها؛ إذ ليس كلُّ ما يصحُّ له تأويلٌ من الرؤيا حقيقةً يكون جزءاً من النبوَّة.

الخامسة: الرؤيا المضافةُ إلى الله تعالى هي التي خَلَصت من الأضغاث والأوهام، وكان تأويلُها موافقاً لِمَا في اللوح المحفوظ. والتي هي من حَيِّز[٢] الأضغاث هي الحُلُم، وهي المضافةُ إلى الشيطان، وإنَّما سُمِّيت ضِغثاً لأنَّ فيها أشياءَ متضادَّة؛ قال معناه المهلَّب.

وقد قَسم رسول الله ﷺ الرؤيا أقساماً تغني عن قول كلِّ قائل؛ روى عوف بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «الرؤيا ثلاثةٌ؛ منها أهاويلُ الشيطان ليُحزِن ابن آدم، ومنها ما يَهُمُّ[٣] به في يَقَظَتِه، فيراه في منامه، ومنها جزءٌ من ستةٍ وأربعين جزءاً من النبوّة». قال: قلتُ: سمعتَ هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم! سمعتُه من رسول الله ﷺ[٤].

السادسة: قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ﴾ الآية. الرؤيا مصدرُ: رأى في المنام رؤيا، على وزن فُعلى، كالسُّقْيا والبُشْرى، وأَلِفُه للتأنيث؛ ولذلك لم ينصرف[٥].

وقد اختلفَ العلماءُ في حقيقة الرؤيا؛ فقيل: هي إدراكٌ في أجزاء لم تحلَّها آفةٌ،

---

(١) المفهم ٦/ ١٣ .

(٢) في النسخ عدا (ز): خبر، والمثبت من (ز).

(٣) في (ظ) و(م): يهتم، وفي (ف): هم، والمثبت من (د) و(ز) والمصادر على ما يأتي.

(٤) التمهيد ١/ ٢٨٥ – ٢٨٦ ، والحديث أخرجه ابن ماجه (٣٩٠٧)، وابن حبان (٦٠٤٢). والسائل في آخر الحديث هو مسلم بن مشكم، وهو الذي رواه عن عوف ﷺ.

(٥) المفهم ٦/ ٥ .

كالنوم المستغرق وغيره، ولهذا أكثرُ ما تكون الرؤيا في آخِر الليل؛ لقلَّة غَلَبةِ النوم، فيخلق الله تعالى للرائي عِلْماً ناشِئاً، ويخلقُ له الذي يراه على ما يراه ليصحَّ الإدراك.

قال ابن العربيّ[١]: ولا يَرى في المنام إلا ما يصحُّ إدراكُه في اليقظة؛ ولذلك لا يرى في المنام شخصاً قائماً قاعداً بحال، وإنَّما يَرى الجائزاتِ [الخارقةَ للعادات، أو الأشياءَ] المعتادات.

وقيل: إنَّ لله مَلكاً يعرضُ المرئيَّات على المحلِّ المدرِك من النائم، فيمثِّل له صوراً محسوسة، فتارةً تكون تلك الصور أمثلةً مُوافِقةً لمَا يقعُ في الوُجُود، وتارةً تكون [أمثلة] لمعانٍ[٢] معقولةٍ غيرِ محسوسة، وفي الحالتين تكون مُبشِّرة أو مُنذرة؛ قال ﷺ في «صحيح» مسلم وغيره: «رأيتُ سوداءَ ثائرةَ الرأسِ تَخرجُ من المدينة إلى مَهْيَعةَ، فأوَّلتُها الحُمَّى»[٣]. و«رأيتُ سيفي قد انقطع صدرُه، وبَقَراً تُنْحَر. فأوَّلْتُهما: رجلٌ من أهل بيتي يُقتل، والبقرُ نَفَرٌ من أصحابي يُقتلون»[٤]. و«رأيتُ أنِّي أدْخَلتُ يدي في دِرعٍ حصِينة؛ فأوَّلتُها المدينة»[٥]. و«رأيت في يدَيَّ سِوَارين؛ فأوَّلْتُهما كذَّابَيْن يَخرجان بعدي»[٦]. إلى غير ذلك مما ضُربتْ له الأمثال؛ ومنها ما يظهر معناه أوّلاً[٧]، ومنها

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٦١ ، وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٢) في (د): المعاني، وفي (ز): معاني، وفي (ظ) و(ف) و(م): لمعاني، والمثبت من المفهم ٦/ ٧ والكلام وما بين حاصرتين منه.

(٣) لم نقف عليه عند مسلم، وأخرجه أحمد (٥٨٤٩)، والبخاري (٧٠٣٨) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ومهيعة: اسم الجحفة، وهي ميقات أهل الشام. النهاية (مهيع).

(٤) ذكر المصنف لفظ هذا الحديث والذي قبله نقلاً عن ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٠٦٢ وقد أخرجه بمعناه البخاري (٣٦٢٢) ومسلم (٢٢٧٢) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ مطولاً. وأخرجه أحمد (١٣٨٢٥)، والبزار (٢١٣١ - كشف) من حديث أنس ﷺ. وأخرجه أحمد (١٤٧٨٧) من حديث جابر ﷺ.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٦٢ ، وأخرجه مطولاً دون قوله: «أدخلت يدي» أحمد (٢٤٤٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، و(١٤٧٨٧) من حديث جابر ﷺ.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٦٢ ، وأخرجه بأطول مما هنا البخاري (٣٦٢١)، ومسلم (٢٢٧٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٧) بعدها في النسخ عدا (ظ): فأولاً، والمثبت من (ظ) وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٦٢ ، والكلام منه.

ما لا يظهر إلَّا بعد الفِكْر. وقد رأى النائم في زمن يوسف عليه السلام بقراً فأوَّلها يوسفُ السنين، ورأى أحَدَ عَشَرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ فأوَّلَها بإخوته وأبويه.

السابعة: إن قيل: إنَّ يوسف عليه السلام كان صغيراً وَقْتَ رؤياه، والصغيرُ لا حُكْمَ لفِعْلِه، فكيف تكون له رؤيا لها حُكْمٌ حتى يقول له أبوه: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾؟

فالجواب: أنَّ الرؤيا إدراكُ حقيقةٍ على ما قدَّمناه، فتكونُ من الصغير كما يكون منه الإدراكُ الحقيقيُّ في اليقظة، وإذا أخبر عما رأى صُدِّق، فكذلك إذا أخبر عمَّا يرى في المنام[1]. وقد أخبر الله سبحانه عن رؤياه وأنَّها وُجدت كما رأى، فلا اعتراض. رُوي أنَّ يوسفَ عليه السلام كان ابن اثنتي عَشْرةَ سنة[2].

الثامنة: هذه الآيةُ أصلٌ في ألَّا تُقَصَّ الرؤيا على غير شفيقٍ ولا ناصح، ولا على مَن لا يُحسِن التأويل فيها؛ روى أبو رَزِين العُقَيليُّ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «الرؤيا جزءٌ من أربعين جزءاً من النبوَّة، والرؤيا معلَّقةٌ بِرِجْلِ طائرٍ ما لم يحدِّث بها صاحبُها، فإذا حدَّث بها وقعتْ، فلا تُحدِّثوا بها إلَّا عاقلاً أو مُحِبًّا أو ناصحاً» أخرجه الترمذيُّ وقال فيه: حديثٌ حسنٌ صحيح، وأبو رَزِين اسمُه لَقِيط بنُ عامر[3].

وقيل لمالك: أيعبُر الرؤيا كلُّ أحد؟ فقال: أبِالنبوَّةِ يُلعب؟ وقال مالك: لا يعبُر الرؤيا إلَّا مَن يُحْسِنُها، فإنْ رأى خيراً أخبر به، وإنْ رأى مكروهاً فليقل خيراً أو ليصمت. قيل: فهل يعبُرها على الخير وهي عنده على المكروه لقول مَن قال: إنَّها على ما أُوِّلت[4] عليه؟ فقال: لا! ثم قال: الرؤيا جزءٌ من النبوَّة فلا يُتَلاعب بالنبوَّة.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٦٢ - ١٠٦٣ .

(٢) عرائس المجالس ص١١٢ عن ابن وهب.

(٣) سنن الترمذي (٢٢٧٨)، وأخرجه أحمد (١٦١٨٣)، وابن عبد البر في التمهيد ١/ ٢٨٣ واللفظ له.

(٤) في (د) و(ز) و(م): تأولت، وفي (ظ): تأول، وفي (ف): تويلت، والمثبت من التمهيد ١/ ٢٨٨ ، والكلام منه.

التاسعة: وفي هذه الآية دليلٌ على أنَّ مباحاً(١) أنْ يُحذِّر المسلمُ أخاه المسلم ممن يَخافُه عليه، ولا يكون داخلاً في معنى الغِيبة؛ لأنَّ يعقوبَ عليه السلام قد حذَّر يوسفَ أنْ يَقُصَّ رؤياه على إخوته فيَكيدوا له كيداً.

وفيها أيضاً ما يدلُّ على جوازِ تركِ إظهارِ النعمة عند مَن تُخشى غائلتُه حسداً وكيداً؛ وقال النبيُّ ﷺ: «استعينوا على حوائجكم بالكتمان؛ فإنَّ كلَّ ذي نعمةٍ محسود»(٢).

وفيها أيضاً دليلٌ واضحٌ على معرفة يعقوبَ عليه السلام بتأويل الرؤيا؛ فإنَّه عَلم من تأويلها أنَّه سيظهرُ عليهم، ولم يبالِ بذلك من نفسه؛ فإنَّ الرجل يودُّ أنْ يكون ولدُه خيراً منه، والأخُ لا يودُّ ذلك لأخيه(٣).

ويدلُّ أيضاً على أنَّ يعقوبَ عليه السلام كان أحسَّ من بنيه حسدَ يوسف وبُغْضَتَه، فنهاه عن قَصَص الرؤيا عليهم خوفَ أنْ تَغِلَّ بذلك صدورُهم، فيعملوا الحيلة في هلاكه، ومن هنا ومن فِعْلِهم بيوسف يدلُّ على أنَّهم كانوا غيرَ أنبياءَ في ذلك الوقت، ووقع في كتاب الطبريِّ لابن زيد أنَّهم كانوا أنبياء، وهذا يردُّه القطعُ بعصمة الأنبياء عن الحسد الدنياويِّ، وعن عقوق الآباء، وتعريضِ مؤمنٍ للهلاك، والتآمرِ في قتله(٤)، ولا التفاتَ لقولِ مَن قال: إنَّهم كانوا أنبياء، ولا يستحيلُ في العقل زلَّةُ نبيٍّ، إلَّا أنَّ هذه الزلَّة قد جمعت أنواعاً من الكبائر، وقد أجمع المسلمون على عصمتهم

---

(١) في (ظ): على أنه يباح.

(٢) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٢٩، والحديث أخرجه ابن حبان في روضة العقلاء ص١٨٧، والسهمي في تاريخ جرجان ص٢٢٣ من حديث أبي هريرة ﷺ. وروي الحديث أيضاً عن معاذ ﷺ كما في الضعفاء للعقيلي ٢/ ١٠٨، والكامل لابن عدي ٢/ ٧٧٠ - ٧٧١ و ٣/ ١٢٤٠، وأخبار أصبهان لأبي نعيم ٢/ ٢١٧ والموضوعات لابن الجوزي (٨٨٩) و(٨٩٠). وعن ابن عباس كما في المجروحين لابن حبان ١/ ٣٨٤ - ٣٨٥، والموضوعات (٨٩١) و(٨٩٢). قال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٦٣.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٠، وخبر ابن زيد في تفسير الطبري ١٣/ ١٣.

منها، وإنَّما اختلفوا في الصغائر على ما تقدَّم ويأتي[(١)].

العاشرة: روى البخاريّ[(٢)] عن أبي هريرة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لم يبقَ من النبوَّة إلا المبشِّرات» قالوا: وما المبشِّرات؟ قال: «الرؤيا الصالحةُ». وهذا الحديث بظاهره يدلُّ على أنَّ الرؤيا بشرى على الإطلاق، وليس كذلك؛ فإنَّ الرؤيا الصادقةَ قد تكون منذِرةً من قِبَل الله تعالى لا تَسُرُّ رائيها، وإنَّما يُريها الله تعالى المؤمنَ رفقاً به ورحمة، ليستعدَّ لنزول البلاء قبل وقوعه[(٣)]؛ فإنْ أدرك تأويلها بنفسه، وإلَّا سأل عنها مَن له أهليَّةُ ذلك. وقد رأى الشافعيُّ ﷺ وهو بمصرَ رؤيا لأحمدَ بن حَنْبل تدلُّ على مِحنته، فكتبَ إليه بذلك ليستعدَّ لذلك[(٤)].

وقد تقدَّم في «يونس» في تفسير قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الآية: ٦٤] أنَّها الرؤيا الصالحة. وهذا وحديث البخاريِّ مَخرجُه على الأغلب[(٥)]، والله أعلم.

الحادية عشرة: روى البخاريُّ[(٦)] عن أبي سَلَمة قال: لقد كنتُ أرى الرؤيا فتُمْرِضُني، حتى سمعتُ أبا قَتَادة يقول: وأنا كنتُ لَأرى الرؤيا فتُمرِضُني حتى سمعتُ رسول الله يقول: «الرؤيا الحسنةُ من الله؛ فإذا رأى أحدكم ما يحبُّ فلا يحدِّثْ به إلَّا مَن يحبُّ، وإذا رأى ما يكره فليتعوَّذ بالله من شرِّها، ولْيتفُلْ ثلاثاً[(٧)]، ولا يحدِّثْ بها أحداً، فإنَّها لن تَضُرَّه».

---

(١) تقدم ١/٤٥٩ - ٤٦٠ ، وسيأتي ص٢٦٥ من هذا الجزء.

(٢) في صحيحه (٦٩٩٠).

(٣) ذكر الحافظ ابن حجر في الفتح ١٢/ ٣٧٥ - ٣٧٦ نحو هذا الكلام عن المهلب.

(٤) روى الخبر مطولاً ابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد ص٥٥١ ، والمقدسي في محنة الإمام أحمد ص٨ - ١٠ .

(٥) أي أن التعبير بالمبشرات والبشرى خرج على الأغلب. ينظر الفتح ١٢/ ٣٧٥ .

(٦) في صحيحه (٧٠٤٤)، وهو عند أحمد (٢٢٦٤٤)، ومسلم (٢٢٦١): (٤).

(٧) في (م): ثلاث مرات.

قال علماؤنا: فجعل الله الاستعاذة منها ممَّا يرفع أذاها؛ ألا ترى قولَ أبي سلمة[١]: إنِّي كنت لَأَرى الرؤيا هي أثقلُ عليَّ من الجبل، فلمَّا سمعتُ بهذا الحديث كنت لا أَعُدُّها شيئاً. وزاد مسلم[٢] من حديث جابر عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «إذا رأى أحدكم الرؤيا يَكْرهُها فليَبْصُقْ عن يساره ثلاثاً، ولْيتعوَّذْ بالله من الشيطان ثلاثاً، وليتحوَّلْ عن جنبه الذي كان عليه». وفي حديث أبي هُريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا رأى أحدُكم ما يكره فليقُم فلْيُصلِّ»[٣].

قال علماؤنا: وهذا كلُّه ليس بمتعارِضٍ، وإنَّما هذا الأمر بالتحوُّل والصلاةِ زيادةٌ، فعَلَى الرَّائي أنْ يفعل الجميع، والقيامُ إلى الصلاة يشمل الجميع؛ لأنَّه إذا صلى تضمَّن فعلُه للصَّلاة جميعَ تلك الأمور؛ لأنَّه إذا قام إلى الصلاة تحوَّل عن جنبه، وإذا تمضمض نفث[٤] وبَصَق، وإذا قام إلى الصَّلاة تعوَّذ ودَعَا وتضرَّع لله تعالى في أنْ يكفيَه شرَّها في حالٍ هي أقربُ الأحوال إجابةً، وذلك السَّحَر من الليل.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ الكافُ في موضع نصب؛ لأنَّها نعتٌ لمصدرٍ محذوف، وكذلك الكاف في قوله: ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ و«ما» كافَّة[٥].

---

(١) في النسخ الخطية: قول قتادة، وفي (م): قول أبي قتادة، والمثبت من صحيح البخاري (٥٧٤٧) وصحيح مسلم (٢٢٦١): (٢).

(٢) برقم (٢٢٦٢)، وهو عند أحمد (١٤٧٨٠).

(٣) أخرجه مطولاً أحمد (٧٦٢٢)، ومسلم (٢٢٦٣).

(٤) في (د) و(ظ) و(م): تفل، والمثبت من باقي النسخ والمفهم ٦/ ١٩ ، والكلام منه.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٤ ، والتقدير في الكاف الأولى: ومِثْلَ ذلك الاجتباء العظيم يجتبيك. ويجوز فيها الرفع على خبر ابتداء مضمر، أي: الأمر كذلك. الدر المصون ٦/ ٤٤٠ .

وقيل: «وَكَذَلِكَ» أي: كما أكرمكَ بالرؤيا فكذلك يجتبيك، ويُحسن إليك بتحقيق الرؤيا. مقاتل: بالسجود لك. الحسن: بالنبوّة[1].

والاجتباء: اختيارُ معالي الأمورِ للمجْتَبَى، وأصلُه من جَبَيْتُ الشيء، أي: حصَّلتُه، ومنه: جَبَيْتُ الماء في الحوض؛ قاله النحاس[2]. وهذا ثناءٌ من الله تعالى على يوسفَ عليه السلام، وتعديدٌ فيما عدَّده عليه من النِّعم التي آتاه الله تعالى، من التمكين في الأرض، وتعليمِ تأويل الأحاديث؛ وأجمعوا أنَّ ذلك في تأويل الرؤيا[3].

قال عبد الله بن شدَّاد بن الهاد: كان تفسير رؤيا يوسفَ ﷺ بعدَ أربعين سنة، وذلك منتهى الرؤيا[4].

وعَنَى بالأحاديث ما يراه الناسُ في المنام، وهي معجزةٌ له؛ فإنَّه لم يَلْحَقْهُ فيها خطأ. وكان يوسف عليه السلام أعلَم الناس بتأويلها، وكان نبيُّنا ﷺ نحوَ ذلك، وكان الصدّيق ﷺ من أَعْبَر الناس لها، وحَصَل لابن سيرين فيها التقدُّم العظيم، والطبعُ والإحسان، ونحوُه أو قريبٌ منه كان سعيد بن المسيِّب فيما ذكروا[5].

وقد قيل: في تأويل قوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: أحاديث الأمم والكتب ودلائلِ التوحيد[6]، فهو إشارةٌ إلى النبوَّة، وهو المقصودُ بقوله: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ أي: بالنبوّة. وقيل: بإحواج[7] إخوتك إليك. وقيل: بإنجائك من كُلِّ مكروه.

---

(١) قول الحسن في النكت والعيون ٣/ ٨ . وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ١٨١ عن ابن عباس.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٣٩٨ .

(٣) التمهيد ١/ ٣١٣ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٩٧ ، وأخرجه ابن أبي شيبة ١١/ ٨٢ ، والطبري ١٣/ ٣٥٨ .

(٥) التمهيد ١/ ٣١٤ .

(٦) ذكر نحوه الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٩٢ .

(٧) في (ظ) و(م): بإخراج، وهو موافق لما ورد في المطبوع من النكت والعيون ٣/ ٨ ، والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق لما في زاد المسير ٤/ ١٨١ وقد نقله ابن الجوزي عن الماوردي.

﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ بالخلَّة، وإنجائه من النار ﴿وَإِسۡحَٰقَۚ﴾ بالنبوَّة. وقيل: إنجائه[١] من الذبح؛ قاله عِكرمة[٢]. وأعلَمه الله تعالى بقوله: ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ﴾ أنَّه سيعطي بني يعقوب كلَّهم النبوَّة؛ قاله جماعةٌ من المفسرين[٣]. ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ بما يعطيك ﴿حَكِيمٞ﴾ في فعله بك.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ يعني: مَن سأل عن حديثهم. وقرأ أهلُ مكَّة: ﴿آيةٌ﴾ على التوحيد[٤]؛ واختارَ أبو عبيد: «آياتٌ» على الجمع؛ قال: لأنَّها خيرٌ كثير. قال النحاس[٥]: و«آيةٌ» هنا قراءةٌ حسنة، أي: لقد كان للذين سألوا عن خبر يوسفَ آيةٌ فيما خُبِّروا به؛ لأنَّهم سألوا النبيَّ ﷺ وهو بمكَّة فقالوا: أخبِرْنا عن رجلٍ من الأنبياء كان بالشام أُخرج ابنُه إلى مصر، فبكى عليه حتى عمي ـ ولم يكن بمكَّة أحدٌ من أهل الكتاب، ولا مَن يعرفُ خبر الأنبياء؛ وإنما وجَّهَ اليهودُ إليه[٦] من المدينة يسألونه عن هذا ـ فأنزل الله عزَّ وجلَّ سورة يوسف جملةً واحدة؛ فيها كلُّ ما في التوراة من خبرٍ وزيادةٌ. فكانَ ذلك آيةً للنبيِّ ﷺ؛ بمنزلةِ إحياءِ عيسى ابنِ مريم عليه السلام الميتَ.

---

(١) قوله: إنجائه، من (ظ).

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ١٦ . وقد سلف التنبيه ٢/ ٤٠٩ على أن الصحيح هو أن الذبيح إسماعيلُ عليه السلام.

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٩٢ ، والنكت والعيون ٣/ ٨ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤١٠ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٢١ .

(٤) هي قراءة ابن كثير المكي والباقون على الجمع. السبعة ص٣٤٤ ، والتيسير ص١٢٧ .

(٥) في إعراب القرآن ٢/ ٣١٤ ، وما قبله منه، إلا أنه وقع فيه: عبر كثيرة، بدل: خير كثير.

(٦) في (ز) و(ف) و(م): إليهم، وليست في (د)، والمثبت من (ظ) وإعراب القرآن.

«آية»[١]: موعظة. وقيل: عبرة. ورُوِيَ أنَّها في بعض المصاحف: «عبرة». وقيل: بصيرة[٢]. وقيل: عَجَب؛ تقول: فلانٌ آيةٌ في العلم والحُسْن؛ أي: عَجَب.

قال الثعلبيُّ في «تفسيره»: لمَّا بلغت الرؤيا إخوةَ يوسف حسدوه؛ قال ابن زيد: كانوا أنبياء، وقالوا: ما يرضى أنْ يسجدَ له إخوتُه حتى يسجد له أبواه! فبغَوْه بالعداوة. وقد تقدَّم ردُّ هذا القول[٣].

قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ﴾ وأسماؤهم: روبيل وهو أكبرُهم، وشمعون ولاوى ويهوذا وزيالون ويشجر، وأمُّهم ليا بنت ليان، وهي بنتُ خال يعقوب، ووُلِد له من سُرِّيَّتين أربعةُ نفر؛ دان ونفتالي وجاد وآشر، ثم توفيت ليا فتزوَّجَ يعقوبُ أختَها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين، فكان بنو يعقوبَ اثني عشر رجلاً[٤].

قال السّهيلي[٥]: وأمُّ يعقوب اسمها رفقا، وراحيل ماتت في نفاس بنيامين، وليان بن ناهر بن آزر هو خال يعقوب.

وقيل في اسم الأَمَتين: ليا وتلتا، كانت إحداهما لراحيل، والأخرى لأختها ليا، وكانتا قد وَهَبَتاهُما ليعقوب[٦]، وكان يعقوبُ قد جمع بينهما، ولم يَحِلَّ لأحدٍ بعده[٧]؛ لقول الله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٣]. وقد تقدَّم الردُّ على ما قاله ابن زيد[٨]، والحمد لله.

---

(١) في (م): آيات.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٩٢، ومعاني القرآن للنحاس ٣/٣٩٩.

(٣) ص٢٥٥ من هذا الجزء.

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٤١٠ - ٤١١، ووقع فيه: آشر، بدل: يشجر. وأشير، بدل: آشر.

(٥) في التعريف والإعلام ص٧٩ - ٨٠.

(٦) التعريف والإعلام ص٨٢.

(٧) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ١٥١، وقد ذكر أبو الليث أن يعقوب جمع بين راحيل وأختها ليا، قال: وكان الناس يجمعون بين الأختين إلى أن بعث الله موسى عليه السلام.

(٨) قوله: وقد تقدم الرد...، قد ذكره المصنف قبل، ولا محل له هنا.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ﴾ «يوسف» رفع بالابتداء؛ واللام للتأكيد، وهي التي يُتلقى بها القسم، أي: واللهِ لَيوسفُ. ﴿وَأَخُوهُ﴾ عطف عليه. ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ خبرُه، ولا يثنَّى ولا يُجمع لأنَّه بمعنى الفعل[١]؛ وإنَّما قالوا هذا لأنَّ خبرَ المنام بلغهم فتآمروا في كيده.

﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعة، وكانوا عشرة. والعُصْبةُ ما بين الواحد إلى العشرة، وقيل: إلى الخمسة عشر. وقيل: ما بين الأربعين إلى العشرة. ولا واحدَ لها من لَفْظِها، كالنَّفَر والرَّهْط[٢].

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لم يريدوا ضلالَ الدِّين؛ إذ لو أرادوه لكانوا كفَّاراً، بل أرادوا: لفي ذهابٍ عن وجه التدبير، في إيثار اثنين على عشرة مع استوائهم في الانتساب إليه. وقيل: لفي خطأ بيِّنٍ بإيثاره يوسفَ وأخاه علينا[٣].

قوله تعالى: ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ في الكلام حذف، أي: قال قائلٌ منهم: ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ ليكون أحسمَ لمادة الأمر. ﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أي: في أرض، فأسقطَ الخافض، وانتصب الأرض؛ وأنشد سيبويه[٤] فيما حذف منه «في»:

لَدْنٌ بهَزِّ الكَفِّ يَعْسِلُ مَتْنُهُ فيه كما عَسَلَ الطَّريقَ الثَّعْلَبُ[٥]

قال النحاس[٦]: إلَّا أنَّه في الآية حَسَنٌ كثير؛ لأنَّه يتعدَّى إلى مفعولين؛ أحدهما بحرف، فإذا حذفتَ الحرف تعدَّى الفعل إليه.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٥.

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٤١١.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٤١١. قال الألوسي ١٢/ ١٩٠ : والذي ينبغي أن يعوَّل عليه أنه عليه السلام إنما أحبه أكثر منهم لمَّا رأى فيه من مخايل الخير ما لم يَرَ فيهم، وزاد ذلك الحب بعد الرؤيا لتأكيدها تلك الأمارات عنده.

(٤) في الكتاب ١/ ٣٦ و ٢١٤.

(٥) أي: في الطريق، والبيت لساعدة بن جؤية، وهو في شرح ديوان الهذليين ٣/ ١١٢٠ ، وسلف ٩/ ١٧٢.

(٦) في إعراب القرآن ٢/ ٣١٥ ، وما قبله منه.

والقائل قيل: هو شمعون؛ قاله وهبُ بن منبِّه. وقال كعبُ الأحبار: دان. وقال مقاتل: روبيل[١]. فالله أعلم. والمعنى: أرضاً تبعد عن أبيه. فلابدَّ من هذا الإضمار؛ لأنه كان عند أبيه في أرض[٢].

﴿يَخْلُ﴾ جزمٌ؛ لأنَّه جوابُ الأمر؛ معناه: يَخلص ويصفو ﴿لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ فيُقْبِلُ عليكم بكلِّيته ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد الذنب، وقيل: من بعد يوسف ﴿قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ أي: تائبين، أي: تُحدِثوا توبةً بعد ذلك فيقبلها الله منكم[٣]؛ وفي هذا دليلٌ على أنَّ توبةَ القاتل مقبولةٌ، لأنَّ الله تعالى لم يُنكر هذا القولَ منهم. وقيل: «صَالِحِينَ» أي: يصلح شأنكم عند أبيكم من غير أَثَرةٍ ولا تفضيل[٤].

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾

فيه ثلاثَ عَشْرةَ مسألةً:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ القائلُ هو يهوذا، وهو أكبر وَلَدِ يعقوب؛ قاله ابن عباس[٥]. وقيل: روبيل، وهو ابن خالته، وهو الذي قال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ الآية [يوسف: ٨٠]. وقيل: شمعون[٦].

﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ قرأ أهل مكة وأهل البَصْرة وأهل الكوفة: ﴿فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾. وقرأ أهل المدينة: ﴿في غَيَابَاتِ الْجُبِّ﴾[٧] واختار أبو عبيد التوحيد؛ لأنه

---

(١) ذكر أقوالهم البغوي ٢/ ٤١١ .

(٢) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٩٣ ، وللنحاس ٣/ ٣٩٩ - ٤٠٠ .

(٣) الوسيط ٢/ ٦٠١ ، وقد ذكره الواحدي عن ابن عباس.

(٤) النكت والعيون ٣/ ١١ .

(٥) ذكره ابن الجوزي ٤/ ١٨٤ من طريق أبي صالح عنه.

(٦) أخرج القولين الأخيرين الطبري ١٣/ ٢٠ - ٢١ ؛ الأول عن قتادة وابن إسحاق، والثاني عن مجاهد.

(٧) وهي قراءة نافع وأبي جعفر. السبعة ص٣٤٥ ، والتيسير ص١٢٧ ، والنشر ٢/ ٢٩٣ .

على موضعٍ واحد ألْقَوْه فيه، وأنكر الجمعَ لهذا. قال النحاس[١]: وهذا تضييقٌ في اللغة، «وغيابات» على الجمع يجوز [من وجهين]: حكى سيبويه: سِيرَ عليه عُشَيَّاناتٍ وأُصَيْلاناتٍ، يريد: عَشِيَّةً وأَصيلاً، فجعل كلَّ وقتٍ منها عَشِيَّةً وأصيلاً[٢]. فكذا جُعل كلُّ موضعٍ مما يُغيِّب غيابة. والآخر: أن يكون في الجبِّ غياباتٌ جماعة. ويقال: غاب يَغيبُ[٣] غَيْباً وغَيابة وغَياباً؛ كما قال الشاعر:

أَلَا فالبَثَا شهرين أو نصفَ ثالثٍ ... إلى ذَاكُمَا ما[٤] غَيَّبَتْني غيابِيَا[٥]

قال الهرويّ[٦]: والغَيابة شبه لَجَفٍ[٧]، أو طاقٌ في البئر فُوَيْقَ الماء، يغيِّبُ الشيءَ عن العين. وقال ابن عُزَيْز[٨]: كلُّ شيء غيَّب عنك شيئاً فهو غَيابة. قلت: ومنه قيل: للقبر: غَيابة[٩]؛ قال الشاعر:

فإنْ أنا يوماً غَيَّبَتْني غَيَابَتي ... فَسِيروا بسَيْري في العَشِيرةِ والأهلِ[١٠]

والجُبُّ: الرَّكِيَّة التي لم تُطْوَ، فإذا طُويت فهي بئر[١١]؛ قال الأعشى[١٢]:

---

(١) في إعراب القرآن ٢/ ٣١٥، وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٢) الكتاب ٣/ ٤٨٤. قال سيبويه: قالوا: عُشيّانات، كأنهم سمَّوا كلَّ جزء منه عشية.

(٣) من قوله: غيابة والآخر...، إلى هذا الموضع من (م) وإعراب القرآن.

(٤) في (م): أنا ذاكما قد، وفي باقي النسخ: إلى ذاكما قد، والمثبت من إعراب القرآن وباقي المصادر على ما يأتي.

(٥) قائله ابن أحمر، كما في معاني القرآن للأخفش ١/ ١٨٧، والأزمنة والأمكنة للمرزوقي ٢/ ٣٧٧ وأمالي ابن الشجري ٣/ ٧٥، وهو بلا نسبة في المحتسب ٢/ ٢٢٧، والخزانة ١١/ ٧١.
قال المرزقي: أراد بالغياب: الغَيابة؛ لذلك أنَّث. اهـ أي: أنَّث الفعل غيبتني.

(٦) في (ظ): المهدوي.

(٧) حفر في جانب البئر. القاموس (لجف).

(٨) في شرح غريب القرآن ص٣٤٣.

(٩) ينظر الوسيط ٢/ ٦٠١ - ٦٠٢، واللسان (غيب).

(١٠) قائله المنخَّل بن سُبَيْع العنبري، كما في مجاز القرآن ١/ ٣٠٢، وزاد المسير ٤/ ١٨٥. وهو في معاني القرآن للزجاج ٣/ ٩٤ برواية: غيبتني منيتي.

(١١) تفسير الغريب لابن عزيز ص١٩٤. والركيَّة: البئر. القاموس (ركو). وفي اللسان (طوي): طوى الركية طيًّا: عرشها بالحجارة والآجر.

(١٢) في ديوانه ص١٧٣.

لئن كنتَ في جبٍّ ثمانين قامةً ورُقِّيتَ أسبابَ السَّماءِ بسُلَّمِ

وسمِّيت جُبًّا لأنها قُطِعت في الأرض قَطْعاً. وجمعُ الجبِّ: جِبَبَة وجِبَاب وأَجْباب(١).

وجَمَع بين الغَيابة والجُبِّ؛ لأنه أراد: ألقُوه في موضعٍ مظلم من الجُبِّ حتى لا يَلحقه نظرُ الناظرين. قيل: هو بئرٌ ببيت المقدس(٢). وقيل: هو بالأرْدُنّ؛ قاله وَهْب بن مُنبِّه. مقاتل: هو على ثلاثةِ فراسخَ من منزل يعقوب(٣).

الثانية: قوله تعالى: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ جزم على جواب الأمر. وقرأ مجاهد وأبو رجاء والحسن وقتادة: «تَلْتَقِطْهُ» بالتاء(٤). وهذا محمولٌ على المعنى؛ لأنَّ بعض السّيارة سَيَّارة، وحكى سيبويه: سقطت بعضُ أصابعه، وأنشد:

وتَشْرَقَ بالقول الذي قد أذعتَه كما شَرِقَتْ صَدْرُ القَناةِ من الدَّمِ(٥)

وقال آخر:

أَرَى مَرَّ السِّنينَ أَخَذْنَ منِّي كما أَخَذَ السِّرَارُ من الهلالِ(٦)

ولم يقل: شَرِق ولا أَخَذَتْ.

والسيّارة: الجمعُ الذين يسيرون في الطريق للسَّفر؛ وإنَّما قال هذا القائلُ هذا

(١) تهذيب اللغة ١٠/ ٥١١ .

(٢) أخرجه عبد الرزاق ١/ ٣١٨ ، والطبري ١٣/ ٢١ - ٢٢ ، وذكره الواحدي في الوسيط ٢/ ٦٠٢ .

(٣) الوسيط ٢/ ٦٠٢ .

(٤) القراءات الشاذة ص٦٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٦ والكلام منه.

(٥) الكتاب ١/ ٥٢ ، والبيت للأعشى، وهو في ديوانه ص١٧٣ . وقوله: وتشرقَ، بالفتح، معطوف على ما قبله. يخاطب به يزيد بن مُسْهِر الشيباني فيقول: يعود عليك مكروهُ ما أذعتَ عنِّي من القول، ونَسَبْتَه إليَّ من القبيح، والشَّرَق بالماء كالغصص بالطعام. والشاهد فيه تأنيث فعل الصدر وهو مذكَّر؛ لأنه مضاف إلى مؤنث. شرح الشواهد للشنتمري ص٨٠ .

(٦) البيت لجرير، وهو في ديوانه بشرح محمد بن حبيب ٢/ ٥٤٦ برواية: رأت مرَّ السنين. قال شارح الديوان: أراد: رأت السنين، والسِّرار ليلتان تبقيان من الشهر إذا كان تامًّا، وإذا كان ناقصاً كان سراره ليلة. اهـ وفي اللسان (سرر): استسَرّ الهلال في آخر الشهر: خفي.

حتى لا يحتاجوا إلى حمله إلى موضعٍ بعيد، ويحصل المقصود؛ فإنَّ مَن التقطه من السيارة يحمله إلى موضعٍ بعيد، وكان هذا وجهاً في التدبير حتى لا يحتاجوا إلى الحركة بأنفسهم، فربَّما لا يأذن لهم أبوهم، وربما يطَّلع على قَصْدهم.

الثالثة: وفي هذا ما يدلُّ على أنَّ إخوة يوسف ما كانوا أنبياء أوّلاً ولا آخِراً[١]؛ لأنَّ الأنبياء لا يدبِّرون في قتل مسلم، بل كانوا مسلمين، فارتكبوا معصيةً ثم تابوا.

وقيل: كانوا أنبياء، ولا يستحيل في العقل زلَّةُ نبيٍّ، فكانت هذه زلَّةً منهم. وهذا يردُّه أنَّ الأنبياء معصومون من الكبائر على ما قدَّمناه[٢]. وقيل: ما كانوا في ذلك الوقت أنبياء ثم نبَّأهم الله[٣]، وهذا أشبه، والله أعلم.

الرابعة: قال ابن وَهْب: قال مالك: طُرح يوسف في الجُبِّ وهو غلام. وكذلك روى ابن القاسم عنه، يعني أنَّه كان صغيراً، والدليل عليه قولُه تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ قال: ولا يُلتقَط إلَّا الصغير، وقولُه: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ وذلك أمرٌ يختصُّ بالصغار[٤]، وقولُهم: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

الخامسة: الالتقاطُ: تَناوُلُ الشيء من الطريق، ومنه اللَّقِيط واللُّقَطَة، ونحن نذكر من أحكامها ما دلَّت عليه الآيةُ والسُّنة، وما قال في ذلك أهل العلم واللغة.

قال ابن عرفة: الالتقاطُ وجود الشيء على غيرِ طَلَب، ومنه قوله تعالى: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ أي: يجده من غير أن يحتسبه.

---

(١) في (ف) و(م): لا أولاً ولا آخراً.

(٢) ١/ ٤٥٩ - ٤٦٠ و ص٢٥٥ من هذا الجزء.

(٣) ذكره البغوي ٢/ ٤١٢ عن أبي عمرو بن العلاء. قال ابن كثير عند تفسير الآية السابعة من هذه السورة: اعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف... ومن الناس مَن يزعم أنهم أوحي إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر، ويحتاج مدَّعي ذلك إلى دليل...الخ وينظر تتمة قوله هناك.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٦٥ - ١٠٦٦ .

وقد اختلف العلماء في اللَّقيط؛ فقيل: أصلُه الحريّة؛ لغَلَبة الأحرار على العبيد. ورُويَ عن الحسن بن عليٍّ أنّه قضى بأنَّ اللَّقِيط حُرٌّ، وتلا: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾. وإلى هذا ذهب أشهب صاحبُ مالك، وهو قولُ عمر بنِ الخطاب، وكذلك يُروى عن عليٍّ وجماعة. وقال إبراهيم النَّخَعي: إنْ نوى رِقَّه فهو مملوك، وإن نوى الحِسبةَ فهو حرٌّ[١].

وقال مالك في «موطَّئه»[٢]: الأمرُ عندنا في المنبوذ أنه حرٌّ، وأنَّ ولاءه لجماعة المسلمين، هم يرثونه ويعقلون عنه. وبه قال الشافعيُّ؛ واحتجَّ بقوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّما الوَلَاءُ لمن أعتق»[٣] قال: فنفَى الوَلَاء عن غير المعتِق.

واتفق مالكٌ والشافعيُّ وأصحابهما على أنَّ اللّقيطَ لا يُوالي أحداً، ولا يرثُه أحدٌ بالوَلَاء. وقال أبو حنيفة وأصحابه وأكثر الكوفيين: اللَّقيط يوالي مَن شاء، فَمَن والاه فهو يرثُه ويعقِلُ عنه. وعند أبي حنيفة: له أنْ ينتقل بولائه حيث شاء، ما لم يعقِل عنه الذي والاه، فإنْ عَقَلَ عنه جنايةً، لم يكن له أن ينتقلَ عنه بولائه أبداً[٤].

وذكر أبو بكر بنُ أبي شيبة[٥] عن عليٍّ ﷺ: المنبوذُ حرٌّ، فإن أحبَّ أن يواليَ الذي التقطه والاه، وإن أحبَّ أن يواليَ غيرَه والاه. ونحوه عن عطاء[٦]، وهو قولُ ابنِ شهابٍ وطائفةٍ من أهل المدينة[٧]، وهو حرّ.

قال ابن العربيِّ[٨]: إنما كان أصل اللَّقيط الحرِّيةَ؛ لغَلَبةِ الأحرار على العبيد،

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٠٦٦ عدا قول أشهب، وذكر قوله ابن عبد البر في الاستذكار ٢٢/١٥٦، وقول عمر أخرجه مالك في الموطأ ٢/٧٣٨، وقول علي سيرد قريباً.

(٢) ٢/٧٣٨.

(٣) الاستذكار ٢٢/١٥٨، والحديث سلف ٨/٢٤٧.

(٤) الاستذكار ٢٢/١٥٨.

(٥) في مصنفه ١١/٤٠٦.

(٦) المصنف ١١/٤٠٧.

(٧) الاستذكار ٢٢/١٥٩.

(٨) في أحكام القرآن ٣/١٠٦٧ - ١٠٦٨.

فيقضَى[١] بالغالب، كما حُكم أنه مسلم أخذاً بالغالب؛ فإن كان في قريةٍ فيها نصارى ومسلمون؛ قال ابن القاسم: يُحكم بالأغلب، فإن وُجد عليه زِيُّ اليهود فهو يهوديٌّ، وإنْ وُجِد عليه زيُّ النصارى فهو نصرانيٌّ. وإلَّا فهو مسلم، إلَّا أنْ يكون أكثرُ أهل القرية على غير الإسلام[٢]. وقال غيره: لو لم يكن فيها إلا مسلمٌ واحد قُضي لِلَّقيط بالإسلام، تغليباً لحكم الإسلام الذي يعلو ولا يُعلَى عليه[٣]، وهو مقتضَى قولِ أشهب؛ قال أشهب: هو مسلم أبداً؛ لأني أجعله مسلماً على كلِّ حال، كما أجعله حرًّا على كلِّ حال[٤].

واختلف الفقهاء في المنبوذ تشهد البيِّنة أنَّه عبد؛ فقالت طائفةٌ من أهل المدينة: لا يُقبل قولها في ذلك. وإلى هذا ذهب أشهب؛ لقول عمر: هو حرٌّ. ومَن قضى بحرِّيته[٥] لم يقبل البيِّنةَ في أنه عبد. وقال ابن القاسم: تُقبل البيِّنةُ في ذلك. وهو قولُ الشافعيِّ والكوفيِّ[٦].

السادسة: قال مالك في اللقيط: إذا أنفق عليه الملتقِط، ثم أقام رجلٌ البيِّنةَ أنه ابنُه، فإنَّ الملتقِطَ يرجع على الأب إن كان طَرَحه متعمِّداً، وإن لم يكن طَرَحه ولكنه ضلَّ منه فلاشيءَ على الأب، والملتقِط متطوِّعٌ بالنفقة. وقال أبو حنيفة: إذا أنفق على اللَّقيط فهو متطوِّع، إلَّا أن يأمره الحاكم. وقال الأوزاعيُّ: كلُّ مَن أنفق على مَن لا تجب [له] عليه نفقةٌ؛ رَجَعَ بما أنفق[٧].

وقال الشافعيُّ: إن لم يكن للَّقيط مالٌ وجبت نفقتُه في بيت المال، فإن لم يكن

(١) في النسخ: فقضى والمثبت من أحكام القرآن.

(٢) الاستذكار ٢٢/ ١٥٧ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٦٨ .

(٤) الاستذكار ٢٢/ ١٥٧ .

(٥) في المطبوع من الاستذكار ٢٢/ ١٥٦ (والكلام منه): ومن قضى بحديثه.

(٦) في الاستذكار: والكوفيين.

(٧) التمهيد ٣/ ١٢٨ - ١٢٩ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

ففيه قولان: أحدهما: يُستقرض له في ذمَّته. والثاني: يقسَّط على المسلمين من غير عِوَض[(١)].

السابعة: وأمَّا اللُّقَطةُ والضَّوَالُّ فقد اختلف العلماء في حكمهما؛ فقالت طائفة من أهل العلم: اللُّقَطَةُ والضَّوالُّ سواءٌ في المعنى، والحكمُ فيهما سواءٌ. وإلى هذا ذهب أبو جعفر الطحاويُّ، وأنكر قولَ أبي عُبيد القاسم بنِ سلَّام - إنَّ الضالَّة لا تكون إلا في الحيوان، واللُّقطة في غير الحيوان - وقال: هذا غلَط؛ واحتجَّ بقوله ﷺ في حديث الإفك للمسلمين: «إنّ أمّكم ضلَّت قِلادتَها» فأطلق ذلك على القِلادة[(٢)].

الثامنة: أجمع العلماء على أنَّ اللُّقَطةَ ما لم تكن تافهاً يسيراً، أو شيئاً لا بقاء له[(٣)]، فإنَّها تُعرَّف حولاً كاملاً. وأجمعوا أنَّ صاحبها إنْ جاء فهو أحقُّ بها من مُلتقِطِها إذا ثبت له أنه صاحبها. وأجمعوا أنَّ ملتقِطَها إنْ أكَلَها بعد الحول وأراد صاحبُها أن يضمِّنه فإنَّ ذلك له، وإن تصدَّق بها فصاحبُها مخيَّر بين التضمين، وبين أن ينزل على أجرها، فأيَّ ذلك تَخَيَّر كان ذلك له بإجماع؛ ولا تنطلقُ يدُ ملتقطها عليها بصدقة، ولا تُصرَفُ قبل الحول. وأجمعوا أنَّ [آخِذ] ضالّة الغنم [في الموضع] المخوفِ عليها له أكلُها.

التاسعة: واختلف الفقهاء في الأفضل مِن تَرْكِها أو أخذها؛ فمِن ذلك أنَّ في الحديث دليلاً على إباحة التقاط اللُّقَطة وأَخْذِ الضالَّة ما لم تكن إبلاً. وقال في الشاة: «لكَ أو لأخيكَ أو للذئب» يحضُّه على أخذها، ولم يقل في شيء: دعوه حتى يضيع

---

(١) التنبيه للشيرازي ص١٣٤.

(٢) التمهيد ٣/ ١١١ - ١١٢، والاستذكار ٢٢/ ٣٣٣ - ٣٣٤، وقول الطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/ ١٣٩، والحديث بهذا اللفظ أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ١١١. وحديث الإفك أخرجه مطولاً البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠) دون اللفظ المذكور، وينظر ما ورد من أحاديث في قصة إضاعة عائشة رضي الله عنها قلادتها فيما سلف ٦/ ٣٥٤ - ٣٥٧.

(٣) في النسخ: لها، والمثبت من التمهيد ٣/ ١٠٧، والاستذكار ٢٢/ ٣٢٩، والكلام وما سيرد بين حاصرتين منهما.

أو يأتيه ربُّه. ولو كان تركُ اللُّقطة أفضلَ لأمر به رسول الله ﷺ كما قال في ضالَّة الإبل، والله أعلم(١).

وجملة مذهب أصحاب مالك أنه في سَعَة؛ إنْ شاء أَخَذَها، وإن شاء تركها؛ هذا قولُ إسماعيل بنِ إسحاق رحمه الله.

وقال المُزَنيُّ عن الشافعيِّ: لا أحبُّ لأحدٍ تَرْكَ لُقَطةٍ إنْ وجدها؛ إذا كان أميناً عليها، قال: وسواءٌ قليلُ اللُّقطة وكثيرُها(٢).

العاشرة: روى الأئمةُ؛ مالكٌ وغيره عن زيد بن خالد الجُهَنيِّ قال: جاء رجل إلى النبيِّ ﷺ، فسأله عن اللُّقَطة، فقال: «اعْرِفْ عِفَاصَها ووِكَاءَها، ثم عَرِّفها سنةً، فإنْ جاء صاحبُها، وإلا فشأنَك بها». قال: فضالَّةُ الغنم يا رسول الله؟ قال: «لكَ أو لأخيكَ أو للذئب». قال: فضالةُ الإبل؟ قال: «ما لَكَ ولَها؟! معها سِقاؤُها وحِذاؤها، تَرِدُ الماءَ وتأكلُ الشجر حتى يلقاها ربُّها»(٣).

وفي حديث أُبيٍّ قال: «احفَظْ عَدَدها ووِعاءَها ووِكاءَها، فإنْ جاء صاحبُها، وإلَّا فاستمتِع بها». ففي هذا الحديثِ زيادةُ العدد؛ خرَّجه مسلم وغيره(٤).

وأجمع العلماء أنَّ عِفاص اللُّقَطة ووكاءَها من إحدى علاماتها وأَدَلّها عليها(٥)، فإذا أتى صاحب اللُّقَطة بجميع أوصافها دُفعت له؛ قال ابن القاسم: يُجبَر على دفعها، فإن جاء مستحقٌّ يَستحقُّها ببيِّنة أنها كانت له، لم يَضْمَن الملتقطُ شيئاً(٦). وهل

---

(١) التمهيد ٣/ ١٠٨ ، وسيأتي حديث ضالة الإبل وضالة الغنم في المسألة التالية.

(٢) التمهيد ٣/ ١٠٩ و ١١٠ .

(٣) الموطأ ٢/ ٧٥٧ ، ومن طريق مالك أخرجه البخاري (٢٤٢٩)، ومسلم (١٧٢٢): (١)، وأخرجه بنحوه من غير طريق مالك أحمد (١٧٠٥٠). والعفاص: الوعاء الذي تكون فيه النفقة، من جلد أو خرقة أو غير ذلك. والوكاء: الخيط الذي تشد به الصرة والكيس. النهاية (عفص) و(وكا).

(٤) صحيح مسلم (١٧٢٣)، وهو عند أحمد (٢١١٦٦).

(٥) التمهيد ٣/ ١٠٧ .

(٦) التمهيد ٣/ ١٢٠ ، والاستذكار ٢٢/ ٣٣٩ .

يُحَلَّف مع الأوصاف أو لا؟ قولان: الأوّلُ لأشهب، والثاني لابن القاسم. ولا تلزمه بيِّنةٌ عند مالكٍ وأصحابه وأحمدَ بنِ حَنْبل وغيرهم[١].

وقال أبو حنيفة والشافعيُّ: لا تُدفع له إلَّا إذا أقام بينةً أنها له. وهو بخلاف نصِّ الحديث، ولو كانت البيِّنةُ شرطاً في الدفعِ لمَا كان لذكرِ العِفاص والوِكاء والعَدد معنًى؛ فإنه يستحقُّها بالبينة على كلِّ حال، ولَمَا جاز سكوتُ النبيِّ ﷺ عن ذلك، فإنه تأخيرُ البيان عن وقت الحاجة[٢]. والله أعلم.

الحادية عشرة: نَصَّ الحديث على الإبل والغنم وبيَّن حكمهما، وسكت عمَّا عداهما من الحيوان. وقد اختلف علماؤنا في البقر؛ هل تُلحَقُ بالإبل أو بالغنم؟ قولان. وكذلك اختلف أئمتنا في التقاط الخيل والبغال والحمير، وظاهرُ قولِ ابن القاسم أنَّها تلتقط، وقال أشهب وابن كنانة: لا تلتقط[٣]. وقول ابن القاسم أصحُّ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «احفَظْ على أخيك المؤمنِ ضالَّته»[٤].

الثانية عشرة: واختلف العلماء في النفقة على الضَّوالّ؛ فقال مالك فيما ذكر عنه ابنُ القاسم: إنْ أنفق الملتقِطُ على الدوابِّ والإبل وغيرها فله أن يرجع على صاحبها بالنفقة، وسواءٌ أنفق عليها بأمر السلطان أو بغير أمره، قال: وله أن يحبسَ بالنفقة ما أنفق عليه، ويكونُ أحقَّ به كالرهن. وقال الشافعيُّ: إذا أَنفق على الضوالِّ مَن أَخذها فهو متطوِّعٌ؛ حكاه عنه الرّبيع. وقال المُزنيُّ عنه: إذا أمره الحاكم بالنفقة كانت دَيْناً، وما ادَّعى قُبِل منه إذا كان مثلُه قَصْداً. وقال أبو حنيفة: إذا أَنفق على اللُّقَطة والآبق[٥]

---

(١) المفهم ٥/ ١٨٣ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) المفهم ٥/ ١٩٠ .

(٤) قطعة من حديث أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/ ١٣٥ - ١٣٦ ، والبيهقي ٤/ ١٥٣ . برواية: احبس، بدل: احفظ. قال الطحاوي: ففي هذا الحديث إباحة أخذ الضوال التي قد يُخاف عليها الضياع، وحبسها له (أي لصاحبها).

(٥) في (د) و(م): والإبل، وفي (ز) و(ظ) و(ف): والابن، والمثبت من مختصر اختلاف العلماء للجصاص ٤/ ٣٤٩ ، والتمهيد ٣/ ١٢٩ والكلام منه، وما سيرد بين حاصرتين منهما.

بغير أمر القاضي فهو متطوِّع، وإن أنفق بأمر القاضي فذلك دَينٌ على صاحبها إذا جاء، وله أن يحبسها [بالنفقة] إذا حضر صاحبها، والنفقةُ عليها ثلاثةُ أيام ونحوها، حتى يأمر القاضي ببيع الشاة وما أشبهها ويقضي بالنفقة.

الثالثة عشرة: ليس في قوله ﷺ في اللّقطة بعد التعريف: «فاستَمتِعْ بها»(١) أو: «فشأنَكَ بها»(٢) أو: «فهي لك»(٣) أو: «فاستَنْفِقْها»(٤) أو: «ثم كُلْها»(٥) أو: «فهو مالُ الله يؤتيه مَن يشاء»(٦) على ما في «صحيح» مسلم وغيره، ما يدلُّ على التمليك وسقوطِ الضَّمان عن الملتقط إذا جاء ربُّها، فإنَّ في حديث زيد بن خالد الجُهَنيِّ عن النبيِّ ﷺ: «فإنْ لم تعرف، فاستَنْفِقْها ولْتَكُنْ وديعةً عندك، فإنْ جاء صاحبُها يوماً من الدهر فأدِّها إليه»(٧) في رواية: «ثم» كُلْها، فإن جاء صاحبُها فأدِّها إليه» خرَّجه البخاريُّ ومسلم(٨).

وأجمع العلماء على أنَّ صاحبها متى جاء فهو أحقُّ بها، إلَّا ما ذهب إليه داود من أنَّ الملتَقِط يملك اللُّقطة بعد التعريف؛ لتلك الظواهر. ولا التفات لقوله؛ لمخالفة(٩) الناس، ولقوله عليه الصلاة والسلام: «فأدِّها إليه»(١٠).

---

(١) سلف في المسألة العاشرة من حديث أبي ﷺ.

(٢) سلف في المسألة العاشرة من حديث زيد بن خالد الجهني ﷺ.

(٣) أخرج هذه الرواية أحمد (١٧٠٣٧)، ومسلم (١٧٢٢): (٦).

(٤) أخرجها أحمد (١٧٠٦٠)، والبخاري (٢٤٢٧)، ومسلم (١٧٢٢): (٣) و(٥).

(٥) أخرجها أحمد (٢١٦٨٦)، ومسلم (١٧٢٢): (٧)، وجميع هذه الروايات من حديث زيد بن خالد الجهني ﷺ.

(٦) أخرجه أحمد (١٧٤٨١)، وأبو داود (١٧٠٩)، والنسائي في الكبرى (٥٧٧٦)، وابن ماجه (٢٥٠٥) من حديث عياض بن حمار.

(٧) أخرجه بهذا اللفظ مسلم (١٧٢٢): (٥)، وبنحوه البخاري (٢٤٢٨).

(٨) صحيح البخاري (٩١)، وصحيح مسلم (١٧٢٢): (٧)، وهو عند أحمد (٢١٦٨٦) وقد سلف تخريجه في بداية هذه المسألة، ووقع عند البخاري: استمتع بها، بدل: ثم كلها.

(٩) في (ظ): لمخالفته.

(١٠) المفهم ٥/ ١٨٧ - ١٨٨ .

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ قيل للحسن: أيحسُد المؤمنُ؟ قال: ما أنساكَ ببني يعقوب[1]! ولهذا قيل: الأبُ جلّاب، والأخُ سلّاب[2].

فعند ذلك أجمعوا على التفريقِ بينه وبين ولدِه بضربٍ من الاحتيال، وقالوا ليعقوب: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾. وقيل: لمَّا تفاوضوا وافترقوا على رأي المتكلِّمِ الثاني، عادوا إلى يعقوبَ عليه السلامُ وقالوا هذا القولَ. وفيه دليلٌ على أنَّهم سألوه قبلَ ذلك أن يَخرُج معهم يوسفُ فأبى، على ما يأتي.

قرأ يزيدُ بنُ القَعْقَاع وعمرو بنُ عُبيد والزُّهريُّ: «لا تأمَنَّا» بالإدغام وبغير إشمامٍ، وهو القياسُ؛ لأنَّ سبيلَ ما يُدغَم أن يكونَ ساكناً.

وقرأ طلحةُ بن مُصَرِّف: «لَا تَأْمَنُنَا» بنونَيْنِ ظاهرتين على الأصلِ.

وقرأ يحيى بنُ وثَّاب وأبو رَزِين - وروي عن الأعمش -: «لا تِيمَنَّا» بكسرِ التاء، وهي لغةُ تميم؛ يقولون: أنت تِضْرب؛ وقد تقدَّم[3].

وقرأ سائر الناسِ بالإدغام والإشمام، ليدلَّ على حالِ الحرفِ قبل إدغامِه[4].

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ أي: في حفظِه وحيطتِه حتى نَردَّه إليك[5]. قال مقاتل: في الكلامِ تقديمٌ وتأخير، وذلك أنَّ إخوة يوسفَ قالوا لأبيهم: ﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا﴾ الآية، فحينئذٍ قال أبوهم: ﴿إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُوا۟ بِهِۦ﴾ فقالُوا حينئذٍ جواباً لقوله: ﴿مَا لَكَ

---

(١) أخرجه هناد في الزهد (١٣٩٤)، وابن حبان في روضة العقلاء ص١٣٦ .

(٢) عرائس المجالس ص١١٤ .

(٣) ١/ ٢٢٦ و ٩/ ٢٩٧ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٦ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٩٤ ، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٣٨ ، ومختصر شواذ القرآن ص٦٢ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٢٣ .

(٥) تفسير الطبري ١٣/ ٢٤ .

لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾ الآية ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ إلى الصحراء[١] ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾.

«غداً» ظرفٌ، والأصلُ عند سيبويهِ: غَدْوٌ، وقد نُطِق به على الأصل[٢]؛ قال النَّضر بنُ شُميل: ما بينَ الفجرِ وصلاةِ الصبح يُقال له: غُدْوةٌ، وكذا بُكْرة[٣].

«نَرْتَعْ وَنَلْعَبْ» بالنون وإسكان العين قراءةُ أهل البصرة، والمعروفُ من قراءةِ أهلِ مكة: «نَرْتَعِ» بالنون وكسر العين، وقراءةِ أهل الكوفة: «يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ» بالياء وإسكانِ العين. وقراءةِ أهلِ المدينة بالياء وكسرِ العين[٤]. القراءةُ الأولى من قولِ العرب: رَتَع الإنسانُ والبعير: إذا أكَلا كيف شاءا، والمعنى: نتسع في الخِصْب؛ وكلُّ مُخْصِب راتعٌ[٥]؛ قال:

فـارعَـيْ فـزارةُ لا هَـنَـاكِ الـمَـرْتَـعُ[٦]

وقال آخر:

تَـرْتَـعُ مـا غَـفَـلَـتْ حـتـى إذا ادَّكَـرتْ ... فـإنَّـمـا هـي إقـبـالٌ وإدبـارُ[٧]

وقال آخر:

أكـفـراً بـعـد رَدِّ الـمـوتِ عـنِّـي ... وبـعـد عَـطـائِـكَ الـمـئـةَ الـرِّتـاعَـا[٨]

أي: الراتعة لكثرةِ المَرْعَى. وروى مَعْمر عن قَتَادة: «ترتع»: تسعى؛ قال النحاس: أخذه من قولِه: «إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ» لأنَّ المعنى: نستبقُ في العَدْوِ إلى غايةٍ

---

(١) زاد المسير ٤/ ١٨٦ - ١٨٧ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٧ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٣ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٧ .

(٤) تفسير الطبري ١٣/ ٢٤ - ٢٥ ، والتيسير ص١٢٨ ، والسبعة ص٣٤٥ - ٣٤٦ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٩٥ ، والنكت والعيون ٣/ ١٢ - ١٣ .

(٦) عجز بيت للفرزدق، وصدره: ومضت لمَسلَمَةَ الركابُ مودَّعاً، وهو في ديوانه ١/ ٤٠٨ .

(٧) البيت للخنساء في ديوانها ص٤٨ ، وسلف ٣/ ٥٤ .

(٨) البيت للقُطامي في ديوانه ص٣٧ ، وسلف ٥/ ١٠٥ .

بعينها؛ وكذا: «يرتع» بإسكان العين، إلا أنه ليوسف وحدَه ﷺ. و«يرتعِ» بكسر العين من رَعي الغنم، أي: ليتدربَ بذلك ويترجَّل؛ فمرةً يرتع، ومرةً يلعب لصغرِه. وقال القُتَبيُّ: «نرتع» نَتَحارسُ ونَتَحافظُ، ويَرعى بعضُنا بعضاً؛ من قولِك: رعاكَ الله؛ أي: حفظَك. «ونلعب» من اللعب، وقيل لأبي عَمرو بنِ العلاء: كيف قالوا: «ونلعب» وهم أنبياءُ؟ فقال: لم يكونوا يومئذٍ أنبياء[(١)]. وقيل: المرادُ باللعبِ المباحُ من الانبساط، لا اللعبُ المحظور الذي هو ضدُّ الحقّ؛ ولذلك لم ينكر يعقوبُ قولَهم: «ونلعب»[(٢)]. ومنه قولُه عليه الصلاة والسلام: «فهَلَّا بِكْراً تُلاعبُها وتُلاعبك»[(٣)]. وقرأ مجاهد وقَتَادة: «يُرتِع»[(٤)]، على معنى يُرتِع مطيتَه، فحذف المفعول، «ويَلْعَبُ» بالرفع على الاستئناف؛ والمعنى: هو ممَّن يلعبُ.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ من كلِّ ما تخافُ عليه. ثم يحتملُ أنَّهم كانوا يخرجون ركباناً، ويحتمل أنَّهم كانوا رجَّالة. وقد نُقِل أنَّهم حَملُوا يوسفَ على أكتافِهم ما دام يعقوبُ يراهم، ثم لمَّا غابوا عن عينِه طَرحوه؛ ليغْدُو معهم إضراراً به[(٥)].

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ﴾ في موضع رفعٍ؛ أي: ذهابُكم

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٢٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٢٤.

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٢ - ١٣، وزاد المسير ٤/ ١٨٨.

(٣) أخرجه أحمد (١٤٣٠٦) والبخاري (٢٣٠٩)، ومسلم (٧١٥).

(٤) نسبها ابن جني في المحتسب ١/ ٣٣٣، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٤، وأبو حيان في البحر المحيط ٥/ ٢٨٥ لأبي رجاء، وذكر ابن عطية وأبو حيان أنَّ قراءة مجاهد وقتادة نُرتع بضم النون وكسر التاء، ونسبها ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ١٨٧ لأنس وأبي رجاء.

(٥) تفسير البغوي ٢/ ٤١٣ - ٤١٤.

به(١). أخبر عن حزنه لغَيبتِه .﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ وذلك أنَّه رأى في منامِه أن الذئب شدَّ على يوسف، فلذلك خافَه عليه؛ قاله الكلبيُّ.

وقيل: إنه رأى في منامِه كأنه على ذِروة جبل، وكأنَّ يوسفَ في بطن الوادي، فإذا عَشَرةٌ من الذئاب قد احتَوشتْهُ تريدُ أكلَه، فدرأ عنه واحدٌ، ثم انشقَّتِ الأرض، فتَوارَى يوسفُ فيها ثلاثةَ أيام، فكانتِ العشرةُ إخوتَه، لمَّا تَمالؤوا على قتله، والذي دافعَ عنه أَخوه الأكبرُ يهوذا، وتَواريهِ في الأرضِ هو مُقامُه في الجبِّ ثلاثةَ أيام.

وقيل: إنَّما قال ذلك؛ لخوفِه منهم عليه، وأنَّه أرادَهم بالذئب، فخوفُه إنَّما كان من قتلِهم له، فكنَّى عنهم بالذئبِ مساترةً لهم، قال ابن عباس: فسمَّاهم ذئاباً. وقيل: ما خافَهم عليه، ولو خافَهم لَمَا أرسلَه معهم، وإنَّما خاف الذئبَ؛ لأنه أغلبُ ما يُخاف في الصَّحارَى(٢).

والذئبُ مأخوذٌ من تَذَاءبتِ الريحُ: إذا جاءت من كلِّ وجهٍ؛ كذا قال أحمدُ بنُ يحيى؛ قال: والذئبُ مهموزٌ؛ لأنَّه يجيء من كل وجه.

وروى ورش عن نافع: «الذِّيبُ» بغيرِ همز؛ لما كانت الهمزةُ ساكنةً وقبلها كسرةٌ فخفَّفها؛ صارت ياء(٣).

﴿وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ أي: مشتغلون بالرعي.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعةٌ نَرى الذئبَ ثم لا نَردُّه عنه(٤) ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ أي: في حِفظِنا أغنامَنا. أي: إذا كنَّا لا نقدرُ على دفعِ الذئب عن أخينا، فنحنُ أعجزُ أن ندفعه عن أغنامِنا. وقيل: «لَخَاسِرُونَ»:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٧ - ٣١٨ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٣ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٢٤ ، وزاد المسير ٤/ ١٨٨ - ١٨٩ ، وعرائس المجالس ص١١٤ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٨ ، وقرأ: الذيب، بغير همز أيضاً أبو عمرو في رواية السوسي، والكسائي ووقفاً حمزة. السبعة ص٣٤٦ ، والتيسير ص١٢٨ .

(٤) الوسيط ٢/ ٦٠٢ ، وزاد المسير ٤/ ١٨٨ .

لجاهلون بحقِّه. وقيل: لعاجزون[١].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ﴾ «أنْ» في موضعِ نصب[٢]، أي: على أن يجعلوهُ في غَيابةِ الجُبِّ.

قيل في القصة: إنَّ يعقوبَ عليه السلام لمَّا أرسلَه معهم أخذَ عليهم ميثاقاً غليظاً لَيحفظُنَّه، وسلَّمه إلى روبيل وقال: يا روبيل، إنَّه صغير، وتَعلَم يا بنيَّ شَفقتي عليه؛ فإن جاعَ فأطعِمه، وإن عَطِش فاسقِه، وإن أعيا فاحْمِلْه، ثم عَجِّل بردِّه إليَّ[٣]. قال: فأخذوا يَحمِلونه على أكتافِهم، لا يضعُه واحدٌ إلا رَفعه آخر، ويعقوبُ يُشيِّعهم ميلاً ثم رجع، فلمَّا انقطعَ بصرُ أبيهم عنهم، رماهُ الذي كان يَحمِلُه إلى الأرضِ حتى كادَ ينكسر، فالتجأ إلى آخر، فوجدَ عندَ كلِّ واحدٍ منهم أشدَّ ممَّا عند الآخرِ من الغيظِ والعَسْف، فاستغاثَ بروبيل وقال: أنتَ أكبرُ إخوتي، والخليفةُ من بعدِ والدي عليَّ، وأقربُ الإخوة إليَّ، فارحمني وارحمْ ضَعفي، فلطَمَه لطمةً شديدة وقال: لا قرابةَ بيني وبينك، فادعُ الأحدَ عشرَ كوكباً فلتُنجك منَّا؛ فَعلِم أنَّ حقدَهم من أجل رؤياه، فتعلَّق بأخيهِ يهوذا، وقال: يا أخي، ارحمْ ضَعفي وعَجزي وحداثةَ سني، وارحمْ قلبَ أبيكَ يعقوب، فما أسرعَ ما تَناسيتُم وصيتَه، ونَقَضتُم عهدَه؛ فَرَقَّ قلبُ يهوذا فقال: واللهِ لا يَصِلون إليك أبداً ما دمتُ حيًّا، ثم قال: يا إخوتاه، إنَّ قتلَ النفسِ التي حرم الله من أعظمِ الخطايا، فَرُدُّوا هذا الصبيَّ إلى أبيه، ونُعاهِدُه ألا يُحدِّث والدَه بشيءٍ مما جرى أبداً، فقال له إخوتُه: والله ما تريدُ إلا أن تكون لك المكانةُ عند يعقوب، والله لئنْ لم تَدعْهُ لنقتلنَّك معه، قال: فإنْ أبيتم إلَّا ذلك فهاهنا هذا

---

(١) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٢٩ ، وتفسير الكشاف ٢/ ٣٠٦ ، وتفسير الرازي ١٨/ ٩٨ .

(٢) تفسير الكشاف ٢/ ٣٠٦ .

(٣) ينظر عرائس المجالس ص١١٥ .

الجبُّ الموحشُ القفر، الذي هو مأوى الحياتِ والهوام، فألقُوه فيه، فإنْ أُصيبَ بشيءٍ من ذلك فهو المرادُ، وقد استرحتم من دمِه، وإنِ انفلَتَ على أيدي سيَّارة يذهبون به إلى أرضٍ فهو المرادُ؛ فأجمع رأيُهم على ذلك[١]، فهو قولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ وجوابُ «لمَّا» محذوفٌ؛ أي: فلما ذهبوا به، وأجمعوا على طرحِه في الجبِّ عَظُمت فتنتُهم[٢]. وقيل: جوابُ «لما» قولُهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ [يوسف:١٧]. وقيل: التقديرُ: فلما ذهبوا به من عندِ أبيهم، وأجمعوا أن يجعلوه في غيابةِ الجُبِّ جعلوه فيها، هذا على مذهب البصريين، وأمَّا على قولِ الكوفيين فالجوابُ: «أوحينا»[٣] والواو مقحمةٌ، والواو عندهم تُزاد مع لما وحتى؛ قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر:٧٣] أي: فتحت، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود:٤٠] أي: فار. قال امرؤُ القيس:

فَلَمَّا أَجَزْنَا ساحَةَ الحيِّ وانتَحَى[٤]

أي: انتحى، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ [الصافات:١٠٣-١٠٤] أي: ناديناه.

وفي قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ دليلٌ على نبوَّته في ذلك الوقت. قال الحسنُ ومجاهدٌ والضَّحاك وقَتادة: أعطاهُ اللهُ النبوة وهو في الجُبِّ على حجرٍ مرتفعٍ عن الماء. وقال الكَلْبي: أُلقي في الجُبِّ وهو ابن ثماني عشرةَ سنة، فما كان صغيراً؛ ومَن قال: كان صغيراً فلا يبعدُ في العقلِ أن يتنبأَ الصغيرُ ويُوحى إليه. وقيل: كان وحيَ إلهامٍ كقولِه:

---

(١) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٣٠، وتفسير البغوي ٢/ ٤١٣ - ٤١٤، والوسيط ٢/ ٦٠٣، وزاد المسير ٤/ ١٨٩.

(٢) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٥، والكشاف ٢/ ٣٠٦، وتفسير الرازي ١٨/ ٩٩.

(٣) وقال الطبري في التفسير ١٣/ ٣٠: «وأجمعوا» هو الجواب.

(٤) وعجزه: بنا بطن حقف ذي ركام عقنقل، والبيت في ديوانه ص١٥. وانتحيت لفلان، أي: عرضت له. اللسان (نحي).

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل:٦٨]، وقيل: كان مناماً، والأوّلُ أظهرُ ـ والله أعلم ـ وأنَّ جبريل جاءه بالوحي[١].

قوله تعالى: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه أوحَى إليه أنه سَيلقاهم ويُوبخُهم على ما صنعوا. فعلى هذا يكونُ الوحي بعدَ إلقائه في الجبِّ تقويةً لقلبه، وتبشيراً له بالسَّلامة.

الثاني: أنه أوحَى إليه بالذي يصنعونَ به؛ فعلى هذا يكون الوحيُ قبلَ إلقائه في الجُبِّ إنذاراً له. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنَّك يوسف، وذلك أنَّ الله تعالى أمره لمَّا أفضى إليه الأمر بمصرَ ألَّا يُخبر أباه وإخوتَه بمكانِه. وقيل: بوحي الله تعالى بالنبوة؛ قاله ابنُ عباس ومجاهد[٢]. وقيل: «الهاء» ليعقوب[٣]، أوحى الله تعالى إليهِ ما فعلُوه بيوسف، وأنَّه سَيُعرِّفهم بأمره، وهم لا يشعرون بما أوحى الله إليه، والله أعلم.

ومما ذُكر من قصتِه إذ أُلقي في الجُبِّ ما ذَكره السُّدِّيُّ وغيرُه، أنَّ إخوتَه لمَّا جعلوا يُدلونَه في البئرِ، تعلَّق بشفير البئرِ، فربطوا يديه، ونَزعوا قميصَه، فقال: يا إخوتاهُ! رُدُّوا عليَّ قميصي أتوارى به في هذا الجُبِّ، فإنْ متُّ كان كفني، وإن عِشتُ أُواري به عورتي؛ فقالوا: ادعُ الشمسَ والقمرَ والأحدَ عشر كوكباً فلتُؤنِسكَ وتكسُكَ؛ فقال: إني لم أر شيئاً. فدلُّوه في البئرِ حتى إذا بلغَ نصفَها ألقَوْه إرادةَ أن يسقطَ فيموتَ، فكان في البئرِ ماءٌ، فسقطَ فيه، ثم آوى إلى صخرةٍ فقامَ عليها[٤].

وقيل: إنَّ شمعون هو الذي قطعَ الحبل إرادةَ أن يتفتتَ على الصخرة، وكان جبريلُ تحت ساق العرش، فأوحى الله إليه أن أَدرِك عبدي؛ قال جبريل: فأَسرعتُ

---

(١) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٣١ - ٣٢، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٢٥، والنكت والعيون ٣/ ١٤، والكشاف ٢/ ٣٠٧، وتفسير الرازي ١٨/ ٩٩، وزاد المسير ٤/ ١٩٠ - ١٩١.

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٤، وينظر زاد المسير ٤/ ١٩١.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٥.

(٤) تفسير الطبري ١٣/ ٣٠، وزاد المسير ٤/ ١٨٩ - ١٩٠.

وهبطتُ حتى عارَضْتُه بينَ الرمي والوقوعِ، فأقعدتُه على الصخرةِ سالماً، وكان ذلك الجبُّ مأوى الهوامِ، فقام على الصَّخرةِ وجعل يبكي، فنادَوه، فظنَّ أنها رحمةٌ عليه أدركَتْهم، فأجابهم؛ فأرادوا أن يرضخُوه بالصخرةِ، فَمنعَهم يهوذا، وكان يهوذا يأتيهِ بالطعام، فلما وقعَ عرياناً نزل جبريلُ إليه؛ وكان إبراهيمُ حين أُلقيَ في النار عُرياناً أتاه جبريلُ بقميصٍ من حريرِ الجنةِ، فألبسه إياه، فكان ذلك عندَ إبراهيم، ثم وَرِثَه إسحاق، ثم وَرِثَه يعقوبُ، فلما شَبَّ يوسفُ جعلَ يعقوبُ ذلك القميصَ في تعويذةٍ، وجعله في عنقِه، فكان لا يفارقه، فلما أُلقي في الجُبِّ عرياناً أخرجَ جبريلُ ذلك القميصَ فألبسه إياه[1].

قال وهب: فلمَّا قام على الصخرةِ قال: يا إخوتاه، إنَّ لكل ميتٍ وصيةً، فاسمعوا وصيتي، قالوا: وما هي؟ قال: إذا اجتمعتم كلُّكم فآنسَ بعضُكم بعضاً، فاذكُروا وَحشَتي، وإذا أكلتم، فاذكُروا جُوعي، وإذا شَرِبتُم، فاذكُروا عطشي، وإذ رأيتم غريباً، فاذكُروا غُربتي، وإذا رأيتم شابًّا، فاذكروا شبابي. فقال له جبريلُ: يا يوسفُ! كُفَّ عن هذا، واشتغل بالدعاءِ، فإنَّ الدعاءَ عند الله بمكان. ثم علَّمه فقال: قلِ: اللهمَّ يا مؤنسَ كلِّ غريب، ويا صاحبَ كلِّ وحيد، ويا ملجأ كلِّ خائف، ويا كاشفَ كلِّ كربة، ويا عالمَ كلِّ نجوى، ويا منتهى كلِّ شكوى، ويا حاضرَ كلِّ ملأ، يا حيُّ يا قيوم، أسألكَ أن تقذفَ رجاءك في قلبي، حتى لا يكونَ لي همٌّ ولا شغلٌ غيرَك، وأن تجعلَ لي من أمري فرجاً ومخرجاً، إنك على كل شيءٍ قدير. فقالت الملائكة: إلهنا، نسمعُ صوتاً ودعاءً، الصوتُ صوتُ صبيٍّ، والدعاءُ دعاءُ نبيٍّ.

وقال الضَّحاكُ: نزلَ جبريلُ عليه السلام على يوسف وهو في الجبِّ فقال له: ألا أُعلمك كلماتٍ إذا أنت قُلتهنَّ عجَّل الله لك خروجَك من هذا الجبِّ؟ فقال: نَعم! فقال له: قل: يا صانعَ كلِّ مصنوع، ويا جابرَ كلِّ كَسِير، ويا شاهدَ كلِّ نَجْوى، ويا حاضرَ كلِّ ملأ، ويا مفرِّج كلِّ كُرْبة، ويا صاحبَ كلِّ غريب، ويا مؤنسَ كلِّ وحيد،

(١) عرائس المجالس ص١١٥ - ١١٦، وتفسير الكشاف ٢/ ٣٠٧، وتفسير الرازي ١٨/ ٩٩.

ايتني بالفرجِ والرجاء، واقذف رجاءك في قلبي حتى لا أرجوَ أحداً سواك. فردَّدها يوسفُ في ليلته مراراً، فأخرجه الله في صَبيحةِ يومِه ذلك من الجُبِّ[١].

قوله تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ١٦﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً﴾ أي: ليلاً، وهو ظرفٌ يكون في موضعِ الحال[٢]؛ وإنَّما جاؤوا عشاءً؛ ليكونوا أقدرَ على الاعتذارِ في الظلمة، ولذا قيل: لا تطلب الحاجة بالليل، فإنَّ الحياءَ في العينين، ولا تَعتذرْ بالنهارِ من ذنب فَتَتلجلج في الاعتذار[٣]، فروي أنَّ يعقوبَ عليه السلام لمَّا سمعَ بكاءَهم قال: ما بكم؟ أجَرى في الغنمِ شيءٌ؟ قالوا: لا. قال: فأينَ يوسفُ؟ قالوا: ذَهبنا نستبقْ، فأكلَه الذئب، فبكى وصاحَ وقال: أينَ قميصُه؟ على ما يأتي بيانُه إن شاء الله[٤].

وقال السديُّ وابنُ حبَّان: إنَّه لمَّا قالوا: أكلَه الذئبُ خرَّ مغشيًّا عليه، فأفاضوا عليه الماءَ، فلم يتحرك، ونادَوه فلم يُجِب.

قال وهب: ولقد وَضَع يهوذا يده على مخارجِ نَفسِ يعقوب فلم يُحِسَّ بنَفَس، ولم يَتحرَّك له عِرقٌ، فقال لهم يهوذا: ويلٌ لنا من ديَّانِ يومِ الدِّين! ضيَّعنا أخانا، وقَتلنا أبانا، فلم يُفِق يعقوبُ إلا ببردِ السَّحَر[٥]، فأفاقَ ورأسُه في حِجْرِ روبيل، فقالَ: يا روبيل، أَلَم آتمِنْك على ولدي؟ ألم أعهدْ إليك عهداً؟ فقال: يا أبتِ! كُفَّ عنِّي بكاءَك أُخبِرْك، فكفَّ يعقوبُ بكاءَه فقالَ: يا أبتِ ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾.

---

(١) عرائس المجالس ص١١٦ ، وزاد المسير ٤/ ١٩٠ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٨ .

(٣) عرائس المجالس ص١١٧ ، وينظر زاد المسير ٤/ ١٩١ .

(٤) ينظر الوسيط ٢/ ٦٠٣ ، والكشاف ٢/ ٣٠٧ ، وتفسير الرازي ١٨/ ١٠١ .

(٥) ينظر عرائس المجالس ص١١٧ .

الثانية: قال علماؤنا: هذه الآيةُ دليلٌ على أن بكاءَ المرء لا يدلُّ على صدقِ مقاله، لاحتمالِ أن يكونَ تَصنُّعاً؛ فمن الخلقِ مَن يقدرُ على ذلك، ومنهم مَن لا يقدر. وقد قيل: إن الدمعَ المصنوعَ لا يخفى؛ كما قال حكيم:

إذا اشتبكتْ دموعٌ في خُدودٍ تَبَيَّنَ مَنْ بَكَى مِمَّنْ تَباكَى[1]

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ۝١٧﴾

فيه سبعُ مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: «نَسْتَبِقُ» نفتعل، من المسابقة. وقيل: أي: نَنْتَضِل، وكذا في قراءةِ عبدِ الله: «إِنَّا ذَهَبْنَا نَنْتَضِل»، وهو نوعٌ من المسابقة؛ قاله الزَّجاج[2]. وقال الأزهريّ[3]: النِّضالُ في السِّهام، والرِّهانُ في الخيل، والمسابقةُ تجمعُهما. قال القُشيريُّ أبو نصر: «نَسْتَبِقُ» أي: في الرَّمي، أو على الفرس، أو على الأقدام. والغرضُ من المسابقة على الأقدام تدريبُ النفسِ على العَدْوِ؛ لأنَّه الآلةُ في قتال العدوِّ، ودفعِ الذئبِ عن الأغنام[4]. وقال السُّدِّيُّ وابنُ حيان[5]: «نَسْتَبِقُ»: نَشتدُّ جرياً؛ لنرى أيُّنا أَسبق[6].

قال ابنُ العربي[7]: المسابقةُ شِرْعةٌ في الشَّريعة، وخَصْلةٌ بديعةٌ، وعَونٌ على

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٦٣ ، والبيت سلف ١٠/ ٣٣٦ .

(٢) في معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٩٥ ، وينظر النكت والعيون ٣/ ١٤ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٢٦ ، وتفسير الرازي ١٨/ ١٠١ .

(٣) في الزاهر ص٥٣٦ .

(٤) ينظر تفسير الرازي ١٨/ ١٠١ .

(٥) في (ظ): أبو حيان.

(٦) زاد المسير ٤/ ١٩١ - ١٩٢ ، عن السدي.

(٧) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٦٣ - ١٠٦٤ .

الحرب؛ وقد فَعلها[١] ﷺ بنفسِه وبخَيْله، وسابقَ عائشةَ رضي الله عنها على قدميهِ، فسبقَها؛ فلما كَبِر رسولُ الله ﷺ سابقَها فَسبقته، فقال لها: «هذهِ بتلك»[٢].

قلتُ: وسابقَ سَلَمةُ بنُ الأكوعِ رجلاً لمَّا رجعوا من ذي قَرَد إلى المدينةِ، فسبقه سَلَمةُ. خرَّجه مسلمٌ[٣].

الثانية: وروى مالك، عن نافع، عن ابن عمر، أنَّ رسولَ الله ﷺ سابقَ بينَ الخيل التي قد أُضمِرت من الحَفْيَاء، وكان أَمَدُها ثَنِيَّةَ الوداع، وسابقَ بينَ الخيل التي لم تُضمَّر من الثَّنِيَّةِ إلى مسجدِ بني زُرَيق، وأنَّ عبدَ الله بنَ عمر كان ممَّن سابقَ بها[٤].

وهذا الحديثُ مع صحتِه في هذا الباب تَضمَّن ثلاثةَ شروطٍ، فلا تجوزُ المسابقةُ بدونها، وهي: أنَّ المسافةَ لابدَّ أن تكونَ معلومةً. الثاني: أن تكونَ الخيلُ متساويةَ الأحوال. الثالث: ألَّا يُسابقَ المضمَّرُ مع غيرِ المضمَّر في أمدٍ واحدٍ وغايةٍ واحدة. والخيلُ التي يجبُ أن تَضمَّر ويُسابَق عليها وتقامَ هذه السُّنَّةُ فيها: هي الخيلُ المعدَّة لجهادِ العدوِّ لا لقتالِ المسلمين في الفتن[٥].

الثالثة: وأمَّا المسابقةُ بالنِّصال والإبل، فروى مسلمٌ[٦] عن عبدِ الله بنِ عمرو قال: سَافرنا مع رسولِ الله ﷺ، فَنزلنا منزِلاً، فمِنَّا مَن يُصلِحُ خباءَه، ومنَّا مَن يَنْتضِل. وذكرَ الحديث.

---

(١) في النسخ الخطية وأحكام القرآن: فعله.

(٢) أخرجه أحمد (٢٤١١٨)، والنسائي في الكبرى (٨٨٩٤)، وابن ماجه (١٩٧٩).

(٣) في صحيحه برقم (١٨٠٧)، وهو عند أحمد (١٦٥٣٩) وذو قَرَد: ماء على ليلتين من المدينة بينها وبين خيبر. معجم البلدان ٤/ ٣٢١.

(٤) في الموطأ ٢/ ٤٦٧ - ٤٦٨، وهو عند البخاري (٢٨٦٩)، ومسلم (١٨٧٠). والحفياء: موضع قرب المدينة أجرى منه رسول الله ﷺ الخيل في السباق. معجم البلدان ٢/ ٢٧٦.

وتضمير الخيل: هو أن يُظاهِر عليها بالعلف حتى تسمن، ثم لاتعلف إلا قوتاً لتخف. النهاية في غريب الحديث (خمر).

(٥) التمهيد ١٤/ ٨١ - ٨٢، والاستذكار ١٤/ ٣٠٧ - ٣٠٨.

(٦) في صحيحه (١٨٤٤).

وخرَّج النسائيُّ[(١)] عن أبي هريرةَ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا سَبَق إلا في نَصْلٍ أو خُفٍّ أو حافرٍ». وثبتَ ذكرُ النَّصلِ من حديث ابن أبي ذئب، عن نافع بن أبي نافع، عن أبي هريرة. ذكره النَّسائي؛ وبه يقولُ فقهاءُ الحجازِ والعراق[(٢)].

وروى البخاريُّ[(٣)] عن أنس قال: كانَ للنبي ﷺ ناقةٌ تُسمَّى العَضْباءَ لا تُسبَق ـ قال حُمَيد: أو لا تكادُ تُسبَق ـ فجاءَ أعرابيٌّ على قَعُود، فَسبقها، فشقَّ ذلك على المسلمين حتى عَرَفه، فقال: «حقٌّ على اللهِ ألَّا يرتفعَ شيءٌ من الدنيا إلَّا وضعه».

الرابعة: أجمعَ المسلمون على أنَّ السَّبَق لا يجوزُ على وجهِ الرِّهانِ إلا في الخُفِّ والحافرِ والنَّصل؛ قال الشافعي: ما عدا هذه الثلاثةِ فالسَّبَقُ فيها قِمار.

وقد زادَ أبو البَخْتَرِيِّ القاضي في حديثِ الخُفِّ والحافر والنَّصل: «أو جَناح»، وهي لفظةٌ وضعَها للرشيدِ، فتركَ العلماءُ حديثَه لذلك ولغيرِه من موضوعاتِه، فلا يَكتُب العلماءُ حديثَه بحالٍ[(٤)]. وقد رُوي عن مالكٍ أنه قال: لا سَبَقَ إلا في الخيلِ والرمي؛ لأنه قوَّة على أهلِ الحرب؛ قال: وسَبَقُ الخيلِ أَحبُّ إلينا من سَبَق الرمي[(٥)]. وظاهرُ الحديثِ يُسوِّي بينَ السَّبَق على النُّجُب[(٦)] والسَّبَقِ على الخيل. وقد منعَ بعضُ العلماء الرِّهانَ في كلِّ شيءٍ إلا في الخيل؛ لأنها التي كانت عادةُ العرب المراهنةَ عليها. ورُوي عن عطاء أنَّ المراهنةَ في كل شيءٍ جائز[(٧)]. وقد تُؤُوِّل عليه[(٨)]؛ لأنَّ

(١) في الكبرى (٤٤١٠)، والمجتبى ٦/ ٢٢٦.

(٢) التمهيد ١٤/ ٩٤.

(٣) في صحيحه (٢٨٧٢).

(٤) التمهيد ١٤/ ٨٨ و ٩٤، وينظر تاريخ بغداد ١٣/ ٤٥٥. وأبو البختري هو: وهب بن وهب بن كثير القاضي القرشي. قال أحمد: كان يضع الحديث وضعاً. ميزان الاعتدال ٤/ ٣٥٣ - ٣٥٤.

(٥) التمهيد ١٤/ ٨٤، والاستذكار ١٤/ ٣١٠.

(٦) جمع نجيبة، وهي من الإبل.

(٧) في (م): جائزة.

(٨) في (م): قوله.

حملَه على العمومِ في كلِّ شيءٍ يُؤدِّي إلى إجازة القمار، وهو محرَّمٌ باتفاق(١).

الخامسة: لا يجوزُ السَّبَقُ في الخيل والإبل إلا في غايةٍ معلومةٍ وأمدٍ معلوم، كما ذكرنا، وكذلك الرميُ لا يجوزُ السَّبَقُ فيه إلا بغايةٍ معلومة ورَشْقٍ معلوم، ونوعٍ من الإصابةِ مشترط خَسْقاً(٢)، أو إصابة بغيرِ شرط.

والأسباقُ ثلاثةٌ: سَبَقٌ يعطيه الوالي - أو الرجلُ غيرُ الوالي - من ماله متطوِّعاً، فيَجعلُ للسابقِ شيئاً معلوماً، فمَن سبقَ أخذه. وسَبَقٌ يُخرجُه أحدُ المتسابقَين دون صاحبِه، فإن سَبَقه صاحبُه أخذه، وإن سَبَق هو صاحبَه أخذه، وحَسُنَ أن يمضيَه في الوجهِ الذي أخرجه له، ولا يَرجِع إلى مالِه، وهذا ممَّا لا خلافَ فيه.

والسَّبقُ الثالث: اختُلِف فيه، وهو أن يُخرِج كلُّ واحد منهما شيئاً مثل ما يُخرِجُه صاحبُه، فأيُّهما سَبَق، أحرزَ سبقَه وسَبَقَ صاحبِه. وهذا الوجهُ لا يجوزُ حتى يُدخِلا بينهما مُحلِّلاً لا يأمنا أن يَسبِقَهما، فإن سَبَقَ المحلِّلُ أحرزَ السَّبَقين جميعاً وأخذهما وحدَه، وإن سبقَ أحدُ المتسابقَين، أحرزَ سبقَه وأخذَ سبَق صاحبه، ولا شيءَ للمحلِّل فيه، ولا شيء عليه. وإن سبقَ الثاني منهما الثالثَ كان كمَن لم يسبقْ واحدٌ منهما.

وقال أبو علي بن خيران من أصحابِ الشافعي: وحكمُ الفرس المُحلِّل أن يكونَ مجهولاً جريُه؛ وسمي محلِّلاً؛ لأنه يُحلِّل السَّبَقَ للمتسابقَين أوْ لَهُ. واتفقَ العلماءُ على أنَّه إن لم يكن بينهما محلِّلٌ، واشترطَ كلُّ واحدٍ من المتسابقَين أنَّه إن سبقَ أخذَ سبقه وسبَق صاحبِه: أنَّه قمارٌ ولا يجوزُ(٣).

وفي «سنن» أبي داود(٤)، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «مَن أدخلَ فرساً بينَ

---

(١) المفهم ٣/ ٧٠١.

(٢) خَسَق السهمُ الهدفَ خَسْقاً: إذا لم ينفُذ نفاذاً شديداً. وقال ابن فارس: إذا ثبت فيه وتعلق. وقال ابن القطاع: إذا نفذ من الرَّمِيَّة. المصباح المنير (خسق).

(٣) التمهيد ١٤/ ٨٥ - ٨٧، والاستذكار ١٤/ ٣١١ - ٣١٢، والمفهم ٣/ ٧٠١ - ٧٠٢، وإكمال المعلم ٦/ ٢٨٤ - ٢٨٥.

(٤) برقم (٢٥٧٩) و(٢٥٨٠)، وهو عند أحمد (١٠٥٥٧).

فَرَسَيْن وهو لا يأمنُ أن يَسبِق؛ فليسَ بقِمار، ومَن أدخلَه وهو يأمنُ أن يَسبِقَ؛ فهو قِمار».

وفي «الموطأ»[١] عن سعيد بنِ المسيب قال: ليسَ برِهانِ الخيل بأسٌ إذا دخلَ فيها محلِّلٌ، فإن سبقَ أخذَ السَّبَقَ، وإن سُبِق لم يكن عليه شيءٌ.

وبهذا قال الشافعيُّ وجمهورُ أهلِ العلم. واختَلَف في ذلك قولُ مالك، فقال مرةً: لا يجبُ المحلِّلُ في الخيل، ولا نأخذُ فيه بقولِ سعيد، ثم قال: لا يجوزُ إلَّا بالمحلِّل، وهو الأجودُ من قوله[٢].

السادسة: ولا يُحمَلُ على الخيل والإبل في المسابقة إلا مُحتلِمٌ، ولو رَكِبَها أربابُها كان أولى؛ وقد رُويَ عن عمرَ بنِ الخطاب ﷺ أنه قال: لا يَركبِ الخيلَ في السباق إلا أربابُها. وقال الشافعي: وأقلُّ السَّبَقِ أن يسبقَ بالهادي أو بعضِه، أو بالكَفَلِ أو بعضِه. والسَّبَق بين[٣] الرماةِ على هذا النحوِ عنده، وقولُ محمد بنِ الحسن في هذا الباب نحوُ قولِ الشافعي[٤].

السابعة: رُويَ عن النبيِّ ﷺ أنَّه سابقَ أبا بكر وعمرَ رضي الله عنهما، فسبقَ رسولُ الله ﷺ، وصلَّى أبو بكر، وثَلَّثَ عمرُ[٥]. ومعنى: وصَلَّى أبو بكر. يعني أنَّ رأسَ فرسِه كان عندَ صَلَوي[٦] فرسِ رسولِ الله ﷺ، والصَّلَوَان: موضعُ العَجُز.

قولُه تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ أي: عند ثيابِنا وأقمشتِنا حارساً

---

(١) ٢/ ٤٦٨ .

(٢) الاستذكار ١٤/ ٣١١ ، والمفهم ٣/ ٧٠١ - ٧٠٢ .

(٣) في (د) و(ز) و(م): من، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في التمهيد ١٤/ ٨٦ .

(٤) التمهيد ١٤/ ٧٩ - ٨٠ و ٨٦ . والهادي: العُنق. والكفلُ: العَجُز، أو رِدفُه، أو القَطَن. القاموس (هدي) و(كفل).

(٥) سلف ١/ ٢٥٩ .

(٦) في (م): صلا.

لها[١]. ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ وذلك أنَّهم لمَّا سَمِعوا أباهم يقول: «وأخافُ أن يأكلَه الذئبُ» أخذوا ذلك من فيهِ، فَتحرَّموا[٢] به؛ لأنَّه كان أظهرَ المخاوفَ عليه. ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ أي: بمصدِّق[٣]. ﴿وَلَوْ كُنَّا﴾ أي: وإنْ كنَّا؛ قاله المبردُ[٤] وابنُ إسحاق[٥]. ﴿صَٰدِقِينَ﴾ في قولِنا، ولم يُصدِّقهم يعقوبُ؛ لِما ظهرَ له منهم من قوَّةِ التّهمةِ وكثرةِ الأدلةِ على خلافِ ما قالوه؛ على ما يأتي بيانُه. وقيل: «ولو كنا صادِقِين» أي: ولو كنَّا عندَك من أهلِ الثقةِ والصدقِ، ما صَدَّقتنا، ولاتَّهمتنا في هذه القضيةِ، لشدةِ محبتِك في يوسف؛ قال معناهُ الطبريُّ والزَّجاجُ وغيرُهما[٦].

قوله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: «بِدَم كَذِب» قال مجاهد: كان دمَ سَخلةٍ أو جَدْيٍ ذبحوه. وقال قتادة: كان دمَ ظبية[٧]، أي: جاؤوا على قميصه بدمٍ مكذوبٍ فيه، فوصفَ الدم بالمصدر، فصار تقديره: بدمٍ ذي كذب، مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ والفاعل والمفعول قد يُسمَّيان بالمصدر، يقال: هذا ضَرْبُ الأمير، أي: مضروبُه، وماءٌ سَكْبٌ، أي:

(١) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٤.

(٢) أي: تمتَّعوا. القاموس (حرم).

(٣) الكشاف ٢/ ٣٠٨، وزاد المسير ٤/ ١٩٢.

(٤) في الكامل ١/ ٣٦١، ونقله عنه المصنف بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٦.

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٥، وزاد المسير ٤/ ١٩٢.

(٦) تفسير الطبري ١٣/ ٣٤، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٩٦، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٢٦، وزاد المسير ٤/ ١٩٢.

(٧) النكت والعيون ٣/ ١٥، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٣/ ٣٥.

مسكوب، وماءٌ غَوْرٌ، أي: غائر، ورجلٌ عَدْلٌ، أي: عادل[١].

وقرأ الحسن وعائشة: «بِدَمٍ كَدِبٍ»، بالدَّال غير المعجمة[٢]، أي: بدمٍ طرِيٍّ، يقال للدَّم الطريّ: الكَدِب. وحُكِيَ أنه المُتغيِّر، قاله الشعبي[٣]. والكَدِبُ أيضاً البياض الذي يخرج في أظفار الأحداث. فيجوز أن يكون شَبَّه الدَّم في القميص بالبياض الذي يخرج في الظُّفْر من جهة اختلاف اللَّونَيْن[٤].

الثانية: قال علماؤنا رحمة الله عليهم: لمَّا أرادوا أن يجعلوا الدَّمَ علامةً على صِدقهم؛ قَرن الله بهذه العلامة علامةً تُعارِضُها، وهي سلامةُ القميص من التَّنْيِيب[٥]، إذ لا يمكن افتراسُ الذئب ليوسف وهو لابسٌ القميص ويَسلم القميص من التخريق[٦]. ولما تأمَّل يعقوب عليه السلام القميصَ، فلم يَجِدْ فيه خَرْقاً ولا أثراً؛ استدلَّ بذلك على كذبهم وقال لهم: متى كان هذا الذئب حليماً[٧] يأكل يوسفَ ولا يُخرِّق القميص؟! قاله ابن عباس وغيره[٨].

روى إسرائيل، عن سِمَاك بن حرب، عن عِكرمة، عن ابن عباس قال: كان الدمُ دمَ سَخْلةٍ. وروى سفيان عن سِماك، عن عِكرمة، عن ابن عباس قال: لمَّا نظر إليه قال: كذبتم، لو كان الذئب أكلَه لخرق القميص[٩].

---

(١) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ١٨/ ١٠٢ .

(٢) القراءات الشاذة ص٦٢ - ٦٣ عن الحسن، والمحتسب ١/ ٣٣٥ عن الحسن وابن عباس رضي الله عنهما. وعن عائشة رضي الله عنها ذكرها أبو حيان في البحر ٥/ ٢٨٩ .

(٣) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٥ .

(٤) ينظر المحتسب ١/ ٣٣٥ .

(٥) في (ظ): التخريق.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٦٥ .

(٧) في (ظ) و(م): حكيماً.

(٨) المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٧ . وأخرج هذا الأثر الطبري ١٣/ ٣٦ - ٣٧ .

(٩) أخرجهما الطبري ١٣/ ٣٦ - ٣٨ ، والأثر الثاني عنده من طريق سفيان عن سماك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وحكى الماورديّ أن في القميص ثلاثَ آيات: حين جاؤوا عليه بدمٍ كذب، وحين قُدَّ قميصُه من دُبُر، وحين أُلقيَ على وجه أبيه فارتدَّ بصيراً[١].

قلت: وهذا مردودٌ، فإن القميصَ الذي جاؤوا عليه بالدم غيرُ القميص الذي قُدَّ، وغيرُ القميص الذي أتاه البَشير به. وقد قيل: إنَّ القميص الذي قُدَّ هو الذي أُتيَ به فارتدَّ بصيراً، على ما يأتي بيانُه آخرَ السورة إن شاء الله تعالى[٢].

ورُويَ أنهم قالوا له: بل اللصوص قتلوه. فاختلف قولهم، فاتَّهمهم، فقال لهم يعقوب: تزعُمون أن الذئبَ أكله، ولو أكله لَشَقَّ قميصَه قبل أن يُفضيَ إلى جِلده، وما أرى بالقميص مِن شَقٍّ، وتزعُمون أنَّ اللصوصَ قتلوه، ولو قتلوه لأخذوا قميصَه، هل يريدون إلَّا ثيابَه؟! فقالوا عند ذلك: وما أنت بِمؤمِنٍ لنا ولو كنا صادِقِين؛ عن الحسن وغيره. أي: لو كنا موصوفين بالصِّدق لاتَّهمتنا[٣].

الثالثة: استدلَّ الفقهاءُ بهذه الآية في إعمال الأَمَارات في مسائلَ من الفقه، كالقَسامة وغيرها، وأجمعوا على أن يعقوبَ عليه السلام استدلَّ على كذبهم بصحة القميص، وهكذا يجب على الناظر أنْ يلحَظَ الأماراتِ والعلاماتِ إذا تعارضَتْ، فما ترجَّح منها قضَى بجانب الترجيح، وهي قوة التُّهمَة، ولا خلاف بالحكم بها؛ قاله ابن العربي[٤].

قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: رُويَ أن يعقوب لما قالوا له: «فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ» قال لهم: ألم يترك الذئبُ له عضواً فتأتوني به أستأنس به؟! ألم يترك لي ثوباً أَشَمُّ فيه رائحتَه؟! قالوا: بلى، هذا

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٥ . وذكره ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٠٦٥ .

(٢) الآية (٩٣).

(٣) ذكره المصنف قبل هذه الآية ونسبه للطبري والزجاج، وينظر مجمع البيان للطبرسي ١٢/ ٢٨ - ٢٩ .

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٦٥ ، وينظر المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٧ .

قميصُه ملطوخٌ بدمه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ﴾. فبكى يعقوبُ عند ذلك وقال لبنيه: أروني قميصَه، فأرَوْه فشمَّه وقبَّله، ثم جعل يُقَلِّبه فلا يرى فيه شَقًّا ولا تمزيقاً، فقال: والله الذي لا إله إلا هو، ما رأيتُ كاليوم ذئباً أحلمَ[(١)] منه، أكل ابني واختلسه من قميصه ولم يُمزِّقه عليه. وعَلِمَ أنَّ الأمرَ ليس كما قالوا، وأن الذئبَ لم يأكله، فأعرض عنهم كالمُغضَب باكياً حزيناً، وقال: يا معشرَ ولدي، دُلُّوني على ولدي، فإنْ كان حيًّا رددتُه إليَّ، وإنْ كان ميتاً كفَّنتُه ودفنتُه. فقيل: قالوا حينئذ: ألم تَروا إلى أبينا كيف يُكذِّبنا في مَقالتنا؟! تعالَوْا نُخرجه من الجُبِّ ونقطعه عضواً عضواً، ونأتِ أبانا بأحدِ أعضائه، فيصدقنا في مقالتنا ويقطع يأسه، فقال يهوذا: والله، لئن فعلتُم لأكوننَّ لكم عدوًّا ما بقيتُ، ولأُخبرنَّ أباكم بسوء صنيعكم، قالوا: فإذا منعتنا من هذا فتعالوا نصطد له ذئباً، قال: فاصطادوا ذئباً ولطَّخوه بالدم، وأوثقوه بالحبال، ثم جاؤوا به يعقوبُ وقالوا: يا أبانا، إن هذا الذئب الذي يَحُلُّ بأغنامنا ويفترسها، ولعلَّه الذي أفجعنا بأخينا، لا نشكُّ فيه، وهذا دمه عليه، فقال يعقوب: أطلقوه، فأطلقوه، وتَبَصْبَصَ له الذئب، فأقبل يدنو منه ويعقوب يقول له: أُدنُ، أُدنُ، حتى ألصق خدَّه بخدِّهِ فقال له يعقوب: أيها الذئب، لِمَ فجعتَني بولدي وأورثتني حزناً طويلاً؟! ثم قال: اللهمَّ أَنْطِقْهُ، فأنطقه الله تعالى: فقال: والذي اصطفاك نبيًّا، ما أكلتُ لحمه، ولا مزَّقت جلدَه، ولا نتفتُ شعرةً من شعراته، ووالله ما لي بولدك عهدٌ، وإنما أنا ذئبٌ غريبٌ أقبلتُ من نواحي مصر في طلب أخ لي فُقِدَ، فلا أدري أحيٌّ هو أم ميتٌ، فاصطادني أولادُك وأوثقوني، وإنَّ لحومَ الأنبياء حُرِّمت علينا وعلى جميع الوحوش، وتالله، لا أقمتُ في بلاد يكذب فيها أولادُ الأنبياء على الوحوش. فأطلقه يعقوب وقال: والله، لقد أتيتُم بالحُجَّة على أنفسكم، هذا ذئبٌ بهيمٌ خرج يتبع ذِمَام أخيه، وأنتم ضيَّعتم أخاكم، وقد علمت

(١) في (م): أحكم.

أن الذئب بريء مما جئتم به[١].

﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ أي: زيَّنت. ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ غيرَ ما تصفون وتذكرون. ثم قال توطئةً لنفسه: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ وهي:

الثانية: قال الزجّاج[٢]: أي فشأني - أو الذي أعتقده - صبرٌ جميلٌ. وقال قُطْرُب: أي: فصبري صبرٌ جميلٌ. وقيل: أي: فصبرٌ جميلٌ أولى بي، فهو مبتدأ، وخبره محذوفٌ. ويُروى أن النبيَّ ﷺ سُئل عن الصبر الجميل فقال: «هو الذي لا شكوى معه»[٣]. وسيأتي له مَزيد بيان آخرَ السورة إن شاء الله.

قال أبو حاتم: قرأ عيسى بن عمر فيما زعم سهلُ بن يوسف[٤]: «فصبراً جميلاً» قال: وكذا قرأ الأشهبُ العُقَيْلي، قال: وكذا في مصحف أنس وأبي صالح[٥]. قال المبرّد: «فصبرٌ جميلٌ» بالرفع أولى من النصب؛ لأن المعنى: قال: ربِّ عندي صبرٌ جميل، قال[٦]: وإنما النصب على المصدر، أي: فلأَصْبِرنَّ صبراً جميلاً، قال:

شَكَا إليَّ جَمَلي طُولَ السُّرَى ... صَبْراً جميلاً فكِلَانا مُبْتَلَى[٧]

والصبرُ الجميل هو الذي لا جَزَعَ فيه ولا شكوى. وقيل: المعنى: لا أُعاشركم على كآبة الوجه وعُبوس الجبين، بل أُعاشركم على ما كنت عليه معكم، وفي هذا ما يدل على أنه عفا عن مُؤاخذتهم. وعن حبيب بن أبي ثابت، أن يعقوبَ كان قد سقط حاجباه على عينيه، فكان يرفعهما بخرقة، فقيل له: ما هذا؟ قال: طول الزمان وكثرةُ

---

(١) ينظر عرائس المجالس ص١١٧ - ١١٨ . وهذه القصة من الإسرائيليات.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٩٦ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣١٨ .

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٤١ عن حبان بن أبي جبلة مرسلاً.

(٤) لعله سهل بن يوسف الأنماطي البصري، أبو عبد الرحمن. توفي سنة (١٩٠هـ). تهذيب الكمال ١٢/ ٢١٣ .

(٥) كذا في النسخ وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٨ (والكلام منه): أبي صالح، ولعل الصواب أُبَيّ، كما في المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٧ ، والبحر المحيط ٥/ ٢٨٩ .

(٦) يعني أبا جعفر النحاس، وكلامه في إعراب القرآن ٢/ ٣١٨ ، وما قبله منه، وقراءة عيسى بن عمر في القراءات الشاذة ص٦٣ .

(٧) سلف ٣/ ٢٥٠ .

الأحزان، فأوحى الله إليه: أتشكوني يا يعقوب؟! قال: يا ربّ، خطيئةٌ أخطأتُها فاغْفِر لي[١].

﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ ابتداء وخبر ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: على احتمال ما تَصِفون من الكذب.

الثالثة: قال ابن أبي رفاعة[٢]: ينبغي لأهل الرأي أن يتَّهموا رأيهم عند ظنّ يعقوب ﷺ وهو نبيّ، حين قال له بنوه: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ فأصاب هنا، ثم قالوا له: ﴿إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ فلم يُصِبْ.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ أي: رُفقةٌ مارَّةٌ يسيرون من الشام إلى مصر فأخطؤوا الطريقَ، وهاموا حتى نزلوا قريباً من الجُبِّ، وكان الجبُّ في قَفْرةٍ بعيدةٍ من العُمران، إنما هو للرُّعاة والمُجتاز، وكان ماؤه مِلحاً، فَعَذُبَ حين أُلقيَ فيه يوسف[٣]. ﴿فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ﴾ فذكَّر على المعنى، ولو قال: فأرسلَتْ واردَها لكان على اللَّفظ[٤]، مثل «وجاءت». والواردُ الذي يَرِدُ الماء يستقي للقوم، وكان اسمه ـ فيما ذكر المفسرون ـ مالك بن دُعْر[٥]، من العرب العاربة[٦].

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٤٢ .

(٢) لم نعرفه، ولم نقف على قوله.

(٣) عرائس المجالس ص١١٨ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤١٥ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٩ .

(٥) في النسخ: ذعر، بالذال، وذكر الفيروز آبادي أنه تصحيف، وأن الصواب دعر، بالدال المهملة. القاموس (دعر) و(ذعر).

(٦) ينظر عرائس المجالس ص١١٨ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٢٨ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤١٥ .

﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ أي: أرسله، يقال: أدلى دلوَه: إذا أرسلها لِيملأها، ودَلَاها أي: أخرجها. عن الأصمعي وغيره[١]. ودَلا من ذوات الواو، يدلو دَلْواً، أي: جذب وأخرج، وكذلك أَدلى: إذا أرسل، فلما ثقل رَدُّوه إلى الياء، لأنها أخفُّ من الواو، قاله الكوفيون. وقال الخليل وسيبويه: لمَّا جاوز ثلاثةَ أحرف رَجَعَ إلى الياء، اتباعاً للمستقبل. وجمع دَلْو في أقل العدد: أَدْلٍ، فإذا كثَّرت قلت: دُلِيّ ودِلِيّ؛ فقلبت الواو ياءً، لأنَّ[٢] الجمعَ بابه التغيير، وليفرِّق بين الواحد والجمع، ودِلاء أيضاً.

فتعلَّق يوسف بالحبل، فلمَّا خرج إذا غلامٌ كالقمر ليلةَ البدر؛ أحسنُ ما يكون من الغلمان. قال ﷺ في حديث الإسراء من «صحيح» مسلم: «فإذا أنا بيوسفَ إذا هو قد أُعطِيَ شَطْرَ الحُسن»[٣]. وقال كعب الأحبار: كان يوسفُ حَسَنَ الوجه، جَعْدَ الشعر، ضخمَ العينين، مُستوي الخَلْق، أبيضَ اللون، غليظَ الساعدين والعَضُدين، خَميصَ البطن، صغيرَ السُّرة، إذا ابتسم رأيتَ النور من ضواحكه، وإذا تكلَّم رأيتَ في كلامه شعاع الشمس من ثناياه، لا يستطيع أحدٌ وَصْفَه، وكان حُسنه كضوء النهار عند الليل، وكان يُشبه آدمَ عليه السلام يوم خلقَه اللهُ ونفخ فيه من روحه قبل أن يُصيبَ المعصية. وقيل: إنه ورث ذلك الجمال من جدَّته سارة، وكانت قد أُعطيتْ سُدس الحُسن[٤].

فلما رآه مالك بن دُعر قال: ﴿يا بُشْرَايَ هذا غُلَامٌ﴾ هذه قراءةُ أهل المدينة وأهل البصرة[٥]، إلَّا ابن أبي إسحاق فإنه قرأ: «يَا بُشْرَيَّ هذا غُلَامٌ»[٦] فقلب الألف ياءً، لأن هذه الياء يُكسر ما قبلها، فلمَّا لم يَجُزْ كسرُ الألف كان قلبُها عوضاً. وقرأ أهل

(١) ينظر معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٠٥ .

(٢) في النسخ: إلا أن، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٩ ، والكلام منه.

(٣) صحيح مسلم (١٦٢) من حديث أنس بن مالك ﷺ، وهو في مسند أحمد (١٢٥٠٥).

(٤) الوسيط ٢/ ٦٠٤ ، وينظر عرائس المجالس ص١١١ - ١١٢ .

(٥) هي قراءة نافع المدني، وأبي عمرو البصري، وابن كثير المكي، وابن عامر الشامي. السبعة ص٣٤٧ ، والتيسير ص١٢٨ ، والنشر ٢/ ٢٩٣ .

(٦) القراءات الشاذة ص٦٢ ، والمحتسب ١/ ٣٣٦ .

الكوفة: «يا بُشْرَى»[١] غير مضاف.

وفي معناه قولان: أحدهما: اسمُ الغلام، والثاني: معناه: يا أيتها البُشرى، هذا حِينُك وأوانُك. قال قتادة والسُّدِّيّ: لمَّا أدلى المُدلي دلوه تعلَّق بها يوسف فقال: يا بُشرايَ[٢] هذا غلام. قال قتادة: بشَّر أصحابه بأنه وجد عبداً. وقال السُّديّ: نادى رجلاً اسمه بُشرى.

قال النحاس[٣]: قول قتادة أولى؛ لأنه لم يأتِ في القرآن تسميةُ أحد إلا يسيراً، وإنما يأتي بالكناية كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ [الفرقان:٢٧]، وهو عُقبة بن أبي مُعيط، وبعده ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان:٢٨]، وهو أميةُ ابن خَلَف. قال النحاس[٤]: والمعنى في نداء البُشرى: التبشير لمن حضر، وهو أوكدُ من قولك: تبشَّرت، كما تقول: يا عجباه! أي: يا عجبُ هذا من أيامك ومن آياتك فاحضُرْ، وهذا مذهب سيبويه[٥]، وكذا قال السُّهيلي[٦]. وقيل: هو كما تقول: واسروراه! وأنَّ البشرى مصدر من الاستبشار. وهذا أصحُّ؛ لأنه لو كان اسماً علَماً لم يكن مضافاً إلى ضمير المتكلِّم؛ وعلى هذا يكون «بُشْرَايَ» في موضع نصب؛ لأنه نداءُ مضاف، ومعنى النداء هاهنا التنبيه، أي: انتبهوا لفرحتي وسروري، وعلى قول السُّدِّيّ يكون في موضع رفع كما تقول: يا زيدُ، هذا غلام. ويجوز أن يكونَ محلُّه نصباً كقولك: يا رجلاً، وقولِه: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ [يس:٣٠]، ولكنه لم يُنون «بُشْرَى» لأنه لا ينصرف[٧].

---

(١) السبعة ص٣٤٧ ، والتيسير ص١٢٨ ، والنشر ٢/ ٢٩٣ .

(٢) في (م): بشرى.

(٣) في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٩ ، وما قبله منه، والأقوال السالفة أخرجها الطبري ١٣/ ٤٣ - ٤٤ .

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٤٠٦ .

(٥) الكتاب ٢/ ٢١٧ ، وينظر ما سلف ٨/ ٣٥٨ .

(٦) في التعريف والإعلام ص٨٠ ، وما بعده منه.

(٧) ينظر الكشف عن وجوه القراءات لمكي ٢/ ٧ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤١٥ .

﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ الهاء كنايةٌ عن يوسف عليه السلام؛ فأما الواو فكنايةٌ عن إخوته. وقيل: عن التجار الذين اشتَرَوْه[١]، وقيل: عن الوارد وأصحابه[٢]. «بِضَاعَةً» نصبٌ على الحال. قال مجاهد: أسرَّه مالك بن دُعْر وأصحابُه من التجار الذين معهم في الرُّفقة، وقالوا لهم: هو بضاعةٌ استبضعناها بعضَ أهل الشام، أو أهل هذا الماء إلى مصر، وإنما قالوا هذا خِيفةَ الشركة[٣]. وقال ابن عباس: أسرَّه إخوةُ يوسف بضاعةً لمَّا استُخرج من الجبِّ، وذلك أنهم جاؤوا فقالوا: بئس ما صنعتُم؛ هذا عبدٌ لنا أَبق، وقالوا ليوسف بالعبرانية: إما أن تُقرَّ لنا بالعبودية فنبيعك من هؤلاء، وإما أن نأخذك فنقتلك، فقال: أنا أُقِرُّ لكم بالعبودية، فأقرَّ لهم فباعوه منهم[٤].

وقيل: إن يهوذا وصَّى أخاه يوسفَ بلسانهم أن اعترِفْ لإخوتك بالعبودية، فإني أَخشى إنْ لم تفعل قتلوك، فلعل الله أن يجعلَ لك مخرجاً، وتنجوَ من القتل، فكتَم يوسفُ شأنَه مخافةَ أن يقتله إخوته، فقال مالك: والله، ما هذه سِمة العبيد، قالوا: هو تَربَّى في حُجورنا، وتخلَّق بأخلاقنا، وتأدَّب بآدابنا، فقال: ما تقول يا غلام؟ قال: صدقوا، تربَّيت في حُجورهم، وتخلَّقت بأخلاقهم، فقال مالك: إنْ بعتموه مني اشتريتُه منكم، فباعوه منه[٥]، فذلك:

قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ۝٢٠﴾

فيه ستُّ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ يقال: شَريتُ بمعنى اشتريتُ، وشَريت بمعنى

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٩.

(٢) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٤٦ - ٤٩.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٤٦ - ٤٧، وينظر تفسير البغوي ٢/ ٤١٥.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٤٩ مختصراً.

(٥) عرائس المجالس ص١١٨ - ١١٩ بنحوه.

بِعتُ لغةً[١]، قال الشاعر:

وشَرَيْتُ بُرْداً لَيْتَني ... مِن بَعْدِ بُرْدٍ كنتُ هَامَهْ[٢]

أي: بِعتُ. وقال آخر:

فلمَّا شَرَاها فاضتِ العينُ عَبرةً ... وفي الصَّدرِ حُزَّازٌ من اللَّوْمِ حَامِزُ[٣]

﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ أي: نقصٍ، وهو هنا مصدرٌ وُضِعَ موضع الاسم، أي: باعوه بثمنٍ مبخوس، أي: منقوص. ولم يكن قصدُ إخوته ما يستفيدونه من ثمنه، وإنما كان قصدُهم ما يستفيدونه من خُلوِّ وجه أبيهم عنه[٤].

وقيل: إن يهوذا رأى من بعيد أن يوسفَ أُخرج من الجبِّ، فأخبر إخوته فجاؤوا وباعوه من الواردة. وقيل: لا، بل عادوا بعد ثلاثٍ إلى البئر يتعرَّفون الخبر، فرأوا أثرَ السيارة فاتَّبعوهم وقالوا: هذا عبدُنا أَبَقَ منَّا، فباعوه منهم[٥].

وقال قتادة: «بَخْس»: ظلم. وقال الضَّحَّاك ومقاتل والسُّدِّيّ وابن عطاء: «بَخْس»: حرام[٦].

وقال ابن العربي[٧]: ولا وجهَ له، وإنما الإشارةُ فيه إلى أنه لم يُستوفَ ثمنُه

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٦٧ .

(٢) قائله يزيد بن مُفَرِّغ الحميري، وسلف ٣/ ٣٩١ ، وبرد: اسم غلام ندم على بيعه. المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٠ . والهامة: من طيور الليل، كانت العرب تزعم أن روح القتيل الذي لا يُدرَك بثأره تصير هامة فتزقُو عند قبره، تقول: اسقوني، اسقوني، فإذا أدرك بثأره طارت. الصحاح (هيم).

(٣) قائله الشمَّاخ بن ضرار، وهو في ديوانه ص١٩٠ ، وفيه: الوجد، بدل: اللوم. والحزَّاز: ما حزَّ في القلب. والحَمَازة: الشِّدَّة، وقد حَمُزَ الرجل، بالضم، فهو حميز الفؤاد وحامز. الصحاح (حزز) و(حمز).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٦٧ .

(٥) ينظر عرائس المجالس ص١١٨ - ١١٩ .

(٦) تفسير الطبري ١٣/ ٥٤ - ٥٥ ، والنكت والعيون ٣/ ١٨ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤١٦ .

(٧) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٦٧ .

بالقيمة؛ لأن إخوته إنْ كانوا باعوه فلم يكن قصدُهم ما يستفيدونه من ثمنه، وإنما كان قصدُهم ما يستفيدون من خُلوّ وجه أبيهم عنه، وإنْ كان الذين باعوه الواردةَ، فإنهم أخفَوْه مقتطَعاً، أو قالوا لأصحابهم: أُرسلَ معنا بضاعةً، فرأوا أنهم لم يُعطُوا عنه ثمناً، وأنّ ما أخذوا فيه ربحٌ كلّه.

قلت: قوله: وإنما الإشارةُ فيه إلى أنه لم يُستوفَ ثمنُه بالقيمة؛ يدلُّ على أنهم لو أخذوا القيمةَ فيه كاملةً كان ذلك جائزاً. وليس كذلك، فدلَّ على صحة ما قاله السُّديّ وغيره؛ لأنهم أوقعوا البيعَ على نفس لا يجوز بيعُها، فلذلك كان لا يحلُّ لهم ثمنُه.

وقال عِكرمة والشّعبي: قليل[١]. وقال ابن حيَّان: زَيْف[٢]. وعن ابن عباس وابن مسعود باعوه بعشرين درهماً، أخذَ كلُّ واحد من إخوته درهمين، وكانوا عشرةً، وقاله قتادة والسُّدِّيّ. وقال أبو العالية ومقاتل: اثنين وعشرين درهماً، وكانوا أحدَ عشرَ، أخذَ كلُّ واحدٍ درهمين، وقاله مجاهد. وقال عِكرمة: أربعين درهماً[٣]. وما رُويَ عن الصحابة أَولى. و«بخسٍ» من نعت «ثمن».

﴿دَرَٰهِمَ﴾ على البدل والتفسير له. ويقال: دراهيم على أنه جمع دِرهام، وقد يكون اسماً للجمع عند سيبويه، ويكون أيضاً عنده على أنه مدَّ الكسرة فصارت ياءً، وليس هذا مثل مدِّ المقصور؛ لأن مدَّ المقصور لا يجوز عند البصريين في شعر ولا غيره. وأنشد النحويون:

تَنْفي يداها الحَصَى في كلِّ هاجِرةٍ ... نَفْيَ الدّراهِيمِ تَنْقادُ الصَّيارِيفِ[٤]

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٥.

(٢) أورده البغوي ٢/ ٤١٦ عن ابن عباس وابن مسعود ﷺ.

(٣) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٣/ ٥٦ - ٥٩، وينظر النكت والعيون ٣/ ١٨، وتفسير البغوي ٢/ ٤١٦، وزاد المسير ٤/ ١٩٧.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٠، والبيت للفرزدق، وهو في الكتاب ١/ ٢٨، والكامل للمبرد ١/ ٣٢٩، والخزانة ٤/ ٤٢٦. ويصف فيه ناقته بسرعة السير في الهاجرة، فيقول: إن يديها لشدة وقعها في الحصى ينفيانه، فيقرع بعضه بعضاً، ويُسمع له صليل كصليل الدنانير إذ انتقدها الصَّيرفي، فنفى رديئها عن جيِّدها. وخصَّ الهاجرة لتعذر السير فيها. الخزانة.

﴿مَعۡدُودَةٖ﴾ نعت، وهذا يدل على أن الأثمانَ كانت تجري عندهم عدًّا لا وزناً بوزن. وقيل: هو عبارةٌ عن قِلَّة الثمن؛ لأنها دراهمُ لم تبلغ أنْ تُوزن لِقلَّتها، وذلك أنهم كانوا لا يَزِنون ما كان دون الأُوقِيَّة، وهي أربعون درهماً[(١)].

الثانية: قال القاضي ابن العربي[(٢)]: وأصلُ النقدين الوزن، قال ﷺ: «لا تبيعوا الذَّهبَ بالذهبِ، ولا الفضةَ بالفضة، إلا وزناً بوزن، مَن زادَ أو ازدادَ فقد أَرْبى»[(٣)]. والزِّنة لا فائدةَ فيها إلَّا المقدار، فأما عينُها فلا منفعةَ فيه، ولكن جرى فيها العدُّ تخفيفاً عن الخَلْق لِكَثْرة المُعاملة، فيشقُّ الوزن، حتى لو ضُرب مثاقيلُ أو دراهمُ لجاز بيعُ بعضها ببعض عدًّا إذا لم يكن بها نُقصان ولا رُجحان، فإن نقصَتْ عاد الأمرُ إلى الوزن، ولأجل ذلك كان كسرُها أو قَرْضُها من الفساد في الأرض حَسَبَ ما تقدَّم[(٤)].

الثالثة: واختلف العلماءُ في الدراهم والدنانير هل تتعيَّن أم لا؟ وقد اختلفت الروايةُ في ذلك عن مالك؛ فذهب أشهبُ إلى أن ذلك لا يتعيَّن، وهو الظاهرُ من قول مالك، وبه قال أبو حنيفة. وذهبَ ابن القاسم إلى أنها تتعيَّن، وحُكي عن الكَرْخيّ، وبه قال الشافعي. وفائدة الخلاف أنَّا إذا قلنا: لا تتعيَّن؛ فإذا قال: بعتك هذه الدنانير بهذه الدراهم تعلقت الدنانير بذمة صاحبها، والدراهم بذمة صاحبها، ولو تعينت ثم تلفت لم يتعلق بذمتهما شيء، وبطل العقد كبيع الأعيان من العروض وغيرها.

الرابعة: رُويَ عن الحسن بن علي رضيَ الله عنهما أنه قضى في اللَّقيط أنه حرّ، وقرأ: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۢ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ﴾ وقد مضى القولُ فيه[(٥)].

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٨ - ١٩ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٣٠ .

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٦٧ .

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٧٢٩)، ومسلم (١٥٨٧) بنحوه مطولاً من حديث عبادة بن الصامت ﷺ، وفي الباب عن أبي سعيد الخدري ﷺ عند أحمد (١١٠٠٦)، والبخاري (٢١٧٦)، ومسلم (١٥٨٤)، وعن أبي بكرة ﷺ عند أحمد (٢٠٣٩٥) والبخاري (٢١٧٥) ومسلم (١٥٩٠). وعن أبي هريرة ﷺ عند أحمد (٧٥٥٨)، ومسلم (١٥٨٨).

(٤) ٣/ ٣٨٧ ، ص١٩٥-١٩٧ من هذا الجزء.

(٥) ص٢٦٦ من هذا الجزء، وسلف قول الحسن ثمة.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ قيل: المراد إخوته. وقيل: السيَّارة. وقيل: الواردة، وعلى أيّ تقدير فلم يكن عندهم غَبيطاً، لا عند الإخوة؛ لأن المقصدَ زوالُه عن أبيه لا ماله. ولا عند السيَّارة؛ لقول الإخوة: إنه عبد أَبَق منا؛ والزهد قِلَّة الرَّغبة. ولا عند الواردة؛ لأنهم خافوا اشتراكَ أصحابهم معهم، ورأَوْا أن القليل من ثمنه في الانفراد أولى[١].

السادسة: في هذه الآية دليلٌ واضحٌ على جواز شراء الشيء الخَطير بالثمن اليَسير، ويكون البيعُ لازماً، ولهذا قال مالك: لو باع دُرَّةً ذاتَ خطرٍ عظيمٍ بدرهمٍ ثم قال: لم أَعلمْ أنها دُرَّةٌ وحَسِبتُها مَخْشَلَبَةً[٢] لزمه البيع، ولم يُلتفت إلى قوله. وقيل: ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ أي: في حُسنه؛ لأن الله تعالى وإنْ أعطى يوسفَ شَطْر الحُسن؛ صرف عنه دواعيَ نفوس القوم إليه إكراماً له. وقيل: ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ لم يعلموا منزلتَه عند الله تعالى[٣]. وحكى سيبويه والكسائي: زَهِدتُ وزَهَدتُ؛ بكسر الهاء وفتحها[٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ قيل: الاشتراء هنا بمعنى الاستبدال، إذْ لم يكن ذلك عقداً، مثل: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة:١٦]. وقيل: إنهم ظنُّوه في ظاهر الحال اشتراءً، فجرى هذا اللفظ

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٦٧ .

(٢) المَخْشَلبة: كلمة عراقية، ليس على بنائها شيء من العربية، وهي تُتَّخذ من الليف والخرز، أمثالَ الحليّ. اللسان (شخلب). ولم نقف على قول مالك المذكور.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٦١ عن الضحاك وابن جريج.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٠ .

على ظاهر الظنّ. قال الضَّحَّاك: هذا الذي اشتراه ملك مصر، ولقبه العزيز. السُّهيلي[١]: واسمه قطفير. وقال ابن إسحاق: إطفير بن رويحب[٢]؛ اشتراه لامرأته راعيل؛ ذكره الماورديّ[٣]. وقيل: كان اسمها زَلِيخَاء، وكان اللهُ ألقى محبةَ يوسفَ على قلب العزيز، فأوصى به أهلَه، ذكره القُشيريّ. وقد ذكر القولين في اسمها الثّعلبيّ[٤] وغيره.

وقال ابن عباس: إنما اشتراه قطفير وزيرُ ملك مصر، وهو الريَّان بن الوليد. وقيل: الوليد بن الريَّان، وهو رجلٌ من العمالقة[٥]. وقيل: هو فرعون موسى[٦]، لقول موسى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [غافر: ٣٤]، وأنه عاشَ أربعَ مئة سنة. وقيل: فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف، على ما يأتي في «غافر» بيانه[٧].

وكان هذا العزيز الذي اشترى يوسفَ على خزائن الملك، واشترى يوسفَ من مالك بن دُعْر بعشرين ديناراً، وزاده حُلَّةً ونعلين[٨]. وقيل: اشتراه من أهل الرُّفقة. وقيل: تزايدوا في ثمنهِ فبلغ أضعافَ وَزْنه مِسْكاً وعنبراً وحريراً ووَرِقاً وذهباً ولآلئ وجواهرَ لا يعلم قيمتَها إلَّا الله، فابتاعه قطفير من مالك بهذا الثمن، قاله وهب بن منبِّه[٩].

---

(١) التعريف والإعلام ص٨٠.

(٢) في تفسير الطبري ١٣/ ٦١، والوسيط للواحدي ٢/ ٦٠٥: روحيب.

(٣) في النكت والعيون ٣/ ١٩، وأخرجه الطبري ١٣/ ٦١ - ٦٢.

(٤) ذكر الثعلبي في عرائس المجالس ص١٢٠ أن اسمها راعيل، أو بكا بنت فيوش. وذكر الاسمين اللذين أوردهما المصنف رحمه الله ابنُ عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٣١، والبغوي في تفسيره ٢/ ٤١٦.

(٥) تفسير الطبري ١٣/ ٦١، والنكت والعيون ٣/ ١٩.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٠، قال ابن عطية: وهذا ضعيف.

(٧) في تفسير الآية (٣٤)، وينظر تفسير الرازي ١٨/ ١٠٨.

(٨) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٩.

(٩) عرائس المجالس ص١٢٠، وتفسير البغوي ٢/ ٤١٦.

وقال وهب أيضاً وغيره: ولمَّا اشترى مالك بن دُعْر يوسف من إخوته كتب بينهم وبينه كتاباً: هذا ما اشترى مالك بن دُعر من بني يعقوب، وهم فلان وفلان مملوكاً لهم بعشرين درهماً، وقد شرطوا له أنه آبق، وأنه لا ينقلب به إلا مقيَّداً مسلسلاً، وأعطاهم على ذلك عهد الله. قال: فودَّعهم يوسف عند ذلك، وجعل يقول: حَفِظكم الله وإنْ ضيَّعتموني، نَصَركم الله وإنْ خَذَلتموني، رَحِمكم الله وإن لم ترحموني. قالوا: فألقت الأغنام ما في بطونها دماً عَبِيطاً لشدّة هذا التوديع، وحملوه على قَتَبٍ بغير غطاء ولا وِطاء، مقيَّداً مكبَّلاً مُسلسلاً، فمرَّ على مقبرة آل كنعان، فرأى قبرَ أُمّه، وقد كان وُكِّلَ به أسودُ يحرُسه، فَغَفَل الأسود، فألقى يوسفُ نفسَه على قبر أُمّه، فجعل يتمرَّغ ويعتنق القبر ويضطرب ويقول: يا أماه، ارفعي رأسَك تَرَيْ ولدك مكبَّلاً مقيَّداً مسلسلاً مغلولاً، فرَّقوا بيني وبين والدي، فاسألي اللهَ أن يجمع بيننا في مستقرِّ رحمته، إنه أرحمُ الراحمين، فتفقَّده الأسودُ على البعير فلم يره، فقفا أثره، فإذا هو ببياضٍ على قبر، فتأمَّله، فإذا هو إياه، فركضه برجله في التراب ومرَّغه وضربه ضرباً وجيعاً، فقال له: لا تفعل، والله ما هربتُ ولا أبقتُ، وإنما مررتُ بقبر أمي فأحببتُ أنْ أودِّعَها، ولن أرجع إلى ما تكرهون، فقال الأسود: واللهِ إنك لعبد سوء، تدعو أباك مرةً وأُمَّك أخرى! فهلَّا كان هذا عند مواليك، فرفع يديه إلى السماء وقال: اللهم إنْ كانت لي عندك خطيئةٌ أخلقت بها وجهي، فأسألك بحقّ آبائي إبراهيم وإسحاقَ ويعقوبَ أن تغفرَ لي وترحمني. فضجَّت الملائكةُ في السماء، ونزل جبريلُ فقال له: يا يوسف، غُضَّ صوتَك، فلقد أبكيتَ ملائكةَ السماء، أفتريدُ أن أقلِبَ الأرض فأجعلَ عاليَها سافلَها؟ قال: تثبَّت يا جبريل، فإنَّ الله حليمٌ لا يعجَل، فضرب الأرضَ بجناحه فأظلمت، وارتفع الغبار، وكَسَفَت الشمس، وبقيت القافلةُ لا يعرِفُ بعضُها بعضاً، فقال رئيسُ القافلة: مَن أحدثَ منكم حدثاً؟ فإني أسافر منذ كيت وكيت ما أصابني قطّ مثلُ هذا، فقال الأسود: أنا لطمتُ ذلك الغلامَ العبرانيّ، فرفع يدَه إلى السماء وتكلَّم بكلامٍ لا أعرفه، ولا أشكُّ أنه دعا علينا، فقال له: ما أردتَ

إلا هلاكَنا! ايتِنا به، فأتاه به، فقال له: يا غلام، لقد لطمك هذا العبد[١]، فجاءنا ما رأيت، فإنْ كنتَ تقتصّ فاقتصَّ ممن شئت، وإنْ كنت تعفو فهو الظنّ بك، قال: قد عفوتُ رجاءَ أن يعفوَ الله عني، فانجلت الغبرة، وظهرت الشمس، وأضاء مشارقُ الأرض ومغاربها، وجعل التاجر يزوره بالغداة والعَشيّ ويُكرمه، حتى وصل إلى مصر، فاغتسل في نيلها، وأذهب اللهُ عنه كآبةَ السفر، وردَّ عليه جمالَه، ودخل به البلد نهاراً، فسطعَ نورُه على الجُدران، وأوقفوه للبيع[٢]، فاشتراه قطفير وزيرُ الملك؛ قاله ابن عباس على ما تقدَّم[٣].

وقيل: إن هذا المَلِك لم يَمُتْ حتى آمنَ واتَّبع يوسفَ على دينه، ثم مات الملك ويوسفُ يومئذ على خزائن الأرض، فملك بعده قابوس وكان كافراً، فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى[٤].

﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ﴾ أي: منزلَه ومُقامَه بطيب المَطْعم واللِّباس الحَسَن، وهو مأخوذ من ثوى بالمكان، أي: أقام به[٥]، وقد تقدَّم في «آل عمران»[٦] وغيره.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ أي: يكفيَنا بعض المهمات إذا بلغ. ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾. قال ابن عباس: كان حَصُوراً لا يُولَد له، وكذا قال ابن إسحاق: كان قطفير لا يأتي النساء ولا يولَد له[٧]. فإن قيل: كيف قال: «أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً» وهو مِلْكه، والوَلَدية مع

(١) قوله: هذا العبد، من (ظ).

(٢) الخبر من الإسرائيليات، وينظر عرائس المجالس للثعلبي ص١١٩ - ١٢٠، والوسيط للواحدي ٢/ ٦٠٥.

(٣) ص٢٩٩ من هذا الجزء.

(٤) تفسير الرازي ١٨/ ١٠٨.

(٥) تفسير الرازي ١٨/ ١٠٩.

(٦) ٥/ ٣٥٧.

(٧) قول ابن عباس ﷺ ذكره الواحدي في الوسيط ٢/ ٦٠٥، والرازي في تفسيره ١٨/ ١٠٩ دون نسبة. وقول ابن إسحاق أخرجه الطبري ١٣/ ٦٣.

العَبْديّة[(١)] تتناقض؟ قيل له: يُعْتِقُه ثم يتَّخذه ولداً بالتَّبنِّي، وكان التَّبنِّي في الأُمَم معلوماً عندهم، وكذلك كان في أوّل الإسلام، على ما يأتي بيانه في «الأحزاب»[(٢)] إن شاء الله تعالى.

وقال عبد الله بن مسعود: أحسنُ الناس فِراسةً ثلاثة، العزيزُ حين تفرَّس في يوسف، فقال: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾، وبنتُ شُعيب حين قالت لأبيها في موسى: ﴿ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦]، وأبو بكر حين استخلفَ عمرَ[(٣)].

قال ابن العربي[(٤)]: عجباً للمفسرين في اتِّفاقهم على جلب هذا الخبر! والفِراسةُ هي علم غيب[(٥)]، على ما يأتي بيانه في سورة الحجر[(٦)]، وليس كذلك فيما نقلوه؛ لأن الصدِّيق إنما ولَّى عمرَ بالتجربة في الأعمال والمواظبة على الصُّحبة وطُولها، والاطِّلاع على ما شاهد منه من العلم والمِنَّة، وليس ذلك من طريق الفِراسة، وأما بنتُ شعيب؛ فكانت معها العلامةُ البينة على ما يأتي بيانُه في «القَصَص»[(٧)]. وأما أمرُ العزيز فيمكن أن يُجعلَ فِراسةً؛ لأنه لم يكن معه علامةٌ ظاهرةٌ. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الكاف في موضع نصب، أي: وكما أنقذناه من إخوته ومن الجُبِّ؛ فكذلك مكنَّا له، أي: عطَّفنا عليه قلبَ الملك الذي اشتراه حتى تمكَّن من الأمر والنهي في البلد الذي المِلكُ مستولٍ عليه[(٨)].

---

(١) في (ظ): والوالدية مع العبودية.

(٢) في تفسير الآيتين (٤) و(٣٧).

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٤ .

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٦٨ ، وقول ابن مسعود ﷺ السالف فيه.

(٥) في (م): غريب، وفي أحكام القرآن لابن العربي: غريبٌ حدُّه.

(٦) في تفسير الآية (٧٥).

(٧) في تفسير الآية (٢٦).

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٠ .

﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾ أي: فعلنا ذلك تصديقاً لقول يعقوب: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ [يوسف:٦]. وقيل: المعنى مكنّاه لِنُوحيَ إليه بكلام منَّا، ونعلِّمه تأويلَه وتفسيره، وتأويل الرؤيا، وتمَّ الكلام(١).

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ الهاء راجعةٌ إلى الله تعالى، أي: لا يغلِبُ اللهَ شيءٌ، بل هو الغالبُ على أمر نفسه فيما يُريده أن يقول له: كُنْ، فَيَكُونُ. وقيل: ترجع إلى يوسف، أي: الله غالبٌ على أمر يوسف يُدبِّره ويَحوطه ولا يَكِلُه إلى غيره، حتى لا يصِلَ إليه كَيْدُ كائد(٢).

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: لا يطَّلعون على غَيبِه. وقيل: المراد بالأكثر الجميع؛ لأن أحداً لا يعلم الغيب. وقيل: هو مُجرى على ظاهره، إذْ قد يُطلِعُ من يُريد على بعض غَيبه. وقيل: المعنى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنَّ الله غالبٌ على أمره، وهم المشركون ومن لا يؤمن بالقَدَر(٣).

وقالت الحكماء في هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ حيث أمره يعقوبُ ألَّا يقصَّ رؤياه على إخوته، فغلب أمرُ الله حتى قَصَّ، ثم أراد إخوته قتلَه، فغلبَ أمرُ الله حتى صار مَلِكاً وسجدوا بين يديه، ثم أراد الإخوة أنْ يَخْلُوَ لهم وجهُ أبيهم، فغلب أمرُ الله حتى ضاق عليهم قلبُ أبيهم وافتكره بعد سبعين سنة أو ثمانين سنة، فقال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف:٨٤]، ثم تدبَّروا أن يكونوا من بعده قوماً صالحين، أي: تائبين، فغلب أمرُ الله حتى نسوا الذنبَ وأصرُّوا عليه حتى أقرّوا بين يدي يوسف في آخر الأمر بعد سبعين سنة، وقالوا لأبيهم: إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ، ثم أرادوا أن يخدعوا أباهم بالبكاء والقميص، فغلب أمرُ الله، فلم ينخدع، وقال: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ﴾ [يوسف:٨٣]، ثم احتالوا في أنْ تزولَ محبته من قلب أبيهم، فغلب أمرُ الله

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٢/ ٤١٧، وينظر النكت والعيون ٣/ ٢٠.

(٣) ينظر الوسيط للواحدي ٢/ ٦٠٦.

فازدادت المحبة والشوق في قلبه، ثم دَبَّرت امرأةُ العزيز أنها إن ابتدرتْه بالكلام غلبته، فغلب أمرُ الله حتى قال العزيز: «اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ» [يوسف:٢٩]، ثم دَبَّر يوسف أن يتخلّص من السجن بذكر الساقي، فغلب أمرُ الله فَنَسِيَ الساقي، ولَبِثَ يوسفُ في السجن بِضع سنين(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ «أَشُدَّهُ» عند سيبويه جمع، واحده شِدَّة. وقال الكسائي: واحده شَدٌّ، كما قال الشاعر:

عَهْدِي بِهِ شَدَّ النَّهارِ كأنَّمَا خُضِبَ البَنانُ(٢) ورأسُه بالعِظْلِمِ(٣)

وزعم أبو عُبيدة(٤) أنه لا واحدَ له من لفظه عند العرب، ومعناه استكمال القوَّة، ثم يكون النقصان بعد. وقال مجاهد وقتادة: الأَشُدُّ ثلاثٌ وثلاثون سنة. وقال ربيعة وزيد بن أسلم ومالك بن أنس: الأَشُدُّ بلوغ الحُلُم(٥)، وقد مضى ما للعلماء في هذا في «النساء» و«الأنعام» مستوفًى(٦).

﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ قيل: جعلناه المُستوليَ على الحُكم، فكان يحكم في سلطان الملك، أي: وآتيناه عِلماً بالحُكم(٧). وقال مجاهد: العقل والفهم والنبوّة(٨).

---

(١) الكلام بنحوه في زاد المسير ٤/ ١٩٩ .

(٢) في (م): اللَّبان، وهي رواية كما في الخزانة ٩/ ٤٩٢ ، واللَّبان: الصدر.

(٣) قائله عنترة العبسي، وهو في ديوانه ص٢٧ ، وفيه: مدَّ النهار، بدل: شدَّ النهار - وهما روايتان كما في الخزانة - وقد أورد البيت بلفظ المصنف النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٢١ ، والكلام منه، والعظلم: صبغ أحمر. اللسان (عظلم).

(٤) في (د) و(ز) و(ظ) و(م): أبو عبيد، والمثبت من (ف) وإعراب القرآن للنحاس، وقول أبي عبيدة في كتابه مجاز القرآن ١/ ٣٠٥ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢١ ، والأقوال السالفة أخرجها الطبري ١٣/ ٦٧ ، وابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢١١٨ -٢١١٩ .

(٦) ٦/ ٦٠ - ٦١ (النساء) و ٩/ ١١١ - ١١٢ (الأنعام).

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢١ .

(٨) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٨ وابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢١١٩ ، بلفظ: العقل والعلم قبل النبوة.

وقيل: الحُكم النبوّة[(١)]، والعِلم عِلم الدين، وقيل: علم الرؤيا[(٢)]، ومن قال: أوتي النبوَّة صبيًّا قال: لمَّا بلغ أَشُدَّه زِدْناه فهماً وعلماً.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يعني المؤمنين. وقيل: الصابرين على النوائب كما صبر يوسف، قاله الضحاك[(٣)]. وقال الطبريّ[(٤)]: هذا وإن كان مخرجُه ظاهراً على كل مُحسِن؛ فالمراد به محمد ﷺ، يقول الله تعالى: كما فعلتُ هذا بيوسف بعد أن قاسى ما قاسى ثم أعطيتُه ما أعطيتُه، كذلك أُنجيك من مُشركي قومك الذين يقصدونك بالعداوة، وأُمكِّن لك في الأرض.

قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ وهي امرأة العزيز، طلبت منه أن يواقعها. وأصل المراودة الإرادة والطلب برفق ولين. والرَّوْد والرِّياد طلب الكلأ؛ وقيل: هي من رُويد؛ يقال: فلان يمشي رُوَيْداً، أي: برفق؛ فالمراودة: الرفق في الطلب؛ يقال في الرجل: راوَدَها عن نفسها، وفي المرأة: راوَدَتْه عن نفسه. والرُّوْد: التأنّي؛ يقال: أَرْوَدَني: أمهلني.

﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ غلَّق للتكثير، ولا يقال: غلَقَ الباب، وأغلقَ يقع للكثير والقليل، كما قال الفَرَزْدق في أبي عمرو بن العلاء:

ما زلتُ أُغلقُ أبواباً وأفتحُها ... حتى أتيتُ أبا عمرو بن عمَّارِ[(٥)]

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢١٢٠ عن السدي.

(٢) ينظر النكت والعيون ٣/ ٢١ ، وزاد المسير ٤/ ٢٠١ .

(٣) أورده ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٢٠١ دون نسبة.

(٤) في تفسيره ١٣/ ٦٩ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢١ ، والبيت في أدب الكاتب ص٤٦١ ، والبيان والتبيين ١/ ٣٢١ وهو =

يقال: إنَّها كانت سبعةَ أبواب غلَّقَتْها ثم دعته إلى نفسها ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي: هَلُمَّ وأَقْبِلْ وتَعالَ، ولا مصدرَ له ولا تصريف[1].

قال النحاس[2]: فيها سبعُ قراءات، فمِن أَجلِّ ما فيها وأصحِّه إسناداً ما رواه الأعمش عن أبي وائل قال: سمعتُ عبدَ الله بن مسعود يقرأ: «هَيْتَ لَكَ» قال: فقلت: إنَّ قوماً يقرؤونها: «هِيتُ لك»، فقال: «إنَّما أقرأُ كما عُلِّمت»[3].

قال أبو جعفر[4]: وبعضهم يقول: عن عبد الله بن مسعود، عن النبيِّ ﷺ، ولا يبعُدُ ذلك؛ لأنَّ قوله: إنَّما أقرأ كما علِّمت، يدلُّ على أنه مرفوع. وهذه القراءةُ بفتح التاء والهاء هي الصحيحةُ من قراءة ابن عباس وسعيد بن جُبير والحسن ومجاهد وعكرمة. وبها قرأ أبو عمرو بن العلاء وعاصمٌ والأعمشُ وحمزةُ والكسائيّ[5].

قال عبد الله بن مسعود: لا تَنَطَّعوا[6] في القرآن؛ فإنما هو مِثْلُ قول أحدِكم: هَلمَّ وتَعالَ[7].

وقرأ ابن أبي إسحاق النَّحْويُّ: «وقَالَتْ هَيْتِ لَكَ»؛ بفتح الهاء وكسر التاء. وقرأ

= فيهما برواية: ما زلت أفتح أبواباً وأغلقها. وقد يأتي غلَّق مع المفرد، فيقال: غلَّقْتُ الباب، وذلك إذا أغلقت باباً واحداً مراراً، أو أحكمت إغلاق باب. مفردات الراغب (غلق).

(١) الوسيط ٢/ ٦٠٦ - ٦٠٧.

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٣٢٢.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٠٠٤) و(٤٠٠٥)، وقد قيد صاحب بذل المجهود ١٦/ ٣٣٢ «هيت» الثانية في إحدى الروايتين بكسر الهاء وسكون الياء وضم التاء، والرواية الثانية مثلها ولكن بهمزة بدل الياء، أي: «هِئْتُ». وقد أخرجه مختصراً البخاري (٤٦٩٢).

(٤) في إعراب القرآن ٢/ ٣٢٢.

(٥) السبعة ص٣٤٧، والتيسير ص١٢٨ عن أبي عمرو وحمزة وعاصم والكسائي.

(٦) في (د) و(م): تقطعوا.

(٧) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤١٠، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٢٠، وابن أبي شيبة ١٠/ ٤٨٨، والطبري ١٣/ ٧٧. قال ابن الأثير في النهاية (نطع): أراد النهي عن الملاحاة في القراءات المختلفة، وأنَّ مرجعها إلى وجه واحد من الصواب، كما أن هلم بمعنى تعال.

أبو عبد الرحمن السُّلَميُّ وابن كثير: «هَيْتُ لَكَ»؛ بفتح الهاء وضمِّ التاء[1]؛ قال طَرَفة:

لَيس قومي بالأبْعَدِينَ إذا ما قال داعٍ من العَشيرة هَيْتُ[2]

فهذه ثلاثُ قراءاتٍ الهاءُ فيهنَّ مفتوحة.

وقرأ أبو جعفر وشيبةُ ونافعٌ: «وَقَالَتْ هِيتَ لَكَ» بكسر الهاء وفتح التاء[3].

وقرأ يحيى بن وثَّاب: «وَقَالَت هِيْتُ لَكَ» بكسر الهاء وبعدها ياءٌ ساكنة والتاءُ مضمومة. ورُوي عن عليّ بن أبي طالب ﷺ وابن عباس ومجاهد وعكرمة: «وَقَالَتْ هِئْتُ لَكَ» بكسر الهاء وبعدها همزة ساكنة والتاء مضمومة[4].

وعن ابن عامر وأهلِ الشام: «وَقَالَتْ هِئْتَ» بكسر الهاء وبالهمزة وبفتح التاء[5].

قال أبو جعفر[6]: «هيتَ لَكَ» بفتح التاء لالتقاء الساكنين؛ لأنه صوتٌ نحو: مَهْ وصَهْ، يجب ألَّا يُعْرَب، والفتح خفيف[7]؛ لأنَّ قبلَ التاء ياءً مثل: أيْنَ وكيفَ. ومَن كَسَر التاء فإنَّما كَسَرها لأنَّ الأصل الكسر؛ لأنَّ الساكن إذا حرِّك حرِّك إلى الكسر، ومَن ضمَّ فلِأنَّ فيه معنى الغاية، أي: قالت: دعائي لك، فلما حُذفت الإضافة بُني على الضم، مثل: حيثُ وبعدُ.

وقراءة أهل المدينة فيها قولان: أحدهما: أن يكون الفتحُ لالتقاء الساكنين كما

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٢، وقراءة ابن كثير في السبعة ص٣٤٧، والتيسير ص١٢٨، وقراءة ابن أبي إسحاق في المحتسب ١/ ٣٣٧.

(٢) ديوان طرفة ص١٤٣.

(٣) السبعة ص٣٤٧، والتيسير ص١٢٨، والنشر ٢/ ٢٩٣ عن نافع وأبي جعفر وابن ذكوان راوي ابن عامر.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢١، وقراءة علي وابن عباس ـ ﷺ ـ في المحتسب ١/ ٣٣٧.

(٥) السبعة ص٣٤٧، والتيسير ص١٢٨ وهي من رواية هشام عن ابن عامر.

(٦) هو النحاس، وكلامه في إعراب القرآن ٢/ ٣٢٢، وما قبله منه.

(٧) إلى هذا الموضع كلام النحاس، وما بعده من معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٠٠.

مرَّ. والآخَر: أن يكون فعلاً من: هَاءَ يَهِيء، مثل: جاء يجيء. فيكون المعنى في «هِيتَ» أي: حَسُنَتْ هَيئتُك [وخفف الهمزة]، ويكون «لَكَ» من كلامٍ آخر، كما تقول: لكَ أعني[١].

ومَن هَمَزَ وضمَّ التاء فهو فِعْلٌ بمعنى: تهيَّأْتُ لك، وكذلك مَن قرأ: «هِيتُ لَكَ». وأنكر أبو عمرو هذه القراءة؛ قال أبو عبيدة مَعْمَر بن المُثَنَّى[٢]: سئل أبو عمرو عن قراءةِ مَن قرأ بكَسْر الهاء وضمِّ التاء مهموزاً، فقال أبو عمرو: باطل، جَعَلَها مِن تهيَّأْتُ، اذهب فاستَعْرِض العربَ حتى تنتهيَ إلى اليمن؛ هل تعرفُ أحداً يقول هذا؟ وقال الكسائيُّ أيضاً: لم تُحكَ «هِئتُ» عن العرب. قال عِكرمة: «هِئتُ لَكَ» أي: تَهيَّأْتُ لك وتَزيَّنْتُ وتحسَّنْتُ[٣]، وهي قراءةٌ غيرُ مَرْضِيَّة؛ لأنَّها لم تُسمع في العربية.

قال النحاس[٤]: وهي جيِّدة عند البَصْريِّين؛ لأنه يقال: هَاءَ الرجلُ يَهاءُ ويَهِيءُ هَيْئَةً، فهاء يَهيء مثلُ جاء يجيء، وهِئتُ مثل: جئت.

وكَسْرُ الهاء في «هِيت» لغةٌ لقوم يُؤْثِرون كَسْرَ الهاء على فَتْحِها.

قال الزجَّاج[٥]: أجودُ القراءات: «هَيْتَ» بفتح الهاء والتاء. قال طَرَفة:

لـيـس قـومـي بـالأبـعـدِيـنَ إذا مـا قـال داعٍ مـن الـعـشـيـرة هَـيْـتُ[٦]

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٢ - ٣٢٣ ، وما سلف بين حاصرتين منه. وكذلك القول في «هئتَ» التي بالهمز وفتح التاء. الدر المصون ٦/ ٤٦٤ - ٤٦٥ .

(٢) في مجاز القرآن ١/ ٣٠٦ - ٣٠٧ .

(٣) قول عكرمة وقول الكسائي أخرجهما الطبري ١٣/ ٧٥ و ٧٦ .

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٤١٠ .

(٥) في معاني القرآن ٣/ ١٠٠ .

(٦) سلف هذا البيت قريباً، ووقع بعده في (م): بفتح الهاء والتاء. ولكن ذكر هذا البيت في هذا الموضع وهم من المصنف رحمه الله، فقد ذكر الزجاج في هذا الموضع البيتين اللذين سيردان بعده في علي ﷺ، ثم قال: وحكى قطرب أنه أنشده بعض أهل الحجاز لطرفة...، شاهداً على قراءة «هيتُ» بضم التاء، ويدل على ذلك أنه قرن به بيتاً آخر من نفس القصيدة والتي هي بضم التاء في القافية.

وقال الشاعر في علي بن أبي طالب ﷺ:

أبـلـغْ أمـيـرَ الـمـؤمـنـيـنَ أخـا الـعـراقِ إذا أتـيـتـا
أنَّ الـعـراقَ وأهـلَـهُ سِـلْـمٌ إلـيـك فَـهَـيْـتَ هَـيْـتَـا(١)

قال ابن عباس والحسن: «هيت» كلمة بالسريانية؛ تَدْعوه إلى نفسها(٢). وقال السُّدِّيُّ: معناها بالقبطية: هلمّ لك(٣).

قال أبو عبيد: كان الكسائيُّ يقول: هي لغةٌ لأهل حَوْران وقعت إلى أهل الحجاز، معناه: تعالَ. قال أبو عبيد: فسألت شيخاً عالماً من حَوْرَان، فذَكَر أنها لغتهم(٤). وبه قال عِكْرمة(٥).

وقال مجاهد وغيره: هي لغةٌ عربيةٌ تدعوه بها إلى نفسها، وهي كلمةُ حثٍّ وإقبالٍ على الأشياء(٦).

قال الجوهريّ(٧): يقال: هَوَّتَ به وهَيَّتَ به: إذا صاح به ودعاه. قال:

قـد رَابَـنـي أنَّ الـكَـرِيَّ أَسْـكَـتَـا لـو كـان مَـعْـنِـيًّـا بـهـا لَـهَـيَّـتَـا(٨)

---

(١) مجاز القرآن ١/ ٣٠٥ ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٠٠، وتفسير الطبري ١٣/ ٧٠، والحجة للفارسي ٤/ ٤١٧، والصحاح (هيت)، ونسبه الطبري في التاريخ ٤/ ٥٦٤ لرجل من أهل العراق، وروايته في المصادر: عُنُق، بدل: سلم. ومعنى عُنُق، أي: أقبلوا إليك بجماعتهم، وقيل: هم مائلون إليك ومنتظرون. اللسان (عنق)، والبيتان فيه.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٣، وزاد المسير ٤/ ٢٠٣، وأخرجه الطبري ١٣/ ٧٢، جميعهم عن الحسن، ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٢.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٤.

(٥) علقه البخاري قبل الحديث (٤٦٩٢)، ووصله الطبري ١٣/ ٧٢ من طريق عكرمة عن ابن عباس.

(٦) تفسير البغوي ٢/ ٤١٧، وأخرجه الطبري ١٣/ ٧٣.

(٧) في الصحاح (هيت).

(٨) الحجة للفارسي ٤/ ٤١٨، والصحاح (هيت)، والفائق ٢/ ٣١٥. ونسبه الفارسي لبعض البغداديين.

أي: صاحَ. وقال آخر:

يَـحْـدو بـهـا كـلُّ فـتًـى هَـيَّـاتِ[(١)]

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي: أعوذ بالله وأستجير به مما دعوتِني إليه، وهو مصدر، أي: أعوذ بالله مَعاذاً، فيُحذف المفعول[(٢)] وينتصِبُ المصدر بالفعل المحذوف، ويضاف المصدر إلى اسم الله كما يضاف المصدر إلى المفعول، كما تقول: مررتُ بزيد مرورَ عمرو، أي: كمروري بعمرو.

﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ﴾ يعني زوجَها، أي: هو سيِّدي، أكرمني فلا أخونه؛ قاله مجاهد وابن إسحاق والسُّدّيّ[(٣)]. وقال الزجّاج: أي إنَّ الله ربِّي تَوَلَّاني بلُطْفِه؛ فلا أركب ما حرَّمه[(٤)]. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

وفي الخبر أنها قالت له: يا يوسفُ، ما أَحْسَنَ صورةَ وَجْهِكَ! قال: في الرَّحِم صوَّرني رَبِّي. قالت: يا يوسفُ، ما أحسَنَ شَعْرك! قال: هو أولُ شيء يَبْلَى منِّي في قبري. قالت: يا يوسف، ما أَحْسَنَ عَيْنَيْك! قال: بهما أنظر إلى ربِّي. قالت: يا يوسف، ارفع بصرك فانظر في وجهي، قال: إنِّي أخاف العَمَى في آخِرتي. قالت: يا يوسف، أدنو منكَ وتتباعَدُ منِّي؟! قال: أريد بذلك القربَ من ربِّي. قالت: يا يوسف، القَيْطَون فرشتُه لك فادخل معي، قال: القَيْطُونُ لا يسترني من ربِّي. قالت: يا يوسف، فراش الحرير قد فرشتُه لك، قم فاقضِ حاجتي، قال: إذاً يذهب من الجنة نصيبي. إلى غير ذلك من كلامها وهو يُراجعها إلى أنْ همَّ بها[(٥)].

---

(١) هو في الصحاح (هيت)، وأساس البلاغة (هيت).

(٢) في (ظ): فيحذف الفعل.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٣، وأخرج قولهم الطبري ١٣/ ٧٨ - ٧٩. قال البغوي ٢/ ٤١٨: هذا قول أكثر المفسرين.

(٤) كذا ذكر المصنف وكذلك نقل الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٢٣ عن الزجاج، والذي في معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٠١: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ﴾ أي: إن العزيز صاحبي... فيكون هذا القول كالذي قبله.

(٥) نوادر الأصول ص٢٤٩، والوسيط ٢/ ٦٠٧، وأخرجه الطبري ١٣/ ٨٠ مختصراً عن السدي. =

وقد ذكر بعضُهم: ما زال النساء يَمِلْنَ إلى يوسف مَيْلَ شهوةٍ حتى نبَّأه الله، فألقى عليه هيبةَ النبوَّة، فشَغَلت هيبتُه كلَّ مَن رآه عن حُسْنه.

واختلف العلماء في همِّه، ولا خلافَ أنَّ همَّها كان المعصيةَ، وأمَّا يوسفُ فهمَّ بها ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ ولكنْ لمَّا رأى البرهانَ ما همّ؛ وهذا لوجوبِ العصمةِ للأنبياء؛ قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فإذاً في الكلام تقديمٌ وتأخير، أي: لولا أنْ رأى برهانَ ربِّه همَّ بها[(١)].

قال أبو حاتم: كنت أقرأ غريبَ القرآن على أبي عبيدة، فلما أتيتُ على قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ الآية، قال أبو عبيدة: هذا على التقديم والتأخير. كأنه أراد: ولقد همَّت به، ولولا أنْ رأى برهان ربِّه لهمَّ بها [أي: لم يهمَّ بها][(٢)].

وقال أحمد بن يحيى: أي: همَّت زليخاء بالمعصية وكانت مُصِرَّةً، وهمَّ يوسف ولم يواقِعْ ما همَّ به؛ فبينَ الْهَمَّيْنِ فرق[(٣)]، ذكر هذين القولين الهَرَويُّ في كتابه. قال جميل:

هَمَمْتُ بِهَمٍّ من بُثَينةَ لو بَدَا شَفيتُ غلَيلاتِ الهوَى من فُؤاديا[(٤)]

آخر:

هَمَمْتُ ولم أفعلْ وكدتُ وليتني تَركتُ على عثمانَ تبكي حلائلُهْ[(٥)]

= والقيطون: المخدع بلغة أهل مصر. الصحاح (قطن). وقوله آخر الخبر: همَّ بها، لا يلتفت إليه، لأن الله تعالى قال: ﴿وهمَّ بها لولا أن رأى برهان ربه﴾. فامتنع الهمُّ لوجود البرهان، كما سيرد.

(١) إيضاح الوقف والابتداء لأبي بكر الأنباري ٢/ ٧٢١، والأضداد له ص٤١٢، والمكتفى في الوقف والابتداء للداني ص٣٢٥، وتفسير البغوي ٢/ ٤١٨. قال ابن الأنباري: فالوقف في هذا المذهب على: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾.

(٢) القطع والائتناف للنحاس ١/ ٣٣١، وما بين حاصرتين منه.

(٣) تهذيب اللغة ٥/ ٣٨٢، والوسيط ٢/ ٦٠٨، وأحمد بن يحيى هو ثعلب.

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٢٤.

(٥) قائله ضابئ بن الحارث البُرْجُميُّ، كما في الأضداد لأبي بكر الأنباري ص٤١١، وطبقات فحول الشعراء ١/ ١٧٤، والخزانة ٩/ ٣٢٣. وكان قد هم بقتل عثمان ﷺ، فأُعلم بذلك، فضربه وحبسه وفي ذلك قال الأبيات التي منها هذا البيت الخزانة ٩/ ٣٢٦.

فهذا كلُّه حديثُ نفسٍ من غير عَزم.

وقيل: همَّ بها: تمنَّى زَوْجيَّتها[(١)].

وقيل: همَّ بها، أي: بضَرْبها ودَفْعِها عن نفسه، والبرهانُ كفُّه عن الضَّرْب؛ إذ لو ضَرَبها لأَوْهَم أنه قَصَدَها بالحرام، فامتنعت، فضَرَبها[(٢)].

وقيل: إنَّ همَّ يوسفَ كان معصيةً، وأنه جلس منها مجلسَ الرجل من امرأته. وإلى هذا القول ذهب معظَمُ المفسِّرين وعامَّتُهم، فيما ذكر القُشيريُّ أبو نصر، وابنُ الأنباريِّ والنحاسُ والماورديُّ وغيرهم[(٣)]؛ قال ابن عباس: حلَّ الهِمْيَان وجلس منها مجلس الخاتن، وعنه: استلقت على قفاها، وقعد بين رجليها ينزع ثيابه. وقال سعيد ابن جُبير: أطلق تِكَّةَ سراويله. وقال مجاهد: حلَّ السراويل حتى بلغ الأليتين، وجلس منها مجلسَ الرجل من امرأته[(٤)].

قال ابن عباس: ولمَّا قال: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ قال له جبريل: ولا حين هَمَمْتَ بها يا يوسف؟ فقال عند ذلك: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾[(٥)]. قالوا: والانكفافُ

---

(١) ذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص١٢٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) الأضداد لابن الأنباري ص٤١١ .

(٣) الأضداد ص٤١٢ ، ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ٤١١ ، والنكت والعيون ٣/ ٢٥ .

(٤) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٣/ ٨٢ - ٨٥ وكلها من الإسرائيليات المكذوبة. قال أبو حيان في البحر ٥/ ٢٩٥ : طوَّل المفسرون في تفسير هذين الهمَّين، ونسب بعضهم ليوسف ما لا يجوز نسبته لآحاد الفسَّاق، والذي أختاره أن يوسف لم يقع منه هم البتة، بل هو منفيٌّ لوجود رؤية البرهان، كما تقول: لقد قارفتَ لولا أن عصمك الله... وأما أقوال السلف فنعتقد أنه لا يصح عن أحد منهم شيء من ذلك؛ لأنها أقوال متكاذبة يناقض بعضها بعضاً، مع كونها قادحة في بعض فساق المسلمين فضلاً عن المقطوع لهم بالعصمة، والذي روي عن السلف لا يساعد عليه كلام العرب؛ لأنهم قدَّروا جواب «لولا» محذوفاً ولا يدل عليه دليل... إلى آخر كلامه. وذكر الألوسي في روح المعاني ١٢/ ٢١٥ عن الطيبيِّ قوله: وجلُّ هذه الروايات بل كلها مأخوذ من مسألة أهل الكتاب.

(٥) أخرجه الحارث (٧١٦) (بغية الباحث)، والطبري ١٣/ ٢١٠ ، والبيهقي في الشعب (٧٢٩٠). قال الحارث: لا يصح، والأنبياء معصومون قبل البعثة وبعدها. اهـ. ثم إن سياق الآية يردُّ الخبر فإن قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ . . . ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ . . . مما حكاه الله تعالى عن امرأة العزيز وليس هو من كلام يوسف، إذ لم يكن يوسف عليه السلام عندهم، بل بعد ذلك أحضره الملك. ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره.

في مثل هذه الحالة دالٌّ على الإخلاص، وأعظمُ للثواب.

قلت: وهذا كان سببَ ثناء الله تعالى على ذي الكِفل، حَسْبَ ما يأتي بيانه في (ص) إن شاء الله تعالى(١).

وجوابُ «لولا» على هذا محذوف، أي: لولا أنْ رأى برهان ربِّه لَأمضَى ما همَّ به(٢)، ومثله: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥] وجوابُه: لم تتنافسوا.

قال ابن عطية(٣): روي هذا القول عن ابن عباس وجماعةٍ من السَّلَف، وقالوا: الحكمةُ في ذلك أن يكون مَثَلاً للمذنبين ليروا أن توبتَهم ترجع [بهم] إلى عفو الله تعالى، كما رجعت بمن(٤) هو خيرٌ منهم، ولم يُوْبِقْه القُرْبُ من الذنب، وهذا كلُّه على أنَّ همَّ يوسف بلغ فيما روت هذه الفرقةُ إلى أنْ جلس بين رجلَيْ زليخاء، وأخذ في حلِّ ثيابه وتِكَّته ونحو ذلك، وهي قد استَلْقَتْ له. حكاه الطبريّ(٥).

وقال أبو عبيد القاسم بن سلَّام: وابنُ عباس ومَن دونَه لا يختلفون في أنه همَّ بها، وهُمْ أعلمُ بالله وبتأويل كتابه، وأشدُّ تعظيماً للأنبياء من أن يتكلَّموا فيهم بغير علم. وقال الحسن: إنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يذكر معاصيَ الأنبياء ليعيِّرهم بها، ولكنَّه ذَكَرها لكيلا تيأسوا من التوبة(٦).

قال الغَزْنَويُّ: مع أنَّ لزلَّة الأنبياء حِكَماً: زيادةَ الوَجَل، وشدَّةَ الحياء بالخجل، والتخلِّيَ عن عُجْبِ العمل، والتلذُّذَ بنعمة العفو بعد الأمل، وكونَهم أئمةَ رجاءِ أهل الزلل.

---

(١) لم يذكر المصنف في قصته شيئاً في (ص)، وذكرها في تفسير سورة الأنبياء، الآية (٨٥).

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٠١ .

(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٣ - ٢٣٤ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) في (ظ) و(ف): من، وفي باقي النسخ: ممن، والمثبت من المحرر الوجيز.

(٥) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٨٠ - ٨٦ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤١٣ - ٤١٤ ، وكلام أبي عبيد، يمكن أن يسلّم به؛ فيما لو صحت تلك الروايات، وهيهات هيهات!

قال القُشيريُّ أبو نصر: وقال قوم: جرى من يوسفَ همٌّ، وكان ذلك الهمُّ حركةَ طَبْعٍ من غير تصميمٍ للعَقْد على الفعل، وما كان من هذا القَبِيل لا يؤاخَذ[١] به العبد، وقد يخطر بقلب المرء وهو صائمٌ شربَ الماء البارد، وتناولَ الطعام اللذيذ، فإذا لم يأكل ولم يشرب، ولم يصمِّم عَزْمَه على الأكل والشرب، لا يؤاخذ بما هَجَس في النفس، والبرهانُ صَرَفَه عن هذا الهمِّ حتى لم يَصِرْ عَزْماً مصمماً.

قُلت: هذا قولٌ حسن. وممَّن قال به الحسن.

قال ابن عطية[٢]: الذي أقول به في هذه الآية: إنَّ كونَ يوسفَ نبيًّا في وقتِ هذه النازلة لم يصحّ، ولا تظاهرت به روايةٌ، وإذا كان كذلك، فهو مؤمنٌ قد أوتيَ حُكماً وعلماً، ويجوز عليه الهمُّ الذي هو إرادةُ الشيء دون مُواقَعتِه، وأن يستصحب الخاطرَ الرديء على ما في ذلك من الخطيئة، وإن فرضناه نبيًّا في ذلك الوقت، فلا يجوز عليه عندي إلَّا الهمُّ الذي هو خاطر، ولا يصحُّ عليه شيءٌ مما ذُكر من حلِّ تِكَّته ونحوِه؛ لأنَّ العصمة مع النبوَّة. وما روي من أنَّه قيل له: تكونُ في ديوان الأنبياء وتَفْعَلُ فِعْلَ السفهاء؟![٣] فإنما معناه العِدَةُ بالنبوَّة فيما بعد.

قلت: ما ذكره من التفصيل صحيح، لكنَّ قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ يدلُّ على أنه كان نبيًّا على ما ذكرناه، وهو قولُ جماعة من العلماء، وإذا كان نبيًّا فلم يَبْقَ إلَّا أن يكون الهمُّ الذي همَّ به ما يَخْطُر في النفس ولا يَثْبُتُ في الصدر، وهو الذي رفع الله فيه المؤاخذةَ عن الخلق؛ إذ لا قدرةَ للمكلَّف على دَفْعِه، ويكون قولُه: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾ ـ إنْ كان من قول يوسفَ ـ أي: مِن هذا الهمّ، أو يكون ذلك منه على طريق التواضُع والاعتراف بمخالفة[٤] النفس لِمَا زكِّي به قبلُ وبُرِّئ؛ وقد أخبر الله تعالى

---

(١) في (م): يؤخذ.

(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٤ .

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٨٩ - ٩٠ عن قتادة، وأخرجه الثعلبي في العرائس ص١٢٢ عن ابن عباس مطولاً، وسيذكره المصنف قريباً في تفسير قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾.

(٤) في النسخ: لمخالفة، والمثبت من الشفا للقاضي عياض ٢/ ٣٧٥ ، والكلام منه.

عن حال يوسف من حين بلوغه فقال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾ [يوسف: ٢٢] على ما تقدَّم بيانه، وخَبَرُ الله تعالى صِدْقٌ، ووَصْفُه صحيح، وكلامُه حقٌّ، فقد عمل يوسف بما علَّمه الله من تحريم الزِّنى ومقدِّماته، وخيانةِ السيد والجار والأجنبي في أهله، فما تعرَّض لامرأة العزيز، ولا أجاب إلى المُراودة، بل أدبر عنها وفرَّ منها؛ حكمةً خُصَّ بها، وعملاً بمقتضى ما علَّمه الله[١].

وفي «صحيح» مسلم عن أبي هُريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «قالت الملائكةُ: ربِّ ذاك عبدُك يريد أن يعمل سيئةً، وهو أَبْصَرُ به، فقال: ارقُبُوه، فإنْ عَمِلَها فاكتبوها له بمِثْلِها، وإنْ تَرَكَها فاكتبوها له حَسَنةً؛ إنَّما تَرَكَها من جَرَّاي»[٢].

وقال عليه الصلاة والسلام مُخْبِراً عن ربِّه: «إذا هَمَّ عبدي بسيئةٍ فلمْ يَعْمَلْها، كُتبتْ حسنة»[٣] فإنْ كان ما يَهُمُّ به العبد من السيئة يُكتب له بتَرْكها حسنة؛ فلا ذنب. وفي الصحيح: «إنَّ الله تَجاوَزَ لأمتي عما حدَّثتْ به أَنْفُسَها ما لم تَعْمَل أو تَكلَّمْ به» وقد تقدَّم[٤].

قال ابن العربي[٥]: كان بمدينة السلام إمامٌ من أئمة الصوفية ـ وأيُّ إمام ـ يُعرف بابن عطاء، تكلَّم يوماً على يوسفَ وأخبارِه حتى ذكر تَبْرِئته مما نُسب إليه من مكروه،

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٧٠ . وقال أيضاً: وهذا يطمس وجوه الجهلة من الناس، والغَفْلة من العلماء في نسبتهم إليه ما لا يليق به، وأقل ما اقتحموا من ذلك أنه هتك السراويل، وهم بالفتك فيما رأوه من تأويل، وحاش لله ما علمت عليه من سوء، بل أبرِّئه مما برَّأه الله منه... فما لهؤلاء المفسرين لا يكادون يفقهون حديثاً، ويقولون: فعل وفعل، والله إنما قال: همَّ بها. اهـ. وقد استفاض الإمام الرازي رحمه الله في تفسيره ١٨/ ١١٥ - ١٢٠ في الكلام على هذه المسألة، وفي إثبات العصمة ليوسف عليه السلام مما نسب إليه، وذكر أن أصحاب هذه المقالة ما ذكروا آية يحتج بها، ولا حديثاً صحيحاً يعوَّل عليه في تصحيح مقالتهم.

(٢) صحيح مسلم (١٢٩)، وهو عند أحمد (٨٢١٩). قوله: «من جرَّاي» أي: من أجلي. المفهم ١/ ٣٤٢ .

(٣) أخرجه مطولاً أحمد (٧٢٩٦)، والبخاري (٧٥٠١) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه مسلم (١٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) ٤/ ٤٨٧ .

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٧٠ - ١٠٧١ .

فقام رجلٌ من آخِر مجلسه ـ وهو مشحونٌ بالخليقة من كلِّ طائفةٍ ـ فقال: يا شيخ، يا سيدنا، فإذاً يوسفُ همَّ وما تَمَّ؟ قال: نعم، لأنَّ العناية مِن ثَمَّ. فانظر إلى حلاوة العالم والمتعلِّم، وانظر إلى فِطْنة العاميِّ في سؤاله، وجوابِ العالم في اختصاره واستيفائه؛ ولذلك قال علماء الصوفية: إنَّ فائدة قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾ إنَّما أعطاه ذلك إبَّان غَلَبة الشهوة لتكون له سبباً للعصمة.

قلت: وإذا تقرَّرتْ عصمتُه وبراءتُه بثناءِ الله تعالى عليه، فلا يصحُّ ما قال مُصْعَب ابن عثمان: إنَّ سليمان بن يسار كان من أحسن الناس وجهاً، فاشتاقته امرأة، فسَامَتْه نَفْسَها، فامتنع عليها وذكَّرها، فقالت: إن لم تفعل لأُشهِّرنَّك. فخرج وتركها، فرأى في منامه يوسفَ الصّديقَ عليه السلام جالساً فقال: أنت يوسف؟ فقال: أنا يوسف الذي هممتُ، وأنت سليمانُ الذي لم تَهمّ[1]. فإنَّ هذا يقتضي أن تكون درجةُ الولاية أرفعَ من درجة النبوَّة، وهو مُحال؛ ولو قدَّرنا يوسف غيرَ نبيٍّ فدرجتُه الولاية، فيكون محفوظاً كهو، ولو غلِّقت على سليمان الأبوابُ، وروجع في المقال والخطاب، والكلامِ والجواب، مع طول الصُّحبة، لخِيفَ عليه الفتنةُ وعظيمُ المحنة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ «أن» في موضعِ رفع؛ أي: لولا رؤيةُ برهانِ ربِّه، والجوابُ محذوفٌ لعِلْمِ السامع[2]، أي: لكان ما كان. وهذا البرهانُ غيرُ مذكور في القرآن؛ فرُوي عن عليّ بن أبي طالب ﷺ أنَّ زليخاء قامت إلى صنمٍ مكلَّلٍ بالدُّرِّ والياقوت في زاوية البيت فسترته بثوب، فقال: ما تصنعين؟ قالت: أستحي من إلهي هذا أن يراني في هذه الصورة، فقال يوسف: أنا أَوْلَى أن أستحي من الله[3].

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ١٩٠ - ١٩١ ، والبيهقي في الشعب (٧١١١) و(٧٢٨٠)، وإسناده منقطع كما ذكر الذهبي في السير ٤/ ٤٤٤ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٣ .

(٣) أخرجه عن علي ﷺ أبو نعيم في الحلية ٣/ ١٨١ . وأخرجه الثعلبي في العرائس ص١٢٣ عن علي بن الحسين، وكذا ذكره البغوي في التفسير ٢/ ٤٢٠ - ٤٢١ ، عن علي بن الحسين.

وهذا أحسن ما قيل فيه؛ لأنَّ فيه إقامةَ الدليل.

وقيل: رأى مكتوباً في سقف البيت ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢][١].

وقال ابن عباس: بَدَتْ كفٌّ مكتوبٌ عليها: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ﴾ [الانفطار: ١٠][٢].

وقال قوم: تذكَّرَ عهدَ الله وميثاقَه.

وقيل: نودي يا يوسف! أنت مكتوبٌ في ديوان الأنبياء، وتعملُ عملَ السفهاء؟![٣]

وقيل: رأى صورةَ يعقوبَ على الجدران[٤] عاضًا على أُنملته يتوعَّدُه، فسكن، وخرجت شهوتُه من أنامله. قاله قَتادةُ ومجاهد والحسن والضَّحاك وأبو صالح وسعيد ابن جُبير[٥].

وروى الأعمش عن مجاهد قال: حلَّ سراويلَه، فتَمثَّل له يعقوبُ فقال له: يا يوسف! فولَّى هارباً. وروى سفيان، عن أبي حصين، عن سعيد بن جُبير قال: مَثَلَ له يعقوبُ، فضرب صدره، فخرجت شهوته من أنامله[٦]. قال مجاهد: فولد لكلِّ واحدٍ من أولاد يعقوبَ اثنا عشر ذكراً، إلَّا يوسفَ لم يولد له إلَّا غلامان، ونقص بتلك

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/٩٨ عن محمد بن كعب القرظي.

(٢) أخرجه مطولاً الثعلبي في العرائس ص١٢٢، والواحدي في الوسيط ٢/٦٠٨ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) سلف ص٣١٤ من هذا الجزء عن ابن عباس وقتادة.

(٤) في (ز) و(ظ): الجدار.

(٥) أخرج قولهم الطبري ١٣/ ٩٠ – ٩٧.

(٦) ذكر الخبرين النحاس في معاني القرآن ٣/ ٤١٢، وخبر سعيد بن جبير أخرجه الطبري ١٣/ ٩١ و ٩٢. قال أبو حيان في البحر ٥/ ٢٩٥: والبرهان الذي رآه يوسف هو ما آتاه الله من العلم الدال على تحريم ما حرمه الله.

الشهوة ولده[١].

وقيل غير هذا. وبالجملة: فذلك البرهانُ آيةٌ من آيات الله، أراها اللهُ يوسفَ حتى قويَ إيمانه، وامتنع عن المعصية.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ الكاف من «كَذَٰلِكَ» يجوز أن تكون رفعاً، بأن يكون خبرَ ابتداءٍ محذوف، التقدير: [أَمْرُ] البراهين كذلك، و[يجوز أن] يكون نعتاً لمصدر محذوف؛ أي: أريناه البراهين رؤيةً كذلك[٢].

والسوء: الشَّهوة، والفحشاءُ: المباشرة. وقيل: السوء: الثناء القبيح، والفحشاءُ: الزنى. وقيل: السوءُ: خيانةُ صاحبه، والفحشاء: ركوبُ الفاحشة. وقيل: السوء: عقوبةُ الملك العزيز[٣].

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ بكسر اللام، وتأويلُها: الذين أَخْلَصوا طاعةَ الله. وقرأ الباقون بفتح اللام، وتأويلُها: الذين أَخْلَصهم اللهُ لرسالته، وقد كان يوسف ﷺ بهاتين الصفتين؛ لأنه كان مخلِصاً في طاعة الله تعالى، مُسْتَخلَصاً لرسالة الله تعالى[٤].

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾.

فيه مسألتان:

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٦.

(٢) مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٨٥، وبنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٣، وما سلف بين حاصرتين منهما.

(٣) تنظر هذه الأقوال في معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٠٢ ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ٤١٦، والنكت والعيون ٣/ ٢٦.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٦، والقراءتان في السبعة ص٣٤٨، والتيسير ص١٢٨.

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ قال العلماء: وهذا من اختصار القرآن المعجِز الذي يجتمع فيه المعاني؛ وذلك أنه لمَّا رأى برهان ربِّه؛ هرب منها، فتَعادَيا؛ هي لتردَّه إلى نفسها، وهو ليهرب عنها، فأدركته قبل أن يخرج، فقَدَّتْ قميصَه من دُبُرٍ - أي: من خَلْفه - قبضت في أعلى قميصِه فتخرَّق القميص عند طَوْقه، ونزل التَّخريقُ إلى أسفلِ القميص[1]. والاستباقُ: طَلَبُ السَّبْق إلى الشيء، ومنه السِّباق. والقَدُّ: القطع، وأكثرُ ما يستعمل فيما كان طولاً؛ قال النابغة:

تَقُدُّ السَّلُوقيَّ المُضاعَفَ نَسْجُهُ   وتُوقِدُ بالصُّفَّاحِ نارَ الحُبَاحِبِ[2]

والقَطُّ: بالطاء يُستعمل فيما كان عَرْضاً[3].

وقال المفضَّل بن حرب: قرأتُ في مصحف: «فَلَمَّا رأى قميصَهُ عُطَّ من دُبُرٍ»[4] أي: شُقَّ. قال يعقوب[5]: العَطُّ: الشَّقُّ في الجلد الصحيح والثوبِ الصحيح.

وحذفت الألف من «اسْتَبَقَا» في اللفظ؛ لسكونها وسكونِ اللام بعدها، كما يقال: جاءني عبدَ الله؛ في التثنية، ومِن العرب مَن يقول: جاءني عبدا الله؛ بإثبات الألف بغير همزٍ، يَجمع بين ساكنين؛ لأنَّ الثاني مُدْغَم، والأوّل حرف مدٍّ ولين. ومنهم مَن يقول: عبدا ألله بإثبات الألف والهمز، كما تقول في الوقف[6].

الثانية: في الآية دليلٌ على القياس والاعتبار، والعمل بالعرف والعادة؛ لمَا ذُكر

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٥.

(٢) ديوان النابغة الذبياني ص١١، وسلف ص٢١٨ من هذا الجزء برواية: تَجُذُّ السَّلوقيَّ...

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٥.

(٤) ذكرها الزمخشري في أساس البلاغة (عطط)، والصَّغَاني في العباب الزاخر (عطط) عن المفضل، وذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٦ دون نسبة. قال الصغاني: لم أعلم أحداً من أهل الشَّوَاذِّ قرأ بها. اهـ. ولم نقف على المفضل بن حرب.

(٥) هو ابن السكيت، وكلامه في تهذيب الألفاظ ١/ ١٠٤ مختصر بلفظ: العط: الشق، وينظر تهذيب اللغة ١/ ٨٦.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٣ - ٣٢٤.

من قدِّ القميص مُقْبِلاً ومُدْبِراً، وهذا أمرٌ انفرد به المالكية في كتبهم، وذلك أنَّ القميص إذا جُبِذ من خلف، تمزَّق من تلك الجهة، وإذا جُبِذ من قدَّام، تمزَّق من تلك الجهة، وهذا هو الأغلب(١).

قوله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ﴾ أي: وجدا العزيزَ عند الباب، وعُنيَ بالسيِّد الزوجُ، والقبطُ يسمُّون الزوجَ سيِّداً(٢). يقال: ألْفاه وصادفه ووارَطَه ووالَطَه ولاطَه، كلُّه بمعنًى واحد. فلمَّا رأت زوجها طلبت وجهاً للحيلة وكادت، فـ ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ أي: زنًى ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تقول: يُضرب ضرباً وجيعاً.

و«ما جَزَاءُ» ابتداء، وخبرُه: «أنْ يُسْجَنَ». «أوْ عَذَابٌ» عطف على موضع «أنْ يُسْجَنَ»؛ لأنَّ المعنى: إلَّا السجنُ. ويجوز: أو عذاباً أليماً، بمعنى: أو يعذَّب عذاباً أليماً؛ قاله الكسائيّ(٣).

قوله تعالى: ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِىۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِىۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قال العلماء: لمَّا برَّأت نفسها، ولم تكن صادقةً في حبِّه ـ لأنَّ من شأن

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٧١ و ١٠٧٣.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٧.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٤، وقرأ: «أو عذاباً أليماً» زيد بن علي، كما في البحر ٥/ ٢٩٧.

المحبُّ إيثارَ المحبوب ـ قال: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ نطق يوسفُ بالحقِّ في مقابلةِ بَهْتِهَا وكذبها عليه. قال نوفٌ الشاميُّ وغيره: كان يوسف عليه السلام لم يَبِنْ عن[1] كشف القضية، فلما بَغَت غضب فقال الحق[2].

الثانية: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ لأنَّهما لمَّا تعارَضا في القول، احتاج الملك إلى شاهدٍ ليعلم الصادق من الكاذب، فشهد شاهدٌ من أهلها، أي: حَكَم حاكمٌ من أهلها؛ لأنَّه حُكْمٌ منه، وليس بشهادة[3].

وقد اختلف في هذا الشاهد على أقوال أربعة:

الأوّل: أنه طفلٌ في المهد تكلَّم. قال السُّهيلي: وهو الصحيح؛ للحديث الوارد فيه عن النبيِّ ﷺ؛ وهو قوله: «لم يتكلَّمْ في المهد إلا ثلاثةٌ» وذكر فيهم شاهدَ يوسف[4]. وقال القُشيريُّ أبو نصر: قيل: كان صبيًّا في المهد في الدار وهو ابن خالتها. وروى سعيد بن جُبير، عن ابن عباس، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «تكلَّم أربعةٌ وهم صغار» فذكر منهم شاهدَ يوسف[5]، فهذا قول.

الثاني: أنَّ الشاهد قَدُّ القميص؛ رواه ابن أبي نَجيح عن مجاهد[6]. وهو مَجازٌ صحيح من جهة اللغة؛ فإنَّ لسان الحال أبلغُ من لسان المقال. وقد تضيف العرب الكلامَ إلى الجمادات، وتُخبر عنها بما هي عليه من الصفات، وذلك كثيرٌ في أشعارها وكلامها، ومن أحلاه قولُ بعضهم: قال الحائط للوتد: لِمَ تَشُقُّني؟ قال له: سَلْ مَن يَدقُّني. إلَّا أن قول الله تعالى بعدُ: ﴿مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ يُبْطِلُ أن يكون القميص[7].

---

(١) في (د) والمحرر الوجيز ٣/ ٢٣٦ (والكلام منه): على.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٦ ، وأخرجه الطبري ١٣/ ١٠٤ بنحوه.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٧ - ٢٨ .

(٤) التعريف والإعلام ص٨٠ - ٨١ ، والحديث سلف ٥/ ١٣٩ .

(٥) أخرجه أحمد (٢٨٢٢)، والبزار (٥٤ - كشف)، والطبري ١٣/ ١٠٦ ، والحاكم ٢/ ٤٩٦ - ٤٩٧ مرفوعاً، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٨٢١) موقوفاً.

(٦) أخرجه الطبري ١٣/ ١١١ .

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٧٢ ، ووقع فيه: ومن أجلاه، بدل: ومن أحلاه.

الثالث: أنه خَلْقٌ مِن خَلْقِ الله تعالى ليس بإنسيٍّ ولا بجنيٍّ. قاله مجاهدٌ أيضاً[١]. وهذا يردُّه قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِهَآ﴾.

الرابع: أنه رجلٌ حكيم ذو عقل، كان الوزير يستشيره في أموره، وكان من جملة أهل المرأة، وكان مع زوجها فقال: قد سمعتُ الاستِبْدارَ[٢] والجَلَبة من وراء الباب، وشَقَّ القميص، فلا يُدرى أيُّكما كان قدَّامَ صاحبه؛ فإن كان شقّ القميص من قدَّامه فأنتِ صادقة، وإن كان من خلفه فهو صادق، فنظروا إلى القميص فإذا هو مشقوقٌ من خلف. هذا قول الحسن وعِكرمة وقتادةَ والضَّحَّاك ومجاهد أيضاً والسدّي. قال السدّي: كان ابنَ عمها. وروي عن ابن عباس، وهو الصحيح في الباب. والله أعلم.

وروي عن ابن عباس ـ رواه عنه إسرائيل، عن سِماك، عن عِكرمة ـ قال: كان رجلاً ذا لحية. وقال سفيان، عن جابر، عن ابن أبي مليكة، عن ابن عباس أنه قال: كان من خاصَّة الملك. وقال عكرمة: لم يكن بصبيٍّ، ولكن كان رجلاً حكيماً. وروى سفيان عن منصور، عن مجاهد قال: كان رجلاً[٣].

قال أبو جعفر النحاس[٤]: والأشبهُ بالمعنى ـ والله أعلم ـ أن يكون رجلاً عاقلاً حكيماً شاوره الملك، فجاء بهذه الدلالة، ولو كان طفلاً لكانت شهادته ليوسف ﷺ تُغني عن أن يأتيَ بدليل من العادة؛ لأنَّ كلام الطفل آيةٌ معجزة، فكانت أوضحَ من الاستدلال بالعادة، وليس هذا بمخالفٍ للحديث: «تكلَّم أربعةٌ وهم صغار» منهم صاحب يوسف. يكون المعنى: صغيراً ليس بشيخ، وفي هذا دليلٌ آخَرُ، وهو أنَّ ابن عباس رضي الله عنهما روى الحديث عن النبيِّ ﷺ، وقد تَواترت الروايةُ عنه أنَّ صاحب يوسفَ ليس بصبيّ.

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٨ ، وأخرجه ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٢٨ (١١٥٠٦). قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: هذا قول غريب.

(٢) في (ظ): الاستباق، ووقع في الوسيط ٢/ ٦٠٩ ، وزاد المسير ٤/ ٢١١ : الاشتداد.

(٣) أخرج جميع ما سلف من أخبار في القول الرابع الطبري ١٣/ ١٠٧ - ١١٠ .

(٤) في إعراب القرآن ٢/ ٣٢٤ .

قلت: قد رُوي عن ابن عباس وأبي هُريرة وابنِ جُبير وهلال بن يَساف والضّحاك أنه كان صبيًّا في المهد(١). إلّا أنه لو كان صبيًّا تكلَّم، لكان الدليلُ نفسَ كلامه، دون أن يحتاج إلى استدلالٍ بالقميص، وكان يكون ذلك خرقَ عادة، ونوعَ معجزة. والله أعلم. وسيأتي مَن تكلَّم في المهد من الصبيان في سورة البروج(٢) إن شاء الله.

الثالثة: إذا تَنزَّلْنا على أنْ يكون الشاهد طفلاً صغيراً، فلا يكون فيه دلالةٌ على العمل بالأمارات كما ذكرنا، وإذا كان رجلاً، فيصِحُّ أن يكون حجةً بالحُكم بالعلامة في اللُّقَطة وكثير من المواضع، حتى قال مالك في اللصوص: إذا وُجدت معهم أمتعة، فجاء قوم فادَّعَوْها وليست لهم بيِّنة، فإنَّ السلطان يَتَلَوَّم لهم في ذلك، فإن لم يأت غيرُهم دفعها إليهم(٣). وقال محمد في متاع البيت إذا اختلفت فيه المرأة والرجل: إنَّ ما كان للرجال فهو للرجل، وما كان للنساء فهو للمرأة، وما كان للرجل والمرأة فهو للرجل(٤). وكان شُرَيح وإياس بنُ معاوية يعملان على العلامات في الحكومات، وأصل ذلك هذه الآية(٥). والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ «كان» في موضع جزمٍ بالشرط، وفيه من النَّحو ما يُشْكِل؛ لأنَّ حروف الشرط تَردُّ الماضي إلى المستقبل، وليس هذا في «كان»؛ فقال المبرِّد محمد بنُ يزيد: هذا لقوَّةِ «كان»، وأنه يعبَّر بها عن جميع الأفعال. وقال الزجَّاج(٦): المعنى: إن يكن، أي: إن يُعلَم، والعلم لم يقع، وكذا الكونُ؛ لأنَّه يؤدِّي عن العلم. «قُدَّ مِنْ قُبُلٍ» فخبَّر عن «كان» بالفعل الماضي، كما قال زهير:

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٦، وأخرج قولهم الطبري ١٣/ ١٠٥ - ١٠٧.

(٢) عند تفسير الآيات (٤ - ٧) منها.

(٣) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٣١. والتلوُّم: الانتظار والتمكُّث. الصحاح (لوم).

(٤) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ١٧١، ومحمد هو ابن الحسن الشيباني.

(٥) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٣١.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ١٠٤، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٢٤ وما قبله منه.

وكان طَوَى كَشْحاً على مُسْتَكِنَّةٍ فلا هو أبداهَا ولم يَتقدَّمِ[(١)]

وقرأ يحيى بن يعمر وابنُ أبي إسحاق: «مِن قُبُلُ» بضم القاف والباء واللام، وكذا «دُبُرُ»[(٢)]؛ قال الزجاج[(٣)]: يجعلهما غايتين كقَبْلُ وبَعْدُ، كأنه قال: من قُبُلِه ومن دُبُرِه، فلما حذف المضاف إليه ـ وهو مرادٌ ـ صار المضافُ غايةً نفسه بعد أن كان المضاف إليه غايةً له.

ويجوز: «من قُبُلَ» و«من دُبُرَ» بفتح الراء واللام تشبيهاً بما لا ينصرف؛ لأنَّه معرفةٌ ومزالٌ عن بابه[(٤)].

وروى محبوبٌ عن أبي عمرو: «من قُبْلٍ» و«من دُبْرٍ» مخفَّفان مجروران[(٥)].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ قيل: قال لها ذلك العزيزُ عند قولها: «ما جَزَاءُ مَن أَرَادَ بأَهْلكَ سُوءاً»[(٦)]. وقيل: قاله لها الشاهد. والكيد: المكر والحيلة. وقد تقدَّم في «الأنفال»[(٧)]. ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ وإنَّما قال: «عَظِيمٌ» لِعظَم فتنتهنَّ واحتيالهنَّ في التخلُّص من ورطتهنّ.

وقال مقاتل عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ كيدَ النساء أعظمُ من كيد الشيطان؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] وقال: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾»[(٨)].

---

(١) ديوان زهير ص٢٢، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٥ (والكلام منه)، والخزانة ٣/ ١٤، و ٤/ ٣. قال البغدادي: يقال: طوى كشحه على فعلة: إذا أضمرها في نفسه. والمستكنَّة: المستترة، أي: أضمر على غَدْرة مستترة. والكشح: الجنب، وقيل: الخاصرة.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٥، والقراءات الشاذة ص٦٣، والمحتسب ١/ ٣٣٨.

(٣) في معاني القرآن ٣/ ١٠٣، وذكره أيضاً النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٢٥.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٠٣، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٥.

(٥) ذكرها عن أبي عمرو ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٦، وهي في القراءات الشاذة ص٦٣ عن الحسن.

(٦) كذا قال المصنف رحمه الله، وقد ذكر الزجاج في معاني القرآن ٣/ ١٠٣ أن المعنى: إن قولكِ: ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً...، من كيدكن.

(٧) ٩/ ٤٧٩.

(٨) لم نقف عليه. وإسناده في غاية الضعف، مقاتل ـ وهو ابن سليمان ـ كذبوه وهجروه ورُمي بالتجسيم، =

قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ القائلُ هذا هو الشاهد. و«يوسف» نداءٌ مفرَد، أي: يا يوسف. فحذف. «أعْرِضْ عن هذا» أي: لا تَذْكُره لأحدٍ واكْتُمْه. ثم أقبل عليها فقال: وأنتِ استغفري لذنبكِ يقول: استغفري زوجَك من ذنبك؛ لا يعاقبك.

﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِئِينَ﴾ ولم يقل: من الخاطئات؛ لأنَّه قَصَدَ الإخبار عن المذكَّر والمؤنَّث، فغلَّب المذكَّر، والمعنى: من الناس الخاطئين، أو من القوم الخاطئين، مثل: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [النمل: ٤٣] ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢][١].

وقيل: إنَّ القائلَ ليوسف: أعرض، ولها: استغفري، زوجُها الملك؛ وفيه قولان: أحدهما: أنه لم يكن غَيُوراً؛ فلذلك كان ساكتاً. وعدمُ الغَيرة في كثير من أهل مصرَ موجود. الثاني: أنَّ الله تعالى سَلَبَه الغَيرةَ، وكان فيه لطفٌ بيوسف حتى كُفي بادِرتَه وحَلُم عنها[٢].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ ويقال: «نُسوة» بضمِّ النون، وهي قراءةُ

= كما ذكر الحافظ ابن حجر في التقريب، ثم إن يحيى بن أبي كثير لا يروي عن الصحابة.

(١) تفسير البغوي ٢/ ٤٢٢ .

(٢) في (د) و(ز) و(م): وعفا عنها، والمثبت من (ظ) و(ف)، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٣/ ٢٩ ، والكلام منه عدا قوله: وعدم الغيرة في كثير من أهل مصر موجود، وما كان ينبغي للمصنف رحمه الله أن يقول هذا!

الأعمش والمفضَّل والسُّلَميّ، والجمعُ الكثير: نساء[١]. ويجوز: وقالت نسوة، وقال نسوة، مثل: قالت الأعراب وقال الأعراب.

وذلك أنَّ القصة انتشرت في أهل مصر، فتحدَّث النساء. قيل: امرأة ساقي العزيز، وامرأة خبازه، وامرأة صاحب دوابّه، وامرأة صاحب سجنه. وقيل: امرأة الحاجب. عن ابن عباس وغيره[٢].

﴿تُرَاوِدُ فَتَنٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ الفتى في كلام العرب: الشابّ، والمرأة فتاة. ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ قيل: شَغَفَها: غَلَبها[٣]. وقيل: دخل حبُّه في شَغافها. عن مجاهد[٤] وغيره. وروى عمرو بن دينار، عن عِكرمة، عن ابن عباس قال: دخل تحت شَغافها[٥]. وقال الحسن: الشَّغاف[٦]: باطن القلب. السُّدِّيُّ وأبو عبيدة[٧]: شَغافُ القلب: غِلافُه؛ وهو جلدةٌ عليه. وقيل: هو وَسَطُ القلب[٨]. والمعنى في هذه الأقوال متقارب، والمعنى: وصل حبُّه إلى شَغَافها، فغلب عليه[٩]؛ قال النابغة:

وقد حال هَمٌّ دون ذلك داخلٌ ... دخولَ الشَّغافِ تبتغيه الأصابع[١٠]

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٥ ، دون ذكر القراءة، وذكرها العكبري في الإملاء (على هامش الفتوحات الإلهية) ٣/ ٣٣٠ دون نسبة.

(٢) ينظر عرائس المجالس ص١٢٣ - ١٢٤ ، وتفسير أبي الليث ٢/ ١٥٩ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤٢٢ ، وزاد المسير ٤/ ٢١٤ ، وتفسير الرازي ١٨/ ١٢٦ .

(٣) أخرج الطبري ١٣/ ١١٦ هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ١١٦ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤١٨ ، وأخرجه الطبري ١٣/ ١١٥ من طريق عمرو عن عكرمة قوله.

(٦) في النسخ: الشغف، والمثبت من النكت والعيون ٣/ ٣٠ ، ومفردات الراغب (شغف)، وفيهما قول الحسن.

(٧) في (د) و(م): وأبو عبيد. وكلام أبي عبيدة في كتابه مجاز القرآن ١/ ٣٠٨ ، وذكره عن السدي الماورديُّ في النكت والعيون ٣/ ٣٠ .

(٨) مفردات الراغب (شغف).

(٩) في معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤١٩ (والكلام منه): فغلب على قلبها.

(١٠) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤١٩ ، وللزجاج ٣/ ١٠٥ ، والبيت في ديوان النابغة الذبياني ص٧٩ =

وقد قيل: إنَّ الشَّغاف داء. وأنشد الأصمعيُّ للراجز:

يـتـبـعـهـا وهـي لـه شَـغَـافُ[١]

وقرأ جعفر[٢] بن محمد وابن محيصن والحسن: «شَعَفَهَا» بالعين غير معجمة[٣]. قال ابن الأعرابي: معناه أحرق حبُّه قلبها. قال: وعلى الأوّل العمل[٤].

قال الجوهريّ[٥]: وشَعفَه الحبُّ: أحرق قلبه. وقال أبو زيد: أَمْرَضَه. وقد شُعِف بكذا فهو مشعوف. وقرأ الحسن: «قَدْ شَعَفَهَا» قال: بَطَنَها حبًّا.

قال النحاس[٦]: معناه عند أكثر أهل اللغة: قد ذهب بها كلَّ مذهب؛ لأنَّ شِعَاف الجبال أعاليها، وقد شُغِف بذلك شَغْفاً بإسكان الغين[٧]: إذا أُولع به، إلا أن أبا عبيد[٨] أنشد بيت امرئ القيس:

أيـقـتـلـنـي[٩] وقـد شَـعَـفْـتُ فـؤادَهـا   كَمَا شَعَفَ الْمَهْنُوءَةَ الرّجلُ الطَّالي[١٠]

= برواية: شاغلٌ مكان، بدل: داخل دخول. وذكره البغدادي في الخزانة ٢/ ٤٥٦ وقال: تبتغيه الأصابع: أي تلتمسه أصابع المتطبِّبين؛ هل انحدر نحو الطحال فيُتوقع على صاحبه الموت؟.

(١) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤١٩ .

(٢) في (ف) و(م): أبو جعفر، وهو خطأ.

(٣) المحتسب ١/ ٣٣٩ .

(٤) ياقوتة الصراط لغلام ثعلب ص٢٧٤ دون نسبة.

(٥) في الصحاح (شعف).

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٤١٩ - ٤٢٠ .

(٧) في (ز) و(ف) ومطبوع معاني القرآن: شعف بذلك شعفاً بإسكان العين، والمثبت من باقي النسخ وهو موافق لما في اللسان وتاج العروس (شغف).

(٨) في النسخ عدا (د): أبا عبيدة، والمثبت من (د) ومعاني القرآن.

(٩) في (م): لتقتلني، وفي (د) و(ز): ليقتلني، وفي (ظ): فتقتلني، والمثبت من (ف) والمصادر على ما يأتي.

(١٠) أمالي القالي ١/ ٢٠٥ ، ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٠ ، وهو في الديوان برواية: شغفت... كما شغف، بالمعجمة، وقال شارح الديوان: ويروى: شَعَفْتُ، بالعين غير المعجمة، والمعنى: بلغتُ الغاية حتى غَلَبْتُها على فؤادها، كما يبلغ القطران من الناقة المهنوءة، وهي المَطْليَّةُ بالقطران، وهي تستلذُّه حتى تكاد يغشى عليها.

قال: فشبِّهت لوعةُ الحبّ وجَوَاه بذلك. ورُوي عن الشَّعْبيِّ أنه قال: الشَّغف بالغين المعجمَة حُبٌّ، والشَّعف بالعين غيرِ المعجمة جنونٌ[١].

قال النحاس[٢]: وحُكي: «قد شَغِفَها» بكسر الغين، ولا يُعرف في كلام العرب إلا «شَغَفها» بفتح الغين، وكذا «شَعَفها»، أي: تركها مشعوفة.

وقال سعيد بن أبي عَرُوبة عن الحسن: الشَّغاف حجاب القلب[٣]، والشَّعاف سويداء القلب، فلو وصل الحبُّ إلى الشَّعاف لماتت. وقال الحسن: ويقال: إنَّ الشَّغاف الجلدةُ اللاصقة بالقلب التي لا ترى، وهي الجلدةُ البيضاء[٤]، فلصق حبُّه بقلبها كلُصُوق الجلدة بالقلب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في هذا الفعل. وقال قَتَادة: «فَتَاهَا» وهو فتى زوجها؛ لأنَّ يوسف كان عندهم في حكم المماليك، وكان يَنْفُذ أمرُها فيه. وقال مقاتلٌ، عن أبي عثمان النَّهْديِّ، عن سلمان الفارسيِّ قال: إنَّ امرأة العزيز استوهبت زوجها يوسف، فوهبه لها وقال: ما تصنعين به؟ قالت: أتَّخذه ولداً، قال: هو لك، فربَّته حتى أَيْفَعَ وفي نفسها منه ما في نفسها، فكانت تنكشف له وتتزيَّن وتدعوه من وجه اللطف، فعصمه الله[٥].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أي: بغيبتهنَّ إياها، واحتيالهنَّ في ذمها. وقيل: إنها أطلعتهنَّ واستكْتَمتهنَّ[٦] فأفشَيْنَ سرَّها، فسمِّي ذلك مكراً.

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٣١، وأخرجه الطبري ١٣/ ١١٦ - ١١٧.

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٣٢٥.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٣١ (١١٥٢٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما. ولم نقف عليه عن الحسن، فقد سلف قول الحسن: الشغاف باطن القلب.

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٠ عن السدي وسفيان بنحوه، ولم نقف عليه عن الحسن.

(٥) لم نقف عليه.

(٦) في (م): استأمنتهن، وفي (د): استمكنتهن، والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق لما في معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٠، والكلام منه.

وقوله: ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ في الكلام حذف، أي: أرسلت إليهن تدعوهنَّ إلى وَليمةٍ لتُوقِعَهنَّ فيما وقعت فيه[١]؛ فقال مجاهد عن ابن عباس: إنَّ امرأة العزيز قالت لزوجها: إني أريد أن أتَّخذ طعاماً فأدعوَ هؤلاء النِّسوة. فقال لها: افعلي. فاتخذت طعاماً، ثم نَجَّدت لهنَّ البيوت ـ نَجَّدت، أي: زيَّنت، والنَّجْد: ما يُنجَّد به البيت من المتاع، أي: يُزيَّن، والجمعُ: نُجُود؛ عن أبي عُبيد، والتَّنجيد: التزيين[٢] ـ وأرسلت إليهنَّ أن يحضُرن طعامَها، ولا تتخلَّفْ منكنَّ امرأةٌ ممن سمَّيتُ.

قال وهب بن مُنَبِّه: إنهنَّ كنَّ أربعين امرأة[٣]، فجئن على كَرْهٍ منهنّ، وقد قال فيهنَ أُمَيَّةُ بن أبي الصَّلْت:

حتَّى إذا جئنَها قسراً ومهَّدت لهنّ أنضاداً وكبابا[٤]

ويُروى: أنماطاً.

قال وهب: فجئن وأخذنَ مجالسهنّ. ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ أي: هيَّأت لهنَّ مجالسَ يتَّكِئْنَ عليها. قال ابن جُبير: في كلِّ مجلس جَامٌ فيه عسل وأُتْرُجٌّ وسكِّين حادّ.

وقرأ مجاهد وسعيد بن جُبير: «مُتْكاً» مخفَّفاً غيرَ مهموز[٥]، والمُتْك هو الأُتْرُجّ بلغة القبط. وكذلك فسره مجاهد؛ روى سفيان، عن منصور، عن مجاهد قال: المُتَّكأ مثقَّلاً: الطعام، والمُتْك مخفَّفاً: الأتْرُجّ[٦]؛ وقال الشاعر:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٥.

(٢) الصحاح (نجد).

(٣) ذكره البغوي ٢/ ٤٢٣.

(٤) كذا في النسخ، ولم نقف عليه. وأنضاداً جمع نَضَد، وهو ما نُضِد من متاع، أو خياره. ونَضَدْتُ المتاع ونضَّدْتُه: ضممت بعضه إلى بعض متَّسِقاً أو مركوماً. ينظر أساس البلاغة والقاموس (نضد).

(٥) عرائس المجالس ص١٢٤ عن مجاهد، وذكرها ابن جني في المحتسب ١/ ٣٣٩ عن ابن عباس وابن عمر وقتادة وغيرهم.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٠ - ٤٢١، وأخرجه الطبري ١٣/ ١٢٧. والأترج: من فصيلة الحمضيات، يسمى بالشام الكُبَّاد، واحدته أُتْرُجَّة. معجم متن اللغة (ترج).

نَشْربُ الإثْمَ بالصُّواعِ جِهاراً وتَرَى المُتْك بَيْنَنا مُسْتَعارَا[١]

وقد تقول أَزْدُ شَنُوءة: الأُترجَّة: المُتْكَة.

قال الجوهريُّ: المُتْكُ: ما تُبقيه الخاتنة، وأصل المُتْك: الزُّماوَرْد. والمَتْكاء من النّساء: التي لم تُخْفَض. قال الفرّاء: حدثني شيخ من ثقات أهل البصرة أنَّ المُتْك مخفَّفاً: الزُّماوَرْد. وقال بعضهم: إنه الأترجّ. حكاه الأخفش[٢]. ابن زيد: أترجًّا وعسلاً يؤكل به[٣]؛ قال الشاعر:

فَظِلِلْنا[٤] بنعمةٍ واتَّكأْنا وشَرِبْنا الحلالَ من قُلَلِه[٥]

أي: أكلنا.

النحاس: قوله تعالى: «وَأَعْتَدَتْ» من العَتَاد، وهو كلُّ ما جعلته عُدَّة لشيء. «مُتَّكَأً» أصح ما قيل فيه، ما رواه عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: مجلساً. وأمَّا قول جماعة من أهل التفسير إنه الطعام، فيجوز على تقدير: طعامَ متكأ، مثل: ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ ودلَّ على هذا الحذف: «وآتتْ كُلَّ واحدةٍ منهنَّ سِكِّيناً»؛ لأنَّ حضور النساء معهنَّ سكاكينُ إنَّما هو لطعامٍ يُقطع بالسكاكين. كذا قال في كتاب «إعراب القرآن»[٦] له.

---

(١) سلف ٩/ ٢١١.

(٢) الصحاح (متك)، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٤٢. قوله: الزُّمَاوَرْد، هو طعام من البيض واللحم، معرب. اللسان (ورد). وقوله: لم تخفض، الخفض: ختان الجارية. اللسان (خفض).

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ١٢٩.

(٤) في (م): فظلنا.

(٥) قائله جميل بثينة، وهو في ديوانه ص١٨٩، والمعاني الكبير لابن قتيبة ١/ ٤٥٧، والخزانة ١٠/ ٢١. قوله: الحلال، ذكر البغدادي عن الشيرازي أنه قال: هو النبيذ، وسماه حلالاً على وجه الخلاعة. قال البغدادي: ولا يَخْفَى أنَّ حَمْلَه على ظاهره أنْسب؛ لأن قائله مؤمن، وكان في عرفة في موسم الحج. والقلل جمع قلة، وهو إناء للعرب كالجرة.

(٦) ٢/ ٣٢٦.

وقال في كتاب «معاني القرآن»[١]: وروى مَعْمَر عن قَتَادة قال: «المتَّكأ»: الطعام. وقيل: «المتكأ»: كلُّ ما اتُّكِئ عليه عند طعامٍ أو شرابٍ أو حديث، وهذا هو المعروفُ عند أهل اللغة، إلَّا أنَّ الروايات قد صحت بذلك. وحكى القُتبيّ[٢] أنه يقال: اتكأنا عند فلان، أي: أكلنا.

والأصل في «متكأ»: موتكأ، ومثله: مُتَّزن ومُتَّعد؛ لأنه من وَزَنْتُ ووَعَدْتُ ووَكأْتُ، ويقال: اتَّكأ يَتَّكئ اتّكاءً[٣].

﴿كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ مفعولان. وحكى الكسائيُّ والفراء أنَّ السِّكِّين يذكَّر ويؤنَّث؛ وأنشد الفراء:

فَعَيَّثَ في السَّنَامِ غَدَاةَ قُرٍّ بسكِّينٍ مُوَثَّقَةِ النِّصَابِ[٤]

الجوهريُّ: والغالبُ عليه التذكير؛ وقال:

يُرى ناصحاً فيما بَدَا فإذا خَلَا فذلك سكِّينٌ على الحَلْقِ حَاذقُ[٥]

الأصمعي لا يَعْرِفُ في السكِّين إلا التذكير[٦].

قوله تعالى: ﴿وقالتُ اخرج عليهن﴾ بضمِّ التاء لالتقاء الساكنين؛ لأنَّ الكسرة تَثْقُلُ إذا كان بعدها ضمة، وكَسْرُ[٧] التاء على الأصل[٨].

---

(١) ٣/ ٤٢١ .

(٢) في تفسير الغريب ص٢١٦ ، وتأويل المشكل ص١٣٨ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٦ .

(٤) المذكر والمؤنث للفراء ص٢٧ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٦ (والكلام منه)، والمذكر والمؤنث لأبي بكر الأنباري ١/ ٣٨٨ ، ومجالس العلماء للزجاجي ص١٠١ ، والمخصص لابن سيده ١٧/ ١٦ ، واللسان (عيث) و(سكن)، وقال ابن منظور: عيَّث في السنام بالسكين: أثَّر.

(٥) الصحاح (سكن)، والبيت لأبي ذؤيب، وهو في ديوان الهذليين ١/ ١٥١ . وقال شارح الديوان. ويروى: على الحلق حالق.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٦ ، وينظر المذكر والمؤنث لأبي بكر الأنباري ١/ ٣٨٩ .

(٧) في (م): وكسرت.

(٨) قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة بكسر التاء، والباقون من السبعة بضمها. السبعة ص٣٤٨ والتيسير ص٧٨ .

قيل: إنَّها قالت لهنَّ: لا تقطعنَ ولا تأكلن حتى أُعْلِمَكُنّ، ثم قالت لخادمها: إذا قلت لك: ادعُ لي إيلا، فادعُ يوسف. وإيل: صنمٌ كانوا يعبدونه. وكان يوسف عليه السلام يعمل في الطين، وقد شدَّ مِئزره وحسَرَ عن ذراعيه، فقالت للخادم: ادعُ لي إيلا، أي: ادعُ لي الربَّ، وإيل بالعبرانية: الربُّ. قال: فعَجِبَت النسوة وقلن: كيف يجيء؟! فصعدت الخادمُ فدعت يوسفَ، فلمَّا انحدر قالت لهنّ: اقطَعْنَ ما معكنّ. ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ بالمُدَى، حتى بلغت السكاكين إلى العظم؛ قاله وهب ابن مُنَبِّه.

سعيد بن جُبير: لم يخرج عليهنَّ حتى زيَّنته، فخرج عليهم فجأةً فدهشن فيه، وتحيَّرن لحسن وجهه وزينته وما عليه، فجعلن يقطِّعْنَ أيديهنّ، ويحسبن أنَّهن يقطِّعن الأترجّ.

واختلف في معنى: «أَكْبَرْنَهُ»؛ فروى جُوَيبر، عن الضَّحاك، عن ابن عباس: أَعْظَمْنَه وهِبْنَه[١].

وعنه أيضاً: أَمْنَيْنَ وَأَمْذَين من الدَّهَش؛ وقال الشاعر:

إذا ما رأين الفحلَ من فوق قارَةٍ صَهَلْنَ وأَكْبَرْنَ المنيَّ المدفَّقا[٢]

وقال ابن سمعان عن عِدَّةٍ من أصحابه أنهم قالوا: أَمْذَيْن عشقاً.

وَهْب بن مُنبِّه: عشقنَه حتى مات منهنّ عشرةٌ في ذلك المجلس دَهَشاً وحيرة ووَجْداً بيوسف[٣].

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ١٣١ - ١٣٢ من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وأخرجه ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٣٥ (١١٥٥٣) من طريق أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٩ : هذا قول الجمهور.

(٢) أخرج الشعر والقول قبله أبو الشيخ عن الكميت، كما في الدر المنثور ٤/ ١٦ ، ولم نقف عليه عن ابن عباس. والقارة: الجُبَيْل الصغير المنقطع عن الجبال، أو الصخرة العظيمة. القاموس (قار).

(٣) عرائس المجالس ص١٢٤ .

وقيل: معناه: حِضْن من الدَّهش؛ قَاله قتادة ومقاتل والسُّديّ[١]. قال الشاعر:

نـأتـي الـنّـسـاءَ عـلـى أطـهـارهـنّ ولا نـأتـي الـنّـسـاءَ إذا أكْـبَـرنَ إكْـبـارَا[٢]

وأنكر ذلك أبو عبيدة[٣] وغيره، وقالوا: ليس ذلك في كلام العرب، ولكنه يجوز أن يكنّ حِضْنَ من شدَّة إعظامهنَّ له، وقد تفزع المرأة، فتُسقط ولدها أو تَحِيض.

قال الزجاج[٤]: يقال: أكبرنه، ولا يقال: حِضْنه، فليس الإكبار بمعنى الحيض.

وأجاب الأزهري[٥] فقال: يجوز أَكْبرَتْ بمعنى حاضت؛ لأنَّ المرأة إذا حاضت في الابتداء خرجت من حَيِّز الصغر إلى الكبر، قال: والهاءُ في «أَكْبَرْنَهُ» يجوز أن تكون هاءَ الوقف لا هاءَ الكناية.

وهذا مزيَّف؛ لأن هاء الوقف تسقط في الوصل، وأَمْثَلُ منه قولُ ابن الأنباريِّ: إنَّ الهاء كنايةٌ عن مصدرِ الفعل، أي: أكبرن إكباراً، بمعنى حِضْن حَيْضاً. وعلى قول ابن عباس الأولِ تعود الهاء إلى يوسف؛ أي: أعظمن يوسف وأجْلَلْنه.

قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ قال مجاهد: قطَّعنها حتى ألقينها[٦]. وقيل: خَدَشْنها. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: حزًّا بالسكِّين؛ قال النحاس[٧]: يريد

---

(١) لم نقف عليه عنهم، وأخرجه الطبري ١٣/ ١٣١ ، وابن أبي حاتم ٧/ ٢١٣٥ (١١٥٥١) و(١١٥٥٢) من طريق عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن عباس، عن أبيه، عن جده ابن عباس. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٩ : هذا قول ضعيف من معناه منكور، وليس عبد الصمد من رواة العلم رحمه الله. اهـ وينظر تهذيب اللغة ١٠/ ٢١٢ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٠٦ ، وتفسير الطبري ١٣/ ١٣٢ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٣٩ . قال الطبري: لا أحسب له أصلاً؛ لأنه ليس بالمعروف عند الرواة. وقال ابن عطية: البيت مصنوع مختلق.

(٣) في مجاز القرآن ١/ ٣٠٩ .

(٤) في معاني القرآن ٣/ ١٠٦ .

(٥) في تهذيب اللغة ١٠/ ٢١١ - ٢١٢ .

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٩ وأخرجه الطبري ١٣/ ١٣٥ . قال ابن عطية: فظاهِرُ هذا أنه بانت الأيدي، وذلك ضعيف من معناه.

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٤٢٢ ، وما قبله منه، وأخرج قول مجاهد الطبري ١٣/ ١٣٣ .

مجاهدٌ أنه ليس قطعاً تَبِينُ منه اليد، إنَّما هو خَدْشٌ وحزٌ، وذلك معروفٌ في اللغة أنْ يقال إذا خدش الإنسان يد صاحبه: قطع يده.

وقال عِكرمة: «أَيْدِيَهُنّ»: أكمامَهنّ، وفيه بُعْد. وقيل: أناملَهنّ، أي: ما وجدن ألماً في القطع والجرح، أي: لشغلِ قلوبهنَّ بيوسف.

والتقطيع يشير إلى الكثرة، فيمكن أن ترجع الكثرة إلى أنَّ كلَّ واحدةٍ[(١)] جرحت يدها في مواضع، ويمكن أن يرجع إلى عددهنّ.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ أي: معاذَ الله. وروى الأصمعيُّ عن نافع أنه قرأ كما قرأ أبو عمرو بن العلاء: ﴿وقُلْنَ حاشا لله﴾ بإثبات الألف وهو الأصل[(٢)]، ومَن حَذَفها جعل اللام في (لله) عوضاً منها. وفيها أربع لغات، يقال: حَاشَاكَ، وحَاشَا لَكَ، وحاشَ لَكَ، وحَشَا لَكَ. ويقال: حَاشَا زيدٍ وحاشا زيداً؛ قال النحاس[(٣)]: وسمعت عليَّ بن سليمان يقول: سمعت محمد بن يزيد يقول: النَّصْبُ أَوْلى؛ لأنه قد صحَّ أنها فعلٌ؛ لقولهم: حاشَ لزيد، والحرفُ لا يُحذف منه[(٤)]، وقد قال النابغة:

وَلَا أُحَاشِي مِنَ الأقوامِ مِن أَحَدِ[(٥)]

وقال بعضهم: حاشَ حرفٌ، وأُحاشي فعل. ويدلُّ على كون حاشا فعلاً وقوعُ حرف الجرِّ بعدها[(٦)]. وحكى أبو زيد عن أعرابيٍّ: اللهمَّ اغفر لي ولمن يَسمع، حاشا

---

(١) في (م): أن يرجع الكثرة إلى واحدة، وفي (د) و(ز) و(ظ): إلى كل واحدة، والمثبت من (ف).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٦ ، وقراءة أبي عمرو في السبعة ص٣٤٨ ، والتيسير ص١٢٨ ، ورواية الأصمعي عن نافع أخرجها ابن مجاهد في السبعة ص٣٤٨ ، وليست هي المشهورة عنه.

(٣) في إعراب القرآن ٢/ ٣٢٦ ، وما قبله منه.

(٤) يعني حذف الألف من «حاشا»، والحذف إنما يكون في الفعل. أسرار العربية لأبي البركات الأنباري ص١٩١ .

(٥) وصدره: ولا أرى فاعلاً في الناس يشبهه، وهو في ديوان النابغة ص٣٣ ، والخزانة ٣/ ٤٠٣ . قال البغدادي: قوله: ولا أحاشي، أي: لا أستثني أحداً ممن يفعل الخير. والشاهد فيه: تصرُّف الفعل حاشا، والتصرُّف من خصائص الأفعال. أسرار العربية ص١٩١ .

(٦) ينظر أسرار العربية ص١٩٠ - ١٩٢ . وقال أبو البركات: وحرف الجر إنما يتعلق بالفعل؛ لأن الحرف لا يتعلق بالحرف.

الشيطانَ وأبا الأصبغ، فنَصَبَ بها[1].

وقرأ الحسن: «وَقُلْنَ حَاشْ لِلهِ» بإسكان الشين، وعنه أيضاً: «حاشَ الإلهِ». ابن مسعود وأُبَيٌّ: «حَاشَى[2] اللهِ» بغير لام، ومنه قول الشاعر:

حاشا أبي ثَوْبانَ إنَّ بهِ ضَنًّا عنِ المَلْحاةِ والشَّتْمِ[3]

قال الزجَّاج: وأصلُ الكلمة من الحاشية، والحَشَا بمعنى الناحية، تقول: كنت في حَشَا فلانٍ، أي: في ناحيته، فقولك: حاشا لزيدٍ، أي: تَنحَّى زيدٌ من هذا وتَباعَدَ عنه، والاستثناء إخراجٌ وتنحيةٌ عن جملة المذكورين[4].

وقال أبو عليٍّ: هو «فاعَلَ» من المحاشاة؛ أي: حاشا يوسفُ وصار في حاشيةٍ وناحيةٍ مما قُرِف به[5]، أو مِن أن يكون بشراً؛ فحاشا وحاشَ في الاستثناء حرفُ جرٍّ عند سيبويه[6]، وعلى ما قال المبرِّد وأبو عليٍّ فعل.

قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ قال الخليل وسيبويه: «ما» بمنزلة ليس؛ تقول: ليس زيدٌ قائماً، و﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ و﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ [المجادلة: ٢]. وقال الكوفيون: لمَّا

---

(١) المحتسب ١/ ٣٤٢، وشرح المفصل ٢/ ٨٥، والمغني ص١٦٥.

(٢) في (د) و(ز) و(م): حاش، وكذلك وقعت في القراءات الشاذة ص٦٣، والمثبت موافق لما في المحتسب ١/ ٣٤١، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٣٩، والبحر ٥/ ٣٠٣، والدر المصون ٦/ ٤٨٦. وينظر ما سلف من القراءات في هذه المصادر.

(٣) مجاز القرآن ١/ ٣١٠، والحجة للفارسي ٤/ ٤٢٢، والمحتسب ١/ ٣٤١، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٤٠. وهو في المفضليات ص٣٦٧، والأصمعيات ص٢١٨، منسوب للجميح الأسدي برواية:

حاشا أبا ثوبانَ إنَّ أبا ثوبان ليس ببُكمةٍ فَدْمِ
عمرو بن عبد الله إن به ضنًّا عن المَلْحاة والشَّتْمِ

(٤) بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٠٧.

(٥) بنحوه في الحجة للفارسي ٤/ ٤٢٢ - ٤٢٣، وينظر مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٨٦، وتقدير الكلام على ما ذكر في هذين المصدرين: «حاش لله» أي: بَعُد يوسف عن هذا الذي رمي به لله، أي: لخوفه اللهَ ومراقبته له. وسيذكر المصنف نحوه عن أبي نصر القشيري.

(٦) الكتاب ٢/ ٣٤٩.

حذفت الباء نصبت، وشرحُ هذا ـ فيما قاله أحمد بن يحيى ـ أنك إذا قلت: ما زيدٌ بمنطلق، فموضعُ الباء موضعُ نصب، وهكذا سائرُ حروف الخفض، فلما حذفت الباء نصبت لتدلَّ على محلِّها، قال: وهذا قولُ الفرّاء، قال: ولم تعمل «ما» شيئاً، فألزمهم البصريون أن يقولوا: زيدٌ القمرَ؛ لأنَّ المعنى: كالقمر. فردَّ أحمد بن يحيى بأن قال: الباء أَدْخَلُ في حروف الخفض من الكاف؛ لأنَّ الكاف تكون اسماً.

قال النحاس[1]: لا يصحُّ إلَّا قولُ البصريين، وهذا القول يتناقض؛ لأنَّ الفرَّاء أجاز نصًّا: ما بمنطلقٍ زيدٌ، وأنشد:

أَمَا واللهِ أنْ لو كنتَ حُرًّا وما بالحُرِّ أنتَ ولا العَتِيقِ[2]

ومَنَعَ نصًّا النصبَ، ولا نعلم بين النَّحْويين اختلافاً أنه جائزٌ: ما فيك براغبٍ زيدٌ، وما إليك بقاصدٍ عمرٌو، ثم يحذفون الباء ويرفعون. وحكى البصريون والكوفيون: ما زيدٌ منطلقٌ بالرفع، وحكى البصريون أنها لغةُ تَميم، وأنشدوا:

أَتيماً تَجعلون إليَّ نِدًّا وما تَيْمٌ لِذِي حَسَبٍ نَدِيدُ[3]

النِّدُّ والنَّديد والنَّدِيدةُ: المِثْلُ والنَّظير[4]. وحكى الكسائي أنها لغةُ تِهامةَ ونَجْد. وزعم الفرَّاء أنَّ الرفع أقوى الوجهين. قال أبو إسحاق: وهذا غلط؛ كتابُ الله عزَّ وجلَّ ولغةُ رسول الله ﷺ أقوى وأولى[5].

قلت: وفي مصحف حَفصةَ رضي الله عنها: «مَا هَذَا بِبَشَرٍ» ذكره الغَزْنويّ.

---

(١) في إعراب القرآن ٢/ ٣٢٧ - ٣٢٨، وينظر قول سيبويه في الكتاب ١/ ٥٧ - ٦٩ و ١٢٢، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٤٢.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٤، والخزانة ٤/ ١٤١.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٦، والبيت لجرير، وهو في ديوانه ١/ ٣٣١، والخزانة ٣/ ٢٧، ورواية الديوان: أتيمٌ، بدل: أتيماً.

(٤) الصحاح (ندد).

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٦، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٤٢، وكلام أبي إسحاق وهو الزجاج في معاني القرآن له ٣/ ١٠٨.

قال القُشَيريُّ أبو نصر: وذكرت النِّسوة أنَّ يوسفَ أحسنُ من صورة البشر، بل هو في صورة مَلَك، وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] والجمعُ بين الآيتين أنَّ قولهنّ: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تبرئةٌ ليوسف[1] عمَّا رمته به امرأة العزيز من المراودة، أي: بَعُدَ يوسف عن هذا، وقولهنّ: (لله) أي: لخوفه، أي براءةٌ لله من هذا، أي: قد نجا يوسف من ذلك، فليس هذا من الصورة في شيء، والمعنى: أنه في التبرئة عن المعاصي كالملائكة؛ فعلى هذا لا تناقُض.

وقيل: المرادُ تنزيهُه عن مُشابَهة البشر في الصورة؛ لفَرْطِ جماله، وقولُه: ﴿لِلَّهِ﴾ تأكيدٌ لهذا المعنى، فعلى هذا المعنى قالت النسوة ذلك ظنًّا منهنَّ أنَّ صورةَ المَلَك أحسن، وما بلغهنَّ قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، فإنه من كتابنا. وقد ظنَّ بعضُ الضَّعَفَةِ أنَّ هذا القولَ لو كان ظنًّا باطلاً منهنّ، لوَجَبَ على الله أن يردَّ عليهنّ، ويبيِّن كذبهنّ، وهذا باطلٌ؛ إذ لا وجوبَ على الله تعالى، وليس كلُّ ما يخبر به الله سبحانه من كُفْر الكافرين وكذبِ الكاذبين يجب عليه أن يَقْرُنَ به الردَّ عليه، وأيضاً أهلُ العرف قد يقولون في القبيح: كأنَّه شيطان، وفي الحَسَن: كأنه مَلَك، أي: لم يُرَ مِثْلُه؛ لأنَّ الناس لا يَرَوْن الملائكة، فهو بناءٌ على ظنٍّ في أنَّ صورة الملَك أحسن، أو على الإخبار بطهارة أخلاقه وبُعْدِه عن التُّهَم.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ﴾ أي: ما هذا إلا مَلَك، وقال الشاعر:

فلستَ لإنسيٍّ ولكنْ لِمَلْأَكٍ تنزَّلَ من جوِّ السماءِ يَصُوبُ[2]

وروي عن الحسن: «ما هذا بِشِرًى»؛ بكسر الباء والشين، أي: ما هذا عبداً مُشترًى، أي: ما ينبغي لِمثْلِ هذا أن يُباع، فوضع المصدر موضعَ اسم المفعول، كما قال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ [المائدة: ٩٦] أي: مَصِيدُه، وشِبْهُه كثير. ويجوز أن يكون المعنى: ما هذا بثمن، أي: مثلُه لا يثمنُ ولا يقوَّم، فيراد بالشراء على هذا:

(١) في (ظ): أن قوله حاش لله تنزيه ليوسف.
(٢) سلف ١/ ٣٩٣.

الثَّمنُ المشتَرَى به، كقولك: ما هذا بألفٍ، إذا نفيتَ قولَ القائل: هذا بألف. فالباءُ على هذا متعلِّقةٌ بمحذوفٍ هو الخبر[١]، كأنه قال: ما هذا مقدَّراً بشراء.

وقراءة العامة أشبهُ؛ لأنَّ بعده: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾ مبالغةً في تفضيله في جنس الملائكة تعظيماً لشأنه، ولأنَّ مثلَ «بِشِرًى» يُكتب في المصحف بالياء[٢].

قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ﴾ لمَّا رأت افْتِتَانَهنَّ بيوسف أظهرت عُذْرَ نفسها بقولها: «لُمْتُنَّنِي فِيهِ» أي: في حبِّه.

و«ذلك» بمعنى «هذا»، وهو اختيارُ الطَّبريّ[٣]. وقيل: الهاء للحُب، و«ذلك» على بابه[٤]، والمعنى: ذلكنَّ الحُبُّ الذي لُمتنَّني فيه، أي: حبُّ هذا هو ذلك الحبّ. واللومُ: الوصف بالقبيح. ثم أقرَّت وقالت: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ﴾ أي: امتنع.

وسمِّيت العصمةُ عصمةً لأنَّها تمنع من ارتكاب المعصية. وقيل: «استعصم» أي: استعصى[٥]، والمعنى واحد.

﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ﴾ عاودَتْه المراودةَ بمحضَرٍ منهنّ، وهتكتْ جِلبابَ الحياء، ووعدتْ بالسجن إن لم يفعل، وإنما فعلت هذا حين لم تخشَ لَوْماً ولا مقالاً، خلافَ أوّلِ أمرها إذ كان ذلك بينه وبينها.

﴿وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أي: الأذِلَّاء. وخطُّ المصحف: «وليكوناً» بالألف، وتقرأ بنون مخفَّفة للتأكيد، ونونُ التأكيد تثقَّل وتخفَّف، والوقفُ على قوله: «لَيُسْجَنَنَّ» بالنون لأنها مثقَّلة، وعلى «ليكوناً» بالألف لأنها مخفَّفة، وهي تشبه نون الإعراب في

(١) المحتسب ١/ ٣٤٢.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٣، وينظر النكت والعيون ٣/ ٣٣.

(٣) في تفسيره ١٣/ ١٤١.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٢٤١، وقوله: على بابه، أي: في الإشارة إلى غائب، كما ذكر ابن عطية.

(٥) أخرجه الطبري ١٣/ ١٤٢ عن قتادة. ووقع في (ظ): استعف، بدل: استعصى.

قولك: رأيت رجلاً، وزيداً، وعمراً، ومثلُه قولُه: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ [العلق: ١٥] ونحوها، الوقفُ[١] عليها بالألف، كقول الأعشى:

وَلَا تَعبدِ الشيطانَ واللهَ فاعبدا[٢]

أراد: فاعبداً[٣]، فلمَّا وقف عليه كان الوَقفُ بالألف.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ أي: دخولُ السجن، فحذف المضاف؛ قاله الزَّجَّاج والنحَّاس[٤]. «أَحَبُّ إليَّ» أي: أسهلُ عليَّ وأهونُ من الوقوع في المعصية، لا أنَّ دخول السجن مما يُحَبُّ على التحقيق.

وحُكي أنَّ يوسف عليه السلام لمَّا قال: ﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ أوحى الله إليه: «يا يوسف! أنت حَبَسْتَ نفسك حيث قلتَ: السجنُ أحبُّ إليَّ، ولو قلتَ: العافيةُ أحبُّ إليَّ، لعُوفِيْتَ»[٥].

وحكى أبو حاتم أنَّ عثمان بن عفان ﷺ قرأ: «السَّجْن» بفتح السين، وحكى أنَّ ذلك قراءةُ ابن أبي إسحاق وعبد الرحمن الأعرجِ ويعقوبَ، وهو مصدرُ: سَجَنه سَجْناً[٦].

---

(١) في (ظ): والوقف. والمثبت من باقي النسخ. وتفسير الطبري ١٣/ ١٤٢ - ١٤٣ ، والكلام منه.

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ١٤٣ ، وصدره عنده: وصلِّ على حين العشيَّات والضحى، وهو في الديوان ص١٨٧ برواية:

وذا النُّصُب المنصوب لا تنسكنَّه ... ولا تعبد الشيطان...

(٣) في تفسير الطبري: فاعبُدَنْ.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٠٨ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٨ .

(٥) عيون الأخبار لابن قتيبة ١/ ٧٩ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٨ ، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٢٩٥ ، وهو من العشرة.

﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ أي: كيدَ النّسوان. وقيل: كيدَ النّسوة اللاتي رأينه؛ فإنهنَّ أَمَرْنه بمطاوعةِ امرأةِ العزيز، وقلن له: هي مظلومةٌ، وقد ظلمتَها. وقيل: طلبت كلُّ واحدةٍ أن تخلوَ به للنصيحة في امرأة العزيز، والقصدُ بذلك أن تَعذِلَه في حقِّها، وتأمرَه بمساعدتها، فلعلَّه يُجيب، فصارت كلُّ واحدةٍ تخلو به على حِدَةٍ فتقول له: يا يوسف، اقضِ لي حاجتي فأنا خيرٌ لك من سيدتك. تدعوه كلُّ واحدةٍ لنفسها وتُراوِدُه، فقال: يا ربِّ كانت واحدةً فصِرْنَ جماعة.

وقيل: كيد امرأة العزيز فيما دعته إليه من الفاحشة، وكَنَى عنها بخطاب الجمع؛ إمّا تعظيماً لشأنها[1] في الخطاب، وإمّا ليعدل عن التصريح إلى التعريض. والكيدُ: الاحتيال والاجتهاد؛ ولهذا سمِّيت الحربُ كيداً؛ لاحتيال الناس فيها؛ قال عمر بن لَجَأ:

نَراءتْ كَيْ تَكيدَكَ أمُّ بِشْرٍ وكيدٌ بالتَّبَرُّجِ ما تَكيدُ[2]

﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ جواب الشرط، أي: أَمِلْ إليهنَّ؛ من صبا يصبو: إذا مال واشتاق، صُبُوًّا وصَبْوة[3]؛ قال:

إلى هندٍ صَبَا قَلْبي وهِنْدٌ مِثْلُها يُصْبِي[4]

أي: إن لم تَلْطُف بي في اجتناب المعصية وقعتُ فيها[5]. ﴿وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: ممن يرتكب الإثمَ ويستحقُّ الذّمّ، أو ممن يعمل عَمَلَ الجُهّال؛ ودلَّ هذا على أنَّ

---

(١) في (د) و(ز) و(م): لتعظيم شأنها، والمثبت من (ظ) و(ف)، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٣/ ٣٤، والكلام منه.

(٢) الموشَّى لأبي الطيب الوشّاء ص١١٢ برواية: ... أم عمرو وكيدك...، ومنتهى الطلب ٧/ ٢٩٩ برواية:
بدتْ فتبرَّجَتْ لك أمُّ بدرٍ وكيداً بالتبرج...

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٤٢٤.

(٤) قائله يزيد بن ضبة، كما في مجاز القرآن ١/ ٣١١، والأغاني ٧/ ١٠٢، وهو في تفسير الطبري ١٣/ ١٤٥ دون نسبة.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٨.

أحداً لا يمتنع عن معصية الله إلَّا بعون الله؛ ودلَّ أيضاً على قُبْحِ الجهل والذمِّ لصاحبه.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ لمَّا قال: «وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ»؛ تعرَّض للدعاء، وكأنه قال: اللهمَّ اصرِفْ عنِّي كيدهنّ؛ فاستجاب له دعاءَه، ولَطَفَ به، وعصمه عن الوقوع في الزنى. «كَيْدَهُنَّ» قيل: لأنهنَّ جمعٌ قد راودنَه عن نفسه. وقيل: يعني كيدَ النساء. وقيل: يعني كيدَ امرأة العزيز، على ما ذُكر في الآية قبلُ، والعموم أولى.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾ أي: ظهر للعزيز وأهلِ مَشُورته ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ أي: علامات براءة يوسف ـ من قَدِّ القميص من دُبُر، وشهادةِ الشاهد، وحَزِّ الأيدي، وقلةِ صبرهنّ عن لقاء يوسف ـ أن يسجنوه كتماناً للقصة ألَّا تشيع في العامَّة، وللحيلولة بينه وبينها. وقيل: هي البركاتُ التي كانت تنفتح عليهم ما دام يوسف فيهم. والأول أصحّ.

قال مقاتل عن مجاهد عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ قال: [قَدُّ] القميص من الآيات، وشهادةُ الشاهد من الآيات، وقطعُ الأيدي من الآيات، وإعظامُ النساء إياه من الآيات[(١)].

وقيل: ألجأها الخجلُ من الناس، والوجلُ من اليأس، إلى أنْ رضيت بالحجاب مكانَ خَوْفِ الذهاب، لتشتفيَ إذا مُنعت من نظره؛ قال:

وما صَبابةُ مشتاقٍ على أمَلٍ ... مِن اللِّقاء كمشتاقٍ بلا أَمَلِ[(٢)]

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢٢١ ، وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرجه ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٣٩ (١١٥٨٢) من طريق عكرمة عن ابن عباس بلفظ: من الآيات: قد القميص، وأثر السكين.

(٢) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ص٣٣٦ .

أو كادته رجاء أن يَمَلَّ حَبْسَه فيذلَ نفسه.

الثانية: قوله تعالى: ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ﴾ «يَسْجُنُنَّهُ» في موضع الفاعل، أي: ظهر لهم أن يسجنوه. هذا قول سيبويه. قال المبرِّد: وهذا غلط؛ لا يكون الفاعل جملةً، ولكن الفاعل ما دلَّ عليه «بَدَا»، وهو مصدر، أي: بدا لهم بَدَاءٌ؛ فحذف [الفاعل] لأنَّ الفعل يدلُّ عليه، كما قال الشاعر:

وحُقَّ لمن أبو موسى أبوهُ يُوَفِّقه الذي نَصبَ الجبالَا[1]

أي: وحقَّ الحقُّ، فحذف.

وقيل: المعنى: ثم بدا لهم رأيٌ لم يكونوا يعرفونه، وحُذف هذا لأنَّ في الكلام دليلاً عليه، وحذف أيضاً القول، أي: قالوا: ليَسْجننه[2]. واللامُ جوابٌ ليمينٍ مضمَر. قاله الفرّاء[3]، وهو فعل مذكَّر لا فعل مؤنَّث، ولو كان فعلاً مؤنَّثاً لكان: لَيَسْجُنَّانِّه، ويدلُّ على هذا قوله: ﴿لَهُمْ﴾ ولم يقل: لهنّ، فكأنَّه أخبر عن النسوة وأعوانهنَّ، فغلَّب المذكَّر. قاله أبو عليّ.

وقال السُّدِّيّ: كان سببُ حَبْس يوسفَ أنَّ امرأة العزيز شَكَتْ إليه أنه شَهَّرها ونَشَر خبرها[4]، فالضمير على هذا في «لَهُمْ» للملك.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى مدَّةٍ غيرِ معلومة. قاله كثير من المفسِّرين[5]. وقال ابن عباس: إلى انقطاعِ ما شاع في المدينة[6]. وقال سعيد بن

---

(١) البيت لذي الرمة، وهو في ديوانه ٣/ ١٥٤٦، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٩، والكلام وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٩.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٤٤.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ١٥٠.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٣٥.

(٦) ذكره الرازي ١٨/ ١٣٣، وأورده الواحدي في الوسيط ٢/ ٦١٢، والبغوي ٢/ ٤٢٥ عن عطاء.

جُبَير: إلى ستة أشهر(١). وحكى الكِيَا أنه عَنَى ثلاثةَ عَشَر شهراً(٢). عِكْرمة: سبع سنين(٣). الكَلبيُّ: خمس سنين(٤). مقاتل: [اثنتي عشرة سنة](٥). وقد مضى في «البقرة»(٦) القول في الحين وما يرتبط به من الأحكام. وقال وهب: أقام في السجن اثنتي عشرة سنة(٧). و«حتى» بمعنى إلى، كقوله: ﴿حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ [القدر: ٥].

وجعل الله الحبسَ تطهيراً ليوسف ﷺ من هَمِّه بالمرأة. وكأنَّ العزيز ـ وإن عرف براءةَ يوسف ـ أطاع المرأة في سَجْن يوسف. قال ابن عباس: عَثَر يوسفُ ثلاثَ عثرات، حين هَمَّ بها فسُجِن، وحين قال للفتى: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ فلبث في السجن بضعَ سنين، وحين قال لإخوته: ﴿إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ فقالوا: ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾(٨).

الرابعة: أُكره يوسف عليه السلام على الفاحشة بالسجن، وأقام [فيه] خمسة أعوام، وما رضي بذلك لعظيم منزلته وشريفِ قَدْره، ولو أُكره رجلٌ بالسجن على الزِّنى ما جاز له [ذلك] إجماعاً. فإن أكره بالضرب، فقد اختلف فيه العلماء؛ والصحيح أنه إذا كان فادحاً فإنه يَسقط عنه إثمُ الزنى وحدُّه. وقد قال بعض علمائنا: إنه لا يسقط عنه الحدّ، وهو ضعيف؛ فإنَّ الله تعالى لا يجمع على عبده العذابين،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٤١ (١١٥٩١) وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٤ .

(٢) كذا في النسخ، والذي في أحكام القرآن للكيا ٣/ ٢٣٧ : ثلاث عشرة سنة.

(٣) في (د) و(ز) و(م): تسع سنين، والمثبت من باقي النسخ والمصادر، وقد أخرجه الطبري ١٣/ ١٥١ ، وابن أبي حاتم ٧/ ٢١٤١ (١١٥٩٢)، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٤ .

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ١٦١ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤٢٥ .

(٥) قوله: اثنتي عشرة سنة، سقط من النسخ الخطية، والمثبت من الوسيط ٢/ ٦١٣ ، وتفسير الرازي ١٨/ ١٣٣ .

(٦) ١/ ٤٧٨ - ٤٨٠ .

(٧) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣٢٣ بلفظ: لبث يوسف في السجن سبع سنين، وكذا ذكر الجصاص في احكام القرآن ٣/ ١٧٣ .

(٨) أخرجه الطبري ١٣/ ١٤٩ . والحاكم ٢/ ٣٤٦ . وقال الذهبي في تلخيصه: وهو خبر منكر.

ولا يُصرِّفه بين بلاءين؛ فإنه من أعظم الحرج في الدين[١]، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ [الحج:٧٨]. وسيأتي بيانُ هذا في «النحل» إن شاء الله[٢]. وصبرَ يوسفُ [على السجن]، واستعاذ به من الكيد[٣]، فاستجاب له على ما تقدّم.

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ﴾ «فَتَيان» تثنيةُ فتى، وهو من ذوات الياء، وقولهم: الفُتُوَّة، شاذ[٤]. قال وَهْب وغيره: حُمل يوسف إلى السجن مقيَّداً على حمار، وطِيف به: هذا جزاءُ من يَعْصي سيدته[٥]، وهو يقول: هذا أيسرُ من مُقَطَّعات النِّيران، وسرابيلِ القَطِران، وشرابِ الحميم، وأَكْلِ الزَّقوم.

فلمَّا انتهى يوسف إلى السجن وجد فيه قوماً قد انقطع رجاؤهم، واشتدَّ بلاؤهم، فجعل يقول لهم: اصبروا وأبشروا تُؤْجروا، فقالوا له: يا فتى، ما أحسن حديثك!

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٧٤ ، وما سلف بين حاصريتن منه، إلا أنه وقع فيه. وأقام فيه سبعة أعوام، بدل: خمسة أعوام.

(٢) عند تفسير الآية (١٠٦) منها.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٧٤ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٨ ، ووقع في (م): الفتو، بدل: الفتوة. والفُتُوُّ ـ على فُعول ـ جمع فتى. قال سيبويه: أبدلوا الواو في الجمع والمصدر بدلاً شاذاً. الصحاح (فتا).

(٥) ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٤٢ عن ابن عباس نحوه، إلا أن فيه: ونودي عليه في أسواق مصر: إن يوسف العبراني أراد سيدته، فهذا جزاؤه أن يسجن.

لقد بورك لنا في جوارك، مَن أنت يا فتى؟ قال: أنا يوسف ابن صفيِّ الله يعقوبَ، ابنِ ذبيحِ الله إسحاق، ابنِ خليل الله إبراهيم(١).

وقال ابن عباس: لمَّا قالت المرأة لزوجها: إن هذا العبد العبرانيَّ قد فضحني، وأنا أريد أن تسجنه، فسجنه في السجن، فكان يُعزِّي فيه الحزين، ويعود فيه المريض، ويداوي فيه الجريح، ويصلِّي الليل كلَّه، ويبكي حتى تبكي معه جُدُر البيوت وسقفُها والأبواب، وطَهُر به السجن، واستأنس به أهل السجن، فكان إذا خرج الرجل من السجن رجع حتى يجلس في السجن مع يوسف، وأحبَّه صاحبُ السجن فوسَّع عليه فيه، ثم قال له: يا يوسف! لقد أحببتك حبًّا لم أحبَّ شيئاً حبَّك، فقال: أعوذ بالله من حبِّك! قال: ولِمَ ذلك؟ فقال: أحبَّني أبي ففعل بي إخوتي ما فعلوه، وأحبَّتني سيدتي فنزل بي ما ترى. فكان في حبسه حتى غضب الملك على خَبَّازه وصاحبِ شرابه، وذلك أنَّ الملك عُمِّر فيهم فملُّوه، فدسُّوا إلى خَبَّازه وصاحبِ شرابه أن يَسُمَّاه جميعاً، فأجاب الخبَّاز وأبى صاحب الشّراب، فانطلق صاحب الشّراب فأخبر الملك بذلك، فأمر الملك بحبسهما، فاستأنسا بيوسف، فذلك قوله: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ﴾.

وقد قيل: إن الخبَّاز وضع السمَّ في الطعام، فلما حضر الطعام قال السَّاقي: أيها الملك! لا تأكل فإنَّ الطعام مسموم. وقال الخبَّاز: أيها الملك لا تشرب! فإن الشراب مسموم، فقال الملك للساقي: اشربْ. فشرب فلم يضرَّه، وقال للخباز: كُلْ. فأبى، فجرَّب الطعام على حيوان فنفقَ مكانَه، فحبسهما سنة، وبقيا في السجن تلك المدة مع يوسف(٢).

واسم الساقي منجا، والآخر مجلث؛ ذكره الثعلبيُّ عن كعب. وقال النقاش:

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/١٥٧ - ١٥٨ عن قتادة مطولاً، وفي هذا الخبر نظر، فالذبيح هو إسماعيل على الصحيح.

(٢) ينظر عرائس المجالس ص١٢٤ - ١٢٦ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤٢٥ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٤٣ ، وزاد المسير ٤/ ٢٢٢ .

اسم أحدهما شرهم، والآخر سرهم؛ الأوّل بالشين المعجمة، والآخر بالسين المهملة. وقال الطّبريُّ: الذي رأى أنه يعصر خمراً هو نبو، قال السُّهيليُّ: وذَكَر اسمَ الآخَرِ ولم أقيِّده[1].

وقال «فَتَيان» لأنهما كانا عبدين، والعبد يسمَّى فتى، صغيراً كان أو كبيراً؛ ذكره الماورديّ[2].

وقال القُشيريّ: ولعلَّ الفتى كان اسماً للعبد في عُرْفهم؛ ولهذا قال: ﴿تُرَاوِدُ فَتَنهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾. ويحتمِل أن يكون الفتى اسماً للخادم وإن لم يكن مملوكاً، ويمكن أن يكون حَبْسُهما مع حَبْس يوسف أو بعده أو قبله، غير أنهما دخلا معه البيت الذي كان فيه.

﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ أي: عنباً. كان يوسف قال لأهل السجن: إني أعبرُ الأحلام، فقال أحد الفتَيَين لصاحبه: تعال حتى نجرِّب هذا العبد العبرانيّ، فسألاه من غير أن يكونا رَأيا شيئاً. قاله ابن مسعود[3].

وحكى الطّبريّ[4]: أنهما سألاه عن علمه، فقال: إنِّي أعبُرُ الرؤيا، فسألاه عن رؤياهما. قال ابن عباس ومجاهد: كانت رؤيا صدقٍ رَأياها وسألاه عنها؛ ولذلك صَدَق تأويلها[5]. وفي الصحيح عن أبي هُريرة عن النبيّ ﷺ: «أصدقُكم رؤيا أصدقُكم حديثاً»[6].

---

(١) التعريف والإعلام ص٨١، وعنه نقل المصنف قول الطبري والنقاش. وقول الطبري في تفسيره ١٣/ ١٥١ - ١٥٢؛ أخرجه عن ابن إسحاق، وذكر فيه أن اسم الآخَر: مجلث.

(٢) في النكت والعيون ٣/ ٣٦.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ١٥٣ و ١٦٧ - ١٦٨.

(٤) في تفسيره ١٣/ ١٥٢ - ١٥٣، ونقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٦.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٣٦، إلا أنه وقع فيه: ابن إسحاق، بدل: ابن عباس، وكذلك أخرجه الطبري ١٣/ ١٥٣ - ١٥٤ عن مجاهد وابن إسحاق.

(٦) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٧٦٤٢)، ومسلم (٢٢٦٣) عن أبي هريرة ﷺ.

وقيل: إنَّها كانت رؤيا كذبٍ سألاه عنها تجريباً، وهذا قولُ ابن مسعود والسُّدي[١].

وقيل: إنَّ المصلوب منهما كان كاذباً، والآخَر صادقاً. قاله أبو مِجْلَز[٢].

وروى الترمذيُّ عن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ قال: «مَن تَحلَّمَ كاذباً؛ كُلِّف يومَ القيامة أن يَعقِد بين شَعِيرتين [ولن يَعقِد بينهما]». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح[٣].

وعن عليٍّ عن النبيِّ ﷺ قال: «مَن كَذَبَ في حُلْمه؛ كُلِّف يومَ القيامة عَقْد شَعِيرة». قال: حديث حسن[٤].

قال ابن عباس: لمَّا رأيا رؤياهما أصبحا مَكْروبَيْن، فقال لهما يوسف: ما لي أراكما مكروبَين؟ قالا: يا سيدنا، إنَّا رأينا ما كَرِهْنا، قال: فقُصَّا عليَّ، فقَصَّا عليه، قالا: نبِّئْنا بتأويل ما رأينا. وهذا يدلُّ على أنها كانت رؤيا منام[٥].

﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فإحسانُه أنَّه كان يَعود المرضى ويُداويهم، ويُعزِّي الحَزَانَى[٦]. قال الضّحاك: كان إذا مرض الرجل من أهل السجن قام به، وإذا ضاق وسَّع له، وإذا احتاج جَمَع له، وسأل له[٧].

وقيل: «مِنَ الْمُحْسِنِينَ» أي: العالِمِين الذين أحسنوا العلم؛ قاله الفرَّاء[٨].

---

(١) أخرجه عن السدي الطبري ١٣/ ١٥٣، وسلف عن ابن مسعود.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٣٦.

(٣) سنن الترمذي (٢٢٨٣)، وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرجه أيضاً أحمد (١٨٦٦)، والبخاري (٧٠٤٢). وأخرجه أحمد (١٠٥٤٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) سنن الترمذي (٢٢٨١)، وهو عند أحمد (٥٦٨).

(٥) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٢٢٣ من طريق أبي صالح عن ابن عباس.

(٦) ذكره ابن الجوزي ٤/ ٢٢٣ من طريق مجاهد عن ابن عباس.

(٧) عرائس المجالس ص١٢٥ - ١٢٦، وفيه: وسأله ربه، بدل: وسأل له، وأخرجه الطبري ١٣/ ١٥٦-١٥٧.

(٨) في معاني القرآن ٢/ ٤٥.

وقال ابن إسحاق: مِن الْمُحْسِنِينَ لنا إن فَسَّرته[١]، كما تقول: افعل كذا وأنت مُحْسِن.

قال: فما رأيتما؟ قال الخبَّاز: رأيت كأني اختَبَزْتُ في ثلاثة تنانيرَ، وجعلته في ثلاث سِلالٍ، فوضعتُه على رأسي، فجاء الطير فأكل منه. وقال الآخر: رأيتُ كأنِّي أخذت ثلاثةَ عناقيدَ من عنبٍ أبيضَ، فعصرتُهن في ثلاث أوانٍ، ثم صفَّيته فسقيتُ الملك كعادتي فيما مضى[٢]، فذلك قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ أي: عنباً، بلغة عُمان؛ قاله الضَّحاك[٣]. وقرأ ابن مسعود: «إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ عِنَباً»[٤]. وقال الأصمعي: أخبرني المعتمر بن سليمان أنه لقي أعرابيًّا ومعه عنبٌ فقال له: ما معك؟ قال: خمر. وقيل: معنى «أَعْصِرُ خَمْراً» أي: عنبَ خمرٍ، فحذف المضاف[٥]. ويقال: خَمْرةٌ وخَمْر وخُمُور، مثل تمرةٍ وتمرٍ وتُمور[٦].

﴿قَالَ﴾ لهما يوسف: ﴿لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ﴾ يعني لا يجيئكما غداً طعامٌ من منزلكما ﴿إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ لتعلما أنِّي أعلم تأويلَ رؤياكما، فقالا: افعل! فقال لهما: يجيئكما كذا وكذا، فكان على ما قال، وكان هذا من علم الغيب خُصَّ به يوسف. وبيَّن أنَّ الله خصَّه بهذا العلم؛ لأنه ترك ملَّة قومٍ لا يؤمنون بالله، يعني دين الملك.

ومعنى الكلام عندي: العلم بتأويل رؤياكما، والعلم بما يأتيكما من طعامكما، والعلم بدين الله، فاسمعوا أوّلاً ما يتعلّق بالدين لتهتدوا، ولهذا لم يعبِّر لهما حتى دعاهما إلى الإسلام، فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ١٥٨، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٧.
(٢) عرائس المجالس ص١٢٥، وتفسير البغوي ٢/ ٤٢٥، وزاد المسير ٤/ ٢٢٣.
(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ١٥٥.
(٤) المحتسب ١/ ٣٤٣.
(٥) الوسيط ٢/ ٦١٣، وخبر الأصمعي عن المعتمر ذكره أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٤٣.
(٦) الصحاح (خمر).

﴿ٱلْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ الآية كلّها، على ما يأتي.

وقيل: علم أنَّ أحدهما مقتولٌ، فدعاهما إلى الإسلام لِيَسْعَدا به.

وقيل: إنَّ يوسف كره أن يعبِّر لهما ما سألاه؛ لِمَا عَلِمه من المكروه على أحدهما، فأعرض عن سؤالهما، وأخذ في غيره فقال: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ في النوم ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا﴾ بتفسيره في اليقظة؛ قاله السُّديّ[1]. فقالا له: هذا من فِعْل العَرَّافين والكَهَنة! فقال لهما يوسف عليه السلام: ما أنا بكاهن، وإنما ذلك مما علَّمنيه ربِّي[2]، إنِّي لا أخبركما به تكهُّناً وتنجيماً، بل هو بوحيٍ من الله عزَّ وجلَّ.

وقال ابن جُرَيج: كان الملك إذا أراد قتل إنسان صنع له طعاماً معروفاً، فأرسل به إليه، فالمعنى: لا يأتيكما طعامٌ ترزقانه في اليقظة، فعلى هذا: «تُرْزَقَانِهِ»، أي: يجري عليكما من جهة الملك أو غيره[3]. ويحتمل: يرزقكما الله. قال الحسن: كان يخبرهما بما غاب، كعيسى عليه السلام[4]. وقيل: إنما دعاهما بذلك إلى الإسلام، وجعل المعجزة التي يستدلَّان بها إخبارَهما بالغيوب.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ لأنَّهم أنبياءُ على الحقّ ﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما ينبغي ﴿لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ «مِنْ» للتأكيد، كقولك: ما جاءني من أحد. وقولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ إشارةٌ إلى عصمته من الزنى ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: على المؤمنين الذين عصمهم الله من الشرك.

وقيل: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ إذ جعلنا أنبياء، ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ إذ جعلنا الرسلَ إليهم. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ على نعمه بالتوحيد[5] والإيمان.

---

(١) بنحوه في المحرر الوجيز ٣/ ٢٤٤ .

(٢) عرائس المجالس ص١٢٦ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤٢٦ .

(٣) تفسير الطبري ١٣/ ١٦١ - ١٦٢ .

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٧ .

(٥) في (م): على نعمة التوحيد.

قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾ أي: يا ساكنَي السجن، وذَكَر الصُّحبة لطول مُقامهما فيه، كقولك: أصحاب الجنة، وأصحاب النار[١]. ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ أي: في الصغر والكبر والتوسُّط، أو متفرِّقون في العدد. ﴿خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ وقيل: الخطاب لهما ولأهل السِّجن، وكان بين أيديهم أصنامٌ يعبدونها من دون الله تعالى، فقال ذلك إلزاماً للحجة، أي: آلهةٌ شتَّى لا تضرُّ ولا تنفع «خيرٌ أم اللهُ الواحدُ القَهَّارُ» الذي قهر كلَّ شيء، نظيره: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]. وقيل: أشار بالتفرق إلى أنه لو تعدَّد الإله، لتفرَّقوا في الإرادة ولَعَلَا بعضُهم على بعض، وبيَّن أنها إذا تفرَّقت لم تكن آلهة.

قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً﴾ بيَّن عجزَ الأصنام وضعفَها، فقال: «مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِه» أي: من دون الله، إلا ذواتَ أسماءٍ لا معانيَ لها. ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ من تلقاء أنفسكم. وقيل: عنى بالأسماء المسمَّيات، أي: ما تعبدون إلا أصناماً ليس لها من الإلهية شيءٌ إلَّا الاسم؛ لأنها جمادات.

وقال: «مَا تَعْبُدُونَ» وقد ابتدأ بخطاب الاثنين؛ لأنه قَصَدَ جميعَ من هو على مِثْلِ حالهما من الشِّرك[٢].

﴿إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ فحذف المفعول الثاني للدلالة، والمعنى: سمَّيتموها آلهةً من عند أنفسكم. ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ ذلك في كتاب. قال سعيد بن جُبير:

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٤٢٧، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٤٥.

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٤٢٧.

﴿مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: من حجة(١). ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ الذي هو خالقُ الكلّ ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾. ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾. أي: القويم. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ أي: قال للسَّاقي: إنك تُردُّ على عملك الذي كنت عليه مِن سَقْي الملك بعد ثلاثة أيام، وقال للآخر: وأمَّا أنت فتُدعَى إلى ثلاثة أيام، فتصلبُ فتأكل الطيرُ من رأسك، قال: والله ما رأيتُ شيئاً؛ قال: رأيتَ أوْ لم ترَ ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾(٢).

وحكى أهل اللغة أنَّ سَقَى وأسْقَى لغتان بمعنًى واحد، كما قال الشاعر:

سقَى قومي بَني مَجْدٍ وأسْقَى نُمَيْراً والقبائلَ من هلالِ(٣)

قال النحاس(٤): الذي عليه أكثرُ أهل اللغة أنَّ معنى سقاه: ناولَه فشرب، أو صبَّ الماء في حَلْقِه. ومعنى أسقاه: جعَل له سُقْيا؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧].

الثانية: قال علماؤنا(٥): إن قيل: مَن كَذَبَ في رؤياه ففسَّرها العابِرُ له، أيلزمه حُكْمُها؟ قلنا: لا يلزمه، وإنما كان ذلك في يوسف لأنه نبيّ، وتعبيرُ النبيِّ حُكم، وقد قال: إنه يكون كذا وكذا، فأَوْجَدَ اللهُ تعالى ما أَخْبَر كما قال، تحقيقاً لنبوَّته.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٠.

(٢) أخرج هذا الكلام بنحوه الطبري ١٣/ ١٦٧ - ١٦٩ عن عبد الله بن مسعود ﷺ وغيره.

(٣) قائله لبيد، وقد سلف البيت ٢/ ١٣٥.

(٤) في إعراب القرآن ٢/ ٣٣٠، وما قبله منه.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٧٥.

فإن قيل: فقد رَوى عبد الرزاق[١]، عن مَعْمَر، عن قَتَادة قال: جاء رجل إلى عمر ابنِ الخطاب فقال: إنّي رأيتُ كأنّي أعْشَبْتُ، ثم أجْدبتُ، ثم أعْشَبْتُ، ثم أجْدبتُ، فقال له عمر: أنت رجلٌ تؤمن ثم تكفر، ثم تؤمن ثم تكفر، ثم تموت كافراً؛ فقال الرجل: ما رأيت شيئاً! فقال له عمر: قد قُضي لك ما قُضي لصاحب يوسف.

قلنا: ليست لأحدٍ بعد عمر؛ لأن عمر كان محدَّثاً، وكان إذا ظنَّ ظنًّا كان، وإذا تكلَّم به وقع، على ما ورد في أخباره، وهي كثيرة؛ منها: أنه دخل عليه رجلٌ، فقال له: أظنُّك كاهناً، فكان كما ظنّ. خرَّجه البخاريّ[٢].

ومنها: أنه سأل رجلاً عن اسمه، فقال له فيه أسماءَ النار كلَّها[٣]، فقال له: أَدْرِكْ أهلَك فقد احترقوا، فكان كما قال. خرَّجه «الموطأ»[٤]. وسيأتي لهذا مزيدُ بيان في سورة الحجر[٥] إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ الشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ۝٤٢﴾

فيه خمسُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ﴾ «ظن» هنا بمعنى أيْقَن، في قول أكثرِ المفسرين. وفسَّره قتادة على الظنِّ الذي هو خلافُ اليقين؛ قال: إنما ظنَّ يوسفُ نجاتَه؛ لأنَّ العابِرَ يظنُّ ظنًّا، وربُّك يخلق ما يشاء. والأوّل أصحُّ، وأشبهُ بحال

---

(١) في مصنفه (٢٠٣٦٢).

(٢) في صحيحه (٣٨٦٦) مطولاً.

(٣) في أحكام القرآن: فقال له أسماء فيها النار كلها.

(٤) ٢/ ٩٧٣ عن يحيى بن سعيد عن عمر، وهو منقطع، وأخرجه عبد الرزاق (١٩٨٦٤) عن معمر، عن رجل، عن ابن المسيب. وعزاه ابن حجر في الإصابة ٢/ ١٢٨ لعبد الرزاق ولكنه قال: عن الزهري، عن ابن المسيب. وأخرجه أبو القاسم بن بشران من طريق موسى بن عقبة، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما كما في الإصابة ٢/ ١٢٨ .

(٥) عند تفسير الآية (٧٥) منها.

الأنبياء، وأنَّ ما قاله للفَتَيَيْن في تعبير الرؤيا كان عن وحي، وإنما يكون ظنًّا في حكم الناس، وأما في حقِّ الأنبياء فإنَّ حكمهم حقٌّ كيفما وقع[١].

الثانية: قوله تعالى: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: سيِّدِك، وذلك معروفٌ في اللغة أن يقال للسيِّد: ربٌّ؛ قال الأعشى:

رَبِّـي كـريـمٌ لا يـكـدِّرُ نـعـمـةً ... وإذا تُـنـوشِـد بـالـمَـهـارِق أنـشـدا[٢]

أي: اذكر ما رأيتَه، وما أنا عليه من عبارة الرؤيا للملِك، وأخبره أنِّي مظلومٌ محبوسٌ بلا ذنب.

وفي «صحيح» مسلم وغيرِه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَقُلْ أحدُكم: اسقِ ربَّك، أطعم ربَّك، وضِّئ ربَّك، ولا يقل أحدُكم: ربِّي، ولْيقل: سيِّدي، مولاي، ولا يقل أحدُكم: عبدي أمتي، وليقل: فتايَ فتاتي غلامي»[٣].

وفي القرآن: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠] ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣] أي: صاحبي، يعني العزيز. ويقال لكلِّ مَن قام بإصلاح شيءٍ وإتمامه: قد رَبَّهُ يَرُبُّهُ، فهو رَبٌّ له[٤].

قال العلماء: قولُه عليه الصلاة والسلام: «لا يَقُلْ أحدُكم» «ولْيقلْ» من باب الإرشاد إلى إطلاق اسم الأَوْلى، لا أنَّ إطلاق ذلك الاسمِ محرَّم؛ ولأنه قد جاء عنه عليه الصلاة والسلام: «أنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّهَا»[٥] أي: مالكَها وسيِّدَها، وهذا موافقٌ

---

(١) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ١٧١ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٤٦ - ٢٤٧ ، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٣/ ١٧١ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٨ ، والبيت في ديوان الأعشى ص٢٧٩ برواية: يناشَد. ووقع في (ظ) و(م): في المهارق، وكذا ذكره ابن قتيبة في المعاني الكبير ١/ ٥٤٧ وقال: في بمعنى الباء، وقال في شرحه: لا يكدِّر نعمة بالمنّ، وإذا ناشدوه بالمهارق - وهي كتب الأنبياء - أنشدهم، أي: أجابهم.

(٣) صحيح مسلم (٢٢٤٩): (١٥)، وأخرجه أحمد (٨١٩٧) والبخاري (٢٥٥٢)، وسلف ٥/ ١٨٨ مختصراً.

(٤) ينظر تهذيب اللغة ١٥/ ١٧٧ ، وإكمال المعلم ٧/ ١٨٨ .

(٥) قطعة من حديث جبريل الطويل، أخرجه أحمد (٩٥٠١)، والبخاري (٥٠)، ومسلم (٩): (٥) عن أبي هريرة ﷺ، وسلف ١/ ٢١١ برواية: ربتها.

للقرآن في إطلاق ذلك اللفظ، فكان محلُّ النَّهي في هذا الباب ألَّا نتَّخذَ هذه الأسماءَ عادةً فنترك الأولى والأحسن.

وقد قيل: إنَّ قول الرجل: عبدي وأمتي، يجمع معنيين:

أحدهما: أنَّ العبودية بالحقيقة إنما هي لله تعالى، ففي قول الواحد من الناس لمملوكه: عبدي وأمتي، تعظيمٌ عليه، وإضافةٌ له إلى نفسه بما أضافه اللهُ تعالى به إلى نفسه؛ وذلك غيرُ جائز.

والثاني: أنَّ المملوك يدخله من ذلك شيءٌ في استصغاره بتلك التسمية، فيَحْمِلُه ذلك على سوء الطاعة.

وقال ابن شعبان في «الزاهي»: لا يقل السيِّد: عبدي وأَمتي، ولا يقل المملوك: ربِّي ولا ربَّتي[1]. وهذا محمولٌ على ما ذكرناه.

وقيل: إنما قال النبيُّ ﷺ: «لا يقل العبدُ: ربِّي، وليقل: سيِّدي»؛ لأنَّ الربَّ من أسماء الله تعالى المستعملةِ بالاتفاق، واختُلف في السيِّد؛ هل هو من أسماء الله تعالى أم لا؟ فإذا قلنا: ليس من أسماء الله، فالفرقُ واضح؛ إذ لا التباسَ ولا إشكال [يلزم من إطلاقه]. وإذا قلنا: إنه من أسمائه، فليس في الشُّهرة والاستعمال كلفظ الربِّ، فيحصل الفرق[2].

وقال ابن العربي[3]: يحتمل أن يكون ذلك جائزاً في شرع يوسفَ عليه السلام.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ الضمير في «فَأَنْسَاهُ» فيه

---

(١) إكمال المعلم ٧/ ١٨٧ ، وقال القاضي عياض بعد أن ذكر قول ابن شعبان: وذكر حديثاً في ذلك، وهو نحوٌ مما في كتاب مسلم. اهـ وابن شعبان هو محمد بن القاسم بن شعبان العمَّاري المصري، أبو إسحاق، شيخ المالكية، من ولد عمار بن ياسر، ويعرف بابن القُرْطي نسبة إلى بيع القرط. توفي سنة (٣٥٥هـ). السير ١٦/ ٧٨ .

(٢) المفهم ٥/ ٥٥٤ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٧٧ .

قولان:

أحدهما: أنه عائدٌ إلى يوسف عليه السلام، أي: أنساه الشيطان ذِكرَ الله عزَّ وجلَّ؛ وذلك أنه لمَّا قال يوسف لساقي الملك ـ حين علم أنه سينجو ويعود إلى حالته الأولى مع الملك ـ: «اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ» نسيَ في ذلك الوقتِ أن يشكوَ إلى الله ويستغيثَ به، وجَنَحَ إلى الاعتصام بمخلوق(١)؛ فعوقب باللَّبث.

قال عبد العزيز بنُ عُمير الكِنديُّ(٢): دخل جبريل على يوسف النبيِّ عليه السلام في السجن، فعرفه يوسف، فقال: يا أخا المنذِرين! ما لي أراك بين الخاطئين؟! فقال جبريل عليه السلام: يا طاهِرَ الطَّاهِرين(٣)! يُقرئك السلامَ ربُّ العالمين ويقول: أمَا استَحَيْتَ إذ استغثْتَ بالآدميِّين؟! وعزَّتي لأُلبثنَّك في السجن بِضْعَ سنين؛ فقال: يا جبريل! أهو عنِّي راضٍ؟ قال: نعم! قال: لا أبالي الساعة(٤).

ورُوي أنَّ جبريل عليه السلام جاءه فعاتَبَه عن الله تعالى في ذلك وطوَّل سَجْنَه، وقال له: يا يوسف! مَن خلَّصك من القتل من أيدي إخوتك؟! قال: الله تعالى، قال: فمن أخرجك من الجُبِّ؟ قال: الله تعالى، قال: فمن عَصَمك من الفاحشة؟ قال: الله تعالى، قال: فمن صَرَفَ عنك كيدَ النساء؟ قال: الله تعالى، قال: فكيف وَثِقْتَ بمخلوقٍ وتركت ربَّك فلم تسأله؟! قال: يا ربِّ، كلمةٌ زلَّت مني، أسألك يا إلهَ إبراهيمَ وإسحاق والشيخِ يعقوبَ عليهم السلام أن ترحمَني؛ فقال له جبريل: فإنَّ عقوبتك أن تلبثَ في السجن بِضْعَ سنين(٥).

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٤٧.

(٢) ذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة ٤/ ٢٣٤ في الطبقة السادسة من أهل الشام، وقال: أصله من خُراسان، لكنه سكن دمشق.

(٣) في (م): ابن الطاهرين.

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ١٦٣، وذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص١٢٧، والواحدي في الوسيط ٢/ ٦١٤ دون نسبة. وذكره البغوي ٢/ ٤٢٨ عن الحسن.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٤٩ - ٢١٥٠ (١١٦٤٢) عن أنس ﷺ بنحوه، وذكره بنحوه أيضاً مختصراً الثعلبي في عرائس المجالس ص١٢٧.

وروى أبو سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رَحِمَ الله يوسف، لولا الكلمةُ التي قال: ﴿أَذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ما لبث في السجن بضعَ سنين»[١].

وقال ابن عباس: عوقب يوسفُ بطول الحبس بضع سنين لمَّا قال للذي نجا منهما: ﴿أَذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، ولو ذَكَر يوسفُ ربَّه لخلَّصه[٢].

وروى إسماعيل بنُ إبراهيم، عن يونس، عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «لولا كلمةُ يوسفَ ـ يعني قولَه: ﴿أَذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ـ ما لبث في السجن ما لبث» قال: ثم يبكي الحسنُ ويقول: نحن يَنزل بنا الأمرُ فنشكو إلى الناس[٣].

وقيل: إنَّ الهاء تعود على النَّاجي، فهو الناسي، أي: أنسى الشيطانُ الساقيَ أن يذكرَ يوسفَ لربِّه، أي: لسيِّده. وفيه حذف، أي: أنساه الشيطانُ ذِكْرَه لربه[٤]. وقد رجَّح بعض العلماء هذا القولَ فقال: لولا أنَّ الشيطان أنسى يوسف ذِكْرَ الله لَمَا استحقَّ العقابَ باللَّبث في السجن؛ إذ الناسي غيرُ مؤاخَذ.

وأجاب أهل القول الأوَّلِ: بأنَّ النسيان قد يكون بمعنى التَّرْك، فلمَّا ترك ذِكْرَ الله ودعاه الشيطان إلى ذلك عوقب.

ردَّ عليهم أهل القول الثاني بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف:٤٥]، فدلَّ على أنَّ الناسيَ هو الساقي لا يوسفُ، مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر:٤٢]، فكيف يصحُّ أن يضاف نسيانُه إلى الشيطان، وليس له على الأنبياء سلطنة؟!

قيل: أمَّا النسيان فلا عصمةَ للأنبياء عنه إلا في وجهٍ واحد، وهو الخبرُ عن الله

(١) أخرجه ابن حبان (٦٢٠٦)، وابن أبي حاتم ٧/ ٢١٤٨ (١١٦٣٤).

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٠، وأخرجه ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٥٠ (١١٦٤٣) دون قوله: ولو ذكر يوسف ربه لخلصه.

(٣) أخرجه أحمد في الزهد ص١٠٣، والطبري ١٣/ ١٧٣.

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٤٢٨.

تعالى فيما يبلِّغونه، فإنهم معصومون فيه، وإذا وقع منهم النسيانُ حيث يجوز وقوعه؛ فإنه يُنسَب إلى الشيطان إطلاقاً، وذلك إنما يكون فيما أخبر الله عنهم [أو يخبرون به عن أنفسهم]، ولا يجوز لنا نحن ذلك فيهم(١)؛ قال ﷺ: «نَسِيَ آدمُ، فنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُه». وقال: «إنَّما أنا بشرٌ أنسى كما تَنْسَوْن». وقد تقدَّم(٢).

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ البِضعُ: قطعةٌ من الدَّهر مختلَفٌ فيها؛ قال يعقوبُ عن أبي زيد: يقال: بَضْع وبِضْع، بفتح الباء وكسرِها(٣)، قال أكثرهم: ولا يقال: بضعٌ ومئة، وإنما هو إلى التسعين(٤).

وقال الهَرَويُّ: العرب تستعمل البِضع فيما بين الثلاث إلى التسع. والبِضعُ والبِضْعةُ واحد، ومعناهما: القطعة من العدد.

وحَكَى عن أبي عبيدة أنه قال(٥): البضع ما دون نصفِ العَقد. يريد ما بين الواحد إلى أربعة، وهذا ليس بشيء.

وفي الحديث أنَّ رسول الله ﷺ قال لأبي بكر الصدِّيق ﷺ: «وكم البِضعُ؟» فقال: ما بين الثلاث إلى السبع، فقال: «اذهبْ فزايِدْ في الخَطَر»(٦).

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٧٦ - ١٠٧٧ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) تقدم الحديث الأول ١/ ٢٩٣ - ٢٩٤ ، والحديث الثاني ٨/ ٤٢١ .

(٣) بنحوه في إصلاح المنطق ص٣٦ ، وتهذيب اللغة ١/ ٤٨٨ .

(٤) هو في تفسير الطبري بنحوه ١٣/ ١٧٧ .

(٥) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: وحكى أبو عبيدة أنه قال، وينظر تهذيب اللغة ١/ ٤٨٨ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٤٧ .

(٦) الخَطَر: الذي يوضع في النضال والرهان، فمن سبق أخذه. تهذيب اللغة ٧/ ٢٢٤ . وقال ذلك رسول الله ﷺ لأبي بكر ﷺ عند مراهنته المشركين في غَلْب الروم لفارس. وقد أخرجه الطبري ١٨/ ٤٥٥-٤٥٦ من حديث ابن مسعود ﷺ بلفظ: «اذهب فزايدهم وازدد سنتين» وأخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير عند تفسير أول آيات سورة الروم من حديث البراء بن عازب ﷺ بلفظ: «تعرَّضْ لهم وأَعْظِم الخطر...». وأخرجه بنحوه أحمد (٢٤٩٥)، والترمذي (٣١٩١) و(٣١٩٣)، والنسائي في الكبرى (١١٣٢٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال الترمذي: حسن غريب. وأخرجه بنحوه =

وعلى هذا أكثرُ المفسرين، أنَّ البضع سبع؛ حكاه الثعلبيّ[١]. قال الماورديُّ: وهو قولُ أبي بكر الصديق ﷺ وقُطْرُب.

وقال مجاهد: من ثلاثٍ إلى تسع. وقاله الأصمعيّ. ابن عباس: من ثلاث إلى عشرة[٢]. وحكى الزَّجَّاج أنه ما بين الثلاث إلى الخمس. قال الفرَّاء: والبِضع لا يُذْكر إلا مع العشرة والعشرين إلى التسعين، ولا يذكر بعد المئة[٣].

وفي المدة التي لبث فيها يوسفُ مسجوناً ثلاثةُ أقاويل:

أحدها: سبع سنين؛ قاله ابنُ جُرَيج وقتادةُ ووهب بنُ مُنَبِّه؛ قال وهب: أقام أيوبُ في البلاء سبعَ سنين، وأقام يوسف في السجن سبع سنين.

الثاني: اثنتا عَشْرةَ سنةً؛ قاله ابن عباس.

الثالث: أربعَ عَشْرةَ سنة؛ قاله الضحَّاك[٤].

وقال مقاتل، عن مجاهدٍ، عن ابن عباس قال: مكثَ يوسف في السجن خمساً وبِضْعاً. واشتقاقُه من بضعتُ الشيء، أي: قطعته، فهو قطعةٌ من العدد، فعاقب الله يوسفَ بأن حُبِس سبعَ سنين، أو تسع سنين بعد الخمس التي مضت، فالبضعُ مدَّةُ العقوبة، لا مدَّةُ الحبس كلِّه[٥].

= أيضاً الترمذي (٣١٩٤) من حديث نِيَار بن مُكْرَم الأسلمي، وقال: صحيح حسن غريب. ولم يقع في أيٍّ من هذه الروايات أن البضع من الثلاث إلى السبع، وإنما وقع في بعضها أنه من الثلاث إلى التسع، وفي بعضها أنه مادون العشر.وكذا استدل به ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٤٧ على أن البضع من الثلاث إلى التسع.

(١) في عرائس المجالس ص١٢٧ ، وكذلك حكى الواحدي في الوسيط ٢/ ٦١٤ ، والبغوي ٢/ ٤٢٨ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٠ ، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٣/ ١٧٦ ، وأخرج عن ابن عباس أن البضع ما دون العشرة، وكذا ذكره عنه البغوي ٢/ ٤٢٨ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ٤٠ ، وكلام الزجاج في معانيه ٣/ ١١٢ ، وقد رجح فيه قول مجاهد والأصمعي.

(٤) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٠ - ٤١ ، عدا قول وهب بن منبه، وسيأتي تخريج خبره.

(٥) ذكر الثعلبي في عرائس المجالس ص١٢٧ نحوه عن الكلبي.

قال وهْب بن مُنَبِّه: حُبس يوسف في السجن سبعَ سنين، ومكث أيوبُ في البلاء سبعَ سنين، وعُذِّب بُخْتُنَصَّر بالمسخ سبعَ سنين[١].

وقال عبد الله بن راشد البصريُّ[٢] عن سعيد بن أبي عَرُوبة: إنَّ البضع ما بين الخمس إلى الاثنتي عشرةَ سنةً.

الخامسة: في هذه الآيةِ دليلٌ على جواز التعلُّق بالأسباب وإن كان اليقين حاصلاً، فإنَّ الأمور بيد مُسبِّبها، ولكنَّه جعلَها سلسلة، وركَّبَ بعضها على بعض، فتحريكُها سُنَّة، والتعويلُ على المنتهى يقين. والذي يدلُّ على جواز ذلك نسبةُ ما جرى من النسيان إلى الشيطان، كما جرى لموسى في لُقيا الخَضِر؛ وهذا بيِّنٌ فتأمَّلوه[٣].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ لمَّا دنا فَرَجُ يوسف عليه السلام، رأى الملكُ رؤياه، فنزل جبريل، فسلَّم على يوسف، وبشَّره بالفرَج وقال: إنَّ الله مُخرِجُك من سجنك، ومُمكِّنٌ لك في الأرض، يَذِلُّ لك ملوكُها، ويطيعك جبابرتُها، ومُعطيك الكلمةَ العليا على إخوتك، وذلك بسبب رؤيا رآها الملك، وهي كَيْتَ وكيت، وتأويلُها كذا وكذا. فما لبث في السجن أكثرَ مما رأى الملكُ الرؤيا حتى خرج، فجعل الله الرؤيا أوَّلاً ليوسف بلاءً وشدَّة، وجَعَلَها آخِراً بشرى ورحمة.

وذلك أنَّ الملك الأكبر الريَّان بنَ الوليد رأى في نومه كأنما خرج من نهرٍ يابسٍ سبعُ بقراتٍ سِمَان، في أثرهنَّ سبعٌ عِجاف ـ أي: مهازيل ـ وقد أقبلت العِجَاف على

(١) أخرجه عبد الرزاق ١/ ٣٢٣، والطبري ١٣/ ١٧٥، ووقع عند عبد الرزاق: وعذب بختنصر حُوِّل في السباع سبع سنين، وعند الطبري مثله إلا أنه قال: يجول، بدل: حوِّل.

(٢) لم نقف على ترجمته.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٧٧.

السِّمان، فأخذن بآذانهنَّ فأكَلْنَهنّ، إلَّا القَرنين، ورأى سبعَ سنبلاتٍ خُضْرٍ قد أقبل عليهن سبعٌ يابِساتٌ، فأكلنهنَّ حتى أتين عليهنّ، فلم يبقَ منهنَّ شيءٌ وهنَّ يابسات، وكذلك البقرُ كنَّ عِجافاً، فلم يزد فيهنّ شيءٌ من أكْلِهنَّ السِّمان، فهالَتْه الرؤيا، فأرسل إلى الناس وأهل العلم منهم والبَصَرِ بالكَهَانة والنّجَامة والعَرَافة والسِّحر، وأشرافِ قومه، فقال: «ياأَيُّهَا المَلأ أَفْتُوني في رُؤْيَايَ»، فقصَّ عليهم، فقال القوم: أَضْغَاثُ أَحْلَام»[١].

قال ابن جريج: قال لي عطاء: إنَّ أضغاث الأحلام: الكاذبةُ المخطئةُ من الرؤيا. وقال جُوَيبر، عن الضَّحَّاك، عن ابن عباس قال: إن الرؤيا: منها حقّ، ومنها أضغاث أحلام، يعني بها الكاذبة[٢].

وقال الهَرَويّ: قوله تعالى: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أي: أخلاط أحلام[٣]. والضِّغث في اللغة: الحُزْمة من الشيء، كالبَقْل والكلأ وما أشْبَههما، أي: قالوا: ليست رؤياك بيِّنة، والأحلام: الرؤيا المختلطة[٤].

وقال مجاهد: أضغاث الرؤيا: أهاويلُها. وقال أبو عبيدة: الأضغاث: ما لا تأويلَ له من الرؤيا[٥].

قوله تعالى: ﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ حذفت الهاء من «سبع» فرقاً بين المذكَّر والمؤنث. «سِمَانٍ» مِن نَعْتِ البقرات، ويجوز في غير القرآن: سبعَ بقراتٍ سِماناً،

---

(١) بنحوه في عرائس المجالس ص١٢٧ ، والوسيط ٢/ ٦١٥ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤٢٨ .

(٢) لم نقف عليه عن ابن عباس، وأخرج الطبري ١٣/ ١٨٠ ، من طريق جويبر وغيره نحوه عن الضحاك قوله.

(٣) ذكر الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤١ هذا القول عن معمر وقتادة.

(٤) ينظر معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٣١ ، وتهذيب اللغة ٨/ ٤ - ٦ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٢ ، وقول أبي عبيدة في كتابه مجاز القرآن ١/ ٣١٢ . وقول مجاهد أخرجه الطبري ٢٢٦/١٦ .

نعتٌ للسبع، وكذا خُضراً؛ قال الفرَّاء: ومثلُه: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣](١).
وقد مضى في سورة البقرة اشتقاقُها ومعناها(٢).

وقال عليّ بنُ أبي طالب ﷺ: المَعز والبقر إذا دخلت المدينة، فإن كانت سِماناً فهي سِنيُّ رخاءٍ، وإن كانت عِجافاً كانت شِداداً، وإن كانت المدينة مدينةَ بحرٍ وإبَّانَ سفر، قدمت سفنٌ على عددها وحالها، وإلَّا كانت فِتَناً مُتَرادِفةً، كأنها وجوهُ البقر ـ كما في الخبر: «يُشبه بعضُها بعضاً»(٣). وفي خبر آخرَ في الفتن: «كأنَّها صَيَاصِيُّ البقر».(٤) يريد: لتَشَابُهِها ـ إلَّا أنْ تكون صُفْراً كلُّها، فإنها أمراضٌ تدخل على الناس، وإن كانت مختلفةَ الألوان، شنيعةَ القرون، وكان الناس ينفرون منها، أو كان النار والدخان يخرج من أفواهها، فإنَّه عسكر أو غارة، أو عدوٌّ يضرب عليهم وينزل بساحتهم(٥).

وقد تدلُّ البقرة على الزوجة والخادم والغلَّة والسَّنَة؛ لمَا يكون فيها من الولد والغلَّة والنبات.

﴿يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ من عَجُف يَعجُف؛ على وزن: عَظُم يَعظُم، وروي: عَجِف يَعجَف؛ على وزن: حَمِد يَحمَد.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ﴾ جَمْعُ الرؤيا: رُؤًى، أي: أخبروني بحُكْم هذه الرؤيا. ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ العبارةُ مشتقَّةٌ من عُبور النهر، فمعنى عَبَرتُ النهر: بلغت شاطئه، فعابِرُ الرؤيا يَعْبُر بما يؤول إليه أمرُها. واللام في «للرؤيا»

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣١، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٤٧.

(٢) ٢/ ١٧٨.

(٣) قطعة من حديث حذيفة ﷺ أخرجه أحمد (٢٣٣٢٨) بلفظ: «فتن كقطع الليل المظلم يتبع بعضها بعضاً، تأتيكم مشتبهة كوجوه البقر». وقد سلف بنحوه ٢/ ١٨٨.

(٤) أخرجه أحمد (١٧٠٠٤) من حديث عبد الله بن حوالة ﷺ. وصياصي البقر: قرونها. اللسان (صيص).

(٥) ذُكر هذا الكلام في كتاب تفسير الأحلام المنسوب لابن سيرين ص٢١٤ دون نسبة.

للتَّبيين، أي: إن كنتم تَعبُرون، ثم بَيَّن فقال: للرؤيا؛ قاله الزجَّاج[١].

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ۝٤٤﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ﴾ قال الفرَّاء: ويجوز: أضغاثَ أحلام[٢]؛ قال النحاس: النصبُ بعيد؛ لأنَّ المعنى: لم ترَ شيئاً له تأويلٌ، إنما هي أضغاثُ أحلام[٣]، أي: أخلاط. وواحد الأضغاث ضِغث، يقال لكلِّ مختلِطٍ من بَقْلٍ أو حشيشٍ أو غيرهما: ضِغث[٤]؛ قال الشاعر:

كضِغثِ حُلْمٍ غُرَّ منه حالِمُهْ[٥]

﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ قال الزجَّاج: المعنى: بتأويل الأحلام المختلِطة[٦]. نَفَوا عن أنفسهم علمَ ما لا تأويلَ له، لا أنَّهم نفَوْا عن أنفسهم علمَ التأويل.

وقيل: نفَوا عن أنفسهم علمَ التعبير. والأضغاثُ على هذا: الجماعاتُ من الرؤيا التي منها صحيحةٌ ومنها باطلة، ولهذا قال الساقي: «أنا أُنَبِّئُكم بتأويله»، فعَلِم أنَّ القوم عجزوا عن التأويل، لا أنهم ادَّعَوا ألَّا تأويل لها.

وقيل: إنهم لم يقصِدوا تفسيراً، وإنما أرادوا مَحْوَها من صدر الملِك حتى لا تَشْغَلَ باله[٧]، وعلى هذا أيضاً فعندهم علم.

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ١١٢ . قال الزمخشري في الكشاف ٢/ ٣٢٣ : وعَبَرت الرؤيا ـ بالتخفيف ـ هو الذي اعتمده الأثبات.

(٢) يعني في اللغة، لا في القراءة، أي: رأيتَ أضغاثَ أحلام. معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٧ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣١ .

(٣) إعراب القرآن ٢/ ٣٣١ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٣١ .

(٥) ذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣٥ ، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٢ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١١٣ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٣١ .

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٧٨ .

و﴿الأَحْلَامُ﴾ جمع حُلْم، والحُلْم بالضمِّ: ما يراه النائم؛ تقول منه: حَلَم بالفتح واحْتَلَم، وتقول: حَلَمتُ بكذا وحَلَمته، قال:

فحلمتُها وبنو رُفَيْدَةَ دونَها لا يَبْعَدَنَّ خَيالُها المحلومُ[١]

وأصله: الأناة، ومنه الحِلْم ضدُّ الطَّيش؛ فقيل لِمَا يُرى في النوم: حُلْم؛ لأنَّ النوم حالةُ أناةٍ وسكونٍ وَدَعة[٢].

الثانية: في الآية دليلٌ على بُطْلان قولِ مَن يقول: إن الرؤيا على أوَّل ما تُعْبَر[٣]؛ لأنَّ القوم قالوا: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ ولم تقع كذلك؛ فإن يوسف فسَّرها على سِنيِّ الجَدْب والخِصب، فكان كما عبَر، وفيها دليلٌ على فساد [الرواية] أنَّ الرؤيا على رِجلِ طائر، فإذا عُبِرَتْ وقعت[٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا﴾ يعني ساقيَ الملك. ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: بعد

---

(١) الصحاح (حلم)، والبيت للأخطل، وهو في ديوانه ص٨٨ . ورفيدة: أبو حي من العرب يقال لهم: الرفيدات. اللسان (رفد).

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٢ .

(٣) أخرج ابن ماجه (٣٩١٥) عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «... والرؤيا لأول عابر». قال الحافظ في الفتح ١٢/ ٤٣٢ : وهو حديث ضعيف فيه يزيد الرقاشي، ولكن له شاهد أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه بسند حسن وصححه الحاكم عن أبي رزين العقيلي...، وينظر هذا الشاهد في التعليق الذي سيأتي.

(٤) أحكام القرآن للكيا ٤/ ٢٣٢ ، ونقله الكيا عن أحكام القرآن للجصاص ٣/ ١٧٣ ، وما سلف بين حاصرتين منهما: وقوله: الرؤيا على رجل طائر... هو حديث مرفوع أخرجه أحمد (١٦١٨٢) وأبو داود (٥٠٢٠) والترمذي (٢٢٧٩) وابن ماجه (٣٩١٤) من حديث أبي رزين العقيلي ﷺ. قال الترمذي: حديث حسن صحيح. قال السندي في شرح سنن ابن ماجه ٢/ ٤٥١ : قوله: «رجل طائر» بكسر الراء، كأنها معلقة بطائر، قيل: هذا مَثَل، والمراد أنها لا يستقر قرارها ما لم تعبر.

حين؛ عن ابن عباس وغيره[١]، ومنه ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعۡدُودَةٍ﴾ [هود:٨] وأصلُه: الجملةُ من الحين.

وقال ابن دَرَستويه[٢]: والأُمَّةُ لا تكون الحينَ إلَّا على حذفِ مضاف، وإقامةِ المضاف إليه مقامَه، كأنه قال ـ والله أعلم ـ: وادَّكر بعد حينِ أمَّةٍ، أو بعد زمنِ أُمَّة، وما أَشْبَهَ ذلك، والأُمَّةُ: الجماعةُ الكثيرة من الناس.

قال الأخفش: هو في اللفظ واحدٌ، وفي المعنى جمعٌ. وكلُّ جنسٍ من الحيوان أمَّة؛ وفي الحديث: «لولا أنَّ الكلاب أمَّةٌ من الأمم لأمرتُ بقَتْلِها»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَادَّكَرَ﴾ أي: تذكَّر حاجةَ يوسف، وهي قوله: «اذْكُرْني عند رَبِّكَ». وقرأ ابن عباس فيما روى عفَّان، عن همَّام، عن قتادة، عن عِكرمة، عنه: «وادَّكر بعدَ أَمَهٍ»؛ النحاس[٤]: والمعروف من قراءة ابنِ عباس وعِكرمة والضَّحاك[٥]: «وادَّكَر بعدَ أَمَهٍ»، بفتح الهمزة وتخفيف الميم، أي: بعد نسيان؛ قال الشاعر:

أَمِهْتُ وكنتُ لا أنسى حديثاً ... كذاك الدهرُ يُودِي بالعقولِ[٦]

وعن شُبَيل بن عَزْرة الضُّبَعي[٧]: «بعد أَمْهٍ» بفتح الألف وإسكان الميم وهاءِ

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ١٨١ - ١٨٤ .

(٢) هو عبد الله بن جعفر بن درستويه بن المرزبان، أبو محمد الفارسي النحوي، تلميذ المبرد، وكان ناصراً لنحو البصريين، توفي سنة (٣٤٧هـ). السير ١٥/ ٥٣١ .

(٣) الصحاح (أمم). والحديث أخرجه أحمد (١٦٧٨٨) وأبو داود (٢٨٤٥) والترمذي (١٤٨٦) والنسائي ٧/ ١٨٥ وابن ماجه (٣٢٠٥) من حديث عبد الله بن مغفَّل المزني ﷺ. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٤٣٢ ، وما قبله منه، وذكر القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٤ ، وابن جني في المحتسب ١/ ٣٤٤ .

(٥) قوله: والضحاك، ليس في معاني القرآن، وأخرج القراءة عنه وعن ابن عباس وعكرمة وغيرهم الطبري ١٣/ ١٨٤ - ١٨٦ .

(٦) الصحاح (أمه).

(٧) اضطرب الاسم في النسخ الخطية، والمثبت من (م) وهو الصواب، قال الحافظ في التقريب: شُبَيْل ـ بالتصغير ـ بن عَزْرة بفتح المهملة بعدها زاي ساكنة ثم راء، أبو عمرو البصري النحوي، وقال في التهذيب ٢/ ١٥٢ : روى عن أنس وغيره، وقال ابن حبان: كان من أفاضل أهل البصرة وقُرَّائهم. اهـ. والقراءة ـ التي ستأتي ـ ذكرها عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٤٩ . وأخرجها الطبري ١٣/ ١٨٦ عن مجاهد.

خالصة. وهو مثل الأَمَه، وهما لغتان، ومعناهما: النِّسيان. ويقال: أَمِهَ يأمَهُ أَمَهاً: إذا نَسيَ؛ فعلى هذا: «وادَّكَرَ بعدَ أَمَهٍ»؛ ذكره النحاس[١]. ورجلٌ أَمِهٌ[٢]: ذاهِبُ العقل.

قال الجوهريُّ: وأمَّا ما في حديث الزُّهريِّ: «أَمِهَ» بمعنى: أقرَّ واعترف، فهي لغةٌ غيرُ مشهورة[٣].

وقرأ الأشهب العُقَيليُّ: «بَعْدَ إِمَّةٍ»، أي: بعد نعمة، أي: بعد أن أنعم اللهُ عليه بالنَّجاة[٤].

ثم قيل: نسي الفتى يوسفَ؛ لقضاء الله تعالى في بقائه في السجن مُدة. وقيل: ما نسي، ولكنه خاف أن يذكِّرَ الملكَ الذنبَ الذي بسببه حُبس هو والخبَّاز، فقوله: «وادَّكَرَ» أي: ذَكَر وأخبر.

قال النحاس[٥]: أصل ادَّكَر: اذْتكر، والذالُ قريبةُ المَخرج من التاء، ولم يَجُز إدغامُها فيها؛ لأنَّ الذال مجهورةٌ، والتاء مهموسةٌ، فلو أدغموا ذهب الجهر، فأبدلوا من موضع التاء حرفاً مجهوراً، وهو الدال، وكان أَوْلى من الطاء؛ لأنَّ الطاء مُطْبَقة، فصار: اذْدَكَر، فأدغموا الذال في الدال [فصار: ادَّكر. وحكى الخليل وسيبويه أنَّ من العرب مَن يقول: اذَّكر، فيدغم الدال في الذال] لرخاوة الذَّال[٦] ولِيْنِها.

ثم قال: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ أي: أنا أخبركم. وقرأ الحسن: «أنا آتيكم

---

(١) في إعراب القرآن ٢/ ٣٣١، وقال السمين في الدر المصون ٦/ ٥٠٨: يقال: أَمِه يأمَه أَمَهاً وأمْهاً بفتح الميم وسكونها.

(٢) بعدها في (د) و(ف): ووامه، وفي (ز): وأمة، وفي (ظ): وأمَّة، والمثبت من (م). وجاء في تهذيب اللغة ٦/ ٤٧٥ عن الفراء: أَمِه الرجل فهو مأموه، وهو الذي ليس له عقل.

(٣) الصحاح (أمه). وحديث الزهري هو: من امتُحن في حدٍّ فأَمِهَ ثم تبرَّأ، فليست عليه عقوبة: غريب الحديث لأبي عبيد ٤/ ٤٧٧.

(٤) المحتسب ١/ ٣٤٤، وهي أيضاً في القراءات الشاذة ص٦٤.

(٥) في إعراب القرآن ٢/ ٣٣١، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٦) في النسخ: الدال، والمثبت من إعراب القرآن، وهو الصواب لأن الدال من الحروف الشديدة.

بتأويلِهِ»، وقال: كيف ينَبِّئهم العِلْج؟! قال النحاس[١]: ومعنى: «أنَبِّئُكُمْ» صحيحٌ حسن، أي: أنا أُخبركم إذا سألتُ.

﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ خاطَبَ الملكَ ولكنْ بلفظ التعظيم، أو خاطب الملك وأهلَ مجلسه. ﴿يُوسُفُ﴾ نداءٌ مفرَد، وكذا ﴿الصِّدِّيقُ﴾ أي: الكثيرُ الصِّدق[٢]. ﴿أَفْتِنَا﴾ أي: فأرسَلوه، فجاء إلى يوسف فقال: أيها الصِّدِّيق، وسأله عن رؤيا الملك. ﴿لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: إلى الملك وأصحابه. ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ التعبير، أو «لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ» مكانَكَ من الفضل والعلم فتخرج. ويحتمل أن يريدَ بالناس الملكَ وحده تعظيماً له.

قوله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ﴾ لمَّا أعلمه بالرؤيا جعل يفسِّرها له، فقال: السبعُ من البقرات السِّمان والسُّنبلاتِ الخضر سبعُ سنين مُخْصِبات، وأمَّا البقرات العِجافُ والسُّنبلاتُ اليابساتُ فسبعُ سنين مُجْدِبات، فذلك قوله: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أي: متواليةً متتابعة، وهو مصدرٌ على غير المصدر[٣]؛ لأنَّ معنى «تَزْرَعُونَ»: تدأبون[٤] كعادتكم في الزراعة سبعَ سنين. وقيل: هو حال، أي: دائبين. وقيل: صفةٌ لسبع سنين، أي: دائبةً.

وحكى أبو حاتم عن يعقوبَ: «دَأَباً» بتحريك الهمزة، وكذا روى حفصٌ عن

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٤٣٣ ، وما قبله منه، والقراءة ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٤ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣١ .

(٣) في (د) و(ز): الصدر.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٣ . وهذا القول ذكره السمين في الدر المصون ٦/ ٥١٠ عن المبرد، وأنه من باب. قعدت القرفصاء. قال السمين: وفيه نظر؛ لأنه ليس نوعاً خاصاً به، بخلاف القرفصاء مع القعود. وذكر عن سيبويه: أنه منصوب بفعل مقدَّر، تقديره: تدأبون.

عاصم، وهما لغتان، وفيه قولان: قولُ أبي حاتم: أنه من دَئِب. قال النحاس[١]: ولا يَعرف أهلُ اللغة إلا دَأَب. والقول الآخر: أنه حُرِّك لأنَّ فيه حرفاً من حروف الحَلْق؛ قاله الفرَّاء، قال[٢]: وكذلك كلُّ حرفٍ فُتح أوَّلُه وسكِّن ثانيه، فتثقيلُه جائزٌ إذا كان ثانيه همزةً، أو هاء، أو عيناً، أو غيناً، أو حاء، أو خاء، وأصلُه العادة؛ قال:

كدأبكَ مِن أُمِّ الحُوَيرث قَبْلَها

وقد مضى في «آل عمران» القولُ فيه[٣].

﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ قيل: لئلا يتسوَّس، وليكونَ أبقى؛ وهكذا الأمرُ في ديار مصر. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أي: استخرِجوا ما تحتاجون إليه بقَدْرِ الحاجة؛ وهذا القولُ منه أمر، والأولُ خبر. ويَحْتَمِل أن يكون الأولُ أيضاً أمراً وإن كان الأظهرُ منه الخبر؛ فيكون معنى: «تَزْرَعُونَ»، أي: ازرعوا[٤].

الثانية: هذه الآيةُ أصلٌ في القول بالمصالح الشرعية؛ التي هي: حِفظُ الأديان، والنفوس، والعقول، والأنساب، والأموال، فكلُّ ما تَضَمَّن تحصيلَ شيءٍ من هذه الأمور فهو مصلحة، وكلُّ ما يُفوِّت شيئاً منها فهو مفسدة، ودفعُه مصلحة، ولا خلافَ أنَّ مقصود الشرائع إرشادُ الناس إلى مصالحهم الدُّنيويَّة؛ ليحصُلَ لهم التمكُّنُ من معرفة الله تعالى وعبادته الموصِلتَيْن إلى السعادة الأُخْرَوِيَّة، ومراعاةُ ذلك فضلٌ من الله عزَّ وجلَّ ورحمةٌ رَحِمَ بها عبادَه، من غير وجوبٍ عليه ولا استحقاق؛ هذا مذهبُ كافَّةِ المحقِّقين من أهل السُّنَّة أجمعين؛ وبسطُه في أصول الفقه.

---

(١) في إعراب القرآن ٢/ ٣٣٢ ، وما قبله منه. وينظر تفسير البغوي ٢/ ٤٢٩ ، وقراءة حفص في السبعة ص٣٤٩ ، والتيسير ص١٢٩ .

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٤٧ .

(٣) ٥/ ٣٥ ، وسلف البيت ثَمَّ، وهو لامرئ القيس، وعجزه: وجارتِها أم الرباب بمأسل، وهو في ديوانه ص٩ برواية: كدِينك، بدل: كدأبك.

(٤) الكشاف ٢/ ٣٢٥ ، وقال السمين في الدر المصون ٦/ ٥٠٩ : ولا مدخل لأمره لهم بالزراعة؛ لأنهم يزرعون على عادتهم، أَمَرهم أو لم يأمرهم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ يعني السِّنينَ المُجْدِبَات. ﴿يَأْكُلْنَ﴾ مَجاز، والمعنى: يأكل أهلُهنّ. ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي: ما ادَّخرتم لأجْلِهنّ[١]؛ ونحوُه قولُ القائل:

نهارُك يا مغرورُ سهوٌ وغفلةٌ وليلُكَ نومٌ والرَّدَى لكَ لازمُ[٢]

والنهارُ لا يَسهو، والليل لا ينام؛ وإنما يُسهى في النهار، ويُنام في الليل.

وحكى زيد بنُ أَسْلَمَ عن أبيه: أنَّ يوسف كان يضع طعام اثنين، فيقرِّبُه إلى رجلٍ واحدٍ، فيأكل بعضَه، حتى إذا كان يومٌ قَرَّبه له فأكله كلَّه، فقال يوسف: هذا أوَّلُ يومٍ من السَّبع الشِّداد[٣].

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ نصب على الاستثناء. ﴿مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ أي: ممَّا تَحبسون لتزرعوا[٤]؛ لأن في استبقاء البَذْر تحصينَ الأقوات. وقال أبو عبيدة: تُحْرِزون[٥]. وقال قتادة: «تُحْصِنُونَ»: تدَّخرون[٦]. والمعنى واحد، وهو يدلُّ على جواز احتكارِ الطعام إلى وقت الحاجة.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٢ .

(٢) نسبه ابن رشيق في العمدة ١/ ٣٧ ، والعاملي في الكشكول ٢/ ٣٨٢ لعمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى. وجاء في الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري ص٣٣١ ، وصفة الصفوة لابن الجوزي ٢/ ١٢٤-١٢٥ أن عمر كان يتمثل به. وهو في تفسير الطبري ١٣/ ١٩٠ - ١٩١ دون نسبة.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٤٤ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٢ .

(٥) مجاز القرآن ١/ ٣١٣ ، وأخرجه الطبري ١٣/ ١٩٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) أخرجه الطبري ١٣/ ١٩١ - ١٩٢ .

الثانية: هذه الآية أصلٌ في صحَّة رؤيا الكافر، وأنها تُخرَّج على حَسَب ما رأى، لا سيَّما إذا تعلَّقتْ بمؤمن، فكيف إذا كانت آيةً لنبيٍّ، ومعجزةً لرسول، وتصديقاً لمصطفًى للتبليغ، وحجَّةً للواسطة بين الله جلَّ جلالُه وبين عبادِه[١]؟

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ﴾ هذا خبرٌ من يوسف عليه السلام عمَّا لم يكن في رؤيا الملك، ولكنه مِن علم الغيب الذي آتاه الله؛ قال قَتَادة: زاده الله عِلمَ سَنَةٍ لم يسألوه عنها[٢]، إظهاراً لفضله، وإعلاماً بمكانه من العلم ومعرفته.

﴿فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ من الإغاثة أو الغوث؛ غَوَّثَ الرجل، قال: واغَوْثاه، والاسم: الغَوْث والغُوَاث والغَوَاث، واستغاثني فلانٌ فأغثته، والاسم: الغِياث؛ صارت الواو ياءً لكسرةِ ما قَبْلَها. والغيث: المطر، وقد غاث الغيثُ الأرضَ، أي: أصابها؛ وغاث اللهُ البلادَ يَغِيثها غَيْثاً، وغِيثَتِ الأرضُ تُغاث غَيْثاً، فهي أرضٌ مَغِيثة ومَغْيوثة[٣]. فمعنى: «يُغَاثُ النَّاسُ»: يُمطَرون.

﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ قال ابن عباس: يعصرون الأعناب والدُّهن؛ ذكره البخاريّ[٤].

وروى حجَّاجٌ عن ابن جُرَيج قال: [قال ابن عباس:] يعصرون العنب خمراً، والسِّمسِمَ دُهناً، والزيتون زيتاً[٥].

وقيل: أراد حلبَ الألبان لكثرتها[٦]؛ ويدلُّ ذلك على كثرة النبات.

وقيل: «يَعْصِرُونَ» أي: يَنجُون، وهو من العُصْرة، وهي المَنْجاة؛ قاله

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٧٧ .

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ١٩٣ ، وما بعده من كلام ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٠٧٨ .

(٣) الصحاح (غوث) و(غيث).

(٤) قبل الحديث (٦٩٩٢)، ووصله الطبري ١٣/ ١٩٤.

(٥) أخرجه الطبري ١٣/ ١٩٤ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٦) أخرجه الطبري ١٣/ ١٩٥ عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: فيه يحلبون.

أبو عبيدة(١). والعَصَر بالتحريك: المَلْجأ والمَنْجاة، وكذلك العُصْرة؛ قال أبو زُبَيد(٢):

صادِياً يَستغِيثُ غيرَ مُغاثٍ ولقد كانَ عُصْرَةَ المَنْجودِ

والمَنْجود: الفَزِع(٣). واعتصرتُ بفلان وتَعصَّرتُ، أي: التجأت إليه. قال أبو الغوث: «يَعْصِرُونَ»: يَسْتَغِلُّونَ؛ وهو من عَصْر العنب. واعتصرت مالَه، أي: استخرجته من يده(٤).

وقرأ عيسى: «تُعْصَرُونَ» بضمِّ التاء وفتح الصاد(٥)، ومعناه: تُمطَرون؛ من قول الله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ [النبأ: ١٤]، وكذلك معنى «تُعصِرون» بضمِّ التاء وكسر الصاد، فيمَن قرأه كذلك(٦).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ﴾ أي: فذهب الرسولُ فأخبر الملك، فقال:

---

(١) في (د) و(م): قال أبو عبيدة، والمثبت من باقي النسخ، وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣١٣ ، ونقله المصنف عنه بواسطة الجوهري في الصحاح (عصر) وما بعده منه. وقد ردَّه الطبري ١٣/ ٢٠٥ وقال: يكفي من الشهادة على خطئه خلافُه قول جميع أهل العلم من الصحابة والتابعين.

(٢) حرملة بن منذر الطائي، ويقال: المنذر بن حرملة. كان نصرانياً واختلف في إسلامه. وهو أحد المعمَّرين، يقال عاش مئة وخمسين سنة. الإصابة ١١/ ١٥٤ . والبيت في تفسير الطبري ١٣/ ١٩٧ ، وأمالي اليزيدي ص٨ ، والصحاح (عصر)، والاقتضاب ص٣٩٠ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٥ .

(٤) الصحاح (عصر)، وأبو الغوث الأعرابي ممن سمع منهم الجوهري، وقد ورد ذكره في الصحاح في غير موضع.

(٥) ذكرها أبو حيان في البحر ٥/ ٣١٦ ، وذكر عن عيسى أيضاً أنه قرأ: «يُعصَرون» بضم الياء وفتح الصاد، وكذلك ذكرها عنه ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٤ ، وابن جني في المحتسب ١/ ٣٤٤ .

(٦) لم نقف على هذه القراءة.

ائتوني به ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ أي: يأمره بالخروج، قال: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾ أي: حال النسوة ﴿ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾. فأبى أن يَخرجَ إلَّا أن تصحَّ براءتُه عند الملك مما قُذِف به، وأنه حُبس بلا جُرْم(١).

وروى الترمذيُّ عن أبي هُريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الكريم ابنَ الكريم ابنِ الكريم ابنِ الكريم يوسفُ بنُ يعقوب بنِ إسحاق بن إبراهيم». قال: «ولو لبِثتُ في السِّجن ما لَبِث، ثم جاءني الرسولُ، أَجَبْتُ»، ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾؛ قال: «ورحمةُ الله على لوطٍ، لقد كان يأوي إلى رُكنٍ شديد إذ قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ فما بَعَثَ اللهُ من بعده نبيًّا إلَّا في ذِرْوةٍ من قومه»(٢).

وروى البخاريُّ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يَرْحمُ اللهُ لوطاً لقد كان يأوي إلى ركنٍ شديد، ولو لبثتُ في السِّجن ما لَبِثَ يوسفُ لأَجَبْتُ الدَّاعي، ونحن أحقُّ من إبراهيم إذ قال له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠](٣)».

ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «يرحم الله أخي يوسفَ، لقد كان صابراً حليماً، ولو لبثتُ في السجن ما لَبِثَه؛ أجبتُ الداعيَ ولم ألتمس العُذْر»(٤). وروي نحوُ هذا الحديثِ من طريق عبد الرحمن بنِ القاسم صاحبِ مالك، في كتاب التفسير من «صحيح» البخاري، وليس لابن القاسم في الديوان غيرُه(٥). وفي رواية الطَّبريّ(٦):

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٢ ، وينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٧٩ .

(٢) سنن الترمذي (٣١١٦)، وهو عند أحمد (٨٣٩١). وقد سلفت القطعة الأخيرة منه ص١٨١ من هذا الجزء. والعبارة الأولى أخرجها أحمد (٨٣٩١) من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرجها أيضاً (٥٧١٢)، والبخاري (٣٣٩٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) صحيح البخاري (٤٦٩٤)، وهو عند أحمد (٨٣٢٨ - ٨٣٢٩)، ومسلم (١٥١). وسلف ٤/ ٣١٠ .

(٤) أخرج نحوه أحمد (٨٥٥٤)، والطبري ١٣/ ٢٠٠ - ٢٠١ ، والحاكم ٢/ ٣٤٦ . من حديث أبي هريرة ﷺ. وكلام المصنف في المحرر الوجيز ٣/ ٢٥٢ .

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٢٥٢ ، والحديث المشار إليه عند البخاري هو حديث أبي هريرة السالف.

(٦) في تفسيره ١٣/ ٢٠٠ .

«يرحم الله يوسفَ، لو كنت أنا المحبوسَ ثم أُرسل إليَّ، لخرجتُ سريعاً، إنْ كان لحليماً ذا أناة».

وقال ﷺ: «لقد عجبتُ من يوسف وصبرِه وكرمه، واللهُ يغفر له حين سئل عن البقرات، لو كنت مكانَه لَمَا أخبرتُهم حتى أَشْتَرِطَ أن يُخْرِجوني، ولقد عجبتُ منه حين أتاه الرسولُ، ولو كنتُ مكانَه لبادَرْتُهم الباب»[1].

قال ابن عطية[2]: كان هذا الفعلُ من يوسفَ عليه السلام أناةً وصبراً، وطَلَباً لبراءة الساحة، وذلك أنه ـ فيما روي ـ خشي أن يخرج وينالَ من الملك مرتبةً، ويسكت عن أمرِ ذنبه صفحاً، فيراه الناس بتلك العين أبداً ويقولون: هذا الذي راود امرأةَ مولاه، فأراد يوسف عليه السلام أن يبيِّن براءته، ويحقِّق منزلته[3] من العِفَّة والخير، وحينئذٍ يخرج للإحظاء والمنزلة؛ فلهذا قال للرسول: ارجع إلى ربِّك وقل له: ما بالُ النسوة؟ ومقصدُ يوسفَ عليه السلام إنما كان: وقل له: يستقصي عن ذنبي، وينظر في أمري، هل سُجنت بحقٍّ أو بظلم. ونَكَب عن [ذِكْر] امرأة العزيز حُسنَ عِشرةٍ، ورعايةً لذِمام الملك العزيزِ له.

فإن قيل: كيف مَدَح النبيُّ ﷺ يوسفَ بالصبر والأناة وتركِ المبادرة إلى الخروج، ثم هو يذهب بنفسه عن حالةٍ قد مَدح بها غيره؟

فالوجه في ذلك: أنَّ النبيَّ ﷺ إنَّما أخذ لنفسه وجهاً آخَرَ من الرأي، له جهةٌ أيضاً من الجودة، يقول: لو كنتُ أنا لبادرت بالخروج، ثم حاولت بيانَ عذري بعد ذلك. وذلك أنَّ هذه القصصَ والنوازل [إنما] هي معرَّضةٌ لأنْ يقتديَ الناسُ بها إلى يوم القيامة، فأراد رسول الله ﷺ حَمْلَ الناس على الأَحْزَمِ من الأمور؛ وذلك أنَّ

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٢٠٢ ، والطبراني (١١٦٤٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، والكلام في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٧٩ .

(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٢٥٢ . وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) في المحرر الوجيز: أن تبين براءته، وتتحقق منزلته.

المُتَعمِّق[١] في مثل هذه النازلة، التاركَ فرصةَ الخروجِ من مثلِ ذلك السجن، ربما نَتَج له [من ذلك] البقاءُ في سجنه، وانصرفت نفسُ مُخْرِجه عنه، وإن كان يوسف عليه السلام أَمِن من ذلك بعلمه من الله؛ فغيرُه من الناس لا يأمن ذلك، فالحالةُ التي ذهب النبيُّ ﷺ بنفسه إليها حالةُ حزمٍ [ومدح]، وما فَعَلَه يوسفُ عليه السلام صبرٌ عظيمٌ وجَلدٌ.

قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾ ذَكرَ النِّساءَ جملةً ليدخل فيهنَّ امرأة العزيز، مدخلَ العمومِ بالتلويح، حتى لا يقعَ عليها تصريح؛ وذلك حُسنُ عِشرةٍ وأدب، وفي الكلام محذوف، أي: فاسأله أن يتعرَّفَ ما بالُ النِّسوة.

قال ابن عباس: فأرسل الملكُ إلى النسوة وإلى امرأة العزيز ـ وكان قد مات العزيز ـ فدعاهنَّ فـ ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ﴾ أي: ما شأنكنّ ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ وذلك أنَّ كلَّ واحدةٍ منهنَّ كلَّمت يوسف في حقِّ نفسها، على ما تقدَّم[٢]، أو أراد قولَ كلِّ واحدة: قد ظلمتَ امرأةَ العزيز، فكان ذلك مراودةً منهنّ. ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ أي: معاذ الله ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ أي: زِنًى. ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ لمَّا رأت إقرارَهنَّ ببراءة يوسف، وخافت أن يَشهدنَ عليها إن أنكرت، أقرَّت هي أيضاً، وكان ذلك لطفاً من الله بيوسف.

و«حَصْحَصَ الْحَقُّ» أي: تبيَّن وظَهَر، وأصله: حَصَصَ، فقيل: حَصْحَصَ، كما قال: كُبْكِبُوا، في كُبِبوا، وكَفكَف في كَفَفَ؛ قاله الزجَّاج وغيره[٣].

وأصل الحَصِّ: استئصال الشيء؛ يقال: حصَّ شعرَه: إذا استأصله جَزًّا[٤]؛ قال

(١) في النسخ: وذلك أن ترك الحزم في مثل، والمثبت من المحرر الوجيز، ويعني بالمتعمِّق: المبالغ في الأمر المتشدِّد فيه.

(٢) ص٣٤٠ من هذا الجزء.

(٣) ذكره عن الزجاج الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٧، وقاله أيضاً النحاس في معاني القرآن ٥/ ٨٩، والطبري ١٣/ ٢٠٦.

(٤) تفسير الطبري ١٣/ ٢٠٦.

أبو قيس بنُ الأسْلَت[١]:

قد حَصَّت البيضةُ رأسي فما أطعَمُ نوماً غيرَ تَهْجاعِ

وسَنَةٌ حصَّاء، أي: جرداءُ لا خيرَ فيها؛ قال جَرير:

يأوي إليكم بلا مَنٍّ ولا جَحَدٍ مَن ساقَه السَّنةُ الحصَّاءُ والذِّيبُ

كأنه أراد أن يقول: والضَّبعُ، وهي السنة المُجْدِبة؛ فوضع الذئب موضعَه لأجل القافية[٢]؛ فمعنى «حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ»، أي: انقطع عن الباطل بظهوره وثباته؛ قال:

أَلَا مُبْلِغٌ عنِّي خِدَاشاً فإنَّهُ كَذوبٌ إذا ما حَصحصَ الحقُّ ظالمُ[٣]

وقيل: هو مشتقٌّ من الحِصَّة؛ فالمعنى: بانت حِصَّةُ الحقِّ من حِصَّة الباطل[٤]. وأصله[٥] مأخوذٌ من قولهم: حَصَّ شَعْرَه: إذا استأصل قطعةً [فظهرت مواضعه]، ومنه: الحِصَّة من الأرض: إذا قُطعت منها. والحِصْحِص بالكسر: التراب والحجارة؛ ذكره الجوهري[٦].

﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وهذا القولُ منها ـ وإن لم يكن سأل عنه ـ إظهارٌ لتوبتها، وتحقيقٌ لصدق يوسف وكرامته؛ لأنَّ إقرار المُقِرِّ على نفسه أقوى من الشهادة عليه، فجمع اللهُ تعالى ليوسف لإظهار صدقِه الشهادةَ والإقرار، حتى لا يخامرَ نفساً ظنٌّ، ولا يخالطَها شكٌّ[٧].

---

(١) الأوسي، مختلف في اسمه، فقيل: صيفي، وقيل: الحارث، وقيل: عبد الله، وقيل صِرْمة. واختلف في إسلامه. الإصابة ١١/ ٣٠٩ . والبيت في المفضليات ص٢٨٤ ، والكامل ١/ ٢٣٥ ، والصحاح (حصص)، والخزانة ٣/ ٤١١ .

(٢) الصحاح (حصص)، والبيت في ديوان جرير ١/ ٣٤٩ (بشرح ابن حبيب).

(٣) النكت والعيون ٣/ ٤٧ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١١٥ ، وزاد المسير ٤/ ٢٣٧ .

(٥) وقع قبلها في النسخ قوله: وقال مجاهد وقتادة، وهو وهم، والكلام في النكت والعيون ٣/ ٤٧ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٦) في الصحاح (حصص).

(٧) النكت والعيون ٣/ ٤٧ .

وشُدِّدت النون في «خَطْبُكُنَّ» و«رَاوَدْتُنَّ» لأنها بمنزلة الميم والواو في المذكَّر(١).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ۝٥٢ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥٣﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ اختُلف فيمن قاله، فقيل: هو مِن قول امرأة العزيز، وهو متَّصل بقولها: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾(٢) أي: أقررتُ بالصدق ليعلمَ أني لم أخنه ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي(٣): بالكذب عليه، ولم أذكره بسوءٍ وهو غائب، بل صدقتُ وحِدت عن الخيانة، ثم قالت: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ بل أنا راودته، وعلى هذا هي كانت مُقِرَّةً بالصانع، ولهذا قالت: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقيل: هو من قول يوسف، أي: قال يوسف: ذلك الأمر الذي فعلتُه من ردِّ الرسول «لِيَعْلَمَ» العزيزُ ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾. قاله الحسن وقَتادة وغيرهما(٤).

ومعنى «بالغيب»: وهو غائب. وإنما قال يوسف ذلك بحضرة المَلِك، وقال: «لِيَعْلَمَ» على الغائب؛ توقيراً للملك. وقيل: قاله إذ عاد إليه الرسولُ وهو في السجن بعدُ، قال ابن عباس: جاء الرسولُ إلى يوسف عليه السلام بالخبر وجبريل معه يحدثه، فقال يوسف: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ أي: لم أَخُن سيِّدي بالغيب؛ فقال له جبريل عليه السلام: يا يوسف، ولا حين حَلَلْت الإزارَ، وجلستَ مجلسَ الرجلِ من المرأة؟! فقال يوسف: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ الآية(٥). وقال السّديُّ: إنما قالت له امرأة العزيز: ولا حين حَلَلْت سراويلك يا يوسف؟! فقال

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٣٢ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٥٤ .

(٣) قوله: ﴿بِالْغَيْبِ﴾، أي، من (م).

(٤) تفسير الطبري ١٣/ ٢٠٧ - ٢٠٨ ، والنكت العيون ٣/ ٤٧ .

(٥) سلف في الصفحة ٣١٢ من هذا الجزء، وينظر ما ذكرنا ثمة من ردود العلماء على هذا الخبر وما شابهه من الأخبار التي تنافي عصمة الأنبياء.

يوسف: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾[١].

وقيل: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ من قول العزيز، أي: ذلك ليعلم يوسفُ أني لم أَخُنه بالغيب، وأني لم أغفُل عن مُجازاته على أمانته[٢]. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ معناه: أنَّ الله لا يهدي الخائنين بكيدهم[٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ قيل: هو من قول المرأة. وقال القُشَيريُّ: فالظاهر أن قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ وقوله: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ من قول يوسف.

قلت: إذا احتمل أن يكون من قول المرأة؛ فالقولُ به أَولى حتى نبرِّئَ يوسفَ من حَلِّ الإزار والسَّراويل، وإذا قدَّرناه من قول يوسف؛ فيكون مما خطر بقلبه، على ما قدَّمناه من القول المختار في قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ [الآية: ٢٤].

قال أبو بكر الأنباريُّ[٤]: من الناس مَن يقول: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ من كلام امرأة العزيز، لأنه متصل بقولها: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وهذا مذهبُ الذين يَنفون الهمَّ عن يوسف عليه السلام، فَمَن بنى على قولهم قال: من قوله: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ كلامٌ متصلٌ بعضُه ببعض، ولا يكون فيه وقفٌ تامٌّ على حقيقة، ولسنا نختار هذا القولَ ولا نذهب إليه.

وقال الحسن: لمَّا قال يوسف: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ كره نبيُّ الله أن يكون قد زكَّى نفسَه فقال: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾[٥] لأن تزكيةَ النفس مذمومةٌ، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]، وقد بيَّناه في «النساء»[٦].

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٤٨، وتفسير البغوي ٢/ ٤٣١.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢٤٠.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٤٧.

(٤) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٧٢٤ - ٧٢٥.

(٥) زاد المسير ٤/ ٢٤١.

(٦) ٦/ ٤٠٧ وما بعدها.

وقيل: هو من قول العزيز، أي: وما أُبرئ نفسي من سوء الظن بيوسف[١].

﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي: مُشتهيةٌ له. ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ في موضع نصب بالاستثناء[٢]، و«ما» بمعنى مَنْ، أي: إلا مَن رَحِمَ ربي فعصمه، و«ما» بمعنى مِن كثير، قال الله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣]. وهو استثناءٌ منقطع؛ لأنه استثناء المرحوم بالعصمة مِن النفس الأمارة بالسوء[٣]. وفي الخبر عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «ما تقولون في صاحبٍ لكم؛ إنْ أنتم أكرمتُموه وأطعمتُموه وكسوتُموه أفضى بكم إلى شرِّ غاية، وإنْ أهنتُموه وأعريتموه وأجعتموه أفضى بكم إلى خير غاية» قالوا: يا رسولَ الله، هذا شرُّ صاحب في الأرض. قال: «فوالذي نفسي بيده، إنها لَنفوسكم التي بين جُنوبكم»[٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ﴾ لمَّا ثبت للملِك براءتُه مما نُسب إليه، وتحقَّق في القصة أمانتَه، وفَهِمَ أيضاً صبرَه وجَلَده؛ عظُمت منزلتُه عنده، وتيقَّن حسنَ خِلاله قال: «ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي». فانظر إلى قول الملك أولاً ـ حين تحقق عِلمَه ـ: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ﴾ [يوسف: ٥٠] فقط، فلما فعل يوسف ما فعل ثانياً قال: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ﴾[٥].

ورُوي عن وهب بن مُنبِّه قال: لما دُعي يوسف وقف بالباب، فقال: حسبي ربِّي من خَلقه، عزَّ جارُه، وجلَّ ثناؤه، ولا إلهَ غيرُه. ثم دخل، فلمَّا نظر إليه الملِك نزل

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢٤١.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٣.

(٣) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٢٥٤، وتفسير البغوي ٢/ ٤٣١، وتفسير الرازي ١٨/ ١٥٧.

(٤) لم نقف عليه، والله أعلم بصحته.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٢٥٥.

عن سريره فخرَّ له ساجداً، ثم أقعده الملك معه على سريره فقال: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾. ﴿قَالَ﴾ له يوسف: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ﴾ للخزائن ﴿عَلِيمٌ﴾ بوجوه تصرفاتها[(١)]. وقيل: حافظٌ للحساب، عليمٌ بالألسن[(٢)].

وفي الخبر: «يرحَم اللهُ أخي يوسفَ، لو لم يَقُلْ: اجعَلْني على خزائن الأرض لاستعملَه مِن ساعته، ولكن أخَّر ذلك سنة»[(٣)].

وقيل: إنما تأخَّر تمليكه إلى سنة؛ لأنه لم يقل: إن شاء اللهُ[(٤)].

وقد قيل في هذه القصة: إنَّ يوسفَ عليه السلام لَمَا دخل على الملك قال: اللهم إني أسألك بخيرك من خيره، وأعوذ بك من شرِّه وشرِّ غيره، ثم سلَّم على الملك بالعربية، فقال: ما هذا اللسان؟! قال: هذا لسان عَمِّي إسماعيل، ثم دعا له بالعبرانية، فقال: ما هذا اللسان؟! قال: لسان آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وكان الملك يتكلَّم بسبعين لساناً، فكلَّما كلَّم يوسفَ[(٥)] بلسانٍ أجابه يوسفُ بذلك اللسان، فأعجب الملكَ أمرُه، وكان يوسفُ إذ ذاك ابنَ ثلاثين سنة، ثم أجلسه على سريره وقال: أُحبُّ أن أسمع منك رؤيايَ، قال يوسف: نعم أيها الملك، رأيتَ سبعَ بقرات سِمانٍ شُهْباً غُرًّا حِساناً[(٦)]، كشف لك عنهن النِّيلُ، فطلعن عليك من شاطئه تَشخَب أخلافُها لبناً، فبينا أنت تنظر إليهنَّ وتتعجب من حسنهنَّ إذ نَضَب النِّيلُ، فغار ماؤه،

(١) عرائس المجالس ص١٢٨ - ١٢٩، وتفسير البغوي ٢/ ٤٣١ - ٤٣٢.

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٢١٩، وزاد المسير ٤/ ٢٤٣.

(٣) أخرجه الثعلبي في عرائس المجالس ص١٢٩ - ١٣٠ من طريق إسحاق بن بشر، عن جويبر، عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً، ومن طريق الثعلبي أخرجه الواحدي في الوسيط ٢/ ٦١٨، قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف ص٩٠: وهذا إسناد ساقط.

(٤) ينظر زاد المسير ٤/ ٢٤٣ - ٢٤٤.

(٥) في (م): فكلَّما تكلَّم الملك، والمثبت موافق لعرائس المجالس ص١٢٩، وهذه القصة بطولها فيه وفي تفسير البغوي ٢/ ٤٣١ - ٤٣٢، وهي التي تكلم في إسنادها الحافظ ابن حجر كما سلف.

(٦) كذا في النسخ: شهباً غرًّا حساناً، وفي عرائس المجالس وتفسير البغوي: شهب غرٌّ حسان.

وبدا أُسُّه، فخرج من حَمَئه وَوَحَله سبعُ بقرات عِجافٍ شُعْثٍ غُبْرٍ مُقَلَّصات البطون، ليس لهنَّ ضروعٌ ولا أخلاف، لهنَّ أنيابٌ وأضراس، وأكفٌّ كأكُفِّ الكلاب، وخراطيمُ كخراطيم السِّباع، فاختلطْنَ بالسِّمان، فافترسنهنّ افتراسَ السِّباع، فأكلن لحومَهنَّ، ومزَّقن جلودَهنَّ، وحطَّمن عظامَهنَّ، ومَشَّشْنَ[1] مُخَّهنَّ، فبينا أنت تنظر وتتعجب كيف غَلَبْنهنَّ وهنَّ مهازيل، ثم لم يظهر فيهنّ[2] سِمَن ولا زيادة بعد أكلهنّ! إذا بسبعِ سنابلَ خُضرٍ طَريات ناعماتٍ ممتلئات حبًّا وماءً، وإلى جانبهنَّ سبعٌ يابسات ليس فيهنَّ ماءٌ ولا خُضرة في مَنْبِتٍ واحد، عروقُهنَّ في الثرى والماء، فبينا أنت تقول في نفسك: أيُّ شيء هذا؟! هؤلاء خضرٌ مُثمرات، وهؤلاء سودٌ يابسات، والمَنْبِتُ واحد، وأصولُهنَّ في الماء، إذْ هبَّت ريحٌ فذَرت الأوراقَ من اليابسات السود على الخُضر المُثمرات، فأشعلَتْ فيهن النارَ، فأحرقتهنَّ، فَصِرْنَ سوداً مُغبَّراتٍ، فانتبهتَ مذعوراً أيها الملك، فقال الملك: واللهِ، ما شأن هذه الرؤيا وإن كانت عجباً بأعجبَ مما سمعتُ منك! فما ترى في رؤياي أيها الصدِّيق؟ فقال يوسف: أرى أن تجمع الطعامَ، وتزرع زرعاً كثيراً في هذه السنين المُخصِبة، فإنك لو زَرَعْتَ على حَجر أو مَدَر لَنبت، وأظهر اللهُ فيه النَّماءَ والبركة، ثم ترفع الزرع بقصبه وسنبله، وتبني له المخازنَ العِظام، فيكون القصب والسُّنبل عَلَفاً للدوابّ، وحبُّه للناس، وتأمر الناسَ فيرفعون من طعامهم إلى أهْرَائك[3] الخُمْسَ، فَيكفيك من الطعام الذي جمعتَه لأهل مصر ومَن حولها، ويأتيك الخَلق من النواحي يمتارون منك، ويجتمع عندك من الكنوز ما لم يجتمع لأحدٍ قبْلَك، فقال الملك: ومن لي بتدبير هذه الأمور؟ ولو جمعتُ أهلَ مصر جميعاً ما أطاقوا، ولم يكونوا فيه أُمناء، فقال يوسف عليه السلام عند ذلك: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي: على خزائن أرضك، وهي جمعُ خِزانة،

---

(١) التمشيش: استخراج المُخّ. القاموس المحيط (مشش).

(٢) في (ز) و(ف) و(م): منهن.

(٣) الأهراء، جمع: هُرْي، وهو بيت كبير يُجمع فيه طعام السلطان. القاموس المحيط (هرو).

ودخلت الألف واللام عوضاً من الإضافة، كقول النابغة:

لهم شِيمَةٌ لم يُعْطِهَا اللهُ غَيْرَهُمْ ... مِنَ الجُودِ والأحْلَامُ غيرُ كَوَاذِبِ[(١)]

قوله تعالى: ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ جزم لأنه جواب الأمر[(٢)]؛ وهذا يدلُّ على أن قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ جَرَى في السِّجن. ويَحتمل أنه جرى عند الملك، ثم قال في مجلس آخر: ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ﴾ تأكيداً ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ أي: أجعله خالصاً لنفسي، أفوّض إليه أمرَ مملكتي، فذهبوا فجاؤوا به، ودلَّ على هذا: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ أي: كلَّم الملكُ يوسفَ، وسأله عن الرؤيا فأجاب يوسف، فـ ﴿قَالَ﴾ الملك: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي: متمكِّنٌ نافذُ القول، «أَمِينٌ» لا تخاف غدراً[(٣)].

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾

فيه أربعُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ قال سعيد بن منصور: سمعت مالكَ بن أنس يقول: مصرُ خِزَانةُ الأرض، أما سمعت إلى قوله: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾[(٤)] أي: على حِفظها، فحذف المضاف. ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ لما وُلِّيت ﴿عَلِيمٌ﴾ بأمره[(٥)]. وفي التفسير: إني حاسبٌ كاتب، وأنه أوّل من كتب في القراطيس[(٦)]. وقيل: «حَفِيظٌ» لتقدير الأقوات، «عَلِيمٌ» بسِني المجاعات[(٧)]. قال

---

(١) ديوان النابغة ص١٢ ، وفيه: عوازب، بدل: كواذب، وسلف البيت ٤/ ١٧١ وقوله: الأحلام: جمع حِلم، وهو الأناة والعقل. اللسان (حلم).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٣ .

(٣) المصدر السابق.

(٤) لم نقف عليه عند سعيد بن منصور، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٥٦ عن مالك.

(٥) الوسيط ٢/ ٦١٨ .

(٦) ذكره العسكري في الأوائل ٢/ ٢٠٢ .

(٧) عرائس المجالس ص١٢٩ .

جُويبر، عن الضّحاك، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «رَحِمَ اللهُ أخي يوسفَ لو لم يقل: اجعلني على خزائن الأرض، لاستعمله من ساعته، ولكن أَخَّر ذلك عنه سنةً»[١].

قال ابن عباس: لمَّا انصرفت[٢] السَّنةُ من يوم سأل الإمارة؛ دعاه المَلِك، فتَوجَّه ورَدَّاه بسيفه، ووضع له سريراً من ذهب، مُكلَّلاً بالدُّرِّ والياقوت، وضرب عليه حُلَّة من إسْتَبرق، وكان طولُ السرير ثلاثين ذراعاً وعرضُه عشرةَ أذرع، عليه ثلاثون فراشاً وستون مِرْفَقة[٣]، ثم أمره أن يخرج، فخرج متوَّجاً، لونه كالثلج، ووجهه كالقمر، يرى الناظرُ وجهَه في[٤] صفاء لون وجهه، فجلس على السرير، ودانت له الملوك، ودخل الملكُ بيته مع نسائه، وفوَّض إليه أمرَ مِصر، وعزل قطفيرَ عما كان عليه، وجعل يوسفَ مكانه[٥].

قال ابن زيد: كان لفرعون ملكِ مصر خزائنُ كثيرةٌ غير الطعام، فسلَّم سلطانه كلَّه إليه[٦]، وهلك قطفير تلك الليالي، فزوَّج الملكُ يوسفَ راعيلَ امرأةَ العزيز، فلما دخل عليها قال: أليس هذا خيراً مما كنت تريدين؟! فقالت: أيها الصدِّيق، لا تَلُمني، فإني كنت امرأةً حسناء ناعمة كما ترى، وكان صاحبي لا يأتي النساء، وكنتَ كما جعَلَك اللهُ مِن الحُسن، فغَلبتني نفسي. فوجدَها يوسفُ عذراءَ، فأصابها، فولدت له رجلين: إفراثيم بن يوسف، ومنشا بن يوسف[٧].

---

(١) سلف ص٣٧٨ من هذا الجزء. وسلف ذكر قول الحافظ ابن حجر فيه: إن إسناده ساقط.

(٢) في (م): انصرمت.

(٣) المرفقة: المخدَّة. القاموس المحيط (رفق).

(٤) في (د) و(ف) و(م): من.

(٥) عرائس المجالس ص١٣٠، وتفسير البغوي ٢/ ٤٣٢ - ٤٣٣.

(٦) أخرجه الطبري ١٣/ ٢١٨.

(٧) عرائس المجالس ص١٣٠، وتفسير البغوي ٢/ ٤٣٣.

وقال وَهْب بنُ مُنَبِّه: إنما كان تزويجه زليخاء امرأة العزيز بين دخلتَي الإخوة، وذلك أن زليخاء مات زوجها ويوسفُ في السجن، وذهب مالُها وعَمِيَ بصرُها بكاءً على يوسف، فصارت تَتَكَفَّف الناسَ، فمنهم مَن يرحمها ومنهم مَن لا يرحمها، وكان يوسف يركب في كلِّ أسبوع مرةً في موكب زُهَاء مئة ألف من عظماء قومه، فقيل لها: لو تعرَّضْتِ له لعله كان يُسعفك بشيء، ثم قيل لها: لا تفعلي، فربما ذكر بعضَ ما كان منك من المُراودة والسجن فَيُسيء إليكِ، فقالت: أنا أعلم بخُلُق حبيبي منكم. ثم تركته حتى إذا ركب في موكبه؛ قامت فنادت بأعلى صوتها: سبحان مَن جعل الملوكَ عبيداً بمعصيتهم، وجعل العبيدَ ملوكاً بطاعتهم، فقال يوسف: ما هذه؟ فأَتَوْا بها، فقالت: أنا التي كنتُ أخدُمك على صدور قدميَّ[1]، وأُرَجِّل جُمَّتك بيديَّ، وتربَّيتَ في بيتي، وأكرمتُ مثواك، لكن فرطَ ما فرطَ من جهلي وعُتوّي، فذقتُ وبالَ أمري، فذهبَ مالي، وتضعضع ركني، وطال ذلِّي، وعَميَ بصري، وبعد ما كنت مغبوطةَ أهل مصر؛ صِرت مرحومتَهم، أتكفَّفُ الناسَ، فمنهم من يرحمني، ومنهم من لا يرحمني، وهذا جزاء المفسدين. فبكى يوسف بكاء شديداً، ثم قال لها: هل بقيتِ تجدين مما كان في نفسك من حبك لي شيئاً؟ فقالت: واللهِ لنظرة إلى وجهك أحبُّ إليّ من الدنيا بحذافيرها، لكن ناولني صدرَ سوطك. فناولها فوضعته على صدرها، فوجدَ للسوط في يده اضطراباً وارتعاشاً من خَفقان قلبها، فبكى ثم مضى إلى منزله، فأرسل إليها رسولاً: إن كنتِ أَيِّماً تزوّجناك، وإن كنتِ ذات بعل أغنيناك، فقالت للرسول: أعوذ بالله من أن يستهزئ بي الملك، لم يُرِدْني أيامَ شبابي وغناي ومالي وعزّي، أفيريدُني اليوم وأنا عجوز عمياء فقيرة؟! فأعلمه الرسولُ بمقالتها، فلما ركب في الأسبوع الثاني تعرَّضت له، فقال لها: ألم يُبلغك الرسول؟ فقالت: قد أخبرتك أن نظرةً واحدة إلى وجهك أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها. فأمر بها، فأصلح من شأنها وهُيئت، ثم زُفَّت إليه، فقام يوسف يصلِّي ويدعو اللهَ، وقامت وراءه،

---

(١) في (ظ): كنت أقدمك على صدور قومي، وفي (ز) و(ف): أنا الذي كنت أخدمك على صدور قومي.

فسأل اللهَ تعالى أن يعيدَ إليها شبابها وجمالَها وبصرَها، فردَّ اللهُ عليها شبابها وجمالها وبصرَها حتى عادت أحسنَ ما كانت يوم راودته، إكراماً ليوسف عليه السلام لمَّا عَفَّ عن محارم الله، فأصابها، فإذا هي عذراء[(١)]، فسألها، فقالت: يا نبيَّ الله، إن زوجي كان عِنِّيناً لا يأتي النساء، وكنتَ أنت من الحُسن والجمال بما لا يُوصف، قال: فعاشا في خَفْضِ عيشٍ، في كل يوم يُجدِّد اللهُ لهما خيراً، وولدت له ولَدين: إفراثيم ومنشا[(٢)].

وفيما روي أن اللهَ تعالى ألقى في قلب يوسف من محبتها أضعافَ ما كان في قلبها، فقال لها: ما شأنُكِ لا تُحبينني كما كنتِ في أوّل مرةٍ؟ فقالت: لما ذقتُ محبةَ اللهِ تعالى شغلني ذلك عن كل شيء[(٣)].

الثانية: قال بعضُ أهل العلم: في هذه الآية ما يُبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر والسلطانِ الكافر، بشرط أن يعلم أنه يفوض إليه في فعلٍ لا يُعارضه فيه[(٤)]، فيصلح منه ما شاء؛ وأما إن كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته وفجوره، فلا يجوز ذلك.

وقال قوم: إن هذا كان ليوسف خاصةً، وهذا اليومَ غيرُ جائز. والأول أولى إذا كان على الشرط الذي ذكرناه. والله أعلم.

قال الماورديُّ[(٥)]: فإن كان المُولِّي ظالماً فقد اختلف الناس في جواز الولاية من

---

(١) قال العلامة الآلوسي في تفسيره ١٣/ ٥ : وشاع عند القُصَّاص أنها عادت شابَّة بكراً إكراماً له عليه السلام.. وهذا مما لا أصل له، وخبر تزوجها أيضاً مما لا يُعوَّل عليه عند المحدثين.

(٢) ذكر هذه القصة ابن الجوزي في المنتظم ١/ ٣١٥ بنحوها، وذكر في آخرها أنها ولدت اثني عشر ولداً. وذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٥٦ قسماً منها، ثم قال: وروي في نحو هذا من القصص ما لا يوقف على صحته ويطول الكلام بسوقه.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) في (ز) و(ظ) و(ف): في فصل لا يعارض فيه، وفي المحرر الوجيز ٣/ ٢٥٦ (والكلام منه): في فصل ما لا يعارض فيه، والمثبت من (د) و(م).

(٥) في النكت والعيون ٣/ ٥٠ ، وما بين حاصرتين الآتي منه.

قِبَله على قولين:

أحدهما: جوازها إذا عمل بالحقّ فيما تقلَّده؛ لأن يوسفَ وُلِّي من قِبل فرعون، ولأن الاعتبار في حقِّه بفعله؛ لا بفعل غيره.

الثاني: أنه لا يجوز ذلك؛ لما فيه من تولِّي الظالمين بالمعونة لهم، وتزكيتهم بتنفيذ[1] أعمالهم، فأجاب من ذَهب إلى هذا المذهب عن ولاية يوسف من قِبَل فرعون بجوابين:

أحدهما: أن فرعون يوسفَ كان صالحاً، وإنما الطاغي فرعونُ موسى.

الثاني: أنه نظر [له] في أملاكه دون أعماله، فزالت عنه التبِعة فيه.

قال الماورديُّ[2]: والأصحُّ من إطلاق هذين القولين أن يفصّل ما يتولاه من جهة الظالم على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما يجوز لأهله فعلُه من غير اجتهادٍ في تنفيذه؛ كالصدقات والزكَوات، فيجوز تولِّيه من جهة الظالم، لأن النصّ على مستحقّه قد أغنى عن الاجتهاد فيه، وجواز تفرُّد أربابه به قد أغنى عن التقليد.

والقسم الثاني: ما لا يجوز أن يتفرَّدوا به، ويلزم الاجتهادُ في مَصْرِفه، كأموال الفَيْء، فلا يجوز تولِّيه من جهة الظالم؛ لأنه يتصرف بغير حقٍّ، ويجتهد فيما لا يستحقّ.

والقسم الثالث: ما يجوز أن يتولاه أهلُه[3]، وللاجتهاد فيه مدخل، كالقضايا والأحكام، فعقد التقليد [فيه] محلول، فإن كان النظر تنفيذاً للحكم بين متراضِيَين، وتوسطاً بين مجبورين؛ جاز، وإنْ كان إلزامَ إجبارٍ لم يَجُزْ.

---

(١) في (م): بتقلّد.

(٢) في النكت والعيون ٣/ ٥١ .

(٣) في (م): لأهله، ووقع في (ف): ما لا يجوز أن يتولّاه لأهله.

الثالثة: ودلَّت الآيةُ أيضاً على جواز أن يَخطب الإنسانُ عملاً يكون له أهلاً[١]، فإن قيل: فقد روى مسلمٌ، عن عبد الرحمن بن سَمُرة، قال: قال لي رسولُ اللهِ ﷺ: «يا عبدَ الرحمن، لا تسأل الإمارةَ؛ فإنك إنْ أُعطيتَها عن مَسألة وُكِلْتَ إليها، وإن أُعطيتَها عن غير مسألة أُعنتَ عليها»[٢].

وعن أبي بُرْدة، قال: قال أبو موسى: أقبلتُ إلى النبيِّ ﷺ ومعي رجلان من الأشعريِّين، أحدهما عن يميني، والآخرُ عن يساري، فكلاهما سأل العملَ، والنبيُّ ﷺ يَستاك، فقال: «ما تقول يا أبا موسى - أو يا عبد الله بن قيس -» قال: قلت: والذي بعثك بالحقِّ، ما أطلعاني على ما في أنفُسهما، وما شعرتُ أنهما يَطلبان العملَ، قال: وكأني أنظر إلى سِواكه تحتَ شفتِه وقد قَلَصت، فقال: «لن، أو: لا نَستعملُ على عملنا مَن أراده» وذكر الحديث، خرَّجه مسلمٌ أيضاً وغيره[٣].

فالجواب: أولاً: أنَّ يوسف عليه السلام إنما طلب الولايةَ لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامَه في العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم، فرأى أنَّ ذلك فرضٌ متعيِّن عليه، فإنه لم يكن هناك غيره، وهكذا الحكمُ اليومَ؛ لو عَلِمَ إنسان من نفسه أنه يقوم بالحقّ في القضاء أو الحسبة، ولم يكن هناك مَن يصلح ولا يقوم مقامَه؛ لَتَعيَّن ذلك عليه، ووجب أن يتولَّاها ويسألَ ذلك، ويخبر بصفاته التي يستحقُّها به مِن العلم والكفاية وغير ذلك، كما قال يوسف عليه السلام، فأمَّا لو كان هناك من يقوم بها ويَصلح لها، وعَلِمَ بذلك فالأولى ألَّا يطلب؛ لقوله عليه الصلاة والسلام لعبد الرحمن: «لا تسأل الإمارة». وأيضاً، فإنَّ في سؤالها والحرصِ عليها مع العلم بكثرة آفاتها وصعوبةِ التخلُّص منها دليلٌ على أنه يطلبها لنفسه ولأغراضه، ومَن كان هكذا يُوشك أن تغلبَ عليه نفسُه فيَهلِكَ، وهذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «وُكِل إليها»، ومَن أباها لعلمه بآفاتها، ولخوفِه من التقصير في حقوقها [و] فَرَّ منها، ثم إن

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٥٠.

(٢) صحيح مسلم (١٦٥٢)، وهو عند أحمد (٢٠٦١٨)، والبخاري (٦٦٢٢).

(٣) صحيح مسلم ٣/ ١٤٥٦ (١٧٣٣): (١٥)، وهو عند أحمد (١٩٦٦٦)، والبخاري (٢٢٦١).

ابتُلي بها، فيُرجى له التخلصُ منها، وهو معنى قوله: «أعِينَ عليها»[١].

الثاني: أنه لم يَقل: إني حسيبٌ كريم، وإن كان كما قال النبيُّ ﷺ: «الكريم ابنُ الكريم ابنِ الكريم ابنِ الكريم يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاق بنِ إبراهيم»[٢] ولا قال: إني جميلٌ مَليح، إنما قال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، فسألها بالحفظِ والعلم، لا بالنسب والجمال.

الثالث: إنما قال ذلك عند مَن لا يعرفه فأراد تعريفَ نفسِه، وصار ذلك مستثنًى من قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢].

الرابع: أنه رأى ذلك فرضاً مُتعيِّناً عليه؛ لأنه لم يكن هنالك غيره[٣]، وهو الأظهر، واللهُ أعلم.

الرابعة: ودلَّت الآيةُ أيضاً على أنه يجوز للإنسان أن يصفَ نفسَه بما فيه من علمٍ وفضل، قال الماورديُّ[٤]: وليس هذا على الإطلاق في عموم الصفات، ولكنه مخصوصٌ فيما اقترن بوصله، أو تعلَّق بظاهرٍ من مَكْسب، وممنوعٌ منه فيما سواه؛ لِما فيه من تزكيةٍ ومُراءاة، ولو تنزَّه[٥] الفاضلُ عنه لكان أليقَ بفضله، فإنَّ يوسفَ دعته الضرورةُ إليه لِما سبق من حاله، ولِما يَرجو من الظَّفَر بأهله.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ أي: ومثل

---

(١) المفهم ٤/ ١٦ ، وما بين حاصرتين منه.

(٢) سلف ص٣٧١ من هذا الجزء.

(٣) القول الثاني والثالث والرابع من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٨٠ .

(٤) في النكت والعيون ٣/ ٥٢ ، والقول الرابع الذي قبله منه.

(٥) في النسخ: ميزه، والمثبت من النكت والعيون.

هذا الإنعام الذي أنعمنا عليه في تقريبه إلى قلب المَلِك، وإنجائه من السجن؛ مكَّنا له في الأرض، أي: أقدرناه على ما يُريد(١).

وقال الكِيَا الطَّبَريُّ، قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ دليلٌ على إجازة الحيلة في التوصُّل إلى المباح، وما فيه الغِبطةُ والصلاح، واستخراج الحقوق، ومثله قولُه تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص: ٤٤]، وحديثُ أبي سعيد الخُدْرِيّ في عامل خَيْبر، والذي أدَّاه من التَّمْر إلى رسول الله ﷺ، وما قاله(٢).

قلت: وهذا مردودٌ على ما يأتي(٣). يقال: مَكَّنَّاه ومكَّنَّا له، قال اللهُ تعالى: ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ [الأنعام: ٦].

قال الطَّبريُّ(٤): استخلف المَلِكُ الأكبرُ الوليدُ بن الريَّان يوسفَ على عمل إطفير وعَزَله، قال مجاهد: وأسلم على يديه(٥). قال ابن عباس: ملَّكه بعد سنة ونصف(٦). وروى مقاتل أن النبيَّ ﷺ قال: «لو أن يوسف قال: إني حفيظٌ عليم إن شاء اللهُ لَمُلِّك في وقته ذلك»(٧).

---

(١) الوسيط للواحدي ٢/ ٦١٩ .

(٢) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٣٣ ، لكن الذي فيه أن قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [الآية: ٧٦] هي دليل إجازة الحيلة في التوصل إلى المباح.. وسيأتي ص٤١٧ من هذا الجزء. وحديث عامل خيبر أخرجه البخاري (٢٢٠١) و(٢٢٠٢)، ومسلم (١٥٩٣) من حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما، ولفظه: أن رسول الله ﷺ استعمل رجلاً على خيبر، فجاءه بتمر جَنيب، فقال رسول الله ﷺ: «أَكُلُّ تمر خيبر هكذا؟» قال: لا والله يا رسول الله، إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين، والصاعين بالثلاثة، فقال رسول الله ﷺ: «لا تفعل، بعِ الجَمْعَ بالدراهم، ثم ابتع بالدراهم جَنيباً». وهو بنحوه عند أحمد (١١٤١٢). والجَنيب: نوع جيد معروف من أنواع التمر، والجَمْع: نوع مختلط من أنواع متفرقة ليس مرغوباً فيه. النهاية (جنب) و(جمع).

(٣) ص٤١٦-٤١٧ من هذا الجزء.

(٤) في تفسيره ١٣/ ٢٢٠ ، ونقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٥٢ ، والأقوال التي بعده منه.

(٥) أخرجه الطبري ١٣/ ٢٢٢ .

(٦) زاد المسير ٤/ ٢٤٤ .

(٧) لم نقف عليه، وهو هكذا مرسل، وقد سلف نحوه ص٣٧٨ من هذا الجزء، وهو ضعيف أيضاً.

ثم مات إطفير فزوَّجه الوليدُ بزوجة إطفير راعيل، فدخل بها يوسفُ، فوجدها عذراء، وولدت له ولدين: إفرائيمَ ومنشا ابني يوسف. ومَن زَعم أنها زَلِيخَاء قال: لم يتزوَّجها يوسف، وإنها لمَّا رأته في موكبه بَكَت، ثم قالت: الحمدُ للهِ الذي جعَل الملوكَ عبيداً بالمعصية، والحمدُ للهِ الذي جعل العبيدَ بالطاعة ملوكاً، فضمَّها إليه، فكانت من عياله حتى ماتَتْ عنده، ولم يتزوَّجها، ذكره الماورديُّ، وهو خلاف ما تقدَّم عن وهب[1]، وذكره الثعلبيُّ، فالله أعلم.

ولما فوَّض الملِكُ أمرَ مصر إلى يوسف تلطَّف بالناس، وجعل يَدْعُوهم إلى الإسلام حتى آمنوا به، وأقام فيهم العدلَ، فأحبَّه الرجالُ والنساء.

قال وهب والسُّدِّيُّ وابنُ عباس وغيرُهم: ثم دخلت السنون المُخصِبةُ، فأمر يوسفُ بإصلاح المزارع، وأمرَهم أن يتوسَّعوا في الزراعة، فلمَّا أدركت الغَلَّة؛ أمر بها فَجُمعت، ثم بنى لها الأَهْرَاءَ، فجمعت فيها في تلك السنة غَلَّة ضاقت عنها المخازنُ لِكَثرتها، ثم جمع عليه غلَّةُ كلِّ سنة كذلك، حتى إذا انقضت السبعُ المُخصبة وجاءت السنون المُجدبة نزَل جبريل وقال: يا أهلَ مصر، جوعوا، فإنَّ اللهَ سلَّط عليكم الجوعَ سبع سنين.

وقال بعضُ أهل الحكمة: للجوع والقحط علامتان: إحداهما: أن النفسَ تحب الطعامَ أكثَر من العادة، ويُسرع إليها الجوعُ خلافَ ما كانت عليه قبل ذلك، وتأخذ من الطعام فوقَ الكفاية. والثانية: أن يُفقد الطعام فلا يوجد رأساً ويعزَّ إلى الغاية.

فاجتمعت هاتان العلامتان في عهد يوسف، فانتبه الرجالُ والنساء والصبيان ينادون: الجوع الجوع، ويأكلون ولا يشبعون، وانتبه الملك، ينادي: الجوع الجوع، قال: فدعا له يوسف فأبرَأه اللهُ من ذلك، ثم أصبح فنادى يوسف في أرض مصر كلِّها: معاشرَ الناس، لا يزرع أحدٌ زرعاً فيضيع البذر ولا يطلع شيء. وجاءت تلك السنون بهولٍ عظيم لا يُوصف.

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٥٢، وسلفت القصة مطولة ص٣٨٢-٣٨٣ من هذا الجزء، وينظر ما نقلناه عن الآلوسي ثمة.

قال ابن عباس: لمَّا كان ابتداء القحط، بينا الملك في جوف الليل أصابه الجوعُ في نصف الليل، فهتف الملك: يا يوسف، الجوع الجوع، فقال يوسف: هذا أوان القحط، فلمّا دخلت أوّلُ سنة من سِني القحط؛ هلَك فيها كلُّ شيءٍ أعدُّوه في السنين المُخصِبة، فجعل أهلُ مصر يَبتاعون الطعامَ من يوسف، فباعهم أولَ سنة بالنقود، حتى لم يبقَ بمصر دينار ولا درهم إلا قَبَضه، وباعهم في السنة الثانية بالحُليِّ والجواهر، حتى لم يبقَ في أيدي الناس منها شيء، وباعهم في السنة الثالثة بالمواشي والدوابِّ، حتى احتوى عليها أجمع، وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والإماء، حتى احتوى على الكلِّ، وباعهم في السنة الخامسة بالعقار والضِّياع، حتى ملَكها كلَّها، وباعهم في السنة السادسة بأولادهم ونسائهم فاسترقَّهم جميعاً، وباعهم في السنة السابعة برقابهم، حتى لم يبقَ(١) بمصر حرٌّ ولا عبدٌ إلا صار عبداً له، فقال الناسُ: واللهِ، ما رأينا مَلِكاً أجلَّ ولا أعظمَ من هذا، فقال يوسف لملك مصر: كيف رأيتَ صُنعَ ربي فيما خوَّلني، والآن كلُّ هذا لك، فما ترى فيه؟ فقال: فوَّضتُ إليك الأمرَ، فافعل ما شئتَ، وإنما نحن لك تبعٌ، وما أنا بالذي يَستنكفُ عن عبادتك وطاعتك، ولا أنا إلا من بعض مماليكك، وخَوَلٌ مِن خَوَلِك، فقال يوسفُ عليه السلام: فإني لم أُعتقهم من الجوع لأستعبدَهم، ولم أُجِرْهم من البلاء لأكون عليهم بلاءً، وإني أُشهِدُ اللهَ وأُشهدك أني أعتقتُ أهلَ مصر عن آخرهم، ورددتُ عليهم أموالَهم وأملاكهم، ورددتُ عليك مُلكَك بشرط أن تَسْتنَّ بسنتي.

ويُروى أن يوسفَ عليه السلام كان لا يشبعُ من طعامٍ في تلك السنين، فقيل له: أتَجوع وبيدك خزائنُ الأرض؟! فقال: إني أخاف إنْ شَبِعتُ أن أنسى الجائعَ. وأمر يوسفُ طبَّاخَ الملكِ أن يجعل غَدَاءه نصفَ النهار، حتى يذوقَ المَلِكُ طعمَ الجوع، فلا ينسى الجائعين، فمِن ثَمَّ جعل الملوكُ غَداءَهم نصفَ النهار(٢).

---

(١) بعدها في (م): في السنة السابعة.

(٢) عرائس المجالس ص١٣٠ - ١٣١، وتفسير البغوي ٢/ ٤٣٣ - ٤٣٤.

قوله تعالى: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ أي: بإحساننا، والرحمةُ النعمةُ والإحسان[(١)]. ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: ثوابَهم. وقال ابن عباس ووهب: يعني الصابرين[(٢)]؛ لصبره في الجُبِّ، وفي الرِّقّ، وفي السِّجن، وصبرِه عن محارم اللهِ عمَّا دعته إليه المرأة.

وقال الماورديُّ[(٣)]: واختلف فيما أُوتيَه يوسف من هذه الحال على قولين: أحدهما: أنه ثوابٌ من الله تعالى على ما ابتلاه. الثاني: أنه أَنعم[(٤)] عليه بذلك تفضُّلاً منه عليه، وثوابُه باقٍ على حاله في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أي: ما نُعطيه في الآخرة خيرٌ وأكثرُ مما أعطيناه في الدنيا، لأن أجرَ الآخرة دائمٌ، وأجرَ الدنيا ينقطع[(٥)]، وظاهرُ الآية العمومُ في كلِّ مؤمن متَّقٍ، وأنشدوا:

أَمَا في رسولِ اللهِ يوسفَ أُسوةٌ ... لمثلكَ محبوساً على الظُّلم والإِفْكِ
أقام جَميلَ الصَّبر في الحبس بُرهةً ... فآلَ به الصَّبرُ الجميلُ إلى الْمُلكِ[(٦)]

وكتب بعضُهم إلى صديقٍ له:

وراء مَضيقِ الخوف مُتَّسعُ الأَمْنِ ... وأوّل مَفروحٍ به آخرُ الحزنِ
فلا تيأسنْ[(٧)] فاللهُ مَلَّكَ يوسفا ... خزائنَه بعد الخلاصِ من السِّجنِ[(٨)]

وأنشد بعضُهم:

---

(١) الرحمة صفة من صفات الله عز وجل ثابتة له، وأما إحسانه ونعمته فهي صفة أخرى له سبحانه وتعالى.

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٤٣٣ .

(٣) في النكت والعيون ٣/ ٥٣ .

(٤) في (م): أنعم الله.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٥٣ .

(٦) البيتان للبحتري، وهما في ديوانه ٣/ ١٥٦٤ ، وفيه: السجن، بدل الحبس.

(٧) في (د): فلا تبتئس.

(٨) البيتان في عرائس المجالس ص١٣٠ دون نسبة، ونسبهما الصفدي في الوافي بالوفيات ١٥/ ٤٧ لزيد ابن محمد بن زيد العلوي.

إذا الحادثاتُ بَلَغْنَ النُّهَى وكادتْ تَذوبُ لَهُنَّ المُهَجْ
وحلَّ البلاءُ وقَلَّ العَزَاء فعند التَّنَاهي يكونُ الفَرَجْ(١)

والشعر في هذا المعنى كثيرٌ.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ أي: جاؤوا إلى مصر لـمَّا أصابهم القحطُ ليمتاروا. وهذا من اختصار القرآن المُعجِز(٢).

قال ابن عباس وغيرُه: لـمَّا أصاب الناسَ القحطُ والشدَّةُ، ونزل ذلك بأرض كنعان بَعث يعقوبُ عليه السلام ولدَه للمِيرة، وذاع أمرُ يوسف عليه السلام في الآفاق، لِلِينه وقُربه ورحمته ورأفته وعدلِه وسيرتِه(٣)، وكان يوسفُ عليه السلام حين نزلت الشدَّة بالناس يجلِسُ للناس عند البيع بنفسه، فيُعطيهم من الطعام على عدد رؤوسهم، لكل رأس وَسْقاً.

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ﴾ يوسف ﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ لأنهم خلَّفوه صبيًّا، ولم يتوهَّموا أنه بعد العبودية يبلغ إلى تلك الحال من المملكة(٤)، مع طول المدّة، وهي أربعون سنةً. وقيل: أنكروه لأنهم اعتقدوا أنه مِلكٌ كافر: وقيل: رأوه لابس حرير، وفي عنقه طوق ذهب، وعلى رأسه تاجٌ، وقد تزيّا بزِيِّ فرعون مصر، ويوسف رآهم على ما كان عَهِدهم في المَلْبس والحِلية. ويَحتمِل أنهم رأَوْه وراء سترٍ فلم يعرفوه(٥). وقيل: أنكروه لأمر خارقٍ امتحاناً امتَحَن اللهُ به يعقوبَ.

---

(١) ذكرهما أبو علي التنوخي في الفرج بعد الشدة ٥/ ٢٣ دون نسبة، وابن عبد البر في بهجة المجالس ١/ ١٨٠ ونسبهما لمنصور الفقيه، وعندهما: المدى، بدل: النهى، وعند التنوخي: وجَلَّ، بدل: وحلَّ، وعند ابن عبد البر: الوفاء، بدل: العزاء.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٣ .

(٣) زاد المسير ٤/ ٢٤٦ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٣ - ٣٣٤ .

(٥) الأقوال السالفة في عرائس المجالس ص١٣١ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤٣٤ ، وتفسير الرازي ١٨/ ١٦٦ .

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ يقال: جَهَّزتُ القومَ تَجهيزاً، أي: تكلَّفت لهم بجَهازهم للسفر، وجَهاز العروس ما يُحتاج إليه عند الإهداء إلى الزّوج، وجوّز بعض الكوفيين الجِهاز بكسر الجيم[١]، والجَهاز في هذه الآية الطعام الذي امتاروه من عنده[٢]. قال السُّديُّ: وكان مع أخوة يوسف أحدَ عشرَ بعيراً، وهم عشرةٌ، فقالوا ليوسف: إنَّ لنا أخاً تخلَّف عنا، وبعيرُه معنا، فسألهم: لِمَ تخلَّف؟ فقالوا: لحبِّ أبيه إياه، وذكروا له أنه كان له أخٌ أكبرُ منه، فخرج إلى البرِّيَّة فهلَكَ؛ فقال لهم: أردت أن أَرَى أخاكم هذا الذي ذكرتم، لأعلمَ وجهَ محبةِ أبيكم إيَّاه، وأعلمَ صدقَكم، ويُروى أنهم تركوا عنده شمعون رهينةً، حتى يأتوا بأخيه بنيامين[٣].

وقال ابن عباس: قال يوسف للتُّرجُمان: قل لهم: لغتكم مخالفةٌ للغتِنا، وزِيُّكم مخالفٌ لزِيِّنا، فلعلَّكم جواسيسُ، فقالوا: واللهِ، ما نحن بجواسيسَ، بل نحن بَنُو أبٍ واحدٍ، فهو شيخٌ صدِّيق. قال: فكم عِدَّتكم؟ قالوا: كنا اثني عشرَ، فذهب أخٌ لنا إلى البرِّيَّة، فهلَك فيها. قال: فأين الآخر؟ قالوا: عند أبينا. قال: فمن يعلمُ صدقَكم؟ قالوا: لا يعرِفنا هاهنا أحدٌ، وقد عرَّفناك أنسابَنا، فبأيِّ شيءٍ تسكنُ نفسُك إلينا؟ فقال يوسف: ﴿ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ﴾ إن كنتم صادقين، فأنا أرضى بذلك ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾ أي: أُتمُّه ولا أبخسه، وأزيدكم حِملَ بعيرٍ لأخيكم ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي﴾ توعَّدهم ألَّا يبيعَهم الطعامَ إن لم يأتوا به[٤].

(١) تهذيب اللغة ٦/ ٣٥ - ٣٦.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٥٨.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٢٢٣ - ٢٢٤ بنحوه.

(٤) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٢/ ٤٣٤ - ٤٣٥، وزاد المسير ٤/ ٢٤٦ - ٢٤٧.

قوله تعالى: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾ يَحتمِلُ وجهين: أحدهما: أنه رخَّص لهم في السعر، فصار زيادةً في الكيل.

والثاني: أنه كالَ لهم بمكيالٍ وافٍ.

﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ فيه وجهان: أحدهما: يعني[١] خير المضيفين؛ لأنه أحسنَ ضيافتَهم، قاله مجاهد. الثاني: وهو مُحتمِل، أي: خير مَن نَزلتم عليه من المأمونين. وهو على التأويل الأوّل مأخوذٌ من النُّزْل، وهو الطعام، وعلى الثاني من المنزل، وهو الدار[٢].

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾ أي: فلا أبيعكم شيئاً فيما بعد؛ لأنه قد وفَّاهم كيلَهم في هذه الحال. ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ أي: لا أُنزلكم عندي منزلةَ القريب، ولم يُرِدْ أن[٣] يبعدوا منه ولا يعودوا إليه؛ لأنه على العَود حَثَّهم.

قال السُّدّيُّ: وطلب منهم رهينةً حتى يرجِعوا، فارتهن شمعونَ عنده. قال الكَلْبيُّ: إنما اختار شمعون منهم؛ لأنه كان يومَ الجُبِّ أجملَهم قولاً، وأحسنَهم رأياً[٤].

و«تَقْرَبُونِ» في موضع جزمٍ بالنهي، فلذلك حُذفت منه النون، وحُذفت الياء؛ لأنه رأسُ آية، ولو كان خبراً لكان «تقربونَ» بفتح النون[٥].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ أي: سنطلبه منه، ونسأله أن يُرسلَه معنا. ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ أي: لَضامنون المَجيء به[٦]، ومُحتالون في ذلك.

---

(١) في (م): أنه.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٥٤ ، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٣/ ٢٢٥ .

(٣) في (د) و(ز) و(م): أنهم، وفي (ظ): أنه، وثمة سقط في هذا الموضع في (ف)، والمثبت من النكت والعيون ٣/ ٥٥ ، والكلام منه.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٥٥ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٤ .

(٦) الوسيط ٢/ ٦٢٠ .

مسألة: إن قيل: كيف استجاز يوسفُ إدخالَ الحزن على أبيه بطلب أخيه؟ قيل له: عن هذا أربعةُ أجوبة:

أحدها: يجوز أن يكون اللهُ عزَّ وجلَّ أَمَره بذلك ابتلاءً ليعقوب؛ لِيعظِم له الثواب، فاتَّبع أمرَه فيه.

الثاني: يجوز أن يكون أراد بذلك أن يُنبِّه يعقوبَ على حال يوسفَ عليهما السلام.

الثالث: لِتتضاعفَ المَسرَّة ليعقوب برجوع ولديه عليه.

الرابع: ليقدم سرورَ أخيه بالاجتماع معه قبل إخوته، لميلٍ كان منه إليه.

والأول أظهر[١]، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَتِهِ﴾ هذه قراءةُ أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم[٢]، وهو اختيارُ أبي حاتم والنحاس وغيرهما، وقرأ سائرُ الكوفيين: «لِفِتْيَانِهِ» وهو اختيار أبي عُبيد، وقال: هو في مصحف عبد اللهِ كذلك[٣].

قال الثعلبي: وهما لغتان جيدتان، مثل الصِّبيان والصِّبية[٤]. قال النحاس[٥]: «لِفِتْيَانِهِ» مُخالفٌ للسواد الأعظم؛ لأنه في السَّواد لا ألف فيه ولا نون، ولا يُترَك السوادُ المُجتمِع عليه لهذا الإسناد المنقطع؛ وأيضاً فإن «فتيةً» أشبهُ من فتيان؛ لأن

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٥٥ ، وزاد المسير ٤/٢٤٨ - ٢٤٩ .

(٢) ووافقهم ابن كثير المكي وابن عامر الشامي، وقراءة عاصم في رواية أبي بكر. السبعة ص٣٤٩ ، والتيسير ص١٢٩ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٤ دون قوله: وهو اختيار أبي حاتم.

(٤) وهو قول البغوي في تفسيره ٢/ ٤٣٥ .

(٥) في إعراب القرآن ٢/ ٣٣٤ .

«فتية» عند العرب لأقلِّ العدد، والقليل بأن يجعلوا البضاعة في الرحال أشبهُ.

وكان هؤلاء الفتيةُ يُسوُّون جَهازهم، ولهذا أمكنهم جعلَ بضاعتهم في رحالهم. ويجوز أن يكونوا أحراراً، وكانوا أعواناً له.

وبضاعتهم أثمانُ ما اشترَوْه من الطعام. وقيل: كانت دراهمَ ودنانير. وقال ابن عباس: النِّعال والأَدَم ومتاعُ المسافر[1]، ويسمى رَحْلاً. قال ابن الأنباريِّ[2]: يقال للوعاء: رَحْل، وللبيت: رَحْل.

وقال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾ لجواز ألَّا تسلم في الطريق. وقيل: إنما فعل ذلك لِيرجعوا إذا وجدوا ذلك؛ لعلمه أنهم لا يقبلون الطعامَ إلا بثمنه. قيل: لِيستعينوا بذلك على الرُّجوع لشراء الطعام. وقيل: استقبحَ أن يأخذَ من أبيه وإخوته ثمنَ الطعام. وقيل: لِيرَوْا فضلَه، ويرغبوا في الرجوع إليه[3].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ لأنه قال لهم: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾[4] وأخبروه بما كان من أمرهم وإكرامهم[5]، وأن شمعونَ مُرتهَنٌ حتى يعلم صدقَ قولهم. ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ أي: قالوا

---

(١) الوسيط للواحدي ٢/ ٦٢٠، وتفسير البغوي ٢/ ٤٣٥.

(٢) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٣/ ٨١.

(٣) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٣/ ٥٦، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٥٩، وزاد المسير ٤/ ٢٤٩ - ٢٥٠.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٤.

(٥) بعدها في (د) و(ز) و(م): إياه.

عند ذلك: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ والأصل: نكتال، فَحُذفت الضَّمة من اللام للجزم، وحُذفت الألفُ لالتقاء الساكنين.

وقراءةُ أهلِ الحرمين وأبي عمرو وعاصم: «نَكْتَلْ» بالنون[1]، وقرأ سائرُ الكوفيين: «يَكْتَل» بالياء، والأوّل اختيارُ أبي عُبيد، ليكونوا كلُّهم داخلين فيمن يَكتال. وزعم أنه إذا كان بالياء كان للأخ وحدَه. قال النحاس[2]: وهذا لا يلزم؛ لأنه لا يخلو الكلامُ من أحد جِهتين: أن يكون المعنى: فأرسل أخانا يكتل معنا؛ فيكون للجميع، أو يكون التقدير على غير التقديم والتأخير، فيكون في الكلام دليلٌ على الجميع، لقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾. ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ من أن ينالَه سوء.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: قد فرَّطتم في يوسفَ فكيف آمَنُكم على أخيه؟!.

﴿فَاللهُ خَيْرٌ حِفْظاً﴾ نصب على البيان، وهذه قراءةُ أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم[3]. وقرأ سائرُ الكوفيين: «حَافِظاً» على الحال. وقال الزَّجاج: على البيان[4]؛ وفي هذا دليلٌ على أنه أجابَهم إلى إرساله معهم، ومعنى الآية: حِفْظُ اللهِ له خيرٌ من حِفظِكم إيَّاه.

قال كعب الأحبار: لمَّا قال يعقوب: «فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظاً» قال اللهُ تعالى: وعزَّتي وجلالي لَأَرُدَّنَّ عليك ابنَيك كِلَيهما بعدما توكلت عليَّ[5].

---

(١) ووافقهم ابن عامر الشامي. السبعة ص٣٤٩ - ٣٥٠، والتيسير ص١٢٩.

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٣٣٤ - ٣٣٥، وما قبله منه.

(٣) ووافقهم ابن كثير المكي وابن عامر الشامي، وقراءة عاصم في رواية أبي بكر. السبعة ص٣٥٠، والتيسير ص١٢٩.

(٤) في معاني القرآن للزجاج ٣/ ١١٨، وقد ذكر الزجاج أن «حافظاً» منصوب على الحال، ثم قال: ويجوز أن يكون منصوباً على البيان. وقد نقل المصنف قول الزجاج بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٣٥.

(٥) الوسيط للواحدي ٢/ ٦٢١، وتفسير البغوي ٢/ ٤٣٧.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ﴾ الآية ليس فيها معنًى يُشكل. ﴿مَا نَبْغِي﴾ «ما» استفهامٌ في موضع نصب، والمعنى: أيُّ شيء نطلب وراءَ هذا؟! وفّى لنا الكيل. ورَدَّ علينا الثمنَ؛ أرادوا بذلك أن يُطيِّبوا نفسَ أبيهم.

وقيل: هي نافية، أي: لا نَبغي منك دراهمَ ولا بضاعة، بل تَكفينا بضاعتُنا هذه التي رُدَّت إلينا[١].

ورُويَ عن عَلْقَمة: «رِدَّتْ إِلَيْنَا» بكسر الراء؛ لأن الأصلَ رُدِدَتْ، فلما أُدغم قُلبت حركة الدال على الراء[٢]. وقوله: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي: نَجلِبُ لهم الطعامَ، قال الشاعر:

بَعَثْتُكَ مائِراً فمكَثْتَ حَوْلاً مَتَى يأتِي غِيَاثُك مَن تُغِيثُ[٣]

وقرأ السُّلَميّ بضم النون[٤]، أي: نُعينهم على المِيرة. ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾، أي: حِمْل بعير لبنيامين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿تُؤْتُونِ﴾ أي: تُعطوني ﴿مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ أي: عهداً يوثَقُ

---

(١) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٢/ ٤٣٦ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٦٠ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٥ ، وقراءة علقمة في المحتسب ١/ ٣٤٥ .

(٣) ذكره الطبري في تفسيره ١٣/ ٢٣٣ ، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ٥٨ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٦٠ دون نسبة. وذكره العسكري في جمهرة الأمثال ١/ ٢٥٠ ، والزمخشري في المستقصى في أمثال العرب ١/ ٢٣ ونسباه لعائشة بنت سعد بن أبي وقاص ﵁، وعندهما: بعثتك قابساً.. وهو الصواب فيما ذكره ابن منظور في اللسان (غوث).

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٢٦٠ .

به[١]؛ قال السُّدِّيّ: حَلَفوا بالله ليَرُدُّنَّه إليه ولا يُسْلِمونه[٢]، واللامُ في ﴿لَتَأْتُنَّنِي﴾ لامُ القسم[٣].

﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ قال مجاهد: إلَّا أن تَهْلِكوا أو تموتوا. وقال قتادةُ: إلَّا أن تُغلَبوا عليه[٤]. قال الزجَّاج: وهو في موضع نصب[٥]. ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي: حافظٌ للحَلِف. وقيل: حفيظٌ للعهد، قائمٌ بالتدبير والعدل.

الثانية: هذه الآيةُ أصلٌ في جواز الحَمَالة[٦] بالعين والوثيقةِ بالنفس، وقد اختلف العلماء في ذلك؛ فقال مالكٌ وجميعُ أصحابه وأكثرُ العلماء: هي جائزةٌ إذا كان المتحَمَّل به مالاً. وقد ضعَّف الشافعيُّ الحَمَالةَ بالوجه في المال، وله قولٌ كقول مالك[٧]. وقال عثمان البَتِّيّ: إذا تكفَّل بنفسٍ في قصاصٍ أو جراحٍ؛ فإنَّه إنْ لم يَجِيءْ به لزمه الديةُ وأَرْشُ الجراح، وكانت له في مال الجاني، إذ لا قصاصَ على الكفيل[٨]، فهذه ثلاثةُ أقوال في الحَمالة بالوجه. والصوابُ تَفْرِقةُ مالكٍ في ذلك، وأنَّها تكون في المال، ولا تكون في حدٍّ أو تعزير، على ما يأتي بيانه[٩].

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٢٣٥ ، وزاد المسير ٤/ ٢٥٣ .

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٥٨ بلفظ: حلَّفهم بالله.

(٣) يعني: اللام الواقعة في جواب القسم، قال السمين في الدر المصون ٦/ ٥٢١ : هذا جواب للقسم المضمر في قوله: «موثقاً»؛ لأنه في معنى: حتى تحلفوا لي لتأتُنَّني به.

(٤) قولا مجاهد وقتادة أخرجهما الطبري ١٣/ ٢٣٥ و ٢٣٦ ، وقول مجاهد في تفسيره ١/ ٣١٧ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١١٩ ، وقال الزجاج: والمعنى: لتأتُنَّني به إلا لإحاطةٍ بكم، وهذا يسمى مفعولاً له. وينظر الدر المصون ٦/ ٥٢١ .

(٦) الحمالة: الكَفالة. الزاهر للأزهري ص٣٣٠ ، وقال ابن عبد البر في الاستذكار ٢٢/ ٢٧٥ : الكَفالة والحَمالة: هما لفظتان معناهما الضمان. وقال الجوهري في الصحاح (حمل): الحمالة: ما تتحمله عن القوم من الدية أو الغرامة.

(٧) الإشراف ١/ ١٢٥ ، وقال الأزهري في الزاهر ص٣٣١ : وأراد الشافعي رحمه الله بكفالة الوجه: الكفالة بالبدن. وقال الكاساني في بدائع الصنائع ٧/ ٣٩٩ : إذا أضاف الكفالة إلى جزء جامع كالرأس والوجه والرقبة ونحوها، جازت؛ لأن هذه الأشياء يعبر بها عن جملة البدن.

(٨) الاستذكار ٢٢/ ٢٧٧ .

(٩) ص٤٠٩-٤١١ من هذا الجزء، وينظر الإشراف ١/ ١٢٤ - ١٢٥ .

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: لمَّا عزموا على الخروج خَشِيَ عليهم العينَ، فأمرهم ألَّا يدخلوا مصرَ من بابٍ واحد، وكانت مصرُ لها أربعةُ أبواب، وإنما خاف عليهم العينَ لكونهم أَحَدَ عَشَرَ رجلاً لرَجُلٍ[(١)] واحد، وكانوا أهلَ جَمالٍ وكمالٍ وبَسْطة؛ قاله ابن عباس والضَّحاك وقَتَادة وغيرهم[(٢)].

الثانية: وإذا كان هذا معنى الآيةِ؛ فيكون فيها دليلٌ على التحرُّز من العين، والعينُ حقٌّ، وقد قال رسول الله ﷺ: «إنَّ العين لتُدْخِلُ الرجلَ القبرَ والجَمَلَ القِدْرَ»[(٣)]. وفي تعوُّذه عليه الصلاة والسلام: «أعوذُ بكلمات الله التامَّة من كلِّ شيطانٍ وهامَّة ومن كلِّ عينٍ لامَّة»[(٤)] ما يدلُّ على ذلك.

وروى مالك، عن محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حُنَيْف، أنه سمع أباه يقول: اغتسل أبي سهلُ بنُ حُنيف بالخرَّار، فنزع جُبَّةً كانت عليه، وعامر بنُ ربيعة ينظر، قال: وكان سهلٌ رجلاً أبيضَ حَسَنَ الجِلْدِ، قال: فقال له عامر بن ربيعة: ما رأيت كاليوم، ولا جلدَ عَذْراءَ! فوُعِكَ سهلٌ مكانَه واشتدَّ وَعْكُه، فأُتيَ رسولُ الله ﷺ،

---

(١) في (ظ): كرجل.

(٢) أخرج قولهم الطبري ١٣/ ٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٧/ ٩٠ ، والقضاعي في مسند الشهاب (١٠٥٧)، والخطيب في تاريخ بغداد ٩/ ٢٤٤ من حديث جابر ﷺ.

(٤) أخرجه أحمد (٢١١٢)، والبخاري (٣٣٧١) من حديث ابن عباس ﷺ، ولفظه عند البخاري: كان رسول الله ﷺ يعوِّذ الحسن والحسين ويقول: «إن أباكما كان يعوِّذ بها إسماعيل وإسحاق»: أعوذ بكلمات الله...، وقوله: «وهامة» هي واحدةُ الهوامّ ذوات السموم، وقيل: المراد كل نسمة تهمُّ بسوء. الفتح ٦/ ٤١٠ . وقوله: «لامّة» أي: ذات لمم، واللمم طرف من الجنون يلم بالإنسان. النهاية (لمم).

فأُخبر أن سهلاً وُعِك، وأنه غيرُ رائحٍ معك يا رسول الله، فأتاه رسول الله ﷺ، فأخبره سهلٌ بالذي كان من شأن عامر، فقال رسول الله ﷺ: «عَلَامَ يقتلُ أحدُكم أخاه؟! أَلَا بَرَّكْتَ؟! إنَّ العينَ حقٌّ، تَوضَّأْ له». فتوضَّأَ له عامر، فراح سهلٌ مع رسول الله ﷺ ليس به بأس[1]. في رواية: «اغتسِلْ له»، فغَسَلَ عامر[2] وجهَه ويديه ومِرْفَقَيْه وركبتيه وأطرافَ رجليه وداخِلَ إزارِه في قدحٍ، ثم صُبَّ عليه، فراح سهلٌ مع الناس[3] ليس به بأس[4].

وركب سعد بن أبي وَقَّاص يوماً، فنظرت إليه امرأةٌ فقالت: إنَّ أميركم هذا ليعلم أنه أَهْضَمُ الكَشْحَيْن، فرجع إلى منزله فسقط، فبلغه ما قالت المرأة، فأرسل إليها فغَسَلَتْ له[5].

ففي هذين الحديثين أنَّ العين حقٌّ، وأنَّها تقتل كما قال النبيُّ ﷺ[6]. وهذا قولُ علماءِ الأمَّة، ومذهبُ أهلِ السُّنة، وقد أنكرته طوائفُ من المبتدِعة، وهم محجوجون بالسنَّة وإجماعِ علماءِ هذه الأمَّة، وبما يشاهَدُ من ذلك في الوجود، فكم من رجل أدخلته العينُ القبرَ، وكم من جَمَلٍ ظَهِيرٍ أدخلته القِدْر، لكنَّ ذلك بمشيئة الله تعالى كما قال: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ١٠٢][7].

قال الأصمعيُّ: رأيت رجلاً عَيُوناً سمع بقرةً تُحلَب، فأعجبه شخْبُها فقال: أيَّتهنَّ هذه؟ فقالوا: الفلانيةُ، لبقرةٍ أخرى يُوَرُّون عنها، فهَلَكَتا جميعاً، المُوَرَّى بها

---

(١) الموطأ ٢/ ٩٣٨ ، وأخرجه أيضاً ابن ماجه (٣٥٠٩)، والنسائي في الكبرى (٧٥٧٠). والخرار: ماء بالمدينة. معجم البلدان ٢/ ٣٥٠ .

(٢) في (م): اغتسل فغسل له عامر، والمثبت من النسخ الخطية والمصادر.

(٣) في (م): فراح سهل مع رسول الله ﷺ، والمثبت من النسخ الخطية والمصادر.

(٤) الموطأ ٢/ ٩٣٩ ، وهو عند أحمد (١٥٩٨٠)، والنسائي في الكبرى (٧٥٧٢).

(٥) أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث ٢/ ١١٣ ، وذكره ابن عبد البر في التمهيد ٦/ ٢٤١ . وأهضم الكشحين، أي: دقيق الخصرين. النهاية (كشح).

(٦) التمهيد ٦/ ٢٣٧ .

(٧) المفهم ٥/ ٥٦٥ .

والمورّى عنها. قال الأصمعيُّ: وسمعته يقول: إذا رأيتُ الشيء يُعجبني وجدتُ حرارةً تخرج من عيني(١).

الثالثة: واجبٌ على كلِّ مسلمٍ أعجبه شيءٌ أن يُبَرِّكَ؛ فإنه إذا دعا بالبركة صُرِفَ المحذورُ لا محالةَ، ألَا ترى قولَه عليه الصلاة والسلام لعامر: «ألَا برَّكْتَ؟!». فدلَّ على أنَّ العين لا تَضُرُّ ولا تعدو إذا بَرَّكَ العائن، وأنَّها إنما تعدو إذا لم يُبَرِّك. والتبريكُ أن يقول: تبارك الله أحسنُ الخالقين! اللهمَّ بارِكْ فيه(٢).

الرابعة: العائنُ إذا أصاب بعينه ولم يُبِرِّك فإنه يؤمر بالاغتسال، ويُجبَر على ذلك إنْ أباه؛ لأنَّ الأمر على الوجوب، لا سيما هذا؛ فإنه قد يُخاف على المَعِين الهلاك، ولا ينبغي لأحدٍ أن يمنع أخاه ما ينتفع به أخوه ولا يَضُرُّه هو، ولا سيما إذا كان بسببه، وكان الجاني عليه(٣).

الخامسة: مَن عُرِف بالإصابة بالعين مُنع من مداخلة الناس دفعاً لضرره، وقد قال بعض العلماء: يأمره الإمام بلزوم بيته، وإن كان فقيراً رَزَقَه ما يقوم به، ويَكُفّ أذاه عن الناس(٤). وقد قيل: إنه يُنفَى. وحديثُ مالكٍ الذي ذكرناه يَرِدُّ هذه الأقوال، فإنه عليه الصلاة والسلام لم يأمر في عامر بحبسٍ ولا بنَفْيٍ، بل قد يكون الرجل الصالح عائناً، وأنه لا يُقدح فيه ولا يُفسَّقُ به(٥)، ومَن قال: يُحبس ويُؤمر بلزوم بيته. فذلك احتياطٌ ودفعُ ضررٍ، والله أعلم.

السادسة: روى مالك عن حُمَيْد بن قيس المكِّيِّ أنه قال: دُخِل على رسول الله ﷺ بابنَيْ جعفر بن أبي طالب، فقال لحاضِنَتِهما: «ما لي أراهما ضَارِعَيْنِ؟» فقالت حاضنتُهما: يا رسول الله! إنه تُسْرِعُ إليهما العين، ولم يمنعنا أن نَسْتَرْقِيَ لهما إلَّا أنَّا

(١) التمهيد ١٣/ ٧٠ ، والشخب: صوت اللبن عند الحلب. معجم متن اللغة (شخب).

(٢) التمهيد ٦/ ٢٤٠ - ٢٤١ .

(٣) التمهيد ٦/ ٢٤١ .

(٤) المفهم ٥/٥٦٨ .

(٥) ينظر التمهيد ١٣/ ٦٩ .

لا ندري ما يُوافقك من ذلك؟ فقال رسول الله ﷺ: «اسْتَرْقُوا لهما، فإنه لو سَبَق شيءٌ القدَرَ سَبَقَتْه العين»[١]. وهذا الحديثُ منقطِعٌ، ولكنَّه محفوظٌ لأسماءَ بنتِ عُمَيس الخَثْعميةِ عن النبيِّ ﷺ من وجوهٍ ثابتةٍ متَّصلةٍ صِحاح[٢]، وفيه أنَّ الرُّقَى مما يُستَدفع به البلاء، وأنَّ العين تؤثِّر في الإنسان وتَضرَعه ـ أي: تُضْعِفُه وتُنْحِله ـ وذلك بقضاء الله تعالى وقَدَرِه[٣]. ويقال: إنَّ العين أسرعُ إلى الصِّغار منها إلى الكبار، والله أعلم.

السابعة: أمَر ﷺ في حديث أبي أُمامة العائنَ بالاغتسال للمَعِين، وأمَر هنا بالاسْتِرْقاء؛ قال علماؤنا: إنما يُسترقى من العين إذا لم يُعرف العائِنُ، وأمَّا إذا عُرف الذي أصابه بعينه فإنه يؤمر بالوضوء، على حديث أبي أمامة[٤]، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: من شيءٍ أَحْذَرُه عليكم[٥]، أي: لا ينفع الحذر مع القَدَر. ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾ أي: الأمرُ والقضاء ﴿إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: اعتمدتُ ووَثِقت ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ أي: من أبوابٍ شتَّى ﴿مَّا

---

(١) الموطأ ٢/ ٩٣٩ - ٩٤٠ . قوله: «ضارعين»، أي: ضعيفين ضئيلين ناحِلَيْن. وحاضنتهما قد تكون أمهما أسماء بنت عميس، وجائز أن تكون حاضنتهما غيرها. ينظر التمهيد ٢/ ٢٦٦ - ٢٦٧ ، والاستذكار ٢٧/ ١٥ .

(٢) التمهيد ٢/ ٢٦٦ ، وأخرجه من حديث أسماء بنت عميس أحمد (٢٧٤٧٠)، والترمذي (٢٠٥٩)، وابن ماجه (٣٥١٠). وأخرجه أحمد (١٤٥٧٣)، ومسلم (٢١٩٨) من حديث جابر ﷺ.

(٣) التمهيد ٢/ ٢٦٩ .

(٤) المصدر السابق.

(٥) النكت و العيون ٣/ ٥٩ ، وقال الماوردي: فأشار عليهم في الأول، وفوَّض إلى الله في الآخِر.

كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ إن أراد إيقاعَ مكروهٍ بهم ﴿إِلَّا حَاجَةً﴾ استثناءٌ ليس من الأول[١] ﴿فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ أي: خاطِر خَطَرَ بقلبه، وهو وصيَّته أن يتفرَّقوا، قال مجاهد: خشيةَ العين[٢]، وقد تقدَّم القول فيه.

وقيل: لئلَّا يرى الملكُ عددهم وقوَّتهم، فيبطشَ بهم حسداً أو حذراً؛ قاله بعضُ المتأخِّرين[٣]، واختاره النحاس[٤]، وقال: ولا معنى للعين هاهنا.

ودلَّت هذه الآيةُ على أنَّ المسلم يجب عليه أن يُحذِّر أخاه ممَّا يخاف عليه، ويُرشدَه إلى ما فيه طريقُ السلامة والنجاة، فإنَّ الدِّينَ النصيحة، والمسلم أخو المسلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يعني يعقوب ﴿لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ أي: بأمر دينه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون ما يعلم يعقوبُ عليه السلام من أمر دينه. وقيل: «لَذُو عِلْمٍ» أي: عمل[٥]، فإنَّ العلم أوَّلُ أسباب العمل، فسُمِّي بما هو بسببه.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ قال قتادةُ: ضمَّه إليه، وأنزله معه[٦]. وقيل: أمر أن ينزل كلُّ اثنين في منزل، فبقي أخوه منفرداً، فضمَّه إليه وقال: أشفقتُ عليه من الوَحدة، وقال له سِرًّا من إخوته: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أي: لا تحزن ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٧].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ لمَّا عرف بنيامين أنه يوسفُ قال له: لا تَردَّني إليهم. فقال: قد علمتَ اغتمامَ يعقوبَ بي، فيزداد غمُّه!

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٦ .

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٢٣٩ ، وهو تفسير مجاهد ١/ ٣١٨ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ٥٩ .

(٤) في إعراب القرآن ٢/ ٣٣٦ .

(٥) أخرج هذا القول الطبري ١٣/ ٢٤٠ - ٢٤١ عن قتادة وسفيان.

(٦) النكت والعيون ٣/ ٦٠ ، وأخرجه الطبري ١٣/ ٢٤٢ .

(٧) أخرجه الطبري ١٣/ ٢٤١ - ٢٤٢ عن السدي وابن إسحاق مطولاً.

فأبى بنيامين الخروجَ، فقال يوسف: لا يمكن حبسُك إلَّا بعد أن أنْسِبكَ إلى ما لا يَجْمُل بك. فقال: لا أبالي![1] فدسَّ الصاع في رَحْلِه؛ إمَّا بنفسه من حيث لم يطَّلع عليه أحد، أو أَمَر بعضَ خواصِّه بذلك. والتَّجهيزُ: التسريح[2] وتنجيزُ الأمر، ومنه: جَهَز على الجريح، أي: قتله[3] ونجز أمره. والسِّقايةُ والصُّوَاعُ شيءٌ واحد: إناءٌ له رأسان في وسطه مَقْبِض، كان الملك يشرب منه من الرأس الواحد، ويُكال الطعامُ بالرأس الآخَر؛ قاله النقاش عن ابن عباس[4]، وكلُّ شيء يُشرب به فهو صُواع[5]، وأنشد:

نَشربُ الخمرَ بالصُّواع جِهَارًا[6]

واختُلف في جنسه؛ فروى شعبةُ، عن أبي بِشر، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: صُواع[7] الملك: شيءٌ من فضة يشبه الْمَكُّوك، من [ذهبٍ و] فضة مرصعٌ بالجوهر، يُجعل على الرأس، وكان للعباس واحدٌ في الجاهلية[8]. وسأله نافع بن الأزرق: ما الصُّواعُ؟ قال: الإناء؛ قال فيه الأعشى:

لـه دَرْمَـكٌ فـي رأسـه ومَـشـارِبٌ ... وقِـدْرٌ وطَـبَّـاخٌ وصـاعٌ ودَيْـسَـقُ[9]

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٤٣٨ ، وعرائس المجالس ص١٣٤ عن كعب.

(٢) في (ظ): التسرع.

(٣) وأجهز كذلك. مجمل اللغة ١/ ٢٠١ ، واللسان (جهز).

(٤) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٢٤٥ - ٢٤٦ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٦٣ - ٢٦٤ .

(٥) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٦١ عن ابن عباس. ووقع في (ظ): وكل إناء يشرب به...

(٦) سلف ٩/ ٢١١ برواية: نشرب الإثم.

(٧) قبلها في (د) و(م): كان.

(٨) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٤ ، وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرجه بنحوه الطبري ١٣/ ٢٤٩-٢٥١ .

(٩) أخرجه ابن الأنباري في الوقف والابتداء ١/ ٨٦ مطولاً، وهو في ديوان الأعشى ص٢٦٧ مجموع بيتين في وصف حصن بناه ـ على قول الشاعر ـ سليمان عليه السلام، قال شارح الديوان: المعنى: في أعلاه غرف الشراب فرشت بالطنافس، وخدم وطباخ وأقداح وخِوان. اهـ والديسق: خِوان من فضة. اللسان (دسق).

وقال عِكرمة: كان من فضة. وقال عبد الرحمن بن زيد: كان من ذهب، وبه كالَ طعامهم مبالغةً في إكرامهم[١]. وقيل: إنما كان يُكال به لعزَّةِ الطعام[٢].

والصاع يُذكَّر ويؤنَّث، فَمَن أنَّثه قال: أَصْوُع، مثل أدْوُر، ومَن ذكَّره قال: أَصْوَاع، مثل أثواب[٣].

وقال مجاهد وأبو صالح: الصاعُ: الطَّرْجِهَالة بلغة حِمْيَر[٤].

وفيه قراءات: «صُوَاع» قراءةُ العامَّة، و«صُوْغ» بالغين المعجمة، وهي قراءةُ يحيى ابن يَعمر[٥]؛ قال: وكان إناءً صِيْغَ[٦] من ذهب. «وصَوْع» بالعين غير المعجمة قراءةُ أبي رجاء[٧]. «وصُوْع» بصادٍ مضمومةٍ وواوٍ ساكنة وعينٍ غيرِ معجمةٍ قراءةُ أُبيّ[٨]. «وصيَاع» بياء بين الصَّاد والألف، قراءةُ سعيد بن جُبير[٩]. «وصاع» بألف بين الصَّاد والعين، وهي قراءة أبي هريرة[١٠].

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٦١ ، وخبرا عكرمة وابن زيد أخرجهما الطبري ١٣/ ٢٤٦ ، ٢٥٠ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٦٤ .

(٣) في (د): أبواب، وكذا في تهذيب اللغة ٣/ ٨٢ ، والكلام منه.

(٤) أخرجه عن مجاهد ابن الأنباري في كتاب الرد على من خالف مصحف عثمان كما في الإتقان للسيوطي ١/ ٤١٨ . قال الجوهري في الصحاح (طرجهل): الطرجهالة: كالفنجانة، معروفة.

(٥) القراءات الشاذة ص٦٤ ، والمحتسب ١/ ٣٤٦ ، إلا أن ابن جني قيدها بفتح الصاد، ولم يقيدها ابن خالويه، وذكرها الطبري ١٣/ ٢٤٩ وقال: كأنه وجَّهه إلى أنه مصدر من قولهم: صاغ يصوغ صَوْغاً. وقال أبو حيان في البحر ٥/ ٣٣٠ : وقرأ الحسن وابن جبير: «صُواغ» بالغين المعجمة على وزن: غُراب، وقرأ يحيى بن يعمر كذلك إلا أنه يحذف الألف ويسكِّن الواو. وينظر الدر المصون ٦/ ٥٢٧ .

(٦) في (د) و(م): أصيغ.

(٧) وهي بفتح الصاد كما قيدها ابن جني في المحتسب ١/ ٣٤٦ ، وهي في القراءات الشاذة ص٦٤ .

(٨) ذكرها ابن جني في المحتسب ١/ ٣٤٦ ، وأبو حيان في البحر ٥/ ٣٣٠ عن عبد الله بن عون بن أبي أرطبان.

(٩) أخرجها عنه ابن الأنباري كما في الدر المنثور ٤/ ٢٧ .

(١٠) القراءات الشاذة ص٦٤ ، والمحتسب ١/ ٣٤٦ .

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾ أي: نادى منادٍ وأَعْلَمَ، و«أَذَّنَ» للتكثير، فكأنه نادى مراراً: «أَيَّتُهَا العِيرُ». والعِير: ما امْتِيرَ عليه من الحمِير والإبل والبغال[1]. قال مجاهد: كان عِيرُهم حَمِيراً[2]. قال أبو عبيدة: العِيرُ: الإبلُ المَرْحولَةُ المركوبة[3]. والمعنى: يا أصحابَ العير. كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[4] [يوسف:٨٢]، و: يا خيلَ الله اركبي، أي: يا أصحابَ خيلِ الله، وسيأتي.

وهنا اعتراضان: الأوّل: إن قيل: كيف رضيَ بنيامينُ بالقعود طَوْعاً، وفيه عقوقُ الأب بزيادة الحزن، ووافقه على ذلك يوسف؟ وكيف نَسَب يوسفُ السرقةَ إلى إخوته وهم بَرَاء، وهو الثاني.

فالجواب عن الأوّل: أنَّ الحزن كان قد غَلَبَ على يعقوبَ بحيث لا يؤثِّر فيه فَقْدُ بنيامين كلَّ التأثير، أَوَلا تَراه لمَّا فَقَدَه قال: «يا أَسَفا على يُوسُف»، ولم يعرِّج على بنيامين؟ ولعل يوسفَ إنَّما وافقه على القعود بوَحْي، فلا اعتراض.

وأمَّا نسبةُ يوسفَ السرقةَ إلى إخوته؛ فالجواب: أنَّ القوم كانوا قد سَرَقوه من أبيه فأَلْقَوْه في الجُبِّ، ثم باعوه، فاستحقُّوا هذا الاسمَ بذلك الفِعْل، فصَدَقَ إطلاقُ ذلك عليهم.

جوابٌ آخَرُ: وهو أنه أراد: أيتها العيرُ حالُكم حالُ السُّرَّاق، والمعنى: إنَّ شيئاً لغيركم صار عندكم من غير رضا الملكِ ولا عِلْمِه.

جوابٌ آخر: وهو أنَّ ذلك كان حيلةً لاجتماعِ شَمْلِه بأخيه، وفَصْلِه عنهم إليه[5]، وهذا بناء على أنَّ بنيامين لم يعلم بدَسِّ الصاع في رَحْله، ولا أخبره بنفسه.

---

(١) تهذيب اللغة ٣/ ١٦٧.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٢٤٨.

(٣) زاد المسير ٤/ ٢٥٧.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٢٠.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٨٢ - ١٠٨٣.

وقد قيل: إنَّ معنى الكلامِ الاستفهامُ، أي: أوَإنَّكم لسارقون(١)؟ كقوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ﴾ [الشعراء: ٢٢] أي: أوَتلك نعمةٌ تمنُّها عَليَّ؟ والغرض ألَّا يُعزَى إلى يوسفَ ﷺ الكذبُ.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ۝٧١ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ۝٧٢﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ البعير هنا الجملُ في قول أكثر المفسرين(٢). وقيل: إنه الحمار، وهي لغةٌ لبعض العرب؛ قاله مجاهدٌ واختاره(٣). وقال مجاهد: الزعيم هو المؤذِّنُ الذي قال: «أَيَّتُهَا الْعِيرُ»(٤). والزعيمُ والكَفيل والحَمِيل والضَّمين والقَبِيل سواءٌ، والزعيم: الرئيس.

قال امرؤ القيس(٥):

وإنِّـي زَعـيـمٌ إنْ رَجـعـتُ مُـمَـلَّـكـاً بِـسَـيْـرٍ تَـرَى مِـنـهُ الـفُـرَانِـقَ أزوَرَا(٦)

وقالت ليلى الأَخْيَليةُ تَرثي أخاها(٧):

---

(١) ينظر مجمع البيان ١٣/ ٩٥ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٦٢ .

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٢٥٢ - ٢٥٣ ، وهو في تفسير مجاهد ١/ ٣١٨ .

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٢٥٣ ، وهو في تفسير مجاهد ١/ ٣١٨ .

(٥) قوله: امرؤ القيس، من (ظ).

(٦) ديوان امرئ القيس ص٦٦ . والفُرانق: الأسد، أو سَبُع يصيح بين يديه وهو شبيه بابن آوى وهو معرَّبُ «بروانك». معجم متن اللغة (فرنق). وأزور: مائل، أو الذي يُقْبل على شِقٍّ إذا اشتد السير. القاموس (زور).

(٧) كذا ذكر المصنف، والذي ذكره أبو إسحاق الوطواط في غرر الخصائص الواضحة ص٢٣ أنها قالت هذه الأبيات في توبة الحميري. وهو الصواب، وقصة توبة بن الحميِّر مع ليلى الأخيلية مشهورة. ينظر الأغاني ١١/ ٢٠٣ - ٢٥٠ .

ومُـخَـرَّقٍ عـنـهُ الـقـمـيـصُ تَـخَـالُـهُ وسطَ البيوت من الحياءِ سَقِيمَا[١]

حَـتَّـى إذا رُفِـعَ الـلِّـوَاءُ رأيـتَـهُ يومَ الهِيَاجِ على الخَمِيسِ زَعِيمَا[٢]

الثانية: إن قيل: كيف ضَمِنَ حِمْلَ البعيرِ وهو مجهول، وضمانُ المجهولِ لا يصحّ؟ قيل له: حِمْلُ البعير كان معيَّناً معلوماً عندهم كالوَسْق، فصحَّ ضمانه[٣]. غير أنَّه كان بَدَلَ مالٍ للسارق، ولا يَحلُّ للسَّارِق ذلك، فلعله كان يصحُّ في شَرْعهم. أو كان هذا جِعالةً وبَذْلَ مالٍ لمن[٤] يفتِّش ويطلب.

الثالثة: قال بعض العلماء: في هذه الآية دليلان: أحدهما: جوازُ الجُعْل، وقد أُجيز للضرورة؛ فإنه يجوز فيه من الجهالة ما لا يجوز في غيره[٥]. فإذا قال الرجل: مَن فَعَل كذا فله كذا، صحّ. وشأنُ الجُعْل أن يكون أحدُ الطرفين معلوماً، والآخَرُ مجهولاً للضرورة إليه، بخلاف الإجارة؛ فإنه يتقدَّر فيها العِوَضُ والمُعَوَّضُ من الجهتين[٦]. وهو من العقود الجائزة التي يجوز لأحدهما فَسْخُه، إلَّا أنَّ المجعول له يجوز أن يفسخه قبل الشروع وبعده إذا رضِيَ بإسقاط حقِّه، وليس للجاعل أن يفسخه إذا شَرَع المجعولُ له في العمل[٧]. ولا يُشترط في عقد الجُعْل حضورُ المتعاقدين كسائر العقود؛ لقوله: ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾. وبهذا كلِّه قال الشافعي[٨].

---

(١) في النسخ: يوم اللقاء، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٢) الشعر والشعراء ٢/ ٧٠٤، وأمالي القالي ١/ ٢٤٨، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٤/ ١٦٠٩، وذكر القالي عن الأصمعي أنه كان يرويها لحميد بن ثور، وهما في ديوان حميد ص١٣١. ووقع في هذه المصادر: تحت اللواء، بدل: يوم الهياج. والخميس يعني الجيش. تهذيب اللغة ٧/ ١٩٣.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٦٢.

(٤) بعدها في (م): كان.

(٥) ينظر النكت والعيون ٣/ ٦٣.

(٦) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٨٤ - ١٠٨٥.

(٧) ينظر المنتقى ٥/ ١١١.

(٨) المهذب ١/ ٤١٨ - ٤١٩، إلا أن الشيرازي ذكر أنه يجوز فسخُ الجاعلِ العقدَ بعد الشروع في العمل، ويلزمه أجرة المثل لما عُمِل.

الرابعة: متى قال الإنسان: مَن جاء بعبدي الآبقِ فله دينارٌ، لزمه ما جَعَلَه فيه إذا جاء به، فلو جاء به من غير ضمانٍ، لزمه إذا جاء به على طلب الأجرة، وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن جاء بآبِقٍ فله أربعونَ درهماً»(١) ولم يَفْصِل بين مَن جاء به مِن عقدِ ضمانٍ أو غيرِ عقد. قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد: ولهذا قال أصحابنا: إنَّ مَن فَعَلَ بالإنسان ما يجب عليه أن يفعله بنفسه من مصالحه لزمه ذلك، وكان له أجرُ مثلِه إنْ كان ممن يفعل ذلك بالأجر(٢).

قلت: وخالَفَنا في هذا كلِّه الشافعيُّ(٣).

الخامسة: الدليل الثاني: جوازُ الكفالة على الرجل؛ لأنَّ المؤذِّن الضامنَ هو غيرُ يوسفَ عليه السلام، قال علماؤنا: إذا قال الرجل: تحمَّلتُ، أو تكفَّلتُ، أو ضمنتُ، أو أنا حَميلٌ لك، أو زعيم، أو كَفيل، أو ضامن، أو قَبيل، أو هو لك عندي، أو عليَّ، أو إليَّ، أو قِبَلي، فذلك كلُّه حَمَالةٌ لازمة(٤).

وقد اختلف الفقهاء فيمَن تكفَّل بالنفس أو بالوجه؛ هل يلزمه ضمان المال أم لا؟ فقال الكوفيون: مَن تكفَّل بنَفْسِ رجلٍ لم يلزمه الحقُّ الذي على المطلوب إن مات، وهو أحدُ قولي الشافعيِّ في المشهور عنه. وقال مالك والليث والأوزاعيُّ: إذا تكفَّل بنفسه وعليه مالٌ، فإنَّه إنْ لم يأتِ به غَرِمَ المال، ويَرْجِعُ به على المطلوب، فإن اشتَرط ضمانَ نفسه أو وجهه وقال: لا أضمن المالَ، فلا شيءَ عليه من المال.

والحجةُ لمن أوجب غُرْمَ المال: أنَّ الكفيل قد علم أنَّ المضمونَ وَجْهُه لا يُطلب

---

(١) لم نقف عليه مرفوعاً، وأخرجه محمد بن الحسن في الحجة ٢/ ٧٣٤ - ٧٤١ ، والبيهقي ٦/ ٢٠٠ عن ابن مسعود ﷺ موقوفاً. وأخرجه ابن أبي شيبة كما في نصب الراية ٣/ ٤٧٠ عن عمر ﷺ موقوفاً أيضاً. وينظر المحلى ٨/ ٢٠٨ .

(٢) ينظر عقد الجواهر الثمينة ٣/ ٥ .

(٣) ينظر المهذب ١/ ٤١٩ ، والتنبيه ص١٢٦ .

(٤) عقد الجواهر الثمينة ٢/ ٦٥٧ .

بدم، وإنما يُطلب بمال، فإذا ضمنه له ولم يأته به فكأنه فوَّته عليه، وعزَّه[١] منه؛ فلذلك لزمه المال. واحتجَّ الطَّحَاويُّ للكوفيين فقال: أمَّا ضمانُ المال بموت المكفول به فلا معنى له؛ لأنه إنما تكفَّلَ بالنفس ولم يتكفَّل بالمال، فمحالٌ أن يلزمه ما لم يتكفَّل به[٢].

السادسة: واختلف العلماء إذا تكفَّلَ رجلٌ عن رجلٍ بمال؛ هل للطالب أن يأخذ مَن شاء منهما؟ فقال الثوريُّ والكوفيُّون والأوزاعيُّ والشافعيُّ وأحمدُ وإسحاقُ: يأخذ مَن شاء منهما[٣] حتى يستوفيَ حقَّه، وهذا كان قولَ مالكٍ، ثم رجع عنه فقال: لا يؤخذ الكفيلُ إلَّا أن يُفلِسَ الغريمُ أو يغيب؛ لأنَّ التَّبْدِيَةَ بالذي عليه الحقُّ أولى، إلَّا أنْ يكون مُعْدَماً؛ فإنه يؤخذ من الحميل؛ لأنه معذور في أَخْذه في هذه الحالة. وهذا قولٌ حسن. والقياسُ: أنَّ للرجل مطالبةَ أيِّ الرجلين شاء.

وقال ابن أبي ليلى: إذا ضمن الرجلُ عن صاحبه مالاً تحوَّلَ على الكفيل، وبرِئَ صاحبُ الأصل، إلَّا أن يشترط المكفولُ له عليهما أن يأخذ أيَّهما شاء. واحتجَّ ببراءة الميت من الدَّين بضمان أبي قتادة، وبنحوه قال أبو ثور[٤].

السابعة: الزعامةُ لا تكون إلَّا في الحقوق التي تجوز النيابةُ فيها، مما يتعلَّق بالذمَّة من الأموال، وكان ثابتاً مستقرًّا، فلا تصحُّ الحَمالةُ بالكتابة؛ لأنَّها ليست بدينٍ ثابتٍ مستقرٍّ؛ لأنَّ العبد إن عجز؛ رَقَّ وانفسخت الكتابة، وأمَّا كلُّ حقٍّ لا يقوم به أحدٌ

---

(١) في (د) و(ظ): وغره.

(٢) مختصر اختلاف العلماء للجصاص ٤/ ٢٥٣ - ٢٥٥، واختلاف الفقهاء للطبري ص٢٠٨ - ٢١١.

(٣) قوله: منهما، من (ظ).

(٤) ينظر مختصر اختلاف العلماء للجصاص ٤/ ٢٥٥ - ٢٥٨، والإشراف لابن المنذر ١/ ١١٨ - ١١٩، والاستذكار ٢٢/ ٢٧٥ - ٢٧٦. والحديث أخرجه أحمد (١٦٥١٠)، والبخاري (٢٢٩٥) عن سلمة بن الأكوع ﷺ أن النبي ﷺ أتي بجنازة ليصلي عليها... فقال: «هل عليه من دين؟» قالوا: نعم، قال: «صلُّوا على صاحبكم» قال أبو قتادة: عليَّ دينُه يا رسول الله. فصلى عليه. وأخرجه أحمد (١٤١٥٩) من حديث جابر ﷺ، و(٢٢٥٤٣) من حديث أبي قتادة ﷺ.

عن أحد كالحدود؛ فلا كفالةَ فيه(١)، ويُسجَن المُدَّعى عليه الحدُّ حتى يُنظَر في أمره.

وشذَّ أبو يوسف ومحمدٌ فأجازا الكَفالةَ في الحدود والقِصاص، وقالا: إذا قال المقذوف أو المُدَّعِي القِصاصَ: بيِّنتي حاضرةٌ، كَفِلَه ثلاثةَ أيام(٢)، واحتجَّ لهم الطَّحَاويُّ بما رواه حمزةُ بن عمرو عن عمر(٣). وابن مسعود وجرير بن عبد الله والأشعث أنهم حكموا بالكَفالة بالنفس بمحضَر الصحابة(٤).

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يُروى أنهم كانوا لا ينزلون على أحدٍ ظلماً، ولا يَرْعَونَ زَرْعَ أحد، وأنهم جعلوا(٥) على أفواه إبلهم الأكِمَّة(٦)؛ لئلَّا تعيث في زروع الناس. ثم قال(٧): ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ يُروى أنهم ردُّوا البضاعة التي كانت في رِحالهم؛ أي: فَمَن رَدَّ ما وَجد؛ فكيف يكون سارقاً؟!(٨).

---

(١) ينظر الإشراف ١/ ١٢٤ - ١٢٥، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٨٤، وعقد الجواهر الثمينة ٢/ ٦٥٥.

(٢) مختصر اختلاف العلماء للجصاص ٣/ ٣٢٧، وينظر مختصر اختلاف الفقهاء للطبري ص٢١٤.

(٣) الخبر في مختصر اختلاف العلماء ٤/ ٢٥٤، وشرح معاني الآثار ٣/ ١٤٧ مطول، وأخرجه مختصراً البخاري (٢٢٩٠) عن حمزة بن عمرو الأسلمي: أن عمر ﷺ بعثه مصدِّقاً، فوقع رجل على جاريةِ امرأته، فأخذ حمزةُ من الرجل كفيلاً حتى قدم على عمر، وكان عمر قد جلده مئة جلدة، فصدَّقهم وعَذَره بالجهالة.

(٤) ذكره البخاري إثر خبر حمزة بن عمرو معلقاً مختصراً، ووصله البيهقي مطولاً ١٠/ ١٦٩، وذكره الطحاوي مطولاً كذلك، كما في مختصر اختلاف العلماء ٤/ ٢٥٤ - ٢٥٥.

(٥) في (د) و(ز) و(م): جمعوا.

(٦) جمع كمامة، وهي ما يُكمُّ به فم البعير. الصحاح (كمم).

(٧) في (ظ): قالوا.

(٨) ذكر هذا الخبر الثعلبي في عرائس المجالس ص١٣٤، والبغوي ٢/ ٤٣٩، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٦٥، وعزاه ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٢٦٠ لأبي صالح عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾ المعنى: فما جزاءُ الفاعلِ إنْ بانَ كذبُكم؟ فأجاب إخوة يوسف: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ أي: يُستعبَدُ ويُسْتَرقُّ. «فَجَزَاؤُهُ» مبتدأ، و«مَنْ وُجِدَ في رَحْلِهِ» خبرُه، والتقدير: جزاؤه استعبادُ مَن وُجِد في رَحْله، فهو كنايةٌ عن الاستعباد. وفي الجملة معنى التوكيد، كما تقول: جزاءُ مَن سرق القطعُ فهذا جزاؤه[(١)].

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: كذلك نفعل في الظالمين إذا سرقوا أن يُستَرقُّوا، وكان هذا من دين يعقوبَ عليه السلام وحُكْمِه. وقولُهم هذا قولُ مَن لم يَسْتَرِبْ بنفسه[(٢)]؛ لأنهم التزموا استرقاقَ مَن وُجد في رَحْله، وكان حُكْم السارق عند أهل مصر أن يُغرَّمَ ضِعْفَي ما أخذ؛ قاله الحسن والسُّدِّي وغيرُهما[(٣)].

مسألة: قد تقدَّم في سورة المائدة أنَّ القطع في السرقة ناسخٌ لمَا تقدَّم من الشرائع، أو لِمَا كان في شرع يعقوبَ من استرقاقِ السارق[(٤)]، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ إنما بدأ يوسفُ برحالهم لنَفْي التهمة والرِّيبة من قلوبهم إن بدأ بوعاء أخيه. والوِعاءُ؛ يقال بضمِّ الواو وكسرها، لغتان[(٥)]، وهو ما يُحفظ فيه المتاع ويصونه.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٨.

(٢) في (م): نفسه.

(٣) لم نقف عليه عن الحسن والسدي، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٢٦ عن الكلبي، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٦٤ عن الضحاك.

(٤) ينظر ٧/ ٤٤٩ وما بعدها.

(٥) وضم الواو قراءة الحسن. ينظر المحتسب ١/ ٣٤٨.

﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ يعني بنيامين، أي: استخرج السِّقاية، أو الصُّواعَ؛ عند مَن يؤنِّث[١]، وقال: «ولِمَنْ جاء به»؛ فذكَّر.

فلمَّا رأى ذلك إخوتُه نكسوا رؤوسهم، وظنُّوا الظنون كلَّها، وأقبلوا عليه وقالوا: ويلك يا بنيامين، ما رأينا كاليوم قطُّ، ولدت أُمُّك راحيل أخوين لِصَّين! قال لهم أخوهم: والله ما سرقتُه، ولا عِلْمَ لي بمَن وضعه في متاعي. ويروى أنهم قالوا له: يا بنيامين، أسرقت؟ قال: لا والله! قالوا: فَمَن جَعَل الصُّواعَ في رَحْلك؟ قال: الذي جعل البضاعة في رحالكم.

ويقال: إنَّ المفتِّش كان إذا فرغ من رَحْلِ رجلٍ استغفر الله عزَّ وجلَّ تائباً مِن فِعْله ذلك. وظاهِرُ كلامِ قَتَادةَ وغيرِه أنَّ المستغفر كان يوسفَ؛ لأنه كان يفتِّشهم ويعلم أين الصُّواعُ، حتى فرغ منهم وانتهى إلى رَحْل بنيامين فقال: ما أظنُّ هذا الفتى رضيَ بهذا ولا أَخَذ شيئاً، فقال له إخوته: والله لا نبرح[٢] حتى تُفتِّشَهُ، فهو أطيبُ لنفسك ونفوسنا، ففتَّش، فأخرج السِّقاية، وهذا التفتيشُ من يوسف يقتضي أنَّ المؤذِّن سَرَّقهم برأيه. فيقال: إنَّ جميع ذلك كان بأمرٍ من الله تعالى، ويقوِّي ذلك قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾[٣].

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: «كِدْنَا» معناه: صَنَعْنا؛ عن ابن عباس[٤]. القُتَبيُّ: دبَّرنا[٥].

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٢٢، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٩.

(٢) في (د): لا تبرح.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٢٦٦، وخبر قتادة أخرجه عبد الرزاق ١/ ٣٢٥ - ٣٢٦، والطبري ١٣/ ٢٥٩-٢٦٠. وينظر عرائس المجالس ص١٣٥.

(٤) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٢٦١، وأخرجه الطبري ١٣/ ٢٦٣ - ٢٦٤، عن الضحاك والسدي وابن جريج.

(٥) ذكر الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٦٤ هذا القول عن ابن عيسى، ولفظ ابن قتيبة في تفسير الغريب ص٢٢٠: «كدنا ليوسف» أي: احتلنا، والكيد: الحيلة.

ابن الأنباريّ[١]: أردنا؛ قال الشاعر:

كـادتْ وكِـدْتُ وتِـلـك خـيـرُ إرادةٍ   لو عاد مِن عهد الصِّبَا ما قد مَضَى[٢]

وفيه جوازُ التوصُّلِ إلى الأغراض بالحِيل إذا لم تُخالفْ شريعةً، ولا هَدَمت أصلاً، خلافاً لأبي حنيفة في تجويزه الحيل، وإن خالفت الأصول، وخَرَمت التحليل[٣].

الثانية: أجمع العلماء على أنَّ للرجل قبل حلول الحَوْل التصرُّف في ماله بالبيع والهبة إذا لم ينوِ الفرارَ من الصدقة، وأجمعوا على أنه إذا حال الحَوْل وأظلَّ الساعي أنه لا يَحِلُّ له التحيُّل ولا النقصان، ولا أن يفرِّق بين مجتَمِعٍ، ولا أن يَجْمَع بين متفرِّق. وقال مالك: إذا فوَّت من ماله شيئاً ينوي به الفرارَ من الزكاة قبل الحول بشهرٍ أو نحوه، لزمته الزكاةُ عند الحول، أخذاً منه بقوله عليه الصلاة والسلام: «خشيةَ الصَّدقة». وقال أبو حنيفة: إن نوى بتفريقه الفرار من الزكاة قبل الحول بيوم لا يضرُّه؛ لأنَّ الزكاة لا تلزم إلَّا بتمام الحول، ولا يتوجَّه إليه معنى قوله: «خَشْيةَ الصَّدَقة» إلا حينئذ[٤].

قال ابن العربي[٥]: سمعت أبا بكر محمد بنَ الوليد الفِهْريَّ وغيرَه يقول: كان شيخنا قاضي القضاة أبو عبد الله محمد بنُ عليٍّ الدَّامَغَاني[٦] صاحب عشرة آلاف

---

(١) في الأضداد ص٩٧.

(٢) تفسير الطبري ١٦/ ٣٩، والأضداد لابن الأنباري ص٩٧، وهو فيهما برواية: لو عاد من لهو الصبابة ما مضى.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٨٨.

(٤) الكلام من بداية المسألة قاله ابن بطال كما في فتح الباري ١٢/ ٣٣١. وقوله: «خشية الصدقة» سيأتي تخريجه عن أنس - ﷺ - في حديث كتاب أبي بكر ﷺ الذي كتبه له في فريضة الصدقة.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٨٨ وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٦) الحنفي، مفتي العراق، ولد بدامَغان، وتفقَّه بخراسان، وقدم بغداد شابًّا، ودام في القضاء ثلاثين سنة، وفي أولاده أئمة وقضاة، توفي سنة (٤٧٨هـ). السير ١٨/ ٤٨٥.

دينار من المال[١]، فكان إذا جاء رأسُ الحول دعا بنيه فقال لهم: كَبِرَتْ سِنِّي، وضَعُفت قوَّتي، وهذا مالٌ لا أحتاجه فهو لكم. ثم يُخرجه، فيحمله الرجال على أعناقهم إلى دُورِ بنيه، فإذا جاء رأس الحول ودعا بنيه لأمرٍ قالوا: يا أبانا إنما أمَلْنا حياتُك، وأما المال فأيُّ رغبةٍ لنا فيه ما دمتَ حياً، أنت ومالك لنا، فخذه إليك. ويسير الرجال به حتى يضعوه بين يديه، فيردُّه إلى موضعه. يريد بتبديل الملكِ إسقاطَ الزكاة على رأي أبي حنيفة في التفريق بين المجتمع، والجمع بين المتفرِّق، وهذا خَطْبٌ عظيم، وقد صنَّف البخاريّ ﷺ [عليه] في جامعه كتاباً مقصوداً فقال: كتاب الحِيَل[٢].

قلت: وترجم فيه أبواباً منها: باب الزكاة وألَّا يفرَّق بين مجتَمِعٍ ولا يُجمع بين متفرِّق خشيةَ الصدقة. وأدخل فيه حديثَ أنس بن مالك، وأنَّ أبا بكر كتب له فريضةَ الصدقة[٣]...، وحديثَ طلحةَ بنِ عبيد الله أنَّ أعرابيًّا جاء إلى رسول الله ﷺ ثائرَ الرأس، الحديثَ، وفي آخره: «أَفْلَحَ إنْ صَدَقَ» أو: «دَخَل الجنةَ إنْ صَدَقَ». وقال بعض الناس: في عشرين ومئةِ بعيرٍ حِقَّتان، فإنْ أهلكها متعمِّداً، أو وَهَبَها، أو احتال فيها فِراراً من الزكاة، فلا شيءَ عليه[٤]. ثم أردف بحديث أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون كنزُ أحدِكم يومَ القيامة شجاعاً أَقْرَعَ له زبِيبتان، ويقولُ: أنا كنزك» الحديث[٥].

قال المهلَّب[٦]: إنما قَصَدَ البخاريُّ في هذا الباب أنْ يُعرِّفكَ أنَّ كلَّ حِيلةٍ يتحيَّلُ بها أحدٌ في إسقاط الزكاة فإنَّ إثْمَ ذلك عليه؛ لأن النبيَّ ﷺ لمَّا مَنَعَ من جمع الغَنَم

---

(١) في (م): عشرات.

(٢) صحيح البخاري طبعة فتح الباري ١٢/ ٣٢٦ .

(٣) صحيح البخاري (٦٩٥٥)، وأخرجه مطولاً أحمد (٧٢).

(٤) صحيح البخاري (٦٩٥٦)، وحديث طلحة أخرجه أيضاً أحمد (١٣٩٠)، ومسلم (١١).

(٥) صحيح البخاري (٦٩٥٧)، وسلف ٥/ ٤٣٨ .

(٦) كلامه بنحوه في فتح الباري ١٢/ ٣٣١

وتفريقِها خشيةَ الصدقة، فُهِم منه هذا المعنى، وفُهِم من قوله: «أَفْلَحَ إنْ صَدَق» أنَّ مَن رامَ أن ينقُضَ[(١)] شيئاً من فرائض الله بحيلةٍ يحتالُها أنه لا يفلح، ولا يقوم بذلك عُذْرُه عند الله، وما أجازه الفقهاءُ من تصرُّفِ صاحبِ المال في ماله قُرْبَ حلولِ الحَوْلِ إنما هو ما لم يُرِدْ بذلك الهربَ من الزكاة، ومَن نوى ذلك فالإثْمُ عنه غيرُ ساقط، واللهُ حَسِيبُه، وهو كَمَن فرَّ من[(٢)] صيام رمضانَ قبل رؤية الهلال بيوم، واستعمل سفراً لا يحتاج إليه رغبةً عن فَرْضِ الله الذي كتبه الله على المؤمنين، فالوعيدُ متَوجِّهٌ عليه، أَلَا ترى عقوبةَ مَن مَنَعَ الزكاة يوم القيامة بأيِّ وجهٍ متعمِّداً كيف تَطَؤه الإبل[(٣)]، ويمثَّلُ له مالُه شجاعاً أقرع؟! وهذا يدلُّ على أنَّ الفرار من الزكاة لا يَحِلُّ، وهو مُطالَبٌ بذلك في الآخرة.

الثالثة: قال ابن العربيّ[(٤)]: قال بعض علماء الشافعية: في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾[(٥)] دليلٌ على وجه الحيلة إلى المباح[(٦)] واستخراج الحقوق. وهذا وهمٌ عظيم. وقولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قيل فيه: كما[(٧)] مكَّنا ليوسفَ مِلكَ نفسه عن امرأة العزيز مكَّنَّا له مِلْكَ الأرض عن العزيز. أو مِثْلُه مما لا يُشْبِه[(٨)] ما ذَكَره.

---

(١) في (د) وفتح الباري: ينقص.

(٢) في (د) والفتح: عن.

(٣) أخرجه مطولاً أحمد (٧٥٦٣)، ومسلم (٩٨٧)، ومختصراً البخاري (٦٩٥٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٨٨ .

(٥) في (د) و(ز) وأحكام القرآن: وكذلك مكنا ليوسف في الأرض، وفي (م): وكذلك مكنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٣٣ ، وعنه نقل ابن العربي، وإياه عنى بقوله: قال بعض علماء الشافعية. وينظر أحكام القرآن للجصاص ٣/ ١٧٦ . وقد سلف كلام الكيا الطبري ص٣٨٧ من هذا الجزء.

(٦) في أحكام القرآن لابن العربي والكيا الطبري: دليل على جواز الحيلة في التوصل إلى المباح.

(٧) في النسخ الخطية: لما، والمثبت من (م) وأحكام القرآن لابن العربي.

(٨) في النسخ الخطية: إذ مثله لا يشبه.

قال الشَّفْعَوي[١]: ومثلُه قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص:٤٤]، وهذا ليس حيلةً، إنما هو حَمْلٌ لليمين على الألفاظ أو على المقاصد.

قال الشفعويُّ: ومثلُه حديث أبي سعيد الخدريِّ في عاملِ خيبر، أنه أتى النبيَّ ﷺ بتمرٍ جَنِيب، الحديثَ. ومقصودُ الشافعية من هذا الحديث أنه عليه الصلاة والسلام أمره أن يبيع جمعاً ويبتاع جَنِيباً من الذي باع منه الجمع أو من غيره[٢].

وقالت المالكية: معناه: مِن غيره؛ لئلَّا يكون جَنِيباً بجمعٍ والدارهمُ رباً، كما قال ابن عباس: جريرةٌ بجريرة والدراهمُ رباً[٣].

قوله تعالى: ﴿فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ أي: سلطانِه؛ عن ابن عباس[٤]. ابن عيسى: عادَتِه[٥]، أي: يظلم بلا حجة. مجاهد: في حكمه[٦]، وهو استرقاق السُّرَّاق. ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: إلَّا بأن يشاء الله أنْ يجعل السِّقاية في رَحْله تَعِلَّةً وعذراً له. وقال قتادة: بل كان حكم الملك الضربُ والغُرْم ضعفين، ولكن شاء الله أن يُجريَ على ألسنتهم حكمَ بني إسرائيل، على ما تقدَّم[٧].

قوله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ أي: بالعلم والإيمان. وقُرئ: ﴿نرفعُ درجاتٍ من نَّشَاءُ﴾ بمعنى: نرفع مَن نشاءُ درجاتٍ، وقد مضى في «الأنعام»[٨].

---

(١) نسبة إلى الإمام الشافعي رحمه الله، والكلام في أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٣٣ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٨٨ وعنه نقل المصنف.

(٢) قوله: أو من غيره، من (م) وأحكام القرآن لابن العربي، وسلف الكلام وتخريج الحديث ص٣٨٧ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٨٩ ، وخبر ابن عباس سلف نحوه ٢/ ٢٩٧ بلفظ: نهى ابن عباس عن دراهم بدراهم بينهما حريرة.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٢٦٤ .

(٥) في (م): عاداته، والمثبت من النسخ الخطية موافق لما في النكت والعيون ٣/ ٦٤ ، والكلام منه.

(٦) أخرجه الطبري ١٣/ ٢٦٤ - ٢٦٦ عن قتادة والسدي وغيرهما.

(٧) ص٤١٢ من هذا الجزء، وخبر قتادة ذكره الواحدي عنه وعن ابن عباس رضي الله عنهما في الوسيط ٢/ ٦٢٤ .

(٨) ٨/ ٤٤٥ ، وقرأ بالتنوين عاصم وحمزة والكسائي. السبعة ص٢٦١ ، والتيسير ص١٠٤ .

وقوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ روى إسرائيلُ، عن سِمَاكٍ، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عباس قال: يكون ذا أعلمَ مِن ذا، وذا أعلم من ذا، والله فوقَ كلِّ عالم[١].

وروى سفيان، عن عبد الأعلى، عن سعيد بن جُبير قال: كنا عند ابن عباس رحمه الله، فتحدَّث بحديث فتعجَّبَ منه رجل فقال: سبحان الله! وفوقَ كلِّ ذي عِلْمٍ عليمٌ، فقال ابن عباس: بئسَ ما قلت! الله العليم وهو فوقَ كلِّ عالم[٢].

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ المعنى: أي: اقتَدَى بأخيه، ولو اقتَدَى بنا ما سَرَق، وإنَّما قالوا ذلك ليَبْرؤوا[٣] من فعله؛ لأنه ليس من أُمِّهم، وأنه إن سرق فقد جَذَبَه عِرْقُ أخيه السَّارق؛ لأنَّ الاشتراكَ في الأنساب يُشاكِلُ في الأخلاق.

وقد اختلفوا في السَّرقة التي نَسَبُوا إلى يوسف: فرُوِي عن مجاهد وغيره أنَّ عمةَ يوسف بنتَ إسحاق كانت أكبرَ من يعقوب، وكانت صارت إليها مِنْطقةُ إسحاقَ لسنِّها؛ لأنَّهم كانوا يتوارثون بالسِّنِّ، وهذا مما نُسِخَ حكمُه بشرعنا، وكان مَن سَرَق استُعبِد، وكانت عمةُ يوسف حَضَنته وأحبَّته حبًّا شديداً، فلمَّا ترعرع وشَبَّ قال لها يعقوب: سَلِّمي يوسفَ إليَّ، فلستُ أقدِرُ أن يغيب عنِّي ساعةً، فولِعَتْ به، وأشفقَتْ

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/٢٦٨ - ٢٦٩ ، وابن أبي حاتم ٧/٢١٧٧ (١١٨٣٠)، وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية، ووقع عند الطبري: سالم، بدل: سماك.

(٢) أخرجه عبد الرزاق ١/٣٢٦ ، والطبري ١٣/٢٦٨ ، وفيهما: الحمد لله، بدل: سبحان الله.

(٣) في (ظ): ليتبروا.

من فِراقه، فقالت له: دَعْهُ عندي أياماً أنظُرْ إليه، فلما خرج من عندها يعقوبُ عَمَدَت إلى مِنطَقة إسحاق فحزمَتْها على يوسفَ من تحت ثيابِه، ثم قالت: لقد فقدت مِنطقةَ إسحاق، فانظروا مَن أخذَها ومَن أصابها، فالتُمِسَتْ، ثم قالت: اكشفوا أهلَ البيت، فكشفوا فوُجِدَت مع يوسف، فقالت: إنَّه والله لي سَلَمٌ أصنعُ فيه ما شئتُ، ثم أتاها يعقوبُ فأخبرته الخبرَ، فقال لها: أنتِ وذلك، إن كان فعلَ ذلك فهو سَلَمٌ لكِ، فأمسكَتْه حتى ماتت، فبذلك عيَّره إخوتُه في قولهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾[١]، ومن هاهنا تعلَّم يوسفُ وضعَ السِّقاية في رَحْلِ أخيه كما عمِلَتْ به عمتُه[٢].

وقال سعيد بنُ جُبير: إنما أمرته [أُمُّه] أن يسرِقَ صنماً كان لجدِّه أبي أُمِّه، فسرقه وكسَرَه وألقاه على الطريق، وكان ذلك منهما تغييراً للمنكر، فرمَوه بالسَّرقة وعيَّروه بها، وقاله قتادة. وفي كتاب الزجَّاج: أنه كان صنم ذهبٍ[٣].

وقال عطية العَوْفيُّ: إنه كان مع إخوته على طعامٍ، فنظر إلى عَرْقٍ[٤] فخبَّأه، فعيَّروه بذلك.

وقيل: إنه كان يسرِقُ من طعامِ المائدةِ للمساكين؛ حكاه ابنُ عيسى.

وقيل: إنهم كَذَبوا عليه فيما نَسَبوه إليه؛ قاله الحسن[٥].

قوله تعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ أي: أسرَّ في نفسه قولَهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾؛ قاله ابنُ شجرة وابنُ عيسى. وقيل: إنه أسرَّ في نفسه قوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ ثم جهر فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٢٧٤ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٨٧ .

(٣) تفسير الطبري ١٣/ ٢٧٢ - ٢٧٣ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٢٣ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٦٧ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) العَرْق بفتح العين وسكون الراء: العظم إذا أُخذ عنه معظم اللحم. النهاية: (عرق)، وهذا القول في النكت والعيون ٣/ ٦٥ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٦٥ .

تَصِفُونَ﴾[١]. قاله ابن عباس[٢]، أي: أنتم شرٌّ مكاناً ممَّن نسبتُموه إلى هذه السرقة.

ومعنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أي: الله أعلمُ أنَّ ما قلتُم كذبٌ، وإن كانت لله رضاً. وقد قيل: إنَّ إخوةَ يوسفَ في ذلك الوقتِ ما كانوا أنبياء.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ﴾ خاطَبوه باسم العزيز؛ إذ كان في تلك اللحظة بِعَزْلِ الأولِ أو موته. وقولهم: ﴿إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا﴾ أي: كبيرَ القدر، ولم يريدوا كِبَرَ السنِّ؛ لأنَّ ذلك معروفٌ من حال الشَّيخ[٣].

﴿فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ﴾ أي: عبداً بَدَلَه، وقد قيل: إنَّ هذا مجازٌ؛ لأنهم يعلمون أنه لا يصحُّ أخذُ حرٍّ يُسترقُّ بدَلَ مَن قد أحكمت السُّنةُ عندهم رِقَّه، وإنما هذا كما تقولُ لمن تَكره فعلَه: اقتُلني ولا تفعل كذا وكذا، وأنتَ لا تريدُ أن يقتُلَكَ، ولكنَّك مبالِغٌ في استنزالِهِ. ويحتَمِلُ أن يكون قولُهم: ﴿فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ﴾ حقيقةً، وبعيدٌ عليهم وهم أنبياءُ أن يَرَوا استرقاقَ حُرٍّ، فلم يبقَ إلا أن يريدوا بذلك طريقَ الحَمَالة؛ أي: خُذْ أحدنا مكانَه حتى ينصرِفَ إليك صاحبُك، ومقصِدُهم بذلك أن يصل بنيامينُ إلى أبيه، ويعرف يعقوب جليَّة الأمر، فمنع يوسفُ عليه السلام من ذلك؛ إذ الحَمَالةُ في الحدود ونحوِها ـ بمعنى إحضارِ المضمون فقط ـ جائزةٌ مع التراضي، غيرُ لازمةٍ إذا أَبَى الطالبُ، وأما الحَمالة في مثل هذا على أن يَلزم الحَمِيلَ ما كان يلزمُ المضمونَ من عقوبةٍ، فلا يجوز إجماعاً. وفي «الواضحة»: إن الحَمالة في الوجهِ فقط في جميعِ الحدود جائزةٌ، إلا في النَّفْس[٤]. وجمهورُ الفقهاء على جواز الكَفَالة في النَّفْس. واختُلِف فيها عن الشافعي فمرَّةً ضعَّفها، ومرَّةً أجازها [على المال][٥].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٢٧٦ دون قوله: ثم جهر فقال.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٦٦ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٢٦٨ .

(٥) ينظر الاستذكار ٢٢/ ٢٧٧ . وما بين حاصرتين منه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يَحتمِلُ أن يريدوا وصفَهُ بما رأوا من إحسانه في جميع أفعالِه معهم، ويحتمِلُ أن يُريدوا: إنا نرى لك إحساناً علينا في هذه اليد إن أسدَيْتَها إلينا، وهذا تأويلُ ابن إسحاق(١).

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ مصدرٌ ﴿أَن نَّأْخُذَ﴾ في موضع نصبٍ، أي: من أن نأخُذَ ﴿إِلَّا مَن وَجَدْنَا﴾ في موضع نصبٍ بـ «نأخُذَ» ﴿مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ أي: مَعَاذ الله أن نأخذَ البريءَ بالمُجرم، ونُخالف ما تعاقَدْنا عليه. ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ أي: إن نأخُذ غيرَه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ﴾ أي: يَئِسوا، مثل عَجِبَ واستعجَبَ، وسَخِرَ واستسخَرَ. ﴿خَلَصُوا۟﴾ أي: انفردوا، وليس هو معهم. ﴿نَجِيًّا﴾ نصبٌ على الحال من المُضمَر في «خَلَصُوا»، وهو واحد يؤدِّي عن جمعٍ، كما في هذه الآية، ويقعُ على الواحد كقوله تعالى: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢] وجمعُه أنجِيَة، قال الشاعر:

إنِّي إذا ما القومُ كانوا أنْجِيَهْ　　واضطَربَ القومُ اضطِرابَ الأرْشِيَهْ

هناكِ أوصيني ولا تُوصي بِيَهْ(٢)

وقرأ ابنُ كثير: «استايَسُوا»، «ولا تايَسُوا» «إنه لا يايَسُ» [٨٧] «أفلم يايَس» [الرعد: ٣١] بألفٍ من غير همزٍ على القلب(٣)، قُدِّمت الهمزةُ وأُخِّرت الياءُ، ثم قُلِبت

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٦٩.

(٢) الرجز نسبه في اللسان: (نجا) إلى سُحَيم بن وَثِيل اليَرْبُوعيّ، وذكر أن هناكِ بكسر الكاف بخط علي بن حمزة، وبخطه أيضاً: أَوْصيني ولا توصي، بإثبات الياء؛ لأنه يخاطب مؤنثاً. وهي في معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٢٤ من غير نسبة. والأرشية، جمع رِشاء: وهو الحبل. القاموس (رشا). وقيل في معنى الرجز: إنه ضربه مثلاً لنزول الأمر المهم، وقيل غير ذلك. اللسان (نجا).

(٣) هي قراءة ابن كثير في رواية البزي بخُلْف عنه، وكذلك قول: «استايس» [الآية: ١١٠] والوجه الثاني للبزي كالجماعة. السبعة ص٣٥ ، والتيسير ص١٢٩ .

الهمزة ألفاً؛ لأنها ساكنةٌ قبلَها فتحة، والأصلُ قراءةُ الجماعة؛ لأنَّ المصدرَ ما جاءَ إلا على تقديم الياء: يَأْساً، والإياسُ ليس بمصدرِ أَيِسَ، بل هو مصدرُ أَسْتُهُ أَوْساً وإِياساً، أي: أعطيتُه[١]. وقال قوم: أَيِسَ ويَئِسَ لغتان.

أي: فلما يَئِسُوا من رَدِّ أخيهم إليهم تشاوروا فيما بينهم لا يُخالِطُهم غيرُهم من الناس، يتناجون فيما عَرَضَ لهم. والنَّجِيُّ: فعيلٌ بمعنى المُناجي.

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ قال قتادة: هو روبيل، كان أكبرَهم في السِّنِّ. مجاهد: هو شمْعون، كان أكبرَهم في الرأي. وقال الكلبيُّ: يهوذا، وكان أعقلَهم[٢]. وقال محمد بنُ كعب وابنُ إسحاق: هو لاوي، وهو أبو الأنبياء.

﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: عهداً من الله في حفظِ ابنه وردِّه إليه. ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ﴾ «ما» في محلِّ نصبٍ عطفاً على «أنَّ» والمعنى: ألم تعلموا أنَّ أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله، وتعلموا تفريطَكم في يوسف، ذكره النحَّاس[٣] وغيرُه. و«من» في قوله: ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ متعلِّقةٌ بـ «تعلموا». ويجوز أن تكون «ما» زائدةً، فيتعلَّق الظَّرفان اللذان هما «من قبلُ» و«في يوسف» بالفعل وهو «فرَّطتُم». ويجوز أن تكون «ما» والفعلُ مصدراً، و«من قبلُ» متعلِّقاً بفعلٍ مضمَرٍ، التقدير: تفريطُكم في يوسف وقع[٤] من قبلُ، فـ «ما» والفعلُ في موضع رفع بالابتداء، والخبرُ هو الفعل المضمَر الذي يتعلق به «من قبلُ»[٥].

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾[٦] أي: ألزَمُها، ولا أبرحُ مقيماً فيها، يقال: بَرِحَ بَراحاً

---

(١) الحجة للفارسي ٤/ ٤٣٤.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٦٧، وتفسير البغوي ٢/ ٤٤٢.

(٣) إعراب القرآن ٢/ ٣٤١.

(٤) في النسخ: واقع، وكلاهما صحيح، والمثبت أنسب لسياق الكلام. ينظر الدر المصون ٦/ ٥٣٩.

(٥) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٠ - ٣٤١، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٢٤ - ١٢٥.

(٦) بعدها في (ظ): أي من الأرض.

وبُرُوحاً، أي: زال، فإذا دخل النفيُ صار مثبتاً. ﴿حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ بالرجوع؛ فإني أستحي منه. ﴿أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ﴾ بالمسير[١] مع أخي فأمضي معه إلى أبي. وقيل: المعنى: أو يحكم الله لي بالسَّيف فأُحارِبَ وآخُذَ أخي، أو أعجَزَ فأنصرف بعُذرٍ، وذلك أنَّ يعقوب قال: ﴿لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ﴾ ومن حارب وعَجَز فقد أُحيط به. قال ابن عباس: وكان يهوذا إذا غضِبَ وأخَذَ السَّيف فلا يردُّ وجهَه مئة ألف، يقومُ شعرُه في صدره مثل المَسَالِّ فتنفُذُ من ثيابه.

وجاء في الخبر: أنَّ يهوذا قال لإخوته ـ وكان أشدَّهم غضباً ـ: إما أن تكفُوني الملِكَ ومَن معه، أكْفِكم أهلَ مصر، وإما أن تكفوني أهلَ مصر، أكفِكم الملِكَ ومَن معه، قالوا: بل اكفِنا الملكَ ومَن معه، نكفِكَ أهلَ مصر، فبعث واحداً مِن إخوته فعدُّوا أسواقَ مصر، فوجدوا فيها تسعةَ أسواقٍ، فأخَذَ كلٌّ واحدٍ منهم سوقاً، ثم إنَّ يَهوذا دخل على يوسفَ وقال: أيُّها الملك، لئن لم تُخَلِّ معنا أخانا لأصيحنَّ صيحةً لا تبقى في مدينتك حامل[٢] إلا أسقطتْ ما في بطنها؛ وكان ذلك خاصًّا[٣] فيهم عند الغضب؛ فأغضَبَه يوسفُ وأسمعَه كلمةً، فغضب يَهوذا واشتدَّ غضبُه، وانتفجَتْ شعراتُه؛ وكذا كان كلُّ واحدٍ من بني يعقوبَ؛ كان إذا غضب، اقشعرَّ جلدُه، وانتفَخَ جسدُه، وظهرت شعراتُ ظهرِه من تحت الثوب، حتى تقطُر من كلِّ شعرةٍ قطرةُ دمٍ؛ وإذا ضرب الأرضَ برجله، تزلزلت وتهدَّم البنيانُ، وإن صاح صيحةً، لم تسمعْه حاملٌ من النساء والبهائمِ والطير إلا وضعت ما في بطنها، تماماً أو غيرَ تمام، فلا يَهدأ غضبُه إلا أن يَسفك دماً، أو تُمسِكه يدٌ مِن نَسْل يعقوب؛ فلما عَلم يوسفُ أنَّ غَضَبَ أخيه يهوذا قد تمَّ وكَمُلَ، كَلَّم ولداً له صغيراً بالقبطيَّة، وأمَره أن يَضع يدَه بين كَتِفَي يهوذا مِن حيث لا يراه؛ ففعَل، فسكن غضبُه، وألقى السيفَ، فالتفتَ يميناً

---

(١) في (د) و(م): بالممر.

(٢) في (م): حاملاً.

(٣) في (م): خاصة.

وشمالاً لعله يَرى أحداً مِن إخوتِه، فلم يَرَهُ؛ فخرج مسرعاً إلى إخوتِه وقال: هل حضَرني منكم أحدٌ؟ قالوا: لا! قال: فأين ذَهب شمعون؟ قالوا: ذهب إلى الجبل، فخرج فلَقِيَه وقد احتمل صخرةً عظيمةً، قال: ما تَصنع بهذه؟ قال: أذهبُ إلى السوق الذي وقع في نَصيبي أَشدخ بها رؤوسَ كلِّ مَن فيه، قال: فارجِع فرُدَّها، أو ألقها في البحر، ولا تُحدثنَّ حَدَثاً، فوالذي اتخذَ إبراهيمَ خليلاً، لقد مَسَّني كَفٌّ مِن نَسْل يعقوبَ! ثم دخلوا على يوسفَ، وكان يوسفُ أشدَّهم بطشاً، فقال: يا معشرَ العِبْرانيين! أتظنون أنَّه ليس أحدٌ أشدَّ منكم قوَّة؟ ثم عَمد إلى حَجَرٍ عظيم مِن حجارة الطاحونة، فرَكَلة برِجْله، فَدَحا به مِن خَلْفِ الجدار - الرَّكْلُ: الضَّرْبُ بالرِّجْل الواحدة، وقد رَكَله يَرْكُله؛ قاله الجوهري[(١)] - ثم أمسكَ يَهوذا بإحدى يدَيْه، فصَرَعه لجنبه، وقال: هاتِ الحدَّادين[(٢)] أقطعُ أيديَهم وأرجلَهم، وأضْرِب أعناقَهم، ثم صعد على سريرِه، وجلس على فراشه، وأَمَرَ بصُواعِه، فوُضِعَ بين يدَيْه، ثم نَقَره نقرةً، فخرج طنينه، فالتفتَ إليهم وقال: أتردّونَ ما يقول؟ قالوا: لا! قال: فإنَّه يقول: إنه ليس على قلبِ أبي هؤلاء همٌّ ولا غَمٌّ ولا كَرْبٌ إلا بسببِهم، ثم نَقَر نقرةً ثانية وقال: إنَّه يخبرني أنَّ هؤلاء أخذوا أخاً لهم صغيراً، فحسدوه ونَزعوه مِن أبيهم، ثم أَتلفوه. فقالوا: أيُّها العزيز! استر علينا، ستَر اللهُ عليكَ، وامنُن علينا، منَّ اللهُ عليك، فنقَره نقرةً ثالثة وقال: إنَّه يقول: إنَّ هؤلاءِ طَرَحوا صغيرَهم في الجُبِّ، ثم باعوه بيعَ العبيدِ بثمن بَخْسٍ، وزعموا لأبيهم أنَّ الذئبَ أكَلَه، ثم نقَره رابعةً وقال: إنَّه يُخبِرني أنَّكم أذنبتُم ذَنْباً منذ ثمانينَ سنةً، لم تَستغفروا اللهَ منه، ولم تتوبوا إليه، ثم نقَره خامسةً وقال: إنَّه يقول: إنَّ أخاهم الذي زعموا أنَّه هَلَكَ لن تَذهبَ الأيَّامُ حتى يرجعَ فيخبرَ الناسَ بما صَنعوا، ثم نقَره سادسةً وقال: إنَّه يقول: لو كنتم أنبياءَ أو بني أنبياء، ما كذبتم، ولا عَقَقْتم والدَكم، لأجعلنَّكم نَكالاً للعالمين، ايتوني بالحدَّادين[(٣)] أقطع

(١) قوله: الركل الضرب، إلى هذا الموضع، ليس في (ظ)، وينظر الصحاح (ركل).

(٢) في (د): الجدادين، وفي (ظ): الجلادين.

(٣) في (ظ): بالجلادين.

أيديَهم وأرجلَهم، فتضرَّعوا وبَكَوْا، وأظهروا التوبةَ وقالوا: لو قد أصبنا أخانا يوسفَ إذ هو حيٌّ لنكوننَّ طوعَ يدِه، وتراباً يَطَأُ علينا برِجْله؛ فلما رأى ذلك يوسفُ مِن إخوته، بكى، وقال لهم: اخرجُوا عنِّي، قد خلَّيت سبيلَكم إكراماً لأبيكم، ولولا هو لجعلتُكم نكالاً[١].

قوله تعالى: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ﴾ قاله الذي قال: «فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ». ﴿فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ وقرأ ابنُ عباس والضَّحَّاك وأبو رزِين: «إِنَّ ابْنَكَ سُرِّقَ»[٢]. النحَّاس[٣]: وحدثني محمد بنُ أحمد بنِ عمر قال: حدَّثنا ابنُ شَاذَان، قال: حدَّثنا أحمدُ بنُ أبي سُرَيج البغداديُّ قال: سمعتُ الكسائيَّ يقرأ: «يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سُرِّق» بضمِّ السينِ وتشديدِ الرَّاء مكسورةً؛ على ما لم يُسمَّ فاعلُه؛ أي: نُسب إلى السرقةِ ورُمي بها، مثل خوَّنته وفسَّقته وفجَّرته: إذا نسبته إلى هذه الخِلال.

وقال الزجَّاج[٤]: «سُرِّقَ» يحتمل معنيين: أحدهما: عُلم منه السَّرَق، والآخر: اتُّهم بالسَّرَق. قال الجوهري[٥]: والسَّرِق والسَّرِقة ـ بكسر الراء فيهما ـ هو اسم الشيء المسروق، والمصدر: سَرَق يَسْرِق سَرَقاً، بالفتح.

---

(١) أخرجه بنحوه الطبري في التفسير ١٣/ ٢٧٧ - ٢٧٩ ، وفي تاريخه ١/ ٣٥٥ - ٣٥٦ ، وابن أبي حاتم في التفسير ٧/ ٢١٧٩ (١١٨٣٨)، عن السُّدِّي، وينظر تفسير أبي الليث ٢/ ١٧٢ ، وعرائس المجالس للثعلبي ص١٣٥ - ١٣٦ ، والنكت والعيون ٣/ ٦٥ - ٦٦ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤٤١ - ٤٤٢ ، وزاد المسير ٤/ ٢٦٤ - ٢٦٥ ، وجاء في المصادر أن الداخل على الملك هو روبيل، وليس يهوذا.

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٤٤٣ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٧٠ .

(٣) معاني القرآن ٤/ ٤٥٢ ، وإعراب القرآن ٢/ ٣٤١ .

(٤) في معاني القرآن ٣/ ١٢٥ .

(٥) في الصحاح (سرق).

قوله تعالى: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: «وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا» يريدون ما شهدنا قطُّ إلا بما عَلمنا، وأما الآن فقد شَهدنا بالظاهر وما نعلمُ الغيبَ؛ كأنَّهم وقعتْ لهم تُهمةٌ مِن قول بنيامين: دَسَّ هذا في رحلي مَن دَسَّ بضاعَتكم في رحالكم؛ قال معناه ابنُ إسحاق.

وقيل: المعنى: ما شَهدنا عند يوسفَ بأنَّ السارقَ يُسْتَرَقُّ إلا بما عَلمنا مِن دِيْنك؛ قاله ابنُ زيد[١].

﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ أي: لم نعلم وقتَ أخَذْناه منكَ أنه يَسْرِق، فلا نأخذه[٢]. وقال مجاهد وقتادة: ما كنَّا نَعلم أنَّ ابنكَ يُسترقُّ ويَصير أمرُنا إلى هذا، وإنَّما قلنا: نَحفظُ أخانا فيما نُطيق[٣]. وقال ابنُ عباس: يَعنون أنه سَرَق ليلاً وهم نيام. والغيبُ هو الليلُ بلغة حِمْيَر[٤]؛ وعنه: ما كنَّا نَعلم ما يَصنع في ليلِه ونهارِه وذهابِه وإيابِه[٥]. وقيل: ما دام بمرأى منَّا، لم يَجْرِ خَلَلٌ، فلما غاب عنَّا خَفيت عنَّا حالاته. وقيل معناه: قد أُخِذت السَّرِقةُ مِن رَحْله، ونحن أخرجناها وننظرُ إليها، ولا عِلْمَ لنا بالغيب، فلعلهم سَرَّقوه ولم يَسرِقْ.

الثانية: تضمَّنت هذه الآيةُ جوازَ الشهادة بأيِّ وجهٍ حصل العِلْمُ بها؛ فإنَّ الشهادةَ مرتبطةٌ بالعِلْم عقلاً وشرعاً، فلا تُسمع إلا ممَّن عَلِم، ولا تُقبَل إلا منهم[٦]، وهذا هو الأصلُ في الشهادات؛ ولهذا قال أصحابُنا: شهادةُ الأعمى جائزةٌ، وشهادةُ المستمِع جائزةٌ، وشهادةُ الأخرس ـ إذا فُهمت إشارتُه ـ جائزةٌ، وكذلك الشهادةُ على الخطّ

---

(١) ذكر خبر ابن زيد الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٦٨ ، وأخرجه بنحوه الطبري ١٤/ ٢٨٨ - ٢٨٩ .

(٢) ينظر الوسيط ٢/ ١٧٣ .

(٣) أخرجه عنهما الطبري في التفسير ١٤/ ٢٨٩ - ٢٩٠ .

(٤) تفسير الطبري ١٤/ ٢٩٠ .

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط ٢/ ٦٢٦ ، والبغوي ٢/ ٤٤٣ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٩٠ .

ـ إذا تيقَّن أنَّه خطُّه أو خطُّ فلانٍ ـ صحيحةٌ، فكلُّ مَن حصل له العِلْم بشيءٍ جاز أن يَشهد به وإن لم يُشهِده المشهودُ عليه؛ قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦] وقال رسول الله ﷺ: «ألَا أُخبركم بخيرِ الشهداء، خيرُ الشهداء الذي يأتي بشهادتِه قَبْلَ أن يُسْألها» وقد مضى في «البقرة»[(١)].

الثالثة: اختلف قولُ مالكٍ في شهادةِ المرور، وهو أن يقولَ: مررتُ بفلانٍ فسمعتُه يقول كذا، فإن استوعبَ القولَ شَهِدَ، في أحد قوليه، وفي القول الآخر: لا يَشهدُ حتى يُشهِداه. والصحيحُ أداءُ الشهادةِ عند الاستيعابِ، وبه قال جماعةُ العلماء، وهو الحقُّ؛ لأنَّه قد حصل المطلوبُ، وتعيَّن عليه أداءُ العِلْم؛ فكان خيرَ الشهداء إذا أَعلم المشهودَ له، وشَرَّ الشهداءِ إذا كَتَمها، والله أعلم[(٢)].

الرابعة: إذا ادّعى رجلٌ شهادةً لا يَحتملها عمره، ردَّت؛ لأنَّه ادَّعى باطلاً، فأكذبه العِيَان ظاهراً[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ﴾ حَقَّقوا بها شهادتَهم عنده، ورَفَعوا التُّهمةَ عن أنفسهم؛ لئلا يتَّهمهم. فقولهم: «وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ» أي: أهلَها؛ فحذف. ويريدون بالقرية مصر[(٤)]. وقيل: قريةٌ مِن قراها نزلوا بها وامتاروا منها. وقيل: المعنى: «وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ» وإن كانت جماداً، فأنت نبيُّ الله، وهو يُنطق الجماد لك، وعلى هذا فلا حاجةَ إلى إضمارٍ[(٥)]. قال سيبويه: ولا يَجوز كَلِّم هِنداً، وأنت

(١) ٤/ ٤٥٤ وما بعدها، وسلف تخريج الحديث هناك.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٩٠ .

(٣) المصدر السابق.

(٤) تفسير الطبري ١٤/ ٢٩١ وأخرجه عن قتادة وابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) ينظر النكت والعيون ٣/ ٦٨ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٧١ ، وزاد المسير ٤/ ٢٦٨ .

تريد غلامَ هندٍ؛ لأنَّ هذا يُشكل[١].

والقول في العِير كالقول في القرية سواء. ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ في قولنا.

الثانية: في هذه الآيةِ مِن الفقه أنَّ كلَّ مَن كان على حقٍّ وعَلِمَ أنَّه قد يُظنَّ به أنَّه على خلافِ ما هو عليه، أو يُتوهَّم، أن يرفعَ التُّهمةَ وكلَّ رِيْبة عن نفسه، ويُصرِّح بالحقِّ الذي هو عليه، حتى لا يبقى لأحدٍ مُتكلَّم. وقد فعل هذا نبيُّنا محمد ﷺ بقوله للرجلَيْن اللذين مرَّا، وهو قد خرج مع صفِيَّة يَقْلِبُها مِن المسجد: «على رِسْلِكُما إنَّما هي صفيَّة بنتُ حُيَيٍّ» فقالا: سبحانَ الله! وكَبُر عليهما، فقال النبي ﷺ: «إنَّ الشيطانَ يَبلغُ من الإنسان مَبْلَغَ الدَّمِ، وإنِّي خَشِيتُ أن يَقذِفَ في قلوبكما شيئاً» رواه البخاري ومسلم[٢].

قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ﴾ أي: زَيَّنَتْ ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾ أنَّ ابني سَرَق، وما سَرَق، وإنَّما ذلك لأمرٍ يريدُه الله. ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: فشأني صبرٌ جميلٌ، أو صبرٌ جميل أولى بي، على ما تقدَّم أوَّل السُّورة[٣].

الثانية: الواجبُ على كلِّ مسلم إذا أُصيب بمكروهٍ في نفسِه أو ولدِه أو مالِه أن يتلقَّى ذلك بالصبرِ الجميل، والرضا والتسليمِ لمُجْريه عليه وهو العليمُ الحكيم، ويَقتدِي بنبيِّ الله يعقوبَ وسائرِ النبيين، صلواتُ الله عليهم أجمعين.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤١.

(٢) صحيح البخاري (٢٠٣٥)، وصحيح مسلم (٢١٧٥) من حديث صفية رضي الله عنها. ويقلبها، أي: يصحبها إلى بيتها. النهاية (قلب).

(٣) عند الآية (١٨).

وقال سعيدُ بنُ أبي عَرُوبة، عن قَتَادة، عن الحسن قال: ما مِن جَرْعتين يتجرَّعهما العبدُ أحبُّ إلى الله مِن جَرْعةِ مُصيبةٍ يتجرَّعها العبدُ بحُسنِ صبرٍ وحُسْنِ عَزَاءٍ، وجَرْعةِ غيظٍ يتجرَّعها العبدُ بحِلْمٍ وعَفْوٍ[1].

وقال ابنُ جُريج عن مجاهد في قوله تعالى: «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ» أي: لا أشكو ذلك إلى أحدٍ.

وروى مقاتلُ بنُ سليمان، عن عطاء بن أبي رَبَاح، عن أبي هريرة، عن رسولِ الله ﷺ قال: «مَنْ بَثَّ، لم يَصْبِر»[2]. وقد تقدَّم في «البقرة»[3] أن الصَّبر عند أوَّل الصَّدمةِ، وثوابُ مَن ذَكَرَ مصيبته واستَرْجَعَ وإن تقادَم عهدُها.

وقال جُوَيبر، عن الضَّحَّاك، عن ابن عباس، قال: إنَّ يعقوبَ أُعطيَ على يوسفَ أَجْرَ مئةِ شهيدٍ[4]. وكذلك مَن احْتَسب مِن هذه الأمَّة في مصيبتِه، فله مثل أَجْرِ يعقوبَ عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ لأنَّه كان عنده أنَّ يوسفَ ﷺ لم يَمُتْ، وإنما غابَ عنه خبرُه؛ لأنَّ يوسفَ حُمِلَ وهو عبدٌ لا يَملكُ لنفسه شيئاً، ثم اشتراه الملكُ، فكان في دارِه لا يَظهر للناس، ثم حُبِسَ، فلما تمكَّن، احتال في أن يَعلم أبوه خبرَه؛ ولم يُوجِّه برسولٍ؛ لأنَّه كَرِهَ من إخوته أنْ يعرفوا ذلك، فلا يَدَعُوا الرسولَ يَصلُ إليه.

وقال: «بهم» لأنَّهم ثلاثةٌ؛ يوسفُ وأخوه، والمتخلِّف مِن أجلِ أخيهِ[5]، وهو

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٦٧٢)، وابن أبي شيبة ١٣/ ٢٥١ عن الحسن، عن النبي ﷺ مرسلاً.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٢٧ - ٣٢٨ ، والطبري في التفسير ١٣/ ٣١٣ من حديث مسلم بن يسار رفعه إلى النبي ﷺ. وهو مرسل.

(٣) ٢/ ١٧٤ وما بعدها.

(٤) لم نقف عليه من قول ابن عباس، وأخرجه الطبري في التفسير ١٣/ ٣٠٩ ، وابن أبي حاتم ٧/ ٢١٨٦ (١١٨٨٤) عن ليث بن أبي سليم.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٢ .

القائل: «فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ». ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالي. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فيما يقضي.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ أي: أعرض عنهم؛ وذلك أنَّ يعقوبَ لمَّا بلغه خبرُ بنيامين تَتَامَّ حزنُه، وبَلَغَ جهدَه، وجدَّد اللهُ مصيبتَه له في يوسف، فقال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ ونَسيَ ابنَه بنيامين فلم يَذكره؛ عن ابنِ عباس[١]. وقال سعيدُ بنُ جُبير: لم يكن عندَ يعقوبَ ما في كتابنا مِن الاسترجاع، ولو كان عنده لما قال: «يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ»[٢].

قال قَتَادةُ والحسنُ: والمعنى: يا حزناه[٣]!. وقال مجاهدٌ والضَّحَّاك: يا جَزَعاه[٤]!؛ قال كُثَيِّر:

فيا أَسفاً للقلبِ كيف انصرافُهُ ... وللنَّفسِ لمَّا سُلِّيَتْ فَتَسلَّتِ[٥]

والأَسَفُ: شدَّةُ الحُزن على ما فات. والنداء على معنى: تعالَ يا أَسَف فإنَّه من أوقاتِك[٦]. وقال الزجَّاج[٧]: الأصل: يا أسفِي؛ فأُبدل مِن الياء ألفٌ؛ لخفَّة الفتحة.

---

(١) الوسيط ٢/ ٦٢٧، وأخرجه الطبري ١٣/ ٢٩٣ عن ابن إسحاق.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ١٧٣، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣٢٧، والطبري ١٣/ ٢٩٥، بنحوه.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٢٧، والطبري ١٣/ ٢٩٤ عن قتادة، ولم نقف عليه من قول الحسن.

(٤) أخرجه عن مجاهد الطبري ١٣/ ٢٩٤. وأخرج قول الضحاك بلفظ: يا حَزَناه.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٦٩، وهو في الديوان ص٧٧ برواية:

فإن سأل الواشون فيم صَرَمْتَها ... فقل نفسُ حرٍّ سُلِّيتْ فتسلَّتِ

(٦) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٢٧٢، وتفسير الرازي ١٨/ ١٩٥.

(٧) في معاني القرآن ٣/ ١٢٥.

﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾ قيل: لم يُبصِر بهما ستَّ سنين، وأنَّه عَمِيَ؛ قاله مقاتل[١].

وقيل: قد تبيضُّ العينُ ويَبقى شيءٌ مِن الرؤية، والله أعلم بحالِ يعقوبَ، وإنما ابيضَّت عيناه مِن البكاء، ولكنَّ سببَ البكاءِ الحزنُ، فلهذا قال: «مِنَ الْحُزْنِ».

وقيل: إنَّ يعقوبَ كان يُصلِّي، ويوسف نائماً معترضاً بين يديه، فَغطَّ في نومه، فالتفتَ يعقوبُ إليه، ثم غَطَّ ثانيةً، فالتفتَ إليه، ثم غَطَّ ثالثة، فالتفتَ إليه، سروراً به وبغطيطه؛ فأوحى اللهُ تعالى إلى ملائكته: انظروا إلى صَفيِّي وابنِ خليلي، قائماً في مناجاتي، يلتفتُ إلى غيري، وعِزَّتي وجَلَالي! لأنزعنَّ الحدقتَيْن اللتين التفتَ بهما، ولأفرقنَّ بينه وبين مَن التفتَ إليه ثمانينَ سنةً؛ ليعلم العاملون أن مَن قام بين يديَّ يَجبُ عليه مراقبةُ نظري.

الثانية: هذا يدلُّ على أنَّ الالتفاتَ في الصلاة ـ وإن لم يُبطِل ـ يدلُّ على العقوبة عليها، والنقصِ فيها، وقد رَوى البخاريُّ[٢] عن عائشة قالت: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن الالتفاتِ في الصلاة فقال: «هو اختلاسٌ يختلسه الشيطان من صلاة العبد» وسيأتي ما للعلماء في هذا، في أوَّل سورةِ «المؤمنون» موعباً إن شاء الله تعالى.

الثالثة: قال النَّحاس[٣]: فإنْ سأل قومٌ عن معنى شدَّة حُزْنِ يعقوبَ ـ صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا ـ فللعلماء في هذا ثلاثة أجوبة:

منها: أنَّ يعقوبَ ﷺ لما عَلِمَ أنَّ يوسفَ ﷺ حيٌّ خاف على دِينه، فاشتدَّ حزنُه لذلك.

وقيل: إنَّما حَزِنَ؛ لأنَّه سلَّمه إليهم صغيراً، فنَدم على ذلك.

---

(١) الوسيط ٢/ ٦٢٧، وتفسير البغوي ٢/ ٤٤٤، وتفسير الرازي ١٨/ ١٩٥.

(٢) في صحيحه (٧٥١).

(٣) في إعراب القرآن ٢/ ٣٤٢.

والجواب الثالث ـ وهو أبْيَنُها ـ: هو أنَّ الحزنَ ليس بمحظورٍ، وإنَّما المحظورُ الوَلْولة وشَقُّ الثياب، والكلامُ بما لا ينبغي. وقال النبيُّ ﷺ: «تدمعُ العينُ، ويَحزنُ القلبُ، ولا نقولُ ما يُسخِط الرَّبَّ»[١]. وقد بيَّن اللهُ جلَّ وعزَّ ذلك بقوله: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: مكظومٌ، مملوءٌ مِن الحزن، ممسِك عليه لا يبُثُّه؛ ومنه كَظْمُ الغيظِ وهو إخفاؤه، فالمكظومُ: المسدودُ عليه طريقُ حزنِه؛ قال الله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم:٤٨] أي: مملوءٌ كَرْباً. ويجوز أن يكون المكظُوم بمعنى الكاظمِ، وهو المشتملُ على حزنِه.

وعن ابن عباس: كظيمٌ: مغمومٌ[٢]؛ قال الشاعر:

فإنْ أَكُ كاظِماً لِمُصَابِ شَاسٍ فإني اليومَ مُنطلقٌ لساني[٣]

وقال ابن جُريج، عن مجاهدٍ، عن ابن عباس قال: ذهبتْ عيناه مِن الحزنِ «فَهُوَ كَظِيمٌ» قال: فهو مكروبٌ[٤].

وقال مقاتلُ بنُ سليمان، عن عطاءٍ، عن ابن عباس، في قوله: «فَهُوَ كَظِيمٌ» قال: فهو كَمِدٌ[٥]؛ يقول: يَعلَم أنَّ يوسفَ حيٌّ، وأنَّه لا يَدري أين هو، فهو كَمِدٌ من ذلك. قال الجوهريُّ[٦]: الكَمَد: الحزنُ المكتومُ؛ تقول منه: كَمِد الرجلُ فهو كَمِدٌ وكَمِيدٌ. النحَّاس[٧]: يقال: فلانٌ كظِيمٌ وكاظِمٌ، أي: حزينٌ لا يَشكو حزنَه؛ قال الشاعر:

فَحَضَضْتُ قَوْمي واحتسبتُ قِتالَهُم والقومُ مِن خوفِ المَنَايا كُظَّم[٨]

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن ماجه (١٥٨٩) من حديث أسماء بنت يزيد، وهو عند البخاري (١٣٠٣) ومسلم (٢٣١٥) من حديث أنس بن مالك ﷺ بنحوه.
(٢) الوسيط ٢/ ٦٢٧ .
(٣) أورده الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٧٠ ولم ينسبه.
(٤) الوسيط ٢/ ٦٢٧ ، وأخرجه الطبري ١٣/ ٢٩٧ عن عطاء الخراساني.
(٥) أخرجه الطبري ١٣/ ٢٩٧ عن الضحاك، وكذا أورده الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٧٠ .
(٦) في الصحاح (كمد).
(٧) في معاني القرآن ٣/ ٤٥٣ .
(٨) أورده الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٧٠ ولم ينسبه.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أي: قال له ولدُه: «تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ» قال الكسائيُّ: فَتَأْتُ وفَتِئْتُ أفعل ذلك، أي: ما زلتُ. وزعم الفرَّاء أنَّ «لا» مضمرة؛ أي: لا تفتأ[١]، وأنشد:

فقلتُ يمينَ اللهِ أبرحُ قاعداً ولو قَطَّعُوا رأسِي لدَيكِ وأوصَالِي[٢]

أي: لا أبرحُ؛ قال النَّحاس: والذي قال، حسنٌ صحيحٌ. وزعم الخليلُ وسيبويه أنَّ «لا» تضمر في القسَم؛ لأنَّه ليس فيه إشكال، ولو كان واجباً لكان باللام والنون[٣].

وإنَّما قالوا له ذلك؛ لأنَّهم عَلموا باليقين أنَّه يُداوِم على ذلك؛ يقال: ما زال يفعلُ كذا، وما فَتِئَ وَفَتَأَ، فهما لغتان، ولا يُستعملان إلا مع الجَحْد[٤]؛ قال الشاعر:

فما فَتِئَتْ حتَّى كأنَّ غُبارَها سُرَادِقُ يومٍ ذي رياحٍ تُرفَّعُ[٥]

أي: ما برحتْ، فتفتأ: تَبرحُ. وقال ابنُ عباس: [لا] تزال[٦].

﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي: تالفاً. وقال ابن عباس ومجاهد: دَنِفاً مِن المرض، وهو ما دونَ الموت[٧]؛ قال الشاعر:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٢ - ٣٤٣.

(٢) قائله امرؤ القيس، وهو في ديوانه ص٣٢.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٣، وينظر الكتاب لسيبويه ٣/ ١٠٥.

(٤) الصحاح (فتأ).

(٥) قائله أوس بن حجر التميمي، وهو في ديوانه ص٥٩.

(٦) أخرجه الطبري ١٣/ ٢٢٩، وابن أبي حاتم ٧/ ٢١٨٧ (١١٨٩١)، وما بين حاصرتين منهما.

(٧) النكت والعيون ٣/ ٧٠.

سَرَى هَمِّي فأمرضَني وقِدْماً زادني مَرَضاً
كذاكَ الحبُّ قبلَ اليو مِ ممَّا يُورِث الحَرَضا[(١)]

وقال قَتَادة: هرِماً[(٢)]. الضَّحَّاك: بالِياً داثِراً[(٣)]. محمد بن إسحاق: فاسداً لا عَقْلَ لك[(٤)]. الفرَّاء[(٥)]: الحارضُ الفاسدُ الجسمِ والعقلِ، وكذا الحَرَض. ابنُ زيدٍ: الحَرَض الذي قد رُدَّ إلى أرذلِ العمر[(٦)]. الربيعُ بنُ أنس: يابس الجِلْد على العظم[(٧)]. المؤرِّج: ذائباً من الْهمِّ. وقال الأخفش: ذاهباً. ابن الأنباريِّ: هالكاً، وكلُّها متقاربةٌ.

وأصل الحَرَض: الفسادُ في الجسم أو العقلِ من الحزن أو العشقِ أو الهَرَم، عن أبي عُبيدة وغيرِه[(٨)]؛ وقال العَرْجِيُّ[(٩)]:

إنِّي امرُؤٌ لَجَّ بِي حُبٌّ فأحْرَضَنِي حتَّى بَلِيتُ وحتَّى شَفَّنِي السَّقَمُ

قال النحَّاس[(١٠)]: يقال: حَرَض حَرَضاً، وحَرُض حُرُوضاً وحُرُوضة: إذا بَلِيَ وسَقِمَ، ورجل حارِضٌ وحَرَضٌ، إلا أن حَرَضاً لا يثنَّى ولا يُجمَع، ومثله قَمِن وحَرِيٌّ لا يثنيان ولا يجمعان.

الثَّعلبيُّ: ومن العرب مَن يقول: حارِض، للمذكَّر، والمؤنثة: حارِضة، فإذا وصف بهذا اللفظ، ثَنَّى وجَمع وأنَّث. ويقال: حَرِض يَحرَض حَرَاضَةً، فهو حَرِيض

(١) لم نقف عليهما.
(٢) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٢٧، والطبري ١٣/ ٣٠٣.
(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٣٠٣.
(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٣٠٣ - ٣٠٤.
(٥) معاني القرآن ٢/ ٥٤.
(٦) أخرجه الطبري ١٣/ ٣٠٤.
(٧) تفسير أبي الليث ٢/ ١٧٤.
(٨) ذكره الطبري ١٣/ ٣٠١، والبغوي ٢/ ٤٤٤ دون نسبة.
(٩) ديوانه ص٥، والعَرْجي هو: عبد الله بن عمر بن عبد الله.
(١٠) إعراب القرآن ٢/ ٣٤٣.

وحَرِضٌ. ويقال: رجل مُحْرَض[١]، ويُنْشَد:

طَلَبَتْهُ الخيلُ يوماً كاملاً ولَوَ اَلْفَتْهُ لأَضحَى مُحْرَضا[٢]

وقال امرؤ القيس[٣]:

أرَى المرءَ ذا الأذْوَادِ يُصبِحُ مُحْرَضاً كإحْرَاضِ بِكْرٍ في الدِّيارِ مَرِيضِ

قال النحّاس[٤]: وحكى أهلُ اللغة: أحرضه الهمُّ: إذا أسقمه، ورجلٌ حارض، أي: أحمق.

وقرأ أنسٌ: «حُرْضاً» بضمِّ الحاء وسكون الراء، أي: مثل عُود الأُشْنان[٥]. وقرأ الحسن: بضمِّ الحاء والراء[٦]. قال الجوهريُّ[٧]: الحُرُض والحُرْض: الأُشْنَان.

﴿أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾ أي: الميِّتين، وهو قول الجميع[٨]؛ وغرضُهم مَنْعُ يعقوبَ من البكاء والحزن شفقةً عليه، وإن كانوا السببَ في ذلك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي﴾ حقيقةُ البَثّ في اللغة: ما يَرِدُ على الإنسانِ من الأشياء المهلكة التي لا يتهيَّأ له أن يُخفيها؛ وهو مِن بثثتُه، أي: فرَّقتُه، فسمِّيت المصيبةُ بَثًّا مجازاً[٩]. قال ذو الرُّمَّة[١٠]:

---

(١) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٥٤، وتفسير الطبري ١٣/ ٣٠١.

(٢) أورده الطبري ١٣/ ٣٠١ ولم ينسبه.

(٣) ديوانه ص٧٧.

(٤) في إعراب القرآن ٢/ ٣٤٣.

(٥) تفسير الرازي ١٨/ ١٩٧، والأشنان: شجر ينبت في الأرض الرملية، يستعمل هو أو رماده في غسل الثياب والأيدي. المعجم الوسيط.

(٦) القراءات الشاذة ص٦٥، والكشاف ٢/ ٣٣٩.

(٧) الصحاح (حرض).

(٨) النكت والعيون ٣/ ٧٠.

(٩) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٣.

(١٠) ديوانه ٢/ ٨٢١.

وَقَفْتُ على رَبْعٍ لِميَّةَ ناقَتي فما زِلْتُ أبْكي عِندَه وأُخاطِبُهْ
وأسْقِيه حتى كاد مما أبثُّهُ تُكَلِّمُني أحْجارُهُ ومَلَاعِبُهْ

وقال ابن عباس: «بَثّي» هَمّي[١]. الحسن: حاجتي[٢]. وقيل: أشدُّ الحزنِ[٣]، وحقيقته ما ذكرناه.

﴿وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ معطوفٌ عليه، أعادَه بغير لفظه.

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أعلم أنَّ رؤيا يوسفَ صادقةٌ، وأنّي سأسجد له. قاله ابنُ عباس[٤]. قتادة: إني أعلم من إحسانِ الله تعالى إليَّ ما يُوجِب حسن ظنّي به[٥]. وقيل: قال يعقوب لملَك الموت: هل قبضتَ رُوحَ يوسفَ؟ قال: لا، فأكّد هذا رجاءه[٦]. وقال السُّدّي: أعلِم أنَّ يوسف حيٌّ، وذلك أنَّه لما أخبره ولدُه بسيرة الملك وعَدْله وخُلُقه وقولِه، أحسَّت نَفْسُ يعقوبَ أنَّه ولدُه، فطمع وقال: لعلَّه يوسف. وقال: لا يكون في الأرض صِدِّيقٌ إلا نَبِيٌّ[٧]. وقيل: أعلم مِن إجابة دعاءِ المضطرين ما لا تَعلمون.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ هذا يدلُّ على أنَّه تيقَّن

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/٣٠٦ .
(٢) أخرجه الطبري ١٣/٣٠٦ ، وابن أبي حاتم ٧/٢١٨٩ (١١٩٠٣).
(٣) أورده أبو الليث ٢/ ١٧٤ وعزاه إلى القتبي، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٧٣ وعزاه إلى أبي عبيدة، وهو في مجاز القرآن ص٣١٧ .
(٤) أخرجه الطبري ١٣/٣٠٧ ، وابن أبي حاتم ٧/٢١٨٩ (١١٩٠٨).
(٥) أخرجه الطبري ١٣/٣٠٧ ، وابن أبي حاتم ٧/٢١٨٩ (١١٩٠٦).
(٦) تفسير أبي الليث ٢/ ١٧٤ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤٤٥ ، وزاد المسير ٤/ ٢٧٥ وعزاه ابن الجوزي إلى ابن السائب.
(٧) أخرجه الطبري ١٣/ ٣٠٧ .

حياتَه؛ إما بالرؤيا، وإما بإنطاقِ الله تعالى الذئبَ، كما في أوَّل القصَّة، وإما بإخبارِ مَلَكِ الموت إيَّاه بأنَّه لم يَقْبِض رُوحه؛ وهو أظهر.

والتَّحسُّس: طلبُ الشيء بالحواسِّ؛ فهو تفعُّل من الحِسِّ[١]، أي: اذهبوا إلى هذا الذي طَلب منكم أخاكم، واحتالَ عليكم في أَخْذِه، فاسألوا عنه وعن مذهبِه. ويُروى أنَّ مَلَكَ الموتِ قال له: اطْلُبه مِن هاهنا! وأشار إلى ناحيةِ مصر[٢].

وقيل: إنَّ يعقوبَ تنبَّه على يوسفَ بردِّ البضاعة، واحتباسِ أخيه، وإظهارِ الكرامة؛ فلذلك وجَّههم إلى جهةِ مصر دون غيرها[٣].

﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ﴾ أي: لا تقنطوا مِن فَرَج الله؛ قاله ابنُ زيد[٤]؛ يريد: أنَّ المؤمنَ يَرجو فَرَجَ الله، والكافر يَقنُط في الشِّدَّة. وقال قَتادةُ والضَّحَّاك: مِن رحمةِ الله[٥]. ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ القنوطَ مِن الكبائر، وهو اليأسُ، وسيأتي في «الزُّمَر»[٦] بيانُه إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ۝٨٨﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ﴾ أي: الممتنع. ﴿مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ هذه المرَّة الثالثة من عَوْدِهم إلى مصر؛ وفي الكلام حذفٌ، أي: فخرجوا إلى مصرَ، فلما دخلوا على يوسفَ قالوا: «مَسَّنَا» أي: أصابنا «وَأَهْلَنَا الضُّرُّ» أي: الجوعُ والحاجةُ. وفي هذا دليلٌ على جواز الشكوى عند الضُّرِّ، أي: الجوع، بل واجبٌ

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٣١٤، وتفسير البغوي ٢/ ٤٤٦.

(٢) تفسير الرازي ١٨/ ١٩٨.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٧٢.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٣١٥.

(٥) أخرجه عنهما الطبري ١٣/ ٣١٤ - ٣١٥.

(٦) عند الآية (٥٣).

عليه إذا خاف على نفسِه الضُّرَّ من الفقر وغيرِه أن يُبدِي حالتَه إلى مَن يرجو منه النفعَ، كما هو واجبٌ عليه أن يشكو ما به مِن الألم إلى الطبيب ليعالجَه، ولا يكون ذلك قَدْحاً في التوكُّل، وهذا ما لم يكن التشكِّي على سبيل التَّسخُّط؛ والصبرُ والتَّجلُّد في النّوائب أحسنُ، والتَّعفُّف عن المسألة أفضلُ، وأحسنُ الكلام في الشكوى سؤالُ المولى زوالَ البَلوى؛ وذلك قولُ يعقوبَ: «إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» أي: مِن جميل صُنعه، وغريبِ لُطْفه، وعائدته على عبادِه. فأمَّا الشكوى على غيرِ مُشْكٍ فهو السَّفَه، إلا أن يكون على وَجْهِ البثِّ والتَسلِّي، كما قال ابنُ دُرَيْد:

لَا تَحْسَبَنْ يا دهرُ أنِّي ضارعٌ ... لِنَكْبةٍ تَعْرِقُني عَرْقَ الْمُدَى
مَارَسْت مَنْ لَوْ هَوَتِ الأفلاكُ مِنْ ... جَوَانِبِ الجوِّ عليه ما شَكَا
لكنَّها نَفْثَةُ مَصْدورٍ إذا ... جَاشَ لُغَامٌ مِن نَوَاحِيها عمى[1]

قوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٖ﴾ البضاعةُ: القِطْعة من المال يُقصَد بها شراءُ شيء[2]؛ تقول: أَبضعتُ الشيءَ، واستبضعتُه، أي: جعلتُه بضاعةً، وفي المَثَل: كمستبضعِ التمرِ إلى هَجَر[3].

قوله تعالى: ﴿مُّزۡجَىٰةٖ﴾ صفةٌ لبضاعة؛ والإزجاءُ: السَّوْق بدَفع[4]؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا﴾ [النور:٤٣] والمعنى أنَّها بضاعةٌ تُدفَع؛ ولا يَقبلها كلُّ أحدٍ. قال ثعلب: البضاعةُ المزجاةُ: الناقصةُ غيرُ التَّامَّة.

---

(١) مقصورة ابن دريد ص ٣٩ - ٤٣ بشرح التبريزي، واللُّغام: ما يخرج من فم البعير. وعمى: رمى، يقال: عمى البعيرُ بلعابه: إذا رمى به، ووقع في (م): غما، وكذا في إحدى النسخ الخطية للمقصورة، كما ذكر ذلك محقق شرح المقصورة لابن هشام اللخمي ص٧٧ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٧٥ .

(٣) الصحاح (بضع)، والمثل في المستقصى في أمثال العرب للزمخشري ٢/ ٢٣٣ .

(٤) الوسيط ٢/ ٦٣٠ ، والنكت والعيون ٣/ ٧٢ .

اختلف في تعيينها هنا؛ فقيل: كانت قَدِيداً وحَيْساً؛ ذكره الواقديُّ عن عليِّ بنِ أبي طالب ﷺ.

وقيل: خَلَقُ الغَرَائر والحِبال؛ روي عن ابنِ عباس[(١)].

وقيل: متاعُ الأعراب صوفٌ وسمنٌ؛ قاله عبدُ الله بنُ الحارث[(٢)].

وقيل: الحبَّة الخضراء، والصَّنَوبر ـ وهو البُطْم: حبُّ شجرٍ بالشام، يُؤكَل ويُعصَر الزيتُ منه لعمل الصابون ـ قاله أبو صالح[(٣)]؛ فباعوها بدراهمَ لا تَنفُق في الطعام، وتَنْفُق فيما بين الناس؛ فقالوا: خُذها منا بحسابِ جيادٍ تَنفُق في الطعام.

وقيل: دراهم رديئة؛ قاله ابنُ عباس أيضاً[(٤)].

وقيل: ليس عليها صورةُ يوسفَ، وكانت دراهمُ مصرَ عليها صورةُ يوسف.

وقال الضَّحَّاك: النعالُ والأدَم. وعنه: كانت سوِيقاً منخلاً[(٥)]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآ﴾.

فيه أربعُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: «فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ» يريدون كما تبيعُ بالدراهمِ الجياد لا تَنْقُصْنا بمكان دراهمنا؛ هذا قولُ أكثرِ المفسرين.

وقال ابنُ جريج: «فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ» يريدون الكيلَ الذي كان قد كَالَه لأخيهم[(٦)]. «وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا» أي: تفضَّل علينا بما بين سِعْرِ الجِياد والرديئة. قاله سعيدُ بنُ جبير

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٣١٨ ، والغرائر: جمع الغِرارة: وهي وعاء من الخيش ونحوه يوضع فيه القمح ونحوه. المعجم الوسيط (غرر).

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٣١٩ ، وابن أبي حاتم (١١٩٢٠).

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٣٢٠ ، وابن أبي حاتم (١١٩٢١).

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٣١٧ - ٣١٨ ، وابن أبي حاتم (١١٩٢٢).

(٥) عرائس المجالس ص١٣٨ - ١٣٩ ، وزاد المسير ٤/ ٢٧٧ .

(٦) النكت والعيون ٣/ ٧٣ .

والسُّدِّيُّ والحسن، لأنَّ الصدقةَ تَحرُم على الأنبياء. وقيل المعنى: «تَصَدَّقْ عَلَيْنَا» بالزيادة على حقِّنا؛ قاله سفيانُ بنُ عُيَيْنة. قال مجاهد: ولم تَحرُم الصدقةُ إلا على نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ. وقال ابن جُريج: المعنى «تَصَدَّقْ عَلَيْنَا» بردِّ أخينا إلينا. وقال ابنُ شجرة: «تَصَدَّق عَلَيْنَا» تجوَّز عنا؛ واستشهد بقولِ الشاعر:

تَصَدَّقْ علينا يا ابنَ عَفَّان واحْتَسِبْ وأَمِّرْ علينا الأشعريَّ لَيَالِيَا[١]

﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ يعني في الآخرة؛ يقال: هذا مِن مَعَاريضِ الكلام؛ لأنَّه لم يكن عندهم أنَّه على دينهم، فلذلك لم يقولوا: إنَّ اللهَ يَجزِيك بصدقتِك، فقالوا لفظاً يُوهمه أنَّهم أرادوه، وهم يصحُّ لهم إخراجُه بالتأويل؛ قاله النقَّاش[٢]، وفي الحديث: «إن في المَعَاريض لمندوحةً عن الكذب»[٣].

الثانية: استدلَّ مالكٌ وغيرُه مِن العلماء على أنَّ أجرةَ الكيَّال على البائع[٤]؛ قال ابنُ القاسم وابنُ نافع: قال مالكٌ: قالوا ليوسف: «فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ» فكان يوسفُ هو الذي يَكيل، وكذلك الوزَّان والعدَّاد وغيرهم؛ لأنَّ الرجل إذا باع عِدَّة معلومةً من طعامه، وأوجبَ العقدَ عليه، وجب عليه أن يُبرِزها ويميِّز حقَّ المشتري مِن حقِّه، إلا أنْ يبيعَ منه مُعيَّناً - صُبْرةً أو ما لا حقَّ تَوفيةٍ فيه - فخلَّى ما بينه وبينه، فما جرى على المبيعِ فهو على المبتاع؛ وليس كذلك ما فيه حقُّ تَوفية مِن كيل أو وزن، ألا ترى أنَّه لا يَستحِق البائعُ الثمنَ إلا بعد التوفية، وإن تلف، فهو منه قبلَ التوفية[٥].

الثالثة: وأما أجرةُ النقد، فعلى البائع أيضاً؛ لأنَّ المبتاعَ الدافعَ لدراهمِه يقول:

---

(١) ذكر الشعر مع ما سبقه من أقوال الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٧٤ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/٢٧٦ .

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل ٣/ ٩٦٣ ، والبيهقي ١٠/ ١٩٩ عن عمران ابن حصين مرفوعاً، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٨٥٧)، والبيهقي ١٠/ ١٩٩ عن عمران بن حصين موقوفاً، قال البيهقي عقبه: هذا هو الصحيح الموقوف. وينظر كشف الخفاء ١/ ٢٧٠ - ٢٧١ .

(٤) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ١٧٧ وللكيا الهراسي ص٢٣٤ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٧٦ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٩٣ .

إنَّها طَيِّبة، فأنت الذي تدَّعي الرداءةَ، فانظر لنفسك[١]؛ وأيضاً فإنَّ النفعَ يقع له، فصار الأجْرُ عليه، وكذلك لا يجب على الذي يجب عليه القصاصُ؛ لأنَّه لا يجب عليه أن يقطعَ يَدَ نفسِه، إلا أن يُمكِّن من ذلك طائعاً؛ ألا ترى أنَّ فرضاً عليه أن يَفدي يدَه، ويُصالِح عليه إذا طَلَب المقتصُّ ذلك منه، فأجْرُ القَطَّاع على المقتصّ. وقال الشافعيُّ في المشهور عنه: إنَّها على المقتصِّ منه، كالبائع[٢].

الرابعة: يُكرَه للرجل أن يقول في دعائه: اللهمَّ تصدَّق عليَّ؛ لأنَّ الصدقةَ إنَّما تكون ممن يبتغي الثوابَ، والله تعالى متفضِّل بالثواب بجميعِ النِّعَم لا ربَّ غيرُه؛ وسمع الحسنُ رجلاً يقول: اللهمَّ تصدَّق عليَّ؛ فقال الحسن: يا هذا! إنَّ اللهَ لا يتصدَّق إنما يتصدَّق مَن يبتغي الثوابَ؛ أما سمعتَ قولَ الله تعالى: «إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ» قل: اللهمَّ أعطني وتفضَّلْ عليَّ[٣].

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ استفهامٌ بمعنى التذكير والتوبيخ[٤]، وهو الذي قال الله: «لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا» الآية. ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ دليل على أنَّهم كانوا صغاراً في وقت أَخْذِهم ليوسف، غيرَ أنبياء؛ لأنَّه لا يُوصف

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٩٣.

(٢) ينظر مغني المحتاج ٢/ ٣٣٧.

(٣) تفسير الرازي ١٨/ ٢٠٢. وذكر خبر الحسن أيضاً البغوي ٢/ ٤٤٦.

(٤) الوسيط ٢/ ٦٣٠.

بالجهل إلا مَن كانت هذه صفته؛ ويدلُّ على أنَّه حَسُنت حالُهم الآن؛ أي: فعلتم ذلك إذ أنتم صغارٌ جُهَّال؛ قال معناه ابنُ عباس والحسنُ[(١)]؛ ويكون قولهم: «وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ» على هذا؛ لأنَّهم كَبِروا ولم يُخبِروا أباهم بما فعلوا؛ حياءً وخوفاً منه. وقيل: جاهلون بما تؤولُ إليه العاقبةُ. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ﴾ لما دخلوا عليهِ فقالوا: «مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ» فخضعوا له وتَواضعوا، رقَّ لهم، وعرَّفهم بنفسه، فقال: «هِلْ عَلِمْتُم مَا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ» فتنبهوا فقالوا: «أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ» قاله ابنُ إسحاق[(٢)].

وقيل: إنَّ يوسفَ تبسَّم، فشبَّهوه بيوسفَ واستفهموا. قال ابنُ عباس: لما قال لهم: «هَلْ عَلِمْتُم مَا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ» الآية، ثم تبسَّم يوسف ـ وكان إذا تبسَّم كأنَّ ثناياه اللؤلؤَ المنظومَ ـ فشبَّهوه بيوسفَ، فقالوا له على جهةِ الاستفهام: «أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ». وعن ابنِ عباس أيضاً: أنَّ إخوتَه لم يَعرفوه حتى وضَع التاجَ عنه، وكان في قَرْنه علامةٌ، وكان ليعقوبَ مثلُها، شِبْه الشَّامَة، فلمَّا قال لهم: «هَلْ عَلِمْتُم مَا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ» رفَع التاجَ عنه، فعَرفوه، فقالوا: «أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ»[(٣)].

وقال ابنُ عباس: كتب يعقوبُ إليه يَطلُب ردَّ ابنِه، وفي الكتاب: مِن يعقوبَ صفيِّ اللهِ ابنِ إسحاق ذبيحِ اللهِ ابنِ إبراهيمَ خليلِ اللهِ إلى عزيزِ مصرَ ـ أمَّا بعد ـ: فإنَّا أهلُ بيتِ بلاءٍ ومِحَنٍ، ابتلى اللهُ جدِّي إبراهيمَ بنمرود ونارِه، ثم ابتلى أبي إسحاقَ بالذَّبح، ثم ابتلاني بولدٍ كان لي أحبَّ أولادي إليَّ حتى كُفَّ بصري مِن البكاء، وإنِّي لم أَسرق ولم ألِدْ سارقاً، والسلام. فلما قَرأ يوسفُ الكتابَ ارتعدت مفاصلُه، واقشعرَّ جِلْدُه، وأرخى عينيه بالبكاء، وعِيلَ صبرُه، فباح بالسِّرِّ[(٤)].

---

(١) ذكر الخبرين الواحدي في الوسيط ٢/ ٦٣٠ ، فقال: روي عن ابن عباس: إذ أنتم صبيان، وعن الحسن: شبان.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٧٤ .

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٤٤٧ .

(٤) ذكره البغوي ٢/ ٤٤٥ بنحوه عن عبد الله بن زيد بن أبي فروة، ولم نقف عليه عن ابن عباس .

وقرأ ابنُ كثير: «إِنَّكَ» على الخبر(١)، ويجوز أن تكون هذه القراءةُ استفهاماً كقوله: «وَتِلْكَ نِعْمَةٌ» [الشعراء: ٢٢].

﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ﴾ أي: أنا المظلومُ والمرادُ قَتْلُه، ولم يقل: أنا هو؛ تعظيماً للقصَّة(٢). ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ أي: بالنجاة والمُلْك.

﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ أي: يتَّقِ اللهَ ويَصبِر على المصائب وعن المعاصي. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: الصابرينَ في بلائِه، القائمينَ بطاعتِه.

وقرأ ابنُ كثير: «إِنَّه مَنْ يَتَّقِي» بإثباتِ الياء(٣)، والقراءةُ بها جائزةٌ على أَنْ تجعلَ «مَنْ» بمعنى الذي، وتدخل «يَتَّقِي» في الصِّلَة، فتُثبت الياءَ لا غير، وتَرفع «ويصبر». وقد يجوز أن تَجزِم «ويصبر»، على أن تَجعلَ «يتقي» في موضعِ جزم، و«مَن» للشرط، وتُثبت الياءَ، وتَجعل علامةَ الجَزْم حذفَ الضَّمَّة التي كانت في الياء على الأصل(٤)، كما قال:

ثـم نـادِي إذا دَخـلـتَ دِمَـشْـقـاً ... يـا يـزيـدُ بـنَ خـالـدِ بـنِ يـزيـدِ(٥)

وقال آخر:

ألـم يـأتـيـكَ والأنـبـاءُ تَـنْـمِـي ... بـمـا لَاقَـتْ لَـبُـونُ بـنِـي زيـادِ(٦)

وقراءةُ الجماعة ظاهرةٌ، والهاء في «إِنَّهُ» كنايةٌ عن الحديث، والجملة الخبر.

---

(١) السبعة ص٣٥١، والتيسير ص١٣٠.

(٢) أي: تعظيماً لما وقع به من ظلم إخوته. الوسيط ٢/ ٦٣١، ونسب هذا القول إلى ابن الأنباري.

(٣) السبعة ص٣٥١، والتيسير ص١٣١.

(٤) ينظر الحجة لأبي علي الفارسي ٤/ ٤٤٨، وحجة القراءات لابن زنجلة ص٣٦٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٧٧.

(٥) نسب قريش للزبيري ص١٣٠، ونسبه إلى موسى شهوات.

(٦) القائل قيس بن زهير، كما في النوادر في اللغة لأبي زيد ص٢٠٣، والأغاني ١٧/ ١٩٨، وهو في الكتاب ٣/ ٣١٦، والمحتسب ١/ ٦٧ دون نسبة، ووقع في الأغاني: ألم يبلغك.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ الأصل همزتان، خُفِّفت الثانيةُ، ولا يجوز تحقيقُها، واسمُ الفاعل: مُؤْثِر، والمصدر: إِيثار. ويقال: أَثَرْتُ الترابَ إثارةً، فأنا مُثِير؛ وهو أيضاً على أَفْعَل، ثم أُعِلَّ، والأصلُ أَثْيَر، نُقلت حركةُ الياء على الثاء، فانقلبت الياءُ ألفاً، ثم حُذفت لالتقاءِ الساكنين. وأَثَرْتُ الحديثَ على فَعَلْتُ، فأنا آثِرٌ[١]. والمعنى: لقد فضَّلك اللهُ علينا، واختاركَ بالعِلْم والحِلْم والحُكم والعقل والمِلك.

﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ أي مذنبينَ، مِن خَطِئ يَخْطَأ: إذا أتى الخطيئةَ[٢]، وفي ضمن هذا سؤالُ العَفْو. وقيل لابنِ عباس: كيف قالوا: «وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ» وقد تعمَّدوا لذلك؟ قال: وإن تعمَّدوا لذلك، فما تعمَّدوا حتى أَخطؤوا الحقَّ، وكذلك كلُّ مَن أتى ذنباً تَخطَّى المنهاجَ الذي عليه مِن الحقِّ، حتى يقعَ في الشبهة والمعصية.

قوله تعالى: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: قال يوسف ـ وكان حليماً موفَّقاً ـ: «لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ» وتمَّ الكلامُ. ومعنى «اليوم»: الوقت. والتثريب: التَّعيير والتوبيخ، أي: لا تعييرَ ولا توبيخَ ولا لَوْمَ عليكم اليوم؛ قاله سفيان الثوريُّ وغيرُه[٣]؛ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «إذا زنت أَمَةُ أحدِكم، فليجلِدها الحدَّ، لا يُثرِّب عليها»[٤] أي: لا يعيِّرها، وقال بشر[٥]:

فعَفَوتُ عنهم عَفْوَ غيرِ مُثَرِّبٍ وتركتهم لعقابِ يومٍ سَرْمَدِ

وقال الأَصمعيُّ: ثَرَّبْتُ عليه وعَرَّبْتُ عليه بمعنًى، إذا قَبَّحتَ عليه فِعْلَه[٦]. وقال

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٤.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٤.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٣٣٠.

(٤) سلف ٢/ ٤٨٩.

(٥) هو بشر بن أبي خازم، والبيت في لسان العرب (ثرب)، وقيل: هو لتُبَّع.

(٦) الصحاح (ثرب).

الزجَّاج: المعنى: لا إفسادَ لما بيني وبينكم مِن الحرمة، وحقِّ الأُخوَّة، ولكم عندي العفو والصفحُ؛ وأصلُ التثريبِ: الإفسادُ، وهي لغةُ أهلِ الحجاز[١].

وعن ابنِ عباس أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أَخَذَ بعُضادَتَي الباب يومَ فَتْحِ مكَّة، وقد لَاذَ الناسُ بالبيت فقال: «الحمد لله الذي صَدَقَ وَعْدَه، ونصرَ عبدَه، وهزم الأحزابَ وَحْدَه» ثم قال: «ماذا تَظنُّون يا معشرَ قريش؟» قالوا: خيراً، أَخٌ كريمٌ، وابنُ أخٍ كريمٍ، وقد قَدَرتَ. قال: «وأنا أقول كما قال أخي يوسفُ: «لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ» فقال عمرُ ﷺ: ففِضْتُ عَرَقاً مِن الحياء مِن قولِ رسولِ الله ﷺ؛ ذلك أنِّي قد كنتُ قلتُ لهم حين دخلنا مكَّة: اليومَ ننتقمُ منكم ونفعلُ، فلما قال رسولُ الله ﷺ ما قال استحييتُ مِن قولي[٢].

﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ فعلٌ[٣] مستقبلٌ فيه معنى الدُّعاء[٤]؛ سأل اللهَ أن يسترَ عليهم ويرحمَهم.

وأجاز الأخفشُ[٥] الوقْفَ على «عَلَيْكُمُ»، والأوَّل هو المستعمل؛ فإنَّ في الوقف على «عليكم» والابتداء بـ «الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ» جَزْمٌ بالمغفرة في اليوم، وذلك لا يكون إلا عن وَحْي، وهذا بَيِّنٌ.

وقال عطاء الخراسانيُّ: طَلَبُ الحوائج مِن الشباب أسهلُ منه مِن الشيوخ؛ ألم تَرَ قولَ يوسف: «لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ» وقال يعقوب: «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي»[٦].

---

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٢٨ ، وتفسير أبي الليث ٢/ ١٧٥ .

(٢) نوادر الأصول ص٩٣ ، وأخرجه بنحوه البيهقي في الدلائل ٥/ ٥٨ ، وفي السنن الكبرى ٩/ ١١٨ من حديث أبي هريرة ﷺ، دون قول عمر ﷺ.

(٣) ليست في (م).

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٤ .

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٥٩٣ .

(٦) عرائس المجالس ص١٤١ ، وتفسير الرازي ١٨/ ٢٠٥ .

قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾ نعتٌ للقميص، والقميص مذكَّر، فأما قول الشاعر:

تَدْعو هَوَازِنُ والقَميصُ مُفَاضَةٌ ... فوق النِّطاقِ تُشَدُّ بالأزرارِ[١]

فتقديره: والقميص دِرْعٌ مُفاضةٌ. قاله النحّاس[٢].

وقال ابنُ السُّدِّي، عن أبيه، عن مجاهد: قال لهم يوسف: «اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً» قال: كان يوسفُ أعلمَ بالله مِن أنْ يُعلم أن قميصَه يَرُدُّ على يعقوبَ بصرَه، ولكنَّ ذلك قميصُ إبراهيم الذي ألبسه اللهُ في النار مِن حرير الجنة، وكان كساه إسحاقَ، وكان إسحاق كساه يعقوبَ، وكان يعقوبُ أدرج ذلك القميصَ في قَصَبة مِن فضَّة، وعلَّقه في عُنُقِ يوسف، لِمَا كان يخافُ عليه مِن العين، وأخبره جبريلُ بأنْ أرسل قميصَك، فإنَّ فيه ريحَ الجنَّة، وإن ريحَ الجنَّة لا يقع على سقيم ولا مُبتلًى إلا عُوفيَ[٣].

وقال الحسن: لولا أنَّ اللهَ تعالى أعلم يوسفَ بذلك، لم يَعلم أنَّه يَرجعُ إليه بصرُه. وكان الذي حمل قميصَه يهوذا، قال ليوسف: أنا الذي حملتُ إليه قميصَك بدمٍ كَذِبٍ فأحزنته، وأنا الذي أحمله الآن لأسرَّه، وليعودَ إليه بصرُه، فحمَله؛ حكاه السُّدِّيُّ[٤].

﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لتتخذوا مصرَ داراً. قال مسروق: فكانوا ثلاثةً وتسعينَ، ما بين رجلٍ وامرأةٍ[٥]. وقد قيل: إنَّ القميصَ الذي بعثه هو القميصُ الذي

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٤، والبيت لجرير، وهو في شرح ديوانه ٢/ ٨٩٧ بلفظ:

تدعو ربيعةُ والقميص مفاضة ... تحت النجاد تشدُّ بالأزرار

وهو في لسان العرب (قمص) بنحوه.

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٣٤٤.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٤٤٨.

(٤) عرائس المجالس ص١٤٠، والنكت والعيون ٣/ ٧٦.

(٥) الوسيط ٢/ ٦٣٢، والنكت والعيون ٣/ ٧٦، وتفسير الرازي ١٨/ ٢٠٧.

قُدَّ مِن دُبُرِه[١]؛ ليعلمَ يعقوبُ أنه عُصِمَ من الزنى؛ والقول الأوَّل أصحُّ، وقد روي مرفوعاً مِن حديث أنسٍ عن النبيِّ ﷺ؛ ذكره القُشَيريُّ، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ أي: خرجت منطلقةً مِن مصرَ إلى الشام[٢]، يقال: فَصَلَ فُصُولاً، وفَصَلْته فَصْلاً، فهو لازمٍ ومتعدٍّ[٣]. ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ أي: قال لمن حضَر مِن قرابته ممَّن لم يَخرج إلى مصرَ وهم ولدُ ولدِه[٤]: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾. وقد يَحتمِل أن يكون خرج بعضُ بَنِيْه، فقال لمن بقيَ: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾[٥]. قال ابنُ عباس: هاجتْ ريحٌ فحمَلت ريحَ قميصِ يوسفَ إليه، وبينهما مسيرةُ ثمانِ ليالٍ[٦]. وقال الحسنُ: مسيرة عَشْر ليالٍ[٧]؛ وعنه أيضاً: مَسيرة شَهر[٨]. وقال مالكُ بنُ أنسٍ ﷺ: إنَّما أَوصل ريحَه من أوصل عَرْشَ بِلقيس قَبْلَ

(١) ينظر النكت والعيون ٣/ ٧٦ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٧٦ .

(٣) تفسير الرازي ١٨/ ٢٠٧ .

(٤) الوسيط للواحدي ٢/ ٦٣٢ .

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٢٧٩ .

(٦) أخرجه الطبري في التفسير ١٣/ ٣٣٣ ، وفي تاريخه ١/ ٣٦٠ ، وابن أبي حاتم (١١٩٦١).

(٧) أخرجه الطبري في التفسير ١٣/ ٣٣٣ ، وفي تاريخه ١/ ٣٦٠ .

(٨) المحرر الوجيز ٣/ ٢٧٩ .

أن يرتدَّ إلى سليمانَ عليه السلام طَرْفُه[١]. وقال مجاهدٌ: هبَّت ريحٌ فصَفَقَت القميصَ، فراحت روائحُ الجنة في الدنيا واتَّصلت بيعقوبَ، فوجدَ ريحَ الجنَّة، فعلم أنَّه ليس في الدنيا من ريح الجنَّة إلا ما كان مِن ذلك القميص، فعند ذلك قال: «إِنِّي لَأَجِدُ»[٢] أي: أَشَمُّ؛ فهو وجود بحاسَّة الشَّمِّ[٣].

﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ قال ابنُ عباس ومجاهد: لولا أن تُسفِّهون[٤]؛ ومنه قول النابغة[٥]:

إلَّا سُليمانَ إذ قال المليكُ لَهُ ... قُمْ في البريَّة فاحْدُدْها عنِ الفَنَدِ

أي: عن السَّفَه.

وقال سعيد بنُ جُبير والضَّحَّاك: لولا أن تكذِّبون[٦]. والفَنَد: الكذب. وقد أَفْنَد إِفْناداً: كَذَب[٧]؛ ومنه قولُ الشاعر:

هل في افتخار الكريم مِن أَوَدِ ... أَمْ هل لقول الصَّدُوقِ من فَنَدِ[٨]

أي: مِن كذب.

وقيل: لولا أن تُقبِّحون؛ قاله أبو عمرو؛ والتَّفنيدُ: التقبيح، قال الشاعر:

يا صاحبيَّ دعا لومِي وتَفْنِيدِي ... فليس ما فاتَ مِن أمرِي بمردودِ[٩]

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) عرائس المجالس ص١٤٠ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤٤٨ .

(٣) تفسير الرازي ١٨/ ٢٠٨ .

(٤) أخرجه عن ابن عباس عبد الرزاق ١/ ٣٢٩ ، والطبري في التفسير ١٣/ ٣٣٨ ، وعن مجاهد الطبري في التفسير ١٣/ ٣٣٧ .

(٥) ديوانه ص٣٣ .

(٦) أخرجه عنهما الطبري في التفسير ١٣/ ٣٣٩ - ٣٤٠ .

(٧) الصحاح (فند).

(٨) هكذا أورده الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٧٧ ولم ينسبه.

(٩) البيت لبشار بن برد، وهو في ديوانه ١/ ٥٤٣ ، ونسبه في مجاز القرآن لأبي عبيدة ص١/ ٣١٨ إلى =

وقال ابنُ الأعرابي: «لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ» لولا أن تُضعِّفوا رَأْيي؛ وقاله ابنُ إسحاق. والفَنَد: ضَعْفُ الرأي من كِبرٍ[1].

وقولٌ رابع: تُضلِّلون، قاله أبو عبيدة[2].

وقال الأخفشُ: تَلومونني. والتفنيدُ: اللَّوم وتَضعيف الرأي[3].

وقال الحسن وقَتَادة ومجاهد أيضاً: تُهرِّمون[4]، وكلُّه متقاربُ المعنى، وهو راجعٌ إلى التعجيز وتضعيفِ الرأي.

يقال: فَنَّده تفنيداً: إذا أعجزه، كما قال:

أهلكني باللوم والتفنِيد[5]

ويقال: أَفند: إذا تكلم بالخطأ؛ والفَنَد: الخطأُ في الكلام والرأي، كما قال النابغة:

فاحدُدْها عن الفَنَدِ[6]

أي: امنعها عن الفساد في العقل، ومن ذلك قيل: اللومُ تفنيدٌ؛ قال الشاعر:

يا عاذليَّ دَعَا المَلَامَ وأَقْصِرَا طالَ الهَوَى وأطلتما التَّفْنِيدا[7]

= هانئ بن شكيم العدوي، وأورده الطبري في التفسير ١٣/ ٣٣٦، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ٧٧ ولم ينسباه.

(١) ينظر تهذيب اللغة ١٤/ ١٣٨، والنكت والعيون ٣/ ٧٧.

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٤٤٨، وجاء في مجاز القرآن ص١/ ٣١٨: تسفِّهوني، وتُعجِّزوني، وتلومونني.

(٣) الصحاح (فند).

(٤) أخرجه عنهم الطبري في التفسير ١٣/ ٣٤٠ - ٣٤١، وعن مجاهد ابن أبي حاتم (١١٩٦٨).

(٥) رجز لذي الرمة، وهو في ديوانه ١/ ٣٣٣، وبعده:

هل بيننا للوصل من مردود

(٦) سلف قريباً، وينظر جمهرة اللغة لابن دريد ٢/ ٢٩٠، ومعجم متن اللغة ٤/ ٤٥٣ - ٤٥٤.

(٧) قائله جرير، وهو في ديوانه ١/ ٣٣٧، والكلام السابق من معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٣، وينظر تفسير الطبري ١٣/ ٣٤١، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٧٩.

ويقال: أَفْنَد فلاناً الدهرُ: إذا أفسدَه؛ ومنه قولُ ابنِ مُقْبِل:

دَعِ الـدَّهْـرَ يَـفْـعَـلْ مـا أرادَ فـإنَّـهُ ... إذا كُـلِّـفَ الإفـنـادَ بـالـنـاسِ أَفْـنَـدَا[١]

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ أي: لفي ذهاب عن طريقِ الصواب. وقال ابنُ عباس وابنُ زيد: لفي خَطَئِك الماضي مِن حبِّ يوسفَ لا تنساه[٢]. وقال سعيد بن جُبير: لفي جنونِك القديم. قال الحسن: وهذا عقوقٌ[٣]. وقال قَتَادة وسفيان: لفي محبَّتك القديمة[٤]. وقيل: إنَّما قالوا هذا؛ لأنَّ يوسفَ عندهم كان قد مات[٥]. وقيل: إن الذي قال له ذلك مَن بقيَ معه مِن ولده، ولم يكن عندهم الخبر[٦]. وقيل: قال له ذلك مَن كان معه مِن أهله وقرابتِه. وقيل: بنو بَنِيْه، وكانوا صغاراً[٧] فالله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي: على عينيه. ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ «أنْ» زائدة[٨]، والبشير، قيل: هو شمعون[٩]. وقيل: يَهوذا قال: أنا أذهبُ بالقميص اليومَ كما ذهبت به مُلَطَّخاً بالدَّم؛ قاله ابنُ عباس[١٠]. وعن السُّدِّي أنَّه قال

---

(١) ديوان ابن مقبل ص٦٠، والبيت فيه هكذا:

دَعَـا الـدهـر يـفـعـل مـا أراد فـإنـه ... إذا كُـلِّـفَ الإفـسـاد بـالـنـاس أفـسـدا

والكلام السابق في تفسير الطبري ١٣/ ٣٣٦.

(٢) أخرجه عنهما الطبري في التفسير ١٣/ ٣٤٢ - ٣٤٣، وأخرجه عن ابن عباس ابن أبي حاتم في التفسير ٧/ ٢١٩٨ (١١٩٧٠).

(٣) أخرجه عنهما ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٩٨ (١١٩٧١) و(١١٩٧٢).

(٤) أخرجه عنهما الطبري في التفسير ١٣/ ٣٤٢، وأخرجه عن قتادة ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٩٨ - ٢١٩٩ (١١٩٧٣)، والكلام السابق من النكت والعيون ٣/ ٧٨.

(٥) الوسيط للواحدي ٢/ ٦٣٣، وعزاه إلى الحسن، وينظر تفسير البغوي ٢/ ٤٤٨.

(٦) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ١٧٦.

(٧) النكت والعيون ٣/ ٧٨.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٥.

(٩) النكت والعيون ٣/ ٧٨، وزاد المسير ٤/ ٢٨٦ ونسباه إلى الضحاك.

(١٠) تفسير البغوي ٢/ ٤٤٩، وزاد المسير ٤/ ٢٨٦.

لإخوتِه: قد عَلمتم أنِّي ذهبت إليه بقميصِ التَّرْحة، فدعوني أذهب إليه بقميصِ الفَرْحة[١]. وقال يحيى بنُ يمان عن سفيان: لما جاء البشيرُ إلى يعقوبَ قال له: على أيِّ دِينٍ تركتَ يوسفَ؟ قال: على الإسلام؛ قال: الآن تمَّت النعمةُ[٢]. وقال الحسن: لما ورد البشيرُ على يعقوبَ لم يجد عنده شيئاً يُثِيْبه به؛ فقال: واللهِ ما أصبتُ عندنا شيئاً، وما خبزنا شيئاً منذ سَبْع ليالٍ، ولكن هوَّن اللهُ عليك سكراتِ الموت[٣].

قلت: وهذا الدعاءُ مِن أعظم ما يكون مِن الجوائز، وأفضل العطايا والذخائر. ودلَّت هذه الآيةُ على جواز البذل والهِبات عند البشائر. وفي الباب حديثُ كعب بنِ مالك ـ الطويل ـ وفيه: فلما جاءني الذي سمعت صوتَه يبشِّرني، نزعت ثوبيَّ فكسوتُهما إيَّاه ببشارته، وذكر الحديث، وقد تقدَّم بكماله في قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا[٤]، وكسوةُ كعبٍ ثوبَيْه للبشير مع كونه ليس له غيرهما دليلٌ على جواز مثلِ ذلك إذا ارتجى حصولَ ما يستبشر به، وهو دليل على جواز إظهارِ الفرح بعد زوال الغمِّ والتَّرَح. ومن هذا الباب جواز حذَاقة الصبيانِ[٥]، وإطعامِ الطعامِ فيها، وقد نَحَرَ عمرُ بعد حفظه سورةَ «البقرة» جَزُوراً[٦]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذَكَّرهم قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٠ ، وأخرجه عنه الطبري في التفسير ١٣/ ٣٤٥ ، وابن أبي حاتم ٧/ ٢١٩٦ (١١٩٥٥).

(٢) أخرجه الواحدي في الوسيط ٢/ ٦٣٤ .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ٧/ ٢١٩٩ (١١٩٧٩) عن لقمان الحنفي.

(٤) ١٠/ ٤١٣ .

(٥) في النسخ الخطية: حذاق الصبيان، والمثبت من (م). وحَذَق الصبيُّ القرآنَ والعملَ، يَحْذِق حَذْقاً وحَذَاقة وحِذاقاً: إذا مَهَرَ فيه. ويقال لليوم الذي يختم فيه القرآن: هذا يوم حِذاقه. الصحاح (حذق)، ونقل ابن حجر في فتح الباري ٩/ ٢٤١ عن ابن الصباغ في كتابه «الشامل» قوله: الحِذاق: الطعام الذي يتخذ عند حذق الصبي، وعن ابن الرفعة: هو الذي يصنع عند الختم، أي: ختم القرآن. اهـ

(٦) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٣٣١ ، ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٤٤/ ٢٨٦ .

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ﴾ في الكلام حذفٌ، التقدير: فلما رَجَعوا مِن مصرَ قالوا: يا أبانا؛ وهذا يدلُّ على أنَّ الذي قال له: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ بَنُو بَنِيْه أو غيرُهم مِن قرابتِه وأهلِه لا ولدُه؛ فإنَّهم كانوا غُيَّباً، وكان يكون ذلك زيادةً في العقوقِ. والله أعلم.

وإنَّما سألوه المغفرةَ؛ لأنَّهم أَدخلوا عليه من أَلَم الحُزن ما لم يَسقط المأثمُ عنه إلا بإحلالِه(١).

قلت: وهذا الحكم ثابتٌ فيمن آذى مسلماً في نفسِه أو مالِه أو غيرِ ذلك، ظالماً له فإنَّه يَجب عليه أن يَتَحلَّل له، ويُخبِره بالمَظْلِمة وقَدْرِها، وهل ينفعه التَّحليلُ المطلَق أم لا؟ فيه خلافٌ، والصحيحُ أنَّه لا يَنفع؛ فإنَّه لو أَخبره بمظلِمةٍ لها قَدْرٌ وبَالٌ ربَّما لم تَطِبْ نفسُ المظلوم في التَّحلُّل منها. والله أعلم.

وفي «صحيح البخاريِّ» وغيرِه عن أبي هُريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن كانت له مَظْلِمَةٌ لأخيه مِن عِرْضِه أو شيءٍ، فَلْيَتحلَّلْهُ منه اليوم قَبْلَ أَلَّا يكونَ دينارٌ ولا دِرْهمٌ، إن كان له عملٌ صالحٌ أُخِذَ منه بقَدْر مَظلِمته، وإن لم يكن له حسناتٌ، أُخِذَ مِن سيئات صاحبِه فحُمِل عليه»(٢) قال المهلَّب فقوله ﷺ: «أُخذ منه بقَدْر مَظْلِمته» يجب أن تكون المظلمةُ معلومةَ القَدْر، مشاراً إليها مبيَّنة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾ قال ابنُ عباس: أَخَّرَ دعاءَه إلى السَّحر(٣). وقال المُثنَّى بنُ الصَّبَّاح عن طاوس قال: سَحَر ليلةِ الجمعةِ، ووافَق ذلك ليلةَ عاشوراء(٤). وفي دعاء الحِفظِ ـ من كتاب الترمذيِّ ـ عن ابنِ عباس أنَّه قال: بينما نحن عند رسولِ الله ﷺ إذ جاءه عليُّ بنُ أبي طالب ﷺ فقال: بأبي أنت وأمِّي،

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٧٩.

(٢) صحيح البخاري (٢٤٤٩)، وأخرجه أيضاً الترمذي (٢٤١٩) بنحوه.

(٣) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٥٥، والوسيط للواحدي ٢/ ٦٣٤، وزاد المسير ٤/ ٢٨٧.

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٤٤٩، وزاد المسير ٤/ ٢٨٧، وينظر عرائس المجالس للثعلبي ص١٤١.

تَفَلَّتَ هذا القرآنُ مِن صدرِي، فما أَجِدُني أَقدِرُ عليه، فقال له رسولُ الله ﷺ: «أفلا أُعلِّمك كلماتٍ يَنفعُكَ اللهُ بهنَّ، ويَنفعْ بهنَّ مَن عَلَّمته، ويُثَبِّتْ ما تَعلَّمتَ في صدرك» قال: أجل يا رسولَ الله، فَعَلِّمني، قال: «إذا كان ليلةُ الجمعة، فإنِ استطعتَ أن تقومَ في ثلث الليلِ الآخِرِ فإنَّها ساعةٌ مشهودةٌ، والدعاءُ فيها مستجابٌ، وقد قال أخي يعقوب لبَنِيْه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ يقول: حتى تأتي ليلةُ الجمعة»(١) وذكر الحديث.

وقال أيوبُ بنُ أبي تَمِيمةَ السَّخْتِيَاني، عن سعيدِ بنِ جُبير، قال: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ في الليالِي البيض، في الثالثة عَشْرة، والرابعة عَشْرة، والخامسة عَشْرة، فإنَّ الدعاءَ فيها مستجابٌ(٢). وعن عامر الشَّعبيِّ قال: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ أي: أسألُ يوسفَ إن عفا عنكم استغفرتُ لكم ربي(٣).

وذكر سُنَيد بنُ داود قال: حدَّثنا هُشيمٌ، قال: حدَّثنا عبدُ الرحمن بنُ إسحاق، عن محاربِ بنِ دِثَار، عن عَمِّه قال: كنت آتي المسجد في السَّحَر، فأَمُرُّ بدارِ ابنِ مسعودٍ فأسمعه يقول: اللهمَّ إنَّك أمرتَني فأطعتُ، ودعوتَني فأجبتُ، وهذا سَحَرٌ، فاغفِرْ لي، فلقيتُ ابنَ مسعودٍ فقلت: كلماتٍ أسمعكَ تقولهنَّ في السَّحر؟ فقال: إنَّ يعقوبَ أَخَّرَ بَنِيْه إلى السَّحَر بقوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾(٤).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أي: قَصْراً كان له هناك ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ قيل: إنَّ يوسفَ بعثَ مع البشير مئتي راحلةٍ وجَهازاً، وسأل يعقوبَ أن يأتيه

---

(١) سنن الترمذي (٣٥٧٠).

(٢) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٠ .

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٤٤٩ .

(٤) أخرجه سعيد بن منصور في التفسير ٥/ ٤١٠ (١١٤٤)، والطبري في التفسير ١٣/ ٣٤٧ ، وابن أبي حاتم في التفسير ٧/ ٢٢٠٠ (١١٩٨٣)، والطبراني في الكبير ٩/ ١٠٤ (٨٥٤٨) من طرق، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن محارب بن دثار، عن عمِّه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٥٥ : وفيه عبد الرحمن بن إسحاق الكوفي، وهو ضعيف.

بأهلِه وولدِه جميعاً، فلما دخلوا عليه ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾ أي: ضَمَّ، ويعني بأبويه أباه وخالتَه، وكانت أمُّه قد ماتت في ولادةِ أخيه بنيامين[١]. وقيل: أحيا الله له أمَّه تحقيقاً للرؤيا حتى سجدتْ له، قاله الحسنُ[٢]، وقد تقدَّم في «البقرة» أنَّ اللهَ تعالى أحيا لنبيِّه عليه الصلاةالسلام أباه وأمَّه، فآمنا به[٣].

قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ قال ابنُ جريج: أي: سوف أستغفرُ لكم ربِّي إنْ شاء الله، قال: وهذا مِن تقديمِ القرآن وتأخيرِه[٤]. قال النحَّاس[٥]: يَذهبُ ابنُ جُريج إلى أنَّهم قد دخلوا مصرَ، فكيف يقول: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾. وقيل: إنَّما قال: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ تبرُّكاً وجزْماً. ﴿ءَامِنِينَ﴾ مِن القَحْطِ، أو مِن فرعونَ، وكانوا لا يَدخلونها إلا بجوازِه[٦].

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ قال قَتَادة: يريد السَّرير[٧]، وقد تقدَّمت

(١) أخرجه الطبري في التفسير ١٣/ ٣٥٢ ، وابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٠٠ - ٢٢٠١ (١١٩٨٦) ونسباه إلى السدي، وينظر زاد المسير ٤/ ٢٨٨ ، وتفسير الرازي ١٨/ ٢١٠ . والأظهر أن المراد بأبويه: أبوه وأمه، بحسب اللفظ، إلا إذا ثبت بسند أن أمه ماتت. المحرر الوجيز ٣/ ٢٨١ .

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٤٥٠ ، وتفسير الرازي ١٨/ ٢١٠ قال الآلوسي في روح المعاني ١٣/ ٥٧ : والظاهر أنه لم يثبت، ولو ثبت مثله لاشتهر.

(٣) ٢/ ٣٤٤ . وهذا حديث كذب، فيما نقلناه عن الذهبي ثمة.

(٤) أخرجه الطبري في التفسير ١٣/ ٣٥١ ، وينظر كلام الطبري حول هذا المعنى.

(٥) معاني القرآن ٣/ ٤٥٦ .

(٦) ينظر تفسير البغوي ٢/ ٤٥٠ ، وزاد المسير ٤/ ٢٨٩ ، وتفسير الرازي ١٨/ ٢١١ .

(٧) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٦ .

محَامله[١]، وقد يُعبَّر بالعرش عن المُلْكِ والمَلِك نفسِه، ومنه قولُ النابغة الذُّبْيَانيِّ:

عُـروشٌ تَـفـانَـوْا بـعـد عِـزٍّ وأَمْـنـةٍ[٢]

وقد تقدَّم[٣].

قوله تعالى: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ الهاء في «خَرُّوا لَهُ» قيل: إنَّها تَعودُ على اللهِ تعالى، المعنى: وخَرُّوا شكراً لله سُجَّداً، ويوسف كالقِبْلة، لتحقيقِ رؤياه، ورُوي عن الحسن[٤]، قال النَّقاش: وهذا خطأٌ، والهاء راجعةٌ إلى يوسف، لقوله تعالى في أوَّل السورة: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾. وكان تحيَّتُهم أن يسجدَ الوضِيْعُ للشريف[٥]، والصغيرُ للكبير؛ سجد يعقوبُ وخالتُه وإخوتُه ليوسف عليه السلام، فاقشعرَّ جِلْدُه وقال: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾[٦].

وكان بين رؤيا يوسف وبين تأويلها اثنتان وعشرونَ سنةً[٧]. وقال سلمانُ الفارسيُّ وعبدُ الله بنُ شَدَّاد: أربعونَ سنةً[٨]؛ قال عبدُ الله بنُ شَدَّاد: وذلك آخِرُ ما تُبطئ

---

(١) ٩/ ٢٤٠.

(٢) لم نقف عليه في ديوانه، وأورده القرطبي في الأسنى ص١٨٦ ولم ينسبه، وتمامه:

هـووا بـعـدمـا رامـوا الـسـلامـة والـبـقـاء

(٣) لم يتقدم، بل الوارد سابقاً ٩/ ٢٤٠ قول زهير:

تـداركـتـمـا عـبـسـاً وقـد ثُـلَّ عـرشـهـا ... وذبـيـان إذ زلَّـت بـأقـدامـهـا الـنـعـل

(٤) النكت والعيون ٣/ ٨٢، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨١، وزاد المسير ٤/ ٢٩٠.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ١٧٧.

(٦) ينظر تفسير الرازي ١٨/ ٢١٣ - ٢١٤.

(٧) تفسير أبي الليث ٢/ ١٧٧، وزاد المسير ٤/ ٢٩٠، ونسباه إلى ابن عباس.

(٨) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٢، وأخرجه الطبري ١٣/ ٣٥٧ - ٣٥٩ عنهما، وابن أبي حاتم في التفسير ٧/ ٢٢٠٢ (١١٩٩٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

الرؤيا(١). وقال قَتَادة: خمسٌ وثلاثون سنةً(٢). وقال السُّدِّيُّ وسعيدُ بنُ جُبير وعِكرمةُ: ستٌّ وثلاثون سنةً(٣). وقال الحسن وجَسْر بنُ فَرْقَد وفُضَيلُ بنُ عِيَاض: ثمانون سنةً(٤).

وقال وهب بنُ مُنَبِّه: أُلقيَ يوسفُ في الجُبِّ وهو ابنُ سبعَ عَشْرةَ سنةً، وغاب عن أبيه ثمانينَ سنةً، وعاش بعد أن التقى بأبيه ثلاثاً وعشرينَ سنةً، ومات وهو ابنُ مئة وعشرينَ سنةً. وفي التوراة مئةٌ وستٌّ وعشرون سنةً. وولد ليوسفَ مِن امرأةِ العزيز: إفراييم، ومنشا، ورحمة امرأة أيوب(٥). وبين يوسف وموسى أربعُ مئةِ سنةٍ(٦).

وقيل: إنَّ يعقوبَ بَقِيَ عند يوسفَ عشرينَ سنةً، ثم توفِّي ﷺ. وقيل: أقام عنده ثماني عَشْرة سنةً(٧). وقال بعضُ المحدِّثين: بضعاً وأربعينَ سنةً. وكان بين يعقوبَ ويوسفَ ثلاثٌ وثلاثونَ سنةً حتى جمعَهم اللهُ. وقال ابنُ إسحاق: ثماني عَشْرة سنةً، والله أعلم(٨).

الثانية: قال سعيدُ بنُ جُبير، عن قَتَادة، عن الحسن، في قوله: ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ قال: لم يكن سجوداً، لكنَّه سُنَّة كانت فيهم، يُؤمِئون برؤوسهم إيماءً، كذلك كانت تحيَّتهم(٩). وقال الثَّوريُّ والضَّحَّاك وغيرُهما: كان سجوداً كالسجود المعهودِ عندنا، وهو كان تحيَّتهم. وقيل: كان انحناءً كالركوع، ولم يكن خُروراً على الأرض، وهكذا

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٢ .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢٢٠٢ (١١٩٩٩).

(٣) زاد المسير ٤/ ٢٩٠ - ٢٩١ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٢ ، وأخرجه عنهم الطبري في التفسير ١٣/ ٣٥٩ - ٣٦٠ .

(٥) تفسير البغوي ٢/ ٤٥١ ولكن عزاه إلى الحسن، وفيه وفي المعارف لابن قتيبة ص٤١ أن في التوراة أنه عاش مئة وعشر سنين.

(٦) المعارف لابن قتيبة ص٤١ .

(٧) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٢ ، وتفسير أبي الليث ٢/ ١٧٨ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤٥١ .

(٨) أخرجه الطبري في التفسير ١٣/ ٣٦١ .

(٩) ينظر الوسيط للواحدي ٢/ ٦٣٥ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨١ .

كان سلامُهم بالتَّكفِّي والانحناء، وقد نَسَخ اللهُ ذلك كلَّه في شرعِنا، وجعَل الكلامَ بدلاً عن الانحناء.

وأجمع المفسِّرون أنَّ ذلك السجود على أيِّ وجهٍ كان، فإنَّما كان تحيةً لا عبادةً. قال قَتادة: هذه كانت تحيَّةَ الملوك عندهم، وأعطى اللهُ هذه الأمَّةَ السلامَ تحيَّةَ أهلِ الجنة(١).

قلت: هذا الانحناء والتَّكفِّي الذي نُسِخَ عنَّا، قد صار عادةً بالديار المصريَّة، وعند العَجَم، وكذلك قيامُ بعضِهم إلى بعض، حتى إنَّ أحدَهم إذا لم يُقَمْ له، وَجَدَ في نفسِه كأنَّه لا يُؤْبَهُ به، وأنَّه لا قَدْرَ له، وكذلك إذا التقَوا، انحنى بعضُهم لبعض، عادةٌ مستمرَّة، ووراثةٌ مستقِرَّة، لا سيما عند التقاءِ الأُمراء والرؤساء. نَكَبوا عن السَّنَنِ، وأَعرضوا عن السُّنَن. وروى أنسُ بنُ مالكٍ قال: قلنا يا رسول الله، أينحني بعضُنا إلى بعضٍ إذا التقينا؟ قال: «لا»، قلنا: أَفَيعتَنِقُ بعضُنا بعضاً؟ قال: «لا»، قلنا: أَفيصافح بعضُنا بعضاً؟ قال: «نعم». خرَّجه أبو عمر في «التمهيد»(٢).

فإن قيل: فقد قال رسولُ الله ﷺ: «قوموا إلى سيِّدِكم وخَيْرِكم»(٣) ـ يعني: سعدَ ابنَ معاذٍ ـ قلنا: ذلك مخصوصٌ بسعدٍ؛ لما تقتضيه الحالُ المعيَّنة. وقد قيل: إنَّما كان قيامُهم لينزلوه عن الحمار. وأيضاً فإنَّه يجوز للرجل الكبير إذا لم يؤثِّر ذلك في نفسِه، فإن أثَّر فيه، وأُعجب به، ورأى لنفسه حظًّا، لم يَجُزْ عَوْنه على ذلك؛ لقوله ﷺ: «مَن سرَّه أن يتمثَّل له الناسُ قياماً، فليتبوَّأ مقعدَه مِن النار»(٤). وجاء عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أنَّه لم يكن وجهٌ أكرمَ عليهم مِن وَجْهِ رسولِ الله ﷺ، وما كانوا يقومون له إذا رَأَوْه؛ لما يعرفونَ مِن كراهتِه لذلك.

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير ١٣/ ٣٥٥، وابن أبي حاتم في التفسير ٧/ ٢٢٠٢ (١١٩٩٦).

(٢) ٢١/ ١٥، وأخرجه أيضاً البيهقي في السنن الكبرى ٧/ ١٠٠.

(٣) أخرجه أحمد (٢٥٠٩٧) من حديث عائشة، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١١٢٠) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٤) أخرجه أبو داود (٥٢٢٩)، والترمذي (٢٧٥٥) من حديث معاوية ﷺ. قال الترمذي: هذا حديث حسن.

الثالثة: فإن قيل: فما تقولُ في الإشارة بالإصبع؟ قيل له: ذلك جائزٌ إذا بَعُدَ عنك؛ لتعيِّن له به وقتَ السلام، فإن كان دانياً، فلا[١]. وقد قيل بالمنْع في القُرب والبعد؛ لما جاء عن رسولِ الله ﷺ أنَّه قال: «من تَشبَّه بغيرنا، فليس منا». وقال: «لا تُسلِّموا تسليمَ اليهودِ والنصارى، فإنَّ تسليمَ اليهود بالأكُفّ، والنَّصارى بالإشارة»[٢].

وإذا سَلَّم فإنَّه لا يَنحني، ولا أن يُقبِّلَ مع السَّلام يدَه، ولأنَّ الانحناءَ على معنى التواضع لا ينبغي إلا للهِ.

وأما تقبيلُ اليدِ فإنَّه مِن فِعْل الأعاجم، ولا يُتَّبعون على أفعالهم التي أَحدثوها؛ تعظيماً منهم لِكُبَرائهم؛ قال النبيُّ ﷺ: «لا تقوموا عند رأسي، كما تقوم الأعاجمُ عند رؤوس أكاسرتها»[٣] فهذا مثلُه.

ولا بأسَ بالمصافحة؛ فقد صافح النبيُّ ﷺ جعفرَ بنَ أبي طالب حين قَدِمَ من الحبشة، وأَمَرَ بها، ونَدَبَ إليها[٤]، وقال: «تصافحوا يذهبِ الغِلُّ»[٥] وروى غالب التَّمَّار عن الشّعبيّ أنَّ أصحابَ النبيِّ ﷺ كانوا إذا التقَوا تَصافحوا، وإذا قَدِموا مِن سفرٍ، تَعانقوا[٦].

فإن قيل: فقد كَرِه مالكٌ المصافحةَ؟ قلنا[٧]: روى ابنُ وهبٍ عن مالكٍ أنَّه كَرِهَ المصافحةَ والمعانقةَ، وذهب إلى هذا سُحْنون وغيرُه مِن أصحابنا. وقد روي عن

---

(١) في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٩٥ . والكلام منه: فلا بأس بالمصافحة. وسيذكر المصنف المصافحة فيما يأتي.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٩٥) والنسائي في الكبرى (١٠١٠٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٨٩١١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. قال الترمذي: هذا حديث إسناده ضعيف. اهـ

(٣) أخرجه أبو داود (٥٢٣٠)، وابن ماجه (٣٨٣٦) عن أبي أمامة ﷺ بنحوه.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٩٥ ، والحديث أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/ ٢٨١ .

(٥) أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٩٠٨ عن عطاء مرسلاً.

(٦) أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/ ٢٨١ .

(٧) القائل ابن عبد البر في التمهيد ٢١/ ١٧ .

مالكٍ خلافُ ذلك مِن جوازِ المصافحة، وهو الذي يدلُّ عليه معنى ما في «الموطأ»، وعلى جواز المصافحةِ جماعةُ العلماء مِن السَّلَف والخَلَف.

قال ابن العربي[١]: إنَّما كَرِهَ مالكٌ المصافحةَ؛ لأنَّه لم يَرَها أمراً عامًّا في الدِّين، ولا منقولاً نَقْلَ السلام، ولو كانت منه لاستوى معه.

قلت: قد جاء في المصافحةِ حديثٌ يدلُّ على الترغيب فيها، والدَّأب عليها والمحافظة، وهو ما رواه البَرَاءُ بنُ عازب قال: لقيتُ رسولَ الله ﷺ، فأخذ بيدي فقلت: يا رسولَ الله، إن كنتُ لأحسب أنَّ المصافحةَ للأعاجم؟ فقال: «نحن أحقُّ بالمصافحة منهم، ما من مسلمَين يلتقيان فيأخذ أحدُهما بيدِ صاحبِه مودةً بينهما ونصيحةً، إلا أُلقيت ذنوبُهما بينهما»[٢].

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ ولم يقل: من الجُبِّ؛ استعمالاً للكَرَم؛ لئلا يُذكِّر إخوتَه صنيعَهم بعد عَفْوه عنهم بقوله: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾[٣] [يوسف: ٩٢].

قلت: وهذا هو الأصل عند مشايخ الصوفية: ذِكْرُ الجَفَا في وقتِ الصَّفَا جَفَا[٤]، وهو قولٌ صحيحٌ دَلَّ عليه الكتابُ.

وقيل: لأنَّ في دخوله السجنَ كان باختياره بقوله: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ وكان في الجبِّ بإرادة الله تعالى له. وقيل: لأنَّه كان في السجن مع اللصوص والعُصَاة، وفي الجبِّ مع الله تعالى؛ وأيضاً فإن المِنَّة في النَّجاة مِن السِّجن كانت أكبرَ؛ لأنَّه دخلَه بسبب أَمْرٍ هَمَّ به، وأيضاً دخلَه باختياره إذ قال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ فكان الكَرْبُ فيه أكثرَ، وقال فيه أيضاً: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾

---

(١) أحكام القرآن ٣/ ١٠٩٥ .

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٣٣٥)، وابن عبد البر في التمهيد ٢١/ ١٣ .

(٣) الوسيط للواحدي ٢/ ٦٣٥ ، وزاد المسير ٤/ ٢٩١ .

(٤) هذا من كلام الجنيد للسَّرِيِّ السَّقَطي، وهو في الرسالة القشيرية ٢/ ١١٨ .

[يوسف: ٤٢] فعُوقبَ فيه(١).

﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ يُروى أنَّ مسكنَ يعقوبَ كان بأرضِ كنعان، وكانوا أهلَ مواشٍ وبَرِيَّة(٢). وقيل: كان يعقوبُ تحوَّل إلى بادية وسَكَنها، وأنَّ اللهَ لم يبعث نبيًّا مِن أهل البادية. وقيل: إنَّه كان خرج إلى بَدَا، وهو موضعٌ؛ وإياه عنى جَمِيلٌ بقوله:

وأنتِ التي حَبَّبْتِ شَغْباً إلى بَدَا إليَّ وأوطانِي بلادٌ سِواهُمَا(٣)

وليعقوبَ بهذا الموضع مسجدٌ تحت جبل. يقال: بَدَا القومُ بَدْواً: إذا أتَوا بَدَا، كما يقال: غَاروا غَوْراً، أي: أتَوا الْغَوْر، والمعنى: وجاء بكم مِن مكان بَدَا؛ ذكره القشيريُّ، وحكاه الماوَرْديُّ عن الضَّحَّاك عن ابنِ عباس(٤).

﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ بإيقاع الحسد؛ قاله ابنُ عباس(٥). وقيل: أفسد ما بيني وبين إخوتي(٦)؛ أحال ذَنْبهم على الشيطان؛ تكرُّماً منه.

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ أي: رفيقٌ بعباده. وقال الخَطَّابيُّ: اللطيفُ هو البَرُّ بعبادِه، الذي يَلطُف بهم من حيث لا يعلمون، ويسبِّب لهم مصالحَهم من حيث لا يَحتسبون؛ كقوله: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ﴾ [الشورى: ١٩]. وقيل: اللطيفُ: العالِم بدقائق الأمور؛ والمراد هنا الإكرامُ والرِّفق.

قال قتادة: لطف بيوسفَ بإخراجه من السجن، وجاءَه بأهله من البَدْو، ونزعَ عن قلبِه نَزْغَ الشيطانِ(٧).

---

(١) ينظر النكت والعيون ٣/ ٨٣، وتفسير البغوي ٢/ ٤٥١، وزاد المسير ٤/ ٢٩١.

(٢) الوسيط للواحدي ٢/ ٦٣٦ ونسبه إلى قتادة، وأخرجه عنه الطبري في التفسير ١٣/ ٣٦٢.

(٣) ديوان جميل ص٢٠٠.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٨٤، وينظر تفسير الرازي ١٨/ ٢١٥.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٨٤.

(٦) مجاز القرآن لأبي عبيدة ص ١/ ٣١٩، وتفسير الطبري ١٣/ ٣٦٣.

(٧) أخرجه الطبري في التفسير ١٣/ ٣٦٤، وابن أبي حاتم في التفسير ٧/ ٢٢٠٣ (١٢٠٠٣).

ويُروى أنَّ يعقوبَ لما قَدِمَ بأهله وولدِه، وشَارَفَ أرضَ مصر، وبلَغ ذلك يوسف، استأذن فرعونَ ـ واسمه الرَّيَّان ـ أن يأذنَ له في تَلَقِّي أبيه يعقوبَ، وأخبره بقدومِه، فأذن له، وأمر الملأ مِن أصحابه بالركوب معه، فخرج يوسفُ والملِكُ معه في أربعةِ آلافٍ من الأمراء مع كلِّ أميرٍ خَلْقٌ اللهُ أعلم بهم، وركب أهلُ مصرَ معهم يتلقَّون يعقوبَ، فكان يعقوبُ يمشي متكئاً على يدِ يهوذا، فنظر يعقوبُ إلى الخيل والناس والعساكر فقال: يا يهوذا، هذا فرعونُ مصرَ؟ قال: لا، بل هذا ابنُك يوسف، فلما دنا كلُّ واحد منهما من صاحبِه، ذهب يوسفُ ليبدأه بالسلام، فمُنع من ذلك، وكان يعقوبُ أحقَّ بذلك منه وأفضلَ، فابتدأ يعقوبُ بالسلام، فقال: السلامُ عليك يا مُذْهِب الأحزان[1]، وبكى وبكى معه يوسفُ، فبكى يعقوبُ فرحاً، وبكى يوسفُ، لِما رأى بأبيه من الحزن. قال ابنُ عباس[2]: فالبكاء أربعةٌ، بكاءٌ من الخوف، وبكاءٌ من الجَزَع، وبكاء من الفَرَح، وبكاءُ رِياءٍ. ثم قال يعقوبُ: الحمد لله الذي أقرَّ عيني بعد الهمومِ والأحزان.

ودخل مصرَ في اثنينِ وثمانينَ من أهل بيته، فلم يَخرجوا من مصرَ حتى بلغوا ستَّ مئةِ ألفٍ ونيفِ ألفٍ، وقطعوا البحرَ مع موسى عليه السلام، رواه عِكْرِمةُ عن ابنِ عباس[3]. وحكى ابنُ مسعود أنَّهم دخلوا مصرَ وهم ثلاثة وتسعونَ إنساناً ما بين رجلٍ وامرأةٍ، وخرجوا مع موسى وهم ستُّ مئة ألف وسبعون ألفاً[4]. وقال الربيعُ بنُ خثيم: دخلوها وهم اثنانِ وسبعون ألفاً، وخرجوا مع موسى وهم ستُّ مئةِ ألفٍ.

وقال وهبُ بنُ منبِّه: دخل يعقوبُ وولدُه مصر وهم تسعون إنساناً ما بين رجلٍ

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٣٥٠، وتاريخ الطبري ١/ ٣٦٢، وعرائس المجالس ص١٤١ - ١٤٢، والنكت والعيون ٣/ ٨١.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٨٢، وأخرجه الطبري في التفسير ١٣/ ٣٦٣ بنحوه، وينظر تفسير أبي الليث ٢/ ١٧٦، وفيه أنهم كانوا حين دخولهم ثلاثة وسبعين إنساناً.

وامرأةٍ وصغيرٍ، وخرجوا منها مع موسى فِراراً من فرعون وهم ستُّ مئةِ ألفٍ وخمسُ مئةٍ وبضعٌ وسبعونَ رجلاً مقاتلين، سوى الذُّرية والهَرْمى والزَّمْنى؛ وكانت الذُّرِّية ألفَ ألفٍ ومئتي ألفٍ سوى المقاتلة(١).

وقال أهلُ التواريخ: أقام يعقوبُ بمصر أربعاً وعشرين سنةً في أغبط حالٍ ونعمةٍ، ومات بمصر، وأوصى إلى ابنِه يوسفَ أن يَحمل جسدَه حتى يدفنَه عند أبيه إسحاق بالشام، ففعل، ثم انصرفَ إلى مصر(٢). قال سعيدُ بنُ جُبير: نُقل يعقوبُ ﷺ في تابوت من ساجٍ إلى بيت المقدس، ووافق ذلك يومَ مات عِيصُو، فدُفنا في قبر واحد؛ فمن ثَمَّ تَنْقُل اليهودُ موتاهم إلى بيتِ المقدس، مَن فَعَل ذلك منهم؛ ووُلد يعقوب وعِيصُو في بطنٍ واحد، ودُفنا في قبر واحد، وكان عمرُهما جميعاً مئةً وسبعاً وأربعينَ سنةً(٣).

قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ قال قَتادة: لم يَتمنَّ الموتَ أحدٌ، نبيٌّ ولا غيره إلَّا يوسف عليه السلام؛ حينَ تكاملتْ عليه النِّعمُ، وجُمِع له الشَّملُ اشتاقَ إلى لقاءِ ربه عزَّ وجلَّ(٤). وقيل: إنَّ يوسفَ لم يَتمنَّ الموتَ، وإنما تمنَّى الوفاةَ على الإسلامِ، أي: إذا جاءَ أَجَلي تَوَفَّني مسلماً(٥)، وهذا قولُ الجمهور.

وقال سهلُ بنُ عبد الله التُّسْتَريُّ: لا يتمنى الموتَ إلا ثلاثٌ: رجلٌ جاهل بما بعدَ الموت، أو رجلٌ يَفِرُّ من أقدارِ الله تعالى عليه، أو مشتاقٌ محبٌّ للقاءِ الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) ينظر عرائس المجالس ص١٤٢، والكشاف ٢/ ٣٤٤.

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٤٥١، وينظر تاريخ الطبري ١/ ٣٦٤، والوسيط ٢/ ٦٣٦، والكشاف ٢/ ٣٤٥.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٤٥١. وينظر عرائس المجالس ص١٤٣، والمعارف لابن قتيبة ص٣٩ وهذه الأخبار من الإسرائيليات.

(٤) أخرجه الطبري في التفسير ١٣/ ٣٦٥ - ٣٦٦.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٣، والكشاف ٢/ ٣٤٥.

وثبتَ في الصحيحِ عن أنسٍ قال: قالَ رسول الله ﷺ: «لا يَتمنينَّ أحدُكم الموتَ لضُرٍّ نزلَ به، فإن كان لابدّ مُتمنِّياً، فليقل: اللهمَّ أحيِني ما كانتِ الحياةُ خيراً لي، وتَوفَّني إذا كانتِ الوفاةُ خيراً لي». رواهُ مسلم[١] وفيه[٢]: عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتمنَّى أحدُكم الموتَ، ولا يَدْعُ به من قبلِ أن يأتيَه، إنه إذا ماتَ أحدُكم انقطَع عملُه، وإنَّه لا يزيدُ المؤمِنَ عُمُره إلا خيراً». وإذا ثبتَ هذا، فكيفَ يقال: إنَّ يوسفَ عليه السلام تمنى الموتَ، والخروجَ من الدنيا، وقَطْعَ العملِ؟ هذا بعيدٌ! إلا أن يقال: إنَّ ذلك كان جائزاً في شرعِه، أَمَا إنه يجوزُ تمني الموت والدعاءُ به عندَ ظهورِ الفتن وغلبتها وخوف ذهابِ الدين، على ما بيَّناه في كتابِ «التذكرة»[٣].

و«مِنَ» من[٤] قولِه: ﴿مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ للتبعيض، وكذلك قولُه: ﴿وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ لأن مُلْكَ مصرَ ما كان كلَّ الْمُلك، وعلمَ التَّعبير ما كان كلَّ العلوم. وقيل: «مِنَ» للجنس كقولِه: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾ [الحج: ٣٠]. وقيل: للتأكيدِ. أي: آتيتني الملكَ، وعَلمتني تأويلَ الأحاديث[٥].

قوله تعالى: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ نُصِبَ على النعتِ للنداء، وهو «ربِّ»، وهو نداءٌ مضافٌ، والتقديرُ: يا ربِّ. ويجوزُ أن يكونَ نداءً ثانياً[٦]. والفاطرُ الخالقُ، فهو سبحانه فاطرُ الموجوداتِ، أي: خالقُها ومُبدِئها، ومُنشِئها ومخترعُها على الإطلاق من غير شيء[٧]، ولا مثالٍ سبق؛ وقد تقدَّم هذا المعنى في «البقرة»[٨]

---

(١) في صحيحه (٢٦٨٠)، وهو عند البخاري (٦٣٥١).

(٢) في صحيح مسلم (٢٦٨٢).

(٣) ص٦ .

(٤) في (ظ): في.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٢٩ ، والكشاف ٢/ ٣٤٥ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨٤ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٥ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٣٠ ، والكشاف ٢/ ٣٤٥ .

(٧) في (ظ): شبه.

(٨) ٢/ ٣٣٥ .

مستوفًى عند قولِه: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آية:١١٧] وزِدناه بياناً في الكتابِ «الأسنى في شرحِ أسماءِ الله الحسنى»[١].

﴿أَنتَ وَلِىِّۦ﴾ أي: ناصري ومتولِّي أموري في الدنيا والآخرة. ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يريدُ آباءَه الثلاثةَ: إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فتوفَّاه الله طاهراً طيباً ﷺ، بمصرَ، ودُفِن في النيلِ في صندوقٍ من رخامٍ؛ وذلك أنَّه لمَّا ماتَ تَشاحَّ الناسُ عليه، كلٌّ يحبُّ أن يُدفَن في مَحَلَّتهم، لِما يَرجون من بركتِه؛ واجتمعوا على ذلك حتى همُّوا بالقتال، فرأَوا أن يَدفِنُوه في النِّيل من حيثُ مَفرِقُ الماءِ بمصر، فيَمُرَّ عليه الماءُ، ثم يتفرَّق في جميعِ مصر، فيكونوا فيه شَرَعاً[٢]، ففعلوا، فلمَّا خرجَ موسى ببني إسرائيل أَخرجَه من النيل، ونقلَ تابوتَه بعدَ أربع مئةِ سنةٍ إلى بيت المقدس، فدفنوه مع آبائِه لدعوته: ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وكان عُمره مائةَ عامٍ وسبعةَ أعوامٍ[٣].

وعن الحسنِ قال: أُلقي يوسفُ في الجبِّ وهو ابنُ سبعَ عَشْرةَ سنة، وكان في العبوديةِ والسِّجنِ والملك ثمانينَ سنة، ثم جُمِع له شملُه فعاشَ بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة؛ وكان له من الولدِ إفرائيمُ، ومنشا، ورحمةُ زوجةُ أيوب؛ في قولِ ابن لَهِيعة.

قال الزُّهري: ووُلد لإفرائيم بنِ يوسف نونُ بنُ إفرائيم، ووُلِد لنون يوشَعُ، فهو يُوشَعُ بنُ نونٍ[٤]، وهو فتى موسى الذي كانَ معه صاحب أمرِه، ونَبَّأه الله في زمنِ موسى عليه السلام، فكان بعده نبيًّا، وهو الذي افتتَح أرِيحا، وقَتل مَن كان بها من

(١) ص٣٢٦ - ٣٢٨.

(٢) أي: سواء. الصحاح (شرع)، وفي (ظ): شركاء، وهما بمعنى.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٨٥، والوسيط ٢/ ٦٣٦، وتفسير السمرقندي ٢/ ١٧٨، وزاد المسير ٤/ ٢٩٢، وتفسير الرازي ١٨/ ٢١٦، وعرائس المجالس ص١٤٤.

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٤٥١، وزاد المسير ٤/ ٢٩٢، وتفسير الرازي ١٨/ ٢١٦. وينظر عرائس المجالس ص١٤٥.

الجبابرةِ، واستُوقِفت له الشمسُ حسبَ ما تقدَّم في «المائدة»[١]. ووُلِد لمنشا بنِ يوسف موسى بنُ منشا، قبلَ موسى بنِ عمران، وأهلُ التوراةِ يزعُمون أنَّه هو الذي طلبَ العالمَ ليتعلمَ منه حتى أدركه، والعالمُ هو الذي خَرقَ السفينةَ، وقتل الغُلامَ، وبنَى الجدارَ، وموسى بنُ منشا معه حتى بلغَ معه حيثُ بلغ، وكان ابنُ عباس يُنكرُ ذلك[٢]؛ والحقُّ الذي قالَه ابنُ عباس، وكذلك في القرآن، ثم كانَ بين يوسفَ وموسى أممٌ وقرون، وكان فيما بينَهما شعيبٌ صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ ابتداءٌ وخبرٌ. ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ خبرٌ ثانٍ. قال الزَّجاجُ[٣]: ويجوز أن يكون «ذَٰلِكَ» بمعنى الذي، و«نُوحِيهِ إِلَيْكَ» خبرُه، أي: الذي من أنباءِ الغيب نوحيه إليك. يعني: هو الذي قَصصنا عليك يا محمدُ من أمرِ يوسفَ من أخبار الغيب «نُوحِيهِ إِلَيْكَ» أي: نُعلمك بوحي هذا إليك.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي: مع إخوةِ يوسف ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ﴾ في إلقاءِ يوسفَ في الجبِّ. ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ أي: بيوسف في إلقائِه في الجبِّ. وقيل: «يَمْكُرُونَ» بيعقوبَ حين جاؤوه بالقميصِ مُلطَّخاً بالدم[٤]، أي: ما شاهدتَ تلك الأحوالَ، ولكنَّ الله أطلعك عليها.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ظنَّ أن العربَ لمَّا سألته عن هذه القصةِ وأخبرَهم يؤمنون، فلم يؤمنوا، فنزلتِ الآيةُ تسليةً للنبي ﷺ[٥]. أي:

---

(١) ٧/ ٤٠٤.

(٢) أخرجه الطبري في التفسير ١٥/ ٣٢٦ - ٣٢٩، وينظر عرائس المجالس ص١٤٥.

(٣) معاني القرآن ٣/ ١٣٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٤٥.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٨٧.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٤، وزاد المسير ٤/ ٢٩٣.

ليس تقدرُ على هدايةِ مَن أردتَ هدايته[١]، تقول: حَرَص يَحرِص، مثل: ضَرَبَ يَضرِب. وفي لغةٍ ضعيفةٍ: حَرِص يَحرَص، مثل حَمِد يَحمَد[٢]. والحِرْصُ طلبُ الشيء باجتهاد[٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ «مِنْ» صلةٌ، أي: ما تَسألهم جُعْلاً. ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما هو، يعني: القرآن والوحي. ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أي: عِظةٌ وتذكرةٌ ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾[٤].

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال الخليلُ وسيبويه[٥]: هي «أيُّ» دخلَ عليها كافُ التشبيه[٦]، فصار في الكلام معنى كَمْ. وقد مضى في «آل عمران»[٧] القولُ فيها مستوفًى. ومضى القولُ في آية «السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ» في «البقرة»[٨].

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٩ .

(٢) تهذيب اللغة ٤/ ٢٣٩ .

(٣) في النسخ: باختيار، ولم نقف على هذا المعنى، والمثبت من تفسير الرازي ١٨/ ٢٢٣ ، ولسان العرب (حرص).

(٤) تفسير الطبري ١٣/ ٣٧١ .

(٥) في الكتاب ٢/ ١٧٠ - ١٧١ . ونقله المصنف بواسطة النحاس في إعراب القرآن ١/ ٤١٠ و ٢/ ٣٤٦ ، والكلام منه.

(٦) بعدها في (م): وبُنيت معها.

(٧) ٥/ ٣٤٩ وما بعدها .

(٨) ٢/ ٤٩٠ .

وقيل: الآياتُ آثار عقوباتِ الأمم السالفة، أي: هم غافلونَ مُعرِضون عن تأمُّلها.

وقرأ عِكرمةُ وعَمرو بنُ فائد: «وَالْأَرْضُ» رفعاً ابتداء، وخبرُه: ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾. وقرأ السُّدِّي «وَالْأَرْضَ» نصباً بإضمارِ فعل، والوقفُ على هاتين القراءتين على «السماوات». وقرأ ابنُ مسعود: «يمشون عليها»[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ نزلت في قومٍ أقرُّوا بالله خالقِهم وخالقِ الأشياءِ كلِّها، وهم يعبدون الأوثانَ؛ قاله الحسنُ ومجاهدٌ، وعامر الشعبي[(٢)] وأكثرُ المفسرين. وقال عِكرمةُ: هو قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧] ثم يصفونه بغيرِ صفته، ويجعلون له أنداداً. وعن الحسن أيضاً: أنَّهم أهلُ كتابٍ معهم شِرْكٌ وإيمان، آمنوا بالله وكفروا بمحمدٍ ﷺ، فلا يصحُّ إيمانُهم؛ حكاه ابنُ الأنباري.

وقال ابنُ عباس: نزلتْ في تلبيةِ مشركي العرب: لبيكَ لا شريكَ لك إلا شريكاً هو لك تَملِكُه وما مَلَك. وعنه أيضاً: أنَّهم النصارى. وعنه أيضاً: أنهم المشبِّهةُ، آمنوا مجملاً، وأشركوا مُفَصَّلاً. وقيل: نزلت في المنافقين؛ المعنى: «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ» أي: باللسان إلا وهو كافرٌ بقلبه؛ ذكره الماورديُّ[(٣)] عن الحسن أيضاً. وقال عطاء: هذا في الدعاءِ، وذلك أنَّ الكفار يَنْسَون ربَّهم في الرَّخاء، فإذا أَصابهمُ البلاءُ أَخلصوا في الدعاء؛ بيانه[(٤)]: ﴿وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ [يونس:٢٢] الآية. وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ [يونس:١٢] الآية. وفي آية أخرى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ

---

(١) المحتسب ١/ ٣٤٩ - ٣٥٠ ، ومختصر في شواذ القرآن ص٦٥ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨٥ ، وتفسير الرازي ١٨/ ٢٢٤ .

(٢) في (م): والشعبي.

(٣) في النكت والعيون ٣/ ٨٧ ، وتنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٣/ ٣٧٢ - ٣٧٦ ، والنكت والعيون ٣/ ٨٧ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨٥ ، وزاد المسير ٤/ ٢٩٤ ، وتفسير الرازي ١٨/ ٢٢٤ .

(٤) في (ظ): نياتهم، وقول عطاء في تفسير البغوي ٢/ ٤٥٢ .

﴿ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١]. وقيل: معناها: أنَّهم يدعونَ الله ينجيهم من الهَلَكَةِ، فإذا أنجاهم قال قائلُهم: لولا فلانٌ ما نَجَوْنا، ولولا الكلبُ لدخلَ علينا اللصُّ، ونحوَ هذا، فيجعلون نعمةَ الله منسوبةً إلى فلان، ووقايتَه منسوبةً إلى الكلبِ[١].

قلت: وقد يقعُ في هذا القول والذي قبلَه كثيرٌ من عوامِّ المسلمين، ولا حولَ ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم.

وقيل: نزلت هذه الآيةُ في قصةِ الدُّخَان؛ وذلك أنَّ أهلَ مكة لمَّا غَشِيَهم الدُّخَانُ في سِنيِّ القَحْطِ قالوا: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ [الدخان: ١٢] فذلك إيمانُهم، وشِركُهم عَودُهم إلى الكفر بعدَ كشفِ العذاب؛ بيانُه قولُه: ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ [الدخان: ١٥]، والعَودُ لا يكون إلا بعدَ ابتداء، فيكونُ معنى: ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ أي: إلا وهم عائدون إلى الشركِ، والله أعلم.

قولُه تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ قال ابنُ عباس: مُجلِّلة. وقال مجاهد: عذابٌ يغشاهم. نظيرُه: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥] وقال قَتادة: وقيعةٌ تقعُ لهم. وقال الضحاكُ: يعني الصَّواعق والقَوارِع[٢]. ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ يعني: القيامة. ﴿بَغْتَةً﴾ نُصِبَ على الحال، وأصلُه المصدرُ. وقال المبردُ: جاءَ عن العربِ حالٌ بعد نكرة، وهو قولُهم: وقعَ أمرٌ بغتةً وفجأة. قال النحاسُ[٣]: ومعنى: بَغتَه: أصابَه[٤] من حيثُ لم يَتوقَّع.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وهو توكيد[٥]. وقوله: «بَغْتَةً» قال ابن عباس: تَصيح الصيحةُ بالناس وهم في أسواقِهم ومواضعهم[٦]، كما قال: ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٨٧.

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٣٧٧ - ٣٧٨، وتفسير البغوي ٢/ ٤٥٣.

(٣) في إعراب القرآن ٢/ ٣٤٦ - ٣٤٧، وما قبله منه، وينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٣١.

(٤) في النسخ: بغتة: إصابة، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس.

(٥) تفسير الرازي ١٨/ ٢٢٤.

(٦) تفسير البغوي ٢/ ٤٥٣.

[يس:٤٩] على ما يأتي.

قولُه تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ ابتداءٌ وخبر[١]، أي: قل يا محمدُ، هذه طريقي وسُنَّتي ومِنْهَاجي؛ قاله ابنُ زيد. وقال الربيع: دعوتي. مقاتل: ديني[٢]، والمعنى واحد، أي: الذي أنا عليه وأدعو إليه يُؤدِّي إلى الجنةِ[٣]. ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي: على يقين وحقٍّ؛ ومنه: فلانٌ مستبصرٌ بهذا. ﴿أَنَا۠﴾ توكيدٌ. ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ عطفٌ على المضمرِ[٤]. ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: قل يا محمد: وسبحانَ اللهِ. ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين يتخذونَ من دون الله أنداداً[٥].

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾

قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ هذا ردٌّ على القائلين: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام:٨]، أي: أرسلنا رجالاً ليس فيهم امرأةٌ ولا جِنِّيٌّ ولا مَلَك؛ وهذا يردُّ ما يُروى عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إنَّ في النِّساء أربعَ نبيَّاتٍ: حَوّاء وآسية، وأمّ موسى ومريم»[٦]. وقد تقدَّم في «آل عمران»[٧] شيءٌ من هذا.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٧ .

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٣٧٩ ، والنكت والعيون ٣/ ٨٨ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤٥٣ ، والوسيط ٢/ ٦٣٧ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨٥ .

(٣) ينظر تفسير الرازي ١٨/ ٢٢٥ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٧ .

(٥) تفسير الرازي ١٨/ ٢٢٥ .

(٦) لم نقف عليه.

(٧) ٥/ ١٢٦ - ١٢٩ .

﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ يريدُ المدائنَ، ولم يبعثِ الله نبيًّا من أهلِ البادية؛ لغلبةِ الجفاء والقسوة على أهل البدو؛ ولأنَّ أهلَ الأمصار أعقلُ وأحلمُ، وأفضلُ وأعلمُ. قال الحسنُ: لم يبعثِ الله نبيًّا من أهلِ البادية قطُّ، ولا من النِّساء، ولا من الجنِّ. وقال قتادة: «مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» أي: من أهل الأمصار؛ لأنهم أعلمُ وأحلم[1].

وقال العلماءُ: مِن شرطِ الرسول أن يكون رجلاً آدميًّا مدنيًّا[2]؛ وإنما قالوا: آدميًّا تَحرزاً من قولِه: ﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن:٦]. والله أعلم.

قولُه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ﴾ إلى مصارعِ الأمم المكذِّبةِ لأنبيائهم فيعتبروا .﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ﴾ ابتداءٌ وخبرُه. وزعم الفرَّاء[3] أنَّ الدار هي الآخرة، وأضيفَ الشيءُ إلى نفسِه لاختلافِ اللفظ، كيومِ الخميس، وبارحةِ الأولى؛ قال الشاعر:

ولــو أَقْــوَتْ عــلــيــكَ دِيــارُ عَــبْــسٍ عَــرَفْــتَ الــذُّلَّ عِــرْفَــانَ الــيَــقــيــنِ[4]

أي: عِرْفَاناً ويقيناً، واحتجَّ الكسائيُّ بقولهم: صلاةُ الأولى، واحتجَّ الأخفشُ بـ: مسجدِ الجامعِ. قال النحاسُ: إضافةُ الشيءِ إلى نفسِه مُحالٌ؛ لأنه إنَّما يُضاف الشيءُ إلى غيره ليتعرَّف به، والأجودُ الصَّلاةُ الأولى، ومَن قال: صلاةُ الأولى فمعناه: عندَ صلاةِ الفريضة الأولى، وإنَّما سُمِّيتِ الأولى؛ لأنها أوَّلُ ما صُلِّي حين فُرضت الصَّلاة، وأوَّلُ ما أُظهِر، فلذلك قيلَ لها أيضاً: الظهر. والتقديرُ: ولدارُ الحال الآخِرة خيرٌ. وهذا قولُ البصريين[5]، والمرادُ بهذه الدارِ الجنةُ؛ أي: هي خيرٌ للمتقين.

---

(١) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٣٨٠، وتفسير البغوي ٢/ ٤٥٣، والوسيط ٢/ ٦٣٨، والنكت والعيون ٣/ ٨٨، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨٦، وزاد المسير ٤/ ٢٩٥.

(٢) ينظر تفسير الرازي ١٨/ ٢٢٦.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٥٥ - ٥٦. ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٤٧، وما قبله منه.

(٤) البيت في تفسير الطبري ١٣/ ٣٨٢، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٥٦، دون نسبة لقائل.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٧، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨٧، وينظر البحر المحيط ٥/ ٣٥٣.

وقُرئ: «وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ»[١]. وقرأ نافعٌ وعاصم ويعقوب وغيرهم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بالتاء على الخطاب. الباقون بالياء على الخبرِ[٢].

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ تقدَّم القراءةُ فيه ومعناه[٣]. ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ وهذه الآيةُ فيها تنزيهُ الأنبياءِ وعصمتُهم عمَّا لا يليقُ بهم. وهذا البابُ عظيم، وخطرُه جسيم، ينبغي الوقوفُ عليه؛ لئلا يزلَّ الإنسانُ فيكونَ في سواءِ الجحيم. المعنى: وما أرسلنا قبلَك يا محمد إلا رجالاً، ثم لم نعاقب أُمَمهم بالعذاب.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ أي: يَئِسوا من إيمانِ قومِهم، ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ بالتشديد؛ أي: أيقنوا أن قومَهم كَذَّبوهم[٤]. وقيل: المعنى: حَسِبوا أنَّ مَن آمن بهم مِن قومهم كَذَّبوهم[٥]، لا أنَّ الْقَوْم كَذَّبوا، ولكنَّ الأنبياء ظَنُّوا وحسِبوا أنهم يُكذِّبونهم؛ أي: خافوا أن يدخلَ قلوبَ أتباعِهم شكٌّ، فيكون «وَظَنُّوا» على بابِه في هذا التأويل[٦].

وقرأ ابنُ عباس وابنُ مسعود، وأبو عبد الرحمن السُّلَميُّ وأبو جعفر بن القَعْقَاع، والحسن وقَتَادة، وأبو رَجَاء العُطَارِديُّ وعاصم، وحمزة والكسائي، ويحيى بن وَثَّاب والأعمش وخَلَف: «كُذِبُوا» بالتخفيف[٧]؛ أي: ظنَّ القومُ أنَّ الرسل كَذَبوهم فيما

(١) قال البنا في إتحاف فضلاء البشر ص٢٦٢ : ولا خلاف في حرف يوسف أنه بلام واحدة لاتفاق الرسوم عليه.

(٢) السبعة ص٢٥٦ ، والتيسير ص١٣٠ .

(٣) عند الآية ٨٠ في هذه السورة.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٣٢ ، والوسيط للواحدي ٢/ ٦٣٨ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨٧-٢٨٨ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤٥٤ .

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ١٨٠ .

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٨ .

(٧) ينظر السبعة ص٣٥٢ ، والتيسير ص١٣٠ ، وتفسير الطبري ١٣/ ٣٨٣ - ٣٩٢ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨٧ - ٢٨٨ ، والبغوي ٢/ ٤٥٤ ، والوسيط ٢/ ٦٣٨ .

أَخبَروا به من العذابِ، ولم يَصدقُوا.

وقيل: المعنى ظنَّ الأممُ أنَّ الرسلَ قد كَذَبوا فيما وَعدوا به مِن نصرهم(١). وفي رواية عن ابنِ عباس: ظنَّ الرسلُ أنَّ الله أخلف ما وَعدهم. وقيل: لم تصحَّ هذه الروايةُ؛ لأنه لا يُظَنُّ بالرسلِ هذا الظنُّ، ومَن ظنَّ هذا الظنَّ لا يَستحِقُّ النَّصر، فكيفَ قال: ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾(٢)؟!.

قال القُشَيريُّ أبو نصر: ولا يَبعدُ إن صحَّتِ الروايةُ أنَّ المرادَ خَطَرَ بقلوبِ الرسلِ هذا من غيرِ أن يتحقَّقوه في نفوسِهم؛ وفي الخبر: «إنَّ الله تعالى تجاوزَ لأمّتي عمَّا حدَّثت به أنفسها ما لم ينطق به لسانٌ أو تَعمل به»(٣). ويجوزُ أن يُقال: قَرُبوا من ذلك الظنِّ؛ كقولِك: بَلغتُ المنزلَ، أي قَرُبت منه(٤).

وذكر الثعلبيُّ والنحاسُ(٥) عن ابنِ عباس قال: كانوا بشراً فضَعُفوا من طولِ البلاء، ونَسُوا وظنُّوا أنَّهم أُخلِفوا، ثم تلا: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤](٦). وقال الترمذيُّ الحكيم: وجهُه عندنا أنَّ الرسلَ كانت تخافُ بعد ما وعدَ اللهُ النصرَ، لا من تهمةٍ لوعدِ الله، ولكن لتهمةِ النفوس أن تكونَ قد أحدثت حَدَثاً يَنْقُض ذلك الشرطَ والعهدَ الذي عهدَ إليهم، فكانت إذا طالت عليهم المدَّة دخلَهم الإياس والظنونُ من هذا الوجه.

وقال المهدويُّ، عن ابنِ عباس: ظنَّت الرُّسلُ أنهم قد أُخلِفُوا، على ما يلحقُ البشرَ، واستشهدَ بقولِ إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾

(١) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٥٦ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٧ ، والنكت والعيون ٣/ ٨٩ ، وبحر العلوم ٢/ ١٨٠ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٣٢ .

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٣٩٣ - ٣٩٤ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٣٢ ، والكشاف ٢/ ٣٤٧ .

(٣) سلف ١٠/ ٣٠٩ .

(٤) قال مثل قول القشيري أبو منصور الأزهري في تهذيب اللغة ١٠/ ١٦٨ - ١٦٩ .

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٤٦٣ .

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره ١٣/ ٣٩٣ ، وفيه: «يئسوا» بدل «نسوا».

[البقرة: ٢٦٠] الآية. والقراءةُ الأُولى أولى.

وقرأ مجاهد وحميد: «قَدْ كَذَبوا» بفتح الكاف والذال مُخَفَّفاً[١]، على معنى: وظنَّ قومُ الرسلِ أنَّ الرسل قد كَذَبوا، لِمَا رأوا من تفضُّل الله عزَّ وجلَّ في تأخيرِ العذاب[٢].

ويجوزُ أن يكون المعنى: ولمَّا أيقنَ الرسلُ أن قومَهم قد كَذَبوا على الله بكفرهم، جاءَ الرسلَ نصرُنا. وفي البخاريِّ[٣]، عن عروةَ، عن عائشةَ قالت له وهو يسألُها عن قولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ قال: قلت: أكُذِبُوا أم كُذِّبُوا؟ قالت عائشة: كُذِّبوا. قلت: فقدِ استيقَنوا أنَّ قومَهم كذَّبوهم فما هو بالظن؟ قالت: أجَلْ لعمري لقد استيقنوا بذلك، فقلت لها: وظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا، قالت: معاذَ الله! لم تكنِ الرسلُ تظنُّ ذلك بربها. قلت: فما هذه الآيةُ؟ قالت: هم أتباعُ الرسلِ [الذين آمنوا بربهم وصدَّقوهم، فطالَ عليهم البلاءُ، واستأخرَ عنهم النصرُ حتى إذا استيأس الرسلُ] ممن كذَّبهم من قومِهم، وظنَّت الرسلُ أن أتباعهم قد كذَّبوهم جاءهم نصر الله[٤] عندَ ذلك.

وفي قوله تعالى: «جَاءَهُمْ نَصْرُنَا» قولان: أحدُهما: جاء الرسلَ نصرُ الله؛ قاله مجاهد[٥]. الثاني: جاء قومَهم عذابُ الله؛ قاله ابنُ عباس[٦]. ﴿فَنُنۡجِي مَن نَّشَآءُ﴾ قيل: الأنبياء ومَن آمنَ معهم[٧]. ورُوي عن عاصم ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾ بنونٍ واحدةٍ

(١) القراءات الشاذة ص٦٥، والمحتسب ١/ ٣٥٠.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٧، ومعاني القرآن له ٣/ ٤٦٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨٨، والوسيط ٢/ ٦٣٨.

(٣) برقم (٤٦٩٥)، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٤) في النسخ: نصرنا، والمثبت من صحيح البخاري.

(٥) تفسير الطبري ١٣/ ٣٩٨ - ٣٩٩.

(٦) النكت العيون ٣/ ٨٩.

(٧) تفسير الطبري ١٣/ ٤٠١.

مفتوحة الياء، و«مَنْ» في موضع رفعِ اسمِ ما لم يُسمَّ فاعلُه؛ واختار أبو عبيد هذه القراءةَ؛ لأنَّها في مصحف عثمان، وسائرُ مصاحفِ البلدان بنونٍ واحدة[١]. وقرأ ابن مُحَيْصن: «فَنَجَا» فعل ماض. و«مَنْ» في موضع رفع؛ لأنه الفاعل[٢]، وعلى قراءةِ الباقين نصباً على المفعول. ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا﴾ أي: عذابنا. ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الكافرين المشركين[٣].

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ﴾ أي: في قصة يوسفَ وأبيه وإخوته[٤]، أو في قَصص الأمم[٥]. ﴿عِبْرَةٌ﴾ أي: فكرةٌ وتذكرةٌ وعظة. ﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: العقول.

وقال محمد بنُ إسحاق، عن الزهري، عن محمد بنِ إبراهيم بن الحارث التَّيْميّ: إنَّ يعقوب عاشَ مئة سنة وسبعاً وأربعين سنة، وتُوفِّي أخوه عِيصُو معه في يومٍ واحد، وقُبِرا في قبر واحد[٦]؛ فذلك قولُه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ إلى آخر السورةِ. ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أي ما كان القرآنُ حديثاً يفترى، أو ما كانت هذه القصةُ حديثاً يُفترى[٧]. ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: ولكن كان تصديقَ،

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٧، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٥٦، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٣٢، والوسيط للواحدي ٢/ ٦٣٨، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨٨ - ٢٨٩.

(٢) القراءات الشاذة ص٦٥، وتفسير الطبري ١٣/ ٤٠٠.

(٣) تفسير الطبري ١٣/ ٤٠١.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٨٩ - ٩٠، والكشاف ٢/ ٣٤٨.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٩، وتفسير الرازي ١٨/ ٢٢٨.

(٦) ينظر تاريخ الطبري ١/ ٣٣٠، والمعارف ص٣٩ - ٤٠. وسلف هذا الكلام ص٤٦٠ من هذا الجزء.

(٧) النكت والعيون ٣/ ٩٠، والوسيط للواحدي ٢/ ٦٣٩، والكشاف ٢/ ٣٤٨، وزاد المسير ٤/ ٢٩٧.

ويجوزُ الرفعُ بمعنى: لكن هو تصديقُ الذي بين يديه[١] أي: ما كان قبلَه من التوراة والإنجيل وسائِر كتبِ الله تعالى، وهذا تأويلُ مَن زعم أنه القرآن[٢]. ﴿وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ ممَّا يحتاجُ العباد إليه من الحلالِ والحرامِ، والشرائعِ والأحكام[٣]. ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾

تم الجزء الحادي عشر من تفسير القرطبي، ويليه الجزء الثاني عشر ويبدأ بسورة الرعد

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٨.

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٤٠٣، والنكت والعيون ٣/ ٩٠، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٣٣، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٥٦ - ٥٧.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ١٨٠، والوسيط للواحدي ٢/ ٦٣٩، وتفسير البغوي ٢/ ٤٥٤.

سُورَةُ يُوسُفَ

مكيَّةٌ، وآيُها مئةٌ وإحدى عشرةَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ ﴿تِلْكَ﴾ إشارةٌ إلى آياتِ السُّورَةِ وهي المرادُ بـ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: تلك الآياتُ آياتُ السُّورَةِ الظَّاهرُ أمرُهَا في الإعجازِ، أو الواضِحَةُ مَعانيها، أو المُبِينَةُ لِمَن تَدبَّرَها أنَّها مِن عندِ اللهِ، أو لليهودِ ما سألوا، إذ رُوِيَ أن عُلَماءَهُم قالوا لكُبراءِ المُشركينَ: سَلُوا مُحمَّدًا لَمَ انتقلَ آلُ يعقوبَ مِن الشَّامِ إلى مصرَ، وعن قصَّةِ يوسُفَ؟ فنزلَت[1].

(٢) ـ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾؛ أي: الكِتابَ ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ سَمَّى البعضَ قُرآنًا لأنَّه في الأَصلِ اسمُ جنسٍ يقَعُ على الكُلِّ والبعضِ، وصارَ علَمًا للكلِّ بالغلَبَةِ، ونصبُهُ على الحالِ، وهو في نَفسِهِ إمَّا تَوطِئَةٌ للحَالِ الَّتي هي ﴿عَرَبِيًّا﴾، أو الحالُ لأنَّه

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٨٧)، و«معاني القرآن» للنحاس (٣/ ٣٩٦)، «الهداية» لمكي بن أبي طالب (٥/ ٣٤٩٦)، و«تفسير السمرقندي» (٢/ ١٧٨)، و«تفسير البغوي» (٢/ ٤٧٧)، و«لباب التفاسير» للكرماني (٤/ ٣٣٠).

وذكر معناه ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ٤١١) عن الضحاك عن ابن عباس قال: سألت اليهود النبيّ ﷺ، فقالوا: حدّثنا عن أمر يعقوب وولده وشأن يوسف، فأنزل الله عزّ وجلّ: الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ.

مصدَرٌ بمعنى مَفعولٍ، و﴿عَرَبِيًّا﴾ صِفَةٌ له، أو حالٌ مِن الضَّميرِ فيه، أو حالٌ بعدَ حالٍ(١)، وفي كلِّ ذلك خِلافٌ.

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ عِلَّةٌ لإنزالِهِ بهذِهِ الصِّفَةِ؛ أي: أنزلناهُ مَجموعًا أو مقروءًا بلُغَتِكُم كي تَفهَمُوه وتُحيطُوا بمعانيه، وتَستعمِلُوا فيه عُقولَكُم فتَعْلَمُوا أنَّ اقتِصاصَهُ كذلك ممَّنْ لم يتعلَّمِ القَصصَ معجِزٌ لا يُتصوَّرُ إلَّا بالإيحاءِ.

(٣) ـ ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾: أحسنَ الاقتصاصِ؛ لأنَّهُ اقتُصَّ على أبدعِ الأَساليبِ، أو: أحسنَ ما يُقَصُّ لاشتِمالِه على العَجائبِ والحِكَمِ والآياتِ والعِبَرِ، فَعَلٌ بمعنى مَفعولٍ كالنَّفَضِ(٢) والسَّلَبِ، واشتقاقُهُ مِن قصَّ أثرَهُ: إذا اتَّبعَه.

﴿بِمَا أَوْحَيْنَا﴾: بإيحائِنا ﴿إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ يعني: السُّورَةَ.

ويجوزُ أَنْ يُجعلَ ﴿هَذَا﴾ مفعولَ ﴿نَقُصُّ﴾ على أنَّ ﴿أَحْسَنَ﴾ نصبٌ على المَصدَرِ.

﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ عَن هذهِ القِصَّةِ؛ لم تَخطُر ببالكَ ولم

---

(١) قولُهُ: «ونصبُهُ على الحالِ...» قال الشهاب: محصَّلُهُ: أنَّهُ إمَّا حالٌ بعدَ حالٍ، أو ﴿قُرْآنًا﴾ بمعنى «مقروءٍ» فيهِ ضميرٌ مُستتِرٌ و﴿عَرَبِيًّا﴾ حالٌ مِنَ الضَّميرِ المُستتِرِ فهيَ مُتداخلَةٌ، أو ﴿قُرْآنًا﴾ حالٌ و﴿عَرَبِيًّا﴾ صفتُهُ، وحينَئذٍ فهيَ إمَّا مُوطِّئَةٌ أو غيرُ مُوطِّئَةٍ؛ لأنَّها إن أبقيَتْ على جمودِها مِن غيرِ تأويلٍ بالمُشتقِّ فمُوطِّئَةٌ؛ لأنَّ المقصودَ بالحاليَّةِ وصفُها، إذ هيَ لا تبينُ هيئَةً، وإن أوِّلَتْ بِهِ فغيرُ مُوطِّئَةٍ؛ لأنَّ معنى التَّوطئَةِ: أنَّها تنبئُ أنَّ ما بعدَها هوَ المقصودُ بالحاليَّةِ لا أنَّها حالٌ موصوفَةٌ؛ لعدمِ دلالتِها على الهيئَةِ، ولذا عرَّفَ النُّحاةُ الحالَ المُوطِّئَةَ بأنَّها الجامدَةُ الموصوفَةُ نحوُ: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]، ومعنى قولِهِ: «في نفسِهِ»: بقطعِ النَّظرِ عمَّا بعدَهُ، وعن تأويلِهِ بالمُشتقِّ. وقولُهُ: «بمعنى مفعولٍ»؛ أي: مقروءٍ ومجموعٍ.

(٢) النَّفَضُ ـ بالتحريك ـ: ما تساقط من الورق والثمر. انظر: «الصحاح» (مادة: نفض).

تقرَعْ سَمْعَكَ قطُّ، وهو تعليلٌ لكَوْنِه مُوحًى، و«إن» هي المخفَّفَةُ مِن الثَّقيلَةِ واللَّامُ هيَ الفارِقَةُ.

(٤) ـ ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ﴾ بدلٌ مِن ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ ـ إنْ جُعِلَ مَفعولًا ـ بدلَ الاشتمالِ، أو مَنصوبٌ بإضمارِ: اذكُرْ.

و﴿يُوسُفُ﴾ عِبْرِيٌّ، ولو كانَ عَربيًّا لصُرِفَ، وقُرِئَ بفَتحِ السِّينِ وكَسرِهَا[١] على التلعُّبِ بهِ، لا على أنَّه مُضارِعٌ بُنِيَ للمَفعولِ أو الفاعلِ مِن آسَفَ؛ لأنَّ المَشهورةَ شَهِدَت بعُجمَتِه.

﴿لِأَبِيهِ﴾ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ عليهِم السَّلامُ، وعنه عليهِ السَّلامُ: «الكريمُ ابنُ الكريمِ ابنِ الكريمِ ابنِ الكريمِ يوسفُ بنُ يَعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ»[٢].

﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ أصلُهُ: يا أبي، فعُوِّضَ عَن الياءِ تاءُ التَّأنيثِ لتَناسُبِهما في الزِّيادَةِ، ولذلك قلَبَها هاءً في الوقفِ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو ويعقوبُ[٣].

وكسرُها لأنَّها عِوَضُ حرفٍ يُناسِبُها[٤]، وفَتَحَها ابنُ عامرٍ في كلِّ القرآنِ[٥]؛

---

(١) القراءتان في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٦) بكسر السين عن طلحة الحضرمي وابن مصرف وابن وثاب، وفتح السين حكاه الفراء.

(٢) رواه البخاري (٣٣٨٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٤٤)، و«التيسير» (ص: ٦٠ و١٢٧)، و«النشر» (٢/ ١٣١)، وقول المصنف: «أبو عمرو» خطأ والصواب: «ابن عامر» قال الشهاب في «الحاشية»: وخُطِّئ (يعني: البيضاوي) في نسبة الوقف بالهاء إلى أبي عمرو.

(٤) وهو الياء.

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٣٤٤)، و«التيسير» (ص: ١٢٧).

لأنَّها حركةُ أصلِها، أو لأنَّه كانَ: يا أبتا، فحُذِفَ الألِفُ وبقيَ الفتحَةُ، وإنَّما جازَ: «يا أبتَا» ولم يَجُز: «يا أبتي» لأنَّه جمعٌ بينَ العِوَضِ والمعوَّض.

وقُرِئَ بالضَّمِّ[1] إجراءً لها مُجرَى الأسماءِ المؤنَّثَةِ بالتَّاءِ مِن غيرِ اعتبارِ التَّعويضِ، وإنَّما لم تُسَكَّنْ كأصلِها لأنَّها حَرْفٌ صَحيحٌ مُنزَّلٌ مَنزِلَةَ الاسمِ، فيجبُ تَحريكُها ككافِ الخطابِ.

﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾ مِن الرُّؤيَا لا مِن الرُّؤيةِ؛ لقولِه: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾، ولقولِه: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ﴾.

﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ رُوِيَ عَن جابرٍ: أَنَّ يَهودِيًّا جاءَ إلى رَسولِ اللهِ ﷺ فقالَ: أخبِرْني يا محمَّدُ عَن النُّجومِ الَّتي رآهنَّ يوسفُ، فسكتَ، فنزلَ جِبريلُ فأخبرَهُ بذلك، فقالَ: «إذا أخبرتُكَ هل تسلِمُ؟» قالَ نعم، قالَ: «جِريَّان والطَّارقُ والذَّيَّالُ وقابِسٌ وعَمُودان والفَلِيقُ والمصبِّحُ والضَّرُوحُ والفَرْغُ ووَثَّابٌ وذُو الكَتِفَينِ، رآهَا يوسفُ والشَّمسَ والقَمَرَ نزَلْنَ مِن السَّماءِ وسجَدْنَ له» فقالَ اليَهوديُّ: إي واللهِ إنَّها لأسماؤُها[2].

---

(١) نسبها الهذلي في «الكامل» (ص: ٥٧٥) لابن أبي عبلة.

(٢) رواه سعيد بن منصور في «التفسير من سننه» (١١١١)، والبزار كما في «كشف الأستار» (٣/ ٥٣)، وأبو يعلى في «مسنده» كما في «المطالب العالية» (٣٦٣٥)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١١٣٣٢)، وابن حبان في «المجروحين» (١/ ٢٥٠- ٢٥١)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٢٧٧)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٩٧)، من طريق الحكم بن ظهير عن السدي عن عبد الرحمن بن سابط عن جابر به. قال ابن حبان: لا أَصْلَ له مِن حديثِ رسول الله ﷺ، والحكم بن ظهير الفزاريّ الكوفِي كان يشتم أصحاب محمد ﷺ، يَروِي عن الثِّقات الأشياء الموضوعات.

وقال ابن الجوزي: هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ، وكأن واضعه قصد شين الاسلام بمثل =

﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ استئنافٌ لبيانِ حالِهِم الَّتي رآهُم عليها فلا تكريرَ، وإنَّما أُجرِيَت مُجرى العُقَلاءِ لوَصفِها بصِفَاتِهِم.

(٥) ـ ﴿قَالَ يَبُنَيَّ﴾ تصغيرُ ابنٍ، صغَّرَهُ للشَّفقَةِ، أو لصِغَرِ السنِّ لأنَّه كانَ ابنَ اثنتَيْ عشرةَ سنةً. وقرأَ حفصٌ هنا وفي الصافات [١٠٢] بفتح الياء[١].

﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾: فيحتالُوا لإهلاكِكَ حيلةً، فَهِمَ يعقوبُ عليهِ السَّلامُ مِن رُؤياهُ أنَّ اللهَ يَصطفيهِ لرِسالَتِه ويُفوِّقُه على إخوتِهِ فخافَ عليه حسدَهُم وبغيَهُم.

والرُّؤيَا كالرُّؤيَةِ غيرَ أنَّها مُختَصَّةٌ بما يَكونُ في النَّومِ، فُرِّقَ بينَهُمَا بحَرْفَي التَّأنيثِ كالقُربَةِ والقُرْبَى.

وهي: انطباعُ الصُّورَةِ المُنحَدِرَةِ مِن أفقِ المتخيِّلَةِ إلى الحسِّ المشترَكِ، والصَّادقةُ مِنْهَا إنَّما تَكُونُ باتِّصالِ النَّفْسِ بالمَلَكوتِ لِمَا بينَهُمَا مِن التَّناسُبِ عندَ فَراغِها مِن تَدبيرِ البَدَنِ أَدْنَى فراغٍ، فتَتَصوَّرُ بما فيها ممَّا يَلِيقُ بها مِن المَعاني الحاصِلَةِ هناك، ثمَّ إنَّ المُتخيَّلَةَ تحاكِيه بصورَةٍ تُناسِبُه، فترسلُها إلى الحسِّ المشتركِ فتَصيرُ مُشاهَدةً، ثمَّ إنْ كانَتْ شَديدَةَ المُناسبَةِ لذلك المعنى بحيثُ لا يَكونُ التَّفاوُتُ إلَّا بالكُلِّيَّةِ والجُزئيَّةِ استغْنَت الرُّؤيَا عَن التَّعبيرِ، وإلَّا احتاجَتْ إليهِ.

وإنَّما عُدِّي «كادَ» باللَّامِ ـ وهو مُتَعَدٍّ بنَفسِهِ ـ لتَضمُّنِه مَعنى فعلٍ يُعَدَّى بهِ تَأكيدًا، ولذلك أُكِّدَ بالمَصدَرِ وعَلَّلَه بقولِه:

= هذا، وفيه جماعة ليسوا بشيء. وقال الجوزجاني كما في «التهذيب»: الحكم بن ظهير ساقط؛ لميله وأعاجيب حديثه، وهو صاحب حديث نجوم يوسف. قال الشهاب: وتعيينُ هذهِ الكواكبِ وضبطُ أسمائِها لم يتعرَّضوا لهُ هنا، ولم أرَهُ في كلامِ مَن يُوثَقُ به.

(١) انظر: «التيسير» (ص: ١٢٧).

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾: ظاهِرُ العَداوَةِ لِمَا فعلَ بآدمَ وحَوَّاءَ، فلَا يَأْلُو جهدًا في تَسْوِيلِهِم وإثارَةِ الحَسَدِ فيهِم حتَّى يحمِلَهُم على الكيدِ.

(٦) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ أي: وكمَا اجتباكَ لمثلِ هذه الرُّؤيَا الدَّالَّةِ على شرفٍ وعزٍّ وكَمالِ نفسٍ ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ للنبوَّةِ والمُلْكِ، أو لأمورٍ عظامٍ، والاجتباءُ مِن جَبَيتُ الشَّيءَ: إذا حصَّلْتَهُ لنَفسِكَ.

﴿وَيُعَلِّمُكَ﴾ كلامٌ مُبتدأٌ خارجٌ عن التَّشبيهِ، كأنَّه قيلَ: وهو يعلِّمُك ﴿مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾: مِن تَعبيرِ الرُّؤيَا؛ لأنَّها أَحاديثُ المَلَكِ إنْ كانَتْ صادقَةً، وأحاديثُ النَّفسِ أو الشَّيطان إن كانَتْ كاذبةً، أو: من تأويلِ غوامضِ كتبِ اللهِ وسُننِ الأنبياءِ وكلماتِ الحُكماءِ، وهو اسمُ جمعٍ للحَديثِ كأَباطيلَ اسمُ جمعٍ للباطلِ.

﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بالنُّبُوَّةِ، أو بأن يصلَ نعمةَ الدُّنيا بنِعمَةِ الآخرةِ.

﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ يريدُ به: سائرَ بَنيهِ، ولعلَّه استدلَّ على نُبوَّتِهِم بضَوءِ الكَواكبِ، أو: نسلَه[1].

﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ﴾ بالرِّسالَةِ، وقيلَ: على إبراهيمَ بالخلَّةِ والإنجاءِ مِن النَّارِ، وعلى إسحاقَ بإنقاذِهِ مِن الذَّبحِ وفِدائِه بذبحٍ عَظيمٍ[2].

---

(١) «أو نسله» بالنصب عطفاً على «سائرَ بنيه».

(٢) هذا على ما قيل من أنه الذبيح، والصحيح عند أكثر العلماء أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام.
وقال الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٦٠٩): «وقد كنت أرى مشايخ الحديث قبلنا وفي سائر المدن التي طلبنا الحديث فيه وهم لا يختلفون أن الذبيح إسماعيل».
وقال الشهاب في «الحاشية»: وكونُ الذَّبيحِ إسحاقَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ على روايَةٍ، والمشهورُ أنَّهُ إسماعيلُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ.

﴿مِن قَبْلُ﴾: مِن قبلِكَ، أو: مِن قبلِ هذا الوَقتِ ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ عطفُ بيانٍ لـ﴿أَبَوَيْكَ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ بمَنْ يَستَحِقُّ الاجتباءَ ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعَلُ الأشياءَ على ما يَنْبَغِي.

(٧) ـ ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾؛ أي: في قِصَّتِهِم ﴿آيَاتٌ﴾: دلائلُ قُدرَةِ اللهِ وحِكمَتِه، أو: علاماتُ نُبوَّتِكَ. وقرأَ ابن كثير: ﴿آيةٌ﴾[1] ﴿لِّلسَّائِلِينَ﴾: لِمَن سأَلَ عَن قِصَّتِهِم.

والمرادُ بإخوتِه: عَلَّاتُه[2] العشرةُ، وهم: يَهُوذَا ورُوبِيلُ وشَمْعُونُ وَلَاوَى ورِيَالُونَ ويَشْجُرُ ودَيْنَةُ مِن بنتِ خالَتِه لَيَّا تزوَّجَهَا يَعقوبُ أوَّلًا، فلَمَّا تُوُفِّيَتْ تزوَّجَ أُختَهَا راحيلَ فولَدَتْ لهُ بُنْيَامِينَ ويُوسُفَ، وقيلَ: جمعَ بينَهُما ولم يَكُن الجَمْعُ محرمًا حينئذٍ، وأربعةٌ آخرونَ: دَان ونَفْتَالي وجاد وآشُرُ مِن سُرِّيتين: زُلْفَةَ وبُلْهَةَ.

(٨) ـ ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ بُنْيَامِينُ، وتَخصيصُهُ بالإضافَةِ لاختِصاصِهِ بالأخوةِ مِن الطَّرفينِ.

﴿أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا﴾ وحدَهُ؛ لأنَّ «أفعلَ مِن» لا يفرِّقُ فيه بينَ الواحدِ وما فوقَه، والمذكَّرِ وما يقابلُهُ، بخلافِ أَخَويه[3] فإنَّ الفرقَ واجبٌ في المحلَّى جائزٌ في المُضافِ.

﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾: والحالُ أنَّا جماعةٌ أقوياءُ أحقُّ بالمَحبَّةِ مِن صَغِيرينِ لا كفايةَ فيهِما، والعُصْبَةُ والعِصابَةُ: العشرةُ فصاعدًا، سمُّوا بذلك لأنَّ الأمورَ تُعصَبُ بهم.

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ لتفضيلِه المَفضولَ، أو لتركِ التَّعديلِ في المحبَّةِ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٤)، و«التيسير» (ص: ١٢٧).

(٢) العَلَّات: الإخوة لأب.

(٣) قوله: «بخلاف أخويه»؛ أي: أَخَوَي (أَفعَل مِن)، وهما المُحلَّى بـ (أل) كالأفضل، والمضاف كـ: أفضل القوم.

رُوِيَ أنَّه كانَ أحبَّ إليهِ لِمَا يَرَى فيهِ مِن المَخايلِ، وكانَ إخوتُهُ يَحسُدُونَهُ، فلَمَّا رأى الرُّؤيَا ضاعفَ له المحبَّةَ بحيثُ لم يَصبِرْ عنه، فتَبالَغَ حَسَدُهُم حتَّى حَمَلَهُم على التَّعرُّضِ له.

(٩) ـ ﴿ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ ﴾ مِن جُملَةِ المحكيِّ بعدَ قولِه: ﴿ إِذۡ قَالُواْ ﴾ كأنَّهُم اتَّفقُوا على ذلك[١] إلَّا مَن قالَ: ﴿لَا تَقۡتُلُواْ﴾.

وقيلَ: إنَّما قالَهُ شَمْعونُ أو دَان ورَضِيَ بِهِ الآخرونَ.

﴿أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا﴾ منكورةً بعيدةً مِن العُمرانِ، وهو مَعنى تَنكيرِهَا وإبهامِها، ولذلك نُصِبَت كالظُّروفِ المُبهمَةِ.

﴿يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ﴾ جوابُ الأَمرِ، والمَعنى: يَصْفُ لَكُم وَجهُ أَبيكُمْ فيُقبِلْ بكُلِّيَّتِه عَلَيكُم، ولا يلتَفِتْ عَنْكُم إلى غيرِكُم، ولا يُنازِعْكُم في مَحبَّتِهِ أَحدٌ.

﴿وَتَكُونُواْ﴾ جزمٌ بالعَطفِ على ﴿يَخۡلُ﴾، أو نصبٌ بإضمارِ «أنْ».

﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾: مِن بَعدِ يوسُفَ، أو الفراغِ مِن أمرِهِ، أو قَتلِهِ، أو طَرْحِه ﴿قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾: تائبينَ إلى اللهِ عمَّا جَنَيْتُم.

أو: صالحينَ مع أَبِيكُم يَصْلُحُ ما بينكُم وبينَهُ بعذرٍ تَمْهدونَهُ.

أو: صالحينَ في أمرِ دُنياكُمْ فإنَّه يَنتَظِمُ لَكُم بعدَه بخلوِّ وَجهِ أَبيكُم.

(١٠) ـ ﴿ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ﴾ يعني: يَهُوذَا[٢]، وكانَ أحسَنَهُم فيهِ رَأْيًا، وقيلَ: رُوبيلُ[٣]:

---

(١) في نسخة الطبلاوي: «على الأمر»، وفي نسخة التفتازاني: «على ذلك الأمر».

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٠٦) عن السدي.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٠٦)، عن قتادة وابن إسحاق.

﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ فإنَّ القتلَ عَظيمٌ ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾: في قعرِه، سُمِّيَ بها لغَيْبُوبَتِهِ عَن عَينِ النَّاظرِ.

وقرأَ نافعٌ: ﴿في غَيَابَاتِ﴾ في الموضعين على الجَمعِ(١)، كأنَّه لتلكَ الجُبِّ غَياباتٌ.

وقُرِئَ: «غَيْبَةِ»(٢)، و: «غَيَّابات» بالتَّشديدِ(٣).

﴿يَلْتَقِطْهُ﴾: يأخذْهُ ﴿بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾: بعضُ الَّذينَ يَسيرونَ في الأرضِ ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ بمَشُورَتِي، أو: إنْ كُنتُم على أَنْ تَفْعَلُوا ما يُفرِّقُ بينَهُ وبينَ أَبيهِ(٤).

(١١) ـ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾ لِمَ تَخافُنَا عليه ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾: ونحنُ نشفِقُ عليهِ ونُريدُ له الخيرَ؟ أرادوا به استِنزالَهُ عَن رأيِهِ في حفظِهِ مِنْهُم لِمَا(٥) تنسَّمَ مِن حَسَدِهِم.

والمَشهورُ: ﴿تَأْمَنَّا﴾ بالإدغامِ بإشمامٍ، وعَن نافِعٍ تركُ الإشمامِ(٦)،.........

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٤٥)، و«التيسير» (ص: ١٢٧).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٧)، و«المحتسب» (١/ ٣٣٣)، عن الحسن. زاد ابن خالويه نسبتها لمجاهد وهارون عن أبي عمرو.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٧)، و«المحتسب» (١/ ٣٣٣)، عن الأعرج.

(٤) عبارة الزمخشري: «إن كنتُم على أنْ تفعلوا ما يحصل به غرضُكم فهذا هو الرأي». انظر: «الكشاف» (٤/ ٢٤٤).

(٥) «استنزالهُ عن رأيِهِ»؛ أي: تبديلَ رأيِ يعقوبَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ في خوفِهِ عليهِ منهُم، و«لِمَا تنسَّمَ» مُتعلِّقٌ بـ«حفظِهِ». قاله الشهاب.

(٦) وهي خلاف المشهور عنه، والذي قرأ بالإدغام الخالص من غير إشمام من العشرة أبو جعفر، وباقي العشرة بالإدغام والإشمام. للضم. انظر: «السبعة» (ص: ٣٤٥)، و«التيسير» (ص: ١٢٧)، و«النشر» (١/ ٣٠٣).

ومِن الشَّواذِّ تركُ الإدغامِ[١] لأَنَّهُما مِن كَلِمتينِ، و: «تِيمَنَّا» بكسرِ التَّاءِ[٢].

(١٢) ـ ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ إلى الصَّحراءِ ﴿نَرْتَعْ﴾: نتَّسِعْ في أكلِ الفواكِهِ ونحوِها، مِن الرَّتْعَةِ وهي الخِصْبُ ﴿ونَلْعَبْ﴾ بالاستباقِ والانتضالِ.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ: ﴿نَرْتَعِ﴾ بكسرِ العينِ على أنَّه مِن ارْتَعَى يَرْتَعِي، ونافِعٌ بالكسرِ والياءِ فيه وفي ﴿يَلْعَبْ﴾، وقرأَ الكوفيُّونَ ويَعقوبُ بالياءِ والسُّكونِ على إسنادِ الفعلِ إلى يوسفَ[٣].

وقُرِئَ: «يُرْتِعْ»[٤] مِن أرتعَ ماشيَتَهُ.

و: «يَرتَعِ ـ بكسرِ العينِ ـ ويَلْعَبُ» بالرفعِ على الابتداءِ[٥].

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أن ينالَهُ مَكروهٌ.

(١٣) ـ ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾ لشدَّةِ مُفارقَتِه عليَّ وقلَّةِ صبري عنه ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ لأنَّ الأرضَ كانَتْ مَذْأَبَةً.

وقيلَ: رَأَى في المنامِ أنَّ الذِّئبَ قَدْ شدَّ على يوسفَ وكانَ يَحْذَرُهُ عليه.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٧) عن الأعمش، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٢٢٣)، عن طلحة بن مصرف.

(٢) نسبت ليحيى بن وثاب. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٨)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٩٤)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٩٤)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٧)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٢٢٣)، و«البحر» (١٢/ ٢٤).

(٣) قرأ: ﴿نَرْتَعِ ونَلْعَبْ﴾ ابن كثير بخلاف عن قنبل، ﴿نرتعي ونَلْعبْ﴾ قنبل بوجهه الآخر، ﴿نَرْتَعْ ونَلْعَبْ﴾ ابن عامر وأبو عمرو، ﴿يَرْتَعِ ويَلْعَبْ﴾ نافع وأبو جعفر، ﴿يَرْتَعْ ويَلْعَبْ﴾ باقي العشرة. انظر: «التيسير» (ص: ١٢٨)، و«النشر» (٢/ ٢٩٣ و٢٩٧).

(٤) انظر: «المحتسب» (١/ ٣٣٣) عن أبي رجاء.

(٥) انظر: «المحتسب» (١/ ٣٣٣)، و«الكشاف» (٤/ ٢٤٥)، عن العلاء بن سَيَابة.

وقد هَمَزَها على الأصل ابنُ كثير، ونافعٌ في رواية قالون، وعاصمٌ وابنٌ عامر، درجًا ووقفًا، وحمزة درجًا[1].

واشتِقاقُهُ مِن تَذاءَبَت الرِّيحُ: إذا هبَّتْ[2] مِن كلِّ جِهَةٍ.

﴿وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ لاشتِغالِكُم بالرَّتْعِ واللَّعبِ، أو لقلَّةِ اهتِمامِكُم بحفظِهِ.

(١٤) ـ ﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ اللَّامُ مُوَطِّئَةٌ للقَسمِ، وجوابُه: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾: ضعفاءُ مَغبونونَ، أو: مُستَحِقُّونَ لأنَّ يُدْعَى عليهم بالخسارِ، والواوُ في ﴿وَنَحْنُ﴾ للحالِ.

(١٥) ـ ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾: وعَزَمُوا على إلقائِهِ فيها، والبئرُ: بئرُ بيتِ المقدِسِ، أو بئرٌ بأرضِ الأُردُنِّ، أو بينَ مِصرَ ومَدْيَنَ، أو على ثلاثةِ فراسِخَ مِن مقامِ يعقوبَ، وجَوابُ «لَمَّا» محذوفٌ مثلَ: فَعَلُوا به ما فَعَلُوا مِن الأذى.

فقَدْ رُوِيَ أنَّهُم لَمَّا بَرَزُوا بهِ إلى الصَّحراءِ أخذُوا يُؤذونَهُ ويضربونَهُ حتَّى كادُوا يقتلونَهُ، فجعلَ يَصيحُ ويستغيثُ، فقالَ يهوذَا: أمَا عاهَدْتُموني أن لَا تَقتلوهُ؟! فأتَوْا بهِ إلى البئرِ فدَلَّوه فيها فتَعلَّقَ بشَفيرِهَا، فربَطُوا يديهِ ونَزَعُوا قميصَهُ ليلطِّخوهُ بالدَّمِ

---

(١) اختلفت النسخ هنا اختلافًا كثيرًا، والمثبت من نسخة أثبتها الأنصاري في «الحاشية» (٣/ ٢٧٣) وقال: «نُسَخُ الكتابِ هنا مختلفةٌ بزيادة ونقص، وأقربُها إلى الصحة ما ذُكِر مع أن أبا عمرو يهمزُ من رواية الدوري». وانظر تفصيل مذهب أبي عمرو في هذه المسألة في «النشر» لابن الجزري (١/ ٣٩١ـ٣٩٤).

وملخص ما جاء في هذه القراءة من المتواتر: ورش والكسائيُّ وأبو عَمْرو بخُلفه بغير همز، ووقفًا حمزة، والباقون بالهمز في الحالين. انظر: «السبعة» (ص: ٣٤٦)، و«التيسير» (ص: ١٢٨).

(٢) في نسخة الخيالي: «إذا أقبلت»، وفي «الكشاف» (٤/ ٢٤٦): «أتت»، والمعنى واحد في الجميع.

ويَحتالوا بهِ على أَبيهِمْ، وقالَ: يا إخوتاهُ! رُدُّوا علي قميصِي أتوارَى به، فقالوا: ادعُ الأحدَ عشرَ كَوْكَبًا والشَّمسَ والقمرَ يُلبسوكَ ويُؤنِسُوكَ، فلَمَّا بلغَ نصفَها أَلْقوهُ وكانَ فيها ماءٌ فسقطَ فيه، ثمَّ أوى إلى صخرةٍ كانَتْ فيها فقامَ عليها يبكي[١].

فجاءَهُ جِبريلُ بالوحيِ كما قالَ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ وكانَ ابنَ سبعَ عشرةَ سنَةً[٢].

وقيلَ: كانَ مُراهِقًا أُوحِيَ إليه في صِغَرِه كما أُوحِيَ إلى يحيى وعِيسَى عليهِمَا السَّلامُ.

وفي القصصِ: أنَّ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ حينَ أُلْقِيَ في النَّارِ جرِّدَ عَن ثيابِه، فأتاهُ جِبريلُ بقَميصٍ مِن حريرِ الجنَّةِ فألبسَهُ إيَّاه، فدفعَهُ إبراهيمُ إلى إسحاقَ، وإسحاقُ إلى يعقوبَ فجعلَهُ في تَميمَةٍ علَّقَها بيُوسُفَ، فأخرجَهُ جبريلُ وألبسَهُ إيَّاه[٣].

﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾: لتُحَدِّثنَّهُم بما فعلُوا بك ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنَّك يوسفُ؛ لعُلُوِّ شَأنِكَ وبعدِهِ عَن أوهامِهِم، وطولِ العَهدِ المغيِّرِ للحُلَى والهيئاتِ، وذلك إشارةٌ إلى ما قالَ لَهُم بمِصرَ حينَ دَخلوا عليهِ مُمتارينَ فعرَفَهُم وهم لهُ مُنكِرُونَ، بشَّرَه بما يَؤُولُ إليه أمرُهُ إيناسًا له وتَطييبًا لقلبِهِ.

وقيلَ: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ مُتَّصِلٌ بـ﴿أوحينا﴾؛ أي: آنسناهُ بالوَحيِ وهُمْ لا يَشعرونَ ذلك.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٩) عن السدي. وهو من الإسرائيليات؛ قال أبو حيان في «البحر» (١٢/ ٤٢٥): ذكر المفسرون أشياء تتضمن كيفية إلقائه في غيابة الجبِّ ومحاورته لهم بما يلين الصخر، وهم لا يزدادون إلَّا قساوة، ولم يتعرض القرآن الكريم ولا الحديث الصحيح لشيء منها.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣٦٠) عن الحسن.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٥١٢) دون راو ولا سند.

(١٦) ـ ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ﴾: آخرَ النَّهارِ. وقُرِئَ: «عُشَيًّا» وهو تَصغيرُ عَشِيٍّ[(١)].

و: «عُشًى» بالضَّمِّ والقَصرِ جمعُ أَعْشَى[(٢)]؛ أي: عُشْوًا[(٣)] مِن البُكاءِ.

﴿يَبۡكُونَ﴾: مُتباكينَ.

رُوِيَ أنَّه لَمَّا سَمِعَ بُكاءَهُم فزِعَ وقالَ: ما لَكُم يا بنيَّ وأينَ يوسُفُ؟

(١٧) ـ ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾ نتسابقُ في العَدْوِ أو الرَّمي ـ وقد يشتركُ الافتعالُ والتَّفاعلُ كالانتضالِ والتَّناضُلِ ـ ﴿وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾: بمصدِّقٍ لنا ﴿وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾؛ لِسُوءِ ظَنِّكَ بِنا وفَرطِ مَحبَّتِكَ ليُوسُفَ.

(١٨) ـ ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖ﴾؛ أي: ذِي كَذِبٍ، بمعنى: مَكذوبٍ فيه، ويجوزُ أن يكونَ وَصْفًا بالمصدرِ للمُبالغَةِ[(٤)].

وقُرِئَ: بالنَّصبِ[(٥)] على الحالِ مِن الواوِ؛ أي: جاؤُوا كاذِبينَ.

و: «كَدِبٍ» بالدَّالِ غيرِ المعجمَةِ[(٦)]؛ أي: كَدِرٍ، أو: طَرِيٍّ، وقيلَ: أصلُهُ

---

(١) انظر: «الكشاف» (٤/ ٢٤٩)، و«البحر» (١٢/ ٤٢٨)، عن الحسن.

(٢) رواه عيسى بن ميمون عن الحسن. انظر: «المحتسب» (١/ ٣٣٥).

(٣) بوزن: حُمْرًا، أشار إلى أن القياس أن يكون هكذا، لكن على خلاف القياس جاء: (عُشًى). انظر: «حاشية القونوي» (١٠/ ٢٧٣).

(٤) فهو كقولك: «رجل عدل» إما أن يكون بتقدير مضاف؛ أي: ذو عدل، أو أنك وصفته بالمصدر نفسه للمبالغة؛ لأن في الوصف بالمصدر من المبالغة ما ليس في المشتق.

(٥) انظر: «الكامل» للهذلي (ص: ٥٧٥) عن ابن أبي عبلة، و«البحر» (١٢/ ٤٣٠) عن زيد بن علي.

(٦) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٧)، و«المحتسب» (١/ ٣٣٥)، كلاهما عن الحسن، وزاد ابن خالويه نسبتها لابن عباس، وهي في «الكشاف» (٤/ ٢٥١) عن عائشة، وفي «البحر» (١٢/ ٤٣٠) عن عائشة والحسن.

البَيـاضُ الخـارِجُ عَـن أظفـارِ الأَحـداثِ، فشـبِّهَ بـه الـدَّمُ اللاصِـقُ علـى القَميصِ.

و﴿عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾ في مَوضعِ النَّصبِ على الظَّرفِ؛ أي: فوقَ قميصِه، أو على الحالِ مِن الدَّمِ إن جوِّزَ تَقديمُهَا على المجرورِ.

رُوِيَ: أنَّه لَمَّا سَمِعَ بخبرِ يوسُفَ صاحَ وسأَلَ قَمِيصَهُ[1]، فأخذَهُ وألقاهُ على وجهِهِ وبَكَى حتَّى خضَّبَ وَجهَهُ بدمِ القَميصِ وقالَ: ما رأيتُ كاليومِ ذئبًا أحلمَ مِن هذا، أكلَ ابنِي ولم يُمزِّقْ عليهِ قَمِيصَهُ[2]؟!

ولذلك ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾؛ أي: سَهَّلَت لَكُم وهَوَّنَت في أَعيُنِكُم أمرًا عظيمًا، مِن السَّوَلِ وهو الاسترخاءُ.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾؛ أي: فَأَمْرِي صَبرٌ جَميلٌ، أو: فصَبْرٌ جَميلٌ أجمَلُ، وفـي الحديثِ: «الصَّبرُ الجَميلُ: الَّذي لا شَكْوَى فيه»[3]؛ أي: إلى الخلقِ.

﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾: على احتمالِ ما تَصِفُونَه مِن هَلاكِ يوسُفَ، وهذهِ الجريمَةُ كانَتْ قبلَ استِنْبَائِهِم إن صَحَّ.

(١٩) ـ ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾: رُفقَةٌ يسيرونَ مِن مدينَ إلى مِصرَ، فنزَلُوا قريبًا مِن الجُبِّ وكانَ ذلك بعدَ ثلاثٍ مِن إلقائِهِ فيه.

﴿فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ﴾ الَّذي يَرِدُ الماءَ ويَسْتَسْقِي لهم، وكانَ مالكَ بن ذُعرٍ الخُزَاعِيَّ.

---

(١) أي: طلبه.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣٧) عن الحسن والشعبي. وتعقب ابن كمال باشا في «تفسيره» عند هذه الآية هذا القول بقوله: كذا قالوا، والذي عندي: أن أمارة الكذب قلةُ الدم المفهومةُ من التَّنكير، ومن التعبير بكونه على القميص، ولو كانت الأمارة عدمَ تمزُّق القميص لكان هو بالتعرُّض أحقَّ.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١١٢)، عن حبان بن أبي جبلة مرسلاً.

﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾: فأرسَلَهَا في الجُبِّ ليَمْلَأَها، فتَدَلَّى بها يوسفُ، فلَمَّا رآهُ ﴿قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ﴾ نادَى البُشْرَى بشارةً لنَفسِه أو لقومِه، كأنَّه قالَ: تَعالَي فهذا أوانُكِ، وقيلَ: هو اسمُ صاحبٍ له ناداهُ ليُعينَهُ على إخراجِهِ.

وقرأ غيرُ الكُوفِيِّينَ: ﴿يا بُشرايَ﴾ بالإضافة[١].

وقُرِئَ: «يا بشريَّ» بالإدغامِ[٢]، وهو لُغَةٌ.

و: ﴿بشرايْ﴾ بالسُّكونِ[٣] على قصدِ الوَقفِ.

﴿وَأَسَرُّوهُ﴾؛ أي: الواردُ وأصحابُه مِن سائرِ الرُّفقَةِ.

وقيلَ: أخفُوا أمرَهُ وقالوا لَهُم: دفعه إلينَا أهل الماءِ لنبيعَهُ لهم بمصرَ.

وقيلَ: الضَّميرُ لإخوَةِ يوسُفَ، وذلك أن يَهوذَا كانَ يأتيهِ كلَّ يومٍ بالطَّعامِ، فأتاهُ يومئذٍ فلَمْ يَجِدْه فيها فأخبرَ إخوتَهُ، فأتوا الرُّفقَةَ قالُوا: هذا غلامُنَا أَبَقَ مِنَّا، فاشتَرَوهُ، وسكتَ يوسُفُ مخافةَ أَنْ يقتلوهُ[٤].

﴿بِضَـٰعَةً﴾ نصبٌ على الحالِ؛ أي: أَخْفَوهُ مَتاعًا للتِّجارَةِ، واشتِقاقُه مِن البَضْعِ فإنَّه ما بُضِعَ مِن المالِ للتِّجارَةِ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٤٧)، و«التيسير» (ص: ١٢٨).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٧) عن ابن أبي إسحاق، و«المحتسب» (١/ ٣٣٥) عنه وعن الحسن وأبي الطفيل والجحدري.

(٣) وهي رواية لورش عن نافع. انظر: «السبعة» (ص: ٣٤٧).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٩) عن ابن عباس بإسناد ضعيف، وذكره ابن كمال باشا في «تفسيره» عند هذه الآية، ثم تعقبه بقوله: ولا يخفى ما فيه من الاختلال لحُسن نظم المقال، والإشكالِ من جهة أن التعبير المذكورَ لا يناسب الحال.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ لم يَخْفَ عليه إسرارُهُم، أو صنيعُ إخوةِ يوسُفَ بأبيهِمْ وأَخيهِمْ.

(٢٠) ـ ﴿وَشَرَوۡهُ﴾: وباعوهُ، وفي مرجعِ الضَّميرِ الوجهانِ، أو: اشتَروهُ مِن إخوَتِه.

﴿بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ﴾: مبخوسٍ؛ لزَيْفِهِ أو نقصانِه ﴿دَرَٰهِمَ﴾ بدلٌ مِن الثَّمنِ ﴿مَعۡدُودَةٖ﴾: قليلةٍ، فإنَّهُم كانُوا يَزِنونَ ما بلغَ الأوقيَّةَ ويَعُدُّونَ ما دونَها[1].

قيلَ: كانَ عِشرينَ درهمًا، وقيلَ: اثنينِ وعِشرينَ.

﴿وَكَانُواْ فِيهِ﴾: في يوسفَ ﴿مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾: الرَّاغبينَ عَنه، والضَّميرُ في «كانوا» إن كانَ للإخوةِ فظاهرٌ، وإن كانَ للرفقَةِ وكانُوا بائِعينَ فزُهْدُهم فيه: أنَّهُم الْتَقَطوهُ، والملتقِطُ للشَّيءِ مُتهاوِنٌ به خائِفٌ مِن انتزاعِهِ مُستعجِلٌ في بيعِه، وإِنْ كانُوا مُتبايِعِينَ فلأنَّهُم اعتَقَدُوا أنَّه آبِقٌ.

و﴿فِيهِ﴾ مُتعلقٌ بـ﴿ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ إنْ جُعلَ اللَّامُ للتَّعريفِ، وإن جعلَ بمَعْنى «الذي» فهو مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ يبيِّنُهُ: ﴿ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ لأنَّ مُتعلَّقَ الصِّلَةِ لا يتقدَّمُ على الموصولِ.

(٢١) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ﴾ وهو العَزيزُ الَّذي كانَ على خَزائنِ مِصرَ واسمُهُ: قطفيرُ، أو إِطْفيرُ، وكانَ الملكُ يومئذٍ ريَّانَ بنَ الوليدِ العِمْليقيَّ، وقد آمنَ بيوسُفَ وماتَ في حياتِه.

وقيلَ: كانَ فرعونَ مُوسى، عاشَ أربعَ مئةٍ بدليلِ قوله: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [غافر: ٣٤]، والمشهورُ أنَّه مِن أَولادِ فِرعونِ يوسُفَ، والآيةُ مِن قَبيلِ خِطابِ الأولادِ بأحوالِ الآباءِ.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «دونه».

رُوِيَ أَنَّه اشتراهُ العَزيزُ وهو ابنُ سبعَ عَشْرَةَ سَنَةً، ولبِثَ في مَنزِلِهِ ثلاثَ عَشْرَةَ سَنَةً، واسْتَوْزَرَهُ الريَّانُ وهو ابنُ ثلاثينَ، وآتاهُ اللهُ العِلمَ والحِكمةَ وهو ابنُ ثلاثٍ وثلاثين سنةً، وتُوفِّيَ وهو ابنُ مئةٍ وعشرينَ سَنةً.

واختَلفَ فيما اشتراهُ به مَن جعلَ شِراءَهُ غيرَ الأَوَّلِ؛ فقيلَ: عِشرونَ دِينارًا وزوجا نعلٍ وثوبانِ أبيضانِ. وقيلَ: مثلُه[1] فضَّةً، وقيلَ: ذهبًا.

﴿لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ﴾ راعيلَ أو زَلِيخَا: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾: اجعَلِي مقامَهُ عندنا كريمًا؛ أي: حسنًا، والمعنى: أحسنِي تَعَهُّدَه ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ في ضِياعِنَا وأموالِنَا ونستظهرَ به في مَصالِحِنا ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ نتبنَّاه -وكانَ عَقِيمًا- لِمَا تفرَّسَ فيه مِن الرُّشدِ، ولذلك قيلَ:

أفرسُ النَّاسِ ثلاثةٌ: عزيزُ مِصرَ، وابنةُ شُعَيبٍ الَّتي قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُ﴾ [القصص: ٢٦]، وأبو بكرٍ حينَ استخلَفَ عُمرَ رضيَ اللهُ عنه[2].

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: وكما مَكَّنَّا محبَّتَهُ في قلبِ العَزيزِ، أو: كما مكَّنَّاهُ في منزِلِهِ، أو: كما أنجَيْنَاهُ وعَطَفْنَا عليه العزيزَ= مكنَّا له فيهَا.

﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ عطفٌ على مُضمَرٍ تَقديرُهُ: ليَتصرَّفَ فيهَا بالعَدْلِ ولِنُعَلِّمَه؛ أي: كانَ القَصدُ في إنجائِهِ وتَمكينِه أن يُقيمَ العَدْلَ ويُدبِّرَ أمورَ النَّاسِ، ويُعلِّمَ مَعانِيَ كتبِ اللهِ وأحكامَهُ فيُنفِّذَها، أو: تعبيرَ المَناماتِ المُنبِّهةِ عَن الحَوادثِ الكائِنَةِ؛ ليستَعِدَّ لَهَا ويشتَغِلَ بتَدبيرِهَا قبلَ أَنْ تحلَّ كما فعلَ بسنِيِّه[3].

---

(١) «مثله»؛ أي مثل وزنه.

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٢٧٣)، وسعيد بن منصور في التفسير من «سننه» (١١١٣)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٧٠٥٨)، وابن الجعد في «مسنده» (٢٥٥٥)، والطبراني في «الكبير» (٨٨٢٩)، والحاكم في «المستدرك» (٤٥٠٩) وصححه، عن ابن مسعود موقوفاً.

(٣) قولُهُ: «كما فعلَهُ بسِنيِّهِ» قال الشهاب في «الحاشية»: بكسرِ السِّينِ والنُّونِ، وتشديدِ الياءِ: جمعُ سَنَةٍ =

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ لا يردُّهُ شَيءٌ ولا ينازِعُهُ فيما يَشاءُ، أو: على أمرِ يوسُفَ؛ أرادَ بهِ إخوةُ يُوسُفَ شيئًا وأرادَ اللهُ غيرَهُ فلَمْ يَكُن إلَّا ما أرادَ اللهُ.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنَّ الأمرَ كُلَّهُ بيدِهِ، أو: لطائفَ صُنعِهِ وخفايا لُطفِه.

(٢٢) ـ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾: مُنتَهى اشتدادِ جسمِهِ وقُوَّتِه، وهو سِنُّ الوُقوفِ ما بينَ الثَّلاثينَ والأربعينَ، وقيلَ: سِنُّ الشَّبابِ ومَبدَؤُهُ بُلوغُ الحُلُمِ.

﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمًا﴾: حكمةً، وهو العِلْمُ المُؤيَّدُ بالعملِ، أو: حكمًا بينَ النَّاسِ.

﴿وَعِلۡمًا﴾ يعني: عِلْمَ تَأويلِ الأحاديثِ.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ تنبيهٌ على أنَّه تَعالى إنَّما آتاهُ ذلك جزاءً على إحسانِهِ في عَمَلِه واتِّقائِهِ في عُنفوانِ أمرِهِ.

(٢٣) ـ ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾: طلَبَتْ مِنه وتَمحَّلَتْ أَنْ يُواقِعَهَا، مِن رادَ يَرُودُ: إذا جاءَ وذهبَ لطَلَبِ شَيءٍ، ومِنْهُ: الرَّائِدُ.

﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ قيلَ: كانَتْ سبعةً، والتَّشديدُ للتَّكثيرِ، أو للمُبالغَةِ في الإيثاقِ.

﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَ﴾؛ أي: أقبِلْ وبادِرْ، أو: تَهَيَّأْتُ، والكَلِمَةُ على الوجهينِ اسمُ فعلٍ بُنِيَ على الفتحِ كـ«أين»، واللَّامُ للتَّبيينِ كالتي في «سَقيًا لك»[(١)].

وقرأ ابنُ كثيرٍ بضَمِّ التَّاء وفتح الهاء تَشبيهًا له بـ«حيثُ»، ونافِعٌ وابنُ عامرٍ بروايةِ

= بمعنى القحطِ أو بمعنى العامِ، والإضافَةُ إليهِ لأدنى مُلابسَةٍ.

(١) قوله: «سقياً لك» اللام فيه للبيان، وليست متعلقة بالمصدر بل بمحذوف تقديره: أعني لك.

ابن ذكوانَ بفتحِ التَّاء وكسرِ الهاءِ من غيرِ همزٍ كعِيطَ وهي لغةٌ فيه، وقرأَ هشامٌ كذلك إلَّا أنَّه بهمزٍ، وقد روي عنه ضمُّ التَّاء[1].

وقُرِئَ: «هَيْتِ» كجَيْرِ[2].

و: ﴿هِئْتُ﴾ كجِئْتُ مِن هاءَ يَهِيءُ: إذا تَهَيَّأَ[3]، وقُرِئَ: «هُيِّئْتُ لك»[4]، وعلى هذا فاللامُ من صِلَتِه.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾: أعوذُ بالله معاذًا ﴿إِنَّهُۥ﴾: إنَّ الشَّأنَ ﴿رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾ سيِّدي قِطفيرُ أحسَنَ تعهُّدِي إذ قالَ لكِ فيَّ: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾، فمَا جزاؤُهُ أن أخونَهُ في أهلِه.

وقيلَ: الضَّميرُ للهِ؛ أي: خالقي أحسنَ مَنزِلَتِي بأنْ عطَّفَ عليَّ قلبَهُ، فلا أَعصيهِ.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: المجازُونَ الحسنَ بالسَّيِّئِ.

وقيلَ: الزناةُ، فإنَّ الزِّنَا ظلمٌ على الزَّاني والمَزْنِيِّ بأهلِهِ.

(٢٤) ـ ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا﴾: قصدَتْ مُخَالَطَتَهُ وقَصَدَ مُخالَطَتَها، والهَمُّ بالشَّيءِ: قَصْدُهُ والعَزمُ عليه، ومنهُ: الهُمَامُ، وهو الَّذي إذا هَمَّ بشَيءٍ أمضَاهُ.

والمرادُ بهَمِّهِ: ميلُ الطَّبعِ ومُنازعَةُ الشَّهوَةِ لا القَصدُ الاختياريُّ، وذلك ممَّا لا

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٤٧)، و«التيسير» (ص: ١٢٨).

(٢) أي: بفتح الهاء وكسر التَّاء، نسبت لنصر بن عاصم ويحيى بن يعمر وعبد الله بن أبي إسحاق وابن محيصن وابن عباس بخلاف وعيسى الثقفي. انظر: «المحتسب» (١/ ٣٣٧)، و«تفسير الثعلبي» (١٤/ ٥٤٢).

(٣) هي رواية عن هشام كما تقدم.

(٤) انظر: «المحتسب» (١/ ٣٣٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

يَدخلُ تحتَ التَّكليفِ، بل الحقيقُ بالمَدحِ والأَجرِ الجَزيلِ مِن اللهِ مَن يَكُفُّ نفسَهُ عن الفعلِ عندَ قِيامِ هذا الهَمِّ أو مشارَفَةِ الهمِّ؛ كقولِك: قتَلْتُهُ لَوْ لم أَخَفِ اللهَ.

﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ في قُبحِ الزِّنَا وسُوءِ مَغبَّتِه لخالَطَها؛ لشَبَقِ الغُلمَةِ وكثرةِ المُبالغَةِ، ولَا يجوزُ أَنْ يُجعَلَ ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ جوابَ ﴿لَوْلَآ﴾ فإنَّها في حُكمِ أَدَواتِ الشَّرطِ فلا يتقدَّمُ عليها جوابُها بَل الجوابُ مَحذوفٌ يُدَلُّ عليهِ(١).

وقيلَ: رأى جِبريلَ.

وقيلَ: تمثَّلَ له يَعقوبُ عاضًا على أَنامِلِه، وقيلَ: قِطفيرُ.

وقيلَ: نُودِيَ: يا يوسفُ أنتَ مَكتوبٌ في الأنبياءِ وتعملُ عملَ السُّفهاءِ(٢).

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثلَ ذلك التَّثبيتِ ثبَّتْنَاه، أو: الأمرُ مثلُ ذلك.

﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ﴾: خيانةَ السَّيِّدِ ﴿وَٱلْفَحْشَآءَ﴾: الزِّنا ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾: الَّذينَ أخلَصَهُم اللهُ لطاعَتِه. وقرأَ ابنُ كَثيرٍ وأبو عمرٍو وابنُ

---

(١) قولُهُ: «بلِ الجوابُ محذوفٌ يدلُّ عليهِ» وهوَ قولُهُ: (لخالَطَها) كما تقدم.

(٢) وهذا القيلُ وأمثاله من الخرافات والأباطيل التي لا مصدر لها سوى افتراءات أهل الكتاب وأكاذيبهم، وقد قال أبو حيان: طول المفسرون في تفسير هذين الهمين، ونسب بعضهم ليوسف ما لا يجوز نسبته لآحاد الفساق.

قال: وأما أقوال السلف فنعتقد أنه لا يصح عن أحد منهم شيء من ذلك؛ لأنها أقوال متكاذبة يناقض بعضها بعضاً، مع كونها قادحة في بعض فساق المسلمين، فضلاً عن المقطوع لهم بالعصمة.

قال: وقد طهرنا كتابنا هذا عن نقل ما في كتب التفسير مما لا يليق ذكره، واقتصرنا على ما دل عليه لسان العرب ومساق الآيات التي في هذه السورة مما يدل على العصمة وبراءة يوسف عليه السلام من كل ما يشين. انظر: «البحر» (١٢/ ٤٤٥).

عامرٍ ويعقوبُ بالكَسرِ في كلِّ القُرآنِ إذا كانَ في أولِه ألفٌ ولامٌ[1]؛ أي: الَّذينَ أخلَصُوا دينَهُم للهِ تَعالى.

(٢٥) ـ ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾؛ أي: تَسابَقَا إلى البابِ، فحُذِفَ الجارُّ أو ضُمِّنَ الفِعلُ مَعنى الابتداءِ، وذلك أَنَّ يوسُفَ فرَّ مِنْهَا ليخرج وأسرعَتْ وراءَه لتمنعَهُ الخروجَ.

﴿وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ﴾: اجتذَبَتْهُ مِن وَرائِه فانقَدَّ قَميصُهُ، والقَدُّ: الشَّقُّ طُولًا، والقَطُّ: الشَّقُّ عَرْضًا.

﴿وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا﴾: وصادَفَا زَوجَها ﴿لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ إيهامًا بأَنَّهَا فرَّتْ مِنهُ تبرئةً لسَاحَتِها عندَ زَوجِها وتغييرِه على يُوسُفَ وإغرائِه به انتقامًا منه، و﴿مَا﴾ نافيَةٌ، أو استِفهامِيَّةٌ بمعنى: أيُّ شيءٍ جَزاؤُهُ إلَّا السِّجنُ؟

(٢٦) ـ ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِي﴾: طالَبَتْنِي بالمُؤاتاةِ، وإنَّما قالَ ذلكَ دَفعًا لِمَا عَرَّضَتْه لهُ مِن السِّجنِ أو العَذابِ، ولو لم تَكذِبْ عليهِ ما قالَه.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ قيلَ: ابنُ عَمِّها، وقيلَ: ابنُ خالٍ لها صَبيًّا في المهدِ.

وعن النَّبيِّ ﷺ: «تكلَّمَ أربعةٌ صِغارًا: ابنُ ماشِطَةِ فِرعَوْنَ، وشاهِدُ يُوسُفَ، وصاحِبُ جُرَيجٍ، وعِيسَى عليهِ السَّلامُ»[2].

---

(١) انظر: «التيسير» (ص: ١٢٨)، و«النشر» (٢/ ٢٩٥).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٨٢٢)، والبزار (٢٤ ـ كشف)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٠٦)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً.
ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٨٢١)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٩٠٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٢٧٩)، عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً. إلا أنه في رواية ابن حبان قال بدل «شاهد يوسف»: «والرابع لا أحفظه». =

وإنَّمَا ألقى اللهُ الشَّهادةَ على لسانِ أهلِها لتكونَ ألزمَ علَيْهَا.

﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ لأنَّه يَدلُّ على أنَّها قَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن قُدَّامِهِ بالدَّفعِ عن نَفسِهَا، أو أنَّه أسرعَ خلفَها فتعثَّرَ بذَيلِهِ فانقَدَّ جَيبُهُ.

(٢٧) ـ ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ لأنَّه يَدُلُّ على أنَّها تَبِعَتْه فاجتَذَبَتْ ثوبَهُ فقَدَّتْهُ، والشَّرطيَّةُ محكيَّةٌ على إرادةِ القَوْلِ، أو على أنَّ فِعلَ الشَّهادةِ مِن القولِ، وتسميتُها شهادةً لأنَّها أَدَّت مُؤدَّاها، والجمعُ بينَ ﴿إِن﴾ و﴿كَانَ﴾ على تأويلِ: «إن يُعْلَمْ أنَّه كانَ» ونحوِه، ونظيرُه قولُك: «إن أحسَنْتَ إليَّ فقَدْ أَحْسَنْتُ إليكَ مِن قَبْلُ»، فإنَّ مَعناه: إنْ تَمْنُنْ عَليَّ بإحسانكَ أَمْنُن عَليكَ بإحساني السَّابقِ.

وقُرِئَ: «من قُبُلُ» و«مِن دُبُرُ» بالضَّمِّ[١] لأنَّهما قُطِعَا عَن الإضافةِ كقَبْلُ وبَعْدُ، وبالفتحِ[٢] كأنَّهُما جُعِلَا عَلَمينِ للجِهَتينِ فمُنِعَا الصَّرفَ، وبسُكونِ العَينِ[٣].

= وروى البخاري (٣٤٣٦)، ومسلم (٢٥٥٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة...» فذكر عيسى، وصاحب جريج، وابن المرأة التي مر عليها الراكب ذو الشارة، وروى مسلم (٣٠٠٥) من حديث صهيب قصة أصحاب الأخدود، وفيه ذكر تكلُّم ولد المرأة التي أحرقت في الأخدود. فصار ما ذكر في الصحيحين أربعة، ومع حديث ابن عباس يكونون ستة.

(١) نسبت ليحيى بن يعمر وابن أبي إسحاق والجارود بن أبي سبرة وغيرهم. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٧)، و«المحتسب» (١/ ٣٣٨)، و«البحر» (١٢/ ٤٥١).

(٢) أي: (من قبُلَ) و: (من دبُرَ). انظر: «الكشاف» (٤/ ٢٧٠)، و«البحر» (١٢/ ٤٥١)، عن ابن أبي إسحاق.

(٣) يعني: بسكون الباء فيهما مع البناء على الضم، نسبت ليحيى بن يعمر وابن أبي إسحاق والجارود في رواية عنهم. انظر: «الكشاف» (٤/ ٢٧٠)، و«البحر» (١٢/ ٤٥١).

(٢٨) ـ ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ﴾: إن قولَكِ: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ أو: إنَّ السُّوءَ، أو: إنَّ هذا الأمرَ ﴿مِن كَيْدِكُنَّ﴾: مِن حِيلَتِكُنَّ، والخِطابُ لها ولأَمثالِها، أو لسَائرِ النِّساءِ.

﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾: فإنَّ كيدَ النِّساءِ ألطَفُ وأعلَقُ بالقَلبِ وأشَدُّ تأثيرًا في النَّفسِ، ولأنَّهنَّ يواجِهْنَ به الرِّجالَ والشَّيطانُ يُوَسْوِسُ به مُسارَقَةً.

(٢٩) ـ ﴿يُوسُفُ﴾ حُذفَ مِنه حرفُ النِّداءِ لقُربِهِ وتفطُّنِه للحَديثِ ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾: اكتُمْهُ ولا تَذْكُرْه ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾ يا رَاعيلُ ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾: مِن القَومِ المُذنبينَ، مِن خَطِئَ: إذا أذنَبَ مُتعمِّدًا، والتَّذكيرُ للتَّغليبِ.

(٣٠) ـ ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ هي اسمٌ لجمعِ امرأةٍ، وتأنيثُه بـهذا الاعتبارِ غيرُ حَقيقيٍّ ولذلك جُرِّدَ فعلُهُ، وضَمُّ النُّونِ لُغَةٌ فيها.

﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ ظـرفٌ لـ﴿قـال﴾؛ أي: أشَـعْنَ الحِكايـةَ فـي مصـرَ، أو صِفَـةُ ﴿نِسْوَةٌ﴾، وكُـنَّ خمسًـا: زوجَـةُ الحاجبِ والسَّـاقي والخَبَّـازِ والسَّـجَّانِ وصاحِبِ الدَّوابِّ [1].

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٣٣١). وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ١٩٠)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ٨٦) عن الكلبي، وذكره الماوردي في «تفسيره» (٣/ ٣٠) عن جويبر. وهذا من الأقوال الشائعة في كتب التفسير، وقلما يخلو تفسير من ذكر هؤلاء النسوة، وفيه نظر يظهر بأدنى تأمل، فإن حصر النسوة بامرأة الخباز والساقي وصاحب الدواب غير مناسب للمقام، خصوصًا وأن هؤلاءِ قد لا يكنَّ مما يوازي امرأة العزيز في المكانة، وإنما المناسب هنا أن تكون هؤلاءِ النسوة من زوجات النبلاء والأمراء ونحوهم الَّذينَ هم من طبقة العزيز وما أكثرهم، أما تفسيرهن بالمذكورات أو الاقتصار عليهن ـ وكأنه لم يبق في الدولة على اتساعها وعظمة ملكها سوى زوجات الساقي والخباز وصاحب الدواب ـ فغير ملائم للحال. وسيأتي أن اللاتي استدعهن كن أربعين امرأة منهن الخمس المذكورات، وهو يؤيد ما ذكرناه.

﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ تطلبُ مواقعةَ غلامِها إيَّاها.

والعَزيزُ بلِسانِ العَربِ: الملِكُ، وأصلُ فتًى: فتَيٌ؛ لقولِهم: فِتيانٌ، والفتوَّةُ شاذٌّ.

﴿قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّا﴾: شقَّ شَغَافَ قَلبِها ـ وهو حِجابُهُ ـ حتَّى وصلَ إلى فؤادِهَا ﴿حُبًّا﴾ ونصبُه على التَّميزِ لصرفِ الفعلِ عنه[١].

وقُرِئَ: «شَعَفَها»[٢] مِن شَعَفَ البَعيرَ: إذا هَنَأَهُ بالقَطِرَانِ فأحرقَهُ.

﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾: في ضَلالٍ عَن الرُّشدِ وبُعدٍ عَن الصَّوابِ.

(٣١) ـ ﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ﴾: باغتِيَابِهِنَّ، وإنَّما سَمَّاه مَكْرًا لأنَّهنَّ أَخْفَيْنَه كمَا يُخْفِي الماكِرُ مَكْرَه، أو قُلْنَ ذلك لتُريَهنَّ[٣] يُوسُفَ، أو لأنَّها استَكْتَمَتْهُنَّ سِرَّهَا فأَشَعْنَه[٤] علَيْهَا.

﴿أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ﴾ تَدعُوهُنَّ، قيلَ: دعَتْ أربعينَ امرَأَةً فيهِنَّ الخَمسُ.

﴿وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا﴾: ما يَتَّكِئْنَ عليهِ مِن الوَسائدِ.

﴿وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا﴾ حتَّى يَتَّكِئْنَ والسَّكاكينُ بأيديهِنَّ، فإذا خرجَ عَلَيهِنَّ يُبْهَتْنَ ويُشْغَلْنَ عن نفوسهنَّ فتقعَ أيديهِنَّ على أيديهِنَّ فيقطعْنَها فيُبَكَّتْنَ

---

(١) قوله: «لصرف الفعل»؛ أي: وهو (شَغَفَ) «عنه»؛ أي: عن الحبِّ، فهو محوَّلٌ عن الفاعل، والأصلُ: شغَفَها حبُّه. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٢٨٤).

(٢) رواها الطبري في «تفسيره» (١٣/ ١١٩) عن أبي رجاء وعوف الأعرابي، وعزاها ابن جني في «المحتسب» (١/ ٣٣٩) لهما ولعلي رضي الله عنه، والحسن بخلاف، ويحيى بن يعمر، وقتادة بخلاف، وثابت البناني، وابن أبي مريم، والأعرج بخلاف، ومجاهد بخلاف، وحميد بخلاف، والزهري بخلاف، وابن محيصن ومحمد بن السميفع وعلي بن حسين بن علي وجعفر بن محمد.

(٣) في نسخة الخيالي والتفتازاني: «ليرين».

(٤) في نسخة الطبلاوي والخيالي: «فأفشينه».

بالحُجَّـةِ، أو يهـابَ يوسـفُ مِـن مكرِهَـا إذا خـرجَ وحـدَهُ علـى أربعيـنَ امـرأةً فـي أيديهـنَّ الخناجِرُ.

وقيلَ: ﴿مُتَّكَأً﴾: طعامًا، أو مجلسَ طعامٍ فإنَّهُم كانُوا يَتَّكِئُونَ للطَّعامِ والشَّرابِ تَرفًا ولذلك نُهِيَ عنه، قالَ جميلٌ:

فظَلِلْنَـا بنِـعْمَةٍ واتَّـكَـأْنَـا وَشَرِبْنَا الحَـلَالَ مِـن قُلَلِـهْ[1]

وقيلَ: المُتَّكَأُ: طَعامٌ يحزُّ حَزًّا كأنَّ القاطِعَ يَتَّكِئُ عليه بالسِّكِّينِ.

وقُرِئَ: ﴿مُتَّكًا﴾ بحذف الهمزة[2]، و: «مُتَّكَاءً» بإشباعِ الفتحةِ كمُنْتَزَاحٍ[3].

و: «مُتْكًا» وهو الأُتْرُجُّ[4]، أو ما يَقطَعُ، مِن مَتَكَ الشَّيءَ: إذا بتكَه[5].

---

(١) انظر: «ديوان جميل بثينة» (ص: ١٨٩)، و«المعاني الكبير» لابن قتيبة (١/ ٢٥٧)، و«الصحاح» (مادة: قلل)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (١٠/ ٢١).

قال الشهاب في «الحاشية»: اتَّكأْنا: أكلْنا وطعمْنا، والقُلَلُ: جمعُ قلَّةٍ، وهيَ الجرَّةُ، والحلالُ أرادَ بِهِ النَّبيذَ. لكن تعقب البغدادي تفسير الحلال بالنبيذ بقوله: ولا يخفى أن حمله على ظاهره أنسب؛ لأن قائله مؤمن وكان في عرفة في موسم الحج.

(٢) وهي قراءة أبي جعفر من العشرة. انظر: «النشر» (١/ ٣٩٩).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٨)، و«المحتسب» (١/ ٣٣٩)، عن الحسن. والمنتزاح: البعيد كما ذكر الشهاب في «الحاشية». ويشير بهذا التمثيل إلى قول إبراهيم بن هرمة القرشي في «ديوانه» (ص: ٩٢):

وأنـت مـن الغوائل حيـن تُرمَى ومـن ذمِّ الـرجـال بمنـتزاحِ

(٤) نسبت لابـن عباس وابـن عمر وجمـع مـن التابعيـن. انظـر: «المحتسـب» (١/ ٣٣٩)، و«البحر» (١٢/ ٤٦٣).

(٥) قال الشهاب في «الحاشية»: متكَهُ وبتكَهُ بمعنى: قطعَهُ، والباءُ والميمُ تتعاقَبُ كثيرًا كلازمٍ ولازبٍ.

و: «مَتْكًا»(١) من تَكِئَ يَتْكَأُ: إذا اتَّكَأَ.

﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾: عظَّمْنَهُ وهِبْنَ حُسْنَهُ الفائقَ.

وعن النَّبيِّ ﷺ: «رأيتُ يوسُفَ ليلةَ المِعراجِ كالقَمَرِ ليلةَ البَدرِ»(٢).

وقيلَ: كانَ يُرى تلألُؤُ وَجهِهِ على الجُدرانِ.

وقيلَ: «أكبَرْنَ» بمَعْنَى: حِضْنَ، مِن أكبَرَت المَرأَةُ: إذا حاضَتْ؛ لأنَّها تدخُلُ الكِبَرَ بالحَيْضِ، والهاءُ ضَميرٌ للمَصدَرِ أو ليوسُفَ على حذفِ اللامِ؛ أي: حِضْنَ لَهُ مِن شدَّةِ الشَّبقِ كما قالَ المُتنبِّي:

خَفِ اللهَ وَاسْتُرْ ذَا الجَمَالَ بِبُرْقُعٍ ... فَإِنْ لُحْتَ حَاضَتْ في الخُدُورِ العَوَاتِقُ(٣)

﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾: جَرَّحْنَها بالسَّكاكينِ مِن فرطِ الدَّهشَةِ ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تنزيهًا له من(٤) صفاتِ العَجزِ، وتَعجُّبًا مِن قُدرَتِه على خلقِ مِثلِه، وأصلُه: ﴿حاشا﴾ كما قرأَ أبو عَمرٍو في الدَّرْجِ(٥)، فحُذِفَت أَلِفُه الأَخيرَةُ تخفيفًا، وهو

---

(١) نسبت للأعرج. انظر: «الكشاف» (٤/ ٢٧٧)، و«البحر» (١٢/ ٤٦٢).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٤٣٦)، والثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٥٩٢)، والحاكم في «المستدرك» (٤٠٨٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. وفي إسناده أبو هارون العبدي عمارة بن جُوين، وهو متروك كما في «التقريب». وجاء في حديث الإسراء عند مسلم (١٦٢) من حديث أنس رضي الله عنه: «... فإذا أنا بيوسف، إذا هو قد أعطي شطر الحسن...».

(٣) انظر: «ديوان المتنبي» (٣/ ٨٩)، والرواية فيه: (إذا لحت ذابت)، وهما روايتان كما نقل الشهاب في «الحاشية» عن الواحدي. وأورده برواية المؤلف الثعالبي في «أبو الطيب المتنبي وما له وما عليه» (ص: ٨٧)، وهي رواية أبي الفتح (ابن جني) كما قال العكبري في «شرح ديوان المتنبي» (٢/ ٣٤٩).

(٤) في نسخة الخيالي: «تنزيها لله عن».

(٥) والباقون: ﴿حَٰشَ﴾ دون ألف، وكذا أبو عمرو وقفًا. انظر: «السبعة» (ص: ٣٤٨)، و«التيسير» (ص: ١٢٨).

حـرفٌ يُفيـدُ معنـى التَّنزيـهِ فـي بـابِ الاسـتثناءِ فوُضِـعَ مَوضِـعَ التَّنزيـهِ[١]، والـلَّامُ للبَيـانِ كمـا في قَولِـكَ: سَـقيًا لكَ.

وقُرِئَ: «حاشا اللهِ» بغير لامٍ[٢] بمَعنى: براءةُ الله.

و«حاشًا لله» بالتَّنوينِ على تنزيلِهِ مَنزِلَةَ المصدَرِ[٣].

وقيلَ: حاشَا: «فاعَلَ» مِن الحَشَا الَّذي هو النَّاحِيَةُ، وفاعِلُه ضَميرُ يوسُفَ؛ أي: صارَ في ناحيَةٍ للهِ ممَّا يُتوهَّمُ فيه.

﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ لأنَّ هذا الجَمَالَ غيرُ مَعهودٍ للبَشَرِ، وهو على لُغَةِ الحِجَازِ في إعمالِ «ما» عملَ «ليس» لِمُشاركتِهِمَا في نَفْيِ الحَالِ.

وقُرِئَ: «بشرٌ» بالرَّفعِ على لغَةِ تَميمٍ[٤]، و: «بِشِرًى»[٥]؛ أي: بعبدٍ مُشترًى لئيمٍ.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ فإنَّ الجمعَ بينَ الجمالِ الرَّائقِ والكَمالِ الفَائقِ والعِصمَةِ البَالِغَةِ مِن خواصِّ المَلائِكَةِ، أو لأنَّ جَمالَهُ فوقَ جَمالِ البَشرِ لا يفوقُهُ فيه إلَّا الملَكُ.

---

(١) في نسخة الخيالي: «التبرئة» في الموضعين.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٨)، و«المحتسب» (١/ ٣٤١)، و«الكشاف» (٤/ ٢٧٩)، و«البحر» (١٢/ ٤٦٥)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٨)، و«الكشاف» (٤/ ٢٧٩)، و«البحر» (١٢/ ٤٦٦)، عن أبي السمال.

(٤) انظر: «تفسير الثعلبي» (١٤/ ٦٠٠) وعزاها للأعمش، و«الكشاف» (٤/ ٢٨٢) عن ابن مسعود.

(٥) نسبت للحسن وأبي الحويرث الحنفي. انظر: «المحتسب» (١/ ٣٤٢)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٢٤٠)، و«البحر» (١٢/ ٤٦٨). ونسب ابن عطية لمن قرأ بهذه القراءة أنه قرأ أيضاً: (إن هذا إلَّا مَلِكٌ كريم) بكسر اللام واحد الملوك، فيكون بين الجملتين تناسب ظاهر، والمعنى: ما هذا عبدٌ لئيمٌ يُملك، بل سيدٌ كريمٌ مالك. انظر: «روح المعاني» للآلوسي (١٢/ ٣١٤).

(٣٢) ـ ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾؛ أي: فهوَ ذلك العَبدُ الكَنْعانِيُّ الَّذي لُمْتُنَّنِي في الافتتانِ بهِ قبلَ أنْ تَتصوَّرْنَهُ حقَّ تَصوُّرِه، ولو تَصوَّرْتُنَّه بمَا عَايَنْتُنَّ لعَذَرْتُنَّنِي.

أو: فهذَا هو الَّذي لُمْتُنَّنِي فيه، فوضعَ «ذلك» موضِعَ «هذا» رفعًا لِمَنزِلَةِ المُشارِ إليه.

﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾: فامتنَعَ طَلَبًا للعِصمَةِ، أقرَّتْ لَهُنَّ حينَ عرفَتْ أنَّهُنَّ يعذُرْنَها كَيْ يُعاوِنَّهَا على إلَانَةِ عريكتِه.

﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾؛ أي: ما آمرُ بهِ، فحُذِفَ الجارُّ، أو: أَمْرِي إيَّاهُ، بمعنى: مُوجَب أَمْرِي، فيكونُ الضَّميرُ ليُوسُفَ.

﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾: الأذلَّاءِ، وهو مِن صَغِرَ بالكَسرِ يَصغَرُ صَغَرًا وصَغَارًا، والصَّغيرُ من صَغُرَ بالضَّمِّ صِغَرًا.

وقُرِئَ: «وليَكُونَنَّ»[1]، وهو بخلافِ خطِّ المُصحَفِ لأنَّ النونَ كُتِبَت فيه بالألفِ كـ﴿نسفعًا﴾ [العلق: ١٥] على حكمِ الوَقفِ، وذلكَ في الحقيقَةِ لشَبَهِهَا بالتَّنوينِ.

(٣٣) ـ ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ﴾ وقرأَ يَعقوبُ بالفَتحِ على المصدَرِ[2].

﴿أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾؛ أي: آثَرُ عندِي مِن مُؤاتاتِها زنًى نظرًا إلى العاقِبَةِ، وإن كانَ هذا ممَّا تَشتهيهِ النَّفسُ وذاك ممَّا تكرَهُهُ، وإسنادُ الدَّعوةِ إليهنَّ جميعًا لأنهنَّ خَوَّفْنَه مِن مُخالَفَتِها وزيَّنَّ له مُطاوَعَتَها أو دَعَوْنَهُ إلى أنفُسِهنَّ.

---

(١) انظر: «الكشاف» (٤/ ٢٨٤)، و«البحر» (١٢/ ٤٧١).

(٢) أي: بفتح السين. انظر: «النشر» (٢/ ٢٩٥).

وقيلَ: إنَّمَا ابتُلِيَ بالسِّجنِ لقولِه هذا، وإنَّما كانَ الأَوْلَى بهِ أَنْ يَسألَ اللهَ العافِيَةَ، ولذلك ردَّ رَسولُ اللهِ ﷺ على مَن كانَ يَسأَلُ الصَّبرَ[1].

﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي﴾: وإن لم تَصرِفْ عني ﴿كَيۡدَهُنَّ﴾ في تحبيبِ ذلك إليَّ وتَحسينِهِ عِندي بالتَّثبيتِ على العِصْمَةِ ﴿أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ﴾: أَمِلْ إلى جانبِهنَّ أَوْ إلى أَنْفُسِهِنَّ بطَبْعِي ومُقتَضَى شَهوَتِي، والصَّبوَةُ: الميلُ إلى الهَوَى، ومنهُ: الصَّبا؛ لأنَّ النُّفوسَ تَستطيبُها وتميلُ إليهَا.

وقُرِئَ: «أَصَبُّ»[2] من الصَّبابَةِ وهي الشَّوقُ.

﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾: مِن السُّفَهاءِ بارتكابِ ما يَدعونَنِي إليهِ فإنَّ الحَكِيمَ لا يفعَلُ القَبيحَ.

أو: مِن الَّذينَ لا يَعمَلونَ بما يَعلَمُونَ فإنَّهُم والجُهَّالَ سواءٌ.

(٣٤) ـ ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾: فأجابَ اللهُ دُعاءَهُ الَّذي تَضمَّنَه قولُه: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ﴾.

﴿فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّ﴾: فثبَّتَه بالعِصمَةِ حتَّى وَطَّنَ نفسَهُ على مَشَقَّةِ السِّجنِ وآثرَهَا على اللذَّةِ المُتضمِّنَةِ للعِصيانِ.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدُعاءِ المُلتجِئينَ إليه ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بأحوالِهِم وما يُصلِحُهُم.

(٣٥) ـ ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾: ثمَّ ظهرَ للعَزيزِ وأهلِهِ مِن بعدِ ما رَأَوا الشَّواهدَ الدالةَ على براءةِ يوسُفَ كشَهادَةِ الصَّبيِّ وقَدِّ القَميصِ وقَطعِ النِّساءِ أيديَهُنَّ واستعصامِهِ عَنْهُنَّ.

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٢٧) وحسنه من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٨) عن محمد بن السميفع.

وفاعلُ ﴿بَدَا﴾ مُضمَرٌ يفسِّرُه: ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ وذلك لأنَّها خَدَعَتْ زوجَها وحَمَلَتْهُ على سَجنِهِ زمانًا حتَّى تُبصِرَ ما يكونُ منه، أو يحسبَ النَّاسُ أنَّه المجرِمُ، فلَبِثَ في السِّجنِ سبعَ سنينَ.

وقُرِئَ بالتَّاءِ[1] على أنَّ بعضَهُم خاطبَ بهِ العَزيزَ على التَّعظيمِ، أو العزيزَ ومَن يليه.

و: «عتَّى» بلغةِ هُذَيلٍ[2].

(٣٦) ـ ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾؛ أي: أُدخِلَ يوسفُ السِّجنَ واتَّفقَ أنَّه أُدخِلَ حينئذٍ آخرانِ مِن عبيدِ الملكِ: شرابيُّه وخبَّازُه؛ للاتِّهامِ بأنَّهما يريدانِ أن يَسُمَّاه.

﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ﴾ يعني: الشَّرابيَّ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾؛ أي: في المنامِ، وهي حكايَةُ حالٍ ماضيَةٍ.

﴿أَعْصِرُ خَمْرًا﴾؛ أي: عِنبًا، وسَمَّاه بمَا يَؤُولُ إليه.

﴿وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ﴾؛ أي: الخبَّازُ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ﴾ تنهَشُ منه.

﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: من الَّذين يُحسِنُونَ تَأويلَ الرُّؤيَا، أو: مِن العالِمِينَ، وإنَّما قالَا ذلك لأنَّهُما رأياه في السِّجنِ يُذكِّرُ النَّاسَ ويَعْبُرُ رُؤيَاهُم.

أو: مِن المُحسنينَ إلى أهلِ السِّجنِ فأحسِنْ إلينا بتأويلِ ما رَأَينَا إن كُنتَ تَعرِفُه.

---

(١) أي: (لَتَسْجُنُنَّه). انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٨)، و«الكشاف» (٤/ ٢٨٦)، عن الحسن.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٨)، و«المحتسب» (١/ ٣٤٣)، و«الكشاف» (٤/ ٢٨٦)، و«البحر» (١٢/ ٤٧٤)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣٧ ـ ٣٨) ـ ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾؛ أي: بتأويلِ ما قَصَصْتُما عليَّ، أو: بتأويلِ الطَّعامِ، يعني: بيانَ ماهِيَّتِه وكيفيَّتِه فإنَّهُ يُشبِهُ تفسيرَ المشكِلِ، كأنَّه أرادَ أَنْ يَدعُوَهُما إلى التَّوحيدِ ويُرشِدَهُما الطَّريقَ القَويمَ قبلَ أن يُسعِفَ إلى ما سألَا منه؛ كما هو طريقَةُ الأنبياءِ والنَّازلينَ مَنازِلَهُم مِن العُلماءِ في الهدايةِ والإرشادِ، فقدَّمَ ما يكونُ مُعجِزَةً لهم مِن الإخبارِ بالغيبِ ليَدُلَّهُما على صدقِه في الدَّعوةِ والتَّعبيرِ.

﴿قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا﴾؛ أي ذلك التَّأويلُ ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾: بالإلهامِ والوَحيِ، وليسَ مِن قَبيلِ التَّكهُّنِ والتَّنجيمِ.

﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ تَعليلٌ لِمَا قبلَهُ؛ أي: عَلَّمَني ذلك لأنِّي تركتُ ملَّةَ أولئك ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

أو كلامٌ مُبتدأٌ لتَمهيدِ الدَّعوةِ وإظهارِ أنَّه مِن بيتِ النُّبوَّةِ؛ لتَقْوَى رَغبَتُهُما في الاستماعِ إليه والوثوقِ عليه، ولذلك جوَّزَ للخاملِ أن يَصِفَ نفسَهُ حتَّى يُعرفَ فيُقتَبَسَ مِنه.

وتكريرُ الضَّميرُ للدَّلالةِ على اختصاصِهِم، وتأكيدِ كُفرِهِم بالآخرةِ.

﴿مَا كَانَ لَنَآ﴾: ما صحَّ لنا مَعشرَ الأنبياءِ ﴿أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أيِّ شيءٍ كان.

﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: التَّوحيدُ ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ بالوحيِ ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾: وعلى سائرِ النَّاسِ ببعثِنا لإرشادِهِم وتَثبيتِهِم عليه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ المبعوثِ إليهِم ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ هذا الفضلَ، فيُعرِضُونَ عنه ولا يَتنبَّهونَ.

أو: مِن فضلِ اللهِ علينا وعليهِم بنَصبِ الدَّلائلِ وإنزالِ الآياتِ، ولكنَّ أكثرَهُم لا ينظرونَ إليها ولا يَستَدِلُّونَ بها، فيُلْغونَها كمَنْ يَكفُرُ النِّعمةَ ولا يشكرُهَا.

(٣٩) ـ ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ﴾؛ أي: يا ساكنَيه، أو: يا صاحبَيَّ فيه، فأضافَهُما إليه على الاتِّساعِ كقولِه: «يا سَارِقَ اللَّيلَةِ أَهْلَ الدَّارِ»(١).

﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ﴾: شتَّى مُتَعَدِّدَةٌ مُتساويَةُ الأقدامِ ﴿خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ﴾: المتوحِّدُ بالأُلوهيَّةِ ﴿ٱلۡقَهَّارُ﴾: الغالِبُ الَّذي لا يُعادِلُه ولا يُقاوِمُه غيرُهُ.

(٤٠) ـ ﴿ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ ﴾ خطابٌ لهما ولمَن على دينِهما مِن أَهلِ مِصرَ ﴿إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ﴾؛ أي: إلَّا أشياءَ باعتبارِ أسامٍ أطلَقْتُم عليهَا مِن غيرِ حُجَّةٍ تَدلُّ على تحقُّقِ مُسَمَّياتِها فيها، فكأنَّكُم لا تعبدونَ إلَّا الأسماءَ المُجرَّدَةَ.

والمعنى: أنَّكُم سمَّيْتُم ما لم يدلَّ على استحقاقِهِ الأُلوهيَّةَ عَقْلٌ ولا نَقْلٌ آلهةً، ثمَّ أَخَذْتُم تَعبدُونَها باعتبارِ ما تُطلِقُونَ عليْهَا.

﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ﴾ في أمرِ العِبادةِ ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ لأنَّه المستحِقُّ لها بالذَّاتِ مِن حَيثُ إنَّه الواجِبُ لذاتِهِ الموجِدُ للكُلِّ والمالكُ لأَمرِهِ.

﴿أَمَرَ﴾ على لسانِ أنبيائِه ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ الَّذي دلَّتْ عليهِ الحُجَجُ.

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾: الحقُّ، وأنتُمْ لا تُمَيِّزونَ المُعوجَّ عَن القَويمِ.

وهذا مِن التَّدرُّجِ في الدَّعوةِ وإلزامِ الحُجَّةِ، بيَّنَ لهم أولًا رجحانَ التَّوحيدِ على اتِّخاذِ الآلهةِ على طَريقِ الخطابةِ، ثمَّ بَرهنَ على أنَّ ما يُسمُّونَها آلهةً ويَعبدونَها لا تَستَحِقُّ الإلهيَّةَ، فإنَّ استحقاقَ العبادةِ إمَّا بالذَّاتِ وإما بالغيرِ، وكِلَا القسمينِ مُنتَفٍ

---

(١) قوله: «فأضافهما إليه»؛ أي: إلى السجنِ «كقوله: يا سارقَ الليلةِ أهلَ الدارِ»؛ أي: فكما أن (الليلة) مسروقٌ فيها غيرُ مسروقةٍ، فكذلك السجنُ مصحوبٌ فيه غيرُ مصحوبٍ، وإنما المصحوبُ غيرُه، وهو يوسفُ. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٢٩٠).

عنها، ثمَّ نَصَّ على ما هو الحقُّ القويمُ والدِّينُ المُستقيمُ الَّذي لا يَقتضي العقلُ غيرَهُ ولا يَرتضي العِلمُ دونَه.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيَخبِطُونَ في جَهالَاتِهِم[1].

(٤١) ـ ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ يعني: الشَّرابيَّ ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ كما كانَ يَسقيهِ قبلُ، ويعودُ إلى ما كانَ عليه.

﴿وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ﴾ يريدُ به الخبَّازَ ﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ فقالا: كَذَبنا، فقالَ:

﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾؛ أي: قُطِعَ الأمرُ الَّذي تَستفتيانِ فيه، وهو ما يَؤولُ إليهِ أمرُكُما ولذلك وحَّدَه، فإنَّهُما وإن استَفْتَيَا في أمرينِ لكنَّهُما أرادا استبانَةَ عاقِبَةِ ما نزلَ بهما.

(٤٢) ـ ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ الظَّانُّ يوسُفُ إنْ ذَكَرَ ذلك عن اجتهادٍ، وإن ذكرَهُ عَن وحيٍ فهو النَّاجي، إلَّا أن يؤوَّلَ الظنُّ باليَقينِ.

﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾: اذكُرْ حالي عندَ الملكِ كي يُخلِّصَني ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾: فأَنْسَى الشَّيطانُ الشرابيَّ أن يذكرَهُ لربِّهِ، فأضافَ إليه المصدَرَ لمُلابسَتِهِ له، أو على تقديرِ: ذِكْرَ إخبارِ ربِّهِ، أو: أُنسِيَ يوسفُ ذكرَ اللهِ حتَّى استعانَ بغَيرِه، ويؤيِّدُه قولُه عليهِ السَّلامُ: «رَحِمَ اللهُ أخي يوسُفَ لو لم يَقُل: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ لَمَا لَبِثَ في السِّجنِ سبعًا بعدَ الخمسِ»[2].

---

(١) في نسخة الخيالي: «جهالتهم».

(٢) لم أجده مسنداً بهذا اللفظ، ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٣١٠)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٧٣)، عن قتادة قال: بلغني أن النبي ﷺ قال: «لو لم يستعن يوسف على ربّه ما لبث في =

والاستعانةُ بالعبادِ في كشفِ الشَّدائدِ وإن كانَتْ مَحمودةً في الجملةِ لكنَّها لا تَليقُ بمَنصبِ الأَنبياءِ.

﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ البضعُ: ما بينَ الثَّلاثِ إلى التِّسعِ، مِن البَضْعِ وهو القَطعُ.

(٤٣) - ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ﴾ لَمَّا دَنا فَرَجُه رأى الملكُ سبعَ بقراتٍ سِمانٍ خرَجْنَ مِن نهرٍ يابسٍ وسبعَ بقراتٍ مَهازيلَ، فابتَلَعَت المَهازيلُ السِّمانَ.

﴿وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ﴾ قد انعقدَ حَبُّها ﴿وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ﴾: وسبعًا أُخَرَ يابِساتٍ قد أدركَتْ، فالتوَتِ اليابِساتُ على الخضرِ حتَّى غلَبْنَ علَيْهَا، وإنَّما استغنَى عن بيانِ حالِها بما قصَّ مِن حالِ البَقَراتِ.

= السجن طول ما لبث». ورواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٧٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٤٨) (١١٦٣٥) عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلاً أيضاً.

قال ابن كثير في «تفسيره» عند هذه الآية: وقد روي عن الحسن وقتادة مرسلًا عن كلٍّ منهما، وهذه المرسلات هاهنا لا تقبل لو قُبل المرسل من حيث هو في غير هذا الموطن.

وروى نحوه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٤٨) (١١٦٣٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٢٠٦)، من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «رَحِمَ اللهُ يوسفَ لولا الكلمةُ التي قالها: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ما لَبِثَ في السجنِ ما لَبِثَ...» الحديث، وتعقبه ابن كثير في «البداية والنهاية» (١/ ٤٧٨) بسبب إدراج هذا الحديث في «صحيحه»، وقال: «إنه حديث منكر من هذا الوجه، ومحمد بن عمرو بن علقمة له أشياء ينفرد بها وفيها نكارة، وهذه اللفظة من أنكرها وأشدها».

وبنحو لفظ ابن حبان رواه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (١٦٠)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٧٣)، والطبراني في «الكبير» (١١٦٤٠) من حديث ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما. وإسناده ضعيف جدًّا كما قال ابن كثير في «تفسيره» عند تفسير هذه الآية.

وأَجْرَى السِّمانَ على المميِّزِ دونَ المُمَيَّزِ لأنَّ التَّمييزَ بها، ووصَفَ السَّبعَ الثَّانيَ بالعِجافِ لتَعذُّرِ التَّمييزِ بها مُجرَّدًا عن الموصوفِ فإنَّه لبَيانِ الجنسِ[1]، وقياسُهُ: عُجُفٌ؛ لأنَّه جمعُ عَجفاءَ لكنَّه حُمِلَ على ﴿سِمَانٍ﴾ لأنَّه نَقيضُه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰىَ﴾ عَبِّروها ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾: إن كُنتُم عالِمِينَ بعبارَةِ الرُّؤيَا، وهي: الانتقالُ مِن الصُّوَرِ الخَياليَّةِ إلى المَعاني النَّفسانيَّةِ الَّتي هي مثالُها، مِن العُبورِ وهو المجاوزَةُ، و: «عَبَرْتُ الرُّؤيا عِبارةً»، أثبتُ مِن: «عبَّرتُها تَعبيرًا»[2].

واللَّامُ للبَيانِ، أو لتقويَةِ العاملِ فإنَّ الفِعلَ لَمَّا أُخِّرَ عَن مَفعولِه ضَعُفَ فقَوِيَ باللَّامِ كاسمِ الفاعلِ، أو لتَضمُّنِ ﴿تَعْبُرُونَ﴾ مَعنى فعلٍ يُعَدَّى باللَّامِ كأنَّه قيلَ: إنْ كُنتُم تُنْتَدَبُونَ لعِبارةِ الرُّؤيَا.

(٤٤) ـ ﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾؛ أي: هذه أضغاثُ أحلامٍ وهي تَخاليطُهَا، جمعُ ضِغْثٍ، وأصلُهُ: ما جُمِعَ مِن أَخلاطِ النَّباتِ وحُزِم، فاستُعيرَ للرُّؤيا الكاذبَةِ، وإنَّما جَمَعُوا للمُبالغَةِ في وَصفِ الحُلْمِ بالبُطلانِ؛ كقولِهم: «فلانٌ يركَبُ الخيلَ»، أو لتَضمُّنِهِ أشياءَ مُختلفَةً.

---

(١) قوله: «وأجرى السمان على المميِّز» بكسر الياء، وهو ﴿بَقَرَٰتٍ﴾ «دون المميَّز» بفتحها، وهو ﴿سَبْعَ﴾؛ «لأن التمييز بها»؛ أي: بالسِّمانِ من البقَراتِ، «ووصف السبع الثاني بالعجاف لتعذر التمييز بها»؛ أي: بالعِجافِ «مجرداً عن الموصوف»؛ أي: وهو ﴿بَقَرَٰتٍ﴾ «فإنه»؛ أي: التمييزَ «لبيان الجنس»؛ أي: والعِجافُ وصفٌ لا يقومُ البيانُ به وحدَه. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٢٩٣).

(٢) انظر: «الكشاف» (٢/ ٢٩٨)، وفيه: و«عَبَرْتُ الرُّؤيا» بالتخفيف هو الذي اعتمده الأَثباتُ المحقِّقون، ورأيتُهم يُنكِرون «عبَّرت» بالتشديد، و«التعبيرَ» و«المعبِّرَ»، وقد عثرتُ على بيت أنشده المبرِّد في كتاب «الكامل» لبعض الأعراب:

رأيتُ رؤيا ثم عبَّرتها وكنتُ للأَحلام عَبَّارا

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ يريدون بالأحلامِ: المناماتِ الباطلةَ خاصَّةً؛ أي: ليسَ لها تأويلٌ عندنا، وإنَّما التَّأويلُ للمناماتِ الصَّادقَةِ، كأنَّه مُقدِّمَةٌ ثانيَةٌ للعذرِ في جَهلِهِم بتأويلِه.

(٤٥) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا﴾: مِـن صاحِبَي السِّجنِ وهو الشَّرابيُّ ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾: وتذكَّرَ يوسفَ بعدَ جماعةٍ مِن الزَّمانِ مُجتمِعَةٍ؛ أي: مُدَّةٍ طَويلَةٍ.

وقُرِئَ: «إِمَّةٍ» بكسرِ الهمزةِ[1] وهي النِّعمَةُ؛ أي: بعدَما أُنعمَ عليه بالنَّجاةِ.

و: «أَمَهٍ»[2]؛ أي: نسيانٍ، يُقالُ: أَمِهَ يَأْمَهُ أَمَهًا: إذا نَسِيَ.

والجملةُ اعتراضٌ، ومَقولُ القولِ: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾؛ أي: إلى مَن عِندَهُ عِلمُهُ، أو إلى السِّجنِ.

(٤٦) ـ ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾؛ أي: فأُرسِلَ إلى يوسُفَ فجاءَ وقالَ: يا يوسُفُ، وإنَّما وصفَهُ بالصِّدِّيقِ ـ وهو المبالغُ في الصِّدقِ ـ لأنَّه جرَّبَ أحوالَهُ وعرفَ صِدقَهُ في تَأويلِ رُؤياه ورُؤيا صاحبِهِ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٨)، و«المحتسب» (١/ ٣٤٤)، و«الكشاف» (٤/ ٢٩٩)، عن الأشهب العقيلي.

(٢) انظر: «المحتسب» (١/ ٣٤٤) عن ابن عباس، وابن عمر بخلاف، وعكرمة ومجاهد بخلاف عنهما، والضحاك وأبي رجاء وقتادة وشُبيل بن عَزْرَة الضُّبعِي وربيعة بن عمرو وزيد بن علي. ورواها الطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٨٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٥٢)، من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواها الطبري أيضًا عن عكرمة والضحاك ومجاهد.
وذكرها الزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٢٩٩) دون نسبة.
ورويت هذه القراءة بسكون الميم، رواها الطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٨٦) عن مجاهد، وعزاها في «البحر» (١٢/ ٤٩٠) لمجاهد وعكرمة وشبيل بن عزرة. وخطأها الزمخشري، بينما صححها غيره وخطأ الفتح، فقد روى الهروي في «الغريبين» (مادة: أمه) عن شيخه أبي منصور الأزهري، عن المنذري، عن أبي الهيثم قال: (بعد أَمْهٍ) بجزم الميم، و(أَمَهٍ) خطأ.

﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾؛ أي: في رُؤيا ذلك ﴿لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾: أعودُ إلى المَلكِ ومَن عِندَهُ، أو: إلى أهلِ البلدِ؛ إذ قيلَ إنَّ السِّجنَ لم يَكُن فيه ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تأويلَها، أو: فضلَكَ ومَكانكَ. وإنَّما لم يَبُتَّ الكلامَ فيهِمَا لأنَّه لَمْ يَكُن جازِمًا من الرُّجوعِ، فرُبَّما اخترِمَ دونَهُ، ولا مِن عِلْمِهم بذلك.

(٤٧) ـ ﴿قال تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنينَ دَأْبًا﴾؛ أي: على عادَتِكُم المستمرَّةِ، وانتصابُهُ على الحالِ بمعنى: دائبينَ، أو المصدرِ بإضمارِ فِعلِه؛ أي: تدأبونَ دَأْبًا، وتكونُ الجُملَةُ حالًا.

وقرأَ حَفصٌ: ﴿دَأَبًا﴾ بفتح الهمزة[1]، وكلاهُما مَصدرُ: دَأَبَ في العملِ.

وقيلَ: ﴿تَزْرَعُونَ﴾ أمرٌ أخرجَهُ في صُورةِ الخبرِ مُبالغَةً؛ لقولِه: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ لئلَّا يَأكُلَهُ السُّوسُ، وهو على الأوَّلِ نَصيحَةٌ خارِجَةٌ عن العبارةِ.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ في تلك السِّنينَ.

(٤٨) ـ ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾؛ أي: يأكُلُ أهلُهُنَّ ما ادَّخَرْتُم لأَجلِهنَّ، فأُسندَ إليهنَّ على المجازِ تطبيقًا بين المعبَّرِ والمُعبَّرِ به.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾: تُحْرِزونَ لبُذورِ الزِّراعَةِ.

(٤٩) ـ ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ يُمطَرونَ، مِن الغَيثِ، أو: يغاثونَ مِن القَحطِ، مِن الغوثِ ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ ما يُعصرُ كالعِنَبِ والزَّيتونِ لكثرةِ الثِّمارِ، وقيلَ: يَحلبونَ الضُّروعَ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٤٩)، و«التيسير» (ص: ١٢٩).

وقرأ حمزَةُ والكِسائيُّ بالتَّاءِ[(١)] على تغليبِ المُستفتي.

وقُرِئَ على بناءِ المَفعولِ[(٢)] مِن عَصَرَهُ: إذا أنجاهُ.

ويحتمِلُ أن يكونَ المبنيُّ للفاعلِ منه؛ أي: يغيثُهُم اللهُ ويغيثُ بَعضُهُم بَعْضًا، أو مِن أعصَرَت السَّحابةُ عليهم فعُدِّيَ بنَزعِ الخافضِ أو بتَضمينِهِ مَعنى المطرِ.

وهذه بشارةٌ بَشَّرَهُم بها بعدَ أنْ أوَّلَ البَقراتِ السِّمانَ والسُّنبلاتِ الخُضرَ بسِنينَ مُخصِبَةٍ، والعجافَ واليابِساتِ بسنينَ مُجْدِبةٍ، وابتلاعَ العجافِ للسِّمانِ بأكلِ ما جُمِعَ في السِّنينَ المُخصبَةِ في السِّنينَ المُجدبةِ، ولعلَّه عَلِمَ ذلك بالوَحْيِ، أو بأنَّ انتهاءَ الجَدْبِ بالخصبِ، أو بأنَّ السُّنَّةَ الإلهيَّةَ على أن يوسِّعَ على عِبادِهِ بعدما ضيَّقَ عليهِمْ.

(٥٠) ـ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾ بعد ما جاءَهُ الرَّسولُ بالتَّعبيرِ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ ليُخرِجَهُ ﴿قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ إنَّما تأنَّى في الخُروجِ وقَدَّمَ سُؤالَ النِّسوَةِ وفحصَ حالِهِ لتَظْهَرَ براءةُ ساحَتِهِ، ويُعلَمَ أنَّه سُجِنَ ظُلْمًا، فلا يقدرَ الحاسِدُ أَنْ يَتوسَّلَ به إلى تقبيحِ أَمرِهِ، وفيه دليلٌ على أنَّه يَنبَغِي أَنْ يَجْتَهِدَ في نَفْيِ التُّهَمِ ويتَّقِيَ مواضِعَها، وعن النَّبيِّ ﷺ: «لو كنتُ مَكانَهُ ولبثتُ في السِّجنِ ما لبثَ لأَسرَعْتُ الإجابَةَ»[(٣)].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٤٩)، و«التيسير» (ص: ١٢٩).

(٢) قرئ على بناء المفعول بالياء والتاء، فالياء تنسب لجعفر بن محمد والأعرج وعيسى البصرة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٨)، و«المحتسب» (١/ ٣٤٤)، و«البحر» (١٢/ ٤٩٣).
والتاء نسبت لعيسى البصرة. انظر: «تفسير القرطبي» (١١/ ٣٧٠)، و«البحر» (١٢/ ٤٩٣).

(٣) رواه البخاري (٤٦٩٤)، ومسلم (١٥١) بلفظ: «ولو لَبِثْتُ في السجنِ طُولَ ما لبثَ يوسفُ لأجبتُ الدَّاعيَ».

وإنَّما قالَ: ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾، ولم يَقُل: «فاسأَلْهُ أن يُفتِّشَ عَن حالِهنَّ» تَهييجًا له على البَحثِ وتَحقيقِ الحالِ، وإنَّما لم يَتعرَّضْ لسَيِّدَتِه مع ما صَنَعَتْ بهِ كرمًا ومُراعاةً للأَدبِ.

وقُرِئَ: «النُّسوَة» بضمِّ النُّونِ(١).

﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ حين قُلْنَ لي: أَطِعِ مَوْلاتكَ، وفيه تَعظيمُ كَيدِهِنَّ، والاستشهادُ بعلمِ اللهِ عليه وعلى أنَّه بَرِيءٌ ممَّا قُذِفَ به، والوعيدُ لهنَّ على كيدِهِنَّ.

(٥١) ـ ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ﴾ قالَ الملِكُ لَهُنَّ: ما شأنُكُنَّ، والخَطبُ: أمرٌ يَحِقُّ أن يخاطَبَ فيه صاحِبُه ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تنزيهٌ له وتَعجُّبٌ من قُدرَتِه على خلقِ عَفيفٍ مِثْلِه ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾: مِن ذنبٍ.

﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾: ثبتَ واسْتقرَّ، مِن حَصْحَصَ البَعيرُ: إذا ألقى مَبارِكَهُ ليُناخَ، قالَ:

فحَصْحَصَ في صُمِّ الصَّفَا ثَفِناتِهِ ... وناءَ بِسَلْمَى نَوْءةً ثُمَّ صَمَّمَا(٢)

أو: ظهرَ، مِن حَصَّ شَعرَه: إذا استَأْصَلَه بحيثُ ظهرَت بشرةُ رأسِه.

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٥٢)، و«البحر» (١٢/ ٤٩٦)، عن أبي حيوة وأبي بكر عن عاصم.

(٢) البيت لحميد بن ثور، وهو في «ديوانه» (ص: ١٩)، و«غريب الحديث» لأبي عبيد (٥/ ٣٢٧)، و«الزاهر» لابن الأنباري (٢/ ٣٠)، و«الصحاح» (مادة: حصص وصمم). والضَّميرُ المُستتِرُ في حصحصَ للبعيرِ. وثَفِناتُه: مَباركُه الخمسُ المعروفَةُ. وصمُّ الصَّفا: جمعُ أصمَّ، وهوَ الصُّلبُ مِنَ الحجارَةِ، والصَّفا: الحجارَةُ، لا اسمُ موضعٍ كما تُوهِّمَ. وناءَ بمعنى: أثقلَ ونهضَ. والتَّصميمُ: المضيُّ في الأمرِ. يعني: أنَّها ركبَتْ عليهِ وقامَ بها ومضى في سبيلِهِ، وألفُ (صمَّم) للإطلاقِ والإشباعِ، والمُرادُ: تحزُّنُهُ على فراقِ محبوبتِهِ. قاله الشهاب في «الحاشية».

وقُرِئَ على البناءِ للمَفعولِ[١].

﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في قولِه: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾.

(٥٢) ـ ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ قاله يوسفُ لَمَّا عادَ إليه الرَّسولُ وأخبرَهُ بكَلامِهِنَّ؛ أي: ذلك التَّثبُّتُ ليعلمَ العزيزُ ﴿أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾: بظهرِ الغَيبِ، وهو حالٌ مِن الفاعلِ أو المفعولِ؛ أي: لَمْ أَخُنْهُ وأَنَا غائِبٌ عنه، أو: وهو غائبٌ عني، أو ظرفٌ؛ أي: بمكانِ الغَيبِ وراءَ الأستارِ والأبوابِ المُغلقَةِ.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾: لا يُنْفِذُه ولا يسدِّدُه، أو: لا يهدي الخائنينَ بكَيْدِهِم، فأوقعَ الفعلَ على الكيدِ مُبالغَةً.

وفيه تَعريضٌ برَاعيلَ في خِيانَتِها زوجَها وتَوكيدٌ لأمانَتِه، ولذلك عقَّبَه بقولِه:

(٥٣) ـ ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾؛ أي: لا أُنَزِّهُها؛ تنبيهًا على أنَّه لم يُرِدْ بذلك تزكيَةَ نَفسِهِ والعُجْبَ بحالِه، بَل إظهارَ ما أنعمَ اللهُ عليه من العِصمَةِ والتَّوفيقِ.

وعَن ابنِ عبَّاسٍ: أنَّه لَمَّا قالَ: ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ قالَ له جبريلُ: ولا حينَ هَمَمْتَ؟ فقالَ ذلك[٢].

﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ مِن حَيثُ إنَّها بالطَّبعِ مائلةٌ إلى الشَّهواتِ، فتَهُمُّ بها وتَستعملُ القوى والجوارحَ في إثرِها كلَّ الأَوقاتِ.

﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾: إلَّا وقتَ رحمةِ ربِّي، أو: إلَّا ما رَحِمَه اللهُ مِن النُّفوسِ فعصمَهُ مِن ذلك.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٨) عن الحسن ومحمد بن معدان.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٥٨)، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وعده الزمخشري من الروايات المصنوعة. انظر كلامه في «الكشاف» (٤/ ٣٠٨).

وقيلَ: الاستثناءُ مُنقَطِعٌ؛ أي: ولكن رحمةُ رَبِّي هي الَّتي تصرفُ الإساءةَ.

وقيلَ: الآيةُ حِكايَةُ قولِ راعيلَ، والمستثنَى نفسُ يوسُفَ وأضرابِه.

قرأ قالونُ والبَزِّيُّ: ﴿بالسُّوِّ﴾ على قلبِ الهَمزَةِ واوًا ثمَّ الإدغامِ(١).

﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: يَغفرُ هـمَّ النَّفسِ ويرحَمُ مَن يشاءُ بالعِصمَةِ، أو: يغفِرُ للمُستَغفِرِ لذَنبِه المُعترفِ على نَفسِهِ ويَرحمُهُ ما استغفرَهُ واستَرْحَمَه ممَّا ارتكبَهُ.

(٥٤) ـ ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾: أجعَلْـه خالصًا لنفسِي ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾؛ أي: فلَمَّا أَتَوْا بهِ فكَلَّمَه وشاهَدَ مِنهُ الرُّشدَ والدَّهاءَ(٢).

﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ﴾: ذو مَكانةٍ ومَنزِلَةٍ ﴿أَمِينٞ﴾ مؤتمنٌ على كلِّ شَيءٍ.

رُوِيَ أنَّه لَمَّا خرجَ مِن السِّجنِ اغتَسَلَ وتَنظَّفَ ولَبِسَ ثيابًا جُدُدًا، فلمَّا دخلَ على الملِكِ قالَ: اللهمَّ إني أسأَلُكَ مِن خَيرِهِ وأَعوذُ بعِزَّتِكَ وقُدرَتِكَ مِن شَرِّهِ، ثمَّ سلَّمَ عليه ودَعا له بالعِبريَّةِ، فقالَ: ما هذا اللسانُ؟ قالَ: لِسانُ آبائي، وكانَ الملكُ يَعرِفُ سَبعينَ لِسانًا فكَلَّمَه بها، فأجابَهُ بجَميعِهَا فتعَجَّبَ مِنهُ فقالَ: أحبُّ أَنْ أَسمعَ رُؤيايَ مِنكَ، فحَكاهَا ونَعتَ له البَقَراتِ والسَّنابِلَ وأَماكِنَهَا على ما رآها، فأجلَسَهُ على السَّريرِ وفَوَّضَ إليه أَمْرَه(٣).

وقيلَ: تُوفِّيَ قِطفيرُ في تلكَ اللَّيالي فنصَّبَهُ مَنصِبَهُ وزَوَّجَ منه راعيلَ، فوَجَدها عَذْراءَ، وولدَ له مِنْها إفرائيمَ ومِيْشَا(٤).

---

(١) انظر: «التيسير» (ص: ١٢٩).

(٢) في نسخة التفتازاني: «والذكاء».

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٤٧) عن وهب بن منبه.

(٤) ذكره أبو حفص النسفي في «التيسير في التفسير» عند هذه الآية عن وهب بن منبه.

(٥٥) - ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾: وَلِّني أمرَها، والأَرْضُ: أَرْضُ مِصرَ ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ لها مِمَّن لا يَستَحِقُّها ﴿عَلِيمٌ﴾ بوجوهِ التَّصرُّفِ فيها، ولعلَّهُ عليهِ السَّلامُ لَمَّا رَأَى أَنَّه يَستَعْمِلُه في أَمرِه لا محالةَ آثرَ ما تَعُمُّ فَوائِدُهُ وتجلُّ عَوائِدُه.

وفيهِ دَليلٌ عَلى جَوازِ طلبِ التَّولِيَةِ وإظهارِ أنَّه مُستعِدٌّ لهَا، والتَّولِّي مِن يدِ الكافرِ إذا عُلِمَ أنَّه لا سبيلَ إلى إقامَةِ الحقِّ وسياسَةِ الخلقِ إلَّا بالاستظهارِ بهِ.

وعَن مُجاهِدٍ: أنَّ المَلِكَ أسلمَ عَلى يَدِه[1].

(٥٦) - ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: في أَرضِ مِصرَ ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾: ينزلُ مِن بِلادِهَا حيثُ يَهْوَى. وقَرَأَ ابنُ كَثيرٍ: ﴿نشاءُ﴾ بالنُّونِ[2].

﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ في الدُّنيا والآخرَةِ ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بل نوفِّي أجورَهُم عاجِلًا وآجِلًا.

(٥٧) - ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ الشِّركَ والفَواحِشَ؛ لعِظَمِه ودَوامِهِ.

(٥٨) - ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ رُوِيَ أَنَّه لَمَّا استَوْزرَهُ الملكُ أقامَ العدلَ واجتَهدَ في تكثيرِ الزِّراعاتِ وضبطِ الغَلَّاتِ، حتَّى دَخلَت السنونُ المُجدبَةُ وعمَّ القَحطُ مِصرَ والشَّامَ ونَواحِيَهما، وتوجَّه النَّاسُ إليه فباعَها أوَّلًا بالدَّراهمِ والدَّنانيرِ حتَّى لم يبقَ مَعَهُم شيءٌ مِنْهُما، ثمَّ بالحُليِّ والجَواهرِ، ثمَّ بالدَّوابِّ، ثمَّ بالضِّياعِ والعَقارِ، ثمَّ برِقابِهِم حتَّى استرقَّهُم جميعًا، ثمَّ عرضَ الأمرَ على الملكِ فقالَ: الرَّأيُ رَأيُكَ، فأعتقَهُم وردَّ عَلَيهِمْ أَمْوالَهُم.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٢٢).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٤٩)، و«التيسير» (ص: ١٢٩).

وكانَ قَدْ أصابَ كَنْعانَ ما أَصابَ سائرَ البِلادِ، فأرسلَ يَعقوبُ بنيهِ غيرَ بنْيَامِينَ إليه للميرَةِ ﴿فَدَخَلُوا۟ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾؛ أي: عرَفَهُم يوسفُ عليهِ السَّلامُ، ولم يعرفوهُ؛ لطُولِ العَهدِ، ومُفارَقَتِهم إيَّاهُ في سنِّ الحَداثَةِ، ونِسيانِهم إيَّاهُ، وتوهُّمِهم أنَّه هلكَ، وبُعْدِ حالِه الَّتي رأوهُ عَلَيْها مِن حَالِه حينَ فارَقُوهُ، وقلَّةِ تَأمُّلِهم في حُلاهُ مِن التَّهيُّبِ والاستعظامِ.

(٥٩) ـ ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ﴾: أصلَحَهُم بعُدَّتِهم وأوقرَ رَكائِبَهُم بما جاؤُوا لأجلِهِ، والجَهازُ: ما يعدُّ مِن الأمتِعَةِ للنُّقلَةِ كعُددِ السَّفرِ، وما يُحملُ مِن بلدَةٍ إلى أخرى، وما تُزفُّ به المرأةُ إلى زوجِها. وقُرِئَ: «بجِهازِهم» بالكسرِ[1].

﴿قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡ﴾ رُوِيَ أنَّه لَمَّا دَخَلُوا عليه قالَ: مَن أنتُم؟ وما أمرُكُم؟ لعلَّكُم عيونٌ، قالُوا: معاذَ اللهِ! نحنُ بنو أبٍ واحدٍ، وهو شَيخٌ صِدِّيقٌ نَبيٌّ مِن الأنبياءِ اسمهُ يَعقوبُ، قالَ: كَمْ أَنْتُم؟ قالُوا: كُنَّا اثنَي عشرَ فذهبَ أَحدُنَا إلى البريَّةِ فهلكَ، قالَ: فكَمْ أنتُم هاهنا؟ قالُوا: عشرةٌ، قالَ: فأينَ الحادي عشرَ؟ قالُوا: عندَ أبينا يَتسلَّى به عَن الهالكِ، قالَ: فمَن يشهَدُ لَكُم؟ قالُوا: لا يعرفُنا هاهنا مَن يشهَدُ لنا، قالَ: فدَعُوا بعضَكُم عندي رهينةً وائتوني بأخيكُمْ مِن أَبيكُم حتَّى أصدِّقَكُم، فاقترعُوا فأصابَتْ شمعونَ.

وقيلَ: كانَ يوسفُ يُعطِي لكلِّ نفرٍ[2] حِمْلًا، فسألوهُ حِمْلًا زائدًا لأخٍ لَهُم مِن أَبيهِم، فأعطاهُم وشَرَطَ عليهِمْ أن يأتُوهُ به ليَعلمَ صِدقَهُم.

﴿أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ﴾: أُتِمُّه ﴿وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾ للضَّيفِ والمُضيفينَ لَهُم، وكانَ أحسَنَ إنزالَهُم وضِيافتَهُم.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٨) عن يحيى بن يعمر.

(٢) في نسخة التفتازاني: «نفس».

(٦٠) ـ ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾؛ أي: لا تَقرَبُونِي ولا تدخلُوا دِيارِي، وهو إمَّا نَهيٌ، أو نَفيٌ مَعطوفٌ على الجزاءِ.

(٦١) ـ ﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾: سنَجْتَهِدُ في طلبِهِ مِن أَبيهِ ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ ذلك لا نَتَوانَى فيه.

(٦٢) ـ ﴿وقالَ لِفِتْيَتِهِ﴾: لغِلْمانِه الكَيَّالينَ، جمعُ فتًى. وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ وحَفصٌ: ﴿لِفِتْيَٰنِهِ﴾[1] على جمعِ الكثرةِ ليوافِقَ قولَهُ: ﴿ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ﴾ فإنَّهُ وكَّلَ بكلِّ رَحْلٍ واحِدًا يُعبِّئ فيهِ بِضاعَتَهُم الَّتي شَرَوا بها الطَّعامَ وكانَتْ نِعالًا وأدمًا، وإنَّما فعلَ ذلك توسيعًا وتَفضُّلًا عليهم، وترفُّعًا مِن أن يأخُذَ ثمنَ الطَّعامِ مِنْهُم، وخَوْفًا مِن أن لا يكونَ عندَ أَبيهِ ما يرجعونَ به.

﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾: لعلَّهُم يَعرِفُونَ حقَّ رَدِّهَا، أو: لكَيْ يَعرِفُوهَا ﴿إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾ وفتَحُوا أَوْعِيَتَهُم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: لعلَّ مَعرِفتَهُم ذلك تَدعوهُم إلى الرُّجوعِ.

(٦٣) ـ ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾: حُكِمَ بِمَنْعِهِ بعدَ هذا[2] إن لَمْ نذهَبْ ببنْيامِينَ ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾: نرفَعِ المانِعَ مِن الكيلِ ونَكْتَلْ مَا نَحتاجُ إليه.

وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ باليَاءِ[3] على إسنادِهِ إلى الأخِ؛ أي: يكتَلْ لنَفْسِه فينضمَّ اكتِيالُهُ إلى اكتِيالِنَا.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ عَن أَنْ ينالَهُ مَكروهٌ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٤٩)، و«التيسير» (ص: ١٢٩).

(٢) بعدها في نسخة التفتازاني: «الرجوع».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٥٠)، و«التيسير» (ص: ١٢٩).

(٦٤) ـ ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ وقَد قُلْتُم في يوسُفَ: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، ﴿فَاللهُ خيرٌ حِفْظًا﴾: فأتوكَّلُ عليهِ وأفوِّضُ أمري إليه ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فأرجو أَنْ يَرْحَمَنِي بحِفظِهِ ولا يجمعَ عليَّ مُصيبتينِ، وانتِصابُ ﴿حِفْظًا﴾ على التَّمييزِ، و﴿حَٰفِظًا﴾ على قراءةِ حمزةَ والكِسائيِّ وحَفصٍ[1] يحتملُهُ والحالَ؛ كقولِه: «للهِ دَرُّهُ فارِسًا».

وقُرِئَ: «خَيْرُ حافِظٍ» و: «خَيرُ الحافِظينَ»[2].

(٦٥) ـ ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ وقُرِئَ: «رِدَّتْ»[3] بنقلِ كسرةِ الدَّالِ المدغمةِ إلى الرَّاءِ نَقْلَها في بِيعَ وقِيلَ.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي﴾: ماذا نطلبُ، هَلْ مِن مزيدٍ على ذلك؟ أكرَمَنَا وأحسَنَ مَثوانَا وباعَ مِنَّا ورَدَّ علَيْنَا متاعَنَا. أو: لا نطلبُ وراءَ ذلك إحسانًا.

أو: لا نبغي في القَولِ ولا نزيدُ فيما حَكَيْنَا لك مِن إحسانِه.

وقُرِئَ: «ما تَبْغِي» على الخطابِ[4]؛ أي: أيَّ شيءٍ تطلبُ وراءَ هذا مِن الإحسانِ أو من الدَّليلِ على صِدقِنَا.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٥٠)، و«التيسير» (ص: ١٢٩).

(٢) القراءتان في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٩)، و«الكشاف» (٤/ ٣١٦)، الأولى عن الأعمش، والثانية نسبها ابن خالويه لابن مسعود. والزمخشري لأبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٩)، و«المحتسب» (١/ ٣٤٥)، عن علقمة بن قيس، وزاد ابن جني نسبتها ليحيى، وهو ابن وثاب كما في «البحر» (١٢/ ٥٠٩) وزاد أبو حيان نسبتها للأعمش.

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٤)، و«الكشاف» (٤/ ٣١٧)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٣٦٠)، و«البحر» (١٢/ ٥١٠)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَا﴾ استئنافٌ مُوضِّحٌ لقَولِه: ﴿مَا نَبۡغِي﴾، ﴿وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا﴾ معطوفٌ على مَحذوفٍ؛ أي: رُدَّتْ إِلَيْنا فنَستَظْهِرُ بها ونَميرُ أهلَنا بالرُّجوعِ إلى الملكِ ﴿وَنَحۡفَظُ أَخَانَا﴾ عَن المَخاوفِ في ذَهابِنا وإيابِنا ﴿وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖ﴾: وَسْقَ بعيرٍ باستِصحابِ أَخينَا.

هـذا إذا كانَـتْ ﴿مَا﴾ استِفهامِيَّةً، فأمَّـا إذا كانَـتْ نافِيَةً احتمَلَ ذلـك، واحتمَلَ أَنْ تكـونَ الجُمَـلُ مَعطوفَـةً علـى ﴿مَا نَبۡغِي﴾؛ أي: لا نبغـي فيمـا نَقولُ ونَميـرُ أهلَنَا ونحفـظُ أخانا.

﴿ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ﴾؛ أي: مَكيلٌ قَليلٌ لا يَكفينَا، استَقَلُّوا ما كِيلَ لَهُم فأرادوا أن يُضاعِفُوهُ بالرُّجوعِ إلى الملكِ ويزدادوا إليه ما يكالُ لأَخيهِمْ.

ويجوزُ أَنْ تكونَ الإشارَةُ إلى ﴿كَيۡلَ بَعِيرٖ﴾؛ أي: ذلكَ شَيءٌ قَليلٌ لا يُضايِقُنا فيه الملكُ ولا يَتعاظَمُهُ.

وقيـلَ: إنَّـه مِـن كلامِ يَعقـوبَ، ومعنـاه: إنَّ حِمـلَ بَعيرٍ شـيءٌ يسـيرٌ لا يخاطَرُ لمثلِـهِ بالوَلَدِ.

(٦٦) ـ ﴿قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ﴾ إذ رأيتُ مِنْكُم ما رأيتُ ﴿حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾: حتَّى تُعطوني ما أَتَوثَّقَ به مِن عندِ اللهِ؛ أي: عهدًا مُؤكَّدًا بذكرِ اللهِ تَعالى ﴿لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ﴾ جوابُ القَسمِ؛ إذ المعنى: حتَّى تَحْلِفُوا باللهِ لتَأْتُنَّنِي به ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡ﴾: إلَّا أَنْ تُغلَبُوا فلا تُطيقُوا ذلك، أو: إلَّا أن تَهلِكُوا جَميعًا، وهو استثناءٌ مُفرَّغٌ من أَعَمِّ الأَحوالِ والتَّقديرُ: لتَأْتُنَّني بهِ على كلِّ حَالٍ إلَّا حالَ الإحاطَةِ بكُم، أو مِن أَعمِّ العِلَلِ على أنَّ قولَه: ﴿لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ﴾ على تأويلِ النَّفيِ؛ أي: لا تَمتَنِعُونَ مِن الإتيانِ به إلَّا للإحاطَةِ بِكُم؛ كقولِهِم: «أَقْسَمْتُ باللهِ إلَّا فَعَلْتَ»؛ أي: ما أطلُبُ إلَّا فِعلكَ.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾: عهدَهُم ﴿قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ مِن طَلَبِ الموثقِ وإتيانِه ﴿وَكِيلٌ﴾ رَقيبٌ مُطَّلِعٌ.

(٦٧) ـ ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ لأنَّهُم كانُوا ذَوِي جَمالٍ وأُبَّهَةٍ مُشتهِرينَ في مِصرَ بالقُربَةِ والكَرامَةِ عندَ الملكِ، فخافَ عَلَيْهِم أَنْ يَدْخُلوا كوكبةً واحِدَةً فيُعانوا، ولعلَّه لم يوصِهِم بذلك في الكرَّةِ الأُولى لأنَّهُم كانُوا مجهولينَ حينَئذٍ، أو كانَ الدَّاعي إليها خوفُه على بنْيَامِينَ، وللنَّفسِ آثارٌ مِنْهَا العَينُ، والذي يدلُّ عليه قولُه عليهِ السَّلامُ في عَوْذَتِه: «اللهمَّ إنِّي أَعوذُ بكَلِمَاتِ اللهِ التامَّةِ مِن كلِّ هامَّةٍ وعينٍ لامَّةٍ»[١].

﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ ممَّا قَضَى عليكُمْ بما أشرتُ به إليكُمْ فإنَّ الحذرَ لا يَمنَعُ القدرَ ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ يُصيبُكُم لا محالةَ إنْ قَضى عليكُمْ سوءًا ولا يَنفعُكُم ذلك ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ جمعَ بينَ الحرفينِ في عَطفِ الجُملَةِ على الجملَةِ لتَقدُّمِ الصِّلةِ للاختِصاصِ[٢]؛ كأنَّ الواوَ للعَطفِ والفاءَ لإفادةِ التَّسبُّبِ، فإنَّ فِعلَ الأنبياءِ سَببٌ لأَنْ يُقتَدَى بهِمْ.

(٦٨) ـ ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾؛ أي: مِن أَبوابٍ مُتفرِّقَةٍ في البَلدِ ﴿مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم﴾ رأيُ يَعقوبَ واتِّباعُهُم له ﴿مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ ممَّا

---

(١) رواه البخاري (٣٣٧١)، وأبو داود في «سننه» (٤٧٣٧)، والترمذي في «سننه» (٢٠٦٠)، وابن ماجه في «سننه» (٣٥٢٥)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٧٧٨)، عن ابنِ عبَّاسٍ: أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يُعوِّذُ الحسنَ والحُسَينَ فيقول: «أعيذُكُما بكَلماتِ اللهِ التامَّةِ، مِن كلِّ شَيطانٍ وهامَّةٍ، ومِن كلِّ عينٍ لامَّةٍ».

(٢) «جمع بين الحرفين» هما الواو والفاء «في عطف الجملة على الجملة»: وهي ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ «للاختصاص» علة لـ«تقدُّم الصلة». انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٣٠٥).

قَضاهُ عليهِم كما قالَ يَعقوبُ، فسُرِّقوا، وأُخِذَ بنيامينُ بوجدانِ الصُّواعِ في رحلِه، وتَضاعفت المصيبَةُ على يَعقوبَ.

﴿إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ﴾ استثناءٌ مُنقَطِعٌ؛ أي: ولكِنَّ حاجَةً في نفسِه، يعني: شَفقتَهُ عليهِمْ وحرازتَهُ مِن أَنْ يُعانوا.

﴿قَضَىٰهَا﴾: أظهرَها ووَصَّى بها ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ﴾ بالوَحيِ ونصبِ الحُجَجِ، ولذلك قالَ: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ ولم يَغترَّ بتَدبيرِه.

﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سِرَّ القَدرِ، وأنَّه لا يُغْنِي عنهُ الحَذَرُ.

(٦٩) - ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ ضَمَّ إليه بنيامينَ على الطَّعامِ، أو في المنزلِ.

رُوِيَ أنَّه أضافَهُم فأجلَسَهُم مَثنًى، فبَقِيَ بنيامينُ وَحِيدًا فبكى وقالَ: لَوْ كانَ أخي يوسفُ حَيًّا لجلسَ معي، فأجلسَهُ معه على مائدَتِه ثمَّ قالَ: لينزِلْ كلُّ اثنينِ بيتًا، وهذا لا ثانيَ له فيَكونُ مَعِي، فباتَ عِندَهُ وقالَ له: أتُحِبُّ أَنْ أكونَ أخاكَ بدلَ أخيكَ الهالك؟ قالَ: مَن يَجِدُ أخًا مِثلكَ؟ ولكن لم يَلِدْكَ يعقوبُ ولا راحيلُ.

﴿قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾: فلا تحزَنْ، افتعالٌ مِن البُؤسِ ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ في حَقِّنا.

(٧٠) - ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾: المِشْرَبةَ ﴿فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ قيلَ: كانَتْ مِشْربةً جُعِلَت صاعًا يكالُ به، وقيلَ: كانَت تُسقَى الدَّوابُّ بها ويكالُ فيها.

وكانَتْ مِن فِضَّةٍ، وقيلَ: مِن ذهبٍ.

وقُرِئَ: «وجَعَلَ»[1] على حذفِ جوابِ ﴿فَلَمَّا﴾ تقديرُه: أمهَلَهُم حتَّى انطَلَقُوا.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ١٠٨) و(٢/ ٥٠)، «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٠)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٢٦٣)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ نـادى مُـنادٍ: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾ لعلَّه لَمْ يَقُلْهُ بأمرِ يوسُفَ، أو كانَتْ تَعبِئَةُ السِّقايَةِ والنِّداءُ عليهَا برِضَا بنيامينَ.

وقيلَ: معناهُ: إنَّكُم لسَارقونَ يوسُفَ مِن أَبيهِ، أو: أإنَّكُم لسَارقونَ؟

والعيرُ: القافِلَةُ، وهـو اسمُ الإبلِ الَّتي عليها الأَحمالُ لأنَّها تَعِيرُ ـ أي: تَتردَّدُ ـ فقيلَ لأصحابِها؛ كقولِهِ عليهِ السَّلامُ: «يا خيلَ اللهِ اركَبِي»[(١)].

وقيلَ: جمعُ عَيْرٍ، وأصلُها فُعْلٌ كسُقْفٍ فُعلَ به كما فُعِلَ بـ: «بِيضٍ»[(٢)]، تُجُوِّزَ به لقافلَةِ الحَميرِ، ثمَّ استُعيرَ لكل قافِلَةٍ.

(٧١) ـ ﴿قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ أيُّ شَيءٍ ضاعَ عنْكُم[(٣)]؟ والفقدُ: غيبَةُ الشَّيءِ عَن الحسِّ بحيثُ لا يُعرفُ مكانُه.

وقُرِئَ: «تُفقِدون»[(٤)] مِن أَفْقَدْتُه: إذا وَجَدْتَه فَقِيدًا.

(٧٢) ـ ﴿قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ قُرِئَ: «صَاعَ»، و: «صَوْعَ» بالضَّمِّ والفَتحِ والعَينِ والغَينِ، و: «صُواغَ» من الصِّياغَةِ[(٥)].

---

(١) رواه هناد في «الزهد» (٢٥)، والخطابي في «غريب الحديث» (١/ ١٩١)، والكلاباذي في «بحر الفوائد» (١/ ١٠١)، والبيهقي في «الشعب» (١٠١٠٦)، من حديث أنس بن مالك.

ورواه أيضاً ابـن المبارك فـي «الجهـاد» (١٦١)، والحاكم فـي «المسـتدرك» (٣٣٨٦) من حديث أسـير بـن جابر.

(٢) قوله: «فعل به ما فُعل بـبيض»، قال في «الصحاح» (مادة: بيض): جمع الأبيض: بِيضٌ، وأصله: «بُيْضٌ» بضم الباء، وإنما أبدلوا من الضمة كسرةً لتصح الياء.

(٣) في نسخة الخيالي: «منكم».

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٩)، و«الكشاف» (٤/ ٣٢٥)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٢٦٤)، عن أبي عبد الرحمن السلمي.

(٥) انظر هذه القراءات في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٩)، و«المحتسب» (١/ ٣٤٦)، =

﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾ من الطَّعامِ جُعلًا له ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾: كفيلٌ أُؤدِّيهِ إلى مَن رَدَّهُ.

وفيهِ دَليلٌ على جوازِ الجعالَةِ وضمانِ الجُعلِ قبلَ تَمامِ العملِ.

(٧٣) ـ ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ﴾ قسمٌ فيه مَعنى التَّعجُّبِ، والتَّاءُ بدلٌ مِن الباءِ مُختصَّةٌ باسمِ اللهِ تَعالى.

﴿لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ استَشْهَدُوا بعِلْمِهِم على براءةِ أَنفُسِهِم لِمَا عَرَفُوا مِنْهُم في كَرَّتَيْ مَجيئِهِم ومَداخَلتِهِمْ للملكِ ممَّا يدلُّ على فَرْطِ أَمانَتِهم؛ كردِّ البضاعَةِ الَّتي جعلَتْ في رحالِهِم، وكَعْمِ الدَّوابِّ لئلا تتناولَ زرعًا أو طعامًا لأَحدٍ.

(٧٤) ـ ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾: فما جَزاءُ السَّارقِ، أو السَّرَقِ، أو الصُّوَاعِ على حذفِ المُضافِ[1] ﴿إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ في ادِّعاءِ البَراءَةِ.

(٧٥) ـ ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾؛ أي: جزاءُ سَرِقَتِه أخذُ مَن وُجدَ في رَحْلِه واسترقاقُهُ، هكذا كانَ شَرعُ يَعقوبَ، وقولُه: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾

= و«الكشاف» (٤/ ٣٢٥)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٢٦٤)، و«البحر» (١٢/ ٥٢٢ ـ ٥٢٣). وتلخص مما ذكره المؤلف ست قراءات هي: (صَوْعَ الملكِ) عن أبي رجاء، و: (صُوْعَ الملك) عن عبد الله بن عون، و: (صَوْغَ الملكِ) عن زيد بن علي، و: (صُوْغَ الملك) عن يحيى بن يعمر، و: (صاعَ الملكِ) عن أبي هريرة رضي الله عنه ومجاهد بخلاف. يضاف إليها (صِواع) بكسر الصاد عن أبي حيوة فتصبح سبعة، كلها من الشاذ، أما المتواتر فهي فقط: ﴿صُوَاعَ﴾ بضم الصاد وبالعين، وانظر بيان هذه القراءات ومن قرأ بكل منها مع تخريجنا لها مفصلة في حواشي «البحر».

(١) قوله: «أو السَّرَق» بفتح الراء: مصدر سرق «أو الصاع على حذف المضاف»؛ أي: سارق الصاع. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٣٠٨).

تقريـرٌ للحُكْـمِ وإلزامٌ لَهُ، أو خبـرُ ﴿مَن﴾ والفـاءُ لتَضَمُّنِها مَعنى الشَّـرطِ، أو جوابٌ لَهَا علـى أنَّها شَـرطِيَّةٌ.

والجُملَةُ كمَا هيَ خَبرُ ﴿جَزَآؤُهُۥ﴾ على إقامَةِ الظَّاهرِ فيها مقامَ الضَّميرِ؛ كأنَّه قيلَ: جزاؤُهُ مَن وجدَ في رَحلِهِ فهوَ هو(١).

﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالسَّرقَةِ.

(٧٦) ـ ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ﴾: فبدَأَ المؤذِّنُ، وقيلَ: يوسفُ؛ لأنَّهُم رُدُّوا إلى مِصرَ.

﴿قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ بِنْيَامينَ نَفْيًا للتُّهمَةِ ﴿ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا﴾؛ أي: السِّقايَةَ، أو الصُّواعَ؛ لأنَّه يذكَّرُ ويؤنَّثُ ﴿مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ وقُرِئَ: بضمِّ الواوِ، وبقلبِها همزةً(٢).

﴿كذلك﴾: مثلَ ذلك الكيدِ ﴿كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾ بأنْ علَّمناه إيَّاه وأَوْحَينا بهِ إليه.

﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾ ملكِ مِصرَ؛ لأنَّ دينَهُ الضَّربُ وتغريمُ ضعفِ ما أخذَ دونَ الاسترقاقِ، وهو بيانٌ للكَيدِ.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن يجعلَ ذلك الحكمَ حُكمَ الملكِ، فالاستثناءُ مِن أعمِّ الأَحوالِ، ويجوزُ أَنْ يكونُ مُنقَطِعًا؛ أي: لكن أَخذَهُ بمَشيئَةِ اللهِ وإذنِه.

﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ﴾ بالعلمِ كمَا رَفَعْنا درجتَهُ ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِى عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ أرفَعُ درجةً منه.

---

(١) قوله: «والجملة»؛ أي: الجملةُ الشرطيةُ «كما هي»؛ أي: بجملتِها «خبر ﴿جَزَآؤُهُۥ﴾ - إلى - فهو هو» زاد «الكشاف»: فوضعَ الجزاءَ موضعَ هو، كما تقول لصاحبك: مَن أخو زيد؟ فيقول لك: أخوه مَن يقعدُ إلى جنبه فهو هو، رجع الضمير الأول إلى مَن، والثاني إلى الأخ، ثم تقول: فهو أخوه، مقيماً للمُظْهَرِ مقامَ المُضمَر. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٣٠٨-٣٠٩).

(٢) أي: (وُعـاء) عـن الحسـن، و: (إعاء) عن سـعيد بـن جبير. انظـر: «المختصر في شـواذ القراءات» (ص: ٦٩)، و«المحتسـب» (١/ ٣٤٨)، و«الكشاف» (٤/ ٣٢٧).

واحتجَّ به(١) مَن زعَمَ أنَّه تَعالى عالِمٌ بذاتِه؛ إذْ لو كانَ ذا علمٍ لكانَ فوقَهُ مَن هُوَ أعلَمُ مِنه.

والجوابُ: أنَّ المرادَ: كلُّ ذي علمٍ مِن الخلقِ؛ لأنَّ الكلامَ فيهم، ولأنَّ العَليمَ هو اللهُ تَعالى، ومَعناهُ: «الذي له العلمُ البالغُ» لغةً، ولأنَّه لا فرقَ بينَهُ وبينَ قَولِنَا: «فوقَ كلِّ العُلماءِ عليمٌ»، وهوَ مَخصوصٌ(٢).

(٧٧) ـ ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ﴾ بنْيَامِينُ ﴿فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُ﴾ يعنونَ: يوسُفَ، قيلَ: وَرِثَت عمَّتُه مِن أَبيهَا منطقةَ إبراهيمَ، وكانَتْ تحضنُ يوسفَ وتحبُّهُ، فلمَّا شبَّ أرادَ يَعقوبُ انتزاعَهُ مِنْها، فشَدَّت المِنطَقَةَ على وسطِهِ ثمَّ أظهرَتْ ضَياعَهَا، فتُفحِّصَ عَنْها فوُجِدَت مَحزومَةً عليه، فصارَتْ أحقَّ بِهِ في حُكمِهِم(٣).

وقيلَ: كانَ لأبي أمِّهِ صنمٌ، فسرَقَهُ وكسرَهُ وألقاهُ في الجِيَفِ(٤).

وقيلَ: كانَ في البيتِ عَنَاقٌ أو دجاجةٌ فأعطى السَّائلَ(٥).

﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡ﴾: أكَنَّها ولَمْ يُظهِرْهَا لَهُم، والضَّميرُ للإجابَةِ، أو المقالَةِ، أو نسبةِ السَّرِقَةِ إليه.

وقيلَ: إنَّها كنايَةٌ بشَريطَةِ التَّفسيرِ، ويفسِّرُها قولُه: ﴿قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗا﴾

---

(١) قوله: «واحتج به» هم المعتزلة. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٣١٠).

(٢) قوله: «وهو»؛ أي: علمُهم «مخصوص»؛ أي: باللهِ تعالى. المصدر السابق.

(٣) وبقي عندها حتى ماتت. رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٧٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٧٨)، عن مجاهد.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣) عن سعيد بن جبير وقتادة.

(٥) أي: فأعطاه العناق أو الدجاجة. وذكر الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٤٣) قصة الدجاجة عن سفيان بن عيينة، وقصة العناق عن كعب.

فإنَّه بدلٌ مِن «أسرَّهَا» والمعنى: ﴿قَالَ﴾ فـي نَفسِهِ: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾؛ أي: منزلةً في السَّرِقَةِ لسَرِقَتِكُم أخاكُم، أو في سُوءِ الصَّنيعِ ممَّا كُنْتُم عليه، وتَأنيثُها باعتبارِ الكلمةِ، أو الجملةِ، وفيه نَظرٌ إذ المفسَّرُ بالجُملَةِ لا يكونُ إلَّا ضَميرَ الشَّأنِ.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾: وهو يعلَمُ أنَّ الأمرَ ليسَ كما تَصِفُونَ.

(٧٨) ـ ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ في السنِّ، أو القَدْرِ، ذكروا له حالَهُ استِعطافًا له عليه.

﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾: بدلَهُ، فإنَّ أباهُ ثكلانُ على أخيهِ الهالكِ مُستأنِسٌ به ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إلينا، فأَتْمِم إِحسانَكَ، أو: مِن المُتعوِّدينَ الإحسانَ فلا تغيِّرْ عادتَكَ.

(٧٩) ـ ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ فإنَّ أخذَ غيرِه ظُلْمٌ على فَتْوَاكُم، فلَوْ أخذْنا أحدَكُم مَكانَه ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ﴾ في مَذهَبِكُم هذا.

أو أن مُرادَهُ: إنَّ اللهَ أذنَ في أخذِ مَن وَجَدْنَا الصَّاعَ في رحلِهِ لِمَصلَحَتِه ورِضاه عليهِ، فلو أَخَذْتُ غيره كنتُ ظالمًا.

(٨٠) ـ ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ﴾: يَئِسُوا مِن يوسُفَ وإجابَتِهِ إيَّاهُم، وزيادةُ السِّينِ والتَّاءِ للمُبالغَةِ. وعن البزِّيِّ: ﴿استَايَسُوا﴾ بالألفِ وفتحِ الياء من غير همز، وإذا وقف حمزةُ ألقى حركةَ الهمزةِ على الياء على أصله(١).

﴿خَلَصُواْ﴾: انفرَدُوا واعتزَلُوا ﴿نَجِيًّا﴾: مُتناجينَ، وإنَّما وحدَهُ لأنَّه مَصدرٌ أو بزِنَتِه؛ كمَا قيلَ: هم صَدِيقٌ، وجمعُه: أَنْجِيَةٌ؛ كنَدِيٍّ وأَنْدِيَةٍ.

---

(١) انظر: «التيسير» (ص: ١٢٩ ـ ١٣٠).

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ في السِّنِّ وهوَ رُوبيلُ، أو: في الرَّأْيِ وهو شَمعونُ، وقيلَ: يَهوذَا: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾: عَهدًا وَثيقًا، وإنَّما جُعِلَ حَلِفُهم باللهِ موثِقًا منه لأنَّه بإذنٍ مِنْهُ وتَأكيدٍ مِن جِهَتِه.

﴿وَمِن قَبْلُ﴾: ومن قبلِ هذا ﴿مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾: قصَّرْتُم في شَأنِه، و﴿مَا﴾ مزيدَةٌ، ويجوزُ أَنْ تكونَ مَصدريَّةً في مَوقعِ النَّصبِ بالعَطفِ على مفعولِ ﴿تَعْلَمُوٓاْ﴾، ولا بأسَ بالفَصلِ بين العاطفِ والمَعطوفِ بالظَّرفِ، أو على اسمِ ﴿أَنَّ﴾، وخبرُه: ﴿فِي يُوسُفَ﴾، أو ﴿من قَبْلُ﴾.

أو الرَّفعِ بالابتداءِ، والخبرُ ﴿من قَبْلُ﴾، وفيه نظرٌ لأنَّ «قبل» إذا كانَ خبرًا أو صِلَةً لا يُقطَعُ عن الإضافَةِ حتَّى لا ينقصَ.

وأَنْ تكونَ مَوصولةً؛ أي: ما فَرَّطْتُموهُ، بمَعنى: ما قَدَّمْتُموهُ في حقِّهِ مِن الجنايَةِ، ومحلُّهُ ما تَقَدَّمَ.

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾: فلَنْ أُفارِقَ أرضَ مِصرَ ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ في الرُّجوعِ ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾: أو يَقضِيَ لي بالخُروجِ مِنْهَا، أو بخلاصِ أَخِي مِنْهُم، أو بالمقاتلَةِ مَعَهُم لتَخليصِه.

رُوِيَ أَنَّهُم كَلَّمُوا العزيزَ في إطلاقِهِ فقالَ رُوبيل: أَيُّها المَلِكُ! واللهِ لتَتْرُكَنَّا أو لأَصِيحَنَّ صيحَةً تَضَعُ مِنْها الحوامِلُ، ووقفَتْ شُعورُ جسدِهِ فخَرَجَتْ مِن ثيابِه، فقالَ يوسُفُ لابنِه: قُمْ إلى جَنبِهِ فمُسَّهُ، وكانَ بَنُو يعقوبَ إذا غَضِبَ أَحَدُهُم فمَسَّهُ الآخرُ ذهبَ غَضَبُه فقالَ رُوبيلُ: مَن هذا؟ إنَّ في هذا البلدِ لبَزْرًا مِن بَزْرِ يَعقوبَ[1].

---

(١) قطعة من خبر طويل رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٧٧ ـ ٢٧٨) عن السدي. وظاهر أنه من الإسرائيليات.

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ لأنَّ حكمَهُ لا يكونُ إلَّا بالحقِّ.

(٨١) ـ ﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ على ما شاهَدْنَا مِن ظاهِرِ الأَمرِ.

وقُرِئَ: «سُرِّق» (١)؛ أي: نسبَ إلى السَّرِقَةِ.

﴿وَمَا شَهِدْنَآ﴾ عليهِ ﴿إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ بأَنْ رَأَيْنَا أنَّ الصُّواعَ استُخرجَ مِن وِعائِه ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ﴾: لباطنِ الحَالِ ﴿حَٰفِظِينَ﴾ فلا ندرِي أنَّه سَرَقَ، أو سُرِّقَ ودُسَّ الصَّاعُ في رحلِهِ.

أو: وما كنَّا للعَواقِبِ عالمينَ، فلَمْ ندرِ حينَ أَعطيناكَ المَوثِقَ أنَّه سيسرِقُ، أو أنَّكَ تصابُ به كما أُصِبْتُ بيُوسُفَ.

(٨٢) ـ ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ يعنُونَ مصرَ، أو قريةً بقُربِها لَحِقَهُم المُنادِي فيها، والمَعنى: أرسِلْ إلى أهلِهَا واسْأَلْهُم عَن القِصَّةِ ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾: وأصحابَ العيرِ الَّتي تَوَجَّهْنَا فيهِم وكُنَّا مَعَهُم ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ تأكيدٌ في محلِّ القَسَمِ.

(٨٣) ـ ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ﴾؛ أي: فَلَمَّا رَجَعُوا إلى أبيهِمْ وقالوا له ما قالَ لَهُم أَخُوهُم قالَ: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾؛ أي: زَيَّنَتْ وسَهَّلَت ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أَرَدْتُموهُ فقَرَّرْتُموهُ، وإلَّا فمَا أدرَى الملكَ أنَّ السَّارقَ يؤخَذُ بسَرِقَتِه؟!

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾؛ أي: فأَمْرِي صَبرٌ جَميلٌ، أو: فصَبرٌ جَميلٌ أجمَلُ ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾: بيوسُفَ وبنيامينَ وأَخيهِمَا الَّذي توقَّفَ بمِصرَ.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالي وحالِهِم ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تَدبيرِها.

---

(١) انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢١٢)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٢٧٠)، عن ابن عباس وغيره.

(٨٤) - ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾: وأعرَضَ عَنْهُم كراهَةً لِمَا صادفَ مِنْهُم ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾؛ أي: يا أسفي تَعالَ فهذا أوانُكَ، والأسفُ: أَشَدُّ الحُزنِ والحَسرَةِ، والأَلِفُ بَدَلٌ مِن ياءِ المُتكلِّم.

وإنَّما تَأَسَّفَ على يُوسُفَ دونَ أَخوَيْهِ والحادِثُ رزؤُهُمَا؛ لأنَّ رِزأَهُ كانَ قاعدَةَ المُصيباتِ، وكانَ غَضًّا آخِذًا بمجامِعِ قَلبِه، ولأنَّه كانَ واثِقًا بحَياتِهِمَا دونَ حَياتِهِ.

وفي الحديثِ: «لَمْ تُعطَ أمَّةٌ مِن الأُمَمِ إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجِعُونَ عندَ المُصيبَةِ إلَّا أُمَّةُ مُحَمَّدٍ»، ألا ترى إلى يَعقوبَ حين أصابَهُ ما أصابَهُ لم يَستَرْجِعْ وقالَ: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ﴾[١].

﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ لكَثرَةِ بُكائِهِ مِن الحُزنِ كأنَّ العَبرةَ مَحَقَتْ سَوادَهُما، وقيلَ: ضَعُفَ بَصَرُهُ، وقيلَ: عَمِيَ. وقُرِئَ: «مِن الحَزَنِ»[٢].

وفيه دليلٌ على جوازِ التَّأَسُّفِ والبُكاءِ عندَ التَّفجُّعِ، ولعلَّ أمثالَ ذلك لا يدخلُ تحتَ التَّكليفِ، فإنَّه قلَّ مَن يَملِكُ نَفسَهُ عندَ الشَّدائدِ، ولقد بكَى رَسولُ اللهِ ﷺ على ولدِهِ إبراهيمَ وقالَ: «القلبُ يَجزعُ والعَينُ تدمَعُ، ولا نقولُ ما يُسخِطُ الربَّ، وإنَّا عليك يا إبراهيمُ لَمَحْزُونونَ»[٣].

---

(١) رواه بهذا اللفظِ الثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ١١٧، والواحدي في «الوسيط» (٢/ ٦٢٧)، مِن طريقِ سَعيدِ بنِ جُبيرٍ عَن ابنِ عبَّاسٍ، وفي إسناده عبد الله بن محمد بن وهب وهو متروك.
ورَواه الطَّبرانيُّ في «الكبير» (١٢٤١١) مِن هذا الوَجهِ دونِ قولِه: «ألا ترى إلى يعقوبَ..إلخ»، وفيه محمد بن خالد الطحان، وهو ضعيف كما في «مجمع الزوائد» (٢/ ٣٣٠). ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٣٣٣)، والطبري في «تفسيره» (٢/ ٧٠٨)، والبيهقي في «الشعب» (٩٦٩١)، من قول سعيد بن جبير، وقال البيهقي: «رفعه بعض الضعفاء إلى ابن عباس ثم إلى النبي ﷺ».

(٢) نسبها الهذلي في «الكامل» (ص: ٥٧٧) لقتادةَ، وابنُ عطية في «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٧٢) لابن عباس ومجاهد.

(٣) رواه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥)، من حديث أنس رضي الله عنه. وفيهما: «.. ولا نقولُ إلاَّ ما يَرْضَى رَبُّنا..».

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾: مملوءٌ مِن الغَيظِ علـى أَولادِه، ممسِكٌ له في قَلبِه لا يظهِرُه، فَعِيلٌ بمَعنى مَفعولٍ كقولِه: ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨]، مِن كَظَمَ السِّقاءَ: إذا شَدَّ على مِلْئِه، أو بمَعنى فاعلٍ كقولِه: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] مِن كَظَمَ الغيظَ: إذا اجتَرَعَهُ، وأَصلُهُ: كَظَمَ البَعِيرُ جِرَّتَهُ: إذا ردَّهَا في جَوفِهِ.

(٨٥) ـ ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾؛ أي: لا تَفْتأُ ولا تَزالُ تَذْكُرُه تَفَجُّعًا عليه، فحُذفَ كمَا في قَولِه:

فَقُلْـتُ يَمِيـنَ اللهِ أَبْـرَحُ قَاعِـدًا[1]

لأنَّه لا يَلْتَبِسُ بالإِثباتِ، فإنَّ القَسَمَ إذا لَمْ يَكُن مَعَهُ عَلامَةُ الإثباتِ كانَ عَلَى النَّفيِ.

﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾: مريضًا مُشْفِيًا على الهَلاكِ.

وقيلَ: الحَرَضُ: الَّذي أذابَهُ هَمٌّ أو مَرَضٌ.

وهُو في الأَصلِ مَصدرٌ، ولذلك لا يُؤنَّثُ ولا يُجمَعُ، والنَّعتُ بالكَسرِ كَـ«دَنَفٍ ودَنِفٍ»، وقد قُرِئَ به[2]، وبضَمَّتينِ كجُنُبٍ[3].

﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ﴾: مِن الميِّتينَ.

(٨٦) ـ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ﴾: هَمِّي الَّذي لا أقدرُ الصبرَ عليهِ، مِن البَثِّ بمَعنى النَّشرِ ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إلى أحدٍ مِنْكُم ومنِ غيرِكُم، فخَلُّوني وشِكَايَتي.

---

(١) صدر بيت لامرئ القيس، وهو في «ديوانه» (ص: ١٣٧)، و«الكتاب» (٣/ ٥٠٤)، و«معاني القرآن» للفراء (٢/ ٥٤)، وعجزه:

ولو قطَّعوا رأسي لدَيكِ وأَوْصَالي

(٢) انظر: «الكشاف» (٤/ ٣٤٠) دون نسبة.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٩)، و«الكشاف» (٤/ ٣٤٠)، عن الحسن.

﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾: مِن صنعِهِ ورَحمَتِه، فإنَّه لا يُخَيِّبُ داعيَهُ ولا يَدَعُ المُلتَجِئَ إليه، أو: مِنَ اللهِ بنَوْعٍ مِن الإلهامِ ﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ مِن حَياةِ يُوسفَ.

قيلَ: رأى ملكَ المَوتِ في المَنامِ فسَأَلَهُ عنه، فقالَ: هو حيٌّ.

وقيلَ: عَلِمَ مِن رُؤيَا يوسُفَ أنَّه لا يموتُ حتَّى يَخِرَّ لَهُ إِخوَتُهُ سُجَّدًا[1].

(٨٧) ـ ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾: فتعرَّفُوا مِنْهُما وتَفحَّصُوا عَن حالِهِما، والتَّحسُّسُ: تَطلُّبُ الإِحساسِ.

﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾: ولا تَقْنَطُوا مِن فَرَجِه وتَنفيسِه.

وقُرِئَ: «من رُوح اللهِ»[2]؛ أي: مِن رَحمَتِه الَّتي يُحيِي بها العبادَ.

﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ باللهِ وصِفَاتِه، فإنَّ العارِفَ لا يقنَطُ مِن رَحمَتِهِ في شيءٍ مِن الأَحوالِ.

(٨٨) ـ ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ﴾ بعدَما رَجَعُوا إلى مِصرَ رَجعَةً ثانيَةً ﴿مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾: شدَّةُ الجوعِ ﴿وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾: رَدِيئَةٍ، أو: قَليلَةٍ، تُردُّ وتُدفَعُ رغبَةً عَنْهَا، مِن أَزْجَيْتُه: إذا دَفَعْتُه، ومِنْهُ: تَزْجِيَةُ الزَّمانِ.

قيلَ: كانَتْ دَراهِمَ زُيوفًا، وقيلَ: صُوفًا وسَمْنًا، وقيلَ: الصنوبرُ وحبَّةُ الخَضراءِ، وقيلَ: الأَقِطُ وسَوِيقُ المقلِ.

﴿فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ﴾: فأتِمَّ لنا الكيلَ ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآ﴾ برَدِّ أَخِينَا، أو: بالمُسامَحَةِ وقَبولِ المُزجاةِ، أو: بالزِّيادَةِ على ما يُساوِيهَا.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٨٩ ـ ٢١٩٠) عن النضر بن عربي.

(٢) نسبت للحسن وقتادة. انظر: «المحتسب» (١/ ٣٤٨)، و«الكشاف» (٤/ ٣٤٢).

واختُلفَ في أنَّ حُرمَةَ الصدقةِ تعمُّ الأَنبياءَ، أو تختصُّ بنَبِيِّنا عليهِ وعليهِم السَّلامُ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾ أحسنَ الجَزاءِ، والتَّصدُّقُ: التَّفضُّلُ مُطلَقًا، ومِنهُ قولُه عليهِ السَّلامُ في القصرِ: «هذه صدَقَةٌ تصدَّقَ اللهُ عليكُم فاقبَلُوا صَدَقَتَهُ»[1]، لكنَّه اختَصَّ عُرْفًا بما يُبتَغَى به ثوابٌ مِن اللهِ.

(٨٩) - ﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾؛ أي: هَلْ عَلِمْتُم قُبحَهُ فتُبْتُم عَنْهُ، وفِعلُهُم بأخيهِ: إفرادُهُ عَن يوسُفَ، وإذلالُهُ حتَّى كانَ لا يَستطيعُ أَنْ يُكلِّمَهُم إلَّا بعجزٍ وذلَّةٍ.

﴿إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾ قُبْحَهُ فلذلكَ أَقْدَمْتُم عليهِ، أو: عاقبتَهُ، وإنَّما قالَ ذلك تَنَصُّحًا لَهُم وتَحريضًا على التَّوبَةِ، وشَفقَةً عَلَيهِم لِمَا رَأَى مِن عَجزِهِم وتَمَسْكُنِهِم، لا مُعاتَبَةً وتَثْريبًا.

وقيلَ: أعطَوْهُ كِتابَ يَعْقُوبَ في تَخليصِ بنْيَامِينَ، وذَكَرُوا لَهُ ما هوَ فيهِ مِن الحزنِ على فَقدِ يوسُفَ وأخيه، فقالَ لَهُم ذلكَ، وإنَّما جَهَّلَهُم لأنَّ فِعْلَهُم كان[2] فعلَ الجُهَّالِ، أو لأَنَّهُم كانُوا حينئذٍ صِبْيانًا طَيَّاشينَ.

(٩٠) - ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ استفهامُ تَقريرٍ، ولذلك حُقِّقَ بـ«إنَّ» ودخولِ اللَّامِ عليهِ. وقرأَ ابنُ كثيرٍ على الإيجابِ[3].

---

(١) رواه مسلم (٦٨٦) من حديث عمر رضي الله عنه. وقولُهُ: (في القصرِ) أي: في شأنِ القصرِ؛ أي: قصرِ صلاةِ المسافرِ.

(٢) في نسخة الخيالي: «فعلهم ذا».

(٣) والأولى قراءة باقي السبعة. انظر: «السبعة» (ص: ٣٥١)، و«التيسير» (ص: ١٣٠).

قيلَ: عرَفُوهُ برُوائِه وشَمائِلِه حينَ كَلَّمَهُم بِهِ(١).

وقيلَ: تَبَسَّمَ فعَرَفُوهُ بثناياهُ.

وقيلَ: رفعَ التَّاجَ عَن رأسِه فرَأَوْا علامَةً بقَرنِهِ تُشبِهُ الشَّامَةَ البَيضاءَ، وكانَتْ لسارةَ ويَعقوبَ مِثْلُهَا.

﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى﴾ مِن أبي وأُمِّي، ذكرَهُ تَعريفًا لنَفْسِهِ به، وتَفخيمًا لشَأْنِه، وإدخالًا له في قولِه: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾؛ أي: بالسَّلامةِ والكرامةِ.

﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ﴾؛ أي: يَتَّقِ اللهَ ﴿وَيَصْبِرْ﴾ على البَلِيَّاتِ، أو: على الطَّاعاتِ وعَن المَعاصِي.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وَضعَ ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ مَوضِعَ الضَّميرِ للتَّنبيهِ عَلى أنَّ المحسِنَ مَن جمعَ بينَ التَّقوَى والصَّبرِ.

(٩١) ـ ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾: اختارَكَ علينَا بحُسْنِ الصُّورَةِ وكَمالِ السِّيرَةِ ﴿وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ﴾: والحالُ أنَّ شَأنَنا أنَّا كُنَّا مُذنبينَ بمَا فَعَلْنَا مَعَك.

(٩٢) ـ ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾: لا تأنيبَ عَلَيكُم، تفعيلٌ مِن الثَّرْبِ وهو الشَّحمُ الَّذي يغشَى الكَرِشَ للإزالةِ كالتَّجليدِ(٢)، فاستُعيرَ للتَّقريعِ الَّذي يمزِّقُ العِرْضَ ويُذهبُ ماءَ الوَجهِ.

---

(١) قوله: «روائه» بالضم؛ أي: منظره، وقوله: «به»؛ أي: بما ذُكِر من قوله لهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُم﴾ إلخ. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٣١٧).

(٢) قوله: «للإزالة»؛ أي: إزالة الثَّرب، أشار به إلى أن بناء التَّثريبِ للإزالة «كالتجليد»؛ أي: في أنَّ كلاًّ منهما للإزالة، يقال: جَلَّدتُ الشاةَ: أزَلتُ جِلْدَها، وجَلَّلتُ البعيرَ: أزلت جَلَّه، «فاستعير»؛ أي: التثريبُ «للتقريع»، وحاصل كلامه: أن التثريبَ لغةً: إزالةُ الثَّرْبِ، ثم استُعمِلَ في التقريع الذي ذكرَه. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٣١٨). وقال الشهاب في «الحاشية»: وجعلُوا «التَّفعِيلَ» للسَّلبِ كالتَّجليدِ بمعنى إزالَةِ الجلدِ فاستُعيرَ للَّوم؛ لأنَّ بإزالَةِ الشَّحم يبدو الهزالُ وما لا يُرضى؛ كما أنَّهُ باللَّومِ تظهرُ العيوبُ، فالجامعُ بينَهُما طريانُ النَّقصِ بعدَ الكمالِ أو إزالَةُ ما بِهِ الكمالُ والجمالُ.

﴿ٱلْيَوْمَ﴾ مُتعلِّقٌ بالتَّثريبِ، أو بالمقدَّرِ للجارِّ الواقعِ خبرًا لـ﴿لَا تَثْرِيبَ﴾، والمَعنى: لا أُثرِّبُكُم اليومَ الَّذي هو مظنَّتُه، فما ظنُّكُم بسائرِ الأيَّامِ؟

أو بقولِه: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ لأنَّه صفحَ عَن جَرِيمَتِهِم حينئذٍ واعترفوا بها حينئذٍ.

﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فإنَّه يغفرُ الصَّغائرَ والكَبائرَ ويتفضَّلُ على التَّائبِ.

ومِن كرمِ يوسفَ عليهِ السَّلامُ: أنَّهُم لَمَّا عَرَفُوه أرسَلُوا إليه وقالوا: إنَّك تَدعونَنا بالبكرةِ والعَشيِّ إلى الطَّعامِ ونحنُ نَستَحيي منكَ لِمَا فرطَ مِنَّا فيك، فقالَ: إنَّ أهلَ مِصرَ كانُوا ينظرونَ إليَّ بالعينِ الأُولَى ويقولون: سُبحانَ مَن بلَّغَ عَبْدًا بيعَ بعشرينَ دِرْهَمًا ما بلَغَ، ولقد شَرُفتُ بِكُم وعَظُمْتُ في عيونِهِم حيثُ عَلِمُوا أنَّكُم إِخْوَتِي وأني مِن حَفَدَةِ إبراهيمَ.

(٩٣) ـ ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾: القميصُ الَّذي كانَ عليهِ، وقيلَ: القَمِيصُ المتوارَثُ الذي كانَ في التَّعويذِ ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾؛ أي: يرجعُ بَصيرًا؛ أي: ذا بَصَرٍ ﴿وَأْتُونِى﴾ أنتُمْ وأبي ﴿بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بنِسائِكُم وذَرَارِيِّكُم ومَوالِيكُم.

(٩٤) ـ ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ مِن مِصرَ وخَرَجَت مِن عمرانِها ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ لِمَن حَضَرَهُ:

﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أوجدَهُ اللهُ ريحَ ما عَبَقَ بقَمِيصهِ مِن ريحِه حينَ أَقبَلَ به إليه يهوذَا مِن ثَمانينَ فَرْسخًا.

﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾: تَنْسِبوني إلى الفَنَدِ، وهو نقصانُ عقلٍ يَحدُثُ مِن هَرَمٍ، ولذلك لا يُقالُ: عَجوزٌ مُفنَّدَةٌ؛ لأنَّ نقصانَ عَقْلِها ذاتِيٌّ.

وجوابُ «لولا» محذوفٌ تَقديرُهُ: لصَدَّقْتُموني، أو: لقُلْتُ: إنَّه قَريبٌ.

(٩٥) ـ ﴿قَالُواْ﴾؛ أي: الحاضرونَ: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾: لفي ذهابِكَ عَن الصَّوابِ قِدْمًا[١] بالإفراطِ في مَحبَّةِ يوسُفَ، وإكثارِ ذكرِهِ، وتوقُّعِ لِقائِه.

(٩٦) ـ ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ يهوذَا. رُوِيَ أنَّه قالَ: كمَا أَحْزَنْتُه بحَمْلِ قَميصِه المُلطَّخِ بالدَّمِ إليه فأُفْرِحُه بحملِ هذا إليهِ[٢].

﴿أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾: طرحَ البَشيرُ القَميصَ على وَجهِ يَعقوبَ، أو يعقوبُ نَفسُه ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾: عادَ بَصيرًا لِمَا انتعَشَ فيهِ من القوَّةِ.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مِن حياةِ يوسُفَ، وإنزالِ الفَرَجِ.

وقيلَ: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ﴾ كلامٌ مُبتدأٌ، والمقولُ: ﴿ولا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾، أو: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾.

(٩٧) ـ ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ ومِن حَقِّ المعترِفِ بذَنبِهِ أن يُصفَحَ عنه ويُسألَ له المغفرةُ.

(٩٨) ـ ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أَخَّرَه إلى السَّحرِ، أو إلى صلاةِ اللَّيلِ، أو إلى ليلةِ الجمعةِ؛ تحرِّيًا لوقتِ الإجابَةِ، أو إلى أن يَستحِلَّ لهم مِن يوسفَ، أو يعلمَ أنَّه عفَا عَنْهُم، فإنَّ عفوَ المظلومِ شَرطُ المغفرةِ، ويؤيِّدُه ما رُوِيَ: أنَّه استقبلَ القبلَةَ قائمًا يدعو، وقامَ يوسفُ خلفَهُ يؤمِّنُ، وقامُوا خلفَهُما أذلَّةً خاشِعينَ، حتَّى نزلَ جِبريلُ وقالَ: إنَّ اللهَ قَدْ أجابَ دَعْوَتَكَ في وُلْدِكَ وعقدَ مَواثِيقَهُم بعدَكَ على النُّبوَّةِ[٣].

---

(١) «قِدْمًا» بكسرِ القافِ وسكونِ الدَّالِ المُهملَةِ بمعنى قديمًا. قاله الشهاب في «الحاشية».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣٤٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٩٦)، عن السدي.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣٦٧) عن أنس بن مالك رضي الله عنه موقوفًا. وانظر التعليق الآتي.

وهو إنْ صَحَّ فدَليلٌ على نُبوَّتِهِم[1]، وأَنَّ ما صدرَ عَنْهُم كانَ قبلَ استِنْبائِهِم.

(٩٩) ـ ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ رُوِيَ أنَّه وجَّهَ إليهِ رَواحِلَ وأَموالًا ليَتحيَّزَ[2] إليه بمَنْ مَعَه، واستَقْبلَه يوسُفُ والملكُ بأَهلِ مِصرَ، وكانَ أَولادُهُ الَّذينَ دَخلُوا معَهُ مِصرَ اثنين وسَبعينَ رَجُلًا وامرأةً، وكانُوا حينَ خرجُوا مع مُوسَى عليهِ السَّلامُ ستَّ مئةِ ألفٍ وخمسَ مئةٍ وبضعةً وسبعينَ رجلًا سِوَى الذريَّةِ والهَرْمَى.

﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾: ضمَّ إليهِ أباهُ وخالَتَه واعتَنَقَهُما، نَزَّلها مَنزِلَةَ الأُمِّ تنزيلَ العمِّ منزلةَ الأبِ في قولِه: ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ [البقرة: ١٣٣] أو لأنَّ يعقوبَ تَزوَّجَها بعدَ أُمِّهِ والرابَّةُ تُدعَى أُمًّا.

﴿وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ مِن القَحْطِ وأَصنافِ المكارِه، والمشيئةُ مُتعلِّقَةٌ بالدُّخولِ المكيَّفِ بالأمنِ، والدُّخولُ الأوَّلُ كانَ في مَوضعٍ خارِجَ البلدِ حينَ استَقْبلَهُم.

(١٠٠) ـ ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾ تَحيَّةً وتَكرِمَةً، فإنَّ السُّجودَ كانَ عِندَهُم يَجْرِي مَجراها.

وقيلَ: معناهُ: خَرُّوا لأَجلِهِ سُجَّدًا للهِ شُكرًا.

وقيلَ: الضَّميرُ للهِ، والواوُ لأَبَويهِ وإِخوَتِه.

والرَّفعُ مُؤخَّرٌ عَن الخُرورِ وإن قُدِّمَ لَفْظًا للاهتمامِ بتَعظيمِهِ لَهُما.

﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾: الَّتي رَأَيْتُها أَيَّامَ الصِّبا ﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي

---

(١) ولم يصح، فهو من رواية صالح المري عن يزيد الرقاشي عن أنس، وقال ابن كثير عند تفسير الآية (١٠١) من هذه السورة: يزيد الرقاشي وصالح المري ضعيفان جدًّا.

(٢) في نسخة الخيالي والتفتازاني: «ليتجهز».

حَقًّا﴾: صِدْقًا ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ ولم يَذْكُر الجُبَّ لِئَلَّا يكونَ تَثْرِيبًا عليهِم.

﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾: مِن البَادِيَةِ؛ لأَنَّهُم كانُوا أَصحابَ المَواشِي وأهلَ البَدوِ.

﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ﴾: أفسدَ بينَنا وحرَّشَ، مِن نَزَغ الرَّائِضُ الدَّابَّةَ: إذا نخسَها وحملَها على الجَرْيِ.

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾: لَطيفُ التَّدبيرِ له[1] إِذْ ما مِن صَعبٍ إلَّا وتَنْفُذُ فيه مَشيئَتُه ويتسهَّلُ دونَها ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بوُجوهِ المَصالحِ والتَّدابيرِ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الَّذي يفعَلُ كلَّ شَيءٍ في وقته، وعلى وجهٍ يَقتضي الحكمةَ.

رُوِيَ أنَّ يُوسُفَ طافَ بأَبيهِ عليهِمَا السَّلامُ في خَزائِنِه، فلَمَّا أَدخَلَهُ خزينَةَ القرطاسِ قالَ: يا بُنيَّ ما أعقَّكَ! عندكَ هذهِ القَراطيسُ وما كتبتَ إليَّ على ثمانِ مراحِلَ؟ قالَ: أمرَنِي جِبريلُ، قالَ: أَوَما تسأَلُه؟ قالَ: أنتَ أبسَطُ مِنِّي إليه فاسأَلْه، قالَ جبريلُ: اللهُ أمرَنِي بذلك لقولِك: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ قالَ: فهَلَّا خِفْتَنِي[2].

(١٠١) - ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾: بعضَ الملكِ وهو ملكُ مِصرَ ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾: الكتب، أو الرُّؤيا، و﴿مِن﴾ أيضًا للتَّبعيضِ لأنَّه لم يؤتَ كُلَّ التَّأويلِ.

﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: مُبدِعَهُما، وانتِصَابُه على أنَّه صِفَةُ المُنادَى أو مُنادًى برَأسِه.

---

(١) قوله: «لطيف التدبير له»؛ أي: لما يشاءُ، واللام إن عُلِّقَت بـ (لطيف) فهو للتعليل، أو بـ (التدبير) الذي قدَّرَه فهي صلةٌ له. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٣٢١).

(٢) ذكره أبو حفص النسفي في «التيسير في التفسير» عند هذه الآية، والزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٣٤٥). ونسبه النسفي لبعض التفاسير المقبولة.

﴿أَنتَ وَلِيِّۦ﴾: ناصِـرِي ومُتولِّي أَمْـرِي ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِـرَةِ﴾، أو: الَّذي يَتولَّاني بالنِّعمَةِ فيهِما.

﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا﴾: اقبِضْنِـي ﴿وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ مـن آبائـي، أو: بعامَّـةِ الصَّالحيـنَ فـي الرُّتبَـةِ والكَرامـةِ.

رُوِيَ أنَّ يَعقوبَ أقامَ معَهُ أربعًا وعشرينَ سَنَةً، ثمَّ تُوفِّيَ وأَوْصى أَنْ يُدفنَ بالشَّامِ إلى جنبِ أَبيهِ، فذهبَ به ودَفَنَهُ ثمَّةَ وعادَ، وعاشَ بعدَهُ ثلاثًا وعِشرينَ سنَةً، ثمَّ تاقَتْ نَفسُهُ إلى الملكِ المخلَّدِ فتمنَّى الموتَ، فتوفَّاهُ اللهُ طيِّبًا طاهِرًا، فتخاصمَ أهلُ مِصرَ في مَدفَنِه حتَّى همُّوا بالقتالِ، فرأَوْا أَنْ يجعَلُوهُ في صُندوقٍ مِن مرمرٍ ويَدفنوهُ في النِّيلِ بحيثُ يمرُّ عليه الماءُ ثمَّ يَصِلُ إلى مِصرَ ليكونوا شَرَعًا[1] فيهِ، ثمَّ نقلَهُ مُوسَى إلى مدفنِ آبائِه، وكانَ عمرُه مئةً وعِشرينَ سَنةً، وقد وُلِدَ له مِن راعيلَ: إِفْرَائيمُ ومَيْشَا، وهو جَدُّ يوشعَ بنِ نونٍ، ورحمةَ امرأةِ أَيُّوبَ.

(١٠٢) ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذكرَ مِن نَبأِ يوسُفَ، والخطابُ فيهِ للرَّسولِ عليهِ السَّلامُ، وهو مُبتدأٌ، و﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَ﴾ خبرانِ له ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾ كالدَّليلِ عليهِما.

والمعنى: إنَّ هذا النَّبأَ غيبٌ لم تَعرِفْهُ إلَّا بالوَحيِ؛ لأنَّك لَمْ تَحضُرْ إِخوةَ يُوسفَ حينَ عَزَمُوا على ما همُّوا بهِ مِن أَنْ يجعَلُوه في غيابَةِ الجبِّ وهم يمكرونَ بهِ وبأبيهِ ليُرسِلَهُ مَعَهُم، ومِن المعلومِ الَّذي لا يَخْفَى على مُكَذِّبيكَ أنَّك ما لَقِيتَ أحدًا سمعَ ذلك فتَعلَّمْتَهُ منه، وإنَّما حُذفَ هذا الشقُّ استغناءً بذكرِه في غيرِ هذه القِصَّةِ كقولِه: ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَا﴾ [هود: ٤٩].

---

(١) «شرعًا» بفتحاتٍ بمعنى: سواء ومنه قولُهُم: أنتُم فيهِ شَرَعٌ؛ أي: سواءٌ. قاله الشهاب في «الحاشية».

(١٠٣) ـ ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ﴾ على إيمانِهم وبالغتَ في إظهارِ الآياتِ عليهِمْ ﴿بِمُؤۡمِنِينَ﴾ لعنادِهم وتَصميمِهِمْ على الكُفرِ.

(١٠٤) ـ ﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ﴾ على الإنباءِ، أو القُرآنِ ﴿مِنۡ أَجۡرٍ﴾: مِن جُعْلٍ كما يفعَلُه حمَلَةُ الأَخبارِ، ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٌ﴾: عِظَةٌ مِن اللهِ ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ عامَّةً.

(١٠٥) ـ ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ﴾: وكم مِن آيةٍ، والمعنى: وكأيِّ عددٍ شئتَ مِن الدَّلائلِ الدَّالَّةِ على وُجودِ الصَّانعِ وحكمتِهِ وكمالِ قُدرتِه وتَوحيدِه ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا﴾: على الآياتِ ويُشاهِدُونَها ﴿وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ﴾ لا يَتفكَّرونَ فيها ولا يَعتَبِرونَ بها.

وقُرِئَ: «والأرضُ» بالرَّفعِ[(١)] على أنَّه مُبتدأٌ خبرُه: ﴿يَمُرُّونَ﴾ فيكونُ لها الضَّميرُ في ﴿عَلَيۡهَا﴾.

وبالنَّصبِ[(٢)] على: ويطؤونَ الأرضَ.

وقُرِئَ: «والأرضُ يَمْشونَ عَلَيْها»[(٣)]؛ أي: يتردَّدونَ فيها فيرونَ آثارَ الأُمَمِ الهالكةِ.

(١٠٦) ـ ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾ في إقرارِهم بوجودِهِ وخالقيَّتِه ﴿إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾ بعبادةِ غيرِه، أو باتِّخاذِ الأحبارِ أربابًا ونسبةِ التَّبنِّي إليهِ، أو القولِ بالنُّورِ والظُّلمَةِ، أو النَّظرِ إلى الأسبابِ، ونحو ذلك.

---

(١) نسبت لابن عباس وعكرمة وعمرو بن فائد. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٠)، و«المحتسب» (١/ ٣٤٩).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٠)، و«المحتسب» (١/ ٣٤٩)، عن السدي

(٣) انظر: «المحتسب» (١/ ٣٥٠)، و«الكشاف» (٤/ ٣٥٨)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

وقيلَ: الآيَةُ في مُشرِكِي مَكَّةَ(١)، وقيلَ: في المنافقينَ(٢)، وقيلَ: في أهلِ الكِتابِ(٣).

(١٠٧) ـ ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾: عقوبةٌ تغشاهُم وتَشمَلُهم ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾: فجأةً مِن غيرِ سابِقَةِ عَلامَةٍ ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانِها غيرُ مُستعدِّينَ لَهَا.

(١٠٨) ـ ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ يعني: الدَّعوةَ إلى التَّوحيدِ والإعدادَ للمَعادِ، ولذلك فسَّرَ السَّبيلَ بقولِه: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وقيلَ: هو حالٌ مِن اليَاءِ.

﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾: بيانٍ وحُجَّةٍ واضِحَةٍ غيرِ عَمْياءَ.

﴿أَنَا۠﴾ تأكيدٌ للمُستَتِرِ في ﴿أدعو﴾، أو ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ لأنَّه حالٌ منه(٤)، أو مبتدأٌ خبرُه ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾، ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ عطفٌ عليهِ(٥)، على معنى: ويَدْعو مَن اتَّبَعَني، أو: ومَن اتَّبَعَني على حجةٍ لا على هوًى(٦).

﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وأنزِّهُهُ تنزيهًا مِن الشُّركاءِ.

(١٠٩) ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ رَدٌّ لقولِهم: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [فصلت: ١٤].

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٦٢) من رواية جويبر عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت هذه الآية في تلبية مشركي العرب... الحديث. وجويبر متروك.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٠٧ ـ ٢٢٠٨) عن الحسن.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣٧٥) من طريق عطية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما. وإسناده ضعيف.

(٤) «أو على بصيرة»؛ أي: أو تأكيدٌ للمستترِ في ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ «لأنه»؛ أي: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ «حال منه»؛ أي: من المستتر في ﴿أَدْعُوٓاْ﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٣٢٥).

(٥) قوله: «عطف عليه»؛ أي: على ﴿أَنَا۠﴾. المصدر السابق.

(٦) قوله: «على معنى ويدعو من اتبعني أو: ومن اتبعني على حجة لا على هوى» من نسخة التفتازاني.

وقيلَ: مَعناه: نَفْيُ استنباءِ النِّساءِ.

﴿يُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ كما أَوحَى[1] إليكَ، ويُمَيِّزُوا بذلكَ عَن غيرِهِم.

وقرأَ حَفْصٌ: ﴿نُّوحِىٓ﴾ في كلِّ القُرآنِ، ووافقَهُ حمزَةُ والكِسائيُّ في سورَةِ الأَنبياءِ [٧]، وحمزةُ والكسائيُّ يُميلانِه على أصلِهما هنا وفي النحلِ والأوَّلِ من الأنبياء[2].

﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ لأنَّ أهلَهَا أعلَمُ وأحلَمُ مِن أهلِ البدوِ.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِن المُكذِّبينَ بالرُّسلِ والآياتِ فيحذَرُوا تكذيبكَ، أو: مِن المشغوفينَ بالدُّنيَا المتهالِكِينَ عَلَيْها فينقلِعُوا عن حُبِّهَا.

﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾: ولدارُ الحالِ أو السَّاعةِ أو الحياةِ الآخرَةِ ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ الشِّركَ والمَعاصِيَ ﴿أفلا يَعْقِلُونَ﴾: يَستَعْمِلونَ عُقولَهُم ليَعرِفُوا أنَّها خيرٌ.

وقرأَ نافِعٌ وابنُ عامرٍ وعاصِمٌ ويَعقوبُ بالتَّاءِ[3] حَملًا على قولِه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾؛ أي: قُل لَهُم: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟

(١١٠) - ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ غايةُ مَحذوفٍ دلَّ عليهِ الكَلامُ؛ أي: لا يغرُرْهُم تَمادِي أَيَّامِهم فإنَّ مَن قبلَهُم أُمهِلُوا حتَّى أَيِسَ الرُّسُلُ عَن النَّصرِ عَلَيْهِم في الدُّنيَا، أو عن إيمانِهم لانهِمَاكِهِم في الكُفرِ مُتَرَفِّهِينَ مُتَمَادينَ فيهِ مِن غيرِ وازِعٍ.

---

(١) في نسخة التفتازاني والخيالي: «كما يوحى».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٥١)، و«التيسير» (ص: ١٣٠). وعبارة: «وحمزة والكسائي يميلانه على أصلهما هنا وفي النحل والأول من الأنبياء» من نسخة التفتازاني.

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٢٥٦)، و«التيسير» (ص: ١٣٠)، و«النشر» (٢/ ٢٥٧).

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾؛ أي: كَذَبَتْهُم أَنْفُسُهُم حين حَدَّثَتْهُم بأَنَّهُم يُنصَرُونَ، أو كَذَّبَهُم القَوْمُ بوعدِ الإيمانِ.

وقيلَ: الضَّميرُ للمُرسلِ إليهِمْ؛ أي: وظَنَّ المُرسَلُ إليهِمْ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ كَذَبوهُم بالدَّعوةِ والوَعيدِ.

وقيلَ: الأوَّلُ للمرسلِ إليهِمْ، والثَّاني للرُّسُلِ؛ أي: وظَنُّوا أنَّ الرُّسُلَ قَدْ كُذِبُوا وأُخْلِفُوا فيما وُعِدَ لهم من النَّصرِ، وخُلِّطَ الأمرُ عليهِم.

وما رُوِيَ عَن ابنِ عبَّاسٍ: أنَّ الرُّسُلَ ظَنُّوا أَنَّهُم أُخْلِفُوا ما وعدَهُم اللهُ مِن النَّصرِ، إنْ صَحَّ[١] فقَدْ أرادَ بالظنِّ ما يَهْجِسُ في القلبِ على طريقِ الوَسْوَسَةِ.

هذا، وأن المرادَ بِهِ[٢] المُبالغَةُ في التَّراخي والإِمهالِ على سبيلِ التَّمثيلِ.

وقرأَ غيرُ الكُوفِيِّينَ بالتَّشديدِ[٣]؛ أي: وظَنَّ الرُّسُلُ أنَّ القومَ قَد كذَّبوهُمْ فيمَا أَوْعَدوهُم[٤].

---

(١) بل صح فقد رواه البخاري (٤٥٢٤ ـ ٤٥٢٥)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣٩٣).

(٢) قولُـهُ: «هـذا وأنَّ المُـرادَ...»؛ أي: الأمـر هـذا، أو: مضى هـذا، وهوَ توجيـهٌ آخرُ لكلامِ ابـنِ عبَّاسٍ رضـيَ اللهُ عنهُمـا بأنَّ المُـرادَ بظنِّهِم كـذبَ النَّفسِ فـي حديثِها: المُبالغَـةُ في التَّراخي وطـولِ المدَّةِ علـى طريـقِ التَّمثيـلِ؛ أي: الاسـتعارَةِ التَّمثيليَّةِ بأن شـبَّهَ المُبالغَةَ فـي التَّراخي بظنِّ الكـذبِ باعتبارِ اسـتلزامِ كلٍّ منهُمـا لعـدمِ ترتُّـبِ المطلـوبِ فاسـتعملَ مـا لأحدِهِمـا للآخـرِ. قالـه الشـهاب فـي «الحاشية».

(٣) قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر. انظر: «السبعة» (ص: ٣٥١)، و«التيسير» (ص: ١٣٠).

(٤) يعني: في هذا الوجهِ الضَّمائِرُ للرُّسلِ، و«ما» في «ما أوعدُوهُم» مصدريَّةٌ؛ أي: في إيعادِ الرُّسلِ المُرسلَ إليهِم. قاله الشهاب في «الحاشية».

وقُرِئَ: «كَذَبُوا» بالتَّخفيفِ وبناءِ الفاعلِ(١)؛ أي: وظَنُّوا أنَّهم قد كَذَبُوا فيما حَدَّثُوا به عندَ قومِهِم لَمَّا تراخَى عَنْهُم ولم يَرَوْا له أثرًا(٢).

﴿جاءهُم نَصْرُنا فنُنْجِي مَنْ نَشاء﴾: النبيَّ والمُؤمنينَ، وإنَّما لم يُعَيِّنْهُم للدَّلالةِ على أنَّهُم الَّذينَ يَستأهلونَ أن يشاءَ نجاتَهُم لا يشارِكُهم فيه غيرُهُم.

وقرأ ابنُ عامرٍ وعاصمٌ ويَعقوبُ على لفظِ الماضي المبنيِّ للمَفعولِ(٣).

وقُرِئَ: «فنَجَا»(٤).

﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ إذا نزلَ بهم، وفيه بيانُ المُستثنَينَ.

(١١١) - ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ﴾ في قصصِ الأنبيَاءِ وأُمَمِهِم، أو في قِصَّةِ يوسُفَ وإِخْوَتِه ﴿عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾: لذَوِي العُقُولِ المُبرَّأَةِ مِن(٥) شوائبِ الإلفِ والرُّكونِ إلى الحسِّ.

﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾: ما كانَ القُرآنُ حَدِيثًا يُفْتَرى ﴿وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مِن الكُتبِ الإلهيَّةِ ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يُحتاجُ إليهِ في الدِّينِ؛ إذ ما مِن أَمْرٍ دينيٍّ إلَّا ولَهُ سَنَدٌ مِن القُرآنِ بوسَطٍ أو بغيرِ وَسطٍ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٠)، و«المحتسب» (١/ ٣٥٠)، عن مجاهد، وزاد ابن جني نسبتها لابن عباس والضحاك.

(٢) أي: وظَنَّ الرسل أنهم قد كَذَبوا فيما حَدَّثوا به قومَهم من النُّصرة: إمَّا على تأويل ابن عباس رضي الله عنهما، وإمَّا على أن قومهم إذا لم يَرَوا لموعدهم أثرًا قالوا لهم: إنكم قد كذَبْتُمونا، فيكونون كاذبين عند قومهم. أو: وظنَّ المرسَلُ إليهم أن الرُّسل قد كذَبوا. انظر: «الكشاف» (٤/ ٣٦٢).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٥١)، و«التيسير» (ص: ١٣٠)، و«النشر» (٢/ ٢٩٦).

(٤) نسبت لمجاهد وابن محيصن والحسن ونصر بن عاصم وغيرهم. انظر: «تفسير الطبري» (١٣/ ٤٠٠)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٥)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٢٨٩)، و«البحر» (١٢/ ٥٨٤).

(٥) في نسخة التفتازاني: «عن».

﴿وَهُدَى﴾ مِـن الضَّـلالِ ﴿وَرَحْمَةً﴾ يُنـالُ بهـا خيـرُ الدَّارَيْـنِ ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: يُصَدِّقُونَـهُ.

وعـن النَّبـيِّ ﷺ: «عَلِّمُـوا أَرِقَّاءَكُـم سـورةَ يوسـفَ، فإنَّـه أيُّمـا مُسـلمٍ تَلاهـا وعَلَّمَهـا أهلَـهُ ومـا ملكَـتْ يمينُه هوَّنَ اللهُ عليه سـكراتِ المـوتِ، وأعطـاهُ القوَّةَ أن لا يَحسُدَ مُسـلِمًا»[1].

* * *

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٤٨٠)، والواحدي في «الوسيط» (٢/ ٥٩٩)، من حديث أبيٍّ رضي الله عنه. وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. وانظر: «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(١٢) سورة يوسف مكية
وآياتها إحدى عشرة ومائة

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓر تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٣﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة، وقوله﴿ تلك آيات الكتاب ﴾ أي هذه آيات الكتاب، وهو القرآن المبين أي الواضح الجلي الذي يفصح عن الأشياء المبهمة ويفسرها ويبينها ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾، وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس، فلهذا أنزل أشرف الكتب، بأشرف اللغات، على أشرف الرسل، بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدئ إنزاله في أشرف شهور السنة وهو (رمضان) فكمل من كل الوجوه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾ بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن، وقد ورد في سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن جرير عن ابن عباس قال: قالوا: يا رسول الله صلى الله عليك وسلم لو قصصت علينا؟ فنزلت: ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص﴾، فأرادوا القصص فدلهم على أحسن القصص، ومما يناسب ذكره عند هذه الآية الكريمة المشتملة على مدح القرآن، وأنه كاف عن كل ما سواه من الكتب ما رواه الإمام أحمد عن جابر بن عبدالله أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبي ﷺ، قال: فغضب، وقال: «أمتهوّكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه، أو بباطل فتصدقونه، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني». وعن عبدالله بن ثابت قال: جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني مررت بأخ لي من قريظة، فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ قال، فتغيّر وجه رسول الله ﷺ، قال عبدالله ابن ثابت: فقلت له: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً. قال: فسري عن النبي ﷺ، وقال: «والذي نفس محمد بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين»[1]

---

(١) أخرجه الإمام أحمد عن عبدالله بن ثابت .

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ۝٤﴾

يقول تعالى: اذكر لقومك يا محمد في قصصك عليهم من قصة يوسف، إذ قال لأبيه - وأبوه هو يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام - كما قال رسول الله ﷺ: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»(١)، وعن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم»، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله»، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فعن معادن العرب تسألوني؟» قالوا: نعم، قال: «فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا»(٢). وقال ابن عباس: رؤيا الأنبياء وحي، وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام أن الأحد عشر كوكباً عبارة عن إخوته، وكانوا أحد عشر رجلاً سواه، والشمس والقمر عبارة عن أمه وأبيه(٣)، ولما رآها يوسف قصها على أبيه يعقوب، فقال له أبوه: وهذا أمر مشتت يجمعه الله من بعد.

﴿۞ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لابنه يوسف حين قص عليه ما رأى من هذه الرؤيا التي تعبيرها خضوع إخوته له وتعظيمهم إياه تعظيماً زائداً، بحيث يخرون له ساجدين إجلالاً واحتراماً وإكراماً، فخشي يعقوب عليه السلام أن يحدث بهذا المنام أحداً من إخوته، فيحسدونه على ذلك، فيبغون له الغوائل حسداً منهم له، ولهذا قال له: ﴿لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً﴾ أي يحتالوا لك حيلة يردونك فيها، ولهذا ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث به، وإذا رأى ما يكره فليتحول إلى جنبه الآخر، وليتفل عن يساره ثلاثاً وليستعذ بالله من شرها، ولا يحدث بها أحداً فإنها لن تضره»، وفي الحديث الآخر: «الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر، فإذا عبرت وقعت»(٤) ومن هذا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر، كما ورد في حديث: «استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها، فإن كل ذي نعمة محسود».

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لولده يوسف: إنه كما اختارك ربك وأراك هذه الكواكب مع الشمس

---

(١) أخرجه البخاري وأحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) روي هذا عن ابن عباس والضحاك وقتادة والثوري وعبد الرحمن بن أسلم وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة على الأشهر.

(٤) رواه أحمد وبعض أصحاب السنن عن معاوية بن حيدة القشيري.

والقمر ساجدة لك ﴿ كذلك يجتبيك ربك﴾ أي يختارك ويصطفيك لنبوته، ﴿ ويعلمك من تأويل الأحاديث﴾ قال مجاهد: يعني تعبير الرؤيا، ﴿ ويتم نعمته عليك﴾ أي بإرسالك والإيحاء إليك، ولهذا قال: ﴿ كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم﴾ وهو الخليل، ﴿ وإسحق﴾ ولده وهو الذبيح في قول، وليس بالرجيح ﴿ إن ربك عليم حكيم﴾ أي هو أعلم حيث يجعل رسالته.

* لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾

يقول تعالى: لقد كان في قصة يوسف وخبره مع إخوته ﴿ آيات﴾ أي عبرة ومواعظ ﴿ للسائلين﴾ عن ذلك، فإنه خبر عجيب يستحق أن يخبر عنه، ﴿ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا﴾ أي حلفوا فيما يظنون والله ليوسف وأخوه، يعنون بنيامين وكان شقيقه لأمه ﴿ أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة﴾ أي جماعة، فكيف أحب ذينك الاثنين أكثر من الجماعة؟ ﴿ إن أبانا لفي ضلال مبين﴾ يعنون في تقديمهما علينا، ، ومحبته إياهما أكثر منا، واعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك؛ ومن الناس من يزعم أنهم أوحي إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر ويحتاج مدعي ذلك إلى دليل، ولم يذكروا سوى قوله تعالى: ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾، وهذا فيه احتمال، لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم الأسباط، كما يقال للعرب قبائل وللعجم شعوب، يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل، فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحي إليهم والله أعلم، ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم﴾ يقولون: هذا الذي يزاحمكم في محبة أبيكم لكم، أعدموه من وجه أبيكم، ليخلو لكم وحدكم، إما بأن تقتلوه، أو أن تلقوه في أرض من الأراضي تستريحوا منه وتخلوا أنتم بأبيكم، ﴿ وتكونوا من بعده قوماً صالحين﴾، فأضمروا التوبة قبل الذنب ﴿ قال قائل منهم﴾، قال قتادة: وكان أكبرهم واسمه روبيل، وقال السدي: الذي قال ذلك يهوذا، وقال مجاهد: هو شمعون ﴿ لا تقتلوا يوسف﴾ أي لا تصلوا في عداوته وبغضه إلى قتله، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله، لأن الله تعالى كان يريد منه أمراً لا بد من إمضائه وإتمامه، من الإيحاء إليه بالنبوة، ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها، فصرفهم الله عنه بمقالة روبيل فيه، وإشارته عليهم بأن يلقوه ﴿ في غيابة الجب﴾ وهو أسفله، قال قتادة: وهي بئر بيت المقدس، ﴿ يلتقطه بعض السيارة﴾ أي المارة من المسافرين فتستريحوا منه بهذا ولا حاجة إلى قتله، ﴿ إن كنتم فاعلين﴾ أي إن كنتم عازمين على ما تقولون، قال محمد بن إسحاق: لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيعة الرحم، وعقوق الوالد، وقلة الرأفة بالصغير الذي لا ذنب له، وليفرقوا بينه وبين أبيه وحبيبه على كبر سنه

ورقة عظمه، مع مكانه من الله ممن أحبه طفلاً صغيراً، وبين ابنه على ضعف قوته وصغر سنه وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه، يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين، فقد احتملوا أمراً عظيماً.

قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾

لما تواطأوا على أخذه وطرحه في البئر كما أشار بـه عليهم أخوهم الكبير (روبيل) جاءوا أباهم يعقوب عليه السلام فقالوا: ما بالك ﴿لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون﴾؟ وهذه توطئة ودعوى وهم يريدون خلاف ذلك لما له في قلوبهم من الحسد لحب أبيه له، ﴿أرسله معنا﴾ أي ابعثه معنا ﴿غداً نرتع ونلعب﴾، وقرأ بعضهم بالياء، ﴿يرتع ويلعب﴾، قال ابن عباس: يسعى وينشط، ﴿وإنا له لحافظون﴾ يقولون: ونحن نحفظه ونحوطه من أجلك.

قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيّه يعقوب أنه قال لبنيه في جواب ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلى الرعي في الصحراء: ﴿إني ليحزنني أن تذهبوا بـه﴾ أي يشق عليَّ مفارقته مـدة ذهابكم بـه إلى أن يرجع، وذلك لفرط محبته له لما يتوسم فيه من الخير العظيم، وشمائل النبوة، والكمال في الخلق والخلق صلوات الله وسلامه عليه، وقولـه: ﴿وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون﴾، يقول: وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورعيكم، فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون، فأخذوا من فمه هذه الكلمة وجعلوها عذرهم فيما فعلوه، وقالوا مجيبين له عنها في الساعة الراهنة ﴿لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون﴾ يقولون: لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ونحن جماعة، إنا إذاً لهالكون عاجزون.

فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

يقول تعالى: فلما ذهب بـه إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له في ذلك، ﴿وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب﴾ هذا فيه تعظيم لما فعلوه، أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يظهرونه له إكرامـاً له وبسطاً وشرحاً لصدره وإدخالاً للسرور عليه، فيقال: إن يعقوب عليه السلام لما بعثه معهم ضمه إليه وقبله ودعا له، فذكر السدي وغيره أنه لم يكن بين إكرامهم له وبين إظهار الأذى له إلا أن غابوا عن عين أبيه، وتواروا عنه، ثم شرعوا يؤذونه بالقول من شتم ونحوه، والفعل من ضرب ونحوه، ثم جاءوا به إلى ذلك الجب[1] الذي اتفقوا على رميه فيه فربطوه بحبل ودلوه فيه، فسقط في الماء، فغمره، فصعد إلى صخرة تكون

(١) قال قتادة: هي بئر بيت المقدس، وقال أبو زيد: بحيرة طبرية، وروي أنه أقام في الجب ثلاثة أيام.

في وسطه فقام فوقها، وقوله: ﴿وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾، يقول تعالى ذاكراً لطفه ورحمته، وإنزاله اليسر في حال العسر، إنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق تطييباً لقلبه، وتثبيتاً له: إنك لا تحزن مما أنت فيه، فإن لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً، وسينصرك الله عليهم ويعليك ويرفع درجتك، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع، وقوله: ﴿وهم لا يشعرون﴾ قال مجاهد وقتادة: بإيحاء الله إليه، وقال ابن عباس: ستنبئهم بصنيعهم هذا في حقك وهم لا يعرفونك ولا يشعرون بك.

وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن الذي اعتمده إخوة يوسف بعد ما ألقوه في غيابة الجب أنهم رجعوا إلى أبيهم في ظلمة الليل يبكون ويظهرون الأسف والجزع على يوسف، ويتغممون لأبيهم، وقالوا معتذرين عما وقع فيما زعموا: ﴿إنا ذهبنا نستبق﴾ أي نترامى، ﴿وتركنا يوسف عند متاعنا﴾ أي ثيابنا وأمتعتنا، ﴿فأكله الذئب﴾ وهو الذي كان قد جزع منه وحذر عليه، وقوله: ﴿وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين﴾ تلطف عظيم في تقرير ما يحاولونه، يقولون: ونحن نعلم أنك لا تصدّقنا والحالة هذه لو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك لأنك خشيت أن يأكله الذئب فأكله الذئب؟ فأنت معذور في تكذيبك لنا، لغرابة ما وقع، وعجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا، ﴿وجاءوا على قميصه بدم كذب﴾ أي مكذوب مفترى، وهذا من الأفعال التي يؤكدون بها ما تمالأوا عليه من المكيدة، وهو أنهم عمدوا إلى سخلة[1]، فذبحوها ولطخوا ثوب يوسف بدمها، موهمين أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب، وقد أصابه من دمه، ولكنهم نسوا أن يخرقوه، فلهذا لم يرج هذا الصنيع على نبي الله يعقوب، بل قال لهم معرضاً عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من لبسهم عليه: ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل﴾، أي فسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي اتفقتم عليه حتى يفرجه الله بعونه ولطفه، ﴿والله المستعان على ما تصفون﴾ أي على ما تذكرون من الكذب والمحال، قال ابن عباس: ﴿وجاءوا على قميصه بدم كذب﴾ قال: لو أكله السبع لخرق القميص، وقال مجاهد: الصبر الجميل الذي لا جزع فيه، وقد روي مرفوعاً عن (حبان بن أبي حبلة) قال: سئل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿فصبر جميل﴾ فقال: صبر لا شكوى فيه. وقال الثوري: ثلاث من الصبر: أن لا تحدث بوجعك، ولا بمصيبتك، ولا تزكي نفسك، وذكر البخاري ههنا حديث عائشة في الإفك حتى ذكر قولها: والله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾.

۞ وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا

(١) ذكره مجاهد والسدي وغير واحد.

يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى مخبراً عما جرى ليوسف عليه السلام في الجب حين ألقاه إخوته، وتركوه في ذلك الجب وحيداً فريداً، فمكث عليه السلام في البئر ثلاثة أيام، وقال محمد بن إسحاق: لما ألقاه إخوته في البئر جلسوا حول البئر يومهم ذلك ينظرون ماذا يصنع وما يصنع به، فساق الله له سيارة، فنزلوا قريباً من تلك البئر وأرسلوا واردهم، وهو الذي يتطلب لهم الماء، فلما جاء ذلك البئر وأدلى دلوه فيها تشبث يوسف عليه السلام فيها، فأخرجه واستبشر بـه، وقال: ﴿يا بشرى هذا غلام﴾ أي يا بشراي، ﴿وأسروه بضاعة﴾ أي وأسره الواردون من بقية السيارة، وقالوا: اشتريناه من أصحاب المـاء مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره[1]، وقال ابن عباس: ﴿وأسروه بضاعة﴾: يعني إخوة يوسف أسروا شأنه، وكتموا أن يكون أخـاهم، وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته، واختار البيع، فذكره إخوته لوارد القوم، فنادى أصحابه: ﴿يا بشرى هذا غلام﴾ يباع، فباعه إخوته؛ وقوله: ﴿والله عليم بما يعملون﴾ أي عليم بمـا يفعله إخوة يوسف ومشتروه، وهو قـادر على تغيير ذلك ودفعه، ولكن له حكمة وقـدر سابق، فترك ذلك ليمضي ما قدره وقضاه ﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾، وقوله: ﴿وشروه بثمن بخس دراهم معدودة﴾ يقول تعالى: وباعه إخوته بثمن قليل، قاله مجاهد وعكرمة، والبخس: هو النقص، كما قال تعالى: ﴿فلا يخاف بخساً ولا رهقاً﴾ أي اعتاض عنه إخوته بثمن قليل، ومع ذلك كانوا فيه من الزاهدين، أي ليس لهم رغبة فيه بل لو سئلوه بلا شيء لأجابوا، والضمير في قوله: ﴿وشروه﴾ عائد على إخوة يوسف[2]، وقال قتادة: بل هو عائد على السيارة؛ والأول أقوى، لأن قوله: ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾ إنما أراد إخوتـه لا أولئك السيارة، لأن السيارة استبشروا بـه وأسروه بضاعة، ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه، فترجح من هذا أن الضمير في ﴿شروه﴾ إنما هو لإخوته، وقوله: ﴿دراهم معدودة﴾ عن ابن مسعود رضي الله عنه: باعوه بعشرين درهماً، وقال عكرمة: أربعون درهماً، وقال الضحاك في قوله: ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾ ذلك أنهم لم يعلموا نبوته ومنزلته عند الله عزّ وجلّ.

وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

يخبر تعالى بألطافه بيوسف عليه السلام، أنه قيض له الذي اشتراه من مصر، حتى اعتنى بـه وأكرمه، وأوصى أهله به وتوسم فيه الخير والصلاح، فقال لامرأته: ﴿أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً﴾، وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها وهو الوزير بها، عن ابن عباس: وكان اسمه (قطفير) وكان على خزائن مصر، وكان

(١) قاله مجاهد والسدي وابن جرير وهذا أحد الأقوال في الآية.

(٢) وهو رأي ابن عباس ومجاهد والضحاك.

الملك يومئذ (الريان بن الوليد) رجل من العماليق، قال : واسم امرأته (راعيل)، وقال غيره: اسمها (زليخا)، وقال عبدالله بن مسعود: أفرس الناس ثلاثة : عزيز مصر حين قال لامرأته: ﴿ أكرمي مثواه ﴾، والمرأة التي قالت لأبيها: ﴿ يا أبت استأجره ﴾ الآية، وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما. يقول تعالى: كما أنقذنا يوسف من إخوته ﴿ كذلك مكنا ليوسف في الأرض ﴾ يعني بلاد مصر ﴿ ولنعلمه من تأويل الأحاديث ﴾ قال مجاهد والسدي هو تعبير الرؤيا، ﴿ والله غالب على أمره ﴾ أي إذا أراد شيئاً فلا يرد، ولا يمانع، ولا يخالف بل هو الغالب لما سواه، قال سعيد بن جبير : أي فعال لما يشاء، وقوله: ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ يقول: لا يدرون حكمته في خلقه وتلطفه وفعله لما يريد. وقوله: ﴿ ولما بلغ ﴾ أي يوسف عليه السلام ﴿ أشده ﴾ أي استكمل عقله وتم خلقه ، ﴿ آتيناه حكماً وعلماً ﴾ يعني النبوة ، حباه بها بين أولئك الأقوام، ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ أي إنه كان محسناً في عمله عاملاً بطاعة الله تعالى، وقد اختلف في مقدار المدة التي بلغ فيها أشده، فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ثلاث وثلاثون سنة، وعن ابن عباس: بضع وثلاثون، وقال الضحاك: عشرون، وقال الحسن: أربعون سنة، وقيل غير ذلك[1] ، والله أعلم .

وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر ، وقد أوصاها زوجها بإكرامه ، فراودته عن نفسه أي حاولته على نفسه ودعته إليها، وذلك أنها أحبته حباً شديداً لجماله وحسنه وبهائه، فحملها ذلك على أن تجملت له وغلّقت عليه الأبواب ودعته إلى نفسها ﴿ وقالت هيت لك ﴾، فامتنع من ذلك أشد الامتناع و ﴿ قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي ﴾، وكانوا يطلقون الرب على السيد والكبير ، أي إن بعلك ربي أحسن مثواي أي منزلي، وأحسن إليّ فلا أقابله بالفاحشة في أهله، ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾، وقد اختلف القرّاء في قوله: ﴿ هيت لك ﴾، فقرأه كثيرون بفتح الهاء وإسكان الياء وفتح التاء، قال ابن عباس ومجاهد: معناه أنها تدعوه إلى نفسها، وقال البخاري، قال عكرمة: ﴿ هيت لك ﴾، أي هلم لك بالحورانية، هكذا ذكره معلقاً، وكان الكسائي يحكي هذه القراءة يعني ﴿ هَيْتَ لك ﴾ ويقول: هي لغة لأهل حوران، وقعت إلى أهل الحجاز، ومعناها: تعال، وقال أبو عبيدة : سألت شيخاً عالماً من أهل حوران، فذكر أنها لغتهم يعرفها، واستشهد الإمام ابن جرير على هذه القراءة بقول الشاعر[2] :

أبلغ أمير المؤمنـ ين أخا العراق إذا أتيتا
إن العراق وأهله عنق إليك فهيت هيتا

---

(١) قال عكرمة: خمس وعشرون، وقال السدي: ثلاثون سنة، وقال سعيد بن جبير : ثماني عشرة سنة، ولعل ما ذهب إليه الحسن البصري هو الأرجح .

(٢) قالها لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

يقول: فتعال واقترب، وقرأ آخرون: ﴿ هئتُ لك﴾ بكسر الهاء والهمزة وضم التاء، بمعنى تهيأت لك، من قول القائل: هئت بالأمر بمعنى تهيأت لك. قال ابن جرير: وكان أبو عمرو والكسائي ينكران هــذه القراءة، وقال آخرون: ﴿ هِيتُ لك﴾ بكسر الهاء وإسكان الياء وضم التاء.

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾

اختلفت أقوال الناس وعباراتهم في هذا المقام، فقيل: المراد بهمه بها خطرات حديث النفس، حكاه البغوي عن بعض أهل التحقيق؛ ثم أورد البغوي ههنا حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال، قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: إذا همَّ عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها، وإن هم بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإنما تركها من جرائي، فإن عملها فاكتبوها بمثلها»(١)، وقيل: همَّ بضربها، وقيل: تمناها زوجة؛ وقيل: هم بها لولا أن رأى برهان ربه، أي فلم يهم بها(٢)، وأما البرهان الذي رآه ففيه أقوال أيضاً، قيل: رأى صورة أبيه يعقوب عاضاً على إصبعه بفمه؛ وقيل: رأى خيال الملك يعني سيده، وقال ابن جرير عن محمد ابن كعب القرظي قال: رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت، فإذا كتاب في حائط البيت: ﴿ لا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً﴾؛ وقيل: ثلاث آيات من كتاب الله: ﴿ إن عليكم لحافظين﴾ الآية، وقوله: ﴿ وما تكون في شأن﴾ الآية، وقوله: ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾، قال ابن جرير: والصواب أن يقال: إنه أي آية من آيات الله تزجره عما كان همَّ به، وجائز أن يكون صورة يعقوب، وجائز أن يكون صورة الملك، وجائز أن يكون ما رآه مكتوباً من الزجر عن ذلك، ولا حجة قاطعة على تعيين شيء من ذلك، فالصواب أن يطلق، كما قال الله تعالى، وقوله: ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء﴾ أي كما أريناه برهاناً صرفه عما كان فيه كذلك نقيه السوء والفحشاء في جميع أموره، ﴿ إنه من عبادنا المخلصين﴾ أي من المجتبين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار، صلوات الله وسلامه عليه.

وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا

---

(١) هذا الحديث مخرج في الصحيحين وله ألفاظ كثيرة منها هذا، قاله ابن كثير.

(٢) حكاه ابن جرير وغيره فكأنَّ في الآية تقديماً وتأخيراً: أي لولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها، فلم يقع الهمُّ لوجود البرهان وهو عصمة الله عزّ وجلّ له. وانظر ما حققناه في كتابنا (النبوة والأنبياء) صفحة (٧٨) حول هذا البحث فإنه دقيق ونفيس فقد أوردنا غشرة وجوه على عصمته عليه السلام.

قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾

يخبر تعالى عن حالهما حين خرجا يستبقان إلى الباب، يوسف هارب، والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت، فلحقته في أثناء ذلك، فأمسكت بقميصه من ورائه، فقدته قداً فظيعاً، يقال: إنه سقط عنه، واستمر يوسف هارباً ذاهباً، وهي في إثره، فألفيا سيدها وهو زوجها عند الباب، فعند ذلك خرجت مما هي فيه بمكرها وكيدها، وقالت لزوجها متنصلة وقاذفة يوسف بدائها: ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً﴾ أي فاحشة، ﴿إلا أن يسجن﴾ أي يحبس، ﴿أو عذاب أليم﴾ أي يضرب ضرباً شديداً موجعاً، فعند ذلك انتصر يوسف عليه السلام بالحق، وتبرأ مما رمته به من الخيانة، و﴿قال﴾ باراً صادقاً: ﴿هي راودتني عن نفسي﴾، وذكر أنها اتبعته تجذبه إليها حتى قدت قميصه، ﴿وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قُدَّ من قُبُل﴾ أي من قدامه ﴿فصدقت﴾ أي في قولها إنه راودها على نفسها، لأنه يكون لما دعاها وأبت عليه دفعته في صدره فقدت قميصه فيصح ما قالت، ﴿وإن كان قميصه قُدَّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين﴾ وذلك يكون كما وقع لما هرب منها، وطلبته، أمسكت بقميصه من ورائه لترده إليها، فقدت قميصه من ورائه، وقد اختلفوا في هذا الشاهد: هل هو صغير أو كبير؟ على قولين لعلماء السلف، فقال ابن عباس: كان من خاصة الملك وكان رجلاً ذا لحية، وقال زيد بن أسلم والسدي: كان ابن عمها، وقال العوفي عن ابن عباس: كان صبياً في المهد، وكذا روي عن الحسن وسعيد بن جبير والضحاك: أنه كان صبياً في الدار، واختاره ابن جرير. وقد ورد فيه حديث مرفوع، رواه ابن جرير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «تكلم أربعة وهم صغار.» فذكر فيهم شاهد يوسف، ورواه سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: «تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى بن مريم».

وقوله: ﴿فلما رأى قميصه قد من دبر﴾ أي لما تحقق زوجها صدق يوسف وكذبها فيما قذفته ورمته به ﴿قال إنه من كيدكن﴾ أي إن هذا البهت واللطخ الذي لطخت عرض هذا الشاب به من جملة كيدكن ﴿إن كيدكن عظيم﴾، ثم قال آمراً ليوسف عليه السلام بكتمان ما وقع: ﴿يوسف أعرض عن هذا﴾ أي اضرب عن هذا صفحاً أي فلا تذكره لأحد، ﴿واستغفري لذنبك﴾ يقول: لامرأته، وقد كان لين العريكة سهلاً، أو أنه عذرها لأنها رأت ما لا صبر لها عنه، فقال لها: استغفري لذنبك أي الذي وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب ثم قذفه بما هو بريء منه ﴿إنك كنت من الخاطئين﴾.

* وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾

قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾

يخبر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز شاع في المدينة وهي مصر حتى تحدث به الناس، ﴿وقال نسوة في المدينة﴾ نساء الكبراء والأمراء ينكرن على ﴿امرأة العزيز﴾ وهو الوزير ويعبن ذلك عليها، ﴿امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه﴾: أي تدعوه إلى نفسها، ﴿قد شغفها حباً﴾ أي قد وصل حبه إلى شغاف قلبها وهو غلافه، قال الضحاك عن ابن عباس: الشغف الحب القاتل، والشغف دون ذلك، والشغاف حجاب القلب، ﴿إنا لنراها في ضلال مبين﴾ أي في صنيعها هذا من حبها فتاها ومراودتها إياه عن نفسه، ﴿فلما سمعت بمكرهن﴾، قال بعضهم: بقولهن ذهب الحب بها. وقال محمد بن إسحاق: بلغهن حسن يوسف فأحببن أن يرينه، فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته، فعند ذلك ﴿أرسلت إليهن﴾ أي دعتهن إلى منزلها لتضيفهن ﴿وأعتدت لهن متكأ﴾، قال ابن عباس: هو المجلس المعد فيه مفارش ومخاد وطعام فيه ما يقطع بالسكاكين من أترج ونحوه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وآتت كل واحدة منهن سكيناً﴾، وكان هذا مكيدة منها ومقابلة لهن في احتيالهن على رؤيته، ﴿وقالت اخرج عليهن﴾ وذلك أنها كانت قد خبأته في مكان آخر، ﴿فلما﴾ خرج و ﴿رأينه أكبرنه﴾ أي أعظمن شأنه وأجللن قدره، وجعلن يقطعن أيديهن دهشاً برؤيته، وهن يظنن أنهن يقطعن الأترج بالسكاكين، والمراد أنهن حززن أيديهن بها، قاله غير واحد؛ وقد ذكر غير واحد أنها قالت لهن بعدما أكلن وطابت أنفسهن ثم وضعت بين أيديهن أترجاً وآتت كل واحدة منهن سكيناً: هل لكنَّ في النظر إلى يوسف؟ قلن: نعم، فبعثت إليه تأمره أن اخرج إليهن، فلما رأينه جعلن يقطعن أيديهن، ثم أمرته أن يرجع ليرينه مقبلاً ومدبراً، فرجع وهن يحززن في أيديهن، فلما أحسسن بالألم، جعلن يولولن، فقالت: أنتن من نظرةٍ واحدة فعلتن هذا، فكيف ألام أنا؟ ﴿وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم﴾، ثم قلن لها: وما نرى عليك من لوم بعد هذا الذي رأينا، لأنهن لم يرين في البشر شبيهه ولا قريباً منه، فإنه عليه السلام كان قد أعطي شطر الحسن، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح في حديث الإسراء أن رسول الله ﷺ مر بيوسف عليه السلام في السماء الثالثة قال: «فإذا هو قد أعطي شطر الحسن».،

﴿قالت فذلكن الذي لمتنني فيه﴾ تقول: هذا معتذرة إليهن بأن هذا حقيق أن يحب لجماله وكماله ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾ أي فامتنع، قال بعضهم: لما رأين جماله الظاهر أخبرتهن بصفاته الحسنة التي تخفى عنهن وهي العفة مع هذا الجمال، ثم قالت تتوعده: ﴿ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين﴾، فعند ذلك استعاذ يوسف عليه السلام من شرهن وكيدهن، و ﴿قال رب السجن أحب إليَّ مما يدعونني إليه﴾ أي من الفاحشة، ﴿وإلا تصرفْ عني كيدهن أصبُ إليهن﴾ أي إن وكلتني إلى نفسي فليس لي منها قدرة ولا أملك لها ضراً ولا نفعاً إلا بحولك وقوتك، أنت المستعان وعليك التكلان، فلا تكلني إلى نفسي ﴿أصب إليهن وأكن من الجاهلين فاستجاب له ربه﴾ الآية، وذلك أن يوسف عليه السلام عصمه الله عصمة عظيمة وحماه، فامتنع منها أشد

الامتناع، واختار السجن على ذلك، وهذا في غاية مقامات الكمال، أنه من شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هـذا في غاية الجمال والمال والرياسة، ويمتنع من ذلك، ويختار السجن على ذلك خوفاً من الله ورجاء ثوابه. ولهذا ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله»، وعدَّ منها «ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله»، الحديث.

ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾

يقول تعالى: ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى حين أي إلى مدة، وذلك بعد ما عرفوا براءته وظهرت الآيات، وهي الأدلة على صدقه في عفته ونزاهته، وكأنهم - والله أعلم - إنما سجنوه لما شاع الحديث إيهاماً أنه راودها عن نفسها وأنهم سجنوه على ذلك، ولهـذا لما طلبه الملك الكبير في آخر المدة امتنع من الخروج، حتى تتبين براءته مما نسب إليه من الخيانة، فلما تقرر ذلك خرج وهو نقي العرض صلوات الله عليه وسلامه. وذكر السدي: أنهم إنما سجنوه لئلا يشيع ما كان منها في حقه ويبرأ عرضه فيفضحها.

وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾

قال قتادة: كان أحدهما ساقي الملك والآخر خبازه، قال السدي: كان سبب حبس الملك إياهما أنه توهم أنهما تمالآ على سمه في طعامه وشرابه، وكان يوسف عليه السلام قـد اشتهر في السجن بالجود والأمانة، وصدق الحديث، وكثرة العبادة، ومعرفة التعبير، والإحسان إلى أهل السجن، ولمـا دخل هذان الفتيان إلى السجن تآلفا بـه وأحباه حباً شديداً، وقالا له: والله لقد أحببناك حباً زائداً، قال: بارك الله فيكما، إنه ما أحبني أحد إلا دخل عليَّ من محبته ضرر، أحبتني عمتي فدخل عليَّ الضرر بسببها، وأحبني أبي فأُوذيت بسببه، وأحبتني امرأة العزيز فكذلك، فقالا: والله ما نستطيع إلا ذلك، ثم إنهما رأيا مناماً، فرأى الساقي أنه يعصر خمراً، يعني عنباً، قال الضحاك في قوله: ﴿إني أراني أعصر خمراً﴾ يعني عنباً، قال: وأهل عمان يسمون العنب خمراً، وقال عكرمة: قال له إني رأيت فيما يرى النائم أني غرست حبة من عنب فنبتت، فخرج فيها عناقيد، فعصرتهن ثم سقيتهن الملك فقال: تمكث في السجن ثلاثة أيام ثم تخرج فتسقيه خمراً، وقال الآخر وهو الخباز: ﴿إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله﴾ الآية، والمشهور عند الأكثرين ما ذكرناه أنهما رأيا مناماً وطلبا تعبيره. وقال ابن جرير عن عبد الله ابن مسعود قال: ما رأى صاحبا يوسف شيئاً إنما كانا تحالما ليجربا عليه.

قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا

كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾

يخبرهما يوسف عليه السلام أنهما مهما رأيا في منامهما من حلم، فإنه عارف بتفسيره، ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه ولهذا قال: ﴿لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله﴾، قال مجاهد، يقول: ﴿لا يأتيكما طعام ترزقانه﴾ في يومكما ﴿إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما﴾، وكذا قال السدي، وهذا إنما هو من تعليم الله إياي، لأني اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر، فلا يرجون ثواباً ولا عقاباً في المعاد، ﴿واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب﴾ الآية، ويقول: هجرت طريق الكفر والشرك، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى واتبع طريق المرسلين وأعرض عن طريق الضالين، فإن الله يهدي قلبه ويعلمه ما لم يكن يعلم، ويجعله إماماً يقتدى به في الخير وداعياً إلى سبيل الرشاد، ﴿ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس﴾، هذا التوحيد وهو الإقرار بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ﴿من فضل الله علينا﴾ أي أوحاه إلينا وأمرنا به، ﴿وعلى الناس﴾ إذ جعلنا دعاة لهم إلى ذلك، ﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ أي لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم، بل ﴿بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار﴾.

يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾

ثم إن يوسف عليه السلام أقبل على الفتيين بالمخاطبة والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان التي يعبدها قومهما، فقال: ﴿أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾ أي الذي ذل كل شيء لعز جلاله وعظمة سلطانه، ثم بين لهما أن التي يعبدونها ويسمونها آلهة إنما هو تسمية من تلقاء أنفسهم، تلقاها خلفهم عن سلفهم، وليس لذلك مستند من عند الله، ولهذا قال: ﴿ما أنزل الله بها من سلطان﴾ أي حجة ولا برهان، ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشيئة والملك كله لله، وقد أمر عباده قاطبة أن لا يعبدوا إلا إياه، ثم قال تعالى: ﴿ذلك الدين القيم﴾ أي هذا الذي أدعوكم إليه من توحيد الله وإخلاص العمل له، هو الدين المستقيم الذي أمر الله بـه، وأنزل به الحجة والبرهان الذي يحبه ويرضاه، ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي فلهذا كان أكثرهم مشركين، ﴿وما أكثر النـاس ولو حرصت بمؤمنين﴾ جعل سؤالهما له سبباً إلى دعائهما إلى التوحيد والإسلام، لما رأى في سجيتهما من قبول الخير، والإقبال عليه والإنصات إليه، ولهذا لما فرغ من دعوتهما شرع في تعبير رؤياهما من غير تكرار سؤال فقال:

يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ

ٱلَّذِى فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾

يقول لهما: ﴿يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً﴾ وهو الذي رأى أنه يعصر خمراً ولكنه لم يعينه لئلا يحزن ذاك، ولهذا أبهمه في قوله: ﴿وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه﴾ وهو الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً، ثم أعلمهما أن هذا قد فرغ منه، وهو واقع لا محالة لأن الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر، فإذا عبرت وقعت. قال الثوري: لما قالا ما قالا، وأخبرهما قالا: ما رأينا شيئاً، فقال: ﴿قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾.

وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

ولما ظن يوسف عليه السلام أن الساقي ناج، قال له يوسف خفية عن الآخر: ﴿اذكرني عند ربك﴾ يقول: اذكر قصتي عند ربك وهو الملك فنسي ذلك الموصى أن يذكر مولاه الملك بذلك وكان من جملة مكايد الشيطان لئلا يطلع نبي الله من السجن، هذا هو الصواب أن الضمير في قوله: ﴿فأنساه الشيطان ذكر ربه﴾ عائد على الناجي، كما قاله مجاهد وغير واحد، ويقال إن الضمير عائد على يوسف عليه السلام، رواه ابن جرير عن ابن عباس ومجاهد أيضاً، وأما البضع فقال مجاهد وقتادة: هو ما بين الثلاث إلى التسع، وقال وهب بن منبه: مكث أيوب في البلاء سبعاً، ويوسف في السجن سبعاً.

وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٌ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِى فِى رُءۡيَٰىَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٍۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِى سَبۡعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٌ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِى مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٌ شِدَادٌ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأۡتِى مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾

هذه الرؤيا من ملك مصر مما قدر الله تعالى أنها كانت سبباً لخروج يوسف عليه السلام من السجن معززاً مكرماً وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا فهالته، وتعجب من أمرها، وما يكون تفسيرها، فجمع الكهنة وكبار دولته وأمراءه، فقص عليهم ما رأى وسألهم عن تأويلها، فلم يعرفوا ذلك، واعتذروا إليه بأنها ﴿أضغاث أحلام﴾ أي أخلاط أحلام اقتضته رؤياك هذه، ﴿وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾ أي لو كانت ر ؤيا صحيحة من أخلاط

لما كان لنا معرفة بتأويلها وهو تعبيرها؛ وعند ذلك تذكر الذي نجا من ذينك الفتيين اللذين كانا في السجن مع يوسف، وكان الشيطان قد أنساه ما وصاه به يوسف من ذكر أمره للملك، فعند ذلك تذكر ﴿ بعد أمة ﴾ أي مدة، فقال للملك: ﴿ أنا أنبئكم بتأويله ﴾ أي بتأويل هذا المنام ﴿ فأرسلون ﴾ أي فابعثون إلى يوسف الصديق إلى السجن، ومعنى الكلام فبعثوه فجاء فقال: ﴿ يوسف أيها الصديق أفتنا ﴾ وذكر المنام الذي رآه الملك، فعند ذلك ذكر له يوسف عليه السلام تعبيرها من غير تعنيف للفتى في نسيانه ما أوصاه به ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك، بل قال: ﴿ تزرعون سبع سنين دأباً ﴾ أي يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات، ﴿ فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون ﴾: أي مهما استغللتم وهذه السبع السنين الخصب فادخروه في سنبله ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه إلا المقدار الذي تأكلونه، وليكن قليلاً قليلاً لا تسرفوا فيه، لتنتفعوا في السبع الشداد، وهن السبع السنين المحل التي تعقب هذه السبع المتواليات، وهن البقرات العجاف اللاتي تأكل السمان، لأن سني الجدب يؤكل فيها ما جمعوه في سني الخصب، وهن السنبلات اليابسات؛ وأخبرهم أنهن لا ينبتن شيئاً وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شيء، ولهذا قال: ﴿ يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون ﴾ ثم بشرهم بعد الجدب العام المتوالي بأنه يعقبهم بعد ذلك ﴿ عام فيه يغاث الناس ﴾ أي يأتيهم الغيث وهو المطر، وتغل البلاد، ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم من زيت وسكر ونحوه.

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ * وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾

يقول تعالى إخباراً عن الملك بتعبير رؤياه التي كان رآها بما أعجبه وأيقنه، فعرف فضل يوسف عليه السلام وعلمه وحسن اطلاعه على رؤياه فقال: ﴿ ائتوني به ﴾ أي أخرجوه من السجن وأحضروه، فلما جاءه الرسول امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته، ونزاهة عرضه مما نسب إليه من جهة امرأة العزيز، وأن هذا السجن كان ظلماً وعدواناً، فقال: ﴿ ارجع إلى ربك ﴾ الآية، وقد وردت السنة بمدحه على ذلك والتنبيه على فضله وشرفه وعلو قدره، ففي المسند والصحيحين عنه ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى ﴾، ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي»[1]. وفي لفظ لأحمد عنه ﷺ في قوله: ﴿ فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم ﴾

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد عن أبي هريرة.

فقال رسول الله ﷺ : « لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر »، وعن عكرمة قال، قال رسول الله ﷺ : « لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له، حين سئل عن البقرات العجاف والسمان، ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى أشترط أن يخرجوني، ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له، حين أتاه الرسول ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب، ولكنه أراد أن يكون له العذر »[1] وقوله تعالى: ﴿ قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ﴾ إخبار عن الملك حين جمع النسوة اللاتي قطعن أيديهن عند امرأة العزيز، فقال مخاطباً لهن كلهن وهو يريد امرأة وزيره وهو العزيز، قال الملك: ﴿ ما خطبكن ﴾ أي ما شأنكن وخبركن ﴿ إذ راودتن يوسف عن نفسه ﴾ يعني يوم الضيافة ﴿ قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ﴾ أي قالت النسوة جواباً للملك: حاش لله أن يكون يوسف متهماً والله ما علمنا عليه من سوء، فعند ذلك ﴿ قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق ﴾، قال ابن عباس: الآن تبين الحق وظهر وبرز، ﴿ أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ أي في قوله ﴿ هي راودتني عن نفسي ﴾، ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ تقول: إنما اعترفت بهذا على نفسي ليعلم زوجي أني لم أخنه بالغيب في نفس الأمر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة، فامتنع، فلهذا اعترفت ليعلم أني بريئة ﴿ وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ۝ وما أبرئ نفسي ﴾، تقول المرأة: ولست أبرئ نفسي، فإن النفس تتحدث وتتمنى، ولهذا راودته، ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي ﴾ أي إلا من عصمه الله تعالى ﴿ إن ربي غفور رحيم ﴾، وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام[2]، وقد قيل: إن ذلك من كلام يوسف عليه السلام يقول: ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه ﴾ في زوجته ﴿ بالغيب ﴾ الآيتين، أي إنما رددت الرسول ليعلم الملك براءتي، وليعلم العزيز ﴿ أني لم أخنه ﴾ في زوجته، ﴿ بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ﴾ الآية، وهذا القول هو الذي لم يحك ابن جرير ولا ابن أبي حاتم سواه. قال ابن جرير، عن ابن عباس قال: لما جمع الملك النسوة فسألهن هل راودتن يوسف عن نفسه؟ ﴿ قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء، قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق ﴾ الآية، قال يوسف: ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ فقال له جبريل عليه السلام: ولا يوم هممت بما هممت به؟ فقال: ﴿ وما أبرئ نفسي ﴾ الآية، وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والسدي، والقول الأول أقوى وأظهر، لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم بل بعد ذلك أحضره الملك.

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾

يقول تعالى إخباراً عن الملك حين تحقق براءة يوسف عليه السلام ونزاهة عرضه مما نسب إليه قال: ﴿ ائتوني به أستخلصه لنفسي ﴾ أي أجعله من خاصتي وأهل مشورتي، ﴿ فلما كلمه ﴾ أي خاطبه الملك وعرفه ورأى فضله

(١) رواه عبد الرزاق عن عكرمة وهو حديث مرسل.

(٢) حكاه الماوردي في تفسيره وانتدب لنصره الإمام ابن تيمية رحمه الله فأفرده بتصنيف على حدة

وبراعته وعلم ما هو عليه من خلق وخلق وكمال قال له الملك: ﴿إنك اليوم لدينا مكين أمين﴾ أي إنك عندنا ذا مكانة وأمانة، فقال يوسف عليه السلام: ﴿اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾ مدح نفسه، ويجوز للرجل ذلك إذا جُهل أمره للحاجة، وذكر أنه ﴿حفيظ﴾ أي خازن أمين، ﴿عليم﴾ ذو علم وبصيرة بما يتولاه، وقال شيبة بن نعامة: حفيظ لما استودعتني، عليم بسني الجدب[1]، وسأل العمل لعلمه بقدرته عليه، ولما فيه من المصالح للناس، وإنما سأله أن يجعله على خزائن الأرض، ليتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد، فأجيب إلى ذلك رغبة فيه وتكرمة له، ولهذا قال تعالى:

﴿۞ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض﴾ أي أرض مصر، ﴿يتبوأ منها حيث يشاء﴾ قال السدي: يتصرف فيها كيف يشاء، وقال ابن جرير: يتخذ منها منزلاً حيث يشاء بعد الضيق والحبس، ﴿نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين﴾، أي وما أضعنا صبر يوسف على أذى أخوته وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز، فلهذا أعقبه الله عزّ وجلّ النصر والتأييد، ﴿ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾، يخبر تعالى أن ما ادخره الله تعالى لنبيّه يوسف عليه السلام في الدار الآخرة، أعظم وأكثر وأجل مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا، والغرض أن يوسف عليه السلام ولاه ملك مصر (الريان بن الوليد) الوزارة في بلاد مصر، وأسلم الملك على يدي يوسف عليه السلام قاله مجاهد.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾

ذكر السدي ومحمد بن إسحاق وغيرهما من المفسرين، أن السبب الذي أقدم إخوة يوسف بلاد مصر أن يوسف عليه السلام لما باشر الوزارة بمصر، ومضت السنين المخصبة، ثم تلتها السبع السنين المجدبة، وعم القحط بلاد مصر بكمالها ووصل إلى بلاد كنعان، وهي التي فيها يعقوب عليه السلام وأولاده، وحينئذٍ احتاط يوسف عليه السلام للناس في غلاتهم، وجمعها أحسن جمع، فحصل من ذلك مبلغ عظيم، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم، يمتارون لأنفسهم وعيالهم، فكان لا يعطي الرجل أكثر من حمل بعير في السنة، وكان عليه السلام لا يشبع نفسه، ولا يأكل

(١) رواه ابن أبي حاتم.

هو والملك وجنودهما إلا أكلة واحـدة في وسط النهار، حتى يتكفأ النـاس بما في أيديهم مدة السبع سنين، وكان رحمة من الله على أهل مصر، والغرض أنه كان في جملة من ورد للميرة إخوة يوسف، فإنه بلغهم أن عزيز مصر يعطي الناس الطعام بثمنه، فأخذوا معهم بضاعة، يعتاضون بها طعاماً، وركبوا عشرة نفر، واحتبس يعقوب عليه السلام عنده ابنه (بنيامين) شقيق يوسف عليه السلام، وكان أحب ولده إليه بعد يوسف، فلما دخلوا على يوسف، وهو جالس في أبهته ورياسته وسيادته عرفهم حين نظر إليهم ﴿وهم له منكرون﴾، أي لا يعرفونه، لأنهم فارقوه وهو صغير حدث وباعوه للسيارة ولم يدروا أين يذهبون به، ولا كانوا يستشعرون في أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه، فلهذا لم يعرفوه، وأما هو فعرفهم، فذكر السدي وغيره، أنه شرع يخاطبهم، فقال لهم كالمنكر عليهم: ما أقدمكم بلادي؟ فقالوا: أيها العزيز قدمنا للميرة، قال: فلعلكم عيون؟ قالوا: معاذ الله، قال: فمن أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كنعان وأبونا يعقوب نبي الله، قال: وله أولاد غيركم؟ قالوا: نعم، كنا اثني عشر، فذهب أصغرنا هلك في البرية، وكان أحبنا إلى أبيه، وبقي شقيقه فاحتبسه أبوه ليتسلى به عنه، فأمر بإنزالهم وإكرامهم، ﴿ولما جهزهم بجهازهم﴾ أي أوفى لهم كيلهم وحمل لهم أحمالهم قال: ائتوني بأخيكم هذا الذي ذكرتم لأعلم صدقكم فيما ذكرتم، ﴿ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين؟﴾ يرغبهم في الرجوع إليه، ثم رهّبهم فقال: ﴿فإن لم تأتوني بـه فلا كيل لكم عندي﴾ أي إن لم تقدموا بـه معكم في المرة الثانية فليس لكم عندي ميرة، ﴿ولا تقربون * قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون﴾ أي سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن ولا نبقي مجهوداً لتعلم صدقنا فيما قلناه. ﴿وقال لفتيانه﴾ أي غلمانه، ﴿اجعلوا بضاعتهم﴾ أي الـتي قدموا بهـا ليمتاروا عوضاً عنها ﴿في رحالهم﴾ أي في أمتعتهم من حيث لا يشعرون ﴿لعلهم يرجعون﴾ بها، قيل خشي أن لا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها، وقيل: أراد أن يردهم إذا وجدوها في متاعهم تحرجاً وتورعاً، لأنه يعلم ذلك منهم، والله أعلم.

فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾

يقول تعالى عنهم إنهم رجعوا إلى أبيهم: ﴿قالوا يا أبانا منع منا الكيل﴾ يعنون بعد هذه المرة إن لم ترسل معنا أخانا (بنيامين)، فأرسله معنا نكتل ﴿وإنا له لحافظون﴾ أي لا تخف عليه فإنه سيرجع إليك، وهذا كما قالوا له في يوسف ﴿أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون﴾ ولهذا قال لهم: ﴿هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل﴾ أي هل أنتم صانعون بـه إلا كما صنعتم بأخيه من قبل، تغيبونه عني وتحولون بيني وبينه؟ ﴿فالله خير حافظاً﴾، ﴿وهو أرحم الراحمين﴾ أي هو أرحم الراحمين بي وسيرحم كبري وضعفي ووجدي بولدي وأرجو من الله أن يرده عليّ ويجمع شملي به، إنه أرحم الراحمين.

وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ

إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾

يقول تعالى: ولما فتح إخوة يوسف متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم، هي التي كان أمر يوسف فتيانه بوضعها في رحالهم، ولما وجدوها في متاعهم ﴿ قالوا يا أبانا ما نبغي ﴾ أي ماذا نريد، ﴿ هذه بضاعتنا ردت إلينا ﴾، كما قال قتادة: ما نبغي وراء هذا إن بضاعتنا ردت إلينا وقد أوفى لنا الكيل، ﴿ ونمير أهلنا ﴾ أي إذا أرسلت أخانا معنا نأتي بالميرة إلى أهلنا، ﴿ ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ﴾، وذلك أن يوسف عليه السلام كان يعطي كل رجل حمل بعير، ﴿ ذلك كيل يسير ﴾ هذا من تمام الكلام وتحسينه، إي إن هذا يسير في مقابلة أخذ أخيهم ما يعدل هذا، ﴿ قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله ﴾ أي تحلفون بالعهود والمواثيق، ﴿ لتأتنني به إلا أن يحاط بكم ﴾، إلا أن تغلبوا كلكم ولا تقدرون على تخليصه، ﴿ فلما آتوه موثقهم ﴾ أكده عليهم، ﴿ قال الله على ما نقول وكيل ﴾، قال ابن إسحاق: وإنما فعل ذلك لأنه لم يجد بداً من بعثهم لأجل الميرة التي لا غنى لهم عنها فبعثه معهم.

وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

يقول تعالى إخباراً عن يعقوب عليه السلام: أنه أمر بنيه لما جهزهم مع أخيهم (بنيامين) إلى مصر أن لا يدخلوا من باب واحد، وليدخلوا من أبواب متفرقة، فإنه - كما قال ابن عباس والسدي وغير واحد - خشي عليهم العين، وذلك أنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة ومنظر وبهاء، فخشي عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم، فإن العين حق تستنزل الفارس عن فرسه، وقوله: ﴿ وما أغني عنكم من الله من شيء ﴾ أي أن هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاءه، فإن الله إذا أراد شيئاً لا يخالف ولا يمانع، ﴿ إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون * ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها ﴾، قالوا: هي دفع إصابة العين لهم ﴿ وإنه لذو علم لما علمناه ﴾، قال قتادة: لذو علم بعلمه، وقال ابن جرير: لذو علم لتعليمنا إياه ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾.

۞ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

يخبر تعالى عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه (بنيامين) وأدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته، وأفاض عليهم الصلة والإلطاف والإحسان، واختلى بأخيه، فأطلعه على شأنه وما جرى له وعرفه أنه أخوه وقال له: ﴿ لا تبتئس ﴾، أي لا تأسف على ما صنعوا بي، وأمره بكتمان ذلك عنهم، وأن لا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معززاً مكرماً معظماً.

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾

لما جهزهم وحمل معهم أبعرتهم طعاماً أمر بعض فتيانه أن يضع ﴿السقاية﴾ وهي إناء من فضة في قول الأكثرين، وقيل: من ذهب، ويكيل للناس بـه من عزة الطعام إذ ذاك، قاله ابن عباس ومجاهد، وعن ابن عباس: ﴿صواع الملك﴾ قال: كان من فضة يشربون فيه، وكان للعباس مثله في الجاهلية، فوضعها في متاع (بنيامين) من حيث لا يشعر أحد، ثم نادى مناد بينهم: ﴿أيتها العير إنكم لسارقون﴾، فالتفتوا إلى المنادي، وقالوا: ﴿ماذا تفقدون * قالوا نفقد صواع الملك﴾ أي صاعه الذي يكيل به، ﴿ولمن جاء به حمل بعير﴾ وهذا من باب الجُعَالة، ﴿وأنا به زعيم﴾ وهذا من باب الضمان والكفالة.

قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

لما اتهمهم أولئك الفتيان بالسرقة قال لهم إخوة يوسف: ﴿تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين﴾ أي لقـد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا، لأنهم شاهدوا منهم سيرة حسنة، إنا ﴿ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين﴾ أي ليست سجايانا تقتضي هـذه الصفة، فقال لهم الفتيان: ﴿فما جزاؤه﴾ أي السارق إن كان فيكم ﴿إن كنتم كاذبين﴾ أي: أيُّ شيء يكون عقوبته إن وجدنا فيكم من أخذه؟ ﴿قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين﴾، وهكذا كانت شريعة إبراهيم عليه السلام أن السارق يدفع إلى المسروق منه، وهذا هو الذي أراد يوسف عليه السلام، ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، أي فتّشها قبله تورية، ﴿ثم استخرجها من وعاء أخيه﴾ فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم وإلزامهم بمـا يعتقدونه، ولهذا قال تعالى: ﴿كذلك كدنا ليوسف﴾ وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه ويرضاه لمـا فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة، وقوله: ﴿ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾ أي لم يكن له أخذه في حكم ملك مصر، وإنمـا كان يعلم ذلك من شريعتهم، ولهذا مدحه الله تعالى فقال: ﴿نرفع درجات من نشاء﴾، كما قال تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم﴾ الآية، ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾. قال الحسن البصري: ليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهي إلى الله عزّ وجلّ. عن سعيد بن جبير قال: كنا عند ابن عباس فحدّث بحديث عجيب، فتعجب رجل فقال: الحمد لله، فوق كل ذي علم عليم، فقال ابن عباس: بئس ما قلت، الله العليم فوق كل عالم[1]، يكون هذا أعلم من هذا وهذا أعلم من هذا، والله فوق

(١) أخرجه عبد الرزاق عن سعيد بن جبير.

كل عالم، وقال قتادة: ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾ حتى ينتهي العلم إلى الله، منه بدئ وتعلمت العلماء وإليه يعود .

* قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾

وقال إخوة يوسف لما رأوا الصواع قد أخرج من متاع بنيامين ﴿إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل﴾ يتنصلون إلى العزيز من التشبه به، ويذكرون أن هذا فعل كما فعل أخ له من قبل، يعنون به يوسف عليه السلام . قال قتادة: كان يوسف عليه السلام قد سرق صنماً لجده أبي أمه فكسره، وقوله: ﴿فأسرها يوسف في نفسه﴾ يعني الكلمة التي بعدها وهي قوله: ﴿أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون﴾ أي تذكرون، قال هذا في نفسه ولم يبدها لهم، وهذا من باب الإضمار قبل الذكر، وله شواهد كثيرة في القرآن والحديث واللغة، قال ابن عباس: ﴿فأسرها يوسف في نفسه﴾ قال: أسرَّ في نفسه ﴿أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون﴾ .

قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾

لما تعين أخذ بنيامين وتقرر تركه عند يوسف بمقتضى اعترافهم، شرعوا يترققون له ويعطّفونه عليهم ﴿فقالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً﴾ يعنون وهو يحبه حباً شديداً ويتسلى به عن ولده الذي فقده، ﴿فخذ أحدنا مكانه﴾ أي بدله يكون عندك عوضاً عنه، ﴿إنا نراك من المحسنين﴾ أي العادلين المنصفين القابلين للخير، ﴿قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده﴾ أي كما قلتم واعترفتم، ﴿إنا إذاً لظالمون﴾ أي إن أخذنا بريئاً بمذنب .

فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾

يخبر تعالى عن إخوة يوسف أنهم لما يئسوا من تخليص أخيهم بنيامين الذي قد التزموا لأبيهم برده إليه وعاهدوه على ذلك فامتنع عليهم ذلك ﴿خلصوا﴾ أي انفردوا عن الناس ﴿نجياً﴾ يتناجون فيما بينهم، ﴿قال كبيرهم﴾ وهو الذي أشار عليهم بإلقائه في البئر عندما هموا بقتله قال لهم: ﴿ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله﴾

لتردنه إليه، فقد رأيتم كيف تعذر عليكم ذلك مع ما تقدم لكم من إضاعة يوسف عنه، ﴿فلن أبرح الأرض﴾ أي لن أفارق هذه البلدة ﴿حتى يأذن لي أبي﴾ في الرجوع إليه راضياً عني، ﴿أو يحكم الله لي﴾ بأن يمكنني من أخذ أخي ﴿وهو خير الحاكمين﴾، ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع حتى يكون عذراً لهم عنده، ويتنصلوا إليه ويبرأوا مما وقع بقولهم، وقوله: ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾، قال قتادة: ما علمنا أن ابنك سرق، ﴿واسأل القرية التي كنا فيها﴾ قيل المراد مصر، وقيل غيرها: ﴿والعير التي أقبلنا فيها﴾ أي التي رافقناها عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا، ﴿وإنا لصادقون﴾ فيما أخبرناك به من أنه سرق وأخذوه بسرقته.

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

قال لهم، كما قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب: ﴿بل سوَّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل﴾، قال محمد بن إسحاق: لما جاءوا يعقوب وأخبروه بما جرى اتهمهم، فظن أنها كفعلتهم بيوسف، قال: ﴿بل سوَّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل﴾، ثم ترجى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة يوسف وأخاه بنيامين وروبيل الذي أقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه، إما أن يرضى عنه أبوه، فيأمره بالرجوع إليه، وإما أن يأخذ أخاه خفية، ولهذا قال: ﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم﴾ أي العليم بحالي، ﴿الحكيم﴾ في أفعاله وقضائه وقدره، ﴿وتولى عنهم وقال يا أسفا على يوسف﴾ أي أعرض عن بنيه، وقال متذكراً حزن يوسف القديم الأول ﴿يا أسفا على يوسف﴾ جدد له حزن الإبنين الحزن الدفين، قال سعيد بن جبير: لم يعط أحد غير هذه الأمة الاسترجاع، ألا تسمعون إلى قول يعقوب عليه السلام: ﴿يا أسفا على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾ أي ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق، قاله قتادة وغيره، وقال الضحاك ﴿فهو كظيم﴾ كئيب حزين، فعند ذلك رق له بنوه، وقالوا له على سبيل الرفق به والشفقة عليه: ﴿تالله تفتؤ تذكر يوسف﴾ أي لا تفارق ﴿حتى تكون حرضاً﴾ أي ضعيف القوة، ﴿أو تكون من الهالكين﴾، يقولون: إن استمر بك هذا الحال خشينا عليك الهلاك والتلف، ﴿قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾ أي أجابهم عما قالوا بقوله: ﴿إنما أشكو بثي وحزني﴾ أي همي وما أنا فيه ﴿إلى الله﴾ وحده، ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ أي أرجو منه كل خير. وعن ابن عباس في الآية يعني رؤيا يوسف أنها صدق وأن الله لا بد أن يظهرها، وقال العوفي عنه: أعلم أن رؤيا يوسف صادقة وأني سوف أسجد له.

يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ

ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن يعقوب عليه السلام إنه ندب بنيه على الذهاب في الأرض يستعلمون أخبار يوسف وأخيه بنيامين، و (التحسس) يكون في الخير، و (التجسس) يكون في الشر، ونهضهم وبشرهم وأمرهم أن لا ييأسوا ﴿من روح الله﴾ أي لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدونه فإنه لا يقطع الرجاء ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، وقوله: ﴿فلما دخلوا عليه﴾ تقدير الكلام: فذهبوا فدخلوا مصر ودخلوا على يوسف، ﴿قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر﴾ يعنون الجدب والقحط وقلة الطعام، ﴿وجئنا ببضاعة مزجاة﴾ أي ومعنا ثمن الطعام الذي نمتاره وهو ثمن قليل، قاله مجاهد والحسن، وقال ابن عباس: الرديء لا ينفق، وفي رواية عنه: الدراهم الرديئة التي لا تجوز إلا بنقصان، وقال الضحاك: كاسدة لا تنفق، وأصل الإزجاء الدفع لضعف الشيء، وقوله إخباراً عنهم: ﴿فأوف لنا الكيل﴾ أي أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك، قال ابن جريج: ﴿وتصدق علينا﴾ برد أخينا إلينا، وقال سعيد بن جبير والسدي: يقولون تصدق علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة وتجوز فيها.

قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن يوسف عليه السلام أنه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجدب، وتذكر أباه، وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة، فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته، وبدره البكاء، فتعرف إليهم، والظاهر - والله أعلم - أن يوسف عليه السلام إنما تعرف إليهم بنفسه بإذن الله تعالى له في ذلك، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه في المرتين الأوليين بأمر الله تعالى له في ذلك، والله أعلم، ولكن لما ضاق الحال واشتد الأمر فرج الله تعالى من ذلك الضيق فعند ذلك قالوا: ﴿أئنك لأنت يوسف﴾؟ والاستفهام يدل على الاستعظام، أي أنهم تعجبوا من ذلك أنهم يترددون إليه من سنتين وأكثر، وهم لا يعرفونه، وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه، فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام: ﴿أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي﴾، وقوله: ﴿قد منَّ الله علينا﴾ أي بجمعه بيننا بعد التفرقة وبعد المدة، ﴿إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ۞ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا﴾ الآية، يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم في الخلق والخلق والسعة والملك وأقروا له بأنهم أساءوا إليه وأخطأوا في حقه، ﴿قال لا تثريب عليكم اليوم﴾ يقول أي لا تأنيب عليكم ولا عتب عليكم اليوم، ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة، فقال: ﴿يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾ قال السدي: اعتذروا إلى يوسف فقال: ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾ يقول:

لا أذكر لكم ذنبكم ، وقال ابن إسحاق والثوري: أي لا تأنيب عليكم اليوم عندي فيما صنعتم، ﴿ يغفر الله لكم﴾ أي يستر الله عليكم فيما فعلتم ﴿ وهو أرحم الراحمين﴾ .

ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾

يقول: اذهبوا بهذا القميص ﴿ فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً﴾ وكان قد عمي من كثرة البكاء، ﴿ وأتوني بأهلكم أجمعين﴾ أي بجميع بني يعقوب، ﴿ ولما فصلت العير ﴾ أي خرجت من مصر، ﴿ قال أبوهم﴾ يعني يعقوب عليه السلام لمن بقي عنده من بنيه: ﴿ إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون﴾ تنسبوني إلى الفند والكبر، قال ابن عباس ومجاهد: تسفهون، وقال مجاهد أيضاً والحسن: تهرّمون، وقولهم: ﴿ إنك لفي ضلالك القديم﴾ قال ابن عباس: لفي خطئك القديم، وقال قتادة: أي من حب يوسف لا تنساه ولا تسلاه، قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم ولا لنبي الله ﷺ ، وكذا قال السدي وغيره .

۞ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

قال ابن عباس: ﴿ البشير ﴾ البريد، وقال السدي[1]: هو يهوذا بن يعقوب وإنما جاء به لأنه هو الذي جاء بالقميص وهو ملطخ بدم كذب، فأحب أن يغسل ذلك بهذا، فجاء بالقميص فألقاه على وجه أبيه فرجع بصيراً، وقال لبنيه عند ذلك: ﴿ ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون﴾ أي أعلم أن الله سيرده إليَّ، فعند ذلك قالوا لأبيهم مترفقين له: ﴿ يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين ﴾ قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم﴾ أي من تاب إليه تاب عليه، قال ابن مسعود: أرجأهم إلى وقت السحر، وقال ابن جرير: كان عمر رضي الله عنه يأتي المسجد فيسمع إنساناً يقول: اللهم دعوتني فأجبت، وأمرتني فأطعت، وهذا السحر فاغفر لي، قال: فاستمع الصوت فإذا هو من دار (عبد الله بن مسعود) فسأل عبد الله عن ذلك فقال: إن يعقوب أخّر بنيه إلى السحر بقوله ﴿ سوف أستغفر لكم ربي﴾[2]

فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى

(١) وهو قول مجاهد أيضاً . (٢) أخرجه ابن جرير .

مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾

يخبر تعالى عن ورود يعقوب عليه السلام وقدومه بلاد مصر، لما كان يوسف قد تقدم لإخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين، فتحملوا عن آخرهم، وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر، فلما أخبر يوسف عليه السلام باقترابهم خرج لتلقيهم، وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف لتلقي نبي الله (يعقوب عليه السلام)، ويقال إن الملك خرج أيضاً لتلقيه وهو الأشبه، وقوله: ﴿آوى إليه أبويه﴾ قال السدي: إنما كان أباه وخالته وكانت أمه قد ماتت قديماً، قال ابن جرير: ولم يقم دليل على موت أمه، وظاهر القرآن يدل على حياتها، وقوله: ﴿ورفع أبويه على العرش﴾، قال ابن عباس: يعني السرير أي أجلسهما معه على سريره، ﴿وخروا له سجداً﴾ أي سجد له أبواه وإخوته الباقون، وكانوا أحد عشر رجلاً، ﴿وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل﴾ أي التي كان قصها على أبيه من قبل، وقد كان هذا سائغاً في شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام، فحرم هذا في هذه الملة، وجعل السجود مختصاً بجناب الرب سبحانه وتعالى، هذا مضمون قول قتادة وغيره، وفي الحديث: «لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها»[1]، وفي حديث آخر: ان سلمان لقي النبي ﷺ في بعض المدينة، وكان سلمان حديث عهد بالإسلام، فسجد للنبي ﷺ، فقال: «لا تسجد لي يا سلمان واسجد للحي الذي لا يموت». والغرض أن هذا كان جائزاً في شريعتهم، ولهذا خروا له سجداً فعندها قال يوسف: ﴿يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً﴾ أي هذا ما آل إليه الأمر، فإن التأويل يطلق على ما يصير إليه الأمر، كما قال تعالى: ﴿هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله﴾ أي يوم القيامة يأتيهم ما وعدوا به من خير وشر، وقوله: ﴿قد جعلها ربي حقاً﴾ أي صحيحة صدقاً، يذكر نعم الله عليه، ﴿وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو﴾ أي البادية، قال ابن جريج وغيره: كانوا أهل بادية وماشية، ﴿من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء﴾، أي إذا أراد أمراً قيض له أسباباً وقدره ويسره ﴿إنه هو العليم﴾ بمصالح عباده ﴿الحكيم﴾ في أقواله وأفعاله وقضائه وقدره وما يختاره ويريده. قال محمد بن إسحاق: ذكروا - والله أعلم - أن غيبة يوسف عن يعقوب كانت ثماني عشرة سنة، وأهل الكتاب يزعمون أنها كانت أربعين سنة، وأن يعقوب عليه السلام بقي مع يوسف بعد أن قدم عليه مصر سبع عشرة سنة ثم قبضه الله إليه، وقال عبدالله بن شداد: اجتمع آل يعقوب إلى يوسف بمصر وهم ستة وثمانون إنساناً صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، وخرجوا منها وهم ستمائة ألف ونيف.

۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا

(١) الحديث في الصحاح وسببه أن معاذاً قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم، فلما رجع إلى رسول الله ﷺ سجد له، فقال: «ما هذا يا معاذ؟» فقال: إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول الله فقاله ﷺ.

وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾

هذا دعاء من يوسف الصديق، دعا بـه ربه عزّ وجلّ لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه واخوته، وما منّ الله به عليه من النبوة والملك، سأل ربه عزّ وجلّ أن يتوفاه مسلماً حين يتوفاه وأن يلحقه بالصالحين، وهم إخوانه من النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين؛ وهذا الدعاء يحتمل أن يوسف عليه السلام قاله عنـد احتضاره، كما ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ جعل يرفع أصبعه عند الموت ويقول: «اللهم في الرفيق الأعلى» ثلاثاً، ويحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين إذا جاء أجله وانقضى عمره، لا أنه سأله ذلك منجزاً كما يقول الداعي لغيره أماتك الله على الإسلام، و يقول الداعي: اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين؛ ويحتمل أنه سأل ذلك منجزاً وكان ذلك سائغاً في ملتهم، كما قال قتادة: لما جمع الله شمله وأقر عينه وهو يومئذ مغمور في الدنيا وملكها ونضارتها اشتاق إلى الصالحين قبـله، وكان ابن عباس يقول: ما تمنى نبي قط الموت قبل يوسف عليه السلام. ولكن هذا لا يجوز في شريعتنا لما في الصحيحين: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به إما محسناً فيزداد، وإما مسيئاً فلعله يستعتب، ولكن ليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي».

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ولا يدع به من قبل أن يأتيه إلا أن يكون قد وثق بعمله، فإنه إذا مات أحدكم انقطع عنه عمله وإنه لا يزيد المؤمن عمله إلا خيراً[١]»، وهذا فيما إذا كان الضر خاصاً به، وأما إذا كان فتنة في الدين فيجوز سؤال الموت، كما قال تعالى إخباراً عن السحرة لما أرادهم فرعون عن دينهم وتهددهم بالقتل: ﴿قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين﴾. وقالت مريم عليها السلام: ﴿يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً﴾ لما علمت من أن الناس يقذفونها بالفاحشة لأنها لم تكن ذات زوج وقد حملت ووضعت. وفي حديث معاذ الذي رواه الإمام أحمد والترمذي: «وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضني إليك غير مفتون»، فعند حلول الفتن في الدين يجوز سؤال الموت، ولهـذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في آخر خلافته لما رأى أن الأمور لا تجتمع له، ولا يزداد الأمر إلا شدة فقال: اللهم خذني إليك فقد سئمتهم وسئموني، وقال البخاري رحمه الله: لما وقعت له تلك الفتنة وجرى له مع أمير خراسان ما جرى قال: اللهم توفني إليك، وفي الحديث: «إن الرجل ليمر بالقبر - أي في زمان الدجال - فيقول يا ليتني مكانك» لما يرى من الفتن والزلازل والأمور الهائلة التي هي فتنة لكل مفتون.

* ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾

يقول تعالى لمحمد ﷺ لما قص عليه نبأ إخوة يوسف، وكيف رفعه الله عليهم وجعل له العاقبة والنصر والملك

(١) تفرد به الإمام أحمد رحمه الله.

والحكم، مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام: هذا وأمثاله يا محمد من أخبار الغيوب السابقة ﴿ نوحيه إليك﴾ ونعلمك به يا محمد لما فيه من العبرة لك والاتعاظ لمن خالفك، ﴿وما كنت لديهم﴾ حاضراً عندهم ولا مشاهداً لهم ﴿إذ أجمعوا أمرهم﴾ أي على إلقائه في الجب، ﴿وهم يمكرون﴾ به، ولكنا أعلمناك به وحياً إليك وإنزالاً عليك كقوله: ﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾ الآية، إلى قوله: ﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾ الآية، يقول تعالى: إنه رسوله وإنه قد أطلعه على أنباء ما قد سبق مما فيه عبرة للناس ونجاة لهم في دينهم ودنياهم، ومع هذا ما آمن أكثر الناس، ولهذا قال: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾، وقال: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾، وقوله: ﴿وما تسألهم عليه من أجر﴾ أي ما تسألهم يا محمد على هذا النصح والرشد من أجر أي من جعالة ولا أجرة، بل تفعله ابتغاء وجه الله ونصحاً لخلقه، ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ أي يتذكرون بـه ويهتدون وينجون بـه في الدنيا والآخرة.

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله، ودلائل توحيده، بما خلقه الله في السماوات والأرض من كواكب زاهرات وأفلاك دائرات، وحدائق وجنات، وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وحيوان ونبات، فسبحان الواحد الأحد خالق أنواع المخلوقات، المنفرد بالدوام والبقاء والصمدية للأسماء والصفات، وقوله: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ قال ابن عباس: من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم: من خلق السماوات ومن خلق الأرض ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله وهم مشركون به[1]. وفي الصحيحين: أن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك. وفي صحيح مسلم: أنهم كانوا إذا قالوا لبيك لا شريك لك، قال رسول الله ﷺ: «قد قد» أي حسب حسب لا تزيدوا على هذا، وقال الله تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾. وقال الحسن البصري في قوله: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ قال: ذلك المنافق يعمل إذا عمل رياء الناس، وهو مشرك بعمله ذلك، يعني في قوله تعالى: ﴿يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «يقول الله أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[2]، وعن أبي سعيد بن أبي فضالة قال، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه، ينادي مناد من كان أشرك في عمل عمله لله فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك»[3]. وقال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، قالوا:

(١) وكذا قال مجاهد وعطاء وعكرمة والشعبي وقتادة والضحاك.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء، يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جاز الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء؟». وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي قال، قال أبو بكر الصديق: يا رسول الله علمني شيئاً أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعي، قال: «قل اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر الشيطان وشركه»، وقوله: ﴿أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله﴾ الآية، أي أفأمن هؤلاء المشركون بالله أن يأتيهم أمر يغشاهم من حيث لا يشعرون، كقوله تعالى: ﴿أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾؟ وقوله: ﴿أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون * أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون * أفأمنوا مكر الله * فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾؟

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٠٨﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ إلى الثقلين الإنس والجن آمراً له أن يخبر الناس أن هذه سبيله، أي طريقته ومسلكه وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن «لا إله إلا الله وحده لا شريك له» يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان، هو وكل من اتبعه، وقوله: ﴿وسبحان الله﴾ أي وأنزه الله وأجله وأعظمه وأقدسه عن أن يكون له شريك أو نظير أو عديل أو نديد أو ولد أو والد أو صاحبة أو وزير أو مشير، تبارك وتقدس وتنزه وتعالى عن ذلك كله علوا كبيراً ﴿تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً﴾.

﴿۞ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠٩﴾

يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من (الرجال) لا من (النساء) وهذا قول جمهور العلماء، وزعم بعضهم أن (سارة) امرأة الخليل، وأم موسى، ومريم بنت عمران أم عيسى نبيات، واحتجوا بأن الملائكة بشرت سارة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، وبقوله: ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه﴾ الآية، وبأن الملك جاء إلى مريم فبشرها بعيسى عليه السلام، وبقوله تعالى: ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين﴾، وهذا القدر حاصل لهن، ولكن لا يلزم من هذا أن يكن نبيات بذلك، ويبقى الكلام في أن هذا هل يكفي في الانتظام في سلك النبوة بمجرده أم لا؟ الذي عليه أهل السنة والجماعة - وهو الذي نقله الشيخ أبو الحسن الأشعري عنهم - أنه ليس في النساء نبية، وإنما فيهن (صدّيقات)[1]، كما قال تعالى مخبراً عن (مريم بنت عمران): ﴿وأمه صدّيقة كانا يأكلان الطعام﴾، فوصفها في أشرف مقاماتها بالصديقية، فلو كانت نبية لذكر ذلك في مقام التشريف والإعظام فهي صديقة بنص القرآن، وقال الضحاك عن ابن عباس في الآية: أي ليسوا من

(١) هذا هو القول الفصل في الموضوع: أنه ليس في النساء نبية، والأنبياء جميعهم من الرجال لقوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً﴾ الآية، وبهذا تسقط دعوى ابن حزم أن من النساء نبيات.

أهل السماء كما قلتم، وهذا القول من ابن عباس يعتضد بقوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين﴾، وقوله: ﴿من أهل القرى﴾ المراد بالقرى المدن لا أنهم من أهل البوادي الذين هم من أجفى الناس طباعاً وأخلاقاً، وقوله: ﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾ يعني هؤلاء المكذبين لك يا محمد في الأرض ﴿فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ أي من الأمم المكذبة للرسل كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها، كقوله: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾ الآية، فإذا استمعوا خبر ذلك رأوا أن الله قد أهلك الكافرين ونجّى المؤمنين، وهذه كانت سنته تعالى في خلقه، ولهذا قال تعالى: ﴿ولدار الآخرة خير للذين اتقوا﴾ أي وكما نجينا المؤمنين في الدنيا كذلك كتبنا لهم النجاة في الدار الآخرة، وهي خير لهم من الدنيا بكثير، وأضاف الدار إلى الآخرة فقال: ﴿ولدار الآخرة﴾ كما يقال: صلاة الأولى ومسجد الجامع.

* حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾

يذكر تعالى أن نصره ينزل على رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله في أحوج الأوقات إليه، كقوله تعالى: ﴿وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله﴾ الآية. وفي قوله: ﴿كذبوا﴾ قراءتان إحداهما بالتشديد ﴿قد كُذّبوا﴾، وكذلك كانت عائشة رضي الله عنها تقرؤها، قال البخاري عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير عن عائشة أنها قالت له وهو يسألها عن قول الله تعالى: ﴿حتى إذا استيأس الرسل﴾ قال، قلت: أكذبوا أم كذّبوا؟ قالت عائشة: كذّبوا، قلت: فقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم فما هو بالظن؟ قالت: أجل لعمري لقد استيقنوا بذلك، فقلت لها: ﴿وظنوا أنهم قد كُذِبوا﴾؟ قالت: معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك بربها، قلت فما هذه الآية؟ قالت هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم فطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر ﴿حتى إذا استيأس الرسل﴾ ممن كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم، جاءهم نصر الله عند ذلك[1]. والقراءة الثانية بالتخفيف واختلفوا في تفسيرها، فقال ابن عباس في قوله: ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ قال: لما أيست الرسل أن يستجيب لهم قومهم، وظن قومهم أن الرسل قد كذبوهم جاءهم النصر على ذلك، ﴿فنجّي من نشاء﴾، وقال ابن جرير، عن إبراهيم بن أبي حمزة الجزري قال، سأل فتى من قريش سعيد بن جبير قال: أخبرنا أبا عبدالله كيف هذا الحرف؟ فإني إذا أتيت عليه تمنيت أن لا أقرأ هذه السورة: ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ قال: نعم، حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أن يصدقوهم، وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا، فقال الضحاك ابن مزاحم: ما رأيت كاليوم قط رجلاً يدعى إلى علم فيتلكأ، لو رحلت إلى اليمن في هذه كان قليلًا[2]. ثم روى ابن جرير أيضاً من وجه آخر أن مسلم بن يسار سأل سعيد بن جبير عن ذلك فأجابه بهذا الجواب، فقام إلى سعيد فاعتنقه، وقال: فرج الله عنك كما فرجت عني. وأما ابن مسعود فقال ابن جرير، عن تميم بن حزم، قال: سمعت

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن عروة بن الزبير. (٢) أخرجه ابن جرير الطبري.

عبدالله بن مسعود يقول في هذه الآية: ﴿حتى إذا استيأس الرسل﴾ من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم، وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كذبوا بالتخفيف، فهاتان الروايتان عن كل من ابن مسعود وابن عباس والله أعلم.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

يقول تعالى: لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم وكيف نجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين ﴿عبرة لأولي الألباب﴾ وهي العقول، ﴿ما كان حديثاً يفترى﴾ أي وما كان لهذا القرآن أن يفترى من دون الله، أي يكذب ويختلق، ﴿ولكن تصديق الذي بين يديه﴾ أي من الكتب المنزلة من السماء هو يصدق ما فيها من الصحيح وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، ﴿وتفصيل كل شيء﴾ من تحليل وتحريم وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات، والإخبار عن الأمور الجلية، وعن الغيوب المستقبلة المجملة والتفصيلية، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات، وتنزهه عن مماثلة المخلوقات، فلهذا كان: ﴿هدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ تهتدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد، ومن الضلال إلى السداد، ويبتغون به الرحمة من رب العباد، في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد، فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم في الدنيا والآخرة.

آخر تفسير سورة يوسف عليه السلام، ولله الحمد والمنة وبه المستعان.

* * *

تفسير سورة يوسف

[وهى مكية][(١)].

روى الثعلبى وغيره، من طريق سَلاّم بن سلم ـ ويقال: سليم ـ المدائنى، وهو متروك، عن هارون بن كثير ـ وقد نصّ على جهالته أبو حاتم ـ عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن أبى أمامة، عن أُبى بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «علموا أرقاءكم سورة يوسف، فإنه أيما مسلم تلاها، أو علمها أهله، أو ما[(٢)] ملكت يمينه، هوَّن الله عليه سكرات الموت، وأعطاه من القوة ألا يحسد مسلما»[(٣)].

وهذا من هذا الوجه لا يصح، لضعف إسناده بالكلية. وقد ساق له[(٤)] الحافظ ابن عساكر متابعا من طريق القاسم بن الحكم، عن هارون بن كثير، به ـ ومن طريق شَبَّابة، عن مخلد بن عبد الواحد البصرى[(٥)]، عن على بن زيد بن جدعان ـ وعن عطاء بن أبى ميمونة، عن زر بن حُبَيش، عن أُبى ابن كعب، عن النبى ﷺ ـ فذكر نحوه[(٦)]. وهو منكر من سائر طرقه.

وروى البيهقى فى «الدلائل» أن طائفة من اليهود حين سمعوا رسول الله ﷺ يتلو هذه السورة أسلموا لموافقتها ما عندهم. وهو من رواية الكلبى، عن أبى صالح، عن ابن عباس.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) ﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم فى أول سورة «البقرة».

وقوله: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ أى: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن، ﴿الْمُبِينِ﴾ أى: الواضح الجلى، الذى يفصح عن الأشياء المبهمة ويفسرها ويبينها[(٧)].

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعانى التى تقوم بالنفوس؛ فلهذا أنزلَ أشرف الكتب بأشرف اللغات، على أشرف الرسل، بسفارة[(٨)] أشرف الملائكة، وكان ذلك فى أشرف بقاع الأرض، وابتدئ إنزاله فى أشرف

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى ت: «وما».

(٣) تفسير الثعلبى (٧/ل ٦١ «المحمودية») وأورده الزيلعى فى تخريج الكشاف (٢/١٧٩) من رواية الثعلبى فى تفسيره، ورواه الواحدى فى الوسيط (٢/٥٩٩) من طريق إبراهيم بن شريف عن أحمد بن يونس عن سلام بن سليم به.

(٤) فى جميع النسخ: «وقد ساقه» وهذا التعبير غير صحيح.

(٥) جميع النسخ: «محمد بن عبد الواحد النضرى»، وفى أ، ت: «مخلد بن عبد الواحد النضرى» والصواب ما أثبتناه.

(٦) نقله الزيلعى فى تخريج الكشاف (٢/ ١٨٠) عن المؤلف. (٧) فى ت: «وتفسيرها وتبينها». (٨) فى ت: «كسفارة».

شهور السنة وهو رمضان، فكمل من كل الوجوه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾، بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن.

وقد وَرَدَ فى سبب نزول هذه الآيات ما رواه ابن جرير:

حدثنى نصر بن عبد الرحمن الأَوْدِى[(١)]، حدثنا حكام الرازى، عن أيوب، عن عمرو ـ هو ابن قيس الملائى ـ عن ابن عباس قال: قالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا؟ فنزلت: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾[(٢)].

ورواه من وجه آخر، عن عمرو بن قيس مرسلا.

وقال أيضا: حدثنا محمد بن سعيد[(٣)] العطار[(٤)]، حدثنا عمرو بن محمد، أنبأنا خَلاَّد الصفار، عن عمرو بن قيس، عن عمرو بن مُرَّة[(٥)]، عن مصعب بن سعد عن سعد قال: أنزل على النبى ﷺ القرآن، قال: فتلا عليهم زمانا، فقالوا: يا رسول الله، لو قصصتَ علينا. فأنزل الله عز وجل: ﴿الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[(٦)]. ثم تلا عليهم زمانا، فقالوا: يا رسول الله، لو حدثتنا. فأنزل الله عز وجل: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ الآية [الزمر: ٢٣]، وذكر الحديث.

ورواه الحاكم من حديث إسحاق بن رَاهَوَيه، عن عمرو بن محمد القَرشى العَنْقزى، به[(٧)].

وروى ابن جرير بسنده[(٨)]، عن المسعودى، عن عَوْن بن عبد الله قال: مَلّ أصحابُ رسول الله ﷺ مَلّةَ، فقالوا: يا رسول الله، حَدِّثنا. [فأنزل الله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾، ثم مَلّوا ملة أخرى فقالوا: يا رسول الله، حدثنا][(٩)] فوق الحديث ودون القرآن ـ يعنون القصص ـ فأنزل الله: ﴿الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾، فأرادوا الحديث، فدلَّهم على أحسن الحديث، وأرادوا القصص فدلهم على أحسن القصص[(١٠)].

ومما يناسب ذكره عند هذه الآية الكريمة، المشتملة على مدح القرآن، وأنه كاف عن كل ما سواه من الكتب ما قال الإمام أحمد:

حدثنا سُرَيْج بن النعمان، أخبرنا هُشَيْم، أنبأنا مجالد، عن الشعبى، عن جابر بن عبد الله؛ أن

---

(١) فى ت: «الأوذى».

(٢) تفسير الطبرى (١٥/ ٥٥٢).

(٣) فى أ: «سعد». (٤) فى ت، أ: «القطان». (٥) فى ت، أ: «قرة».

(٦) فى ت: « ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ الآية».

(٧) تفسير الطبرى (١٥/ ٥٥٣) والمستدرك (٢/ ٣٤٥) وقال: «حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبى، وحسنه الحافظ ابن حجر فى المطالب العالية برقم (٣٦٥٢).

(٨) فى ت: «بسند». (٩) زيادة من ت، أ، والطبرى.

(١٠) تفسير الطبرى (١٥/ ٥٥٢).

عمر بن الخطاب أتى النبى ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبى ﷺ فغضب وقال: «أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذى نفسى بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذّبونه، أو بباطل فتصدقونه، والذى نفسى بيده، لو أن موسى كان حياً، لما [١]وسعه إلا أن يتبعنى»[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن جابر، عن الشعبى، عن عبد الله بن ثابت قال: جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى مررت بأخ لى من قريظة، فكتب لى جوامع من التوراة، ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغير وجه رسول الله ﷺ. قال عبد الله بن ثابت: فقلت له: ألا ترى ما بوجه[٣] رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا. قال: فسُرِّى عن النبى[٤] ﷺ وقال: «والذى نفس محمد بيده، لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم، إنكم حظّى من الأمم، وأنا حظكم من النبيين»[٥].

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى: حدثنا عبد الغفار بن عبد الله بن الزبير، حدثنا على بن مُسْهِر، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن خليفة بن قيس، عن خالد بن عُرْفَطة قال: كنت جالسا عند عمر، إذ أتى برجل من عبد القيس مسكنه بالسوس، فقال له عمر: أنت فلان بن فلان العبدى؟ قال: نعم. قال: وأنت النازل بالسوس، قال: نعم. فضربه بقناة معه، قال: فقال الرجل: ما لى يا أمير المؤمنين؟ فقال له عمر: اجلس. فجلس، فقرأ عليه: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ. إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ [أَحْسَنَ الْقَصَصِ][٦]﴾ إلى قوله: ﴿ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾، فقرأها[٧] ثلاثا، وضربه ثلاثا، فقال له الرجل: ما لى يا أمير المؤمنين؟ فقال: أنت الذى نسخت كتاب دانيال! قال: مرنى بأمرك أتبعه. قال: انطلق فامحه بالحميم والصوف الأبيض، ثم لا تقرأه[٨] ولا تُقرئه أحدا من الناس، فلئن بلغنى عنك أنك قرأته أو أقرأته أحدا من الناس لأنهكنّك عقوبة، ثم قال له: اجلس، فجلس بين يديه، فقال: انطلقت أنا فانتسخت كتابا من أهل الكتاب، ثم جئت به فى أديم، فقال لى رسول الله ﷺ: «ما هذا فى يدك يا عمر؟». قال: قلت: يا رسول الله، كتاب نسخته لنزداد[٩] به علما إلى علمنا. فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرّت وجنتاه، ثم نودى بالصلاة جامعة، فقالت الأنصار: أغضب نبيكم ﷺ؟ السلاح السلاح. فجاؤوا حتى أحدقوا بمنبر رسول الله ﷺ، فقال: «يأيها الناس، إنى قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه، واختُصِر لى اختصارا، ولقد أتيتكم بها

(١) فى ت: «ما».
(٢) المسند (٣/ ٣٧٨).
(٣) فى ت: «ما توجه».
(٤) فى أ: «رسول الله».
(٥) المسند (٣/ ٣٦٥).
(٦) زيادة من ت.
(٧) فى ت، أ: «فقرأها عليه».
(٨) فى ت: «لا يقرأه».
(٩) فى ت: «ليزداد».

بيضاء نقية فلا تَتهوَّكوا، ولا يغرنكم المتهوِّكون». قال عمر: فقمت فقلت: رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا، وبك رسولا. ثم نزل رسول الله ﷺ[١].

وقد رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره مختصرا، من حديث عبد الرحمن بن إسحاق، به. وهذا حديث غريب من هذا الوجه. وعبد الرحمن بن إسحاق هو أبو شَيْبَةَ[٢] الواسطى، وقد ضعفوه وشيخه. قال البخارى: لا يصح حديثه.

قلت: وقد روى له شاهد من وجه آخر، فقال الحافظ أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلى: أخبرنى الحسن بن سفيان، حدثنا يعقوب بن سفيان، حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الزبيدى، حدثنى عمرو بن الحارث، حدثنا عبد الله بن سالم الأشعرى، عن الزبيدى، حدثنا سليم بن عامر: أن جُبَير بن نُفَير حَدّثهم: أن رجلين كانا بحمص فى خلافة عمر، رضى الله عنه، فأرسل إليهما فيمن أرسل من أهل حمص، وكانا قد اكتتبا من اليهود صلاصفة[٣] فأخذاها معهما يستفتيان فيها أمير المؤمنين ويقولون: إن رضيها لنا أمير المؤمنين ازددنا فيها رغبة. وإن نهانا عنها رفضناها، فلما قدما عليه قالا: إنا بأرض أهل الكتابين، وإنا نسمع منهم كلاما تقشعر منه جلودنا، أفنأخذ منه أو نترك؟ فقال: لعلكما كتبتما منه شيئا. قالا[٤]: لا. قال: سأحدثكما، انطلقت فى حياة رسول الله[٥] ﷺ حتى أتيت خيبر، فوجدت يهوديا يقول قولا أعجبنى، فقلت: هل أنت مكتبى ما تقول؟ قال: نعم. فأتيت بأديم، فأخذ يملى علىّ، حتى كتبت فى الأكرُع. فلما رجعت قلت: يا نبى الله، وأخبرته، قال: «ائتنى به». فانطلقت أرغب عن المشى رجاء أن أكون أتيت[٦] رسول الله ببعض ما يحب، فلما أتيت به قال: «اجلس اقرأ علىّ». فقرأت ساعة، ثم نظرت إلى وجهه فإذا هو يتلوّن، فتحيرت من الفَرَق، فما استطعت أجيز[٧] منه حرفا، فلما رأى الذى بى دَفَعه[٨]، ثم جعل يتبعه رسما رسما فيمحوه بريقه، وهو يقول: «لا تتبعوا هؤلاء، فإنهم قد هَوَكوا وتَهَوَّكوا»، حتى محا آخره حرفاً حرفا. قال عمر، رضى الله عنه: فلو علمت أنكما كتبتما منه شيئاً جعلتكما نكالا لهذه الأمة! قالا: والله ما نكتب منه شيئاً أبدا. فخرجا بصلاصفتهما[٩]، فحفرا لها[١٠] فلم يألُوا أن يعمِّقَا، ودفناها

(١) لم أعثر عليه فى المطبوع من مسند أبى يعلى، وأورده الهيثمى فى المجمع (١/ ١٨٢) وقال: «رواه أبو يعلى، وفيه عبد الرحمن بن إسحاق الواسطى، ضعفه أحمد وجماعة». ورواه المقدسى فى المختارة برقم (١١٥) من طريق أبى يعلى وقال: «عبد الرحمن بن إسحاق أخرج له مسلم وابن حبان». يقصد عبد الرحمن بن إسحاق المدنى وهو أثبت من الواسطى وفترتهما متقاربة، لكن المزنى ذكر على بن مسهر من الرواة عن الواسطى الضعيف، وقد رجح المؤلف هنا أنه الواسطى. وكذا فى مسند عمر بن الخطاب (٢/ ٥٩١) وقال: «وزعم الحافظ الضياء المقدسى فى كتابه «المختارة» أنه الذى روى له مسلم كما (أظن صوابه كذا) قال: وأما شيخه خليفة بن قيس فقال فيه أبو حاتم الرازى: شيخ ليس بالمعروف. وقال البخارى: لم يصح حديثه».

(٢) فى ت: «ابن شيبة».
(٣) فى هـ: «ملاصق» بدون نقط، والمثبت من ت، أ.
(٤) فى ت، أ: «فقالا».
(٥) فى ت: «النبى».
(٦) فى ت: «جئت».
(٧) فى ت: «أحبر»
(٨) فى ت: «دفعته».
(٩) فى هـ، ت: «بصفيهما» والمثبت من أ.
(١٠) فى ت: «فحفراها».

فكان آخر العهد منها[١].

وكذا روى الثورى، عن جابر بن يزيد الجُعْفى، عن الشعبى، عن عبد الله بن ثابت الأنصارى، عن عمر بن الخطاب، بنحوه[٢]. وروى أبو داود فى المراسيل، من حديث أبى قِلاَبة، عن عمر نحوه[٣]. والله أعلم.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ(٤)﴾.

يقول تعالى: اذكر لقومك يا محمد فى قَصَصك عليهم من قصة يوسف إذ قال لأبيه، وأبوه هو: يعقوب، عليه السلام، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا عبد الصمد، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار، عن أبيه، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم».

انفرد بإخراجه البخارى، فرواه[٤] عن عبد الله بن محمد، عن عبد الصمد به[٥]. وقال البخارى أيضاً:

حدثنا محمد، أخبرنا عبدة، عن عُبَيْد الله، عن سعيد بن أبى سعيد، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: سُئِل رسولُ الله ﷺ: أى الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فأكرم الناس يوسف نبى الله، ابن نبى الله، ابن نبى الله، ابن خليل الله». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فعن معادن العرب تسألونى؟» قالوا: نعم. قال: «فخياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فَقِهوا». ثم قال: تابعه أبو أسامة، عن عبيد الله[٦].

وقال ابن عباس: رؤيا الأنبياء وحى.

وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام: أن الأحد عشر كوكبا عبارة عن إخوته، وكانوا أحد عشر رجلا [سواه][٧]، والشمس والقمر عبارة عن أبيه وأمه. رُوِى هذا عن ابن عباس، والضحاك،

(١) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٥/ ١٣٦) عن الطبرانى، عن عمرو بن إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الحمصى، عن أبيه، عن عمرو بن الحارث به.

(٢) سبق تخريجه فى المسند.

(٣) المراسيل برقم (٤٥٥).

(٤) فى أ: «ورواه».

(٥) المسند (٢/ ٩٦) وصحيح البخارى برقم (٤٦٨٨).

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٦٨٩).

(٧) زيادة من ت.

وقتادة، وسفيان الثورى، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة، وقيل: ثمانين سنة، وذلك حين رفع أبويه على العرش، وهو سريره، وإخوته بين يديه: ﴿ **وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا** ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وقد جاء فى حديث تسمية هذه الأحد عشر كوكبا ـ فقال الإمام أبو جعفر بن جرير.

حدثنى على بن سعيد الكِنْدى، حدثنا الحكم بن ظهير، عن السُّدِّى، عن عبد الرحمن بن سابط، [عن جابر][١] قال: أتى النبى ﷺ رجل من يهود يقال له: «بستانة اليهودى»، فقال له: يا محمد، أخبرنى عن الكواكب التى رآها يوسف أنها ساجدة له، ما أسماؤها؟ قال: فسكت النبى ﷺ ساعة فلم يجبه بشىء، ونزل [عليه][٢] جبريل، عليه السلام، فأخبره بأسمائها. قال: فبعث رسول الله ﷺ إليه فقال: «هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها؟» فقال: نعم. قال: «خرتان[٣]، والطارقُ، والذَّيَّال[٤]، وذو الكَنَفَات، وقابس، ووَثَّاب، وعَمُودَان، والفَيْلَق، والمُصَبِّحُ، والضَّرُوحُ، وذو الفرغ، والضِّيَاءُ، والنُّور»، فقال اليهودى: إىْ والله، إنها لأسماؤها[٥].

ورواه البيهقى فى «الدلائل»، من حديث سعيد[٦] بن منصور، عن الحكم بن ظهير. وقد روى هذا الحديث الحافظان أبو يعلى الموصلى وأبو بكر البزار فى مسنديهما، وابن أبى حاتم فى تفسيره[٧]، أما أبو يعلى فرواه عن أربعة من شيوخه عن الحكم بن ظهير، به وزاد: قال رسول الله ﷺ: «لما رآها يوسف قَصّها على أبيه يعقوب، فقال له أبوه: هذا أمر متشتت يجمعه الله من بعد؛ قال: والشمس أبوه، والقمر أمه».

تفرد به الحكم بن ظهير الفزارى[٨]، وقد ضَعَّفه الأئمة، وتركه الأكثرون، وقال الجوزجانى: ساقط، وهو صاحب حديث حُسْن يوسف.

﴿ **قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥)** ﴾.

(١، ٢) زيادة من ت، أ، والطبرى.

(٣) فى هـ: «حرثان» وفى ت، أ: «جربان» والمثبت من ميزان الاعتدال ١/ ٥٧٢ . مستفاد من ط. الشعب.

(٤) فى ت: «والدثال».

(٥) تفسير الطبرى (١٥/ ٥٥٥).

(٦) فى ت: «سعد».

(٧) دلائل النبوة للبيهقى (٦/ ٢٧٧) ومسند البزار برقم (٢٢٢٠) «كشف الأستار». وقد وقع اختلاف فى أسماء الكواكب فى هذه المصادر وليست بالمهمة، والحديث حكم عليه ابن الجوزى بالوضع.

(٨) لم يتفرد به بل توبع، فرواه الحاكم فى المستدرك (٤/ ٣٩٦) من طريق طلحة عن أسباط بن نصر، عن السدى، عن عبد الرحمن بن سابط، عن جابر به نحوه، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» قال الزيلعى: «وسند الحاكم وارد على البزار فى قوله: لا نعلم له طريقاً غيره، وعلى البيهقى فى قوله: تفرد به الحكم بن ظهير ولهما عذرهما» تخريج الكشاف (٢/ ١٦١).

يقول تعالى مخبراً عن قيل يعقوب لابنه يوسف حين قَصّ عليه ما رأى من هذه الرؤيا، التى تعبيرها خضوع إخوته له وتعظيمهم إياه تعظيما زائداً، بحيث يخرون له ساجدين إجلالا وإكراما واحتراما[(١)]، فخشى يعقوب، عليه السلام، أن يحدث بهذا المنام أحداً من إخوته فيحسدوه[(٢)] على ذلك، فيبغوا له الغوائل، حسداً منهم له؛ ولهذا قال له: ﴿لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ أى: يحتالوا لك حيلةً يُرْدُونَك فيها. ولهذا ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث به، وإذا رأى ما يكره فليتحوَّل إلى جنبه الآخر وليتفل عن يساره ثلاثا، وليستعذ بالله من شرها، ولا يحدث بها أحداً، فإنها لن تضره»[(٣)]. وفى الحديث الآخر الذى رواه الإمام أحمد، وبعض أهل السنن، من رواية معاوية بن حيدة القشيرى أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعَبر، فإذا عُبِرَتْ وقعت»[(٤)]. ومن هذا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر، كما ورد فى حديث: «استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها، فإن كل ذى نعمة محسود»[(٥)].

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبرا عن قول يعقوب لولده يوسف: إنه كما اختارك[(٦)] ربك، وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك، ﴿كَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أى: يختارك ويصطفيك لنبوته، ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾: قال مجاهد وغير واحد: يعنى تعبير الرؤيا.

﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾أى: بإرسالك والإيحاء إليك؛ ولهذا قال: ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهو الخليل، ﴿وَإِسْحَاقَ﴾ ولده، وهو الذبيح فى قول، وليس بالرجيح، ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى: [هو][(٧)] أعلم حيث يجعل رسالاته، كما قال فى الآية الأخرى.

﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ

---

(١) فى ت، أ: «واحتراماً وإكراماً». (٢) فى ت: «فيحسدونه».

(٣) جاء من حديث جابر، وأم سلمة، وأبى قتادة: أما حديث جابر، فرواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٢٦٢)، وأما حديث أم سلمة، فرواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٧٤١)، وأما حديث أبى قتادة، فرواه أحمد فى المسند (٥/ ٢٩٦) وهذا لفظه.

(٤) لم أعثر عليه من حديث معاوية، وإنما من حديث لقيط بن عامر رضى الله عنه، رواه أحمد فى المسند (٤/ ١٠) وأبو داود فى السنن برقم (٥٠٢٠) والترمذى فى السنن برقم (٢٢٧٨) وابن ماجه فى السنن برقم (٣٩١٤).

(٥) رواه العقيلى فى الضعفاء (٢/ ١٠٩) وابن عدى فى الكامل (٣/ ٤٠٤) وأبو نعيم فى الحلية (٦/ ٩٦) من طريق سعيد بن سالم العطار عن ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان عن معاذ به مرفوعاً، وأورده ابن الجوزى فى الموضوعات (٢/ ١٦٥) وقال أبو حاتم فى العلل (٢/ ٢٥٨): «حديث منكر». وآفته سعيد بن سلام العطار فهو كذاب.

(٦) فى ت: «اختار». (٧) زيادة من ت.

أَبيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (١٠)﴾.

يقول تعالى: لقد كان فى قصة يوسف وخبره مع إخوته آيات، أى: عبرةٌ ومواعظُ للسائلين عن ذلك، المستخبرين عنه، فإنه خبر عجيب، يستحق أن يستخبر عنه، ﴿**إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا**﴾ أى: حلفوا فيما يظنون: والله ليوسف وأخوه ـ يعنون بنيامين، وكان شقيقه لأمه ـ ﴿**أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ**﴾ أى: جماعة، فكيف أحب ذينك الاثنين أكثر من الجماعة؛ ﴿**إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ**﴾، يعنون فى تقديمهما علينا، ومحبته إياهما أكثر منا.

واعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك، ومن الناس من يزعم أنهم أوحى إليهم بعد ذلك، وفى هذا نظر. ويحتاج مُدّعى ذلك إلى دليل، ولم يذكروا سوى قوله تعالى: ﴿**قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ**﴾ [البقرة: ١٣٦]، وهذا فيه احتمال؛ لأن بطون بنى إسرائيل يقال لهم: الأسباط، كما يقال للعرب: قبائل، وللعجم: شعوب؛ يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بنى إسرائيل، فذكرهم إجمالا لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحى إليهم، والله أعلم.

﴿**اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ**﴾: يقولون: هذا الذى يزاحمكم فى محبة أبيكم لكم، أعدموه من وجه أبيكم، ليخلو لكم وحدكم، إما بأن تقتلوه، أو تلقوه فى أرض من الأراضى ـ تستريحوا منه، وتختلوا أنتم بأبيكم، وتكونوا من [١] بعد إعدامه قوماً صالحين. فأضمروا التوبة قبل الذنب.

﴿ **قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ**﴾: قال قتادة، ومحمد بن إسحاق: كان أكبرهم واسمه روبيل. وقال السدى: الذى قال ذلك يهوذا . وقال مجاهد: هو شمعون ﴿**لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ**﴾ أى: لاتَصلوا [٢] فى عداوته وبغضه إلى قتله، ولم يكن لهم [٣] سبيلٌ إلى قتله؛ لأن الله تعالى كان يريد منه أمراً لابدّ من إمضائه وإتمامه، من الإيحاء إليه بالنبوة، ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها، فصرفهم الله عنه بمقالة روبيل فيه وإشارته عليهم بأن يلقوه فى غيابة الجب، وهو أسفله.

قال قتادة: وهى بئر بيت المقدس.

﴿ **يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ**﴾ أى: المارة من المسافرين، فتستريحوا بهذا، ولاحاجة إلى قتله.

﴿ **إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ** ﴾ أى: إن كنتم عازمين على ما تقولون.

قال محمد بن إسحاق بن يَسار: لقد اجتمعوا على أمر عظيم، من قطيعة الرحم، وعقوق

(١) فى أ: «وتكونوا من بعده، أى من بعد».
(٢) فى أ: «لا تغلوا».
(٣) فى ت: «له».

الوالد، وقلة الرأفة بالصغير الضَّرَع الذى لاذنب له، وبالكبير الفانى ذى الحق والحرمة والفضل، وخطره عند الله، مع حق الوالد على ولده، ليفرقوا بينه وبين ابنه [١] وحبيبه، على كبر سنه، ورقَّة عظمه، مع مكانه من الله فيمن أحبه طفلا صغيرا، وبين أبيه على ضعف قوته وصغر سنه، وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه، يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين، فقد احتملوا أمرا عظيما.

رواه ابن أبى حاتم من طريق سلمة بن الفضل، عنه.

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) ﴾.

لما تواطؤوا على أخذه وطَرْحه فى البئر، كما أشار عليهم أخوهم الكبير رُوبيل، جاؤوا أباهم يعقوب، عليه السلام، فقالوا: ﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾، وهذه توطئة وسلف ودعوى، وهم يريدون خلاف ذلك؛ لما له فى قلوبهم من الحسد لحب أبيه له، ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا﴾ أى: ابعثه معنا، ﴿غَدًا نَرْتَعْ وَنَلْعَبْ﴾ وقرأ بعضهم بالياء ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾.

قال ابن عباس: يسعى وينشط. وكذا قال قتادة، والضحاك والسُّدِّى، وغيرهم.

﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾: يقولون: ونحن نحفظه ونحوطه من أجلك.

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ (١٤) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن نبيه [٢] يعقوب أنه قال لبنيه فى جواب ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلى الرعى فى الصحراء: ﴿ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ﴾أى: يشق على مفارقتُهُ مدة ذهابكم به إلى أن يرجع، وذلك لفَرْط محبته له، لما يتوسم فيه من الخير العظيم، وشمائل النبوة والكمال فى الخَلْق والخُلُق، صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾: يقول: وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورَعْيتكم [٣] فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون، فأخذوا من فمه هذه الكلمة، وجعلوها عذرهم فيما فعلوه، وقالوا مجيبين عنها فى الساعة الراهنة: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾، يقولون: لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا، ونحن جماعة، إنا إذاً لهالكون عاجزون.

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٥) ﴾.

(١) فى ت: «أبيه». (٢) فى ت، أ: «عن نبى الله». (٣) فى ت: «ورعيكم».

يقول تعالى: فلما ذهبت [١]به إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له فى ذلك، ﴿ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ﴾، هذا فيه تعظيم لما فعلوه أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه فى أسفل ذلك الجب، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يُظهرونه له إكراما له، وبسطا وشرحاً لصدره، وإدخالا للسرور عليه، فيقال: إن يعقوب[٢]، عليه السلام، لما بعثه معهم ضمه إليه، وقَبَّله ودعا له.

قال [٣] السدى وغيره: إنه لم يكن بين إكرامهم له وبين إظهار الأذى له، إلا أن غابوا عن عين أبيه وتواروا عنه، ثم شرعوا يؤذونه بالقول، من شتم ونحوه، والفعل من ضَرْب ونحوه، ثم جاؤوا به إلى ذلك الجب الذى اتفقوا على رميه فيه فربطوه بحبل ودلوه فيه، فجعل إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشَتَمه، وإذا تشبث بحافات البئر ضربوا على يديه، ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة، فسقط فى الماء فغمره، فصعد إلى صخرة تكون فى وسطه، يقال لها: «الراغوفة»[٤]، فقام فوقها.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾: يقول تعالى ذاكراً لطفه ورحمته وعائدته [٥] وإنزاله اليسر فى حال العسر: إنه أوحى إلى يوسف فى ذلك الحال الضيق، تطييباً لقلبه، وتثبيتاً له: إنك لا تحزن مما [٦] أنت فيه، فإن لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً، وسينصرك الله عليهم، ويعليك ويرفع درجتك، وستخبرهم [٧] بما فعلوا معك من هذا الصنيع.

وقوله: ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ ـ قال [مجاهد و] [٨] قتادة: ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ بإيحاء الله إليه.

وقال ابن عباس: ستنبئهم بصنيعهم هذا فى حقك، وهم لا يعرفونك، ولا يستشعرون بك، كما قال ابن جرير:

حدثنى الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا صدقة بن عُبادة الأسدى، عن أبيه، سمعت ابن عباس يقول: لما دخل إخوة يوسف على يوسف فعرفهم وهم له منكرون، قال: جىء بالصّواع، فوضعه على يده، ثم نقره فطن، فقال: إنه ليخبرنى هذا الجام: أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له «يوسف»، يدنيه دونكم، وأنكم انطلقتم به فألقيتموه فى غيابة الجب ـ قال: ثم نقره فطنّ ـ فأتيتم أباكم فقلتم: إن الذئب أكله، وجئتم على قميصه بدم كَذب ـ قال: فقال بعضهم لبعض: إن هذا الجام ليخبره بخبركم. قال ابن عباس، رضى الله عنهما: لا نرى [٩] هذه الآية نزلت إلا فيهم: ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾[١٠].

﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ

(١) فى ت، أ: «ذهب». (٢) فى ت، أ: «يوسف». (٣) فى ت: «فذكر».
(٤) فى أ: «الراغوف». (٥) فى ت: «وعائد به». (٦) فى ت، أ: «فيما».
(٧) فى ت، أ: «وسيجزيهم». (٨) زيادة من ت. (٩) فى ت: «فلايرى»، وفى أ: «فلانرى».
(١٠) تفسير الطبرى (١٥/٥٧٦).

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الذى اعتمده إخوة يوسف بعد ما ألقوه فى غيابة الجب: أنهم [١] رجعوا إلى أبيهم فى ظلمة الليل يبكون، ويظهرون الأسف والجزع على يوسف ويتغممون لأبيهم، وقالوا معتذرين عما وقع فيما زعموا: ﴿**إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ**﴾ أى: نترامى، ﴿**وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا**﴾ أى: ثيابنا وأمتعتنا، ﴿ **فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ**﴾، وهو الذى كان [قد] [٢] جزع منه، وحذر عليه.

وقولهم: ﴿**وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ**﴾: تلطّفٌ عظيم فى تقرير ما يحاولونه، يقولون: ونحن نعلم أنك لا تصدقنا ـ والحالة هذه ـ لو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا فى ذلك، لأنك خشيت أن يأكله الذئب، فأكله الذئب، فأنت معذور فى تكذيبك لنا؛ لغرابة ما وقع، وعجيب ما اتفق لنا فى أمرنا هذا.

﴿**وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ**﴾ أى: مكذوب مفترى. وهذا من الأفعال التى يؤكدون بها ما تمالؤوا عليه من المكيدة، وهو أنهم عمدوا إلى سَخْلة ـ فيما ذكره مجاهد، والسدى، وغير واحد ـ فذبحوها، ولطخوا ثوب يوسف بدمها، موهمين أن هذا قميصه الذى أكله فيه الذئب، وقد أصابه من دمه، ولكنهم نسوا أن يخرقوه، فلهذا لم يَرُج هذا الصنيع على نبى الله يعقوب، بل قال لهم معرضاً عن كلامهم إلى ما وقع فى نفسه من تمالئهم عليه: ﴿ **بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ**﴾ أى: فسأصبر صبراً جميلا على هذا الأمر الذى قد اتفقتم عليه، حتى يفرجه الله بعونه ولطفه، ﴿**وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ** ﴾أى: على ما تذكرون من الكذب والمحال .

وقال الثورى، عن سِمَاك، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿ **وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ**﴾ قال: لو أكله السبع لخرق القميص. وكذا قال الشعبى، والحسن، وقتادة، وغير واحد.

وقال مجاهد: الصبر الجميل: الذى لا جزع فيه.

وروى هُشَيْم، عن عبد الرحمن بن يحيى، عن حبَّان بن أبى جَبَلة قال: سئل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ**﴾، فقال: «صبر لا شكوى [٣] فيه» وهذا مرسل[٤].

وقال عبد الرزاق: قال الثورى عن بعض أصحابه أنه قال: ثلاث من الصبر: ألا تحدث بوجعك، ولا بمصيبتك، ولا تزكى نفسك[٥].

وذكر البخارى هاهنا حديث عائشة، رضى الله عنها، فى الإفك حتى ذكر قولها: والله لا أجد لى ولكم مثلا إلا أبا يوسف[٦]، ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ** ﴾[٧].

---

(١) فى ت، أ: «ثم». (٢) زيادة من أ. (٣) فى ت: «لاقوى».

(٤) تفسير الطبرى (١٥/ ٥٨٥).

(٥) تفسير عبد الرزاق(١/ ٢٧٧).

(٦) فى ت: «إلا يعقوب» وفى أ: «إلا أبا يوسف إذ قال».

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٦٩٠).

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عما جرى ليوسف، عليه السلام، حين ألقاه إخوته، وتركوه فى ذلك الجب فريدا وحيداً، فمكث فى البئر ثلاثة أيام، فيما قاله أبو بكر بن عياش[1].

وقال محمد بن إسحاق: لما ألقاه إخوته جلسوا حول البئر يومهم ذلك، ينظرون ما يصنع وما يُصنع به، فساق الله له سَيَّارة، فنزلوا قريباً من تلك[2] البئر، وأرسلوا واردهم ـ وهو الذى يتطلب لهم الماء ـ فلما جاء تلك[3] البئر، وأدلى دلوه فيها، تشبث يوسف، عليه السلام، فيها، فأخرجه واستبشر به، وقال: ﴿ يَا بُشْرَايَ هَذَا غُلامٌ ﴾.

وقرأ بعض القراء: ﴿ يَا بُشْرَىٰ ﴾، فزعم السدى أنه اسم رجل ناداه ذلك الرجل الذى أدلى دلوه، معلماً له أنه أصاب غلاماً. وهذا القول من السدى غريب؛ لأنه لم يُسبَق إلى تفسير هذه القراءة بهذا إلا فى رواية عن ابن عباس، والله أعلم. وإنما معنى القراءة على هذا النحو يرجع إلى القراءة الأخرى، ويكون قد أضاف البشرى إلى نفسه، وحذف ياء الإضافة وهو يريدها، كما تقول العرب: «يا نفسُ اصبرى»، و«ياغلامِ أقبل»، بحذف حرف الإضافة، ويجوز الكسر حينئذ والرفع، وهذا منه، وتفسرها القراءة الأخرى ﴿ يَا بُشْرَايَ ﴾، والله أعلم.

وقوله: ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ﴾ أى: وأسره الواردون من بقية السيارة وقالوا: اشتريناه وتبضّعناه من أصحاب الماء مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره. قاله مجاهد، والسدى، وابن جرير. هذا قول.

وقال العوفى، عن ابن عباس قوله: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ يعنى: إخوة يوسف، أسروا شأنه، وكتموا أن يكون أخاهم وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته، واختار البيع. فذكره إخوته لوارد القوم، فنادى أصحابه: ﴿ يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلام ﴾ يباع، فباعه إخوته.

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُون ﴾ أى: يعلم ما يفعله إخوة يوسف ومشتروه، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه، ولكن له حكمة وقَدرَ سابق، فترك ذلك ليمضى ما قدره وقضاه، ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين.

وفى هذا تعريض لرسوله محمد ﷺ[4]، وإعلام له بأننى عالم بأذى قومك، وأنا قادر على الإنكار عليهم، ولكنى سأملى لهم، ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم، كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته.

---

(١) فى ت: «ابن عباس». (٢، ٣) فى ت: «ذلك».

(٤) فى ت: «صلوات الله عليه» وفى أ: «صلوات الله عليه وسلامه».

وقوله: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾، يقول تعالى: وباعه إخوته بثمن قليل، قاله مجاهد وعِكْرِمة.

والبخس: هو النقص، كما[1] قال تعالى: ﴿ فَلا يَخَافُ بَخْسًا وَلا رَهَقًا ﴾ [الجن: ١٣] أى: اعتاض عنه إخوته بثمن دُونٍ قليل، وكانوا مع ذلك فيه من الزاهدين، أى: ليس لهم رغبة فيه، بل لو سألوه[2] بلا شىء لأجابوا.

قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: إن الضمير فى قوله: ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾عائد على إخوة يوسف.

وقال قتادة: بل هو عائد على السيارة.

والأول أقوى؛ لأن قوله: ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾، إنما أراد إخوته، لا أولئك السيارة؛ لأن السيارة استبشروا به وأسروه بضاعة، ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه، فيرجح من هذا أن الضمير فى ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ إنما هو لإخوته.

وقيل: المراد بقوله: ﴿ بَخْسٍ ﴾ : الحرام. وقيل: الظلم. وهذا وإن كان كذلك، لكن ليس هو المراد هنا؛ لأن هذا معلوم يعرفه كل أحد أن ثمنه حرام على كل حال، وعلى كل أحد، لأنه نبى ابن نبى، ابن نبى، ابن خليل الرحمن، فهو الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم. وإنما المراد هنا بالبخس الناقص أو الزيوف أو كلاهما، أى: إنهم إخوته، وقد باعوه ومع هذا بأنقص الأثمان؛ ولهذا قال: ﴿ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾، فعن ابن مسعود باعوه بعشرين درهما، وكذا قال ابن عباس، ونَوْف البكَالى، والسُّدِّى، وقتادة، وعطية العَوْفى وزاد: اقتسموها درهمين درهمين.

وقال مجاهد: اثنان وعشرون درهماً.

وقال محمد بن إسحاق وعِكْرِمة: أربعون درهماً.

وقال الضحاك فى قوله: ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾: وذلك أنهم لم يعلموا نبوته ومنزلته عند الله عز وجل.

وقال مجاهد: لما باعوه جعلوا يتبعونهم ويقولون لهم: استوثقوا منه لا يأبق حتى وقفوه بمصر، فقال: من يبتاعنى وليبشرَ؟ فاشتراه الملك، وكان مسلماً.

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) ﴾.

---

(١) فى ت: «وكما».

(٢) فى أ: «لو سئلوا».

يخبر تعالى بألطافه بيوسف، عليه السلام، أنه قيض له الذى اشتراه من مصر، حتى اعتنى به وأكرمه، وأوصى أهله به، وتوسم فيه الخير والفلاح، فقال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾، وكان الذى اشتراه من مصر عزيزها، وهو الوزير بها. [قال] [١] العوفى، عن ابن عباس: وكان اسمه قطفير.

وقال محمد بن إسحاق: اسمه إطفير [٢] بن روحيب، وهو العزيز، وكان على خزائن مصر، وكان الملك يومئذ الريَّان بن الوليد، رجل من العماليق قال: واسم امرأته راعيل بنت رعائيل.

وقال غيره: اسمها زليخا.

وقال محمد بن إسحاق أيضاً، عن محمد بن السائب، عن أبى صالح، عن ابن عباس: كان الذى باعه بمصر مالك ابن دعر بن بُويب [٣] بن عنقا بن مديان بن إبراهيم، فالله أعلم.

وقال أبو إسحاق، عن أبى عبيدة، عن عبد الله بن مسعود أنه قال: أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر حين قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾، والمرأة التى قالت لأبيها [عن موسى][٤]: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب، رضى الله عنهما[٥].

يقول تعالى: وكما أنقذنا يوسف من إخوته، ﴿كَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ يعنى: بلاد مصر، ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ قال مجاهد والسدى: هو تعبير الرؤيا، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ أى[٦]: إذا أراد شيئا فلا يرد ولا يمانع ولا يخالف، بل هو الغالب لما سواه.

قال سعيد بن جبير فى قوله: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ أى: فعال لما يشاء.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: يقول: لايدرون حكمته فى خلقه، وتلطفه لما يريد[٧].

وقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ أى: يوسف عليه السلام ﴿أَشُدَّهُ﴾ أى: استكمل عقله[٨]، وتم خلقه. ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ يعنى: النبوة، إنه حباه بها بين أولئك الأقوام. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أى: إنه كان محسناً فى عمله، عاملا بطاعة ربه تعالى.

وقد اختُلف فى مقدار المدة التى بلغ فيها أشده، فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ثلاث وثلاثون. وعن ابن عباس: بضع وثلاثون. وقال الضحاك: عشرون. وقال الحسن: أربعون سنة. وقال عكرمة: خمس وعشرون سنة. وقال السدى: ثلاثون سنة. وقال سعيد بن جبير: ثمانى عشرة سنة. وقال الإمام مالك، وربيعة، وزيد بن أسلم، والشعبى: الأشد الحلم. وقيل غير ذلك،

(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى ت: «إظفير». (٣) فى ت: «نويب».
(٤) زيادة من أ.
(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ١٩).
(٦) فى أ: «فهو». (٧) فى ت، أ: «يريده». (٨) فى أ: «خلقه».

والله[١] أعلم.

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) ﴾.

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التى كان يوسف فى بيتها بمصر، وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه [﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾][٢]﴿عَن نَّفْسِهِ﴾ أى: حاولته على [٣] نفسه، ودعته إليها، وذلك أنها أحبته حباً شديداً لجماله وحسنه وبهائه، فحملها ذلك على أن تجملت له، وغلقت عليه الأبواب، ودعته إلى نفسها، ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾، فامتنع من ذلك أشد الامتناع، و﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي[أَحْسَنَ مَثْوَايَ][٤]﴾ وكانوا يطلقون «الرب» [٥] على السيد والكبير، أى: إن بعلك ربى أحسن[٦] مثواى أى: منزلى وأحسن إلى، فلا أقابله بالفاحشة فى أهله، ﴿ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ قال ذلك مجاهد، والسدى، ومحمد بن إسحاق، وغيرهم.

وقد اختلف القراء فى قراءة: ﴿ هَيْتَ لَكَ﴾، فقرأه كثيرون بفتح الهاء، وإسكان الياء، وفتح التاء. وقال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: معناه: أنها تدعوه إلى نفسها. وقال على بن أبى طلحة، والعوفى، عن ابن عباس: ﴿ هَيْتَ لَكَ﴾ تقول: هلم لك. وكذا قال زِرّ بن حبيش، وعِكْرِمة، والحسن وقتادة.

قال عمرو بن عُبَيد، عن الحسن: وهى كلمة بالسريانية، أى: عليك.

وقال السدى: ﴿ هَيْتَ لَكَ﴾ أى: هلم لك، وهى بالقبطية.

وقال مجاهد: هى لغة عربية [٧] تدعوه بها.

وقال البخارى: وقال عكرمة: ﴿ هَيْتَ لَكَ﴾: هَلُم لك بالحَوْرَانية.

هكذا ذكره معلقاً، وقد أسنده الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنى أحمد بن سُهَيْل الواسطى، حدثنا قُرَّة بن قيسى، حدثنا النضر بن عربى الجَزَرى[٨]، عن عكرمة مولى ابن عباس فى قوله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ قال: هلم لك. قال: هى بالحورانية.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: وكان الكسائى يحكى [٩] هذه القراءة ـ يعنى: ﴿ هَيْتَ لَكَ﴾ ـ ويقول: هى لغة، لأهل حَوْران، وقعت إلى أهل الحجاز، معناها: تعال. وقال أبو عبيد: سألت شيخاً عالماً من أهل حوران، فذكر أنها لغتهم يعرفها.

---

(١) فى ت: «فالله».
(٢) زيادة من ت، أ.
(٣) فى ت، أ: «عن».
(٤) زيادة من أ.
(٥) فى ت، أ: «ذلك».
(٦) فى ت، أ: «أكرم».
(٧) فى ت: «غريبة».
(٨) فى ت: «غربى الحورى».
(٩) فى ت، أ: «يحب».

واستشهد الإمام ابن جرير على هذه القراءة بقول [١] الشاعر لعلى بن أبى طالب، رضى الله عنه:

أَبْلغْ أَميرَ المؤمنين ... أَخـا العِرَاقِ إذَا أَتَينَـا

إنَّ العِـراقَ وَأَهْلَـهُ ... عُنُقٌ إليكَ فَهَيتَ هَيْتا

يقول: فتعال واقترب[٢].

وقرأ ذلك آخرون: «هئتَ لك» بكسر الهاء والهمزة، وضم التاء، بمعنى: تهيأت لك، من قول القائل: هئت للأمر أهِى هيْئَةً وممن روى عنه هذه القراءة ابن عباس، وأبو عبد الرحمن السلمى، وأبو وائل، وعكرمة، وقتادة، وكلهم يفسرها بمعنى: تهيأت لك.

قال ابن جرير: وكان أبو عمرو والكسائى ينكران هذه القراءة. وقرأ عبد الله بن إسحاق [٣]: «هيت»، بفتح الهاء وكسر التاء: وهى غريبة.

وقرأ آخرون، منهم عامة أهل المدينة «هَيْتُ» بفتح الهاء، وضم التاء، وأنشد [٤] قول الشاعر[٥]:

لَيسَ قَومِى بالأَبْعَدِين إِذَا مَا ... قَالَ دَاعٍ منَ العَشِيرَةِ: هَيتُ

قال عبد الرزاق: أنبأنا الثورى، عن الأعمش، عن أبى وائل قال: قال ابن مسعود: قد سمعت القَرَأَة فسمعتهم متقاربين، فاقرؤوا كما عُلِّمتم، وإياكم والتنطع والاختلاف، فإنما هو كقول أحدكم: «هلم» و«تعال» ثم قرأ عبد الله: ﴿ هَيْتَ لَكَ﴾، فقال: يا أبا عبد الرحمن، إن ناسا بقرؤونها: «هَيْتُ [لك] [٦]»؟ فقال عبد الله: إنى أقرأها كما عُلِّمت، أحبّ إلى[٧].

وقال ابن جرير: حدثنى ابن وَكِيع، حدثنا ابن عُيَيْنَة، عن منصور، عن أبى وائل قال: قال عبد الله: ﴿ هَيْتَ لَكَ﴾. فقال له مسروق: إن ناساً يقرؤونها: «هَيْتُ لَكَ»؟ فقال: دعونى، فإنى أقرأ كما أُقْرِئتُ، أحب إلى[٨].

وقال أيضاً: حدثنى المثنى، حدثنا آدم بن أبى إياس، حدثنا شعبة، عن شقيق، عن ابن مسعود قال: ﴿ هَيْتَ لَكَ﴾ بنصب الهاء والتاء ولا بهمز.

---

(١) فى ت: «قول».

(٢) تفسير الطبرى (١٦/ ٢٥).

(٣) فى ت: «عبد الله بن أبى إسحاق».

(٤) فى ت، أ: «وأنشدوا».

(٥) هو طرفة بن العبد، والبيت فى تفسير الطبرى (١٦/ ٣٠).

(٦) زيادة من أ.

(٧) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٧٩).

(٨) تفسير الطبرى (١٦/ ٣١).

وقال[1] آخرون: «هِيْتُ لَكَ»، بكسر الهاء، وإسكان الياء، وضم التاء.

قال أبو عُبَيدة معمر بن المثنى: «هيت» لا تثنى ولا تجمع ولاتؤنث، بل يخاطب الجميع بلفظ واحد، فيقال: هيتَ لكَ، وهيتَ لكِ، وهيتَ لكما، وهيتَ لكم، وهيتَ لهن[2].

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) ﴾.

اختلفت أقوال الناس وعباراتهم فى هذا المقام، وقد روى عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وطائفة من السلف فى ذلك ما ذكره ابن جرير وغيره، والله أعلم.

وقال بعضهم: المراد بهمه بها هَمّ خَطَرات حديث [3] النفس. حكاه البغوى عن بعض أهل التحقيق، ثم أورد [4] البغوى هاهنا حديث عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن همام، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: إذا هَمّ عبدى بحسنة فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها، وإن هم بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإنما تركها من جَرّائى، فإن عملها فاكتبوها بمثلها»[5].

وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين[6]، وله ألفاظ كثيرة، هذا منها.

وقيل: هم بضربها. وقيل: تمناها زوجة. وقيل: ﴿ هَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ أى: فلم يهم بها.

وفى هذا القول نظر من حيث العربية، ذكره ابن جرير وغيره[7].

وأما البرهان الذى رآه ففيه أقوال أيضاً: فعن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، ومحمد بن سيرين، والحسن، وقتادة، وأبى صالح، والضحاك، ومحمد بن إسحاق، وغيرهم: رأى صورة أبيه يعقوب، عليه السلام، عاضاً على أصبعه بفمه[8].

وقيل عنه فى رواية: فضرب فى صدر يوسف.

وقال العوفى، عن ابن عباس: رأى خيال [9] الملك، يعنى: سيده، وكذا قال محمد بن إسحاق،

(١) فى ت: «وقرأ».
(٢) فى أ: «لهم». (٣) فى ت، أ: «وحديث». (٤) فى أ: «وأورد».
(٥) معالم التنزيل (٤/ ٢٣١).
(٦) صحيح البخارى برقم (٧٥٠١) وصحيح مسلم برقم (٢٠٥).
(٧) تفسير الطبرى (١٦/ ٣٨، ٣٩) وما ذكره الحافظ هنا فى معنى الهمَّ غير مسلم به، والراجح هو ما اختاره أبو حيان فى تفسيره ونقله عنه العلامة الشنقيطى فى «أضواء البيان» (٣/ ٦٠) وقال: «والجواب الثانى ـ وهو الذى اختاره أبو حيان ـ أن يوسف لم يقع منه همٌّ أصلاً، بل هو منفى عنه لوجود البرهان...» وانظر بقية كلامه هناك.
(٨) فى ت، أ: «يعظه». (٩) فى ت، أ: «تمثال».

فيما حكاه عن بعضهم: إنما هو خيال إطفير سيده، حين دنا من الباب[١].

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا وكيع، عن أبى مودود[٢]، سمعت من محمد بن كعب القُرَظى قال: رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت، فإذا كتاب فى حائط البيت: ﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء: ٣٢].

وكذا رواه أبو مَعْشَر المدنى، عن محمد بن كعب.

وقال عبد الله بن وهب، أخبرنى نافع بن يزيد، عن أبى صخر قال: سمعت القرظى يقول فى: «البرهان» الذى رأى يوسف: ثلاث آيات من كتاب الله ﴿ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾ الآية[الانفطار: ١٠]، وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ الآية: [يونس: ٦١]، وقوله: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد: ٣٣] قال نافع: سمعت أبا هلال يقول مثل قول القرظى، وزاد آية رابعة ﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ﴾ [الإسراء: ٣٢].

وقال الأوزاعى: رأى آية من كتاب الله فى الجدار تنهاه [٣] عن ذلك.

قال ابن جرير: والصواب أن يقال: إنه رأى من آيات الله ما زجره عما كان هم به، وجائز أن يكون صورة يعقوب، وجائز أن يكون [صورة] [٤] الملك، وجائز أن يكون ما رآه مكتوبا من الزجر عن ذلك. ولا حجة قاطعة على تعيين شىء من ذلك، فالصواب أن يطلق كما قال الله تعالى.

قال: وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾أى: كما أريناه برهانا صرفه عما كان فيه، كذلك نقيه السوء والفحشاء فى جميع أموره.

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ أى: المجتبين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار، صلوات الله وسلامه عليه.

﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ فى الفتاوى (١٠/٢٩٧): «وما ينقل من أنه حل سراويله وجلس مجلس الرجل من المرأة وأنه رأى صورة يعقوب عاضاً على يده وأمثال ذلك، فهو مما لم يخبر الله به ولا رسوله، وما لم يكن كذلك، فإنما هو مأخوذ عن اليهود الذين هم من أعظم الناس كذباً على الأنبياء، وقدحاً فيهم، وكل من نقله من المسلمين فعنهم نقله، لم ينقل من ذلك أحد عن نبينا ﷺ حرفاً واحداً». وانظر: الإسرائيليات فى كتب التفسير لمحمد أبو شهبة (ص٢٢٠ ـ ٢٢٥).

(٢) فى ت: «مردود». (٣) فى ت، أ: «والجدار نهاه». (٤) زيادة من ت، أ.

عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) ﴾.

يخبر تعالى عن حالهما حين خرجا يستبقان إلى الباب، يوسف هارب، والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت، فلحقته فى أثناء ذلك، فأمسكت بقميصه [من ورائه][1] فَقَدَّته[2] قداً فظيعا، يقال: إنه سقط عنه، واستمر يوسف هاربا ذاهبا، وهى فى إثره، فألفيا سيدها ـ وهو زوجها ـ عند الباب، فعند ذلك خرجت مما هى فيه بمكرها وكيدها، وقالت لزوجها متنصلة وقاذفة يوسف بدائها: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ﴾ أى[3]: فاحشة، ﴿إِلاَّ أَن يُسْجَنَ ﴾ أى: يحبس، ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى: يضرب ضربا شديداً موجعا. فعند ذلك انتصر يوسف، عليه السلام، بالحق، وتبرأ مما رمته به من الخيانة، وقال بارا صادقا[4]: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾، وذكر أنها اتبعته تجذبه إليها حتى قدت قميصه، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ أى: من قدامه، ﴿فَصَدَقَتْ﴾ أى: فى قولها إنه أرادها على نفسها، لأنه يكون لما دعاها وأبت عليه دفعته فى صدره، فقدت قميصه، فيصح ما قالت: ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ، وذلك يكون كما وقع لما هرب منها، وتطلبته أمسكت بقميصه من ورائه لتردّه إليها، فقدت قميصه من ورائه.

وقد اختلفوا فى هذا الشاهد: هل هو صغير أو كبير، على قولين لعلماء السلف، فقال عبد الرزاق:

أخبرنا إسرائيل، عن سِمَاك، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ قال: ذو لحية.

وقال الثورى، عن جابر، عن ابن أبى مُلَيْكَة، عن ابن عباس: كان من خاصة الملك. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والسُّدِّى، ومحمد بن إسحاق: إنه كان رجلا.

وقال زيد بن أسلم، والسدى: كان ابن عمها.

وقال ابن عباس: كان من خاصة الملك.

وقد ذكر ابن إسحاق أن زليخا كانت بنت أخت الملك الريان بن الوليد.

وقال العوفى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ قال: كان صبيا فى المهد. وكذا رُوى عن أبى هريرة، وهلال بن يَسَاف، والحسن، وسعيد بن جبير والضحاك بن مُزاحم: أنه كان صبيا فى الدار. واختاره ابن جرير.

وقد ورد فيه حديث مرفوع فقال ابن جرير: حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا عفان، حدثنا حماد ـ هو ابن سلمة ـ أخبرنى عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبى

(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى ت، أ: «فقدت». (٣) فى ت، أ: «تعنى».
(٤) فى ت: «صادقاً باراً».

ﷺ قال: «تكلم أربعة وهم صغار»، فذكر فيهم شاهد يوسف[(١)].

ورواه غيره عن حماد بن سلمة، عن عطاء، عن سعيد، عن ابن عباس؛ أنه قال: تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جُرَيْج، وعيسى ابن مريم[(٢)].

وقال ليث ابن أبي سليم، عن مجاهد: كان من أمر الله، ولم يكن إنسيا. وهذا قول غريب.

وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ أي: فلما تحقق زوجها صدقَ يوسف وكذبها فيما قذفته ورمته به، ﴿قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ أي: إن هذا البهت واللَّطخ الذى لطخت عرض هذا الشاب به من جملة كيدكن، ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

ثم قال آمرا ليوسف، عليه السلام، بكتمان ما وقع: يا ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ أى: اضرب عن هذا [الأمر][(٣)] صفحا، فلا تذكره لأحد، ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾، يقول لامرأته وقد كان لين العريكة سهلا، أو أنه عذرها؛ لأنها رأت ما لا صبر لها عنه، فقال لها: ﴿اسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ أى: الذى[(٤)] وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب، ثم قَذْفه بما هو برىء منه، استغفرى من هذا الذى وقع منك، ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤)﴾.

يخبر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز شاع فى المدينة، وهى مصر، حتى تحدث الناس به، ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ مثل نساء الأمراء [و][(٥)] الكبراء، ينكرن على امرأة العزيز، وهو الوزير، ويعبن ذلك عليها: ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ أى: تحاول غلامها عن نفسه، وتدعوه إلى

(١) تفسير الطبرى (١٦/ ٥٥) ورواه أحمد فى المسند (١/ ٣١٠) والحاكم فى المستدرك (٢/ ٤٩٦) من طريق حماد بن سلمة به، وصححه الحاكم ووافقه الذهبى.

(٢) رواه العلاء بن عبد الجبار عن حماد موقوفاً أخرجه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٥٤).

(٣) زيادة من ت. (٤) فى ت، أ: «للذى». (٥) زيادة من ت، أ.

نفسها، ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أى: قد وصل حبه إلى شغاف قلبها. وهو غلافه.

قال الضحاك عن ابن عباس: الشَّغَف: الحب القاتل، والشَّغَف دون ذلك، والشغاف: حجاب القلب.

﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أى: فى صنيعها هذا من حبها فتاها، ومراودتها إياه عن نفسه.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾: قال بعضهم: بقولهن. وقال محمد بن إسحاق: بل[(١)] بَلَغَهُنَّ حُسْنُ يوسف، فأحببن أن يرينه، فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته، فعند ذلك ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ أى: دعتهن إلى منزلها لتضيفهن ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾.

قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والحسن، والسدى، وغيرهم: هو المجلس المعد، فيه مفارش ومخاد وطعام، فيه ما يقطع بالسكاكين من أترج[(٢)] ونحوه. ولهذا قال تعالى: ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾، وكان هذا مكيدة منها، ومقابلة لهن فى احتيالهن على رؤيته، ﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾، وذلك أنها كانت قد خبأته فى مكان آخر، ﴿فَلَمَّا﴾ خرج و ﴿رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ أى: أعظمن شأنه، وأجللن قدره؛ وجعلن يقطعن أيديهم دَهَشا برؤيته، وهن يظنن أنهن يقطعن الأترج[(٣)] بالسكاكين، والمراد: أنهن حززن أيديهن بها، قاله غير واحد.

وعن مجاهد، وقتادة: قطعن أيديهن حتى ألقينها، فالله[(٤)] أعلم.

وقد ذكر عن زيد بن أسلم أنها قالت لهن بعدما أكلن وطابت أنفسهن، ثم وضعت بين أيديهن أترجا[(٥)]، وآتت كل واحدة منهن سكينا: هل لكن فى النظر إلى يوسف؟ قلن: نعم. فبعثت إليه تأمره أن اخرج إليهن[(٦)]، فلما رأينه جعلن يقطعن أيديهن، ثم أمرته أن يرجع فرجع ليرينه مقبلا ومدبرا، وهن يحززن فى أيديهن، فلما أحسسن بالألم جعلن يولولن، فقالت: أنتن من نظرة واحدة فعلتن هكذا، فكيف ألام أنا؟ فقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم، ثم قلن لها: وما نرى عليك من لوم بعد الذى رأينا، لأنهن لم يرين فى البشر شبْهه ولا قريبا منه، فإنه، صلوات الله عليه وسلم[(٧)]، كان قد أعطى شطر الحسن، كما ثبت ذلك فى الحديث الصحيح فى حديث الإسراء: أن رسول الله ﷺ مر بيوسف، عليه السلام، فى السماء الثالثة، قال: «فإذا هو قد أعطى شطر الحسن»[(٨)].

وقال حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطى يوسف وأمه شطر

---

(١) فى ت، أ: «قيل». (٢) فى ت، أ: «أترنج». (٣) فى ت: «الأترنج».
(٤) فى أ: «والله». (٥) فى أ: «أترنجا». (٦) فى أ: «عليهن».
(٧) فى ت، أ: «وسلامه».
(٨) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٦٢) من حديث أنس رضى الله عنه.

الحسن»[١]. وقال سفيان الثورى، عن أبى إسحاق، عن أبى الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: أعطى يوسف وأمه ثلث الحسن.

وقال أبو إسحاق أيضا، عن أبى الأَحْوَص، عن عبد الله قال: كان وجه يوسف مثل البرق، وكانت المرأة إذا أتته لحاجة غَطّى وجهه مخافة أن تفتتن به.

ورواه الحسن البصرى مرسلا، عن النبى ﷺ أنه قال: «أعطى يوسف وأمه ثلث حسن أهل الدنيا، وأعطى الناس الثلثين ـ أو قال: أعطى يوسف وأمه الثلثين والناس الثلث»[٢].

وقال سفيان، عن منصور، عن مجاهد عن ربيعة الجُرَشى قال: قسم الحسن نصفين، فأعطى يوسف وأمه سارة نصف الحسن. والنصف الآخر بين سائر الخلق.

وقال الإمام أبو القاسم السهيلى: معناه: أن يوسف كان على النصف من حسن آدم، عليه السلام، فإن الله خلق آدم بيده على أكمل صورة وأحسنها، ولم يكن فى ذريته من يوازيه فى جماله، وكان يوسف قد أعطى شطر حسنه.

فلهذا قال هؤلاء النسوة عند رؤيته: ﴿**حَاشَ لِلَّه**﴾ قال مجاهد وغير واحد: معاذ الله، ﴿**مَا هَذَا بَشَرًا**﴾ وقرأ بعضهم: «ما هذا بِشرًى» أى: بمشترى.

﴿**إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ . قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ**﴾: تقول هذا معتذرة إليهن بأن هذا حقيق بأن يحبّ لجماله وكماله.

﴿**وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ**﴾ أى: فامتنع. قال بعضهم: لما رأين جماله الظاهر، أخبرتهن بصفاته الحسنة التى تخفى عنهن، وهى[٣] العفة مع هذا الجمال، ثم قالت تتوعد[٤]: ﴿**وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ**﴾، فعند ذلك استعاذ يوسف، عليه السلام، من شرهن وكيدهن، وقال: ﴿**رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ**﴾ أى: من الفاحشة، ﴿**وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ**﴾ أى: إن وكلتنى إلى نفسى، فليس لى من نفسى قدرة، ولا أملك لها ضرا ولا نفعا إلا بحولك وقوتك، أنت المستعان وعليك التكلان، فلا تكلنى إلى نفسى.

﴿**أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ . فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾، وذلك أن يوسف، عليه السلام، عَصَمه الله عصمة عظيمة، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع، واختار السجن

---

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٨٠) والحاكم فى المستدرك (٢/ ٥٧٠) وابن عدى فى الكامل (٥/ ٣٨٥) من طريق عفان عن حماد بن سلمة به، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه». قال ابن عدى: «وهذا الحديث ما أعلم رفعه أحد غير عفان، وغيره أوقفه عن حماد بن سلمة، وعفان أشهر وأوثق وأصدق من أن يقال فيه شىء مما ينسب إلى الضعف».

(٢) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٨٠).

(٣) فى ت: «عليهن وهو».

(٤) فى ت، أ: «تتوعده».

على ذلك، وهذا فى غاية مقامات الكمال: أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته، وهى امرأة عزيز مصر، وهى مع هذا فى[١] غاية الجمال والمال ،والرياسة ويمتنع من ذلك، ويختار السجن على ذلك، خوفا من الله ورجاء ثوابه.

ولهذا ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ فى عبادة الله[٢]، ورجل قلبه معلق بالمسجد[٣]، إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وافترقا[٤] عليه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات جمال ومنصب، فقال: إنى أخاف الله»[٥].

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥) ﴾.

يقول تعالى: ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى حين،أى: إلى مدة، وذلك بعدما عرفوا براءته، وظهرت الآيات ـ وهى الأدلة ـ على صدقه فى عفته ونزاهته. فكأنهم ـ والله أعلم ـ إنما سجنوه لما شاع الحديث إيهاما[٦] أن هذا راودها عن نفسها، وأنهم سجنوه على ذلك. ولهذا لما طلبه الملك الكبير فى آخر المدة، امتنع من الخروج حتى تتبين براءته مما نسب إليه من الخيانة، فلما تقرر ذلك خرج وهو نَقِىّ العرض، صلوات الله عليه وسلامه.

وذكر السُّدِّى: أنهم إنما سجنوه لئلا يشيع ما كان منها[٧] فى حقه، ويبرأ عرضه فيفضحها.

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) ﴾.

قال قتادة: كان أحدهما ساقى الملك، والآخر خبازه.

قال محمد بن إسحاق: كان اسم الذى على الشراب «نبوا»، والآخر «مجلث».

قال السدى: وكان سبب حبس الملك إياهما أنه توهم أنهما تمالآ على سمه فى طعامه وشرابه.

وكان[٨] يوسف، عليه السلام، قد اشتهر فى السجن بالجود[٩] والأمانة وصدق الحديث، وحسن السّمت وكثرة العبادة، صلوات الله عليه وسلامه، ومعرفة التعبير والإحسان إلى أهل السجن وعيادة

---

(١) فى ت: «إلى».
(٢) فى ت: «فى طاعة الله عز وجل».
(٣) فى ت، أ: «فى المسجد».
(٤) فى ت، أ: «وتفرقا».
(٥) صحيح البخارى برقم (١٤٢٣) وصحيح مسلم برقم (١٠٣١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.
(٦) فى ت: «اتهاماً».
(٧) فى أ: «منهما»
(٨) فى ت: «فكان».
(٩) فى أ: «بالجودة».

مرضاهم والقيام بحقوقهم. ولما دخل هذان[١] الفتيان إلى السجن، تآلفا به وأحباه حبا شديدا، وقالا له: والله لقد أحببناك حبا زائدا. قال[٢]: بارك الله فيكما، إنه ما أحبنى أحد إلا دخل علىّ من محبته ضرر، أحبتنى عمتى فدخل على الضرر بسببها، وأحبنى أبى فأوذيت بسببه، وأحبتنى امرأة العزيز فكذلك، فقالا: والله ما نستطيع إلا ذلك، ثم إنهما رأيا مناما، فرأى الساقى أنه يعصر خمرا ـ يعنى عنبا ـ وكذلك هى فى قراءة عبد الله بن مسعود: «إنى أرانى أعصر عنبا». ورواه ابن أبى حاتم، عن أحمد بن سِنَان، عن يزيد بن هارون، عن شَرِيك، عن الأعمش، عن زيد بن وهب، عن ابن مسعود: أنه قرأها: «أعصر عنبا».

وقال الضحاك فى قوله: ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ يعنى: عنبا. قال: وأهل عمان يسمُّون العنب خمرا.

وقال عكرمة: رأيت[٣] فيما يرى النائم أنى غرست حَبَلَة من عنب، فنبتت. فخرج فيه عناقيد، فعصرتهن ثم سقيتهن الملك. قال[٤]: تمكث فى السجن ثلاثة أيام، ثم تخرج فتسقيه خمراً.

وقال الآخر ـ وهو الخباز ـ: ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

والمشهور عند الأكثرين ما ذكرناه، وأنهما رأيا مناما وطلبا تعبيره.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وَكِيع وابن حميد قالا: حدثنا جرير، عن عمارة بن القعقاع، عن إبراهيم، عن عبد الله قال: ما رأى صاحبا يوسف شيئا، إنما كانا تحالما ليجربا عليه.

﴿ قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨) ﴾.

يخبرهما يوسف، عليه السلام، أنهما[٥] مهما رأيا فى نومهما من حلم، فإنه عارف[٦] بتفسيره ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه؛ ولهذا قال: ﴿ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ﴾.

---

(١) فى ت: «هذا». (٢) فى ت، أ: «فقال».
(٣) فى ت: «وقال عكرمة: قال له رأيت».
(٤) فى ت، أ: «فقال». (٥) فى ت: «أنه».
(٦) فى أ: «عالم».

قال مجاهد: يقول: ﴿لا يأتيكما طعام ترزقانه﴾ [فى نومكما](١)، ﴿إلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾، وكذا قال السدى.

وقال ابن أبى حاتم، رحمه الله: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا محمد ابن يزيد ـ شيخ له ـ حدثنا رشدين، عن الحسن بن ثوبان، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس قال: ما أدرى لعل يوسف، عليه السلام، كان يعتاف وهو كذلك، لأنى أجد فى كتاب الله حين قال للرجلين: ﴿لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ قال: إذا جاء الطعام حلوا أو مرا اعتاف عند ذلك. ثم قال ابن عباس: إنما علم فعلم. وهذا أثر(٢) غريب.

ثم قال: وهذا إنما هو من تعليم الله إياى؛ لأنى اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر، فلا يرجون ثوابا ولا عقابا فى المعاد. ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ يقول: هجرت طريق الكفر والشرك، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى، واتبع المرسلين، وأعرض عن طريق الظالمين(٣) فإنه يهدى قلبه ويعلّمه ما لم يكن يعلمه، ويجعله إماما يقتدى(٤) به فى الخير، وداعيا إلى سبيل الرشاد.

﴿مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾: هذا التوحيد ـ وهو الإقرار بأنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له، ﴿مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ أى: أوحاه إلينا، وأمرنا به ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾، إذ جعلنا دعاة لهم إلى ذلك ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ(٥)﴾ أى: لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم، بل ﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سِنَان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا حجاج، عن عطاء، عن ابن عباس؛ أنه كان يجعل الجد أبا، ويقول: والله فمن(٦) شاء لاعناه عند الحجْر، ما ذكر الله جدا ولا جدة، قال الله تعالى ـ يعنى إخبارا عن يوسف: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠) ﴾.

ثم إن يوسف، عليه السلام، أقبل على الفتيين بالمخاطبة، والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له وَخَلْع ما سواه من الأوثان التى يعبدها قومهما، فقال: ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ

---

(١) زيادة من ت، أ.
(٢) فى ت: «أمر».
(٣) فى ت، أ: «الضالين».
(٤) فى ت: «يهتدى».
(٥) فى أ: «لا يعلمون»
(٦) فى ت، أ: «لمن».

﴿الْقَهَّارُ﴾ [أى][(١)]: الذى وَلِى[(٢)] كُلَّ شىء بِعزّ جلاله، وعظمة[(٣)] سلطانه.

ثم بين لهما أنَّ التى يعبدونها ويسمّونها آلهة، إنما هو جَهْل[(٤)] منهم، وتسمية من تلقاء أنفسهم، تلقاها خَلَفهم عن سَلَفهم، وليس لذلك مستند من عند الله؛ ولهذا قال: **﴿مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾** أى: حجة ولا برهان.

ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشيئة والملك كلّه لله، وقد أمر عباده قاطبة ألا يعبدوا إلا إياه، ثم قال: ذلك الدين القيم أى: هذا الذى أدعوكم إليه من تَوحيد الله، وإخلاص العمل له، هو الدين المستقيم، الذى أمر الله به وأنزل به الحجة والبرهان الذى يحبه ويرضاه، **﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾** أى: فلهذا كان أكثرهم مشركين. **﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾** [يوسف: ١٠٣].

وقد قال ابن جرير: إنما عَدَلَ بهم يوسف عن تعبير الرؤيا إلى هذا، لأنه عَرَف أنها ضارّة لأحدهما، فأحب أن يشغلهما بغير ذلك، لئلا يعاودوه فيها، فعاودوه، فأعاد عليهم الموعظة[(٥)].

وفى هذا الذى قاله نظر؛ لأنه قد وَعَدَهما أولا بتعبيرها[(٦)]، ولكن جعل سؤالهما له على وجه التعظيم والاحترام وُصْلَةً وسببا إلى دعائهما إلى التوحيد والإسلام، لما رأى فى سجيتهما من قبول الخير والإقبال عليه، والإنصات إليه، ولهذا لما فرغ من دعوتهما، شرع فى تعبير رؤياهما، من غير تكرار سؤال فقال:

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١)﴾.

يقول لهما: **﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾**، وهو الذى رأى أنه يعصر خمرا، ولكنه لم يعيِّنه لئلا يحزن ذاك، ولهذا أبهمه فى قوله: **﴿وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ﴾**، وهو فى نفس الأمر الذى رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً.

ثم أعلمهما أن هذا قد فُرِغ منه، وهو واقع لا محالة؛ لأن الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعَبر، فإذا عُبِّرَت وَقَعت.

وقال الثورى، عن عمارة بن القعقاع عن إبراهيم، عن عبد الله قال: لما قالا ما قالا، وأخبرهما، قالا: ما رأينا شيئا. فقال: **﴿قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾**.

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى ت، أ: «دل». (٣) فى ت، أ: «وعظيم».
(٤) فى ت، أ: «جعل».
(٥) تفسير الطبرى (١٦/ ١٠٢).
(٦) فى أ: «بتعبيرهما».

ورواه محمد بن فضيل[١]، عن عمارة، عن إبراهيم، عن علقمة، عن ابن مسعود به، وكذا فسره مجاهد، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم. وحاصله أن من تحلَّم بباطل وفَسّره، فإنه يُلزَم بتأويله، والله أعلم، وقد ورد فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد، عن معاوية بن حَيْدَة، عن النبى ﷺ: «الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعَبر[٢] فإذا عُبِّرت وقعت»[٣].

وفى مسند أبى يَعْلَى، من طريق يزيد الرَّقاشى، عن أنس مرفوعا: «الرؤيا لأول عابر»[٤].

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢)﴾.

لما ظن[٥] يوسف، عليه السلام، نجاة أحدهما ـ وهو الساقى ـ قال له يوسف خفية عن الآخر والله أعلم، لئلا يشعره أنه المصلوب قال له: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، يقول: اذكر قصتى عند ربك[٦] ـ وهو الملك ـ فنسى ذلك الموصَى أن يُذَكِّر مولاه بذلك، وكان من جملة مكايد الشيطان، لئلا يطلع نبى الله من السجن.

هذا هو الصواب أن الضمير فى قوله: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ عائد على الناجى، كما قال مجاهد، ومحمد بن إسحاق وغير واحد. ويقال: إن الضمير عائد على يوسف، عليه السلام، رواه ابن جرير، عن ابن عباس، ومجاهد أيضا، وعِكْرِمة، وغيرهم. وأسند ابن جرير ها هنا حديثا فقال:

حدثنا ابن وَكِيع، حدثنا عَمْرو بن محمد، عن إبراهيم بن يزيد[٧]، عن عمرو بن دينار، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس قال: قال النبى ﷺ: «لو لم يقل ـ يعنى: يوسف ـ الكلمة التى قال: ما لبث فى السجن طول ما لبث. حيث يبتغى الفرج من عند غير الله»[٨].

وهذا الحديث ضعيف جدا؛ لأن سفيان بن وَكِيع ضعيف، وإبراهيم بن يزيد ـ هو الخُوزى ـ أضعف منه أيضا. وقد رُوِى عن الحسن وقتادة مرسلا عن كل منهما، وهذه المرسَلات ها هنا لا تقبل لو قبل المرسل من حيث هو فى غير هذا الموطن، والله أعلم.

وأما «البضع»، فقال مجاهد وقتادة: هو ما بين الثلاث إلى التسع. وقال وهب بن مُنَبِّه: مكث

---

(١) فى ت: «فضل». (٢) فى ت: «يعبر».

(٣) سبق تخريجه عند تفسير الآية: «٥» من هذه السورة.

(٤) ورواه ابن ماجة فى السنن برقم (٣٩١٥) من طريق عبد الله بن نمير، عن الأعمش، عن يزيد الرقاشى، عن أنس موقوفاً، وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/٢١٦): «هذا إسناد فيه يزيد وهو ضعيف».

(٥) فى ت، أ: «علم». (٦) فى ت، أ: «الملك». (٧) فى ت: «عن يزيد».

(٨) تفسير الطبرى (١٦/١١٢).

أيوب فى البلاء سبعاً ويوسف فى السجن سبعاً، وعذاب[١] بختنصر سبعاً.

وقال الضحاك، عن ابن عباس، رضى الله عنهما: فلبث فى السجن بضع سنين قال: ثنتا[٢] عشرة سنة. وقال الضحاك: أربع عشرة سنة.

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (٤٤) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩) ﴾.

هذه الرؤيا من مَلك مصر مما قَدّر الله تعالى أنها كانت سببا لخروج يوسفَ، عليه السلام، من السجن مُعززاً مكرما، وذلك أن المَلك رأى هذه الرؤيا، فهالته وتَعجَّب من أمرها، وما يكون تفسيرها، فجمع الكهنة والحُزَاة وكبراء دولته وأمراءه وقَصَّ عليهم ما رأى، وسألهم عن تأويلها، فلم يعرفوا ذلك، واعتذروا إليه بأن هذه ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ﴾ أى: أخلاط اقتضت رؤياك هذه[٣]، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾ أى: ولو كانت رؤيا صحيحة من أخلاط، لما كان لنا معرفة بتأويلها، وهو تعبيرها. فعند ذلك تَذكَّرَ ذلك الذى نجا من ذينك الفتيين اللذين[٤] كانا فى السجن مع يوسف، وكان الشيطان قد أنساه ما وصّاه به يوسف، من ذكر أمره للملك، فعند ذلك تذكر ﴿ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ أى: مدة ـ وقرأ بعضهم: «بعد أَمَةٍ» أى: بعد نسيان، فقال للملك والذين جمعهم لذلك: ﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ ﴾ أى: بتأويل هذا المنام، ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾ أى: فابعثون إلى يوسف الصديق إلى السجن. ومعنى الكلام: فبعثوا[٥]. فجاء. فقال: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا ﴾، وذكر المنام الذى رآه الملك، فعند ذلك ذكر له يوسف، عليه السلام، تعبيرها من غير تعنيف لذلك الفتى فى نسيانه ما وصاه به، ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك، بل قال: ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ﴾ أى[٦]: يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات، ففسر البقر بالسنين؛ لأنها تثير الأرض التى تُستغل منها الثمرات والزروع، وهن السنبلات

---

(١) فى ت، أ: «وعذب».
(٢) فى ت، أ: «ثنتى».
(٣) فى ت، أ: «رؤيا فى هذا».
(٤) فى ت: «الذى».
(٥) فى ت: «فبعثوه».
(٦) فى ت: «إذ».

الخضر، ثم أرشدهم إلى ما يعتمدونه فى تلك السنين فقال: **﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾** أى: مهما استغللتم[(١)] فى هذه السبع السنين الخصب فاخزنوه فى سنبله، ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه، إلا المقدار الذى تأكلونه، وليكن قليلا قليلا لا تسرفوا فيه، لتنتفعوا فى السبع الشداد، وهن السبع السنين المُحْل التى تعقب هذه السبع متواليات، وهن البقرات العجاف اللاتى يأكلن السِّمان؛ لأن سنى[(٢)] الجَدْب يؤكل فيها ما جَمَعوه فى سنى[(٣)] الخصب، وهن السنبلات اليابسات.

وأخبرهم أنهن لا ينبتن شيئا، وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شيء؛ ولهذا قال: **﴿ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾**.

ثم بشرهم بعد الجَدْب العام المتوالى بأنه يعقبهم بعد ذلك **﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾** أى: يأتيهم الغيث، وهو المطرُ، وتُغل البلاد، ويَعصرُ الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم، من زيت ونحوه، وسكر ونحوه حتى قال بعضهم: يدخل[(٤)] فيه حلب اللبن أيضاً.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس **﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾**: يحلبون.

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣) ﴾.

يقول تعالى إخباراً عن الملك لما رجعوا إليه بتعبير رؤياه، التى كان رآها، بما أعجبه وأينقه، فعرف فضل يوسف، عليه السلام، وعلمه [وحسن اطلاعه على رؤياه][(٥)]، وحسن أخلاقه على من ببلده من رعاياه، فقال **﴿ ائْتُونِي بِهِ ﴾** أى: أخرجوه من السجن وأحضروه. فلما جاءه الرسول بذلك امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته، ونزاهة عرضه، مما نسب إليه من جهة امرأة العزيز، وأن هذا السجن لم يكن على أمر يقتضيه، بل كان ظلما وعدوانا، قال: **﴿ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾**.

وقد وردت السنة بمدحه على ذلك، والتنبيه على فضله وشرفه، وعُلُوّ قدره وصبره، صلوات الله

---

(١) فى ت، أ: «استغليتم».
(٢، ٣) فى ت، أ: «سنين».
(٤) فى ت، أ: «ويدخل».
(٥) زيادة من ت، أ.

وسلامه عليه، ففى المسند والصحيحين من حديث الزهرى، عن سعيد وأبى سلمة، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، ويرحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد، ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى»(١).

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا محمد بن عمرو، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «لو كنت أنا لأسرعت الإجابة، وما ابتغيت العذر»(٢).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن عُيَيْنَة، عن عمرو بن دينار، عن عِكْرِمة قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له، حين سُئِل عن البقرات العجاف والسِّمان، ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى أشترط أن يخرجونى. ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له، حين أتاه الرسول، ولو كنت مكانه لبادرتهم البابَ، ولكنه أراد أن يكون له العذر». هذا حديث مرسل(٣).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾: إخبار عن الملك حين جمع النِّسوة اللاتى قطعن أيديهن عند امرأة العزيز، فقال مخاطبا لهن كلهن ـ وهو يريد امرأة وزيره، وهو العزيز ـ: ﴿مَا خَطْبُكُن﴾ أى: شأنكن وخبركن ﴿إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾ يعنى: يوم الضيافة؟ ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ أى: قالت النسوة جوابا للملك: حاش لله أن يكون يوسف مُتَّهَمًا، والله ما علمنا عليه من سوء. فعند ذلك ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾.

قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: تقول الآن: تبين الحق وظهر وبرز.

﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أى: فى قوله: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾. ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ . تقول: إنما اعترفت بهذا على نفسى، ذلك ليعلم زوجى أن لم أخنه فى نفس الأمر، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة، فامتنع؛ فلهذا اعترفتُ ليعلم أنى بريئة، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ . وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ ، تقول المرأة: ولست أبرئ نفسى، فإن النفس تتحدث(٤) وتتمنى؛ ولهذا راودته لأنها أمارة بالسوء، ﴿إِلَّا مَا(٥) رَحِمَ رَبِّي﴾ أى: إلا من عصمه الله تعالى، ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ(٦) رَّحِيمٌ﴾.

---

(١) المسند (٢/٣٢٦) وصحيح البخارى برقم (٤٦٩٤) وصحيح مسلم برقم (١٥١).

(٢) المسند (٢/٣٤٧) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٤٠): «وفيه محمد بن عمرو، وهو حسن الحديث».

(٣) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٨١، ٢٨٢) وقد وصله إسحاق بن راهويه فى مسنده ومن طريقه الطبرانى فى المعجم الكبير (١١/ ٢٤٩) من طريق إبراهيم بن يزيد الخوزى عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس مرفوعاً بنحوه. وفيه إبراهيم بن يزيد وهو متروك.

(٤) فى ت، أ: «تحدث». (٥) فى ت، أ: «من» وهو خطأ. (٦) فى ت: «الغفور» وهو خطأ.

وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعانى الكلام. وقد حكاه الماوردى فى تفسيره، وانتدب لنصره الإمام العلامة أبو العباس ابن تَيميَّة، رحمه الله، فأفرده بتصنيف على حدة[(١)].

وقد قيل: إن ذلك من كلام يوسف، عليه السلام، من قوله: ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ ﴾ فى زوجته ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ الآيتين أى: إنما رَدَدْتُ الرسول ليعلم الملك براءتي وليعلم العزيز ﴿ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ فى زوجته ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾، ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ . وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [الآية][(٢)]، وهذا القول هو الذى لم يحك ابن جرير ولا ابن أبى حاتم سواه.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا وَكِيع، عن إسرائيل، عن سِمَاك، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس قال: لما جمع الملك النسوة فسألهن: هل راودتن يوسف عن نفسه؟ ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ قال يوسف: ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ [وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ][(٣)]﴾، قال: فقال له جبريل، عليه السلام: ولا يوم هممت بما هممت به. فقال: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾[(٤)].

وهكذا قال مجاهد، وسعيد بن جُبَيْر، وعكرمة، وابن أبى الهُذَيل، والضحاك، والحسن، وقتادة، والسُّدِّى. والقول الأول أقوى وأظهر؛ لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك، ولم يكن يوسف، عليه السلام، عندهم، بل بعد ذلك أحضره الملك.

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) ﴾.

يقول تعالى إخباراً عن الملك حين تحقق براءة يوسف، عليه السلام، ونزاهة عرْضه مما نسب إليه، قال: ﴿ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ أى: أجعله من خاصّتى وأهل مشورتى﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ أى: خاطبه الملك وعرفه، ورأى فضله وبراعته، وعلم ما هو عليه من خَلْق وخُلُق وكمال قال له الملك: ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أى: إنك عندنا قد بقيت ذا مكانة وأمانة، فقال يوسف، عليه السلام: ﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ ، مدح نفسه، ويجوز للرجل ذلك إذا جُهِل أمره، للحاجة. وذكر أنه ﴿ حَفِيظٌ ﴾ أى: خازن أمين، ﴿عَلِيمٌ﴾ ذو علم وبصَر بما يتولاه[(٥)].

قال شيبة بن نعامة: حفيظ لما استودعتنى، عليم بِسِنِىِّ الجَدْب. رواه ابن أبى حاتم.

وسأل العمل لعلمه بقدرته عليه، ولما فى ذلك من المصالح للناس[(٦)]، وإنما سأل أن يُجْعَل على

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٠/ ٢٩٨).
(٢، ٣) زيادة من ت، أ.
(٤) تفسير الطبرى (١٦/ ١٤٣).
(٥) فى ت: «نتولاه».
(٦) فى ت: «مصالح الناس».

خزائن[1] الأرض، وهى الأهرام التى[2] يجمع فيها الغلات، لما يستقبلونه من السنين التى أخبرهم بشأنها، ليتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد، فأجيب إلى ذلك رغبةً فيه، وتكرِمَةً له؛ ولهذا قال تعالى:

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧) ﴾.

يقول تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ ﴾ أى: أرض مصر، ﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴾.

قال السُّدِّى، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يتصرف فيها كيف يشاء.

وقال ابن جرير: يتخذ منها منزلا حيث يشاء[3]، بعد الضيق والحبس والإسار. ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾أى: وما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته، وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز؛ فلهذا أعقبه الله عز وجل السلامة والنصر والتأييد، ﴿وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾، يخبر تعالى أن ما ادخره[4] الله لنبيه يوسف، عليه السلام، فى الدار الآخرة أعظم وأكثر[5] وأجل، مما خوله من التصرف والنفوذ فى الدنيا كما قال تعالى فى حق سليمان، عليه السلام: ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ . وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ [ص: ٣٩، ٤٠].

والغرض أن يوسف، عليه السلام، ولاَّه مَلك مصر الريانُ بن الوليد الوزارة فى بلاد مصر، مكان الذى اشتراه من مصر زوج التى راودته، وأسلم الملك على يدى يوسف، عليه السلام. قاله مجاهد.

وقال محمد بن إسحاق لما قال يوسف للملك: ﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾، قال الملك: قد فعلت. فولاه فيما ذكروا عمل إطفير[6]، وعزل إطفير[7] عما كان عليه، يقول الله عز وجل: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فذكر لى ـ والله أعلم ـ أن إطفير[8] هَلك فى تلك الليالى، وأن الملك الريان بن الوليد زوَّج يوسف امرأة إطفير[9]: راعيل، وأنها حين دخلت عليه قال: أليس هذا خيراً مما كنت تريدين؟ قال: فيزعمون أنها قالت: أيها الصديق، لا تلمنى، فإنى كنت امرأة كما ترى حسناء جميلة، ناعمة فى ملك ودنيا، وكان صاحبى لا يأتى النساء، وكنت كما جعلك الله فى حسنك وهيئتك[10] على ما رأيت، فيزعمون أنه وجدها عذراء، فأصابها فولدت له رجلين أفرائيم بن يوسف، وميشا بن

(١) فى ت: «خزان».
(٢) فى ت: «الذى».
(٣) فى ت: «شاء».
(٤) فى ت: «ذخره».
(٥) فى ت: «وأكبر».
(٦ـ ٩) فى ت: «إظفير».
(١٠) فى ت: «وهيبتك».

يوسف[١]. وولد لأفرائيم نون، والد يوشع بن نون، ورحمة امرأة أيوب، عليه السلام.

وقال الفضيل بن عياض: وقفت امرأة العزيز على ظهر الطريق، حتى مرّ يوسف، فقالت: الحمد لله الذى جعل العبيد ملوكا بطاعته، والملوك عبيدا بمعصيته.

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٥٩) فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢) ﴾.

ذكر السُّدِّى، ومحمد بن إسحاق، وغيرهما من المفسرين: أن السبب الذى أقدم إخوة يوسف بلاد مصر، أن يوسف، عليه السلام، لما باشر الوزارة بمصر، ومضت السبع السنين المخصبة، ثم تلتها سنينُ الجدب، وعمّ القحط بلاد مصر بكمالها، ووصل إلى بلاد كنعان، وهى التى فيها يعقوب، عليه السلام، وأولاده. وحينئذ احتاط يوسف، عليه السلام، للناس فى غلاتهم، وجمعها أحسن[٢] جمع، فحصل من ذلك مبلغ عظيم، وأهْراءَ متعددة هائلة، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم والمعاملات، يمتارون لأنفسهم وعيالهم، فكان لا يعطى الرجل أكثر من حمل بعير فى السنة. وكان، عليه السلام، لا يشبع نفسه ولا يأكل هو والملك وجنودهما إلا أكلة واحدة فى وسط النهار، حتى يتكفى الناس بما فى أيديهم مدة السبع سنين. وكان رحمة من الله على أهل مصر.

وما ذكره بعض المفسرين من أنه باعهم فى السنة الأولى بالأموال، وفى الثانية بالمتاع، وفى الثالثة بكذا، وفى الرابعة بكذا، حتى باعهم بأنفسهم وأولادهم بعد ما تَمَلّك عليهم جميع ما يملكون، ثم أعتقهم وردّ عليهم أموالهم كلها، الله[٣] أعلم بصحة ذلك، وهو من الإسرائيليات التى لا تصدق ولا تكذب.

والغرض أنه كان فى جملة من ورد للميرة إخوةُ يوسف، عن أمر أبيهم لهم فى ذلك، فإنه بلغهم أن عزيز مصر يعطى الناس الطعام بثمنه، فأخذوا معهم بضاعة يعتاضون بها طعاما، وركبوا عشرة نفر، واحتبس يعقوب، عليه السلام، عنده بنيامين شقيق يوسف، عليهما[٤] السلام، وكان أحب ولده إليه بعد يوسف. فلما دخلوا على يوسف، وهو جالس فى أبهته ورياسته وسيادته، عرفهم حين نظر إليهم، ﴿ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ أى: لا يعرفونه؛ لأنهم فارقوه وهو صغير حدث فباعوه[٥] للسيارة، ولم يدروا أين يذهبون به، ولا كانوا يستشعرون فى أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه، فلهذا لم يعرفوه، وأما هو فعرفهم.

---

(١) وهذا مما لم يرد به الكتاب ولا السنة، فمثله لا يعتمد فيه على رواية ابن إسحاق رحمه الله.

(٢) فى ت: «أتم». (٣) فى ت: «والله».

(٤) فى ت: «عليه». (٥) فى ت: «وباعوه».

فذكر السدى وغيره: أنه شرع يخاطبهم، فقال لهم كالمنكر عليهم: ما أقدمكم بلادى؟ قالوا: أيها العزيز، إنا قدمنا للميرة. قال: فلعلكم عيون؟ قالوا: معاذ الله. قال: فمن أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كنعان، وأبونا يعقوب نبى الله. قال: وله أولاد غيركم؟ قالوا: نعم، كنا اثنى عشر، فذهب أصغرنا، هلك فى البَرِيَّة، وكان أحبنا إلى أبيه، وبقى شقيقة فاحتبسه (١) أبوه ليتسلى به عنه. فأمر بإنزالهم وإكرامهم.

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِم ﴾ أى: وَفَّاهم كيلهم، وحمل لهم أحمالهم قال: ائتونى بأخيكم هذا الذى ذكرتم، لأعلم صدقكم فيما ذكرتم، ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ يرغبهم فى الرجوع إليه، ثم رَهَّبَهم فقال: ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ أى: إن لم تقدموا به معكم فى المرة الثانية، فليس لكم عندى ميرة، ﴿ وَلَا تَقْرَبُونِ. قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ أى: سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن ولا نبقى مجهودا لتعلم صدقنا فيما قلناه.

وذكر السدى: أنه أخذ منهم رهائن حتى يقدموا به معهم. وفى هذا نظر؛ لأنه أحسن إليهم ورغبهم كثيرا، وهذا لحرصه (٢) على رجوعهم.

﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ ﴾ أى: غلمانه ﴿ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ ﴾، وهى التى قدموا بها ليمتاروا عوضاً عنها ﴿ فِي رِحَالِهِمْ ﴾ أى: فى أمتعتهم من حيث لا يشعرون، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ بها.

قيل: خشى يوسف، عليه السلام، ألا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها. وقيل: تذمم أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضا عن الطعام. وقيل: أراد أن يردهم إذا وجدوها فى متاعهم تحرجاً وتورعاً لأنه يعلم ذلك منهم (٣) والله أعلم.

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) ﴾.

يخبر تعالى عنهم أنهم لما رجعوا إلى أبيهم ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾ يعنون بعد هذه المرة، إن لم ترسل معنا أخانا بنيامين، فأرسله معنا نكتل.

وقرأ بعضهم: [يكتل] (٤) بالياء، أى يكتل هو، ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ أى: لا تخف عليه فإنه سيرجع إليك. وهذا كما قالوا له فى يوسف: ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ (٥) وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾؛ ولهذا قال لهم: ﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ أى: هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل، تغيبونه عنى، وتحولون بينى وبينه؟ ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ﴾ وقرأ بعضهم: ﴿ حَافِظًا ﴾،

---

(١) فى ت: «فاحبسوه». (٢) فى ت: «ولهذا بحرصه» وفى أ: «ولهذا يحرضهم».
(٣) فى ت، أ: «منهم ذلك». (٤) زيادة من ت، أ. (٥) فى ت، أ: «نرتع ونلعب».

﴿ وهو أرحم الرّاحمين ﴾ أي: هو أرحم الراحمين بى، وسيرحم كبرى وضعفى ووجدى بولدى، وأرجو من الله أن يرده على، ويجمع شملى به، إنه أرحم الراحمين.

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) ﴾.

يقول تعالى: ولما فتح إخوة يوسف متاعهم، وجدوا بضاعتهم ردّت إليهم، وهى التى كان أمر يوسف فتيانه بوضعها فى رحالهم، فلما وجدوها فى متاعهم ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ﴾؟ أى: ماذا نريد؟ ﴿ هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ كما قال قتادة. ما نبغى وراء هذا[1]؟ إن بضاعتنا ردت إلينا وقد أوفى لنا الكيل.

﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾أى: إذا أرسلت أخانا معنا نأتى بالميرة إلى أهلنا، ﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ وذلك أن يوسف، عليه السلام، كان يعطى كل رجل حمل بعير. وقال مجاهد: حمل حمار. وقد يسمى فى بعض اللغات بعيرا، كذا قال.

﴿ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾: هذا من تمام الكلام وتحسينه، أى: إن هذا يسير فى مقابلة أخذ أخيهم ما يعدل هذا.

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ ﴾ أى: تحلفون[2] بالعهود والمواثيق، ﴿ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ إلا أن تغلبوا كلكم ولاتقدرون على تخليصه.

﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أكده عليهم فقال: ﴿ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾.

قال ابن إسحاق: وإنما فعل ذلك؛ لأنه لم يجد بدا من بعثهم لأجل الميرة، التى لا غنى لهم عنها، فبعثه معهم.

﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾.

---

(١) فى أ: «هذه».

(٢) فى ت: «تحلفوا».

يقول تعالى، إخبارا عن يعقوب، عليه السلام: إنه أمر بنيه لما جهزهم مع أخيهم بنيامين إلى مصر، ألا يدخلوا كلهم من باب واحد، وليدخلوا من أبواب متفرقة، فإنه كما قال ابن عباس، ومحمد بن كعب، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسُّدِّى: إنه خشى عليهم العين، وذلك أنهم كانوا ذوى جمال وهيئة حسنة، ومنظر وبهاء، فخشى عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم؛ فإن العين حق، تستنزل الفارس عن فرسه.

وروى ابن أبى حاتم، عن إبراهيم النَّخَعى فى قوله: ﴿ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ قال: علم أنه سيلقى إخوته فى بعض الأبواب.

وقوله: ﴿ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أى: هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاءه[1]؛ فإن الله إذا أراد شيئاً لا يخالف ولا يمانع[2]، ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ. وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ قالوا: هى دفع إصابة العين لهم، ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾: قال قتادة والثورى: لذو عمل بعلمه. وقال ابن جرير: لذو علم لتعليمنا إياه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) ﴾.

يخبر تعالى عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه شقيقه بنيامين، فأدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته، وأفاض عليهم الصلة والإلطاف والإحسان، واختلى بأخيه فأطلعه على شأنه، وما جرى له، وعَرّفه أنه أخوه، وقال له: «لاتبتئس» أى: لا تأسف على ما صنعوا بى، وأمره بكتمان ذلك عنهم، وألا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده، مُعزّزًا مكرما معظما.

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) ﴾.

لما جَهَّزهم وحَمَّل لهم أبعرتهم طعاما، أمر بعض فتيانه أن يضع «السقاية»، وهى: إناء من فضة فى قول الأكثرين. وقيل: من ذهب ـ قاله ابن زيد ـ كان يشرب فيه، ويكيل للناس به من عزَّة الطعام إذ ذاك، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد.

وقال شعبة، عن أبى بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ قال: كان من

---

(١) فى ت: «قضاء الله وقدره».
(٢) فى ت: «لا يمانع ولا يخالف».

فضة يشربون فيه، وكان مثل المكوك، وكان للعباس مثله فى الجاهلية، فوضعها فى متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحد، ثم نادى مناد بينهم: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾، فالتفتوا إلى المنادى وقالوا: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ. قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ أى: صاعه الذى يكيل به، ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾، وهذا من باب الجُعَالة، ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾، وهذا من باب الضمان والكفالة.

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) ﴾.

لما اتهمهم أولئك الفتيان بالسرقة، قال لهم إخوة يوسف: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ أى: لقد تحققتم وعلمتم منذ [(١)] عرفتمونا، لأنهم [(٢)] شاهدوا منهم سيرة حسنة، أنَّا ما جئنا للفساد فى الأرض، وما كنا سارقين، أى: ليست سجايانا تقتضى هذه الصفة، فقال [(٣)] لهم الفتيان: ﴿ فَمَا جَزَاؤُهُ ﴾ أى: السارق، إن كان فيكم ﴿إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾ أى: أى شىء يكون عقوبته إن وجدنا فيكم من أخذه[(٤)]؟ ﴿ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

وهكذا كانت شريعة إبراهيم: أن السارق يدفع إلى المسروق منه. وهذا هو الذى أراد يوسف، عليه السلام؛ ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، أى: فتشها قبله، تورية، ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ﴾، فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم وإلزاما لهم بما يعتقدونه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾، وهذا من الكيد المحبوب المراد الذى يحبه الله ويرضاه، لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾أى: لم يكن له أخذه فى حكم ملك مصر، قاله الضحاك وغيره.

وإنما قيض الله له أن [(٥)] التزم له إخوته بما التزموه، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم؛ ولهذا مدحه تعالى فقال: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾، كما قال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١١].

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾: قال الحسن البصرى: ليس عالم إلا فوقه عالم، حتى ينتهى إلى الله عز وجل. وكذا رَوَى عبد الرزاق، عن سفيان الثورى، عن عبد الأعلى الثعلبى، عن سعيد بن جبير

---

(١) فى ت: «مذ». (٢) فى ت: «لا لأنهم». (٣) فى أ: «فقالت».

(٤) فى أ: «فيهم من أخذها». (٥) فى ت: «أنه».

قال: كنا عند ابن عباس فتحدث بحديث عجيب، فتعجب رجل فقال: الحمد لله ﴿ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [فقال ابن عباس: بئس ما قلت، الله العليم، وهو فوق كل عالم](١)، وكذا روى سماك، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، قال: يكون هذا أعلم من هذا، وهذا أعلم من هذا، والله فوق كل عالم. وهكذا (٢) قال عكرمة.

وقال قتادة: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، حتى ينتهى العلم إلى الله، منه بُدِئ وتعلمت العلماء، وإليه يعود، وفي قراءة عبد الله «وَفَوْقَ كُلِّ عالم عليم».

﴿ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) ﴾.

وقال (٣) إخوة يوسف لما رأوا الصّواع قد أخرج من متاع بنيامين: ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾، يتنصلون إلى العزيز من التشبه (٤) به، ويذكرون أن هذا فَعَل كما فعل أخ له من قبل، يعنون به يوسف، عليه السلام.

قال سعيد بن جبير، عن قتادة(٥): كان يوسف قد سرق صنما لجده، أبى أمه، فكسره.

وقال محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبى نَجِيح، عن مجاهد قال: كان أول ما دخل على يوسف من البلاء، فيما بلغنى، أن عمته ابنة إسحاق، وكانت أكبر ولد إسحاق، وكانت إليها منطقة إسحاق، وكانوا يتوارثونها بالكبر، فكان من اختباها (٦) ممن وليها كان له سَلَما لا ينازع فيه، يصنع فيه ما يشاء (٧) . وكان يعقوب حين وُلد له يوسف قد حضنته عمته، فكان منها وإليها، فلم يُحَب أحدٌ شيئا من الأشياء حبها إياه، حتى إذا ترعرع وبلغ سنوات وقعت نفس يعقوب عليه فأتاها، فقال: يا أخيَّة(٨)، سلّمى إلىّ يوسف، فوالله ما أقدر على أن يغيب عنى ساعة. قالت: فوالله ما أنا بتاركته. ثم قالت: فدعه عندى أياما أنظر إليه وأسكن عنه، لعل ذلك يسلّينى عنه ـ أو كما قالت. فلما خرج من عندها يعقوب، عمدت إلى منطقة إسحاق، فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه، ثم قالت: فقدت منطقة إسحاق، عليه السلام، فانظروا من أخذها ومن أصابها؟ فالتمست ثم قالت: اكشفوا أهل البيت. فكشفوهم فوجدوها مع يوسف. فقالت: والله إنه لى لسَلَمٌ، أصنع فيه ماشئت. فأتاها يعقوب فأخبرته الخبر. فقال لها: أنت وذاك، إن كان فعل ذلك فهو سَلَم لك ما أستطيع غير ذلك. فأمسكته فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت. قال: فهو الذى يقول إخوة يوسف حين صنع بأخيه ما صنع حين أخذه: ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾(٩).

---

(١) زيادة من ت، أ.
(٢) فى ت، أ: «وكذا».
(٣) فى ت، أ: «فقال».
(٤) فى أ: «الشبه».
(٥) فى ت، أ: «وقتادة».
(٦) فى أ: «اختانها».
(٧) فى ت، أ: «ما شاء».
(٨) فى ت، أ: «يا أخته».
(٩) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ١٩٦).

وقوله: ﴿ فَأَسَرَّهَا[1] يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ ﴾ يعني: الكلمة التي بعدها، وهي قوله: ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ[2] ﴾ أي: تذكرون. قال هذا في نفسه، ولم يبده لهم، وهذا من باب الإضمار قبل الذكر، وهو كثير، كقول الشاعر[3]:

جَزَى بَنُوه أبا الغيلان عن كبَرٍ ... وحُسْن فعل[4] كما يُجزَى سنمّار

وله شواهد كثيرة من القرآن والحديث واللغة، في منثورها وأخبارها وأشعارها.

قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ ﴾ قال: أسر في نفسه: ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾.

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ (٧٩) ﴾.

لما تعين أخذ بنيامين وتقرر تركه عند يوسف بمقتضى اعترافهم، شرعوا يترققون له ويعطفونه عليهم، فـ ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ﴾ يعنون: وهو يحبه حبا شديدا ويتسلى به عن ولده الذي فقده، ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾ أي: بدله، يكون عندك عوضاً عنه، ﴿ إِنَّا نَرَاكَ[5] مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي: من العادلين المنصفين القابلين للخير. ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ ﴾ أي: كما قلتم واعترفتم، ﴿ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴾ [أي][6] إن أخذنا بريئا بسقيم.

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠) ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) ﴾.

يخبر تعالى عن إخوة يوسف: أنهم لما يئسوا من تخليص أخيهم بنيامين، الذي قد التزموا لأبيهم برده إليه، وعاهدوه على ذلك، فامتنع عليهم ذلك، ﴿ خَلَصُوا ﴾ أي: انفردوا عن الناس ﴿ نَجِيًّا ﴾ يتناجون فيما بينهم.

﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ وهو رُوبيل، وقيل: يهوذا، وهو الذي أشار عليهم بإلقائه في البئر عندما همّوا

---

(١) في ت: «فأسر هذا». (٢) في ت: «يصفون».
(٣) هو سليط بن سعد، والبيت من شواهد ابن عقيل في شرحه على الألفية لابن مالك برقم (١٥٣).
(٤) في ت، أ: «ظن». (٥) في أ: «لنراك» وهو خطأ. (٦) زيادة من ت، أ.

بقتله، قال لهم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ لتردنَّه إليه، فقد رأيتم كيف تعذّر عليكم ذلك مع ما تقدم لكم من إضاعة يوسف عنه، ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ﴾ أى: لن أفارق هذه البلدة، ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ في الرجوع إليه راضياً عنى، ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾، قيل: بالسيف. وقيل: بأن يمكننى من أخذ أخى، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ[(١)]﴾.

ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع، حتى يكون عذرا لهم عنده ويتنصلوا إليه، ويبرؤوا مما وقع بقولهم.

وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ قال عكرمة وقتادة: ما [كنا] [(٢)] نعلم أن ابنك سرق[(٣)].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما علمنا فى الغيب أنه يسرق [(٤)] له شيئا، إنما سألنا [(٥)] ما جزاء السارق؟

﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾: قيل: المراد مصر. قاله قتادة، وقيل: غيرها، ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أى: التى رافقناها، عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا، ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما أخبرناك به، من أنه سرق وأخذوه بسرقته.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٦)﴾.

قال لهم كما قال لهم حين جاؤوا على قميص يوسف بدم كذب: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾.

قال محمد بن إسحاق: لما جاؤوا يعقوب وأخبروه بما جرى اتهمهم، وظن أنها كفعلتهم بيوسف ﴿قَالَ[(٦)] بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾.

وقال بعض الناس: لما كان صنيعهم[(٧)] هذا مرتباً على فعلهم الأول، سُحِب [(٨)] حكم الأول عليه، وصح قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾.

ثم ترجى [(٩)] من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة: يوسف وأخاه بنيامين، وروبيل الذى أقام بديار

---

(١) فى ت، أ: «أحكم الحاكمين» وهو خطأ.
(٢) زيادة من ت، أ.
(٣) فى ت: «يسرق».
(٤) فى ت، أ: «سرق».
(٥) فى ت، أ: «سألناه».
(٦) فى ت، أ: «فقال» وهو خطأ.
(٧) فى ت: «صبرنا».
(٨) فى ت: «اسحب»، وفى أ: «استحب».
(٩) فى ت: «يرجى».

مصر ينتظر أمر الله فيه، إما أن يرضى عنه أبوه فيأمره بالرجوع إليه، وإما أن يأخذ أخاه خفية؛ ولهذا قال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ أى: العليم بحالى، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى أفعاله وقضائه وقدره.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أى: أعرض عن بنيه وقال متذكراً حُزنَ يوسف القديم الأول: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾، جَدَّد له حزنُ الابنين [(١)] الحزن الدفين.

قال عبد الرزاق، أخبرنا الثورى، عن سفيان العُصْفُرىّ، عن سعيد بن جبير أنه قال: لم يعط أحد غيرَ هذه الأمة الاسترجاع، ألا تسمعون إلى قول يعقوب، عليه السلام: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أى: ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق [(٢)]. قاله قتادة وغيره.

وقال الضحاك: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾: كميد حزين.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا حماد بن سلمة [حدثنا أبو موسى]، عن على بن زيد[(٣)]، عن الحسن، عن الأحنف بن قيس، أن النبى ﷺ قال: «إن داود، عليه السلام، قال: يارب، إن بنى إسرائيل يسألونك بإبراهيم وإسحاق ويعقوب، فاجعلنى لهم رابعاً. فأوحى الله تعالى إليه أن يا داود، إن إبراهيم ألقى فى النار بسببى فصبر، وتلك بلية لم تنلك، وإن إسحاق بذل مهجة [(٤)] دمه فى سببى فصبر، وتلك بلية لم تنلك، وإن يعقوب أخذت منه حبيبه حتى ابيضت عيناه من الحزن، فصبر، وتلك بلية لم تنلك».

وهذا مرسل، وفيه نكارة[(٥)]؛ فإن الصحيح أن إسماعيل هو الذبيح، ولكن على بن زيد بن جُدْعَان له مناكير وغرائب كثيرة، والله أعلم.

وأقرب ما فى هذا أن يكون قد حكاه الأحنف بن قيس، رحمه الله، عن بنى[(٦)] إسرائيل ككعب ووهب ونحوهما، والله أعلم، فإن الإسرائيليين ينقلون أن يعقوب كتب إلى يوسف لما احتبس أخاه بسبب السرقة يتلطف له فى رده، ويذكر له أنهم أهل بيت مصابون بالبلاء، فإبراهيم ابتلى بالنار، وإسحاق بالذبح، ويعقوب بفراق يوسف، فى حديث طويل لا يصح، والله أعلم، فعند ذلك رق له بنوه، وقالو له على سبيل الرفق به والشفقة عليه: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أى: لا تفارق تَذَكُّر يوسف، ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أى: ضعيف الجسم، ضعيف القوة، ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ يقولون: وإن استمر بك هذا الحال خشينا عليك الهلاك والتلف.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ أى: أجابهم عما قالوا بقوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي﴾

---

(١) فى ت: «الاثنين».

(٢) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٨٤) وروى موصولاً ولا يصح.

(٣) فى ت: «يزيد».

(٤) فى ت: «مهجته».

(٥) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١١/ ٥٥٤) عن عفان، عن حماد بن سلمة به.

(٦) فى ت: «عن بعض بنى».

أى: همي وما أنا فيه ﴿ إِلَى اللَّهِ﴾ وحده ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ أى: أرجو منه كل خير.

وعن ابن عباس: ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [يعنى رؤيا يوسف أنها صدق وأن الله لابد أن يظهرها وينجزها. وقال العوفى عن ابن عباس: ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾](١)، أعلم أن رؤيا يوسف صادقة، وأنى سوف أسجد له.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا يحيى بن عبد الملك بن أبى غَنِيَّة، عن حفص ابن عمر بن أبى الزبير، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كان ليعقوب النبى، عليه السلام، أخ مُؤاخ له، فقال له ذات يوم: ما الذى أذهب بصرك وقَوّس ظهرك؟ قال: الذى(٢) أذهب بصرى البكاء(٣) على يوسف، وأما الذى قوس ظهرى فالحزن على بنيامين، فأتاه جبريل، عليه السلام، فقال: يا يعقوب، إن الله يُقرئك السلام ويقول لك: أما تستحى أن تشكونى إلى غيرى؟ فقال يعقوب: إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله. فقال جبريل، عليه السلام: الله أعلم بما تشكو»(٤).

وهذا حديث غريب، فيه نكارة.

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن يعقوب، عليه السلام، أنه ندب بنيه على(٥) الذهاب فى الأرض، يستعلمون أخبار يوسف وأخيه بنيامين.

والتحسس(٦) يكون فى الخير، والتجسس يستعمل فى الشر.

ونَهّضهم وبشرهم وأمرهم ألا ييأسوا من روح الله، أى: لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدونه(٧)، فإنه لا يقطع الرجاء، ويقطع الإياس من الله إلا القوم الكافرون(٨).

وقوله: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ تقدير الكلام: فذهبوا فدخلوا بلد(٩) مصر، ودخلوا على يوسف،

---

(١) زيادة من ت. (٢) فى أ: «أما الذى». (٣) فى ت، أ: «فالبكاء».

(٤) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/٣٤٨) من طريق أبى بكر بن أبى شيبة، عن يحيى بن عبد الملك بن أبى غنية، عن حفص بن عمر ابن الزبير، عن أنس بنحوه، وقال الحاكم: «حفص بن عمر بن الزبير، وأظن الزبير وهماً من الراوى فإنه حفص بن عمر بن عبد الله بن أبى طلحة الأنصارى». ورواه إسحاق بن راهويه ومن طريقه الحاكم فى المستدرك (٢/٣٤٨) من طريق يحيى بن عبد الملك، عن أنس بن مالك مرسلا. ورواه ابن أبى الدنيا فى «الفرج بعد الشدة» برقم (٤٧) من طريق زافر بن سليمان عن يحيى بن عبد الملك عن رجل، عن أنس بن مالك رضى الله عنه مرفوعاً. ورواه الطبرانى فى الأوسط برقم (٣٣٤١) «مجمع البحرين» من طريق وهب بن بقية عن يحيى بن عبد المطلب عن حصين بن عمر الأحمسى عن أبى الزبير عن أنس مرفوعاً. وبهذا يتبين أن الحديث مضطرب.

(٥) فى أ: «إلى». (٦) فى ت: «والتجسس». (٧) فى ت، أ: «ويقصدون له».

(٨) فى ت: «الكافرين». (٩) فى أ: «بلاد».

﴿ قَالُوا ايَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ يعنون من الجدب والقحط وقلة الطعام، ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾ أى: ومعنا ثمن الطعام الذى تمتاره، وهو ثمن قليل. قاله مجاهد، والحسن، وغير واحد.

وقال ابن عباس: الرديء [1] لا يَنفُق، مثل خَلَق الغِرارة، والحبل، والشيء، وفى رواية عنه: الدراهم الرديئة التى لا تجوز إلا بنقصان. وكذا قال قتادة، والسُّدى.

وقال سعيد بن جبير [وعكرمة][2]: هى الدراهم الفُسُول.

وقال أبو صالح: هو الصنوبر وحبة الخضراء.

وقال الضحاك: كاسدة لاتنفق.

وقال أبو صالح: جاؤوا بحَبِّ البُطْم الأخضر والصنوبر.

وأصل الإزجاء: الدفع لضعف الشيء، كما قال حاتم الطائى:

لِيَبْك عَلى مِلْحَانَ ضَيفٌ مُدَفَّعٌ ... وَأرملَةٌ تُزْجى مَعَ الليل أرْمَلا[3].

وقال أعشى بنى ثعلبة:

الوَاهبُ المائةِ الهجَان وعَبدِها ... عُوذاً تُزَجِّى خَلْفَها أطْفَالَها[4].

وقوله إخبارا عنهم: ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ أى: أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك.

وقرأ ابن مسعود: «فأوقرْ ركابنا وتصدق علينا».

وقال ابن جُرَيْج: ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ بردِّ أخينا إلينا.

وقال سعيد بن جبير والسدى: ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾، يقولون: تصدق علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة، وتجوز فيها.

وسئل سفيان بن عُيَيْنَة: هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء قبل النبى ﷺ؟ فقال: ألم تسمع قوله: ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ رواه ابن جرير عن الحارث، عن القاسم، عنه[5] [6].

وقال ابن جرير: حدثنى الحارث، حدثنا القاسم، حدثنا مروان بن معاوية، عن عثمان بن الأسود: سمعت مجاهدا وسئل: هل يكره أن يقول الرجل فى دعائه: اللهم تصدق علَى؟ فقال: نعم، إنما الصدقة لمن يبتغى الثواب.

---

(١) فى ت، أ: «الردى الذى لا». (٢) زيادة من ت، أ.
(٣) البيت فى تفسير الطبرى (١٦/ ٢٣٥).
(٤) البيت فى تفسير الطبرى (١٦/ ٢٣٥).
(٥) فى أ: «به».
(٦) تفسير الطبرى (١٦/ ٢٤٢).

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن يوسف، عليه السلام: أنه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجَدْب، وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه، مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة، فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته، وبدره البكاء، فتعرف إليهم، يقال[١]: إنه رفع التاج عن جبهته، وكان فيها شامة، وقال: ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾؟ يعني: كيف فرقوا بينه وبينه ﴿ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ أي: إنما حملكم على هذا[٢] الجهل بمقدار هذا الذى ارتكبتموه، كما قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل، وقرأ: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٩].

والظاهر ـ والله أعلم ـ أن يوسف، عليه السلام، إنما تعرف إليهم بنفسه، بإذن الله له فى ذلك، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه فى المرتين الأوليين[٣] بأمر الله تعالى له فى ذلك، والله أعلم، ولكن لما ضاق الحال واشتد الأمر، فَرَّج الله تعالى من ذلك الضيق، كما قال تعالى: ﴿ فَإِنَّ[٤] مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح: ٥، ٦]، فعند ذلك قالوا: ﴿ أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾؟

وقرأ أبىّ بن كعب: «أو أنت[٥] يُوسُفُ»، وقرأ ابن مُحَيْصِن: «إنَّك لأنتَ[٦] يُوسُفُ». والقراءة المشهورة هى الأولى؛ لأن الاستفهام يدل على الاستعظام، أى: إنهم تَعجَّبوا من ذلك أنهم يترددون إليه من سنتين وأكثر، وهم لا يعرفونه، وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه، فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام: ﴿ أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي ﴾، ﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ أى: بجمعه بيننا بعد التفرقة وبعد المدة، ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم فى الخلق والخلق، والسعة والملك، والتصرف والنبوة أيضا ـ على قول من لم يجعلهم أنبياء ـ وأقروا له بأنهم أساؤوا إليه وأخطؤوا فى حقه.

﴿ قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ يقول: لا تأنيب عليكم ولا عَتْب عليكم اليوم، ولا أعيد[٧] ذنبكم فى حقى بعد اليوم.

---

(١) فى ت، أ: «فيقال».
(٢) فى أ: «ذلك».
(٣) فى ت، أ: «الاولتين».
(٤) فى ت، أ: «إن» وهو خطأ.
(٥) فى أ: «أو إنك».
(٦) فى ت، أ: «وأنت».
(٧) فى ت، أ: «ولا أعيد عليكم».

ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة فقال: ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

قال السدى: اعتذروا إلى يوسف، فقال: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ يقول: لا أذكر لكم ذنبكم.

وقال ابن إسحاق والثورى: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُم [الْيَوْمَ][(١)]﴾ أى: لا تأنيب عليكم اليوم عندى فيما صنعتم ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ أى: يستر الله عليكم فيما فعلتم، ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) ﴾.

يقول: اذهبوا بهذا القميص، ﴿ فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾، وكان قد عَمَى من كثرة البكاء، ﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أى: بجميع بنى يعقوب.

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ أى: خرجت من مصر، ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ يعنى: يعقوب، عليه السلام، لمن بقى عنده من بنيه: ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ﴾: تنسبونى إلى الفَنَد والكِبَر.

قال عبد الرزاق: أنبأنا إسرائيل، عن أبى سِنَان، عن عبد الله بن أبى الهُذَيْل قال: سمعت ابن عباس يقول: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ قال: لما خرجت العير، هاجت ريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف فقال: ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ﴾، قال: فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام[(٢)].

وكذا رواه سفيان الثورى، وشعبة، وغيرهما عن أبى سِنَان، به.

وقال الحسن وابن جُرَيْج: كان بينهما ثمانون فرسخا، وكان بينه وبينه منذ افترقا ثمانون سنة.

وقوله: ﴿ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وقتادة، وسعيد بن جُبَيْر: تُسَفِّهون.

وقال مجاهد أيضا، والحسن: تُهرِّمون.

وقولهم: ﴿ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾ قال ابن عباس: لفى خطئك القديم.

وقال قتادة: أى من حب يوسف لا تنساه ولا تسلاه، قالوا لوالدهم كلمةً غليظة، لم يكن ينبغى لهم أن يقولوها لوالدهم، ولا لنبى الله ﷺ[(٣)]. وكذا قال السدى، وغيره.

﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا

(١) زيادة من ت، أ.

(٢) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٨٦).

(٣) فى أ: «عليه السلام».

لا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨) ﴾.

قال ابن عباس والضحاك: ﴿ **الْبَشِيرِ** ﴾: البريد.

وقال مجاهد والسدى: كان يهوذا بن يعقوب.

قال السدى : إنما جاء به لأنه هو الذى جاء بالقميص وهو ملطخ بدم كَذب، فأراد[1] أن يغسل ذاك بهذا، فجاء بالقميص فألقاه على وجه أبيه، فرجع بصيرا.

وقال لبنيه عند ذلك: ﴿ **أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ أى: أعلم أن الله سيرده إلىَّ، وقلت لكم: ﴿ **إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ** ﴾؟. فعند ذلك قالوا لأبيهم مترفقين له: ﴿ **يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ. قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾أى: من تاب إليه تاب عليه.

قال ابن مسعود، وإبراهيم التَّيْمِىّ، وعمرو بن قيس، وابن جُرَيْج وغيرهم: أرجأهم إلى وقت السَّحَر.

وقال ابن جرير: حدثنى أبو السائب، حدثنا ابن إدريس، سمعت عبد الرحمن بن إسحاق يذكر عن محارب بن دثار قال: كان عمر، رضى الله عنه، يأتى المسجد فيسمع [2] إنسانا يقول: «اللهم دعوتنى فأجبت، وأمرتنى فأطعت، وهذا السَّحَرُ فاغفر لى». قال: فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود. فسأل عبد الله عن ذلك فقال: إن يعقوب أخَّر بنيه إلى السحر بقوله: ﴿ **سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي** ﴾[3].

وقد ورد فى الحديث أن ذلك كان ليلة جمعة، كما قال ابن جرير: أيضا: حدثنى المثنى، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن أبو [4] أيوب الدمشقى، حدثنا الوليد، أنبأنا ابن جُرَيْج، عن عَطاء وعِكْرِمة، عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ: ﴿ **سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي** ﴾، يقول: حتى تأتى ليلة الجمعة، وهو قول أخى يعقوب لبنيه[5].

وهذا غريب من هذا الوجه، وفى رفعه نظر، والله أعلم.

---

(١) فى ت، أ: «فأحب».

(٢) فى أ: «فسمع».

(٣) تفسير الطبرى (١٦/ ٢٦١).

(٤) فى ت: «بن».

(٥) تفسير الطبرى (١٦/ ٢٦٢) وهذا إسناد فيه ثلاث علل:

الأولى: عنعنه ابن جريج وهو مدلس لم يصرح بالسماع.

الثانية: الوليد بن مسلم القرشى كان يهم فى رفع الأحاديث ويدلس تدليس التسوية.

الثالثة: سليمان بن عبد الرحمن تكلم فيه من جهة حفظه وبمثل هذا السند روى حديث دعاء نسيان القرآن، وسبق الكلام عليه فى فضائل القرآن.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) ﴾.

يخبر تعالى عن ورود يعقوب، عليه السلام، على يوسف، عليه السلام، وقدومه بلاد [١] مصر، لما كان يوسف قد تقدم إلى إخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين، فتحملوا عن آخرهم وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد [٢] مصر، فلما أخبر يوسف، عليه السلام، باقترابهم خرج لتلقيهم، وأمر [الملك][٣] أمراءه وأكابر الناس بالخروج [مع يوسف] [٤] لتلقى نبى الله يعقوب، عليه السلام، ويقال: إن الملك خرج أيضا لتلقيه، وهو الأشبه.

وقد أشكل قوله: ﴿ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ﴾ على كثير [٥] من المفسرين، فقال بعضهم: هذا من المقدم والمؤخر، ومعنى الكلام: ﴿ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾، وآوى إليه أبويه، ورفعهما على العرش.

وقد رد ابن جرير هذا. وأجاد فى ذلك. ثم اختار ما حكاه عن السُّدِّى: أن يوسف آوى إليه أبويه لما تلقاهما، ثم لما وصلوا باب البلد قال: ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾.

وفى هذا نظر أيضا؛ لأن الإيواء إنما يكون فى المنزل، كقوله: ﴿ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾، وفى الحديث: «من آوى محدثا» وما المانع أن يكون قال لهم بعدما دخلوا عليه وآواهم إليه: ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ﴾، وضمَّنه: اسكنوا مصر ﴿ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ أى: مما كنتم فيه من الجهد والقحط، ويقال ـ والله أعلم ـ: إن الله تعالى رفع عن أهل مصر بقية السنين المجدبة ببركة قدوم يعقوب عليهم، كما رفع بقية السنين التى دعا بها رسول الله ﷺ على أهل مكة حين قال: «اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف»، ثم لما تضرعوا إليه واستشفعوا لديه، وأرسلوا أبا سفيان فى ذلك، فدعا لهم، فَرُجِّعَ عنهم بقية ذلك ببركة دعائه، عليه السلام[٦].

وقوله: ﴿ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾، قال السدى، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنما كان أباه [٧] وخالته، وكانت أمه قد ماتت قديما.

وقال محمد بن إسحاق وابن جرير: كان أبوه وأمه يعيشان.

قال ابن جرير: ولم يقم دليل على موت أمه، وظاهر القرآن يدل على حياتها. وهذا الذى نصره

---

(١) فى أ: «على». (٢) فى ت، أ: «ديار». (٣، ٤) زيادة من ت، أ.

(٥) فى ت: «كثيرين».

(٦) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١٠٠٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

(٧) فى ت: «أبوه».

هو المنصور الذى يدل عليه السياق.

وقوله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: يعنى السرير، أى: أجلسهما معه على سريره.

﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ أى: سجد له أبواه وإخوته الباقون، وكانوا أحد عشر رجلا، ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ﴾ أى: التى كان قصها على أبيه ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

وقد كان هذا سائغا فى شرائعهم إذا سلَّموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى، عليه السلام، فحرم هذا فى هذه الملة، وجُعِل السجود مختصا بجناب الرب سبحانه وتعالى.

هذا مضمون قول قتادة وغيره.

وفى الحديث أن معاذا قدم الشام، فوجدهم يسجدون لأساقفتهم، فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ، فقال: «ما هذا يا معاذ؟» فقال: إنى رأيتهم يسجدون لأساقفتهم، وأنت أحق أن يسجد لك يارسول الله فقال: «لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد، لأمرت الزوجة [(١)] أن تسجد لزوجها من عظم[(٢)] حقه عليها»[(٣)].

وفى حديث آخر: أن سلمان لقى النبى ﷺ فى بعض طُرُق المدينة، وكان سلمان حديث عهد بالإسلام، فسجد للنبى ﷺ، فقال: «لا تسجد لى يا سلمان، واسجد للحى الذى لا يموت»[(٤)].

والغرض أن هذا كان جائزاً فى شريعتهم؛ ولهذا خروا له سُجَّداً، فعندها قال يوسف: ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ أى: هذا ما آل إليه الأمر، فإن التأويل يطلق على ما يصير إليه الأمر، كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ [الأعراف: ٥٣] أى: يوم القيامة يأتيهم ما وعدوا من خير وشر.

وقوله: ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ أى: صحيحة صِدْقا، يذكر نعم الله عليه، ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ أى: البادية.

قال ابن جُرَيْج وغيره: كانوا أهل بادية وماشية. وقال: كانوا يسكنون بالعَرَبَات من أرض فلسطين، من غور الشام. قال: وبعض يقول: كانوا بالأولاج من ناحية شعب أسفل من حسمَى، وكانوا أصحاب بادية وشاء [(٥)] وإبل.

---

(١) فى ت، أ: «المرأة».

(٢) فى ت: «عظيم».

(٣) رواه أحمد فى المسند (٤/ ٣٨١) وابن ماجه فى السنن برقم (١٨٥٣) من حديث معاذ رضى الله عنه، وصححه ابن حبان.

(٤) رواه أبو نعيم فى تاريخ أصبهان (٢/ ١٠٣) من طريق شهر بن حوشب، عن سلمان رضى الله عنه، وسيأتى عند تفسير الآية: ٥٨ من سورة الفرقان.

(٥) فى أ: «وماشية».

﴿ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي [ثم قال][1] إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾أى: إذا أراد أمراً قيض له أسبابا ويسره وقدره، ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ ﴾ بمصالح عباده ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى أفعاله وأقواله، وقضائه وقدره، وما يختاره ويريده.

قال أبو عثمان النهدى، عن سلمان [2]: كان بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنة.

قال عبد الله بن شداد: وإليها [3] ينتهى أقصى الرؤيا. رواه ابن جرير.

وقال أيضا: حدثنا عمرو بن على، حدثنا عبد الوهاب الثقفى، حدثنا هشام، عن الحسن قال: كان منذ [4] فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا، ثمانون سنة، لم يفارق فى الحزن قلبه، ودموعه تجرى على خديه، وما على وجه الأرض عبد أحب إلى الله من يعقوب[5].

وقال هُشَيْم، عن يونس، عن الحسن: ثلاث وثمانون سنة.

وقال مبارك بن فضالة، عن الحسن: ألقى يوسف فى الجب وهو ابن سبع عشرة سنة، فغاب عن أبيه ثمانين [6] سنة، وعاش بعد ذلك ثلاثا وعشرين سنة، فمات وله عشرون ومائة سنة.

وقال قتادة: كان بينهما خمس وثلاثون سنة.

وقال محمد بن إسحاق: ذُكر ـ والله أعلم ـ أن غيبة يوسف عن يعقوب كانت ثمانى عشرة سنة ـ قال: وأهل الكتاب يزعمون أنها كانت أربعين [7] سنة أو نحوها، وأن يعقوب، عليه السلام، بقى مع يوسف بعد أن قدم عليه مصر سبع عشرة سنة، ثم قبضه الله إليه.

وقال أبو إسحاق السَّبِيعي، عن أبى عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: دخل بنو إسرائيل مصر، وهم ثلاثة وستون إنسانا، وخرجوا منها وهم ستمائة ألف وسبعون ألفا.

وقال أبو إسحاق، عن مسروق: دخلوا وهم ثلاثمائة وتسعون من بين رجل وامرأة. والله [8] أعلم.

وقال موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب القُرَظى، عن عبد الله بن شداد: اجتمع آل يعقوب إلى يوسف بمصر. وهم ستة وثمانون إنسانا، صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، وخرجوا منها وهم ستمائة ألف ونيف.

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ﴾.

---

(١) زيادة من ت، أ.
(٢) فى أ: «عن سلمان قال».
(٣) فى ت: «وإليه».
(٤) فى ت: «مذ».
(٥) تفسير الطبرى (١٦/ ٢٧٣).
(٦) فى أ: «ثمانون».
(٧) فى أ: «أربعون».
(٨) فى ت، أ: «فالله».

هذا دعاء من يوسف الصديق، دعا به ربه عز وجل، لما تمت النعمة عليه، باجتماعه بأبويه وإخوته، وما مَنَّ الله به عليه من النبوة والملك، سأل ربه عز وجل، كما أتم نعمته عليه فى الدنيا أن يستمر بها عليه فى الآخرة، وأن يتوفاه مسلما حين يتوفاه. قاله الضحاك، وأن يلحقه بالصالحين، وهم إخوانه من النبيين والمرسلين، صلوات الله وسلامه [عليه و] [١] عليهم أجمعين.

وهذا الدعاء يحتمل أن يوسف، عليه السلام، قاله عند احتضاره، كما ثبت فى الصحيحين عن عائشة، رضى الله عنها؛ أن رسول الله ﷺ جعل يرفع أصبعه عند الموت، ويقول: «اللهم فى الرفيق الأعلى، اللهم فى الرفيق الأعلى، اللهم فى الرفيق الأعلى»[٢].

ويحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين إذا حان أجله، وانقضى عمره؛ لا أنه سأل ذلك منجزاً، كما يقول الداعى لغيره: «أماتك الله على الإسلام». ويقول الداعى: «اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين».

ويحتمل أنه سأل ذلك منجزاً، وكان ذلك سائغا فى ملتهم، كما قال قتادة: قوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ : لما جمع الله شمله وأقر عينه، وهو يومئذ مغمور فى الدنيا وملكها وغضارتها، فاشتاق[٣] إلى الصالحين قبله، وكان ابن عباس يقول: ما تمنى نبى قط الموت قبل يوسف، عليه السلام.

وكذا ذكر ابن جرير[٤]، والسدى عن ابن عباس: أنه أول نبى دعا بذلك. وهذا يحتمل أنه أول من سأل الوفاة على الإسلام، كما أن نوحا أول من قال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾ [نوح: ٢٨]، ويحتمل أنه أول من سأل نجاز ذلك، وهو ظاهر سياق قتادة، ولكن هذا لا يجوز[٥] فى شريعتنا.

قال الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا عبد العزيز بن صهيب، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموت لضُرٍّ نزل به، فإن كان لابد[٦] متمنيا الموت فليقل: اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى»[٧].

[ورواه البخارى ومسلم، وعندهما: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به إما محسنا فيزداد، وإما مسيئا فلعله يستعتب، ولكن ليقل: اللهم، أحينى ما كانت الحياة خيراً لى، وتوفنى إذا كانت الوفاة

---

(١) زيادة من ت، أ.

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٤٣٧) وصحيح مسلم برقم (٢٤٤٤).

(٣) فى ت، أ: «واشتاق». (٤) فى ت، أ: «جريج». (٥) فى ت، أ: «لا يجوز هذا».

(٦) فى ت، أ: «كان ولابد».

(٧) المسند (٣/ ١٠١).

خيراً لى»[(١)] [(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا مُعَان بن رفاعة، حدثنى على بن يزيد، عن القاسم، عن أبى أمامة قال: جلسنا إلى رسول الله ﷺ فذكَّرنا ورقَّقنا، فبكى سعد بن أبى وقاص فأكثر البكاء، فقال: يا ليتنى مت! فقال النبى ﷺ: «يا سعد أعندى تتمنى الموت؟» فردَّد ذلك [ثلاث][(٣)] مرات ثم قال: «يا سعد، إن كنت خلقت للجنة، فما طال[(٤)] عمرك، أو حَسُن من عملك، فهو خير لك»[(٥)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنا أبو يونس ـ هو سُلَيم بن جُبير ـ عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ؛ أنه قال: «لا يتمنين أحدكم الموت ولا يدعونَ[(٦)] به من قبل أن يأتيه، إلا أن يكون قد وَثِق بعمله، فإنه إذا مات أحدكم انقطع عنه عمله، وإنه لا يزيد المؤمن عمره[(٧)] إلا خيراً» تفرد به أحمد[(٨)].

وهذا فيما إذا كان الضر خاصا به، أما إذا كان[(٩)] فتنة فى الدين فيجوز سؤال الموت، كما قال الله تعالى إخباراً عن السحرة لما أرادهم فرعون عن دينهم وتهدَّدهم بالقتل قالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وقالت مريم لما أجاءها المخاض، وهو الطلق، إلى جذع النخلة ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم:٢٣]، لَمَا تعلم من أن الناس يقذفونها بالفاحشة؛ لأنها لم تكن ذات زوج وقد حملت وولدت، فيقول القائل أنى لها هذا؟ ولهذا واجهوها أولا بأن قالوا: ﴿يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا. يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٧، ٢٨] فجعل الله لها من ذلك الحال فرجا ومخرجا، وأنطق الصبى فى المهد بأنه عبد الله ورسوله، وكان[(١٠)] آية عظيمة ومعجزة باهرة صلوات الله وسلامه عليه[(١١)]. وفى حديث معاذ، الذى رواه الإمام أحمد والترمذى، فى قصة المنام والدعاء الذى فيه: «وإذا أردت بقوم فتنة، فتوفنى إليك غير مفتون»[(١٢)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سلمة، أنا عبد العزيز بن محمد، عن عمرو عن[(١٣)] عاصم عن[(١٤)] عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد؛ أن النبى ﷺ قال: «اثنتان يكرههما ابن آدم الموت، والموت خير

---

(١) صحيح البخارى برقم (٦٣٥١) وصحيح مسلم برقم (٢٦٨٠).

(٢) زيادة من ت، أ.

(٣) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٤) فى ت، أ: «فأطال».

(٥) المسند (٥/٢٦٦).

(٦) فى ت، أ: «لا يدعو».

(٧) فى ت، أ: «عمله».

(٨) المسند (٢/ ٣٥٠).

(٩) فى أ: «كان فيه».

(١٠) فى ت: «فكان».

(١١) فى ت: «عليه وسلامه».

(١٢) المسند (٥/٢٤٣) وسنن الترمذى برقم (٣٢٣٥). وقال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح، سألت محمد بن إسماعيل البخارى عن هذا الحديث فقال: هذا حديث حسن صحيح».

(١٣، ١٤) فى ت: «ابن».

للمؤمن [من الفتنة][(١)] ويكره قلة المال، وقلة المال أقل للحساب»[(٢)].

فعند حُلول الفتن فى الدين يجوز سؤال الموت؛ ولهذا قال على بن أبى طالب، رضى الله عنه، فى آخر إمارته لما رأى أن الأمور لا تجتمع له، ولا يزداد الأمر إلا شدة قال: اللهمَّ، خذنى إليك، فقد سئمتهم وسئمونى.

وقال البخارى، رحمه الله، لما وقعت له تلك المحن وجرى له ما جرى مع أمير خراسان: اللهم، توفنى إليك.

وفى الحديث: «إن الرجل ليمر بالقبر ـ أى فى زمان الدجال ـ فيقول: يا ليتنى مكانك»[(٣)]، لما يرى من الفتن والزلازل والبلابل والأمور الهائلة التى هى فتنة لكل مفتون.

قال أبو جعفر بن جرير: وذُكِرَ أن بنى يعقوب الذين فعلوا بيوسف ما فعلوا، استغفر لهم أبوهم، فتاب الله عليهم وعفا عنهم، وغفر لهم ذنوبهم.

[ذكر من قال ذلك][(٤)]:

حدثنا القاسم، حدثنا الحسن، حدثنى حجاج، عن صالح المرى، عن يزيد الرَّقاشى، عن أنس ابن مالك قال: إن الله تعالى لما جمع ليعقوب شمله، وأقر عينه[(٥)]، خلا ولدُه نجياً، فقال بعضهم لبعض: ألستم قد علمتم ما صنعتم، وما لقى منكم الشيخ، وما لقى منكم يوسف؟ قالوا: بلى. قال: فيغرّكم عفوهما عنكم، فكيف لكم بربكم؟ فاستقام أمرهم على أن أتوا الشيخ فجلسوا بين يديه، ويوسف إلى جنب أبيه قاعداً، قالوا: يا أبانا، إنا أتيناك فى أمر، لم نأتك فى مثله قط، ونزل بنا أمر لم ينزل بنا مثله. حتى حَرَّكوه، والأنبياء، عليهم السلام، أرحم البرية، فقال: ما لكم يا بَنِىّ؟ قالوا: ألست قد علمت ما كان منا إليك، وما كان منا إلى أخينا يوسف؟ قال: بلى. قالوا: أو لستما قد عفَوَتما؟ قالا: بلى. قالوا: فإن عفوكما لا يغنى عنا شيئا، إن كان الله لم يعف عنا. قال: فما تريدون يا بنى؟ قالوا: نُريدُ أن تدعوَ اللهَ لنا، فإذا جاءك الوحى من الله بأنه قد عفا عما صنعنا قرّت أعيننا، واطمأنت قلوبنا، وإلا فلا قُرّة عين فى الدنيا أبداً لنا. قال: فقام الشيخ فاستقبل القبلة، وقام يوسف خلف أبيه، وقاموا خلفهما أذلَّة خاشعين. قال: فدعا وأمَّن يوسف، فلم يُجبْ فيهم عشرين سنة ـ قال صالح المرى[(٦)]: يخيفهم ـ قال: حتى إذا كان رأس العشرين نزل جبريل، عليه السلام، على يعقوب فقال: إن الله بعثنى إليك أبشرك بأنه قد أجاب دعوتك فى ولدك، وأنه قد عفا عما

---

(١) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٢) المسند (٥/٤٢٧).

(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٥٧/٥٤) من حديث أبى هريرة بلفظ «والذى نفسى بيده لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل على القبر فيتمرغ عليه ويقول: يا ليتنى كنت مكان صاحب هذا القبر، وليس به الدين إلا البلاء».

(٤) زيادة من ت، أ.

(٥) فى هـ، ت، أ: «شمله بعينه» والمثبت من الطبرى.

(٦) فى ت: «المزى».

صنعوا، وأنه قد اعتقد مواثيقهم من بعدك على النبوة[١].

هذا الأثر موقوف عن أنس، ويزيد الرقاشى وصالح المرى[٢] ضعيفان جداً.

وذكر السدى: أن يعقوب، عليه السلام، لما حضره الموت، أوصى إلى يوسف بأن يدفن عند إبراهيم وإسحاق، فلما مات صَبَّره وأرسله إلى الشام، فدفن عندهما، عليهم[٣] السلام.

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (١٠٤) ﴾.

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه، لما قص عليه نبأ إخوة يوسف، وكيف رفعه الله عليهم، وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم، مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام: هذا وأمثاله يا محمد من أخبار الغيوب السابقة، ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ ونعلمك به لما فيه من العبرة لك والاتعاظ لمن خالفك، ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ حاضراً عندهم ولا مشاهدا لهم ﴿ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ أى: على إلقائه فى الجب، ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ به، ولكنا أعلمناك به وحيا إليك، وإنزالا عليك، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [القصص: ٤٤]. إلى أن قال: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٤٦]، وقال: ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [القصص: ٤٥]، وقال: ﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ . إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [ص: ٦٩، ٧٠].

يقرر تعالى أنه رسوله، وأنه قد أطلعه على أنباء ما قد سبق مما فيه عبرة للناس ونجاة لهم فى دينهم ودنياهم؛ ومع هذا ما آمن أكثر الناس؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، وقال: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أى: وما تسألهم يا محمد على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد من أجر، أى: من جُعَالة ولا أجرة على ذلك، بل تفعله ابتغاء وجه الله، ونصحا لخلقه.

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ أى: يتذكرون به ويهتدون، وينجون به فى الدنيا والآخرة.

---

(١) تفسير الطبرى (١٦/ ٢٨١).

(٢) فى ت: «المزى». (٣) فى ت: «عليهما».

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦) أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٠٧) ﴾.

يخبر تعالى عن [غفلة][١] أكثر الناس عن التفكر فى آيات الله ودلائل توحيده، بما خلقه الله فى السموات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت، وسيارات وأفلاك دائرات، والجميع مسخرات، وكم فى الأرض من قطع متجاورات وحدائق وجنات وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وأمواج متلاطمات، وقفار شاسعات، وكم من أحياء وأموات، وحيوانات ونبات، وثمرات متشابهة ومختلفات، فى الطعوم والروائح والألوان والصفات، فسبحان الواحد الأحد، خالق أنواع المخلوقات، المتفرد بالدوام والبقاء والصمدية ذى الأسماء والصفات.

وقوله: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾: قال ابن عباس: من إيمانهم، إذا قيل لهم: من خلق السموات؟ ومن خلق الأرض؟ ومن خلق الجبال؟ قالوا: «الله»، وهم مشركون به. وكذا قال مجاهد، وعطاء وعكرمة، والشعبى، وقتادة، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وهكذا فى الصحيحين[٢]: أن المشركين كانوا يقولون فى تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك. وفى الصحيح: أنهم كانوا إذا قالوا: «لبيك لا شريك لك» يقول رسول الله ﷺ: «قَدْ قَدْ»، أى حَسْبُ حَسْبُ، لا تزيدوا على هذا[٣].

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣]، وهذا هو الشرك الأعظم الذى يعبد مع الله غيره، كما فى الصحيحين. عن ابن مسعود قلت: يا رسول الله، أىّ الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندا وهو خلَقَكَ»[٤].

وقال الحسن البصرى فى قوله: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ قال: ذاك المنافق يعمل إذا عمل رياء الناس، وهو مشرك بعمله ذاك، يعنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء: ١٤٢].

وثمَّ شرك آخر خفى لا يشعر به غالباً فاعله، كما روى حماد بن سلمة، عن عاصم بن أبى النَّجُود، عن عُرْوَةَ قال: دخل حذيفة على مريض، فرأى فى عضده سيراً فقطعه ـ أو: انتزعه ـ ثم قال: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾.

---

(١) زيادة من ت، أ.

(٢) فى ت، أ: «فى صحيح مسلم».

(٣) صحيح مسلم برقم (١١٨٥/٢٢).

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٤٧٧) وصحيح مسلم برقم (٦٨).

وفى الحديث: «من حلف بغير الله فقد أشرك». رواه الترمذى وحسَّنَه من رواية ابن عمر[(١)].

وفى الحديث الذى رواه أحمد وأبو داود وغيره، عن ابن مسعود، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرُّقَى والتَّمائِم والتِّوَلَة شرْك»[(٢)].

وفى لفظ لهما: «[الطِّيَرة شرك][(٣)] وما منَّا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل»[(٤)].

ورواه الإمام أحمد بأبسط من هذا فقال: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عمرو بن مُرّة، عن يحيى الجزار[(٥)]، عن ابن أخى، زينب [عن زينب][(٦)] امرأة عبد الله بن مسعود قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح[(٧)] وبزق كراهية أن يهجم منا على أمر يكرهه، قالت: وإنه جاء ذات يوم فتنحنح وعندى عجوز ترقينى من الحُمْرَة فأدخلتها تحت السرير، قالت: فدخل فجلس إلى جانبى، فرأى فى عنقى خيطا، قال: ما هذا الخيط؟ قالت: قلت: خيط رُقِى لى فيه. قالت: فأخذه فقطعه، ثم قال: إن آل عبد الله لأغنياءٌ عن الشرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقى والتمائم والتِّوَلَة شرك». قالت، قلت له: لم تقول هذا وقد كانت عينى تقذف، فكنت أختلف إلى فلان اليهودى يرقيها، فكان إذا رقاها سكنت، قال: إنما ذاك من الشيطان. كان ينخسها بيده، فإذا رقيتها كف عنها: إنما كان يكفيك أن تقولى كما قال رسول الله ﷺ: «أذهب البأس رب الناس، اشف وأنت الشافى، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سَقَمًا»[(٨)].

وفى حديث آخر رواه الإمام أحمد، عن وَكِيع، عن ابن أبى ليلى، عن عيسى بن عبد الرحمن قال: دخلنا على عبد الله بن عُكَيْم[(٩)]، وهو مريض نعوده، فقيل له: تَعَلَّقتَ شيئا؟ فقال: أتعلق شيئا! وقد قال رسول الله ﷺ: «من تَعَلَّق شيئا وُكِلَ إليه»[(١٠)]. ورواه النسائى عن أبى هريرة[(١١)].

وفى مسند الإمام أحمد، من حديث عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «من علَّق تميمة

---

(١) سنن الترمذى برقم (١٥٣٥).

(٢) المسند (١/ ٣٨١) وسنن أبى داود برقم (٣٨٨٣) ورواه ابن ماجه فى السنن برقم (٣٥٣٠).

(٣) زيادة من ت، أ، والمسند وسنن أبى داود.

(٤) المسند (١/ ٣٨٩) وسنن أبى داود برقم (٣٩١٠).

(٥) فى ت، أ: «يحيى بن الجزار».

(٦) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٧) فى ت: «تنجيح».

(٨) المسند (١/ ٣٨١).

(٩) فى ت: «حكيم».

(١٠) المسند (٤/ ٣١٠) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢٠٧٢) من طريق عبد الرحمن بن أبى ليلى به، وقال الترمذى: «وحديث عبدالله بن حكيم إنما نعرفه من حديث عبد الرحمن بن أبى ليلى، وعبد الله بن حكيم لم يسمع النبى ﷺ، وكان فى زمن النبى ﷺ يقول: «كتب إلينا رسول الله ﷺ».

(١١) سنن النسائى (٧/ ١١٢).

فقد أشرك» وفى رواية: «من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تَعلَّق ودَعَةً فلا وَدَعَ الله له»[١].

وعن العلاء، عن أبيه، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، ومن عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشِرْكه». رواه مسلم[٢].

وعن أبى سعيد بن أبى فَضَالة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه، ينادى مناد: من كان أشرك فى عمل عمله لله فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك». رواه أحمد[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا لَيْث، عن يزيد ـ يعنى: ابن الهاد ـ عن عمرو، عن محمود بن لبيد، أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخْوَف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر». قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء، يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون فى الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء»[٤].

وقد رواه إسماعيل بن جعفر، عن عمرو بن أبى عمرو مولى المطلب، عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لَبِيد، به[٥].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، أنبأنا ابن لَهِيعة، أنبأنا ابن هُبَيْرة، عن أبى عبد الرحمن الحُبُلى، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «من رَدّته الطِّيَرَةُ من حاجة، فقد أشرك». قالوا: يا رسول الله، ما كفارة ذلك؟ قال: «أن يقول أحدهم: اللهم لا خير إلا خيرك[٦]، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك»[٧].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا عبد الملك بن أبى سليمان العَرْزَمى، عن أبى على ـ رجل من بنى كاهل ـ قال: خطبنا أبو موسى الأشعرى فقال: يا أيها الناس، اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من دَبِيب النمل. فقام عبد الله بن حَزْن وقيس بن المضارب فقالا: والله لتخرجن[٨] مما قلت أو لنأتين عمر مأذونا لنا أو غير مأذون، قال: بل أخرج مما قلت، خطبنا رسول

---

(١) المسند (٤/ ١٥٦) وقال المنذرى فى الترغيب (٤/ ٣٠٧): «رجاله ثقات».

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٩٨٥).

(٣) المسند (٤/ ٢١٥).

(٤) المسند (٥/ ٤٢٨) وحسنه الحافظ ابن حجر فى بلوغ المرام.

(٥) رواه البغوى فى شرح السنة (١٤/ ٣٣٣) من طريق على بن حجر، عن إسماعيل بن جعفر به.

(٦) فى ت: « لا غير إلا غيرك».

(٧) المسند (٢/ ٢٢٠) ورواه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة (ص٢٩٣) من طريق ابن وهب، عن ابن لهيعة به، فصح الحديث بحمد الله.

(٨) فى ت: «ليخرجنَّ».

الله ﷺ [ذات يوم][١] فقال: «أيها الناس، اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل». فقال له من شاء الله أن يقول: فكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟ قال: «قولوا: اللهم إنا نعوذ بك [من][٢] أن نشرك بك شيئا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه»[٣].

وقد روى من وجه آخر، وفيه أن السائل فى ذلك هو الصدّيق، كما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى، من حديث عبد العزيز بن مسلم، عن لَيْث بن أبى سليم، عن أبى محمد، عن مَعْقِل بن يَسَار قال: شهدت النبى ﷺ ـ أو قال: حدثنى أبو بكر الصديق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الشرك أخفى فيكم من دبيب النمل». فقال أبو بكر: وهل الشرك إلا من دعا مع الله إلها آخر؟ فقال رسول الله ﷺ: «الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل». ثم قال: «ألا أدلّك على ما يُذهب عنك صَغِير ذلك وكبيره؟ قل: اللهم، أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم»[٤].

وقد رواه الحافظ أبو القاسم البغوى، عن شيبان بن فَرُّوخ، عن يحيى بن كثير، عن الثورى، عن إسماعيل بن أبى خالد، عن قيس بن أبى حازم، عن أبى بكر الصديق قال: قال رسول الله ﷺ: «الشرك أخفى فى أمتى من دبيب النمل على الصفا». قال: فقال أبو بكر: يا رسول الله، فكيف النجاة والمخرج من ذلك؟ فقال: «ألا أخبرك بشىء إذا قلتَه برئتَ من قليله وكثيره وصغيره وكبيره؟». قال: بلى، يا رسول الله، قال: «قل: اللهم، إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم»[٥].

قال الدارقطنى: يحيى بن كثير هذا يقال له: «أبو النضر»، متروك الحديث.

وقد روى الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذى، وصححه، والنسائى، من حديث يعلى بن عطاء، سمعت عمرو بن عاصم[٦]، سمعت أبا هريرة قال: قال أبو بكر الصديق، رضى الله عنه: يارسول الله، علمنى شيئا أقوله إذا أصبحتُ، وإذا أمسيتُ، وإذا أخذت مضجعى. قال: «قل: اللهم، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، ربّ كل شىء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسى، ومن شر الشيطان وشركه»[٧].

وزاد أحمد فى رواية له من حديث ليث بن أبى سليم، [عن مجاهد][٨]، عن أبى بكر قال:

(١، ٢) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٣) المسند (٤/ ٤٠٣).

(٤) مسند أبى يعلى (١/ ٦٢) ورواه ابن جريج عن ليث، عن أبى محمد، عن حذيفة نحوه، وأخرجه أبو يعلى فى المسند (١/ ٦٠) وأبو محمد مجهول، وليث بن أبى سليم ضعيف.

(٥) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٧/ ١١٢) من طريق يحيى بن محمد البخترى، عن شيبان بن فروخ به نحوه، وقال: «تفرد به عن الثورى يحيى بن كثير».

(٦) فى هـ، أ: «عاص» والمثبت من ت والمسند.

(٧) المسند (١/ ٩) وسنن أبى داود برقم (٥٠٦٧) وسنن الترمذى برقم (٣٣٩٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٧٦٩١).

(٨) زيادة من ت،أ.

أمرني رسول الله ﷺ أن أقول... فذكر هذا الدعاء وزاد في آخره: «وأن أقترف على نفسي سُوءاً أو أجُرّه إلى مسلم»(١).

وقوله: ﴿ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ أي: أفأمن هؤلاء المشركون [بالله](٢) أن يأتيهم أمر يغشاهم من حيث لا يشعرون، كما قال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ . أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ. أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ٤٥-٤٧]، وقال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ. أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ . أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٧ ـ ٩٩].

﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) ﴾.

يقول [الله](٣) تعالى لعبده ورسوله إلى الثقلين: الإنس والجن، آمراً له أن يخبر الناس: أن هذه سبيله، أي طريقه ومسلكه وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بها على بَصيرة من ذلك، ويقين وبرهان، هو وكلّ من اتبعه، يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان شرعي وعقلي.

وقوله: ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ أي: وأنزّه الله وأجلّه وأعظّمه وأقدّسه، عن أن يكون له شريك أو نظير، أو عديل أو نديد، أو ولد أو والد أو صاحبة، أو وزير أو مشير، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه عن ذلك كلّه علوا كبيراً، ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠٩) ﴾.

يخبر تعالى أنه إنما أرسلَ رسُلَه من الرجال لا من النساء. وهذا قول جمهور العلماء، كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة: أن الله تعالى لم يُوحِ إلى امرأة من بنات بني آدم وَحي تشريع.

وزعم بعضهم: أن سارة امرأة الخليل، وأم موسى، ومريم أم عيسى نبيات، واحتجوا بأن الملائكة

---

(١) المسند (١/ ١٤).

(٢) زيادة من ت، أ.

(٣) زيادة من أ.

بشرت سارة بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، وبقوله: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ الآية [القصص: ٧]، وبأن الملك جاء إلى مريم فبشرها بعيسى، عليه السلام، وبقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ . يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٢، ٤٣].

وهذا القدر حاصل لهن، ولكن لا يلزم من هذا أن يكن نبيات بذلك، فإن أراد القائل بنبوتهن هذا القدر من التشريف، فهذا لا شك فيه، ويبقى الكلام معه فى أن هذا: هل يكفى فى الانتظام فى سلك النبوة بمجرده أم لا؟ الذى عليه [أئمة][1] أهل السنة والجماعة، وهو الذى نقله الشيخ أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى عنهم: أنه ليس فى النساء نبية، وإنما فيهن صديقات، كما قال تعالى مخبرا عن أشرفهن مريمَ بنت عمران حيث قال: ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ ﴾ [المائدة: ٧٥]، فوصفها فى أشرف مقاماتها بالصدّيقية، فلو كانت نبيّة لذكر ذلك فى مقام التشريف والإعظام، فهى صديقة بنص القرآن.

وقال الضحاك، عن ابن عباس فى قوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي[2] إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ أى: ليسوا من أهل السماء كما قلتم. وهذا القول من ابن عباس يعتضد بقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ ﴾ الآية [الفرقان: ٢٠] وقوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ . ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨، ٩]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ الآية [الأحقاف: ٩].

وقوله: ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾: المراد بالقرى: المدن، لا أنهم من أهل البوادى، الذين هم أجفى الناس طباعا وأخلاقا. وهذا هو المعهود المعروف أن أهل المدن أرقّ طباعا، وألطف من أهل سوادهم، وأهل الريف والسواد أقرب حالا من الذين يسكنون فى البوادى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﴾ [التوبة: ٩٧].

وقال قتادة فى قوله: ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾: لأنهم أعلم وأحلم من أهل العمود.

وفى الحديث الآخر: أن رجلا من الأعراب أهدى لرسول الله ﷺ ناقة، فلم يزل يعطيه ويزيده حتى رضى، فقال رسول الله ﷺ: «لقد هَمَمْتُ ألا أتّهبَ هِبَةً إلا من قرشى، أو أنصارى، أو ثقفى، أو دَوْسِىّ»[3].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا شعبة، عن الأعمش، عن يحيى بن وثاب، عن شيخ

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى ت: «يوحى».

(٣) رواه أحمد فى المسند (١/ ٢٩٥) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما.

من أصحاب رسول الله ﷺ ـ قال الأعمش: هو [ابن][١] عمر، عن النبى ﷺ أنه قال: «المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم، خير من الذى لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم»[٢].

وقوله: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ** ﴾ [يعنى: هؤلاء المكذبين لك يا محمد فى الأرض،][٣] ﴿ **فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ أى: من الأمم المكذبة للرسل، كيف دمر الله عليهم، وللكافرين أمثالها، كقوله: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾ [الحج: ٤٦]، فإذا استمعوا[٤] خبر ذلك، رأوا أن الله قد أهلك الكافرين ونجى المؤمنين، وهذه كانت سنته تعالى فى خلقه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا**[٥] ﴾ أى: وكما أنجينا المؤمنين فى الدنيا، كذلك كتبنا لهم النجاة فى الدار الآخرة أيضا، وهى خير لهم من الدنيا بكثير، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ . يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ** ﴾ [غافر: ٥٠، ٥١].

وأضاف الدار إلى الآخرة فقال: ﴿ **وَلَدَارُ الآخِرَةِ** ﴾، كما يقال: «صلاة الأولى» و«مسجد الجامع» و«عام الأول» و«بارحة الأولى» و«يوم الخميس». قال الشاعر:

أَتَمْدَحُ فَقْعَساً وتُذم[٦] عَبْساً ... ألاَ لله أمّكَ من هَجين

ولو أقْوتْ علَيك ديارُ عَبْسٍ ... عَرَفْتَ الذلّ عرفانَ اليَقين[٧]

﴿ **حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠)** ﴾.

يخبر تعالى أن نصره ينزل على رسله، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله تعالى فى أحوج الأوقات إلى ذلك، كما فى قوله تعالى: ﴿ **وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ** ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وفى قوله: ﴿ **كُذِبُوا** ﴾ قراءتان، إحداهما بالتشديد: «قد كُذّبوا»، وكذلك كانت عائشة، رضى الله عنها، تقرؤها، قال البخارى:

حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن صالح، عن ابن شهاب قال:

---

(١) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٢) المسند (٢/ ٤٣).

(٣) زيادة من ت.

(٤) فى ت، أ: «استعملوا».

(٥) فى ت، أ: «يتقون» وهو خطأ.

(٦) فى ت: «وتمدح».

(٧) البيتان فى تفسير الطبرى (١٦/ ٢٩٥).

أخبرني عروة بن الزبير، عن عائشة قالت له وهو يسألها عن قول الله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُل ﴾، قال: قلت: أكُذِبوا أم كُذِّبوا؟ فقالت عائشة: كُذِّبوا. فقلت: فقد استيقنوا أن قومهم قد كذَّبوهم فما هو بالظن؟ قالت: أجل، لعمرى لقد استيقنوا بذلك. فقلت لها: وظنوا أنهم قد كذبوا؟ قالت[١]: معاذ الله، لم تكن[٢] الرسل تظن ذلك بربها. قلت: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم، فطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر، ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُل ﴾ ممّن كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذَّبوهم، جاءهم نصر الله عند ذلك.

حدثنا أبو اليمان، أنبأنا شعيب، عن الزهرى قال: أخبرنا عُرْوَة، فقلت: لعلها قد كُذِبوا مخففة؟ قالت: معاذ الله. انتهى ما ذكره[٣].

وقال ابن جُرَيْج أخبرنى ابن أبى مُلَيْكَة: أن ابن عباس قرأها: ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ خفيفة ـ قال عبد الله هو ابن مُلَيْكة: ثم قال لى ابن عباس: كانوا بشراً[٤]، وتلا ابن عباس: ﴿ حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤]، قال ابن جريج: وقال لى ابن أبى مليكة: وأخبرنى عروة عن عائشة: أنها خالفت ذلك وأبته، وقالت: ما وعد الله محمداً ﷺ من شيء إلا قد علم أنه سيكون حتى مات، ولكنه لم يزل البلاء بالرسل حتى ظنوا أنَّ من معهم من المؤمنين قد كذَّبوهم. قال ابن أبى مليكة فى حديث عروة: كانت عائشة تقرؤها « وظنوا أنهم قد كُذِّبوا» مثقلة، للتكذيب.

وقال ابن أبى حاتم: أنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، أنا ابن وهب، أخبرنى سليمان بن بلال، عن يحيى بن سعيد قال: جاء إنسان إلى القاسم بن محمد فقال: إن محمد بن كعب القرظى يقول[٥] هذه الآية: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾، فقال القاسم: أخبره عنى أنى سمعت عائشة زوج النبى ﷺ تقول: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾، تقول: كذبتهم أتباعهم. إسناد صحيح أيضا.

والقراءة الثانية بالتخفيف، واختلفوا فى تفسيرها، فقال ابن عباس ما تقدم، وعن ابن مسعود، فيما رواه سفيان الثورى، عن الأعمش، عن أبى الضُّحى، عن مسروق، عن عبد الله أنه قرأ: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾، مخففة، قال عبد الله: هو الذى تكره[٦].

وهذا عن ابن مسعود وابن عباس، رضى الله عنهما، مخالف لما رواه آخرون عنهما. أما ابن عباس فروى الأعمش، عن مسلم، عن ابن عباس فى قوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾، قال: لما أيست الرسل أن يستجيب لهم قومهم، وظن قومهم أن الرسل قد كذَّبوهم،

---

(١) فى ت، أ: «فقالت». (٢) فى ت: «يكن».

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٦٩٥، ٤٦٩٦).

(٤) فى أ: «بشروا». (٥) فى ت، أ: «يقرأ».

(٦) فى أ: «يكره».

جاءهم النصر على ذلك، ﴿ فَنُجِّيَ[(١)] مَن نَّشَاءُ ﴾.

وكذا روى عن سعيد بن جبير، وعمران بن الحارث السلمى، وعبد الرحمن بن معاوية وعلى بن أبى طلحة، والعوفى عن ابن عباس بمثله.

وقال ابن جرير: حدثنى المثنى، حدثنا عارم[(٢)] أبو النعمان، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا شعيب[(٣)]، حدثنا إبراهيم بن أبى حُرة[(٤)] الجزرىّ قال: سأل فتى من قريش سعيد بن جبير فقال له: يا أبا عبد الله، كيف هذا الحرف، فإنى إذا أتيت عليه تمنيت أنى لا أقرأ هذه السورة: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ ؟ قال: نعم، حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أن يصدِّقوهم، وظن المرسَلُ إليهم أن الرسل كَذَبوا. فقال الضحاك بن مزاحم: ما رأيت كاليوم قط رجلا يدعى إلى علم فيتلكأ! لو رحلت فى هذه إلى اليمن كان قليلا.

ثم روى ابن جرير أيضا من وجه آخر: أن مسلم بن يَسَار سأل سعيد بن جبير عن ذلك، فأجابه بهذا الجواب، فقام إلى سعيد فاعتنقه، وقال: فرَّج الله عنك كما فَرجت عنى.

وهكذا روى من غير وجه عن سعيد بن جبير أنه فسرها كذلك. وكذا فسرها مجاهد بن جَبْر، وغير واحد من السلف، حتى إن مجاهدا قرأها: «وظنوا أنهم قد كَذَبوا»، بفتح الذال. رواه ابن جرير، إلا أن بعض من فسرها كذلك يعيد الضمير فى قوله: ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ إلى أتباع الرسل من المؤمنين، ومنهم من يعيده إلى الكافرين منهم،أى: وظن الكفار أن الرسل قد كَذبوا ـ مخففة ـ فيما وعدوا به من النصر.

وأما ابن مسعود فقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا محمد بن فضيل[(٥)]، عن جَحش[(٦)] بن زياد الضبى، عن تميم بن حَذْلَم قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول فى هذه الآية: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ ﴾ من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم[(٧)]، وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كَذَبوا، بالتخفيف[(٨)].

فهاتان الروايتان عن كل من ابن مسعود وابن عباس، وقد أنكرت ذلك عائشة على من فسرها بذلك، وانتصر لها ابن جرير، ووجَّه المشهور عن الجمهور، وزيف القول الآخر بالكلية، وردَّهُ وأبَاه، ولم يقبله ولا ارتضاه، والله أعلم[(٩)].

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾.

---

(١) فى ت: «فننجى». (٢) فى ت: «غارم». (٣) فى أ: «شعبة».
(٤) فى ت، أ: «أبى حمزة». (٥) فى أ: «فضل». (٦) فى ت، أ: «محسن».
(٧) فى ت، أ: «لهم». (٨) فى ت، أ: «مخففة».
(٩) انظر ما قالته عائشة فى: تفسير الطبرى (١٦/ ٣٠٧، ٣٠٨) ورد الطبرى لقول ابن عباس (١٦/ ٣٠٦).

يقول تعالى: لقد كان فى خبر المرسلين مع قومهم، وكيف أنجينا[1] المؤمنين وأهلكنا الكافرين ﴿ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾، وهى العقول، ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ أى: وما كان لهذا القرآن أن يفترى من دون الله، أى: يكذب ويختلق؛ ﴿ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أى: من الكتب المنزلة من السماء، وهو يصدق ما فيها من الصحيح، وينفى ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير، ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من تحليل وتحريم، ومحبوب ومكروه، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهى عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات، والإخبار عن الأمور على الجلية، وعن الغيوب المستقبلة المجملة والتفصيلية، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات، وتنزيهه عن مماثلة المخلوقات، فلهذا كان: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ تهتدى به قلوبهم من الغى إلى الرشاد، ومن الضلالة إلى السداد، ويبتغون به الرحمة من رب العباد، فى هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد. فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم فى الدنيا والآخرة، يوم يفوز بالربح المُبْيَضَّة وجوههم الناضرة، ويرجع[2] المسودَّة وجوهُهم بالصفقة الخاسرة.

آخر تفسير سورة يوسف، ولله الحمد والمنة وبه المستعان وعليه التكلان، وهو حسبنا ونعم الوكيل

(١) فى ت، أ: «نجينا».

(٢) فى ت: «وترجع».

سورة يوسف

مكّيّة، وهي مائة وإحدى عشرة آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾

﴿الٓر﴾ / الكلامُ فيه وفي محلّه وفيما أريدَ بالإشارة والآيات والكتاب في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ عين ما سلَف في مطلع سورة يونس. [١٧٦ظ]

﴿ٱلْمُبِينِ﴾ مِن أبانَ بمعنى بانَ، أي: الظاهرِ أمرُه في كونه مِن عند الله تعالى وفي إعجازه بنوعيه، لا سيّما الإخبار عن الغيب، أو الواضحِ معانيه للعرب بحيث لا يشتبه عليهم حقائقه، ولا يلتبس لديهم دقائقُه؛ لنزوله على لغتهم، أو بمعنى بيّن، أي: المبيّنِ لِما فيه مِن الأحكام والشرائع وخفايا المُلك والمَلكوت وأسرار النشأتين في الدارين وغيرِ ذلك مِن الحِكَم والمعارف والقصص.

وعلى تقدير كون ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ عبارةً عن السورة فإبانته إنباؤه عن قصّة يوسف، فإنّه قد رُوي أنّ أحبار اليهود قالوا لرؤساء المشركين: سلوا محمّدًا صلّى الله عليه وسلّم: لماذا انتقل آل يعقوب عليه السلام مِن الشام إلى مصر؟ وعن قصّة يوسف عليه السلام، ففعلوا ذلك.[١] فيكون وصف ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ بالإبانة مِن قَبيل براعة الاستهلال لِما سيأتي.

ولمّا وُصِفَ الكتابُ بما يدلّ على الشرف الذاتي عُقِّب ذلك بما يدلّ على الشرف الإضافي فقيل: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: الكتابَ المنعوت بما ذُكر مِن النعوت الجليلة، فإن كان عبارةً عن الكلّ -وهو الأظهر الأنسب بقوله تعالى: ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾؛ إذ هو المشهور بهذا الاسم، المعروفُ بهذا النعت، المتسارعُ إلى الفهم

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٤٤٠/٢؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥٤/٣.

عند إطلاقهما- فالأمر ظاهر. وإن جُعل عبارةً عن السورة فتسميتها قرآنًا لِما عرفته فيما سلف. والسرّ في ذلك أنّه اسم جنس في الأصل يقع على الكلّ والبعض كالكتاب، أو لأنّه مصدر بمعنى المفعول، أي: أنزلناه حال كونه مقروءًا بلغتكم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: لِكي تفهموا معانيَه طُرًّا، وتحيطوا بما فيه مِن البدائع خُبرًا، وتطّلعوا على أنّه خارج عن طَوق البشر، مُنَزّلٌ مِن عند خلّاق القوى والقُدَر.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝﴾

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ أي: نخبرك ونحدّثك. واشتقاقه مِن "قصّ أثرَه" إذا اتّبعه؛ لأنّ مَن يَقُصّ الحديث يتبع ما حفِظ منه شيئًا فشيئًا، كما يقال: تَلا القرآن؛ لأنّه يتبع ما حفظ منه آيةً بعد آيةٍ.

﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ أي: أحسن الاقتصاص، فنصبه على المصدريّة. وفيه مع بيان الواقع إيهام لِما في اقتصاص أهل الكتاب مِن القُبح والخَلل. وتركُ المفعول إمّا للاعتماد على انفهامه مِن قوله عزّ وجلّ: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ﴾ أي: بإيحائنا ﴿إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: هذه السورةَ، فإنّ كونها موحاةً منبئٌ عن كون ما في ضِمنها مقصوصًا. والتعرّض لعنوان قرآنيّتها لتحقيق أنّ الاقتصاص ليس بطريق الإلهام أو الوحي غيرِ المتلوّ. وإمّا لظهوره مِن سؤال المشركين بتلقين علماء اليهود.

وأحسنيّتُه لأنّه قد اقتُصّ على أبدع الطرائق الرائعة الرائقة، وأعجبِ الأساليب الفائقة اللائقة، كما لا يكاد يخفى على مَن طالع القصّة مِن كتب الأوّلين والآخِرين، وإن كان لا يميّز الغثَّ / مِن السمين، ولا يفرّق بين الشمال واليمين. [١٧٧و]

وفي كلمة ﴿هَٰذَا﴾ إيماء إلى مغايرة ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ لِما في قوله تعالى: ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾[١] بأن يكون المراد بذلك المجموعَ، فتأمّل.

[١] في الآية السابقة.

أو نقصّ عليك أحسنَ ما يُقَصّ مِن الأنباءِ، وهو قصّة آل يعقوب عليه السلام، على أنّ ﴿ٱلْقَصَصِ﴾ "فَعَل" بمعنى المفعول، كالنبأ والخَبَر، أو مصدر سُمّي به المفعول، كالخَلق والصيد. ونصبُ ﴿أَحْسَنَ﴾ على المفعوليّة. وأحسنيّتها لتضمّنها مِن الحِكَم والعِبر ما لا يخفى كمالُ حُسنه.

﴿وَإِن كُنتَ﴾ ﴿إِن﴾ مخفّفة مِن الثقيلة، وضمير الشأن الواقعُ اسمًا لها محذوف، واللام فارقة، والجملة خبر. والمعنى: وإنّ الشأن كنتَ ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ مِن قبل إيحائنا إليك هذه السورة ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ عن هذه القصّة، لم تخطر ببالك، ولم تقرَع سمعَك قطّ. وهو تعليل لكونه موحًى. والتعبير عن عدم العلم بالغفلة لإجلال شأن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وإن غفِل عنه بعض الغافلين.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ﴾ نصب بإضمار "اذكر"،[1] وشروع في القصّة إنجازًا للوعد بأحسن الاقتصاص، أو بدل مِن ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ -على تقدير كونه مفعولًا- بدل الاشتمال، فإنّ اقتصاص الوقت المشتمل على المقصوص مِن حيث اشتمالُه عليه اقتصاصٌ للمقصوص. و"يوسف" اسم عبري لا عربي، لخلوّه عن سبب آخرَ غيرِ التعريف. وفتحُ السين وكسرُها على بعض القراءات[2] بناء على التلقّب به، لا على أنّه مضارع بُنِيَ للمفعول أو الفاعل مِن "آسَف"، لشهادة المشهورة بعُجمته.

﴿لِأَبِيهِ﴾ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيم عليهم السلام، وقد رُوي عنه عليه السلام: / «إنّ الكريم ابنَ[3] الكريم ابنِ[4] الكريم ابنِ[5] الكريم يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيم».[6] [١٧٧ظ]

---

١ وفي هامش م: وفي تذكير الوقت ما مرّ مرارًا مِن النكتة الرائعة. «منه».

٢ كسر السين قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة وعاصم والأعمش والحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٤٧.

٣ س: بن.

٤ س: بن.

٥ س: بن.

٦ صحيح البخاري، ١٥١/٤ (٣٣٩٠).

﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾ أصله "يا أبي"، فعُوّض عن الياء تاء التأنيث لتناسبهما في الزيادة، فلذلك قُلبَت هاءً في الوقف على قراءة ابن[١] كثير وأبي عمرو ويعقوب.[٢] وكسْرَتُها لأنّها عِوض حرفٍ يناسبها. وفَتَحها ابن عامر في كلّ القرآن؛[٣] لأنّها حركة أصلِها، أو لأنّ الأصل "يا أبتا"، فحُذف الألف وبقي الفتحة. وإنّما لم يجز "يا أبتي" لأنّه جمع بين العوض والمعوَّض. وقُرئ بالضمّ[٤] إجراءً لها مُجرى الألفاظ المؤنّثة بالتاء مِن غير اعتبار التعويض. وعدم تسكينِها كأصلها لأنّها حرف صحيح منزّل منزلة الاسم فيجب تحريكها ككاف الخطاب.

﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾ مِن الرؤيا، لا مِن الرؤية؛ لقوله: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾،[٥] ﴿هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ﴾.[٦] ولأنّ الظاهر أنّ وقوع مثل هذه الأمور البديعة في عالم الشهادة لا يختصّ برؤيته[٧] راءٍ دونَ راءٍ، فيكون طامّةً كبرى لا يخفى على أحد مِن الناس.

﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ رُوي عن جابر رضي الله عنه: أنّ يهوديًّا جاء إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم فقال: «أخبرني يا محمّد عن النجوم التي رآهنّ يوسف عليه السلام»، فسكت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فنزل جبريل عليه السلام فأخبره بذلك، فقال عليه السلام: «إذا أخبرتك بذلك هل تُسلم؟» قال: «نعم»، قال عليه الصلاة والسلام:[٨] «جَريانُ والطارق والذيّال وقابس وعمودان والفليق والمُصَبِّح والضَّروحُ[٩] والفَرغ ووَثّاب / وذو الكتفين [١٧٨و]
رآها يوسف، والشمس والقمر نزلن مِن السماء وسجدن له» فقال اليهوديّ: «إي واللهِ إنّها لأسماؤها».[١٠]

---

١ س: بن.

٢ وكذا أبو جعفر. انظر: النشر لابن الجزري، ١٣١/٢.

٣ وكذا أبو جعفر. انظر: النشر لابن الجزري، ٢٩٣/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤١.

٥ في الآية التالية.

٦ يوسف، ١٠٠/١٢.

٧ ط س: برؤية.

٨ س: عليه السلام.

٩ ط س: والضُّروج.

١٠ جامع البيان للطبري، ١١٣/١٠؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٩٨/٥. وأخرجه الحاكم في المستدرك، ٤٣٨/٤ (٨١٩٦)، بنحوه.

وقيل: الشمس والقمر أبواه. وقيل: أبوه وخالته، والكواكب إخوته. وإنّما أخّر الشمس والقمر عن الكواكب لإظهار مزيّتهما وشرفهما على سائر الطوالع بعطفهما عليها، كما في عطف جبريل وميكال على الملائكة عليهم السلام.[1] وقد جُوّز أن تكون "الواو" بمعنى "مع"، أي: رأيت الكواكبَ مع الشمس والقمر. ولا يبعد أن يكون ذلك إشارة إلى تأخّر ملاقاته عليه السلام لهما عن ملاقاته لإخوته.

وعن وَهب أن يوسف عليه السلام رأى وهو ابن سبعِ سنينَ أنّ إحدى عشرة عصًا طوالًا كانت مركوزةً في الأرض كهيئة الدارة، وإذا عصًا صغيرة تَثِبُ عليها حتّى اقْتَلَعَتْهَا وغلَبتها، فوصف ذلك لأبيه، فقال: إيّاك أن تذكر هذا لإخوتك. ثمّ رأى وهو ابن ثنتَي عشرة سنةً الشمسَ والقمرَ والكواكبَ تسجد له، فقصّها على أبيه، فقال: لا تَقُصَّها عليهم فيَبغُوا لك الغوائل.[2]

وقيل: كان بين رؤيا يوسف ومصيرِ إخوته إليه أربعون سنةً. وقيل: ثمانون.

﴿رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ استئناف ببيان حالهم التي رآهم عليها، كأنّ سائلًا سأل فقال: كيف رأيتَهم؟ فأجاب بذلك. وإنّما أُجريت مُجرى العقلاءِ في الضمير لوصفها بوصف العقلاء، أعني: السجود. وتقديم الجارّ والمجرور لإظهار العناية والاهتمام بما هو الأهمّ، مع ما في ضمنه مِن رعاية الفاصلة.

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝﴾

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ﴾ صغّره للشفقة، أو لها ولِصغر السنّ. وهو أيضًا / استئنافٌ مبنيّ [١٧٨ظ] على سؤال مَن قال: فماذا قال يعقوب بعد سماع هذه الرؤيا العجيبة؟ ولمّا عرف يعقوبُ عليه السلام مِن هذه الرؤيا أنّ يوسف[3] يُبلغه تعالى مبلغًا جليلًا مِن الحكمة ويصطفيه للنبوّة ويُنعم عليه بشرف الدارين كما فعل بآبائه الكرام

---

١ في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ الآية [البقرة، ٢/٩٨].

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ١٩٨/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٤٣/٢. | الغَوائِل: الدواهي. الصحاح للجوهري، «غيل».

٣ س + عليه السلام.

خاف عليه حسَد الإخوة وبغيَهم فقال صيانةً لهم مِن ذلك، وله مِن مُعاناة المشاقّ ومُقاساة الأحزان، وإن كان واثقًا بأنّ الله تعالى سيحقّق ذلك لا محالةَ، وطمعًا في حصوله بلا مشقّة: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾ هي ما في المنام، كما أنّ الرؤية ما في اليقظة، فُرّق بينهما بحرفَي التأنيث، كما في القربى والقربة.

وحقيقتها ارتسام الصورة المنحدِرة مِن أفق المتخيِّلة إلى الحسّ المشترَك. والصادقة منها إنّما تكون باتّصال النفس بالملكوت لِما بينهما مِن التناسب عند فراغها مِن تدبير البدن أدنى فراغ، فَتَتصوَّرُ[١] بما فيها ممّا يليق مِن المعاني الحاصلةِ هناك، ثمّ إنّ المتخيِّلة تُحاكيه بصورةٍ تُناسبه فترسلها إلى الحسّ المشترَك فتصير مشاهَدة، ثمّ إذا كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لا يكون التفاوت إلّا بالكلّيّة والجزئيّة استغنت الرؤيا عن التعبير، وإلّا احتاجت إليه.

﴿عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ﴾ نصب بإضمار "أن"، أي: فيفعلوا ﴿لَكَ﴾ أي: لأجلك ولإهلاكك ﴿كَيْدًا﴾ متينًا راسخًا لا تَقدر على التفصّي عنه، أو خفيًّا عن فهمك لا تَتصدّى لمدافعته. وهذا أوفق بمقام التحذير، وإن كان يعقوب عليه السلام يعلم أنّهم ليسوا / بقادرين على تحويل ما دلّت الرؤيا على وقوعه. [١٧٩و]
وهذا الأسلوب آكد مِن أن يقال: فيكيدوك كيدًا، إذ ليس فيه دلالةٌ على كون نفس الفعل مقصودَ الإيقاع. وقد قيل: إنّما جيء باللام لتضمينه معنى الاحتيال المتعدّي باللام ليفيد معنى المضمَّن، والمضمَّن فيه للتأكيد، أي: فيحتالوا لك ولإهلاكك حيلةً وكيدًا.

والمراد بإخوته ههنا الذين يخشى غوائلهم ومكائدهم مِن بني عَلّاته الأحد عشر، وهم: يهوذا، ورُوبين،[٢] وشَمعون، ولاوي، وزيلون،[٣] ويشسوخور،[٤] ودوان؛[٥] بنو يعقوب مِن ليّا بنت خالته. ودَانٌ، وتفثونا،[٦] وجادٌ، وآشُرَ؛ بنوه مِن سُرّيّتين

---

١ وفي هامش م: أي: يتشكّل. «منه».
٢ م: وروبيل [صُحّح في الهامش].
٣ م: وريالون [صُحّح في الهامش]. | وهو في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٠٧؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٦/١٣٨: "زبولون" بالباء.
٤ م: ويشجر [صُحّح في الهامش].
٥ م: ودينة [صُحّح في الهامش].
٦ م: ويفثالى [صُحّح في الهامش].

زُلْفَة وبُلْهَة.[١] وهؤلاء هم المشار إليهم بالكواكب الأحدَ عشر. وأمّا بِنيامين الذي هو شقيق يوسف عليه السلام وأمّهما راحيل التي تزوّجها يعقوب عليه السلام بعد وفاة أختها ليّا، أو في حياتها إذ لم يكن جمعُ الأختين إذ ذاك محرّمًا، فليس بداخل تحت هذا النهي، إذ لا يُتوهّم مضرّته ولا يُخشى معرّته، ولم يكن معدودًا معهم في الرؤيا، إذ لم يكن معهم في السجود ليوسف. والمراد نهيه عن اقتصاص الرؤيا عليهم كلًّا أو بعضًا.

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ ظاهر العداوة، فلا يألو جُهدًا في إغواء إخوتك وإضلالهم وحَملهم على ما لا خير فيه. وهو استئناف، كأنّ يوسف عليه السلام قال: كيف يصدر ذلك عن إخوتي الناشئين في بيت النبوّة؟ فقيل: إنّ الشيطان يحملهم على ذلك.

/ ولمّا نبّهه عليهما السلام على أنّ لرؤياه شأنًا عظيمًا يستتبع منافعَ وحذّره إشاعَتَهَا المؤدّيةَ إلى أن يحول إخوتُه بينها وبين ظهور آثارها وحصولها أَوْ يُوَعِّرُوا سبيلَ وصولها شَرَعَ في تعبيرها وتأويلها على وجه إجمالي فقال: [١٧٩ظ]

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثلَ ذلك الاجتباء البديع الذي شاهدت آثارَه في عالم المثال مِن سجود تلك الأجرام العلويّة النيّرة لك وبحسبه وعلى وَفقه ﴿يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ يختارك لجَناب كبريائه ويستنبئك -افتعال مِن "جَباه" إذا جمعه- ويصطفيك على أشراف الخلائق وسَرَاةِ الناس قاطبةً، ويُبرز مصداقَ تلك الرؤيا في عالم الشهادة حسبما عاينته مِن غير قصور.

---

[١] قال الشهاب الخفاجي: «الأسماء المذكورة منها ما هو معروف كـ"بِنيامين" بوزن إسرافيل، و"رُوبِين" بضمّ الراء وكسر الباء وياء ونون، وقال البيساني: الصحيح فيه "رُوبيل" باللام. ومنها ما هو غير معروف؛ لأنّها ليست بعربيّة، فلم يُقدَم على ضبطها مِن غير نقل». حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٢/٢٤٠.

والمراد بالتشبيه بيان المضاهاة المتحقّقة بين الصور المرئيّة في عالم المثال وبين ما وقعت هي صورًا وأشباحًا له مِن الكائنات الظاهرة بحسبها في عالم الشهادة، أي: كما سُخِّرت لك تلك الأجرام العظام يُسَخِّرُ لَكَ وجوهُ الناس ونواصيهم مذعنين لطاعتك خاضعين لك على وجه الاستكانة، ومراده بيان إطاعة أبويه وإخوتِه له، لكنّه إنّما لم يصرّح به حذرًا مِن إذاعته.

﴿وَيُعَلِّمُكَ﴾ كلام مبتدأ غير داخل تحت التشبيه، أرادَ به عليه السلام تأكيد مقالته وتحقيقها وتوطينَ نفس يوسف عليه السلام بما أُخبر به على طريقة التعبير والتأويل، كأنّه قال: وهو يعلّمك ﴿مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: ذلك الجنس مِن العلوم[1] أو طَرَفًا صالحًا منه[2] فتطّلِع على حقّيّة ما أقول. ولا يخفى ما فيه مِن تأكيد ما سبق، والبعثِ على تلقّي ما سيأتي بالقبول.

والمراد بـ﴿تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ تعبير الرؤى، إذ هي أحاديث المَلَك إن كانت صادقة، أو أحاديث النفس أو الشيطان إن لم يكن كذلك. و﴿ٱلْأَحَادِيثِ﴾ اسم جمع للحديث، كأباطيل اسم جمع للباطل، لا جمع "أُحدوثة". وقيل: كأنّهم جمعوا "حديثًا" على "أَحْدِثَة"، ثمّ جمعوا الجمع على "أحاديث"، كقطيع وأقطعة وأقاطيع. وقيل: هو تأويل غوامض كتب الله تعالى وسنن الأنبياء عليهم السلام. والأوّل هو الأظهر.[3]

وتسمية التعبير تأويلًا لأنّه جعلُ المرئي آيِلًا إلى ما يذكره المعبّر بصدَد التعبير ورَجْعُه إليه، فكأنّه عليه السلام أشار بذلك إلى ما سيقع مِن يوسف عليه السلام مِن تعبيره لرؤيا صاحبَي السجن ورؤيا الملِك، وكونِ ذلك ذريعةً إلى ما يبلّغه الله تعالى إليه مِن الرياسة العظمى التي عُبّر عنها بإتمام النعمة. / وإنّما [١٨٠و]
عرف يعقوب ذلك منه عليهما السلام مِن جهة الوحي.

أو أراد[4] كونَ هذه الخصلة سببًا لظهور أمره عليه السلام على الإطلاق، فيجوز حينئذ أن يكون معرفته عليه السلام بذلك بطريق الفراسة والاستدلال

---

[1] وفي هامش م: على أن يكون ﴿مِن﴾ للبيان. «منه».
[2] وفي هامش م: على أن يكون للتبعيض. «منه».
[3] ط س - وقيل: هو تأويلُ غوامضِ كتب الله تعالى وسَنن الأنبياء عليهم السلام، والأوّلُ هو الأظهر.
[4] وفي هامش م: معطوف على "أشار". «منه».

مِن الشواهد والدلائل والأَمارات والمخائل بأنّ مَن وفّقه الله تعالى لِمِثل هذه الرؤيا لا بدّ مِن توفيقه لتعبيرها وتأويل أمثالها، وتمييزِ ما هو آفاقي منها ممّا هو أنفسي. كيف لا، وهي تدلّ على كمال تمكّن نفسه عليه السلام في عالم المِثال وقوّةِ تصرّفاتها فيه؟ فيكون أقبلَ لفيضان المعارفِ المتعلّقة بذلك العالَم، وبما يحاكيه مِن الأمور الواقعة بحسبها في عالَم الشهادة، وأقوى وقوفًا على النِسَب الواقعة بين الصور المعايَنة في أحد ذَينك العالَمَين وبين الكائنات الظاهرة على وَفقها في العالم الآخر، وأنّ هذا الشأن البديع لا بدّ أن يكون أُنْموذَجًا لِظهور أمرِ مَن اتّصَف به ومدارًا لِجَريان أحكامه، فإنّ لكلّ نبيّ مِن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معجزةً بها يظهر آثاره ويجري أحكامه.

﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بأن يضمّ إلى النبوّة المستفادة مِن الاجتباء المُلكَ ويجعلَه تتمّةً لها. وتوسيط ذكر التعليم المذكور بينهما لكونه مِن لوازم النبوّة والاجتباء، ولرعاية ترتيب الوجود الخارجي، ولِما أشرنا إليه مِن كون أثره وسيلةً إلى تمام النعمة. ويجوز أن يعدّ نفس الرؤيا مِن نِعَمِ الله تعالى عليه، فيكون جميع النِّعم الواصلة إليه بحسبها مصداقًا لها تمامًا لتلك النعمة.

﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ وهم أهله مِن بنيه وغيرهم، فإنّ رؤيةَ يوسف عليه السلام إخوتَه كواكبَ يُهتدى بأنوارها مِن نِعم الله تعالى عليهم؛ لدلالتها على مصير أمرهم إلى النبوّة، فيقع كلّ ما يخرج / مِن القوّة إلى الفعل مِن [١٨٠ظ]
كمالاتهم بحسب ذلك تمامًا لتلك النعمة لا محالةَ. وأمّا إذا أريدَ بتمام النعمة المُلك فكونه كذلك بالنسبة إليهم باعتبار أنّهم يغتنمون آثاره مِن العزّ والجاه والمال.

﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ﴾ نصبَ على المصدريّة، أي: ويُتمّ نعمته عليك إتمامًا كائنًا كإتمام نعمته على أبويك، وهي نعمة الرسالة والنبوّة. وإتمامُها على إبراهيم عليه السلام باتّخاذه خليلًا وإنجائه مِن النار ومِن ذبح الولد. وعلى إسحاقَ بإنجائه مِن الذبح[١] وفدائه بذِبح عظيم، وبإخراج يعقوب والأسباط مِن صلبه.

---

[١] وفي هامش م: على إحدى الروايتين. «منه».

وكلّ ذلك نِعم جليلة وقعت تتمّةً لنعمة النبوّة. ولا يجب في تحقيق التشبيه كون ذلك في جانب المشبَّه به مثلَ ما وقع في جانب المشبَّه مِن كلّ وجه.

﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبلِ هذا الوقت، أو مِن قبلك. ﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ عطفُ بيان لـ﴿أَبَوَيْكَ﴾. والتعبير عنهما بالأب مِن كونهما أبا جدّه وأبا أبيه للإشعار بكمال ارتباطه بالأنبياء الكرام عليهم السلام، وتذكيرِ معنًى: "الولدُ سرّ أبيه"؛ ليطمئنّ قلبه بما أخبر به في ضِمن التعبير الإجمالي لرؤياه. والاقتصار في المشبَّه به على ذكر إتمام النعمة مِن غير تعرّض للاجتباء مِن باب الاكتفاء، فإنّ إتمام النعمة يقتضي سابقةَ النعمة المستدعية للاجتباءِ لا محالةَ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ استئناف لتحقيق مضمون الجمل المذكورة، أي: يفعل ما ذُكر لأنّه ﴿عَلِيمٌ﴾ بكلّ شيء، فيعلم مَن يستحقّ الاجتباء وما يتفرّع عليه مِن التعليم المذكورِ وإتمام النعمة العامّة على الوجه المذكور. ﴿حَكِيمٌ﴾ فاعل لكلّ شيء حسبما يقتضيه الحكمة والمصلحة، فيفعل ما يفعل كما يفعل جريًا على سَنن علمه وحكمته. والتعرّض لعنوان الربوبيّة في الموضعين لتربيةِ تحقّق وقوع ما ذُكر مِن الأفاعيل.[١]

[١٨١ي] / هذا وقد قيل في تفسير الآية الكريمة: أي: وكما اجتباك لمِثل هذه الرؤيا الدالّة على شرفٍ وعزٍّ وكمالِ نفسٍ يجتبيك ربّك للنبوّة والمُلك، أو لأمور عِظام، ويتمّ نعمته عليك بالنبوّة، أو بأن يصل نعمة الدنيا بنعمة الآخرة حيث جعلهم في الدنيا أنبياء وملوكًا، ونقلهم عنها إلى الدرجات العُلا في الجنّة، كما أتمّها على أبويك بالرسالة. فتأمّل، والله الهادي.

﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾

﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦ﴾ أي: في قصّتهم. والمراد بهم ههنا إمّا جميعُهم، فإنّ لبِنيامين أيضًا حصّةً مِن القصّة، أو بنو عَلّاته المعدودون فيما سلف، إذ عليهم تَدور رَحَاها.

---

[١] وفي هامش م: وهي الاجتباء، وتعليم تأويل الأحاديث، وإتمام النعمة. «منه».

﴿ءَايَٰتٌ﴾ علامات عظيمة الشأن دالّة على قدرة الله تعالى القاهرة وحكمتِه الباهرة ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ لكلّ مَن سأل عن قصّتهم وعرفها، أو الطالبين للآيات المعتبِرين بها، فإنّهم الواقفون عليها والمنتفعون بها دون مَن عداهم ممّن اندرج تحت قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف، ١٢/١٠٥]. فالمراد بالقصّة نفس المقصوص.

أو على نبوّته صلّى الله عليه وسلّم[١] لمَن سأله مِن المشركين أو اليهود عن قصّتهم فأخبرهم بذلك على ما هي عليه مِن غير سماع مِن أحدٍ ولا ممارسةِ شيء مِن الكتب، فالمراد بها اقتصاصُها، وجمع "الآيات" حينئذ للإشعار بأنّ اقتصاص كلّ طائفة مِن القصّة آيةٌ بيّنة كافية في الدلالة على نبوّته صلّى الله عليه وسلّم على نحو ما ذُكر في قوله تعالى: ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران، ٣/٩٧] على تقدير كونه عطف بيانٍ لقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ [آل عمران، ٣/٩٧]. لا لِما قيل مِن أنّه لتعدّد جهة الإعجاز لفظًا ومعنى.

وقرأ ابن كثير: "آيَةٌ"،[٢] وفي بعض المصاحف: "عِبْرَةٌ".[٣]

وقيل: إنّما قصّ الله تعالى على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم خبر يوسف وبَغْيَ إخوته عليه لِما رأى مِن بَغْيِ قومه عليه ليأتسيَ به.

﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ⑧﴾

﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ / وَأَخُوهُ﴾ أي: شقيقه بِنيامين، وإنّما لم يُذكَر باسمه تلويحًا بأنّ مدار المحبّة أُخوّتُه ليوسف مِن الطرفين، ألا يُرى إلى أنّهم كيف اكتفوا بإخراج يوسف مِن البَين مِن غير تعرّضٍ له حيث قالوا: ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾... إلخ. [١٨١ظ]

﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ وُحِّدَ الخبرُ مَع تعدّد المبتدأ؛ لأنّ "أفعلَ مِن كذا" لا يُفرَّق فيه بين الواحد وما فوقه، ولا بين المذكّر والمؤنّث. نعم إذا عُرِّف وجب الفرق،

---

١ السياق: دالّة على قدرة الله... أو على نبوّته صلّى الله عليه وسلّم...

٢ انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٣.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٤٥. وعزاه أبو حيّان إلى مصحف أُبيّ رضي الله عنه. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٦/٢٤١.

وإذا أضيف جاز الأمران. وفائدةُ لام الابتداء في ﴿لَيُوسُفُ﴾ تحقيق مضمون الجملة وتأكيده.

﴿وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ﴾ أي: والحال أنّا جماعة قادرون على الحلّ والعقد، أحقّاءُ بالمحبّة. و"العُصبَة" و"العِصابة": العشَرة مِن الرجال فصاعدًا، سُمُّوا بذلك لأنّ الأمور تُعصَب بهم. ﴿إِنَّ أَبَانَا﴾ في ترجيحهما علينا في المحبّة مع فضلنا عليهما، وكونهما بمَعزِل مِن كفاية الأمور بالصِّغَر والقِلّة. ﴿لَفِي ضَلَٰلٍ﴾ أي: ذهابٍ عن طريق التعديل اللائق وتنزيل كلّ منّا منزلته. ﴿مُّبِينٍ﴾ ظاهرِ الحال.

رُوي أنّه كان أحبَّ إليه لِما يرى فيه مِن مخائل الخير، وكانت إخوته يحسدونه، فلمّا رأى الرؤيا ضاعف له المحبّةَ بحيث لم يصبر عنه، فتضاعف حسدُهم حتّى حملهم على مباشرة ما قُصّ عنهم.[1]

﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾

﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا﴾ مِن جملة ما حُكي بعد قوله: ﴿إِذۡ قَالُواْ﴾.[2] وقد قاله بعض منهم مخاطبًا للباقين بقضيّة الصيغة، فكأنّهم رضوا بذلك، كما يروى أنّ القائل شمعون أو دَانٌ، والباقون كانوا راضين إلّا مَن قال: ﴿لَا تَقۡتُلُواْ﴾... إلخ،[3] فجُعِلوا كأنّهم القائلون، وأُدرِجوا تحت القول المسنَد إلى الجميع. أو قاله كلّ واحدٍ منهم مخاطبًا للبقيّة، وهو أدلُّ على مسارعتهم إلى ذلك القول. وتنكير ﴿أَرۡضٗا﴾ وإخلاؤها مِن الوصف للإبهام، أي: أرضًا مِن كُورة مجهولة بعيدة مِن العمران، ولذلك / نُصبت نصبَ الظروف المبهمة. [١٨٢و]

﴿يَخۡلُ﴾ بالجزم جواب للأمر، أي: يَخلُص ﴿لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ﴾ فيُقبِل عليكم بكلّيته ولا يلتفت عنكم إلى غيركم، ولا يساهمكم في محبّته أحد. فذِكر "الوجه" لتصوير معنى إقباله عليهم. ﴿وَتَكُونُواْ﴾ بالجزم عطفًا على ﴿يَخۡلُ﴾،

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٤٤٥/٢؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥٦/٣.

٢ في الآية السابقة.

٣ في الآية التالية.

أو بالنصب على إضمار "أن"، أو "الواو" بمعنى "مع"، مثل قوله: ﴿وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ﴾ [البقرة، ٤٢/٢]. وإيثار الخطاب في ﴿لَكُمۡ﴾ وما بعده للمبالغة في حملهم على القبول، فإنّ اعتناء المرء بشأن نفسه واهتمامَه بتحصيل منافعه أتمّ وأكمل.

﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ مِن بعد يوسف، أي: مِن بعد الفراغ مِن أمره، أو قتلِه، أو طرحِه.[١] ﴿قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾ تائبين إلى الله تعالى عمّا جَنيتم، أو صالحين مع أبيكم بإصلاح ما بينكم وبينه بعذرٍ تمهّدونه، أو صالحين في أمور دنياكم بانتظامها بعده بخلوّ وجه أبيكم.

﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ١٠﴾

﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ﴾ هو يهوذا وكان أحسنَهم فيه رأيًا، وهو الذي قال: ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ﴾... إلخ [يوسف، ٨٠/١٢]. وقيل: رُوبيل. وهو استئناف مبنيّ على سؤال مَن سأل وقال: أَتّفقوا[٢] على ما عُرض عليهم مِن خَصْلَتَي الضَبُعِ[٣] أم خالفهم في ذلك أحد؟ فقيل: قال قائل منهم: ﴿لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾، أظهره في مقام الإضمار استجلابًا لشفقتهم عليه أو استعظامًا لقتله وهو هو، فإنّه يُروى أنّه قال لهم: "القتل عظيم".[٤]

ولم يصرّح بنهيهم عن الخَصلة الأخرى، وأحاله على أولويّة ما عرضه عليهم بقوله: ﴿وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾ أي: في قَعره وغَوره. سُمّي بها لغيبته عن عين الناظر. و﴿ٱلۡجُبِّ﴾: البئر التي لم تُطْوَ بَعْدُ؛ لأنّها أرض جُبَّت جَبًّا مِن غير أن يُزادَ على ذلك شيء.

---

١ وفي هامش م: على أن يرجع الضمير إلى مصدر "اقتلوه أو اطرَحوه". «منه».

٢ في الأصول الخطّيّة: "اِاْتّفقوا". والصواب إسقاط همزة الوصل.

٣ وفي هامش م: يقال: "عرَض عليه خَصلتَي الضبُع" إذا خيّره بين خَصلتين مكروهتين. وأصله فيما يقال على ألسنة البهائم أنّ الضبُع صادت ثعلبًا، فقال لها الثعلب: مُنّي عليّ أمَّ عامر، قالت: أُخيّرك بين خَصلتين فاختر أيهما شئت، إمّا أن آكلك، وإمّا أن آكلك. مِن الخرائد. | فرائد الخرائد للخويي، ص ٣٥٥.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٤٤٧/٢؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥٦/٣.

[١٨٢ظ] وقرأ نافعٌ: "فِي غَيَابَاتِ الْجُبِّ" في الموضعين،[١] كأنّ لتلك الجُبّ / غَياباتٍ، أو أراد بـ﴿ٱلْجُبِّ﴾ الجنس، أي: في بعض غَيابات الجُبّ، وقُرِئ: "غَيَّابَاتِ"[٢] و"غَيْبَةِ".[٣]

﴿يَلْتَقِطْهُ﴾ يأخذه على وجه الصيانة عن الضياع والتلف، فإنّ الالتقاط أخذ شيء مشرِف على الضياع. ﴿بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ أي: بعض طائفة تسير في الأرض. و"اللام" في ﴿ٱلسَّيَّارَةِ﴾ كما في ﴿ٱلْجُبِّ﴾. وما فيهما وفي "البعض" مِن الإبهام لتحقيق ما يتوخّاه مِن ترويج كلامه بموافقته لغرضهم الذي هو تَنائي يوسف عنهم بحيث لا يُدرَى أثرُه ولا يُروَى خبرُه.

وقُرِئ: "تَلْتَقِطْهُ" على التأنيث،[٤] لأنّ بعض السيّارة سيّارة، كقوله:

كما شَرِقَتْ صدرُ القناةِ مِن الدمِ[٥]

ومنه: قُطِعَتْ بعضُ أصابعه.

﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ بمَشورتي. لم يبتَّ القولَ عليهم؛ بل إنّما عرض عليهم ذلك تأليفًا لقلبهم وتوجيهًا لهم إلى رأيه، وحذَرًا مِن نسبتهم له إلى التحكّم والافتيات. أو ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ ما أزمعتم عليه مِن إزالته مِن عند أبيه لا محالةَ. ولمّا كان هذا مظِنّةً لسؤال سائل يقول: "فما فعلوا بعد ذلك؟ هل قبلوا ذلك منه أم لا؟" فأجيب بطريق الاستئناف على وجهٍ أُدرج في تضاعيفه قبولُهم له بما سيجيء مِن قوله: ﴿وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾.[٦]

---

١ وكذا أبو جعفر المدني. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٣.

٢ قراءة شاذّة، ذكرها الكرماني بغير نسبة. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤١.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤١.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٢.

٥ صدره:

وتَشرَقَ بالقولِ الذي قد أذعتَهُ

وهو للأعشى الكبير في ديوانه، ص ١٢٣. يخاطب عمير بن عبد الله بن المنذر بن عبدان، من بني تَغلب. ومعنى "تَشرَقَ": ينقطع في حلقك. يريد: أنّه ينقطع كلامك حتّى لا تقدر على أن تتكلّم بما تسمعه من هجائي لك. "كما شَرِقَت صدر القناةِ"، يريد: أنّ الدمَ إذا وقع على صدر القناة وكثر عليها لم يتجاوز الصدر إلى غيره؛ لأنّه يجمد عليه. فأراد أنّ كلامه يقِف في حلقه كما يقِف الدم على صدر القناة فلا يذهب. شرح أبيات سيبويه للسيرافي، ١/٤٢.

٦ يوسف، ١٢/١٥.

﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَالَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ١١﴾

فقيل: ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا﴾ خاطَبوه بذلك تحريكًا لسلسلة النسب بينه وبينهم، وتذكيرًا لرابطة الأخوّة بينهم وبين يوسف؛ ليتسبّبوا بذلك إلى استنزاله عليه السلام عن رأيه في حفظه منهم لمّا أحسّ منهم بأمارات الحسد والبغي، فكأنّهم قالوا: ﴿مَالَكَ﴾ أي: أيّ شيء لك ﴿لَا تَأۡمَ۬نَّا﴾ أي: لا تجعلنا أُمَناءَ ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ مع أنّك أبونا / ونحن بنوك وهو أخونا ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ﴾ مريدون له الخيرَ [١٨٣و] ومشفقون عليه، ليس فينا ما يُخلّ بالنصيحة والمِقَةِ[١] قطّ. والقراءة المشهورة بالإدغام والإشمام، وعن نافع تركُ الإشمام.[٢] ومِن الشواذّ ترك الإدغام.[٣]

﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ١٢﴾

﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا﴾ إلى الصحراء ﴿يَرۡتَعۡ﴾ أي: يَتَّسعْ في أكل الفواكه ونحوها، فإن الرَّتْع هو الاتساع في الملاذّ. ﴿وَيَلۡعَبۡ﴾ بالاستباق والتناضل ونظائرهما ممّا يعدّ مِن باب التأهّب للغزو، وإنّما عَبّروا عن ذلك باللعب لكونه على هيئته تحقيقًا لِمَا رَامُوهُ مِن استصحاب يوسف عليه السلام بتصويرهم له بصورة ما يلائم حاله عليه السلام.

وقُرئ: "نَرْتَعْ وَنَلْعَبْ" بالنون.[٤] وقرأ ابن كثير: "نَرْتَعِ"[٥] مِن ارتعى. ونافع بالكسر والياء فيه وفي ﴿يَلۡعَبۡ﴾.[٦] وقُرئ: "يُرْتِعْ"[٧] مِن أرتَع ماشيتَه، و"يَرْتَعِ"

---

١ المِقة: المحبّة. الصّحاح للجوهري، «ومق».

٢ هي طريق شاذّة مرويّة عن قالون عنه، والجمهور على خلافه. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٠٤/١.

٣ أي: ترك الإدغام من غير روم. أمّا مع روم الضمّة فوجه صحيح لجميع القرّاء غير أبي جعفر. قال ابن الجزري: «أجمعوا على إدغامه، واختلفوا في اللفظ به؛ فقرأ أبو جعفر بإدغامه إدغامًا محضًا مِن غير إشارة؛ بل يلفظ بالنون مفتوحة مشدّدة. وقرأ الباقون بالإشارة، واختلفوا فيها؛ فبعضهم يجعلها رَومًا، فتكون حينئذ إخفاء، ولا يتمّ معها الإدغام الصحيح، وبعضهم يجعلها إشمامًا، فيُشير إلى ضمّ النون بعد الإدغام، فيصحّ معه حينئذ الإدغام». النشر لابن الجزري، ٣٠٣/١.

٤ قرأ بها أبو عمرو وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٩٣/٢.

٥ قرأ بها ابن كثير بخلف عن قنبل، والوجه الثاني له بإثبات ياء ساكنة بعد العين. انظر: النشر لابن الجزري، ٢٩٣/٢.

٦ وقرأ كذلك أبو جعفر. انظر: النشر لابن الجزري، ٢٩٣/٢.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي رجاء. انظر: المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٢٢٤/٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٢٤٥/٦.

بكسر العين "وَيَلْعَبُ" بالرفع على الابتداء.[١]

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ مِن أن يناله مكروه. أكّدوا مقالتهم بأصناف التأكيد مِن إيراد الجملة اسميّة، وتحليتها بـ"إنّ" و"اللام"، وإسناد الحفظ إلى كلّهم، وتقديم ﴿لَهُۥ﴾ على الخبر احتيالًا في تحصيل مقصدهم.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال مَن يقول: فماذا قال يعقوب عليه السلام؟ فقيل: قال: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ﴾ "اللام" للابتداء كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [النحل، ١٦/١٢٤].

﴿أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾ لشدّة مفارقته عليّ وقلّة صبري عنه، ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ لأنّ الأرض كانت مَذْأَبَةً.[٢] والحُزن: ألم القلب بفَوت المحبوب. والخوف: انزعاج النفس لنزول المكروه. / ولذلك أسند الأوّل إلى [١٨٣ظ]
الذهاب به المفوّت لاستمرار مصاحبته ومواصلته ليوسف، والثاني إلى ما يتوقّع نزوله مِن أكل الذئب. وقيل: رأى في المنام أنّه قد شدّ عليه عليه السلام ذئب، وكان يحذره فقال ذلك، وقد[٣] لقّنهم العلّةَ، «إنّ البلاء موكَّلٌ بالمنطِق».[٤]

وقرأ ابن كثير ونافع في رواية اليزيدي[٥] بالهمز على الأصل.[٦] وأبو عمرو وقفًا.[٧]

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن العلاء بن سيّابة. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٤٤٨.

[٢] أرضٌ مَذْأَبَةٌ، أي: ذاتُ ذِئاب. **الصحاح** للجوهري، «ذأب».

[٣] س: ولقد.

[٤] **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٤٤٨. | قوله: «إنّ البلاء موكّلٌ بالمنطقِ» أي: ربّما نطق الإنسان بما يكون فيه بلاء. **الأمثال** للهاشمي، ١/٩١. قال المفضّل: يقال: إنّ أوّل مَن قال ذلك أبو بكر الصدّيق رضي الله تعالى عنه فيما ذكره ابن عبّاس رضي الله عنهما. **مجمع الأمثال** للميداني، ١/١٧. وأخرجه القضاعي في **مسند الشهاب**، ١/١٦١ (٢٢٧)، مرفوعًا.

[٥] هو يحيى بن المبارك اليزيدي البصري، أبو محمّد (ت. ٢٠٢هـ/٨١٨م)، النحوي، المقرئ. عُرف باليزيدي لاتّصاله بيزيد بن منصور خال المهدي يؤدّب ولدَه. جوّد القرآن على أبي عمرو، وحدّث عنه وعن ابن جريج. وقرأ عليه الدوري والسوسي، وأحمد بن جبير الأنطاكي، وأبو أيّوب الخيّاط، وطائفة سواهم، وله اختيار كان يقرئ به أيضًا خالف فيه أبا عمرو في أماكن يسيرة، وكان ثقة علامة فصيحًا مفوّهًا، بارعًا في اللغات والآداب، أخذ عن الخليل وغيره، وله عدّة تصانيف، منها كتاب النوادر، وكتاب المقصور، وكتاب الشكل، وكتاب نوادر اللغة، >

وعاصم، وابنُ عامر.[8] وحمزةُ درجًا.[9] وقيل: اشتقاقه مِن "تذاءَبَت الريح" إذا هاجت مِن كلّ جانب. وقال الأصمعيّ: الأمر بالعكس، وهو أظهر لفظًا ومعنًى. ﴿وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ لاشتغالكم بالرتْع واللعب، أو لقِلّة اهتمامكم بحفظه.

﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ١٤﴾

﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: والحال أنّا جماعة كثيرة جديرة بأن يُعصَب بنا الأمور العظام، وتُكْفَى الخطوب بآرائنا وتدبيراتنا. واللام الداخلة على الشرط موطِّئة للقسَم.

وقوله: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ جواب مُجْزِئٌ عن الجزاء، أي: لَهالِكون ضعفًا وخَوَرًا وَعَجْزًا، أو مستحقّون للهلاك، إذ لا غَناءَ عندنا ولا جدوى في حياتنا، أو مستحِقّون لِأن يُدعَى علينا بالخَسار والدَّمار، ويقالَ: خسّرهم الله ودمّرهم حيث أكل الذئبُ بعضَهم وهم حُضور. وقيل: إن لم نقدر على حفظه -وهو أعزّ شيء عندنا- فقد هلكَت مَواشينا إذن وخَسِرناها.

وإنّما اقتصروا على جواب خوف يعقوب عليه السلام مِن أكل الذئب لأنّه السبب القويّ في المنع دون الحزن لِقصر مدّته بناءً على أنّهم يأتون به عن قريب.

< وكتاب في النحو مختصر. انظر: **معرفة القرّاء** للذهبي، ص ٩٠؛ **والأعلام** للزركلي، ١٦٣/٨.

٦ في العبارة سهو، والعبارة كما هي عند البيضاوي: «وقد همزَها على الأصل ابن كثير ونافع في رواية قالون، وفي رواية اليزيدي، وأبو عمرو وقفًا». **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٥٧/٣. ورواية اليزيدي عن نافع غير معروفة، ويحيى اليزيدي هو الراوي لقراءة أبي عمرو البصري. انظر: **النشر** لابن الجزري، ١٣٣/١. والهمز ثابت عن نافع من رواية قالون. انظر: **النشر** لابن الجزري، ٣٩٤/١.

٧ لأبي عمرو وجهان صحيحان، الهمز والإبدال. وكلاهما في الوصل والوقف. وأمّا القول بأنّ الإبدال له في الوقف دون الوصل فلا يصحّ، قال الحافظ ابن الجزري: «ليس في ذلك نقل يتّبع، ولا قياس يُستمع». انظر: **النشر** لابن الجزري، ٣٩٢/١.

٨ وكذا يعقوب قرأ بالهمز. وقرأ بإبدال الهمزة ياءً أبو جعفر والكسائي وخَلف ووَرش عن نافع، وهو أحد الوجهين عن أبي عمرو. انظر: **النشر** لابن الجزري، ٣٩٠/١-٣٩٤.

٩ قوله: "دَرَجًا" عائد إلى قراءة حمزة، دون قراءة عاصم وابن عامر. فإنّ حمزة الزيّات يقرأ بالهمز في الوصل، وبالإبدال في الوقف، وذلك بناءً على أصله في الهمز. انظر: **النشر** لابن الجزري، ٤٢٨/١.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝١٥﴾

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ﴾ أي: أزمَعوا ﴿أَن يَجۡعَلُوهُ﴾ مفعول لـ﴿أَجۡمَعُوٓاْ﴾. يقال: أجمع الأمرَ، ومنه: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ﴾ [يونس، ٧١/١٠]. / ولا يستعمل ذلك إلّا في الأفعال التي قوِيت الدواعي إلى فعلها. [١٨٤و]

﴿فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾ قيل: هي بئر بأرض الأردنّ. وقيل: بين مصر ومَدين. وقيل: على ثلاثة فراسخ مِن منزل يعقوب عليه السلام بكنعان التي هي مِن نواحي الأردنّ، كما أنّ مَدين كذلك. وأمّا ما يقال مِن أنّها بئر بيت المقدس[1] فيردّه التعليل بالتقاط السيّارة ومجيئُهم أباهم عِشاءَ ذلك اليوم، فإنّ بين منزل يعقوب[2] وبين بيت المقدس مراحلَ. وجواب لمّا محذوف إيذانًا بظهوره، وإشعارًا بأنّ تفصيلَه ممّا لا يحويه فلَك العبارة، ومُجمله فعلوا به مِن الأذيّة ما فعلوا.

يُروى أنّهم لمّا برزوا إلى الصحراء أخذوا يؤذونه ويضربونه حتّى كادوا يقتلونه، فجعل يصيح ويستغيث، فقال يهوذا: أما عاهدتُموني أن لا تقتلوه؟ فأتَوا به إلى البئر، فتعلّق بثيابهم، فنزعوها مِن يديه، فدَلَّوه فيها، فتعلّق بشَفيرها، فربطوا يديه، ونزعوا قميصه لِما عزموا عليه مِن تلطيخه بالدم احتيالًا لأبيه، فقال: يا إخوتاه ردّوا عليّ قميصي أَتَوارى به، فقالوا: ادع الشمس والقمر والأحدَ عشر كوكبًا تُؤنِسكَ. فدلَّوه فيها، فلمّا بلغ نصفها ألقَوه ليموت، وكان في البئر ماء فسقط فيه، ثمّ أوَى إلى صخرة فقام عليها وهو يبكي، فنادَوه وظنّ أنّها رحمة أدركَتْهم، فأجابهم، فأرادوا أن يرضَخوه فمنعهم يهوذا، وكان يأتيه بالطعام كلّ يوم.[3]

ويُروى أنّ إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار وجُرِّد عن ثيابه أتاه جبريل عليه السلام بقميص مِن حرير الجنّة فألبسه إيّاه، فدفعه إبراهيمُ إلى إسحاق،

---

[1] قاله قتادة. انظر: **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٠٠/٥؛ و**التفسير الوسيط** للواحدي، ٦٠٢/٢.

[2] ط س + عليه السلام.

[3] **جامع البيان** للطبري، ٢٩/١٣؛ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٠٢/٥.

وإسحاقُ إلى يعقوب، فجعله يعقوب في تَميمة، وعلّقها في عنق يوسف، / فجاءه جبريل عليه السلام فأخرجه مِن التميمة وألبسه[1] إيّاه.[2] [١٨٤ظ]

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ عند ذلك تبشيرًا له بما يئول إليه أمره وإزالةً لوَحشته وإيناسًا له. قيل: كان ذلك قبل إدراكه كما أُوحي إلى يحيى وعيسى. وقيل: كان إذ ذاك مدرِكًا. قال الحسَن: «كان له سبعَ عشرة سنةً».[3]

﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ أي: لَتتخلَّصنّ ممّا أنت فيه مِن سوء الحال، وضيق المجال، ولتُحدِّثَنّ إخوتك بما فعلوا بك، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بأنّك يوسف، لتَبائن حالَيك؛ حالِك هذا وحالِك يومئذ؛ لعلوّ شأنك، وكبرياء سلطانك، وبُعد حالك مِن أوهامهم.

وقيل: لبعد العهد المبدِّل للهيئات المغيِّر للأشكال. والأوّل أدخل في التسلية. رُوي أنّهم حين دخلوا عليه ممتارين فعرَفهم وهم له منكرون دعا بالصُّواع فوضعه على يده ثمّ نقَره فطَنّ، فقال: إنّه لَيُخبرني هذا الجامُ أنّه كان لكم أخٌ مِن أبيكم يقال له: يوسف، وكان يُدنيه دونكم، وأنّكم انطلقتم به وألقيتموه في غيابة الجبّ، وقلتم لأبيكم: أكله الذئب، وبِعتموه بثمن بَخْس.[4]

ويجوز أن يتعلّق ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بالإيحاء على معنى: أنّا آنسناه بالوحي، وأزلنا عن قلبه الوحشة التي أورثوه وهم لا يشعرون بذلك، ويحسبون أنّه مُرهَق مستوحِش لا أنيس له.

وقُرئ: "لَنُنَبِّئَنَّهُمْ" بالنون[5] على أنّه وعيد لهم، فقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ متعلِّق بـ﴿أَوْحَيْنَا﴾ لا غير.

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ١٦﴾

---

١ ط س: فألبسه.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٥٠؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/١٥٧.

٣ جامع البيان للطبري، ١٣/٣٦٠؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٢٥٩.

٤ جامع البيان للطبري، ١٣/٣٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٢٠١.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن سلام. شواذّ القراءات للكرماني، ص٢٤٣.

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ﴾ آخرَ النهار. وقُرئ: "عُشِيًّا"،[١] وهو تصغير عشيّ، و"عُشًى" بالضمّ والقصر،[٢] جمع "أعشى"، أي: عُشْوًا مِن البكاء.[٣] ﴿يَبۡكُونَ﴾ متباكين. رُوي أنّه لمّا سمع يعقوب عليه السلام بكاءهم فزع وقال: «ما لكم يا بَنيّ؟ وأين يوسف؟»[٤]

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾

[١٨٥و] ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾ أي: متسابقين في العَدْو أو الرمي. / وقد يشترك الافتعال والتفاعل، كالانتضال والتناضل ونظائرهما. ﴿وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ أي: ما نتمتّع به مِن الثياب والأزواد وغيرهما. ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾ عقيب ذلك مِن غير مضيّ زمان يُعتاد فيه التفقّد والتعهّد.

وحيث لا يكاد يُطرح المتاع عادةً إلّا في مقام يؤمَن فيه الغوائل لم يُعدّ تركه عليه السلام عنده مِن باب الغفلة وترك الحفظ الملتزَم، لا سيّما إذا لم يَبرَحُوه ولم يَغيبوا عنه. فكأنّهم قالوا: إنّا لم نقصّر في محافظته، ولم نغفُل عن مراقبته؛ بل تركناه في مَأمَننا ومَجمعنا بمرأى منّا؛ لأنّ ميدان السباق لا يكون عادةً إلّا بحيث يتراءى غايتاه، وما فارقناه إلّا ساعةً يسيرة، بيننا وبينه مسافة قصيرة فكان ما كان.

﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ بمصدّق لنا في هذه المقالة الدالّة على عدم تقصيرنا في أمره، ﴿وَلَوۡ كُنَّا﴾ عندك وفي اعتقادك ﴿صَٰدِقِينَ﴾ موصوفين بالصدق والثقة؛ لشدّة محبّتك ليوسف، فكيف وأنت سيّء الظنّ بنا، غيرُ واثق بقولنا؟

وكلمةُ "لو" في أمثال هذه المواقع لبيان تحقّق ما يفيده الكلام السابق مِن الحُكم الموجَب أو المنفي على كلّ حال مفروض مِن الأحوال المقارِنة له

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٤٥٠/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن كذلك. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٢٤٩/٦.

٣ العَشا: سوء البصر بالليل والنهار، وقد عَشِيَ يَعْشَى عَشًى، وهو عَشٍ وأَعْشَى، والأنثى عَشْواء، والعُشْوُ جمع الأَعْشَى. انظر: **لسان العرب** لابن منظور، «عشا».

٤ انظر: **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٠٢/٥؛ **والتفسير الوسيط** للواحدي، ٦٠٣/٢.

على الإجمال بإدخالها على أبعدها منه وأشدّها منافاةً له؛ ليظهر بثبوته أو انتفائه معه ثبوته أو انتفاؤه مع غيره مِن الأحوال بطريق الأولويّة، لِما أنّ الشيء متى تحقّق مع المُنافي القويّ فلَأن يتحقّق مع غيره أولى، ولذلك لا يذكر معه شيء مِن سائر الأحوال، ويُكتفَى عنه بذكر الواو العاطفة للجملة على نظيرتها المقابِلة لها الشاملة لجميع الأحوال المغايرة لها عند تعدّدها.

وقد مرّ تفصيله في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة، ١٧٠/٢]، وفي سورة الأعراف عند قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ [الأعراف، ٨٨/٧].

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾ محلُّه النصب على الظرفيّة مِن قوله: ﴿بِدَمٍ﴾ أي: جاءوا فوق قميصه بدم، كما يقول: جاء على جِماله بأحمال. أو على الحاليّة منه، والخلافُ في تقدّم الحال على المجرور فيما إذا لم يكن الحالُ ظرفًا.

﴿كَذِبٍ﴾ مصدر وُصف به "الدم" مبالغة، أو مصدر بمعنى المفعول، أي: مكذوب فيه، أو بمعنى: ذِي كذِب، أي: ملابِس للكذب. وقُرئ: "كَذِبًا"[١] على أنّه حال مِن الضمير، أي: جاءوا كاذبين، أو مفعول له. وقرأت عائشة رضي الله عنها بغير المعجمة،[٢] أي: كدِرٍ. وقيل: طريّ. قال ابن جنّي: «أصله مِن الكَدَب؛ وهو الفُوف؛ البياض الذي يخرج على أظفار الأحداث، كأنّه دم قد أثّر في قميصه».[٣]

[١٨٥ظ] رُوي أنّهم ذبحوا سَخْلةً ولطّخوه / بدمها، وزلّ عنهم أن يمزّقوه، فلمّا سمع يعقوب بخبر يوسف عليهما السلام صاح بأعلى صوته وقال: «أين القميص؟»

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ وابن أبي عبلة. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٢٥٠/٦؛ و**شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٤٣.

٢ أي: "كَدِبٍ" بالدال. قراءة شاذّة، ونسبها ابن جنّي إلى الحسَن، والكرماني إلى أبي السمّال. انظر: **المحتسب** لابن جنّي، ٣٣٥/١؛ و**شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٤٣.

٣ **المحتسب** لابن جنّي، ٣٣٥/١.

فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتّى خضّب وجهه بدم القميص، وقال: «تالله ما رأيت كاليوم ذئبًا أحلمَ مِن هذا، أكَل ابني ولم يمزّق عليه قميصه».[١]

وقيل: كان في قميص يوسف عليه السلام ثلاثُ آيات؛ كان دليلًا ليعقوب على كذِبهم، وألقاه على وجهه فارتدّ بصيرًا، ودليلًا على براءة يوسف[٢] حين قُدَّ مِن دُبرٍ.

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال، فكأنّه قيل: ما قال يعقوب؟ هل صدّقهم فيما قالوا أو[٣] لا؟ فقيل: قال: لم يكن ذلك. ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ﴾ أي: زيّنت وسهّلت، قاله ابن عبّاس رضي الله عنهما.[٤] والتسويل: تقدير شيء في النفس مع الطمَع في إتمامه. قال الأزهريّ: «كأنّ التسويل تَفعيل مِن سُول الإنسان؛ وهو أمنيّته[٥] التي يطلبها فتزيّن لطالبها الباطلَ وغيرَه. وأصله مهموز».[٦] وقيل: مِن السَّوَل، وهو الاسترخاء.

﴿أَمۡرٗاۖ﴾ مِن الأمور منكَرًا لا يوصَف ولا يعرف. ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾ أي: فأمري صبر جميل، أو فصبر جميل أجمل أو أمثل. وفي الحديث: «الصبر الجميل الذي لا شكوى فيه»،[٧] أي: إلى الخَلق، وإلّا فقد قال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف، ٨٦/١٢].

وقيل: سقط حاجباه على عينيه، فكان يرفعهما بعصابة، فقيل له: «ما هذا؟» قال: «طول الزمان وكثرة الأحزان»، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: «يا يعقوبُ، أتشكوني؟» قال: «يا ربّ خطيئة فاغفرها لي».[٨]

وقرأ أُبيّ: "فَصَبْرًا جَمِيلًا".[٩]

---

١ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢٠٣/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٥١/٢.

٢ ط س + عليه السلام.

٣ ط س: أم.

٤ اللباب لابن عادل، ٤٣/١١.

٥ س: أمنيّة.

٦ تهذيب اللغة للأزهري، باب السين واللام، «سول».

٧ جامع البيان للطبري، ٤٠/١٣؛ تفسير ابن أبي حاتم، ٢١١٢/٧.

٨ جامع البيان للطبري، ٤٢/١٣.

٩ قراءة شاذّة، مرويّة عنه رضي الله عنه، وعزاها الكرماني إلى الأشهب وأبي السَّمّال. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤٥١/٢؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٣.

﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ أي: المطلوب منه العون، وهو إنشاء منه عليه السلام للاستعانة المستمرّة. / ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ على إظهار حال ما تصفون، وبيانِ كونه كذبًا، وإظهارِ سلامته، فإنّه عَلَم في الكذب، قال سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات، ١٨٠/٣٧]، وهو الأليق بما سيجيء مِن قوله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف، ٨٣/١٢]. وتفسير "المستَعان عليه" باحتمال ما يصفون مِن هلاك يوسف والصبرِ على الرُّزْءِ فيه[1] يأباه تكذيبه عليه السلام لهم في ذلك، ولا يساعده الصيغة، فإنّها قد غلَبت في وصف الشيء بما ليس فيه كما أشيرَ إليه. [١٨٦و]

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿وَجَآءَتْ﴾ شروع في بيان ما جرى على يوسف في الجُبّ بعد الفراغ عن ذكر ما وقع بين إخوته وبين أبيه. والتعبير بالمجيء ليس بالنسبة إلى مكانهم، فإنّ كنعان ليس بالجانب المِصري مِن مَدين؛ بل إلى مكان يوسف. وفي إيثاره على المرور أو الإتيان أو نحوهما إيماء إلى كونه عليه السلام في الكرامة والزُّلفى عند مليك مقتدر.

والظاهر أنّ الجُبّ كان في الأَمَمِ المِيتاءِ،[2] فإنّ المتبادر مِن إسناد المجيء إلى السيّارة مطلقًا في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ -أي: رُفقة تسير مِن جهة مَدين إلى مِصر- وقوعُه باعتبار سيرهم المعتاد، وهو الذي يقتضيه قوله تعالى فيما سلف: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾.[3] وقد قيل: إنّه كان في قَفرة بعيدة مِن العمران لم يكن إلّا للرعاة، فأخطئوا الطريق فنزلوا قريبًا منه. وقيل: كان ماؤه مِلحًا فعَذُب حين ألقي فيه عليه السلام.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٢/٢.

٢ الأَمَم -بالفتح-: القُرب، يقال: أخذت ذلك مِن أَمَم، أي: مِن قُرب. وداري أَمَم داره، أي: مقابلتها. والمِيتاء: الطريق العامِر المسلوك. انظر: لسان العرب لابن منظور، «أمم»، «أتي». والمراد أنّ الجُبّ كان في طريق قريب عامِر يسلكه الناس عادة.

٣ يوسف، ١٠/١٢.

﴿فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ﴾ الذي يرِد الماء ويستقي لهم، وكان ذلك مالك بن ذُعرٍ الخزاعيّ.[١] وإنّما لم يُذكر منتهى الإرسال كما لم يُذكر منتهى المجيء -أعني الجُبّ- للإيذان بأنّ ذلك معهود لا يضرب عنه الذِّكر صفحًا.

﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ أي: أرسلها إلى الجُبّ -والحذف لِما عرفتَه- فتدلّى بها يوسف فخرج. / ﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال يقتضيه الحال. ﴿يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ كأنّه نادى البشرى، وقال: تعالَيْ، فهذا أوانكِ، حيث فاز بنعمة باردة -وأيّ نعمة؟- مكان ما يوجد مباحًا مِن الماء. وقيل: هو اسم صاحب له ناداه ليُعينه على إخراجه. [١٨٦ظ]

وقرأ غيرُ الكوفيّين: "يا بشرايَ".[٢] وأمال فتحةَ الراء حمزةُ والكسائيُّ،[٣] وقرأ وَرش بين اللفظين.[٤] وقُرِئ: "يا بُشْرَيَّ" بالإدغام،[٥] وهي لغة، و"بشرايْ"[٦] على قصد الوقف.

﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ أي: أخفاه الوارد وأصحابه عن بقيّة الرُّفْقة. وقيل: أخفَوا أمره ووِجدانَهم له في الجُبّ، وقالوا لهم: دفَعه إلينا أهلُ الماء لنبيعه لهم بمصر.

وقيل: الضمير لإخوة يوسف، وذلك أنّ يهوذا كان يأتيه كلّ يوم بطعام، فأتاه يومئذ فلم يجده فيها فأخبر إخوته، فأتَوا الرُّفْقة وقالوا: هذا غلامنا أبَقَ منّا، فاشترَوه منهم، وسكتَ يوسف مخافة أن يقتلوه.[٧] ولا يخفى ما فيه مِن البُعد.

---

[١] هو مالك بن ذعر بن ثويب بن عنقاء بن مديان بن إبراهيم عليه السلام. وقيل: مالك بن ذُعر بن حجر بن جزيلة بن لخم. انظر: **جامع البيان** للطبري، ٦١/١٣؛ **والاشتقاق** لابن دريد، ص ٣٧٨؛ **وجمهرة أنساب العرب** لابن حزم، ٤٢٤/١.

[٢] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. **النشر** لابن الجزري، ٢٩٣/٢.

[٣] وكذا أمالها خلف البزّار، وهو أحد الوجهين عن ابن ذكوان وشعبة، وأحد الأوجه الثلاثة لأبي عمرو البصري. انظر: **النشر** لابن الجزري، ٣٥/٢-٤٠-٤١.

[٤] وهو أحد الأوجه الثلاثة لأبي عمرو البصري، وهي: الفتح والتقليل والإمالة. انظر: **النشر** لابن الجزري، ٤٠/٢-٤١.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن إسحاق والجحدري وابن أبي عَبلة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٤٣.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن ورش عن نافع. انظر: **الكامل** للهذلي، ص ٥٧٥؛ **والبحر المحيط** لأبي حيّان، ٢٥٢/٦.

[٧] **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٠٤/٥؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٥٨/٣.

﴿بِضَٰعَةً﴾ نصب على الحاليّة، أي: أخفَوه حال كونه بضاعةً، أي: متاعًا للتجارة، فإنّها قطعة مِن المال بُضعت عنه -أي: قُطعت- للتجارة.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ وعيد لهم على ما صنعوا مِن جعلهم مثلَ يوسف -وهو هو- عرضةً للابتذال بالبيع والشِّرى، وما دبّروا في ذلك مِن الحِيَل.

﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۢ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾

﴿وَشَرَوۡهُ﴾ أي: باعوه. والضمير للوارد وأصحابه. ﴿بِثَمَنِۢ بَخۡسٖ﴾ زَيف ناقص العِيار ﴿دَرَٰهِمَ﴾ بدل مِن ﴿ثَمَنِۢ﴾، أي: لا دنانير. ﴿مَعۡدُودَةٖ﴾ أي: غيرِ موزونة، فهو بيان لقلّته ونقصانه مقدارًا بعد بيان نقصانه في نفسه، إذ المعتاد فيما لا يبلغ أربعين العَدُّ دون الوزن، فعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّها كانت عشرين دِرهمًا.[١] وعن السدّي أنّها كانت اثنين وعشرين دِرهمًا.[٢]

[١٨٧و] / ﴿وَكَانُواْ﴾ أي: البائعون ﴿فِيهِ﴾ في يوسف ﴿مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ مِن الذين لا يرغبون فيما بأيديهم، فلذلك باعوه بما ذُكر مِن الثمن البخس. وسبب ذلك أنّهم التقطوه، والملتقِط للشيء متهاون به، أو غيرُ واثق بأمره، يخاف أن يظهر له مستحِقّ فينتزعه منه، فيبيعه مِن أوّل مساوِم بأوكَسِ ثمن.

ويجوز أن يكون معنى ﴿شَرَوۡهُ﴾: اشتروه مِن إخوته -على ما حُكي- وهم غير راغبين في شِراه خشيةَ ذهاب مالهم لِما طَنّ في أذنهم مِن الإباق. والعدول عن صيغة الافتعال المُنبئة عن الاتّخاذ لِما مرّ مِن أنّ أخذهم إنّما كان بطريق البضاعة دون الاجتباء والاقتناء.

و﴿فِيهِ﴾ متعلّق بـ﴿ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ إن جعل "اللام" للتعريف، وبيان لِما زهدوا فيه إن جعلت موصولة، كأنّه قيل: في أيّ شيء زهِدوا؟ فقيل: زهِدوا فيه؛ لأنّ ما يتعلّق بالصِّلة لا يتقدّم على الموصول.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٣/٢؛ اللباب لابن عادل، ٥١/١١. وانظر: جامع البيان للطبري، ٥٧/١٣.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٣/٢؛ اللباب لابن عادل، ٥١/١١. وانظر: جامع البيان للطبري، ٥٧/١٣.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ﴾ وهو العزيز الذي كان على خزائنه، واسمه قِطفير أو إِطفير. وبيان كونه مِن مصر لتربية ما يتفرّع عليه مِن الأمور مع الإشعار بكونه غيرَ مَن اشتراه مِن الملتقطِين بما ذُكر مِن الثمن البَخس. وكان الملِك يومئذ الريّان بن الوليد العِمْلِيقي،[١] ومات في حياة يوسف عليه السلام بعد أن آمَن به، فملَك بعده قابوس بن مصعب،[٢] فدعاه إلى الإسلام فأبى.

وقيل: كان الملِك في أيّامه فرعونَ موسى عليه السلام، عاش أربعمائة سنةٍ، لقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [غافر، ٣٤/٤٠]. وقيل: فرعون موسى مِن أولاد فرعون يوسف عليه السلام،[٣] والآية مِن قبيل خطاب الأولاد بأحوال الآباء.

واختلف في مقدار ما اشتراه به العزيز؛ فقيل: بعشرين دينارًا وزوجَي نَعل وثوبين أبيضَين.[٤] وقيل: أدخلوه في السوق يعرضونه فترافعوا في ثمنه
[١٨٧ظ] حتّى بلغ ثمنُه وزنَه مِسكًا، / ووزنَه ورِقًا، ووزنَه حريرًا، فاشتراه قطفير بذلك المبلغ.[٥] وكان سِنّه إذ ذاك سبعَ عشرة سنةً، وأقام في منزله مع ما مرّ عليه مِن مدّة لبثه في السجن ثلاثَ عشرة سنةً، واستوزره الريّان وهو ابنُ ثلاثين سنةً، وآتاه الله العلم والحكمة وهو ابنُ ثلاث وثلاثين سنةً، وتُوفّي وهو ابنُ مائة وعشرين سنةً.[٦]

---

١ هو الريّان بن الوليد بن ثروان بن أراشة بن قاران بن عمرو بن عِملاق بن لاوِذ بن سام بن نوح عليه السلام. **تاريخ الطبري**، ٣٣٥/١.

٢ هو قابوس بن مصعب بن معاوية بن نمير بن السلواس بن قاران بن عمرو بن عِملاق بن لاوِذ بن سام بن نوح عليه السلام. **تاريخ الطبري**، ٣٣٦/١.

٣ م – عليه السلام.

٤ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٠٥/٥؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٥٣/٢.

٥ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٠٥/٥؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٥٣/٢.

٦ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٥٩/٣؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٢٥٤/٦.

﴿لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ﴾ راعيل أو زليخا. وقيل: اسمها هو الأوّل، والثاني لقَبُها. و"اللام" متعلّقة بـ﴿قَالَ﴾، لا بـ﴿ٱشۡتَرَىٰهُ﴾. ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾ اجعلي محلّ إقامته كريمًا مَرضيًا، والمعنى: أحسني تعهّده. ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ في ضياعنا وأموالنا، ونستظهر به في مصالحنا، ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ أي: نتبنّاه. وكان ذلك لِما تفرّس فيه مِن مَخائل الرشد والنجابة، ولذلك قيل: أفرَس الناس ثلاثة: عزيز مصر، وابنة شعيب التي قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُ﴾ [القصص، ٢٦/٢٨]، وأبو بكر حين استخلف عمر رضي الله عنهما.[١]

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ نصب على المصدريّة. و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما يفهم مِن كلام العزيز، وما فيه مِن معنى البعد لتفخيمه، أي: مثل ذلك التمكين البديع ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: جعلنا له فيها مكانًا، يقال: مكّنه فيه، أي: أثبته فيه، ومكّن له فيه، أي: جعل له فيه مكانًا، ولتقاربهما وتلازمهما يستعمل كلّ منهما في محلّ الآخر، قال عزّ وجلّ: ﴿كَمۡ[٢] أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ﴾ [الأنعام، ٦/٦]، أي: ما لم نمكّنكم فيها، أو مكّنّا لهم في الأرض... إلخ.

والمعنى: كما جعلنا له مثوًى كريمًا في منزل العزيز أو مكانًا عليًا في قلبه حتّى أمَر امرأته دون سائر حواشيه بإكرام مثواه جعلنا له مكانةً رفيعةً في أرض مصر. ولعلّه عبارةٌ عن جعله وجيهًا فيما بين أهلها ومحبّبًا في قلوبهم كافّةً كما في قلب العزيز؛ لأنّه الذي يؤدّي إلى الغاية المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ أي: نوفّقه لتعبير بعض / المنامات التي عُمدتها [١٨٨و] رؤيا الملِك وصاحبَي السجن، لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ [يوسف، ٣٧/١٢]، سواء جعلناه معطوفًا على غاية مقدَّرة ينساق إليها الكلام ويستدعيها النظام، كأنّه قيل: ومثل ذلك التمكين مكّنّا ليوسف في الأرض وجعلنا قلوب أهلها كافّةً محالَّ مَحبّته؛ ليترتّب عليه ما ترتّب ممّا جرى بينه وبين امرأة العزيز،

---

١ المستدرك للحاكم، ٢/٣٧٦ (٣٣٢٠)؛ مصنّف ابن أبي شيبة، ٧/٤٣٤ (٣٧٠٥٨)، من قول ابن مسعود رضي الله عنه.

٢ م ط س: وكم.

ولنعلّمه بعض تأويل الأحاديث، وهو تأويل الرؤى المذكورة، فيؤدّي ذلك إلى الرّياسة العظمى. ولعلّ تركَ المعطوف عليه للإشعار بعدم كونه مرادًا بالذات. أو جعلناه علّةً[١] لمعلَّلٍ محذوف، كأنّه قيل: ولهذه الحكمة البالغة فعلنا ذلك التمكين، دون غيرها ممّا ليس له عاقبة حميدة.

هذا ولا يخفى عليك أنّ الذي عليه يدور هذه الأمور إنّما هو التمكين في جانب العزيز. وأمّا التمكين في جانب الناس كافّةً فتأديته إلى ذلك إنّما هي باعتبار اشتماله على ذلك التمكين. فإذن الحقّ أن يكون ذلك إشارةً إلى مصدر قوله تعالى: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ على أن يكون هو عبارة عن التمكين في قلب العزيز أو في منزله، وكون ذلك تمكينًا في الأرض بملابسة أنّه عزيز فيها، لا عن تمكين آخر يشبَّه هو[٢] به، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة، ١٤٣/٢] مِن أنّ ذلك إشارة إلى مصدر الفعل المذكور بعده، لا إلى جعلٍ آخر يُقصد تشبيه هذا الجَعل به. فالكاف مُقحَم للدلالة على فخامة شأن المشار إليه إقحامًا لا يكاد يترك في لغة العرب ولا في غيرها، ومن ذلك قولهم: مثلك لا يبخل.

وهكذا ينبغي أن يحقّق المقام، وأمّا التمكين بمعنى جعله ملِكًا يتصرّف في أرض مِصر بالأمر والنهي[٣] فهو مِن آثار ذلك التعليم ونتائجه المتفرّعة عليه كما عرفته، لا مِن مباديه المؤدّية إليه، فلا سبيل إلى جعله غاية له، ولم يُعهَد منه عليه السلام في تضاعيف قضاياه العمل بموجَب المنامات المنبّهة على الحوادث قبل وقوعها عهدًا مصحِّحًا لجعله غايةً لولايته، وما وقع مِن التدارك
[١٨٨ظ] في أمر السنين فإنّما هو عمل بموجَب الرؤيا السابقة المعهودة، اللّهمّ / إلّا أن يراد بتعليم تأويل الأحاديث ما سبق مِن تفهيم غوامض أسرار الكتب الإلهيّة ودقائق سَنن الأنبياء عليهم السلام، فيكون المعنى حينئذٍ: مكّنّا له في أرض مصر لِيتصرّف فيها بالعدل، ولِنعلّمه معانيَ كتب الله تعالى وأحكامَها ودقائق سَنن الأنبياء، فيقضي بها فيما بين أهلها.

---

١ السياق: سواء جعلناه معطوفًا... أو جعلناه علّةً...
٢ م ط س - هو [”صح“ في هامش م].
٣ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٤٥٤/٢.

والتعليم الإجمالي لتلك المعاني والأحكام وإن كان غيرَ متأخّر عن تمكينه بذلك المعنى إلّا أنّ تعليم كلّ معنى شخصي يتّفق في ضمن الحوادث والإرشادَ إلى الحقّ في كلّ نازلة مِن النوازل متأخّرٌ عن ذلك صالحٌ لِأن يكون غايةً له.

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ لا يستعصي عليه أمر، ولا يمانعه شيء؛ بل إنّما أمره لشيء إذا أراد أن يقول له كن فيكون، فيدخل في ذلك شئونه المتعلّقة بيوسف دخولًا أوّليًا. أو متولٍّ على أمر يوسف لا يَكِلُه إِلَى غيره، وقد أريدَ به مِن الفتنة ما أريدَ مرّةً غِبَّ مرّة، فلم يكن إلّا ما أراد الله له مِن العاقبة الحميدة. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنّ الأمر كذلك، فيأتون ويذرون زعمًا منهم أنّ لهم مِن الأمر شيئًا، وأنّى لهم ذلك، وإنّ الأمر كلَّه لله عزّ وجلّ، أو لا يعلمون لطائف صُنعه وخفايا فضله.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ أي: منتهى اشتداد جسمه وقوّته، وهو سنّ الوقوف[1] ما بين الثلاثين إلى الأربعين. وقيل: سنّ الشباب ومبدأ بلوغ الحلُم. والأوّل هو الأظهر، لقوله: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا﴾ حِكمةً؛ وهو العلم المؤيَّد بالعمل، أو حُكمًا بين الناس وفقهًا، أو نبوّةً، ﴿وَعِلۡمٗا﴾ أي: تفقّهًا في الدين. وتنكيرهما للتفخيم، أي: حُكمًا وعِلمًا لا يُكتَنه كُنهُهما، ولا يقادَر قدرهما، فهما ما آتاه الله تعالى عند تكامل قواه، سواء كانا عبارة عن النبوّة والحُكم بين الناس أو غيرِهما. كيف لا، وقد جُعل إيتاؤهما جزاءً لعمله عليه السلام حيث قيل: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الجزاءِ العجيب ﴿نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: كلَّ مَن يُحسن في عمله، فيجب أن يكون / ذلك [١٨٩و] بعد انقضاء أعماله الحسنة التي مِن جملتها معاناة الأحزان والشدائد.

وقد فُسّر العلم بعلم تأويلِ الأحاديث،[2] ولا صحّةَ له إلّا أن يُخصّ بعلم تأويل رؤيا الملِك، فإنّ ذلك حيث كان عند تناهي أيّام البلاء صحّ أن يُعَدّ إيتاؤه

---

[1] يعني: الوقوف عن النموّ؛ لأنّ الإنسان ينمو جسمه في ابتداء أمره إلى تمام الشباب، وبعده يقف عن النموّ والانحطاط إلى زمان الشيخوخة. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ١٦٥/٥.

[2] فسّره بذلك البيضاوي في أنوار التنزيل، ١٥٩/٣.

مِن جملة الجزاء. وأمّا رؤيا صاحبَي السجن فقد لبث عليه السلام بعد تعبيرِها في السجن بِضع سنين.

وفي تعليق الجزاء المذكور بالمحسنين إشعار بعلّيّة الإحسان له، وتنبيه على أنّه سبحانه إنّما آتاه ما آتاه لكونه محسنًا في أعماله متّقيًا في عُنفوان أمرِه، ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن، ٥٥/٦٠].

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا﴾ رجوع إلى شَرح ما جرى عليه في منزل العزيزِ بعد ما أمر امرأتَه بإكرام مثواه.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾[1] إلى هنا اعتراض جيء به أنموذجًا للقصّة؛ ليعلم السامع مِن أوّل الأمر أنّ ما لقيَه عليه السلام مِن الفتن التي ستُحكى بتفاصيلها له غاية جميلة وعاقبة حميدة، وأنّه عليه السلام مُحسن في جميع أعماله لم يصدر عنه في حالتي السرّاء والضرّاء ما يخلّ بنزاهته.

ولا يخفى أنّ مدار حسنِ التخلّص إلى هذا الاعتراض قبل تمام الآية الكريمة إنّما هو التمكين البالغ المفهوم مِن كلام العزيز، فإدراجُ الإنجاءِ السابق تحت الإشارة بذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا﴾[2] كما فعله الجمهور ناءٍ مِن التقريب، فتأمّل.

والمراودة: المطالبة، مِن "راد يَرود" إذا جاء وذهب لطلب شيء، ومنه الرائد لطالب الماء والكلأ. وهي مفاعلة مِن واحد، نحو: مطالبة الدائن، ومماطلة المديون، ومداواة الطبيب، ونظائرها ممّا يكون مِن أحد الجانبين الفعلُ، ومن الآخر سببُه، فإنّ هذه الأفعال وإن كانت صادرة عن أحد الجانبين لكن لمّا كانت أسبابُها صادرة عن الجانب الآخر جُعلت كأنّها صادرة عنهما.

---

[1] يوسف، ١٢/٢١.

[2] يوسف، ١٢/٢١.

وهذا باب لطيف المسلك مبنيّ على اعتبار دقيقٍ، / تحقيقه أنّ سبب [١٨٩ظ]
الشيء يُقام مُقامه، ويطلق عليه اسمه، كما في قولهم: «كما تَدين تُدان»،[١] أي: كما تَجزي تُجزَى، فإنّ فعل البادئ وإن لم يكن جزاءً لكنّه لكونه سببًا للجزاء أطلق عليه اسمه، وكذلك إرادة القيام إلى الصلاة وإرادة قراءة القرآنِ حيث كانتا سببًا للقيام والقراءة عبّر عنهما بهما فقيل: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة، ٦/٥]، ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النحل، ٩٨/١٦]، وهذه قاعدة مطّردة مستمرّة.

ولمّا كانت أسباب الأفعال المذكورة فيما نحن فيه صادرةً عن الجانب المقابل لجانب فاعلها، فإنّ مطالبةَ الدائن للمماطلة التي هي مِن جانب الغريم، وهي منه للمطالبة التي هي مِن جانب الدائنِ، وكذا مداواة الطبيب للمرض الذي هو مِن جانب المريض، وكذلك مراودتها فيما نحن فيه لجمال يوسف عليه السلام، نُزِّل صدورُها عن محالّها بمنزلة صدور مسبَّباتها التي هي تلك الأفعال، فبُني الصيغة على ذلك، وروعي جانب الحقيقة بأن أُسند الفعل إلى الفاعل، وأوقع على صاحب السبب، فتأمّل.

ويجوز أن يراد بصيغة المغالبة مجرّد المبالغة. وقيل: الصيغة على بابها، بمعنى: أنّها طلبت منه الفعل، وهو منها الترك. ويجوز أن يكون مِن الرُّويد، وهو الرفق والتمهّل.[٢]

وتعديتها بـ﴿عَن﴾ لتضمينها معنى المخادعة، فالمعنى: خادعته ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي: فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن شيء لا يريد إخراجه عن يده، وهو يحتال أن يأخذه منه، وهي عبارة عن التمحّل في مواقعته إيّاها.

والعدول عن التصريح باسمها للمحافظة على السرّ، أو للاستهجان بذكره. وإيراد الموصول لتقرير المراودة، فإنّ كونَه في بيتها ممّا يدعو إلى ذلك -قيل لواحدة: ما حمَلكِ على ما أنتِ عليه ممّا لا خير فيه؟ قالت: قربُ الوِساد وطولُ السواد- ولإظهار كمال نزاهته عليه السلام، فإنّ عدمَ مَيله إليها

---

[١] انظر: مجمع الأمثال للميداني، ١٥٥/٢.
[٢] ط س: والتحمّل.

مع دوام مشاهدته لمحاسنها واستعصاءه عليها مع كونه تحت ملكتها ينادي لكونه عليه السلام / في أعلى معارج العفّة والنزاهة. [١٩٠و]

﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ قيل: كانت سبعةً، ولذلك جاء الفعل بصيغة التفعيل دون الإفعال. وقيل: للمبالغة في الإيثاق والإحكام.

﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَ﴾ قُرئ: بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء،[١] وبناؤه كبناء أَين وعِيطَ.[٢] و"هَيْتِ"[٣] كجَيرِ، و"هَيْتُ"[٤] كحَيث، اسم فعل معناه: أقبِل وبادِر، واللام للبيان، أي: لك أقول هذا كما في "هلمّ لك". وقُرئ: "هِئْتُ" على صيغة الفعل[٥] بمعنى تهيّأت، يقال: هاء يهيء -كجاء يجيء- إذا تهيّأ. و"هُيِّئْتُ لَكَ"،[٦] و"اللام" صلة للفعل.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي: أعوذ بالله معاذًا ممّا تَدعُوِينَنِي[٧] إليه. وهذا اجتناب منه على أتمّ الوجوه، وإشارة إلى التعليل بأنّه منكَرٌ هائل يجب أن يُعاذ بالله تعالى للخلاص منه، وما ذاك إلّا لأنّه عليه السلام قد شاهده بما أراه الله تعالى مِن البرهان النيّر على ما هو عليه في حدّ ذاته مِن غاية القبح ونهاية السوء.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾ تعليل للامتناع ببعض الأسباب الخارجيّة ممّا عسى يكون مؤثّرًا عندها وداعيًا لها إلى اعتباره بعد التنبيه على سببه الذاتي الذي[٨] لا تكاد تقبله لِما سوَّلَتْه لها نفسُها.

---

١ قرأ "هَيْتَ" بفتح الهاء والتاء أبو عمرو ويعقوب وعاصم وحمزة والكسائي وخلف. وقرأ "هِيْتَ" بكسر الهاء وفتح التاء نافع وأبو جعفر وابن ذكوان. **النشر** لابن الجزري، ٢/٢٩٣.

٢ عِيطَ، بالكسر مبنيّة: صوت الفتيان النزقين إذا تصايحوا، أو كلمة يُنادى بها عند السُّكر أو عند الغلبة. **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، «عيط».

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما والحسن البصري. انظر: **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٤٤؛ و**النشر** لابن الجزري، ٢/٢٩٤.

٤ قرأ بها ابن كثير. **النشر** لابن الجزري، ٢/٢٩٤.

٥ بكسر التاء وضمّها قرأ هشام عن ابن عامر. **النشر** لابن الجزري، ٢/٢٩٣.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن السميفع. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٤٤.

٧ كذا في الأصل، قال الجوهري: «تقول للمرأة: أنت تَدعِين، وفيه لغة ثانية: أنت تَدعُوِين، وفيه لغة ثالثة: أنت تَدعُين بإشمام العين الضمّة». **الصحاح** للجوهري، «دعا». قال ابن برّي: «قوله في اللغة الثانية: أنت تَدعُوِين؛ لغة غير معروفة». **لسان العرب** لابن منظور، «دعا».

٨ س: الذاتي.

والضمير للشأن، ومدارُ وضعه موضعَه ادّعاءُ شهرته المُغنية عن ذكره. وفائدة تصدير الجملة به الإيذانُ بفخامة مضمونها مع ما فيه مِن زيادة تقريره في الذهن، فإنّ الضمير لا يُفهم منه مِن أوّل الأمر إلّا شأن مبهم له خطر، فيبقى الذهن مترقّبًا لِما يعقُبه، فيتمكّن عند وروده له فضل تمكّن، فكأنّه قيل: إنّ الشأن الخطير هذا، وهو ربّي -أي: سيّدي العزيز- أحسنَ مثواي، أي: أحسن تعهّدي حيث أمركِ بإكرامي، فكيف يمكن أن أُسيء إليه بالخيانة في حَرَمه؟ وفيه إرشاد لها إلى رعاية حقّ العزيز بألطف وجه.

/ وقيل: الضمير لله عزّ وجلّ، و﴿رَبِّي﴾ خبر "إنّ"، و﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾ خبر ثانٍ. أو هو الخبر والأوّل بدل مِن الضمير. والمعنى: أنّ الحال هذا، فكيف أعصيه بارتكاب تلك الفاحشة الكبيرة؟ وفيه تحذير لها مِن عقاب الله عزّ وجلّ. [١٩٠ظ]

وعلى التقديرين ففي الاقتصار على ذِكر هذه الحالة مِن غير تعرّض لاقتضائها الامتناعَ عمّا دعته إليه إيذانٌ بأنّ هذه المرتبة مِن البيان كافيةٌ في الدلالة على استحالته، وكونِه ممّا لا يدخل تحت الوقوع أصلًا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تعليل للامتناع المذكورِ غِبَّ تعليل. والفلاح: الظفَر. وقيل: البقاءُ في الخير. ومعنى "أفلح": دخل فيه، كأصبح وأخواته. والمراد بـ"الظالمين": كلّ مَن ظلم كائنًا مَن كان، فيدخل في ذلك المُجازون للإحسان بالإساءة والعُصاة لأمر الله تعالى دخولًا أوّليًا. وقيل: الزُناة؛ لأنّهم ظالمون لأنفسهم وللمزني بأهله.

﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾

﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦ﴾ بمخالطته، إذ الهَمّ لا يتعلّق بالأعيان، أي: قصدَتها وعزمَت عليها عزمًا جازمًا لا يلويها عنه صارف بعد ما باشَرت مباديَها، وفعلَت ما فعلَت مِن المراودة وتغليق الأبواب ودعوته عليه السلام إلى نفسها بقولها: هيتَ لك، ولعلّها تصدّت هنالك لأفعال أُخَر مِن بسط يدها إليه وقصد المعانقة وغير ذلك

ممّا يضطّره عليه السلام إلى الهرب نحو الباب. والتأكيد لدفع ما عسى يتوهّم مِن احتمال إقلاعها عمّا كانت عليه بما في مقالته عليه السلام مِن الزواجر.

﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ بمخالطتها، أي: مال إليها بمقتضى الطبيعة البشريّة وشهوة الشباب وقَرَمه[١] ميلًا جِبلّيًا لا يكاد يدخل تحت التكليف، لا أنّه قصدها قصدًا اختياريًّا، ألا يُرى إلى ما سبق مِن استعصامه المنبئ عن كمال كراهته له ونفرته عنه وحكمه بعدم إفلاح الظالمين، وهل هو إلّا تسجيل باستحالة صدور الهمّ منه عليه السلام تسجيلًا مُحكمًا؟ وإنّما عبّر عنه بالهمّ لمجرّد وقوعه في صحبة همّها في الذكرِ بطريق المشاكلة، لا لشَبَهٍ به كما قيل.[٢] ولقد أشيرَ إلى تباينهما حيث لم يُلَزَّا[٣] في قَرَن[٤] واحد مِن التعبير بأن قيل: ولقد همّا بالمخالطة، أو همّ كلٌّ منهما بالآخَر. [١٩١و] / وصُدّر الأوّل بما يقرّر وجوده مِن التوكيد القَسمي، وعُقّب الثاني بما يعفو أَثَره مِن قوله تعالى:[٥] ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ أي: حجّته الباهرة الدالّة على كمال قبح الزنا وسوء سبيله.

والمراد برؤيته لها كمال إيقانه بها، ومشاهدته لها مشاهدةً واصلةً إلى مرتبة عين اليقين الذي يتجلّى هناك حقائق الأشياء بصورها الحقيقيّة، وتنخلع عن صورها المستعارة التي بها تظهر في هذه النشأة على ما نطق به قولُه عليه السلام: «حُفَّت الجنّة بالمَكاره، وحُفَّت النار بالشهوات».[٦] وكان عليه السلام قد شاهد الزنا بموجَب ذلك البرهان النيّر على ما هو عليه في حدّ ذاته أقبحَ ما يكون وأوجبَ ما يجب أن يُحذر منه، ولذلك فعَل ما فعل مِن الاستعصام والحُكم بعدم إفلاح مَن يرتكبه.

وجواب ﴿لولا﴾ محذوف يدلّ عليه الكلام، أي: لولا مشاهدته برهانَ ربّه في شأن الزنا لَجرى على موجَب ميلِه الجِبلّي، ولكنّه حيث كان مشاهِدًا له مِن قبلُ

---

١ القرَم، محرّكة: شدّة شَهوة اللحم، وكثُر حتى قيل في الشّوق إلى الحبيب. **القاموس المحيط** للفيروزابادي، «قرم».

٢ انظر: **المحرّر الوجيز** لابن عطيّة، ٢٣٣/٣.

٣ لزّه يلزُّه لزًّا، أي: شدّه وألصقه. **الصحاح** للجوهري، «لزز».

٤ القَرَن بالتحريك: الجُعبة. **الصحاح** للجوهري، «قرن».

٥ ط س: عزّ وجلّ.

٦ **صحيح مسلم**، ٢١٧٤/٤ (٢٨٢٢). وهو في **صحيح البخاري**، ١٠٢/٨ (٦٤٨٧)، بلفظ: "حُجِبت" بدل "حُفّت".

استمرّ على ما هو عليه مِن قضيّة البرهان. وفائدة هذه الشرطيّة بيانُ أنّ امتناعه عليه السلام لـم يكـن لعدم المساعدة[١] مِن جهة الطبيعة؛ بل لمحض العفّة والنزاهة مع وفور الدواعي الداخليّة وترتّب المقدّمات الخارجيّة الموجبة لظهور الأحكام الطبيعيّة.

هذا وقد نصّ أئمّة الصناعة على أنّ "لولا" في أمثال هذه المواقع جارٍ مِن حيث المعنى -لا مِن حيث الصيغةُ- مَجرى التقييدِ للحُكم المطلَق، كما في مثل قوله تعالى: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان، ٤٢/٢٥]، فلا يتحقق هناك همٌّ أصلًا.

وقد جُوّز أن يكون ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ جوابَ ﴿لولا﴾ جريًا على قاعدة الكوفيّين في جواز التقديم، فالهمّ حينئذ على معناه الحقيقي. فالمعنى: لولا أنّه قد شاهد برهان ربّه لهَمّ بها كما همَّت به، ولكن حيث انتفى / عدم المشاهدة بدليل [١٩١ظ]
استعصامه وما يتفرّع عليه انتفى الهمّ رأسًا.

هذا وقد فُسِّر هَمُّه عليه السلام بأنّه عليه السلام[٢] حلّ الهِميان وجلس مَجلس الخِتان.[٣] وبأنّه حلّ تِكّة سراويلِه وقعد بين شُعَبها.[٤] ورؤيتُه للبرهان بأنّه سمع صوتًا: إيّاك وإيّاها، فلم يكتَرث، ثمّ وثمّ إلى أن تَمثّل له يعقوب عليه السلام عاضًّا على أُنملته.[٥] وقيل: ضرب على صدره فخرجت شهوته مِن أنامله.[٦]

وقيل: بدَت كفّ فيما بينهما ليس فيها عضُد ولا مِعصم، مكتوب فيها: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار، ٨٢/١٠-١١]، فلم ينصرف، ثمّ رأى فيها: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء، ٣٢/١٧]، فلم ينتهِ، ثمّ رأى فيها: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة، ٢٨١/٢]، فلم ينجع، فقال الله عزّ وجلّ لجبريل عليه السلام: «أدرك عبدي قبل أن يُصيب الخطيئة»،

---

١ ط س: مساعدة.
٢ ط س - عليه السلام.
٣ جامع البيان للطبري، ٨٥/١٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٠٩/٥.
٤ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٧/٢. وانظر: جامع البيان للطبري، ٨٥/١٣.
٥ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٧/٢. وانظر: جامع البيان للطبري، ٨٨/١٣.
٦ جامع البيان للطبري، ٩٠/١٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢١١/٥.

فانحطَّ جبريل عليه السلام وهو يقول: «يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء؟»[١] وقيل: رأى تمثال العزيز.[٢]

وقيلَ وقيل... إنْ كلّ ذلك إلّا خُرافات وأباطيل تَمُجُّها الآذان، وتَرُدّها العقول والأذهان، ويل لمن لَاكَها ولفّقها، أو سمعها وصدّقها.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكاف منصوب المحلّ. و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الإراءة المدلول عليها بقوله تعالى: ﴿لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ أي: مثل ذلك التبصير والتعريف عرّفناه برهاننا فيما قبلُ. أو إلى التثبيت اللازم له، أي: مثل ذلك التثبيت ثبّتناه ﴿لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ﴾ على الإطلاق، فيدخل فيه خيانة السيّد دخولًا أوّليًا. ﴿وَٱلۡفَحۡشَآءَ﴾ والزنا؛ لأنّه مفرط القبح، وفيه آية بيّنة وحجّة قاطعة على أنّه عليه السلام لم يقع منه همّ بالمعصية، ولا توجّه إليها قطّ، وإلّا لقيل: لنَصرفه عن السوء والفحشاء، وإنّما توجّه إليه ذلك مِن خارج، فصرفه تعالى عنه بما فيه مِن موجبات العفّة والعصمة، فتأمّل.

[١٩٢و] / وقرئ: "لِيَصْرِفَ"[٣] على إسناد الصرف إلى ضمير الربّ.

﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ تعليل لِما سبق مِن مضمون الجملة بطريق التحقيق، والمخلصون: هم الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته بأن عصمهم عمّا هو قادح فيها. وقُرئ على صيغة الفاعل،[٤] وهم الذين أخلصوا دينهم لله سبحانه، وعلى كلا المعنيين فهو منتظِم في سلكهم داخلٌ في زمرتهم مِن أوّل أمره بقضيّة الجملة الاسميّة، لا أنّ ذلك حدث له بعد أن لم يكن كذلك، فانحسم مادّة احتمال صدور الهَمّ بالسوء منه عليه السلام بالكلّيّة.

﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٢٥﴾

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٢١٢؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٢/٦٠٩.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٥٧.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٤.

٤ أي: "الْمُخْلِصِينَ" بكسر اللام. قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٥.

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ متّصل بقوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾.[١] وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾... إلى آخره اعتراض جيء به بين المعطوفين تقريرًا لِنزاهته عليه السلام، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام، ٧٥/٦].

والمعنى: لقد همّت به وأبى هو. ﴿وَٱسْتَبَقَا﴾ أي: تسابقا إلى الباب البرّاني الذي هو المُخلّص، ولذلك وُحّد بعد الجمع فيما سلف، وحُذف حرف الجرّ وأُوصل الفعل إلى المجرور، نحو: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ [المطففين، ٣/٨٣]، أو ضُمِّنَ الاستباق معنى الابتدار. وإسناد السبق في ضِمن الاستباق إليها مع أنّ مرادها مجرّد منعِ يوسف، وذا لا يوجب الانتهاء إلى الباب لأنّها لمّا رأته يسرع إلى الباب ليتخلّص منها أسرعت هي أيضًا لتسبقه إليه وتمنعه عن الفتح والخروج. أو عبّر عن إسراعها إثرَه بذلك مبالغة.

﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ اجتذبته مِن ورائه فانشقّ طولًا، وهو القَدّ؛ كما أنّ الشقّ عرضًا هو القطّ، وقد قيل في وصف عليّ كرّم الله تعالى[٢] وجهه: «إنّه كان إذا اعتلى قَدّ، وإذا اعترض قَطّ».[٣] وإسناد القدّ إليها خاصّةً مع أنّ لقوّة يوسف أيضًا دخلًا فيه إمّا لأنّها الجزء الأخير للعلّة التامّة، وإمّا للإيذان بمبالغتها في منعه عن الخروج وبذل مجهودها في ذلك لفَوت المحبوب، أو لخوف الافتضاح.

﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾ أي: صادَفا زوجها. وإذ لم يكن مِلكه ليوسف عليه السلام صحيحًا لم يقل: "سيّدَهما". قيل: ألفياه مُقبِلًا. / وقيل: كان جالسًا مع ابن عمّ للمرأة. ﴿لَدَا ٱلْبَابِ﴾ أي: البرّاني كما مرّ. روى كعب: أنّه لمّا هرَب يوسف جعل فَراشُ القُفل[٤] يتناثر ويسقط حتّى خرج مِن الأبواب.[٥] [١٩٢ظ]

---

[١] في الآية السابقة.
[٢] ط س - تعالى.
[٣] مجمل اللغة لابن فارس، «بكر»، بإسناده.
[٤] فَراشة القُفل: ما يَنشَب فيه، أي: يعلق فيه. انظر: الصحاح للجوهري، «فرش»، «نشب».
[٥] الكشّاف للزمخشري، ٤٥٨/٢؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٥٩/٦.

﴿قَالَتْ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال سائل يقول: فماذا كان حين ألفيا العزيز عند الباب؟ فقيل: قالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ مِن الزنا ونحوِه ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿مَا﴾ نافية، أي: ليس جزاؤه إلّا السجن أو العذاب الأليم. قيل: المراد به الضرب بالسياط، أو استفهاميّة، أي: أيّ شيء جزاؤه غير ذاك أو ذلك؟

ولقد أتت في تلك الحالة التي تُدهش فيها الفَطِن حيث شاهدَها العزيز على تلك الهيئة المُريبة بحِيلةٍ جمعت فيها غرَضَيْها، وهما تبرئة ساحتها ممّا يلوح مِن ظاهر الحال، واستنزالُ يوسف عن رأيه في استعصائه عليها وعدمِ مُواتاته على مرادها بإلقاء الرعب في قلبه مِن مَكْرها طمعًا في مواقعته لها كُرهًا عند يأسها عن ذلك اختيارًا، كما قالت: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف، ٣٢/١٢].

ثمّ إنّها جعلت صدورَ الإرادة المذكورة عن يوسف عليه السلام أمرًا محقَّقًا مفروغًا عنه غنيًّا عن الإخبار بوقوعه، وأنّ[١] ما هي عليه مِن الأفاعيل لأجل تحقيق جزائها، فهي تريد إيقاعه[٢] حسبما يقتضيه قانون الإيالة. وفي إبهام المريد تهويلٌ لشأن الجزاء المذكور بكونه قانونًا مطّردًا في حقّ كلّ أحد كائنًا مَن كان، وفي ذكرِ نفسها بعنوان أهليّة العزيز إعظامٌ للخَطْب وإغراءٌ له على تحقيق ما تتوخّاه بحُكم الغضب والحميّة.

﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف وجواب عمّا يقال: فماذا قال يوسف حينئذ؟ فقيل: قال: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ أي: طالبتني للمُواتاة، لا أنّي أردت بها سوءًا كما قالت. وإنّما قاله عليه السلام لتنزيه نفسه عمّا أسندَ إليه مِن الخيانة وعدمِ معرفة حقّ السيّد،

---

[١] وفي هامش م: عطفٌ على وقوعه. والمعنى: أنّها جعلت الإرادة المذكورة محقّقةً غنيّةً عن الإخبار بوقوعها، وبكون أفعالها -مِن سعيها خلفه عليه السلام وغيره- لأجل تحقيق جزائها. «منه».

[٢] وفي هامش م: أي: إيقاعَ جزائها. «منه».

ودفعِ ما عرّضته له مِن الأمْرَين الأمَرَّين. / وفي التعبير عنها بضمير الغيبة دون [١٩٣و] الخطاب أو اسم الإشارة مراعاة لحسن الأدب مع الإيماء إلى الإعراض عنها.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قيل:[١] هو ابن عمّها. وقيل: هو الذي كان جالسًا مع زوجها لَدَى الباب. وقيل: كان حكيمًا يرجع إليه الملِك ويستشيره. وقد جُوّز أن يكون بعض أهلها قد بصر بها مِن حيث لا تشعر، فأغضبه الله تعالى ليوسف عليه السلام بالشهادة له والقيام بالحقّ. وإنّما ألقى الله سبحانه الشهادة إلى مَن هو مِن أهلها ليكون أدلَّ على نزاهته عليه السلام وأنفى للتهمة.

وقيل: كان الشاهد ابنَ خال لها صبيًّا في المهد، أنطقه الله تعالى ببراءته، وهو الأظهر، فإنّه رُوي أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم[٢] قال: «تكلّم أربعة وهم صِغار: ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى عليه السلام»، رواه الحاكم[٣] عن أبي هريرة، وقال: صحيح على شرط الشيخين.[٤] وذِكر كونه مِن أهلها لبيان الواقع، إذ لا يختلف الحال في هذه الصورة بين كون الشاهد مِن أهلها أو مِن غيرهم.

﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ أي: إن عُلم أنّه قُدَّ مِن قَبْلُ مِن قُبُلٍ. ونظيره: إن أحسنتَ إليّ فقد أحسنتُ إليك فيما قَبْلُ، فإنّ معناه: إن تعتدَّ بإحسانك إليّ فأعتدُّ بإحساني السابق إليك.

---

[١] س: وقيل.

[٢] م - وسلّم.

[٣] هو محمّد بن عبد الله بن حمدويه بن نعيم الضبّي النيسابوري، الشهير بالحاكم، أبو عبد الله (ت. ٤٠٥هـ/١٠١٤م)، مِن أكابر حفّاظ الحديث، والمصنّفين فيه. مولده ووفاته في نيسابور. رحَل إلى العراق، وجالَ في بلاد خراسان وما وراء النهر، وأخذ عن نحو ألفَي شيخ. ووَلِي قضاء نيسابور، ثمّ قُلِّد قضاء جرجان، فامتنع. وهو مِن أعلم الناس بصحيح الحديث وتمييزه عن سقيمه. صنّف كتبًا كثيرة، قال ابن عساكر: «وقع مِن تصانيفه المسموعة في أيدي الناس ما يبلغ ألفًا وخمسمائة جزء». منها: تاريخ نيسابور، قال فيه السبكي: «وهو عندي مِن أعود التواريخ على الفقهاء بفائدة، ومَن نظَره عرَف تفنُّن الرجل في العلوم جميعها»، والمستدرَك على الصحيحين، والإكليل، والمدخل في أصول الحديث، وتراجم الشيوخ، وفضائل الشافعي، وتسمية مَن أخرجهم البخاري ومسلم، ومعرفة أصول الحديث وعلومه وكتبه. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ١٦٢/١٧؛ والأعلام للزركلي، ٢٢٧/٦.

[٤] المستدرك للحاكم، ٦٥٠/٢ (٤١٦١).

﴿فَصَدَقَتْ﴾ بتقدير "قد"؛ لأنّها تُقرّب الماضي إلى الحال، أي: فقد صدقَت، وكذا الحال في قوله: ﴿فَكَذَبَتْ﴾.[1] وهي وإن لم تصرّح بأنّه عليه السلام أراد بها سوءًا إلّا أنّ كلامها حيث كان واضِحَ الدلالة عليه أُسند إليها الصدق والكذب بذلك الاعتبار، فإنّهما كما يَعرضان للكلام باعتبار منطوقه يَعرضان له باعتبار ما يستلزمه، وبذلك الاعتبار يعتريان للإنشاءات.

[١٩٣ظ] ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ وهذه الشرطيّة / -حيث لا ملازمة عقليّةً ولا عاديّةً بين مقدَّمها وتاليها- ليست مِن الشهادة في شيء، وإنّما ذُكرت توسيعًا للدائرة وإرخاءً للعَنان إلى جانب المرأة بإجراءِ ما عسى يحتمله الحال في الجملة -بأن يقع القَدّ مِن قُبُلٍ بمدافعتها له عليه السلام عن نفسها عند إرادته المخالطة والتكشّف- مُجرى الظاهر الغالب الوقوعِ تقريبًا لِما هو المقصود بإقامة الشهادة -أعني: مضمون الشرطيّة الثانية التي هي قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾- إلى التسليم والقبول عند السامع؛ لكونه أقربَ إلى الوقوع وأدلَّ على المطلوب، وإن لم يكن بين طرفَيها أيضًا ملازمة.

وحكاية الشرطيّة بعد فعل الشهادة لكونها مِن قبيل الأقوال، أو بتقدير القول، أي: شهد قائلًا... إلخ.

وتسميتها شهادة مع أنّه لا حكمَ فيها بالفعل بالصدق والكذب لتأديتها مؤدّاها؛ بل لأنّها شهادة على الحقيقة، وحُكمٌ بصدقه وكذبها. أمّا على تقدير كون الشاهد هو الصبيّ فظاهر، إذ هو إخبار بهما مِن قِبَل علّام الغيوب، والتصويرُ بصورة الشرطيّة للإيذان بأنّ ذلك ظاهر مِن العلائم أيضًا. وأمّا على تقدير كونه غيرَه فلِأنّ الظاهر أنّ صورة الحال[2] معلومةٌ له على ما هي عليه، إمّا مشاهدةً أو إخبارًا، فهو مُتَيقِّن بعدم مقدَّم الشرطيّة الأولى، وبوجودِ مقدَّم الشرطيّة الثانية، ومِن ضرورته الجزمُ بانتفاءِ تالي الأولى، وبوقوع تالي الثانية، فإذن هو إخبار بكذبها وصدقِه عليه السلام، لكنّه ساق شهادته مَساقًا مأمونًا مِن الجرح والطعن حيث صوّرها بصورة الشرطيّة المتردّدة ظاهرًا بين نفعها ونفعه.

---

١ في الآية التالية.

٢ وفي هامش م: مِن قدِّ القميص مِن دُبر.

وإمّا حقيقةً،[١] فلا تردّد فيها قطعًا؛ لأنّ الشرطيّة / الأولى تعليق لصِدقها بما [١٩٤و]
يستحيل وجوده مِن قدِّ القميص مِن قُبُل، فيكون مُحالًا لا محالةَ، ومِن ضرورته تقرّر كذبها. والثانية تعليق لصدقه عليه السلام بأمر محقَّقِ الوجود، وهو القدّ مِن دُبُر، فيكون محقّقًا البتّة. وهذا كما قيل فيمَن قال لامرأة: "زوّجيني نفسَكِ"، فقالت: "لي زوج"، فكذّبها في ذلك، فقالت: "إن لم يكن لي زوج فقد زوّجتُكَ نفسي"، فقبِل الرجل، فإذًا لا زوجَ لها فهو نكاح،[٢] إذ تعليق الشيء بأمرٍ مقرَّر تنجيز له.

وقُرئ: "مِن قُبُلُ" و"مِن دُبُرُ" بالضمّ؛[٣] لأنهما قُطِعا عن الإضافة، كقَبلُ وبَعدُ. وبالفتح،[٤] كأنّهما جُعلا علَمين للجهتين، فمُنعا الصرفَ للتأنيث والعلميّة. وقُرئ بسكون العين.[٥]

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ٢٨﴾

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ﴾ كأنّه لم يكن رأى ذلك بعدُ، أو لم يتدبّره، فلمّا تنبّه له وعلِم حقيقة الحال ﴿قَالَ إِنَّهُۥ﴾ أي: الأمر الذي وقع فيه التشاجر، وهو عبارة عن إرادة السوء التي أُسنِدَت إلى يوسف وتدبيرِ عقوبته بقولها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا﴾... إلى آخره،[٦] لكن لا مِن حيث صدور تلك الإرادة والإسناد عنها؛ بل مع قطع النظر عن ذلك؛ لئلّا يخلوَ قوله تعالى: ﴿مِن كَيۡدِكُنَّ﴾ -أي: مِن جنس حِيلتكنّ ومَكركنّ أيّتها النساءُ، لا مِن غيركنّ- عن الإفادة.

---

١ السياق: إمّا مشاهدةً أو إخبارًا... وإمّا حقيقةً...

٢ هذا على مذهب الإمام أبي حنيفة. انظر: البحر الرائق لابن نجيم، ٦/٢٠٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن يَعمر والجارود بن أبي سبرة ونوح وابن أبي إسحاق. المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٣/٢٣٦.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن يَعمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٤.

٥ أي: بسكون الباء منهما. قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن بإسكان الباءين والتنوين، ورُويت عن أبي عمرو. ورُوي عن نوح القاري أنّه أسكن الباءين وضمّ الأواخر ولم ينوّن، ورواها عن ابن أبي إسحاق عن يحيى بن يعمر. المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٣/٢٣٦.

٦ يوسف، ١٢/٢٥.

وتدبير العقوبة وإن لم يكن تجريدُه عن الإضافة إليها إلّا أنّها لمّا صوّرَتْه بصورة الحقّ أفاد الحُكم بكونه مِن كيدهنّ إفادة ظاهرة، فتأمّل. وتعميم الخطاب للتنبيه على أنّ ذلك خُلقٌ لَهنّ عَرِيقٌ:

ولا تحسَبا هِندًا لَها الغدر وحدَها سجيّةَ نفسٍ، كلُّ غانيةٍ هندُ[١]

ورَجعُ الضمير إلى قولها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ فقط[٢] عدولٌ عن البحث عن أصل ما وقع فيه النزاع مِن أنّ إرادة السوء ممّن هي إلى البحث عن شُعبة مِن شُعَبه. وجعلُه للسوء أو للأمر المعبَّر به عن طمعها في يوسف عليه السلام[٣] يأباه الخبر، فإنّ الكيد يستدعي أن يعتبر مع ذلك هَنَاتٌ[٤] أُخرُ مِن قِبَلها كما أشرنا إليه.

﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ فإنّه ألطف وأعلَق بالقلب، وأشدّ تأثيرًا في النفس. وعن بعض العلماء: أنا أخاف مِن النساء ما لا أخاف مِن الشيطان، / فإنّه تعالى يقول: [١٩٤ظ] ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء، ٧٦/٤]، وقال للنساء: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، ولأنّ الشيطان يوسوس مسارقةً، وهنّ يواجِهن به الرجال.[٥]

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿يُوسُفُ﴾ حُذف عنه حرف النداءِ لقربه وكمال تفطّنه للحديث. وفيه تقريب له وتلطيف لمحلّه. ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ أي: عن هذا الأمر وعن التحديث به واكتمه، فقد ظهر صدقك ونزاهتك. ﴿وَٱسْتَغْفِرِي﴾ أنتِ يا هذه ﴿لِذَنۢبِكِ﴾ الذي صدر عنكِ وثبَت عليكِ.

﴿إِنَّكِ كُنتِ﴾ بسبب ذلك ﴿مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ مِن جملة القوم المتعمِّدين للذنب، أو مِن جنسهم. يقال: خطِئ إذا أذنب عمدًا. وهو تعليل للأمر بالاستغفار. والتذكير لتغليب الذكور على الإناث. وكان العزيز رجلًا حليمًا فاكتفى بهذا القدر مِن مؤاخذتها. وقيل: كان قليل الغَيرة.

---

١ لأبي تمّام في ديوانه بشرح التبريزي، ص ٨١.
٢ انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٤٦١/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٦١/٣.
٣ انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٤٦١/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٦١/٣.
٤ هَنَات: جمع هَنْ على وزن أخ: كلمة كناية، ومعناه: شيء. انظر: **الصحاح** للجوهري، «هنو».
٥ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٦١/٢.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٠﴾

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ أي: جماعة مِن النساء، وكنّ خمسًا: امرأة الساقي، وامرأة الخبّاز، وامرأة صاحب الدوابّ، وامرأة صاحب السجن، وامرأة الحاجب.[١] والنسوة: اسم مفرد لجمع المرأة، وتأنيثه غير حقيقي، كتأنيث اللُّمَةِ؛ وهي اسم لجماعة النساء، والثُّبَةِ؛ وهي اسم لجماعة الرجال، ولذلك لم يَلحق فعلَه تاءُ التأنيث.

﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ ظرف لـ﴿قَالَ﴾، أي: أشعنَ الأمر في مصر. أو صفة لـ﴿نِسْوَةٌ﴾.

﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ أي: الملِك، يُردن قطفيرَ. وإضافتهنّ لها إليه بذلك العنوان دون أن يُصرّحن باسمها أو اسمه ليست لقصد المبالغة في إشاعة الخبر بحكم أنّ النفوس إلى سماع أخبار ذوي الأخطار أميَل كما قيل،[٢] إذ ليس مرادهنّ تفضيح العزيز؛ بل هي لقصد الإشباع في لومها بقولهنّ: ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾ أي: تطالبه بمواقعته لها، وتتمحّل في ذلك وتخادعه ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾. وقيل: تطلب منه الفاحشة.

وإيثارهنّ لصيغة المضارع / للدلالة على دوام المراودة. والفتى مِن الناس: [١٩٥و]
الشابّ، وأصله: فَتَيٌ؛ لقولهم: فَتَيان، والفُتوّة شاذّة، وجمعه فِتْية وفِتْيان، ويستعار للمملوك، وهو المراد ههنا، وفي الحديث: «لا يقُل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي أو فتاتي».[٣]

وتعبيرهنّ عن يوسف عليه السلام بذلك مضافًا إليها لا إلى العزيز الذي لا يستلزم الإضافةُ إليه الهوانَ؛ بل ربّما يُشعر بنوع عزّةٍ؛ لإبانة ما بينهما مِن التباين البيّن الناشئ عن المالكيّة والمملوكيّة. وكلّ ذلك لتربية ما مرّ مِن المبالغة والإشباع في اللَوم، فإنّ مَن لا زوج لها مِن النساء أو لها زوج دنيء قد تُعذَر في مراودة الأخدان، لا سيّما إذا كان فيهم علوّ الجناب، وأمّا التي لها زوج

---

١ قاله مقاتل. انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢١٦/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٦٢/٢.

٢ قاله أبو حيّان في البحر المحيط، ٢٦٦/٦.

٣ صحيح البخاري، ١٥٠/٣ (٢٥٥٢)؛ صحيح مسلم، ١٧٦٤/٤ (٢٢٤٩).

-وأيُّ زوجٍ؛ عزيزُ مصرَ- فمراودتها لغيره لا سيّما لعبدها الذي لا كفاءة بينها وبينه أصلًا وتماديها في ذلك غايةُ الغيّ ونهاية الضلال.

﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: شقَّ حبُّه شِغافَ قلبها -وهو حجابُه، أو جلدة رقيقة يقال لها: لسان القلب- حتّى وصل إلى فؤادها.

وقُرئ: "شَعَفَهَا" بالعين،[1] مِن شعَفَ البعيرَ إذا هنَأَه[2] فأحرقه بالقَطِران. وعن الضحّاك عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «الشغَف: الحبّ القاتل، والشعَف: حبّ دون ذلك».[3] وكان الشعبي يقول: «الشغَف: حبّ، والشعَف: جنون».[4]

والجملة خبر ثانٍ، أو حال مِن فاعل ﴿تُرَاوِدُ﴾، أو مِن مفعوله. وأيًّا ما كان فهو تكرير للّوم وتأكيد للعذْل ببيان اختلال أحوالها القلبيّة كأحوالها القالَبيّة. وجعلُها تعليلًا لدوام المراودة[5] مِن حيث الإنّيّة[6] مصيرٌ إلى الاستدلال على الأجلى بالأخفى، ومِن حيث اللمّيّة ميل إلى تمهيد العذر مِن قِبلها، ولَسْنَ بذاك المقام. وانتصاب ﴿حُبًّا﴾ على التمييز لنقله عن الفاعليّة، إذ الأصل: قد شغفها حُبُّه، كما أشيرَ إليه.

﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا﴾ أي: نعلمها علمًا متاخِمًا للمشاهدة والعيان فيما صنعَتْ مِن المراودة والمحبّة المفرطة مستقرّةً ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ عن طريق الرشد والصواب أو سنن العقل ﴿مُّبِينٍ﴾ واضح لا يخفى كونه ضلالًا على أحد، أو مُظهر لأمرها بين الناس. فالجملة مقرّرة لمضمون الجملتين السابقتين المَسوقتين للّوم والتشنيع، وتسجيلٌ عليها بأنّها في أمرها على خطأ عظيم. وإنّما لم يقلن: إنّها لفي ضلال مبين؛

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد والزهري والأعرج والشافعي. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٤٥.

[2] هنَأْت البعيرَ أهنَؤه، إذا طليتُه بالهِناء، وهو القَطِران. **الصحاح** للجوهري، «هنأ».

[3] **تفسير ابن أبي حاتم**، ٢١٣١/٧؛ **الدرّ المنثور** للسيوطي، ٥٢٧/٤.

[4] **تفسير ابن أبي حاتم**، ٢١٣١/٧؛ **المحرّر الوجيز** لابن عطيّة، ٢٣٨/٣.

[5] انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٢٦٦/٦.

[6] قال الخادمي: «اعلم أنّ البرهان إمّا لِمّي إن كان الاستدلال مِن العلّة إلى المعلول، وإمّا إنّي إن كان المعلول إلى العلّة. وإن شئت قلت: إن كان الوسط علّة في الذهن والخارج فلِمّي، وإن كان في الذهن دون الخارج فإنّي، كالاستدلال بالنار على الدخان في اللِّمّي، وبالدخان على النار في الإنّي، كالاستدلال بالأثر على المؤثّر». **بَريقة محموديّة** للخادمي، ١٤٨/١.

إشعارًا بأنّ ذلك الحكم غير صادر عنهنّ مجازفةً؛ بل عن علم ورأي مع التلويح بأنّهن متنزِّهات عن أمثال ما هي عليه.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ باغتيابهنّ وسُوء قالَتِهنّ وقولِهنّ: امرأة العزيز عشِقَت عبدَها الكنعاني، وهو مَقَتَها.[1] وتسميته "مكرًا" لكونه خُفية منها كمكر الماكر، وإن كان ظاهرًا لغيرها. / وقيل: استكْتَمَتْهنّ سرّها فأفْشَيْنه عَلَيْها. وقيل: إنّما قلن ذلك لِتُرِيَهُنَّ يوسفَ عليه السلام. [١٩٥ظ]

﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ تدعوهنّ، قيل: دَعَتْ أربعين امرأة، منهنّ الخمس المذكورات، ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ أي: أحضرت وهيّأت ﴿لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ أي: ما يتّكِئن عليه مِن النمارق والوسائد، أو رتّبت لهنّ مجلس طعام وشراب؛ لأنّهم كانوا يتّكئون للطعام والشراب والحديث كعادة المترَفين، ولذلك نُهِي الرجلُ أن يأكل متّكِئًا.[2] وقيل: ﴿مُتَّكَـًٔا﴾ طعامًا، مِن قولهم: اتّكأنا عند فلان، أي: طَعِمنا، قال جميل:[3]

فظَلِلْنا بنعمةٍ واتّكأنا وشرِبْنا الحلال مِن قُلَلِهْ[4]

وعن مجاهد: ﴿مُتَّكَـًٔا﴾ طعامًا يُحزّ حزًّا، كأنّ المعنى يُعْتَمَدُ بالسكّين عند القطع؛ لأنّ القاطع يتّكِئ على المقطوع بالسكّين.

---

[1] وفي هامش م: أبغضها بغضًا شديدًا.

[2] عن أبي جحيفة: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لا آكل متّكئًا». **صحيح البخاري**، ٧٢/٧ (٥٣٩٨).

[3] هو جميل بن عبد الله بن مَعمر العذري القضاعي، أبو عمرو (ت. ٨٢هـ/٧٠١م)، شاعر مِن عشّاق العرب. افتتَنَ ببثينة مِن فتيات قومه، أحبّها وهو صغير، فلمّا كبر خطبها فرُدّ عنها، فقال الشعر فيها، شعره يذوب رِقّة، أقلّ ما فيه المدح، وأكثره في النسيب والغزل والفخر. وكانت منازل بني عُذرة في وادي القرى مِن أعمال المدينة، ورحلوا إلى أطراف الشام الجنوبيّة، فقصَد جميل مصر وافدًا على عبد العزيز بن مروان، فأكرمه عبد العزيز وأمر له بمنزل، فأقام قليلًا ومات فيه. انظر: **وفيات الأعيان** لابن خلّكان، ٤٣٦/١؛ **وتاريخ الإسلام** للذهبي، ١٠٦٨/٢؛ **والأعلام** للزركلي، ١٣٨/٢.

[4] **ديوان جميل بثينة**، ص ١٨٨.

وقُرئ بغير همز.[١] وقُرئ بالمدّ بإشباع حركة الكاف،[٢] كمُنتَزاح في مُنتزَح، ويَنْباع في يَنبَع. وقُرئ: "مُتْكًا"،[٣] وهو الأُترُجّ، وأنشد:

وأهـــدَت مُـتْـكـةً لبـنـي أبـيـهـا تَـخُـبُّ بـهـا الـعَـثَـمْـثَـمَـةُ الـوَقـاحُ[٤]

أو ما يُقطع، مِن "مَتَكَ الشيءَ" إذا بتَكَه. و"مَتْكأً"[٥] مِن تَكِئ إذا اتّكأ.

﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ لتَستعمِله في قطع ما يُعهَد قطعه ممّا قُدِّمَ بين أيديهنّ وقُرِّب إليهنّ مِن اللحوم والفواكه ونحوها وهنّ متّكئات، وغرضها مِن ذلك ما سيقع مِن تقطيع أيديهنّ.

﴿وَقَالَتِ﴾ ليوسف وهنّ مشغولات بمعالجة السكاكين وإعمالها فيما بأيديهنّ مِن الفواكه وأضرابها، والعطف بالواو ربّما يشير إلى أنّ قولها: ﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ -أي: ابْرُزْ لهُنّ- لم يكن عقيب ترتيب أمورهنّ ليتمّ غرضها مِن استِغفالِهنّ.

[١٩٦و] ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥ﴾ / عطف على مقدّر يستدعيه الأمر بالخروج، وينسحب عليه الكلام، أي: فخرج عليهنّ فرأينه، وإنّما حُذف تحقيقًا لمفاجأة رؤيتهنّ، كأنّها تفوت عند ذكر خروجه عليهنّ، كما حُذف لتحقيق السرعة في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ بعد قوله: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل، ٢٧/٤٠]. وفيه إيذان بسرعة امتثاله عليه السلام لأمرها فيما لا يشاهد مضرّته مِن الأفاعيل.

﴿أَكْبَرْنَهُۥ﴾ عظّمنه وهِبْنَ حُسْنَه الفائقَ وجمالَه الرائع الرائق، فإنّ فضل جماله على جمال كلّ جميل كان كفضل القمر ليلةَ البدر على سائر الكواكب.

---

١ أي: "مُتْكًا". قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ١/٣٩٩.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٥.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وابن عمر رضي الله عنهم ومجاهد وقتادة والضحّاك والجحدري والكلبي وإبان بن تَغلب. البحر المحيط لأبي حيّان، ٦/٢٦٨.

٤ أنشده الزمخشري في الكشّاف، ٢/٤٦٤. قال: «وكانت أهدَت أترُجّة على ناقة». و"العَثَمْثَمَةُ": الناقة الصلبة، و"الوَقاحُ": شديد الحافر. انظر: فتوح الغيب للطيبي، ٨/٣١٥.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٦٤.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «رأيت يوسف ليلة المعراج كالقمر ليلة البدر».[١] وقيل: كان يُرى تلألؤ وجهه على الجُدران كما يرى نور الشمس من الماءِ عليها.[٢] وقيل: معنى "أكبَرْن": حِضْنَ، والهاء للسكت، أو ضمير راجع إلى يوسف عليه السلام على حذف اللام، أي: حِضنَ له مِن شدّة الشبَق، كما قال المتنبّي:[٣]

خَفِ الله واستُر ذا الجمالَ ببُرقُعٍ   فإن لُحتَ حاضتْ في الخُدور العواتقُ[٤]

﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي: جرَحنها بما في أيديهنّ مِن السكاكين لفرط دهشتهنّ وخروج حركات جوارحهنّ عن منهاج الاختيار والاعتياد حتّى لم يعلمنَ ما فعلنَ. وفي التعبير عن الجرح بالقطع ما لا يخفى مِن الدلالة على كثرة جرحهنّ، ومع ذلك لم يبالين بذلك ولم يشعرن به.

﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تنزيهًا له سبحانه عن صفات النقص والعجز، وتعجّبًا مِن قدرته على مثل ذاك الصنع البديع. وأصلُه: "حَاشَا" كما قرأه أبو عمرو في الدَّرْج،[٥] فحُذفت ألفه الأخيرة تخفيفًا. وهو حرف جرّ يفيد معنى / التنزيه في [١٩٦ظ] باب الاستثناء، فلا يستثنى به إلّا ما يكون موجِبًا للتنزيه، فوضع موضعه، فمعنى "حَاشَا اللهِ": تنزيهُ اللهِ وبراءةُ اللهِ، وهي[٦] قراءة ابن مسعود.[٧]

---

١ نحوه في جامع البيان للطبري، ٤٣٦/١٤؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٢١٨/٥. وأخرجه كذلك الحاكم في المستدرك، ٦٢٣/٢.

٢ ط س – عليها.

٣ هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجُعفي الكوفي الكِندي، أبو الطيّب المتنبّي (ت. ٣٥٤هـ/٩٦٥م)، الشاعر الحكيم، وأحد مفاخر الأدب العربي. له الأمثال السائرة والحكم البالغة والمعاني المبتكرة. وفي علماء الأدب مَن يعدّه أشعرَ الإسلاميّين. وُلد بالكوفة في محلّة تسمّى "كِندة" وإليها نسبته. ونشأ بالشام، ثمّ تنقّل في البادية يطلب الأدبَ وعلم العربيّة وأيّام الناس. وقال الشعر صبيًّا. أمّا ديوان شعره فمشروح شروحًا وافية. وقد جمع الصاحب ابن عبّاد لفَخر الدولة نخبة مِن أمثال المتنبّي وحِكمه. وتبارى الكتّاب قديمًا وحديثًا في الكتابة عنه، فألّف الجُرجاني الوساطة بين المتنبّي وخصومه، والثعالبي أبو الطيّب المتنبّي وما له وما عليه. انظر: يتيمة الدهر للثعالبي، ١٣٩/١؛ ونزهة الألبّاء للأنباري، ص ٢١٩؛ والأعلام للزركلي، ١١٥/١.

٤ ديوان المتنبّي، ص ٢٦٤، بلفظ: فإن لُحتَ ذابت... قال القاضي الجرجاني: «لمّا أُنكِر عليه "حاضت" غيّره فجعله "ذابت"». الوَساطة للجرجاني، ص ٩٠.

٥ قرأ أبو عمرو بألف بعد الشين وصلًا، وحذفها وقفًا. انظر: النشر لابن الجزري، ٢٩٥/٢.

٦ وفي هامش م: أي: "حَاشَا اللهِ" بالإضافة.

٧ قراءة شاذّة، وهي مرويّة كذلك عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٥.

و"اللام" لبيان المنزَّه والمبرَّأ كما في "سُقيًا لك". والدليل على وضعه موضع المصدر قراءةُ أبي السَّمّال:[١] "حَاشًا" بالتنوين،[٢] وقراءةُ أبي عمرو بحذف الألف الأخيرة،[٣] وقراءةُ الأعمش بحذف الأولى،[٤] فإنّ التصرّف مِن خصائص الاسم، فيدلّ على تنزيله منزلته. وعدمُ التنوين لمراعاة أصلِه، كما في قولك: جلست مِن عن يمينه، وقوله:

غـــــــدَت مِـــــــن عَـــــلَـــيْـــــه[٥]

منقَلِبَ الألف إلى الياء مع الضمير. وقُرئ: "حَاشْ للهِ" بسكون الشين[٦] إتباعًا للفتحةِ الألفَ في الإسقاط. و"حَاشَ الإِلَهِ".[٧]

وقيل: ﴿حَٰشَ﴾ "فاعَلَ" مِن "الحَشا" الذي هو الناحية، وفاعله ضمير يوسف، أي: صار في ناحيةٍ مِن أن يُقارف ما رمته به، ﴿لِلَّهِ﴾ أي: لطاعته، أو لمكانه؛ أو جانَبَ المعصيةَ لأجل الله.

﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ على إعمال ﴿مَا﴾ بمعنى "ليس"، وهي لغة أهل الحجاز؛ لمشاركتهما في نفي الحال. وقُرئ: "بَشَرٌ"[٨] على لغة تميم، و"بِشِرًى"،[٩] أي: بعبد مَشْريّ لئيمٍ.

---

[١] هو قَعنب بن أبي قَعنب أبو السَّمّال -بفتح "السين" وتشديد "الميم" وبـ"اللام"- العدوي البصري، له اختيار في القراءة شاذّ عن العامة رواه عنه أبو زيد سعيد بن أوس، وأسند الهُذلي قراءة أبي السَّمّال عن هشام البربري عن عبّاد بن راشد عن الحسن عن سمرة عن عمر. وهذا سند لا يصحّ. **غاية النهاية** لابن الجزري، ٢٧/٢.

[٢] قراءة شاذّة. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٤٦٥/٢.

[٣] أي: في حالة الوقف.

[٤] قراءة شاذّة. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٤٦٥/٢.

[٥] وفي هامش م: تمامه:

...بـــعـــدَ مـــا تـــمّ ظـمـؤهـا
تَصِلُّ وعن قَيضٍ بِبيداءَ مَجهلِ

«منه». | وهو مِن قول مُزاحم العقيلي، يصف قَطاة في أشدّ أحوالها وحاجتها إلى الطيران مِن عطشها وحاجة فرخها إلى الريّ؛ لأنّها غدت في اليوم الخامس مِن شربها وجوفها يصوِّت مِن يبَسه وبُعد عهده عن الماء. انظر: **المقاصد النحويّة** للعيني، ١٢٤٢/٣.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٤٥.

[٧] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٤٥.

[٨] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٤٦٥/٢.

[٩] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي الحُويرث المدني. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٤٦.

نَفَينَ عنه البشريّة لِما شاهدن فيه مِن الجمال العبقري الذي لم يُعهَد مثالُه في البشر، وقصَرنَه على الملَكيّة بقولهنّ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ بناءً على ما رُكِزَ في العقول مِن أن لا حيَّ أحسن مِن الملَك كما رُكّب فيها أن لا أقبحَ مِن الشيطان، ولذلك لا يزال يُشبَّهُ بهما كلُّ متناهٍ في الحسن والقبح، وغرضُهنّ وصفه بأقصى مراتب الحسن والجمال.

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ﴾ الفاء فصيحة. / والخطاب للنسوة. والإشارة إلى يوسف [١٩٧و] بالعنوان الذي وصَفْنَه به الآنَ مِن الخروج في الحسن والجمالِ عن المراتب البشريّة والاقتصار على الملَكيّة، فاسم الإشارة مبتدأ، والموصول خبره.

والمعنى: إن كان الأمر كما قلتنّ فذلكنّ الملَك الكريم النائي عن المراتب البشريّة هو ﴿ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ أي: عَيَّرتُنَّنِي في الافتِتان به، حيث رَبَأْتُنّ بمحلّي بنسبتي إلى العزيز، ووضعتنّ قدره بكونه مِن المماليك.

أو بالعنوان[١] الذي وصفنه به فيما سبق بقولهنّ: امرأةُ العزيز عشقت عبدَها الكنعاني. فهو خبر لمبتدأ محذوف، أي: فهو ذلك العبد الكنعاني الذي صورتنّ في أنفسكنّ وقلتُنّ فيه وفيّ ما قلتنّ، فالآن قد علِمتُنّ مَن هو وما قولكنّ فينا.

وأمّا ما يقال: تعني أنكنّ لم تصوِّرنه بحقّ صورته، ولو صوّرتُنّه بما عاينتُنّ لعَذرتُنّني في الافتتان به؛[٢] فلا يلائم المقام، فإنّ مرادها بدعوتِهنّ وتمهيد ما مَهّدَتْهُ لهنّ تبكيتُهنّ وتنديمُهنّ على ما صدَر عنهنّ مِن اللَّوم، وقد فعلت ذلك بما لا مزيد عليه، وما ذُكر مِن المَقال فحقّ المُعتذر[٣] قبل ظهور معذرته.

---

١ السياق: والإشارة إلى يوسف بالعنوان... أو بالعنوان...

٢ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٤٦٧/٢.

٣ وفي هامش م: أو الذي يلقّنُهنّ العذر. «منه».

وقد قيل في تعليل الملَكيّة: أنّ الجمع بين الجمال الرائق والكمال الفائق والعِصمة البالغة مِن الخواصّ الملَكيّة،[١] وهو أيضًا لا يلائم قولها: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ﴾، فإنّ عنوان العِصمة ممّا ينافي تمشيةَ مَرامها.

ثمّ بعد ما أقامت عليهنّ الحجّة وأوضحت لديهنّ عذرها وقد أصابَهُنَّ مِن قِبَله عليه السلام ما أصابَها / بَاحَتْ لَهُنَّ ببَقِيّة سرِّها فقالت: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ حسبما قلتُنّ وسمعتُنّ ﴿فَٱسۡتَعۡصَمَ﴾ امتنع طالبًا للعصمة. وهو بناء مبالغة يدُلّ على الامتناع البليغ والتحفّظ الشديد، كأنّه في عصمة وهو يجتهد في الاستزادة منها، كما في استمسك واستجمع الرأيَ. وفيه برهان نيّر على أنّه لم يصدر عنه عليه السلام شيء مخلّ باستعصامه بقوله: ﴿معاذ الله﴾ مِن الهمّ وغيره. [١٩٧ظ]

اعترفَتْ لهنّ أوّلًا بما كنّ يسمَعنه مِن مراودتها له، وأكّدتْه إظهارًا لابتهاجها بذلك، ثمّ زادت على ذلك أنّه أعرض عنها على أبلغ ما يكون، ولم يمِل إليها قطّ، ثمّ زادت عليه أيضًا أنّها مستمرّة على ما كانت عليه غيرُ مُرْعَويةٍ عنه، لا بلوم العواذل، ولا بإعراضِ الحبيب، فقالت: ﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ أي: آمر به فيما سيأتي، كما لم يفعل فيما مضى. فحُذف الجارّ، وأُوصل الفِعلُ إلى الضمير، كما في "أمرتك الخيرَ"، فالضمير للموصول. أو أمري إيّاه،[٢] أي: موجَبَ أمري ومقتضاه، فـ﴿مَا﴾ مصدريّة، والضمير ليوسف، وعبّرت عن مراودتها بالأمر إظهارًا لِجريان حكومتها عليه، واقتضاءً للامتثال بأمرها.

﴿لَيُسۡجَنَنَّ﴾ بالنون المثقّلة. آثرت بناءَ الفعل للمفعول جريًا على رَسْمِ الملوك، أو إيهامًا لسُرعة ترتّب ذلك على عدم امتثاله بأمرها،[٣] كأنّه لا يدخل بينهما فِعل فاعلٍ. ﴿وَلَيَكُونٗا﴾ بالمخفّفة ﴿مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أي: الأذلّاء في السِجن.

وقد قُرئ الفعلان بالتثقيل،[٤] ولكنّ المشهورة أولى؛ لأنّ النون كتبت في المصحف ألِفًا على حكم الوقف.

---

١ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ١٦٢/٣.

٢ وفي هامش م: يوسف.

٣ س: لأمرها.

٤ قراءة شاذّة، ذكرها الزجّاج بغير نسبة ونقلها الكرماني عنه. انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجّاج، ١٠٨/٣؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٦.

و"اللام" الداخلة على حرف الشرط موطّئة للقسم، وجوابه سادّ مَسدّ الجوابين. ولقد أتت بهذا الوعيد المنطوي على فنون التأكيد بمَحضر منهنّ ليعلم يوسف أنّها ليست في أمرها على خُفية ولا خِيفة مِن أحدٍ، فتَضِيقَ عليه الحِيلُ ويَعْيى بهِ العِلَلُ، وينصَحْنَ له ويُرشِدْنَه إلى مُوافَقَتِها.

ولمّا كان هذا الإبراقُ والإرْعادُ منها مظِنّةً لِسؤال سائل يقول: فما صنَع يوسف حينئذ؟ قيل: ﴿قَالَ﴾ مناجيًا لربّه عزّ سلطانه: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ﴾ الذي أَوْعدَتْني بالإلقاءِ فيه. وقرأ يعقوبُ بالفتح[1] على المصدر. ﴿أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ أي: آثَرُ عِندي؛ لِأنّه مشقّة قليلة نافذة، / إثرَها راحات جليلة أبديّة. ﴿مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ [١٩٨و]
مِن مواتاتها التي تؤدّي إلى الشقاء والعذاب الأليم.

وهذا الكلام منه عليه السلام مبنيّ على ما مرّ مِن انكشاف الحقائق لديه وبروز كلّ منها بصورتها اللائقة بها، فصيغة التفضيل ليست على بابها، إذ ليس له شائبة محبّةٍ لِما دعته إليه، وإنّما هو والسجنُ شرّان أهونهما وأقربهما إلى الإيثار السجنُ.

والتعبير عن الإيثار بالمحبّة لحسم مادّة طمعها عن المساعدة خوفًا مِن الحبس. والاقتصار على ذكر السجن مِن حيث إنّ الصَّغار مِن فروعه ومستتبعاته. وإسناد الدعوة إليهنّ جميعًا لأنّ النسوة رَغَّبْنَهُ في مطاوعتها، وخوَّفْنه مِن مُخالفتها. وقيل: دعَونه إلى أنفسهنّ. وقيل: إنّما ابتُلِي عليه السلام بالسجن لقوله هذا، وكان الأَولى به أن يسأل الله تعالى العافيةَ، ولذلك ردّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على مَن كان يسأل الصَبر.[2]

﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ﴾ أي: إن لم تصرف ﴿عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ في تحبيب ذلك إليّ وتحسينه لديّ بأن تُثبّتني على ما أنا عليه مِن العصمة والعفّة ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: أمِل إلى إجابتهنّ أو إلى أنفسهنّ على قضيّة الطبيعة وحكم القوّة الشهويّة.

---

١ وفي هامش م: أي: فتح السين. | أي: "السَّجْنُ". انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٥.

٢ عن معاذ بن جبل، قال: سمع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم رجلًا يدعو يقول: اللّهمّ إنّي أسألك الصبر، فقال: «سألتَ الله البلاء فسَله العافية». سنن الترمذي، ٥/٥٤١ (٣٥٢٧).

وهذا فزَع منه عليه السلام إلى ألطاف الله تعالى جريًا على سَنن الأنبياء والصالحين في قصر نيل الخيرات والنجاة عن الشرور على جناب الله عزّ وجلّ، وسلبِ القوى والقُدَرِ عن أنفسهم، ومبالغةٌ في استدعاءِ لطفه في صرف كيدهنّ عنه[١] بإظهار أن لا طاقة له بالمدافعة كقول المستغيث: أَدركني وإلّا هلكتُ، لا أنّه يطلب الإجبار والإلجاءَ إلى العصمة والعفّة وفي نفسه داعية تدعوه إلى هواهنّ.

والصبوة الميلُ إلى الهوى، ومنه الصَّبا؛ لأنّ النفوس تصبو إليها لطِيب نسيمها ورَوحها. وقُرئ: "أَصَبُّ إِلَيْهِنَّ"[٢] مِن الصَّبابة؛ وهي رقّة الشوق.

﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: الذين لا يعملون بما يعلمون؛ لأنّ مَن لا جدوى لعِلمه / فهو والجاهل سواء، أو مِن السفهاء بارتكاب ما يدعونني إليه مِن القبائح؛ [١٩٨ظ] لأنّ الحكيم لا يفعل القبيح.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ دعاءَه الذي تضمّنه قوله: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾... إلخ،[٣] فإنّ فيه استدعاءً لصرف كيدهنّ على أبلغ وجه وألطفه كما مرّ. وفي إسناد الاستجابة إلى الربّ مضافًا إليه عليه السلام ما لا يخفى مِن إظهار اللطف.

﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ حسب دعائه وثبّته على العِصمة والعفّة. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعاء المتضرّعين إليه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم وما يصلحهم.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾ أي: ظهر للعزيز وأصحابه المتصدّين للحلّ والعقد ريثما اكتفَوا بأمر يوسف بالكتمان والإعراض عن ذلك ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الصارفةَ لهم عن ذلك البَداء، وهي الشواهد الدالّة على براءته عليه السلام. وفاعل ﴿بَدَا﴾ إمّا مصدرُه، أو الرأي المفهوم مِن السياق، أو المصدر المدلول عليه بقوله: ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ﴾.

---

١ ط س – عنه.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن السميفع. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٦.

٣ في الآية السابقة.

والمعنى: بدا لهم بداء أو رأي أو سَجْنُه المحتومُ قائلين: واللهِ ليسجننّه. فالقسم المحذوف وجوابه معمول للقول المقدَّر حالًا مِن ضميرهم، وما كان ذلك البَداء إلّا باستنزال المرأة لزوجها وفتلها منه في الذِّروة والغارب،[١] وكان مِطواعة لها تقوده حيث شاءت.

قال السدّي: «إنّها قالت للعزيز: إنّ هذا العبد العبراني قد فضحني في الناس، يخبرهم بأنّي راودته عن نفسه، فإمّا أن تأذن لي فأخرج فأعتذر إلى الناس، وإمّا أن تحبِسه، فحبَسه».[٢]

ولقد أرادت بذلك تحقيق وعيدها لتلين به عريكته وتنقاد لها قَرونته[٣] لِما انصرمَتْ حبال رجائها عن استتباعه بعرض الجمال والترغيب بنفسها وبأعوانها.

/ وقُرئ: "لَتَسْجُنُنَّهُ"[٤] على صيغة الخطاب، بأن خاطب بعضُهم العزيز ومَن يليه، أو العزيزَ وحده على وجه التعظيم، أو خاطب به العزيزُ ومَن عنده مِن أصحاب الرأي المباشرين للسجن والحبس. [١٩٩و]

﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى حين انقطاع قالةِ الناسِ، وهذا بادي الرأي عند العزيز وذويه. وأمّا عندها فحتّى يذلّله السجن ويسخّره لها ويحسب الناس أنّه المجرم. وقُرئ: "عَتَّى حِينٍ"،[٥] بلغة هذيل.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ﴾ أي: في صحبته ﴿ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ مِن فتيان الملِك ومماليكه، أحدهما شرابيّه، والآخر خبّازه.

---

١ قولهم: «فتَل في الذِّروة والغارب» يقال ذلك للرجل لا يزال يخدع صاحبه حتى يظفر به. وذروة البعير: أعلاه، وكذلك ذروة كل شيء. والغارب: مقدّم السنام. جمهرة الأمثال للعسكري، ٩٨/٢.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٢٠/٥؛ اللباب لابن عادل، ٩٩/١١.

٣ القَرون والقَرونة والقَرينة والقَرين: النفْس. لسان العرب لابن منظور، «قرن».

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤٦٨/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: المحتسب لابن جنّي، ٣٤٣/١؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٦٨/٢.

رُوي أنّ جماعة مِن أهل مصر ضمنوا لهما مالًا ليَسُمّا الملِك في طعامه وشرابه، فأجاباهم إلى ذلك، ثمّ إنّ الساقي نكَلَ عن ذلك، ومضى عليه الخبّاز فسمّ الخبز، فلمّا حضر الطعام قال الساقي: لا تأكل أيّها الملِك، فإنّ الخبز مسموم، وقال الخبّاز: لا تشرب أيّها الملِك، فإنّ الشراب مسموم. فقال الملِك للساقي: اشرَبه، فشرِبه فلم يضرّه، وقال للخبّاز: كُلْه، فأبى، فجرّب بدابّة، فهلكت، فأمر بحبسهما، فاتّفق أن أُدخِلاه[١] معه.

وتأخير الفاعل عن المفعول لِما مرّ غير مرّة مِن الاهتمام بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخَّر؛ ليتمكّن عند النفس حين وروده عليها فضل تمكّن. ونظيره تقديم الظرف على المفعول الصريح في قوله تعالى: ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗ﴾ [الذاريات، ٢٨/٥١]. وتأخير السجن عن الظرف لإيهام العكس؛ أن يكون الظرف / خبرًا [١٩٩ظ] مقدَّمًا على المبتدأ، ويكونَ الجملة حالًا مِن فاعل ﴿دَخَلَ﴾، فتأمّل.

﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال مَن يقول: ما صنَعا بعد ما دخلا معه السجن؟ فأجيب بأنّه ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ﴾[٢] وهو الشرابيّ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾ أي: رأيتُني. والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة الماضية. ﴿أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ أي: عنبًا. سمّاه بما يئول إليه لكونه المقصود مِن العصر. وقيل: الخمر بلغة عُمان اسم للعِنب. وفي قراءة ابن مسعود: "أَعْصِرُ عِنَبًا".[٣]

﴿وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ﴾ وهو الخبّاز ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا﴾ تأخير المفعول عن الظرف لِما مرّ آنفًا. وقوله ﴿تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ﴾ أي: تنهَس منه، صفة للخبز، أو استئناف مبنيّ على السؤال. ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾ بتأويل ما ذُكر مِن الرؤيَيَين، أو ما رُئي، بإجراء الضمير مُجرى "ذلك" بطريق الاستعارة، فإنّ اسم الإشارة يشار به إلى متعدّد كما في قوله:

فيها خطوطٌ مِن سوادٍ وبلَقْ ... كأنّه في الجِلد تَوليعُ البَهقْ[٤]

أي: كأنّ ذلك.

---

١ وفي هامش م: أي: السجن. «منه».

٢ وفي هامش م: لكن لا عند دخولهما؛ بل بعد حينٍ كما سيأتي. «منه».

٣ انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٧.

٤ لرؤبة بن العجّاج في ديوانه، ص ١٠٤. "فيها": يعني الأُتُن، وجعل ما فيها مِن البياض بلَقًا. »

والسرّ في المصير إلى إجراء الضمير مُجرى اسم الإشارة -مع أنّه لا حاجة إليه بعد تأويل المَرجع بـ"ما ذُكِر" أو بـ"ما رُئِيَ"- أنّ الضمير إنّما يتعرّض لنفس المَرجع مِن حيث هو مِن غير تعرّض لحالٍ مِن أحواله، فلا يتسنّى تأويله بأحد الاعتبارين إلّا بإجرائه مُجرى اسم الإشارة الذي يدلّ على المشار إليه بالاعتبار الذي جرى عليه في الكلام، فتأمّل.

هذا إذا قالاه معًا، أو قاله أحدهما مِن جهتهما معًا، وأمّا إذا قاله كلّ منهما إثر ما قصّ ما رآه فالخطاب المذكور ليس عبارتَهما، ولا عبارةَ أحدهما مِن جهتهما؛ ليتعدّد المرجع؛ بل عبارةُ كلّ منهما: "نبّئني بتأويله" مستفسِرًا لِما رآه. وصيغة المتكلّم مع الغير واقعة في الحكاية دون المحكي على طريقة قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [المؤمنون، ٥١/٢٣]، فإنّهم لم يخاطَبوا بذلك دفعةً؛ بل خوطب كلّ منهم في زمانه بصيغةٍ مفردةٍ خاصّة به.

﴿إِنَّا نَرَىٰكَ﴾ تعليل لعرض رؤياهما عليه واستفسارها / منه عليه السلام ﴿مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ مِن الذين يجيدون عبارة الرؤيا؛ لِما رأياه يقصّ عليه بعض أهل السجن رؤياه فيئوّلها له تأويلا حسنًا، أو مِن العلماء لِما سَمِعاه يذكر للناس ما يدلّ على علمه وفضله. [٢٠٠و]

أو مِن المحسنين إلى أهل السجن، أي: فأحسن إلينا بكشف غمّتنا إن كنت قادرًا على ذلك. رُوِي أنّه عليه السلام كان إذا مرض منهم رجل قام عليه، وإذا ضاق مكانُه أوسع له، وإذا احتاج جمَع له.[١]

وعن قتادة كان في السجن ناس قد انقطع رجاؤُهم وطال حزنهم، فجعل يقول: «أبشروا واصبروا تؤجروا»، فقالوا: «بارك الله عليك، ما أحسنَ وجهك؟ وما أحسنَ خُلقك؟ لقد بُورك لنا في جوارك، فمن أنت يا فتى؟» قال: «أنا يوسف ابنُ[٢] صفيّ الله يعقوبَ ابنِ ذبيح الله إسحاقَ ابن خليل الله إبراهيم»،

< والتوليع في البقر وغيرها: خطوط مِن بياض، يقال: بقر مولعة. و"البَهَق": نوع مِن البَرَص إلّا أنّه أخفُّ منه. وقوله: "كأنّه" وحّد الضمير بعد قوله: "فيها خطوط"، لأنّه حمله على الجنس. شرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي، ٤٨/٨.

١ جامع البيان للطبري، ١٥٦/١٣؛ تفسير ابن أبي حاتم، ١٥٦/١٣.

٢ ط س: بن.

فقال له عامل السجن: «لو استطعت خلّيتُ سبيلك، ولكنّي أُحْسِنُ جوارَك، فكن في أيّ بيوت السجن شئتَ».[١]

وعن الشعبيّ: أنّهما تحالَما له ليمتحناه، فقال الشرابيّ: «أراني في بستان، فإذا بأصل حَبَلة[٢] عليها ثلاثةُ عناقيد مِن عنب، فقطعتُها وعصرتها في كأس الملِك وسقيته»، وقال الخبّاز: «إنّي أراني وفوق رأسي ثلاث سِلال فيها أنواع الأطعمة، وإذا سباع الطير تنهَس منها».[٣]

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ٣٧﴾

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ في مقامكما هذا حسب عادتكما المطَّردة ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ استثناء مفرّغ مِن أعمّ الأحوال، أي: لا يأتيكما طعام في حال مِن الأحوال إلّا حالَ ما نبّأتكما به بأن بيّنت لكما ماهيّته وكيفيّته وسائرَ أحواله[٤] ﴿قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ وإطلاق التأويل عليه إمّا بطريق الاستعارة، فإنّ / ذلك بالنسبة إلى مطلَق الطعام المبهَم بمنزلة التأويل بالنظر إلى ما رُئي في المنام وشبيه له. وإمّا بطريق المشاكَلة حسبما وقع في عبارتهما مِن قولهما: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾.[٥] [٢٠٠ظ]

ولا يَبعد أن يُراد بالتأويل الشيء الآيِل، لا المآلُ، فإنّه في الأصل: جعلُ شيء آيِلًا إلى شيء آخر. فكما يجوز أن يُراد به الثاني يجوز أن يُراد به الأوّل. فالمعنى: إلّا نبّأتكما بما يئول إليه مِن الكلام والخبرِ المطابق للواقع. وكان عليه السلام يقول لهما: اليوم يأتيكما طعام مِن صفته كَيت وكَيت، فيَجدانه كذلك.

---

١ جامع البيان للطبري، ١٥٧/١٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٢٣/٥.

٢ الحَبَلة: شجرة العنب، جمعها حَبَل. انظر: لسان العرب لابن منظور، «حبل».

٣ الكشّاف للزمخشري، ٤٦٩/٢. ونحوه عن ابن مسعود رضي الله عنه في جامع البيان للطبري، ١٥٣/١٣.

٤ وفي هامش م: وحاصله إلّا حال كونه منبّأً بتأويله، فهو حال مِن ﴿طَعَامٌ﴾ لتخصّصه بالصفة، أعني: قوله: ﴿تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾. «منه».

٥ في الآية السابقة.

ومراده عليه السلام بذلك بيان كلّ ما يهمّهما مِن الأمور المترقَّبة قبل وقوعها. وإنّما تخصيص الطعام بالذِّكر لكونه عريقًا في ذلك[١] بحسب الحال، مع ما فيه مِن مراعاة حسن التخلّص إليه ممّا استعبراه مِن الرؤيَيين المتعلّقتَين بالشراب والطعام.

وقد جُعل الضمير لِما قصّا مِن الرؤيَيين، على معنى: لا يأتيكما طعام ترزَقانه حسب عادتكما إلّا أخبرتكما بتأويل ما قَصصتما عليّ قبل أن يأتيَكما ذلك الطعام الموقّتُ مرادًا به الإخبار بالاستعجال في التنبئة.

وأنت خبير بأنّ النظم الكريم ظاهر في تعدّد إتيان الطعام والإخبارِ بالتأويل وتجدّدهما، وأنّ المقام مقام إظهار فضله في فنون العلوم بحيث يدخل في ذلك تأويل رؤياهما دخولًا أوّليًا.

وإنّما لم يكتف عليه السلام بمجرّد تأويل رؤياهما مع أنّ فيه دلالة على فضله؛ لأنّهما لمّا نَعَتاهُ عليه السلام بالانتظام في سَمط المحسنين، وأنّهما قد علما ذلك حيث قالا: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[٢] توسّم عليه السلام فيهما خيرًا وتوجّهًا إلى قبول الحقّ، فأراد أن يَخرُجَ آثِرَ ذي أثِيرٍ عمّا في عُهدته مِن دعوة الخَلق إلى الحقّ، فمهّد قبلَ الخوض في ذلك مقدّمةً تزيدهما عِلمًا بعِظم شأنه وثقةً بأمره ووقوفًا على علوّ طبقته في بدائع العلوم توسّلًا بذلك إلى تحقيق ما يتوخّاه، وقد تخلّص إليها مِن كلامهما،[٣] فكأنّه قال: تأويل ما قَصَصْتُماه عَلَيّ في طَرَف الثُّمام،[٤] حيث رأيتما مِثاله في المنام، وإنّي أُبيّن لكما كلّ جليل ودقيق مِن الأمور المستقبَلة، وإن لم يكن هناك مقدّمة المنام، حتّى إنّ الطعام الموظَّف الذي يأتيكما كلّ يوم أُبيّنه لكما قبل إتيانه.

---

١ وفي هامش م: أي: في الاهتمام به والترقّب. «منه».

٢ في الآية السابقة.

٣ وفي هامش م: كما أشرنا إليه. «منه».

٤ الثُّمام: نبت ضعيف له خوص أو شبيه بالخوص، وربما حُشي به وسُدّ به خصاص البيوت، الواحدة ثُمامة. الصحاح للجوهري، «ثمم». والعرب تقول للشيء الذي لا يعسُر تناوله: هو على طرف الثُّمام، وذلك أن الثمام لا يطول فيشقّ تناوله. لسان العرب لابن منظور، «ثمم».

[٢٠١و] ثمّ أخبرهما بأنّ علمه ذلك ليس مِن قَبيل / علوم الكهَنة والعرّافين؛ بل هو فضل إلهي يؤتيه مَن يشاء ممّن يصطفيه للنبوّة، فقال: ﴿ذَٰلِكُمَا﴾ أي: ذلك التأويل والإخبار بالمغيَّبات. ومعنى البعد في "ذلك" للإشارة إلى علوّ درجته وبُعد منزلته. ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ بالوحي والإلهام، أي: بعض منه، أو مِن ذلك الجنس الذي لا يحوم حول إدراكه العقول، ولقد دلّهما بذلك على أنّ له علومًا جمّةً، ما سمعاه قطعةٌ مِن جملتها، وشعبة مِن دَوحتها.

ثمّ بيّن أنّ نيل تلك الكرامة بسبب اتّباعه ملّة آبائه الأنبياء العظام وامتناعه عن الشرك فقال: ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ وهو استئناف وقَع جوابًا عن سؤال نشأ مِن قوله: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾، وتعليلًا له، لا للتعليم الواقع صلة للموصول؛ لتأديته إلى معنى أنّه ممّا علّمني ربّي لهذا السبب دون غيره، ولا لِمضمون الجملة الخبريّة؛ لأنّ ما ذُكر بصدد التعليل ليس بعلّة؛ لكون التأويل المذكور بعضًا ممّا علّمه ربّه، أو لكونه مِن جنسه؛ بل لنفس تعليم ما علّمه، فكأنّه قيل: لماذا علّمك ربّك تلك العلوم البديعة؟ فقيل: لأنّي تركت ملّة الكفرة، أي: دينَهم الذي اجتمعوا عليه مِن الشرك وعبادة الأوثان.

والمراد بتركها الامتناع عنها رأسًا كما يُفصح عنه قوله: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾، لا تركها بعد ملابستها. وإنّما عبّر عنه بذلك لكونه أدخَل بحسب الظاهر في اقتدائهما به عليه السلام.

والتعبير عن كفرهم بالله تعالى بسلب الإيمان به للتنصيص على أنّ عبادتهم له تعالى مع عبادة الأوثان ليس بإيمان به تعالى كما هو زعمهم الباطل على ما مرّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ [هود، ١١/٤٦].

﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ وما فيها مِن الجزاء ﴿هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ على الخصوص دون غيرهم؛ لإفراطهم في الكفر.

﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٣٨﴾

﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ يعني أنّه إنّما حاز هذه الكمالاتِ

وفاز بتلك الكرامات بسبب أنّه اتّبع ملّة آبائه الكرام، ولم يتّبع ملّة قوم كفروا بالمَبدأ والمَعاد. وإنّما قاله عليه السلام ترغيبًا لصاحِبَيه في الإيمان والتوحيد، / وتنفيرًا لهما عمّا كانا عليه مِن الشرك والضلال. وقدّم ذِكر تركه لملّتهم على ذِكر اتّباعه لملّة آبائه لأنّ التَّخلية متقدّمة على التَّحلِية. [٢٠١ظ]

﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما صحّ وما استقام فضلًا عن الوقوع ﴿لَنَا﴾ معاشر الأنبياء؛ لقوّة نفوسنا ووُفور علومنا ﴿أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أيَّ شيء كان مِن مَلَكٍ أو جنّي أو إنسي فضلًا عن الجماد البَحت. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: التوحيد المدلول عليه بقوله: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ أي: ناشيءٌ مِن تأييده لنا بالنبوّة، وترشيحِه إيّانا لِقِيادة الأُمّة وهدايتهم إلى الحقّ. وذلك -مع كونه مِن موجبات التوحيد ودواعيه- نعمةٌ جليلةٌ وفضلٌ عظيمٌ علينا بالذات ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ كافّةً بواسطتنا.

وحيث عُبّر عن ذلك بذلك العنوان عُبّر عن التوحيد الذي يوجبه بالشكر فقيل: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: لا يوحّدون، فإنّ التوحيد مع كونه مِن آثار ما ذُكر مِن التأييد شكرٌ لله عزّ وجلّ على تلك النعمة. وإنّما وُضع الظاهر مَوضع الضمير الراجع إلى ﴿ٱلنَّاسِ﴾ لزيادة توضيحٍ وبيانٍ، ولِقطع توهّم رجوعه إلى المجموع[١] المُوهم لعدم[٢] اختصاصِ غير الشاكر بالناس.

وقيل: ذلك التوحيد مِن فضل الله علينا حيث نصَب لنا أدلّةً ننظر فيها ونستدلّ بها على الحقّ. وقد نصَب مثل تلك الأدلّة لسائر الناس أيضًا، ولكنّ أكثرهم لا ينظرون ولا يستدلّون بها اتّباعًا لأهوائهم فيبقَوْنَ كافرين غير شاكرين.

ولك أن تقول: ذلك التوحيد مِن فضل الله علينا حيث أعطانا عقولًا ومشاعرَ نستعملها في دلائل التوحيد التي مهّدها في الأنفس والآفاق، وقد أعطى سائرَ الناس أيضًا مثلَها، ولكنّ أكثرهم لا يشكرون، أي: لا يَصرِفون تلك القوى والمشاعر إلى ما خُلِقَت هي له، ولا يستعملونها فيما ذُكر مِن أدلّة التوحيد الآفاقيّة والأنفُسيّة، والعقليّة والنقليّة.

---

[١] وفي هامش م: أي: منهم ومِن الناس.

[٢] ط س: بعدم.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٤٠﴾

[٢٠٢و] ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ أي: يا صاحبيَّ في السجن، كما تقول: / يا سارقَ الليلةِ. ناداهما بعنوان الصحبة في مدارِ الأشجان ودارِ الأحزان التي تصفو فيها المودّة وتخلص النصيحة؛ ليُقْبِلا عليه ويَقْبَلا مَقالتَه. وقد ضَربَ لَهما مثلًا يتّضح به الحقّ عندهما حقَّ اتّضاحٍ فقال: ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ لا ارتباط بينهم ولا اتّفاق، يَسْتَعْبِدكما[١] كلٌّ منهم حسبما أراد غير مراقب للآخَرين مع عدمِ استقلاله ﴿خَيۡرٌ﴾ لكما ﴿أَمِ ٱللَّهُ﴾ المعبود بالحقّ ﴿ٱلۡوَٰحِدُ﴾ المتفرّد بالألوهيّة ﴿ٱلۡقَهَّارُ﴾ الغالب الذي لا يغالبه أحد.

وبعد ما نبّههما على فساد تعدّدِ الأرباب بيّن لهما سقوطَ آلهتهما عن درجة الاعتبار رأسًا فضلًا عن الألوهيّة فقال معمِّمًا للخطاب لهما ولمَن على دينهما: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي: مِن دون الله شيئًا ﴿إِلَّآ أَسۡمَآءٗ﴾ فارغةً لا مطابِقَ لها في الخارج؛ لأنّ ما ليس فيه مصداق إطلاق الاسم عليه لا وجود له أصلًا، فكانت عبادتهم لتلك الأسماء فقط.

﴿سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾ جعلتموها أسماءً. وإنّما لم يذكر المسمَّيات تربيةً لِما يقتضيه المقام مِن إسقاطِها عن مرتبة الوجود، وإيذانًا بأنّ تسميتهم في البطلان حيث كانت بلا مسمًّى كعبادتهم حيث كانت بلا معبودٍ. ﴿أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ بمحض جهلكم وضلالتكم. ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أي: بتلك التسميةِ المستتبعة للعبادة ﴿مِن سُلۡطَٰنٍ﴾ مِن حجّة تدلّ على صحّتها.

﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ﴾ في أمر العبادة المتفرّعة على تلك التسمية ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ عزّ سلطانه؛ لأنّه المستحِقّ لها بالذات، إذ هو الواجب بالذات، الموجِد للكلّ، والمالك لأمره. ﴿أَمَرَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤالٍ ناشئٍ مِن قوله: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، فكأنّه قيل: فماذا حَكَم الله تعالى في هذا الشأن؟ فقيل: أَمَر على ألسنة

[١] س: يستعيدكما.

الأنبياء عليهم السلام ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ﴾ أي: بأن لا تعبدوا ﴿إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾ حسبما تقضي به قضيّة العقل أيضًا.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: تخصيصُه تعالى بالعبادة ﴿ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ الثابت المستقيم الذي تعاضَدت عليه البراهين عقلًا ونقلًا، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنّ ذلك هو الدين القيّم لجهلهم بتلك البراهين. أو لا يعلمون شيئًا أصلًا، فيعبدون أسماءً سمَّوها مِن تلقاء أنفسهم مُعرِضين عن البرهان العقلي والسلطان النقلي.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ۝٤١﴾

وبعد تحقيق الحقّ ودعوتهما إليه وبيانِه لهما مقدارَه الرفيعَ ومرتبةَ علمِه الواسع شرَع في تفسير ما استفسراه، ولكونه بحثًا مغايرًا لِما سبق فَصَلَه عنه بتكرير الخطاب، فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ وهو الشرابي، وإنّما لم يعيّنه ثقةً بدلالة التعبير وتوسّلًا بذلك إلى إبهام أمر صاحبه حِذارَ مشافهته بما يَسُوءهُ. ﴿فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ﴾ أي: سيّده ﴿خَمۡرٗاۖ﴾. رُوي أنّه عليه السلام قال له: «ما رأيتَ مِن الكَرمة وحُسنها المَلِكُ وحُسنُ حالك عنده، وأمّا القُضبان الثلاثة فثلاثة أيّام تمضي في السجن، ثمّ تخرج وتَعُودُ إلى ما كنت عليه».[١] وقرأ عِكرمة: "فَيُسْقَى رَبُّهُ"[٢] على البناء للمفعول، أي: يُسْقَى مَا يَرْوَى به.

﴿وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ﴾ وهو الخبّاز ﴿فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦ﴾ رُوي أنّه عليه السلام قال له: ما رأيتَ مِن السِّلال الثلاث ثلاثةُ أيّام تمرّ ثمّ تَخرج فتُقتل.[٣]

﴿قُضِيَ﴾ أي: أُتِمّ وأُحكِم ﴿ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ وهو ما رأياه مِن الرُّؤيَيَين قطعًا، لا مَآله الذي هو عبارة عن نجاة أحدهما وهلاك الآخر كما يوهمه إسناد القضاء إليه، إذ الاستفتاء إنّما يكون في الحادثة لا في حكمها.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٤٧١/٢؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٧٩/٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة والجحدري. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤٧١/٢؛ وشواذ القراءات للكرماني، ص ٢٤٧.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٤٧١/٢؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٧٩/٦.

[٢٠٢ظ] يقال: استفتى الفقيهَ / في الحادثة، أي: طلب منه بيانَ حكمها، ولا يقال: استفتاه في حكمها. وكذا الإفتاء، فإنّه يقال: أفتى فلان في الواقعة الفلانيّة بكذا، ولا يقال: أفتى في حكمها أو جوابها بكذا. وممّا هو علَم في ذلك قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَـٰىَ﴾.[١]

ومعنى استفتائهما فيه: طلبُهما لِتأويله بقولهما: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾.[٢] وإنّما عُبّر عن ذلك بالأمر وعن طلب تأويله بالاستفتاء تهويلًا لأمره، وتفخيمًا لشأنه، إذ الاستفتاء إنّما يكون في النوازل المُشكِلة الحكمِ المُبهَمة الجوابِ.

وإيثار صيغة الاستقبال مع سبق استفتائهما في ذلك لِما أنّهما بصدده إلى أن يقضي عليه السلام مِن الجواب وطَرَه. وإسناد القضاء إليه مع أنّه مِن أحوال مآلِه لأنّه في الحقيقة عَيْنُ ذلك المآل، وقد ظهر في عالم المثال بتلك الصورة.

وأمّا توحيده مع تعدّد رؤياهما فوارد على حسب ما وحّداه في قولهما: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾،[٣] لَا لِأَنّ الأمرَ ما اتُّهِمَا بهِ وسُجِنَا لِأجله مِن سَمّ الملِك، فإنّهما لم يسْتفتيا فيه، ولا فيما هو صورته؛ بل فيما هو صورة لمآله وعاقبته فتأمّل. وإنّما أخبرهما عليه السلام بذلك تحقيقًا لتعبيره وتأكيدًا لَه.

وقيل: لمّا عَبّر رؤياهما جحدا وقالا: ما رأينا شيئًا فأخبرهما أنّ ذلك كائن، صدّقتما أو كذّبتما. ولعلّ الجحودَ مِن الخبّاز؛ إذ لا داعي إلى جحود الشرابي إلّا أن يكون ذلك لمراعاة جانبه.

﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَقَالَ﴾ أي: يوسف عليه السلام ﴿لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ﴾ أُوثِر على صيغة المضارع مبالغة في الدلالة على تحقّق النجاة حسبما يفيده قوله تعالى: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.[٤] وهو السرّ في إيثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال:

---

[١] يوسف، ٤٣/١٢.
[٢] يوسف، ٣٦/١٢.
[٣] يوسف، ٣٦/١٢.
[٤] في الآية السابقة.

للذي ظنّه ناجيًا ﴿مِنْهُمَا﴾ مِن صاحبَيه. وإنّما ذُكر بوصف النجاة تمهيدًا لِمَناط التوصية بالذِّكر عند الملِك. وعنوان التقرّب المفهوم من التعبير المذكور وإن كان أدخل في ذلك وأدعَى إلى تحقيق ما وصّاه به لكنّه ليس بوصف فارِقٍ يدور عليه الامتياز بينه وبين صاحبه المذكور بوصف الهلاك.

والظانّ هو يوسف عليه السلام، لا صاحبه؛ لأنّ التوصية المذكورة لا تدور على ظنّ الناجي؛ بل على ظنّ يوسف، وهو بمعنى اليقين، كما في قوله تعالى: ﴿ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾ [الحاقة، ٢٠/٦٩]. فالتعبيرُ بالوحي[١] كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾... إلخ. وقيل: هو بمعناه، والتعبير بالاجتهاد والحكم بقضاء الأمر أيضًا اجتهادي.

﴿ٱذۡكُرۡنِي﴾ بما أنا عليه مِن الحال والصفة ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ سيّدِك، وصِفْني له بصِفتي التي شاهدتها، ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي: أَنسَى الشَرَابِيَّ بوسوسته وإلقائه في قلبه أشغالًا تَعُوقُه عن الذِكر، وإلّا فالإنساء في الحقيقة لله عزّ وجلّ. والفاء للسببيّة، فإنّ توصيته عليه السلام المتضمّنة للاستعانة بغيره سبحانه كانت باعثةً لِما ذُكر مِن الإنساء. ﴿ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ أي: ذكر الشرابي له عليه السلام عند الملِك، والإضافة لأدنى ملابسة. أو ذِكرَ إخبار ربّه.

﴿فَلَبِثَ﴾ أي: يوسف بسبب ذلك الإنساءِ أو القولِ ﴿فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ البِضع: ما بين الثلاث إلى التسع، مِن البَضع، وهو القَطع. وأكثر الأقاويل أنّه لبِث فيه سبع سنين. ورُوي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «رحِم الله أخي يوسف لو لم يقل: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ لَما لبِث في السِّجن سبعًا بعد الخمس».[٢]

---

١ وفي هامش م: "فالتعبير" مبتدأ، "بالوحي" خبره.

٢ وفي هامش م: وأكثر المفسّرين على أن "البِضع" في هذه الآية سبعُ سنين، وكان قد لبِثَ قبله خمس سنين، فجملته اثْنَتا عشرة سنةً. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «لمّا تضرّع يوسف عليه السلام لذلك الرجل كان قد قرب وقتُ خروجه، فلمّا ذكر ذلك لبث في السجن بعده سبع سنين». وفيه دلالة على أنّ رؤيا صاحبَيه عليه السلام لم تقع في أثناء دخولهما السجن معه عليه السلام؛ بل بعد بُرهةٍ مِن الدهر. «منه». | غرائب التفسير للكرماني، ٥٣٨/١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٦٥/٣. وانظر: جامع البيان للطبري، ١٧٣/١٣.

والاستعانة بالعباد وإن كانت مرخّصة لكن اللائق بمناصب الأنبياء عليهم السلام[١] الأخذ بالعزائم.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ أي: الريّان ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ﴾ أي: رأيت. وإيثار صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية. ﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ جمع سَمين وسَمينة، ككرام في جمع كريم وكريمة، يقال: رجال كِرام، ونِسوة كرام. ﴿يَأْكُلُهُنَّ﴾ أي: أكَلَهنّ. والعدول إلى المضارع لاستحضار الصورة تعجيبًا. والجملة حال مِن "البقرات" أو صفة.

﴿سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ أي: سبع بقرات عِجاف، وهي جمع "عجفاءَ"، والقياس "عُجْفٌ"؛ لأنّ فَعلاء وأفعل لا يجمع على فِعال، ولكن عُدل به عن القياس حملًا لأحد النقيضين على الآخر. وإنّما لم يقل: سَبعُ عجافٍ بالإضافة لأنّ التمييز موضوع لبيان الجنس، والصفةُ ليست بصالحة لذلك، فلا يقال: ثلاثةٌ ضِخام، وأربعةٌ غِلاظ. وأمّا قولك: ثلاثة فرسان، وخمسة رُكبان، فلِجريان الفارس، والراكب مجرى الأسماء.

رُوِي أنّه رأى سبع بقرات سِمانٍ خَرَجْن مِن نَهرٍ يابس، وخرج عَقيبَهنّ سبع بقرات عِجاف في غاية الهزال، فابتلعت العِجافُ السِّمانَ.[٢]

﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ﴾ قد انعقد حَبّها ﴿وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ أي: وسبعًا أُخَرَ
[٢٠٣و] يابسَاتٍ قد أدركَتْ / والْتَوَتْ على الخُضر حتّى غَلَبْنَها على ما رُوي.[٣] ولعلّ عدمَ التعرّض لذِكره للاكتفاء بما ذُكر مِن حال البقرات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ﴾ خطاب للأشراف مِن العلماء والحكماء، ﴿أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ﴾ هذه، أي: عَبّروها وبيّنُوا حُكمَها وما تئول إليه مِن العاقبة. والتعبير عن التعبير بالإفتاء لتشريفهم وتفخيم أمر رؤياه.

---

١ س - عليهم السلام.
٢ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٥/٢٢٦؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٤٧٣.
٣ انظر: **الكشف والبيان** للثعلبي، ٥/٢٢٦؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ٢/٤٧٣.

﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ أي: تعلمون عِبارةَ جنس الرؤيا عِلمًا مستمرًّا؛ وهي الانتقال مِن الصور الخياليّة المشاهَدة في المنام إلى ما هي صور وأمثلة لها مِن الأمور الآفاقيّة أو الأنفسيّة الواقعة في الخارج. مِن العبور؛ وهو المجاوزة، تقول: "عبَرتُ النهرَ" إذا قطعتَه وجاوزتَه. ونحوه: أوَّلتُها، أي: ذكرتُ مَآلَها. و"عَبَرْتُ الرؤيا عِبارةً" أثبَتُ مِن "عَبَّرتُها تعبيرًا".

والجمع بين الماضي والمستقبل للدلالة على الاستمرار كما أشيرَ إليه. و"اللام" للبيان، أو لتقوية العامل المؤخَّر لرعاية الفواصل،[١] أو لتضمين ﴿تَعْبُرُونَ﴾ معنى فعلٍ متعدٍّ باللام، كأنّه قيل: إن كنتم تَنتَدِبون لعِبارتها. ويجوز أن يكون ﴿لِلرُّءْيَا﴾ خبرَ "كان"، كما يقال: فلان لهذا الأمر إذا كان مستقِلًّا به متمكِّنًا منه. و﴿تَعْبُرُونَ﴾ خبر آخَر.

﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿قَالُوٓاْ﴾ استئناف مبنيّ على السؤال، كأنّه قيل: فماذا قال الملأُ للملِك؟ فقيل: قالوا: هي ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أي: تَخاليطها، جمع "ضِغث"، وهو في الأصل ما جُمع مِن أخلاط النبات وحُزِم، ثمّ استُعير لِما تجمعه القوّة المتخيِّلة مِن أحاديث النفس ووَساوس الشيطان / وَتُرِيها[٢] في المنام. و"الأَحلام" جمع [٢٠٣ظ]
"حُلم"، وهي الرؤيا الكاذبة التي لا حقيقةَ لها.

والإضافة بمعنى "مِن"، أي: هي أضغاثٌ مِن أحلام. أخرَجوها مِن جنس الرُّؤَى التي لها عاقبة تئول إليها ويُعْتَنَى بِأَمرِها وجَمعوها وهي رُؤيا واحدةٌ مبالغةً في وصفها بالبطلان، كما في قولهم: فلان يركب الخيل ويلبس العَمائم، لمَن لا يملك إلّا فرَسًا واحدًا وعمامة فَردة. أو لتضمّنها أشياء مختلفة مِن البقرات السبعِ السمان، والسبعِ العجاف، والسنابلِ السبع الخضر، والأُخَر اليابسات، فتأمّل حُسن مَوقع الأضغاث مع السنابل، فلله درُّ شأن التنزيل.

---

١ وفي هامش م: متعلق بـ"المؤخّر".

٢ وفي هامش م: راجع إلى "ما" المبيَّن بالأحاديث والوساوس. «منه».

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ﴾ أي: المنامات الباطلة التي لا أصل لها ﴿بِعَٰلِمِينَ﴾ لا لأنّ لها تأويلًا ولكن لا نعلمه؛ بل لأنّه لا تأويل لها، وإنّما التأويل للمنامات الصادقة. ويجوز أن يكون ذلك اعترافًا منهم بقُصور عِلمهم، وأنّهم ليسوا بنَحارِيرَ في تأويل الأحلام مع أنّ لها تأويلًا كما يُشعِر به عُدولهم عمّا وَقع فِي كلامِ المِلك مِن العِبارة[1] المُعرِبة عن مجرّد الانتقال مِن الدالّ إلى المدلول -حيث لم يقولوا: بتعبير الأحلام، أو عِبارتِها- إلى التأويل المُنبئ عن التصرّف والتكلّف في ذلك؛ لِما بين الآيِل والمآل مِن البعد، ويؤيّده قوله عزّ وجلّ: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾.[2]

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا﴾ أي: مِن صاحبَي يوسف، وهو الشرابي. ﴿وَٱدَّكَرَ﴾ بغير المعجمة، وهو الفصيح. وعن الحسَن بالمعجمة.[3] أي: تذكّر يوسفَ عليه السلام[4] وشئونَه التي شاهدها، ووصيّتَه بتقريب رُؤيا المِلك وإشكالِ تأويلِها على الملأ. ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: مدّة طويلة، وقُرئ: "إِمَّةٍ" بالكسر؛[5] وهي النعمة، أي: بعد ما أُنعِم عليه بالنجاة، / و"أَمَةٍ"،[6] أي: نسيانٍ. [٢٠٤و]

والجملة حال مِن الموصول، أو مِن ضميره في الصلة. وقيل: معطوفة على ﴿نَجَا﴾،[7] وليس بذاك؛ لأنّ حقّ كلّ مِن الصفة والصلة أن تكون معلومةَ الانتساب إلى الموصوف والموصول عند المخاطب كما عند المتكلِّم، ولذلك قيل: إنّ الصفات قبل العِلم بها أخبارٌ، والأخبارَ بعد العِلم بها صفاتٌ. وأنت تدري

---

١ وفي هامش م س: أي في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف، ٤٣/١٢]. «منه».

٢ في الآية التالية.

٣ أي: "وَاذَّكَرَ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن والضحّاك وكرداب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٨.

٤ م - عليه السلام.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأشهب العقيلي. انظر: المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٢٤٩/٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٢٨٤/٦.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي عبيدة وعكرمة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٨.

٧ ذكره في اللباب ابن عادل، ١١٩/١١.

أنّ تذكّره بعد أُمّة إنّما عُلِم بهذه الجملة، فلا مجال لنظمه مع نَجاته المعلومة قبلُ في سِلك الصلة.

﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ أي: أُخبِركم به بالتلقّي عمّن عنده عِلمه، لا مِن تلقاء نفسي، ولذلك لم يقل: أنا أُفتيكم فيها، وعَقّبه بقوله: ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ أي: إلى يوسف.

وإنّما لم يُذكَر ثقةً بما سبَق مِن التذكّر، وما لَحِق مِن قوله: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ أي: أُرسِل إليه، فأتاه فقال: يا يوسف. ووصفَه بالمبالغة في الصدق حَسبما شاهده وذاق أحوالَه وجرّبها لكونه بصدَد اغتنام آثاره، واقتباسِ أنواره، فهو مِن باب براعة الاستهلال.

﴿أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ[1] سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ أي: في رؤيا ذلك. وإنّما لم يصرّح به لوضوح مَرامه بقرينة ما سبَق مِن معاملتهما، ولدلالة مضمون الحادثة عليه، حيث لا إمكان لوقوعه في عالم الشهادة. أي: بَيِّنْ لَنا مآلَها وحكمَها. وحيث عاين علوَّ رتبته عليه السلام في الفضل عَبّر عن ذلك بالإفتاءِ، ولم يَقل كما قال هو وصاحبه أوّلًا: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾.[2]

وفي قولِه: ﴿أَفْتِنَا﴾ -مع أنّه المستفتي وحده- إشعارٌ بأنّ الرؤيا ليست له؛ بل لغيره ممّن له ملابسة بأمور العامّة، وأنّه في ذلك معبّر وسَفير كما آذَنَ بذلك حيث قال: ﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: إلى الملِك ومَن عنده، أو إلى أهل البَلَدِ إن كان السجنُ في الخارجِ كما قيل، فأنبّئُهم بذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ذلك ويعملون بمقتضاه، أو يعلمون فضلك ومكانك مع ما أنت فيه مِن الحال / فتتخلّص منه. وإنّما لم يبتّ القول في ذلك مجاراةً معه على نهج الأدب، [٢٠٤ظ]
واحترازًا عن المجازَفة، إذ لم يكن على يقين مِن الرجوع، فربّما اختُرِم دونه.

لعلّ المنايا دون ما تعِداني[3]

ولا مِن علمهم بذلك، فربّما لم يعلموه.

---

[1] وفي هامش م: حال مِن ﴿سَبْعِ بَقَرَٰتٍ﴾ باعتبار كونها مرئيّة في المنام. «منه».

[2] يوسف، ٣٦/١٢.

[3] وفي هامش م: صدره:

ولا تعِداني أن أعيشَ إلى غدِ

«منه». | البيت لأبي جعفر الأعمى التليطلي في قلائد العقيان للفتح بن خاقان، ص ٢٧١.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على السؤال، كأنّه قيل: فماذا قال يوسف عليه السلام في التأويل؟ فقيل: قال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ قُرئ بفتح الهمزة[1] وسكونِها،[2] وكلاهما مصدر دَأَب في العمل إذا جدّ فيه وتعِبَ. وانتصابه على الحاليّة مِن فاعل ﴿تَزْرَعُونَ﴾، أي: دائبين، أو تدأَبون[3] دَأَبًا على أنّه مصدر مؤكّد لفعلٍ هو الحال.

أوّلَ عليه السلام البقرات السِّمان والسنبلاتِ الخضرَ بسنين مَخَاصِيبَ، والعجافَ واليابساتِ بسنين مُجْدِبة، فأخبرهم بأنّهم يواظِبون سبعَ سنين على الزراعة، ويبالغون فيها، إذ بذلك يتحقّق الخِصب الذي هو مِصداق البقرات السِّمان وتأويلها. ودلّهم في تضاعيف ذلك على أمر نافع لهم فقال: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ﴾ أي: في كلّ سنةٍ ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِۦ﴾ ولا تُذَرُّوهُ كَيلا يأكلَه السوس، كما هو شأن غِلالِ مِصر ونواحيها. ولعلّه عليه السلام استدلّ على ذلك بالسنبلات الخضر. وإنّما أمرهم بذلك -إذ لم يكن معتادًا فيما بينهم، وحيث كانوا معتادين للزراعة لم يأمرهم بها- وجعلَها أمرًا محقّق الوقوع وتأويلًا للرؤيا مصداقًا لِما فيها مِن البقرات السمان.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ في تلك السنين. وفيه إرشاد منه عليه السلام لهم إلى التقليل في الأكل. والاقتصارُ على استثناء المأكول دون البَذْر لكون ذلك معلومًا مِن قوله: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ﴾.

وبعد إتمام ما أمرهم به شَرَع فِي بيان بَقيّة التأويل التي يظهر منها حِكمة الأمر المذكور فقال: ﴿ثُمَّ يَأْتِي﴾ وهو عطفٌ على ﴿تَزْرَعُونَ﴾، فلا وجه لجعله بمعنى الأمر حثًّا لهم على الجِدّ والمبالغة في الزراعة،[4] على أنّه يحصل بالإخبار

---

[1] قرأ بها حفص عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٥.

[2] قرأ بها جميع القرّاء العشر غير رواية حفص عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٥.

[3] ط س: تأدبون.

[4] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٧٦.

بذلك أيضًا. ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: مِن بعد السنين السبع المذكورات. وإنّما لم يقل "مِن بعدهنّ" قصدًا إلى الإشارة إلى وصفهِنّ، فإنّ الضمير ساكت عن أوصاف المرجع بالكلّيّة.

﴿سَبۡعٞ شِدَادٞ﴾ أي: سبع سنين صِعَاب على الناس ﴿يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ﴾ مِن الحبوب المتروكة / في سنابلها. وفيه تنبيه على أنّ أمره عليه السلام بذلك [٢٠٥و] كان لوقت الضرورة. وإسناد الأكل إليهنّ مع أنّه حال الناس فيهنّ مجازي، كما في "نهارُه صائم". وفيه تلويح بأنّه تأويل لأكل العِجافِ السِّمانَ. و"اللام" في ﴿لَهُنَّ﴾ ترشيح لذلك، فكأنّ ما ادُّخر في السنابل مِن الحبوب شيء قد هُيّئَ وقُدِّم لهنّ كالذي يقدَّم للنازل، وإلّا فهو في الحقيقة مقدَّم للناس فيهنّ. ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ﴾ تُحرِزُون لبذور الزراعة.

﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ٤٩﴾

﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: مِن بعد السنين الموصوفة بما ذُكر مِن الشدّة وأكل الغِلال المدَّخرة ﴿عَامٞ﴾ لم يعبِّر عنه بالسَّنة تَحاشِيًا عن المدلول الأصلي لها مِن عام القحط، وتنبيهًا مِن أوّل الأمر على اختلاف الحال بينه وبين السوابق. ﴿فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ مِن الغيث، أي: يُمطَرون، يقال: غِيثَت البلاد إذا مُطِرت في وقت الحاجة، أو من الغَوث، يقال: أغاثنا الله تعالى، أي: أمدّنا برفع المَكاره حين أظلّتْنا.

﴿وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾ أي: ما مِن شأنه أن يُعصَر مِن العنب والقصب والزيتون والسمسم ونحوها مِن الفواكه لكثرتها. والتعرّض لذكر العَصر مع جواز الاكتفاء عنه بذكر الغيث المستلزِم له عادة كما اكتُفي به عن ذِكر تصرّفهم في الحبوب إمّا لأنّ استلزام الغيث له ليس كاستلزامه للحبوب، إذ المذكورات يتوقّف صلاحها على مبادٍ أخرى غير المطر، وإمّا لمراعاة جانب المستفتي باعتبار حالته الخاصّة به بِشارةً له، وهي التي يدور عليها حُسن موقع تغليبه على الناس في القراءة بالفوقانيّة.[١]

---

١ أي: "تَعصِرُونَ" بتاء الخطاب. قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢،٢٩٥.

وقيل: معنى ﴿يَعْصِرُونَ﴾ يحلبون الضُّروعَ. وتكريرُ ﴿فِيهِ﴾ إمّا لِلإشعار باختلاف أوقات ما يقع فيه مِن الغيث والعَصر زمانًا، وهو ظاهر، وعنوانًا، فإنّ الغيث والغوث مِن فضل الله تعالى، والعَصرَ مِن فعل الناس، وإمّا لأنّ المقام مقامُ تعداد منافع ذلك العام، / ولأجله قُدِّم في الموضعين على الفعلين، فإنّ المقصود الأصلي بيانُ أنّه يقع في ذلك العام هذا النفعُ وذاك النفعُ، لا بيانُ أنّهما يقعان في ذلك العام كما يفيده التأخير. ويجوز أن يكون التقديم للقَصر على معنى أنّ غَيثهم وعَصرهم في سائر السنين بمنزلة العدم بالنسبة إلى عامِهم ذلك، وأن يكون ذلك في الأخير لمراعاة الفواصل، وفي الأوّل لرعاية حاله. [٢٠٥ظ]

وقُرئ: "يُعْصَرُونَ"[١] على البناء للمفعول، مِن عصَره إذا أنجاه، وهو المناسب للإغاثة. ويجوز أن يكون المبنيّ للفاعل أيضًا منه، كأنّه قيل: فيه يغاث الناسُ وفيه يُغيثون، أي: يغيثُهم الله، ويُغيثُ بَعضُهم بعضًا. وقيل: معنى "يُعْصَرُونَ": يُمْطَرُون، مِن أَعصَرتِ السحابة، إمّا بتضمين "أعصَرَت" معنى "مَطَرت" وتعديتِه تعديتَه، وإمّا بحذف الجارّ وإيصال الفِعل، على أنّ الأصل أعصَرت عليهم.

وأحكام هذا العام المبارك ليست مستنبَطةً مِن رؤيا الملِك، وإنّما تلقّاها عليه السلام مِن جهة الوحي، فبشّرهم بها بعد ما أوّلَ الرؤيا بما أوّل، وأمرهم بالتدبير اللائق في شأنه إبانةً لعلوّ كَعبه ورسوخ قدَمه في الفضل، وأنّه محيط بما لم يخطر ببال أحدٍ، فضلًا عمّا يُرَى صورته في المنام، على نحو قوله لصاحبَيه عند استفتائهما في منامهما: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾،[٢] وإتمامًا للنعمة عليهم حيث لم يشاركه عليه السلام في العِلم بوقوعها أحد ولو برؤية ما يدلّ عليها في المنام.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝﴾

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ بعد ما جاءه السفير بالتعبير وسمع منه ما سمع مِن نقير وقطمير:

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى وابن الأعرج وجعفر بن محمد وأبي البرَهْسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٨.

٢ يوسف، ١٢/٣٧.

﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦ﴾ لِما عَلِم من علمه وفضله. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ﴾ أي: يوسفَ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ واستدعاه إلى الملِك ﴿قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: سيّدِك ﴿فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾ أي: فتّشه / عن شأنهنّ. وإنّما لم يقل: فاسأله أن يفتّش عن ذلك؛ حثًّا للملِك على الجِدّ في التفتيش؛ ليتبيّن براءته، ويتّضح نزاهته، إذ السؤال ممّا يهيّج الإنسان على الاهتمام في البحث للتقصّي عمّا توجّه إليه، وأمّا الطلب فممّا قد يُتسامَح ويُتساهَل فيه ولا يُبالَى به. [٢٠٦و]

وإنّما لم يتعرّض لامرأة العزيز مع ما لقي منها ما لقي مِن مقاساة الأحزان ومعاناة الأشجان محافظةً على مواجب الحقوق واحترازًا عن مَكْرها، حيث اعتقدها مقيمةً في عُدوة العداوة.

وأمّا النسوة فقد كان يطمعُ في صدعهنّ بالحقّ وشهادتِهنّ بإقرارها بأنّها راودته عن نفسه فاستعصم، ولذلك اقتصر على وصفهنّ بتقطيع الأيدي، ولم يصرّح بمراودتهنّ له وقولهنّ: أطِع مولاتك، واكتفى بالإيماء إلى ذلك بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾ مجامَلةً معهنّ، واحترازًا عن سوء قالَتهنّ عند الملِك، وانتصابِهنّ للخصومة مدافَعةً عن أنفسهنّ متى سمِعن بنسبته لهنّ إلى الفساد.

﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٥١﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على السؤال، كأنّه قيل: فماذا كان بعد ذلك؟ فقيل: قال الملِك إثر ما بلّغه الرسولُ الخبرَ وأحضرهنّ: ﴿مَا خَطۡبُكُنَّ﴾ أي: شأنكنّ، وهو الأمر الذي يحِقّ لعِظَمه أن يُخاطِب المرءُ فيه صاحِبَه. ﴿إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ﴾ وخادعتُنّه ﴿عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ ورغّبتُنّه في إطاعة مولاته؛ هل وجدتنّ فيه شيئًا مِن سُوءٍ وريبة؟ ﴿قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تنزيهًا له وتعجبًا مِن نزاهته وعِفّته، ﴿مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖ﴾ بالَغنَ في نفي جنس السوء عنه بالتنكير وزيادة ﴿مِن﴾.

﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ﴾ وكانت حاضرة في المجلس. وقيل: أقبلَت النسوةُ عليها يقرّرنها. وقيل: خافت أن يشهدنَ عليها بما قالت لهنّ: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ

[٢٠٦ظ] ﴿فَٱسْتَعْصَمَۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾،[١] فأقرّتْ / قائلةً: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ثبت واستقرّ، أو تبيّن وظهر بعد خفاءٍ، قاله الخليل.[٢] وقيل: هو مأخوذ مِن الحِصّة، وهي القطعة مِن الجملة، أي: تبيّن حِصّة الحقّ مِن حِصّة الباطل، كما تتبيّن حِصص الأراضي وغيرها. وقيل: بان وظهر، مِن "حَصّ شعرَه" إذا استأصله بحيث ظهرت بشَرةُ رأسه.

وقُرئ على البناء للمفعول،[٣] مِن "حَصحَص البعير مَبارِكَه"، أي: ألقاها في الأرض للإناخة، قال:

فحَصحَصَ في صُمّ الصفا ثَفِنَاتِه ونـاءَ بسَلمى نـوأةً ثـمّ صمّما[٤]

والمعنى: أُقِرَّ الحقُّ في مقرّه، ووُضع في موضعه.

ولم تُرِدْ بذلك مجرّدَ ظهور ما ظهر بشهادتهنّ مِن مطلق نزاهته عليه السلام فيما أحاط به علمهنّ مِن غير تعرّضٍ لنزاهته في سائر المواطن خصوصًا فيما وقع فيه التشاجر بمَحضر العزيز، ولا بحثٍ عن حال نفسها وما صنعَتْ في ذلك؛ بل أرادت ظهورَ ما هو متحقّق في نفس الأمر وثبوتَه مِن نزاهته عليه السلام في محلّ النزاع وخيانتها، فقالت: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ لا أنّه راودني عن نفسي ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: في قوله حين افتريت عليه: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾.[٥]

وأرادت بـ﴿ٱلْـَٰٔنَ﴾ زمانَ تكلّمها بهذا الكلام، لا زمان شهادتهنّ.

فتأمّل أيّها المنصف، هل ترى فوق هذه المرتبة نزاهةً، حيث لم تتمالك الخُصماء مِن الشهادة بها، والفضلُ ما شهدت به الخُصماء؟ وإنّما تصدّى عليه السلام لتمهيد هذه المقدّمة قبل الخروج ليُظهر براءة ساحته عمّا قُرِف به لا سيّما عند العزيزِ قبل أن يُحَلَّ ما عَقَده كما يُعرِب عنه قوله عليه السلام لمّا رجع إليه الرسولُ وأخبره بكلامهنّ.

---

١ يوسف، ١٢/٣٢.

٢ انظر: العين للخليل بن أحمد، ٣/١٤.

٣ أي: "حُصْحِصَ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن والزهري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٨.

٤ لحُميد بن ثور في الصحاح للجوهري، «حصص». يقول: أثبتَ البعيرُ قوائمَه في الأرض ونَهضَ بثقَلٍ لما عليه مِن ثِقَلِ الجارية ثمّ مضى في سَيْره. والمصمِّم مِن السيوف: الذي يَمضي في الضَّريبة. معجم ديوان الأدب للفارابي، ٣/١٧٣.

٥ يوسف، ١٢/٢٦.

﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٢﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك التثبّت المؤدّي إلى ظهور حقيقة الحال ﴿لِيَعۡلَمَ﴾ أي: العزيزُ ﴿أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ﴾ في حرمته كما زعمه، لا علمًا مطلقًا، فإنّ ذلك / لا [٢٠٧و] يستدعي تقديم التفتيش على الخروج مِن السجن؛ بل قبل ما ذُكِر مِن نقض ما أبرمه، ولعلّه لمراعاة حقوق السيادة؛ لأنّ المباشرة للخروج مِن حبسه قبل ظهور بطلان ما جعله سببًا له -وإن كان ذلك بأمر الملِك- ممّا يوهم الافتياتَ على رأيه. وأَمّا أن يَكُون ذلك لئلّا يتمكّن مِن تقبيح أمره عند الملِك تمحّلًا لإمضاء ما قضاه،[١] فلا يليق بشأنه عليه السلام في الوثوق بأمره، والتوكّل على ربّه جلّ جلاله.

﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: بظهر الغيب. وهو حال مِن الفاعل أو المفعول، أي: لم أخنه وأنا غائب عنه، أو وهو غائب عنّي؛ أو ظرف، أي: بمكان الغيب وراء الأستار والأبواب المغلقة. وأيًا ما كان فالمقصود بيان كمال نزاهته عن الخيانة، وغاية اجتنابه عنها عند تعاضد أسبابها.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: وليعلم أنّه تعالى ﴿لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ أي: لا يُنفذه ولا يسدّده؛ بل يبطله ويزهقه. أو لا يهديهم في كيدهم إيقاعًا للفعل على الكيد مبالغةً، كما في قوله تعالى: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [التوبة، ٣٠/٩]، أي: يضاهئونَهم في قولهم. وفيه تعريض بامرأته في خيانتها أمانتَه، وبه في خيانته أمانةَ الله تعالى حين ساعدها على حبسه بعد ما رأوا آيات نزاهته عليه السلام. ويجوز أن يكون ذلك لتأكيد أمانته، وأنّه لو كان خائنًا لَما هدى الله عزّ وجلّ أمره وأحسن عاقبته.

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾ أي: لا أُنزّهها عن السوء. قاله عليه السلام هَضمًا لِنفسه الكريمة البريئة عن كلّ سوءٍ، ورَبْأً بمكانها عن التزكية والإعجابِ بحالها

[١] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤٧٧/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٦٦/٣.

عند ظهور كمال نزاهتها، على أسلوب قوله صلّى الله عليه وسلّم: «أنا سيّد ولد آدم ولا فخر»،[١] أو تحديثًا بنعمة الله عزّ وجلّ عليه، وإبرازًا لِسرّه المكنون في شأن أفعال العباد، أي: لا أنزّهها عن السوء مِن حيث هي هيَ، ولا أُسنِدُ هذه الفضيلة إليها بمقتضى / طبعها مِن غير توفيق مِن الله عزّ وعلا. [٢٠٧ظ]

﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ﴾ البشريّة التي مِن جملتها نفسي في حدّ ذاتها ﴿لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ مائلةٌ إلى الشهوات، مستعمِلةٌ للقوى والآلات في تحصيلها؛ بل إنّما ذلك بتوفيق الله تعالى وعصمته ورحمته كما يفيده قوله: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ مِن النفوس التي يعصمها مِن[٢] الوقوع في المَهالك، ومِن جملتها نفسي. أو هي أمّارة بالسوء في كلّ وقت إلّا وقتَ رحمة ربّي وعصمته لها. وقيل: الاستثناء منقطع، أي: لكن رحمة ربّي هي التي تصرف عنها السوء، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ ۝ إِلَّا رَحۡمَةٗ﴾ [يس، ٣٦/٤٣-٤٤].

﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ عظيم المغفرة لِما يعتري النفوسَ بموجَب طباعها، ومبالِغ في الرحمة لها بعِصمتها مِن الجريان بمقتضى ذلك. وإيثار الإظهار في مقام الإضمار مع التعرّض لعنوان الربوبيّة لتربية مبادي المغفرة والرحمة.

وقيل: إلى هنا مِن كلام امرأة العزيز، والمعنى: ذلك الذي قلت ليعلم يوسف عليه السلام[٣] أنّي لم أخُنه، ولم أكذب عليه في حال الغيبة، وجئت بما هو الحقّ الواقع، وما أبرّئ نفسي مع ذلك مِن الخيانة، حيث قلت في حقّه ما قلت، وفعلت به ما فعلت، إنّ كلّ نفس لأمّارة بالسوء إلّا ما رحم ربّي، أي: إلّا نفسًا رحمها الله تعالى بالعصمة كنفس يوسف، إنّ ربّي غفورٌ لمَن استغفر لذنبه واعترف به، رحيمٌ له.

فعلى هذا يكون تأنّيه عليه السلام في الخروج عن السجن لعدم رضاه عليه السلام بملاقاة الملِك وأمرُه بين بين، ففعل ما فعل حتّى يتبيّن نزاهته،

---

[١] سنن الترمذي، ٥/٣٠٨ (٣١٤٨). وهو في صحيح مسلم، ٤/١٧٨٢ (٢٢٧٨)، دون قوله: «ولا فخر».

[٢] ط س: عن.

[٣] م – عليه السلام.

وأنّه إنّما سُجن بظلم عظيم، مع ما له مِن الفضل ونباهة الشأن؛ ليتلقّاه الملِك بما يليق به مِن الإعظام والإجلال، وقد وقع.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝٥٤ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝٥٥ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٥٧﴾

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ﴾ أجعلْه خالِصًا ﴿لِنَفْسِي﴾ وخاصًّا بي. ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ أي: فأتَوا به. فحُذف للإيذان بسرعة الإتيان به، فكأنّه لم يكن بين الأمر بإحضاره / والخطاب معه زمان أصلًا. والضمير المستكِنّ في ﴿كَلَّمَهُۥ﴾ [٢٠٨و] ليوسف، والبارز للملِك، أي: فلمّا كلّمه يوسف إثرَ ما أتاه فاستنطقه وشاهد منه ما شاهد ﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾ ذو مكانةٍ ومنزلةٍ رفيعة، ﴿أَمِينٌ﴾ مؤتمَن على كلّ شيء. و﴿ٱلْيَوْمَ﴾ ليس بمعيار لمدّة المكانة والأمانة؛ بل هو آن التكلّم، والمراد تحديد مبدئهما احترازًا عن احتمال كونهما بعد حين.

رُوي أنّه عليه السلام لمّا جاءه الرسول خرَج مِن السجن، ودعا لأهله، واغتسل ولبس ثيابًا جددًا، فلمّا دخل على الملِك قال: «اللّٰهمّ إنّي أسألك بخيرك مِن خيره، وأعوذ بعزّتك وقدرتك مِن شرّه»، ثمّ سلّم عليه ودعا له بالعبرانيّة، فقال: «ما هذا اللسان؟» قال: «لسان آبائي». وكان الملِك يعرف سبعين لسانًا، فكلّمه بها، فأجابه بجميعها فتعجّب منه، فقال: أحبّ أن أسمعَ منك رؤياي. فحكاها ونعت له البقرات والسنابل وأماكنها على ما رآها، فأجلسه على السرير وفوّض إليه أمرَه.[١]

وقيل: توفّي قِطفير في تلك الليالي، فنصّبه منصبه، وزوّجه راعيل، فوجدها عذراء، وولدت له إفرائيم وميشا.[٢] ولعلّ ذلك إنّما كان بعد تعيينه عليه السلام

---

١ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣١/٥؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٦٧/٣.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٦٧/٣. وانظر: جامع البيان للطبري، ٢٢٠/١٣.

لِما عُيِّن له مِن أمر الخزائن، كما يُعرِب عنه قوله عزّ وجلّ: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أرض مِصر، أي: ولِّني أمرها مِن الإيراد والصرف. ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ لها ممّن لا يستحقها، ﴿عَلِيمٌ﴾ بوجوه التصرّف فيها. وفيه دليل على جواز طلب الولاية إذا كان الطالب ممّن يقدر على إقامة العدل وإجراء أحكام الشريعة وإن كان مِن يد الجائر أو الكافر. وعن مجاهد أنّه أسلم الملِك على يده عليه السلام.[١]

ولعلّ إيثارَه عليه السلام لتلك الولاية خاصّة إنّما كان للقيام بما هو أهمّ أمور السلطنة، إذ ذاك مِن تدبير أمر السنين حسبما فصّل في التأويل؛ لكونه مِن فروع تلك الولاية، لا لمجرّد عموم الفائدة وجموم العائدة كما قيل.[٢]

وإنّما لم يُذكَر إجابة الملِك إلى ما سأله عليه السلام مِن جعله على خزائن الأرض إيذانًا بأنّ ذلك أمرٌ لا مردّ له، غنيّ عن التصريح به، لا سيّما بعد تقديم ما يندرج تحته أحكام السلطنة بحذافيرها مِن قوله: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾.

وللتنبيه على أنّ كلّ ذلك مِن الله عزّ وجلّ وإنّما الملِك آلة في ذلك قيل: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك التمكين البديع ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ أي: جعلنا له مكانًا ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أرض مصر. رُوي أنّها كانت أربعين فرسخًا في أربعين.[٣]

وفي التعبير عن الجعل المذكور بالتمكين في الأرض مسنَدًا إلى ضميره عزّ سلطانه مِن تشريفه عليه السلام والمبالغةِ في كمال ولايته والإشارةِ إلى حصول ذلك مِن أوّل الأمر -لا أنّه حصل بعد السؤال- ما لا يخفى.

﴿يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا﴾ ينزل مِن بلادها ﴿حَيۡثُ يَشَآءُ﴾ ويتّخذه مَباءةً. وهو عبارة عن كمال قدرته على التصرّف فيها ودخولها تحت ملكته وسلطانه، فكأنّها منزله يتصرّف فيها كما يتصرّف الرجل في منزله. وقرأ ابن كثير بالنون.[٤]

---

[١] انظر: جامع البيان للطبري، ١٣/٢٢٢؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٥/٢٣٣.

[٢] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٣/١٦٨.

[٣] الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٨٣. وانظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ٣/٧٩٧.

[٤] انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٥.

/ رُوي أنّ الملِك تَوّجَهُ، وخَتَمَه بِخَاتَمِه، ورَدَّاهُ بسيفهِ، ووضع له سَريرًا مِن ذهب مكلَّلًا بالدُّرّ والياقوت، فقال عليه السلام: «أمّا السرير فأشدُّ به ملكَك، وأمّا الخاتم فأُدَبِّرُ به أمرَك، وأمّا التاج فليس مِن لبَاسي ولا لباسِ آبائي»، فقال: «قد وضعته إجلالًا لك، وإقرارًا بفضلك»، فجلس على السرير، ودانت له الملوك، وفوّض إليه الملِك أمرَه، وأقام العدلَ بمصر، وأحَبّته الرجال والنساء. [٢٠٨ظ] وباع مِن أهل مصر في سني القحط الطعامَ في السنة الأولى بالدنانير والدراهم، وفي الثانية بالحليّ والجواهر، وفي الثالثة بالدوابّ، ثمّ بالضياع والعقار، ثمّ برقابهم حتّى استرقّهم جميعًا، فقالوا: «ما رأينا كاليوم ملِكًا أجلّ وأعظم منه». ثمّ أعتقهم وردّ إليهم أملاكهم. وكان لا يبيع مِن أحدٍ مِن الممتارين أكثرَ مِن حِمل بعير تَقْسِيطًا بين الناس.[1]

﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا﴾ بعطائنا في الدنيا مِن المُلك والغنى وغيرهما مِن النعم ﴿مَن نَّشَآءُ﴾ بمقتضى الحكمة الداعية إلى المشيئة. ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بل نوفّيه بكماله. وفيه إشعار بأنّ مدار المشيئة المذكورة إحسان مَن تصيبه الرحمة المرقومة، وأنّها أجر له.

ولدفع توهّم انحصار ثمرات الإحسان فيما ذُكر مِن الأجر العاجل قيل على سبيل التوكيد: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْأٓخِرَةِ﴾ أي: أجرهم[2] في الآخرة، فالإضافة للملابسة، وهو النعيم المقيم الذي لا نَفادَ له. ﴿خَيْرٌ﴾ لهم أي: للمحسنين المذكورين. وإنّما وضع موضعه الموصول فقيل: ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ تنبيهًا على أنّ المراد بالإحسان إنّما هو الإيمان والثبات على التقوى المستفادُ مِن جمع صيغتي الماضي والمستقبل.

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨﴾

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ ممتارين لِما أصاب أرض كنعان وبلاد الشام ما أصاب[3] مصر، وقد كان أرسلهم يعقوب عليه السلام جميعًا غير بنيامين. ﴿فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٨٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٦/٢٩٢. وأوّله في الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٢٣٢.

٢ وفي هامش م: أي: للمحسنين. «منه».

٣ س + أرض.

أي: على يوسف وهو في مجلس ولايته، ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ لقوّة فهمه، وعدمِ مباينة أحوالهم السابقة لحالهم يومئذ؛ لمفارقته إيّاهم وهم رجال، وتَشابهِ هيئاتهم
[٢٠٩و] / وزيّهم في الحالين، ولكون همّته معقودة بهم وبمعرفة أحوالهم، لا سيّما في زمن القحط. وعن الحسن: «ما عرفهم حتّى تعرّفوا له».[١]

﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي: والحال أنّهم منكرون له لطول العهد وتباينِ ما بين حالَيه عليه السلام في نفسه ومنزلته وزيّه، ولاعتقادهم أنّه هلك. وحيث كان إنكارهم له أمرًا مستمرًّا في حالتَي المَحضَر والمَغيَب أخبر عنه بالجملة الاسميّة، بخلاف عِرفانه عليه السلام إيّاهم.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أي: أصلحهم بعدّتهم مِن الزاد، وما يحتاج إليه المسافر، وأوقر ركائبهم بما جاءوا له مِن المِيرة.[٢] وقُرئ بكسر الجيم.[٣]

﴿قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ لم يقل: بأخيكم؛ مبالغةً في إظهار عدم معرفته لهم، ولعلّه عليه السلام إنّما قاله لِما قيل مِن أنّهم سألوه عليه السلام[٤] حِملًا زائدًا عَلى المعتاد لبِنْيامِين، فأعطاهم ذلك، وشرطهم أن يأتوا به.

لا لِما قيل[٥] مِن أنّه لمّا رأوه وكلّموه بالعبريّة قال لهم: «مَن أنتم فإنّي أنكركم؟» فقالوا: «نحن قوم مِن أهل الشام رعاة، أصابنا الجهد فجئنا نَمتار». فقال لهم: «لعلّكم جئتم عُيونًا؟» فقالوا: «معاذَ اللهِ، نحن إخوة بنو أبٍ واحدٍ، وهو شيخ كبير صدّيق نبيّ مِن الأنبياء[٦] اسمه يعقوب». قال: «كم أنتم؟» قالوا:

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٤٨٤/٢؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٩٢/٦.
٢ الميرة: الطعام يمتاره الإنسان. قال ابن سِيده: الميرة جلب الطعام، وفي التهذيب: جلب الطعام للبيع. لسان العرب لابن منظور، «مير».
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن يَعمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٩.
٤ س - عليه السلام.
٥ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٥/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٨٤/٢.
٦ س: أنبياء الله.

«كنّا اثنَي عشر، فهلك منّا واحد». فقال: «كم أنتم ههنا؟» قالوا: «عشرة». قال: «فأين الحادي عشر؟» قالوا: «هو عند أبيه يتسلّى به مِن الهالك». قال: «فمَن يشهد لكم أنّكم لستم عيونًا، وأنّ ما تقولون حقّ؟» قالوا: «نحن ببلاد لا يعرِفنا فيها أحد فيشهدَ لنا». قال: «فدَعُوا بعضكم عندي رهينةً، وائتوني بأخيكم مِن أبيكم وهو يحمل رسالة مِن أبيكم حتّى أصدّقكم». فاقترعوا، فأصاب القرعة شمعون، فخلّفوه عنده، إذ لا يساعده ورود الأمر بالإتيان به عند التجهيز، ولا الحثُّ عليه بإيفاء الكيل، ولا الإحسانُ في الإنزال، ولا الاقتصارُ على منع الكيل على تقدير عدم الإتيان به، ولا جعلُ بضاعتهم في رحالهم لأجل رجوعِهم، ولا عِدَتُهم بالإتيان به بطريق المراودة، ولا تعليلُهم عند أبيهم إرسالَ أخيهم بمنع الكيل مِن غير ذِكر الرسالة، على أنّ استبقاء / شمعون لو وقع لكان [٢٠٩ظ] ذلك طامّةً يُنْسى عندها كلّ قيل وقال.

﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾ أُتِمُّه لكم. وإيثار صيغة الاستقبال مع كون هذا الكلام بعد التجهيز للدلالة على أنّ ذلك عادة له مستمرّة. ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ جملة حاليّة، أي: ألا ترَون أنّي أوفي الكيل لكم إيفاءً مستمرًّا، والحال أنّي في غاية الإحسان في إنزالكم وضيافتكم، وقد كان الأمر كذلك.

وتخصيص الرؤية بالإيفاء لوقوع الخطاب في أثنائه. وأمّا الإحسان في الإنزال فقد كان مستمرًّا فيما سبَق ولحِق، ولذلك أُخبر عنه بالجملة الاسميّة. ولم يقله عليه السلام بطريق الامتنان؛ بل لحثّهم على تحقيق ما أمرهم به. والاقتصارُ في الكيل على ذكر الإيفاء لأنّ معاملته عليه السلام معهم في ذلك كمعاملته مع غيرهم في مراعاة مواجب العدل. وأمّا الضيافةُ فليس للناس فيها حقّ فخصّهم في ذلك بما شاء.

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ۝٦٠﴾

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي﴾ مِن بعدُ فضلًا عن إيفائه، ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ بدخول بلادي فضلًا عن الإحسان في الإنزال والضيافة. وهو إمّا نهي أو نفي

معطوف على محلّ الجزاء. وفيه دليل على أنّهم كانوا على نيّة الامتيار مرّة بعد أخرى، وأنّ ذلك كان معلومًا له عليه السلام.

﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ٦١﴾

﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ﴾ أي: سنخادعه عنه، ونحتال في انتزاعه مِن يده، ونجتهد في ذلك. وفيه تنبيه على عزّة المطلب وصعوبة مناله. ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ ذلك غير مفرّطين فيه ولا متوانين، أو لقادرون عليه لا نَتَعايَى به.

﴿وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٦٢﴾

﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿لِفِتۡيَٰنِهِ﴾ غِلمانه الكيّالين. جمع "فتًى". وقُرئ: "لِفِتْيَتِهِ"،[1] وهي جمع قِلّة له.

﴿ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ﴾ فإنّه وكّل بكلّ رَحْلٍ رَجُلًا يعبّئ فيه بضاعتهم التي شرَوا بها الطعام، وكانت نِعالًا وأدَمًا. وإنّما فعله عليه السلام تفضّلًا عليهم وخوفًا مِن أن لا يكون عند أبيه ما يرجعون به مرّة أخرى. وكلّ ذلك لتحقيق ما يتوخّاه مِن رجوعهم بأخيه كما يؤذِن به قوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَا﴾ أي: يعرِفون حقّ ردّها والتكرّمَ في ذلك، أو لكي يعرفوها. وهو ظاهر التعلّق بقوله: ﴿إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ﴾ فإنّ معرفتهم لها مقيّدة بالرجوع وتفريغ الأوعية قطعًا. وأمّا
[٢١٠و] / معرفة حقّ التكرّم في ردّها فهي وإن كانت في ذاتها غيرَ مقيّدة بذلك لكن لمّا كان ابتداؤها حينئذ قُيّدت به.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ حسبما أمرتهم به، فإنّ التفضّل عليهم بإعطاء البدلَين ولا سيّما عند إعواز البِضاعة مِن أقوى الدواعي إلى الرجوع. وما قيل إنّما فعله عليه السلام لمّا لم يَرَ مِن الكرم أن يأخذ مِن أبيه وإخوته ثمنًا[2] فكلامٌ حقّ في نفسه، ولكن يأباه التعليل المذكور.

---

[1] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٥.

[2] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٢/٤٨٥.

وأمّا أنّ علّيّة الجعل المذكور للرجوع مِن حيث إنّ ديانتهم تحملُهم على ردّ البضاعة لأنّهم لا يستحلّون إمساكها؛[١] فمدارُه حِسبانُهم أنّها بقيت في رحالهم نسيانًا، وظاهر أنّ ذلك ممّا لا يخطر ببال أحد أصلًا، فإنّ هيئة التعبية تنادي بأنّ ذلك بطريق التفضّل. ألا يُرى أنّهم كيف جزموا بذلك حين رأوها، وجعلوا ذلك دليلًا على التفضّلات السابقة كما ستحيط به خُبرًا؟

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ﴾ قبل أن يشتغلوا بفتح المتاع ﴿يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ﴾ أي: فيما بعدُ. وفيه ما لا يخفى مِن الدلالة على كون الامتيار مرّة بعد مرّة معهودًا فيما بينهم وبينه عليه السلام. ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا﴾ بنيامين إلى مصر. وفيه إيذان بأنّ مدار المنع عدمُ كونه معهم. ﴿نَكۡتَلۡ﴾ بسببه مِن الطعام ما نشاء.

وقرأ حمزة والكسائي بالياء[٢] على إسناده إلى الأخ لكونه سببًا للاكتيال، أو يكتل لنفسه مع اكتيالنا.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ مِن أن يُصيبه مكروه.

﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَـٰفِظًاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّـٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ﴾ يوسف ﴿مِن قَبۡلُ﴾ وقد قلتم في حقّه أيضًا ما قلتم، ثمّ فعلتم به ما فعلتم، فلا أثق بكم ولا بحفظكم، وإنّما أفوّض الأمر إلى الله. ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَـٰفِظًا﴾ وقُرئ: "حِفْظًا".[٣] وانتصابهما على التمييز. والحاليّة على القراءة الأولى توهم تقيّد الخيريّة بتلك الحالة.

---

[١] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٨٥.

[٢] وكذا خَلف البزار. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٥.

[٣] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٥.

﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فأرجو أن يرحمني بحفظه، ولا يجمع عليّ مصيبتَين. وهذا كما ترى مَيل منه عليه السلام إلى الإذن والإرسال، لِما رأى فيه مِن المصلحة.

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ٦٥﴾

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي: تفضّلًا، وقد علموا ذلك بما مرّ مِن دلالة الحال. وقُرئ بنقل حركة الدال المدغَمة إلى الراء،[1] كما قيل: قِيل وكِيل.

[٢١٠ظ] ﴿قَالُواْ﴾ استئناف / مبنيّ على السؤال، كأنّه قيل: ماذا قالوا حينئذ؟ فقيل: قالوا لأبيهم، ولعلّه كان حاضرًا عند الفتح: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِي﴾ إذا فُسّر البغي بالطلب فـ﴿ما﴾ إمّا استفهاميّة منصوبةٌ به، فالمعنى: ماذا نبتغي وراء ما وصفنا لك مِن إحسان الملِك إلينا وكرمه الداعي إلى امتثال أمره والمراجعة إليه في الحوائج. وقد كانوا أخبروه بذلك، وقالوا له: إنّا قدِمنا على خير رجل، أَنْزَلَنا وأكرَمَنا كرامةً لو كان رجلًا مِن آل يعقوب ما أكرَمَنا كرامتَه.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَا﴾ جملة مستأنَفة موضّحةٌ لِما دلّ عليه الإنكار مِن بلوغ اللطف غايتَه، كأنّهم قالوا: كيف لا وهذه بضاعتنا ردّها إلينا تفضّلًا مِن حيث لا ندري بعد ما مَنّ علينا مِن المِنَن العظام، هل مِن مزيدٍ على هذا فنطْلبَه؟ ولم يريدوا به الاكتفاء بذلك مطلقًا، والتقاعدَ عن طلب نظائرِه؛ بل أرادوا الاكتفاءَ به في استيجاب الامتثالِ لأمره، والالتجاءِ إليه في استجلاب المزيدِ كما أشرنا إليه.

وقوله تعالى: ﴿رُدَّتۡ إِلَيۡنَا﴾ حال مِن ﴿بِضَٰعَتُنَا﴾، والعامل معنى الإشارة. وإيثار صيغة البناء للمفعول للإيذان بكمال الإحسان الناشئ عن كمال الإخفاءِ المفهوم مِن كمال غفلتهم عنه بحيث لم يشعروا به ولا بفاعله.

---

[1] أي: "رِدَّتْ". قراءة شاذّة، مرويّة عن علقمة والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٩.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي: نجلب إليهم الطعامَ مِن عند الملِك، معطوف على مقدَّر ينسحب عليه ردُّ البضاعة، أي: فنستظهر بها، ونمير أهلنا، ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ مِن المكاره حسبما وُعِدنا، فما يصيبه مِن مكروه، ﴿وَنَزْدَادُ﴾ أي: بواسطته. ولذلك وسّط الإخبار بحفظه بين الأصل والمزيد. ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أي: وَسق[1] بعير زائدًا على أوساق أباعرنا على قضيّة التقسيط.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: ما يحمله أباعرنا ﴿كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي: مكيل قليل لا يقوم بأَوَدِنا. فهو استئناف وقع تعليلًا لِما سبق، كأنّه قيل: أيّ حاجة إلى الازدياد؟ فقيل ما قيل. أو ذلك الكَيل الزائد شيء قليل لا يضايقنا فيه الملِك. أو سهل عليه لا يتعاظمه.

أو[2] أيَّ مطلب نطلب مِن مهمّاتنا. والجُمَل / الواقعة بعده توضيح وبيان لِما [٢١١و]
يشعر به الإنكار مِن كونهم فائزين ببعض المطالب، أو متمكّنين مِن تحصيله، فكأنّهم قالوا: بضاعتنا حاضرة فنستظهر بها، ونمير أهلَنا، ونحفظ أخانا، فما يصيبه شيء مِن المكاره، ونزداد بسببه غير ما نكتاله لأنفسنا كيلَ بعير، فأيّ شيء نبتغِي وراء هذه المباغي؟

وقُرئ: "مَا تَبْغِي"[3] على خطاب يعقوب عليه السلام، أي:[4] أيّ شيء تبغي وراء هذه المباغي المشتملة على سلامة أخينا وسَعَة ذات أيدينا؟ أو[5] وَراءَ ما فعل بنا الملِك مِن الإحسان داعيًا إلى التوجّه إليه؟ والجملة الاستئنافيّة موضحة لذلك. أو أيّ شيء تبغي شاهدًا على صِدقنا فيما وصفنا لك مِن إحسانه؟ والجملة المذكورة عبارة عن الشاهد المدلول عليه بفَحوى الإنكار.

وإمّا[6] نافية، فالمعنى: ما نبغي شيئًا غير ما رأينا مِن إحسان الملِك في وجوب المراجعة إليه، أو ما نبغي غير هذه المباغي. وقيل: ما نطلب منك بضاعةً أخرى. والجملة المستأنَفة تعليل له.

---

١ قال الخليل: الوَسْق: هو حِمْل البعير. والوِقْر: حِمل البغل أو الحمار. الصحاح للجوهري، «وسق».

٢ وفي هامش م: عطفٌ على قوله: "ماذا نبتَغي". «منه».

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٩.

٤ وفي هامش م: على التفسير الأخير، وإنّما قدّمه على الأوّل لئلّا يقع... [بياض].

٥ وفي هامش م: على التفسير الأوّل. «منه».

٦ وفي هامش م: معطوف على قوله: "إمّا استفهاميّة". «منه».

وأمّا[1] إذا فسِّر البغي بمجاوزة الحدّ فـ﴿مَا﴾ نافية فقط، والمعنى: ما نبغي في القول، وما نتزيّد فيما وصفنا لك مِن إحسان الملِك إلينا وكرَمه الموجِب لِما ذكر. والجملة المستأنَفة لبيان ما ادّعوا مِن عدم البغي، وقوله: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ عطفٌ على ﴿مَا نَبْغِي﴾، أي: ما نبغي فيما ذكرنا مِن إحسانه ونُحَصِّلُ أَمثالَه مِن مَيْر أهلنا وحفظ أخينا، فإنّ ذلك أهون شيء بواسطة إحسانه.

وقد جُوّز أن يكون كلامًا مبتدأً، أي: جملة اعتراضيّة تذييليّة، على معنى: وينبغي أن نمير أهلَنا، وشُبّهَ ذلك بقولك: سعيت في حاجة فلان، ويجب أن أسعى. وأنت خبير بأنّ شأن الجملِ التذييليّة أن يكون مؤكّدة لمضمون الصدر، ومقرّرة له، كما في المثال المذكور وقولِك: فلان ينطق بالحقّ فالحقّ أبلَج، وأنّ قوله: ﴿وَنَمِيرُ﴾... إلخ -وإن ساعدنا في حَمْله على معنى: ينبغي أن نمير أهلنا- بمَعزِل مِن ذلك.

أو ما نبغي في الرأي، وما نعدل عن الصواب فيما نشير به عليك مِن إرسال أخينا معنا. والجُمَل إلى آخرها تفصيل وبيان لعدم بغيهم وإصابة رأيهم، أي: بضاعتنا حاضرة نستظهر بها، ونمير أهلنا، ونصنع كيت وذيت،[2] فتأمّل.

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ﴾ بعد ما عاينت منكم ما عاينت ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: ما أتوثّق به مِن جهة الله عزّ وجلّ. وإنّما جعله مَوثقًا منه تعالى لأنّ توكيد العهود به مأذون فيه مِن جهته تعالى، فهو إذْنٌ منه عزّ وعلا.

﴿لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ﴾ جواب القسم، إذ المعنى: حتّى تحلفوا بالله لتأتُنّني ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي: إلّا أن تُغلَبوا فلا تطيقوا به، أو إلّا أن تهلَكوا. وأصله مِن أحاطَه العدوّ، فإنّ مَن أحاط به العدوّ فقد هلك غالبًا. وهو استثناء مِن أعمّ الأحوال

---

[1] وفي هامش م: عطفٌ على قوله: "إذا فسّر البغي". «منه».

[2] قولهم: "كَيت وذَيت" هو كناية عن الحديث. المصباح المنير للفيّومي، ٢١٣/١.

أو أعمّ العلل على تأويل الكلام بالنفي الذي ينساق إليه، أي: لتأتُنّني به ولا تمتنعنّ منه في حال مِن الأحوال أو لعلّة مِن العلل إلّا حالَ الإحاطة بكم، أو لعلّة الإحاطة بكم.

ونظيره قولهم: أقسمت عليك لمّا فعلتَ، وإلّا فعلتَ، أي: ما أريد منك إلّا فعلَك. وقد جُوّز الأوّل بلا تأويل أيضًا، أي: لتأتُنّني به على كل حالٍ / إلّا [٢١١ظ] حالَ الإحاطة بكم. وأنت تدري أنّه حيث لم يكن الإتيان به مِن الأفعال الممتدّة الشاملة للأحوال على سبيل المعيّة، كما في قولك: لألزمنّك إلّا أن تعطيَني حقّي.

ولم يكن مراده عليه السلام مقارنتَه على سبيل البدل لِما عدا الحالَ المستثناة، كما إذا قلت: صَلِّ إلّا أن تكون مُحدِثًا؛ بل مجرّد تحقّقه ووقوعه مِن غير إخلال به، كما في قولك: لأَحُجَّنَّ العامَ إلّا أَن أُحصَر، فإنّ مرادك إنّما هو الإخبار بعدم منع ما سوى حال الإحصار عن الحجّ، لا الإخبار بمقارنته لتلك الأحوال على سبيل البدل، كما هو مرادك في مثال الصلاة. كأنّ اعتبار الأحوال معه مِن حيث عدمُ منعها منه، فآل المعنى إلى التأويل المذكور.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ﴾ عهدهم مِن الله حسبما أراد يعقوب عليه السلام ﴿قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ أي: على ما قلنا في أثناء طلب المَوثق وإيتائه مِن الجانبين. وإيثار صيغة الاستقبال لاستحضار صورته المؤدّي إلى تثبّتهم ومحافظتهم على تذكّره ومراقبته. ﴿وَكِيلٞ﴾ مطّلع رقيب. يريد به عرض ثقته بالله تعالى، وحثَّهم على مراعاة ميثاقهم.

﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧﴾

﴿وَقَالَ﴾ ناصحًا لهم لمّا أزمع على إرسالهم جميعًا: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ﴾ مصر ﴿مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ﴾ نهاهم عن ذلك حذارًا مِن إصابة العين، فإنّهم كانوا ذوي جمال وشارة حسنةٍ. وقد كانوا تجمّلوا في هذه الكَرّة أكثرَ ممّا في المرّة الأولى، وقد اشتُهروا في مصر بالكرامة والزلفى لدى الملِك، بخلاف النوبة الأولى، فكانوا مَئنّةً لِدُنُوّ كلِّ ناظرٍ، وطُمُوح كلّ طامح.

وإصابة العين بتقدير العزيز الحكيم ليست ممّا يُنكر، وقد ورد عنه عليه السلام: «إنّ العين حقّ».[١] وعنه عليه السلام: «إنَّ العين لتُدخل الرجلَ القبر والجملَ القِدرَ».[٢] وقد كان صلّى الله عليه وسلّم يعوّذ الحَسنين رضي الله عنهما بقوله: «أعوذ بكلمات الله التامّة، مِن كلّ شيطان وهامّة، ومِن كلّ عين لامّة»، وكان يقول: «كان أبوكما يعوّذ بها إسماعيل وإسحاق عليهم السلام»، رواه البخاري في صحيحه،[٣] وقد شهدت بذلك التجارِب.

ولمّا لم يكن عدم الدخول مِن باب واحد مستلزمًا للدخول مِن أبواب متفرّقة وكان في دخولهم مِن بابين أو ثلاثة بعضُ ما في الدخول مِن باب واحدٍ مِن نوع اجتماع مصحِّح لوقوع المحذور قال: ﴿وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖ﴾ بيانًا لِما هو المراد بالنهي. وإنّما لم يكتف بهذا الأمر مع كونه مستلزمًا له إظهارًا لِكمال العناية به، وإيذانًا بأنّه المراد بالأمر المذكور، لا تحقيقُ شيء آخر.

﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم﴾ أي: لا أنفعكم ولا أدفع عنكم بتدبيري ﴿مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾ أي: شيئًا ممّا قضى عليكم، فإنّ الحذَر لا يمنع القدَر. ولم يُرِدْ به عليه السلام إلغاءَ الحذَر بالمرّة، كيف لا وقد قال عزّ قائلًا: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ [البقرة، ١٩٥/٢]، وقال: ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء، ٧١/٤]؟ بل أراد بيان أنّ ما وصّاهم به ليس ممّا يستوجب المراد لا محالةَ؛ بل هو تدبير في الجملة، وإنّما التأثير وترتّب المنفعة عليه مِن العزيز القدير، وأنّ ذلك ليس بمدافعة للقدَر؛ بل هو استعانة بالله تعالى، وهرَب منه إليه.

[٢١٢و] / ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ﴾ مطلقًا ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ لا يشاركه أحد ولا يمانعه شيء. ﴿عَلَيۡهِ﴾ لا على أحد سواه ﴿تَوَكَّلۡتُ﴾ في كل ما آتي وأذَر. وفيه دلالة على أنّ ترتيب الأسباب غير مُخِلّ بالتوكّل.

---

١ صحيح البخاري، ١٣٢/٧ (٥٧٤٠)؛ صحيح مسلم، ١٧١٩/٤ (٢١٨٧).

٢ حلية الأولياء لأبي نعيم، ٩٠/٧. وقال: «غريب مِن حديث الثوري تفرّد به معاوية».

٣ صحيح البخاري، ١٤٧/٤ (٣٣٧١).

﴿وَعَلَيْهِ﴾ دون غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ جمع بين الحرفين في عطف الجملة على الجملة مع تقديم الصلة للاختصاص، مفيدًا بالواو عطفَ فعل غيره مِن تخصيص التوكّل بالله عزّ وجلّ على فعل نفسه، وبالفاء سببيّةَ فعله لكونه نبيًّا لفعل غيره مِن المقتدين به، فيدخل فيهم بَنوه دخولًا أوّليًّا. وفيه ما لا يخفى مِن حُسن هدايتهم وإرشادهم إلى التوكّل فيما هم بصدَده على الله عزّ وجلّ، غير مغترّين بما وصّاهم به مِن التدبير.

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ مِن الأبواب المتفرّقة مِن البلد. قيل: كانت له أربعة أبواب، فدخلوا منها. وإنّما اكتفى بذكره لاستلزامه الانتهاء عمّا نهوا عنه. ﴿مَّا كَانَ﴾ ذلك الدخول ﴿يُغْنِى﴾ فيما سيأتي عند وقوع ما وقع ﴿عَنْهُم﴾ عن الداخلين؛ لأنّ المقصود به استدفاع الضرر عنهم.

والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل لتحقيق المقارنة الواجبة بين جواب ﴿لَمَّا﴾ ومدخوله، فإنّ عدم الإغناء بالفعل إنّما يتحقّق عند نزول المحذور، لا وقت الدخول، وإنّما المتحقّق حينئذ ما أفاده الجمع المذكور مِن عدم كون الدخول المذكور مُغنيًا فيما سيأتي، فتأمّل.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مِن جهته ﴿مِن شَىْءٍ﴾ أي: شيئًا ممّا قضاه عليهم مع كونه مَظِنّة لذلك في بادي الرأي حيث وصّاهم به يعقوب عليه السلام وعملوا بموجَبه واثقين بجدواه مِن فضل الله تعالى.

فليس المرادُ بيانَ / سببيّة الدخول المذكور لعدم الإغناء، كما في قوله عزّ وعلا:[١] ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر، ٤٢/٣٥]، فإنّ مجيء النذير هناك سبب لزيادة نفورِهم؛ بل بيانَ عدم سببيّته للإغناء مع كونها متوقّعة في بادي الرأي، كما في قولك: حلَف أن يعطيني حقّي عند حلول الأجل، [٢١٢ظ]

---

[١] ط س: تعالى.

فلمّا حلّ لم يعطني شيئًا. فإنّ المراد بيان عدم سببيّة حلول الأجل للإعطاء مع كونها مرجوّة بموجَب الحلِف، لا بيانُ سببيّته لعدم الإعطاء.

فالمآل بيانُ عدمِ ترتّب الغرض المقصود على التدبير المعهود مع كونه مرجوّ الوجود، لا بيانُ ترتّب عدمه عليه. ويجوز أن يراد ذلك أيضًا بناءً على ما ذكره عليه السلام في تضاعيف وصيّته مِن أنّه لا يغني عنهم مِن الله شيئًا، فكأنّه قيل: ولمّا فعلوا ما وصّاهم به لم يُفِد ذلك شيئًا، ووقع الأمر حسبما قال عليه السلام، فلقوا ما لقوا، فيكون مِن باب وقوع المتوقَّع، فتأمّل.

﴿إِلَّا حَاجَةً﴾ استثناء منقطع، أي: ولكن حاجة وحزازة كائنة ﴿فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ أي: أظهرها ووصّاهم بها دفعًا للخاطرة، غيرَ معتقد أنّ للتدبير تأثيرًا في تغيير التقدير. وقد جُعل ضمير الفاعل في ﴿قَضَىٰهَا﴾ للدخول على معنى أنّ ذلك الدخول قضى حاجةً في نفس يعقوب، وهي إرادته أن يكون دخولهم من أبواب متفرّقة. فالمعنى: ما كان ذلك الدخول يُغني عنهم مِن جهة الله شيئًا، ولكن قضى حاجة حاصلةً في نفس يعقوب بوقوعه حسب إرادته، فالاستثناء منقطع أيضًا. وعلى التقديرين لم يكن للتدبير فائدة سوى دفع الخاطرة، وأمّا إصابة العين فإنّما لم تقع لكونها غير مقدّرة عليهم، لا لأنّها اندفعت بذلك مع كونها مقضيّة عليهم.

﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ﴾ جليلٍ ﴿لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ لتعليمنا إيّاه بالوحي ونصب الأدلّة، [٢١٣و] حيث لم يعتقد / أنّ الحذَر يدفع القدر وأنّ التدبير له حظّ مِن التأثير حتّى يتبيّن الخلل في رأيه عند تخلّف الأثر. أو حيث بَتَّ القول بأنّه لا يغني عنهم مِن الله شيئًا، فكان الحال كما قال.

وفي تأكيد الجملة بـ"إنّ" و"اللام" وتنكيرِ العِلم وتعليلِه بالتعليم المسنَد إلى ذاته سبحانه مِن الدلالة على جلالة شأن يعقوب عليه السلام وعلوّ مرتبة علمه وفخامته ما لا يخفى.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أسرار القدَر، ويزعمون أنّه يُغني عنه الحذر. وأمّا ما يقال مِن أنّ المعنى: لا يعلمون إيجاب الحذر مع أنّه لا يغني شيئًا مِن القدَر؛ فيأباه مقامُ بيان تخلّف المطلوب عن المبادي.

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٦٩﴾

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُ﴾ بنيامين أي: ضمّه إليه في الطعام، أو في المنزل، أو فيهما.

رُوي أنّهم لمّا دخلوا عليه قالوا له: «هذا أخونا قد جئناك به». فقال لهم: «أحسنتم، وستجدون ذلك عندي». فأكرمهم ثمّ أضافهم وأجلسهم مثنى مثنى، فبقي بنيامين وحيدًا، فبكى وقال: «لو كان أخي يوسف حيًّا لأجلسني معه»، فقال يوسف: «بقي أخوكم فريدًا». وأجلسه معه على مائدته وجعل يؤاكله، ثمّ أنزل كلّ اثنين منهم بيتًا، فقال: «هذا لا ثاني معه فيكون معي»، فبات يوسف يضمّه إليه ويشمّ رائحته حتّى أصبح، وسأله عن ولَده فقال: «لي عشرة بنين اشتققت أسماءهم مِن اسم أخٍ لي هلَك»، فقال له: «أتحبّ أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟» قال: «مَن يجد أخًا مثلك؟ ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل.» فبكى يوسف، وقام إليه وعانقه، وتعرّف إليه،[١] وعند ذلك ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ يوسف ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾ أي: فلا تحزن ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ بنا فيما مضى، فإنّ الله تعالى قد أحسن إلينا وجمعنا بخيرٍ، ولا تُعلِمهم بما أَعلمتك. قاله ابن عبّاس رضي الله عنهما.[٢]

وعن وهب أنّه لم يتعرّف إليه؛ بل قال له: «أنا أخوك بدل أخيك / المفقود».[٣] [٢١٣ظ]

ومعنى ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾: لا تحزن بما كنت تَلقى منهم[٤] مِن الحسد والأذى فقد أَمِنْتَهُم.

ورُوي أنّه[٥] قال له: «فأنا لا أفارقك»، قال: «قد علمت باغتمام والدي بي، فإذا حبستك يزداد غمّه، ولا سبيل إلى ذلك إلّا أن أنسِبَك إلى ما لا يجمل».

---

١ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٧/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٨٩/٢.

٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤٨٩/٢؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٣٠١/٦.

٣ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٨/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٨٩/٢.

٤ ط س: تلقاهم.

٥ وفي هامش م: على التفسير الأوّل.

قال: «لا أبالي، فافعل ما بدا لك»، قال: «أدسّ صاعي في رحلك، ثمّ أنادي عليك بأنّك سرقته ليتهيّأ لي ردّك بعد تسريحك معهم»، قال: «افعلْ».[١]

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ۝٧٠﴾

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾ أي: المشربة. قيل: كانت مشربة جُعلت صاعًا يُكال به. وقيل: كانت تُسقَى بها الدوابّ ويكال بها الحبوب، وكانت مِن فضّة. وقيل: مِن ذهب. وقيل: مِن فضّة مُموّهة بالذهب. وقيل: كانت إناءً مستطيلةً تشبه المكّوك[٢] الفارسي الذي يلتقي طرفاه يستعمله الأعاجم. وقيل: كانت مرصّعةً بالجواهر. ﴿فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ بنيامين. وقُرئ: "وَجَعَلَ"[٣] على حذف جواب ﴿لَمَّا﴾، تقديره: أمهَلَهم حتّى انطلَقوا.

﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ نادى منادٍ: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ﴾ وهي الإبل التي عليها الأحمال؛ لأنّها تَعِير، أي: تذهب وتجيء. وقيل: هي قافلة الحمير، ثمّ كثر حتّى قيل لكلّ قافلةٍ: عيرٌ، كأنّها جمع "عَيْر"، وأصلها فُعُلٌ، مثل: سَقْف وسُقُف، ففُعِل به ما فُعِل ببِيضٍ وغِيدٍ. والمراد أصحابُها كما في قوله صلّى الله عليه وسلّم: «يا خيل الله اركبي».[٤]

رُوي أنّهم ارتحلوا، وأمهَلَهم يوسف حتّى انطلقوا منزلًا.[٥] وقيل: خرجوا مِن العِمارة، ثمّ أمر بهم فأُدْرِكُوا ونُودوا:[٦] ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ هذا الخطاب إن كان بأمر يوسف فلعلّه أُريدَ بالسرقة أَخذُهم له مِن أبيه، ودخولُ بِنيامين فيه بطريق التغليب، وإلّا فهو مِن قِبَل المؤذّن بناء على زعمه. والأوّل هو الأظهر الأوفق للسياق. وقرأ اليماني: "سَارِقُونَ" بلا لام.[٧]

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٩/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٨٩/٢.

[٢] المكّوك: مكيال. الصحاح للجوهري، «مكك».

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤٩٠/٢؛ والمحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٥٤/٦.

[٤] انظر: جامع البيان للطبري، ٣٦٢/٨؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٥٥/٤.

[٥] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٩/٥؛ التفسير الوسيط للواحدي؛ ٦٢٣/٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٩٠/٢.

[٦] معالم التنزيل للبغوي، ٢٦٠/٤؛ اللباب لابن عادل، ٢٦٠/١١.

[٧] انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٩.

﴿قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ۝٧١ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ۝٧٢﴾

﴿قَالُواْ﴾ أي: الإخوة ﴿وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم﴾ جملة حاليّة مِن ضمير ﴿قَالُواْ﴾ جِيء بها للدلالة على انزعاجهم ممّا سمعوه لمباينته لحالهم.[1] / ﴿مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾ أي: [٢١٤و]
تَعْدَمُون، تقول: "فَقَدْتُ الشيءَ" إذا عَدِمْتَه بأن ضلّ عنك لا بفعلك. والمآل: ماذا ضاعَ عنكم. وصيغة المستقبل لاستحضار الصورة.

وقُرئ: "تُفْقِدُونَ"[2] مِن "أَفْقَدتُه" إذا وَجدتَه فقِيدًا، وعلى التقديرين فالعدول عمّا يقتضيه الظاهر مِن قولهم: ماذا سُرِق منكم؟ لبيان كمال نزاهتهم بإظهار أنّه لم يُسْرَقْ منهم شيء فضلًا أن يكونوا هم السارقين له، وإنّما الممكن أن[3] يضيع منهم شيء فيسألونهم أنّه ماذا؟ وفيه إرشاد لهم إلى مراعاة حُسنِ الأدب والاحتراز عن المجازَفة ونسبة البُرَآءِ إلى ما لا خير فيه، لا سيّما بطريق التوكيد، فلذلك غيَّرُوا كلامهم حيث ﴿قَالُواْ﴾ في جوابهم: ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ ولم يقولوا سَرَقْتُمُوهُ أو سُرِق.

وقُرئ: "صَاعَ"[4] و"صُوعَ"[5] و"صَوغَ"[6] بفتح الصاد وضمّها، وبإهمال العين وإعجامها مِن الصياغة.

ثمّ قالوا تَربيةً لِما تلقّوه مِن قبلهم، وإراءةً لِاعتقادِ أَنّه إنّما بقي في رحلهم اتّفاقًا: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ﴾ مِن عند نفسه مُظهِرًا له قبل التفتيش ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ مِن الطعام، جُعلًا له لا على نيّة تحقيق الوعد لجزمهم بامتناع وجود الشرط، وعزمهم على ما لا يخفى مِن أخذ مَن وُجد في رحله. ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ كفيل أُؤَدّيه إليه. وهو قول المؤذّن.

---

١ وفي هامش م: أي: قالوا وقد أقبلوا إلى المؤذّن وأصحابه. «منه».
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٩.
٣ س: لن.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي هريرة رضي الله عنه ومجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٩.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي رجاء. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٩.
٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن يَعمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٠.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ﴾ الجمهور على أنّ التاء بدل مِن الواو، ولذلك لا تدخل إلّا على الجلالة المعظَّمة، أو الربِّ المضاف إلى الكعبة، أو الرحمنِ في قول ضعيف. ولو قلتَ: "تالرحيم" لم يجز. وقيل: مِن الباء. وقيل: أصل بنفسها. وأيًّا ما كان ففيه تعجّب.

﴿لَقَدْ عَلِمْتُم﴾ علمًا جازمًا مطابقًا للواقع ﴿مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لنَسْرِقَ، فإنّه مِن أعظم أنواع الإفساد. أو لنفسد فيها أيّ إفساد كان، ممّا عزّ أو هان، فضلًا عمّا نسبتمونا إليه مِن السرقة.

ونفي المَجيء للإفساد وإن لم يكن مستلزمًا لِما هو مقتضى المقام مِن نفي الإفساد مطلقًا لكنّهم جعلوا / المجيء الذي يترتّب عليه ذلك ولو بطريق [٢١٤ظ] الاتّفاق مجيئًا لغرض الإفساد مفعولًا لأجله ادّعاءً إظهارًا لكمال قبحه عندهم وتربيةً لاستحالة صدوره عنهم، كما قيل في قوله تعالى ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق، ٢٩/٥٠] الدالّ بظاهره على نفي المبالغة في الظلم، دون نفي الظلم في الجملة الذي هو مقتضى المقام مِن أنّ المعنى: إذا عذّبتُ مَن لا يَستحقّ التعذيب كنت ظلّامًا مُفرطًا في الظلم.

فكأنّهم قالوا: إن صدر عنّا إفساد كان مجيئنا لذلك، مريدين به تقبيحَ حاله وإظهارَ كمال نزاهتهم عنه. يعنون أنّه قد شاع بينكم في كرّتَي مجيئنا ما نحن عليه -وقد كانوا على غاية ما يكون مِن الديانة والصيانة فيما يأتون ويذَرون، حتّى رُوي أنّهم دخلوا مصر وأفواهُ رواحلهم مَعكومة[١] لئلّا تتناول زرعًا أو طعامًا لأحدٍ، وكانوا مثابرين على فنون الطاعات-[٢] وعلمتم بذلك أنّه لا يصدر عنّا إفسادٌ ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ أي: ما كنّا نوصف بالسرقة قطّ.

وإنّما حكموا بعلمهم ذلك لأنّ العِلم بأحوالهم الشاهدة يستلزم العِلم بأحوالهم الغائبة. وإنّما لم يكتفوا بنفي الأمرين المذكورين؛ بل استشهدوا بعلمهم بذلك إلزامًا للحجّة عليهم، وتحقيقًا للتعجّب المفهوم مِن تاء القَسَم.

---

١ م: مَكعومة [صحح في الهامش]. وفي هامش م: يقال: كَعمت البعير وعكَمته، أي: شددتُ فاه. «منه». | انظر: الصحاح للجوهري، «كعم» «عكم».

٢ الكشّاف للزمخشري، ٤٩٠/٢.

﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ٧٤ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٥﴾

﴿قَالُواْ﴾ أي: أصحابُ يوسف عليه السلام ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ الضمير للصُواع، على حذف المضاف، أي: فما جزاء سرقته عندكم وفي شريعتكم ﴿إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ لا في دعوى البراءة عن السرقة، فإنّهم صادقون فيها؛ بل فيما يستلزمه ذلك مِن نفي كون الصُّواع فيهم كما يؤذن به قوله عزّ وجلّ: ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ﴾ أي: أَخْذُ مَنْ وُجِد الصواعُ ﴿فِي رَحۡلِهِۦ﴾ حيث ذُكر بعنوان الوجدان في الرحل دون عنوان السرقة، وإن كان ذلك[١] مستلزمًا لها في اعتقادهم المبنيّ على قواعد العادة، ولذلك أجابوا بما أجابوا. فإنّ الأخذ والاسترقاق سنَةً إنّما هو جزاء السارق دون مَن وُجِدَ فِي يده مال غيره كيفما كان، فتأمّل، واحمِل كلام كلّ فريق على ما لا يزاحم رأيَهُ، / فإنّه أقرب إلى معنى الكيد وأبعد مِن الافتراء. [٢١٥و]

وقوله: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ تقرير لذلك الحكم، أي: فأخذه جزاؤه، كقولك: حقّ الضيف أن يُكرَم فهو حقّه. ويجوز أن يكون ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ مبتدأً، والجملة الشرطيّة كما هي خبرَه، على إقامة الظاهر مُقام المُضمَر. والأصل: جزاؤه مَن وُجد في رحله فهو، على أنّ **الأوّل** لـ﴿مَن﴾، **والثاني** للظاهر الذي وُضع مَوضعه.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الجزاء الأوفى ﴿نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالسرقة. تأكيد للحكم المذكور غِبَّ تأكيدٍ، وبيانٌ لقبح السرقة، ولقد فعلوا ذلك ثقةً بكمال براءتهم عنها، وهم عمّا فُعِلَ بهم غافِلون.

﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾

﴿فَبَدَأَ﴾ يوسف بعد ما رَجَعُوا إليه للتفتيش ﴿بِأَوۡعِيَتِهِمۡ﴾ بأوعية الإخوة العشرة، أي: بتفتيشها ﴿قَبۡلَ﴾ تفتيش ﴿وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ بنيامين لنفي التهمة. رُوي

---

[١] س - ذلك.

أنّه لمّا بلغت النوبة إلى وِعائه قال: «ما أظنّ هذا أخذ شيئًا»، فقالوا: «والله لا نتركه حتّى تنظر في رحله، فإنّه أطيب لنفسك وأنفسنا».[1]

﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا﴾ أي: السقاية، أو الصواع، فإنّه يذكّر ويؤنّث. ﴿مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ لم يُقَل: منه، على رجع الضمير إلى الوعاء، أو مِن وعائه، على رجعه إلى «أخيه»؛ قصدًا إلى زيادة كشف وبيان. وقُرئ بضمّ الواو،[2] وبقلبها همزة،[3] كما في إِشاح في وِشاح.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ نصب على المصدريّة، والكاف مُقحَمة للدلالة على فخامة المشار إليه. وكذا ما في "ذلك" مِن معنى البُعد، أي: مثل ذلك الكَيد العجيب. وهو عبارة عن إرشاد الإخوة إلى الإفتاء المذكور بإجرائه على ألسنتهم وبحملهم عليه بواسطة المستفتين مِن حيث لم يحتسبوا، فمعنى قوله عزّ وجلّ: ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾: صنعنا له ودبّرنا لأجل تحصيل غرضه مِن المقدّمات التي رتّبها مِن دسّ الصواع وما يتلوه، فـ"اللام" ليست كما في قوله تعالى: «فَيَكِيدُواْ لَكَ / كَيْدًا»،[4] فإنّها داخلة على المتضرِّر على ما هو الاستعمال الشائع. [٢١٥ظ]

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ استئناف وتعليل لذلك الكَيد وصنعه، لا تفسير وبيان له كما قيل،[5] كأنّه قيل: لماذا فُعِل ذلك؟ فقيل: لأنّه لم يكن ليأخذ أخاه[6] بما فعله في دين الملِك في أمر السارق -أي: في سلطانه، قاله ابن عبّاس،[7] أو في حكمه وقضائه، قاله قتادة-[8] إلّا به؛ لأنّ جزاء السارق في دينه إنّما كان ضربَه وتغريمَه ضِعفَ ما أخذ، دون الاسترقاق والاستعباد كما هو شريعة

---

[1] جامع البيان للطبري، ٢٦٠/١٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٤١/٥.

[2] أي: "وُعَاءِ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٠.

[3] أي: "إِعَاءِ". قراءة شاذّة، مرويّة عن أبان بن قطيب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٠.

[4] يوسف، ٥/١٢.

[5] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ١٧٢/٣.

[6] وفي هامش م: وإنّما خصّصنا عجزه عن أخذه بذلك؛ إذ لا علاقة بين عجزه المطلق وبين حكم الملِك في خصوص أمر السارق. «منه».

[7] جامع البيان للطبري، ٢٦٤/١٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٤٢/٥.

[8] جامع البيان للطبري، ٢٦٥/١٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٤٢/٥.

يعقوب عليه السلام، فلم يكن يتمكّن بما صنعه مِن أخذ أخيه بالسرقة التي نسبها إليه في حال من الأحوال.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: إلّا حالَ مشيئته التي هي عبارة عن إرادته لذلك الكيدِ، أو إلّا حالَ مشيئته[1] للأخذ بذلك الوجه.

ويجوز أن يكون الكيد عبارة عنه وعن مَباديه المؤدّية إليه جميعًا مِن إرشاد يوسف وقومه إلى ما صدر عنهم مِن الأفعال والأقوال حسبما شرح مرتّبًا، لكن لا على أن يكون القصر المستفاد مِن تقديم المجرور مأخوذًا بالنسبة إلى غيره مطلقًا على معنى: مثل ذلك الكيدِ كدنا، لا كيدًا آخر، إذ لا معنى لتعليله بعجز يوسف عليه السلام عن أخذ أخيه في دين الملِك في شأن السارق قطعًا، إذ لا علاقة بين مطلَق الكيد ودِين الملِك في أمر السارق أصلًا؛ بل بالنسبة إلى بعضه، على معنى: مثلَ ذلك الكيد البالغ إلى هذا الحدّ كِدنا له، ولم نكتف ببعضٍ مِن ذلك؛ لأنّه لم يكن يأخذ أخاه في دين الملِك به إلّا حالَ مشيئتنا له بإيجاد ما يجري مَجرى الجزء الصوري مِن العلّة التامّة -وهو إرشاد إخوته- إلى الإفتاء المذكور.

وعلى هذا ينبغي أن يحمل القصر في تفسير مَن فسّر[2] قوله تعالى: ﴿كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ﴾ بقوله: علّمناه إيّاه وأوحينا به إليه. أي: مثلَ ذلك التعليم المستتبع لِما شُرح مرتّبًا علّمناه دون بعضٍ مِن ذلك فقط... إلخ.

وعلى كلّ حال فالاستثناء مِن أعمّ الأحوال كما أشيرَ إليه،[3] ويجوز أن يكون مِن أعمّ العلل والأسباب، أي: لم يكن يأخذ أخاه لعلّة مِن العلل أو بسببٍ من الأسباب إلّا لعلّة مشيئته تعالى، أو إلّا بسبب مشيئته تعالى. وأيًا ما كان فهو متّصل؛ / لأنّ أخذ السارق إذا كان ممّن يرى ذلك ويعتقده دينًا لا سيّما [٢١٦و]
عند رضاه وإفتائه به ليس مخالفًا لدِين الملِك.

---

١ وفي هامش م: قال ابن عطيّة: «والاستثناء حال، والتقدير: إلّا أن يشاء الله ما وقع مِن هذه الحيلة». لباب. «منه». | المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٢٦٦/٣؛ اللباب لابن عادل، ١٧١/١١.

٢ وهو الزمخشري في الكشّاف، ٤٩١/٢؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ١٧٢/٣.

٣ م ط س - كما أشيرَ إليه. ["صح" في هامش م].

وقد قيل: معنى الاستثناء: إلّا أن يشاءَ الله أن يجعل ذلك الحكمَ حكمَ الملِك.[١] وأنت تدري أنّ المراد بـ"دِينه" ما عليه حينئذ، فتغييره مخلّ بالاتّصال. وإرادةُ مطلق ما يتديّن به أعمّ منه وممّا يحدث تُفضي إلى كون الاستثناءِ مِن قبيل التعليق بالمحال؛ إذ المقصود بيانُ عجز يوسف عليه السلام عن أخذ أخيه حينئذ، ولم يتعلّق المشيئة بالجعل المذكور إذ ذاك. وإرادة عجزه مطلقًا تؤدّي إلى خلاف المراد، فإنّ استثناءَ حال المشيئة المذكورة مِن أحوال عجزه عليه السلام ممّا يُشعر بعدم الحاجة إلى الكيد المذكور، فتدبّر.

وقد جُوّز الانقطاع، أي: لكن أخذه بمشيئة الله تعالى وإذنه في دِين غير دِين الملِك.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ﴾ أي: رُتَبًا كثيرةً عاليةً مِن العِلم. وانتصابها على المصدريّة، أو الظرفيّة، أو على نزع الخافض، أي: إلى درجات. والمفعول قولُه تعالى: ﴿مَن نَّشَآءُ﴾ أي: نشاء رفعَه حسبما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة كما رفعنا يوسف. وإيثارُ صيغة الاستقبال للإشعار بأنّ ذلك سنّة مستمرّة غير مختصّة بهذه المادّة. والجملة مستأنَفة لا محلّ لها مِن الإعراب.

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ﴾ مِن أولئك المرفوعين ﴿عَلِيمٌ﴾ لا ينالون شَأوَهُ.

واعلم أنّه إن جعل الكيد عبارة عن المعنيَين الأوّلَين فالمراد برفع يوسف عليه السلام ما اعتُبِر فيه بالشرطيّة أو الشطريّة مِن إرشاده عليه السلام إلى دسّ الصواع في رحل أخيه وما يتفرّع عليه مِن المقدّمات المرتّبة لاستبقاء أخيه ممّا يتمّ مِن قبله.

والمعنى: أرشَدْنا إخوته إلى الإفتاء المذكور؛ لأنّه لم يكن متمكّنًا مِن أخذ أخيه بدونه، أو أرشَدْنا كلًّا منهم ومِن يوسف وأصحابه إلى ما صدَر عنهم، ولم نكتف بما تمّ مِن قبل يوسف فقط؛ لأنّه لم يكن متمكّنًا مِن أخذ أخيه بذلك، فقوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾ توضيح لذلك على معنى

---

[١] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ١٧٢/٣.

أنّ الرفع المذكور / لا يوجب تمام مرامه، إذ ليس ذلك بحيث لا يعزُب عن علمه شيء؛ بل إنّما نرفع كلّ مَن نرفع حسب استعداده، وفوق كلّ واحد منهم عليم لا يقادَر قدرُ علمه، ولا يُكتَنه كُنهُه، يرفع كلًّا منهم إلى ما يليق به مِن معارج العِلم ومدارجه، وقد رفع يوسف إلى ما يليق به مِن الدرجات العالية، وعلم أنّ ما حواه دائرة علمه لا يفي بمَرامه، فأرشد إخوته إلى الإفتاء المذكور، فكان ما كان. [٢١٦ظ]

وكأنّه عليه السلام لم يكن على يقين مِن صدور الإفتاء المذكور عن إخوته وإن كان على طمعٍ منه، فإنّ ذلك إلى الله عزّ وجلّ وجودًا وعِلمًا.

والتعرّض لوصف العِلم لتعيين جهة الفوقيّة. وفي صيغة المبالغة مع التنكير والالتفاتِ إلى الغيبة مِن الدلالة على فخامة شأنه عزّ وعلا وجلالةِ مقدار علمه المحيط ما لا يخفى.

وأمّا إن جُعل عبارةً عن التعليم المستتبع للإفتاء المذكور فالرفع عبارة عن ذلك التعليم. والإفتاءُ وإن لم يكن داخلًا تحت قدرته عليه السلام لكنّه كان داخلًا تحت علمه بواسطة الوحي والتعليم. والمعنى: مثل ذلك التعليم البالغ إلى هذا الحدّ علّمناه، ولم نقتصر على تعليم ما عدا الإفتاء الذي سيصدر عن إخوته؛ إذ لم يكن متمكّنًا مِن أخذ أخيه إلّا بذلك.

فقوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ توضيح لقوله: ﴿كِدْنَا﴾ وبيان؛ لأنّ ذلك مِن باب الرفع إلى الدرجات العالية مِن العِلم، ومدح ليوسف برفعه إليها. وقوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ تذييل له، أي: نرفع درجات عالية مِن العلم مَن نشاء رفعه، وفوق كلّ منهم عليم هو أعلى درجة.

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما:[١] «فوقَ كلّ عالِمٍ عالِمٌ إلى أن ينتهي العِلم إلى الله تعالى».[٢] والمعنى: إنّ إخوة يوسف كانوا علماء إلّا أنّ يوسف أفضل منهم.

---

١ م - رضي الله عنهما.

٢ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٢٤٢؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٢/٦٢٤. وهو في جامع البيان للطبري، ١٣/٢٧٠، مِن قول الحسن.

وقُرئ: "دَرَجَاتِ مَن نَّشَاءُ" بالإضافة.[١] والأوّل أنسب بالتذييل حيث نُسب فيه الرفع إلى مَن نُسب إليه الفوقيّة، لا إلى درجته. ويجوز كون "العليم" في هذا التفسير أيضًا عبارةً عن الله عزّ وجلّ، أي: وفوق كلّ مِن أولئك المرفوعين عليم، يرفع كلًّا منهم إلى درجته اللائقة به، / والله تعالى أعلم. [٢١٧و]

﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾

﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ﴾ يعنون بنيامين ﴿فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُ﴾ يريدون به يوسف عليه السلام وما جرى عليه مِن جهة عمّته على ما قيل مِن أنّها كانت تحضنه، فلمّا شبّ أراد يعقوب عليه السلام انتزاعه منها، وكانت لا تصبر عنه ساعةً. وكانت لها مِنطَقة وَرِثَتْها مِن أبيها إسحاق عليه السلام، فاحتالت لاستبقاء يوسف عليه السلام فعمَدَتْ إلى المِنطَقة فحَزَمَتْها عليه مِن تحت ثيابه، ثمّ قالت: فُقِدت مِنطَقة إسحاق، فانظروا مَن أَخذها، فوجدوها محزومةً على يوسف، فقالت: إنّه لي سَلَم أفعل به ما أشاءُ، فخلّاه يعقوب عندها حتّى ماتَتْ.[٢]

وقيل: كان أخذ في صباه صنمًا لأبي أمّه فكسره وألقاه في الجِيَف.[٣] وقيل: دخل كنيسة فأخذ تمثالًا صغيرًا مِن ذهَب كانوا يعبدونه فدفنه.[٤]

﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ﴾ أي: أكنّ الحزازة الحاصلة ممّا قالوا ﴿فِي نَفۡسِهِۦ﴾ لا أنّه أسرّها لبعض أصحابه كما في قوله تعالى: ﴿وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾ [نوح، ٧١/٩]. ﴿وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡ﴾ لا قولًا ولا فعلًا صفحًا عنهم وحِلمًا. وهو تأكيد لِما سبق.

﴿قَالَ﴾ أي: في نفسه. وهو استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن الإخبار بالإسرار المذكور، كأنّه قيل: فماذا قال في نفسه في تضاعيف ذلك الإسرارِ؟ فقيل: قال: ﴿أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗا﴾ أي: منزلةً حيث سرقتم أخاكم مِن أبيكم ثمّ طَفِقتُم

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٠.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٩٣.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٩٢؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/١٧٢.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٩٢؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/١٧٢.

تَفترُون على البريء. وقيل: بدل مِن ﴿أَسَرَّهَا﴾، والضمير للمقالة المفسَّرة بقوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أي: عالم عِلمًا بالغًا إلى أقصى المراتب، فإنّ الأمر ليس كما تصفون مِن صدور السرقة منّا؛ بل إنّما هو افتراء علينا، فالصيغة لمجرّد المبالغة، لا لتفضيل علمه عزّ وجلّ على علمهم، كيف لا وليس لهم بذلك مِن علم؟

﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٧٨﴾

﴿قَالُواْ﴾ عندما شاهدوا مَخائل أخذ بنيامين مستعطِفين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا﴾ لم يريدوا بذلك الإخبار بأنّ له أبًا، فإنّ ذلك معلوم ممّا سبق،[1] وإنّما أرادوا الإخبار بأنّ له أبًا / ﴿شَيْخًا كَبِيرًا﴾ في السنّ لا يكاد يستطيع فِراقه، وهو عُلَالةٌ به يَتعلّل عن شقيقه الهالك، ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ فلسنا عنده بمنزلته مِن المحبّة والشفَقة. ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إلينا، فأتمِم إحسانَك بهذه التتمّة، أو المتعوّدين بالإحسان، فلا تُغيِّرْ عادَتك. [٢١٧ظ]

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ۝٧٩﴾

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي: نعوذ بالله مَعاذًا مِن ﴿أَن نَّأْخُذَ﴾ فحُذف الفعل، وأُقيم مُقامه المصدر مضافًا إلى المفعول به بعد حذف الجارّ. ﴿إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ لأنّ أخذَنا له إنّما هو بقضيّة فتواكم، فليس لنا الإخلال بموجَبها. وإيثار صيغة التكلّم مع الغير مع كون الخطاب مِن جانب إخوته على التوحيد مِن باب السلوك إلى سَنن الملوك، أو للإشعار بأنّ الأخذ والإعطاء ليس ممّا يستبدّ به؛ بل هو مَنوط بآراء أولي الحلّ والعقد.

وإيثارُ ﴿مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ دون "مَن سرق متاعنا" لتحقيق الحقّ، والاحتراز عن الكذب في الكلام مع تمام المرام، فإنّهم لا يَحملون وجدان الصواع في الرحل على مَحمل غير السرقة.

---

[1] وفي هامش: مِن قولهم: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ [يوسف، ٦١/١٢]. «منه».

﴿إِنَّآ إِذًا﴾ أي: إذا أخذنا غير مَن وجدنا متاعنا عنده ولو برضاه ﴿لَظَٰلِمُونَ﴾ في مذهبكم وما لنا ذلك. وهذا المعنى هو الذي أريدَ بالكلام في أثناء الحِوار. وله معنى باطن؛ هو أنّ الله عزّ وجلّ إنّما أمرني بالوحي أن آخذ بنيامين لمصالِحَ عَلِمَها الله في ذلك، فلو أخذتُ غيره كنت ظالمًا وعاملًا بخلاف الوحي.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨٠﴾

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ﴾ أي: يئسوا مِن يوسف وإجابتِه لهم أشدّ يأس، بدِلالة صيغة الاستفعال. وإنّما حصلت لهم هذه المرتبة مِن اليأس لِما شاهدوه مِن عوَذه بالله ممّا طلبوه الدالِّ على كون ذلك عنده في أقصى مراتب الكراهة، وأنّه ممّا يجب أن يحترز عنه ويُعاذَ منه بالله عزّ وجلّ، ومِن تسميته ظلمًا بقوله: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾.[١]

﴿خَلَصُواْ﴾ اعتزلوا وانفردوا عن الناس ﴿نَجِيًّا﴾ أي: ذَوِي نجوى، على أن يكون بمعنى النجوى والتناجي، أو فوجًا نجيًّا، على أن يكون بمعنى المناجي، كالعشير والسمير بمعنى المعاشر والمُسَامِر، / ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [٢١٨و] [مريم، ٥٢/١٩]. ويجوز أن يقال: هم نَجيّ، كما يقال: هم صديق؛ لأنّه بزِنة المصادر مِن الزفير والزئير.

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ في السنّ، وهو روبيل، أو في العقل، وهو يهوذا؛ أو رئيسهم، وهو شمعون: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ﴾ كأنّهم أجمعوا عند التناجي على الانقلاب جملةً ولم يرضَ به، فقال منكِرًا عليهم: أَلَم تعلموا ﴿أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عهدًا يوثَق به، وهو حلفهم بالله تعالى. وكونه مِن الله لإذنه فيه وكونِ الحلف باسمه الكريم.

---

[١] في الآية السابقة.

﴿وَمِن قَبۡلُ﴾ أي: مِن قَبلِ هذا[1] ﴿مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَ﴾ قصّرتم في شأنه، ولم تحفظوا عهدَ أبيكم وقد قلتم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾،[2] ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.[3] و﴿مَا﴾ مزيدة أو مصدريّة. ومحلّ المصدر النصب عطفًا على مفعول ﴿تَعۡلَمُوٓاْ﴾، أي: ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقًا وتفريطَكم السابقَ في شأن يوسف. ولا ضَيرَ في الفصل بين العاطف والمعطوف بالظرف.

وقد جوّز النصب عطفًا على اسم ﴿أَنَّ﴾، والخبر ﴿فِي يُوسُفَ﴾ أو ﴿مِن قَبۡلُ﴾، على معنى: ألم تعلموا أنّ تفريطكم السابق وقع في شأن يوسف؟ أو أنّ تفريطكم الكائن أو كائنًا في شأن يوسف وقع مِن قبلُ؟ وفيه أنّ مقتضى المقام إنّما هو الإخبار بوقوع ذلك التفريط، لا بِكون تفريطهم السابق واقعًا في شأن يوسف كما هو مَفادُ الأوّل، ولا بكون تفريطهم الكائن في شأنه واقعًا مِن قبلُ كما هو مفادُ الثاني، على أنّ الظرف المقطوع عن الإضافة لا يقع خبرًا ولا صفةً ولا صِلة ولا حالًا عند البعض كما تقرّر في موضعه.

وقيل: محلّه الرفع على الابتداء، والخبرُ ﴿مِن قَبۡلُ﴾، وفيه ما فيه. وقيل: ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة، ومحلّها النصب أو الرفع، والحقّ هو النصب عطفًا على مفعول ﴿تَعۡلَمُوٓاْ﴾، أي: ما فرطّتموه بمعنى قدّمتموه في حقّه مِن الخيانة. وأمّا النصب عطفًا على اسم ﴿أَنَّ﴾ أو الرفع على الابتداء فقد عرفتَ حاله.

﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ متفرّع على ما ذكره وذكّره إيّاهم مِن ميثاق أبيه وقوله: ﴿لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡ﴾.[4] أي: فلن أفارق أرض مصر جريًا على قضيّة الميثاق ﴿حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ في البَراح بالانصراف إليه. وكأنّ أَيمانَهم كانت معقودةً على عدم الرجوع بغير إذن يعقوب عليه السلام. ﴿أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِي﴾ بالخروج منها على وجه / لا يؤدّي إلى نقض الميثاق، أو بخلاص أخي بسبب مِن الأسباب. [٢١٨ظ]

رُوي أنّهم كلّموا العزيز في إطلاقه، فقال رُوبيل: أيّها الملِك؛ لتردّنّ إلينا أخانا أو لَأَصِيحَنَّ صَيْحةً لا تبقى بمصر حامل إلّا ألقت ولدها، وقفّت كل شعرة

---

١ وفي هامش م: إشارة إلى أخذ الميثاق. «منه».
٢ يوسف، ١١/١٢.
٣ يوسف، ٦٦/١٢.
٤ يوسف، ١٢/١٢.

في جسده فخرجت مِن ثيابه. وكان بنو يعقوب إذا غضبوا لا يطاقون، خَلا أنّه إذا مسّ مَن غضب واحدٌ منهم سكن غضبه، فقال يوسف لابنه: قم إلى جنبه فَمَسَّه، فَمَسَّه، فقال روبيل: مَن هذا؟ إنّ في هذا البلد بَذْرًا مِنْ بَذْر يعقوبَ.[١]

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ إذ لا يحكم إلّا بالحقّ والعدل.

﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾﴾

﴿ٱرْجِعُوٓاْ﴾ أنتم ﴿إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ على ظاهر الحال. وقُرِئ: "سُرِّقَ"،[٢] أي: نُسب إلى السرقة. ﴿وَمَا شَهِدْنَآ﴾ عليه ﴿إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ وشاهدنا أنّ الصواع استخرِج مِن وعائه، ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ﴾ أي: باطن الحال ﴿حَٰفِظِينَ﴾ فما ندري أنّ حقيقة الأمر كما شاهدنا أم بخلافه. أو ما كنّا عالمين حين أعطيناك المَوثق أنّه سيسرق، أو أنّا نلاقي هذا الأمر، أو أنّك تُصاب به كما أُصبت بيوسف.

﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ أي: مصر، أو قرية بقربها لحِقهم المنادي عندها، أي: أرسل إلى أهلها، واسألهم عن القصّة. ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي: أصحابَها، فإنّ القصّة معروفة فيما بينهم، وكانوا قومًا مِن كنعان مِن جيزان يعقوب. وقيل: مِن صنعاءَ. ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ تأكيد في محلّ القسَم.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي: يعقوب عليه السلام. وهو استئناف مبنيّ على سؤالٍ نشأَ ممّا سبق، فكأنّه قيل: فماذا كان عند قول المتوقّف لإخوته ما قال؟ فقيل:

---

١ جامع البيان للطبري، ٢٧٨/١٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٤٤/٥.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وأبي البرهم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٠. وعزاها ابن عطيّة إلى ابن عبّاس رضي الله عنهما وأبي رزين. انظر: المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٢٧٠/٣.

قال يعقوب[١] عندما رجعوا إليه، فقالوا له ما قالوا، وإنّما حُذف للإيذان بأنّ مسارعتهم إلى قَبوله ورجوعهم به إلى أبيهم أمر مسلّم غنيّ عن البيان، وإنّما المحتاج إليه جواب أبيهم.

﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ أي: زيّنت وسهّلت. وهو إضراب لا عن صريح كلامهم، فإنّهم صادقون في ذلك؛ بل عمّا يتضمّنه مِن ادّعاءِ البراءة / عن التسبّب فيما [٢١٩و] نزل به، وأنّه لم يصدر منهم ما يؤدّي إلى ذلك مِن قول أو فعل، كأنّه قيل: لم يكن الأمر كذلك؛ بل زيّنت ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ مِن الأمور فأتيتموه. يريد بذلك فُتْيَاهُم بأخذ السارق بسرقته.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: فأمري صبر جميل، أو فصبر جميل أجمل. ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ بيوسف وأخيه والمتوقّف بمصر. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالي وحالهم، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لم يبتلِني إلّا لحكمةٍ بالغة.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾

﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: أعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ كراهة لِما سمع منهم ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ الأسَف: أشدّ الحزن والحسرة. أَضافَه إلى نفسه -والألِف بدل مِن الياء- فناداه، أي: يا أسفي[٢] تعالَ، فهذا أوانك. وإنّما تأسّف على يوسف مع أنّ الحادث مصيبة أخويه لأنّ رُزأه كان قاعدةَ الأرْزَاءِ، غَضًّا عنده وإن تَقَادَم عهدُه، آخِذًا بمَجامع قلبه لا ينساه، ولأنّه كان واثقًا بحياتهما، عالِمًا بمكانهما، طامعًا في إيابهما. وأمّا يوسف فلم يكن في شأنه ما يحرّك سلسلة رَجائه سوى رحمة الله تعالى وفضله.

وفي الخبر: «لم تُعطَ أمّة مِن الأمم "إنّا لله وإنّا إليه راجعون"، إلّا أمّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم».[٣] ألا يُرى إلى يعقوب حين أصابه ما أصابه لم يسترجع؛ بل قال ما قال.

---

١ س + عليه السلام.

٢ س: يا أسفا.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٤٧/٥. ونحوه في المعجم الكبير للطبراني، ٤٠/١٢ (١٢٤١١)؛ والدعاء للطبراني، ص ٣٧٠.

والتجانس بين لفظَي "الأسف" و"يوسف" ممّا يزيد النظم الكريم بهجةً، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُ﴾ [الأنعام، ٢٦/٦]، وقوله: ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم﴾ [التوبة، ٣٨/٩]، وقوله: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [النحل، ٦٩/١٦]، ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ [النمل، ٢٢/٢٧]، ونظائرها.

﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾ الموجب للبكاء، فإنّ العَبْرة إذا كثرت مَحَقَتْ سواد العين / وقَلَبتْه إلى بياضٍ كَدِرٍ. قيل: قد عَمِي بَصَرُه.[١] وقيل: كان يُدرِك إدراكًا ضعيفًا. [٢١٩ظ]

رُوي أنّه ما جَفَّتْ عَيْنَا يعقوبَ مِن يوم فِراقِ يوسف إلى حين لقائه ثمانين عامًا وما عَلى وَجهِ الأرضِ أكرم على الله عزّ وجلّ مِن يعقوب عليه السلام.[٢]

وعن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أنّه سأل جبريلَ عليه السلام: ما بلغ مِن وَجْد يعقوب على يوسف؟ قال: وَجْد سبعين ثكلى، قال: فما كان له مِن الأجر؟ قال: أجر مائة شهيد، وما ساءَ ظنّه بالله تعالى ساعةً قطّ».[٣]

وفيه دليل على جواز التأسّف والبكاء عند النوائب، فإنّ الكفّ عن ذلك ممّا لا يدخل تحت التكليف، فإنّه قلّ مَن يَمْلكُ نفسَه عند الشدائد، ولقد بكى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على ولده إبراهيم وقال: «القلب يحزَن، والعين تدمع، ولا نقول ما يُسْخِط الربَّ، وإنّا عليك يا إبراهيم لمَحزونون».[٤] وإنّما الذي لا يجوز ما يفعله الجهلة مِن الصياح والنياحة ولطم الخدود والصدور وشقّ الجيوب وتمزيق الثياب. وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه بكى على ولد بعض بناته وهو يجود بنفسه، فقيل: يا رسول الله تبكي وقد نهيتنا عن البكاء؟ فقال: «ما نهيتكم عن البكاء، وإنّما نهيتكم عن صوتين أحمقين؛ صوتٍ عند الفرح، وصوتٍ عند الترح».[٥]

---

١ وفي هامش م: لقوله: ﴿فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗا﴾ [يوسف، ٩٦/١٢].

٢ جامع البيان للطبري، ٣٦١/١٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٩٧/٢.

٣ جامع البيان للطبري، ٣٠٧/١٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٩٧/٢.

٤ صحيح البخاري، ٨٣/٢ (١٣٠٣)؛ صحيح مسلم، ١٨٠٧/٤ (٢٣١٥).

٥ الكشّاف للزمخشري، ٤٩٨/٢. والصحيح أنّ هذا في موت إبراهيم ولد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كما أخرجه الترمذي في السنن، ٣١٩/٣ (١٠٠٥).

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوء مِن الغيظ على أولاده، ممسك له في قلبه لا يظهره. فَعيل بمعنى مفعول، بدليل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم، ٤٨/٦٨]، مِن "كظَم السقاء" إذا شدّه على مِلْئِه. أو بمعنى فاعل، كقوله: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عمران، ١٣٤/٣]، مِن "كظَم الغيظ" إذا اجترعه، وأصله: كظَم البعيرُ جِرّتَه[١] إذا رَدّها في جوفه.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ﴾ أي: لا تفتؤ[٢] ولا تزال ﴿تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ تفجّعًا عليه. فحُذف حرف النفي كما في قوله:

فَقُلْتُ يَمِينُ اللهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا[٣]

لعدم الالتباس بالإثبات، فإنّ القسَم إذا لم يكن معه علامة الإثبات يكون على النفي البتّة.

﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ مريضًا مُشفيًا على الهلاك. وقيل: الحرَض مَن أذابه همّ أو مرض. وهو / في الأصل مصدر، ولذلك لا يؤنّث ولا يثنّى ولا يُجمع، [٢٢٠و]
والنَعتُ منه بالكسر كَدَنِف، وقد قُرئ به،[٤] وبضمّتين،[٥] كجُنُب وغرِب. ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ أي: الميّتين.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي﴾ البثّ أصعب الهمّ الذي لا يصبر عليه صاحبه فيبثّه إلى الناس، أي: ينشره، فكأنّهم قالوا لَهُ مَا قالوا بطريق التسلية والإِشكاءِ،

---

١ الجِرّة بالكسر: ما يخرجه البعير للاجترار. **الصحاح** للجوهري، «جرر».

٢ س: لا تفتأ.

٣ تمامه:

ولو قَطعوا رأسي لدَيك وأوصالي

وهو لامرئ القيس في **ديوانه**، ص ٣٢. رفعوا "يمينُ الله" بالابتداء وحذفوا خبره، وتقديره: يمينُ الله قسمي، وهو مثل: لعمرُ الله لأفعلنّ. والمعنى: أنّ هذه المرأة لمّا وصل إليها امرؤ القيس زجرته، وأرادت أن ينصرف، فحلف أنه لا يبرح حتى ينال حاجته ولو ضُرب رأسه وأوصاله. وأوصاله: أعضاؤه الواحد منها وِصْل. **شرح أبيات سيبويه** للسيرافي، ٢٠٤/٢.

٤ أي: "حَرِضًا". قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذَكر قارئها. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٤٩٩/٢.

٥ أي: "حُرُضًا". قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن البصري. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٥١.

فقال لهم: إنّي لا أشكو ما بي إليكم أو إلى غيركم حتّى تتصدّوا لتسليتي، وإنّما أشكو همّي ﴿وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تعالى ملتجِئًا إلى جنابه متضرِّعًا لدى بابه في دفعه. وقُرئ بفتحتين،[١] وضمّتين.[٢]

﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ مِن لطفه ورحمته، فأرجو أن يرحمني، ويَلطُفَ بي، ولا يُخيِّب رجائي، أو أعلَم وَحيًا أو إلهامًا مِن جهته ما لا تعلمون مِن حياة يوسف. قيل: رأى ملَك الموت عليه السلام في المنام فسأله عنه، فقال: هو حيّ.[٣] وقيل: علِم مِن رؤيا يوسف عليه السلام أنّه سيخرّ له أبواه وإخوته سجّدًا.[٤]

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨٧﴾

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ﴾ أي: تعرّفوا. وهو تَفعُّل مِن الحِسّ. وقُرئ بالجيم[٥] مِن الجَسّ؛ وهو الطلب، أي: تطَلَّبوا ﴿مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أي: مِن خبرهما. ولم يذكر الثالث لأنّ غيبته اختياريّة لا يعسر إزالتها. ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ لا تقنَطوا مِن فرَجه وتنفيسه.

وقُرئ بضمّ الراء،[٦] أي: مِن رحمته التي يُحيي بها العباد. وهذا إرشاد لهم إلى بعض ما أبهم في قوله: ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.[٧] ثمّ حذّرهم عن ترك العمل بموجَب نهيه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ لعدم علمهم بالله تعالى وصفاته، فإنّ العارف لا يقنَط في حال مِن الأحوال.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد والحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥١.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥١.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٤٩٩/٢؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٤/٣.

٤ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٤/٣؛ اللباب لابن عادل، ١٩٣/١١.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأشهب والنخعي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥١.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن وقتادة وعمر بن عبد العزيز. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥١

٧ في الآية السابقة.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ۝٨٨ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ۝٨٩﴾

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾ أي: على يوسف بعد ما رجعوا إلى مصر بموجَب أمر أبيهم. وإنّما لم يذكر ذلك إيذانًا بمسارعتهم إلى ما أُمِروا به، وإشعارًا بأنّ ذلك أمر محقَّق لا يفتقر إلى الذكر والبيان. ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ﴾ أي: الملك القادر المتمنّع، ﴿مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ الهزال مِن شدّة الجوع، ﴿وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾ مدفوعةٍ / يدفعها كلّ تاجر رغبةً عنها واحتقارًا لها، مِن "أزْجَيتُه" إذا دفعتَه وطردتَه، والريح تُزجي السحاب. [٢٢٠ظ]

قيل: كانت بضاعتهم مِن متاع الأعراب صوفًا وسَمنًا. وقيل: الصنوبر وحبّة الخضراء. وقيل: سَوِيق المُقْل والأَقِط. وقيل: دراهم زيوفًا لا تؤخذ إلّا بوَضيعة. وإنّما قدّموا ذلك ليكون ذريعة إلى إسعاف مَرامهم ببعثِ الشفَقة، وهزّ العطف والرأفة، وتحريك سلسلة المرحمة.

ثمّ قالوا: ﴿فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ﴾ أي: أتمِمه لنا ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَا﴾ بردّ أخينا إلينا، قاله الضحّاك وابن جريج، وهو الأنسب بحالهم نظرًا إلى أمر أبيهم، أو بالإيفاء، أو بالمسامحة وقبول المُزجاة، أو بالزيادة على ما يساويها تفضّلًا. وإنّما سمّوه تصدّقًا تواضعًا، أو أرادوا التصدّق فوق ما يعطيهم بالثمن بناء على اختصاص حرمة الصدقة بنبيّنا صلّى الله عليه وسلّم.

وإنّما لم يبدئوا بما أُمِروا به استجلابًا للرأفة والشفَقة ليبعثوا بما قدّموا مِن رقّةِ الحال رقّةَ القلب والحنوَّ، على أنّ ما ساقوه كلام ذو وَجهين، فإنّ قولهم: وتصدّق علينا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾ يحتمل الحملَ على المَحملين، فلعلّه عليه السلام حمله على المَحمل الأوّل، ولذلك ﴿قَالَ﴾ مُجيبًا عمّا عرّضوا به وضمّنوه كلامهم مِن طلب ردّ أخيهم: ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ وكان الظاهر أن يتعرّض لِما فعلوا بأخيه فقط، وإنّما تعرّض لِما فعلوا بيوسف لاشتراكهما في وقوع الفعل عليهما، فإنّ المراد بذلك إفرادهم له عن يوسف

وإذلاله بذلك حتّى كان لا يستطيع أن يكلّمهم إلّا بعجز وذلّة، أي: هل تبتم عن ذلك بعد علمكم بقبحه؟ فهو سؤال عن الملزوم والمراد لازمُه.

﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ بقبحه، فلذلك أقدمتم على ذلك، أو جاهلون عاقبتَه. وإنّما قاله نُصحًا لهم وتحريضًا على التوبة وشفَقة عليهم لمّا رأى عجزهم وتمسكُنهم، لا معاتبةً وتثريبًا. ويجوز أن يكون هذا الكلام منه عليه السلام / منقطعًا عن كلامهم وتنبيهًا لهم على ما هو حقّهم ووظيفتهم مِن الإعراض [٢٢١و] عن جميع المطالب والتمحّض في طلب بنيامين؛ بل يجوز أن يقف عليه السلام بطريق الوحي أو الإلهام على وصيّة أبيه وإرساله إيّاهم للتحسّس منه ومِن أخيه، فلمّا رآهم قد اشتغلوا عن ذلك قال ما قال.

وقيل: أعطَوه كتاب يعقوب عليه السلام وقد كُتب فيه:[١] «مِن يعقوب إسرائيل الله ابن إسحاق ذبيح الله[٢] ابن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر، أمّا بعد، فإنّا أهل بيت موكّل بنا البلاء، أمّا جدّي فشُدَّت يَداه ورِجلاه فرُمي به في النار، فنجّاه الله تعالى، وجُعلت النار له بردًا وسلامًا. وأمّا أبي فوُضع السكّين على قفاه ليُقتل ففَداه الله. وأمّا أنا فكان لي ابن، وكان أحبَّ أولادي إليّ، فذهب به إخوته إلى البرّيّة، ثمّ أتوني بقميصه ملطّخًا بالدم، فقالوا: قد أكله الذئب، فذهبت عيناي مِن بكائِي عليه، ثمّ كان لي ابن، وكان أخاه مِن أمّه، وكنت أتسلّى به، فذهبوا به، ثمّ رجعوا وقالوا: إنّه سَرق، وأنّك حبسته، وإنّا أهل بيت لا نسرِق ولا نلِد سارقًا، فإن رددتَه عليّ وإلّا دعوت عليك دعوة تدرك السابع مِن ولدك، والسلام». فلمّا قرأه لم يتمالك، وعِيل صبره، فقال لهم ما قال.[٣] وقيل: لمّا قرأه بكى، وكتب الجواب: «اصبِر كما صبروا تظفر كما ظفروا».[٤]

---

١ وفي هامش م: كتاب يعقوب عليه السلام.

٢ اختُلف في الذبيح مَن هو؟ إسحاق أم إسماعيل عليهما السلام، وهذا الكتاب أحد حجج القائلين بأنّه إسحاق عليه السلام، والأكثر على أنّه إسماعيل عليه السلام. وكان الزجّاج يقول: الله أعلم أيّهما الذبيح. انظر: تفسير الرازي، ٣٤٨/٢٦ (الصافات، ١٠٢/٣٧).

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٥٢/٥؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٦٢٧/٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٠١/٢.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٥٠١/٢.

﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠﴾

﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ استفهامُ تقرير، ولذلك أكّدُوهُ بـ"إنّ" و"اللام". قالوه استغرابًا وتعجّبًا. وقُرئ: "إِنَّكَ" بالإيجاب.[1] قيل: عرفوه برُوائه[2] وشمائله حين كلّمهم به. وقيل: تبسّم فعرفوه بثناياه. وقيل: رفع التاج عن رأسه فرأوا علامةً بقَرنه تشبه الشامة البيضاء، وكان لسارة ويعقوب مثلها. وقُرئ: "أَإِنَّكَ أَوْ أَنْتَ يُوسُفُ"[3] / على معنى: أئنّك يوسف أو أنت يوسف، فحُذف الأوّل لدلالة الثاني عليه، وفيه زيادة استغراب. [٢٢١ظ]

﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ﴾ جوابًا عن مسألتهم، وقد زاد عليه قوله: ﴿وَهَٰذَآ أَخِي﴾ أي: مِن أبويّ مبالغةً في تعريف نفسه، وتفخيمًا لشأن أخيه، وتكمِلةً لِما أفاده قوله: ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾،[4] حسبما يفيده قوله: ﴿قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ[5] عَلَيۡنَا﴾ فكأنّه قال: هل علمتم ما فعلتم بنا مِن التفريق والإذلال؟ فأنا يوسف وهذا أخي، قد منّ الله علينا بالخلاص عمّا ابتُلِينا به، والاجتماعِ بعد الفرقة، والعزّة بعد الذّلة، والأُنس بعد الوَحشة، ولا يبعد أن يكون فيه إشارةٌ إلى الجواب عن طلبهم لردّ بنيامين بأنّه أخي لا أخوكم، فلا وجه لطلبكم.

ثمّ علّل ذلك بطريق الاستئناف التعليلي بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ﴾ أي: يفعل التقوى في جميع أحواله،[6] أو يَقِ نفسه عمّا يوجب سخطَ الله تعالى وعذابَه ﴿وَيَصۡبِرۡ﴾ على المِحَن، أو على مشقّة الطاعاتِ، أو عن المعاصي التي يستلذّها النفس ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: أجرَهم، وإنّما وُضع المُظهَر موضع المُضمَر تنبيهًا على أنّ المنعوتين بالتقوى والصبر موصوفون بالإحسان.[7]

---

١ قرأ بها أبو جعفر وابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٧٢/١.

٢ الرُواء، بالضمّ: حُسن المنظر في البهاء والجمال. لسان العرب لابن منظور، «رأى».

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٢.

٤ في الآية السابقة.

٥ م + تعالى.

٦ وفي هامش م: يخف الله وعقابه. «كشّاف». | الكشّاف للزمخشري، ٥٠٢/٢.

٧ وفي هامش م: تنبيه على أنّ المحسن مَن جمع بين التقوى والصبر. «قاضي». | أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٥/٣.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٩٢﴾

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ اختارك وفضّلك علينا بما ذكرت مِن النعوت الجليلة ﴿وَإِن كُنَّا﴾ وإنّ الشأن إنّا كنّا ﴿لَخَٰطِـِٔينَ﴾ لَمتعمّدين للذنب؛ إذ فعلنا بك ما فعلنا، ولذلك أعزّك وأذلّنا. وفيه إشعار بالتوبة والاستغفار، ولذلك ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ﴾ أي: لا عتَب ولا تأنيب ﴿عَلَيْكُمُ﴾ وهو تفعيل مِن الثَّرْب، وهو الشحم الغاشي للكَرِش، ومعناه: إزالته، كما أنّ التجليد إزالة الجِلد، والتقريع إزالة القَرَع؛ / لأنّه [٢٢٢و] إذا ذهب كان ذلك غايةَ الهُزال، فضُرب مثلًا للتقريع الذي يَذهب بماء الوجوه.

وقوله عزّ وعلا: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ منصوب بـ"التثريب"، أو بالمقدّر خبرًا لِـ﴿لَا﴾، أي: لا أثرّبكم، أو لا تثريب مستقرّ عليكم اليومَ الذي هو مظِنّة له، فما ظنّكم بسائر الأيّام، أو بقوله: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ لأنّه حينئذ صَفَح عن جريمتهم، وعفَا عن جريرتهم بما فعلوا مِن التوبة.

﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ يغفر الصغائر والكبائر، ويتفضّل على التائب بالقبول.

ومِن كرمه عليه السلام أنّ إخوته أرسلوا إليه أنّك تدعونا إلى طعامك بُكرةً وعشيًّا، ونحن نستحيي منك بما فرَط مِنّا فيك، فقال عليه السلام: إنّ أهلَ مِصرَ وإن ملكتُ فيهم كانوا ينظرون إليّ بالعين الأولى، ويقولون: سبحان مَن بلّغ عبدًا بِيع بعشرين درهمًا ما بلّغ، ولقد شرُفتُ بكم الآنَ، وعظُمتُ في العيون، حيث علِم الناس أنّكم إخوتي، وأنّي مِن حفَدة إبراهيم عليه السلام.[١]

﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ٩٣﴾

﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾ قيل: هو الذي كان عليه حينئذ. وقيل: هو القميص المتوارَث الذي كان في التعويذ، أمره جبريل عليه السلام بإرساله إليه، وأوحى إليه أنّ فيح ريح الجنّة لا يقع على مبتلًى إلّا عُوفِيَ.[٢]

---

١ **الكشّاف** للزمخشري، ٥٠٣/٢؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٧٥/٣.

٢ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٦٣٢/٢؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٥٠٣/٢.

﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ يكن بصيرًا، أو يأتِ إليّ بصيرًا، وينصره قوله: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: بأبي وغيره ممّن ينتظمه لفظ الأهل جميعًا مِن النساء والذراري. قيل: إنّما حمل القميصَ يَهُوذا، وَقال: أنا أَحْزَنْتُه بحمل القميص مُلطّخًا بالدم إليه فأُفَرِّحُه كما أَحْزَنْتُه. وقيل: حمَله وهو حافٍ حاسِر مِن مصر إلى كنعان، وبينهما مسيرة ثمانين فرسخًا.[١]

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ خرجت مِن عريش مصر. يقال: "فصل مِن البلد فصولًا" إذا انفصل منه وجاوز حيطانَه. وقرأ ابن عبّاس: "انْفَصَلَ الْعِيرُ".[٢]

/ ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ يعقوب عليه السلام لمَن عنده: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أوجده الله سبحانه ما عبِق بالقميص مِن ريح يوسف مِن ثمانين فرسخًا حين أقبل به يَهوذا. ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أي: تنسبوني إلى الفَنَد؛ وهو الخرَف وإنكار العقل وفساد الرأي مِن هرَم، يقال: شيخ مفنّد، ولا يقال: عجوز مفنّدة؛ إذ لم تكن في شبيبتها ذاتَ رأي فتُفنَّدَ في كبرها. وجواب ﴿لَوْلَا﴾ محذوف، أي: لصدّقتموني. [٢٢٢ظ]

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾

﴿قَالُواْ﴾ أي: الحاضرون عنده: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ لفي ذهابك عن الصواب قِدمًا في إفراط محبّتك ليوسف، ولَهَجك بذِكره، ورجائك للقائه، وكان عندهم أنّه قد مات.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ وهو يَهوذا ﴿أَلْقَىٰهُ﴾ أي: ألقى البشيرُ القميصَ ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي: وجه يعقوب، أو ألقاه يعقوب على وجه نفسه، ﴿فَٱرْتَدَّ﴾ عاد ﴿بَصِيرًا﴾ لِما انتعش فيه مِن القوّة.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٠٣.

٢ قراءة شاذّة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٠٤. وهي في مطبوع شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٢: "انْفَصَلَتِ العِيرُ".

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ يعني قولَه: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾،[1] فالخطاب لمَن كان عنده بكنعان، أو قولَه: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾،[2] فالخطاب لبنيه، وهو الأنسب بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فإنّ مدار النهي المذكور إنّما هو العلم الذي أوتي يعقوب مِن جهة الله سبحانه. وعلى هذا يجوز أن يكون هذا مقولَ القول، أي: ألم أقل لكم حين أرسلتكم إلى مصر، وأمرتكم بالتحسّس، ونهيتكم عن اليأس مِن رَوح الله تعالى: أعلم مِن الله ما لا تعلمون مِن حياة يوسف.

رُوي أنّه سأل البشيرَ: «كيف يوسف؟» فقال: «هو ملِك مصر،» قال: «ما أصنع بالملِك؟ على أيّ دين تركته؟» قال: «على دين الإسلام»، قال: «الآن تمّت النِّعمة».[3]

﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ۝٩٧ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩٨﴾

﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ﴾ ومِن حقّ مَن اعترف بذنبه أن يُصفَح عنه ويُستَغفَر له. / فكأنّهم كانوا على ثقةٍ مِن عفوه عليه السلام، ولذلك [٢٢٣و]
اقتصروا على استدعاء الاستغفار، أو أدرجوا ذلك في الاستغفار.

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وهذا مُشعِر بعفوه. قِيل: أخّر الاستغفار إلى وقت السحَر. وقيل: إلى ليلة الجمعة ليتحرّى به وقت الإجابة.

وقيل: أخّره إلى أن يستحِلّ لهم مِن يوسف عليه السلام، أو يعلمَ أنّه قد عفا عنهم، فإنّ عفو المظلوم شرط المغفرة. ويعضُده أنّه رُوي عنه أنّه استقبل القِبلة قائمًا يدعو، وقام يوسف خلفه يؤمّن، وقاموا خلفهما أذلّةً خاشعين عشرين سنةً، حتّى إذا بلغ جهدهم وظنّوا أنّها الهلَكة نزل جبريل عليه السلام فقال: إنّ الله قد أجاب دعوتك في ولدك، وعقد مواثيقهم بعدَك على النبوّة.[4] فإن صحّ ثبت نبوّتهم، وأنّ ما صدر عنهم إنّما صدر قبل الاستنباء.

---

[1] يوسف، ٩٤/١٢.
[2] يوسف، ٨٧/١٢.
[3] **الكشّاف** للزمخشري، ٥٠٤/٢؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٣٢٤/٦.
[4] **الكشّاف** للزمخشري، ٥٠٤/٢؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٧٦/٣.

وقيل: المراد الاستمرار على الدعاء. فقد رُوي أنّه كان يستغفر كلّ ليلة جمعة في نَيِّفٍ وعشرين سنةً.[١] وقيل: قام إلى الصلاة في وقت السحَر، فلمّا فرغ رفع يديه فقال: اللّهمّ اغفر لي جزَعي على يوسف، وقلّة صبري عنه، واغفر لولدي ما أتَوا إلى أخيهم، فأوحى الله إليه أنّ الله قد غفَر لك ولهم أجمعين.[٢]

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ رُوي أنّه وجّه يوسف إلى أبيه جَهازًا ومِائتي راحلة؛ ليتجهّز إليه بمَن معه، فاستقبله يوسف والملِك في أربعة آلاف مِن الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم، فتلقّوْا يعقوبَ عليه السلام وهو يمشي متوكّئًا على يهوذا، فنظر إلى الخيل والناس، فقال: «يا يَهوذا، أَهَذا فرعون مصر؟»، قال: «لا بل ولَدك»، فلمّا لقِيه قال: «السلام عليك يا مُذهب الأحزان».[٣]

/ وقيل: قال له يوسف: «يا أبتِ بكيتَ عليّ حتّى ذهب بصرك، ألم تعلم أنّ القيامة تجمعنا؟» فقال: «بلى، ولكنّي خشيتُ أن يُسلب دينك، فيُحالَ بيني وبينك».[٤] [٢٢٣ظ]

وقيل: إنّ يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة، وكانوا حين خرجوا مع موسى ستّمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعين رجلًا سوى الذرّيّة والهرمى، وكانت الذرّيّة ألفَ ألفٍ ومائتَي ألف.[٥]

﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾ أي: أباه وخالتَه. وتنزيلُها منزلة الأمّ كتنزيل العمّ منزلة الأب في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ [البقرة، ١٣٣/٢]،

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٥٧/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٠٤/٢.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٥٧/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٠٤/٢.

٣ التفسير الوسيط للواحدي، ٦٣٤/٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٠٥/٢.

٤ عن سفيان الثوري في الكشف والبيان للثعلبي، ٢٥٧/٥. وأخرجه الواحدي بإسناده في التفسير الوسيط، ٦٣٤/٢، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما.

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٠/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٠٥/٢.

أو لأنّ يعقوبَ عليه السلام تزوّجها بعد أمّه. وقال الحسين[١] وابن إسحاق: كانت أمُّه في الحياة،[٢] فلا حاجة إلى التأويل.

ومعنى ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ﴾: ضمّهما إليه واعتنقهما، وكأنّه عليه السلام ضرَب في الملتقى مضربًا، فنزل فيه، فدخلوا عليه، فآواهما إليه.[٣]

﴿وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ مِن الشدائد والمَكاره قاطبة. والمشيئة متعلّقة بالدخول على الأمْن.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ﴾ عند نزولِهم بمصر ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ على السرير تكرِمة لهما فوق ما فعله لإخوته. ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ﴾ أي: أبواه وإخوته ﴿سُجَّدٗا﴾ تحيّة له، فإنّه كان السجود عندهم جاريًا مَجرى التحيّة والتكرِمة كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد ونحوها مِن عادات الناس الفاشية في التعظيم والتوقير.

وقيل: ما كان ذلك إلّا انحناءً دون تعفير الجِباه. ويأباه الخرور.

[٢٢٤و] وقيل: خرّوا لأجله سجّدًا لله شكرًا.[٤] ويردّه قوله تعالى: / ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ﴾ التي رأيتها وقصصتها عليك ﴿مِن قَبۡلُ﴾ في زمن الصِّبا. ﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗا﴾ صدقًا واقعًا بعينه.

[١] كذا في الأصول الخطيّة، والصواب "الحسن"، وهو الحسن البصري. انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٥١٥/٢؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٣٢٦/٦؛ واللباب لابن عادل، ٢١٢/١١.

[٢] س: بالحياة.

[٣] س - إليه.

[٤] أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٧/٣. وفي البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٢٧/٦: قال الحسَن: الضمير في ﴿لَهُۥ﴾ عائد على الله، أي: خرّوا لله سجّدًا، شكرًا على ما أوزَعهم مِن هذه النعمة.

والاعتذار بجعل يوسف بمنزلة القِبلة، وجعلُ "اللام" كما في قوله:

أَلَـيـس أوّلَ مَـن صـلّـى لقِبلـتكـم[١]

تعسّف لا يخفى.

وتأخيره عن الرفع على العرش ليس بنصّ في ذلك؛ لأنّ الترتيب الذِّكري لا يجب كونه على وفق الترتيب الوقوعي، فلعلّ تأخيرَه عنه ليَتصل به ذِكرَ كونه تعبيرًا لرؤياه وما يتّصل به مِن قوله: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ﴾.

المشهور استعمال الإحسان بـ"إلى"، وقد يستعمل بالباء أيضًا، كما في قوله عزّ اسمه: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة، ٨٣/٢]. وقيل: هذا بتضمين "لَطُفَ"، وهو الإحسان الخفيّ، كما يؤذِن به قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾. وفيه فائدة لا تخفى، أي: لطف بي محسنًا إليّ غيرَ هذا الإحسان، ﴿إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ بعدما ابتُلِيتُ به.

ولم يصرِّح بقصّة الجُبّ حذارًا مِن تثريب إخوته؛ لأنّ الظاهر حضورهم؛ لوقوع الكلام عقيب خُرورهم سُجّدًا، واكتفاءً بما يتضمّنه قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ أي: البادية ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ أي: أفسد بيننا بالإغواء. وأصله مِن نخَس الرائض الدابّة وحمَله على الجري، يقال: "نزَغه ونسَغه" إذا نخسه، ولقد بالغ عليه السلام في الإحسان حيث أسند ذلك إلى الشيطان.

﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ / لِّمَا يَشَآءُ﴾ أي: لطيف التدبير لأجله، رفيق حتّى يجيء على وجه الحكمة والصواب، ما مِن صعب إلّا وهو بالنسبة إلى تدبيره سهل. [٢٢٤ظ]

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بوجوه المصالح، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يفعل كلّ شيء على قضيّة الحكمة.

---

١ تمامه:

وأعـرفَ الـنـاس بـالـقرآن والسـننِ

لحسّان بن ثابت في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧١/١ (البقرة، ٣٤/٢)؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٣٢٧/٦، ولم أجده في ديوانه. وهذا الاعتذار ذكره أبو حيّان في البحر المحيط، ٣٢٧/٦؛ وابن عادل في اللباب، ٢١٤/١١.

رُوي أنّ يوسف أخذ بيد يعقوب عليهما السلام، فطاف به في خزائنه، فأدخله في خزائن الوَرِق والذهَب، وخزائن الحُليّ، وخزائن الثياب، وخزائن السلاح، وغير ذلك، فلمّا أدخله خزائن القراطيس قال: «يا بنيّ ما أعقّك! عندك هذه القراطيس وما كتبت إليّ على ثماني مراحل؟» قال: «أمرني جبريل»، قال: «أَوَ ما تَسْأَلُه؟» قال: «أنتَ أبْسَطُ إليه منّي»، فسَألَه، قال جبريلُ: «الله تعالى أمرني بذلك لقولك: ﴿أَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾،[١] قال: فهلّا خِفْتني».[٢]

ورُوي أنّ يعقوب أقام معه أربعًا وعشرين سنةً ثمّ مات، وأوصى أن يدفنه بالشام إلى جنب أبيه إسحاق، فمضى بنفسه وَدَفَنَه ثمّة ثمّ عاد إلى مصر، وعاش بعد أبيه ثلاثًا وعشرين سنةً، فلمّا تمّ أمره وعلِم أنّه لا يدوم له تَاقَتْ نفسُه إلى المُلكِ الدائم الخالد فتمنّى الموت،[٣] فقال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ أي: بعضًا منه عظيمًا، وهو مُلك مصر. ﴿وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: بعضًا مِن ذلك.

كذلك إن أريد بتعليم تأويل الأحاديث تفهيم غوامض أسرار الكتب الإلهيّة ودقائق سَنن الأنبياء عليهم السلام فالترتيب ظاهر. وأمّا إن أريد به تعليم تعبيرِ الرُّؤى -كما هو الظاهر- فلعلّ تقديمَ "إيتاءِ المُلكِ" عليه في الذِّكر لأنّه بمقام تعداد النعم الفائضة عليه مِن الله سبحانه، والمُلك / أعرق في كونه نعمة مِن [٢٢٥و] التعليم المذكور، وإن كان ذلك أيضًا نعمة جليلة في نفسه.

ولا يمكن تمشية هذا الاعتذار فيما سبَق؛ لأنّ التعليم هنالك وارد على نهج العلّة الغائيّة للتمكين، فإن حُمِل على معنى التمليك لزم تأخّره عنه، وأمّا الواقع ههنا فمجرّد التأخير في الذِّكر، والعطفُ بحرف الواو، ولا يستدعي ذلك الترتيبَ في الوجود.

﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مبدعَهما وخالقَهما. نصب على أنّه صفة للمنادى، أو منادى آخر وَصَفه تعالى به بعد وصفه بالربوبيّة مبالغةً في ترتيب مبادي

---

[١] يوسف، ١٣/١٢.

[٢] الكشّاف للزمخشري، ٥٠٦/٢؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٧/٣.

[٣] الكشّاف للزمخشري، ٥٠٦/٢. وأوّله إلى عوده إلى مصر في الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٠/٥.

ما يعقبه مِن قوله: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ﴾ مالك أموري ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ أو الذي يتولّاني بالنعمة فيهما، وإذ قد أتممت عليّ نعمة الدنيا ﴿تَوَفَّنِي﴾ اقبضني ﴿مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ مِن آبائي، أو بعامّة الصالحين في الرتبة والكرامة، فإنّما تتمّ النعمة بذلك.

قيل: لمّا دعا توفّاه الله عزّ وجلّ طيّبًا طاهرًا، فتخاصم أهل مصر في دفنه، وتشاجّوا في ذلك حتّى همّوا بالقتال، فرأَوا أن يصنعوا له تابوتًا مِن مَرمَر فجعلوه فيه، ودفنوه في النيل؛ ليمرّ عليه ثمّ يصل إلى مصر ليَكونوا شرعًا واحدًا في التبرّك به. ووُلِد له أفراييم وميشا، ولأفراييم نون، ولنون يوشع فتى موسى عليه السلام. ولقد توارثت الفراعنة مِن العمالقة بعده مصر، ولم يزل بنو إسرائيل تحت أيديهم على بقايا دين يوسف وآبائه إلى أن بعث الله تعالى موسى عليه السلام.

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ١٠٢﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ / إشارة إلى ما سبق مِن نبأ يوسف. وما فيه مِن معنى البعد لِما مرّ [٢٢٥ظ] مرارًا مِن الدلالة على بُعد منزلته، أو كونه بالانقضاء في حكم البعيد. والخطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم. وهو مبتدأ، خبره ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ الذي لا يحوم حوله أحد. وقوله: ﴿نُوحِيهِ إِلَيۡكَ﴾ خبر بعد خبر، أو حال مِن الضمير في الخبر. ويجوز أن يكون ﴿ذَٰلِكَ﴾ اسمًا موصولًا، و﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ صلته، ويكون الخبر ﴿نُوحِيهِ إِلَيۡكَ﴾.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ﴾ يريد إخوة يوسف ﴿إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ﴾ وهو جعلهم إيّاه في غيابة الجُبّ، ﴿وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾ به، ويبغون له الغوائل حتّى تقف على ظواهر أسرارهم وبواطنها، وتطّلعَ على سرائرهم طرًّا، وتحيط بما لديهم خُبرًا. وليس المراد مجرّد نفي حضوره عليه السلام في مشهد إجماعهم ومكرهم فقط؛ بل في سائر المشاهد أيضًا، وإنّما تخصيصه بالذكر لكونه مطلعَ القصّة وأخفى أحوالها، كما يُنبئ عنه قوله: ﴿وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾.

والخطاب وإن كان لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم لكنّ المراد إلزام المكذّبين، والمعنى: ذلك مِن أنباء الغيب نوحيه إليك؛ إذ لا سبيل إلى معرفتك إيّاه سوى ذلك، إذ عدم سماعك ذلك مِن الغير وعدمُ مطالعتك للكتب أمر لا يَشكّ فيه المكذّبون أيضًا، ولم تَكُنْ بَيْن ظهرانِيهم عند وقوع الأمر حتّى تعرفَه كما هو فتبلغَه إليهم. وفيه تهكّم بالكفّار، فكأنّهم يشكّون في ذلك، [٢٢٦و] / فيدفع شكّهم.

وفيه أيضًا إيذان بأنّ ما ذُكر مِن النبأ هو الحقّ المطابق للواقع. وما ينقله أهل الكتاب ليس على ما هو عليه. يعني أنّ مثل هذا التحقيق بلا وَحي لا يتصوّر إلّا بالحضور والمشاهدة، وإذ ليس ذلك بالحضور فهو بالوحي. ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران، ٣/٤٤]، وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ [القصص، ٢٨/٤٤].

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ يريد به العموم أو أهلَ مكّة ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ أي: على إيمانهم، وبالغت في إظهار الآيات القاطعة الدالّة على صدقك ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ لتصميمهم على الكفر وإصرارهم على العناد.

رُوي أنّ اليهود وقريشًا لمّا سألوا عن قصّة يوسف وَعَدُوا أَن يُسلموا، فلمّا أخبرهم بها على موافقة التوراة فلم يُسلموا حَزِن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فقيل له ذلك.[١]

﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على الإنباء، أو على القرآن ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ مِن جُعْلٍ كما يفعله حَمَلَة الأخبار. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عِظة مِن الله تعالى ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ كافّة، لا أنّ ذلك مختصّ بهم.

---

١ التفسير الوسيط للواحدي، ٢/٢٣٧؛ معالم التنزيل للبغوي، ٤/٢٨٢.

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ﴾ أي: كأيِّ عددٍ شئتَ مِن الآيات والعلامات الدالّة على وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته وحكمته غيرَ هذه الآية التي جئتَ بها ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: كائنةٍ فيهما مِن الأجرام الفلكيّة، وما فيها من النجوم وتغيّر أحوالها، ومن الجبال والبحار، وسائر ما في الأرض مِن العجائب الفائتة للحصر ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ أي: يشاهدونها / ولا يَعْبَئُون بها. [٢٢٦ظ]

وقُرئ برفع ﴿ٱلْأَرْضِ﴾[1] على الابتداء، و﴿يَمُرُّونَ﴾ خبره. وقُرئ بنصبها[2] على معنى: ويطئون الأرض يمرّون عليها. وفي مصحف عبد الله: "وَالْأَرْضِ يَمْشُونَ عَلَيْهَا".[3]

والمراد ما يرون فيها مِن آثار الأمم الهالكة وغيرِ ذلك مِن الآيات والعِبَر ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ غيرَ ناظرين إليها، ولا متفكّرين فيها.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾ في إقرارهم بوجوده وخالقيّته ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ بعبادتهم لغيره، أو باتّخاذهم الأحْبار والرهبان أربابًا، أو بقولهم باتّخاذه تعالى ولدًا، سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا، أو بالنور والظلمة. وهي جملة حاليّة، أي: لا يؤمن أكثرهم إلّا في حال شركهم.

قيل: نزلت الآية في أهل مكّة. وقيل: في المنافقين. وقيل: في أهل الكتاب.

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي: عقوبة تغشاهم وتشملهم ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ فجأةً مِن غير سابقةِ علامة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانها غير مستعدّين لها.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة وابن عمير وابن فايد. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٥٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن السُّدّي. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٥٢.

٣ **جامع البيان** للطبري، ٣٧٢/١٣؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٥٠٨/٢.

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ وهي الدعوة إلى التوحيد والإيمان بالإخلاص. وفسّرها بقوله: ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي:[١] بيانٍ وحجّةٍ واضحةٍ غير عمياء. أو هي[٢] حال مِن الضمير في ﴿سَبِيلِىٓ﴾، والعامل فيها معنى الإشارة.

﴿أَنَا۠﴾ تأكيد للمستكنّ في ﴿أَدْعُوٓا۟﴾ و﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾؛ لأنّه حال منه، أو مبتدأ خبره
[٢٢٧و] ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾. / ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ عطف عليه. ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾
مؤكِّد لِما سبق مِن الدعوة إلى الله.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ ردّ لقولهم: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون، ٢٣/٢٤]. ﴿نُوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ كما أوحينا إليك. وقُرئ بالياء.[٣] ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ لأنّهم أعلَم وأحلَم. وأهل البوادي فيهم الجهل والجفاء والقسوة.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِن المكذّبين بالرسل والآيات، فيحذروا تكذيبك. ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: لدار الحال أو[٤] الساعة، أو الحياة الآخرة ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ الشرك والمعاصي ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتستعملوا عقولكم؛ لتعرفوا خيريّة دار الآخرة. وقُرئ بـ"الياء"[٥] على أنّه غير داخل تحت ﴿قُلْ﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾

---

١ ط س - أي.
٢ ط س: وهي.
٣ أي: "يُوحَى" مبنيًا للمفعول. قرأ بها جميع القرّاء العشر غير رواية حفص عن عاصم. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٦.
٤ م ط س - لدار الحال أو ["صح" في هامش م].
٥ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٧.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ غاية لمحذوف دلّ عليه السياق، أي: لا يغرّنّهم تماديهم فيما هم فيه مِن الدَّعة والرخاء، فإنّ مَن قبلهم قد أُمهلوا حتّى أيِس الرسل عن النصر عليهم في الدنيا، أو مِن إيمانهم لانهماكهم في الكفر، وتماديهم في الطغيان مِن غير وازع.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ كَذَبَتْهم أنفسهم حين حدّثتهم بأنّهم يُنصَرون عليهم، أو كذّبهم رجاؤهم، فإنّه يوصف بالصدق والكذب. والمعنى: أنّ مدّة التكذيب والعداوة مِن الكفّار وانتظار النصر مِن الله تعالى قد تطاولت وتمادَت حتّى استشعروا القُنوط، وتوهّموا أن لا نصر لهم في الدنيا.

﴿جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ فجأة، وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: / «وظنّوا أنّهم قد أُخلِفوا ما وعدَهم الله مِن النصر».[١] فإن صحّ ذلك عنه فلعلّه أراد بالظنّ ما يخطر بالبال من شِبه الوسوسة وحديث النفس، وإنّما عبّر عنه بالظنّ تهويلًا للخطب. وأمّا الظنُّ الذي هو ترجّح أحد الجانبين على الآخر فلا يتصوّر ذلك مِن آحاد الأمّة، فما ظنّك بالأنبياء عليهم السلام وهم هم، ومنزلتهم في معرفة شئون الله سبحانه منزلتهم. [٢٢٧ظ]

وقيل: الضميران للمُرسَل إليهم. وقيل: الأوّل لهم، والثاني للرسل.

وقرئ بالتشديد،[٢] أي: ظنّ الرسل أنّ القوم كذّبوهم فيما وعدوهم. وقُرئ بالتخفيف على بناء الفاعل،[٣] على أنّ الضميرين للرسل، أي: ظنّوا أنّهم كذّبوا عند قومهم فيما حدّثوا به لمّا تراخى عنهم ولم يروا له أثرًا، أو على أنّ الأوّل لقومهم.

﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾ هم الرسل والمؤمنون بهم. وقُرئ: "فَنُنْجِي" على لفظ المستقبل بالتخفيف[٤] والتشديد.[٥] وقُرئ: "فَنَجا".[٦] ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٥١٠/٢؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٩/٣.

٢ أي: "كُذِّبُوا". قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٩٦/٢.

٣ أي: "كَذَبُوا". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما ومجاهد والضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٣.

٤ أي: "فَنُنْجِي". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٩٦/٢.

٥ أي: "فَنُنَجِّي". قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. انظر: شواذّ القراءات للكرماني؛ ص ٢٥٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٣٣٧/٦.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصن ومجاهد وابن السميفع. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٣؛ والمحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٢٨٩/٣.

إذا نزل بهم. وفيه بيان لِمَن تعلّق بهم المشيئة.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ﴾ أي: قصص الأنبياء وأممهم، وينصره قراءة مَن قرأ بكسر القاف،[1] أو قصص يوسف وإخوته ﴿عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ لذوي العقول المبرّأة عن شوائب أحكام الحسّ.

﴿مَا كَانَ﴾ أي: القرآن المدلول عليه بما سبق دلالة واضحة ﴿حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن﴾ كان ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مِن الكتب السماويّة. وقُرئ بالرفع[2] على أنّه خبر مبتدأ محذوف، أي: ولكن هو تصديق الذي بين يديه.

﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ممّا يحتاج إليه في الدين؛ إذ ما مِن أمر ديني إلّا وهو يستند إلى القرآن بالذات أو بوسط. ﴿وَهُدًى﴾ مِن الضلالة، ﴿وَرَحْمَةً﴾ يُنال بها خير الدارين ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدّقونه لأنّهم المنتفعون به، وأمّا مَن عداهم فلا يهتدون بهداه، ولا ينتفعون بجَدواه.

[٢٢٨و] / عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «علّموا أرقّاءكم سورة يوسف، فإنّه أيّما مسلم تلاها وعلّمها أهله وما ملكت يمينه هوّن الله عليه سكَرات الموت، وأعطاه القوّة أن لا يحسد مسلمًا».[3]

والحمد لله وحده.[4]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن أحمد بن جَبر الأنطاكي عن الكسائي، والقصبي عن عبد الوارث عن أبي عمرو. انظر: **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٥٣.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى الكوفة وعمران بن عثمان. انظر: **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٥٣.

[3] **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٩٦/٥؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٥٩٩/٢. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

[4] س: والحمد لله ربّ العالمين.

١٢

سُورَةُ يُوسُفَ

مكية، مِائَةٌ وإحدى عشْرَةَ آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿الر﴾ اللهُ أعلم بمُراده بذلك.

﴿تِلْكَ﴾: هذه الآياتُ ﴿آياتُ الكِتابِ﴾: القُرآن ـ والإضافةُ بمعنى: مِن ـ ﴿المُبِينِ﴾: المُظهِرِ الحقَّ من الباطل. ٢ ـ ﴿إنّا أنزَلْناهُ قُرآنًا عَرَبيًّا﴾ بلغة العرب، ﴿لَعَلَّكُم﴾ ـ يا أهل مكّة ـ ﴿تَعقِلُونَ﴾: تفقهون معانيَه.

٣ ـ ﴿نَحنُ نَقُصُّ علَيكَ أحسَنَ القَصَصِ بِما أَوحَينا﴾: بإيحائنا ﴿إلَيكَ هذا القُرآنَ، وإنْ﴾: مُخفَّفةٌ أي: وإنّه ﴿كُنتَ مِن قَبلِهِ لَمِنَ الغافِلِينَ﴾. ٤ ـ اذكرْ ﴿إذْ قالَ يُوسُفُ لِأبِيهِ﴾ يعقوبَ: ﴿يا أبَتِ﴾........

سُورَةُ يُوسُفَ

عليه السَّلامُ

قولُه: (المُبيِّن) بتشديدِ الياءِ، وفي نسخةٍ: «المُظهِر» والضَّميرُ في قولِه تعَالى: (﴿إنا أنزلناه﴾) للكتابِ، و﴿قرآنا﴾ حالٌ؛ لأنَّه مصدرٌ بمعنى مفعُولٍ، و﴿عربياً﴾ صفةٌ لهُ.

قولُه: (بإيحَائِنا) إشارةٌ إلى أنَّ ﴿ما﴾ مصدريَّةٌ، و﴿القَصَص﴾ مصدرٌ بمعنى المقصُوصِ، وأمَّا جمعُ القصَّة فهو بكسرِ القافِ.

قولُه: (يعقُوبَ) وليوسُفَ اثنتا عشرةَ سنةً.

- بالكسرِ دلالةً على ياء الإضافة المحذوفة، والفتحِ دلالةً على ألف محذوفة قُلبت عن الياء - ﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾ في المنام ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا والشَّمسَ والقَمَرَ رأيتُهُم﴾، تأكيد، ﴿لِي ساجِدِينَ﴾. جُمِع بالياء والنون للوصف بالسجود الذي هو من صِفات العُقلاء.

٥ - ﴿قالَ: يا بُنَيَّ، لا تَقصُصْ رُؤياكَ عَلَى إخوَتِكَ، فيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾: يحتالوا في هلاكك حسدًا لِعلمهم بتأويلها من أنهم الكواكب والشمسَ أُمّك والقمرَ أبوك. ﴿إنَّ الشَّيطانَ لِلإنسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾: ظاهرُ العداوة. ٦ - ﴿وكَذلِكَ﴾: كما رأيتَ ﴿يَجتَبِيكَ﴾: يختارك ﴿رَبُّكَ، ويُعَلِّمُكَ مِن تأوِيلِ الأحادِيثِ﴾: تعبير الرؤيا، ﴿ويُتِمُّ نِعمتَهُ علَيكَ﴾ بالنبوّة، ﴿وعلَى آلِ يَعقُوبَ﴾: أولادِه، ﴿كَما أَتَمَّها﴾ بالنبوّة ﴿علَى أبَوَيكَ مِن قَبلُ إبراهِيمَ وإسحاقَ. إنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ بخلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ في صُنعه بهم.

٧ - ﴿لَقَد كانَ في﴾ خبرِ ﴿يُوسُفَ وإخوَتِهِ﴾ - وهم أحدَ عشرَ - ﴿آياتٌ﴾:..........

قولُه: (بالكَسرِ) قراءةُ غيرِ الشَّاميِّ[1]، أصلُه: يا أبي، عوَّضَ عن الياء تاءَ التَّأنيثِ، ثمَّ كُسِرَت.

قولُه: (تأكِيدٌ) قالَ القاضِي[2]: استئنافٌ لبيانِ حالِهم التي رآهُم عليها، فلا تكريرَ.

قولُه: (للوَصْفِ) أو لاعتبارِ المعنَى التَّعبيريِّ.

قولُه: (فِي هلاكِكَ) الأظهرُ: لإهلاكِكَ.

قولُه: (والشَّمْسَ أُمُّكَ) كأنَّه راعى المناسبةَ بينهما أنَّ الشَّمسَ مؤنَّثٌ سماعيٌّ، وإلَّا فباعتبارِ ظُهُورِ نورِها ينبغِي أن نعبِّرَ عنها بأبيهِ؛ لأنَّه نبيُّ اللهِ ورسولُه.

قولُه: (كمَا رأَيتَ) أي: كما اجتباكَ لمثلِ هذه الرُّؤيةِ الدَّالَّةِ على شرفٍ وعزٍّ وكمالِ نفسٍ.

قولُه: (يَختارُكَ) للنُّبوَّةِ والملكِ، أو لأمورٍ عظامٍ.

قولُه: (تَعبِيرِ الرُّؤيَا) لأنَّها أحاديثُ الملَكِ إن كانت صادقةً، وأحاديثُ النَّفسِ أو الشَّيطانِ إن كانت كاذبةً، فقولُه: ﴿ويعلِّمُكَ﴾ كلامٌ مبتدأٌ خارجٌ عن التَّشبيهِ، كأنَّه قيل: وهو يعلِّمُك، أو ﴿من تأويلِ﴾ غوامضِ كتُبِ اللهِ وسننِ الأنبياءِ وكلماتِ الحكماءِ، فعلى هذا يكونُ داخلاً في التَّشبيهِ.

قولُه: (بالنُّبوَّة) أو بأن يصلَ نعمةَ الدُّنيا بنعمةِ الآخرَةِ.

قولُه: (أَولَادِهِ) أي: سائرِ بنيهِ، ولعلَّه استدلَّ على نبوَّتِهم بضوءِ الكواكِبِ، أو المرادُ: نسلُه.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٤٤)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٥٣).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١٥٥).

عِبرٌ ﴿لِلسَّائِلِينَ﴾ عن خبرهم، ٨ ـ اذكرْ ﴿إذ قالُوا﴾ أي: بعضُ إخوةِ يُوسف لبعضهم: ﴿لَيُوسُفُ﴾: مبتدأ ﴿وأخُوهُ﴾: شقيقه بنيامِينُ ﴿أحَبُّ﴾: خبرٌ ﴿إلَى أبِينا مِنّا، ونَحنُ عُصْبةٌ﴾: جماعة. ﴿إنَّ أبانا لَفِي ضَلالٍ﴾ خطأٍ ﴿مُبِينٍ﴾: بيّنٍ بإيثارهما علينا. ٩ ـ ﴿اقتُلُوا يُوسُفَ، أوِ اطرَحُوهُ أرضًا﴾ أي: بأرض بعيدة، ﴿يَخْلُ لَكُم وَجهُ أبِيكُم﴾ بأن يُقبِلَ عليكم ولا يلتفتَ لغيركم، ﴿وتَكُونُوا مِن بَعدِهِ﴾ أي: بعدِ قتل يوسفَ أو طرحه ﴿قَومًا صالِحِينَ﴾ بأن تتوبوا. ١٠ ـ ﴿قالَ قائلٌ مِنهُم﴾ هو يَهوذَى: ﴿لا تَقتُلُوا يُوسُفَ، وألقُوهُ﴾: اطرحوه ﴿في غَيابةِ الجُبِّ﴾: مُظلم البئر ـ وفي قراءة بالجمع ـ ﴿يَلتَقِطْهُ بَعضُ السَّيّارةِ﴾: المُسافرين، ﴿إن كُنتُم فاعِلِينَ﴾ ما أردتم من التفريق فاكتفُوا بذلك.

قولُه: (عِبرٌ) أي: دلائلُ قدرةِ اللهِ وحكمَتِهِ، أو علاماتُ نبوَّتِك، ولمكِّيٍّ: (آيةٌ)[1].

قولُه: (أي: بعضُ إخوَةِ يوسُفَ) يعني: عَلَّاتُه العَشرة.

قولُه: (شَقِيقُه) يعني: تخصيصُه بالإضافةِ لاختصاصِهِ بالأخوَّةِ من الطَّرفينِ.

قولُه: (خَبرٌ) وحَّدَه لأنَّ (أفعلَ مِنْ) لا يفرِّقُ فيه بين الواحدِ وما فوقَه، والمذكَّرِ وما يقابلُه، بخلافِ أخوَيهِ، فإنَّ الفرقَ واجبٌ في المحلَّى جائزٌ في المضافِ.

قولُه: (جَمَاعةٌ) أي: والحالُ أنَّ جماعةً أقوياءَ أحقُّ بالمحبَّةِ من صغيرَينِ لا كفايةَ بهمَا.

قولُه: (بإيثَارِهما) أي: بتركِ التَّعديلِ، رُوِيَ: أنَّه كانَ أحبَّ إليه لِمَا يرى فيه مِن المخايلِ، وكانَ إخوتُه يحسُدونَه، فلمَّا رأى الرُّؤيا ضاعَفَ له المحبَّةَ بحيثُ لم يصبِرْ عنه ساعةً فتبالغَ حَسدُهم حتَّى حملَهُم على التَّعرُّضِ له.

قولُه: (بَعِيدَةٍ) مِن العُمْرانِ.

قولُه: (هُو يَهُوذا) وقيل: روبيلُ، وقيلَ: شَمعونُ.

قولُه: ([2]مَظلَم البئرِ) بفتحِ الميمِ؛ أي: قعرِهَا.

قولُه: (وفِي قِرَاءةٍ) لنافعٍ[3]؛ كأنَّه لذلكَ الجُبِّ غيَاباتٌ لكمَالِ وسعِها، وهي بئرُ بيتِ المقدِس، وقيل: بحذَاءِ طبريَّةَ، أو بين مصرَ ومَدْيَنَ، أو على ثلاثةِ فراسخَ مِن مقامِ يعقوبَ، قيل: أقامَ فيها ثلاثةَ أيَّامٍ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٤٤)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٥٥).

(٢) في (د) زيادة: «هو».

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٤٥)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٥٥).

١١ ـ ﴿قالُوا: يا أبانا، مالَكَ لا تأمَنّا علَى يُوسُفَ، وإنّا لَهُ لَناصِحُونَ﴾: لقائمون بمصالحه؟
١٢ ـ ١٣ ـ ﴿أرسِلْهُ مَعَنا غَدًا﴾ إلى الصحراء، ﴿نَرتَعْ ونَلعَبْ﴾، بالنون والياء فيهما: ننشط ونتّسع، ﴿وإنّا لَهُ لَحافِظُونَ. قالَ: إنِّي لَيَحزُنُنِي أن تَذهَبُوا﴾ أي: ذهابُكم ﴿بِهِ﴾ لفراقه، ﴿وأخافُ أن يأكُلَهُ الذِّئبُ﴾ ـ المُراد به الجنسُ، وكانت أرضهم كثيرة الذئاب ـ ﴿وأنتُم عَنهُ غافِلُونَ﴾: مشغولون.
١٤ ـ ﴿قالُوا: لَئِنْ﴾ ـ لام قسم ـ ﴿أكَلَهُ الذِّئبُ، ونَحنُ عُصْبةٌ﴾: جماعة، ﴿إنّا إذًا لَخاسِرُونَ﴾: عاجزون.

فأرسلَه معهم، ١٥ ـ ﴿فلَمّا ذَهَبُوا بِهِ وأجمَعُوا﴾: عزموا ﴿أن يَجعَلُوهُ في غَيابةِ الجُبِّ﴾. وجواب «لمّا» محذوف، أي: فعلوا ذلك بأن نزعوا قميصه، بعد ضربه وإهانته وإرادة قتله، وأدلَوه ـ فلمّا وصل إلى نِصف البئر ألقَوه ليموت، فسقط في الماء ثمّ أوى إلى صخرة، فنادَوه فأجابهم لِظنّ رحمتهم، فأرادوا رضخه بصخرة فمنعهم يَهوذَى ـ ﴿وأوحَينا إلَيهِ﴾ في الجُبّ وحيَ حقيقة، وله سبعَ عشْرةَ سنةً أو دونها، تطمينًا لقلبه: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم﴾ بعد اليوم ﴿بِأمرِهِم﴾: بصنيعهم ﴿هذا، وهُم لا يَشعُرُونَ﴾ بك حالَ الإنباء.

١٦ ـ ١٧ ـ ﴿وجاؤُوا أباهُم عِشاءً﴾: وقتَ المساء ﴿يَبكُونَ، قالُوا: يا أبانا، إنّا ذَهَبْنا نَستَبِقُ﴾: نرمي، ﴿وتَرَكْنا يُوسُفَ عِندَ مَتاعِنا﴾: ثيابنا، ﴿فأكَلَهُ الذِّئبُ. وما أنتَ بِمُؤمِنٍ﴾: بمُصدّق ﴿لَنا، ولَو كُنّا صادِقِينَ﴾ عِندك لاتّهمتنا في هذه القِصّة لمحبّة يوسف. فكيف وأنت تُسيء الظنّ بنا؟

قولُه: (بالنُّونِ) مكِّيٌّ وبصريٌّ وشاميٌّ، وبكسر العينِ مكِّيٌّ ونافعٌ، وأثبتَ الياءَ قُنبُلٌ بخُلْفٍ عنه[1].

قولُه: (الجِنْسُ) أو فردٌ غيرُ معيَّنٍ، وهو متعيِّنٌ في ﴿يأكله الذئب﴾.

قولُه: (لامُ قسَمٍ) أي: موطِّئةٌ.

قولُه: (جَمَاعةٌ) والواو في ﴿ونحن﴾ للحالِ.

قولُه: (عَزَمُوا) أي: على جعلِهِ وإلقائِهِ.

قولُه: (ذلكَ) أي: الجعلَ.

قولُه: (تَطمِيناً) علّةٌ لـ﴿أوحينا﴾.

قولُه: (بكَ) لعلوِّ شأنِكَ.

قولُه: (وَقتَ المَسَاءِ) أي: آخرَ النَّهارِ، أو أوَّلَ اللَّيلِ.

قولُه: (نَرمِي) أي: نتسابقُ في الرَّمي أو العَدْوِ.

---

(١) انظر: «الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٢٧٢، ٣٣٣)، و«غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٣١٩، ٣٢٠).

١٨ ـ ﴿وجاؤوا علَى قَمِيصِهِ﴾ ـ محلُّه نصب على الظرفيّة ـ أي: فوقَه ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي: ذي كذِب، بأن ذبحوا سخلة ولطّخوه بدمها، وذَهِلوا عن شَقّه، وقالوا: إنه دمه. ﴿قالَ﴾ يعقوب لمّا رآه صحيحًا وعلم كذِبهم: ﴿بَل سَوَّلَتْ﴾: زيّنت ﴿لَكُم أنفُسُكُم أمرًا﴾ ففعلتموه به. ﴿فصَبرٌ جَمِيلٌ﴾ لا جزعَ فيه. وهو خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ أي: أمري. ﴿واللهُ المُستَعانُ﴾: المطلوب منه العونُ ﴿علَى ما تَصِفُونَ﴾: تذكرون من أمر يُوسف.

١٩ ـ ٢٠ ـ ﴿وجاءَتْ سَيّارةٌ﴾: مُسافرون من مَدْيَنَ إلى مِصرَ، فنزلوا قريبًا من جُبّ يُوسف، ﴿فأرسَلُوا وارِدَهُم﴾ الذي يَرِدُ الماء ليستقي منه، ﴿فأدلَى﴾: أرسل ﴿دَلوَهُ﴾ في البئر، فتعلّق بها يُوسف فأخرجه. فلمّا رآه ﴿قالَ: يا بُشْرايَ﴾ ـ وفي قراءة: «بُشْرَى». ونداؤها مَجاز أي: احضُري فهذا وقتُك ـ ﴿هذا غُلامٌ﴾. فعلم به إخوته فأتَوهم، ﴿وأَسَرُّوهُ﴾......................................

قولُه: (أي: ذِي كذِبٍ) بمعنى: مكذُوبٍ فيه، ويجوزُ أن يكونَ وصفاً بالمصدرِ للمبالغَةِ.

قولُه: (ولَطَّخُوهُ) أي: قمِيصَه.

قولُه: (دمُهُ) أي: دمُ يوسُفَ.

قولُه: (زيَّنَتْ) وسهَّلَتْ وهوَّنَتْ في أعينِكُم أمراً عظيماً.

قولُه: (لا جزَعَ فيهِ) وفي الحديثِ: «الصَّبرُ الجميلُ الذي لا شكْوَى فيه»[1] أي: إلى الخلقِ.

قولُه: (أي: أَمرِي) أو عكْسُه؛ أي: فصبرٌ جميلٌ أجملُ.

قولُه: (تذكُرُونَ) أي: على احتمالِ ما تصِفونَه مِن إهلاكِ يوسُفَ، وهذه الجريمةُ كانت قبلَ استنبائِهم إن صحَّ، وفيه إشكالٌ قويٌّ، سيَّما على القولِ بأنَّ الأنبياءَ معصُومونَ من الصَّغائرِ قبلَ النُّبوَّةِ وبعدَها.

قولُه: (ليَسْتَقيَ) هو: مالكُ بنُ ذُعرِ الخُزاعيُّ[2].

قولُه: (وفِي قِرَاءةٍ) للكُوفيِّ[3].

قولُه: (مَجازٌ) نادَى البشرى بشارةً لنفسِهِ أو قومِهِ.

قولُه: (فعَلِمُوا) الظَّاهرُ: فعلِمَ[4].

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨٨٧٣) عن حبان بن أبي جبلة.

(٢) روى الطبري في «تفسيره» (١٨٩٤٣) عن ابن عباس: أن الذي باعه بمصر كان مالك بن ذعر.

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٤٧)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٥٧).

(٤) قلت: وهو كذلك في النسخة التي بين يدي من الجلالين.

أي: أخفَوا أمره جاعليه ﴿بِضاعةً﴾ بأن قالوا: هذا عبدُنا أبَقَ. وسكتَ يوسف خوفًا أن يقتلوه، ﴿واللهُ عَلِيمٌ بِما يَعمَلُونَ، وشَرَوهُ﴾: باعوه منهم ﴿بِثَمَنٍ بَخسٍ﴾: ناقص، ﴿دَراهِمَ مَعدُودةٍ﴾ عشرين أو اثنين وعشرين، ﴿وكانُوا﴾ أي: إخوتُه ﴿فِيهِ مِنَ الزّاهِدِينَ﴾. فجاءت به السيّارة إلى مِصرَ، فباعه الذي اشتراه بعشرين دينارًا وزوجَي نعل وثوبين.

٢١ ـ ﴿وقالَ الَّذِي اشتَراهُ مِن مِصرَ﴾ ـ وهو قِطفِير العزيزُ ـ ﴿لِامرأتِهِ﴾ زَليخا: ﴿أكرِمِي مَثْواهُ﴾: مُقامَه عِندنا، ﴿عَسَى أن يَنفَعَنا، أو نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾. وكان حَصورًا.

قولُه: (أَخفَوا أَمْرَهُ) وقالوا لهم: دفعَه إلينا أهلُ الماء لنبيعَهُ لهم بمصرَ، أو أسرَّ الوارِدُ وأصحابُه مِن سائرِ الرُّفقةِ، وقيل: الضَّميرُ لإخوةِ يوسُفَ، وهو المفهومُ من كلامِهِ الآتي، والمعنى: أخفَوهُ متاعاً للتِّجارةِ.

قولُه: (بَاعُوهُ) وفي مَرجعِ الضَّميرِ الوجهانِ، أو اشترَوهُ مِن إخوتِه.

قولُه: (ناقِصٍ) أي: مَبْخوسٍ لنُقصانِه أو زَيْفِه، و﴿دراهم﴾ بدلٌ مِن الـ﴿ثمن﴾ و﴿معدودة﴾ أي: قليلةٍ.

قولُه: (أي: إِخوتُه) وقولُه: (﴿من الزَّاهِدِينَ﴾) أي: الرَّاغبينَ عنه.

قولُه: (وثوبَينِ) أبيضَينِ، وقيل: ملؤُه؛ أي: وزنُه فضَّةً، وقيل: ذهباً.

قولُه: (قِطْفِير) أو أطفيرُ، كان على خزائنِ مصرَ، والملِكُ يومئذٍ ريَّانُ بنُ الوليدِ العِمْلِيقيُّ[1] وقد آمنَ بيوسُفَ وماتَ في حياتِهِ، رُويَ أنَّه اشتراهُ العزيزُ وهو ابنُ سبعَ عشْرةَ سنةً، ولبثَ في منزلِه ثلاثَ عشرةَ سنةً، واستوزرَه الرَّيَّانُ وهو ابنُ ثلاثينَ سنةً، وآتاه اللهُ الحكمةَ والعلمَ وهو ابنُ ثلاثٍ وثلاثينَ سنةً، وتُوفِّيَ وهو ابنُ مئةٍ وعشرينَ[2].

قولُه: (زَلِيخَا) أو راعيلُ.

قولُه: (مُقَامَه) أي: اجعَلِي مُقامَه عندَنا كرِيماً؛ أي: حسناً، والمعنَى: أحسِني تعهُّدَه عسَى أنْ ينفعَنا في ضِياعِنَا وأموالِنا، ونستظهِرَ به في مصالحِنا.

قولُه: (وكَانَ) أي: العزيزُ.

قولُه: (حَصُوراً) أي: ممنوعاً مِن النِّساءِ[3].

---

(١) في (م): «العميلقي».

(٢) في (ص) زيادة: «سنة».

(٣) انظر: «تاج العروس» (١١/ ٣٢).

﴿وكَذَلِكَ﴾: كما نجّيناه من القتل والجُبّ، وعطّفنا عليه قلب العزيز، ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾: أرض مِصر حتّى بلغ ما بلغ، ﴿ولِنُعَلِّمَهُ مِن تأويلِ الأحادِيثِ﴾: تعبير الرؤيا. عطفٌ على مُقدّرٍ مُتعلّقٍ بـ «مكّنّا» أي: لنُملّكه، أو الواو: زائدة - ﴿واللهُ غالِبٌ على أمرِهِ﴾، تعالى، لا يُعجزه شيء، ﴿ولكِنَّ أكثَرَ النّاسِ﴾ وهم الكُفّار ﴿لا يَعلَمُونَ﴾ ذلك - ٢٢ - ﴿ولَمّا بَلَغَ أشُدَّهُ﴾، وهو ثلاثون سنة أو وثلاثٌ، ﴿آتيناهُ حُكمًا﴾: حِكمة ﴿وعِلمًا﴾: فِقهًا في الدِّين، قبل أن يُبعث نبيًّا. ﴿وكَذَلِكَ﴾: كما جزيناه ﴿نَجزِي المُحسِنِينَ﴾ لأنفُسهم.

٢٣ - ﴿وراوَدَتهُ الَّتي هُوَ في بَيتِها﴾ - هي زَلِيخا - ﴿عَن نَفسِهِ﴾ أي: طلبتْ منه أن يُواقعَها، ﴿وغَلَّقَتِ الأبوابَ﴾ للبيت، ﴿وقالَتْ﴾ له: ﴿هَيتَ لَكَ﴾ أي: هَلُمَّ. واللام: للتبيين..............

قولُه: (عطَّفنَا) بالتَّشديدِ.

قولُه: (لنَملكَه) فيه أنّه تحصِيلُ الحاصِلِ، فالتَّقديرُ: ليتصرَّفَ فيها بالعدلِ.

قالَ تعَالى: (﴿غالب على أمره﴾) أي: على أمرِ يوسُفَ؛ يعني[1]: أرادَ به إخوةُ يوسُفَ شيئاً وأرادَ اللهُ غيرَه، فلم يكُنْ إلّا ما أرادَهُ.

قولُه: (ذلكَ) أي: أنَّ الأمرَ كلَّه بيدِهِ، أو لطَائفَ صنْعِهِ وخفَايا لطْفِهِ.

قولُه: (وهُو ثَلاثُونَ) أي: منتَهَى اشتِدادِ جسمِهِ وقوَّتِه، وهو سنُّ الوقُوفِ[2] ما بينَ الثّلاثينَ والأربعينَ.

قولُه: (حِكمَةً) وهو العلمُ المؤيَّدُ بالعَملِ، أو ﴿حُكماً﴾ بينَ النَّاس.

قولُه: (فِقهاً) أو علمَ تأويلِ الأحاديثِ.

قولُه: (طلبَتْ منهُ) وتمحَّلَتْ، مِن رادَ يَرودُ: إذا جاءَ وذهبَ لطَلَبِ شيءٍ.

قالَ الشَّيخُ في «حاشيةِ البُخاريِّ»[3]: أصلُه طلبُ المرعَى، ثمَّ اشتُهِرَ في طلبِ المجامَعةِ.

قولُه: (للبَيْتِ) قيل: كانت الأبوابُ سبعةً، والتَّشدِيدُ للتَّكثيرِ، أو للمُبالَغةِ في الإيثاقِ.

قولُه: (أي: هلُمَّ) أي: أقبِلْ وبادِرْ، أو تهيَّأتُ، والكلمةُ على الوجهَينِ اسمُ فعلٍ.

قولُه: (للتَّبيينِ) كالتي في سُقيا لك.

---

(١) «يعني»: ليس في (م) و(د).

(٢) أي عن النمو: «الشهاب البيضاوي» (٥/ ١٦٥).

(٣) انظر: «التوشيح شرح الجامع الصحيح» (٩/ ٤٣٣٦).

وفي قراءة بكسر الهاء، وأخرى بضمّ التاء. ﴿قالَ: مَعاذَ اللهِ﴾: أعوذُ بالله من ذلك! ﴿إنَّهُ﴾ أي: الذي اشتراني ﴿رَبِّيَ﴾: سيّدي، ﴿أحسَنَ مَثْوايَ﴾ مُقامي فلا أخونه في أهله. ﴿إنَّهُ﴾ أي: الشأنَ ﴿لا يُفلِحُ الظّالِمُونَ﴾: الزُّناة. ٢٤ ـ ﴿ولَقَد هَمَّتْ بِهِ﴾: قصدتْ منه الجِماع، ﴿وهَمَّ بِها﴾: قصدَ ذلك، ﴿لَولا أن رأَى بُرهانَ رَبِّهِ﴾. قال ابن عبّاس: مُثِّلَ له يعقوب فضرب صدره، فخرجتْ شهوته من أنامله، وجواب «لولا» محذوف.

﴿كَذلِكَ﴾ أَريناه البُرهان ﴿لِنَصرِفَ عَنهُ السُّوءَ﴾: الخِيانة ﴿والفَحشاءَ﴾: الزنَى. ﴿إنَّهُ مِن عِبادِنا المُخلِصِينَ﴾ في الطاعة..

قولُه: (وفي قِراءةٍ) لنافعٍ وشاميٍّ[1].

قولُه: (وأُخرَى) لمكِّي وهشامٍ بخُلْفٍ عنه بالهمزِ بدلَ الياء هشامٌ[2].

قولُه: (أعُوذُ باللَّهِ) معاذاً، أشارَ إلى أنَّه نصبٌ على المصدرِ، حُذِفَ فعلُه وأُضيفَ إلى المفعولِ.

قولُه: (مِن ذلِكَ) أي: الإقبالِ والمبادَرةِ.

قولُه: (أي: الَّذِي) أو إنَّ الشَّأنَ.

قولُه: (سَيِّدِي) قِطفيرُ[3]، وقيل: الضَّميرُ للهِ؛ أي: إنَّه خالقِي وأحسنَ منزِلَتي بأنْ عطَّفَ عليَّ قلبَهُ، فلا أعصِي اللهَ.

قولُه: (الزُّنَاةُ) فإنَّ الزِّنا ظلمٌ على الزَّاني والمزنيِّ بأهلِه، أو المجازونَ الحسنَ بالسَّيِّء.

قولُه: (قصدَتْ) أي عَزماً.

قولُه: (قصَدَ) أي: خطَرَ، أو قارَبَ الهمَّ.

قولُه: (لَجَامَعَها) من شدَّةِ الغِلْمةِ[4] وكثرةِ المبالغَةِ، ولا يجوزُ أن يُجعَلَ ﴿وهمَّ بها﴾ جوابَ ﴿لولا﴾ فإنَّها في حكمِ أدواتِ الشَّرطِ، فلا يتقدَّمُ عليها جوابُه، بل الجوابُ محذوفٌ يدُلُّ عليه ﴿همَّ بها﴾.

قولُه: (أرَيْنَاه) أو مثلَ ذلك التَّثبيتِ ثبَّتناهُ، أو الأمرُ مثلُ ذلكَ.

قولُه: (الخِيَانَةَ) أي: خيَانةَ السَّيدِ، أو مقدِّماتِ الزِّنا، أو الهمَّ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٤٧).

(٢) انظر المصدر السابق.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨٩٤١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١١٤٣٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) غَلِمَ الرجلُ واغْتَلَم: إذا هاجَ من الشَّهوةِ. «تاج العروس» (٣٣/ ١٧٥).

وفي قراءة بفتح اللام أي: المُختارين.

٢٥ ـ ﴿واستبَقا البابَ﴾: بادرَ إليه يُوسف للفِرار، وهي للتشبّث به، فأمسكت ثوبه وجذبته إليها، ﴿وقَدَّتْ﴾: شقّت ﴿قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ، وألفَيا﴾: وجدا ﴿سَيِّدَها﴾: زوجها ﴿لَدَى البابِ﴾. فنزَّهت نفسَها، ثمّ ﴿قالَتْ: ما جَزاءُ مَن أرادَ بِأهلِكَ سُوءًا﴾: زنًى ﴿إلاّ أن يُسجَنَ﴾: يُحبس، أي: سَجنٌ، ﴿أو عَذابٌ أليمٌ﴾: مؤلم بأن يُضرب. ٢٦ ـ ٢٧ ـ ﴿قالَ﴾ يُوسف مُتبرّئًا: ﴿هِيَ راوَدَتْني عَن نَفسِي. وشَهِدَ شاهِدٌ مِن أهلِها﴾: ابنُ عمّها ـ رُوي أنه كان في المَهد ـ فقال: ﴿إن كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾: قُدّامٍ ﴿فصَدَقَتْ، وهُوَ مِنَ الكاذِبِينَ، وإن كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾: خلفٍ ﴿فكَذَبَتْ، وهُوَ مِنَ الصّادِقِينَ﴾.

٢٨ ـ ﴿فلَمّا رأَى﴾ زوجُها ﴿قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قالَ: إنَّهُ﴾، أي: قولَكِ «ما جَزاءُ مَن أرادَ بأهلِكَ» إلى آخره، ﴿مِن كَيدِكُنَّ. إنَّ كَيدَكُنَّ﴾..........................

قولُه: (وفِي قِرَاءةٍ) نافعٌ والكوفيُّ[1].

قولُه: (بَادَرا إِلَيهِ)؛ أي: تسابَقا إلى البابِ، فحُذِفَ الجارُّ، أو ضُمِّنَ الفعلُ معنَى الابتدَارِ.

قولُه: (شقَّتْ) القَدُّ: الشَّقُّ طولاً[2]، والقطُّ: الشَّقُّ عَرضاً[3].

قولُه: (وَجَدا) صَادفَا.

قولُه: (ثمَّ ﴿قَالَتْ﴾) الظَّاهِرُ: و﴿قالتْ﴾.

قولُه: (أَيْ: سَجْنٌ) بفتحِ السِّينِ مصدرٌ، وبالكسرِ اسمٌ.

قولُه: (مُتبرِّئاً) أي: إنَّما قالَ ذلكَ دفعاً لِمَا عرَّضَتْه له، ولو لم تكذِبْ عليه لكتَمَ عليها.

قولُه: (ابنُ عَمِّها) وقيلَ: ابنُ خَالِها، وإنَّما ألقَى اللهُ الشَّهادةَ على لسَانِ أهلِهَا ليكونَ ألزمَ عليهَا.

قولُه: (قُدَّامٍ) لأنَّه يدُلُّ على أنَّها قدَّتْ قميصَهُ من قُدَّامِهِ بالدَّفعِ عن نفسِهَا.

قولُه: (خلفٍ) لأنَّه يدلُّ على أنَّها تبعَتْهُ، فاجتذَبَتْ ثوبَه فقدَّتْه، والشَّرطيَّةُ محكيَّةٌ على إرَادَةِ القَولِ كما أشارَ إليه الشَّيخُ أوَّلاً بقولِهِ: «فقالَ».

قولُه: (أي: قَولَكِ) أو السُّوءَ، أو هذَا الأمرَ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٤٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٥٩).

(٢) انظر: «تاج العروس» (٩/ ١٢).

(٣) انظر المصدر السابق: (٢٠/ ٣٥).

ـ أيّها النساءُ ـ ﴿عَظِيمٌ﴾. ثمّ قال: ٢٩ ـ يا ﴿يُوسُفُ، أعرِضْ عَن هذا﴾ الأمرِ ولا تذكرْه لئلاّ يَشيع. ﴿واستَغفِري﴾ ـ يا زَلِيخا ـ ﴿لِذَنبِكِ. إنَّكِ كُنتِ مِنَ الخاطِئِينَ﴾: الآثمين. واشتَهر الخبر وشاع، ٣٠ ـ ﴿وقالَ نِسوةٌ في المَدِينةِ﴾ مدينةِ مِصرَ: ﴿امرأةُ العَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها﴾: عبدَها ﴿عَن نَفسِهِ. قَد شَغَفَها حُبًّا﴾: تمييزٌ، أي: دخل حُبّه شغاف قلبها، أي: غِلافه. ﴿إنّا لَنَراها في ضَلالٍ﴾: خطإٍ ﴿مُبِينٍ﴾: بيِّنٍ بحُبّها إيّاه.

٣١ ـ ﴿فلَمّا سَمِعَتْ بِمَكرِهِنَّ﴾: غِيبتهنّ لها ﴿أرسَلَتْ إلَيهِنَّ، وأعتَدَتْ﴾: أعدّت ﴿لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾: طعامًا يُقطع بالسكّين للاتّكاء عنده ـ وهو الأُترُجّ ـ..............................

قولُه: (أيُّها النِّسَاءُ) أي: الخطابُ لها ولأمثالِها، أو لسَائرِ النِّساءِ.

وقولُه تعَالى: (﴿عظيم﴾) فإنَّ كيدَ النِّساءِ ألطَفُ وأعلَقُ بالقلْبِ، وأشدُّ تأثيراً في النَّفسِ، ولأنَّهنَّ يواجهْنَ به الرِّجالَ، والشَّيطانُ يوَسوِسُ به مُسَارَقةً.

قولُه: (يَا ﴿يُوسُفُ﴾) حُذِفَ منه حرفُ النِّداء لقُربِهِ.

قولُه: (الآثِمِينَ) أي: من القومِ المذنِبينَ، من خَطِأَ: إذا أذنبَ متعمِّداً[1]، أو التَّذكيرُ للتَّغليبِ.

قولُه: (مَدِينةِ مِصرَ) و﴿نسوةٌ﴾ اسمٌ مفردٌ لجمعِ امرأةٍ، وتأنيثُه بهذَا الاعتبَارِ غيرُ حَقِيقيٍّ، ولذلكَ جُرِّدَ فعلُه عن تاءِ التَّأنيثِ، والجارُّ ظرفٌ لـ﴿قال﴾ أي: أَشْعَنَ الحكَايةَ في مصرَ، أو صفةُ ﴿نسْوة﴾ وكنَّ خمسةً: زوجةُ الحاجبِ، والسَّاقِي، والخبَّازِ، والسَّجَّانِ، وصاحبِ الدَّوابِّ.

قولُه: (عَبدَهَا) أي: تطلُبُ موَاقعةَ غلامِهَا إيَّاها.

قولُه: (تَمييزٌ) لصرفِ الفعلِ عنه.

قولُه: (غِيبَتِهنَّ) بكسرِ الغينِ؛ أي: باغتيابِهنَّ، وإنَّما سمَّاه مكراً؛ لأنَّهنَّ أخفَينَه كما يُخفِي الماكرُ مكرَهُ، أو قُلنَ ذلك لتُرِيَهنَّ يوسُفَ.

وقولُه تعالى: (﴿أرسلت إليهن﴾) تدعُوهنَّ.

قولُه: (﴿وأَعْتَدَتْ﴾ أعدَّتْ) أي: هيَّأتْ، وهو الإعتادُ، بمعنى تهيئَةِ: الزَّادِ.

قولُه: (طَعَاماً) أو مجلسَ طعامٍ؛ فإنَّهم كانوا يتَكِؤون للطَّعامِ والشَّرابِ تنعُّماً، ولذلك نُهيَ عنه، أو ما يتَكئَنَ عليه مِن الوسائدِ.

قولُه: (عندَهُ) أو عليهِ.

---

(١) انظر المصدر السابق: (١/ ٢١٢).

﴿وآتَتْ﴾: أعطت ﴿كُلَّ واحِدةٍ مِنهُنَّ سِكِّينًا، وقالَتِ﴾ لِيُوسفَ: ﴿اخرُجْ علَيهِنَّ. فلَمّا رأينَهُ أكبَرْنَهُ﴾: أعظمْنَه، ﴿وقَطَّعْنَ أيدِيَهُنَّ﴾ بالسكاكين، ولم يشعرْنَ بالألم لشُغل قلوبهنّ بيُوسف، ﴿وقُلْنَ: حاشَ لِلهِ﴾: تنزيهًا له! ﴿ما هذا﴾ أي: يُوسف ﴿بَشَرًا، إنْ﴾: ما ﴿هذا إلاّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ لِما حواه من الحُسن الذي لا يكون عادة في النَسَمة البشريّة. وفي الحديث أنّه «أُعطِيَ شَطرَ الحُسنِ».

٣٢ ـ ﴿قالَتْ﴾ امرأة العزيز لمّا رأت ما حلّ بهنّ: ﴿فذلِكُنَّ﴾: فهذا هو ﴿الَّذِي لُمتُنَّني فِيهِ﴾: في حُبّه. بيانٌ لعُذرها. ﴿ولَقَد راوَدتُهُ عَن نَفسِهِ، فاستَعصَمَ﴾: امتنعَ. ﴿ولَئِنْ لَم يَفعَلْ ما آمُرُهُ﴾ به ﴿لَيُسجَنَنَّ، ولَيَكُونَنْ مِنَ الصّاغِرِينَ﴾: الذليلين. فقلن له: أطِعْ مَولاتَكَ.

٣٣ ـ ﴿قالَ: ربِّ، السِّجنُ أحَبُّ إلَيَّ مِمّا يَدعُونَنِيَ إلَيهِ. وإلاّ تَصرِفْ عَنِّي كَيدَهُنَّ أصْبُ﴾: أمِلْ ﴿إلَيهِنَّ، وأكُنْ﴾: أصِرْ ﴿مِنَ الجاهِلِينَ﴾: المُذنبين. والقصد بذلك الدعاءُ.........

قولُه: (أعظَمْنَه) أي: عظَّمنَه وهِبْنَ حُسنَه الفائقَ.

قولُه: (تَنزِيهاً لَهُ) من صفاتِ العَجزِ، وتعجُّباً من قدرتِهِ على خلق مثلِهِ، وأصلُه: (حاشا) كما قرَأه أبو عَمرٍو[1] في الدَّرْجِ، فحُذِفَتْ ألفُه الأخيرةُ تخفيفاً، وهو حرفٌ يفيدُ معنى التَّنزيهِ في باب الاستثناءِ، فوُضِعَ موضِعَ التَّنزيهِ، واللَّامُ للبيانِ، كما في قولِكَ: سُقيا لهُ.

قولُه: (فهَذَا هُو) فوضعَ ﴿ذلك﴾ موضعَ «هذا» رفعاً لمنزلَةِ المشارِ إليه.

قولُه: (بَيانٌ لعُذْرِها) قال النَّصرَ آباذيُّ[2]: العذرُ في العشْقِ من نقصَانِ العشقِ[3].

قولُه: (فامتَنَعَ) طالباً للعِصْمةِ.

قولُه: (بِهِ) فحُذِفَ الجارُّ، أو أمرِي إيَّاه بمعنى موجبَ أمرِي، فيكونُ الضَّميرُ ليوسُفَ.

قولُه: (أَمِلْ) إلى إجابتهنَّ، أو إلى أنفسِهنَّ بطبعِي، ومقتَضى الشَّهوةِ، والصَّبوةُ: الميلُ إلى الهوَى[4].

قولُه: (والقصْدُ بذلِكَ) أي: بقولِه: ﴿وإلَّا تصرف﴾ أو بقولِه: ﴿ربِّ﴾ قيل: إنَّما ابتُلِي بالسَّجنِ لقولِه هذا، وإنَّما كان الأَولى به أن يسألَ العافيةَ، ولذلكَ ردَّ ﷺ على مَن كان يسألُ الصَّبرَ بقولِهِ: «سألتَ اللهَ البلاءَ فاسأله

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٤٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٥٩).

(٢) هو: إبراهيم بن محمد بن أحمد بن محمويه، أبو القاسم، الإمام، المحدث، القدوة، الواعظ، شيخ الصوفية، منسوب إلى نصر آباذ بنيسابور. انظر: «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» (١٤/ ٢٥٦)، و«سير أعلام النبلاء» (١٦/ ٢٦٣).

(٣) لم أقف عليه.

(٤) انظر: «لسان العرب» (١٤/ ٤٥١).

فلذا قال تعالى: ٣٤ ـ ﴿فاستَجابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ دُعاءه، ﴿فصَرَفَ عَنهُ كَيدَهُنَّ ـ إنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ للقول ﴿العَلِيمُ﴾ بالفعل ـ ٣٥ ـ ﴿ثُمَّ بَدا﴾: ظهرَ ﴿لَهُم مِن بَعدِ ما رأَوُا الآياتِ﴾ الدالاّت على براءة يُوسف أن يسجنوه، دلّ على هذا: ﴿لَيَسجُنُنَّهُ حَتَّى﴾: إلى ﴿حِينٍ﴾ ينقطعُ فيه كلام الناس، فسُجن.

٣٦ ـ ﴿ودَخَلَ مَعَهُ السِّجنَ فَتَيانِ﴾: غُلامانِ للملك، أحدُهما ساقيه، والآخرُ صاحب طعامه، فرأياه يُعبّر الرؤيا، فقالا: لنَختبرَنَّه. ﴿قالَ أحَدُهُما﴾ الساقي: ﴿إنِّيَ أرانِيَ أعصِرُ خَمرًا﴾ أي: عِنبًا، ﴿وقالَ الآخَرُ﴾ صاحبُ الطعام: ﴿إنِّيَ أرانِيَ أحمِلُ فَوقَ رأسِي خُبزًا، تأكُلُ الطَّيرُ مِنهُ. نَبِّئْنا﴾: خبّرنا ﴿بِتأوِيلِهِ﴾: بتعبيره. ﴿إنّا نَراكَ مِنَ المُحسِنِينَ﴾.

٣٧ ـ ٣٨ ـ ﴿قالَ﴾ لهما، مُخبِرًا أنه عالم بتعبير الرؤيا: ﴿لا يأتِيكُما طَعامٌ تُرزَقانِهِ﴾ في منامكما ﴿إلاّ نَبّأتُكُما بِتأوِيلِهِ﴾ في اليقظة ﴿قَبلَ أن يأتِيَكُما﴾ تأويلُه. ﴿ذٰلِكُما مِمّا عَلَّمَنِي رَبِّيَ﴾. فيه حثّ على إيمانهما. ثمّ قوّاه بقوله: ﴿إنِّي تَرَكتُ مِلَّةَ﴾: دِينَ ﴿قَومٍ لا يُؤمِنُونَ بِاللهِ، وهُم بِالآخِرةِ هُم﴾ ـ تأكيد ـ ﴿كافِرُونَ، واتَّبَعتُ مِلَّةَ آبائِيَ، إبراهِيمَ وإسحاقَ ويَعقُوبَ. ما كانَ﴾: ينبغي ﴿لَنا أن نُشرِكَ بِاللهِ مِن﴾: زائدةٌ ﴿شَيءٍ﴾، لِعِصمتنا. ﴿ذٰلِكَ﴾ التوحيد ﴿مِن فَضلِ اللهِ عَلَينا وعلَى النّاسِ، ولٰكِنَّ أكثَرَ النّاسِ﴾ ـ وهم الكُفّار ـ ﴿لا يَشكُرُونَ﴾ الله فيشركون.

ثمّ صرّح بدعائهما إلى الإيمان، فقال: ٣٩ ـ ﴿يا صاحِبَيِ﴾ ساكِنَي ﴿السِّجنِ، أأربابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيرٌ، أمِ اللهُ الواحِدُ القَهّارُ﴾ خيرٌ؟ استفهام تقرير..

العافِيةَ» رواه التِّرمذيُّ(١).

قولُه: (ظَهَرَ) أي: للعَزيزِ وأهلِهِ.

قولُه: (الدَّالَّاتِ) أي: الشَّواهدَ الدَّالَّةَ كشهادةِ الصَّبيِّ وقدِّ القَميصِ، وقَطعِ النِّساءِ أيديَهنَّ، واستعصامِه عنهنَّ.

قولُه: (أَن يَسجُنُوهُ) إشارةٌ إلى أنَّ فاعلَ ﴿بدا﴾ مضمَرٌ.

قولُه: (دلَّ عَلَى هَذَا) أي: المقدَّر.

قولُه: (أي: عِنَباً) وسمَّاه بما يؤولُ إليه.

قولُه: (زائِدَةٌ) للمُبالَغةِ أي: أيَّ شيءٍ كان.

قولُه: (استِفهَامُ تَقرِيرٍ) أي: بالنِّسبةِ إلى الجزءِ الأخيرِ؛ يعنِي: المرادُ بالاستفهامِ حملُ المخاطَبِ على الإقرارِ بأنَّ اللهَ هو الواحدُ القهَّارُ، و﴿خَيرٌ﴾ لمجرَّدِ الزِّيادةِ، أو لإرخاءِ العنانِ معَ الخَصْمِ، أو لزعمِهِم.

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٢٧) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، وقال: هذا حديث حسن.

٤٠ ـ ﴿ما تَعبُدُونَ مِن دُونِهِ﴾ أي: غيرَه ﴿إلاّ أسماءً، سَمَّيتُمُوها﴾: سمّيتم بها أصنامكم ﴿أنتم وآباؤُكُم، ما أنزَلَ اللهُ بِها﴾: بعبادتها ﴿مِن سُلطانٍ﴾: حُجّةٍ وبُرهان. ﴿إنِ﴾: ما ﴿الحُكمُ﴾: القضاء ﴿إلاّ للهِ﴾ وحدَه، ﴿أمَرَ ألاّ تَعبُدُوا إلاّ إيّاهُ. ذلِكَ﴾ التوحيد ﴿الدِّينُ القَيِّمُ﴾: المُستقيم، ﴿ولكِنَّ أكثَرَ النّاسِ﴾ ـ وهم الكُفّار ـ ﴿لا يَعلَمُونَ﴾ ما يصيرون إليه، من العذاب، فيُشركون.

٤١ ـ ﴿يا صاحِبَيِ السِّجنِ، أمّا أحَدُكُما﴾ أي: الساقي فيخرج بعد ثلاث، ﴿فيَسقِي رَبَّهُ﴾: سيّده ﴿خَمرًا﴾ على عادته ـ هذا تأويل رؤياه ـ ﴿وأمّا الآخَرُ﴾ فيخرج بعد ثلاث ﴿فيُصلَبُ، فتأكُلُ الطَّيرُ مِن رأسِهِ﴾. هذا تأويل رُؤياه. فقالا: ما رأينا شيئًا. فقال: ﴿قُضِيَ﴾: تمّ ﴿الأمرُ الَّذِي فِيهِ تَستَفتِيانِ﴾: عنه سألتما، صدقتُما أم كذبتما. ٤٢ ـ ﴿وقالَ لِلَّذِي ظَنَّ﴾: أيقن ﴿أنَّهُ ناجٍ مِنهُما﴾ وهو الساقي: ﴿اذكُرنِي عِندَ رَبِّكَ﴾: سيّدك، فقل له: إنّ في السجن غُلامًا محبوسًا ظلمًا. فخرجَ ﴿فأنساهُ﴾ أي: الساقيَ ﴿الشَّيطانُ ذِكرَ﴾ يُوسفَ عند ﴿رَبِّهِ، فلَبِثَ﴾:...

قولُه: (سَمَّيتُم) الخطابُ لهما، ولمَن على دينِهمَا مِن أهلِ مصرَ.

قولُه: (أصنماكم) أي: أسماءً ليسَ تحتَها مسمَّياتٌ حقيقيَّةٌ، فكأنَّكُم لا تعبدونَ إلَّا أسماءً مجردةً.

قولُه: (حُجَّةٍ) أي: إنَّكم سمَّيتُم ما لم يدُلَّ على استحقاقِ الألوهيَّةَ عقلٌ ولا نقلٌ آلهةً، ثمَّ أخذْتُم تعبُدونَها باعتبارِ ما تُطلِقونَ عليها.

قولُه: (القَضَاءُ) الأزليُّ، أو ﴿الحكمُ﴾ في أمرِ العبادَةِ.

قولُه: (تمَّ) وقُطِعَ.

قولُه: (عنهُ) وهو ما يؤولُ إليه أمرُهما، ولذلك وحَّدَ.

قولُه: (أَيقَنَ) الظَّانُّ يوسفُ إنْ ذكرَ ذلك عن اجتهادٍ، وإنْ ذكرَه عن وحيٍ فالظَّانُّ هو النَّاجِي، إلَّا أنْ يُؤوِّلَ الظَّنُّ باليقينِ.

قولُه: (سيِّدك) قال مجاهدٌ[1]: أي: الملكِ الأعظمِ ريَّانَ بنِ الوليدِ.

قولُه: (عندَ ﴿ربِّهِ﴾) أو لـ﴿ربِّه﴾ فأضافَ إليه المصدرَ لملابستِهِ له، أو على تقديرِ ﴿ذِكرَ﴾ إخبارِ ﴿ربِّه﴾ أو أُنسِيَ يوسفُ ذكرَ الله حتَّى استعانَ بغيرِه، وفي الحديثِ: «رحمَ الله أخِي يوسُفَ، لو لم يقُلِ ﴿اذكرني عندَ ربِّك﴾ لَمَا لبثَ في السِّجنِ سبعاً بعد الخمْسِ» رواه ابنُ المنذرِ وغيرُه[2].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٤٩، ٢١٥٠).

(٢) لم أقف عليه، وروى ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١١٦٣٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٢٠٦) نحوه من حديث أبي هريرة =

مكَثَ يُوسف ﴿فِي السِّجنِ بِضعَ سِنِينَ﴾ قيل: سبعًا، وقيل: اثنتي عشْرةَ.

٤٣ ـ ﴿وقالَ المَلِكُ﴾ ملكُ مصرَ الريّانُ بنُ الوليد: ﴿إنِّيَ أرَى﴾ أي: رأيتُ ﴿سَبعَ بَقَراتٍ سِمانٍ، يأكُلُهُنَّ﴾: يبتلعُهنَّ ﴿سَبعٌ﴾ من البقر ﴿عِجافٌ﴾: جمع عَجفاءَ، ﴿وسَبعَ سُنبُلاتٍ خُضرٍ، وأُخَرَ﴾ أي: سبعَ سُنبلات ﴿يابِساتٍ﴾، قد التوتْ على الخُضر وعلت عليها. ﴿يا أيُّها المَلأُ، أفتُوني في رُؤيايَ﴾: بيِّنوا لي تعبيرها، ﴿إن كُنتُم لِلرُّؤيا تَعبُرُونَ﴾ فاعبُروها. ٤٤ ـ ﴿قالُوا﴾: هذه ﴿أضغاثُ﴾: أخلاطُ ﴿أحلامٍ، وما نَحنُ بِتأوِيلِ الأحلامِ بِعالِمِينَ﴾.

٤٥ ـ ﴿وقالَ الَّذِي نَجا مِنهُما﴾ أي: من الفَتيَينِ وهو الساقي، ﴿وادَّكَرَ﴾ ـ فيه إبدال التاء في الأصل دالاً، وإدغامها في الدال ـ..........

= والاستعانةُ بالعبادِ في كشفِ الشَّدائدِ وإن كانت محمُودةً في الجملَةِ، لكن لا تليقُ بمنصِبِ الأنبياءِ.

قولُه: (وقيلَ: اثنتي عشَرَةَ[1]) وقيل: أربعَ عشرَ[2]، والصَّحيحُ الأوَّلُ للحديثِ[3]، ولأنَّ البضْعَ ما بينَ الثَّلاثِ إلى التِّسعِ، وفي «العجائب» للكِرمانيِّ[4] أنَّه لبثَ بكلِّ حرفٍ من قولِه: ﴿اذكرني عندَ ربِّكَ﴾ سنةً[5]. وهو مطابقٌ للسُّنَّةِ[6].

قولُه: (تَعبِيْرَها) وهو الانتقالُ من الصُّورِ الخياليَّةِ إلى المعاني النَّفسانيَّة التي هي مثالُها، من العبُورِ؛ وهو المجاوزَةُ.

قولُه: (أَخلَاطُ) أصلُه ما جُمِعَ من أخلاطِ النَّباتِ وحُزِمَ فاستُعيرَ للرُّؤيا الكاذِبةِ.

قولُه: (منَ الفَتَيانِ) الظَّاهرُ: «من الفتيَين» كما في بعضِ النُّسخِ، ولعلَّ الأوَّلَ على الحكايةِ.

قولُه: (فِي الذَّالِ) بعدَ إبدالِها دالاً، وعن الحسنِ: (اذَّكر) بالذَّالِ المعجمةِ[7].

رضي الله عنه. وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» (١/ ٢٣٩): حديث منكر من هذا الوجه ومحمد بن عمرو بن علقمة له أشياء ينفرد بها وفيها نكارة

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١١٦٤٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١١٦٤٦) عن طاوس، والضحاك بن مزاحم.

(٣) أي: الذي ذكره قبل، وعزاه لابن المنذر.

(٤) هو أبو القاسم محمود بن حمزة بن نصر الكرماني المعروف بتاج القراء، انظر: «معجم الأدباء» (٦/ ٢٦٨٦)، و«سلم الوصول» (٣/ ٣١٠).

(٥) انظر: «غرائب التفسير وعجائب التأويل» (ص: ٥٣٨).

(٦) أي: أنه لبث اثني عشرة سنة، للحديث الذي ذكره وعزاه لابن المنذر.

(٧) وهي قراءة شاذة، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ٦٨).

أي: تذكر ﴿بَعدَ أُمَّةٍ﴾: حينٍ حالَ يُوسفَ: ﴿أنا أُنَبِّئُكُم بِتأوِيلِهِ. فأرسِلُونِ﴾. فأرسَلوه فأتى يوسفَ، ٤٦ـ فقال: يا ﴿يُوسُفُ ـ أيُّها الصِّدِّيقُ﴾: الكثيرَ الصِّدقِ ـ ﴿أفتِنا في سَبعِ بَقَراتٍ سِمانٍ، يأكُلُهُنَّ سَبعٌ عِجافٌ، وسَبعِ سُنبُلاتٍ خُضرٍ وأُخَرَ يابِساتٍ، لَعَلِّي أرجِعُ إلَى النّاسِ﴾ أي: الملك وأصحابه، ﴿لَعَلَّهُم يَعلَمُونَ﴾ تعبيرَها.

٤٧ ـ ﴿قالَ: تَزرَعُونَ﴾ أي: ازرَعوا ﴿سَبعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾: مُتتابعةً، وهي تأويل السبع السِّمانِ ـ ﴿فما حَصَدتُم فذَرُوهُ﴾: اتركوه ﴿في سُنبُلِهِ﴾ لئلَّا يَفسد ﴿إلاّ قَلِيلاً مِمّا تأكُلُونَ﴾ فادرُسوه ـ ٤٨ ـ ﴿ثُمَّ يأتِي مِن بَعدِ ذلِكَ﴾ أي: السبعِ المُخصبات، ﴿سَبعٌ شِدادٌ﴾: مُجدِبات صِعاب ـ وهي تأويل السبع العجاف ـ ﴿يأكُلنَ ما قَدَّمتُم لَهُنَّ﴾ من الحَبِّ المزروع في السنينَ المُخصباتِ، أي: تأكلونه فيهنَّ ﴿إلاّ قَلِيلاً مِمّا تُحصِنُونَ﴾: تَدّخِرون، ٤٩ ـ ﴿ثُمَّ يأتِي مِن بَعدِ ذلِكَ﴾ أي: السبعِ المُجدبات ﴿عامٌ، فِيهِ يُغاثُ النّاسُ﴾ بالمطر، ﴿وفِيهِ يَعصِرُونَ﴾ الأعنابَ وغيرها لخِصبه.

قولُه: (حِينٍ) أي: جماعةٍ من الزَّمانِ مجتمعَةٍ؛ أي: مدَّةٍ طويلةٍ.

قولُه: (حالَ) مفعولُ «تذكَّر».

قولُه: (الكثِيرَ الصِّدقِ) وصفَهُ به لأنَّه جرَّبَ أحوالَه، وجرَّبَ صدقَهُ في تأويلِ رؤياهُ وصاحبِه.

قولُه: (تَعبيرَها) أو فضلَكَ ومكانتَك.

قولُه: (أي: ازْرَعُوا) أمرٌ أخرجَهُ في صُورةِ الخبرِ مبالغةً، ويؤيِّدُه قولُه: ﴿فذروه﴾.

قولُه: (مُتَتَابِعةً) قرأ حفصٌ بفتحِ الهمزةِ[1]، وكلاهما مصدرُ دأبَ في العملِ؛ أي: على عادتِكُم المستمرَّةِ، وانتصابُه على الحالِ؛ بمعنَى: دائبينَ، أو المصدرِ بإضمارِ فعلِه؛ أي: تدأبُونَ دأباً، والجملةُ حالٌ.

قولُه: (لئلَّا يَفسُدَ) ولا يأكلَه السُّوس.

قولُه: (أي: تَأكُلُونَهُ) يحتملُ الخطابَ، والغيبةُ أظهرُ؛ أي: يأكلُ أهلُهنَّ ما ادَّخرتُم لأجلهنَّ، فأسنَدَ إليهنَّ على المجازِ، تطبيقاً بينَ المعبَّرِ والمعبَّرِ به.

قولُه: (تدَّخِرُونَ) لبذورِ الزِّراعةِ.

قولُه: (بالمَطَرِ) أي: يُمطَرونَ، مِنَ الغَيثِ، أو يُغاثونَ مِن القحطِ، مِن الغَوثِ.

قولُه: (وغَيْرَها) ممَّا يُعصَرُ كالزَّيتونِ، وقيل: يحلِبونَ الضُّروعَ، وقرأ حمزةُ والكِسائيُّ بالخطابِ[2] على تغليبِ المستفتِي.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٤٩)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٥٩).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٤٩)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٥٩).

٥٠ ـ ﴿وقالَ المَلِكُ﴾ لمّا جاءه الرسول وأخبره بتأويلها: ﴿ائتُوني بِهِ﴾ أي: بالذي عبَّرها. ﴿فلَمّا جاءَهُ﴾ أي: يُوسفَ ﴿الرَّسُولُ﴾ وطلبه للخروج ﴿قالَ﴾ قاصدًا إظهار براءته: ﴿ارجِعْ إلَى رَبِّكَ، فاسأَلْهُ﴾ أن يسأل: ﴿ما بالُ﴾: حالُ ﴿النِّسْوةِ اللاّتِي قَطَّعْنَ أيدِيَهُنَّ؟ إنَّ رَبِّي﴾: سيّدي ﴿بِكَيدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾. فرجَع فأخبر الملك فجمعهنّ.

٥١ ـ ﴿قالَ: ما خَطبُكُنَّ﴾: شأنكنّ ﴿إذ راوَدتُنَّ يُوسُفَ عَن نَفسِهِ﴾؟ هل وجدتُنّ منه مَيلاً إليكنّ؟ ﴿قُلْنَ: حاشَ للهِ! ما عَلِمْنا عَلَيهِ مِن سُوءٍ. قالَتِ امرأةُ العَزِيزِ: الآنَ حَصحَصَ﴾: وضَحَ ﴿الحَقُّ. أنا راوَدتُهُ عَن نَفسِهِ، وإنَّهُ لَمِنَ الصّادِقِينَ﴾ في قوله: «هِيَ راودَتْنِي عَن نَفسِي». فأُخبِرَ يُوسفُ بذلك، فقال:

٥٢ ـ ﴿ذلِكَ﴾ أي: طلبُ البراءة ﴿لِيَعلَمَ﴾ العزيزُ ﴿أنّي لَم أخُنْهُ﴾ في أهله ﴿بِالغَيبِ﴾: حالٌ، ﴿وأنَّ اللهَ لا يَهدِي كَيدَ الخائنِينَ﴾. ثم تواضع لله فقال: ٥٣ ـ ﴿وما أُبَرِّئُ نَفسِيَ﴾ من الزلل. ﴿إنَّ النَّفسَ﴾ الجنس ﴿لأمّارةٌ﴾: كثيرة الأمر ﴿بِالسُّوءِ، إلاّ ما﴾ بمعنى: مَن ﴿رَحِمَ رَبِّيَ﴾، فعصَمَه. ﴿إنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

٥٤ ـ ﴿ وقالَ المَلِكُ: ائتُونِي بِهِ، أستَخلِصْهُ لِنَفسِي﴾: أجعلْه خالصًا لي دُون شريك. فجاءه الرسول وقال: أجبِ الملكَ.........................

قولُه: (إظهَارَ بَرَاءتِهِ) وعن النبيِّ ﷺ: «لو كنتُ مكانَه، ولبثتُ في السِّجنِ ما لبثَ لأسرعْتُ الإجابةَ» رواهُ الطَّبرانيُّ(١)، وهو إشارةٌ إلى وصفِ يوسُفَ بكمالِ الأناةِ، وإنَّما قال ذلك تواضُعاً.

قولُه: (سيِّدِي) وهو اللهُ.

قولُه: (وضَحَ) وظهرَ، أو ثبتَ واستقرَّ.

قولُه: (حالٌ) من الفاعلِ، أو المفعولِ؛ أي: لم أَخُنْه وأنا غائبٌ عنه، أو هو غائبٌ عنِّي.

قولُه: (من الزَّلَلِ) أي: لا أنزِّهُها، تنبيهاً على أنَّه لم يُرِدْ بذلك تزكِيَةَ نفسِهِ والعُجبَ بحالِهِ، بل إظهارَ ما أنعمَ اللهُ عليه مِن العصمةِ والتَّوفيقِ.

قولُه: (بمَعنَى: مَن) أو للنَّفسِ من حيثُ إنَّها بالطَّبعِ مائلةٌ إلى الشَّهواتِ، فتَهُمُّ بها، وتستعمِلُ القوَى والجوارحَ في إثرِها كلَّ الأوقاتِ إلَّا وقتَ رحمةِ ربِّي.

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ عند الطبراني، وجاء عنده في «المعجم الأوسط» (٨٨١٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي».

وبنفس هذا اللفظ رواه البخاري (٤٦٩٤)، ومسلم (١٥١) من حديث أبي هريرة أيضاً.

فقام وودّع أهل السجن ودعا لهم، ثمّ اغتسل ولبس ثِيابًا حِسانًا، ودخل عليه. ﴿فلَمّا كَلَّمَهُ قالَ﴾ له: ﴿إنَّكَ اليَومَ لَدَينا مَكِينٌ أمِينٌ﴾: ذو مكانة وأمانة على أمرنا. فماذا ترى أن نفعل؟ قال: اجمعِ الطعام وازرع زرعًا كثيرًا في هذه السنين المُخصِبة، وادّخرِ الطعام في سُنبله، فيأتي إليك الخلق ليمتاروا منك. فقال: ومَن لي بهذا؟ ٥٥ ـ ﴿قالَ﴾ يُوسف: ﴿اجعَلْني علَى خَزائنِ الأرضِ﴾ أرض مِصرَ. ﴿إنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾: ذو حِفظ وعِلم بأمرها، وقيل: كاتبٌ حاسب.

٥٦ ـ ٥٧ ـ ﴿وكَذلِكَ﴾: كإنعامنا عليه بالخلاص من السجن ﴿مَكَّنّا لِيُوسُفَ في الأرضِ﴾ أرض مِصرَ، ﴿يَتَبَوَّأُ﴾: ينزل ﴿مِنها حَيثُ يَشاءُ﴾ بعد الضيق والحبس. وفي القِصّة أنّ الملك توَّجَهُ وختَّمهُ وولاّه مكان العزيز وعزلَه. ومات بعدُ، فزوّجه امرأتَه فوجدها عذراء وولدتْ له ولدَين، وأقام العدل بمِصر ودانت له الرقاب. ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَن نَشاءُ، ولا نُضِيعُ أجرَ المُحسِنِينَ، ولَأَجرُ الآخِرةِ خَيرٌ﴾ من أجر الدنيا ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا وكانُوا يَتَّقُونَ﴾..........................

قولُه: (ودَخَل علَيهِ) وقال: اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ بخيرِكَ مِن خيرِه، وأعوذُ بعزَّتِك وقدرتِكَ مِن شرِّه، ثمَّ سلَّمَ عليه ودعا له[1].

قولُه: (لِيَمْتَارُوا) المِيرةُ ـ بالكسرِ ـ: جلبُ الطَّعامِ، مارَ عيالَه يَميرُ، وأمارَهُم وامتارَ لهم.

قولُه: (أرضِ مِصرَ) في الحديثِ: «رحمَ الله أخِي يوسُفَ، لو لم يقُلْ: ﴿اجعلْني على خزائنِ الأرْضِ﴾ لاستعمَلَه[2] في ساعتِهِ، ولكنَّه أخَّرَ ذلكَ سنةً»[3] كذا نقلَه الفاضِلُ.

قالَ تعالى: (﴿حيثُ يشاء﴾) ابنُ كثيرٍ بالنُّونِ[4].

قولُه: (ومَاتَ بَعدُ) أي: العزيزُ بعدَ العزلِ.

قولُه: (ولَدَينِ) أفرائيم جدُّ يوشعَ بنِ نونٍ، وميشا، ورحمةُ امرأةُ أيُّوبَ.

قولُه: (دانَتْ) انقادَتْ.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٩٨٨٥)، والطبراني في «الدعاء» (١٠٦١) عن زيد العمي.

(٢) في (م) و(د): «استعمله».

(٣) رواه الثعلبي في «الكشف والبيان» (١٥/ ٥١) (١٥٣٠)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٣٢٢٣)، والبغوي في «معالم التنزيل» (١١٨٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص: ٩٠): أخرجه الثعلبي عن ابن عباس من رواية إسحاق بن بشر عن جويبر عن الضحاك عنه، وهذا إسناد ساقط.

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٤٩)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٦٠).

ودخلتْ سِنِيُّ القحط وأصاب أرضَ كنعانَ والشامَ، ٥٨ ـ ﴿وجاءَ إخوةُ يُوسُفَ﴾ إلاّ بنيامِينَ ليمتاروا، لمّا بلغهم أن عزيز مِصر يُعطي الطعام بثمنه، ﴿فدَخَلُوا عليهِ فعَرَفَهُم﴾ أنهم إخوته، ﴿وهُم لَهُ مُنكِرُونَ﴾ لا يعرفونه لبُعدِ عهدهم به وظنِّهم هلاكَه. فكلَّموه بالعِبرانيّة، فقال كالمُنكِر عليهم: ما أقدَمَكم بلادي؟ فقالوا: للمِيرة. فقال: لعلّكم عُيونٌ. قالوا: مَعاذَ اللهِ! قال: فمِن أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كنعانَ، وأبونا يعقوبُ نبيُّ الله. قال: وله أولادٌ غيرُكم؟ قالوا: نعم كُنّا اثني عشَرَ فذهب أصغرنا، هلَكَ في البرّيّة، وكان أحبَّنا إليه، وبقي شقيقه فاحتبسَه ليتسلّى به عنه. فأمر بإنزالهم وإكرامهم.

٥٩ ـ ٦٠ ـ ﴿ولَمّا جَهَّزَهُم بِجَهازِهِم﴾: وفَى لهم كيلهم ﴿قالَ: ائتُونِي بِأخٍ لَكُم مِن أبِيكُم﴾ أي: بنيامِين، لأعلم صِدقكم فيما قلتم. ﴿ألا تَرَونَ أنّيَ أُوفِي الكَيلَ﴾: أُتمُّه من غير بخس، ﴿وأنا خَيرُ المُنزِلِينَ؟ فإن لَم تأتُونِي بِهِ فلا كَيلَ لَكُم عِندِي﴾ أي: مِيرةَ، ﴿ولا تَقرَبُونِ﴾ ـ نهيٌ أو عطف على محلّ «فلا كيل» ـ أي: تُحرَموا ولا تقربوا. ٦١ ـ ﴿قالُوا: سَنُراوِدُ عَنهُ أباهُ﴾: سنجتهد في طلبه منه، ﴿وإنّا لَفاعِلُونَ﴾ ذلك.

٦٢ ـ ﴿وقالَ لِفِتيَتِهِ﴾، وفي قراءة: «لِفِتيانِهِ»: غلمانه: ﴿اجعَلُوا بِضاعَتَهُم﴾ التي أتَوا بها ثمنَ المِيرة ـ وكانت دراهمَ ـ...

قولُه: (وظنِّهِمْ) وقلَّةِ تأمُّلِهم في حالِه مِن التَّهيُّبِ والاستعظامِ.

قولُه: (أَو عَطفٌ) حقُّه أن يقولَ: أو نفيٌ؛ إذ هو معطوفٌ على الجزاءِ بكلِّ حالٍ، والخلافُ إنَّما هو في الجازمِ.

قولُه: (أي: تُحرَمُوا) تفسيرُ ﴿لا كيل﴾.

قولُه: (ولا تَقرَبُوا) أي: لا تقرَبُوا ولا تدخُلوا دياري.

قولُه: (منهُ) أي: أبيه.

قولُه: (وفي قِرَاءةٍ) لحمزةَ والكسائيِّ وحفصٍ(١).

قولُه: (﴿فِتيَانِهِ﴾) على جمعِ الكثرةِ لفتًى.

قولُه: (غِلمَانِهِ) الكيَّالينَ.

قولُه: (درَاهِمَ) أو نعالاً وأَدَماً، وإنَّما فعلَ ذلك توسِيعاً وتفضُّلاً عليهم، وترفُّعاً مِن أنْ يأخُذَ ثمنَ الطَّعامِ منهم، وخوفاً من أنْ لا يكُونَ عندَ أبيهِ ما يرجعُونَ به إليهِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٤٩)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٦١).

﴿في رِحالِهِم﴾: أَوعيتهم، ﴿لَعَلَّهُم يَعرِفُونَها، إذا انقَلَبُوا إِلَى أهلِهِم﴾ وفرّغوا أَوعيتهم، ﴿لَعَلَّهُم يَرجِعُونَ﴾ إلينا لأنهم لا يستحلّون إمساكها.

٦٣ ـ ٦٤ ـ ﴿فلَمّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِم قالُوا: يا أبانا، مُنِعَ مِنّا الكَيلُ﴾، إن لم تُرسِل أخانا إليه. ﴿فأَرسِلْ مَعَنا أخانا، نَكتَلْ﴾ ـ بالنون والياء ـ ﴿وإنّا لَهُ لَحافِظُونَ. قالَ: هَل﴾: ما ﴿آمَنُكُم علَيهِ إلاّ كَما أَمِنتُكُم علَى أخِيهِ﴾ يُوسفَ ﴿مِن قَبلُ﴾، وقد فعلتم به ما فعلتم؟ ﴿فاللهُ خَيرٌ حِفْظًا﴾، وفي قراءة: «حافِظًا» تمييزٌ كقولهم: لِلهِ درُّه فارسًا! ﴿وهُوَ أرحَمُ الرّاحِمِينَ﴾. فأرجو أن يَمُنّ بحِفظه.

٦٥ ـ ﴿ولَمّا فَتَحُوا مَتاعَهُم وَجَدُوا بِضاعَتَهُم رُدَّتْ إلَيهِم. قالُوا: يا أبانا، ما نَبغِي﴾؟ ما: استفهاميّة، أي: أيَّ شيء نطلبُ من إكرام الملك أعظمَ من هذا؟ وقُرئ بالفَوقانيّة خِطابًا ليعقوب، وكانوا ذكروا له إكرامه لهم. ﴿هذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إلَينا، ونَمِيرُ أهلَنا﴾: نأتي بالمِيرة لهم ـ وهي الطعام ـ ﴿ونَحفَظُ أخانا، ونَزدادُ كَيلَ بَعِيرٍ﴾ لأخينا. ﴿ذلِكَ كَيلٌ يَسِيرٌ﴾: سهل على الملك لسخائه.

٦٦ ـ ﴿قالَ: لَن أُرسِلَهُ مَعَكُم حَتَّى تُؤتُونِي مَوثِقًا﴾: عهدًا،..............................

قولُه: (لأَنَّهُمْ) أو لأجلِ إحسانِنا إليهم بردِّها، ويؤيِّدُه قولُه: ﴿ما نبغي﴾ الآيَةَ.

قولُه: (واليَاءِ) حمزةُ والكِسائيُّ[1] على إسنادِه إلى الأخِ؛ أي: يكتَلْ لنفسِهِ فينضمَّ اكتيالُهُ إلى اكتيَالِنا.

قولُه: (وقَدْ فعَلْتُم) وقد قلتُم في يوسُفَ: ﴿وإنّا له لحافظونَ﴾.

قولُه: (وفِي قِرَاءةٍ) لحمزةَ والكِسائيِّ وحفصٍ[2].

قولُه: (تمييزٌ) أو حالٌ، و(حفظًا) تمييزٌ لا غيرُ.

قولُه: (يمُنَّ) أي: يرحمَني بحفظِهِ، ولا يجمعَ عليَّ مُصيبتَين.

قولُه: (﴿مَا﴾ استفهَامِيَّةٌ) أو نافيةٌ؛ أي: لا نطلبُ وراءَ ذلك إحساناً.

قولُه: (إكرَامَهُ لَهُم) أي: أيُّ شيءٍ يُطلَبُ وراءَ هذا مِن الإحسانِ، أو مِن الدَّليلِ على صدْقِنا.

قولُه: (نَأتِي) عطفٌ على محذوفٍ؛ أي: رُدَّتْ إلينا، فنستظهرُ بها ونميرُ أهلَنا بالرُّجوعِ إلى الملِكِ.

قولُه: (سَهلٌ) فالإشارةُ إلى ﴿كيلَ بعيرٍ﴾ أو قليلٍ لا يكفِينَا، استقَلُّوا المكِيلَ لهم، فأرادُوا أن يُضاعِفوهُ بالرُّجوعِ إلى الملِكِ.

قولُه: (عَهْداً) مؤكَّداً بذكرِ اللهِ نوثَّقُ به.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٥٠)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٦١).

(٢) انظر المصادر السابقة: (ص: ٣٥٠)، و(ص: ٣٦٢).

﴿مِنَ اللهِ﴾ بأن تحلفوا ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إلاّ أن يُحاطَ بِكُم﴾ أي: تموتوا أو تُغلبوا فلا تُطيقوا الإتيان به. فأجابوه إلى ذلك. ﴿فلَمّا آتوهُ مَوثِقَهُم﴾ بذلك ﴿قالَ: اللهُ علَى ما نَقُولُ﴾ نحن وأنتم ﴿وَكِيلٌ﴾: شهيد. وأرسلَه معهم.

٦٧ ـ ﴿وقالَ: يا بَنِيَّ، لا تَدخُلُوا﴾ مِصر ﴿مِن بابٍ واحِدٍ، وادخُلُوا مِن أبوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ لئلاّ تُصيبكم العينُ، ﴿وما أُغنِي﴾: أدفعُ ﴿عَنكُم﴾ بقولي ذلك ﴿مِنَ اللهِ مِن﴾: زائدةٌ ﴿شَيءٍ﴾ قدَّره عليكم! وإنّما ذلك شفقةٌ. ﴿إنِ﴾: ما ﴿الحُكمُ إلاّ للهِ﴾ وحدَه، ﴿علَيهِ تَوَكَّلْتُ﴾: به وثِقتُ، ﴿وعلَيهِ فلْيَتَوَكَّلِ المُتَوَكِّلُونَ﴾.

٦٨ ـ قال تعالى: ﴿ولَمّا دَخَلُوا مِن حَيثُ أمَرَهُم أبُوهُم﴾ أي: مُتفرّقين ﴿ما كانَ يُغنِي عَنهُم مِنَ اللهِ﴾، أي: قضائه، ﴿مِن﴾: زائدةٌ ﴿شَيءٍ، إلاّ﴾: لكن ....

قولُه: (بأَنْ تَحلِفُوا) وجوابُ القسمِ ﴿لتأتنني﴾.

قولُه: (أي: تَمُوتُوا) وهو استثناءٌ مفرَّغٌ مِن أعمِّ الأحوالِ، والتَّقديرُ: لَتأْتُنَّني به على جميعِ الأحوالِ إلَّا حالَ الإحاطةِ بكُم.

قولُه: (نَحنُ وأَنتُم) مِن طلبِ الموثِقِ وإيتائِه.

قولُه: (شَهِيدٌ) رقيبٌ مطَّلعٌ.

قولُه: (لِئلَّا تُصِيبَكُم) لأنَّهم كانُوا ذَوِي جمالٍ وأُبَّهةٍ مشهُورينَ في مصرَ بالقُربِ والكرامةِ عندَ الملكِ، فخافَ عليهِم أن يدخُلُوا كوكبَةً واحدةً، فيُصابوا بالعينِ[1].

قولُه: (قدَّرَه) فإنَّ الحذرَ لا يمنعُ القدَرَ.

قولُه: (وَحْدَه) يصيبُكُم لا محالةَ إن قضَى عليكُم سواءٌ.

قالَ تعَالى: (﴿ما كان يغني﴾) أي: رأيُ يعقوبَ واتِّباعُهم له.

قولُه: (قضَائِهِ) عليهم، كما قالَ يعقوبُ، فسُرِّقُوا[2] وأُخِذَ بنيامينُ، وتضاعفتِ المصيبةُ على يعقوبَ.

قولُه: (لكِنْ) يعنِي: الاستثناءُ منقطعٌ.

---

(١) روى عبد الرزاق في «التفسير» (١٣٢٢)، والطبري في «تفسيره» (١٩٤٨٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١١٧٧٠) بنحوه عن قتادة.

(٢) أي: نسبوهم إلى السرقة.

﴿حاجةً في نَفسِ يَعقُوبَ قَضاها﴾، هي إرادة دفع العين شفقةً، ﴿وإنَّهُ لَذُو عِلمٍ لِما عَلَّمْناهُ﴾: لِتعليمِنا إيّاه، ﴿ولكِنَّ أكثَرَ النّاسِ﴾ ـ وهم الكُفّار ـ ﴿لا يَعلَمُونَ﴾ إلهام الله لأوليائه.

٦٩ ـ ﴿ولَمّا دَخَلُوا علَى يُوسُفَ آوَى﴾: ضمَّ ﴿إلَيهِ أخاهُ، قالَ: إنِّيَ أنا أخُوكَ. فلا تَبتَئِسْ﴾: تحزنْ ﴿بِما كانُوا يَعمَلُونَ﴾ من الحسد لنا. وأمره ألاّ يُخبرهم، وتواطأ معه على أنه سيحتال على أن يُبقيه عنده.

٧٠ ـ ٧١ ـ ﴿فلَمّا جَهَّزَهُم بِجَهازِهِم جَعَلَ السِّقايَةَ﴾ ـ هي صاعٌ من ذهب مُرصَّعٌ بالجوهر ـ ﴿في رَحلِ أخِيهِ﴾ بِنيامِينَ، ﴿ثُمَّ أذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾: نادى منادٍ بعد انفصالهم عن مجلس يُوسف: ﴿أيَّتُها العِيرُ﴾: القافلة، ﴿إنَّكُم لَسارِقُونَ. قالُوا، و﴾ قد ﴿أقبَلُوا عَلَيهِم: ماذا﴾: ما الذي ﴿تَفقِدُونَـ﴾ ـه؟ ٧٢ ـ ﴿قالُوا: نَفقِدُ صُواعَ﴾: صاعَ ﴿المَلِكِ، ولِمَن جاءَ بِهِ حِملُ بَعِيرٍ﴾ من الطعام، ﴿وأنا بِهِ﴾: بالحِمل ﴿زَعِيمٌ﴾: كفيل.

وقولُه تعَالى: (﴿قضاها﴾) أي: أظهرَها ووصَّى بها.

قولُه: (لتَعْلِيمِنَا) بالوحيِ ونصبِ الحُجَجِ، ولذلك قال: ﴿وما أغني عنكم﴾ ولم يغترَّ بتدبيرِهِ.

قولُه: (إلهَامَ اللَّهِ) أو سرَّ القدَرِ.

قولُه: (ضَمَّ) على الطَّعامِ، أو في المنزلِ، رويَ[1]: أنَّه أضافَهم، فأجلسَهُم مثنَى، فبقِيَ بنيامينُ وحيداً، فبكَى وقالَ: لو كان أخِي يوسُفُ حيًّا لجلسَ معي، فأجلسَه معهُ على مائدتِهِ، ثمَّ قال: لينزِلْ كلُّ اثنين منكُم بيتاً، وهذا لا ثانيَ له، فيكونُ معِي، فباتَ عندَه وقال: أتحبُّ أن أكونَ أخاكَ بدلَ أخيكَ الهالكِ؟ قال: مَن يجدُ أخاً مثلكَ؟ ولكن لم يلِدْكَ يعقوبُ ولا راحيلُ.

قولُه: (وهيَ صَاعٌ) قيلَ: كانت مِشْرَبةً[2] جُعِلَتْ صاعاً يُكالُ به، وقيلَ: كانت يُسقَى الدَّوابُّ بها ويُكالُ فيها.

قولُه: (مُرصَّعٌ) وقيل: مِن فضَّةٍ.

قولُه: (صَاعَ) وقُرِئَ به[3].

قولُه: (منَ الطَّعَامِ) جُعلاً له.

---

(١) لم أقف عليه مسندا بهذا اللفظ، وجاء بنحوه عن السدي وابن إسحاق.

رواهما الطبري في «تفسيره» (١٩٥٠٣) و(١٩٥٠٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١١٧٧٩) و(١١٧٨٠).

(٢) أي: الإناء يشرب فيه. «تاج العروس» (٣/ ١١٨).

(٣) وهي قراءة شاذة، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ٦٩) ونسبت لأبي هريرة وجماعة.

٧٣ ـ ﴿قالُوا: تاللهِ﴾ ـ قسمٌ فيه معنى التعجّب ـ ﴿لَقَد عَلِمتُم: ما جِئنا لِنُفسِدَ في الأرضِ. وما كُنّا سارِقِينَ﴾: ما سرقنا قطُّ! ٧٤ ـ ﴿قالُوا﴾ أي: المُؤذّنُ وأصحابه: ﴿فما جَزاؤُهُ﴾ أي: السارقِ، ﴿إن كُنتُم كاذِبِينَ﴾ في قولكم: «ما كُنّا سارِقِينَ»، ووُجد فيكم؟ ٧٥ ـ ﴿قالُوا: جَزاؤُهُ﴾: مبتدأ خبرُه: ﴿مَن وُجِدَ في رَحلِهِ﴾ يُستَرَقُّ. ثمّ أُكّد بقوله ﴿فهُوَ﴾ أي: السارق ﴿جَزاؤُهُ﴾ أي: المسروقِ لا غيرُ. وكانت سُنّةَ آلِ يعقوبَ. ﴿كَذلِكَ﴾ الجزاءِ ﴿نَجزِي الظّالِمِينَ﴾ بالسرقة. فصُرفوا إلى يوسف لتفتيش أوعيتهم.

٧٦ ـ ﴿ فبَدَأَ بِأَوعِيَتِهِم﴾ ففتّشها ﴿قَبلَ وِعاءِ أخِيهِ﴾ لئلاّ يُتّهم، ﴿ثُمَّ استَخرَجَها﴾ أي: السقايةَ ﴿مِن وِعاءِ أخِيهِ﴾. قال تعالى: ﴿كَذلِكَ﴾ الكيدِ ﴿كِدْنا لِيُوسُفَ﴾: علّمناه الاحتيال في أخذ أخيه. ﴿ما كانَ﴾ يُوسف ﴿لِيأخُذَ أخاهُ﴾ رقيقًا عن السرقة، ﴿في دِينِ المَلِكِ﴾: حُكمِ ملكِ مِصر لأنّ جزاءه عِنده الضربُ وتغريمُ مِثلَي المسروقِ لا الاِسترقاقُ، ﴿إلاّ أن يَشاءَ اللهُ﴾ أخْذَه بحُكم أبيه، أي: لم يتمكّن من أخذه إلاّ بمشيئة الله ـ تعالى ـ بإلهامه سُؤالَ إخوته وجوابِهم بسُنّتهم. ﴿نَرفَعُ دَرَجاتٍ مَن نَشاءُ﴾ ـ بالإضافة والتنوين ـ في العِلم كيُوسف، ﴿وفَوقَ كُلِّ ذِي عِلمٍ﴾ من المخلوقِين ﴿عَلِيمٌ﴾ أعلمُ منه....

قولُه: (أي: السَّارِقِ) أو السَّرَقِ.

قولُه: (يُسترَقُّ) أي: جزاءُ سرقتِهِ أخذُ مَن وُجِدَ في رحلِهِ واستِرقاقُه.

قولُه: (سُنَّةَ) أي: شرعَ يعقوبَ.

قولُه: (ففتَّشَهَا) أي: يوسفُ، وقيل: المؤذِّنُ. وقولُه: ﴿قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيْهِ﴾ أي: نفياً للتُّهمةِ.

قولُه: (السَّاقِيَةَ) الأظهرُ: «السِّقايَةَ» كما في نسخةٍ.

قولُه: (أخْذَهُ) ظاهرُ كلامِهِ أنّه أرادَ الاستثناءَ المتَّصلَ، وهو غيرُ ظاهرٍ عند المتأمِّل، بل هو استثناءٌ منقطعٌ؛ أي: لكنْ أخذَه بمشيئةِ اللهِ، أو التَّقديرُ: إلَّا أن يشاءَ اللهُ أنْ يجعلَ ذلك الحكمَ حكمَ الملكِ، فالاستثناءُ من أعمِّ الأحوالِ.

قولُه: (بالإِضَافَةِ) غيرُ الكوفيِّ[1].

قولُه: (فِي العِلْمِ) أو بالعلمِ.

قولُه: (مِنَ المَخْلُوقِينَ) إذ الكلامُ فيهم.

قولُه: (أعلَمُ) إذ العليمُ الَّذي له العلمُ البالغُ منه؛ أي: كلِّ ذي علمٍ و(منهم) أي: «المخلوقينَ».

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٦١)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٦٣).

حتّى ينتهي إلى الله تعالى.

٧٧ ـ ﴿قالُوا: إن يَسرِقْ فقَد سَرَقَ أخٌ لَهُ مِن قَبلُ﴾ أي: يوسفُ. وكان سرقَ لأبي أُمّه صنمًا من ذهب، فكسره لئلاّ يَعبده. ﴿فأسَرَّها يُوسُفُ في نَفسِهِ، ولَم يُبدِها﴾: يُظهِرْها ﴿لَهُم﴾. والضمير للكلمة التي في قوله: ﴿قالَ﴾ في نفسه: ﴿أنتُم شَرٌّ مَكانًا﴾ من يُوسفَ وأخيه لسرقتكم أخاكم من أبيكم وظُلمكم له، ﴿واللهُ أعلَمُ﴾: عالمٌ ﴿بِما تَصِفُونَ﴾: تذكرون من أمره.

٧٨ ـ ﴿قالُوا: يا أيُّها العَزِيزُ، إنَّ لَهُ أبًا شَيخًا كَبِيرًا﴾ يُحبّه أكثرَ منّا، ويتسلّى به عن ولده الهالك، ويُحزنه فِراقه. ﴿فخُذْ أحَدَنا﴾: استعبدْه ﴿مَكانَهُ﴾: بدلاً منه. ﴿إنّا نَراكَ مِنَ المُحسِنِينَ﴾ في أفعالك.

٧٩ ـ ﴿قالَ: معاذَ اللهِ﴾ ـ نُصِبَ على المصدر حُذف فِعله وأُضيف إلى المفعول ـ أي: نعوذ بالله من ﴿أن نأخُذَ إلاّ مَن وَجَدْنا مَتاعَنا عِندَهُ﴾! لم يقل: «مَن سرق» تحرّزًا من الكذب. ﴿إنّا إذًا﴾: إن أخذنا غيره ﴿لَظالِمُونَ﴾.

قولُه: (حتّى ينتهِيَ) تقييدُ المخلوقينَ يُغنِي عن هذه الغايةِ، والمرادُ: ردُّ مَن زعمَ أنّه تعالى عالمٌ بذاتِه؛ إذ لو كانَ ذا علمٍ لكَانَ فوقَه مَن هو أعلمُ منه.

قولُه: (فكَسَرَهُ) وألقاهُ في الجِيَفِ.

قولُه: (والضَّمِيرُ للكَلِمةِ) يعنِي: أنّها كنايةٌ بشريطةِ التَّفسيرِ، وتفسيرُها قولُه: ﴿قال أنتم﴾ فإنَّه بدلٌ من ﴿أسرها﴾ وتأنيثُها باعتبارِ الكلِمَةِ أو الجملةِ، وفيه نظرٌ؛ إذ المفسَّرُ بالجملَةِ لا يكونُ إلّا ضميرَ الشَّأنِ، فالصَّحِيحُ أنَّ الضَّميرَ للقصَّةِ، أو المقالةِ، أو نسبةَ السَّرقةِ إليه.

قولُه: (مِن يُوسُفَ) والمكانُ بمعنى المنزلَةِ.

قولُه: (تذكُرُونَ) أي: هو يعلمُ أنَّ الأمرَ ليسَ كما تصفُونَ، ولا شكَّ أنّه أعلمُ به، فلا يظهرُ وجهُ تفسيرِ ﴿أعلم﴾ بـ«عالمٌ».

قولُه: (﴿كَبِيْراً﴾) في السِّنِّ، أو القَدْرِ، ذكرُوا له حالَه استعطافًا له عليهِ.

قولُه: (فِي أفعَالِكَ) أي: مِن المحسنينَ إلينا، فأتمِمْ إحسانك، أو مِن المتعوِّدينَ الإحسانَ، فلا تغيِّرْ عادتَك.

قولُه: (إنْ أَخَذْنَا غَيرَهُ) فإنَّ أخذَ غيرِه ظلمٌ على فتوَاكُم هذا، وإنَّ مرادَه أنَّ اللهَ تعالى أذِنَ أن نأخُذَ مَن وجدْنَا الصَّاعَ في رحلِهِ لمصلحتِهِ ورضاهُ عليه، فلو أخذْتُ غيرَه كنتُ ظالماً.

٨٠ ـ ﴿فلَمّا استَيْئَسُوا﴾: يئسوا ﴿مِنهُ خَلَصُوا﴾: اعتزلوا ﴿نَجِيًّا﴾ ـ مصدر يصلح للواحد وغيره ـ أي: يناجي بعضهم بعضًا، ﴿قالَ كَبِيرُهُم﴾ سِنًّا رَوبِيلُ أو رأيًا يَهوذَى: ﴿ألَم تعلَمُوا أنَّ أباكُم قَد أخَذَ علَيكُم مَوثِقًا﴾: عهدًا ﴿مِنَ اللهِ﴾ في أخيكم؟ ﴿ومِن قَبلُ ما﴾: زائدةٌ ﴿فَرَّطتُم في يُوسُفَ﴾، وقيل: ما مصدريّة مبتدأ خبره: من قبل. ﴿فلَن أبرَحَ﴾: أُفارقَ ﴿الأرضَ﴾ أرض مِصر ﴿حَتَّى يأذَنَ لِيَ أبِيَ﴾ بالعودة إليه، ﴿أو يَحكُمَ اللهُ لِي﴾ بخلاص أخي. ﴿وهُوَ خَيرُ الحاكِمِينَ﴾: أعدلُهم. ٨١ ـ ﴿ارجِعُوا إلَى أبِيكُم فقُولُوا: يا أبانا، إنَّ ابنَكَ سَرَقَ، وما شَهِدْنا﴾ عليه ﴿إلاّ بِما عَلِمْنا﴾: تَيَقَّنّا من مُشاهدة الصاع في رحله، ﴿وما كُنّا لِلغَيبِ﴾: لِما غاب عنّا حين إعطاء الموثقِ ﴿حافِظِينَ﴾ ـ ولو علمنا أنه يسرق لم نأخذه ـ ٨٢ ـ ﴿واسألِ القَريةَ الَّتِي كُنّا فِيها﴾ هي مِصر، أي: أرسل إلى أهلها فاسألهم، ﴿والعِيرَ﴾ أي: أصحابَ العِير ﴿الَّتِي أقبَلْنا فِيها﴾ ـ وهم قوم من كنعان ـ ﴿وإنّا لَصادِقُونَ﴾ في قولنا.

فرجعوا إليه، وقالوا له ذلك. ٨٣ ـ ﴿قالَ: بَل سَوَّلَتْ﴾: زيّنت........................

قولُه: (يَئِسُوا) أي: من إجابةِ يوسُفَ.

قولُه: (مَصْدرٌ) وهو حالٌ؛ أي: متناجِينَ.

قولُه: (يَهُوذَا) الأصحُّ أنّه شمعونُ، قال مجاهدٌ[1]: هو شمعونُ الذي تخلَّفَ، أكثرُهم عقلاً، وقال قتادةُ[2]: هو روبيل أكبرُهم في السِّنِّ، أخرجَ ذلك ابنُ أبي حاتمٍ، كذا في «المبهماتِ»[3] للمصنِّفِ.

قولُه: (عَهْداً) وثيقاً.

قولُه: (زائِدَةٌ) أي: ومِن قبلِ هذا قصَّرتُم في شأنِ يوسُفَ.

قولُه: (﴿مَا﴾ مصدَرِيَّةٌ) في مَوقِعِ النَّصبِ بالعطفِ على مفعُولِ ﴿تعلموا﴾.

قولُه: (مُبتَدَأٌ) فيه نظرٌ؛ لأنَّ ﴿قبل﴾ إذا كان خبراً لا يُقطَعُ عن الإضافةِ.

قولُه: (بخَلَاصِ أَخِي) أو بالخرُوجِ منها، و﴿يحكُم﴾ بمعنَى يقضِي.

قولُه: (لما غَابَ عنَّا) أي: للعواقبِ، فلم نَدْرِ حينَ أعطينَاكَ الموثِقَ أنَّه سيسرِقُ، أو المعنى: فلا ندرِي أنَّه سرَقَ، أو سُرِّقَ ودُسَّ الصَّاعُ في رحلِهِ.

قولُه: (زَيَّنَتْ) وسهَّلَتْ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩٦٢٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١١٨٥١).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩٦٢٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١١٨٥٢).

(٣) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ٥٩).

﴿لَكُم أنفُسُكُم أمرًا﴾ ففعلتموه. اتّهمَهم لِما سبق منهم من أمر يُوسف. ﴿فَصَبرٌ جَمِيلٌ﴾ صبري. ﴿عَسَى اللهُ أن يأتِيَنِي بِهِم﴾: بيُوسفَ وأخوَيه ﴿جَمِيعًا. إنَّهُ هُوَ العَلِيمُ﴾ بحالي ﴿الحَكِيمُ﴾ في صُنعه.

٨٤ ـ ﴿وتَوَلَّى عَنهُم﴾ تاركًا خِطابهم، ﴿وقالَ: يا أسَفا﴾ ـ الألف: بدل من ياء الإضافة ـ أي: يا حُزني ﴿علَى يُوسُفَ. وابيَضَّتْ عَيناهُ﴾: انمحق سوادهما، وبُدِّل بياضًا من بكائه ﴿مِنَ الحُزْنِ﴾ عليه، ﴿فهُوَ كَظِيمٌ﴾: مغموم مكروب لا يُظهر كربه.

٨٥ ـ ﴿قالُوا: تاللهِ﴾ لا ﴿تَفْتأُ﴾: تزال ﴿تَذكُرُ يُوسُفَ، حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾: مُشرفًا على الهلاك لطُول مرضك ـ وهو مصدر يستوي فيه الواحد وغيره ـ ﴿أو تَكُونَ مِنَ الهالِكِينَ﴾: المَوتى!

٨٦ ـ ﴿قالَ﴾ لهم: ﴿إنَّما أشكُو بَثِّي﴾ ـ هو عظيم الحُزن الذي لا يُصبَر عليه حتى يُبَثَّ إلى الناس ـ ﴿وحُزْنِيَ إلَى اللهِ﴾..

قولُه: (ففَعَلْتُمُوهُ) أي: أمراً أردتموهُ فقرَّرتموهُ، وإلَّا فما أَدْرَى الملِكَ أنَّ السَّارقَ يؤخذُ بسرقتِهِ؟

قولُه: (صَبرِي) أو أمْرِي، أو ﴿فصبرٌ جميلٌ﴾ أجملُ.

قولُه: (وأَخِيهِ) الظَّاهرُ: «وأخوَيه» كما في نسخَةٍ.

قولُه: (بحَالِي) وحالِهم.

قولُه: (تَارِكاً) أي: أعرَضَ عنهم كراهةَ ما صَادفَ منهم.

قولُه: (الأَلِفُ بدَلٌ) وفي «الصِّحاح»(١): يا أسفَاهُ؛ للنُّدبةِ، فحذف الهاء.

قولُه: (انمحَقَ) أي: انمحَا وذهبَ، وقيلَ: ضعُفَ بصرُه، وقيل: عَمِيَ.

قولُه: (لَا) حُذِفَ لأنَّه لا يلتبِسُ بالإثباتِ، فإنَّ القسَمَ إذا لم يكُنْ معه علامةُ الإثباتِ مِن اللامِ والنُّونِ كان على النَّفْيِ.

قولُه: (وهُو مصدَرٌ) يعنِي: في الأصلِ، وإنْ كانَ هنا نعتاً، وأمَّا النَّعتُ فهو بالكسرِ، وقد قُرِئ به(٢).

قولُه: (لا يُصبَرُ) بالبناءِ للمجهولِ.

قولُه: (حتَّى يُبَثَّ) أي: يُنشَرَ.

قولُه: (إلَى النَّاسِ) أو إلى اللهِ، وذكرُ الحُزنِ بعدَ البثِّ مِن بابِ التَّتميمِ واستيفاءِ التَّقسيمِ، كذا أفادهُ الفاضلُ.

---

(١) انظر: «الصحاح» (٣/ ١٠٨٢).

(٢) وانظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١٧٤)، و«الدر المصون» (٦/ ٥٤٧) ولم تنسب لأحد.

لا إلى غيره، فهو الذي تنفع الشكوى إليه، ﴿وأعلَمُ مِنَ اللهِ ما لا تَعلَمُونَ﴾، من أنّ رُؤيا يُوسف صِدق وهو حيّ. ٨٧ ـ ثم قال: ﴿يا بَنِيَّ، اذهَبُوا فتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وأخِيهِ﴾: اطلبوا خبرهما، ﴿ولا تَيأَسُوا﴾: تقنطوا ﴿مِن رَوحِ اللهِ﴾: رحمته. ﴿إنَّهُ لا يَيأَسُ مِن رَوحِ اللهِ إلاّ القَومُ الكافِرُونَ﴾.

فانطلقوا نحو مصر لِيوسف، ٨٨ ـ ﴿فلَمّا دَخَلُوا علَيهِ قالُوا: يا أيُّها العَزِيزُ، مَسَّنا وأهلَنا الضُّرُّ﴾: الجُوع، ﴿وجِئنا بِبِضاعةٍ مُزجاةٍ﴾: مدفوعة، يدفعها كُلّ من رآها لرداءتها، وكانت دراهمَ زُيوفًا أو غيرها. ﴿فأَوفِ﴾: أتِمَّ ﴿لَنا الكَيلَ، وتَصَدَّقْ عَلَينا﴾ بالمُسامحة عن رداءة بِضاعتنا. ﴿إنَّ اللهَ يَجزِي المُتَصَدِّقِينَ﴾: يُثيبهم. فرقَّ لهم وأدركته الرحمة ورفع الحِجاب بينه وبينهم، ٨٩ ـ ثمّ ﴿قالَ﴾ لهم توبيخًا: ﴿هَل عَلِمتُم ما فَعَلتُم بِيُوسُفَ﴾ من الضرب والبيع وغير ذلك، ﴿وأخِيهِ﴾ من هضمكم له بعد فراق أخيه، ﴿إذ أنتُم جاهِلُونَ﴾ ما يؤول إليه أمر يوسف؟

قولُه: (لَا إِلَى غَيرِهِ) مفهومٌ من الحصرِ المعلومِ مِن ﴿إنَّما﴾ بمعنى: ما، وإلَّا، قال الشَّاعر[١]:

وَلَئِـنْ شَـكَوْتَ إِلَـى العِبَـادِ فَإِنَّـما ... تَشْكُو الرَّحِيـمَ إِلَـى الَّـذِي لَا يَرْحَـمُ

قولُه: (وهُو حيٌّ) لا يموتُ حتَّى تخِرَّ له إخوتُه سُجَّداً.

قولُه: (رحمَتِهِ) أو من فرجِهِ وتنفيسِهِ، وقُرِئ بالضَّمِّ[٢]، أي: من رحمتِهِ التي يُحيي بها العبادَ.

قالَ تعَالى: (﴿الكافرون﴾) أي: باللهِ وصفاتِهِ، فإنَّ العارفَ بهما لا يقنَطُ مِن رحمتِهِ في شيءٍ مِن الأحوالِ.

قولُه: (لرَدَاءَتِها) أو قلَّتِهَا.

قولُه: (أَو غَيْرَها) صُوفاً وسمناً، وقيل: الصَّنوبرَ وحبَّةَ الخضراءِ.

قولُه: (بالمُسَامَحَة) أو بالزِّيادةِ على ما يساويها أو بردِّ أخينا، والتصدُّقُ في الأصلِ التَّفضُّلُ مطلَقاً، واختُلِفَ في أنَّ حُرمةَ الصَّدقةِ تعمُّ الأنبياءَ، أو تختصُّ بنبيِّنا عليه وعليهم أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ.

قولُه: (مِن الضَّربِ) أي: قُبْحَ ما فعلتُم فتبتُم عنه.

قولُه: (مِن هَضمِكُم) أي: من إذلالِهِ حتَّى لا يستطِيعَ أن يتكلَّمَ إلَّا بعجزٍ وذلَّةٍ، أو مِن إفرادِهِ عن يوسُفَ.

قولُه: (مَا يَؤُولُ) أو قبحَه، فلذلك أقدَمْتُم عليه، أو عاقبتَه، وإنَّما قالَ ذلك تنصُّحاً لهم وتحريضاً على التَّوبةِ، وشفَقةً عليهم لِمَا رأى مِن عجزِهم ومسكنتِهِم لا مُعاتبَةً وتثريباً[٣]، وإنَّما جهَّلَهم؛ لأنَّ فعلَهُم ذا فعلُ الجُهَّالِ.

---

(١) نسبها إلى الإمام زين العابدين صاحب «الكشكول» (١/ ٥٧) وكذلك صاحب «الدر الفريد» (١٠/ ٤١).

(٢) وهي قراءة شاذة، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٢٥١) ونسبت للحسن وقتادة وعمر بن عبد العزيز.

(٣) التثريب: الاستقصاء في اللوم. «تاج العروس» (٢/ ٨٣).

٩٠ ـ ﴿قَالُوا﴾ بعد أن عرفوه لِما ظهر من شمائله مُستثبِتِينَ: ﴿أَإِنَّكَ﴾ ـ بتحقيق الهمزتين وتسهيل الثانية، وإدخالِ ألف بينهما على الوجهين ـ ﴿لَأَنتَ يُوسُفُ؟ قَالَ: أَنَا يُوسُفُ، وهذا أَخِي، قَدْ مَنَّ﴾: أنعم ﴿اللهُ عَلَينا﴾ بالاجتماع. ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ﴾: يَخَفِ اللهَ ﴿ويَصبِرْ﴾ على ما يناله ﴿فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجرَ المُحسِنِينَ﴾. فيه وضع الظاهر موضعَ المُضمر.

٩١ ـ ﴿قَالُوا: تَاللهِ لَقَد آثَرَكَ﴾: فضّلك ﴿اللهُ عَلَينا﴾ بالمُلك وغيره، ﴿وَإِنْ﴾ ـ مُخفّفة ـ أي: إنّا ﴿كُنّا لَخاطِئِينَ﴾: آثمين في أمرك، فأذلّنا اللهُ لك! ٩٢ ـ ﴿قَالَ: لا تَثرِيبَ﴾: عتبَ ﴿عَلَيكُمُ اليَومَ﴾. خصّه بالذكر لأنه مَظِنّةُ التثريب، فغيرُه أولى. ﴿يَغفِرُ اللهُ لَكُم، وهُوَ أَرحَمُ الرّاحِمِينَ﴾. وسألهم عن أبيه، فقالوا: ذهبتْ عيناه. ٩٣ ـ فقال: ﴿اذهَبُوا بِقَمِيصِي هذا﴾ ـ وهو قميص إبراهيمَ الذي لبسه حين أُلقي في النار، كان في عُنقه في الجُبّ وهو من الجنّة، أمره جبريل بإرساله وقال: ....

قولُه: (تَسْهِيلِ الثَّانِيَةِ) نافعٌ وأبو عَمرٍو (وإدخَالِ ألفٍ) لقالونَ وأبي عمرٍو وهشامٍ بخُلْفِه[1]، وكان حقُّه أن يقولَ: وإدخالِ ألفٍ وتركِهِ.

وقولُه: (عَلَى الوَجْهَينِ) أي: التَّحقيقِ والتَّسهيلِ، وقرأ ابنُ كثيرٍ بالإخبارِ[2]، وأمَّا ما في بعضِ النُّسخِ: «وإبدالِ ألفٍ بينهُما» فخطأٌ فاحشٌ من وجُوهٍ على الوجهينِ.

قولُه: (يخَفِ) وقرأ قُنبُلٌ: (من يتقي) بإثباتِ الياءِ[3].

قولُه: (عَلَى مَا يَنَالُه) من البليَّاتِ، وعلى الطَّاعاتِ، وعن السَّيِّئاتِ.

قولُه: (مَوضِعَ المُضْمَر) للتَّنبيهِ على أنَّ المحسِنَ مَن جمعَ بينَ التَّقوى والصَّبرِ.

قولُه: (وَغَيرِه) من حُسنِ الصُّورةِ وكمالِ السِّيرةِ.

قولُه: (عَتَبَ) أي: ملامةَ، ومن كرمِ يوسُفَ أنَّهم لمَّا عرفوهُ أرسَلوا إليه، وقالوا: إنَّكَ تدعُونا بُكرةً وعشيَّةً إلى الطَّعامِ، ونحن نستَحيِي منك لِمَا فرَطَ منَّا فيكَ، فقال: إنَّ أهلَ مصرَ كانُوا ينظرُونَ إليَّ بالعينِ الأُولى ويقُولونَ: سبحانَ مَن بلَّغَ عبداً بِيعَ بعشرينَ درهماً ما بلغَ، ولقد شرُفْتُ بكُم وعظُمْتُ في عُيونِهم؛ حيثُ علِمُوا أنّكم إخوَتي وأنِّي من حفَدةِ إبراهيمَ[4].

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٣٢).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٥١).

(٣) انظر المصدر السابق.

(٤) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٥٠٣)، والرازي في «مفاتيح الغيب» (١٨/ ٥٠٦).

إنَّ فيه رِيحَها، ولا يُلقى على مُبتلًى إلاَّ عُوفيَ - ﴿فألقوهُ على وَجهِ أبِي، يأتِ﴾: يَصِرْ ﴿بَصِيرًا، وائتُوني بِأهلِكُم أجمَعِينَ﴾.

٩٤ - ﴿ولَمّا فَصَلَتِ العِيرُ﴾: خرجتْ من عريش مِصرَ ﴿قالَ أبُوهُم﴾ لمن حضر من بنيه وأولادهم: ﴿إنِّي لَأجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾. أوصلَتْه إليه الصَّبا بإذنه - تعالى - من مسير ثلاثة أيام أو ثمانية أو أكثر، ﴿لَولا أن تُفَنِّدُونِ﴾: تُسفِّهونِ لصَدَّقتموني. ٩٥ - ﴿قالُوا﴾ له: ﴿تاللهِ إنَّكَ لَفي ضَلالِكَ﴾: خطئك ﴿القَدِيمِ﴾ من إفراطِك في محبّته ورجاءِ لِقائه على بُعد العهد!

٩٦ - ٩٧ - ٩٨ - ﴿فلَمّا أن﴾ - زائدةٌ - ﴿جاءَ البَشِيرُ﴾ يَهوذَى بالقميص، وكان قد حمل قميص الدم فأحبَّ أن يُفرِحه كما أحزنه، ﴿ألقاهُ﴾: طرحَ القميصَ ﴿علَى وَجهِهِ، فارتَدَّ﴾: رَجَعَ ﴿بَصِيرًا، قالَ: ألَم أقُلْ لَكُم: إنِّيَ أعلَمُ مِنَ اللهِ ما لا تَعلَمُونَ؟ قالُوا: يا أبانا، استَغفِرْ لَنا ذُنُوبَنا، إنّا كُنّا خاطِئِينَ. قالَ: سَوفَ أستَغفِرُ لَكُم رَبِّيَ. إنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. أخَّرَ ذلك إلى السَّحر ليكون أقرب إلى الإجابة..........

قولُه: (﴿بَصِيراً﴾) أي: رجعَ ذا بصرٍ، فالإتيانُ مجازٌ عن الصَّيرورَةِ.

قولُه: (مِن عَريشِ مصْرَ) أي: عُمرانِها.

قولُه: (لمَنْ حضَرَ) أو لمن حضرَه.

قولُه: (تُسَفِّهونِ) أي: تنسبُوني إلى الفنَدِ؛ وهو نقصانُ عقلٍ يحدُثُ مِن هرَمٍ(١).

قولُه: (لصَدَّقتُموني) أو لقُلتُ: إنَّه قريبٌ، جوابُ ﴿لولا﴾.

قولُه: (خَطَئِكَ) أو ذهابِكَ عن الصَّوابِ، وقيل: في حبِّكَ.

قولُه: (في محبَّتِهِ) وإكثارِ ذكرِه.

قولُه: (طرَحَ) أي: البشيرُ أو يعقوبُ.

قولُه: (رَجعَ) لما انتعشَ فيه مِن القوَّةِ.

قالَ تعَالى: (﴿ما لا تعلمون﴾) أي: من حياةِ يوسُفَ وإنزالِ الفرَحِ.

قولُه: (إلَى السَّحَرِ) هذا قولُ ابنِ مسعودٍ(٢).

---

(١) انظر: «لسان العرب» (٣/ ٣٣٨).

(٢) رواه سعيد بن منصور في «التفسير» (١١٤٤)، والطبري في «تفسيره» (١٩٨٧٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١١٩٨٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٩/ ١٠٤) (٨٥٤٨).

وقيل: إلى ليلة الجُمعة.

ثمّ توجّهوا إلى مِصر، وخرج يُوسف والأكابر لتلقّيهم، ٩٩ ـ ﴿فلمّا دَخَلُوا علَى يُوسُفَ﴾ في مَضرِبه ﴿آوَى﴾: ضمّ ﴿إلَيهِ أَبَوَيهِ﴾: أباه وأُمّه أوخالتَه، ﴿وقالَ﴾ لهم: ﴿ادخُلُوا مِصرَ، إن شاءَ اللهُ، آمِنِينَ﴾. فدخلوا وجلس يُوسف على سريره.

١٠٠ ـ ﴿ورَفَعَ أَبَوَيهِ﴾: أجلسهما معه ﴿علَى العَرشِ﴾: السرير، ﴿وخَرُّوا﴾ أي: أبواه وإخوته ﴿لَهُ سُجَّدًا﴾ سُجودَ انحناءٍ لا وضعَ جبهةٍ ـ وكان تحيّتَهم في ذلك الزمان ـ ﴿وقالَ: يا أَبَتِ، هذا تأوِيلُ رُؤيايَ مِن قَبلُ، قَد جَعَلَها رَبِّي حَقًّا، وقَد أحسَنَ بِيَ﴾:........

قولُه: (وقيلَ) هذا حديثٌ مرفوعٌ، أخرجَه التِّرمذيُّ[١]، فتعبيرُه بـ«قيل» ضعيفٌ.

قولُه: (ثمَّ تَوجَّهُوا) كان أولادُه الذين دخلوا معهُ مصرَ اثنينِ وسبعينَ رجلاً وامرأةً، وكانُوا حين خرجُوا مع موسَى ستَّمئةِ ألفٍ وخمسمِئةٍ وبضعةً وسبعينَ رجلاً سوَى الذُّرِّيةِ والهَرمَى[٢].

قولُه: (في مَضرِبِهِ) أي: خيمتِهِ.

قولُه: (وأُمَّهُ) أي: راحيلَ.

قولُه: (أَو خالتَهُ) ريًا، نزَّلَها منزلةَ الأمِّ تنزيلَ العمِّ منزلةَ الأبِ في قولِه: ﴿وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل﴾ [البقرة:١٣٣] أو لأنَّ يعقوبَ تزوَّجَها بعد أمِّه، والرَّابَّةُ[٣] تُدعَى أمًّا.

قولُه: (فدَخَلُوا) والدُّخولُ الأوَّلُ كانَ في موضعِ خارجَ البلَدِ حينَ استقبلَهم كما أشارَ إليه الشَّيخُ بقولِه: «في مضربِهِ» والمشيئةُ متعلِّقةٌ بالدُّخولِ المكيَّفِ بالأمنِ مِن القَحْطِ وأصنافِ المكارِه.

قولُه: (سُجُودَ انحِنَاءٍ) وكان السُّجودُ عندَهُم يجري مجرَى التَّحيةِ[٤]، وقيل: معناهُ خرُّوا لأجلِه سُجَّداً لله شكراً[٥].

قال تعَالى: (﴿مِن قبل﴾) قال سلمانُ[٦]: كان بينَ رؤياهُ وتأويلِهَا أربعونَ عاماً.

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٧٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: هذا حديث غريب.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٢٧٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١١٩٥٧) و(١١٩٨٨) مع بعض اختلاف.

(٣) يقال لامرأة الرجل إذا كان له ولد من غيرها: ربيبة وهو الرَّابُّ، وهي: الرَّابَّة. «العين» للفراهيدي (٨/ ٢٥٧).

(٤) انظر: «تفسير الطبري» (١٦/ ٢٦٩، ٢٧٠)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٧/ ٢٢٠٢).

(٥) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١٧٧).

(٦) رواه عبد الرزاق في «التفسير» (١٢٧٣)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٠٥٢٧)، والطبري في «تفسيره» (١٩٩١١)، والحاكم في «المستدرك» (٨١٩٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٤٤٦). قال الذهبي: على شرط البخاري ومسلم.

إليَّ ﴿إذ أخرَجَني مِنَ السِّجنِ﴾ ـ ولم يقل: «من الجُبّ» تكرّمًا لئلاّ يَخجل إخوتُه ـ ﴿وجاءَ بِكُم مِنَ البَدْوِ﴾: البادية ﴿مِن بَعدِ أن نَزَغَ﴾: أفسد ﴿الشَّيطانُ بَيني وبَينَ إخوَتِي. إنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ. إنّهُ هُوَ العَلِيمُ﴾ بخلقه ﴿الحَكِيمُ﴾ في صُنعه.

وأقام عنده أبوه أربعًا وعشرين سنة أو سبعَ عشْرةَ سنة، وكانت مُدّة فِراقه ثمانيَ عشْرةَ أو أربعين أو ثمانين سنة، وحضره الموت فوصّى يُوسفَ أن يحمله ويدفنه عند أبيه، فمضى بنفسه ودفنه ثَمّةَ، ثمّ عاد إلى مصرَ وأقام بعده ثلاثًا وعشرين سنة. ولمّا تمّ أمره وعلم أنه لا يدوم تاقت نفسه إلى المُلك الدائم، فقال:

١٠١ ـ ﴿رَبِّ، قَد آتَيتَنِي مِنَ المُلكِ، وعَلَّمتَنِي مِن تأوِيلِ الأحادِيثِ﴾: تعبيرِ الرؤيا. ﴿فاطِرَ﴾: خالقَ ﴿السَّماواتِ والأرضِ، أنتَ وَلِيِّي﴾: مُتولّي مصالحي ﴿في الدُّنيا والآخِرةِ. تَوَفَّنِي مُسلِمًا وألحِقْنِي بِالصّالِحِينَ﴾ من آبائي. فعاش بعد ذلك أسبوعًا أو أكثر ومات، وله مِائَةٌ وعشرون سنة. وتشاحَّ المِصريّون في قبره، فجعلوه في صندوقِ مرمرٍ ودفنوه في أعلى النيل، لتعمّ البركة جانبَيه. فسُبحان من لا انقضاء لملكه!

١٠٢ ـ ﴿ذلِكَ﴾ المذكور من أمر يُوسف ﴿مِن أنباءِ الغَيبِ﴾: أخبارِ ما غاب عنك ـ يا مُحمّد ـ ﴿نُوحِيهِ إلَيكَ، وما كُنتَ لَدَيهِم﴾: لدى إخوةِ يُوسفَ ﴿إذ أجمَعُوا أمرَهُم﴾ في كيده،..............

قولُه: (مِن الجُبِّ) وهو أصعَبُ.

قولُه: (البَادِيَة) لأنّهم كانُوا أصحابَ المواشِي، وقيل: فلسطينَ.

قولُه: (أفسَدَ) وحرَّشَ.

قولُه: (وحضَرَهُ) أي: يعقُوبَ.

قولُه: (تاقَتْ) أي: اشتاقَتْ.

قولُه: (تَعبِيرِ الرُّؤيَا) و﴿من﴾ في الموضعَينِ للتَّبعيضِ.

قولُه: (خالِقَ) أو مبدعَ، وانتصابُه على أنَّه صفةُ المنادَى، أو منادًى برأسِهِ.

قولُه: (مُتولِّي) أو ناصرِي.

قولُه: (مِن آبَائِي) أو بعامَّةِ الصَّالحينَ في الرُّتبةِ والكرامَةِ.

قولُه: (جانبَيْهِ) ثمَّ نقلَه موسى إلى مَدفَنِ آبائهِ.

قولُه: (فِي كَيدِهِ) من أن يجعلُوهُ في غيابةِ الجُبِّ.

أي: عزموا عليه، ﴿وهُم يَمكُرُونَ﴾ به ـ أي: لم تحضرْهم، فتعرفَ قِصّتهم فتُخبرَ بها، وإنما حصل لك عِلمها من جهة الوحي ـ ١٠٣ ـ ﴿وما أكثرُ النّاسِ﴾ أي: أهلِ مكّة، ﴿ولَو حَرَصْتَ﴾ على إيمانهم، ﴿بمُؤمِنينَ﴾.

١٠٤ ـ ١٠٥ ـ ﴿وما تَسألُهم علَيهِ﴾ أي: القُرآنِ ﴿مِن أجرٍ﴾ تأخذه ـ ﴿إن﴾: ما ﴿هُوَ﴾ أي: القُرآن ﴿إلاّ ذِكرٌ﴾: عِظة ﴿لِلعالَمِينَ ـ وكَأيِّنْ﴾: وكم ﴿مِن آيةٍ﴾ دالّة على وحدانيّة الله ﴿في السَّماواتِ والأرضِ، يَمُرُّونَ علَيها﴾: يُشاهدونها، ﴿وهُم عَنها مُعرِضُونَ﴾: لا يتفكّرون فيها! ١٠٦ ـ ﴿وما يُؤمِنُ أكثَرُهُم باللهِ﴾ حيثُ يُقرّون بأنه الخالق الرازق، ﴿إلاّ وهُم مُشرِكُونَ﴾ به بعبادة الأصنام. ولذا كانوا يقولون في تلبيتهم: «لَبّيكَ لا شريكَ لكَ، إلاّ شريكًا هوَ لكَ، تَملِكُه وما مَلَكَ». يعنونها. ١٠٧ ـ ﴿أفأمِنُوا أن تأتِيَهُم غاشِيةٌ﴾: نِقمة تغشاهم ﴿مِن عَذابِ اللهِ، أو تأتِيَهُمُ السّاعةُ بَغْتةً﴾: فَجْأة، ﴿وهُم لا يَشعُرُونَ﴾ بوقت إتيانها قبله؟

١٠٨ ـ ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿هذِهِ سَبِيلِيَ﴾. وفسَّرَها بقوله: ﴿أدعُو إلَى﴾ دِينِ ﴿اللهِ، علَى بَصِيرةٍ﴾: حُجّة واضحة ﴿أنا ومَن اتَّبَعَني﴾: آمن بي ـ عطفٌ على «أنا» المبتدأِ المُخبرِ عنه بما قبله ـ ﴿وسُبحانَ اللهِ﴾: تنزيهًا له، عن الشُّركاء! ﴿وما أنا مِنَ المُشرِكِينَ﴾ من جُملة سبيله أيضًا.

١٠٩ ـ ﴿وما أرسَلْنا مِن قَبلِكَ إلاّ رِجالاً، يُوحَى﴾ ـ وفي قراءة بالنون وكسر الحاء ـ..........

قولُه: (بِهِ) وبأبيه ليُرسِلَه معَهم.

قولُه: (أي: القُرْآنِ) أو الأنباءِ.

قولُه: (عِظَةٌ) مِن اللهِ.

قولُه: (يُشاهِدُونَها) أي: الآياتِ.

قولُه: (بعِبادَت) أو باتِّخاذِ الأحبارِ أرباباً، ونسبةِ التَّبنِّي، أو القولِ بالنُّورِ والظُّلمةِ، أو النَّظرِ إلى الأسبابِ.

قولُه: (يَعنُونَها) أي: «الأصنامَ».

قولُه: (تَغْشاهُم) تشملُهُم.

قولُه: (فَجْأةً) من غيرِ سابقةِ علامةٍ.

قولُه: (قَبلَهُ) غيرَ مستعدِّينَ لها، بل مشتغلينَ بالدُّنيا، فيكونُ أشدَّ.

قولُه: (بمَا قَبلَهُ) وهو ﴿على بصيرة﴾ والأظهرُ أنَّ ﴿أنا﴾ تأكيدٌ للمُستترِ في ﴿أدعو﴾.

قولُه: (وفِي قِرَاءةٍ) لحفصٍ[1].

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٥١)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٦٥).

﴿إِلَيهِم﴾ لا ملائكةً، ﴿مِن أهلِ القُرَى﴾: الأمصارِ لأنهم أعلمُ وأحلمُ بخلاف أهل البوادي لجفائهم وجهلهم. ﴿أفلَم يَسِيرُوا﴾ أهلُ مكّة ﴿في الأرضِ، فيَنظُرُوا: كَيفَ كانَ عاقِبةُ الَّذِينَ مِن قَبلِهِم﴾ أي: آخرُ أمرهم من إهلاكهم بتكذيبهم رسلَهم؟ ﴿ولَدارُ الآخِرةِ﴾ أي: الجنّةُ ﴿خَيرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوا﴾ اللهَ. ﴿أفلا يَعقِلُونَ﴾ بالياء، والتاء: يا أهلَ مكة هذا فتؤمنون؟

١١٠ ـ ﴿حَتَّى﴾: غايةٌ لِما دلّ عليه «وما أرسَلْنا مِن قَبلِكَ إلاّ رِجالاً» أي: فتراخى نصرهم، حتّى ﴿إذا استَيْئَسَ﴾: يئس ﴿الرُّسُلُ، وظَنُّوا﴾: أيقنَ الرسل ﴿أَنَّهُم قَد كُذِّبُوا﴾، بالتشديدِ: تكذيبًا لا إيمان بعده، والتخفيفِ أي: ظنّ الأُمم أنّ الرسل أُخلِفوا ما وُعدوا به من النصر، ﴿جاءَهُم نَصرُنا. فنُنَجِّي﴾ ـ بنونينِ مُشدّدًا ومُخففًا، وبنونٍ مُشدّدًا:..

قولُه: (لَا ملائكَةً) ردٌّ لقولِهم: ﴿لو شاء ربنا لأنزل ملائكة﴾ وقيل: معناه نفيُ استنباءِ النِّساءِ[١].

قولُه: (وأحْلَمُ) أي: أكثرُ حِلْماً، وهو المناسبُ لمقابلةِ جفاءِ البدْوِ، وفي نسخةٍ: «أحكمُ» أي: أتقنُ أموراً.

قولُه: (آخِرُ أَمْرِهِم) فيحذَرُوا تكذِيبَكَ، أو مِن المشغُوفِينَ في الدُّنيا المتهالِكينَ عليها، فينقلِعُوا عن حبِّها.

قولُه: (أي: الجَنَّةُ) تفسيرٌ للدَّارِ، والتَّقديرُ: ولدارُ الحالِ أو السَّاعةِ، أو الحياةِ الآخرَةِ.

قولُه: (والتَّاءِ) الخطابُ، نافعٌ وشاميٌّ وعاصمٌ[٢].

قولُه: (هذَا) مفعولٌ؛ أي: كونَ الدَّارِ الآخرةِ خيراً.

قولُه: (لِما دلَّ...) إلخ؛ أي: لِمَا دلَّ عليه الكلامُ؛ أي: لا يغرُرهُم تمادِي أيَّامِهم، فإنَّ مَن قبلَهُم أُمهِلوا حتَّى أيسَ الرُّسلُ عن النَّصرِ عليهم في الدُّنيا، أو عن إيمانِهم لانهمَاكِهم في الكفرِ.

قولُه: (بالتَّشدِيدِ) غيرُ الكوفيِّ[٣].

قولُه: (لَا إِيمَانَ بعدَهُ) أو أنَّ القومَ كذَّبوهُم فيما أوعدُوهُم.

قولُه: (مُشدَّداً) أي: جيمُه لم يقرَأْ به أحدٌ من القُرَّاءِ السَّبعةِ، ولا العشرةِ[٤].

قولُه: (ومُخفَّفاً) غيرُ الشَّاميِّ وعاصمٍ[٥].

---

(١) وانظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٢٢)

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٥٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٦٥).

(٣) انظر المصادر السابقة: (ص: ٣٥١)، و(ص: ٣٦٧).

(٤) انظر: «المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢٤٨)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٩٦).

(٥) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٥٢)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٦٧).

ماض ـ ﴿مَن نَشاءُ، ولا يُرَدُّ بأسُنا﴾: عذابنا ﴿عَنِ القَومِ المُجرِمِينَ﴾: المُشركين.

١١١ ـ ﴿لَقَد كانَ في قَصَصِهِم﴾ أي: الرسلِ ﴿عِبْرةٌ لِأُولِي الألبابِ﴾: أصحاب العقول. ﴿ما كانَ﴾ هذا القُرآن ﴿حَدِيثًا يُفتَرَى﴾: يُختلق، ﴿ولكِن﴾ كان ﴿تَصدِيقَ الَّذِي بَينَ يَدَيهِ﴾: قبله من الكُتب ﴿وتَفصِيلَ﴾: تبيينَ ﴿كُلِّ شَيءٍ﴾ يُحتاج إليه في الدِّين ﴿وهُدًى﴾ من الضلالة ﴿ورَحْمَةً لِقَومٍ يُؤمِنُونَ﴾. خُصّوا بالذكر لانتفاعهم به دون غيرهم.

قولُه: (ماضٍ) مجهولٌ.

قولُه: (المُشرِكِينَ) إذا نزلَ بهم.

قولُه: (أي: الرُّسُلِ) وأممِهِم، أو يوسُفَ وإخوتِهِ.

قولُه: (يُختلَقُ) أي: مُختلَقاً مُفتعلاً.

قولُه: (مِن الكتبِ) الإلهيَّةِ.

قولُه: (فِي الدِّينِ) إذ ما منْ أمرٍ دينيٍّ إلَّا وله سندٌ منَ القرآنِ بوسطٍ، أو غيرِ وسطٍ.

قالَ تعَالى: (﴿ورحمةً﴾) ينالُ بها خيرَ الدَّارينِ، واللهُ أعلمُ.

***

سُورَةُ يُوسُفَ
عليه السلام

مكيةٌ كلُّها على المعتمَد، وروي عن ابن عباس وقتادةَ أنهما قالا: إلَّا ثلاثَ آياتٍ من أوَّلها. واستثنى بعضُهم رابعةً، وهي قوله سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ وكلٌّ ذلك واهٍ جدًّا لا يُلتفتُ إليه، وما اعتمدناه كغيرنا هو الثابتُ عن الحبر، وقد أخرجه النحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عنه[1]، وأخرجه الأخير عن ابن الزبير[2]، وهو الذي يقتضيه ما أخرجه الحاكم وصحَّحه عن رفاعة بن رافع من حديثٍ طويل يحكي فيه قدومَ رافعٍ مكةَ وإسلامه وتعليم رسول الله ﷺ إياه هذه السورة، و(ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ)[3].

وآيها مئةٌ وإحدى عَشْرةَ آيةً بالإجماع على ما نُقل عن الداني وغيره.

وسببُ نزولها على ما روي عن سعد بن أبي وقاص أنه أنزل القرآن على رسول الله عليه الصلاة والسلام، فتلاه على أصحابه زماناً، فقالوا: يا رسول الله، لو قصَصْتَ علينا. فنزلت[4].

---

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٤٧٤، وعزاه لأبي الشيخ وابن مردويه السيوطي في الدر ٤/ ٢.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢.

(٣) المستدرك ٤/ ١٤٩ من طريق يحيى بن محمد المدني الشجري، عن عبد بن يحيى، عن معاذ بن رفاعة بن رافع، عن أبيه، وتعقب الذهبي تصحيح الحاكم بقوله: يحيى الشجري صاحب مناكير. اهـ.

(٤) أخرجه ابن حبان (٦٢٠٩)، وأبو يعلى (٧٤٠)، والبزار (٣٢١٨)، والحاكم ٢/ ٣٤٥، وصححه.

وقيل: هو تسليةُ الرسول ﷺ عمَّا يفعلُه به قومُه بما فعلتْ إخوةُ يوسفَ عليه السلام به.

وقيل: إنَّ اليهود سألوه ﷺ أن يحدِّثهم بأمر يعقوب وولدِه، وشأنِ يوسفَ وما انتهى إليه، فنزلت.

وقيل: إنَّ كفار مكة أمرتهم اليهودُ أن يسألوا رسول الله ﷺ عن السبب الذي أحلّ بني إسرائيل بمصر، فسألوه فنزلت.

ويُبْعِدُ القولين الأخيرين فيما زعموا ما أخرجه البيهقيُّ في «الدلائل» من طريق الكلبيِّ عن أبي صالح عن ابن عباس أنَّ حبراً من اليهود دخل على رسول الله ﷺ فوافقه وهو يقرأ سورة يوسف، فقال: يا محمد مَن علَّمَكها؟ قال: «اللهُ علَّمنيها» فعَجِبَ الحبرُ لِمَا سمع منه، فرجع إلى اليهود فقال لهم: والله إنَّ محمداً ليقرأ القرآن كما أنزل في التوراة! فانْطَلقَ بنفرٍ منهم حتى دخلوا عليه فعرفوه بالصفة، ونظروا إلى خاتم النبوَّة بين كتفيه، فجعلوا يستمعون إلى قراءة سورة يوسف، فتعجَّبوا وأسلموا عند ذلك(١). وفي القلب من صحة الخبر ما فيه.

ووجهُ مناسبتها للتي قبلها اشتمالُها على شرح ما قاساه بعضُ الأنبياء عليهم السلام من الأقارب، وفي الأُولى ذِكْرُ ما لقُوا من الأجانب.

وأيضاً قد وقع فيما قبلُ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] وقوله سبحانه: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣] ووقع هنا حالُ يعقوب مع أولاده وما صارت إليه عاقبةُ أمرهم مما هو أقوى شاهدٍ على الرحمة.

وقد جاء عن ابن عباس وجابر بن زيد أن «يونس» نزلت، ثم «هود» ثم «يوسف»، وعُدَّ هذا وجهاً آخر من وجوه المناسبة.

---

(١) دلائل النبوة ٦/٢٧٦، والكلبي قال عنه الجوزجاني وغيره: كذاب. وقال الدارقطني وجماعة: متروك. الميزان ٣/٥٥٩.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر﴾ الكلامُ فيه وفي نظائره شهيرٌ، وقد تقدَّم لك منه ما فيه إقناعٌ، والإشارةُ في قوله سبحانه: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ إليه في قولٍ، وإلى آياتِ هذه السورة في آخر، وأُشيرَ إليها مع أنها لم تُذْكَر بعدُ لتنزيلها لكونها مترقَّبةً منزلةَ المتقدِّم، أو لجعل حضورها في الذهن بمنزلةِ الوجود الخارجيِّ. والإشارةُ بما يُشار به للبعيد: أمَّا على الثاني فلأنَّ ما أُشير إليه لَمَّا لم يكن محسوساً نزِّل منزلةَ البعيد لبُعْدِه عن حيِّز الإشارة أو لعظمِهِ[1] وبُعْدِ مرتبته، وعلى غيره لذلك أو لأنه لَمَّا وصل من المرسِل إلى المرسَلِ إليه صار كالمتباعد.

وزعم بعضهم أنَّ الإشارة إلى ما في اللوح، وهو بعيد، وأبعدُ من ذلك كونُ الإشارة إلى التوراة والإنجيل، أو الآيات التي ذُكرت في سورة هود.

والمرادُ بالكتاب إما هذه السورةُ أو القرآن. وقد تقدَّم لك في «يونس» ما يؤنِسُكَ تذكُّرُه هنا، فتذكَّرْ.

﴿ٱلۡمُبِينِ ۝١﴾ من أبان بمعنى بان، أي: ظهر، فهو لازمٌ، أي: الظاهر أمرُه في كونه من عند الله تعالى وفي إعجازه، أو الواضح معانيه للعرب بحيث لا تَشْتَبِهُ عليهم حقائقُه، ولا تلتبِسُ عليهم دقائقُه، وكأنه على المعنيين حُذِفَ المضافُ وأقيمَ المضافُ إليه مقامه فارتفع واستتر، ولا يُعدُّ هذا من حَذْفِ الفاعل المحظور، فلا حاجةَ إلى القول بأنَّ الإسناد مجازيٌّ فراراً منه. أو بمعنى بيَّن بمعنى أَظْهَرَ، فهو متعدٍّ والمفعولُ مقدَّرٌ، أي: المُظْهِر ما فيه هدًى ورشدٌ، أو ما سَألتْ عنه اليهود[2]، أو ما أَمَرَتْ أن تُسألَ عنه من السبب الذي أحلَّ بني إسرائيل بمصر، أو الأحكامَ والشرائعَ وخفايا الملك والملكوت وأسرارَ النشأتين، وغيرَ ذلك من الحِكَم والمعارف والقصص.

---

(١) في (م): العظمة، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٥/ ١٥١، والكلام منه.

(٢) جاء في هامش الأصل و(م): وفي الكلام على هذا براعة استهلال فافهم. اهـ منه.

وعن ابن عباس ومجاهد الاقتصارُ على الحلال والحرام وما يُحتاج إليه في أمر الدين.

وأخرج ابن جرير عن خالد بن معدان عن معاذٍ رضي الله عنه أنه قال في ذلك: بيَّن الله تعالى فيه الحروفَ التي سقطت عن أَلْسُنِ الأعاجم، وهي ستة أحرف: الطاء، والظاء، والصاد، والضاد، والعين، والحاء المهملتان. والمذكورُ في «الفرهنك» وغيره من الكتب المؤلَّفة في اللغة الفارسية أنَّ الأحرف الساقطة ثمانيةٌ، ونَظَم ذلك بعضُهم فقال:

هَشْتْ حَرْفَسْتْ آنْكه أَنْدَرْ فارسي نايْذهَمِي
تَانَيَاموزِي نَبَاشِي أَنْدَرِين مَغْنى معَافْ
بشنو أكنون تاكدَامَ اسْتْ آن حُرُوف ويَادْ كِيْرْ
ثا وحا وصاد ضاد وطا وظا وعين وقافْ

ومع هذا فالأمرُ مبنيٌّ على الشائع الغالب، وإلَّا فبعضُ هذه الأحرف موجودٌ في بعض كلماتهم كما لا يخفى على المتتبِّع.

ولعل الوصف على الأقوال الأُوَلِ أَمْدَحُ منه على القول الأخير، والظاهرُ أنَّ ذلك وصفٌ له باعتبار الشرف الذاتيِّ، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ وصفٌ له باعتبار الشرف الإضافي، وضميرُ الغائب للكتاب السابق ذكرُه، فإنْ كان المراد به القرآنَ كلَّه كما هو الظاهر المناسبُ للحال فذاك، وإن كان المرادُ به هذه السورةَ، فتسميتُه قرآناً لأنه اسمُ جنسٍ يقع على الكثير والقليل، فكما يطلق على الكلِّ يطلق على البعض، نعم إنه غلبَ على الكلِّ عند الإطلاق معرَّفاً لتبادُرِه، وهل وصل بالغلبة إلى حدِّ العَلَمية أوْ لا؟ فيه خلافٌ، وإلى الأوَّل ذهب البيضاويُّ قدِّسَ سرُّه[1] فتلزمُه الألف واللام، ومع ذلك لم يُهْجَرِ المعنى الأول، ووقع في كتب الأصول أنه وضع تارةً للكلِّ خاصةً، وأخرى لِمَا يعمُّه والبعضَ، أعني الكلامَ المنقول في المصحف تواتراً. ونُظِرَ فيه بأنَّ الغلبة ليس لها وضعٌ ثانٍ، وإنما هي تخصيصٌ لبعض أفراد الموضوع له، ولذا لزمَتِ العَلَمَ بها اللامُ أو الإضافةُ، إلا أنْ

(١) في تفسيره مع حاشية الشهاب ٥/ ١٥٢.

يُدَّعَى أنَّ فيها وضعاً تقديريًا، كذا قيل، وممن صرَّح بأنَّ التعيين بالغلبة قسيمٌ للتعيين بالوضع العلَّامةُ الزرقانيُّ وغيره، لكنْ تَعقَّبه الحمصيُّ فقال: إنَّ دلالة الإعلام بالغلبة على تعيين مسمَّاها بالوضع وإن كان غيرَ الوضع الأول، فليتأمَّل.

وعن الزجَّاج وابنِ الأنباريِّ أنَّ الضمير لنبأ يوسف[١]، وإن لم يذكر في النظم الكريم.

وقيل: هو للإنزال المفهوم من الفعل، ونَصْبُه على أنه مفعولٌ مطلقٌ، و«قرآناً» هو المفعولُ به. والقولان ضعيفان كما لا يخفى.

ونصب «قرآناً» على أنه حالٌ وهو بقَطْعِ النظر عمَّا بعده وعن تأويله بالمشتقِّ حالٌ موطِّئةٌ للحال التي هي «عربيًّا»، وإن أوِّل بالمشتقِّ ـ أي: مقروءاً ـ فحالٌ غيرُ موطئة، و«عربيًّا» إما صفتُه على رأي مَن يجوِّز وصفَ الصفة، وإما حالٌ من الضمير المستتر فيه على رأي مَن يقول بتحمُّل المصدر الضميرَ إذا كان مؤوَّلاً باسم المفعول مثلاً.

وقيل: «قرآناً» بدلٌ من الضمير، و«عربيًّا» صفتُه، وظاهرُ صنيع أبي حيان يقتضي اختيارَه[٢]. ومعنى كونه عربيًّا أنه منسوبٌ إلى العرب باعتبار أنه نزل بلغتهم، وهي لغةٌ قديمة؛ أخرج ابن عساكر في «التاريخ» عن ابن عباس: أنَّ آدم عليه السلام كان لغتُه في الجنة العربيةَ، فلمَّا أكل الشجرة سُلِبَها فتكلَّم بالسريانية، فلمَّا تاب ردَّها الله تعالى عليه[٣].

وقال عبد الملك بن حبيب[٤]: كان اللسانُ الأولُ الذي هبط به آدمُ عليه السلام من الجنة عربيًّا، إلى أنْ بَعُدَ وطال العهدُ حرِّف وصار سريانيًّا، وهو منسوبٌ إلى أرض سورية وهي أرضُ الجزيرة، وبها كان نوحٌ عليه السلام وقومُه قبل الغرق، وكان يشاكلُ اللسانَ العربيَّ إلا أنه محرَّفٌ، وكان أيضاً لسانَ جميع مَن في السفينة

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٨٧، وذكره عنه وعن ابن الأنباري أبو حيان في البحر ٥/ ٢٧٧.

(٢) النهر الماد من البحر ٥/ ٢٧٦، والبحر ٥/ ٢٧٧، ولعل قَصْد المصنف من قوله: وظاهر صنيع أبي حيان. . .، أن أبا حيان لم يذكر في النهر غير البدلية، وقد ذكر في البحر القولين: البدلية والحالية، دون اختيارٍ لأيٍّ منهما.

(٣) تاريخ ابن عساكر ٧/ ٤٠٦-٤٠٧.

(٤) كما في المزهر للسيوطي ١/ ٣٠-٣١، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

إلا رجلاً واحداً يقال له: جرهم، فإنه كان لسانُه العربيَّ الأولَ، فلمَّا خرجوا من السفينة تزوَّج إرمُ بنُ سام بعضَ بناته وصار اللسانُ العربيُّ في ولده عوص أبي عاد وعبيل، وجائر أبي ثمود وجديس، وسمِّيت عادٌ باسم جرهم لأنه كان جدَّهم من الأمِّ، وبقي اللسانُ السريانيُّ في ولد أرفخشد بن سام إلى أن وصل إلى [يشجب بن] قحطان من ذريته وكان باليمن، فنزل هناك بنو إسماعيل عليه السلام فتعلَّم منهم بنو قحطان اللسانَ العربيَّ.

وقال ابن دحيةَ[1]: العربُ أقسام: الأول عاربةٌ وعرباءُ وهم الخلَّص، وهم تسعُ قبائل من ولد إرم بن سام بن نوح، وهي عاد، وثمود، وأميم، وعبيل، وطسم، وجديس، وعمليق، وجرهم، ووبار، ومنهم تعلَّم إسماعيلُ عليه السلام العربيةَ. والثاني المتعرِّبة؛ قال في «الصحاح»: وهم الذين ليسوا بخلَّصٍ[2]، وهم بنو قحطان. والثالث المستعربةُ، وهم الذين ليسوا بخلَّصٍ أيضاً، وهم بنو إسماعيل، وهم ولدُ معد بنِ عدنان بن أدد. اهـ.

وقال ابن دريد في «الجمهرة»: العربُ العاربةُ سبعُ قبائلَ: عاد، وثمود، وعمليق، وطسم، وجديس، وأميم، وجاسم، وقد انقرض أكثرهم إلا بقايا متفرِّقين من القبائل، وأولُ مَن انْعدَلَ لسانُه عن السريانية إلى العربية يعرب بنُ قحطان[3]. وهو مرادُ الجوهريِّ بقوله: إنه أولُ مَن تكلَّم بالعربية[4].

واستدلَّ بعضُهم على أنه أولُ مَن تكلَّم بها بما أخرجه ابن عساكر في «التاريخ» بسندٍ رواه عن أنس بن مالك موقوفاً ـ ولا أراه يصحُّ ـ ذَكَر فيه تَبَلْبُلَ الألسنة ببابل، وأنه أولُ مَن تكلَّم بالعربية[5].

---

(١) مجد الدين، أبو الخطاب عمر بن حسن بن علي، وكان يذكر أنه من ولد دحية ﷺ، كان بصيراً بالحديث حسن الخط، معروفاً بالضبط، له حَظٌّ وَافٍ من اللغة ومشاركة في العربية، توفي سنة (٦٣٣هـ). سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٨٩. ونقل المصنف كلامه من المزهر ١/ ٣١.

(٢) الصحاح (عرب)، والكلام من المزهر ١/ ٣١.

(٣) جمهرة اللغة ١/ ٢٦٦، ونقله المصنف عنه بواسطة السيوطي في المزهر ١/ ٣١-٣٢.

(٤) الصحاح (عرب)، والمزهر ١/ ٣٢.

(٥) تاريخ ابن عساكر ١/ ٣٥٤، والمزهر ١/ ٣٢.

وأخرج الحاكم في «المستدرك» وصححه، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» من طريق سفيان الثوريِّ، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر ﷺ، أنَّ رسول الله ﷺ تلا هذه الآية (إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا) إلخ ثم قال: «أُلهم إسماعيل عليه السلام هذا اللسان العربيَّ إلهاماً»(١).

وقال الشيرازيُّ في كتاب «الألقاب»: أخبرنا أحمد بن إسماعيل المعداني(٢)، أخبرنا محمد بن أحمد بن إسحاق الماشي، حدثنا محمد بن جابر، حدثنا أبو يوسف بن السكيت قال: حدثني الأثرم، عن أبي عبيدة، حدَّثنا مسمع بن عبد الملك، عن محمد بن علي بن الحسين، عن آبائه رضي الله عنهم أجمعين، عن النبيِّ ﷺ قال: «أولُ مَن فُتق لسانه بالعربية المبينةِ إسماعيل عليه السلام، وهو ابن أربعَ عَشْرَةَ سنةً»(٣). ورُوي أيضاً عن ابن عباس أنَّ إسماعيل عليه السلام أولُ مَن تكلَّم بالعربية المحضة. وأُريدَ بذلك ـ على ما قاله بعضُ الحفَّاظ ـ عربيةُ قريش(٤) التي نزل بها القرآن، وإلَّا فاللغةُ العربيةُ مطلقاً كانت قبل إسماعيل عليه السلام، وكانت لغةَ حمير وقحطان.

وقال محمد بن سلام: أخبرني يونس عن أبي عمرو بن العلاء قال: العربُ كلُّها ولدُ إسماعيل إلا حمير وبقايا جرهم، وقد جاوَرَهم وأَصْهَر إليهم(٥).

وذكر ابنُ كثير(٦) أنَّ من العرب مَن ليس من ذريته كعادٍ وثمودَ وطَسْمٍ وجَدِيسٍ

---

(١) المستدرك ٢/ ٤٣٩، والشعب (١٦٢٠)، والمزهر ١/ ٣٣، والكلام منه. وتعقب الذهبي تصحيح الحاكم بقوله: مدار الحديث على إبراهيم بن إسحاق العسيلي وكان ممن يسرق الحديث.

(٢) في الأصل و(م): المداني، والمثبت من المزهر ١/ ٣٤.

(٣) المزهر ١/ ٣٤، وعزاه السيوطي أيضاً في الجامع الصغير كما في فيض القدير ٢/ ٩٢ للشيرازي في الألقاب من حديث علي ﷺ، ورمز لحسنه، وأخرجه من حديث علي أيضاً الزبير بن بكار في النسب بإسناد حسن كما قال ابن حجر في الفتح ٣/ ٤٣. وعزاه المناوي للطبراني والديلمي من حديث ابن عباس ونقل عن ابن حجر قوله: وإسناده حسن.

(٤) جاء في هامش الأصل و(م): وصححوا أن العربية المحضة كانت بتوقيف منه تعالى لإسماعيل عليه السلام. اهـ منه.

(٥) طبقات فحول الشعراء ١/ ٩، والمزهر ١/ ٣٣.

(٦) في البداية والنهاية ٣/ ١٠٠-١٠٢، ونقله المصنف بواسطة السيوطي في المزهر ١/ ٣٣-٣٤.

وأُميم وجُرْهم والعماليق، وأمم غيرِهم لا يعلمهم إلا الله سبحانه كانوا قبل الخليل عليه السلام وفي زمانه، وكان عربُ الحجاز من ذريته[١]، وأمَّا عربُ اليمن - وهم حميرُ - فالمشهورُ كما قال ابن ماكولا: أنهم من قحطان واسمه مهرِّم[٢]، وهو ابن هود، وقيل: أخوه، وقيل: من ذريته، وقيل: قحطان هو هود. وحكى ابن إسحاق[٣] وغيرُه أنه من ذرية إسماعيل.

والجمهورُ على أنَّ العرب القحطانيةَ من عرب اليمن وغيرهم ليسوا من ذريته عليه السلام[٤]، وأنَّ اللغة العربية مطلقاً كانت قبله وهي إحدى اللغاتِ التي عُلِّمها آدم عليه السلام وكان يتكلَّم بها وبغيرها أيضاً، وكثُر تكلُّمه - فيما قيل - بالسريانية.

وادَّعى بعضُهم أنها أولُ اللغات، وأنَّ كلَّ لغةٍ سواها حدثت بعدها إمَّا توقيفاً أو اصطلاحاً، واستدلُّوا على أسبقيتها وجوداً بأنَّ القرآن كلامُ الله تعالى وهو عربيٌّ، وفيه ما فيه.

وهي أفضلُ اللغات، حتى حكى شيخُ الإسلام ابنُ تيمية عن الإمام أبي يوسفَ عليه الرحمةُ كراهةَ التكلُّم بغيرها لمن يُحْسِنُها من غير حاجةٍ[٥].

وبعدها في الفضل على ما قيل: الفارسية الدرية[٦] حتى روي[٧] عن الإمام

---

(١) جاء في هامش الأصل و(م): وذكر بعضهم أنهم كانوا أربعة إخوة: قحطان وقاحط ومقحط وفالغ، وفي قحطان الخلاف. اهـ منه. وينظر المزهر ١/ ٣٤.

(٢) الإكمال لابن ماكولا ٧/ ٣٠٥، وفيه أن مهرِّم براء مشددة مكسورة هو اسم قحطان. وقوله: وأما عرب اليمن وهم حمير فالمشهور أنهم من قحطان، ليس من كلام ابن ماكولا كما توهم عبارة المصنف. وجاءت العبارة في البداية والنهاية والمزهر: وأما عرب اليمن وهم حمير فالمشهور أنهم من قحطان، واسمه مهرِّم، قاله ابن ماكولا. وتصحفت مهرم إلى مهزم بالزاي في كل من الأصل و(م)، ومطبوع البداية والنهاية والمزهر.

(٣) كما في سيرة ابن هشام ١/ ٧.

(٤) إلى هذا الموضع ينتهي كلام ابن كثير.

(٥) ذكر ذلك ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٤٦٤ عن بعض الصحابة والتابعين، وذكره أيضاً عن الشافعي، ولم نقف فيه على نقل عن أبي يوسف في هذه المسألة.

(٦) أي: الفصيحة. ينظر حاشية ابن عابدين ١/ ٤٨٣.

(٧) جاء عندها في هامش الأصل: وفي رواية عنه أنه لا فرق في ذلك بين الفارسية وغيرها من اللغات. اهـ منه. ووقع هذا في حاشية (م) عند قوله: الدرية.

أبي حنيفةَ ﷺ جوازُ قراءة القرآن بها، سواءٌ في ذلك ما كان ثناءً كالإخلاص وغيره، وسواءٌ كانت عن عَجْزٍ عن العربية أم لا، وروي عن صاحبيه جوازُ القراءة في الصلاة بغير العربية لمن لا يُحْسِنُها[١].

وفي «النهاية»[٢] و«الدراية»[٣] أنَّ أهل فارس كتبوا إلى سلمان الفارسيِّ أن يكتب لهم الفاتحةَ بالفارسية فكتب، فكانوا يقرؤون ما كتب في الصلاة حتى لانت ألسنتُهم، وقد عَرَضَ ذلك على النبيِّ عليه الصلاة والسلام ولم ينكِرْ عليه[٤]. نعم الصحيحُ أنَّ الإمام رجع عن ذلك[٥].

وفي «النفحة القدسية في أحكام قراءة القرآن وكتابته بالفارسية» للشرنبلالي ما ملخَّصُه: حرمةُ كتابةِ القرآن بالفارسية إلَّا أن يُكْتب[٦] بالعربية ويُكتَبَ تفسيرُ كلِّ حرفٍ وترجمتُه، وحرمةُ مسِّه لغيرِ الطاهر اتِّفاقاً كقراءته، وعدمُ صحة الصلاة بافتتاحها بالفارسية، وعدمُ صحتها بالقراءة بها إذا كانت ثناءً واقتصاره عليها مع القدرة على العربية، وعدمُ الفساد بما هو ذِكْرٌ وفسادُها بما ليس ذكراً بمجرَّد قراءته، ولا يخرج عن كونه أميًّا وهو يعلم الفارسية فقط، وتصحُّ الصلاة بدون قراءةٍ للعجز عن العربية على الصحيح عند الإمام وصاحبيه. وأطال الكلام في ذلك.

وفي «معراج الدراية»[٧]: مَن تعمَّد قراءةَ القرآن أو كتابتَه بالفارسية فهو مجنونٌ

---

(١) ينظر قول أبي حنيفة وقول صاحبيه في المبسوط ١/ ٣٧.

(٢) النهاية شرح الهداية لحسام الدين حسين بن علي الحنفي المتوفى سنة (٧١٠هـ). كشف الظنون ٢/ ٢٠٣٢.

(٣) الدراية شرح الهداية لأبي عبد الله محمد بن مباركشاه بن محمد الملقب بمعين الهروي. كشف الظنون ٢/ ٢٠٣٨.

(٤) ذكره السرخسي في المبسوط ١/ ٣٧ دون قوله: وقد عرض ذلك على النبي ﷺ ولم ينكر عليه.

(٥) قال الحصكفي في الدر المختار مع حاشية ابن عابدين ١/ ٤٨٤: الأصح رجوعه إلى قولهما وعليه الفتوى. اهـ. وقال صاحب الهداية: وعليه الاعتماد. البناية في شرح الهداية ٢/ ١٢٩.

(٦) في (م): يكتبه.

(٧) معراج الدراية إلى شرح الهداية لقوام الدين محمد بن محمد البخاري الكاكي، المتوفى سنة (٧٤٩هـ). كشف الظنون ٢/ ٢٠٣٣.

أو زنديقٌ، والمجنونُ يُدَاوَى والزنديقُ يقتل، وروي ذلك عن أبي بكر محمد بن الفضل البخاري، ومع هذا لا ينكَرُ فضلُ الفارسية، ففي الحديث: «لسانُ أهل الجنة العربيُّ والفارسيُّ الدرِّيُّ»(١)، وقد اشتهر ذلك لكن ذكر الذهبي في «تاريخه» عن سفيان أنه قال: بَلَغنا أنَّ الناس يتكلَّمون يومَ القيامة بالسريانية، فإذا دخلوا الجنةَ تكلَّموا بالعربية.

وأخرج الطبرانيُّ والحاكم والبيهقيُّ وآخرون عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أحِبُّوا العربَ لثلاثٍ: لأنِّي عربيٌّ، والقرآنُ عربيٌّ، وكلامُ أهلِ الجنة عربيٌّ»(٢).

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة ما يعضده(٣).

ولا يخفى على الخبير بمزايا الكلام أنَّ في الكلام العربيِّ من لطائف المعاني ودقائق الأسرار ما لا يستقلُّ بأدائه لسانٌ، ويليه في ذلك الكلامُ الفارسيُّ(٤)، فإنْ كان هذا مدارَ الفضل فلا ينبغي أن يتنازع اثنان في أفضلية العربيِّ ثم الفارسيِّ مما وصل إلينا من اللغات، وإن كان شيئاً آخَرَ فالظاهرُ وجودُه في العربيِّ الذي اختار سبحانه إنزال القرآن به لا غير.

وقد قُسِمَ لنبيِّنا ﷺ من هذا اللسان ما لم يُقْسَم لأحدٍ من فُصَحاءِ العرب، فقد أخرج ابنُ عساكر في «تاريخه» عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله، ما لَكَ أفصحُنا ولم تخرجْ من بين أظهرنا؟ قال: «كانت لغةُ إسماعيل قد دَرَسَتْ، فجاء بها جبريلُ عليه السلام فحفَّظنيها فحفِظْتُها»(٥).

---

(١) ذكره الحصكفي في الدر المختار مع حاشية ابن عابدين ١/ ٤٨٣، وهو حديث موضوع كما في الأسرار المرفوعة للملا علي القاري ص٢٧٧.

(٢) المعجم الكبير (١١٤٤١)، والمستدرك ٤/ ٨٧، وشعب الإيمان (١٦١٠). قال أبو حاتم كما في العلل لابنه ٢/ ٣٧٥: هذا حديث كذب.

(٣) الدر المنثور ٤/ ٣، وأخرجه أيضاً الطبراني في الأوسط (٩١٤٧) ولفظه: «أنا عربي، والقرآن عربي، ولسان أهل الجنة عربي». قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٥٣: فيه عبد العزيز بن عمران، وهو متروك.

(٤) جاء في هامش الأصل و(م): وكذا في العربي ثم الفارسي من الاتساع ما لا يخفى. اهـ منه.

(٥) تاريخ ابن عساكر ٤/ ٣-٤ من طريق حامد بن أبي حمزة، عن علي بن الحسين بن واقد، =

وأخرج البيهقيُّ من طريق موسى بن محمد[1] بن إبراهيم بن الحارث التيميِّ، عن أبيه من حديثٍ فيه طولٌ: قال رجلٌ: يا رسول الله ما أَفْصَحَكَ، ما رأينا الذي هو أعربُ منك! قال: «حقَّ لي، فإنما أُنزل القرآن عليَّ بلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ»[2].

هذا وجوِّز أن يكون العربيُّ منسوباً إلى عربة، وهي ناحيةُ دار إسماعيل عليه السلام؛ قال الشاعر:

وعَـرْبَـةُ أرضٌ مـا يُـحِـلُّ حـرامَـهـا   من الناس إلَّا اللَّوْذعيُّ الحلاحِلُ[3]

والمراد لغةُ أهل هذه الناحية.

واستدلَّ جماعةٌ منهم الشافعيُّ رضي الله عنه وابن جرير وأبو عبيدة والقاضي أبو بكر بوصفِ القرآن بكونه عربيًّا على أنه لا معرَّبَ فيه[4]، وشدَّد الشافعيُّ النكير على مَن زعم وقوعَ ذلك فيه، وكذا أبو عبيدةَ فإنه قال: مَن زعم أنَّ فيه غيرَ العربية فقد أَعْظَمَ القول[5].

ووجَّه ابن جرير ما ورد عن ابن عباس وغيره في تفسير ألفاظ منه أنها بالفارسية أو الحبشية أو النبطية كذا، بأنَّ ذلك مِمَّا اتَّفق فيه توارُدُ اللغات[6].

= عن أبيه، عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه، عن عمر رضي الله عنه أنه قال. . .، وهو بهذا الإسناد في معرفة علوم الحديث للحاكم ص١١٦، وجزء ابن الغطريف (٥١). وذكر الحاكم وابن عساكر أن لهذا الحديث علة عجيبة، وهي أن علي بن خشرم المروزي رواه عن علي بن الحسين بن واقد قال: بلغني أن عمر قال. . .، وذكره.

(١) في الأصل و(م): من طريق يونس عن محمد، وفي المزهر ١/ ٣٥ (والكلام منه): من طريق يونس بن محمد، والمثبت من شعب الإيمان (١٤٣١)، ومثله في العظمة (٧٢٠)، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨١٨. وينظر تهذيب الكمال ٢٤/ ٣٠٤.

(٢) حديث ضعيف لإرساله، محمد بن إبراهيم التيمي تابعي، كما أن ابنه موسى منكر الحديث كما ذكر الحافظ في التقريب.

(٣) البيت لأبي طالب كما في معجم البلدان ٤/ ٩٧.

(٤) الرسالة للشافعي ص٤١-٤٢، وتفسير الطبري ١/ ١٥، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ١٧، والتقريب للقاضي أبي بكر الباقلاني ١/ ٣٩٩، وذكره عنهم الزركشي في البرهان ١/ ٢٨٧، والسيوطي في الإتقان ١/ ٤٢٧، والكلام منه.

(٥) مجاز القرآن ١/ ١٧.

(٦) تفسير الطبري ١/ ١٥.

وقال غيره: بل كان للعرب التي نزل القرآن بلغتهم بعضُ مخالطةٍ لأهل سائر الألسنة في أسفارٍ لهم، فعلقت من لغاتهم ألفاظٌ غيِّرت بعضَها بالنقص من حروفها واستعملتها في أشعارها ومحاورتها، حتى جرت مجرى العربي الفصيح ووقع بها البيان، وعلى هذا الحدِّ نزل بها القرآن.

وقال آخرون: كلُّ تلك الألفاظ عربيةٌ صرفة، ولكن لغة العرب متسعةٌ جدًّا ولا يبعُدُ أن تَخْفَى على الأكابر الأجلَّة، وقد خفي على ابن عباس معنى «فاطر» و«فاتح»[(١)]، ومن هنا قال الشافعيُّ في «الرسالة»: لا يحيطُ باللغة إلا نبيٌّ[(٢)].

وذهب جمعٌ إلى وقوع غير العربيِّ فيه، وأجابوا عن الآية بأنَّ الكلمات اليسيرةَ بغير العربيةِ لا تُخْرِجُه عن العربية، فالقصيدةُ الفارسيةُ لا تَخْرجُ عن كونها فارسيةً بلفظةٍ عربيةٍ.

وقال غير واحد: المراد أنه عربيُّ الأسلوب، واستدلُّوا باتِّفاق النحاة على أنَّ مَنْعَ صَرْفِ نَحْوِ إبراهيم للعَلَمية والعُجمة. ورُدَّ بأنَّ الأعلام ليست محلَّ خلافٍ وإنما الخلافُ في غيرها. وأجيب بأنه إذا اتُّفق على وقوع الأعلام فلا مانعَ من وقوع الأجناس، ونُظر فيه.

واختار الجلال السيوطيُّ القولَ بالوقوع، واستدلَّ عليه بما صحَّ عن أبي ميسرة التابعيِّ الجليل أنه قال: في القرآن من كلِّ لسانٍ. وروي مثله عن سعيد بن جبير ووهب بن منبِّهٍ. وذكر أن حكمة وقوع تلك الألفاظ فيه أنه حوى علومَ الأوَّلين والآخِرين ونبأ كلِّ شيءٍ، فلا بد أن تقع فيه الإشارةُ إلى أنواع اللغات لتَتِمَّ إحاطتُه بكلِّ شيءٍ، فاختير له من كلِّ لغةٍ أعذبُها وأخفُّها وأكثرُها استعمالاً للعرب، وأيضاً لَمَّا كان النبيُّ ﷺ مرسَلاً إلى كلِّ أمةٍ ناسَبَ أن يكون في كتابه المبعوثِ به من لسان كلِّ قومٍ شيءٌ، وقد أشار إلى الوجه الأول ابنُ النقيب[(٣)].

---

(١) قال ابن عباس: ما كنت أدري ما «فاطر السماوات والأرض» حتى أتاني أعرابيان مختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، يعني ابتدأتها. وقال: ما كنت أدري ما قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩] حتى سمعت ابنة ذي يزن الحميري وهي تقول: تعال أفاتحك، أي: أقاضيك. البرهان ١/ ٢٩٣.

(٢) الرسالة ص٤٢.

(٣) الإتقان ١/ ٤١٠.

وقال أبو عبيد[١] القاسم بن سلام بعد أن حكى القول بالوقوع عن الفقهاء والمنعِ عن أهل العربية: الصوابُ تصديقُ القولين جميعاً، وذلك أنَّ هذه الأحرفَ أصولَها عجميةٌ كما قال الفقهاء، لكنها وقعت للعرب فعرَّبتها بألسنتها، وحوَّلتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربيةً، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الأحرف بكلام العرب، فمن قال: إنها عربيةٌ، فهو صادق، ومَن قال: إنها أعجمية فهو صادقٌ. ومال إلى هذا القول الجواليقيُّ وابن الجوزي[٢] وآخرون، وسيأتي إن شاء الله تعالى في سورة إبراهيم عليه السلام ما يتعلق بهذا المبحث أيضاً فليتفطن وليتأمل.

واحتج الجبائيُّ[٣] بالآية على كون القرآن مخلوقاً من أربعة أوجُهٍ:

الأولُ: وَصْفُه بالإنزال، والقديم لا يجوزُ عليه ذلك.

الثاني: وَصْفُه بكونه عربيًا، والقديم لا يكون عربيًا ولا فارسيًا.

الثالث: أنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ يدلُّ على أنه سبحانه قادرٌ على إنزاله غيرَ عربيٍّ، وهو ظاهرُ الدلالة على حدوثه.

الرابع: أن قوله عز شأنه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يدل على تركُّبه من الآيات والكلمات، وكلُّ ما كان مركَّبًا كان مُحْدَثاً، ضرورةَ أنَّ الجزء الثانيَ غيرُ موجودٍ حالَ وجود الجزء الأول.

وأجاب الأشاعرة عن ذلك كلِّه بأنَّ قصارى ما يلزمُ منه أنَّ المركَّب من الحروف والكلمات محدَثٌ، وذلك مما لا نزاع لنا فيه، والذي ندَّعي قدمَه شيءٌ آخَرُ نسمِّيه الكلامَ النفسيَّ، وهو مما لا يتَّصفُ بالإنزال ولا بكونه عربيًا ولا غيره؛ ولا بكونه مركَّبًا من الحروف ولا غيرِها.

وقد تقدَّم لك في المقدِّمات ما ينفعُكَ هنا[٤]، فلا تغفل.

---

(١) في الأصل و(م): أبو عبد الله، والمثبت من الإتقان ١/ ٤٣٠، وهو الصواب.

(٢) في الأصل و(م): وابن الجزري، والمثبت من الإتقان ١/ ٤٣٠، وينظر زاد المسير ٤/ ١٧٨.

(٣) كما في تفسير الرازي ١٨/ ٨٤.

(٤) ينظر ما سلف ١/ ١١٦ وما بعدها.

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ أي: لكي تفهموا معانيَه وتحيطوا بما فيه من البدائع، أو تستعملوا فيه عقولكم فتعلموا أنه خارجٌ عن طوق البشر، مشتمِلٌ على ما يشهد له أنه منزَّلٌ من عند خلَّاق القوى والقُدَر، وهذا بيانٌ لحكمة إنزاله بتلك الصفة، وصرَّح غير واحدٍ أنَّ «لعل» مستعملةٌ بمعنى لام التعليل على طريق الاستعارة التبعية، ومراده من ذلك ظاهر، وجَعْلُها للرجاء من جانب المخاطبين وإن كان جائزاً لا يناسب المقام.

وزعم الجبائيُّ أنَّ المعنى: أنزله لتعقلوا معانيه في أمر الدِّين، فتعرفوا الأدلَّة الدالَّة على توحيده وما كلَّفكم به، وفيه دليلٌ على أنه تعالى أراد من الكلِّ الإيمانَ والعملَ الصالح، مَن حَصَلَ منه ذلك ومَن لم يحصلْ. وفيه أنه بمعزلٍ عن الاستدلال به على ما ذكر كما لا يخفى.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ أي: نُخبرك ونحدِّثك، من قَصَّ أثره: إذا اتَّبعه، كأنَّ المحدِّث يتَّبع ما حدَّث به وذكَرَه شيئاً فشيئاً، ومثلُ ذلك: تَلَى.

﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ أي: أحسن الاقتصاص، فنَصْبُه على المصدرية إمَّا لإضافته إلى المصدر، أو لكونه في الأصل صفةَ مصدرٍ، أي: قَصَصاً أحسنَ القصص، وفيه مع بيان الواقع إيهامٌ لِمَا في اقتصاص أهل الكتاب من القبح والخلل، والمفعولُ به محذوفٌ، أي: مضمونَ هذا القرآن، والمراد به هذه السورة، وكذا في قوله عز وجل: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ﴾ أي: بسبب إيحائنا ﴿إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْءَانَ﴾ والتعرُّضُ لعنوان قرآنيتها لتحقيق أنَّ الاقتصاص ليس بطريق الإلهام أو الوحي غير المتلوِّ.

ولعل كلمة «هذا» للإيماء إلى تعظيم المشار إليه، وقيل: فيها إيماءٌ إلى مغايرة «هذا القرآن» لِمَا في قوله تعالى: (قُرْءَانًا عَرَبِيًّا) بأنْ يكون المراد بذلك المجموعَ، وفيه تأمل.

وأحسنيتُه لأنه قد قُصَّ على أبدع الطرائق الرائعة الرائقة، وأعجبِ الأساليب الفائقة اللائقة، كما لا يكاد يخفى على مَن طالع القصة من كتب الأولين، وإن كان لا يميِّز الغثَّ من السمين، ولا يفرِّقُ بين الشمال واليمين.

وجوِّز أن يكون هذا المذكورُ مفعولَ «نقصُّ». وصرَّح غيرُ واحدٍ أنَّ الآية من

باب تنازُع الفعلين، والمذهبُ البصريُّ أولى هنا: أمَّا لفظاً فظاهرٌ، وأما معنًى فلأنَّ القرآن كما سمعتَ السورةُ، وإيقاعُ الإيحاء عليها أظهرُ من إيقاع «نقصُّ» باعتبار اشتمالها على القصة، وما هو أظهر أولى بإعمالِ صريحِ الفعل فيه، وفيه من تفخيم القرآن وإحضار ما فيه من الإعجاز وحُسْنِ البيان ما ليس في إعمال «نقصُّ» صريحاً.

وجوِّز تنزيلُ أحدِ الفعلين منزلةَ اللازم. ويجوز أن يكون «أحسن» مفعولاً به لـ «نقصُّ»، والقصصُ: إما فَعَلٌ بمعنى مفعول كالنبأ والخبر، أو مصدرٌ سمِّي به المفعول كالخلق والصيد، أي: نقصُّ عليك أحسنَ ما يُقَصُّ من الأنباء، وهي قصةُ آل يعقوبَ عليه السلام.

ووجهُ أحسنيتها: اشتمالُها على حاسدٍ ومحسود، ومالكٍ ومملوك، وشاهدٍ ومشهود، وعاشقٍ ومعشوق، وحَبْسٍ وإطلاق، وخِصْبٍ وجَدْبٍ، وذنبٍ وعفو، وفراقٍ ووصال، وسَقَمٍ وصحة، وحلٍّ وارتحال، وذلٍّ وعزٍّ، وقد أفادت أنه لا دافع لقضاء الله تعالى، ولا مانعَ من قدره، وأنه سبحانه إذا قضى لإنسانٍ بخيرٍ ومَكْرُمةٍ فلو أنَّ أهل العالم اجتمعوا على دفع ذلك لم يقدروا، وأن الحسد سببُ الخذلان والنقصان، وأنَّ الصبر مفتاحُ الفَرَجِ، وأنَّ التدبير من العقل وبه يصلُح أمرُ المعاش، إلى غير ذلك مما يعجز عن بيانه بنانُ التحرير.

وقيل: إنما كانت «أحسن» لأنَّ غالب مَن ذكر فيها كان مآلُه إلى السعادة.

وقيل: المقصوصُ أخبارُ الأمم السالفة والقرونِ الماضية، لا قصةُ آل يعقوب فقط، والمرادُ بهذا القرآن ما اشتمل على ذلك، و«أحسن» ليس أفعل تفضيل بل هو بمعنى حَسَنٍ، كأنه قيل: حَسَنَ القصص، من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: القَصَصَ الحَسَنَ، والمعوَّل[1] عليه عند الجمهور ما ذكرنا.

قيل: ولكونها بتلك المثابة من الحسن تتوفَّر الدواعي إلى نقلها، ولذا لم تتكرَّر كغيرها من القصص. وقيل: سببُ ذلك من افتتان امرأةٍ ونسوةٍ بأبدع الناس جمالاً، ويناسب ذلك عدم التكرار لِمَا فيه من الإغضاء والستر، وقد صحَّح الحاكم في

---

(١) في (م): والقول.

«مستدركه» حديثَ النهي عن تعليم النساء سورة يوسف(١).

وقال الأستاذ أبو إسحاق: إنما كرَّر الله تعالى قصص الأنبياء وساق هذه القصة مساقاً واحداً إشارةً إلى عجز العرب، كأن النبيَّ ﷺ قال لهم: إن كان من تلقاء نفسي فافعلوا في قصة يوسف ما فعلتُ في سائر القصص(٢). وهو وجهٌ حسن إلا أنه يبقى على أنَّ تخصيص سورة يوسف لذلك يحتاجُ إلى بيانٍ، فإنَّ سوق قصة آدم عليه السلام مثلاً مساقاً واحداً يتضمَّنُ الإشارة إلى ذلك أيضاً بعين ما ذكر.

وقال الجلال السيوطي: ظهر لي وجهٌ في سَوْقها كذلك، وهو أنها نزلتْ بسبب طلب الصحابة أن يقصَّ عليهم، فنزلت مبسوطةً تامةً ليحصل لهم مقصودُ القصص: من الاستيعاب، وترويحِ النفس بالإحاطة(٣).

ولا يَخْفَى ما فيه، وكأنه لذلك قال: وأقوى ما يُجاب به أنَّ قصص الأنبياء إنما كرِّرت لأنَّ المقصود بها إفادةُ إهلاك مَن كذَّبوا رسلَهم، والحاجةُ داعيةٌ إلى ذلك، كتكرير تكذيب الكفار للرسول ﷺ، فكلَّما كذَّبوا أُنزلت قصةٌ منذِرةٌ بحلول العذاب كما حلَّ بالمكذِّبين، ولهذا قال سبحانه في آيات: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨] ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ [الأنعام: ٦] وقصةُ يوسف لم يقصد منها ذلك. وبهذا أيضاً يَحْصلُ الجوابُ عن عدم تكرير قصة أصحاب الكهف، وقصة ذي القرنين، وقصة موسى مع الخضر، وقصة الذبيح.

ثم قال: فإن قلت: قد تكرَّرتْ قصةُ ولادة يحيى وولادةِ عيسى عليهما السلام مرتين، وليست من قبيل ما ذكَرْتَ.

قلت: الأُولى في سورة «كهيعص»، وهي مكيةٌ أنزلت خطاباً لأهل مكة، والثانية في سورة آل عمران وهي مدنية أنزلت خطاباً لليهود ولنصارى نجران حين قَدِموا، ولهذا اتَّصل بها(٤) ذكر المحاجَّة والمباهلة. اهـ.

---

(١) لم نقف عليه في المستدرك، وعزاه إليه الزركشي في البرهان ٣/ ٢٩، والسيوطي في الإتقان ٢/ ٨٥٤، وعنه نقل المصنف.

(٢) الإتقان ٢/ ٨٥٤.

(٣) الإتقان ٢/ ٨٥٤-٨٥٥، وفيه: وترويح النفس بها والإحاطة بطرفيها.

(٤) في الأصل و(م): بهذا، والمثبت من الإتقان ٢٠/ ٨٥٥.

واعتُرض بأنَّ قصة آدم عليه السلام كرِّرت مع أنه ليس المقصودُ بها إفادةَ إهلاكِ مَن كذَّبوا رسلهم.

وأجيب بأنها وإن لم يكن المقصود بها إفادة ما ذكر إلا أنَّ فيها من الزجر عن المعصية ما فيها، فهي أشبهُ قصةٍ بتلك القصص التي كرِّرت لذلك. فافهم.

﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: قبل إيحائنا إليك ذلك ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ عنه، لم يخطر ببالك ولم يَقْرَعْ سَمْعَكَ، وهذا تعليلٌ لكونه موحًى كما ذكره بعض المحقِّقين، والأكثرُ في مثله تركُ الواو.

والتعبيرُ عن عدم العلم بالغفلة لإجلال شأن النبيِّ ﷺ، وكذا العدولُ عن: لغافلاً، إلى ما في النظم الجليل عند بعضٍ. ويمكن أن يقال: إنَّ الشيء إذا كان بديعاً وفيه نوعُ غرابةٍ إذا وقف عليه قيل للمخاطب: كنت عن هذا غافلاً، فيجوز أن يقصد الإشارةُ إلى غرابة تلك القصة، فيكون كالتأكيد لِمَا تقدَّم، إلا أنَّ فيه ما لا يخفى.

و«إنْ» مخفَّفةٌ من الثقيلة، واسمُها ضميرُ الشأن واللامُ فارِقةٌ، وجملةُ «كنتَ» إلخ خبرُ «إنْ».

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ﴾ نصبٌ بإضمار اذكر بناءً على تصرُّفها، وذِكْرُ الوقت كنايةٌ عن ذِكْرِ ما حَدَثَ فيه، والكلامُ شروعٌ في إنجاز ما وعد سبحانه.

وحكى مكِّي أنَّ العامل في «إذ»: «الغافلين»(١). وقال ابن عطية: يجوز أن يكون العامل فيها «نقصُّ». وروي ذلك عن الزجَّاج، على معنى: نقصُّ عليك الحال إذ... إلخ(٢)، وهي للوقت المطلق المجرَّد عن اعتبار المضيِّ. وفي كِلَا الوجهين ما فيه.

واستظهر أبو حيان بقاءها على معناها الأصليِّ، وأن العامل فيها: «قال يا بني»، كما تقول: إذ قام زيد قام عمرو(٣). ولا يخلو عن بُعْدٍ.

---

(١) مشكل إعراب القرآن لمكي بن أبي طالب ١/ ٣٧٧.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢١٩، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٨٨.
(٣) البحر ٥/ ٢٧٩.

وجوَّز الزمخشريُّ كونَها بدلاً من «أحسن القصص» على تقدير جَعْلِه مفعولاً به، وهو بدلُ اشتمال(١).

وأُورد: أنه إذا كان بدلاً من المفعول يكون الوقتُ مقصوصاً، ولا معنى له.

وأجيب: بأنَّ المراد لازمُه وهو اقتصاصُ قول يوسف عليه السلام، فإن اقتصاص وقتِ القول ملزومٌ لاقتصاص القول.

واعترض بأنه يكون بدلَ بعضٍ أو كلٍّ لا اشتمالٍ.

وأجيب بأنه إنما يلزمُ ما ذكر لو كان الوقتُ بمعنى القول وهو إما عينُ المقصوص أو بعضُه، أمَّا لو بقي على معناه وجُعل مقصوصاً باعتبار ما فيه فلا يَرِدُ الاعتراض.

هذا ولم يجوِّزوا البدليةَ على تقدير نصب «أحسنَ القصص» على المصدرية، وعلَّل ذلك بعدم صحة المعنى حينئذ، وبقيام المانع عربيةً، أما الأول فلأنَّ المقصوص في ذلك الوقتُ لا الاقتصاصُ. وأما الثاني فلأنَّ أحسن الاقتصاص مصدرٌ، فلو كان الظرف بدلاً وهو المقصود بالنسبة لكان مصدراً أيضاً، وهو غيرُ جائزٍ لعدم صحة تأويله بالفعل.

وأُورد على هذا أنَّ المصدر كما يكون ظرفاً، نحو: أتيتُكَ طلوعَ الشمس، يكونُ الظرفُ أيضاً مصدراً ومفعولاً مطلقاً لسدِّه مسدَّ المصدر، كما في قوله:

أَلَم تَغْتَمِضْ عيناك ليلةَ أَرْمَدَ(٢)

فإنهم صرَّحوا ـ كما في «التسهيل»(٣) وشروحه ـ أنَّ ليلةَ مفعولٌ مطلقٌ، أي: اغتماضَ ليلة، وما ذكر من حديث التأويل بالفعل فهو من الأوهام الفارغة، نعم إذا ناب عن المصدر ففي كونه بدلَ اشتمالٍ شبهةٌ، وهو شيءٌ آخَرُ غيرُ ما ذكر.

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٠١.

(٢) وعجزه: وعادك ما عاد السليم المسهَّدا، والبيت للأعشى، وهو في ديوانه ص٤٥، وصدره في حاشية الشهاب ٥/ ١٥٣ والكلام منه. ووقع في الأصل و(م): لم، بدل: ألم، والمثبت من الديوان وحاشية الشهاب.

(٣) ينظر التسهيل ص٨٧، والكلام من حاشية الشهاب ٥/ ١٥٣.

وعلى الأول أنه و إن لم يشتمل الوقتُ على الاقتصاص فهو مشتملٌ على المقصوص، فلِمَ لَمْ تجز البدليةُ بهذه الملابسة؟ وردَّ بأنَّ مثل هذه الملابسة لا تصحِّحُ البدلية.

ونُقل عن الرضيِّ[1] أنَّ الاشتمال ليس كاشتمال الظرف على المظروف، بل كونه دالًّا عليه إجمالاً ومتقاضياً له بوجهٍ ما، بحيث تبقى النفس عند ذكر الأول متشوِّقةً إلى الثاني منتظرةً له، فيجيء الثاني مبيِّناً لِمَا أُجمل فيه، فإنْ لم يكن كذلك يكن بدلَ غلطٍ، وعلى هذا يقال في عدم صحة البدلية: إنَّ النفس إنما تتشوَّقُ لذكر وقتِ الشيء لا لذكر وقت لازمه، ووقتُ القول ليس وقتاً للاقتصاص.

و«يوسف» عَلَمٌ أعجميٌّ لا عربيٌّ مشتقٌّ من الأسف، وسمي به لأَسَفِ أبيه عليه، أو أسفِه على أبيه، أو أسفِ مَن يراه على مفارقته لمزيدِ حُسْنِه كما قيل، وإلا لانْصَرفَ لأنه ليس فيه غيرُ العَلَميةِ، ولا يُتَوَهَّمنَّ أنَّ فيه وزنَ الفعل أيضاً؛ إذ ليس لنا فعلٌ مضارعٌ مضمومُ الأول والثالث، وكذا يقال في يونس.

وقرئ بفتح السين وكسرها[2] على ما هو الشائع في الأسماء الأعجمية من التغيير، لا على أنه مضارعٌ بني للمفعول أو للفاعل من آسَفَ؛ لأنَّ القراءة المشهورة شهدت بعَجَميته، ولا يجوز أن يكون أعجميًّا وغيرَ أعجميٍّ؛ قاله غيرُ واحدٍ، لكن في «الصحاح»: أنَّ يعفر والد الأسود الشاعر إذا قلتَه بفتح الياء لم تَصْرِفْه لأنه مثلُ يَقْتُل، وقال يونس: سمعتُ رؤبة يقول: أسود بن يُعفُر بضم الياء، وهذا ينصرفُ لأنه قد زال عنه شَبَهُ الفعل[3]. اهـ.

وصرَّحوا بأنَّ هذا مذهبُ سيبويه، وأنَّ الأخفش خالفه فمنع صَرْفَه لعروض الضمِّ للإتْباع، وعلى هذا يحتمل أن يقال: إنه عربيٌّ ومُنع من الصرف على قراءة الفتح والكسر للعَلَمية ووزنِ الفعل، وكذا على قراءة الضمِّ بناءً على ما يقوله الأخفش، ويلتزم كونُ ضمِّ ثالثه إتْباعاً لضمِّ أوَّله.

---

(١) نقله الشهاب في الحاشية ٥/ ١٥٣.

(٢) القراءات الشاذة ص٦٢، والكشاف ٢/ ٣٠١.

(٣) الصحاح (عفر).

وأُجيبَ بأنه لو كان عربيًّا لوقع فيه الخلافُ كما وقع في يعفر، والظاهرُ أنَّ أعجميته متحقِّقةٌ عندهم، ولذا التزموا مَنْعَه من الصرف لها وللعَلَمية، ولا التفاتَ لذلك الاحتمال.

وقرأ طلحةُ بنُ مصرِّفٍ: «يؤسَف» بالهمز وفتح السين. وقد جاء فيه الضمُّ والكسر مع الهمز أيضاً، فيكون فيه ستُّ لغاتٍ[1].

﴿لِأَبِيهِ﴾ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وفي الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاق بنِ إبراهيم»[2]:

نسبٌ كأنَّ عليه من شمس الضحى ... نوراً ومن ضوء الصباح عمودا[3]

﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ أصلُه: يا أبي، فعوِّض عن الياء تاءُ التأنيث؛ لتناسُبِهما في كونِ كلٍّ منهما من حروف الزيادة ويضمُّ إلى الاسم في آخره، ولهذا قَلَبها هاءً في الوقف ابنُ كثير وابن عامر[4]، وخالف الباقون فأبقَوْها تاءً في الوقف. وكُسِرتْ لأنها عوضٌ عن الياء التي هي أختُ الكسرة، فحرِّكت بحركةٍ تناسبُ أصلَها، لا لتدلَّ على الياء ليكون ذلك كالجمع بين عوضين أو بين العوض والمعوَّض. وجعل الزمخشريُّ هذه الكسرةَ كسرةَ الياء زُحلقت إلى التاء لَمَّا فُتح ما قبلها للزوم فَتْحِ ما قبل التأنيث[5].

وقرأ ابن عامر وأبو جعفر والأعرج بفتحها[6]؛ لأنَّ أصلها وهو الياء إذا حرِّك حرِّك بالفتح.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢١٩، وذكر النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣١٠ عن طلحة أنه قرأ بالهمز مع كسر السين.

(٢) صحيح البخاري (٣٣٩٠)، وهو عند أحمد (٥٧١٢).

(٣) البيت لأبي تمام، وهو في ديوانه ١/ ٤١٣.

(٤) التيسير ص٦٠ و ١٢٧.

(٥) الكشاف ٢/ ٣٠١.

(٦) التيسير ص١٢٧ عن ابن عامر، والنشر ٢/ ٢٩٣ عنه وعن أبي جعفر. وجاء في حاشية (م): المروي عن ابن عامر أنه قرأ به في كل القرآن. اهـ منه. قلنا: وكذا قرأ أبو جعفر بفتح التاء حيث جاء كما ذكر صاحب النشر.

وقيل: لأنَّ أصل «يا أبت»: يا أبتا، بأن قُلبت الياء ألفاً ثم حُذفت وأبقيتْ فتحتُها دليلاً عليها.

وتعقِّب بأنَّ يا أبتا ضعيفٌ[١] ك: يا أبتي، حتى قيل: إنه يختصُّ بالضرورة كقوله:

يـا أبـتـا عـلَّـك أو عـسـاكـا[٢]

وقال الفراء وأبو عبيدة وأبو حاتم: إنَّ الألف المحذوفةَ من يا أبتا للندبة[٣]. ورُدَّ بأنَّ الموضع ليس موضعَ ندبة.

وعن قطرب أنَّ الأصل يا أبةً بالتنوين، فحذف، والنداءُ بابُ حذفٍ. وردَّ بأن التنوينَ لا يُحذف من المنادى المنصوب، نحو: يا ضارباً رجلاً.

وقرئ بضمِّ التاء[٤] إجراءً لها مجرى الأسماء المؤنَّثة بالتاء من غير اعتبارِ التعويض، وأنت تعلم أنَّ ضم المنادى المضافِ شاذٌّ.

وإنما لم تسكَّن مع أن الياء التي وقعت هي عوضاً عنها تسكَّن؛ لأنها حرفٌ صحيحٌ منزَّلٌ منزلةَ الاسم فيجب تحريكُها ككاف الخطاب.

وزعم بعضهم أن الياء أُبدلت تاءً لأنها تدلُّ على المبالغة والتعظيم في نحو: علَّامة ونسَّابة، والأبُ والأمُّ مَظِنةُ التعظيم. فعلى هذا لا حذفَ ولا تعويضَ، والتاءُ حينئذٍ اسم، فقد صرَّحوا أنَّ الاسم إذا كان على حرفٍ واحد وأُبدل لا يخرج عن الاسمية.

---

(١) جاء في هامش الأصل و(م): لما فيه من الجمع بين عوضين، وفي الثاني الجمع بين العوض والمعوض. اهـ منه.

(٢) الرجز في الكتاب ٢/ ٣٧٥، والخزانة ٥/ ٢٦٢، وعزاه سيبويه لرؤبة، وقال البغدادي: وقد ذكر جميع شراح الشواهد أن ما قبله: تقول بنتي قد أنى إناكا، ثم قال: والأكثرون على أن هذا الرجز لرؤبة بن العجاج لا للعجاج. اهـ. قلنا: هو في ملحقات ديوان رؤبة ص١٨١. وأنى: فعل ماض بمعنى قَرُبَ، والإنى: الوقت، وأنى إناك: حان حينُك، أي: حين ارتحالك إلى سفر تطلب رزقاً لعلك إن سافرت أصبت ما نحتاج إليه. الخزانة ٥/ ٣٦٦-٣٦٧.

(٣) ذكره عنهم النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣١١، وأبو حيان في البحر ٥/ ٢٧٩، والكلام منه، وقول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٢.

(٤) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٢/ ٣٠١، وقال الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٢: ولو قرأ قارئٌ: يا أبتُ، لجاز ولم يقرأ به أحد نعلمه.

وقال الكوفيون: إنَّ التاء لمجرَّد التأنيث، وياءُ الإضافة مقدَّرةٌ. ويأباه عدمُ سماع يا أبتي في السعة، وكذا سماع فتحها على ما قيل. وتعقِّب بأن تاء «لات» للتأنيث عند الجمهور، وكذا تاءُ ربَّتَ وثمتَ وهي مفتوحةٌ.

﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾ أي: في المنام، كما يقتضيه كلام ابن عباس وغيره، وكذا قولُه سبحانه: (لَا نَقْصُصْ رُءْيَاكَ) و(هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ) فإنَّ مصدر رأى الحُلُمية الرؤيا، ومصدرُ البصرية الرؤية في المشهور، ولذا خطِّئ المتنبي في قوله:

ورؤياك أحلى في العيون من الغمض[(١)]

وذهب السهيليُّ وبعضُ اللغويين إلى أنَّ الرؤيا سُمِعتْ من العرب بمعنى الرؤية ليلاً ومطلقاً.

واستدلَّ بعضُهم لكون رأى حُلُميةً بأنَّ ذلك لو وقع يقظةً وهو أمرٌ خارقٌ للعادة لشاع وعُدَّ معجزةً ليعقوبَ عليه السلام، أو إرهاصاً ليوسف عليه السلام. وأجيب بأنه يجوز أن يكون في زمانٍ يسيرٍ من الليل والناسُ غافلون. والحقُّ أنها حُلُميةٌ، ومثلُ هذا الاحتمال مما لا يُلتفتُ إليه.

وقرأ أبو جعفر: «إنِّيَ» بفتح الياء[(٢)].

﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ وهي: جَرِيَّان، والطارق، والذيَّال، وقابسٍ، وعمودان، والفليق، والمُصْبِح، والفَرْغُ، ووثَّاب، وذو الكَتِفَيْن، والضّروج[(٣)]. فقد روي عن

---

(١) وصدره: مضى الليل والفضل الذي لك لا يمضي، وهو في ديوانه ٢/ ٣٢٧.

(٢) القراءات الشاذة ص٦٢، والبحر ٢/ ٢٧٩.

(٣) نقلها المصنف عن الشهاب في الحاشية ٥/ ١٥٥، وقال الشهاب: وتعيين هذه الكواكب وضبط أسمائها لم يتعرَّضوا له هنا، ولم أرَه في كلام مَن يوثق به، وجريان: بفتح الجيم وكسر الراء المهملة وتشديد الياء، والطارق معلوم: ما يطلع ليلاً، والذيال من ذوات الأذناب، وقابس: مقتبس النار، وعمودان تثنية عمود، والفليق: نجم منفرد، والمصبح: ما يطلع قبيل الفجر، والفرغ بفاء وراءٍ مهملة ساكنة وغين معجمة: نجم عند الدلو، ووثاب بالتشديد: سريع الحركة، وذو الكتفين تثنية كتف: نجم كبير. وهذه نجوم غير مرصودة خصت بالرؤيا. اهـ. ووقع في الأصل و(م): الفيلق، بدل: الفليق.

جابر أنَّ سناناً[1] اليهوديَّ جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: أخبرني يا محمد عن النجوم التي رآهنَّ يوسف فسكت فنزل جبريل عليه السلام فأخبره بذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: «هل أنت مؤمن إن أخبرتك؟» قال: نعم. فعدَّ ﷺ ما ذُكر، فقال اليهوديُّ: إي واللهِ إنها لأسماؤها.

وأخرج السهيلي عن الحارث بن أبي أسامةَ نحوَ ذلك، إلا أنه ذكر النطح بدل المصبح[2]، وأخرج الخبرَ الأوَّلَ جماعةٌ من المفسِّرين وأهلِ الأخبار، وصححه الحاكم، وقال: إنه على شرط مسلم، وقال أبو زرعة وابن الجوزيِّ: إنه منكر موضوع[3].

---

(١) كذا نقل المصنف عن حاشية الشهاب ٥/ ١٥٤، وجاء في أكثر الكتب التي خرجت الحديث: بستاني، وقال الحافظ في الإصابة ١/ ٢٤٣: وبستاني أورده ابن فتحون في الذيل في الباء الموحدة، ورأيته في نسخة من تفسير ابن مردويه بضم الياء التحتانية بعدها سين مهملة ثم مثناة ثم ألف ثم نون مفتوحة بعد ياء تحتانية، ولعله أصوب. اهـ.

(٢) التعريف والإعلام ص٧٩، وفيه: أسماء هذه الكواكب جاء ذكرها مسنداً ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده قال: جاء بستاني. . .، وذكر الحديث.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٢٩٦ من طريق أسباط بن نصر، عن السدي، عن عبد الرحمن بن سابط، عن جابر، به. وقد تفرد به الحاكم من هذه الطريق، فقد أخرجه سعيد بن منصور في سننه (١١١١ - تفسير)، والبزار (٢٢٢٠ - كشف)، وابن حبان في المجروحين ١/ ٢٥٠-٢٥١، والطبري ١٣/ ١٠، والعقيلي في الضعفاء ١/ ٢٥٩، والبيهقي في الدلائل ٦/ ٢٧٧، وابن الجوزي في الموضوعات (٧٠) من طريق الحكم بن ظهير، عن السدي، به.

قال ابن حبان: هذا لا أصل له من حديث رسول الله ﷺ، والحكم بن ظهير كان يشتم أصحاب محمد ﷺ، يروي عن الثقات الأشياء الموضوعات. وقال ابن الجوزي: هذا حديث موضوع على رسول ﷺ، وقال يحيى بن معين: الحكم بن ظهير ليس بشيء، وقال النسائي: متروك. اهـ. وقال الجوزجاني كما في التهذيب ١/ ٤٦٤: الحكم بن ظهير ساقط؛ لميله وأعاجيب حديثه، وهو صاحب حديث نجوم يوسف. اهـ. وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: تفرد به الحكم بن ظهير، وقد ضعفه الأئمة وتركه الأكثرون. اهـ.

قلنا: وظاهر رواية الحاكم يدل على أن الحكم لم يتفرد به، وقد أشار لذلك السيوطي في اللآلي المصنوعة ١/ ٨٣، فقال: وللحكم متابع قوي أخرجه الحاكم في المستدرك، فزالت تهمة الحكم، والله أعلم. اهـ. وقد ردَّ ذلك الشيخ عبد الرحمن المعلِّمي في تعليقه على الفوائد المجموعة ص٤٦٤ فقال: قد جزم الجوزجاني ثم العقيلي بأن الحكم بن ظهير تفرد =

وقرأ الحسن وطلحة بن سليمان وغيرهما: «أَحَدَ عْشَرَ» بسكون العين[(١)]؛ لتوالي الحركات، وليظهر جَعْلُ الاسمين اسماً واحداً.

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ عطف على ما قبلُ، وزعم بعضهم أنَّ الواو للمعية وليس بذاك. وتخصيصُهما بالذكر وعدم الاندراج في عموم الكواكب لاختصاصهما بالشرف، وتأخيرُهما لأنَّ سجودهما أبلغُ وأعلى كعباً، فهو من بابِ: لا يعرفه فلانٌ ولا أهلُ بلده.

وتقديمُ الشمس على القمر لِمَا جرت عليه عادة القرآن إذا جمع الشمس والقمر، وكأن ذلك إما لكونها أعظمَ جرماً وأسطعَ نوراً وأكثرَ نفعاً من القمر، وإما لكونها أعلى مكاناً منه وكونِ فلكها أبسطَ من فلكه على ما زعمه أهل الهيئة وكثيرٌ من غيرهم، وإمَّا لأنها مفيضةُ النور عليه كما ادَّعاه غيرُ واحد، واستأنس له بقوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

وإنما أَوْرَدَ الكلامَ على هذا الأسلوب ولم يَطْوِ ذِكْرَ العدد لأنَّ المقصود الأصليَّ أن يتطابق المنامُ ومَن هو في شأنهم، وبترك العدد يفوتُ ذلك.

﴿رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ استَظْهَر في «البحر»[(٢)] أنَّ «رأيتهم» تأكيدٌ لِمَا تقدَّم تطرية للعهد[(٣)]، كما في قوله تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٥].

واختار الزمخشريُّ التأسيسَ، وأنَّ الكلام جوابُ سؤالٍ مقدَّرٍ، كأنَّ يعقوب عليه السلام قال له عند قوله: «رأيتُ أحدَ عَشَرَ كوكباً والشمسَ والقمر»: كيف رأيتَها؟

= به عن السدي، ومن طريق الحكم ذكره المفسرون، مع أن تفسير أسباط عن السدي عندهم جميعاً، فكيف فاتهم منه هذا الخبر ووقع للحاكم بذاك السند؟! هذا يُشعر بأن بعض الرواة وهم، وقع له الخبر من طريق الحكم، ثم التبس عليه فظنه من طريق أسباط، كالجادّة، والله أعلم. وكلام أبي زرعة ذكره ابن أبي حاتم في العلل ٢/ ٤٠٢، فقال: قال أبو زرعة: هذا حديث منكر ليس بشيء.

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٣، والمحرر الوجيز ٣/ ٢١٩، والبحر ٥/ ٢٧٩. وهي قراءة أبي جعفر من العشرة كما في النشر ٢/ ٢٧٩.

(٢) ٥/ ٢٨٠، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ١٥٥.

(٣) كذا في الأصل و(م)، وفي حاشية الشهاب: تطرية لطول العهد، وهو الأنسب بالسياق.

سائلاً عن حال رؤيتها، فقال: «رأيتهم لي ساجدين»[١]. وكأنه لا يرى أنَّ رأى الحُلُمية تتعدَّى إلى مفعولين كالعِلْمية ليلتزم كونَ المفعول الثاني للفعل الأول محذوفاً، ويرى أنها تتعدَّى لواحدٍ كالبصرية فلا حذف، و«ساجدين» حالٌ عنده كما يشير إليه كلامُه، والمشهورُ عند الجمهور أنها تتعدَّى إلى مفعولين، ولا يُحذف ثانيهما اقتصاراً.

وجوّز أن يكون مذهبه القولَ بالتعدِّي إلى ما ذكر، إلا أنه يقول بجواز ما منعوه من الحذف، وأنت تعلم أن ما استظهره في «البحر» سالم عن المخالفة، والتطريةُ[٢] أمرٌ معهودٌ في الكتاب الجليل[٣].

وإنما أُجْرِيَتْ هذه المتعاطفاتُ مجرى العقلاء في الضمير وجَمْعِ الصفةِ لوَصْفها بوصف العقلاء، أعني السجودَ سواءٌ كان المرادُ منه التواضعَ أو السجودَ الحقيقيَّ، وإعطاءُ الشيء الملابِسِ لآخَرَ من بعض الوجوه حُكْماً من أحكامه إظهاراً لأثرِ الملابَسةِ والمقارَبةِ شائعٌ في الكلام القديم والحديث، وفي الكلام ـ على ما قيل ـ استعارةٌ مكنيةٌ بتشبيه المذكورات بقومٍ عقلاء ساجدين، والضميرُ والسجودُ قرينةٌ، أو أحدُهما قرينةٌ تخييليةٌ والآخَرُ ترشيح.

وذهب جماعةٌ من الفلاسفة إلى أنَّ الكواكب أحياءٌ ناطقةٌ، واستُدلَّ لهم بهذه الآية ونظائرِها، وكثيرٌ من ظواهر الكتاب والسنَّة يشهد لهم، وليس في القول بذلك إنكارُ ما هو من ضروريات الدين.

وتقديمُ الجارِّ والمجرور لإظهار العناية والاهتمامِ، مع ما في ضمنه ـ على ما قيل ـ من رعاية الفواصل.

وكانت هذه الرؤيةُ ـ فيما قيل ـ ليلةَ الجمعة، وأخرج أبو الشيخ عن ابن منبِّهٍ أنها كانت ليلة القَدْرِ[٤]، ولعله لا منافاةَ؛ لظهور إمكانِ كون ليلةٍ واحدةٍ ليلةَ القَدْرِ

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٠٢.

(٢) في (م): والنظرية، وهو تصحيف.

(٣) جاء في هامش الأصل و(م): وزعم بعضهم أن أحد الفعلين من الرؤية، والآخر من الرؤيا، وهو كما ترى. اهـ منه.

(٤) الدر المنثور ٤/ ٤.

وليلةَ الجمعة. واستشكل كونها في ليلة القدر بأنها من خواصِّ هذه الأمة، وأجيب بأنَّ ما هو من الخواصِّ تضعيفُ ثواب العمل فيها إلى ما قصَّ الله سبحانه.

وكان عمره عليه السلام حين رأى ذلك اثنتي عَشْرةَ سنةً فيما يُروى عن وهب. وقيل: سبع عشرة سنة[1]. وكان قد رأى قبلُ وهو ابنُ سبع سنين أنَّ إحدى عَشْرةَ عصاً طوالاً كانت مركوزةً في الأرض كهيئة الدائرة، وإذا عصاً صغيرةٌ تَثِبُ عليها حتى اقتلعتها وغلبتها، فوصف ذلك لأبيه فقال: إياك أن تذكر هذا لإخوتك، وتعبيرُ العصيِّ الإحدى[2] عَشْرةَ هو بعينه تعبيرُ الأحَدَ عَشَرَ كوكباً، فإنَّ كلًّا منهما إشارةٌ إلى إخوته، وليس في الرؤية الأولى ما يشير إلى ما يشير إليه الشمسُ والقمر في الرؤية الثانية، ولا ضرورة إلى التزام القول باتِّحاد المنامين بأنْ يقال: إنه عليه السلام رأى في كلٍّ أَحَدَ عشر شيئاً، إلا أنَّ ذلك في الأول عصيٌّ وفي الثاني كواكبُ، ويكون عطفُ الشمس والقمر على ما قبله من قبيل عطف جبريل وميكائيل عليهما السلام على الملائكة كما يوهمُه كلامُ بعضهم.

وعبِّرت الشمسُ بأبيه والقمرُ بأمِّه، اعتباراً للمكان والمكانة، وروي ذلك عن قتادة. وعن السديِّ: أنَّ القمر خالتُه لأن أمه راحيل قد ماتت، والقولُ: بأنَّ الله تعالى أحياها بعدُ لتصديق رؤياه لا يخفى حالُه.

وعن ابن جُريج: أنَّ الشمس أمُّه والقمر أبوه، وهو اعتبارٌ للتأنيث والتذكير، وقد تعبَّر الشمس بالملك وبالذهب وبالزوجة الجميلة، والقمرُ بالأمير، والكواكبُ بالرؤساء، وكذا بالعلماء أيضاً.

وعن جعفر الصادق رضي الله عنه أنَّ رؤية القمر تؤوَّلُ على أَحَدِ سَبْعةَ عَشَرَ وجهاً: ملكٍ، أو وزيرٍ، أو نديمِ الملك، أو رئيسٍ، أو شريفٍ، أو جاريةٍ، أو غلامٍ، أو أمرٍ باطلٍ، أو والٍ، أو عالمٍ مُفْسدٍ، أو رجلٍ معظَّمٍ، أو والدٍ، أو والدةٍ، أو زوجةٍ، أو بعلٍ لها، أو ولدٍ، أو عَظمةٍ. ولعل ذلك مبنيٌّ على اختلاف الرائي وكيفيةِ الرؤية.

---

(١) جاء في هامش الأصل: وإليه ذهب اليهود، وهو مذكور في توراتهم.

(٢) في (م): لإحدى، وهو تصحيف.

وزعم بعضهم أنه عليه السلام لم يكن رأى الكواكبَ ولا الشمسَ والقمرَ، وإنما رأى إخوتَه وأبويه، إلا أنه عبَّر عنهم بذلك على طريقة الاستعارة التصريحية، وهو خلافُ الظاهر جدًّا، ويكاد يعدُّ من كلام النائم. ويؤيِّد الظاهرَ ما نقله كثير من المفسرين أنه عليه السلام رأى الكواكب والشمس والقمر قد نزلت فسجدت له، فقصَّ ذلك على أبيه.

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ﴾ صغَّره للشفقة، ويسمِّي النحاةُ مثلَ هذا: تصغيرَ التحبيب، وما أَلْطَفَ قولَ بعض المتأخِّرين:

قد صغَّر الجوهر في ثغره لكنَّه تصغيرُ تحبيبِ[1]

ويحتملُ أن يكون لذلك ولصغر السنِّ، وفَتْحُ الياء قراءةُ حفص، وقرأ الباقون بكسرها[2]. والجملةُ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ، كأنه قيل: فماذا قال الأبُ بعد سماع هذه الرؤيةِ العجيبةِ من ابنه؟ فقيل: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾ أي: فيحتالوا لإهلاكك حيلةً عظيمةً لا تقدرُ على التَّفَصِّي عنها، أو خفيَّةً لا تتصدَّى لمدافعتها.

وإنما قال له ذلك لِمَا أنه عليه السلام عَرَفَ من رؤياه أنْ سيُبلِّغُه الله تعالى مبلغاً جليلاً من الحكمة، ويصطفيه للنبوَّة، وينعمُ عليه بشرف الدارين، فخاف عليه حسدَ الإخوة وبَغْيَهم، فقال له ذلك صيانةً لهم من الوقوع فيما لا ينبغي في حقِّه، وله من معاناة المشاقِّ ومقاساةِ الأحزان، وإن كان واثقاً بأنهم لا يقدرون على تحويل ما دلَّت عليه الرؤيا، وأنه سبحانه سيحقِّقُ ذلك لا محالةَ، وطمعاً في حصوله بلا مشقَّةٍ، وليس ذلك من الغيبة المحظورة في شيءٍ.

والرؤيا مصدرُ رأى الحُلُمية الدالَّةِ على ما يقع في النوم سواءٌ كان مرئيًّا أم لا على ما هو المشهور، والرؤية مصدر رأى البَصَريَّةِ الدالَّةِ على إدراكٍ مخصوص، وفرَّق بين مصدر المعنيين بالتأنيثين، ونظيرُ ذلك القُرْبةُ للتقرُّب المعنويِّ بعبادةٍ ونحوها، والقُرْبَى للتقرُّب النَّسَبي.

---

(١) حاشية الشهاب ٥/ ١٥٥.

(٢) التيسير ص١٢٧، والنشر ٢/ ٢٨٩.

وحقيقتُها عند أهل السنة كما قال محي الدين النوويٌّ نقلاً عن المازري[١]: أنَّ الله سبحانه يخلق في قلب النائم اعتقاداتٍ كما يخلُقها في قلب اليقظان، وهو سبحانه يخلُق ما يشاءُ لا يمنعه نومٌ ولا يقظةٌ، وقد جعل سبحانه تلك الاعتقادات عَلَماً على أمورٍ أُخَرَ يخلقها في ثاني الحال، ثم إنَّ ما يكون عَلَماً على ما يَسرُّ يخلقه بغير حضرة الشيطان، وما يكون عَلَماً على ما يضرُّ يخلقه بحضرته. ويسمَّى الأولُ رؤيا، وتضافُ إليه تعالى إضافةَ تشريفٍ، والثاني حلماً وتضافُ إلى الشيطان كما هو الشائع من إضافة الشيء المكروه إليه، وإن كان الكلُّ منه تعالى، وعلى ذلك جاء قوله ﷺ: «الرؤيا من الله تعالى والحُلْمُ من الشيطان»[٢].

وفي الصحيح عن أبي سعيد الخدريِّ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبُّها فإنها من الله تعالى، فليَحْمَدِ الله تعالى وليحدِّث بها، وإذا رأى غيرَ ذلك مِمَّا يَكْرَهُ فإنَّما هي من الشيطان، فليَسْتَعِذْ بالله تعالى من الشيطان الرجيم ومن شرِّها، ولا يَذْكُرْها لأحدٍ فإنها لن تضرَّه»[٣].

وصحَّ عن جابر أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهُها فليبصق عن يساره ثلاثاً وليَسْتَعِذْ بالله تعالى من الشيطان الرجيم، ولْيتَحوَّل عن جنبه الذي كان عليه»[٤].

ولا يَبْعُد جَعْلُ الله تعالى ما ذُكر سبباً للسلامة عن المكروه كما جَعَل الصدقةَ سبباً لدَفْعِ البلاء، وإنْ لم نَعْرِفْ وجهَ مدخليَّةِ البَصْقِ عن اليسار والتحوُّلِ عن الجنب الذي كانَ عليه مثلاً في السببية.

وقيل: هي أحاديثُ المَلَكِ الموكَّلِ بالأرواح إن كانت صادقةً، ووسوسةُ الشيطان والنفسِ إن كانت كاذبةً، ونُسِبَ هذا إلى المحدِّثين.

وقد يُجمع بين القولين بأنَّ مقصود القائل بأنها اعتقاداتٌ يخلقُها الله تعالى في

---

(١) في الأصل و(م): المازني، وهو خطأ.
(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ١٥/١٧، والمُعْلم بفوائد مسلم لأبي عبد الله محمد بن علي المازري ٣/١١٦. والحديث أخرجه البخاري (٥٧٤٧)، ومسلم (٢٢٦١) عن أبي قتادة ﷺ.
(٣) صحيح البخاري (٧٠٤٥).
(٤) صحيح مسلم (٢٢٦٢).

قلب. .إلخ، أنها اعتقاداتٌ تُخْلَقُ كذلك بواسطة حديثِ الملك، أو بواسطة وسوسة الشيطان مثلاً، والمسبَّبات في المشهور عن الأشاعرة مخلوقةٌ له تعالى عند الأسباب لا بها، فتدبر.

وقال غيرُ واحدٍ من المتفلْسِفَةِ: هي انطباعُ الصورة المنحدرةِ من أفق المتخيّلةِ إلى الحسِّ المشترك، والصادقةُ منها إنما تكون باتِّصال النَّفْس بالملكوت ـ لِمَا بينهما من التناسُبِ ـ عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغٍ، فتتصوَّر بما فيها مما يليق بها من المعاني الحاصلةِ هناك، ثم إنَّ المتخيلةَ تحاكيه بصورةٍ تناسبُها، فترسلها إلى الحسِّ المشترك فتصير مشاهَدةً، ثم إن كانت شديدةَ المناسبةِ لذلك المعنى بحيث لا يكونُ التفاوتُ إلا بالكلِّيةِ والجزئية استغنت عن التعبير، وإلا احتاجت إليه[١].

وذكر بعضُ أكابر الصوفية ما يَقْرُبُ من هذا، وهو: أنَّ الرؤيا من أحكام حضرة المثال المقيّد المسمَّى بالخيال، وهو قد يتأثَّر من العقول السماوية والنفوس الناطقة المدرِكةِ للمعاني الكلية والجزئية، فيَظْهَرُ فيه صورٌ مناسبةٌ لتلك المعاني، وقد يتأثَّر من القوى الوهمية[٢] المدركةِ للمعاني الجزئية فقط، فيظهر فيه صورةٌ تناسبها، وهذا قد يكون بسبب سوء مزاج الدماغ، وقد يكون بسبب توجُّه النفس بالقوة الوهمية إلى إيجاد صورةٍ من الصور، كمن يتخيَّلُ صورةَ محبوبه الغائبِ عنه تخيُّلاً قويًّا، فتظهرُ صورتُه في خياله فيشاهدُه، وهي أول مبادي الوحي الإلهيِّ في أهل العناية؛ لأنَّ الوحي لا يكون إلا بنزول الملك، وأولُ نزوله في الحضرة الخيالية ثم الحسِّيةِ، وقد صحَّ عن عائشةَ رضي الله عنها أنها قالت: أولُ ما بُدِئَ به رسولُ الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقةُ، فكان لا يَرَى رُؤْيا إلَّا جاءتْ مِثْلَ فَلَقِ الصبح[٣].

والمرئيُّ ـ على ما قال بعضهم ـ سواءٌ كان على صورته الأصلية أو لا قد يكون بإرادة المرئي، وقد يكون بإرادة الرائي، وقد يكون بإرادتهما معاً، وقد يكون لا بإرادةٍ من شيءٍ منهما، فالأولُ كظهور الملك على نبيٍّ من الأنبياء عليهم السلام في صورةٍ من الصور، وظهورِ الكمَّلِ من الأَناسيِّ على بعض الصالحين في صورٍ

---

(١) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ١٥٦.
(٢) في الأصل: الموهمة.
(٣) صحيح البخاري (٣)، وصحيح مسلم (١٦٠).

غيرِ صورهم، والثاني كظهورِ روحٍ من الأرواح المَلَكيةِ أو الإنسانية باستنزالِ الكامل إياه إلى عالَمِه ليكشف معنًى ما مختصًّا عِلْمُه به، والثالثُ كظهور جبريل عليه السلام للنبيِّ ﷺ باستنْزاله إياه وبَعْثِ الحقِّ سبحانه إياه إليه ﷺ، والرابع كرؤية زيدٍ مثلاً صورةَ عمرٍو في النوم من غيرِ قصدٍ وإرادةٍ منهما، وكانت رؤيا يوسف عليه السلام من هذا القسم؛ لظهور أنها لو كانت بإرادةِ الإخوة لعلموا فلمْ يكن للنهي عن الاقتصاص معنى، ويشيرُ إلى أنها لم تكن بقَصْدِه قوله بعدُ: ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠].

هذا والمنقول عن المتكلمين أنها خيالاتٌ باطلةٌ، وهو من الغرابة بمكانٍ بعد شهادةِ الكتاب والسنَّةِ بصحتها. ووجَّهَ ذلك بعضُ المحققين بأنَّ مرادهم أنَّ كونَ ما يتخيَّلُه النائم إدراكاً بالبصر رؤيةً، وكونَ ما يتخيَّله إدراكاً بالسمع سمعاً باطلٌ، فلا ينافي حقيةَ ذلك بمعنى كونه أمارةً لبعض الأشياء، كذلك الشيء نفسِه أو ما يضاهيه ويحاكيه، وقد مرَّ الكلام في ذلك فتيقَّظْ(١).

والمشهور الذي تعاضدتْ فيه الرواياتُ أنَّ الرؤيا الصادقةَ جزءٌ من ستةٍ وأربعين جزءاً من النبوَّة(٢). ووجِّه ذلك عند جمعٍ أنه ﷺ بقي حسبما أشارت عائشةُ ﵂ ستةَ أشهر يرى الوحي مناماً، ثم جاء المَلَكُ يقظةً، وستةُ أشهرٍ بالنسبة إلى ثلاثٍ وعشرين سنةً جزءٌ من ستٍّ وأربعين جزءاً.

وذكر الحليميُّ أنَّ الوحي كان يأتيه عليه الصلاة والسلام على ستةٍ وأربعين نوعاً، مثل النفث في الروع، وتمثُّلِ المَلَكِ بصورةِ دِحيةَ ﵁ مثلاً، وسماعِهِ مثلَ صلصلةِ الجرس، إلى غير ذلك، ولذا قال ﷺ ما قال(٣).

وذكر الحافظ العسقلاني أنَّ كون الرؤيا الصادقة جزءاً من كذا من النبوَّة إنما هو باعتبارِ صدقها لا غير، وإلا لساغَ لصاحبها أن يسمَّى نبيًّا، وليس كذلك(٤). وقد

---

(١) ينظر ما سلف ١٠/ ١٣٥ وما بعدها.
(٢) أخرجه البخاري ومسلم من حديث أنس ومن حديث عبادة بن الصامت ومن حديث أبي هريرة ﵁، وقد سلف تخريجها ١٠/ ١٤١.
(٣) ينظر المنهاج في شعب الإيمان للحليمي ١/ ٢٣٩-٢٥٥.
(٤) فتح الباري ١/ ٢٠.

تقدَّم لك أنَّ في بعض الروايات ما فيه مخالفةٌ لِمَا في هذه الرواية من عدَّةِ الأجزاء[١]، ولعل المقصود من كلٍّ ذلك على ما قيل: مدحُ الرؤيا الصادقةِ والتنويهُ برفعةِ شأنها، لا خصوصيةُ العدد ولا حقيقةُ الجزئيّة.

وقال ابن الأثير في «جامع الأصول»: روى قليلٌ أنها جزءٌ من خمسةٍ وأربعين جزءاً، وله وجهُ مناسَبةٍ بأنَّ عمره ﷺ لم يستكمل ثلاثاً وستين بأنْ يكون توفِّي عليه الصلاة والسلام بأثناء السنة الثالثة والستين، وروايةُ أنها جزءٌ من أربعين جزءاً تكون محمولةً على كون عمره عليه الصلاة والسلام ستِّين، وهو روايةٌ لبعضهم، وروي أنها جزءٌ من سبعين جزءاً، ولا أعلم لذلك وجهاً[٢]. اهـ.

وأنت تعلم أنَّ سبعين كثيراً ما يُستعمل في التكثير، فلعله هو الوجه، والغرضُ الإشارةُ إلى كثرة أجزاء النبوَّة، فتدبَّر.

والمراد بإخْوَتِه هاهنا على ما قيل: الإخوةُ الذين يخشى غوائلهم ومكايدهم من بني عَلَّاته الأحَدَ عشر، وهم: يهوذا، وروبيل، وشمعون، ولاوي، وريالون، ويشجر، ودِينَه بنو يعقوب من ليا[٣] بنت ليان بن ناهر، وهي بنتُ خالته. ودان، ويفتالى، وجاد، وآشر بنوه عليه السلام من سُرِّيَّتين له: زلفة، وبلهة. وهم المشارُ إليهم بالكواكب.

وأما بنيامين الذي هو شقيقُ يوسفَ عليه السلام وأُمُّهما راحيل التي تزوَّجها يعقوبُ عليه السلام بعد وفاة أختها ليا[٤]، أو في حياتها[٥] إذ لم يكن جمع

---

(١) تقدم ذلك ١٠/ ١٤١-١٤٢.

(٢) جامع الأصول ٢/ ٢٥٥، ورواية أنها جزء من خمسة وأربعين أخرجها مسلم (٢٢٦٣) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلفت ١٠/ ١٤٢. ورواية الأربعين أخرجها أحمد (١٦١٨٣)، والترمذي (٢٢٧٨) من حديث أبي رزين العقيلي ﷺ. ورواية السبعين أخرجها أحمد (٤٦٧٨)، ومسلم (٢٢٦٥) من حديث ابن عمر ﷺ، وأخرجها أحمد (٢٨٩٤) من حديث ابن عباس ﷺ، وسلفت ١٠/ ١٤٢.

(٣) جاء في هامش الأصل و(م): سألت بعض اليهود عن ضبطها فقال: لياء، بهمزة بعد الياء، والله تعالى أعلم. اهـ منه.

(٤) جاء في هامش الأصل و(م): وادعى بعضهم أن السريتين كانتا أختين أيضاً، وقد جمع بينهما ولم يحل ذلك لأحد بعده. اهـ منه.

(٥) جاء في هامش الأصل و(م): وإلى هذا ذهب اليهود.

الأختين إذ ذاك محرَّماً، فليس بداخلٍ تحت هذا النهي، إذ لا تتوهَّمُ مضرَّته ولا تُخْشَى معرَّتُه، ولم يكن معهم في الرؤيا إذ لم يكن معهم في السجود.

وتعقّب بأنَّ المشهور أنَّ بني علَّاته عليه السلام عشرة، وليس فيهم مَن اسمُه دِينَه. ومن الناس مَن ذكر ذلك في عِدَادِ أولاد يعقوب، إلا أنه قال: هي أختُ يوسف، وبناءُ الكلام عليه ظاهرُ الفساد، بل لا تكاد تدخل في الإخوة إلا باعتبار التغليب؛ لأنه جمعُ أخٍ فهو مخصوصٌ بالذكور.

فلعل المختار أنَّ المراد من الإخوة ما يشملُ الأعيان والعَلَّات، ويعدُّ بنيامين بَدَلَ دِينَه إتماماً لأحد عشر عدَّةِ الكواكب المرئية، والنهيُ عن الاقتصاص عليه ـ وإن لم يكن ممن تُخشى غوائلُه ـ من باب الاحتياط وسدِّ باب الاحتمال، ومما ذاع: كلُّ سرٍّ جاوز الاثنين شاع، ويُلتزمُ القول بوقوع السجود منه كسائر أهله، وإسنادِ الكيد إلى الإخوة باعتبارِ الغالب، فلا إشكالَ، كذا قيل.

وهو على عِلَّاته أولى مما قيل: إنَّ المراد بإخوته ما لا يدخل تحته بنيامين ودينه لأنهما لا تُخشى معرَّتُهما، ولا يُتَوهَّم مضرَّتُهما، فهم حينئذٍ تسعة، وتكملُ العِدَّةُ بأبيه وأمّه أو خالته، ويكون عطفُ الشمس والقمر من قبيل عطف جبريل وميكائيل على الملائكة، وفيه من تعظيم أمرهما ما فيه = لِمَا أنَّ في ذلك ما فيه.

ونصب «يكيدوا» بأنْ مُضْمَرةٍ في جواب النهي، وعدِّي باللام مع أنه مما يتعدَّى بنفسه كما في قوله تعالى: ﴿فَكِيدُونِي﴾ [هود: ٥٥] لتضمينه ما يتعدَّى بها، وهو الاحتيالُ كما أشرنا إليه، وذلك لتأكيد المعنى بإفادة معنيي الفعلين المتضمِّن والمضمَّنِ جميعاً. ولكون القَصْدِ إلى التأكيد والمقامُ مقامُه أكِّد الفعلُ بالمصدر وقرِّر بالتعليل بعدُ، وجَعْلُ اللام زائدةً كجَعْلِه مما يتعدَّى بنفسه وبالحرف خلافُ الظاهر.

وقيل: إنَّ الجارَّ والمجرورَ من متعلِّقات التأكيد، على معنى: فيَكيدوا كيداً لك، وليس بشيء.

وجَعَلَ بعضُهم اللام للتعليل على معنى: فيفعلوا لأَجْلِكَ وإهلاكِكَ كيداً راسخاً أو خفيًّا، وزعم أنَّ هذا الأسلوب آكَدُ من أن يقال: فيكيدوك كيداً، إذ

ليس فيه دلالةٌ على كون نفس الفعل مقصودَ الإيقاع، وفيه نوعُ مخالفةٍ للظاهر أيضاً، فافهم.

وقرأ الجمهور: «رؤياك» بالهمز من غير إمالةٍ، والكسائيُّ: «روياك» بالإمالة وبغيرِ همزٍ، وهي لغةُ أهل الحجاز(١).

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ﴾ أي: لهذا النوع ﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥﴾ ظاهرُ العداوة، فلا يألو جهداً في تسويل إخوتك وإثارةِ الحسد فيهم، حتى يحملَهم على ما لا خيرَ فيه وإن كانوا ناشئين في بيت النبوة.

والظاهرُ أنَّ القوم كانوا بحيث يمكنُ أن يكون للشيطان عليهم سبيلٌ، ويؤيِّد هذا أنهم لم يكونوا أنبياءَ، والمسألةُ خلافيةٌ، فالذي عليه الأكثرون سَلَفاً وخَلَفاً أنهم لم يكونوا أنبياءَ أصلاً، أمَّا السلفُ فلم ينقل عن الصحابة منهم أنه قال بنبوَّتهم، ولا يُحفظُ عن أحدٍ من التابعين أيضاً، وأما أتباعُ التابعين فنُقِلَ عن ابن زيد أنه قال بنبوَّتهم(٢)، وتابعه شرذمةٌ قليلة.

وأمَّا الخلفُ فالمفسِّرون فِرَق:

فمنهم مَن قال بقولِ ابنِ زيد كالبغوي(٣).

ومنهم مَن بالغ في ردِّه كالقرطبيِّ(٤) وابنِ كثير(٥).

---

(١) البحر ٥/ ٢٨٠، وقراءة الإمالة عن الكسائي مذكورة في التيسير ص٤٩، والنشر ٢/ ٥٠ من رواية الدوري عنه، ولكن مع الهمز. وقرأ السوسي: «رُوْيَاك» بغير همز ولا إمالة، وأبو جعفر: «رُيَّاك» بإبدال الهمزة واواً مع قلبها ياءً وإدغامها في الياء بعدها.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ١٣.

(٣) في تفسيره ٢/ ٤١٠ و ٤١٢، ونقله المصنف عنه ـ وكذا ما سيأتي من أقوال الأئمة ـ بواسطة السيوطي في رسالته المسماة: دفع التعسف عن إخوة يوسف، وهي في الحاوي ١/ ٤٨٠.

(٤) في تفسيره ١١/ ٢٥٥، قال: ووقع في كتاب الطبري لابن زيد أنهم كانوا أنبياء، وهذا يردُّه القطع بعصمة الأنبياء عن الحسد الدنياوي، وعن عقوق الآباء، وتعريضِ مؤمن للهلاك، والتآمرِ في قتله، ولا التفات لقول من قال: إنهم كانوا أنبياء. اهـ. ثم عاد ص٢٦٥ في الجزء نفسه فقال: وقيل: ما كانوا في ذلك الوقت أنبياء ثم نبأهم الله، وهذا أشبه.

(٥) عند تفسير الآية (٧) من هذه السورة، وردَّ أيضاً على القول بأنهم أوحي إليهم بعد ذلك، فقال: وفي هذا نظر، ويحتاج مدعي ذلك إلى دليل... وينظر تتمة قوله هناك.

ومنهم مَن حَكَى القولين بلا ترجيحٍ كابن الجوزيّ(١).

ومنهم مَن لم يتعرَّضْ للمسألة لكنْ ذَكَر ما يُشْعِرُ بعدم كونهم أنبياءَ، كتفسيره الأسباط بمن نبِئ من بني إسرائيل، والمُنْزَلَ إليهم بالمنزلِ إلى أنبيائهم، كأبي الليث السمرقنديّ والواحديّ(٢).

ومنهم مَن لم يذكر شيئاً من ذلك ولكن فسَّر الأسباط بأولاد يعقوب، فحسِبَه ناسٌ قولاً بنبوَّتهم وليس نصًّا فيه؛ لاحتمالِ أن يريد بالأولاد ذرِّيته لا بَنيهِ لصُلْبِه.

وذكر الشيخ ابنُ تيمية في مؤلفٍ له خاصٍّ في هذه المسألة(٣) ما ملخَّصُه: الذي يدلُّ عليه القرآنُ واللغةُ والاعتبارُ أنَّ إخوةَ يوسفَ عليه السلام ليسوا بأنبياء، وليس في القرآن ولا عن النبيِّ ﷺ، بل ولا عن أحدٍ من أصحابه ﷺ خبرٌ بأنَّ الله تعالى نبَّأهم، وإنما احتجَّ مَن قال بأنهم نبِّئوا بقوله تعالى في آيتي «البقرة» و«النساء»: ﴿وَالْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦] وفسَّر ذلك بأولاد يعقوب، والصوابُ أنه ليس المرادُ بهم أولادَه لصُلْبِه بل ذرِّيته، كما يقال لهم: بنو إسرائيل، وكما يقال لسائر الناس: بنو آدم. وقولُه تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ۝١٥٩ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ﴾ [الأعراف: ١٥٩-١٦٠] صريحٌ في أنَّ الأسباط هم الأممُ من بني إسرائيل وكلُّ سبطٍ أمةٌ، وقد صرَّحوا بأنَّ الأسباط من بني إسرائيل كالقبائلِ من بني إسماعيل، وأصلُ السبط كما قال أبو سعيد الضرير: شجرةٌ واحدةٌ ملتفَّةٌ كثيرةُ الأغصان، فلا معنى لتسمية الأبناء الاثني عشر أسباطاً قبل أن ينتشر عنهم الأولاد، فتخصيصُ الأسباط في الآية ببنيه عليه السلام لصُلْبِه غلطٌ لا يدلُّ عليه اللفظُ ولا المعنى، ومَن ادَّعاه فقد أخطأ خطأً بيِّناً.

والصوابُ أيضاً أنهم إنَّما سمُّوا أسباطاً من عهد موسى عليه السلام، ومن حينئذٍ كانت فيهم النبوَّةُ، فإنه لم يُعرَفْ فيهم نبيٌّ قبله إلا يوسف، ومما يؤيِّدُ ذلك أنه سبحانه لَمَّا ذكر الأنبياء من ذرية إبراهيم قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾

---

(١) في زاد المسير ٤/ ١٨٨.

(٢) تفسير أبي الليث ١/ ١٦١-١٦٢ و٤٠٤، والوسيط ١/ ٢٢٠ و٢/ ٦٠١. وينظر الحاوي ١/ ٤٨١.

(٣) كما في الحاوي ١/ ٤٨١-٤٨٣.

الآيات [الأنعام: ٨٤] فذكر يوسف ومَن معه ولم يذكر الأسباط، ولو كان إخوةُ يوسف قد نبِّئوا كما نبِّئ لذُكِروا كما ذُكر.

وأيضاً إنَّ الله تعالى ذكر للأنبياء عليهم السلام من المحامد والثناءِ ما يناسبُ النبوَّةَ وإن كان قبلها. وجاء في الحديث: «أكرم الناس يوسفُ بنُ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، نبيٌّ ابنُ نبيٍّ»[1] فلو كانت إخوتُه أنبياء كانوا قد شاركوه في هذا الكرم. وهو سبحانه لَمَّا قصَّ قصتهم وما فعلوا بأخيهم ذكر اعترافهم بالخطيئة وطلبهم الاستغفارَ من أبيهم، ولم يذكر من فضلهم ما يناسبُ النبوَّة وإن كان قبلها، بل ولا ذكر عنهم توبةً باهرةً كما ذكر عمن ذنبُه دون ذنبهم، ولم يذكر سبحانه عن أحدٍ من الأنبياء قبل النبوَّة ولا بعدها أنه فعل مثل هذه الأمور العظيمة من عقوق الوالد، وقطيعة الرحم، وإرقاق المسلم وبيعِه إلى بلاد الكفر، والكذبِ البيِّن، إلى غير ذلك مما حكاه عنهم، بل لو لم يكن دليلٌ على عدم نبوَّتهم سوى صدور هذه العظائم منهم لكفى؛ لأنَّ الأنبياء معصومون عن صدور مثل ذلك قبل النبوة وبعدها عند الأكثرين، وهي أيضاً أمورٌ لا يطيقُها مَن هو دون البلوغ، فلا يصحُّ الاعتذارُ بأنها صدرت منهم قبله وهو لا يمنع الاستنباء بعدُ.

وأيضاً ذكر أهلُ السِّير أنَّ إخوة يوسف كلهم ماتوا بمصر، وهو أيضاً مات بها لكن أوصى بنقله إلى الشام، فنقله موسى عليه السلام، ولم يُذكر في القرآن أنَّ أهل مصر قد جاءهم نبيٌّ قبل موسى غير يوسف، ولو كان منهم نبيٌّ لذكر. وهذا دون ما قبله في الدلالة كما لا يخفى.

والحاصلُ أنَّ الغلط في دعوى نبوَّتهم إنما جاء مِن ظنِّ أنهم هم الأسباطُ[2]، وليس كذلك، إنما الأسباطُ أمةٌ عظيمةٌ، ولو كان المراد بالأسباط أبناءَ يعقوب لقال سبحانه: ويعقوب وبنيه: فإنه أبْيَنُ وأوجَزُ، لكنه عبَّر سبحانه بذلك إشارةً إلى أنَّ النبوَّة حَصَلَت فيهم من حينِ تقطيعهم أسباطاً من عهد موسى عليه السلام، فليحفظ.

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٣٣٥٣)، ومسلم (٢٣٧٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) جاء في هامش الأصل و(م): سيأتي قريباً إن شاء الله تعالى أنَّ منهم مَن استدل على نبوتهم بغير ذلك، وأن فيه ما فيه. اهـ منه.

هذا ولَمَّا نبَّهه عليه السلام على أنَّ لرؤياه شأناً عظيماً وحذَّره مما حذَّره، شَرَعَ في تعبيرها وتأويلِها على وجهٍ إجماليٍّ فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي: يصطفيك ويختارُك للنبوَّة، كما روي عن الحسن. أو للسجود لك كما روي عن مقاتل. أو لأمورٍ عظامٍ كما قال الزمخشري[1]، فيشملُ ما تقدَّم، وكذا يشملُ إغناءَ أهله ودَفْعَ القَحْطِ عنهم ببركته، وغيرِ ذلك، ولعل خيرَ الأقوال أوسطُها[2].

وأصلُ الاجتباء من جَبَيْتُ الشيءَ: إذا حصَّلتَه لنفسك، وفسَّروه بالاختيار لأنه إنما يُجتبى ما يُختار.

وذكر بعضُهم أنَّ اجتباءَ اللهِ تعالى العبدَ تخصيصُه إياه بفيضٍ إلهيٍّ يتحصَّلُ منه أنواعٌ من المَكْرُمات بلا سعيٍ من العبد، وذلك مختصٌّ بالأنبياء عليهم السلام ومَن يقاربُهم من الصدِّيقين والشهداءِ والصالحين.

والمشارُ إليه بـ «ذلك» إمَّا الاجتباءُ لمثل تلك الرؤيا، فالمشبَّهُ والمشبَّهُ به متغايران، وإمَّا لمصدرِ الفعل المذكورِ وهو المشبَّهُ والمشبَّهُ به، و«كذلك» في محلِّ نصبِ صفةٍ لمصدرٍ مقدَّرٍ، وقُدِّم تحقيقُ ذلك[3]. وقيل هنا: إنَّ الجارَّ والمجرورَ خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: الأمر كذلك. وليس الأمر كذلك.

ولا يخفى ما في ذِكْرِ الربِّ مضافاً إلى ضمير المخاطَب من اللطف. وإنما لم يصرِّح عليه السلام بتفاصيل ما تدلُّ عليه الرؤيا حَذَراً من إذاعته على ما قيل.

﴿وَيُعَلِّمُكَ﴾ ذهب جمعٌ إلى أنه كلامٌ مبتدأ غيرُ داخلٍ تحت التشبيه أراد به عليه السلام تأكيدَ مقالته وتحقيقَها، وتوطينَ نفسِ يوسفَ عليه السلام بما أُخبر به على طريق التعبير والتأويل، أي: وهو يعلِّمك ﴿مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: ذلك الجنس من العلوم، أو طرفاً صالحاً منه، فتطَّلع على حقيقة ما أقول. ولا يخفى ما فيه من تأكيد ما سبق، والبعثِ على تلقِّي ما سيأتي بالقبول.

وعلَّل عدمُ دخوله تحت التشبيه بأنَّ الظاهر أنْ يشبَّه الاجتباءُ بالاجتباء، والتعليمُ

---

(١) في الكشاف ٢/ ٣٠٣.

(٢) في (م): وسطها.

(٣) عند تفسير الآية (١٤٣) من سورة البقرة.

غير الاجتباءِ فلا يشبَّه به. ونُظِرَ فيه بأنَّ التعليم نوعٌ من الاجتباء، والنوعُ يشبَّهُ بالنوع.

وقيل: العلةُ في ذلك أنه يصير المعنى: ويعلِّمك تعليماً مثل الاجتباء بمثل هذه الرؤيا، ولا يخفى سماجتُه فإنَّ الاجتباء وجهُ الشَّبهِ بين المشبَّه والمشبَّه به، ولم يلاحَظْ في التعليم ذلك.

وقال بعض المحققين: لا مانعَ من جَعْله داخلاً تحت التشبيه، على أنَّ المعنيَّ بذلك الإكرامُ بتلك الرؤيا، أي: كما أكرمك بهذه المبشِّرات يكرمُك بالاجتباء والتعليم، ولا يُحتاج في ذلك إلى جَعْلِه تشبيهين وتقديرِ «كذلك». وأنت تعلم أنَّ المنساق إلى الفهم هو العطفُ، ولا بأس فيما قرَّره هذا المحقِّقُ لتوجيهه، نعم للاستئناف وجهٌ وجيهٌ وإن لم يكن المنساقَ إلى الفهم.

والظاهرُ أنَّ المراد من تأويل الأحاديث تعبيرُ الرؤيا؛ إذ هي إخباراتٌ غيبيةٌ يخلقُ الله تعالى بواسطتها اعتقاداتٍ في قلب النائم حسبما يشاؤه، ولا حَجْرَ عليه تعالى. أو أحاديث المَلَكِ إن كانت صادقة، أو النفس أو الشيطان إن لم تكن كذلك.

وذكر الراغب(١) أنَّ التأويل من الأَوْلِ وهو الرجوعُ، وذلك ردُّ الشيء إلى الغاية المرادةِ منه عِلْماً كان أو فِعلاً، فالأولُ كقوله سبحانه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧] والثاني كقوله:

وللنوى قبلَ يوم البَيْنِ تأويلُ(٢)

وجاء الأَوْلُ بمعنى السياسة التي يراعَى مآلُها، يقال: أُلْنا وإيلَ علينا(٣). اهـ.

وشاع التأويلُ في إخراج الشيء عن ظاهره.

و«الأحاديث» جمع تكسيرٍ لحديثٍ على غير قياس، كما قالوا: باطل وأباطيل،

---

(١) في مفرداته (أول).

(٢) وصدره: وللأحبة أيامٌ تَذَكَّرُها، والبيت لعبدة بن الطبيب كما في المفضليات ص١٣٦.

(٣) أي: قد سُسْنا وساسنا غيرنا، وهذا المثل يروى أن زياد بن أبيه قاله في خطبته. كتاب الأمثال لأبي عبيد ص١٠٦.

وليس باسْمِ جمعٍ له لأنَّ النحاة قد شَرَطُوا في اسم الجمع أنْ لا يكون على وزنٍ يختصُّ بالجمع كمفاعيل، وممن صرح بأنه جمعٌ الزمخشريُّ في «المفصل»، وهو مرادُه من اسم الجمع في «الكشاف»(١) فإنه كغيره كثيراً ما يُطلِقُ اسمَ الجمع على الجمع المخالفِ للقياس، فلا مخالفةَ بين كلاميه.

وقيل: هو جمعُ أحدوثة. ورُدَّ بأنَّ الأحدوثةَ: الحديثُ المضحكُ كالخرافة، فلا يناسب هنا ولا في أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام أن يكون جمعَ أحدوثة، وقال ابن هشام: الأحدوثةُ من الحديث ما يُتَحدَّثُ به، ولا تُستعمل إلا في الشر.

ولعل الأمر ليس كما ذكروا، وقد نصَّ المبرِّدُ على أنها تَرِدُ في الخير، وأنشد قول جميل(٢) وهو مما سار وغار:

وكنتُ إذا ما جئتُ سُعْدَى أزورُها أرى الأرض تُطْوَى لي ويَدْنُو بعيدُها
من الخَفِراتِ البيض ودَّ جليسُها إذا ما انقضتْ أحدوثةٌ لو تعيدُها(٣)

وقيل: إنهم جمعوا حديثاً على أحدوثة، ثم جمعوا الجمع على أحاديث، كقطيع وأقطعة وأقاطيع.

وكونُ المراد من تأويل الأحاديث تعبيرَ الرؤيا هو المرويُّ عن مجاهد والسدِّيِّ. وعن الحسن أنَّ المراد عواقب الأمور. وعن الزجَّاج أنَّ المراد بيانُ معاني أحاديث الأنبياء والأمم السالفة والكتب المنزلة(٤).

وقيل: المراد بالأحاديث: الأمورُ المحدَثةُ من الروحانيات والجسمانيات(٥)،

(١) ٢/ ٣٠٣.
(٢) كذا نقل المصنف عن الشهاب في الحاشية ٥/ ١٥٧، ولم نقف على من نسبه لجميل، وينظر التعليق الذي بعده.
(٣) الكامل للمبرد ٢/ ٨٠٤، وحاشية الشهاب ٥/ ١٥٧، ولم ينسبهما المبرد، ونسبا لكثير عزة، وهما في ديوانه ص١٢٦، وينسبان أيضاً لنصيب بن رباح، وهما في ديوانه ص٨٢. وورد البيت الثاني في ديوان مجنون ليلى ص١٠٨.
(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٩٢، وأجاز الزجاج أيضاً أن يكون المراد بالأحاديث تأويل الرؤيا.
(٥) في الأصل: من روحانيات وجسمانيات.

وبتأويلها كيفيةُ الاستدلال بها على قدرة الله تعالى وحكمته وجلالته. والكلُّ خلافُ الظاهر فيما أرى.

﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بأنْ يَصِلَ نعمةَ الدنيا بنعمة الآخرة، أو بأنْ يضمَّ إلى النبوَّة المستفادة من الاجتباء المُلْكَ ويجعلَه تتمةً لها، أو بأن يضمَّ إلى التعليم الخلاصَ من المحن والشدائد.

وتوسيطُ ذكر التعليم لكونه من لوازم النبوَّة والاجتباء، ولرعاية ترتيب الوجود الخارجيِّ، ولأنَّ التعليم وسيلةٌ إلى إتمام النعمة، فإنَّ تعبيره لرؤيا صاحبي السجن ورؤيا الملك صار ذريعةً إلى الخلاص من السجن والاتِّصال بالرياسة العظمى.

وفسَّر بعضهم الاجتباءَ بإعطاء الدرجات العالية كالمُلْكِ والجلالةِ في قلوب الخلق، وإتمامَ النعمة بالنبوَّة، وأيَّد بأنَّ إتمام النعمة عبارةٌ عمَّا تصير به النعمة تامةً كاملةً خاليةً عن جهات النقصان، وما ذاك في حقِّ البشر إلا النبوَّةُ، فإن جميع مناصب الخلق ناقصةٌ بالنسبة إليها.

وجوَّز أنْ تُعدَّ نفسُ الرؤيا من نعم الله تعالى عليه، فيكون جميع النعم الواصلة إليه بحسبها مصداقاً لها تماماً لتلك النعمة، ولا يخلو عن بُعْدٍ.

وقيل: المراد من الاجتباء إفاضةُ ما يستعد به لكلِّ خيرٍ ومَكْرُمةٍ، ومن تعليم تأويل الأحاديث تعليمُ تعبيرِ الرؤيا، ومن إتمام النعمة عليه تخليصُه من المحن على أتم وجهٍ، بحيث يكون مع خلاصه منها ممن يُخْضَعُ له، ويكون في تعليم التأويل إشارةٌ إلى استنبائه؛ لأن ذلك لا يكون إلا بالوحي.

وفيه أنَّ تفسير الاجتباء بما ذكر غيرُ ظاهر، وكونُ التعليم فيه إشارةً إلى الاستنباء في حيِّز المنع، وما ذكر من الدليل لا يثْبِتُه، فإنَّ الظاهر أنَّ إخوته كانوا يعلمون التأويل، وإلا لم ينهه أبوه عليه السلام عن اقتصاص رؤياه عليهم خوفَ الكيد، وكونُهم أنبياء إذ ذاك مما لم يذهب إليه ذاهبٌ ولا يكاد يذهبُ إليه أصلاً. نعم ذكروا أنه لا يَعْرِفُ التعبير كما لا ينبغي إلَّا من عرف المناسبات التي بين الصُّوَر ومعانيها، وعرف مراتبَ النفوس التي تظهر في حضرة خيالاتهم بحسبها، فإنَّ أحكام الصورة الواحدة تختلفُ بالنسبة إلى الأشخاص المختلفة المراتب، وهذا عزيزُ الوجود، وقد

ثبت الخطأ في التعبير من علماءَ أكابرَ، فقد روى أبو هريرة أنَّ رجلاً أتى رسولَ الله ﷺ فقال: إنِّي رأيت ظُلَّةً(١) ينطفُ منها السَّمْنُ والعسل، وأرى الناس يتكفَّفون(٢) في أيديهم، فالمستكثِرُ والمستقِلُّ، وأرى سبباً واصلاً من السماء إلى الأرض، فأراك يا رسول الله أخذتَ به فعلَوْتَ، ثم أخذ به رجلٌ آخَرُ فعَلَا، ثم أخذ به رجلٌ آخر فعَلَا، ثم أخذ به رجلٌ آخر فعَلَا، ثم أخذ به رجلٌ آخَرُ فانقطع به ثم وُصِلَ له فعَلَا. فقال أبو بكر ﷺ: أي رسول الله بأبي أنت وأمي والله لتَدَعنِّي فلأَعْبُرها. فقال عليه الصلاة والسلام: «عبِّرها»، فقال: أمَّا الظلَّةُ فظلَّةُ الإسلام، وأما ما ينطف من السمن والعسل فهو القرآن لينه وحلاوته، وأمَّا المستكثر والمستقلُّ فالمستكثر من القرآن والمستقلُّ منه، وأما السببُ الواصل من السماء إلى الأرض فهو الحقُّ الذي أنت عليه، تأخُذُ به فيُعْليك اللهُ تعالى، ثم يأخذ به رجلٌ بعدك فيعلو به، ثم آخَرُ بعده فيعلو به، ثم آخَرُ بعده فيعلو به، ثم آخَرُ فينقطع به ثم يوصَلُ له فيعلو به، أي رسول الله، لتحدثنِّي أصبتُ أم أخطأت؟ فقال النبيُّ ﷺ: «أصبتَ بعضاً وأخطأتَ بعضاً»، فقال: أقسمتُ بأبي وأمي لتحدثنِّي يا رسول الله ما الذي أخطأتُ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «لا تُقْسِمْ»(٣). اهـ. اللهمَّ إلا أنْ يُدَّعَى أنَّ المراد التعليم على الوجه الأكمل بحيث لا يخطئُ من يخطئ به، وهو يستدعي كونَ الرجل بحيث يعرف المناسبات ومراتبَ النفوس، ويُلتزم القولُ بأنَّ ذلك لا يكون إلا نبيًّا.

واختير أنَّ المراد بالاجتباء الاصطفاءُ للنبوة، وبتعليم التأويل ما هو الظاهرُ، وبإتمام النعمة تخليصُه من المكاره، ويكون قولُه عليه السلام: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ إشارةً إجماليةً منه إلى تعبير الرؤيا كما لا يخفى على مَن له ذوقٌ، وهو أيضاً متضمِّنٌ للبشارة، وهذا إردافٌ لها بما هو أجلُّ في نظر يوسف عليه السلام ووجْهُ توسيطِ التعليم عليه لا يخفى، وحاصل المعنى: كما أكرمك بهذه

---

(١) أي: سحابة لها ظلٌّ. فتح الباري ١٢/ ٤٣٤.

(٢) أي: يأخذون بأكُفِّهم. الفتح ١٢/ ٤٣٤.

(٣) أخرجه أحمد (٢١١٤)، والبخاري (٧٠٤٦)، ومسلم (٢٢٦٩) من حديث ابن عباس ﷺ. وأخرجه مسلم أيضاً (٢٢٦٩) من حديث ابن عباس أو أبي هريرة. وأخرجه أبو داود (٤٦٣٢)، والترمذي (٢٢٩٣) من حديث ابن عباس قال: كان أبو هريرة يحدث أن رجلاً... الحديث، وينظر فتح الباري ١٢/ ٤٣٣.

المبشِّرة الدالَّة على سجود إخوتك لك ورفعةِ شأنك عليهم يكرمُك بالنبوَّة والعلم الذي تعرفُ به تأويلَ أمثالِ ما رأيتَ، وإتمام نعمته عليك ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ﴾ بالخلاص من المكاره، وهي في حقِّ يوسفَ عليه السلام مما لا يخفى، وفي حقِّ آل يعقوب[(١)]، والمراد بهم أهلُه من بنيه وغيرِهم، وأصله: أهل، وقيل: أَوْل، وقد حقَّقناه في غير ما كتاب[(٢)]، ولا يستعمل إلا فيمَن له خطرٌ مطلقاً، ولا يضافُ لِمَا لا يعقل ولو كان ذا خطرٍ بخلاف أهل، فلا يقال: آل الحجام، ولا: آل الحرم، ولكن: أهل الحجام، وأهل الحرم. نعم قد يضاف لِمَا نزِّلَ منزلةَ العاقل، كما في قول عبد المطلب:

وانصُرْ على آل الصليب[(٣)] وعابديهِ اليومَ آلَك[(٤)]

وفيه ردٌّ على أبي جعفر الزبيدي حيث زعم عَدَمَ جواز إضافته إلى الضمير لعدم سماعه مضافاً إليه. ويعقوبُ كابنه اسمٌ أعجميٌّ لا اشتقاقَ له، فما قيل من أنه إنما سمي بذلك لأنه خرج من بطن أمِّه عقب أخيه العيص، غيرُ مرضيٍّ عند الجلة = الفاقةُ والقَحْطُ وتفرُّق الشَّمْلِ، وغيرُ ذلك مما يعمُّ أو يخص.

ومنهم من فسَّر الآل بالبنين، وإتمامَ النعمة بالاستنباء، وجَعَل حاصل المعنى: يمنُّ عليك وعلى سائر أبناء يعقوب بالنبوة، واستدلَّ بذلك على أنهم صاروا بعدُ أنبياء.

وفي «إرشاد العقل السليم»[(٥)]: إنَّ رؤية يوسف عليه السلام إخوتَه كواكبَ يُهتَدَى بأنوارها من نِعَم الله تعالى عليهم؛ لدلالتها على مصير أمرهم إلى النبوَّة، فيقع كلُّ ما يخرجُ من القوة إلى الفعل من كمالاتهم بحسَبِ ذلك تماماً لتلك النعمة لا محالة.

---

(١) جاء في حاشية (م): قوله: في حق آل يعقوب إلخ، هو خبر مقدم، وقوله الآتي: الفاقة والقحط إلخ مبتدأ مؤخر. اهـ.
(٢) ينظر ما سلف ٢/ ١٦٠ عند تفسير الآية (٤٩) من سورة البقرة.
(٣) جاء في هامش الأصل و(م): بناء على أن الصليب اسمٌ لما يعلقه النصارى في أعناقهم ويعبدونه. اهـ منه.
(٤) الروض الأنف ١/ ٧٠.
(٥) ٤/ ٢٥٤.

وأنت تعلم أنَّ ما ذكر لا يصلح دليلاً على أنهم صاروا أنبياءَ؛ لِمَا علمتَ من الاحتمالات، والدليلُ إذا طَرَقَه الاحتمالُ بطل به الاستدلال، ورؤيتُهم كواكبَ يُهْتَدَى بأنوارها بمعزلٍ عن أن تكون دليلاً على أنَّ مصيرهم إلى النبوة، وإنما تكون دليلاً على أنَّ مصيرهم إلى كونهم هادين للناس، وهو مما لا يلزمُه النبوَّةُ، فقد قال ﷺ: «أصحابي كالنجوم بأيِّهم اقتديتُم اهتديتم»[1] ونحن لا ننكِرُ أنَّ القوم صاروا هادين بعد أن منَّ الله تعالى عليهم بالتوبة، بل هم لعمري حينئذٍ من أجلَّةِ أصحاب نبيِّهم. وقد يقال أيضاً: إنه لو دلَّ رؤيتُهم كواكبَ على أنَّ مصيرهم إلى النبوَّة لكانت رؤيةُ أمِّه قمراً أدلَّ على ذلك، ولا قائل به.

وقال بعضهم: لا مانعَ من أن يراد بـ «آل يعقوب» سائرُ بنيه، وبإتمام النعمة إتمامُها بالنبوَّة، لكن لا يَثْبُتُ بذلك نبوَّتُهم بعدُ لجواز أن يراد: يتم نعمته عليك بالنبوَّة، وعلى آل يعقوب بشيءٍ آخَرَ كالخلاص من المكروه مثلاً، وهذا كقولك: أنعمتُ على زيد وعلى عمرو، وهو لا يقتضي أن يكون الإنعامُ عليهما من نوعٍ واحد؛ لصِدْقِ الكلام بأنْ تكونَ قد أنعمتَ على زيدٍ بمنصبٍ وعلى عمرو بإعطائه ألف دينار، أو بتخليصه من ظالمٍ مثلاً، وهو ظاهر.

ورجَّح بعضُهم حملَ الآل على ما يعمُّ الأبناء، بأنه لو كان المراد الأبناء لكان الأظهر الأخصر: وعلى إخوتك، بدلَ ما في النظم الجليل.

وقيل: إنما اختار ذلك عليه لأنه يتبادرُ من الإخوة الإخوةُ الذي نُهي عن الاقتصاص عليهم، فلا يدخل بنيامين، والمراد إدخالُه.

وقيل: المراد بـ «آل يعقوب» أتباعُه الذين على دينه[2]. وقيل: يعقوب خاصةً، على أنَّ الآل بمعنى الشخص. ولا يخفى ما في القولين من البُعْدِ، وأبعدُهما الأخيرُ.

ومَن جَعَل إتمامَ النعمة إشارةً إلى المُلْكِ جَعَلَ العطفَ باعتبارِ أنهم يغتنمون آثاره من العزِّ والجاه والمال[3].

---

(١) حديث موضوع، وينظر ما سلف ١/٢٠١.
(٢) جاء في هامش الأصل: وفي بعض الآثار: آلُ محمد كلُّ تقيٍّ، وفيه مقال. اهـ منه.
(٣) بعدها في الأصل و(م): هذا، والمثبت من تفسير أبي السعود ٤/ ٢٥٤، والكلام منه.

﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ أي: إتماماً كائناً كإتمام نعمتِه على أبويك من قبلِ هذا الوقتِ، أو من قبلك، والاسمان الكريمان عطفُ بيانٍ لـ «أبويك»، والتعبيرُ عنهما بالأب مع كونهما أبا جدِّه وأبا أبيه، للإشعار بكمال ارتباطِه بالأنبياء عليهم السلام، وتذكيرِ معنى: الولدُ سرُّ أبيه، ليطمئنَّ قلبه بما أخبر به.

وإتمامُ النعمةِ على إبراهيم عليه السلام إمَّا بالنبوَّة، وإما باتخاذه خليلاً، وإما بإنجائه من نار عدوِّه، وإما مِن ذَبْحِ ولده، وإمَّا بأكثر من واحدٍ من هذه. وعلى إسحاق إمَّا بالنبوة، أو بإخراج يعقوبَ من صُلْبه، أو بإنجائه من الذبح وفدائه بذبحٍ عظيمٍ على روايةِ أنه الذبيح، وذهب إليه غيرُ واحد، وسيأتي إنْ شاء الله تعالى تحقيقُه(١).

وأمرُ التشبيه على سائر الاحتمالات سهل؛ إذ لا يجبُ أن يكون من كلِّ وجهٍ، والاقتصارُ في المشبَّه به على ذِكْرِ إتمام النعمة من غير تعرُّضٍ للاجتباء من باب الاكتفاء كما قيل، فإنَّ إتمام النعمة يقتضي سابقةَ النعمة المستدعيةِ للاجتباء لا محالة.

ومعرفتُه عليه السلام لِمَا أَخْبَرَ به مما لم تدلَّ عليه الرؤيا إما بفراسةٍ، وكثيراً ما تصدُقُ فراسةُ الوالد بولده كيفما كان الوالد، فما ظنُّك بفراسته إذا كان نبيًّا؟ أو بوحيٍ، وقد يُدَّعَى أنه استدلَّ بالرؤيا على كلِّ ذلك.

﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ بكلِّ شيءٍ، فيعلمُ من يستحقُّ المذكورات ﴿حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ فاعلٌ لكلِّ شيءٍ حسبما تقتضيه الحكمةُ، فيفعلُ ما يفعل جَرْياً على سَنَنِ عِلْمِه وحكمته، والجملةُ استئنافٌ لتحقيق الجمل المذكورة.

﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ﴾ أي: في قَصَصِهم. والظاهرُ أنَّ المراد بالإخوة هنا ما أريدَ بالإخوة فيما مر، وذهب جمعٌ إلى أنهم هناك بنو عَلَّاته. وجوَّز أن يراد بهم هاهنا ما يشملُ من كان من الأعيان؛ لأنَّ لبنيامين أيضاً حصةٌ من القصة، ويُبْعِدُه على ما قيل: «قالوا» الآتي.

---

(١) إثر تفسير الآية [١١٣] من سورة الصافات.

﴿ءَايَٰتٌ﴾ علاماتٌ عظيمةُ الشأنِ دالَّةٌ على عظيم قُدرةِ الله تعالى القاهرةِ وحكمتِه الباهرة ﴿لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ لكلِّ مَن سأل عن قصتهم وعَرَفَها، أو للطالبين للآيات المعتبِرين بها، فإنهم الواقفون عليها المنتفعون بها دون مَن عَدَاهم ممن اندرج تحت قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥] فالمراد بالقصة نفسُ المقصوص.

أو على نبوَّته عليه الصلاة والسلام للذين سألوه عن قصتهم ـ حَسْبَما علمتَ في بيان سبب النزول ـ فأخبرهم ﷺ بذلك على ما هو عليه من غير سماعٍ من أحدٍ ولا قراءةِ كتاب، فالمرادُ بالقصة اقتصاصُها، وجمعُ «الآيات» حينئذٍ قيل: للإشعار بأنَّ اقتصاصَ كلِّ طائفةٍ من القصة آيةٌ بيِّنةٌ كافيةٌ في الدلالة على نبوَّته ﷺ، وقيل: لتعدُّدِ جهة الإعجاز لفظاً ومعنًى.

وزعم بعض الجلَّة أن الآية من باب الاكتفاء[1]، والمراد: آياتٌ للذين يَسألون والذين لا يَسألون، ونظيرُ ذلك قوله سبحانه: ﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت: ١٠] وحَسُنَ ذلك لقوة دلالة الكلام على المحذوف.

وقال ابن عطية: إنَّ المراد من «السائلين» الناسُ، إلا أنه عدل عنه تحضيضاً على تعلُّم مثل هذه القصة لِمَا فيها من مزيد العبر[2]. وكِلَا القولين لا يخلو عن بعد.

وقرأ أهل مكة وابن كثير ومجاهد: «آية» على الإفراد[3]. وفي مصحف أبيٍّ: «عبرةٌ للسائلين»[4]. ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ بنيامينُ، وتخصيصُه بالإضافة لاختصاصه بالأخوَّة من جانبي الأمِّ والأب، وهي أقوى من الأخوة من أحدهما، ولم يذكروه باسمه إشعاراً بأنَّ محبة يعقوب عليه السلام له لأَجْلِ شقيقه يوسف عليه السلام، ولذا لم يتعرَّضوه بشيءٍ مما أُوْقِعَ بيوسف عليه السلام.

---

(١) هو أن يقتضي المقام شيئين بينهما تلازم وارتباط، فيكتفى بأحدهما عن الآخر لنكتة. الإتقان ٢/ ٨٣٠.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٢١.

(٣) التيسير ص١٢٧، والنشر ٢/ ٢٩٣ عن ابن كثير، والكلام من البحر ٥/ ٢٨٢.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٢٢١، والبحر ٥/ ٢٨٢.

واللامُ للابتداء، و«يوسف» مبتدأ، و«أخوه» عطف عليه. وقولُه سبحانه: ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ خبرٌ ومتعلِّقٌ به، وهو أفعلُ تفضيلٍ من المبني للمفعول شذوذاً، ولذا عدِّي بـ «إلى»، حَسْبَما ذكروا من أنَّ «أفعل» من الحبِّ والبغض يعدَّى إلى الفاعل معنًى بإلى، وإلى المفعول باللام وفي؛ تقول: زيدٌ أحبُّ إليَّ من بكر، إذا كنتَ تُكْثِرُ محبَّته، و«لي» و«فيَّ» إذا كان يحبُّك أكثر من غيره.

ولم يثنَّ مع أن المخبَرَ عنه به اثنان؛ لأنَّ «أفعل من كذا» لا يفرِّقُ فيه بين الواحد وما فوقه، ولا بين المذكَّر وما يقابلُه، بخلافِ أخويه، فإنَّ الفرق واجبٌ في المحلَّى، جائزٌ في المضاف إذا أريد تفضيلُه على المضاف إليه، وإذا أريد تفضيلُه مطلقاً فالفرقُ لازمٌ.

وجيءَ بلام الابتداء لتحقيق مضمون الجملة وتأكيدِه، أي: كثرةُ حبِّه لهما أمرٌ ثابتٌ لا شبهةَ فيه ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: الحالُ أنَّا جماعةٌ قادرون على خدمته والجدِّ في منفعته دونهما.

والعُصْبةُ والعصابةُ على ما نقل عن الفرَّاء: العشرةُ فما زاد[1]، سُمُّوا بذلك لأنَّ الأمور تُعصب بهم، أي: تُشدُّ فتَقْوَى.

وعن ابن عباس أنَّ العصبة ما زاد على العشرة، وفي روايةٍ عنه أنها ما بين العشرة والأربعين. وعن مجاهد أنها من عشرةٍ إلى خمسةَ عَشَر. وعن مقاتل: هي عشرة. وعن ابن جبير: ستة أو سبعة. وقيل: ما بين الواحد إلى العشرة. وقيل: إلى خمسة عشر.

وعن ابن زيد والزجَّاج وابنِ قتيبةَ: هي الجماعةُ مطلقاً[2]، ولا واحدَ لها من لفظها كالنَّفَرِ والرَّهْطِ.

وقيل: الثلاثة نفرٌ، وإذا زادوا فهم رَهْطٌ إلى التسعة، فإذا زادوا فهم عصبةٌ؛ ولا يقال لأقلَّ من عشرةٍ: عصبة.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٩٣، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٢١٢.

وروى النزَّال بن سبرة عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنه قرأ بنصب «عصبة»(١) فيكون الخبرُ محذوفاً، و«عصبةً» حالٌ من الضمير فيه، أي: نجتمع عصبةً، وقدِّر ذلك ليكون في الحال دلالةٌ على الخبر المحذوف؛ لما فيها من معنى الاجتماع.

وزعم ابن المنير أنَّ الكلام على طريقةِ:

أنـا أبـو الـنـجـم وشِـعْـري شِـعْـري(٢)

والتقديرُ: ونحنُ نحن عصبةً، وحُذف الخبر لمساواته المبتدأ وعدمِ زيادته عليه لفظاً، ففي حذفه خلاصٌ من تكرار اللفظ بعينه مع دلالة السياق على المحذوف، ولا غَرْوَ في وقوع الحال بعد «نحن» لأنه بالتقدير المذكور كلامٌ تامٌّ فيه من الفخامة ما فيه، وقدِّر في ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨] على قراءة النصب مثلُ ذلك(٣). وفيه أنَّ الفخامة إنما تجيءُ من التكرار فلا يجوزُ الحذفُ، على أنَّ الدلالة على المحذوف غيرُ بينة.

وعن ابن الأنباريِّ أنَّ ذلك كما تقول العرب: إنما العامريُّ عِمَّته، أي: يتعهَّدُ ذلك(٤)، والدالُّ على المحذوف فيه «عِمَّته» فإن الفِعْلَةَ للحالة التي يستمرُّ عليها الشخصُ، فيلزمُ لا محالةَ تعهُّدُه لها.

والأَوْلَى أن يُعتبر نظيرَ قول الفرزدق: يا لَهْذَمُ حُكْمُكَ مُسمَّطاً، فإنه أراد كما قال المبرِّدُ: حُكْمكَ لك مسمَّطاً، أي: مثبتٌ نافذٌ غيرُ مردودٍ(٥). وقد شاع هذا فيما بينهم، لكنْ ذكروا أنَّ فيه شذوذاً من وجهين، والآيةُ على قراءة الأمير كرم الله تعالى وجهَه أكثرُ شذوذاً منه كما لا يخفى على المتدرِّب في علم العربية.

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٢، والبحر ٥/ ٢٨٣، والكشاف ٢/ ٣٠٥.

(٢) ديوان أبي النجم العجلي ص٩٩، وسلف ٢/ ٤١٧ و٧/ ٣١٠ و٤٧٥.

(٣) الانتصاف ٢/ ٣٠٤، والقراءة بالنصب في الآية المذكورة سلفت ص٣٨ من هذا الجزء.

(٤) سمعه من ابن الأنباري ابن خالويه كما ذكر في القراءات الشاذة ص٦٢. والعِمَّة بالكسر: الاعتمام. القاموس (عمم).

(٥) الكامل ٢/ ٦١٦-٦١٧، ولقول الفرزدق هذا قصة، وفيها أن لهذم هذا، وهو مكاتَبٌ لبني منقر ضَعُف عن حمل ما كوتب به، فأتى قبر غالب والد الفرزدق فاستجار به، ثم أتى الفرزدق فأخبره خبره وذكر له في ذلك شعراً، فقال له الفرزدق تلك الجملة، وينظر تتمة القصة في الكامل ٢/ ٦١٢.

﴿إِنَّ أَبَانَا﴾ أي: في ترجيحهما علينا في المحبة مع فَضْلِنا عليهما وكونِهما بمعزلٍ عن كفاية الأمور ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: خطأ في الرأي، وذهابٍ عن طريق التعديل اللائق من تنزيل كلٍّ منَّا منزلتَه ﴿مُّبِينٍ ⑧﴾ ظاهر الحال. وجعل الضلال ظرفاً لتمكُّنه فيه، ووَصْفُه بالمبين إشارةٌ إلى أنَّ ذلك غيرُ مناسبٍ بزَعْمِهم، والتأكيدُ لمزيد الاعتناء.

يُروى أنه عليه السلام كان أحبَّ إليه لِمَا يرى فيه من[1] المخايل، وكانت إخوتُه يحسدونه، فلمَّا رأى الرؤيا تضاعَفَتْ له المحبةُ، فكان لا يصبر عنه ويضمُّه كلَّ ساعةٍ إلى صدره، ولعله أحسَّ قلبُه بالفراق، فتضاعف لذلك حسدُهم حتى حملهم على ما قصَّ الله تعالى عنهم.

وقال بعضهم[2]: إنَّ سبب زيادة حبِّه عليه السلام ليوسف وأخيه صغرُهما وموتُ أمهما، وحبُّ الصغير أمرٌ مركوزٌ في فطرة البشر، فقد قيل لابنة الحسن: أيُّ بنيك أحبُّ إليك؟ قالت: الصغيرُ حتى يَكْبُر، والغائبُ حتى يَقْدَمَ. والمريضُ حتى يَشْفَى.

وقد نظم بعضُ الشعراء في محبة الولد الصغير قديماً وحديثاً، ومن ذلك ما قاله الوزير أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري[3] من قصيدة بعث بها إلى أولاده وهو في السجن:

وصغيرُهم[4] عبدُ العزيز فإنَّني ... أطوي لفُرْقَته جوًى لم يَصْغُرِ
ذاك المقدَّمُ في الفؤاد وإنْ غدَا ... كفؤاً لكم في المنْتَمَى والعنصرِ
إنَّ البنان الخمسَ أَكْفاءٌ معاً ... والحلْيُ دون جميعها للخنصر
وإذا الفتى فَقَدَ الشبابَ سما له ... حبُّ البنينَ ولا كحبِّ الأصغر

وفيه أنَّ منشأ زيادة الحبِّ لو كانت ما ذكر لكان بنيامين أَوْفرَ حظًّا في ذلك؛ لأنه أصغرُ من يوسف عليه السلام كما يدلُّ عليه قولُهم: إنَّ أمهما ماتت في نفاسه،

---

(١) بعدها في (م): أن، وهو خطأ. ينظر تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ١٥٨.
(٢) هو قول ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٢١، وأبو حيان في البحر ٥/ ٢٨٢ والكلام منه.
(٣) الكاتب، أحد وزراء الدولة العامرية بالأندلس وكاتبها، كان عالماً أديباً شاعراً، مات قبل الأربع مئة بمدة. الوافي بالوفيات ١٩/ ١٥٣، وجذوة المقتبس ص٢٨٠.
(٤) في البحر: وصغيركم.

والآيةُ كما أشرنا إليه مشيرةٌ إلى أنَّ محبته لأجل شقيقه يوسف، فالذي ينبغي أن يعوَّل عليه أنه عليه السلام إنما أحبَّه أكثر منهم لَمَّا رأى فيه من مخايل الخير ما لم يَرَ فيهم، وزاد ذلك الحبُّ بعد الرؤيا لتأكيدها تلك الأمارات عنده.

ولا لوم على الوالد في تفضيله بعضَ ولده على بعضٍ في المحبة لمثل ذلك، وقد صرَّح غيرُ واحدٍ أنَّ المحبة ليست مما تدخل تحت وسع البشر، والمرءُ معذورٌ فيما لم يدخل تحته.

نعم ظنَّ أبناؤه أنَّ ما كان منه عليه السلام إنما كان عن اجتهادٍ، وأنه قد أخطأ في ذلك، والمجتهدُ يخطئُ ويصيب وإن كان نبيًّا، وبهذا ينحلُّ ما قيل: إنهم إن كانوا قد آمنوا بكون أبيهم رسولاً حقًّا من عند الله تعالى فكيف اعترضوا، وكيف زيَّفوا طريقته وطعنوا فيما هو عليه؟ وإن كانوا مكذِّبين بذلك فهو يوجبُ كفرَهم والعياذُ بالله تعالى، وهو مما لم يقل به أحدٌ، ووجهُ الانحلال ظاهر.

﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ الظاهرُ أنَّ هذا من جملة ما حُكي بعد قوله سبحانه: ﴿إِذْ قَالُوا۟﴾ وقد قاله بعضٌ منهم مخاطباً للباقين، وكانوا راضين بذلك إلَّا مَن قال: «لا تقتلوا» إلخ، ويحتمل أنه قاله كلٌّ منهم مخاطباً للبقية، والاستثناءُ هو الاستثناء. وزعم بعضهم أنَّ القائل رجلٌ غيرهم شاوروه في ذلك، وهو خلافُ الظاهر، ولا ثبتَ له.

والظاهرُ أنَّ القائل خيَّرهم بين الأمرين: القتلِ، والطرح. وجوِّز أن يكون المراد: قال بعضٌ: «اقتلوا يوسف» وبعضٌ: «اطرحوه».

والطرحُ رميُ الشيء وإلقاؤه، ويقال: طرحتُ الشيء: أبعدْته، ومنه قولُ عروة بن الورد:

ومَن يكُ مثلي ذا عيالٍ ومُقْتِراً ... من المال يَطْرحْ نفسَه كلَّ مَطْرحِ[١]

ونُصِبَ «أرضاً» على إسقاط حرف الجر كما ذهب إليه الحوفيُّ وابن عطية[٢]، أي: ألقُوه في أرضٍ بعيدة عن الأرض التي هو فيها.

(١) ديوان عروة ص٤٠.
(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٢.

وقيل: نُصِبَ على أنه مفعولٌ ثانٍ لـ «اطرحوه» لتضمُّنِه[1] معنى أَنْزِلوه، فهو كقوله تعالى: ﴿أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ [المؤمنون: ٢٩].

وقيل: منصوبٌ على الظرفية. وردَّه ابنُ عطية وغيرُه بأنَّ ما ينتصبُ على الظرفية المكانية لا يكون إلا مبهماً، وحيث كان المراد: أرضاً بعيدةً عن أرضه لم يكن هناك إبهامٌ[2]. ودُفع بما لا يخلو عن نظر.

وحاصل المعنى: اقتلوه أو غرِّبوه فإنَّ التغريب كالقتل في حصول المقصود مع السلامة من إثمه، ولعمري لقد ذكروا أمرين مُرَّين، فإنَّ الغربة كربةٌ أيةُ كربةٍ، ولله تعالى درُّ مَن قال:

حسَّنوا القول وقالوا غربةٌ   إنما الغربةُ للأحرار ذبحُ[3]

﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ بالجزم جوابُ الأمر، والوجهُ: الجارحةُ المعروفة، وفي الكلام كنايةٌ تلويحيةٌ عن خلوص المحبة، ومن هنا قيل: أي: يُقْبِلُ عليكم إقبالةً واحدة لا يلتفتُ عنكم إلى غيركم، والمرادُ سلامةُ محبته لهم ممن يشاركهم فيها وينازِعُهم إياها. وقد فسِّر الوجهُ بالذات، والكنايةُ بحالها خلا أنَّ الانتقال إلى المقصود بمرتبتين على الأول وبمرتبة على هذا.

وقيل: الوجهُ بمعنى الذات، وفي الكلام كنايةٌ عن التوجُّه والتقيُّد بنظم أحوالهم وتدبيرِ أمورهم؛ لأنَّ خلوَّه لهم يدلُّ على فراغه من شغل يوسف عليه السلام، فيشتغل بهم وينظم أمورهم. ولعل الوجه الأَوْجَه هو الأول.

﴿وَتَكُونُوا﴾ بالجزم عطفاً على جواب الأمر، وبالنصب بعد الواو بإضمار «أنْ»[4]،

---

(١) في (م): لتضمينه.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٢.

(٣) البيت لفتح الله بن النحاس كما في نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة للمحبي ٢/ ٥٢٢.

(٤) جاء في حاشية (م): لا يخفى على المتأمل في هذا التفسير حلُّ ما استَشْكلَه بعض الناس على تقدير العطف على جواب الأمر من عدم استقامة: إن تقتلوا أو تطرحوا تكونوا من بعده قوماً صالحين. من حيث المعنى، وعندي أن ما أشير إليه من الجواب كالجواب عن نظير هذا الاستشكال في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ الآية [الفتح: ١] فتأمل ترشد. اهـ منه.

أي: يجتمع لكم خلوُّ وجهه والكونُ ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ أي: بعد يوسف على معنى: بعد الفراغ من أمره، أو: من بعد قتله أو طرحه. فالضميرُ إمَّا ليوسف أو لأحد المصدرين المفهومين من الفعلين.

﴿قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾ بالتوبة والتنصُّل إلى الله تعالى عمَّا جئتُم به من الذنب كما روي عن الكلبي، وإليه ذهب الجمهور، فالمراد بالصلاح الصلاحُ الدينيُّ بينهم وبين الله تعالى. ويحتمل أن المراد ذلك لكن بينهم وبين أبيهم بالعذر، وهو وإن كان مخالفاً للدِّين لكونه كذباً، لكنه موافقٌ له من جهةِ أنهم يرجون عفوَ أبيهم وصَفْحَه به ليخلصوا من العقوق على ما قيل. ويحتمل أن يراد الصلاحُ الدنيويُّ، أي: صالحين في أمر دنياكم، فإنه ينتظم لكم بعده بخلوِّ وجه أبيكم. وإيثار الخطاب في «لكم» وما بعده للمبالغة في حملهم على القبول، فإن اعتناء المرء بشأن نفسه واهتمامَه بتحصيل منافعه أتمُّ وأكمل.

﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ﴾ هو يهوذا، وكان رأيُه فيه أهونَ شرًّا من رأي غيره، وهو القائل: ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ إلخ [يوسف: ٨٠] قاله السدي.

وقال قتادة وابن إسحاق: هو روبيل. وعن مجاهد: أنه شمعون. وقيل: دان. وقال بعضهم: إنَّ أحد هذين هو القائل: «اقتلوا يوسف» إلخ، وأما القائل: ﴿لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾ فغيرُه. ولعل الأصحَّ أنه يهوذا.

قيل: وإنما لم يُذكر أحدٌ منهم باسمه ستراً على المسيء، وكلٌّ منهم لم يَخْلُ عن الإساءة وإن تفاوتت مراتبها، والقول بأنه على هذا لا ينبغي لأحدٍ أن يعيِّن أحداً منهم باسمه تأسِّياً بالكتاب ليس بشيء؛ لأنَّ ذلك مقامُ تفسيرٍ، وهو فيه أمرٌ مطلوب.

والجملةُ مستأنفةٌ استئنافاً بيانيًّا، كأنَّ سائلاً سأل: اتَّفقوا على ما عُرِضَ عليهم من خصلتي الصنيع أم خالفهم في ذلك أحد؟ فقيل: قال قائلٌ منهم: «لا تقتلوا» إلخ. والإتيانُ بـ «يوسف» دون ضميره لاستجلاب شفقتهم عليه واستعظامِ قَتْلِه وهو هو؛ فإنه يُروى أنه قال لهم: القتلُ عظيمٌ، ولم يصرِّح بنهيهم عن الخصلة الأخرى، وأحاله على أولويةِ ما عَرَضَه عليهم بقوله: ﴿وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾ أي: في قَعْرِه

وغَوْرِه، سمِّي به لغيبته عن عين الناظر، ومنه قيل للقبر: غَيابة، قال المنخَّل السعدي[١]:

إذا أنـا يـومـاً غـيَّـبـتـنـي غَـيَـابـتـي فسيروا بسَيْري في العشيرة والأهل

وقال الهرويُّ: الغيابةُ في الجبِّ شِبْهُ كهفٍ[٢] أو طاقٍ في البئر فوق الماء يغيِّبُ ما فيه عن العيون.

والجبُّ: الرَّكِيَّةُ التي لم تُطْوَ فإذا طُوِيَتْ فهي بئرٌ[٣]، قال الأعشى:

لـئـن كـنـتَ فـي جـبٍّ ثـمـانـيـن قـامـةً ورقِّـيـتَ أسـبـابَ الـسـمـاء بـسـلَّـم[٤]

ويجمع على جبب[٥] وجِبَاب وأجباب، وسمِّي جبًّا لأنه جُبَّ[٦] من الأرض، أي: قُطِعَ، وسيأتي قريباً إن شاء الله تعالى الكلامُ في تأنيثه وتذكيره.

وقرأ نافع: «في غيابات» في الموضعين[٧]، كأنَّ لتلك الجبِّ غياباتٍ، ففيه إشارةٌ إلى سعتها، أو أراد بالجب الجنس، أي: في بعض غيابات الجب.

وقرأ ابن هرمز: «غيَّابات» بتشديد الياء التحتية، وهو صيغةُ مبالغةٍ، ووزنُه على

---

(١) كذا نقل المصنف عن البحر ٥/ ٢٨٤، وذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣٠٢ عن المنخل بن سبيع العنبري، والعنبري والسعدي شاعران ذكرهما الآمدي في المؤتلف والمختلف ص٢٧١ و ٢٧٢، ولكنه ذكر السعدي فيمن اسمه المتنخل، وقال: لم يقع إلي من شعره شيء، ثم أورد له بيتاً استشهد به الكسائي والفراء كما قال. والبيت منسوب للمنخل في معاني القرآن للزجاج ٣/ ٩٤، والكشاف ٢/ ٣٠٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٢٢، وزاد المسير ٤/ ١٨٥. وهو في معاني القرآن للزجاج برواية: غيبتني منيتي.

(٢) كذا في الأصل و(م)، والذي في تفسير القرطبي ١١/ ٢٦٣، والبحر ٥/ ٢٨٤، والدر المصون ٦/ ٤٤٦ نقلاً عن الهروي: شبه لَجَفٍ، واللَّجَفُ: حَفْرٌ في جانب البئر. القاموس (لجف).

(٣) الركية: البئر، وطَوَى الركيةَ: عرشها بالحجارة والآجر. اللسان (طوى).

(٤) ديوان الأعشى ص١٧٣.

(٥) كذا في الأصل و(م)، والذي في المعاجم: جِبَبَة كقِرَدة. ينظر العين ٦/ ٢٥، والصحاح واللسان والقاموس والتاج (جبب)، وذكروا أن جُبَب كقُبَب جمع الجبة التي بمعنى الثوب، أو من أسماء الدرع.

(٦) في الأصل: جبّ.

(٧) التيسير ص١٢٧، والنشر ٢/ ٢٩٣، وهي قراءة أبي جعفر من العشرة.

ما نقل صاحب «اللوامح» يجوز أن يكون فعَّالات كحمَّامات، ويجوز أن يكون فَيْعَالات، كشَيْطانات في جمع شيطانة[(١)].

وقرأ الحسن: «غَيَبَة» بفتحات على أنه في الأصل مصدر كالغَلَبة، ويحتمل أن يكون جمعَ غائبٍ كصانع وصَنَعة[(٢)].

وفي حرف أبيٍّ رضي الله عنه: «غَيْبة» بسكون الياء التحتية[(٣)] على أنه مصدرٌ أُرِيدَ به الغائب.

﴿يَلْتَقِطْهُ﴾ أي: يأخذه على وجه الصيانة عن الضياع والتلف، فإنَّ الالتقاط أخذُ شيءٍ مُشْرِفٍ على الضياع، كذا قيل، وفي «مجمع البيان»: هو أن يجد الشيء ويأخذَه من غير أن يحسبه[(٤)]، ومنه قوله:

ومـنـهـلٍ وردتُـه الـتـقـاطـا[(٥)]

﴿بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ أي: بعضُ جماعةٍ تسير في الأرض و«أل» في «السيارة» كما في «الجب»، وما فيهما وفي البعض من الإبهام لتحقيق ما يتوخَّاه من ترويج كلامه بموافقته لغرضهم الذي هو تَنَائي يوسفَ عليه السلام عنهم بحيث لا يُدْرَى أثرُه ولا يُرْوَى خبرُه.

وقرأ الحسن: «تلتقطه»[(٦)] على التأنيث باعتبار المعنى، كما في قوله:

---

(١) البحر ٥/ ٢٨٤، والقراءة ذكرها أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٢، وابن جني في المحتسب ١/ ٣٣٣.

(٢) البحر ٥/ ٢٨٤، والقراءة ذكرها أيضاً في القراءات الشاذة ص٦٢.

(٣) القراءات الشاذة ص٦٢، والبحر ٥/ ٢٨٤، وهي في المحتسب ١/ ٣٣٣ عن الحسن.

(٤) مجمع البيان ١٢/ ١٥.

(٥) الرجز لنقَادةَ الأسدي كما في شرح أبيات إصلاح المنطق للسيرافي ص٢٠٠، واللسان (فرط) و(لقط)، والتاج (فرط) و(لغط) و(لقط)، وعزاه البكري في فصل المقال ١/ ٥٠٨ لأبي محمد الفقعسي، وهو دون نسبة في إصلاح المنطق ص٧٩ و ١٠٩، والأمثال لأبي عبيد ص٣٧٦، والصحاح (لقط)، والمستقصى ٢/ ٢٨٥، وبعده: لم ألق إذ وَرَدْتُه فُرَّاطا. قال البكري: أنشده اللغويون شاهداً على لقيته التقاطاً، إلى لقيته من غير طلبٍ ولا تعمُّدٍ، ولا قصدٍ للقائه.

(٦) القراءات الشاذة ص٦٢، والبحر ٥/ ٢٨٤.

إذا بعضُ السنينَ تعرَّقَتْنا كفى الأيتامَ فَقْدَ أبي اليتيمِ(١)

وجاء: قُطعَتْ بعضُ أصابعه، وجعلوا هذا من باب اكتساب المضافِ من المضاف إليه التأنيثَ، كقوله:

كما شَرِقَتْ صَدْرُ القناة من الدَّمِ(٢)

﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾ أي: إن كنتم عازمين مصرِّين على أن تفعلوا به ما يفرِّقُ بينه وبين أبيه، أو: إن كنتُم فاعلين بمشورتي ورأيي فألقوه إلخ، ولم يَبُتَّ القولَ لهم بل عَرَضَ عليهم ذلك تأليفاً لقلوبهم، وتوجيهاً لهم إلى رأيه، وحَذَراً من سوء ظنِّهم به.

ولما كان هذا مظنةً لسؤالِ سائلٍ يقول: فما فعلوا بعد ذلك، هل قبلوا رأيه أم لا؟ فأجيبَ على سبيل الاستئناف على وجهٍ أُدْرِجَ في تضاعيفه قبولُهم له بما سيجيءُ إن شاء الله تعالى من قوله سبحانه: ﴿وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٥] فقيل: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا﴾ خاطبوه عليه السلام بذلك تحريكاً لسلسلة النسب، وتذكيراً لرابطة الأخوَّة؛ ليتسبَّبوا بذلك استنْزالَه عن رأيه في حِفْظِه منهم لما أحسَّ بحسدهم، فكأنهم قالوا: ﴿مَا لَكَ﴾ أي: أيُّ شيءٍ لك ﴿لَا تَأْمَ۫نَّا﴾ لا تجعلنا أمناءَ ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ مع أنك أبونا ونحن بنوك وهو أخونا ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝١١﴾ مُريدونَ له الخيرَ ومشفقون عليه، ليس فينا ما يُخِلُّ بذلك.

وجملةُ «لا تأمنَّا» في موضع الحال، وكذا جملةُ «وإنَّا له لناصحون». والاستفهامُ بـ «ما لَكَ» فيه معنى التعجُّب، والكلامُ ظاهرٌ في أنه تقدَّم منهم سؤالُ أنْ يَخْرُجَ عليه السلام معهم فلم يَرْضَ أبوهم بذلك.

وقرأ الجمهور: «لا تأمنا» بالإدغام والإشمام، وفُسِّر بضمِّ الشفتين مع انفراج

---

(١) البيت لجرير، وهو في ديوانه ١/ ٢١٩، والكتاب ١/ ٥٢، والخزانة ٤/ ٢٢٠، وفيه: بعض: فاعل فعل محذوف يفسره تعرقتنا المذكور، يقال: تعرَّقْتُ العظمَ: إذا أكلتَ ما عليه من اللحم، يريد أنها أذهبت أموالنا ومواشينا. والسنة هنا: القحط والجدب. وكفى بمعنى أغنى يتعدَّى إلى مفعولين، أولهما الأيتام، وثانيهما فَقْدَ.

(٢) وصدره: وتَشْرقَ بالقول الذي قد أَذَعْتَه، والبيت للأعشى، وسلف ٤/ ٣٦٦، و٦/ ٣١.

بينهما إشارةٌ[١] إلى الحركة مع الإدغام الصريح كما يكون في الوقف، وهو المعروفُ عندهم وفيه عسرٌ هنا، ويطلق على إشرابِ الكسرة شيئاً من الضمة، كما قالوا في «قيل»، وعلى إشمام أحد حرفين شيئاً من حرفٍ آخر، كما قالوا في الصراط.

وقرأ زيد بن عليٍّ ﷺ وأبو جعفر والزهريُّ وعمرو بن عبيد بالإدغام من غير إشمام[٢]، وإرادةُ النفي ظاهرة.

وقرأ ابن هرمز بضم الميم مع الإدغام، وهذه الضمةُ منقولةٌ إلى الميم من النون الأولى بعد سَلْبِ حركتها[٣].

وقرأ أبيٌّ والحسن وطلحةُ بن مصرِّفٍ والأعمش: «لا تأمنُنا» بالإظهار وضمِّ النون على الأصل[٤]. وهو خلافُ خطِّ المصحف لأنه بنونٍ واحدة.

وقرأ ابن وثاب وأبو رزين: «لا تِيمَنَّا» بكسر حرف المضارعة على لغة تميم؛ وسهَّل الهمزة بعد الكسرة ابنُ وثاب[٥]، ولم يسهِّل أبو رزين.

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن عاصم أنه قرأ بذلك بمحضر عبيد بن نُضَيْلَةَ فقال له: لَحنْتَ. فقال أبو رزين: ما لَحَنَ مَن قرأ بلغة قومه[٦].

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ نصبٌ على الظرفية الزمانية، وهو يطلقُ على اليوم الذي يلي يومَكَ، وعلى الزمن المستقبل مطلقاً، وأصلُه: غدو، فحذفت لامُه، وقد جاء تامًّا.

أي: ابعثه معنا غداً إلى الصحراء ﴿يَرْتَعْ﴾ أي: يتَّسع في أكل الفواكه ونحوِها. وأصلُ معنى الرَّتْع أنْ تأكُلَ وتشربَ ما تشاء في خصبٍ وسعة، ويقال: رَتَعَ: أقامَ

---

(١) جاء في هامش الأصل و(م): قالوا: وهذه الإشارة بعد الإدغام أو قبله، وفي الثاني تأمُّلٌ. اهـ منه. والكلام مع الحاشية من حاشية الشهاب ٥/ ١٦٠.

(٢) النشر ١/ ٣٠٣، عن أبي جعفر، والكلام من البحر ٥/ ٢٨٥.

(٣) أي: بعد سلب الميم حركتها. البحر ٥/ ٢٨٥، والدر المصون ٦/ ٤٤٨.

(٤) القراءات الشاذة ص٦٢، والبحر ٥/ ٢٨٥.

(٥) البحر ٥/ ٢٨٥.

(٦) الدر المنثور ٤/ ٩، وفيه: ... عن أبي قاسم قال: قرأ أبو رزين: «مالك لا تيمنَّا»، قال له عبيد بن نضلة: لحنت...، وتصحف نضيلة في (م): إلى فضلة، وفي الأصل والدر إلى: نضلة. والمثبت من تهذيب الكمال ١٩/ ٢٣٩، وتهذيب التهذيب ٣/ ٤١.

في خصبٍ وتنعُّم، ويسمَّى الخصبُ رتعةً بسكون التاء وفتحها. وذكر الراغب أنَّ الرتعَ حقيقةٌ في أكل البهائم ويستعار للإنسان إذا أُريدَ به الأكلُ الكثير، وعلى ذلك قولُه:

وإذا يـخـلـو لـه لـحـمـي رتـع[١]

﴿وَيَلْعَبْ﴾ بالاستباق والانتضال ونحوِهما مما يُتَدرَّب به لقتال العدو، وليس المراد لعبَ لهوٍ وإلَّا لم يقرَّهم عليه يعقوب عليه السلام، وإنما عبَّروا عن ذلك به لكونه على هيئته تحقيقاً لِمَا رامُوْه[٢] من استصحاب يوسف عليه السلام بتصويرهم له بصورةٍ ما يلائمُ حاله عليه السلام من صغر السن.

وقرأ الجمهور: «يَرْتَعْ ويَلْعَبْ» بالياء والجزم[٣]، والابنان وأبو عمرو بالنون والجزم[٤]. وكَسَر العينَ الحِرْميَّان[٥]، واختلف عن قنبل في إثبات الياء وحذفها[٦].

ويُرْوَى عن ابن كثير: «نرتع» بالنون «ويلعب» بالياء، وهي قراءة جعفر بن محمد[٧].

---

(١) مفردات الراغب (رتع)، والبيت لسويد بن أبي كاهل اليشكري كما في المفضليات ص١٩٨، وصدره: ويُحيِّيني إذا لاقيتُه.

(٢) في (م): رموه، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ٢٥٧.

(٣) هي قراءة عاصم وحمزة والكسائي. التيسير ص١٢٨، والنشر ٢/ ٢٩٣. وقرأ بها أيضاً يعقوب وخلف من العشرة.

(٤) التيسير ص١٢٨، والنشر ٢/ ٢٩٣ عن أبي عمرو وابن عامر، والكلام من البحر ٥/ ٢٨٥، والابنان هما ابن كثير وابن عامر.

(٥) الحرميان هما نافع وابن كثير، فنافع قرأ بالياء وكسر العين في «يرتع» من غير ياء، ومثله قرأ أبو جعفر. وأما ابن كثير فرواية قنبل والبزي عنه بالنون، وكَسَر البزي العين من غير ياء، واختلف عن قنبل في إثبات الياء وحذفها كما سيرد.

(٦) نُقل عنه ثبوت الياء بعد العين وصلاً ووقفاً، وحذفُها وصلاً ووقفاً، فيوافق البزي في أحد الوجهين عنه. النشر ٢/ ٢٩٣ و ٢٩٧، والدر المصون ٦/ ٤٤٩. وجاء في هامش الأصل و(م): روي عنه الإثبات وصلاً ووقفاً، وفي روايةٍ إثباتها في الوقف دون الوصل، وهو المروي عن البزي. اهـ منه.

(٧) البحر ٥/ ٢٨٥، والمشهور عن ابن كثير القراءة بالنون في الفعلين كما تقدم.

وقرأ العلاء بن سيابة: «يرتعِ» بالياء وكَسْرِ العين مجزوماً محذوفَ اللام «ويلعبُ» بالياء أيضاً وضمِّ الباء على أنه مستأنفٌ، أو خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: وهو يلعبُ[(١)].

وقرأ مجاهد وقتادة وابن محيصن: «نُرْتِعْ» بنونٍ مضمومةٍ وعينٍ ساكنةٍ من أَرْتَعْنا، «ونَلْعَبْ» بالنون أيضاً، وكذلك أبو رجاء إلا أنه بالياء التحتية فيهما، والقراءتان على حذف المفعول، أي: نُرتِع المواشيَ أو غَيْرَها[(٢)]. والفعلان في هذه القراءات كلِّها مبنيَّان للفاعل.

وقرأ زيد بن عليٍّ ﵁: «يُرْتَعْ ويُلْعَبْ» بالياء والبناء للمفعول فيهما، وخرِّجَ ذلك على أنَّ نائب الفاعل ضميرُ «غداً»، والأصل: يَرْتَعْ فيه ويَلْعَبْ فيه، ثم حُذف الجارُّ واتُّسع فعدِّيَ الفعلُ للضمير، فصار: يَرْتَعْه ويَلْعَبْه، ثم بُني للمفعول فاستَتَر الضمير الذي كان منصوباً لكونه نائباً عن الفاعل[(٣)].

ومَن كَسَر العينَ من الفعلِ الأول فهو عنده من المراعاة على ما روي عن مجاهد، أي: يُراعي بعضُنا بعضاً ويحرسه.

وقال ابن زيد: مِن رَعْي الإبل، أي: نتدرَّب في الرعي وحِفْظِ المال. أو مِن رعي النبات والكلأ، والمراد: نَرْعَى مواشيَنا، إلا أنه أسند ذلك إليهم مجازاً، أو تجوّز عن أكلهم بالرعي.

وضعَّف ابنُ عطية القراءة بإثبات الياء، وقال: إنَّ إثباتها في مثل هذا الموضع لا يجوز إلا في الشعر، كقوله:

أَلَـمْ يـأتـيـكَ والأنـبـاءُ تَـنْـمِـي ... بِـمـا لاقَـتْ لَـبـونُ بـنـي زيـاد[(٤)]

وقيل: إنَّ تقدير حذف الحركة في الياء ونحوها للجازم لغةٌ، وليس من الضرورة في شيء.

---

(١) البحر ٥/ ٢٨٥، والقراءة في المحتسب ١/ ٣٣٣.

(٢) البحر ٥/ ٢٨٥، وقراءة أبي رجاء في المحتسب ١/ ٣٣٣.

(٣) البحر ٥/ ٢٨٥.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٤، والبيت لقيس بن زهير كما في النوادر في اللغة لأبي زيد ص٢٠٣، والأغاني ١٧/ ١٩٨، وهو دون نسبة في الكتاب ٣/ ٣١٦، والمحتسب ١/ ٦٧، ورواية الأغاني: ألم يبلغك.

وأخرج أبو الشيخ عن مقاتل بن حيان أنه كان يقرأ «نلهو ونلعب»[1].

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝١٢﴾ أي: مِن أن يناله مكروهٌ، والجملةُ في موضع الحال، والعاملُ فيها فِعْلُ الأمر أو الجواب، وليس ذلك من باب الإعمال كما قال أبو حيان؛ لأنَّ الحال لا تُضْمَرُ، وذلك الباب لا بدَّ فيه من الإضمار إذا أعمل الأول[2].

وقد أكَّدوا مقالتهم بأصناف التأكيد من إيراد الجملة اسميةً، وتحليتِها بـ «أنَّ» واللام، وإسنادِ الحفظ إلى كلِّهم، وتقديمِ «له» على الخبر، احتيالاً في تحصيل مقصدهم.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّ سائلاً يقول: فماذا قال أبوهم لهم؟ فقيل: قال: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾ لشدَّة مفارقته عليَّ، وقلَّة صبري عنه. واللامُ الداخلةُ على خبر إنَّ إذا كان مضارعاً قيل: تَقْصُره على الحال، وهو ظاهرُ كلام سيبويه. وقيل: تكونُ له ولغيره، واستدلُّوا بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [النحل: ١٢٤].

وقيل: إنها للحال إن خلتْ عن قرينةٍ، ومعها تكونُ لغيره، وجعلوا من ذلك ما في الآية.

وبعضُهم جعلها هنا للحال، واستشكل بأنَّ الذهاب مستقبلٌ فيلزمُ تقدُّم الفعل على فاعله، وهو غيرُ جائز لأنه أثرُه ولا يُعقل تقدُّم الأثر على المؤثِّر.

وأجيب بأنَّ التقدير: قَصْدُ أو توقُّعُ أن تذهبوا به، فالكلامُ على تقدير المضاف وهو الفاعل، وليس ذاك أمراً مستقبلاً بل حال، ولا يمتنعُ في ذلك حذفُ الفاعل؛ لِمَا صرَّحوا به أنه إنما يمتنع إذا لم يسدَّ مسدَّه شيءٌ، وهنا قد سَدَّ، ولا يجب أن يكون السادُّ هو المضاف إليه كما ظُنَّ بل لو سدَّ غيرُه كان الحذف جائزاً أيضاً، ومن هنا كان تقديرُ: قَصْدُكم أن تذهبوا، صحيحاً، ويحتمل أن يكون ذلك تقديرَ معنًى لا تقديرَ إعراب.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٩.

(٢) البحر ٥/ ٢٨٥.

وقال بعضهم: إنه يمكن دفعُ الإشكال من غير حاجةٍ إلى تقدير المضاف بأن يقال: إنَّ الذهاب يَحْزُنُه باعتبار تصوُّرِه كما قيل نظيرُه في العلة الغائية.

وقال شهاب فلك التحقيق[1]: أظنُّ أنَّ ما قالوه في توجيه الإشكال مغلطةٌ لا أصل لها؛ فإنَّ لزومَ كون الفاعل موجوداً عند وجود الفعل إنما هو في الفاعل الحقيقيِّ لا النحويِّ واللغويِّ، فإنَّ الفعل قد يكون قبله سواءٌ كان حالاً ـ كما فيما نحن فيه ـ أو ماضياً، كما أنه يصح أن يكون الفاعلُ في مثله أمراً معدوماً كما في قوله:

ومَن سرَّه أنْ لا يرى ما يسوؤه فلا يتَّخِذْ شيئاً يخافُ له فَقْدا[2]

ولم يقل أحدٌ في مثله إنه محتاجٌ إلى التأويل؛ فإنَّ الحزن والغمَّ كالسرورِ والفرحِ يكون بالشيء قبل وقوعه كما صرَّح به ابنُ هلالٍ في «فروقه»[3]، ولا حاجةَ إلى تأويلٍ أو تقديرٍ أو تنزيلٍ للوجود الذهنيِّ منزلةَ الخارجيِّ على القول به، أو الاكتفاء به، فإنَّ مثله لا يعرفه أهل العربية أو اللسان[4]، فإنْ أبيت إلا اللجاج فيه فليكن من التجوُّز في النسبة إلى ما يستقبل لكونه سبباً للحزن الآن. اهـ.

وأنت تعلم أنهم صرَّحوا بأنَّ فِعْلَ الفاعل الإصلاحي إما قائم به أو واقعٌ منه، وقيامُ الشيء بما لم يوجد بعدُ أو وقوعُه[5] منه غيرُ معقولٍ، وحينئذٍ فالتأويلُ بما يصحِّح[6] القيامَ أو الوقوعَ في فاقد ذلك بحسب الظاهر واجبٌ، كذا قيل فتدبر.

---

(١) في (م): شهاب ذلك التحقيق، والمثبت من الأصل، وهو الصواب، والمقصود به الشهاب الخفاجي، وكلامه في حاشيته على البيضاوي ٥/ ١٦٠، وما قبله منه.

(٢) البيت لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر كما في ثمار القلوب ص٦٩٣، والتمثيل والمحاضرة ص١٠٤، والمستطرف ٢/ ١٠٨.

(٣) ينظر الفروق في اللغة لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد العسكري ص٤٧٤-٤٧٥.

(٤) في الحاشية: واللسان.

(٥) في (م): ووقوعه.

(٦) في (م): يصح.

وقرأ ابن هرمز وابن محيصن: «ليحزنِّي» بالإدغام، وبذلك قرأ زيد بن عليٍّ ﷺ. وقرأ أيضاً: «تُذْهِبوا به» من أَذْهَبَ رباعيًا، ويخرَّج كما قال أبو حيان على زيادة الباء في «به» كما خرَّج بعضهم: «تُنْبِتُ بالدهن» في قراءةِ مَن ضمَّ التاء وكَسَرَ الباء الموحَّدة على ذلك، أي: لَيَحْزُنُنِي أن تُذْهِبوه[1].

﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ هو حيوانٌ معروفٌ، وخصَّه بالذِّكر لأنَّ الأرض ـ على ما قيل ـ كانت مَذْأَبةً[2]. وقيل: لأنه سبعٌ ضعيفٌ حقيرٌ، فنبَّه عليه السلام بخوفه ـ عليه السلام ـ عليه منه على خوفه عليه مما هو أعظمُ منه افتراساً من بابِ أَوْلَى. ولحقارةِ الذئب خصَّه الربيعُ بن ضَبُعٍ الفزاريُّ في كونه يخشاه لَمَّا بلغ من السنِّ ما بلغ في قوله:

والذئبَ أخشاه إنْ مررتُ به وحدي وأخشى الرياحَ والمطرا[3]

وقيل: لأنه عليه السلام رأى في المنام أنَّ ذئباً قد شدَّ عليه فكان يَحْذَرُه، ولعل هذا الحذر لأنَّ الأنبياء عليهم السلام لمناسبتهم التامة بعالم الملكوت تكون واقعاتُهم بعينها واقعةً، وإلَّا فالذئب في النوم يؤوَّلُ بالعدوّ.

وادَّعى بعضهم أنه عليه السلام ورَّى بالذئب عن واحدٍ منهم، فإنه عليه السلام أجلُّ قدراً من أنْ لا يعلم أنَّ رؤياه تلك من أيِّ أقسام الرؤيا هي، فإنَّ منها ما يحتاج إلى التعبير[4] ومنها ما لا يحتاج إليه، والكاملُ يعرف ذلك.

وتعقِّب بأنه يحتمل أن يكون الأمر قد خفي عليه كما قد خفي مثلُ ذلك على جدِّه إبراهيمَ عليه السلام وهو هو[5]، بناءً على ما ذكره شيخنا ابن العربي قدِّس سرُّه من أنَّ رؤياه عليه السلام ذبحَ ولده من الرؤيا المعبَّرةِ بذبح كبشٍ لكنه خفي عليه ذلك[6]، ولا يَخْفَي ما فيه.

---

(١) البحر ٥/ ٢٨٦، وعنه نقل المصنف ما أورده من قراءات.
(٢) بفتح الميم، أي: كثيرة الذئاب، ومَفْعَلة يصاغ لهذا المعنى كثيراً. حاشية الشهاب ٥/ ١٦١.
(٣) الكتاب ١/ ٩٠، والمحتسب ٢/ ٩٩، والخزانة ٧/ ٣٨٤، وسلف ٩/ ١٩٠.
(٤) في (م): للتعبير.
(٥) قوله: هو، ليس في (م).
(٦) الفتوحات المكية ٤/ ٢٤١.

والمذكورُ في بعض الروايات أنه عليه السلام رأى في منامه كأنه على ذروة جبل وكأنَّ يوسف في بطن الوادي، فإذا عشرةٌ من الذئاب قد احْتَوَشَتْه تريد أكله، فدرأ عنه[1] واحدٌ ثم انشقَّتِ الأرضُ فتوارى يوسف فيها ثلاثة أيام.

وأنا لم أجد لرواية الرؤيا مطلقاً سنداً يعوَّلُ عليه، ولا حاجة بنا إلى اعتبارها؛ لتكلُّف الكلام فيها، وبالجملة ما وقع منه عليه السلام من هذا القول كان تلقيناً للجواب من غير قَصْدٍ، وهو على أسلوب قوله سبحانه: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] والبلاءُ موكَّلٌ بالمنطق[2].

وأخرج أبو الشيخ وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تلقِّنوا الناس فيكذبوا، فإنَّ بني يعقوبَ لم يعلموا أنَّ الذئب يأكل الناس فلمَّا لقَّنهم أبوهم كذبوا فقالوا: أكله الذئب»[3].

والحزنُ ألمُ القلب لفوت المحبوب، والخوف انزعاجُ النفس لنزول المكروه، ولذلك أسند الأول إلى الذهاب به المفوِّت لاستمرار مصاحبته ومواصلتِه ليوسف عليه السلام، والثاني إلى ما يتوقَّعُ نزوله من أكل الذئب.

والذئبُ أصله الهمزة وهي لغةُ الحجاز، وبها قرأ غيرُ واحدٍ، وقرأ الكسائيُّ وخلف وأبو جعفر وورشٌ والأعشى وغيرُهم بإبدالها ياءً[4]؛ لسكونها وانكسارِ ما قبلها، وهو القياسُ في مثل ذلك، وذكر بعضهم أنه قد هَمَزَه على الأصل ابنُ كثير، ونافعٌ في رواية قالون، وأبو عمرو وقفاً، وابن عامر وحمزة درجاً وأَبْدلا وقفاً[5].

---

(١) في (م): عند، وهو تصحيف.

(٢) قطعة من حديث أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (١٣٧٣) و(١٣٧٥) عن ابن مسعود وأبي الدرداء رضي الله عنهما، وقال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ. اهـ. وقد ذكر السخاوي في المقاصد الحسنة ص١٤٧ طرقه، ثم قال: وأورده ابن الجوزي في الموضوعات من حديث أبي الدرداء وابن مسعود، ولا يَحْسُنُ بمجموع ما ذكرناه الحكمُ عليه بالوضع.

(٣) الدر المنثور ٤/ ١١، وهو في الفردوس للديلمي ٥/ ٢٠، وفي إسناده عبد الله بن عمر العمري، وهو ضعيف.

(٤) التيسير ص١٢٨، وجامع البيان في القراءات السبع ٢/ ٢١٥، والنشر ١/ ٣٩٠-٣٩٤.

(٥) وهذا هو المشهور عن حمزة، وأما نافع فالمشهور عنه الهمز درجاً ووقفاً. ينظر السبعة لابن مجاهد ص٣٤٦، والبدور الزاهرة ص١٦١.

ولعل ذلك لأنَّ التقاء الساكنين في الوقف وإن كان جائزاً إلا أنه إذا كان الأول حرفَ مدٍّ يكون أحسن.

وقال نصر[(١)]: سمعتُ أبا عمرو لا يهمزه، والظاهر أنه أراد مطلقاً، فيكون ما تقدَّم روايةً وهذه أخرى[(٢)].

ويجمع على أذؤب وذئاب وذؤبان، واشتقاقُه عند الزمخشريِّ من تَذاءبتِ الريحُ: إذا هبَّتْ من كلِّ جهة[(٣)].

وقال الأصمعيُّ: إنَّ اشتقاق تَذَاءَبَتْ من الذئب؛ لأنَّ الذئب يفعله في عدوه؛ قيل: وهو أنسبُ، ولذا عدَّ تذاءبت الريح من المجاز في «الأساس»[(٤)]، لكنْ قيل عليه: إنَّ أَخْذَ الفعل من الأسماء الجامدة كأَبَلَ[(٥)] قليلٌ مخالفٌ للقياس.

﴿وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ۝١٣﴾ لاشتغالكم بالرَّتْعِ واللَّعِب، أو لقلَّة اهتمامكم بحفظه.

﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: والحالُ أنَّا جماعةٌ جديرةٌ بأنْ تُعْصَبَ بنا الأمور، وتُكْفَى بآرائنا وتدبيراتنا الخطوب، واللامُ الداخلة على الشرط موطِّئةٌ للقسم، وقولُه سبحانه: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝١٤﴾ جوابٌ مجزِئٌ عن الجزاء.

والخسارُ إمَّا بمعنى الهلاك تجوُّزاً عن الضعف، أو عن[(٦)] استحقاقه، أو عن استحقاق الدعاء به، أي: لضعفاءُ عاجزون، أو مستحقُّون للهلاك لا غناءَ عندنا ولا نفعَ في حياتنا، أو: مستحقُّون لأنْ يُدْعَى علينا بالخسار والدمار، فيقال:

---

(١) كذا نقل المصنف عن أبي حيان في البحر ٥/ ٢٨٦، والصواب: نصر بن عليٍّ عن أبيه، كما في السبعة ص٣٤٦، وجامع البيان للداني ٢/ ٢١٥، وعلي هو ابن نصر بن علي بن صهبان، أبو الحسن الجهضمي البصري، روى القراءة عن أبي عمرو بن العلاء وغيره، وممن روى عنه القراءة ابنه نصر بن علي، توفي سنة (١٨٩هـ). طبقات القراء لابن الجزري ١/ ٥٨٢.

(٢) ينظر تفصيل مذهب أبي عمرو في هذه المسألة في النشر ١/ ٣٩١-٣٩٤.

(٣) الكشاف ٢/ ٣٠٦، وفيه: وقيل: اشتقاقه من تذاءبت...

(٤) مادة (ذأب).

(٥) كضَرَب: كثرت إبله.

(٦) قوله: عن، ليس في (م).

خسرهم الله تعالى ودمَّرهم إذ أكل الذئبُ أخاهم وهم معه. وجوِّز أن يكون بمعناه الحقيقيِّ، أي: إنْ لم نَقْدِرْ على حفظه وهو أعزُّ شيءٍ عندنا فقد هلكت مواشينا وخسرناها.

وإنما اقتصروا على جوابِ خوفِ أبيهم عليه السلام مِن أَكْلِ الذئب مع أنه ذَكَر في وجهِ عدمِ مفارقته أمرين: حزنَه لمفارقته، وخوفَه عليه من الذئب؛ لأنه السبب القويُّ في المنع دون الحزن لِقِصَرِ زمانه بناءً على سرعة عَوْدِهم به، أو لأنَّ حزنه بالذهاب به إنما هو للخوف عليه، فنفيُ الثاني يدلُّ على نفي الأول، أو لكراهتهم لذلك لأنه سببُ حسدهم له، فلذلك أعاروه أذناً صمَّاء.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا﴾ أي: عزموا عزماً مصمِّماً على ﴿أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ قيل: هو بئر على ثلاث فراسخَ من مقام يعقوب عليه السلام بكنعان التي هي من نواحي الأردن. وقيل: هو بين مصر ومَدْيَنَ. وقيل: بنفس أرض الأردن.

وزعم بعضُهم أنها بئرُ بيتِ المقدس، وتعقِّب بأنه يردُّه التعليلُ بالْتقاطِ بعض السيارة ومجيئهم عشاءً ذلك اليوم، فإنَّ بين منزل يعقوب عليه السلام وبيت المقدس مراحل.

وجوابُ «لَمَّا» محذوف إيذاناً بظهوره وإشعاراً بأنَّ تفصيله مما لا يحويه فلكُ العبارة، ومجملُه: فعلوا ما فعلوا. وقدَّره بعضهم: عَظُمت فتنتُهم، وهو أولى من تقديرِ: وضعوه فيها.

وقيل: لا حذفَ والجوابُ «أوحينا»، والواو زائدةٌ. وليس بشيءٍ.

وقال وهب وغيره من أهل السير والأخبار: إنَّ إخوة يوسف عليه السلام قالوا: أما تشتاقُ أن تخرجَ معنا إلى مواشينا فنتصيَّد ونَسْتَبِقَ؟ فقال عليه السلام: بلى قالوا: فسَلْ أباك أن يرسلك معنا. فقال عليه السلام: أَفْعَلُ. فدخلوا بجماعتهم على يعقوب فقالوا: يا أبانا إنَّ يوسف قد أحبَّ أن يخرج معنا إلى مواشينا. فقال يعقوب: ما تقول يا بني؟ قال: نعم يا أبت، إنِّي أرى من إخوتي من اللِّين واللطف فأحِبُّ أن تأذن لي. وكان يعقوبُ يكره مفارقته ويحبُّ مرضاته، فأذن له وأرسله معهم، فلما خرجوا به جعلوا يحملونه على رقابهم ويعقوب ينظر إليهم، فلما بَعُدوا

عنه وصاروا به إلى الصحراء ألْقَوْه إلى الأرض، وأظهروا له ما في أنفسهم من العداوة، وبسطوا له القول، وجعلوا يضربونه، فجعل كلما جاء إلى واحدٍ منهم واستغاث به ضربه، فلمَّا فَطِنَ لِمَا عزموا عليه جعل ينادي: يا أبتاه[1]، لو رأيتَ يوسف وما نزل به من إخوته لأَحْزَنَك ذلك وأبكاك، يا أبتاه ما أسرع ما نَسُوا عهدك وضيَّعوا وصيتك. وجعل يبكي بكاءً شديداً، فأخذه روبيل فجلد به الأرض ثم جثم على صدره وأراد قتله، فقال له يوسف: مهلاً يا أخي لا تقتلني. فقال له: يا ابن راحيل أنت صاحبُ الأحلام، قل لرؤياك تخلِّصك من أيدينا. ولوى عنقه فاستغاث بيهوذا وقال له: اتَّقِ الله تعالى فيَّ وحُلْ بيني وبين مَن يريد قتلي. فأدركته رحمةُ الأخوة ورقَّ له، فقال: يا إخوتاه، ما على هذا عاهدتموني، ألا أدلُّكم على ما هو أهونُ لكم وأَرْفَقُ به؟ قالوا: وما هو؟ قال: تُلْقُونه في هذا الجبِّ فإما أن يموت أو يلتقطه بعض السيارة.

فانطلقوا به إلى بئرٍ هناك واسعِ الأسفل ضيق الرأس، فجعلوا يُدلونه فيها، فتعلَّق بشفيرها فربطوا يديه ونزعوا قميصه، فقال: يا إخوتاه ردُّوا عليَّ قميصي لأستَتِر به في الجبِّ. فلم يفعلوا ثم ألقوه فيها، فقال لهم: يا إخوتاه أتَدَعوني وحيداً؟ قالوا[2]: ادْعُ الشمس والقمر والكواكب تؤنسك.

وقيل: جعلوه في دلو ثم أَدْلَوْه، فلمَّا بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يموت، وكان في البئر ماءٌ فسقط فيه ثم قام على صخرة فيها.

وروي أنهم لَمَّا ألقوه في الجبِّ جعل يبكي، فنادوه فظنَّ أنها رحمةٌ أدركتهم فأجابهم، فأرادوا رضخه بصخرة ليقتلوه، فمنعهم يهوذا.

وكان عند يعقوب قميصُ إبراهيم عليه السلام الذي كساه الله تعالى إياه من الجنة حين ألقي في النار، وكان قد جعله في قصبةٍ من فضة وعلَّقه في عنق يوسف لَمَّا خرج مع إخوته، فلما صار في البئر أخرجه ملكٌ وألبسه إياه، فأضاء له الجب.

---

(١) في (م): يا أبتا.
(٢) في الأصل: فقالوا.

وعن الحسن أنه لَمَّا ألقي فيها عَذُبَ ماؤها وكان يُغنيه عن الطعام والشراب[١]، ونزل عليه جبريل عليه السلام يؤنسُه، فلما أمسى نهض ليذهب فقال له: إنِّي أستوحشُ إذا ذهبتَ. فقال: إذا رُمْتَ شيئاً فقل: يا صريخَ المستصرخين، ويا غوث المستغيثين، ويا مفرِّجَ كَرْبِ المكروبين، قد ترى مكاني وتعلمُ حالي ولا يخفَى عليك شيءٌ من أمري. فلما قالها يوسف عليه السلام حفَّته الملائكة عليهم السلام واستأنس بهم.

وقال محمد بن مسلم الطائفيُّ[٢]: إنه عليه السلام لَمَّا أُلقي في الجب قال: يا شاهداً غيرَ غائبٍ، ويا قريباً غيرَ بعيدٍ، ويا غالباً غيرَ مغلوبٍ، اجْعَلْ لي فرجاً مما أنا فيه.

وقيل: كان يقول: يا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ارْحَمْ ضَعْفي وقلَّةَ حيلتي وصغر سنِّي.

وأخرج ابن مردويه[٣] عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا ألقي يوسفُ في الجبِّ أتاه جبريل عليه السلام فقال: يا غلام مَن ألقاك في هذا الجب؟ قال: إخوتي. قال: ولِمَ؟ قال: لمودة أبي إياي حسدوني. قال: تريد الخروج من هاهنا؟ قال: ذاك إلى إله يعقوب. قال: قل: اللهم إني أسألك باسمك المكنونِ المخزونِ، يا بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، أن تغفر لي وترحمني، وأن تجعل لي[٤] من أمري فَرَجاً ومخرجاً، وأن ترزقني من حيث أحتسُب ومن حيث لا أحتسبُ. فقالها فجعل الله تعالى له من أمره فرجاً ومخرجاً، ورزقه ملكَ مصر من حيث لا يَحْتَسِبُ» ثم قال عليه الصلاة والسلام: «أَلِظُّوا بهؤلاء الكلمات فإنهنَّ دعاءُ المصطفَيْنَ الأخيار».

---

(١) جاء في هامش الأصل و(م): وسيأتي رواية أن يهوذا كان يأتيه بالطعام قريباً إن شاء الله تعالى. اهـ منه.

(٢) المكي، أبو عبد الله، روى عن عمرو بن دينار وابن طاوس وإبراهيم بن ميسرة وغيرهم، توفي سنة (١٧٧هـ). سير أعلام النبلاء ٨/١٧٦.

(٣) كما في الدر المنثور ٤/٩.

(٤) قوله: لي، ليس في (م)، والمثبت من الأصل والدر المنثور.

ورُوي غيرُ ذلك، والرواياتُ في كيفية إلقائه وما قال وما قيل له كثيرةٌ، وقد تضمَّنت ما يلينُ له الصخر، لكنْ ليس فيها ما له سندٌ يعوَّلُ عليه، والله تعالى أعلم.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ الضميرُ ليوسف، أي: أعلمناه عند ذلك تبشيراً له بما يَؤُولُ إليه أمرُه، وإزالةً لوحشته وتسليةً له، وكان ذلك على ما روي عن مجاهد بالإلهام. وقيل: بالإلقاء في مبشرات المنام. وقال الضحاك وقتادة: بإرسال جبريل عليه السلام إليه.

والموحَى ما تضمَّنه قولُه سبحانه: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ وهو بشارةٌ له بالخلاص أيضاً، أي: لتخلصنَّ مما أنت فيه من سوء الحال وضيق المجال، ولتخبرنَّ إخوتك بما فعلوا بك.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ بأنك يوسفُ؛ لتبايُنِ حاليك: حالِكَ هذا، وحالك يومئذٍ بعلوِّ شأنك وكبرياءِ سلطانك، وبُعْدِ حالك من أوهامهم. وقيل: لبعد العهد المبدِّل للهيئات المغيِّر للأشكال. والأولُ أَدْخَلُ في التسلية. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: لَمَّا دخل إخوةُ يوسفَ على يوسف فعرفهم وهم له منكرون جيءَ بالصُّواع فوضعه على يده، ثم نقره فطنَّ، فقال: إنه ليخبرني هذا الجامُ أنه كان لكم أخٌ من أبيكم يقال له يوسف يُدْنيه دونَكم، وأنكم انطلقتم به فألقيتُموه في غيابةِ الجبِّ فأتيتم أباكم فقلتم: إنَّ الذئب أكله، وجئتم على قميصه بدمٍ كذبٍ. فقال بعضهم لبعض: إنَّ هذا الجامَ ليخبره بخبركم؛ ثم قال ابن عباس: فلا نرى هذه الآية (لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ) إلخ نزلت إلَّا في ذلك(١).

وجوِّز أن يتعلق «وهم لا يشعرون» بالإيحاء، على معنى: أنَّا آنسناه بالوحي وأَزَلْنا عن قلبه الوحشة التي أَوْرَثوه إياها وهم لا يشعرون بذلك، ويحسبون أنه مستوحشٌ لا أنيسَ له. وروي ذلك عن قتادة.

وكان هذا الإيحاءُ وهو عليه السلام ابنُ ستٍّ عند الضحاك، واثنتي عَشْرةَ سنةً أو ثماني عَشْرةَ سنةً عند الحسن، وسبعَ عَشْرةَ سنة عند ابن السائب، وهو الذي يزعمه اليهود. وقيل غيرُ ذلك.

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٣٣، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٦٢.

ومَن نظر في الآيات ظهر له أنَّ الراجح كونُه عليه السلام لم يبلغ الحلم إذ ذاك، وعلى جميع الأقوال أنه عليه السلام لم يكن بالغاً الأربعين عند الإيحاء إليه، نعم أكثرُ الأنبياء عليهم السلام نبِّئوا في سنِّ الأربعين، وقد أوحي إلى بعضهم ـ كيحيى وعيسى عليهما السلام ـ قبل ذلك بكثير.

وزعم بعضهم أنَّ ضمير «إليه» يعود على يعقوب عليه السلام، وليس بشيء كما لا يخفى.

وقرأ ابن عمر رضي الله عنهما: «لينبئنَّهم» بياء الغيبة، وكذا في [بعض] مصاحف البصرة[(١)].

وقرأ سلام بالنون على أنه وعيدٌ لهم[(٢)]، فقوله سبحانه: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ متعلِّقٌ بـ «أوحينا» لا غير على ما قاله الزمخشريُّ[(٣)] ومَن تبعه.

ونُظر فيه بأنه يجوز أن يتعلَّق أيضاً بقوله تعالى: «لننبئنهم» وأن يراد بإنباء الله تعالى إيصالُ [جزاء][(٤)] فعلهم به عليه السلام وهم لا يشعرون بذلك.

ودُفع بأنه بناء على الظاهر، وأنه لا يجتمع إنباء الله تعالى مع عدم شعورهم بما أنبأهم به إلا بتأويلٍ، كتقديرِ: لنُعْلِمنَّهم بعظيمِ ما ارتكبوه قبلُ وهم لا يشعرون بما فيه.

﴿وَجَآءُو أَبَاهُمْ عِشَآءً﴾ أي: في ذلك الوقت، وهو ـ كما قال الراغب ـ من صلاة المغرب إلى العتمة، والعِشاءان: المغربُ والعَتَمة[(٥)].

وعن الحسن أنه قرأ: «عُشَيًّا» بضم العين وفتح الشين وتشديد الياء منوَّناً[(٦)]، وهو تصغير عَشِيٍّ، وهو[(٧)] من زوال الشمس إلى الصباح.

---

(١) البحر ٥/ ٢٨٨، وما بين حاصرتين منه.

(٢) القراءات الشاذة ص٦٢، والكشاف ٢/ ٣٠٧، والبحر ٥/ ٢٨٨.

(٣) في الكشاف ٢/ ٣٠٧.

(٤) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٥/ ١٦٢، والكلام منه.

(٥) مفردات الراغب (عشا).

(٦) الكشاف ٢/ ٣٠٧، وتفسير البيضاوي مع حاشية ٥/ ١٦٢.

(٧) أي: العَشِيُّ.

وعنه أنه قرأ: «عُشًى» بالضمِّ والقَصْرِ كدُجًى[1]، فنَصْبُه على الحال، وهو جمعُ أعشى عند بعضٍ، وعاشٍ عند آخرين، وأصلُه عُشَاة ـ كماشٍ ومُشَاة ـ فحذفت الهاء تخفيفاً.

وأورد عليهما بأنه لا جواز لمثل هذا الحذف، وأنه لا يجمع أَفْعَلُ فَعْلَاءَ على فُعَل بضم الفاء وفتح العين، بل فُعْل بسكون العين، ولذا قيل: كان أصلُه عُشْواً، فنُقلت حركة الواو إلى ما قبلها لكونه حرفاً صحيحاً ساكناً، ثم حُذفت بعد قلبها ألفاً لالتقاء الساكنين. وأنَّ قَدْرَ ما بكوا به في ذلك اليوم لا يعشو منه الإنسان، وأجيبَ عن هذا بأنَّ المقصود المبالغةُ في شدة البكاء والنحيب لا حقيقته، أي: كاد يضعفُ بصرُهم لكثرة البكاء.

وقيل: هو جمع عشْوَةٍ مثلَّثَ العين، وهي ركوبُ أمرٍ على غير بصيرةٍ؛ يقال: أوطاه عشوةً، أي: أمراً ملتبساً يوقعُه في حيرةٍ وبليَّةٍ، فيكون تأكيداً لكذبهم، وهو تمييزٌ أو مفعولٌ له.

وجوِّز أن يكون جمعَ عُشوةٍ بالضم بمعنى شعلة النار، عبارةً عن سرعتهم لابتهاجهم بما فعلوا من العظيمة، وافتعلوا من العضيهة[2].

وجوِّز أن يكون «عِشَاءً» في قراءة الجمهور جمعَ عاشٍ، مثل: راعٍ ورِعَاء، ويكون نصبُه على الحال، والظاهرُ الأول.

وإنما جاؤوا عشاءً، إمَّا لأنهم لم يَصِلُوا من مكانهم إلا في ذلك الوقت، وإمَّا ليكونوا أقدرَ على الاعتذار؛ لمكان الظلمة التي يرتفعُ فيها الحياء، ولذا قيل: لا تطلب الحاجةَ بالليل فإنَّ الحياء في العينين، ولا تعتذر في النهار من ذنبٍ فتتلجلج في الاعتذار.

وهل جاؤوا في عشاء اليوم الذي ذهبوا فيه أو في عشاءِ يومٍ آخر؟ ظاهرُ كلام بعضهم الأول، وذهب بعضُهم إلى الثاني بناءً على ما روي أنه عليه السلام مكث في الجبِّ ثلاثةَ أيامٍ، وكان إخوتُه يرعون حواليه، وكان يهوذا يأتيه بالطعام.

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٢، والمحتسب ١/ ٣٣٥، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ١٦٢.
(٢) جاء في هامش الأصل و(م): البهتان. اهـ منه.

وفي الكلام ـ على ما في «البحر» ـ حذفٌ، والتقدير: وجاؤوا أباهم دون يوسف عشاءً[١].

﴿يَبْكُونَ ۝١٦﴾ أي: متباكين، أي: مُظْهِرينَ البكاءَ بتكلُّفٍ لأنه لم يكن عن حزنٍ لكنه يشبهُهُ، وكثيراً ما يفعل بعضُ الكذّابين كذلك؛ أخرج ابن المنذر عن الشعبيِّ قال: جاءت امرأةٌ إلى شريحٍ تُخاصِمُ في شيءٍ، فجعلت تبكي فقالوا: يا أبا أميةَ، أما تراها تبكي؟! فقال: قد جاء إخوةُ يوسف أباهم عشاءً يبكون. وقال الأعمش: لا يصدَّقُ باكٍ بعد إخوة يوسف[٢].

وفي بعض الآثار أنَّ يعقوب عليه السلام لَمَّا سمع بكاءهم قال: ما بالُكم، أَجَرَى في الغنم شيءٌ؟ قالوا: لا. قال: فما أصابكم وأين يوسف؟[٣] ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي: متسابقينَ في العَدْوِ على الأقدام على ما روي عن السدِّيِّ، أو في الرمي بالسهام كما قال الزجّاج[٤]، أو في أعمالٍ نتوزَّعها من سقيٍ ورعيٍ واحتطابٍ، أو في الصيد وأَخْذِه كما قيل. ورُجِّحَ ما قاله الزجَّاجُ بقراءة عبد الله: «إنا ذهبنا ننتضل»[٥].

وأورد على الأول أنه كيف ساغ لهم الاستباقُ في العَدْوِ وهو من أفعال الصبيان التي لا ثمرةَ فيها؟ وأُجيب بالمنع، وثمرتُه التدرُّبُ في العَدْوِ لمحاربة العدوِّ ومدافعةِ الذئب مثلاً.

وبالجملة «نستبق» بمعنى نتسابق، وقد يشتركُ الافتعال والتفاعُلُ فيكونان بمعنًى كالانتضال والتناضُلِ ونظائرِهما.

﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ أي: ما يُتمتَّعُ به من الثياب والأزواد وغيرهما ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ عقيبَ ذلك من غير مضيِّ زمانٍ يُعتادُ فيه التفقُّدُ والتعهُّد، وحيث لا يكاد يُطْرَحُ المتاعُ عادةً إلا في مقامٍ يُؤْمَنُ فيه الغوائلُ لم يُعَدَّ تركُه عليه السلام

---

(١) البحر ٥/ ٢٨٨.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٩.

(٣) ذكره مطولاً أبو حيان في البحر ٥/ ٢٨٨.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٩٥.

(٥) تفسير القرطبي ١١/ ٢٨١.

عنده من باب الغفلة وتَرْكِ الحفظ الملتزم، لاسيما إذا[1] لم يغيبوا عنه، فكأنهم قالوا: إنَّا لم نقصِّر في محافظته، ولم نَغْفَلْ عن مراقبته، بل تركناه في مأمننا ومجمعنا بمرأى منَّا، وما فارقناه إلا ساعةً يسيرة بيننا وبينه مسافة قصيرة فكان ما كان. قاله شيخُ الإسلام[2].

والظاهر أنهم لم يريدوا إلا أنَّ الذئب أكل يوسف، ولم يقصدوا بذلك تعريضاً، فما قيل: إنهم عرَّضوا وأرادوا: أَكَلَ الذئبُ المتاعَ، لا يَلتفتُ إليه لِمَا فيه من الخروج عن الجادَّة من غير موجب.

﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ أي: ما أنت مصدِّقٌ لنا في هذه المقالة ﴿وَلَوْ كُنَّا﴾ عندك وفي اعتقادك ﴿صَـٰدِقِينَ ۝١٧﴾ أي: موصوفين بالصدق والثقة، لفَرْطِ محبتك [ليوسف][3] فكيف وأنت سيِّئُ الظنِّ بنا غير واثقٍ بقولنا؟ قيل: ولا بدَّ من هذا التأويل؛ إذ لو كان المعنى: ولو كنَّا صادقين في نفس الأمر، لكان تقديره: فكيف إذا كنَّا كاذبين فيه، فيلزم اعترافُهم بكذبهم فيه، وقد تقدَّم[4] أنَّ المراد في مثل ذلك تحقيقُ الحكم السابق على كلِّ حال، فكأنه قيل هنا: وما أنت بمؤمنٍ لنا في حالٍ من الأحوال، فتذكَّرْ وتأمَّل.

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ﴾ أي: ذي كَذِبٍ، أو وُصِفَ بالمصدر مبالغةً كأنه نفسُ الكذب وعينُه، كما يقال للكذاب: هو الكذبُ بعينه والزورُ بذاته، ومِن ذلك ما في قوله:

أفيضوا على عزَّابكم من بناتكم ... فما في كتاب الله أن يُحْرَمَ الفضلُ
وفيهنَّ فضلٌ قد عرفنا مكانه ... فهنَّ به جودٌ وأنتم به بخلُ[5]

وبعضهم يؤوِّل «كذب» بمكذوب فيه، فإنَّ المصدر قد يؤوَّل بمثل ذلك.

---

(١) في الأصل و(م): إذ، والمثبت من تفسير أبي السعود ٤/ ٢٥٩، والكلام منه.
(٢) في تفسيره ٤/ ٢٥٩.
(٣) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٤/ ٢٥٩، والكلام منه.
(٤) عند تفسير الآية (١٧٠) من سورة البقرة، والآية (٨٨) من سورة الأعراف.
(٥) ذكر الزمخشري في الكشاف ٢/ ٣٠٨ عجز البيت الثاني، والبيت الأول في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٤/ ١٨٤٥ برواية: أفيضوا على عزَّابكم بنساءكم. . .

وقرأ زيد بن عليٍّ رضي الله عنهما: «كذباً» بالنصب[(١)]، وخرِّج على أنه في موضع الحال من فاعل «جاؤوا» بتأويلِ: كاذبين. وقيل: من «دم» على تأويل: مكذوباً فيه، وفيه أنَّ الحال من النكرة على خلاف القياس. وجوِّز أن يكون مفعولاً من أجله، أي: جاؤوا بذلك لأَجْلِ الكذب.

وقرأت عائشة رضي الله عنها والحسن: «كَدِبٍ» بالدال المهملة[(٢)]، وليس من قَلْبِ الذال دالاً بل هو لغةٌ أخرى بمعنى: كَدِرٍ، أو طريٍّ، أو يابسٍ، فهو من الأضداد. وقال صاحب «اللوامح»[(٣)]: المعنى: ذي كَدِبٍ، أي: أثر؛ لأن الكدب بياضٌ يخرج في أظافير الشبان ويؤثِّر فيها، فهو كالنقش، ويسمَّى ذلك [البياض]: الفوف.

ولم يعتبر بعض المحقِّقين تقديرَ المضاف، وجَعَلَ ذلك من التشبيه البليغ أو الاستعارة، فإنَّ الدم في القميص يُشْبِهُ الكذبَ من جهةِ مخالفةِ لونه لونَ ما هو فيه.

وقوله سبحانه: ﴿عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾ ـ على ما ذهب إليه أبو البقاء ـ حالٌ من «دم»[(٤)]، وفي جوازِ تقديمِ الحال على صاحبها المجرورِ بالحرف غير الزائد خلافٌ، والحقُّ ـ كما قال السفاقسيُّ ـ الجوازُ؛ لكثرة ذلك في كلامهم. وفي «اللباب»: ولا تتقدَّم على صاحبها المجرور على الأصح، نحو: مررتُ جالسةً بهندٍ، إلا أنْ يكون الحالُ ظرفاً[(٥)]. على أنَّ الحقَّ ما اختاره ابنُ مالك من جواز التقديم مطلقاً[(٦)].

وقال الزمخشريُّ ومَن تبعه: إنه في موضع النصب على الظرفية، أي: جاؤوا فوق قميصه، كما تقول: جاء على جماله بأحمالٍ[(٧)]. وأراد ـ على ما في «الكشف» ـ أنَّ «على» على حقيقة الاستعلاء، وهو ظرف لغو.

---

(١) البحر ٥/ ٢٨٩، وهي في الكشاف ٢/ ٣٠٨ دون نسبة.
(٢) القراءات الشاذة ص٦٢-٦٣، والمحتسب ١/ ٣٣٥، والكشاف ٢/ ٣٠٨، والبحر ٥/ ٢٨٩.
(٣) كما في البحر ٥/ ٢٨٩، وما سيأتي بين حاصرتين منه.
(٤) الإملاء ٣/ ٣٢٢.
(٥) اللباب في علم الإعراب لتاج الدين الإسفراييني ص١٠٠، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ١٦٣.
(٦) حاشية الشهاب ٥/ ١٦٣، وقول ابن مالك في التسهيل ص١١٠ هو: وتقديمه على صاحبه المجرور بحرفٍ ضعيف على الأصح، لا ممتنع.
(٧) الكشاف ٢/ ٣٠٨.

ومنع في «البحر»[1] كونَ العامل فيه المجيءَ؛ لأنه يقتضي أنَّ الفوقية ظرفٌ للجائين. وأجيبَ بأنَّ الظرفية ليست باعتبار الفاعل بل باعتبار المفعول.

وفي بعض الحواشي[2] أنَّ الأولى أن يقال: جاؤوا مستولين على قميصه، وقوله سبحانه: (بِدَمٍ) حالٌ من القميص، وجُعِلَ المعنى: استولوا على القميص ملتبساً بدمٍ جائين، وهو ـ على ما قيل ـ أولى من: جاؤوا مستولين، لِمَا تقرَّر في التضمين، والأمرُ في ذلك سهلٌ؛ فإنَّ جَعْلَ المضمَّن أصلاً والمذكورِ حالاً وبالعكس كلٌّ منهما جائزٌ، وإذا اقتضى المقامُ أحدَهما رجِّح.

واستُظْهِرَ كونُه ظرفاً للمجيءِ المتعدِّي، والمعنى: أتوا بدمٍ كذبٍ فوق قميصه، ولا يخفى استقامتُه.

هذا ثم إنَّ ذلك الدم كان دمَ سخلةٍ ذبحوها ولطَّخوا بدمها القميصَ، كما روي عن ابن عباس ومجاهد.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة أنهم أخذوا ظبياً فذبحوه فلطَّخوا بدمه القميصَ، ولَمَّا جاؤوا به جعل يقلِّبُه فيقول: ما أرى به أثرَ نابٍ ولا ظفرٍ، إنَّ هذا السبع رحيمٌ[3].

وفي روايةٍ أنه أخذ القميص وألقاه على وجهه وبكى حتى خضّب وجهه بدم القميص، وقال: تالله ما رأيتُ كاليوم ذئباً أحلمَ من هذا، أكل ابني ولم يمزِّق عليه قميصه.

وجاء أنه بكى وصاح وخرَّ مغشيًّا عليه، فأفاضوا عليه الماء فلم يتحرك، ونادَوْه فلم يُجِبْ ووضع يهوذا يده على مخارج نَفَسه فلم يُحسَّ بنَفَسٍ ولا تحرَّك له عرقٌ، فقال: ويلٌ لنا من ديَّانِ يومِ الدين، ضيَّعنا أخانا وقتلنا أبانا! فلم يُفِقْ إلَّا ببَرْدِ السَّحْر.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾ أي: زيَّنت وسهَّلت ﴿أَمْرًا﴾ من الأمور منكراً

---

(١) ٥/ ٢٨٩.

(٢) كما ذكر الشهاب في الحاشية ٥/ ١٦٣، وعنه نقل المصنف.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١١١، وعزاه لأبي الشيخ السيوطي في الدر ٤/ ١٠.

لا يوصفُ ولا يعرف. وأصلُ التسويل تقديرُ شيءٍ في النفس مع الطمع في إتمامه.

وقال الراغب: هو تزيينُ النفس لِمَا تحرص عليه، وتصويرُ القبيح بصورة الحسن(١).

وقال الأزهريُّ(٢): كأنَّ التسويل تفعيلٌ من سُول(٣) الإنسان، وهو أمنيتُه التي يطلبها، فتزيِّن لطالبها الباطلَ وغيرَه، وأصلُه مهموز.

وقيل: من السَّوَل بفتحتين: وهو استرخاءٌ في العصب ونحوِه، كأنَّ المسوِّل لمزيد حرصه استرخى عصبُه.

وفي الكلام حذفٌ على ما في «البحر»، أي: لم يأكله الذئب بل سوَّلت إلخ(٤).

وعِلْمُه عليه السلام بكذبهم قيل: حَصَلَ من سلامة القميص عن التمزيق، وهي إحدى ثلاثِ آياتٍ في القميص، ثانيتُها عَوْدُ يعقوبَ بصيراً بإلقائه على وجهه، وثالثتُها قدُّه من دبرٍ، فإنه كان دليلاً على براءة يوسف، وينضمُّ إلى ذلك وثوقُه(٥) بالرؤيا الدالّة على بلوغه مرتبةً علياءَ تنحطُّ عنها الكواكب.

وقيل: من تناقُضِهم، فإنه يُرْوَى أنه عليه السلام لَمَّا قال ما تقدم عن قتادة، قال بعضهم: بل قتله اللصوصُ. فقال: كيف قتلوه وتركوا قميصَه، وهم إلى قميصه أحوجُ منهم إلى قتله؟! ولعله مع هذا العلم إنما حزن عليه السلام لِمَا خشي عليه من المكروه والشدائد غير الموت.

وقيل: إنه إنما حَزِنَ لفراقه، وفراقُ الأحبَّةِ مما لا يطاق، ولذلك قيل:

لولا مفارقةُ الأحباب ما وجدتْ لها المنايا إلى أرواحنا سبلا(٦)

ولا بأسَ بأن يقال: إنه أحزنه فراقُه وخوفُ أن يناله مكروه.

---

(١) مفردات الراغب (سول).

(٢) في تهذيب اللغة ١٣/ ٦٧.

(٣) في الأصل و(م): سوال، والمثبت من تهذيب اللغة، ومثله في اللسان والتاج (سول).

(٤) البحر ٥/ ٢٨٩.

(٥) في (م): وقوفه، وهو تصحيف.

(٦) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ٣/ ٢٨٢.

﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾ أي: فأمري صبرٌ جميلٌ، أو: فصبري صبرٌ جميل كما قال قطرب، أو: فالذي أفعلُه ذلك كما قال الخليل. أو: فهو صبرٌ إلخ كما قال الفرَّاء، و«صبر» في كلِّ ذلك خبرُ مبتدأ محذوفٍ. أو: فصبرٌ جميلٌ أمثلُ وأجملُ، على أنه مبتدأٌ خبرُه محذوف.

وهل الحذف في مثل ذلك واجبٌ أو جائز؟ فيه خلاف. وكذا اختلفوا فيما إذا صحَّ في كلامٍ واحدٍ اعتبارُ حذفِ المبتدأ وإبقاءِ الخبر واعتبارُ العكس، هل الاعتبارُ الأول أولى أَم الثاني؟.

وقرأ أبيٌّ والأشهبُ وعيسى بنُ عمر: «فصبراً جميلاً» بنصبهما، وكذا في مصحف أنس بن مالك[1]. وروي ذلك عن الكسائيِّ، وخرِّج على أنَّ التقدير: فأصبرُ صبراً، على أنَّ أصْبِر مضارعٌ مسندٌ لضمير المتكلِّم.

وتعقِّب بأنه لا يَحْسُنُ النصب في مثل ذلك إلا مع الأمر، والتزَمَ بعضهم تقديرَه هنا بأنْ يكون عليه السلام قد رجع إلى مخاطبة نفسه فقال: صبراً جميلاً، على معنى: فاصبري يا نفس صبراً جميلاً.

والصبر الجميلُ على ما رَوَى الحسن عنه ﷺ: «ما لا شكوى فيه»[2] أي: إلى الخَلْقِ، وإلَّا فقد قال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦].

وقيل: إنه عليه السلام سقط حاجباه على عينيه فكان يرفعُهما بعصابة، فسئل عن سبب ذلك فقال: طولُ الزمان وكثرةُ الأحزان. فأَوْحَى الله تعالى إليه أتَشْكوا إلى غيري. فقال: يا رب، خطيئة فاغفرها.

وقيل: المراد من قوله: «فصبرٌ جميلٌ»: أنِّي أتجمَّل لكم في صبري

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٧، والبحر ٥/ ٢٨٩، وهي في القراءات الشاذة ص٦٣ عن عيسى بن عمر وحده.

(٢) ذكره السيوطي في الدر ٤/ ١٠ عن الحسن قوله، وعزاه لابن أبي حاتم، وأخرجه الطبري ١٣/ ٤١، وابن أبي حاتم ٧/ ٢١١٢، عن حِبَّان بن أبي جبلة عن النبي ﷺ مرسلاً.

فلا أعاشركم على كآبة الوجه وعبوس الجبين، بل أبقى على ما كنتُ عليه معكم، وهو خلافُ الظاهر جدًّا.

﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ أي: المطلوبُ منه العونُ، وهو إنشاءٌ منه عليه السلام للاستعانة المستمرَّة ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١٨﴾ متعلِّقٌ بـ «المستعان»، والوصفُ ذِكْرُ الشيء بنعته، وهو قد يكون صدقاً وقد يكون كذباً، والمرادُ به هنا الثاني كما في قوله سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠] بل قيل: إنَّ الصيغة قد غلبت في ذلك.

ومعنى استعانتِه عليه السلام بالله تعالى على كذبهم طلبُه منه سبحانه إظهارَ كونه كذباً بسلامةِ يوسفَ عليه السلام والاجتماع معه، فيكون ذكرُ الاستعانة هنا نظيرَ: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ بَعْدَ قوله فيما بَعْدُ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [الآية: ٨٣].

وفي بعض الآثار أنَّ عائشة رضي الله عنها قالت يوم الإفك: والله لئن حلفتُ لا تصدِّقوني، ولئن اعتذرتُ لا تَعْذُروني، فمَثَلي ومَثَلُكم كمَثَل يعقوبَ وولدِه، واللهُ المستعانُ على ما تصفون. فأنزل الله تعالى في عُذْرِها ما أنزل[1].

وقيل: المراد: واللهُ المستعانُ[2] على احتمال ما تصفونه من هلاك يوسف، كأنه عليه السلام بعد أن قال: صبرٌ جميلٌ، طلب الإعانة منه تعالى على الصبر، وذلك لأنَّ الدواعيَ النفسانيةَ تدعو إلى إظهار الجزع وهي قويةٌ، والدواعي الروحانيةُ الصبرُ الجميلُ، فكأنه وقعت المحاربةُ بين الصفتين، فما لم تحصل المعونةُ منه جلَّ وعلا لا تحصل الغلبةُ، فقوله: «فصبرٌ جميلٌ» يجري مجرى (إِيَّاكَ نَعْبُدُ)، و«الله المستعان على ما تصفون» يجري مجرى (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ). ولعل الأولَ أسلمُ من القال والقيل.

وللإمام الرازي عليه الرحمةُ في هذا المقام بحثٌ، وهو أنَّ الصبر على قضاء الله تعالى واجبٌ، وأمَّا الصبرُ على ظلم الظالمين ومكرِ الماكرين فغيرُ واجبٍ، بل الواجبُ إزالتُه لاسيما في الضرر العائد إلى الغير، فكان اللائقُ بيعقوب عليه السلام

---

(١) أخرجه البخاري (٤١٤٣).

(٢) في (م): المراد أنه تعالى المستعان.

التفتيشَ والسعيَ في تخليص يوسف عليه السلام من البليّة والشدَّة إن كان حيًّا، وفي إقامة القصاص إن صحَّ أنهم قتلوه، بل قد يقال: إنَّ الواجب المتعيِّن عليه السعيُ في طلبه وتخليصِه؛ لأنَّ الظاهر أنه كان عالماً بأنه حيٌّ سليم لقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ فإنَّ الظاهر أنه إنما قاله عن وحي.

وأيضاً إنه عليه السلام كان عظيم القَدْرِ جليلَ الشأن معظَّماً في النفوس مشهوراً في الآفاق، فلو بالغ في الطلب والتفحُّص لظهر ذلك واشتهر، ولزال وجهُ التلبيس، فما السبب في تركه عليه السلام الفحصَ مع نهاية رغبته في حضور يوسف وغاية محبته له؟ وهل الصبرُ في هذا المقام إلا مذمومٌ عقلاً وشرعاً؟

ثم قال: والجوابُ أنْ نقول: لا جوابَ عن ذلك إلَّا أن يقال: إنه سبحانه وتعالى منعه عن الطلب تشديداً للمحنة وتغليظاً للأمر.

وأيضاً لعله عرف بقرائن الأحوال أنَّ أولاده أقوياءُ، وأنهم لا يمكِّنونه من الطلب والتفحُّص، وأنه لو بالغ في البحث ربما أقدموا على إيذائه وقتله.

وأيضاً لعله عليه السلام علم أنَّ الله تعالى يصونُ يوسف عن البلاء والمحنة، وأن أمره سيَعْظُمُ بالآخرة، ثم لم يُرِدْ هَتْكَ سِتْرِ أولاده، وما رضي بإلقائهم في ألسنة الناس، وذلك لأنَّ أحد الولدين إذا ظلم الآخر وقع الأبُ في العذاب الشديد؛ لأنه إن لم ينتقم يحترق قلبُه على الولد المظلوم، وإن انتقم يحترق على الولد الذي ينتقمُ منه، ونظيرُ ذلك ما أشار إليه الشاعر بقوله:

قومي هُمُ قتلوا أميم أخي ... فإذا رميتُ يُصيبني سهمي
ولئن عفوتُ لأعفون جللاً ... ولئن سطوتُ لموهنٌ عظمي

فلما وقع يعقوب عليه السلام في هذه البلية رأى أنَّ الأصوب الصبرُ والسكوتُ، وتفويضُ الأمر بالكلية إلى الله تعالى، لاسيما إنْ قلنا: إنه عليه السلام كان عالماً بأنَّ ما وقع لا يمكن تلافيه حتى يبلغ الكتابُ أَجَلَه[1].

---

(١) تفسير الرازي ١٨/ ١٠٣-١٠٤ دون ذكر البيتين، وهما للحارث بن وَعْلةَ الذُّهْلي كما في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ٢٠٤، وفيه: لأوهنن، بدل: لموهن. و: فلئن، بدل: ولئن، وسلف الأول منهما ٤/ ١٣٦.

﴿وَجَآءَتْ﴾ شروعٌ فيما جرى على يوسف عليه السلام في الجبِّ بعد الفراغ عن ذِكْرِ ما وقع بين إخوته وبين أبيه، أي: وجاءت إلى الجب ﴿سَيَّارَةٌ﴾ أي: رفقةٌ تسير من جهة مدينَ إلى مصر، وكان ذلك بعد ثلاثة أيام مضت من زمن إلقائه في قولٍ، وقيل: في اليوم الثاني.

والظاهرُ أنَّ الجبَّ كان في طريق سيرهم المعتاد. وقيل: إنه كان في قَفْرةٍ بعيدةٍ من العمران، فأخطؤوا الطريقَ فأصابوه.

﴿فَأَرْسَلُواْ﴾ إليه ﴿وَارِدَهُمْ﴾ الذي يَرِدُ الماء ويستقي لهم، وكان ذلك مالك بن دعر[١] الخزاعيَّ. وقال ابن عطية: الواردُ هنا يمكن أن يقع على الواحد وعلى الجماعة[٢]. اهـ. والظاهرُ الأولُ.

والتأنيثُ في «جاءت» والتذكيرُ في «أرسلوا» و«واردهم» باعتبار اللفظ والمعنى. وفي التعبير بالمجيء إيماءٌ إلى كرامة يوسف عليه السلام عند ربِّه سبحانه، وحذف متعلَّقه وكذا متعلَّق الإرسال لظهوره، ولذا حذف المتعلَّق في قوله سبحانه: ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ أي: أرسلها إلى الجبِّ ليُخْرِجَ الماء، ويقال: دَلَا الدلوَ، إذا أخرجها ملأى، والدلوُ من المؤنَّثات السماعية، فتصغَّر على دُلَيَّة، وتجمعُ على أَدْلٍ ودِلَاءٍ ودليٍّ[٣].

وقال ابن الشحنة: إنَّ الدلو التي يُستَقَى بها مؤنَّثةٌ وقد تذكَّر، وأما الدلوُ مصدر دَلَوْتُ وضربٌ من السير فمذكَّرٌ، ومثلُها في التذكير والتأنيث الجبُّ عند الفرَّاء على ما نقله عنه محمد بن الجهم، وعن بعضهم أنه مذكَّرٌ لا غير، وأما البئر فمؤنثةٌ فقط في المشهور، ويقال في تصغيرها: بُوَيْرة، وفي جمعها: آبار وأَبْآر وأَبْؤُر وبِئار.

وفي الكلام حذف، أي: فأدلى دلوه فتدلَّى بها يوسفُ فخرج ﴿قَالَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ يقتضيه الحال ﴿يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ نادى البشرى بشارةً لنفسه أو

---

(١) في الأصل و(م): ذعر، بالذال، وذكر صاحب القاموس أنه تصحيف، وأنّ الصواب دعر بالدال المهملة، القاموس (دعر) و (ذعر).

(٢) نقل المصنف كلام ابن عطية عن البحر ٥/ ٢٩٠، وعبارة المحرر ٣/ ٢٢٩: والضمير في قوله: «وأسروه» ظاهر الآيات أنه لوارد الماء.

(٣) بضم الدال وكسرها، أي: دُلِيٌّ، ودِلِيٌّ. القاموس (دلو).

لقومه ورفقته، كأنه نزلَّها منزلةَ شخصٍ فناداه، فهو استعارةٌ مكنيةٌ وتخييلية، أي: يا بشرى تعالَيْ فهذا أوانُ حضورك.

وقيل: المنادى محذوفٌ كما في: يا ليت، أي: يا قوم[1] انظروا واسمعوا بشراي.

وقيل: إنَّ هذه الكلمة تستعمل للتبشير من غير قَصْدٍ إلى النداء.

وزعم بعضهم أن «بشرى» اسمُ صاحبٍ له ناداه ليُعِينَه على إخراجه، ورُوي هذا عن السديِّ، وليس بذاك.

وقرأ غيرُ الكوفيين: «يا بشراي» بالإضافة[2]، وأمال فتحةَ الراء حمزةُ والكسائيُّ، وقرأ ورشٌ بين اللفظين[3].

وروي عن نافع أنه قرأ: «يا بشرايْ» بسكون ياء الإضافة[4]، ويلزمُه التقاءُ الساكنين على غير حدِّه، واعتُذِرَ بأنه أَجْرَى الوصلَ مجرى الوقف، ونظائرُ ذلك كثيرةٌ في القرآن وغيرِه. وقيل: جاز ذلك لأنَّ الألف لمدِّها تقومُ مقام الحركة.

وقرأ أبو الطفيل والحسن وابن أبي إسحاق والجحدريُّ: «يا بُشْرَيَّ» بقَلْبِ الألف ياءً وإدغامِها في ياء الإضافة[5]، وهي لغةٌ لهذيلٍ ولناسٍ غيرِهم، ومن ذلك قولُ أبي ذؤيب:

سَبَقوا هَوَيَّ وأَعْنَقوا لهواهم فتُخرِّموا ولكلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ[6]

ويقولون: يا سيدي ومَوْلَيَّ.

والغلامُ كثيراً ما يطلق على ما بين الحولين إلى البلوغ، وقد يطلق على الرجل

---

(١) في (م): قومي.

(٢) التيسير ص١٢٨، والنشر ٢/ ٢٩٣. وهي قراءة نافع وأبي عمرو وابن كثير وابن عامر وأبي جعفر ويعقوب.

(٣) التيسير ص١٢٨.

(٤) القراءات الشاذة ص٦٢، والبحر ٥/ ٢٩٠.

(٥) القراءات الشاذة ص٦٢، والمحتسب ١/ ٣٣٦، والبحر ٥/ ٢٩٠.

(٦) ديوان الهذليين ١/ ٢.

الكامل كما في قول ليلى الأخيلية في الحجاج بن يوسف الثقفي:

غـلامٌ إذا هـزَّ الـقـنـاة سـقـاهـا[(١)]

والظاهر أنَّ التنوين فيه للتفخيم، وحقٌّ له ذلك فقد كان عليه السلام من أحسن الغلمان، وذكر البغويُّ عنه ﷺ أنه قال: «أعطي يوسفُ شَطْرَ الحُسْنِ»[(٢)].

وقال محمد بن إسحاق: ذهب يوسف وأمُّه بثلثي الحُسْنِ.

وحكى الثعلبيُّ عن كعبِ الأحبار أنه قال: كان يوسف حَسَنَ الوجه، جعدَ الشعر، ضخمَ العينين، مستويَ الخلق، أبيضَ اللون، غليظَ الساعدين والساقين، خميصَ البطن، صغير السرة، وكان إذا تبسَّم رأيتَ النورَ في ضواحكه، وإن تكلَّم رأيتَ شعاع النور من ثناياه، ولا يستطيع أحدٌ وصفَه، وكان حُسْنُه كضوء النهار عند الليل، وكان يُشْبِهُ آدم عليه السلام يومَ خَلْقِه قبل أن يصيب الخطيئة[(٣)].

ويُحكى أن جوانب الجبِّ بَكَتْ عليه حين خرج منها، ولعله من باب: بَكَتِ الدار لفَقْدِ فلانٍ.

والظاهرُ أنَّ قول الوارد: «يا بشرى هذا غلام» كان عند رؤيته. وقيل: إنه حين وروده على أصحابه صاح بذاك.

﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ أي: أخفاه الواردُ وأصحابُه عن بقية الرفقة حتى لا تراه فتطمع فيه. وقيل: أخفوا أمره وكونَه وُجد في البئر، وقالوا لسائر القافلة: دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر.

وقيل: الضمير لإخوة يوسف، وذلك أن بعضهم رجع ليتحقَّق أمره فرآه عند السيارة، فأخبر إخوته فجاؤوا إليهم فقالوا: هذا غلامٌ أبقَ لنا فاشْتَرُوه منَّا فاشْتَرَوه، وسكت يوسف مخافةَ أن يقتلوه. وفي روايةٍ أنهم قالوا بالعبرانية: لا تُنْكِر العبودية نقتلك. فأقرَّ بها واشتروه منهم. وقيل: كان يهوذا يأتيه بالطعام، فأتاه يومَ أُخرج

---

(١) الأغاني ١١/٢٤٨، وأمالي القالي ١/٨٦، وزاد المسير ١/٣٨٥، وصدره: شفاها من الداء العضال الذي بها.

(٢) تفسير البغوي ٢/٤١٥، وهو قطعة من حديث أنس ﷺ في الإسراء عند مسلم (١٦٢).

(٣) قصص الأنبياء المسمى بعرائس المجالس لأبي إسحاق الثعلبي ص١١١.

فلم يجده في الجبِّ، ووجده عند الرفقة، فأخبر إخوتَه فأتوهم فقالوا ما قالوا.

ورُوي كونُ الضمير للإخوة عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قيل: وهو المناسب لإفراد «قال» وجمع ضمير «أسرُّوا»، وللوعيد الآتي قريباً إن شاء الله تعالى، وليس فيه اختلالٌ في النظم، ولا يخفى أنَّ الظاهر ما أشير إليه أوَّلاً.

ونصب قوله سبحانه: ﴿بِضَٰعَةً﴾ على الحال، أي: أخفوه حالَ كونه متاعاً للتجارة، وفي «الفرائد»(١) أنه ضمّن «أسرُّوه» معنى جعلوه، أي: جعلوه بضاعةً مسرِّين إياه، فهو مفعول به.

وقال ابن الحاجب: يحتمل أن يكون مفعولاً له، أي: لأجل التجارة، وليس شرطُه مفقوداً؛ لاتحادِ فاعله وفاعلِ الفعل المعلَّل به؛ إذ المعنى: كتموه لأجل تحصيل المال به، ولا يجوز أن يكون تمييزاً.

وهو من البَضْعِ بمعنى القَطْع، وكأنَّ البضاعة إنما سمِّيتْ بذلك لأنها تُقطع من المال وتُجعل للتجارة. ومِن ذلك البِضْعُ بالكسر لِمَا بين الثلاث إلى العشرة، أو لما فوق الخمس ودون العشرة، والبَضيعةُ للجزيرة المنقطعةِ عن البر. واعتبر الراغب في البضاعة كونَها قطعةً وافرة من المال تُقْتَنَى للتجارة(٢). ولم يَعتبر الكثيرُ كونَها وافرة.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٩﴾ لم يَخْفَ عليه سبحانه إسرارُهم، وصرَّح غير واحدٍ أن هذا وعيدٌ لإخوة يوسف عليه السلام على ما صنعوا بأبيهم وأخيهم، وجَعْلِهم إياه وهو هو عرضةً للابتذال بالبيع والشراء.

﴿وَشَرَوۡهُ﴾ الضميرُ المرفوعُ إما للإخوة، فشَرَى بمعنى باع، وإمَّا للسيارة فهو بمعنى اشترى، كما في قوله:

وشَرَيْتُ بُرْداً ليتني ... مِن بَعْدِ بُرْدٍ كنتُ هامَهْ(٣)

---

(١) كما في حاشية الشهاب ٥/ ١٦٤، وهو كتاب فرائد التفسير لفصيح الدين محمد بن عمر.

(٢) مفردات الراغب (بضع).

(٣) البيت ليزيد بن مفرِّغ الحميري، وهو في ديوانه ص١٤٤، والهامة: من طيور الليل، وكانت العرب تزعم أن روح القتيل الذي لا يُدرَك ثأره تصير هامة تقول عند قبره: =

وقوله:

ولـو أنَّ هـذا الـمـوتَ يـقـبـلُ فـديـةً شـريـتُ أبـا زيـدٍ بـمـا مَـلَـكـتْ يـدي[1]

وجوَّز أن يكون على هذا الوجه بمعنى باع بناءً على أنهم باعوه لَمَّا التقطوه من بعضهم.

﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ أي: نقصٍ، وهو مصدرٌ أريدَ به اسمُ المفعول، أي: منقوصٍ، وجوَّز الراغب[2] أن يكون بمعنى باخسٍ، أي: ناقص عن القيمة نقصاناً ظاهراً.

وقال مقاتل: زيفٍ ناقص العيار.

وقال قتادة: «بخس»: ظلم؛ لأنه ظلموه في بيعه.

وقال ابن عباس والضحاك في آخرين: البخسُ: الحرامُ، وكان ذلك حراماً لأنه ثمنُ الحرِّ، وسمِّي الحرام بخساً لأنه مبخوسُ البركة، أي: منقوصُها.

وقوله سبحانه: ﴿دَرَاهِمَ﴾ بدلٌ من «ثمن»، أي: لا دنانير. ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ أي: قليلة، وكني بالعدِّ عن القلَّة لأنَّ الكثير يوزَنُ عندهم.

وكانت عدَّةُ هذه الدراهم في كثير من الروايات عشرين درهماً، وفي روايةٍ عن ابن عباس: اثنين وعشرين. وفي أخرى عنه: عشرين وحلَّةً ونعلين. وقيل: ثلاثين وحلَّةً ونعلين. وقيل: ثمانية عشر اشتروا بها أخفافاً ونعالاً. وقيل: عشرة.

وعن عكرمة: أنها كانت أربعين درهماً، ولا يأبى هذا ما ذكره غيرُ واحدٍ من أنَّ عادتهم أنهم لا يَزِنون إلا ما بلغ أوقيةً وهي أربعون درهماً؛ إذ ليس فيه نفيُ أنَّ الأربعين قد تعدُّ.

﴿وَكَانُوا فِيهِ﴾ أي: في يوسف كما هو الظاهر ﴿مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ أي:

= اسقوني اسقوني، فإن أدركَ ثأره طارت. الصحاح (هيم). وبرد: اسم غلام ندم على بيعه. المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٠.

(١) ذكره أبو حيان في البحر ٥/ ٢٩١.

(٢) في مفرداته (بخس).

الراغبين عنه. والضمير في «وكانوا» إن كان للإخوة فظاهرٌ، وإن كان للرفقة وكانوا بائعين، فزُهْدُهم فيه لأنهم التقطوه، والملتقطُ للشيء متهاونٌ به لا يبالي بما باعه، ولأنه يخاف أن يعرض له مستحقٌّ ينتزعُه من يده، فيبيعه من أول مساومٍ بأَوْكَسِ الثمن، وإن كان لهم وكانوا مبتاعين بأن اشتروه من بعضهم أو من الإخوة، فزهْدُهم لأنهم اعتقدوا فيه أنه آبقٌ، فخافوا أن يخاطروا بمالِهم فيه.

وقيل: ضمير «فيه» للثمن، وزهدُهم فيه لرداءته، أو لأنَّ مقصودهم ليس إلا إبعاد يوسف عليه السلام، وهذا ظاهرٌ على تقدير أن يكون ضمير «كانوا» للإخوة.

والجارُّ ـ على ما نُقل عن ابن مالك ـ متعلِّقٌ بمحذوف يدل عليه «الزاهدين»، أي: كانوا زاهدين فيه من الزاهدين، وذلك أنَّ اللام في «الزاهدين» اسمٌ موصولٌ، ولا يتقدَّمُ ما في صلة الموصول عليه، ولأنَّ[1] ما بعد الجارِّ لا يعمل فيما قبله.

وهل «من الزاهدين» حينئذٍ صفةٌ لزاهدين المحذوفِ مؤكِّدةٌ، كما تقول: عالمٌ من العلماء، أو صفةٌ مبيِّنةٌ أي: زاهدين بلغ بهم الزهدُ إلى أن يُعدُّوا في الزاهدين؛ لأنَّ الزاهد قد لا يكون عريقاً في الزاهدين حتى يُعدَّ فيهم إذا عُدُّوا. أو يكون خبراً ثانياً؟ كلٌّ ذلك محتملٌ. وليس بدلاً من المحذوف لوجود «مِن» معه. وقدَّر بعضُهم المحذوفَ: أعني، وأنا فيه من الزاهدين[2].

وقال ابن الحاجب في «أماليه»: إنه متعلِّقٌ بالصلة، والمعنى عليه بلا شبهةٍ، وإنما فرُّوا منه لِمَا فهموا من أنَّ صلة الموصول لا تعمل فيما قبلَ الموصول مطلقاً، وبين صلة «أل» وغيرها فرقٌ، فإنَّ هذه على صورة الحرف المنزَّلِ منزلةَ الجزء من الكلمة، فلا يمتنعُ تقديم معمولها عليها، فلا حاجةَ إلى القول بأنَّ تعلُّقه بالمذكور إنما هو مذهب المازنيِّ الذي جعل «أل» في مثل ذلك حرفَ تعريف[3]. وكأنه لا يرى تقدُّمَ معمول المجرور ممتنعاً، وإلَّا لم يتمَّ بما ذكره ارتفاعُ المحذور.

---

(١) في الأصل: وأن.

(٢) قوله: وأنا فيه من الزاهدين، هو من كلام المصنف يقصد به تضعيف هذا القول، وكذلك ضعَّفه الشهاب في الحاشية ٥/ ١٦٥ بقوله: ليس بجيد.

(٣) نقل المصنف كلام ابن الحاجب عن حاشية الشهاب ٥/ ٢٦٥.

وزَعْمُ بعضِهم أنه يلزمُ بعدُ عَملُ اسم الفاعل من غير اعتمادٍ من الغفلة بمكان؛ لأنَّ محل الخلاف عملُه في الفاعل والمفعول به الصريح، لا في الجارِّ والمجرور الذي يكفيه رائحةُ الفعل.

وقال بعض المتأخِّرين: إنَّ الصفة هنا معتمِدةٌ على اسم «كانوا» وهو مبتدأ في الأصل، والاعتمادُ على ذلك معتبرٌ عندهم، ففي الرضيِّ عند قول ابن الحاجب: والاعتماد على صاحبه: ويعني بصاحبه المبتدأ؛ إما في الحال نحو: زيد ضاربٌ أخواه، أو في الأصل نحو: كان زيدٌ ضارباً أخواه، وظننتك ضارباً أخواك، وإنَّ زيداً ضاربٌ غلاماه. وعلى هذا لا يحتاج في الجواب إلى إخراج الجارِّ والمجرور عن حكم الفاعل والمفعول به الصريح وإن كان له وجهٌ وجيه، خلافاً لمن أنكره.

ومن الناس مَن يتمسَّكُ بعمومِ: يُتَوسَّعُ في الظرف والجارِّ والمجرور ما لا يُتَوسَّع في غيرهما، في دَفْع ما يورَدُ على تعلُّق الجارِّ هنا بالصفة المجرورة الواقعة صلةً لـ «أل» كائناً ما كان، فليفهم.

هذا والشائع أنَّ الباعةَ إخوتُه والزاهدين هم، وفي بعض الآثار أنهم حين باعوه قالوا للتاجر: إنه لصٌّ آبقٌ فقيِّدْه ووكِّل به عبداً أسود. فلما جاء وقتُ ارتحالهم بكى عليه السلام، فقال له التاجر: ما لك تبكي؟ فقال: أريد أن أَصِلَ إلى الذين باعوني لأودِّعهم وأسلِّمَ عليهم سلامَ مَن لا يرجعُ إليهم. فقال التاجر للعبد: خذه واذهب به إلى مواليه ليودِّعهم ثم ألحقه بالقافلة، فما رأيتُ غلاماً أبرَّ من هذا بمواليه، ولا قوماً أَجْفَى منهم.

فتقدَّم العبد به إلى إخوته، وكان واحدٌ منهم مستيقظاً يحرسُ الأغنام، فلمَّا وصل إليه يوسفُ وهو يعثر في قيده انكبَّ عليه وبكى، فقال له: لما جئت؟ فقال: جئتُ لأودِّعكم وأسلِّم عليكم. فصاح عليهم أخوهم: قوموا إلى مَن أتاكم يسلِّم عليكم سلامَ مَن لا يرجو أن يراكم أبداً، فويلٌ لكم من هذا الوداع. فقاموا فجعل يوسف ينكبُّ على كلِّ واحدٍ منهم ويقبِّله ويعانقه، ويقول: حَفِظَكم الله تعالى وإن ضيَّعتُموني، آواكم الله تعالى وإن طردتُموني، رحمكم الله تعالى وإن لم ترحموني، قيل: إنَّ الأغنام ألقتْ ما في بطونها من هول هذا التوديع.

ثم أخذه العبدُ وطلب القافلةَ، فبينما هو على الراحلة إذ مرَّ بقبر أمِّه راحيل في مقابر كنعان، فلمَّا أبصر القبر لم يتمالك أنْ رمى بنفسه عليه، فاعتنقه وجعل يبكي ويقول: يا أماه، ارفعي رأسك من التراب حتى تَرَيْ ولدك مقيَّداً، يا أماه إخوتي في الجبِّ طرحوني، ومن أبي فرَّقوني، وبأبخس الأثمان باعوني، ولم يَرِقُّوا لصغر سنِّي ولم يرحموني، فأنا أسألُ الله تعالى أن يجمع بيني وبين والدي في مستقرِّ رحمته إنه أرحمُ الراحمين. فالتفت العبد فلم يره، فرجع فرآه على القبر فقال: والله لقد صَدَقَ مواليك، إنك عبدٌ آبقٌ. ثم لطمه لطمةً شديدةً فغُشي عليه، ثم أفاق فقال له: لا تؤاخذني، هذا قبرُ أمِّي نزلتُ أسلِّم عليها، ولا أعودُ بعدُ لِمَا تكرهُه أبداً.

ثم رفع عينيه إلى السماء وقد تمرَّغ بالتراب والدموعُ في وجهه فقال: اللهم إن كانت لي خطيئةٌ أخلقتْ وجهي عندك فبحُرْمةِ آبائي الكرام إبراهيم وإسحاق ويعقوب أن تعفوَ عنِّي وترحمني يا أرحم الراحمين. فضجَّت الملائكة إلى الله تعالى عند ذلك، فقال تبارك وتعالى: يا ملائكتي هذا نبيِّي وابنُ أنبيائي، وقد استغاث بي وأنا مغيثُه ومغيثُ المستغيثين، يا جبريلُ أدركه. فنزل جبريل عليه السلام فقال: يا صدِّيقَ الله، ربُّك يُقْرِئُكَ السلام ويقول لك: مهلاً عليك فقد أبكيتَ ملائكة السماوات السبع، أتريد أن أطبق السماء على الأرض؟ فقال: لا، يا جبريلُ ارْفُقْ بِخَلْقِ ربِّي فإنه حليم لا يعجل. فضرب الأرض بجناحه فهبَّت ريحٌ حمراءُ، وكسفت الشمس، وأظلمت الغبراء، فلم ير أهلُ القافلة بعضهم بعضاً، فقال التاجر: انزلوا قبل أن تهلكوا، إنَّ لي سنين عديدةً أمرُّ بهذا الطريق فما رأيتُ كاليوم، فمن أصاب منكم ذنباً فليتُبْ منه، فما أصابنا هذا إلا بذنبٍ اقترفناه. فأخبره العبد بما فعل مع يوسف، وقال: يا سيدي، إني لَمَّا ضربتُه رفع عينه إلى السماء وحرَّك شفتيه. فقال له التاجر: ويحك أهلكْتَنا وأهلكْتَ نفسك. فتقدَّم إليه التاجر وقال: يا غلام إنَّا ظلمناك حين ضربناك، فإنْ شئتَ أن تقتصَّ منَّا فها نحن بين يديك. فقال يوسف: ما أنا من قوم إذا ظُلموا يقتصُّون، ولكنِّي من أهل بيتٍ إذ ظُلموا عَفَوْا وغفروا، ولقد عَفَوْتُ عنكم رجاءَ أن يعفو الله تعالى عنِّي. فانجلت الظلمةُ، وسكنت الريح، وأسفرت الشمس، وأضاءت مشارق الأرض ومغاربها، فساروا حتى دخلوا مصر آمنين، وكان هذا التاجرُ فيما قيل مالك بنَ دعر الذي أخرجه من الجب، وقيل: غيره.

وروي أنه حين ورد به مصر باعه بعشرين ديناراً، وزَوْجيَ نعل، وثوبين أبيضين.

وقيل: أُدخل السوقَ للبيع فترافعوا في ثمنه حتى بلغ[1] وزنَه مسكاً، ووزنه وَرِقاً، ووزنه حريراً، فاشتراه بذلك العزيز[2] الذي كان على خزائن مصر عند ملكها. وقيل: كان خبازَ الملك، وصاحبَ شرابه ودوابِّه، وصاحبَ السجن، والمشهورُ المعوَّلُ عليه[3] هو الأول، واسمه: قطفير، أو إطفير، أو قنطور، والأول مرويٌّ عن ابن عباس، وهو المراد في قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ﴾ فهذا الشراءُ غيرُ الشراء السابق الذي كان بثمنٍ بخس، وزَعْمُ اتِّحادِهما ضعيفٌ جدًّا، وإلَّا لا يبقى لقوله: «من مصر» كثيرُ جدوى.

وكان الملك يومئذٍ الريان بنُ الوليد العمليقي، ومات في حياة يوسف عليه السلام بعد أن آمن به، فملك بعده قابوس بنُ مصعب، فدعاه إلى الإيمان فأبى.

وقيل: كان الملك في أيامه فرعونَ موسى عليه السلام عاش أربعَ مئة سنةٍ، بدليلِ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [غافر: ٣٤].

وقيل: فرعونُ موسى عليه السلام من أولاد فرعون يوسف عليه السلام، والآية من قبيل خطاب الأولاد بأحوال الآباء، وهو الصحيح.

وظاهرُ أمر العزيز أنه كان كافراً، واستدلَّ في «البحر»[4] على ذلك بكون الصنم في بيته حسبما يُذكر في بعض الروايات.

وقال مجاهد: كان مؤمناً. ولعل مراده أنه آمن بعد ذلك، وإلا فكونُه مؤمناً يومَ الاشتراء مما لا يكاد يسلَّم، نعم إنه اعتنى بأمر يوسف عليه السلام، ولذا قال

---

(١) أي: حتى بلغ ثمنه. الكشاف ٢/ ٣١٠.

(٢) جاء في هامش الأصل و(م): أخرج ابن إسحاق وابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس أن مالك بن دعر لما باع يوسف من العزيز سأله: مَن أنت؟ فذكر له مَن هو، وابنُ مَن هو، وكان من مدين فعرفه فقال: لو أخبرتني لم أَبِعْكَ. ثم طلب منه الدعاء، فدعا له وقال: بارك الله لك في أهلك. فحملت امرأته اثني عشر بطناً في كلِّ بطنٍ غلامان. انتهى، وهذا إن صح يُبْعِدُ صحة القصة، فتأمَّل. اهـ منه.

(٣) في (م): وصاحب السجن المشهور، والمعول عليه.

(٤) ٥/ ٢٩٢.

﴿لِامۡرَأَتِهِۦٓ﴾ راعيل[١] بنت رعايل، وهو المرويُّ عن مجاهد. وقال السدي: زليخا[٢] بنت تمليخا. وقيل: اسمها راعيل ولقبها زليخا. وقيل: بالعكس.

والجارُّ الأول ـ كما قال أبو البقاء[٣] ـ متعلِّق بـ «اشتراه» كقولك: اشتريتُه من بغداد، أي: فيها أو بها، أو متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع حالاً من «الذي»، أو من الضمير في «اشترى»، أي: كائناً من أهل مصر.

والجارُّ الثاني متعلِّقٌ بـ «قال» كما أشرنا إليه لا بـ «اشتراه»، ومقولُ القول: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾ أي: اجعلي محلَّ ثوائه وإقامته كريماً، أي: حسناً مرضيًّا، وهذا كنايةٌ عن إكرامه عليه السلام نفسِه على أبلغ وجهٍ وأتمِّه؛ لأنَّ مَن أكْرَمَ المحلَّ بتنظيفه وفَرْشِه ونحوِ ذلك، فقد أكرم ضيفه بسائر ما يُكرم به.

وقيل: المثوى مُقْحَمٌ كما[٤] يقال: المجلس العالي، والمقام السامي، والمعنى: أحسني تعهُّدَه والنظرَ فيما يقتضيه إكرامُ الضيف ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ في قضاء مصالحنا إذا تدرَّب في الأمور وعرف مجاريها ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾ أي: نتبنَّاه ونقيمُه مقام الولد، وكان فيما يُروى عقيماً.

ولعل الانفصال لمنع الخلوِّ، وزعم بعضهم أنه لمنع الجمع، على معنى: عسى أن نبيعه فننتفع بثمنه، وليس بشيء.

وكان هذا القول من العزيز لِمَا تفرَّس فيه من مخايل الرشد والنجابة، ومن ذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه فيما أخرجه سعيد بن منصور، والحاكم وصحَّحه، وجماعةٌ: أفرسُ الناس ثلاثةٌ: العزيز حين تفرَّس في يوسف فقال لامرأته: (أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ) إلخ، والمرأة التي أتت موسى فقالت لأبيها: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ﴾ [القصص: ٢٦]، وأبو بكر حين استخلف عمر[٥].

---

(١) في هامش الأصل و(م): راعيل بوزن هابيل. اهـ منه.

(٢) بفتح الزاي وكسر اللام والخاء المعجمة وفي آخره ألف، وهو المشهور. وقيل: إنه بضم أوله على هيئة المصغَّر. حاشية الشهاب ٥/ ١٦٥.

(٣) في الإملاء ٣/ ٣٢٧.

(٤) قوله: كما، ليس في (م).

(٥) سنن سعيد بن منصور (١١٣ – تفسير)، والمستدرك ٢/ ٣٤٥، وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ٨/ ٥٧٥، والطبري ١٣/ ٦٤.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جعلنا له فيها مكاناً، يقال: مكَّنه فيه، أي: أثبته فيه، ومكَّن له فيه، أي: جعل له مكاناً فيه، ولتقارُبهما وتلازُمهما يستعمل كلٌّ منهما في مقام الآخر، قال سبحانه: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ [الأنعام: ٦] والمراد بالمكان هنا المكانةُ والمنزلة، لا البعدُ المجرَّد أو السطح الباطن من الحاوي المماسِّ للسطح الظاهر من المحويِّ، أو غيرِ ذلك مما ذهب إليه من ذهب من الفلاسفة إنْ حقًّا وإنْ باطلاً.

والإشارة إلى ما يفهم مما تقدَّم من الكلام، وما فيه من معنى البعد لتفخيمه، والكافُ نصبٌ على المصدرية، أي: كما جعلنا له مثوًى كريماً في منزل العزيز أو مكاناً عليًّا في قلبه حتى أمر امرأته دون سائر حواشيه بإكرام مثواه، جعلنا له مكانةً رفيعةً في أرض مصر.

وفسَّر الجعلُ المذكورُ بجَعْلِه وجيهاً فيما بين أهل مصر ومحبَّباً في قلوبهم، بناءً على أنه الذي يؤدِّي إلى الغاية المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: بعض تعبير الرؤيا التي عُمْدتُها رؤيا الملك وصاحبي السجن، ورُوي هذا المعنى عن مجاهد، وهو الظاهر كما يُرْشِدُ إليه قوله عليه السلام: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ [الآية: ٣٧] سواءٌ جُعِلَ معطوفاً على غايةٍ مقدَّرةٍ ينساقُ إليها الكلامُ ويستدعيها النظام، كأنه قيل: ومثلَ ذلك التمكين البديع مكَّنَّا ليوسف في الأرض وجعلنا قلوبَ أهلها كافةً محالَّ محبته، ليترتَّب على ذلك ما يترتَّبُ مما جرى بينه وبين امرأة العزيز، ولنعلِّمه بعضَ تأويل الأحاديث فيؤدِّي ذلك إلى الرتبة العليا والرياسة العظمى، ولعل تركَ المعطوف عليه للإشعار بعدم كونه مراداً. أو جُعِلَ علَّةً لمحذوفٍ، كأنه قيل: ولهذه الحكمة البالغة فعلنا ذلك التمكين لا لشيءٍ غيرِها مما ليس له عاقبةٌ حميدة.

واختار بعض المحققين كونَ «ذلك» إشارةً إلى مصدر الفعل المذكور بعده، والكاف مقحمة للدلالة على تأكيد فخامة شأن المشار إليه، على ما ذكروا في ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] والمرادُ به التمكينُ في قلب العزيز أو في منزله، وكونُ ذلك تمكيناً في الأرض بملابسةِ أنه عزيزٌ فيها؛ لِمَا أنَّ الذي عليه يدور تلك الأمور إنما هو التمكينُ في جانب العزيز، وأمَّا التمكينُ في جانب الناس كافةً فتأديتُه إليها إنما هي باعتبار اشتماله على ذلك التمكين.

ولا يَخْفَى أنَّ حَمْلَ التمكين في الأرض على التمكين في قلب العزيز أو في منزله خلافُ الظاهر، وكذا حملُه على ما تقدَّم، ولعل الظاهر حملُه على جَعْلِه ملكاً يتصرَّفُ في أرض مصر بالأمر والنهي، إلا أنَّ في جَعْلِ التعليم المذكور غايةً له خفاءً؛ لأنَّ ذلك الجَعْلَ من آثاره ونتائجه المتفرِّعة عليه دون العكس، ولم يُعْهَدْ منه عليه السلام في تضاعيف قضاياه العملُ بموجب الرؤيا المنبِّهة على الحوادث قبل وقوعها عهداً مصحِّحاً لجعله غايةً لذلك، وما وقع من التدارُك في أمر السنين فإنما هو عملٌ بموجب الرؤيا السابقة المعهودةِ، وإرادةُ: ليظهر تعليمُنا له، كما ترى، وكأنَّ من ذهب إلى ذلك ـ لأنه الظاهرُ ـ أراد بتعليم تأويل الأحاديث تفهيمَ غوامض أسرار الكتب الإلهية، ودقائقِ سننِ الأنبياء عليهم السلام، فيكون المعنى حينئذ: مكنَّا له في أرض مصر ليتصرَّف فيها بالعدل، ولنعلِّمه معانيَ كتب الله تعالى وأحكامَها، ودقائقَ سننِ الأنبياء عليهم السلام فيقضي بها بين أهلها، والتعليمُ الإجماليُّ لتلك الأحاديث وإن كان غيرَ متأخِّرٍ عن تمكينه بذلك المعنى إلا أنَّ تعليم كلِّ معنًى شخصيٍّ يتفقُ في ضمن الحوادث والإرشادَ إلى الحقِّ في كلِّ نازلة من النوازل متأخِّرٌ عن ذلك صالحٌ لأنْ يكون غايةً له، وأَدْرجَ بعضُهم الإنجاء تحت الإشارة بذلك، وفيه بحثٌ فتدبَّر.

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ لا يُمنع عمَّا يَشاءُ ولا يُنازَعُ فيما يريد، بل إنما أمرُه لشيءٍ إذا أراد أن يقول له كن فيكون، ويدخل في عموم المصدر المضاف شؤونه سبحانه المتعلِّقةُ بيوسف عليه السلام دخولاً أوَّليًّا، أو متولٍّ على أمرِ يوسف عليه السلام فيدبِّره ولا يَكِلُه إلى غيره.

وإلى رجوع ضمير «أمره» إلى الله تعالى ذهب ابن جبير، وإلى رجوعه إلى يوسف عليه السلام ذهب الطبريُّ(١). وأيًّا ما كان فالكلام على ما في «الكشف» تذييلٌ، أما على الأول فلِجَرْيه مجرى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] من سابقه، لأنه لَمَّا كان غالباً على جميع أموره لا يزاحمه أحدٌ ولا يمتنعُ عليه مرادٌ كانت إرادتُه تمكينَ يوسف وكيت وكيت والوقوعَ رضيعي لبان، وأما على

(١) في الأصل و(م): القرطبي، وهو خطأ، والمثبت من البحر ٥/ ٢٩٢، والكلام منه، وكلام الطبري في تفسيره ١٣/ ٦٥.

الثاني فلأنَّ معناه أنه الغالب على أمره يتولَّاه بلطيفِ صُنْعِه وجزيل إحسانه، وإذا جاء نهرُ الله تعالى بطل نهر معقلٍ، فأين يقع كيدُ الإخوة وغيرِهم كامرأة العزيز موقعَه؟ فهو كقوله:

وعـــلامَ أركـــبُـــه إذا لـــم أنـــزلِ

من سابقه، أعني:

فـدَعَـوْا نَـزَالِ فـكـنـتُ أولَ نـازلِ[1]

والآيةُ على الأول صريحةٌ في مذهب أهل السنة.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ أنَّ الأمر كذلك فيما يأتون ويذرون زعماً منهم أنَّ لهم من الأمر شيئاً، وأنَّى لهم ذلك؟! وأنَّ الأمر كلَّه لله عز وجل. أو: لا يعلمون لطائفَ صنعه وخفايا فضله.

والمراد بـ «أكثر الناس» قيل: الكفار، ونُقل ذلك عن ابن عطية[2]. وقيل: أهلُ مصرَ. وقيل: أهلُ مكةَ. وقيل: الأكثرُ بمعنى الجميع، والمراد أنَّ جميع الناس لا يطَّلعون على غيبه تعالى.

والأولى أن يبقى على ما يتبادرُ منه، ولا يُقتَصَرَ في تفسيره على ما تضمَّنته الأقوال قبلُ، بل يراد به مَن نُفي عنه العلم بما تقدَّم كائناً ما كان، ولا يَبْعُدُ أن يندرجَ في عمومه أهلُ الاعتزال.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ أي: بلغ زمانَ انتهاءِ اشتدادِ جسمه وقوَّته، وهو سنُّ الوقوف عن النموِّ المعتدّ به، أعني ما بين الثلاثين والأربعين، وسئل القاضي النحويُّ مهذَّب الدين محمد بن علي بن علي، أبو طالب الخيمي[3] عنه، فقال: هو خمسٌ وثلاثون سنةً وتمامُه أربعون.

---

(١) البيت لربيعة بن مقروم الضبيِّ، كما في الأغاني ٢٢/ ١٠٣، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ٦٢.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٣١، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٥/ ٢٩٢.

(٣) الحلِّي العراقي الأديب الشاعر المعمَّر، نزيل مصر، من مصنفاته: حروف القرآن، وأمثال القرآن، وكتاب إسطرلاب الشعر، وكتاب المطاول في الرد على المعري، وغيرها، توفي

وقال الزجَّاج: هو سبعةَ عَشَرَ عاماً إلى نحو الأربعين[1].

وعن مجاهد وقتادة ـ ورواه ابنُ جبير عن ابن عباس ـ أنه ثلاثةٌ وثلاثون، أو ثلاثون، أو واحدٌ[2] وعشرون.

وقال الضحاك: عشرون. وحَكَى ابنُ قتيبة أنه ثمان وثلاثون[3].

وقال الحسن: أربعون، والمشهورُ أنَّ الإنسان يقف جسمُه عن النموِّ إذا بلغ ذلك، وإذا وقف الجسم وقفت القوى والشمائل والأخلاق، ولذا قيل:

إذا المرءُ وفَّى الأربعين ولم يكن له دون ما يَهْوَى حياءٌ ولا سترُ
فدَعْهُ ولا تَنْفِسْ عليه الذي مضى وإنْ جرَّ أسباب الحياة له العمرُ[4]

وقيل: أقصى الأشُدِّ اثنان وستون. وإلى كون الأشدِّ منتهى الشباب والقوة قبل أن يؤخذ في النقصان ذهب أبو عبيدة[5] وغيرُه من ثقات اللغويين، واستظهره بعضُ المحققين.

وهو عند سيبويه جمعٌ واحدُه شِدةٌ، كنعمةٍ وأَنْعُم[6]. وقال الكسائي والفراء: إنه جمع شَدٍّ، نحو صَكٍّ وأَصُكٍّ، وفلسٍ وأَفْلُسٍ[7]، وهذا على ما ذكر أبو حاتم

= سنة (٦٤٢هـ). وفيات الأعيان ١/ ٣٠٩، والوافي بالوفيات ٤/ ١٨١، وهدية العارفين ٢/ ١٢١. ووقع في الأصل و(م) والبحر ٥/ ٢٩٢ (والكلام منه): ابن أبي طالب، بدل: أبو طالب، والمثبت من المصادر.

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٩٩.

(٢) في (م): أحد.

(٣) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٢١٥، والبحر ٥/ ٢٩٢.

(٤) البيتان ينسبان للأقيشر (واسمه المغيرة بن الأسود) ولأيمن بن خريم، كما في معجم البلدان ٢/ ١٢٠-١٢١، ونسبهما للأول ابن قتيبة في الشعر والشعراء ٢/ ٥٦٢، وللثاني ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩٧.

(٥) في مجاز القرآن ١/ ٣٠٥.

(٦) الكتاب ٣/ ٥٨١-٥٨٢، والكلام من البحر ٥/ ٢٩٢.

(٧) ذكره عن الكسائي النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٢١، وأبو حيان في البحر ٥/ ٢٩٢، وعن الفراء ابن الأنباري في المذكر والمؤنث ٢/ ١٣.

يوجبُ أن يكون مؤنَّثاً؛ لأنَّ كلَّ جمعٍ على أَفْعُلٍ مؤنَّثٌ[١].

وعن أبي عبيدةَ[٢] أنه لا واحدَ له مِن لَفْظِه عند العرب. وقال الفرَّاء[٣]: أهلُ البصرة يزعمون أنه اسمُ واحدٍ، لكنه على بناءٍ ندر من المفردات، وقلَّما رأينا اسماً على أَفْعُلٍ إلَّا وهو جمعٌ.

﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا﴾ أي: حكمةً، وهي في لسان الشرع العلمُ النافعُ المؤيَّدُ بالعمل؛ لأنه بدونه لا يُعتدُّ به، والعملُ بخلافِ العلم سَفَهٌ. أو: حُكْماً بين الناس.

﴿وَعِلۡمٗاۚ﴾ يعني علمَ تأويل الرؤيا، وخُصَّ بالذكر لأنه غيرُ داخلٍ فيما قبله، أو أُفرد بالذكر لأنه مما له شأنٌ وليوسفَ عليه السلامُ به اختصاصٌ تامٌّ، كذا قيل.

وفسَّر بعضهم الحكمةَ بالنبوَّة والعلمَ بالتفقُّه في الدين.

وقيل: الحكمةُ حبسُ النفس عن هواها وصونُها عما لا ينبغي، والعلمُ هو العلم النظري.

وقيل: أراد بالحكمة الحكمَ بين الناس، وبالعلم العلمَ بوجوه المصالح فإنَّ الناس كانوا إذا تحاكموا إلى العزيز أَمَرَه بأن يحكم بينهم لِمَا رأى من عقله وإصابته في الرأي.

وعن ابن عباس أنَّ الحكم النبوَّةُ، والعلمَ الشريعةُ.

وتنكيرُهما للتفخيم، أي: حُكماً وعلماً لا يُكْتَنَه كُنْهُهما، ولا يقادَرُ قَدْرُهما.

وتعقَّب كونُ المراد بالعلم العلمَ بتأويل الأحاديث بأنَّ قوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الجزاء العجيب ﴿نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٢﴾ أي: كلَّ مَن يُحْسِنُ في علمه، يأباه لأنَّ ذلك لا يصلحُ أن يكون جزاءً لأعماله الحسنة التي من جملتها معاناةُ الأحزان والشدائد، إلا أن يُخصَّ بعلم تأويل رؤيا الملك؛ فإنَّ ذلك حيث

---

(١) المذكر والمؤنث لأبي حاتم سهل بن محمد السجستاني ص١٧١.

(٢) في (م): وزعم عن أبي عبيدة، وفي البحر ٥/ ٢٩٢: وزعم أبو عبيدة، وكلامه في مجاز القرآن ١/ ٣٠٥.

(٣) كما في المذكر والمؤنث لأبي بكر بن الأنباري ٢/ ١٢.

كان عند تَنَاهي أيام البلاء صحَّ أن يُعدَّ إيتاؤه من جملة الجزاء، وأمَّا رؤيا صاحبي السجن فقد لبث عليه السلام بعد تعبيرها في السجن بضعَ سنين.

وفي تعليق الجزاء المذكور بالمحسنين إشعارٌ بعلِّيةِ الإحسان له، وتنبيهٌ على أنه تعالى إنما آتاه ما آتاه لكونه محسناً في أعماله، متقناً في عنفوان أمره، ومن هنا قال الحسن: مَن أحسن عبادةَ الله سبحانه في شبيبته آتاه الله تعالى الحكمة في اكتهاله.

واستشكل ما أفاده تعليقُ الحكم بالمشتقِّ من العلِّيةِ على تقديرِ أن يراد من الحكمة العلمُ المؤيَّدُ بالعمل مثلاً؛ بأنَّ إحسان العمل لا يكون إلا بعد العلم به، فلو كان العلم المؤيَّد به مثلاً علةً للإحسان بذلك لزم الدور.

وأجيب بأنَّ إحسان العمل يمكن أن يكون بطريقٍ آخر كالتقليد والتوفيق الإلهي، فيكون سبباً للعلم به عن دليلٍ عقليٍّ أو سمعيٍّ، أو المراد الأعمال الغيرُ المتوقِّفةِ على السمع، فيكون ذلك السبب للعلم بما شرع له من الأعمال.

وقال بعض المحققين: الظاهرُ تغايُرُ العِلْمين كما في الأثر «مَن عَمِلَ بما عَلِمَ يسَّر الله تعالى له عِلْمَ ما لم يَعْلَمْ»(١). وعن الضحاك تفسير «المحسنين» بالصابرين على النوائب.

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾ رجوعٌ إلى شرح ما جرى عليه عليه السلام في منزل العزيز بعد ما أَمَر امرأته بإكرام مثواه، وقولُه سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ إلى هنا اعتراضٌ جيء به أنموذجاً للقصة ليعلم السامعُ من أول الأمر أنَّ ما لقيه عليه السلام من الفتن التي ستُحْكَى بتفاصيلها له غايةٌ جميلةٌ وعاقبةٌ حميدة، وأنه عليه السلام محسنٌ في أعماله لم يصدر عنه ما يُخِلُّ بنزاهته.

والمراودة: المطالبةُ برفقٍ، من راد يَرُود: إذا ذهب وجاء لطلب شيءٍ(٢)، ومنه الرائدُ لطالب الكلأ والماء. وباعتبارِ الرفق قيل: رادت الإبلُ في مشيتها تَرُود رَوَداناً، ومنه بُني المِرْوَدُ، ويقال: أَرْوَدَ يُرْوِدُ إذا رفق، ومنه بني رُوَيْدَ. والإرادةُ منقولةٌ من راد يَرُودُ: إذا سعى في طلب شيءٍ.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٠/ ١٥، وسلف ١/ ١٠٦ و٣٠١. وينظر الكلام عليه ثمة.

(٢) جاء في هامش الأصل و(م): وزعم بعضهم أن ما هنا من الرويد، وهو الرفق والتحمل، فافهم. اهـ منه.

وهي مفاعَلةٌ من واحدٍ، نحو: مطالبة الدائن، ومماطلة المديون، ومداواة الطبيب، وغيرِ ذلك مما يكون من أحد الجانبين الفعلُ ومن الآخر سببُه، فإنَّ هذه الأفعال وإن كانت صادرةً عن أحد الجانبين، لكنْ لَمَّا كانت أسبابُها صادرةً عن الجانب الآخر جُعلت كأنها صادرةٌ عنهما، قال شيخ الإسلام[(١)]: وهذا بابٌ لطيفُ المسلك مبنيٌّ على اعتبارٍ دقيق، تحقيقُه: أنَّ سبب الشيء يقوم مقامه ويُطلق عليه اسمُه، كما في قولهم: كما تدين تُدان[(٢)]، أي: كما تَجْزي تُجْزَى، فإنَّ فِعْلَ البادئ وإن لم يكن جزاءً لكنَّه لكونه سبباً للجزاء أُطلق عليه اسمه، وكذلك إرادة القيام إلى الصلاة وإرادةُ قراءة القرآن حيث كانتا سبباً للقيام والقراءةِ عبِّر عنهما بهما، فقيل: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٦] ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النحل: ٩٨] وهذه قاعدةٌ مطَّردةٌ مستمرةٌ، ولَمَّا كانت أسبابُ الأفعال المذكورة فيما نحن فيه صادرةً عن الجانب المقابل لجانب فاعلها، فإنَّ مطالبة الدائن للمماطلة التي هي من جانب الغريم، وهي منه للمطالبة التي من جانب الدائن، وكذا مداواةُ الطبيب للمرض الذي هو من جانب المريض، وكذلك مراودتُها فيما نحن فيه لجمال يوسف عليه السلام نزل صدورها عن محالِّها بمنزلة صدور مسبَّباتها التي هي تلك الأفعال، فبنى الصيغة على ذلك وروعي جانبُ الحقيقة بأنْ أُسْنِدَ الفعلُ إلى الفاعل وأُوقع على صاحب السبب، فتأمل. اهـ، وكأنه أشار بالأمر بالتأمُّل إلى ما فيه مما لا يخفى على ذويه.

وفي «الكشف»: المراودةُ منازعةٌ في الرود، بأن يكون له مقصدٌ مجيئاً وذهاباً وللمُفاعِلِ مقصدٌ آخَرُ يقابله فيهما، ومعنى المفاعلة هاهنا إمَّا المبالغةُ في رودها، أو الدلالةُ على اختلافهما فيه، فإنها طلبت منه الفعلَ وهو طلب منها الترك، وهذا أبلغُ، ولما كان منازعةً جيء بـ «عن» في قوله تعالى: ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ كما تقول: جاذبته عن كذا، دلالةً على الإبعاد وتحصيلِ الجذب البالغ، ولهذا قال في «الأساس»: ومن المجاز: راوَدَه عن نفسه: خادَعَه عنها[(٣)].

---

(١) في تفسيره ٤/ ٢٦٤، وما قبله منه.

(٢) قطعة من حديث أخرجه عبد الرزاق (٢٠٢٦٢) من طريق أبي قلابة عن النبي ﷺ مرسلاً، وسلف ١/ ١٨٣.

(٣) أساس البلاغة (رود).

وقال الزمخشريُّ هنا: أي: فعلتْ ما يفعلُ المخادع بصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يُخْرِجه من يده(١). ولا شكَّ أن هذا إنما يحصل من المنازعة في الرود، ولهذه النكتة جُعِلَ كنايةً عن التمحُّل لموافقته(٢) إياها.

والعدولُ عن التصريح باسمها للمحافظة على الستر ما أمكن، أو للاستهجان بذكره. وإيرادُ الموصول دون امرأة العزيز ـ مع أنه أخصر وأظهرُ ـ لتقرير المراودة؛ فإنَّ كونه في بيتها مما يدعو إلى ذلك(٣)، ولإظهارِ كمالِ نزاهته عليه السلام، فإنَّ عدم ميله إليها مع دوام مشاهدته لمحاسنها، واستعصائه عليها مع كونه تحت يدها، ينادي بكونه عليه السلام في أعلى معارج العفَّة.

وإضافةُ البيت إلى ضميرها لِمَا أنَّ العرب تضيفُ البيوت إلى النساء باعتبارِ أنَّهنَّ القائماتُ بمصالحه أو الملازماتُ له، وخرِّج على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣] وكثر في كلامهم: صاحبة البيت، وربَّةُ البيت، للمرأة، ومن ذلك:

يا ربَّةَ البيت قومي غيرَ صاغرةٍ(٤)

﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ أي: أبواب البيت، وتشديدُ الفعل للتكثير في المفعول إن قلنا: إن الأبواب كانت سبعةً كما قيل، فإنْ لم نقل به فهو لتكثير الفعل فكأنه غلَّق مرةً بعد مرة، أو بمغلاقٍ بعد مغلاقٍ، وجمعُ «الأبواب» حينئذ إمَّا لجعل كلِّ جزءٍ منه كأنه بابٌ، أو لجعل تعدُّدِ إغلاقه بمنزلة تعدُّده، وزعم بعضُهم أنه لم يُغْلَقْ إلا بابان: بابُ الدار، وبابُ الحجرة التي هما فيها.

---

(١) الكشاف ٢/ ٢١١.

(٢) في الأصل: لمواقعته.

(٣) جاء في هامش الأصل و(م): وقيل لواحدةٍ: ما حملكِ على ما أنتِ عليه مما لا خير فيه؟ قالت: قربُ الوساد. اهـ منه.

(٤) وعجزه: ضمّي إليك رحالَ القوم والقُرُبا، وهو لمرَّة بن محكان السعدي كما في معجم الشعراء للمرزباني ص٢٩٥، والمستقصى ١/ ٢٢، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٤/ ١٥٦٢، وفيه: خاطب امرأته وبَعَثَها على القيام للاحتفاف بالنازلين من الأضياف، والقُرُب جمع قِراب، وهو جِرابٌ واسع يصان فيه السلاح والثياب.

وادَّعى بعضُ المتأخِّرين أنَّ التشديد للتعدية، وأن كونه للتكثير وهمٌ، معلِّلاً ذلك بأنَّ غَلَقتُ الأبوابَ غَلْقاً، لغةٌ رديئةٌ متروكةٌ حسبما ذكره الجوهري[١].

وردَّ بأنَّ إفادةَ التعدية لا تُنافي إفادةَ التكثير معها، فإنَّ مجرَّد التعدية يحصل بباب الإفعال، فاختيارُ التفعيل عليه لأحد الأمرين، ولذا قال الجوهريُّ أيضاً: و«غلَّقت الأبواب» شدِّد للتكثير[٢]. اهـ.

وفي «الحواشي الشهابية»: أنه لم يتنبَّه الرادُّ لأنَّ ما نقله عليه لا له؛ لأنَّ الرديء الذي ذكره اللغويون إنما هو استعمالُ الثلاثي منه لا أنَّ له ثلاثيًّا لازماً حتى يتعيَّن كونُ التفعيل للتعدية، فتعدِّيه لازمٌ في الثلاثيِّ وغيره سواءٌ كان رديئاً أو فصيحاً، فتعيَّن أنه للتكثير، وقد قال بذلك غيرُ واحدٍ، فالواهم ابنُ أختِ خالةِ الموهم[٣]، فافهم.

﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي: أسرع، فهي اسمُ فعلِ أمرٍ مبنيٌّ على الفتح كأينَ، وفسَّرها الكسائيُّ والفراء بتعالَ، وزعما أنها كلمةٌ حورانيةٌ وقعت إلى أهل الحجاز فتكلَّموا بها[٤].

وقال أبو زيد: هي عبرانيةٌ. وعن ابن عباس والحسن: هي سريانية. وقال السدي: هي قبطية. وقال مجاهدٌ وغيره: هي عربيةٌ تدعوه بها إلى نفسها، وهي كلمةُ حثٍّ وإقبال[٥].

واللامُ للتبيين كالتي في سقياً لك، فهي متعلِّقةٌ بمحذوفٍ، أي: إرادتي كائنةٌ لك، أو: أقول لك.

---

(١) في الصحاح (غلق).

(٢) المصدر السابق.

(٣) حاشية الشهاب ٥/ ١٦٧.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٠، ونقله المصنف عنه وعن الكسائي بواسطة أبي حيان في البحر ٥/ ٢٩٣.

(٥) جاء في هامش الأصل و(م): قال أبو حيان: ولا يبعد اتفاق اللغات في لفظة واحدة، وقد وجد ذلك في كلام العرب مع لغات غيرهن، وقال الجوهري: هوَّت وهيَّت به: صاح به ودعاه. ولا يبعد أن يكون مشتقًّا من اسم الفعل كما اشتقُّوا من الجُمل نحوَ: سبَّح وحمدل. اهـ منه. والكلام في البحر ٥/ ٢٩٣.

وجوّز كونُها اسمَ فعلٍ خبريٍّ كهيهات، واللامُ متعلِّقةٌ بها، والمعنى: تهيَّأْتُ لك. وجَعَلها بعضُهم على هذا للتبيين متعلِّقةً بمحذوفٍ أيضاً، لأنَّ اسم الفعل لا يتعلَّق به الجارُّ.

والتاءُ مطلقاً من بنية الكلمة، وليس تفسيرُها بتهيَّأْتُ لكونِ الدالِّ على التكلُّم التاء ليَرِدَ أنها إذا كانت بمعنى تهيَّأْتُ لا تكون اسمَ فعلٍ بل تكون فعلاً مسنداً إلى ضمير المتكلِّم، بل لأنه لَمَّا بيَّنتِ التهيُّؤَ بأنه له لزم كونُها هي المتهيِّأة، كما إذا قيل لك: قرِّبني منك، فقلتَ: هيهاتَ، فإنه يدلُّ على معنى بَعُدْتَ بالقرينة.

وقرأ ابن كثير وأهلُ مكة: «هَيْتُ» بفتح الهاء وسكونِ الياء وضمِّ التاء[1] تشبيهاً له بـ «حيث».

وقرأ أبو الأسود وابنُ أبي إسحاق وابنُ محيصنٍ وعيسى البصرةِ، ورُوي ذلك عن ابن عباس ﷺ: «هَيْتِ» بفَتْحِ الهاء وسكونِ الياء وكَسْرِ التاء[2] تشبيهاً له بـ «جَيْرِ»[3].

والكلام فيها على هاتين القراءتين كالكلام فيها على القراءة السابقة.

وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ وابنُ ذكوانَ[4] والأعرجُ وشيبةُ وأبو جعفر: «هِيْتَ» بكسر الهاء بعدها ياءٌ ساكنةٌ وتاءٌ مفتوحةٌ[5]. وحكى الحلوانيُّ عن هشام أنه قرأ كذلك إلا أنه هَمَزَ.

وتعقَّب ذلك الداني تبعاً لأبي عليٍّ الفارسيِّ في «الحجة»[6]، وقد تبعه أيضاً جماعةٌ، بأنَّ فَتْحَ التاء فيما ذكر وهمٌ من الراوي لأنَّ الفعل حينئذٍ من التهيُّؤ، ويوسفُ عليه السلام لم يتهيَّأ لها بدليلِ «وراودته» إلخ، فلا بدَّ من ضمِّ التاء.

---

(١) التيسير ص١٢٨، والنشر ٢/ ٢٩٤.
(٢) القراءات الشاذة ص٦٣، والمحتسب ١/ ٣٣٧، والنشر ٢/ ٢٩٤.
(٣) بكسر الراء، وقد ينوَّن، وكأَيْنَ [أي: جَيْرَ]: يمين، أي: حقًّا، أو بمعنى: نعمْ أو أجل. القاموس (جير).
(٤) كذا في الأصل و(م)، والصواب: وابن عامر من رواية ابن ذكوان.
(٥) التيسير ص١٢٨، والنشر ٢/ ٢٩٣ عن نافع وابن ذكوان وأبي جعفر.
(٦) جامع البيان للداني ٢/ ٢٦١، والحجة للفارسي ٤/ ٤٢٠.

وردَّ ذلك صاحب «النشر» بأنَّ المعنى على ذلك: تهيَّأ لي أمرُك، لأنها لم يتيسَّر لها الخلوةُ به قبلُ، أو: حَسُنَتْ هيئتُكَ، و«لك» على المعنيين للبيان، والروايةُ عن هشام صحيحةٌ جاءت من عدَّة طرق، ورُوي عنه أيضاً أنه قرأ بكسر الهاء والهمزةِ وضمِّ التاء[1]، وهي روايةٌ أيضاً عن ابن عباس وابن عامر وأبي عمرو أيضاً، وقرأ كذلك أبو رجاء وأبو وائل وعكرمة ومجاهد وقتادةُ وطلحةُ وآخرون[2].

وقرأ زيد بن عليٍّ ﷺ، وابنُ أبي إسحاق كذلك إلا أنهما سهَّلا الهمزة[3].

وذكر النحاس[4] أنه قرئ بكسر الهاء بعدها ياءٌ ساكنة وكسر التاء.

وقرئ أيضاً: «هيًّا» بكسر الهاء وفَتْحِها وتشديد الياء، وهي ـ على ما قال ابن هشام[5] ـ لغةٌ في «هيت».

وقال بعضهم: إنَّ القراءات كلَّها لغاتٌ، وهي فيها اسم فعلٍ بمعنى هلم، وليست التاء ضميراً.

وقال آخر: إنها لغاتٌ والكلمةُ عليها اسمُ فعلٍ، إلا على قراءة ضمِّ التاء مع الهمز وتَرْكِه، فإنَّ الكلمة عليها تحتمل أن تكون فعلاً رافعاً لضمير المتكلِّم، من هاءَ الرجلُ يَهيءُ كجاء يجيءُ، إذا حَسُنَتْ هيئتُه، أو بمعنى تهيَّأْتُ، يقال: هِئْتُ وتهيَّأْتُ بمعنًى، وإذا كانت فعلاً تعلقت اللامُ بها.

ونقل عن ابن عباس أيضاً أنه قرأ: «هُيِّيْتُ» مثل حُيِّيْتُ[6]، وهي في ذلك فعلٌ

---

(١) النشر ٢/ ٢٩٤، والقراءتان عن هشام ذكرهما أيضاً الداني في التيسير ص١٢٨. وجاء في هامش الأصل و(م): وانفرد الهذلي عنه برواية ترك الهمز. اهـ منه. يعني كقراءة ابن ذكوان كما ذكر صاحب النشر ٢/ ٢٩٤.

(٢) المحتسب ١/ ٣٣٧، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢١، والبحر ٥/ ٢٩٤. وجاء في هامش الأصل و(م): منهم يحيى بن وثاب والمقري.

(٣) البحر ٥/ ٢٩٤، وذكرها النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٢٢ عن يحيى بن وثاب.

(٤) كما في المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٣، والبحر ٥/ ٢٩٤.

(٥) كذا ذكر المصنف، والصواب أنه من قول الشهاب في الحاشية ٥/ ١٦٨، وقد قاله إثر كلام لابن هشام، فذهب وهم المصنف إلى أن القائل هو ابن هشام.

(٦) في الأصل و(م): حبيت، والمثبت من البحر ٥/ ٢٩٤، والدر المصون ٦/ ٤٦٤.

مبنيٌّ للمفعول مسهَّلُ الهمزة، من هيَّأتُ الشيءَ، كأنَّ أحداً هيَّأها له عليه السلام.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ نصب على المصدر، يقال: عُذْتُ عوذاً، وعِياذاً، وعِياذةً، ومَعاذاً، أي: أعوذ بالله عز وجل معاذاً مما تريدين مني، وهذا اجتنابٌ منه عليه السلام على أتم الوجوه، وإشارةٌ إلى التعليل بأنه منكرٌ هائلٌ يجب أن يعاذ بالله جل وعلا للخلاص منه، وما ذلك إلا لأنه قد علم بما أراه الله تعالى ما هو عليه في حدِّ ذاته من غاية القبح ونهاية السوء.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ تعليلٌ ببعض الأسباب الخارجة مما عسى يكون مؤثِّراً عندها وداعياً لها إلى اعتباره، بعد التنبيه على سببه الذاتيِّ التي لا تكاد تَقْبلُه لِمَا سوَّلته لها نفسُها، والضميرُ للشأن، وفي تصدير الجملة به من الإيذان بفخامة مضمونها ما فيه مع زيادة تقريره في الذهن، أي: إنَّ الشأن الخطير هذا، أي: هو ربِّي، أي: سيدي العزيز، أَحْسنَ تعهُّدي حيث أمركِ بإكرامي على أكمل وجهٍ، فكيف يمكنُ أن أسيء إليه بالخيانة في حرمه؟! وفيه إرشادٌ لها إلى رعاية حقِّ العزيز بألطف وجهٍ. وإلى هذا المعنى ذهب مجاهد والسدِّيُّ وابن أبي إسحاق.

وتعقِّب بأنَّ فيه إطلاقَ الربِّ على غيره تعالى، فإنْ أُريدَ به الربُّ بمعنى الخالق فهو باطلٌ؛ لأنه لا يمكن أن يُطلق نبيٌّ كريمٌ على مخلوقٍ ذلك، وإذا أريد به السيد فهو عليه السلام في الحقيقة ليس مملوكاً له[1]. ومن هنا ـ وإن كان فيما ذُكر نظرٌ ظاهر ـ اختار في «البحر»[2] أنَّ الضمير لله تعالى، و«ربِّي» خبر «إنَّ»، و«أَحْسنَ مثواي» خبرٌ ثانٍ، أو هو الخبر والأولُ بدلٌ من الضمير، أي: إنه تعالى خالقي أَحْسَنَ مثوايَ بعَطْفِ قلبِ مَن أَمَركِ بإكرامي عليَّ، فكيف أعصيه بارتكاب تلك الفاحشة الكبيرة؟! وفيه تحذيرٌ لها من[3] عقاب الله تعالى.

وجوِّز على تقديرِ أن يكون الربُّ بمعنى الخالق كونُ الضمير للشأن أيضاً.

وأيًّا ما كان ففي الاقتصار على ذكر هذه الحالة من غير تعرُّضٍ لاقتضائها

---

(١) في (م): في الحقيقة مملوك له، والمثبت من الأصل، وهو الموافق لما في البحر ٥/ ٢٩٤، والدر المصون ٦/ ٤٦٦.

(٢) ٥/ ٢٩٤.

(٣) في (م): عن.

الامتناعَ عمَّا دعته إليه إيذانٌ بأنَّ هذه المرتبة من البيان كافيةٌ في الدلالة على استحالته وكونِه مما لا يدخل تحت الوقوع أصلاً.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ تعليلٌ غبَّ تعليلٍ للامتناع المذكور، والفلاحُ: الظَّفرُ وإدراكُ البُغْيةِ، وذلك ضربان: دنيويٌّ، وأخرويٌّ، فالأولُ الظَّفرُ بالسعادات التي تطيبُ بها حياة الدنيا، وهو البقاءُ والغنى والعز، والثاني أربعةُ أشياء: بقاءٌ بلا فناء، وغنًى بلا فقرٍ، وعزٌّ بلا ذلٍّ، وعلمٌ بلا جهل، ولذلك قيل: لا عيشَ إلا عيشُ الآخرة.

ومعنى أَفْلَحَ: دخل في الفَلَاح، كأصبح وأخواته، ولعل المراد هنا الفلاحُ الأخرويُّ، وبالظالمين كلُّ من ظلم كائناً من كان، فيدخلُ في ذلك المجازُونَ للإحسان بالإساءة والعصاةُ لأمر الله تعالى دخولاً أوَّليًّا. وقيل: الزناةُ؛ لأنهم ظالمون لأنفسهم وللمَزْنيِّ بأهله. وقيل: الخائنون؛ لأنهم ظالمون لأنفسهم أيضاً ولمن خانوه.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ أي: بمخالطته، إذ الهمُّ ـ سواءٌ استُعْمِلَ بمعنى القَصْدِ والإرادة مطلقاً، أو بمعنى القَصْدِ الجازم والعقد الثابت كما هو المرادُ هاهنا ـ لا يتعلَّقُ بالأعيان.

والمعنى أنها قصدت المخالطةَ وعزمتْ عليها عزماً جازماً لا يلويها عنه صارفٌ، بعد ما باشرتْ مباديها وفَعَلَتْ ما فعلت مما قصَّ الله تعالى، ولعلها تصدَّت هنالك لأفعالٍ أُخَرَ، من بَسْطِ يدها إليه وقَصْدِ المعانقة وغيرِ ذلك، مما اضْطَرَّه عليه السلام إلى الهرب نحو الباب. والتأكيدُ لدَفْعِ ما عسى يُتوهَّم من احتمالِ إقلاعها عمَّا كانت عليه بما في مقالته عليه السلام من الزواجر.

﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ أي: مالَ إلى مخالطتها بمقتضَى الطبيعة البشرية، كميلِ الصائم في اليوم الحارِّ إلى الماء البارد، ومثلُ ذلك لا يكاد يدخل تحت التكليف، لا أنه عليه السلام قَصَدَها قصداً اختياريًّا لأنَّ ذلك أمرٌ مذمومٌ تنادي الآياتُ على عدم اتِّصافه عليه السلام به، وإنما عبَّر عنه بالهمِّ لمجرَّدِ وقوعه في صحبة همِّها في الذكر بطريقِ المشاكلة، لا لشَبَهِهِ به كما قيل. وقد أشير إلى تغايرهما كما قال غير واحد، حيث

لم يُلَزَّا[1] في قرنٍ واحدٍ من التعبير بأنْ قيل: ولقد همَّا بالمخالطة، أو: همَّ كلٌّ منهما بالآخر، وأكّد الأول دون الثاني.

﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ أي: حجَّتَه الباهرةَ الدالَّةَ على كمال قبح الزنى وسوءِ سبيله، والمرادُ برؤيته لها كمالُ إيقانه بها، ومشاهدتُه لها مشاهدةً واصلةً إلى مرتبة عين اليقين.

وقيل: المرادُ برؤيةِ البرهان حصولُ الأخلاق، وتذكُّرُ الأحوال الرادعةِ عن الإقدام على المنكر.

وقيل: رؤيةُ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢] مكتوباً في السقف.

وجواب «لولا» محذوفٌ يدلُّ عليه الكلام، أي: لولا مشاهدتُه البرهانَ لجرى على موجب ميله الجبلِّي، لكنه حيث كان مشاهِداً له استمرَّ على ما هو عليه من قضية البرهان.

هذا ما ذهب إليه بعضُ المحققين في معنى الآية، وهو قولٌ بإثبات همٍّ له عليه السلام إلا أنه همٌّ غيرُ مذمومٍ.

وفي «البحر»: أنه لم يقع منه عليه السلام همٌّ بها البتةَ، بل هو منفيٌّ لوجود رؤية البرهان، كما تقول: قارفتَ الذنبَ لولا أنْ عَصَمكَ الله تعالى، ولا نقول: إنَّ جواب «لولا» متقدِّمٌ عليها، وإنْ كان لا يقومُ دليلٌ على امتناع ذلك، بل صريحُ أدواتِ الشرط العاملة مختلفٌ في جواز تقديم أجوبتها عليها، وقد ذهب إلى الجواز الكوفيون، ومن أعلام البصريين أبو زيد الأنصاريُّ وأبو العباس المبرد، بل نقول: إنَّ جواب «لولا» محذوفٌ لدلالة ما قبله عليه، كما يقول جمهورُ البصريين في قول العرب: أنت ظالمٌ إنْ فعلتَ كذا، فيقدِّرونه: إنْ فعلتَ فأنت ظالمٌ، ولا يدلُّ قولهم: أنت ظالم، على ثبوت الظلم، بل هو مثبَتٌ على تقدير وجود الفعل، وكذلك هاهنا التقديرُ: لولا أنْ رأى برهانَ ربِّه لهمَّ بها، فكان يوجد الهمُّ على تقديرِ انتفاءِ رؤيةِ البرهان، لكنه وَجَدَ رؤيةَ البرهان فانتفى الهمُّ، والمراد بالبرهان

(١) اللَّزُّ: لزوم الشيء بالشيء وإلزامه به. القاموس (لزز).

ما عنده عليه السلام من العلم الدالِّ على تحريم ما همَّتْ به، وأنه لا يمكن الهمُّ فضلاً عن الوقوعِ فيه.

ولا التفاتَ إلى قول الزجَّاج: ولو كان الكلامُ: ولهمَّ بها، كان بعيداً، فكيف مع سقوط اللام؟ لأنه توهَّم أنَّ قوله تعالى: «همَّ بها» هو جواب «لولا» ونحن لم نقل بذلك، وإنما قلنا: إنه دليلُ الجواب، على أنه على تقدير أن يكون نفسَ الجواب قد يقال: إنَّ اللام ليست بلازمةٍ، بل يجوز أن يأتي جواب «لولا» إذا كان بصيغة الماضي باللام وبدونها، فيقال: لولا زيدٌ لأكرمتُك، ولولا زيدٌ أكرمتُك، فَمَن ذهب إلى أنَّ المذكور هو نفسُ الجواب لم يبعد.

وكذا لا التفاتَ أيضاً لقول ابن عطية: إنَّ قول مَن قال: إنَّ الكلام قد تمَّ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ وإن جواب «لولا» في قوله سبحانه: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾، وإن المعنى: لولا أنْ رأى برهانَ ربِّه لهمَّ بها، فلم يَهُمَّ يوسف عليه السلام، يردُّه لسان العرب وأقوالُ السلف = لِمَا في قوله: يردُّه لسانُ العرب من البحث، وقد استدلَّ مَن ذهب إلى الجواز بوجوده في لسان العرب، فقد قال سبحانه: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠] فقولُه سبحانه: ﴿إِن كَادَتْ﴾ إلخ إما أن يكون هو الجوابَ على ما ذهب إليه ذلك القائلُ، وإما أن يكون دليلَ الجواب على ما قرَّرناه، وأما أقوالُ السلف فالذي نعتقده أنه لم يصحَّ منها شيءٌ عنهم؛ لأنها أقوالٌ متكاذبةٌ يناقضُ بعضها بعضاً، مع كونها قادحةً في بعض فسَّاق المسلمين فضلاً عن المقطوع لهم بالعصمة، على أنَّ ما رُوي لا يساعدُ عليه كلامُ العرب؛ لأنه يقتضي كونَ الجواب محذوفاً لغير دليل؛ لأنهم لم يقدِّروا بناءً على ذلك: لهمَّ بها، وكلام العرب لا يدلُّ إلا على أن يكون المحذوفُ من معنَى ما قَبْلَ الشرطِ؛ لأنه الدليلُ عليه(١).

هذا وممن ذهب إلى تحقُّق الهمِّ القبيح منه عليه السلام الواحديُّ؛ فإنه قال في

---

(١) البحر ٥/ ٢٩٥، وكلام الزجاج في معاني القرآن ٣/ ١٠٢، وكلام ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٥، وقال أبو حيان أيضاً: وقد طهَّرنا كتابنا هذا عن نقل ما في كتب التفسير مما لا يليق ذكره، واقتصرنا على ما يدل عليه لسان العرب ومساق الآيات التي في هذه السورة مما يدل على العصمة وبراءة يوسف عليه السلام من كل ما يشين.

كتاب «البسيط»[١]: قال المفسرون الموثوقُ بعلمهم المرجوعُ إلى روايتهم، الآخذون للتأويل عمن شاهد التنزيل: همَّ يوسفُ عليه السلام أيضاً بهذه المرأة همًّا صحيحاً، وجلس منها مجلسَ الرجل من المرأة، فلمَّا رأى البرهانَ من ربِّه زال كلُّ شهوةٍ عنه. قال أبو جعفر الباقر ﷺ بإسناده عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنه قال: طمعتْ فيه وطمع فيها، وكان طمعُه فيها أنْ همَّ أن يحلّ التكَّة. وعن ابن عباس: أنه حلَّ الهميان وجلس منها مجلس الخاتن. وعنه أيضاً أنها استَلْقَتْ له وقعد بين رجليها ينزع ثيابه.

ورووا في البرهان رواياتٍ شتَّى؛ منها ما أخرجه أبو نعيم في «الحلية» عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنها قامت إلى صنم مكلَّلٍ بالدرِّ والياقوت في ناحية البيت فسترته بثوبٍ أبيضَ بينها وبينه، فقال عليه السلام: أيَّ شيءٍ تصنعين؟ فقالت: أستحي من إلهي أن يراني على هذه السوأة. فقال: تستحين من صنم لا يأكلُ ولا يشربُ ولا أستحي أنا من إلهي الذي هو قائم على كلِّ نفسٍ بما كسبت؟! ثم قال: لا تناليها منِّي أبداً. وهو البرهان الذي رأى[٢].

ومنها ما أخرجه ابن جرير وغيرُه عن ابن عباس أنه عليه السلام مَثَلَ له يعقوبُ عليه السلام فضرب بيده على صدره.

ومنها ما أخرجه عن قتادة أنه قال: ذُكِرَ لنا أنه مَثَلَ له يعقوب عاضًّا على إصبعيه وهو يقول: يا يوسفُ، أتهمُّ بعمل السفهاء وأنت مكتوبٌ من الأنبياء.

ومنها ما أخرجه عن القاسم بن أبي بزَّة قال: نودي: يا ابن يعقوب لا تكونَنَّ كالطير له ريشٌ فإذا زنى قعد ليس له ريشٌ. فلم يَعْرِضْ للنداء وقعد فرفع رأسه فرأى وجه يعقوب عاضًّا على إصبعه، فقام مرعوباً استحياءً من أبيه[٣]. إلى غير ذلك.

---

(١) البسيط في التفسير لأبي الحسن الواحدي، وله أيضاً الوسيط والوجيز، وكلامه في البسيط نقله عنه الرازي في تفسيره ١٨/ ١١٥، وابن عادل في اللباب ١١/ ٦٢. وللواحدي في الوسيط ٢/ ٦٠٧-٦٠٨ كلام شبيه بما قاله في البسيط.

(٢) الحلية ٣/ ١٨١، وأخرجه الثعلبي في عرائس المجالس ص١٢٣ عن علي بن الحسين، وكذا ذكره عنه البغوي في التفسير ٢/ ٤٢٠-٤٢١.

(٣) هذه الأخبار وغيرها أخرجها الطبري في تفسيره ١٣/ ٩٠-٩٥.

وتعقَّب الإمام الرازي[١] ما ذُكر بأنَّ هذه المعصية التي نسبوها إلى يوسف ـ وحاشاه ـ من أقبح المعاصي وأنْكَرِها، ومثلُها لو نسب إلى أفسقِ خَلْقِ الله تعالى وأبعدِهم عن كلِّ خيرٍ لاستنكف منه، فكيف يجوزُ إسناده إلى هذا الصدِّيق الكريم؟!

وأيضاً إنَّ الله سبحانه شهد بكون ماهيةِ السوء وماهيةِ الفحشاء مصروفتين عنه، ومع هذه الشهادة كيف يُقبل القول بنسبة أعظم السوء والفحشاء إليه عليه السلام.

وأيضاً إنَّ هذا الهمَّ القبيح لو كان واقعاً منه عليه السلام كما زعموا، وكانت الآية متضمنةً له، لكان تعقيبُ ذلك بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ خارجاً عن الحكمة؛ لأنَّا لو سلَّمنا أنه لا يدلُّ على نفي المعصية فلا أقلَّ من أن يدلَّ على المدح العظيم، ومن المعلوم أنه لا يليقُ بحكمة الله تعالى أن يَحْكي إقدامه على معصيةٍ عظيمةٍ ثم إنه يمدحُه ويثني عليه بأعظم المدائح والأثنية.

وأيضاً إنَّ الأكابر كالأنبياء[٢] متى صدرت عنهم زلةٌ أو هفوةٌ استعظموا ذلك وأَتْبعوه بإظهارِ الندامة والتوبة والتخضُّع والتنصُّل، فلو كان يوسف عليه السلام أقدم على هذه الفاحشة المنكَرةِ لكان من المحال أن لا يُتْبِعها بذلك، ولو كان قد أَتْبَعها لحُكي، وحيث لم يكن عَلِمْنا أنه ما صدر عنه في هذه الواقعة ذنبٌ أصلاً.

وأيضاً جميعُ مَن له تعلُّقٌ بهذه الواقعة قد أفصح ببراءة يوسف عليه السلام عن المعصية كما لا يخفى على مَن له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد، ومَن نظر في قوله سبحانه: (إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ) رآه أفصحَ شاهدٍ على براءته عليه السلام، ومَن ضمَّ إليه قولَ إبليس: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣] وجد إبليس مقرًّا بأنه لم يُغْوِه ولم يضلَّه عن سبيل الهدى، كيف وهو عليه السلام من عباد الله تعالى المخلصين بشهادة الله تعالى، وقد استثناهم من عمومِ «لأغوينهم أجمعين»؟

وعند هذا يقال للجهلة الذين نسبوا إلى يوسف عليه السلام تلك الفعلة الشنيعة: إن كانوا من أتباع الله سبحانه فليقبلوا شهادةَ الله تعالى على طهارته عليه السلام،

---

(١) في تفسيره ١٨/ ١١٥-١١٧.
(٢) في الأصل: والأنبياء.

وإن كانوا من أتباع إبليسَ فليقبلوا شهادته، ولعلهم يقولون كنَّا في أول الأمر من تلامذته إلى أن تخرَّجنا فزِدْنا عليه في السفاهة كما قال الحريريُّ[1]:

وكنت امرأً من جند إبليس فانتهى ... بي الحال حتى صار إبليسُ من جندي
فلو مات قبلي كنتُ أُحْسِنُ بعده ... طرائقَ فسقٍ ليس يُحسنها بعدي

ومَن أمعن النظر في الحجج وأَنْصفَ جَزَمَ أنه لم يبق في يد الواحديِّ ومَن وافقه إلا مجرَّدُ التصلُّفِ وتعديدِ أسماء المفسرين، ولم يجد معهم شبهةً في دعواهم المخالِفةِ لِمَا شهد له الآياتُ البيناتُ سوى رواياتٍ واهياتٍ.

وقد ذكر الطيبيُّ طيَّب الله تعالى ثراه بعد أن نقل ما حكاه محيي السنة عن بعض أهل الحقائق من أنَّ الهمَّ همَّان: همٌّ ثابتٌ وهو ما كان معه عزمٌ وعقدٌ ورضاً مثل همِّ امرأة العزيز، وهمٌّ عارضٌ وهو الخَطْرةُ وحديثُ النفس من غير اختيارٍ ولا عزمٍ مثل همِّ يوسف عليه السلام[2]، أنَّ هذا التفسير هو الذي يجبُ أن نذهب إليه ونتَّخذه مذهباً، وإنْ نَقَلَ المفسرون ما نقلوا؛ لأنَّ متابعة النصِّ القاطع، وبراءةَ المعصوم عن تلك الرذيلة، وإحالةَ التقصير على الرواة أولى بالمصير إليه، على أنَّ أساطين النقلِ المتقنين لم يرووا في ذلك شيئاً مرفوعاً في كتبهم، وجلُّ تلك الروايات بل كلُّها مأخوذٌ من مسألة أهل الكتاب. اهـ.

نعم قد صحَّح الحاكم بعضاً من الروايات التي استند إليها مَن نسب تلك الشنيعةَ إليه عليه السلام[3]، لكنَّ تصحيح الحاكم محكومٌ عليه بعدم الاعتبار عند ذوي الاعتبار.

وفي «إرشاد العقل السليم» بعد نَقْلِ نبذةٍ منها: إنْ كلُّ ذلك إلا خرافاتٌ وأباطيلُ تمجُّها الآذانُ وتردُّها العقول والأذهان، ويل لمن لاكها ولفَّقها أو سمعها وصدَّقها[4].

---

(١) في تفسير الرازي: الخوارزمي، والبيت ذكره دون نسبة الثعلبي في ثمار القلوب ص٦٩، والقزويني في الإيضاح في علوم البلاغة١/ ٥٢.
(٢) تفسير البغوي ٢/ ٤١٩.
(٣) المستدرك ٢/ ٣٤٦ و ٤/ ٢٥٥.
(٤) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٦٧.

ثم إنَّ الإمام عليه الرحمة ذكر في تفسير الآية الكريمة بعد أن منع دلالتها على الهمِّ ما حاصله: إنَّا سلّمنا أنَّ الهمَّ قد حصل، إلَّا أنَّا نقول: لا بدَّ من إضمار فعلٍ مخصوصٍ يُجعلُ متعلّق الهمِّ؛ إذ الذواتُ لا تصلُح له، ولا يتعيَّن ما زعموه من إيقاع الفاحشة بها، بل نُضْمِره شيئاً آخر يغاير ما أضمروه، فنقول: المراد: همَّ بدفعها عن نفسه ومَنْعِها عن ذلك القبيح؛ لأنه الذي يستدعيه حالُه عليه السلام، وقد جاء: هممتُ بفلانٍ، أي: قصدتُه ودفعتُه، ويُضْمَر في الأول المخالطةُ والتمتُّع ونحوُ ذلك؛ لأنه اللائقُ بحالها.

فإنْ قالوا: لا يبقى حينئذٍ لقوله سبحانه: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ فائدةٌ؟

قلنا: بل فيه أعظمُ الفوائد، وبيانُه من وجهين:

الأولُ: أنه تعالى أعلَمَ يوسف أنه لو همَّ بدَفْعِها لفعلتْ معه ما يوجبُ هلاكه، فكان في الامتناع عن ذلك صونُ النفس عن الهلاك.

الثاني: أنه لو اشتغل بدَفْعِها فلربَّما تعلَّقت به، فكان يتمزَّقُ ثوبُه من قدَّامٍ، وقد كان في علم الله تعالى أنَّ الشاهد يشهد بأنَّ ثوبه لو كان متمزِّقاً من قدامٍ لكان هو الجاني، ولو كان متمزِّقاً من خَلْفٍ لكانت هي الجانيةَ، فأعلمه هذا المعنى، فلا جَرَمَ لم يشتغل بدفعها، وفرَّ عنها حتى صارت الشهادةُ حجةً له على براءته عن المعصية[1].

وإلى تقدير الدفع[2] ذهب بعضُ السادة الصوفية قدَّس الله تعالى أسرارهم، ففي «الجواهر والدرر» للشعراني: سألتُ شيخنا عن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ ما هذا الهمُّ الذي أُبْهِمَ، فقد تكلَّم الناس فيه بما لا يليق برتب الأنبياء عليهم السلام؟ فقال: لا أعلم. قلت: قد ذكر الشيخ الأكبر قدِّس سرُّه أنَّ مطلق اللسان يدلُّ على أَحَديَّة المعنى، ولكنَّ ذلك أكثريٌّ لا كلِّيٌّ، فالحقُّ أنها همَّتْ به عليه السلام لتقهره على ما أرادته منه، وهمَّ هو بها ليقهرها في الدفع عما أرادته منه، فالاشتراكُ في طلب القهر منه ومنها والحكمُ مختلف، ولهذا قالت: «أنا راودته عن نفسه» وما جاء في السورة أصلاً أنه راودها عن نفسها. اهـ.

---

(١) تفسير الرازي ١٨/١١٨.

(٢) جاء في حاشية (م): وجوَّزه من الإمامية السيد المرتضى في الدرر. اهـ منه.

وجوَّز الإمام أيضاً تفسير الهمِّ بالشهوة، وذكر أنه مستعملٌ في اللغة الشائعة، فإنه يقول القائل فيما لا يشتهيه: لا يهمُّني هذا، وفيما يشتهيه: هذا أهم الأشياء إليَّ[١]. وهو ما أشرنا إليه أولاً، إلا أنه عليه الرحمةُ حمل الهمَّ في الموضعين على ذلك فقال بعدُ: فمعنى الآية: ولقد اشتهته واشتهاها، ولولا أن رأى برهان ربِّه لفعل[٢]. وهو مما لا داعي إليه إذ لا محذورَ في نسبة الهمِّ المذموم إليها، والظاهرُ أنَّ الهمَّ بهذا المعنى مجازٌ كما نصَّ عليه السيد المرتضى في «درره»[٣]، لا حقيقةٌ كما يوهمُه ظاهرُ كلام الإمام، وقد ذهب إلى هذا التأويل أبو عليٍّ الجبائيُّ وغيرُه، وروي ذلك عن الحسن.

وبالجملة لا ينبغي التعويلُ على ما شاع في الأخبار والعدولُ عما ذهب إليه المحققون الأخيار، وإياك والهمَّ بنسبةِ تلك الشنيعة إلى ذلك الجناب بعد أن كشف الله سبحانه عن بصر بصيرتك فرأيتَ برهان ربِّك بلا حجاب.

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ﴾ قيل: خيانة السيد ﴿وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ الزنى، لأنه مفرطُ القبح. وقيل: «السوء» مقدماتُ الفحشاء من القبلة والنظر بشهوة. وقيل: هو الأمرُ السيِّئُ مطلقاً، فيدخل فيه الخيانةُ المذكورةُ وغيرها.

والكافُ على ما قيل: في محلِّ نصبٍ، والإشارةُ إلى التثبيت اللازم للإراءة المدلولِ عليها بقوله سبحانه: (لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ) أي: مثلَ ذلك التثبيت ثبَّتناه لنصرف.. إلخ.

وقال ابن عطية: إنَّ الكاف متعلِّقةٌ بمضمَرٍ تقديره: جرتْ أفعالُنا وأقدارُنا كذلك لنصرف[٤]. وقدَّر أبو البقاء: نُرَاعِيه كذلك[٥]. والحوفي[٦]: أريناه البراهين كذلك.

---

(١) تفسير الرازي ١٨/١١٨.

(٢) تفسير الرازي ١٨/١١٩.

(٣) غرر الفوائد ودرر القلائد للشريف المرتضى ١/ ٤٨١.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٥.

(٥) الإملاء ٣/ ٣٢٨-٣٢٩.

(٦) كما في البحر ٥/ ٢٩٥.

وجوَّز الجميع كونَه في موضع رفع، فقيل: أي: الأمرُ أو عصمتُه مثلُ ذلك، لكنْ قال الحوفيُّ: إنَّ النصب أجودُ لمطالبة حروف الجرِّ للأفعال أو معانيها.

واختار في «البحر»[1] كونَ الإشارة إلى الرؤيا المفهومة من «رأى»، أو الرأي المفهوم، وقد جاء مصدراً لرأى كالرؤية، كما في قوله:

ورأيُ عينيَّ الفتى أباكا   يعطي الجزيلَ فعليك ذاكا[2]

والكاف في موضع نصبٍ بما دلَّ عليه قوله سبحانه: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا﴾ إلخ، وهو أيضا متعلِّق ﴿لِنَصْرِفَ﴾ أي: مثلَ [تلك] الرؤية أو الرأي نُري براهيننا لنَصْرِفَ.. إلخ. وقيل غيرُ ذلك[3].

ومما لا ينبغي أن يُلتفت إليه ما قيل: إنَّ الجارَّ والمجرورَ متعلِّقٌ بـ «همَّ» وفي الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ، وتقديره: ولقد همَّتْ به وهمَّ بها كذلك لولا أنْ رأى برهان ربِّه لنصرف عنه.. إلخ.

ولا يخفى ما في التعبير بما في النظم الجليل دون: لنَصْرِفه عن السوء والفحشاء، من الدلالة على ردِّ مَن نَسب إليه ما نَسب والعياذُ بالله تعالى.

وقرأ الأعمش: «ليصرف» بياء الغيبة[4]، وإسنادِ الصرف إلى ضمير الربِّ سبحانه.

﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ تعليلٌ لِمَا سبق من مضمون الجملة بطريق التحقيق، والمخلصون هم الذين أَخْلَصهم الله تعالى واختارهم لطاعته بأنْ عصمهم عمَّا هو قادحٌ فيها. والظاهرُ أنَّ المراد الحكمُ عليه بأنه مختارٌ لطاعته سبحانه، ويحتمل ـ على ما قيل ـ أن يكون المراد أنه من ذرية إبراهيم عليه السلام، الذين قال فيهم جلَّ وعلا: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ﴾ [ص: ٤٦].

---

(١) ٥/ ٢٩٦، وما سيأتي بين حاصرتين منه.
(٢) نسبه سيبويه في الكتاب ١/ ١٩١ لرؤبة، وهو في ملحقات ديوانه ص١٨١.
(٣) جاء في هامش الأصل و(م): ومما قيل: إن الكاف في موضع نصب، والإشارة إلى الإراءة المدلول عليها بما تقدم، أي: مثلَ ذلك التبصير والتعريف عرفناه برهاننا فيما قيل. اهـ منه.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٥، والبحر ٥/ ٢٩٦.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر «المخلصين» إذا كان فيه «أل» حيث وقع بكَسْرِ اللام[١]، وهم الذين أخلصوا دينهم لله تعالى.

ولا يخفى ما في التعبير بالجملة الاسمية من الدلالة على انتظامه عليه السلام في سلك أولئك العباد الذين هم هم من أول الأمر، لا أنه حدث له ذلك بعدَ أن لم يكن، وفي هذا عند ذوي الألباب ما ينقطعُ معه عُذْرُ أولئك المتشبِّثين بأذيال هاتيك الأخبار التي ما أنزل الله تعالى بها من كتاب.

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ متصلٌ بقوله سبحانه: (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا) إلخ، وقولُه تعالى: (كَذَٰلِكَ) إلخ اعتراضٌ جيءَ به بين المعطوفين تقريراً لنزاهته عليه السلام، والمعنى: لقد همَّتْ به وأبى هو واستبقا، أي: تسابقا إلى الباب، على معنى: قَصَدَ كلٌّ من يوسف عليه السلام وامرأةِ العزيز سَبْقَ الآخَر إليه، فهو ليخرج وهي لتمنعه من الخروج.

وقيل: المراد من السبق في جانبها الإسراعُ إثره، إلا أنه عبَّر بذلك للمبالغة.

ووحِّد البابُ هنا مع جَمْعِه أولاً لأنَّ المراد الباب البرَّانيُّ الذي هو المخلص. واستشكل بأنه كيف يستبقان إليه ودونه أبوابٌ جوَّانية، بناءً على ما ذكروا من أنَّ الأبواب كانت سبعة؟

وأجيب بأنه روي عن كعب أنَّ أقفال هاتيك الأبواب كانت تتناثر إذا قَرُبَ إليها يوسفُ عليه السلام وتنفتحُ[٢] له.

ويحتمل أنه لم تكن تلك الأبوابُ المغلقةُ على الترتيب باباً فباباً، بل كانت في جهاتٍ مختلفةٍ كلُّها منافذُ للمكان الذي كانا فيه، فاستبقا إلى بابٍ يخرج منه.

ونصب «الباب» على الاتساع، لأنَّ أصل اسْتَبقَ أن يتعدَّى بإلى، لكنْ جاء كذلك على حدِّ ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ [المطففين: ٣] ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف: ١٥٥]. وقيل: إنه ضمِّن الاستباقُ معنى الابتداء فعدِّيَ تعديتَه.

---

(١) التيسير ص١٢٨، والنشر ٢/ ٢٩٥.

(٢) في (م): وتتفتح.

﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ يحتمل أن يكون معطوفاً على «استبقا»، ويحتمل أن يكون في موضع الحال كما قال أبو حيان، أي: وقد قدَّت[(١)].

والقدُّ: القطعُ والشقُّ، وأكثر استعماله فيما كان طولاً، وهو المراد هنا بناءً على ما قيل: إنها جذبته من ورائه[(٢)] فانخرق القميص إلى أسفله، ويستعملُ القطُّ فيما كان عَرْضاً، وعلى هذا جاء ما قيل في وصف عليٍّ كرم الله تعالى وجهه: إنه كان إذا اعْتَلَى قدَّ وإذا اعْتَرَضَ قطَّ[(٣)].

وقيل القدُّ هنا مطلق الشقِّ، ويؤيِّده ما نقل عن ابن عطية أنه قرأت فرقة: «قُطَّ»[(٤)]. وقد وَجَدَ ذلك في مصحفِ المفضلُ بنُ حربٍ[(٥)]. وعن يعقوب تخصيصُ القدِّ بما كان في الجلد والثوب الصحيحين[(٦)].

والقميصُ معروفٌ، وجمعُه أَقْمِصَةٌ وقُمُصٌ وقُمْصانٌ، وإسنادُ القدِّ بأيِّ معنًى كان إليها خاصةً مع أنَّ لقوةِ يوسفَ عليه السلام أيضاً دخلاً فيه إمَّا لأنها الجزء الأخير للعلَّة التامة، وإما للإيذان بمبالغتها في منعه عن الخروج وبذلِ مجهودها في ذلك، لفَوْتِ المحبوب أو لخوف الافتضاح.

﴿وَأَلْفَيَا﴾ أي: وجدا، وبذلك قرأ عبد الله[(٧)] ﴿سَيِّدَهَا﴾ أي: زوجها، وهو

---

(١) البحر ٥/ ٢٩٧.

(٢) في (م): وراء.

(٣) ويروى: وإذا توسَّط قطَّ، أي: إذا علا قِرْنَه بالسيف قدَّه بنصفين طولاً، وإذا أصاب وسطه قطعه عرضاً نصفين وأبانه. اللسان والتاج (قطط).

(٤) في الأصل و(م): وقط، والمثبت من البحر ٥/ ٢٩٧، والكلام منه، والذي في المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٦: وقرأت فرقة: «فلما رأى قميصه عُطَّ من دبر». ولعل هذا هو الصواب (أعني «عط»)، وينظر التعليق الآتي.

(٥) البحر ٥/ ٢٩٧، وفيه: وقال المفضل بن حرب: رأيت في مصحفٍ: «قطَّ من دُبر». وذكر ذلك أيضاً عن المفضل الزمخشري في أساس البلاغة (عطط)، والصغاني في العباب الزاخر (عطط)، والقرطبي في تفسيره ١١/ ٣١٩، إلا أنه عندهم: عط، بدل: قط.

(٦) البحر ٥/ ٢٩٧. وهو في تفسير القرطبي ١١/ ٣١٩ بلفظ: العط، بدل: القط. ويعقوب هو ابن السكيت.

(٧) أخرج ذلك عن ابن مسعود ﷺ ابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢١٢٧.

فَيْعِل[1] من ساد يَسُود، وشاع إطلاقه على المالك وعلى الرئيس. وكانت المرأة إذ ذاك ـ على ما قيل ـ تقول لزوجها: سيدي، ولذا لم يقل: سيدهما.

وفي «البحر»: إنما لم يُضف إليهما لأنه لم يكن مالكاً ليوسف حقيقةً لحريته[2].

﴿لَدَا ٱلْبَابِۚ﴾ أي: عند الباب البرَّانيِّ، قيل: وجداه يريد أن يدخل مع ابنِ عمٍّ لها.

﴿قَالَتْ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالِ سائلٍ يقول: فماذا كان حين ألفيا السيد عند الباب؟ فقيل: قالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ من الزنى ونحوه ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ الظاهرُ أنَّ «ما» نافية، و«جزاء» مبتدأ، و«مَن» موصولة أو موصوفة مضاف إليه، والمصدر المؤوَّل خبر، و«أو» للتنويع خبر المبتدأ، وما بعدُ معطوفٌ على ذلك المصدر، أي: ليس جزاؤه إلا السَّجْنُ[3] أو العذابُ الأليم، والمراد به على ما قيل: الضرب بالسوط، وعن ابن عباس: أنه القيد.

وجوَّز أن تكون «ما» استفهامية فـ «جزاء» مبتدأ أو خبر، أي: أيُّ شيءٍ جزاؤه غير ذلك أو ذلك.

ولقد أتت في تلك الحالة التي يدهشُ فيها الفَطِنُ اللوذعيُّ ـ حيث شاهدها زوجها على تلك الهيئة ـ بحيلةٍ جمعت فيها غرضيها، وهما تبرئةُ ساحتها مما يلوح من ظاهر الحال، واستنزالُ يوسف عليه السلام عن رأيه في استعصائه عليها وعدمِ مواتاته لها على مرادها، بإلقاء الرعب في قلبه من مَكْرِها طمعاً في مواقعته لها مُكْرَهاً عند يأسها عن ذلك مختاراً، كما قالت: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾.

ثم إنها جعلت صدورَ الإرادة المذكورة عن يوسف عليه السلام أمراً محقَّقاً مفروغاً عنه، غنيًّا عن الإخبار بوقوعه، وأنَّ ما هي عليه من الأفاعيل لأَجْلِ تحقيق جزائها.

---

(١) جاء في حاشية (م): وهذا البناء مختص بالفعل المعتل، وشذ في غيره. اهـ منه.

(٢) البحر ٥/ ٢٩٧.

(٣) بفتح السين، مصدر سجَنَه: إذا حَبَسه. حاشية الشهاب ٥/ ١٧٠.

ولم تصرِّح بالاسم بل أتت بلفظٍ عامٍّ تهويلاً للأمر، ومبالغةً في التخويف، كأنَّ ذلك قانونٌ مطَّردٌ في حقِّ كلِّ أحدٍ كائناً مَن كان. وذكَرتْ نفسها بعنوانِ أهلية العزيز إعظاماً للخَطْبِ، وإغراءً له على تحقيق ما يتوخَّاه بحكم الغضب والحميَّة، كذا قرَّره غيرُ واحد.

وذكر الإمام في تفسيره ما فيه نوعُ مخالفةٍ لذلك، حيث قال: إنَّ في الآية لطائفَ:

أحدها: أنَّ حبَّها الشديدَ ليوسف عليه السلام حملها على رعايةِ دقيقتين في هذا الموضع، وذلك لأنها بدأت بذكر السجن وأخَّرت ذِكْرَ العذاب؛ لأنَّ المحب لا يسعى في إيلام المحبوب.

وأيضاً إنها لم تذكر أنَّ يوسف عليه السلام يجب أن يقابَلَ بأحد هذين الأمرين، بل ذكرت ذلك ذكراً كلِّيًّا صوناً للمحبوب عن الذكر بالشرِّ والألم.

وأيضاً قالت: «إلَّا أنْ يُسجن» والمرادُ منه: أن يسجن يوماً أو أقلَّ على سبيل التخفيف، فأما الحبسُ الدائم فإنه لا يعبَّر عنه بهذه العبارة، بل يقال: يجب أن يُجعل من المسجونين، ألا ترى أنَّ فرعون كيف قال حين هدَّد موسى عليه السلام: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

وثانيها: أنها لَمَّا شاهدت من يوسف عليه السلام أنه استعصم منها مع أنه كان في عنفوان الشباب وكمال القوة ونهايةِ الشهوة عَظُم اعتقادها في طهارته ونزاهته فاستَحْيَتْ أن تقول: إنَّ يوسف قصدني بسوءٍ، وما وجدت من نفسها أن ترميه بهذا الكذب على سبيل التصريح، بل اكتفت بهذا التعريض، وليت الحشوية كانوا يكتفون بمثل ما اكتفتْ به، ولكنهم لم يفعلوا ووصفوه بعد قريبٍ من أربعة آلاف سنةٍ بما وصفوه من القبيح وحاشاه.

وثالثها: أنَّ يوسف عليه السلام أراد أن يضربها ويدفعها عن نفسه، وكان ذلك بالنسبة إليها جارياً مجرى السوء، فقولها «ما جزاء» إلخ جارٍ مجرى التعريضِ، فلعلها بقلبها كانت تريدُ إقدامه على دفعها ومنعها، وفي ظاهر الأمر كانت تُوهِمُ أنه قصدني بما لا ينبغي[1]. انتهى المراد منه، وفيه من الأنظار ما فيه.

---

(١) تفسير الرازي ١٨/ ١٢٢.

وقرأ زيد بن عليٍّ رضي الله عنهما: «أو عذاباً أليماً» بالنصب على المصدرية كما قال الكسائي، : أي: أو يعذَّب عذاباً أليماً[1]، إلا أنه حذف ذلك لظهوره، وهذه القراءةُ أوفقُ بقوله تعالى: (أَن يُسْجَنَ) ولم يظهر لي في سرِّ اختلاف التعبير على القراءة المشهورة ما يعوَّلُ عليه، والله تعالى أعلمُ بأسرار كتابه، فتدبَّر.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ وجوابٌ عمَّا يقال: فماذا قال يوسف عليه السلام حينئذ؟ فقيل: قال: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ أي: طالبتْني للمواتاة، لا أنِّي أردتُ بها سوءاً كما زعمت، وإنما قاله عليه السلام لتنزيه نفسه عن التهمة ودَفْعِ الضرر عنها، لا لتفضيحها.

وفي التعبير عنها بضمير الغيبة دون الخطاب أو اسم الإشارة مراعاةٌ لحسن الأدب، مع الإيماء إلى الإعراض عنها، كذا قالوا. وفي هذا الضمير ونحوه كلامٌ فقد ذكر ابن هشام في بعض حواشيه على قول ابن مالك في ألفيته: فما لذي غيبةٍ أو حضور[2]... إلخ: لِيُنْظَرْ إلى نحو «هي راودتني» فإنَّ «هي» ضميرٌ باتِّفاقٍ، وليس هو للغائب بل لمن بالحضرة، وكذا ﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ [القصص: ٢٦] وهذا في المتصل وذاك في المنفصل، وقول مَن يخاطب شخصاً في شأنِ آخَر حاضرٍ معه: قلت له: اتق الله تعالى، وأمرتُه بفعل الخير، وقد يقال: إنه نزل الضمير فيهنَّ منزلةَ الغائب، وكذا في عكس ذلك يبلغك عن شخصٍ غائبٍ شيءٌ فتقول: ويحك يا فلان أتفعل كذا؟ تنزيلاً له منزلةَ مَن بالحضرة، وحينئذٍ يقال: الحدُّ المستفاد مما ذكر إنما هو للضمير باعتبار وضعه. اهـ.

وقال السراج البلقينيُّ في رسالته المسماة «نشر العبير لطي الضمير»: المفسِّر لضمير الغائب إما مصرَّحٌ به أو مستغنًى بحضورِ مدلوله حسًّا أو علماً، فالحسُّ نحوُ قوله تعالى: (هِىَ رَٰوَدَتْنِى) و﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ [القصص: ٢٦] كما ذكره ابن مالك، وتعقَّبه شيخنا أبو حيان بأنه ليس كما مثَّل به؛ لأنَّ هذين الضميرين عائدان على ما قبلهما، فضميرُ «هي راودتني» عائدٌ على الأهل في قولها: «ما جزاءُ مَن أراد بأهلك سوءاً» ولَمَّا كَنَتْ عن نفسها بذلك ولم تقل: بي، بدل «بأهلك» كَنَى هو عليه

---

(١) البحر ٥/ ٢٩٧.
(٢) وبعده: كانت وهو سَمٍّ بالضمير. ألفية ابن مالك ١/ ٨٨ بشرح ابن عقيل.

السلام عنها بضمير الغيبة فقال: «هي راودتني» ولم يخاطبها بأنتِ راودتيني، ولا أشار إليها بهذه راودتني، وكلُّ هذا على سبيل الأدب في الألفاظ، والاستحياءِ في الخطاب الذي لا يليقُ بالأنبياء عليهم السلام، فأَبْرَزَ الاسمَ في صورة ضمير الغائب تأدُّباً مع العزيز وحياءً منه، وضمير «استأجره» عائدٌ على موسى، فمفسره مصرَّحٌ بلفظه، وكأنَّ ابن مالك تخيَّل أنَّ هذا موضعُ إشارةٍ لكون صاحب الضمير حاضراً عند المخاطب، فاعتقد أنَّ المفسر يُستغنَى عنه بحضور مدلوله حسًّا، فجرى الضمير مجرى اسم الإشارة، والتحقيقُ ما ذكرناه. هذا كلامُه[١]، وعندي أنَّ الذي قاله ابن مالك أرجحُ مما قاله الشيخ، وذلك أنَّ الاثنين إذا وقعت بينهما خصومةٌ عند حاكم فيقول المدَّعي للحاكم: لي على هذا كذا، فيقول المدَّعَى عليه: هو يعلم أنه لا حقَّ له عليَّ، فالضميرُ في «هو» إنما هو لحضور مدلوله حسًّا، لا لقوله: لي، كما هو المتبادرُ إلى الأفهام. وأيضاً يَرِدُ على ما ذكره في ضمير «استأجره» أنَّ موسى عليه السلام لم يسبق له ذكرٌ عند حضوره مع بنت شعيب عليه السلام، وقد قالت: «يا أبت استأجره» وقَصْدُها بالضمير الرجلُ الحاضر الذي بان لها من قوَّته وأمانته الأمرُ العظيم. ثم إنَّ مَن خاصم زوجته فقال للحاضرين من أهلها أو من غيرهم: هي طالقٌ، تطلق زوجتُه لوجود ما قرَّره ابن مالك، ولا يتمشَّى على ما قرَّره الشيخ كما لا يخفى. وبالجملة إنَّ التأويل الذي ذكره في الآيتين وإنْ سلِّم فيهما لكن لا يكاد يتمشَّى معه في غيرهما هذا، فلْيُفْهَم.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ ذهب جمعٌ إلى أنه كان ابنَ خالها[٢]، وكان طفلاً في المهد[٣] أنطقه الله تعالى ببراءته عليه السلام، فقد ورد عنه ﷺ: «تكلَّم أربعةٌ في المهد وهم صغارٌ: ابن ماشطة ابنةِ فرعون، وشاهدُ يوسفَ عليه السلام، وصاحبُ جريجٍ، وعيسى ابنُ مريم عليهما السلام»[٤].

---

(١) أي: كلام أبي حيان.

(٢) جاء في هامش الأصل و(م): وفي بعض الآثار أنه ابن أختٍ لها، وكان عمره إذ ذاك ثلاثة أشهر. اهـ منه.

(٣) جاء في هامش الأصل و(م): ولم يرتض ذلك الجبائي لوجوه ذكرها الإمام، ولا يخفى ما فيها. اهـ منه.

(٤) سيأتي تخريجه قريباً.

وتعقَّب ذلك الطيبيُّ بقوله: يردُّه دلالةُ الحصر في حديث الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لم يتكلَّم في المهد إلا ثلاثةٌ: عيسى ابنُ مريم، وصاحبُ جُرَيْج، وصبيٌّ كان يرضع من أمِّه فمرَّ راكبٌ حسنُ الهيئة، فقالت أمُّه: اللهمَّ اجعل ابني مثلَ هذا. فترك الصبيُّ الثديَ وقال: اللهمَّ لا تجعلني مثلَه»[1] اهـ.

وردَّه الجلال السيوطيُّ فقال: هذا منه على جاري عادته من عدم الاطِّلاع على طرق الأحاديث، والحديثُ المتقدِّمُ صحيحٌ أخرجه أحمد في «مسنده»، وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم في «مستدركه» وصحَّحه من حديث ابن عباس[2]. ورواه الحاكم أيضاً من حديث أبي هريرة، وقال: صحيحٌ على شرط الشيخين[3]، وفي حديث الصحيحين المشارِ إليه آنفاً زيادةٌ على الأربعة: «الصبيُّ الذي كان يرضع من أمه فمرَّ راكب» إلخ فصاروا خمسةً، وهم أكثرُ من ذلك، ففي «صحيح مسلم» تكلّم الطفل في قصة أصحاب الأخدود[4]، وقد جمعتُ مَن تكلَّم في المهد فبلغوا أحدَ عشر، ونظمتُها فقلت:

تكلَّم في المهد النبيُّ محمدٌ ويحيى وعيسى والخليلُ ومريمُ
ومُبْري جريجٍ ثم شاهدُ يوسف وطفلٌ لذي الأخدود يرويه مسلمُ
وطفلٌ عليه مُرَّ بالأَمَةِ التي يقال لها تزني ولا تتكلَّمُ
وماشطةٌ في عهد فرعونَ طفلُها وفي زمن الهادي المباركُ[5] يختمُ

---

(١) صحيح البخاري (٣٤٣٦)، وصحيح مسلم (٢٥٥٠)، وأخرجه أيضاً أحمد (٨٠٧١).
(٢) مسند أحمد (٢٨٢٢)، والمستدرك ٢/ ٤٩٦-٤٩٧، وأخرجه أيضاً البزار (٥٤ - كشف)، والطبري ١٣/ ١٠٦. وهو في مسند أحمد (٢٨٢١)، وصحيح ابن حبان (٢٩٠٤) موقوف على ابن عباس.
(٣) المستدرك ٢/ ٥٩٥.
(٤) صحيح مسلم (٣٠٠٥) من حديث صهيب ﷺ، وهو عند أحمد (٢٣٩٣١).
(٥) هو مبارك اليمامة، روى البيهقي في دلائل النبوة ٦/ ٥٩، باب: ما جاء في شهادة الرضيع والأبكم لنبينا ﷺ إن صحت فيه الرواية، عن معرض بن معيقيب اليماني أنه جاء به (أي: بمبارك اليمامة) رجل إلى النبي ﷺ يوم ولد، فقال له رسول الله ﷺ: «يا غلام، من أنا» فقال: أنت رسول الله. قال: «صدقت بارك الله فيك»، وذكر ذلك ابن حجر في فتح =

انتهى، وفيه أنه لَمْ يُرِدِ الطيبيُّ الطعنَ على الحديث الذي ذكر كما توهم، وإنما أراد أنَّ بين الحديث الدالِّ على الحصر وغيره تعارُضاً يحتاجُ إلى التوفيق.

وفي «الكشف» بعد ذِكْرِه حديثَ الأربعة وما تعقَّب به مما تقدَّم عن الطيبيِّ أنه نقل الزمخشري في سورة البروج خامساً[1]، فإنْ ثبتت هذه أيضاً فالوجهُ أن يجعل «في المهد» قيداً وتأكيداً لكونه في مبادي الصبا، وفي هذه الرواية يحمل على الإطلاق، أي: سواءٌ كان في المبادي أو بُعَيْدَها بحيث يكون تكلُّمه من الخوارق. ولا يخفى أنه توفيقٌ بعيد.

وقيل: كان ابنَ عمِّها الذي كان مع زوجها لدى الباب، وكان رجلاً ذا لحيةٍ، ولا ينافي هذا قول قتادة: إنه كان رجلاً حكيماً من أهلها ذا رأي يأخذ الملك برأيه ويستشيرُه.

وجوَّز أن يكون بعضَ أهلها، وكان معهما في الدار بحيث لم يشعرا به، فبصُر بما جرى بينهما، فأغضبه الله تعالى ليوسف فقال الحقَّ.

وعن مجاهدٍ أنَّ الشاهد هو القميص المقدود، وليس بشيءٍ كما لا يخفى.

وجعل الله تعالى الشاهدَ من أهلها قيل: ليكون أدلَّ على نزاهته عليه السلام وأنْفَى للتهمة وألْزَمَ لها، وخُصَّ هذا مما إذا لم يكن الشاهدُ الطفلَ الذي أنطقه الله تعالى الذي أنطق كلَّ شيء، وأما إذا كان ذلك فذِكْرُ كونِه من أهلها لبيان الواقع، فإنَّ شهادة الصبيِّ حجةٌ قاطعةٌ ولا فرقَ فيها بين الأقارب وغيرهم. وتعقِّب بأنَّ كونَ شهادة القريب مطلقاً أقوى مما لا ينبغي أن يشكَّ فيه.

وسمِّي شاهداً لأنه أدَّى تأديتَه في أنْ ثَبَتَ بكلامه قولُ يوسف وبَطَلَ قولُها. وقيل: سمي بذلك من حيث دلَّ على الشاهد وهو تخريقُ القميص.

= الباري ٦/ ٤٨٠ وقال: وزعم الضحاك في تفسيره أن يحيى تكلم في المهد، أخرجه الثعلبي، وذكر البغوي في تفسيره أن إبراهيم الخليل تكلم في المهد، وفي سير الواقدي أن النبي ﷺ تكلم أوائل ما ولد. اهـ. وينظر ما سلف عند تفسير الآية (٣٧) من سورة آل عمران.

(١) الكشاف ٤/ ٢٣٨، وهو طفل قصة أصحاب الأخدود الوارد في حديث صهيب ﵁ عند مسلم، وقد سلف تخريجه قريباً.

وفسَّر مجاهدٌ ـ فيما أخرجه عنه ابنُ جرير[1] ـ الشهادةَ بالحكم، أي: وحَكَم حاكمٌ من أهلها.

﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ أي: قدَّام يوسفَ عليه السلام، أو من قدَّام القميص، و«إنْ» شرطية، و«كان» فعلُ الشرط، وقولُه سبحانه: ﴿فَصَدَقَتْ﴾ جوابُ الشرط، وهو بتقدير «قد» وإلَّا فالفاءُ لا تدخل في مثله، وعن ابن خروف أنَّ مثلَ هذا على إضمار المبتدأ، والجملةُ جوابُ الشرط لا الماضي وحده.

وفي «الكشاف»: أنَّ الشرطية هنا نظير قولك: إنْ أحسنت إليَّ فقد أحسنتُ إليك من قبل، لمن يمتنُّ عليك بإحسانه، فإنه على معنى: إنْ تمتنَّ عليَّ أمتنُّ عليك، وكذا هنا المراد: إن يُعْلَمْ أنه كان قميصُه قدَّ ونحوه، وإلَّا فبَيْنَ «إنْ» الذي للاستقبال و«كان» تنافٍ[2]. قيل: وهو مبنيٌّ على ما ذهب إليه البعض من أنَّ «كان» قويةٌ في الدلالة على الزمان، فحرفُ الشرط لا يقلب ماضيها مستقبلاً، وإلا فكلُّ ماضٍ دخل عليه الشرط قَلَبه مستقبلاً من غير حاجةٍ إلى التأويل.

وتعقِّب بأنه لا بدَّ من التأويل هاهنا، وجعل حدوثِ العلم ونحوِه جُزأي الشرطية، كأنْ يقال: إنْ يُعْلَمْ أو يَظْهَرْ كونُه كذلك فقد ظهر الصدق، ويقال نظيرُه في الشرطية الأخرى الآتية، وإن كانت «كان» مما يقلبُ حرفُ الشرط ماضِيَها مستقبلاً كسائر الأفعال الماضية؛ لأنَّ المعنى ليس على تعليق الصدق أو الكذب في المستقبل على كون القميص كذا أو كذا كذلك، بل على تعليق ظهور أحد الأمرين الصدقِ والكذبِ على حدوث العلم بكونه كذلك، وهو ظاهرٌ، وهل هذا التأويل من باب التقدير أو من غيره؟ فيه خلاف، والذي يشير إليه كلامُ بعض المدققين أنه ينزَّلُ في مثل ذلك العلمُ بالشيء منزلةَ استقباله؛ لِمَا بينهما من التلازُم، كما قيل: أيُّ شيء يخفى؟ فقيل: ما لا يكون، فليفهم.

ثم إنَّ متعلِّق الصدق ما دلَّ كلامُها عليه من أنَّ يوسف أراد سوءاً، وهو متعلَّق الكذب المسند إليها فيما بعد، وهما كما يتعلقان بالنسبة التي يتضمَّنها الكلامُ

(١) تفسير الطبري ١٣/ ١١٠.
(٢) الكشاف ٢/ ٣١٤.

باعتبارِ منطوقه يتعلَّقان بالنسبة التي يتضمَّنها باعتبار ما يستلزمه، فكأنه قيل: إن كان قميصُه قدَّ من قُبُلٍ فصدقت في دعواها أنَّ يوسف أراد بها سوءاً ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾﴾ في دعواه أنها راودته عن نفسه ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ أي: من خلف يوسف عليه السلام، أو خلفِ القميص ﴿فَكَذَبَتْ﴾ في دعواها ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ في دعواه.

والشرطيتان محكيَّتان: إمَّا بقولٍ مضمَرٍ، أي: شهد قائلاً، أو فقال: إن كان.. إلخ، كما هو مذهبُ البصريين. وإما بـ «شَهِد» لأنَّ الشهادة قولٌ من الأقوال فجاز أن تعمل في الجمل، كما هو مذهبُ الكوفيين.

والإظهارُ في موضع الإضمار في الشرطية الثانية ليدلَّ على الاستقلال مع رعايةِ زيادةِ الإيضاح. وجملتا «وهو من الكاذبين» «وهو من الصادقين» مؤكِّدتان؛ لأنَّ مِن قوله: «فصدقت» يُعلم كذبه، ومن قوله: «فكذبت» يعلم صدقُه.

ووجهُ دلالة قدِّ القميصِ مِن دُبرٍ على كذبها أنها تبعته وجذبتْ ثوبه فقدَّته، وأما دلالةُ قدِّه من قُبُلٍ على صِدْقها فمن وجهين:

أحدهما: أنه إذا كان تابعَها وهي دافعته عن نفسها[1]، قدَّتْ قميصَه من قدَّامٍ بالدفع.

وثانيهما: أنْ يُسرعَ إليها ليلحقها فيتعثَّر في مقادم[2] قميصه فيشقَّه، كذا في «الكشاف»[3].

وتعقَّب ابنُ المنير[4] الوجهَ الأول بأنَّ ما قرِّر في اتِّباعه لها يحتملُ مثله في اتِّباعها له، فإنها إنما تقدُّ قميصه من قُبُلٍ بتقديرِ أن يكون عليه السلام اجتذبها[5] حتى صارا متقابلين فدفعته عن نفسها، وهذا بعينه يحتمل إذا كانت هي التابعة، بأن

---

(١) في (م): نفسه، وهو خطأ.
(٢) في الأصل و(م): مقام، والمثبت من الكشاف ٢/ ٣١٤، وحاشية الشهاب ٥/ ١٧١.
(٣) ٢/ ٣١٤.
(٤) في الانتصاف ٢/ ٣١٤.
(٥) في الأصل و(م): أخذ بها، والمثبت من الانتصاف.

تكون اجْتَذَبته حتى صارا متقابلَيْنِ ثم جذبت قميصَه إليها من قُبلٍ، بل هذا[١] أظهرُ لأنَّ المُوْجِبَ لقدِّ القميص غالباً الجذبُ لا الدفعُ. والوجهَ الثاني بأنَّ ما ذكر بعينه محتملٌ لو كانت هي التابعة وهو فارٌّ منها، بأن ينقدَّ قميصه في إسراعه للفرار. اهـ.

وأجيب عمَّا ذكره أوّلاً بأنه غيرُ واردٍ؛ لأنَّ تلك الحالةَ السريعةَ لا تحتملُ إلا أَيْسرَ ما يمكنُ وأَسْرعَه، وعلى تقديرِ اتِّباعها له تعيَّن القدُّ من دُبرٍ لأنه أهونُ الجذبين، ثم لا نَفْرِضُ كرَّ الفارِّ ليدفعها أو كما لحقت جذبت، فهذا الفرضُ لا وجهَ له هنالك، فإذا ثبت دلالتُه في الجملة على هذا القسم تعيَّنَتْ.

وعمَّا ذكره ثانياً بأنَّ الظاهر على تقدير أنْ تكون تابعةً أنه إذا تعثَّر الفارُّ يتعلَّقُ به التابع متشبِّثاً، وإذا كانا منفلتين بَعُدَ ذلك الاحتمال.

وذكر الفاضل المتعقِّب[٢] أنَّ الحقَّ في هذا الفصل أن يقال: إنَّ الشاهد المذكور إنْ كان صبيًّا أنطقه الله تعالى في المهد كما ورد في بعض الأحاديث، فالآيةُ في مجرَّد كلامه قبلَ أوانه، حتى لو قال: صَدَقَ يوسف وكذبتْ، لكفى برهاناً على صدقه عليه السلام، كما كان مجرَّدُ إخبارِ عيسى عليه السلام في المهد برهاناً على صدق مريم، فلا تنبغي المناسبةُ بين الأمارة المنصوبة وما رتِّب عليها؛ لأنَّ العمدة في الدلائل نَصْبُها لا مناسبتُها[٣].

وإن كان قريباً لها قد بَصُرَ بها من حيث لا تشعرُ، فهذا ـ والله تعالى أعلم ـ كان من حقِّه أن يصرِّح بما رأى فيصدِّقَ يوسف عليه السلام ويكذِّبها، ولكنه أراد أن لا يكون هو الفاضحَ لها، ووَثِقَ بأنَّ قدَّ قميصه إنما كان من دُبُرٍ، فنَصَبَه أمارةً لصدقه وكذبها، ثم ذكر القسمَ الآخر وهو قدُّه من قُبُلٍ على عِلْمٍ بأنه لم ينقدَّ كذلك، حتى ينفيَ عن نفسه التهمةَ في الشهادة وقَصْدِ الفضيحة وينصفهما جميعاً، فلذا ذكر أمارةً على صدقها المعلومِ نفيُه كما ذكر أمارةً على صِدْقِهِ المعلوم وجودُه، وأخرجهما مخرجاً واحداً، وبَنَى «قدَّ» لِمَا لَمْ يسمَّ فاعلُه في الموضعين ستراً على

---

(١) في الانتصاف: هاهنا.

(٢) يعني ابن المنير.

(٣) جاء في هامش الأصل و(م): قيل: إن التصوير بصورة الشرطية على هذا الشق للإيذان بأن ذلك من العلائم أيضاً. اهـ منه.

مَن قدِّه، وقدَّم أمارةَ صدقها في الذكر إزاحةً للتهمة، ووثوقاً بأنَّ الأمارة الثانية هي الواقعةُ، فلا يضرُّه تأخيرُها.

والحاصل أنَّ عمدة هذا الشاهد الأمارةُ الأخيرة فقط، والمناسبةُ فيها محقَّقة، وأما الأمارةُ الأولى فليست مقصودةً وإنما هي كالغرض ذُكرت توطئةً للثانية، فلم يلتمس لها مناسَبةً مثلَ تلك المناسبة.

وأما إن كان الحكيمَ الذي كان الملك يرجع إلى رأيه، فلا بدَّ من التماسِ المناسبة في الطرفين لأنها عمدةُ الحكيم، وأقربُ وجهٍ في المناسبة أنَّ قدَّ القميص من دبرٍ دليلٌ على إدباره عنها، وقدَّه من قُبلٍ دليلٌ على إقباله عليها بوجهه[(١)].

ولا يَخْفَى أنَّ مثل هذا الوجه لا يصلح أن يكون مطمحَ نظرِ الحكيم الذي لا يلتفتُ إلا لليقينيات، فالأَوْلَى أن يقال: يحتمل أنَّ ذلك الحكيم كان واقفاً على حقيقة الحال بطريقٍ من الطرق الممكنة، ويسهُل أمرُ ذلك إذا قلنا: إنه كان ابنَ عمٍّ لها، فهو متيقِّنٌ بعدم مقدم الشرطية الأولى وبوجود مقدم الشرطية الثانية، ومن ضروريات ذلك الجزمُ بانتفاء تالي الأولى ووقوعِ تالي الثانية، فإذاً هو إخبارٌ بكذبها وصِدْقِه عليه السلام، لكنه ساق شهادته مساقاً مأموناً من الجرح والطعن، حيث صوَّرها بصورةِ الشرطية المتردِّدة ظاهراً بين نَفْعِها ونَفْعِه، وأما حقيقةً فلا تردُّد فيها قطعاً كما أشير إليه.

وإلى كون الشرطية الأولى غيرَ مقصودةٍ بالذات ذهب العلَّامة ابن الكمال معرِّضاً بغفلةِ القاضي البيضاوي، حيث قال: إنَّ قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ إلخ من قبيل المسامحةِ في أحد شقَّي الكلام لتعيُّنِ الآخَرِ عند القائل تنزيلاً للمحتمِلِ منزلةَ الظاهر؛ لأنَّ الشقَّ بالجذب في هذا الشقِّ أيضاً محتملٌ، ومَن غفل عن هذا قال: لأنه يدلُّ على أنه قَصَدَها فدفعتْ عن نفسها، إلى آخر عبارة البيضاويِّ[(٢)].

---

(١) الانتصاف ٢/ ٣١٤-٣١٥.

(٢) وعبارته في تفسيره مع حاشية الشهاب ٥/ ١٧١ هي: لأنه يدل على أنها قدَّت قميصه من قدَّامه بالدفع عن نفسها، أو أنه أسرع خلفها فتعثر بذيله فانقدَّ جيبه.

وحاصلُ ذلك على ما قرَّره بعضُ مشايخنا عليهم الرحمةُ: أنَّ القائل يعلمُ يقيناً وقوعَ الشَّقِّ من دبرٍ، لكنه ذكر الشَّقَّ من القُبُل[1] مع أنه محتمِلٌ أنْ يكون بِجَذْبِها إياه إلى طرفها كما أنَّ كونه مِن دَفْعِها إياه من بعض محتملاته، تنزيلاً لهذا المحتمل منزلةَ الظاهر تأكيداً ومبالغةً لثبوت ما دلَّت عليه الشرطيةُ الثانية من صدقه وكذبها، يعني أنَّا نحكم بصِدْقها وكذبه بمجرَّد وقوع الشقِّ في القُبُل، وإنْ كان محتملاً لأسبابٍ أُخَرَ غيرِ دَفْعِها، لكنه ما وقع هذا الشَّقُّ أصلاً فلا صِدْقَ لها، وذلك كما إذا قيل لك: بلَّغتَ إلى زيد الكلامَ الفلانيَّ في هذا اليوم؟ فقلت: إنْ كنتُ تكلَّمْتُ في هذا اليوم مع زيدٍ فقولكم هذا صادقٌ، مع أنَّ تكلُّمك معه في هذا اليوم مطلقاً لا يدلُّ على صدق دعواهم؛ لاحتمالِ أنك تكلَّمتَ معه بكلامٍ غير ذلك الكلام، لكنك قلتَ ذلك تحقيقاً لعدم تبليغك ذلك الكلام إليه.

هذا وذكر شيخُ مشايخنا العلَّامةُ صبغةُ الله الحيدريُّ طيَّبَ الله تعالى ثراه: أنَّ الظاهر أنَّ دلالة كلٍّ من الشَّقَّين في الشَّقَّين على ما يدلُّ عليه من حيث موافقتُه لِمَا ادَّعاه صاحبُه، فإنها كانت تقول: هو طلبني مقبلاً عليَّ فخلَّصتُ نفسي عنه بالدفع أو الفرار. وهو كان يقول: هي الطالبةُ ففرَرْتُ منها وتبعتني واجْتَذَبَتْ ثوبي فقدَّته. فوقوعُ الشقِّ في شقِّ الدُّبر يدلُّ على كونه مُدْبِراً عنها لا مقبلاً عليها، وعكسُه على عكسه. ثم فرَّع على هذا أنَّ ما ذكره ابنُ الكمال غفلةٌ عن المخاصمة بالمقاوَلةِ.

وهو توجيهٌ لطيفٌ للآية الكريمة، بيد أن دعوى وقوعِ المخاصمة بالمقاوَلةِ على الطرز الذي ذكره رحمه الله تعالى مما لا شاهد لها، وعلى المدَّعي البيانُ، على أنه يَبْعدُ عقلاً أن تقول: هو طلبني مقبلاً فخلَّصْتُ نفسي منه فانقدَّ قميصه من قُبلٍ، وهو الذي تقتضيه دعواه أنَّ الظاهر أنَّ دلالة كلٍّ من الشقين.. إلخ، لظهورِ أنَّ ظهور كذبها حينئذٍ أسرعُ ما يكون.

وبالجملة قيل: إنَّ الاحتمالات المضعَّفةَ لهذه المشاهَدة كثيرةٌ؛ منها ما علمتَ ومنها ما تعلمُه بأدنى التفاتٍ، ومن هنا قالوا: إنَّ ذلك من بابِ اعتبارِ الأمارة، ولذلك احتجَّ بالآية ـ كما قال ابن الفرس ـ مَن يرى الحُكْمَ من العلماء بالأمارات

(١) في الأصل: قبل.

والعلامات فيما لا تحضره البيناتُ، كاللقطة، والسرقة، والوديعة، ومعاقد الحيطان، والسقوف، وغير ذلك.

وذكر الإمام أنَّ علامات كذب المرأة كانت كثيرةً بالغةً مبلغَ اليقين، فضمُّوا إليها هذه العلامةَ الأخرى لا لأَجْلِ أن يعوِّلوا في الحكم عليها، بل لأَجْلِ أن يكون ذلك جارياً مجرى المقوِّيات والمرجِّحات، والله تعالى أعلم[1].

وقرأ الحسن وأبو عمرو في رواية: «من قُبْلٍ» و«من دُبْرٍ» بسكون الباء فيهما والتنوينِ وهي لغةُ الحجاز وأسد[2].

وقرأ ابن يعمر[3] وابن أبي إسحاق والعطارديُّ وأبو الزناد وآخرون: «من قُبُلُ» و«من دُبُرُ» بثلاث ضمات[4].

وقرأ الأوَّلان والجارود في روايةٍ عنهم بإسكان الباء فيهما مع بنائهما على الضم[5]، جعلوهما كـ «قَبْلُ» و«بَعْدُ» بعد حذف المضاف إليه ونيةِ معناه.

وتعقَّب ذلك أبو حاتم بأنَّ هذا رديءٌ في العربية، وإنما يقعُ بعد البناء في الظروف، وهذان اللفظان اسمان متمكِّنان وليسا بظرفين.

وعن ابن [أبي] إسحاق أنه قرأ: «من قُبُلَ» و«من دُبُرَ» بالفتح[6]؛ قيل: كأنه جعلهما عَلَمينِ للجهتين فمنعهما الصرفَ للعَلَمية والتأنيث باعتبارِ الجهة[7].

﴿فَلَمَّا رَءَا﴾ أي: السيد، وقيل: الشاهد، والفعلُ من الرؤية البصرية أو القلبية،

---

(١) تفسير الرازي ١٨/ ١٢٤.

(٢) البحر ٥/ ٢٩٨، والقراءة ذكرها عن الحسن ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢٢٣.

(٣) في الأصل و(م): أبو يعمر، وهو خطأ، والمثبت من المصادر على ما يأتي، وابن يعمر هو يحيى بن يعمر.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٥، والقراءات الشاذة ص٦٣، والمحتسب ١/ ٣٣٨، والبحر ٥/ ٢٩٨، والكلام منه.

(٥) البحر ٥/ ٢٩٨.

(٦) الكشاف ٢/ ٣١٤، والبحر ٥/ ٢٩٨، وما بين حاصرتين منهما.

(٧) جاء في هامش الأصل و(م): قيل: وكأنه علمُ جنس، وفيه نظر. اهـ منه. والكلام من حاشية الشهاب ٥/ ١٧٢.

أي: فلمَّا عَلِمَ ﴿قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ﴾ أي: هذا القَدُّ والشَّقُّ كما قال الضحاك ﴿مِن كَيۡدِكُنَّۖ﴾ أي: ناشئٌ من احتيالكُنَّ أيتها النساء ومَكْرِكُنَّ، ومسبَّبٌ عنه، وهذا تكذيبٌ لها وتصديقٌ له عليه السلام على ألطفِ وجهٍ، كأنه قيل: أنتِ التي راودتيه فلم يفعل وفرَّ، فاجتذبتيه فشقَقْتِ قميصَه، فهو الصادقُ في إسناد المراودة إليك، وأنتِ الكاذبةُ في نسبة السوء إليه.

وقيل: الضمير للأمر الذي وقع فيه التشاجُرُ[1]، وهو عبارةٌ عن إرادةِ السوء التي أُسْنِدَتْ إلى يوسفَ عليه السلام وتدبيرِ عقوبته بقولها: «ما جزاءُ من أراد بأهلك سوءاً» إلخ، أي: إنَّ ذلك من جنس مَكْرِكُنَّ واحتيالِكُنَّ.

وقيل: هو للسوء، وهو نفسُه وإن لم يكن احتيالاً لكنه يلازمه. وقال الماورديُّ[2]: هو لهذا الأمر، وهو طمعُها في يوسف عليه السلام. وجَعْلُه من الحيلة مجازٌ أيضاً كما في الوجه الذي قبله.

وقال الزجَّاج: هو لقولها: «ما جزاء» إلخ فقط[3].

واختار العلَّامة أبو السعود القيلَ الأول[4]، وتكلَّفَ له بما تكلَّفَ، واعترَضَ على ما بعده من الأقوال بما اعتَرَضَ، ولعل ما ذكرناه أقربُ للذوق وأقلُّ مؤنةً مما تكلَّف له.

وأيًّا ما كان فالخطابُ عامٌّ للنساء مطلقاً، وكونُه لها ولجواريها ـ كما قيل ـ ليس بذاك. وتعميمُ الخطاب للتنبيه على أنَّ الكيد خُلُقٌ لهنَّ عريقٌ:

ولا تحسبا هنداً لها الغدرُ وحدَها ... سجيةُ نفسٍ كلُّ غانيةٍ هندُ[5]

---

(١) جاء في هامش الأصل و(م): لمْ يجعل هؤلاء «مِن» سببيةً كما أشرنا إليه، فافهم. اهـ منه.

(٢) كما في البحر ٥/ ٢٩٨.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٠٣.

(٤) وهو كونه للأمر الذي وقع فيه التشاجر. تفسير أبي السعود ٤/ ٢٦٩.

(٥) جاء في هامش الأصل و(م): هو لأبي تمام من قصيدة. اهـ منه. والبيت في ديوان أبي تمام ٢/ ٨١، وجاء في شرحه للخطيب التبريزي: «الغدر» مبتدأ، وخبره «سجيةُ نفسٍ»، وجملةُ المبتدأ والخبر في موضع المفعول الثاني. ويجوز أن يكون الغدر منصوباً على أنه بدل من قوله: «هنداً»، ويكون «سجية نفسٍ» مفعولاً ثانياً.

﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۝٢٨﴾ فإنه ألطفُ وأَعْلَقُ بالقلب، وأشدُّ تأثيراً في النفس، ولأنَّ ذلك قد يُوْرِثُ من العار ما لا يورثه كيدُ الرجال، ولربَّات القصور منهنَّ القِدْحُ المعلَّى من ذلك؛ لأنهنَّ أكثرُ تفرُّغاً من غيرهنَّ، مع كثرةِ اختلافِ الكيَّادات إليهن، فهنَّ جوامعُ كوامِلُ.

ولعظم كيد النساء اتخذهنَّ إبليس[١] عليه اللعنةُ وسائلَ لإغواء مَن صَعُبَ عليه إغواؤه، ففي الخبر: ما أَيِسَ الشيطانُ من أحدٍ إلا أتاه من جهة النساء[٢].

وحكي عن بعض العلماء أنه قال: أنا أخاف من النساء ما لا أخاف من الشيطان؛ فإنه تعالى يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] وقال للنساء: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، ولأنَّ الشيطان يوسوسُ مسارَقةً وهنَّ يواجِهْنَ به. ولا يخفى أنَّ استدلاله بالآيتين مبنيٌّ على ظاهر إطلاقهما، ومثلُه مما تنقبضُ له النفسُ وتنبسطُ يكفي فيه ذلك القَدْرُ، فلا يضرُّ كونُ ضَعْفِ كيدِ الشيطان إنما هو في مقابلةِ كيدِ الله تعالى، وعظمِ كيدهنَّ إنما هو بالنسبة إلى كيد الرجال.

وما قيل: إنَّ ما ذكر ـ لكونه محكيًّا عن قطفير ـ لا يصلحُ للاستدلال به بوجهٍ من الوجوه، ليس بشيءٍ؛ لأنه سبحانه قصَّه من غير نكيرٍ، فلا جُناحَ في الاستدلال به كما لا يخفى.

﴿يُوسُفُ﴾ حُذفَ منه حرفُ النداء لقُرْبِه وكمالِ تفطُّنِه للحديث، وفي ندائه باسمه تقريبٌ له عليه السلام وتلطيفٌ.

وقرأ الأعمش: «يوسفَ» بالفتح[٣]، والأشبهُ على ما قال أبو البقاء[٤]: أن يكون أخرجه على أصل المنادى، كما جاء في الشعر:

يا عديًّا لقد وَقَتْكَ الأواقي[٥]

---

(١) جاء في هامش الأصل و(م): وهذا من كيده فافهم. اهـ منه.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ١٦٦ عن سعيد بن المسيب قوله.

(٣) الإملاء ٣/ ٣٣٠، والدر المصون ٦/ ٤٧٢، وحاشية الشهاب ٥/ ١٧٢.

(٤) في الإملاء ٣/ ٣٣٠.

(٥) البيت لمهلهل بن ربيعة كما في المقتضب ٤/ ٢١٤، والأغاني ٥/ ٥٤، وأمالي ابن الشجري ٢/ ١٨٨، وشرح المفصل ١٠/ ١٠. وصدره: ضربت صدرها إلي وقالت.....، وفي

وقيل: لم تُضبط هذه القراءة عن الأعمش.

وقيل: إنه أجْرَى الوقفَ مجرى الوصل، ونَقَلَ إلى الفاء حركةَ الهمزة من قوله تعالى: ﴿أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ﴾ - أي: عن هذا الأمر واكتُمْه، ولا تتحدَّثْ به فقد ظهر صدقُك وطهارةُ ثوبك - وهذا كما حُكي: اللهَ أكبرَ اشهدَ ان لا إله إلا الله، بالوصل والفتح(١).

وقرئ: «أَعْرَضَ» بصيغة الماضي(٢)، فيوسف حينئذ مبتدأ والجملةُ بعده خبر، ولعل المراد الطلبُ على أتمِّ وجهٍ فيؤُولُ إلى معنى: «أَعْرَضَ» ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي﴾ أنتِ أيَّتها المرأة، وضعَّف أبو البقاء هذه القراءةَ بأنَّ الأشبه عليها أن يقال: فاستغفري.

﴿لِذَنۢبِكِۖ﴾ الذي صَدَرَ عنك وثبتَ عليك ﴿إِنَّكِ كُنتِ﴾ بسبب ذلك ﴿مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ۝٢٩﴾ أي: من جملة القوم المتعمِّدين للذنب، أو من جنسهم، يقال: خَطِئَ يَخْطَأ خِطْئاً وخَطَأً إذا أذنب متعمِّداً، وأخطأ: إذا أَذْنَبَ من غير تعمُّدٍ.

وذكر الراغبُ(٣) أنَّ الخطأ العدولُ عن الجهة، وهو أَضْرُبٌ:

الأول: أنْ يريدَ غيرَ ما تَحْسُنُ إرادتُه فيفعله، وهذا هو الخطأ التامُّ المأخوذُ به الإنسان.

والثاني: أنْ يريدَ ما يَحْسُنُ فعلُه ولكنْ يقعُ منه خلافُ ما يريد، وهذا قد أصاب في الإرادة وأخطأ في الفعل، ومن ذلك قولُه ﷺ: «مَن اجتهد فأخطأ فله أجر»(٤).

رواية: رفعت رأسها إلي وقالت...
قال السمين: يريد (يعني أبا البقاء) بأصل المنادى أنه مفعول به فحقُّه النصب كالبيت الذي أنشده.

(١) قال السمين في الدر ٦/ ٤٧٤: يعني بالفتح في الجلالة، وفي «أكبر»، وفي «أشهد»، وذلك أنه قدَّر الوقف على كل كلمةٍ من هذه الكلم، وألقى حركة الهمزة من كلِّ كلمة من الكلم الثلاث على الساكن قبله وأجرى الوصل مجرى الوقف في ذلك، والذي حكاه الناسُ إنما هو في أكبر خاصةً؛ لأنها مظنة الوقف.

(٢) الإملاء ٣/ ٣٣٠، والدر المصون ٦/ ٤٧٤، وحاشية الشهاب ٥/ ١٧٢.

(٣) في مفرداته (خطأ).

(٤) أخرجه أحمد (١٧٧٧٤) و (١٧٨١٦)، والبخاري (٧٢٥٣)، ومسلم (١٧١٦) من حديث عمرو بن العاص ﷺ بلفظ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر».

والثالث: أن يريدَ ما لا يَحْسُنُ فعلُه، ويتفق منه خلافُه، فهذا مخطئٌ في الإرادة مصيبٌ في الفعل.

ولا يخفى أنَّ المعنى الذي ذكرناه راجعٌ إلى الضرب الأول من هذه الضُّروب. والجملةُ المؤكِّدة في موضع التعليل للأمر، والتذكيرُ لتغليب الذكور على الإناث. واحتمالُ أن يقال: المراد إنك من نسل الخاطئين، فمنهم سرى ذلك العرقُ الخبيثُ فيك، بعيدٌ جدًّا.

وهذا النداء قيل: من الشاهد الحكيم، وروي ذلك عن ابن عباس، وحُمِلَ الاستغفارُ على طلب المغفرة والصَّفح من الزوج، ويحتمل أن يكون المراد به طلبَ المغفرة من الله تعالى، ويقال: إنَّ أولئك القومَ وإن كانوا يعبدون الأوثان، إلا أنهم مع ذلك يُثْبِتون الصانعَ ويعتقدون أنَّ للقبائح عاقبةَ سوءٍ من لدنه سبحانه إذا لم يغفرها، واستُدلَّ على أنهم يثبتون الصانعَ أيضاً بأنَّ يوسف عليه السلام قال لهم: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

والظاهر أنَّ قائل ذلك هو العزيزُ، ولعله ـ كما قيل ـ كان رجلاً حليماً، وروي ذلك عن الحسن، ولذا اكْتَفَى بهذا القَدْرِ من مؤاخَذَتِها ورُوي أنه كان قليلَ الغيرة، وهو لطفٌ من الله تعالى بيوسف عليه السلام.

وفي «البحر»: أنَّ تربةَ إقليم قطفير[(١)] اقتضت ذلك، وأين هذا مما جرى لبعض ملوك المغرب، أنه كان مع نُدمائه المختصِّين به في مجلسِ أنسٍ وجاريةٌ تغنيهم من وراء سترٍ، فاستعاد بعضُ خلصائه بيتين من الجارية كانت قد غنَّت بهما، فما لبث أن جيء برأس الجارية مقطوعاً في طستٍ، وقال له الملك: اسْتَعِدِ البيتين من هذا الرأس. فسقط في يد المستعيد، ومَرِضَ مدةَ حياةِ الملك[(٢)].

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ المشهورُ ـ وإليه ذهب أبو حيان[(٣)] ـ أنه جمعُ تكسيرٍ للقلَّة، كصِبْيَةٍ وغِلْمةٍ، وليس له واحدٌ من لفظه، بل من معناه وهو امرأة. وزعم ابن السرَّاج أنه اسمُ جمع.

---

(١) يعني مصر. حاشية الشهاب ٥/ ١٧٢.

(٢) البحر ٥/ ٢٩٨.

(٣) في البحر ٥/ ٢٩٩.

وعلى كلٍّ فتأنيثه غيرُ حقيقيٍّ، ولا التفاتَ إلى كون ذلك المفرد مؤنَّثاً حقيقيًّا؛ لأنه مع طروِّ ما عارض ذلك ليس كسائر المفردات، ولذا لم يؤنَّث فعله. وفي نونه لغتان: الكسر وهي المشهورة، والضمُّ وبه قرأ المفضَّل والأعمش والسلميُّ كما قال القرطبي[١]، فلا عبرةَ بمن أنكر ذلك، وهو إذ ذاك اسم جمع بلا خلاف. ويُكسَّر للكثرة على نساء ونسوان.

وكنَّ فيما روي عن مقاتل خمساً: امرأةُ الخباز، وامرأةُ الساقي، وامرأةُ البوَّاب، وامرأة السجَّان، وامرأةُ صاحب الدَّوَابِّ. ورَوَى الكلبيُّ أنهنَّ كنَّ أربعاً، بإسقاطِ امرأةِ البوَّاب.

﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ أُريدَ بها مصر، والجارُّ والمجرورُ في موضع الصفة لـ «نسوة» على ما استظهره بعضُهم، ووُصِفْنَ بذلك لأنَّ إغاظةَ كلامهنَّ بهذا الاعتبار لاتِّصافِهِنَّ بما يقوِّي جانبَ الصدق أكثر، فإنَّ كلام البدويات لبُعْدِهنَّ عن مظانِّ الاجتماع والاطِّلاع على حقيقة أحوال الحضريات القَصْريات لا يلتفت إلى كلامهنَّ، فلا يَغِيظُ تلك الإغاظةَ.

والكثير على اختيار تعلُّقه بـ «قال»، ومعنى كونِ قولهنَّ في المدينة: إشاعتُه وإفشاؤه فيها. وتعقِّب بأنَّ ذلك خلافُ الظاهر.

﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ هو في الأصل الذي يَقْهَرُ ولا يُقْهَر، كأنه مأخوذٌ من عزَّ، أي: حصل في عَزازٍ، وهي الأرضُ الصلبة التي يصعب وَطْؤُها، ويُطْلَقُ على الملك، ولعلهم كانوا يطلقونه إذ ذاك فيما بينهم على كلِّ مَن ولَّاه الملكُ على بعضٍ مخصوصٍ من الولايات التي لها شأنٌ، فكأن من خواصِّه ذوي القَدْرِ الرفيع والمحلِّ المنيع، وهو بهذا المعنى مرادٌ هنا؛ لأنه أُريد به قطفير، وهو في المشهور كما علمتَ إنما كان على خزائن الملك، وكان الملك الريانَ بنَ الوليد.

وقيل: المراد به الملك، وكان قطفير ملكَ مصر وإسكندرية.

وإضافتهنَّ لها إليه بهذا العنوان دون أن يصرِّحْنَ باسمها أو باسمه[٢] ليَظْهَر

---

(١) في تفسيره ١١/ ٣٢٥-٣٢٦، وذكرها العكبري في الإملاء ٣/ ٣٣٠ دون نسبة.

(٢) في (م): أو اسمه.

كونُها من ذوات الأخطار، فيكون عوناً على إشاعة الخبر بحكمِ أنَّ النفوس إلى سماع أخبار ذوي الأخطار أَمْيَلُ.

وقيل - وهو الأَوْلَى - إنَّ ذاك لقَصْدِ المبالغة في لومها بقولهن: ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي: تطلب مُواقعتَه إياها وتتمحَّلُ في ذلك. وإيثارهنَّ صيغةَ المضارع للدلالة على دوام المراودة كأنها صارت سجيةً لها.

والفتى من الناس: الطريُّ من الشبان، وأصله فَتَيَ بالياء لقولهم في التثنية - وهي تردُّ الأشياءَ إلى أصولها -: فَتَيَانِ، فالفتوَّةُ على هذا شاذٌّ، وجمعه فتيةٌ وفتيانٌ، وقيل: إنه يائيٌّ وواويٌّ ككَنَوْتُ وكَنَيْتُ، وله نظائرُ كثيرةٌ.

ويطلَقُ على المملوك والخادم لِمَا أنَّ جلَّ الخَدَمة شبَّانٌ، وفي الحديث: «لا يَقُلْ أحدُكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتايَ وفتاتي»[1]، وأُطلق على يوسف عليه السلام هنا لأنه كان يخدمها، وقيل: لأنَّ زوجها وهبه لها، فهو مملوكُها بزعم النسوة.

وتعبيرهنَّ عنه عليه السلام بذلك مضافاً إليها لا إلى العزيز؛ لإبانةِ ما بينهما من التبايُنِ البيِّن الناشئ عن الخادمية والمخدومية، أو المالكية والمملوكية، وكلُّ ذلك لتربيةِ ما مرَّ من المبالغة في اللوم، فإنَّ مَن لا زوجَ لها من النساء أو لها زوجٌ دنيءٌ قد تُعذَرُ في مراودة الأخدان، لاسيما إذا كان فيهم علوُّ الجناب، وأما التي لها زوجٌ وأيُّ زوجٍ، فمراودتُها لغيره لاسيما لمن لم يكن بينها وبينه كفاءةٌ لها وتَماديها في ذلك غايةُ الغيِّ ونهايةُ الضلال.

﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: شقَّ حبُّه شَغَافَ قلبها، وهو حجابُه - وقيل: هو جلدةٌ رقيقةٌ يقال لها: لسان القلب - حتى وصل إلى فؤادها، وبهذا يحصلُ المبالغةُ في وصفها بالحبِّ له.

وقيل: الشَّغَافُ سويداءُ القلب، فالمبالغةُ حينئذٍ ظاهرةٌ، وإلى هذا يرجع ما روي عن الحسن من أنَّ الشغاف باطنُ القلب، وما حكي عن أبي عليٍّ من أنه وسطُه.

والفعلُ مفتوحُ الغين المعجَمةِ عند الجمهور، وقرأ ثابتٌ البنانيُّ بكسرها، وهي

---

(١) أخرجه أحمد (١٠٣٦٨)، والبخاري (٢٥٥٢)، ومسلم (٢٢٤٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

لغةُ تميم[١]. وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه، وعليّ بنُ الحسين وابنُه محمد وابنُه جعفر ﷺ، والشعبيُّ وعوفٌ الأعرابيُّ: «شَعَفَها» بفتح العين المهملة، وهي روايةٌ عن قتادة وابن هرمز ومجاهد وحميد والزهري[٢]. وروي عن ثابت البنانيِّ أنه قرأ كذلك أيضاً إلا أنه كَسَر العين[٣]، وهو من شَعَفَ البعيرَ: إذا هَنَأَه فأَحْرَقَه بالقَطِران[٤]، فالمعنى: وصل حبُّه إلى قلبها فكاد يحترق، ومن هذا قولُ الأعشى:

تعصي الوشاةَ وكان الحبُّ آونةً مما يزيِّنُ للمشعوف ما صنعا[٥]

وذكر الراغب[٦] أنه من شَعَفةِ القلب، وهي رأسُه عند معلّق النياط، ويقال لأعلى الجبل شعفةٌ أيضاً.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس أنَّ الشَّغفَ الحبُّ القاتل، والشَّعفَ حبٌّ دون ذلك.

وأخرجا عن الشعبيِّ أنَّ الشغف الحبُّ، والشَّعفَ الجنون.

وأخرجا أيضاً عن ابن زيد أنَّ الشغف في الحب، والشعف في البغض[٧]. وهذا المعنى ممتنعُ الإرادة هنا على هذه القراءة.

وفي كتاب «أسرار البلاغة» في فصل ترتيب الحبِّ[٨]: أنَّ أول مراتب الحبِّ الهوى، ثم العَلَاقةُ وهي الحبُّ اللازمُ للقلب، ثم الكَلَفُ وهو شدَّةُ الحب، ثم العشقُ وهو اسمٌ لِمَا فَضَل عن المقدار المسمَّى بالحب، ثم الشَّعَفُ بالمهملة وهو

(١) البحر ٥/ ٣٠١.
(٢) المحتسب ١/ ٣٣٩، والبحر ٥/ ٣٠١.
(٣) البحر ٥/ ٣٠١، وجاء في هامش الأصل و(م): وروي ذلك عن أبي رجاء أيضاً. اهـ منه.
(٤) هنأه: طلاه بالقطران، ومعنى إحراقه أنه أثَّر في جلده. حاشية الشهاب ٥/ ١٧٣.
(٥) ديوان الأعشى ص١٥١، وهو فيه برواية: للمشغوف بالغين المعجمة، وكذا ذكره أبو حيان في البحر ٥/ ٢٩٩، والسمين في الدر ٦/ ٤٧٥-٤٧٦. وهو برواية المصنف في المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٨.
(٦) في مفرداته (شعف).
(٧) الأخبار الثلاثة في تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٣١٣١.
(٨) وورد ذلك أيضاً في الفصل نفسه من كتاب فقه اللغة للثعالبي ص١٦٧.

احتراقُ القلب مع لذةٍ يجدُها، وكذلك اللَّوعةُ واللَّاعج، ثم الشَّغَفُ بالمعجمة وهو أن يبلغ الحبُّ شَغَافَ القلب، ثم الجوى وهو الهوى الباطن، ثم التَّيْم وهو أن يستعبده الحب، ثم التَّبْلُ هو أن يُسقمه الحب، ثم التدلُّه وهو ذهابُ العقل من الحب، ثم الهُيُوم وهو أن يذهب الرجل على وجهه لغلبة الهوى عليه. اهـ.

ورتَّب بعضهم ذلك على طرزٍ آخر، واللهُ تعالى أعلم.

وأيًّا ما كان فالجملةُ إما خبرٌ ثانٍ، أو حالٌ من فاعلِ «تُراود» أو من مفعوله، والمقصودُ منها تكريرُ اللوم وتأكيدُ العذل ببيانِ اختلافِ أحوالها القَلْبيةِ كأحوالها القالبية.

وجوَّز أبو البقاء كونَها استئنافية(١)، فهي حينئذٍ - على ما قيل - في موضع التعليل لدوام المراودة، وليس بذاك لأنه إن اعتبر من حيث الإنية كان مصيره إلى الاستدلال بالأخفى على الأجْلَى، وإن اعتُبر من حديث اللِّمية كان فيه ميلٌ إلى تمهيد العذر من قِبَلها، وليس المقامُ له.

وانتصاب «حبًّا» على التمييز، هو محوَّلٌ عن الفاعل إذ الأصل قد شغفها حبُّه كما أُشيرَ إليه.

وأدغم النحويان وحمزة وهشام وابن محيصنٍ دالَ «قد» في شين «شغفها»(٢).

﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا﴾ أي: نعلمُها، فالرؤيةُ قلبيةٌ واستعمالُها بمعنى العلم حقيقةٌ كاستعمالها بمعنى الإحساس بالبصر، وإذا أُريدَ منها البصريةُ ثم تجوَّز بها عن العِلْمية كان أبلغَ في إفادة كونها فيما صنعت من المراودة والمحبة المفرطة مستقرَّةً.

﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ عظيم عن طريق الرشد والصواب، أو سَنَن العقل ﴿مُّبِينٍ ۝٣٠﴾ واضحٍ لا يخفى كونُه ضلالاً على أحد، أو مُظْهِرٍ لأمرها بين الناس، فالتنوينُ للتفخيم، والجملةُ مقرِّرةٌ لمضمونِ الجملتين السابقتين المسوقتين للَّوم والتشنيع،

---

(١) الإملاء ٣/ ٣٣١.

(٢) التيسير ص٤٢، والبحر ٥/ ٣٠١، والكلام منه، والنحويان هما أبو عمرو والكسائي.

وتسجيلٌ عليها بأنها في أمرها على خطأ عظيم، وإنما لم يقلن: إنها لفي ضلالٍ مبينٍ، إشعاراً ـ كما قيل ـ بأنَّ ذلك الحكمَ غيرُ صادرٍ منهنَّ مجازفةً، بل عن علم ورأي، مع التلويح بأنهنَّ متنزِّهاتٌ عن أمثال ما هي عليه، وصحَّ اللوم على الشغف، قيل: لأنه اختياريٌّ باعتبار مباديه كما يشير إليه قوله:

مازَحْتُه فعشقتُه والعشقُ أوَّلُه مزاح

وإلا فما ليس باختياريٍّ لا ينبغي اللومُ عليه كما أشار إليه البوصيري بقوله:

يا لائمي في الهوى العذريِّ معذرةً منِّي إليك ولو أنْصَفْتَ لَمْ تَلُمِ

وقيل: اللوم عليه باعتبارِ الاسترسال معه وتركِ علاجه، فإنهم صرَّحوا بأنَّ ذلك من جملة الأدواء، وذكروا له من المعالجة ما ذكروا، ومن أحسن ما ذكر له من ذلك تذكُّر مساوئ المحبوب، والتفكُّر في عواقبه، فقد قيل:

لو فكَّر العاشق في منتهى حُسْنِ الذي يَسْبِيه لم يَسْبِهِ[1]

وتمامُ الكلام في هذا المقام يطلب في محله.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أي: باغتيابهنَّ وسوءِ مقالتهنَّ، وتسميةُ ذلك مكراً لشَبَهِه له في الإخفاء.

وقيل: كانت اسْتَكْتَمَتْهنَّ سرَّها فأفشينَه وأطلعنَ على أمرها.

وقيل: إنهنَّ قصدنَ بتلك المقالة إغضابها حتى تَعْرِضَ عليهنَّ يوسف لتبديَ عذرها فيفُزْنَ بمشاهدته. والمكرُ على هذين القولين حقيقة.

﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ تدعوهنَّ، قيل: دعت أربعين امرأةً، منهنَّ الخمسُ أو الأربعُ المذكورات، وروي ذلك عن وهب، والظاهرُ عودُ الضمير على تلك النسوة القائلةِ ما قلنَ عنها.

﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ أي: هيَّأتْ ﴿لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ أي: ما يتَّكِئْنَ عليه من النمارق والوسائد كما روي عن ابن عباس، وهو من الاتِّكاء: الميل إلى أحد الشقَّين، وأصله مُوْتَكاً لأنه من تَوكَّأْتُ، فأبدلت الواو تاءً وأدغمت في مثلها.

(١) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ١/ ٣٣٧.

وروي عن الحبر أيضاً أنَّ المتكأ مجلسُ الطعام؛ لأنهم كانوا يتَّكؤون كعادة المترفين المتكبِّرين، ولذلك نهي عنه، فقد أخرج ابن أبي شيبة عن جابر رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنه نهى أن يأكل الرجل بشماله وأن يأكل متكئًا[١].

وقيل: أريد به نفسُ الطعام، قال القتبي[٢]: يقال: اتَّكأنا عند فلان، أي: أكلنا، ومن ذلك قولُ جميل:

فظللنا بنعمةٍ واتَّكأنا وشربنا الحلال من قُلَلِه[٣]

وهو على هذا اسمُ مفعول، أي: متكأ له، أو مصدر أي: اتكاءً، وعبَّر بالهيئة التي يكون عليها الآكل المترفُ عن ذلك مجازاً. وقيل: هو من باب الكناية.

وعن مجاهد: أنه الطعام يحزُّ حزًّا بالسكين. واختلفوا في تعيينه، فقيل: كان لحماً، وكانوا لا ينهشون اللحم وإنما يأكلونه حزًّا بالسكاكين.

وقيل: كان أُترجًا[٤] وموزاً وبطيخاً. وقيل: الزُّماوَرْدُ، وهو الرقاقُ الملفوف باللحم وغيره[٥]، أو شيء شبيه بالأترجِّ، وكأنه إنما سمِّي ما يُقطع بالسكين بذلك لأنَّ عادةَ من يقطع شيئاً أن يعتمد عليه فيكون متكأً عليه.

وقرأ الزهريُّ وأبو جعفر وشيبةُ: «مُتَّكًى» مشدَّد التاء من غير همزٍ بوزن متَّقًى[٦]، وهو حينئذٍ: إما أن يكون من الاتِّكاء وفيه تخفيفُ الهمزة، كما قالوا في

---

(١) عزاه لابن أبي شيبة الشهاب في الحاشية ٥/ ١٧٣، وذكره ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص٨٩ دون عزو، وهو في مصنف ابن أبي شيبة ٨/ ٢٩٤، باب في الأكل والشرب بالشمال، دون قوله: وأن يأكل متكئاً. وأخرج البخاري (٥٣٩٨) من حديث أبي جُحيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا آكل متكئاً».

(٢) في الأصل و(م): العتبي، وهو تصحيف، وكلام ابن قتيبة في تفسير الغريب ص٢١٦، وتأويل المشكل ص١٣٨، ونقله عنه أبو حيان في البحر ٥/ ٣٠٢.

(٣) ديوان جميل بثينة ص١٨٩، والمعاني الكبير لابن قتيبة ١/ ٢٥٧، والخزانة ١٠/ ٢١. قوله: الحلال، قيل: هو النبيذ، وسماه حلالاً على وجه الخلاعة، وقال البغدادي: ولا يخفى أن حمله على ظاهره أنسب، لأن قائله مؤمن، وكان في عرفة في موسم الحج.

(٤) من فصيلة الحمضيات، ويسمى بالشام الكُبَّاد، واحدته أترجَّة. معجم متن اللغة (ترج).

(٥) وفي اللسان (ورد): هو طعام من البيض واللحم، معرب.

(٦) المحتسب ١/ ٣٣٩، والبحر ٥/ ٣٠٢، وقراءة أبي جعفر في النشر ١/ ٣٩٩.

توضَّأت: توضَّيْتُ. أو يكون مُفْتَعَلاً من أَوْكَيْتُ السقاء: إذا شَدَدْتَه بالوِكاء، والمعنى: أعتَدَتْ لهنَّ ما يُشْتَدُّ عليه بالاتِّكاء أو بالقطع بالسكين.

وقرأ الأعرج: «مَتْكأً» على وزن «مَفْعلاً»، من تكِئَ يَتْكَأُ: إذا اتَّكأ[1].

وقرأ الحسن وابن هرمز: «مُتَّكاءً» بالمدِّ والهمز[2]، وهو مُفْتَعَل من الاتِّكاء، إلا أنه أشبع الفتحة فتولَّدت منها الألفُ، وهو كثيرٌ في كلامهم، ومنه قوله:

وأنت من الغوائل حين ترمي ... وعن ذمِّ الرجال بمنتزاحِ[3]

وقوله:

يَنْباعُ من ذِفْرَى غضوبٍ جَسْرةٍ ... زيَّافةٍ مثل الفَنيقِ المُكْدَمِ[4]

وقرأ ابن عباس وابن عمر ومجاهد وقتادة وآخرون[5]: «مُتْكاً» بضم الميم وسكون التاء وتنوين الكاف، وجاء ذلك عن ابن هرمز أيضاً[6]، وهو الأترجُّ عند الأصمعيِّ وجماعةٍ، والواحدُ مُتْكَة، وأنشد:

فأهدتْ مُتْكةً لبني أبيها ... تَخُبُّ بها العَثَمْثَمَةُ الوَقاحُ[7]

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٣، والبحر ٥/ ٣٠٢، وحاشية الشهاب ٥/ ١٧٣.

(٢) القراءات الشاذة ص٦٣، والمحتسب ١/ ٣٣٩، والبحر ٥/ ٣٠٢.

(٣) البيت لإبراهيم بن هرمة، وهو في ديوانه ص٩٢، والبحر ٥/ ٣٠٢ برواية: ومن ذمِّ الرجال... .

(٤) البيت من معلقة عنترة، وهو في شرح المعلقات للنحاس ٢/ ٢٤، وللتبريزي ص٢٣٠، وللمرزوقي ص١٤٤. وذكروا في شرحه: قوله: ينباع، أراد ينبع، فأشبع الفتحة لإقامة الوزن. والذِّفْرى: ما خلف الأذن. والجسرة: الناقة الضخمة القوية، وقيل: الماضية في سيرها. والزيف: التبختر. والفنيق: الفحل من الإبل. والكدم: العض. يقول: ينبع هذا العرق من خلف أذن ناقةٍ غضوب موثَّقةِ الخلق شديدة التبختر في سيرها مثل فحل من الإبل قد كدمته الفحول، شبهها بالفحل في تبخترها ووثاقة خلقها وضخمها. وجاء في حاشية (م): ومنه قوله:

أعوذ بالله من العقراب
الشائلات عقد الأذناب

(٥) جاء في حاشية (م): منهم الضحاك والجحدري والكلبي.

(٦) المحتسب ١/ ٣٣٩، والبحر ٥/ ٣٠٢.

(٧) الكشاف ٢/ ٣١٦، والبحر ٥/ ٢٩٩، والدر المصون ٦/ ٤٧٨. العَثَمْثمة من النوق: الشديدة. الصحاح (عثم).

وقيل: هو اسم يعمُّ جميعَ ما يقطع بالسكين كالأترجّ وغيرِه من الفواكه، وأنشد:

نشربُ الإثم بالصُّواع جِهاراً ‏ ‏ وترى المُتْكَ بيننا مستعارًا[١]

وهو من مَتَكَ الشيء بمعنى بَتَكه، أي: قطعه، وعن الخليل تفسيرُ المُتْكِ مضمومِ الميم بالعسل، وعن أبي عمرو تفسيرُه بالشراب الخالص، وحكى الكسائيُّ تثليثَ ميمه، وفسَّره بالفالوذج، وكذا حكى التثليثَ المفضَّلُ لكن فسره بالزُّماوَرْد، وذكر أنه بالضم المائدةُ أو الخمر في لغةِ كندة. وبالفتح قرأ عبدُ الله ومعاذٌ رضي الله عنهما[٢].

وفي الآية على سائر القراءات حذفٌ، أي: فجئن وجلسن ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾. وقال بعض المحققين: لا يبعد أن تسمَّى هذه الواو فصيحة.

وإنما أعطت كلَّ واحدةٍ ذلك لتستعمله في قطع ما يُعْهَدُ قَطْعُه مما قدِّم بين أيديهنَّ وقُرِّبَ إليهنَّ، وغرضُها من ذلك ما سيقع من تقطيع أيديهنَّ لتبكِّتهنَّ بالحجة.

وقيل: غرضُها ذاك، والتهويلُ على يوسف عليه السلام من مكرها إذا خرج على أربعين نسوة مجتمعاتٍ في أيديهنَّ الخناجرُ توهمُه أنهنَّ يَثِبْنَ عليه، فيكون خائفاً من مكرها دائماً فلعله يجيبها إلى مرادها.

والسكين مذكَّرٌ عند السجستاني قال: وسألتُ أبا زيدٍ الأنصاريَّ والأصمعيَّ وغيرَهما ممن أدركناه فكلُّهم يذكِّره ويُنْكِرُ التأنيثَ فيه[٣]. وعن الفرَّاء أنه يذكَّر ويؤنَّثُ[٤]. وذلك حُكي عن اللِّحيانيِّ ويعقوب[٥]. ومَنَعَ بعضُهم أن يقال: سكِّينة، وأُنشد عن الكسائي ما يخالف ذلك، وهو قولُه:

الذئبُ سكِّينتُه في شدقه ‏ ‏ ثم قِرَابَا نَصْلِها في حَلْقِه[٦]

---

(١) تهذيب اللغة ١٥/ ١٦١، وزاد المسير ٣/ ١٩١، وتفسير القرطبي ١١/ ٣٣٠، والبحر ٥/ ٢٩٩.
(٢) البحر ٥/ ٣٠٢.
(٣) المذكر والمؤنث لأبي حاتم السجستاني ص١٤٦.
(٤) المذكر والمؤنث للفراء ص٢٧.
(٥) المذكر والمؤنث لأبي بكر الأنباري ١/ ٣٨٩، وفيه: حدثنا عبد الله، قال: حدثنا يعقوب، وحدثني أبي عن محمد بن الحكم عن اللحياني قال: السكِّين تذكَّر وتؤنَّث.
(٦) المذكر والمؤنث لأبي بكر الأنباري ١/ ٣٩١-٣٩٢، وفيه: أراد بقِرَابيها: غلافها ونِصابَها.

﴿وَقَالَتِ﴾ ليوسفَ عليه السلام وهنَّ مشغولاتٌ بمعالجة السكاكين وإعمالِها فيما بأيديهنَّ. والعطفُ بالواو ربما يشير إلى أنَّ قوله: ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ أي: ابرز لهنَّ، لم يكن عقيب ترتيب أمورهنَّ ليتم غرضُها بهنَّ[1].

والظاهر أنها لم تأمره بالخروج إلا لمجرَّد أن يَرَيْنَه فيحصل مرامُها. وقيل: أمَرتْه بالخروج عليهنَّ للخدمة أو للسلام، وقد أَضْمَرتْ مع ذلك ما أضمَرتْ. يحكى أنها ألبسته ثياباً بيضاً في ذلك اليوم لأنَّ الجميل أحسنُ ما يكون في البياض.

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ﴾ عطفٌ على مقدَّرٍ يستدعيه الأمر بالخروج وينسحب عليه الكلامُ، أي: فخرج عليهنَّ فرأينه، وإنما حُذف على ما قيل: تحقيقاً لمفاجأة رؤيتهنَّ، كأنها تَفُوتُ عند ذكر خروجه عليهنَّ[2]، وفيه إيذانٌ بسرعة امتثاله عليه السلام بأمرها فيما لا يشاهِدُ مضرَّتَه من الأفاعيل، ونظير هذا آتٍ كما مرَّ آنفاً[3].

﴿أَكْبَرْنَهُ﴾ أي: أَعْظَمْنَه ودهشنَ برؤية جماله الفائق الرائع الرائق، فإنَّ فَضْلَ جماله على جمال كلِّ جميلٍ كان كفَضْلِ القمر ليلة البدر على سائر الكواكب.

وأخرج ابنُ جرير وغيرُه عن أبي سعيدٍ الخدريِّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «رأيتُ يوسفَ ليلةَ المعراج كالقمر ليلة البدر»[4]. وحُكي أنه عليه السلام كان إذا سار في أزقة مصر تلألأ وجهه على الجدران كما يُرى نور الشمس. وجاء عن الحسن أنه أعطي ثلثَ الحسن. وفي رواية عن أنس مرفوعاً أنه عليه السلام أعطي هو وأمه

---

(١) في تفسير أبي السعود ٤/ ٢٧١ (والكلام منه): ليتم غرضها من استغفالهن.

(٢) جاء في حاشية (م): كما حذف لتحقيق السرعة في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ﴾ [النمل: ٤٠]. اهـ منه.

(٣) لعله يشير إلى الآية (٤٠) من سورة النمل كما ورد في حاشية (م)، وينظر تفسير أبي السعود ٤/ ٢٧٢.

(٤) لم نقف عليه عند الطبري، وأخرجه بنحوه الحاكم ٢/ ٥٧١، والثعلبي كما في تخريج أحاديث الكشاف ص٨٩، وفي إسناده أبو هارون العبدي عمارة بن جُوَيْن، وهو متروك كما ذكر الحافظ في التقريب.

شطر الحسن(١). وتقدم خبرُ أنه عليه السلام كان يشبه آدم عليه السلام يوم خَلَقه ربُّه(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ معنى أكبرن حضن، ومن ذلك قوله:

يأتي النساءَ على أطهارهنَّ ولا ... يأتي النساءَ إذا أَكْبَرْنَ إكبارًا(٣)

وكأنه إنما سمِّي الحيضُ إكباراً لكون البلوغ يُعرف به، فكأنه يُدخِلُ الصغارَ سنَّ الكبر، فيكون في الأصل كنايةً أو مجازاً، والهاء على هذا إما ضميرُ المصدر، فكأنه قيل: أكبرن إكباراً. وإما ضمير يوسف عليه السلام على إسقاط الجارِّ، أي: حِضْنَ لأجله من شدَّة شبقهنَّ، والمرأةُ كما زعم الواحديُّ إذا اشتدَّ شبقُها حاضت، ومن هنا أخذ المتنبي قوله:

خَفِ الله واسْتُرْ ذا الجمالَ ببُرْقُعٍ ... إذا لُحْتَ حاضَتْ في الخدور العواتِقُ(٤)

وقيل: إنَّ الهاء للسكت. ورُدَّ بأنها لا تحرَّك ولا تثبتُ في الوصل، وإجراءُ الوصل مجرى الوقف وتحريكُها تشبيهاً بالضمير كما في قوله:

وا حرَّ قلباه ممن قلبه شَبِمُ(٥)

على تسليم صحته ضعيفٌ في العربية.

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ١٣٦، والحاكم ٢/ ٥٧٠ وصححه. وفي حديث الإسراء عند مسلم (١٦٢) عن أنس رضي الله عنه: «... فإذا أنا بيوسف، إذا هو قد أعطي شطر الحسن...» وجاء في حاشية (م): قيل: إنه ورث الحسن عن جدته سارة. اهـ منه.

(٢) سلف من خبر كعب الأحبار ص٢٥١ من هذا الجزء.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٠٦، وتفسير الطبري ١٣/ ١٣٢، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٣٩. وسيأتي ما قاله العلماء في هذا البيت من أنه مصنوع لا أصل له.

(٤) ديوان المتنبي ٣/ ٨٩، والكشاف ٢/ ٣١٧، ورواية الديوان: ذابت، بدل: حاضت. وهما روايتان كما نقل الشهاب في الحاشية ٥/ ١٧٤ عن الواحدي. وقال الشهاب في شرح البيت: العواتق جمع عاتق، وهي المرأة الشابة، و«ذا الجمال» بنصب «الجمال» نعت «ذا» اسم الإشارة، وجوِّز أن يكون «ذا» بمعنى صاحب و«الجمال» مجرور بالإضافة ومعناه الوجه، والأول أولى روايةً ودرايةً.

(٥) وعجزه: ومَن بجسمي وحالي عنده سَقَمُ، والبيت للمتنبي، وهو في ديوانه ٤/ ٨٠.

واعترض في «الكشف» التخريجين الأوَّلين فقال: إنَّ نَزْعَ الخافض ضعيفٌ؛ لأنه إنما يجري في الظروف والصِّفات والصِّلات، وذلك لدلالة الفعل على مكان الحذف، وأما في مثل هذا فلا، والمصدرُ ليس من مجازه إذ ليس المقام للتأكيد، وزعم أنَّ الوجه هو الأخيرُ، وكلُّ ما ذكره في حيِّز المنع كما لا يخفى.

وأنكر أبو عبيدة مجيءَ «أكبرْنَ» بمعنى حِضْنَ، وقال: لا نعرف ذلك في اللغة(١). والبيتُ مصنوعٌ مختلقٌ لا يعرفه العلماء بالشعر، ونُقل مثلُ ذلك عن الطبريِّ(٢) وابنِ عطية(٣)، وغيرِ واحد من المحققين. وروايةُ ذلك عن ابن عباس إنَّما أخرجها ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق عبد الصمد(٤)، وهو - وإن رَوَى ذلك عن أبيه عليٍّ عن أبيه ابن عباس - لا يعوَّلُ عليه، فقد قالوا: إنه عليه الرحمةُ ليس من رواة العلم.

وعن الكُمَيْتِ الشاعرِ تفسيرُ «أكبرن» بأَمْنَيْنَ(٥)، ولعل الكلام في ذلك كالكلام فيما تقدَّم تخريجاً وقبولاً، وأنا لا أرى الكميتَ من خيل هذا الميدان وفرسانِ ذلك الشان.

﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي: جَرحْنَها بما في أيديهنَّ من السكاكين لفَرْطِ دهشتهنَّ، وخروجِ حركاتِ جوارحِهنَّ عن منهاج الاختيار حتى لم يَعْلَمنَ بما عَمِلْنَ، ولم يَشعُرْنَ بألم(٦) ما نالهنَّ، وهذا كما تقول: كنتُ أقطِّعُ اللحم فقَطَعْتُ يدي. وهو معنًى حقيقيٌّ للتقطيع عند بعضٍ، وفي «الكشف» أنه معنًى مجازيٌّ على الأصح. والتضعيفُ للتكثير: إمَّا بالنسبة لكثرة القاطعات، وإما بالنسبة لكثرة القطع في يدِ كلِّ واحدةٍ منهنَّ.

---

(١) مجاز القرآن ١/ ٣٠٩.
(٢) في تفسيره ١٣/ ١٣٢، قال: لا أحسب له أصلاً، لأنه ليس بالمعروف عند الرواة.
(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٩.
(٤) تفسير الطبري ١٣/ ١٣١، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٣٥ من طريق عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه عن جده ابن عباس. ولم يَرِد البيت في رواية الطبري.
(٥) أخرجه عن الكميت أبو الشيخ كما في الدر المنثور ٤/ ١٦.
(٦) في (م): بمألم.

وأخرج ابن المنذر وغيرُه عن مجاهد أنه فسَّر التقطيع بالإبانة[١]. والمعنى الأولُ أسرعُ تبادُراً إلى الذهن.

وحَمْلُ الأيدي على الجوارح المعلومةِ مما لا يكادُ يُفهم خلافه، ومن العجيب ما روي عن عكرمةَ من أنَّ المراد بها الأكمام، وأظنُّ أنَّ منشأ هذا محضُ استبعادِ وقوعِ التقطيع على الأيدي بالمعنى المتبادر؛ ولعمري لو عُرِضَ ما قاله على أدنى الأفهام لاستَبْعَدَتْه.

﴿وَقُلْنَ﴾ تنزيهاً لله سبحانه عن صفات التقصير والعجز، وتعجُّباً من قدرته جلَّ وعلا على مثل ذلك الصنع البديع ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ أصلُه: حاشا لله، بالألف كما قرأ أبو عمرو في الدَّرْج[٢]، فحذفت ألفُه الأخيرةُ تخفيفاً، وهو على ما قيل: حرفٌ وُضِعَ للاستثناء والتنزيهِ معاً، ثم نُقِلَ وجُعِلَ اسماً بمعنى التنزيه وتجرَّد عن معنى الاستثناء، ولم ينوَّن مراعاةً لأصله المنقولِ عنه، وكثيراً ما يراعون ذلك، ألا تراهم قالوا: جلستُ من عن يمينه؟ فجعلوا «عن» اسماً ولم يُعْرِبوه، وقالوا: غدت مِن عليه، فلم يثبتوا ألف «على» مع المضمرَ كما أثبتوا ألفَ فتى في فتاه، كلُّ ذلك مراعاة للأصل، واللامُ للبيان فهي متعلِّقةٌ بمحذوفٍ.

وردَّ في «البحر» دعوى إفادتِه التنزيهَ في الاستثناء بأنَّ ذلك غيرُ معروفٍ عند النحاة، ولا فَرْقَ بين: قام القومُ إلا زيداً، وحاشا زيداً[٣].

وتعقِّب بأنَّ عدم ذكر النحاة ذلك لا يضرُّ؛ لأنه وظيفةُ اللغويين لا وظيفتهم.

واعترض بعضُهم حديث النقل بأنَّ الحرف لا يكون اسماً إلَّا إذا نُقل وسمِّي به وجُعِلَ عَلَماً، وحينئذٍ يجوز فيه الحكايةُ والإعرابُ، ولذا جعله ابن الحاجب اسمَ فعلٍ بمعنى: بَرِئَ اللهُ تعالى من السوء، ولعل دخول اللام كدخولها في ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٦]، وكونُ المعنى على المصدرية لا يَرِدُ عليه؛ لأنه قيل: إنَّ أسماء الأفعال موضوعةٌ لمعاني المصادر، وهو المنقولُ عن الزجَّاج[٤].

---

(١) الدر المنثور ٤/ ١٦.
(٢) التيسير ص١٢٨، والنشر ٢/ ٢٩٥.
(٣) البحر ٥/ ٣٠٠، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ١٧٤، وما سيأتي منه.
(٤) كما في حاشية الشهاب ٥/ ١٧٤، وينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٠٧.

نعم ذهب المبرد[1] وأبو عليٍّ[2] وابنُ عطية[3] وجماعةٌ إلى أنه فعلٌ ماضٍ بمعنى جانَبَ، وأصلُه من حاشية الشيء وحشيه، أي: جانبه وناحيته، وفيه ضميرُ يوسفَ، واللامُ للتعليل متعلِّقةٌ به، أي: جانَبَ يوسفُ ما قَرَفَ به الله تعالى، أي: لأَجْلِ خوفه ومراقبته، والمرادُ تنزيههُ وبُعْدُه كأنه صار في جانبٍ عمَّا اتُّهم به لِمَا رُؤي فيه من آثار العصمة وأُبَّهةِ النبوَّة عليه الصلاة والسلام. ولا يَخْفَى أنه على هذا يفوتُ معنى التعجُّبِ.

واستُدِلَّ على اسميتها بقراءة أبي السمال: «حاشاً لله» بالتنوين[4]. وهو في ذلك على حدِّ: سَقْياً لك، وجوَّز أن يكونَ اسمَ فعلٍ والتنوينُ كما في «صه»، وكذا بقراءة أبيٍّ وعبد الله رضي الله عنهما: «حاشا الله» بالإضافة[5]، كسبحان الله، وزعم الفارسيُّ أنَّ «حاشا» في ذلك حرفُ جرٍّ مرادٌ[6] به الاستثناء كما في قوله:

حاشا أبي ثوبانَ إنَّ أبا ثوبان ليس ببُكمةٍ فَدْمِ[7]

ورُدَّ بأنه لم يتقدَّمه هنا ما يُستثنى منه.

وجاء في رواية عن الحسن أنَّه قرأ: «حاشْ لله»[8] بسكون الشين وصلاً ووقفاً مع لام الجرِّ في الاسم الجليل على أنَّ الفتحةَ أُتبعت الألفَ في الإسقاط لأنَّها

---

(١) في المقتضب ٤/ ٣٩١.

(٢) في الحجة ٤/ ٤٢٢-٤٢٣.

(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ٢٤٠.

(٤) القراءات الشاذة ص٦٣، والبحر ٥/ ٣٠٣.

(٥) القراءات الشاذة ص٦٣، والمحتسب ١/ ٣٤١، والبحر ٥/ ٣٠٣، وجاء في حاشية (م): وروي عنهما أيضاً ـ كما قاله صاحب اللوامح ـ كقراءة أبي عمرو. اهـ منه. وهو منقول من البحر ٥/ ٣٠٣.

(٦) في (م): مراداً، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٥/ ١٧٤.

(٧) البيت للجميح الأسدي، وهو في الأصمعيات ص٢١٨، والحجة للفارسي ٤/ ٤٢٢، والمحتسب ١/ ٣٤١، والدر المصون ٦/ ٤٨٢. قوله: فَدْم، الفَدْم: العييُّ في الكلام في ثِقل ورخاوة وقلة فهم. القاموس (فدم).

(٨) المحتسب ١/ ٣٤١، والبحر ٥/ ٣٠٣، وعزاها ابن خالويه في القراءات الشاذة للقطعي عن نافع.

كالعَرَض اللَّاحق لها. وضُعِّفت هذه القراءة بأنَّ فيها التقاءَ الساكنين على غير حدِّه. وفي رواية أخرى عنه أنه قرأ: «حاشَ الإله»[١].

وقرأ الأعمش: «حشا لله» بحذف الألف الأولى[٢].

هذا واستدلَّ المبرِّدُ وابن جنِّي والكوفيون على أن «حاش» قد تكون فعلاً بالتصرُّف فيها بالحذف كما علمت في هذه القراءات، وبأنَّه قد جاء المضارع منها كما في قول النابغة:

ولا أرى فاعلاً في الناس يشبهه ... ولا أُحاشي من الأقوام من أحد[٣]

ومقصودُهم الردُّ على سيبويه[٤] وأكثرِ البصريَّة حيث أنكروا فعليَّتها، وقالوا: إنها حرفٌ دائماً بمنزلة «إلَّا» لكنَّها تجرُّ المستثنى، وكأنَّه لم يبلغهم النصبُ بها كما في قوله:

حاشا قريشاً فإنَّ الله فضَّلهم[٥]

وربَّما يجيبون عن التصرُّف بالحذف بأنَّ الحذف قد يدخل الحرفَ كقولهم: أما والله، وأَمَ والله، نعم رُدَّ عليهم أيضاً بأنَّها تقع قبل حرف الجرِّ.

ويقابل هذا القولَ ما ذهب إليه الفرَّاء من أنَّها لا تكون حرفاً أصلاً، بل هي فعلٌ دائماً ولا فاعلَ لها، والجرُّ الواردُ بعدها كما في:

حاشاي إنِّي مسلم معذور[٦]

والبيتِ المارِّ آنفاً بلامٍ مقدَّرة.

---

(١) المحتسب ١/ ٣٤١، والبحر ٥/ ٣٠٣.

(٢) البحر ٥/ ٣٠٣.

(٣) ديوان النابغة ص٣٣، والدر المصون ٦/ ٤٨٤. وينظر قول المبرد وابن جني وغيرهما في المقتضب ٤/ ٣٩١، والمحتسب ١/ ٣٤٢، والمغني لابن هشام ص١٦٤-١٦٥.

(٤) في الكتاب ٢/ ٣٤٩، قال: وأما حاشا فليس باسم، ولكنه حرف يجر مابعده كما تجر «حتى» ما بعدها، وفيه معنى الاستثناء.

(٥) وعجزه: على البرية بالإسلام والدين، وهو في شرح الألفية لابن عقيل ١/ ١٧٧.

(٦) وصدره: في فتية جعلوا الصليب إلاهَهم، والبيت للأقيشر كما في اللسان (حشا)، والدرر اللوامع ٣/ ١٧٧، ودون نسبة في الأضداد لابن الأنباري ص٣٢٢. قوله: معذور، أي: مختون.

والحقُّ أنها تكون فعلاً تارةً؛ فينصب ما بعدَها، ولها فاعلٌ وهو ضميرٌ مستكنٌّ فيها وجوباً يعود إمَّا على البعض المفهوم من الكلام، أو المصدر المفهوم من الفعل، ولذا لم يُثنَّ، ولم يُجمعْ، ولم يؤنَّثْ.

وحرفاً أخرى ويجرُّ ما بعدها، ولا تتعلَّق بشي كالحروف الزائدةِ عند ابن هشام، أو تتعلَّق بما قبلها من فعلٍ أو شبههِ عند بعض، ولا تدخلُ عليها «إلا» كما إذا كانت فعلاً، خلافاً للكسائي في زعمه جوازَ ذلك إذا جَرَّت، وأنها إذا وقعت قبل لام الجرِّ كانت اسمَ مصدر مرادفاً للتنزيه، وتمامُ الكلام في محله.

﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ نَفَيْنَ عنه البشريَّة لِمَا شاهدْنَ من جماله الذي لم يُعهَدْ مثالُه في النَّوع الإنساني، وقَصْرُهنَّ[1] على الملكيَّة بقولهنَّ: ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي: ما هذا ﴿إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١﴾ أي: شريفٌ كثيرُ المحاسن، بناء على ما رُكز في الطِّباع من أنه لا حيَّ أحسنُ من المَلَك كما رُكز فيها أنْ لا أقبح من الشيطان، ولذا لا يزالُ يشبَّه بهما كلُّ متناهٍ في الحُسْنِ والقُبْح وإن لم يَرَهما أحدٌ، وأنشدوا لبعض العرب:

فلستَ لإنسيٍّ ولكنْ لِمِلْأكٍ تنزَّل من جوِّ السماء يَصُوبُ[2]

وكثُر في شعر المُحْدَثين ما هو من هذا الباب، ومنه قوله:

تُرْكٌ إذا قُوبلوا كانوا ملائكةً حُسْناً وإن قُوتلوا كانوا عَفاريتا[3]

وغرضهنَّ من هذا وصفُه بأنَّه في أقصى مراتبِ الحُسن والكمال الملائم لطباعهنَّ.

ويُعلم ممَّا قرِّر أنَّ الآية لا تقومُ دليلاً على أنَّ المَلَكَ أفضلُ من بني آدم كما ظنَّ

---

(١) كذا في الأصل و(م)، وفي تفسير أبي السعود ٤/ ٢٧٢ (والكلام منه): وقصرنه.

(٢) البيت لعلقمة بن عبدة كما في المفضليات ص٣٩٤، وتحصيل عين الذهب ص٥٩٠، وهو في زيادات ديوانه ص١١٨، ونسب في مجاز القرآن ١/ ٣٣، والصحاح (ملك) لجاهلي من عبد القيس يمدح بعض الملوك، وهو دون نسبة في الكتاب ٤/ ٣٨٠، والمنصف ٢/ ١٠٢، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ١١٢، وتفسير الطبري ١/ ٣٥٠.

(٣) البيت لأبي إسحاق إبراهيم بن عثمان المعروف بالغزي، كما في خريدة القصر للعماد الأصفهاني ١/ ٩، والبحر ٥/ ٢٤١، وفيهما: قوم، بدل: ترك.

أبو علي الجبَّائي وأتباعه، وأيَّده الفَخْر ـ ولا فخر له ـ بما أيَّده[(١)].

وذهب غيرُ واحد إلى أنَّ الغرض تنزيهُه عليه السَّلام عمَّا رمي به على أكملِ وجه، وافتتحوا ذلك بـ «حاش لله» على ما هو الشائع في مثل ذلك، ففي «شرح التسهيل»: الاستعمال على أنَّهم إذا أرادوا تبرئةَ أحدٍ من سوءٍ ابتدؤوا تبرئةَ الله سبحانه من السُّوء، ثم يبرِّئون مَن أرادوا تبرئتَه، على معنى أنَّ الله تعالى منزَّهٌ عن أنْ لا يطهِّرَه مما يضيمُه، فيكون آكَدُ وأبْلَغ.

والمنصور ما أشير إليه أولاً، وهو الذي يقتضيه السِّياق والسباق، نعم هذا الاستعمالُ ظاهر فيما يأتي إن شاء الله تعالى من قوله تعالى عن النِّسوة: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ [يوسف:٥١].

و«ما» عاملةٌ عمل «ليس» ـ وهي لغة الحجازيين ـ لمشابهتِها لها في نفي الحال على ما هو المشهورُ في «ليس» من أنَّها لذلك، أو في مطلَقِ النَّفي بناءً على ما قال الرضيُّ من أنها تَرِدُ لنفي الماضي والمستقبل، والغالبُ على لغتهم جرُّ الخبر بالباء، حتَّى إنَّ النحويين لم يجدوا شاهداً على النَّصب في أشعارهم غيرَ قوله:

وأنا النذيرُ بحرَّةٍ مُسْوَدَّةٍ ... تصلُ الجيوشُ إليكم أقوادَها
أبناؤها متكنِّفون أباهمُ ... حَنِقُو الصدورِ وما همُ أولادَها[(٢)]

والزمخشريُّ يسمِّي هذه اللغةَ: اللغةُ القُدْمى الحجازيَّة[(٣)]. ولغةُ بني تميم في مثل ذلك الرفعُ، وعلى هذا جاء قولُه:

ومُهَفْهَفِ الأعطافِ قلتُ له انتسبْ ... فأجاب ما قتلُ المحبِّ حرامُ[(٤)]

---

(١) تفسير الفخر الرازي ١٨/١٢٩.

(٢) الحماسة البصرية ١/٨٦، وشرح الألفية لابن عقيل ١/٣٠٢، والبحر ٥/٣٠٤، والدر المصون ١/١٢٣. ووقع في الأصل و(م): قوادها، بدل: أقوادها، والمثبت من المصادر. الحرة: أرض ذات حجارة سود نخرات كأنها أحرقت بالنار. وقوله: متكنفون، أي: محيطون، والكنف: ناحية الشيء. اللسان (حرر) و(كنف).

(٣) الكشاف ٢/٣١٧.

(٤) ذكره لسان الدين الخطيب في الإحاطة في أخبار غرناطة ٢/٢١٩، والتلمساني في نفح الطيب ٥/٢٢٧.

وبلُغتهم قرأ ابنُ مسعودٍ ﷺ[1]؛ وزعم ابنُ عطيَّةَ أنه لم يقرأ بها أحدٌ هنا[2].

وقرأ الحسن وأبو الحويرث الحنفي: «ما هذا بِشِرى» بالباء الجارَّة، وكَسْرِ الشين[3]، على أنَّ «شِرى» ـ كما قال صاحبُ «اللوامح» ـ مصدرٌ أُقيم مقامَ المفعول به[4]، أي: ما هذا بمَشْرِيٍّ، أي: ليس ممنٍ[5] يُشترى، بمعنى أنَّه أعزُّ من أن يجري عليه ذلك.

ورَوَى هذه القراءة عبدُ الوارث عن أبي عمرو أيضاً إلَّا أنه رَوَى عنه أنَّه مع ذلك كَسَر اللام من «ملك»[6]، وروى الكسرَ ابنُ عطيَّة عن الحسن وأبي الحويرث أيضاً[7]. والمراد إدخالُه في حيِّز الملوك بعد نفي كونه مما يصلحُ للمملوكية، فبين الجملتين تناسبٌ ظاهر.

وكأنَّ بعضَهم لم يرَ أنَّ مَن قرأ بذلك قرأ أيضاً «مِلِك» بكسر اللام فقال لتحصيل التناسُب بينهما في تفسير ذلك: أي: ما هذا بعبدٍ مشترًى لئيم[8]. وعلى التقديرَيْن لا يقال: إنَّ هذه القراءةَ مخالِفةٌ لمقتضى المقام، نعم إنَّها مخالفةٌ لرسمِ المصحف؛ لأنَّه لم يكتبْ ذلك بالياء فيه.

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ﴾ الفاءُ فصيحة، والخطابُ للنسوة، والإشارة ـ حسبما يقتضيه الظاهر ـ إلى يوسفَ عليه السلام بالعنوان الذي وَصَفْنَه به الآن، من الخروج في الحُسْن والكمال عن المراتب البشريَّة والاقتصارِ على المَلَكيَّة. أو بعنوانِ ما ذكر مع الإكبار[9]

---

(١) البحر ٥/ ٣٠٤.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٤٠.

(٣) المحتسب ١/ ٣٤٢، والبحر ٥/ ٣٠٤.

(٤) جاء في حاشية (م): وجوِّز إبقاؤه على المصدرية، أي: لم يحصل هذا بِشِرى. اهـ منه.

(٥) في الأصل: مما.

(٦) البحر ٥/ ٣٠٤.

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٢٤٠.

(٨) جاء في هامش الأصل و(م): والأولى أن يقال: أي: ما هذا عبد لئيم يملك، بل سيد كريم مالك، فتدبر. اهـ منه. وقوله: ما هذا بعبد مشترى لئيم، هو قول الزمخشري في الكشاف ٢/ ٣١٧، والبيضاوي في تفسيره مع حاشية الشهاب ٥/ ١٧٥.

(٩) في (م): الإخبار، وهو تصحيف.

وتقطيعِ الأيدي بسببه أيضاً، فاسم الإشارة مبتدأ والموصولُ خبرُه، والمعنى: إنْ كان الأمرُ كما قلتنَّ فذلكنَّ الملَكُ الكريم الخارجُ في الحُسْن عن المراتب البشريَّة، أو الذي قطعتنَّ أيديكنَّ بسببه وأَكْبَرْتُنَّه ووصفتُنَّه بما وصفتنَّه هو ﴿ٱلَّذِى لُمۡتُنَّنِى فِيهِۖ﴾ أي: عيَّرتُنَّني في الافتتان فيه.

أو بالعنوانِ الذي وَصَفْنَه به فيما سبق بقولهنَّ: امرأةُ العزيز عشقتْ عبدَها الكنعاني، فاسمُ الإشارة خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ دخلتِ الفاءُ عليه بعد حذْفِه، والموصولُ صفةُ اسمِ الإشارة، أي: فهو ذلكنَّ العبدُ الكنعانيُّ الذي صورتنَّ في أنفسكنَّ وقلتنَّ فيه وفيَّ ما قلتنَّ، فالآن قد علمتُنَّ مَن هو وما قولكنَّ فينا.

وقيل: أرادت: هذا ذلك العبد الكنعانيُّ الذي صورتُنَّ في أنفسكنَّ ثمَّ لمتنَّني فيه، على معنى أنكنَّ لم تصوِّرنه بحقِّ صورته، ولو صوَّرتنَّه بما عاينتُنَّ لعذرتُنَّني في الافتتان به(١).

والإشارةُ بما يُشار به إلى البعيد مع قُرْب المشارِ إليه وحضورِه قيل: رفعاً لمنزلته في الحُسْن واستبعاداً لمحلِّه فيه، وإشارةً إلى أنَّه لغرابته بعيدٌ أنْ يوجَدَ مثله. وقيل: إنَّ يوسف عليه السلام كان في وقتِ اللَّوم غيرَ حاضر وهو عندَ هذا الكلام كان حاضراً، فإنْ جُعلت الإشارةُ إليه باعتبار الزمان الأوَّل كانتْ على أصلها، وإن لوحظ الثاني كان قريباً، وكانت الإشارة بما ذُكر لتنزيلِه ـ لعلوِّ منزلته ـ منزلةَ البعيد.

واحتمالُ أنه عليه السلام أُبْعِدَ عنهنَّ وقت هذا الكلام لئلَّا يزددْنَ دهشةً وفتنة، ولذا أُشير إليه بـ «ذلك» بعيدٌ.

وجوَّز ابنُ عطية كونَ الإشارة إلى حبِّ يوسفَ عليه السلام، وضميرُ «فيه» عائدٌ إليه، وجعلَ الإشارة على هذا إلى غائبٍ على بابها(٢). ويبعدُه على ما فيه: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ وهو إباحةٌ منها ببقيةِ سرِّها بعد أنْ أقامتْ عليهنَّ الحجَّة،

---

(١) في هامش الأصل و(م): تعقبه المولى أبو السعود بأنه لا يناسب المقام، وبيَّن ذلك بما فيه تأمل. اهـ. وينظر تفسير أبي السعود ٤/ ٢٧٣.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٤١.

وأوضحت لديهنَّ عُذرَها، وقد أصابهنَّ من قِبَله ما أصابَها[1]، أي: والله لقد راودتُه حسبما قلتنَّ وسمعتنَّ.

﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾ قال ابن عطية: أي طلبَ العصمةَ وتمسَّك بها وعصاني[2]. وفي «الكشاف»: أنَّ الاستعصامَ بناءُ مبالغةٍ يدلُّ على الامتناع البليغ والتحفُّظ الشديد، كأنَّه في عصمةٍ وهو مجتهدٌ في الاستزادة منها، ونحوُه: استمسَكَ، واسْتَوْسَعَ الفتقُ، واستَجْمَعَ الرأي، واستَفْحَلَ الخَطْبُ[3]. اهـ. وفي «البحر»: والذي ذكره الصَّرفيُّون في «استعصم» أنه موافقٌ لاعتصم، وأمَّا استمْسَك واستوسَع واستجْمَع، فاستفعل فيه أيضاً موافَقةٌ لافتعل، والمعنى: امْتسك واتَّسع واجتمع، وأمَّا استفحل، فاستفعل فيه موافقةٌ لتفعَّل، أي: تفحَّل، نحو استكبر وتكبَّر[4]. فالمعنى: فامتنع عمَّا أرادتْ منه، وبالامتناع فسِّرت العصمة على إرادةِ الطلب؛ لأنه هو معناها لغةً، قيل: وعنتْ بذلك فرارَه عليه السلام منها، فإنه امتنع منها أوَّلاً بالمقال، ثمَّ لمَّا لم يُفِدْه طلب ما يمنعُه منها بالفَرار، وليس المراد بالعصمة ما أودَعه الله تعالى في بعضِ أنبيائه عليهم السَّلام ممَّا يمنعُ عن الميل للمعاصي، فإنه معنًى عُرفيٌّ لم يكنْ قبلُ، بل لو كان لم يكن مراداً كما لا يخفى.

وتأكيدُ الجملة بالقسم ـ مع أنَّ مضمونها من مراودتِها له عن نفسه مما تحدَّث به النسوة ـ لإظهار ابتهاجها بذلك.

وقيل: إنه باعتبار المعطوف وهو الاستعصام، كأنَّها نَظَمته لقوَّةِ الداعي إلى خلافه من كونه عليه السلام في عنفوانِ الشباب ومزيد اختلاطه معها ومراودتها إيَّاه مع ارتفاع الموانع فيما تظنُّ في سلك ما ينكر ويكذِّب المخبِر به، فأكَّدته لذلك. وهو كما ترى.

وفي الآية دليلٌ على أنه عليه السلام لم يصدرْ منه ما سوَّد به القُصَّاص وجوهَ

---

(١) في حاشية (م): وكأنها عملت بما قيل:

لا تُخْفِ ما صنعت بك الأشواق ... واشرح هواك فكلنا عشاق

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٤١.

(٣) الكشاف ٢/ ٣١٨.

(٤) البحر ٥/ ٣٠٦.

الطُّروس(١)، وليت السُّدِّيَّ لو كان قد سدَّ فاه عن قوله: فاستعصم بعد حلِّ سراويله.

ثمَّ إنها بعد أن اعترفتْ لهنَّ بما سمعْنَه وتحدَّثْنَ(٢) به، وأظهرتْ من إعراضِه عنها واستعصامِه ما أظهرتْ، ذكرت أنها مستمرَّة على ما كانت عليه، لا يَلْويها عنه(٣) لومٌ ولا إعراض، فقالت: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ أي: الذي آمرُ به فيما سيأتي كما لم يفعل فيما مضى، ف «ما» موصولة، والجملةُ بعدَها صلةٌ، والعائدُ الهاء، وقد حذف حرفُ الجرِّ منه فاتصل بالفعل، وهذا أمر شائع مع «أمر»، كقوله:

أمرتُكَ الخيرَ فافعلْ ما أُمِرْتَ به(٤)

ومفعول «أمر» الأوَّلُ إمَّا متروكٌ لأنَّ مقصودَها لزومُ امتثال ما أمرتْ به مطلقاً كما قيل، وإمَّا محذوفٌ لدلالة «يفعل» عليه وهو ضميرٌ يعودُ على يوسف، أي: ما آمره به. وجوِّز أن يكون الضميرُ الموجود هو العائدَ على يوسف، والعائدُ على الموصول محذوفٌ، أي: به، ويعتبر الحذفُ تدريجيًّا لاشتراطهم في حذف العائد المجرور بالحرف كونَه مجروراً بِمْثلِ ما جُرَّ به الموصول لفظاً ومعنًى ومتعلَّقاً، وإذا اعتبر التدريج في الحذف يكون المحذوف منصوباً، وكذا يقال في أمثال ذلك.

وقال ابن المنيِّر في «تفسيره»(٥): إنَّ هذا الجارَّ مما أُنس حذفُه، فلا يقدَّر العائد إلا منصوباً مفصولاً، كأنه قيل: آمر يوسف إيَّاه، لتعذُّر اتصال ضميرين من جنسٍ واحد.

ويجوز أن تكون «ما» مصدريَّةً، فالضمير المذكورُ ليوسف، أي: لئن لم يفعل أمري إيَّاه، ومعنى فِعْلِ الأمر فِعْلُ موجبه ومقتضاه، فهو إمَّا على الإسناد المجازيِّ،

---

(١) جمع الطِّرس، وهي الصحيفة. اللسان (طرس).

(٢) في (م): وتحدثهن، وهو تصحيف.

(٣) في (م): عنها.

(٤) وعجزه: فقد تركتك ذا مال وذا نَشَب، وسلف ٧/ ٤٩٩.

(٥) كما في حاشية الشهاب ٥/ ١٧٥، واسم هذا التفسير كما في الديباج المذهب ١/ ٢٤٥: البحر الكبير في نخب التفسير.

أو تقدير المضاف، وعبَّرت عن مراودتها بالأمر إظهاراً لجريان حكومتها عليه واقتضاءً للامتثال لأمرِها.

﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ بالنُّون الثقيلة، آثرت بناءَ الفعل للمفعول جرياً على رسم الملوك. وجوِّز أن يكون إيهاماً لسرعةِ ترتُّب ذلك على عدم امتثاله لأمرِها كأنه لا يدخلُ بينهما فعلُ فاعلٍ.

﴿وَلَيَكُونًا﴾ بالمخفَّفة ﴿مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: الأذلَّاء المهانين، وهو من صَغِر كفَرِحَ، ومصدرُه: صَغَرٌ بفتحتين، وصُغْرٌ بضمٍّ فسكون، وصَغَارٌ بالفتح، وهذا في القَدْر، وأمَّا في الجثَّة والجِرْم فالفِعْل صغُر ككَرُمَ، ومصدرُه صِغَرٌ كعِنَب، وجعل بعضُهم الصَّغار مصدراً لهذا أيضاً، وكذا الصَّغَر بالتحريك، والمشهورُ الأوَّل.

وأكَّدت السَّجْنَ بالنون الثقيلة؛ قيل: لتحقُّقه، وما بعدَه بالنُّون الخفيفة لأنَّه غيرُ متحقِّق، وقيل: لأنَّ ذلك الكون من توابع السِّجن ولوازمه، فاكتفت في تأكيده بالنُّون الخفيفة بعد أن أكَّدت الأوَّلَ بالثقيلة.

وقرأت فرقةٌ بالتثقيل فيهما[1]، وهو مخالفٌ لرسم المصحف؛ لأنَّ النونَ رُسمت فيه بالألف كـ ﴿لَنَسْفَعًۢا﴾ [العلق: ١٥] على حكم الوَقف، وهي يُوقف عليها بالألف كما في قول الأعشى:

ولا تعبدِ الشيطانَ واللهَ فاعبدا[2]

وذلك في الحقيقة لشبهها بالتنوين لفظاً؛ لكونها نوناً ساكنة مفردةً تلحقُ الآخِر.

واللامُ الدَّاخلة على حرف الشرط موطِّئةٌ للقسم، وجوابُه سادٌّ مسدَّ الجوابين. ولا يخفى شدَّةُ ما توعَّدتْ به، كيف وإنَّ للذلِّ تأثيراً عظيماً في نفوس الأحرار، وقد يقدِّمون الموتَ عليه وعلى ما يجرُّ إليه.

قيل: ولم تذكر العذابَ الأليم الذي ذكرتْه في ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ إلخ لأنَّها إذ ذاك كانت في طراوةِ غَيظِها ومتنصِّلةً من أنَّها هي التي

---

(١) الكشاف ٢/ ٣١٨، والبحر ٥/ ٣٠٦.

(٢) وصدره: وذا النُّصُب المنصوب لا تَنْسُكنَّه، وهو في ديوان الأعشى ص١٨٧.

راودته، فناسَبَ هناك التغليظَ بالعقوبة، وأما هنا فإنها في طماعيةٍ ورجاء، وأقامت[١] عُذرها عند النسوة، فرقَّتْ عليه فتوعَّدته بالسَّجن وما هو من فروعِه ومستتبعاته.

وقيل: إنَّ قولها: «ليكوناً من الصاغرين» إنَّما أتت به بدلَ قولها هناك: «عذاب أليم» وأرادت[٢] ذلَّه بالقيد، أو بالضرب، أو بغير ذلك. لكن يحتمل أنَّها أرادت بالذُّلِّ والعذاب الأليم ما يكونُ بالضرب بالسِّياط فقط، أو ما يكون به أو بغيره، أو أرادت بالذلِّ ما يكون بالضرب، وبالعذاب الأليم ما يكون به أو بغيره، أو بالعكس.

وكيفما كان الأمر فما طلبتْه هنا أعظمُ مما لوَّحت بطلبه هناك؛ لمكان الواو هنا و«أو» هناك، ولعلَّها إنما بالغتْ في ذلك بمحضرٍ من تلك النِّسوة لمزيد غيظِها بظهورِ كذبها وصدقِه، وإصرارِه على عدم بلِّ غليلِها، ولتُعلمَ يوسفَ عليه السَّلام أنها ليست في أمرها على خِيْفَةٍ ولا خفيةٍ من أحدٍ، فتَضِيقُ عليه الحيل وتَعْيَى به العِلل، وينصحنَ له ويرشدْنَه إلى موافقتها، فتدبَّر.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّ سائلاً يقول: فماذا صنع يوسفُ عليه السلام حينئذٍ؟ فقيل: قال مناجياً لربِّه عزَّ وجلَّ: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ﴾ الذي وَعَدَتْني بالإلقاء فيه، وهو اسم للمَحْبس[٣].

وقرأ عثمان ومولاه طارق، وزيدُ بن علي، والزهريُّ، وابنُ أبي إسحاق، وابنُ هرمز، ويعقوبُ: «السَّجْن» بفتح السِّين[٤] على أنَّه مصدر سَجَنه، أي: حَبَسه، وهو في القراءتين مبتدأ خبرُه ما بعده.

وقرئ: «ربُّ» بالضمِّ، و«السِّجنِ» بكسر السين والجرِّ على الإضافة، ف «ربُّ»

---

(١) في الأصل و(م): وإقامة، والمثبت من البحر ٥/ ٣٠٦، والكلام منه. وطارق مولى عثمان ﷺ هو ابن عمرو المكي مولاهم القاضي، سمع من جابر بن عبد الله، ولاه عبد الملك على المدينة ثم عزله وولَّى الحجاج. التهذيب ٢/ ٢٣٣.

(٢) قوله: وأرادت، ساقط من (م).

(٣) في الأصل: للحبس.

(٤) النشر ٢/ ٢٩٥ عن يعقوب، والكلام من البحر ٥/ ٣٠٦.

حينئذٍ مبتدأ والخبرُ هو الخبر، والمعنى على ما قيل: لقاءُ صاحب السِّجن، أو: مقاساةُ أمرِه[١].

﴿أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ أي: آثَرُ عندي؛ لأنَّ فيه مشقَّةً قليلةً نافذةً، إثْرَها راحاتٌ كثيرةٌ أبديَّةٌ ﴿مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ من مواتاتها التي تؤدِّي إلى الشَّقاوة والعذاب الأليم، وصيغةُ التفضيل ليست على بابها؛ إذ ليس له عليه السلام شائبةُ محبَّةٍ لِمَا يَدْعونه إليه، وإنَّما هو والسِّجن شرَّان أهونُهما وأقربهما إلى الإيثار السجن.

والتعبيرُ عن الإيثار بالمحبَّة لحسمِ مادَّة طمعها عن المساعدةِ لها على مطلوبها خوفاً من الحبس. والاقتصارُ على السّجن لكون الصَّغار من مستتبعاته على ما قيل.

وقيل: اكتفى عليه السَّلام بذكرِ السّجن عن ذكره لوفائِه بالغرض، وهو قطعُ طَمَعِها عن المساعدة خوفاً مما توعَّدته به؛ لأنَّها تظنُّ أنَّ السجنَ أشدُّ عليه من الصَّغار، بناءً على زعمِها أنه فتاها حقيقةً، وأنَّ الفتيان لا يشقُّ عليهم ذلك مشقَّةَ السجن، ومتى كان الأشدُّ أحبَّ إليه مما يدعونه إليه كان غيرُ الأشدِّ أحبَّ إليه من باب أولى، وفيه منعٌ ظاهر.

وإسنادُ الدعوة إليهنَّ لأنهنَّ خوَّفْنَه عن مخالفتها، وزيَّنَّ له مطاوعتَها، فقد روي أنهنَّ قلنَ له: أطعْ مولاتَك واقضِ حاجاتها لتأمنَ من عقوبتها، فإنَّها المظلومةُ وأنتَ الظالم.

وروي أنَّ كلًّا منهنَّ طلبت الخلوةَ لنصيحته، فلما خلتْ به دعته إلى نفسها. وعن علي بن الحسين ﵄ أنَّ كلَّ واحدة منهنَّ أرسلت إليه سرًّا تسألُه الزيارةَ. فإسنادُ ذلك إليهنَّ لأنهنَّ أيضاً دعونه إلى أنفسهنَّ صريحاً أو إشارةً.

وفي أثرٍ ذكره القرطبيُّ أنه عليه السلام لما قال: «ربِّ السجنُ أحبُّ إليَّ» إلخ أوحى الله تعالى إليه: يا يوسف أنتَ جنيتَ على نفسك، ولو قلت: العافيةُ أحبُّ إليَّ، عُوفيتَ[٢]. ولذلك ردَّ رسول الله ﷺ على مَن كان يسأل الصَّبر، فقد رَوَى

---

(١) الإملاء ٣/ ٣٣٥، والدر المصون ٦/ ٤٩٣.

(٢) تفسير القرطبي ١١/ ٣٣٩، وذكره أيضاً ابن قتيبة في عيون الأخبار ١/ ٧٩.

الترمذيُّ عن معاذ بن جبل عنه عليه الصَّلاة والسَّلام: أنه سمع رجلاً وهو يقول: اللهمَّ إني أسألك الصَّبر. فقال ﷺ: «سألتَ الله تعالى البلاءَ فاسأله العافيةَ»[١].

﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ﴾ أي: وإنْ لم تدفع ﴿عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ في تحبيب ذلك إليَّ وتحسينِه لديَّ، بأنْ تثبِّتَني على ما أنا عليه من العِصمة والعِفَّة ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: أمِلْ على قضيَّة الطبيعة وحُكم القوَّة الشهويَّة إلى إجابتهنَّ بمواتاتها. أو: إلى أنفسهنَّ، وهو كنايةٌ عن مواتاتهنَّ.

وهذا فزعٌ منه عليه السَّلام إلى ألطاف الله تعالى جرياً على سَنَنِ الأنبياء عليهم السلام والصَّالحين في قَصْرِ نيلِ الخيرات والنَّجاةِ عن الشُّرور على جناب الله تعالى، وسلبِ القوى والقُدَرِ عن أنفسهم، ومبالغةٌ في استدعاء لطفِه سبحانه في صرفِ كيدهنَّ بإظهار أنَّه لا طاقةَ له بالمدافعة، كقول المستغيث: أدركني وإلا هلَكْتُ، لا أنَّه عليه السلام يطلبُ الإجبار والإلجاء إلى العصمةِ والعفَّة وفي نفسه داعيةٌ تدعوه إلى السُّوء، كذا قرَّرة المولى أبو السُّعود[٢]. وهو معنًى لطيفٌ، وقد أخذه من كلام الزمخشريِّ[٣].

لكنْ قال القطب وغيرُه: إنَّه فرارٌ إلى الاعتزال، وإشارةٌ إلى جواب استدلالِ الأشاعرة بهذه الآية على أنَّ العبدَ لا ينصرفُ عن المعصية إلا إذا صرفه الله تعالى، وقد قرَّر ذلك الإمام[٤] بما قرَّره، فليُراجَعْ وليُتأمَّل.

وأصل «إلَّا»: «إنْ لا» فهي مركَّبةٌ من «إنْ» الشرطية و«لا» النافية كما أشرنا إليه، وقد أدغمت فيه النُّون باللام. و«أَصْبُ» من صَبَا يَصْبو صَبْواً وصَبْوَةً: إذا مال إلى الهوى، ومنه الصَّبا للريح المخصوصة؛ لأنَّ النفوس تميلُ إليها لطيب نسيمِها ورَوْحها. مضارعٌ مجزوم على أنَّه جواب الشرط. والجملةُ الشرطية عطفٌ على قوله: «السجن أحبُّ»، وجيء بالأولى اسميَّةً دون الثانية لأنَّ أَحَبِّيَّته السجنَ مما يدعونه إليه كانت ثابتةً مستمرَّةً، ولا كذلك الصَّرفُ المطلوب.

---

(١) سنن الترمذي (٣٥٢٧)، وقال الترمذي: حديث حسن.
(٢) في تفسيره ٤/ ٢٧٤.
(٣) في الكشاف ٢/ ٣١٩.
(٤) في تفسيره ١٨/ ١٣١-١٣٢.

وقرئ: «أَصَبُّ[1]» من صَبِبْتُ صبابةً: إذا عشقْت، وفي «البحر»: الصبابةُ إفراطُ الشَّوق، كأنَّ صاحبها ينصبُّ فيما يهوى[2]. والفعل مضمَّنٌ معنى الميلِ أيضاً ولذا عدِّي بإلى، أي: أصبُّ مائلاً إليهنَّ.

﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٣٣﴾ أي: الذين لا يعملون بما يعلمون؛ لأنَّ مَن لا جدْوى لعِلْمه فهو ومَنْ لايعلم سواءٌ، أو من السفهاء بارتكاب ما يدعونني إليه من القبائح؛ لأنَّ الحكيمَ لا يفعلِ القبيح، فالجهلُ بمعنى السفاهة ضدّ الحكمة لا بمعنى عدمِ العلم، ومن ذلك قولُه:

أَلَا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ علينا ... فنجهلَ فوقَ جَهْلِ الجاهلينا[3]

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ أي: أجاب له على أبلغِ وجهٍ دعاءَه الذي تضمَّنه قولُه: «وإلَّا تصرف عنِّي كيدهنَّ» إلخ، فإنه في قوَّة قوله: اصرفْه عني، بل أقوى منه في استدعاء الصَّرف على ما علمتَ، وفي إسناد الاستجابة إلى الربِّ مضافاً إلى ضميره عليه السَّلام ما لا يخفى من إظهارِ اللُّطف، وزاد حُسنَ موقعِ ذلك افتتاحُ كلامه عليه السلام بندائِه تعالى بعنوان الرُّبوبيَّة.

﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ حسبَ دعائِه بأنْ ثبَّته على العِصْمة والعِفَّة، وحالَ بينه وبين المعصية.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعاء المتضرِّعين إليه ﴿ٱلْعَلِيمُ ۝٣٤﴾ بأحوالهم وما انطوتْ عليه نيَّاتهم وبما يصلحُهم، لا غيرُه سبحانه.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾ أي: ظهر للعزيز وأصحابه المتصدِّين للحلِّ والعقد ريثما[4] اكتفَوا بأمر يوسفَ عليه السَّلام بالكتمان والإعراض عن ذلك ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الصَّارفة لهم عن ذلك البداء، وهي الشواهدُ الدَّالَّة على براءته عليه السلام وطهارتِه؛ من قدِّ القميص وقطعِ النِّساء أيديهنَّ. وعليهما اقتصر قتادةُ فيما أخرجه

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٤، والبحر ٥/ ٣٠٧.

(٢) البحر ٥/ ٣٠٧.

(٣) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم، وهو في ديوانه ص١١٧، وسلف ٥/ ٣٧٩.

(٤) في (م): ربما، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ٢٧٤، والكلام منه.

عنه ابنُ جرير[١]، وفيه إطلاقُ الجمع على اثنين، والأمرُ فيه هيِّن.

وعن مجاهدٍ الاقتصارُ على القدِّ فقط؛ لأنَّ القطعَ ليس من الشواهد الدَّالَّة على البراءة في شيءٍ[٢]، ويحملُ الجمعُ حينئذٍ على التعظيم، أو «أل» على الجنسيَّة وهي تبطلُ معنى الجمعيَّة، كذا قيل، وهو كما ترى.

ووجَّه بعضهم عدَّ القطع من الشواهد بأنَّ حُسْنَه عليه الصلاة والسلام الفاتنَ للنساء في مجلسٍ واحد، وفي أوَّل نظرةٍ، يدلُّ على فتنتِها بالطريق الأولى، وأنَّ الطلبَ منها لا منه.

وعدَّ بعضُهم استعصامَه عليه السلام عن النِّسوة إذ دعونه إلى أنفسهنَّ؛ فإنَّ العزيز وأصحابَه قد سمعوه وتيقَّنوه[٣] حتى صار كالمشاهَد لهم، ودلالةُ ذلك على البراءة ظاهرة. وأخرج ابنُ أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمةَ قال: سألت ابنَ عباس رضي الله عنهما: عن الآيات، فقال: ما سألني عنها أحدٌ قبلَك، من الآيات: قدُّ القميص، وأثرُها في جسده، وأثرُ السِّكين[٤]. فعَدَّ رضي الله عنه الأثرَ من الآيات ولم يذكرْ فيما سبق. ومن هنا قيل: يجوز أن يكونَ هناك آياتٌ غير ما ذُكر تُرك ذكرُها كما تُرك ذكرُ كثير من معجزات الأنبياء عليهم السَّلام.

وفاعلُ «بدا» ضميرٌ يعود إمَّا للبداء مصدر الفعل المذكور، أو بمعنى الرأي كما في قوله:

لعلَّك والموعودُ حقٌّ لقاؤُه ... بدا لك في تلك القَلوص بَداءُ[٥]

وإمَّا للسَّجن بالفتح المفهوم من قوله سبحانه: ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ﴾.

(١) في تفسيره ١٣/ ١٤٨.
(٢) بعدها في (م): حينئذ للتعظيم.
(٣) في (م): وتيقنوا به.
(٤) الدر المنثور ٤/ ١٨، وهو في تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٣٩ دون قوله: وأثرها في جسده.
(٥) البيت لمحمد بن بشير الخارجي كما في الأغاني ١٦/ ١٢٣، ونسبه صاحب اللسان (بدا) للشماخ، وهو في ملحقات ديوانه ص٤٢٧، وذكره ابن الشجري في الأمالي ٢/ ٣٧، وأبو حيان في البحر ٥/ ٣٠٧ دون نسبة. قوله: والموعود، أي: والأمر الموعود، أو يكون الموعود مثل الوعد.

وجملةُ القسم وجوابُه إمَّا مفعولٌ لقولٍ مضمرٍ وقع حالاً من ضمير «هم»، وإلى ذلك ذهب المبرِّد، وإما مفسِّرةٌ للضمير المستتر في «بدا» فلا موضعَ لها.

وقيل: إنَّ جملةَ «ليسجننه» جوابٌ لـ «بدا» لأنَّه من أفعال القلوب، والعربُ تُجريها مجرى القَسَم وتتلقَّاها بما يتلقَّى به.

وزعم بعضُهم أنَّ مضمون الجملة هو فاعل «بدا»، كما قالوا في قوله سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ [طه: ١٢٨] وقوله تعالى: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ [إبراهيم: ٤٥]: إنَّ الفاعلَ مضمون الجملة، أي: كثرةُ إهلاكنا، وكيفيَّةُ فِعْلِنا.

وظاهرُ كلام ابن مالك في «شرح التسهيل» أنَّ الفاعلَ في ذلك الجملةُ لتأويلها بالمفرد، حيث قال: وجاز الإسناد في هذا الباب باعتبار التأويل كما جاز في باب المبتدأ، نحو: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة: ٦] وجمهورُ النُّحاة لا يجوِّزون ذلك كما حُقِّق في موضعه.

واختار المازنيُّ في الفاعل الوجهَ الأول، قيل: وحَسُنَ: بدا لهم بداء، وإن لم يحسنْ: ظهر لهم ظهورٌ؛ لأنَّ البداء قد استُعمل في غير المصدريَّة كما علمت.

واختار أبو حيَّان(١) الوجهَ الأخيرَ وكونَه ضميرَ السَّجن السابق على قراءةِ مَن فتح السين، والأولى كونُه ضميرَ السَّجن المفهوم من الجملةِ، أي: بدا لهم سَجْنُه المحتومُ قائلين: والله ليسجننه.

وكان ذلك البداءُ باستنزالِ المرأة لزوجِها، ومطاوعتِه لها، وحبِّه إيَّاها، وجعلِه زمامَ أمرِه بيدها؛ روي أنه عليه السلام لمَّا استعصَم عنها ويئستْ منه، قالت للعزيز: إنَّ هذا الغلامَ العبرانيَّ قد فضحني في الناس، يخبرهم بأنِّي راودتُه عن نفسه فأبى، ويصفُ الأمرَ حسبما يختار، وأنا محبوسةٌ محجوبةٌ، فإمَّا أن تأذنَ لي فأخرجَ فأعتذر إلى الناس وأكذِّبه، وإمَّا أن تحبسَه كما أني محبوسة. فحُبِس.

---

(١) في البحر ٥/ ٣٠٧.

قال ابن عباس: إنَّه أُمر به عليه السلام فحُمِل على حمارٍ وضُرب معه الطبلُ، ونودي عليه في أسواق مصرَ أنَّ يوسفَ العبرانيَّ راود سيِّدتَه، فهذا جزاؤه. وكان ابنُ عباس رضي الله عنهما ـ كما قال أبو صالح ـ كلَّما ذكر هذا بكى.

وأرادتْ بذلك تحقيقَ وعيدِها، لتلين به عريكتُه، وتنقادَ لها قَرونتُه[1]، لمَّا انصرمتْ حبالُ رجائها عن استتباعه بعرضِ الجمال بنفسِها وبأعوانها.

وقرأ الحسنُ: «لتَسْجُنُنَّه» على صيغة الخطاب[2]، بأنْ خاطبَ بعضُهم العزيزَ ومَن يليه، أو العزيزَ وحدَه على وجه التعظيم، أو خاطبَ به العزيزَ ومَن عندَه مِن أصحاب الرأي المباشرين للسّجن والحبس.

﴿حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾ قال ابن عباس: إلى انقطاع المقالِ وما شاع في المدينة من الفاحشة، وهذا بادي الرأي عند العزيز، وأما عندَها فحتى يذلِّلَه السّجنُ ويسخِّره لها، ويحسب الناسُ أنَّه المجرم.

وقيل: الحين هاهنا خمسُ سنين. وقيل: بل سبع. وقال مقاتل: إنَّه عليه السلام حُبس اثنتي عشرةَ سنة.

والأَولى أن لا يُجزمَ بمقدار، وإنما يجزم بالمدَّة الطويلة، والحين عند الأكثرين وقتٌ من الزمان غيرُ محدودٍ يقعُ على القصير منه والطويل، وقد استعمل في غير ذلك كما ذكرناه في «شرح القادرية»[3]. وقرأ ابن مسعود: «عتى» بإبدال حاء «حتى» عيناً، وهي لغة هُذيل، وقد أقرأ رضي الله عنه بذلك إلى أن كتبَ إليه عمرُ رضي الله عنه أن يُقرئ بلغةِ قريش «حتى» بالحاء[4].

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ﴾ غلامان كانا للملك الأكبر الريَّان بن الوليد؛

---

(١) أي: نَفْسُه. اللسان (قرن).

(٢) القراءات الشاذة ص٦٣، والبحر ٥/٣٠٧.

(٣) هو: الطراز المذهب في شرح قصيدة الباز الأشهب، والقصيدة لعبد الباقي العمري في مدح الشيخ عبد القادر الجيلاني، وقد أشرنا إلى هذا الكتاب ضمن كتب المصنف في المقدمة.

(٤) المحتسب ١/٣٤٣، والبحر ٥/٣٠٧، وذكر القراءة أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٣.

أحدُهما خبَّازُه وصاحبُ طعامه، والآخرُ ساقيه وصاحبُ شرابه، وكان قد غضب عليهما الملكُ بسبب أنَّ جماعةً من أشراف مصرَ أرادوا المكرَ بالملك واغتيالَه، فضمنوا لهما مالاً على أن يَسُمَّاه في طعامه وشرابه، فأجابا إلى ذلك، ثم إنَّ الساقيَ ندم فرجع عن ذلك، وقبل الخبَّازُ الرشوة وسمَّ الطعام، فلما حضر بين يدي الملك قال الساقي: لا تأكل أيها الملكُ فإنَّ الطعام مسموم، وقال الخباز: لا تشربْ فإنَّ الشراب مسموم، فقال للساقي: اشربه فشربه فلم يضرَّه، وقال للخباز: كُلْ من طعامك فأبى، فأطعم من ذلك لدابَّة فهلكت، فأمر الملكُ بحبسهما، فاتَّفق أن أُدخلا معه السِّجن.

ولعلَّه إنما عبَّر بـ «دخل» الظاهرِ في كون الدُّخول بالاختيار مع أنَّه لم يكن كذلك، للإشارة ـ على ما قيل ـ إلى أنَّهما لمَّا رأيا يوسف هان عليهما أمرُ السِّجن[1]؛ لِمَا وقع في قلوبهما من محبَّتِه، و:

هوى كلِّ نفسٍ حيث حلَّ حبيبُها[2]

فقد أخرج غيرُ واحد عن ابنِ إسحاق أنَّهما لمَّا رأياه قالا له: يا فتى، لقد والله أحببناكَ حين رأيناك. فقال لهما عليه السَّلام: أنشدكما اللهَ تعالى أنْ لا تحبَّاني، فوالله ما أحبَّني أحدٌ قطُّ إلا دخل عَليَّ من حبِّه بلاء، لقد أحبتني عمَّتي فدخل عليَّ من حبِّها بلاء، ثمَّ أحبَّني أبي فدخل عليَّ من حبِّه بلاء، ثم أحبَّتني زوجةُ صاحبي هذا فدخل عليَّ بحبِّها إياي بلاء، فلا تحبَّاني بارك الله تعالى فيكما. فأبيا إلا حبَّه وإلفَه حيث كان[3].

وقيل: عبّر بذلك لِمَا أنَّ ذكر «معه» يفيد اتِّصافه عليه السلام بما يُنسب إليهما، والمناسبُ في حقِّه نسبةُ الدخول، لمكان قوله عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ لا الإدخالِ المفيدِ لسلب الاختيار، ولو عبّر بـ «أدخل» لأفادَ ذلك

---

(١) في الأصل: كان عليهما أمر السجن سهلاً.

(٢) وصدره: هوًى تذرفُ العينان منه وإنما، والبيت لذي الرمة، وهو في ديوانه ٢/ ٦٩٥.

(٣) في الأصل و(م): إلا حبه والله حيث كان، والمثبت من تفسير الطبري ١٣/ ١٥٤، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٤٢، والخبر فيهما من طريق ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد.

نسبةَ الإدخال إليه، فلم يكن بدٌّ من التعبير بالدُّخول ترجيحاً لجانبه عليه السلام.

والظاهر أنَّ «مع» تدلُّ على الصُّحبة والمقارَنةِ لفاعل الفعل في ابتداء تلبُّسه بالفعل، فتفيد أنَّ دخولَهما مصاحبَيْن له، وأنَّهم سجنوا الثلاثة في ساعةٍ واحدة.

وتُعقِّب بأنَّ هذا منتقضٌ بقوله سبحانه: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ﴾ [النمل: ٤٤] حكايةً عن بلقيس، إذ ليس إسلامها مقارناً لابتداء إسلامِ سليمان عليه السلام.

وأُجيب بأنَّ الحملَ على المجاز هنالك للصارف، ولا صارفَ فيما نحن فيه، فيُحمل على الحقيقة. ويشهد لذلك ما ذكره الزمخشريُّ في قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ [الصافات: ١٠٢] من أنَّه بيانٌ متعلِّقٌ بمحذوفٍ لتعذُّر التعلُّق بـ «بلغ» أو «السعي» معنًى أو لفظاً(١).

وقال صاحبُ «الكشف»: إنه لا يتعيَّن المحكيُّ عنها لمعيَّة الفاعل، فجاز أن يُراد: أسلمتُ لله ولرسوله مثلاً، وتقديمُ «مع» للإشعار بأنها كانت تظنُّ أنَّها على دينٍ قبلُ، وأنَّها كانت مسلمةً فيما كانت تعبدُ من الشمس، فدلَّ على أنه إسلام يعتدُّ به من أثر متابعةِ نبيِّه، لا إسلامٌ كالأوَّل فاسدٌ، وهذا معنًى صحيحٌ، حَمْلُ الآية عليه أَوْلى، وإنْ حُمِلَ على معيَّة الفاعل لم يكن بدٌّ من محذوفٍ، نحو: مع بلوغِ دعوته وإظهارِ معجزته؛ لأنَّ فرقَ ما بين المعيَّة ومطلَقِ الجمع معلومٌ بالضرورة. اهـ.

وفرَّق بعضُهم بين الفعل الممتدِّ كالإسلام، وغيرِه كالدُّخول، بأنَّ الأوَّلَ لا يقتضي مقارنتهما في ابتدائه بخلافِ الثاني، وهو ـ على ما قيل ـ راجعٌ إلى الجمع وليس من المعيَّة في شيءٍ، على أنَّه حينئذٍ لا يحتاج إلى تأويلٍ في آية (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ) واختير أن المقارنة هي الأصلُ ولا يعدلُ عنها ما أمكنت. فتأمَّل.

وتأخيرُ الفاعل عن المفعول لِمَا مرَّ غيرَ مرَّةٍ من الاهتمام بالمقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر؛ ليتمكَّن عند النفس حين وروده فضلَ تمكُّنٍ، ولعلَّ تقديم الظرف على «السِّجن» لأنَّ الاهتمام بأمر المعيَّة أشدُّ من الاهتمام بأمره؛ لِمَا أنَّها المنشأُ لِمَا كان.

---

(١) الكشاف ٣/٣٤٧، وفيه: لا يصح تعلق «معه» بـ «بلغ» لاقتضائه بلوغهما معاً حد السعي، ولا بـ «السعي» لأن صلة المصدر لا تتقدم عليه، فبقي أن يكون بياناً، كأنه لما قال: فلما بلغ السعي، أي: الحد الذي يقدر فيه على السعي، قيل: مع مَن؟ فقال: مع أبيه.

وقيل: إنما قدِّم لأنَّ تأخيرَه يُوهم أن يكون خبراً مقدَّماً على المبتدأ، وتكون الجملة حالاً من فاعل «دخل».

وتُعقِّب بأنَّ حاصلَ التركيب الأوَّل مصاحبةُ الفتيَيْن له عند دخولهما، وحاصل الثاني مصاحبةُ الفَتَيَيْنِ له عند دخوله، ويؤولُ الأمران إلى دخولهما ودخولِه متصاحبين. فافهم.

والجملة على ما قيل: معطوفة على محذوفٍ ينساق إليه الذِّهن، كأنه قيل: فلما بدا لهم ذلك سجنوه ودخل معه... إلخ.

وقرئ: «السَّجن» بفتح السين على معنى موضع السجن[١].

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالِ مَن يقول: ما صنعا بعد ما دخلا؟ فأُجيب بأنَّه «قال» ﴿أَحَدُهُمَآ﴾ وهو الشرابي واسمه نبو ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾ أي: رأيتُني في المنام، والتعبيرُ بالمضارع لاستحضار الصورة[٢] الماضية ﴿أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ أي: عنباً، روي أنه قال: رأيتُ حَبَلَةً[٣] من كَرْم حسنة لها ثلاثةُ أغصان فيها عناقيدُ عنب، فكنتُ أعصرها وأسقي الملك.

وسمَّاه بما يَؤُولُ إليه لأنَّ الخمرَ ممَّا لا يُعصَر؛ إذ عَصْرُ الشيءِ إخراجُ ما فيه من المائع بقوَّة، وكونُ العنب يؤولُ إلى الخمر ظاهر[٤]، وكون الذي يؤولُ إليه ماؤه لا جرمُه لا يضرُّ؛ لأنه المقصودُ منه فما عَدَاه غيرُ منظور إليه، فليس فيه تجوُّزان بالنَّظر إلى المتعارَفِ فيه.

وقيل: الخمر بلغةِ غسَّان اسمٌ للعنب. وقيل: في لغة أزد عمان[٥].

---

(١) الإملاء ٣/ ٣٣٥-٣٣٦.

(٢) في(م): الصور، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ٢٧٥.

(٣) الحبلة: القضيب من الكرم. الصحاح (حبل).

(٤) قوله: ظاهر، ليس في (م).

(٥) في (م): أذرعان، وهو تصحيف، والمثبت من الأصل والمحرر الوجيز ٣/ ٢٤٣، والبحر ٥/ ٣٠٨. وجاء في هامش الأصل و(م): قال المعتمر: لقيت أعرابيًّا يحمل عنباً في وعاء، فقلت: ما تحمل؟ قال: خمراً. أراد العنب. اهـ منه.

وقرأ أبيٌّ وعبدُ الله: «أعصر عنباً»[١] قال في «البحر»: وينبغي أن يُحملَ ذلك على التفسير لمخالفتِه لسوادِ المصحف، والثابتُ عنهما بالتواتر قراءتُهما: «أعصر خمراً»[٢]. انتهى.

وقد أخرج القراءةَ كذلك عن الثاني البخاريُّ في «تاريخه» وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه من طرقٍ. وذكروا أنَّه قال: والله لقد أخذتُها من رسولِ الله ﷺ هكذا[٣]، فافهم.

وقال ابنُ عطية: يجوز أن يكونَ وصف الخمر بأنَّها معصورةٌ؛ لأنَّ العصرَ من أجلها[٤]. فليس ذلك من مجازِ الأوْلِ، والمشهورُ أنه منه.

والخمر كما قال الفرَّاء: مؤنثة وربما ذكِّرت[٥]. وعن السجستاني أنه سمع التذكير ممَّن يُوثق به من الفصحاء[٦].

ورأى الحُلميَّة جرت مجرى أفعالِ القلوب في جواز كونِ فاعلها ومفعولها ضميرَيْن متَّحدي المعنى، ولا يجوز ذلك في غير ما ذكر، فلا يقال: أَضْرِبُني، ولا أُكْرِمُني، وحاصلُه: أرى نفسي أعصرُ خمراً.

﴿وَقَالَ ٱلْآخَرُ﴾ وهو الخبَّاز واسمه مجلث[٧] ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا﴾ وفي مصحف ابنِ مسعود: «ثريداً» ﴿تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ﴾ وهذا كما قيل أيضاً: تفسيرٌ لا قراءة[٨].

---

(١) المحتسب ١/ ٣٤٣، والبحر ٥/ ٣٠٨.

(٢) البحر ٥/ ٣٠٨.

(٣) التاريخ الكبير ١/ ٢٧٤-٢٧٥، وتفسير الطبري ١٣/ ١٥٤، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٤٢، والكلام من الدر المنثور ٤/ ١٩.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٢٤٤.

(٥) المذكر والمؤنث للفراء ص١٨، وقوله: والخمر، ساقط من (م).

(٦) المذكر والمؤنث لأبي حاتم السجستاني ص١٦٥.

(٧) في هامش الأصل و(م): وقيل: اسم الفتيين راشان ومرطش، وقيل: سرهم وشرهم. اهـ منه. وينظر التعريف والإعلام للسهيلي ص٨١، وتفسير الطبري ١٣/ ١٥١-١٥٢، وتفسير القرطبي ١١/ ٢٤٥-٣٤٦.

(٨) البحر ٥/ ٣٠٨.

روي أنه قال: رأيتُ أنّي أخرج من مطبخةِ الملك وعلى رأسي ثلاثُ سلالٍ فيها خبزٌ والطير تأكلُ من أعلاه.

والخبز معروف، وجمعُه أخباز، وهو مفعول «أحمل»، والظرفُ متعلّق بـ «أحمل»، وتأخيرُه عنه لِمَا مرَّ، وقيل: متعلّق بمحذوف وقع حالاً منه. وجملة «تأكل» إلخ صفةٌ له، أو استئنافٌ مبنيٌّ على السؤال.

﴿نَبِّئْنَا﴾ أي: أَخبرنا ﴿بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ بتعبيرِه وما يؤولُ إليه أمرُه، والضمير للرؤيتَيْن بتأويل: ما ذُكر، أو: ما رُئيَ، وقد أجْري الضميرُ مجرى «ذلك» بطريقِ الاستعارة، فإنَّ اسمَ الإشارة يُشار به إلى متعدِّدٍ[1] كما مرَّت الإشارة إليه غيرَ مرة، هذا إذا قالاه معاً، أو قاله أحدُهما من جهتهما معاً، وأمَّا إذا قاله كلٌّ منهما إثرَ ما قصَّ ما رآه، فالمرجعُ غيرُ متعدِّد، ولا يمنع من هذا الاحتمال صيغةُ المتكلِّم مع الغير؛ لاحتمالِ أن تكون واقعةً في الحكاية دون المحكيِّ، على طريقة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [المؤمنون: ٥١] فإنهم لم يخاطبوا دفعةً، بل خُوطب كلٌّ منهم في زمانه[2] بصيغةٍ مفردةٍ خاصَّة به.

﴿إِنَّا نَرَىٰكَ﴾ تعليلٌ لعرضِ رؤياهما عليه واستفسارِهما منه عليه السَّلام، أي: إنَّا نعتقدُك ﴿مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٦﴾ أي: من الذين يُحسنون تأويلَ الرُّؤيا، لمَّا رأياه يقصُّ عليه بعضُ أهل السجن رؤياه فيؤوِّلها لهم تأويلاً حسناً، وكان عليه السلام حين دخلَ السجن قد قال: إنِّي أَعْبُرُ الرؤيا وأجيدُ.

أو: من العلماء، كما في قول عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه: قيمةُ كلِّ امرئٍ ما يحسنُه. وذلك لمَّا سمعاه يذكرُ للنَّاس ما يدلُّ على علمِه وفضْلِه؛ أخرج ابنُ أبي حاتم وغيرُه عن قتادة قال: لمَّا انتهى يوسفُ إلى السِّجن، وجد فيه قوماً قد

---

(١) جاء في هامش الأصل و(م): والسر في المصير إلى هذا الإجراء بعد التأويل أن الضمير إنما يتعرض لنفس المرجع من حيث هو، من غير تعرُّضٍ لحالٍ من أحواله، فلا ينبغي تأويله بأحد الاعتبارين إلا بإجرائه مجرى اسم الإشارة الذي يدل على المشار إليه بالاعتبار الذي جرى عليه الكلام فتأمل، قاله أبو السعود. اهـ منه. والكلام في تفسير أبي السعود ٤/ ٢٧٥، وفيه: فلا يتسنى تأويله، بدل: فلا ينبغي تأويله.

(٢) في (م): زمان، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ٢٧٦.

انقطع رجاؤُهم، واشتدَّ بلاؤهم، وطال حزنُهم، فجعل يقول: أبشروا واصبروا تُؤجروا إنَّ لهذا لأجراً. فقالوا: يا فتى، بارك الله تعالى فيكَ، ما أحسن وجهَك وأحسنَ خَلْقك وخُلُقَك! لقد بُورك لنا في جوارك، ما نحبُّ أنَّا كنَّا في غير هذا منذ حُبِسْنا[١] لِمَا تخبرنا من الأجر والكفَّارة والطَّهارة، فمن أنت يا فتى؟ قال: أنا يوسفُ بن صفيِّ الله تعالى يعقوبَ بنِ ذبيح الله تعالى إسحاق بنِ خليل الله تعالى إبراهيم. فقال له عاملُ السِّجن: يا فتى، لو استطعتُ خلَّيتُ سبيلكَ، ولكن سأُحْسِنُ جِوارَك، فكن في أيِّ بيوت السِّجن شئت[٢].

أو: من المحسنين إلى أهل السِّجن، أي: فأَحْسِنْ إلينا بكشفِ غمَّتِنا إنْ كنت قادراً على ذلك. وإلى هذا ذهب الضَّحاك؛ أخرج سعيدُ بنُ منصور والبيهقيُّ وغيرهما عنه أنَّه سُئِل: ما كان إحسانُ يوسف؟ فقال: كان إذا مرضَ إنسانٌ في السِّجن قام عليه، وإذا ضاق عليه مكانٌ أَوْسَعَ له، وإذا احتاج جَمَعَ له[٣].

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ في الحبس حَسبَ عادتكما المطَّردة ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ استثناءٌ مفرَّغ من أعمِّ الأحوال، أي: لا يأتيكما طعام في حالٍ من الأحوال إلا حال ما نبَّأتكما به بأنْ بيَّنتُ لكما ماهيته وكيفيَّته وسائرَ أحواله ﴿قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ وحاصلُه: لا يأتيكما طعامٌ إلا أخبرتُكما قبل إتيانه إياكما بأنَّه يأتيكما طعامٌ من صفتِه كيت وكيت، وإطلاقُ التأويل على ذلك ـ مع أنَّ حقيقتَه في المشهور تفسير الألفاظ المراد منها خلافُ الظاهر ببيان المرادِ ـ بطريق الاستعارة، فإنَّ ذلك يشبه تفسيرَ المشكل، أو أنه بالنِّسبة إلى الطعام المبهم بمنزلةِ التأويل بالتأويل والنِّسبة إلى ما رُئيَ[٤] في المنام وشبيه له. ويحسِّنُ هذه الاستعارةَ ما في ذلك من المشاكلة لِمَا وقع في عبارتِهما من قولهما: «نبِّئْنا بتأويله».

---

(١) في الأصل و(م): جئتنا، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٢) لم نقف عليه بهذا اللفظ في تفسير ابن أبي حاتم، وأخرجه الطبري ١٣/١٥٧-١٥٨، وعزاه السيوطي في الدر ٤/١٩ للطبري وأبي الشيخ. والمشهور أن الذبيح على الصحيح هو إسماعيل عليه السلام، وليس إسحاق عليه السلام.

(٣) سنن سعيد بن منصور (١١٢٤ - تفسير)، وشعب الإيمان (٩٥٧٩).

(٤) جاءت هذه العبارة في تفسير أبي السعود بلفظ: ... بمنزلة التأويل بالنظر إلى ما رُئيَ...

وكونُ المراد بالتأويل الأمرَ الآيلَ لا المآل، بناءً على أنَّه في الأصل جَعْلُ شيءٍ آيلاً إلى شيء آخر، وكما يجوز أن يُراد به الثاني يجوز أنْ يراد به الأوَّل، ويكون المعنى: إلَّا نبَّأتُكما بما يؤولُ إليه من الكلام والخبرِ المطابق للواقع = في غاية البُعد، بل لا يكاد يلتفتُ إليه كما لا يخفى على المنْصِف.

وكأنَّه عليه السلام أراد أن يَعرضَ عليهما التوحيدَ ويزيِّنَه لهما، ويقبِّحَ لهما الشِّركَ بالله تعالى قبل أن يجيبهما عمَّا سألاه من تعبير رؤياهما، ثمَّ يجيبهما عن ذلك. وهذه طريقةٌ على كلِّ ذي عقلٍ أن يسلكَها مع الجَهَلة والفَسَقة إذا استفتاه واحدٌ منهم، أن يقدِّم الإرشادَ والنَّصيحة أوَّلاً ويدعوه إلى ما هو أَولى به وأوجبُ[1] عليه مما استفتى فيه، ثمَّ يُفتيه. ولعلَّ ذلك كان مفترضاً عليه عليه السَّلام، فوصف نفسه أوَّلاً بما هو فوق عِلْم العلماء، وهو الإخبار بالمغيَّبات، وجعلَه تخلُّصاً لِمَا أراد، كالتخلُّصات المعروفة عندهم، فإنَّ الإخبارَ بالغَيب يناسبُ ما سألاه من تأويل رؤياهما، وأنَّ مَن كان هكذا لا محالةَ يكون بغيره[2] صادقاً، ويقوِّي أمرَ المناسبة تخصيصُ الطعام بالذِّكر من بين سائر المغيَّبات كما لا يخفى، ويناسب ما أراده من الدَّعوة إلى التوحيد؛ لأنَّه ثبت صدقُه ونبوَّته وكونُه من المرتَضيْن عند الله تعالى الصَّادقين في أقوالهم وأفعالهم، وفي حكايةِ اللهِ تعالى ذلك إرشادٌ لمن كان له قلب. وقد أدمج فيه أنَّ وصفَ العالم نفسَه ليُنْتفع به لا يحرُم، ولا يعدُّ ذلك من التَّزكية المحظورة.

وإلى ما ذكرنا من حَمْلِ الإتيان على الإتيان في اليقظة ذهب غيرُ واحد من الأجلَّة، ورُوي عن ابن جريج. وحَمَله بعضُهم على الإتيان مناماً؛ قال السُّدِّي وابنُ إسحاق: إنَّه عليه السَّلام لمَّا علم من رؤية الخبَّاز أنه يُقتل أخذ في حديث آخرَ تنسيةً لهما أمر المنام، وطماعيةً في إيمانهما ليأخذَ المقتول بحظِّه من الإيمان وتسلمَ له آخرتُه، فقال بعظيم عِلْمه بالتعبير: إنَّه لا يجيئكما طعامٌ في نومكما تريان أنَّكما تُرزقانه إلا أعلمتُكما بما يؤُولُ إليه أمرُه في اليقظة قبل أن يظهرَ ذلك. ولا يخفى أنَّ حديث الطَّماعيةِ المذكورةِ مما لا بأس، إلا أنَّ حديث التَّنسية لا يخلو عن منع.

---

(١) في (م): وأوجبه، والمثبت من الأصل والكشاف ٢/ ٣٢٠.

(٢) في الأصل: تعبيره.

وجاء في روايةٍ أخرى عن ابن جُرَيج أخرجها ابنُ جَرِيرٍ وابن المنذر وغيرُهما عنه ما يَقْرُبُ من هذا الحديث من وجهٍ، فإنَّه قال: إنه عليه السلام كره العبارةَ لهما، فأجابهما بأنَّ له علماً بما يأتيهما من الطعام، ولم يصرِّح بما تدلُّ عليه رؤياهما شفقةً على الهالك منهما، وكان الملك إذا أراد قَتْلَ إنسان صنع له طعاماً معلوماً فأرسل به إليه، فلمَّا لم يكتفيا بذلك وطلبا منه التعبيرَ أيضاً دعاهما إلى التوحيد كراهةً للعبارة أيضاً، فلمَّا لم يكتفيا عبَّر لهما وأوضحَ ما تدلُّ عليه رؤياهما[١]. وهو كما ترى.

وأيًّا ما كان فالضميرُ في «تأويله» يعود على الطعام، وجوِّز عودُه على ما قصَّاه عليه من الرؤيتَيْن على معنى: لا يأتيكما طعامٌ تُرزقانه حسبَ عادتكما إلَّا أخبرتُكما بتأويل ما قصَصْتما عليَّ قبل أن يأتيكما ذلك الطعامُ المؤقَّت، والمرادُ الإخبارُ بالاستعجال بالتَّنبئة[٢]. وفيه أنَّه خلافُ الظاهر مع أنَّ الإخبار بالاستعجال مما ليس فيه كثيرُ مناسَبةٍ لمَا هو بصَدَدِه.

وقد يقال: يجوز عودُ الضمير إلى ما قصَّاه، ويكون المرادُ من الطَّعام المرزوقِ ما رأياه في المنام. ولا يخفى ما فيه أيضاً، لكنَّ التأويل على هذين الوجهين لا يحتاجُ إلى التأويل بل يُراد منه ما أريد من تأويله في كلامهما.

وكذا الضمير المستتر في «يأتيكما» يعود على الطعام، وعودُه على التأويل وإن كان أقربَ بعيدٌ.

ثمَّ إنه عليه السلام أخبرهما بأنَّ عِلْمَه ذلك ليس من علوم الكَهَنة والمنجِّمين، بل هو فضلٌ إلهيٌّ يؤتيه مَنْ يشاء فقال: ﴿ذَٰلِكُمَا﴾ ويُروى أنَّهما قالا له: من أين لك ما تدَّعيه من العِلْم، وأنَّك لستَ بكاهِنٍ ولا منجِّم؟! وقيل: قالا: إنَّ هذا كهانةٌ أو تنجيمٌ. فقال: [«ذلكما»][٣] أي: ذلك التأويلُ والكشفُ عن المغيَّبات، ومعنى

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ١٦١، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٤/ ١٩.

(٢) جاء في هامش الأصل و(م): قال في إرشاد العقل السليم في الاعتراض عليه: وأنت خبير بأن النظم الكريم ظاهر في تعدُّد إتيان الطعام والإخبارِ بالتأويل وتجدُّدِهما، وأن المقام مقام إظهار فضله في فنون العلوم بحيث يدخل في ذلك رؤياهما دخولاً أوَّليًّا. اهـ فافهم. اهـ منه. والكلام في تفسير أبي السعود ٤/ ٢٧٦.

(٣) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٤/ ٢٧٧.

البعدِ في «ذلك» للإشارة إلى بُعد منزلته وعلوِّ درجته ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ بالوحي، أو بنحو ذلك ممَّا يحصل به العلم كما يكون للأولياء أهلِ الكشف ﷺ، واقتصر بعضُهم على الأوَّل وادَّعى أنَّ الآية دليلٌ على أنَّه عليه السلام كان إذ ذاك نبيًّا، وأيًّا ما كان فالمرادُ: إنَّ ذلك بعضٌ مما علَّمنيه اللهُ تعالى، أو من ذلك الجنس الذي لا يناله إلا الأصفياءُ، ولقد دلَّهما بذلك على أنَّ له علوماً جمَّةً، ما سمعاه قطرةٌ من تيارِها وزهرةٌ من أزهارها.

وقوله: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ استئنافٌ وقع جواباً عن سؤال نشأ ممَّا تقدَّم وتعليلاً له، كأنَّه قيل: لماذا علَّمك ربُّك تلك العلوم الجليلةَ الشَّان؟ فقال: لأنِّي تركتُ دينَ الكفرة[1] الذي اجتمعوا عليه من الشِّرك وعبادةِ الأوثان.

وقيل: تعليلٌ للتعليم الواقع صلةً. وهو يؤدِّي إلى معنى أنَّه مما علَّمني ربِّي لهذا السبب دونَ غيره، وليس بمراد.

وقيل: لمضمونِ الجملة الخبريَّة. وفيه أنَّ ما ذكر ليس بعلَّةٍ لكون التأويل المذكور بعضاً مما علَّمه ربُّه، أو لكونِه من جنسه، بل لنفسِ التعليم.

والمراد بالتَّرك الامتناعُ فإنَّه لم يتلوَّث بتلك قطُّ كما يُفصح عنه ما يأتي من كلامِه عليه السلام قريباً إن شاء الله تعالى، لكن عبَّر به عن ذلك استجلاباً لهما لأنْ يتركا تلك الملَّة التي هم عليها على أحسنِ وجه.

والتعبيرُ عن كفرهم بالله تعالى بسلبِ الإيمان به سبحانه للتنصيص على أنَّ عبادتَهم له تعالى مع عبادةِ الأوثان ليس بإيمانٍ به تعالى كما يزعمونه. وأراد بأولئك القوم المتَّصفين بعنوان الصِّلة حيث كانوا، وقيل: أهلَ مصرَ فإنَّهم كانوا عَبَدةً إذ ذاك.

﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ وما فيها من الجزاء ﴿هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أي: على الخصوص دونَ غيرهم من الكنعانيين الذين هم على ملَّة إبراهيمَ عليه السلام، على ما يفيده توسيطُ ضمير الفَصْلِ هنا عند البعض، وذكر أنَّ تقديم الضميرِ للتخصيص وتكريرَه للتأكيد، ولعلَّه إنما أكَّد إنكارَهم للمعاد لأنَّه كان أشدَّ من إنكارهم للمبدأ، فتأمل.

---

(١) في (م): الكفر.

﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ﴾ داخلٌ في حيِّز التعليل، كأنَّه قال: إنما فزت بما فزتُ بسبب أنِّي لم أتَّبِعْ ملَّة قومٍ كفروا بالمبدأ والمعاد، واتَّبعتُ ملَّة آبائي الكرامِ المؤمنين بذلك. وإنَّما قاله عليه السلام ترغيباً لصاحبيه في الإيمان والتوحيد، وتنفيراً لهما عمَّا كانا عليه من الشِّرك والضَّلال، وقدَّم ذكْرَ تركه لملَّتِهم على ذِكْرِ اتِّباعه لملَّة آبائه عليهم السلام؛ لأنَّ التخلية مقدَّمةٌ على التحلية.

وجوَّز بعضُهم أن لا يكون هناك تعليلٌ، وإنَّما الجملة الأولى مستأنفةٌ ذُكرت تمهيداً للدَّعوة، والثانيةُ إظهاراً لأنَّه من بيتِ النبوَّة لتَقْوَى الرغبةُ فيه، وفي كلام أبي حيَّان[1] ما يقتضي أنَّه الظاهر، وليس بذاك.

وقرأ الأشهبُ العقيليُّ والكوفيون: «آبائي» بإسكان الياء[2]، وهي مرويَّةٌ عن أبي عمرو[3].

﴿مَا كَانَ﴾ ما صحَّ وما استقام، فضلاً عن الوقوع ﴿لَنَآ﴾ معاشرَ[4] الأنبياء لقوَّة نفوسنا. وقيل: أي: أهل هذا البيتِ لوفور عناية الله تعالى بنا ﴿أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍۚ﴾ أي: شيئاً أيَّ شيءٍ كان، من مَلَكٍ، أو جنِّي، أو إنسيٍّ، فضلاً عن الصَّنم الذي لا يسمع ولا يُبصر. فـ «من» زائدةٌ في المفعول به لتأكيدِ العموم. ويجوز أن يكونَ المعنى: شيئاً من الإشراك قليلاً كان أو كثيراً، فيُراد من «شيء» المصدرُ وأمرُ العموم بحاله، ويلزم من عموم ذلك عمومُ المتعلقات.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: التوحيدُ المدلولُ عليه بنفي صحَّة الإشراك[5] ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ أي: ناشئٌ من تأييده لنا بالنبوَّة والوحي بأقسامه، والمرادُ أنه فَضْلٌ علينا بالذَّات ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بواسطتنا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ أي:

---

(١) في البحر ٥/ ٣٠٩.

(٢) التيسير ص١٣١، والنشر ٢/ ٢٩٧ عن الكوفيين، وهم عاصم وحمزة والكسائي وخلف، وهي قراءة يعقوب من العشرة.

(٣) البحر ٥/ ٣٠٩، وهي خلاف المشهور عنه، فقد قرأ هو وباقي العشرة بفتح الياء.

(٤) في هامش الأصل و(م): قيل: يراد معاشر الأنبياء، ويعتبر التغليب بناءً على عدم نبوته عليه السلام إذ ذاك. وهو كما ترى. اهـ منه.

(٥) في (م): الشرك.

لا يوحِّدون، وحيث عبَّر عن ذلك بذلك العنوان عبَّر عن التوحيد الذي يوجبه بالشكر؛ لأنَّه مع كونه من آثار ما ذكر من التأييد شكرٌ لله عزَّ وجلَّ.

ووُضع الظاهرُ موضعَ الضمير الراجع إلى «الناس» لزيادةِ التَّوضيح والبيان، ولقطعِ توهُّم رجوعه إلى مجموع الناس وما كنَى عنه بـ «نا» الموهمِ لعدمِ اختصاص غيرِ الشَّاكر بالناس، وفيه من الفساد ما فيه.

وجوَّز أن يكون المعنى: ذلك التوحيد ناشئٌ من فضْل الله تعالى علينا، حيثُ نصب لنا أدلَّةً ننظر فيها ونستدلُّ بها على الحق، وقد نصب مثلَ تلك الأدلَّة لسائر الناس أيضاً من غير تفاوتٍ، ولكنَّ أكثرهم لا ينظرون ولا يستدلُّون بها اتِّباعاً لأهوائهم، فيبقَون كافرين غيرَ شاكرين. والفضلُ على هذا عقليٌّ، وعلى الأوَّل سمعيٌّ.

وجوَّز المولى أبو السُّعود أن يقال: المعنى: ذلك التوحيدُ من فضل الله تعالى علينا، حيث أعطانا عقولاً ومشاعرَ نستعملها في دلائل التوحيد التي مهدها في الأنْفُس والآفاق، وقد أعطى سائر الناس أيضاً مثلها، ولكنَّ أكثرَهم لا يشكرون، أي: لا يصرفون تلك القوى والمشاعرَ إلى ما خُلقت هي له، ولا يستعملونها فيما ذُكر من أدلَّة التوحيد الآفاقية والأنفسيَّة والعقليَّة والنقليَّة[1]. انتهى.

ولك أن تقول: يجوز أنْ تكون الإشارةُ إلى ما أشير إليه بـ «ذلكما»، ويراد منه ما يُفهم مما قبلُ من عِلْمه بتأويل الرؤيا، و«مِنْ» في قوله «من فضل الله» تبعيضيَّة، ويكون قد أخبرَ عنه أوَّلاً بأنه مما علَّمه إياه ربُّه، وثانياً بأنه بعضُ فضلِ الله تعالى عليه وعلى آبائه بالذَّات، وعلى الناس بواسطتهم؛ لأنهم يَعْبُرون لهم رؤياهم فيكشِفون لهم ما أُبهم عليهم، ويُزايلون عنهم ما أَشغل أذهانَهم، مع ما في ذلك من النفع الذي لا يُنكره إلا نائم أو مُتناوم. ومَن وقف على ما ترتَّب على تعبير رؤيا الملك من النَّفع الخاصِّ والعامِّ لم يشكَّ في أنَّ علم التعبير من فَضْل الله تعالى على الناس ولكنَّ أكثرهم لا يشكرون فَضْل الله تعالى مطلقاً، أو فَضْلَه عليهم بوجودِ مَن يرجعون إليه في تعبير رؤياهم. ويكون ذلك نظيرَ قولك لمن سألك عن زيد:

---

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٧٨.

ذلك أخي ذلك حبيبي، لكنَّه وسَّط هاهنا ما وسَّط وتفنَّن في التعبير، فأتى باسم الإشارة أوَّلاً مقروناً بخطابهما ولم يأت به ثانياً كذلك، وأتى بالربِّ مضافاً إلى ضميره أوَّلاً وبالاسم الجليل ثانياً.

ويجوز أن يكون المشارُ إليه في الموضعين الإخبارَ بالمغيَّبات مطلقاً، والكلامُ في سائر الآية عليه لا أظنُّه مشكلاً.

وعلى الوجهين لا ينافي تعليلُ نيلِ تلك الكرامة بتركه ملَّةَ الكَفَرة واتِّباعِه ملَّةَ آبائه الكرام الإخبارَ بأنَّ ذلك من فَضْل الله تعالى عليه وعلى مَنْ معه كما لا يخفى. نعم إنَّ حملَ الإشارة على ما ذُكر، وتوجيهَ الآية عليه بما وُجِّهت لا يخلو عن بُعْد.

ومن الناس مَن جَعَل الإشارةَ إلى النبوَّة، وفيه ما فيه أيضاً.

هذا وأوجب الإمامُ[١] كونَ المراد في قوله: «لا يشكرون»: لا يشكرون الله تعالى على نعمةِ الإيمان، ثم قال: وحُكي أنَّ واحداً من أهل السُّنَّة دخل على بشرِ بن المعتمرِ[٢]، فقال: هل تشكرُ الله تعالى على الإيمان أم لا؟ فإن قلت: لا، فقد خالفتَ الإجماع، وإن شكرتَه فكيف تشكره على ما ليس فعلاً له؟! فقال بشرٌ: إنَّا نشكره على أنْ أعطانا القُدرةَ والعقل والآلة، وأما أن نشكرَه على الإيمان مع أنه ليس فعلاً له فذلك باطل! وصَعُب الكلام على بشرٍ، فدخل عليهم ثمامةُ بن الأشرس[٣]، فقال: إنا لا نشكرُ الله تعالى على الإيمان، بل الله تعالى يشكره علينا[٤] كما قال سبحانه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩]. فقال

(١) في تفسيره ١٨/ ١٣٨-١٣٩.

(٢) هو شيخ المعتزلة، أبو سهل الكوفي ثم البغدادي، كان أخباريًّا شاعراً متكلماً، له: تأويل المتشابه، والرد على الجهَّال، والعدل، وأشياء لم نرها والحمد لله، مات سنة (٢١٠هـ). السير ١٠/ ٢٠٣.

(٣) أبو معن النميري البصري المتكلم، من رؤوس المتعزلة، كان نديماً ظريفاً صاحب مِلَحٍ اتصل بالرشيد ثم بالمأمون، وروى عنه تلميذه الجاحظ، من ضلالاته قوله بأن المقلِّدين من أهل الكتاب وعبدة الأوثان لا يدخلون النار، وأن أطفال المؤمنين لايدخلون الجنة، بل يصير الجميع تراباً. السير ١٠/ ٢٠٣.

(٤) كذا في الأصل و(م)، والذي في تفسير الرازي: يشكرنا عليه، ومثله في اللباب لابن عادل ١١/ ١٠٤ نقلاً عن الرازي.

بشر: لما صُعب الكلامُ سَهُل. وتعقَّب ذلك عليه الرَّحمة بأنَّ الذي التزمه ثمامةُ باطلٌ وهو على طَرفِ الثُّمام بنصٍّ هذه الآية؛ لأنَّه سبحانه بيَّن فيها أنَّ عدمَ الإشراك من فَضْل الله تعالى، ثم بيَّن أنَّ أكثر الناس لا يشكرون هذه النِّعمة، وقد ذكر سبحانه ذلك على سبيلِ الذَّمِّ، فدلَّ على أنه يجب على كلٍّ[1] مؤمن أن يشكرَ الله تعالى على الإيمان لئلَّا يدخل في الذَّمِّ، وحينئذٍ تَقْوَى الحجَّةُ وتكمُل الدلالة. اهـ. ولعلَّ الوجه في الآية ما تقدَّم، فليفهم.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ أي: يا صاحبيَّ فيه، إلَّا أنه أضيف إلى الظَّرف توسُّعاً كما في قولهم: يا سارقَ اللَّيلةِ أهلَ الدَّار. ولعلَّه إنَّما ناداهما بعنوان الصُّحبة في مدار الأشْجان ودارِ الأحْزان التي تصفو فيها المودَّة وتتمحَّض النَّصيحة ليُقبِلا عليه ويَقبَلا مقالتَه.

ويجوز أن يُراد بالصُّحبة السُّكنى، كما يقال: أصحابُ النار وأصحابُ الجنَّة لملازمتهم لهما، والإضافةُ من باب إضافة الشيءِ إلى شبه المفعول عند أبي حيَّان[2] وإلى المفعول عند غيرِه، ولا اتِّساع في ذلك.

وقيل: بل هناك اتِّساع أيضاً، وأنَّه أضافهما إلى السِّجن دونَه لكونهما كافرَيْن. وفيه نظر.

ولعل في ندائهما بذلك على هذا الوجه حثًّا لهما على الإقرار بالحقِّ، كأنه قال لهما: يا ساكني هذا المكان الشَّاقِّ والمحلِّ الضَّنْك إنِّي ذاكرٌ لكم أمراً، فقولوا الحقَّ فيه ولا تزيغوا عن ذلك؛ فأنتم تحت شدَّةٍ ولا ينبغي لمن كان كذلك أن يزيغَ عن الحقِّ. وإنَّما حُمِلَ الصَّاحبُ على ما سمعتَ لأنَّ صاحبَ السِّجن في الاستعمال المشهور السجَّان أو المَلِك.

والنداء بـ «يا» بناء على الشائع من أنَّها للبعيد[3]؛ للإشارة إلى غَفْلتهما وهَيَمَانهما في أودية الضَّلال. وقد تلطَّف عليه السلام بهما في ردِّهما إلى

(١) قوله: كل، ساقط من (م).
(٢) البحر ٥/ ٣١٠.
(٣) جاء في هامش الأصل و(م): والحق أنها للنداء مطلقاً بعيداً كان المنادى أو قريباً. اهـ منه.

الحقِّ وإرشادِهما إلى الهُدى، حيثُ أبرزَ لهما ما يدلُّ على بطلان ما هما عليه بصورةِ الاستفهام حتَّى لا تنفرَ طباعُهما من المفاجأة بإبطال ما أَلِفاه دهراً طويلاً، ومضتْ عليه أسلافهما جيلاً فجيلاً، فقال:

﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ متعدِّدون متكثِّرون يَسْتَعبِدُكما منهم هذا وهذا، والكلامُ على ما صرَّح به أبو حيَّان[1] على حذفِ مضافٍ، أي: أعبادةُ أربابٍ متفرِّقين ﴿خَيْرٌ﴾ لكما ﴿أَمِ ٱللَّهُ﴾ أي: أم عبادةُ الله سبحانه ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾ المنفرِدُ بالألوهية ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ الغالبُ الذي لا يغالبه أحدٌ جلَّ وعلا، وهو أولى مما قاله الخطَّابيُّ من أنَّه الذي قهر الجبابرةَ بالعقوبة، والخلقَ بالموت.

وذكر الزمخشريُّ أنَّ هذا مثلٌ ضُرِبَ لعبادة الله تعالى وحدَه ولعبادة الأصنام[2].

واعترضه القُطبُ بأنَّ ذلك إنَّما يصحُّ لو نُسبا تارةً إلى أربابٍ شتَّى وأخرى إلى ربٍّ واحد، كما في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ الآية [الزمر: ٢٩]، لكنَّهما نُسبا إلى «أرباب» وإلى «الله» تعالى، فكيف يكون مَثَلاً؟ وأجاب بأنَّه يفسَّر «الله» بربٍّ واحد؛ لأنَّه في مقابلة «أرباب»، وإنما عبر عن ربٍّ واحدٍ بالله تعالى لانحصارِه فيه جلَّ جلالُه.

وقال الطِّيبيُّ أيضاً: إنَّ في ذلك إشكالاً؛ لأنَّ الظاهر من الآية نفيُ استواء الأصنام وعبادتِها بالله تعالى وعبادتِه، فأين المثل؟ ثم قال: لكن التقدير: أساداتٌ شتَّى تَستعبِدُ مملوكاً واحداً خيرٌ من سيِّدٍ واحدٍ قهَّارٍ، فوَضَعَ موضعَ الربِّ والسِّيد «الله» لكونه مقابلاً لقوله: «أأرباب» فيكون كقوله تعالى: (ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ) الآية.

وقرَّر في «الكشف» ما ادَّعى معه ظهورَ كونه مَثَلاً ظهوراً لا إشكالَ فيه.

والحقُّ أنَّه ظاهرٌ في نفي الاستواء، وأنَّ جَعْلَه مثلاً يحتاج إلى تأويل حسبما سمعتَ عن الطِّيْبي، إلا أنَّه لا يخلو عن لُطفٍ، ولعلَّه الأَوْلى وإنْ أَحْوَجَ إلى ما أَحْوَجَ.

---

(١) في البحر ٥/ ٣١٠.

(٢) الكشاف ٢/ ٣٢١.

وحملُ التفرُّق على التفرُّق في العدد والتكاثُرِ ممَّا ذهب إليه غيرُ واحد، وحملَه بعضُهم على الاختلاف في الكِبَر والصِّغَر والشَّكْل، ونحوِ ذلك مما يحصل لها بواسطة تأثيرِ الغير فيها، وجَعَلَه إشارةً إلى كونِها مقهورةً عاجزة. وأمَّا التعدُّدُ فيُشير إليه جمعُ «أرباب» باعتبارِ أنه جمعٌ، فيكون ذكرُ «الواحد» على هذا في مقابلة ما أُشير إليه من التعدُّد، «والقهَّار» في مقابلةِ ما أُشير إليه من المقهوريَّة والعجز، والمعنى: أمتعدِّدون سمَّيتموهم أرباباً عُجَّزٌ مقهورون متأثِّرون من غيرهم خيرٌ «أم الله»، أي: صاحبُ هذا الاسم الجليل «الواحدُ» الذي يستحيل عليه التكثُّر بوجهٍ من الوجوه «القهَّار» الذي لا موجودَ إلا وهو مسخَّر تحت قَهْرِه وقدرتِه، عاجزٌ في قبضته.

وقيل: المراد من «متفرِّقون»: مختلفو الأجناس والطبائع، كالمَلَكِ والجنِّ والجماد مثلاً، ويجوز أن يُرادَ منه مَن لا ارتباطَ بينهم ولا اتِّفاق، وكثيراً ما يُكنى بذلك عن العجز واختلالِ الحال.

وقد استنبط الإمام[1] من الآية غيرَ ما حُجَّةٍ على بطلان عبادةِ الأصنام، وظاهرُ كلامه أنَّه لم يعتبرْها مثلاً. فليتأمل.

ثم إنَّه عليه السلام زاد في الإرشاد ببيانِ سقوطِ آلهتهما عن درجة الاعتبار رأساً، فضلاً عن الألوهية، وأخرج ذلك على أتمِّ وجهٍ فقال معمِّماً للخطاب لهما ولمن على دِينهما من أهلِ مصرَ كما هو الظاهر، وقيل: مطلَقاً، وقيل: مَنْ معهما من أهل السِّجن:

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي: من دون الله تعالى شيئاً ﴿إِلَّآ أَسْمَآءً﴾ أي: ألفاظاً فارغةً لا مُطابِقَ لها في الخارج؛ لأن ما ليس فيه مصداقُ إطلاقِ الاسم عليه لا وجودَ له أصلاً، فكانت عبادتُهم لتلك الألفاظ فقط ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ جعلتموها[2] أسماء ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ بمحضِ الجهل والضَّلالة ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أي: بتلك التَّسمية المستتبعةِ للعبادة ﴿مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: حُجَّةٍ تدلُّ على صحَّتها.

---

(١) في تفسيره ١٨/ ١٤٠-١٤١.

(٢) في (م): جعلوها.

وقيل: كانوا يُطلقون على معبوداتِهم الباطلةِ اسمَ الآلهة، ويزعمون الدَّليل على ذلك، فرُدُّوا بأنَّكم سمَّيتم مالم يدلَّ على استحقاقه هذا الاسمَ عقلٌ ولا نقلٌ، ثم أخذتُم تعبدون ذلك باعتبار ما تطلقونه عليه.

وإنما لم يذكر المسمَّيات تربيةً لِمَا يقتضيه المقامُ من إسقاطها عن مرتبة الوجودِ، وإيذاناً بأنَّ تسميتهم في البطلان حيث كانت بلا مسمًّى كعبادتهم حيثُ كانت بلا معبود.

ويُلحقُ بهؤلاء الذين يزعمون أنَّهم يعبدون الله تعالى وهم يتخيَّلونه سبحانه جسماً عظيماً جالساً فوقَ العرش، أو نحوَ ذلك مما ينزِّهه العقلُ والنَّقلُ عنه تعالى، تعالى اللهُ عمَّا يقول الظالمون علوًّا كبيراً؛ لأنَّ ما وُضع له الاسمُ الجليل في نفس الأمر ليس هو الذي تخيَّلوه، بل هو أمرٌ وراءَ ذلك، وهو المستحقُّ للعبادة، وما وضعوه هم له ليس بإله في نفس الأمر ولا مستحقٌّ للعبادة وهو الذي عبدوه، فما عبدوا في الحقيقة إلا اسماً لا مطابقَ له في الخارج، لأنَّ ما في الخارج أمرٌ وما وضعوا الاسمَ له أمرٌ آخر.

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾ أي: ما الحكم في شأن العبادة المتفرِّعة على تلك التَّسمية وفي صحتها ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ عزَّ سلطانه؛ لأنَّه المستحقُّ لها بالذَّات؛ إذ هو الواجبُ بالذَّات الموجِدُ للكلِّ والمالكُ لأمره.

﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ أي: بأنْ لا تعبدوا أحداً ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ حسبما تقضي[1] به قضيةُ العقل أيضاً. والجملةُ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال ناشئٍ من الجملة السَّابقة، كأنه قيل: فماذا حكم الله سبحانه في هذا الشأن؟ فقيل: «أمر» إلخ.

وقيل: في موضع التعليل لمحذوفٍ، كأنه قيل: حيث لم يكن الحكم في أمر العبادة إلا له، فلا تكونُ العبادةُ إلا له سبحانه، أو لمن يأمرُ بعبادته، وهو لا يأمرُ بذلك ولا يجعلُه لغيره؛ لأنه سبحانه أمر أنْ لا تعبدوا إلا إياه. وهو خلافُ الظاهر.

وجوِّز أن يكون سردُ هذه الجمل على هذا الطرْز لسدِّ الطُّرق في توجيه صحَّة عبادة الأصنام عليهم أحكمَ سدٍّ؛ فإنَّهم إن قالوا: إنَّ الله تعالى قد أنزل حجَّة في

---

(١) في (م): يقتضي.

ذلك، رُدُّوا بقوله: «ما أنزل الله بها من سلطان» وإن قالوا: حَكَمَ لنا بذلك كبراؤُنا، رُدُّوا بقوله: «إن الحكمُ إلا لله» وإن قالوا: حيث لم يُنزل حُجَّةً في ذلك، ولم يكن حُكْمٌ لغيره، بقي الأمر موقوفاً إذ عدمُ إنزالِ حجَّةٍ تدلُّ على الصِّحة لا يستلزمُ إنزالَ حجَّة على البطلان، رُدُّوا بقوله: «أمر أنْ لا تعبدوا إلا إيَّاه».

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي تخصيصُه تعالى بالعبادة ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ الثابتُ الذي دلَّت عليه البراهين العقليَّة والنقليَّة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ أنَّ ذلك هو الدِّين القَيِّم لجهلهم تلك البراهين، أو لا يعلمون شيئاً أصلاً فيعبدون أسماءً سمَّوها من عند أنفسهم مُعرضِين عمَّا يقتضيه العقلُ ويسوقُ إليه سائقُ النَّقل، ومنشأ هذا الإعراضِ الوقوفُ عند المألوفات والتقيُّدُ بالحسِّيات، وهو مركوزٌ في أكثر الطِّباع، ومن ذلك جاء التشبيهُ والتجسيم، ونسبةُ الحوادث الكونيَّة إلى الشمس والقمر وسائرِ الكواكب، ونحو ذلك.

ثمَّ إنه عليه السلام بعد تحقيق الحقِّ وبيانِه لهما مقدارَ علمه الواسعِ شَرَعَ في إنبائهما عمَّا استنبأاه عنه، ولكونه بحثاً مغايراً لِمَا سبق فصَلَه عنه بتكريرِ الخطاب فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ أراد به الشرابيَّ، وإنما لم يعيِّنْه عليه السلام ثقةً بدلالة التعبير، مع ما فيه من رعايةِ حُسْن الصُّحبة ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ﴾ أي: سيِّدَه ﴿خَمْرًا﴾.

روي أنه عليه السلام قال له: ما رأيتَ من الكرمة وحسنِها هو الملكُ وحسنُ حالك عنده، وأمَّا القضبانُ الثلاثة فإنها ثلاثةُ أيام تمضي في السِّجن ثم تخرجُ وتعود إلى ما كنتَ عليه.

وقرئ: «فيُسقي» بضمِّ الياء والبناء للفاعل من أَسْقَى؛ قال صاحب «اللوامح»: يقال: سَقَى وأسقى بمعنًى[١]. وقرئ في السبعة: «نَسقيكم» و: «نُسقيكم» بالفتح والضمِّ[٢]. والمعروفُ أنَّ سقاه: ناوله ليشربَ، وأسقاه: جعلَ له سُقْيًا. ونُسب

---

(١) البحر ٥/ ٣١١.

(٢) قرأ بالفتح نافع وابن عامر وعاصم في رواية شعبة ويعقوب، والباقون بالضم، وذلك في قوله تعالى ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾ [النحل: ٦٦]. التيسير ص١٣٨، والنشر ٢/ ٣٠٤.

ضمُّ الياء لعكرمة والجحدري[١].

وذكر بعضُهم أنَّ عكرمةَ قرأ: «فيُسقَى» بالبناء للمفعول، و«رِيَّه» بالياء المثناة والراء المكسورة، والمرادُ به: ما يُرْوَى به[٢]، وهو مفعولٌ ثانٍ لـ «يُسْقَى»، والمفعولُ الأوَّل الضميرُ النائب عن الفاعل العائدُ على «أحد»، ونصب «خمراً» حينئذٍ على التمييز.

﴿وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ﴾ وهو الخبَّاز ﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ روي أنه عليه السلام قال له: ما رأيتَ من السلال الثلاثِ ثلاثةُ أيام تمرُّ ثمَّ تُخْرَجُ فتُصلب.

﴿قُضِىَ﴾ أُتِـمَّ وأُحْـكِـم ﴿ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾ وهـو مـا يـؤولُ إلـيـه حالُكما وتدلُّ عليه رؤياكما من نجاةِ أحدكما وهلاكِ الآخر، ومعنى استفتائهما فيه سؤالُهما عنه، أخرج جماعةٌ منهم الحاكم وصحَّحه عن ابنِ مسعود رضي الله عنه قال: ما رأى صاحبا يوسفَ شيئاً، وإنَّما تحالَما ليجرِّبا عِلْمَه، فلمَّا أوَّل رؤياهما قالا: إنَّما كنَّا نلعبُ ولم نرَ شيئاً. فقال عليه السلام: «قضي الأمر» إلخ، يقول: وقعت العبارة[٣]. اهـ.

وقيل: المرادُ بالأمر ما اتُّهما به، والكلام حينئذٍ على حذف مضافٍ، أي: عاقبةُ ذلك.

وذهب بعضُ المحقِّقين[٤] إلى أنَّ المراد به ما رأياه من الرُّؤيتين، ونفى أن يكون المرادُ ما يؤولُ إليه أمرهما، قال: لأنَّ الاستفتاءَ إنما يكون في الحادثة لا في حُكْمِها؛ يقال: استَفْتَى الفقيهَ في الحادثة، أي: طَلبَ منه بيانَ حُكْمِها. ولا يقال: استفتاه في حُكْمِها. وكذا الإفتاءُ، يقال: أَفْتَى في الواقعة الفلانية بكذا، ولا يقال: أَفْتَى في حُكْمِها بكذا. ومما هو عَلَمٌ في ذلك قولُه تعالى: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَـٰىَ) ومعنى استفتائهما فيه طلبُهما لتأويله بقولهما: «نبِّئْنا بتأويله» وعبَّر عن ذلك بالأمر وعن طلبِ تأويله بالاستفتاء تهويلاً لأمره وتفخيماً لشأنه؛ إذ الاستفتاءُ إنما يكون في النوازل المشكلةِ الحكمِ المبهمةِ الجوابِ. وإيثارُ صيغة المضارع لمَا أنَّهما بصدد

(١) البحر ٥/ ٣١١. وفي المحتسب عنهما أنهما قرأا: «فيُسْقَى ربُّه خمراً».
(٢) الكشاف ٢/ ٣٢١.
(٣) المستدرك ٤/ ٣٩٥-٣٩٦.
(٤) هو أبو السعود في تفسيره ٤/ ٢٧٩.

الاستفتاء إلى أن يقضي عليه السلام من الجواب وطرَه، وإسنادُ القضاء إليه مع أنَّه من أحوال مآله لأنَّه في الحقيقة عينُ ذلك المآل، وقد ظهر في عالم المثالِ بتلك الصُّورة، وأما توحيده مع تعدُّد رؤياهما فواردٌ على حسب ما وحَّداه في قولهما: «نبِّئْنا بتأويله»، لا لأنَّ الأمر ما اتُّهِما به وسُجنا لأجله من سَمِّ الملك، فإنَّهما لم يستفتيا فيه ولا فيما هو صورته، بل فيما هو صورةٌ لمآله وعاقبتِه، فتأمل. اهـ.

وتُعقِّب بأنه لا مانعَ من أنْ يُراد بالأمر المآلُ كما يقتضيه ظاهرُ إسنادِ القضاء إليه، وإليه ذهب الكثيرُ، وتُجعل «في» للسببية مثلها في قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: «إنَّ امرأةً دخلت النَّار في هرَّة»[1]، ويكون معنى الاستفتاء فيه: الاستفتاءَ بسببه، أي: طلبَ بيانِ حكم الرؤيتَيْن لأجله، وهما إنَّما طلبا ذلك لتعرُّفِ حالِهما ومآلِ أمرهما.

وإن أبيتَ ذلك فأيُّ مانعٍ من أن يكون الاستفتاء في الأمر مع أنَّ الاستفتاء إنما يكون في الحادثة ـ وهي هنا الرؤيتان ـ لِمَا أنَّ بين الأمر وتلك الحادثة اتِّحاداً كما ادَّعاه هو، ووجَّه به إسنادَ القضاء إلى الأمر بالمعنى الذي حمله عليه مع أنه من أحوال مآله، وليس له أن يقول بصحَّة اعتبار العينية في إسناد القضاء وعدمِ صحَّة اعتبارها في تعلُّق الاستفتاء؛ إذ بعد اعتبار العينيَّة بين شيئين يكون صحَّةُ نسبةِ ما هو من أحوالِ أحدهما إلى الآخر دونَ صحَّةِ نسبة ما هو من أحوالِ ذلك الآخَر إليه ترجيحاً بلا مرجِّحٍ، ومنعُ ذلك مكابرةٌ.

ويرجِّح ما ذهب إليه الكثير أنَّ فيه سلامةً من نزعِ الخفِّ قبل الوصول إلى الماء، كما لا يخفى على مَن تيمَّم كعبةَ الإنصاف، وبأنَّ ما ذكره في تعليل عدم صحَّة تفسير الأمر بما اتُّهما به وسُجنا لأجله لا يخلو عن دغدغةٍ، على أنَّ ذلك كان تعريضاً بصاحب «الكشاف»[2]، وهو على ما قال الطِّيبي: ما عنى بالأمر

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٢٤٣) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ٣/ ١٠٥.

(٢) ٢/ ٣٢٢، وفيه: المراد بالأمر ما اتُّهما به من سَمِّ الملك، وما سُجنا من أجله، وظنَّا أن ما رأياه في معنى ما نزل بهما، فكأنهما كانا يستفتيانه في الأمر الذي نزل بهما: أعاقبته نجاةٌ أم هلاك؟ فقال لهما: قضي الأمر الذي فيه تستفتيان، أي: ما يجر إليه من العاقبة، وهو نجاة أحدهما وهلاك الآخر.

إلا العاقبةَ، نعم صدرُ كلامه ظاهرٌ فيما ذكر والأمرُ فيه سهلٌ. ولعلَّ وجه الأمر بالتأمُّل في كلام هذا المحقِّق مجموعُ ما ذكرناه، فتأمَّل.

ثمَّ إنَّ هذا الإخبار كما يحتمل أن يكون للردِّ عليهما حسبما ورد في الأثر، يحتملُ أن يكون تحقيقاً لتعبيره وتأكيداً له، ولا يُشكل على الأوَّل أنه لا داعيَ لجحود الشَّرابي؛ لأنَّا نقول على تقدير كذبهما في ذلك: يحتمل أن يكونَ لمراعاة جانبِ صاحبه الخبَّاز. وجاء في بعض الآثار أنَّ الذي جحد هو الخبَّاز، فحينئذٍ الأمرُ واضحٌ. واستُدلَّ بذلك على ما هو المشهور من أنَّ الرؤيا تقعُ كما تعبَّر، ولذا قيل: المنامُ على جناحِ طائر إذا قُصَّ وقع[1].

﴿وَقَالَ﴾ أي: يوسف عليه السلام ﴿لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ﴾ أُوثر على صيغةِ المضارع مبالغةً في الدلالة على تحقُّقِ[2] النَّجاة حَسْبَما يفيدُه قوله: «قُضي الأمرُ» إلخ، وهو السِّرُّ في إيثار ما عليه النَّظْم الكريم على أنْ يقال: للذي ظنَّه ناجياً. ﴿مِّنْهُمَا﴾ أي: من صاحبيه.

وإنَّما ذكر بوصفِ النَّجاة تمهيداً لمناطِ التَّوصية بالذِّكر[3] بما يدور عليه الامتيازُ بينه وبين صاحبه المذكور بوصفِ الهلاك.

والظانُّ هو يوسفُ عليه السلام لا صاحبُه، وإن ذهب إليه بعضُ السَّلف؛ لأنَّ التوصيةَ لا تدور على ظنِّ الناجي، بل على ظنِّ يوسفَ عليه السلام، وهو بمعنى اليقين كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة:٤٦] ونظائرِه، ولعلَّ التعبير به من باب إرخاءِ العِنان والتأدُّبِ مع الله تعالى، فالتعبيرُ على هذا بالوحي كما ينبئ عنه قولُه: «قضي الأمر» إلخ، وقيل: هو بمعناه، والتعبيرُ بالاجتهاد والحُكم بقضاء الأمر أيضاً اجتهاديٌّ، واستدلَّ به مَن قال: إنَّ تعبير الرؤيا ظنِّي لا قطعيٌّ.

---

(١) ورد في هذا المعنى حديث صحيح كما سيرد عند تفسير الآية (٤٩) من هذه السورة.

(٢) في (م): تحقيق، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ٢٨٠.

(٣) في هامش الأصل و(م): ولذا لم يذكره بعنوان التقرب المفهوم من التعبير المذكور، وإن كان أدخلَ وأَدْعَى إلى تحقيق ما وصاه به. اهـ منه. وينظر تفسير أبي السعود ٤/ ٢٨٠.

والجارُّ والمجرورُ إمَّا في موضع الصِّفة لـ «ناج»، أو الحالِ من الموصول، ولا يجوز أن يكون متعلِّقاً بـ «ناج» لأنَّه ليس المعنى عليه.

﴿اذْكُرْنِي﴾ بما أنا عليه من الحال والصِّفة ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ سيِّدِك، رُوي أنَّه لمَّا انتهى بالناجي في اليوم الثالث إلى باب السِّجن، قال له: أوصني بحاجتك، فقال عليه السلام: حاجتي أن تذكرَني عند ربِّك وتَصِفَني بصفتي التي شاهدْتَها.

﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: أَنْسى ذلك الناجي بوسوسته وإلقائِه في قلبه أشغالاً حتى يذهلَ عن الذِّكر، وإلا فالإنساءُ حقيقةٌ لله تعالى، والفاء للسببيَّة، فإنَّ توصيتَه عليه السلام المتضمِّنَةَ للاستعانة بغيره سبحانه وتعالى كانت باعثةً لِمَا ذكر من إنسائه.

﴿ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ أي: ذِكْرَ يوسفَ عليه السَّلام عند المَلِك، والإضافةُ لأدنى ملابسةٍ، ويجوز أن تكونَ من إضافة المصدر إلى المفعول بتقديرِ مضاف، أي: ذِكْرَ إخبارِ ربِّه.

﴿فَلَبِثَ﴾ أي: فمكث يوسفُ عليه السَّلام بسبب ذلك القَول أو الإنساءِ ﴿فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ البِضعُ ما بين الثلاث إلى التِّسْع كما روي عن قتادة. وعن مجاهد أنَّه من الثلاث إلى السَّبع. وقال أبو عبيدةَ: من الواحد إلى العشرة[1]. ولا يُذكَر ـ على ما قال الفرَّاء ـ إلَّا مع العشراتِ دون المئة والألف. وهو مأخوذٌ من البَضْع بمعنى القَطْع.

والمرادُ به هنا في أكثر الأقاويل سبعُ سنين، وهي مدَّةُ لبثِه كلها فيما صحَّحه البعضُ، وسنتان منها كانت مدَّةَ لبثه بعد ذلك القَوْل، ولا يأبى ذلك فاءُ السببية؛ لأنَّ لبثَ هذا المجموع مسبَّبٌ عمَّا ذُكر.

وقيل: إنَّ هذه السبعَ مدَّةُ لبثه بعد ذلك القول، وقد لبث قبلَها خمساً، فجميعُ المدَّة اثنتا عشرة سنة، ويدل عليه خبرُ: «رحم الله تعالى أخي يوسف لو لم يقل:

---

(١) ذكره عن أبي عبيدة أبو حيان في البحر ٥/ ٣٠٠ بلفظ: البضع لا يبلغ العقد ولا نصف العقد، وإنما هو من الواحد إلى العشرة. اهـ. كذا ذكر: إلى العشرة، وقال الأزهري في تهذيب اللغة ١/ ٤٨٨: قال أبو عبيدة: البضع مالم يبلغ العقد ولا نصفه. يريد ما بين الواحد إلى أربعة. ومثله في المحرر الوجيز ٣/ ٢٤٧، وزاد المسير ٤/ ٢٢٨، وتفسير القرطبي ١١/ ٣٥٧.

(﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾) لمَا لبث في السِّجن سبعاً بعد خمس»[1]. وتُعُقِّب بأنَّ الخبرَ لم يثبت بهذا اللفظ، وإنَّما الثابتُ في عدَّة رواياتٍ: «ما لبث في السِّجن طولَ ما لبث»[2] وهو لا يدلُّ على المدَّعَى.

وروى ابنُ أَبِي حاتم عن طاوس والضحَّاك تفسيرَ البِضْع ها هنا بأربعَ عَشْرَةَ سنةً[3]. وهو خلافُ المعروف في تفسيره، والأَوْلى أنْ لا يُجزم بمقدارٍ معيَّن كما قدَّمنا.

وكونُ هذا اللبث مسبَّباً عن القول هو الذي تضافرت عليه الأخبارُ، كالخبر السَّابق، والخبرِ الذي رُوي عن أنس قال: أَوْحَى الله تعالى إلى يوسفَ عليه السلام: مَن استنقذكَ من القتل حين همَّ إخوتُك أن يقتلوك؟ قال: أنت يارب. قال: فمن استنقذكَ من الجبِّ إذ أَلقَوْك فيه؟ قال: أنت يارب. قال: فمن استنقذك من المرأة إذ همَّتْ بك؟ قال: أنت يارب. قال: فما بالك نسيتني وذكرت آدميًّا؟ قال: يارب، كلمةٌ تكلَّم بها لساني. قال: وعزَّتي لأُخْلِدَنَّك في السِّجن بضعَ سنين[4]. وغير ذلك من الأخبار.

---

(١) ذكره البيضاوي في تفسيره مع حاشية الشهاب ٥/ ١٨٠، وأبو السعود ٤/ ٢٨٠، ولم نقف عليه مسنداً.

(٢) قطعة من حديث أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (١٦٠)، والطبري ١٣/ ١٧٣، والطبراني في الكبير (١١٦٤٠) من طريق إبراهيم بن يزيد عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس ﵄، عن النبي ﷺ. وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٢٣ بإسناد آخر من طريق عكرمة عن النبي ﷺ مرسلاً. وسيأتي باقي الحديث ص٣٦٩ من هذا الجزء. وإسناد المتصل ضعيف جدًّا كما قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وإبراهيم بن يزيد (وهو الخوزي) متروك كما ذكر الحافظ في التقريب.

وقد ورد نحو هذه العبارة في حديث أبي هريرة ﵁، أخرجه ابن حبان (٦٢٠٥) من طريق محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ. وتعقبه ابن كثير في البداية والنهاية ١/ ٤٧٨ بسبب إدراج هذا الحديث في صحيحه، وقال: إنه حديث منكر من هذا الوجه، ومحمد بن عمرو بن علقمة له أشياء ينفرد بها وفيها نكارة، وهذه اللفظة من أنكرها وأشدها.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٥٠.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٤٩-٢١٥٠. ووقع في (م): لأدخلنك، بدل: لأخلدنك، وهو تصحيف.

ولا يُشْكِلُ على هذا أنَّ الاستعانة بالعباد في كشف الشَّدائد مما لا بأس به، فقد قال سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢] فكيف عُوتب عليه السلام في ذلك؟ لأنَّ ذلك مما يختلف باختلاف الأشخاص، واللائق بمناصب الأنبياء عليهم السَّلام تركُ ذلك والأخذُ بالعزائم.

واختار أبو حيَّان أنَّ يوسف عليه السلام إنما قال للشرابي ما قال ليتوصَّل بذلك إلى هداية المَلِك وإيمانِه بالله تعالى كما توصَّل إلى إيضاح الحقِّ لصاحبيه(١)، وأنَّ ذلك ليس من باب الاستعانة بغير الله تعالى في تفريج كَرْبه وخلاصِه من السِّجن. ولا يخفى أنَّ ذلك خلافُ الظاهر، وموجبٌ للطعن في غيرِ ما خبرٍ، نعم إنَّه اللائقُ بمنصبه عليه الصَّلاة والسَّلام.

وجوَّز بعضُهم كونَ ضمير «أنساه» و«ربِّه» عائدَيْن على يوسف عليه السلام، وإنساءُ الشيطان ليس من الإغواء في شيء، بل هو تَرْكُ الأَوْلى بالنِّسبة لمقام الخواصِّ الرافعين للأسباب من البَيْن. وأنت تعلم أنَّ الأوَّل هو المناسبُ؛ لمكانِ الفاء، ولقوله تعالى الآتي: (وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ).

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ وهو الريَّان بن الوليد(٢) وكان كافراً، ففي إطلاق ذلك عليه دلالةٌ ـ على ما قيل ـ على جواز تسميةِ الكافر مَلِكاً.

ومَنَعَه بعضُهم، وكذا مَنَعَ أنْ يقال له أمير؛ احتجاجاً بأنَّه ﷺ كتب إلى هرقل: «عظيم الروم»(٣)، ولم يكتب: مَلِك الروم أو أميرهم، لِمَا فيه من إيهامِ كونِه على الحقِّ، وجَعَل هذا حكايةَ اسمٍ مَضَى حُكْمُه وتَصَرَّمَ وقتُه، ومثلُه لا يضرُّ.

أي: قال لمن عنده: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ﴾ أي: رأيتُ، وإيثارُ صيغة المضارع لحكايةِ الحال الماضية ﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ ممتلئاتٍ لحماً وشحماً، من سَمِنَ كسمع سَمانةً بالفتح، وسِمَناً كعِنَباً، فهو سامن وسمين. وذُكر أنَّ سميناً وسمينةً تُجمع على سِمَان، فهو ككِرَام جمعُ كريم وكريمة؛ يقال: رجالٌ كِرام ونسوةٌ كِرام.

---

(١) البحر ٥/ ٣١١.
(٢) قوله: ابن الوليد، ليس في (م).
(٣) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿يَأْكُلُهُنَّ﴾ أي: أَكَلَهنَّ، والعدولُ إلى المضارع لاستحضارِ الصورة تعجيباً، والجملة حالٌ من البقرات أو صفةٌ لها.

﴿سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ أي: سبعُ بقراتٍ مهزولاتٍ جدًّا، ومن قولهم: نَصْلٌ أَعْجفُ، أي: دقيق، وهو جمعُ عَجْفاء على خلافِ القياس، والقياسُ عُجْفٌ، كحمراء وحُمْر، فإنَّ فعلاء وأَفْعَل لا يُجمع على فِعَال، لكنَّهم بنَوْه على «سِمَان» وهم قد يَبْنون الشيءَ على ضدِّه، كقولهم: عدوَّةٌ بالهاء لمكان صديقة. وفَعولٌ بمعنى فاعل لا تدخله الهاءُ.

وأُجري «سِمَان» على المميِّز فجُرَّ على أنه وصفٌ له، ولم يُنصَبْ على أن يكونَ صفةً للعدد المميَّز؛ لأنَّ وصفَ تمييزه وصفٌ له معنًى، وقد ذكروا أنَّه إذا وُصف التمييزُ كان التمييزُ بالنوع، وإذا وُصف المميَّز كان التمييزُ بالجنس، ولا شكَّ أنَّ الأوَّل أَوْلى وأبلغُ لاشتمال النَّوع على الجنس، فهو أزيدُ في رفع الإبهام المقصود من التمييز، فلهذا رجِّح ما في النَّظْم الكريم على غيرِه.

ولم يقل: سبعُ عجافٍ، بالإضافة وجَعْلِه صفةً للتمييز المقدَّر على قياسِ ما قبله؛ لأنَّ التمييز لبيان الجنسِ والحقيقة، الوصفُ لا يدلُّ عليه بل على شيءٍ مَّا لَه حالٌ وصفة، فلذا ذكروا أنَّ التمييز يكون باسم الجنسِ الجامدِ ولا يكون بالوصف المشتقِّ في فصيح الكلام، فتقول: عندي ثلاثةٌ قرشيُّون. ولا تقول: قرشيين بالإضافة، وأمَّا قولُك: ثلاثةُ فرسانٍ، وخمسةُ ركبانٍ، فلِجَرَيان الفارسِ والراكب مجرى الأسماءِ؛ لاستعمالها في الأغلب من غيرِ موصوف.

واعترض صاحب «الفرائد» بأنَّ الأصلَ في العدد التمييزُ بالإضافة، فإذا وُصف السَّبْعُ بالعِجاف فلا بدَّ من تقدير المضاف إليه، وكلُّ واحدٍ من الوصف وتقديرِ المضاف إليه خلافُ الأصل، أمَّا إذا أضيف كانت الصِّفة قائمةً مقامَ الموصوف، فقولنا: سبع عِجافٍ، في قوَّة قولنا: سبع بقراتٍ عجافٍ، فالتمييزُ المطلوبُ بالإضافة حاصلٌ بالإضافة إلى الصِّفة لقيامها مَقام الموصوف، فكما يجوز: سبعُ بقراتٍ عجافٍ، يجوز: سبعُ عجافٍ، وإنما لم يضُف لأنَّه قائمٌ مقام البقراتِ وهي موصوفةٌ بعجافٍ، فكانت من قبيلِ إضافة الموصوف إلى الصِّفة، وهي غيرُ جائزة إلا بتأويل.

وتعقَّب ذلك القطبُ بأنَّه هبْ أنَّ الأصل في العدد التمييزُ بالإضافة، لكنْ لمَّا سبق ذكرُ «سبع بقرات سمان» تبيَّن أنَّ السبعَ العجافَ بقراتٌ، فهذا السَّبْع مميَّز بما تقدَّم، فقد حصل التمييزُ بالإضافة، فلو أضيف إلى العِجاف لكان العِجافُ قائماً مَقام البقرات في التمييز، فيكون التمييزُ بالوصف وهو خلافُ الأصل، وأمَّا أنَّ السَّبْع قائم مقامَ البقرات فإنما يكون إذا وُصف بالعِجَاف، أما إذا أُضيف بكون العِجاف قائمةً مقام البقرات، فلا يلزم إضافةُ الموصوف إلى الصِّفة. اهـ. وفيه تأمُّل.

وذكر العلَّامة الطِّيبي في هذا المقام أنَّه يمكن أن يقال: إنَّ المميز إذا وُصف ثمَّ رُفع به الإبهامُ والإجمال من العدد آذَنَ بأنَّهما مقصودان في الذِّكر، بخلافه إذا ميِّز ثم وُصف، بل الوصفُ أدعى لأنَّ المميز إنما استُجلب للوصف، ومن ثَمَّ تُرك التمييز في القرائن الثلاث، والمقامُ يقتضي ذلك لأنَّ المقصود بيانُ الابتلاء بالشدَّة بعد الرخاء، وبيانُ الكميَّة بالعدد والكيفيَّة بالبقرات تابعٌ، فليفهم.

ويُعلم من ذلك وجهُ العُدُول إلى ما في النظم الكريم عن أنْ يقال: إنِّي أرى سبعَ بقراتٍ عجافٍ يأكلْنَ سبعاً سماناً، الأخصرُ منه. وقيل: إنَّ التعبير بذلك لأنَّه[1] أوَّل ما رأى السِّمان، فقد رُوي أنه رأى سبعَ بقراتٍ سمانٍ خرجْنَ من نهرٍ يابس، ثمَّ خرج عقيبهنَّ سبعُ بقراتٍ عجافٍ فابتلعت السِّمانَ، ولم يتبيَّن عليها منهنَّ شيء.

﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ﴾ قد انعقد حَبُّها ﴿وَأُخَرَ﴾ أي: وسبعاً أُخر ﴿يَابِسَٰتٍ﴾ قد أدركتْ والْتَوَتْ على الخضر، حتى غلبتْها ولم يبق من خُضرتها شيءٌ على ما روي، ولعلَّ عدم التعرُّض لذِكر العدد للاكتفاء بما ذُكر من حال البقرات.

ولا يجوز عطفُ «أُخَر» على «سنبلات» لأنَّ العطف على المميز يقتضي أن يكون المعطوف والمعطوفُ عليه بياناً للمعدود، سواءٌ قيل بالانسحاب أو بتكرير العامل؛ لأنَّ المعنى على القولين لا يختلف، وإنما الاختلافُ في التقدير اللفظي، وحينئذ يلزمُ التدافُع في الآية لأنَّ العطف يقتضي أن تكونَ السُّنبلات خضرُها ويابسُها سبعاً، ولفظ «أخر» يقتضي أن يكون غيرَ السبع، وذلك لأنَّ تباينَها في

---

(١) في (م): بأنه.

الوصف أعني الخضرةَ واليبسَ منطوقٌ واشتراكهما في السنبليَّة، فيكون مقتضى لفظ «أخر» تغايرَهما في العدد ولزم التدافعُ. وعلى هذا يصحُّ أن تقول: عندي سبعةُ رجالٍ قيامٍ وقعودٍ، بالجرِّ؛ لأنَّك ميَّزت سبعةَ رجال موصوفين بالقيام والقعود على أنَّ بعضَهم كذا وبعضَهم كذا، ولا يصحُّ: سبعةُ رجالٍ قيامٍ وآخرين قعودٍ لِمَا علمت. فالآيةُ والمثال في هذا المبحث على وزانٍ واحد كما يقتضيه كلامُ «الكشاف»[١].

ونظر في ذلك صاحب «الفرائد» فقال: إنَّ الصحيح أنَّ العطفَ في حكم تكرير العامل، لا الانسحاب، فلو عطفَ «آخرين» على «رجالٍ قيامٍ» لكان «سبعة» مكرَّرةً في المعطوف، أي: وسبعة آخرين، أي: رجالٍ آخرين قعودٍ، ويفسد المعنى لأنَّ المفروض أنَّ الرجال سبعة، وأما الآية فلو كرر فيها وقيل: وسبع أخر، أي: وسبع سنبلاتٍ أُخر، استقام لأنَّ الخُضْر سبعٌ واليابساتِ سبعٌ، نعم لو خرِّج ذلك على المرجوح وهو الانسحابُ أدَّى إلى أنَّ السَّبْعَ المذكورة مميَّزة بسنبلاتٍ خُضْر وسنبلات أُخَر يابسات، وفسد، إذ المراد أنَّ كلًّا منهما سبعة لا أنها[٢] سبعة، فالمثالُ والآية ليسا على وزانٍ؛ إذ هو على تكريرِ العامل يفسد وعلى الانسحاب يصحُّ، والآية بالعكس.

ثم بنى على ما زَعَمه ـ من أنَّ الصحيح قولُ التكرير ـ جوازَ العطف، وادَّعى أنَّ الأَولى أن يكون العطفُ على «خُضر» لا على «يابسات» ليدلَّ على موصوف آخر وهو «سنبلات»، ولا يقدَّر موصوفُها بقرينة السياق.

ولا يخفى أنَّ الكلام إنما هو على تقديرِ أن يكون مميزُ السَّبْع ما علمتَ، وعلى ذلك يلزم التَّدافُع، ولا يُبنى على فرض أنَّهم سبعةٌ أو أربعة عشر فيصحُّ في الآية ولا يصحُّ في المثال، فإنَّه وَهْم، ومن ذلك يظهر أنَّه لا مدخل للتَّكرير والانسحاب في هذا الفَرَض.

ثم إنَّ المختار قولُ الانسحاب على ما نصَّ عليه الشيخ ابنُ الحاجب وحقَّقه في

---

(١) ٢/ ٣٢٣.

(٢) في الأصل: أنهما.

غيرِ موضع، وأما الاستدلالُ بالآية على الانسحاب لا التقديرِ وإلا لكان لفظُ «أخر» تطويلاً يُصان كلامُ الله تعالى المعجِزُ عنه، فغيرُ سديدٍ على ما في «الكشف»؛ لأنَّ القائل بالتقدير يدَّعي الظهورَ في الاستقلال، وكذلك القائل بالانسحاب يدَّعي الظهورَ في المقابل على ما نصَّ عليه أئمةُ العربية، فلا يكون التأكيد بـ «أُخر» لإرادة النُّصوص تطويلاً، بل إطناباً يكون واقعاً في حاقِّ[1] موقعِه هذا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ﴾ خطابٌ للأشراف ممن يُظَنُّ به العلم، يُروى أنَّه جمع السَّحرة والكَهَنة والمعبِّرين فقال لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ﴾ هذه، أي: عبِّروها وبيِّنوا حكْمَها، وما تؤولُ إليه من العاقبة.

وقيل: هو خطابٌ لجلسائه وأهلِ مشورته، والتعبيرُ عن التعبير بالإفتاء لتشريفِهم وتفخيمِ أمرِ رؤياه.

﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: تعلمون عبارةَ جنس الرؤيا[2] عِلْماً مستمرًّا، وهي الانتقالُ من الصورةِ المشاهَدةِ في المنام إلى ما هي صورةٌ ومثالٌ لها من الأمور الآفاقيَّة والأنفسيَّة الواقعة في الخارج، من العُبُور: وهو المجاوزة، تقول: عَبَرْتُ النهرَ إذا قطعتَه وجاوَزْتَه، ونحوه: أوَّلتها، أي: ذكرتُ ما تَؤُول إليه، وعَبَرت الرؤيا ـ بالتخفيف ـ عبارةً، أقوى وأعرفُ عند أهل اللغة من عبَّرت بالتشديد تعبيراً، حتَّى إنَّ بعضهم أنكر التشديدَ، ويَرِدُ عليه ما أنشده المبرِّد في «الكامل» لبعض الأعراب وهو:

رأيتُ رؤيا ثمَّ عبَّرتها وكنتُ للأحلام عبَّارا[3]

والجمعُ بين الماضي والمستقبل للدلالةِ على الاستمرار كما أُشيرَ إليه.

واللامُ قيل: متعلِّقةٌ بمحذوفٍ، والمقصودُ بذاك البيانُ، كأنَّه لمَّا قيل: «تعبرون»، قيل: لأيِّ شيء؟ فقيل: للرؤيا، فهي للبيان كما في: سَقْياً له، إلَّا أنَّ تقديم البيان على المبيَّن لا يخلو عن شيء.

---

(١) حاقُّ كل شيء: وسطه. معجم متن اللغة (حقق).

(٢) جاء في حاشية (م): ذكر بعض المحققين أن الرؤيا تكون جمعاً فلا تغفل. اهـ منه.

(٣) الكامل ٢/ ٥٦٣.

وقيل ـ واختاره أبو حيَّان[١] ـ: إنَّها لتقوية الفعل المذكور؛ لأنَّه ضعُف بالتأخير، ويقال لها: لامُ التقوية، وتدخل في الفصيح على المعمول إذا تقدَّم على عامله مطلقاً، وعلى معمول غيرِ الفعل إذا تأخَّر، ك: زيدٌ ضاربٌ لعمرو.

وفي كونها زائدةً أو لا خلافٌ. وقيل: إنَّه جيء بها لتضمين الفعل المتعدِّي معنَى فعلٍ قاصرٍ يتعدَّى باللام، أي: إن كنتم تَنْتَدِبون[٢] لعبارتها.

وجوِّز أن يكون «للرؤيا» خبرَ كان، كما تقول: كان فلانٌ لهذا الأمر، إذا كان مستقلًّا[٣] به متمكِّناً منه، وجملةُ «تعبرون» خبرٌ آخرُ أو حالٌ. ولا يخفى ما في ذلك من التكلُّف، وكذا فيما قبله.

وقرأ أبو جعفر بالإدغام في «الرؤيا» وبابِه بعد قَلْب الهمزةِ واواً، ثمَّ قلبِ الواو ياءً لسَبْقها إيَّاها ساكنة[٤]، ونصُّوا على شذوذِ ذلك؛ لأنَّ الواو بدلٌ غيرُ لازم.

﴿قَالُوٓاْ﴾ استئناف بيانيٌّ، كأنه قيل: فماذا قال الملأ للمَلِك إذ قال لهم ذلك؟ فقيل: ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ﴾ أي: هي أضغاث... إلخ، وهي جمع ضِغْث وهو أقلُّ من الحُزْمة وأكثرُ من القَبضة من أخلاط النبات، وقد يُطلق على ما كان من جنسٍ واحد كما في قوله:

خَـودٌ كـأنَّ فِـراشَـهـا وُضِـعـتْ بـه أضـغـاثُ رَيْـحـانٍ غَـداةَ شـمـالِ[٥]

وجُعل من ذلك ما في قوله تعالى: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ﴾ [ص: ٤٤] فقد رُوي أنَّ أيوبَ عليه السلام أخذ عثكالاً[٦] من النَّخْل فضرب به.

---

(١) في البحر ٥/ ٣١٢.

(٢) الانتداب افتعال من ندبه للأمر: إذا دعاه فانتدب له، أي: أجاب، فهو مطاوع له. حاشية الشهاب ٥/ ١٨١.

(٣) في (م): مستقبلاً، والمثبت من الأصل، وهو الموافق لما في الكشاف ٢/ ٣٢٣، والدر المصون ٦/ ٥٠٤، وتفسير أبي السعود ٤/ ٢٨١.

(٤) النشر ١/ ٣٩١، والبحر ٥/ ٣١٢.

(٥) البيت لتميم بن أبيّ بن مقبل، وهو في ديوانه ص٢٦٠. قوله: خود، الخود: الفتاة الحسنة الخَلْق. اللسان (خود).

(٦) هو في النخل بمنزلة العنقود من الكرم. اللسان (عثكل).

وفي «الكشاف»[١]: أنَّ أضغاث الأحلام تخليطُها وأباطيلُها، وما يكون منها من حديثِ نفسٍ أو وسوسةِ شيطان، وقد استُعيرت لذلك، وأصلُها ما جُمع من أخلاطِ النبات وحُزِم[٢]، وإضافتُها على معنى «من»، أي: أضغاثٌ من أحلام.

وأُورد عليه أنَّ الأضغاث إذا استُعيرت للأحلام الباطلة والأحلامُ مذكورة، ولفظ «هي» المقدَّر عبارةٌ عن رؤيا مخصوصةٍ، فقد ذُكِر المستعار والمستعارُ له، وذلك مانع من الاستعارة على الصحيح عندهم.

وقد أجاب الكثيرُ عن ذلك بما لا يخلو عن بحث، وذكر بعضُ المحقِّقين[٣] في تقرير ذاك وجهين:

الأوَّل: أنَّه يريد أنَّ حقيقةَ الأضغاث أخلاطُ النبات، فشُبِّه به التخاليطُ والأباطيلُ مطلقاً سواءٌ كانت أحلاماً أم غيرَها، ويشهد له قول «الصحاح» و«الأساس»: ضَغَثَ الحديثَ: خَلَطَه[٤]. ثمَّ أريد هنا بواسطة الإضافة أباطيلُ مخصوصةٌ، فطرفا الاستعارة أخلاطُ النبات والأباطيل الملفَّقات، فالأحلام ورؤيا المَلِك خارجان عنهما، فلا يضرُّ ذكرهما، كما إذا قلت: رأيتُ أسدَ قريشٍ، فهو قرينةٌ أو تجريد، وقوله: تخاليطُها، تفسير له بعد التخصيص، وقوله: وقد استُعيرت لذلك، إشارةٌ إلى التخاليط.

الثاني: أن الأضغاثَ استُعيرت للتخاليط الواقعة في الرؤيا الواحدة، فهي أجزاؤها لا عينُها، فالمستعارُ منه حزم النبات والمستعارُ له أجزاء الرؤيا، وهذا كما إذا استعرتَ الوَرْد للخدِّ، ثم قلت: شممتُ وردَ هندٍ مثلاً، فإنه لا يقال: إنَّه ذكر فيه الطَّرفان. اهـ، ولا يخفى ما فيه من التكلُّف وارتكابِ غير الظاهر.

واستظهر بعضُهم كونَ «أضغاث أحلام» من قبيل: لُجين الماء، ولا يخفى أنَّه

---

(١) ٢/ ٣٢٤.

(٢) في (م): وحزمة، وليست في الأصل، والمثبت من الكشاف، ومثله في حاشية الشهاب ٥/ ١٨١ نقلاً عن الكشاف.

(٣) هو الشهاب في الحاشية ٥/ ١٨١.

(٤) الصحاح والأساس (ضغث).

سالم عمَّا أُورد على الزمخشري، إلا أن صاحب «الأساس» قد صرَّح بأنَّ ذلك من المجاز[١]، والمتبادر منه المجاز المتعارَفُ الذي لا يُطلق على ما ذكر[٢]، ولعلَّ الأمر في ذلك سهل.

والأحلام جمع حُلم بضمةٍ وبضمتين: المناماتُ الباطلةُ، على ما نصَّ عليه جمع. وقال بعضُهم: الرؤيا والحُلم عبارةٌ عمَّا يراه النائم مطلقاً، لكنْ غُلِّبت الرؤيا على ما يراه من الخيرِ والشيءِ الحَسَن، وغُلِّب الحُلُم على خلافه، وفي الحديث: «الرؤيا من الله تعالى والحُلم من الشيطان»[٣].

وقال التوربشتي[٤]: الحُلم عند العرب يُستعمل استعمالَ الرُّؤيا، والتفريقُ من الاصطلاحات التي سنَّها الشارع ﷺ للفَصْل بين الحقِّ والباطل، كأنَّه كره أن يسمَّى ما كان من الله تعالى وما كان من الشيطان باسمٍ واحدٍ، فجعل الرؤيا عبارةً عن القِسْم الصالح لِمَا فيها من الدّلالة على مشاهدة الشيءِ بالبصر والبصيرة، وجعل الحُلمَ عبارةً عمَّا كان من الشيطان؛ لأنَّ أصل الكلمة لم تُستعمل إلا فيما يخيَّل للحالم في منامه من قضاءِ الشهوة بما لا حقيقةَ له. اهـ وهو كلامٌ حسنٌ، وممَّا يشهد له في دعوى كونِ الحُلم يُستعمل عند العرب استعمالَ الرؤيا البيتُ السَّابق الذي أنشده المبرِّد كما لا يخفى.

وإنما قالوا: «أضغاث أحلام» بالجمع مع أنَّ الرؤيا ما كانت إلَّا واحدةً للمبالغة في وصف ذلك بالبُطلان، وهذا كما يقال: فلانٌ يركب الخَيل ويلبس عمائمَ الخزِّ، لمن لا يركب إلا فرساً واحداً وما له إلا عمامةٌ فَرْدةٌ.

وفي «الفرائد»: لمَّا كانت «أضغاث أحلام» مستعارةً لِمَا ذُكر وهي تخاليطُها

---

(١) وهو قوله: ومن المجاز: هذه أضغاث أحلام، وهي ما التبس منها، وضَغَثَ الحديثَ: خلطه. أساس البلاغة (ضغث)، وحاشية الشهاب ٥/ ١٨٢، والكلام منه.

(٢) جاء في حاشية (م): لا يخفى أن صاحب «الأساس» قد يطلق المجاز على غير ما هو المتعارف. اهـ منه. والكلام من حاشية الشهاب ٥/ ١٨٢.

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٤٧)، ومسلم (٢٢٦١) عن أبي قتادة ﷺ، وسلف ص٢٠١ من هذا الجزء.

(٤) فضل الله بن حسن، شهاب الدين أبو عبد الله الفقيه الحنفي، المتوفى سنة (٦٦١هـ). هدية العارفين ١/ ٨٢١، وذكر كلامه الشهاب في الحاشية ٥/ ١٨٢-١٨٣.

وأباطيلُها، وهي متحقِّقة في رؤيا واحدةٍ بحسب أنَّها مركَّبةٌ[(١)] من أشياءَ كلٌّ منها حُلم فكانت أحلاماً.

قال الشِّهاب[(٢)]: وهو واهٍ وإن استحسنه العلَّامة الطِّيبي، نعم ليس هذا من إطلاقِ الجمع على الواحد لوجود ذلك في هذا الجنس؛ إذ الإضافة على معنى في[(٣)].

ثمَّ نَقَلَ عن الرضيِّ أنه قال في «شرح الشافية»: إنَّ جمعَ القِلَّة ليس بأصلٍ في الجمع؛ لأنَّه لا يذكر إلا حيث يُراد بيانُ القِلَّة، فلا يُستعمل لمجرَّد الجمعيَّة والجنسيَّة كما يُستعمل له جمعُ الكثرة، يقال: فلانٌ حسنُ الثياب، في معنى: حَسَنُ الثَّوب، ولا يَحْسُنُ: حَسَنُ الأثواب[(٤)]. و: كم عندك من الثَّوب أو من الثياب، ولا يحسُنُ: من الأثواب[(٥)]. اهـ.

ثم قال: وقد ذكره الشريفُ في «شرح المفتاح» وهو مخالفٌ لما ذكروه هنا. فتأمَّله.

ولعلَّ ما ذُكر بعد تسليمه إنَّما هو في جمع القِلَّة الذي معه جمعُ كثرة كما ذكره في المثال، لا في ذلك وجَمْعِ القِلَّة الذي ليس معه جمعُ كثرة كما هنا، فإنَّا لم نجدْ في كتب اللغة جمعاً لمفردِ هذا الجمعِ غيرَ هذا الجمع، وقد ذكر غيرُ واحد أنَّ جمع القِلَّة إذا لم يُوجَد معه جمعُ كثرة يستعملُ استعمالَ جمع الكثرة.

ثمَّ لا يخفى حُسْنُ موقع الأضغاث مع السَّنَابل، فيالله درُّ شأن التنزيل ما أبدعَ رياضَ بلاغتِه!

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ﴾ أي: المناماتِ الباطلة ﴿بِعَٰلِمِينَ ۝٤٤﴾ لأنَّها لا تأويلَ لها وإنما التأويلُ للمنامات الصادقة، وهذا إمَّا لشيوع الأحلام في أباطيلِها، وإما لكون اللَّام للعَهْد والمعهودُ الأضغاث منها، والكلام وارد على أسلوب:

---

(١) في (م): متركبة، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٥/ ١٨٢، وفيه: إذا كانت مركبة، بدل: بحسب أنها مركبة.

(٢) في الحاشية ٥/ ١٨٢.

(٣) كذا في الأصل و(م)، والذي في حاشية الشهاب: على معنى من.

(٤) في (م): الثوب، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب وشرح الشافية ٢/ ٩٢.

(٥) شرح شافية ابن الحاجب لرضي الدين الأستراباذي ٢/ ٩٢.

عـلـى لاحـبٍ لا يَـهـتـدي بـمـنـارِه(١)

وهو إشارةٌ إلى كبرى قياسٍ ساقوه للعُذر عن جَهْلهم، كأنَّهم قالوا: هذه رؤيا باطلة، وكلُّ رؤيا كذلك لا نعلم تأويلَها، أي: لا تأويلَ لها حتَّى نعلمَه، ينتج: هذه رؤيا لا تأويل لها.

وجوِّز أن يكون المرادُ من الأحلام الرُّؤى(٢) مطلقاً، و«أل» فيه للجنس، والكلامُ اعترافٌ منهم بقصور عِلْمهم وأنَّهم ليسوا بنحارير في تأويلِ الرُّؤى مع أنَّ لها تأويلاً.

واختاره ابن المنيِّر، وادَّعى أنَّه الظاهر(٣)، وأنَّ قولَ المَلِك لهم أوَّلاً: «إن كنتم للرؤيا تعبرون» دليلٌ على أنَّهم لم يكونوا في عِلْمه عالمين بها؛ لأنَّه أتى بكلمة الشكِّ، فجاء اعترافُهم بالقُصور مطابقاً لشكِّ المَلِك الذي أخرجه مخرجَ استفهامِهم عن كونهم عالمين، وأنَّ قول الفتى: «أنا أنبِّئكم بتأويله» إلى قوله: «لعلِّي أرجعُ إلى الناس لعلَّهم يعلمون» دليلٌ على ذلك أيضاً(٤).

وذكر بعضُ المحقِّقين أنه يُشعر به عُدُولهم عمَّا وقع في كلام الملك من العبارة المُعْرِبة(٥) عن مجرَّد الانتقال من الدَّالِّ إلى المدلول، حيثُ لم يقولوا: بتعبير الأحلام، أو: عبارتها، إلى التأويل المنبئ عن التصرُّف والتكلُّف في ذلك؛ لما بين الآيلِ والمآل من البُعد.

واعتُرِض بأنَّه على هذا يبقى قولُهم: «أضغاث أحلام» ضائعاً؛ إذ لا دخلَ له في العذر.

وأجيب بأنَّه يمكن أن يكون المقصودُ منه إزالةَ خوف الملك من تلك الرؤيا، فلا يبقى ضائعاً.

---

(١) وعجزه: إذا سافه العَودُ النباطيُّ جرجرا، والبيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٦٦، وسلف ٢/ ٢٤١.

(٢) في حاشية (م): هي جمع رؤيا.

(٣) في حاشية (م): وكذا ادعى أبو حيان في البحر. اهـ منه.

(٤) الانتصاف ٢/ ٣٢٤.

(٥) في (م): المعبرة، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ٢١٨، والكلام منه، وهو المقصود بقول المصنف: بعض المحققين.

وقال صاحب «الكشف»: إنَّ وجه ذلك أن يجعل الأول جواباً مستقِلًا، والثاني كذلك، أي: هاهنا أمران: أحدهما من جانب الرائي، والثاني من جانب المعبِّر، ووجهُ تقديم الظَّرف على عامله: أنَّا أصحابُ الآراء والتدابير، وعِلْمُنا بذلك رصينٌ لا بتأويل الرُّؤى، ووَجْهُه على الأوَّل ظاهرٌ، وادَّعى أنَّ المقامَ يطابقه، وورودُه على ذلك الأسلوب مقوٍّ له لا مُوهِنٍ، خلافاً لما في «الانتصاف»، ويَقْوَى عند اختيار الوجه الثاني إذا كان الخطاب لجلسائِه وأهلِ مشورته من أهل الحلِّ والعَقْد؛ لأنَّ الأغلبَ على أمثالهم الجهلُ بمثل هذا العلم الذي لا يعلمُه إلا أفرادٌ من الناس.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا﴾ أي: صاحبي يوسفَ عليه السلام، وهو الشرابيُّ ﴿وَٱدَّكَرَ﴾ بالدَّال غيرِ المعجمة عند الجمهور، وأصلُه: اذتكر؛ أُبدلت التاءُ دالاً وأُدغمت الذَّال فيها.

وقرأ الحسن: «اذَّكر»، بإبدال التاء ذالاً معجمة وإدغام الذال المعجمة فيها[1]، والقراءة الأُولى أفصحُ.

والمعنى على كليهما: تَذكَّرَ ما سبق له مع يوسفَ عليه السَّلام ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: طائفةٍ من الزمان ومدَّةٍ طويلة.

وقرأ الأشهب العقيلي: «إِمَّة» بكسرِ الهمزة وتشديدِ الميم[2]، أي: نعمةٍ عليهِ بعدَ نعمة، والمراد بذلك خلاصُه من القتل والسِّجن وإنعامُ مَلِكه عليه، وعلى هذا جاء قولُه:

ألا لا أَرى ذا إِمَّـةٍ أصـبَـحَـت بـه فـتـتـرُكُـه الأيامُ وهـي كـمـا هـيـا[3]

وقال ابن عطيَّة: المراد بعد نعمةٍ أنعم اللهُ تعالى بها على يوسفَ عليه السلام، وهي تقريبُ إطلاقه[4]. ولا يخفى بُعْدُه.

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٤، والبحر ٥/ ٣١٤.

(٢) القراءات الشاذة ص٦٤، والمحتسب ١/ ٣٤٤، والبحر ٥/ ٣١٤.

(٣) البيت لزهير بن أبي سلمى، وهو في ديوانه ص٢٨٨. قال ثعلب شارح الديوان: يقول: مَن أصبحت به نعمة لم تتركه الأيام حتى تغيرها. وجاء في حاشية (م): وقوله: ثم بعد الفلاح والملك والإمَّة وارتهم هناك قبور. اهـ منه.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٢٤٩.

وقرأ ابنُ عباس وزيدُ بنُ علي ﵄، وأمةٌ[١]: «أَمَهٍ» بفتح الهمزة والميم المخفَّفة وهاءٍ منوَّنةٍ[٢]، من أَمِه يأمَه أمَهاً: إذا نسي. وجاء في المصدر: «أَمْه» بسكون الميم أيضاً، فقد رُوي عن مجاهد وعكرمة وشُبيل بن عَزْرة الضبعي أنهم قرؤوا بذلك[٣]، ولا عبرةَ بمن أنكر.

والجملةُ اعتراضٌ بين القول والمقول. وجوِّز أن تكون حالاً من الموصول أو من ضميرِه في الصِّلة، ويحتاج ذلك إلى تقديرِ «قد» على المشهور.

وقيل: معطوفةٌ على «نجا». وليس بشيء ـ كما قال بعضُ المحققين ـ لأنَّ حقَّ كلٍّ من الصِّلة والصِّفة أن تكون معلومةَ الانتساب إلى الموصول والموصوف عند المخاطب كما عند المتكلِّم، ومن هنا قيل: الأوصافُ قبل العِلم بها أخبارٌ، والأخبارُ بعد العلم بها أوصاف، وأنت تعلم أن تذكُّره بعد أمَّة إنَّما عُلم بهذه الجملة، فلا معنى لنظمِه مع نجاته المعلومة من قبلُ في سلك الصِّلة.

﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ أي: أُخبركم بتأويل ذلك الذي خَفِيَ أمرُه بالتلقِّي ممن عندَه علمُه لا من تلقاء نفسي، ولذلك لم يَقُل: أفتيكم في ذلك، وعقَّبه بقوله: ﴿فَأَرۡسِلُونِ ۝٤٥﴾ إلى مَن عندَه عِلمُه، وأراد به يوسفَ عليه السلام، وإنما لم يصرِّح به حرصاً على أن يكون هو المرسَلَ إليه، فإنه لو ذكَره فلربَّما أرسلوا غيرَه.

وضميرُ الجمع إمَّا لأنه أراد الملك ومَن معه، أو لأنه[٤] أراد الملك وحدَه لكنْ خاطبَه بذلك على سبيل التَّعظيم كما هو المعروفُ في خطاب الملوك، ويؤيِّده ما روي أنه لما سمع مقالةَ القوم جثى بين يدَي الملك وقال: إنَّ في السِّجن رجلاً عالماً يعبرُ الرؤيا، فابعثوني إليه. فبعثوه.

---

(١) في حاشية (م): أي: جماعة من التابعين. اهـ منه. وينظر التعليق الذي بعده.

(٢) البحر ٥/ ٣١٤ عن ابن عباس وزيد بن عليٍّ والضحاك وقتادة وأبو رجاء وشبيل بن عزرة الضبعي وربيعة بن عمرو. وقد أخرجها الطبري ١٣/ ١٨٤-١٨٦ عن ابن عباس وعكرمة وقتادة والضحاك ومجاهد.

(٣) البحر ٥/ ٣١٤، وشبيل بن عزرة الضبعي، أبو عمرو البصري النحوي، هو ختن قتادة، وكان من أفاضل أهل البصرة وقرائهم. التهذيب ٢/ ١٥٢. وأخرج هذه القراءة عن مجاهد الطبري ١٣/ ١٨٦.

(٤) قوله: أراد الملك ومن معه أو لأنه، ساقط من (م).

وكان السجن ـ على ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ في غير مدينة الملك. وقيل: كان فيها. قال أبو حيَّان ويرسمُ الناس اليوم سجنَ يوسف عليه السلام في موضعٍ على النيل بينه وبين الفُسطاط ثمانيةُ أميال[١]. والله تعالى أعلم بحقيقة الحال.

وأخرج ابنُ أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن أنه كان يقرأ: «أنا آتيكم» مضارعُ أتى من الإتيان، فقيل له: إنما هو: «أنا أنبِّئكم» فقال: أهو كان ينبِّئهم[٢]؟!. وأخرج ابنُ المنذر وغيرُه عن أبيٍّ أنه قرأ أيضاً كذلك[٣]. وفي «البحر» أنه كذا في الإمام أيضاً[٤].

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ في الكلام حذفٌ، أي: فأرسَلوه، فأتاه فقال: يا يوسفُ، ووَصَفَه بالمبالغة في الصِّدق حسبما عَلِمه وجرَّب أحواله في مدَّة إقامته معه في السِّجن؛ لكونهِ بصددِ اغتنام آثارِه واقتباسِ أنواره، فهو من باب براعةِ الاستهلال، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه ينبغي للمستفتي أن يعظِّم المفتي.

واستُدلَّ بذلك على أنَّهما لم يكذبا على يوسفَ في منامهما، وأنَّهما كذبا في قولهما: كذبْنا، إنْ ثبت.

﴿أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ أي: في رؤيا ذلك، وإنَّما لم يصرِّح به لوضوح مرامِه بقرينةِ ما سبق من معاملتِهما، ولدلالةِ مضمون الحادثةِ عليه، حيث إنَّ مثله لا يقعُ في عالم الشهادة. والمعنى: بيِّن لنا مآلَ ذلك وحُكمَه.

وعبَّر عن ذلك بالإفتاء، ولم يقل كما قال هو وصاحبُه أوَّلاً: «نبِّئنا بتأويله»، تفخيماً لشأنه عليه السَّلام حيثُ عاين رتبتَه في الفَضْل. ولم يقل: أفتني، مع أنَّه المستفتي وحدَه، إشعاراً بأنَّ الرؤيا ليست له بل لغيرِه ممَّن له ملابسةٌ بأمور العامَّة،

---

(١) البحر ٥/ ٣١٥.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٢، وهو في تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٥٢. والقراءة عن الحسن في القراءات الشاذة ص٦٤، والبحر ٥/ ٣١٤. وجاء في حاشية (م): لعله لم يُرِدْ إلا مجرد ترجيح قراءته، فافهم. اهـ منه.

(٣) الدر المنثور ٤/ ٢٢، وذكرها عن أبيٍّ أبو حيان في البحر ٥/ ٣١٤.

(٤) البحر ٥/ ٣١٤.

وأنه في ذلك معبرٌ وسفير، ولذا لم يغيِّر لفظَ الملك[(١)]، ويُؤذِنُ بهذا قولُه: ﴿لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: إلى الملك ومَنْ عنده، أو إلى أهل البلد، فأنبِّئُهم بما أفتيتَ.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ ذلك ويعملون بمقتضاه، أو: يعلمون فضلَك ومكانَك مع ما أنتَ فيه من الحال فتتخلَّص منه. والجملةُ عند أبي حيَّان على الأوَّل كالتعليل للرجوع، وعلى الثاني كالتعليل لـ «أفتنا»[(٢)].

وإنَّما لم يبتَّ القولَ بل قال: «لعلِّي» و«لعلَّهم» مجاراةً معه عليه السلام على نهجِ الأدب، واحترازاً عن المجازفة إذ لم يكن على يقينٍ من الرجوع:

فبينما المرءُ في الأحياء مُغتبطٌ إذا هو الرمسُ تعفوه الأعاصيرُ[(٣)]

ولا مِن عِلْمِهم بذلك، فربَّما لم يعلموه: إمَّا لعدم فهمهم، أو لعدمِ اعتمادهم.

﴿قَالَ﴾ مستأنفٌ على قياس ما مرَّ غيرَ مرَّة: ﴿تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا﴾ قرأ حفصٌ بفتح الهمز، والجمهورُ بإسكانها[(٤)]. وقرئ: «داباً» بألفٍ من غير همزٍ على التخفيف[(٥)]. وهو في كلٍّ ذلك مصدرٌ لـ «دأب»، وأصلُ معناه التَّعب، ويُكنى به عن العادة المستمرَّة لأنها تنشأ من مداومة العَمَل اللازم له التَّعبُ.

وانتصابُه على الحال من ضميرِ «تزرعون»، أي: دائبين، أو: ذوي دَأَبٍ، وأُفرد لأنَّ المصدر الأصلُ فيه الإفراد. أو على أنَّه مفعولٌ مطلَقٌ لفعلٍ محذوف، أي: تدأبون دأباً، والجملةُ حالية أيضاً. وعند المبرِّد مفعولٌ مطلق لـ «تزرعون»، وذلك عنده نظيرُ: قعد القرفصاءَ. وليس بشيء.

وقد أوَّل عليه السلام البقراتِ السِّمانَ والسنبلاتِ الخضرَ بسنين مخاصيب، والعجافَ واليابساتِ بسنين مُجْدِبةٍ، فأخبرهم بأنَّهم يواظبون على الزِّراعة سبعَ سنين

---

(١) في حاشية (م): قيل: لم يغير لفظ الملك لأن التعبير يكون على وفقه، فافهم. اهـ منه.
(٢) البحر ٥/ ٣١٥.
(٣) البيت لجبلة العذري كما في الحماسة البصرية ٢/ ٦٥، أو لحريث بن جبلة العذري كما في عيون الأخبار ٢/ ٣٠٥، واللسان (دهر)، أو لعِثْير بن لبيد العذري كما في اللسان (دهر).
(٤) التيسير ص١٢٥، والنشر ٢/ ٢٩٥.
(٥) هي قراءة السوسي وأبي جعفر، ووقفاً حمزة. البدور الزاهرة ص١٦٤.

ويبالغون فيها؛ إذ بذلك يتحقَّق الخصبُ الذي هو مصداقُ البقرات السِّمان وتأويلُها.

وقيل: المراد الأمرُ بالزِّراعة كذلك، فالجملةُ خبرٌ لفظاً أمرٌ معنًى، وأُخرج على صورة الخبر مبالغةً في إيجاب إيجادِه حتَّى كأنه وقع وأخبر عنه، وأُيِّد بأنَّ قوله تعالى: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ﴾ أي: في كلِّ سنة ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِۦٓ﴾ - ولا تذوره كيلا يأكله السُّوس كما هو شأنُ غِلالِ مصرَ ونواحيها إذا مضى عليها نحوُ عامين، ولعلَّه استدلَّ على ذلك بالسُّنبلات الخضر - يناسبُ كونَه أمراً مثله؛ قيل: لأنَّه لو لم يؤوَّل ذلك بالأمر، لزم عطفُ الإنشاء الخبر؛ لأن «ما» إما شرطيةٌ أو موصولةٌ متضمِّنة معنى الشرط، وعلى كلِّ حالٍ فلكون الجزاء إنشاءً تكونُ إنشائيَّةً معطوفة على خبريَّة.

وأُجيب بأنَّا لا نسلِّم أنَّ الجملة الشرطية التي جوابُها إنشائيٌّ إنشائية، ولو سلِّم فلا نسلِّم العطفَ، بل الجملةُ مستأنفة لنُصحِهم وإرشادهم إلى ما ينبغي أن يفعلوه، حيثُ لم يكن معتاداً لهم كما كان الزَّرعُ كذلك، أو هي جوابُ شرط مقدَّر، أي: إنْ زرعتم فما حَصَدْتم.. إلخ.

وأيضاً يحتمل الأمرُ عكسَ ما ذكروه، بأنْ يكون «ذروه» بمعنى: تَذَروه، وأبرز في صورة الأمر لأنه بإرشاده، فكأنَّه[1] أَمَرهم به.

والتحقيقُ ما في «الكشف» من أنَّ الأظهرَ أنَّ «تزرعون» على أصله؛ لأنَّه تأويلُ المنام بدليلِ قوله الآتي: «ثم يأتي»، وقولُه: «فما حصدتُّم فذروه» اعتراضٌ اهتماماً منه عليه السلام بشأنهم قبلَ تتميم التأويل، وفيه ما يؤكِّد أمر السَّابق واللاحق كأنَّه قد كان، فهو يأمرهم بما فيه صلاحُهم، وهذا هو النَّظم المعجِز. انتهى.

وذكر بعضُهم أنَّ «ما حصدتم» إلخ - على تقديرِ كون «تزرعون» بمعنى ازرعوا - داخلٌ في العبارة، فإنَّ أكْلَ السَّبعِ العِجاف السبعَ السِّمان، وغلبةَ السنبلات اليابساتِ الخضرَ، دالٌّ على أنَّهم يأكلون في السِّنين المجدبة ما حصل في السنين المخصبة، وطريقُ بقائه تعلَّموه من يوسف عليه السلام فبقي لهم في تلك المدَّة. وقيل: إنَّ

(١) في الأصل و(م): فكأنهم، والمثبت من حاشية الشهاب ٥/ ١٨٤، والكلام منه.

«تزرعون» على هذا التقدير، وكذا ما بعدَه، خارجٌ عن العبارة. والكلُّ كما ترى.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: اتركوا ذلك في السُّنبل إلَّا ما لا غنى عنه من القليل الذي تأكلونه في تلك السنين، وفيه إرشادٌ[١] إلى التقليل في الأكل.

وقرأ السُّلمي: «مما يأكلون» بالياء على الغيبة، أي: يأكلُ الناس[٢].

والاقتصارُ على الاستثناء المأكول دون البذر لكون ذلك معلوماً من قوله عليه السلام: «تزرعون سبع سنين».

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: من بعد السِّنين السبعِ المذكورات. وإنَّما لم يقل: من بعدهنَّ، قَصْداً إلى تفخيم شأنهنَّ[٣]. ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ أي: سبعُ سنين صعابٌ على الناس، وحذف التمييز لدلالة الأوَّل عليه.

﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي: ما ادَّخرتُم في تلك السنين من الحبوب المتروكة في سَنابلها لأجلهنَّ، وإسنادُ الأكل إليهنَّ مع أنه حالُ الناس فيهنَّ مجازيٌّ، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس:٦٧] واللَّام في «لهن» ترشيحٌ لذلك، وكان الدَّاعي إليه التطبيقَ بين المعبَّر والمعبَّرِ به، ويجوز أن يكون التعبيرُ بذلك للمشاكلة لِمَا وقع في الواقعة. وفسَّر بعضُهم الأكلَ بالإفناء كما في قولهم: أَكَلَ السَّير لحمَ الناقة، أي: أفناه وذهب به.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: تُحْرِزونه وتخبِّئونه لبزورِ الزِّراعة[٤]، مأخوذٌ من الحِصْن وهو الحِرْز والملجأ.

---

(١) في الأصل: إشارة، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٤/ ٢٨٢.

(٢) البحر ٥/ ٣١٥.

(٣) في حاشية (م): وفي إرشاد العقل السليم: لم يقل ذلك قصداً إلى الإشارة إلى وصفهن فإن الضمير ساكت عن أوصاف المرجع بالكلية. اهـ فتدبر. اهـ منه. والكلام في تفسير أبي السعود ٤/ ٢٨٣.

(٤) في حاشية (م): البذر والبزر بمعنًى كما في «العين»، وهو الحب الذي يجعل في الأرض لينبت، وقال ابن دريد على ما في «المجمل»: البذر بالذال في البقول، والبزر بالزاي خلافه. اهـ منه. والكلام في حاشية الشهاب ٥/ ١٨٤.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: السنينَ الموصوفة بما ذُكر من الشِّدَّة وأكْلِ المدَّخر من الحبوب ﴿عَامٌ﴾ هو كالسَّنة لكنْ كثيراً ما يُستعمل فيما فيه الرخاءُ والخصبُ، والسَّنة فيما فيه الشِّدةُ والجَدْب، ولهذا يعبَّر عن الجدب بالسنة، وكأنَّه تحاشياً عن ذلك وتنبيهاً من أوَّل الأمر على اختلاف الحال بينه وبين السَّوابق عبَّر به دون السَّنة.

﴿فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ أي: يصيبهم غيث، أي: مطر كما قال ابن عباس ومجاهد والجمهور. فهو من غاث الثلاثيِّ اليائي، ومنه قولُ الأعرابية: غِثْنا ما شِئنا[١]، وقولُ بعضهم: أذى البراغيثِ إذا البَرَى غِيث[٢].

وقيل: هو من الغَوث، أي: الفرج، يقال: أغاثنا الله تعالى: إذا أمدَّنا برفع المكارِه حين أظلَّتنا، فهو رباعيٌّ واوي.

﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ من العصْر المعروف، أي: يعصرون ما من شأنه أن يُعصر: من العِنَب، والقَصَب، والزيتون، والسِّمْسِم، ونحوها من الفواكه لكثرتِها، والتعرُّض لذِكْره كما قال بعضُ المحقِّقين[٣] مع جواز الاكتفاء عنه بذِكْر الغَيث المستلزمِ له عادةً كما اكتفى به عن ذِكر تصرُّفهم في الحبوب، إمَّا لأنَّ استلزام الغَيث له ليس كاستلزامه للحبوب؛ إذ المذكورات يتوقَّف صلاحُها على أمورٍ أخرى غيرِ المطر، وإمَّا لمراعاة جانب المستفتي باعتبار حالته الخاصَّة به بشارةً له، وهي التي يدور عليها حسنُ موقع تغليبه على «الناس» في قراءة حمزةَ والكسائي بالفوقانية[٤].

وعن ابن عباس تفسيرُ ذلك بـ «يحلبون»، وكأنَّه مأخوذٌ من العَصْر المعروف؛ لأنَّ في الحلب عصرُ الضرع ليخرجَ الدَّرُّ.

---

(١) أي: مُطِرنا ما أردنا. ووقع في الأصل و(م): ما شيتنا، بدل: ما شئنا، وهو تصحيف، والمثبت من الكشاف ٢/ ٣٢٥، واللسان (غيث)، والدر المصون ٦/ ٥١٠، وحاشية الشهاب ٥/ ١٨٤.

(٢) نسب هذه العبارة صاحب الوافي بالوفيات ٣/ ١٠١ لابن شرف القيرواني محمد بن أبي سعيد، أبي عبد الله الجذامي، والمقصود بالبرى: التراب.

(٣) هو أبو السعود في تفسيره ٤/ ٢٨٣.

(٤) التيسير ص١٢٩، والنشر ٢/ ٢٩٥، وهي قراءة خلف من العشرة.

وتكرير «فيه» إمَّا ـ كما قيل ـ للإشعار باختلاف ما يقع فيه زماناً وعنواناً[(١)]، وإمَّا لأنَّ المقام مقامُ تعداد منافعِ ذلك العامِ، ولأجله قدِّم في الموضعين على العامل، فإنَّ المقامَ بيانُ أنَّه يقع في ذلك العامِ هذا وذاك، لا بيانُ أنهما يقعان في ذلك العام كما يفيده التأخير.

وجوِّز أن يكون التقديمُ للقصر، على معنى أنَّ غيثَهم [وعصرهم[(٢)]] في تلك السنين كالعدم بالنِّسبة إلى عامهم ذلك، وأن يكون ذلك في الأخير لمراعاةِ الفواصل، وفي الأوَّل لرعاية حاله.

وقرأ جعفرُ بن محمد رضي الله عنهما، والأعرج، وعيسى البصرة: «يُعْصَرون» على البناء للمفعول[(٣)].

وعن عيسى: «تُعصَرون» بالفوقانية مبنيًّا للمفعول أيضاً[(٤)]، من عَصرهُ الله تعالى: إذا أنجاه، أي: يُنجيهم الله سبحانه ممَّا هم فيه من الشدَّة، وهو مناسبٌ لقوله: «يُغاث الناس». وعن أبي عبيدة وغيره: أخذ المبني للفاعل من العصر بمعنى النَّجاة أيضاً[(٥)].

وفي «البحر» تفسير العَصَر والعُصْرة ـ بالضمِّ ـ بالمنجا، وأنشد قولَ أبي زُبيد في عثمان رضي الله عنه:

صادياً يستغيثُ غيرَ مُغاثٍ ... ولقد كان عُصْرةَ المَنْجودِ[(٦)]

---

(١) أي: للإشعار باختلاف أوقات ما يقع فيه من الغيث والعصر زماناً وهو ظاهر، وعنواناً فإن الغيث والغوث من فضل الله تعالى، والعصر من فعل الناس. تفسير أبي السعود ٤/ ٢٨٣.

(٢) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٤/ ٢٨٣، وعنه نقل المصنف.

(٣) القراءات الشاذة ص٦٤، والمحتسب ١/ ٣٤٤، والبحر ٥/ ٣١٦.

(٤) تفسير القرطبي ١١/ ٣٧٠، والبحر ٥/ ٣١٦.

(٥) مجاز القرآن ١/ ٣١٣.

(٦) البحر ٥/ ٣١٥، وأبو زبيد هو حرملة بن منذر الطائي، ويقال: المنذر بن حرملة. كان نصرانيًّا واختلف في إسلامه، وهو أحد المعمَّرين، يقال: عاش مئة وخمسين سنة. الإصابة ١١/ ١٥٤. والبيت ليس في رثاء عثمان كما ذكر أبو حيان وقبله ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٥١، وإنما هو من قصيدة في رثاء ابن أخت أبي زبيد كما ذكر البكري في اللآلي ١/ ١١٩، واليزيدي في أماليه ص٨، وتنظر قصيدته بتمامها في جمهرة أشعار العرب ٢/ ٧٣١.

وقال ابن المستنير[1]: معناه يُمطَرون، من أَعْصَرَتِ السَّحابةُ عليهم، أي: حان وقتُ عصرِ الرياح لها لتمطرَ، فـ «على» صلةُ الفعل، كما في: عصرتُ الليمونَ على الطعام. فحُذفت وأُوصل الفعل بنفسِه. أو تضمَّن «أعصرتْ» معنى مطرتْ فتعدَّى تعديتَه. وفي «الصحاح» عصِر القومُ، أي: أُمطروا، ومنه قراءة بعضهم: «وفيه يُعصَرون»[2]. وظاهرُه أنَّ اللفظ موضعٌ لذلك فلا يحتاجُ إلى التضمين عليه.

وحكى النقَّاش أنه قرئ: «يُعصِّرون» بضمِّ الياء وكسرِ الصَّاد وتشديدِها من عصَّر مشدَّداً للتكثير، وقرأ زيدُ بن علي رضي الله عنهما: «وفيه تِعِصِّرون» بكسر التاء والعين والصَّاد وتشديدِها[3]، وأصلُه: تعتصرون، فأدغم التاءَ في الصَّاد ونقل حركتَها[4] إلى العين، وأتبع حركةَ التاء لحركةِ العين، واحتمل أن يكون من: اعتصرَ العنب ونحوه، أو من اعتصر بمعنى نجا، ومن ذلك قوله:

لو بغيرِ الماء حَلقي شَرِقٌ كنتُ كالغصَّان بالماء اعتصاري[5]

ثم إنَّ أحكامَ هذا العام المبارك ـ كما أخرج ابنُ جرير[6] وغيرُه عن قتادة ـ عِلْمٌ آتاه الله تعالى علمه لم يكنْ فيما سُئل عنه، وروي مثلُ ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، وعَنَيا أنَّ ذلك بالوحي، وهو الظاهر.

ولقد أتى عليه السلام بما يدلُّ على فضله في آخر فتواه على عكسِ ما فعل أوَّلاً عند الجواب عن رؤيا صاحبَيْه، حيث أتى بذلك في أوَّلها، ووجهُ ذلك ظاهر.

وقيل: إنَّ هذه البشارةَ منه عليه السَّلام لم تكنْ عن وحي بل لأنَّ العادة جاريةٌ بأنَّ انتهاءَ الجدب الخصبُ، أو لأنَّ السنَّة الإلهية على أن يوسِّعَ على عباده سبحانه

---

(١) في الأصل و(م): المنير، والمثبت من المحرر الوجيز ٣/ ٢٥١، والبحر ٥/ ٣١٦. وابن المستنير هو قطرب. ينظر الدر المصون ٦/ ٥١١.

(٢) الصحاح (عصر) دون قوله: ومنه قراءة...، والقراءة سلفت قريباً عن جعفر بن محمد والأعرج وعيسى.

(٣) القراءتان في البحر ٥/ ٣١٦.

(٤) أي: حركة الصاد.

(٥) البيت لعدي بن زيد، وهو في الشعر والشعراء ١/ ٢٢٩، والعقد الفريد ١/ ٣٣، والصحاح (شرق).

(٦) في تفسيره ١٣/ ١٩٣.

بعد ما ضيَّق عليهم. وفيه أنَّه لو كان كذلك لأجملَ في البشارة، وأنَّ حصرَ الجدب يقتضي تغييرَه بخصبٍ مَّا لا على ما ذكره، خصوصاً على ما تقتضيه بعضُ القراءات من إغاثةِ بعضِهم بعضاً، فإنَّها لا تُعلم إلا بالوحي.

ثمَّ إنه عليه السلام بعد أن أفتاهم وأرشدَهم وبشَّرهم كان يتوقَّع وقوعَ ما أخبر به، فقد أخرج ابنُ أبي حاتم عن زيد بن أسلم: أنه عليه السَّلام كان بعد ذلك يصنعُ لرجلٍ طعامَ اثنين فيقرِّبه إلى الرجل فيأكلُ نصفَه ويدعُ نصفه، حتى إذا كان يومٌ قرَّبه له فأكله كلَّه، فقال عليه السلام: هذا أوَّلُ يومٍ من الشِّداد(١).

واستدل البلخيُّ بتأويله لذلك على بطلانِ قولِ من يقول: إنَّ الرؤيا على ما عبِّرت أوَّلاً، فإنهم كانوا قد قالوا: «أضغاث أحلام»، فلو كان ما قالوه مؤثِّراً شيئاً لأعرض عليه السلام عن تأويلِها.

وفيه بحث، فقد روى أبو داود وابنُ ماجه عن أبي رزين: «الرؤيا على جناحِ طائرٍ ما لم تُعبَّر فإذا عُبِّرت وقعتْ، ولا تقصَّها إلا على وادٍّ وذي رأي»(٢). ولعلَّه إذا صحَّ هذا يلزم القول بأنَّ الحكم على الرؤيا بأنها «أضغاث أحلام» وأنَّها لا تأويل(٣) لها ليس من التَّعبير في شيء، وإلا فالجمعُ بين ما هنا وبين الخبر مُشكل.

وقال ابن العربي(٤): إنَّه ينبغي أن يُخصَّ ذلك بما يحتمل من الرؤيا وجوهاً، فيعبَّر بأحدِها فيقع عليه.

واستدلُّوا بذلك أيضاً على صحَّة رؤيا الكافر، وهو ظاهر.

وقد ذكروا للاستفتاء عن الرؤيا آداباً: منها أن لا يكونَ ذلك عند طلوع الشمس أو عند غروبها أو في الليل، وقالوا: إنَّ تعبيرَها مناماً هو تعبيرُها في نفس الأمر،

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٥٤.

(٢) سنن أبي داود (٥٠٢٠)، وسنن ابن ماجه (٣٩١٤)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٦١٨٣)، والترمذي (٢٢٧٨) وقال: حسن صحيح. وجاء عندهم: ... على رجلِ طائر...

(٣) في (م): لا ذيل.

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٧٧-١٠٧٨.

فلا تحتاج إلى تعبير بعدُ. وأكثروا القولَ فيما يتعلَّق بها، وأكثرُ ما قيل ممَّا لا يظهرُ لي سرُّه ولا أرى بعضَ ذلك إلا أضغاث[1] أحلام.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ بعد ما جاء السَّفير المعبِّر بالتعبير، وسمع منه ما سمع من نقيرٍ وقطمير: ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾ لِمَا رأى من علمِه وفضْلِه وإخباره عمَّا لا يعلمه إلا اللطيفُ الخبير.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُ﴾ أي: يوسف عليه السلام ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ وهو صاحبه الذي استفتاه، وقال له: إنَّ المَلِكَ يريد أن تخرجَ إليه. ﴿قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: سيِّدك وهو الملك ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي: فتِّشه عن شأنهنَّ وحالهنَّ، وإنما لم يقل: فاسأله أنْ يفتِّش عن ذلك، حثًّا للملك على الجدِّ في التفتيش لتتبينَّ براءتُه وتتَّضح نزاهتُه، فإنَّ السؤالَ عن شيء مما يهيِّج الإنسانَ ويحرِّكه للبحث؛ لأنه يأنفُ من الجهل، ولو قال: سَلْه أن يفتِّش، لكان تهييجاً له عن الفحص عن ذلك، وفيه جراءةٌ عليه، فربَّما امتنع منه ولم يلتفت إليه.

وإنما لم يتعرَّض عليه السلام لامرأة العزيز مع أنَّها الأصلُ الأصيل لِمَا لاقاه تأدُّباً وتكرُّماً، ولذا حمَلَها ذلك على الاعتراف بنزاهتِه وبراءةِ ساحته.

وقيل: احترازاً عن مكرِها حيثُ اعتقدها باقيةً في ضلالها القديم، وأما النِّسوة فقد كان يطمع في صدعهنَّ بالحقِّ، وشهادتهنَّ بإقرارها بأنها راودته عن نفسه فاستعصم، ولذلك اقتصر على وصفهنَّ بتقطيع الأيدي ولم يصرِّح بمراودتهنَّ له، واكتفى بالإيماء إلى ذلك بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝٥٠﴾ مجاملةً معهن، واحترازاً عن سوء مقالتهنَّ، وانتصابهنَّ عند رفعهنَّ إلى الملك للخصومة عن أنفسهنَّ متى سمعنَ بنسبته لهنَّ إلى الفساد.

وفي «الكشاف» أنه عليه السلام أراد بهذا أنَّه كيدٌ عظيم لا يعلمه إلا الله تعالى، أو استشهد بعلم الله تعالى على أنهنَّ كِذْنَه وأنه بريءٌ ممَّا قُرف به، أو أراد الوعيدَ لهنَّ، أي: عليم بكيدهنَّ فمجازيهنَّ عليه[2]. انتهى.

---

(١) في (م): كأضغاث.

(٢) الكشاف ٢/٢٢٦.

وكأنَّ الحصرَ على الأوَّل مِن قُربه مِن: زيد يعلم، وصُلوحِه لإفادته عندَه[1]، أو من اقتضاء المقام لأنَّه إذا حملَه على السؤال ثمَّ أضاف عِلْمه إلى الله تعالى دلَّ به على عظمته، وأنَّ الكُنْه غيرُ مأمولِ الوصول، لكنْ ما لا يُدرك كلُّه لا يُترك كلُّه، وهذا هو الوجه، وفيه زيادةُ تشويق وبعثٌ إلى تعرُّف الأمر، فالجملة عليه تتميمٌ لقوله: «فاسأله» إلخ، والكيدُ اسمٌ لمَا كِدْنَه به.

وعلى الوجه الثاني تكون تذييلاً[2]، كأنَّه قيل: احملْه على التعرُّف يتبيَّنْ له براءةُ ساحتي، فإنَّ الله سبحانه يعلم أنَّ ذلك كان كيداً منهنَّ، وإذا كان كيداً يكونُ لا محالةَ بريئاً، والكيد هو الحدث.

وعلى الثالث تحتملها، والمعنى بَعْثُ الملك على الغَضب له والانتقامِ منهنَّ، وإلَّا لم يتلاءم الكلامُ.

ولا يطابقُ كرمَ يوسف عليه السلام الذي عجب منه نبيُّنا عليه الصلاة والسلام، فقد أخرج غيرُ واحد عن ابن عباسٍ وابنِ مسعود عنه ﷺ أنَّه قال: «لقد عجبتُ من يوسفَ وكرمِه وصبرِه، والله تعالى يغفر له، حين سُئل عن البقرات العِجاف والسِّمان، ولو كنتُ مكانه ما أَجَبْتُهم حتى اشترطتُ أن يخرجوني، ولقد عجبتُ منه حين أتاه الرسولُ فقال: «ارجع إلى ربك» ولو كنتُ مكانه ولبثتُ في السِّجن مالبث، لأسرعتُ الإجابة وبادرتُهم الباب ولما ابتغيتُ العذرَ، إنْ كان لحليماً ذا أناة»[3].

---

(١) في حاشية (م): أي صاحب الكشاف. اهـ منه. وقوله: لإفادته، أي: لإفادة الحصر.

(٢) جاء في حاشية (م): وقال الطيبي: كأنه قال: والله تعالى شاهدي، وشهادة الله تعالى تلك الأمارات الدالة على براءته، اهـ ولا يحتاج إلى هذا، ففي الكيد غنية على أنه حسن. اهـ منه.

(٣) أخرجه من حديث ابن عباس ابن أبي الدنيا في العقوبات (١٦٠)، والطبراني في الكبير (١١٦٤٠)، وإسناده ضعيف جدًّا، وقد سلف الكلام عليه ص٣٤٧ من هذا الجزء، وليس فيه: «إن كان لحليماً ذا أناة» وهذه العبارة أخرجها الطبري ١٣/ ٢٠٠ من حديث أبي هريرة ﷺ.
ولم نقف عليه من حديث ابن مسعود ﷺ، ويشهد لبعضه حديث أبي هريرة ﷺ في صحيح البخاري (٤٦٩٤)، وصحيح مسلم (١٥١)، وفيه: «ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي». ولفظه عند أحمد (٨٥٥٤): «لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر».

ودعاؤُه له ﷺ قيل: إشارةٌ إلى ترك العزيمة بالرُّخصة؛ وهي تقديم حقِّ الله تعالى بتبليغ التوحيد والرِّسالة على براءة نفسه. وجعله العلامةُ الطيبي من قبيل قولك لمن تعظِّمه: رضي الله تعالى عنك ما جوابُك عن كلامي؟

وقيل: يمكن أن يقال: إنَّ في براءة النفس من حقِّ الله تعالى ما فيها، فإنَّها إذا تحقَّقت عندهم وقع ما تلاها موقعَ القبول، وقد ذكر أنَّ الاجتهاد في نفي التُّهم واجبٌ وجوبَ اتِّقاء الوقوف في مواقفها[(١)]، فقد قال ﷺ: «مَن كان يُؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفنَّ مواقفَ التُّهم»[(٢)].

وأخرج مسلمٌ من رواية أنس أنَّ رسول الله عليه الصلاة والسلام كان مع إحدى نسائِه فمرَّ به رجلٌ، فدعاه وقال: «هذه زوجتي» فقال: يا رسولَ الله، مَن كنتُ أظنُّ به فلم أكنْ أظنُّ بك. فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الشيطان يجري من ابنِ آدمَ مجرى الدَّم»[(٣)].

وكأنَّه لهذا كان الزمخشري وكان ساقط الرِّجل قد أَثبت على القُضاة أنَّ رِجلَه لم تُقطع في جناية ولا فسادٍ، بل سقطتْ من ثلجٍ أصابها في بعض الأسفار، وكان يُظهر مكتوبَ القضاة في كلِّ بلدٍ دخله خوفاً من تُهمة السُّوء.

فلعلَّه عليه السلام خشي إن خرجَ[(٤)] ساكتاً عن أمر ذنبه، غيرَ متَّضحةٍ براءةُ ساحته عمَّا سُجِن فيه وقُرف به، من أن يتسلَّق به الحاسدون إلى تقبيحِ أمره، ويجعلوه سُلَّماً إلى حطِّ قَدْره ونَظرِ الناس إليه بعين الاحتقار، فلا يَعلقُ كلامُه في قلوبهم، ولا يترتَّب على دعوته قبولُهم، وفي ذلك مِن تعرِّي التبليغ عن الثمرة ما فيه.

وما ذكره ﷺ: «ولو كنتُ مكانه» إلخ كانَ تواضعاً منه عليه الصلاة والسلام لا أنه لو كان مكانَه بادر وعجل، وإلا فحِلمُه ﷺ وتحمُّله واهتمامُه بما يترتَّب عليه قبول الخَلْق أوامرَ الحقِّ سبحانه وتعالى أمرٌ معلوم لدى الخواصِّ والعموم.

---

(١) جاء في حاشية (م): وزعم بعضهم أن الآية تدل على ذلك، وفيه نظر. اهـ منه.
(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف ٢/ ٣٢٥ و ٣/ ٢٧٣.
(٣) صحيح مسلم (٢١٧٤).
(٤) في (م): أن يخرج.

وزعم ابن عطيَّةَ أنه يحتمل أنْ يكون عليه السلام أراد بالرَّبِّ العزيزَ كما قيل في قوله: «إنَّه ربي أحسن مثواي»، ففي ذلك استشهادٌ به وتقريعٌ له[١]. وليس بشيء، ومثله ما قيل: إنَّ ضمير «كيدهنَّ» ليس عائداً على النِّسوة المذكورات بل عائدٌ على الجنس فافهم.

وقرأ أبو حيوةَ وأبو بكر عن عاصم في رواية: «النُّسوة» بضم النون، وقرأت فرقة: «اللاي» بالياء[٢]، وهو كاللاء جمع التي.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على السؤال كما سبق، كأنه قيل: فما كان بعد ذلك؟ فقيل: قال الملك إثرَ ما بلَّغه الرسولُ الخبرَ وأحضرهنَّ: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ أي: شأنكنَّ، وأصلُه: الأمر العظيم الذي يحقُّ لعظمته أن يكثُرَ فيه التخاطبُ ويُخطب له ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ﴾ وخادعتُنَّه ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ ورغَّبتُنَّه في طاعة مولاته، هل وجدتنَّ فيه ميلاً إليكن؟

﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تنزيهاً له، وتعجيباً من نزاهته عليه السلام وعفَّتِه ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ بالغْنَ في نفي جنس السُّوء عنه بالتنكير وزيادةِ «من».

وفي «الكشف» في توجيه كون السؤال المقدَّر في نظم الكلام عن وجدانهنَّ فيه الميل، وذلك لأنَّه سؤالٌ عن شأنهنَّ معه عند المراودة، وأوَّله الميلُ ثمَّ ما يترتَّب عليه: وحَمَله[٣] على السؤال مدَّعَى النزاهة الكلِّية، فيكون سؤالُ الملك منزَّلاً عليه؛ إذ لا يمكن ما بعدَه إلا إذا سلِّم الميل، وجوابهنَّ عليه ينطبق لتعجبهنَّ عن نزاهته بسبب التعجُّب من قدرة الله تعالى على خَلْقِ عفيفٍ مثلِه، ليكون التعجُّب منها على سبيلِ الكناية، فيكون أبلغَ وأبلغَ، ثم نفيهنَّ العلمَ[٤] مطلقاً وطرفاً، أي: طرفَ وهمٍ من سوءٍ أيِّ سوءٍ، فضلاً عن شهود الميل معهنَّ. اهـ، وهو من الحُسْن بمكان.

وما ذكره ابنُ عطية[٥] من أنَّ النسوة قد أجبنَ بجوابٍ جيِّد تَظْهرُ منه براءةُ

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٥٢.
(٢) القراءتان في البحر ٥/ ٣١٧. والمشهور عن عاصم القراءة بكسر النون في «النسوة».
(٣) في حاشية (م): أي يوسف عليه السلام. اهـ منه.
(٤) في حاشية (م): قد صرح غير واحد أن المراد بالعلم هنا الإدراك. اهـ منه.
(٥) في المحرر الوجيز ٣/ ٢٥٣، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

أنفسهنَّ جملةً، وأعطينَ يوسفَ عليه السلام بعضَ براءةٍ؛ وذلك أنَّ الملك لمَّا قرَّرهنَّ أنهنَّ راودْنه، قلنَ جواباً عن ذلك وتنزيهاً لأنفسهنَّ: «حاش لله»، و[قد] يحتمل [على بُعدٍ] أن يكون في جهته عليه السلام، وقولُهنَّ: «ما علمنا» إلخ ليس بإبراءٍ تامٍّ، وإنما هو[1] شرحُ القصَّة على وجهها حتَّى يتقرَّر الخطأُ في جهتهنَّ = ناشئٌ عن الغفلة عمَّا قرَّره المولى صاحب «الكشف».

﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ﴾ وكانت حاضرةَ المجلس، قيل: أقبلت النِّسوة عليها يقرِّرْنها. وقيل: خافتْ أن يشهدْن عليها بما قالتْ يوم قطَّعنَ أيديهنَّ، فأقرَّت قائلةً:

﴿ٱلۡـَٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: ظهر وتبيَّن بعد خفاء؛ قاله الخليل. وهو مأخوذٌ من الحصَّة وهي القطعةُ من الجملة، أي: تبيَّنتْ حصَّة الحقِّ من حصَّة الباطل، والمراد تميُّز هذا عن هذا، وإلى ذلك ذهب الزجَّاج أيضاً[2].

وقيل: هو مِن حصَّ شعرَه: إذا استأصله بحيث ظهرتْ بشرةُ رأسه، وعلى ذلك قوله:

قد حصَّت البيضةُ رأسي فما أطعَمُ نوماً غيرَ تَهْجاعِ[3]

ويرجع هذا إلى الظُّهور أيضاً.

وقيل: هو من حصحصَ البعيرُ: إذا ألقى مَبارِكَه ليناخ؛ قال حميدُ بن ثور الهلاليُّ يصف بعيراً:

فحصْحَصَ في صُمِّ الصَّفا ثَفِناتِه وناء بسَلْمى نوءةً ثمَّ صمَّما[4]

(١) أي: الإبراء التام، كما في المحرر الوجيز.
(٢) في معاني القرآن ٣/ ١١٥.
(٣) البيت لأبي قيس بن الأسلت الأوسي، وهو في المفضليات ص٢٨٤، والكامل ١/ ٢٣٥، والصحاح (حصص)، والخزانة ٣/ ٤١١. والتَّهجاع: النومة الخفيفة. الصحاح (هجع).
(٤) ديوان حميد بن ثور ص١٩، والصحاح (صمم)، والمخصص ١٢/ ١٠٩، والكشاف ٢/ ٣٢٦، واللسان (صمم)، وفيه: صمَّم في السير وغيره، أي: مضى. والثفنات جمع ثفنة: وهي ما يقع على الأرض من أعضاء البعير إذا استناخ. والصفا: الحجارة. والصم جمع أصم، وهو الصلب من الحجارة. حاشية الشهاب ٥/ ١٨٦.

والمعنى: الآن ثبت الحقُّ واستقرَّ، وذكر الراغبُ وغيرُه أن حصَّ وحصحص ككَفَّ وكَفْكف، وكبَّ وكبكب[١].

وقرئ بالبناء للمفعول[٢]، على معنى: أُقرَّ الحقُّ في مقرِّه ووُضع في موضعه.

و«الآن» من الظروف المبنيَّة في المشهور[٣]، وهو اسمٌ للوقت الحاضرِ جميعُه كوقتِ فعل الإنشاء حالَ النُّطق به، أو الحاضِر بعضُه كما في هذه الآية، وقولِه سبحانه: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ [الأنفال:٦٦] وقد يَخْرُجُ عند ابن مالك عن الظرفيَّة كخبر «فهو يهوي في النار، الآنَ حينَ انتهى إلى قعْرها»[٤] فإنَّ «الآن» فيه في موضع رفعٍ على الابتداء، و«حين» خبرُه، وهو مبنيٌّ لإضافته إلى جملةٍ صدرُها ماضٍ.

وألِفُه منقلبةٌ عن واو؛ لقولهم في معناه: الأوان. وقيل: عن ياء؛ لأنَّه من آن يئين، إذا قرُب.

وقيل: أصلُه: أوان، قُلبت الواو ألفاً ثم حُذفت لالتقاءِ الساكنين. ورُدَّ بأنَّ الواو قبل الألف لا تُقلب، كالجواد والسَّواد.

وقيل: حُذفت الألف وغيِّرت الواوُ إليها كما في راحٍ ورَوَاح، استعملوه مرَّة على فَعَلٍ وأخرى على فَعَال، كزَمَنٍ وزَمان.

واختلفوا في علَّة بنائه؛ فقال الزَّجَّاج: بني لتضمُّنه معنى الإشارة؛ لأنَّ معناه: هذا الوقت[٥]. ورُدَّ بأنَّ المتضمِّن معنى الإشارة بمنزلة اسم الإشارة وهو لا تدخلُه «أل».

---

(١) مفردات الراغب (حصص).

(٢) القراءات الشاذة ص٦٤، والبحر ٥/ ٣١٧.

(٣) في حاشية (م): ودليل اسميتها دخول «أل» وحرف الجر. اهـ منه.

(٤) أخرجه مسلم (٢٨٤٤)، والآجري في الشريعة (٩٣٠) عن أبي هريرة ﷺ، والكلام من همع الهوامع للسيوطي ٢/ ١٨٤. ورواية مسلم: حتى، بدل: حين. ووقع في (م): مقرها، بدل: قعرها، وهو تصحيف.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤-٢٥، ونقله المصنف عنه ـ وكذا ما سيأتي من أقوال ـ بواسطة السيوطي في همع الهوامع ٢/ ١٨٥-١٨٦.

وقال أبو علي: لتضمُّنه معنى لام التَّعريف؛ لأنه استُعمل معرفةً وليس عَلَماً، و«أل» فيه زائدة. وضعِّف[1] بأنَّ تضمُّن اسمٍ معنى حرفٍ اختصاراً ينافي زيادةَ ما لا يعتدُّ به، هذا مع كون المزيد غيرَ المضمَّن معناه، فكيف إذا كان إيَّاه؟

وقال المبرِّد وابن السَّرَّاج: لأنه خالف نظائرَه إذ هو نكرةٌ في الأصل استُعمل من أوَّل وضعِه باللَّام، وبابُها أن تدخلَ على النَّكرة. وإليه ذهب الزمخشري.

وردَّه ابن مالك بلزوم بناءِ الجَّماء الغَفير[2] ونحوه ممَّا وقع في أوَّل وضعه باللام، وبأنَّه لو كانت مخالفةُ الاسم لسائر الأسماء موجبةً لشَبَهِ الحرف واستحقاقِ البناء، لوجبَ بناءُ كلِّ اسم خالفَ الأسماء بوزنٍ أو غيرِه، وهو باطل بإجماع. واختار[3] أنَّه بني لشبه الحرف في ملازمةِ لفظٍ واحدٍ، لأنه لا يثنَّى ولا يُجمع ولا يصغَّر بخلافِ حين، ووقت، وزمان، ومدَّة. وردَّه أبو حيَّان بما ردَّ هو به على مَن تقدَّم[4].

وقال الفرَّاء[5]: إنما بني لأنَّه نُقل من فعلٍ ماض وهو «آنَ» بمعنى حانَ، فبقي على بنائه استصحاباً، على حدِّ: أنهاكم عن قيلَ وقالَ.

ورُدَّ بأنَّه لو كان كذلك لم تدخل عليه «ألْ» كما لا تدخل على ما ذَكَر، وجاز فيه الإعراب كما جاز فيه[6].

وذهب بعضُهم إلى أنَّه مُعرَبٌ منصوبٌ على الظرفية، واستَدَلَّ بقوله:

كأنَّهما مِلْآنِ لم يتغيَّرا[7]

---

(١) جاء في حاشية (م): هو ابن مالك. اهـ منه. والكلام من همع الهوامع ٢/ ١٨٥.

(٢) الجماء: بيضة الرأس، سميت بذلك لأنها جماء، أي: ملساء، ووصفت بالغفير لأنها تغفر، أي: تغطي الرأس. اللسان (جمم).

(٣) في التسهيل ص٩٥، والكلام من همع الهوامع ٢/ ١٨٥.

(٤) وقول أبي حيان كما في همع الهوامع: وهو مردود بما رد به هو (يعني ابن مالك) على الزمخشري.

(٥) في معاني القرآن ١/ ٤٦٨، والكلام من همع الهوامع ٢/ ١٨٦.

(٦) أي: في قيل وقال. وكذا قوله: على ما ذكر، أي: على قيل وقال. همع الهوامع ٢/ ١٨٦.

(٧) وعجزه: وقد مرَّ للدارين من بعدنا عصرُ، والبيت لأبي صخر الهذلي، وسلف ٢/ ٢٤٣.

بكسر النون، أي: من الآن، فحُذفت النُّون والهمزةُ وجُرَّ، فدلَّ على أنَّه مُعرَبٌ.

وضعِّف[1] باحتمال أن تكون الكسرةُ كسرةَ بناء، ويكون في بناء «الآن» لغتان: الفتح والكسرُ، كما في «شتَّان» إلَّا أنَّ الفتحَ أكثرُ وأشهر.

وفي «شرح الألفية» لابن الصَّائغ: أنَّ الذي قال: إنَّ أصلَه «أوان»، يقول بإعرابه كما أن أواناً مُعْرَبٌ. واختار الجلال السيوطيُّ[2] القولَ بإعرابه؛ لأنَّه لم يثبتْ لبنائه علَّة معتبرةٌ، فهو عنده منصوبٌ على الظرفية، وإن دخلت «من» جُرَّ، وخروجُه عن الظرفية غيرُ ثابت، وفي الاستدلال بالحديث السابق مقالٌ.

وأيًّا ما كان فهو هنا متعلِّق بـ «حصحص»، أي: حصحص الحقُّ في هذا الوقت.

﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ لا أنَّه راودني عن نفسي، وإنَّما قالت ذلك بعدَ اعترافها تأكيداً لنزاهتِه عليه السلام، وكذا قولُها: ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٥١﴾ أي: في قوله حين افتريتُ عليه: «هي راودتني عن نفسي».

قيل: إنَّ الذي دعاها لذلك كلِّه التوخِّي لمقابلة الاعتراف ـ حيث لا يُجدي الإنكار ـ بالعفو.

وقيل: إنَّها لما تناهتْ في حُبِّه لم تُبالِ بانتهاك ستْرِها وظهورِ سرِّها.

وفي «إرشاد العقل السليم»[3] أنَّها لم تُرِدْ بقولها: «الآن» إلخ مجرَّدَ ظهورِ ما ظهر بشهادة النِّسوة من مُطلَق نزاهتِه عليه السلام فيما أحاط به علمهنَّ، من غير تعرُّضٍ لنزاهته في سائر المواطن خصوصاً فيما وقع فيه التَّشاجُر بمحضرِ العزيز، ولا بَحْثٍ عن حال نفسِها وما صنعتْ في ذلك، بل أرادتْ ظهورَ ما هو متحقِّقٌ في نفس الأمر وثبوتَه، من نزاهته عليه السلام في محلِّ النزاع وخيانتها، ولهذا قالت: «أنا راودته» إلخ، وأرادت بـ «الآن» زمانَ تكلُّمها بهذا الكلام لا زمانَ شهادتهنَّ،

---

(١) في حاشية (م): المضعِّف هو ابن مالك. اهـ منه.
(٢) في همع الهوامع ٢/ ١٨٧.
(٣) ٤/ ٢٨٥.

فتأمل أيها المنصف[1]، هل ترى فوقَ هذه المرتبة نزاهةً، حيث لم يتمالك الخُصَماءُ من الشَّهادة بها على أتمِّ وجه، والفضلُ ما شهدت به الخُصَماءُ؟

وليت مَن نَسَبَ إليه السُّوء ـ وحاشاه ـ كان عنده عُشرُ مِعشارِ ما كان عند أولئك النِّسوة الشاهداتِ من الإنصاف.

﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ﴾ الذي ذهب إليه غيرُ واحد أنَّ «ذلك» إشارةٌ إلى التثبُّت مع ما تلاه من القصَّة أجمعُ، فهو من كلام يوسفَ عليه السلام[2]، جَعَله فذلكةً منه لِمَا نهض له أوَّلاً من التشمُّر لطهارة ذيلِه وبراءة ساحتِه.

وقد حكى الله تعالى ما وقع من ذلك طبقَ الوجودِ مع رعاية ما عليه دأبُ القرآن من الإيجاز، كحذفِ: فرجع إلى ربِّه، فأنهاهُ مقالةَ يوسف، فأحضرهنَّ سائلاً قال: «ما خطبكن» إلخ. وكذلك ـ كما قيل ـ في «قالت امرأة العزيز» إلخ.

وكذلك هذا أيضاً؛ لأنَّ المعنى: فرجع إليه الرسولُ قائلاً: فتَّش الملكُ عن كُنْه الأمر، وبان له جليَّةُ الحقِّ من عصمتك وأنَّك لم ترجعْ في ذلك المقام الدَّحضِ بمسِّ مُلام، فعند ذلك قال عليه السلام: «ذلك ليعلم» العزيز ﴿أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ﴾ في حُرمته ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: بظهر الغيب.

وقيل: ضمير «يَعلم» للمَلِك، وضميرُ «أخنه» للعزيز، وقيل: للمَلِك أيضاً لأنَّ خيانةَ وزيرِه خيانةٌ له. والباءُ إمَّا للمُلابسة أو للظرفيَّة، وعلى الأوَّل هو حالٌ من فاعلِ «أخُنْه»، أي: تركتُ خيانتَه وأنا غائبٌ عنه، أو من مفعولِه، أي: وهو غائب عنِّي. وهما متلازمان. وجوِّز أن يكون حالاً منهما، وليس بشيء، وعلى الثاني فهو ظرفٌ لغوٌ لما عندَه، أي: «لم أخنْه» بمكان الغَيب وراءَ الأستار والأبواب المغلَّقة، ويَحتمل الحاليَّةَ أيضاً.

---

(١) في الأصل و(م): انتهى فافهم وتأمل، بدل: فتأمل أيها المنصف، والمثبت من تفسير أبي السعود.

(٢) في حاشية (م): وفي الكشاف: صح ذلك لدلالة المعنى عليه، ونحوُه قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ١٠٩ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٩-١١٠]. وفيه دغدغة فتأمل. اهـ منه. وهو في الكشاف ٢/ ٣٢٨.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: وليعلم أنَّ الله تعالى ﴿لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٢﴾ أي: لا يُنفذه ولا يسدِّدُه، بل يبطلُه ويزهقه، فهداية الكيد مجازٌ عن تنفيذه.

ويجوز أن يكون المرادُ: لا يهدي الخائنين بسبب كيدِهم[1]، فأَوْقعَ الهداية المنفيَّةَ على الكيد ـ وهي واقعةٌ عليهم ـ تجوُّزاً للمبالغة؛ لأنَّه إذا لم يهدِ السبب عُلم منه عدمُ هداية مسبَّبه بالطريقِ الأولى.

وفيه تعريضٌ بامرأة العزيز في خيانتها أمانتَه، وبه في خيانته أمانة الله تعالى حين ساعدها على حبسِه بعد ما رأوا الآياتِ الدَّالَّةَ على نزاهته عليه السلام.

ويجوز أن يكونَ مع ذلك تأكيداً لأمانته عليه السلام، على معنى: لو كنتُ خائناً لما هدى الله تعالى كيدي ولا سدَّده.

وتُوهِمُ عبارةُ بعضهم عدمَ اجتماع التأكيد والتعريض، والحقُّ أنه لا مانعَ من ذلك، وأراد بكيدِه تشمُّرَه وثباتَه ذلك، وتسميتُه كيداً على فرضِ الخيانة على بابها حقيقةٌ كما لا يخفى، فما في «الكشف» من أنه سمَّاه كيداً استعارةً أو مشاكلةً ليس بشيء.

وقيل: إنَّ ضمير «يَعلم» و«لم أخنْه» لله تعالى، أي: ذلك ليعلم الله تعالى أنِّي لم أَعْصِه، أي: ليُظْهِرَ أنِّي غيرُ عاصٍ ويُكرمَني به ويصير سببَ رفع منزلتي، وليظهرَ أنَّ كيد الخائن لا ينفُذُ، وأنَّ العاقبة للمطيع لا للعاصي، فهو نظيرُ قوله تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ﴾ [البقرة: ١٤٣] وله نظائرُ أُخَر في القرآن كثيرةٌ.

إلا أنَّ الله تعالى أخبر عن نفسِه بذلك، وأمَّا غيره فلم يَرِدْ في الكتاب العزيز، وفيه نوعُ إيهامِ التحاشي عنه أحسنُ، على أنَّ المقام لِمَا تقدَّم أَدْعَى.

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ أي: لا أنزِّهها عن السُّوء، قال ذلك عليه السلام هضماً لنفسه البريَّة عن كلِّ سوء، وتواضُعاً لله تعالى، وتحاشياً عن التزكية والإعجاب

---

(١) جاء في حاشية (م): في عبارة بعضهم: بكيدهم، فالباء إما متعلقة بالفعل (يعني بـ «يهدي»)، أو متعلقة بـ «الخائنين»، وفيه تنبيه على أنه تعالى يهدي كيد من لم يقصد الخيانة بكيده، كيوسف على السلام في كيده إخوتَه، كذا قيل: فتدبر. اهـ منه. والبعض المذكور هو البيضاوي، والشرح للشهاب في الحاشية ٥/ ١٨٦.

بحالها، على أسلوب قوله ﷺ: «أنا سيِّد ولدِ آدمَ ولا فَخْر»[1].

أو تحديثاً بنعمة الله تعالى، وإبرازاً لسِرِّه المكنون في شأن أفعال العباد، أي: لا أنزِّهها من حيثُ هي هي، ولا أُسند هذه الفضيلةَ إليها بمقتضى طبعِها من غير توفيقٍ من الله سبحانه، بل إنَّما ذلك بتوفيقه جلَّ شأنُه ورحمتِه.

وقيل: إنه أشار بذلك إلى أنَّ عدم التعرُّض لم يكن لعدم الميل الطبيعي، بل لخوفِ الله تعالى.

﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ﴾ البشريَّة التي من جملتها نفسي في حدِّ ذاتها ﴿لَأَمَّارَةٌۢ﴾ لكثيرةُ الأمر ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي: بجنسه، والمراد أنَّها كثيرةُ الميل إلى الشهوات مستعملةً في تحصيلها القوى والآلات.

وفي كثير من التفاسير أنَّه عليه السلام حين قال: «لِيَعْلَمَ أنِّي لم أَخُنْه بالغيب» قال له جبريلُ عليه السلام: ولا حينَ هممتَ؟ فقال: «وما أبرِّىء نفسي» إلخ، وقد أخرجه الحاكم في «تاريخه» وابنُ مردويه بلفظٍ قريب من هذا عن أنس مرفوعاً[2]، ورُوي ذلك عن ابن عباس وحكيمِ بن جابر والحسنِ وغيرهم. وهو إنَّ صحَّ يُحمل الهمُّ فيه على الميل الصَّادر عن طريق الشَّهوة البشرية لا عن طريقِ العَزْم والقصد.

وقيل: لا مانعَ من أن يُحمل على الثاني، ويقالَ: إنَّه صغيرة، وهي تجوزُ على الأنبياء عليهم السلام قبلَ النبوَّة، ويُلتزم أنَّه عليه السلام لم يكنْ إذ ذاك نبيّاً.

والزمخشريُّ جعل ذلك وما أشبَهه من تلفيقِ المبطلةِ وبهتِهم على الله تعالى ورسولِه[3]. وارتضاه ـ وهو الحريُّ بذلك ـ ابن المنيِّر، وعرَّضَ بالمعتزلة بقوله: وذلك شأنُ المبطلة من كلِّ طائفة[4].

---

(١) قطعة من حديث أخرجه ابن حبان (٦٢٤٢) من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه. وورد أيضاً ضمن حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند أحمد (١٠٩٧٢)، والبخاري (٤٧١٢)، ومسلم (٢٢٧٨) دون قوله: «ولا فخر».

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٣.

(٣) الكشاف ٢/ ٣٢٨.

(٤) الانتصاف مع الكشاف ٢/ ٣٢٨.

﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ قال ابنُ عطية[1]: الجمهورُ على أنَّ الاستثناءَ منقطعٌ، و«ما» مصدريَّة، أي: لكن رحمةُ ربِّي هي التي تصرفُ عنها السوء، على حدِّ ما جوِّز في قوله سبحانه: ﴿وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ ۞ إِلَّا رَحۡمَةً مِّنَّا﴾ [يس: ٤٣-٤٤].

وجوِّز أن يكون استثناءً من أعمِّ الأوقات، و«ما» مصدرية ظرفية زمانيَّة، أي: هي أمَّارةٌ بالسوء في كلِّ وقتٍ إلا في وقتِ رحمة ربِّي وعصمتِه، والنَّصبُ على الظرفية لا على الاستثناء كما تُوهِّم، لكنْ فيه التفريغُ في الإثبات، والجمهورُ على أنه لا يجوز إلا بعدَ النفي أو شبهه، نعم أجازه بعضُهم في الإثبات إن استقام المعنى، كـ: قرأت إلا يومَ الجمعة.

وأُورد على هذا بأنَّه يلزم عليه كونُ نفس يوسفَ وغيرِه من الأنبياء عليهم السلام مائلةً إلى الشهوات في أكثر الأوقات، إلا أنْ يُحمل ذلك على ما قبل النبوَّة بناءً على جواز ما ذُكر قبلها، أو يُرادَ جنسُ النَّفس لا كلُّ واحدة.

وتُعقِّب بأنَّ الأخير غيرُ ظاهر؛ لأنَّ الاستثناء معيارُ العموم، ولا يَردُ ما ذكر رأساً؛ لأنَّ المراد هضمُ النوع البشريِّ اعترافاً بالعجز لولا العصمةُ، على أنَّ وقتَ الرحمة قد يعمُّ العمرَ كلَّه لبعضهم. اهـ، ولعلَّ الأولى الاقتصارُ على ما في حيِّز العلاوة، فتأمَّل.

وأن يكون استثناءً من «النفس»، أو من الضميرِ المستتر في «أمَّارة» الراجع إليها، أي: كلُّ نفس أمَّارةٌ بالسُّوء إلا التي رحمها الله تعالى وعصَمَها عن ذلك كنفسي، أو من مفعول «أمَّارة» المحذوفِ، أي: أمارةٌ صاحبَها إلَّا ما رحمه الله تعالى، وفيه وقوعُ «ما» على مَنْ يعقل، وهو خلافُ الظاهر. ولْينظر الفرقُ في ذلك بينه وبينَ انقطاع الاستثناء.

﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥٣﴾ عظيمُ المغفرة فيغفر ما يعتري النفوس بمقتضى طباعها، ومبالغٌ في الرحمة فيعصمها من الجريان على موجبِ ذلك. والإظهارُ في مقام الإضمار مع التعرُّض لعنوان الربوبية لتربية مبادي المغفرة والرحمة، ولعلَّ تقديمَ ما يُفيد الأولى على ما يفيد الثانية لأنَّ التخليةَ مقدَّمة على التحلية.

---

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ٢٥٤.

وذهب الجبَّائيُّ ـ واستظهره أبو حيَّان[١] ـ إلى أنَّ «ذلك ليعلم» إلى هنا من كلام امرأة العزيز، والمعنى: ذلك الإقرارُ والاعترافُ بالحقِّ ليعلم يوسفُ أنِّي لم أخُنْه ولم أكذبْ عليه في حالِ غيبته، وما أبرِّئ نفسي مع ذلك من الخيانة حيثُ قلتُ ما قلتُ وفعلتُ به ما فعلتُ، إنَّ كلَّ نفس أمَّارةٌ بالسوء إلا نفساً رَحِمها الله تعالى بالعِصمة كنفس يوسفَ عليه السلام، إنَّ ربي غفورٌ لمن استغفر لذَنبه واعترفَ به، رحيمٌ له.

وتَعقَّب ذلك صاحبُ «الكشف» بأنَّه ليس مُوْجِبهُ إلا ما تُوهِّم من الاتِّصال الصُّوري، وليس بذاك، ومن أين لها أن تقول: «وما أبرِّئ نفسي» بعد ما وضح ـ ولا كَشِيَةِ الأبْلَق[٢] ـ أنها أمُّها يرجع إليها طِمُّها ورمُّها[٣]؟

ومن الناس مَن انتصر له بأنَّ أمر التعليل ظاهرٌ عليه، وهو على تقدير جعْلِه من كلامه عليه السلام غيرُ ظاهر؛ لأنَّ عِلْمَ العزيز بأنَّه لم يكن منه ما قُرف[٤] به إنَّما يستدعي التفتيشَ مطلقاً، لا خصوصَ تقديمه على الخروج حين طلبه الملك، والظاهرُ على ذلك التقدير جعلُه له.

وأجيب بأنَّ المراد: ليظهرَ علمُه على أتمِّ وجهٍ، وهو يستدعي الخصوصَ، ويساعدُ على إرادة ظهور العلم أنَّ أصلَ العلم كان حاصلاً للعزيز قبلُ حين شهد شاهدٌ من أهلها، وفيه نظر.

ويمكن أن يقال: إنَّ في التثبُّت وتقديمِ التفتيش على الخروج من مراعاة حقوقِ العزيز ما فيه، حيثُ لم يخرج من حبسه قبلَ ظهور بطلان ما جعله سبباً له مع أنَّ الملك دعاه إليه، ويترتَّب على ذلك علمُه بأنه لم يخنْه في شيءٍ من الأشياء أصلاً فضلاً عن خيانته في أهله؛ لظهورِ أنَّه عليه السلام إذا لم يُقْدِمْ على ما عسى أن يُتوهَّم أنه نقضٌ لِمَا أبرمه مع قوَّة الدَّاعي وتوفُّرِ الدواعي، فهو بعدم

---

(١) في البحر ٥/ ٣١٧.

(٢) البَلَق: ارتفاع التحجيل إلى الفخذين، ويقال للدابَّة: أبْلق وبَلْقاء. والشِّيَة: كلُّ لون يخالف معظمَ لون الفرس وغيره. اللسان (بلق) و(وشي).

(٣) الطِّمّ: الرطب، والرِّمّ: اليابس. اللسان (رمم).

(٤) قَرَفَ فلانٌ فلاناً: وقع فيه. تهذيب اللغة ٩/ ١٠٢ (قرف).

الإقدام على غيره أجدرُ وأحرى، فالعِلَّة للتثبُّت مع ما تلاه من القصَّة هي قصدُ حصول العلم بأنَّه عليه السلام لم يكنْ منه ما يخوَّن به، كائناً ما كان مع ما عطف عليه، وذلك العلم إنَّما يترتَّب على ما ذُكر لا على التفتيش ولو بعد الخروج كما لا يخفى.

أو يقال: إنَّ المراد: ليجريَ على موجب العلم بما ذُكر، بناءً على التزامِ أنَّه كان قبل ذلك عالماً به لكنَّه لم يجرِ على موجب عِلْمِه، وإلا لَمَا حبسه عليه السلام، فيتلافى تقصيرَه بالإعراض عن تقبيح أمرِه، أو بالثناء عليه ليحظى عند الملك ويعظِّمَه الناس، فتَيْنَع من دعوته أشجارُها، وتجري في أودية القلوب أنهارُها، ولا شكَّ أنَّ هذا ممَّا يترتَّب على تقديمِ التفتيش كما فعل.

وليس ذلك ممَّا لا يليق بشأنه عليه السلام، بل الأنبياءُ عليهم السلام كثيراً ما يفعلون مثلَ ذلك في مبادي أمرهم، وقد كان نبيُّنا ﷺ يُعطي الكافرَ إذا كان سيِّد قومِه ما يُعطيه ترويجاً لأمره. وإذا حُمل قولُه عليه السلام لصاحبه الناجي: «اذكرني عند ربك» على مِثْلِ هذا ـ كما فعل أبو حيَّان[1] ـ تناسَبَ طرفا الكلامِ أشدَّ تناسُبٍ، وكذا لو حُمل ذاك على ما اقتضاه ظاهرُ الكلام وتضافرت عليه الأخبار.

وقيل هنا: إنَّ ذلك لئلَّا يقبِّحَ العزيزُ أمرَه عند الملك تمحُّلاً لإمضاء ما قضاه، ويكون ذلك من قبيل السَّعي في تحقيق المقتضي لخلاصِه، وهذا من قبيل التَّشمير لرفع المانع، لكنَّه ممَّا لا يليقُ بجلالة شأنِه عليه السلام، ولعلَّ الدُّعاء بالمغفرة في الخبر السَّالف على هذا إشارةٌ إلى ما ذكر.

ويقال: إنَّه عليه السلام إنَّما لم يُعاتَب عليه كما عُوتب على الأوَّل لكونه دونَه، مع أنَّه قد بلغَ السيلُ الزُّبى. ولا يخفى أنَّ عودَه عليه السلام لِمَا يستدعي أدنى عتابٍ بالنِّسبة إلى منصبه بعدَ أن جرى ما جرى في غاية البُعد، ومن هنا قيل:

---

(١) في البحر ٥/ ٣١١، قال: والذي أختاره أن يوسف إنما قال للساقي: «اذكرني عند ربك» ليتوصل إلى هدايته وإيمانه بالله، كما توصل إلى إيضاح الحق للساقي ورفيقه، والضمير في «فأنساه» عائد على الساقي، ومعنى «ذكر ربه»: ذكر يوسف لربِّه، والإضافة تكون بأدنى ملابسة.

الأَولى أن يجعلَ ما تقدَّم كما تقدَّم، ويُحملَ هذا على أنَّه عليه السلام أراد به تمهيدَ أمر الدَّعوة إلى الله تعالى جَبْراً لِمَا فعل قبلُ، واتِّباعاً لخلافِ الأَوْلى بالنَّظر إلى مقامه بالأولى.

وقيل في وجه التعليل غيرُ ذلك، وأخرج ابنُ جرير عن ابنِ جُريج أنَّ هذا من تقديمِ القرآن وتأخيرِه[1]. وذهب إلى أنه متَّصل بقوله: «فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن» إلخ. ويَرِدُ على ظاهره ما لا يخفى، فتأمَّل جميعَ ما ذكرناه لتكونَ على بصيرة من أمرك.

وفي رواية البزِّي عن ابن كثير، وقالون عن نافع أنهما قرأا: «بالسُّوِّ» على قلب الهمزة واواً والإدغام[2].

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ﴾ أجعلْه خالصاً ﴿لِنَفْسِى﴾ وخاصّاً بي.

﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ في الكلام إيجازٌ، أي: فأَتَوْا به فلمَّا... إلخ، وحُذف ذلك للإيذان بسرعة الإتيان، فكأنَّه لم يكن بينه وبينَ الأمر بإحضاره عليه السلام والخطابِ معه زمانٌ أصلاً، ولم يكن حاضراً مع النِّسوة في المجلس كما زعمه بعضٌ، وجَعَل المراد من هذا الأمر: قرِّبوه إلي.

والضميرُ المستكنُّ في «كلَّمه» ليوسفَ عليه السلام، والبارزُ للملك، أي: فلما كلَّم يوسفُ عليه السلام الملكَ إثرَ ما أتاه فاستنطقَه ورأى حُسْنَ مَنطقِه بما صدَّق الخُبْرُ الخَبَرَ[3].

واستَظْهَر في «البحر» كونَ الضمير الأوَّل للملك والثاني ليوسف، أي: فلما كلَّمه الملكُ ورأى حُسنَ جوابه ومحاورته[4] ﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾ ذو مكانةٍ ومنزلةٍ رفيعة ﴿أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾ مؤتمنٌ على كلِّ شيء، وقيل: آمِنٌ من كلِّ مكروه، والوصفُ بالأمانة هو الأبلغ في الإكرام.

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٣٥١.
(٢) التيسير ص ١٢٩، والنشر ١/ ٣٨٣.
(٣) الخُبْر: العلم بالشيء، والخَبَر محرَّكةً: النبأ. القاموس (خبر).
(٤) البحر ٥/ ٣١٩.

و«اليوم» ليس بمعيارٍ للمكانة والأمانة بل هو آنُ التكلُّم، والمراد تحديدُ مبدئهما احترازاً عن كونهما بعدَ حين. وفي اختيار «لَدَى» على «عند» ما لا يخفى من الاعتناء بشأنِه عليه السلام، وكذا في اسميَّةِ الجملة وتأكيدِها.

روي أنَّ الرسول جاءَه فقال له: أجبِ الملكَ الآن بلا معاودة، وألْقِ عنك ثيابَ السِّجن، واغتسلْ والبَسْ ثياباً جُدُداً. ففعل، فلما قام ليخرجَ دعا لأهل السِّجن: اللهمَّ عطِّف عليهم قلوبَ الأخيار، ولا تُعَمِّ عليهم الأخبار. فهم أعلمُ الناس بالأخبار في كلِّ بلد. ثم خرج فكتبَ على الباب: هذه منازلُ البلوى، وقبورُ الأحياء، وشماتةُ الأعداء، وتجربةُ الأصدقاء. فلمَّا وصل إلى باب الملك قال: حسبي ربِّي من دنياي، وحسبي ربِّي من خَلْقه، عزَّ جارُك وجلَّ ثناؤك ولا إله غيرُك. فلمَّا دخل على الملك قال: اللهمَّ إنِّي أسألكَ بخيرِكَ من خيرِه، وأعوذُ بكَ من شرِّه وشرِّ غيرِه. ثم سلَّم عليه بالعربية، فقال له الملك: ما هذا اللسان؟! فقال: لسانُ عمِّي إسماعيل، ثمَّ دعا له بالعبرانية، فقال له: وما هذا اللسان أيضاً؟! فقال: هذا لسانُ آبائي، وكان الملك يعرفُ سبعين لساناً، فكلَّمه بها فأجابه بجميعِها، فتعجَّب منه وقال: أيُّها الصِّدِّيق إنِّي أحبُّ أن أسمعَ رؤياي منكَ. فحكاها عليه السلام له طبقَ ما رأى لم يخرمْ منها حرفاً، فقال الملك: أَعْجَبُ من تأويلك إيَّاها معرفتُك لها! فأجلسه معه على السرير وفوَّض إليه أمرَه[(١)]. وقيل: إنه أجلسه قبلَ أن يقصَّ الرؤيا.

وأخرج ابنُ جرير عن ابن إسحاق قال: ذَكَروا أنَّ قطفيرَ هَلَك في تلك الليالي[(٢)]، وأنَّ الملك زوَّج يوسفَ امرأتَه راعيل[(٣)]، فقال لها حين أُدخلت عليه: أليس هذا خيراً مما كنت تريدين؟ فقالت: أيُّها الصِّدِّيق لا تلُمْني، فإني كنت امرأةً كما ترى حسناءَ جملاءَ ناعمةً في مُلْكٍ ودنيا، وكان صاحبي لا يأتي النِّساء، وكنتَ

---

(١) أخرجه الثعلبي في عرائس المجالس ص ١٢٩ مطولاً من طريق إسحاق بن بشر، عن جويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس. وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ٩٠: هذا إسناد ساقط.

(٢) في حاشية (م): وجاء في رواية أن الملك عزله ونصَّب يوسف عليه السلام منصبه. اهـ منه.

(٣) في هامش (م): وكان ذلك على الفور بناء على أنه لم تكن العدة من دينهم. اهـ منه.

كما جعلكَ الله تعالى في حُسنك وهيئتِك، فغلَبتْني نفسي على ما رأيت. فيزعمون أنَّه وجدَها عذراءَ، فأصابها فولدتْ له رجلين: إفرائيم وميشا(١).

وأخرج الحكيم الترمذيُّ عن وهب قال: أصابت امرأةَ العزيز حاجةٌ، فقيل لها: لو أتيتِ يوسفَ بنَ يعقوب فسألتيه. فاستشارت الناسَ في ذلك، فقالوا: لا تفعلي؛ فإنَّا نخافُه عليك. قالت: كلَّا إنِّي لا أخاف ممَّن يخاف الله تعالى. فأُدخلت عليه فرأته في ملكِه فقالت: الحمدُ لله الذي جعلَ العبيد ملوكاً بطاعته، ثمَّ نظرت إلى نفسِها فقالت: الحمد لله الذي جعلَ الملوك عبيداً بمعصيته. فقضى لها جميعَ حوائجها، ثمَّ تزوَّجها فوجدها بِكْراً، الخبر(٢).

وفي رواية: أنَّها تعرَّضتْ له في الطريق فقالت ما قالت، فعرفها فتزوَّجها فوجدها بِكْراً، وكان زوجُها عنِّيناً.

وشاع عند القُصَّاص أنَّها عادت شابَّة بِكْراً؛ إكراماً له عليه السلام بعد ما كانت ثيِّباً غيرَ شابة، وهذا ممَّا لا أصل له. وخبرُ تزوُّجها أيضاً ممَّا لا يعوَّل عليه عند المحدِّثين، وعلى فرضِ ثبوت التزوُّج فظاهرُ خبر الحكيم أنَّه إنَّما كان بعدَ تعيينه عليه السلام لِمَا عُيِّن له من أمر الخزائن.

قيل: ويُعرب عنه قولُه تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ الْأَرْضِ﴾ أي: أرضِ مصرَ، وفي معناه قولُ بعضهم: أي: أرضكَ التي تحت تصرُّفك، وقيل: أراد بالأرض الجنسَ، وبخزائِنها الطعامَ الذي يخرج منها. و«على» متعلِّقة ـ على ما قيل ـ بـ «مستول» مقدَّرٍ، والمعنى: ولِّني على أمرِها من الإيراد والصَّرف.

﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ لها ممَّن لا يستحقُّها ﴿عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ بوجوه التصرُّف فيها، وقيل: بوقتِ الجوع. وقيل: حفيظٌ للحساب عليمٌ بالألسُن.

وفيه دليلٌ على جواز مدحِ الإنسانِ نفسَه بالحقِّ إذا جُهل أمرُه، وجوازِ طلبِ الولاية إذا كان الطالبُ ممَّن يقدرُ على إقامة العَدْل وإجراءِ أحكام الشريعة وإن كان من يدِ الجائر أو الكافر، وربمَّا يجب عليه الطَّلبُ إذا توَّقف على ولايته إقامةُ

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٢٢٠-٢٢١، دون ذكر الاسمين.

(٢) نوادر الأصول ٢/ ١٨١-١٨٢.

واجبٍ مثلاً وكان متعيِّناً لذلك، وما في الصحيحين من حديث عبد الرحمن بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يا عبد الرحمن، لا تسأل الإمارةَ؛ فإنكَ إنْ أُوتيتَها عن مسألةٍ وُكِلْتَ إليها، وإن أُعطيتَها من غيرِ مسألة أُعِنْتَ عليها»[١] = واردٌ في غير ما ذُكر.

وعن مجاهد: أنَّه أسلم الملكُ على يدِه عليه السلام، ولعل إيثارَه عليه السلام لتلكَ الولاية خاصَّةً إنما كان للقيام بما هو أهمُّ أمور السَّلطنة إذ ذاك من تدبيرِ أمر السِّنين؛ لكونه من فروع تلكِ الولاية، لا لمجرَّدِ عمومِ الفائدة كما قيل.

وجاء في روايةٍ أنَّ الملك لمَّا كلَّمه عليه السلام وقصَّ رؤياه وعبَّرها له، قال: ما ترى أيها الصِّدِّيق؟ قال: تزرعُ في سنيِّ الخصب زرعاً كثيراً، فإنك لو زرعتَ فيها على حجرٍ نَبَت، وتبني الخزائنَ وتجمعُ فيها الطعامَ بقصبه وسُنبله فإنه أبقى له، ويكون القَصَبُ علفاً للدوابِّ، فإذا جاءت السِّنون بعتَ ذلك فيحصل لك مالٌ عظيم. فقال الملك: ومَن لي بهذا، ومَن يجمعُه ويبيعُه لي ويكفيني العملَ فيه؟ فقال: «اجعلني على خزائن الأرض» إلخ[٢].

والظاهر أنه أجابه لذلك حينَ سأله، وإنما لم يذكر إجابتَه له عليه السلام إيذاناً بأنَّ ذلك أمرٌ لا مردَّ له غنيٌّ عن التصريح به، لاسيما بعدَ تقديم ما تندرجُ تحته أحكامُ السلطنة جميعها.

وأخرج الثعلبيُّ عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يرحمُ الله تعالى أخي يوسف؛لو لم يقل: «اجعلني على خزائن الأرض» لاستعمله من ساعته، ولكنَّه أخَّر ذلك سنةً»[٣].

---

(١) صحيح البخاري (٦٦٢٢)، وصحيح مسلم (١٦٥٢)، وهو عند أحمد (٢٠٦١٨).

(٢) كان يجدر بالمصنف رحمه الله وغيره من المفسرين عدم ذكر هذه الروايات وأمثالها؛ لِما فيها من الإساءة إلى نبي الله يوسف، وإيهام أن ما فعله عليه السلام إنما كان من أجل الملك وزيادة ماله، وليس هذا من أخلاق الدعاة ولا من أفعالهم، فكيف ينسب مثله إلى نبي من أنبياء الله تعالى؟!.

(٣) عرائس المجالس ص ١٢٩-١٣٠، وإسناده ساقط كما قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ٩٠.

ثمَّ إنه - كما روي عن ابن عباس وغيره - توَّجه، وختمه بخاتمِه، وردَّاه بسيفِه، ووضع له سريراً من ذهبٍ مكلَّلاً بالدُّرِّ والياقوت، طولُه ثلاثون ذراعاً، وعرضُه عشرةُ أذرع، ووضع عليه الفُرش، وضرب عليه حُلَّة من استبرق، فقال عليه السلام: أمَّا السريرُ فأشدُّ به ملكَكَ، وأمَّا الخاتم فأدبِّر به أمرَكَ، وأمَّا التاجُ فليس من لباسي ولا لباسِ آبائي. فقال: قد وضعتُه إجلالاً لك وإقراراً بفضلك. فجلس على السرير، ودانتْ له الملوكُ، وفوَّض إليه الملكُ أمرَه، وأقام العدلَ بمصر، وأحبَّتْه الرِّجال والنساء، وباع من أهل مصرَ في سنيِّ القَحْط الطعام في السنة الأولى بالدَّراهم والدنانير حتى لم يبقَ منها شيء، وفي الثانية بالحَلْي والجواهر، وفي الثالثة بالدَّوابِّ والمواشي، وفي الرابعة بالعبيد والجواري، وفي الخامسة بالضِّياع والعَقار، وفي السادسة بالأولاد، وفي السابعة بالرِّقاب، حتى استرقَّهم جميعاً، وكان ذلك ممَّا يصحُّ في شرعهم. فقالوا: ما رأينا كاليوم ملكاً أجلَّ وأعظمَ منه. فقال للملك: كيف رأيتَ صنع الله تعالى فيما خوَّلني، فما ترى في هؤلاء؟ فقال الملك: الرأيُ رأيُك ونحنُ لك تَبَع. فقال: إني أُشهد الله تعالى وأُشهدك أني قد أعتقتهُم ورددتُ إليهم أملاكهم.

ولعلَّ الحكمةَ في ذلك إظهارُ قدرته وكرمِه، وانقيادُهم بعد ذلك لأمره حتى يخلُصَ إيمانُهم ويتَّبعوه فيما يأمرهم به، فلا يقال: ما الفائدةُ في تحصيل ذلك المال العظيم ثمَّ إضاعتِه؟

وكان عليه السلام في تلك المدَّة فيما يُروى لا يشبعُ من الطعام، فقيل له: أتجوعُ وخزائنُ الأرض بيدك؟ فقال: أخافُ إن شبعتُ [أن][1] أنسى الجائعَ. وأمر عليه السلام طبَّاخِي الملك أن يجعلوا غذاءَه نصفَ النَّهار، وأراد بذلك أن يذوقَ طعمَ الجوع فلا ينسى الجياع، قيل: ومن ثمَّ جعل الملوكُ غذاءَهم نصف النهار.

وقد أشار سبحانه إلى ما آتاه من المُلك العظيم بقوله جلَّ وعلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك[2] التمكين البديع ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ أي: جعلنا له مكاناً ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرضِ مصر، روي أنَّها كانت أربعين فرسخاً في أربعين.

---

(١) ما بين حاصرتين من عرائس المجالس ص ١٣١، وتفسير البغوي ٢/ ٤٣٤، وتفسير القرطبي ١١/ ٣٨٩.

(٢) قوله: ذلك، ساقط من (م).

وفي التعبير عن الجَعْل المذكور بالتمكين في الأرض مسنداً إلى ضميرِه تعالى من تشريفِه عليه السلام، والمبالغةِ في كمال ولايتِه، والإشارة إلى حصول ذلك من أوَّل الأمر لا أنَّه حصل بعدَ السؤال = ما لا يخفى.

واللام في «ليوسف» ـ على ما زعم أبو البقاء ـ يجوز أن تكون زائدةً، أي: مكَّنَّا يوسف. وأن لا تكون كذلك، والمفعول محذوف، أي: مكَّنَّا له الأمور[1]. وقد مرَّ لك ما يتَّضح منه الحقُّ.

﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا﴾ ينزل من قطعِها وبلادِها ﴿حَيْثُ يَشَآءُ﴾ ظرفٌ لـ «يتبَّوأ»، وجوِّز أن يكون مفعولاً به كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

و«منها» متعلِّق بما عنده. وقيل: بمحذوفٍ وقع حالاً من «حيث». وتُعقِّب بأنَّ «حيث» لا يتمُّ إلا بالمضاف إليه، وتقديمُ الحال على المضاف إليه لا يجوز.

والجملة في موضع الحال من «يوسف»، وضمير «يشاء» له، وجوِّز أن يكون لله تعالى، ففيه التفات، ويؤيِّده أنه قرأ ابنُ كثير والحسنُ، وبخلاف عنهم أبو جعفر وشيبةُ ونافع: «نشاء» بالنُّون[2]، فإنَّ الضمير على ذلك لله تعالى قطعاً.

﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا﴾ بنعمتِنا وعطائِنا في الدنيا من المُلْك والغنى وغيرهما من النِّعم. وقيل: المراد بالرحمة النبوَّةُ، وليس بذاك ﴿مَن نَّشَآءُ﴾ بمقتضى الحكمة الدَّاعية للمشيئة.

﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ بل نوفِّي لهم أجورَهم في الدنيا لإحسانهم، والمرادُ به ـ على ما قيل ـ الإيمانُ والثَّباتُ على التقوى؛ فإنَّ قوله سبحانه: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ قد وُضع فيه الموصولُ موضعَ ضمير «المحسنين»، وجُمع بين صيغتي الماضي والمستقبل تنبيهاً على ذلك، والمعنى: ولأجرُهم في الآخرة خيرٌ، والإضافة فيه للملابسة.

---

(١) الإملاء ٣/ ٣٤١.

(٢) التيسير ص ٢٩، والنشر ٢/ ٢٩٥ عن ابن كثير، والكلام من البحر ٥/ ٣٢٠.

وجُعل في تعقيب الجملة المثبتة بالجملةِ المنفيَّة إشعارٌ بأنَّ مدارَ المشيئة المذكورة إحسانُ مَن تصيبه الرَّحمة المذكورة، وفي ذكر الجملةِ الثالثة المؤكّدةِ بعدُ دفعُ توهُّم انحصار ثمراتِ الإحسان فيما ذُكر من الأجر العاجل، ويُفهم من ذلك أن المراد من «مَن نشاء»: مَنْ نشاء أن نُصيبَه بالرَّحمة من عبادنا الذين آمنوا واستمرُّوا على التقوى. وتُعقِّب بأنَّه خلافُ الظاهر.

ولعلَّ الظاهر حملُ «مَن» على ما هو أعمُّ مما ذُكر، وحينئذٍ لا يبعدُ أن يُراد بالرَّحمة النِّعمةُ التي لا تكون في مقابلة شيءٍ من الأعمال، وبالأجر ما كان في مقابلة شيءٍ من ذلك، ويبقى أمرُ وضع الموصولِ موضعَ الضمير على حاله، كأنه قيل: نتفضَّل على مَن نشاءُ من عبادنا كيف كانوا، ونُنعِم عليهم بالمُلك والغِنى وغيرِهما لا في مقابلة شيءٍ، ونوفِّي أجورَ المؤمنين المستمرِّين على التقوى منهم، ونُعطيهم في الدنيا ما نعطيهم في مقابلةِ إيمانهم واستمرارِهم على التَّقوى، وما نعطيهم في مقابلة ذلك في الآخرة من النعيم العظيم المقيمِ خيرٌ لهم ممَّا نعطيهم في الدنيا لِعِظَمه ودوامه.

واعتُرض بأنَّ فيه إطلاقَ الرحمة على ما يُصيب الكافرَ من نحو المُلك والغِنى، مع أنَّه ليس برحمةٍ كما يُشعر به كثيرٌ من الآيات، ويقتضيه قولُهم: ليس لله تعالى نعمةٌ على كافر.

وأُجيب بأنَّ قولَهم في «الرحمن» إنَّه الذي يرحم المؤمنَ والكافر في الدنيا. ظاهرٌ في صحة إطلاق الرحمة على ما يُصيب الكافرَ من ذلك، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ظاهرٌ في صحة القول بكون الكافر مرحوماً في الجُملة، وأمرُ الإشعار سهل.

وقولهم: ليس لله تعالى نعمةٌ على كافر، إنَّما قاله البعضُ بناءً على أَخْذِ: «يُحمَدُ عاقبتُها» في تعريفها، وإن أبيتَ ـ ولا أظنُّ ـ فلمَ لا يجوزُ أن يقال: إنَّه عبَّر عما ذُكر بالرحمة رعايةً لجانبِ مَن اندرج في عمومِ «مَنْ» من المؤمنين؟

نعم يَرِدُ على تفسيرِ الرحمة هنا بالنِّعمة التي لا تكون في مقابلة شيءٍ من الأعمال، والأجرِ بما كان، ما روي عن سفيان بنِ عيينة أنَّه قال: المؤمنُ يُثاب

على حسناته في الدنيا والآخرة، والفاجرُ يُعجَّلُ له الخيرُ في الدنيا، وما له في الآخرة من خَلَاقٍ. وتلا الآيةَ. فإنَّه ظاهرٌ في أنَّ ما يُصيبُ الكافر ممَّا تقدَّم في مقابلةِ عملٍ له، وأنَّ في الآية ما يدلُّ على ذلك، وليس هو إلا «نصيب برحمتنا من نشاء».

وقد يجاب بأنَّه لعلَّه حمل «المحسنين» على ما يشمل الكفَّار الفاعلين لِمَا يَحْسُنُ، كصِلة الرَّحِم، ونُصرةِ المظلوم، وإطعامِ الفقير، ونحوِ ذلك، فحصرُ الدلالة فيما ذُكر ممنوعٌ، نعم إنَّ هذا الأثر يعكِّرُ على التفسير السَّابق عكراً بيِّناً؛ إذ الآية عليه لا تعرُّض فيها للكافر أصلاً، فلا معنى لتلاوتها إثرَ ذلك الكلام.

وعمَّم بعضهم الأوقات في «نُصيب» و«لا نُضِيعُ» فقال: نُصيب في الدنيا والآخرة، ولا نُضيع أجرَ المحسنين بل نوفِّي أجورَهم عاجلاً وآجلاً. وأيَّد بأنه لا مُوْجِبَ للتخصيص، وأنَّ خبر سفيان يدلُّ على العموم.

وتُعقِّب بأنَّ مَن خصَّ ذلك بالدنيا إنما[1] خصَّه ليكون ما بعدَه تأسيساً، وبأنَّه لا دلالة للخبر على ذلك؛ لأنَّه مأخوذٌ من مجموعِ الآية، وفيه ما فيه.

وعن ابن عباس تفسيرُ «المحسنين» بالصابرين، ولعلَّه رضي الله عنه على تقدير صحة الرواية رأى ذلك أوفقَ بالمقام.

وأيّاً ما كان، ففي[2] الآية إشارة إلى أنَّ ما أعدَّ الله تعالى ليوسف عليه السلام من الأجر والثواب في الآخرة أفضلُ ممَّا أعطاه في الدنيا من المُلْك.

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ ممتارين[3]، لمَّا أصاب أرض كنعان وبلاد الشَّام ما أصاب مصر، وقد كان حلَّ بآل يعقوبَ عليه السلام ما حلَّ بأهلها، فدعا أبناءه ما عدا بنيامين، فقال لهم: يا بَنيَّ بلغني أنَّ بمصر ملكاً صالحاً يبيع الطعامَ فتجهَّزوا إليه واقصدوه تشتروا منه ما تحتاجون إليه. فخرجوا حتَّى قدموا مصر ﴿فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ عليه السلام وهو في مجلسِ ولايته ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ لقوَّة فهمِه، وعدمِ مباينةِ

(١) في (م): فإنما.
(٢) في (م): في.
(٣) من المِيْرَة، وهي جلب الطعام. القاموس (مير).

أحوالهم السَّابقةِ أحوالَهم يومئذٍ[١]؛ لمفارقته إيَّاهم وهم رجالٌ، وتشابُهِ هيآتهم وزيِّهم في الحالين، ولكون همَّتِه معقودةً بهم وبمعرفةِ أحوالهم لا سيما في زمن القحط. ولعلَّه عليه السلام كان مترقِّباً مجيئَهم إليه لِمَا يعلم من تأويل رؤياه.

وروي أنهم انتسبوا في الاستئذان عليه فعرفهم وأمر بإنزالهم، ولذلك قال الحسن: ما عرفهم حتى تعرَّفوا إليه[٢].

وتعقَّب ذلك في «الانتصاف» بأنَّ توسيط الفاء بين دخولهم عليه ومعرفتِه لهم يأبى كلامَ الحسن، ويدلُّ على أنَّ مجرَّد دخولهم عليه استعقبه المعرفةُ بلا مهلةٍ[٣]، وفيه تأمل.

﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨﴾ أي: والحالُ أنَّهم منكرون له؛ لنسيانهم له بطولِ العَهد وتبايُنِ ما بين حاليه في نفسه ومنزلتِه وزيِّه، ولاعتقادهم أنَّه هلك.

وقيل: إنَّما لم يعرفوه لأنَّه عليه السلام أوقفهم موقفَ ذوي الحاجات بعيداً منه وكلَّمهم بالواسطة.

وقيل: إنَّ ذلك لمحضِ أنه سبحانه لم يخلقِ العرفانَ في قلوبهم تحقيقاً لِمَا أخبر أنَّه سينبِّئهم بأمرِهم وهم لا يشعرون، فكان ذلك معجزةً له عليه السلام.

وقابَل المعرفةَ بالإنكار على ما هو الاستعمالُ الشائع، فعن الراغب: المعرفةُ والعرفان: معرفةُ الشيء بتفكُّرٍ في أثره، فهو أخصُّ من العلم، وأصلُه من عرفتُ، أي: أصبتُ عَرْفَه، أي: رائحتَه، ويضادُّ المعرفةَ الإنكارُ، والعلمَ الجهلُ[٤].

وحيث كان إنكارُهم له عليه السلام أمراً مستمرًّا في حالتي المحضرِ والمَغيبِ أخبر عنه بالجملة الاسميَّة، بخلافِ عِرفانه عليه السلام إيَّاهم.

---

(١) في الأصل و(م): يوم المفارقة، بدل: يومئذ، والمثبت من تفسير أبي السعود ٤/٢٨٨، والكلام منه.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ ابن أبي حاتم ٧/٢١٦٣، وذكره الزمخشري في الكشاف ٢/٣٢٩-٣٣٠، وأبو حيان في البحر ٥/٣٢١، وأبو السعود في تفسيره ٤/٢٨٨ بلفظ: . . . حتى تعرفوا له.

(٣) الانتصاف ٢/٣٣٠، وفيه: استعقبته، بدل: استعقبه.

(٤) مفردات الراغب (عرف).

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أصلحهم بعدَّتهم وأوقرَ رَكائبهم بما جاؤوا لأجله، ولعلَّه عليه السلام إنَّما باع كلَّ واحدٍ منهم حِمْلَ بعيرٍ؛ لِمَا رُوي أنه عليه السلام كان لا يبيعُ أحداً من الممتارين أكثرَ من ذلك تقسيطاً بين الناس، وفيما يأتي إن شاء الله تعالى من قولهم: «ونزداد كيل بعير» ما يؤيِّده.

وأصلُ الجَهاز ما يحتاجُ إليه المسافر من زادٍ ومتاع، وجِهَاز العروس: ما تُزفُّ به إلى زوجها، والميتِ: ما يُحتاج إليه في دفنِه. وقرئ بكسر الجيم[1].

﴿قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ ولم يقلْ: بأخيكم، مبالغةً في إظهار عدمِ معرفته لهم، كأنَّه لا يدري مَن هو، ولو أضافه اقتضَى معرفتَه لإشعارِ الإضافة به، ومن هنا قالوا في: أَرْسِلْ غلاماً لك: الغلامُ غيرُ معروف. وفي: أرسل غلامَك: معروفٌ بينك وبين مخاطبك عهدٌ فيه.

ولعلَّه عليه السلام إنَّما قال ذلك لِمَا قيل من أنَّهم سألوه حملاً زائداً على المعتاد لبنيامين، فأعطاهم ذلك وشَرَطَ عليهم أن يأتوه به مُظهِراً لهم أنَّه يريد أن يعلَم صدقَهم.

وقيل: إنهم لمَّا رأوه فكلَّموه بالعبرية قال لهم: مَن أنتم فإني أُنْكِرُكم؟ فقالوا: نحن قومٌ من أهل الشام رعاةٌ أصابنا الجهدُ فجِئْنا نمتارُ. فقال: لعلَّكم جئتم عيوناً تنظرون عورةَ بلادي. قالوا: معاذ الله، نحنُ إخوةٌ بنو أبٍ واحدٍ، وهو شيخٌ صدِّيقٌ نبيٌّ من الأنبياء اسمُه يعقوب. قال: كم أنتم؟ قالوا: كنَّا اثني عشر فهلك منَّا واحد. فقال: كم أنتم ها هنا؟ قالوا: عشرة. قال: فأين الحادي عشر؟ قالوا: هو عند أبيه يتسلَّى به عن الهالك. قال: فمن يشهدُ لكم أنكم لستُم عيوناً وأنَّ ما تقولون حقٌّ؟ قالوا: نحن ببلادٍ لا يعرفنا فيها أحدٌ فيشهدَ لنا. قال: فدَعُوا بعضَكم عندي رهينةً وائتوني بأخيكم من أبيكم وهو يحملُ رسالةً من أبيكم حتَّى أصدِّقكم. فاقترعوا فأصابَ القرعةُ شمعون، وقيل: إنَّه عليه السلام هو الذي اختاره؛ لأنَّه كان أحسنهم رأياً فيه، والمشهورُ أنَّ الأحسن يهوذا، فخلَّفوه عنده[2]، ومن هذا يُعلم سبب هذا القول.

---

(١) القراءات الشاذة ص ٦٤، والبحر المحيط ٥/ ٣٢١.
(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف ٢/ ٣٣٠، وأخرجه بنحوه الطبري ١٣/ ٢٢٣ عن السدي.

وتُعقِّب بأنَّه لا يساعده ورودُ الأمر بالإتيان به عند التجهيز، ولا الحثُّ عليه بإيفاء الكَيْل، ولا الإحسانُ في الإنزال، ولا الاقتصارُ على منع الكيل من غيرِ ذكر الرسالة، على أنَّ استبقاءَ شمعون لو وقع لكان ذلك طامَّةً ينسى عندَها كلُّ قيل.

وقال بعضهم: إنَّه يضعِّف الخبرَ اشتمالُه على بَهتِ إخوتِهِ بجعلهم جواسيسَ، إلَّا أن يقال: إنَّ ذلك كان عن وحي.

وقال ابن المنيِّر[١]: إنَّ ذلك غيرُ صحيح، لأنه إذا ظنَّهم جواسيسَ، كيف يطلبُ منهم واحداً من إخوتهم؟ وما في النَّظم الكريم يخالفُه. وأطال في ذلك.

وتعقِّب بأنه ليس بشيءٍ؛ لأنهم لمَّا قالوا له: إنهم أولاد يعقوب عليه السلام، طَلَب أخاهم، وبه يتَّضح الحال.

وأخرج ابنُ جرير وغيرُه عن ابن عباس أنَّهم لمَّا دخلوا عليه عليه السلام فعرفهم وهم له منكرون، جاء بصُواع الملك الذي كان يشربُ فيه، فوضعه على يدِه فجعل ينقرُه ويطنُّ وينقرُه ويطنُّ، فقال: إنَّ هذا الجامَ[٢] ليخبرني خبراً؛ هل كان لكم أخٌ من أبيكم يقال له: يوسف، وكان أبوه يحبُّه دونَكم، وإنَّكم انطلقتم به فألقيتموه في الجُبِّ، وأخبرتم أباكم أنَّ الذِّئب أكله، وجئتم على قميصِه بدمٍ كذب؟ قال: فجعل بعضُهم ينظر إلى بعض، ويَعْجَبون أنَّ الجامَ يخبرُ بذلك[٣]. وفيه مخالفةٌ للخبر السابق، وفي الباب أخبارٌ أُخَرُ كلُّها[٤] مضطربة، فلْيُقصَر على ما حكاه الله تعالى ممَّا قالوا ليوسف عليه السلام.

وقال: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾ أتمُّه لكم، وإيثارُ صيغة الاستقبال مع كون هذا الكلام بعد التجهيز للدلالة على أن ذلك عادةٌ مستمرَّة ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٥٩﴾ جملةٌ حالية، أي: ألا ترون أنِّي أوفِ الكيلَ لكم إيفاءً مستمراً، والحالُ أنِّي في غايةِ الإحسان في إنزالكم وضيافتِكم، وكان الأمر كذلك. ويُفهم من كلام بعضِهم التعميمُ في الجملتين بحيث يندرجُ حينئذٍ في ذلك المخاطبون.

(١) كما في حاشية الشهاب ٥/ ١٨٨.

(٢) الجام: إناء من فضة. القاموس (جوم).

(٣) تفسير الطبري ١٣/ ٣٣، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٦٢.

(٤) في (م): وكلها.

وتخصيصُ الرؤية بالإيفاء لوقوع الخطاب في أثنائه، وأمَّا الإحسان في الإنزال فقد كان مستمرّاً فيما سبق ولَحِق، ولذلك أُخبر عنه بالجملة الاسميَّة. ولم يقلْ ذلك عليه السلام بطريقِ الامتنان، بل لحثِّهم على تحقيق ما أمرهم به.

والاقتصارُ في الكيل على ذكر الإيفاء؛ لأنَّ معاملته عليه السلام معهم في ذلك كمعاملته مع غيرهم في مراعاة مواجب العَدْل، وأما الضيافةُ فليس للناس فيها حقٌّ، فخصَّهم في ذلك بما يشاء. قاله شيخ الإسلام(١).

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾ إيعادٌ لهم على عدم الإتيان به، والمرادُ: لا كيلَ لكم في المرَّة الأخرى، فضلاً عن إيفائه.

﴿وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾ أي: لا تقربوني بدخولِ بلادي، فضلاً عن الإحسان في الإنزال والضيافةِ، وهو إمَّا نهيٌ أو نفيٌ، معطوفٌ ـ على التقديرين ـ على الجزاء.

وقيل: هو على الأوَّل استئنافٌ؛ لئلَّا يلزم عطفُ الإنشاء على الخبر. وأُجيب بأنَّ العطفَ مغتفرٌ فيه؛ لأنَّ النهي يقع جزاءً.

وفيه دليلٌ على أنهم كانوا على نيةِ الامتيارِ مرَّة بعد أخرى، وأنَّ ذلك كان معلوماً له عليه السلام، والظاهرُ أنَّ ما فعله معهم كان بوحيٍ، وإلا فالبرُّ يقتضي أن يبادرَ إلى أبيه ويستدعيَه، لكنَّ الله سبحانه أراد تكميلَ أجرِ يعقوب في محنته، وهو الفعَّال لِمَا يريدُ في خليقته.

﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ أي: سنخادعه ونستميلُه برفقٍ، ونجتهدُ في ذلك، وفيه تنبيهٌ على عزَّة المَطْلب(٢) وصعوبةِ مناله.

﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي: إنَّا لقادرون على ذلك لا نتعايا به، أو: إنَّا لفاعلون ذلك لا محالةَ ولا نفرِّط فيه ولا نتوانا. والجملةُ على الأوَّل تذييلٌ يؤكِّد مضمونَ الجملة الأُولى ويحقِّق حصولَ الموعود من إطلاق المسبَّب ـ أعني الفعل ـ على السبب أعني القدرة، وعلى الثاني هي تحقيقٌ للوفاء بالوعد، وليس فيه ما يدلُّ على أنَّ الموعود يحصل أوْ لا.

---

(١) في تفسيره ٤/ ٢٨٨.
(٢) في الأصل: الطلب، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٤/ ٩، والكلام منه.

﴿وَقَالَ﴾ يوسفُ عليه السلام ﴿لِفِتْيَٰنِهِ﴾ لغلمانه الكيَّالين، كما قال قتادةُ وغيره، أو لأعوانه الموظَّفين لخدمته كما قيل. وهو جمعُ فتى، أو اسمُ جمعٍ له على قولٍ، وليس بشيءٍ.

وقرأ أكثرُ السبعة: «لفتيته»(١)، وهو جمعُ قِلَّة له. ورجِّحت القراءة الأولى بأنَّها أوفقُ بقوله: ﴿ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ﴾ فإنَّ الرِّحال فيه جمعُ كثرة، ومقابلةُ الجمع بالجمع تقتضي انقسامَ الآحاد على الآحاد، فينبغي أن يكون في مقابله صيغةُ جمع الكثرة، وعلى القراءة الأخرى يُستعار أحدُ الجمعين للآخر؛ روي أنه عليه السلام وكَّلَ بكلِّ رَحْلٍ رجلاً يُعبِّيءُ فيه بضاعتهم التي اشتروا بها الطعامَ، وكانت نعالاً وأدماً(٢). وأصلُ البضاعة: قطعةٌ وافرة من المال تُقتنى للتجارة، والمراد بها هنا ثمنُ ما اشتروه.

والرَّحْل ما على ظَهْر المركوب من متاعِ الراكب وغيره، كما في «البحر»(٣). وقال الراغب: هو ما يُوضَع على البعير للركوب، ثمَّ يعبَّر به تارةً عن البعيرِ، وأخرى عمَّا يُجلس عليه في المنزل(٤). ويُجمع في القِلَّة على أَرْحِلَة.

والظاهرُ أنَّ هذا الأمر كان بعد تجهيزهم. وقيل: قبلَه، ففيه تقديمٌ وتأخير، ولا حاجةَ إليه.

وإنَّما فعل عليه السلام ذلك تفضُّلاً عليهم، وخوفاً أن لا يكون عند أبيه ما يرجعون به مرَّةً أخرى، وكلُّ ذلك لتحقيق ما يتوخَّاه من رجوعهم بأخيهم كما يُؤْذن به قولُه:

﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾ أي: يعرفون حقَّ ردِّها والتكرُّم بذلك، فـ «لعل» على ظاهرها، وفي الكلام مضافٌ مقدَّر. ويحتمل أن يكون المعنى: لكي يعرفوها، فلا يحتاج إلى تقديرٍ، وهو ظاهرُ التعلُّق بقوله: ﴿إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟﴾ أي: رجعوا ﴿إِلَىٰٓ

---

(١) التيسير ص ١٢٩، والنشر ٢/ ٢٩٥، وهي قراءة ابن كثير وابن عامر ونافع وأبي عمرو وأبي جعفر ويعقوب.

(٢) بضم الهمزة وفتحها، جمع أَدَم، وهو الجلد المدبوغ. حاشية الشهاب ٥/ ١٨٩.

(٣) ٥/ ٣١٤.

(٤) مفردات الراغب (رحل).

﴿أَهْلِهِمْ﴾ فإنَّ معرفتهم لها مقيَّدةٌ بالرجوع وتفريغ الأوعية قطعاً، وأمَّا معرفةُ حقِّ التكرُّم في ردِّها وإن كانت في ذاتها غيرَ مقيَّدة بذلك لكنْ لمَّا كان ابتداؤُها حينئذٍ قُيِّدت به.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾ حسبما طلبتُ منهم، فإنَّ التفضُّل بإعطاء البدلَيْن ولاسِيما عند إعواز البضاعة من أقوى الدَّواعي إلى الرجوع.

وقيل: إنَّما فعله عليه السلام لِمَا أنه لم يرَ من الكرم أن يأخذَ من أبيه وإخوته ثمناً وهو الكريمُ ابنُ الكريم، وهو كلامٌ حقٌّ في نفسه، ولكنْ يأباه التعليلُ المذكور.

ومثله في هذا ما زعمه ابنُ عطيَّة من وجوبِ صلتهم وجبرِهم عليه ـ عليه السلام ـ في تلك الشدَّة، إذ هو ملكٌ عادلٌ وهم أهلُ إيمانٍ ونبوَّة[١].

وأغربُ منه ما قيل: إنه عليه السلام فعل ذلك توطئةً لجَعْلِ السِّقاية في رَحْلِ أخيه بعد ذلك؛ ليتبيَّن أنه لم يسرقْ لمن يتأمل القصَّة.

ووجَّه بعضُهم عِلِّيَّة الجعل المذكور للرجوع بأنَّ ديانتهم تحملهم على ردِّ البضاعة؛ لاحتمال أنَّه لم يقع ذلك قصداً، أو قصداً للتجربة، فـ «يرجعون» على هذا إما لازمٌ، وإما متعدٍّ والمعنى: يرْجِعونها، أي: يردُّونها.

وفيه أنَّ هيئة التَّعْبِية تنادي بأنَّ ذلك بطريق التفضُّل، فاحتمالُ غيره في غاية البُعد، ألا ترى أنَّهم كيف جزموا بذلك حين رأوها وجعلوا ذلك دليلاً على التفضُّلات السابقة كما ستحيط به خُبراً إن شاء الله تعالى.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ أي: حُكِمَ بمنعه بعدَ اليوم إنْ لم نذهب بأخينا بنيامين، حيثُ قال لنا الملك: «إن لم تأتوني به فلا كيلَ لكم عندي» والتعبيرُ بذلك عمَّا ذُكر[٢] مجازٌ، والدَّاعي لارتكابه أنَّه لم يقع منعٌ ماض، وفيه دليلٌ على كون الامتيارِ مرَّة بعد أخرى كان معهوداً بينهم وبينه عليه السلام.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٥٩.

(٢) أي: تأويل «مُنع» بـ «حُكِمَ». حاشية الشهاب ٥/ ١٨٩.

وقيل: إنَّ الفعل على حقيقته، والمرادُ: منع أن يكال لأخيهم الغائب حِمْلاً آخر، ورُدَّ بعيرُه غيرَ محمَّلٍ، بناءً على روايةٍ أنه عليه السلام لم يُعْطِ له وسقاً.

﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا﴾ بنيامين إلى مصر، وفيه إيذانٌ بأنَّ مدار المنع على عدم كونه معهم.

﴿نَكْتَلْ﴾ أي: من الطعام ما نحتاج إليه، وهو جوابُ الطلب؛ قيل: والأصل: يُرفعِ المانعُ ونَكْتَلْ، فالجواب هو «يرفع» إلَّا أنه رُفع ووُضع موضعه «نكتل»؛ لأنَّه لَمَّا علَّق المنعُ من الكيل بعدم إتيان أخيهم، كان إرسالُه رفعاً لذلك المانع، ووضع موضعه ذلك لأنَّه المقصود.

وقيل: إنه جيء بآخر الجزأين ترتُّباً دلالةً على أوَّلهما مبالغةً.

وأصل هذا الفعل: نَكْتَيِلُ على وزن نفتعل، قُلبت الياءُ ألفاً لتحرُّكها وانفتاحِ ما قبلها، ثمَّ حُذفت لالتقاء الساكنَيْن.

ومن الغريب أنَّه نقل السجاوندي أنه سأل المازنيُّ ابنَ السِّكِّيت عند الواثق عن وزنِ «نكتل» فقال: نفعل. فقال المازنيُّ: فإذاً ماضيه «كتل» فخطَّأه على أبلغ وجه[1].

وقرأ حمزة والكسائيُّ: «يكتل» بياء الغيبة[2] على إسناده للأخ مجازاً؛ لأنَّه سببٌ للاكتيال، أو: يكتل أخونا فينضمّ اكتيالُه إلى اكتيالنا، وقوَّى أبو حيَّان بهذه القراءة القولَ ببقاء «مُنِعَ» على حقيقته، ومثلُه الإمام[3].

---

(١) اختلف في القصة؛ فروى بعضهم أنها كانت بحضرة الواثق، كما نقل المصنف عن السجاوندي، وبعضهم ذكر أنها كانت بين يدي المتوكل، وقال آخرون: إن ذلك كان عند محمد بن عبد الملك الزيات الوزير. ينظر معجم الأدباء ٧/ ١١٧، ووفيات الأعيان ٦/ ٣٩٧، والدر المصون ٦/ ٥١٧. إلا أن السمين ذكر أن ابن السكيت أجاب عن سؤال المازني بأن وزن «نكتل» هو: نفتل، وقال: هكذا رأيت في بعض الكتب، وهذا ليس بخطأ؛ لأن التصريفيين نصُّوا على أنه إذا كان في الكلمة حذف أو قلب حذفت في الزنة وقلبت، فنقول: وزن بعت وقمت: فِعْتُ وفُعتُ، ووزن عِد: عِل. ثم قال: ورأيت في بعض الكتب أنه قال: نفعل، بالعين، وهو خطأ محض... إلى آخر ما قاله.

(٢) التيسير ص ١٢٩، والنشر ٢/ ٢٩٥. وهي قراءة خلف من العشرة.

(٣) البحر ٥/ ٣٢٢، وتفسير الرازي ١٨/ ١٧٣.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾ من أن يصيبَه مكروهٌ، وهذا سدٌّ لباب الاعتذار، وقد بالغوا في ذلك كما لا يخفى، وفي بعض الأخبار - ولا يخفى حالُه - أنَّهم لمَّا دخلوا على أبيهم عليه السلام سلَّموا عليه سلاماً ضعيفاً، فقال لهم: يا بَنيَّ ما لكم تسلِّمون عليَّ سلاماً ضعيفاً؟ وما لي لا أسمع فيكم صوتَ شمعون؟ فقالوا: يا أبانا جئناك من عند أعظمِ الناس مُلْكاً، ولم يُر مثله علماً وحكماً وخشوعاً وسكينةً ووقاراً، ولئن كان لك شبهٌ فإنه يشبهك، ولكنَّا أهلُ بيت خُلقنا للبلاء، إنه اتَّهمنا وزعم أنه لا يصدِّقنا حتى ترسلَ معنا بنيامين برسالةٍ منك تخبره عن حزنك وما الذي أحزنك، وعن سرعةِ الشَّيب إليك وذهابِ بصرك، وقد مَنَعَ منَّا الكيل فيما يُستقبل إن لم نأتِه بأخينا، فأرسلْه معنا نَكْتَلْ وإنَّا له لحافظون حتَّى نأتيَك به.

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، و«آمَنُكم» بالمدِّ وفتحِ الميم ورفعِ النون مضارعٌ من بابِ عَلِمَ، وأَمِنَه وائتمنه. بمعنى، أي: ما آتمنكم[1] عليه ﴿إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ﴾ أي: إلا ائتماناً مثلَ ائتماني إيَّاكم ﴿عَلَىٰٓ أَخِيهِ﴾ يوسفَ ﴿مِن قَبْلُ﴾ وقد قلتم أيضاً في حقِّه ما قلتم، ثم فعلتم به ما فعلتم، فلا أثقُ بكم ولا بحفظِكم وإنَّما أفوِّض أمري إلى الله تعالى ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ فأرجو أن يرحمني بحفظه ولا يجمعَ عليَّ مصيبتين.

وهذا كما ترى ميلٌ منه عليه السلام إلى الإذن والإرسال لِمَا رأى فيه من المصلحة، وفيه أيضاً من التوكُّل على الله تعالى ما لا يخفَى، ولذا روي أنَّ الله تعالى قال: وعزَّتي وجلالي لَأردُّهما عليك إذ توكَّلتَ عليَّ.

ونصب «حافظاً» على التمييز، نحو: لله دَرُّه فارساً. وجوَّز غير واحد أنْ يكون على الحالية، وتعقَّبه أبو حيَّان بأنه ليس بجيِّد، لمَا فيه من تقييد الخيريَّة بهذه الحالة[2]. ورُدَّ بأنها حالٌ لازمةٌ مؤكِّدةٌ لا مبيِّنةٌ، ومثلُها كثيرٌ، مع أنه قولٌ بالمفهوم وهو غيرُ معتبر، ولو اعتُبر ورَدَ على التمييز، وفيه نظر.

---

(١) في الأصل و(م): ائتمنكم، والصواب ما أثبتناه.

(٢) البحر ٥/ ٣٢٢.

وقرأ أكثر السبعة: «حِفظاً»[1] ونصبُه على ما قال أبو البقاء على التمييز لا غير[2].

وقرأ الأعمش: «خيرُ حافظٍ» على الإضافة وإفرادِ «حافظ»[3]. وقرأ أبو هريرة: «خير الحافظين» على الإضافة والجمع[4]. ونقل ابنُ عطية عن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّه قرأ: «فالله خيرٌ حافظاً وهو خيرُ الحافظين»[5] قال أبو حيَّان: وينبغي أن تُجعل جملة «وهو خير» إلخ تفسيراً للجملة التي قبلها لا أنَّها قرآن[6]. وقد مرَّ تعليلُ ذلك.

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ﴾ قال الراغب: المتاعُ: كلُّ ما يُنتفع به على وجهٍ، وهو في الآية الطَّعام، وقيل: الوعاء. وكلاهما متاعٌ، وهما متلازمان فإنَّ الطعام كان في الوعاء[7]. والمعنى على أنَّهم لمَّا فتحوا أوعية طعامهم ﴿وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ﴾ التي كانوا أعطَوها ثمناً للطعام ﴿رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: تفضُّلاً، وقد علموا ذلك بما مرَّ من دلالةِ الحال.

وقرأ علقمة ويحيى بنُ وثاب والأعمش: «رِدَّت» بكسر الراء[8]، وذلك أنَّه نقلت حركةُ الدَّال المدغمة إلى الراء بعد توهُّم خلوِّها من الضمَّة، وهي لغةٌ لبني ضبَّة كما نقلت العرب في قيل وبيع، وحكى قُطرب النقلَ في الحرف الصحيح غيرِ المدغَم نحو: ضِرب زيد[9].

---

(١) هي قراءة ابن عامر وابن كثير وأبي عمرو ونافع. التيسير ص ١٢٩، والنشر ٢/ ٢٩٥. وقرأ بها من العشرة أبو جعفر ويعقوب.
(٢) الإملاء ٣/ ٣٤١.
(٣) القراءات الشاذة ص ٦٤، والبحر ٥/ ٣٢٣.
(٤) الكشاف ٢/ ٣٣١، والبحر ٥/ ٣٢٣، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٦٤ عن ابن مسعود رضي الله عنه.
(٥) نقله المصنف عن ابن عطية بواسطة أبي حيان في البحر ٥/ ٣٢٣، والذي في مطبوع المحرر نقلاً عن أبي عمرو الداني: «فالله خير حافظٍ وهو خير الحافظين».
(٦) البحر ٥/ ٣٢٣.
(٧) مفردات الراغب (متع).
(٨) القراءات الشاذة ص ٦٤، والمحتسب ١/ ٣٤٥، والبحر ٥/ ٣٢٣.
(٩) بمعنى: ضُرِبَ زيدٌ. الدر المصون ٦/ ٥١٩.

﴿قَالُواْ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنه قيل: ماذا قالوا حينئذٍ؟ فقيل: قالوا لأبيهم، ولعلَّه كان حاضراً عند الفتح: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ﴾ إذا فسِّر البغيُ بمعنى الطلب ـ كما ذهب إليه جماعةٌ ـ ف «ما» يحتمل أن تكون استفهاميَّة منصوبةَ المحلِّ على أنَّها مفعولٌ مقدَّمٌ لـ «نبغي»، فالمعنى: ماذا نطلب وراء ما وَصَفْنا لك من إحسان الملك إلينا وكرمِه الدَّاعي إلى امتثال أمره والمراجعةِ إليه في الحوائج، وقد كانوا أخبروه بذلك على ما روي أنَّهم قالوا له عليه السلام: إنَّا قَدِمنا على خيرِ رجلٍ وأنزلَنا وأكرمَنا كرامةً لو كان رجلاً من آل يعقوب ما أكرمَنا كرامتَه.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ موضحةٌ لِمَا دلَّ عليه الإنكارُ من بلوغ اللُّطف غايتَه، كأنهم قالوا: كيف لا، وهذه بضاعتُنا ردَّها إلينا تفضُّلاً من حيث لا ندري، بعد ما منَّ علينا بما يُثقلُ الكواهلَ من المنن العِظام، وهل من مزيد على هذا فنطلبَه؟ ومرادُهم به أن ذلك كافٍ في استيجاب الامتثال لأمره، والالتجاء إليه في استجلاب المزيد، ولم يريدوا أنَّه كافٍ مطلقاً فينبغي التقاعُدُ عن طلبِ نظائره، وهو ظاهر.

وجملة «ردَّت» في موضع الحال من «بضاعتنا» بتقدير «قد» عند مَن يرى وجوبَها في أمثال ذلك، والعامل معنى الإشارة. وجَعْلُها خبرَ «هذه» و«بضاعتنا» بياناً له، ليس بشيء. وإيثارُ صيغة البناء للمفعول قيل: للإيذان بكمال الإحسان الناشئ عن كمال الإخفاء المفهومِ من كمالِ غفلتهم عنه بحيث لم يشعروا به ولا بفاعلِه. وقيل: للإيذان بتعيُّن الفاعل، وفيه من مدحه أيضاً ما فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا﴾ أي: نجلب لهم المِيرة، وهي بكسر الميم وسكون الياء: طعامٌ يمتارُه الإنسان، أي: يجلبه من بلدٍ إلى بلد، وحاصلُه: نجلبُ لهم الطعامَ من عند الملك، معطوفٌ على مقدَّرٍ ينسحب عليه ردُّ البضاعة، أي: فنستظهرُ بها ونميرُ أهلنا.

﴿وَنَحۡفَظُ أَخَانَا﴾ من المكاره حَسْبَما وعدنا، وتفرُّعُه على ما تقدَّم باعتبارِ دلالتِه على إحسان الملك، فإنه ممَّا يُعِينُ على الحفظ ﴿وَنَزۡدَادُ﴾ أي: بواسطته، ولذلك وسَّط الإخبار به بين الأصل والمزيد ﴿كَيۡلَ بَعِيرٖۖ﴾ أي: وسقَ بعيرٍ زائداً على أوساق أباعرنا، على قضيَّة التقسيط المعهود من الملك.

والبعير في المشهور مقابلُ الناقة، وقد يُطلق عليها، وتكسرُ في لغةٍ باؤه، ويُجمع على أبعرةٍ وبعران[(١)] وأباعِر. وعن مجاهد تفسيرُه هنا بالحمار، وذَكَر أنَّ بعض العرب يقول للحمار: بعير[(٢)]. وهو شاذٌّ.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ﴾ أي: مَكيلٌ ﴿يَسِيرٌ ۝٦٥﴾ أي: قليلٌ لا يقوم بأَوَدنا، يحتملُ أن يكون إشارةً إلى ما كِيل لهم أوّلاً، والجملةُ استئنافٌ جيء بها للجواب عمَّا عسى أن يقال لهم: قد صَدَقْتُم فيما قلتم، ولكنْ ما الحاجةُ إلى التزام ذلك قد جئتم بالطَّعام؟ فكأنَّهم قالوا: إنَّ ما جئنا به غيرُ كافٍ لنا، فلابدَّ من الرجوع مرَّةً أخرى وأخذِ مثلِ ذلك مع زيادةٍ، ولا يكون ذلك بدون استصحابِ أخينا.

ويحتمل أن يكون إشارةً إلى ما تحمله أباعرُهم، والجملةُ استئنافٌ وقع تعليلاً لمَا سبق من الازدياد، كأنَّه قيل: أيُّ حاجة إلى الازدياد؟ فقيل: إنَّ ما تحمله أباعرُنا قليلٌ لا يكفينا.

وقيل: المعنى: إنَّ ذلك الكيلَ الزائد قليلٌ لا يضايقنا فيه الملك، أو سهلٌ عليه لا يتعاظمه، وكأنَّ الجملة على هذا استئنافٌ جيء به لدفع ما يقال: لعلَّ الملك لا يُعطيكم فوقَ العشرة شيئاً، ويرى ذلك كثيراً أو صعباً عليه. وهو كما ترى.

وجوَّز أن يكون «ذلك» إشارةً إلى الكيل الذي هم بصدده وتضمَّنه كلامهم، وهو المنضمُّ إليه كيلُ البعير الحاصلُ بسبب أخيهم المتعهَّد بحفظه، كأنَّهم لمَّا ذكروا ما ذكروا، صرَّحوا بما يُفهم منه مبالغةً في استنزال أبيهم، فقالوا: ذلك الذي نحن بصدده كيلٌ سهلٌ لا مشقَّةَ فيه ولا محنةَ تتبعه. وقد يبقى الكيلُ على معناه المصدري، والكلام على هذا الطرز إلا يسيراً.

وجوَّز بعضُهم كونَ ذلك من كلام يعقوب عليه السلام، والإشارة إلى كيلِ البعير، أي: كيلُ بعيرٍ واحدٍ شيءٌ قليلٌ لا يخاطَرُ لمثله بالولد. وكان الظاهر على هذا ذكرَه مع كلامه السَّابق أو اللاحق.

---

(١) بفتح الباء وكسرها، كما في القاموس (بعر).

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٢٣٤، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٧٤.

وقيل: معنى «ما نبغي»: أيَّ مطلبٍ نطلبُ من مهماتنا، والجُمَلُ الواقعة بعدَه توضيحٌ وبيانٌ لِمَا يُشْعِرُ به الإنكارُ من كونهم فائزين ببعض المطالب أو متمكِّنين من تحصيله، فكأنَّهم قالوا: هذه بضاعتُنا حاضرةٌ، فنستظهر بها ونميرُ أهلنا ونحفظ أخانا من المكروه، ونزدادُ بسببه غيرَ ما نكتالُه لأنفسنا كيلَ بعيرٍ، فأيَّ شيءٍ نبغي وراءَ هذه المباغي. وما ذكرنا من العطف على المقدَّر هو المشهور.

وفي «الكشف»: لك أن تقول: إنَّ «نمير» وما تلاه معطوفٌ على مجموع «ما نبغي» والمعنى اجتماعُ هذين القولين منهم في الوجود، ولا يحتاجُ إلى جامعٍ وراءَ ذلك لكونهما محكيَّيْن قولاً لهم على أنَّه حاصلٌ لاشتراك الكلِّ في كونه لاستنزال يعقوب عليه السلام عن رأيه، وأنَّ الملك إذا كان محسناً كان الحفظُ أهونَ شيء، والاستفهامُ لرجوعه إلى النفي لا يمنعُ العطفَ. ووافقه في ذلك بعضُهم.

وقرأ ابن مسعود وأبو حيوة: «ما تبغي» بتاء الخطاب. وروت عائشةُ ﵂ ذلك عن النبي ﷺ[(١)]. والخطاب ليعقوب عليه السلام، والمعنى: أيَّ شيء [تبغي][(٢)] وراءَ هذه المباغي المشتملة على سلامةِ أخينا وسعةِ ذات أيدينا، أو وراء ما فعل معنا الملكُ من الإحسان داعياً إلى التوجُّه إليه، والجملة المستأنفة موضِّحة أيضاً لذلك.

أو أيَّ شيء تبغي شاهداً على صِدْقنا فيما وصفنا لك من إحسانه، والجملةُ المذكورة عبارةٌ عن الشاهد المدلول عليه بفحوى الإنكار.

ويحتمل أن تكون «ما» نافيةً، ومفعولُ «نبغي» محذوفٌ، أي: ما نبغي شيئاً غير ما رأيناه من إحسان الملك في وجوب المراجعة إليه، أو: ما نبغي غيرَ هذه المباغي. والقولُ بأنَّ المعنى: ما نبغي منك بضاعةً أخرى نشتري بها، ضعيف. والجملة المستأنفة على كلِّ تقدير تعليلٌ للنفي.

وأمَّا إذا فسِّر البغيُ بمجاوزة الحدِّ، فـ «ما» نافية فقط، والمعنى: ما نبغي في القول ولا نكذبُ فيما وصفنا لك من إحسان الملك إلينا وكرمِه الموجِب لِمَا ذُكر،

---

(١) القراءات الشاذة ص ٦٤، والبحر ٥/ ٣٢٤.

(٢) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٤/ ٢٩١، والكلام منه.

والجملةُ المستأنفة لبيانِ ما ادَّعوا من عدم البغي، وقوله: «ونمير» إلخ عطفٌ على «ما نبغي»، أي: لا نبغي فيما نقولُ ونميرُ ونفعلُ كيت وكيت، فاجتمع أسبابُ الإذن في الإرسال، والأوَّل كالتمهيد والمقدِّمة للبواقي، والتناسب من هذا الوجه لأنَّ الكلَّ متشاركة في أنَّ المطلوب يتوقَّف عليها بوجهٍ ما، على أنه لو لم يكن غير الاجتماع في المقولية لكفى على ما مرَّ آنفاً عن «الكشف».

وجوِّز[1] كونُه كلاماً مبتدأ، أي: جملةً تذييليَّةً اعتراضيَّةً، كقولك: فلانٌ ينطقُ بالحقِّ، والحقُّ أبلجُ. كأنه قيل: وينبغي أنْ نميرَ، ووجه التأكيد الذي يقتضيه التذييلُ أنَّ المعنى: إنَّ الملك محسنٌ ونحن محتاجون، ففيمَ التوقُّف في الإرسال وقد تأكَّد موجباه؟ وقال العلَّامة الطِّيبي: إنَّما صحَّ التأكيدُ والتذييلُ لأنَّ الكلام في الامتيار وكلٌّ من الجمل بمعناه.

أو المعنى: ما نبغي في الرأي وما نعدلُ عن الصَّواب فيما نُشير به عليك من إرسال أخينا معنا، والجمل كلُّها للبيان أيضاً، إلا أنَّ ثَمَّ محذوفاً ينساقُ إليه الكلامُ، أي: بضاعتُنا حاضرةٌ نستظهر بها ونميرُ أهلنا ونصنعُ كيت وذيت. وهو ـ على ما قيل ـ وجهٌ واضحٌ حَسَنٌ يلائمُ ما كانوا فيه مع أبيهم، فتأمل.

هذا وقرأت عائشةُ وأبو عبد الرحمن السُّلمي: «ونُمير» بضمِّ النون[2]، وقد جاء: مار عيالَه وأمارَهم بمعنىً كما في «القاموس»[3].

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ﴾ بعد أن عاينتُ منكم ما أَجْرَى المدامع ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: حتى تُعطوني ما أَتوثَّق به من جهته تعالى، فالمَوْثِقُ مصدرٌ ميميٌّ بمعنى المفعول، وأراد عليه السلام أن يحلفوا له بالله تعالى. وإنَّما جعل الحلف به سبحانه موثقاً منه لأنَّه مما تؤكَّد العهودُ به وتشدَّد، وقد أَذِنَ الله تعالى بذلك، فهو إذن منه تعالى شأنه.

---

(١) في هامش الأصل و(م): فيه ردٌّ على صاحب الفرائد حيث غفل عن ذلك، فقَال رادّاً على هذا التجويز: إن الواو لا تصلح في الابتداء. والتزم العطف.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٦٠، والبحر ٥/ ٣٢٤، والدر المصون ٦/ ٥٢٠.

(٣) مادة (مير).

﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ﴾ جوابُ قسمٍ مضمرٍ؛ إذ المعنى: حتى تحلفوا بالله وتقولوا: واللهِ لنأتينَّك به.

وفي «مجمع البيان» نقلاً عن ابن عباس أنَّه عليه السلام طلب منهم أن يحلفوا بمحمَّد ﷺ خاتمِ النبيِّين وسيِّد المرسلين[1]. والظاهرُ عدمُ صحَّة الخبر.

وذكر العماديُّ أنه عليه السلام قال لهم: قولوا: بالله ربِّ محمَّد ﷺ لنأتينَّك به.

﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي: إلا أن تُغلبوا فلا تطيقوا ذلك، أو: إلا أن تهلكوا جميعاً، وكلاهما مرويٌّ عن مجاهد، وأصلُه من إحاطة العدوِّ، واستعمالُه في الهلاك لأنَّ مَن أحاط به العدوُّ فقد هلك غالباً.

والاستثناء قيل: مفرَّغٌ من أعمِّ الأحوال، والتقدير: لتأْتُنَّني به على كلِّ حال إلا حالَ الإحاطةِ بكم. ورُدَّ بأنَّ المصدر من «أنْ» والفعلِ لا يقع موقعَ الحال كالمصدر الصريح، فيجوز: جئتكَ ركضاً، أي: راكضاً، دون: جئتكَ أن أركض، وإنْ كان في تأويله؛ لِمَا أنَّ الحالَ عندهم نكرةٌ، و«أنْ» مع ما في حيِّزها معرفةٌ في رتبة الضمير.

وأجيب بأنَّه ليس المرادُ بالحال الحالَ المصطلَحَ عليها بل الحالَ اللغوية، ويؤول ذلك إلى نصب المصدر المؤوَّل على الظرفية، وفيه نظر.

وفي «البحر» أنه لو قدِّر كونُ «أن» والفعلِ في موقع المصدر الواقع ظرفَ زمان، أي: لتأتنَّني به في كلِّ وقتٍ إلا إحاطةً بكم، أي: إلا وقتَ إحاطةٍ بكم، ولم يجز عند ابن الأنباريِّ؛ لأنَّه يَمنع وقوعَ المصدر المؤوَّل ظرفاً، ويشترط المصدرَ الصريحَ، فيجوز: خرجنا صياحَ الدِّيك، دون: خرجنا أنْ يصيح الدِّيك، أو: ما يصيحُ الديك، وجاز عند ابن جنِّي المجوِّز لذاك كما في قول أبي ذؤيب الهذلي:

وتـالله مـا إنْ شـهـلـةٌ أُمُّ واحـدٍ بـأوجدَ مـني أن يُـهان صـغـيرُها[2]

---

(١) مجمع البيان ١٣/ ٨٧.

(٢) البحر ٥/ ٣٢٥، والبيت لساعدة بن جؤية وليس لأبي ذؤيب كما ذكر أبو حيان، وهو في ديوان الهذليين ٢/ ٢١٤.

وقيل: من أعمِّ العِلل على تأويل الكلام بالنفي الذي ينساق إليه، أي: لتأتُنَّني ولا تمتنعُنَّ من الإتيان به إلا للإحاطة بكم، كقولهم: أقسمتُ عليك إلا فعلت[1]، أي: ما أطلب إلا فِعْلَكَ.

والظاهرُ اعتبارُ التأويل على الوجه الأول أيضاً، فإنَّ الاستثناء فيه مفرَّغٌ كما علمت، وهو لا يكون في الإثبات إلا إذا صحَّ وظهر إرادةُ العموم فيه، نحو: قرأت إلا يومَ الجمعة، لإمكان القراءة في كلِّ يومٍ غيرِ الجمعة، وهنا غيرُ صحيح؛ لأنَّه لا يمكن لإخوة يوسف عليه السلام أنْ يأتوا بأخيهم في كلِّ وقت وعلى كلِّ حالٍ سوى وقتِ الإحاطة بهم؛ لظهورِ أنَّهم لا يأتون به له وهو في الطريق أو في مصر، اللهم إلَّا أن يقال: إنَّه من ذلك القبيل، وإنَّ العموم والاستغراقَ فيه عرفيٌّ، أي: في كلِّ حال يُتصوَّر الإتيان به[2] فيها.

وتعقَّب المولى أبو السُّعود[3] تجويزَ الأول بلا تأويل بقوله: وأنت تدري أنه حيث لم يكن الإتيانُ [به] من الأفعال الممتدَّة الشاملة للأحوال على سبيل المعيَّة كما في قولك: لألزمنَّك إلا أن تقضيني حقِّي، ولم يكن مرادُه عليه السلام مقارنتَه على سبيل البدل لِمَا عدا الحال المستثناة كما إذا قلت: صلِّ إلا أن تكون مُحدِثاً، بل مجرَّد تحقُّقِه ووقوعِه من غيرِ إخلال به، كما في قولك: لأحجَّن العامَ إلا أنْ أُحصر، فإنَّ مرادك إنَّما هو الإخبارِ بعدم منع ما سوى حالِ الإحصار عن الحجِّ، لا الإخبارُ بمقارنتِه لتلك الأحوال على سبيل البدل كما هو مرادُكَ في مثال الصَّلاة = كان اعتبارُ الأحوال معه من حيثُ عدمُ منعها منه، فآلَ المعنى إلى التَّأويل المذكور. اهـ.

وبَحَثَ فيه واحدٌ من الفُضَلاء بثلاثةِ أوجهٍ:

الأوَّل: أنه لو كان المرادُ من قوله: «لتأتنني به» الإخبارَ بمجرَّد تحقُّق الإتيان ووقوعِه من غير إخلالٍ به لم يحتجْ إلى التأويل المذكور ـ أعني التأويلَ بالنَّفي ـ كما لا يخفى على المتأمِّل، فكلامُه يفيد خلافَ مراده.

---

(١) بعدها في الأصل: كذا.

(٢) قوله: به، ليس في (م).

(٣) في تفسيره ٤/ ٢٩١، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

الثاني: أنَّا سلَّمنا أن ليس مرادُ القائلِ من قوله: لأحجَّنَّ.. إلخ الإخبارَ بمقارنة الحجِّ لِمَا عدا حال الإحصار على سبيلِ البدل، لكن لا نسلِّم أن ليس مرادُه منه إلا الإخبارَ بعدم منع ما سوى حالِ الإحصار عنه، غايتُه أنَّ بينهما ملازمةً، وذاك لا يستلزم الاحتياجَ إلى التأويل بالنَّفي.

الثالث: أنَّه إن أراد من قوله: كان اعتبار الأحوال.. إلخ، أنَّ الإتيان به لم يكن معه اعتبارُ الأحوال كما هو الظاهر، فممنوع، وإن أراد أنَّ اعتبار الأحوال معه يستلزم حيثيَّة عدم منعها منه فمسلَّم، لكن لا يلزم منه الاحتياجُ إلى التأويل المذكور أيضاً، وليس المدَّعى إلا ذاك. اهـ، وهو كما ترى فتبصَّر.

ثم إنَّهم أجابوه عليه السلام إلى ما أراد ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ عَهْدَهم من الله تعالى حسبما أراد عليه السلام ﴿قَالَ﴾ عَرْضاً لثقته بالله تعالى، وحثّاً لهم على مراعاة حَلِفهم به عزَّ وجلَّ: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ في أثناء طلب الموثِق وإيتائه من الجانبين. وإيثارُ صيغة الاستقبال لاستحضارِ الصُّورة المؤدِّي إلى تثبُّتِهم ومحافظتهم على تذكُّره ومراقبته ﴿وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾ أي: مطَّلعٌ رقيبٌ، فإنَّ الموكلَ بالأمر يراقبه ويحفظُه، قيل: والمراد أنه سبحانه مُجازٍ على ذلك.

﴿وَقَالَ﴾ ناصحاً لهم لمَّا عزم على إرسالهم جميعاً: ﴿يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟﴾ مصرَ ﴿مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾ نهاهم عليه السلام عن ذلك حَذَراً من إصابة العين، فإنهم كانوا ذوي جمالٍ وشارةٍ حسنة، وقد اشتهروا بين أهلِ مصرَ بالزُّلفى والكرامةِ التي لم تكنْ لغيرهم عند الملك، فكانوا مظنَّةً لأنْ يُعانوا إذا دخلوا كوكبةً واحدة، وحيث كانوا مجهولين مغمورين بين الناس لم يوصِهم بالتفرُّق في المرَّة الأولى.

وجوِّز أن يكون خوفُه عليه السلام عليهم من العين في هذه الكرَّة بسبب أنَّ فيهم محبوبَه وهو بنيامين الذي يتسلَّى به عن شقيقِه يوسفَ عليه السلام، ولم يكن فيهم في المرَّة الأولى، فأهمل أمرَهم ولم يحتفلْ بهم لسوءِ صنيعهم في يوسف.

والقولُ أنَّه عليه السلام نهاهم عن ذلك [خشيةَ][1] أن يُستراب بهم لتقدُّم قول:

---

(١) ما بين حاصرتين من البحر ٥/ ٣٢٥، وعنه نقل المصنف هذا القولَ والقولَ الذي بعده.

أنتم جواسيس. ليس بشيء أصلاً، ومثله ما قيل: إنَّ ذلك كان طمعاً أن يتسمَّعوا خبرَ يوسف عليه السلام.

و«العينُ حقٌّ» كما صحَّ عن رسول الله ﷺ(١)، وصحَّ أيضاً بزيادة: «ولو كان شيءٌ سابق القدر سَبَقَتْه العينُ، وإذا استُغْسِلتُم فاغسلوا»(٢).

وقد وَرَدَ أيضاً: «إنَّ العين لَتُدخِلُ الرجلَ القَبرَ والجملَ القِدْرَ»(٣).

وقد كان ﷺ يعوِّذ الحسنين ﵄ بقوله: «أعوذ بكلماتِ الله تعالى التامَّة من كلِّ شيطانٍ وهامَّة ومن كلِّ عينٍ لامَّة» وكان يقول: «كان أبوكما يعوِّذ بها إسماعيلَ وإسحاق عليهم السلام»(٤).

ولبعضهم في هذا المقام كلامٌ مفصَّل مبسوطٌ لابأس باطلاعك عليه، وهو أنَّ تأثيرَ شيءٍ في آخَرَ إمَّا نفسانيٌّ أو جسماني، وكلٌّ منهما إمَّا في نفسانيٍّ أو جسمانيٍّ، فالأنواعُ أربعةٌ يندرج تحتَها ضروب الوحي والمعجزات والكرامات والإلهامات والمنامات وأنواع السحر والأعين والنِّيْرَنْجات(٥) ونحو ذلك.

أما النوعُ الأوَّل ـ أعني تأثيرَ النفساني في مثله ـ فكتأثير المبادي العالية في النفوس الإنسانية بإفاضة العلوم والمعارف، ويندرج في ذلك صنفان:

أحدهما: ما يتعلَّق بالعلم الحقيقيِّ، بأن يُلقى إلى النفس(٦) المستعدَّة لذلك

---

(١) صحيح البخاري (٥٧٤٠)، وصحيح مسلم (٢١٨٧)، وأخرجه أحمد (٨٢٤٥)، وهو من حديث أبي هريرة ﵁.

(٢) أخرجه مسلم (٢١٨٨) من حديث ابن عباس ﵄. ووقع في (م): فاغتسلوا. قوله: «ولو كان شيء...» أي: لو فُرِض أن شيئاً له قوة بحيث يسبق القدر لكان العين، لكنها لا تسبق. وقوله: «وإذا استغسلتم...» أي: إذا أُمر العائن بالاغتسال عنه طلب المعيون منه ذلك. فتح الباري ١٠/ ٢٠٤. وسيأتي قريباً الكلام في كيفية الاغتسال.

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٧/ ٩٠، والقضاعي في الشهاب (١٠٥٧)، والخطيب في تاريخ بغداد ٩/ ٢٤٤ من حديث جابر ﵁.

(٤) أخرجه أحمد (٢١١٢)، والبخاري (٣٣٧١) من حديث ابن عباس ﵄. الهامة: كل ذات سمٍّ يقتل. النهاية (همم). واللامَّة: العين التي تصيب الإنسان. اللسان (لمم).

(٥) النِّيْرَنج: أَخْذٌ كالسحر ليست بحقيقيَّةٍ، وإنما هي تشبيه وتلبيس. معجم متن اللغة (نرج).

(٦) في الأصل: النفوس.

كمالُ العلم من غير واسطةِ تعليم وتعلُّم، حتى تحيطَ بمعرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه بحسب الطاقة البشريَّة، كما أُلقي إلى نبيِّنا ﷺ علومُ الأوَّلين والآخرين مع أنه عليه الصلاة والسلام ما كان يتلو من قبلُ كتاباً ولا يخطُّه بيمينه.

وثانيهما: ما يتعلَّق بالتخيُّل القويِّ، بأنْ يُلقى إلى مَن يكون مستعدّاً له ما يَقوى به على تخيُّلات الأمور الماضية، والاطِّلاع على المغيَّبات المستقبلة، والمناماتُ والإلهاماتُ داخلةٌ أيضاً تحت هذا النوع.

وقد يدخل تحتَه نوعٌ من السحر وهو تأثيرُ النفوس البشريةِ القويةِ فيها قوَّتا التخيُّلِ والوهمِ في نفوسٍ بشريَّة أخرى ضعيفةٍ فيها هاتان القوَّتان، كنفوس البُلْه والصبيان والعوامِّ الذين لم تَقْوَ قوَّتُهم العقليةُ فتتخيَّل ما ليس بموجودٍ في الخارج موجوداً فيه، وما هو موجودٌ فيه على ضدِّ الحال الذي هو عليها، وقد يستعان في هذا القسم من السِّحر بأفعالٍ وحركات يعرض منها للحسِّ حيرةٌ وللخيال دهشةٌ، ومن ذلك الاستهتارُ في الكلام والتخليطُ فيه.

وأما النوع الثاني ـ أعني تأثيرَ النفساني في الجسماني ـ فكتأثير النفوس الإنسانية في الأبدان، من تغذيتها وإنمائها، وقيامها وقعودِها، إلى غير ذلك.

ومن هذا القبيل صنفٌ من المعجزات، وهو ما يتعلَّق بالقوَّة المحرِّكة للنفس بأنْ تبلغَ قوَّتُها إلى حيث تتمكَّن من التصرُّف في العالم تمكُّنَها من التصرُّف في بدنِها، كتدمير قوم بريحٍ عاصفةٍ أو صاعقة أو زلزلةٍ أو طوفان، وربَّما يُستعان فيه بالتضرُّع والابتهال إلى المبادي العالية، كأن يستسقي للناس فيُسقون، أو يدعو عليهم فيهلكون، ولهم فينجُون.

ويندرجُ في هذا صنفٌ من السِّحر أيضاً، كما في بعض النفوس الخبيثة التي تَقْوَى فيها القوَّةُ الوهمية بسببٍ من الأسباب كالرياضة والمجاهدة مثلاً، فيسلِّطها صاحبُها على التأثير فيمَن أرادَه بتوجُّهٍ تامٍّ وعزيمة صادقةٍ، إلى أن يحصلَ المطلوبُ الذي هو تأثُّره بنحوِ مَرَضٍ وذبولِ جسمٍ، ويصل ذلك إلى الهلاك.

وأما النوع الثالث ـ وهو تأثير الجسماني في الجسماني ـ فكتأثير الأدوية

والسُّموم في الأبدان، ويدخلُ فيه أنواع النِّيرَنْجات والطِّلَّسْمات[١]؛ فإنَّها بتاثير بعضِ المركَّبات الطبيعيَّة في بعضٍ بسببِ خواصَّ فيها، كجذبِ المغناطيس للحديد، واختطافِ الكهرباء التبنَ. وقد يُستعان في ذلك بتحصين المناسبات بالأجرام العلويَّة المؤثِّرة في عالم الكون والفَساد، كما يُشاهد في صورِ أشكالٍ موضوعةٍ في أوقاتٍ مخصوصةٍ على أوضاعٍ معلومةٍ في مقابلةِ بعض الجهاتِ ومُسامتةِ بعض الكواكب، يُستدفعُ بها كثيرٌ من أذيَّة الحيوانات.

وأما النوعُ الرابع ـ وهو تأثيرُ الجسمانيِّ في النفساني ـ فكتأثير الصُّور المستحسنةِ أو المستقبَحَة في النفوس الإنسانية، من استمالتِها إليها وتنفيرِها عنها، وعُدَّ من ذلك تأثير أصنافِ الأغاني والرقص والملاهي في بعض النفوس، وتأثيرُ البيان فيمَن له ذوقٌ كما يشير إليه قوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ من البيان لسحراً»[٢].

إذا تمهَّد هذا فاعلم أنَّهم اختلفوا في إصابة العين، فأبو عليٍّ الجبَّائيُّ[٣] أنكرها إنكاراً بليغاً، ولم يذكر لذلك شبهةً فضلاً عن حجَّة، وأثبتها غيرُه من أهل السُّنة والمعتزلةِ وغيرهم، إلا أنَّهم اختلفوا في كيفيَّة ذلك:

فقال الجاحظ: إنَّه يمتدُّ من العين أجزاءٌ، فتصلُ بالشخص المستَحْسَنِ، فتؤثِّر فيه تأثيرَ السُّمِّ في الأبدان. فالتأثيرُ عنده من تأثير الجسماني في الجسماني.

وضعَّف ذلك القاضي[٤] بأنَّه لو كان الأمرُ كما قال، لوجب أن تؤثِّر العينُ في الشخص الذي لا يُسْتَحْسَنُ كتأثيرِها فيما يستحسن.

وتعقَّبه الإمامُ بأنه تضعيفٌ ضعيفٌ، وذلك لأنَّه إذا استحسن العائنُ شيئاً فإمَّا أن يحبَّ بقاءَه كما إذا استحسن ولدَه مثلاً، وإمَّا أن يكرهَ ذلك؛ كما إذا أحسَّ بذلك المستحسَنِ عند عدوِّه الحاسدِ هو له، فإنْ كان الأوَّلَ فإنه يحصل عند ذلك

---

(١) هي نقوش تنقش على أجساد خاصة في ساعات مناسبة بكيفيات ملائمة لحوائج معلومة، واحدها: طِلَّسْم. معجم متن اللغة (طلسم).

(٢) أخرجه أحمد (٤٦٥١)، والبخاري (٥١٤٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وسلف ٢/ ٣٤٩.

(٣) كما في تفسير الرازي ١٨/ ١٧٣، وعنه نقل المصنف هذا القول وما بعده من أقوال.

(٤) هو القاضي عبد الجبار المعتزلي.

الاستحسانِ خوفٌ شديدٌ من زواله، وهو يوجبُ انحصارَ الروح في داخل القلب، فحينئذٍ يسخنُ القلبُ والروح جدّاً، ويحصلُ في الروح الباصرة كيفيَّةٌ قويَّةٌ مسخّنةٌ، وإن كان الثاني فإنه يحصل عند ذلك الاستحسان همٌّ شديدٌ وحزنٌ عظيم بسببِ حصول ذلك المستحسَن لعدوِّه، وذلك أيضاً يوجب انحصارَ الروح وحصولَ الكيفية القويَّة المسخّنة، وفي الصورتين يسخنُ شعاعُ العين فيؤثِّر، ولا كذلك في عدم الاستحسان، فبان الفرق، ولذلك السبب أمر رسولُ الله ﷺ العائنَ بالوضوء، ومن أُصيب بالاغتسالِ[1]. اهـ.

وما أشار إليه من أنَّ العائن قد يُصيب ولدَه مثلاً ممَّا شهدت له التجربة، لكن أخرج الإمام أحمد في «مسنده» عن أبي هريرة ـ وقال الهيثمي: رجالُه رجالُ الصحيح ـ أنه ﷺ قال: «العينُ حقٌّ، يَحْضُرها الشيطانُ وحَسَدُ ابن آدم»[2] وظاهرُه يقتضي خلافَ ذلك.

وأمَّا ما ذكره من الأمر بالوضوء والاغتسال، فقد جاء في بعض الروايات، وكيفيةُ ذلك: أن يغسل العائنُ وجهَه ويديه ومِرْفَقَيْه وركبتيه وأطرافَ رجليه وداخلَ إزارِه[3]، أي: ما يلي جسدَه من الإزار، وقيل: وَرِكَيْه، وقيل: مذاكيره، ويصبُّ الغسالة على رأس المعين.

وقد مرَّ: «إذا استُغْسِلتُم فاغسلوا» وهو خطابٌ للعائنين، أي: إذا طُلب منكم ما اعْتِيدَ من الغسل فافعلوا، والأمرُ للندب عند بعضٍ، وقال المازري[4] تبعاً لجماعة: للوجوب، فيجبُ على العائن أن يغسل ثمَّ يعطي الغسالةَ للمَعين؛ لأنه الذي يقتضيه ظاهرُ الأمر، ولأنَّه قد جرِّب ذلك وعلم البرء به، ففيه تخليصٌ من

---

(١) تفسير الرازي ١٨/ ١٧٣، وسيأتي تخريج الحديث قريباً.

(٢) مسند أحمد (٩٦٦٨)، ومن طريق أحمد أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٤٥٩) و(٣٤٦٦)، ورواية المسند: «ويحضر بها». وكلام الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ١٠٧. والحديث من طريق مكحول عن أبي هريرة رضي الله عنه، ومكحول لم يسمع من أبي هريرة.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٩٣٩، وأحمد (١٥٩٨٠)، والنسائي في الكبرى (٧٥٧٢) من حديث سهل بن حنيف رضي الله عنه..

(٤) في الأصل و(م): الماوردي، والمثبت هو الصواب، وقد نقله عن المازري ابن حجر في الفتح ١٠/ ٢٠٤، والسيوطي في الديباج على صحيح مسلم ٥/ ٢٠٥، والمناوي في فيض القدير ٤/ ٣٩٧، والشهاب في الحاشية ٥/ ١٩٢، وهو في كتابه المُعْلِم بفوائد مسلم ٣/ ٩٢.

الهلاك كإطعام المضطر، وذكر أنَّ ذلك أمرٌ تعبُّدي، وهو مخالفٌ لما أشار إليه الإمام من كونِ الحكمة فيه تبريدُ تلك السخونة، وهو مأخوذٌ من كلام ابنِ القيِّم حيث قال في تعليل ذلك: لأنَّه كما يؤخذ ترياقٌ لسمِّ الحيَّة من لحمها يُؤخذ علاجُ هذا الأمر من أثرِ الشخصِ العائن، وأثرُ تلك العين كشُعلةِ نار أصابت الجسدَ، ففي الاغتسال إطفاءٌ لتلك الشعلة[1]. وهو على علَّاته[2] أوْفَى من كلام الإمام.

ويَرِدُ على ما قرَّره في الانتصار للجاحظ أنَّه لا يسدُّ عنه بابَ الاعتراض على ما ذكره في كيفية إصابة العين، إذ يَرِدُ عليه ما ثبت من أنَّ بعض العائنين قد يُصيب ما يُوصَفُ له ويمثَّل، ولو كان بينه وبينه فراسخُ، والتزامُ امتداد تلك الأجزاء إلى حيثُ المصاب ممَّا لا يكاد يُقبل، كما لا يخفى على ذي عين.

وقال الحكماءُ ـ واختاره بعضُ المحقِّقين من أهل السنة ـ: إنَّ ذلك من تأثير النفساني بالجسماني، وبنَوه على أنه ليس من شرطِ المؤثِّر أن يكون تأثيرُه بحسب هذه الكيفيات المحسوسة ـ أعني الحرارةَ والبرودة والرطوبة واليبوسة ـ بل قد يكون التأثيرُ نفسيّاً محضاً، كما يدل عليه أنَّ اللوح الذي يكون قليلَ عرضٍ إذا كان موضوعاً على الأرض يقدر كلُّ إنسان على المشي عليه، ولو كان موضوعاً بين جدارين مرتفعين لم يقدر كلُّ أحد على المشي عليه، وما ذاك إلا لأنَّ الخوف من السقوط منه يوجبُ السُّقوط.

وأيضاً إنَّ الإنسان إذا تصور أنَّ فلاناً مؤذياً له حصل في قلبه غضبٌ وتسخن مزاجُه، فمبدأ ذلك ليس إلا التصوُّر النفساني، بل مبدأ الحركات البدنية مطلقاً ليس إلا التصوُّرات النفسانية، ومتى ثبت أنَّ تصوُّر النفس يوجب تغيُّر بدنه الخاصِّ، لم يبعد أيضاً أن يكون بعض النفوس بحيث تتعدَّى تأثيراتُها إلى سائر الأبدان.

وأيضاً جواهرُ النفوس مختلفة، فلا يمتنع أن يكون بعض النفوس بحيث تؤثِّر في تغيُّر بدنِ حيوانٍ آخرَ بشرطِ أن تراه، أو ترى مثالَه ـ على ما نقل ـ وتتعجَّب منه.

---

(١) بنحوه في زاد المعاد ٤/ ١٧١، وينظر فيض القدير ٤/ ٢٩٧.

(٢) جاء في هامش الأصل و(م): فيه إشارة إلى أن فيه ما فيه أيضاً، فقد ذكر ابن القيم نفسه أن ذلك لا ينتفع به من أنكره. ولا يخفى أنه لو كان الأمر كما ذكر لم يكن فرقٌ بين المنكِر والمعتقِد في الانتفاع، فتأمل. اهـ منه. وكلام ابن القيم في زاد المعاد ٤/ ١٧١.

ومتى ثبت أنَّ ذلك غيرُ ممتنع وكانت التجارب شاهدةً بوقوعه، وَجَب القولُ به من غير تلعثُم، ولأنَّ وقوع ذلك أكثريٌّ عند إعمال العين والنظرِ بها إلى الشيء نُسب التأثير إلى العين، وإلا فالمؤثِّر إنما هو النفس، ونسبة التأثير إليها كنسبة الإحراق إلى النار، والريِّ إلى الماء، ونحوِ ذلك.

والفاعل للآثار في الحقيقة هو الله عزَّ سلطانُه بالإجماع، لكن جرتْ عادتُه تعالى على خلقها بالأسباب ـ من غير توقُّفٍ عقليٍّ عليها كما يظنُّ جهلة الفلاسفة ـ على ما نقل عن السلف، أو عند الأسباب من غير مدخليَّةٍ لها بوجهٍ من الوجوه، على ما شاع عن الأشعريِّ.

فمعنى قوله عليه الصلاة والسلام: «العين حقٌّ» أنَّ إصابة النفس بواسطتها أمرٌ كائن مقضيٌّ به في الوضع الإلهي لا شبهةَ في تحقُّقه، وهو كسائر الآثار المشاهدةِ لنحو النار والماء والأدوية مثلاً. وأنت تعلم أنَّ مدار كلِّ شيء المشيئةُ الإلهية، فما شاء الله تعالى كان وما لم يشأ لم يكن.

وحكمةُ خَلْقِ اللهِ تعالى التأثيرَ في مسألة العين أمرٌ مجهولٌ لنا، وزعم أبو هاشم وأبو القاسم البلخيُّ[1] أنَّ ذلك ممَّا يرجع إلى مصلحة التَّكليف، قالا: لا يمتنع أن تكون العينُ حقاً، على معنى: أنَّ صاحبَ العين إذا شاهد الشيءَ وأُعجب به استحساناً كان المصلحةُ له في تكليفه أن يغيِّر اللهُ تعالى ذلك الشيء، حتى لا يبقى قلبُ ذلك المكلَّف متعلِّقاً به. ثم لا يبعُدُ أيضاً أنه لو ذَكَر ربَّه عند تلك الحالة وعدل عن الإعجاب وسأل ربَّه سبحانه بقاءَ ذلك، تتغيَّر المصلحة فيبقيه اللهُ تعالى ولا يُفنيه. وهو كما ترى.

ثمَّ إن ما أشار إليه من نَفْعِ ذكر الله تعالى والالتجاء إليه سبحانه حقٌّ، فقد صرَّحوا بأن الأدعية والرُّقى من جملة الأسباب لدَفع أذى العين، بل إنَّ من ذلك ما يكون سبباً لردِّ سهمِ العائن إليه؛ فقد أخرج ابنُ عساكر أنَّ سعيداً النَّباجي[2] قيل

---

(١) كما في تفسير الرازي ١٨/ ١٧٣.

(٢) في الأصل و(م): أن سعيد الساحي، وفي الحلية: الساجي، وهو خطأ. والنِّباجي هو: سعيد بن بُريد الصوفي، أبو عبد الله، له كلام شريف ومواعظ، وله ترجمة طويلة في الحلية ٩/ ٣١٠ وفيه: ابن يزيد، وهو تصحيف كذلك، وينظر سير أعلام النبلاء ٩/ ٥٨٦.

له: احفظ ناقتَك من فلانٍ العائن. فقال: لا سبيلَ له إليها. فعانها فسقطت تضطربُ، فأخبر النَّباجي[1] فوقف عليها فقال: حَبْس حابِس، وشهاب قابس، رَدَدْتُ عينَ العائن عليه، وعلى أحبِّ الناسِ إليه، وعلى كبدهِ وكليتيه رشيق وفي ماله يليق ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ الآية [الملك: ٣] فخرجت حدقتا العائنِ وسَلِمَتِ الناقة[2].

ويدلُّ على نفع الرقية من العين مشروعيَّتُها كما تدلُّ عليه الآثار، وقد جاء في بعضها أنه ﷺ قال: «لا رقيةَ إلا من عينٍ أو حُمَةٍ»[3] والمراد منه أنه لا رقيةَ أولى وأنفعُ من رقيةِ العين والحمة، وإلا فقد رَقَى ﷺ بعضَ أصحابه من غيرهما[4].

وينبغي لمن علم من نفسه أنه ذو عينٍ أن لا ينظر إلى شيءٍ نظرَ إعجاب، وأن يذكر الله تعالى عند رؤية ما يستحسن[5]، فقد ذكر غيرُ واحد من المجرِّبين أنه إذا فعل ذلك لا يؤثِّر، ونقل الأجهوري أنه يندب أنه يعوِّذ المَعِينَ فيقول: اللهم بارك فيه ولا تضرَّه، ما شاء الله لا قوَّة إلا بالله.

وفي «تحفة المحتاج» أنَّ من أدويتها ـ أي: العين ـ المجرَّبة التي أمر النبيُّ ﷺ بها أن يتوضَّأ العائنُ.. إلى آخر ما ذكرناه آنفاً، وأن يدعو للمَعين، وأن يقول المعينُ: ما شاء الله لا قوَّة إلا بالله، حصَّنتُ نفسي بالحيِّ القيوم الذي لا يموت

---

(١) تحرف في الأصل و(م) إلى: الساحي.

(٢) تاريخ ابن عساكر ٢١/٢١، والحلية ٩/٣١٦-٣١٧، ونقله المصنف بواسطة المناوي في فيض القدير ٤/٣٩٧، وجاء في تاريخ ابن عساكر والحلية: في كليتيه رشيق، بدل: وعلى كبده وكليتيه رشيق.

(٣) أخرجه أحمد (١٩٩٠٨)، وأبو داود (٣٨٨٤)، والترمذي (٢٠٥٧) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعاً. وأخرجه البخاري (٥٧٠٥) عن عمران رضي الله عنه موقوفاً، ومسلم (٢٢٠) عن بريدة رضي الله عنه موقوفاً أيضاً. وإسناد المرفوع صحيح، والحُمَة: اسم العقرب كما قال ثعلب، وقال ابن سيده: هي الإبرة التي تضرب بها العقرب والزنبور. وقال الخطابي: هي كل هامة ذات سمٍّ من حية أو عقرب. الفتح ١٠/١٥٦.

(٤) من ذلك ما أخرجه مسلم (٢١٩٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) وقد ورد ذلك في حديث سهل بن حنيف الذي سلف تخريجه ص٤٠٩ من هذا الجزء، وهو حديث صحيح، وفيه أن رسول الله ﷺ قال للعائن: «ألا برَّكت»، والتبريك أن يقول: تبارك الله أحسن الخالقين، اللهم بارك فيه، كما ذكر ابن عبد البر في التمهيد ٦/٢٤١.

أبداً، ودفعتُ عنها السوءَ بألفِ لا حولَ ولا قوة إلا بالله. ويُسنُّ عند القاضي[١] لمن رأى نفسه سليمةً وأحواله معتدلةً أن يقول ذلك.

وفي «شرح مسلم»[٢] عن العلماء: أنَّه على السلطان منعُ مَن عُرف بذلك من مخالطةِ الناس، ويرزقُه من بيت المال إن كان فقيراً؛ فإنَّ ضررَه أشدُّ من ضرر المجذوم الذي منعه عمر رضي الله عنه من مخالطةِ الناس.

ورأيتُ لبعض أصحابنا أيضاً القولَ بنَدْبِ ذلك، وأنه لا كفارةَ على عائن، قيل: لأنَّ العين لا تعدُّ مهلكاً عادةً، على أنَّ التأثير يقع عندها لا بها حتَّى بالنظر للظاهر، وهذا بخلافِ الساحر فإنهم صرَّحوا بأنه يُقتل إذا أَقرَّ أن سحرَه يَقْتُل غالباً. ونُقل عن المالكيَّة أنه لا فرقَ بين الساحر والعائن، فيُقتلان إذا قَتَلا.

ثمَّ إنَّ العين على ما نُقل عن الرازي لا تؤثِّر ممَّن له نفسٌ شريفة؛ لِمَا في ذلك من الاستعظام للشيء. وفيما أخرجه الإمام أحمدُ في «مسنده» ما يؤيِّد المدَّعَى[٣].

واعتُرض بما رواه القاضي[٤] أنَّ نبيّاً استكثر قومَه، فمات منهم في ليلةٍ مئةُ ألف، فشكا ذلك إلى الله تعالى، فقال له سبحانه وتعالى: إنك استكثرتهم فعِنْتَهم، هلَّا حصَّنتهم إذا استكثرتهم، فقال: يا ربِّ، كيف أحصِّنُهم؟ قال: تقول: حصَّنتكم بالحيِّ القيوم. إلى آخر ما تقدَّم.

وقد يُجاب بأنَّ ما ذكر الرازي هو الأغلب، بل يتعيَّن تأويل هذا ـ إنْ صحَّ ـ بأنَّ ذلك النبيَّ عليه السلام لمَّا غفل عن الذِّكر عند الاستكثار، عُوقب فيهم ليَسْأَلَ فيعلم، فهو كالإصابة بالعين، لا أنَّه عانَ حقيقةً هذا، والله تعالى أعلم.

ثم إنه عليه السلام لم يكتفِ بالنهي عن الدخول من بابٍ واحدٍ، بل ضمَّ إليه قولَه: ﴿وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾ بياناً للمراد به، وذلك؛ لأنَّ عدم الدخول من بابٍ

---

(١) هو حسين بن محمد بن أحمد، أبو عليٍّ القاضي المَرْوَرُّوذي، صاحب التعليقة المشهورة، من كبار أئمة الشافعية، وكان فقيه خراسان، توفي سنة (٤٦٢هـ). طبقات الشافعية ٣/ ٣٥٦.

(٢) للنووي ٣/ ١٧٣.

(٣) لعله قوله عليه الصلاة والسلام: «العين حق يحضرها الشيطان وحسد ابن آدم» وقد سلف ص٤٠٩ من هذا الجزء.

(٤) هو القاضي حسين، وقد سلفت ترجمته قريباً.

واحدٍ غيرُ مستلزمٍ للدخول من أبوابٍ متفرقة، وفي دخولهم من بابين أو ثلاثةٍ بعضُ ما في الدُّخول من بابٍ واحدٍ من نوعِ اجتماعٍ مصححٍ لوقوعِ المحذور، وإنما لم يكتفِ بهذا الأمر مع كونه مستلزماً للنهي السابق؛ إظهاراً لكمال العناية به، وإيذاناً بأنه المرادُ بالأمر المذكور لا تحقيق شيء آخر.

﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم﴾ أي: لا أنفعُكم ولا أدفع عنكم بتدبيري ﴿مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ﴾ أي: من قضائه تعالى عليكم شيئاً، فإنه لا يغني حذرٌ من قَدَر، ولم يُرِدْ بهذا عليه السلام ـ كما قيل ـ إلغاءَ الحذر بالمرَّة، كيف وقد قال سبحانه: ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء: ٧١]، وقال عزَّ قائلاً: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، بل أراد بيانَ أنَّ ما وصَّاهم به ليس ممَّا يستوجب المراد لا محالة، بل هو تدبيرٌ وتشبُّثٌ بالأسباب العادية التي لا تؤثِّر إلا بإذنه تعالى، وأنَّ ذلك ليس بمدافعةٍ للقدر، بل هو استعانةٌ بالله تعالى، وهربٌ منه إليه.

﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ﴾ أي: ما الحكمُ مطلقاً ﴿إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ لا يشاركه أحدٌ ولا يمانعه شيء ﴿عَلَيۡهِ﴾ سبحانه دونَ غيره ﴿تَوَكَّلۡتُۖ﴾ في كلِّ ما آتي به وأذَر، وفيه دلالةٌ على أنَّ ترتيب الأسباب غيرُ مخلٍّ بالتوكُّل، وفي الخبر: «اعقِلْها وتوكَّل»(١).

﴿وَعَلَيۡهِ﴾ عزَّ سلطانُه دونَ غيره ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧﴾ أي: المريدون للتوكُّل. قيل: جَمَعَ بين الواو والفاء في عطف الجملة على الجملة مع تقديم الصِّلة للاختصاص؛ ليفيد بالواو عطفَ فِعْلِ غيرِه من تخصيصِ التوكُّل بالله تعالى شأنه على فِعْلِ نفسه، وبالفاء سببيَّةَ فِعْلِه لكونه نبيّاً لفِعْلِ غيرِه من المقتدين به.

وهي على ما صرَّح به بعضُهم زائدةٌ، حيث قال: ولا بدَّ من القول بزيادةِ الفاء وإفادتِها السببيَّةَ، ويلتزم أنَّ الزائد قد يدلُّ على معنًى غيرِ التوكيد، وذكر أنَّه لو اكتُفِيَ بالفاء وحدَها، وقيل: فعليه فليتوكل. .إلخ، أفاد تسبُّبَ الاختصاص لا أصلَ التوكُّل وهو المقصود، وكلُّ ذلك لا يخلو عن بحث.

واختار بعضُهم أنه جيء بالفاء إفادةً للتأكيد فقط، كما هو الأمرُ الشائع في الحروف الزائدة، فتدبَّر.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٧) عن أنس، وابن حبان (٧٣١) عن عمرو بن أمية ﷺ، وسلف ٥/ ٩٨.

وأيّاً ما كان فيدخل بنوه عليه السلام في عموم الأمر دخولاً أوليًّا، وفي الأسلوب ما لا يخفى من حُسن هدايتهم وإرشادِهم إلى التوكُّل - فيما هم بصدده - على الله تعالى شأنه، غيرَ معتمدين على ما وصَّاهم به من التدبير.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ من الأبواب المتفرِّقة من البلد، قيل: كانت له أربعةُ أبواب فدخلوا منها، وإنَّما اكتفى بذكرِه؛ لاستلزامه الانتهاءَ عمَّا نُهوا عنه، وحاصلُه: لمَّا دخلوا متفرِّقين ﴿مَّا كَانَ﴾ ذلك الدخول ﴿يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ من جهته سبحانه ﴿مِن شَىْءٍ﴾ أي: شيئاً ممَّا قضاه عليهم جلَّ شأنه.

والجملة قيل: جوابُ «لمَّا»، والجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبل لتحقُّق المقارَنةِ الواجبة بين جواب «لمَّا» ومدخولِها، فإنَّ عدم الإغناء بالفعل إنما يتحقَّق عند نزول المحذور لا وقتَ الدخول، وإنما المتحقِّق حينئذٍ ما أفاده الجمعُ المذكور من عدم كون الدخول مغنياً فيما سيأتي.

وليس المراد بيانَ سببيَّةِ الدُّخول المذكورِ لعدمِ الإغناء كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢] فإنَّ مجيء النذير هناك سببٌ لزيادة نفورهم، بل بيان عدم سببيَّته للإغناء مع كونها متوقَّعةً في بادىء الرَّأي، حيث إنه وقع حسبما وصَّاهم به عليه السلام، وهو نظير قولك: حلف أن يعطيني حقِّي عند حلول الأجل، فلمَّا حلَّ لم يعطِني شيئاً، فإنَّ المراد بيانُ عدم سببيَّة حلول الأجل للإعطاء مع كونها مرجوَّةً بموجب الحلف، لا بيانُ سببيَّته لعدم الإعطاء، فالمآل بيانُ عدم ترتُّب الغرض المقصود على التَّدبير المعهود مع كونه مرجوَّ الوجود، لا بيانُ ترتُّب عدمه عليه.

ويجوز أن يُراد ذلك أيضاً بناءً على ما ذكره عليه السلام في تضاعيف وصيَّته من أنه لا يغني عنهم تدبيرُه من الله تعالى شيئاً، فكأنه قيل: ولمَّا فعلوا ما وصَّاهم به لم يُفدْهم ذلك شيئاً، ووقع الأمرُ حسبما قال عليه السلام، فلقُوا ما لقُوا، فيكون من بابِ وقوعِ المتوقَّع[1]. اهـ.

---

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٩٣.

وإلى كون الجواب ما ذُكر ذهب أبو حيَّان وقال: إنَّ فيه حجَّةً لمن زعم أنَّ «لمَّا» حرفُ وجوبٍ لوجوب لا ظرفُ زمانٍ بمعنى حين، إذ لو كان كذلك ما جاز أن يكون معمولاً لِمَا بعدَ «ما» النافية[1]. ولعل مَن يذهبُ إلى ظرفيَّتها يجوِّز ذلك بناءً على أنَّ الظرف يُتوسَّع فيه ما لا يُتوسَّع في غيره.

وقال أبو البقاء: في جواب «لمَّا» وجهان:

أحدهما: أنه «آوى»، وهو جواب «لمَّا» الأولى والثانية، كقولك: لمَّا جئتكَ وكلَّمتك أجبتني، وحَسَّن ذلك أنَّ دخولَهم على يوسف عليه السلام تعقَّب دخولَهم من الأبواب.

والثاني: أنَّه محذوف، أي: امتثلُوا أو قضَوا حاجةَ أبيهم[2].

وإلى الوجه الأخير ذهب ابنُ عطية أيضاً[3]، ولا يخفى أنَّه عليه وعلى ما قبلَه ترتفع غائلةُ توجيه أمر الترتُّب.

وما أشار إليه صاحبُ القيل في ثاني وجهيه هو الذي يقتضيه ظاهرُ كلام كثيرٍ من المفسِّرين، حيث ذكروا أنَّ هذا منه تعالى تصديقٌ لِمَا أشار إليه يعقوبُ عليه السلام في قوله: ولا أغني عنكم من الله شيئاً[4].

واعتُرض القول بعدم ترتُّب الغرض على التدبير، بأنَّ الغرضَ ليس إلا دفعُ إصابة العين لهم، وقد تحقَّق بدخولهم متفرِّقين، وهو واردٌ أيضاً على ما ذُكر في الوجه الأخير كما لا يخفى.

وأُجيب بأنَّ المراد بدفع العين أنْ لا يمسَّهم سوءٌ ما، وإنَّما خُصَّت إصابةُ العين لظهورها.

وقيل: إنَّ ما أصابهم من العين أيضاً، فلم يترتَّب الغرضُ على التدبير، بل تخلَّف ما أراده عليه السلام عن تدبيره. وتُعقِّب بأنَّه تكلُّف.

---

(١) البحر ٥/ ٣٢٥.

(٢) الإملاء ٣/ ٣٤٢-٣٤٦.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٢٦٢.

(٤) كذا ذكر، والذي في الآية: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾.

واستُظْهِرَ أنَّ المراد أنه عليه السلام خشي عليهم شرَّ العين فأصابهم شرٌّ آخرُ لم يخطر بباله، فلم يُغْنِ دفعُ ما خافه شيئاً، وحينئذٍ يُدَّعَى أنَّ دخولهم من حيث أمرهم أبوهم كان مفيداً لهم من حيثُ إنه دَفَعَ العينَ عنهم، إلا أنَّه لمَّا أصابهم ما أصابهم من إضافة السرقة إليهم، وافتضاحهم بذلك مع أخيهم بوجدان الصُّواع في رَحْلِه، وتضاعُفِ المصيبة على أبيهم، لم يعد ذلك فائدةً، فكأنَّ دخولهم لم يُغْنِهم شيئاً.

واعتُرِض أيضاً ما ذكر في توجيه الجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل بأنَّ المشهور أنَّ الغرض منه إفادةُ الاستمرار كما مرَّت الإشارةُ إليه غير مرَّة، وظاهرُ ذلك لا يدلُّ عليه، قيل: وإذا كان الغرضُ هنا ذاك احتمل الكلامُ وجهين: نفيَ استمرار الإغناء، واستمرارَ نفيه. وفيه تأمُّلٌ، فتأمَّلْ جدّاً.

هذا وما أشرنا إليه من زيادة «مِن» في المنصوب هو أحدُ وجهين ذكرهما الرازيُّ في الآية، ثانيهما جوازُ كونها زائدةً في المرفوع[1]. وحينئذٍ ليس في الكلام ضميرُ الدُّخول كما لا يخفى. قيل: ولو اعتُبر على هذا الوجه كونُ مرفوع «كان» ضميرَ الشأن، لم يَبْعُدْ، أي: ما كان الشأنُ يغني عنهم من الله تعالى شيءٌ.

﴿إِلَّا حَاجَةً﴾ استثناءٌ منقطع، أي: ولكنْ حاجة ﴿فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ أي: أظهرها ووصَّاهم بها؛ دفعاً للخاطرة[2]، غير معتقدٍ أنَّ للتدبير تأثيراً في تغيير التقدير.

والمرادُ بالحاجة: شفقتُه عليه السلام وحَرَازتُه[3] من أن يُعانوا. وذكر الراغب أنَّ الحاجةَ إلى الشيء الفقرُ إليه مع محبَّته، وجمعُه: حاجٌ وحاجات وحوائجُ، وحاجَ يَحُوج: احتاج، ثمَّ ذكر الآية[4]. وأنكر بعضُهم مجيء الحوائج جمعاً لها، وهو محجوجٌ بوروده في الفصيح.

وفي التصريح باسمه عليه السلام إشعارٌ بالتعطُّف والشفقة والترحُّم؛ لأنَّه عليه السلام قد اشتهر بالحُزن والرِّقَّة.

---

(١) والتقدير: ما كان يغني عنهم من الله شيءٌ مع قضائه. تفسير الرازي ١٨/ ١٧٦.
(٢) في (م): للخطرة، والمثبت موافق لما في تفسير أبي السعود ٤/ ٢٩٣، والكلام منه.
(٣) الحرازة بفتح الحاء: الاحتراز. حاشية الشهاب ٥/ ١٩٣.
(٤) مفردات الراغب (حاج).

وجوّز أن يكون ضميرُ «قضاها» للدخول، على معنى أنَّ ذلك الدخول قضى حاجةً في نفس يعقوب عليه السلام، وهي إرادتُه أن يكون دخولُهم من أبوابٍ متفرِّقةٍ، فالمعنى: ما كان ذلك الدُّخول يُغني عنهم من جهةِ الله تعالى شيئاً، لكن قضى حاجةً حاصلةً في نفس يعقوبَ؛ لوقوعه حَسْبَ إرادته. والاستثناءُ منقطع أيضاً.

وجملة «قضاها» صفة «حاجة»، وجوّز أن يكون خبرَ «إلا» لأنَّها بمعنى «لكن» وهي يكون لها اسمٌ وخبر، فإذا أوِّلت بها فقد يقدَّر خبرُها وقد يصرَّح به كما نقله القُطب وغيرُه عن ابن الحاجب. وفيه أنَّ عَمَلَ «إلا» بمعنى «لكن» عَمَلَها[1] ممَّا لم يقل به أحدٌ من أهل العربية.

وجوَّز الطِّيبي كونَ الاستثناء متَّصلاً على أنه من بابِ:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ سيوفَهم[2]

فالمعنى: ما أَغْنَى عنهم ما وصَّاهم به أبوهم شيئاً إلَّا شفَقَته التي في نفسه، ومن الضرورة أنَّ شفقة الأب مع قَدَر الله تعالى كالهباء، فإذنْ ما أغنى عنهم شيئاً أصلاً.

﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ﴾ جليلٍ ﴿لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ أي: لتعليمنا إيَّاه بالوحي ونصبِ الأدلَّة، حيث لم يعتقد أنَّ الحذر يدفعُ القَدَر حتى يتبيَّن الخلل في رأيه عند تخلُّف الأثر، أو حيث بتَّ القولَ بأنه لا يغني عنهم من الله تعالى شيئاً، فكانت الحالُ كما قال. فاللام للتعليل، و«ما» مصدرية، والضميرُ المنصوبُ ليعقوب عليه السلام.

وجوّز كونُ «ما» موصولاً اسميّاً، والضمير لها، واللام صلة «عِلْمٍ»، والمرادُ به الحفظ، أي: إنه لذو حِفْظٍ ومراقبةٍ للذي علَّمناه إيَّاه.

وقيل: المعنى: إنَّه لذو علم لفوائدِ الذي علَّمناه وحُسْنِ آثاره، وهو إشارةٌ إلى كونه عليه السلام عاملاً بما عَلِمه.

وما أشير إليه أوَّلاً هو الأولى، ويؤيِّد التعليلَ قراءةُ الأعمش: «مما علَّمناه»[3].

---

(١) أي: عَمَلَ «لكن».

(٢) وعجزه: بهن فلول من قراع الكتائب، والبيت للنابغة الذبياني، وسلف ٥/ ٤٠٧.

(٣) البحر ٥/ ٣٢٦.

وفي تأكيد الجملة بـ «إنَّ» واللام، وتنكيرِ «عِلْمٍ» وتعليلِه بالتعليم المسنَد إلى ضميرِ العظمة، من الدّلالة على جلالة شأن يعقوبَ عليه السلام وعلوِّ مرتبة عِلْمه وفخامتِه ما لا يخفى.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦٨﴾ سرَّ القَدَر، ويزعمون أنَّه يُغني عنه الحَذَر.

وقيل: المراد: لا يعلمون إيجابَ الحَذَر مع أنه لا يغني شيئاً من القدر. وتُعقِّب بأنَّه يأباه مقامُ بيانِ تخلُّف المطلوب عن المبادي.

وقيل: المراد: لا يعلمون أن يعقوبَ عليه السلام بهذه المثابة من العلم، ويُراد بـ «أكثر الناس» حينئذٍ المشركون؛ فإنَّهم لا يعلمون أنَّ الله تعالى أرشد[1] أولياءه إلى العلوم التي تنفعهم في الدنيا والآخرة. وفيه أنَّه بمعزلٍ عمَّا نحن فيه.

وجَعْلُ المفعول سرَّ القَدَر هو الذي ذهب إليه غيرُ واحد من المحقِّقين، وقد سعى في بيان المراد منه وتحقيقِ إلغاء الحَذَر بعضُ أفاضل المتأخِّرين المتشبِّثين بأذيال الصوفية قدَّس الله تعالى أسرارَهم، فقال: إنَّ لنا قضاءً وقَدَراً وسرَّ قَدَرٍ وسرَّ سرِّه، وبيانُه أنَّ الممكناتِ الموجودةَ وإن كانت حادثةً باعتبارِ وجودها العيني، لكنَّها قديمةٌ باعتبارِ وجودها العِلْمي، وتسمَّى بهذا الاعتبار مهيِّئات الأشياء والحروف العالية والأعيان الثابتة.

ثم إنَّ تلك الأعيانَ الثابتة صورٌ نسبيَّة وظِلالُ شُؤُوناتٍ ذاتيةٍ لحضرةِ الواجب تعالى، فكما أنَّ الواجب تعالى والشُّؤونَ الذاتية له سبحانه مقدَّسةٌ عن قبولِ التغيُّر أزلاً وأبداً، كذلك الأعيانُ الثابتة التي هي ظلالُها وصورُها يمتنع عليها أنْ تتغيَّر عن الأحكام التي هي عليها في حدِّ نفسها.

فالقضاءُ: هو الحكمُ الكلِّيُّ على أعين الموجودات بأحوالٍ جاريةٍ وأحكامٍ طارئةٍ عليها من الأزل إلى الأبد.

والقَدَرُ: تفصيلُ هذا الحكم الكلِّي بتخصيصِ إيجادِ الأعيان وإظهارِها بأوقاتٍ وأزمانٍ يقتضي استعدادُها الوقوعَ فيها، وتعليقِ كلِّ حال من أحوالها بزمانٍ معيَّنٍ وسببٍ مخصوص.

---

(١) في (م): كيف أرشد.

وسرُّ القَدَر: هو أن يمتنع أن يظهرَ عينٌ من الأعيان إلَّا على حَسَبِ ما يقتضيه استعدادُه.

وسرُّ سرِّ القَدَر: هو أنَّ تلك الاستعداداتِ أزليةٌ غيرُ مجعولةٍ بجَعْلِ الجاعل؛ لكون تلك الأعيان ظلالَ شؤوناتٍ ذاتيةٍ مقدَّسةٍ عن الجعل والانفعال.

ولا شكَّ أن الحكم الكلِّيَّ على الموجودات تابعٌ لعلمه تعالى بأعيانها الثابتة، وعلمُه سبحانه بتلك الأعيان تابعٌ لنفس تلك الأعيان؛ إذ لا أثرَ للعلم الأزلي في المعلوم بإثبات أمرٍ له لا يكون ثابتاً، أو بنفي أمر عنه يكون ثابتاً، بل عِلْمُه تعالى بأمرٍ ما إنَّما يكون على وجهٍ يكون هو في حدِّ ذاته على ذلك الوجه، وأمَّا الأعيان فقد عرفتَ أنَّها ظلالٌ لأمورٍ أزليَّةٍ مقدَّسةٍ عن شوائب التغيُّر، فكانت أزلاً، فالله تعالى عَلِم بها كما كانت، وقَضَى وحَكَم كما عَلِم، وقدَّر وأَوْجَدَ كما قضى وحَكَم، فالقَدَر تابعٌ للقضاء التابعِ للعلم التابعِ للمعلوم التابعِ لِمَا هو ظلٌّ له.

فإليه سبحانه يرجع الأمرُ كلُّه، فيمتنع أن يظهرَ خلافُ ما عَلِمَ، فلذا يلغو الحَذَر، لكن أمر به؛ رعايةً للأسباب فإنَّ تعطيلَها ممَّا يفوِّت انتظامَ أمر هذه النَّشأة، ولذا ورد أنَّ نبيّاً من الأنبياء عليهم السلام ترك تعاطي أسباب تحصيل الغذاء وقال: لا أسعى في طلب شيء بعد أن كان الله تعالى هو المتكفِّل برزقي، ولا آكلُ ولا أشربُ ما لم يكن سبحانه هو الذي يطعمني ويسقيني، فبقي أيَّاماً على ذلك حتى كادت تغيظُ نفسه مما كابده، فأوحى إليه سبحانه: يا فلان، لو بقيتَ كذلك إلى يوم القيامة ولم تتعاطَ سبباً ما رزقتك، أتريد أن تعطِّل أسبابي؟!

وقال بعض المحقِّقين: إنَّ سبب إيجاب الحَذَر أنَّ كثيراً من الأمور قُضي معلَّقاً، ونِيطَ تحصيلُه بالأفعال الاختيارية للبشر بترتيب أسبابه ودفعِ موانعه، فيمكن أن يكون الحفظُ عن المكروه من جملة ما نِيط بفعلٍ اختياري وهو الحَذَر، وهو لا يأبى ما قلناه كما لا يخفى.

هذا وذكر الشيخُ الأكبر(١) قُدِّس سرُّه أنَّ القَدَر مرتبةٌ بين الذات والمَظاهر، ومَن عَلِمَ اللهَ تعالى عَلِمَه، ومَن جَهِلَه سبحانه جَهِلَه، واللهُ تعالى شأنُه لا يُعْلَم، فالقَدَر

---

(١) في الفتوحات المكية ٢/ ٦٤-٦٥.

أيضاً لا يُعْلَم، وإنَّما طُويَ عِلْمُه حتى لا يُشارِكَ الحقُّ في عِلْمِ حقائق الأشياء من طريق الإحاطة بها، إذ لو عُلم أيُّ معلومٍ كان بطريقِ الإحاطة من جميع وجوهِه كما يعلمه الحقُّ، لَمَا تميَّز عِلْمُ الحقِّ عن عِلْمِ العبد بذلك الشيء، ولا يلزمنا على هذا الاستواءُ فيما عُلِمَ منه، فإنَّ الكلام فيما عُلم كذلك[١]، فإن العبد جاهلٌ بكيفية تعلُّق العلم مطلقاً بمعلومه، فلا يصحُّ أن يقع الاشتراكُ مع الحقِّ في العلم بمعلوم ما، ومن المعلومات العِلْمُ بالعلم، وما من وجهٍ من المعلومات إلا وللقَدَر فيه حكمٌ لا يعلمه إلا هو سبحانه، فلو عُلم القَدَر عُلمتْ أحكامُه، ولو عُلِمت أحكامُه لاستقلَّ العبدُ في العلم بكلِّ شيء، وما احتاج إليه سبحانه في شيء، وكان له الغنى على الإطلاق. وسِرُّ القَدَر عينُ تحكُّمه في الخلائق، وأنه لا ينكشفُ لهم هذا السرُّ حتى يكون الحقُّ بصَرهم.

وقد ورد النهي عن طلب علم القَدَر، وفي بعض الآثار أنَّ عُزيراً عليه السلام كان كثيرَ السؤال عنه إلى أن قال الحقُّ سبحانه له: يا عزيرُ، لئن سألتَ عنه لأمحونَّ اسمَك من ديوان النبوَّة.

ويَقْرُبُ من ذلك السؤالُ عن علل الأشياء في تكويناتها[٢]، فإنَّ أفعالَ الحقِّ لا ينبغي أن تعلَّل، فإنَّ ما ثمَّ علَّةٌ موجبةٌ لتكوين شيءٍ إلا عينُ وجود الذَّات، وقبول عين الممكن لظهورِ الوجود، والأزلُ لا يقبل السؤال عن العِلل، والسؤال عن ذلك لا يصدر إلا عن جاهلٍ بالله تعالى، فافهم ذاك، والله سبحانه يتولَّى هداك.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ﴾ أي: ضمَّ ﴿إِلَيْهِ أَخَاهُۖ﴾ بنيامين، قال المفسِّرون: إنَّهم لمَّا دخلوا عليه ـ عليه السلام ـ قالوا: أيُّها الملك هذا أخونا الذي أمرْتنا أنْ نأتيك به قد جئناك به. فقال لهم: أحسنتم وأصبتم وستجدون ذلك عندي. وبلَّغوه رسالةَ أبيهم، فإنه عليه السلام لمَّا ودَّعوه قال لهم: بلِّغوا ملكَ مصرَ سلامي، وقولوا له: إنَّ أبانا يصلِّي عليك ويدعو لك ويشكر صنيعكَ معنا.

---

(١) في الفتوحات: فإن الكلام فيما عُلم منه على ذلك.

(٢) في (م): مكوناتها، والمثبت من الأصل والفتوحات.

وقال أبو منصور المهراني[1]: إنَّه عليه السلام خاطبه بذلك في كتاب، فلمَّا قرأه يوسفُ عليه السلام بكى.

ثمَّ إنه أكرمهم وأنزلهم وأحسنَ نُزُلَهم، ثمَّ أضافهم وأجلس كلَّ اثنين منهم على مائدةٍ، فبقي بنيامين وحيداً، فبكى وقال: لو كان أخي يوسف حيّاً لأجلسني معه. فقال يوسف عليه السلام: بقي أخوكم وحدَه. فقالوا له: كان له أخٌ فهلك. قال: فأنا أُجلسه معي. فأخذه وأجلسه معه على مائدةٍ وجعل يؤاكله. فلما كان الليلُ أمرهم بمثل ذلك، وقال: ينام كلُّ اثنين منكم على فراش، فبقي بنيامين وحدَه، فقال: هذا ينام عندي على فراشي. فنام مع يوسف عليه السلام على فراشه، فجعل يوسفُ عليه السلام يضمُّه إليه ويشمُّ ريحه حتى أصبح، وسأله عن ولده، فقال: لي عشرةُ بنين اشتققتُ أسماءهم من اسم أخٍ لي هلك. فقال له: أتحبُّ أن أكون أخاك بدلَ أخيك الهالك؟ قال: مَن يجدُ أخاً مثلك أيُّها الملك؟ ولكن لم يلدْكَ يعقوبُ ولا راحيل. فبكى يوسفُ عليه السلام وقام إليه وعانقه وتعرَّف إليه.

عند ذلك ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ يوسف ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾ أي: فلا تحزن ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ بنا فيما مضى، فإنَّ الله تعالى قد أحسن إلينا وجمعنا على خير، ولا تُعْلِمْهم بما أَعْلَمتُك.

والقولُ بأنه عليه السلام تعرَّف إليه وأعْلَمه بأنَّه أخوه حقيقةً هو الظاهر، وروي عن ابن عبَّاس وابن إسحاق وغيرهما، إلا أنَّ ابن إسحاق قال: إنَّه عليه السلام قال له بعدَ أن تعرَّف إليه: لا تُبالِ بكلِّ ما تراه من المكروه في تحيُّلي في أخذك منهم. قال ابنُ عطية: وعلى هذا التأويل يحتملُ أن يشير بـ «ما كانوا يعملون» إلى ما يعمله فتيانُه عليه السلام من أمر السِّقاية ونحو ذلك[2]. وهو لَعمري ممَّا لا يكادُ يقول به مَن له أدنى معرفةٍ بأساليب الكلام.

---

(١) نصر بن بكر بن أحمد الواعظ، سمع من جدِّه أحمد بن الحسين بن مهران إمام القراء ومصنفهم في وقته، وروى عنه كتاب الغاية من تصنيفه، وسمع من أبي سعيد الرازي الصوفي وطبقته، توفي سنة (٤٤٧هـ). المنتخب من السياق من تاريخ نيسابور ص ٧٠٩. وقوله في المحرر الوجيز ٣/ ٢٦٢، والبحر ٥/ ٣٢٥.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٦٣، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٥/ ٣٢٨.

وقال وهب: إنَّما أَخبَر عليه السلام أنَّه قائمٌ مقامَ أخيه الذاهب في الودِّ ولم يكشف إليه الأمرَ.

ومعنى «لا تبتئس» إلخ: لا تحزن بما كنتَ تلقاه منهم من الحسد والأذى فقد أمِنْتَهم. وروي أنه قال ليوسف عليه السلام: أنا لا أفارقك. قال: قد علمتَ اغتمام والدي، فإذا حبستُك ازداد غمُّه، ولا سبيلَ إلى ذلك إلا أن أنسبك إلى ما لا يَجْمُلُ، قال: لا أبالي، فافعل ما بدا لك. قال: فإنِّي أدسُّ صاعي في رحلك، ثمَّ أنادي عليك بأنَّك سرقته ليتهيَّأ لي ردُّك بعد تسريحك معهم. قال: افعل.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ ووفَّى لهم الكيلَ وزاد كلًّا منهم ـ على ما روي ـ حملَ بعير ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾ هي إناءٌ يشرب به الملكُ، وبه كان يُكال الطعامُ للناس، وقيل: كانت تُسقى بها الدوابُّ ويُكال بها الحبوب.

وكانت من فضَّةٍ مرصَّعةٍ بالجواهر على ما روي عن عكرمةَ، أو بدون ذلك كما روي عن ابن عبَّاس والحسن. وعن ابن زيد أنَّها من ذهب. وقيل: من فضَّةٍ مموَّهة بالذهب. وقيل: كانت إناءً مستطيلةً تشبهُ المكوك الفارسيَّ الذي يلتقي طرفاه يستعمله الأعاجم، يُروى أنَّه كان للعباس مثلُه يَشْرَبُ به في الجاهلية.

ولعزَّة الطعام في تلك الأعوام قَصَر كيله على ذلك، والظاهر أنَّ الجاعل هو يوسفُ عليه السلام نفسُه، ويظهرُ من حيث كونُه ملكاً أنه عليه السلام لم يباشر الجعلَ بنفسه بل أمر أحداً فجعلها ﴿فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ بنيامين من حيثُ يشعر أو لا يشعر.

قرىء: «وجَعَل» بواو(١). وفي ذلك احتمالان:

الأول: أن تكون الواوُ زائدةً على مذهب الكوفيين، وما بعدها هو جوابُ «لمَّا».

والثاني: أن تكون عاطفةً على محذوفٍ وهو الجوابُ، أي: فلمَّا جهَّزهم أمهلهم حتى انطلقوا وجعل.

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٣٤، والبحر ٥/ ٣٢٩ عن ابن مسعود ﷺ.

﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ نادى مُسْمِعٌ كما في «مجمع البيان»[١]. وفي «الكشاف» وغيرِه: نادى منادٍ[٢].

وأُورد عليه أنَّ النحاة قالوا: لا يقال: قام قائمٌ؛ لأنه لا فائدةَ فيه. وأُجيب بأنَّهم أرادوا أنَّ ذلك المنادي من شأنِه الإعلامُ بما نادى به، بمعنى أنَّه موصوفٌ بصفةٍ مقدَّرةٍ تتمُّ بها الفائدةُ، أي: أَذَّن رجلٌ معيَّنٌ للأذان: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ۝٧٠﴾.

وقد يقال: قياسُ ما في النَّظم الجليل على المثال المذكور ليس في محلِّه، وكثيراً ما تتمُّ الفائدةُ بما ليس من أجزاء الجملة، ومنه قولُه ﷺ: «لا يزني الزاني وهو مؤمنٌ، ولا يشربُ الخمرَ وهو مؤمن»[٣].

والعير: الإبل التي عليها الأحمالُ، سمِّيت بذلك لأنَّها تَعِيرُ، أي: تذهب وتَجيء، وهو اسم جمع لذلك لا واحدَ له، والمراد هنا أصحابُ العير، كما في قوله ﷺ: «يا خيل الله اركبي»[٤] وذلك إمَّا من باب المجاز أو الإضمارِ، إلا أنَّه نظر إلى المعنى في الآية[٥]، ولم ينظر إليه في الحديث[٦].

وقيل: العير قافلةُ الحمير، ثمَّ توسِّع فيها حتى قيلت لكلِّ قافلةٍ[٧]، كأنَّها جمع عَيْر بفتح العين وسكون الياء: وهو الحمار، وأصلُها: عُيُر بضمِّ العين والياء، استُثقِلت الضمَّةُ على الياء فحُذفت، ثمَّ كُسرت العين لثِقَل الياء بعد الضمَّة، كما فُعل في بِيْضٍ جمع أَبْيَض، وغِيْدٍ جمع أَغْيَد. وحملُ العير هنا على قافلة الإبل هو المرويُّ عن الأكثرين، وعن مجاهد أنها كانت قافلةَ حمير.

---

(١) ١٣/ ٩٥.

(٢) الكشاف ٢/ ٣٣٤.

(٣) أخرجه أحمد (١٠٢١٦)، والبخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ٨/ ٣٦٣ عن سعيد بن جبير مرفوعاً، وأخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٣٦٦ من حديث علي ﷺ. وهو عند البيهقي في الدلائل ٤/ ١٨٧ من طريق ابن إسحاق، وفيه: ارْكَبُوا. بدل: ارْكَبِي. وقال في النهاية ٢/ ٩٤: هذا على حذف المضاف، أراد: يا فرسان خيل الله اركبي. وهذا من أحسن المجازات وألطفها.

(٥) في هامش الأصل و(م): فقيل: «إنكم لسارقون». اهـ منه.

(٦) في هامش الأصل و(م): فقيل: اركبي، دون: اركبوا.

(٧) في هامش الأصل و(م): وقيل: تُجوِّز بها لقافلة الحمير، فتأمل. اهـ منه.

والخطاب بـ «إنكم لسارقون» إن كان بأمرِ يوسفَ عليه السلام، فلعلَّه أُريد بالسرقة أَخْذُهم له من أبيه على وجه الخيانة كالسُّرَّاق، ودخولُ بنيامين فيه بطريق التغليب، أو أريد سرقةُ السقاية[1]، ولا يضرُّ لزومُ الكذب؛ لأنَّه إذا تضمَّن مصلحةً رخِّص فيه، وأمَّا كونُه برضا أخيه فلا يدفعُ ارتكاب الكذب وإنما يدفع تأذِّيَ الأخ منه. أو يكون المعنى على الاستفهام، أي: أئنكم لسارقون؟ ولا يخفى ما فيه من البُعد. وإلا فهو من قِبَل المؤذِّن بناءً على زعمه. قيل: والأول هو الأظهر الأوفق للسياق.

وفي «البحر»: الذي يظهر أنَّ هذا التحيُّل، ورميَ البُرآء بالسرقة، وإدخالَ الهمِّ على يعقوب عليه السلام، بوحيٍ من الله تعالى لِمَا علم سبحانه في ذلك من الصَّلاح ولِمَا أراد من محنتِهم بذلك، ويؤيِّده قولُه سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾[2].

وقرأ اليماني: «إنكم سارقون» بلا لام[3].

﴿قَالُوا۟﴾ أي: الإخوةُ ﴿وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم﴾ أي: على طالبي السِّقاية، المفهوم من الكلام، أو على المؤذِّن إن كان أُريد منه جمعٌ، كأنه عليه السلام جعلَ مؤذِّنين ينادون بذلك على ما في «البحر»[4].

والجملة في موضع الحال من ضمير «قالوا»، جيء بها للدلالة على انزعاجهم ممَّا سمعوه لمباينته لحالهم، أي: قالوا مُقْبِلينَ عليهم: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ أي: أيَّ شيءٍ تفقدون، أو: ما الذي تفقدونه؟

والفقدُ كما قال الراغبُ: عدمُ الشيء بعدَ وجوده، فهو أخصُّ من العدم؛ فإنه يقال له ولِمَا لم يوجد أصلاً[5]. وقيل: هو عدمُ الشيء، بأن يضلَّ عنك لا بفعلِك. وحاصلُ المعنى: ما ضاع منكم؟ وصيغةُ المستقبل لاستحضار الصورة.

(١) في هامش الأصل و(م): والكلام من قبيل: بنو فلان قتلوا فلاناً، فتدبر. اهـ منه.
(٢) البحر ٥/ ٣٢٩.
(٣) ذكرها أبو السعود في تفسيره ٤/ ٢٩٤.
(٤) ٥/ ٣٢٩.
(٥) مفردات الراغب (فقد).

وقرأ السُّلمي: «تُفْقِدون» بضمِّ التاء[١]، من أفقدتُه: إذا وجدتَه فقيداً، نحو أحمدتُه: إذا وجدتَه محموداً. وضعَّف أبو حاتم[٢] هذه القراءة، ووَجْهُها ما ذُكر.

وعلى القراءتين فالعدولُ عمَّا يقتضيه الظاهر من قولهم: ماذا سُرق منكم ـ على ما قيل ـ لبيانِ كمالِ نزاهتهم بإظهارِ أنَّه لم يُسرق منهم شيءٌ فضلاً عن أن يكونوا هم السارقين له، وإنَّما الممكن أن يضيع منهم شيء فيسألونهم: ماذا..؟

وفيه إرشادٌ لهم إلى مراعاة حُسن الأدب والاحترازِ عن المجازفة ونسبةِ البُرآء إلى ما لا خيرَ فيه، لاسيما بطريق التأكيد، فلذلك غيَّروا كلامهم حيث قالوا في جوابهم: ﴿قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ ولم يقولوا: سرقتموه، أو: سُرق.

وقيل: كان الظاهر أن يبادروا بالإنكار ونفيِ أن يكونوا سارقين، ولكنهم قالوا ذلك طلباً لإكمال الدعوى؛ إذ يجوز أن يكون فيها ما تبطلُ به فلا تحتاج إلى خصام، وعدلوا عن: ماذا سُرق منكم؟ إلى ما في النَّظم الجليل لِمَا ذكر آنفاً.

والصُّواع بوزن غُراب: المكيال، وهو السقاية، ولم يعبَّر بها مبالغةً في الإفهام والإفصاح؛ ولذا أعادوا[٣] الفعل. وصيغةُ المستقبل لِمَا تقدَّم أو للمشاكلة.

وقرأ الحسن وأبو حيوة وابنُ جبير فيما نقل ابن عطيَّة كما قرأ الجمهور إلا أنَّهم كسروا الصاد[٤].

وقرأ أبو هريرة ومجاهد: «صاعَ» بغيرِ واوٍ على وزن فَعَل، فالألف فيه بدلٌ من الواو المفتوحة. وقرأ أبو رجاء: «صَوْعَ» بوزن قوس. وقرأ عبد الله بن عون بن أَرْطَبَان: «صُوع» بضمِّ الصاد[٥]. وكلُّها لغات في الصاع، وهو مما يذكَّر ويؤنَّث،

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٤، والكشاف ٢/ ٣٣٤، والبحر ٥/ ٣٣٠.

(٢) كما في البحر ٥/ ٣٣٠.

(٣) في (م): أعاد.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٢٦٤، والبحر ٥/ ٣٣٠، وعنه نقل المصنِّف.

(٥) ذكر هذه القراءات ابن خالويه ص ٦٤، والمحتسب ١/ ٣٤٦، والبحر ٥/ ٣٣٠. وعبد الله بن عون هو أبو عون المزني مولاهم البصري الحافظ، كان يقال له سيد القراء في زمانه، وقال عنه ابن معين: هو في كلِّ شيء ثقة، توفي سنة (١٥٠هـ). السير ٦/ ٣٦٤.

وأبو عبيدة لم يَحفظ التأنيث(١).

وقرأ الحسن وابنُ جبير فيما نَقل عنهما صاحبُ «اللوامح»(٢): «صُواغ» بالغين المعجمة على وزن غراب أيضاً. وقرأ يحيى بن يعمر كذلك إلا أنَّه حذف الألفَ وسكَّن الواو. وقرأ زيد بن علي: «صَوْغ» على أنه مصدرٌ من صاغ يصوغ، أُريد به المفعول. وكذا يراد من «صُواغ» و«صُوغ» في القراءتين، أي: نفقدَ مصوغَ الملك(٣).

﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ﴾ أي: أتى به مطلقاً ولو من عند نفسه. وقيل: مَن دلَّ على سارقه وفَضَحه ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ أي: من الطعام جُعْلاً له، والحمل على ما في «مجمع البيان» بالكسر لِمَا انفصل، وبالفتح لما اتَّصل(٤)، وكأنَّه أشار إلى ما ذكره الراغبُ من أنَّ الحمل بالفتح يقال في الأثقال المحمولة في الباطن، كالولد في البطن، والماء في السَّحاب، والثمرةِ في الشجرة(٥).

﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾ أي: كفيلٌ أؤدِّيه إليه، وهو قولُ المؤذِّن، واستُدلَّ بذلك كما في «الهداية» وشروحِها(٦) على جواز تعليق الكفالة بالشُّروط؛ لأنَّ مُناديَه علَّق الالتزام بالكفالة بسبب وجوب المال وهو المجيءُ بصواع الملك، ونداؤه(٧) بأمرِ يوسف عليه السلام، وشَرْعُ مَنْ قبلنا شرعٌ لنا إذا مضى مِن غير إنكار.

وأُورد عليه أمران:

الأول: ما قاله بعضُ الشافعية من أنَّ هذه الآيةَ محمولةٌ على الجعالة لمن يأتي(٨) به، لا لبيان الكفالةِ، فهي كقول مَنْ أبق عبدُه: مَن جاء به فله عشرةُ

---

(١) ينظر مجاز القرآن ١/ ٣١٥.
(٢) كما في البحر ٥/ ٣٣٠، والكلام منه.
(٣) البحر ٥/ ٣٣٠، وذكر هذه القراءات أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٦٤.
(٤) مجمع البيان ١٣/ ٩٣.
(٥) مفردات الراغب (جمل).
(٦) ينظر فتح القدير لابن الهمام ٥/ ٣٩٧، والكلام من حاشية الشهاب ٥/ ١٩٥.
(٧) في الأصل و(م): ونداثه، والمثبت من حاشية الشهاب.
(٨) في الأصل: لما يؤتى، وفي (م): لما يأتي، والمثبت من حاشية الشهاب.

دراهم، وهو ليس بكفالة؛ لأنها إنَّما تكون إذا التَزَم عن غيرِه، وهنا قد التزم عن نفسه.

الثاني: أنَّ الآية متروكةُ الظاهر؛ لأنَّ فيها جهالةَ المكفول له، وهي تُبطل الكفالة.

وأجيب عن الأول: بأنَّ الزعم حقيقةٌ في الكفالة، والعملُ بها مهما أمكن واجبٌ، فكأنَّ معناه قولُ المنادي للغير: إنَّ الملك قال: لمن جاء به حملُ بعير وأنا به زعيم، فيكون ضامناً عن الملك لا عن نفسه، فتتحقَّق حقيقةُ الكفالة.

وعن الثاني: بأنَّ في الآية ذكرَ أمرين: الكفالة مع الجهالة[١] للمكفول له، وإضافتها إلى سبب الوجوب. وعدمُ جواز أحدهما بدليلٍ لا يستلزم عدمَ جواز الآخر.

وفي كتاب «الأحكام»[٢] أنه رُوي عن عطاء الخراساني: «زعيم» بمعنى كفيل، فظنَّ بعضُ الناس أنَّ ذلك كفالة إنسان[٣]، وليس كذلك؛ لأنَّ قائلَه جَعَل حملَ بعيرٍ أجرةً لمن جاء بالصَّاع، وأكَّده بقوله: «وأنا به زعيم» أي: ضامن، فألزم نفسَه ضمانَ الأجرة لردِّ الصَّاع، وهذا أصلٌ في جواز قول القائل: مَن حمل هذا المتاعَ لموضعِ كذا فله درهم، وأنَّه إجارةٌ جائزة وإنْ لم يشارِط رجلاً بعينه، وكذا قال محمدُ بن الحسن في «السير الكبير».

ولعل حملَ البعير كان قَدْراً معلوماً، فلا يقال: إنَّ الإجارة لا تصحُّ إلا بأجرٍ معلوم، كذا ذكره بعضُ المحقِّقين[٤].

وقال الإمام[٥]: إنَّ الآيَةَ تدلُّ على أنَّ الكفالةَ كانت صحيحةً في شرعهم، وقد

---

(١) في الأصل و(م): الحمالة، والمثبت من حاشية الشهاب، ومثله في فتح القدير لابن الهمام ٥/ ٣٩٧.

(٢) هو أحكام القرآن للجصاص ٣/ ١٧٥، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ١٩٥.

(٣) في الأحكام: عن إنسان.

(٤) هو الشهاب في الحاشية ٥/ ١٩٥.

(٥) هو الرازي في تفسيره ١٨/ ١٨٠.

حكم بها رسولُ الله ﷺ في قوله: «الزعيمُ غارمٌ»(١) وليست كفالةً بشيءٍ مجهول؛ لأنَّ حملَ بعير من الطعام كان معلوماً عندهم، فصحَّت الكفالةُ به، إلا أنَّ هذه كفالةُ مالٍ لردِّ السرقة، وهي كفالةٌ لِمَا لم يَجبْ؛ لأنَّه لا يحلُّ للسارق أن يأخذ شيئاً على ردِّ السرقة. ولعلَّ مثل هذه الكفالة كانت تصحُّ عندهم.

وتعقِّب بأنَّه لا دليل على أنَّ الرادَّ هو مَن عُلم أنه الذي سَرق، ليُحتاج إلى التزامِ القول بصحَّة ذلك في دينهم، وتمامُ البحث في محلِّه.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ﴾ أكثر النحويين على أنَّ التاءَ بدلٌ من الواو، كما أُبدلت في «تراث» و«توراة» عند البصريين. وقيل: هي بدلٌ من الباء. وقال السُّهيلي: إنها أصل برأسها.

وقال الزجَّاج(٢): إنَّها لا يقسَمُ بها إلا في «الله» خاصة. وتعقِّب بالمنع؛ لدخولها على الربِّ مطلقاً أو مضافاً للكعبة، وعلى الرحمن(٣)، وقالوا: تَحَيَاتِكَ أيضاً.

وأيًّا ما كان ففي القسم بها معنى التعجُّب؛ كأنَّهم تعجَّبوا من رَمْيهم بما ذُكر مع ما شاهدوه من حالهم، فقد روي أنهم كانوا يعكمون أفواهَ إبلهم(٤) لئلا تنالَ من زروع الناس وطعامِهم شيئاً، واشتهر أمرهم في مصر بالعفَّة والصَّلاح والمثابرة على فنونِ الطاعات، ولذا قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم﴾ علماً جازماً مطابقاً للواقع ﴿مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لنسرقَ، فإن السرقة من أعظم أنواع الإفساد، أو: لنفسد فيها أيَّ إفسادٍ كان فضلاً عمَّا نسبتمونا إليه من السرقة.

ونفي المجيء للإفساد وإن لم يكن مستلزماً لِمَا هو مقتضَى المقام من نفي الإفساد مطلقاً، لكنَّهم جعلوا المجيء الذي يترتب عليه ذلك ولو بطريقِ الاتِّفاق

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٢٩٤)، وأبو داود (٣٥٦٥)، والترمذي (٢١٢٠) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ١٢٠.

(٣) في هامش (م): قيل: على ضعف. اهـ منه.

(٤) أي: يشدُّونها بالعِكَم، وهو الحبل الذي يُعكَم به. وجاء في حاشية (م): وليتهم قد كانوا عكموا فم ذئبهم عن أكل يوسف عليه السلام. اهـ منه.

مجيئاً لغرضِ الإفساد مفعولاً لأجله ادِّعاءً، إظهاراً لكمال قُبحه عندهم، وتربيةً لاستحالةِ صدوره عنهم، فكأنهم قالوا: إنْ صدر عنَّا إفسادٌ كان مجيئُنا لذلك، مريدين به تقبيحَ حاله وإظهارَ كمال نزاهتهم عنه. كذا قيل[١].

وقيل: إنَّهم أرادوا نفيَ لازم المجيء للإفساد في الجملة وهو تصوُّر الإفساد مبالغةً في نزاهتهم عن ذلك، فكأنهم قالوا: ما مرَّ لنا الإفساد ببالٍ ولا تعلَّق بخيالٍ فضلاً عن وقوعه منَّا، ولا يخفى بُعدُه.

﴿وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ أي: ما كنَّا نوصَفُ بالسرقة قطّ، والظاهر دخولُ هذا في حيِّز العلم كالأول، ووجهُه أنَّ العلم بأحوالهم الشاهدة يستلزم العلمَ بأحوالهم الغائبة[٢].

والحلف في الحقيقة على الأمرين اللذين في حيِّز العلم، لا على علم المخاطبين بذلك، إلَّا أنهم ذكروه للاستشهاد وتأكيدِ الكلام، ولذا أجرت العربُ العلم مجرى القسم كما في قوله:

ولقد علمتُ لَتأتِينَ منيَّتي ... إنَّ المنايا لا تَطيشُ سهامُها[٣]

وفي ذلك من إلزام الحجَّة عليهم وتحقيقِ أمر التعجُّب المفهوم من تاء القَسم من كلامهم ما[٤] فيه.

وذكر بعضُهم أنه يجوز أن يكون «ما جئنا» إلخ متعلَّق العلم، وأن يكون جوابَ القسم، أو جوابَ العلم لتضمُّنه معناه، وهو لا يأبى ما تقدَّم.

﴿قَالُوا۟﴾ أي: أصحابُ يوسف عليه السلام: ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ أي: الصواع،

---

(١) هو قول أبي السعود في تفسيره ٤/ ٢٩٥.

(٢) في (م): أن العلم بأحوالهم المشاهدة يستلزم العلم بأحوالهم الفائتة، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ٢٩٥، والكلام منه.

(٣) نسبه سيبويه في الكتاب ٣/ ١١٠ للبيد، والذي في معلقته إنما هو عجزه، وصدره: صادَفْن منها غِرَّةً فأصَبْنها، كما في شرح ديوان لبيد ص ٣٠٨، وشرح القصائد لابن النحاس ١/ ٣٩٩، وللتبريزي ص ١٧٩. وينظر: الخزانة ٩/ ١٦١.

(٤) في (م): كما، وهو تصحيف.

والكلام على حذف مضاف، أي: ما جزاء سرقته، وقيل: الضميرُ للسَّرق[1] أو للسارق، والجزاءُ يضاف إلى الجناية حقيقةً وإلى صاحبها مجازاً، وقد يقال بحذف المضاف، فافهم.

والمراد: فما جزاءُ ذلك عندكم وفي شريعتكم ﴿إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾﴾ أي: في ادِّعاء البَراءة كما هو الظاهر، وفي التعبير بـ «إنْ» مراعاةٌ لجانبهم.

﴿قَالُوا۟﴾ أي: الإخـوة: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ﴾ أي: أَخْـذُ مَـن وُجـد الـصُّـواع ﴿فِى رَحْلِهِۦ﴾ واسترقاقُه، وقدِّر المضاف لأنَّ المصدر لا يكون خبراً عن الذَّات، ولأنَّ نفس ذاتِ مَن وُجد في رحله ليستْ جزاءً في الحقيقة.

واختاروا عنوانَ الوجدان في الرَّحل دون السرقة مع أنَّه المراد ـ لأنَّ كونَ الأخذ والاسترقاق سنَّةً عندهم ومن شريعة أبيهم عليه السلام إنَّما هو بالنِّسبة إلى السارق دون مَن وُجِد عندَه مالُ غيره كيفما كان ـ إشارةً إلى كمال نزاهتهم، حتَّى كأنَّ أنفسَهم لا تطاوعهم وألسنتُهم لا تساعدهم على التلفُّظ به مثبتاً لأحدهم بأيِّ وجهٍ كان، وكأنَّهم تأكيداً لتلك الإشارة عدلوا عن: مَن وُجد عندَه، إلى: «مَن وُجد في رحله».

﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ أي: فأَخْذُه جزاؤه، وهو تقديرٌ للحكم السابق بإعادته، كما في قولك: حقُّ الضيف أن يُكرَم، فهو حقُّه. وليس مجرَّدَ تأكيد، فالغرض من الأول إفادةُ الحكم، ومن الثاني إفادةُ حقِّيَّته والاحتفاظ بشأنه، كأنه قيل: فهذا ما تلخَّص وتحقَّق للناظر في المسألة لا مريةَ فيه.

قيل: وذكر الفاء في ذلك لتفرُّعه على ما قبله ادِّعاء، وإلَّا فكان الظاهرُ تركَها لمكان التأكيد، ومنه يُعلم أنَّ الجملةَ المؤكِّدة قد تُعطف لنكتةٍ وإن لم يذكره أهل المعاني.

وجوِّز كونُ «مَن» موصولةً مبتدأً، وهذه الجملة خبرُه، والفاء لتضمُّن المبتدأ معنى الشرط، وجملةُ المبتدأ وخبرِه خبرُ «جزاؤه». وأن تكون «مَن» شرطيةً مبتدأً، و«وُجد في رَحْلِه» فعل الشرط، وجزاؤُه «فهو جزاؤه» والفاء رابطة، والشرطُ وجزاؤه خبرٌ أيضاً كما في احتمال الموصولة.

---

(١) في (م): لسرق.

واعتُرض على ذلك بأنَّه يلزم خلوُّ الجملة الواقعة خبراً للمبتدأ عن عائد إليه؛ لأنَّ الضمير المذكور لـ «مَن» لا له.

وأُجيب بأنَّه جَعل الاسمَ الظاهر وهو الجزاء الثاني قائماً مقام الضمير، والربطُ كما يكون بالضمير يكونُ بالظاهر، والأصلُ: جزاؤه مَن وُجد في رحله فهو هو، أي: فهو الجزاء، وفي العدول ما عُلم من التقرير السابق وإزالة اللَّبس والتفخيم، لاسيما في مثل هذا الموضع فهو كاللازم.

وقد صرَّح الزجَّاج بأنَّ الإظهار هنا أحسنُ من الإضمار، وعلَّله ببعضِ ما ذكر، وأنشد:

لا أرى الموتَ يسبقُ الموتَ شيءٌ نغَّصَ الموتُ ذا الغنى والفقيرا[(١)]

وبذلك يندفع ما في «البحر» اعتراضاً على هذا الجعل من أنَّ وضع الظاهر موضعَ الضمير للربط إنَّما يَفْصُحُ إذا كان المقامُ مقامَ تعظيم كما قال سيبويه، فلا ينبغي حملُ النظم الجليل على ذلك[(٢)].

وأن يكون «جزاؤه» خبر مبتدأ محذوف، تقديرُه: المسؤول عنه جزاؤه، فهو حكايةُ قولِ السائل، ويكون «مَن وُجد» إلخ بياناً وشروعاً في الفتوى، وهذا على ما قيل كما يقول مَن يُسْتفتَى في جزاء صيدِ المُحْرِم: جزاءُ صيدِ المحرم، ثم يقول: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ [المائدة: ٩٥][(٣)] فإنَّ قول المفتي: جزاء صيد الحرم، بتقديرِ: ما استفتيتَ فيه أو سألتَ عنه ذلك، وما بعده بيانٌ للحكم وشرحٌ للجواب، وليس التقدير: ما أذكره جزاء صيد الحرم؛ لأنَّ مقام الجواب والسؤال نابٍ عنه. نعم إذا ابتدأ العالِمُ بإلقاءِ مسألةٍ فهنالك يناسب هذا التقدير.

وتعقب ذلك أبو حيَّان بأنَّه ليس في الإخبار عن المسؤول عنه بذلك كثيرُ فائدة؛ إذ قد عُلم أنَّ المسؤول عنه ذلك من قولهم: (فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥ)، وكذا يقال في المثال[(٤)].

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٢١-١٢٢، والبيت سلف صدره ٢/ ٣٣٦.
(٢) البحر ٥/ ٣٣١بنحوه، وكلام سيبويه في الكتاب ١/ ٦٢.
(٣) ذكر هذا القول الزمخشري في الكشاف ٢/ ٣٣٤-٣٣٥.
(٤) البحر ٥/ ٣٣١.

وأُجيب بأنَّه يمكن أن يقال: إنَّ فائدة ذلك إعلامُ المفتي المستفتيَ أنَّه قد أحاط خُبراً بسؤاله؛ ليأخذَ فتواه بالقبول، ولا يتوقَّفَ في ذلك لظنِّ الغفلة فيها عن تحقيق المسؤول، وهي فائدة جليلة.

وزعم بعضُهم أنَّ الجملة من الخبر والمبتدأ المحذوف على معنى الاستفهام الإنكاريِّ، كأنَّ المسؤول ينكر أن يكونَ المسؤول عنه ذلك لظهورِ جوابه، ثمَّ يعود فيجيبُ، وهو كما ترى.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الجزاء الأَوْفَى ﴿نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٥﴾ بالسرقة، والظاهر أن هذا من تتمَّة كلام الإخوة، فهو تأكيدٌ للحكم المذكور غِبَّ تأكيد، وبيانٌ لقبح السرقة، وقد فعلوا ذلك ثقةً بكمال براءتهم عنها، وهم عمَّا فُعل بهم غافلون.

وقيل: هو من كلام أصحاب يوسفَ عليه السلام. وقيل: كلامُه نفسه، أي: مثلَ الجزاء الذي ذكرتُموه نجزي السارقين.

﴿فَبَدَأَ﴾ قيل: المؤذِّن، ورُجِّح بقُرْبِ سَبْقِ ذِكْرِه. وقيل: يوسفُ عليه السلام؛ فقد روي أنَّ إخوتَه لـمَّا قالوا ما قالوا، قال لهم أصحابُه: لابدَّ من تفتيش رحالكم، فردُّوهم بعد أن ساروا منزلاً ـ أو بعد أن خرجوا من العمارة ـ إليه عليه السلام، فبدأ ﴿بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾ أي: بتفتيش أوعية الإخوة العشرة، ورُجِّح ذلك بمقاولة يوسف عليه السلام، فإنَّها تقتضي ظاهراً وقوعَ ما ذكر بعد ردِّهم إليه. ولا يخفَى أنَّ الظاهر أنَّ إسناد التفتيش إليه عليه السلام مجازيٌّ، والمفتِّشُ حقيقةً أصحابُه بأَمْرِه بذلك.

﴿قَبْلَ﴾ تفتيش ﴿وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ بنيامين لنفي التُّهمة؛ رُوي أنَّه لـمَّا بلغت النَّوبة إلى وعائه، قال: ما أظنُّ هذا أخذ شيئاً. فقالوا: والله لا نتركه حتى تنظرَ في رحله فإنَّه أطيبُ لنفسك وأنفسنا. ففعل.

﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا﴾ أي: السقايةَ أو الصُّواعَ؛ لأنَّه كما علمتَ ممَّا يؤنَّث ويذكَّر عند الحفَّاظ. وقيل: الضميرُ للسرقة المفهومة من الكلام، أي: ثمَّ استخرج السرقة.

﴿مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ لم يقل: منه، على رَجْع الضمير إلى الوعاء، أو: من وعائه، على رَجْعِه إلى أخيه؛ قصداً إلى زيادة كشفٍ وبيان.

والوعاء: الظرفُ الذي يُحفظ فيه الشيء، وكأنَّ المراد به هنا ما يشمل الرَّحل وغيرَه؛ لأنه الأنسبُ بمقام التفتيش، ولذا لم يعبّر بالرحال على ما قيل، وعليه يكون عليه السلام قد فتَّش كلَّ ما يمكن أن يُحفظ الصواعُ فيه ممَّا كان معهم من رحلٍ وغيره.

وقولهم: مقابلةُ الجمع بالجمع تقتضي انقسامَ الآحاد على الآحاد ـ كما قال المدقِّق أبو القاسم السمرقنديُّ ـ لا يقتضي أنْ يلزم في كلِّ مقابلةٍ مقارنةُ الواحد للواحد؛ لأنَّ انقسام الآحاد على الآحاد كما يجوز أن يكونَ على السَّواء، كما في: ركب القومُ دوابَّهم. يجوز أن يكون على التفاوُتِ، كما في: باع القومُ دوابَّهم، فإنه يُفهم منه[1] أنَّ كلًّا منهم باع ما له من دابة، وقد مرَّ التنبيه على هذا فيما سبق، وحينئذٍ يحتمل أن يرادَ من وعاء أخيه الواحدُ والمتعدِّد.

وقرأ الحسن: «وُعاء» بضمِّ الواو، وجاء كذلك عن نافع. وقرأ ابنُ جبير: «إعاء» بإبدال الواو المكسورة همزةً[2]، كما قالوا في وشاح: إشاح. وفي وسادة: إسادة. وقلبُ الواو المكسورة في أوَّل الكلمة همزةً مطَّردٌ في لغة هذيل.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الكيد العجيب، وهو إرشادُ الإخوة إلى الإفتاء المذكور بإجرائه على ألسنتهم، وحَمْلِهم عليه بواسطة المستفتين من حيثُ لم يحتسبوا ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي: صنعنا ودبَّرنا لأجلِ تحصيل غرضه من المقدِّمات التي رتَّبها من دسِّ السقاية وما يتلوه، فالكيدُ مجازٌ لغويٌّ في ذلك، وإلا فحقيقتُه ـ وهي أنْ تُوهِمَ غيرَك خلافَ ما تُخفيه وتريده على ما قالوا ـ محالٌ عليه تعالى. وقيل: إنَّ ذلك محمولٌ على التمثيل.

وقيل: إنَّ في الكيد إسنادين: بالفحوى إلى يوسف عليه السلام، وبالتَّصريح إليه سبحانه، والأولُ حقيقيٌّ والثاني مجازيٌّ، والمعنى: فعلنا كيدَ يوسف. وليس بذاك.

وفي «درر» المرتضى أنَّ «كِدْنا» بمعنى أَرَدْنا، وأنشد:

---

(١) في (م): عنه.

(٢) القراءتان في القراءات الشاذة ص ٦٥، والمحتسب ١/ ٣٤٨، والبحر ٥/ ٣٣٢.

كـادتْ وكِـدْتُ وتـلـك خـيـرُ إرادةٍ لو عاد من لـهو الصَّبابة ما مضى[(١)]

واللام للنفع، لا كاللام في قوله تعالى: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥] فإنها للضَّرر على ما هو الاستعمال الشائع.

﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ أي: في سلطانه على ما روي عن ابن عباس، أو: في حكمه وقضائه كما روي عن قتادة. والكلامُ استئنافٌ وتعليلٌ لذلك الكيد، كأنه قيل: لماذا فعل ذلك؟ فقيل: لأنه لم يكن ليأخذَ أخاه جزاءَ وجودِ الصُّواع عندَه في دين الملك في أمر السارق إلَّا بذلك الكيد؛ لأنَّ جزاء السارق في دينه على ما روي عن الكلبي وغيره أنْ يضاعفَ عليه الغُرم ـ وفي رواية: ويضربَ ـ دونَ أن يؤخذَ ويسترقَّ كما هو شريعةُ يعقوب عليه السلام. فلم يكن يتمكَّن بما صنعه من أخذ أخيه بما نُسب إليه من السرقة بحالٍ من الأحوال ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: إلا حالَ مشيئتِه تعالى التي هي عبارةٌ عن ذلك الكيد، أو: إلا حال مشيئتِه تعالى للأخذ بذلك الوجه.

وجوِّز أن يكون المرادُ من ذلك الكيد الإرشادَ المذكورَ ومبَاديَه المؤدِّيَةَ إليه جميعاً؛ من إرشاد يوسفَ عليه السلام وقومِه إلى ما صدر عنهم من الأفعال والأقوال حسبما شُرح مرتَّباً، وأمرُ التعليل كما هو، بَيْد أنَّ المعنى على هذا الاحتمال: مثلَ ذلك الكيد البالغ إلى هذا الحدِّ كدنا ليوسف عليه السلام، ولم نكتفِ ببعضٍ من ذلك؛ لأنَّه لم يكن يأخذُ أخاه في دين الملك به إلا حالَ مشيئتنا له بإيجاد ما يجري مجرى الجزاء الصُّوريِّ من العِلَّة التامة، وهو إرشادُ إخوته إلى الإفتاء المذكور، فالقصرُ المستفاد من تقديم المجرور مأخوذٌ بالنسبة إلى البعض.

وكذا يقال في تفسير مَن فسَّر «كدنا ليوسف» بقوله: علَّمناه إياه وأوحينا به إليه، أي: مثلَ ذلك التعليم المستتبعِ لِمَا شُرح علَّمناه دونَ بعضٍ من ذلك فقط. .إلخ.

والاستثناء على كلِّ حالٍ من أعمِّ الأحوال، وجوِّز أن يكون من أعمِّ العِلَل والأسباب، أي: لم يكن ليأخذَ أخاه في دين الملك لعِلَّةٍ من العِلَل وسببٍ من الأسباب، إلَّا لعلَّةِ مشيئته تعالى. وأيّاً ما كان فهو متَّصل؛ لأن أخْذَ السارق إذا

---

(١) أمالي المرتضى ١/ ٣٣١، والبيت ذكره أيضاً الجوهري في الصحاح (كيد).

كان ممَّن يرى ذلك ويعتقدُه ديناً لاسيما عند رضاه وإفتائه به ليس مخالفاً لدين الملك، فلذلك لم ينازعه الملكُ وأصحابُه في مخالفة دينهم، بل لم يَعُدُّوه مخالفةً.

وقيل: إنَّ جملة «ما كان» إلخ في موضع البيان والتفسير للكيد، وإنَّ معنى الاستثناء: إلَّا أن يشاء الله تعالى أن يجعلَ ذلك الحكمَ حُكمَ الملك، وفيه بحث.

وجوِّزَ أن يكون الاستثناء منقطعاً، أي: لكن أخذه بمشيئة الله سبحانه وإذنِه في دينٍ غيرِ دين الملك.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ﴾ أي: رُتباً كثيرةً عاليةً من العلم، وانتصابُها على ما نُقل عن أبي البقاء على الظرفية، أو على نزعِ الخافض، أي: إلى درجات[1]. وجوَّز غيرُ واحد النصبَ على المصدريَّة[2]. وأيّاً ما كان فالمفعولُ به قولُه تعالى: ﴿مَّن نَّشَآءُ﴾ أي: نشاء رفْعَه حسبما تقتضيه الحكمةُ وتستدعيه المصلحة كما رفعنا يوسفَ عليه السلام، وإيثارُ صيغة الاستقبال للإشعار بأنَّ ذلك سنَّةٌ مستمرَّةٌ غيرُ مختصَّةٍ بهذه المادة. والجملةُ مستأنفةٌ لا محلَّ لها من الإعراب.

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ﴾ من أولئك المرفوعين ﴿عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ لا ينالون شأوَه.

قال المولى المحقِّق شيخُ الإسلام قدِّس سرُّه[3] في بيان ربطِ الآية بما قبلُ: إنَّه إنْ جُعِلَ الكيدُ عبارةً عن إرشاد الإخوة إلى الإفتاء وحَمْلِهم عليه، أو عبارةً عن ذلك مع مباديه المؤدِّية إليه، فالمرادُ برفع يوسفَ عليه السلام ما اعتُبر فيه بالشرطيَّة أو الشطريَّة من إرشادِه عليه السلام إلى ما يتمُّ من قبله من المبادي المفضيةِ إلى استقباء أخيه، والمعنى: أرْشَدْنا إخوتَه إلى الإفتاء لأنَّه لم يكن

---

(١) الإملاء ٢/ ٥٨٤، عند تفسير قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الآية: ٨٣].

(٢) ذكر ذلك أبو البقاء أيضاً في الإملاء ١/ ٤٩٧، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] حيث قال: وقيل: انتصابه على المصدر لأن الدرجة بمعنى الرفعة، فكأنه قال: ورفعنا بعضهم رفعات. وأشار عند الآية نفسها أيضاً إلى النصب بنزع الخافض بقوله: وقيل: التقدير: على درجات، أو: في درجات، أو: إلى درجات، فلما حذف حرف الجر وصل الفعل بنفسه.

(٣) هو أبو السعود في تفسيره ٤/ ٢٩٧-٢٩٨.

متمكِّناً من غرضه بدونه، أو: أرشدنا كلًّا منهم ومن يوسفَ وأصحابِه إلى ما صدر عنهم، ولم نكتفِ بما تمَّ من قِبَلِ يوسفَ لأنَّه لم يكن متمكِّناً من غرضِه بمجرَّد ذلك. وحينئذٍ يكون قولُه تعالى: «نرفع» إلى «عليم» توضيحاً لذلك، على معنى أنَّ الرفعَ المذكور لا يوجبُ تمامَ مرامِه؛ إذ ليس ذلك بحيث لا يغيبُ[1] عن عِلمه شيء، بل إنما نرفعُ كلَّ مَن نرفعُ حسب استعداده، وفوقَ كلِّ واحد منهم عليمٌ لا يقادَر قدرُه، يرفعُ كلًّا منهم إلى ما يليق به من معارج العِلْم، وقد رَفَعَ يوسفَ إلى ذلك وعَلِمَ أن ما حواه دائرةُ عِلْمِه لا يفي بمرامه، فأرشد إخوتَه إلى الإفتاء المذكور، فكان ما كان، وكأنَّه عليه السلام لم يكن على يقينٍ من صدور ذلك منهم وإن كان على طمعٍ منه، فإنَّ ذلك إلى الله تعالى شأنُه وجوداً وعدماً، والتعرُّض لوصف العلم لتعيين جهةِ الفوقيَّة. وفي صيغة المبالغة مع التنكيرِ والالتفاتِ إلى الغَيبةِ من الدّلالة على فخامة شأنه عزَّ شأنُه وجلالةِ مقدار علمه المحيطِ جلَّ جلالُه ما لا يخفى.

وإن جُعِلَ عبارةً عن التعليم المستتبِعِ للإفتاء، فالرفعُ عبارةٌ عن ذلك التعليم، والإفتاءُ وإن كان لم يكن داخلاً تحت قدرتِه عليه السلام لكنَّه كان داخلاً تحت عِلْمه بواسطة الوحي والتعليم، والمعنى: مثلَ ذلك التعليم البالغ إلى هذا الحدِّ علَّمناه ولم نقتصرْ على تعليمِ ماعدا الإفتاء الذي سيصدرُ عن إخوته إذ لم يكن متمكِّناً من غرضِه في أخيه إلا بذلك، وحينئذٍ يكون قوله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ توضيحاً لقوله سبحانه: ﴿كِدْنَا﴾ وبياناً؛ لأنَّ ذلك من باب الرفع إلى الدَّرجات العالية من العلم، ومدحاً ليوسف عليه السلام برفعه إليها، و«فوق» إلخ تذييلاً له، أي: نرفع درجاتٍ عاليةً مَنْ نشاء رفْعَه، وفوق كلِّ منهم عليمٌ هو أعلى درجة. قال ابن عباس ﷺ: فوق كلِّ عالم عالمٌ إلى أن ينتهي العِلْم إلى الله تعالى، والمعنى أنَّ إخوةَ يوسف كانوا علماءَ، إلا أنَّ يوسف أفضلُ منهم. اهـ.

والذي اختاره الزمخشريُّ ـ على ما قيل ـ حديثُ التذييل، إلا أنَّه أوجز في كلامه حتى خفي مغزاه، وعدَّ ذلك من المداحض حيث قال: «وفوقَ كلِّ ذي علم

---

(١) في تفسير أبي السعود: يعزب.

عليمٌ» فوقه أرفعُ درجةً منه في علمه، أو فوقَ العلماء كلِّهم عليمٌ هم دونَه في العلم وهو الله عزَّ وعلا[١].

وبيانُ ذلك على ما في «الكشف»: أنَّ غرضَه أنْ يبيِّن وجهَ التذييل بهذه الجملة، فأفاد أنَّه إمَّا على وجهِ التأكيد لرفع درجةِ يوسفَ عليه السلام على إخوته في العلم، أي: فَاقَهُم علماً؛ لأنَّ «فوقَ كلِّ ذي علم عليم» أرفع درجةً منه، وفيه مدحٌ له بأنَّ الذين فَاقَهُم علماءُ أيضاً.

وإمَّا على تحقيقِ أنَّ الله تعالى رفعه درجاتٍ، وهو[٢] إليه لا منازِعَ له فيه، فقال: وفوق العلماء كلِّهم عليمٌ هم دونَه يرفع مَن يشاء ويقرِّبه إليه بالعلم كما رفع يوسفَ عليه السلام.

وذكر أنَّ ما يقال من أنَّ الكلَّ على الثاني مجموعيٌّ؛ وعلى الأوَّل بمعنى: كلّ واحدٍ، كلامٌ غيرُ محصّل؛ لأنَّ الداخل على النَّكرة لا يكون مجموعيًّا.

وأصلُ النُّكتة في الترديد أنَّه لو نظر إلى العلم ولا تَنَاهيهِ كان الأوَّل، فيرتقي إلى ما لا نهايةَ لعلمه، بلْ جلَّ عن النهاية من كلِّ الوجوه، ولابدَّ من تخصيصٍ في لفظ «كلّ»، والمعنى: وفوقَ كلِّ واحدٍ من العلماء عالمٌ، وهكذا إلى أنْ ينتهي. ولو نظر إلى العالِم وإفادتِه إيَّاه كان الثاني، والمعنى: وفوقَ كلِّ واحدٍ واحدٍ عالمٌ واحدٌ، فأولى أن يكون فوقَ كلِّهم؛ لأنَّ الثاني معلولُ الأوَّل، ولظهور المعنى عليه قدِّر: وفوقَ العلماء كلِّهم. وكلَا الوجهين يناسب المقام. اهـ.

ولعلَّ اعتبارَ كونِ الجملة الأولى مدحاً ليوسف عليه السلام وتعظيماً لشأن الكيد، وكونِ الثانية تذييلاً، هو الأظهر، فتأمل.

وقد استدلَّ بالآية مَن ذهب إلى أنه تعالى شأنُه عالمٌ بذاته لا بصفةِ علمٍ زائدةٍ على ذلك، وحاصلُ استدلالهم: أنَّه لو كان له سبحانه صفةُ علمٍ زائدةٌ على ذاته كان ذا علمٍ لاتِّصافه به، وكلُّ ذي علم فوقَه عليمٌ؛ للآية، فيلزم أن يكون فوقَه وأعلمَ منه جلَّ وعلا عليمٌ آخرُ، وهو من البطلان بمكان.

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٣٥.

(٢) أي: العلم.

وأجيب: بأنَّ المراد بكلِّ ذي علمٍ المخلوقاتُ ذوو العِلم؛ لأنَّ الكلام في الخلق، ولأنَّ العليم صيغةُ مبالغةٍ، معناه: أعلمُ من كلِّ ذي علمٍ، فيتعيَّن أن يكون المراد به الله تعالى، فما يقابله يلزمُ كونه من الخلائق لئلَّا يدخلَ فيما يقابله.

وكونُ المرادِ من العليم ذلك هو إحدى روايتين عن الحبر، فقد أخرج عبدُ الرزاق وجماعةٌ عن سعيد بن جبير قال: كنَّا عند ابن عباس ﵄ فحدَّث بحديثٍ، فقال رجل عنده: «وفوق كلِّ ذي علمٍ عليم»، فقال ابن عباس: بئسما قلتَ، الله العليم، وهو فوقَ كلِّ عالم[(١)].

وإلى ذلك ذهب الضحَّاك؛ فقد أخرج أبو الشيخ عنه أنَّه قال بعد أن تلا الآية: يعني اللهُ تعالى بذلك نفسَه[(٢)].

على أنَّه لو صحَّ ما ذكره المستدلُّ لم يكن الله تعالى عالماً بناءً على أنَّ الظاهر اتِّفاقه معنا في صحَّة قولنا: فوقَ كلِّ العلماء عليمٌ، وذلك أنَّه يلزم على تسليم دليله إذا كان الله تعالى عالماً أن يكون فوقَه مَن هو أعلمُ منه، فإن أجابَ بالتخصيص في المثال فالآيةُ مثله.

وقرأ غيرُ واحد من السبعة: «درجاتِ مَن نشاء» بالإضافة[(٣)]. قيل: والقراءة الأُولى أنسبُ بالتذييل، حيث نُسب فيها الرفع إلى مَن نُسب إليه الفوقية لا إلى درجتِه، والأمرُ في ذلك هيِّن.

وقرأ يعقوب بالياء في «يرفع» و«يشاء»[(٤)].

وقرأ عيسى البصرة: «نرفع» بالنون، و«درجاتٍ» منوَّناً، و«مَن يشاء» بالياء[(٥)]؛ قال صاحب «اللوامح»: وهذه قراءةٌ مرغوبٌ عنها، ولا يمكن إنكارها.

---

(١) تفسير عبد الرزاق ١/ ٣٢٦-٣٢٧، وتفسير الطبري ١٣/ ٢٦٨.
(٢) لم نقف عليه.
(٣) التيسير ص ١٠٤، والنشر ٢/ ٢٦٠. وقرأ بها من السبعة: ابن عامر وابن كثير وأبو عمرو ونافع.
(٤) النشر ٢/ ٢٩٦.
(٥) البحر ٥/ ٣٣٢، وعنه نقل المصنف ما سيأتي من كلام صاحب اللوامح.

وقرأ عبد الله[1]: «وفوق كلِّ ذي عالم عليم» فخرِّجت كما في «البحر» على زيادةِ «ذي»، أو على أنَّ «عالم» مصدرٌ بمعنى عِلْم كالباطل، أو على أنَّ التقدير: كلّ ذي شخصٍ عالم[2]. والذي في «الدر المنثور» أنه ﷺ قرأ: «وفوق كلِّ عالم عليم»[3] بدون «ذي»، ولعلَّه الأثبت، والله تعالى العليم.

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: الإخوةُ ﴿إِن يَسۡرِقۡ﴾ يعنُون بنيامين ﴿فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ يريدون به يوسفَ عليه السلام وما جرى عليه من جهة عمَّته، فقد أخرج ابنُ إسحاق وابنُ جرير وابنُ أبي حاتم عن مجاهد قال: كان أوَّل ما دخل على يوسف عليه السلام من البلاء فيما بلغني أنَّ عمَّته كانت تحضنُه، وكانت أكبرَ ولدِ إسحاق عليه السلام، وكانت إليها مِنْطَقةُ[4] أبيها، وكانوا يتوارثونها بالكبر، فكانت لا تحبُّ أحداً كحبِّها إيَّاه، حتى إذا ترعرع وقعتْ نفسُ يعقوب إليه، فأتاها فقال: يا أختاه، سلِّمي إليَّ يوسف، فوالله ما أقدرُ على أن يغيبَ عنِّي ساعة. فقالت: والله ما أنا بتاركتِه، فدَعْه عندي أيَّاماً أنظُر إليه لعلَّ ذلك يسلِّيني. فلمَّا خرج يعقوب عليه السلام من عندها عمدتْ إلى تلك المِنْطقةِ فحزمتها على يوسف عليه السلام من تحت ثيابه، ثمَّ قالت: فقدتُ منطقةَ أبي إسحاق فانظروا مَن أخذها. فالتمست ثم قالت: اكشفوا أهلَ البيت. فكشفوهم فوجدوها مع يوسفَ عليه السلام، فقالت: والله إنَّه لسَلَمٌ لي أصنع فيه ما شئتُ. فأتاها يعقوب فأخبرته الخبرَ، فقال لها: أنتِ وذاك إن كان فعل. فأمسكته فما قدر عليه حتى ماتت[5].

وأخرج ابنُ مردويه عن ابن عباس، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال في الآية: «سرق يوسفُ عليه السلام صنماً لجدِّه أبي أمِّه من ذهبٍ وفضَّةٍ، فكسَّره وألقاه على

---

(١) هو ابن مسعود ﷺ كما في القراءات الشاذة ص ٦٥، والمحتسب ١/ ٣٤٦. ووقع في (م): وقرأ عبد الله الحبر.

(٢) البحر ٥/ ٣٣٣.

(٣) الدر المنثور ٤/ ٢٨، وعزاه لابن جرير وأبي الشيخ، وهو في تفسير الطبري ١٣/ ٢٧١.

(٤) المنطقة بكسر الميم: ما يُشد به الوسط. حاشية الشهاب ٥/ ١٩٧.

(٥) تفسير الطبري ١٣/ ٢٧٤، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٧٨ من طريق ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد.

الطريق، فعيَّره إخوتُه بذلك»[١].

وأخرج غيرُ واحد عن زيد بن أسلم قال: كان يوسفُ عليه السلام غلاماً صغيراً مع أمِّه عند خالٍ له، وهو يلعب مع الغلمان، فدخل كنيسةً لهم فوجد تمثالاً صغيراً من ذهبٍ فأخذه، وذلك الذي عَنَوه بسرقته[٢].

وقال مجاهد: إنَّ سائلاً جاءه يوماً، فأخذ بيضةً فناولها إياه. وقال سفيان بن عيينة: أخذ دجاجةً فأعطاها السائل. وقال وهب: كان عليه السلام يَخبِّىء الطعامَ من المائدة للفقراء. وقيل وقيل.

وعن ابن المنيِّر: أنَّ ذلك تصلُّفٌ[٣] لا يسوغ نسبةُ مثله إلى بيت النبوَّة، بل ولا إلى أحدٍ من الأشراف، فالواجب تركُه. وإليه ذهب مكِّي[٤].

وقال بعضهم: المعنى: إنْ يسرق فقد سرق مثلُه من بني آدم، وذكر له نظائر في الحديث، قيل[٥]: وهو كلامٌ حقيقٌ بالقبول.

وأنت تعلم أنَّ في عدِّ كلِّ ما قيل في بيان المراد من سرقةِ الأخ تصلُّفاً تصلُّفٌ؛ فإنَّ فيه ما لابأس في نسبته إلى بيت النبوَّة. وإن ادُّعي أنَّ دعوى نسبتهم السرقةَ إلى يوسف عليه السلام ممَّا لا يليق نسبةُ مثله إليهم؛ لأنَّ ذلك كذبٌ إذ لا سرقةَ في الحقيقة وهم أهلُ بيت النبوَّة الذين لا يكذبون = جاء حديث «أكَلَه الذئب»، وهم غير معصومين أوَّلاً وآخِراً.

وما قاله البعض ـ وقيل: إنه كلام حقيقٌ بالقبول ـ ممَّا يأباه ما بعدُ كما لا يخفى على مَن له ذوقٌ، على أنَّ ذلك في نفسه بعيدٌ ذوقاً.

وأتوا بكلمة «إنْ» لعدم جَزْمهم بسرقته بمجرَّد خروج السِّقاية من رَحْلِه، فقد

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٨، وهو في الفردوس للديلمي ١/ ٢٤١. وأخرجه الطبري ١٣/ ٢٧٢-٢٧٣، عن سعيد بن جبير وقتادة قولهما.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٧٨.
(٣) في حاشية الشهاب ٥/ ١٩٧ (والكلام منه): تكلف.
(٤) في مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٩٢، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ١٩٧.
(٥) القائل هو الشهاب في الحاشية ٥/ ١٩٧.

وجدوا من قبلُ بضاعتَهم في رحالهم ولم يكونوا سارقين، وفي بعض الروايات أنَّهم لمَّا رأوا إخراج السقاية من رحلِه خجلوا فقالوا: يا ابنَ راحيل، كيف سرقتَ هذه السقاية؟ فرفع يده إلى السماء فقال: والله ما فعلت. فقالوا: فمن وضعها في رحلك؟ قال: الذي وضع البضاعةَ في رحالكم. فإن كان قولهم: «إن يسرق» إلخ بعدَ هذه المقاولة، فالظاهرُ أنَّها هي التي دعتهم لـ «إنْ»، وأمَّا قولهم: «إنَّ ابنَك سرق» فبناءً على الظاهر ومدَّعى القوم، وكذا عِلْمُهم مبنيٌّ على ذلك.

وقيل: إنَّهم جزموا بذلك، و«إنْ» لمجرَّد الشرط، ولعلَّه الأولى؛ لظاهر ما يأتي إن شاء الله تعالى تحقيقُه.

و«يسرق» لحكاية الحال الماضية، والمعنى: إن كان سرقَ فليس ببِدْعٍ لسَبْقِ مثلِه من أخيه، وكأنَّهم أرادوا بذلك دفعَ المعرَّة عنهم واختصاصَها بالشقيقين. وتنكيرُ «أخ» لأنَّ الحاضرين لا عِلْمَ لهم به.

وقرأ أحمد بن جبير الأنطاكي وابن أبي سريج عن الكسائي، والوليدُ بن حسان، وغيرُهم: «فقد سُرِّق» بالتشديد مبنيّاً للمفعول[1]، أي: نُسب إلى السرقة.

﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ﴾ الضمير لِمَا يُفهم من الكلام والمقام، أي: أضمر الحزازةَ التي حصلت له عليه السلام ممَّا قالوا. وقيل: أضمر مقالتهم، أو نسبةَ السرقة إليه فلم يجبهم عنها ﴿فِي نَفْسِهِۦ﴾ لا أنَّه أسرَّها لبعض أصحابه كما في قوله تعالى: ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٩] ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا﴾ أي: يظهرْها ﴿لَهُمْ﴾ لا قولاً ولا فعلاً؛ صفحاً لهم وحلماً، وهو تأكيدٌ لِمَا سبق.

﴿قَالَ﴾ أي: في نفسه، وهو استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ من الإخبار بالإسرار المذكور، كأنه قيل: فماذا قال في نفسه في تضاعيف ذلك؟ فقيل: قال:

---

(١) البحر ٥/ ٣٣٣. وأحمد بن جبير هو أبو جعفر الكوفي المقرئ نزيل أنطاكية، أخذ القراءة عرضاً وسماعاً عن الكسائي، وسمع بعض حروف عاصم من أبي بكر بن عياش، توفي سنة (٢٥٨هـ).

وابن أبي سريج هو أحمد بن أبي سريج الرازي، أبو جعفر المقرئ، واسم أبيه الصَّبَّاح، قرأ على الكسائي، وروى عنه البخاري وأبو داود والنسائي في كتبهم، توفي بعد الأربعين ومئتين. طبقات القراء الكبار ١/ ٤١٦ و٤٣٣.

﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي: منزلةً في السَّرق، وحاصله: أنَّكم أثبتُ في الاتِّصاف بهذا الوصف وأقوى فيه، حيثُ سرقتُم أخاكم من أبيكم، ثمَّ طَفِقْتُم تفترون على البريء.

وقال الزجَّاج[(١)]: إنَّ الإضمار هنا على شريطةِ التفسير[(٢)]؛ لأنَّ «قال أنتم» إلخ بدلٌ من الضمير، والمعنى: فأسرَّ يوسفُ في نفسه قولَه: «أنتم شرٌّ مكاناً»، والتأنيثُ باعتبارِ أنَّه جملةٌ أو كلمة.

وتعقَّب ذلك أبو عليٍّ بأنَّ الإضمارَ على شريطة التفسير على ضربين: أحدُهما: أن يفسَّر بمفرد، نحو: نِعْمَ رجلاً زيدٌ، ورُبَّه رجلاً. وثانيهما: أن يفسَّر بجملةٍ كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] وأصل هذا أن يقع في الابتداء ثمَّ يدخل عليه النواسخ، نحو: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ [طه: ٧٤]، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الحج: ٤٦].

وليس منها شفاءُ النَّفس مبذولُ[(٣)].

وغير ذلك، وتفسير المضمَر في كِلَا الموضعين متَّصلٌ بالجملة التي قبلها المتضمِّنةِ لذلك المضمَر ومتعلِّقٌ بها، ولا يكون منقطعاً عنها، والذي ذكره الزجَّاج منقطعٌ، فلا يكون من الإضمار على شريطة التفسير.

وفي «أنوار التنزيل» أنَّ المفسَّر بالجملة لا يكون إلا ضميرَ الشأن[(٤)]. واعتُرض عليه بالمنع.

وفي «الكشف»: إنَّ هذا ليس من التفسير بالجُمل في شيء حتى يعترض بأنَّه من

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ١٢٣.
(٢) أي: لم يرجع الضمير في «فأسرَّها» على ما سبقه، وإنما فسَّره ما بعده.
(٣) وصدره: هي الشفاء لدائي لو ظَفِرْتُ بها. والبيت عزاه سيبويه في الكتاب ١/ ٧١ لهشام أخي ذي الرُّمَّة، وقال ابن السِّيد في الحلل ص ٦٧: يروى لكعب بن زهير، ويروى لهشام. وهو في المغني ص ٣٨٩ دون نسبة. والشاهد فيه أنه جعل في «ليس» ضمير الشأن وجعل الجملة التي بعدها تفسيراً للمضمر في موضع الخبر. وقوله: منها متعلق بمبذول. ينظر تحصيل عين الذهب ص ٩٥، وشرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي ٥/ ٢٠٩.
(٤) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ١٩٨.

خواصّ ضميرِ الشأن الواجب التصدير، وإنما هو نظيرُ: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ﴾ إلخ [البقرة: ١٣٢].

وتُعقِّب بأنَّ في تلك الآية تفسيرَ جملةٍ بجملةٍ، وهذا فيها تفسيرُ ضميرٍ بجملة.

وفي «الكشاف» جَعَلَ «أنتم شرٌّ مكاناً» هو المفسِّر[١]، وفيه خفاء؛ لأنَّ ذلك مقولُ القول.

واستَدلَّ بعضهم بالآية على إثبات الكلام النفسيِّ بجَعْل «قال» إلخ بدلاً من «أسرَّ»، ولعلَّ الأمرَ لا يتوقَّف على ذلك؛ لِمَا أشرنا إليه من أنَّ المراد: قال في نفسه. نعم قال أبو حيَّان: إنَّ الظاهرَ أنه عليه السلام خاطبهم وواجههم به بعدَ أنْ أسرَّ كراهيةَ مقالتهم في نفسه، وغرضُه توبيخُهم وتكذيبُهم، ويقوِّيه أنَّهم تركوا أن يشفعوا بأنفسهم، وعدلوا إلى الشفاعة له بأبيه[٢]. وفيه نظر.

وقرأ عبد الله، وابنُ أبي عبلة: «فأسرَّه» بتذكير الضمير[٣].

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ۝٧٧﴾ أي: عالمٌ علماً بالغاً إلى أقصى المراتب بأنَّ الأمر ليس كما تصفون من صدور السَّرقة منَّا، فصيغةُ أفعل لمجرَّد المبالغة لا لتفضيلِ علمه تعالى على علمهم، كيف لا وليس لهم بذلك من عِلْم؟ قاله غير واحد.

وقال أبو حيَّان: إنَّ المعنى: أعلمُ بما تصفون به منكم؛ لأنه سبحانه عالمٌ بحقائقِ الأمور، وكيف كانت سرقةُ أخيه الذي أحَلْتم سرقته عليه[٤]. فأفعل حينئذٍ على ظاهره.

واعتُرض بأنَّه لم يكن فيهم عِلْم، والتفضيلُ يقتضي الشركة.

وأُجيب بأنَّه تكفي الشركةُ بحسب زَعْمِهم؛ فإنَّهم كانوا يدَّعون العِلْمَ لأنفسهم، ألا ترى قولَهم: «فقد سَرق أخٌ له من قبل» جزماً؟

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٣٦.
(٢) البحر ٥/ ٣٣٤.
(٣) الكشاف ٢/ ٣٣٦، والبحر ٥/ ٣٣٣.
(٤) البحر ٥/ ٣٣٤.

﴿قَالُوا﴾ عندما شاهدوا مخايلَ أَخْذِ بنيامين مستعطِفينَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا﴾ طاعناً في السنِّ لا يكاد يستطيع فراقَه، وهو عُلالةٌ به يتعلَّل عن شقيقِه الهالك. وقيل: أرادوا مسنّاً كبيراً في القَدْر. والوصفُ على القولين محطُّ الفائدة، وإلا فالإخبارُ بأنَّ له أباً معلومٌ ممَّا سبق.

﴿فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ بدله، فلسنا عنده بمنزلته من المحبَّة والشفقة.

﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ إلينا، فأَتِمَّ إحسانك، فما الإنعامُ إلا بالإتمام، أو: مِن عادتِك الإحسان مطلقاً، فاجْرِ على عادتك ولا تغيِّرها معنا فنحن أحقُّ الناس بذلك، فالإحسانُ على الأوَّل خاصٌّ، وعلى الثاني عامٌّ.

والجملة على الوجهين اعتراضٌ تذييليٌّ على ما ذهب إليه بعضُ المدقِّقين، وذهب بعضٌ آخرُ إلى أنَّه إذا أريد بالإحسان الإحسانُ إليهم تكونُ مستأنفةً لبيان ما قبلُ؛ إذ أَخْذُ البدل إحسانٌ إليهم، وإذا أريد أنَّ عمومَ ذلك من دأبك وعادتكَ تكونُ مؤكِّدة لِمَا قبلُ، وذكرُ أمرٍ عامٍّ على سبيلِ التذييل أنسبُ بذلك.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي: نعوذُ بالله تعالى معاذاً من ﴿أَن نَّأۡخُذَ﴾ فحذِفَ الفعلُ وأُقيم المصدرُ مقامه مضافاً إلى المفعول به، وحُذف حرف الجرِّ كما في أمثاله. ﴿إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ لأنَّ أَخْذَنا له إنَّما هو بقضيَّةِ فَتْواكم، فليس لنا الإخلالُ بموجبها. ﴿إِنَّآ إِذٗا﴾ أي: إذا أخذنا غيرَ مَن وَجَدْنا متاعنا عنده ولو برضاه ﴿لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ في مذهبكم وشَرْعِكم، وما لنا ذلك.

وإيثارُ صيغة التكلُّم[1] مع الغير ـ مع كون الخطاب من جهة إخوته على التوحيد ـ من باب السلوك إلى سَنَنِ الملوك، وللإشعار[2] بأنَّ الأخذَ والإعطاء ليس مما يستبدُّ به، بل هو منوطٌ بآراء أهل الحلِّ والعقْد.

وإيثارُ «من وجدنا متاعنا عنده» على: مَن سَرَقَ متاعَنا ـ الأخصر ـ لأنَّه أوفقُ بما وقع في الاستفتاء والفتوى، أو لتحقيقِ الحقِّ والاحتراز عن الكذب في الكلام مع تمام المرامِ، فإنهم لا يحملون وجدانَ الصُّواع عندَه على محملٍ غيرِ السرقة.

(١) في (م): المتكلم، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ٢٩٩.
(٢) في تفسير أبي السعود: أو للإشعار.

والمتاعُ: اسم لما يُنتفع به، وأريد به الصُّواع، وما ألطفَ استعمالَه مع الأخذ المرادِ به الاسترقاقُ والاستخدام، وكأنَّه لهذا أوثر على الصُّواع. والظاهرُ أنَّ الأخذ في كلامهم محمولٌ على هذا المعنى أيضاً حقيقةً، وجوَّز ابن عطية[١] أن يكون ذلك مجازاً؛ لأنَّهم يعلمون أنَّه لا يجوز استرقاقُ حرٍّ غيرِ سارق بدلَ مَن قد أحكمت السُّنَّةُ رقَّه، فقولهم ذلك كما تقول لمن تكره فعلَه: اقتلني ولا تفعل كذا. وأنت لا تريد أن يقتلك ولكنَّك تبالغُ في استنزاله. ثم قال: وعلى هذا يتَّجه قولُ يوسفَ عليه السلام: «معاذ الله»؛ لأنَّه تعوَّذ من غيرِ جائزٍ، ويحتمل أن لا يريدوا هذا المعنى[٢]، وبعيدٌ عليهم وهم أنبياءُ أن يريدوا استرقاق حرٍّ، فلم يَبْقَ إلا أن يريدوا بذلك الحمالةَ، أي: خُذ أحدنا وأَبْقِه عندك حتى ينصرفَ إليك صاحبُك، ومقصدُهم بذلك أن يصلَ بنيامين إلى أبيه فيعرِّفه جليَّة الحال. اهـ، وهو كلامٌ لا يُعوَّل عليه أصلاً كما لا يخفى.

ولجواب يوسف عليه السلام معنًى باطنٌ هو: أنَّ الله عزَّ وجلَّ إنما أمرني بالوحي أن آخذ بنيامين لمصالح عَلِمَها سبحانه في ذلك، فلو أخذتُ غيرَه كنت ظالماً لنفسي وعاملاً بخلاف الوحي.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ﴾ أي: يئسوا من يوسف عليه السلام وإجابتِه لهم إلى مرادهم، فاستفعل بمعنى فَعِلَ، نحو: سَخِرَ واسْتَسْخَر، وعَجِبَ واستعجب، على ما في «البحر»[٣].

وقال غيرُ واحدٍ: إنَّ السين والتاء زائدتان للمبالغة، أي: يئسوا يأساً كاملاً؛ لأنَّ المطلوبَ المرغوبَ مبالغٌ في تحصيله، ولعلَّ حصول هذه المرتبة من اليأس لهم لِمَا شاهدوه من عوذِه بالله تعالى ممَّا طلبوه، الدالِّ على كون ذلك عنده في أقصى مراتب الكراهة، وأنَّه ممَّا يجب أن يُحترز عنه ويُعاذَ بالله تعالى منه، ومن تسميته ذلك ظلماً بقوله: «إنا إذاً لظالمون».

---

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ٢٦٨.
(٢) أي: أن يكون قولهم: «فخذ أحدنا مكانه» حقيقةً، كما في المحرر الوجيز.
(٣) ٥/ ٣٣٥.

وفي بعض الآثار أنَّهم لمَّا رأوا خروجَ الصُّواع من رحله وكانوا قد أفتَوا بما أفتَوا، تذكَّروا عهدَهم مع أبيهم، استشاط من بينهم روبيل(١) غضباً، وكان لا يقوم لغضبه شيء، ووقف شعرُه حتى خرج من ثيابه، فقال: أيُّها الملك لتتركنَّ أخانا أو لأصيحنَّ صيحةً لا يبقينَّ بها في مصر حاملٌ إلا وضعت. فقال يوسف عليه السلام لولدٍ له صغير: قم إلى هذا فمُسَّه أو خُذْ بيده. وكان إذا مسَّه أحدٌ من ولد يعقوب عليه السلام يسكنُ غضبه، فلما فعل الولدُ سكن غضبه، فقال لإخوته: مَن مسَّني منكم؟ فقالوا: ما مسَّك أحدٌ منا. فقال: لقد مسَّني ولدٌ من آل يعقوب. ثم قال لإخوته: كم عددُ الأسواق بمصر؟ قالوا: عشرة. قال: اكفوني أنتم الأسواقَ وأنا أكفيكم الملكَ. أو: اكفوني أنتم الملك وأنا أكفيكم الأسواقَ. فلما أحسَّ يوسف عليه السلام بذلك قام إليه وأخذ بتلابيبه وصرعه، وقال: أنتم يا معشر العبرانيين تزعمون أنْ لا أحد أشدُّ منكم قوَّةً. فعند ذلك خضعوا وقالوا: «يا أيُّها العزيز» إلخ. ويمكن على هذا أن يكون حصولُ اليأس الكامل لهم من مجموعِ الأمرين.

وجوَّز بعضهم كونَ ضمير «منه» لبنيامين، وتعقَّب بأنَّهم لم ييأسوا منه، بدليلِ تخلُّف كبيرهم لأَجْلِه.

وروى أبو ربيعة عن البزِّي عن ابن كثير أنَّه قرأ: «استايَسُوا»(٢) من «أيس» مقلوبِ يئس(٣)، ودليلُ القلب على ما في «البحر» عدمُ انقلاب ياءِ «أيس» ألفاً لتحرُّكها وانفتاحِ ما قبلها(٤).

وحاصلُ المعنى(٥): لمَّا انقطع طمعهم بالكلِّية ﴿خَلَصُواْ﴾ أي: انفردوا عن غيرِهم واعتزلوا الناس. وقول الزجَّاج(٦): انفرد بعضُهم عن بعضٍ. فيه نظر.

---

(١) في هامش الأصل و(م): وقيل: شمعون، وروي عن وهب. اهـ منه.

(٢) بالألف وفتح الياء من غير همز، وهي في رواية البزي بخلف عنه، والوجه الثاني للبزي كقراءة الجماعة. التيسير ص١٢٩، والنشر ١/ ٤٠٥-٤٠٦.

(٣) في حاشية (م): في مجمع البيان أن أيس ويئس كلٌّ منهما لغة. اهـ منه.

(٤) البحر ٥/ ٣٣٥.

(٥) في هامش الأصل و(م): على تقدير كون الزيادة للمبالغة. اهـ منه.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ١٢٤.

﴿نَجِيًّا﴾ أي: متناجين متشاورين فيما يقولون لأبيهم عليه السلام، وإنَّما وحَّده ـ وكان الظاهرُ جمعَه؛ لأنه حالٌ من ضمير الجمع ـ لأنَّه مصدرٌ بحسب الأصل ـ كالتناجي ـ أطلق على المتناجين مبالغةً أو لتأويله بالمشتقِّ، والمصدرُ ولو بحسب الأصل يشملُ القليلَ والكثيرَ. أو لكونه على زنة المصدر؛ لأن فعيلاً من أبنية المصادر، وهو[1] فعيل بمعنى مفاعل، كجليس بمعنى مجالس، وكعشير بمعنى مُعاشر[2]، أي: مناجٍ بعضُهم بعضاً فيكونون متناجين، وجمعُه أنجية؛ قال لبيد:

وشهدتُ أنجيةَ الخلافة عالياً   كَعْبي وأردافُ الملوكِ شهودُ[3]

وأنشد الجوهري:

إنـي إذا مـا الـقـومُ كـانـوا أَنْـجِـيَـهْ
واضـطـربـوا مـثـلَ اضـطـرابِ الأرشـيـه
هـنـاكِ أوصـيـنـي ولا تُـوْصِـي بِـيَـهْ[4]

وهو على خلاف القياسِ؛ إذ قياسُه في الوصف أفعلاء، كمغني وأغنياء.

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ أي: رئيسُهم وهو شمعون؛ قاله مجاهد. أو كبيرُهم في السنِّ وهو روبيل؛ قاله قتادة. أو كبيرُهم في العقل وهو يهوذا؛ قاله وهب والكلبي. وعن محمد بن إسحاق أنَّه لاوى.

---

(١) في الأصل و(م): هو، والمثبت من حاشية الشهاب ٥/ ١٩٩، والكلام منه.

(٢) في هامش الأصل و(م): وخليط بمعنى مخالط، وسمير بمعنى مسامر، وغير ذلك. اهـ منه.

(٣) ديوان لبيد ص ٣٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٦٩، والبحر ٥/ ٣٣٥، والدر المصون ٦/ ٥٣٩. وجاء في هذه المصادر بدل الخلافة: الأفاقة، وهي موضع بعينه. وردف الملك: الذي معه لا يفارقه. وجاء في هامش الأصل و(م): وهو يقوِّي كونه جامداً كرغيف وأرغفة. اهـ منه. يعني أن جمعه كذلك يقوي كونه جامداً. الدر المصون ٦/ ٥٣٩.

(٤) الصحاح (نجا)، وهذا الرجز نسبه في اللسان (نجا) إلى سحيم بن وثيل اليربوعي، وهو في معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٢٤ دون نسبة. والبيت الثاني في الصحاح واللسان برواية: واضطرب القوم اضطراب...، وعند الزجاج: واختلف القول اختلاف...، وذكر صاحب اللسان أن «هناك» بكسر الكاف بخط علي بن حمزة، وبخطه أيضاً: أوصيني ولا توصي، بإثبات الياء لأنه يخاطب مؤنثاً. والأرشية جمع رشاء: وهو الحبل. وقيل في معنى الرجز: إنه ضربه مثلاً لنزول الأمر المهم. وقيل غيرُ ذلك.

﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ﴾ كأنَّهم أجمعوا عند التناجي على الانقلاب جملةً ولم يرضَ به، فقال مُنْكِراً عليهم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عهداً يوثَقُ به، وهو حَلِفُهم بالله تعالى، وكونُه منه تعالى لأنه بإذنه، فكأنَّه صَدَر منه تعالى. أو هو من جهته سبحانه، ف «من» ابتدائية.

﴿وَمِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل هذا، والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ﴾ أي: قصَّرتُم في شأنه ولم تحفظوا عهدَ أبيكم فيه وقد قُلتم ما قلتم. و«ما» مزيدةٌ، والجملةُ حاليَّة، وهذا ـ على ما قيل ـ أحسنُ الوجوه في الآية وأسلمُها.

وجوِّز أن تكون «ما» مصدريةً، ومحلُّ المصدر النصبُ عطفاً على مفعول «تعلموا»، أي: ألم تعلموا أَخْذَ أبيكم موثقاً عليكم وتفريطَكم السَّابقَ في شأن يوسف عليه السلام.

وأُورد عليه أمران: الفصلُ بين حرف العطف والمعطوفِ بالظرَّف، وتقديمُ معمول صِلة الموصول الحرفي عليه، وفي جوازهما خلافٌ للنُّحاة، والصحيح الجوازُ خصوصاً بالظرف المتوسَّعِ فيه.

وقيل بجواز العطف على اسم «أنَّ» ويحتاج حينئذٍ إلى خبر؛ لأنَّ الخبر الأوَّل لا يصحُّ أن يكون خبراً له، فهو «في يوسف»، أو «من قبل»، على معنى: ألم تعلموا أنَّ تفريطَكم السابقَ وقع في شأن يوسف عليه السلام، أو: أنَّ تفريطكم الكائنَ أو كائناً في شأن يوسف عليه السلام وقع من قبلُ.

واعتُرض بأنَّ مقتضى المقام إنَّما هو الإخبارُ بوقوع ذلك التفريط، لا بكون تفريطِهم السابقِ واقعاً في شأن يوسف عليه السلام كما هو مفادُ الأول، ولا بكون تفريطهم الكائن في شأنه واقعاً من قبل كما هو مفاد الثاني.

وفيه أيضاً ما ذكره أبو البقاء وتبعه أبو حيَّان من أنَّ الغايات لا تقع[1] خبراً ولا صلةً ولا صفةً ولا حالاً، وقد صرَّح بذلك سيبويه سواءٌ جُرَّت أم لم تُجرَّ،

(١) أي: الظروف التي هي غايات، إذا بنيت ـ أي: إذا كانت مقطوعة ـ لا تقع...، ينظر الدر المصون ٦/ ٥٤٠.

فتقول: يومُ السبت يومٌ مبارك والسفرُ بعدَه، ولا تقول: والسفرُ بعدُ[1].

وأجاب عنه في «الدرِّ المصون» بأنه إنَّما امتنع ذلك لعدم الفائدة، [وعدمُ الفائدة] لعدمِ العلم بالمضاف إليه المحذوفِ، فينبغي الجواز إذا كان المضاف إليه معلوماً مدلولاً عليه كما في الآية الكريمة[2].

ورُدَّ بأنَّ جوازَ حذف المضاف إليه في الغايات مشروطٌ بقيام القرينة على تعيين ذلك المحذوف على ما صرَّح به الرضي، فدلَّ على أن الامتناعَ ليس معلَّلاً بما ذكر.

وقال الشهاب[3]: إنَّ ما ذكروه ليس متَّفقاً عليه؛ فقد قال الإمام المرزوقي في «شرح الحماسة»: إنها تقع صفاتٍ وأخباراً وصلاتٍ وأحوالاً، ونقل هذا الإعراب المذكور هنا عن الرمَّاني وغيرِه، واستشهد له بما يثبتُه من كلام العرب. ثم إنَّ في تعرُّفها بالإضافة باعتبارِ تقدير المضافِ إليه معرفةً يعيِّنه الكلام السَّابق عليها اختلافاً، والمشهور أنَّها معارف[4]، وقال بعضهم: نكرات، وإنَّ التقدير: من قبلِ شيءٍ، كما في «شرح التسهيل». والفاضلُ صاحب «الدر» سلك مسلكاً حسناً، وهو أنَّ المضاف إليه إذا كان معلوماً مدلولاً عليه بأن يكون مخصوصاً معيَّناً، صحَّ الإخبار لحصول الفائدة، فإنْ لم يتعيَّن بأنْ قامت قرينةُ العموم دونَ الخصوص وقدِّر: من قبل شيء، لم يصحَّ الإخبار ونحوُه؛ إذ ما [من] شيءٍ إلا وهو قبلَ شيءٍ ما، فلا فائدةَ في الإخبار، فحينئذ يكون معرفةً ونكرة، ولا مخالفةَ بين كلامه وكلامِ

---

(١) الإملاء ٣/ ٣٥٥، والبحر ٥/٣٣٦، ونقله المصنف عنهما بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/١٩٩. وجاء في هامش الأصل و(م) عند قوله: ولا صلة: أُوْرِد على أنها لا تكون صلة قوله تعالى: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ودُفع بأن الصلة قوله سبحانه: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ و«من قبل» ظرفٌ لغوٌ متعلِّقٌ بخبرِ «كان»، لا مستقرٌّ صلة. اهـ منه.

(٢) الدر المصون ٦/ ٥٤٠، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/١٩٩، وما بين حاصرتين منهما.

(٣) في الحاشية ٥/١٩٩-٢٠٠، وما سيأتي بين حاصرتين منه. وجاء في هامش الأصل و(م): وذَكَر بأنه تحقيقٌ حقيقٌ بأن يرسم في دفاتر الأذهان، ويعلَّق في حقائب الحفظ والجنان. اهـ منه. وهو في الحاشية ٥/ ٢٠٠.

(٤) في هامش الأصل و(م): وذكر السيرافي في شرح الكتاب ما يقتضى أن الغايات معارف لا يقدر ما حذف بعدها إلا معرفة، فتأمل. اهـ منه.

الرضي، مع أنَّ كلام الرضي غيرُ متفق عليه. انتهى، وهو كما قال: تحقيقٌ نفيس.

وقيل: محلُّ المصدر الرفعُ على الابتداء، والخبرُ «من قبل». وفيه البحثُ السابق.

وقيل: «ما» موصولة، ومحلُّها من الإعراب ما تقدَّم من الرفع أو النصب، وجملةُ «فرَّطتم» صلتُها، والعائد محذوفٌ، والتفريط بمعنى التقديم من الفَرَط لا بمعنى التقصير، أي: ما قدَّمتموه من الجناية.

وأُورد عليه أنه يكون قوله تعالى: «من قبل» تكراراً؛ فإنْ جُعل خبراً يكون الكلام غيرَ مفيد، وإن جُعل متعلِّقاً بالصِّلة يلزم مع التكرار تقديمُ متعلَّق الصِّلة على الموصول، وهو غيرُ جائز.

وقيل: «ما» نكرةٌ موصوفةٌ ومحلُّها ما تقدَّم. وفيه ما فيه.

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ مفرَّعٌ على ما ذكره وذكَّر به، و«بَرِحَ» تامَّة، وتستعمل إذا كانت كذلك بمعنى ذهب، وبمعنى ظهر كما في قولهم: بَرِحَ الخفاءُ[1]، وقد ضمِّنت هنا معنى فارَقَ فنصبت «الأرض» على المفعولية. ولا يجوز أن تكون ناقصةً؛ لأنَّ الأرض لا يصحُّ أن تكون خبراً عن المتكلِّم هنا، وليست منصوبةً على الظرفية ولا بنزع الخافض، وعنى بها أرض مصرَ، أي: فلن أفارقَ أرض مصر جرياً على قضيَّة الميثاق.

﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ في البراح بالانصراف إليه ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي﴾ بالخروج منها على وجهٍ لا يؤدِّي إلى نقض الميثاق، أو بخلاصِ أخي بسببٍ من الأسباب.

قال في «البحر»: إنَّه غيَّا ذلك بغايتين: خاصَّةٍ وهي إذنُ أبيه، وعامَّةٍ وهي حكمُ الله تعالى له، وكأنه بعد أن غيَّا بالأولى رجع وفوَّض الأمرَ إلى مَن له الحكمُ حقيقةً جلَّ شأنه، وأراد حكمَه سبحانه بما يكون عذراً له ولو الموت[2].

والظاهر أن أحبَّ الغايتين إليه الأولى، فلذا قدَّم «لي» وأخَّره في الثانية، فليفهم.

---

(١) أي: وَضَح الأمر. القاموس (برح).
(٢) البحر ٥/٣٣٦.

﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ إذ لا يحكم سبحانه إلا بالحقِّ والعدل.

﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا﴾ له: ﴿يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ الظاهرُ أنَّ هذا القول من تتمَّة كلام كبيرهم. وقيل: هو من كلام يوسفَ عليه السلام، وفيه بعدٌ. كما أنَّ الظاهر أنَّهم أرادوا أنه سرق في نفس الأمر.

﴿وَمَا شَهِدْنَا﴾ عليه ﴿إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ من سرقته وتيقَّنَّاه، حيثُ استُخرج صواعُ الملك من رَحْله ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾﴾ وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الميثاقَ، أو: ما علمنا أنَّك ستصاب به كما أُصبت بيوسف.

وقرأ الضحاك: «سارق» باسم الفاعل[1].

وقرأ ابنُ عباس وأبو رزين والكسائيُّ في رواية: «سُرِّق» بتشديد الراء مبنيّاً للمفعول[2]، أي: نُسب إلى السرقة، فمعنى «وما شهدنا» إلخ: وما شهدنا إلا بقَدْرِ ما عَلِمْنا من التسريق، وما كنَّا للأمر الخفيِّ بحافظين: أَسَرق بالصحَّة، أم دُسَّ الصُّواع في رحله ولم يشعر؟ واستُحسنت هذه القراءةُ؛ لِمَا فيها من التنزيه، كذا قالوا.

والظاهرُ أنَّ القول باستفادة اليقين من استخراج الصُّواع من رَحْلِه مما لا يصحُّ، فكيف يوجبُ اليقين؟ واحتمالُ أنه دُسَّ فيه من غير شعورٍ قائمٌ، جُعِلَ مجرَّدُ وجودِ الشيء في يد المدَّعَى عليه بعد إنكاره مُوْجِباً للسَّرق في شرعهم أوْ لا. قيل: فالوجهُ أن الظنَّ البيِّنَ قائمٌ مقام العلم، ألا ترى أنَّ الشهادة تجوز بناءً على الاستصحاب[3] ويسمَّى علماً، كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وإنما جزموا بذلك لبُعد الاحتمالات المعارِضةِ عندهم، وإذا جُعل الحكم بالسرقة وكذا علمُهم أيضاً مبنيّاً على ما شاهدوا من ظاهرِ الأمر اتَّحدت القراءتان، ويفسَّر «وما كنا» إلخ بما فسِّر به على القراءة الأخيرة.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٧٠، والبحر ٥/ ٣٣٧.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤١، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٧٠، وتفسير البغوي ٢/ ٤٤٣، والبحر ٥/ ٣٣٧.

(٣) هو الحكم على الشيء بالحال التي كان عليها من قبل، حتى يقوم دليل على تغير تلك الحال. أو هو جَعْلُ الحكم الذي كان ثابتاً في الماضي باقياً في الحال حتى يقوم دليل على تغييره. علم أصول الفقه لعبد الوهاب خلّاف ص ٩١.

وقيل: معنى «وما شهدنا» إلخ: ما كانت شهادتُنا في عمرنا على شيء إلَّا بما عَلِمْنا، وليست هذه شهادةً منَّا إنَّما هي خبرٌ عن صنيع ابنك بزعمِهم، «وما كنا» إلخ كما هو. وهو ذهابٌ أيضاً إلى أنَّهم غيرُ جازمين.

وفي «الكشف»: الذي يشهد له الذوقُ أنهم كانوا جازمين، وقولُهم: «إن يسرق فقد سرق» تمهيدٌ بيِّنٌ، وادِّعاءُ العلم لا يُلْزِمُ العلم، فإن كان لبُعْدِ الاحتمالات المعارِضة فلا يكون كذباً محرَّماً، وإلا فغايتُه الكذبُ في دعوى العِلم، وليس بأوَّل كذباتهم، وكان قبل أن تنبؤوا ولهذا خوَّنهم الأب في هذه أيضاً، على أنَّ قولهم: «جزاؤه مَن وُجد في رحله» مؤكَّداً ذلك التأكيدَ يدلُّ على أنَّهم جعلوا الوجدان في الرحل قاطعاً، وإلَّا كان عليهم أن يقولوا: جزاؤه مَن وُجد في رحله متعدِّياً، أو سارقاً، ونحوه. فإن يُحتمَلْ عنهم الجزمُ هنالك فلِمَ لا يُحتمل ها هنا؟ اهـ، وفيه مخالفةٌ لبعض ما نحن عليه، وكذا لِمَا ذكرناه في تفسير «جزاؤه» إلخ، ولعلَّ الأمر في هذا هيِّن.

ومن غريب التفسير أنَّ معنى قولهم: «للغيب»: للَّيل، وهو بهذا المعنى في لغة حِمْير، وكأنَّهم قالوا: وما شهدنا إلا بما علمنا من ظاهر حاله، وما كنَّا للَّيل حافظين، أي: لا ندري ما يقع فيه، فلعلَّه سرق فيه أو دُلِّس عليه. وأنا لا أدري ما الداعي إلى هذا التفسير المظلم مع تبلُّج صبح المعنى المشهور. وأيّاً ما كان فلامُ «للغيب» للتقوية، والمرادُ: حافظين الغيب.

﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ يعنُون كما روي عن ابن عباس وقتادة والحسن مصرَ. وقيل: قريةً بقربها لحقهم المنادي بها[1]. والأوَّل ظاهرٌ على القول بأنَّ المفتِّش لهم يوسفُ عليه السلام، والثاني ظاهرٌ[2] على القول بأنَّه المؤذِّن.

وسؤالُ القرية عبارةٌ عن سؤال أهلها: إمَّا مجازاً في «القرية» لإطلاقها عليها[3] بعلاقةِ الحالِّيّة والمحليّة أو في النِّسبة، أو يقدَّر فيه مضافٌ، وهو مجازٌ أيضاً عند

(١) في الأصل: لها، وفي تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ٢٠٠: فيها، وفي تفسير أبي السعود ٤/ ٣٠١: عندها.

(٢) في (م): الظاهر.

(٣) أي: على أهلها. حاشية الشهاب ٥/ ٢٠٠.

سيبويه[١] وجماعةٍ. وفي «المحصول» وغيره: أنَّ الإضمار والمجازَ متباينان ليس أحدُهما قسماً من الآخر[٢]. والأكثرون على المقابلة بينهما.

وأيّاً ما كان فالمسؤول عنه محذوفٌ للعلم به، وحاصل المعنى: أرسلْ مَن تثقُ به إلى أهل القرية واسألهم عن القصَّة.

﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي: أصحابَها الذين توجَّهنا فيهم وكنَّا معهم، فإن القصَّة معروفةٌ فيما بينهم. وكانوا قوماً من كنعان من جيران يعقوبَ عليه السلام. وقيل: من أهل صنعاءَ، والكلام هنا في التجوُّز والإضمار كالكلام سابقاً.

وقيل: لا تجوُّزَ ولا إضمارَ في الموضعين، والمقصود إحالةُ تحقيق الحال والاطِّلاع على كُنْه القصَّة على السؤال من الجمادات والبهائم أنفسِها، بناءً على أنه عليه السلام نبيٌّ فلا يبعدُ أن تنطقَ و تخبرَه بذلك على خرقِ العادة.

وتُعقِّب بأنَّه مما لا ينبغي أن يكون مراداً ولا يقتضيه المقام؛ لأنَّه ليس بصدد إظهار المعجزة.

وقال بعض الأجلَّة: الأولى إبقاءُ «القرية» و«العير» على ظاهرهما وعدمُ إضمار مضافٍ إليهما، ويكونُ الكلام مبنيّاً على دعوى ظهورِ الأمر بحيث إن الجمادات والبهائم قد علمت به. وقد شاع مثلُ ذلك في الكلام قديماً وحديثاً، ومنه قول ابن الدُّمَيْنَة:

سلِ القاعةَ الوعسا من الأجرعِ الذي ... به البانُ هل حيَّيتُ أطلال دارِكِ[٣]

وقوله:

---

(١) في الكتاب ٣/ ٢٤٧.

(٢) نقله المصنف عن البحر ٥/ ٣٣٧، وفيه: وفي المحصول لأبي عبد الله محمد الرازي وفي مختصراته أن الإضمار. . .، وينظر المحصول ١/ ٣٥٩.

(٣) ديوان ابن الدمينة ص ١٣، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/ ١٣٠٧، والحماسة البصرية ٢/ ١٠٧، واختلفت الرواية في صدر البيت في المصادر. وقوله: الأجرع، قال المرزوقي: الأجرع من الأماكن: السهل المختلط بالرمل. اهـ. والوعساء: رابية من رمل لينةٌ. والوعساء موضع معروف بين الثعلبية والخزيمية على جادة الحاجِّ، وهي شقائق رمل متصلة. التاج (وعس).

سلوا مضجعي عنِّي وعنها فإنَّنا رضينا بما يُخبِرْنَ عنَّا المَضَاجِعُ[1]

وقوله:

واسأل نجومَ الليل هلْ زار الكَرَى جَفْني وكيف يزورُ مَن لم يَعْرِفِ[2]

ولا يخفى أنَّ مثلَ هذا لا يخلو عن ارتكاب مجازٍ. نعم هو معنًى لطيفٌ بَيْد أن الجمهورَ على خلافه، وأكثرُهم على اعتبار مجازِ الحذف.

﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٨٢﴾ فيما أخبرناك به، وليس المرادُ إثباتَ صدقهم بما ذكر حتى يكون مصادرة[3]، بل تأكيدَ صدقهم بما يفيد ذلك من الاسميَّة و«إنَّ» واللام، وهو مرادُ مَن قال: إنه تأكيدٌ في محلِّ القسم. ويحتمل ـ على ما قيل ـ أن يريد أنَّ هنا قَسماً مقدَّراً.

وقيل: المرادُ الإثباتُ ولا مصادرةَ، على معنى: إنَّا قومٌ عادتُنا الصِّدق، فلا يكون ما أخبرناك به كذباً، ولا نظنُّك في مريةٍ من عدمِ قبوله.

﴿قَالَ﴾ أي: أبوهم عليه السلام، وهو استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ ممَّا سبق، فكأنه قيل: فماذا كان عند قولِ ذلك القائل للإخوة ما قال؟ فقيل: قال أبوهم عندما رجعوا إليه فقالوا له ما قالوا: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ وإنما حذف للإيذان بأنَّ مسارعتهم إلى قبول كلام ذلك القائل ورجوعَهم به إلى أبيهم أمرٌ مسلَّم غنيٌّ عن البيان، وإنما المحتاج إليه جوابُه.

يروى أنَّهم لمَّا عزموا على الرجوع إلى أبيهم، قال لهم يوسفُ عليه السلام: إذا أتيتم أباكم فاقرؤوا عليه السلام، وقولوا له: إن ملك مصرَ يدعو لك أن لا تموت حتى ترى ولدكَ يوسف؛ ليعلم أنَّ في أرض مصرَ صدِّيقين مثله. فساروا حتى وصلوا إليه فأخبروه بجميع ما كان، فبكى وقال ما قال.

و«بل» للإضراب، وهو ـ على ما قيل ـ إضرابٌ لا عن صريح كلامهم فإنَّهم صادقون فيه، بل عمَّا يتضمَّنه من ادِّعاء البراءة عن التسبُّب فيما نزل به، وأنه لم

---

(١) البيت للشريف الرضي، وهو في ديوانه ١/٦٥٨.

(٢) البيت لابن الفارض، وهو في ديوانه ص ١٥١.

(٣) في حاشية الشهاب ٥/٢٠١ (والكلام منه): حتى يكون مصادرة لإثبات الشيء بنفسه.

يصدر عنهم ما أدَّى إلى ذلك من قولٍ أو فعلٍ، ك : إنَّه لم يكن الأمرُ كذلك، بل زيَّنت وسهَّلت لكم أنفسكم أمراً من الأمور فأتيتموه، يريد بذلك فُتياهم بأخذِ السَّارق بسرقته، وليس ذلك من دين الملك.

وقال أبو حيَّان: إنَّ هنا كلاماً محذوفاً وقع الإضراب عنه، والتقدير: ليس [الأمر] حقيقةً كما أخبرتم، بل سوَّلت إلخ(١). وهو عند ابن عطية ـ وادَّعى أنَّه الظاهر، على حدِّ ما قال في قصة يوسف عليه السلام ـ ظنُّ سوءٍ بهم، خلا أنه عليه السلام صدقَ ظنُّه هناك ولم يتحقَّق هنا(٢).

وذكر ابن المنيِّر(٣) في توجيه هذا القول ها هنا مع أنَّهم لم يتعمَّدوا في حقِّ بنيامين سوءاً، ولا أخبروا أباهم إلا بالواقع على جليَّته، وما تركوه بمصر إلا مغلوبين عن استصحابه: إنهم كانوا عند أبيهم عليه السلام حينئذٍ متَّهمين، وهم قُمُنٌ باتِّهامه لِمَا أسلفوه في حقِّ يوسف عليه السلام، وقامت عنده قرينةٌ تؤكِّد التهمةَ وتقوِّيها، وهي أخذُ الملك له في السرقة، ولم يكن ذلك إلَّا من دينه، لا من دينه ولا من دينِ غيرِهِ من الناس(٤)، فظنَّ أنهم الذين أفتوه بذلك بعد ظهور السرقة التي ذكروها تعمُّداً ليتخلَّف دونهم، واتهامُ مَنْ هو بحيث يتطرَّق إليه التهمة لا جرحَ فيه، لاسيما فيما يرجع إلى الوالد مع الولد.

ثم قال: ويحتمل أن يكون الوجهُ الذي سوَّغ له هذا القولَ في حقِّهم أنَّهم جعلوا مجرَّد وجود الصُّواع في رحل مَنْ يوجد في رحله سرقةً، من غير أن يحيلوا الحكم على ثبوت كونه سارقاً بوجهٍ معلوم، وهذا في شرعنا لا يُثْبِتُ السرقة على مَن ادُّعيت عليه، فإن كان في شرعهم أيضاً كذلك ففي عدم تحرير الفتوى إشعارٌ بأنَّهم كانوا حِراصاً على أخْذه، وهو من التسويل وإن اقتضى ذلك في شرعهم، فالعُمدة على الجواب الأول.

---

(١) البحر ٥/ ٣٣٧، وما بين حاصرتين منه.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٧١.

(٣) في الانتصاف ٢/ ٣٣٨.

(٤) العبارة في الانتصاف: ولم يكن ذلك إلا من دين يعقوب لا من دين غيره من الناس ولا من عادتهم...

هذا والتنوينُ في «أمراً» للتعظيم، أي: أمراً عظيماً. ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: فأمري ذلك، أو: فصبرٌ جميلٌ أجملُ، وقد تقدَّم تمامُ الكلام فيه فتذكَّر.

﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ بيوسفَ وأخيه بنيامين والمتوقِّفِ بمصر ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بحالي وحالِهم ﴿الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ الذي يبتلي ويرفع البلاءَ حسب الحِكمة البالغة.

قيل: إنما ترجَّى عليه السلام للرؤيا التي رآها يوسفُ عليه السلام، فكان ينتظرها ويُحسنُ ظنَّه بالله تعالى، لاسيما بعد أن بلغَ الشِّظاظ الوركين، وجاوز الحزامُ الطُّبْيَيْنِ[1]، فإنَّه قد جرتْ سنَّته تعالى أنَّ الشِّدة إذا تناهت يَجْعَلُ وراءَها فرجاً عظيماً، وانضمَّ إلى ذلك ما أُخبر به عن ملك مصر أنَّه يدعو له أن لا يموت حتَّى يرى ولدَه.

﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: أعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ كراهةً لِمَا جاؤوا به ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ الأسفُ: أشدُّ الحزن على ما فات، والظاهر أنه عليه السلام أضافه إلى نفسه، والألفُ بدلٌ من ياء المتكلِّم للتخفيف، والمعنى: يا أسفي تعالَ فهذا أوانك.

وقيل: الألف ألفُ النُّدبة والهاءُ محذوفةٌ. والمعوَّل عليه الأوَّل.

وإنَّما تأسَّف على يوسف مع أنَّ الحادثَ مصيبةُ أخويه؛ لأنَّ رزأه كان قاعدةَ الأرزاء عنده وإن تقادَم عهدُه آخذاً بمجامع قلبه لا ينساه ولا يزولُ عن فكره أبداً:

ولَمْ تُنْسِني أَوْفَى المصيباتُ بَعْدَه ... ولكنَّ نَكْءَ القَرْحِ بالقَرْحِ أوجعُ[2]

---

(١) هذان مثلان يضربان فيما جاوز الحد، وهما كقولهم: بلغ السيل الزبى، ينظر مجمع الأمثال ١/ ١٦٦ و٢/ ١٢٤. والشظاظ: عُوَيد محدَّدُ الطَّرَف، يُدْخَل في عروة الجُوَالقين فيَجمع بينهما عند حملهما على البعير. والجُوَالق معرب جوال: وعاء من أوعية الطعام. والطُّبْيُ: حلمات الضرع التي فيها اللبن من ذي خفٍّ أو ظلف أو حافر أو سبع، جمعها أَطْبَاء، وقولهم عند اشتداد الأمر: بلغ الحزام الطُّبيين؛ لأن الحزام إذا انتهى إلى الطبيين فقد انتهى إلى أبعد غاية، فكيف إذا جاوز؟ معجم متن اللغة (شظظ) و(جولق) و(طبا).

(٢) البيت ينسب لهشام أخي ذي الرُّمَّة كما في الكامل للمبرد ١/ ٣٤٠، وعيون الأخبار ٣/ ٦٧، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/ ٧٩٣، وللتبريزي ٢/ ١٤٧. ونسب لأخيه مسعود في الأغاني ١٨/ ٣، وطبقات الفحول ٢/ ٥٦٦، والشعر والشعراء ١/ ٥٢٨. وأوفى: هو اسم أخيهم.

ولا يَرِدُ أنَّ هذا منافٍ لمنصب النبوَّة؛ إذ يقتضي ذلك معرفةَ الله تعالى، ومَن عرفه سبحانه أحبَّه، ومَن أحبَّه لم يتفرَّغ قلبُه لحبٍّ ما سواه = لما قيل: إنَّ هذه محبَّةٌ طبيعيَّةٌ، ولا تأبى الاجتماع مع حبِّه تعالى.

وقال الإمام: إنَّ مثل هذه المحبَّة الشديدة تزيلُ عن القلب الخواطرَ، ويكون صاحبُها كثيرَ الرجوع إليه تعالى، كثيرَ الدعاء والتضرُّع، فيصير ذلك سبباً لكمال الاستغراق(١). وسيأتي إن شاء الله تعالى ما للصوفية قدَّس الله تعالى أسرارهم في هذا المقام في باب الإشارة.

وقيل: لأنَّه عليه السلام كان واثقاً بحياتهما، عالماً بمكانهما، طامعاً بإيابهما، وأمَّا يوسفُ فلم يكن في شأنه ما يحرِّك سلسلةَ رجائه سوى رحمةِ الله تعالى وفضله. وفيه بحث.

وأخرج الطبرانيُّ وابن مردويه والبيهقي في «شعب الإيمان» عن سعيد بن جبير: لم تُعْطَ أمةٌ من الأمم: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] إلا أمَّةُ محمد ﷺ(٢). أي: لم يَعْلَموه ولم يوفَّقوا له عند نزول المصيبة بهم، ألا يُرى إلى يعقوب عليه السلام حين أصابه ما أصابه لم يسترجع وقال ما قال؟

وفي «أسفا» و«يوسف» تجنيسٌ نفيسٌ من غير تكلُّفٍ، وهو مما يزيد الكلامَ الجليل بهجةً.

﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ أي: بسببه، وهو في الحقيقة سببٌ للبكاء، والبكاءُ سببٌ لابْيِضَاض عينه، فإنَّ العَبْرةَ إذا كثُرتْ محقتْ سوادَ العين وقَلَبتْه إلى بياضٍ كدرٍ، فأقيم سببُ السبب مقامَه؛ لظهوره.

والابيضاضُ قيل: إنه كناية عن العمى، فيكون قد ذهب بصرُه عليه السلام

---

(١) تفسير الرازي ١٨/ ٢٠٠.

(٢) شعب الإيمان (٩٦٩١). وهو في المعجم الكبير (١٢٤١١) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ، وإسناده ضعيف، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ٣٣٠: فيه محمد بن خالد الطحان، وهو ضعيف. اهـ. وقال البيهقي: رفعه بعض الضعفاء إلى ابن عباس ثم إلى النبي ﷺ.

بالكلِّيَّة، واستظهره أبو حيَّان؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٦] وهو يقابل بالأعمى(١).

وقيل: ليس كنايةً عن ذلك، والمرادُ من الآية أنه عليه السلام صارت في عينيه غشاوةٌ بيَّضَتْهما، وكان عليه السلام يدركُ إدراكاً ضعيفاً. وقد تقدَّم الكلامُ في حكم العَمى بالنسبة إلى الأنبياء عليهم السلام(٢).

وكان الحسن ممَّن يرى جوازه؛ فقد أخرج عبد الله بن أحمد في «زوائده» وابنُ جرير وأبو الشيخ عنه قال: كان منذ خرج يوسفُ من عند يعقوبَ عليهما السلام إلى يوم رجع ثمانون سنةً لم يفارق الحزنُ قلبَه، ودموعُه تجري على خدَّيه، ولم يزلْ يبكي حتى ذهب بصرُه، وما على الأرض يومئذٍ واللهِ أكرمُ على الله تعالى منه(٣).

والظاهر أنه عليه السلام لم يحدث له هذا الأمرُ عند الحادث الأخير، ويدلُّ عليه ما أخرجه ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم عن ليث بن أبي سليم: أنَّ جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام في السجن فعرفه، فقال له: أيُّها المَلَكُ الكريم على ربِّه هل لك علمٌ بيعقوب؟ قال: نعم. قال: ما فَعَل؟ قال: ابيضَّتْ عيناه من الحُزن عليك. قال: فما بلغ من الحزن؟ قال: حُزْنَ سبعين مُثْكَلةً. قال: هل له على ذلك من أجرٍ؟ قال: نعم، أجرُ مئةِ شهيد(٤).

وقرأ ابنُ عباس ومجاهد: «من الحَزَن» بفتح الحاء والزاي. وقرأ قتادةُ بضمِّهما(٥).

واستُدلَّ بالآية على جواز التأسُّف والبكاءِ عند النوائب، ولعلَّ الكفَّ عن أمثال ذلك لا يدخلُ تحت التكليف، فإنه قلَّ مَن يملك نفسَه عند الشدائد.

وقد روى الشيخان من حديث أنس أنه ﷺ بكى على ولدِه إبراهيم، وقال: «إنَّ

(١) البحر ٥/ ٣٣٨.
(٢) ص٧٢-٧٣ من هذا الجزء.
(٣) الزهد لأحمد ص ١٠٧، وتفسير الطبري ١٣/ ٣١٣، وعزاه لأبي الشيخ السيوطي في الدر ٤/ ٣٠.
(٤) تفسير الطبري ١٣/ ٣٠٩-٣١٠، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٨٦.
(٥) القراءتان في البحر ٥/ ٣٣٨.

العين تدمعُ، والقلبَ يخشع، ولا نقولُ إلا ما يُرضي ربَّنا، وإنا لفراقك يا إبراهيمُ لمحزونون»[١].

وإنَّما المنهيُّ عنه ما يفعله الجهلةُ من النِّياحة ولطمِ الخدود والصدور، وشقِّ الجيوب، وتمزيقِ الثياب.

ورَوَيا أيضاً من حديث أسامة أنَّه ﷺ رُفع إليه صبيٌّ لبعض بناتِه يجودُ بنفسه، فأقعدَه في حِجْره ونفسُه تتقعقع كأنَّها في شنٍّ، ففاضتْ عيناه عليه الصلاة والسلام، فقال سعد: يا رسولَ الله، ما هذا؟ فقال: «هذهِ رحمةٌ جعلها الله تعالى فيمَن شاء من عباده، وإنَّما يرحم الله تعالى من عباده الرُّحماء»[٢].

وفي «الكشاف» أنه قيل له عليه الصلاة والسلام: تبكي وقد نَهيْتَنا عن البكاء؟ قال: «ما نهيتكم عن البكاء، وإنَّما نهيتكم عن صوتين أحمقين؛ صوتٍ عند الفرح وصوتٍ عند التَّرَح»[٣].

وعن الحسن أنَّه بكى على ولدٍ أو غيرِه، فقيل له في ذلك، فقال: ما رأيتُ الله تعالى جعلَ الحزنَ عاراً على يعقوب عليه السلام.

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ أي: مملوءٌ من الغيظ على أولادِه، ممسكٌ له في قلبه لا يُظْهِره. وقيل: مملوء من الحزن ممسكٌ له لا يبديه. وهو من كَظَم السِّقاء: إذا شدَّه بعد مَلْئه. ففعيل بمعنى مفعول، أي: مكظوم. فهو كما جاء في يونس عليه السلام: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨].

ويجوز أن يكون بمعنى فاعِل كقوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] من كظَمَ الغيظَ: إذا تجرَّعه، أي: شديدُ التجرُّع للغيظ أو الحزن؛ لأنه لم يشكُه إلى أحدٍ قطُّ. وأصله من كَظَم البعيرُ جرَّته: إذا ردَّها في جوفه، فكأنه عليه السلام يردُّ

---

(١) صحيح البخاري (١٣٠٣)، وصحيح مسلم (٢٣١٥)، وهو عند أحمد (١٣٠١٤).

(٢) صحيح البخاري (١٢٨٤)، وصحيح مسلم (٩٢٣)، وهو عند أحمد (٢١٧٧٦).

(٣) الكشاف ٢/ ٣٣٩، وأخرج نحوه عبد بن حميد (١٠٠٦)، والترمذي (١٠٠٥) من حديث جابر ﷺ، وفيه: «...ولكن نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت عند نغمة؛ لهوٍ ولعبٍ ومزامير شيطان. وصوت عند مصيبة: خمش وجوهٍ وشقِّ جيوبٍ ورنة شيطان...» قال الترمذي: حديث حسن.

ذلك في جوفه مرَّةً بعدَ أخرى من غيرِ أن يُطْلِعَ أحداً عليه.

وفي الكلام من الاستعارة على الوجهين ما لا يخفى، ورجِّح الأخير منهما بأنَّ فعيلاً بمعنى فاعل مطَّردٌ، ولا كذلك فعيلاً بمعنى مفعول.

﴿قَالُوا﴾ أي: الإخوة. وقيل: غيرُهم من أتباعه عليه السلام: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَؤُا﴾ أي: لا تفتأ ولاتزال ﴿تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ تفجُّعاً عليه، فحُذف حرفُ النفي كما في قوله:

فـقـلـتُ يـمـيـنَ الله أبـرحُ قـاعـداً ولو قطعُوا رأسي لديكِ وأوصالي(١)

لأنَّ القَسَم إذا لم يكن معه علامةُ الإثبات كان على النفي، وعلامةُ الإثبات هي اللام ونونُ التوكيد، وهما يلزمان جوابَ القسم المُثْبت، فإذا لم يُذكرا دلَّ على أنه منفيٌّ لأنَّ المنفي لا يقارنهما. ولو كان المقصود ها هنا الإثباتَ لقيل: لتفتأَنَّ، ولزومُ اللام والنون مذهبُ البصريين، وقال الكوفيون والفارسيُّ: يجوز الاقتصارُ على أحدهما. وجاء الحذفُ فيما إذا كان الفعل حالاً كقراءة ابنِ كثير: ﴿لَأُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾(٢) وقوله:

[يـمـيـنـاً] لأبـغـض كـلَّ امـرئٍ يـزخـرفُ قـولاً ولا يـفـعـل(٣)

ويتفرَّع على هذا مسألةٌ فقهية، وهي أنَّه إذا قال: والله أقوم. يحنث إذا قام، وإن لم يقم لا، ولا فرقَ بين كون القائل عالماً بالعربية أوْ لا، على ما أفتى به خيرُ الدِّين الرملي(٤)، وذكر أنَّ الحلف بالطَّلاق كذلك، فلو قال: عليَّ الطلاق بالثلاث تقومين الآن. تَطْلُقُ إن قامت، ولا تطلقُ إن لم تقم.

وهذه المسألة مهمةٌ لابأسَ بتحقيق الحقِّ فيها وإن أدَّى إلى الخروج عمَّا نحن بصدده، فنقول: قال غيرُ واحد: إنَّ العوامَّ لو أسقطوا اللامَ والنون في جواب

---

(١) البيت لامرىء القيس، وهو في ديوانه ص ٣٢.

(٢) ينظر ما سيأتي عند تفسير أول سورة القيامة.

(٣) البحر ٣/ ١٣٦، والدر المصون ٣/ ٥٢٤، وما سلف بين حاصرتين منهما.

(٤) هو: خير الدين بن أحمد بن علي الأيوبي، الفاروقي، من أهل الرملة بفلسطين، أشهر كتبه: الفتاوى الخيرية، وله حاشية على البحر الرائق في فقه الحنفية، وحاشية على شرح الكنز للعيني، توفي سنة (١٠٨١هـ). خلاصة الأثر ٢/ ١٣٤، والأعلام ٢/ ٣٢٧.

القَسَم المثبَت المستقبَل، فقال أحدُهم: والله أقومُ ـ مثلاً ـ لا يحنثُ بعدم القيام، فلا كفَّارةَ عليه.

وتعقَّبه المقدسيُّ[(١)] بأنه ينبغي أن تلزَمَهم الكفارةُ؛ لتعارُفهم الحَلِف كذلك، ويؤيِّده ما في «الظهيرية» أنَّه لو سكَّن الهاء، أو نصبَ في «بالله» يكون يميناً، مع أنَّ العرب ما نطقتْ بغيرِ الجرِّ.

وقال أيضاً: إنه ينبغي أن يكون ذلك يميناً وإن خلا من اللام والنُّون، ويدلُّ عليه قولُه في «الولوالجية»[(٢)]: سبحان الله أفعل، لا إله إلا الله أفعل كذا، ليس بيمينٍ إلا أن ينويَه.

واعترضه الخيرُ الرمليُّ بأن ما نقله لا يدلُّ لمدَّعاه:

أمَّا الأوَّل: فلأنه تغييرُ إعرابٍ لا يمنع المعنى الموضوعَ، فلا يضرُّ التسكينُ والرفعُ والنصبُ؛ لِمَا تقرَّر من أنَّ اللَّحنَ لا يمنع الانعقاد.

وأما الثاني: فلأنه ليس من المتنازَع فيه؛ إذ هو الإثباتُ والنفي لا أنه يمين، وقد نُقِل ما ذكرناه عن المذهب والنَّقل يجب اتِّباعه.

ونُظر فيه: أما أوَّلاً: فبأن اللحنَ كما في «المصباح» وغيرِه: الخطأ في العربية[(٣)].

وأمَّا ثانياً: فبأنَّ ما في «الولوالجية» من المتنازع فيه، فإنه أتى بالفعل المضارع مجرَّداً من اللام والنُّون، وجعلَه يميناً مع النِّيَّة، ولو كان على النفي لوجب أن يقال: إنَّه مع النية يمينٌ على عدم الفعل كما لا يخفى. وإنَّما اشترط في ذلك النِّيَّة لكونه غيرَ متعارف.

---

(١) هو: ابن غانم المقدسي، علي بن محمد بن علي، نور الدين، أحد أكابر الحنفية في عصره، له: الرمز في شرح نظم الكنز، شرح به نظم الكنز في فقه الحنفية لابن فصيح، وحاشية على القاموس، وغير ذلك، توفي سنة (١٠٠٤هـ). خلاصة الأثر ٣/ ١٨٠، والأعلام ٥/ ١٢.

(٢) هي فتاوى الولوالجي، وهو ظهير الدين أبو المكارم، إسحاق بن أبي بكر الحنفي، توفي سنة (٧١٠هـ). كشف الظنون ٢/ ١٢٣٠.

(٣) المصباح المنير (لحن).

وقال الفاضل الجلبي: إنَّ بحثَ المقدسيِّ وجيهٌ، والقول بأنَّه يصادمُ المنقولَ يُجاب عنه: بأنَّ المنقولَ في المذهب كان على عُرفِ صدرِ الإسلام قبلَ أن تتغيَّر اللغة، وأمَّا الآن فلا يأتون باللام والنون في مثبَت القَسَم أصلاً، ويفرِّقون بين الإثبات والنفي بوجودِ «لا» ولا وجودِها، وما اصطلاحُهم على هذا إلا كاصطلاح الفرس ونحوهم في أيمانهم وغيرها. اهـ.

ويؤيِّد هذا ما ذكره العلامة قاسم(١) وغيرُه من أنَّه يُحمَل كلامُ كلِّ عاقدٍ وحالفٍ وواقفٍ على عُرفِه وعادته، سواءٌ وافَق كلامَ العرب أم لا. ومثله في «الفتح»(٢)، وقد فرَّق النحاةُ بين «بلى» و«نعم» في الجواب؛ أنَّ «بلى» لإيجاب ما بعد النفي، و«نعم» للتصديق، فإذا قيل: ما قام زيد، فإن قلتَ: بلى، كان المعنى: قد قام. وإن: نعم، كان: ما قام. ونقل في «شرح المنار»(٣) عن «التحقيق»(٤) أنَّ المعتبرَ في أحكام الشرع العرفُ، حتى يقام كلُّ واحدٍ منهما مقامَ الآخر، ومثله في «التلويح».

وقول «المحيط»: والحلفُ بالعربية أن يقول في الإثبات: والله لأفعلنَّ، إلى آخر ما قال، بيانٌ للحكم على قواعد العربية وعُرفِ العرب وعادتهم الخاليةِ عن اللحن، وكلامُ الناس اليومَ إلا ما ندر خارجٌ عن هاتيك القواعد، فهو لغةٌ اصطلاحيَّةٌ لهم كسائر اللغاتِ الأعجمية التي تَصَرَّفَ فيها أهلُها بما تصرَّفوا، فلا يعامَلون بغير لغتهم وقصدِهم إلا مَن التزم منهم الإعرابَ أو قَصَدَ المعنى،

---

(١) هو أبو عدل قاسم بن قطلوبغا زين الدين السودوني، عالم بفقه الحنفية والحديث، مؤرخ باحث، له: تاج التراجم، في تراجم علماء الحنفية، وغريب القرآن، وشرح مختصر المنار في الأصول، وشرح النخبة لابن حجر، وتخريج أحاديث عوارف المعارف. توفي (٨٧٩هـ). البدر الطالع ٢/ ٤٥، الضوء اللامع ٦/ ١٨٤، الأعلام ٥/ ١٨٠.

(٢) فتح القدير لابن الهمام ١/ ١٠، و٥/ ٧٠.

(٣) هو منار الأنوار في أصول الفقه الحنفي للإمام أبي البركات عبد الله بن أحمد النسفي، المتوفى سنة (٧١٠هـ). ومن شروحه: شرح لعبد اللطيف بن عبد العزيز ابن فرشتا الحنفي، وشرح لعلاء الدين محمد بن علي الحصكفي المتوفى (١٠٨٨هـ) صاحب الدر المختار. خلاصة الأثر ٤/ ٦٣، وكشف الظنون ٢/ ١٨٢٣-١٨٢٤.

(٤) لعله شرح لكتاب المنتخب في أصول المذهب لحسام الدين محمد بن محمد الأحسيكثي الحنفي المتوفى سنة (٦٤٤هـ)، شَرَحه عبد العزيز بن أحمد البخاري، وسمَّاه: التحقيق، توفي سنة (٧٣٠هـ). كشف الظنون ٢/ ١٨٤٩.

فينبغي أن يديَّن، ومن هنا قال السائحاني: إنَّ أيمانَنا الآنَ لا تتوقَّف على تأكيد، فقد وضعناها نحن وضعاً جديداً، واصطلحنا عليها اصطلاحاً حادثاً، وتعارفْناها تعارُفاً مشهوراً، فيجب معاملتُنا على قَدْرِ عقولِنا ونيَّاتِنا كما أوقع المتأخِّرون الطلاقَ بـ: عليَّ الطلاقُ، ومَن لم يَدْرِ بعُرف أهل زمانه فهو جاهلٌ. اهـ.

ونظير هذا ما قالوه من أنه لو أُسقِطت الفاءُ الرابطةُ لجواب الشرط فهو تنجيزٌ لا تعليقٌ، حتى لو قال: إنْ دخلت الدارَ أنتِ طالقٌ. تَطلُق في الحال، وهو مبنيٌّ على قواعد العربية أيضاً، وهو خلافُ المتعارَف الآن، فينبغي بناؤه على العُرف فيكون تعليقاً، وهو المرويُّ عن أبي يوسف.

وفي «البحر»: إنَّ الخلافَ مبنيٌّ على جوازِ حذفها اختياراً وعدمه، فأجازه أهلُ الكوفة وعليه فرَّع أبو يوسف، ومنعه أهلُ البصرة وعليه تفرَّع المذهب[1].

وفي «شرح نظم الكنز» للمقدسي[2]: إنَّه ينبغي ترجيحُ قول أبي يوسف؛ لكثرة حذف الفاء في الفصيح، ولقولهم: العوامُّ لا يُعتبَر منهم اللحنُ في قولهم: أنتِ واحدةً؛ بالنصب، الذي لم يقل به أحد.اهـ.

هذا، ثم إنَّ ما ذكرنا إنَّما هو في القَسَم بخلاف التعليق، وهو وإن سمِّي عند الفقهاء حَلِفاً ويميناً لكنه لا يسمَّى قَسَماً، فإن القَسَمَ خاصٌّ باليمين بالله تعالى كما صرَّح به القهستاني[3]، فلا يَجري فيه اشتراطُ اللام والنونِ في المثبت منه لا عند الفقهاء ولا عند اللغويين، ومنه: الحرام يلزمني، و: عليَّ الطلاقُ لا أفعل كذا، فإنه يراد به في العرف: إن فعلت كذا فهي طالق، فيجب إمضاؤه عليهم كما صرَّح به في «الفتح»[4] وغيره؛ قال الحلبي: وبهذا يندفع ما توهَّمه بعضُ الأفاضل من أنَّ في قول القائل: عليَّ الطلاق أجيء اليوم، إن جاء في اليوم وقع

(١) البحر الرائق ٤/١٣.

(٢) وهو ما أشرنا إليه قريباً في ترجمة المقدسي.

(٣) هو شمس الدين محمد الخراساني ثم القهستاني، نزيل بخارى، ومرجع الفتوى فيها في جميع ما وراء النهر، توفي في حدود (٩٦٢هـ)، شَرَح النقاية مختصر الوقاية لصدر الشريعة عبيد الله بن مسعود الحنفي المتوفى (٧٤٥هـ). كشف الظنون ٢/ ١٩٧١. والكلام من حاشية ابن عابدين ٣/ ٧٢٤.

(٤) فتح القدير لابن الهمام ٤/ ٢٦.

الطلاق، وإلا فلا لعدم اللام والنون. وأنت خبيرٌ بأنَّ النحاةَ إنما اشترطوا ذلك في جواب القَسَم المثبَت، لا في جواب الشرط؛ وكيف يسوغ لعاقلٍ فضلاً عن فاضلٍ أن يقول: إنَّ: إن قام زيدٌ أقم، على معنى: إن قام زيدٌ لم أقم، على أنَّ «أجيء» ليس جوابَ الشرط، بل هو فعلُ الشرط؛ لأنَّ المعنى: إن لم أَجِئِ اليومَ فأنتِ طالق، وقد وقع هذا الوهمُ لكثيرٍ من المفتين كالخير الرمليِّ وغيرِه.

وقال السيد أحمد الحموي[1] في «تذكرته الكبرى»: رُفع إليَّ سؤالٌ صورتُه: رجلٌ اغتاظ من ولد زوجته، فقال: عليَّ الطلاق بالثلاث إني أُصبح أشتكيك من النقيب، فلمَّا أصبح تركه ولم يشتكه ومكث مدةً، فهل - والحالة هذه - يقع عليه الطلاقُ أم لا؟ الجواب[2]: إذا ترك شكايته ومضت مدَّةٌ بعد حلفه، لا يقع عليه الطلاق؛ لأنَّ الفعل[3] المذكور وقع في جواب اليمين وهو مثبَتٌ، فيقدَّر النفيُ حيث لم يؤكَّد.

ثم قال: فأجبتُ أنا بعد الحمد لله تعالى: ما أفتى به هذا المجيب من عدم وقوع الطلاق معلِّلاً بما ذكر، فمُنبِىء عن فرطِ جهلِه وحمقه وكثرةِ مجازفته في الدين وخرقِه، إذ ذاك في الفعل إذا وقع جواباً للقسم بالله تعالى نحو: «تفتأ»، لا في جواب اليمين بمعنى التعليق بما يشقُّ من طلاقٍ وعتاق ونحوهما، وحينئذٍ إذا أصبح الحالفُ ولم يشتكه وقع عليه الطلاقُ الثلاث، وبانت زوجته منه بينونة كبرى. اهـ.

ولنعم ما قال، ولله تعالى درُّ القائل:

من الدين كشفُ الستر عن كلِّ كاذبٍ ... وعن كلِّ بدعيٍّ أتى بالعَجائب
فلولا رجالٌ مُؤمِنُون لهُدِّمَت ... صَوامِعُ دينِ الله من كلِّ جانِب[4]

(١) هو شهاب الدين أحمد بن محمد مكي الحموي الحسيني الحنفي، المدرس بمصر، توفي سنة (١٠٩٨هـ)، له إتحاف الأذكياء بتحقيق عصمة الأنبياء، وغيره. إيضاح المكنون ١/ ١٤. وكلامه في حاشية ابن عابدين ٣/ ٧٢٤.

(٢) ورد في هامش (م) أن المجيب عبد المنعم النَّبْتِيْتي. وهو أبو محمد عبد المنعم النبتيتي إمام المشرق الحسيني ومدرِّسُه في النبتيت قريةٍ بمصر، مات سنة (١٠٨٤هـ). تاج العروس (نبت).

(٣) في (م): الحلف، والمثبت من (م) وحاشية ابن عابدين.

(٤) ذكر البيتين ابن عابدين في حاشيته ٣/ ٧٢٥ دون نسبة.

و«فتئ» هذه من أخوات «كان» الناقصة كما أشرنا إليه، ويقال فيها: «فَتَأَ» كضَرَب، و: أَفْتأَ كأكرم، وزعم ابن مالك أنَّها تكون بمعنى: سَكَن وفَتَر، فتكون تامَّةً[1]، وعلى ذلك جاءَ تفسيرُ مجاهد لـ «لا تفتأ» بـ: لا تفتُر عن حبِّه، وأوَّله الزمخشريُّ[2] بأنَّه عليه الرحمة جعلَ الفتوء والفتور أخوين. أي: متلازمين، لا أنَّه بمعناه، فإنَّ الذي بمعنى: فَتَر وسكن هو «فثأ» بالمثلثة، كما في «الصحاح» من فَثَأْتُ القِدْرَ: إذا سَكَّنت غليانَها، والرجلَ: إذا سكَّنت[3] غضبَه.

ومن هنا خطَّأ أبو حيان ابنَ مالك فيما زعمه، وادَّعى أنه من التصحيف[4].

وتعقِّب بأنَّ الأمر ليس كما قاله، فإنَّ ابن مالك نقله عن الفراء، وقد صرَّح به السَّرقُسطيُّ[5]، ولا يمتنع اتفاقُ مادَّتين في معنًى، وهو كثيرٌ، وقد جمع ذلك ابنُ مالك في كتاب سمَّاه: «ما اختلف إعجامُه واتفق إفهامه» ونقله عنه صاحب «القاموس»[6].

واستُدِلَّ بالآية على جواز الحلف بغلبة الظنِّ، وقيل: إنَّهم علموا ذلك منه ولكنَّهم نزَّلوه منزلة المنكر، فلذا أكَّدوه بالقَسَم، أي: نقسم بالله تعالى لا تزال ذاكرَ يوسف متفجِّعاً عليه ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ مريضاً مُشفياً على الهلاك. وقيل: الحَرَض: مَن أذابَه همٌّ أو مرضٌ وجعله مهزولاً نحيفاً، وهو في الأصل مصدرُ «حَرِضَ» فهو حَرِضٌ بكسر الراء، وجاء: أَحْرَضَني كما في قوله:

إنِّي امرُؤٌ لجَّ بي حبٌّ فأحْرَضَنِي ... حتى بُليتُ وحتى شَفَّني السقَمُ[7]

---

(١) التسهيل ص ٥٣بنحوه.
(٢) في الكشاف ٢/ ٣٣٩.
(٣) في الأصل و(م): سكن، والمثبت من الصحاح (فثأ)، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٢، والكلام منه.
(٤) البحر ٥/ ٣٢٧.
(٥) هو أبو القاسم ثابت بن حزم بن عبد الرحمن بن مطرف، السرقسطي الأندلسي، صاحب كتاب الدلائل، كان عالماً مفتياً، بصيراً بالحديث والنحو واللغة، توفي (٣١٣هـ)، وقيل: (٣١٤هـ). السير ١٤/ ٥٦٢.
(٦) مادة (فتأ)، وفيه أن اسمَ كتاب ابن مالك: جمع اللغات المشكلة.
(٧) البيت في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣١٧، وتفسير الطبري ١٣/ ٣٠١، وتفسير القرطبي =

ولكونه كذلك في الأصل لا يؤنَّث ولا يثنَّى ولا يُجمَع؛ لأنَّ المصدر يطلَقُ على القليل والكثير، وقال ابن إسحاق: الحرَضُ: الفاسد الذي لا عقلَ له.

وقرىء: «حَرِضاً» بفتح الحاء وكسر الراء(١).

وقرأ الحسن البصريُّ: «حُرُضاً» بضمَّتين(٢). ونحوُه من الصفات: رجلٌ جُنُب وغُرُب(٣).

﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾ أي: الميِّتين، و«أو» قيل: يحتمل أن تكون بمعنى «بل»، أو بمعنى «إلى»، فلا يَرِد عليه أنَّ حقَّ هذا التقديمُ على «حتى تكون حرضاً»، فإن كانت للترديد فهي لمنع الخلوِّ، والتقديمُ على ترتيب الوجود، كما قيل في قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. أو لأنه أكثر وقوعاً.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى﴾ البثُّ في الأصل: إثارة الشيء وتفريقُه، كبثِّ الريح الترابَ، واستُعمِل في الغمِّ الذي لا يُطيق صاحبُه الصبرَ عليه، كأنَّه ثقُل عليه فلا يُطيق حملَه وحدَه فيفرِّقُه على مَن يُعينه، فهو مصدرٌ بمعنى المفعول، وفيه استعارةٌ تصريحيةٌ.

وجوِّز أن يكون بمعنى الفاعل، أي: الغمّ الذي بثَّ الفكرَ وفرَّقه، وأيًّا ما كان فالظاهرُ أنَّ القومَ قالوا ما قالوا بطريق التسلية والإشكاء، فقال في جوابهم: إنِّي لا أشكو ما بي إليكم أو إلى غيركم حتى تتصدَّوا لِتَسليتي، وإنما أشكو غمِّي ﴿وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تعالى ملتجئاً إلى جنابه متضرِّعاً في دفعه لدى بابه، فإنَّه القادرُ على ذلك.

وفي الخبر عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من كنوز البرِّ إخفاءُ الصدقة وكتمانُ المصائب والأمراضِ، ومَن بثَّ لم يصبر»(٤).

= ١١/ ٤٣٤ للعرجي، وهو عبد الله بن عمر بن عبد الله. وهو غير منسوب في المحرر الوجيز ٢/ ٢٧٣، وزاد المسير ٤/ ٢٧٣، والبحر ٥/ ٣٢٧.

(١) الكشاف ٢/ ٣٣٩.

(٢) القراءات الشاذة ص ٦٥، والكشاف ٢/ ٣٣٩، والمحرر الوجيز ٢/ ٢٧٣.

(٣) ورد هنا في هامش الأصل و(م): في الصحاح: هو غريب وغُرُب أيضاً بضمِّ الغين والراء. اهـ منه. وينظر الصحاح (غرب).

(٤) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ١٩٧، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٠٥٠).

وقرأ الحسن وعيسى: «حَزَني» بفتحتين. وقرأ قتادة بضمَّتين[١].

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: من لطفه ورحمته ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾، فأرجو أن يرحمني ويلطُفَ بي ولا يخيِّبَ رجائي، فالكلام على حذف مضاف، و«من» بيانيَّة قدِّمت على المبيَّن، وقد جوَّزه النحاة.

وجوِّز أن تكونَ ابتدائيةً، أي: أعلم وحياً أو إلهاماً، أو: بسببٍ من أسباب العلم من جهته تعالى ما لا تعلمون من حياة يوسف.

قيل: إنَّه عليه السلام علم ذلك من الرؤيا حسبما تقدَّم. وقيل: إنَّه رأى ملَكَ الموت في المنام فأخبره أنَّ يوسف حيٌّ. ذكره غيره واحد، ولم يذكروا له سنداً[٢]. والمرويُّ عن ابن أبي حاتم[٣] عن النضر أنه قال: بلغني أنَّ يعقوب عليه السلام مكث أربعةً وعشرين عاماً لا يدري أيوسف عليه السلام حيٌّ أم ميِّتٌ، حتى تمثَّل له ملَكُ الموت عليه السلام، فقال له: من أنت؟ قال: أنا ملك الموت. فقال: أنشدك بإلهِ يعقوب هل قبضتَ روحَ يوسف؟ قال: لا. فعند ذلك قال عليه السلام:

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ﴾ أي: فتعرَّفوا، وهو تَفَعَّل من الحسِّ، وهو في الأصل: الإدراكُ بالحاسَّة، وكذا أصل التحسُّسِ: طلبُ الإحساس، واستعماله في التعرُّفِ استعمالٌ له في لازم معناه، وقريبٌ منه التجسُّس بالجيم، وقيل: إنَّه به في الشرِّ، وبالحاء في الخير. ورُدَّ بأنه قرئ هنا: «فتَجَسَّسُوا» بالجيم[٤] أيضاً. وقال الراغب: أصلُ الجسِّ: مسُّ العِرْق وتعرُّفُ نَبضِه للحكم به على الصحَّة والمرض، وهو أخصُّ من الحسِّ فإنَّه تعرُّفُ ما يُدرِكه الحِسُّ، والجَسَّ تعرُّفُ حالٍ مّا من ذلك[٥].

﴿مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أي: من خبرهما، ولم يذكر الثالثَ لأنَّ غيبته اختياريةٌ لا يعسرُ إزالتُها، وعلى فرضِ ذلك الداعيةُ فيهم للتحسُّسِ منه لكونه أخاهم قويَّةٌ

---

(١) القراءات الشاذة ص ٦٥، والبحر ٥/ ٣٣٩.
(٢) النكت والعيون ٣/ ٧٢، والكشاف ٢/ ٣٤٠، والبحر ٥/ ٣٣٩.
(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٨٩-٢١٩٠.
(٤) القراءات الشاذة ص٦٥، وهي قراءة النخعي.
(٥) مفردات الراغب (جس).

فلا حاجةَ لأمرهم بذلك، والجارُّ متعلِّقٌ بما عنده، وهو بمعنى «عن» بناءً على ما نُقِل عن ابن الأنباري أنَّه لا يقال: تحسَّسْتُ من فلان، وإنما يقال: تحسَّستُ عنه. وجوّز أن تكون للتبعيض على معنى: تحسَّسوا خبراً من أخبار يوسف وأخيه.

﴿وَلَا تَاْيْـَسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ أي: لا تقنطوا من فَرَجه سبحانه وتنفيسه، وأصلُ معنى الرَّوح بالفتح ـ كما قال الراغب(١) ـ التنفُّس، يقال: أراح الإنسان: إذا تنفَّس، ثم استعير للفرج، كما قيل له تنفيس، من النَّفَس.

وقرأ عمر بن عبد العزيز والحسن وقتادة: «رُوح» بالضَّمِّ(٢).

وفسِّر بالرحمة، على أنَّه استعارةٌ من معناها المعروف؛ لأنَّ الرحمة سببُ الحياة كالرُّوح، وإضافتها إلى الله تعالى لأنَّها منه سبحانه، وقال ابن عطية(٣): كأنَّ معنى هذه القراءة: لا تيأسوا من حيٍّ معه روحُ الله الذي وهبه، فإنَّ كلَّ مَن بقيت روحُه يُرجى، ومن هذا قوله:

وفي غيرِ مَن قد وَارَتِ الأرضُ فاطْمَعِ(٤)

وقول عبيد بنِ الأبرص:

وكلُّ ذي غَيبةٍ يَؤُوبُ   وغائبُ الموتِ لا يَؤُوبُ(٥)

وقرأ أبيٌّ: «مِن رَحمةِ الله». وعبدُ الله: «من فضل الله»(٦). وكلاهما عند أبي حيان تفسيرٌ لا قراءة(٧).

وقرىء: «تَأْيَسُوا»(٨).

---

(١) في المفردات (روح).
(٢) المحتسب ١/ ٣٤٨، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٧٤، والبحر ٥/ ٣٣٩.
(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ٢٧٤.
(٤) البيت لأرطاة بن سُهَيَّة كما في الأغاني ١٣/ ٣٩، وصدره: عن الدهر فاصفح إنه غير مُعْتِبٍ.
(٥) ديوان عبيد بن الأبرص ص ٢٦.
(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٢٧٥، والبحر ٥/ ٣٣٩.
(٧) البحر ٥/ ٣٣٩.
(٨) وهي قراءة البزي عن ابن كثير كما في التيسير ص ١٢٩. وينظر الحجة ٤/ ٤٣٢-٤٣٣.

وقرأ الأعرج: «تِيئَسُوا» بكسر التاء[١].

والأمر والنهيُ على ما قيل إرشادٌ لهم إلى بعضٍ ما أبهم في قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ثم إنَّه عليه السلام حذَّرهم عن ترك العمل بموجب نهيه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الشأن ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٧﴾ لعدم علمهم بالله تعالى وصفاته، فإنَّ العارفَ لا يقنَطُ في حالٍ من الأحوال. أو تأكيدٌ[٢] لِمَا يعلمونه من ذلك، قال ابن عباس: إنَّ المؤمن مِن الله تعالى على خيرٍ؛ يرجوه في البلاء ويحمده في الرخاء.

وذكر الإمام أنَّ اليأسَ لا يحصُل إلا إذا اعتقد الإنسانُ أنَّ الإله غيرُ قادرٍ على الكمال، أو غيرُ عالمٍ بجميع المعلومات، أو ليس بكريم، واعتقادُ كلٍّ من هذه الثلاث يُوجِب الكفرَ، فإذا كان اليأسُ لا يحصل إلا عند حصول أحدها ـ وكلٌّ منها كفرٌ ـ ثبت أنَّ اليأسَ لا يحصل إلا لمن كان كافراً[٣].

واستَدلَّ بعضُ أصحابنا بالآية على أنَّ اليأسَ من رحمة الله تعالى كفرٌ، وادَّعى أنها ظاهرةٌ في ذلك. وقال الشهاب: ليس فيها دليلٌ على ذلك، بل هو ثابتٌ بدليل آخر[٤].

وجمهورُ الفقهاء على أنَّ اليأسَ كبيرةٌ، ومفادُ الآية أنه من صفات الكفار، لا أنَّ مَن ارتكبه كان كافراً بارتكابه، وكونُه لا يحصُل إلا عند حصول أحدِ المكفِّرات التي ذكرها الإمام، مع كونه في حيِّز المنع؛ لجوازِ أن ييأسَ من رحمة الله تعالى إياه مع إيمانه بعموم قدرته تعالى وشمولِ علمه وعِظَمِ كرمه جلَّ وعلا؛ لمجرَّد استعظام ذنبه مثلاً واعتقادِه عدمَ أهليته لرحمة الله تعالى من غير أن يخطُر له أدنى ذرَّةٍ من تلك الاعتقادات السيئة الموجِبة للكفر = لا يستدعي أكثرَ من اقتضائه سابقيَّة الكفر دون كون ارتكابه نفسه كفراً. كذا قيل.

---

(١) البحر ٥/ ٣٣٩.
(٢) في (م): تأكيداً.
(٣) التفسير الكبير ١٨/ ١٩٩.
(٤) حاشية الشهاب ٥/ ٢٠٣.

وقيل: الأولى التزامُ القولِ بأنَّ اليأسَ قد يُجامِع الإيمانَ، وأنَّ القولَ بأنه لا يحصل إلا بأحَد الاعتقادات المذكورة غيرُ بَيِّنٍ ولا مبينٍ.

نعم كونه كبيرةً مما لا شكَّ فيه، بل جاء عن ابن مسعود ﷺ أنَّه أكبر الكبائر[1]، وكذا القنوطُ وسوءُ الظنِّ، وفرَّقوا بينها بأنَّ اليأسَ عدمُ أملِ وقوع شيءٍ من أنواع الرحمة له، والقنوطُ هو ذاك مع انضمام حالةٍ هي أشدُّ منه في التصميم على عدم الوقوع، وسوءُ الظن هو ذاك مع انضمام أنه مع عدم رحمته له يشدد له العذاب كالكفار.

وذكر ابن نجيم في بعض رسائله[2] ما به يرجع الخلافُ بين مَن قال: إن اليأسَ كفرٌ. ومن قال: إنه كبيرةٌ = لفظيّاً، فقال: قد ذكر الفقهاءُ من الكبائر الأمنَ من مكر الله تعالى واليأسَ من رحمته. وفي «العقائد»: واليأسُ من رحمة الله تعالى كفرٌ [والأمن من مكر الله تعالى كفر] فيحتاج إلى التوفيق.

والجوابُ أنَّ المرادَ باليأس إنكارُ سعة الرحمة للذنوب، ومن الأمن الاعتقادُ أنْ لا مكر، ومرادُ الفقهاء من اليأس اليأسُ لاستعظام ذنوبه واستبعادِ العفوِ عنها، ومن الأمن الأمنُ لغلبة الرجاء عليه بحيث دخل في حدِّ الأمن. ثم قال: والأوفق بالسنَّة طريقُ الفقهاء؛ لحديث الدارقطنيِّ عن ابن عباس مرفوعاً، حيث عدَّها من الكبائر وعَطَفها على الإشراك بالله تعالى[3]. اهـ، وهو تحقيقٌ نفيسٌ، فليفهم.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ أي: على يوسف عليه السلام بعد ما رجعوا إلى مصر بموجب أمرِ أبيهم، وإنَّما لم يُذكر؛ إيذاناً بمسارعتهم إلى ما أُمِروا به، وإشعاراً بأنَّ ذلك أمرٌ محقَّقٌ لا يفتقر إلى الذكر والبيان.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٦/ ٦٤٨.

(٢) المسماة: رسالة في بيان الكبائر والصغائر من الذنوب ص٢٥٩ من مجموع رسائله، وما سيرد بين حاصرتين منها.

(٣) رسائل ابن نجيم ص٢٥٩، وفيه: عدهما... وعطفهما...، وحديث ابن عباس لم نقف عليه عند الدارقطني، وقد ذكره في العلل ٥/ ٣٤٢ من حديث ابن مسعود مرفوعاً وموقوفاً، وقال عن الموقوف: وهو الصواب.
وحديث ابن عباس أخرجه البزار (١٠٦-كشف)، وابن أبي حاتم ٣/ ٩٣١ بسند حسن كما قال السيوطي في الدر ٢/ ١٤٧.

وأنكر اليهود رجوعَهم بعد أخذ بنيامين إلى أبيهم ثم عودَهم إلى مصر، وزعموا أنَّهم لمَّا جاؤوا أولاً للميرة اتَّهمهم بأنهم جواسيس، فاعتذروا وذكروا أنهم أولادُ نبيِّ الله تعالى يعقوب، وأنهم كانوا اثني عشر ولداً، هلك واحدٌ منهم وتخلَّف أخوه عند أبيهم يتسلَّى به عن الهالك حيث إنَّه كان يحبُّه كثيراً. فقال: ائتوني به لأتحقَّق صدقَكم. وحبس شمعون عنده حتى يجيئوا، فلمَّا أتوا به ووقع ما وقع من أمر السرقة أظهروا الخضوعَ والانكسارَ، فلم يملك عليه السلام نفسَه حتى تعرَّف إليهم، ثم أمرهم بالعود إلى أبيهم ليخبروه الخبرَ ويأتوا به. وهو الذي تضمَّنته توراتُهم اليومَ[(١)]، وما بعد الحقِّ إلا الضلال.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ﴾ خاطبوه بذلك تعظيماً له على حدِّ خطابهم السابق به على ما هو الظاهر، وهل كانوا يعرفون اسمَه أم لا؟ لم أَرَ مَن تعرَّض لذلك، فإن كانوا يعرفونه ازداد أمرُ جهالتهم غرابةً.

والمراد على ما قال الإمام[(٢)] وغيره: يا أيها الملكُ القادرُ المنيع ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ الهزال من شدَّة الجوع، والمراد بالأهل ما يشمل الزوجةَ وغيرَها ﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ مدفوعةٍ يدفعها كلُّ تاجرٍ رغبةً عنها واحتقاراً، من: أَزْجَيْتُه: إذا دَفَعْتَه وطردْتَه، والريحُ تُزجي السحابَ، وأنشدوا لحاتم:

لِيَبْكِ على ملحان ضيفٌ مدفَّعٌ ... وأرمَلَةٌ تُزجي مع الليل أرمَلَا[(٣)]

وكنَى بها عن القليل أو الرديء؛ لأنَّه لعدم الاعتناء يُرمى ويُطرح، قيل: كانت بضاعتُهم من متاع الأعراب صوفاً وسمناً، وقيل: الصنوبر وحبَّة الخضراء[(٤)]. ورُوي ذلك عن أبي صالح وزيد بن أسلم. وقيل: سويق المُقْل[(٥)] والأَقِط. وقيل:

---

(١) ينظر العهد القديم، سفر التكوين ص١٣٤.

(٢) في التفسير الكبير ١٨/ ٢.

(٣) الزاهر لابن الأنباري ٢/ ٩١، وتفسير الطبري ١٣/ ٣١٧، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٧٥، والبحر ٥/ ٣٤٠.

(٤) ورد في هامش الأصل و(م): معروفة. وليست الفستق كما ظنه أبو حيان. اهـ منه. وهي ثمرة البُطم، من فصيلة الفستق. المعجم الوسيط (بطم). وقول أبي حيان في البحر ٥/ ٣٤٠.

(٥) المُقْل: ثمر الدَّوْم. الصحاح (مقل).

قديدٌ وحَشٌّ. وقيل: حبالاً وأعدالاً وأحقاباً[١].

وقيل: كانت دراهم زيوفاً لا تؤخذ إلا بوضيعة، ورُوي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما[٢]. والمروي عن الحسن تفسيرُها بقليلةٍ لا غير[٣]. وعلى كلٍّ ف «مزجاة» صفةٌ حقيقيَّةٌ للبضاعة.

وقال الزجَّاج: هي من قولهم: فلان يُزجي العيشَ، أي: يدفع الزمانَ بالقليل، والمعنى: إنَّا جئنا ببضاعةٍ يدفع بها الزمانُ، وليسَتْ مما ينتفع به[٤]. والتقديرُ على هذا: ببضاعةٍ مزجاةٍ بها الأيامُ، أي: تُدْفَعُ بها ويُصْبَرُ عليها حتى تنقضي، كما قيل:

دَرِّجِ الأيامَ تَنْدَرِجِ ... وبيوتَ الهمِّ لا تَلِجِ[٥]

وما ذُكِر أوَّلاً هو الأولى.

وعن الكلبيِّ أنَّ «مزجاة» من لغة العجم. وقيل: من لغة القبط[٦].

وتعقَّب ذلك ابنُ الأنباريِّ بأنَّه لا ينبغي أن يجعل لفظٌ معروفُ الاشتقاقِ والتصريفِ منسوباً إلى غيرِ لغة العرب[٧]، فالنسبة إلى ذلك: مزجاة.

وقرأ حمزة والكسائيُّ: «مزجية» بالإمالة[٨]، لأنَّ أصلها الياء.

والظاهرُ أنَّهم إنَّما قدَّموا هذا الكلامَ ليكون ذريعةً إلى إسعافِ مرامِهم ببَعثِ الشفقة وهزِّ العطف والرأفة وتحريكِ سلسلة الرحمة، ثم قالوا: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾

---

(١) جمع حَقَب، وهو الحزام الذي يلي حَقْوَ البعير، وحبل تشدُّ به الحقيبة. المعجم الوسيط (حقب).

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٣٢٣.

(٣) تفسير الطبري ١٣/ ٣٢١.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٢٧.

(٥) ذكره الميكالي في كتاب المنتخل ٢/ ٦٩٢ دون نسبة، ونقله المصنف من حاشية الشهاب ٥/ ٢٠٣.

(٦) النكت والعيون ٣/ ٧٣.

(٧) نقله المصنف من التفسير الكبير ١٨/ ٢٠٠.

(٨) التيسير ص ٤٩، والنشر ص٨٣.

أي: أتممه لنا ولا تَنْقُصْه؛ لقلَّة بضاعتنا أو رداءتها، واستُدِلَّ بهذا على أنَّ الكيل على البائع، ولا دليلَ فيه.

﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ ظاهرُه بالإيفاء، أو بالمسامحة وقبولِ المزجاة، أو بالزيادة على ما يساويها.

وقال الضحاك وابن جريج: إنَّهم أرادوا: تصدَّق علينا بردِّ أخينا بنيامين على أبيه(١). قيل: وهو الأنسب بحالهم بالنسبة إلى أمر أبيهم، وكأنهم أرادوا: تَفَضَّلْ علينا بذلك. لأنَّ ردَّ الأخ ليس بصدقةٍ حقيقةً، وقد جاءت الصدقة بمعنى التفضُّل كما قيل، ومنه: تصدَّق اللهُ تعالى على فلانٍ بكذا.

وأما قول الحسن لمن سمعه يقول: اللهم تصدَّق عليَّ: إنَّ الله تعالى لا يتصدَّقُ، إنما يتصدَّقُ من يبغي الثوابَ، قل: اللهمَّ أعطني، أو: تفضَّل عليَّ، أو: ارحمني(٢). فقد رُدَّ بقوله ﷺ: «صدقة تصدَّقَ اللهُ تعالى بها عليكم، فاقْبَلُوا صدقتَه»(٣). وأجيب عنه [بأنَّه](٤) مجاز أو مشاكلةٌ، وإنما ردَّ الحسن على القائل؛ لأنه لم يكن بليغاً كما في قصة المتوفَّى(٥).

وادعى بعضهم تعيُّنَ الحمل على المجاز أيضاً إذا كان المرادُ طلبَ الزيادة على ما يُعطى بالثمن، بناءً على أنَّ حرمة أخذ الصدقة ليست خاصَّة بنبينا ﷺ كما ذهب إليه سفيان بن عيينة(٦)، بل هي عامَّةٌ له عليه الصلاة والسلام ولمن قبله من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، وآلِهم كما ذهب إليه البعض، والسائلون من إحدى الطائفتين لا محالةَ.

وتعقِّب بأنَّا لو سلَّمنا العمومَ لا نسلِّم أنَّ المحرَّمَ أخذُ الصدقة مطلقاً، بل المحرَّمُ إنما هو أخذُ الصدقة المفروضة، وما هنا ليس منها.

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٣٢٦.

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف ٢/ ٣٤٠.

(٣) أخرجه أحمد (١٧٤)، ومسلم (٦٨٦) من حديث عمر ﷺ.

(٤) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٥/ ٢٠٣، والكلام منه.

(٥) لم نقف على القصة.

(٦) أخرجه قوله الطبري في تفسيره ١٣/ ٣٦١.

والظاهر ـ كما قال الزمخشريُّ[١] ـ أنَّهم تمسكنوا له عليه السلام بقولهم: (مَسَّنَا) إلخ، وطلبوا إليه أن يتصدَّق عليهم بقولهم: (وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ)، فلو لم يحمل على الظاهر لما طابقه ذلك التمهيدُ ولا هذا التوطيدُ، أعني: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ بذكر الله تعالى وجزائه الحاملَيْنِ على ذلك، وأنَّ فاعلَه منه تعالى بمكان.

قال النَّقَّاش: وفي العدول عن: إنَّ الله تعالى يجزيك بصدقتك، إلى ما في النظم الكريم مندوحةٌ عن الكذب، فهو من المعاريض، فإنهم كانوا يعتقدونه ملكاً كافراً، ورُوي مثلُه عن الضحاك.

ووُجِّه عدمُ بدءهم بما أمروا به على القول بخلاف الظاهر في متعلَّق التصدُّق بأنَّ فيما سلكوه استجلاباً للشفقة والرحمة، فكأنهم أرادوا أن يملؤوا حياضَ قلبه من نَميرها ليسقوا به أشجارَ تحسُّسِهم لتُثمِرَ لهم غرضَ أبيهم.

ووجَّهه بعضُهم[٢] بمثل هذا، ثم قال: على أنَّ قولَهم «وتصدَّق» إلخ، كلامٌ ذو وجهين، فإنه يحتمل الحملَ على المحملين، فلعلَّه عليه السلام حَمَله على طلب الردِّ ولذلك ﴿قَالَ﴾ مجيباً عمَّا عرَّضوا به وضمَّنوه كلامَهم من ذلك: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ وكان الظاهرُ على هذا الاقتصارَ على التعرُّضِ بما فُعِل مع الأخ، إلا أنه عليه السلام تعرَّض لِمَا فُعِل به أيضاً لاشتراكهما في وقوع الفعل عليهما، فإنَّ المرادَ بذلك إفرادُهم له عنه[٣] وإذلالُه بذلك حتى كان لا يستطيع أن يكلِّمهم إلا بعجزٍ وذلَّةٍ

والاستفهام ليس عن العلم بنفسِ ما فعلوه؛ لأنَّ الفعل الإراديَّ مسبوقٌ بالشعور لا محالةَ، بل هو عمَّا فيه من القبح بدليل قوله: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾ أي: هل علمتم قبحَ ما فعلتموه[٤] زمانَ جهلكم قبحَه، وزال ذلك الجهلُ أم لا؟ وفيه من

---

(١) في الكشاف ٢/ ٣٤٠.

(٢) تفسير أبي السعود ٤/ ٣٠٣.

(٣) أي: يوسف.

(٤) ورد هنا في هامش الأصل و(م) ما نصه: قيل: الكلام على حذف مضاف. وقيل: هو كناية عما ذكر. فافهم. اهـ منه.

إبداءِ عذرهم وتلقينِهم إياه ما فيه، كما في قوله تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦].

والظاهر لهذا أنَّ ذلك لم يكن تشفِّياً بل حثٌّ على الإقلاع ونصحٌ لهم لمَّا رأى من عجزهم وتمسكنهم ما رأى مع خفيٍّ معاتبةٍ على وجود الجهل، وأنه حقيقُ الانتفاء في مثلهم، فلله تعالى هذا الخُلُق الكريم كيف ترك حظَّه من التشفِّي إلى حقِّ الله تعالى على وجهٍ يتضمَّن حقَّ الأخوَّتين أيضاً، والتلطُّفَ في إسماعه مع التنبيه على أنَّ هذا الضرَّ أولى بالكشف.

قيل: ويجوز أن يكونَ هذا الكلامُ منه عليه السلام منقطعاً عن كلامهم وتنبيهاً لهم عمَّا هو حقُّهم ووظيفتهم من الإعراض عن جميع المطالب والتمحُّض لطلب بنيامين، بل يجوز أن يقف عليه السلام بطريق الوحي أو الإلهام على وصية أبيه عليه السلام وإرساله إيَّاهم للتحسُّس منه ومن أخيه، فلمَّا رآهم قد اشتغلوا عن ذلك قال ما قال.

والظاهر أنه عليه السلام لمَّا رأى ما رأى منهم وهو من أرقِّ خَلْق الله تعالى قلباً، وكان قد بلغ الكتابُ أجلَه، شرع في كشف أمره فقال ما قال.

روي عن ابن إسحاق أنهم لمَّا استعطفوه رقَّ لهم ورحمهم حتى إنه ارفضَّ دمعُه باكياً ولم يملك نفسَه، فشرع في التعرُّف لهم، وأراد بما فعلوه به جميعَ ما جرى، وبما فعلوه بأخيه أذاهم له وجفاءهم إياه وسوءَ معاملتهم له وإفرادَهم له كما سمعت. ولم يذكر لهم ما آذوا به أباهم ـ على ما قيل ـ تعظيماً لقَدْرِه وتفخيماً لشأنه أن يذكره مع نفسه وأخيه، مع أنَّ ذلك من فروع ما ذكر.

وقيل: إنهم أدَّوا إليه كتاباً من أبيهم، وصورتُه كما في «الكشاف»[1]: من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر، أما بعد، فإنَّا أهل بيت موكَّلٌ بنا البلاء، أما جدِّي فشُدَّت يداه ورجلاه، ورُمي به في النار ليحرق، فنجَّاه الله تعالى وجُعلت النارُ عليه بَرْداً وسلاماً، وأما أبي فوُضِع على قفاه السكينُ ليُقتَل، ففداه الله تعالى، وأما أنا فكان لي ابنٌ وكان أحبَّ الأولاد إليَّ، فذهب به إخوتُه إلى البَرِّيَّة، ثم أتوني بقميصه ملطَّخاً بالدم وقالوا: قد أكله

---

(١) ٢/ ٣٤١.

الذئب. فذهبت عيناي من بكائي عليه، ثم كان لي ابنٌ كان أخاه من أمه، وكنتُ أتسلّى به، فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا: إنه سَرَقَ، وإنَّك حبستَه لذلك، وإنَّا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقاً، فإن رددتَه عليَّ، وإلا دعوتُ عليك دعوةً تدرك السابعَ من ولدك، والسلام. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي روق نحوه[1].

فلما قرأ يوسف عليه السلام الكتاب لم يتمالك وعيل صبرُه، فقال لهم ذلك.

ورُوي أنه لما قرأ الكتاب بكى وكتب الجوابَ: اصبر كما صبروا، تظفر كما ظفروا.

هذا، وما أشرنا إليه من كون المراد إثباتَ الجهل لهم حقيقةً هو الظاهر، وقيل: لم يُرد نفْيَ العلم عنهم؛ لأنهم كانوا علماء، ولكنهم لمَّا لم يفعلوا ما يقتضيه العلم، وتركُ مقتضى العلم من صنيع الجهَّال، سمَّاهم جاهلين.

وقيل: المرادُ: جاهلون بما يؤول إليه الأمر.

وعن ابن عباس والحسن: «جاهلون»: صبيان قبلَ أن تبلغوا أوانَ الحُلم والرزانة. وتعقِّب بأنه ليس بالوجه؛ لأنه لا يطابق الوجودَ، وينافي: «ونحن عصبة»، فالظاهرُ عدم صحة الإسناد.

وزعم في «التحرير» أنَّ قولَ الجمهور: إنَّ الاستفهام للتقرير والتوبيخ، ومرادُه عليه السلام تعظيمُ الواقعة، أي: ما أعظمَ ما ارتكبتم في يوسف وأخيه، كما يقال: هل تدري مَن عصيتَ؟.

وقيل: «هل» بمعنى «قد» كما في: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ [الإنسان: ١] والمقصود هو التوبيخ أيضاً.

وكلا القولين لا يعوَّل عليه، والصحيحُ ما تقدَّم.

ومن الغريب الذي لا يصحُّ ألبتة ما حكاه الثعلبيُّ أنه عليه السلام حين قالوا له ما قالوا غضب عليهم فأمر بقتلهم، فبكوا وجزعوا، فرقَّ لهم وقال: (هَلْ عَلِمْتُم) إلخ.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٨٥.

﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ﴾ استفهامُ تقريرٍ، ولذلك أكِّد بـ «إنَّ» واللام؛ لأنَّ التأكيدَ يقتضي التحقُّقَ المنافي للاستفهام الحقيقيِّ، ولعلهم قالوه استغراباً وتعجُّباً.

وقرأ ابن كثير وقتادة وابن محيصن: «إنَّكَ» بغير همزة استفهام[١]، قال في «البحر»: والظاهر أنها مرادة، ويَبْعُدُ حَمْلُه على الخبر المحض، وقد قاله بعضهم لتعارُضِ الاستفهام والخبر إن اتَّحد القائلون، وهو الظاهر، فإن قدِّر أنَّ بعضاً استفهم وبعضاً أَخبَر، ونُسب كلٌّ إلى المجموع أمكن، وهو مع ذلك بعيدٌ[٢].

و«أنت» في القراءتين مبتدأ، و«يوسف» خبرُه، والجملة في موضع الرفع خبرُ «إنَّ»، ولا يجوز أن يكون «أنت» تأكيداً للضمير الذي هو اسم «إنَّ»؛ لحيلولة اللام.

وقرأ أُبيٌّ: «أئنَّكَ أو أنتَ يوسف». وخرَّج ذلك ابن جني في كتاب «المحتسب» على حذف خبر «إنَّ»، وقدَّره: أئنك لغير يوسف أو أنت يوسف[٣]. وكذا الزمخشريُّ إلا أنه قدَّره: أئنَّكَ يوسف، أو أنت يوسف. ثم قال: وهذا كلامُ متعجِّب مستغربٍ لِمَا يسمع فهو يكرِّر الاستثبات[٤].

قال في «الكشف»: وما قدَّره أولى؛ لقلَّة الإضمار وقوَّة الدلالة على المحذوف، وإن كان الأولُ أجرى على قانون الاستفهام. ولعلَّ الأنسب أن يقدَّر: أئنَّكَ أنت أو أنت يوسف، تجهيلاً لنفسه أن يكون مخاطَبُه يوسف، أي: أئنك المعروفُ عزيزُ مصر أو أنت يوسف، استبعدوا أن يكون العزيزُ يوسفَ، أو يوسفُ عزيزاً، وفيه قلَّة الإضمار أيضاً مع تغايُر المعطوفِ والمعطوف عليه، وقوَّة الدلالة على المحذوفِ، والجري على قانون الاستفهام مع زيادة الفائدة من إيهام البعد بين الحالتين.

---

(١) التيسير ص١٣٠، والنشر ١/ ٣٧٢، وهي قراءة أبي جعفر من العشرة، والكلام من البحر المحيط ٥/ ٣٤٢.

(٢) البحر ٥/ ٣٤٢.

(٣) المحتسب ١/ ٣٤٩.

(٤) الكشاف ٢/ ٣٤١. وجاء في الأصل: الاشتياق. وفي (م): الاستيثاق. والمثبت من المصدر.

فإن قيل: ذاك أوفق للمشهور لقوَّة الدلالة على أنه هو.

يجاب بأنه يكفي في الدلالة على الأوجُهِ كلِّها أنَّ الاستفهامَ غيرُ جارٍ على الحقيقة، على أنَّ عدمَ التنافي بين كونه مخاطبَهم المعروفَ وكونِه يوسفَ شديدُ الدلالة أيضاً مع زيادة إفادةِ ذكرِ موجبِ استبعادِهم. وهو كلامٌ يلوح عليه مخايلُ التحقيق.

واختلفوا في تعيينِ سببِ معرفتهم إياه عليه السلام فقيل: عرفوه بروائه[١] وشمائله، وكان قد أدناهم إليه ولم يُدنِهم من قَبْلُ. وقيل: كان يكلِّمهم من وراء حجابٍ، فلمَّا أراد التعرُّفَ إليهم رفعه فعرفوه.

وقيل: تبسَّم فعرفوه بثناياه، وكانت كاللؤلؤ المنظوم، وكان يُضيء ما حواليه من نورِ تبسُّمه.

وقيل: إنَّه عليه السلام رفع التاجَ عن رأسه فنظروا إلى علامةٍ بقرنه كان ليعقوب وإسحاق وسارة مثلُها تُشبه الشامةَ البيضاء، فعرفوه بذلك.

وينضمُّ إلى كلِّ ذلك علمُهم أنَّ ما خاطبهم به لا يصدُر مثلُه إلا عن حنيفٍ مسلمٍ من سِنخ[٢] إبراهيم، لا عن بعض أعزَّاء مصر.

وزعم بعضهم أنهم إنما قالوا ذلك على التوهُّم، ولم يعرفوه حتى أخبر عن نفسه: ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ﴾ والمعوَّل عليه ما تقدَّم، وهذا جوابٌ عن مساءلتهم، وزاد عليه قولَه: ﴿وَهَٰذَآ أَخِى﴾ أي: من أبويَّ، مبالغةً في تعريف نفسه، قال بعضُ المدقِّقين: إنَّهم سألوه متعجِّبين عن كونه يوسف محقِّقين لذلك، مخيِّلين لشدَّة التعجُّب أنه ليس إياه، فأجابهم بما يحقِّق ذلك مؤكِّداً، ولهذا لم يقل عليه السلام: بلى، أو: أنا هو، فأعاد صريحَ الاسم، و«هذا أخي» بمنزلة: أنا يوسف، لا شبهة فيه، على أنَّ فيه ما يبنيه عليه من قوله: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾.

وجوَّز الطيبيُّ أن يكون ذلك جارياً على أسلوب الحكيم، كأنهم لمَّا سألوه متعجِّبين: أنت يوسف؟ أجاب: لا تسألوا عن ذلك، فإنَّه ظاهرٌ، ولكن اسألوا:

---

(١) أي: برؤية منظره. حاشية الشهاب ٥/ ٢٠٤.
(٢) السِّنْخ: الأصل، جمعه: سنوخ. اللسان (سنخ).

ما فعل الله تعالى بك من الامتنان والإعزاز وكذلك بأخي. وليس من ذاك في شيء كما لا يخفى.

وفي «إرشاد العقل السليم»: إن في زيادة الجواب مبالغةً وتفخيماً لشأن الأخ وتكملةً لمَا أفاده قولُه: «هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه» حسبما يفيده «قد مَنَّ» إلخ، فكأنه قال: هل علمتم ما فعلتم بنا من التفريق والإذلال، فأنا يوسف وهذا أخي، قد منَّ الله تعالى علينا بالخلاص عمَّا ابتُلينا به، والاجتماعِ بعد الفرقة، والعزَّة بعد الذلَّة، والأنس بعد الوحشة. ولا يبعُد أن يكونَ فيه إشارةٌ إلى الجواب عن طلبهم لردِّ بنيامين بأنه أخي لا أخوكم، فلا وجه لطلبكم[1]. انتهى، وفيه ما فيه.

وجملة «قد مَنَّ» إلخ عند أبي البقاء مستأنفةٌ[2]. وقيل: حالٌ من «يوسف» و«أخي». وتعقِّب بأنَّ فيه بُعْداً؛ لعدم العامل في الحال حينئذٍ، ولا يصحُّ أن يكون «هذا»، لأنه إشارة إلى واحدٍ، و«علينا» راجعٌ إليهما جميعاً.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الشأن ﴿مَن يَتَّقِ﴾ أي: يفعل التقوى في جميع أحواله، أو: يَقِ نفسَه عما يُوجِب سخطَ الله تعالى وعذابَه، ﴿وَيَصْبِرْ﴾ على البلايا والمحَنِ، أو على مشقَّة الطاعات، أو عن المعاصي التي تستلذُّها النفس ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ أي: أجرهم، وإنما وُضع المظهر موضعَ المضمر؛ تنبيهاً على أنَّ المنعوتين بالتقوى والصبر موصوفون بالإحسان، والجملة في موضع العلَّة للمَنِّ.

واختار أبو حيَّان عدمَ التخصيص في التقوى والصبر[3]. وقال مجاهد: المراد: من يتَّقِ في ترك المعصية ويصبر في السجن. والنخعي: من يتَّقِ الزنا ويصبر على العزوبة[4]. وقيل: مَن يتَّقِ المعاصي ويصبر على أذى الناس.

وقال الزمخشري: المراد: مَن يَخَفِ الله تعالى ويصبر عن المعاصي وعلى الطاعات[5].

---

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ٣٠٤.
(٢) الإملاء ٣/٣٥٨.
(٣) البحر ٥/ ٣٤٢.
(٤) قول مجاهد في تفسير الطبري ١٣/٣٢٨-٣٢٩، وقول النخعي في النكت والعيون ٣/ ٧٤.
(٥) الكشاف ٢/ ٣٤٢.

وتعقَّبه صاحب «الفرائد» بأنَّ فيه حمل «مَن يتَّقِ» على المجاز، ولا مانعَ من الحمل على الحقيقة، والعدولُ عن ذلك إلى المجاز من غير ضرورة غيرُ جائز، فالوجه أن يقال: «مَن يتَّقِ»: مَن يحترز عن تركِ ما أُمر به وارتكابِ ما نهي عنه و«يَصبر» في المكارهِ، وذلك باختياره وهذا بغير اختياره، فهو محسنٌ. وذكر الصبر بعد التقوى من ذكرِ الخاصِّ بعد العامِّ، ويجوز أن يكون ذلك لإرادة الثبات على التقوى، كأنه قيل: مَن يتَّقِ ويثبُت على التقوى. انتهى.

والوجه الأول ميلٌ لِمَا ذكره أبو حيان. وتعقَّب ذلك الطيبيُّ بأنَّ هذه الجملَة تعليلٌ لِمَا تقدَّم وتعريضٌ بإخوته بأنَّهم لم يخافوا عقابه تعالى ولم يصبروا على طاعته عزَّ وجلَّ وطاعةِ أبيهم، وعن المعصية إذ فعلوا ما فعلوا، فيكون المرادُ بالاتقاء الخوف، وبالصبر الصبر على الطاعة وعن المعصية.

ورُدَّ بأنَّ التعريضَ حاصلٌ في التفسير الآخر، فكأنه فسَّره به لئلا يتكرَّر مع الصبر. وفيه نظر.

وقرأ قنبل: «مَن يتَّقِي» بإثبات الياء[1]. فقيل: هو مجزومٌ بحذف الياء التي هي لامُ الكلمة، وهذه ياء إشباع. وقيل: جَزمُه بحذف الحركة المقدَّرة، وقد حكوا ذلك لغةً. وقيل: هو مرفوعٌ، و«مَن» موصولٌ، وعطفُ المجزوم عليه على التوهُّم، كأنه توهَّم أنَّ «من» شرطيَّةٌ و«يتَّقي» مجزومٌ. وقيل: إنَّ «يصبر» مرفوعٌ كـ «يتَّقي» إلا أنَّه سُكِّنت الراءُ لتوالي الحركات وإن كان ذلك في كلمتين، كما سُكِّنت في ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾ [البقرة:٦٧] و﴿يُشْعِرُكُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٩][2] ونحوِهما، أو للوقف، وأُجري الوصلُ مُجرى الوقف.

والأحسن من هذه الأقوال كما في «البحر»[3] أن يكون «يتَّقِي» مجزوماً على لغةٍ وإن كانت قليلةً. وقولُ أبي علي: إنَّه لا يُحمَل على ذلك؛ لأنه إنما يجيء في الشعر[4]. لا يُلتفَت إليه؛ لأنَّ غيرَه من رؤساءِ النحويين حكوه لغةً نظماً ونثراً.

---

(١) التيسير ص ١٣١، والنشر ٢/ ٢٩٧.

(٢) وهما قراءتان لأبي عمرو بخلف عن الدوري.

(٣) ٥/ ٣٤٣.

(٤) الحجة ٤/ ٤٤٨.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: اختارك وفضَّلك علينا بالتقوى والصبر. وقيل: بالملك. وقيل: بالصبر والعلم، ورُويا عن ابن عباس[1]. وقيل: بالحلم والصفح، ذكره [أبو] سليمان الدمشقي[2].

وقال صاحب «الغنيان»: بحسن الخَلْق والخُلُق والعِلم والحِلم والإحسان والملك والسلطانِ والصبرِ على أذانا. والأول أولى.

﴿وَإِن﴾ أي: والحال إن الشأن ﴿كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝٩١﴾ أي: لمتعمِّدين للذنب إذ فعلنا ما فعلنا، ولذلك أعزَّك وأذلَّنا، فالواو حاليَّة، و«إن» مخفَّفة، اسمها ضمير الشأن، واللام التي في خبر كان هي المزحلقة، و«خاطئين» من خَطِىءَ: إذا تعمَّد، وأمَّا أخطأ: فقصَدَ الصوابَ ولم يوفَّق له.

وفي قولهم هذا من الاستنزالِ لإحسانه عليه السلام والاعترافِ بما صدَرَ منهم في حقِّه مع الإشعار بالتوبة ما لا يخفى، ولذلك ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ﴾ أي: لا تأنيبَ ولا لومَ ﴿عَلَيْكُمُ﴾، وأصلُه من الثَّرْب: وهو الشحْمُ الرقيقُ في الجوف وعلى الكَرِش، وصيغةُ التفعيل للسلب، أي: إزالةِ الثَّرْبِ، كالتجليد والتقريع بمعنى إزالة الجلد والقرع، واستعير للَّوم الذي يمزِّق الأعراضَ ويُذهب بهاءَ الوجه؛ لأنه بإزالة الشحم يبدو الهزالُ وما لا يُرضى، كما أنه باللوم تظهر العيوبُ، فالجامعُ بينهما طريانُ النقص بعد الكمال، وإزالةُ ما به الكمالُ والجمالُ، وهو اسم «لا»، و«عليكم» متعلِّقٌ بمقدَّر وقع خبراً، وقولُه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ متعلِّقٌ بذلك الخبرِ المقدَّر أو بالظرف، أي: لا تثريبَ مستقِرٌّ عليكم اليومَ، وليس التقييدُ به لإفادة وقوعِ التثريب في غيره، فإنَّه عليه السلام إذا لم يثرِّب أوَّلَ لقائه واشتعالِ ناره فبَعْدَه بطريقِ الأَولى.

وقال المرتضى: إنَّ «اليوم» موضوعٌ موضعَ الزمان كلِّه كقوله:

اليومَ يرحَمُنا من كان يَغْبِطُنا ... واليومَ نتبَعُ مَن كانُوا لنا تَبَعا[3]

كأنَّه أُرِيد: بعدَ اليوم.

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢٨٢.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢٨٢، والبحر المحيط ٥/ ٣٤٣، وما بين حاصرتين منهما.

(٣) أمالي المرتضى ١/ ٤٥٢-٤٥٣، والبيت فيه وفي البيان والتبيين ٣/ ١٧٧، أنشدته عجوز يوم مات الحجاج، كما ذكر الجاحظ.

وجوَّز الزمخشريُّ تعلُّقَه بـ «تثريب»[١]. وتعقَّبه أبو حيان قائلاً: لا يجوز ذلك؛ لأنَّ التثريبَ مصدرٌ، وقد فُصِل بينه وبينَ معموله بـ «عليكم»، وهو إما خبرٌ أو صفةٌ، ولا يجوز الفصلُ بينهما بنحوِ ذلك؛ لأنَّ معمولَ المصدر من تمامه، وأيضاً لو كان متعلِّقاً به لم يَجُز بناؤُه؛ لأنه حينئذٍ من قبيل المشبَّه بالمضاف، وهو الذي يسمَّى المطوَّل والممطول فيجب أن يكونَ مُعرَباً منوَّناً[٢].

ولو قيل: الخبرُ محذوفٌ و «عليكم» متعلِّقٌ بمحذوفٍ يدلُّ عليه «تثريب»، وذلك المحذوفُ هو العامل في «اليوم»، والتقدير: لا تثريبَ يثرَّبُ عليكم اليومَ. كما قدَّروا في ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٤٣] أي: لا عاصمَ يعصِمُ اليومَ = لكان وجهاً قويّاً؛ لأنَّ خبرَ «لا» إذا عُلِم كثرُ حذفُه عند أهل الحجاز، ولم يلفظ به بنو تميم.

وكذا منع ذلك[٣] أبو البقاء، وعلَّله بلزوم الإعراب والتنوينِ أيضاً[٤].

واعتُرِض بأنَّ المصرَّح به في متون النحو بأنَّ شبيهَ المضاف سُمِع فيه عدمُ التنوين، نحو: لا طالعَ جبلاً. ووقع في الحديث: «لا مانِعَ لِمَا أعطَيْتَ ولا مُعْطِيَ لِمَا منَعْتَ»[٥] باتفاقِ الرواة فيه، وإنما الخلافُ فيه هل هو مبنيٌّ، أو معربٌ تُرِكَ تنوينُه، وفي «التصريح» نقلاً عن «المغني» أنَّ نصبَ الشبيه بالمضاف وتنوينَه هو مذهبُ البصريين، وأجاز البغداديون: لا طالعَ جبلاً. بلا تنوينٍ، أجروه في ذلك مُجرى المضاف، كما أجروه مُجراه في الإعراب، وعليه يتخرَّج الحديثُ «لا مانع» إلخ[٦].

فيمكن أن يكون مبنَى ما قاله أبو حيان وغيرُه مذهبَ البصريين، والحديثُ المذكور لا يتعيَّن ـ كما قال الدنوشري أخذاً من كلام «المغني» في الجهة الثانية من

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٤٢.
(٢) البحر ٥/ ٣٤٣.
(٣) أي: تعلّق «اليوم» بـ «تثريب».
(٤) الإملاء ٣/ ٣٦٠.
(٥) أخرجه البخاري (٨٤٤) عن المغيرة بن شعبة، ومسلم (٤٧٧): (٢٠٥) عن أبي سعيد ﷺ.
(٦) مغني اللبيب ص ٥١٥.

باب الخامس - حَمْلُهُ على ما ذُكر؛ لجوازِ كونِ اسم «لا» فيه مفرداً، واللامُ متعلِّقةٌ بالخبر، والتقديرُ: لا مانعَ مانعٌ لِمَا أعطيت، وكذا فيما بعده.

وذكر الرضي أنَّ الظرفَ بعد النفي لا يتعلَّق بالمنفيِّ بل بمحذوفٍ وهو خبرٌ، وأنَّ «اليوم» في الآية معمولُ «عليكم»، ويجوزُ العكس.

واعتُرِض أيضاً حديثُ الفصل بين المصدر ومعمولِه بما فيه ما فيه.

وقيل: «عليكم» بيانٌ ك «لك» في: سقياً لك، فيتعلَّق بمحذوفٍ، و«اليوم» خبرٌ.

وجوِّز أيضاً كونُ الخبر ذاك، و«اليوم» متعلِّقاً بقوله: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾. ونُقِل عن المرتضى أنه قال في «الدرر»: قد ضَعَّف هذا قومٌ من جهةِ أنَّ الدعاءَ لا ينصِبُ ما قبله[1]. ولم يشتهر ذلك.

وقال ابن المنيِّر: لو كان متعلِّقاً به لقطعوا بالمغفرة بإخبار الصِّدِّيق، ولم يكن كذلك لقولهم: (يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ)[2].

وتعقِّب بأنَّه لا طائلَ تحتَه؛ لأنَّ المغفرة وهي سترُ الذنب يومَ القيامة حتى لا يؤاخَذوا به ولا يُقرَّعوا، إنما يكون ذلك الوقت، وأما قبله فالحاصلُ هو الإعلام به، والعلم بتحقُّقِ وقوعه بخبر الصادق لا يمنع الطلبَ؛ لأنَّ الممتنع طلبُ الحاصل لا طلبُ ما يُعلَم حصولُه، على أنه يجوز أن يكون هضماً للنفس، واعتُبِر باستغفار الأنبياء عليهم السلام، ولا فرقَ بين الدعاء والإخبار هنا[3]. انتهى.

وقد يقال أيضاً: إنَّ الذي طلبوه من أبيهم مغفرةُ ما يتعلَّق به ويرجع إلى حقِّه، ولم يكن عندهم علمٌ بتحقُّقِ ذلك، على أنه يجوز أن يقال: إنَّهم لم يعتقدوا إذ ذاك نبوتَه وظنُّوه مثلهم غيرَ نبيٍّ، فإنَّه لم يمضِ وقتٌ بعدَ معرفةِ أنَّه يوسفُ يسع معرفة أنَّه نبيٌّ أيضاً، وما جرى من المفاوَضة لا يدلُّ على ذلك. فافهم.

وإلى حمل الكلام على الدعاء ذهب غيرُ واحدٍ وذهب جمعٌ أيضاً إلى كونه خبراً، والحكم بذلك مع أنه غيبٌ - قيل - لأنَّه عليه السلام صفح عن جريمتهم

---

(١) أمالي المرتضى ١/ ٤٥٣، ونقله عنه أيضاً الشهاب في حاشيته ٥/ ٢٠٥.
(٢) الإنصاف ٢/ ٣٤٢.
(٣) نقله المصنف من حاشية الشهاب ٥/ ٢٠٥.

حينئذٍ، وهم قد اعترفوا بها أيضاً فلا محالةَ أنه سبحانه يغفر لهم ما يتعلَّق به تعالى وما يتعلَّق به عليه السلام بمقتضى وعدِه جلَّ شأنه بقبول توبة العباد. وقيل: لأنه عليه السلام قد أوحي إليه بذلك.

وأنت تعلم أنَّ أكثر القرَّاء على الوقف على «اليوم»، وهو ظاهرٌ في عدم تعلُّقه بـ «يغفر»، وهو اختيار الطبريِّ وابن إسحاق وغيرهم، واختاروا كونَ الجملة بعدُ دعائيَّة[١]، وهو الذي يميل إليه الذوقُ. والله تعالى أعلم.

﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٩٢﴾ فإنَّ كلَّ مَن يرحم سواه جلَّ وعلا فإنَّما يرحم برحمته سبحانه، مع كونِ ذلك مبنياً على جلب نفع أو دفع ضرٍّ، ولا أقلَّ مَن دفع ما يجده في نفسه من التألُّم الروحانيِّ مما يجده في المرحوم. وقيل: لأنه تعالى يغفر الصغائرَ والكبائرَ التي لا يغفرها غيرُه سبحانه، ويتفضَّل على التائب بالقبول.

والجملة إما بيانٌ للوثوق بإجابة الدعاء، أو تحقيقٌ لحصول المغفرة؛ لأنَّه عفا عنهم، فالله تعالى أولى بالعفو والرحمة لهم.

هذا، ومن كرم يوسف عليه السلام ما روي أنَّ إخوته أرسلوا إليه: إنَّك تدعونا على طعامك بكرةً وعشيةً ونحن نستحي منك بما فرط منَّا فيك. فقال عليه السلام: إنَّ أهلَ مصر وإن ملكتُ فيهم كانوا ينظرون إليَّ بالعين الأولى ويقولون: سبحانَ مَن بلَّغ عبداً بيع بعشرين درهماً ما بلَّغ، ولقد شرُفتُ بكم الآن وعظمتُ في العيون حيث علم الناسُ أنَّكم إخوتي وأنِّي من حَفَدَةِ إبراهيم عليه السلام[٢].

والظاهرُ أنَّه عليه السلام حصَّل بذلك من العلم للناس ما لم يحصِّل قبلُ، فإنه عليه السلام على ما دلَّ عليه بعض الآيات السابقة والأخبار قد أخبرهم أنه ابنُ مَن وممَّن.

وكذا ما أخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: قال الملِك يوماً ليوسف عليه السلام: إني أحبُّ أن تخالِطني في كلِّ شيء، إلَّا في أهلي، وأنا آنَفُ أن تأكل معي. فغضِب يوسف عليه السلام

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٧٨، والبحر ٥/ ٣٤٣، وينظر تفسير الطبري ١٣/ ٣٣١.

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف ٢/ ٣٤٢ من دون نسبة.

فقال: أنا أحقُّ أن آنَفَ، أنا ابنُ إبراهيم خليل الله، وأنا ابن إسحاق ذبيح الله، وأنا ابن يعقوب نبيِّ الله. لكن لم يشتهر ذلك أو لم يفد الناسَ علماً(١).

وفي «التوراة» التي بأيدي اليهود اليومَ أنه عليه السلام لمَّا رأى من إخوته مزيدَ الخجَل أدناهم إليه وقال لهم: لا يشقّ عليكم أن بعتموني وإلى هذا المكان أوصلتموني، فإنَّ الله تعالى قد علم ما يقع من القحط والجدب وما ينزل بكم من ذلك، ففعل ما أوصلني به على هذا المكان والمكانة؛ ليُزيل عنكم بي ما ينزل بكم، ويكون ذلك سبباً لبقائكم في الأرض وانتشارِ ذراريكم فيها، وقد مضت من سِني الجدب سنتان، وبقي خمسُ سنين، وأنا اليوم قد صيَّرني الله تعالى مرجعاً لفرعون وسيِّداً لأهله وسلطاناً على جميع أهل مصر، فلا يضق عليكم أمركم(٢).

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا﴾ هو القميصُ الذي كان عليه حينئذٍ كما هو الظاهر. وعن ابن عباس وغيرهِ أنَّه القميصُ الذي كساه الله تعالى إبراهيمَ عليه السلام حين أُلقِي في النار وكان من قُمُص الجنة، جعله يعقوبُ حين وصل إليه في قصبةِ فضَّةٍ وعلَّقه في عنق يوسف، وكان لا يقع على عاهةٍ من عاهات الدنيا إلا أبرأها بإذن الله تعالى(٣).

وضُعِّف هذا بأنَّ قوله: (إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ) يدلُّ على أنَّه عليه السلام كان لابساً له في تعويذته كما تشهد به الإضافة إلى ضميره. وهو تضعيفٌ ضعيفٌ كما لا يخفى.

---

(١) سنن سعيد بن منصور(١١٢١١ - تفسير)، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٥٩، وعزاه لابن المنذر وأبي الشيخ السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢٤. والرواية في سنن سعيد عن عبد الله بن أبي هذيل، وأخرجه عنه أيضاً الطبري في تفسيره ١٣/ ٢١٦ و٢١٧. وقوله: وأنا ابن إسحاق ذبيح الله، فيه نظر، لأن الصحيح أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام. وسيأتي هذا البحث في سورة الصافات.

وورد في هامش الأصل: وفي رواية أنَّ امرأته قالت له: قل ليوسف: يأكل مع غلمان. فقال له. فقال: ترغب أن تأكل معي، أنا والله يوسف بن يعقوب نبي الله... إلخ. اهـ. وهي في تفسير الطبري ١٣/ ٢١٧، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٥٩ عن أبي ميسرة.

(٢) العهد القديم، سفر التكوين ص١٣٩.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢١٩٦ عن المطلب بن عبد الله بن حنطب. وهو في تفسير البغوي ٢/ ٤٤٨ عن مجاهد.

وقيل: هو القميصُ الذي قدَّ من دُبُر، وأرسله ليعلم يعقوبُ أنه عُصِم من الفاحشة. ولا يخفى بُعْدُه.

وأيًّاما كان فالباء إمَّا للمصاحبة أو للملابسة، أي: اذهبوا مصحوبين أو ملتبسين به، أو للتعديَة كما قيل[1]، أي: أذهبوا قميصي هذا ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ أي: يَصِر بصيراً، ويشهد له ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٦] أو: يأتِ إليَّ وهو بصير، وينصرُه قولُه: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾ من النساء والذراري وغيرِهم مما ينتظِمه لفظ الأهل، كذا قالوا.

وحاصل الوجهين ـ كما قال بعض المدقِّقين ـ إنَّ الإتيان في الأول مجازٌ عن الصيرورة ولم يَذكُر إتيان الأب إليه لا لكونه داخلاً في الأهل، فإنه يجلُّ عن التابعية، بل تفادياً عن أمر الإخوة بالإتيان؛ لأنه نوعُ إجبارٍ على مَن يُؤتى به، فهو إلى اختياره.

وفي الثاني على الحقيقة، وفيه التفادي المذكور، والجزمُ بأنه من الآتِين لا محالة وثوقاً بمحبته، وأن فائدةَ الإلقاء إتيانُه على ما أحبَّ من كونه مُعافًى سليمَ البصر، وفيه أنَّ صيرورتَه بصيراً أمرٌ مفروغٌ عنه مقطوعٌ، إنَّما الكلام في تسبُّب الإلقاء لإتيانه كذلك، فهذا الوجه أرجحُ وإن كان الأولُ من الخلافة بالقبول بمنزلٍ.

وفيه دلالةٌ على أنه عليه السلام قد ذهب بصرُه، وعلم يوسف عليه السلام بذلك يحتمل أن يكون بإعلامهم، ويحتمل أن يكون بالوحي، وكذا علمه بما يترتَّب على الإلقاء يحتمل أن يكونَ عن وحي أيضاً، أو عن وقوفٍ من قبلُ على خواصِّ ذلك القميص بالتجربة أو نحوها إن كان المراد بالقميص الذي كان في التعويذة، ويتعيَّن الاحتمالُ الأول إن كان المرادُ غيرَه على ما هو الظاهر.

وقال الإمام: يمكن أن يقال: لعلَّ يوسفَ عليه السلام عَلم أنَّ أباه ما عرا بصرَه ما عراه إلا من كثرة البكاء وضيق القلب، فإذا ألقي عليه قميصُه فلابدَّ وأن ينشرح صدره وأن يحصل في قلبه الفرَحُ الشديدُ، وذلك يقوِّي الروحَ ويُزيل الضَّعفَ

---

(١) في (م): على ما قيل.

عن القُوَى، فحينئذٍ يقوَى بصرُه ويزول عنه ذلك النقصانُ، فهذا القدر مما يمكن معرفتُه بالعقل، فإن القوانين الطبيَّة تدلُّ على صحته[١]. وأنا لا أرى ذلك.

قال الكلبي: وكان أولئك الأهل نحواً من سبعين إنساناً[٢]. وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس أنَّهم اثنان وسبعون من ولده وولد ولده[٣]. وقيل: ثمانون. وقيل: تسعون. وأخرج ابن المنذر وغيره عن ابن مسعود أنَّهم ثلاثة وتسعون[٤]. وقيل: ستٌّ وتسعون.

وقد نموا في مصر فخرجوا منها مع موسى عليه السلام وهم ستُّ مئة ألفٍ وخمس مئة وبضعة وسبعون رجلاً سوى الذرية والهرمى، وكانت الذرية ألفَ ألفٍ ومئتي ألفٍ، على ما قيل.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ خرجت من عريش مصر قاصدةً مكانَ يعقوب عليه السلام وكان قريباً من بيت المقدس، والقولُ بأنه كان بالجزيرة لا يعوَّل عليه.

يقال: فَصَل من البلد يفصِل فصولاً: إذا انفصل منه وجاوز حيطانَه، وهو لازمٌ، وفَصَلَ الشيءَ فصلاً: إذا فرَّقه، وهو متعدٍّ.

وقرأ ابن عباس: «ولما انفصل العير»[٥].

﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ يعقوب عليه السلام لمن عنده: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أي: لأشَمُّ، فهو وجودُ حاسَّة الشَّمِّ، أشَمَّه الله تعالى ما عبِق بالقميص من ريح يوسف عليه السلام من مسيرة ثمانية أيام، على ما رُوي عن ابن عباس. وقال الحسن وابن جريج: من ثمانين فرسخاً.

وفي رواية أخرى عن الحسن: من مسيرة ثلاثين يوماً. وفي أخرى عنه: من مسيرة عشر ليال.

---

(١) تفسير الرازي ١٨/٢٠٦.

(٢) جاء في هامش (م): وفي التوراة: أنَّ مَن دخل مصر مِن بني إسرائيل سبعون. اهـ منه.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٧/٢٢٠١.

(٤) عزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٤/٣٥، وأخرجه أيضاً ابن أبي حاتم في تفسيره ٧/٢١٩٦.

(٥) القراءات الشاذة ص ٦٥، والبحر ٥/٣٤٥.

وقد استأذنت الريحُ على ما روي عن أبي أيوب الهرويِّ[١] في إيصال عَرْفِ يوسفَ عليه السلام فأذن الله تعالى لها. وقال مجاهد: صَفَقت الريحُ القميصَ، فراحت روائحُ الجنة في الدنيا واتصلت بيعقوبَ عليه السلام، فوجد ريحَ الجنة، فعُلِم أنه ليس في الدنيا من ريحها إلا ما كان من ذلك القميص، فقال ما قال. ويُبْعِدُ ذلك الإضافةُ فإنها حينئذٍ لأدنى ملابسةٍ، وهي فيما قبل وإن كانت كذلك أيضاً إلا أنَّها أقوى بكثير منها على هذا، كما لا يخفى.

﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾ أي: تنسبوني إلى الفَنَد بفتحتين، ويستعمل بمعنى الفساد[٢] كما في قوله:

إلا سليمانَ إذْ قالَ الإلهُ له ... قُم في البريَّة فاحْدُدْها عن الفَنَد[٣]

وبمعنى ضَعفِ الرأي والعقل، من الهَرَم وكِبَرِ السنِّ، ويقال: فَنَّد الرجلَ: إذا نسبه إلى الفَنَد، وهو على ما قيل مأخوذٌ من الفَنَد، وهو الحَجَرُ، كأنه جُعِل حَجَراً؛ لقلَّة فهمِهِ، كما قيل:

إذا أنتَ لم تعشَقْ ولم تَدرِ مَا الهوَى ... فكُن حَجَراً من يابِسِ الصَخْر جَلْمَدَا[٤]

ثم اتُّسِع فيه، فقيل: فنَّده: إذا ضعَّف رأيَه ولامَه على مَا فَعَل، قال الشاعر:

يا عاذلَيَّ دَعَا لَومي وتَفنيدي ... فليس ما قلتُ من أمرٍ بمردود[٥]

وجاء: أفنَدَ الدهرُ فلاناً: أفسده، قال ابن مقبل:

دَع الدهرَ يَفعَلْ ما أراد فإنَّه ... إذا كُلِّفَ الإفنادَ بالناسِ أَفْنَدَا[٦]

---

(١) أخرجه عنه الطبري ١٣/ ٣٣٢، وفيه: الهوزني، بدل: الهروي. ولم نقف على ترجمته.

(٢) في هامش (م): وجاء بمعنى الكذب، كما في «الصحاح». اهـ منه. ينظر الصحاح (فند).

(٣) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص ٣٣، والخزانة ٣/ ٤٠٥، قال البغدادي: قوله: فاحدُدْها، أي: امنع البَرِيَّة، والحد: المنع.

(٤) البيت لعمر بن أبي ربيعة. وهو في ملحقات ديوانه ص ٤٨٩.

(٥) البيت لبشار بن برد، وهو في ديوانه ١/ ٥٤٣، ونسبه أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣١٨ لهانئ بن شكيم العدوي، وهو دون نسبة في تفسير الطبري ١٣/ ٣٣٦، والنكت والعيون ٣/ ٧٧، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٧٩، والبحر ٥/ ٣٤٠.

(٦) البيت بهذه الرواية في تفسير الطبري ١٣/ ٣٣٦، وتفسير القرطبي ١١/ ٤٥٠، والبحر ٥/ ٣٤٠، =

ويقال: شيخٌ مفنَّدٌ: إذا فسد رأيه، ولا يقال: عجوزٌ مفنَّدةٌ، لأنَّها لا رأيَ لها في شبيبتها حتى يضعَّف. قاله الجوهريُّ وغيرُه من أهل اللغة[١]. وذكره الزمخشريُّ في «الكشاف» وغيره[٢]، واستغربه السمينُ[٣]، ولعلَّ وجهَه أنَّ لها عقلاً وإن كان ناقصاً، يشتدُّ نقصُه بكبر السنِّ. فتأمل.

وجواب «لولا» محذوفٌ، أي: لولا تفنيدُكم أيايَ لصدَّقْتُموني. أو: لقلتُ: إنَّ يوسفَ قريبٌ مكانُه، أو لقاؤُه، أو نحو ذلك. والمخاطَبُ قيل: مَن بقي من ولده غير الذين ذهبوا يمتارون، وهم كثير[٤]. وقيل: ولدُ ولدِه ومَن كان بحضرته من ذَوي قرابته. وهو المشهور.

﴿قَالُوا﴾ أي: أولئك المخاطبون: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ أي: لفي ذهابِك عن الصواب قِدْماً بالإفراط في محبة يوسف والإكثار من ذكره والتوقُّعِ للقائه، وجَعَلَه فيه لتمكُّنه ودوامِه عليه. وأخرج ابن جرير عن مجاهد أنَّ الضلالَ هنا بمعنى الحبِّ[٥].

وقال مقاتل: هو الشقاء والعناء.

وقيل: الهلاك والذهاب، من قولهم: ضلَّ الماء في اللبن، أي: ذهب فيه وهلك.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير تفسيرَه بالجنون[٦]. وهو مما لا يليق، وكأنه لتفسيرٍ بمثل ذلك قال قتادة: لقد قالوا كلمةً غليظةً لا ينبغي أن يقولها مثلُهم لمثلِه عليه السلام، ولعلَّهم إنما قالوا ذلك لظنِّهم أنَّه مات.

= وهو في ديوان ابن مقبل ص٦٠ برواية: إذا كلِّفَ الإفساد بالناس أفسدا. ووقع في الأصل و(م): ابن مقتل، بالتاء. وهو تصحيف. وابن مقبل هو تميم بن أبَيّ القيسي، كان أعور، أدرك الجاهلية والإسلام، بلغ مئة وعشرين سنة. الخزانة ١/ ٢٣١.

(١) ينظر الصحاح، والقاموس (فند).

(٢) الكشاف ٢/ ٣٤٣، وأساس البلاغة (فند).

(٣) في الدر المصون ٦/ ٥٥٧.

(٤) جملة: وهم كثير. ليست في الأصل.

(٥) نقله المصنف من الدر المنثور ٤/ ٣٥، وهو في تفسير الطبري ١٣/ ٣٤٢ و٣٤٣ عن قتادة وسفيان وابن جريج.

(٦) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٩٨.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ قال مجاهد: هو يهوذا[١]. رُوي أنه قال لإخوته: قد علمتم أني ذهبتُ إلى أبي بقميصِ التَّرحَة، فدعوني أذهب إليه بقميص الفَرحة. فتركوه. وفي روايةٍ عن ابن عباس أنه مالك بن ذعر. والرواية الشهيرةُ عنه ما تقدَّم، و«أن» صلةٌ وقد اطردت زيادتُها بعد «لمَّا».

وقرأ ابن مسعود ـ وعُدَّ ذلك قراءةَ تفسيرٍ ـ: «وجاء البشير من بين يَدَي العير»[٢].

﴿أَلْقَىٰهُ﴾ أي: ألقى البشيرُ القميصَ ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي: وجهِ يعقوب عليه السلام. وقيل: فاعلُ «ألقى» ضميرُ يعقوب عليه السلام أيضاً. والأولُ أوفق بقوله: «فألقُوه على وَجْهِ أَبي» وهو يُبعد كونَ البشير مالكاً كما لا يخفى. والثاني قيل: هو الأنسبُ بالأدب. ونُسب ذلك إلى فرقد، قال: إنه عليه السلام أخذه فشمَّه ثم وضعه على بصره ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾.

والظاهر انَّه أريد بالوجه كلِّه، وقد جرت العادةُ أنه متى وَجد الإنسانُ شيئاً يعتقد فيه البركةَ مسح به وجهَه. وقيل: عبَّر بالوجه عن العينين؛ لأنَّهما فيه. وقيل: عبر بالكلِّ عن البعض.

و«ارتَدَّ» عند بعضهم من أخوات كان، وهي بمعنى صار، فـ «بصيراً» خبرُها. وصحَّح أبو حيان[٣] أنها ليست من أخواتها، فـ «بصيراً» حالٌ، والمعنى أنَّه رجع إلى حالته الأولى من سلامة البصر.

وزعم بعضهم أنَّ في الكلام ما يُشعِر بأنَّ بصَره صار أقوى مما كان عليه؛ لأنَّ «فعيلاً» من صِيَغ المبالغة، وما عُدل من «مُفْعِلٍ»[٤] إليه إلا لهذا المعنى. وتعقِّب بأنَّ «فعيلاً» هنا ليس للمبالغة، إذ ما يكون لها هو المعدولُ عن «فاعِلٍ»، وأما «بصير» هنا فهو اسم فاعل من بَصُر بالشيء، فهو جارٍ على قياس «فَعُل» نحو: ظَرُف، فهو ظريف، ولو كان كما زعم بمعنى مُبصِر لم يكن للمبالغة أيضاً؛ لأنَّ «فعيلاً» بمعنى «مُفعِل» ليس للمبالغة نحو «أليم» و«سميع».

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٣٤٤.
(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٣٤٥، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٩٩.
(٣) في البحر ٥/ ٣٤٦.
(٤) في الأصل و(م): يفعل. وهو تحريف. والمثبت من البحر ٥/ ٣٤٦، والكلام منه.

وأيّاما كان فالظاهر أنَّ عودَه عليه السلام بصيراً بإلقاء القميص على وجهه ليس إلا من باب خرق العادة، وليس الخارقُ بِدعاً في هذه القصة.

وقيل: إنَّ ذاك لمَا أنَّه عليه السلام انتعش حتى قَوِي قلبُه وحرارتُه الغريزية فأوصل نورَه إلى الدماغ وأدَّاه إلى البصر، ومن هذا الباب استشفاءُ العشَّاق بما يهُبُّ عليهم من جهة أرض المعشوق كما قال:

وإني لأستَشْفِي بكلِّ غمامةٍ ... يهُبُّ بها من نحوِ أرضكِ ريحُ[1]

وقال آخر:

ألا يا نسيمَ الصُّبح ما لك كُلَّما ... تقرَّبتَ منَّا فاحَ نشرُك طِيبَا

كأنَّ سُلَيمى نُبِّئَت بسَقامِنا ... فأعطَتْك رَيَّاها فجئت طَبِيبَا[2]

إلى غير ذلك مما لا يُحصى، وهو قريبٌ مما سمعتَه آنفاً عن الإمام[3].

هذا وجاء في بعض الأخبار أنَّه عليه السلام سأل البشيرَ: كيف يوسف؟ قال: ملك مصر. فقال: ما أصنع بالملك، على أيِّ دينٍ تركتَه؟ قال: على الإسلام. قال: الآن تمَّتِ النعمة[4].

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن قال: لمَّا جاء البشير إليه عليه السلام قال: ما وجدتَ عندنا شيئاً، وما اختبزنا منذ سبعة أيام، ولكنْ هوَّن اللهُ تعالى عليك سكراتِ الموت[5]. وجاء في رواية أنه قال له: ما أدري ما أثيبك اليومَ، ثم دعا له بذلك.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ يحتمل أن يكون خطاباً لمن كان عنده من قبل، أي: ألم أقل لكم: أني لأجِدُ ريحَ يوسف. ويحتمل أن يكون خطاباً لبنيه القادمين، أي: ألم

---

(١) ذكره أبو حيان في البحر ٥/ ٣٤٥ دون نسبة.

(٢) البيتان في المدهش لابن الجوزي ص٤٦٨ باختلاف يسير.

(٣) سلف كلامه ص٤٨٧-٤٨٨ من هذا الجزء.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٩٩ عن الحسن.

(٥) عزاه لأبي الشيخ السيوطي في الدر ٤/ ٣٥، وأخرجه ابن أبي حاتم ٧/ ١٩٩، عن لقمان الحنفي.

أقل لكم: لا تيأسوا من رحمة الله. وهو الأنسب بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٩٦﴾ فإنَّ مدارَ النهي العلمُ الذي أُوتِيَه عليه السلام من جهة الله سبحانه.

والجملة على الاحتمالين مستأنفةٌ، وعلى الأخير يجوز أن تكون مقولَ القول، أي: ألم أقل لكم حين أرسلتُكم إلى مصرَ وأمرتُكم بالتحسُّس، ونهيتُكم عن اليأس من رَوحِ الله تعالى: إني أعلَم من الله مَا لا تعلمون من حياةِ يوسف عليه السلام. واستظهر في «البحر»[1] كونَها مقولَ القول، وهو كذلك. ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾ طلبوا منه عليه السلام الاستغفار، ونادوه بعنوان الأبوَّة؛ تحريكاً للعطف والشفقةِ، وعلَّلوا ذلك بقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ۝٩٧﴾ أي: ومن حقِّ المعترف بذنبه أن يُصفَح عنه ويُستغفَر له، وكأنَّهم كانوا على ثقةٍ من عفوه، ولذلك اقتصروا على طلب الاستغفار وأدرَجوا ذلك في الاستغفار.

وقيل: حيث نادوه بذلك أرادوا: ومن حقِّ شفقتِك علينا أن تَستغفِرَ لنا، فإنَّه لولا ذلك لكنَّا هالكين لتعمُّدِ الإثم، فمن ذا يرحمنا إذا لم ترحَمْنا. وليس بذاك.

﴿قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩٨﴾ روي عن ابن عباس مرفوعاً أنَّه عليه السلام أخَّر الاستغفارَ لهم إلى السحر؛ لأنَّ الدعاءَ فيه مستجابٌ[2].

ورُوي عنه أيضاً كذلك أنه أخَّره إلى ليلة الجمعة[3]، وجاء ذلك في حديثٍ طويلٍ رواه الترمذيُّ وحسَّنه[4].

وقيل: سوَّفهم إلى قيام الليل.

وقال ابن جبير وفرقة: إلى الليالي البيض، فإنَّ الدعاءَ فيها يُستجاب[5]. وقال الشعبي: أخَّره حتى يسأل يوسفَ عليه السلام، فإن عفا عنهم استغفرَ لهم[6].

---

(١) ٥/ ٣٤٦.

(٢) عزاه السيوطي في الدر ٤/ ٣٦ لأبي الشيخ وابن مردويه.

(٣) ورد في هامش (م): وفي رواية: إلى سحرها. اهـ منه.

(٤) سنن الترمذي (٣٥٧٠)، وأخرجه أيضاً الحاكم في المستدرك ١/ ٣١٦-٣١٧، وصححه.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٠.

(٦) تفسير البغوي ٢/ ٤٤٩.

وقيل: أخَّر ليعلم حالَهم في صدق التوبة.

وتعقَّب بعضُهم بعض هذه الأقوال بأنّ «سوف» تأبى ذلك؛ لأنها أبلغُ من السين في التنفيس، فكان حقُّه على ذلك السينَ. ورُدَّ بما في «المغني»[1] من أنَّ ما ذكر مذهب البصريين، وغيرُهم يسوِّي بينهما.

وقال بعضُ المحقِّقين[2]: هذا غيرُ واردٍ حتى يحتاج إلى الدفع؛ لأنَّ التنفيسَ التأخيرُ مطلقاً ولو أقلَّ من ساعةٍ، فتأخيرُه إلى السحر مثلاً ومضيُّ ذلك اليوم محلٌّ للتنفيس بـ «سوف».

وقيل: أراد عليه السلام الدوامَ على الاستغفار لهم. وهو مبنيٌّ على أنَّ السين وسوف يدلّان على الاستمرار في المستقبل، وفيه كلامٌ للنحويين. نعم جاء في بعض الأخبار ما يدلُّ على أنه عليه السلام استمرَّ برهة من الزمان يستغفر لهم؛ أخرج ابن جرير عن أنس بن مالك قال: إنَّ الله تعالى لمَّا جمع شملَه بِبَنِيْه وأقرَّ عينَه خلا ولده نجيًّا، فقال بعضُهم لبعض: ألستم قد علمتم ما صنعتم وما لقي منكم الشيخُ وما لقي منكم يوسفُ؟ قالوا: بلى. قال: فيغرُّكم عفوُهما عنكم، فكيف لكم بربِّكم؟ واستقام أمرُهم على أن أتوا الشيخَ فجلسوا بين يديه ويوسف إلى جنبه، فقالوا: يا أبانا، أتيناك في أمرٍ لم نأتك في مثله قطُّ، ونزل بنا أمرٌ لم ينزل بنا مثلُه. حتى حرَّكوه والأنبياء عليهم السلام أرحمُ البرية، فقال: ما لكم يا بَنيّ؟ قالوا: ألستَ قد علمتَ ما كان منا إليك وما كان منا إلى أخينا يوسف؟ قالا: بلى. قالوا: أفلستما قد عفوتما؟ قالا: بلى. قالوا: فإنَّ عفوَكما لا يُغني عنا شيئاً إن كان اللهُ تعالى لم يعفُ عنا. قال: فما تريدون يا بنيَّ؟ قالوا: نريد أن تدعو الله سبحانه، فإذا جاءك الوحيُ من عند الله تعالى بأنَّه قد عفا عما صنعنا قرَّت أعينُنا واطمأنت قلوبُنا، وإلا فلا قُرَّةَ عينٍ في الدنيا لنا أبداً. قال: فقام الشيخُ فاستقبلَ القبلةَ وقامَ يوسفُ عليه السلام خلفَه، وقاموا خلفهما أذلَّةً خاشعين، فدعا وأمَّن يوسف، فلم يُجَب فيهم عشرين سنةً حتى إذا كان رأسُ العشرين نزل جبريلُ على يعقوب عليهما السلام فقال: إنَّ الله تعالى بعثني أبشِّرك بأنَّه قد أجاب دعوتَك في ولدك،

(١) ص١٨٤، والكلام من حاشية الشهاب ٥/ ٢٠٦.
(٢) هو الشهاب في الحاشية ٥/ ٢٠٦.

وأنَّه قد عفا عما صنعوا، وأنه قد عقد مواثيقَهم من بعدك على النبوة[١].

قيل: وهذا - إن صحَّ - دليلٌ على نبوَّتهم، وأنَّ ما صدر منهم كان قبل استنبائهم. والحقُّ عدم الصحة، وقد مرَّ تحقيقُ المقام بما فيه كفاية. فتذكَّر[٢].

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عائشة قال: ما تِيبَ على ولدِ يعقوب إلا بعد عشرين سنة، وكان أبوهم بين يدَيهم، فما تيب عليهم حتى نزل جبريل عليه السلام فعلَّمه هذا الدعاءَ: يا رجاءَ المؤمنين لا تقطع رجاءَنا، يا غياثَ المؤمنين أغثنا، يا معينَ المؤمنين أعنَّا، يا محبَّ التوَّابين تُبْ علينا. فأخَّره إلى السحر، فدعا به، فتيب عليهم[٣].

وأخرج أبو عبيد وغيره عن ابن جريج أنَّ ما سيأتي ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الآية: ٩٩] متعلِّقٌ بهذا، وهو من تقديم القرآن وتأخيره، والأصل: سوف أستغفِرُ لكم ربِّي إن شاء الله[٤]. وأنت تعلم أن هذا مما لا ينبغي الالتفاتُ إليه، فإنَّ ذاك من كلام يوسف عليه السلام بلا مرية، ولا أدري ما الداعي إلى ارتكابه، ولعلَّه محضُ الجهل.

واعلم أنَّه ذَكَر بعضُ المتأخرين في الكلام على هذه الآية أنَّ الصحيحَ أنَّ «اسْتَغْفَرَ» متعدٍّ إلى مفعولين، يقال: استغفرتُ اللهَ الذنبَ، وقد نصَّ على ذلك ابنُ هشام[٥]، وقد حُذِف من «استَغْفِر لنا» أولُهما، وذُكِر ثانيهما، وعُكِسَ الأمرُ في

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٣٦٧-٣٦٨، وهو من طريق صالح المري عن يزيد الرقاشي، عن أنس. قال ابن كثير عند تفسير الآية (١٠١) من هذه السورة: هذا الأثر موقوف على أنس، ويزيد الرقاشي وصالح المري ضعيفان جدًّا.

(٢) ينظر ص٢٠٦ وما بعد من هذا الجزء.

(٣) عزاه لأبي الشيخ السيوطيُّ في الدر ٤/ ٣٧، وورد في هامش الأصل ما نصه: وأخرج أبو الشيخ عن الحسن أنَّ يوسفَ عليه السلام حدَّث أباه بما صنعوا، فَغُشِي عليه، فلمَّا أفاق قال: يا بنيَّ، أما لكم موقفٌ بين يدي الله تعالى تخافون أن يسألكم عمّا صنعتم؟ قالوا: قد كان ذلك فاستغفر لنا... إلخ. وفيه أيضاً أنَّه غُفِر لهم بعد عشرين سنةً. اهـ منه. وعزاه لأبي الشيخ السيوطيُّ في الدر ٤/ ٣٧.

(٤) الدر المنثور ٤/ ٣٧، وهو في تفسير الطبري ١٣/ ٣٥١.

(٥) في شرح شذور الذهب ص ٤٧٨-٤٧٩.

«سوف أستَغْفِرُ»، ولعلَّ السرَّ ـ والله سبحانه أعلم ـ أنَّ حذفَ الأوَّلِ من الأول لإرادة التعميم، أي: استَغْفِر لنا كلَّ مَن أذنَبْنا في حقِّه. ليشملَه سبحانه وتعالى، ويشملُ يوسفَ وبنيامين وغيرَهما، ولم يُحذَف الثاني أيضاً تسجيلاً على أنفسهم باقتراف الذنوب؛ لأنَّ المقامَ مقامُ الاعتراف بالخطأ والاستعطافِ لمَا سلف، فالمناسبُ هو التصريحُ.

وأما إثباتُه في الثاني فلأنَّه الأصلُ، مع التنبيه على أنَّ الأهمَّ الذي ينبغي أن يُصرَف إليه الهمُّ ويُمحَض له الوجهُ هو استغفارُ الربِّ واستجلاب رضاه، فإنَّه سبحانه إذا رضي أرْضَى، على أنَّ يوسف وأخاه قد ظهرت منهما مخايلُ العفو وأدركتهما رقَّةُ الأُخوَّة. وأما حذف الثاني منه فللإيجاز لكونه معلوماً من الأول مع قُرب العهد بذكره. اهـ.

ولعلَّ التسويفَ على هذا ليزدادَ انقطاعُهم إلى الله تعالى فيكونُ ذلك أرجى لحصول المقصود، فتأمل.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ رُوي أنه عليه السلام جهَّز إلى أبيه جهازاً ومئتي راحلةٍ ليتجهَّز إليه بمن معه. وفي التوراة أنه عليه السلام أعطى لكلٍّ من إخوته خلعةً، وأعطى بنيامين ثلاث مئة درهم وخمسَ خلع، وبعث لأبيه بعشرة حمير موقَّرة بالتُّحَف، وبعشرة أخرى موقَّرة بُرّاً وطعاماً(١).

وجاء في بعض الأخبار أنه عليه السلام خرج هو والملك(٢) في أربعة آلافٍ من الجند والعظماء وأهل مصرَ بأجمعِهم لاستقباله، فتلقَّوه عليه السلام وهو يمشي يتوكّأ على يهوذا، فنظر إلى الخيل والناس فقال: يا يهوذا، أهذا فرعونُ مصر؟ قال: لا يا أبتِ، ولكن هذا ابنُك يوسف، قيل له: إنك قادمٌ. فتلقَّاك بما ترى. فلمَّا لقيه ذهب يوسف عليه السلام ليبدأه بالسلام، فمَنَع ذلك ليعلم أنَّ يعقوبَ أكرمُ على الله تعالى منه، فاعتنقه وقبَّله وقال: السلام عليك أيها الذاهبُ بالأحزان عني.

---

(١) العهد القديم، سفر التكوين ص ١٣٩.

(٢) ورد في هامش (م): قيل: يقتضي أنَّه عليه السلام لم يكن ملكاً، وإنما كان على خزائنه كالعزيز. والرواية مختلفةٌ فيه، فإنه قيل: إنه تَسَلْطَنَ. وهو المشهور. اهـ منه.

وجاء أنه عليه السلام قال لأبيه: يا أبتِ، بكيتَ عليَّ حتى ذهب بصرُك، ألم تعلم أنَّ القيامة يجمعنا؟ قال: بلى، ولكن خشيتُ أن تُسلَب دينَك فيحال بيني وبينك(١).

وفي الكلام إيجازٌ، والتقديرُ: فرحل يعقوبُ عليه السلام بأهله وساروا حتى أتوا يوسفَ، فلمَّا دخلوا عليه وكان ذلك ـ فيما قيل ـ يوم عاشوراء ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾ أي: ضمَّهما إليه واعتنقهما، والمرادُ بهما أبوه وخالته: ليا(٢). وقيل: راحيل. وليس بذاك، والخالة تنزَّل منزلة الأمِّ؛ لشفقتها، كما ينزَّل العمُّ منزلةَ الأب، ومن ذلك قوله: ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وقيل: إنه لما تزوَّجها بعد أمِّه صارت رابَّةً ليوسف عليه السلام، فنزلت منزلة الأمِّ لكونها مثلَها في زوجية الأب وقيامِها مقامَها، والرابَّة تُدعى أمًّا وإن لم تكن خالةً. ورُوي هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما(٣).

وقال بعضهم: المراد أبوه وجدَّته أمُّ أمِّه. حكاه الزهراويُّ(٤).

وقال الحسن وابن إسحاق: إنَّ أمَّه عليه السلام كانت بالحياة(٥). فلا حاجةَ إلى التأويل لكن المشهور أنها ماتت في نفاس بنيامين.

وعن الحسن وابن إسحاق القولُ بذلك أيضاً إلا أنهما قالا: إنَّ الله تعالى أحياها له ليصدِّقَ رؤياه(٦). والظاهر أنه لم يثبت، ولو ثبت مثلُه لاشتهر.

وفي مصحف عبد الله: «آوَى إليه أبَوَيه وَإخْوَتَه»(٧).

﴿وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ﴾ وكأنه عليه السلام ضَرب في الملتقى خارجَ البلد مضرباً فنزل فيه، فدخلوا عليه فيه، فآواهما إليه ثم طلب منهم الدخولَ في البلدة، فهناك دخولان: أحدُهما دخولٌ عليه خارجَ البلدة. والثاني دخولٌ في البلدة.

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٤٤٩-٤٥٠، وتفسير أبي السعود ٤/ ٣٠٦.
(٢) تفسير البغوي ٢/ ٤٥٠.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٣٤٧.
(٤) المصدر السابق.
(٥) تفسير الطبري ١٣/ ٣٥٢، والنكت والعيون ٣/ ٨٢، وزاد المسير ٤/ ٢٨٨.
(٦) تفسير البغوي ٢/ ٤٥٠ دون نسبة. وتفسير القرطبي ١١/ ٤٥٤.
(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨١، والبحر ٥/ ٣٤٧.

وقيل: إنَّهم إنما دخلوا عليه عليه السلام في مصر، وأراد بقوله: «ادخُلُوا مِصْرَ»: تمكَّنوا منها واستقرُّوا فيها.

﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ أي: من القحط وسائرِ المكاره، والاستثناء على ما في «التيسير» داخلٌ في الأمن، لا في الأمر بالدخول؛ لأنَّه إنَّما يدخل في الوعد لا في الأمر[١].

وفي «الكشاف» أنَّ المشيئةَ تعلَّقت بالدخول المكيَّف بالأمن؛ لأنَّ القصدَ إلى اتصافهم بالأمن في دخولهم، فكأنه قيل: اسْلَمُوا وأَمَنوا في دخولكم إن شاء الله والتقدير: ادخلوا مصرَ آمنين إن شاء الله دخلتم آمنين. فحُذِف الجزاء لدلالة الكلام، ثم اعترض بالجملة الجزائية بين الحال وذي الحال[٢]. اهـ.

وكأنه أشار بقوله: فكأنه قيل... إلخ إلى أنَّ في التركيب معنى الدعاء، وإلى هذا ذهب العلامة الطيبيُّ. وقال في «الكشف»: إنَّ فيه إشارةً إلى أنَّ الكيفيةَ مقصودةٌ بالأمر، كما إذا قلت: ادخل ساجداً. كنتَ آمراً بهما، وليس فيه إشارةٌ إلى أنَّ في التركيب معنى الدعاء، فليس المعنى على ذلك. والحقُّ مع العلَّامة كما لا يخفى.

وزعم صاحب «الفرائد» أنَّ التقديرَ: ادخُلوا مِصرَ إن شاء الله دخلتم آمنين. فـ «آمنين» متعلِّقٌ بالجزاء المحذوفِ، وحينئذٍ لا يفتقر إلى التقديم والتأخير وإلى أن يجعل الجزائيةَ معترضةً.

وتعقِّب بأنه لا ارتيابَ في أنَّ هذا الاستثناءَ في أثناء الكلام كالتسمية في الشروع فيه للتيمُّنِ والتبرُّكِ واستعماله مع الجزاء كالشريعة المنسوخة، فحسن موقعه في الكلام أن يكونَ معترضاً. فافهم.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ﴾ عند نزولهم بمصر ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ على السرير، كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما[٣]، تكرمةً لهما فوقَ ما فعله بالإخوة ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ﴾ أي:

---

(١) نقله المصنف من حاشية الشهاب ٥/ ٢٠٦.

(٢) الكشاف ٢/ ٣٤٤.

(٣) تفسير الطبري ١٣/ ٣٥٣-٣٥٤، وهو قول السدي والضحاك أيضاً.

أبواه وإخوتُه. وقيل: الضميرُ للإخوة فقط. وليس بذاك، فإن الرؤيا تقتضي أن يكونَ الأبوان والإخوة خَرُّوا له.

﴿سُجَّدًا﴾ أي: على الجباه، كما هو الظاهر، وهو كما قال أبو البقاء حالٌ مقدَّرة؛ لأنَّ السجودَ يكون بعد الخرور(١).

وكان ذلك جائزاً عندهم، وهو جارٍ مجرى التحية والتكرمة كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد ونحوها من عادات الناس الفاشية في التعظيم والتوقير، قال قتادة: كان السجودُ تحيةَ الملوك عندهم، وأعطى الله تعالى هذه الأمة السلامَ، تحيةَ أهل الجنة؛ كرامةً منه تعالى عجَّلها لهم(٢).

وقيل: ما كان ذلك إلا إيماءً بالرأس.

وقيل: كان كالركوع البالغ دون وضع الجبهة على الأرض. وقيل: المراد به التواضُع، ويراد بالخرور المرورُ كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣] فقد قيل: المراد: لم يمرُّوا عليها كذلك. وأنتَ تعلم أنَّ اللفظَ ظاهرٌ في السقوط.

وقيل ـ ونسب لابن عباس ـ: إنَّ المعنى: خرُّوا لأجل يوسف، سُجَّداً لله شكراً على ما أوزَعَهم من النعمة.

وتعقِّب بأنه يردُّه قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ﴾ إذ فيها ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]. ودُفع بأنَّ القائلَ به يجعل اللامَ للتعليل فيهما.

وقيل: اللام فيهما بمعنى «إلى» كما في: صلَّى للكعبة؛ قال حسان:

ما كنتُ أعرِفُ أنَّ الدهرَ منصرفٌ عن هاشِمٍ ثُمَّ منها عن أبي حَسَنِ
أليس أوَّلَ مَن صلَّى لقبلَتِكُم وأعرفَ الناسِ بالأشياءِ والسُّنَنِ(٣)

وذكر الإمام(٤) أنَّ القولَ بأنَّ السجودَ كان لله تعالى لا ليوسف عليه السلام،

---

(١) الإملاء ٣/ ٣٦١.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٣٥٥، وابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٠٢.

(٣) البيتان في التفسير الكبير ١٨/ ٢١٢، والبحر ٥/ ٣٤٨، ولم نقف عليه في ديوان حسان.

(٤) في التفسير الكبير ١٨/ ٢١٢.

حسنٌ، والدليل عليه أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ مُشعِرٌ بأنهم صعدوا ثم سجدوا، ولو كان السجودُ ليوسف عليه السلام كان قبلَ الصعود والجلوس؛ لأنَّه أدخلُ في التواضع، بخلافِ سجودِ الشكرِ لله تعالى. ومخالفةُ ظاهرِ الترتيب ظاهرُ المخالفة للظاهر، ودَفْع ما يَرِدُ عليه مما علمتَ بما علمتَ، ثم قال: وهو متعيَّنٌ عندي؛ لأنَّه يَبعُد من عقل يوسف عليه السلام ودينِه أن يرضى بأن يسجُدَ له أبوه، مع سابقته في حقوق الولادة والشيخوخة والعلم والدينِ وكمالِ النبوة[1].

وأجيب بأنَّ تأخيرَ الخرور عن الرفع ليس بنصٍّ في المقصود؛ لأنَّ الترتيبَ الذكريَّ لا يجب كونُه على وفق الترتيب الوقوعيِّ، فلعلَّ تأخيرَه عنه ليتصلَ به ذكرُ كونه تعبيراً لرؤياه وما يتصل به. وبأنَّه يحتمل أن يكونَ اللهُ تعالى قد أمر يعقوبَ بذلك لحكمةٍ لا يعلمها إلا هو، وكان يوسفُ عليه السلام عالماً بالأمر فلم يسعه إلا السكوتُ والتسليم، وكأنَّ في قوله: «يا أبتِ» إلخ إشارةٌ إلى ذلك، كأنه يقول: يا أبتِ، لا يليق بمثلك على جلالتك في العلم والدين والنبوة أن تسجد لولدك، إلَّا أنَّ هذا أمرٌ أُمِرتَ به وتكليفٌ كُلِّفْتَ به، فإنَّ رؤيا الأنبياء حقٌّ كما أنَّ رؤيا إبراهيم ذبحَ ولده صار سبباً لوجوب الذبح في اليقظة، ولذا جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه عليه السلام لمَّا رأى سجودَ أبويه وإخوتَه له، هَالَه ذلك واقشعرَّ جلدُه منه[2].

ولا يبعد أن يكون ذلك من تمام تشديد الله تعالى على يعقوب عليه السلام، كأنه قيل له: أنت كنتَ دائمَ الرغبة في وصاله والحزن على فراقه، فإذا وجدتَه فاسجد له.

ويحتمل أيضاً أنه عليه السلام إنما فعله مع عظم قدْرِه لتَتْبَعَه الإخوةُ فيه؛ لأنَّ الأنفة ربما حملتهم على الأنفة منه، فيجُرُّ إلى ثوران الأحقاد القديمة وعدمِ عفْوِ يوسف عليه السلام.

ولا يخفى أنَّ الجواب عن الأوَّل لا يفيد لِمَا علمت أنَّ مبناه موافقةُ

(١) المصدر السابق.
(٢) البحر المحيط ٥/٣٤٨.

الظاهر، والاحتمالاتُ المذكورة في الجواب عن الثاني قد ذكرها أيضاً الإمام[١]. وهي كما ترى، وأحسنُها احتمالُ أنَّ الله تعالى قد أمره بذلك لحكمةٍ لا يعلمها إلا هو.

ومن الناس من ذهب إلى أنَّ ذلك السجودَ لم يكن إلا من الإخوة، فراراً من نسبته إلى يعقوب عليه السلام لمَا علمتَ، وقد رُدَّ بما أشرنا إليه أولاً من أنَّ الرؤيا تستدعي العمومَ، وقد أجاب عن ذلك الإمامُ بأنَّ تعبير الرؤيا لا يجب أن يكونَ مطابقاً للرؤيا بحسب الصورة والصفة من كلِّ الوجوه، فسجود الكواكب والشمس والقمر يعبَّر بتعظيم الأكابر من الناس له عليه السلام، ولا شكَّ أنَّ ذهابَ يعقوبَ وأولادِه من كنعان إلى مصر لأجله في نهاية التعظيم له، فكفى هذا القدرُ في صحة الرؤيا، فأما أن يكونَ التعبيرُ كالأصل حذو القذَّة بالقذَّة، فلم يُوجبه أحدٌ من العقلاء[٢]. اهـ.

والحقُّ أنَّ السجود بأيِّ معنًى كان وقع من الأبوين والإخوة جميعاً، والقلبُ يميل إلى أنه كان انحناءً كتحية الأعاجم وكثيرٍ من الناس اليومَ، ولا يبعُد أن يكونَ ذلك الخرور، ولا بأس في أن يكونَ من الأبوين وهما على سرير ملكه، ولا يأبى ذلك رؤياه عليه السلام.

﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل سجودكم هذا، أو: من قبل هذه الحوادث، والظرفُ متعلِّقٌ بـ «رؤياي»، وجوِّز تعلُّقُها بـ «تأويل»؛ لأنها أُوِّلت بهذا قبلَ وقوعها. وجوَّز أبو البقاء[٣] كونَه متعلِّقاً بمحذوفٍ وقع حالاً من «رؤياي». وصحَّةُ وقوع الغايات حالاً تقدَّم الكلامُ فيها.

﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ أي: صِدقاً، والرؤيا تُوصَف بذلك ولو مجازاً، وأعربه جمعٌ على أنه مفعولٌ ثانٍ لـ «جعل» وهي بمعنى «صيَّر». وجوّز أن يكون حالاً، أي: وضَعها صحيحةً. وأن يكونَ صفةَ مصدرٍ محذوفٍ، أي: جَعْلاً حقّاً. وأن يكونَ مصدراً من غير لفظ الفعل، بل من معناه؛ لأنَّ «جعلها» في معنى: حقَّقها،

---

(١) في التفسير الكبير ١٨/ ٢١٢.
(٢) التفسير الكبير ١٨/ ٢١٣.
(٣) في الإملاء ٣/ ٣٦١.

و«حقًّا» في معنى تحقيق، والجملة على ما قال أبو البقاء حالٌ مقدَّرةٌ أو مقارِنة[١].

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ﴾ الأصل كما في «البحر» أن يتعدَّى الإحسانُ بـ «إلى» أو اللام كقوله تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧] وقد يتعدَّى بالباء كقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] وكقول كثيِّر عزَّة:

أسيئي بنَا أو أحْسِني لا ملُومةً لَدَينا ولا مَقْليةً إن تقَلَّتِ[٢]

وحمله بعضُهم على تضمين «أَحْسَنَ» معنى لَطَف، ولا يخفى ما فيه من اللطف، إلا أنَّ بعضَهم أنكر تعديةَ «لطَفَ» بالباء، وزعم أنَّه لا يتعدَّى إلا باللام، فيقال: لَطَفَ اللهُ تعالى له، أي: أوصل إليه مرادَه بلُطفٍ، وهذا ما في «القاموس»[٣] لكنَّ المعروفَ في الاستعمال تعدِّيه بالباء، وبه صرح في «الأساس»[٤] وعليه المعوَّل.

وقيل: الباء بمعنى «إلى».

وقيل: المفعولُ محذوفٌ، أي: أحسَنَ صُنْعَه بي، فالباءُ متعلِّقةٌ بالمفعول المحذوف، وفيه حذفُ المصدر وإبقاءُ معموله، وهو ممنوعٌ عند البصريين.

وقوله: ﴿إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ منصوبٌ بـ «أَحْسَنَ»، أو بالمصدر المحذوفِ عند من يرى جوازَ ذلك، وإذا كانت تعليليةً فالإحسانُ هو الإخراجُ من السجن بعد أن ابتُلِي به وما عطف عليه، وإذا كانت ظرفيةً فهو غيرهما.

ولم يصرِّح عليه السلام بقصة الجُبِّ حذَراً من تثريب إخوته وتناسياً لِمَا جرى منهم؛ لأنَّ الظاهرَ حضورُهم لوقوع الكلام عقيبَ خرورهم سُجَّداً، ولأنَّ الإحسانَ إنَّما تمَّ بعد خروجه من السجن لوصوله للملك وخلوصه من الرقِّ والتهمة، واكتفاءً بما يتضمَّنُه قولُه: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ أي: البادية، وأصلُه[٥]: البسيطُ من الأرض، وإنما سمِّي بذلك لأنَّ ما فيه يبدو للناظر لعدم ما يواريه؛ ثم أُطلِق على البَرِّيَّة مطلقاً.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) ديوان كثير عزة ص٨٠، وسلف ١٠/ ٣٧٠.

(٣) مادة (لطف).

(٤) مادة (لطف).

(٥) في هامش الأصل و(م): وأصل البدو مصدر بدا يبدو، ثم سمِّي به. اهـ منه.

وكان منزلهم ـ على ما قيل ـ بأطرافِ الشام ببادية فلسطين، وكانوا أصحاب إبلٍ وغنم.

وقال الزمخشريُّ: كانوا أهلَ عمدٍ وأصحابَ مواشٍ، ينتقلون في المياه والمناجع[١].

وزعم بعضُهم أنَّ يعقوب عليه السلام إنما تحوَّل إلى البادية بعد النبوة لأنَّ الله تعالى لم يبعث نبيّاً من البادية.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كان يعقوب عليه السلام قد تحوَّل إلى «بدا» وسكَنها، ومنها قَدِم على يوسف، وله بها مسجدٌ تحت جبلها[٢]. قال ابن الأنباري: إنَّ «بدا» اسمُ موضعٍ معروفٍ، يقال: هو بين شعبٍ وبدا، وهما موضعان ذكرهما جميل[٣] بقوله:

وأنتِ التي حَبَّبْتِ شَعباً إلى بدا ... إليَّ وأَوطاني بلادٌ سِوَاهُما[٤]

فالبدْوُ على هذا قَصْدُ هذا الموضع يقال: بدا القومُ بَدْوا: إذا أتوا بدا؛ كما يقال: أغاروا غَوْراً: إذا أتوا الغورَ، فالمعنى: أتى بكم مِن قَصْدِ بدا، فهم حينئذٍ حضريُّون[٥]، كذا قاله الواحدي في «البسيط». وذكره القشيريُّ[٦]، وهو خلافُ الظاهر جِدّاً.

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٤٤.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٨٤، والتفسير الكبير ١٨/ ٢١٥.

(٣) في هامش الأصل و(م): قيل: لكثير عزة. اهـ منه. وقول ابن الأنباري في التفسير الكبير ١٨/ ٢١٥.

(٤) البيت في ديوان المعاني ١/ ٢٦٠، وتفسير القرطبي ١١/ ٤٦٠، والبحر ٥/ ٣٤٩ لجميل، وهو في ديوانه ص٢٠٠، وقد نسب لكثير عزة، كما في معجم ما استعجم للبكري ١/ ٢٣٠، ومعجم البلدان ٣/ ٣٥١، وتاج العروس (شغب)، وهو في ديوانه ص ٣٢٤. وقوله: شَغْباً. جاء في المصادر بالغين المعجمة، ولكن جاء في بعضها: شَغْباً بالتنوين، وفي البعض الآخر: شَغْبَى بالقصر. والأول هو ما اعتمده البكري، والثاني اعتمده ياقوت.

(٥) في هامش الأصل و(م): وفي الحديث: «من يُرِدِ اللهُ به خيراً يَنقُلْه من البادية إلى الحاضرة». اهـ منه. ولم نقف عليه مسنداً، وذكره أبو حيان في البحر ٥/ ٣٤٩، والبقاعي في نظم الدرر ١٠/ ٢١٨.

(٦) كما في التفسير الكبير ١٨/ ٢١٥، والبحر ٥/ ٣٤٩.

﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ أي: أفسد وحرَّش، وأصله من: نَزَغَ الرابضُ الدابَّةَ: إذا نَخَسَها وحَمَلها على الجَرْي، وأسنَدَ ذلك إلى الشيطان مجازاً؛ لأنَّه بوسوسته وإلقائه، وفيه تفادٍ عن تثريبهم أيضاً، وذكره تعظيماً لأمر الإحسان؛ لأنَّ النعمة بعد البلاء أحسنُ موقعاً. واستدلَّ الجبائيُّ والكعبي والقاضي بالآية على بطلان الجبر[1]، وفيه نظر.

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ أي: لطيفُ التدبير له، إذ ما من صعبٍ إلا وتنفُذُ فيه مشيئتُه تعالى ويتسهَّلُ دونها.

كذا قاله غير واحد، وحاصلُه أنَّ اللطيفَ هنا بمعنى العالِم بخفايا الأمور المدبِّر لها والمسهِّل لِصعابها، ولنفوذِ مشيئته سبحانه فإذا أراد شيئاً سهَّل أسبابَه أُطلق عليه جلَّ شأنُه اللطيفُ؛ لأنَّ ما يلطُف يسهُل نفوذُه، وإلى هذا يشير كلام الراغب حيث قال[2]: اللطيف: ضدُّ الكثيف، ويعبَّر باللطف عن الحركة الخفيفة وتعاطي الأمور الدقيقة، فوَصْف الله تعالى به؛ لعلمه بدقائق الأمور ورِفْقه بالعباد.

فاللام متعلِّقةٌ بـ «لطيف»؛ لأنَّ المرادَ: مدبِّرٌ لما يشاء، على ما قاله غير واحد، وقال بعضهم: إنَّ المعنى: لأجل ما يشاء، وهو على الأول متعدٍّ باللام، وعلى الثاني غيرُ متعدٍّ بها، وقد تقدَّم آنفاً ما في مثل ذلك.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ﴾ بوجوه المصالح ﴿ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾ الذي يفعل كلَّ شيء على وجهِ الحكمة لا غيرُه. رُوي أنَّ يوسف طاف بأبيه عليهما السلام في خزائنه، فلمَّا أدخله خزينةَ القرطاس قال: يا بنيَّ، ما أعقَّك! عندك هذه القراطيس وما كتبتَ إليَّ على ثمانِ مراحل؟! قال: أمرني جبريل. قال: أو ما تسأله؟ قال أنتَ أبسطُ منِّي إليه. فسأله، قال جبريل عليه السلام: الله تعالى أمرني بذلك لقولك: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾ [يوسف: ١٣] قال: فهلَّا خِفتَني[3]؟!

وهذا عذرٌ واضحٌ ليوسف عليه السلام في عدم إعلام أبيه بسلامته. وقد صَرح

(١) التفسير الكبير ١٨/ ٢١٥، والقاضي هو عبد الجبار المعتزلي.
(٢) في المفردات (لطف).
(٣) الكشاف ٢/ ٣٤٥، وتفسير أبي السعود ٤/ ٣٠٧ دون نسبة.

غيرُ واحدٍ بأنَّه عليه السلام أُوحي إليه بإخفاء الأمر على أبيه إلى أن يبلغَ الكتابُ أجلَه، ولكن يبقى السؤالُ بأنَّ يعقوب عليه السلام كان من أكابر الأنبياء نفساً وأباً وجدًّا، وكان مشهوراً في أكناف الأرض، ومن كان كذلك ثم وقعت له واقعةٌ هائلةٌ في أعزِّ أولاده عليه لم تبق تلك الواقعةُ خفيةً، بل لا بدَّ وأن تبلغ في الشهرة إلى حيث يعرفها كلُّ أحدٍ، لا سيما وقد انقضت المدةُ الطويلةُ فيها وهو في ذلك الحزن الذي تُضرَب فيه الأمثال، ويوسف عليه السلام ليس بمكانٍ بعيدٍ عن مكانه، ولا متوطِّناً زوايا الخفاء ولا خاملَ الذكر، بل كان مرجعَ العامِّ والخاصِّ، وداعياً إلى الله تعالى في السرِّ والعلن وأوقات السرور والمحن، فكيف غُمَّ أمرُه ولم يصل إلى أبيه خبرُه؟!

وأجيب عن ذلك بأنَّه ليس إلا من باب خرق العادة.

واختلفوا في مقدار المدَّة بين الرؤيا وظهورِ تأويلها، فقيل: ثماني عشرة سنة. وأخرج عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد»(١) عن الحسن أنَّ المدة ثمانون سنة. وأخرج ابن جرير عن ابن جريج أنها سبعٌ وسبعون(٢) سنة.

وعن حذيفة أنها سبعون سنة.

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة أنها خمسٌ وثلاثون سنة(٣).

وأخرج جماعةٌ عن سلمان الفارسيِّ أنَّها أربعون سنة(٤). وهو قول الأكثرين. قال ابن شدَّاد: وإلى ذلك ينتهي تأويلُ الرؤيا. والله تعالى أعلم بحقائق الأمور.

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ أي: بعضاً عظيماً منه، ف «من» للتبعيض، ويبعد القولُ بزيادتها أو جعلِها لبيان الجنس، والتعظيمُ من مقتضيات المقام، وبعضُهم قدَّر: عظيماً، وفي النظم الجليل على أنه مفعولٌ به، كما نقل أبو البقاء(٥)، وليس بشيء.

---

(١) ص ١٠٧.

(٢) جاء في الأصل و(م): سبع وتسعون، والمثبت من تفسير الطبري ١٣/ ٣٣٥، والدر المنثور ٤/ ٣٨.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٠٢.

(٤) تفسير الطبري ١٣/ ٣٥٧، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٠٢، والمستدرك ٤/ ٣٩٦.

(٥) في الإملاء ٣/ ٣٦٢.

والظاهر أنَّه أراد من ذلك البعض مُلكَ مصر، ومن «الملك» ما يعمُّ مصر وغيرَها، ويُفهَم من كلام بعضهم جوازُ أن يرادَ من «الملك» مصرَ ومن البعض شيءٌ منها، وزعم أنه لا ينافي قولَه تعالى: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ [يوسف: ٥٦] لأنه لم يكن مستقِلًّا فيه وإن كان ممكَّناً فيه. وفيه تأمُّلٌ.

وقيل: أراد ملكَ نفسه من إنقاذ شهوته.

وقال عطاء: مُلك حُسَّادِه بالطاعة ونيل الأماني. وليس بذاك.

﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: بعضاً من ذلك كذلك، والمراد بتأويل الأحاديث إما تعليمُ تعبير الرؤيا وهو الظاهرُ، وإمَّا تفهيمُ غوامض أسرار الكتب الإلهيَّة ودقائق سُنَن الأنبياء، وعلى التقديرين لم يؤتَ عليه السلام جميعَ ذلك، والترتيبُ على غير الظاهر ظاهرٌ، وأما على الظاهر فلعلَّ تقديمَ إيتاء الملك على ذلك في الذكر لأنَّه بمقام تعداد النِّعَم الفائضة عليه من الله سبحانه، والملكُ أعرقُ في كونه نعمةً من التعليم المذكور، وإن كان ذلك أيضاً نعمةٌ جليلةٌ في نفسه، فتذكَّر وتأمَّل(١).

وقرأ عبد الله وابن ذرٍّ: «آتيْتَنِ وعَلَّمْتَنِ» بحذف الياء فيهما؛ اكتفاء بالكسرة(٢)، وحَكى ابنُ عطية عن الأخير «آتيتني» بغير «قد»(٣).

﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: مُبدِعهما وخالقهما، ونصبُه على أنه نعت لـ «ربِّ» أو بدلٌ أو بيانٌ، أو منصوب بـ «أعني»، أو منادى ثانٍ، ووصفُه تعالى به بعد وصفِهِ بالربوبية مبالغةٌ في ترتيب مبادي ما يعقبه من قوله:

---

(١) ورد في هامش الأصل و(م): إشارة إلى ما قيل: إنَّه لا يمكن تمشيةُ هذا الاعتذار فيما سبق؛ لأنَّ التعليمَ هناك واردٌ على نهج العلَّة الغائية للتمكين، فإن حُمل على معنى التمليك لزم تأخُّره عنه، وأما الواقع ها هنا فمجرَّد التأخير في الذكر، والعطفُ بالواو لا يستدعي ذلك الترتيب في الوجود، فافهم. اهـ منه.

(٢) المحتسب ١/ ٣٤٩، والبحر ٥/ ٣٤٩. وابن ذرٍّ هو عمر بن ذَرِّ بن عبد الله بن زرارة الهمداني المُرهِبِي، ثقة، روى عن أبيه وسعيد بن جبير، مات سنة (١٥٣هـ). تقريب التهذيب. ووقع في مطبوع البحر: عمرو بن ذرّ.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٣، والبحر ٥/ ٣٤٩.

﴿أَنتَ وَلِيِّۦ﴾ متولِّي أموري ومتكفِّلٌ بها، أو مُوالٍ لي وناصرٌ ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾، فالولي إما من الولاية، أو الموالاة، وجُوِّز أن يكونَ بمعنى المُولي كالمُعطي لفظاً ومعنًى، أي: الذي يُعطيني نِعَمَ الدنيا والآخرة.

﴿تَوَفَّنِي﴾ اقبضني ﴿مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ من آبائي، على ما روي عن ابن عباس، أو بعامَّة الصالحين في الرتبة والكرامة كما قيل، واعتُرِض بأنَّ يوسف عليه السلام من كبار الأنبياء عليهم السلام، والصلاحُ أوَّلُ درجات المؤمنين، فكيف يليق به أن يطلب اللحاقَ بمن هو في البداية؟ وأجيب بأنه عليه السلام طلبه هضماً لنفسه، فسبيله سبيلُ استغفار الأنبياء عليهم السلام. ولا سؤالَ ولا جوابَ إذا أريد من الصالحين آباؤه الكرام يعقوب وإسحاق وإبراهيم عليهم السلام.

وقال الإمام هاهنا: وها هنا مقامٌ آخَرُ في الآية على لسان أصحاب المكاشَفات، وهو أنَّ النفوسَ المفارقة إذا أشرقَت بالأنوار الإلهية واللوامع القدسية، فإذا كانت متناسبةً متشاكلةً انعكس النورُ الذي في كلٍّ واحدٍ منها إلى الأخرى بسبب تلك الملائمَة والمجانَسَة، فعظُمت تلك الأنوارُ وتقوَّت هاتيك الأضواء، ومثال ذلك المرايا الصقيلةُ الصافيةُ إذا وُضِعت وضعاً متى أشرقت الشمسُ عليها انعكس الضوءُ من كلٍّ واحد منها إلى الأخرى، فهناك يقوى الضوءُ ويكمل النورُ، وينتهي في الإشراق والبريق إلى حدٍّ لا تطيقه الأبصارُ الضعيفة، فكذلك ها هنا[1]. انتهى، وهو كما ترى.

والحقُّ أن يقال: إنَّ الصلاحَ مقولٌ بالتشكيك متفاوتٌ قوةً وضعفاً، والمقامُ يقتضي أنه عليه السلام أراد بالصالحين المتصفين بالمرتبة المعتَنى بها من مراتب الصلاح، وقد قدَّمْنا ما عند أهل المكاشفات في الصلاح[2]. فارجع إليه.

بقي أنَّ المفسرين اختلفوا في أنَّ هذا هل هو منه عليه السلام تَمَنٍّ للموت وطلبٌ منه، أم لا؟ فالكثيرُ منهم على أنه طلبٌ وتمنٍّ لذلك، قال الإمام: ولا يبعُد من الرجل العاقل إذا كمُل عقله أن يتمنَّى الموتَ وتعظُم رغبتُه فيه؛ لأنَّه حينئذٍ

(١) التفسير الكبير ١٨/ ٢٢١-٢٢٢.
(٢) ينظر ما سلف ٦/ ١٣١.

يحسُّ بنقصانه مع شغفه بزواله وعِلْمه بأنَّ الكمالَ المطلقَ ليس إلا لله تعالى، فيبقى في قلقٍ لا يُزيله إلا الموتُ، فيتمنَّاه، وأيضاً يرى أنَّ السعادة الدنيويةَ سريعةُ الزوال مشرفةٌ على الفناء، والألمُ الحاصل عند زوالها أشدُّ من اللذَّة الحاصلةِ عند وجدانها، مع أنَّه ليس هناك لذَّةٌ إلَّا وهي ممزوجةٌ بما ينغِّصها، بل لو حقَّقتَ لا ترى لذَّةً حقيقيةً في هذه اللذائذ الجسمانية وإنَّما حاصلُها دفعُ الآلام، فلذَّة الأكل عبارةٌ عن دفع ألم الجوع، ولذَّة النكاح عبارةٌ عن دفع الألم الحاصل بسبب الدغدغة المتولِّدة من حصول المنيِّ في أوعيته، وكذا الإمارة والرياسة يُدفع بها الألم الحاصلُ بسبب شهوة الانتقام ونحو ذلك، والكلُّ لذلك خسيسٌ، وبالموت التخلُّصُ عن الاحتياج إليه.

على أنَّ عمدةَ الملاذِّ الدنيوية الأكلُ والجماعُ والرياسةُ، والكُلُّ في نفسه خسيسٌ معيبٌ، فإنَّ الأكل عبارةٌ عن ترطيب الطعام بالبزاق المجتمع في الفم، ولا شكَّ أنه مستقذَرٌ في نفسه؛ ثم حينما يصل إلى المعدة يظهر فيه الاستحالةُ والتعفُّنُ، ومع ذا يشارك الإنسانُ فيه الحيواناتِ الخسيسةَ، فيلتذُّ الجُعلُ بالروث التذاذَ الإنسان باللَّوزِينَج[1]، وقد قال العقلاء: من كان هِمَّته ما يدخُل في بطنه فقيمتُه ما يخرج من بطنه.

والجماع نهايةُ ما يقال فيه: إنه إخراجُ فضلةٍ متولِّدةٍ من الطعام بمعونة جلدةٍ مدبوغةٍ بالبول ودم الحيضِ والنفاسِ مع حركات لو رأيتَها من غيرك لأضحكَتْك، وفيه أيضاً تلك المشاركةُ، وغايةُ ما يُرجَى من ذلك تحصيلُ الولد الذي يجرُّ إلى شغل البال والتحيُّلِ لجمع المال ونحوِ ذلك.

والرياسةُ إذا لم يكن فيها سوى أنَّها على شَرَفِ الزوال في كلِّ آنٍ لكثرةِ مَن ينازعُ فيها ويطمحُ نظرُه إليها، فصاحبُها لم يزل خائفاً وَجِلاً من ذلك = لكفاها عيباً.

وقد يقال أيضاً: إنَّ النفسَ خُلقت مجبولةً على طلب اللذَّات والعشقِ الشديدِ لها والرغبة التامَّةِ في الوصول إليها، فما دام في هذه الحياة الجسمانية يكون طالباً لها،

---

(١) اللَّوزِينَج: من الحلواء شبه القطائف، يُؤدم بدهن اللوز. تعريب «لوزينة». معجم الألفاظ الفارسية المعرَّبة: باب اللام.

وما دام كذلك فهو في عين الآفات ولُجَّة الحسرات، وهذا اللازمُ مكروهٌ والملزوم مثلُه؛ فلهذا يتمنَّى العاقلُ زوالَ هذه الحياة الجسمانية ليستريح من ذلك النصَبِ[1].

ولله تعالى قولُ مَن قال:

ضَجعةُ الموت رَقْدةٌ يَستريح الـ ... ـجِسْمُ فيها والعيشُ مثلُ السُّهادِ

وقال:

تعَبٌ كُلُّها الحياةُ فما أعْـ ... ـجَبُ إلَّا مِن راغبٍ في ازدِيَادِ
إنَّ حُزناً في ساعة الفَوتِ أضعا ... فُ سُرُورٍ في ساعةِ المِيْلَادِ[2]

وقد ذكر غيرُ واحدٍ أنَّ تمنِّي الموت حبًّا للقاء الله تعالى مما لا بأس به، وقد روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها: «من أحبَّ لقاء الله تعالى أحبَّ الله تعالى لقاءَه»[3] الحديث. نعم تمنِّي الموت عند نزول البلاء منهيٌّ عنه، ففي الخبر: «لا يتمنَّينَّ أحدُكم الموتَ لضرٍّ نزل به»[4].

وقال قوم: إنَّه عليه السلام لم يتمنَّ الموتَ، وإنَّما عدَّد نِعَمَ الله تعالى عليه، ثم دعا بأنَّ تدومَ تلك النِّعَمُ في باقي عمره، حتى إذا حان أجلُه قبضه على الإسلام وألحقه بالصالحين.

والحاصل أنَّه عليه السلام إنَّما طلب الموافاةَ على الإسلام لا الوفاةَ.

ولا يَرِدُ على القولين أنَّه من المعلوم أنَّ الأنبياءَ عليهم السلام لا يموتون إلا مسلمين، إمَّا لأنَّ الإسلام هنا بمعنى الاستسلام لكلِّ ما قضاه الله تعالى، أو لأنَّ ذلك بيانٌ؛ لأنَّه وإن لم يتخلَّف ليس إلا بإرادة الله تعالى ومشيئته[5]، والذاهبون إلى الأول قالوا: إنَّه عليه السلام لم يأتِ عليه أسبوعٌ حتى توفَّاه الله تعالى. وكان

---

(١) التفسير الكبير ١٨/ ٢١٩-٢٢٠.

(٢) الأبيات لأبي العلاء المعرِّي، وهي في شروح سقط الزند ٣/ ٩٧٧-٩٧٩.

(٣) صحيح البخاري (٦٥٠٧)، وصحيح مسلم (٢٦٨٥).

(٤) أخرجه البخاري (٦٣٥١)، ومسلم (٢٦٨٠) عن أنس رضي الله عنه، وقد سلف ٢/ ٣٢٢.

(٥) ورد في هامش الأصل و(م): والآية دليل لأهل السنة في أن الإيمان من الله تعالى، كما قرَّره الإمام، فليراجع. اهـ منه. وكلام الإمام الرازي في تفسيره ١٨/ ٢٢١.

الحسن يذهب إلى القول الثاني ويقول: إنَّه عليه السلام عاش بعد هذا القول سنين كثيرة[(١)].

وروى المؤرِّخون أنَّ يعقوب عليه السلام أقام مع يوسف أربعاً وعشرين سنة، ثم تُوفِّي وأوصى أن يُدفَن بالشام إلى جنب أبيه، فذَهَب به ودَفَنه ثَمَّة، وعاش بعده ثلاثاً وعشرين سنة. وقيل: أكثر، ثم تاقت نفسُه إلى الملك المخلَّد فتمنَّى الموتَ، فتوفَّاه الله تعالى طيِّباً طاهراً، فتخاصم أهلُ مصر في مدفنه حتى همُّوا بالقتال، فرأوا أن يجعلوه في صندوق من مرمر ويدفنوه في النيل بحيث يمرُّ عليه الماءُ ثم يصل إلى مصر ليكونوا شَرَعاً فيه[(٢)]، ففعلوا. ثم أراد موسى عليه السلام نقلَه إلى مدفن آبائه، فأخرجه بعد أربع مئة سنة ـ على ما قيل ـ من صندوق المرمر لثقله، وجعله في تابوت من خشب ونقله إلى ذلك.

وكان عمره مئةً وعشرين سنة. وقيل: مائة وسبع سنين.

وقد وُلد له من امرأة العزيز: إفرائيم وهو جدُّ يوشع عليه السلام، وميشا، ورحمة زوجةُ أيوب عليه السلام.

ولقد توارثت الفراعنةُ من العمالقة بعدَه مصرَ ولم يزل بنو إسرائيل تحت أيديهم على بقايا دِين يوسف وآبائه عليهم السلام إلى أن بعث الله تعالى موسى عليه السلام فكان ما كان.

وفي «التوراة» أنَّ يوسفَ عليه السلام أسكن أباه وإخوتَه في مكانٍ يقال له: عين شمس[(٣)]، من أرض السدير، وبقي هناك سبع عشرة سنةً، وكان عمره حين دخل مصر مئةً وثلاثين سنةً، ولمَّا قرب أجلُه دعا يوسفَ عليه السلام، فجاء ومعه ولداه منشا[(٤)] وهو بِكْره وأفرايم، فقدَّمهما إليه، ودعا لهما ووضع يدَه اليمنى على رأس الأصغر واليسرى على رأس الأكبر، وكان يوسف يحبُّ عكسَ ذلك، فكلَّم أباه

---

(١) في تفسير الطبري ١٣/ ٣٦٠ عن الحسن أنَّه عليه السلام عاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة.

(٢) بفتحات، بمعنى: سواء، كقوله: مجدي أخيراً ومجدي أولاً شَرَع. حاشية الشهاب ٥/ ٢٠٩.

(٣) جاء في التوراة روايتان في ذلك، الأولى: أنه أسكنهم في جاسان، والثانية: رَعَمْسيس. ينظر العهد القديم، سفر التكوين ص ١٤١-١٤٢.

(٤) ورد في هامش (م): بالنون في التوراة، وأفرايم بالياء بعد الألف، والمضبوط عندنا غير ذلك، والأمر سهل. اهـ منه. وفي العهد القديم سفر التكوين ص ١٤٣: مَنَسَّى وأفرائيم.

فيه، فقال: يا بنيَّ إنِّي لأعلم أنَّ ما يتناسل من هذا الأصغر أكثرُ مما يتناسَلُ من هذا الأكبر. ودعا ليوسف وبارك عليه وقال: يا بنيَّ إنِّي ميِّتٌ، كان الله تعالى معكم وردَّكم إلى بلد أبيكم، يا بنيَّ إذا أنا متُّ فلا تدفنِّي في مصر، وادفِنِّي في مقبرة آبائي. فقال: نعم يا أبتِ، وحلف له، ثم دعا سائر بنيه وأخبَرَهم بما ينالهم في أيامهم، ثم أوصاهم بالدفن عند آبائه في الأرض التي اشتراها إبراهيمُ عليه السلام من عفرونَ الحِتِّي[1] في أرض الشام وجَعَلَها مقبرةً. وبعد أن فرغَ من وصيته عليه السلام توفِّي، فانكبَّ يوسف عليه السلام عليه يقبِّلُه ويبكي، وأقام له حزناً عظيماً، وحزن عليه أهلُ مصر كثيراً، ثم ذهب به يوسفُ وإخوتُه وسائرُ آله سوى الأطفال، ومعهم قوَّادُ الملكِ ومشايخُ أهل مصر، ودفنوه في المكان الذي أراد، ثم رجعوا.

وقد توهَّم إخوةُ يوسف منه عليه السلام أن يسيءَ المعاملةَ معهم بعد موت أبيهم عليه السلام، فلمَّا علم ذلك منهم قال لهم: لا تخافوا، إني أخاف الله تعالى. ثم عزَّاهم وجبر قلوبَهم، ثم أقام هو وآل أبيه بمصر وعاش مئةً وعشر سنين حتى رأى لأفرايم ثلاثةَ بنين، وولد بنو ماخير[2] بن منشا في حجره أيضا، ثم لمَّا أحسَّ بقُرب أجله قال لإخوته: إني ميِّتٌ، والله سبحانه سيذكركم ويردُّكم إلى البلد الذي أقسم أن يملكه إبراهيمُ وإسحاق ويعقوب، فإذا ذكركم سبحانه وردَّكم إلى ذلك البلد فاحملوا عظامي معكم. ثم توفِّي عليه السلام فحنَّطوه وصيَّروه في تابوت بمصر[3]، وبقي إلى زمن موسى عليه السلام، فلمَّا خرج، حَمَلَه حسبما أوصى عليه السلام[4].

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكر من أنباء يوسف عليه السلام، وما فيه من معنى البعد

---

(١) في العهد القديم سفر التكوين ص ١٤٧: الحِثِّي. بالحاء المهملة والثاء المثلثة.
(٢) في العهد القديم: ماكير بن مَنَسَّى.
(٣) سفر التكوين ص ١٤٨.
(٤) ورد في هامش الأصل و(م): وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن عبد العزيز أنه عليه السلام لم يعرِفْ موضعَه ولم يجد أحداً يخبره إلا امرأةً يقال لها: تارخ بنت شير بن يعقوب. فاشترطت عليه أن تصير شابَّةً كلَّما كبرت، وأن تكون منه عليه السلام في درجته يوم القيامة، ففعل بعد أن امتنع من الطلبة الثانية حتى أمر بإمضائها، فدلَّته، فأخرجه، فعادت بنتَ ثلاثين وعمرت ألفاً وستَّ مئة أو أربع مئة سنة حتى أدركت سليمان عليه السلام فتزوَّجها. اهـ منه. والخبر في تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٠٥، واسم المرأة فيه: شارح.

لما مرَّ مراراً، والخطابُ للرسول ﷺ وهو مبتدأً، وقولُه تعالى: ﴿مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ الذي لا يحوم حولَه أحدٌ = خبرُه، وقولُه سبحانه: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ خبرٌ بعد خبرٍ، أو حالٌ من الضمير في الخبر، وجوّز أن يكونَ «ذلك» اسماً موصولاً مبتدأ، و«من أنباءِ الغَيْبِ» صلتُه، و«نُوحِيه إليك» خبرُه، وهو مبنيٌّ على مذهبٍ مرجوحٍ مِن جَعْلِ سائر أسماء الإشارة موصولاتٍ.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ يريد إخوةَ يوسف عليه السلام ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ﴾ وهو جعلُهم إيَّاه في غَيَابة الجُبِّ ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ به ويبغون له الغوائلَ، والجملة ـ قيل ـ كالدليل على كونِ ذلك من أنباء الغيب ومُوحًى إليه عليه الصلاة والسلام، والمعنى: إنَّ هذا النبأ غيبٌ لم تعرفه إلا بالوحي لأنَّك لم تحضُر إخوةَ يوسف عليه السلام حين عزموا على ما همُّوا به من أن يجعلوه في غيابة الجُبِّ وهم يمكرون به، ومن المعلوم الذي لا يخفى على مُكذِّبيك أنَّك ما لقيتَ أحداً سمع ذلك فتعلَّمتَه منه.

وهذا من المذهب الكلاميِّ على ما نصَّ عليه غيرُ واحد، وإنما حُذف الشقُّ الأخير مع أنَّ الدالَّ على ما ذكر مجموعُ الأمرين لعلمِه من آيةٍ أخرى كقوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ﴾ [هود: ٤٩].

وقال بعض المحقِّقين: إن هذا تهكُّمٌ بمن كذَّبه، وذلك من حيث إنَّه تعالى جَعَل المشكوكَ فيه كونَه عليه السلام حاضراً بين يدَي أولادِ يعقوبَ عليه السلام ماكرين، فنفاه بقوله: «وما كنت لديهم»، وإنَّما الذي يمكن أن يرتابَ فيه المرتابُ قبلَ التعرُّفِ هو تلقِّيه من أصحاب هذه القصة، وكان ظاهرُ الكلام أن ينفي ذلك، فلمَّا جُعل المشكوكُ ما لا ريب فيه؛ لأنَّ كونه عليه الصلاة والسلام لم يلقَ أحداً ولا سمع كان عندهم كفَلَق الفجر، جاء التهكُّم البالغ، وصار حاصلُ المعنى: قد علمتم يا مُكابِرة، أنَّه لم يكن مُشاهِداً لمن مضى من القرون الخالية، وإنكارُكم لِمَا أخبر به يُفضي إلى أن تُكابِروا بأنَّه شاهَدَ مَن مضى منهم. وهذا كقوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا﴾ [الأنعام: ١٤٤].

ومنه يظهر فائدةُ العدول عن أسلوب: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾ [هود: ٤٩] إلى هذا الأسلوب، وهو أبلغُ مما ذُكر أولاً، وذُكِر لترك ذلك نكتةٌ أخرى أيضاً وهي

أنَّ المذكورَ مكرُهم وما دبَّروه وهو مما أخفَوه حتى لا يعلمه غيرُهم، فلا يمكن تعلُّمه من الغير، ولا يخلو عن حُسن.

وأيًّاما كان ففي الآية إيذانٌ بأنَّ ما ذكر من النبأ هو الحقُّ المطابِقُ للواقع، وما ينقله أهل الكتاب ليس على ما هو عليه.

﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ الظاهرُ العموم، وقال ابن عباس: إنَّهم أهلُ مكة. ﴿وَلَوۡ حَرَصۡتَ﴾ أي: على إيمانهم وبالغتَ في إظهار الآيات القاطعة الدالَّة على صدقك عليهم ﴿بِمُؤۡمِنِينَ ۝١٠٣﴾ لتصميمهم على الكفر وإصرارِهم على العناد حسبما اقتضاه استعدادُهم، و«حَرَص» من باب ضَرَب وعَلِم، وكلاهما لغةٌ فصيحةٌ، وجوابُ «لو» محذوفٌ؛ للعلم به، والجملةُ معترضةٌ بين المبتدأ والخبر.

قال ابن الأنباري(١): سألت قريشٌ واليهودُ رسولَ الله ﷺ عن قصة يوسف عليه السلام، فنزلت مشروحةً شرحاً وافياً، فأمل عليه الصلاة والسلام أن يكون ذلك سببَ إسلامهم.

وقيل: إنَّهم وعدوه أن يُسلِموا، فلمَّا لم يفعلوا عزَّاه الله تعالى بذلك.

وقيل: إنَّها نزلت في المنافقين، وقيل: في النصارى، وقيل: في المشركين فقط. وقيل: في أهل الكتاب فقط. وقيل: في الثَّنَوية.

﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ﴾ أي: هذا الإنباء، أو جنسه، أو القرآن، وأيًّاما كان فالضمير عائدٌ على ما يُفهَم مما قبله(٢)، والمعنى: ما تطلب منهم على تبليغه ﴿مِنۡ أَجۡرٍ﴾ أي: جُعلٍ ما، كما يفعله حَمَلَةُ الأخبار.

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٌ﴾ أي: ما هو إلا تذكيرٌ وعظةٌ من الله تعالى ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٤﴾ كافَّةً، والجملةُ كالتعليل لما قبلها(٣)؛ لأنَّ الوعظ العامَّ ينافي أخذ الأجرة من البعض؛ لأنَّه لا يختصُّ بهم.

---

(١) كما في زاد المسير ٤/ ٢٩٣. والبحر ٥/ ٣٥١.

(٢) في هامش (م): وقيل: الضمير لدين الله تعالى. اهـ منه.

(٣) في هامش الأصل و(م): ومَن تأمَّل ظهر له أنَّ كونه عظةً للعالمين عامَّة، فيه ما ينافي أن يسأل الأجر من غير وجه، فما ألطَفَ التعليل بذلك، فتأمَّل. اهـ منه.

وقيل: أريد: إنَّه ليس إلا عظةٌ من الله سبحانه أُمِرتُ أن أبلِّغَها فوجب عليَّ ذلك، فكيف أسأل أجراً على أداء الواجب. وهو خلافُ الظاهر، وعليه تكونُ الآية دليلاً على حرمة أخذ الأجرة على أداء الواجبات.

وقرأ مبشر بن عبيد: «وما نسألهم» بالنون[1].

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ﴾ أي: وكم من آيةٍ، قال الجلال السيوطيُّ[2]: إنَّ «كأيٍّ» اسمٌ كـ «كم» التكثيرية الخبرية في المعنى، مركَّبٌ من كاف التشبيه و«أيٍّ» الاستفهامية المنوَّنة وحُكِيَت، ولهذا جاز الوقفُ عليها بالنون؛ لأنَّ التنوينَ لما دخل في التركيب أشبه النونَ الأصليةَ، ولذا رُسم في المصحف نوناً، ومَن وقف عليها بحذفه اعتبر حكمَه في الأصل.

وقيل: الكاف فيها هي الزائدة، قال ابن عصفور: ألا ترى أنك لا تريد بها معنى التشبيه، وهي مع ذا لازمةٌ وغيرُ متعلِّقةٍ بشيء، و«أيٍّ» مجرورها.

وقيل: هي اسمٌ بسيطٌ، واختاره أبو حيان، قال: ويدلُّ على ذلك تلاعُبُ العرب بها في اللغات[3].

وإفادتها للاستفهام نادرٌ حتى أنكره الجمهور، ومنه قولُ أبيٍّ لابن مسعود: كأيِّن تقرأ سورةَ الأحزاب آية؟ فقال: ثلاثاً وسبعين. والغالب وقوعُها خبريَّةً، ويلزمها الصدرُ فلا تجرُّ خلافاً لابن قتيبة وابن عصفور. ولا يحتاج إلى سماع، والقياس على «كم» يقتضي أن يضافَ إليها ولا يحفظ، ولا يُخبَر عنها إلا بجملةٍ فعليةٍ مصدَّرة بماضٍ أو مضارعٍ كما هنا، قال أبو حيان: والقياسُ أن تكونَ في موضع نصبٍ على المصدر أو الظَّرف أو خبر «كان»، كما كان ذلك في «كم»، وفي «البسيط» أنَّها تكون مبتدأً وخبراً ومفعولاً.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٥، والبحر ٥/ ٣٥١، وتحرَّف «مبشر» فيه إلى: بشر. وهو مبشر بن عبيد أبو حفص القرشي، روى عن زيد بن أسلم وعطية العوفي وقتادة. قال أحمد: شغله القرآن عن الحديث، أحاديثه بواطيل. تهذيب الكمال ٢٧/ ١٩٤.

(٢) في همع الهوامع ٢/ ٦٠٤.

(٣) البحر ٥/ ٣٥١، ونقله المصنف عنه ـ وكذا ما سيأتي من أقوال ـ بواسطة السيوطي في همع الهوامع.

ويقال فيها: كَائِنْ، بالمدِّ بوزن اسم الفاعل من «كان» ساكنة النون، وبذلك قرأ ابنُ كثير(١)، و«كَأٍ» بالقصر بوزن «عَمٍ»، و«كَأْيٍ» بوزن رَمْيٍ، وبه قرأ ابن محيصن(٢)، و«كَيْءٍ» بتقديم الياء على الهمزة(٣).

وذكر صاحب اللوامح أنَّ الحسن قرأ: «وكَيٍ» بياء مكسورةٍ من غير همز ولا ألفٍ ولا تشديد(٤).

و«آيةٍ» في موضع التمييز، و«من» زائدة، وجرُّ تمييزِ «كأين» بها دائميٌّ أو أكثريٌّ. وقيل: هي مبينةٌ للتميز المقدَّر.

والمراد من الآية الدليلُ الدالُّ على وجودِ الصانع ووحدتِه وكمال علمه وقدرته، وهي وإن كانت مفردةً لفظاً لكنَّها في معنى الجمع، أي: آياتٍ؛ لمكان «كأين»، والمعنى: وكأيٍّ عددٍ شئتَ من الآيات الدالَّة على صدق ما جئتَ به غيرَ هذه الآية.

﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: كائنةٍ فيهما من الأجرام الفلكية وما فيها من النجوم وتغيُّرِ أحوالها، ومن الجبال والبحار وسائر ما في الأرض من العجائب الفائتة للحصر:

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدُلُّ على أنَّه واحدُ(٥)

﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ يشاهدونها ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ غيرُ متفكِّرين فيها ولا معتبرين بها، وفي هذا من تأكيد تعزِّيه ﷺ وذمِّ القوم ما فيه. والظاهرُ أنَّ «في السمواتِ والأرض» في موضع الصفة لـ «آية»، وجملةُ «يَمرُّونَ» خبرُ «كأين» كما أشرنا إليه سابقاً، وجُوِّز العكس.

وقرأ عكرمة وعمرو بن فائد: «والأرضُ» بالرفع(٦)، على أنَّ «في السَّماوَاتِ»

---

(١) التيسير ص٩٠، والنشر ٢/ ٢٤٢، وهي قراءة أبي جعفر من العشرة.
(٢) البحر ٣/ ٧٢.
(٣) همع الهوامع ٢/ ٦٠٤-٦٠٥.
(٤) البحر ٥/ ٣٥١.
(٥) سلف ١/ ٢٧١.
(٦) المحتسب ١/ ٣٤٩، والبحر ٥/ ٣٥١.

هو الخبرُ لـ «كأيِّنْ»، و«الأرضُ» مبتدأ، خبرُه الجملةُ بعده، ويكون ضميرُ «عليها» للأرض لا للآيات كما في القراءة المشهورة.

وقرأ السديُّ «والأرضَ» بالنصب[١]، على أنه مفعولٌ بفعل محذوفٍ يفسِّره «يمرون»، وهو من الاشتغال المفسَّر بما يوافقه في المعنى، وضميرُ «عليها» كما هو فيما قبلُ، أي: ويَطَؤُون الأرضَ يمرُّون عليها، وجُوِّز أن يقدَّر: يَطَؤون، ناصباً للأرض، وجملةُ «يمرُّون» حالٌ منها أو من ضميرِ عاملها.

وقرأ عبد الله: «والأرضُ» بالرفع، و«يمشون» بدلَ «يمرُّون»[٢].

والمعنى على القراءات الثلاث: إنَّهم يجيئون ويذهبون في الأرض ويرون آثارَ الأمَم الهالكة وما فيها من الآيات والعبر ولا يتفكَّرون في ذلك.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾ في إقرارهم[٣] بوجوده تعالى وخالقيته ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾ به سبحانه، والجملةُ في موضع الحال من الأكثر، أي: ما يؤمن أكثرُهم إلا في حالِ إشراكهم.

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والشعبي وقتادة: هم أهلُ مكة، آمنوا وأشركوا، كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك اللَّهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك تَملِكُه وما ملك[٤]. ومن هنا كان ﷺ إذا سمع أحدَهم يقول: لبيك لا شريك لك. يقول له: «قط قط»[٥]، أي: يكفيك ذلك، ولا تَزِدْ: إلا شريكاً.. إلخ.

وقيل: هم أولئك آمنوا لمَّا غَشِيهم الدخانُ في سني القحط وعادوا إلى الشرك بعد كشفه.

وعن ابن زيد وعكرمة وقتادة ومجاهد أيضاً أنَّ هؤلاء كفارُ العرب مطلقاً أقرُّوا

---

(١) المحتسب ١/ ٣٤٩، والكشاف ٢/ ٣٤٦، والبحر ٥/ ٣٥١.
(٢) الكشاف ٢/ ٣٤٦، والبحر ٥/ ٣٥١، وينظر المحتسب ١/ ٣٥٠.
(٣) ورد في هامش الأصل و(م): إشارةٌ إلى أنَّه إيمانٌ لسانيٌّ، إذْ لا اعتقادَ به مع الشرك. اهـ منه.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٥، وتفسير البغوي ٢/ ٤٥٢، والبحر ٥/ ٣٥١.
(٥) المصادر السابقة، ولم نقف عليه مسنداً.

بالخالق الرازق المميت وأشركوا بعبادة الأوثان والأصنام[١]. وقيل: أشركوا بقولهم: الملائكة بنات الله سبحانه.

وعن ابن عباس أيضاً أنَّهم أهلُ الكتاب، أقرُّوا بالله تعالى وأشركوا به من حيث كفروا بنبيِّه ﷺ، أو من حيث عبدوا عزيراً والمسيحَ عليهما السلام. وقيل: أشركوا بالتبنِّي واتخاذِهم أحبارَهم ورهبانَهم أرباباً.

وقيل: هم الكفار الذين يُخلِصون في الدعاء عند الشدَّة ويشركون إذا نجوا منها، وروي ذلك عن عطاء.

وقيل: هم الثنوية، قالوا بالنور والظلمة.

وقيل: هم المنافقون، جهروا بالإيمان وأخفوا الكفر. ونُسب ذلك للبلخي.

وعن الحبر أنهم المُشبِّهة، آمنوا مجمَلاً وكفروا مفصَّلاً.

وعن الحسن أنهم المراؤون بأعمالهم، والرياء شركٌ خفيٌّ.

وقيل: هم الناظرون[٢] إلى الأسباب المعتمدون عليها.

وقيل: هم الذين يُطيعون الخلقَ بمعصية الخالق.

وقد يقال نظراً إلى مفهوم الآية: إنَّهم مَن يندرج فيهم كلُّ مَن أقرَّ بالله تعالى وخالقيته مثلاً وكان مرتكباً ما يُعَدُّ شركاً كيفما كان، ومن أولئك عَبَدَةُ القبور الناذرون لها المعتقدون للنفع والضرِّ ممن الله تعالى أعلم بحاله فيها، وهم اليوم أكثر من الدود.

واحتجت الكرَّاميَّة بالآية على أنَّ الإيمان مجرَّدُ الإقرار باللسان. وفيه نظر.

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي: عقوبة تغشاهم وتشملهم، والاستفهام إنكارٌ فيه معنى التوبيخ والتهديد كما في «البحر»[٣]، والكلامُ في العطف

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٥. وينظر تفسير الطبري ١٣/ ٣٧٣-٣٧٥، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٠٧.

(٢) في (م): المناظرون.

(٣) ٥/ ٣٥١.

ومحلُّ الاستفهام في الحقيقة مشهورٌ، وقد مرَّ غيرَ مرَّة، والمراد بهذه العقوبة ما يعمُّ الدنيويةَ والأخرويةَ على ما قيل. وفي «البحر»[1] ما هو صريحٌ في الدنيوية؛ للمقابلة بقوله سبحانه: ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ فجأةً من غير سابقةِ علامةٍ، وهو الظاهرُ.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ بإتيانها غير مستعدِّين لها.

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ أي: هذه السبيل التي هي الدعوة إلى الإيمان والتوحيد سبيلي، كذا قالوا، والظاهرُ أنَّهم أخذوا الدعوةَ إلى الإيمان من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] لإفادة أنَّه يدعوهم إلى الإيمان بجدٍّ وحرصٍ وإن لم ينفع فيهم، والدعوةَ إلى التوحيد من قوله سبحانه: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم﴾ [يوسف: ١٠٦] لدلالته على أنَّ كونَه ذكراً لهم لاشتماله على التوحيد؛ لكنَّهم لا يرفعون له رأساً كسائر آيات الآفاق والأنفس الدالَّة على توحُّدِه تعالى ذاتاً وصفاتٍ، وفسَّر ذلك بقوله تعالى: ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: أدعو الناسَ إلى معرفته سبحانه بصفاتِ كماله ونعوتِ جلاله، ومن جملتها التوحيدُ، فالجملةُ لا محلَّ لها من الإعراب.

وقيل: إنَّ الجملةَ في موضع الحال من الياء، والعاملُ فيها معنى الإشارة. وتعقِّب بأنَّ الحالَ في مثله من المضاف إليه مخالِفةٌ للقواعد ظاهراً، وليس ذلك مثلُ: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]. واعتُرِض أيضاً بأنَّ فيه تقييدَ الشيء بنفسه. وليس ذاك.

﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي: بيانٍ وحجَّةٍ واضحةٍ غير عمياء، والجارُّ والمجرورُ في موضع الحال من ضمير «أدعو». وزعم أبو حيان[2] أنَّ الظاهرَ تعلُّقَه بـ «أدعو»، وقولُه تعالى: ﴿أَنَا۠﴾ تأكيدٌ لذلك الضمير أو للضمير الذي في الحال.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ عطفٌ على ذي الحال، ونسبةُ «أدعو» إليه من باب التغليب كما قُرِّر في قوله تعالى: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] ومنهم من قدَّر في مثله فعلاً عاملاً في المعطوف، ولم يعوِّل عليه المحقِّقون.

---

(١) ٥/ ٣٥١-٣٥٢.

(٢) في البحر ٥/ ٣٥٣.

ومُنِع عطفُه على «أنا» لكونه تأكيداً، ولا يصحُّ في المعطوف كونُه تأكيداً كما في المعطوف عليه. واعتُرِض بأنَّ ذلك غيرُ لازمٍ كما يقتضيه كلام المحقِّقين.

وجوّز كونُ «من» مبتدأ، خبرُه محذوفٌ، أي: ومَن اتبعني كذلك، أي: داعٍ. وأن يكونَ «على بصيرة» خبراً مقدَّماً، و«أنا» مبتدأ، و«من» عطف عليه.

وقولُه تعالى: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: وأُنزِّهه سبحانه وتعالى تنزيهاً من الشركاء، وهو داخلٌ تحتَ القول، وكذا: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ في وقتٍ من الأوقات، والكلامُ مؤكِّدٌ لما سبق من الدعوة إلى الله تعالى.

وقرأ عبد الله: «قل هذا سبيلي» على التذكير[(١)]، والسبيل تؤنَّث وقد تذكَّر.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ ردٌّ لقولهم: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤] نفيٌ له، وقيل: المرادُ نفيُ استنباء النساء، ونسب ذلك إلى ابن عباس رضي الله عنهما[(٢)].

وزعم بعضُهم أنَّ الآيةَ نزلت في سَجَاح بنت المنذر المتنبِّئة[(٣)] التي يقول فيها الشاعر:

أمست نبيَّتُنا أنثى نَطوفُ بها ... ولم تزل أنبياءُ الله ذُكرانا

فلعنةُ اللهِ والأقوامِ كُلِّهم ... على سَجَاح ومَن بالأفكِ أَغْرَانا

أَعْنِي مُسَيْلِمة الكذَّابِ لا سُقِيَت ... أصداؤه ماءَ مُزنٍ أينما كانا[(٤)]

وهو مما لا صحَّةَ له؛ لأنَّ ادعاءَها النبوةَ كان بعد النبيِّ ﷺ، وكونه إخباراً بالغيب لا قرينةَ عليه.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٥، والبحر ٥/ ٣٥٣.

(٢) الكشاف ٢/ ٣٤٦، والبحر ٥/ ٣٥٣.

(٣) ورد في هامش الأصل و(م): وهي تميميةٌ ادَّعت النبوَّةَ، ثم أسلمت وحَسُن إسلامها، وقصتها معروفة في التواريخ. اهـ منه. وينظر تاريخ الطبري ٣/ ٢٦٧.

(٤) الأبيات في الأوائل للعسكري ٢/ ١٧٥-١٧٦ لعطارد بن حاجب بن زرارة، وفي ثمار القلوب ص٣١٥، وغرر الخصائص ص٢٢٢ لقيس بن عاصم، وهي في البحر ٥/ ٣٥٣ غير منسوبة، وفيه وفي الأوائل وثمار القلوب: نُطِيفُ، بدل: نطوف، وفي الغرر: يطاف.

﴿نُوحِىٓ إِلَيۡهِم﴾ كما أوحينا إليك.

وقرأ أكثرُ السبعة: «يُوحَى» بالياء وفتح الحاء مبنيّاً للمفعول[1]، وقراءةُ النون ـ وهي قراءةُ حفص وطلحة وأبي عبد الرحمن[2] ـ موافقةٌ لـ «أرسلنا».

﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ لأنَّ أهلَها ـ كما قال ابن زيد وغيره، وهو مما لا شبهة فيه ـ أعلمُ وأحلمُ من أهل البادية، ولذا يقال لأهل البادية: أهلُ الجفاء، وذكروا أنَّ التبدِّي مكروه إلا في الفتن، وفي الحديث: «مَن بَدَا جَفَا»[3].

قال قتادة: ما نعلم أنَّ الله تعالى أرسل رسولاً قطُّ إلا من أهل القرى. ونُقِل عن الحسن أنه قال: لم يُبعَث رسولٌ من أهل البادية ولا من النساء ولا من الجنِّ. وقولُه تعالى: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ [يوسف: ١٠٠] قد مرَّ الكلامُ فيه آنفاً.

﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾ من المكذِّبين بالرسُل والآيات من قوم نوح وقوم لوط وقوم صالح وسائرِ مَن عذَّبه الله تعالى فيَحْذَروا تكذيبَك. ورُوي هذا عن الحسن[4].

وجوَّز أن يكون المراد: عاقبةُ الذين من قبلهم من المشغوفين بالدنيا المتهالِكين عليها، فيقلعُوا ويكُفُّوا عن حُبِّها. وكأنه لاحَظَ المجوِّزُ ما سيُذكَر.

والاستفهام على ما في «البحر»[5] للتقريع والتوبيخ.

﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف عند الكوفية، أي: وللدَّارُ الآخرة. وقدَّر البصريُّ موصوفاً، أي: ولدارُ الحالِ أو الساعةِ أو الحياةِ الآخرة. وهو المختارُ عند الكثير في مثل ذلك.

---

(١) التيسير ص١٣٠، والنشر ٢/ ٢٩٦.

(٢) المصدران السابقان، والبحر ٥/ ٣٥٣.

(٣) أخرجه أحمد (٨٨٣٦)، والبزار (١٦١٨ - كشف الأستار)، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٠١ عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً، وفي سنده اضطراب، وأخرجه أبو داود (٢٨٥٩)، والترمذي (٢٢٥٦) عن ابن عباس مرفوعاً بلفظ «من سكن البادية جفا». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢١٠.

(٥) ٥/ ٣٥٣.

﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْاْ﴾ الشركَ والمعاصي، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ فتستعملوا عقولَكم لتعرفوا خيريةَ دارِ الآخرة فتتوسَّلوا إليها بالاتقاء.

قيل: إن هذا من مقول: «قُلْ»[(١)]، أي: قُلْ لهم مخاطِباً: «أفلا تعقلون». فالخطابُ على ظاهره، وقولُه سبحانه: (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ) إلى (مِن قَبْلِهِمْ) أو (اتَّقَوْاْ) اعتراضٌ بين مقول القول. واستظهر بعضُهم كونَ هذا التفاتاً.

وقرأ جماعةٌ: «يَعقِلُون» بالياء[(٢)]، رَعْياً لقوله سبحانه: (أَفَلَمْ يَسِيرُواْ).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا اسْتَيْـَٔسَ الرُّسُلُ﴾ غايةٌ لمحذوفٍ دلَّ عليه السياقُ[(٣)]، والتقديرُ عند بعضهم: لا يغرَّنَّهم تماديهم فيما هم فيه من الدَّعَة والرخاء، فإنَّ مَن قبلهم قد أُمهِلوا حتى يئس الرسُلُ من النصر عليهم في الدنيا، أو من إيمانهم لانهماكِهم في الكفر وتماديهم في الطغيان من غير وازعٍ.

وقال أبو الفرج ابن الجوزي[(٤)]: التقدير: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً، فدَعَوا قومَهم فكذَّبوهم، وصبروا، وطال دعاؤهم وتكذيبُ قومهم، حتى إذا استيأس.. إلخ.

وقال القرطبيُّ[(٥)]: التقدير: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً، ثم لم نُعاقِب أممهم حتى إذا استيأس... إلخ.

وقال الزمخشريُّ[(٦)]: التقدير: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً، فتراخى النصر حتى إذا... إلخ.

ولعلَّ الأولَ أولى وإن كان فيه كثرةُ حذفٍ، والاستفعال بمعنى المجرَّد كما أشرنا إليه، وقد مرَّ الكلامُ في ذلك.

---

(١) أي: في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى اللَّهِ﴾.
(٢) وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وحمزة والكسائي من السبعة كما في التيسير ص١٣٠، والنشر ٢/ ٢٥٧، وقرأ بها خلف من العشرة.
(٣) في (م): السباق.
(٤) في زاد المسير ٤/ ٢٩٦.
(٥) في تفسيره ١١/ ٤٧١.
(٦) في الكشاف ٢/ ٣٤٧.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ بالتخفيف والبناءِ للمفعول، وهي قراءةُ عليٍّ كرم الله تعالى وجهه وأبيٍّ وابن مسعود وابن عباس ومجاهد وطلحة والأعمش والكوفيين[١]، واختُلِف في توجيه الآية على ذلك فقيل: الضمائرُ الثلاثة للرسل، والظنُّ بمعنى التوهُّم لا بمعناه الأصليِّ ولا بمعناه المجازيِّ، أعني: اليقينَ، وفاعلُ «كُذبوا» المقدَّر إما أنفسُهم أو رجاؤُهم، فإنَّه يُوصَف بالصدق والكَذِب، أي: كَذَبَتْهم أنفسُهم حين حدَّثتهم بأنهم يُنصَرون، أو كذَبهم رجاؤُهم النصرَ، والمعنى أنَّ مدَّةَ التكذيبِ والعداوةِ من الكفار وانتظارِ النصر من الله تعالى قد تطاوَلت وتمادَّت حتى استشعروا القنوطَ وتوهَّموا أن لا نصرَ لهم في الدنيا ﴿جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ فجأةً.

وقيل: الضمائرُ كلُّها للرسل، والظنُّ بمعناه، وفاعلُ «كُذِبوا» المقدَّرُ مَن أخبرهم عن الله تعالى، ورُوي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، فقد أخرج الطبرانيُّ وغيرُه عن عبد الله بن أبي مُلَيكة قال: إنَّ ابنَ عباس قرأ: (قَدۡ كُذِبُواْ) مخفَّفة، ثم قال: يقول: أُخلِفوا، وكانوا بَشَراً. وتلا: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: ٢١٤] قال ابن أبي مليكة: فذهب ابن عباس إلى أنهم يئسوا وضَعُفوا فَظنُّوا أنَّهم قد أُخْلِفُوا[٢]. وروى ذلك عنه البخاريُّ في «الصحيح»[٣].

واستشكل هذا بأنَّ فيه ما لا يليق نسبتُه إلى الأنبياء عليهم السلام بل إلى صالحي الأمة، ولذا نُقِل عن عائشة رضي الله عنها ذلك؛ فقد أخرج البخاريُّ والنسائيُّ وغيرهما من طريق عروة أنه سألَ عائشةَ رضي الله عنها عن هذه الآية قال: قلتُ: أكُذِبُوا أم كُذِّبُوا؟ فقالت عائشة: بل كُذِّبوا. يعني بالتشديد، قلتُ: والله لقد استيقنوا أنَّ قومَهم كذَّبوهم، فما هو بالظَّنِّ. قالت: أجل، لعمري لقد استيقنوا بذلك. فقلت: لعله «وظنُّوا أنهم قد كُذِبوا» مخفَّفة قالت: معاذَ الله، لم تكن الرُّسلُ لتظُنَّ ذلك بربِّها. قلتُ: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباعُ الرسُل الذين آمنوا بربِّهم وصدَّقوهم

---

(١) التيسير ص١٣٠، والنشر ٢/٢٩٦ عن الكوفيين وهم حمزة والكسائي وعاصم وخلف، وهي قراءة أبي جعفر أيضاً، والكلام من البحر ٥/ ٣٥٤.

(٢) المعجم الكبير (١١٢٤٥) بنحوه.

(٣) صحيح البخاري (٤٥٢٤)، وينظر الجمع بين الصحيحين للحميدي ٢/ ٧٧، وفتح الباري ٨/ ٣٦٨.

وطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصرُ، حتى إذا استيأس الرسُل ممن كذَّبهم من قومهم وظنَّت الرسُلُ أنَّ أتباعَهم قد كَذَّبوهم جاء نصر الله عندَ ذلك[١].

وأجاب بعضُهم بأنَّه يمكن أن يكونَ أراد ﷺ بالظَّنِّ ما يخطُر بالبال ويَهجِس بالقلب من شُبَه الوسوسة وحديثِ النفس على ما عليه البشريةُ.

وذهب المجدُ ابن تيمية[٢] إلى رجوع الضمائر جميعها أيضاً إلى الرسل، مائلاً إلى ما رُوي عن ابن عباس، مدَّعياً أنَّه الظاهرُ وأنَّ الآية على حدِّ قولِه تعالى: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢] فإنَّ الإلقاءَ في قلبه وفي لسانه وفي عمله من بابٍ واحدٍ والله تعالى ينسَخُ ما يُلقي الشيطانُ.

ثم قال: والظنُّ لا يُراد به في الكتابِ والسنةِ الاعتقادُ الراجحُ كما هو في اصطلاح طائفةٍ من أهل العلم، ويسمُّون الاعتقادَ المرجوحَ: وهْماً؛ فقد قال ﷺ: «إياكم والظَّنَّ، فإنَّ الظنَّ أكذبُ الحديث»[٣]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٣٦] فالاعتقاد المرجوحُ هو ظنٌّ وهو وهمٌ، وهذا قد يكون ذنباً يُضعِف الإيمانَ ولا يُزيله، وقد يكون حديثَ النفس المعفوَّ عنه كما قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الله تعالى تجاوَزَ لأمتي عما حَدَّثَت به أنفسها ما لم تتكلَّم أو تعمل»[٤]. وقد يكون من باب الوسوسة التي هي صريحُ الإيمان؛ كما ثبت في الصحيح أنَّ الصحابة ﷺ قالوا: يا رسول الله، إنَّ أحدَنا ليجد في نفسه ما أن يُحرَقَ حتى يصيرَ حمماً أو يخرَّ من السماء إلى الأرض أحبُّ إليه من أن يتكلَّم به. قال ﷺ: «أوَقد وجدتموه»؟ قالوا: نعم. قال: «ذلك صريح الإيمان»[٥].

---

(١) صحيح البخاري (٤٦٩٥)، والسنن الكبرى للنسائي (١١١٩٢).

(٢) كذا ذكر، والصواب أنه تقي الدين ابن تيمية حفيد المجد ابن تيمية، وكلامه في مجموع الفتاوى ١٣/ ١٧٦-١٨٠.

(٣) أخرجه البخاري (٥١٤٣)، ومسلم (٢٥٦٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري (٥٢٦٩)، ومسلم (١٢٧) من حديث أبي هريرة ﷺ، وقد سلف ٣/ ٥٠٥.

(٥) أخرجه أحمد (٩١٦٥)، ومسلم (١٣٢) (٢٠٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وفي حديثٍ آخر: إنَّ أحدَنا ليجد ما يتعاظمُ أن يتكلَّمَ به. قال: «الحمد لله الذي ردَّ كَيدَه إلى الوَسْوَسَة»(١). ونظيرُ هذا ما صحَّ من قوله ﷺ: «نحن أحقُّ بالشكِّ من إبراهيمَ عليه السلام إذ قال له ربُّه: أو لم تُؤمن؟ قال: بلى ولكن ليطمئنَّ قَلْبي»(٢).

فسمَّى النبيُّ ﷺ التفاوُتَ بينَ الإيمان والاطمئنان شكّاً بإحياء الموتى، وعلى هذا يقال: الوعد بالنصر في الدنيا لشخص قد يكون الشخصُ مؤمناً بإنجازه ولكن قد يَضطَرِب قلبُه فيه فلا يطمئنُّ، فيكون فواتُ الاطمئنان ظنّاً أنَّه كَذِبٌ، فالشكُّ وظنُّ أنه كَذِبٌ من بابٍ واحدٍ، وهذه الأمورُ لا تقدَح في الإيمان الواجب وإن كان فيها ما هو ذَنْبٌ، فالأنبياء عليهم السلام معصومون من الإقرار على ذلك كما في أفعالهم؛ على ما عُرِف من أصول السنة والحديث، وفي قَصِّ مثلِ ذلك عبرةٌ للمؤمنين بهم عليهم السلام، فإنَّهم لابدَّ أن يُبتَلُوا بما هو أكثر من ذلك فلا ييأسوا إذا ابتُلُوا، ويعلمون أنه قد ابتُلي مَن هو خيرٌ منهم، وكانت العاقبةُ إلى خيرٍ فيتيقَّن المرتابُ ويتوب المذنبُ ويقوى إيمانُ المؤمن، وبذلك يصحُّ الائتِّساءُ بالأنبياء، ومن هنا قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ [يوسف: ١١١].

ولو كان المتبوعُ معصوماً مطلَقاً لا يتأتَّى الائتِّساءُ؛ فإنَّه يقول التابعُ: أنا لستُ من جنسه، فإنَّه لا يُذكَر بذنبٍ، فإذا أذنب استيأس من المتابعة والاقتداءِ لِمَا أتى به من الذنب الذي يُفسِد المتابعةَ على القول بالعصمة، بخلاف ما إذا علم أنَّه قد وقع شيءٌ وجُبِر بالتوبة، فإنَّه يصحُّ حينئذٍ أمرُ المتابعة، كما قيل: أولُ مَن أذنب وأجرم، ثم تابَ ونَدِم أبو البشر آدم:

ومَــن يُـشـابِـه أبَـه فـمـا ظـلـم(٣)

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠٩٧)، وأبو داود (٥١١٢)، والنسائي في الكبرى (١٠٤٣٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: جاء رجلٌ إلى النبيّ ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنِّي أحدِّث نفسي بالشيء لأن أخِرَّ من السماء أحبُّ إليَّ من أن أتكلَّمَ به. قال: فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الحمد لله الذي ردَّ كيدَه إلى الوسوسة». واللفظ لأحمد.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٧٢)، ومسلم (١٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وسلف ٣/ ٤٣١.

(٣) الرجز لرؤبة بن العجاج، وقبله: بأَبِهِ اقْتَدَى عَدِيٌّ في الكَرَمْ. وهو في ديوانه ص١٤٨.

ولا يلزم الاقتداءُ بهم فيما نُهُوا عنه ووقع منهم ثم تابوا عنه؛ لتحقُّقِ الأمر بالاقتداء بهم فيما أُقِرُّوا عليه ولم يُنهوا عنه ووقع منهم ولم يتوبوا منه، وما ذُكِر ليس بدون المنسوخ من أفعالهم، وإذا كان ما أُمِروا به وأُبِيح لهم ثم نُسِخ تنقطع فيه المتابعةُ، فما لم يُؤمَروا به ووَقَع منهم وتابوا عنه أحرى وأولى بانقطاع المتابعة فيه[1]. اهـ.

ولا يخفى أنَّ ما ذكره مستلزمٌ لجوازِ وقوع الكبائر من الأنبياء عليهم السلام ـ وحَاشَاهم ـ من غيرِ أن يُقَرُّوا على ذلك، والقولُ به جهلٌ عظيمٌ، ولا يقدمُ عليه ذو قلبٍ سليم، على أنَّ في كلامه بعدُ ما فيه، وليته اكتفى بجعل الضمائر للرسل وتفسير الظنِّ بالتوهُّم كما فعل غيرُه، فإنَّه مما لا بأسَ به، وكذا لا بأسَ في حملِ كلامِ ابن عباس على أنَّه أراد بالظنِّ فيه ما هو على طريق الوسوسة، ومثالها من حديث النفس؛ فإنَّ ذلك غيرُ الوسوسة المنزَّهِ عنها الأنبياءُ عليهم السلام، أو على أنَّه أراد بذلك المبالغةَ في التراخي وطول المدَّةِ على طريق الاستعارة التمثيلية بأن شبه المبالغة في التراخي بظنِّ الكَذِب باعتبار استلزامِ كلٍّ منهما لعدم ترتُّب المطلوب، فاستعمل ما لأحدهما في الآخر.

وقيل: إنَّ الضمائرَ الثلاثةَ للمرسَل إليهم؛ لأنَّ ذكر الرسل متقاضٍ ذاك، ونظيرُ ذلك قوله:

أَمِنْكَ البَرْقُ أَرْقُبُه فَهاجَا وبتُّ إخالُه دُهْماً خِلَاجَا[2]

فإنَّ ضميرَ «إخالُه» للرعد ولم يصرِّح به بل اكتفى بوميض البرق عنه.

وإن شئتَ قلت: إنَّ ذكرَهم قد جرى في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فيكون الضميرُ للذين من قبلهم ممن كَذَّبَ الرسُلَ عليهم السلام، والمعنى: ظنَّ المرسَلُ إليهم أنَّ الرسُلَ قد كَذَبُوهم فيما ادَّعوه

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٣/ ١٧٦-١٨٠.

(٢) البيت لأبي ذؤيب الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ١/ ١٦٤، وفيه: فَبتُّ. وفي شرح أشعار الهذليين ١/ ١٧٦ برواية: «أوْمَضَ ثم هاجا» بدل: «أرقُبُه فهاجَا». وقوله: أمنك. أي: أمن شِقِّك هذا البرق. دُهْماً: سُوداً. خِلَاجاً: جمع خَلُوج، وهي من الإبل: التي اختُلِجَت أولادها عنها، إما بموتٍ أو بذبحٍ، فهي تحِنُّ إلى أولادها.

من النبوَّة وفيما وَعَدوا به مَن لم يُؤمِن من العقاب. ورُوي ذلك عن ابن عباس أيضاً؛ فقد أخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور والنسائيُّ وابن جرير وغيرُهم من طُرقٍ عنه ﷺ أنه كان يقرأ: (كُذِبُواْ) مخفَّفةً ويقول: حتى إذا يئس الرسلُ من قومهم أن يستجيبوا لهم، وظنَّ قومُهم أنَّ الرسُلَ قَد كَذَبوهم فيما جاؤوا به، جاء الرسُلَ نصرُنا[1].

وروي ذلك أيضاً عن سعيد بن جبير؛ أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ربيعة بن كلثوم قال: حدَّثني أبي أنَّ مسلم بن يسار سأل سعيد بن جبير فقال: يا أبا عبد الله، آيةٌ قد بلغت مني كلَّ مبلغٍ: (حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ)، فإنَّ الموتَ أنْ تظُنَّ الرسلُ أنَّهم قد كُذِّبوا ـ مثقَّلةً ـ أو تَظنَّ أنَّهم قُد كُذِبوا مخفَّفة. فقال سعيد: حتى إذا استيأس الرسلُ من قومهم أن يَستجيبوا لهم، وظنَّ قومُهم أنَّ الرسُلَ كذَبَتْهم، جاءهم نصرُنا. فقام مسلم إليه فاعتنقه وقال: فرَّج الله تعالى عنك كما فرَّجْتَ عني[2].

ورُوي أنَّه قال ذلك بمحضر من الضحاك، فقال له: لو رحلتَ في هذه إلى اليمن لكان قليلاً[3].

وقيل: ضميرُ «ظَنُّوا» للمرسَل إليهم، وضميرُ «أنَّهم» و«كُذِبوا» للرسل عليهم السلام، أي: وظنُّوا أنَّ الرسلَ عليهم السلام أخلَفوا فيما وُعِد لهم من النصر وخُلِط الأمرُ عليهم.

وقرأ غيرُ واحد من السبعة والحسن وقتادة ومحمد بن كعب وأبو رجاء وابن أبي مليكة والأعرج وعائشة في المشهور: «كُذِّبوا» بالتشديد والبناء للمفعول[4]،

---

(١) سنن سعيد بن منصور (١١٤٧ و١١٤٩ - تفسير)، والسنن الكبرى للنسائي (١١١٩٣)، وتفسير الطبري ١٣/ ٣٨٥ و٣٨٦، وعزاه السيوطي في الدر ٤/ ٤١ لأبي عبيد وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه، وهو في تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢١٢.

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٣٨٨، وعزاه لأبي الشيخ السيوطيُّ في الدر ٤/ ٤١.

(٣) تفسير الطبري ١٣/ ٣٨٧-٣٨٨.

(٤) قرأ بها من السبعة ابن كثير وابن عامر ونافع وأبو عمرو كما في التيسير ص١٣٠، والنشر ٢/ ٢٩٦، وهي قراءة يعقوب من العشرة، والكلام من البحر ٥/ ٣٥٤.

والضمائر على هذا للرسل عليهم السلام، أي: ظنَّ الرسل أنَّ أمَمَهم كَذَّبوهم فيما جاؤوا به لطول البلاء عليهم فجاءهم نصرُ الله تعالى عند ذلك. وهو تفسيرُ عائشة ﵂ الذي رواه البخاري[١] عليه الرحمة. والظنُّ بمعناه، أو بمعنى اليقين، أو التوهُّم.

وعن ابن عباس ومجاهد والضحاك أنَّهم قرؤوا: «كَذَبُوا» مخفَّفاً مبنيّاً للفاعل[٢]، فضمير «ظَنُّوا» للأُمم، وضميرُ «أنَّهم قد كَذَبوا» للرسل، أي: ظنَّ المرسَلُ إليهم أنَّ الرسُلَ قد كَذَبوا فيما وعدوهم به من النصر أو العقابِ.

وجوَّز أن يكون ضميرُ «ظنوا» للرسل، وضمير «أنَّهم قد كَذَبوا» للمرسَل إليهم، أي: ظنَّ الرسلُ عليهم السلام أنَّ الأمَمَ كذبتهم فيما وعدوهم به من أنَّهم يُؤمِنون، والظنُّ الظاهرُ ـ كما قيل ـ أنَّه بمعنى اليقين.

وقرئ كما قال أبو البقاء: «كذَّبُوا» بالتشديد والبناءِ للفاعل، وأوَّلَ ذلك بأنَّ الرسلَ عليهم السلام ظَنُّوا أنَّ الأمم قد كذَّبوهم في وعدهم هذا[٣].

والمشهور استشكالُ الآية من جهة أنَّها متضمِّنةٌ ظاهراً على القراءة الأولى، نسبةَ مَا لا يليق من الظنِّ إلى الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام، واستشكل بعضُهم نسبةَ الاستيئاس إليهم عليهم السلام أيضاً، بناءً على أنَّ الظاهرَ أنَّهم استيأسوا مما وُعِدوا به وأُخبِروا بكونه، فإنَّ ذلك أيضاً مما لا يليق نسبتُه إليهم.

وأجيب بأنَّه لا يُراد ذلك، وإنَّما يراد أنَّهم استيأسوا من إيمانِ قومهم.

واعترض بأنَّه يُبعِده عطفُ «وظَنُّوا أنَّهم قد كُذِبوا» الظاهرُ في أنَّهم ظَنُّوا كونَهم مكذوبين فيما وعدوا به عليه.

وذكر المجدُ[٤] في هذا المقام تحقيقاً غيرَ ما ذكره أولاً، وهو أنَّ الاستيئاسَ

---

(١) في صحيحه (٤٦٩٥). وقد سلف ص٥٢٣ من هذا الجزء.

(٢) القراءات الشاذة ص٦٥، والمحتسب ١/ ٣٥٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨٧، والبحر ٥/ ٣٥٥.

(٣) الإملاء ٣/ ٣٦٣.

(٤) كذا ذكر، والصواب أنه تقي الدين ابن تيمية حفيد المجد، ينظر الفتاوى ١٥/ ١٨٢ وما بعدها.

وظنَّ أنَّهم مكذوبين كِلَيهما متعلِّقان بما ضُمَّ للموعود به اجتهاداً، وذلك أنَّ الخبرَ عن استيئاسهم مطلَقٌ وليس في الآية ما يدلُّ على تقييده بما وُعِدوا به وأُخبروا بكونه، وإذا كان كذلك فمن المعلوم أنَّ الله تعالى إذا وَعَد الرسُلَ بنصرٍ مطلقٍ كما هو غالبُ إخباراته لم يعيِّن زمانَه ولا مكانَه ولا صفتَه، فكثيراً ما يعتقد الناسُ في الموعود به صفاتٍ أخرى لم يدُلَّ عليها خطابُ الحقِّ تعالى، بل اعتقدوها بأسبابٍ أخرى، كما اعتقد طائفةٌ من الصحابة ﭬ إخبارَ النبيِّ ﷺ لهم أنَّهم يدخلون المسجدَ الحرامَ ويطوفون به أنَّ ذلك يكون عامَ الحديبية، لأنَّ النبيَّ ﷺ خرج معتمراً ورجا أن يدخلَ مكةَ ذلك العام ويطوفَ ويسعى.

فلمَّا استيأسوا من ذلك ذلك العامَ لمَّا صدَّهم المشركون حتى قاضاهم عليه الصلاة والسلام على الصلح المشهور، بقي في قلبِ بعضِهم شيءٌ حتى قال عمرُ ﭬ مع أنَّه كان من المحدَّثين: ألم تُخبِرنا يا رسول الله، أنَّا ندخُل البيتَ ونطوف به؟ قال: «بلى، أفأخبرتُك أنَّك تدخله هذا العام؟» قال: لا. قال: «إنَّك داخلُه ومُطوِّفٌ به»، وكذلك قال له أبو بكر ﭬ[1]، فبيَّن له أنَّ الوعدَ منه عليه الصلاة والسلام كان مطلَقاً غيرَ مقيَّدٍ بوقتٍ. وكونُه ﷺ سعى في ذلك العام إلى مكة وقصَدَها لا يُوجِب تخصيصاً لوعده تعالى بالدخول في تلك السنة.

ولعله عليه الصلاة والسلام إنما سعى بناء على ظَنِّ أن يكونَ الأمرُ كذلك، فلم يكن، ولا محذورَ في ذلك، فليس من شرط النبيِّ ﷺ أن يكونَ كلُّ ما قصده، بل من تمام نعمة الله تعالى عليه أن يأخذَ به عما يقصده إلى أمرٍ آخَرَ هو أنفعُ مما قصده إن كان؛ كما كان في عام الحديبية.

ولا يضُرُّ أيضاً خروجُ الأمر على خلافِ ما يظنُّه عليه الصلاة والسلام، فقد رَوى مسلم في صحيحه[2] أنَّه عليه الصلاة والسلام قال في تأبير النخل: «إنما ظننتُ ظنّاً فلا تؤاخذوني بالظنِّ، ولكن إذا حدَّثْتُكم عن الله تعالى شيئاً فخذوا به، فإني لن أكذبَ على الله تعالى».

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣١) عن المسور بن مخرمة ﭬ.
(٢) برقم (٢٣٦١).

ومن ذلك قوله ﷺ في حديث ذي اليدين: «ما قُصِرت الصلاةُ ولا نسيت»[1]، ثم تبيَّن النسيان. وفي قصة الوليد بن عقبة النازل فيها ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ الآية [الحجرات: ٦][2]، وقصة بني أُبيرِق النازل فيها ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥][3] ما فيه كفايةٌ في العلم بأنه ﷺ قد يظُنُّ الشيءَ فيُبيِّنه الله تعالى على وجهٍ آخر. وإذا كان رسول الله ﷺ وهو هو هكذا فما ظنُّك بغيره من الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام؟

ومما يزيد هذا قوةً أنَّ جمهورَ المحدِّثين والفقهاءِ على أنَّه يجوز للأنبياء عليهم السلام الاجتهادُ في الأحكام الشرعية، ويجوز عليهم الخطأُ في ذلك، لكن لا يُقرُّون عليه، فإنَّه لا شكَّ أنَّ هذا دون الخطأ في ظنٍّ ما ليس من الأحكام الشرعية في شيء.

وإذا تحقَّق ذلك فلا يبعُد أن يقال: إنَّ أولئك الرسل عليهم السلام أُخبِروا بعذابِ قومهم ولم يتعيَّن لهم وقتٌ له، فاجتهدوا وعيَّنوا لذلك وقتاً حسبما ظهر لهم، كما عيَّن أصحابُ رسول الله ﷺ عامَ الحديبية لدخولِ مكة، فلمَّا طالت المدَّةُ استيأسوا وظنُّوا كَذِبَ أنفسهم وغلطَ اجتهادهم، وليس في ذلك ظنٌّ بكذبِ وعده تعالى ولا مستلزماً له أصلاً، فلا محذورَ.

وأنت تعلم أنَّ الأوفقَ بتعظيم الرسل عليهم السلام والأبعدَ عن الحوم حولَ حمى مَا لا يليق بهم القولُ بنسبة الظنِّ إلى غيرهم صلى الله تعالى عليهم وسلم. والله تعالى أعلم.

والظاهر أنَّ ضميرَ «جاءهم» على سائر القراءاتِ والوجوهِ للرسول. وقيل: إنَّه راجعٌ إليهم وإلى المؤمنين، أي: جاء الرسلَ ومن آمن بهم نصرُنا.

﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾ إنجاءَه، وهم الرسلُ والمؤمنون بهم، وإنما لم يعيِّن للإشارة إلى أنَّهم الذين يستأهِلُون أن يشاءَ نجاتَهم، ولا يشاركهم فيه غيرُهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٢)، ومسلم (٥٧٣) (٩٩).

(٢) كما سيرد عند تفسير الآية المذكورة.

(٣) سلف عند تفسير الآية المذكورة.

وقرأ عاصم وابن عامر ويعقوب: (فَنُجِّيَ) بنون واحدة وجيم مشدَّدة وياء مفتوحة، على أنَّه ماضٍ مبنيٌّ للمفعول، و(مَن) نائب الفاعل[(١)].

وقرأ مجاهد والحسن والجحدريُّ وطلحة وابن هرمز كذلك إلا أنهم سكَّنوا الياءَ[(٢)]، وخُرِّجت على أنَّ الفعلَ ماضٍ أيضاً كما في القراءة التي قبلها، إلا أنه سُكِّنت الياءُ على لغةِ مَن يستثقل الحركةَ على الياء مطلقاً، ومنه قراءة من قرأ: «ما تطعمون أهاليكم»[(٣)] بسكون الياء.

وقيل: الأصل: «نُنَجِّي» بنونين، فأُدغم النونُ في الجيم. وردَّه أبو حيان[(٤)] بأنها لا تُدغَم فيها، وتعقَّب بأنَّ بعضَهم قد ذهب إلى جواز إدغامها. ورُوِيت هذه القراءة عن الكسائيِّ ونافع[(٥)].

وقرأت فرقة كما قرأ باقي السبعة بنونين، مضارع «أَنْجَى»، إلا أنَّهم فتحوا الياءَ، ورواها هبيرة عن حفص عن عاصم، وزعم ابن عطية[(٦)] أنَّ ذلك غلطٌ من هبيرة إذ لا وجهَ للفتح.

وفيه أنَّ الوجه ظاهر، فقد ذكروا أنَّ الشرط والجزاءَ يجوز أن يأتي بعدهما المضارعُ منصوباً بإضمار «أن» بعد الفاء؛ كقراءةِ مَن قرأ: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] بنصبِ «يَغْفِرَ»[(٧)]، ولا فرقَ في ذلك بين أن تكون أداةُ الشرط جازمةً أو غيرَ جازمةٍ.

وقرأ نصر بن عاصم وأبو حيوة وابن السميفع وعيسى[(٨)] البصرة وابن محيصن،

---

(١) التيسير ص١٣٠، والنشر ٢/ ٢٩٦.

(٢) البحر ٥/ ٣٥٥.

(٣) وهي قراءة جعفر بن محمد الصادق كما في المحتسب ١/ ٢١٧، والبحر ٤/ ١٠، وقد تحرَّف في (م) إلى: أهليكم. والمثبت من الأصل والبحر ٥/ ٣٥٥.

(٤) في البحر ٥/ ٣٥٥.

(٥) ذكرها عنهما أبو حيان في البحر ٥/ ٣٥٥، والمشهور عنهما «فننجي» بنونين مضارع أنجى كما قرأ باقي السبعة.

(٦) في المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٩.

(٧) وهي قراءة ابن عباس والأعرج وأبي حيوة كما في البحر ٢/ ٣٦٠.

(٨) بعدها في (م): «وأهل».

وكذا الحسن ومجاهد في رواية: «فَنَجَا» ماضياً مخفَّفاً، و«مَن» فاعلُه[1].

ورُوي عن ابن محيصن أنه قرأ كذلك إلا أنه شدَّد الجيمَ[2]، والفاعلُ حينئذٍ ضميرُ النصر، و«مَن» مفعولُه.

وقد رجِّحت قراءةُ عاصم ومَن معه بأنَّ المصاحفَ اتفقت على رسمها بنون واحدة. وقال مكي: أكثرُ المصاحف عليه[3]. فأشعَرَ بوقوع خلافٍ في الرسم، وحكاية الاتفاق نُقلت عن الجعبري وابن الجزري[4] وغيرهما، وعن الجعبري أنَّ قراءةَ من قرأ بنونين توافِق الرسمَ تقديراً؛ لأنَّ النون الثانية ساكنةٌ مُخفَاة عند الجيم كما هي مُخفَاة عند الصاد والظاء في «ننصر» و«ننظر»، والإخفاءُ لكونه ستراً يشبه الإدغامَ لكونه تغييباً، فكما يُحذَف عند الإدغام يُحذَف عند الإخفاء، بل هو عنده أولى لمكان الاتصال.

وعن أبي حيوة أنه قرأ: «فنُجِّيَ مَن يشَاء» بياء الغيبة، أي: مَن يشاءُ الله تعالى نجاتَه[5].

﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا﴾ عذابُنا ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ إذا نزل بهم، وفيه بيانٌ لمن تعلَّق بهم المشيئةُ؛ لأنَّه يُعلم من المقابلة أنَّهم مَن ليسوا بمجرمين. وقرأ الحسن: «بَأْسُهُ» بضمير الغائب[6]، أي: بأسُ الله تعالى. ولا يخفى ما في الجملة من التهديد والوعيد لمعاصري النبيِّ ﷺ.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ﴾ أي: قصصِ الأنبياء عليهم السلام وأُمَمِهم، وقيل: قصص يوسفَ وأبيه وإخوته عليهم السلام، ورُوي ذلك عن مجاهد، وقيل: قصص أولئك وهؤلاء، والقَصَصُ مصدرٌ بمعنى المفعول، ورجَّح الزمخشريُّ[7] الأولَ

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨٩، والبحر ٥/ ٣٥٥.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٩، والبحر ٥/ ٣٥٥.

(٣) الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١٧.

(٤) في النشر ٢/ ٢٩٦.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٩، والبحر ٥/ ٣٥٥.

(٦) المصدران السابقان.

(٧) في الكشاف ٢/ ٣٤٨.

بقراءة أحمد بن جبير الأنطاكيِّ عن الكسائيِّ وعبد الوارث عن أبي عمرو: «قِصَصِهم» بكسر القاف[1]، جمع قِصَّة. ورُدَّ بأنَّ قصةَ يوسف وأبيه وإخوته مشتملةٌ على قصصٍ وأخبار مختلفةٍ، على أنه قد يُطلَق الجمعُ على الواحد، وفيه أنَّه كما قيل، إلا أنَّه خلافُ المتبادر المعتاد فإنَّه يقال في مثله: قِصَّة، لا قِصَص، واقتصر ابنُ عطية[2] على القول الثالثِ، وهو ظاهرٌ في اختياره.

﴿عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَٰبِ﴾ أي: لذوي العقول المبرَّأة عن الأوهام الناشئة عن الإلْفِ والحسِّ. وأصلُ اللُّبِّ: الخالصُ من الشيء، ثم أُطلِق على ما زكا من العقل، فكلُّ لُبٍّ عقلٌ، وليس كلُّ عقلٍ لُبًّا.

وقال غيرُ واحد: إنَّ اللُّبَّ هو العقلُ مطلَقاً، وسمِّي بذلك لكونه خالصَ مَا في الإنسان مِن قُواه، ولم يَرِد في القرآن إلا جمعاً.

والعِبْرة ـ كما قال الراغب ـ الحالة التي يُتوَصَّلُ بها من معرفة المشاهَد إلى ما ليس بمشاهَدٍ[3].

وفي «البحر» أنَّها الدلالة التي يُعبَر بها إلى العلم[4].

﴿مَا كَانَ﴾ أي: القرآنُ المدلولُ عليه بما سبق دلالةً واضحة، واستظهر أبو حيان عودَ الضمير إلى القصص فيما قبل[5].

واختار بعضُهم الأولَ؛ لأنَّه يجري على القراءتين، بخلاف عودِه على المتقدِّم فإنَّه لا يجري على قراءة القِصَص ـ بكسر القاف ـ لأنَّه كان يلزم تأنيثُ الضمير.

وجوَّزَ بعضُهم عودَه إلى القَصَص ـ بالفتح ـ في القراءة به، وإليه في ضمن المكسور في القراءة به، وكذا إلى المكسورِ نفسه، والتذكير باعتبار الخبر. وهو كما ترى.

---

(١) البحر ٥/ ٣٥٦.
(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٩.
(٣) المفردات (عبر).
(٤) البحر ٥/ ٣٥٦.
(٥) المصدر السابق.

﴿حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أي: يُختلَق ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب السماوية ﴿وَتَفْصِيلَ﴾ أي: تبيينَ ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾ قيل: أي: مما يُحتاج إليه في الدين، إذ ما من أمرٍ دينيٍّ إلا وهو يستند إلى القرآن بالذات أو بواسطةٍ[١].

وقال ابن الكمال: إنَّ «كُلّ» للتكثير والتفخيم، لا للإحاطة والتعميم كما في قوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] ومَن لم يتنبه لهذا احتاجَ إلى تخصيص الشيء بالذي يتعلَّق بالدين، ثم تكلَّف في بيانه فقال: إذ ما من أمرٍ إلخ، ولم يَدْرِ أنَّ عبارةَ التفصيل لا تتحمَّل هذا التأويلَ.

ورُدَّ بأنَّه متى أمكن حَمْل كلمةِ «كُلّ» على الاستغراق الحقيقيِّ لا يُحمَل على غيره، والتخصيصُ مما لا بأسَ به على أنَّه نفسه قد ارتَكَبَ ذلك في تفسيرِ قوله تعالى: ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٤] وكونُ عبارةِ التفصيل لا تتحمَّل ذلك التأويلَ في حَيِّز المنع.

ومن الناس مَن حمل «كُلّ» على الاستغراق من غير تخصيصٍ، ذاهباً إلى أنَّ في القرآن تبيينَ كلِّ شيء من أمور الدين والدنيا وغير ذلك مما شاء الله تعالى، ولكنَّ مراتبَ التبيين متفاوتةٌ حسب تفاوُتِ ذَوي العلم، وليس ذلك بالبعيد عندَ مَن له قلبٌ أو ألقى السمعَ وهو شهيد.

وقيل: المرادُ: تفصيلُ كلِّ شيء واقعٍ ليوسفَ وأبيه وإخوته عليهم السلام مما يُهْتَمُّ به. وهو مبنيٌّ على أنَّ الضمير في «كان» لـ «قصصهم».

﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةً﴾ يُنال بها خيرُ الدارَين ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ يُصدِّقون تصديقاً معتدّاً به، وخُصُّوا بالذكر؛ لأنَّهم المنتفعون بذلك. ونصب «تَصْدِيقَ» على أنَّه خبرُ «كان» محذوفاً، أي: ولكن كان تصديق، والإخبارُ بالمصدر لا يخفى أمرُه.

وقرأ حُمران بن أعين[٢] وعيسى الكوفة فيما ذكر صاحب «اللوامح» وعيسى

---

(١) تحرف في (م) إلى: بوسط.

(٢) حُمران بن أعْيَن من كبار قراء الكوفة، عرض عليه حمزة الزيات. توفي سنة بضع وعشرين ومئة. معرفة القراء الكبار ١/ ١٧١.

الثقفيُّ فيما ذكر ابن عطية: «تصديقُ» بالرفع، وكذا برفعِ ما عُطِف عليه، على تقدير: ولكنْ هو تصديقُ إلخ[1]، وقد سُمِع من العرب في مثل ذلك الرفعُ والنصبُ، ومنه قولُ ذي الرمَّة:

وما كان مالي من تُراثٍ ورثتُه ... ولا ديةٍ كانت ولا كسبِ مَأْثَمِ
ولكِنْ عطاءُ الله من كلِّ رحلةٍ ... إلى كلِّ محجوبِ السُّرَادِقِ خِضْرِمِ[2]

فإنه رُوي بنصب «عطاء» ورفعِه.

هذا والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في هذه السورة: قال سبحانه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ وهو اقتصاصُ ما جرى ليوسف عليه السلام وأبيه وإخوته عليهم السلام، وإنما كان ذلك أحسنَ القَصَص لتضمُّنِه ذكرَ العاشق والمعشوق وذلك مما ترتاح له النفوسُ، أو لِمَا فيه من بيان حقائق محبة المحبِّين، وصفاءِ سرِّ العارفين، والتنبيهِ على حُسن عواقب الصادقين، والحثِّ على سلوك سبيل المتوكِّلين، والاقتداء بزهد الزاهدين، والدلالةِ على الانقطاع إلى الله تعالى، والاعتمادِ عليه عند نزول الشدائد، والكشفِ عن أحوال الخائنين وقُبحِ طرائق الكاذبين، وابتلاءِ الخَوَاصِّ بأنواع المِحَنِ، وتبديلِها بأنواع الألطاف والمنن، مع ذكر ما يدلُّ على سياسة الملوك وحالهم مع رعيتهم، إلى غير ذلك.

وقيل: لخُلُوِّ ذلك من الأوامر والنواهي التي يشغل سماعُها القلبَ.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ هذه أوَّلُ مبادي الكشوفِ، فقد ذكروا أنَّ أحوالَ المكاشِفين أوائلُها المناماتُ، فإذا قَوِي الحالُ تصير الرؤيا كشفاً. قيل: إنَّه عليه السلام قد سُلِك به

---

(١) البحر ٥/ ٣٥٦، وكلام ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٩.

(٢) ديوان ذي الرمة ٢/ ١١٨٣، والعقد الفريد ١/ ٢٧٦، والعمدة ص ٨٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨٩، والبحر ٥/ ٣٥٦، وجاء صدر البيت الأول في الديوان برواية: نَجائبَ ليست من مُهُور أَشَابة. والخِضْرِمِ: الكثير الخير. وأَشَابة: أخلاط، يريد به النساء.

نحواً مما سُلِك برسول الله ﷺ، وذلك أنَّه بُدِئَ بالرؤيا الصادقة كما بُدِئَ رسولُ الله ﷺ بها، فكان لا يرى رؤيا إلا كانت مثلَ فلق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاءُ على ما يُشير إليه قولُه: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ كما حُبِّب ذلك إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام، فكان يتحنَّثُ في غار حراء الليالِيَ ذواتِ العدد(١). وفيه أنَّ حديثَ السجن بعد إيتاءِ النبوَّة، فتدبَّر.

وذكر بعضُ الكبار أنَّ يوسفَ عليه السلام كان آدمَ الثاني، لما كان عليه من كسوة الربوبية ما كان على آدم عليه السلام، وهو مُجلَّى الحقِّ للخلق لو يعلمون، فلمَّا رأت الملائكةُ ما رأت من آدم سجدوا له، وها هنا سجد ليوسف مَن سجد وهم الشمسُ والقمرُ والكواكبُ المعدودةُ المشارُ بهم إلى أبوَيه وإخوته، الذين هم على القولِ بنبوَّتهم خيرٌ من الملائكة عليهم السلام، ولا بِدْعَ إذ سجدوا لمن يَتَلألأ من وجهه الأنوارُ القدسيةُ والأشِعَّة السبُّوحِية:

لو يسمعون كما سمعتُ حديثَها خرُّوا لعزَّةَ ركَّعاً وسُجُودَا(٢)

وقد يقال: إنَّ إبراهيم عليه السلام لمَّا رأى في وجنة الكواكبِ ونقطة خالِ القمر وأَسِرَّةِ جبين الشمس أماراتِ الحَدَثان، وصَرَفَ وجهَه عنها متوجِّهاً إلى ساحة القِدم المنزَّهة عن التغيُّر المصونةِ عما يُوجِب النقصَ قائلاً: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨]، أَسْجَدَ اللهُ تعالى الشمسَ القمرَ، وأَسْجَدَ بدلَ الكواكب كواكبَ لبعض بَنِيْه؛ إعظاماً لأمره ومبالغةً في تنزيه جلال الكبرياء، وحيث تأخَّرت البراءةُ إلى الثالثِ تأخَّرَ أمرُ الإسجاد إلى ثالث البنين، وليس المقصودُ من هذا إلا بيانَ بعضٍ من أسرار تخصيصِ المذكور بالإراءَةِ مع احتمالِ أن يكونَ هناك ما يصلُحُ أن يكونَ رؤياه ساجداً معبَّراً بسجودِ أبويه وإخوته له عليهم السلام في عالم الحسِّ، فتدبَّره.

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ فيه إشارةٌ إلى بعض آداب المريدين؛ فقد قالوا: إنَّه لا ينبغي لهم أن يُفشُوا أسرارَ المكاشفةِ إلا لشُيُوخهم، وإلَّا يقعوا في ورطةٍ، ويكونوا مُرتَهنين بعيون الغيرة:

---

(١) أخرجه البخاري (٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) البيت لكثير عزة، وهو في ديوانه ص١١٣، وسلف ٩/ ٤٦٣.

بالسرِّ إن باحوا تباحُ دماؤُهم وكذا دماءُ البائحين تُباحُ[1]

﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ هذا من الإلهامات المجمَلة وهي إنذاراتٌ وبشاراتٌ، ويجوز أن يكونَ عَلِم عليه السلام ذلك من الرؤيا؛ قال بعضُهم: إنَّ يعقوبَ دبَّر ليوسف عليهما السلام في ذلك الوقت خوفاً عليه، فوُكِلَ إلى تدبيره فوقع به ما وقع، ولو ترك التدبيرَ ورجع إلى التسليم لحُفِظ.

﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ وذلك كسَوَاطعِ نورِ الحقِّ من وجهه، وظُهورِ علم الغيب من قلبه، ومزيدِ الكَرَم من أفعاله، وحُسن عُقبى الصبرِ من عاقبته، وكسوءِ حالِ الحاسد وعَدَمِ نقضِ ما أبرمه الله تعالى وغيرِ ذلك. وقال بعضُهم: إنَّ من الآيات في يوسفَ عليه السلام أنَّه حجَّةٌ على كلِّ مَن حَسَّن اللهُ تعالى خَلْقَه أن لا يشوِّهَه بمعصيته، ومَن لم يُراعِ نعمةَ الله تعالى فعصى كان أشبه شيء بالكنيف المبيَّض والروث المفضَّض.

وقال ابن عطاء: من الآيات أن لا يسمعَ هذه القصةَ محزونٌ مؤمنٌ بها إلا استروَحَ وتَسرَّى عنه ما فيه.

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ﴾ قيل: إنَّ ذلك كان بكاءَ فرحٍ بظفرِهم بمقصودهم، لكنَّهم أظهروا أنَّه بكاءُ حُزنٍ على فقدِ يوسف عليه السلام.

وقيل: لم يكن بكاءً حقيقةً وإنما هو تباكٍ من غير عَبْرةٍ؛ وجاؤوا عشاءً ليكونوا أجرأَ في الظلمة على الاعتذار، أو ليدلِّسوا على أبيهم ويُوهِموه أنَّ ذلك بكاءٌ حقيقةً لا تباكٍ، فإنَّهم لو جاؤوا ضحًى لافتضحوا:

إذا اشتَبَكَتْ دموعٌ في خدودٍ تَبَيَّنَ مَن بَكَى مِمَّن تَبَاكَى[2]

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ وهو السكونُ إلى موارد القضاءِ سرًّا وعَلَناً.

وقال يحيى بن معاذ: الصبر الجميل أن يتلقَّى البلاءَ بقلبٍ رحيبٍ ووجهٍ مستبشر.

---

(١) البيت لشهاب الدين السهروردي يحيى بن حَبَش، وهو في معجم الأدباء ١٩/ ٣١٧، ووفيات الأعيان ٦/ ٢٧١.

(٢) البيت للمتنبي، وهو في شرح ديوانه ٣/ ١٣٢، وفيه: إذا اشتَجَعَتْ، بدل: إذا اشتبكت.

وقال الترمذي: هو أن يُلقي العبدُ عنانَه إلى مولاه ويسلِّم إليه نفسَه مع حقيقة المعرفة، فإذا جاء حكمٌ مِن أحكامه ثبت له مسلِّماً ولا يُظهِر لوروده جزعاً، ولا يرى لذلك مُغتمّاً. وأنشد الشبلي في حقيقةِ الصبر:

عَبَراتٌ خَطَطْنَ في الخدِّ سَطْرَا فقراه مَن لم يَكُن قطُّ يَقْرَا
صَابرَ الصبرَ فاستغاث به الصبرُ فصَاح المُحِبُّ بالصَّبْرِ صَبْرَا(١)

﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌۚ﴾ قال جعفر: كان لله تعالى في يوسف عليه السلام سرٌّ فغطَّى عليهم موضعَ سرِّه، ولو كشف للسيَّارة عن حقيقةِ ما أُودِع في ذلك البدر الطالع من بُرج دَلْوِهم لَمَا اكتفى قائلُهم بذلك، ولَمَا اتخذوه بضاعةً، ولهذا لمَّا كُشِف للنسوة بعضُ الأمر قلن: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ولجهلهم أيضاً بما أُودِع فيه من خزائن الغيب باعوه بثمنٍ بخسٍ وهو معنى قولِه سبحانه: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾.

قال الجنيد قدِّس سرُّه: كلُّ مَا وقع تحت العدِّ والإحصاء فهو بخسٌ ولو كان جميعَ ما في الكونين، فلا يكن حظُّك البخسَ من ربِّك فتميلَ إليه وترضى به دون ربِّك جلَّ جلالُه.

وقال ابن عطاء: ليس ما باع إخوةُ يوسف من نفسٍ لا يقع عليها البيعُ بأعجبَ مِن بَيْع نفسِك بأدنى شهوةٍ بعد أن بِعتَها من ربِّك بأوفر الثمن؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية [التوبة: ١١١] فبيعُ ما تقدَّم بيعُه باطلٌ. وإنَّما باع يوسفَ أعداؤُه وأنت تبيع نفسَك من أعدائك.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ قيل: أي: لا تنظُري إليه نظرَ الشهوة، فإنَّ وجهَه مرآةُ تَجلِّي الحقِّ في العالم. أو: لا تَنظُري إليه بنظرِ العبودية ولكن انظري إليه بنظر المعرفة لتري فيه أنوارَ الربوبية. أو: اجعلي محبتَه في قلبكِ لا في نفسك، فإنَّ القلبَ موضعُ المعرفة والطاعةِ، والنفسَ موضعُ الفتنة والشهوة.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ قيل: أي: بأن يُعرِّفَنا منازلَ الصدِّيقين ومراتبَ الروحانيِّين ويبلِّغنا ببركة صحبته إلى مشاهدة ربِّ العالمين.

---

(١) البيتان في تاريخ مدينة دمشق ٥٦/ ٤٣٣، وفيه أنها كانت مكتوبة في عُكَّازة مالك بن دينار. والبيت الثاني في لطائف الإشارات ٢/ ٥١٥ دون نسبة.

وقيل: أراد: حَسِّني صحبتَه في الدنيا لعلَّه أن يشفَعَ لنا في العقبى.

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾ حيثُ غلب عليها العشقُ ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ قَطَعت الأسبابَ وجَمَعت الهمةَ إليه، أو: غلَّقت أبوابَ الدار غيرةً أن يرى أحدٌ أسرارَهما.

﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦ﴾ قال ابن عطاء: هَمَّ شهوةٍ. ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ همَّ زَجْرٍ عما هَمَّت به بضربٍ أو نحوِه.

﴿لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ وهو الواعظُ الإلهيُّ في قلبه ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ﴾ الخواطرَ الرديئةَ ﴿وَٱلۡفَحۡشَآءَ﴾ الأفعالَ القبيحة.

وقيل: البرهانُ هو أنَّه لم يُشاهِد في ذلك الوقت إلا الحقَّ سبحانه وتعالى.

وقيل: هو مشاهدةُ أبيه يعقوبَ عليه السلام عاضًا على سبَّابته، وجَعَل ذلك بعضُ أجلَّة مشايخنا أحدَ الأدلَّة على أنَّ للرابطة المشهورة عند ساداتنا النقشبندية أصلاً أصيلاً. وهو على فرض صحَّته بمراحلَ عن ذلك.

﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾ فراراً من محلِّ الخطر. قيل: لو فرَّ إلى الله تعالى لكفاه ولَمَا ناله بعدُ ما عناه.

﴿وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا﴾ نفت عن نفسها الذنبَ؛ لأنَّها عَلِمت إذ ذاك أنَّها لو بيَّنت الحقَّ لقُتِلَت وحُرِمَت من حلاوة محبَّة يوسفَ والنظر إلى وجهه:

لِحُبِّك أحبَبْتُ البقاءَ لمُهْجَتي فلا طال إن أعرضتَ عني بقائِيَا

وإنَّما عرَّضَت بنسبة الذنبِ إليه لعِلْمِها بأنَّه عليه السلام لم يبقَ في البؤس، ولا يقدِرُ أحدٌ على أن يؤذيَه لِمَا أنَّ وجهَه سالبُ القلوب وجالبُ الأرواح:

له في طَرْفه لَحَظاتُ سحرٍ يُميت بها ويُحْيي مَن يُريدُ
ويَسْبي العالمينَ بمُقْلَتَيه كأنَّ العالمينَ له عَبِيدُ[1]

(١) البيتان في المحاسن والأضداد ص١٥٦ دون نسبة، وفيه: فكُلٌّ. بدلَ: كأنَّ. وهي في تاريخ مدينة دمشق ٦٦/ ٦٣، وطبقات الصوفية للسلمي ص٣٤٧ ونسبت لأبي بكر الشبلي. ورواية الجميع بصيغة التأنيث في البيتين. أي: لها في طَرْفها لَحَظات سحرٍ... إلخ.

وقال ابن عطاء: إنَّها إذ ذاك لم تستغرق في محبَّته بعدُ، فلذا لم تُخبِر بالصدق وآثرت نفسَها عليه، ولهذا لمَّا استغرقت في المحبة آثرت نفسَه على نفسها فقالت: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ الآية.

ثم إنَّه عليه السلام لم يَسَعْه بعد تهمتها له إلا الذبَّ عن ساحة النبوَّة التي هي أمانةُ الله تعالى العُظمى، فقال: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ وإلا فاللائقُ بمقام الكرم السكوتُ عن جوابها لئلا يفضَحَهَا.

وقيل: إنَّها لمَّا ادَّعت محبةَ يوسف وتبرَّأت منها عندَ نزول البلاء أراد يوسفُ عليه السلام أن يُلزِمها ملامةَ المحبة، فإنَّ الملامةَ شعارُ المحبِّين، ومَن لم يكن ملوماً في العشق لم يكن متحقِّقاً فيه.

﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ عَظُم كيدُهن؛ لأنَّهن إذا ابتُلِين بالحبِّ أظهرن مما يجلِبُ القلبَ ما يعجَزُ عنه إبليسُ، مع مساعدةِ الطبيعة إلى الميل إليهنَّ وقوَّةِ المناسبة بين الرجال وبينهنَّ، كما يشيرُ إليه قولُه تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١] فما في العالم فتنةٌ أضرُّ على الرجال من النساء.

﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ قال الجنيد قدِّس سرُّه: الشغَفُ أن لا يرى المحبُّ جفاء(١) له جفاءً، بل يراه عدْلاً منه ووفاءً:

وتعذيبُكم عَذْبٌ لديَّ وجَوْرُكم ... عليَّ بما يَقْضِي الهوَى لَكُمُ عَدْلُ(٢)

﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ قال ابن عطاء: في عشقٍ مُزعِجٍ.

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ عظَّمْنَه لِمَا رأين في وجهه نورَ الهيبة ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ لاستغراقِهن في عظمتِه وجلالِه. ولعلَّه كَشَفَ لهنَّ مالم يَكْشِف لزليخا. قال ابن عطاء: دُهِشْن في يوسف وتحيَّرْنَ حتى قطَّعْنَ أيديَهُنَّ، ولم يشعُرن بالألم، وهذه غلبةُ مشاهَدةِ مخلوقٍ لمخلوقٍ، فكيف بمَن يحظى بمشاهدةِ مِن الحقِّ، فينبغي أن لا يُنكَر عليه إن تغيَّر وصَدَر عنه ما صَدَر.

---

(١) كذا، ولعل المعنى: جفاء المحبوب.
(٢) البيت لابن الفارض، وهو في ديوانه ص١٣٥.

وأعظَمُ مِن يوسف عليه السلام في هذا الباب عندَ ذَوي الأبصار السليمةِ النورُ المحمديُّ المنقَدِحُ من النور الإلهيِّ، والمتشَعْشِعُ في مشكاة خاتَم الرسل عليه الصلاة والسلام، فإنَّه لعَمْري أبو الأنوار، وما نورُ يوسفَ بالنسبة إلى نوره عليه الصلاة والسلام إلا النجمُ وشمسُ النهار:

لـواحـي زلـيـخـا لـو رَأَيـن جـبـيـنَـه لآثَرْنَ بالقطع القلوبَ على الأيْدي(١)

وقلن: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ قُلن ذلك إعظاماً له عليه السلام من أن يكونَ من النوع الإنسانيِّ. قال محمد بن عليٍّ ﵄: أردن: ما هذا بأهلٍ أن يُدْعى إلى المباشرة، بل مثلُه مَن يُكرَّم ويُنزَّه عن مواضع الشُّبَه. والأول أوفق بقولها: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ أرادت: إنَّ لَوْمكُنَّ لم يقع في محزّه، وكيف يُلام مَن هذا محبوبُه، وكأنَّها أشارت إلى أنَّها مجبورةٌ في ذلك الوَلَه، معذورةٌ في مزيدِ حبِّها له:

خـلـيـلَـيَّ إنِّـي قـلـتُ بـالـعَـذْلِ مـرةً ومُنْذُ علاني الحُبُّ مذهبي الجَبْرُ

وفي ذلك إشارةٌ أيضاً إلى أنَّ اللومَ لا يصدرُ إلا عن خَليٍّ، ولذا لم تُعاتِبْهن حتى رأت ما صنع الهوى بهنَّ. وما أحسن ما قيل:

وكنتُ إذا ما حدَّثَ الناسُ بالهوى ضحكتُ وهم يَبْكُون في حَسَرَاتِ
فـصـرتُ إذا مـا قـيـل هـذا مـتـيَّـمٌ تـلـقَّـيـتُـهـم بـالـنـوح والـعَـبَـرات

وقال سلطان العاشقين:

دَعْ عَنْك تعنِيفي وذُقْ طَعْمَ الهوى فـإذا عَـشِـقْـتَ فَـبـعْـدَ ذلـك عَـنِّـفِ(٢)

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ قيل: لأنَّ السجنَ مقامُ الأنس والخلوةِ والمناجاةِ والمشاهداتِ والمواصلات، وفيما يدعونه إليه ما يُوجِب البعدَ عن الحضرةِ والحجابَ عن مشاهدةِ القربة.

---

(١) البيت في ديوان العشاري حسين بن علي البغدادي ص٤٨٨ منسوب للسيدة عائشة ﵂. وقوله: لواحي، أي: لوائم، من لحى فلاناً: إذا عذله ولامه. ينظر معجم متن اللغة (لحي).

(٢) البيت لابن الفارض، وهو في ديوانه ص ١٥٣.

وقيل: طلب السجن ليحتجب عن زليخا، فيكون ذلك سبباً لازديادِ عشقها وانقلابه روحانياً قدسيّاً كعشق أبيه له.

وقال ابن عطاء: ما أراد عليه السلام بطلبِ ذلك إلا الخلاصَ من الزنى، ولعلَّه لو ترك الاختيار لعُصِم من غير امتحانٍ كما عُصِم في وقت المراودة.

﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ قال أبو علي: أحسنُ الناس حالاً مَن رأى نفسَه تحت ظلِّ الفضل والمنة، لا تحتَ ظلِّ العمل والسعي.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ دعاءٌ إلى التوحيد على أتمِّ وجهٍ، وحُكي أَنَّ رجلاً قال للفضيل: عظني، فقرأ له هذه الآية.

﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ كان ذلك ـ على ما قيل ـ غفلةً منه عليه السلام عما يقتضيه مقامُه ويُشير إليه كلامه، ولهذا أدَّبه ربُّه باللبث في السجن ليبلغَ أقصى درجات الكمال، والأنبياءُ مؤاخَذون بمثاقيل الذرِّ لمكانتهم عند ربِّهم. وقد يُحمَل كلامُه هذا على مَا لا يُوجِب العتابَ، كما ذهب إليه بعضُ ذوي الألباب.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ قال أبو حفص: الصدِّيق مَن لا يتغيَّر عليه باطنُ أمره من ظاهره.

وقيل: الذي لا يخالفُ قالُه حالَه. وقيل: الذي يبذُل الكونَيْن في رضا محبوبه.

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ النفسَ بطبعها كثيرةُ الميل إلى الشهوات. وقال أبو حفص: النفس ظلمةٌ كلُّها، وسراجُها التوفيقُ، فمن لم يصحبه التوفيقُ كان في ظلمةٍ، وقد تخفى دسائسُ النفس إلى حيثُ تأمر بخيرٍ وتضمرُ فيه شرّاً، ولا يفطن لدسائسها إلا لَوْذَعِيٌّ:

فخالِفِ النَّفْسَ والشَّيطَانَ واعْصِهمَا وإنْ هُما محَّضَاكَ النُّصحَ فاتَّهِمِ(١)

وذكر بعضُ السادة أنَّ النفسَ تترقَّى بواسطةِ المجاهَدِة والرياضةِ من مرتبةِ كونها أمَّارَةً إلى مرتبةٍ أخرى من كونها لوَّامةً وراضيةً ومرضيةً ومطمئنةً وغيرَ ذلك، وجعلوا

(١) البيت من قصيدة البردة للبوصيري.

لها في كلِّ مرتبةٍ ذكراً مخصوصاً وأطنبوا في ذلك، فليرجع إليه.

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ قيل: خزائنُ الأرض رجالُها، أي: اجعلني عليهم أميناً فإني حفيظٌ لِمَا يُظهِرونه، عليمٌ بما يُضمِرونه.

وقيل: أراد الظاهرَ، إلا أنَّه أشار إلى أنَّه متمكِّنٌ من التصرُّفِ مع عدم الغفلة، أي: حفيظٌ للأنفاس بالذكر والخواطرِ بالفكر، عليمٌ بسواكِنِ الغيوب وخفايا الأسرار.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ قال بعضهم: لمَّا جفَوه صار جفاؤُهم حجاباً بينهم وبين معرفتهم إياه، وكذلك المعاصي تكون حجاباً على وجه معرفة الله تعالى.

﴿قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ كأنه عليه السلام أمر بذلك ليكمُل لأبيه عليه السلام مقامُ الحزن الذي هو ـ كما قال الشيخ الأكبر قدِّس سرُّه ـ من أعلى المقامات.

وقال بعضُهم: إنَّ علاقة المحبة كانت بين يوسف ويعقوب عليهما السلام من الجانبين، فتعلَّق أحدِهما بالآخر كتعلُّق الآخرِ به، كما يُرَى ذلك في بعض العشَّاق مع مَن يعشقونه، وأنشدوا:

لم يكنِ المجنونُ في حَالةٍ ... إلا وقد كُنْتُ كما كانا
لكنَّه باح بسرِّ الهوى ... وإنني قد ذُبْتُ كِتْمانا[1]

فغار عليه السلام أن ينظرَ أبوه إلى أخيه نظرَه إليه، فيكونا شَريكين في ذلك، والمحبُّ غَيُورٌ، فطلب أن يأتوه به لذلك، والحقُّ أنَّ الأمرَ كان عن وحيٍ لحكمةٍ غير هذه.

﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ إشارةٌ إلى العلم اللدُنِّيِّ، وهو على نوعين:

ظاهرُ الغيب، وهو علمُ دقائق المعاملات والمقامات والحالات والكرامات والفِراسات.

(١) البيتان نسبا لليلى العامرية كما في ثمار القلوب ص١١١، والمستطرف ٢/ ٣٤٨.

وباطنُ الغيب، وهو علمُ بطون الأفعال ويسمَّى: حكمةَ المعرفة، وعلمُ الصفات ويسمَّى: المعرفة الخاصَّة، وعلمُ الذات ويسمَّى: التوحيدَ والتفريدَ والتجريدَ، وعلمُ أسرارِ القِدَم ويسمَّى: علم الفناء والبقاء، وفي الأوَّلينِ للروح مجالٌ، وفي الثالث للسِّرِّ، والرابع لسِرِّ السرِّ، وفي المقام تفصيلٌ وبسطٌ يُطلَب من محلِّه.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾ كأنه عليه السلام إنما فعل ذلك ليعرِّفه الحالَ بالتدريج حتى يتحمَّل أثقالَ السرور، إذ المفاجأةُ في مثل ذلك ربما تكون سببَ الهلاك، ومن هنا كان كشفُ سُجُف الجمالِ للسالكين على سبيل التدريج.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ﴾ قيل: إنَّ الله تعالى أمره بذلك ليكون شريكاً لإخوته في الإيذاء بحسب الظاهر، فلا يخجلوا بين يديه إذا كُشِف الأمر، وحيث طاب قلبُ بنيامين برؤية يوسف احتملَ الملامةَ، وكيف لا يحتمل ذلك وبلاءُ العالَم محمولٌ بلمحة رؤيةِ المعشوق، والعاشقُ الصادق يُؤْثِر الملامةَ ممن كانت في هوى محبوبه:

أَجِدُ الملامةَ في هواكِ لذيذةً ... حُبّاً لذكركِ فليَلُمْني اللُّوَّمُ[(١)]

وفي الآية ـ على ما قيل ـ إشارةٌ لطيفةٌ إلى أنَّ مَن اصطفاه الله تعالى في الأزل لمحبته ومشاهدته وُضِع في رحله صاعُ ملامةِ الثقلَين، ألا ترى إلى ما فَعَل بآدمَ عليه السلام صفيّه؟! كيف اصطفاه ثم عرض عليه الأمانةَ التي لم يحمِلْها السماواتُ والأرضُ والجبالُ وأشفقن منها، فحملها، ثم هيَّج شهوتَه إلى حبةِ حنطةٍ ثم نادى عليه بلسان الأزل: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] وذلك لغاية حبِّه له حتى صرفه عن الكون وما فيه ومن فيه إليه، ولولا أنْ كشفَ جماله له لم يتحمَّل بلاءَ الملامة، وهذا كما فعل يوسفُ عليه السلام بأخيه؛ آواه إليه وكشف جمالَه له وخاطبه بما خاطبه، ثم جعلَ السقاية في رحله ثم نادى عليه بالسرِقة ليُبقِيه معه.

﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ أي: نرفع درجاتهم في

(١) البيت لأبي الشيص الخزاعي، وهو في ديوان الحماسة مع شرح التبريزي ٣/ ١٧٤، وقد سلف ٧/ ٢٦٢.

العلم، فلا يزال السالكون يترقَّون في العلم، وتَشرَب أطيارُ أرواحهم القدسية من بحار علومه تعالى على مقادير حَوَاصلها، وتنتهي الدرجاتُ بعلم الله تعالى، فإنَّ علومَ الخلق محدودةٌ وعلمُه تعالى غيرُ محدود، وإلى الله تعالى تصيرُ الأمور.

﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ قال بعضُ السادات: لمَّا كان بنيامين بريئاً مما رُمِي به من السرقة أنطقهم الله تعالى حتى رَمَوا يوسف عليه السلام بالسرقة وهو بريءٌ منها، فكان ذلك من قبيل: واحدةٌ بواحدةٍ، ليعلم العاملون أنَّ الجزاءَ واجبٌ.

وقال بعضُ العارفين: إنَّهم صَدَقُوا بنسبة السرقة إلى يوسف عليه السلام، ولكنَّها سرقةُ ألباب العاشقين وأفئدةِ المحبين بما أودع فيه من محاسن الأزل.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ الإشارةُ في ذلك من الحقِّ عزَّ وجلَّ أن لا نُفشِي أسرارَنا ونُدني إلى حضرتنا إلا من كان في قلبه استعدادُ قبول معرفتنا. أو لا نختارُ لكشِف جمالنا إلا مَن كان في قلبه شوقٌ إلى وصالنا.

وقال بعض الخراسانيين: الإشارةُ فيه أنَّا لا نأخذُ من عِبادِنا أشدَّ أخذٍ إلا مَن ادَّعى فينا، أو أخبَرَ عنا ما لم يكن له الإخبارُ عنه والادعاءُ فيه. وقال بعضُهم: إلا مَن مدَّ يدَه إلى ما لَنا وادعاه لنفسه.

وقال أبو عثمان: الإشارة أنَّا لا نتخذ من عِبادِنا وليّاً إلا من ائتمنَّاه على ودائعنا فحفظها ولم يخن فيها. ولطيفةُ الواقعة أنه عليه السلام لم يرضَ أن يأخذ بدلَ حبيبه، إذ ليس للحبيب بديلٌ في شرع المحبة:

أبى القلبُ إلّا حُبَّ ليلى فبُغِّضَتْ إليَّ نساءٌ ما لَهُنَّ ذُنُوبُ(١)

﴿إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ﴾ قال بعضُهم: إنَّهم صدقوا بذلك، لكنَّه سرق أسرارَ يوسف عليه السلام حين سمع منه في الخلوة ما سَمِع ولم يُبدِه لهم.

---

(١) البيت لمجنون ليلى، وهو في ديوانه ص ٦٣، وأخبار النساء ص١٥. ورواية الديوان: لقد شغفتني أم بكر وبُغِّضت. . . إلخ، وورد في سمط النجوم العوالي ٣/ ٤٠ دون نسبة، وفيه: سعدى. بدلَ: ليلى.

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ كأنه عليه السلام لمَّا رأى اشتدادَ البلاء قَوِي رجاؤه بالفرج فقال ما قال:

اشــتَــدِّي أزمــةُ تَــنْــفَــرِجِــي قــد آذَنَ لــيــلُــكِ بــالــبَــلَــجِ[1]

وكأن لسانَ حالِه يقول:

دَنَـا وِصَـالُ الـحَـبِـيْـب واقْـتـرَبَـا واطَـرَبـاً لـلـوِصَـالِ واطـرابَـا

﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ قال بعض العارفين: إنَّ تأسُّفَه على رؤية جمال الله تعالى من مرآة وجه يوسف عليه السلام، وقد تمتَّع بذلك بُرهةً من الزمان حتى حالت بينَه وبينَه طوارقُ الحَدَثَان، فتأسَّفَ عليه السلام لذلك واشتاقت نفسُه لما هنالك:

سـقـى اللهُ أيـامـاً لَـنَـا ولَـيـالـيَـا مَـضَـتْ فَـجَـرَتْ مِـن ذِكْـرِهِـنَّ دُمُـوعُ
فيـا هَـلْ لَـهَـا يـومـاً مـن الـدهْـرِ أوبـةٌ وهَـلْ لـي إلـى أرضِ الـحَـبِـيـبِ رُجُـوعُ

﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ حيثُ بكى حتى أضرَّ بعَيْنَيه، وكان ذلك حتى لا يرى غيرَ حبيبِه:

لـمَّـا تـيـقَّـنْـتُ أنـي لـسـتُ أُبـصِـرُكُـم غَـمَـضْـتُ عيني فَلم أنظُرْ إلى أحَدِ[2]

قال بعضُ العارفين: الحكمةُ في ذهابِ بصرِ يعقوبَ وبقاءِ بصرِ آدمَ وداودَ عليهما السلام مع أنَّهما بَكَيا دهراً طويلاً؛ أنَّ بكاءَ يعقوبَ كان بكاءَ حُزنٍ معجونٍ بألمِ الفراقِ، حيث فَقَدَ تَجلِّي جمالِ الحقِّ من مرآةِ وجهِ يوسف، ولا كذلك بكاءُ آدم وداودَ، فإنَّه كان بكاءَ الندمِ والتوبةِ، وأين ذلك المقامُ من مقام العشق.

وقال أبو سعيد القرشيُّ: إنما لم يذهب بصرُهما؛ لأنَّ بكاءَهما كان من خوف الله تعالى فحُفِظا، وبُكاءُ يعقوب كان لفقد لذَّة فعُوتِب.

---

(١) البيت هو مطلع القصيدة المنفرجة، ونسبها في طبقات الشافعية الكبرى ٨/ ٥٦ لمحمد بن أحمد الأندلسي، ثم ذكر في ٨/ ٦٠ أنها نسبت لأبي الفضل يوسف بن محمد النحوي.

(٢) البيت في تاريخ مدينة دمشق ٣٢/ ٣٩٢، والتبصرة ٢/ ١١٧ لأبي بكر الشبلي برواية: لا أعاينكم. بدل: لستُ أبصركم.

وقيل: يمكن أن يكونَ ذهابُ بصره عليه السلام من غيرة الله تعالى عليه حين بكى لغيره، وإن كان واسطةً بينَه وبينَه، ولهذا جاء أنَّ الله تعالى أوحى إليه: يا يعقوب، أتتأسَّفُ على غيري؟ وعزَّتي، لآخُذَنَّ عينيك، ولا أرُدُّهما عليك حتى تنساه.

واختار بعضُ العارفين أنَّ ذلك الأسفَ والبكاءَ ليسا إلا لفواتِ ما انكشف له عليه السلام من تجلِّي الله تعالى في مرآة وجه يوسف عليه السلام، ولعمري إنَّه لو كان شاهَدَ تجلِّيَه تعالى في أول التَّعيُّنات وعينِ أعيانِ الموجودات ﷺ لنَسِيَ ما رَأى، ولما عراه ماعرا، ولله تعالى دَرُّ سيدي ابن الفارض حيثُ يقول:

لـو أسمَعُوا يعقُوبَ بعضَ مَلاحةٍ ... في وجهِه نَسي الجمالَ اليُوسُفِي(١)

﴿قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ هذا من الجهل بأحوال العشق وما عليه العاشقون، فإنَّ العاشقَ يتغذَّى بذكر معشوقه:

فإنْ تمنَعُوا ليلى وحُسْنَ حَدِيثها ... فلَنْ تَمْنَعُوا مِنِّي البُكَا والقَوَافِيَا(٢)

وإذا لم يستطع ذكره بلسانه كان مستغرِقاً بذكره إياه بجنانه:

غابَ وفي قلبي له شاهدٌ ... يُولِعُ إضماري بذكراهُ

مثَّلَتِ الفِكْرةُ لي شَخْصَه ... حتى كأنِّي أتَرَاآهُ

وكيف يُخوَّف العاشقُ بالهلاك في عشقِ محبوبه، وهلاكُه عينُ حياته كما قيل:

ولكن لديَّ الموتُ فيه صبابةً ... حياةٌ لمن أهوى عليَّ بها الفَضْلُ

ومَن لم يمت في حبه لم يَعِش به ... ودونَ اجتناء النحْل ما جَنَتِ النَحْلُ(٣)

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أنا لا أشكو إلى غيره، فإنِّي أعلم غيرتَه سبحانه وتعالى على أحبابه، وأنتم لا تعلمون

(١) ديوان ابن الفارض ص١٥٣.

(٢) البيت لتوبة بن الحمير، وهو في ديوانه ص ٥١، والمنتظم ٦/١٦٨، وتاريخ الإسلام ٢/٧٩٦. وهو في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/١٣١٢ دون نسبة.

(٣) البيتان لابن الفارض وهما في ديوانه ص١٣٤.

ذلك. وأيضاً: مَن انقطع إليه تعالى كفاه، ومَن أناخَ ببابه أعطاه، وأنشد ذو النون:

إذا ارتَحَلَ الكِرامُ إليك يوماً ليلتَمِسُوكَ حالاً بعدَ حالِ
فإنَّ رِحالَنا حطَّت رضاءً بحكمك عن حُلولٍ وارتحالِ
فَسُسْنا كيف شئتَ ولا تَكِلْناَ إلى تدبيرِنا يا ذَا المَعَالي

وعلى هذا دَرَجَ العاشقون، إذا اشتدَّ بهم الحالُ فزعوا إلى الملك المتعال، ومن ذلك:

إلى الله أشكو ما لقيتُ من الهَجْرِ ومِن كَثْرَةِ البَلْوَى ومِن أَلَمِ الصَّبْرِ
ومن حَرَقٍ بينَ الجَوَانِح والحَشَا كجَمْرِ الغَضَا لا بَلْ أحرّ مِن الجمرِ

وقد يقال: إنَّه عليه الصلاة والسلام إنما رفع قصَّةَ شكواه إلى عالم سرِّه ونجواه استرواحاً مما يَجده بتلك المناجاة كما قيل:

إذا ما تمنَّى الناسُ رَوْحاً وراحةً تمنيتُ أن أشكُو إليه فيَسْمَعُ[(١)]

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ كأنَّه عليه السلام تنسَّم نسائمَ الفَرَج، بعد أن رَفَعَ الأمرَ إلى مولاه عزَّ وجلَّ فقال ذلك.

﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ﴾ من رحمته بإرجاعِهما إليَّ، أو من رحمته تعالى بتوفيقِ يوسف عليه السلام برفع خَجَالتكم إذا وجدتموه.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ أرادوا ضُرَّ المجاعة، ولو أنَّهم علموا وأنصَفُوا لقصدوا: ضُرَّ فراقِك، فإنَّه قد أضَرَّ بأبيهم وبهم وبأهلهم لو يعلمون:

كفى حَزَناً بالوَالِهِ الصبِّ أن يرى منازلَ مَن يهوى معطَّلَةً قفرا[(٢)]

واعلم أنَّ فيما قاله إخوةُ يوسف له عليه السلام من هنا إلى ﴿ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾

---

(١) لم نقف عليه، وقريب منه قول مجنون ليلى في ديوانه ص٣٠٨:
إذا ما تمنَّى الناسُ رَوْحاً وراحةً تمنيتُ أن ألقاكِ يا ليلَ خالياً
(٢) البيت في المدهش لابن الجوزي ص٣٩٥ دون نسبة، وهو في طبقات الأولياء ص ٢٠٦ لأبي بكر الشبلي.

تعليمُ آداب الدعاء والرجوع إلى الأكابر، ومخاطبةِ السادات، فَمَنْ لَم يرجعْ إلى بابِ سيِّده بالذلَّةِ والافتقار وتذليلِ النفس وتصغيرِ ما يبدو منها، ويَرَ أنَّ ما من سيده إليه على طريق الصدقة والفضل لا على طريق الاستحقاق، كان مُبْعَداً مطروداً، وينبغي لعشَّاق جمال القِدَم إذا دخلوا الحضرةَ أن يقولوا: يا أيها العزيز مسَّنا وأهلَنا من ضرٌّ فراقك والبعدِ عن ساحة وصالِك ما لا يحتمله الصمُّ الصِّلاب:

خليليَّ ما ألقاه في الحبِّ إن يَدُم   على صخرةٍ صماءَ يَنْفَلِقِ الصَّخْرُ

ويقولوا: ﴿وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ من أعمالٍ معلولةٍ وأفعالٍ مغشوشةٍ ومعرفةٍ قليلةٍ لم تُحِطْ بذرَّةٍ من أنوار عظمتك، وكلُّ ذلك لا يليق بكمالِ عزَّتك وجلالِ صمديَّتك، ﴿فَأَوْفِ لَنَا﴾ كيلَ قُربك من بَيادِر جُودِك وفضلِك ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ بنِعَم مشاهدتِك؛ فإنَّه إذا عُومِل المخلوقُ بما عُومِل فمعاملةُ الخالق بذلك أولى.

﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ خاطبوه بعدَ المعرفة بخطابِ المودة لا بخطاب التكلُّف، وفيه من حسن الظنِّ فيه عليه السلام ما فيه:

إذا صَفَتِ المودَّةُ بينَ قومٍ   ودَامَ ولاؤُهم سَمَجَ الثناءُ[1]

ويمكن أن يقال: إنَّهم لمَّا عرفوه سقطت عنهم الهيبةُ وهاجت الحميةُ فلم يكلِّموه على النمط الأول. وقوله: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى﴾ جوابٌ لهم، لكنَّ زيادةَ ﴿وَهَـٰذَآ أَخِى﴾ قيل: لتهوين حالِ بداهة الخجل، وقيل: للإشارة إلى أنَّ أخوَّتَهم لا تُعَدُّ أخوَّةً؛ لأنَّ الأخُوَّة الصحيحةَ ما لم يكن فيها جفاءٌ.

ثم إنه عليه السلام لمَّا رأى اعترافَهم واعتذارَهم قال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، وهذا من شرائط الكرم، فالكريمُ إذا قَدَرَ عفا:

والعذر عند كرام الناس مقبول[2]

---

(١) قائله حيدر الخُجُندي، كما في يتيمة الدهر ٥/ ٣١٤، والوافي بالوفيات ١٣/ ٢٣٠، وفيهما: ودام إخاؤُهم.

(٢) عجز بيت صدره: وقد أتيتُ رسولَ الله معتذراً. وهو من قصيدة البردة لكعب بن زهير.

وقال شاه الكرماني[١]: مَن نظر إلى الخلق بعين الحقِّ لم يَعْبأ بمخالفتهم، ومن نَظر إليهم بعينه أفنى أيامه بمخاصمتهم. ألا ترى يوسفَ عليه السلام لمَّا عَلِم مجاري القضاء كيف عذَرَ إخوتَه.

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ لمَّا عَلِم عليه السلام أنَّ أباه عليه السلام لا يتحمّل الوصالَ الكليَّ بالبداهة جعل وصالَه بالتدريج، فأرسل إليه بقميصه، ولمَّا كان مبدأ الهمِّ الذي أصابه من القميص الذي جاؤوا عليه بدمٍ كذبٍ عيَّنَ هذا القميص مبدأً للسرور دونَ غيره من آثاره عليه السلام ليدخُلَ عليه السرورُ من الجهة التي دخل عليه الهمُّ منها.

﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كان كرمُ يوسف عليه السلام يقتضي أن يسيرَ بنفسه إلى أبيه ولعلَّه إنما لم يفعل لعلمه أنَّ ذلك يشقُّ على أبيه لكثرة مَن يسير معه، ولا يمكن أن يسيرَ إليه بدون ذلك، أو لأنّ في ذلك تعطُّلَ أمر العامَّة وليس هناك مَن يقوم به غيره، ويحتمل أن يكونَ أُوحِي إليه بذلك لحكمةٍ أخرى.

وقيل: إنَّ المعشوقيةَ اقتضت ذلك، ومَن رأى معشوقاً رحيماً بعاشقه؟! وفيه ما لا يخفى.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ يقال: إنَّ ريحَ الصبا سألت الله تعالى فقالت: يا ربِّ، خُصَّني أن أبشِّرَ يعقوبَ عليه السلام بابنه، فأَذِن لها بذلك، فحَمَلت نشرَه إلى مشامِّه عليه السلام، وكان ساجداً فرفع رأسه وقال ذلك، وكان لسانُ حاله يقول:

أيا جَبَلَي نَعمانَ باللهِ خَلِّيا ... نسيمَ الصبا يَخْلُصْ إليَّ نسيمُها
أجِدْ بَردَها أو تَشْفِ مني حرارةً ... على كبدٍ لم يبقَ إلا صميمُها
فإنَّ الصبا ريحٌ إذا ما تنسَّمَت ... على نفسِ مهمومٍ تجلَّت همومُها[٢]

---

(١) هو أبو الفوارس شاه بن شجاع الكرماني، الزاهد، كان من أولاد الملوك فتزهَّد، وصحب أبا تراب النخشبي وغيره. له رسالات، وكتاب سماه «مرآة الحكماء»، توفي قبل الثلاث مئة. طبقات الصوفية ص١٩٢، وحلية الأولياء ١٠/ ٢٣٧، وتاريخ الإسلام ٦/ ٩٥١.

(٢) الأبيات لمجنون ليلى، وهي في ديوانه ص٢٥٢، وفيه محزون. بدل: مهموم.

وهكذا عشَّاقُ الحضرة، لا يزالون يتعرَّضون لنفحاتِ ريح وصال الأزل، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ لربِّكم في أيامِ دهركم نفحاتٌ، ألا فتعرَّضوا لنفحاتِ الرحمن»[1].

ويقال: المؤمن المتحقِّقُ يجد نسيمَ الإيمان في قلبه، وروحَ المعرفة السابقة له من الله تعالى في سرِّه، وإنَّما وجد عليه السلام هذا الرِيحَ حيث بلغ الكتابُ أجَلَه، ودَنَت أيامُ الوصال، وحان تصرُّمُ أيام الهَجر والبَلْبَال، وإلَّا فلِمَ لَمْ يجدْه عليه السلام لمَّا كان يوسفُ في الجبِّ ليس بينَه وبينَه إلا سويعةٌ من نَهارٍ، وما ذلك إلا لأنَّ الأمورَ مرهونةٌ بأوقاتها. وعلى هذا كشوفاتُ الأولياء فإنهم آونةً يُكشَفُ لهم ـ على ما قيل ـ اللوحُ المحفوظ، وأخرى لا يعرفون ما تحت أقدامهم.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ العاشقَ الهائمَ المنتظِرَ لقاءَ الحقِّ سبحانه إذا ذهبت عيناه من طول البكاء يجيء إليه بشيرُ تجلِّيه، فيلقي عليه قميصَ أُنسِه في حضراتِ قُدسِه، فيَرْتَدُّ بصيراً بشمِّ ذلك، فهنالك يرى الحقَّ بالحقِّ وينجلي الغينُ عن العين.

ويقال: إنَّه عليه السلام إنما ارتدَّ بصيراً حين وُضِع القميصُ على وجهه لأنَّه وجَدَ لذَّةَ نفحةِ الحقِّ تعالى منه، حيث كان يوسفُ عليه السلام محلَّ تجليه جلَّ جلالُه، وكان القميصُ معبَّقاً بريح جِنانِ قُدسه، فعاد لذلك نورُ بصره عليه السلام إلى مجاريه فأبْصَر.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ١٩/(٥١٩)، والأوسط (٢٨٧٧) من حديث محمد بن مسلمة ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٣١: فيه من لم أعرفه، ومن أعرفه ثقات.
وأخرجه الطبراني في الكبير (٧٢٠)، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ١٦٢، والبيهقي في الشعب (١١٢١)، وابن عبد البر في التمهيد ٥/ ٣٣٩، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٤/ ١٢٣ من طريق عمرو بن الربيع، عن يحيى بن أيوب، عن عيسى بن موسى بن إياس بن البكير، عن صفوان بن سليم عن أنس ﷺ بلفظ: «. . .وتعرضوا لنفحات رحمة الله تعالى، فإن لله نفحاتٍ من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده». قال أبو نعيم: غريب من حديث صفوان، تفرد به عمرو بن الربيع عن يحيى بن أيوب. اهـ. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٣١: وإسناد رجاله رجال الصحيح، غير عيسى بن موسى بن إياس بن البكير، وهو ثقة.

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وَعَدَهم إلى أن يتعرَّفَ منهم صدقَ التوبة، أو حتى يستأذِنَ ربَّه تعالى في الاستغفار لهم فيأذَنَ سبحانه، لئلا يكونَ مردوداً فيه كما رُدَّ نوحٌ عليه السلام في ولده بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦].

وقال بعضهم: وعدهم الاستغفارَ لأنَّه لم يفرغ بعدُ من استبشاره إلى استغفاره.

وقيل: إنَّما أسرع يوسفُ بالاستغفار لهم ووَعَدَ يعقوب عليهما السلام لأنَّ يعقوبَ كان أشدَّ حبّاً لهم فعاتبهم بالتأخير، ويوسفُ لم يرهم أهلاً للعتاب فتجاوز عنهم من أوَّلِ وهلةٍ، أو اكتفى بما أصابهم من الخَجَل، وكان خَجَلُهم منه أقوى من خجلهم من أبيهم، وفي المثل: كفى للمقصرِّ حياءً يومُ اللقاء.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ لأنَّهما ذاقا طعمَ مَرارة الفراق فخصَّهما من بينهم بمزيد الدنوِّ يومَ التلاق، ومن هنا يتبيَّن أين منازلُ العاشقين يومَ الوصال.

﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ حيث بَانَ لهم أنوارُ(١) جلال الله تعالى في مرآة وجهه عليه السلام، وعايَنُوا ما عاينت الملائكةُ عليهم السلام من آدم عليه السلام حين وقعوا له ساجدين، وما هو إذ ذاك إلا كعبةُ الله تعالى التي فيها آياتٌ بيناتٌ مقامُ إبراهيم.

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ مفوِّضاً إليك شأني كلَّه بحيث لا يكون لي رجوعٌ إلى نفسي، ولا إلى سببٍ من الأسبابِ بحالٍ من الأحوال.

﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بمن أصلَحْتَهم لحضرتك، وأسقَطْتَ عنهم سماتِ الخَلْق، وأزلْتَ عنهم رُعُوناتِ الطبع.

ولا يخفى ما في تقديمه عليه السلام الثناءَ على الدعاءِ من الأدب، وهو الذي يقتضيه المقام.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ قال غيرُ واحدٍ من الصوفية: مَن

(١) تحرف في (م) إلى: أنواع.

التَفَتَ إلى غير الله تعالى فهو مُشرِكٌ، وقال قائلهم:

ولو خَطَرتْ لي في سواك إرادةٌ على خَاطِري سهواً حَكَمْتُ بردَّتي[١]

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ بيانٌ من الله تعالى وعلمٌ لا معارضةَ للنفس والشيطان فيه ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾، وذَكر بعضُ العارفين أنَّ البصيرةَ أعلى من النور؛ لأنَّها لا تصحُّ لأحدٍ، وهو رقيقُ الميل إلى السِّوَى.

وفي الآية إشارةٌ إلى أنَّه ينبغي للداعي إلى الله تعالى أن يكونَ عارفاً بطريق الإيصال إليه سبحانه، عالماً بما يجب له تعالى وما يجوز وما يمتنع عليه جل شأنه، والدعاةُ إلى الله تعالى اليومَ من هؤلاء الذين نَصَبُوا أنفسَهم إلى الإرشاد بزعمهم أجهلُ من حمارِ الحكيم توما[٢]، وهم لعمري في ضلالةٍ مُدْلَهِمَّةٍ ومَهَامِهَ يَحَارُ فيها الخِرِّيتُ، وهم يحسبون أنَّهم يحسنون صنعاً، ولبئس ما كانوا يصنعون.

﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وهم ذَوُو الأحوال من العارفين والعاشقين والصابرين والصادقين وغيرِهم، وفيها أيضاً عبرةٌ للملوك في بسط العدل كما فعل يوسف عليه السلام، ولأهل التقوى في ترك ما تُراوِدهم النفسُ الشهوانية عليه، وللمماليك في حفظ حَرَم السادة، ولا أحدٌ أغْيَرُ من الله تعالى، ولذلك حَرَّم الفواحش، وللقادرين في العفو عمن أساء إليهم، ولغيرهم في غير ذلك، ولكن أين المعتبرون؟ أشباحٌ ولا أرواح، وديارٌ ولا دَيَّار، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

هذا، وقد أوَّل بعضُ الصوفية قدس الله تعالى أسرارَهم يوسفَ بالقلب المستعدِّ الذي هو في غاية الحسن، ويعقوبَ بالعقل، والإخوةَ بني العلَّات بالحواسِّ الخمس الظاهرة والخمس الباطنة والقوَّة الشهوانية، وبنيامينَ بالقوة العاقلة العملية،

---

(١) البيت لابن الفارض، وهو في ديوانه ص٥٢، وقد سلف ١/ ٣٤١.

(٢) قال الحافظ في الدرر الكامنة ٢/ ٧٥: توما بن إبراهيم الطبيب، كان عارفاً بالطب، وله اختصار مسائل حنين. وكأنه الذي عناه من قال: قال حمار الحكيم توما. . .، وقال التنوخي في الفرج بعد الشدة ١/ ٤٢٤: ومن مشهوري الحمير حمار الحكيم توما، الذي قيل فيه:

قال حِمارُ الحكيم توما لو أنصفَ الدهرُ كنتُ أركَبْ

لأنَّني جاهلٌ بَسيطٌ وصاحِبي جاهلٌ مركَّبْ

وراحيلَ أمَّ يوسف بالنفس اللوَّامة، وليا بالنفس الأمَّارة، والجُبَّ بقعر الطبيعة البدنية، والقميصَ الذي ألبِسَه يوسفُ في الجبِّ بصفة الاستعداد الأصليِّ والنورِ الفطريِّ، والذئبَ بالقوة الغضبية، والدمَ الكذبَ بأثرها، وابيضاضَ عينِ يعقوب بكَلَال البصيرة وفقدانِ نورِ العقل، وشراؤُه من عزيز مصرَ بثمنٍ بخس بتسليم الطبيعة له إلى عزيز الروح الذي في مصرِ مدينة القدس بما يحصل للقوة الفكرية من المعاني الفائضةِ عليها من الروح. وامرأة العزيز بالنفس اللوَّامة، وقدَّ القميص من دُبُرٍ بخرقها لباسَ الصفة النورية التي هي من قِبَل الأخلاق الحسنة والأعمال الصالحة، ووجدانَ السيِّدِ بالباب بظهور نورِ الروح عند إقبال القلب إليه بواسطة تَذَكُّرِ البرهانِ العقليِّ ووُرُودِ الوارد القُدْسيِّ عليه، والشاهدَ بالفكر الذي هو ابن عم امرأة العزيز، أو بالطبيعة الجسمانيَّة الذي هو ابن خالتها، والصاحبَيْنِ بقوة المحبَّة الروحية وبهوى النفس، والخمرَ بخمر العشق، والخُبزَ باللَّذَّات، والطيرَ بطَيْرِ القُوى الجسمانية، والمَلِكَ بالعقل الفعَّال، والبقراتِ بمراتب النفس، والسقاية بقوة الإدراك، والمؤذِّن بالوهم إلى غير ذلك، وطبَّقَ القصَّةَ على ما ذُكِر وتَكَلَّفَ له أشدَّ تكلُّفٍ، وما أغناه عن ذلك!

والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل، لا ربَّ غيرُه ولا يُرجَى إلا خيرُه.

(١٣) سُورَةُ الرَّعْدِ مَدَنِيَّة
وآياتها ثلاث وأربعون

سورةُ الرعد من السور المكية التي تتناول المقاصد الأساسية للسور المكية ، من تقرير التوحيد ، والرسالة ، والبعث ، ودفعِ بعض الشبهات التي يثيرها المشركون حول الوحي والرسالة ، والبعث والنشور ، وإقامة الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين جل وعـــلا. سميت هذه السورةُ بسورةِ الرعد ، لتلكَ الظاهرةِ الكونيةِ العجيبة ، التي هي أثرٌ من آثار قدرةِ الله العليّ القدير ، في الخلق والإيجاد ، والإحياء والإماتة ، والتدبير والتدمير ، وفي هذه الظواهر الكونية تتجلَّى قدرةُ اللهُ وسلطانُه ، ورحمتُه وانتقامُه ، وعظمته وجلالُه ، فالله جل وعلا الذي جعل الماء سبباً للحياة ، وأنزله بقدرته من السحب الكثيفة مدراراً ، قرنَ هذا السحابَ بالبرقِ والرعدِ والصواعق ، وفي الماءِ الإحياءُ ، وفي الصواعقِ الإفناءُ ، وفي البرق والرعد الهلعُ والجزعُ ، وكلُّها أمورٌ كونيةٌ عجيبة ، جمع الله فيها بين المتضادّ التي يعجِز عنها البشر ، فالماء يطفىء النار ، ومع ذلك فقد جعل الله في السحاب الرحمة والعذاب ، فهو يحمل المطرَ ، والبرقَ ، والرعدَ ، والصواعق ولله در القائل حيثُ يقول :

جَمْعُ النقيضَيْنِ من أسرارِ قدرتِه : هذا السحــابُ بــه مَاءٌ بهِ نارُ

فمن حيث ينتظر الإنسان الرحمةَ يأتيه العذاب ، ومن حيثُ يخشى الهلاك تأتيه الحياة ، ﴿هو الذي يريكم البَرْقَ خوفاً وطَمَعاً ، ويُنْشىء

السحابَ الثقال . ويسبحّ الرعدُ بحمده ، والملائكةُ من خيفته ، ويُرسل الصواعقَ فيُصِيبُ بها من يشاء ، وهم يجادلون في الله وهو شديدُ المِحَال﴾ . وفي ذلك عبرةٌ لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمَع وهو شهيد . بدأت السورة الكريمة بالقضية الأساسية للعقيدة الإسلامية وهي « قضيةُ الوحي » الذي رافق نزولَ هذا الكتاب ، فمع سطوع الحقِ ووضوحه ، ومع بيانهِ القاطع الذي لا يحتمل الشكَّ أو التردد ، أنكر أكثر الناس وكذَّبوا ، وجحدوا وعاندوا « تلك آياتُ الكتاب ، والذي أُنزِلَ إليك من ربُّك الحقُّ ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يؤمنون » . ثم استعرضت السورةُ آياتِ القدرة ، وعجائبَ الكون ، الدالةَ على قدرةِ الخالقِ المدبّر الحكيم ، في السماءِ والأرض ، والشمسِ والقمر ، والليلِ والنهار ، والزروعِ والثمار ، وفي الأنهار والبحار ، وسائر ما خلق الله في آفاق الكون الفسيح ﴿ اللهُ الذي رفع السموات بغير عَمَدٍ ترونها ، ثم استوى على العرش ، وسخَّر الشمس والقمر كلٌّ يجري لأجلٍ مسمًّى ، يدبِّرُ الأمرَ يفصّلُ الآياتِ ، لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾ ومن العالَم العلوي إلى العالم السفلي يذكّرنا اللهُ بعظيم قدرته ، وباهر صَنْعَته ، فهو الذي منح الوجودَ الحياة ، وأضفى على الكون من آلائه التي لا تُحصى ، ونِعَمِه الجليلة التي بها دوام هذه الحياة ، بما شقَّ فيها من أنهار ، وأخرج فيها من ثمار « يُسقى بماء واحدٍ ونفضّل بعضَها على بعضٍ في الأُكُلِ ، إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لقومٍ يعقلون » وإذا كان هناك ما يدعو للعَجَب ، فليعجب الإنسانُ من ذلكَ الكافر الجاحد لربه ، المكذِّب بالبعث بعد الموت ، وهو يرى الشمس تشرق وتغرُب ، والشجرَ يُكسْى ثم يَعْرى ، والأرض هامدة فإذا أنزل الله عليها المطر اهتزَّتْ وربَتْ ، ثم هو ينكر البعث والنشور ﴿ وإن تعجبْ فعجبٌ قولُهم أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلقٍ جديد ؟ أولئك الذين كفروا بربهم ، وأولئك الأغلال في

أعناقهم ، وأولئكَ أصحابُ النارِ هم فيها خالدون﴾ .
والذي خلق هذا الكون الضخم ، ودبَّره على هذا النحو الدقيق ، قادرٌ على إعادة البشر بعد موتهم ، فهو الذي أحاط علمه بكل ذرةٍ في الكائنات ، حتى الهَمَسات واللَّمَسات ، والأجنةُ في بطون الأمهات ، سواءٌ منها ما كان ظاهراً جلياً ، أو سِقْطاً خفياً لم يستكمل بعد تمام الحياة ﴿ اللهُ يعلم ما تحمل كلُّ أنثى وما تَغيضُ الأرحام وما تزداد ، وكلُّ شيءٍ عنده بمقدار ، عالمُ الغيبُ والشهادة الكبيرُ المتعال﴾ .
ومن العلم الشاملِ الكامل ، الناطق بعظمة الله ووحدانيته ، إلى البراهين الساطعة ، والأدلة القاطعة ، على انفراد الله جلَّ وعلا بالخلق والإيجاد ، والإحياء والإماتة ، والنفع والضر ، دون ما سواه من الآلهة المزعومة ﴿ قل من ربُّ السمواتِ والأرض ؟ قل اللهُ ؟ قل أفاتخذتُمْ من دونِهِ أولياءَ لا يملكونَ لأنفسهم نَفْعاً ولا ضَرّاً ؟ قل هل يستوي الأعمى والبصير ، أم هل تستوي الظلماتُ والنُور ؟ أم جعلوا للهِ شركاءَ خلقوا كخلقه فتشابَه الخلقُ عليهم ؟ قل اللهُ خالقُ كل شيءٍ وهو الواحدُ القهار ﴾
ثم يمضي السياق يضربُ مثلين للحق والباطل ، **أحدهما** في الماء ينزل من السماء ، فتسيل به الأودية والشِّعاب ، وهو يجرف في طريقه الغثاء ، فيطفو على وجهه في صورة الزَّبَد ، والزَّبَدُ مرتفعٌ منتفخ ولكنَّه بعد غثاء ، **والثاني** في المعادن التي تذاب لتُصاغ منها الحِلْيَة كالذهب والفضة ، أو الأواني كالحديد والنحاس ، فإنَّ الخَبَثَ يطفو حتَّى ليحجبُ المعدنَ الأصيل ، ولكنه بعدُ خبثٌ يذهب ويبقى المعدنُ في نقاء . ذلك مَثَلٍ الحق والباطل في هذه الحياة ، فالباطل يزهو ويعلو وينتفخ ، ويبدو رابياً طافياً ولكنَّه بعدُ زبدٌ أو خَبَث ، ما يلبثُ أنِ يذهب جفاءً ، والحقُّ يَظَلُّ هادئاً ساكناً ، وربما يحسبه البعض قد انزوى أو غار ، أو تلاشى وذهب ، ولكنه هو الباقي في الأرض كالماء المحيي للنفوس ، والمعدن

الثابت بعد الانصهار يبقى صافياً نقياً ﴿أنزل من السماء ماءً فسالتْ أوديةٌ بِقَدَرِهَا ، فاحتمل السيلُ زَبَداً رابياً ، وممّا يوقدون عليه في النارِ ابتغاء حليةٍ أو متاعٍ زبدٌ مثلُه ، كذلك يضرب الله الحقَّ والباطل ، فأما الزَبَد فيذهب جُفَاءً ، وأما ما ينفعُ الناسِ فيمكثُ في الأرض ، كذلك يضربُ الله الأمثال﴾ وتتناول السورة الكريمة أوصاف أهل السعادة ، وأوصاف أهل الشقاوة ، وتضرب لهم المثل بالأعمى والبصير ، ومآل كلٍ من الفريقين في الآخرة ، فالمؤمنون هم السعداء ، والكافرون هم الأشقياء ، ثم تختم السورة ببيان موقف الكافرين من أمر القرآنِ وأمر الوحي وإنكارهم لرسالة خاتم المرسلين ﴿ويقول الذين كفروا لست مرسلاً ، قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ، ومَنْ عنده علم الكتاب﴾ .

سورة الرعد

[٥١٩م] أخرج الطبراني وغيره[١] عن ابن عباس: أن أربد بن قيس وعامر بن الطفيل قدما المدينة على رسول الله [ﷺ]، فقال عامر: يا محمد ما تجعل لي إن أسلمت؟ قال: «**لك ما للمسلمين، وعليك ما عليهم**»، قال: أتجعل لي الأمر من بعدك؟ قال: «**ليس ذلك لك ولا لقومك**». فخرجا فقال عامر لأربد: إني أشغل عنك وجه محمد الحديث. فاضربه بالسيف فرجعا، فقال عامر: يا محمد قم معي أكلمك، فقام معه ووقف يكلمه وسل أربد السيف، فلما وضع يده على قائم السيف يبست والتفت رسول الله [ﷺ]، فرآه فانصرف عنهما، فخرجا حتى إذا كانا بالرقم أرسل الله على أربد صاعقة فقتلته، فأنزل الله: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾[٢].

[٥٢٠] وأخرج النسائي والبزار[٣] عن أنس قال: بعث رسول الله [ﷺ] رجلاً من أصحابه إلى رجل من عظماء الجاهلية يدعوه إلى الله فقال: ايش ربك الذي تدعوني إليه، أمن حديد، أو من نحاس، أو من فضة أو ذهب، فأتى النبي [ﷺ] فأخبره، فأعاده الثانية والثالثة، فأرسل الله عليه صاعقة فأحرقته، ونزلت هذه الآية: ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾[٤] إلى آخرها.

[٥٢١] وأخرج الطبراني وغيره عن ابن عباس قال: قالوا للنبي [ﷺ] إن كان كما تقول فأرنا أشياخنا الأول نكلمهم من الموتى، وافسح لنا هذه الجبال جبال مكة التي قد ضمتنا، فنزلت: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾[٥] الآية.

[٥١٩م](١) المعجم الكبير للطبراني (١٠/ ٣٨٠) والواحدي في أسباب النزول ـ وانظر مجمع الزوائد (٧/ ٤١).

(٢) سورة الرعد: الآية (٨و ١٣).

[٥٢٠] (٣) ورواه الواحدي في أسباب النزول (١٥٦) من طريق علي بن أبي سارة الشيباني قال حدثنا ثابت عن أنس بن مالك.

(٤) سورة الرعد: الآية (١٣).

[٥٢١] (٥) سورة الرعد: الآية (٣١)

[٥٢٢] ك. . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن عطية العوفي قال: قالوا للنبي [ﷺ]: لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها أو قطعت لنا الأرض كلها كان سليمان يقطع لقومه بالريح، أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى يحيي الموتى لقومه، فأنزل الله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾(١) الآية.

[٥٢٣] ك. . وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: قالت قريش حين أنزل: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾(٢) ما نراك يا محمد تملك من شيء لقد فرغ من الأمر، فأنزل الله: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾(٣).

* * *

---

[٥٢٢] (١) سورة الرعد الآية (٣١) ـ وقد روى الواحدي في أسباب النزول ص (٥١٧) من طريق عبد الجبار بن عمر الأيلي عن عبدالله بن عطاء عن جدته أم عطاء مولاة الزبير قالت سمعت الزبير بن العوام يقول: قالت قريش للنبي ﷺ تزعم أنك نبي يوحى إليك وأن سليمان سخر له الريح وأن موسى سخر له البحر وأن عيسى كان يحيي الموتى فادع الله تعالى أن يسير عنا هذه الجبال ويفجر لنا الأرض أنهاراً فنتخذها محارث ومزارع ونأكل وإلا فادع أن يحيي لنا موتانا فنكلمهم ويكلمونا وإلا فادع الله تعالى أن يصير هذه الصخرة التي تحتك ذهباً فننحت منها وتغنينا عن رحلة الشتاء والصيف فإنك تزعم أنك كهيئتهم فبينا نحن حوله إذ نزل عليه الوحي فلما سرى عنه قال: **«والذي نفسي بيده لقد أعطاني ما سألتم ولو شئت لكان ولكنه خيرني بين أن تدخلوا في باب الرحمة فيؤمن مؤمنكم وبين أن يكلكم إلى ما اخترتم لأنفسكم فتضلوا عن باب الرحمة فاخترت باب الرحمة وأخبرني إن أعطاكم ذلك ثم كفرتم أنه معذبكم عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين فنزلت ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون﴾** ونزلت **﴿ولو أن قرآناً سيرت به الجبال﴾»**.

[٥٢٣] (٢) سورة الرعد: الآية (٣٨).

(٣) سورة الرعد: الآية (٣٩).

سورة الرعد

مدنية: وآياتها: ٤٣ نزلت بعد سورة محمد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١﴾

اعلم أنا قد تكلمنا في هذه الألفاظ قال ابن عباس رضي الله عنهما معناه: أنا الله أعلم، وقال في رواية عطاء أنا الله الملك الرحمن، وقد أمالها أبو عمرو والكسائي وغيرهما وفخمها جماعة منهم عاصم وقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى آيات السورة المسماة بـ﴿الٓمٓر﴾. ثم قال: إنها آيات الكتاب. وهذا الكتاب الذي أعطاه محمدًا بأن ينزله عليه ويجعله باقيًا على وجه الدهر وقوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ مبتدأ وقوله: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ خبره ومن الناس من تمسك بهذه الآية في نفي القياس فقال: الحكم المستنبط بالقياس غير نازل من عند الله وإلا لكان من لم يحكم به كافرًا لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[المائدة: ٤٤] وبالإجماع لا يكفر فثبت أن الحكم المثبت بالقياس غير نازل من عند الله. وإذا كان كذلك وجب أن لا يكون حقًا لأجل أن قوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ يقتضي أنه لا حق إلا ما أنزله الله فكل ما لم ينزله الله وجب أن لا يكون حقًا، وإذا لم يكن حقًا وجب أن يكون باطلاً لقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾[يونس: ٣٢] ومثبتو القياس يجيبون عنه بأن الحكم المثبت بالقياس نازل أيضًا من عند الله، لأنه لما أمر بالعمل بالقياس كان الحكم الذي دل عليه القياس نازلاً من عند الله. ولما ذكر تعالى أن المنزل على محمدﷺ هو الحق بين أن أكثر الناس لا يؤمنون به على سبيل الزجر والتهديد.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر أن أكثر الناس لا يؤمنون ذكر عقيبه ما يدل على صحة التوحيد والمعاد وهو هذه الآية. وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ و﴿ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ والذي رفع

السموات خبره بدليل قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ ويجوز أن يكون الذي رفع السموات صفة وقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ خبرًا بعد خبر، وقال الواحدي: العَمَد: الأساطين وهو جمع عِمَاد يقال عِمَاد وعَمَد مِثل إهَاب وأَهَب، وقال الفراء: العَمَد والعُمُد جمع العمود مثل أَدِيم وأَدَم وأُدُم، وقَضِيم وقَضَم وقُضُم، والعِمَاد والعَمُود ما يُعمدُ به الشيء، ومنه يقال: فلان عَمَد قومه إذا كانوا يعتمدونه فيما بينهم.

المسألة الثانية: اعلم أنه تعالى استدل بأحوال السموات وبأحوال الشمس والقمر وبأحوال الأرض وبأحوال النبات، أما الاستدلال بأحوال السموات بغير عمد ترونها فالمعنى: أن هذه الأجسام العظيمة بقيت واقفة في الجو العالي ويستحيل أن يكون بقاؤها هناك لأعيانها ولذواتها لوجهين:

الأول: أن الأجسام متساوية في تمام الماهية، ولو وجب حصول جسم في حيز معين، لوجب حصول كل جسم في ذلك الحيز. والثاني: أن الخلاء لا نهاية له والأحياز المعترضة في ذلك الخلاء الصرف غير متناهية وهي بأسرها متساوية ولو وجب حصول جسم في حيز معين لوجب حصوله في جميع الأحياز ضرورة أن الأحياز بأسرها متشابهة فثبت أن حصول الأجرام الفلكية في أحيازها وجهاتها ليس أمرًا واجبًا لذاته بل لا بد من مخصص ومرجح، ولا يجوز أن يقال إنها بقيت بسلسلة فوقها ولا عمد تحتها، وإلا لعاد الكلام في ذلك الحافظ ولزم المرور إلى ما لا نهاية له وهو محال فثبت أن يقال الأجرام الفلكية في أحيازها العالية لأجل أن مدبر العالم تعالى وتقدس أوقفها هناك. فهذا برهان قاهر على وجود الإله القاهر القادر. ويدل أيضًا على أن الإله ليس بجسم ولا مختص بحيز، لأنه لو كان حاصلاً في حيز معين لامتنع أن يكون حصوله في ذلك الحيز لذاته ولعينه لما بينا أن الأحياز بأسرها متساوية فيمتنع أن يكون حصوله في حيز معين لذاته فلا بد وأن يكون بتخصيص مخصص وكل ما حصل بالفاعل المختار فهو محدث فاختصاصه بالحيز المعين محدث وذاته لا تنفك عن ذلك الاختصاص وما لا يخلو عن الحادث فهو حادث، فثبت أنه لو كان حاصلاً في الحيز المعين لكان حادثًا وذلك محال، فثبت أنه تعالى متعال عن الحيز والجهة، وأيضًا كل ما سماك فهو سماء، فلو كان تعالى موجودًا في جهة فوق جهة لكان من جملة السموات فدخل تحت قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ فكل ما كان مختصًا بجهة فوق جهة فهو محتاج إلى حفظ الإله بحكم هذه الآية فوجب أن يكون الإله منزهًا عن جهة فوق. أما قوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ ففيه أقوال:

الأول: أنه كلام مستأنف، والمعنى: رفع السموات بغير عمد. ثم قال: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ أي وأنتم ترونها أي مرفوعة بلا عماد.

الثاني: قال الحسن: في تقرير الآية تقديم وتأخير تقديره: رفع السموات ترونها بغير عمد. واعلم أنه إذا أمكن حمل الكلام على ظاهره كان المصير إلى التقديم والتأخير غير جائز.

والثالث: أن قوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ صفة للعمد، والمعنى: بغير عمد مرئية، أي للسموات عمد. ولكنا لا نراها قالوا: ولها عمد على جبل قاف وهو جبل من زبرجد محيط بالدنيا ولكنكم لا ترونها. وهذا التأويل في غاية السقوط، لأنه تعالى إنما ذكر هذا الكلام ليكون حجة على وجود الإله القادر ولو كان المراد ما ذكروه لما ثبتت الحجة لأنه يقال إن السموات لما كانت مستقرة على جبل قاف فأي دلالة لثبوتها على وجود الإله، وعندي فيه وجه آخر أحسن من الكل وهو أن العماد ما يعتمد عليه وقد دللنا على أن هذه الأجسام إنما بقيت واقفة في الجو العالي بقدرة الله تعالى وحينئذ يكون عمدها هو قدرة الله تعالى فنتج أن يقال إنه رفع السماء بغير عمد ترونها أي لها عمد في الحقيقة إلا أن تلك العمد هي قدرة الله تعالى وحفظه وتدبيره وإبقاؤه إياها في الجو العالي وأنهم لا يرون ذلك التدبير ولا يعرفون كيفية ذلك الإمساك.

وأما قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ فاعلم أنه ليس المراد منه كونه مستقرًا على العرش، لأن المقصود من هذه الآية ذكر ما يدل على وجود الصانع ويجب أن يكون ذلك الشيء مشاهدًا معلومًا وأن أحدًا ما رأى أنه تعالى استقر على العرش فكيف يمكن الاستدلال به عليه وأيضًا بتقدير أن يشاهد كونه مستقرًا على العرش إلا أن ذلك لا يشعر بكمال حاله وغاية جلاله، بل يدل على احتياجه إلى المكان والحيز. وأيضًا فهذا يدل على أنه ما كان بهذه الحالة ثم صار بهذه الحالة، وذلك يوجب التغير وأيضًا الاستواء ضد الاعوجاج فظاهر الآية يدل على أنه كان معوجًا مضطربًا ثم صار مستويًا وكل ذلك على الله محال، فثبت أن المراد استواؤه على عالم الأجسام بالقهر والقدرة والتدبير والحفظ يعني أن من فوق العرش إلى ما تحت الثرى في حفظه وفي تدبيره وفي الاحتياج إليه. وأما الاستدلال بأحوال الشمس والقمر: فهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

واعلم أن هذا الكلام اشتمل على نوعين من الدلالة:

النوع الأول: قوله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ وحاصله يرجع إلى الاستدلال على وجود الصانع القادر القاهر بحركات هذه الأجرام، وذلك لأن الأجسام متماثلة فهذه الأجرام قابلة للحركة والسكون فاختصاصها بالحركة الدائمة دون السكون لا بد له من مخصص. وأيضًا أن كل واحدة من تلك الحركات مختصة بكيفية معينة من البطء والسرعة فلا بد أيضًا من مخصص لا سيما عند من يقول الحركة البطيئة معناها حركات مخلوطة بسكنات وهذا يوجب الاعتراف بأنها تتحرك في بعض الأحياز وتسكن في البعض فحصول الحركة في ذلك الحيز المعين والسكون في الحيز الآخر لا بد فيه أيضًا من مرجح.

الوجه الثالث: وهو أن تقدير تلك الحركات والسكنات بمقادير مخصوصة على وجه تحصل عوداتها وأدوارها متساوية بحسب المدة حالة عجيبة فلا بد من مقدر.

والوجه الرابع: أن بعض تلك الحركات مشرقية وبعضها مغربية وبعضها مائلة إلى الشمال

وبعضها مائلة إلى الجنوب وهذا أيضًا لا يتم إلا بتدبير كامل وحكمة بالغة.

النوع الثاني: من الدلائل المذكورة في هذه الآية قوله: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وفيه قولان:

الأول: قال ابن عباس: للشمس مائة وثمانون منزلاً كل يوم لها منزل وذلك يتم في ستة أشهر، ثم إنها تعود مرة أخرى إلى واحد منها في ستة أشهر أخرى وكذلك القمر له ثمانية وعشرون منزلاً، فالمراد بقوله: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هذا. وتحقيقه أنه تعالى قدر لكل واحد من هذه الكواكب سيرًا خاصًّا إلى جهة خاصة بمقدار خاص من السرعة والبطء وحيث كان الأمر كذلك لزم أن يكون لها بحسب كل لحظة ولمحة حالة أخرى ما كانت حاصلة قبل ذلك.

والقول الثاني: أن المراد كونهما متحركين إلى يوم القيامة، وعند مجيء ذلك اليوم تنقطع هذه الحركات وتبطل تلك السيرات كما وصف الله تعالى ذلك في قوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ١، ٢] ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الإنشقاق: ١] و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الإنفطار: ١] ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٩] وهو كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام: ٢] ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الدلائل قال: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ وكل واحد من المفسرين حمل هذا على تدبير نوع آخر من أحوال العالم والأولى حمله على الكل فهو يدبرهم بالإيجاد والإعدام وبالإحياء والإماتة والإغناء والإفقار، ويدخل فيه إنزال الوحي وبعثة الرسل وتكليف العباد، وفيه دليل عجيب على كمال القدرة والرحمة وذلك لأن هذا العالم المعلوم من أعلى العرش إلى ما تحت الثرى أنواع وأجناس لا يحيط بها إلا الله تعالى، والدليل المذكور دل على أن اختصاص كل واحد منها بوضعه وموضعه وصفته وطبيعته وحليته، ليس إلا من الله تعالى ومن المعلوم أن كل من اشتغل بتدبير شيء فإنه لا يمكنه تدبير شيء آخر إلا الباري سبحانه وتعالى فإنه لا يشغله شأن عن شأن أما العاقل فإنه إذا تأمل في هذه الآية علم أنه تعالى يدبر عالم الأجسام وعالم الأرواح ويدبر الكبير كما يدبر الصغير فلا يشغله شأن عن شأن ولا يمنعه تدبير عن تدبير وذلك يدل على أنه تعالى في ذاته وصفاته وعلمه وقدرته غير مشابه للمحدثات والممكنات.

ثم قال: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾

وفيه قولان:

الأول: أنه تعالى يبين الآيات الدالة على إلهيته وعلمه وحكمته.

والثاني: أن الدلائل الدالة على وجود الصانع قسمان:

أحدهما: الموجودات الباقية الدائمة كالأفلاك والشمس والقمر والكواكب، وهذا النوع من الدلائل هو الذي تقدم ذكره.

والثاني: الموجودات الحادثة المتغيرة، وهي الموت بعد الحياة، والفقر بعد الغنى، والهرم بعد الصحة، وكون الأحمق في أهنأ العيش، والعاقل الذكي في أشد الأحوال، فهذا النوع من

الموجودات والأحوال دلالتها على وجود الصانع الحكيم ظاهرة باهرة. وقوله: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ﴾ إشارة إلى أنه يحدث بعضها عقيب بعض على سبيل التمييز والتفصيل.

ثم قال: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ واعلم أن الدلائل المذكورة كما تدل على وجود الصانع الحكيم فهي أيضًا تدل على صحة القول بالحشر والنشر لأن من قدر على خلق هذه الأشياء وتدبيرها على عظمتها وكثرتها فلأن يقدر على الحشر والنشر كان أولى يروى أن رجلاً قال لعلي بن أبي طالب رضوان الله عليه أنه تعالى كيف يحاسب الخلق دفعة واحدة فقال كما يرزقهم الآن دفعة واحدة وكما يسمع نداءهم ويجيب دعاءهم الآن دفعة واحدة. وحاصل الكلام أنه تعالى كما قدر على إبقاء الأجرام الفلكية والنيرات الكوكبية في الجو العالي وإن كان الخلق عاجزين عنه، وكما يمكنه أن يدبر من فوق العرش إلى ما تحت الثرى بحيث لا يشغله شأن عن شأن، فكذلك يحاسب الخلق بحيث لا يشغله شأن عن شأن، ومن الأصحاب من تمسك بلفظ اللقاء على رؤية الله تعالى، وقد مر تقريره في هذا الكتاب مرارًا وأطوارًا.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما قرر الدلائل السماوية أردفها بتقرير الدلائل الأرضية فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾. واعلم أن الاستدلال بخلقه الأرض وأحوالها من وجوه: الأول: أن الشيء إذا تزايد حجمه ومقداره صار كأن ذلك الحجم وذلك المقدار يمتد فقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ إشارة إلى أن الله سبحانه هو الذي جعل الأرض مختصة بذلك المقدار المعين الحاصل له لا أزيد ولا أنقص، والدليل عليه: أن كون الأرض أزيد مقدارًا مما هو الآن وأنقص منه أمر جائز ممكن في نفسه فاختصاصه بذلك المقدار المعين لا بد أن يكون بتخصيص وتقدير. الثاني: قال أبو بكر الأصم: المد: هو البسط إلى ما لا يدرك منتهاه فقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ يشعر بأنه تعالى جعل حجم الأرض حجمًا عظيمًا لا يقع البصر على منتهاه، لأن الأرض لو كانت أصغر حجمًا مما هي الآن عليه لما كمل الانتفاع به. والثالث: قال قوم: كانت الأرض مدورة فمدها ودحا من مكة تحت البيت فذهبت كذا وكذا. وقال آخرون: كانت مجتمعة عند البيت المقدس فقال لها: اذهبي كذا وكذا. اعلم أن هذا القول إنما يتم إذا قلنا: الأرض مسطحة لا كرة، وأصحاب هذا القول احتجوا عليه بقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠] وهذا القول مشكل من وجهين: الأول: أنه ثبت بالدلائل أن الأرض كرة فكيف يمكن المكابرة فيه؟

فإن قالوا: وقوله: ﴿مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ ينافي كونها كرة فكيف يمكن مدها؟

قلنا: لا نسلم أن الأرض جسم عظيم والكرة إذا كانت في غاية الكبر كان كل قطعة منها تشاهد كالسطح، والتفاوت الحاصل بينه وبين السطح لا يحصل إلا في علم الله ألا ترى أنه قال: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٧] فجعلها أوتادًا مع أن العالم من الناس يستقرون عليها فكذلك هاهنا. والثاني: أن هذه الآية إنما ذُكِرت ليُستدل بها على وجود الصانع، والشرط فيه أن يكون ذلك أمرًا مشاهدًا معلومًا حتى يصح الاستدلال به على وجود الصانع، وكونها مجتمعة تحت البيت أمر غير مشاهد ولا محسوس، فلا يمكن الاستدلال به على وجود الصانع، فثبت أن التأويل الحق هو ما ذكرناه.

والنوع الثاني: من الدلائل الاستدلال بأحوال الجبال وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ من فوقها ثابتة باقية في أحيازها غير منتقلة عن أماكنها يقال: رسا هذا الوتد وأرسيته والمراد ما ذكرنا.

واعلم أن الاستدلال بوجود الجبال على وجود الصانع القادر الحكيم من وجوه: الأول: أن طبيعة الأرض واحدة فحصول الجبل في بعض جوانبها دون البعض لا بد وأن يكون بتخليق القادر الحكيم. قالت الفلاسفة: هذه الجبال إنما تولدت لأن البحار كانت في هذا الجانب من

العالم فكانت تتولد في البحر طينًا لزجًا. ثم يقوي تأثير الشمس فيها فينقلب حجرًا كما يشاهد في كوز الفقاع ثم إن الماء كان يغور ويقل فيتحجر البقية، فلهذا السبب تولدت هذه الجبال قالوا: وإنما كانت البحار حاصلة في هذا الجانب من العالم لأن أوج الشمس وحضيضها متحركان، ففي الدهر الأقدم كان حضيض الشمس في جانب الشمال والشمس متى كانت في حضيضها كانت أقرب إلى الأرض فكان التسخين أقوى، وشدة السخونة توجب انجذاب الرطوبات، فحين كان الحضيض في جانب الشمال كانت البحار في جانب الشمال، والآن لما انتقل الأوج إلى جانب الشمال والحضيض إلى جانب الجنوب انتقلت البحار إلى جانب الجنوب فبقيت هذه الجبال في جانب الشمال، هذا حاصل كلام القوم في هذا الباب، وهو ضعيف من وجوه: الأول: أن حصول الطين في البحر أمر عام ووقوع الشمس عليها أمر عام فلم يتصل هذا الجبل في بعض الجوانب دون البعض. والثاني: وهو أنا نشاهد في بعض الجبال كأن تلك الأحجار موضوعة سافا فسافًا فكأن البناء لبنات كثيرة موضوع بعضها على بعض ويبعد حصول مثل هذا التركيب من السبب الذي ذكروه. والثالث: أن أوج الشمس الآن قريب من أول السرطان فعلى هذا من الوقت الذي انتقل أوج الشمس إلى الجانب الشمالي مضى قريب من تسعة آلاف سنة، وبهذا التقدير أن الجبال في هذه المدة الطويلة كانت في التفتت فوجب أن لا يبقى من الأحجار شيء، لكن ليس الأمر كذلك، فعلمنا أن السبب الذي ذكروه ضعيف.

والوجه الثاني: من الاستدلال بأحوال الجبال على وجود الصانع ذي الجلال ما يحصل فيها من معادن الفلزات السبعة ومواضع الجواهر النفيسة وقد يحصل فيها معادن الزاجات والأملاح وقد يحصل فيها معادن النفط والقير والكبريت، فكون الأرض واحدة في الطبيعة، وكون الجبل واحدًا في الطبع، وكون تأثير الشمس واحدًا في الكل يدل دليلاً ظاهرًا على أن الكل بتقدير قادر قاهر متعال عن مشابهة المحدثات والممكنات.

والوجه الثالث: من الاستدلال بأحوال الجبال أن بسببها تتولد الأنهار على وجه الأرض، وذلك أن الحجر جسم صلب فإذا تصاعدت الأبخرة من قعر الأرض ووصلت إلى الجبل احتبست هناك فلا تزال تتكامل، فيحصل تحت الجبل مياه عظيمة، ثم إنها لكثرتها وقوتها تثقب وتخرج وتسيل على وجه الأرض، فمنفعة الجبال في تولد الأنهار هو من هذا الوجه، ولهذا السبب ففي أكثر الأمر أينما ذكر الله الجبال قرن بها ذكر الأنهار مثل ما في هذه الآية، ومثل قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧].

والنوع الثالث: من الدلائل المذكورة في هذه الآية الاستدلال بعجائب خلقة النبات، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أن الحبة إذا وضعت في الأرض وأثرت فيها نداوة الأرض ربت وكبرت

وبسبب ذلك ينشق أعلاها وأسفلها فيخرج من الشق الأعلى الشجرة الصاعدة في الهواء، ويخرج من الشق الأسفل العروق الغائصة في أسفل الأرض وهذا من العجائب، لأن طبيعة تلك الحبة واحدة وتأثير الطبائع والأفلاك والكواكب فيها واحد ثم إنه خرج من الجانب الأعلى من تلك الحبة جرم صاعد إلى الهواء من الجانب الأسفل منه جرم غائص في الأرض، ومن المحال أن يتولد من الطبيعة الواحدة طبيعتان متضادتان، فعلمنا أن ذلك إنما كان بسبب تدبير المدبر الحكيم، والمقدر القديم لا بسبب الطبع والخاصية، ثم إن الشجرة الثابتة من تلك الحبة بعضها يكون خشبًا وبعضها يكون نورًا وبعضها يكون ثمرة، ثم إن تلك الثمرة أيضًا يحل فيها أجسام مختلفة الطبائع، فالجوز له أربعة أنواع من القشور، فالقشر الأعلى وتحته القشرة الخشبة وتحته القشرة المحيطة باللبنة، وتحت تلك القشرة قشرة أخرى في غاية الرقة تمتاز عما فوقها حال كون الجوز رطبًا وأيضًا فقد يحصل في الثمرة الواحدة الطباع المختلفة، فالأترج قشره حار يابس ولحمه حار رطب وحماضه بارد يابس وبزره حار يابس ونوره حار يابس، وكذلك العنب قشره وعجمه باردان يابسان ولحمه وماؤه حاران رطبان فتولد هذه للطبائع المختلفة من الحبة الواحدة مع تساوي تأثيرات الطبائع وتأثيرات الأنجم والأفلاك لا بد وأن يكون لأجل تدبير الحكيم القادر القديم.

المسألة الثانية: المراد بزوجين اثنين، صنفين اثنين، والاختلاف إما من حيث الطعم كالحلو والحامض أو الطبيعة كالحار والبارد أو اللون كالأبيض والأسود.

فإن قيل: الزوجان لا بد وأن يكون اثنين، فما الفائدة في قوله: ﴿زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ .

قلنا: قيل: إنه تعالى أول ما خلق العالم وخلق فيه الأشجار خلق من كل نوع من الأنواع اثنين فقط، فلو قال: خلق زوجين لم يعلم أن المراد النوع أو الشخص. أما لما قال اثنين: علمنا أن الله تعالى أول ما خلق من كل زوجين اثنين لا أقل ولا أزيد. والحاصل أن الناس فيهم الآن كثرة إلا أنهم لما ابتدؤا من زوجين اثنين بالشخص هما آدم وحواء، فكذلك القول في جميع الأشجار والزرع، والله أعلم.

النوع الرابع: من الدلائل المذكورة في هذه الآية الاستدلال بأحوال الليل والنهار وإليه الإشارة بقوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ والمقصود أن الإنعام لا يكمل إلا بالليل والنهار وتعاقبهما كما قال: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢] ومنه قوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤] وقد سبق الاستقصاء في تقريره فيما سلف من هذا الكتاب، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم: (يُغَشِّي) بالتشديد وفتح الغين والباقون بالتخفيف، ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الدلائل النيرة والقواطع القاهرة قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .

واعلم أنه تعالى في أكثر الأمر حيث يذكر الدلائل الموجودة في العالم السفلي يذكر عقبها: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أو ما يقرب منه بحسب المعنى، والسبب فيه أن الفلاسفة

يسندون حوادث العالم السفلي إلى الاختلافات الواقعة في الأشكال الكوكبية، فما لم تقم الدلالة على دفع هذا السؤال لا يتم المقصود، فلهذا المعنى قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ كأنه تعالى يقول: مجال الفكر باق بعد ولا بد بعد هذا المقام من التفكر والتأمل ليتم الاستدلال.

واعلم أن الجواب عن هذا السؤال من وجهين: الأول: أن نقول: هب أنكم أسندتم حوادث العالم السفلي إلى الأحوال الفلكية والاتصالات الكوكبية إلا أنا أقمنا الدليل القاطع على أن اختصاص كل واحد من الأجرام الفلكية وطبعه ووضعه وخاصيته لا بد أن يكون بتخصيص المقدر القديم والمدبر الحكيم، فقد سقط هذا السؤال وهذا الجواب قد قرره الله تعالى في هذا المقام، لأنه تعالى ابتدأ بذكر الدلائل السماوية وقد بينا أنها كيف تدل على وجود الصانع. ثم إنه تعالى أتبعها بالدلائل الأرضية.

فإن قال قائل: لم لا يجوز أن تكون هذه الحوادث الأرضية لأجل الأحوال الفلكية، كان جوابنا أن نقول: فهب أن الأمر كذلك إلا أنا دللنا فيما تقدم على افتقار الأجرام الفلكية إلى الصانع الحكيم فحينئذ لا يكون هذا السؤال قادحًا في غرضنا.

والوجه الثاني: من الجواب أن نقيم الدلالة على أنه لا يجوز أن يكون حدوث الحوادث السفلية لأجل الاتصالات الفلكية، وذلك هو المذكور في الآية التي تأتي بعد هذه الآية، ومن تأمل في هذه اللطائف ووقف عليها علم أن هذا الكتاب اشتمل على علوم الأولين والآخرين.

قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن المقصود من هذه الآية إقامة الدلالة على أنه لا يجوز أن يكون حدوث الحوادث في هذا العالم لأجل الاتصالات الفلكية، والحركات الكوكبية، وتقريره من وجهين، الأول: أنه حصل في الأرض قطع مختلفة بالطبيعة والماهية وهي مع ذلك متجاورة، فبعضها تكون سبخية، وبعضها تكون رخوة، وبعضها تكون صلبة، وبعضها تكون منبتة، وبعضها تكون حجرية أو رملية وبعضها يكون طينًا لزجًا، ثم إنها متجاورة وتأثير الشمس وسائر الكواكب في تلك القطع على السوية فدل هذا على أن اختلافها في صفاتها بتقدير العليم القدير.
والثاني: أن القطعة الواحدة من الأرض تسقى بماء واحد فيكون تأثير الشمس فيها متساويًا، ثم إن تلك الثمار تجيء مختلفة في الطعم واللون والطبيعة والخاصية حتى أنك قد تأخذ عنقودًا من

العنب فيكون جميع حباته حلوة نضيجة إلا حبة واحدة فإنها بقيت حامضة يابسة، ونحن نعلم بالضرورة أن نسبة الطباع والأفلاك للكل على السوية، بل نقول: هاهنا ما هو أعجب منه، وهو أنه يوجد في بعض أنواع الورد ما يكون أحد وجهيه في غاية الحمرة، والوجه الثاني في غاية السواد مع أن ذلك الورد يكون في غاية الرقة والنعومة فيستحيل أن يقال: وصل تأثير الشمس إلى أحد طرفيه دون الثاني، وهذا يدل دلالة قطعية على أن الكل بتدبير الفاعل المختار، لا بسبب الاتصالات الفلكية وهو المراد من قوله سبحانه وتعالى: ﴿تُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ فهذا تمام الكلام في تقرير هذه الحجة وتفسيرها وبيانها.

واعلم أن بذكر هذا الجواب قد تمت الحجة فإن هذه الحوادث السفلية لا بد لها من مؤثر وبينا أن ذلك المؤثر ليس هو الكواكب والأفلاك والطبائع فعند هذا يجب القطع بأنه لا بد من فاعل آخر سوى هذه الأشياء، وعندها يتم الدليل، ولا يبقى بعده للفكر مقام ألبتة، فلهذا السبب قال هاهنا: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ لأنه لا دافع لهذه الحجة إلا أن يقال: إن هذه الحوادث السفلية حدثت لا لمؤثر ألبتة وذلك يقدح في كمال العقل، لأن العلم بافتقار الحادث إلى المحدث لما كان علمًا ضروريًا كان عدم حصول هذا العلم قادحًا في كمال العقل فلهذا قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وقال في الآية المتقدمة: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣] فهذه اللطائف نفيسة من أسرار علم القرآن ونسأل الله العظيم أن يجعل الوقوف عليها سببًا للفوز بالرحمة والغفران.

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ قال أبو بكر الأصم: أرض قريبة من أرض أخرى واحدة طيبة، وأخرى سبخة، وأخرى حرة، وأخرى رملة، وأخرى تكون حصباء، وأخرى تكون حمراء، وأخرى تكون سوداء. وبالجملة فاختلاف بقاع الأرض في الارتفاع والانخفاض والطباع والخاصية أمر معلوم، وفي بعض المصاحف (قطعًا متجاورات) والتقدير: وجعل فيها رواسي وجعل في الأرض قطعًا متجاورات. وأما قوله: ﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ فنقول: الجنة البستان الذي يحصل فيه النخل والكرم والزرع وتحفه تلك الأشجار والدليل عليه قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ [الكهف: ٣٢] قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم: ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ كلها بالرفع عطفًا على قوله (وجنات) والباقون بالجر عطفًا على الأعناب. وقرأ حفص عن عاصم في رواية القواس: (صنوان) بضم الصاد والباقون بكسر الصاد وهما لغتان، والصنوان جمع صنو مثل قنوان وقنو ويجمع على أصناء مثل اسم وأسماء. فإذا كثرت فهو الصني، والصني بكسر الصاد وفتحها، والصنو أن يكون الأصل واحدًا وتنبت فيه النخلتان والثلاثة فأكثر فكل واحدة صنو. وذكر ثعلب عن ابن الأعرابي: الصنو: المثل، ومنه قوله ﷺ: «أَلاَ إِنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ» أي مثله.

إذا عرفت هذا فنقول: إذا فسرنا الصنو بالتفسير الأول كان المعنى: أن النخيل منها ما ينبت من أصل واحد شجرتان وأكثر ومنها ما لا يكون كذلك، وإذا فسرناه بالتفسير الثاني كان المعنى: أن أشجار النخيل قد تكون متماثلة متشابهة، وقد لا تكون كذلك.

ثم قال تعالى: ﴿تُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ قرأ عاصم وابن عامر ﴿يُسْقَىٰ﴾ بالياء على تقدير يسقى كله أو لتغليب المذكر على المؤنث، والباقون بالتاء لقوله: (جنات) قال أبو عمرو: ومما يشهد للتأنيث قوله تعالى: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ قرأ حمزة والكسائي (يفضل) بالياء عطفًا على قوله: ﴿يُدَبِّرُ﴾ [الرعد: ٢] و﴿يُفَصِّلُ﴾ [الرعد: ٢]، و﴿يُغْشِى﴾ [الرعد: ٣]، والباقون بالنون على تقدير: ونحن نفضل، و﴿فِى ٱلْأُكُلِ﴾ قولان: حكاهما الواحدي حكي عن الزجاج أن الأُكل: الثمر الذي يؤكل، وحكى عن غيره أن الأكل: المهيأ للأكل، وأقول: هذا أولى لقوله تعالى في صفة الجنة: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ [الرعد: ٣٥] وهو عام في جميع المطعومات وابن كثير ونافع يقرآن الأكل ساكنة الكاف في جميع القرآن، والباقون بضم الكاف، وهما لغتان.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل القاهرة على ما يحتاج إليه في معرفة المبدأ، ذكر بعده مسألة المعاد فقال: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾.

وفيه أقوال:

القول الأول: قال ابن عباس – رضي الله عنهما: إن تعجب من تكذيبهم إياك بعد ما كانوا قد حكموا عليك أنك من الصادقين فهذا عجب. والثاني: إن تعجب يا محمد من عبادتهم ما لا يملك لهم نفعًا ولا ضرًا بعد ما عرفوا الدلائل الدالة على التوحيد فهذا عجب. والثالث: تقدير الكلام إن تعجب يا محمد فقد عجبت في موضع العجب لأنهم لما اعترفوا بأنه تعالى مدبر السموات والأرض وخالق الخلائق أجمعين، وأنه هو الذي رفع السموات بغير عمد، وهو الذي سخر الشمس والقمر على وفق مصالح العباد، وهو الذي أظهر في العالم أنواع العجائب والغرائب، فمن كانت قدرته وافية بهذه الأشياء العظيمة كيف لا تكون وافية بإعادة الإنسان بعد موته، لأن القادر على الأقوى الأكمل فأن يكون قادرًا على الأقل الأضعف أولى، فهذا تقرير موضع التعجب.

ثم إنه تعالى لما حكى هذا الكلام حكم عليهم بثلاثة أشياء: أولها: قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ

كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ﴾ وهذا يدل على أن كل من أنكر البعث والقيامة فهو كافر، وإنما لزم من إنكار البعث الكفر بربهم من حيث إن إنكار البعث لا يتم إلا بإنكار القدرة والعلم والصدق أما إنكار القدرة فكما إذا قيل: إن إله العالم موجب بالذات لا فاعل بالاختيار فلا يقدر على الإعادة. أو قيل: إنه وإن كان قادرًا لكنه ليس تام القدرة، فلا يمكنه إيجاد الحيوان إلا بواسطة الأبوين وتأثيرات الطبائع والأفلاك، وأما إنكار العلم فكما إذا قيل: إنه تعالى غير عالم بالجزئيات، فلا يمكنه تمييز هذا المطيع عن العاصي وأما إنكار الصدق فكما إذا قيل: إنه وإن أخبر عنه لكنه لا يفعل لأن الكذب جائز عليه ولما كان كل هذه الأشياء كفرًا ثبت أن إنكار البعث كفر بالله.

الصفة الثانية: قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ﴾ وفيه قولان: الأول: قال أبو بكر الأصم: المراد بالأغلال: كفرهم وذلتهم وانقيادهم للأصنام، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلًا﴾ [يس: ٨] قال الشاعر:

لَـهُـمْ عَـنِ الـرُّشْـدِ أَغْـلَالٌ وَأَقْـيَـادُ

ويقال للرجل: هذا غل في عنقك للعمل الرديء معناه: أنه لازم لك وأنك مجازى عليه بالعذاب. قال القاضي: هذا وإن كان محتملاً إلا أن حمل الكلام على الحقيقة أولى، وأقول: يمكن نصرة قول الأصم بأن ظاهر الآية يقتضي حصول الأغلال في أعناقهم في الحال وذلك غير حاصل وأنتم تحملون اللفظ على أنه سيحصل هذا المعنى ونحن نحمله على أنه حاصل في الحال إلا أن المراد بالأغلال ما ذكرناه، فكل واحد منا تارك للحقيقة من بعض الوجوه فلم كان قولكم أولى من قولنا؟

والقول الثاني: المراد أنه تعالى يجعل الأغلال في أعناقهم يوم القيامة، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ٧١ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢].

والصفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ والمراد منه التهديد بالعذاب المخلد المؤبد، واحتج أصحابنا رحمهم الله تعالى على أن العذاب المخلد ليس إلا للكفار بهذه الآية فقالوا: قوله: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ يفيد أنهم هم الموصوفون بالخلود لا غيرهم، وذلك يدل على أن أهل الكبائر لا يخلدون في النار.

المسألة الثانية: قال المتكلمون العجب هو الذي لا يعرف سببه وذلك في حق الله تعالى محال، فكان المراد وإن تعجب فعجب عندك.

ولقائل أن يقول: قرأ بعضهم في الآية الأخرى بإضافة العجب إلى نفسه تعالى فحينئذ يجب تأويله وقد بينا أن أمثال هذه الألفاظ يجب تنزيهها عن مبادىء الأعراض، ويجب حملها على نهايات الأعراض فإن الإنسان إذا تعجب من الشيء أنكره فكان هذا محمولاً على الإنكار.

المسألة الثالثة: اختلف القراء في قوله: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ﴾ وأمثاله إذا كان

على صورة الاستفهام في الأول والثاني فمنهم من يجمع بين الاستفهامين في الحرفين وهم ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة، ثم اختلف هؤلاء فابن كثير يستفهم بهمزة واحدة إلا أنه لا يمد، وأبو عمرو يستفهم بهمزة مطولة يمد فيها وحمزة وعاصم بهمزتين في كل القرآن، ومنهم من لا يجمع بين الاستفهامين، ثم اختلفوا فنافع وابن عامر [١] والكسائي يستفهم في الأول ويقرأ على الخبر في الثاني، وابن عامر على الخبر في الأول والاستفهام في الثاني، ثم اختلف هؤلاء من وجه آخر فنافع بهمزة غير مطولة وابن عامر والكسائي بهمزتين أما نافع فكذلك إلا في الصافات وكذلك ابن عامر إلا في الواقعة، وكذلك الكسائي إلا في العنكبوت والصافات.

المسألة الرابعة: قال الزجاج: العامل في ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾ محذوف تقديره: أئذا كنا ترابًا نبعث، ودل ما بعده على المحذوف.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٦﴾

اعلم أنه ﷺ كان يهددهم تارة بعذاب القيامة وتارة بعذاب الدنيا، والقوم كلما هددهم بعذاب القيامة أنكروا القيامة والبعث والحشر والنشر وهو الذي تقدم ذكره في الآية الأولى وكلما هددهم بعذاب الدنيا قالوا له: فجئنا بهذا العذاب وطلبوا منه إظهاره وإنزاله على سبيل الطعن فيه، وإظهار أن الذي يقوله كلام لا أصل له فلهذا السبب حكى الله عنهم أنهم يستعجلون الرسول بالسيئة قبل الحسنة والمراد بالسيئة هاهنا نزول العذاب عليهم كما قال الله تعالى عنهم في قوله: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً﴾ [الأنفال: ٣٢] وفي قوله: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] إلى قوله: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: ٩٢] وإنما قالوا ذلك طعنًا منهم فيما ذكره الرسول، وكان ﷺ يعدهم على الإيمان بالثواب في الآخرة وبحصول النصر والظفر في الدنيا فالقوم طلبوا منه نزول العذاب ولم يطلبوا منه حصول النصر والظفر فهذا هو المراد بقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ ومنهم من فسر الحسنة هاهنا بالإمهال والتأخير وإنما سموا العذاب سيئة لأنه يسوءهم ويؤذيهم.

أما قوله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ فاعلم أن العرب يقولون: العقوبة مثلة ومثلة صدقة وصدقة، فالأولى لغة الحجاز، والثانية لغة تميم، فمن قال مَثُلة: فجمعه مَثُلات، ومن قال مُثْلة فجمعه مَثْلات ومُثْلات بإسكان الثاء، هكذا حكاه الفراء والزجاج، وقال ابن الأنباري رحمه الله: المثلة العقوبة المبينة في المعاقب شيئًا، وهو تغيير تبقى الصورة معه قبيحة، وهو من قولهم، مَثَّلَ فلانٌ بفلان إذا قبّح صورته إما بقطع أذنه أو أنفه أو سمل عينيه أو بقر بطنه فهذا

(١) كذا في الأصل المطبوع ولعل قوله (وابن عامر) مكرر هنا لأنه قال بعدها (وابن عامر على الخبر الأول. . . إلخ) لئلا يلزم التناقض في قراءة ابن عامر ومن المحتمل أن ابن عامر كان يقرأ على الوجهين.

هو الأصل، ثم يقال للعار الباقي، والخزي اللازم مثلة. قال الواحدي: وأصل هذا الحرف من المثل الذي هو الشبه، ولما كان الأصل أن يكون العقاب مشابهًا للمعاقب ومماثلاً له لا جرم سمي بهذا الاسم. قال صاحب (الكشاف): قرىء (المُثُلات) بضمتين لاتباع الفاء العين، (والمَثْلات) بفتح الميم وسكون الثاء كما يقال: السمرة، والمُثْلات، بضم الميم وسكون الثاء تخفيف المثلات بضمتين، والمثلات جمع مثلة كركبة وركبات.

إذا عرفت هذا فنقول معنى الآية: ويستعجلونك بالعذاب الذي لم نعاجلهم به، وقد علموا ما نزل من عقوباتنا بالأمم الخالية فلم يعتبروا بها، وكان ينبغي أن يردعهم خوف ذلك عن الكفر اعتبارًا بحال من سلف.

أما قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ فاعلم أن أصحابنا تمسكوا بهذه الآية على أنه تعالى قد يعفو عن صاحب الكبيرة قبل التوبة، ووجه الاستدلال به أن قوله تعالى: ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ أي حال اشتغالهم بالظلم كما أنه يقال: رأيت الأمير على أكله أي حال اشتغاله بالأكل فهذا يقتضي كونه تعالى غافرًا للناس حال اشتغالهم بالظلم، ومعلوم أن حال اشتغال الإنسان بالظلم لا يكون تائبًا فدل هذا على أنه تعالى قد يغفر الذنب قبل الاشتغال بالتوبة. ثم نقول: ترك العمل بهذا الدليل في حق أهل الكفر، فوجب أن يبقى معمولاً به في حق أهل الكبيرة وهو المطلوب، أو نقول: إنه تعالى لم يقتصر على قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ بل ذكر معه قوله ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ فوجب أن يحمل الأول على أصحاب الكبائر، وأن يحمل الثاني على أحوال الكفار.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يكون المراد: لذو مغفرة لأهل الصغائر لأجل أن عقوبتهم مكفرة ثم نقول: لم لا يجوز أن يكون المراد: إن ربك لذو مغفرة إذا تابوا وأنه تعالى إنما لا يعجل العقاب إمهالاً لهم في الإتيان بالتوبة، فإن تابوا فهو ذو مغفرة لهم ويكون من هذه المغفرة تأخير العقاب إلى الآخرة بل نقول: يجب حمل اللفظ عليه لأن القوم لما طلبوا تعجيل العقاب، فالجواب المذكور فيه يجب أن يكون محمولاً على تأخير العقاب حتى ينطبق الجواب على السؤال ثم نقول: لم لا يجوز أن يكون المراد: وإن ربك لذو مغفرة أنه تعالى إنما لا يعجل العقوبة إمهالاً لهم في الإتيان بالتوبة، فإن تابوا فهو ذو مغفرة، وإن عظم ظلمهم ولم يتوبوا فهو شديد العقاب.

والجواب عن الأول: أن تأخير العقاب لا يسمى مغفرة، وإلا لوجب أن يقال: الكفار كلهم مغفور لهم لأجل أن الله تعالى أخر عقابهم إلى الآخرة، وعن الثاني: أنه تعالى تمدح بهذا، والتمدح إنما يحصل بالتفضل. أما بأداء الواجب فلا تمدح فيه وعندكم يجب غفران الصغائر وعن الثالث: أنا بينًا أن ظاهر الآية يقتضي حصول المغفرة حال الظلم، وبينا أن حال حصول الظلم يمنع حصول التوبة، فسقطت هذه الأسئلة وصح ما ذكرناه.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾

اعلم أنه تعالى حكى عن الكفار أنهم طعنوا في نبوته بسبب طعنهم في الحشر والنشر أولاً، ثم طعنوا في نبوته بسبب طعنهم في صحة ما ينذرهم به من نزول عذاب الاستئصال ثانيًا، ثم طعنوا في نبوته بأن طلبوا منه المعجزة والبينة ثالثًا، وهو المذكور في هذه الآية.

واعلم أن السبب فيه: أنهم أنكروا كون القرآن من جنس المعجزات وقالوا: هذا كتاب مثل سائر الكتب، وإتيان الإنسان بتصنيف معين وكتاب معين لا يكون معجزًا ألبتة، وإنما المعجز ما يكون مثل معجزات موسى وعيسى عليهما السلام.

واعلم أن من الناس من زعم أنه لم يظهر معجز في صدق محمد عليه الصلاة والسلام سوى القرآن. قالوا: إن هذا الكلام، إنما يصح إذا طعنوا في كون القرآن معجزًا، مع أنه ما ظهر عليه نوع آخر من المعجزات، لأن بتقدير أن يكون قد ظهر على يده نوع آخر من المعجزات لامتنع أن يقولوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ فهذا يدل على أنه عليه السلام ما كان له معجز سوى القرآن.

واعلم أن الجواب عنه من وجهين: الأول: لعل المراد منه طلب معجزات سوى المعجزات التي شاهدوها منه ﷺ كحنين الجذع ونبوع الماء من بين أصابعه وإشباع الخلق الكثير من الطعام القليل، فطلبوا منه معجزات قاهرة غير هذه الأمور: مثل فلق البحر بالعصا، وقلب العصا ثعبانًا.

فإن قيل: فما السبب في أن الله تعالى منعهم وما أعطاهم؟

قلنا: إنه لما أظهر المعجزة الواحدة فقد تم الغرض فيكون طلب الباقي تحكمًا وظهور القرآن معجزة، فما كان مع ذلك حاجة إلى سائر المعجزات، وأيضًا فلعله تعالى علم أنهم يصرون على العناد بعد ظهور تلك المعجزات الملتمسة، وكانوا يصيرون حينئذ مستوجبين لعذاب الاستئصال، فلهذا السبب ما أعطاهم الله تعالى مطلوبهم، وقد بين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣] بين أنه لم يعطهم مطلوبهم لعلمه تعالى أنهم لا ينتفعون به، وأيضًا ففتح هذا الباب يفضي إلى ما لا نهاية له. وهو أنه كلما أتى بمعجزة جاء واحد آخر، فطلب منه معجزة أخرى، وذلك يوجب سقوط دعوة الأنبياء عليهم السلام، وأنه باطل.

الوجه الثاني: في الجواب لعل الكفار ذكروا هذا الكلام قبل مشاهدة سائر المعجزات. ثم إنه تعالى لما حكى عن الكفار ذلك قال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اتفق القراء على التنوين في قوله: ﴿هَادٍ﴾ وحذف الياء في الوصل،

واختلفوا في الوقف، فقرأ ابن كثير: بالوقف على الياء، والباقون: بغير الياء، وهو رواية ابن فليح عن ابن كثير للتخفيف.

المسألة الثانية: في تفسير هذه الآية وجوه. **الأول**: المراد أن الرسول عليه السلام منذر لقومه مبين لهم، ولكل قوم من قبله هاد ومنذر وداع، وأنه تعالى سوى بين الكل في إظهار المعجزة إلا أنه كان لكل قوم طريق مخصوص لأجله استحق التخصيص بتلك المعجزة المخصوصة، فلما كان الغالب في زمان موسى عليه السلام هو السحر جعل معجزته ما هو أقرب إلى طريقتهم، ولما كان الغالب في أيام عيسى عليه السلام الطب، جعل معجزته ما كان من جنس تلك الطريقة وهو إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، ولما كان الغالب في أيام الرسول ﷺ الفصاحة والبلاغة جعل معجزته ما كان لائقًا بذلك الزمان وهو فصاحة القرآن فلما كان العرب لم يؤمنوا بهذه المعجزة مع كونها أليق بطباعهم فبأن لا يؤمنوا عند إظهار سائر المعجزات أولى فهذا هو الذي قرره القاضي وهو الوجه الصحيح الذي يبقى الكلام معه منتظمًا.

والوجه الثاني: وهو أن المعنى أنهم لا يجحدون كون القرآن معجزًا فلا يضيق قلبك بسببه إنما أنت منذر فما عليك إلا أن تنذر إلى أن يحصل الإيمان في صدورهم ولست بقادر عليهم، ولكل قوم هاد، قادر على هدايتهم بالتخليق وهو الله سبحانه وتعالى فيكون المعنى ليس لك إلا الإنذار، وأما الهداية فمن الله تعالى.

واعلم أن أهل الظاهر من المفسرين ذكروا هاهنا أقوالاً: الأول: المنذر والهادي شيء واحد والتقدير: إنما أنت منذر ولكل قوم منذر على حدة ومعجزة كل واحد منهم غير معجزة الآخر. الثاني: المنذر محمد ﷺ والهادي هو الله تعالى روي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير، ومجاهد، والضحاك. والثالث: المنذر: النبي. والهادي: علي. قال ابن عباس رضي الله عنهما: وضع رسول الله ﷺ يده على صدره فقال: «**أَنَا الْمُنْذِرُ**» ثم أومأ إلى منكب علي رضي الله عنه وقال: «**أَنْتَ الْهَادِي يَا عَلِيُّ بِكَ يَهْتَدِي المهتدون من بعدي**»[١].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩ سَوَآءٌ

---

(١) موضوع: أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٦/ ٣٥٧) حديث رقم/ ٢٠١٦١، وابن الأعرابي في (معجمه) (٥/ ٢٧٥) حديث رقم/ ٢٢٦٧، وابن عساكر في (تاريخ دمشق) (٤٢/ ٣٥٩)، جميعا من طريق معاذ بن مسلم عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس... به، وأورده الذهبي في (ميزان الأعتدال) (١/ ٤٨٤)، من طريق الحسن بن الحسين الأنصاري عن معاذ بن مسلم... وساقه، وقال: ومعاذ نكرة فلعل الآفة منه، وأورده ابن كثير في (تفسيره) (٢/ ٥٠٣)، وقال: وهذا الحديث فيه نكارة شديدة، وأورده الألباني في (الضعيفة) (٤٨٩٩)، وقال: موضوع.

﴿مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: في وجه النظم وجوه: الأول: أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم طلبوا آيات أخرى غير ما أتى به الرسول ﷺ بين أنه تعالى عالم بجميع المعلومات فيعلم من حالهم أنهم هل طلبوا الآية الأخرى للاسترشاد وطلب البيان أو لأجل التعنت والعناد، وهل ينتفعون بظهور تلك الآيات، أو يزداد إصرارهم واستكبارهم، فلو علم تعالى أنهم طلبوا ذلك لأجل الاسترشاد وطلب البيان ومزيد الفائدة، لأظهره الله تعالى وما منعهم عنه، لكنه تعالى لما علم أنهم لم يقولوا ذلك إلا لأجل محض العناد لا جرم أنه تعالى منعهم عن ذلك وهو كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ [يونس: ٢٠] وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ﴾ [العنكبوت: ٥٠]. والثاني: أن وجه النظم أنه تعالى لما قال: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ [الرعد: ٥] في إنكار البعث وذلك لأنهم أنكروا البعث بسبب أن أجزاء أبدان الحيوانات عند تفرقها وتفتتها يختلط بعضها ببعض ولا يبقى الامتياز فبين تعالى أنه إنما لا يبقى الامتياز في حق من لا يكون عالمًا بجميع المعلومات، أما في حق من كان عالمًا بجميع المعلومات، فإنه يبقى تلك الأجزاء بحيث يمتاز بعضها عن البعض، ثم احتج على كونه تعالى عالمًا بجميع المعلومات بأنه يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام. الثالث: أن هذا متصل بقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [الرعد: ٦] والمعنى: أنه تعالى عالم بجميع المعلومات فهو تعالى إنما ينزل العذاب بحسب ما يعلم كونه فيه مصلحة، والله أعلم.

المسألة الثانية: لفظ (ما) في قوله: ﴿مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ﴾ إما أن تكون موصولة وإما أن تكون مصدرية، فإن كانت موصولة، فالمعنى أنه يعلم ما تحمله من الولد أنه من أي الأقسام أهو ذكر أم أنثى وتام أو ناقص وحسن أو قبيح وطويل أو قصير وغير ذلك من الأحوال الحاضرة والمترقبة فيه.

ثم قال: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ والغيض هو النقصان سواء كان لازمًا أو متعديًا يقال: غاض الماء وغضته أنا ومنه قوله تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ [هود: ٤٤] والمراد من الآية وما تغيضه الأرحام إلا أنه حذف الضمير الراجع وقوله: ﴿وَمَا تَزْدَادُ ۖ﴾ أي تأخذه زيادة تقول: أخذت منه حقي وازددت منه كذا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥] ثم اختلفوا فيما تغيضه الرحم وتزداده على وجوه. الأول: عدد الولد فإن الرحم قد يشتمل على واحد واثنين وعلى ثلاثة وأربعة يروى أن شريكًا كان رابع أربعة في بطن أمه. الثاني: الولد قد يكون مخدجًا، وقد يكون تامًا. الثالث: مدة ولادته قد تكون تسعة أشهر وأزيد عليها إلى سنتين عند أبي حنيفة رحمه الله

تعالى، وإلى أربعة عند الشافعي وإلى خمس عند مالك، وقيل: إن الضحاك ولد لسنتين، وهرم بن حيان بقي في بطن أمه أربع سنين ولذلك سمي هرمًا. الرابع: الدم فإنه تارة يقل وتارة يكثر. الخامس: ما ينقص بالسقط من غير أن يتم وما يزداد بالتمام. السادس: ما ينقص بظهور دم الحيض، وذلك لأنه إذا سال الدم في وقت الحمل ضعف الولد ونقص. وبمقدار حصول ذلك النقصان يزداد أيام الحمل لتصير هذه الزيادة جابرة لذلك النقصان قال ابن عباس رضي الله عنهما: كلما سال الحيض في وقت الحمل يومًا زاد في مدة الحمل يومًا ليحصل به الجبر ويعتدل الأمر. السابع: أن دم الحيض فضلة تجتمع في بطن المرأة فإذا امتلأت عروقها من تلك الفضلات فاضت وخرجت، وسالت من دواخل تلك العروق، ثم إذا سالت تلك المواد امتلأت تلك العروق مرة أخرى هذا كله إذا قلنا إن كلمة (ما) موصولة. أما إذا قلنا: إنها مصدرية فالمعنى: أنه تعالى يعلم حمل كل أنثى ويعلم غيض الأرحام وازديادها لا يخفى عليه شيء من ذلك ولا من أوقاته وأحواله.

وأما قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ فمعناه: بقدر واحد لا يجاوزه ولا ينقص عنه، كقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] وقوله في أول الفرقان: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

واعلم أن قوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ يحتمل أن يكون المراد من العندية العلم ومعناه: أنه تعالى يعلم كمية كل شيء وكيفيته على الوجه المفصل المبين ومتى كان الأمر كذلك امتنع وقوع التغيير في تلك المعلومات ويحتمل أن يكون المراد من العندية أنه تعالى خصص كل حادث بوقت معين وحالة معينة بمشيئته الأزلية وإرادته السرمدية، وعند حكماء الإسلام أنه تعالى وضع أشياء كلية وأودع فيها قوى وخواص، وحركها بحيث يلزم من حركاتها المقدرة بالمقادير المخصوصة أحوال جزئية معينة ومناسبات مخصوصة مقدرة، ويدخل في هذه الآية أفعال العباد وأحوالهم وخواطرهم، وهو من أدل الدلائل على بطلان قول المعتزلة.

ثم قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد علم ما غاب عنه خلقه وما شهدوه. قال الواحدي: فعلى هذا (الغيب) مصدر يريد به الغائب، (والشهادة) أراد بها الشاهد. واختلفوا في المراد بالغائب والشاهد. قال بعضهم: الغائب هو المعلوم، والشاهد هو الموجود، وقال آخرون: الغائب ما غاب عن الحس، والشاهد ما حضر، وقال آخرون: الغائب ما لا يعرفه الخلق، والشاهد ما يعرفه الخلق. ونقول: المعلومات قسمان: المعدومات والموجودات، والمعدومات منها معدومات يمتنع وجودها ومنها معدومات لا يمتنع وجودها، والموجودات أيضًا قسمان: موجودات يمتنع عدمها، وموجودات لا يمتنع عدمها، وكل واحد من هذه الأقسام الأربعة له أحكام وخواص، والكل معلوم لله تعالى، وحكى الشيخ الإمام الوالد عن أبي القاسم الأنصاري عن إمام الحرمين - رحمهم الله تعالى - أنه كان يقول لله تعالى

معلومات لا نهاية لها، وله في كل واحد من تلك المعلومات، معلومات أخرى لا نهاية لها، لأن الجوهر الفرد يعلم الله تعالى من حاله أنه يمكن وقوعه في أحياز لا نهاية لها على البدل وموصوفًا بصفات لا نهاية لها على البدل، وهو تعالى عالم بكل الأحوال على التفصيل، وكل هذه الأقسام داخل تحت قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ .

ثم إنه تعالى ذكر عقيبه قوله: ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾ وهو تعالى يمتنع أن يكون كبيرًا بحسب الجثة والحجم والمقدار، فوجب أن يكون كبيرًا بحسب القدرة والمقادير الإلهية ثم وصف تعالى نفسه بأنه المتعال وهو المتنزه عن كل ما لا يجوز عليه وذلك يدل على كونه منزهًا في ذاته وصفاته وأفعاله فهذه الآية دالة على كونه تعالى موصوفًا بالعلم الكامل والقدرة التامة، ومنزهًا عن كل ما لا ينبغي، وذلك يدل على كونه تعالى قادرًا على البعث الذي أنكروه وعلى الآيات التي اقترحوها وعلى العذاب الذي استعجلوه، وأنه إنما يؤخر ذلك بحسب المشيئة الإلهية عند قوم وبحسب المصلحة عند آخرين، وقرأ ابن كثير (المتعالي) بإثبات الياء في الوقف والوصل على الأصل. والباقون بحذف الياء في الحالتين للتخفيف ثم إنه تعالى أكد بيان كونه عالمًا بكل المعلومات فقال: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: لفظ (سواء) يطلب اثنين تقول سواء زيد وعمرو ثم فيه وجهان: الأول: أن سواء مصدر والمعنى: ذو سواء كما تقول: عدل زيد وعمرو أي ذوا عدل. الثاني: أن يكون سواء بمعنى مستو وعلى هذا التقدير فلا حاجة إلى الإضمار إلا أن سيبويه يستقبح أن يقول مستو زيد وعمرو لأن أسماء الفاعلين إذا كانت نكرات لا يبدأ بها.

ولقائل أن يقول: بل هذا الوجه أولى لأن حمل الكلام عليه يغني عن التزام الإضمار الذي هو خلاف الأصل.

المسألة الثانية: في المستخفي والسارب قولان:

القول الأول: يقال: أخفيت الشيء أخفيه إخفاء فخفي واستخفى فلان من فلان أي توارى واستتر. وقوله: ﴿وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ قال الفراء والزجاج: ظاهر بالنهار في سربه أي طريقه. يقال: خلا له سربه، أي طريقه. وقال الأزهري: تقول العرب سربت الإبل تسرب سربًا، أي مضت في الأرض ظاهرة حيث شاءت، فإذا عرفت ذلك فمعنى الآية سواء كان الإنسان مستخفيًا في الظلمات أو كان ظاهرًا في الطرقات، فعلم الله تعالى محيط بالكل. قال ابن عباس رضي الله عنهما: سواء ما أضمرته القلوب وأظهرته الألسنة. وقال مجاهد: سواء من يقدم على القبائح في ظلمات الليالي، ومن يأتي بها في النهار الظاهر على سبيل التوالي.

والقول الثاني: نقله الواحدي عن الأخفش وقطرب أنه قال: المستخفي الظاهر والسارب المتواري ومنه يقال: خفيت الشيء وأخفيته أي أظهرته. واختفيت الشيء استخرجته ويسمى

النباش المستخفي والسارب المتواري ومنه يقال: للداخل سربًا، والسرب الوحش إذا دخل في السرب أي في كناسة. قال الواحدي: وهذا الوجه صحيح في اللغة، إلا أن الاختيار هو الوجه الأول لاطباق أكثر المفسرين عليه، وأيضًا فالليل يدل على الاستتار، والنهار على الظهور والانتشار.

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ١١﴾

اعلم أن الضمير في (له) عائد إلى (من) في قوله: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠] وقيل على اسم الله في عالم الغيب والشهادة، والمعنى: لله معقبات، وأما المعقبات فيجوز أن يكون أصل هذه الكلمة معتقبات فأدغمت التاء في القاف كقوله: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ [التوبة: ٩٠] والمراد المعتذرون ويجوز أن يكون من عقبه إذا جاء على عقبه فاسم المعقب من كل شيء ما خلف يعقب ما قبله، والمعنى في كلا الوجهين واحد.

إذا عرفت هذا فنقول: في المراد بالمعقبات قولان. الأول: وهو المشهور الذي عليه الجمهور أن المراد منه الملائكة الحفظة وإنما صح وصفهم بالمعقبات، إما لأجل أن ملائكة الليل تعقب ملائكة النهار وبالعكس، وإما لأجل أنهم يتعقبون أعمال العباد ويتبعونها بالحفظ والكتب، وكل من عمل عملاً ثم عاد إليه فقد عقب، فعلى هذا المراد من المعقبات ملائكة الليل وملائكة النهار. روي عن عثمان رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله أخبرني عن العبد كم معه من ملك فقال عليه السلام: «**مَلَكٌ عَنْ يَمِينِكَ يَكْتُبُ الْحَسَنَاتِ وَهُوَ أَمِينٌ عَلَى الَّذِي عَلَى الشِّمَالِ فَإِذَا عَمِلْتَ حَسَنَةً كُتِبَتْ عَشْرًا، وَإِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً قَالَ الَّذِي عَلَى الشِّمَالِ لِصَاحِبِ الْيَمِينِ أَكْتُبُ؟ فَيَقُولُ لاَ لَعَلَّهُ يَتُوبُ فَإِذَا قَالَ ثَلاَثًا قَالَ نَعَمْ اكْتُبْ أَرَاحَنَا اللَّهُ مِنْهُ فَبِئْسَ الْقَرِينُ مَا أَقَلَّ مُرَاقَبَتَهُ لِلَّهِ تَعَالَى وَاسْتِحْيَاءَهُ مِنَّا، وَمَلَكَانِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكَ وَمِنْ خَلْفِكَ فَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ وَمَلَكٌ قَابِضٌ عَلَى نَاصِيَتِكَ فَإِذَا تَوَاضَعْتَ لِرَبِّكَ رَفَعَكَ وَإِنْ تَجَبَّرْتَ قَصَمَكَ، وَمَلَكَانِ عَلَى شَفَتِكَ يَحْفَظَانِ عَلَيْكَ الصَّلاَةَ عَلَيَّ، وَمَلَكٌ عَلَى فِيكَ لاَ يَدَعُ أَنْ تَدْخُلَ الْحَيَّةُ فِي فِيكَ، وَمَلَكَانِ عَلَى عَيْنَيْكَ فَهَؤُلاَءِ عَشَرَةُ أَمْلاَكٍ عَلَى كُلِّ آدَمِيٍّ تُبَدَّلُ مَلاَئِكَةُ اللَّيْلِ بِمَلاَئِكَةِ النَّهَارِ فَهُمْ عِشْرُونَ مَلَكًا عَلَى كُلِّ آدَمِيٍّ**»(١) وعنه ﷺ: «**يَتَعَاقَبُ فِيكُمْ مَلاَئِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلاَئِكَةٌ بِالنَّهَارِ وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاَةِ الصُّبْحِ وَصَلاَةِ**

---

(١) الطبري في (تفسيره) (١٦/ ٣٧٠) حديث رقم/ ٢٠٢١١، من طريق حماد بن سلمة عن عبد الحميد بن جعفر عن كنانة العدوي قال دخل عثمان بن عفان علي رسول الله ﷺ... فذكره، وابن أبي الدنيا في (المرضي والكفارات) (١/ ١٩٢) حديث رقم/ ٢٤٨، من طريق حماد بن سلمة عن أبي عمران. فذكره مرفوعا، وأخرجه هناد في (الزهد) (٢/ ٤٦٢) حديث رقم/ ٩٢٠، من طريق حماد بن سلمة عن جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي امامة... به.

الْعَصْرِ»(١) وهو المراد من قوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨] قيل: تصعد ملائكة الليل وهي عشرة وتنزل ملائكة النهار، وقال ابن جريج: هو مثل قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧] صاحب اليمين يكتب الحسنات والذي عن يساره يكتب السيئات. وقال مجاهد: ما من عبد إلا وله ملك يحفظه من الجن والإنس والهوام في نومه ويقظته. وفي الآية سؤالات:

السؤال الأول: الملائكة ذكور، فلم ذكر في جمعها جمع الإناث وهو المعقبات؟

والجواب: فيه قولان.

الأول: قال الفراء: المعقبات ذكران جمع ملائكة معقبة، ثم جمعت معقبة بمعقبات، كما قيل: ابناوات سعد ورجالات بكر جمع رجال، والذي يدل على التذكير قوله: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ﴾ .

والثاني: وهو قول الأخفش: إنما أنثت لكثرة ذلك منها، نحو: نسابة، وعلامة، وهو ذكر.

السؤال الثاني: ما المراد من كون أولئك المعقبات من بين يديه ومن خلفه؟

والجواب: أن المستخفي بالليل والسارب بالنهار قد أحاط به هؤلاء المعقبات فيعدون عليه أعماله وأقواله بتمامها، ولا يشذ من تلك الأعمال والأقوال من حفظهم شيء أصلاً، وقال بعضهم: بل المراد يحفظونه من جميع المهالك من بين يديه ومن خلفه، لأن السارب بالنهار إذا سعى في مهماته فإنما يحذر من بين يديه ومن خلفه.

السؤال الثالث: ما المراد من قوله: ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ .

والجواب: ذكر الفراء فيه قولين:

القول الأول: أنه على التقديم والتأخير والتقدير: له معقبات من أمر الله يحفظونه.

القول الثاني: أن فيه إضمارًا أي ذلك الحفظ من أمر الله أي مما أمر الله به فحذف الاسم وأبقى خبره كما يكتب على الكيس، ألفان والمراد الذي فيه ألفان.

والقول الثالث: ذكره ابن الأنباري أن كلمة (من) معناها الباء والتقدير: يحفظونه بأمر الله وباعانته، والدليل على أنه لا بد من المصير إليه أنه لا قدرة للملائكة ولا لأحد من الخلق على أن يحفظوا أحدًا من أمر الله ومما قضاه عليه.

السؤال الرابع: ما الفائدة في جعل هؤلاء الملائكة موكلين علينا؟

والجواب: أن هذا الكلام غير مستبعد، وذلك لأن المنجمين اتفقوا على أن التدبير في كل يوم لكوكب على حدة وكذا القول في كل ليلة، ولا شك أن تلك الكواكب لها أرواح عندهم، فتلك التدبيرات المختلفة في الحقيقة لتلك الأرواح، وكذا القول في تدبير القمر والهيلاج والكدخدا

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (مواقيت الصلاة) باب (فضل صلاة العصر)، (٢/ ٤١) حديث رقم/ ٥٥٥، من طريق مالك. . . به، ومسلم في كتاب (المساجد) باب (فضل صلاة الصبح والعصر والمحافظة عليهما) (٣/ ١٤٣) (٢١٠/ ٦٣٢/ نووي)، كلاهما من طريق مالك . . به.

على ما يقوله المنجمون. وأما أصحاب الطلسمات فهذا الكلام مشهور في ألسنتهم ولذلك تراهم يقولون: أخبرني الطباعي التام. ومرادهم بالطباعي التام: أن لكل إنسان روحًا فلكية يتولى إصلاح مهماته ودفع بلياته وآفاته، وإذا كان هذا متفقًا عليه بين قدماء الفلاسفة وأصحاب الأحكام فكيف يستبعد مجيئه من الشرع؟ وتمام التحقيق فيه: أن الأرواح البشرية مختلفة في جواهرها وطبائعها فبعضها خيرة، وبعضها شريرة، وبعضها معزة، وبعضها مذلة، وبعضها قوية القهر والسلطان، وبعضها ضعيفة سخيفة. وكما أن الأمر في الأرواح البشرية كذلك، فكذا القول في الأرواح الفلكية، ولا شك أن الأرواح الفلكية في كل باب وكل صفة أقوى من الأرواح البشرية وكل طائفة من الأرواح البشرية تكون متشاركة في طبيعة خاصة وصفة مخصوصة، لما أنها تكون في تربية روح من الأرواح الفلكية مشاكلة لها في الطبيعة والخاصية، وتكون تلك الأرواح البشرية كأنها أولاد لذلك الروح الفلكي. ومتى كان الأمر كذلك كان ذلك الروح الفلكي معينًا لها على مهماتها ومرشدًا لها إلى مصالحها وعاصمًا لها عن صنوف الآفات، فهذا كلام ذكره محققو الفلاسفة، وإذا كان الأمر كذلك علمنا أن الذي وردت به الشريعة أمر مقبول عند الكل، فكيف يمكن استنكاره من الشريعة؟ ثم في اختصاص هؤلاء الملائكة وتسلطهم على بني آدم فوائد كثيرة سوى التي مر ذكرها من قبل. الأول: أن الشياطين يدعون إلى الشرور والمعاصي، وهؤلاء الملائكة يدعون إلى الخيرات والطاعات. والثاني: قال مجاهد: ما من عبد إلا ومعه ملك يحفظه من الجن والإنس والهوام في نومه ويقظته. الثالث: أنا نرى أن الإنسان قد يقع في قلبه داع قوي من غير سبب ثم يظهر بالآخرة أن وقوع تلك الداعية في قلبه كان سببًا من أسباب مصالحه وخيراته، وقد ينكشف أيضًا بالآخرة أنه كان سببًا لوقوعه في آفة أو في معصية، فيظهر أن الداعي إلى الأمر الأول كان مريدًا للخير والراحة وإلى الأمر الثاني كان مريدًا للفساد والمحنة، والأول هو الملَك الهادي، والثاني هو الشيطان المغوي. الرابع: أن الإنسان إذا علم أن الملائكة تحصي عليه أعماله كان إلى الحذر من المعاصي أقرب، لأن من آمن يعتقد جلالة الملائكة وعلو مراتبهم فإذا حاول الإقدام على معصية واعتقد أنهم يشاهدونها زجره الحياء منهم عن الإقدام عليها كما يزجره عنها إذا حضره من يعظه من البشر. وإذا علم أن الملائكة تحصي عليه تلك الأعمال كان ذلك أيضًا رادعًا له عنها وإذا علم أن الملائكة يكتبونها كان الردع أكمل.

السؤال الخامس: ما الفائدة في كتبة أعمال العباد؟ قلنا هاهنا مقامات:

المقام الأول: أن تفسير الكتبة بالمعنى المشهور من الكتبة. قال المتكلمون: الفائدة في تلك الصحف وزنها ليعرف رجحان إحدى الكفتين على الأخرى، فإنه إذا رجحت كفة الطاعات ظهر للخلائق أنه من أهل الجنة، وإن كان بالضد فبالضد. قال القاضي: هذا بعيد لأن الأدلة قد دلت على أن كل واحد قبل مماته عند المعاينة يعلم أنه من السعداء أو من الأشقياء فلا يتوقف حصول

تلك المعرفة على الميزان، ثم أجاب القاضي عن هذا الكلام وقال: لا يمتنع أيضًا ما روينا لأمر يرجع إلى حصول سروره عند الخلق العظيم أنه من أولياء الله في الجنة وبالضد من ذلك في أعداء الله.

والمقام الثاني: وهو قول حكماء الإسلام أن الكتابة عبارة عن نقوش مخصوصة وضعت بالاصطلاح لتعريف المعاني المخصوصة فلو قدرنا كون تلك النقوش دالة على تلك المعاني لأعيانها وذواتها كانت تلك الكتبة أقوى وأكمل.

إذا ثبت هذا فنقول: إن الإنسان إذا أتى بعمل من الأعمال مرات وكرات كثيرة متوالية حصل في نفسه بسبب تكررها ملكة قوية راسخة، فإن كانت تلك الملكة ملكة سارة بالأعمال النافعة في السعادات الروحانية عظم ابتهاجه بها بعد الموت؛ وإن كانت تلك الملكة ملكة ضارة في الأحوال الروحانية عظم تضرره بها بعد الموت.

إذا ثبت هذا فنقول: إن التكرير الكثير لما كان سببًا لحصول تلك الملكة الراسخة كان لكل واحد من الأعمال المتكررة أثر في حصول تلك الملكة الراسخة، وذلك الأثر وإن كان غير محسوس إلا أنه حاصل في الحقيقة. وإذا عرفت هذا ظهر أنه لا يحصل للإنسان لمحة ولا حزكة ولا سكون، إلا ويحصل منه في جوهر نفسه أثر من آثار السعادة، أو آثار الشقاوة قل أو كثر، فهذا هو المراد من كتبة الأعمال عند هؤلاء والله أعلم بحقائق الأمور وهذا كله إذا فسرنا قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ بالملائكة.

القول الثاني: وهو أيضًا منقول عن ابن عباس رضي الله عنهما، واختاره أبو مسلم الأصفهاني المراد: أنه يستوي في علم الله تعالى السر والجهر، والمستخفي بظلمة الليل، والسارب بالنهار المستظهر بالمعاونين والأنصار وهم الملوك والأمراء، فمن لجأ إلى الليل فلن يفوت الله أمره، ومن سار نهارًا بالمعقبات وهم الأحراس والأعوان الذين يحفظونه لم ينجه أحراسه من الله تعالى، والمعقب العون، لأنه إذا أبصر هذا ذاك فلا بد أن يبصر ذاك هذا، فتصير بصيرة كل واحد منهم معاقبة لبصيرة الآخرة، فهذه المعقبات لا تخلص من قضاء الله ومن قدره، وهم إن ظنوا أنهم يخلصون مخدومهم من أمر الله ومن قضائه فإنهم لا يقدرون على ذلك ألبتة، والمقصود من هذا الكلام بعث السلاطين والأمراء والكبراء على أن يطلبوا الخلاص من المكاره عن حفظ الله وعصمته ولا يعولوا في دفعها على الأعوان والأنصار، ولذلك قال تعالى بعده: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ فكلام جميع المفسرين يدل على أن المراد لا يغير ما هم فيه من النعم بإنزال الانتقام إلا بأن يكون منهم المعاصي والفساد. قال القاضي: والظاهر لا يحتمل إلا هذا المعنى لأنه لا شيء مما يفعله تعالى سوى العقاب إلا وقد يبتدىء به في الدنيا من دون تغيير يصدر من العبد فيما تقدم لأنه تعالى ابتدأ بالنعم دينا ودنيًا

ويفصل في ذلك من شاء على من يشاء، فالمراد مما ذكره الله تعالى التغيير بالهلاك والعقاب، ثم اختلفوا فبعضهم قال هذا الكلام راجع إلى قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ [الرعد: ٦] فبين تعالى أنه لا ينزل بهم عذاب الاستئصال إلا والمعلوم منهم الإصرار على الكفر والمعصية، حتى قالوا: إذا كان المعلوم أن فيهم من يؤمن أو في عقبه من يؤمن فإنه تعالى لا ينزل عليهم عذاب الاستئصال وقال بعضهم: بل الكلام يجري على إطلاقه، والمراد منه أن كل قوم بالغوا في الفساد وغيروا طريقتهم في إظهار عبودية الله تعالى فإن الله يزيل عنهم النعم وينزل عليهم أنواعًا من العذاب، وقال بعضهم: إن المؤمن الذي يكون مختلطًا بأولئك الأقوام فربما دخل في ذلك العذاب.

روي عن أبي بكر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أن النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِعِقَابٍ**»(١) واحتج أبو علي الجبائي والقاضي بهذه الآية في مسألتين:

المسألة الأولى: أنه تعالى لا يعاقب أطفال المشركين بذنوب آبائهم، لأنهم لم يغيروا ما بأنفسهم من نعمة فيغير الله حالهم من النعمة إلى العذاب.

المسألة الثانية: قالوا: الآية تدل على بطلان قول المجبرة إنه تعالى يبتدىء العبد بالضلال والخذلان أول ما يبلغ وذلك أعظم من العقاب، مع أنه ما كان منه تغيير.

والجواب: أن ظاهر هذه الآية يدل على أن فعل الله في التغيير مؤخر عن فعل العبد، إلا أن قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] يدل على أن فعل العبد مؤخر عن فعل الله تعالى، فوقع التعارض.

وأما قوله: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ فقد احتج أصحابنا به على أن العبد غير مستقل في الفعل. قالوا: وذلك لأنه إذا كفر العبد فلا شك أنه تعالى يحكم بكونه مستحقًا للذم في الدنيا والعقاب في الآخرة، فلو كان العبد مستقلاً بتحصيل الإيمان لكان قادرًا على رد ما أراده الله تعالى، وحينئذ يبطل قوله: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ فثبت أن الآية السابقة وإن أشعرت بمذهبهم، إلا أن هذه الآية من أقوى الدلائل على مذهبنا. قال الضحاك عن ابن عباس: لم تغن المعقبات شيئًا، وقال عطاء عنه: لا راد لعذابي ولا ناقض لحكمي: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ أي ليس لهم من دون الله من يتولاهم، ويمنع قضاء الله عنهم، والمعنى: ما لهم والٍ يلي أمرهم، ويمنع العذاب عنهم.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الملاحم) باب (الأمر والنهي) (٤/ ١٨٥٤) حديث رقم/ ٤٣٣٨، والترمذي في كتاب (الفتن) باب (ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر) (٤/ ٤٠٦) حديث رقم/ ٢١٦٨، وابن ماجه في كتاب (الفتن) باب (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) (٢/ ١٣٢٧) حديث رقم/ ٤٠٠٥، وأحمد في (مسنده) (١/ ٥/ ٧). جميعًا من طريق إسماعيل . . . به.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما خوف العباد بإنزال ما لا مرد له أتبعه بذكر هذه الآيات وهي مشتملة على أمور ثلاثة، وذلك لأنها دلائل على قدرة الله تعالى وحكمته، وأنها تشبه النعم والإحسان من بعض الوجوه، وتشبه العذاب والقهر من بعض الوجوه.

واعلم أنه تعالى ذكر هاهنا أمورًا أربعة. الأول: البرق وهو قوله تعالى: ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف) في انتصاب قوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ وجوه.

الأول: لا يصح أن يكونا مفعولاً لهما لأنهما ليسا بفعل فاعل الفعل المعلل إلا على تقدير حذف المضاف أي إرادة خوف وطمع أو على معنى إخافة وإطماعًا.

الثاني: يجوز أن يكونا منتصبين على الحال من البرق كأنه في نفسه خوف وطمع والتقدير: ذا خوف وذا طمع أو على معنى إيخافًا وإطماعًا. الثالث: أن يكونا حالاً من المخاطبين أي خائفين وطامعين.

المسألة الثانية: في كون البرق خوفًا وطمعًا وجوه.

الأول: أن عند لمعان البرق يخاف وقوع الصواعق ويطمع في نزول الغيث قال المتنبي:

فَتًى كَالسَّحَابِ الْجَوْنِ يَخْشَى وَيَرْتَجِي ... يُرَجِّي الْحَيَا منها ويخشى الصواعق

الثاني: أنه يخاف المطر من له فيه ضرر كالمسافر وكمن في جرابه التمر والزبيب ويطمع فيه من له فيه نفع. الثالث: أن كل شيء يحصل في الدنيا فهو خير بالنسبة إلى قوم، وشر بالنسبة إلى آخرين، فكذلك المطر خير في حق من يحتاج إليه في أوانه، وشر في حق من يضره ذلك، إما بحسب المكان أو بحسب الزمان.

المسألة الثالثة: اعلم أن حدوث البرق دليل عجيب على قدرة الله تعالى وبيانه أن السحاب لا شك أنه جسم مركب من أجزاء رطبة مائية، ومن أجزاء هوائية ونارية ولا شك أن الغالب عليه الأجزاء المائية والماء جسم بارد ورطب، والنار جسم حار يابس وظهور الضد من الضد التام على خلاف العقل فلا بد من صانع مختار يظهر الضد من الضد.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال: إن الريح احتقن في داخل جرم السحاب واستولى البرد على ظاهره فانجمد السطح الظاهر منه، ثم إن ذلك الريح يمزقه تمزيقًا عنيفًا فيتولد من ذلك التمزيق

الشديد حركة عنيفة، والحركة العنيفة موجبة للسخونة وهي البرق؟

والجواب: أن كل ما ذكرتموه على خلاف المعقول وبيانه من وجوه. الأول: أنه لو كان الأمر كذلك لوجب أن يقال: أينما يحصل البرق فلا بد وأن يحصل الرعد وهو الصوت الحادث من تمزق السحاب ومعلوم أنه ليس الأمر كذلك فإنه كثيرًا ما يحدث البرق القوي من غير حدوث الرعد. الثاني: أن السخونة الحاصلة بسبب قوة الحركة مقابلة للطبيعة المائية الموجبة للبرد، وعند حصول هذا العارض القوي كيف تحدث النارية؟ بل نقول: النيران العظيمة تنطفىء بصب الماء عليها، والسحاب كله ماء فكيف يمكن أن يحدث فيه شعلة ضعيفة نارية؟ الثالث: من مذهبكم أن النار الصرفة لا لون لها البتة، فهب أنه حصلت النارية بسبب قوة المحاكة الحاصلة بأجزاء السحاب لكن من أين حدث ذلك اللون الأحمر؟ فثبت أن السبب الذي ذكروه ضعيف وأن حدوث النار الحاصلة في جرم السحاب مع كونه ماء خالصًا لا يمكن إلا بقدرة القادر الحكيم.

النوع الثاني: من الدلائل المذكورة في هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ قال صاحب (الكشاف): السحاب اسم جنس والواحدة سحابة والثقال جمع ثقيلة لأنك تقول سحابة ثقيلة وسحاب ثقال كما تقول امرأة كريمة ونساء كرام وهي الثقال بالماء.

واعلم أن هذا أيضًا من دلائل القدرة والحكمة، وذلك لأن هذه الأجزاء المائية إما أن يقال إنها حدثت في جو الهواء أو يقال إنها تصاعدت من وجه الأرض، فإن كان الأول وجب أن يكون حدوثها بإحداث محدث حكيم قادر وهو المطلوب، وإن كان الثاني، وهو أن يقال إن تلك الأجزاء تصاعدت من الأرض فلما وصلت إلى الطبقة الباردة من الهواء بردت فثقلت فرجعت إلى الأرض فنقول هذا باطل، وذلك لأن الأمطار مختلفة فتارة تكون القطرات كبيرة وتارة تكون صغيرة وتارة تكون متقاربة، وأخرى تكون متباعدة وتارة تدوم مدة نزول المطر زمانًا طويلاً وتارة قليلاً فاختلاف الأمطار في هذه الصفات مع أن طبيعة الأرض واحدة، وطبيعة الشمس المسخنة للبخارات واحدة لا بد وأن يكون بتخصيص الفاعل المختار وأيضًا فالتجربة دلت على أن للدعاء والتضرع في نزول الغيث أثرًا عظيمًا ولذلك كانت صلاة الاستسقاء مشروعة، فعلمنا أن المؤثر فيه هو قدرة الفاعل لا الطبيعة والخاصية.

النوع الثالث: من الدلائل المذكورة في هذه الآية الرعد وهو قوله: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾.

وفيه أقوال:

القول الأول: إن الرعد اسم ملك من الملائكة وهذا الصوت المسموع هو صوت ذلك الملك بالتسبيح والتهليل عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن اليهود سألت النبي ﷺ عن الرعد ما هو؟ فقال: **«مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ مَعَهُ مَخَارِيقُ مِنْ نَارٍ يَسُوقُ بِهَا السَّحَابَ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ»**

قالوا: فما الصوت الذي نسمع؟ قال: «زَجْرُهُ السَّحَابَ»[١] وعن الحسن أنه خلق من خلق الله ليس بمَلَك، فعلى هذا القول الرعد هو الملك الموكل بالسحاب وصوته تسبيح لله تعالى وذلك الصوت أيضًا يسمى بالرعد ويؤكد هذا ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان إذا سمع الرعد قال: سبحان الذي سبحت له. وعن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ فَيَنطِقُ أَحْسَنَ النُّطْقِ وَيَضْحَكُ أَحْسَنَ الضَّحِكِ فَنُطْقُهُ الرَّعْدُ وَضَحِكُهُ الْبَرْقُ»[٢].

واعلم أن هذا القول غير مستبعد وذلك لأن عند أهل السنة البنية ليست شرطًا لحصول الحياة فلا يبعد من الله تعالى أن يخلق الحياة والعلم والقدرة والنطق في أجزاء السحاب فيكون هذا الصوت المسموع فعلاً له وكيف يستبعد ذلك ونحن نرى أن السمندل يتولد في النار، والضفادع تتولد في الماء البارد، والدودة العظيمة ربما تتولد في الثلوج القديمة، وأيضًا فإذا لم يبعد تسبيح الجبال في زمن داود عليه السلام، ولا تسبيح الحصى في زمان محمد ﷺ[٣]، فكيف يستبعد

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٢٩٤) حديث رقم/ ٣١١٧، وقال: هذا حديث حسن غريب، والنسائي في (سننه الكبرى) (٥/ ٣٣٦) حديث رقم/ ٩٠٧٢، كلاهما من طريق بكير بن شهاب عن سعيد بن جبير عن بن عباس... به.

(٢) أورده الهيثمي في (المجمع) (٢/ ٤٥٩) حديث رقم/ ٣٢٩٧، وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(٣) وهذا إشارة إلى حديث تسبيح الحصي بين يدي النبي ﷺ وهو حديث حسن، أخرجه البيهقي في (دلائل النبوة) (٦/ ٥٧) حديث رقم/ ٢٣١٢ بتحقيقنا من طريق الكديمي حدثنا قريش بن أنس... به، واللالكائي في (اعتقاد أهل السنة والجماعة) (١/ ٥١٩) حديث رقم/ ١٤٨٥ بتحقيقنا من طريق علي بن حرب قال حدثنا قريش بن أنس... به، ورواه الطبراني في (الأوسط) (٤/ ٢٤٥) حديث رقم/ ٤٠٩٧، من طريق محمد بن حميد عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة... به، ومحمد بن حميد ضعيف. ورواه خثيمه في حديثه (١/ ١٠٥) من طريق قريش بن أنس... به، وابن عاصم في (السنة) (٢/ ٥٤٣) حديث رقم/ ١١٤٦، من طريق حميد بن عبد الرحمن بن أبي عوف حدثه أنه سمع عبد ربه أنه سمع عاصم بن حميد يقول أن أبا ذر... فذكره، وقال ابن الجوزي في (العلل المتناهية) (١/ ٢٠٦) من طريق قريش حديث لايصح.

ورواه البزار في مسنده (٩/ ٤٣١) حديث رقم/ ٤٠٤٠، من طريق قريشُ بنُ أنسٍ، عنْ صالح بنِ أبي الأخضر، عنِ الزُّهريِّ، عنْ سويد بنِ يزيد، قال: رأيتُ أبا ذرٍّ جالسًا وحدهُ في المسجدِ، فاغتنمتُ ذلكَ، فجلستُ إليه فذكَرتُ لهُ عثمانَ، فقالَ: لا أقولُ لعثمانَ أبدًا إلا خيرًا الشيء رأيته عندَ رسولِ اللهِ ﷺ، كنت أتبعُ خلواتِ رسولِ اللهِ ﷺ وأتعلم منهُ، فذهبتُ يومًا، فإذا هو قد خرجَ فاتبعتهُ، فجلسَ في موضع فجلستُ عندهُ، فقال: يا أبا ذر ما جاء بك؟ قال: قلتُ: الله ورسوله، قال: فجاءَ أبو بكر، فسلمَ وجلسَ عن يمينِ النبي، فقال له: ما جاءَ بك يا أبا بكرٍ؟ قال: الله ورسولهُ، قال: فجاء عمر فجلسَ عن يمينِ أبي بكر، فقال: يا عمر ما جاء بك؟ قال: الله ورسولهُ، ثم جاءَ عثمانُ فجلس عن يمين عمر، فقال: يا عثمان ما جَاء بِك قال: الله ورسولهُ، قال: فتناول النبي سبع حصيات أو تسعَ حصيات، فسبحن في يده حتى سمعت لهن حنينًا كحنين النحل، ثم وضعهنَّ فخرسن، ثم وضعن في يد أبي بكر فسبحن في يده حتى سمع لهن حنينًا كحنين النحل، فوضعهنَّ فخرسن، ثم تناولهن فوضعن في يد عمر فسبحن في يده حتى سمعت لهن حنينًا كحنينِ النحلِ، ثم وضعن فخرسن، ثم تناولهن فوضعن في يد عثمانَ فسبحن في يدهِ حتى سمعت لهنَّ حنينًا كحنينِ النحلِ، ثم وضعن فخرسن.

وقال البزار: وهذا الحديثُ لا نعلمهُ يروى إلا من حديثِ سويد بن يزيد، عن أبي ذر ورواهُ جبير بن نفير وزاد=

تسبيح السحاب؟ وعلى هذا القول فهذا الشيء المسمى بالرعد ملك أو ليس بملك فيه قولان: أحدهما: أنه ليس بملك لأنه عطف عليه الملائكة، فقال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ والمعطوف عليه مغاير للمعطوف. والثاني: وهو أنه لا يبعد أن يكون من جنس الملائكة وإنما إفراده بالذكر على سبيل التشريف كما في قوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨] وفي قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧].

القول الثاني: أن الرعد اسم لهذا الصوت المخصوص، ومع ذلك فإن الرعد يسبح الله سبحانه، لأن التسبيح والتقديس وما يجري مجراهما ليس إلا وجود لفظ يدل على حصول التنزيه والتقديس لله سبحانه وتعالى، فلما كان حدوث هذا الصوت دليلاً على وجود موجود متعال عن النقص والإمكان، كان ذلك في الحقيقة تسبيحًا، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

القول الثالث: أن المراد من كون الرعد مسبحًا أن من يسمع الرعد فإنه يسبح الله تعالى، فلهذا المعنى أضيف هذا التسبيح إليه.

القول الرابع: من كلمات الصوفية الرعد صعقات الملائكة، والبرق زفرات أفئدتهم، والمطر بكاؤهم.

فإن قيل: وما حقيقة الرعد؟

قلنا: استقصينا القول في سورة (البقرة) في قوله: ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: ١٩].

أما قوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ فاعلم أن من المفسرين من يقول: عنى بهؤلاء الملائكة أعوان الرعد، فإنه سبحانه جعل له أعوانًا، ومعنى قوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ أي وتسبح الملائكة من خيفة الله تعالى وخشيته. قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنهم خائفون من الله لا كخوف ابن آدم، فإن أحدهم لا يعرف من على يمينه ومن على يساره، ولا يشغله عن عبادة الله طعام ولا شراب ولا شيء.

واعلم أن المحققين من الحكماء يذكرون أن هذه الآثار العلوية إنما تتم بقوى روحانية فلكية، فللسحاب روح معين من الأرواح الفلكية يدبره، وكذا القول في الرياح وفي سائر الآثار العلوية، وهذا عين ما نقلناه من أن الرعد اسم ملك من الملائكة يسبح الله، فهذا الذي قاله المفسرون

=فيهِ جبيرٌ كلامًا ليس في حديث سويد ولا نعلم رواه عن سويد غير الزهريّ وَلا رواه عن الزهري غير صالح بن أبي الأخضرِ، وصالح لينُ الحديث، وقداحتملَ حديثهُ جماعةٌ من أهل العلم، وحدثوا عنهُ.

وصححه الألباني في ظلال الجنة وقال حديث صحيح وإن كان عبد الحميد بن إبراهيم وهو أبو تقي فيه ضعف من قبل حفظه ولكنه توبع.

وأورده الهيثمي في (المجمع) (٨/ ٢٩٩)، وقال: رواه البزار بإسنادين ورجال أحدهما تفاح وفي بعضهم ضعف(قلت) في إسناد البزار صالح بن أبي الأخضر قال ابن حجر ضعيف يغير ولينه البخاري: وضعفه النسائي كذا عند الذهبي.

بهذه العبارة هو ما ذكره المحققون عن الحكماء، فكيف يليق بالعاقل الإنكار؟

النوع الرابع: من الدلائل المذكورة في هذه الآية قوله: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ واعلم أنا قد ذكرنا معنى الصواعق في سورة البقرة. قال المفسرون: نزلت هذه الآية في عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أخي لبيد بن ربيعة أتيا النبي ﷺ يخاصمانه ويجادلانه، ويريدان الفتك به، فقال أربد بن ربيعة أخو لبيد بن ربيعة: أخبرنا عن ربنا أمن نحاس هو أم من حديد[(١)]؟ ثم إنه لما رجع أربد أَرسِل عليه صاعقةً فأحرقته، ورمى عامرًا بغدة كغدة البعير، ومات في بيت سلولية.

واعلم أن أمر الصاعقة عجيب جدًا وذلك لأنها تارة تتولد من السحاب، وإذا نزلت من السحاب فربما غاصت في البحر وأحرقت الحيتان في لجة البحر، والحكماء بالغوا في وصف قوتها، ووجه الاستدلال أن النار حارة يابسة وطبيعتها ضد طبيعة السحاب، فوجب أن تكون طبيعتها في الحرارة واليبوسة أضعف من طبيعة النيران الحادثة عندنا على العادة، لكنه ليس الأمر كذلك، فإنها أقوى نيران هذا العالم، فثبت أن اختصاصها بمزيد تلك القوة لا بد وأن يكون بسبب تخصيص الفاعل المختار.

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه الدلائل الأربعة قال: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ والمراد أنه تعالى بين دلائل كمال علمه في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ [الرعد: ٨] وبين دلائل كمال القدرة في هذه الآية.

ثم قال: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ يعني هؤلاء الكفار مع ظهور هذه الدلائل يجادلون في الله وهو يحتمل وجوهًا:

أحدها: أن يكون المراد الرد على الكافر الذي قال: أخبرنا عن ربنا أمن نحاس أم من حديد.

وثانيها: أن يكون المراد الرد على جدالهم في إنكار البعث وإبطال الحشر والنشر.

وثالثها: أن يكون المراد الرد عليهم في طلب سائر المعجزات.

ورابعها: أن يكون المراد الرد عليهم في استنزال عذاب الاستئصال. وفي هذه الواو قولان: الأول: أنها للحال، والمعنى: فيصيب بالصاعقة من يشاء في حال جداله في الله، وذلك أن أربد لما جادل في الله أحرقته الصاعقة. والثاني: أنها واو الاستئناف كأنه تعالى لما تمم ذكر هذه الدلائل قال بعد ذلك: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾.

---

(١) إسناده ضعيف: وأخرجه النسائي في (سننه الكبرى) (٦/ ٣٧٠)، وأبو يعلى في (مسنده) (٦/ ١٨٣) حديث رقم/ ٣٤٦٨، والمقري في (ذم الكلام وأهله) (٤/ ٩٧) حديث رقم/ ٦٣١، جميعا من طريق علي بن أبي سارة حدثنا ثابت البناني عن أنس بن مالك قال بعث النبي ﷺ مرة رجلا إلى رجل من فراعنة العرب أن ادعه لي قال يا رسول الله إنه أعتى من ذلك قال اذهب إليه فادعه قال فأتاه فقال رسول الله ﷺ يدعوك قال أرسول الله وما الله أمن ذهب هو أم من فضة هو أمن نحاس... الحديث، وفي إسناده علي بن أبي سارة وهو ضعيف.

ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ وفي لفظ المحال أقوال: قال ابن قتيبة: الميم زائدة وهو من الحول، ونحوه ميم مكان، وقال الأزهري: هذا غلط، فإن الكلمة إذا كانت على مثال فعال أوله ميم مكسورة فهي أصلية، نحو مهاد ومداس ومداد، واختلفوا مم أخذ على وجوه: **الأول:** قيل من قولهم مَحَلَ فلان بفلان إذا سعى به إلى السلطان وعرضه للهلاك، وتمحل لكذا إذا تكلف استعمال الحيلة واجتهد فيه، فكان المعنى: أنه سبحانه شديد المكر لأعدائه يهلكهم بطريق لا يتوقعونه. **الثاني:** أن المحال عبارة عن الشدة، ومنه تسمى السنة الصعبة سنة المحل وماحلت فلانًا محالاً. أي قاومته أينا أشد، قال أبو مسلم: ومحال فعال من المحل وهو الشدة ولفظ فعال يقع على المجازاة والمقابلة، فكأن المعنى: أنه تعالى شديد المغالبة، وللمفسرين هاهنا عبارات فقال مجاهد وقتادة: شديد القوة، وقال أبو عبيدة: شديد العقوبة، وقال الحسن: شديد النقمة، وقال ابن عباس: شديد الحول. **الثالث:** قال ابن عرفة: يقال ماحل عن أمره أي جادل، فقوله: ﴿شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ أي شديد الجدال. **الرابع:** روي عن بعضهم: ﴿شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ أي شديد الحقد. قالوا: هذا لا يصح، لأن الحقد لا يمكن في حق الله تعالى، إلا أنا قد ذكرنا في هذا الكتاب أن أمثال هذه الألفاظ إذا وردت في حق الله تعالى فإنها تحصل على نهايات الأعراض لا على مبادىء الأعراض، فالمراد بالحقد هاهنا هو أنه تعالى يريد إيصال الشر إليه مع أنه يخفي عنه تلك الإرادة.

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿١٤﴾﴾

اعلم أن قوله: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ أي لله دعوة الحق.

وفيه بحثان:

البحث الأول: في أقوال المفسرين وهي أمور: أحدها: ما روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ﴿دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ قول لا إله إلا الله. وثانيها: قول الحسن: إن الله هو الحق، فدعاؤه هو الحق، كأنه يومىء إلى أن الانقطاع إليه في الدعاء هو الحق. وثالثها: أن عبادته هي الحق والصدق.

واعلم أن الحق هو الموجود، والموجود قسمان: قسم يقبل العدم وهو حق يمكن أن يصير باطلاً وقسم لا يقبل العدم فلا يمكن أن يصير باطلاً وذلك هو الحق الحقيقي، وإذا كان واجب الوجود لذاته موجودًا لا يقبل العدم كان أحق الموجودات بأن يكون حقًا هو هو وكان أحق الاعتقادات وأحق الأذكار بأن يكون حقًا هو اعتقاد ثبوته وذكر وجوده، فثبت بهذا أن وجوده هو الحق في الموجودات واعتقاد وجوده هو الحق في الاعتقادات. وذكره بالثناء والإلهية والكمال هو الحق في الأذكار فلهذا قال: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾.

البحث الثاني: قال صاحب (الكشاف) ﴿دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أن تضاف الدعوة إلى الحق الذي هو نقيض الباطل كما تضاف إليه الكلمة في قوله: (كَلِمَةُ الْحَقِّ) والمقصود منه الدلالة على كون هذه الدعوة مختصة بكونها حقة وكونها خالية عن أمارات كونه باطلاً، وهذا من باب إضافة الشيء إلى صفته. والثاني: أن تضاف إلى الحق الذي هو الله سبحانه على معنى دعوة المدعو الحق الذي يسمع فيجيب، وعن الحسن: الحق هو الله وكل دعاء إليه فهو دعوة الحق.

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ يعني الآلهة الذين يدعونهم الكفار من دون الله: ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾ مما يطلبونه إلا استجابة كاستجابة باسط كفيه إلى الماء، والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه وحاجته إليه، ولا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فاه، فكذلك ما يدعونه جماد، لا يحس بدعائهم ولا يستطيع إجابتهم، ولا يقدر على نفعهم وقيل شبهوا في قلة فائدة دعائهم لآلهتهم، بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشربه فيبسطها ناشرًا أصابعه ولم تصل كفاه إلى ذلك الماء ولم يبلغ مطلوبه من شربه، وقرىء (تدعون) بالتاء ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ﴾ بالتنوين، ثم قال: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي إلا في ضياع لا منفعة فيه، لأنهم إن دعوا الله لم يجبهم وإن دعوا الآلهة لم تستطع إجابتهم.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾﴾

واعلم أن في المراد بهذا السجود قولين:

القول الأول: أن المراد منه السجود بمعنى وضع الجبهة على الأرض، وعلى هذا الوجه ففيه وجهان: **أحدهما:** أن اللفظ وإن كان عامًا إلا أن المراد به الخصوص وهم المؤمنون، فبعض المؤمنين يسجدون لله طوعًا بسهولة ونشاط، ومن المسلمين من يسجد لله كرهًا لصعوبة ذلك عليه مع أنه يحمل نفسه على أداء تلك الطاعة شاء أم أبى. **والثاني:** أن اللفظ عام والمراد منه أيضًا العام وعلى هذا ففي الآية إشكال، لأنه ليس كل من في السموات والأرض يسجد لله بل الملائكة يسجدون لله، والمؤمنون من الجن والإنس يسجدون لله تعالى، وأما الكافرون فلا يسجدون.

الجواب عنه من وجهين:

الأول: أن المراد من قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ويجب على كل من في السموات والأرض أن يسجد لله فعبر عن الوجوب بالوقوع والحصول.

والثاني: وهو أن المراد من السجود التعظيم والاعتراف بالعبودية، وكل من في السموات ومن في الأرض يعترفون بعبودية الله تعالى على ما قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥].

وأما القول الثاني في تفسير الآية فهو: - أن السجود عبارة عن الانقياد والخضوع وعدم

الامتناع وكل من في السموات والأرض ساجد لله بهذا المعنى، لأن قدرته ومشيئته نافذة في الكل وتحقيق القول فيه أن ما سواه ممكن لذاته والممكن لذاته هو الذي تكون ماهيته قابلة للعدم والوجود على السوية وكل من كان كذلك امتنع رجحان وجوده على عدمه أو بالعكس، إلا بتأثير موجود ومؤثر فيكون وجود كل ما سوى الحق سبحانه بإيجاده وعدم كل ما سواه بإعدامه، فتأثيره نافذ في جميع الممكنات في طرفي الإيجاد والإعدام، وذلك هو السجود وهو التواضع والخضوع والانقياد، ونظير هذه الآية قوله: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦] وقوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [آل عمران: ٨٣].

وأما قوله تعالى: ﴿طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ فالمراد: أن بعض الحوادث مما يميل الطبع إلى حصوله كالحياة والغنى، وبعضها مما ينفر الطبع عنه كالموت والفقر والعمى والحزن والزمانة وجميع أصناف المكروهات، والكل حاصل بقضائه وقدره وتكوينه وإيجاده، ولا قدرة لأحد على الامتناع والمدافعة.

ثم قال تعالى: ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾.

وفيه قولان:

القول الأول: قال المفسرون، كل شخص سواء كان مؤمنًا أو كافرًا فإن ظله يسجد لله. قال مجاهد: ظل المؤمن يسجد لله طوعًا وهو طائع، وظل الكافر يسجد لله كرهًا وهو كاره، وقال الزجاج: جاء في التفسير أن الكافر يسجد لغير الله وظله يسجد لله، وعند هذا قال ابن الأنباري: لا يبعد أن يخلق الله تعالى للظلال عقولاً وأفهامًا تسجد بها وتخشع كما جعل الله للجبال أفهامًا حتى اشتغلت بتسبيح الله تعالى وحتى ظهر أثر التجلي فيها كما قال: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

والقول الثاني: وهو أن المراد من سجود الظلال ميلانها من جانب إلى جانب وطولها بسبب انحطاط الشمس وقصرها بسبب ارتفاع الشمس، فهي منقادة مستسلمة في طولها وقصرها وميلها من جانب إلى جانب وإنما خصص الغدو والآصال بالذكر، لأن الظلال إنما تعظم وتكثر في هذين الوقتين.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ١٦﴾

اعلم أنه تعالى لما بين أن كل من في السموات والأرض ساجد له بمعنى كونه خاضعًا له، عاد

إلى الرد على عبدة الأصنام فقال: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ ولما كان هذا الجواب جوابًا يقر به المسؤول ويعترف به ولا ينكره أمره ﷺ أن يكون هو الذاكر لهذا الجواب تنبيهًا على أنهم لا ينكرونه ألبتة ولما بين أنه سبحانه هو الرب لكل الكائنات قال: قل لهم فلم اتخذتم من دون الله أولياء وهي جمادات وهي لا تملك لأنفسها نفعًا ولا ضرًا ولما كانت عاجزة عن تحصيل المنفعة لأنفسها، فبأن تكون عاجزة عن تحصيل المنفعة لغيرها ودفع المضرة عن غيرها كان ذلك أولى، فإذا لم تكن قادرة على ذلك كانت عبادتها محض العبث والسفه، ولما ذكر هذه الحجة الظاهرة بين أن الجاهل بمثل هذه الحجة يكون كالأعمى والعالم بها كالبصير، والجهل بمثل هذه الحجة كالظلمات، والعلم بها كالنور، وكما أن كل أحد يعلم بالضرورة أن الأعمى لا يساوي البصير، والظلمة لا تساوي النور كذلك كل أحد يعلم بالضرورة أن الجاهل بهذه الحجة لا يساوي العالم بها.

قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر وعمرو عن عاصم (يَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ) بالياء، لأنها مقدمة على اسم الجمع والباقون بالتاء، واختاره أبو عبيدة ثم أكد هذا البيان فقال: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني هذه الأشياء التي زعموا أنها شركاء لله ليس لها خلق يشبه خلق الله حتى يقولوا إنها تشارك الله في الخالقية، فوجب أن تشاركه في الإلهية، بل هؤلاء المشركون يعلمون بالضرورة أن هذه الأصنام لم يصدر عنها فعل ألبتة، ولا خلق ولا أثر، وإذا كان الأمر كذلك كان حكمهم بكونها شركاء لله في الإلهية محض السفه والجهل.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن أصحابنا استدلوا بهذه الآية في مسألة خلق الأفعال من وجوه.
الأول: أن المعتزلة زعموا أن الحيوانات تخلق حركات وسكنات مثل الحركات والسكنات التي يخلقها الله تعالى، وعلى هذا التقدير فقد جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه، ومعلوم أن الله تعالى إنما ذكر هذه الآية في معرض الذم والإنكار. فدلت هذه الآية على أن العبد لا يخلق فعل نفسه.
قال القاضي: نحن وإن قلنا: إن العبد يفعل ويحدث، إلا أنا لا نطلق القول بأنه يخلق ولو أطلقناه لم نقل إنه يخلق كخلق الله، لأن أحدنا يفعل بقدرة الله، وإنما يفعل لجلب منفعة ودفع مضرة، والله تعالى منزه عن ذلك كله، فثبت أن بتقدير كون العبد خالقًا، إلا أنه لا يكون خلقه كخلق الله تعالى، وأيضًا فهذا الإلزام لازم للمجبرة، لأنهم يقولون عين ما هو خلق الله تعالى فهو كسب العبد وفعل له، وهذا عين الشرك لأن الإله والعبد في خلق تلك الأفعال بمنزلة الشريكين اللذين لا مال لأحدهما إلا وللآخر فيه حق. وأيضًا فهو تعالى إنما ذكر هذا الكلام عيبًا للكفار وذمًا لطريقتهم، ولو كان فعل العبد خلقًا لله تعالى لما بقي لهذا الذم فائدة، لأن للكفار أن يقولوا على هذا التقدير إن الله سبحانه وتعالى لما خلق هذا الكفر فينا فلم يذمنا عليه ولم ينسبنا إلى الجهل والتقصير مع أنه قد حصل فينا لا بفعلنا ولا باختيارنا.

والجواب عن السؤال الأول: أن لفظ الخلق إما أن يكون عبارة عن الإخراج من العدم إلى الوجود، أو يكون عبارة عن التقدير، وعلى الوجهين فبتقدير أن يكون العبد محدثًا فإنه لا بد وأن يكون حادثًا. أما قوله: والعبد وإن كان خالقًا إلا أنه ليس خلقه كخلق الله.

قلنا: الخلق عبارة عن الإيجاد والتكوين والإخراج من العدم إلى الوجود، ومعلوم أن الحركة الواقعة بقدرة العبد لما كانت مثلاً للحركة الواقعة بقدرة الله تعالى، كان أحد المخلوقين مثلاً للمخلوق الثاني، وحينئذ يصح أن يقال: إن هذا الذي هو مخلوق العبد مثل لما هو مخلوق لله تعالى بل لا شك في حصول المخالفة في سائر الاعتبارات، إلا أن حصول المخالفة في سائر الوجوه لا يقدح في حصول المماثلة من هذا الوجه وهذا القدر يكفي في الاستدلال. وأما قوله هذا لازم على المجبرة حيث قالوا: إن فعل العبد مخلوق لله تعالى، فنقول هذا غير لازم، لأن هذه الآية دالة على أنه لا يجوز أن يكون خلق العبد مثلاً لخلق الله تعالى، ونحن لا نثبت للعبد خلقًا ألبتة، فكيف يلزمنا ذلك؟ وأما قوله: لو كان فعل العبد خلقًا لله تعالى، لما حسن ذم الكفار على هذا المذهب.

قلنا: حاصله يرجع إلى أنه لما حصل المدح والذم وجب أن يكون العبد مستقلاً بالفعل، وهو منقوض، لأنه تعالى ذم أبا لهب على كفره مع أنه عالم منه أنه يموت على الكفر، وقد ذكرنا أن خلاف المعلوم محال الوقوع، فهذا تقرير هذا الوجه في هذه الآية.

وأما الوجه الثاني: في التمسك بهذه الآية قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ ولا شك أن فعل العبد شيء فوجب أن يكون خالقه هو الله وسؤالهم عليه ما تقدم.

والوجه الثالث: في التمسك بهذه الآية قوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ وليس يقال فيه إنه تعالى واحد في أي المعاني، ولما كان المذكور السابق هو الخالقية وجب أن يكون المراد هو الواحد في الخالقية، القهار لكل ما سواه، وحينئذ يكون دليلاً أيضًا على صحة قولنا.

المسألة الثانية: زعم جهم أن الله تعالى لا يقع عليه اسم الشيء. اعلم أن هذا النزاع ليس إلا في اللفظ وهو أن هذا الاسم هل يقع عليه أم لا، وزعم أنه لا يقع هذا الاسم على الله تعالى واحتج عليه بأنه لو كان شيئًا لوجب كونه خالقًا لنفسه، لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ ولما كان ذلك محالاً، وجب أن لا يقع عليه اسم الشيء، ولا يقال: هذا عام دخله التخصيص، لأن العام المخصوص إنما يحسن إذا كان المخصوص أقل من الباقي وأخس منه كما إذا قال: أكلت هذه الرمانة مع أنه سقطت منها حبات ما أكلها، وهاهنا ذات الله تعالى أعلى الموجودات وأشرفها، فكيف يمكن ذكر اللفظ العام الذي يتناوله مع كون الحكم مخصوصًا في حقه؟

والحجة الثانية: تمسك بقوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١] والمعنى: ليس مثل مثله شيء، ومعلوم أن كل حقيقة فإنها مثل مثل نفسها، فالباري تعالى مثل مثل نفسه، مع أنه تعالى نبه على أن مثل مثله ليس بشيء، فهذا تنصيص على أنه تعالى غير مسمى باسم الشيء.

والحجة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ [الأعراف: ١٨٠] دلت هذه الآية على أنه لا يجوز أن يدعى الله إلا بالأسماء الحسنى، ولفظ الأشياء يتناول أخس الموجودات، فلا يكون هذا اللفظ مشعرًا بمعنى حسن، فوجب أن لا يكون هذا اللفظ من الأسماء الحسنى، فوجب أن لا يجوز دعاء الله تعالى بهذا اللفظ، والأصحاب تمسكوا في إطلاق هذا الاسم عليه تعالى بقوله: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ [الأنعام: ١٩].

وأجاب الخصم عنه: بأن قوله: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾ [الأنعام: ١٩] سؤال متروك الجواب، وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ [الأنعام: ١٩] كلام مبتدأ مستقل بنفسه لا تعلق له بما قبله.

المسألة الثالثة: تمسك المعتزلة بهذه الآية في أنه تعالى عالم لذاته لا بالعلم وقادر لذاته لا بالقدرة. قالوا: لأنه لو حصل لله تعالى علم وقدرة وحياة، لكانت هذه الصفات إما أن تحصل بخلق الله أو لا بخلقه، والأول باطل وإلا لزم التسلسل، والثاني: باطل لأن قوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ يتناول الذات والصفات حكمنا بدخول التخصيص فيه في حق ذات الله تعالى فوجب أن يبقى فيما سوى الذات على الأصل. وهو أن يكون تعالى خالقًا لكل شيء سوى ذاته تعالى، فلو كان لله علم وقدرة لوجب كونه تعالى خالقًا لهما وهو محال، وأيضًا تمسكوا بهذه الآية في خلق القرآن. قالوا: الآية دالة على أنه تعالى خالق لكل الأشياء، والقرآن ليس هو الله تعالى، فوجب أن يكون مخلوقًا وأن يكون داخلاً تحت هذا العموم.

والجواب: أقصى ما في الباب أن الصيغة عامة، إلا أنا نخصصها في حق صفات الله تعالى بسبب الدلائل العقلية.

قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما شبه المؤمن والكافر والإيمان والكفر بالأعمى والبصير والظلمات والنور ضرب للإيمان والكفر مثلاً آخر فقال: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ ومن حق الماء أن يستقر في الأودية المنخفضة عن الجبال والتلال بمقدار سعة تلك الأودية وصغرها، ومن حق الماء إذا زاد على قدر الأودية أن ينبسط على الأرض ومن حق الزبد الذي يحتمله الماء فيطفو

ويربو عليه أن يتبدد في الأطراف ويبطل، سواء كان ذلك الزبد ما يجري مجرى الغليان من البياض أو ما يحفظ بالماء من الأجسام الخفيفة، ولما ذكر تعالى هذا الزبد الذي لا يظهر إلا عند اشتداد جري الماء ذكر الزبد الذي لا يظهر إلا بالنار، وذلك لأن كل واحد من الأجساد السبعة إذا أذيب بالنار لابتغاء حلية أو متاع آخر من الأمتعة التي يحتاج إليها في مصالح البيت، فإنه ينفصل عنها نوع من الزبد والخبث، ولا ينتفع به بل يضيع ويبطل ويبقى الخالص. فالحاصل: أن الوادي إذا جرى طفا عليه زبد، وذلك الزبد يبطل ويبقى الماء. والأجساد السبعة إذا أذيبت لأجل اتخاذ الحلي أو لأجل اتخاذ سائر الأمتعة انفصل عنها خبث وزبد فيبطل ويبقى ذلك الجوهر المنتفع به، فكذا هاهنا أنزل من سماء الكبرياء والجلالة والإحسان ماء وهو القرآن، والأودية قلوب العباد وشبه القلوب بالأودية، لأن القلوب تستقر فيها أنوار علوم القرآن، كما أن الأودية تستقر فيها المياه النازلة من السماء، وكما أن كل واحد فإنما يحصل فيه من مياه الأمطار ما يليق بسعته أو ضيقه، فكذا هاهنا كل قلب إنما يحصل فيه من أنوار علوم القرآن ما يليق بذلك القلب من طهارته وخبثه وقوة فهمه وقصور فهمه، وكما أن الماء يعلوه زبد الأجساد السبعة المذابة يخالطها خبث، ثم إن ذلك الزبد والخبث يذهب ويضيع ويبقى جوهر الماء وجوهر الأجساد السبعة، كذا هاهنا بيانات القرآن تختلط بها شكوك وشبهات، ثم إنها بالآخرة تزول وتضيع ويبقى العلم والدين والحكمة والمكاشفة في العاقبة، فهذا هو تقرير هذا المثل ووجه انطباق المثل على الممثل به، وأكثر المفسرين سكتوا عن بيان كيفية التمثيل والتشبيه.

المسألة الأولى: في المباحث اللفظية التي في هذه الآية في لفظ الأودية أبحاث:

البحث الأول: الأودية جمع واد وفي الوادي قولان:

القول الأول: أنه عبارة عن الفضاء المنخفض عن الجبال والتلال الذي يجري فيه السيل، هذا قول عامة أهل اللغة.

والقول الثاني: قال السهروردي: يسمى الماء واديًا إذا سال قال: ومنه سمي الودى وديًا لخروجه وسيلانه، وعلى هذا القول فالوادي اسم للماء السائل كالمسيل. والأول هو القول المشهور إلا أن على هذا التقدير يكون قوله: ﴿فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ﴾ مجازًا فكان التقدير: سالت مياه الأودية إلا أنه حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

البحث الثاني: قال أبو علي الفارسي رحمه الله: الأودية جمع واد ولا نعلم فاعلاً جمع على أفعلة قال: ويشبه أن يكون ذلك لتعاقب فاعل وفعيل على الشيء الواحد كعالم وعليم، وشاهد وشهيد، وناصر ونصير، ثم إن وزن فاعل يجمع على أفعال كصاحب وأصحاب، وطائر وأطيار، ووزن فعيل يجمع على أفعلة، كجريب وأجربة ثم لما حصلت المناسبة المذكورة بين فاعل وفعيل لا جرم يجمع الفاعل جمع الفعيل. فيقال: واد وأودية ويجمع الفعيل على جمع الفاعل فيقال: يتيم وأيتام وشريف وأشراف هذا ما قاله أبو علي الفارسي رحمه الله. وقال

غيره: نظير واد وأودية، ناد وأندية للمجالس.

البحث الثالث: إنما ذكر لفظ أودية على سبيل التنكير، لأن المطر لا يأتي إلا على طريق المناوبة بين البقاع فتسيل بعض أودية الأرض دون بعض. أما قوله تعالى: ﴿بِقَدَرِهَا﴾ ففيه بحثان:

البحث الأول: قال الواحدي: القَدْر والقَدَرَ: مبلغ الشيء يقال: كم قَدْرُ هذه الدراهم وكم قدرها ومقدارها؟ أي كم تبلغ في الوزن، فما يكون مساويًا لها في الوزن فهو قدرها.

البحث الثاني: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ أي من الماء، فإن صغر الوادي قل الماء، وإن اتسع الوادي كثر الماء.

أما قوله: ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾.

ففيه بحثان:

البحث الأول: قال الفراء: يقال أزبد الوادي إزبادًا، والزبد الاسم، وقوله: ﴿رَّابِيًا﴾ قال الزجاج: طافيًا عاليًا فوق الماء. وقال غيره: زائدًا بسبب انتفاخه، يقال: ربا يربو إذا زاد.

أما قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ فاعلم أنه تعالى لما ضرب المثل بالزبد الحاصل من الماء، أتبعه بضرب المثل بالزبد الحاصل من النار، وفيه مباحث:

البحث الأول: قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿يُوقِدُونَ﴾ بالياء، واختاره أبو عبيدة لقوله: ﴿يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ وأيضًا فليس هاهنا مخاطب. والباقون بالتاء على الخطاب، وعلى هذا التقدير ففيه وجهان. الأول: أنه خطاب للمذكورين في قوله: ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾[الرعد: ١٦] والثاني: أنه يجوز أن يكون خطابًا عامًا يراد به الكافة، كأنه قال: ومما توقدون عليه في النار أيها الموقدون.

البحث الثاني: الإيقاد على الشيء على قسمين: **أحدهما:** أن لا يكون ذلك الشيء في النار، وهو كقوله تعالى ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾[القصص: ٣٨]. **والثاني:** أن يوقد على الشيء ويكون ذلك الشيء في النار فإن من أراد تذويب الأجساد السبعة جعلها في النار، فلهذا السبب قال ههنا: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ﴾.

البحث الثالث: في قوله: ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ قال أهل المعاني: الذي يوقد عليه لابتغاء حلية الذهب والفضة، والذي يوقد عليه لابتغاء الأمتعة الحديد والنحاس والرصاص، والأسرب يتخذ منها الأواني والأشياء التي ينتفع بها، والمتاع كل ما يتمتع به وقوله: ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ أي زبد مثل زبد الماء الذي يحمله السيل.

ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ والمعنى كذلك يضرب الله الأمثال للحق والباطل. ثم قال: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ قال الفراء: الجفاء: الرمي والاطراح يقال: جفا الوادي غثاءه يجفوه جفاء إذا رماه، والجفاء اسم للمجتمع منه المنضم بعضه إلى بعض وموضع جفاء نصب على الحال، والمعنى: أن الزبد قد يعلو على وجه الماء

ويربو وينتفخ إلا أنه بالآخرة يضمحل ويبقى الجوهر الصافي من الماء ومن الأجساد السبعة، فكذلك الشبهات والخيالات قد تقوى وتعظم إلا أنها بالآخرة تبطل وتضمحل وتزول ويبقى الحق ظاهرًا لا يشوبه شيء من الشبهات، وفي قراءة رؤبة بن العجاج جفالاً، وعن أبي حاتم لا يقرأ بقراءة رؤبة لأنه كان يأكل الفار.

أما قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ ففيه وجهان: **الأول:** أنه تم الكلام عند قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ ثم استأنف الكلام بقوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ ومحله الرفع بالابتداء وللذين خبره وتقديره لهم الخصلة الحسنى والحالة الحسنى. **الثاني:** أنه متصل بما قبله والتقدير: كأنه قال الذي يبقى هو مثل المستجيب والذي يذهب جفاء مثل من لا يستجيب ثم بين الوجه في كونه مثلاً وهو أنه لمن يستجيب الحسنى وهو الجنة، ولمن لا يستجيب أنواع الحسرة والعقوبة، وفيه وجه آخر وهو أن يكون التقدير: كذلك يضرب الله الأمثال للذين استجابوا لربهم الاستجابة الحسنى، فيكون الحسنى صفة لمصدر محذوف.

واعلم أنه تعالى ذكر ههنا أحوال السعداء وأحوال الأشقياء، أما أحوال السعداء فهي قوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ والمعنى: أن الذين أجابوه إلى ما دعاهم إليه من التوحيد والعدل والنبوة وبعث الرسل والتزام الشرائع الواردة على لسان رسوله فلهم الحسنى. قال ابن عباس: الجنة، وقال أهل المعاني: الحسنى: هي المنفعة العظمى في الحسن، وهي المنفعة الخالصة عن شوائب المضرة الدائمة الخالية عن الانقطاع المقرونة بالتعظيم والإجلال. ولم يذكر الزيادة هاهنا لأنه تعالى قد ذكرها في سورة أخرى، وهو قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[يونس: ٢٦] وأما أحوال الأشقياء، فهي قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ﴾ فلهم أنواع أربعة من العذاب والعقوبة.

فالنوع الأول: قوله: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ﴾ والافتداء جعل أحد الشيئين بدلاً من الآخر، ومفعول لافتدوا به محذوف تقديره: لافتدوا به أنفسهم أي جعلوه فداء أنفسهم من العذاب، والكناية في (به) عائدة إلى (ما) في قوله: ﴿مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

واعلم أن هذا المعنى حق، لأن المحبوب بالذات لكل إنسان هو ذاته، وكل ما سواه فإنما يحبه لكونه وسيله إلى مصالح ذاته، فإذا كانت النفس في الضرر والألم والتعب وكان مالكًا لما يساوي عالم الأجساد والأرواح فإنه يرضى بأن يجعله فداء لنفسه، لأن المحبوب بالعرض لا بد وأن يكون فداء لما يكون محبوبًا بالذات.

والنوع الثاني: من أنواع العذاب الذي أعده الله لهم هو قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ قال الزجاج: ذاك لأن كفرهم أحبط أعمالهم. وأقول ههنا حالتان: فكل ما شغلك بالله وعبوديته ومحبته فهي الحالة السعيدة الشريفة العلوية القدسية، وكل ما شغلك بغير الله فهي الحالة الضارة المؤذية الخسيسة، ولا شك أن هاتين الحالتين يقبلان الأشد والأضعف والأقل والأزيد، ولا شك أن المواظبة على الأعمال المناسبة لهذه الأحوال توجب قوتها ورسوخها لما ثبت في

المعقولات أن كثرة الأفعال توجب حصول الملكات الراسخة، ولا شك أنه لما كانت كثرة الأفعال توجب حصول تلك الملكات الراسخة وكل واحدة من تلك الأفعال حتى اللمحة واللحظة والخطور بالبال والالتفات الضعيف فإنه يوجب أثرًا ما في حصول تلك الحالة في النفس فهذا هو الحساب، وعند التأمل في هذه الفصول يتبين للإنسان صدق قوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

إذا ثبت هذا فالسعداء هم الذين استجابوا لربهم في الإعراض عما سوى الله وفي الإقبال بالكلية على عبودية الله تعالى ولا جرم حصل لهم الحسنى.

وأما الأشقياء فهم الذين لم يستجيبوا لربهم، فلهذا السبب وجب أن يحصل لهم سوء الحساب، والمراد بسوء الحساب أنهم أحبوا الدنيا وأعرضوا عن المولى فلما ماتوا بقوا محرومين عن معشوقهم الذي هو الدنيا وبقوا محرومين عن الفوز بخدمة حضرة المولى.

والنوع الثالث: قوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ وذلك لأنهم كانوا غافلين عن الاستسعاد بخدمة حضرة المولى عاكفين على لذات الدنيا، فإذا ماتوا فارقوا معشوقهم فيحترقون على مفارقتها وليس عندهم شيء آخر يجبر هذه المصيبة، فلذلك قال: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ ثم إنه تعالى وصف هذا المأوى فقال: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ ولا شك أن الأمر كذلك.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ فهذا إشارة إلى المثل المتقدم ذكره وهو أن العالم بالشيء كالبصير، والجاهل به كالأعمى، وليس أحدهما كالآخر، لأن الأعمى إذا أخذ يمشي من غير قائد، فالظاهر أنه يقع في البئر وفي المهالك، وربما أفسد ما كان على طريقه من الأمتعة النافعة، أما البصير فإنه يكون آمنًا من الهلاك والإهلاك.

ثم قال: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ والمراد أنه لا ينتفع بهذه الأمثلة إلا أرباب الألباب الذين يطلبون من كل صورة معناها، ويأخذون من كل قشرة لبابها ويعبرون بظاهر كل حديث إلى سره ولبابه.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٢ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٤﴾

اعلم أن هذه الآية هل هي متعلقة بما قبلها أم لا؟

فيه قولان:

القول الأول: إنها متعلقة بما قبلها، وعلى هذا التقدير ففيه وجهان: **الأول:** أنه يجوز أن يكون

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ صفة لأولي الألباب. **والثاني:** أن يكون ذلك صفةً لقوله: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ [الرعد: ١٩].

والقول الثاني: أن يكون قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ خبره كقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾ [الرعد: ٢٥] واعلم أن هذه الآية من أولها إلى آخرها جملة واحدة: شرط وجزاء، وشرطها مشتمل على قيود، وجزاؤها يشتمل أيضًا على قيود. أما القيود المعتبرة في الشرط فهي تسعة:

القيد الأول: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ وفيه وجوه: الأول: قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد الذي عاهدهم عليه حين كانوا في صلب آدم وأشهدهم على أنفسهم: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] والثاني: أن المراد بعهد الله كل أمر قام الدليل على صحته وهو من وجهين: أحدهما: الأشياء التي أقام الله عليها دلائل عقلية قاطعة لا تقبل النسخ والتغيير. والآخر: التي أقام الله عليها الدلائل السمعية وبين لهم تلك الأحكام، والحاصل أنه دخل تحت قوله: ﴿يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ كل ما قام الدليل عليه. ويصح إطلاق لفظ العهد على الحجة بل الحق أنه لا عهد أوكد من الحجة والدلالة على ذلك أن من حلف على الشيء فإنما يلزمه الوفاء به، إذا ثبت بالدليل وجوبه لا بمجرد اليمين ولذلك ربما يلزمه أن يحدث نفسه إذا كان ذلك خيرًا له فلا عهد أوكد من إلزام الله تعالى إياه ذلك بدليل العقل أو بدليل السمع. ولا يكون العبد موفيًا للعهد إلا بأن يأتي بكل تلك الأشياء كما أن الحالف على أشياء كثيرة لا يكون بارًا في يمينه إلا إذا فعل الكل، ويدخل فيه الاتيان بجميع المأمورات والانتهاء عن كل المنهيات ويدخل فيه الوفاء بالعقود في المعاملات، ويدخل فيه أداء الأمانات، وهذا القول هو المختار الصحيح في تأويل الآية.

القيد الثاني: قوله: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾.

وفيه أقوال:

القول الأول: وهو قول الأكثرين: إن هذا الكلام قريب من الوفاء بالعهد، فإن الوفاء بالعهد قريب من عدم نقض الميثاق والعهد، وهذا مثل أن يقول: إنه لما وجب وجوده، لزم أن يمتنع عدمه، فهذان المفهومان متغايران إلا أنهما متلازمان، فكذلك الوفاء بالعهد يلزمه أن لا ينقض الميثاق.

واعلم أن الوفاء بالعهد من أجل مراتب السعادة. قال عليه السلام: «**لاَ إِيمَانَ لِمَنْ لاَ أَمَانَةَ لَهُ وَلاَ دِينَ لمن عَهْدَ لَهُ**»[١] والآيات الواردة في هذا الباب كثيرة في القرآن.

والقول الثاني: أن الميثاق ما وثقه المكلف على نفسه، فالحاصل: أن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في (مسنده) (٣/ ١٣٥) حديث رقم/ ١٢٤٠٦، وأبو يعلي في (مسنده) (٥/ ٢٤٦) حديث رقم/ ٢٨٦٣، كلاهما من طريق أبي هلال عن قتادة عن أنس. . . به، وابن حبان في (صحيحه) (١/ ٤٢٢) حديث رقم/ ١٩٤، من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس. . . به.

ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى ما كلف الله العبد به ابتداء. وقوله: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾ إشارة إلى ما التزمه العبد من أنواع الطاعات بحسب اختيار نفسه: كالنذر بالطاعات والخيرات.

والقول الثالث: أن المراد بالوفاء بالعهد: عهد الربوبية والعبودية، والمراد بالميثاق: المواثيق المذكورة في التوراة والإنجيل وسائر الكتب الإلهية على وجوب الإيمان بنبوة محمد ﷺ عند ظهوره.

واعلم أن الوفاء بالعهد أمر مستحسن في العقول والشرائع، قال عليه السلام: «**مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ فَغَدَرَ، كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ**» وعنه عليه السلام: «**ثلاثة أنا خصمهم يوم القيام وَمَنْ كُنْتُ خَصْمَهُ خَصَمْتُهُ رَجُلٌ أَعْطَى عَهْدًا ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا اسْتَوْفَى عَمَلَهُ وَظَلَمَهُ أَجْرَهُ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَاسْتَرَقَّ الْحُرَّ وَأَكَلَ ثَمَنَهُ**» وقيل: كان بين معاوية وملك الروم عهد فأراد أن يذهب إليهم وينقض العهد فإذا رجل على فرس يقول: وفاء بالعهد لا غدر. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلَا يَنْبِذَنَّ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُ وَلاَ يَحُلَّهَا حَتَّى يَنْقَضِيَ الْأَمَدُ وَيَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ**»(١) قال من هذا؟ قالوا: عمرو بن عيينة فرجع معاوية.

القيد الثالث: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ وههنا سؤال: وهو أن الوفاء بالعهد وترك نقض الميثاق اشتمل على وجوب الإتيان بجميع المأمورات والاحتراز عن كل المنهيات فما الفائدة في ذكر هذه القيود المذكورة بعدهما؟

والجواب من وجهين: الأول: أنه ذكر لئلا يظن ظان أن ذلك فيما بينه وبين الله تعالى فلا جرم أفرد ما بينه وبين العباد بالذكر. والثاني: أنه تأكيد.

إذا عرفت هذا فنقول: ذكروا في تفسيره وجوهًا: الأول: أن المراد منه صلة الرحم قال عليه السلام: «**ثَلَاثٌ يَأْتِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهَا ذَلَقٌ الرَّحِمُ تَقُولُ: أَيْ رَبِّ قُطِعْتُ، وَالْأَمَانَةُ تَقُولُ: أَيْ رَبِّ تُرِكْتُ، وَالنِّعْمَةُ تَقُولُ: أَيْ رَبِّ كُفِرْتُ**»(٢).

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الجهاد) باب (في الإمام يكون بينه وبين العدو عهد فيسير إليه) (٣/ ١٢٠٠) حديث رقم/ ٢٧٥٩، والترمذي في كتاب (السير) باب (ما جاء في القدر) (٤/ ١٢١) حديث رقم/ ١٥٨٠، وأخرجه النسائي في (السنن) (٥/ ٢٢٣) حديث رقم/ ٨٧٣٢، وأحمد في (مسنده) (٤/ ١١١/ ١١٣/ ٣٨٦) والبيهقي في (سننه) (٩/ ٢٣١)، جميعا من طريق شعبة... به.

(٢) لم اجده بهذا اللفظ: ورواه البزار في (مسنده) (١٠/ ٤٠) حديث رقم/ ٤١١٨، والبيهقي في (الأسماء والصفات) (٢/ ٣٢٧) حديث رقم/ ٧٦٠، كلاهما إسناده ضعيف، من طريق يزيد بن ربيعة عن أبي الأشعث عن أبي عثمان عن ثوبان رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: (ثلاث متعلقات بالعرش الرحم تقول اللهم إني بك فلا أقطع والأمانة تقول اللهم إني بك فلا أخان والنعمة تقول اللهم إني بك فلا أكفر). واللفظ لهما

وقال البزار: وهذا الحديث لا نعلمه يروى بهذا اللفظ إلا عن ثوبان بهذا الإسناد وقد روى بعض كلامه بغير لفظة من غير وجه فذكرنا حديث ثوبان هذا لأنه جمع معنيين اختلاف لفظه وزيادة في حديث لا يحفظ إلا من هذا الوجه. وقد تقدم ذكرنا ليزيد بن ربيعة ولأبي عثمان هذا فاستغنينا عن إعادة ذكرهما، أورده الهيثمي في (المجمع) (٨/ ١٤٩)، وقال: رواه البزار وفيه يزيد بن ربيعة الرجي وهو متروك، وقال ابن عدي أرجو أنه لابأس به، وأورده المنذري في (الترغيب) (٢/ ٧٧) حديث رقم/ ١٤٩٣، وقال الألباني: ضعيف جدًا.

والقول الثاني: أن المراد صلة محمد ﷺ ومؤازرته ونصرته في الجهاد.

والقول الثالث: رعاية جميع الحقوق الواجبة للعباد، فيدخل فيه صلة الرحم وصلة القرابة الثابتة بسبب أخوة الإيمان كما قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] ويدخل في هذه الصلة امدادهم بإيصال الخيرات ودفع الآفات بقدر الإمكان وعيادة المريض وشهود الجنائز وإفشاء السلام على الناس والتبسم في وجوههم وكف الأذى عنهم ويدخل فيه كل حيوان حتى الهرة والدجاجة، وعن الفضيل بن عياض رحمه الله أن جماعة دخلوا عليه بمكة فقال: من أين أنتم؟ قالوا: من خراسان. فقال: اتقوا الله وكونوا من حيث شئتم، واعلموا أن العبد لو أحسن كل الإحسان وكان له دجاجة فأساء إليها لم يكن من المحسنين، وأقول: حاصل الكلام: أن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ إشارة إلى التعظيم لأمر الله وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ إشارة إلى الشفقة على خلق الله.

القيد الرابع: قوله: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ والمعنى: أنه وإن أتى بكل ما قدر عليه في تعظيم أمر الله، وفي الشفقة على خلق الله إلا أنه لا بد وأن تكون الخشية من الله والخوف منه مستوليًا على قلبه وهذه الخشية نوعان:

أحدهما: أن يكون خائفًا من أن يقع زيادة أو نقصان أو خلل في عباداته وطاعاته، بحيث يوجب فساد العبادة أو يوجب نقصان ثوابها.

والثاني: وهو خوف الجلال وذلك لأن العبد إذا حضر عند السلطان المهيب القاهر فإنه وإن كان في عين طاعته إلا أنه لا يزول عن قلبه مهابة الجلالة والرفعة والعظمة.

القيد الخامس: قوله: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ اعلم أن القيد الرابع إشارة إلى الخشية من الله وهذا القيد الخامس إشارة إلى الخوف والخشية وسوء الحساب، وهذا يدل على أن المراد من الخشية من الله ما ذكرناه من خوف الجلال والمهابة والعظمة وإلا لزم التكرار.

القيد السادس: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ فيدخل فيه الصبر على فعل العبادات والصبر على ثقل الأمراض والمضار، والغموم والأحزان، والصبر على ترك المشتهيات وبالجملة الصبر على ترك المعاصي وعلى أداء الطاعات. ثم إن الإنسان قد يقدم على الصبر لوجوه:

أحدها: أن يصبر ليقال ما أكمل صبره وأشد قوته على تحمل النوازل.

وثانيها: أن يصبر لئلا يعاب بسبب الجزع.

وثالثها: أن يصبر لئلا تحصل شماتة الأعداء.

ورابعها: أن يصبر لعلمه بأن لا فائدة في الجزع فالإنسان إذا أتى بالصبر لأحد هذه الوجوه لم يكن ذلك داخلاً في كمال النفس وسعادة القلب، أما إذا صبر على البلاء لعلمه بأن ذلك البلاء قسمة حكم بها القسام العلام المنزه عن العيب والباطل والسفه، بل لا بد أن تكون تلك القسمة

مشتملة على حكمة بالغة ومصلحة راجحة ورضي بذلك، لأنه تصرف المالك في ملكه ولا اعتراض على المالك في أن يتصرف في ملكه أو يصبر لأنه صار مستغرقًا في مشاهدة المبلي فكان استغراقه في تجلي نور المبلي أذهله على التألم بالبلاء وهذا أعلى مقامات الصديقين، فهذه الوجوه الثلاثة هي التي يصدق عليها أنه صبر ابتغاء وجه ربه ومعناه أنه صبر لمجرد ثوابه، وطلب رضا الله تعالى.

واعلم أن قوله: ﴿ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ فيه دقيقة، وهي أن العاشق إذا ضربه معشوقه، فربما نظر العاشق لذلك الضارب وفرح به فقوله: ﴿ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ محمول على هذا المجاز، يعني كما أن العاشق يرضى بذلك الضرب لالتذاذه بالنظر إلى وجه معشوقه، فكذلك العبد يصبر على البلاء والمحنة، ويرضى به لاستغراقه في معرفة نور الحق وهذه دقيقة لطيفة.

القيد السابع: قوله: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

واعلم أن الصلاة والزكاة وإن كانتا داخلتين في الجملة الأولى إلا أنه تعالى أفردها بالذكر تنبيهًا على كونها أشرف من سائر العبادات وقد سبق في هذا الكتاب تفسير إقامة الصلاة ولا يمتنع إدخال النوافل فيه أيضًا.

القيد الثامن: قوله تعالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال الحسن: المراد الزكاة المفروضة فإن لم يتهم بترك أداء الزكاة فالأولى أداؤها سرًا وإن اتهم بترك الزكاة فالأولى أداؤها في العلانية. وقيل السر: ما يؤديه بنفسه والعلانية: ما يؤديه إلى الإمام، وقال آخرون: بل المراد الزكاة الواجبة والصدقة التي يؤتى بها على صفة التطوع فقوله: ﴿سِرًّا﴾ يرجع إلى التطوع وقوله: ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ يرجع إلى الزكاة الواجبة.

المسألة الثانية: قالت المعتزلة: إنه تعالى رغب في الانفاق من كل ما كان رزقًا، وذلك يدل على أنه لا رزق إلا الحلال إذ لو كان الحرام رزقًا لكان قد رغب تعالى في إنفاق الحرام وأنه لا يجوز.

القيد التاسع: قوله: ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ **وفيه وجهان:**

الأول: أنهم إذا أتوا بمعصية درؤها ودفعوها بالتوبة كما روي أن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل: «**إِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَاعْمَلْ بِجَنْبِهَا حَسَنَةً تَمْحُهَا**»(١).

---

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه الطبراني في (الكبير) (٢٠/ ١٧٥) حديث رقم/ ٣٧٤، وهناد في (الزهد) (٢/ ٥٣١) حديث رقم/ ١٠٩٢، وابن أبي شيبة في مصنفه (١١/ ٢٣٥) حديث رقم/ ٣٥٤٦٦، جميعا من طريق مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو سَلَمَةَ، قَالَ: قَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: أَيْ رَسُولَ اللهِ، أَوْصِنِي، وأورده الهيثمي في (المجمع) (٤/ ٢١٨)، وقال: رواه الطبراني وأبو سلمة لم يدرك معاذا ورجاله ثقات (قلت) يعني إسناد منقطع.

والثاني: أن المراد أنهم لا يقابلون الشر بالشر بل يقابلون الشر بالخير كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢] وعن ابن عمر رضي الله عنهما «**ليس الوَصُول من وصل ثم وصل تلك المجازاة لكنه من قطع ثم وصل وعطف على من لم يصله، وليس الحليم من ظلم ثم حلم حتى إذا هيجه قوم اهتاج، لكن الحليم من قدر ثم عفا**». وعن الحسن: هم الذين إذا حرموا أعطوا وإذا ظلموا عفوا، ويروى أن شقيق بن إبراهيم البلخي دخل على عبد الله بن المبارك متنكرًا، فقال من أين أنت؟ فقال: من بلخ، فقال: وهل تعرف شقيقًا قال نعم، فقال: كيف طريقة أصحابه؟ فقال: إذا منعوا صبروا وإن أعطوا شكروا، فقال عبد الله: طريقة كلابنا هكذا. فقال: فكيف ينبغي أن يكون فقال الكاملون: هم الذين إذا منعوا شكروا وإذا أعطوا آثروا.

واعلم أن جملة هذه القيود التسعة هي القيود المذكورة في الشرط. أما القيود المذكورة في الجزاء فهي أربعة:

القيد الأول: قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ أي عاقبة الدار وهي الجنة، لأنها هي التي أراد الله أن تكون عاقبة الدنيا ومرجع أهلها. قال الواحدي: العقبى كالعاقبة، ويجوز أن تكون مصدرًا كالشورى والقربى والرجعى، وقد يجيء مثل هذا أيضًا على فَعلى كالنجوى والدعوى، وعلى فِعلى كالذكرى والضيزى، ويجوز أن يكون اسمًا وهو ههنا مصدر مضاف إلى الفاعل، والمعنى: أولئك لهم أن تعقب أعمالهم الدار التي هي الجنة.

القيد الثاني: قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال الزجاج: جنات عدن بدل من عقبى والكلام في جنات عدن ذكرناه مستقصى عند قوله تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ﴾ [التوبة: ٧٢] وذكرنا هناك مذهب المفسرين، ومذهب أهل اللغة.

المسألة الثانية: قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ بضم الياء وفتح الخاء على ما لم يسم فاعله والباقون بفتح الياء وضم الخاء على إسناد الدخول إليهم.

القيد الثالث: قوله: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ ابن علية (صلح) بضم اللام قال صاحب الكشاف: والفتح أفصح.

المسألة الثانية: قال الزجاج: موضع من رفع لأجل العطف على الواو في قوله ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ ويجوز أن يكون نصبًا كما تقول قد دخلوا وزيدًا أي مع زيد.

المسألة الثالثة: في قوله: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ قولان: الأول: قال ابن عباس: يريد من صدَّق بما صدقوا به وإن لم يعمل مثل أعمالهم. وقال الزجاج: بين تعالى أن الأنساب لا تنفع إذا لم يحصل معها أعمال صالحة بل الآباء والأزواج والذريات لا يدخلون الجنة إلا بالأعمال

الصالحة. قال الواحدي: والصحيح ما قال ابن عباس، لأن الله تعالى جعل من ثواب المطيع سروره بحضور أهله معه في الجنة وذلك يدل على أنهم يدخلونها كرامة للمطيع الآتي بالأعمال الصالحة، ولو دخلوها بأعمالهم الصالحة لم يكن في ذلك كرامة للمطيع ولا فائدة في الوعد به، إذ كل من كان مصلحًا في عمله فهو يدخل الجنة.

واعلم أن هذه الحجة ضعيفة، لأن المقصود بشارة المطيع بكل ما يزيده سرورًا وبهجة فإذا بشر الله المكلف بأنه إذا دخل الجنة فإنه يحضر معه آباؤه وأزواجه وأولاده فلا شك أنه يعظم سرور المكلف بذلك وتقوى بهجته به، ويقال: إن من أعظم موجبات سروره: هم أن يجتمعوا فيتذاكروا أحوالهم في الدنيا ثم يشكرون الله على الخلاص منها والفوز بالجنة ولذلك قال تعالى في صفة أهل الجنة إنهم يقولون: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾ [يس: ٢٦، ٢٧].

المسألة الرابعة: قوله: ﴿وَأَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ ليس فيه ما يدل على التمييز بين زوجة وزوجة، ولعل الأولى من مات عنها أو ماتت عنه، وما روي عن سودة أنه لما هم الرسول ﷺ بطلاقها قالت: دعني يا رسول الله أحشر في زمرة نسائك (١)، كالدليل على ما ذكرناه.

القيد الرابع: قوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال ابن عباس: لهم خيمة من درة مجوفة طولها فرسخ وعرضها فرسخ لها ألف باب مصاريعها من ذهب يدخلون عليهم الملائكة من كل باب يقولون لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾ على أمر الله. وقال أبو بكر الأصم: من كل باب من أبواب البر كباب الصلاة وباب الزكاة وباب الصبر ويقولون: ونعم ما أعقبكم الله بعد الدار الأولى.

واعلم أن دخول الملائكة إن حملناه على الوجه الأول فهو مرتبة عظيمة، وذلك لأن الله تعالى أخبر عن هؤلاء المطيعين أنهم يدخلون جنة الخلد، ويجتمعون بآبائهم وأزواجهم وذرياتهم على أحسن وجه، ثم إن الملائكة مع جلالة مراتبهم يدخلون عليهم لأجل التحية والإكرام عند الدخول عليهم يكرمونهم بالتحية والسلام ويبشرونهم بقوله: ﴿فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ ولا شك أن هذا غير ما يذكره المتكلمون من أن الثواب منفعة خالصة دائمة مقرونة بالإجلال والتعظيم، وعن رسول الله ﷺ أنه كان يأتي قبور الشهداء رأس كل حول فيقول: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ

---

(١) صحيح: الطبري في (تفسيره) (٢٠/ ٣٠٢)، من طريق ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير عن عائشة... به، ورواه البيهقي في (سننه الكبرى) (٧/ ٧٥)، من طريق حفص بن غياث عن هشام بن عروة عن أبيه... به، ورواه أيضا في (٧/ ٢٩٦)، وأبو نعيم في (معرفة الصحابة) (٢٢/ ٣١٥) حديث رقم/ ٦٨٠٣، كلاهما من طريق عقبة بن خالد عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة... به.

وأخرجه البخاري في (صحيحه) (٥/ ١٩٩٩) حديث رقم/ ٤٩١٤، من طريق زهير عن هشام عن أبيه عن عائشة أن سودة وهبت يومها لعائشة.

بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ» (١) والخلفاء الأربعة هكذا كانوا يفعلون، وأما إن حملناه على الوجه الثاني فتفسير الآية أن الملائكة طوائف، منهم روحانيون ومنهم كروبيون. فالعبد إذا راض نفسه بأنواع الرياضات كالصبر والشكر والمراقبة والمحاسبة، ولكل مرتبة من هذه المراتب جوهر قدسي وروح علوي يختص بتلك الصفة مزيد اختصاص؛ فعند الموت إذا أشرقت تلك الجواهر القدسية تجلت فيها من كل روح من الأرواح السماوية ما يناسبها من الصفة المخصوصة بها فيفيض عليها من ملائكة الصبر كمالات مخصوصة نفسانية لا تظهر إلا في مقام الصبر، ومن ملائكة الشكر، كمالات روحانية لا تتجلى إلا في مقام الشكر وهكذا القول في جميع المراتب.

المسألة الثانية: تمسك بعضهم بهذه الآية على أن الملك أفضل من البشر فقال: إنه سبحانه ختم مراتب سعادات البشر بدخول الملائكة عليهم على سبيل التحية والإكرام والتعظيم فكانوا به أجل مرتبة من البشر ولو كانوا أقل مرتبة من البشر لما كان دخولهم عليهم لأجل السلام والتحية موجبًا علو درجاتهم وشرف مراتبهم، ألا ترى أن من عاد من سفره إلى بيته فإذا قيل في معرض كمال مرتبته أنه يزوره الأمير والوزير والقاضي والمفتي، فهذا يدل على أن درجة ذلك المزور أقل وأدنى من درجات الزائرين فكذلك هاهنا.

المسألة الثالثة: قال الزجاج: هاهنا محذوف تقديره الملائكة يدخلون عليهم من كل باب ويقولون سلام عليكم فأضمر القول ههنا لأن في الكلام دليلاً عليه، وأما قوله: ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ ففيه وجهان: أحدهما: أنه متعلق بالسلام. والمعنى أنه إنما حصلت لكم هذه السلامة بواسطة صبركم على الطاعات، وترك المحرمات. والثاني: أنه متعلق بمحذوف، والتقدير: أن هذه الكرامات التي ترونها، وهذه الخيرات التي تشاهدونها إنما حصلت بواسطة ذلك الصبر.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر صفات السعداء وذكر ما يترتب عليها من الأحوال الشريفة العالية أتبعها بذكر حال الأشقياء، وذكر ما يترتب عليها من الأحوال المخزية المكروهة، وأتبع الوعد بالوعيد والثواب بالعقاب، ليكون البيان كاملاً فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ وقد بينا أن عهد الله ما ألزم عباده بواسطة الدلائل العقلية والسمعية لأنها أوكد من كل عهد وكل يمين إذ الأيمان إنما تفيد التوكيد بواسطة الدلائل الدالة على أنها توجب الوفاء بمقتضاها، والمراد من نقض هذه العهود أن لا ينظر المرء في الأدلة أصلاً، فحينئذ لا يمكنه العمل بموجبها أو بأن ينظر

(١) لم أجده.

فيها ويعلم صحتها ثم يعاند فلا يعمل بعمله أو بأن ينظر في الشبهة، فيعتقد خلاف الحق والمراد من قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ أي من بعد أن وثق الله تلك الأدلة وأحكمها، لأنه لا شيء أقوى مما دل الله على وجوبه في أنه ينفع فعله ويضر تركه.

فإن قيل: إذا كان العهد لا يكون إلا مع الميثاق فما فائدة اشتراطه تعالى بقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾.

قلنا: لا يمتنع أن يكون المراد بالعهد هو ما كلف الله العبد، والمراد بالميثاق الأدلة المؤكدة لأنه تعالى قد يؤكد إليك العهد بدلائل أخرى سواء كانت تلك المؤكدة دلائل عقلية أو سمعية.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ وذلك في مقابلة قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [الرعد: ٢١] فجعل من صفات هؤلاء القطع بالضد من ذلك الوصل، والمراد به قطع كل ما أوجب الله وصله ويدخل فيه وصل الرسول بالموالاة والمعاونة ووصل المؤمنين، ووصل الأرحام، ووصل سائر من له حق، ثم قال: ﴿وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وذلك الفساد هو الدعاء إلى غير دين الله وقد يكون بالظلم في النفوس والأموال وتخريب البلاد، ثم إنه تعالى بعد ذكر هذه الصفات قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾ واللعنة من الله الإبعاد من خيري الدنيا والآخرة إلى ضدهما من عذاب ونقمة: ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ لأن المراد جهنم، وليس فيها إلا ما يسوء الصائر إليها.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ٢٦﴾

اعلم أنه تعالى لما حكم على من نقض عهد الله في قبول التوحيد والنبوة بأنهم ملعونون في الدنيا ومعذبون في الآخرة فكأنه قيل: لو كانوا أعداء الله لما فتح الله عليهم أبواب النعم واللذات في الدنيا، فأجاب الله تعالى عنه بهذه الآية وهو أنه يبسط الرزق على البعض ويضيقه على البعض ولا تعلق له بالكفر والإيمان، فقد يوجد الكافر موسعًا عليه دون المؤمن، ويوجد المؤمن مضيقًا عليه دون الكافر، فالدنيا دار امتحان. قال الواحدي: معنى القدر في اللغة: قطع الشيء على مساواة غيره من غير زيادة ولا نقصان. وقال المفسرون: معنى (يقدر) ههنا يضيق، ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ﴾ [الطلاق: ٧] أي ضيق، ومعناه: أنه يعطيه بقدر كفايته لا يفضل عنه شيء.

وأما قوله: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فهو راجع إلى من بسط الله له رزقه، وبين تعالى أن ذلك لا يوجب الفرح لأن الحياة العاجلة بالنسبة إلى الآخرة كالحقير القليل بالنسبة إلى ما لا نهاية له.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾

اعلم أن الكفار قالوا: يا محمد إن كنت رسولاً فأتنا بآية ومعجزة قاهرة ظاهرة مثل معجزات موسى وعيسى عليهما السلام. فأجاب عن هذا السؤال بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ وبيان كيفية هذا الجواب من وجوه: أحدها: كأنه تعالى يقول: إن الله أنزل عليه آيات ظاهرة ومعجزات قاهرة، ولكن الإضلال والهداية من الله، فأضلكم عن تلك الآيات القاهرة الباهرة، وهدى أقوامًا آخرين إليها، حتى عرفوا بها صدق محمد ﷺ في دعوى النبوة، وإذا كان كذلك فلا فائدة في تكثير الآيات والمعجزات، وثانيها: أنه كلام يجري مجرى التعجب من قولهم وذلك لأن الآيات الباهرة المتكاثرة التي ظهرت على رسول الله ﷺ كانت أكثر من أن تصير مشتبهة على العاقل، فلما طلبوا بعدها آيات أخرى كان موضعًا للتعجب والاستنكار، فكأنه قيل لهم: ما أعظم عنادكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ من كان على صفتكم من التصميم وشدة الشكيمة على الكفر فلا سبيل إلى اهتدائكم وإن أنزلت كل آية ﴿وَيَهْدِىٓ﴾ من كان على خلاف صفتكم. وثالثها: أنهم لما طلبوا سائر الآيات والمعجزات فكأنه قيل لهم لا فائدة في ظهور الآيات والمعجزات، فإن الإضلال والهداية من الله فلو حصلت الآيات الكثيرة ولم تحصل الهداية فإنه لم يحصل الانتفاع بها ولو حصلت آية واحدة فقط وحصلت الهداية من الله فإنه يحصل الانتفاع بها فلا تشتغلوا بطلب الآيات ولكن تضرعوا إلى الله في طلب الهدايات. ورابعها: قال أبو علي الجبائي: المعنى إن الله يضل من يشاء عن رحمته وثوابه عقوبة له على كفره فلستم ممن يجيبه الله تعالى إلى ما يسأل لاستحقاقكم العذاب والإضلال عن الثواب: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أي يهدي إلى جنته من تاب وآمن قال وهذا يبين أن الهدى هو الثواب من حيث أنه عقبه بقوله: ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ أي تاب والهدى الذي يفعله بالمؤمن هو الثواب، لأنه يستحقه على إيمانه، وذلك يدل على أنه تعالى إنما يضل عن الثواب بالعقاب، لا عن الدين بالكفر على ما ذهب إليه من خالفنا. هذا تمام كلام أبي علي وقوله: (أناب) أي أقبل إلى الحق وحقيقته دخل في نوبة الخير.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾

اعلم أن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بدل من قوله: ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ قال ابن عباس: يريد إذا سمعوا القرآن خشعت قلوبهم واطمأنت.

فإن قيل: أليس أنه تعالى قال في سورة الأنفال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾

[الأنفال: ٢] والوجل ضد الاطمئنان، فكيف وصفهم ههنا بالاطمئنان؟

والجواب من وجوه: الأول، أنهم إذا ذكروا العقوبات ولم يأمنوا من أن يقدموا على المعاصي فهناك وصفهم بالوجل، وإذا ذكروا وعده بالثواب والرحمة، سكنت قلوبهم إلى ذلك، وأحد الأمرين لا ينافي الآخر، لأن الوجل هو بذكر العقاب والطمأنينة بذكر الثواب، ويوجد الوجل في حال فكرهم في المعاصي، وتوجد الطمأنينة عند اشتغالهم بالطاعات. الثاني: أن المراد: أن علمهم بكون القرآن معجزًا يوجب حصول الطمأنينة لهم في كون محمد ﷺ نبيًا حقًا من عند الله. أما شكهم في أنهم أتوا بالطاعات على سبيل التمام والكمال فيوجب حصول الوجل في قلوبهم. الثالث: أنه حصلت في قلوبهم الطمأنينة في أن الله تعالى صادق في وعده ووعيده، وأن محمدًا ﷺ صادق في كل ما أخبر عنه، إلا أنه حصل الوجل والخوف في قلوبهم أنهم هل أتوا بالطاعة الموجبة للثواب أم لا، وهل احترزوا عن المعصية الموجبة للعقاب أم لا.

واعلم أن لنا في قوله: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ أبحاثًا دقيقة غامضة وهي من وجوه:

الوجه الأول: أن الموجودات على ثلاثة أقسام: مؤثر لا يتأثر، ومتأثر لا يؤثر، وموجود يؤثر في شيء ويتأثر عن شيء، فالمؤثر الذي لا يتأثر هو الله سبحانه وتعالى، والمتأثر الذي لا يؤثر هو الجسم، فإنه ذات قابلة للصفات المختلفة والآثار المتنافية، وليس له خاصية إلا القبول فقط. وأما الموجود الذي يؤثر تارة ويتأثر أخرى، فهي الموجودات الروحانية، وذلك لأنها إذا توجهت إلى الحضرة الإلهية صارت قابلة للآثار الفائضة عن مشيئة الله تعالى وقدرته وتكوينه وإيجاده وإذا توجهت إلى عالم الأجسام اشتقات إلى التصرف فيها، لأن عالم الأرواح مدبر لعالم الأجسام. وإذا عرفت هذا فالقلب كلما توجه إلى مطالعة عالم الأجسام حصل فيه الاضطراب والقلق والميل الشديد إلى الاستيلاء عليها والتصرف فيها، أما إذا توجه القلب إلى مطالعة الحضرة الإلهية حصل فيه أنوار الصمدية والأضواء الإلهية، فهناك يكون ساكنًا فلهذا السبب قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾.

الوجه الثاني: أن القلب كلما وصل إلى شيء فإنه يطلب الانتقال منه إلى حالة أخرى أشرف منها، لأنه لا سعادة في عالم الأجسام إلا وفوقها مرتبة أخرى في اللذة والغبطة. أما إذا انتهى القلب والعقل إلى الاستسعاد بالمعارف الإلهية والأضواء الصمدية بقي واستقر فلم يقدر على الانتقال منه ألبتة، لأنه ليس هناك درجة أخرى في السعادة أعلى منها وأكمل؛ فلهذا المعنى قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾.

والوجه الثالث: في تفسير هذه الكلمة أن الإكسير إذا وقعت منه ذرة على الجسم النحاسي انقلب ذهبًا باقيًا على كر الدهور والأزمان، صابرًا على الذوبان الحاصل بالنار، فإكسير جلال الله تعالى إذا وقع في القلب أولى أن يقلبه جوهرًا باقيًا صافيًا نورانيًا لا يقبل التغيير والتبدل، فلهذا قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ۝٢٩﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في تفسير كلمة ﴿طُوبَىٰ﴾.

ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنها اسم شجرة في الجنة، روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**طُوبَى شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ غَرَسَهَا اللَّهُ بِيَدِهِ تُنْبِتُ الْحُلِيَّ وَالْحُلَلَ وَإِنَّ أَغْصَانَهَا لِتُرَى مِنْ وَرَاءِ سُورِ الْجَنَّةِ**»[1]، وحكى أبو بكر الأصم رضي الله عنه: أن أصل هذه الشجرة في دار النبي ﷺ وفي دار كل مؤمن منها غصن.

والقول الثاني: وهو قول أهل اللغة إن طوبى مصدر من طاب، كبشرى وزلفى، ومعنى طوبى لك، أصبت طيبًا، ثم اختلفوا على وجوه: فقيل: فرح وقرة عين لهم. عن ابن عباس رضي الله عنهما وقيل: نعم ما لهم عن عكرمة، وقيل غبطة لهم عن الضحاك. وقيل: حسنى لهم عن قتادة. وقيل: خير وكرامة عن أبي بكر الأصم، وقيل: العيش الطيب لهم عن الزجاج. واعلم أن المعاني متقاربة والتفاوت يقرب من أن يكون في اللفظ. والحاصل أنه مبالغة في نيل الطيبات ويدخل فيه جميع اللذات، وتفسيره أن أطيب الأشياء في كل الأمور حاصل لهم.

والقول الثالث: أن هذه اللفظة ليست عربية، ثم اختلفوا فقال بعضهم: طوبى اسم الجنة بالحبشية، وقيل اسم الجنة بالهندية. وقيل البستان بالهندية، وهذا القول ضعيف، لأنه ليس في القرآن إلا العربي لا سيما واشتقاق هذا اللفظ من اللغة العربية ظاهر.

المسألة الثانية: قال صاحب (الكشاف): ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مبتدأ و ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ خبره، ومعنى طوبى لك أي أصبت طيبًا، ومحلها النصب أو الرفع، كقولك طيبًا لك وطيب لك وسلامًا لك وسلام لك، والقراءة في قوله: ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ بالرفع والنصب تدلك على محلها، وقرأ مكوزة

(١) الطبري في (تفسيره) (١٦/ ٤٤٣) حديث رقم/ ٢٠٣٩٤، قال حديث الحسن بن شبيب قال حدثنا محمد بن زياد الجزري عن فرات بن أبي الفرات عن معاوية بن قرة عن أبيه... به، وفي إسناده (الحسن بن شبيب بن راشد)، شيخ الطبري، سلف برقم: ٩٦٤٢، ١١٣٨٣، قال ابن عدي، (حدث عن الثقات بالبواطيل، ووصل أحاديث هي مرسلة)، و(محمد بن زياد الجزري)، لعله هو (الرقي)، لأن الرقة معددة من الجزيرة. وهو (محمد بن زياد اليشكري الطحان، الميمون الرقي)، وهو كذاب خبيث يضع الحديث، روى عن شيخه الميمون بن مهران وغيره الموضوعات. مترجم في التهذيب، وتاريخ بغداد ٥: ٢٧٩، وابن أبي حاتم ٣/ ٢/ ٢٥٨، وميزان الاعتدال ٣: ٦٠، و(فرات بن أبي الفرات)، قال ابن أبي حاتم: (صدوق، لابأس به)، وذكره ابن حبان في الثقات قال: (هو حسن الاستقامة والروايات)، ولم يذكر البخاري فيه جرحًا (ولكن قال يحي بن معين ليس بشيء)، وقال ابن عدي: (الضعف بيّن على رواياته)، وقال الساجي (ضعيف، يحدث بأحاديث فيها بعض المناكير). مترجم في (الكبير) (٤/ ١/ ١٢٩)، وابن أبي حاتم (٣/ ٢/ ٨٠)، و(ميزان الاعتدال) (٢: ٣١٦)، و(لسان الميزان) (٤: ٤٣٢)، وهذا خبر هالك الإسناد، وحسبه ما فيه من أمر (محمد بن زياد)، ولم أجده عند غير الطبري.

الأعرابي (طيب لهم). أما قوله: ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ فالمراد حسن المرجع والمقر وكل ذلك وعد من الله بأعظم النعيم ترغيبًا في طاعته وتحذيرًا عن المعصية.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾

اعلم أن الكاف في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ للتشبيه فقيل وجه التشبيه أرسلناك كما أرسلنا الأنبياء قبلك في أمة قد خلت من قبلها أمم، وهو قول ابن عباس والحسن وقتادة، وقيل: كما أرسلنا إلى أمم وأعطيناهم كتبًا تتلى عليهم، كذلك أعطيناك هذا الكتاب وأنت تتلوه عليهم فلماذا اقترحوا غيره، وقال صاحب (الكشاف): ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ أي مثل ذلك الإرسال ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾ يعني أرسلناك إرسالاً له شأن وفضل على سائر الإرسالات. ثم فسر كيف أرسله فقال: ﴿فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ أي أرسلناك في أمة قد تقدمتها أمم فهي آخر الأمم وأنت آخر الأنبياء.

أما قوله: ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ فالمراد: لتقرأ عليهم الكتاب العظيم الذي أوحينا إليك: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي وحال هؤلاء أنهم يكفرون بالرحمن الذي رحمته وسعت كل شيء وما بهم من نعمة فمنه، وكفروا بنعمته في إرسال مثلك إليهم وإنزال هذا القرآن المعجز عليهم ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى﴾ الواحد المتعالي عن الشركاء: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في نصرتي عليكم ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ فيعينني على مصابرتكم ومجاهدتكم قيل: نزل قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ في عبد الله بن أمية المخزومي وكان يقول أما الله فنعرفه، وأما الرحمن فلا نعرفه، إلا صاحب اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب فقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] وكقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠] وقيل: إنه عليه السلام حين صالح قريشًا من الحديبية كتب: «**هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ**» فقال المشركون: إن كنت رسول الله وقد قاتلناك فقد ظلمنا. ولكن اكتب، هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، فكتب كذلك، ولما كتب في الكتاب: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قالوا: أما الرحمن فلا نعرفه، وكانوا يكتبون باسمك اللهم، فقال عليه السلام: «**اكتبوا كما تُرِيدُونَ**»[(١)]. واعلم أن قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ إذا حملناه على هاتين الروايتين كان معناه أنهم كفروا بإطلاق هذا الإسم على الله تعالى، لا أنهم كفروا بالله تعالى. وقال آخرون: بل كفروا بالله إما جحدًا له وإما لإثباتهم الشركاء معه. قال القاضي: وهذا القول أليق

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٣/ ١٤١١/ ١٧٨٤)، قال حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة... به، وأحمد في (مسنده) (٣/ ٢٦٨) حديث رقم/ ١٣٨٥٤، قال حدثنا عفان... به، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٤/ ٤٣٩) حديث رقم/ ٣٨٠٠٣، من طريق حماد عن ثابت عن أنس... به.

بالظاهر، لأن قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ يقتضي أنهم كفروا بالله وهو المفهوم من الرحمن، وليس المفهوم منه الاسم كما لو قال قائل: كفروا بمحمد وكذبوا به لكان المفهوم هو، دون اسمه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾

اعلم أنه روي أن أهل مكة قعدوا في فناء مكة، فأتاهم الرسول ﷺ وعرض الإسلام عليهم، فقال له عبد الله بن أمية المخزومي: سير لنا جبال مكة حتى ينفسخ المكان علينا واجعل لنا فيها أنهارًا نزرع فيها، أو أَحْيِ لنا بعض أمواتنا لنسألهم أحق ما تقول أو بطال، فقد كان عيسى يحيي الموتى، أو سخر لنا الريح حتى نركبها ونسير في البلاد فقد كانت الريح مسخرة لسليمان فلست بأهون على ربك من سليمان، فنزل قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي من أماكنها ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي شققت فجعلت أنهارًا وعيونًا ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لكان هو هذا القرآن الذي أنزلناه عليك. وحذف جواب (لو) لكونه معلومًا، وقال الزجاج: المحذوف هو أنه ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ وكذا وكذا لما آمنوا به كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الأنعام: ١١١].

ثم قال تعالى: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ يعني إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل، وليس لأحد أن يتحكم عليه في أفعاله وأحكامه. ثم قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ﴾ قولان:

القول الأول: أفلم يعلموا وعلى هذا التقدير ففيه وجهان:

الوجه الأول: ﴿يَاْيْـَٔسُ﴾ يعلم في لغة النخع وهذا قول أكثر المفسرين مثل مجاهد والحسن وقتادة. واحتجوا عليه بقول الشاعر:

أَلَـمْ يَـيْـأَسِ الْأَقْـوَامُ أَنِّـي أَنَـا ابْـنُـهُ ... إِنْ كُنْتَ عَنْ أَرْضِ الْعَشِيرَةِ نَائِيًا[1]

---

(١) وجدت هذا البيت ضمن قصيدة للشاعر أحمد فارس الشدياق وهو أحمد فارس بن يوسف بن منصور الشدياق، ١٢١٩- ١٣٠٤هـ/ ١٨٠٤- ١٨٨٧م، عالم باللغة والأدب، ولد في قرية عشقوت (بلبنان) وأبواه مسيحيان مارونيان سمياه فارساً، ورحل إلى مصر فتلقى الأدب من علمائها، ورحل إلى مالطا فأدار فيها أعمال المطبعة=

وأنشد أبو عبيدة:

أَقُولُ لَهُمْ بِالشِّعْبِ إِذْ يَأْسِرُونَنِي   أَلَمْ تَيْأَسُوا أَنِّي ابْنُ فَارِسِ زَهْدَمِ

أي ألم تعلموا. وقال الكسائي: ما وجدت العرب تقول يئست بمعنى علمت ألبته.

والوجه الثاني: ما روي أن عليًا وابن عباس كانا يقرآن: (أَفَلَمْ يأس ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟) فقيل لابن عباس (أفلم ييأس) فقال: أظن أن الكاتب كتبها وهو ناعس أنه كان في الخط يأس فزاد الكاتب سنة واحدة فصار ييأس فقرىء ييأس وهذا القول بعيد جدًا لأنه يقتضي كون القرآن محلاً للتحريف والتصحيف وذلك يخرجه عن كونه حجة.

قال صاحب (الكشاف): ما هذا القول والله إلا فرية بلا مرية.

والقول الثاني: قال الزجاج: المعنى أو يئس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء لأن الله لو شاء لهدى الناس جميعًا. وتقريره أن العلم بأن الشيء لا يكون يوجب اليأس من كونه والملازمة توجب حسن المجاز، فلهذا السبب حسن إطلاق لفظ اليأس لإرادة العلم.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا بقوله: ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ وكلمة (لو) تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره. والمعنى: أنه تعالى ما شاء هداية جميع الناس، والمعتزلة تارة يحملون هذه المشيئة على مشيئة الإلجاء، وتارة يحملون الهداية على الهداية إلى طريق الجنة، وفيهم من يجري الكلام على الظاهر، ويقول إنه تعالى ما شاء هداية جميع الناس لأنه ما شاء هداية الأطفال والمجانين فلا يكون شائيًا لهداية جميع الناس.

والكلام في هذه المسألة قد سبق مرارًا.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾.

ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

فيه قولان:

القول الأول: قيل: أراد به جميع الكفار لأن الوقائع الشديدة التي وقعت لبعض الكفار من القتل والسبي أوجب حصول الغم في قلب الكل، وقيل: أراد بعض الكفار وهم جماعة معينون والألف واللام في لفظ الكفار للمعهود السابق وهو ذلك الجمع المعين.

المسألة الثانية: في الآية وجهان. الأول: ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا من كفرهم وسوء أعمالهم قارعة داهية تقرعهم بما يحل الله بهم في كل وقت من صنوف البلايا والمصائب في نفوسهم وأولادهم وأموالهم، أو تحل القارعة قريبًا منهم، فيفزعون ويضطربون

=الأميركانية، وتنقل في أوروبا ثم سافر إلى تونس فاعتنق فيها الدين الإسلامي وتسمى (أحمد فارس) فدعي إلى الآستانة فأقام بضع سنوات، ثم أصدر بها جريدة (الجوائب) سنة ١٢٧٧هـ فعاشت ٢٣ سنة، وتوفي بالأستانة، ونقل جثمانه إلى لبنان.

ويتطاير إليهم شرارها، ويتعدى إليهم شرورها حتى يأتي وعد الله وهو موتهم أو القيامة.

والقول الثاني: ولا يزال كفار مكة تصيبهم بما صنعوا برسول الله ﷺ من العداوة والتكذيب قارعة، لأن رسول الله ﷺ كان لا يزال يبعث السرايا فتغير حول مكة وتختطف منهم وتصيب مواشيهم، أو تحل أنت يا محمد قريبًا من دارهم بجيشك كما حل بالحديبية حتى يأتي وعد الله وهو فتح مكة، وكان الله قد وعده ذلك.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ والغرض منه تقوية قلب الرسول ﷺ وإزالة الحزن عنه. قال القاضي: وهذا يدل على بطلان قول من يجوز الخلف على الله تعالى في ميعاده، وهذه الآية وإن كانت واردة في حق الكفار إلا إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، إذ بعمومه يتناول كل وعيد ورد في حق الفساق.

وجوابنا: أن الخلف غير، وتخصيص العموم غير، ونحن لا نقول بالخلف، ولكنا نخصص عمومات الوعيد بالآيات الدالة على العفو.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾ لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴿٣٤﴾﴾

اعلم أن القوم لما طلبوا سائر المعجزات من الرسول ﷺ على سبيل الاستهزاء والسخرية وكان ذلك يشق على رسول الله ﷺ وكان يتأذى من تلك الكلمات فالله تعالى أنزل هذه الآية تسلية له وتصبيرًا له على سفاهة قومه فقال له إن أقوام سائر الأنبياء استهزؤا بهم كما أن قومك يستهزئون بك: ﴿فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي أطلت لهم المدة بتأخير العقوبة ثم أخذتهم فكيف كان عقابي لهم.

واعلم أني سأنتقم من هؤلاء الكفار كما انتقمت من أولئك المتقدمين والإملاء الإمهال وأن يتركوا مدة من الزمان في خفض وأمن كالبهيمة يملى لها في المرعى، وهذا وعيد لهم وجواب عن اقتراحهم الآيات على رسول الله ﷺ على سبيل الاستهزاء، ثم إنه تعالى أورد على المشركين ما يجري مجرى الحجاج وما يكون توبيخًا لهم وتعجيبًا من عقولهم فقال: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ﴾ والمعنى: أنه تعالى قادر على كل الممكنات عالم بجميع المعلومات من الجزئيات والكليات وإذا كان كذلك كان عالمًا بجميع أحوال النفوس، وقادرًا على تحصيل مطالبها من تحصيل المنافع ودفع المضار ومن إيصال الثواب إليها على كل

الطاعات، وإيصال العقاب إليها على كل المعاصي. وهذا هو المراد من قوله: ﴿قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ وما ذاك إلا الحق سبحانه ونظيره قوله تعالى: ﴿قَآئِمًا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨].

واعلم أنه لا بد لهذا الكلام من جواب واختلفوا فيه على وجوه:

الوجه الأول: التقدير: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ كمن ليس بهذه الصفة؟ وهي الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، وهذا الجواب مضمر في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ والتقدير: أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت كشركائهم التي لا تضر ولا تنفع، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢] وما جاء جوابه لأنه مضمر في قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢] فكذا ههنا، قال صاحب (الكشاف): يجوز أن يقدر ما يقع خبرًا للمبتدأ، أو يعطف عليه قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟﴾ والتقدير: أفمن هو بهذه الصفة لم يوحدوه ولم يمجدوه وجعلوا له شركاء.

الوجه الثاني: وهو الذي ذكره السيد صاحب (حل العقد) فقال: نجعل الواو في قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟﴾ واو الحال ونضمر للمبتدأ خبرًا يكون المبتدأ معه جملة مقررة لإمكان ما يقارنها من الحال، والتقدير: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ موجود. والحال أنهم جعلوا له شركاء ثم أقيم الظاهر وهو قوله (لله) مقام المضمر تقريرًا للإلهية وتصريحًا بها، وهذا كما تقول: جواد يعطي الناس ويغنيهم موجود ويحرم مثلي.

واعلم أنه تعالى لما قرر هذه الحجة زاد في الحجاج فقال: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ وإنما يقال ذلك في الأمر المستحقر الذي بلغ في الحقارة إلى أن لا يذكر ولا يوضع له اسم، فعند ذلك يقال: سمه إن شئت. يعني أنه أخس من أن يسمى ويذكر، ولكنك إن شئت أن تضع له اسمًا فافعل، فكأنه تعالى قال: سموهم بالآلهة على سبيل التهديد، والمعنى: سواء سميتموهم بهذا الاسم أو لم تسموهم به، فإنها في الحقارة بحيث لا تستحق أن يلتفت العاقل إليها، ثم زاد في الحجاج فقال: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ والمراد: أتقدرون على أن تخبروه وتعلموه بأمر تعلمونه وهو لا يعلمه، وإنما خص الأرض بنفي الشريك عنها، وإن لم يكن شريك ألبته، لأنهم ادعوا أن له شركاء في الأرض لا في غيرها ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ يعني تموهون بإظهار قول لا حقيقة له، وهو كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٠] ثم إنه تعالى بين بعد هذا الحجاج سوء طريقتهم فقال على وجه التحقير لما هم عليه: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ﴾ قال الواحدي: معنى (بل) ههنا كأنه يقول: دع ذكر ما كنا فيه زين لهم مكرهم، وذلك لأنه تعالى لما ذكر الدلائل على إفساد قولهم، فكأنه يقول: دع ذكر الدليل فإنه لا فائدة فيه، لأنه زين لهم كفرهم ومكرهم فلا ينتفعون بذكر هذه الدلائل. قال القاضي: لا شبهة في أنه تعالى إنما ذكر ذلك لأجل أن يذمهم به، وإذا كان كذلك امتنع أن يكون ذلك المزين هو الله، بل لا بد وأن يكون إما شياطين الإنس وإما شياطين الجن.

واعلم أن هذا التأويل ضعيف لوجوه: **الأول:** أنه لو كان المزين أحد شياطين الجن أو الإنس فالمزين في قلب ذلك الشيطان إن كان شيطانًا آخر لزم التسلسل، وإن كان هو الله فقد زال السؤال، **والثاني:** أن يقال: القلوب لا يقدر عليها إلا الله. **والثالث:** أنا قد دللنا على أن ترجيح الداعي لا يحصل إلا من الله تعالى وعند حصوله يجب الفعل.

أما قوله: ﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾ فاعلم أنه قرأ عاصم وحمزة والكسائي (وَصُدُّوا) بضم الصاد وفي حم ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٦٧] على ما لم يسم فاعله بمعنى أن الكفار صدهم غيرهم، وعند أهل السنة أن الله صدهم.

وللمعتزلة فيه وجهان: قيل الشيطان، وقيل أنفسهم وبعضهم لبعض كما يقال: فلان معجب وإن لم يكن ثمة غيره وهو قول أبي مسلم والباقون، وصدوا بفتح الصاد في السورتين يعني أن الكفار صدوا عن سبيل الله، أي أعرضوا وقيل: صرفوا غيرهم، وهو لازم ومتعد، وحجة القراءة الأولى مشاكلتها لما قبلها من بناء الفعل للمفعول، وحجة القراءة الثانية قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٦٧].

ثم قال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ اعلم أن أصحابنا تمسكوا بهذه الآية من وجوه: **أولها:** قوله: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ﴾ وقد بينا بالدليل أن ذلك المزين هو الله. **وثانيها:** قوله: ﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾ بضم الصاد، وقد بينا أن ذلك الصاد هو الله. **وثالثها:** قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ وهو صريح في المقصود وتصريح بأن ذلك المزين وذلك الصاد ليس إلا الله. **ورابعها:** قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّۖ﴾ أخبر عنهم أنهم سيقعون في عقاب الآخرة وإخبار الله ممتنع التغير وإذا امتنع وقوع التغير في هذا الخبر، امتنع صدور الإيمان منه وكل هذه الوجوه قد لخصناها في هذا الكتاب مرارًا، قال القاضي: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ أي عن ثواب الجنة لكفره وقوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ منبيء بذلك أن الثواب لا ينال إلا بالطاعة خاصة فمن زاغ عنها لم يجد إليها سبيلا، وقيل: المراد بذلك من حكم بأنه ضال وسماه ضالاً، وقيل المراد من يضلله الله عن الإيمان بأن يجده كذلك، ثم قال والوجه الأول أقوى.

واعلم أن الوجه الأول ضعيف جدًا لأن الكلام إنما وقع في شرح إيمانهم وكفرهم في الدنيا ولم يجر ذكر ذهابهم إلى الجنة ألبتة فصرف الكلام على المذكور إلى غير المذكور بعيد. وأيضًا فهب أنا نساعد على أن الأمر كما ذكروه، إلا أنه تعالى لما أخبر أنهم لا يدخلون الجنة فقد حصل المقصود لأن خلاف معلوم الله ومخبره محال ممتنع الوقوع.

واعلم أنه تعالى لما أخبر عنهم بتلك الأمور المذكورة بين أنه جمع لهم بين عذاب الدنيا، وبين عذاب الآخرة الذي هو أشق، وأنه لا دافع لهم عنه لا في الدنيا ولا في الآخرة. أما عذاب الدنيا فبالقتل، والقتال، واللعن، والذم، والإهانة، وهل يدخل المصائب والأمراض في ذلك أم

لا؟ اختلفوا فيه، قال بعضهم: إنها تدخل فيه، وقال بعضهم: إنها لا تكون عقابًا، لأن كل أحد نزلت به مصيبة فإنه مأمور بالصبر عليها، ولو كان عقابًا لم يجب ذلك، فالمراد على هذا القول من الآية القتل، والسبيء، واغتنام الأموال، واللعن، وإنما قال: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ لأنه أزيد إن شئت بسبب القوة والشدة، وإن شئت بسبب كثرة الأنواع، وإن شئت بسبب أنه لا يختلط بها شيء من موجبات الراحة، وإن شئت بسبب الدوام وعدم الانقطاع، ثم بين بقوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ أي أن أحدًا لا يقيهم ما نزل بهم من عذاب الله. قال الواحدي: أكثر القراء وقفوا على القاف من غير إثبات ياء في قوله: ﴿وَاقٍ﴾ وكذلك في قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ وكذلك في قوله: ﴿وَالٍ﴾ [الرعد: ١١] وهو الوجه لأنك تقول في الوصل: هذا هاد ووال وواق، فتحذف الياء لسكونها والتقائها مع التنوين، فإذا وقفت انحذف التنوين في الوقف في الرفع والجر، والياء كانت انحذفت فيصادف الوقف الحركة التي هي كسرة في غير فاعل فتحذفها كما تحذف سائر الحركات التي تقف عليها فيصير هاد، ووال، وواق. وكان ابن كثير يقف بالياء في هادي ووالي وواقي ووجهه ما حكى سيبويه أن بعض من يوثق به من العرب يقول: هذا داعي فيقفون بالياء.

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما ذكر عذاب الكفار في الدنيا والآخرة، أتبعه بذكر ثواب المتقين وفي قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أقوال: **الأول:** قال سيبويه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ مبتدأ وخبره محذوف والتقدير: فيما قصصنا عليكم مثل الجنة. **والثاني:** قال الزجاج: مثل الجنة جنة من صفتها كذا وكذا. والثالث: مثل الجنة مبتدأ وخبره تجري من تحتها الأنهار، كما تقول صفة زيد اسم. والرابع: الخبر هو قوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ لأنه الخارج عن العادة كأنه قال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ كما تعلمون من حال جناتكم إلا أن هذه أكلها دائم.

المسألة الثانية: اعلم أنه تعالى وصف الجنة بصفات ثلاث: **أولها:** تجري من تحتها الأنهار. **وثانيها:** أن أكلها دائم. والمعنى: أن جنات الدنيا لا يدوم ورقها وثمرها ومنافعها. أما جنات الآخرة فثمارها دائمة غير منقطعة. **وثالثها:** أن ظلها دائم أيضًا، والمراد أنه ليس هناك حر ولا برد ولا شمس ولا قمر ولا ظلمة ونظيره قوله تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣] ثم إنه تعالى لما وصف الجنة بهذه الصفات الثلاثة بين أن ذلك عقبى الذين اتقوا يعني عاقبة أهل التقوى هي الجنة، وعاقبة الكافرين النار. وحاصل الكلام من هذه الآية أن ثواب المتقين منافع خالصة عن الشوائب موصوفة بصفة الدوام.

واعلم أن قوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ .

فيه مسائل ثلاث:

المسألة الأولى : أنه يدل على أن أكل الجنة لا تفنى كما يحكى عن جهم وأتباعه .

المسألة الثانية : أنه يدل على أن حركات أهل الجنة لا تنتهي إلى سكون دائم ، كما يقوله أبو الهذيل وأتباعه .

المسألة الثالثة : قال القاضي : هذه الآية تدل على أن الجنة لم تخلق بعد ، لأنها لو كانت مخلوقة لوجب أن تفنى وأن ينقطع أكلها لقوله تعالى : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦] . و﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] لكن لا ينقطع أكلها لقوله تعالى : ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ فوجب أن لا تكون الجنة مخلوقة . ثم قال : فلا ننكر أن يحصل الآن في السموات جنات كثيرة يتمتع بها الملائكة ومن يعد حيًا من الأنبياء والشهداء وغيرهم على ما روي في ذلك ، إلا أن الذي نذهب إليه أن جنة الخلد خاصة إنما تخلق بعد الإعادة .

والجواب: أن دليلهم مركب من آيتين : أحدهما : قوله : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ والأخرى قوله : ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ فإذا أدخلنا التخصيص في أحد هذين العمومين سقط دليلهم فنحن نخصص أحد هذين العمومين بالدلائل الدالة على أن الجنة مخلوقة ، وهو قوله تعالى : ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] .

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾

اعلم أن في المراد بالكتاب قولين : الأول : أنه القرآن والمراد أن أهل القرآن يفرحون بما أنزل على محمد من أنواع التوحيد والعدل والنبوة والبعث والأحكام والقصص ، ومن الأحزاب الجماعات من اليهود والنصارى وسائر الكفار من ينكر بعضه وهو قول الحسن وقتادة .

فإن قيل: الأحزاب ينكرون كل القرآن .

قلنا: الأحزاب لا ينكرون كل ما في القرآن ، لأنه ورد فيه إثبات الله تعالى وإثبات علمه وقدرته وحكمته وأقاصيص الأنبياء ، والأحزاب ما كانوا ينكرون كل هذه الأشياء .

والقول الثاني: إن المراد بالكتاب التوراة والإنجيل ، وعلى هذا التقدير ففي الآية قولان : الأول : قال ابن عباس : الذين آتيناهم الكتاب هم الذين آمنوا بالرسول ﷺ من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب وأصحابهما ومن أسلم من النصارى وهم ثمانون رجلاً أربعون بنجران وثمانية باليمن واثنان وثلاثون بأرض الحبشة وفرحوا بالقرآن ، لأنهم آمنوا به وصدقوه والأحزاب بقية أهل الكتاب وسائر المشركين . قال القاضي : وهذا الوجه أولى من الأول لأنه لا شبهة في أن

من أوتي القرآن فإنهم يفرحون بالقرآن، أما إذا حملناه على هذا الوجه ظهرت الفائدة ويمكن أن يقال: إن الذين أوتوا القرآن يزداد فرحهم به لما رأوا فيه من العلوم الكثيرة والفوائد العظيمة، فلهذا السبب حكى الله تعالى فرحهم به. والثاني: والذين آتيناهم الكتاب اليهود أعطوا التوارة، والنصارى أعطوا الإنجيل، يفرحون بما أنزل في هذا القرآن، لأنه مصدق لما معهم ومن الأحزاب من سائر الكفار من ينكر بعضه، وهو قول مجاهد. قال القاضي: وهذا لا يصح، لأن قوله: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعم جميع ما أنزل إليه، ومعلوم أنهم لا يفرحون بكل ما أنزل إليه ويمكن أن يجاب فيقال إن قوله: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ لا يفيد العموم بدليل جواز ادخال لفظتي الكل والبعض عليه، ولو كانت كلمة (ما) للعموم لكان إدخال لفظ الكل عليه تكريرًا وإدخال لفظ البعض عليه نقصًا. ثم إنه تعالى لما بين هذا جمع كل ما يحتاج المرء إليه في معرفة المبدأ والمعاد في ألفاظ قليلة منه فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ وهذا الكلام جامع لكل ما ورد التكليف به، وفيه فوائد: **أولها:** أن كلمة (إنما) للحصر ومعناه إني ما أمرت إلا بعبادة الله تعالى، وذلك يدل على أنه لا تكليف ولا أمر ولا نهي إلا بذلك. **وثانيها:** أن العبادة غاية التعظيم، وذلك يدل على أن المرء مكلف بذلك. **وثالثها:** أن عبادة الله تعالى لا تمكن إلا بعد معرفته ولا سبيل إلى معرفته إلا بالدليل، فهذا يدل على أن المرء مكلف بالنظر والاستدلال في معرفة ذات الصانع وصفاته، وما يجب ويجوز ويستحيل عليه. **ورابعها:** أن عبادة الله واجبة، وهو يبطل قول نفاة التكليف، ويبطل القول بالجبر المحض. **وخامسها:** قوله: ﴿وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ وهذا يدل على نفي الشركاء والأنداد والأضداد بالكلية، ويدخل فيه إبطال قول كل من أثبت معبودًا سوى الله تعالى سواء قال: إن ذلك المعبود هو الشمس أو القمر أو الكواكب أو الأصنام والأوثان والأرواح العلوية أو يزدان وأهرمن على ما يقوله المجوس أو النور والظلمة على ما يقوله الثنوية. وسادسها: قوله: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُواْ﴾ والمراد منه أنه كما وجب عليه الإتيان بهذه العبادات فكذلك يجب عليه الدعوة إلى عبودية الله تعالى وهو إشارة إلى نبوته. وسابعها: قوله: ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ وهو إشارة إلى الحشر والنشر والبعث والقيامة فإذا تأمل الإنسان في هذه الألفاظ القليلة ووقف عليها عرف أنها محتوية على جميع المطالب المعتبرة في الدين.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى شبه إنزاله حكمًا عربيًا بما أنزل إلى ما تقدم من الأنبياء، أي كما أنزلنا الكتب على الأنبياء بلسانهم، كذلك أنزلت عليك القرآن. والكناية في قوله: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ تعود إلى (ما) في قوله: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني القرآن.

المسألة الثانية: قوله: ﴿أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾.

فيه وجوه:

الأول: حكمة عربية مترجمة بلسان العرب.

الثاني: القرآن مشتمل على جميع أقسام التكاليف، فالحكم لا يمكن إلا بالقرآن، فلما كان القرآن سببًا للحكم جعل نفس الحكم على سبيل المبالغة.

الثالث: أنه تعالى حكم على جميع المكلفين بقبول القرآن والعمل به فلما حكم على الخلق بوجوب قبوله جعله حكمًا.

واعلم أن قوله: ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ نصب على الحال، والمعنى: أنزلناه حال كونه حكمًا عربيًا.

المسألة الثالثة: قالت المعتزلة: الآية دالة على حدوث القرآن من وجوه: الأول: أنه تعالى وصفه بكونه منزلاً وذلك لا يليق إلا بالمحدث. الثاني: أنه وصفه بكونه عربيًا والعربي هو الذي حصل بوضع العرب واصطلاحهم وما كان كذلك كان محدثًا. الثالث: أن الآية دالة على أنه إنما كان حكمًا عربيًا، لأن الله تعالى جعله كذلك ووصفه بهذه الصفة، وكل ما كان كذلك فهو محدث.

والجواب: أن كل هذه الوجوه دالة على أن المركب من الحروف والأصوات محدث ولا نزاع فيه والله أعلم.

المسألة الرابعة: روي أن المشركين كانوا يدعونه إلى ملة آبائه فتوعده الله تعالى على متابعتهم في تلك المذاهب مثل أن يصلي إلى قبلتهم بعد أن حوله الله عنها. قال ابن عباس: الخطاب مع النبي ﷺ والمراد أمته، وقيل: بل الغرض منه حث الرسول عليه السلام على القيام بحق الرسالة وتحذيره من خلافها، ويتضمن ذلك أيضًا تحذير جميع المكلفين، لأن من هو أرفع منزلة إذا حذر هذا التحذير فهم أحق بذلك وأولى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾

اعلم أن القوم كانوا يذكرون أنواعًا من الشبهات في إبطال نبوته.

فالشبهة الأولى: قولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧] وهذه الشبهة إنما ذكرها الله تعالى في سورة أخرى.

والشبهة الثانية: قولهم: الرسول الذي يرسله الله إلى الخلق لا بد وأن يكون من جنس الملائكة كما حكى الله عنهم في قوله: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ﴾ [الحجر: ٧] وقوله: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٧].

فأجاب الله تعالى عنه هاهنا بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ يعني أن الأنبياء الذين كانوا قبله كانوا من جنس البشر لا من جنس الملائكة فإذا جاز ذلك في حقهم فلم لا يجوز أيضًا مثله في حقه.

الشبهة الثالثة: عابوا رسول الله ﷺ بكثرة الزوجات وقالوا: لو كان رسولاً من عند الله لما كان مشتغلاً بأمر النساء بل كان معرضًا عنهن مشتغلاً بالنسك والزهد، فأجاب الله تعالى عنه بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ وبالجملة فهذا الكلام يصلح أن يكون جوابًا عن الشبهة المتقدمة ويصلح أن يكون جوابًا عن هذه الشبهة، فقد كان لسليمان عليه السلام ثلثمائة امرأة مهيرة، وسبعمائة سرية. ولداود مائة امرأة.

والشبهة الرابعة: قالوا لو كان رسولاً من عند الله لكان أي شيء طلبنا منه من المعجزات أتى به ولم يتوقف ولما لم يكن الأمر كذلك علمنا أنه ليس برسول، فأجاب الله عنه بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وتقريره: أن المعجزة الواحدة كافية في إزالة العذر والعلة، وفي إظهار الحجة والبينة، فأما الزائد عليها فهو مفوض إلى مشيئة الله تعالى إن شاء أظهرها وإن شاء لم يظهرها ولا اعتراض لأحد عليه في ذلك.

الشبهة الخامسة: أنه عليه السلام كان يخوفهم بنزول العذاب وظهور النصرة له ولقومه. ثم إن ذلك الموعود كان يتأخر فلما لم يشاهدوا تلك الأمور احتجوا بها على الطعن في نبوته، وقالوا: لو كان نبيًا صادقًا لما ظهر كذبه.

فأجاب الله عنه بقوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ يعني نزول العذاب على الكفار وظهور الفتح والنصر للأولياء قضى الله بحصولها في أوقات معينة مخصوصة، ولكل حادث وقت معين ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ فقبل حضور ذلك الوقت لا يحدث ذلك الحادث فتأخر تلك المواعيد لا يدل على كونه كاذبًا.

الشبهة السادسة: قالوا: لو كان في دعوى الرسالة محقًا لما نسخ الأحكام التي نص الله تعالى على ثبوتها في الشرائع المتقدمة نحو التوراة والإنجيل، لكنه نسخها وحرفها نحو تحريف القبلة، ونسخ أكثر أحكام التوراة والإنجيل، فوجب أن لا يكون نبيًا حقًا.

فأجاب الله سبحانه وتعالى عنه بقوله: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ ويمكن أيضًا أن يكون قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ كالمقدمة لتقرير هذا الجواب، وذلك لأنا نشاهد أنه تعالى يخلق حيوانًا عجيب الخلقة بديع الفطرة من قطرة من النطفة ثم يبقيه مدة مخصوصة ثم يميته ويفرق أجزاءه وأبعاضه فلما لم يمتنع أن يحيي أولاً، ثم يميت ثانيًا فكيف يمتنع أن يشرع الحكم في بعض الأوقات، ثم ينسخه في سائر الأوقات فكان المراد من قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ ما ذكرناه، ثم إنه تعالى لما قرر تلك المقدمة قال: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ والمعنى: أنه يوجد تارة ويعدم أخرى، ويحيي تارة ويميت أخرى،

ويغني تارة ويفقر أخرى فكذلك لا يبعد أن يشرع الحكم تارة ثم ينسخه أخرى بحسب ما اقتضته المشيئة الإلهية عند أهل السنة أو بحسب ما اقتضته رعاية المصالح عند المعتزلة فهذا اتمام التحقيق في تفسير هذه الآية، ثم ههنا مسائل:

المسألة الأولى: قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾.

فيه أقوال.

الأول: أن لكل شيء وقتًا مقدرًا فالآيات التي سألوها لها وقت معين حكم الله به وكتبه في اللوح المحفوظ فلا يتغير عن ذلك الحكم بسبب تحكماتهم الفاسدة ولو أن الله أعطاهم ما التمسوا لكان فيه أعظم الفساد.

الثاني: أن لكل حادث وقتًا معينًا قضى الله حصوله فيه كالحياة والموت والغنى والفقر والسعادة والشقاوة، ولا يتغير ألبتة عن ذلك الوقت.

والثالث: أن هذا من المقلوب والمعنى: أن لكل كتاب منزل من السماء أجلًا ينزله فيه، أي لكل كتاب وقت يعمل به، فوقت العمل بالتوراة والإنجيل قد انقضى ووقت العمل بالقرآن قد أتى وحضر.

والرابع: لكل أجل معين كتاب عند الملائكة الحفظة فللإنسان أحوال أولها نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم يصير شابًا ثم شيخًا، وكذا القول في جميع الأحوال من الإيمان والكفر والسعادة والشقاوة والحسن والقبح.

الخامس: كل وقت معين مشتمل على مصلحة خفية ومنفعة لا يعلمها إلا الله تعالى، فإذا جاء ذلك الوقت حدث ذلك الحادث ولا يجوز حدوثه في غيره. واعلم أن هذه الآية صريحة في أن الكل بقضاء الله وبقدره وأن الأمور مرهونة بأوقاتها، لأن قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ معناه أن تحت كل أجل حادث معين، ويستحيل أن يكون ذلك التعيين لأجل خاصية الوقت فإن ذلك محال، لأن الأجزاء المعروضة في الأوقات المتعاقبة متساوية، فوجب أن يكون اختصاص كل وقت بالحادث الذي يحدث فيه بفعل الله تعالى واختياره وذلك يدل على أن الكل من الله تعالى وهو نظير قوله عليه السلام: «جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

المسألة الثانية: ﴿يَمْحُواْ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ﴿وَيُثْبِتُ﴾ ساكنة الثاء خفيفة الباء من أثبت يثبت، والباقون بفتح الثاء وتشديد الباء من التثبيت، وحجة من خفف أن ضد المحو الإثبات لا التثبيت. ولأن التشديد للتكثير، وليس القصد بالمحو التكثير، فكذلك ما يكون في مقابلته، ومن شدد احتج بقوله: ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾[النساء: ٦٦] وقوله: ﴿فَثَبِّتُوا﴾[الأنفال: ١٢].

المسألة الثالثة: المحو ذهاب أثر الكتابة، يقال: محاه يمحوه محوًا إذا أذهب أثره، وقوله: ﴿وَيُثْبِتُ﴾ قال النحويون: أراد ويثبته إلا أنه استغنى بتعدية للفعل الأول عن تعدية الثاني، وهو كقوله تعالى: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾[الأحزاب: ٣٥].

المسألة الرابعة: في هذه الآية قولان:

القول الأول: إنها عامة في كل شيء كما يقتضيه ظاهر اللفظ. قالوا: إن الله يمحو من الرزق ويزيد فيه، وكذا القول في الأجل والسعادة والشقاوة والإيمان والكفر، وهو مذهب عمر وابن مسعود. والقائلون بهذا القول كانوا يدعون ويتضرعون إلى الله تعالى في أن يجعلهم سعداء لا أشقياء، وهذا التأويل رواه جابر عن رسول الله ﷺ.

والقول الثاني: أن هذه الآية خاصة في بعض الأشياء دون البعض، وعلى هذا التقرير ففي الآية وجوه:

الأول: المراد من المحو والإثبات: نسخ الحكم المتقدم وإثبات حكم آخر بدلاً عن الأول.

الثاني: أنه تعالى يمحو من ديوان الحفظة ما ليس بحسنة ولا سيئة، لأنهم مأمورون بكتابة كل قول وفعل ويثبت غيره، وطعن أبو بكر الأصم فيه فقال: إنه تعالى وصف الكتاب بقوله: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩] وقال أيضًا: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

أجاب القاضي عنه: بأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من الذنوب والمباح لا صغيرة ولا كبيرة، وللأصم أن يجيب عن هذا الجواب فيقول: إنكم باصطلاحكم خصصتم الصغيرة بالذنب الصغير، والكبيرة بالذنب الكبير، وهذا مجرد اصطلاح المتكلمين. أما في أصل اللغة فالصغير والكبير يتناولان كل فعل وعرض، لأنه إن كان حقيرًا فهو صغير، وإن كان غير ذلك فهو كبير، وعلى هذا التقرير فقوله: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩] يتناول المباحات أيضًا. **الثالث**: أنه تعالى أراد بالمحو أن من أذنب أثبت ذلك الذنب في ديوانه، فإذا تاب عنه محي من ديوانه. **الرابع**: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ وهو من جاء أجله. ويدع من لم يجيء أجله ويثبته. **الخامس**: أنه تعالى يثبت في أول السنة حكم تلك السنة فإذا مضت السنة محيت، وأثبت كتاب آخر للمستقبل. **السادس**: يمحو نور القمر، ويثبت نور الشمس. **السابع**: يمحو الدنيا ويثبت الآخرة. **الثامن**: أنه في الأرزاق والمحن والمصائب يثبتها في الكتاب ثم يزيلها بالدعاء والصدقة، وفيه حث على الانقطاع إلى الله تعالى. **التاسع**: تغير أحوال العبد فما مضى منها فهو المحو، وما حصل وحضر فهو الإثبات. **العاشر**: يزيل ما يشاء ويثبت ما يشاء من حكمه لا يطلع على غيبه أحدًا فهو المنفرد بالحكم كما يشاء، وهو المستقل بالإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة والإغناء والإفقار بحيث لا يطلع على تلك الغيوب أحد من خلقه.

واعلم أن هذا الباب فيه مجال عظيم.

فإن قال قائل: ألستم تزعمون أن المقادير سابقة قد جف بها القلم وليس الأمر بأنف، فكيف يستقيم مع هذا المعنى المحو والإثبات؟

قلنا: ذلك المحو والإثبات أيضًا مما جف به القلم فلا يمحو إلا ما سبق في علمه وقضائه محوه.

المسألة الخامسة: قالت الرافضة: البداء جائز على الله تعالى، وهو أن يعتقد شيئًا ثم يظهر له أن الأمر بخلاف ما اعتقده، وتمسكوا فيه بقوله: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾.

واعلم أن هذا باطل لأن علم الله من لوازم ذاته المخصوصة، وما كان كذلك كان دخول التغير والتبدل فيه محالاً.

المسألة السادسة: أما ﴿أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فالمراد أصل الكتاب، والعرب تسمي كل ما يجري مجرى الأصل للشيء أمًا له ومنه أم الرأس للدماغ، وأم القرى لمكة، وكل مدينة فهي أم لما حولها من القرى، فكذلك أم الكتاب هو الذي يكون أصلاً لجميع الكتب.

وفيه قولان:

القول الأول: أن أم الكتاب هو اللوح المحفوظ، وجميع حوادث العالم، العالم العلوي والعالم السفلي مثبت فيه عن النبي ﷺ أنه قال: «**كَانَ اللَّهُ وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ ثُمَّ خَلَقَ اللَّوْحَ وَأَثْبَتَ فِيهِ أَحْوَالَ جَمِيعِ الْخَلْقِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ**» قال المتكلمون: الحكمة فيه أن يظهر للملائكة كونه تعالى عالمًا بجميع المعلومات على سبيل التفصيل، وعلى هذا التقدير: فعند الله كتابان: أحدهما: الكتاب الذي يكتبه الملائكة على الخلق وذلك الكتاب محل المحو والإثبات. والكتاب الثاني: هو اللوح المحفوظ، وهو الكتاب المشتمل على تعين جميع الأحوال العلوية والسفلية، وهو الباقي. روى أبو الدرداء عن النبي ﷺ: «**أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي ثَلاَثِ سَاعَاتٍ بَقِينَ مِنَ اللَّيْلِ يَنْظُرُ فِي الْكِتَابِ الَّذِي لاَ يَنْظُرُ فِيهِ أَحَدٌ غَيْرُهُ، فَيَمْحُو مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ مَا يَشَاءُ**»(١) وللحكماء في تفسير هذين الكتابين كلمات عجيبة وأسرار غامضة.

والقول الثاني: إن أم الكتاب هو علم الله تعالى، فإنه تعالى عالم بجميع المعلومات من الموجودات والمعدومات وإن تغيرت، إلا أن علم الله تعالى بها باق منزه عن التغير، فالمراد بأم الكتاب هو ذاك، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾

اعلم أن المعنى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك، والمعنى: سواء أريناك ذلك أو توفيناك قبل ظهوره، فالواجب عليك تبليغ أحكام الله تعالى وأداء أمانته ورسالته وعلينا الحساب. والبلاغ اسم أقيم مقام التبليغ كالسراج والأداء.

---

(١) إسناده ضعيف جدًا: أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٠/ ١٨٠)، من طريق ابن أبي مريم قال حدثنا سنان بن سعد عن زيادة بن محمد عن محمد بن كعب القرظي عن فضالة بن عبيد عن أبي الدرداء... به، وفي إسناده زيادة بن محمد الأنصاري منكر الحديث، وأورده الذهبي في ميزان الاعتدال وقال: بعد أن ذكر الحديث بطولة وفيه ذكر الساعة الثالثة ثم قال: وهذه ألفاظ منكره لم يأت بها غير زيادة.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما وعد رسوله بأن يريه بعض ما وعدوه أو يتوفاه قبل ذلك، بين في هذه الآية أن آثار حصول تلك المواعيد وعلاماتها قد ظهرت وقويت. وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾.

فيه أقوال:

القول الأول: المراد أنا نأتي أرض الكفرة ننقصها من أطرافها وذلك لأن المسلمين يستولون على أطراف مكة ويأخذونها من الكفرة قهرًا وجبرًا فانتقاص أحوال الكفرة وازدياد قوة المسلمين من أقوى العلامات والأمارات على أن الله تعالى ينجز وعده. ونظيره قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤] وقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾ [فصلت: ٥٣].

والقول الثاني: وهو أيضًا منقول عن ابن عباس رضي الله عنهما أن قوله: ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ المراد: موت أشرافها وكبرائها وعلمائها وذهاب الصلحاء والأخيار، وقال الواحدي: وهذا القول، وإن احتمله اللفظ، إلا أن اللائق بهذا الوضع هو الوجه الأول. ويمكن أن يقال هذا الوجه أيضًا لا يليق بهذا الموضع، وتقريره أن يقال: أولم يروا ما يحدث في الدنيا من الاختلافات خراب بعد عمارة، وموت بعد حياة، وذل بعد عز، ونقص بعد كمال، وإذا كانت هذه التغيرات مشاهدة محسوسة فما الذي يؤمنهم من أن يقلب الله الأمر على هؤلاء الكفرة فيجعلهم ذليلين بعد أن كانوا عزيزين، ويجعلهم مقهورين بعد أن كانوا قاهرين، وعلى هذا الوجه فيحسن اتصال هذا الكلام بما قبله، وقيل: ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بموت أهلها وتخريب ديارهم وبلادهم فهؤلاء الكفرة كيف أمنوا من أن يحدث فيهم أمثال هذه الوقائع؟

ثم قال تعالى مؤكدًا لهذا المعنى: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ معناه: لا راد لحكمه، والمعقب هو الذي يعقبه بالرد والإبطال، ومنه قيل لصاحب الحق معقب لأنه يعقب غريمه بالاقتضاء والطلب.

فإن قيل: ما محل قوله: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾.

قلنا: هو جملة محلها النصب على الحال كأنه قيل: والله يحكم نافذًا حكمه خاليًا عن المدافع والمعارض والمنازع.

ثم قال: ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ قال ابن عباس: يريد سريع الانتقام يعني أن حسابه للمجازاة

بالخير والشر يكون سريعًا قريبًا لا يدفعه دافع .

أما قوله: ﴿ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني أن كفار الأمم الماضية قد مكروا برسلهم وأنبيائهم مثل نمروذ مكر بإبراهيم، وفرعون مكر بموسى، واليهود مكروا بعيسى .

ثم قال: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ﴾ قال الواحدي : معناه أن مكر جميع الماكرين له ومنه، أي هو حاصل بتخليقه وإرادته، لأنه ثبت أن الله تعالى هو الخالق لجميع أعمال العباد، وأيضًا فذلك المكر لا يضر إلا بإذن الله تعالى ولا يؤثر إلا بتقديره، وفيه تسلية للنبي ﷺ وأمان له من مكرهم، كأنه قيل له : إذا كان حدوث المكر من الله وتأثيره من الممكور به أيضًا من الله وجب أن لا يكون الخوف إلا من الله تعالى وأن لا يكون الرجاء إلا من الله تعالى، وذهب بعض الناس إلى أن المعنى : فلله جزاء المكر، وذلك لأنهم لما مكروا بالمؤمنين بين الله تعالى أنه يجازيهم على مكرهم . قال الواحدي : والأول أظهر لقولين بدليل قوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ يريد أن أكساب العباد بأسرها معلومة لله تعالى وخلاف المعلوم ممتنع الوقوع، وإذا كان كذلك فكل ما علم الله وقوعه فهو واجب الوقوع، وكل ما علم الله عدمه كان ممتنع الوقوع، وإذا كان كذلك فلا قدرة للعبد على الفعل والترك، فكان الكل من الله تعالى . قالت المعتزلة : الآية الأولى إن دلت على قولكم فالآية الثانية وهي قوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ دلت على قولنا، لأن الكسب هو الفعل المشتمل على دفع مضرة أو جلب منفعة، ولو كان حدوث الفعل بخلق الله تعالى لم يكن لقدرة العبد فيه أثر، فوجب أن لا يكون للعبد كسب .

وجوابه: أن مذهبنا أن مجموع القدرة مع الداعي مستلزم للفعل وعلى هذا التقدير فالكسب حاصل للعبد . ثم إنه تعالى أكد ذلك التهديد فقال : ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ .

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى : قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو : (وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ) على لفظ المفرد والباقون على الجمع قال صاحب (الكشاف) قرىء : (الكفار، والكافرون، والذين كفروا، والكفر) أي أهله قرأ جناح بن حبيش : (وسيعلم الكافر) من أعلمه أي سيخبر .

المسألة الثانية : المراد بالكافر الجنس كقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر : ٢] والمعنى : إنهم وإن كانوا جهالاً بالعواقب فسيعلمون لمن العاقبة الحميدة، وذلك كالزجر والتهديد .

والقول الثاني: وهو قول عطاء يريد المستهزئين وهم خمسة، والمقتسمين وهم ثمانية وعشرون .

والقول الثالث: وهو قول ابن عباس يريد أبا الجهل . والقول الأول هو الصواب .

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى حكى عن القوم أنهم أنكروا كونه رسولاً من عند الله. ثم إنه تعالى احتج عليهم بأمرين: الأول: شهادة الله على نبوته، والمراد من تلك الشهادة أنه تعالى أظهر المعجزات الدالة على كونه صادقًا في ادعاء الرسالة، وهذا أعلى مراتب الشهادة لأن الشهادة قول يفيد غلبة الظن بأن الأمر كذلك. أما المعجز فإنه فعل مخصوص يوجب القطع بكونه رسولاً من عند الله تعالى، فكان إظهار المعجزة أعظم مراتب الشهادة. والثاني: قوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ وفيه قراءتان: إحداهما: القراءة المشهورة: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ يعني والذي عنده علم الكتاب. والثانية: ﴿وَمِنْ عِندِهِۦ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ وكلمة (من) ههنا لابتداء الغاية أي ومن عند الله حصل علم الكتاب. أما على القراءة الأولى.

ففي تفسير الآية أقوال:

القول الأول: أن المراد شهادة أهل الكتاب من الذين آمنوا برسول الله ﷺ وهم: عبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، وتميم الداري. ويروى عن سعيد بن جبير: أنه كان يبطل هذا الوجه ويقول: السورة مكية فلا يجوز أن يراد به ابن سلام وأصحابه، لأنهم آمنوا في المدينة بعد الهجرة. وأجيب عن هذا السؤال بأن قيل: هذه السورة وإن كانت مكية إلا أن هذه الآية مدنية، وأيضًا فإثبات النبوة بقول الواحد والإثنين مع كونهما غير معصومين عن الكذب لا يجوز، وهذا السؤال واقع.

القول الثاني: أراد بالكتاب القرآن، أي أن الكتاب الذي جئتكم به معجز قاهر وبرهان باهر، إلا أنه لا يحصل العلم بكونه معجزًا إلا لمن علم ما في هذا الكتاب من الفصاحة والبلاغة، واشتماله على الغيوب وعلى العلوم الكثيرة. فمن عرف هذا الكتاب على هذا الوجه علم كونه معجزًا. فقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي ومن عنده علم القرآن وهو قول الأصم.

القول الثالث: ومن عنده علم الكتاب المراد به: الذي حصل عنده علم التوراة والإنجيل، يعني: أن كل من كان عالمًا بهذين الكتابين علم اشتمالهما على البشارة بمقدم محمد ﷺ، فإذا أنصف ذلك العالم ولم يكذب كان شاهدًا على أن محمدًا ﷺ رسول حق من عند الله تعالى.

القول الرابع: ومن عنده علم الكتاب هو الله تعالى، وهو قول الحسن، وسعيد بن جبير، والزجاج قال الحسن: لا والله ما يعني إلا الله، والمعنى: كفى بالذي يستحق العبادة وبالذي لا يعلم علم ما في اللوح إلا هو شهيدًا بيني وبينكم، وقال الزجاج: الأشبه أن الله تعالى لا يستشهد على صحة حكمه بغيره، وهذا القول مشكل، لأن عطف الصفة على الموصوف وإن كان جائزًا في الجملة إلا أنه خلاف الأصل. لا يقال: شهد بهذا زيد والفقيه، بل يقال: شهد به

زيد الفقيه، وأما قوله إن الله تعالى لا يستشهد بغيره على صدق حكمه: فبعيد، لأنه لما جاز أن يقسم الله تعالى على صدق قوله بقوله: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾[التين: ١] فأي امتناع فيما ذكره الزجاج.

وأما القراءة الثانية: وهي قوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ على من الجارة فالمعنى: ومن لدنه علم الكتاب، لأن أحدًا لا يعلم الكتاب إلا من فضله وإحسانه وتعليمه، ثم على هذه القراءة ففيه أيضًا قراءتان: ومن عنده علم الكتاب، والمراد العلم الذي هو ضد الجهل، أي هذا العلم إنما حصل من عند الله.

والقراءة الثالثة: ومن عنده علم الكتاب بضم العين وبكسر اللام وفتح الميم على ما لم يسم فاعله، والمعنى: أنه تعالى لما أمر نبيه أن يحتج عليهم بشهادة الله تعالى على ما ذكرناه، وكان لا معنى لشهادة الله تعالى على نبوته إلا إظهار القرآن على وفق دعواه، ولا يعلم كون القرآن معجزًا إلا بعد الإحاطة بما في القرآن وأسراره، بين تعالى أن هذا العلم لا يحصل إلا من عند الله، والمعنى: أن الوقوف على كون القرآن معجزًا لا يحصل إلا إذا شرف الله تعالى ذلك العبد بأن يعلمه علم القرآن، والله تعالى أعلم بالصواب.

تم تفسير هذه السورة يوم الأحد الثامن عشر من شعبان سنة إحدى وستمائة. وأنا ألتمس من كل من نظر في كتابي هذا وانتفع به، أن يخص ولدي محمدًا بالرحمة والغفران، وأن يذكرني بالدعاء. وأقول في مرثية ذلك الولد شعرًا:

أَرَى مَعَالِمَ هَذَا الْعَالَمِ الْفَانِي ... مَمْزُوجَةً بِمَخَافَاتٍ وَأَحْزَانِ
خَيْرَاتُهُ مِثْلُ أَحْلَامٍ مُفَزِّعَةٍ ... وَشَرُّهُ فِي الْبَرَايَا دَائِمٌ دانـي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الرعد

مكيَّةٌ في قول الحسنِ وعِكْرمةَ وعطاء وجابر، ومدنيةٌ في قول الكَلْبيِّ ومقاتل. وقال ابن عباس وقتادة: مدنية إلا آيتين منها نزلتا بمكة؛ وهما قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ [إلى آخرهما](١).

قوله تعالى: ﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١﴾

قوله تعالى: ﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ﴾ تقدَّم القولُ فيها(٢). ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني: وهذا القرآنُ الذي أُنزل إليك. «مِنْ رَبِّكَ» هو(٣) «الْحَقُّ»، لا كما يقول المشركون: إنك تأتي به من تلقاء نفسِك، فاعتصِمْ به، واعمَلْ بما فيه. قال مقاتل: نزلتْ حين قال المشركون: إنَّ محمداً أتى بالقرآن من تِلقاء نفسِه(٤).

«والذي» في موضع رَفْع عطفاً على «آياتُ»، أو على الابتداء، و«الحقُّ» خبره؛ ويجوز أنْ يكون موضعُه جرًّا على تقدير: وآياتُ الذي أنزل إليك، وارتفاع «الحقّ» على هذا على إضمار مبتدأ، تقديره: ذلك الحقُّ؛ كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ . ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٤٦-١٤٧]. يعني: ذلك الحقُّ(٥).

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٩١ ، وما بين حاصرتين منه، وينظر زاد المسير ٤/ ٢٩٩ .

(٢) ١/ ٢٣٧ وما بعدها.

(٣) قوله: هو، ليس في (م).

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٥ .

(٥) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٩ ، ومشكل إعراب القرآن لمكي ١/ ٣٩٦ .

قال الفرَّاء(١): وإنْ شئت جعلت «الذي» خفضاً نعتاً للكتاب، وإن كانت فيه الواو كما يقال: أتانا هذا الكتابُ عن أبي حفص والفاروق [وأنت تريد عمر بن الخطاب]؛ ومنه قول الشاعر:

إلى الملِكِ القَرْمِ وابنِ الهُمَام ... ولَيْثِ الكتيبةِ في المُزْدَحَمْ(٢)

يريد: إلى المَلِك القَرْمِ ابنِ الهُمَام ليثِ الكتيبة. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ الآية. لمّا بيَّن تعالى أنَّ القرآن حقٌّ، بيَّن أن مَن أنزله قادرٌ على الكمال؛ فانظروا في مصنوعاته لِتعرفوا كمالَ قُدرتِه. وقد تقدَّم هذا المعنى.

وفي قوله: «بغيرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها» قولان: أحدهما: أنها مرفوعةٌ بغير عَمَدٍ ترونها، قاله قتادة وإياس بنُ معاوية وغيرهما. الثاني: لها عَمَدٌ، ولكنا لا نراه(٣). قال ابن عباس: لها عَمَدٌ على جبل(٤) قاف؛ ويمكنُ أنْ يقالَ على هذا القول: العَمَد قُدرتُه التي يُمسِك بها السماواتِ والأرضَ، وهي غيرُ مرئية لنا، ذكره الزجّاج(٥).

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٥٨ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٢) سلف هذا البيت ٢/ ٨٥ ، وقوله: القَرْم: السيِّد.

(٣) أخرج هذين القولين الطبري ١٣/ ٤٠٩ - ٤١١ ، وقال القول الأول أولى الأقوال بالصحة.

(٤) قوله: جبل، من (م)، وقاف: جبل محيط بالدنيا، كما في معاجم اللغة. والأثر أورده ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٠١ . وهو بنحو القول الثاني السالف. قال الرازي في تفسيره ١٨/ ٢٣٢ : وهذا التأويل في غاية السقوط.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ١٣٦ .

وقال ابن عباس أيضاً: هي توحيدُ المؤمن. أُعْمِدَت السماءُ حين كادت تَنفطِر من كفر الكافرِ، ذكره الغَزْنَويّ[١]. والعَمَد جمعُ عمود؛ قال النابغة:

وخَيِّسِ الجِنَّ إني قد أَذِنْتُ لهم ... يَبْنُون تَدْمُرَ بالصُّفَّاحِ والعَمَدِ[٢]

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ تقدَّم الكلامُ فيه[٣]. ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾، أي: ذَلَّلهما لمنافع خَلْقِه ومصالح عبادِه، وكلُّ مخلوقٍ مُذلَّلٌ للخالق. ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: إلى وقت معلوم، وهو فَناءُ الدنيا وقيامُ الساعة التي عندها تُكَوَّرُ الشمس، ويَخسِفُ القمر، وتَنكدِرُ النُّجوم، وتنتثر الكواكب[٤].

وقال ابن عباس: أراد بالأجل المسمَّى درجاتِهما ومنازلَهما التي يَنتهيان إليها لا يُجاوزانها[٥].

وقيل: معنى الأجلِ المُسمَّى أنَّ القمر يَقطَع فَلَكه في شهر، والشمسَ في سنة[٦]. ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾، أي: يصرفه على ما يريد. ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ﴾، أي: يُبيِّنها، أي: من قَدَر على هذه الأشياء يقدر على الإعادة[٧]؛ ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ لمّا بيَّن آياتِ السّماوات بيَّن آياتِ الأرض،

---

(١) صاحب كتاب عيون المعاني، كما ذكر المصنف ٢/ ٢٧٤، وتنظر ترجمته ثمة.

(٢) ديوان النابغة الذبياني ص٣٣. وقوله: خيِّس، أي: ذَلِّل. والصُّفَّاح: حجارةٌ رقاقٌ عِراضٌ، واحدتها: صُفَّاحة. اللسان (خيس) و(صفح).

(٣) ٩/ ٢٣٨ - ٢٤٠.

(٤) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٤١١ - ٤١٢.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٦.

(٦) ينظر تفسير الرازي ١٨/ ٢٣٣، ومجمع البيان ١٣/ ١٣٨.

(٧) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٣٦.

أي: بَسط الأرضَ طولاً وعرضاً. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾، أي: جبالاً ثوابتَ؛ واحدُها راسية؛ لأنَّ الأرضَ ترسو بها، أي: تثبتُ، والإرساء الثُّبوت[1]؛ قال عَنترة[2]:

فَصَبَرْتُ عَارِفَةً لِذلِك حُرَّةً ... تَرْسُو إذا نَفْسُ الجَبَانِ تَطَلَّعُ

وقال جميل[3]:

أُحِبُّه[4] والذي أَرْسَى قواعِدَهُ ... حُبًّا إذا ظَهَرَت آياتُه بَطَنَا

وقال ابن عباس وعطاء: أوّلُ جبلٍ وُضع على الأرض أبو قُبَيس[5].

مسألة[6]: في هذه الآية ردٌّ على من زعم أنَّ الأرضَ كالكرة، وردٌّ على من زعم أنَّ الأرضَ تهوي أبداً بما عليها[7]؛ وزعم ابن الرَّاونديّ[8] أنَّ تحتَ الأرضِ جسماً صَعَّاداً كالرِّيح الصعَّادة؛ وهي منحدرةٌ فاعتدل الهاوي والصعادي في الجِرْم والقوّة فتوافقا.

وزعم آخرون أنَّ الأرضَ مُركبةٌ من جسمين، أحدهما منحدر، والآخَرُ مصعد،

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٤١٣ - ٤١٤، والنكت والعيون ٣/ ٩٢.

(٢) في ديوانه ص٤٩، وسلف ٢/ ٦٥.

(٣) كذا نسبه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٩٢، ونقله المصنف عنه، ولم نقف عليه في ديوانه، ونسب في الأزمنة والأمكنة للمرزوقي ٢/ ٣٢٦، ومعجم البلدان ٤/ ٣٧٤ لأعرابيٍّ.

(٤) في النسخ: أحبُّها، والمثبت من المصادر السابقة، والضمير في قوله: «أحبُّه» يعود على ما في البيت الذي قبله:

سلِّم على قَطَن إن كنت نازِلَه ... سلامَ مَنْ كان يهوى مرةً قَطَنا

وقَطَن: جبلٌ كثير النخل والمياه لبني عبس.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٩٣، وتفسير البغوي ٣/ ٦. وأبو قُبيس: جبل مشرف على مسجد مكة. معجم البلدان ٤/ ٣٠٨.

(٦) كلام المصنف في هذه المسألة لا يُلتفَت إليه. ووقع في (ظ): قلت، بدل: مسألة.

(٧) في (د) و(ز) و(م): تهوي أبوابها عليها. والمثبت من (ظ).

(٨) أحمد بن يحيى بن إسحاق أبو الحسين الزنديق الشهير، كان أولاً من متكلمي المعتزلة، ثم تزندق، واشتهر بالإلحاد، صنف كتباً كثيرة يطعن فيها على الإسلام. مات سنة (٢٩٨هـ) لسان الميزان ١/ ٣٢٣.

فاعتدلا، فلذلك وقفت. والذي عليه المسلمون وأهلُ الكتاب القولُ بوقوفِ الأرض وسكونِها ومدِّها، وأنَّ حركتها إنما تكون في العادة بزلزلة تصيبُها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ أي: مياهاً جاريةً في الأرض، فيها منافعُ الخلق.

﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ يعني[1] صنفين. قال أبو عُبيدة[2]: الزوج واحدٌ، ويكون اثنين. الفراء[3]: يعني بالزوجين هاهنا الذكرَ والأنثى. وهذا خلافُ النصّ.

وقيل: معنى «زَوْجَين» نوعان، كالحُلْو والحامض، والرَّطبِ واليابس، والأبيضِ والأسود، والصغيرِ والكبير[4].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾، أي: دلالاتٍ وعلاماتٍ ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ في الكلام حذفٌ، المعنى: وفي الأرض قِطَعٌ متجاوراتٌ وغيرُ متجاورات، كما قال: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، والمعنى: وتقيكم البَرْدَ، ثم حذف لعلم السَّامع. والمتجاوراتُ: المدنُ وما كان عامراً، وغيرُ متجاورات: الصحارى وما كان غيرَ عامر[5].

---

(١) في (د) و(م): بمعنى.

(٢) في مجاز القرآن ١/ ٣٢٣ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٥٨ .

(٤) زاد المسير ٤/ ٣٠٢ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٦٩ .

الثانية: قوله تعالى: ﴿مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾، أي: قُرًى متدانياتٌ، ترابُها واحدٌ، وماؤها واحد، وفيها زروعٌ وجنات، ثم تتفاوتُ في الثّمار والتَّمر؛ فيكون البعض حُلْواً، والبعض حامضاً، والغصنُ الواحد من الشجرة قد يختلف الثّمرُ فيه من الصِّغَر والكِبر واللون والطَّعم، وإن انبسط الشمسُ والقمر على الجميع على نَسَقٍ واحد، وفي هذا أدلُّ دليلٍ على وحدانيته وعِظم صَمَدِيَّته، والإرشادُ لمن ضلَّ عن معرفته، فإنه نَبَّه سبحانه بقوله: «تُسْقَى بِماءٍ واحدٍ» على أنَّ ذلك كلَّه ليس إلا بمشيئته وإرادتِه، وأنه مقدورٌ بقدرته؛ وهذا أدلُّ دليلٍ على بطلان القول بالطَّبع؛ إذ لو كان ذلك بالماء والتراب والفاعلُ له الطبيعةُ لمَا وقع الاختلاف.

وقيل: وجهُ الاحتجاج أنه أثبت التفاوتَ بين البِقاع، فمِن تربة عَذْبة، ومن تربة سَبِخة مع تجاورهما[1]، وهذا أيضاً من دلالات كمال قُدرته، جلَّ وعزَّ؛ تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون عُلُوًّا كبيراً[2].

الثالثة: ذهبت الكفرةُ ـ لعنهم الله ـ إلى أنَّ كلَّ حادثٍ يَحدُث بنفسه لا من صانع، وادَّعوا ذلك في الثمار الخارجةِ من الأشجار، وقد أقرُّوا بحدوثها، وأنكروا مُحدِثَها، وأنكروا الأعراضَ. وقالت فرقة بحدوث الثمار لا من صانع، وأثبتوا للأعراض فاعلاً.

والدليلُ على أنَّ الحادثَ لابدَّ له مِن مُحدِث أنه يَحدُث في وقت، ويَحدُث ما هو من جِنسه في وقت آخرِ، فلو كان حدوثُه في وقته لاختصاصه به؛ لوجب أنْ يَحدُث في وقته كلُّ ما هو من جِنسه، وإذا بطَل اختصاصُه بوقته؛ صحَّ أنَّ اختصاصَه به لأجل مُخصِّصٍ خَصَّصه به، ولولا تخصيصُه إيَّاه به لم يكن حدوثُه في وقته أولى من حدوثه قبلَ ذلك أو بعدَه، واستيفاءُ هذا في علم الكلام.

---

(١) في النسخ الخطية: تجاورها، والمثبت من (م).

(٢) ينظر تفسير الرازي ١٩/٦ - ٧، وزاد المسير ٤/٣٠٣ - ٣٠٤.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَجَنَّتٌ مِّنْ أَعْنَبٍ﴾ قرأ الحسن: «وَجَنَّاتٍ»[١] بكسر التاء على تقدير[٢]: وجعل فيها جناتٍ، فهو محمولٌ على قوله: «وجَعَلَ فيها رَوَاسِيَ». ويجوز أنْ تكونَ مجرورةً على الحمل على «كلٍّ». التقدير: ومن كلِّ الثمرات، ومن جَنَّات[٣]. الباقون: «جَنَّاتٌ» بالرفع على تقدير: وبينهما جناتٌ[٤].

﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ بالرفع: ابن كثير وأبو عمرو وحفص عطفاً على الجَنَّات، أي: على تقدير: وفي الأرض زَرْعٌ ونخيل. وخَفَضَها الباقون نَسَقاً على الأعناب[٥]، فيكون الزرع والنخيلُ من الجَنّات، ويجوز أنْ يكونَ معطوفاً على «كُلّ» حسب ما تقدَّم في «جنّات».

وقرأ مجاهد والسُّلَميُّ وغيرهما: «صُنْوَانٌ»[٦] بضم الصاد، الباقون بالكسر، وهما لغتان، وهما جمع صِنْو، وهي النَّخَلات والنَّخلتان، يجمعهنَّ أصلٌ واحدٌ، وتتشعَّب منه رؤوسٌ فتصير نخيلاً، نظيرُها قِنْوان، واحدُها قِنو[٧].

وروى أبو إسحاق عن البَرَاء قال: الصِّنْوان: المُجتَمِع، وغيرُ الصِّنْوان: المُتفرِّق[٨]، النحاس[٩]: وكذلك هو في اللغة، يقال للنخلة إذا كانت فيها نخلةٌ أخرى أو أكثر: صِنْوان.

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٦ .

(٢) في (ظ): وتقدير، وفي (م): على التقدير.

(٣) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٥٠ .

(٤) أو بالعطف على «قطع».

(٥) السبعة ص٣٥٦ ، والتيسير ص١٣١ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٥٠ ، والحجة لأبي علي الفارسي ٥/ ٦ .

(٦) القراءات الشاذة ص٦٦ ، والمحتسب ١/ ٣٥١ .

(٧) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٤٢١ ، وتهذيب اللغة ١٢/ ٢٤٣ .

(٨) أخرجه الطبري ١٣/ ٤٢١ . وأبو إسحاق: هو عمرو بن عبد الله السَّبيعي.

(٩) في معاني القرآن ٣/ ٤٧٠ . وما قبله منه.

والصِّنو: المِثلُ؛ ومنه قولُ النبيِّ ﷺ: «عَمُّ الرَّجُل صِنْوُ أبيه»[١]. ولا فرقَ فيها بين التّثنية والجمع، إلا بالإعراب[٢]، فتعربُ نون الجمع، وتكسر نون التّثنية؛ قال الشاعر:

العِلْمُ والحِلْمُ خَلَّتا كَرَمٍ ... لِلمرءِ زَيْنٌ إذا هُمَا اجْتَمَعا
صِنْوانِ لا يُسْتَتَمُّ حُسْنُهُما ... إلَّا بِجَمْعٍ لِذا[٣] وذاكَ مَعا

الخامسة: قولُه تعالى: ﴿تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ كصالح بَني آدمَ وخَبيثِهم، أبوهم واحد؛ قاله البخاريُّ[٤].

وقرأ عاصمٌ وابنُ عامر: «يُسْقَى» بالياء، أي: يُسقى ذلك كلُّه. وقرأ الباقون بالتاء[٥]، لقوله: «جَنَّاتٌ»، واختاره أبو حاتم وأبو عُبيد[٦]؛ قال أبو عمرو: والتأنيثُ أحسن؛ لقوله: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ ولم يقل: بعضَه[٧].

وقرأ حمزةُ والكسائيّ وغيرهما: «وَيُفَضِّلُ»[٨] بالياء ردًّا على قوله: «يُدَبِّرُ الأمْرَ»، و«يُفَصِّلُ»، و«يُغْشِي». الباقون بالنون على معنى: ونحن نُفضِّل[٩].

وروى جابر بنُ عبد الله قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول لعليٍّ ﷺ: «الناسُ من شجرٍ

(١) أخرجه أحمد (٨٢٨٤)، ومسلم (٩٨٣) من حديث أبي هريرة ﷺ، وفيه قصة مَنْع ابن جَميل وخالد بن الوليد والعبَّاس ﷺ الصدقةَ، وهي عند البخاري (١٤٦٨) دون قوله: «عم الرجل صنو أبيه».

(٢) في (د) و(ز) و(م): ولا بالإعراب. وينظر تفسير الطبري ١٣/ ٤٢١.

(٣) في (د) و(ز) و(م): بجمع ذا، وهو كذلك في النكت والعيون ٣/ ٩٣ (والبيتان فيه) والمثبت من (ظ)، والبيتان أيضاً في عيون الأخبار ٢/ ١٢١، وتاريخ دمشق ٧/ ٦، ونسبهما ابن عساكر لسابق بن عبد الله اليزيدي.

(٤) في (م): قاله النحاس والبخاري. وعلَّقه البخاري عن مجاهد في أول تفسير سورة الرعد.

(٥) السبعة ص٣٥٦، والتيسير ص١٣١.

(٦) في (م): وأبو عبيدة، وبعده في (ز): قال أبو عبيدة: قال أبو عمرو...

(٧) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٥١.

(٨) وقرأ بها خلف من العشرة. النشر ٢/ ٢٩٧.

(٩) السبعة ص٣٥٦، والتيسير ص١٣١. وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٥١، وتفسير الرازي ١٩/ ٨.

شتَّى، وأنا وأنت من شجرةٍ واحدةٍ»، ثم قرأ النبيُّ ﷺ: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ حتى بلغ قولَه: «يُسْقَى بِماءٍ واحِدٍ»(١).

و«الأُكُل» الثمر، قال ابن عباس: يعني: الحلوَ والحامضَ، والفارسيَّ والدَّقَل(٢).

ورُوي مرفوعاً من حديث أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال في قوله تعالى: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾، قال: «الفارسيُّ والدَّقَل، والحُلْو والحامضُ»(٣). ذكره الثعلبيّ.

قال الحسن: المرادُ بهذه الآية المَثَل؛ ضربه الله تعالى لبني آدم، أصلُهم واحدٌ، وهم مختلفون في الخير والشرِّ والإيمانِ والكفر، كاختلاف الثمارِ التي تُسقى بماء واحد(٤)، ومنه قولُ الشاعر:

بنو آدمَ كالنَّبْتِ ونَبْتُ الأرض ألوان(٥)
فمنه(٦) شجرُ الصندل والكافور والبان
ومنه(٧) شجرٌ ينضحُ طول الدَّهر قطران

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٢٤١، وقال: حديث صحيح ولم يخرجاه. وتعقَّبه الذهبي في التلخيص بقوله: لا والله، هارون بن حاتم (أحد رجال الإسناد) هالك.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٤٣٠. وقوله: الفارسي: يعني: تمراً فارسيًّا، وهو نوع جيد. والدَّقَل: أردأ التمر. المصباح المنير (فرس) و(دقل).

(٣) أخرجه الترمذي (٣١١٨) وقال: حديث حسن غريب! قال ابن الجوزي في العلل المتناهية ٢/ ٦٥٨: هذا الحديث لا يصح عن رسول الله ﷺ [في إسناده] سيف بن محمد الثوري متفق على كذبه. قال أحمد: كان يضع الحديث. اهـ وأخرجه من طريق أخرى الطبري ١٣/ ٤٣١. قال العقيلي في الضعفاء ٢/ ١٣١: وهذا الحديث إنما يعرف بسيف بن محمد.

(٤) النكت والعيون للماوردي ٣/ ٩٤.

(٥) في (د) و(ز) و(م): الناس كالنبت والنبت ألوان. والمثبت من (ظ) وهو الموافق للمصادر. والأبيات في التمثيل والمحاضرة للثعالبي ص٢٧٥، والتدوين في أخبار قزوين ١/ ٧٠ وقائلها منصور الفقيه.

(٦) في (د) و(ز) و(م): منها، وفي (ظ): فمنها، والمثبت من المصادر.

(٧) في النسخ: ومنها، والمثبت من المصادر.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لَعلاماتٍ لمن كان له قلبٌ يَفهم عن الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾، أي: إنْ تعجَبْ يا محمدُ من تكذيبهم لك بعد ما كنتَ عندَهم الصادقَ الأمينَ؛ فأعجبُ منه تكذيبُهم(١) بالبَعْث؛ والله تعالى لا يَتعجَّب، ولا يجوز عليه التعجُّب؛ لأنه تَغيُّر النفسِ بما تخفى أسبابُه، وإنما ذَكَر ذلك ليتعجَّب منه نَبيُّه ﷺ والمؤمنون(٢).

وقيل: المعنى: أي: إنْ عَجِبتَ يا محمد من إنكارهم الإعادةَ مع إقرارهم بأني خالقُ السَّماواتِ والأرضِ والثمار المختلفة من الأرض الواحدة؛ فقولُهم عَجَبٌ يَعجَبُ منه الخَلْق؛ لأنَّ الإعادة في معنى الابتداء(٣).

وقيل: الآية في مُنكري الصانع، أي: إنْ تَعْجَبْ من إنكارهم الصانعَ مع الأدلَّة الواضحة بأنَّ المتغير لابدَّ له من مُغيِّر؛ فهو محلُّ التعجّب. ونَظْمُ الآية يدلُّ على الأوّل والثاني؛ لقوله: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾ أي: أنُبعث إذَا كنا تراباً؟!.

﴿أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وقُرئ: «إنَّا»(٤). و﴿الْأَغْلَالُ﴾ جمع غُلّ؛ وهو طَوْقٌ تُشَدُّ به اليدُ إلى العُنُق، أيْ: يُغلُّون يومَ القيامة؛ بدليل قوله: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١-٧٢]. وقيل: الأغلالُ: أعمالُهم السيئةُ التي هي لازمةٌ لهم(٥).

---

(١) في (ظ): فاعجب من تكذيبهم.
(٢) النكت والعيون ٣/ ٩٤ - ٩٥ .
(٣) ينظر تفسير زاد المسير ٤/ ٣٠٤ ، وتفسير الرازي ١٩/ ٨ - ٩ .
(٤) قرأ بها نافع والكسائي. السبعة ص٣٥٧ ، والتيسير ص١٣٢ .
(٥) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٣٩ ، والوسيط للواحدي ٣/ ٥ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٩٦ .

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٦ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي: لِفَرْط إنكارهم وتكذيبهم يطلبون العذاب. قيل: هو قولُهم: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢].

قال قتادة: طلبوا العقوبةَ قبل العافية[١]، وقد حكم سبحانه بتأخير العقوبةِ عن هذه الأمة إلى يوم القيامة.

وقيل: «قَبْلَ الحسنةِ»، أي: قبل الإيمان الذي يُرجى به الأمانُ والحسنات[٢].

و﴿الْمَثُلَاتُ﴾: العقوبات، الواحدة مَثُلَة. ورُوي عن الأعمش أنه قرأ: [: «المُثُلات، بضم الميم والثاء[٣]، وهذا جمع: مُثْلَة، ورُوي عنه أنه قرأ] «المُثْلات» بضم الميم وإسكان الثاء[٤]، وهذا أيضاً جمعُ مُثْلَة، ويجوز: «المَثَلات»؛ تُبدلُ من الضمة فتحة لِثقلِها، وقيل: يُؤتى بالفتحة عِوضاً من الهاء. ورُوي عن الأعمش أنه قرأ: «المَثْلات» بفتح الميم وإسكان الثاء[٥]؛ فهذا جمعُ مَثْلة، ثم حَذف الضمةَ لثقلها؛ ذكره جميعَه النحاسُ رحمه الله[٦].

وعلى قراءة الجماعة واحده: مَثُلة، مثل: صَدُقة وصَدُقات[٧].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٥٢، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٣/ ٤٣٦.

(٢) ينظر النكت والعيون ٣/ ٩٥.

(٣) ذكرها عنه أبو حيان في البحر ٥/ ٣٦٠، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٦ لعيسى بن عمر، وذكرها ابن جني ١/ ٣٥٤ دون نسبة.

(٤) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٦ وابن جني في المحتسب ١/ ٣٥٣ ليحيى بن وثّاب.

(٥) نسبها في القراءات الشاذة ص٦٦ ليحيى بن وثّاب، وفي المحتسب ١/ ٣٥٣ لعيسى الثقفي وطلحة بن سليمان وللأعمش عن يحيى بن وثّاب.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٤٧٢ - ٤٧٣، وما بين حاصرتين منه. وجمع: مَثْلَة على: مَثَلات؛ على غير قياس، ينظر المحتسب ١/ ٣٥٤.

(٧) في (د) و(ز) و(م): نحو صدقة وصدقة، والمثبت من (ظ)، وينظر المحرر الوجيز ٣/ ٢٩٦.

وتميمٌ تضم الثاءَ والميم جميعاً، واحدُها على لغتهم مُثْلة، بضم الميم وجزم الثاء؛ مثل: غُرْفة وغُرُفات؛ والفعلُ منه: مَثَلْتُ به أَمْثُلُ مَثْلاً، بفتح الميم وسكون الثاء(١).

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾، أي: لذو تجاوز عن المشركين إذا آمنوا وعن المذنبين إذا تابوا. وقال ابن عباس: أرجى آية في كتاب الله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾(٢). ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ إذا أصرّوا على الكفر.

وروى حمّاد بنُ سَلَمَة عن عليّ بن زيد، عن سعيد بن المسيّب قال: لما نزلت: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ قال رسول الله ﷺ: «لولا عفوُ اللهِ ورحمتُه وتجاوزُه لَما هَنَأ أحداً عيشٌ، ولولا عقابُه ووعيدُه وعذابُه لاتّكل كلُّ أحد»(٣).

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا﴾ أي: هلّا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾. لما اقترحوا الآياتِ وطلبوها قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ﴾ أي: مُعْلِم. ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي: نبيٌّ يدعوهم إلى الله. وقيل: الهادي الله، أي: عليك الإنذارُ، والله هادي كل قومٍ إنْ أراد هدايتَهم(٤).

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾

فيه تسع(٥) مسائل:

---

(١) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ١٣/ ٤٣٥ .

(٢) أورده النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٥٢ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٩٦ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٣ ، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢٢٢٤ (١٢١٤٥)، والواحدي في الوسيط ٣/ ٦ ، وهو مرسل.

(٤) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٤٤٠ .

(٥) في (د) و(ز): ثمانية، وفي (م): ثمان، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لعدد المسائل المذكورة.

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ أي: من ذكر وأنثى، صبيح وقبيح، صالح وطالح؛ وقد تقدّم في سورة الأنعام(١) أنَّ اللهَ سبحانه منفردٌ بعلم الغيبِ وحدَه لا شريكَ له؛ وذكرنا هناك حديثَ البخاريِّ عن ابن عمر أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مفاتيحُ الغيب خمسٌ» الحديث، وفيه: «ولا يعلم ما تغِيض الأرحام إلا اللهُ»(٢).

واختلف العلماء في تأويل قوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ﴾ فقال قَتَادة المعنى: ما تُسقِط قبلَ التسعة الأشهر، وما تزداد فوقَ التسعة، وكذلك قال ابن عباس.

وقال مجاهد: إذا حاضت المرأة في حملها كان ذلك نقصاناً في ولدها؛ فإنْ زادت على التسعة كان تماماً لِمَا نقص. وعنه: الغيضُ ما تنقصه الأرحامُ من الدم، والزيادةُ ما تزداد منه(٣).

وقيل: الغيض(٤) والزيادةُ يرجعان إلى الولد، كنقصان إصبعٍ أو غيرها، وزيادةِ إصبع أو غيرها.

وقيل: الغيض: انقطاعُ دمِ الحيض [في الحمل]. «وَمَا تَزْدَادُ»: بدمِ النفاسِ بعد الوضع(٥).

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على أنَّ الحاملَ تحيض؛ وهو مذهبُ مالك والشافعيِّ في أحد قوليه. وقال عطاء والشَّعبيُّ وغيرُهما: لا تحيضُ. وبه قال أبو حنيفة(٦).

---

(١) ٨/ ٤٠١.

(٢) صحيح البخاري (٤٦٩٧)، وسلف ٨/ ٤٠١.

(٣) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٣/ ٤٤٥ - ٤٥١.

(٤) في (ظ): النقص.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٩٦، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٦) ينظر الأوسط لابن المنذر ٢/ ٢٣٨ - ٢٤٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٩٩.

ودليلُنا[١] الآية؛ قال ابن عباس في تأويلها: إنه حيضُ الحبالى. وكذلك رُويَ عن عِكْرِمة ومجاهد[٢]. وهو قولُ عائشةَ، وأنها كانت تفتي النِّساء الحواملَ إذا حِضْن أن يتركنَ الصَّلاة[٣]؛ والصحابةُ إذ ذاك متوافرون، ولم يُنكِر منهم أحدٌ عليها، فصار كالإجماع؛ قاله ابن القصَّار. وذكر أنَّ رجلين تَنازعَا ولداً، فَترافَعا إلى عمرَ ﷺ، فعرضه على القَافَة، فألحقه القائِفُ بهما، فَعَلاه عمر بالدِّرَّة، وسأل نِسوةً من قريش فقال: انظُرْنَ ما شأنُ هذا الولد؟ فقُلْنَ: إنَّ الأوّل خلا بها وخلَّاها، فحاضت على الحمل، فظنَّت أنَّ عِدَّتَها انقضت، فدخل بها الثاني، فانتعش الولد بماء الثاني. فقال عمر: الله أكبر! وألحقه بالأول[٤]، ولم يقل: إنَّ الحاملَ لا تحيض، ولا قال ذلك أحدٌ من الصحابة؛ فدلَّ على أنه إجماعٌ، والله أعلم.

احتجَّ المخالف بأنْ قال: لو كانت الحاملُ تحيض، وكان ما تراه من الدم[٥] حيضاً لَمَا صَحَّ استبراءُ الأمةِ بحيض[٦]؛ وهو إجماعٌ[٧]. ورُوي عن مالك في كتاب محمد ما يقتضي أنه ليس بحيض[٨].

(١) في (د) و(ز) و(م): ودليله.

(٢) خبر مجاهد تقدم في المسألة الأولى، وخبر عكرمة أخرجه الطبري ١٣/ ٤٤٨، وينظر عن ابن عباس ما أخرجه الطبري ١٣/ ٤٤٤، وابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٢٦ (١٢١٦١)، وينظر أيضاً أحكام القرآن للجصاص ٣/ ١٨٠ - ١٨٢.

(٣) أخرجه ابن المنذر في الأوسط ٢/ ٢٣٩ - ٢٤٠، وهو في المدونة ١/ ٥٥، وأخرج الدارمي (٩٢٤) عن يحيى بن سعيد قال: أمر لا يختلف فيه عندنا عن عائشة: المرأة الحبلى إذا رأت الدم أنها لا تصلي حتى تطهر.

(٤) أخرجه بنحوه مالك في الموطأ ٢/ ٧٤٠ - ٧٤١، وعبد الرزاق (١٣٤٥٠) و(١٣٤٥١).

(٥) في (م): ما تراه المرأة من الدم.

(٦) في (ظ): بحيضة، وهو أشبه. وينظر ما سلف ٦/ ٢٠١.

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٢٩٩، وينظر أحكام القرآن للجصاص ٣/ ١٨١، والأوسط ٢/ ٢٤٠. وذكر ابن المنذر عن بعض أصحاب هذا القول قوله: إن في إجماعهم على أن الأَمَة إذا حاضت حلَّ وَطْؤها، مع إجماعهم على أن الحامل لا يحل وطؤها حتى تضع، دليل بيِّن على أن الحامل مُحالٌ وجود الحيض فيها.

(٨) المحرر الوجيز ٣/ ٢٩٩. وقد ثبت علمياً أن الحامل لا تحيض، وأما الدم الذي يخرج أثناء الحمل =

الثالثة: في هذه الآية دليلٌ على أنَّ الحاملَ قد تضع حملَها لأقلَّ من تسعة أشهر وأكثر، وأجمع العلماء على أنَّ أقلَّ الحملِ ستَّةُ أشهر، ورُوي أنَّ عبدَ الملك[(١)] بنَ مروان وُلد لستة أشهر.

الرابعة: وهذه السِّتةُ الأشهر هي بالأهِلَّة كسائر أشهرِ الشريعة؛ ولذلك قد رُوي في المذهب عن بعضِ أصحاب مالك ـ وأظنُّه في كتاب ابنِ حارث[(٢)] ـ أنه إنْ نقص من[(٣)] الأشهر الستة ثلاثةُ أيام، فإنَّ الولدَ يلحق لعلة نقص الشهورِ وزيادتها؛ حكاه ابن عطية[(٤)].

الخامسة: واختلف العلماء في أكثر الحمل؛ فروى ابن جُرَيج عن جَمِيلة بنت سعد، عن عائشة قالت: لا يكونُ الحملُ أكثرَ من سنتين قَدْرَ ما يتحوَّل ظِلُّ المِغْزَل؛ ذكره الدَّارَقُطْنِي[(٥)]. وقال[(٦)]: جَميلة بنتُ سعد أختُ عُبيد بنِ سعد[(٧)].

= فإنه راجع إلى أسباب مرضية مختلفة، تطول مدة خروجه أو تقصر على حسب أسبابه، وليس هو بدم حيض.

(١) في (د) و(ز) و(م): وإن عبد الملك، بدل: وروي أن عبد الملك، والمثبت موافق لما في المحرر الوجيز ٣/ ٢٩٩ ، والكلام منه.

(٢) لعله محمد بن حارث بن إسماعيل الخشني، أبو عبد الله، تفقَّه بالقيروان، كان حافظاً للفقه عالماً بالفتيا، ألف كتابه في الاتِّفاق والاختلاف في مذهب مالك، وكتاب الفتيا، وكتاب فقهاء المالكية، وغير ذلك، توفي سنة (٣٦١هـ). ترتيب المدارك ٤/ ٥٣١ .

(٣) في (م): عن.

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٢٩٩ .

(٥) في سننه (٣٨٧٥)، وأخرجه بنحوه سعيد بن منصور في سننه (٢٠٧٧)، قال ابن حزم في المحلَّى ١٠/ ٢١٦ : جميلة بنت سعد مجهولة، لا يُدرى من هي، فبطل هذا القول. اهـ. قوله: ظل المغزل: هو مَثَل لقلته؛ لأن ظله حالة الدوران أسرع من جميع الظلال، وهو على حذف مضاف تقديره: ولو بقدر ظل المغزل. ينظر البحر الرائق ٤/ ١٧٧ .

(٦) في النسخ: وقالت، والمثبت هو الصواب، وقاله الدارقطني إثر الحديث السالف.

(٧) الدِّيلي، طائفي، أبو امرأة ابن جريج، سمع عبد الله بن عمر، قال فيه ابن معين: مشهور. الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٥/ ٤٠٧ .

وعن الليث بن سعد: إنَّ أكثرَه ثلاثُ سنين. وعن الشافعيِّ: أربعُ سنين؛ ورُوي عن مالك في إحدى روايتيه، والمشهورُ عنه خمسُ سنين، ورُوي عنه: لا حدَّ له ولو زاد على العشرة الأعوام، وهي الرواية الثالثةُ عنه. وعن الزهريِّ: ستٌّ وسبع[١].

قال أبو عمر[٢]: [فمالك يجعله خمس سنين] ومِن أصحابه[٣] مَن يجعله إلى سبع. والشافعيُّ مُدَّتُه[٤] [عنده] الغايةُ فيها[٥] أربع سنين. والكوفيون يقولون: سنتان لا غير. ومحمد بن عبد الحكم يقول: سنة لا أكثر. وداود يقول: تسع أشهر، لا يكون عنده حملٌ أكثر منها.

قال أبو عمر: وهذه مسألةٌ لا أصلَ لها إلا الاجتهاد، والردُّ إلى ما عُرِفَ من أمر النِّساءِ، وبالله التوفيق.

رَوى[٦] الدَّارَقُطْني[٧] عن الوليد بن مسلم قال: قلتُ لمالك بن أنس: إني حُدِّثتُ عن عائشة أنها قالت: لا تزيد المرأة في حملها على سنتين قَدْرَ ظِلِّ المِغْزَل، فقال: سبحان الله! مَن يقول هذا؟! هذه جارتُنا امرأةُ محمد بنِ عَجْلان امرأةُ صِدْقٍ، وزوجُها رجلُ صدقٍ، حملت ثلاثةَ أبْطُنٍ في اثنتي عَشْرةَ سنةً، تحمل كلَّ بطنٍ أربعَ سنين.

وذَكَر عن المبارك بنِ مجاهد قال: مشهورٌ عندنا كانت امرأةُ محمد بنِ عَجْلان تحمل وتضع في أربع سنين، وكانت تُسمَّى حاملةَ الفيل[٨].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٠٩٧ .

(٢) في الاستذكار ٢٢/١٧٨ - ١٧٩ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) في النسخ: ومن الصحابة، والمثبت من الاستذكار.

(٤) في (د) و(ز) و(م): مدة، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في الاستذكار.

(٥) في (د) و(ز) و(م): منها، وفي (ظ): فيه، والمثبت من الاستذكار.

(٦) قبلها في (ظ): قلت.

(٧) في سننه (٣٨٧٧).

(٨) سنن الدارقطني (٣٨٧٨).

ورَوَى أيضاً قال: بينما مالك بن دينار يوماً جالسٌ، إذ جاءه رجل فقال: يا أبا يحيى! ادعُ لامرأةٍ حُبلَى منذُ أربعِ سنين قد أصبحت في كَرْبٍ شديدٍ، فغضب مالك وأطبق المُصحَف، ثم قال: ما يرى هؤلاء القومُ إلا أنَّا أنبياء! ثم قرأ، ثم دعا، ثم قال: اللهمَّ هذه المرأةُ إنْ كان في بطنها ريحٌ فأخرِجْه عنها الساعةَ، وإنْ كان في بطنها جاريةٌ فأَبْدِلْها بها غلاماً، فإنك تَمْحُو ما تشاء وتُثْبِت، وعندك أمُّ الكتاب، ثم رفع مالكٌ يدَه، ورفع الناس أيديَهم، وجاء الرسول إلى الرجل فقال: أَدرِكْ امرأتَكَ فذهب الرجل؛ فما حطَّ مالكٌ يدَه حتى طلع الرجل من باب المسجد على رقبته غلامٌ جَعْدٌ قَطَطٌ، ابنُ أربعِ سنينَ، قد استوت أسنانُه، ما قُطِعت سِرارُه[1].

ورَوَى أيضاً: أنَّ رجلاً جاء إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، إني غِبتُ عن امرأتي سنتين، فجئت وهي حُبلى! فشاوَرَ عمر الناسَ في رجمها، فقال معاذ ابن جبل: يا أمير المؤمنين، إنْ كان لك عليها سبيلٌ فليس لك على ما في بطنها سبيلٌ، فاتركْها حتى تضَعَ. فتركها، فولَدت[2] غلاماً قد خرجت ثنيَّتاه، فعرف الرجل الشَّبه [فيه]، فقال: ابني وربِّ الكعبة! فقال عمر: عجزت النساءُ أنْ يَلِدْنَ مثلَ معاذ، لولا معاذٌ لهلك عمر[3].

وقال الضحَّاك: وضعتني أمي وقد حملت بي في بطنها سنتين، فولدتني وقد خرجت سِنِّي[4].

---

(١) سنن الدارقطني (٣٨٧٩)، وقوله: جَعْد قَطَط؛ الجعدُ من الشعر خلاف السَّبط، والسَّبْط: المنبسط المسترسل، والقطط: الشديد الجعودة. اللسان (جعد، قطط).

(٢) في (د) و(ز) و(م): فوضعت، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لسنن الدارقطني.

(٣) سنن الدارقطني (٣٨٧٦)، وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١٠/ ٨٨ ، وسعيد بن منصور (٢٠٧٦). وذكر ابن حزم في المحلى ١٠/ ٣١٦ أن هذا الخبر باطل؛ لأنه عن أبي سفيان، وهو ضعيف، عن أشياخ لهم، وهم مجهولون.

(٤) أورده ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٩٩ .

ويُذكر عن مالكٍ أنه حُمل به في بطن أُمِّه سنتين، وقيل: ثلاث سنين[١].

ويقال: إنَّ محمد بن عَجلان مكث في بطن أُمه ثلاثَ سنين، فماتت به وهو يضطربُ اضطراباً شديداً، فشُقَّ بطنُها وأُخرج وقد نبَتت أسنانه[٢].

وقال حمَّاد بن سلمة: إنما سُمي هَرِمُ بن حيَّان هَرِماً؛ لأنه بقيَ في بطن أُمه أربعَ سنين[٣].

وذكر الغَزْنَويُّ أنَّ الضحَّاك وُلد لسنتين، وقد طلعت سِنُّه فسُمِّي ضحَّاكاً[٤].

عبَّاد بنُ العوَّام: ولدت جارةٌ لنا[٥] لأربع سنين غلاماً شعرُه إلى مَنْكِبيه، فمرَّ به طيرٌ، فقال: كش[٦].

السادسة: قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد: أقلُّ الحيض والنفاس وأكثرُه، وأقلُّ الحمل وأكثرُه، مأخوذٌ من طريق الاجتهاد؛ لأنَّ علمَ ذلك استأثر الله به، فلا يجوزُ أنْ يُحكمَ

---

(١) أخرج البيهقي ٧/ ٤٤٣ عن الواقدي عن مالك قال: قد يكون الحمل سنين وأعرف مَن حملت به أمه أكثر من سنتين، يعني نفْسَه. وأخرج عن الواقدي أيضاً أن أم مالك حملت به في البطن ثلاث سنين.

(٢) أورده الذهبي في السير ٦/ ٣١٨ ، وذكره ابن قتيبة في المعارف ص٥٩٥ بنحوه.

(٣) أورده ابن قتيبة في المعارف ص٥٩٥ . وهرم بن حيان هو العبدي، ويقال: الأزدي، أحد العابدين، وولي بعض الحروب في أيام عمر وعثمان ببلاد فارس. السير ٤/ ٤٨ .

(٤) ذكره السَّرخسي في المبسوط ٦/ ٤٥ ، إلا أنه قال: لأربع سنين، بدل: سنتين.

(٥) في (ظ): ولدت جارية له.

(٦) قال ابن حزم في المحلى ١٠/ ٣١٦ : لا يجوز أن يكون حملٌ أكثَر من تسعة أشهر، ولا أقلَّ من ستة أشهر؛ لقول الله تعالى: ﴿وحملُه وفصالُه ثلاثون شهراً﴾ وقال تعالى: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ فمن ادَّعى أن حملاً وفصالاً يكون في أكثر من ثلاثين شهراً فقد قال الباطل والمحال، وردَّ كلام الله عزَّ وجلَّ جهاراً. اهـ.

وقد ثبت علمياً أن الدورة الطمثية قد تنقطع لسبب فيزيولوجي، كما هو الحال عند المرضعة، أو لسبب مرضي، كما هو الحال عند وجود ضعف في الإباضة، أو وجود خلل في الهرمونات، مما يؤدي إلى عدم حدوث الدورة الطمثية لأشهر، أو لسنين أحياناً، ثم تنشط الإباضة فجأة، ويحدث الحمل، فيُظن أن المدة السالفة كلها هي مدة الحمل، وليس كذلك، فالحمل الحقيقي لن يزيد عن وقته (وهو تسعة أشهر) أكثر من شهر، وإلا لمات الجنين في بطن أمه.

في شيء منه إلا بقَدْرِ ما أظهره لنا، ووُجد ظاهراً في النساء؛ نادراً أو معتاداً؛ ولمَّا وَجَدْنا امرأةً قد حملت أربعَ سنين وخمسَ سنين حَكَمْنا بذلك، والنفاسُ والحيضُ لمَّا لم نجد فيه أمراً مُستقرًّا رجعنا فيه إلى ما يوجد في النادر منهنَّ.

السابعة: قال ابن العربي[١]: نقل بعضُ المتساهلين من[٢] المالكيين أنَّ أكثر الحملِ تسعةُ أشهر! وهذا ما لم ينطق به قطُّ إلا هالِكيٌّ، وهم الطَّبَائِعيُّون الذين يزعمون أنَّ مدبِّرَ الحملِ في الرَّحِم الكواكبُ السبعة؛ تأخذه شهراً شهراً، ويكونُ الشهر الرابعُ منها للشمس؛ ولذلك يتحرَّكُ ويضطرب، وإذا تكامَلَ التَّدَاوُلُ في السبعة الأشهرِ بين الكواكب السبعةِ عاد في الشهر الثامن إلى زُحل، فيُبْقِله[٣] بِبَرْده، فياليتني تمكَّنتُ من مناظرتهم أو مقاتلتِهم[٤]! ما بالُ المَرْجِع بعدَ تمامِ الدَّور يكون إلى زُحلَ دونَ غيره؟ آللهُ أخبركم بهذا أم على الله تفترون؟! وإذا جاز أنْ يعودَ إلى اثنين منها[٥]، لِمَ لا يجوزُ أنْ يعودَ التدبير إلى ثلاثٍ أو أربع، أو يعودَ إلى جميعها مرتين أو ثلاثاً؟! ما هذا التحكُّم بالظنون الباطلةِ على الأمور الباطنة!.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ يعني من النقصان والزيادة. ويقال: «بمقدار»: قَدْرَ خروجِ الولد من بطن أمِّه، وقَدْرَ مُكْثِه في بطنها إلى خروجه. وقال قَتَادةُ: في الرزق والأجل[٦]. والمقدارُ: القَدْرُ. وعمومُ الآيةِ يتناول كلَّ ذلك، والله سبحانه أعلم.

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٩٧ .

(٢) في (د) و(ز) و(ظ): عن، والمثبت من (م)، وهو الموافق لأحكام القرآن.

(٣) في (د) و(ز) و(ظ): فيلقيه، والمثبت من (م)، وهو الموافق لأحكام القرآن ومعنى يبقله: يخرجه. ينظر اللسان (بقل).

(٤) في (د) و(ز): مقابلتهم، والمثبت من (ظ) و(م)، وهو الموافق لأحكام القرآن.

(٥) في (د) و(ز) و(ظ): إلى شيء منها، والمثبت من (م)، وهو الموافق لأحكام القرآن.

(٦) النكت والعيون ٣/ ٩٧ ، وأخرجه الطبري ١٣/ ٤٥٢ بنحوه.

التاسعة[١]: هذه الآيةُ تَمدَّحَ الله سبحانه وتعالى بها بأنه: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: هو عالمٌ بما غاب عن الخلق، وبما شَهِدوه. فالغيبُ مصدرٌ بمعنى الغائب. والشهادةُ مصدرٌ بمعنى الشاهد، فنبَّه سبحانه على انفراده بعلم الغيبِ، والإحاطةِ بالباطن الذي يَخْفَى على الخَلْق، فلا يجوزُ أنْ يشاركَه في ذلك أحدٌ. فأما أهلُ الطبِّ الذين يستدلُّون بالأمارات والعلاماتِ، فإنْ قطعوا بذلك فهو كفرٌ[٢]، وإنْ قالوا: إنها تجربة، تُركوا وما هم عليه، ولم يَقدَح ذلك في الممدوح[٣]؛ فإنَّ العادةَ يجوز انكسارُها، والعلمُ لا يجوزُ تَبدُّلُه.

و﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾ الذي كلُّ شيءٍ دونه. ﴿ٱلۡمُتَعَالِ﴾ عما يقول المشركون، المستعلي على كلِّ شيءٍ بقدرته وقَهْرِه؛ وقد ذكرناهما في شرح الأسماء مستوفًى[٤]، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ١٠﴾

قوله تعالى: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ إسْرارُ القول: ما حَدَّث به المرءُ نفسَه، والجهرُ ما حَدَّث به غيرَه؛ والمرادُ بذلك أنَّ الله سبحانه يَعلم ما أَسَرَّه الإنسان من خيرٍ وشرّ، كما يعلم ما جَهَر به من خيرٍ وشرّ.

و«مِنكُمْ» يحتمل أنْ يكونَ وصفاً لـ «سواءٌ»، التقدير: سِرُّ مَن أَسَرَّ وَجَهْرُ مَن جَهَر سواءٌ منكم. ويجوزُ أنْ يتعلق بـ «سواء» على معنى: يستوي منكم، كقولك: مررتُ بزيد. ويجوز أنْ يكونَ على تقدير: سِرُّ مَن أَسَرَّ منكم وجَهْرُ مَن جَهَر منكم.

---

(١) في (د) و(م): قلت، والمثبت من (ز) و(ظ).

(٢) وقعت العبارة في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٩٦ (والكلام منه): وأهل الطب يقولون: إذا ظهر النفخ في ثدي الحامل الأيمن فالحمل ذكر، وإن ظهر في الثدي الأيسر فالحمل أنثى، وإذا كان الثقل للمرأة في الجانب الأيمن فالحمل ذكر، وإن وجدت الثقل في الجانب الأيسر فالولد أنثى، فإن قطعوا بذلك فهو كفر. وينظر ما سلف ٨/ ٤٠٣ .

(٣) في أحكام القرآن: التمدح.

(٤) الأسنى ص٢٠٨ و ٢١٠ وما بعدها.

ويجوزُ أنْ يكونَ التقدير: ذو سواءٍ منكم مَن أسرَّ القولَ ومَن جَهَر به، كما تقول: عدلٌ زيدٌ وعمرو، أي: ذوا عدلٍ. وقيل: «سواء»، أي: مُسْتوٍ، فلا يحتاج إلى تقدير حذفِ مضاف[1].

﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ أي: يستوي في علم الله السرُّ والجهر، والظاهِرُ في الطُّرقات والمُسْتَخْفي في الظُّلُمات[2].

وقال الأخفش وقُطْرُب[3]: المستخفي بالليل: الظاهرُ؛ ومنه خَفَيتُ الشيءَ وأَخْفَيته، أي: أظهرتُه، واختفيت[4] الشيءَ، أي: استخرجتُه، ومنه قيل لِلنَّبَّاش: المختفي[5]. وقال امرؤ القيس:

خَفَاهُنَّ من أنْفَاقِهِنَّ كَأَنَّمَا ... خَفَاهُنَّ وَدْقٌ مِن عَشِيٍّ مُجَلِّبِ[6]

والسَّاربُ: المتواري، أي: الداخلُ سَرَباً؛ ومنه قولُهم: انْسَرَب الوحش: إذا دخل في كِناسه[7]. وقال ابن عباس: «مُسْتَخْفٍ»: مستتر، «وَسَارِبٌ»: ظاهر[8].

---

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٤١، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٥٣، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٣٩٧ والإملاء (على هامش الفتوحات الإلهية) ٣/ ٣٧٣.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٤٢.

(٣) قول الأخفش في معاني القرآن له ٢/ ٥٩٥، وقول قطرب ذكره الزجاج في معاني القرآن ٣/ ١٤٢، وأبو الطيب اللغوي في الأضداد ١/ ٢٤٧، وذكر هذا القول عنهما الرازي ١٩/ ١٧ - ١٨.

(٤) في (د) و(ز) و(م): أخفيت، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في تفسير الرازي ١٩/ ١٧، واللسان (خفي)، ومثلها: استخفيت، ذكرها الجوهري في الصحاح (خفي). وينظر الأضداد لأبي الطيب ١/ ٢٤٧، وتهذيب اللغة ٧/ ٥٩٧.

(٥) الأضداد لابن الأنباري ص٧٦، والصحاح (خفي).

(٦) ديوان امرئ القيس ص٥١. وجاء في شرحه للأصمعي: الوَدْق: المطر، وخَصَّ مطر العَشيِّ لأنه أغزر. والمجلِّب: الذي تُسمع له جَلَبة لشدةِ وَقْعِه، أي: وَدْقٌ من عَشيٍّ فيه جلبةٌ للمطر. والمعنى: أن الفرس لشدة جَرْيِه أخرج الفِئرةَ من جِحَرتهنَّ ظنَّه مطراً، فخشينَ أن يُسيل الأرض فيغرقهن.

(٧) في (م): الوحشي، ومثله في معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٤٢، والصحاح (سرب)، والمثبت موافق لما في معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٦، وتهذيب اللغة ١٢/ ٤١٤، وتفسير الرازي ١٩/ ١٧. والكِناس: هو مستتر الظبي في الشجر. القاموس (كنس).

(٨) أخرجه الطبري ١٣/ ٤٥٣ - ٤٥٤.

مجاهد: مُسْتَخْفٍ [بالليل، أي: مستتر] بالمعاصي، «وَسَارِبٌ»: ظاهر[(١)].

وقيل: معنى «سَارِبٌ»: ذاهبٌ؛ قال الكسائيُّ: سَرَبَ يَسْرُبُ سَرَباً وسُرُوباً: إذا ذهب[(٢)]؛ وقال الشاعر:

وكُلُّ أناسٍ قَارَبُوا قَيْدَ فَحْلِهِمْ ونَحْنُ خَلَعْنَا قَيْدَهُ فهو سَارِبُ[(٣)]

أي: ذاهبٌ. وقال أبو رجاء: السَّاربُ: الذَّاهب على وجهه في الأرض[(٤)]؛ قال الشاعر:

أنَّى سَرَبْتِ وكنتِ غيرَ سَرُوبِ[(٥)]

وقال القُتَبيُّ: «سَارِبٌ بِالنَّهَارِ»، أي: متصرِّفٌ[(٦)] في حوائجه بسرعة، من قولهم: انْسَرَب الماء. وحكى الأصمعيُّ: خَلِّ سَرْبَه، أي: طريقه[(٧)].

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ١١﴾

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾، أي: لله ملائكةٌ يتعاقبون بالليل والنهار؛ فإذا

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٦، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٧.

(٣) قائله الأخنس بن شهاب التغلبي، كما في إصلاح المنطق ص٢٢٥، وشرح أبيات إصلاح المنطق للسيرافي ص٣٧٨، والصحاح (سرب)، وشرح اختيارات المفضل للتبريزي ٢/ ٩٣٨. قال السيرافي: يعني بالفحل هنا السيد، يقول: كلُّ أناس غيرنا لم يتركوا رئيسهم وسيدهم أن يفارقهم ويبعدَ عنهم خشيةً عليه من القتل، ونحن لعزِّنا لا يجترئ أحد على سيدنا وإن كان وحده بعيداً عنا.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٤٥٤.

(٥) وعجزه: وتقرُّبُ الأحلامُ غيرَ قريب، والبيت لقيس بن الخَطِيم كما في تفسير الطبري ١٣/ ٤٥٣، والأضداد لابن الأنباري ص٧٧، وبلا نسبة في الصحاح (سرب)، وسلف ١/ ١٠١.

(٦) في (د) و(م): منصرف، والمثبت من (ز) و(ظ) وتفسير الغريب لابن قتيبة ص٢٢٤.

(٧) ذكره النحاس في معاني القرآن ٣/ ٤٧٧.

صعِدت ملائكةُ الليل أعقبتها ملائكةُ النهار.

وقال: «مُعَقِّبَاتٌ» والملائكة ذُكْران؛ لأنه جمعُ مُعقِّبة؛ يقال: مَلَك مُعقِّب، وملائكة مُعقِّبة، ثم مُعقِّبات جمعُ الجمع[(١)].

وقرأ بعضهم: «له مَعَاقيبُ مِن بَيْنِ يَدَيْه ومن خَلْفِه». ومعاقيبُ جمع مُعقِّب[(٢)]؛ وقيل: للملائكة: معقِّبة؛ على لفظ الملائكة. وقيل: أنّث لكثرة ذلك منهم؛ نحو نسَّابة وعلَّامة وراوِيَة؛ قاله الجوهريُّ وغيره[(٣)].

والتعقيب[(٤)]: العَودُ بعد البدء؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾ [النمل: ١٠]، أي: لم يَرجع، وفي الحديث: «مُعقِّباتٌ لا يَخِيبُ قائِلُهنَّ ـ أو: فاعلهن ـ» فذكر التسبيحَ والتحميدَ والتكبير[(٥)]؛ قال أبو الهيثم[(٦)]: سُمِّين «مُعقِّبات»؛ لأنها عادت مرَّةً بعد مرَّة، وكلُّ[(٧)] مَن عَمِل عَملاً ثم عاد إليه فقد عَقَّبَ.

والمعقِّبات من الإبل: اللواتي يَقُمْنَ عند أعجازِ الإبل المُعْتَرِكات على الحوض، فإذا انصرفت ناقةٌ دخلت مكانَها أخرى[(٨)].

وقوله: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾، أي: المستخفي بالليل والساربِ بالنهار. ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ اختلف في هذا الحفظِ؛ فقيل: يَحتَمِل أنْ يكونَ توكيلُ الملائكةِ بهم

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٦٠، وتفسير الطبري ١٣/ ٤٥٦.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٨٠، وهي في القراءات الشاذة ص٦٦ عن زياد بن أبي سفيان، وفي المحتسب ١/ ٣٥٥ عن عبيد الله بن زياد. قال ابن جني: ينبغي أن يكون هذا تكسير معقِّبٍ أو معقِّبة، إلا أنه لمَّا حذف إحدى القافين عوض منها الياء.

(٣) الصحاح (عقب)، ومعاني القرآن للأخفش ٢/ ٥٩٦.

(٤) في النسخ: والتعقب، والمثبت من تفسير الطبري ١٣/ ٤٧٣، والكلام منه، وتفسير البغوي ٣/ ٩.

(٥) أخرجه مسلم (٥٩٦) من حديث كعب بن عُجرة ﷺ.

(٦) هو الرازي، مشهور بكنيته، وسلفت ترجمته ٥/ ١٣٦، وكلامه في تهذيب اللغة ١/ ٢٧٢ - ٢٧٣.

(٧) في (د) و(ز) و(م): فعل.

(٨) الصحاح (عقب).

لحِفْظِهم من الوحوش والهوامِّ والأشياءِ المُضرَّة، لطفاً منه به، فإذا جاء القَدَر خلَّوا بينَه وبينه. قاله ابن عباس وعلي بنُ أبي طالب رضي الله عنهما[(١)]؛ قال أبو مِجلَز: جاء رجلٌ من مُرَاد إلى عليٍّ فقال: احترس؛ فإنَّ ناساً من مُرَاد يريدون قتلَك، فقال: إنَّ مع كلِّ رجل مَلَكين يحفظانِه مما لم[(٢)] يُقدَّر، فإذا جاء القَدَر خَلَّيا بينه وبينَ قَدَرِ الله، وإنَّ الأجلَ حِصنٌ حَصينة. وعلى هذا: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ أي: بأمر الله وبإذنه، فـ «مِن» بمعنى الباء؛ وحروفُ الصِّفات يقوم بعضُها مقامَ بعض[(٣)].

وقيل: «مِن» بمعنى «عن»، أي: يحفظونه عن أمر الله. وهذا قريبٌ من الأوّل؛ أي: حِفْظُهم عن أمر الله لا مِن عند أنفسِهم. وهذا قولُ الحسن[(٤)]؛ تقول: كسوتُه عن عُرْيٍ ومن عُرْيٍ، ومنه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ [قريش:٤]، أي: عن جوع[(٥)].

وقيل: يحفظونه من ملائكة العذابِ حتى لا تَحِلَّ به عقوبةٌ؛ لأنَّ اللهَ لا يغيِّر ما بقومٍ من النعمة والعافية حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم بالإصرار على الكفر، فإذا أصرُّوا حان الأجلُ المضروب، ونزلت بهم النّقمة، وتزولُ عنهم الحَفَظة المعقِّبات.

وقيل: يحفظونه من الجِنِّ؛ قال كعب: لولا أنَّ الله وَكَّل بكم ملائكةً يَذبُّون عنكم في مَطْعَمكم وَمَشْرَبِكم وعوراتكم لتَخَطَّفتْكم [الجن][(٦)] فإذاً[(٧)] الجِنُّ وملائكةُ

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٣٢ ، والطبري ١٣/ ٤٥٨ عن ابن عباس.

(٢) في (د) و(ز) و(م): ما لم، والمثبت من (ظ) وتفسير الطبري ١٣/ ٤٦٦ وفيه تخريج الخبر.

(٣) زاد المسير ٤/ ٣١١ ، وذكر هذا القول أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣٢٤ ، والبغوي ٣/ ٩ ، وأخرجه عبد الرزاق ١/ ٣٣٢ ، والطبري ١٣/ ٤٦٤ عن قتادة. وقاله مجاهد أيضاً كما في تفسيره ١/ ٣٢٦ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٨٠ ، وذكر الطبري ١٣/ ٤٧٤ هذا القول عن بعض نحويِّي البصرة، وينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٤٢ .

(٥) تفسير الطبري ١٣/ ٤٧٤ .

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٩ ، وما بين حاصرتين منه، وأخرجه الطبري ٣/ ٤٦٦ .

(٧) قوله: فإذاً ليس في (م).

العذابِ من أمر الله، وخصَّهم بأنْ قال: «مِنْ أَمْرِ اللهِ»؛ لأنهم غيرُ مُعايَنين، كما قال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥]، أي: ليس مما تشاهدونه أنتم.

وقال الفرَّاء[١]: في الكلام تقديمٌ وتأخير، تقديره: له معقِّباتٌ من أمر الله من بين يديه ومن خلفه يحفظونه. وهو مرويٌّ عن مجاهد وابنِ جُبير والنَّخعيِّ[٢]. وعلى أنَّ ملائكةَ العذابِ والجِنَّ من أمر اللهِ لا تقديمَ فيه ولا تأخير.

وقال ابن جريج: إنَّ المعنى: يحفظون عليه عملَه[٣]، فحذف المضاف. وقال قتادة: يكتبون أقواله وأفعاله.

ويجوز إذا كانت المعقِّباتُ الملائكة أن تكون الهاء في «له» لله عزَّ وجلَّ، كما ذكرنا. ويجوز أنْ تكونَ للمستخفي، فهذا قول.

وقيل: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ يعني به النبيَّ ﷺ[٤]؛ أي: إنَّ الملائكةَ تحفظه من أعدائه، وقد جرى ذكرُ الرسول في قوله: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾، أي: سواءٌ منكم مَن أسرَّ القولَ ومَن جهر به في أنه لا يضرُّ النبيَّ ﷺ، بل له معقباتٌ يحفظونه عليه الصلاة والسلام. ويجوز أنْ يرجعَ هذا إلى جميع الرسل؛ لأنه قد قال: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي: يحفظون الهاديَ مِن بين يديه ومِن خَلْفه.

وقول رابع: أنَّ المرادَ بالآية: السلاطينُ والأمراءُ الذين لهم قومٌ من بين أيديهم ومن خلفهم يحفظونهم؛ فإذا جاء أمر الله لم يُغنوا عنهم من الله شيئاً؛ قاله ابن عباس

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٦٠ .

(٢) في (د) و(ز) و(م): وابن جريج والنخعي، والمثبت من (ظ)، ينظر تخريج قولهم في تفسير الطبري ١٣/ ٤٦٣ .

(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣١٢ بلفظ: يحفظون عليه الحسنات والسيئات، وأخرجه بنحوه الطبري ٣/ ٤٥٩ - ٤٦٠ و ٤٦٧ ، وينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٠٢ .

(٤) ذكره الطبري ١٣/ ٤٧٠ ، وابن عطية ٣/ ٣٠١ عن عبد الرحمن بن زيد، ونسبه ابن الجوزي ٤/ ٣١٠ لابن عباس رضي الله عنهما.

وعِكْرِمة. وكذلك قال الضَّحاك: هو السلطانُ المتحرِّسُ من أمر الله، المشرِكُ[١]. وقد قيل: إنَّ في الكلام على هذا التأويلِ نفياً محذوفاً تقديره: لا يحفظونه من أمر الله تعالى؛ ذكره الماوَرْديُّ[٢].

قال المَهْدَويُّ: ومَن جَعَل المعقّباتِ الحرسَ؛ فالمعنى: يحفظونه من أمر الله على ظنّه وزَعْمه.

وقيل: سواءٌ مَن أسرَّ القولَ ومَن جهر به، فله حرَّاسٌ وأعوانٌ يتعاقبون عليه فيحملونه على المعاصي، ويحفظونه من أنْ يَنْجَع فيه وعظٌ؛ قال القُشَيرِيُّ: وهذا لا يمنع الربَّ من الإمهال إلى أنْ يحقَّ العذاب؛ وهو إذا غَيَّر هذا العاصي ما بنفسه بطول الإصرارِ، فيصير ذلك سبباً للعقوبة؛ فكأنّه الذي يُحِلُّ العقوبةَ بنفسه، فقوله: «يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ»، أي: من امتثال أمرِ الله.

وقال عبد الرحمن بنُ زيد: المعقِّباتُ: ما يتعاقبُ من أمر اللهِ تعالى وقضائه في عباده؛ قال الماورديُّ[٣]: ومَن قال بهذا القول؛ ففي تأويل قولِه: «يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ» وجهان:

أحدهما: يحفظونه من الموت ما لم يأت أجلٌ؛ قاله الضحاك.

الثاني: يحفظونه من الجِنِّ والهوامِّ المؤذية، ما لم يأت قَدَرٌ. قاله أبو أمامة وكعب الأحبار[٤]. فإذا جاء المقدورُ خلَّوا عنه.

والصّحيحُ أنَّ المعقِّباتِ الملائكةُ، وبه قال الحسن ومجاهد وقتادة وابن جريج؛ ورُوي عن ابن عباس، واختاره النَّحاس[٥]، واحتجَّ بقول النبيِّ ﷺ: «يتعاقبون فيكم

---

(١) أخرج قولهم الطبري ٣/ ٤٦٠ - ٤٦١ .

(٢) في النكت والعيون ٣/ ٩٨ .

(٣) في النكت والعيون ٣/ ٩٨ ، وما قبله منه.

(٤) خبر أبي أمامة أخرجه الطبري بنحوه ١٣/ ٤٦٦ ، وخبر كعب سلف قريباً.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٤٧٩ ، وأخرج قول الأئمة المذكورين الطبري ١٣/ ٤٥٦ - ٤٦٠ و ٤٦٣ - ٤٦٤ .

ملائكةٌ بالليل وملائكة بالنهار» الحديثَ، رواه الأئمة(١).

ورَوى ابنُ عيينةَ(٢) عن عمرو، عن ابن عباس أنه قرأ: «له معقِّباتٌ من بين يديه ورُقباءُ من خلفه من أمر الله يحفظونه». فهذا قد بيَّن المعنى(٣).

وقال كِنانةُ العَدَوِيُّ(٤): دخل عثمان رضي الله تعالى عنه على النبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله! أخبرني عن العبد، كم معه مِن مَلَك؟ قال: «مَلَكٌ عن يمينك يكتب الحسناتِ، وآخَرُ عن الشمال يكتب السَّيِّئاتِ، والذي على اليمين أميرٌ(٥) على الذي على الشِّمال، فإذا عُمِلتْ حسنةٌ كُتبت عشراً، وإذا عُمِلت سيئة، قال الذي على الشمال للذي على اليمين: أأكتبُ؟ قال: لا، لعله يستغفرُ اللهَ تعالى أو يتوبُ(٦). فإذا قال ثلاثاً، قال: نعم، اكتبْ أراحنا الله تعالى منه، فبئس القرينُ هو، ما أقلَّ مُراقبتَه لله عزَّ وجلَّ وأقلَّ استحياءَه منَّا، يقول الله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]. ومَلَكان من بين يديك ومِن خَلْفِك يقولُ الله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾. [ومَلَك قابضٌ على ناصيتك، فإذا تواضَعْتَ لله رفعك، وإذا تَجَبَّرْتَ على الله قَصَمكَ]. ومَلَكان على شَفَتيك، وليس يحفظان عليك إلا الصَّلاةَ على محمد وآله. ومَلَكٌ قائمٌ على فِيك لا يدَع أنْ تدخلَ الحيَّةُ في فِيك، وملَكان على عينيك. فهؤلاء عشرةُ أملاكٍ على كلِّ آدميٍّ يتداولون(٧)؛

---

(١) قطعة من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه أحمد (٧٤٩١)، والبخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢)، وسلف ٤/ ١٧٩.

(٢) في (د) و(ز) و(م): وروى الأئمة، والمثبت من (ظ) ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٨٠.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٨٠. وأخرجه سعيد بن منصور في سننه (١١٥٩ - تفسير) عن سفيان بالإسناد المذكور، ولفظه: «له معقبات من بين يديه ورقباء من خلفه يحفظونه من أمر الله».

(٤) ابن نعيم، أبو بكر البصري، تابعي ثقة روى له مسلم. التهذيب ٣/ ٤٧٦. والخبر أخرجه الطبري ١٣/ ٤٥٧. وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وما سيأتي بين حاصرتين منهما.

(٥) في (د) و(ز): أمين، وهي كذلك في مطبوع تفسير الطبري، وفي تفسير ابن كثير: آمر.

(٦) في (م): أو يتوب إليه، وفي تفسير الطبري وتفسير ابن كثير: ويتوب.

(٧) في تفسير الطبري وتفسير ابن كثير: ينزلون.

ملائكةُ الليلِ على ملائكة النهار؛ لأنَّ ملائكةَ الليلِ ليسوا بملائكة النهار، فهؤلاء عشرون مَلكاً على كلِّ آدميٍّ، وإبليس مع ابنِ آدمَ بالنهار، وولدُه بالليل»[١]. ذكره الثعلبيُّ.

قال الحسن: المعقِّبات أربعةُ أملاكٍ [اثنان بالنهار واثنان بالليل] يجتمعون عند صلاة الفجر[٢].

واختيار الطَّبريِّ[٣]: أنَّ المعقِّباتِ المواكبُ بين أيدي الأمراءِ وخَلْفَهم، والهاء في «له» لـ «مَنْ»[٤]، على ما تقدَّم[٥].

وقال العلماء رضوانُ الله عليهم: إنَّ الله سبحانه جعل أوامرَه على وجهين؛ أحدهما قضى حلولَه ووقوعَه بصاحبه، فذلك لا يدفَعُه أحدٌ ولا يغيِّره. والآخَرُ قضى مجيئه، ولم يقضِ حلولَه ووقوعَه، بل قضى صرفَه بالتَّوبة والدعاء والصَّدَقة والحفظ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لا يغيِّر ما بقوم حتى يقعَ تغيير[٦]؛ إما منهم، أو من الناظر لهم، أو ممن هو منهم بسبب؛ كما غيَّر الله بالمنهزمين يومَ أُحُد بسبب تغيير الرّماةِ [ما] بأنفسهم، إلى غير هذا من أمثلة الشَّريعة. فليس معنى الآية أنه ليس ينزلُ بأحد عقوبةٌ إلا بأنْ يتقدَّم منه ذنبٌ، بل قد تنزل المصائبُ بذنوب الغير، كما قال ﷺ وقد سُئل: أَنهلِك

---

(١) قال ابن كثير: حديث غريب جدًّا. قلنا: وفي إسناده إبراهيم بن عبد السلام بن صالح وعلي بن جرير، ولم نقف لهما على ترجمة.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٩٨، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) في تفسيره ١٣/ ٤٦١ - ٤٦٢.

(٤) يعني في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ﴾ وهذا هو اختيار الطبري في تفسيره، ووقع في النسخ: لهنَّ، بدل: لمن. والصواب ما أثبتناه.

(٥) ص٢٩ من هذا الجزء.

(٦) قبلها في النسخ: منهم، والمثبت من المحرر الوجيز ٣/ ٣٠٢، والكلام وما سيأتي بين حاصرتين منه.

وفينا الصّالحون؟ قال: «نعم، إذا كَثُر الْخَبَث»[١]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا﴾، أي: هلاكاً وعذاباً ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾. وقيل: إذا أراد بهم بلاءً من أمراضٍ وأسقامٍ، فلا مَرَدَّ لبلائه[٢].

وقيل: إذا أراد الله بقوم سوءاً أعمى أبصارهم حتى يختاروا ما فيه البلاءُ ويعملوه، فيمشون إلى هلاكهم بأقدامهم، حتى يبحثَ أحدُهم عن حتفة بكفِّه، ويسعى بقدمه إلى إراقة دمِه.

﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ أي: من ملجأ؛ وهو معنى قول السُّدِّيِّ. وقيل: مِن ناصِرٍ يمنعُهم من عذابه؛ وقال الشاعر:

ما في السماء سوى الرحمنِ من وَالِ[٣]

ووَالٍ ووَليٌّ كقادر وقدير.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾، أي: بالمطر. «والسَّحاب» جمعٌ، والواحدة سَحَابة، وسُحُبٌ وسَحَائبُ في الجمع أيضاً[٤].

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ قد مضى في «البقرة»[٥] القولُ في الرعد والبرق والصواعق، فلا معنى للإعادة.

---

(١) قطعة من حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها، وقد سلف ٩/ ١٤٦ .
(٢) النكت والعيون ٣/ ٩٩ .
(٣) ذكره مع ما قبله الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٠٠ .
(٤) الصحاح (سحب).
(٥) ١/ ٣٢٧ وما بعدها.

والمرادُ بالآية بيانُ كمالِ قدرته، وأنَّ تأخيرَ العقوبةِ ليس عن عجز، أي: يريكم البرقَ في السماء خوفاً للمسافر؛ فإنه يخاف أذاهُ لمَا ينالُهُ من المطر والهولِ والصواعق؛ قال الله تعالى: ﴿أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾ [النساء: ١٠٢]. وطمعاً للحاضر أنْ يكونَ عقِبه مطرٌ وخِصْب؛ قال معناه قَتَادة ومجاهد وغيرهما(١).

وقال الحسن: خوفاً من صواعق البرق، وطمعاً في غيثه المزيلِ للقحط(٢).

﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ قال مجاهد: أي: [الثقال] بالماء(٣). ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ مَن قال: إنَّ الرَعدَ صوتُ السحاب، فيجوز أنْ يُسبِّح الرعدُ بتقدير(٤) خلقِ الحياةِ فيه، ودليلُ صحةِ هذا القولِ قولُه: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ فلو كان الرعد ملَكاً لدخل في جملة الملائكة.

ومَن قال: إنه ملَك قال: معنى «مِنْ خِيفَتِهِ»: من خيفة الله؛ قاله الطَّبَريُّ(٥) وغيره. قال ابن عباس: إنَّ الملائكةَ خائفون من الله ليس كخوف ابنِ آدم، لا يعرفُ أحدهم مَن على يمينه ومَن على يساره، لا يشغلُهم عن عبادة الله طعامٌ ولا شرابٌ(٦).

وعنه قال: الرّعدُ ملَكٌ يَسوق السَّحابَ، وإنَّ بحارَ(٧) الماء لفي نُقْرةِ إبهامِه، وإنه مُوَكَّلٌ بالسَّحاب يصرفُه حيثُ يؤمرُ، وإنه يسبِّح اللهَ؛ فإذا سبَّح الرّعدُ لم يبق مَلَكٌ في

---

(١) أخرجه عن قتادة عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٣٣، والطبري ١٣/ ٤٧٥، وذكره النحاس في معاني القرآن ٣/ ٤٨١ عن قتادة ومجاهد والحسن.

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٠٠.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٠٠، وما بين حاصرتين منه، وأخرجه الطبري ١٣/ ٤٧٦، وهو في تفسير مجاهد ١/ ٣٢٦.

(٤) في (د) و(ز) و(م): بدليل، والمثبت من (ظ).

(٥) في تفسيره ١٣/ ٤٧٨.

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ١٠.

(٧) في (م): بخار.

السّماء إلا رفع صوتَه بالتّسبيح، فعندها ينزل القَطْر[١].

وعنه أيضاً: كان إذا سمع صوت الرّعد قال: سبحان الذي سَبَّحْتَ له[٢].

وروى مالك، عن عامر بن عبد الله، عن أبيه: أنه كان إذا سمع صوت الرّعد [لَهِي من حديثه و] قال: سبحان الذي يسبِّح الرّعد بحمده والملائكةُ من خيفته، ثم يقول: إنَّ هذا وعيدٌ لأهل الأرض شديدٌ[٣].

وقيل: إنه مَلَك جالسٌ على كرسيٍّ بين السماء والأرض، وعن يمينه سبعون ألف مَلَك، وعن يساره مثلُ ذلك، فإذا أقبل على يمينه وسبَّح؛ سبَّح الجميعُ من خوف الله، وإذا أقبل على يساره وسَبّح؛ سبَّح الجميعُ من خوف الله.

﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ ذكر الماورديُّ عن ابن عباس وعليّ بنِ أبي طالب ومجاهد: نزلت في يهوديٍّ قال للنبيِّ ﷺ: أَخبِرْني! مِن أيِّ شيءٍ ربُّك؟ أمِن لؤلؤ أم من ياقوت؟ فجاءت صاعقةٌ، فأحرقته[٤].

وقيل: نزلت في بعض كفَّار العرب؛ قال الحسن: كان رجلٌ من طواغيت العربِ، بَعثَ النبيُّ ﷺ إليه نَفَراً يدعونه إلى الله ورسولِه والإسلام، فقال لهم: أخبروني عن ربِّ محمد ما هو، ومِمّ هو، أمِن ذهب أم من فضة[٥] أم من حديد أم نحاس؟ فاستعظم القومُ مقالتَه، فقال: أُجيبُ محمداً إلى ربٍّ لا أعرفه! فبعث

---

(١) ذكره البغوي ٣/ ١١ ، من طريق جويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس. وينظر تفسير الطبري ١/ ٣٥٧ - ٣٥٩ .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧٢٢)، والطبري ١٣/ ٤٧٧ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٨٣ ، وما سلف بين حاصرتين منه. ومن طريق مالك أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧٢٣). ووقع في الموطأ ٢/ ٩٩٢ : مالك، عن عامر بن عبد الله بن الزبير أنه كان إذا سمع...، قال ابن عبد البر في الاستذكار ٢٧/ ٣٨٠ : هكذا رواه يحيى، لم يجاوز به عامراً، ورواه غيره من رواة الموطأ فقالوا فيه: مالك، عن عامر بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه.

(٤) النكت والعيون ٣/ ١٠١ ، وأخرجه عن علي ﷺ ومجاهد الطبري ١٣/ ٤٧٩ - ٤٨٠ .

(٥) في (د) و(ز) و(م): ومم هو أمن فضة، والمثبت من (ظ) والمصادر على ما يأتي.

النبيُّ ﷺ إليه مراراً وهو يقول مثلَ هذا، فبينا النَّفَر ينازِعونه ويدعونه إذ ارتفعت سحابةٌ فكانت فوقَ رؤوسهم، فرَعدت وأبرقَتْ ورمتْ بصاعقة، فأحرقت الكافرَ وهم جلوس، فرجعوا إلى النبيِّ ﷺ، فاستقبلهم بعضُ أصحابِ رسولِ الله ﷺ فقالوا: احترق صاحبُكم، فقالوا: مِن أين علمتم؟ قالوا: أوحى الله إلى النبيِّ ﷺ: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾. ذكره الثعلبيُّ عن الحسن[١]، والقشيريُ بمعناه عن أنس، وسيأتي[٢].

وقيل: نزلت الآية في أربد بن ربيعة أخي لَبيد بن ربيعة، وفي عامر بن الطُّفَيْل؛ قال ابن عباس: أقبل عامر بنُ الطُّفَيْل وأَرْبَد بنُ ربيعة العامِريَّان يريدان النبيَّ ﷺ وهو في المسجد جالسٌ في نفر من أصحابه، فدخلا المسجد، فاستشرف الناس لجمال عامرٍ وكان أعورَ، وكان من أجمل الناس، فقال رجل من أصحاب النَّبيِّ ﷺ: هذا يا رسولَ الله عامر بنُ الطُّفَيْل قد أقبل نحوَك، فقال: «دَعْه فإنْ يُرِد اللهُ به خيراً يَهْدِه» فأقبل حتى قام عليه فقال؛ يا محمد ما لي إنْ أسلمت؟ فقال: «لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين» قال: أتجعلُ لي الأمرَ من بعدك؟ قال: «ليس ذاك إليَّ، إنما ذلك إلى الله يجعلُه حيثُ يشاء». قال: أفتجعلُني على الوَبَر وأنت على المَدَر؟ قال: «لا». قال: فما تجعلُ لي؟ قال: «أجعلُ لك أَعِنَّةَ الخيلِ تغزو عليها في سبيل الله». قال: أو ليس لي أعنَّةُ الخيلِ اليومَ؟ قم معي أُكلِّمْكَ. فقام معه رسول الله ﷺ، وكان عامرٌ أومأ إلى أَرْبَد: إذا رأيتني أكلمه فدُرْ من خلفه واضرِبْه بالسيف؛ فجعل يخاصم النبيَّ ﷺ ويراجعه، فاخترط أَرْبَد من سيفه شبراً، ثم حبسه الله؛ فلم يقدرْ على سَلِّه، ويَبِستْ يدُه على سيفه، وأرسل الله عليه صاعقةً في يوم صائفٍ صاحٍ فأحرقَتْه، وولَّى عامرٌ هارباً وقال: يا محمد! دعوتَ ربَّك على أربدَ حتى قتلته[٣]، والله

(١) وذكره عن الحسن أيضاً البغوي ٣/ ١١ .
(٢) ص٣٩ من هذا الجزء.
(٣) في (ظ): حتى قتله الله.

لأملأنَّها عليك خيلاً جُرْداً، وفتيانا مُرْداً، فقال عليه الصلاة والسلام: «يمنعُك الله من ذلك وأبناءُ قَيْلَةَ»[(١)] يعني الأوْسَ والخَزْرَج؛ فنزل عامرٌ بيت امرأةٍ سَلُولية، وأصبح وهو يقول: واللهِ لئن أَصْحَرَ[(٢)] لي محمدٌ وصاحبُه ـ يريد مَلَك الموت ـ لأُنفِذَنَّهما[(٣)] برمحي. فأرسل الله مَلَكاً فلطمه بجناحه فأذراه في التراب؛ وخرجت على ركبته غُدَّةٌ عظيمةٌ في الوقت، فعاد إلى بيت السَّلُولية وهو يقول: غُدَّةٌ كغدة البعير، وموتٌ في بيت سَلُولية! ثم ركب على فرسه، فمات على ظهره[(٤)]. ورَثَى لَبيد بنُ ربيعة أخاه أَرْبَد فقال:

يـا عـيـنُ هـلَّا بَـكَـيـتِ أَرْبَـد إذ … قُـمـنـا وقـام الـخُـصُـوم فـي كَـبَـدِ
أَخْـشَـى عـلـى أَرْبَـد الـحُـتُـوفَ وَلَا … أَرْهَـبُ نَـوْءَ الـسِّـمَـاك وَالْأَسَـدِ
فَـجَّـعـنِـي الـرَّعْـدُ والـصَّـوَاعِـقُ بـالـ … ـفـارس يَـوْمَ الْـكَـرِيـهَـة الـنَّـجُـدِ[(٥)]

وفيه قال:

إنَّ الـرَّزِيَّـةَ لَا رَزِيَّـةَ مِـثْـلُـهَـا … فِـقْـدَانُ كُـلِّ أخٍ كـضـوءِ الـكَـوْكَـبِ
يـا أَرْبَـدَ الـخـيـرِ الـكـرِيـمَ جُـدُودُهُ … أَفْـرَدْتَـنـي أَمْـشـي بـقَـرْنٍ أَعْـضَـبِ[(٦)]

---

(١) في تفسير البغوي ٣/ ١٠ (والكلام منه): وابنا قيلة وكذلك وقع في بعض المصادر التي ذكرت الخبر مثل الكامل للمبرد ٣/ ١٣٩٣، ومجمع الأمثال للميداني ٢/ ٥٧، وينظر ما سلف ١٠/ ٦٨.

(٢) أي: خرج إلى الصحراء. الصحاح (صحر).

(٣) في النسخ عدا (ظ): لأنفذتهما، وكذلك هو في مطبوع تفسير البغوي، والمثبت من (ظ) ومجمع الأمثال.

(٤) ذكره البغوي ٣/ ٩ - ١٠ من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، وأخرجه الطبري ١٣/ ٤٦٧-٤٧٠ عن ابن زيد مطولاً، وأخرجه بنحوه ١٣/ ٤٨١ - ٤٨٢ عن ابن جريج.

(٥) الأبيات في شرح ديوان لبيد ص١٥٨ - ١٦٠، والكامل ٣/ ١٣٩٤ على اختلاف في الترتيب. قال الطوسي شارح الديوان: قوله: كبد، هو القيام على الأمر الشديد. والنَّجُد: البطل ذو نجدة. وقال في شرح البيت الثاني: كنت أخشى عليه كلَّ سبب من أسباب المنية، ولم أكن أَفْرَقُ عليه صاعقة. وسلف البيت الأخير ١/ ٣٢٨.

(٦) شرح ديوان لبيد ص١٥٤ - ١٥٧، والكامل ٣/ ١٣٩٤، وقد تقدم فيهما البيت الثاني على الأول. قال الطوسي شارح الديوان: الأعضب: المكسور أحد قرنَيْه، وهذا مَثَل، أي: ذهب حَدِّي.

وأسلمَ لبِيد بعد ذلك ﷺ.

مسألة: روى أَبَان عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تأخذُ الصاعقةُ ذاكراً لله عزَّ وجلَّ»[(١)].

وقال أبو هريرة ﷺ: كان النبيُّ ﷺ إذا سمع صوتَ الرعدِ يقول: «سبحان مَن يُسبِّحُ الرعد بحمده والملائكةُ من خِيفته»[(٢)]. قال ابن عبَّاس: مَن سمع صوتَ الرعد فقال: سبحان مَن يسبِّح الرعدُ بحمده والملائكةُ من خِيفته[(٣)] وهو على كلِّ شيء قديرٌ، فإنْ أصابته صاعقةٌ فعليَّ دِيَتُه[(٤)].

وذكر الخطيب من حديث سليمان بنِ عليّ بن عبد الله بن عباس، عن أبيه، عن جدِّه قال: كنا مع عمرَ في سفرٍ، فأصابنا رعدٌ وبردٌ، فقال لنا كعبٌ: مَن قال حين يسمع الرعدَ: سبحان مَنْ يسبِّحُ الرّعدُ بحمده والملائكةُ من خِيفته ثلاثاً، عُوفي مما يكون في ذلك الرعد، ففعلنا فعُوفينا، ثم لقيت عمر بنَ الخطاب ﷺ، فإذا بَرَدَةٌ قد أصابت أنفَه فأثَّرتْ به، فقلتُ: يا أميرَ المؤمنين، ما هذا؟ قال: بَرَدَةٌ أصابت أنفي فأثَّرت، فقلت: إنَّ كعباً حين سمع الرعدَ قال لنا: مَن قال حين يَسمعُ الرعدَ: سبحان مَن يُسبِّحُ الرعد بحمده والملائكةُ من خيفته ثلاثاً عُوفي مما يكون في ذلك الرعد، فقلنا فعوفِينا. فقال عمر: أفلا قلتم لنا حتى نقولَها؟ وقد تقدَّم هذا المعنى في «البقرة»[(٥)].

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٠١، وأبان هو ابن أبي عياش، قال الحافظ في التقريب: متروك. وأخرجه ابن المبارك في الزهد (١٠٢٣) من طريق معمر عمن سمع عطاءً يقول، وذكره. وأخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦١٨ (١٤٧١٦) عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر.

(٢) أخرج الطبري ١٣/ ٤٧٧.

(٣) من قوله: قال ابن عباس إلى هذا الموضع من (ظ).

(٤) أخرجه سعيد بن منصور (١١٦٥)، وفي إسناده سلّام الطويل، قال أحمد: منكر الحديث. وقال يحيى: ضعيف لا يكتب حديثه. وقال النسائي: متروك. الميزان ٢/ ١٧٥.

(٥) ١/ ٣٢٩، وسلف ثَمَّ تخريج الخبر.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ يعني جدالَ اليهوديِّ حين سأل عن الله تعالى: من أيِّ شيءٍ هو؟ قاله مجاهد. وقال ابن جُرَيج: جدال أَرْبَدَ فيما همَّ به من قتل النبيِّ ﷺ[١]. ويجوزُ أنْ يكون: «وهم يُجَادِلُون في الله» حالاً، ويجوز أنْ يكونَ منقطعاً.

وروى أنس: أنَّ رسولَ الله ﷺ بعثَ إلى عظيمٍ من المشركين يدعوه إلى الله عزَّ وجلَّ، فقال لرسوله[٢]: أخبرني عن إلهك هذا! أهو من ذهب، أم من فضة، أم من نحاس؟ فاستعظم ذلك، فرجع إليه فأعلَمه، فقال: «ارجعْ إليه فادعُه». فرجع إليه وقد أصابته صاعقة، وعاد إلى رسول الله ﷺ وقد نزل: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾[٣].

﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ قال ابنُ الأعرابي: «المِحال»: المكر، والمكرُ من الله عزَّ وجلَّ: التدبيرُ بالحقِّ[٤].

النحَّاس[٥]: المكر من الله: إيصالُ المكروه إلى مَن يَستحقُّه من حيثُ لا يشعر.

وروى ابن اليزيديِّ عن أبي زيد: «وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ» أي: النقمة[٦].

وقال الأزهريُّ: «المِحال» أي: القوة والشدة. والمَحْل: الشدَّة؛ الميم أصلية، وماحَلْتُ فلاناً مِحَالاً، أي: قاوَيْتُه حتى يتبيَّنَ أيُّنا أشدُّ[٧].

---

(١) أخرج القولين الطبري ١٣/٤٧٩ ، ٤٨١ .

(٢) في (م): لرسول الله.

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (١١١٩٥)، والبزار (٢٢٢١ - زوائد)، وأبو يعلى (٣٣٤١)، والطبري ١٣/ ٤٨٠ ، والعقيلي في الضعفاء ٣/ ٢٣٢ ، والواحدي في أسباب النزول ص٢٧٥ .

(٤) ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن ص٢٨٠ .

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٤٨٥ .

(٦) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٣/ ١٥٧ والرازي ١٩/ ٢٨ عن الحسن. وابن اليزيدي هو أحمد بن محمد بن يحيى بن المبارك أبو جعفر، كان متقناً في العلوم، راوية للشعر والأخبار، شاعراً، قال ابن عساكر: كان من ندماء المأمون، وقدم معه دمشق، وتوجه منها غازياً للروم. إنباه الرواة ٢/ ١٢٦ .

(٧) ينظر تهذيب اللغة ٥/ ٩٦ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٤٣ .

وقال أبو عبيدة[١]: «المِحالُ»: العقوبةُ والمكر[٢].

قال ابن عَرَفة: «المِحال»: الجدالُ؛ يقال: ماحَلَ عن أمره، أي: جادل[٣].

وقال القُتَبيُّ[٤]: أي: شديدُ الكيد [والمكرِ]، وأصلُه من الحيلة. جَعَل ميمَه كميم المكان؛ وأصلُه من الكون، ثم يقال: تمكَّنت. وقال الأزهري[٥]: غَلِطَ ابنُ قتيبة أنَّ الميمَ فيه زائدةٌ، بل هي أصليَّةٌ، وإذا رأيتَ الحرفَ على مثال فِعال أوّلُه ميمٌ مكسورةٌ فهي أصليَّةٌ، مثل: مِهاد ومِلَاك ومِرَاس، وغير ذلك من الحروف. ومِفْعَل إذا كان من بنات الثلاثةِ، فإنه يجيءُ بإظهار الواو [والياء] مثل: مِزْوَد ومِحْوَل ومِحْوَر [ومِزْيَل ومِغْيَر]، وغيرها من الحروف.

وقال: وقرأ الأعرج: «وهو شديدُ المَحَال» بفتح الميم[٦]. وجاء تفسيره على هذه القراءة عن ابن عباس أنه الحَوْل[٧].

ذَكَر هذا كلَّه أبو عبيد الهَرَويّ[٨] ـ إلا ما ذكرناه أوّلاً عن ابن الأعرابيّ ـ وأقاويلُ الصحابة والتابعين بمعناها، وهي ثمانية: أولها: شديد العداوة؛ قاله ابن عباس. وثانيها: شديد الحَوْل؛ قاله ابن عباس أيضاً. وثالثها: شديد الأخذ؛ قاله عليّ بن أبي طالب. ورابعها: شديد الحقد؛ قاله الحسن[٩]. وخامسها: شديد القوة؛ قاله مجاهد.

---

(١) في (د) و(م): أبو عبيد، والقول في مجاز القرآن له ١/ ٣٢٥.

(٢) في النسخ: والمكروه، والمثبت من مجاز القرآن، وكذا ذكره عنه الطبري ١٣/ ٤٨٣.

(٣) ذكره الرازي ١٩/ ٢٨، وابن منظور في اللسان (محل).

(٤) في تفسير غريب القرآن ص٢٢٦، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٥) في تهذيب اللغة ٥/ ٩٥، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٦) القراءات الشاذة ص٦٦، والمحتسب ١/ ٣٥٦.

(٧) أخرجه الطبري ١٣/ ٤٨٤، وذكره الأزهري في تهذيب اللغة ٥/ ٩٦، والكلام منه.

(٨) هو أحمد بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن الشافعي اللغوي، صاحب الغريبين.

(٩) في النسخ: قاله ابن عباس، والمثبت من النكت والعيون ٣/ ١٠٢، والكلام منه. وقال ابن الجوزي ٤/ ٣١٦: قاله الحسن البصري فيما سمعناه عنه مسنداً من طرق، وقد رواه عنه جماعة من المفسرين منهم ابن الأنباري والنقاش، ولا يجوز هذا في صفات الله. قال النقاش: هذا قول منكر. وينظر تفسير الرازي ١٩/ ٢٨.

وسادسها: شديد الغضب؛ قاله وهب بن مُنَبِّهٍ. وسابعها: شديد الهلاك بالمَحْل، وهو القَحْط؛ قاله الحسن أيضاً. وثامنها: شديد الحيلة؛ قاله قَتَادة(١).

وقال أبو عبيدة مَعْمَر: المِحَال والمُمَاحَلة: المُمَاكَرة والمُغالبة(٢)، وأنشد للأعشى:

فـرعُ نَبْـعٍ يَـهْـتَـزُّ فـي غُـصُـنِ الْـمَـجْـ ـدِ كـثـيـرُ الـنَّـدَى شـديـدُ الـمِـحـالِ(٣)

وقال آخر:

ولَـبْـسٍ بَـيْـنَ أقـوَامٍ فـكُـلٌّ أَعَـدَّ لـه الـشَّـغَـازِبَ والـمِـحَـالَا(٤)

وقال عبد المطلب:

لاهُـمَّ إنَّ الْـعَـبْـدَ يَـمْـ ـنَـعُ رَحْـلَـهُ فـامْـنَـعْ حِـلالَـك
لَا يَـغْـلِـبَـنَّ صَـلِـيـبُـهُـمْ ومِـحَـالُـهـم عَـدْواً مِـحَـالَـك(٥)

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّۖ﴾ أي: لله دعوةُ الصدق(٦). قال ابن عباس وقَتَادةُ

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٠٢ ، وأخرج أغلب هذه الأقوال الطبري ١٣/ ٤٨٣ - ٤٨٤ .

(٢) ينظر تفسير البغوي ٣/ ١١ ، وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن له ١/ ٣٢٥ : «شديد المحال» أي: العقوبة والمكر والنكال، وقد سلف بعضه.

(٣) مجاز القرآن ١/ ٣٢٥ ، وهو في ديوان الأعشى ميمون بن قيس ص٥٧ ، وهو فيهما برواية: غزير الندى. ووقع في النسخ الخطية: عظيم المحال، وهي رواية الطبري للبيت ١٣/ ٤٨٣ .

(٤) مجاز القرآن ١/ ٣٢٦ ، وقائله ذو الرمَّة، وهو في ديوانه ٣/ ١٥٤٤ برواية: السِّفارة والمحالا. قال أبو نصر الباهلي شارح الديوان: اللَّبْس: الاختلاط. والسفارة: الصلح بين القوم. ويروى: الشغازب، أي: الكيد والخصومة. والمحال: الجدال.

(٥) سيرة ابن هشام ١/ ٥١ ، والحيوان للجاحظ ٧/ ١٩٨ - ١٩٩ ، وسلف البيت الأول ٢/ ٨٣ . ووقع في (د) و(م): المرء، بدل: العبد، وهو موافق لما في كتاب الحيوان. قوله: حِلالك بكسر الحاء: القوم المقيمون المتجاورون، يريد بهم سكان الحرم. النهاية (حلل).

(٦) تفسير البغوي ٣/ ١٢ .

وغيرهما: لا إله إلا الله[١].

وقال الحسن: إن الله هو الحق، فدعاؤه دعوةُ الحق[٢].

وقيل: إنَّ الإخلاص في الدعاء هو دعوةُ الحق؛ قاله بعضُ المتأخِّرين. وقيل: دعوةُ الحق: دعاؤه عند الخوف؛ فإنه لا يُدْعى فيه إلا إيَّاه، كما قال: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٣٧]؛ قال الماوَرْديُّ[٣]: وهو أَشْبهُ بسياق الآية؛ لأنه قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني الأصنامَ والأوثان ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾ أي: لا يُجيبون لهم دعاءً، ولا يسمعون لهم نداء ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ ضرب الله عزَّ وجلَّ الماءَ مثلاً لإيَاسهم[٤] من الإجابة لدعائهم؛ لأن العرب تضرب لمن سعى فيما لا يُدركه مَثَلاً بالقابض الماءَ باليد؛ قال:

فأصبحت مما[٥] كان بَيْني وبينَها ... من الودِّ مثلَ القابِضِ الماءَ باليدِ[٦]

وفي معنى هذا المَثَل ثلاثةُ أَوْجُه:

أحدها: أنَّ الذي يدعو إلهاً من دون الله كالظمآن الذي يدعو الماء إلى فِيه من بعيد - يريد تَناوُلَه ولا يقدر عليه - بلسانه، ويشير إليه بيده، فلا يأتيه أبداً؛ لأنَّ الماء لا يستجيب، وما الماءُ ببالغٍ إليه؛ قاله مجاهد.

الثاني: أنه كالظمآن الذي يرى خيالَه في الماء وقد بسط كفَّه فيه ليبلغ فاه وما هو

---

(١) أخرجه عنهما الطبري ١٣/ ٤٨٥ - ٤٨٦ .

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ١١ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣١٧ .

(٣) في النكت والعيون ٣/ ١٠٣ .

(٤) في النسخ: ليأسهم، والمثبت من النكت والعيون. قال صاحب كتاب العين ٧/ ٣٣١ : يئست منه يأساً، وآيَسْتُ فلاناً إياساً. وتقول: أيأسته فاستيأس، والمصدر منه: إياس.

(٥) في (م): فيما.

(٦) النكت والعيون ٣/ ١٠٣ ، ونسبه فيه الماوردي لأبي الهذيل، وهو دون نسبة في مجاز القرآن ١/ ٣٢٧ ، وتفسير الطبري ١٣/ ٤٨٨ . ونسبه صاحب الأغاني ٧/ ١٣٩ لأبي دهبل الجمحي برواية: سوى ذكرها كالقابض، بدل: من الود مثل القابض.

بالغه؛ لكذب ظنِّه، وفساد تَوَهُّمِه؛ قاله ابن عباس.

الثالث: أنه كباسطِ كفِّه إلى الماء ليقبض عليه فلا يحصل[١] في كفِّه شيءٌ منه.

وزعم الفراء أنَّ المراد بالماء هاهنا البئر؛ لأنها معدنٌ للماء، وأنَّ المَثَل: كَمَن مدَّ يده إلى البئر بغير رِشاء[٢]، وشاهِدُه قولُ الشاعر:

فــإنَّ الــمــاءَ مــاءُ أَبِــي وجَــدِّي وبِــئــري ذُو حَــفَــرْتُ وذُو طَــوَيْــتُ[٣]

قال عليٌّ ﷺ: هو كالعطشان على شفة البئر، فلا يبلغُ قعر البئر، ولا الماءُ يرتفع إليه[٤].

ومعنى «إلَّا كباسِط»: إلا كاستجابة باسط كفَّيه إلى الماء، فالمصدرُ مضافٌ إلى الباسط، ثم حذف المضاف، وفاعلُ المصدرِ المضافِ مرادٌ في المعنى وهو الماء، والمعنى: إلا كإجابة باسط كفَّيه إلى الماء[٥]، واللامُ في قوله: «لِيَبْلُغَ فاهُ» متعلِّقةٌ بالبَسْط.

وقولُه: «وما هو ببالغه» كنايةٌ عن الماء، أي: وما الماءُ ببالغِ فاه. ويجوز أن يكون «هو» كناية عن الفم، أي: ما الفمُ ببالغِ الماء[٦].

﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: ليست عبادة الكافرين الأصنامَ إلا في ضلال؛ لأنها شرك. وقيل: إلا في ضلال، أي: يَضلُّ عنهم ذلك الدعاء، فلا يجدون منه

---

(١) في (د) و(ز): فلا يجعل، وفي (م): فلا يجمد، والمثبت من (ظ) والنكت والعيون.

(٢) أي: حبل. القاموس (رشا).

(٣) النكت والعيون ٢/ ١٠٤ ، والبيت لسنان بن الفحل الطائي كما في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/ ٥٩١ ، وأمالي ابن الشجري ٣/ ٥٥ ، والخزانة ٦/ ٣٥ . قال البغدادي: ذو اسم موصول، وهو هنا بمعنى التي.

(٤) أخرجه بنحوه الطبري ١٣/ ٤٨٨ .

(٥) أي: إلا كإجابة الماءِ مَن بسط كفيه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه. الكشاف ٢/ ٣٥٤ ، والإملاء (على هامش الفتوحات الإلهية) ٣/ ٣٧٨ ، والدر المصون ٧/ ٣٤ .

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٣٠٥ .

شيئاً(١)، كما قال: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ [الأعراف:٣٧] وقال ابن عباس: أي: أصواتُ الكافرين محجوبةٌ عن الله فلا يسمع دعاءهم(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ قال الحسن وقَتادة وغيرهما: المؤمن يسجد طوعاً، والكافر يسجد كَرهاً بالسيف(٣). وعن قَتادة أيضاً: يسجد الكافر كارهاً حين لا ينفعه الإيمان. وقال الزجاج: سجودُ الكافر كَرهاً: ما فيه من الخضوع وأثرِ الصَّنعة(٤).

وقال ابن زيد: «طَوْعاً»: مَن دخل في الإسلام رغبةً، و«كَرها»: مَن دخل فيه رَهْبةً بالسيف(٥).

وقيل: «طوعاً» مَن طالت مدةُ إسلامه فألِفَ السجود(٦)، و«كَرها» مَن يُكره نفسَه لله تعالى، فالآية في المؤمنين، وعلى هذا يكون معنى «والأرض»(٧): وبعضُ مَن في الأرض.

قال القُشَيْريُّ: وفي الآية مَسْلَكان: أحدهما: أنها عامةٌ والمرادُ بها التخصيص، فالمؤمن يسجد طوعاً، وبعضُ الكفار يسجدون إكراهاً وخوفاً كالمنافقين، فالآية

---

(١) في (د) و(ز) و(م): سبيلا.

(٢) ذكره البغوي ٣/ ١٢ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣١٨ .

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٤٩١ عن قتادة، وذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٣/ ١٥٨ عن الحسن.

(٤) بنحوه في معاني القرآن له ٣/ ١٤٤ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٠٤ ، وأخرجه الطبري ١٣/ ٤٩١ .

(٦) النكت والعيون ٣/ ١٠٤ .

(٧) في (ظ): وعلى هذا يكون معنى ومن في الأرض.

محمولة على هؤلاء؛ ذكره الفرَّاء[١]. وقيل: على هذا القول: الآية في المؤمنين؛ منهم مَن يسجد طوعاً لا يَثْقُل عليه السجود، ومنهم مَن يثقل عليه؛ لأن الْتزامَ التكليف مشقَّة، ولكنهم يتحمَّلون المشقَّة إخلاصاً وإيماناً، إلى أنْ يَأْلَفوا الحقَّ ويَمْرُنوا عليه.

والمسلك الثاني - وهو الصحيح -: إجراءُ الآية على التعميم؛ وعلى هذا طريقان: أحدهما: أنَّ المؤمن يسجد طوعاً، وأما الكافر فمأمورٌ بالسجود مؤاخَذٌ به. والثاني - وهو الحقُّ - أنَّ المؤمن يسجد ببدنه طوعاً، وكلّ مخلوقٍ من المؤمن والكافر يسجد من حيث إنه مخلوق[٢] سجودَ[٣] دلالةٍ وحاجةٍ إلى الصانع، وهذا كقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] وهو تسبيحُ دلالةٍ لا تسبيحُ عبادة.

﴿وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أي: ظلال الخلقِ ساجدةٌ لله تعالى بالغدوِّ والآصال؛ لأنها تتفيّأ[٤] في هذين الوقتين، وتميل من ناحية إلى ناحية، وذلك تصريفُ الله إياها على ما يشاء، وهو كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨] قاله ابن عباس وغيره[٥].

وقال مجاهد: ظِلُّ المؤمن يسجد طوعاً وهو طائع؛ وظلُّ الكافر يسجد كرهاً[٦] وهو كارِه.

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٦١ .

(٢) بعدها في (ظ): مربوب مكوّن، أي: بتكوين الربّ إياه، ويبقى بإبقائه، فسجود كل مخلوق.

(٣) في (د) و(ز) و(م): يسجد.

(٤) في (د) و(ز) و(م): تبين.

(٥) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٤٩٢ . ومعنى «يتفيأ ظلاله»: تدور ظلاله وترجع من جانب إلى جانب. شرح غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٤٣ .

(٦) كذا في النسخ، ووقع بدلاً منها في تفسير الطبري ١٣/ ٤٩٢ ، والوسيط للواحدي ٣/ ١١ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٢ : طوعاً. وذكره بلفظ: كرها، الرازي ١٩/ ٣٠ ، والسيوطي في الدر المنثور ٤/ ٥٢-٥٣ وعزاه للطبري وابن المنذر.

وقال ابن الأنباريّ(١): يُجعل للظلال عقولٌ تسجد بها وتخشع بها، كما جُعل للجبال أفهامٌ حتى خاطبت وخوطبت. قال القُشَيري: في هذا نظر؛ لأنَّ الجبل عين، فيمكن أن يكون له عقلٌ بشرطِ تقديرِ الحياة، وأمَّا الظلالُ فآثارٌ وأعراضٌ، ولا يُتَصوَّر تقديرُ الحياة لها، والسجودُ بمعنى الميل؛ فسجودُ الظلال: ميلُها من جانب إلى جانب؛ يقال: سجدت النخلة، أي: مالت.

و«الآصال» جمع أُصُل، والأُصُل جمع أَصِيل؛ وهو ما بين العصر إلى الغروب(٢)، ثم أصائِل جمعُ جَمْعِ الجمع(٣)؛ قال أبو ذؤيب الهذليُّ:

لَعَمْري لأَنْتَ البيتُ أُكرِمُ أَهلَهُ وأَقعُدُ في أَفْيَائه(٤) بالأَصَائِلِ(٥)

و«ظِلَالُهُمْ» يجوز أن يكون معطوفاً على «مَنْ»، ويجوز أن يكون ارتفع بالابتداءِ، والخبرُ محذوف، التقدير: وظلالُهم سُجَّدٌ بالغدوِّ والآصال. و«الغدوّ» يجوز أن يكون مصدراً، ويجوز أن يكون جمعَ غداة، يقوِّي كونَه جمعاً مقابلةُ الجمع ـ الذي هو «الآصال» ـ به.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ أن يقول

---

(١) قوله في تفسير الرازي ١٩/ ٣٠.
(٢) مجاز القرآن ١/ ٢٣٩، وتفسير الطبري ١٣/ ٤٩٨، والنكت والعيون ٣/ ١٠٤.
(٣) في (د) و(ز) و(م): ثم أصائل جمع الجمع، والمثبت من (ظ)، والروض الأنف ٢/ ٢٤ - ٢٥ والكلام منه، وقد ردَّه السهيلي فقال: وهذا خطأ بيِّن من وجوه؛ منها: أن جمع جمع الجمع لم يوجد قط في الكلام فيكونَ هذا نظيره...، ثم ذكر في ردِّه وجوهاً كثيرة لا يتسع المجال لذكرها هنا.
(٤) في النسخ الخطية: أفنائه، والمثبت من (م) والمصادر.
(٥) ديوان الهذليين ١/ ١٤١، ومجاز القرآن ١/ ٢٣٩ و ٣٢٣، والخزانة ٥/ ٤٨٤.

للمشركين: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ثم أمره أن يقول لهم: هو الله؛ إلزاماً للحجة إن لم يقولوا ذلك وجَهِلوا مَن هو.

﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ هذا يدلُّ على اعترافهم بأن الله هو الخالق، وإلَّا لم يكن للاحتجاج[١] بقوله: ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ معنى، دليله قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي: فإذا اعترفتم فلِمَ تعبدون غيره؟! وذلك الغير لا ينفع ولا يضرُّ. وهو إلزام صحيح.

ثم ضرب لهم مثلاً فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ فكذلك لا يستوي المؤمنُ الذي يبصر الحقَّ، والمشركُ الذي لا يبصر الحق. وقيل: الأعمى مَثَلٌ لِمَا عَبَدوه من دون الله، والبصيرُ مَثَلُ الله تعالى.

﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ أي: الشرك والإيمان. وقرأ ابن محيصِن وأبو بكر والأعمش وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿يَسْتَوِى﴾ بالياء[٢] لتَقَدُّم الفعل؛ ولأن تأنيث «الظلمات» ليس بحقيقي. الباقون بالتاء، واختاره أبو عبيد، قال: لأنه لم يَحُلْ بين المؤنَّثِ والفعلِ حائل[٣]. و«الظلمات والنور» مَثَل الإيمان والكفر، ونحن لا نقف على كيفية ذلك.

﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ هذا من تمام الاحتجاج، أي: خَلَقَ غيرُ الله مِثْلَ خَلْقِه فتشابه الخلقُ عليهم، فلا يدرون خَلْقَ اللهِ مِن خَلْقِ آلهتهم؟! ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: قل لهم يا محمد: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، فلَزِمَ لذلك أن يعبده كلُّ شيء. والآيةُ ردٌّ على المشركين والقَدَريَّةِ الذين زعموا أنهم خَلَقوا كما خَلَق

---

(١) في (ظ): إذ لو لم يكونوا مقرين بأن الله هو الخالق لم يكن للاحتجاج. بدل: وإلا لم يكن للاحتجاج...

(٢) السبعة ص٣٥٨، والتيسير ص١٣٣ عن أبي بكر ـ وهو شعبة ـ وحمزة والكسائي.

(٣) ينظر الحجة للفارسي ٥/ ١٥.

الله[١]. ﴿وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ﴾ قبلَ كلِّ شيء ﴿ٱلۡقَهَّٰرُ﴾: الغالبُ لكلِّ شيء، الذي يَغلب في مراده كلَّ مُريد.

قال القُشَيريُّ أبو نصر: ولا يَبْعُدُ أن تكون الآيةُ واردةً فيمَن لا يعترف بالصانع، أي: سَلْهم عن خالقِ السماوات والأرض، فإنه يسهِّل تقريرَ الحجة فيه عليهم، ويقرِّب الأمرَ من الضرورة؛ فإنَّ عَجزَ الجماد وعَجْزَ كلِّ مخلوق عن خلق السماوات والأرض معلوم، وإذا تقرَّر هذا وبانَ أنَّ الصانع هو الله، فكيف يجوز اعتقادُ[٢] الشريك له؟! وبيَّن في أثناء الكلام أنه لو كان للعالم صانعان لاشْتَبه الخلقُ، ولم يتميَّز فِعْلُ هذا عن فعلِ ذلك، فبم يُعلم أنَّ الفعل من اثنين؟!

قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ﴾ ضرب تعالى مَثَلين[٣] للحقِّ والباطل؛ فشبَّه الكفرَ بالزَّبَد الذي يعلو الماءَ، فإنه يضمحلُّ

---

(١) حز الغلاصم ص٦٨ - ٦٩ ، وضرب مصنفه مثالاً لقول القدرية حركةَ اليد فقال: وذلك أن حركة الارتعاش في يد العبد هم موافقون لنا أنها خَلْقُ الله تعالى لأنها واقعة بقدرة الله وإرادته، فإذا أراد العبد أن يحرك يده باختياره وإرادته حركة تشبه الارتعاش، قالوا: هذه خلقٌ للعبد لأنها وقعت بقدرته وإرادته!

(٢) في (د) و(ز) و(م): اعتداد.

(٣) في (د) و(ز) و(م): ضرب مثلاً.

ويَعْلَق[١] بجنبات الأودية، وتدفعه الرياح، فكذلك الكفر تُمحَقُ آثارُه. ومَثَّلَ الحقَّ بالجواهر التي تُذاب ليُتَّخذَ منها ما يَنفع الناسَ، فيعلوها الزَّبَد والخَبَثُ، فأمَّا ما ينفع الناسَ فيبقى، وأمَّا الخَبَثُ فيذهب، فكذلك[٢] يذهب الكفر ويضمَحِلّ، على ما نبيِّنه.

قال مجاهد: «فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا» قال: بقَدَر مَلْئِها. وقال ابن جُرَيج: بقدر صِغَرِها وكِبَرِها[٣]. وقرأ الأَشْهَب العُقَيْلي والحسن: «بقَدْرِها» بسكون الدال، والمعنى واحد. وقيل: معناها بما قدّر لها[٤].

والأودية جمع الوادي؛ وسمِّي وادياً لخروجه وسَيَلانه؛ فالوادي على هذا اسمٌ للماء السائل[٥].

وقال أبو علي: «فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ» تَوسُّع، أي: سال ماؤها، فحذف، قال: ومعنى «بِقَدَرِهَا»: بقدر مياهها؛ لأنَّ الأودية ما سالت بقدر أنفُسها[٦].

﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ أي: طالِعاً عالياً مرتفعاً فوق الماء. وتمَّ الكلام؛ قاله مجاهد[٧].

ثم قال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ وهو المَثَل الثاني ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ أي: حليةِ

(١) في (ظ): فيعلو.

(٢) من قوله: الكفر تمحق آثاره، إلى هذا الموضع من (ظ).

(٣) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٨٨ وقول مجاهد في تفسيره ١/ ٣٢٧، وأخرجه الطبري ١٣/ ٥٠٠ - ٥٠١. وأخرج أيضاً قول ابن جريج ١٣/ ٥٠٣ عنه عن ابن عباس.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٨٨، وذكر القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٦.

(٥) تفسير الرازي ١٩/ ٣٦. وقال الأزهري في تهذيب اللغة ١٤/ ٢٣٢: قال شمر: ودى أي: سال، ومنه: الوَدْيُ فيما أرى لخروجه وسيلانه، ومنه: الوادي.

(٦) ينظر زاد المسير ٤/ ٣٢١.

(٧) تفسير مجاهد ١/ ٣٢٧، وهو عند الطبري ١٣/ ٥٠٠.

الذهب والفضة ﴿أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ قال مجاهد: المتاع[1]: الحديد والنحاس والرصاص. وقوله: «زَبَدٌ مِثْلُهُ» أي: يعلو هذه الأشياءَ زَبَدٌ كما يعلو السيل، وإنما احتَمَل السيل الزبدَ لأنَّ الماء خالَطَه ترابُ الأرض، فصار ذلك زبداً، كذلك ما يوقَد عليه في النار من الجوهر ومن الذهب والفضة مما يَنبتُ فِي الأرض من المعادن فقد خالَطَه التراب، فإنما يوقد عليه ليذوب فيزايله ترابُ الأرض.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ قال مجاهد: جُموداً[2]. وقال أبو عبيدة[3]: قال أبو عمرو بن العلاء: أَجْفَأَتِ القِدْرُ: إذا غَلَت حتى ينصبَّ زَبَدُها، وإذا جَمَد في أسفلها[4]. والجُفاء: ما أجفأه الوادي، أي: رَمى به[5].

وحكى أبو عبيدة أنه سمع رُؤْبة يقرأ: «جُفَالاً». قال أبو عبيدة: يقال: أَجْفَلَت القِدْرُ: إذا قذفت بزَبَدها[6]. وأجفلت الريح السحاب: إذا قطعته [وأذهبته][7].

﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قال مجاهد: هو الماءُ الخالصُ الصَّافي[8]. وقيل: الماءُ وما خلص من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص. وهذان[9] المَثَلان ضَرَبهما الله للحقِّ في ثباته، والباطلِ في اضمحلاله، فالباطلُ وإن علا في

---

(١) قوله: المتاع، من (ظ) وهو الموافق لما في تفسير مجاهد ١/ ٣٢٧، وتفسير الطبري ١٣/ ٥٠٠.

(٢) تفسير مجاهد ١/ ٣٢٧، وهو عند الطبري ١٣/ ٥٠١.

(٣) في مجاز القرآن ١/ ٣٢٩، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٣/ ٤٨٩.

(٤) قوله: وإذا جمد في أسفلها، وقع بدلاً منه في مجاز القرآن: أو سكنت فلا يبقى منه شيء.

(٥) ينظر القاموس (جفأ).

(٦) النكت والعيون ٣/ ١٠٧، والقراءة عن رؤبة في القراءات الشاذة ص٦٦. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٠٨: قال أبو حاتم: لا تعتبر قراءة الأعراب في القرآن.

(٧) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٨٩، وما بين حاصرتين منه، ووقع فيه: جفلت، بدل: أجفلت.

(٨) تفسير مجاهد ١/ ٣٢٧، وتفسير الطبري ١٣/ ٥٠١.

(٩) في (د) و(ز) و(م): وهو أن، بدل: وهذان.

بعض الأحوال؛ فإنه يضمحلُّ كاضمحلال الزَّبَد والخَبَث.

وقيل: المراد مَثَلٌ ضربه الله للقرآن وما يدخل منه [في] القلوب، فَشبَّه القرآنَ بالمطر لعموم خيره وبقاءِ نَفْعِه، وشَبَّه القلوب بالأودية، يدخل فيها من القرآن مثلُ ما يدخل في الأودية [من الماء] بحسَب سعتها وضيقها. قال ابن عباس: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ قال: قرآناً ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ قال: الأوديةُ قلوبُ العباد[(١)]. قال صاحب «سوق العروس»[(٢)]: إن صحَّ هذا التفسير فالمعنى فيه: أنَّ الله سبحانه مَثَّل القرآنَ بالماء. ومَثَّل القلوب بالأودية، و مثَّل المُحْكَم بالصَّافي، ومثَّل المتشابه بالزَّبد.

وقيل: الزَّبَد مَخايِلُ النفس وغوائلُ الشك[(٣)]، ترتفع من خبثِ[(٤)] ما فيها، فتضطرب من سلطان تَلْعها[(٥)]، كما أنَّ ماء السّيل يجري صافياً، فيرفع ما يجد في الوادي باقياً. وأمَّا حليةُ الذهب والفضة فمَثَل الأحوال السَّنِيَّة والأخلاق الزَّكية؛ التي بها جمال الرجال، وقِوامُ صالح الأعمال، كما أنَّ من الذَّهب والفضَّة زينةَ النّساء، وبهما قيمةُ الأشياء.

وقرأ حميد وابن محيصن ويحيى والأعمش وحمزة والكسائي وحفص:

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٠٦ ، وما سلف بين حاصرتين منه. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٠٨ : وهذا قول لا يصح ـ والله أعلم ـ عن ابن عباس؛ لأنه ينحو إلى أقوال أصحاب الرموز، ولا وجه لإخراج اللفظ عن مفهوم كلام العرب لغير علة تدعو لذلك.

(٢) لعله عبد الكريم بن عبد الصمد، أبو معشر الطبري المقرئ، شيخ أهل مكة، صنف كتاب سوق العروس في القراءات المشهورة والغريبة، وكتاب الدرر في التفسير وغيرهما، توفي سنة (٤٧٨هـ). معرفة القراء الكبار ٢/ ٨٢٧ . وثمة كتاب آخر بهذا الاسم لابن الجوزي ذكره ونقل عنه الألوسي في روح المعاني ٨/ ٦٣ .

(٣) في (ظ): الشرك.

(٤) في (د) و(ز) و(م): حيث، والمثبت من (ظ).

(٥) في (د) و(ز): تلفها، وفي (ظ): ما فيها، والمثبت من (م). والتَّلْع جمع تَلْعَة، وهي مجرى الماء من أعلى الوادي إلى بطون الأرض يحفر فيها كهيئة الخندق، أو هي أرض غليظة مرتفعة يتردَّد فيها السيل ثم يدفع منها إلى أخرى أسفل منها. معجم متن اللغة (تلع).

﴿يُوقِدُونَ﴾ بالياء(١). واختارها أبو عبيد؛ لقوله: «يَنْفَعُ النَّاس» فأخبر، ولا مخاطبة هاهنا. الباقون بالتاء؛ لقوله في أول الكلام: ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ الآية(٢).

وقوله: «في النَّار» متعلِّقٌ بمحذوف، وهو في موضع الحال، وذو الحال الهاءُ التي في «عليه»، التقدير: ومما توقدون عليه ثابتاً في النار أو كائناً. وفي قوله: «في النار» ضميرٌ مرفوعٌ يعود إلى الهاء التي هي اسمُ ذي الحال، ولا يستقيم أن يتعلَّق: «في النار» بـ«يوقدون» من حيث لا يستقيم: أوقدتُ عليه في النار؛ لأن الموقَد عليه يكون في النَّار، فيصير قوله: «في النار» غيرَ مفيد(٣).

وقوله: «ابتغاءَ حِلْيَةٍ» مفعول له. «زَبَدٌ مِثْلُهُ» ابتداء وخبر، أي: زبدٌ مثل زَبَد السيل. وقيل: إنَّ خبر «زَبَد» قولُه: «في النارِ». الكسائيُّ: «زَبَدٌ» ابتداء، و«مِثْلُهُ» نعتٌ له، والخبر في الجملة التي قبله، وهو: «مما يُوقِدُون»(٤).

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: كما بيَّن لكم هذه الأمثالَ فكذلك يضربُها بيِّنات. تم الكلام. ثم قال: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ﴾ أي: أجابوا، استجاب بمعنى أجاب؛ قال:

فلَمْ يَستجِبْهُ عند ذاكَ مُجِيبُ

وقد تقدم(٥).

---

(١) السبعة ص٣٥٨، والتيسير ص١٣٣ عن حمزة والكسائي وحفص. وذكرها عن ابن محيصن ويحيى ابنُ عطية في المحرر الوجيز ٣/٣٠٨.

(٢) ينظر الكشف عن وجوه القراءات ٢/٢٢، وتفسير الرازي ١٩/٣٦.

(٣) ذكر هذا القول ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/٣٠٧ عن مكِّي وغيره، وقال: وذهب أبو علي الفارسي إلى تعلُّقها بـ«يوقدون» وقال: قد يوقَد على شيء وليس في النار، كقوله تعالى: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ فذلك البناء الذي أمر به يوقد عليه وليس في النار، لكن يصيبه لهبها. اهـ وقول أبي علي في الحجة له ٥/١٦ - ١٧.

(٤) مشكل إعراب القرآن ١/٣٩٨.

(٥) ١/٣٢١، وقائله كعب بن سعد الغَنَوي، وصدره: وداعٍ دعا يا مَن يجيب إلى النَّدى.

أي: أجاب إلى ما دعاه الله من التوحيد والنبوّات. ﴿ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ لأنها في نهاية الحُسْن. وقيل: مِن الحسنى: النصرُ في الدنيا، والنعيمُ المقيم غداً.

﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾ أي: لم يُجيبوا إلى الإيمان به ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: من الأموال ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ مِلْكٌ لهم ﴿لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾ من عذابِ يومِ القيامة، نظيره في «آل عمران»: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٠]، و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ [آل عمران: ٩١] حَسْبَ ما تقدَّم بيانه هناك.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: لا يقبل لهم حسنة، ولا يتجاوز لهم عن سيئة. وقال فَرْقَد السَّبَخِيُّ: قال لي إبراهيم النَّخعيُّ: يا فَرْقَد! أتدري ما سوءُ الحساب؟ قلت: لا! قال: هو أن يحاسَب الرجل بذنبه كلِّه، لا يفقد منه شيء(١). ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ أي: مسكنُهم ومقامهم ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي: الفِراش الذي مَهَدوا لأنفسهم.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ هذا مَثَلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر، ورُويَ أنَّها نزلت في حمزةَ بن عبد المطلب ﷺ، وأبي جهل لعنه الله(٢). والمرادُ بالعَمَى: عَمَى القلب، والجاهلُ بالدين أعمى القلب ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝٢٠﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ هذا من صفة ذوي الألباب، أي:

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٠٦ و ٥٠٩، وفيه: لا يغفر، بدل: لا يفقد. وفرقد السبخي هو ابن يعقوب، أبو يعقوب البصري، توفي سنة (١٣١هـ). التهذيب ٣/ ٣٨٤.

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ١٣ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

إنما يتذكر أولو الألباب الموفُون بعهد الله. والعهدُ اسمٌ للجنس، أي: بجميع عهود الله، وهي أوامرُه ونَواهيهِ التي وصَّى بها عَبيدَه، ويدخل في هذه الألفاظ التزامُ جميعِ الفروض، وتجنُّبُ جميع المعاصي(١).

وقوله: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ يَحتمِلُ أن يريد به جنسَ المواثيق، أي: إذا عقدوا في طاعة الله عهداً لم ينقُضوه؛ قال قَتادة: تقدَّم الله إلى عباده في نقض الميثاق ونهى عنه في بضعٍ وعشرين آية(٢). ويحتمل أن يشير إلى ميثاقٍ بعينه، وهو الذي أخذه الله على عباده حين أخرجهم من صُلْبِ أبيهم آدم(٣). وقال القَفَّال: هو ما ركَّب في عقولهم من دلائل التوحيد والنبوَّات.

الثانية: روى أبو داود وغيره(٤) عن عوف بن مالك قال: كنَّا عند رسول الله ﷺ سبعةً أو ثمانيةً أو تسعةً، فقال: «ألا تُبايعون رسولَ الله ﷺ؟» وكنَّا حديثَ عهد ببيعةٍ، فقلنا: قد بايعناك [حتى قالها ثلاثاً؛ فبسطنا أيدينا فبايعناه، فقال قائل: يا رسول الله! إنَّا قد بايعناك] فعلى ماذا نُبايعك؟ قال: «أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وتُصلُّوا الصلواتِ الخمسَ، وتسمعوا وتُطيعوا - وأَسَرَّ كلمةً خفيةً - قال: ولا تسألوا الناس شيئاً». قال: فلقد كان بعض أولئك النفر يسقط سَوْطُه، فما يسأل أحداً أن يناولَه إيَّاه.

قال ابن العربي(٥): مِن أعظم المواثيق في الذكر ألَّا يُسأل سواه؛ فقد كان أبو حمزةَ الخراسانيُّ من كبار العبَّاد(٦)، سمع أنَّ ناساً بايعوا رسولَ الله ﷺ ألَّا يسألوا

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٠٩.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٠٩، وأخرجه مطولاً الطبري ١٣/ ٥٠٧ - ٥٠٨.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٠٩ بنحوه.

(٤) سنن أبي داود (١٦٤٢)، وما سيأتي بين حاصرتين منه، وهو عند مسلم (١٠٤٣).

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٩٩، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٦) قال ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٦/ ١٥٤، ١٥٦: من مشايخ الصوفية المعروفين، ينسب إلى دمشق، ويحتمل أن يكون سكنها وإلا فهو من أهل خراسان المعروفين، وصحب مشايخ بغداد، وهو من أقران الجنيد. وقيل: إن صاحب القصة (التي ستأتي) أبو حمزة البغدادي، وقيل: الدمشقي. اهـ والقصة بنحوها في الحلية ١٠/ ١٧٧ - ١٧٨، وتاريخ بغداد ١/ ٣٩١ - ٣٩٢، وتلبيس إبليس ص٢٩٣.

أحداً شيئاً، الحديث. فقال أبو حمزة: ربِّ إنَّ هؤلاء عاهَدوا نبيَّك إذ رأوه، وأنا أعاهدك ألّا أسأل أحداً شيئاً. قال: فخرج حاجًّا من الشام يريد مكةَ، فبينما هو يمشي في الطريق من الليل إذ بقي[1] عن أصحابه لعذرٍ، ثم اتَّبعهم، فبينما هو يمشي إليهم إذ سقط في بئر على حاشية الطريق، فلما حلَّ في قعره قال: أستغيث؛ لعل أحداً يسمعني [فيخرجني]. ثم قال: إن الذي عاهدتُه يراني ويسمعني، والله لا تكلمتُ بحرف للبشر. ثم لم يلبث إلا يسيراً إذ مرَّ بذلك البئرِ نفر، فلما رأَوْه على حاشية الطريق قالوا: إنه لينبغي سدُّ هذا البئر، ثم قطعوا خشباً ونصبوها على فم البئر وغطَّوْها بالتراب، فلما رأى ذلك أبو حمزةَ قال: هذه مهلكة، ثم أراد أن يستغيث بهم، ثم قال: والله لا أخرج منها أبداً، ثم رجع إلى نفسه فقال: أليس قد عاهدتَ مَن يراك[2]؟ فسكَتَ وتوكَّل، ثم استند في قعر البئر مفكِّراً في أمره، فإذا بالتراب يقع عليه والخشبِ يرفع عنه، وسمع في أثناء ذلك مَن يقول: هات يدك! قال: فأعطيتُه يدي فأقلَّني في مرةٍ واحدة إلى فم البئر، فخرجت فلم أرَ أحداً[3]؛ فسمعت هاتفاً يقول: كيف رأيت ثمرةَ التوكُّل؟ وأنشد:

نَهاني حَيائي منكَ أن أكشفَ الهوى ... وأغنيتَني[4] بالعِلْم منكَ عن الكَشْفِ
تَلَطَّفْتَ في أمري فأبديتَ شاهدي ... إلى غائبي واللُّطفُ يُدرَكُ باللُّطْفِ
تَراءيتَ لي بالعلم حتى كأنَّما ... تُخَبِّرُني بالغيب أنَّكَ في كفِّ[5]
أراني[6] وبي من هَيْبتي لَكَ وَحْشَةٌ ... فتؤنِسُني باللُّطف مِنكَ وبالعطفِ

---

(١) في (ظ): انقطع.

(٢) في أحكام القرآن: أليس الذي عاهدت يرى ذلك كله.

(٣) كذا في أحكام القرآن، وفي باقي المصادر أن الذي أخرجه هو سَبُع، وسيأتي ذكر ذلك.

(٤) في (د) و(ز) و(م) وتلبيس إبليس: فأغنيتني، والمثبت من (ظ) وباقي المصادر.

(٥) في تاريخ بغداد: بالكف، وفي تاريخ ابن عساكر وتلبيس إبليس: في الكف، وفي الحلية: في كفي.

(٦) في المصادر عدا أحكام القرآن: أراك.

وتُحيي مُحبًّا أنت في الحبِّ حَتْفُهُ   وذا عَجبٌ كيف[1] الحياةُ مع الْحَتْفِ

قال ابن العربي [2]: هذا رجلٌ عاهد الله؛ فوجد الوفاءَ على التمام والكمال، فاقتدوا به إن شاء الله تهتدوا.

قال أبو الفرج الجوزيُّ[3]: سكوتُ هذا الرجل في هذا المقام على التوكُّل بزعمه إعانةٌ على نفسه، وذلك لا يَحِلُّ، ولو فَهِمَ معنى التوكُّلِ لعَلِمَ أنه لا يُنافي استغاثتَه في تلك الحالة، كما لم يخرج رسول الله ﷺ من التوكُّل بإخفائه الخروجَ من مكة، واستئجاره دليلاً، واستكتامه ذلك الأمرَ، واسْتِتَاره في الغار، وقوله لسُرَاقَةَ: «أَخْفِ عَنَّا»[4]. فالتوكُّلُ الممدوحُ لا يُنال بفعل محظورٍ؛ وسكوتُ هذا الواقعِ في البئر محظورٌ عليه، وبيانُ ذلك أنَّ الله تعالى قد خلق للآدميِّ آلةً يدفع عنه بها الضررَ، وآلةً يجتلب بها النفع، فإذا عطَّلهما[5] مدَّعياً للتوكُّل كان ذلك جهلاً بالتوكُّل، وردًّا لحكمةِ الواضع[6]؛ لأنَّ التوكُّلَ إنما هو اعتمادُ القلب على الله تعالى، وليس من ضرورته قطعُ الأسباب؛ ولو أنَّ إنساناً جاع فلم يسأل حتى مات دخل النار؛ قاله سفيان الثَّوري[7] وغيره، لأنه قد دلَّ على طريق السلامة، فإذا تقاعَدَ عنها أعان على نفسه.

وقال أبو الفرج[8]: ولا الْتِفاتَ إلى قول أبي حمزةَ: فجاء أسدٌ فأخرجني! فإنه إنْ صحَّ ذلك فقد يقع مثلُه اتفاقاً، وقد يكونُ لطفاً من الله تعالى بالعبد الجاهل، ولا يُنكَر

---

(١) في المصادر عدا أحكام القرآن: كون.

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١١٠٠ .

(٣) في صفة الصفوة ١/ ٢٦ - ٢٨ ، وبنحوه في تلبيس إبليس ص٢٩٤ - ٢٩٥ .

(٤) أخرجه أحمد (١٧٥٩١)، والبخاري (٣٦٠٩) مطولاً من حديث سراقة ﷺ.

(٥) في (د) و(ز) و(م): عطلها.

(٦) في النسخ: التواضع، والمثبت من صفة الصفوة.

(٧) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٧/ ٦٦ .

(٨) في صفة الصفوة ١/ ٢٨ .

أن يكون الله تعالى لَطفَ به، إنَّما يُنكَر فعلُه الذي هو كَسْبُه، وهو إعانتُه على نفسه التي هي وديعةٌ لله تعالى عنده، وقد أمره بحفظها.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ ظاهِرُه[1] في صِلَة الأرحام؛ وهو قولُ قَتَادةَ وأكثرِ المفسِّرين[2]، وهو مع ذلك يتناول جميعَ الطاعات. ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ قيل: في قطع الرَّحم. وقيل: في جميع المعاصي ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ سوءُ الحساب: الاستقصاءُ فيه والمناقشةُ، ومَن نُوقِشَ الحساب عُذِّب.

وقال ابن عباس وسعيد بن جُبَير: معنى «يَصِلُون ما أَمَرَ اللهُ به»: الإيمانُ بجميع الكتب والرسلِ كلِّهم.

الحسن: هو صلةُ محمدٍ ﷺ.

ويحتمل رابعاً: أنْ يَصِلُوا الإيمانَ بالعمل الصالح ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ فيما أمرهم بوَصْلِه ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ في تركه[3].

والقولُ الأول يتناول هذه الأقوال كما ذكرنا، وبالله توفيقنا.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ قيل: «الَّذِينَ» مستأنَفٌ؛ لأنَّ «صَبَرُوا» ماضٍ فلا ينعطف على «يُوفُونَ». وقيل: هو مِن وَصْفِ مَن تقدَّم، ويجوز الوصفُ تارةً

(١) في (د) و(ز) و(م): ظاهر.

(٢) ينظر تفسير البغوي ٣/ ١٤، وخبر قتادة ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٠٨.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٠٨، وذكره عن ابن عباس الواحدي في الوسيط ٣/ ١٣.

بلفظِ الماضي، وتارةً بلفظ المستقبل؛ لأنَّ المعنى: مَن يفعلُ كذا فله كذا، ولمَّا كان «الذين» يتضمَّن الشرط، والماضي في الشرط كالمستقبل، جاز ذلك؛ ولهذا قال: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ﴾، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا﴾، ثم عطف عليه فقال: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾.

قال ابن زيد: صبروا على طاعة الله، وصبروا عن معصية الله[١]. وقال عطاء: صبروا على الرَّزايا والمصائب، والحوادثِ والنوائب[٢]. وقال أبو عِمْران الجَوْنيُّ: صبروا على دينهم ابتغاءَ وجه الله.

﴿وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أدَّوْها بفُروضها وخُشوعها في مَوَاقيتها ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يعني الزكاةَ المفروضة؛ عن ابن عباس، وقد مضى القولُ في هذا في «البقرة»[٣] وغيرها.

﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفعون بالعمل الصالحِ السَّيِّئَ من الأعمال؛ قاله ابن عباس[٤]. ابنُ زيد: يدفعون الشرَّ بالخير. سعيد بنُ جُبير: يدفعون المنكَر بالمعروف. الضَّحَّاك: يدفعون الفُحْشَ بالسلام. جُوَيبر: يدفعون الظلم بالعفو. ابنُ شجرة: يدفعون الذنبَ بالتوبة[٥]. القُتَبيُّ[٦]: يدفعون سَفَه الجاهل بالحِلْم، فالسَّفَهُ السَّيئةُ، والحِلْمُ الحسنة. وقيل: إذا همُّوا بسيئةٍ رجعوا عنها واستغفروا. وقيل: يدفعون الشِّرْكَ بشهادة أنْ لا إله إلا الله[٧].

---

(١) أخرجه بنحوه الطبري ٣/ ٥١٠.

(٢) ذكره البغوي ٣/ ١٦.

(٣) ١/ ٢٧٣، وخبر ابن عباس أخرجه الطبري ١٢/ ٥٠٩.

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ١٤، والبغوي ٣/ ١٦.

(٥) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت العيون ٣/ ١٠٩، وقول ابن زيد أخرجه الطبري ١٣/ ٥١٠.

(٦) في تفسير غريب القرآن ص٢٢٧.

(٧) ذكر القول الأخير ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٠٩.

فهذه تسعة أقوال، معناها كلِّها متقارِبٌ، والأولُ يتناولُها بالعموم، ونظيرُه: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لمعاذ: «وأَتْبِعِ السيِّئةَ الحَسَنَةَ تَمْحُها، وخَالِقِ الناسَ بخُلُق حَسَن»(١).

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: عاقبةُ الآخرة، وهي الجنة بدلَ النار، والدارُ غداً داران: الجنةُ للمطيع، والنارُ للعاصي؛ فلمَّا ذَكَر وصفَ المطيعين فدارُهم الجنةُ لا مَحالةَ. وقيل: عنَى بالدار دارَ الدنيا، أي: لهم جزاءُ ما عملوا من الطاعات في دار الدنيا.

قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ أي: لهم جناتُ عدن، فـ «جَنَّاتُ عَدْنٍ» بدلٌ من «عُقْبَى»(٢)، ويجوز أن يكون تفسيراً لـ «عُقْبَى الدَّارِ» أي: لهم دخولُ جناتِ عدن؛ لأنَّ «عُقْبَى الدَّارِ» حَدَثٌ، و«جَنَّاتُ عَدْنٍ» عين، والحدثُ إنما يفسَّر بحدَثٍ مثلِه؛ فالمصدرُ المحذوفُ مضافٌ إلى المفعول. ويجوز أن يكون «جَنَّاتُ عَدْنٍ» خبر ابتداءٍ محذوف(٣).

و«جَنَّاتُ عَدْنٍ» وسطُ الجنة وقَصَبتها، وسقفُها عرشُ الرحمن(٤)؛ قاله القُشَيريُّ أبو نصرٍ عبدُ الرحيم(٥). وفي «صحيح» البخاريِّ: «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوسَ، فإنه أَوْسَطُ الجنة وأَعْلى الجنة، وفوقه عرشُ الرحمن، ومنه تَفَجَّر أنهارُ الجنة»(٦) فيحتمل أن تكون «جنات عدن» كذلك إنْ صحَّ بذلك(٧) خبر. وقال عبد الله بن عمرو:

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٩٨٨)، والترمذي (١٩٨٧) من حديث معاذ ﷺ. وأخرجه أحمد (٢١٣٥٤) والترمذي (١٩٨٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٤٧ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٥٦ .

(٣) ينظر الإملاء للعكبري (على هامش الفتوحات الإلهية) ٣/ ٣٨٢ - ٣٨٣ ، والدر المصون ٧/ ٤٤ ، وقال السمين: ويجوز أن يكون «جنات عدن» مبتدأ خبره: «يدخلونها».

(٤) ينظر ما سلف ١٠/ ٢٩٩ - ٣٠٠ .

(٥) في (د) و(ز): عبد الكريم، وفي (م): عبد الملك.

(٦) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٨٤١٩)، والبخاري (٢٧٩٠) عن أبي هريرة ﷺ.

(٧) في (د) و(ف) و(م): فذلك.

إنَّ في الجنة قصراً يقال له: عَدْن، حوله البُرُوج والمروج؛ فيه خمسةُ آلافِ باب[١]، على كلِّ بابٍ خمسةُ آلافِ خَيْرَة[٢]، لا يدخله إلا نبيٌّ أو صدِّيقٌ أو شهيد.

و«عدن» مأخوذٌ من عَدَن بالمكان: إذا أقام فيه؛ على ما يأتي بيانُه في سورة الكهف إن شاء الله تعالى[٣].

﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآبِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ يجوز أن يكون معطوفاً على «أُولَئِكَ»، المعنى: أولئك ومَن صَلَح من آبائهم وأزواجهم وذرِّياتهم لهم عقبى الدار[٤]. ويجوز أن يكون معطوفاً على الضمير المرفوع في «يَدْخُلُونَهَا»، وحَسُنَ العطفُ لمَّا حالَ الضميرُ المنصوبُ بينهما[٥]. ويجوز أن يكون المعنى: يدخلونها ويدخلها مَن صلح من آبائهم، أي: مَن كان صالحاً، لا يدخلونها بالأنساب. ويجوز أن يكون موضعُ «مَنْ» نصباً على تقدير: يدخلونها مع مَن صلح من آبائهم[٦]، أي: فإن[٧] لم يعمل مثل أعمالهم يُلحقه الله بهم كرامةً لهم.

وقال ابن عباس: هذا الصلاحُ الإيمانُ بالله والرسول، ولو كان لهم مع الإيمان طاعاتٌ أخرى لدخلوها بطاعتهم لا على وجه التَّبَعيَّة. قال القُشَيريُّ: وفي هذا نظر؛ لأنه لابدَّ من الإيمان، فالقول في اشتراط العمل الصالح كالقول في اشتراط الإيمان. فالأظهرُ أنَّ هذا الصلاحَ في جملة الأعمال، والمعنى: أنَّ النعمة غداً تَتمُّ عليهم بأنْ

---

(١) في (د) و(ز) و(م): فيه ألف باب، والمثبت من (ظ)، وهو موافق لما في مصنف ابن أبي شيبة ٥/ ٣٠٧، وتفسير الطبري ١١/ ٥٦٣ و ١٣/ ٥١٢.

(٢) أي: ذات خير، والجمع: خيرات، ويعني النساء. وسيرد الخبر في تفسير الآية (٥٠) من سورة ص.

(٣) عند تفسير الآية (٣١) منها.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٥٧.

(٥) البيان لابن الأنباري ٢/ ٥١، والإملاء للعكبري (على هامش الفتوحات الإلهية) ٣/ ٣٨٣.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٤٧، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٣٩٨، والبيان ٢/ ٥١، والإملاء ٣/ ٣٨٣.

(٧) في (د) و(ز) و(م): وإن، بدل: أي فإن.

جعلهم مجتمعين مع قَرَاباتهم في الجنة، وإن دخلها كلُّ إنسان بعمل نفسه، بل برحمة الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ أي: بالتُّحَف والهدايا من عند الله تكرمةً لهم. ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ أي: يقولون: سلام عليكم، فأضمر القول، أي: قد سلمتم من الآفات والمحن. وقيل: هو دعاءٌ لهم بدوام السلامة، وإن كانوا سالمين، أي: سلَّمكم الله، فهو خبرٌ معناه الدعاء، ويتضمَّن الاعتراف بالعبودية.

﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ أي: بصبركم، فـ «ما» مع الفعل بمعنى المصدر، والباءُ في «بما» متعلقةٌ بمعنى «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ»، ويجوز أن تتعلق بمحذوف، أي: هذه الكرامةُ بصبركم، أي: على أمر الله تعالى ونهيه؛ قاله سعيد بن جُبَير. وقيل: على الفقر في الدنيا؛ قاله أبو عِمران الجَوْنيّ. وقيل: على الجهاد في سبيل الله(١)؛ كما روي عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون مَن يدخل الجنة من خَلْقِ الله؟» قالوا: الله ورسولُه أعلم. قال: «المجاهدون الذين تُسدُّ بهم الثغور، وتُتَّقى بهم المكارِهُ، فيموت أحدهم وحاجتُه في نفسه لا يستطيع لها قضاءً، فتأتيهم الملائكة فيدخلون عليهم من كلِّ باب: سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار»(٢).

وقال محمد بن إبراهيم: كان النبيُّ ﷺ يأتي قبورَ الشهداء على رأس كلِّ حول فيقول: «السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار»، وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان(٣)؛

---

(١) في النكت والعيون ٣/ ١٠٩.

(٢) أخرجه مطولاً أحمد (٦٥٧٠)، وعبد بن حميد في المنتخب (٣٥٢)، والبزار (٣٦٦٥ - كشف)، وابن حبان (٧٤٢١)، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٣٤٧. وقد وقع في جميع المصادر: الفقراء المهاجرون، بدل: المجاهدون.

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٦٧١٦)، والطبري ١٣/ ٥١٣. ومحمد بن إبراهيم: هو التيمي المدني الحافظ من علماء المدينة مع سالم ونافع، وكان جده الحارث بن خالد بن صخر القرشي من أصحاب رسول الله ﷺ المهاجرين، توفي سنة (١١٩هـ). السير ٥/ ٢٩٤.

وذكره البَيْهَقيُّ[١] عن أبي هُريرة قال: كان النبيُّ ﷺ يأتي الشهداء، فإذا أَتى فُرْضَةَ الشِّعْب يقول: «السلامُ عليكم بما صبرتُم فنعمَ عقبى الدار». ثم كان أبو بكر بعد النبيِّ ﷺ يفعلُه، وكان عمرُ بعد أبي بكر يفعله، وكان عثمانُ بعد عمرَ يفعله.

وقال الحسن البصريُّ رحمه الله: بما صبرتم عن فُضول الدنيا. وقيل: بما صبرتم على ملازمة الطاعة، ومُفارقة المعصية؛ قال معناه الفُضَيْل بن عِيَاض. ابن زيد: بما صبرتم عمَّا تحبُّونه إذا فقدتموه. ويحتمل سابعاً: بما صبرتم عن اتباع الشهوات[٢].

وعن عبد الله بن سَلَام وعلي بن الحسين ﷺ أنهما قالا[٣]: إذا كان يومُ القيامة ينادي منادٍ: ليقُمْ أهل الصبر، فيقوم ناسٌ من الناس، فيقال لهم: انطلقوا إلى الجنة، فتتلقَّاهم الملائكة فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة، قالوا: قبل الحساب؟ قالوا: نعم. فيقولون: مَن أنتم؟ فيقولون: نحن أهلُ الصبر، قالوا: وما كان صبرُكم؟ قالوا: صبَّرنا أنفسنا على طاعة الله، وصبَّرناها عن معاصي الله، وصبَّرناها على البلاء والمحن في الدنيا. قال علي بن الحسين: فتقول لهم الملائكة: ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين. وقال ابن سَلَام: فتقول لهم الملائكة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾[٤].

﴿فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: نعم عاقبةُ الدار التي كنتم فيها؛ عملتم فيها ما أَعْقَبَكم هذا الذي أنتم فيه، فالعقبى على هذا اسم، و«الدار» هي الدنيا. وقال أبو عِمران الجَوْني: «فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ»: الجنة عن النار[٥]. وعنه: «فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ»: الجنة عن الدنيا[٦].

---

(١) في دلائل النبوة ٣/ ٣٠٦.

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٠٩.

(٣) في النسخ: أنه قال، والمثبت هو الجادة.

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٣/ ١٣٩ - ١٤٠ عن علي بن الحسين مطولاً، ولم نقف عليه عن عبد الله بن سلام.

(٥) أخرجه الطبري ١٣/ ٥١٤.

(٦) النكت والعيون ٣/ ١٠٩.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ لمَّا ذَكَر المُوفين بعهده، والواصِلِين[1] لأمره، وذَكَر ما لهم، ذكر عكسَهم. فنقضُ[2] الميثاقِ: تركُ أمرِه. وقيل: إهمالُ عقولِهم؛ فلا يتدبرون بها ليعرفوا الله تعالى. ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ أي: من الأرحام، والإيمانِ بجميع الأنبياء ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بالكفر وارتكاب المعاصي ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي: الطَّردُ والإبعادُ من الرحمة ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي: سوء المُنقلَب، وهو جهنم. وقال سعد بن أبي وقَّاص: واللهِ الذي لا إله إلا هو، إنهم الحَرُورِية[3].

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ لمَّا ذكر عاقبة المؤمن وعاقبةَ المشرك، بيَّن أنه ـ تعالى ـ الذي يبسط الرزق ويَقْدِرُ في الدنيا؛ لأنها دار امتحان، فبَسْطُ الرزق على الكافرين لا يدلُّ على كرامتهم، والتَّقتير على بعض المؤمنين لا يدلُّ على إهانتهم.

﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يضيِّق، ومنه: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ [الطلاق: ٧] أي: ضيِّق. وقيل: «يقدر»: يعطي بقَدْرِ الكفاية.

﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني مشركي مكة[4]؛ فرحوا بالدنيا ولم يعرفوا غيرها، وجَهِلوا ما عند الله. وهو معطوفٌ على ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾.

وفي الآية تقديمٌ وتأخير؛ التقدير: والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه،

---

(١) في (د) و(ز) و(م): والمواصلين، والمثبت من (ظ).

(٢) في (د) و(ز): بنقض، وفي (م): نقض، والمثبت من (ظ).

(٣) أخرجه مطولاً البخاري (٤٧٢٨)، والطبري ١٣/ ٣١٤ دون ذكر القسم.

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ١٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويفسدون في الأرض، وفرحوا بالحياة الدنيا.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ أي: في جَنْبِها ﴿إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ أي: متاعٌ من الأمتعة، كالقَصْعة والسُّكُرُّجَة[١]. وقال مجاهد: شيءٌ قليلٌ ذاهِب[٢]. مِن مَتَعَ النهارُ: إذا ارتفع، فلابدَّ له من زوال[٣]. ابن عباس: زَادٌ كزاد الراعي[٤]. وقيل: متاع الحياة الدنيا: ما يُستمتع بها منها. وقيل: ما يُتزوَّد منها إلى الآخرة من التقوى والعمل الصالح[٥]. ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ ثم ابتدأ: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسِّع ويضيِّق؟.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ بيَّن في مواضعَ أنَّ اقتراح الآيات على الرسل جَهْلٌ، بعد أن رأَوْا آيةً واحدةً تدلُّ على الصدق، والقائلُ عبد الله بن أبي أمية[٦] وأصحابُه حين طالبوا النبيَّ ﷺ بالآيات. ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ أي: كما أضلَّكم بعد ما أنزل من الآيات وحَرمَكم الاستدلالَ بها يُضلُّكم عند نزول غيرها. ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أي: مَن رَجَع. والهاء في «إليه» للحقِّ، أو

---

(١) إناء صغير يؤكل فيه الشيء القليل من الأدم، وهي فارسية. اللسان (سكرج).

(٢) أخرجه الطبري ١٣/٤١٦ - ٤١٧، وهو في تفسير مجاهد ١/٣٢٨.

(٣) ينظر تهذيب اللغة ٢/٢٩٥.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/٤١٧.

(٥) ذكر هذا القول الماوردي في النكت والعيون ٣/١١٠.

(٦) أخو أمِّ سلمة زوجِ النبي ﷺ، وابنُ عمته عاتكة، كان شديداً على المسلمين، وهو الذي قال: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] ثم أسلم وشهد الفتح وحنيناً والطائف. الإصابة ٦/١١. وينظر سيرة ابن هشام ١/٣٠٩.

للإسلام، أو لله عزَّ وجلَّ؛ على تقدير: ويهدي إلى دِينه وطاعته مَن رَجَع إليه بقلبه. وقيل: هي للنبيِّ ﷺ.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ «الذين» في موضع نصب؛ لأنه مفعول؛ أي: يهدي الله الذين آمنوا. وقيل: بدلٌ من قوله: «مَنْ أَنَابَ» فهو في محلِّ نصبٍ أيضاً[(١)].

﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: تسكُن وتستأنس بتوحيد الله، فـ«تطمئنُّ» حال[(٢)]، أي: وهم تطمئنُّ قلوبهم على الدوام بذكر الله بألسنتهم؛ قاله قَتَادة[(٣)]. وقال مجاهد وغيره[(٤)]: بالقرآن. وقال سفيان بن عيينة: بأمره. مقاتل: بوعده. ابن عباس: بالحلف باسمه[(٥)]، أو تطمئنُّ بذكر فضله وإنعامه، كما تَوْجَل بذكر عَدْلِه وانتقامه وقضائه. وقيل: «بذكرِ الله» أي: يذكرون الله ويتأمَّلون آياته، فيعرفون كمالَ قدرته عن[(٦)] بصيرة.

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ أي: قلوب المؤمنين. قال ابن عباس: هذا في الحلف؛ فإذا حلف خَصْمُه بالله سَكَن قلبه[(٧)].

وقيل: «بذِكر الله» أي: بطاعة الله. وقيل: بثواب الله. وقيل: بوعد الله[(٨)]. وقال مجاهد: هم أصحابُ النبيِّ ﷺ[(٩)].

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/١٤٧ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/٣٥٧ . ويجوز الرفع على الابتداء. ينظر الدر المصون ٧/٤٦ .

(٢) في (د) و(ز) و(م): قال، والمثبت من (ظ).

(٣) أخرجه بنحوه الطبري ١٣/٥١٨ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١١٠ .

(٤) في (د) و(ز): وقال مجاهد وقتادة وغيره، وفي (م): وقال مجاهد وقتادة وغيرهما، والمثبت من (ظ)، وقول مجاهد ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١١٠ .

(٥) ذكره البغوي ٣/١٧ .

(٦) في (ظ): على.

(٧) ذكره البغوي ٣/١٧ ، وقد سلف قريباً.

(٨) النكت والعيون ٣/١١٠ .

(٩) أخرجه الطبري ١٣/٥١٩ ، وهو في تفسير مجاهد ١/٣٢٨ .

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ۝٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ ابتداء وخبر. وقيل: معناه: لهم طُوبَى، فـ «طُوبَى» رفع بالابتداء، ويجوز أن يكون موضعه نصباً على تقدير: جَعَل لهم طُوبى، ويُعطف عليه «وَحُسْنُ مَآبٍ» على الوجهين المذكورين، فترفع أو تنصب(١).

وذكر عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن يحيى بن أبي كَثير، عن عمرو بن زيد(٢) البِكَالِي، عن عُتْبة بنِ عبْدٍ السُّلَميِّ قال: جاء أعرابيٌّ إلى النبيِّ ﷺ فسأله عن الجنة وذكر الحوض، فقال: فيها فاكهةٌ؟ قال: «نعم، شجرةٌ تدعى طوبى». قال: يا رسول الله! أيَّ شجرِ أرضِنا تُشبه؟ قال: «لا تُشبه شيئاً من شجر أرضك، أأتيتَ الشام؟ هناك شجرةٌ تدعى الجوزة تَنْبُتُ على ساقٍ ويفترش أعلاها». قال: يا رسول الله! فما عِظَمُ أصلها! قال: لو ارْتَحلْتَ جَذَعةً من إبل أهلك ما أَحَطْتَ بأصلها حتى تنكسر تَرْقُوتُها هَرَماً» وذكر الحديث(٣)، وقد ذكرناه بكماله في أبواب الجنة من كتاب «التذكرة»(٤)، والحمد لله.

وذكر ابن المبارك قال: أخبرنا مَعْمَر، عن الأشعث بن(٥) عبد الله، عن شَهْر بن

---

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/١٤٨، وإعراب القرآن للنحاس ٢/٣٥٧، والبيان لابن الأنباري ٢/٥١. وقرأ: «وحسنَ مآب» بالنصب ابن محيصن. القراءات الشاذة ص٦٧.

(٢) في (د) و(ز) و(ظ): عمرو بن يزيد، وفي (م): عمرو بن أبي يزيد، والمثبت هو الصواب، ويقال له: عامر، كما سيرد.

(٣) لم نقف عليه عند عبد الرزاق، وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٧١٦)، والطبراني في الكبير ١٧/٣١٣، وابن عبد البر في التمهيد ٣/٣٢٠ - ٣٢١ من طريق عبد الرزاق به. وأخرجه أحمد (١٧٦٤٢) من طريق معمر به، إلا أنه قال: عامر بن زيد، وكذلك ذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٦/٣٢٠، وابن حبان في الثقات ٥/١٩١.

(٤) ص٤٥١ - ٤٥٢.

(٥) في (د) و(ز) و(م): عن، والمثبت من (ظ) والمصادر على ما يأتي.

حَوْشَب، عن أبي هريرة قال: في الجنة شجرةٌ يقال لها: طوبى، يقول الله تعالى: تفتَّقي لعبدي عمَّا شاء، فتتَفَتَّق له عن فرسٍ بسرجه ولجامه وهيئته كما شاء، وتَفَتَّقُ عن الراحلة برَحْلِها وزمامها وهيئتها كما شاء، وعن النَّجائب والثياب(١).

وذكر ابنُ وهبٍ من حديث شَهْر بن حَوْشَب، عن أبي أُمامة الباهليِّ قال: «طُوبَى» شجرةٌ في الجنة ليس منها دارٌ إلا وفيها غصنٌ منها، ولا طيرٌ حَسَنٌ إلا هو فيها، ولا ثمرةٌ إلا هي فيها(٢).

وقد قيل: إنَّ أَصْلَها في قصر النبيِّ ﷺ في الجنة، ثم تنقسم فروعها على [جميع] منازل أهل الجنة، كما انتشر منه العلمُ والإيمانُ على جميع أهل الدنيا(٣).

وقال ابن عباس: «طُوبَى لَهُمْ»: فرحٌ(٤) وقرةُ عينٍ. وعنه أيضاً: أن «طوبى» اسمُ الجنة بالحبشية. وقاله سعيد بن جُبَير(٥).

الربيع بن أنس: هو البستان بلغة الهند(٦)؛ قال القُشَيريُّ: إن صح هذا فهو وفاقٌ بين اللغتين.

وقال قَتَادة: «طُوبَى لَهُمْ»: حُسْنَى لهم(٧). عِكْرمة: نُعمى لهم(٨). إبراهيم

---

(١) الزهد لابن المبارك (٢٦٥ - زوائد نعيم)، ومن طريق ابن المبارك أخرجه الطبري ١٣/ ٥٢٤ ، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٣٦ عن معمر به.

(٢) لم نقف عليه، وأخرج نحوه ابن المبارك في الزهد (٢٦٨ - زوائد نعيم)، وابن أبي شيبة ١٣/ ١٣٦ ، والطبري ١٣/ ٥٢٥ عن مغيث بن سُمَيّ.

(٣) التعريف والإعلام للسهيلي ص٨٤ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) بعدها في (د) و(ز) و(م): لهم، والمثبت من (ظ)، وتفسير الطبري ١٣/ ٥٢١ .

(٥) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٢٢ من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) ذكره البغوي ٣/ ١٨ ، وأخرجه الطبري ١٣/ ٥٢٢ من قول سعيد بن مسجوح.

(٧) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٢١ .

(٨) زاد المسير ٤/ ٣٢٨ ، وهو في تفسير الطبري ١٣/ ٥٢٠ ، ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٣ ، والنكت والعيون ٣/ ١١١ بلفظ: نِعْمَ ما لهم.

النَّخَعيُّ: خير لهم. وعنه أيضاً: كرامة من الله لهم. الضَّحاك: غِبْطَة لهم[١].

النحاس[٢]: وهذه الأقوالُ متقاربةٌ؛ لأن طُوبَى فُعْلَى من الطِّيب، أي: العيشُ الطَّيِّبُ لهم، وهذه الأشياء ترجعُ إلى الشيء الطَّيِّب.

وقال الزجَّاج: طُوبَى فُعْلى من الطِّيب[٣]. وهي الحالةُ المُسْتَطابةُ لهم، والأصل: طُيْبَى، فصارت الياء واواً لسكونها وضمِّ ما قَبْلَها، كما قالوا: موسِرٌ وموقِن.

قلت: والصحيحُ أنها شجرة؛ للحديث المرفوع الذي ذكرناه، وهو صحيح على ما ذكره السُّهَيْلي[٤]. ذكره أبو عمر في «التمهيد»[٥]، ومنه نقلناه، وذكره أيضاً الثعلبيُّ في تفسيره.

وذكر أيضاً المَهْدَويُّ والقُشَيريُّ عن معاوية بن قُرَّة، عن أبيه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «طوبى شجرةٌ في الجنة غَرَسَها الله بيده، ونفخ فيها من روحه، تُنبت الحُلِيَّ والحُلَل، وإنَّ أغصانها لَتُرى من وراء سور الجنة»[٦] ومَن أراد زيادةً على هذه الأخبار فلْيُطالع الثعلبيّ.

وقال ابن عباس: «طُوبَى» شجرة في الجنة أصلُها في دار عليٍّ، وفي دار كلِّ مؤمنٍ منها غُصْن[٧].

---

(١) زاد المسير ٤/٣٢٨ ، وأخرج هذه الأقوال الطبري ١٣/ ٥٢٠ - ٥٢٢ .

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٤٩٤ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/١٤٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن الجوزي في زاد المسير ٤/٣٢٨ ، وما سيأتي بعده ذكرَه ابن الجوزي عن ابن الأنباري. وذكر قول الزجاج وابن الأنباري أيضاً الواحدي في الوسيط ٣/١٦ .

(٤) في التعريف والإعلام ص٨٤ .

(٥) ٣/ ٣٢٠ .

(٦) أخرجه الطبري ١٣/٥٢٨ .

(٧) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٣/ ١٧٣ من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وعزاه للثعلبي.

وقال أبو جعفر محمد بنُ علي: سئل النبيُّ ﷺ عن قوله تعالى: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ قال: «شجرةٌ أصلُها في داري، وفروعُها في الجنة». ثم سئل عنها مرةً أخرى فقال: «شجرةٌ أصلُها في دار عليٍّ، وفروعُها في الجنة»، فقيل له: يا رسول الله، سُئلتَ عنها فقلت: «أصلها في داري وفروعُها في الجنة» ثم سئلت عنها فقلت: «أصلُها في دار عليٍّ وفروعُها في الجنة» فقال النبيُّ ﷺ: «إنَّ داري ودارَ عليٍّ غداً في الجنة واحدةٌ في مكان واحد»[1].

وعنه ﷺ: «هي شجرةٌ أصلُها في داري، وما مِن دارٍ من دوركم إلا تَدَلَّى فيها غُصنٌ منها»[2] ﴿وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ أي: مرجع[3]؛ آبَ: إذا رجع. وقيل: تقدير الكلام: الذين آمنوا وتطمئنُّ قلوبُهم بذكْرِ الله وعملوا الصالحات طوبى لهم.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ أي: أرسلناك كما أرسلنا الأنبياء من قبلك؛ قاله الحسن[4]. وقيل: شبَّه الإنعام على مَن أُرسل إليه محمدٌ عليه الصلاة والسلام بالإنعام على مَن أرسل إليه الأنبياءُ قبله. ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يعني القرآن ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾. قال مقاتل وابن جُريج: نزلت في صُلح الحُدَيْبِيَة حين أرادوا أن يكتبوا كتابَ الصُّلْح، فقال النبيُّ ﷺ لعليٍّ: «اكتُبْ: بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سُهَيْل بن عمرو والمشركون: ما نَعْرِفُ الرحمن إلَّا صاحبَ اليمامة ـ يعنون مُسَيْلِمة الكذاب ـ اكتب: باسمك اللهم. وهكذا

(١) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٣/ ١٧٣ وهو ضعيف لإرساله.

(٢) ينظر مجمع البيان ١٣/ ١٧٢ .

(٣) قوله: أي مرجع، من (ظ).

(٤) ذكره الرازي ١٩/ ٥١ .

كان أهلُ الجاهلية يكتبون، فقال النبيُّ ﷺ لعليٍّ: «اكتب: هذا ما صالَحَ عليه محمدٌ رسول الله» فقال مشركو قريش: لئن كنتَ رسول الله ثم قاتلناك وصَدَدْناك لقد ظلمناك، ولكن اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بنُ عبد الله، فقال أصحاب النبيِّ ﷺ: دعنا نقاتلهم، فقال: «لا، ولكن اكتب ما يريدون» فنزلت[1].

وقال ابن عباس: نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبيُّ ﷺ: «اسْجُدُوا للرَّحمن» قالوا: وَمَا الرَّحْمَنُ؟ فنزلت: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: الذي أنكرتم ﴿هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[2] ولا معبودَ سواه، هو واحدٌ بذاته وإن اختلفت أسماء صفاته ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ واعتمدت ووثقت ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ أي: مرجعي غداً، واليوم أيضاً عليه توكلتُ ووثقت، رِضاً بقضائه، وتسليماً لأمره.

وقيل: سمع أبو جهل رسول الله ﷺ يدعو في الحِجْر ويقول: «يا الله، يا رحمن» فقال: كان محمدٌ ينهانا عن عبادة الآلهة، وهو يدعو إلهين! فنزلت هذه الآية، ونزل: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾[3] [الإسراء: ١١٠].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ هذا متَّصلٌ بقوله: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ

---

(١) أخرجه عن قتادة ومجاهد الطبري ١٣/ ٥٣٠ - ٥٣١، وذكره عنهما البغوي ٣/ ١٩، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص٢٧٧ عن أهل التفسير. وحديث صلح الحديبية ليس فيه ذكر لنزول هذه الآية، وقد أخرجه مطولاً أحمد (١٨٩١٠) و(١٨٩٢٨)، والبخاري (٢٧٣١ و ٢٧٣٢) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم. وينظر حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند أحمد (٣١٨٧)، وحديث أنس عند أحمد (١٣٨٢٧)، ومسلم (١٧٨٤).

(٢) أسباب النزول للواحدي ص٢٧٧، وتفسير البغوي ٣/ ١٩.

(٣) ذكره البغوي ٣/ ١٩، وابن الجوزي ٤/ ٣٢٩.

﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ .وذلك أنَّ نَفراً من مشركي مكةَ فيهم أبو جهل وعبدُ الله بن أبي أمية المخزوميَّان جلسوا خلف الكعبة، ثم أرسلوا إلى رسول الله ﷺ فأتاهم، فقال له عبد الله: إنْ سرَّك أن نتَّبعك فسَيِّر لنا جبالَ مكة بالقرآن، فأَذْهبها عنَّا حتى تنفسح؛ فإنها أرضٌ ضيِّقة، واجعل لنا فيها عيوناً وأنهاراً حتى نغرس ونزرع، فلستَ ـ كما زعمتَ ـ بأهونَ على ربِّك من داودَ حيث سخَّر له الجبال تُسبِّح معه[١]، وسَخِّر لنا الريح فنركَبَها إلى الشام نقضي عليها مِيرتَنا وحوائجنا، ثم نرجع من يومنا؛ فقد كان سليمان سخِّرت له الريح كما زعمتَ، فلستَ بأهونَ على ربِّك من سليمانَ بنِ داود، وأَحْيِ[٢] لنا قُصيًّا جدَّك ـ أو مَن شئتَ أنت من مَوْتانا ـ نسأله: أحقٌّ ما تقول أنت أم باطل؟ فإنَّ عيسى كان يُحيي الموتى، ولست بإهونَ على الله منه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ الآية؛ قال معناه الزبير بنُ العوام[٣]. ومجاهد وقَتادة والضَّحاك[٤].

والجواب محذوفٌ تقديره: لكان هذا القرآن، لكن حذف إيجازاً، لمَا في ظاهر الكلام من الدلالة عليه[٥]، كما قال امرؤ القيس:

فَلَوْ أَنَّهَا نَفْسٌ تَموتُ جَمِيعَةً ... ولكِنَّها نفسٌ تَساقَطُ أَنْفُسَا[٦]

يعني: لَهَانَ عليَّ، وهذا معنى قولِ قَتادةَ؛ قال: لو فَعَل هذا قرآنٌ قبل قرآنكم لفعله قرآنكم[٧].

---

(١) في (د) و(ز) و(م): حين سخر له الجبال تسير معه، والمثبت من (ظ)، وتفسير البغوي ٣/ ١٩، والكلام منه.

(٢) في تفسير البغوي: أو سخر لنا الريح فنركبها... أو أحي.

(٣) أخرجه عن الزبير أبو يعلى (٦٧٩)، والواحدي في أسباب النزول ص٢٧٨ .

(٤) أخرج قولهم الطبري ١٣/ ٥٣٢ و ٥٣٤ ، وهو في تفسير مجاهد ١/ ٣٢٨ ، وعن قتادة أخرجه أيضاً عبد الرزاق ١/ ٣٣٦ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ١١٢ .

(٦) ديوان امرئ القيس ص١٠٧ .

(٧) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٣٤ ، وذكره البغوي ٣/ ٢٠ ، وابن الجوزي ٤/ ٣٣٠ ، ولفظه عندهم: لو فعل هذا بقرآن قبل قرآنكم لفعل بقرآنكم.

وقيل: الجوابُ متقدِّم، وفي الكلام تقديمٌ وتأخير، أي: وهم يكفرون بالرحمن ولو[١] أنزلنا هذا[٢] القرآنَ وفعلنا بهم ما اقترحوا.

الفراء: يجوز أن يكون الجوابُ: لو فعل بهم هذا لكفروا بالرحمن[٣].

الزّجاج[٤]: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لمَا آمنوا، والجوابُ المضمَر هنا ما أُظهر في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ إلى قوله: ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١].

﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أي: هو المالِكُ لجميع الأمور، الفاعلُ لمَا يشاء منها، فليس ما تلتمسونه مما يكون بالقرآن، إنما يكون بأمر الله.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ قال الفرَّاء: قال الكلبيُّ: «ييئس» بمعنى يعلم، لغة النَّخَع[٥]. وحكاه القُشَيْريُّ عن ابن عباس، أي: أفلم يعلموا، وقاله الجوهريُّ في «الصحاح»[٦].

وقيل: هي لغةُ هَوَازِن[٧]، أي: أفلم يعلم؛ عن ابن عباس ومجاهدٍ والحسن[٨].

وقال أبو عبيدة: أفلم يعلموا ويتبيَّنوا، وأنشد في ذلك أبو عبيدة لمالك بن عوف النَّصْري:

---

(١) في النسخ: لو، والمثبت هو الصواب. ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٦٣، وتفسير الطبري ١٣/ ٥٣١، وتفسير البغوي ٣/ ٢٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٣١٣، وزاد المسير ٤/ ٣٣١.

(٢) قوله: هذا، من (ظ).

(٣) بنحوه في معاني القرآن للفراء ٢/ ٦٣.

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ١٤٨.

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٦٤، وقد ذكره من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس. وأخرجه الطبري ١٣/ ٥٣٨ من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٦) مادة (يئس).

(٧) تفسير الطبري ١٣/ ٥٣٦.

(٨) النكت والعيون ٣/ ١١٣، وسلف تخريجه عن ابن عباس.

أقولُ لهم بالشِّعْب إذْ يَيْسِرُونَني ألم تَيْأَسُوا أنِّي ابنُ فارسِ زَهْدَمِ[١]

يَيْسرونني من المَيْسر[٢]، وقد تقدَّم في «البقرة»، ويروى: يأسرونني من الأَسْر[٣].

وقال رَبَاح بن عديٍّ:

ألم يَيْئَسِ الأقوامُ أنِّي أنا[٤] ابنُهُ وإنْ كنتُ عن أرضِ العشيرةِ نائياً[٥]

في كتاب «الردّ»: أني أنا ابنه، وكذا ذكره الغزنوي[٦]، أي: ألم يعلم.

والمعنى على هذا: أفلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً من غير أن يشاهدوا الآيات.

وقيل: هو من اليأس المعروف، أي: أفلم ييئس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الكفار؛ لعلمهم أنَّ الله تعالى لو أراد هدايتهم لهداهم[٧]؟ لأن المؤمنين تَمنَّوا نزول الآيات طمعاً في إيمان الكفار.

وقرأ عليٌّ وابن عباس: «أفلم يَتَبَيَّن الذين آمنوا»[٨] من البيان. قال القُشَيْريُّ: وقيل لابن عباس: المكتوبُ: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ﴾ قال: أظنُّ الكاتبَ كتبها وهو ناعِس[٩]،

---

(١) مجاز القرآن ١/ ٣٣٢ برواية: يأسرونني (وسيذكرها المصنف)، وقد نسبه لسُحيم بن وَثيل، وكذلك نسبه لسحيم الطبري ١٣/ ٥٣٥، وابن منظور في اللسان (يئس)، وقال ابن منظور: وذكر بعض العلماء أنه لولده جابر بن سحيم. اهـ.ولم نقف على مَن نسبه لمالك بن عوف.

(٢) قال ابن منظور في اللسان يئس: كان وقع عليه سباء، فضربوا عليه بالميسر يتحاسبون على قِسْمة فدائه، وينظر تفسير الطبري ١٣/ ٥٣٥.

(٣) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٥٣٥، واللسان (يئس). وقد سلف البيت ٣/ ٤٣٦ برواية: ييسرونني.

(٤) قوله: أنا، من (ظ) والمصادر.

(٥) النكت والعيون ٣/ ١١٣، وذكره أبو الليث ٢/ ١٩٤ من أجوبة ابن عباس على سؤالات نافع بن الأزرق منسوباً لمالك بن عوف، وهو بلا نسبة في تفسير الطبري ١٣/ ٥٣٦، وأساس البلاغة (يئس).

(٦) من قوله: في كتاب الرد، إلى هذا الموضع ليس في (ظ).

(٧) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٩٩ ونسب القول للكسائي، وينظر معاني القرآن للفراء ١/ ٦٣ - ٦٤.

(٨) القراءات الشاذة ص٦٧، والمحتسب ١/ ٣٥٧.

(٩) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٣٧ من طريق عكرمة عن ابن عباس.

أي: زاد بعضَ الحروف حتى صار ﴿يَاْئِيَسِ﴾.

قال أبو بكر الأنباريُّ: روى عِكرمة عن ابن عباس[١] أنه قرأ: «أفلم يتبيَّن الذين آمنوا» وبها احتجَّ مَن زعم أنه الصوابُ في التلاوة، وهو باطلٌ عن ابن عباس؛ لأنَّ مجاهداً وسعيد بن جُبَير حَكَيا الحرفَ عن ابن عباس على ما هو في المصحف بقراءة أبي عمرو وروايتِه عن مجاهد وسعيد بن جُبَير عن ابن عباس. ثم إن معناه: أفلم يتبيَّن، فإن كان مرادُ الله تحت اللفظة التي خالفوا بها الإجماعَ فقراءتُنا تقع عليها، وتأتي بتأويلها. وإن أراد الله المعنى الآخَرَ ـ الذي اليأسُ فيه ليس من طريق العلم ـ فقد سَقَط ممَّا أوردوا، وأمَا سقوطُه يُبْطِل القرآن، ويلزم[٢] أصحابه البهتان.

﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ «أَنْ» مخفَّفة من الثقيلة، أي: أنه لو يشاء الله لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً﴾ وهو يردُّ على القَدَرية وغيرهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ أي: داهيةٌ تَفْجَؤُهم بكُفْرهم وعتوِّهم؛ ويقال: قرعه أمرٌ: إذا أصابه، والجمعُ: قَوارِع؛ والأصل في القَرْع: الضَّرب؛ قال:

أَفْنَى تِلَادِي وَمَا جَمَّعْتُ مِن نَشَبٍ ... قَرْعُ الْقَوَاقِيزِ أَفْوَاهَ الأَبَارِيقِ[٣]

أي: لا يزال الكافرون تصيبهم داهيةٌ مُهْلِكةٌ؛ من صاعقة كما أصاب أَرْبَد[٤]،

---

(١) وقع في (د) و(ز) و(م): ابن أبي نجيح، بدل: ابن عباس، والمثبت من (ظ)، وينظر التعليق السابق.

(٢) في (د) و(ز) و(م): ولزوم.

(٣) البيت للأُقَيْشر الأسدي كما في الأغاني ١١/ ٢٧٦، واللسان (قفز)، وبلا نسبة في إصلاح المنطق ص٣٧٢، والمقتضب ١/ ٢١، والإنصاف ١/ ٢٣٣. قوله: تلادي، التلاد: المال الذي له أصل عند صاحبه مما جمع أبوه وغيره له، والنَّشَب: المال، والقواقيز: آنية من آنية الشراب. يقول: أفنى مالي كثرة شربي وإنفاقي فيه. ويجوز في أفواه الأباريق الرفع على أنه فاعل للمصدر «قَرْع» والقواقيز مفعولة، والنصب على أنه مفعول والقواقيز فاعلة. ينظر شرح أبيات إصلاح المنطق للسيرافي ص٥٤١.

(٤) سلفت قصته ص٣٦-٣٧ من هذا الجزء.

أو من قتلٍ أو أسرٍ أو جَدْبٍ، أو غير ذلك من العذاب والبلاء، كما نزل بالمستهزئين، وهم رؤساء المشركين.

وقال عِكرِمة عن ابن عباس: القارعة: النكبة[١].

وقال ابن عباس أيضاً وعكْرمة: القارعة: الطلائعُ والسرايا التي كان يُنفِذُها رسول الله ﷺ لهم[٢].

﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ أي: القارعة ﴿قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ قاله الحسن[٣]. وقال ابن عباس: أو تَحُلُّ أنت قريباً من دارهم[٤].

وقيل: نزلت الآية بالمدينة؛ أي: لا تزال تصيبهم القوارعُ، فتنزل بساحتهم، أو بالقرب منهم، كَقُرى المدينة ومكة، ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ في فتح مكة؛ قاله مجاهد وقتادة[٥].

وقيل: نزلت بمكة، أي: تصيبهم القوارع، أو تخرج[٦] عنهم إلى المدينة يا محمد، فتحلُّ قريباً من دارهم، أو تحلُّ بهم محاصراً لهم؛ وهذه المحاصرةُ لأهل الطائف، ولقِلاع خَيْبَر، أو يأتي[٧] وعدُ الله بالإذن لك في قتالهم وقَهْرِهم. وقال الحسن: وعدُ الله: يوم القيامة[٨].

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٩٩ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ١١٣ عن عكرمة، وأخرجه عن ابن عباس الطبري ١٣/ ٥٤١ .

(٣) في (د) و(ز) و(م): قاله قتادة والحسن، والمثبت من (ظ)، وأخرجه الطبري ١٣/ ٥٤٣ من طريق قتادة عن الحسن.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٤٠ ، وأخرجه أيضاً عن عكرمة ومجاهد وابن أبي نجيح وسعيد بن جبير وقتادة.

(٥) أخرج عنهما الطبري ١٣/ ٥٤٠ - ٥٤٣ .

(٦) في (م): وتخرج.

(٧) في (د) و(ز) و(م): ويأتي.

(٨) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٤٤ .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ تقدَّم معنى الاستهزاءِ في «البقرة»، ومعنى الإملاء في «آل عمران»[(١)]. أي: سُخِر بهم، وأُزرِيَ عليهم، فأمهلتُ الكافرين مدةً ليؤمنَ مَن كان في عِلْمي أنه يؤمن منهم، فلمَّا حقَّ القضاء أخذتُهم بالعقوبة. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: فكيف رأيتَ ما صنعتُ بهم، فكذلك أصنع بمشركي قومك.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ليس هذا القيامُ القيامَ الذي هو ضدُّ القعود، بل هو بمعنى: التولِّي لأمور الخَلْق، كما يقال: قام فلانٌ بشُغْل كذا. فالله[(٢)] قائمٌ على كلِّ نفس بما كسبت، أي: يُقْدِرُها على الكسب، ويخلقها ويرزقها ويحفظها ويجازيها على عملها، فالمعنى: أنه حافظٌ لا يغفل، والجوابُ محذوف، والمعنى: أفمن هو حافظٌ لا يغفل؛ كمن يغفل؟

وقيل: «أفَمَن هو قائمٌ» أي: عالم؛ قاله الأعمش[(٣)]. قال الشاعر:

فلولا رِجالٌ من قريشٍ أعِزَّةٌ سَرَقْتُمْ ثيابَ البيتِ واللهُ قائمُ[(٤)]

---

(١) في البقرة ١/ ٣١٤، وفي آل عمران ٥/ ٤٣٢.

(٢) في (م): فإنه.

(٣) في (ظ): الأخفش، وذكر هذا القول الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١١٤ دون نسبة.

(٤) النكت والعيون ٣/ ١١٤ دون نسبة، وهو في الشعر والشعراء ٢/ ٦٤٦، وأمالي اليزيدي ص٩٦ عن خداش بن زهير برواية: والبيت قائم. وفي الشعر والشعراء: من علي، بدل: من قريش؛ قال ابن قتيبة: يقال لبني كنانة بنو علي.

أي: عالم؛ فالله عالمٌ بكسب كلِّ نفس.

وقيل: المراد بذلك الملائكةُ الموكَّلون ببني آدم؛ عن الضحاك[١].

﴿وَجَعَلُوا﴾ حال، أي: وقد[٢] جعلوا، أو عطفٌ على «اسْتُهْزِئَ» أي: استهزؤوا وجعلوا، أي: سَمَّوا ﴿لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ يعني أصناماً جعلوها آلهة ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي: قل لهم يا محمد: «سَمُّوهُمْ» أي: بيِّنوا أسماءهم؛ على جهة التهديد[٣]، أي: إنما يسمَّوْن: اللّات والعُزَّى ومَنَاة وهُبَل.

﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ «أم» استفهامُ توبيخ، أي: أتنبِّئونه، وهو على التحقيق عطفٌ على استفهامٍ متقدِّم في المعنى؛ لأن قوله: «سَمُّوهُمْ» معناه: أَلَهُمْ أسماءُ الخالقين ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؟.

وقيل: المعنى قل لهم: أتنبِّئون الله بباطنٍ لا يعلمه، أَمْ بِظَاهِرٍ[٤] يعلمه؟ فإن قالوا: بباطنٍ لا يعلمه؛ أحالوا[٥]، وإن قالوا: بظاهر يعلمه؛ فقل لهم: سمُّوهم، فإذا سمَّوْهم اللّاتَ والعُزَّى، فقل لهم: إن الله لا يعلم لنفسه شريكاً.

وقيل: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ أي: أفمن هو قائم، أم تُنبِّئون الله بما لا يعلم، أي: أنتم تَدَّعون لله شريكاً، والله لا يعلم لنفسه شريكاً، أفتنبِّئونه بشريكٍ له في الأرض وهو لا يعلمه! وإنما خَصَّ الأرضَ بنفيِ الشريك عنها وإن لم يكن له شريكٌ في غير الأرض؛ لأنهم ادَّعوا له شركاءَ في الأرض.

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١١٤ .

(٢) في (د) و(ز): قد، وفي (م): أو قد، والمثبت من (ظ).

(٣) ينظر النكت والعيون ٣/ ١١٤ ، وتفسير الرازي ١٩/ ٥٦ ، قال الرازي: فكأنه تعالى قال: سمُّوهم بالآلهة، على سبيل التهديد، والمعنى: سواء سمَّيتموهم بهذا الاسم أو لم تسمُّوهم به فإنها في الحقارة بحيث لا تستحق أن يلتفت العاقل إليها.

(٤) بعدها في (م): من القول.

(٥) أحال: أتى بالمحال وتكلم به. معجم متن اللغة (حول).

ومعنى: ﴿أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ﴾ أي: أم بظَنٍّ من القول؛ عن مجاهد[(١)]. وقيل: أم بظاهرٍ من القول[(٢)] الذي أنزل الله على أنبيائه. وقال قَتَادة: معناه: أم[(٣)] بباطل من القول؛ ومنه قولُ الشاعر:

أَعَيَّرْتَنَا أَلْبَانَهَا ولُحُومَهَا وذلِك عارٌ يا ابن رَيْطَةَ ظاهِرُ[(٤)]

أي: باطل. وقال الضَّحَّاك: بكَذِبٍ من القول. ويحتمل خامساً: أن يكون الظاهرُ من القول حجَّةً يُظهرونها بقولهم، ويكون معنى الكلام: أتُخبِرونه بذلك مُشاهِدين، أم تقولون محتجِّين[(٥)].

﴿بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ﴾ أي: دع هذا! بل زُيِّن للذين كفروا مكرُهم؛ قيل: استدراكٌ على هذا الوجه، أي: ليس لله شريك، لكنْ زُيِّن للذين كفروا مكرُهم.

وقرأ ابن عباس ومجاهد: «بل زَيَّنَ لِلَّذِينَ كَفَروا مَكرُهُم»[(٦)] مُسَمَّى الفاعل. وعلى قراءة الجماعة، فالذي زَيَّن للكافرين مكرَهم اللهُ تعالى، وقيل: الشيطان. ويجوز أن يُسمَّى الكفر مكراً؛ لأنَّ مكرهم بالرسول كان كفراً.

﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾ أي: صدَّهم الله، وهي قراءةُ حمزةَ والكسائي[(٧)]. الباقون بالفتح، أي: صَدُّوا غيرَهم، واختاره أبو حاتم، اعتباراً بقوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٢٥]، وقوله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٤٩، وهو في تفسير مجاهد ١/ ٣٢٩.

(٢) من قوله: أي أم بظن، إلى هذا الموضع من (ظ).

(٣) قوله: أم، من (ظ)، والخبر أخرجه الطبري ١٣/ ٥٤٩، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١١٤.

(٤) قائله سَبْرةُ بن عمرو الفَقْعَسي، كما في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ٢٣٨، والخزانة ٩/ ٥٠٤ وهو في النكت والعيون ٣/ ١١٤ بلا نسبة. ويخاطب الشاعر ضمرة بن ضمرة النهشلي وقد عيَّره كثرة إبله، كما ذكر المرزوقي.

(٥) النكت والعيون ٣/ ١١٥.

(٦) القراءات الشاذة ص٦٧.

(٧) وقرأ بها أيضاً من السبعة عاصم. السبعة ص٣٥٩، والتيسير ص١٣٣.

[الفتح:٢٥]. وقراءةُ الضم أيضاً حسنةٌ في «زُيِّن» و«صُدُّوا»؛ لأنه معلومٌ أنَّ الله فاعلُ ذلك في مذهبِ أهل السنَّة، ففيه إثباتُ القَدَر، وهو اختيار أبي عبيد.

وقرأ يحيى بنُ وثَّاب وعلقمة: «وصِدُّوا» بكسر الصاد[١]، وكذلك: «هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رِدَّتْ إِلَيْنَا» [يوسف:٦٥]، بكسر الراء وهي[٢] أيضاً على ما لم يُسمَّ فاعلُه، وأصلُهما: صُدِدُوا ورُدِدَتْ، فلمَّا أُدغمت الدال الأولى في الثانية نُقِلت حركتها إلى[٣] ما قَبْلَها فانكسر[٤].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ بخذلانه. ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ أي: موفِّق، وفي هذا إثباتُ قراءةِ الكوفيين ومَن تابَعَهم؛ لقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾، فكذلك قوله: ﴿وَصُدُّواْ﴾.

ومعظَمُ القُرَّاء يقفون على الدَّال من غير الياء، وكذلك ﴿وَالٍ﴾ [الآية:١١] و﴿وَاقٍ﴾ [الآية:٣٤-٣٧][٥]؛ لأنك تقول في الرجل: هذا قاضٍ ووالٍ وهادٍ، فتحذف الياء لسكونها والتقائها مع التنوين.

وقُرئ: «فَمَا لَهُ مِنْ هَادي» و«وَالي» و«وَاقي» بالياء؛ وهو على لغة مَن يقول: هذا داعي ووالي وواقي، بالياء؛ لأن حذف الياء في حالة الوَصْل لالتقائها مع التنوين، وقد أَمِنَّا هذا في الوقف، فرُدَّت الياء، فصار: هادي ووالي وواقي[٦]. وقال الخليل[٧] في نِداء قاضٍ: يا قاضي، بإثبات الياء؛ إذ لا تنوينَ مع النداء، كما لا تنوينَ في نحوِ: الدَّاعي والمُتعالي.

(١) القراءات الشاذة ص٦٧، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٥٨ كلاهما عن يحيى بن وثاب وحده.

(٢) قوله: وهي، من (ز) و(ظ) و(ف)، والقراءة في المحتسب ١/ ٣٤٥.

(٣) في (د) و(ز) و(ف) و(م): على.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٥٨.

(٥) وهي قراءة السبعة ما عدا ابن كثير، فقد قرأ بها بالتنوين في الوصل، فإذا وقف وقف بالياء. السبعة ص٣٦٠، والتيسير ص١٣٣.

(٦) الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٢١. وقال مكي: والحذف والإثبات لغتان للعرب، والحذف أكثر.

(٧) قوله في الكتاب ٤/ ١٨٤.

قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: للمشركين الصَّادِّين، بالقتل والسَّبي والإسار[١]، وغيرِ ذلك من الأسقام والمصائب ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ أي: أشدُّ؛ من قولك: شَقَّ عليَّ كذا يَشُقُّ. ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ أي: مانعٍ يمنعهم من عذابه ولا دافع. و«مِن» زائدة.

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥)﴾

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ اختلف النحاة في رفع «مَثَلُ»، فقال سيبويه: ارتفع بالابتداء والخبر محذوف، والتقدير: وفيما يتلى عليكم مَثَلُ الجنة[٢].

وقال الخليل: ارتفع بالابتداء، وخبره: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: صفةُ الجنة التي وُعِد المتقون تجري من تحتها الأنهار[٣]، كقولك: قَوْلي يقوم زيد، فقولي مبتدأ، ويقوم زيد خبره، والمَثَل بمعنى الصفة موجود؛ قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠] أي: الصفةُ العليا. وأنكره أبو عليٍّ وقال: لم يُسمع مَثَل بمعنى الصِّفة، إنما معناه الشَّبَه، ألا تَراه يَجري مَجراه في مواضعه ومتصرَّفاته، كقولهم: مررت برجل مثلِك؛ كما تقول: مررت برجل شِبْهِك. قال: ويَفْسُد أيضاً من جهة المعنى؛ لأن مَثَلاً إذا كان معناه صفةً، كان تقدير الكلام: صفةُ الجنة التي فيها أنهار، وذلك غيرُ مستقيم؛ لأنَّ الأنهار في الجنة نفسِها لا صفتِها.

وقال الزجَّاج[٤]: مَثَّلَ الله عزَّ وجلَّ لنا ما غاب عنَّا بما نراه، والمعنى: مَثَلُ

---

(١) في (ظ): والأسر.

(٢) الكتاب ١/ ١٤٣، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٤٩، والكشف عن وجوه القراءات ١/ ٣٩٨، وعنه نقل المصنف. واختاره أبو علي الفارسي كما في مجمع البيان ١٣/ ١٨٢.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٥٠١، وذكر الزجاج في معاني القرآن ٣/ ١٤٩ هذا القول دون نسبة إثر قول سيبويه، ثم قال: وكِلَا القولين حسن جميل.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ١٥٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٣/ ٥٠١، وما سيرد بين حاصرتين منهما.

الجنة [التي وُعد المتقون] جَنَّةٌ تجري من تحتها الأنهار. وأنكره أبو عليٍّ فقال: لا يخلو المَثَل على قوله أن يكون الصفةَ أو الشَّبَه، وفي كلا الوجهين لا يصِحُّ ما قاله؛ لأنه إذا كان بمعنى الصفة لم يصحَّ؛ لأنك إذا قلتَ: صفةُ الجنَّة جنَّةٌ، فجعلتَ «جنةٌ»(١) خبراً لم يَستقِم ذلك؛ لأنَّ الجنة لا تكون الصفة(٢)، وكذلك أيضاً: شَبَهُ الجنة جنة، ألا ترى أنَّ الشَّبه عبارةٌ عن المماثلة التي بين المتماثلين، وهو حَدَث، والجنّة غيرُ حَدَث، فلا يكون الأول الثاني(٣).

وقال الفرَّاء: المَثَل مُقْحَم للتأكيد، والمعنى: الجنَّة التي وُعِد المتقون تجري من تحتها الأنهار، والعرب تفعل ذلك كثيراً بالمَثَل والمِثْل(٤)، كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] أي: ليس كهو شيء(٥).

وقيل: التقدير: صفةُ الجنة التي وُعِد المتقون صفةُ جنَّةٍ تَجْري مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ.

وقيل: معناه: شَبَهُ الجنة التي وُعد المتقون في الحُسْن والنعمة والخلود كشَبَه النار في العذاب والشدَّة والخلود؛ قاله مقاتل.

﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ لا ينقطع، وفي الخبر: «إذا أُخذت ثمرةٌ عادت مكانَها أخرى»، وقد بيَّنَّاه في «التذكرة»(٦). ﴿وَظِلُّهَا﴾ أي: وظلُّها كذلك، فحذف، أي: ثمرُها لا ينقطع وظلُّها لا يزول، وهذا ردٌّ على الجَهْمِيَّة في زعمهم أنَّ نعيم الجنة يزول

---

(١) في (م): الجنة.

(٢) في (ظ): صفة.

(٣) ينظر البحر المحيط ٥/ ٣٩٦ ، والدر المصون ٧/ ٥٩ .

(٤) قوله: والمثل، من (د) و(ز) و(ف)، وهو موافق لما في البحر ٥/ ٣٩٦ ، والكلام فيه.

(٥) في (د) و(ز) و(م): ليس هو كشيء، والمثبت من (ظ) و(ف) والبحر. وذكر الكلام بنحوه عن الفراءِ مكي في مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٩٨ - ٣٩٩ . قال أبو حيان: وإقحام الأسماء لا يجوز.

(٦) ص٤٥٢ ، وأخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٩٧ ، والطبري ١/ ٤٠٦ - ٤٠٧ ، وأبو نعيم في صفة الجنة (٣١٥) من طريق أبي عبيدة عن مسروق. وأخرجه ابن المبارك في الزهد (١٤٨٩) و(١٤٩٠)، وهناد في الزهد (١٠٣)، والطبري ١/ ٤٠٩ عن أبي عبيدة، وهو عامر بن عبد الله بن مسعود ﷺ.

ويفنى[١]. ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ أي: عاقبةُ أَمْرِ المكذِّبين وآخرتُهم النارُ يَدخلونها.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: بعضُ مَنْ أُوتيَ الكتاب يفرح بالقرآن، كابن سَلَام وسَلْمان، والذين جاؤوا من الحبشة، فاللفظُ عامٌّ والمرادُ الخصوص. وقال قَتَادة: هم أصحابُ محمدٍ ﷺ يفرحون بنور القرآن. وقاله مجاهد وابن زيد[٢]. وعن مجاهد أيضاً: أنهم مؤمنو أهلِ الكتاب[٣]. وقيل: هم جماعةُ أهل الكتاب من اليهود والنصارى، يفرحون بنزول القرآن لتصديقه كُتُبَهم[٤].

وقال أكثر العلماء: كان ذِكْرُ الرحمن في القرآن قليلاً في أوّل ما أُنزِل، فلمَّا أسلم عبد الله بنُ سَلَام وأصحابُه؛ ساءهم قِلَّة ذِكْر الرحمن في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة، فسألوا النبيَّ ﷺ عن ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الإسراء: ١١٠]، فقالت قريش: ما بالُ محمدٍ يدعو إلى إلهٍ واحد، فأصبح اليوم يدعو إلى[٥] إلهين؛ الله والرحمن؟! واللهِ ما نعرف الرحمن إلَّا رحمانَ اليمامة ـ يعنُون مُسَيْلِمَةَ الكذَّاب ـ فنزلت: ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢١.

(٢) النكت والعيون ٣/ ١١٦ عن قتادة وابن زيد، وأخرج قول قتادة الطبري ١٣/ ٥٥٦.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١١٦.

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١١٦ عن ابن عيسى. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣١٦: ويضعَّفُ هذا التأويلُ بأنَّ همَّهم به أكثر من فرحهم، ويضعَّف أيضاً بأن اليهود والنصارى ينكرون بعضه، وقد فرق الله في هذه الآية بين الذين ينكرون بعضه، وبين الذين آتيناهم الكتاب.

(٥) قوله: إلى، من (ظ).

كَٰفِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٦]، ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠]، ففرح مؤمنو أهل الكتاب بذكر الرحمن، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾[1].

﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ يعني مشركي مكةَ، ومَن لم يؤمن من اليهود والنصارى؛ قال قتادة والحسن ومجاهد: الأحزاب: اليهود والنصارى[2] والمجوس. وقيل: هم العرب المُتحزِّبون على النبيِّ ﷺ. وقيل: ومِن أعداء المسلمين مَن ينكر بعضَ ما في القرآن؛ لأنَّ فيهم مَن كان يعترف ببعض الأنبياء، وفيهم مَن كان يعترف بأن الله خالقُ السماوات والأرض.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ قراءة الجماعة بالنصب عطفاً على «أعْبُدَ». وقرأ أبو خليد[3] بالرفع على الاستئناف، أي: أُفرِدُه بالعبادة وحده لا شريك له، وأتبرَّأُ عن المشركين ومَن قال: المسيحُ ابنُ الله وعزيرٌ ابن الله، ومَن اعتقد التشبيه كاليهود. ﴿إِلَيْهِ أَدْعُواْ﴾ أي: إلى عبادته أدعو الناس ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ أي: أرجع في أموري كلِّها.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أي: وكما أنزلنا عليك القرآن فأنكره بعضُ الأحزاب، كذلك أنزلناه حكماً عربياً، وإنما وَصَفَه بذلك لأنه أنزله على محمد ﷺ،

---

(١) الوسيط ٣/ ١٨، وتفسير البغوي ٣/ ١٩ و ٢٢، وينظر ما سلف ٩/ ٣١٨.

(٢) قوله: قال قتادة والحسن ومجاهد الأحزاب اليهود والنصارى، من (ظ)، وذكر قولهم الطبرسي في مجمع البيان ١٣/ ١٨٢ - ١٨٣.

(٣) في (د) و(م): أبو خالد، وفي (ظ): أبو جليد، والمثبت من (ز) و(ف) والكشاف ٢/ ٣٦٢ وفيه ذكر القراءة. وأبو خليد هو عتبة بن حماد الحكمي الدمشقي، روى القراءة عن نافع وله عنه نسخة. طبقات القراء ١/ ٤٩٨. وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٧، وتحرف فيه: خليد، إلى خليل.

وهو عربيٌّ، فكذَّب الأحزابُ بهذا الحكم أيضاً. وقيل: نَظْمُ الآية: وكما أنزلنا الكتب على الرُّسُل بلغاتهم، كذلك أنزلنا إليك القرآن حُكْماً عربياً[١]، أي: بلسان العرب. ويريد بالحكم: ما فيه من الأحكام. وقيل: أراد بالحكم العربيِّ القرآنَ كلَّه؛ لأنه يفصِل بين الحق والباطل ويَحْكُم.

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ أي: أهواءَ المشركين في عبادة ما دونَ الله، وفي التوجُّه[٢] إلى غير الكعبة ﴿بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ أي: ناصر ينصرك ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ يمنعك من عذابه، والخطاب للنبيِّ ﷺ، والمرادُ الأُمَّة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قيل: إن اليهود عابوا على النبيِّ ﷺ الأزواج، وعَيَّرتْه[٣] بذلك وقالوا: ما نرى لهذا الرجل همَّةً إلا النِّساءَ والنكاح، ولو كان نبيًّا لشغله أمر النبوَّة عن النِّساء، فأنزل الله هذه الآية[٤]، وذكَّرهم أمرَ داودَ وسليمانَ فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ أي: جعلناهم بشراً يقضُون ما أحلَّ الله من شهوات الدنيا، وإنما التخصيصُ في الوحي.

الثانية: هذه الآية تدلُّ على الترغيب في النكاح والحضِّ عليه، وتَنْهَى عن التَّبَتُّل، وهو تركُ النكاح، وهذه سنَّة المرسلين كما نصَّت عليه هذه الآية، والسنَّةُ واردةٌ بمعناها؛ قال ﷺ: «تزوَّجوا، فإنِّي مُكَاثِرٌ[٥] بكم الأمم» الحديث. وقد تقدَّم في «آل

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٢.

(٢) في (م): التوجيه.

(٣) في (ظ): وعيروه.

(٤) أسباب النزول للواحدي ص٢٧٩ عن الكلبي.

(٥) في (ظ): مباه.

عمران»[١]، وقال: «مَن تزوَّجَ فقد استكمل نِصْفَ الدِّين، فلْيتَّقِ الله في النِّصْفِ الثاني»[٢]. ومعنى ذلك أنَّ النكاح يُعِفُّ عن الزنى، والعَفافُ أحدُ[٣] الخَصْلَتين اللتين ضَمِن رسول الله ﷺ عليهما الجنةَ، فقال: «مَن وَقَاه الله شرَّ اثنتين وَلَجَ الجنَّة، ما بين لَحْيَيْه وما بين رجليه» خرَّجه «الموطَّأ» وغيره[٤].

وفي «صحيح» البخاري[٥] عن أنس قال: جاء ثلاثةُ رَهْطٍ إلى بيوتِ أزواجِ النبيِّ ﷺ يسألون عن عبادة النبيِّ ﷺ، فلمَّا أُخبروا كأنهم تَقَالُّوها فقالوا: وأين نحن من النبيِّ ﷺ؟! قد غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر. فقال أحدهم: أمَّا أنا، فإنِّي أُصلِّي الليل أبداً، وقال الآخر: أنا[٦] أصومُ الدهر، فلا أُفطر. وقال الآخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوَّج، فجاء رسول الله ﷺ[٧] فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أمَا والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأُفطر، وأصلِّي وأرْقُد، وأتزوَّج النساء، فمن رَغِبَ عن سنَّتي فليس منِّي». خرَّجه مسلم بمعناه[٨]، وهذا أبْيَن.

وفي «صحيح» مسلم عن سعد بن أبي وقَّاص قال: أراد عثمان أن يتبتَّل، فنهاه

(١) ٥/ ١١٠ - ١١١ من حديث عائشة ومعقل بن يسار رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٦٤٣) و(٨٧٨٩)، والبيهقي في الشعب (٥٤٨٦)، والخطيب في موضح أوهام الجمع والتفريق ٢/ ٦٨، وابن الجوزي في العلل المتناهية (١٠٠٥) عن أنس ﷺ. وأخرجه الحاكم ٢/ ١٦١ بلفظ: «مَن رَزَقَه الله امرأةً صالحةً فقد أعانه على شَطْر دينه، فليتَّق الله في الشطر الثاني». وينظر التلخيص الحبير ٣/ ١١٧، وفيض القدير ٦/ ١٣٧.

(٣) في (ظ): إحدى.

(٤) الموطأ ٢/ ٩٨٧ - ٩٨٨ عن عطاء بن يسار عن النبي ﷺ مرسلاً، وأخرجه أحمد (٢٣٠٦٥) عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ عن النبي ﷺ مطولاً. ويشهد له حديث سهل بن سعد ﷺ عند أحمد (٢٢٨٢٣)، والبخاري (٦٤٧٤)، ولفظه عند البخاري: «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة».

(٥) برقم (٥٠٦٣). وسلف ٨/ ١١٦.

(٦) في (ظ): أما أنا، وفي (ف) و(م): إني، والمثبت من (د) و(ز) وصحيح البخاري.

(٧) بعدها في (ف) و(م): إليهم.

(٨) صحيح مسلم (١٤٠١).

النبيُّ ﷺ، ولو أجاز له ذلك لاخْتَصَيْنَا[1]. وقد تقدَّم في «آل عمران»[2] الحضُّ على طلب الولد، والردُّ على مَن جَهِل ذلك.

وقد رُويَ عن عمرَ بنِ الخطاب ﷺ أنه كان يقول: إني لَأتزوَّجُ المرأة وما لي فيها من حاجة، وأَطَؤُها وما أشتهيها، فقيل له: وما يَحمِلك على ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: حبِّي أن يُخرِجَ الله منِّي مَن يُكاثِر به النبيُّ ﷺ النبيين يوم القيامة، وإنِّي سمعته يقول: «عليكم بالأبكار، فإنهنَّ أَعْذبُ[3] أفواهاً، وأحسنُ أخلاقاً، وأَنْتَقُ أرحاماً، وإنِّي مُكاثرٌ بكم الأممَ يوم القيامة»[4]. يعني بقوله: «أنتقُ أرحاماً» أَقْبَلُ للولد، ويقال للمرأة الكثيرة الولد: ناتِق؛ لأنها ترمي بالأولاد رمياً[5].

وخرَّج أبو داود[6] عن مَعْقِل بن يَسَار قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إنِّي أصبتُ امرأةً ذاتَ حَسَبٍ وجمال، وإنَّها لا تَلِد، أفأتزوَّجُها؟ قال: «لا». ثم أتاه الثانيةَ، فنهاه، ثم أتاه الثالثةَ، فقال: «تزوَّجوا الودود الولود، فإنِّي مُكَاثِرٌ بكم الأمم». صحَّحه أبو محمد عبدُ الحقِّ[7] وحَسْبُك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ عاد الكلام إلى ما اقترحوا من الآيات مما[8] تقدَّم ذكره في هذه السورة، فأنزل الله ذلك فيهم، وظاهرُ

---

(١) صحيح مسلم (١٤٠٢): (٨) وسلف ٥/ ١١٠ و ٨/ ١١٧ ، وعثمان المذكور: هو ابنُ مظعون.

(٢) ٥/ ١١٠ .

(٣) في (ظ): أطيب.

(٤) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج ابن أبي شيبة ٤/ ٢١٦ نحوه عن عمر موقوفاً وإسناده ضعيف لانقطاعه. وأخرجه مرفوعاً ابن ماجه (١٨٦١) من طريق عبد الرحمن بن سالم بن عتبة بن عويم بن ساعدة الأنصاري، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ. وهو حديث ضعيف لاضطراب إسناده، وجهالة عبد الرحمن ابن سالم كما ذكر الحافظ في الإصابة ٦/ ٣٧٨ - ٣٧٩ ، وينظر مصباح الزجاجة ١/ ٣٢٦ - ٣٢٧ .

(٥) تهذيب اللغة ٩/ ٦١ .

(٦) في سننه (٢٠٥٠)، وسلف ٥/ ١١١ .

(٧) في الأحكام الصغرى ٢/ ٦٠٦ .

(٨) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: ما.

الكلام حَظْرٌ ومعناه النفي؛ لأنه لا يُحظَر على أحدٍ ما لا يقدِر عليه.

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي: لكلِّ أمرٍ قضاه الله كتابٌ عند الله؛ قاله الحسن[(١)]. وقيل: فيه تقديمٌ وتأخير، المعنى: لكلِّ كتابٍ أجلٌ؛ قاله الفراء والضّحاك[(٢)]، أي: لكلِّ أمر كتبه الله أجلٌ مؤقَّت، ووقتٌ معلوم، نظيرُه: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام:٦٧]. بيَّن أنَّ المراد ليس على اقتراح الأمم في نزول العذاب، بل لكلِّ أجلٍ كتاب[(٣)]. وقيل: المعنى: لكلِّ مدة كتابٌ مكتوبٌ وأمرٌ مقدَّر لا تقف عليه الملائكة.

وذكر الترمذيُّ الحكيم في «نوادر الأصول» عن شَهْر بنِ حَوْشَب، عن أبي هريرة قال: لمَّا ارتقى موسى صلوات الله عليه وسلامه طُورَ سَيناء، رأى الجَبَّارُ في أصبعه خاتماً، فقال: يا موسى ما هذا؟ وهو أعلم به، قال: شيءٌ من حُلِيِّ الرجال، قال: فهل عليه شيءٌ من أسمائي مكتوبٌ أو كلامي؟ قال: لا، قال: فاكتب عليه ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[(٤)].

قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ أي: يمحو من ذلك الكتابِ ما يشاء أن يُوقِعَه بأهله ويأتي به، «وَيُثْبِتُ» ما يشاء، أي: يُؤَخِّره إلى وقته، يقال: محوتُ الكتاب مَحْواً، أي: أذهبت أثره. «وَيُثْبِتُ» أي: ويُثْبِته، كقوله: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب:٣٥]، أي: والذاكرات اللهَ.

---

(١) ذكر الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٧ هذا القول عن الطبري، وذكر عن الحسن قوله: لكلِّ أجلٍ من آجال الخَلْق كتابٌ عند الله.

(٢) أخرجه عن الضحاك الطبري ١٣/ ٥٥٨ - ٥٥٩ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٥٥٩ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٦٥ .

(٣) ينظر تفسير الرازي ١٩/ ٦٤ . وقال الرازي: فالآيات التي سألوها لها وقتٌ معيَّن حَكَم الله به، وكتبه في اللوح المحفوظ، فلا يتغير عن ذلك الحكم بسبب تحكّماتهم الفاسدة.

(٤) لم نقف عليه في المطبوع من نوادر الأصول، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٣/ ١١٨ له، وشهر بن حوشب قال عنه الحافظ في التقريب: صدوق كثير الإرسال والأوهام.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم: ﴿وَيُثْبِتُ﴾ بالتخفيف، وشَدَّد الباقون(١)، وهي قراءة ابن عباس(٢)، واختيارُ أبي حاتم وأبي عبيد(٣) لكثرة مَن قرأ بها، ولقوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وقال ابن عمر: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «يمحو الله ما يشاء ويُثبت، إلَّا السعادةَ والشقاوةَ والموت»(٤).

وقال ابن عباس: يمحو الله ما يشاء ويُثْبِت إلا ستًّا(٥): الخَلْقَ والخُلُق، والأجل والرزق، والسعادة والشقاوة(٦). وعنه: هما كتابان؛ [كتابٌ] سوى أمِّ الكتاب يمحو الله منه(٧) ما يشاء ويُثْبِت، وعنده أُمُّ الْكتاب الذي لا يتغيَّر منه شيء.

قال القُشَيْريُّ: وقيل: السعادةُ والشَّقاوة، والخَلْق والخُلُق والرِّزق، لا تتغيَّر؛ فالآيةُ فيما عدا هذه الأشياء. وفي هذا القول نوعُ تحكُّم.

قلت: مثلُ هذا لا يُدرَك بالرأي والاجتهاد، وإنما يُؤخذ توقيفاً، فإن صحَّ فالقولُ به يجب، ويُوقف عنده، وإلَّا فتكون الآية عامَّةً في جميع الأشياء، وهو الأظهرُ، والله أعلم؛ وهذا يُروى معناه عن عمرَ بن الخطاب ﷺ وابنِ مسعود وأبي وائلٍ وكعب

---

(١) السبعة ص٣٥٩، والتيسير ص١٣٤.

(٢) ذكرها عنه النحاس في معاني القرآن ٣/ ٥٠٢.

(٣) ذكر اختيار أبي عبيد النحاس في معاني القرآن ٣/ ٥٠٣، ومكي في الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٢٣، وقال النحاس: على أن أبا حاتم قد أومأ إلى أنَّ معناهما واحد.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٩٤٦٨) وفيه: «...إلا الشِّقوة والسعادة والحياة والموت» بزيادة: «الحياة». قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٤٣: فيه محمد بن جابر اليمامي، وهو ضعيف من غيرِ تعمُّدِ كذب.

(٥) في (م): إلا أشياء.

(٦) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣٣٨، وعبد الله بن أحمد في السنة (٧٣١)، والطبري ١٣/ ٥٥٩ بلفظ: ...إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت.

(٧) في النسخ: منهما، والمثبت من تفسير البغوي ٣/ ٢٣، والكلام وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرجه الطبري ١٣/ ٥٦٢، والحاكم ٢/ ٣٤٩، وذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٠، وابن الجوزي ٤/ ٣٣٩.

الأحبار وغيرِهم، وهو قولُ الكلبيّ.

وعن أبي عثمان النَّهْديِّ: أنَّ عمرَ بنَ الخطاب ﷺ كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول: اللهم إن كنتَ كتبتني في أهل السعادة فأَثْبِتني فيها، وإن كنت كتبتني في أهل الشقاوة والذنبِ، فامحُني وأَثْبِتني في أهل السعادة والمغفرة، فإنك تمحو ما تشاء وتُثْبِت، وعندك أمُّ الكتاب[١].

وقال ابن مسعود: اللهمَّ إنْ كنتَ كتبتني في السعداء فأَثْبِتني فيهم، وإن كنت كتبتني في الأشقياء، فامحُني من الأشقياء واكتبني في السُّعَداء، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أمُّ الكتاب[٢].

وكان أبو وائل يُكْثر أن يدعو: اللهمَّ إن كنت كتبتنا أشقياء فامْحُ واكتبنا سعداء، وإن كنت كتبتنا سعداء فأَثْبِتنا، فإنك تمحو ما تشاء وتُثْبِت، وعندك أمُّ الكتاب[٣].

وقال كعب لعمرَ بنِ الخطاب: لولا آيةٌ في كتاب الله، لأنبأتك بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[٤].

وقال مالك بن دينار في المرأة التي دعا لها: اللهمَّ إن كان في بطنها جاريةٌ، فأبْدِلْها غلاماً، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أمُّ الكتاب. وقد تقدَّم[٥].

وفي[٦] الصحيحين عن أبي هريرةَ قال: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «مَن سَرَّه أن يُبْسَط له في رزقه، ويُنْسَأ له في أثَرِه، فلْيَصِلْ رَحِمَه»[٧]. ومثلُه عن أنس بن مالك، أنَّ

---

(١) أخرجه الدولابي في الكنى ١/ ١٥٥، والطبري ١٣/ ٥٦٤.

(٢) أخرجه مطولاً ابن أبي شيبة ١٠/ ٣٣١ - ٣٣٢، ومقطَّعاً الطبري ١٣/ ٤٦٤ و ٤٦٥.

(٣) أخرجه عبد الرزاق ٣/ ٣٣٨، والطبري ١٣/ ٥٦٣.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٦٥، والنكارة فيه ظاهرة.

(٥) ص٢١ من هذا الجزء.

(٦) في (د) و(م): في.

(٧) صحيح البخاري (٥٩٨٥)، ولم نقف عليه عند مسلم، وسلف ١٠/ ٢٠٢.

رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَحَبَّ»، فذكره بلفظه سواء[١]، وفيه تأويلان:

أحدُهما: معنوي، وهو ما يبقى بعده من الثناء الجميل والذِّكْر الحسن، والأَجْرِ المتكرِّر، فكأنه لم يمت.

والآخَر: يُؤخَّر أجلُه المكتوبُ في اللوح المحفوظ، والذي في علم الله ثابتٌ لا تبديل[٢] له، كما قال: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

وقيل لابن عباس لمَّا رَوَى الحديثَ الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَن أحبَّ أن يَمُدَّ اللهُ في عمرِه وأجَلِه، ويَبْسُط له في رِزْقه، فليتَّقِ اللهَ ولْيَصِلْ رَحِمَه»: كيف يُزاد في العمر والأجل؟ فقال: قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ [الأنعام: ٢]، فالأجلُ الأوَّلُ أجلُ العبد من حينِ ولادته إلى حين موته، والأجلُ الثاني - يعني المُسمَّى عنده - من حينِ وفاته إلى يوم يلقاه في البَرْزخ، لا يعلمه إلا الله، فإذا اتقى العبد ربَّه ووَصَل رَحِمه، زاده الله في أَجَلِ عمره الأولِ من أَجَل البَرْزخ ما شاء، وإذا عصى وقَطَع رَحِمَه، نَقَصَه الله من أَجَل عمره في الدنيا[٣] ما شاء، فيزيدُه في أَجَل البَرْزَخ، فإذا تحتَّم الأَجَلُ في علمه السابق، امتنع الزيادةُ والنقصان؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[٤] [النحل: ٦١]. فتَوافَقَ الخبر والآية. وهذه زيادةٌ في نَفْس العمر وذاتِ الأَجَل على ظاهر اللفظ، في اختيار حَبْر الأمة، والله أعلم.

وقال مجاهد: يُحْكِم الله أَمْرَ السَّنَة في رمضان، فيمحو ما يشاء ويُثْبت ما يشاء، إلَّا الحياةَ والموت، والشقاءَ والسعادة[٥]؛ وقد مضى القول فيه.

---

(١) صحيح البخاري (٥٩٨٦)، وصحيح مسلم (٢٥٥٧): (٢١)، وهو عند أحمد (١٣٥٨٥).

(٢) في النسخ عدا (ظ): لا تبدل، والمثبت من (ظ)، والمفهم ٦/ ٥٢٨، والكلام منه.

(٣) في (ظ): نقص الله من أجله في الدنيا.

(٤) أخرج المرفوع منه البزار (١٨٨٠ - كشف)، وفي أوله: «في التوراة مكتوب من أحب...». والطبراني في الكبير (١١٨٢٢)، ولم نقف على باقي الخبر، وذكر معناه ابن حجر في الفتح ٤/ ٣٠٢ عن الحكيم الترمذي وقال: أغرب الحكيم الترمذي فقال: المراد بذلك قلة البقاء في البرزخ.

(٥) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٦١ - ٥٦٢ بنحوه، وفيه: يقضي في ليلة القدر...

وقال الضَّحاك: يمحو الله ما يشاء من ديوان الحفَظَة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب، ويُثْبِت ما فيه ثواب وعقاب؛ وروى معناه أبو صالح عن ابن عباس[(١)].

وقال الكلبيُّ: يمحو من الرزق ويزيد فيه، ويمحو من الأجل ويزيد فيه، ورواه عن النبيِّ ﷺ[(٢)]. ثم سُئِل الكلبيُّ عن هذه الآية فقال: يكتب القول كلَّه، حتى إذا كان يومُ الخميس، طَرَح منه كلَّ شيء ليس فيه ثوابٌ ولا عقاب[(٣)]، مثل قولك: أكلت وشربت ودخلت وخرجت ونحوه، وهو صادق، ويُثْبت ما فيه الثواب والعقاب[(٤)].

وقال قَتَادة وابن زيد وسعيد بن جبير: يمحو الله ما يشاء من الشرائع والفرائض[(٥)]، فيَنْسخُه ويُبدِّله، ويُثْبت ما يشاء فلا ينسخه، وجملةُ الناسخ والمنسوخ عنده في أمِّ الكتاب. ونحوه ذكره النحاس والمهدويُّ عن ابن عباس؛ قال النحاس: وحدَّثنا بَكْر بن سهل، قال: حدَّثنا أبو صالح، عن معاويةَ بنِ صالح، عن عليِّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ يقول: يُبدِّل الله من القرآن ما يشاء فيَنْسخُه، ﴿وَيُثْبِتُ﴾ ما يشاء فلا يبدِّله، ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَٰبِ﴾ يقول: جملةُ ذلك عنده في أمِّ الكتاب؛ الناسخُ والمنسوخ[(٦)].

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١١٨ ، وزاد المسير ٤/ ٣٣٨ .

(٢) ذكره النحاس في معاني القرآن ٣/ ٥٠٢ . وأخرجه الطبري ١٣/ ٥٦٦ أيضاً عن أبي صالح قوله، وذكره عنه الحافظ في الفتح ١١/ ٣٠٩ بنحوه وقال: وهذا لو ثبت كان نصًّا في ذلك، ولكنه من رواية الكلبي، وهو ضعيف جدًّا.

(٣) أخرجه ابن سعد ٣/ ٥٧٤ ، والطبري ١٣/ ٥٦٥ - ٥٦٦ ، وابن عدي ٦/ ٢١٣١ من طريق الكلبي عن أبي صالح، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما مرفوعاً، وهذا إسناد ضعيف جداً.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٦٦ .

(٥) في (د) و(ز) و(م): من الفرائض والنوافل، والمثبت من (ظ) و(ف) وتفسير البغوي، والكلام منه، وأخرجه عن قتادة وابن زيد الطبري ١٣/ ٥٦٧ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٥٠٢ - ٥٠٣ ، وأخرجه أيضاً أبو عبيد في الناسخ والمنسوخ (٤)، والطبري ١٣/ ٥٦٦ عن أبي صالح به.

وقال سعيد بن جُبَير أيضاً: يغفر ما يشاء من[1] ذنوب عباده، ويترك ما يشاء، فلا يغفره.

وقال عكرمة: يمحو ما يشاء ـ يعني بالتوبة ـ جميعَ الذنوب، ويُثْبِت بَدَل الذنوب حسناتٍ [كما قال الله تعالى]: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠] الآية[2].

وقال الحسن: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ مَن جاء أجَلُه، ﴿وَيُثْبِتُ﴾ مَن لم يأت أجله[3]. وعنه أيضاً[4]: يمحو الآباءَ، ويُثْبت الأبناء. وعنه أيضاً: يُنْسي الحَفَظَةَ من الذنوب ولا يُنْسي.

وقال السدِّي: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ يعني: القمر، ﴿وَيُثْبِتُ﴾ يعني: الشمس، بيانُه قولُه: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢].

وقال الربيع بن أنس: هذا في الأرواح حالةَ النوم يقبضها؛ مَن أراد[5] موته فجأةً أمسكه[6]، ومَن أراد بقاءه أثبته وردَّه إلى صاحبه، بيانُه قولُه: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ الآية [الزمر: ٤٢].

وقال علي بن أبي طالب: يمحو الله ما يشاء من القرون، كقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ [يس: ٣١]، ويُثْبت ما يشاء منها، كقوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ

(١) قبلها في (م): يعني.

(٢) ذكر قول سعيد بن جبير وعكرمة البغوي ٣/ ٢٣، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٦٨.

(٤) في النسخ عدا (ظ): وقال الحسن، والمثبت من (ظ)؛ إلا أنها وقعت فيها بعد قول عكرمة ووقع قول الحسن فيها آخِراً، فيكون هذا القول وما بعده ـ على ما في نسخة (ظ) ـ منسوباً لعكرمة.

(٥) في النسخ عدا (ظ): يقبضها عند النوم ثم إذا أراد، والمثبت من (ظ). ووقع في تفسير البغوي ٣/ ٢٣: هذا في الأرواح يقبضها الله عند النوم فمن أراد...

(٦) في تفسير البغوي: محاه فأمسكه، بدل: فجأة أمسكه.

﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٣١]، فيمحو قَرْناً، ويُثْبت قَرْناً[١].

وقيل: هو الرجل يعمل الزمنَ الطويلَ بطاعة الله، ثم يعمل بمعصية الله فيموتُ على ضلاله، فهذا[٢] الذي يمحو. والذي يُثْبت: الرجلُ يعمل بمعصية الله الزمانَ الطويلَ ثم يتوب، فيمحوه الله من ديوان السيئات، ويُثْبته في ديوان الحسنات؛ ذكره الثعلبيُّ والماورديُّ عن ابن عباس[٣].

وقيل: يمحو الله ما يشاء ـ يعني الدنيا ـ ويُثْبت الآخرة.

وقال قيس بن عُبَاد في اليوم العاشر من رجب: هو اليوم الذي يمحو الله فيه ما يشاء، ويثبت ما يشاء؛ وقد تقدَّم عن مجاهد أن ذلك يكون في رمضان[٤].

وقال ابن عباس: إن لله لوحاً محفوظاً مسيرةَ خمسِ مئة عام، من دُرَّة بيضَاء لها دَفَّتان من ياقوتة حمراءَ، [والدفَّتان لوحان]، للهِ فيه كلَّ يوم ثلاثُ مئة وسِتُّون نَظْرةً، يُثْبِتُ ما يشاء، ويمحو ما يشاء[٥].

وروى أبو الدرداء عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الله سبحانه يفتح الذِّكْر في ثلاث ساعات يَبْقَيْنَ من الليل، فينظر في الكتاب الذي لا ينظر فيه أحدٌ غيره، فيمحو ما يشاء، ويُثْبت ما يشاء»[٦].

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) في النسخ عدا (ظ): فهو، والمثبت من (ظ).

(٣) النكت والعيون ٣/ ١١٨، وأخرجه الطبري ١٣/ ٥٦٤ - ٥٦٥.

(٤) ص٩٠ من هذا الجزء، وخبر قيس بن عباد أخرجه الطبري ١٣/ ٥٧١ من طريق رجل، عن أبيه، عن قيس به. وهذا إسناد ضعيف إلى قيس، ثم هو مقطوع عليه.

(٥) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٧٠، وما سلف بين حاصرتين منه، وفيه: لحظة، بدل: نظرة.

(٦) أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية ص٣٢، والبزار (٣٥١٦ - كشف) والطبري ١٣/ ٥٧٠، والعقيلي في الضعفاء (٥٥٢)، والدارقطني في المؤتلف والمختلف ٣/ ١١٥١ - ١١٥٢، وابن الجوزي في العلل (٢١) وقال: هذا الحديث من عمل زيادة بن محمد، لم يتابعه عليه أحد، قال البخاري: هو منكر الحديث. وقال ابن حبان: هو منكر الحديث جدًّا، يروي المناكير عن المشاهير فاستحق الترك.

والعقيدةُ أنه لا تبديلَ لقضاء الله، وهذا المحوُ والإثباتُ مما سبق به القضاء، وقد تقدَّم أنَّ من القضاء ما يكون واقعاً محتوماً، وهو الثابت، ومنه ما يكون مصروفاً بأسباب، وهو الممحوُّ، والله أعلم.

الغَزْنَويُّ: وعندي أنَّ ما في اللوح خرج عن الغيب لإحاطة بعض الملائكة، فيَحتمِل التبديل؛ لأن إحاطة الخلق بجميع عِلم الله مُحالٌ، وما في علمه من تقدير الأشياء لا يُبدَّل.

﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: أصلُ ما كتب من الآجال وغيرها.

وقيل: أمُّ الكتاب: اللوحُ المحفوظ الذي لا يُبدَّل ولا يُغيَّر[(١)]. وقد قيل: إنه يجري فيه التبديل. وقيل: إنما يجري في الجرائد الأُخَر.

وسُئِل ابن عباس عن أمِّ الكتاب فقال: [قال كعب:] عِلْمُ الله ما هو خالِقٌ، وما خَلْقُه عامِلون، فقال لعِلْمه: كن كتاباً [فكان كتاباً][(٢)]، ولا تبديلَ في علم الله. وعنه: إنه الذِّكر[(٣)]، دليله قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وهذا يرجع معناه إلى الأوَّل؛ وهو معنى قول كعب. قال كعبُ الأحبار: أمُّ الكتاب: عِلمُ الله تعالى بما خَلقَ وبما هو خالق[(٤)].

قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ «ما» زائدة، والتقدير: وإنْ نُرِينَّك بعضَ

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٣.

(٢) أخرجه عبد الرزاق ١/ ٣٣٨، وما بين حاصرتين منه، وهو في تفسير الطبري بنحوه ١٣/ ٥٣٢.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٧٢ - ٥٧٣.

(٤) ذكره عن كعب بهذا اللفظ الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١١٨.

الذي نَعِدُهم، أي: من العذاب؛ لقوله: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الرعد: ٣٤]، وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾ [الرعد: ٣١]، أي: إن أريناك بعضَ ما وعدناهم ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ فليس عليك إلا البلاغُ، أي: التبليغ ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ أي: الجزاءُ والعقوبة.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ يعني أهل مكة، ﴿أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ﴾ أي: نقصِدُها. ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ اختُلِف فيه؛ فقال ابن عباس ومجاهد: ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ موتُ علمائها وصُلَحائها(١). قال القُشَيري: وعلى هذا فالأطرافُ الأشراف(٢)، وقد قال ابن الأعرابي: الطَّرَف والطَّرْف الرجل الكريم. ولكنَّ هذا القول بعيدٌ؛ لأنَّ مقصود الآية: أنَّا أَرَيْناهم النقصانَ في أمورهم، ليعلموا أنَّ تأخير العقاب عنهم ليس عن عجز، إلَّا أن يُحمل قولُ ابن عباس على موت أحبار اليهود والنصارى.

وقال مجاهد أيضاً وقتادة والحسن: هو ما يَغلِب عليه المسلمون ممَّا في أيدي المشركين. ورُوي ذلك عن ابن عباس(٣). وعنه أيضاً: هو خرابُ الأرض حتى يكون العمران في ناحية منها(٤). وعن مجاهد: نُقصانها: خَرابُها وموتُ أهلها(٥).

وذكر وكيع بن الجَرَّاح، عن طلحةَ بنِ عمرو(٦)، عن عطاء بن أبي رباح في قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قال: ذهابُ فقهائها وخِيارِ أهلها(٧).

---

(١) أخرجه عن ابن عباس الطبري ١٣/ ٥٧٩، والحاكم ٢/ ٣٥٠ من طريق طلحة بن عمرو عن عطاء عن ابن عباس، وطلحة بن عمرو، قال عنه الحافظ في التقريب: متروك. وسيأتي تخريجه عن مجاهد.

(٢) وذكر هذا المعنى الأزهري في تهذيب اللغة ١٣/ ٣٢٠.

(٣) أخرجه عن ابن عباس والحسن الطبري ١٣/ ٥٧٤ - ٥٧٥، وذكره عن قتادة الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١١٩، ولفظ خبر ابن عباس عن الطبري: أوَ لم يروا أنَّا نفتح لمحمد الأرض بعد الأرض.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٥٠٥، وأخرجه الطبري ١٣/ ٥٧٦.

(٥) جامع بيان العلم (١٠٣٣)، وأخرجه الطبري ١٣/ ٥٧٦ - ٥٧٧، وهو في تفسير مجاهد ١/ ٣٣٠.

(٦) في (ظ): عمر، وفي باقي النسخ: عمير، والمثبت هو الصواب.

(٧) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١٠٣٠)، وقد سلف من طريق طلحة بن عمرو، عن عطاء، عن ابن عباس.

قال أبو عمر بنُ عبد البَرّ[١]: قولُ عطاءٍ في تأويل الآية حسنٌ جدًّا، تلقَّاه أهل العلم بالقَبول.

قلت: وحكاه المهدويُّ عن مجاهد وابن عمر، وهذا نصُّ القول الأوَّل نفسِه[٢]؛ روى سفيان، عن منصور، عن مجاهد: ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ قال: الموت[٣]؛ موتُ الفقهاء والعلماء[٤]. ومعروفٌ في اللغة أنَّ الطَّرَف: الكريمُ من كلِّ شيء[٥]، وهذا خلافُ ما ارتضاه أبو نصرٍ عبدُ الرحيم بنُ عبد الكريم من قول ابن عباس.

وقال عكرمةُ والشَّعبيُّ: هو النقصان وقبضُ الأنفس؛ قال أحدهما: ولو كانت الأرض تَنْقُص لضاق عليك حَشُّك. وقال الآخر: لضاق عليك حَشٌّ تتبرَّزُ فيه[٦].

قيل: المراد به هلاكُ مَن هَلَكَ من الأمم قبل قريش، وهلاكُ أرضِهم بعدهم، والمعنى: أو لم تر قريشٌ هلاكَ مَن قَبْلَهم، وخرابَ أرضهم بعدهم؟! أفلا يخافون أن يَحُلَّ بهم مثلُ ذلك. ورُوِيَ ذلك أيضاً عن ابن عباس ومجاهد وابن جُرَيج.

وعن ابن عباس أيضاً: أنه نقصُ بركات الأرض وثمارِها وأهلِها[٧].

وقيل: نَقْصُها بِجَوْر وُلَاتها[٨].

قلت: وهذا صحيحٌ معنًى، فإن الجَوْر والظُّلم يُخَرِّب البلاد بقتل أهلها

(١) في جامع بيان العلم إثر الخبر (١٠٣٤).

(٢) في (ظ): وهذا هو القول الأول بعينه.

(٣) قوله: الموت، من (ظ) وهو الموافق لما في المصادر على ما يأتي.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٥٠٥ ، وأخرجه عبد الرزاق ١/ ٣٣٩ ،وأخرجه من طريق آخر بنحوه الطبري ١٣/ ٥٧٩ .

(٥) ذكر النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٦٠ هذا المعنى عن عبد الله بن عبد العزيز.

(٦) جامع بيان العلم (١٠٣٢)، وأخرج قول الشعبيِّ الطبريُّ ١٣/ ٥٧٧ من طريق طلحة القَنَّاد عمن سمع الشعبي. وأخرج الطبري ١٣/ ٥٧٨ أيضاً قول عكرمة بنحوه. والحَش: الكنيف. معجم متن اللغة (حش).

(٧) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٧٧ .

(٨) النكت والعيون ٣/ ١١٩ .

وانجلائهم(١) عنها، وتُرفع من الأرض البركة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ أي: ليس يَتعقَّب حكمَه أحدٌ بنقضٍ(٢) ولا تغيير. ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: الانتقام من الكافرين، سريعُ الثواب للمؤمن. وقيل: لا يحتاج في حسابه إلى رَوِيَّةِ قلبٍ، ولا عَقْدِ بَنَان؛ حَسْبَ ما تقدَّم في «البقرة» بيانُه(٣).

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: مِن قَبْل مشركي مكة، مَكَروا بالرسل وكادوا لهم وكفروا بهم. ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ أي: هو مخلوقٌ له مكرُ الماكرين، فلا يضرُّ إلا بإذنه(٤). وقيل: فلله خيرُ المكر، أي: يجازيهم به(٥). ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من خير وشر، فيجازي عليه.

﴿وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ﴾ كذا قراءةُ نافعٍ وابنِ كثير وأبي عمرو. والباقون: ﴿ٱلْكُفَّٰرُ﴾ على الجمع(٦). وقيل: عني به أبو جهل(٧). ﴿لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: عاقبةُ دار الدنيا ثواباً وعقاباً، أو(٨) لِمن الثوابُ والعقاب في الدَّار الآخرة، وهذا تهديد ووعيد.

---

(١) في (ظ): وجلائهم.

(٢) في النسخ عدا (ظ): بنقص، والمثبت من(ظ) ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ٥٠٦ والكلام منه.

(٣) ٣/ ٣٥٩ - ٣٦١.

(٤) الوجيز للواحدي (على هامش مراح لبيد) ١/ ٣٣٤، وزاد المسير ٤/ ٣٤١.

(٥) ذكر الرازي ١٩/ ٦٨ هذا القول بلفظ: فلله جزاء المكر، وذلك لأنهم لما مكروا بالمؤمنين بيَّن تعالى أنه يجازيهم على مكرهم. ووقع في (ظ): خير الماكرين.

(٦) السبعة ص٣٥٩، والتيسير ص١٣٤.

(٧) في (ظ): أبا جهل، وذكر الواحدي في الوسيط ٣/ ٢١ هذا القول عن ابن عباس.

(٨) في (د): و، وفي (ظ): أي.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ قال قَتَادة: هم مشركو العرب[١]، أي: لستَ بنبيٍّ ولا رسول، وإنما أنت متقوِّلٌ، أي: لمَّا لم يأتهم بما اقترحوا؛ قالوا ذلك .﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ أي: قل لهم يا محمد: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ أي: كفى اللهُ ﴿شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ بصِدْقي وكَذِبكم.

﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ وهذا احتجاجٌ على مشركي العرب؛ لأنهم كانوا يَرجعون إلى أهل الكتاب ـ مَن آمَنَ منهم ـ في التفاسير. وقيل: كانت شهادتهم قاطعةً لقول الخصوم، وهم مؤمنو أهلِ الكتاب؛ كعبد الله بن سَلَام، وسَلْمانَ الفارسيِّ، وتميمِ الداريِّ، والنجاشيِّ وأصحابه؛ قاله قَتَادة وسعيد بن جُبَيْر[٢].

وروى الترمذيُّ عن ابن أخي عبدِ الله بن سَلَام قال: لمَّا أُريد[٣] عثمانُ، جاء عبد الله بنُ سَلَام، فقال له عثمان: ما جاء بك؟ قال: جئت في نُصرتك. قال: اخرج إلى الناس فاطْرُدهم عني، فإنك خارجٌ خيرٌ لي منك[٤] داخل. فخرج عبد الله بنُ سَلَام إلى الناس فقال: أيُّها الناس، إنه كان اسمي في الجاهلية فلان[٥]، فسمَّاني رسول الله ﷺ عبدَ الله، ونزلت فيَّ آيات من كتاب الله؛ نزلت فيَّ: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠]، ونزلت فيَّ: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ الحديث[٦].

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٨٣ .

(٢) أخرجه عن قتادة عبد الرزاق ١/ ٣٣٩ ، والطبري ١٣/ ٥٨٣ - ٥٨٤ . أما سعيد بن جبير فقد روي عنه عكس هذا القول على ما يأتي.

(٣) بعدها في (م): قتل.

(٤) في النسخ: من، والمثبت من سنن الترمذي.

(٥) في (ف): سفيان، وفي (ظ): فلانا، والمثبت من باقي النسخ وسنن الترمذي. قال المباركفوري في تحفة الأحوذي ٩/ ١٣٨ : الظاهر أن يكون فلاناً...، وأمَّا الرفع فَعَلى أنَّ في «كان» ضمير الشأن، و«اسمي» مبتدأ، وفلان خبره، والجملة خبر كان.

(٦) سنن الترمذي (٣٢٥٦). وابن أخي عبد الله بن سلام مجهول كما قال الحافظ في التقريب.

وقد كتبناه بكماله في كتاب «التذكرة»[١]. وقال فيه أبو عيسى: هذا حديثٌ حسن غريب.

وكان اسمه في الجاهلية حُصَين، فسمَّاه النبيُّ ﷺ عبدَ الله[٢].

وقال أبو بِشْر: قلت لسعيد بن جُبَيْر: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ هو عبد الله بن سَلَام؟ قال: وكيف يكون[٣] عبدَ الله بنَ سَلَام وهذه السورة مكية، وابنُ سَلَام ما أسلم إلا بالمدينة؟! ذكره الثعلبي.

وقال القُشَيريُّ: وقال ابن جُبَير: السورة مكِّيةٌ، وابن سَلَام أسلم بالمدينة بعد هذه السورة، فلا يجوز أن تُحمل هذه الآية على ابن سَلَام، فمَن عنده علم الكتاب جبريلُ، وهو قول ابن عباس[٤].

وقال الحسن ومجاهد والضَّحَّاك: هو الله تعالى، وكانوا يقرؤون: «ومِن عِنْدِهِ عِلْمُ الكتاب»، ويُنكِرون على مَن يقول: هو عبد الله بنُ سَلَام وسَلْمانُ؛ لأنهم يَرَوْن أنَّ السورة مكيةٌ، وهؤلاء أسلموا بالمدينة[٥].

ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قرأ: «ومِن عِندِه عِلم الكِتابِ»، وإن كان في الرواية ضعفٌ، وروى ذلك سليمان بنُ أرْقَم، عن الزهري، عن سالم، عن أبيه، عن النبيِّ ﷺ[٦].

---

(١) ص٥٣٤ .

(٢) الاستيعاب (على هامش الإصابة) ٦/٢٢٨ .

(٣) في النسخ: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ قال: هو عبد الله بن سلام قلت: وكيف يكون... وهو خطأ، والمثبت من مصادر التخريج، فقد أخرجه سعيد بن منصور (١١٧٧ - تفسير)، والطبري ١٣/٥٨٦ ، والنحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/٤٧٩ . وأبو بشر هو جعفر بن إياس.

(٤) قول سعيد بن جبير أنَّ مَن عنده عِلْمُ الكتاب هو جبريل، ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/١١٩ ، وأخرج النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/٤٧٨ عن ابن عباس قال: سورة الرعد نزلت بمكة، فهي مكية.

(٥) النكت والعيون ٣/١١٩ ، وذكر القراءة عنهم ابن جني في المحتسب ١/٣٥٨ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٣/٥٠٨ ، وأخرجه أبو يعلى (٥٥٧٤) بهذا الإسناد، وسليمان بن أرقم ضعيف =

وروى محبوبٌ، عن إسماعيلَ بنِ محمدٍ اليمانيِّ أنه قرأ كذلك: «ومِن عِندِهِ» بكسر الميم والعين والدال «عُلِمَ الكتابُ» بضمِّ العين ورَفْعِ الكتاب(١).

قال عبد الله بن عطاء: قلت لأبي جعفر بن عليِّ بن الحسين بن عليِّ بن أبي طالب ﷺ: زعموا أن الذي عنده علم الكتاب عبدُ الله بنُ سَلَام، فقال: إنما ذلك عليُّ بن أبي طالب ﷺ(٢)، وكذلك قال محمد ابن الحنفية. وقيل: جميعُ المؤمنين، والله أعلم.

قال القاضي أبو بكر بنُ العربي(٣): أمَّا مَن قال: إنه عليٌّ، فَعوَّل على أحد وجهين: إمَّا لأنه عنده أعلمُ المؤمنين، وليس كذلك، بل أبو بكر وعمرُ وعثمانُ أعلمُ منه. أو لقول(٤) النبيِّ ﷺ: «أنا مدينةُ العلم وعليٌّ بابُها»، وهو حديثٌ باطل(٥)؛ النبيُّ ﷺ مدينةُ عِلم، وأصحابُه أبوابُها؛ فمنهم الباب المنفسِح، ومنهم المتوسط، على قَدْر منازلهم في العلوم.

وأمَّا مَن قال: إنهم جميع المؤمنين، فصَدَق؛ لأنَّ كلَّ مؤمنٍ يَعْلَم الكتاب ويُدرِك وجه إعجازه يشهد(٦) للنبيِّ ﷺ بصدقه.

= كما ذكر الحافظ في التقريب. وأخرجه الطبري ٣/ ٥٨٦ - ٥٨٧ من طريق هارون الأعور عن الزهري به، قال الطبري: هذا خبر ليس له أصل عند الثقات من أصحاب الزهري. وذكر هذه القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٧ ، وابن جني في المحتسب ١/ ٣٥٨ ، كما سلف.

(١) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٥٠٩ ، وهي في القراءات الشاذة ص٦٧ ، والمحتسب ١/ ٣٥٨ عن علي بن محمد وابن السميفع.

(٢) ذكر قول أبي جعفر الطبرسي في مجمع البيان ١٣/ ١٩٣ ، وذكره ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١١٠١ دون نسبة.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١١٠٢ . والقول الأخير وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٤) في النسخ عدا (ظ): ولقول، والمثبت من (ظ) وأحكام القرآن.

(٥) وقال الحاكم ٣/ ١٢٦ بعد أن أخرجه من حديث ابن عباس: هذا حديث صحيح الإسناد. فتعقبه الذهبي بقوله: بل موضوع. وقال أيضاً ٣/ ١٢٧ : العجب من الحاكم وجرأته في تصحيحه هذا وأمثاله من البواطيل. وقال ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ٤٥٦ بعد أن ذكر طرقه: والحديث لا أصل له.

(٦) في النسخ: ويشهد، والمثبت من أحكام القرآن.

قلت: فالكتاب على هذا هو القرآن.

وأمَّا مَن قال: هو عبد الله بن سَلَام، فَعوَّل على حديث الترمذيِّ، وليس يمتنع أن تنزل في عبد الله بن سَلَام سبباً وتتناولَ[(١)] جميعَ المؤمنين لفظاً، ويعضُدُه من النِّظام أنَّ قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني [به] قريشاً، فالذين عندهم علمُ الكتاب هم المؤمنون من اليهود والنصارى، الذين هم إلى معرفة النبوَّة والكتاب أقربُ من عبدة الأوثان.

قال النحاس[(٢)]: وقول مَن قال: هو عبد الله بن سَلَام وغيرُه، يُحتمَل أيضاً؛ لأن البراهين إذا صحَّت وعرَفها مَن قرأ الكتب التي أُنزِلت قبل القرآن؛ كان أمراً مؤكَّداً، والله أعلم بحقيقة ذلك.

تمَّ تفسير سورة الرعد، والحمد لله.

---

(١) في النسخ عدا (ظ): أن ينزل في عبد الله بن سلام شيئاً ويتناول، وفي (ظ): أن ينزل شيء في عبد الله ابن سلام ويتناول، والمثبت من أحكام القرآن.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٥٠٩ .

سُورَةُ الرَّعْدِ

مَدَنِيَّةٌ، وقيل: مَكِّيَّةٌ إلَّا قولَه: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ...﴾ الآية[1]

وآيُها خَمْسٌ وأَرْبعونَ[2]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿الٓمٓر﴾ قيل: معناه: أنا اللهُ أعلَمُ وأَرى[3].

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني بالكتابِ: السُّورَةَ، و﴿تِلْكَ﴾ إشارةٌ إلى آياتِها؛ أي: تلكَ الآياتُ آياتُ السُّورَةِ الكامِلَةِ. أو: القُرآنَ[4].

---

(١) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ٤٧٩) من رواية أبي صالح عن ابن عباس مع استثناء آية أخرى وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾. وذكر الداني في «البيان في عد آي القرآن» (ص: ١٦٩) عن ابن عباس وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير أنها مكية ولم يستثن. وهكذا رواه النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٥٣٥) عن ابن عباس وسعيد بن جبير.

(٢) انظر: «البيان في عد آي القرآن» للداني (ص: ١٦٩)، وفيه: «وهي أربعون وثلاث آيات في الكوفي وأربع في المدنيين والمكي وخمس بَصري وسبع شامي، اختلافها خمس آيات..».

(٣) رواه الداني في «المكتفى في الوقف والابتدا» (٦٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره عنه السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٢١٥)، والثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٦٧)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ٢٧٩). وروى الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٠٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿الٓر﴾: أنا الله أعلم.

(٤) قوله: «أو القرآنَ» بالنصب عطف على (السورةَ) في قوله: «يعني بالكتاب: السورةَ»؛ فالمعنى آيات هذهِ السُّورة آيات القرآن.

﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ هـو القـرآنُ كلُّـهُ، ومحلُّـهُ الجَـرُّ بالعطـفِ علـى ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ عَطْـفَ العـامِّ علـى الخـاصِّ، أو إِحْـدَى الصِّفَتيـنِ على الأخـرى[١]، أو الرَّفـعُ بالابتداءِ وخبـرُه: ﴿ٱلْحَقُّ﴾.

والجملَةُ كالحُجَّةِ على الجُمْلَةِ الأُولى، وتَعريفُ الخبرِ وإنْ دلَّ على اختصاصِ المنزلِ بكونهِ حقًّا فهو أعَمُّ مِن المنزلِ صَرِيحًا أو ضِمْنًا، كالمثبَتِ بالقِياسِ وغيرِه ممَّا نطقَ المنزَلُ بحُسنِ اتِّباعِه.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لإخلالِهم بالنَّظرِ والتَّأمُّلِ فيه.

(٢) ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مبتدأٌ وخَبرٌ، ويجوزُ أَنْ يكونَ الموصولُ صِفَةً والخبرُ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾.

﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾: أساطينَ، جمعُ عِمادٍ، كإِهَابٍ وأَهَبٍ، أو عَمُودٍ، كأَدِيمٍ وأَدَم[٢].

وقُرِئَ (عُمُد) كرُسُلٍ[٣].

﴿تَرَوْنَهَا﴾ صفةٌ لـ﴿عَمَدٍ﴾، أو استئنافٌ للاستشهادِ برُؤيَتِهم السَّماواتِ كذلك، وهو دَليلٌ على وجودِ الصَّانعِ الحَكيمِ، فإنَّ ارتفاعَهَا على سائرِ الأجسامِ المُساوِيَةِ لها في حقيقةِ الجِرْميَّةِ، واختصاصَها بما يَقتَضِي ذلك، لا بدَّ وأَنْ يكونَ بمُخصِّصٍ

---

(١) في نسخة الخيالي: «أو أحد الوصفين على الآخر».

(٢) قوله: «كأَدِيمٍ وأَدَمْ» قال ابن التمجيد: هذا لا يناسب الممثل؛ فإن العمود ليس على صيغة الأديم. وقال القونوي: شبهه بأديم لأن فعولاً كعمود وفعيلاً كأديم يشتركان في الأحكام، ولا يخفى ما فيه من التشويش والاضطراب... إلى آخر ما قال. انظر: «حاشية ابن التمجيد» مع «حاشية القونوي» (١٠/ ٤٤٧).

(٣) انظر: «الكامل في القراءات» للهذلي (ص: ٥٧٧) عن أبي حيوة، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٢٩١) عن يحيى بن وثاب، و«البحر» (١٣/ ١٢) عنهما.

ليسَ بجسمٍ ولا جسمانيٍّ يرجِّح بعضَ المُمكِناتِ على بعضٍ بإرادَتِه، وعلى هذا المنهاجِ سائرُ ما ذُكرَ مِن الآياتِ.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ بالحفظِ والتَّدبيرِ.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾: ذلَّلَهما لِمَا أرادَ مِنْهُما، كالحركةِ المُستمرَّةِ على حدٍّ مِن السُّرعةِ ينفعُ في حُدوثِ الكائناتِ وبَقائِها.

﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لِمُدَّةٍ مُعيَّنَةٍ يُتِمُّ فيها أدوارَهُ، أو لغايةٍ مضروبةٍ ينقطِعُ دونَها سَيْرُه، وهي ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ١ ـ ٢].

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾: أمرَ مَلَكوتِه مِن الإيجادِ والإعدامِ والإحياءِ والإماتَةِ وغيرِ ذلك.

﴿يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾: يُنَزِّلُها ويُبَيِّنُها مُفصَّلَةً، أو: يحدِثُ الدَّلائلَ واحدًا بعدَ واحدٍ.

﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ لكي تَتفكَّرُوا فيها وتَتحقَّقُوا كمالَ قُدرَتِه، فتعلَمُوا أنَّ مَن قَدَرَ على خلقِ هذه الأشياءِ وتدبيرِها قَدَرَ على الإعادةِ والجزاءِ.

(٣) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾: بسَطَها طولًا وعرضًا لتثبُتَ عليها الأقدامُ ويَنقَلِبَ عليها الحيوانُ.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾: جبالًا ثوابِتَ، مِن رَسَا الشَّيءُ: إذا ثَبتَ، جمع راسِيَةٍ، والتَّاءُ للتَّأنيثِ على أنَّها صِفةُ أَجْبُلٍ، أو للمُبالغةِ.

﴿وَأَنْهَـٰرًا﴾ ضمَّها إلى الجبالِ وعلَّقَ بهما فعلًا واحدًا من حيثُ إنَّ الجبالَ أسبابٌ لتولُّدِها.

﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾؛ أي: وجعلَ فيها مِن جميعِ أنواعِ الثَّمراتِ صنفينِ اثنينِ كالحلوِ والحامضِ، والأَسودِ والأبيضِ، والصَّغيرِ والكبيرِ.

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾: يُلْبِسُهُ مكانَهُ فيصيرُ الجوُّ مُظلِمًا بعدَما كانَ مضيئًا.

وقَرَأَ حمزَةُ والكِسائيُّ وأبو بكرٍ: ﴿يُغَشِّي﴾ بالتَّشديدِ[١].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيها، فإنَّ تَكوُّنَها وتخصيصَها[٢] بوجهٍ دونَ وَجهٍ دليلٌ على وجودِ صانعٍ حَكيمٍ دبَّرَ أمرَها وهيَّأَ أسبابَها[٣].

(٤) ـ ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾ بعضُها طَيِّبَةٌ وبعضُها سَبْخَةٌ، وبعضُها رِخْوَةٌ وبعضُها صُلبَةٌ، وبعضُها يَصلُحُ للزرعِ دونَ الشَّجرِ وبعضُها بالعَكسِ، ولولا تَخصيصُ قادرٍ مُوقعٍ لأفعالِه على وَجهٍ دونَ وجهٍ لم تَكُن كذلكَ؛ لاشتراكِ تلك القِطَعِ في الطَّبيعةِ الأرضيَّةِ وما يلزَمُها ويَعْرِضُ لها بتوسُّطِ ما يَعْرِضُ مِن الأَسبابِ السَّماويَّةِ مِن حيثُ إنَّها مُتضامَّةٌ متشاركةٌ في النِّسَبِ والأَوضاعِ.

﴿وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وزرعٍ ونخيلٍ﴾: وبَساتينُ فيها أنواعُ الأَشجارِ والزُّروعِ، وتَوحيدُ الزَّرعِ لأَنَّه مَصدَرٌ في أَصلِه.

وقرأَ ابنُ كثيرٌ وأبو عمرٍو ويَعقوبُ وحَفصٌ: ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ بالرَّفعِ[٤] عطفًا على ﴿وَجَنَّاتٌ﴾.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٥٦)، و«التيسير» (ص: ١٣٠).

(٢) في نسخة التفتازاني: «وتخصصها».

(٣) قال الفخر الرازي: إنَّه تَعالى في غالبِ الأَمرِ يذكرُ الدَّلائلَ المَوجودةَ في العالمِ السُّفليِّ ويجعلُ مَقطعَها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أو ما يقربُ منه. والسَّببُ فيه أنَّ الفلاسفَةَ يُسنِدونَ حوادِثَ العالمِ السُّفليِّ إلى الاختلافاتِ الواقعةِ في الأشكالِ الكوكبيَّةِ، فأرادَ اللهُ ردَّ ذلك فقال: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يعني: مَن أمعَنَ الفِكرَ عَلِمَ أنَّه لا يجوزُ أن يكونَ حدوثُ الحوادثِ لأجلِ الاتِّصالاتِ الفلكيَّةِ، ومن ثم عقَّبَ هذا الإرشادَ بقولِه: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾ الآية.
ثم قال: ومَن تأمَّلَ في هذه اللَّطائفِ ووقفَ على دقائقِها عَلِمَ أنَّ هذا الكتابَ الكريمَ اشتملَ على علومِ الأَوَّلينَ والآخرينَ. انظر: «تفسير الرازي» (١٩/ ٧ـ ٨).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٣٥٦)، و«التيسير» (ص: ١٣١)، و«النشر» (٢/ ٢٩٧).

﴿صِنۡوَانٞ﴾: نخلاتٌ أصلُها واحدٌ ﴿وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ﴾: ومُتفرِّقاتٌ مختلفَةُ الأُصولِ، وقرأ حَفصٌ بالضمِّ[1]، وهو لغَةُ تميمٍ كقُنْوانٍ في جمعِ قِنْوٍ.

﴿تُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ﴾: في الثَّمرِ شَكلًا وقَدْرًا ورائحةً وطَعْمًا، وذلك أيضًا ممَّا يدلُّ على الصَّانعِ الحَكيمِ، فإن اختلافَها مع اتِّحادِ الأُصولِ والأَسبابِ لا يكونُ إلا بتَخصيصِ قادرٍ مُختارٍ.

وقرأ ابنُ عامرٍ وعاصِمٌ ويَعقوبُ: ﴿يُسۡقَىٰ﴾ بالتَّذكيرِ[2] على تأويلِ ما ذكرَ.

وحمزةُ والكِسائيُّ: ﴿يُفَضِّلُ﴾ بالياءِ ليطابقَ قولَه: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ يَستعملونَ عُقولَهُم بالتَّفكُّرِ.

(٥) ـ ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ﴾ يا محمَّدُ مِن إنكارِهِم البعثَ ﴿فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ﴾ حقيقٌ بأن يُتعجَّبَ منه، فإنَّ مَن قدَرَ على إنشاءِ ما قُصَّ عليك كانت الإعادَةُ أيسرَ شيءٍ عليه، والآياتُ المَعدودَةُ كمَا هيَ دالَّةٌ على وُجودِ المبدأِ فهيَ دالَّةٌ على إمكانِ الإعادَةِ مِن حيثُ إنَّها تدلُّ على كمالِ قُدرَتِه وقَبولِ الموادِّ لأنواعِ تَصرُّفاتِه.

﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ بدلٌ مِن ﴿قَوۡلُهُمۡ﴾[3]، أو مَفعولٌ له والعامِلُ في (إذا) محذوفٌ دلَّ عليه ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾ لأنَّهُم كفَرُوا بقدرتِهِ على البَعثِ.

---

(١) أي بضم الصاد من (صنوان)، وهي قراءة شاذة، ونسبت أيضاً لأبي عبد الرحمن السلمي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٠)، و«المحتسب» (١/ ٣٥١).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٥٦)، و«التيسير» (ص: ١٣١).

(٣) قال أبو حيَّان في «البحر» (١٤/ ٢٨): هذا إعرابٌ متكلَّفٌ وعدولٌ عن الظَّاهرِ، والظاهرُ أنَّ ﴿أَءِذَا﴾ مَعمولٌ لـ﴿قَوۡلُهُمۡ﴾ مُحلًّى به.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡ﴾ مُقيَّدونَ بالضَّلالِ[1] لا يُرْجَى خَلاصُهُم، أو: يُغَلُّونَ يومَ القيامَةِ.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا يُنقلونَ عنها. وتوسيطُ الفَصلِ لتَخصيصِ الخُلودِ بالكُفَّار.

(٦) ـ ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾: بالعُقوبَةِ قبلَ العافيَةِ، وذلك أنَّهم استَعجَلُوا بما هُدِّدُوا بهِ مِن عذابِ الدُّنيا استهزاءً.

﴿وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ﴾: عقوباتُ أمثالِهم مِن المُكذِّبينَ، فما لَهُم لَمْ يَعتَبِرُوا بها ولم يُجَوِّزُوا حلولَ مِثلِهَا عَلَيهِم؟ و(المثلَةُ) بضمِّ الثَّاءِ وفَتحِهَا ـ كالصَّدُقَةِ والصَّدَقَةِ ـ العُقوبَةُ؛ لأنَّها مِثْلُ المعاقَبِ عليه، ومنه: المِثالُ للقِصاصِ، وأَمْثَلْتُ الرَّجُلَ مِن صاحبِهِ: إذا اقتصَصْتَهُ منه.

وقُرِئَ: (المَثْلات) بالتَّخفيفِ، و: (المُثُلات) بإتباعِ الفاءِ العينَ، و: (المُثْلات) بالتخفيفِ بعدَ الإتباعِ[2]، و(المُثَلات) بفتحِ الثَّاءِ[3] على أنَّها جمعُ مُثْلة كرُكْبَة ورُكَبَاتٍ.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ﴾: مع ظُلْمِهم أَنفُسَهُم، ومحلُّهُ النَّصبُ على الحَالِ، والعامِلُ فيه المَغفِرَةُ[4]، والتَّقييدُ بِهِ دَليلُ جَوازِ العَفْوِ قبلَ التَّوبَةِ، فإنَّ التَّائبَ ليسَ على ظُلمِه، ومَن مَنعَ ذلك خَصَّ الظُّلمَ بالصَّغائرِ المُكفَّرَةِ لِمُجتنبِ الكَبائرِ، أو أوَّلَ المَغفِرَةَ بالسَّترِ والإِمْهالِ.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «بالضلالة».

(٢) انظر هذه القراءات مع من قرأ بها في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٠)، و«المحتسب» (١/ ٣٥٣).

(٣) انظر: «الكشاف» (٤/ ٣٧٣) دون نسبة وعنه نقل المصنف جميع هذه القراءات.

(٤) أي: الجارُّ والمجرورُ حالٌ مِن النَّاسِ، والعامل فيها هو العامل في صاحبِهِ، وهوَ المغفرَة.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ للكُفَّارِ، أَوْ لِمَن شاءَ.

وعن النبيِّ ﷺ: «لولا عَفْوُ اللهِ وتَجاوزُهُ ما هنأَ أحدًا العَيْشُ، ولولا وَعيدُه وعِقابُه لاتَّكلَ كلُّ أحدٍ»(١).

(٧) ـ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ لعدمِ اعتدادِهِم بالآياتِ المنزلةِ عليه، واقتراحًا لنحوِ ما أُوتِيَ مُوسى وعِيسى.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾: مُرسَلٌ للإنذارِ كغَيرِكَ مِن الرُّسلِ، وما عليك إلا الإِتيانُ بما تَصِحُّ به نبوَّتُكَ مِن جنسِ المُعجِزاتِ لا بما يُقتَرَحُ عليك.

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ نبيٌّ مَخصوصٌ بمُعجِزَاتٍ مِن جنسِ ما هوَ الغالِبُ علَيْهِم يَهديهِمْ إلى الحقِّ ويَدعوهُمْ إلى الصَّوابِ، أو: قادرٌ على هِدايَتِهم وهوَ اللهُ تعالى، لكنْ لا يَهدي إلَّا مَن يَشاءُ هِدايَتَهُ بما ينزلُ مِن الآياتِ. ثمَّ أردفَ ذلك بما يَدُلُّ على كمالِ عِلْمِه وقُدرَتِه وشُمولِ قَضائِه وقَدَرِه تنبيهًا على أنَّه تعالى قادِرٌ على إنزالِ ما اقترَحُوه، وإنَّما لم يُنزِلْ لعلمِه بأنَّ اقتراحَهُم للعنادِ دون الاسترشادِ، وأنه قادِرٌ على هِدايَتِهم، وإنَّما لم يَهدِهِم لسَبقِ قَضائِه عليهم بالكُفرِ فقال:

(٨) ـ ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾؛ أي: حَمْلَها، أو: ما تحمِلُه أنَّه على أيِّ حالٍ مِن الأحوالِ الحاضرَةِ والمُترقَّبَةِ ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾: وما تنقصُهُ وما تزدادُه في الجُثَّةِ والمدَّةِ والعَدَدِ.

وأقصى مُدَّةِ الحملِ أربعُ سنينَ عِندَنا، وخمسٌ عندَ مالكٍ، وسَنتانِ عندَ أبي حنيفةَ.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٢١٤٥)، والثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٢١٧ ـ ٢١٨)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٦) عن سعيد بن المسيب عن النبي ﷺ مرسلاً.

رُوِيَ أن الضَّحَّاكَ ولدَ لسَنَتينِ[١]، وهَرِمَ بنَ حيَّانَ لأربعِ سنينَ[٢]، وأعلى عددِه لا حدَّ له.

وقيل: نهايَةُ ما عُرفَ أربعَةٌ، وإليه ذهبَ أبو حنيفةَ، وقال الشَّافعي: أخبرَنِي شيخٌ باليَمَنِ: أنَّ امرأتَهُ ولدَت بطونًا في كلِّ بطنٍ خمسَةٌ.

وقيل: المرادُ: نقصانُ دَمِ الحيضِ وازدِيادُهُ.

و(غاضَ) جاءَ مُتعدِّيًا ولازمًا، وكذا (ازدادَ)، قال تعالى: ﴿وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾ [الكهف: ٢٥]، فإنْ جَعَلْتَهُما لازِمَيْنِ تعيَّنَ ﴿مَا﴾ أن تكونَ مَصدَرِيَّةً[٣]، وإسنادُهُما إلى الأرحامِ على المجازِ، فإنَّهُما للهِ أو لِمَا فيها.

﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾: بقَدَرٍ لا يُجاوِزُهُ ولا ينقصُ عنه، كقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾، فإنَّه تَعالى خصَّ كلَّ حادثٍ بوَقتٍ وحالٍ مُعيَّنينِ، وهيَّأَ له أَسبابًا مَسُوقةً إليه تَقتَضي ذلك.

وقرأ ابنُ كثير: ﴿هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، و﴿وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]، و﴿وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤]، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] بالتنوينِ في الوصلِ، فإذا وقفَ وقفَ بالياءِ في هذه الأحرف الأربعةِ حيثُ وقعت لا غيرُ، والباقون يَصِلُونَ بالتنوينِ ويقِفُونَ بغيرِ ياءٍ[٤].

(٩) ـ ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾: الغائبِ عَن الحسِّ ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: الحاضرِ له.

﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾: العَظيمُ الشَّأنِ الذي لا يَخرجُ عَن علمِه شيءٌ.

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٦/ ٣٠٠) عن الضحاك.

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٢٢٩) عن حماد بن سلمة.

(٣) كذا في جميع النسخ، قال الخفاجي: وفي نسخةٍ: (تعين أن تكونَ «ما» مصدريَّة)، وهي أحسن.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٣٦٠)، و«التيسير» (ص: ١٣٣).

﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾: المُستَعلي على كلِّ شَيءٍ بقُدرَتِه، أو الذي كبرَ عَن نَعتِ المَخلوقينَ وتعالى عنه.

(١٠) ـ ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ﴾ في نفسِه ﴿وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ لغيرِه.

﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ﴾: طالبٌ للخَفاءِ في مُختبَأٍ بالليلِ.

﴿وَسَارِبٌ﴾: بارزٌ ﴿بِٱلنَّهَارِ﴾ يراهُ كلُّ أحدٍ، مِن سَرَبَ سُروبًا: إذا برزَ، وهو عطفٌ على ﴿مَن﴾، أو ﴿مُسْتَخْفٍ﴾ على أنَّ ﴿مَن﴾ في مَعنى الاثنين، كقولِه:

نَكُـنْ مِثْـلَ مَن يـا ذِئـبُ يَصْطَحِبَانِ[١]

كأنَّه قال: سواءٌ مِنْكُم اثنانِ: مُستخفٍ بالليلِ وسارِبٌ بالنَّهارِ.

والآيةُ مُتَّصلَةٌ بما قبلَها مُقرِّرَةٌ لكمالِ علمِه وشُمولِه.

(١١) ـ ﴿لَهُۥ﴾: لِمَـن أَسَـرَّ أو جَهَرَ، واستَخْفَى أو سَـربَ ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ ملائكةٌ تَعْتَقِبُ فـي حِفظِـه، جمـعُ مُعَقِّبَـةٍ، مِـن عَقَّـبَ مُبالَغَـةُ عَقَبَـه: إذا جـاءَ علـى عَقِبـه، كأنَّ بعضَهُـم يعقُـبُ بعضًـا، أو لأنَّهُـم يعقِّبـونَ أقوالَهُ وأفعالَـهُ فيَكتبونَـه، أو اعتقبَ، فأُدغِمَـت التَّـاءُ في القـافِ[٢].

---

(١) هو للفرزدق من شعر مشهور ذكر فيهِ ذئباً لقيهِ بفلاةٍ فصحبه وأضافه، وأوَّلُه:

تَعَـشَّ فـإنْ عَاهَدْتَنِـي لا تَخُونُنِـي

انظـر: «ديـوان الفـرزدق» (٢/ ٣٢٩)، و«الكتـاب» لسـيبويه (٢/ ٤١٦)، و«الكامـل» للمبـرد (١/ ٢٨٩).

(٢) تبعَ فيهِ الزمخشريَّ في «الكشاف»، وقد اتَّفقُوا على ردِّهِ بأنَّ التَّاء لا تدغم في القافِ من كلمَة، أو كلمتينِ، وقد قالَ أهل التَّصريف إنَّ القافَ والكاف كلّ منهما لا يدغم في الآخر، ولا يدغمان في غيرِهما. «حاشية الخفاجي». وانظر: «البحر المحيط» لأبي حيان (١٣/ ٤٣).

والتَّاءِ للمُبالغةِ، أو لأنَّ المرادَ بالمُعقِّباتِ: جَماعاتٌ[١].

وقُرِئَ: (مَعَاقِيبُ)[٢] جمع مُعقِّبٍ أو مُعَقِّبَةٍ على تعويضِ الياءِ مِن إحدى القافَيْنِ.

﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾: مِن جَوانبِهِ، أو من الأعمالِ ما قَدَّمَ وأَخَّرَ.

﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾: مِن بَأسِهِ مَتى أَذنبَ بالاستمهالِ والاستغفارِ له، أو: يحفظونَهُ مِن المضارِّ، أو: يراقبونَ أحوالَهُ مِن أَجلِ أَمرِ اللهِ، وقد قُرِئَ به[٣].

وقيل: ﴿مِنۡ﴾ بمعنى الباءِ.

وقيل: ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ صِفَةٌ ثانيَةٌ لـ﴿مُعَقِّبَٰتٞ﴾.

وقيل: المُعقِّبَاتُ: الحَرَسُ والجَلَاوِزَةُ[٤] حولَ السُّلطانِ يَحفظونَهُ في تَوهُّمِه مِن قَضاءِ اللهِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ﴾ مِن العافيَةِ والنِّعمَةِ ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ مِن الأَحوالِ الجَميلَةِ بالأَحوالِ القَبيحَةِ.

﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾: فلا ردَّ له، فالعامِلُ في ﴿إذا﴾ ما دلَّ عليهِ الجَوابُ ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾: ممَّنْ يَلِي أَمْرَهُم فيدفعُ عَنْهُم السُّوءَ.

---

(١) قوله: «والتاء»؛ أي: في مفرد ﴿مُعَقِّبَٰتٞ﴾ وهو: مُعقِّبةٌ «للمبالغة»؛ أي: كعلاَّمة ونسَّابة؛ أي: ملَكٌ معقِّبٌ، ثم جُمِعَ هذا الجمعَ كعلَّامات ونسَّابات، أو هي للتأنيث كما ذكره بقوله: «أو لأن المراد...» إلى آخره. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٣٣٥).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧١) عن زياد بن أبي سفيان، و«المحتسب» (١/ ٣٥٥) عن عبيد الله بن زياد، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٥١٧) عن أبي البرهسم.

(٣) أي: (يَحفظونه بأمر الله). نسبت لعليٍّ وابنِ عباس رضي الله عنهم وزيدِ بن عليٍّ وجعفرِ بن محمد وعكرمةَ. انظر: «المحتسب» (١/ ٣٥٥)، و«الكشاف» (٤/ ٣٧٨)، و«البحر» (١٣/ ٤٥).

(٤) الجلاوزة أعوان السلطان، جمع جلواز وهو الشرطي، من الجلوزة، وهي سرعة الذَّهاب والمجيء.

وفيه دليلٌ عَلى أنَّ خِلافَ مرادِ اللهِ مُحالٌ.

(١٢) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا﴾ مِن أذاه ﴿وَطَمَعٗا﴾ في الغَيثِ، وانتصابُهُما على العِلَّةِ بتقديرِ المُضافِ؛ أي: إرادةَ خوفٍ وطمعٍ، أو التَّأويلِ بالإخافَةِ والإطماعِ، أو الحالِ مِن ﴿ٱلۡبَرۡقَ﴾، أو المخاطبينَ على إضمارِ: ذوو، أو إطلاقِ المَصدَرِ بمعنى المَفعولِ أو الفَاعلِ للمُبالغَةِ.

وقيل: يخافُ المطرَ مَن يَضرُّهُ، ويَطمَعُ فيه مَن يَنفَعُه.

﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ﴾: الغيمَ المُنسَحِبَ في الهواءِ ﴿ٱلثِّقَالَ﴾ وهو جمعُ ثَقِيلَةٍ، وإنَّما وصفَ بِهِ السَّحابُ لأنَّه اسمُ جنسٍ في معنى الجَمعِ.

(١٣) ـ ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ﴾: ويسبِّحُ سامِعوهُ ﴿بِحَمۡدِهِۦ﴾ مُلتبسِينَ بـه، فيَضجُّونَ بـ(سُبحانَ اللهِ والحَمدُ للهِ)، أو يدلُّ الرَّعدُ بنفسِهِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تَعالى وكمالِ قُدرَتِه مُلتَبِسًا بالدَّلالةِ على فَضلِه ونُزولِ رَحمَتِه.

وعن ابنِ عباسٍ: سُئِلَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه عَن الرَّعدِ فقال: «مَلَكٌ موكَّلٌ بالسَّحابِ معَه مَخاريقُ مِن نارٍ يَسوقُ السَّحابَ»[1].

﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾: مِن خَوفِ اللهِ وإجلالِه، وقيل: الضَّميرُ لـ﴿ٱلرَّعۡدُ﴾.

﴿وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ فيُهلِكُه.

﴿وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾ حيثُ يكذِّبونَ رسولَ اللهِ فيما يَصِفُه به مِن كَمالِ العلمِ والقُدرةِ، والتَّفرُّدِ بالألوهيَّةِ، وإعادةِ النَّاسِ ومُجازاتِهم.

---

(١) رواه الترمذي (٣١١٧)، وقال: حسن غريب، والنسائي في «السنن الكبرى» (٩٠٢٤)، والإمام أحمد في «المسند» (٢٤٨٣). والمخاريق جمع مِخراق: آلةٌ تزجرُ بها الملائكةُ السَّحابَ وتَسوقُه. «النهاية» (مادة: خرق).

والجدالُ: التَّشدُّدُ في الخُصومَةِ، مِن الجَدْلِ وهو الفَتلُ.

والواوُ: إمَّا لعَطفِ الجُملَةِ على الجُملَةِ، أو للحَالِ فإنَّه رُوِيَ أنَّ عامرَ بنَ الطُّفَيلِ وأَرْبدَ بنَ رَبيعةَ أخا لَبيدٍ وَفَدَا على رَسولِ اللهِ ﷺ قاصدَينِ لقَتلِه، فأخذَهُ عامِرٌ بالمُجادَلةِ ودارَ أَربَدُ مِن خَلفِهِ ليَضرِبَهُ بالسَّيفِ، فتنبَّهَ له الرَّسولُ وقال: «اللهمَّ اكفِنِيهِمَا بمَا شِئتَ»، فأرسلَ اللهُ على أَربَدَ صاعقَةً فقتَلَتْهُ، ورمى عامرًا بغُدَّةٍ فماتَ في بيتِ سَلُولِيَّةٍ، وكانَ يقولُ: غُدَّةٌ كغُدَّةِ البَعيرِ ومَوتٌ في بيتِ سَلُولِيَّةٍ، فنزلَت[1].

﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ المُمَاحَلَةُ: المُكايدَةُ لأَعدائِهِ، مِن مَحَل بفلانٍ: إذا كادَهُ وعرَّضَهُ للهَلاكِ، ومِنه تمحَّلَ: إذا تكلَّفَ استِعمالَ الحِيلَةِ. لعلَّ أصلَهُ المَحْلَ بمعنى القَحطِ.

وقيل: فِعَالٌ مِن المَحْلِ بمَعنى القوَّةِ.

وقيل: مِفْعَلٌ مِن الحَوْلِ أو الحِيلَةِ أُعِلَّ على غيرِ قِياسٍ، ويَعضُدُه أنَّه قُرِئَ بفَتحِ الميمِ[2] على أنَّه مَفعَلٌ مِن حَالَ يَحولُ: إذا احتالَ.

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٢٤١ ـ ٢٤٤) من طريق محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح (وتسمى سلسلة الكذب) عن ابن عباس. ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٧٦٠)، و«المعجم الأوسط» (٩١٢٧)، من طريق عبد العزيز بن عمرانَ، عن عبد الرحمن وعبد الله ابنَا زيدِ بنِ أسلَمَ، عن أبيهما، عن عطاء بنِ يسارٍ، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٤٢): وفي إسنادهما عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف.
ورواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٦٧ ـ ٤٧٠) عن عبد الرحمن بن زيد أسلم، و(١٣/ ٤٨١) عن ابن جريج. وكلاهما مرسل.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧١)، و«المحتسب» (١/ ٣٥٦)، عن الأعرج.

ويجـوزُ أن يكـونَ بمعنـى الفَقَـارِ، فيكـونُ مَثَلًا فـي القـوَّةِ والقُـدرَةِ، كقولهم: «فسَـاعِدُ اللهِ أَشَـدُّ ومُوسَـاهُ أَحَدُّ»(١).

(١٤) ـ ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ﴾: الدُّعاءُ الحَقُّ، فإنَّه الذي يحقُّ أن يُعبَدَ ويُدعى إلى عبادَتِه دونَ غَيرِه.

أو: له الدَّعوَةُ المُجابَةُ، فإنَّ مَن دعاهُ أَجابَ، ويؤيِّدُه ما بعدَهُ.

و﴿ٱلۡحَقِّ﴾ على الوَجهينِ: ما يُناقِضُ الباطِلَ، وإضافَةُ الدَّعوَةِ إليهِ لِمَا بينَهُما مِن المُلابسَةِ، أو عَلى تَأويلِ: دَعوَةُ المَدعوِّ الحقِّ.

وقيل: الحقُّ هو اللهُ، وكلُّ دعاءٍ إليه دَعوَةُ الحَقِّ.

والمرادُ بالجُملتَينِ إنْ كانَت الآيةُ في عامرٍ وأَربَدَ أنَّ إهلاكَهُما مِن حيثُ لَمْ يَشْعُرَا به محالٌ مِن اللهِ وإجابَةٌ لدَعوَةِ رَسولِه، أو دلالةٌ على أنَّه على الحَقِّ، وإن كانَتْ عامَّةً فالمُرادُ وَعيدُ الكَفَرَةِ على مُجادَلَةِ رَسولِ اللهِ ﷺ بحُلولِ محالِه بهم، وتَهديدُهُم بإجابَةِ دعاءِ الرَّسولِ عليهم، أو بيانُ ضَلالِهِم وفَسادِ رأيِهم.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾؛ أي: والأصنامُ الذين يَدْعُوهُم المُشرِكُونَ، فحُذِفَ الرَّاجِعُ، أو: والمُشركونَ الذينَ يَدعونَ الأَصنامَ، فحُذِفَ المَفعولُ لدَلالةِ ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ عليهِ.

﴿لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ﴾ مِن الطَّلباتِ ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ﴾: إلا استجابةً كاستِجَابةِ مَـن بسـطَ كفَّيْهِ ﴿إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ﴾ يطلـبُ مِنه أَنْ يبلُغَـه ﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ لأَنَّه جَمادٌ لا يشـعرُ بدُعائِـه ولا يَقـدِرُ على إجابَتِـه والإتيانِ بغَيرِ مـا جُبِلَ عليه، وكذلـك آلهتُهم.

(١) قطعة من حديث رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٧٢٢٨)، والنسائي في «الكبرى» (١١٠٩٠)، من حديث مالك بن نضلة الجشمي رضي الله عنه مرفوعاً بإسناد صحيح.

وقيل: شُبِّهُوا في قِلَّةِ جَدْوَى دُعائِهِم لها بمَنْ أرادَ أنْ يغرفَ[١] الماءَ ليشربَهُ فبسطَ كفَّيْهِ ليشربَهُ.

وقُرِئَ: (تدعون) بالتَّاءِ، و: (باسطٍ) بالتَّنوينِ[٢].

﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾: في ضَياعٍ وخَسَارٍ وباطلٍ.

(١٥) ـ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ يحتمِلُ أَنْ يكونَ السُّجودُ على حقيقَتِه، فإنَّه يَسجدُ لهُ المَلائِكَةُ والمؤمنونَ مِن الثَّقلينِ طَوْعًا حالَتَي الشِّدَّةِ والرَّخاءِ، والكفرَةُ كرهًا حالَ الشِّدَّةِ والضَّرورةِ ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ بالعَرَضِ.

وأَنْ يرادَ بهِ انقِيادُهُم لإحداثِ ما أرادَهُ فيهِمْ شَاؤوا أو كرهُوا، وانقيادُ ظلالِهِم لتَصريفِه إيَّاها بالمدِّ والتَّقليصِ.

وانتصابُ ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ بالحالِ، أو بالمفعولِ له[٣].

﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ ظرفٌ لـ﴿يَسْجُدُ﴾، والمرادُ بهمَا الدَّوامُ، أو حالٌ مِن الظِّلالِ، وتَخصيصُ الوَقتَيْنِ لأنَّ الظِّلالَ إنَّما تَعظُمُ وتَكثُرُ[٤] فيهما.

والغُـدُوُّ: جَمـعُ غَـداةٍ، كقُنِيٍّ جمـعُ قَنَاةٍ، والآصـالُ: جمعُ أَصيـلٍ، وهو ما بينَ العَصرِ والمَغربِ.

---

(١) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «يغترف».

(٢) القراءتان في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧١)، الأولى عن أبي عمرو في رواية، والثانية عن يحيى بن يعمر.

(٣) في نسخة التفتازاني: «بالحال أو العلة وقوله».

(٤) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «لأن الامتداد والتقلص أظهر فيهما».

وقيل: الغُدُوُّ مصدَرٌ، ويؤيِّدُه أنَّه قُرِئَ: (والإيصالُ)[1]، وهو الدُّخولُ في الأصيلِ.

(١٦) ـ ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: خالِقُهُما ومُتولِّي أَمرِهِما ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾: أَجِبْ عَنْهُم بذلك، إِذْ لا جوابَ لَهُم سِواهُ، ولأنَّه البَيِّنُ الذي لا يمكنُ المِراءُ فيهِ، أو: لَقِّنْهُم الجوابَ به.

﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ﴾ ثمَّ أَلْزِمْهُم بذلك لأنَّ[2] اتِّخاذَهُم مُنكَرٌ بعيدٌ عَن مُقتَضى العَقلِ.

﴿أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ لا يقدِرونَ أن يَجلِبوا إليها نفعاً أو يدفَعُوا عنها ضرًّا، فكيفَ يَستَطِيعونَ إنفاعَ الغيرِ[3] ودفعَ الضرِّ عَنْه، وهو دَليلٌ ثانٍ على ضَلالِهِم وفَسادِ رَأْيِهم في اتِّخاذِهِم أولياءَ رجاءَ أَنْ يَشفَعُوا لَهُم.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾: المشركُ الجاهِلُ بحَقيقَةِ العِبادَةِ والموجِبِ لها، والمُوحِّدُ العالِمُ بذلك.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧١)، عن عمران بن حدير، و«المحتسب» (١/ ٣٥٦) عن أبي مجلز، واسمه لاحق بن حميد.

(٢) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «أنَّ». وكذا وقع في «حاشية الشهاب»، و«حاشية القونوي» (١٠/ ٤٨٣)، و«حاشية شيخ زاده» (٥/ ١١٣)، قال القونوي: أي: في أن.

(٣) كذا وقع في جميع النسخ هنا «إنفاع الغير»، وهو ليس مسموعاً، وكان حقه أن يقول: «نفع الغير»، أو: «فكيف يستطيعونه لغيرهم» كما عبر به «الكشاف». قاله الأنصاري في «حاشيته» (٣/ ٣٤٠). وقد نقل الخفاجي عن الشيخ سعدي أن المصنف استعمل لفظ (الإنفاع) في غير هذا المحل كسورة الجن وهو خطأ. وذكر الخفاجي أن أصح النسخ هنا ذكرت: «فكيف يستطيعون إيقاع الخير ودفع الضرّ عنهم»، قال: ولا إشكال على هذه النسخة، انتهى. وإنما أثبتنا لفظ (الإنفاع) لتوارد النسخ الخطية المعتمدة لدينا عليه، ولأن المصنف استعمله في غير محل في تفسيره هذا كما تقدم.

وقيل: المعبودُ الغَافِلُ عنكم والمَعبودُ المُطَّلِعُ على أَحوالِكُم.

﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾: الشِّركُ والتَّوحيدُ. وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ وأبو بَكرٍ بالتَّاءِ(١).

﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾: بل أَجَعَلوا، والهمزةُ للإنكارِ، وقولُه: ﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ صفَةٌ لـ﴿شُرَكَاءَ﴾ داخِلَةٌ في حكمِ الإنكارِ.

﴿فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾: خَلْقُ اللهِ وخَلْقُهُم، والمعنى: أَنَّهُم ما اتَّخذُوا للهِ شُركاءَ خالِقينَ مِثلَهُ حتَّى يتشابَهَ عليهِم الخَلْقُ فيقولوا: (هؤلاء خَلَقُوا كما خَلقَ اللهُ فاستَحَقُّوا العبادةَ كما استحَقَّها)، ولكنَّهُم اتَّخذوا شُركاءَ عاجِزينَ لا يقدِرونَ على ما يقدِرُ عليهِ الخَلْقُ فَضْلًا عمَّا يقدرُ عليه الخالِقُ.

﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ لا خالقَ غَيرُه فيُشاركَهُ في العبادَةِ، جعلَ الخلقَ مُوجِبَ العِبادَةِ ولازمَ استِحقاقِهَا، ثمَّ نَفاهُ عَمَّنْ سِواهُ ليدلَّ على قولِه: ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ﴾؛ أي: المُتَوَحِّدُ بالألوهيَّةِ ﴿الْقَهَّارُ﴾ الغالِبُ على كُلِّ شيءٍ.

(١٧) ـ ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾: مِن السَّحابِ، أو: مِن جانبِ السَّماءِ، أو: مِن السَّماءِ نَفسِها، فإنَّ المبادئَ مِنه.

﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ﴾: أنهارٌ، جمعُ وادٍ، وهو الموضِعُ الذي يسيلُ الماءُ فيهِ بكَثرَةٍ، فاتُّسِعَ فيه واستعملَ للماءِ الجاري فيه، وتنكيرُها لأنَّ المطرَ يأتي على تناوُبٍ بينَ البِقاعِ.

﴿بِقَدَرِهَا﴾: بمقدارِها الذي عَلِمَ اللهُ أَنَّه نافِعٌ غيرُ ضارٍّ، أو: بمقدارِها في الصِّغَرِ والكِبَرِ(٢).

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٥٨)، و«التيسير» (ص: ١٣٣).

(٢) في نسخة التفتازاني: «الصغير والكبير».

﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا﴾: رَفعَهُ، والزَّبَدُ: وَضَرُ[١] الغَلَيانِ ﴿رَّابِيًا﴾: عالِيًا.

﴿وَمِمَّا تُوْقِدون عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ﴾ يَعُمُّ الفِلِزَّاتِ[٢] كالذَّهَبِ والفِضَّةِ والحَديدِ والنُّحاسِ على وجهِ التَّهاوُنِ بها إظهارًا لكِبريائِه.

﴿ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ﴾: طلبَ حِليَةٍ ﴿أَوۡ مَتَٰعٖ﴾ كالأَواني وآلاتِ الحَربِ والحَرثِ، والمقصودُ مِن ذلك: بيانُ مَنافِعِها.

﴿زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥ﴾؛ أي: ومِمَّا تُوقِدونَ عليه زَبدٌ مثلُ زبدِ الماءِ[٣]، وهو خَبَثُه، و(مِن) للابتداءِ أو التَّبعيضِ.

وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ وحفصٌ باليَاءِ[٤] على أنَّ الضَّميرَ للنَّاسِ، وإضمارُهُ للعلمِ به.

﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَ﴾: مَثَلَ الحَقِّ والباطلِ، فإنَّه مَثَّلَ الحقَّ في إفادتِه وثباتِه بالماءِ الذي يَنزِلُ من السَّماءِ فتسيلُ به الأَودِيَةُ على قَدْرِ الحاجةِ والمَصلَحَةِ، فيُنتفعُ به أنواعَ المَنافعِ، ويَمكُثُ في الأرضِ بأنْ يَثبتَ بعضُهُ في مَناقعِه[٥] ويَسلُكَ

---

(١) الوضر: وسخ الدَّسَم ونحوه.

(٢) الفِلِزُّ بكسرِ الفاء واللامِ وتَشديدِ الزَّايِ: ما في الأرض مِن الجَواهرِ المَعدنيَّةِ كالذَّهبِ والفِضَّةِ والنُّحاسِ والرَّصاصِ. «النهاية» (مادة: فلز).

(٣) في نسخة الخيالي: «ذلك الماء».

(٤) قراءة حمزة والكسائي وحفص، والباقون بالتاء. انظر: «السبعة» (ص: ٢٥٨)، و«التيسير» (ص: ٣٣).

(٥) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «منابعه». قال الأنصاري: «مناقعه» بالقاف: جمع مِنقَع بالكسر، وهو محلُّ نَقْعِ الماءِ؛ أي: اجتماعه، وفي نسخة: «في منابعه» بالباء، وكلٌّ منهما صحيحٌ؛ لأنه محلُّ نقعِ الماء ونبعِه. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٣٤٢). وذكر الخفاجي أن (مناقعه) أظهر؛ لأنَّهُ الَّذي يُناسبُ السُّلوكَ بعدَهُ.

بعضُه في عروقِ الأرضِ إلى العيونِ والقُنيِّ والآبارِ، وبالفِلِزِّ[1] الذي يُنتفعُ به في صَوغِ الحليِّ واتخاذِ الأمتعةِ المختلفةِ، ويدومُ ذلك مدَّةً مُتطاولَةً، والباطلَ[2] في قلَّةِ نفعِه وسرعةِ زَوالِه بزَبَدِهما، وبيَّنَ ذلك بقولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗ﴾: يُجفَأُ به؛ أي: يرمي به السَّيلُ، أو الفِلِزُّ المُذابُ، وانتصابُه على الحالِ.

وقُرِئَ: (جُفالًا)[3]، والمعنى واحِدٌ.

﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ كالماءِ وخُلاصةِ الفِلِزِّ ﴿فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يَنتفعُ به أهلُها.

﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ لإيضاحِ المُشتبِهاتِ.

(١٨) ـ ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ﴾: للمُؤمنينَ الذين استجابوا ﴿لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾: الاستجابةُ الحُسْنَى.

﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ﴾ وهم الكَفَرَةُ، واللامُ مُتعلِّقَةٌ بـ﴿يَضۡرِبُ﴾ على أنَّه جَعَلَ ضَرْبَ المثلِ لشأنِ الفَريقينِ ضَرْبَ المثلِ لهما.

وقيل: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ﴾ خبرُ ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾[4]، وهي المثوبَةُ والجنَّةُ.

﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ﴾ مبتدأٌ خبرُه ﴿لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓ﴾ وهو على الأوَّلِ كلامٌ مُبتدَأٌ لبيانِ مآلِ غيرِ المُستجيبينَ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ﴾ وهو المناقشَةُ فيه بأن يحاسَبَ الرَّجلُ بذَنبِه لا يُغفرُ منه شيءٌ.

---

(١) قوله: «وبالفلز» عطف على (بالماء).

(٢) قوله: «والباطل» بالنصب عطف على «الحقَّ» في قوله: «مَثَّل الحقَّ في إفادته».

(٣) انظر: «معاني القرآن» للنحاس (٣/ ٤٨٩)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧١)، و«الكشاف» (٤/ ٣٨٩)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٣٠٨)، عن رؤبة.

(٤) قال أبو حيان في «البحر» (١٣/ ٧٠): هذا الوجه أولى.

﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾: مرجِعُهُم ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾: المستَقَرُّ، والمَخصوصُ بالذَّمِّ محذوفٌ.

(١٩) ـ ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ فيستجيبُ ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ عَمَى[1] القلبِ لا يَستَبْصِرُ فيَستجيب، والهمزةُ لإنكارِ أن يقعَ شبهةٌ في تَشابُهِهما بعدمَا ضُربَ مِن المثلِ.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: ذَوُو العُقولِ المبرَّأَةِ مِن مُشايعَةِ الإلفِ ومعارضَةِ الوَهمِ.

(٢٠) ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾: ما عقدوهُ على أنفُسِهم مِن الاعترافِ برُبوبيَّتِهِ حينَ قالوا: ﴿بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، أو ما عَهِدَ اللهُ عليهِم في كتبهِ.

﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾: ما وثَّقُوه مِن المَواثيقِ بينَهُم وبينَ اللهِ وبينَ العِبادِ، وهو تَعميمٌ بعدَ تخصيصٍ[2].

(٢١) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ مِن الرَّحِمِ ومُوالاةِ المُؤمنينَ والإيمانِ بجَميعِ الأَنبياءِ، ويندرِجُ في ذلك مُراعاةُ جميعِ حُقوقِ النَّاسِ.

﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾: وعيدَه عمومًا ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ خصوصًا، فيحاسِبونَ أَنفُسَهُم قبلَ أَنْ يُحاسَبُوا.

(٢٢) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على ما تكرهُه النَّفسُ ويخالِفُه الهوى ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾: طلبًا لرِضَاهُ لا فخوراً وسُمْعَةً ونَحوَهما.

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضَةَ ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾: بعضَه الذي وجبَ عليهِمْ إنفاقُه.

﴿سِرًّا﴾ لمَنْ لم يُعرفْ بالمالِ ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ لمَن عُرفَ به.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «أعمى».

(٢) يعني: عطفَ قولِه: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ وهو عامٌّ، على قولِه: ﴿يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾، وهو خَاصٌّ.

﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾: ويدفعونَها بها فيجازونَ الإساءةَ بالإحسانِ، أو يُتْبِعونَ الحسنةَ السَّيِّئةَ فتَمحوها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾: عاقبةُ الدُّنيا، وما ينبغي أن يكونَ مآلُ أهلِها، وهي الجنَّةُ، والجملَةُ خبرُ المَوصولاتِ إن رُفعَتْ بالابتداءِ، وإن جُعِلَت صفاتٍ لأُولي الألبابِ فاستئنافٌ بذكرِ ما استوجبُوا بتلكَ الصِّفاتِ.

(٢٣) ـ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ بدلٌ مِن ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾، أو مُبتدأٌ خبرُه: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾.

والعَدْن: الإقامَةُ؛ أي: جناتٌ يُقيمونَ فيها، وقيل: هو بُطْنانُ الجنَّةِ.

﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ عطفٌ على المرفوعِ في (يدخلون)، وإنَّما ساغَ للفَصلِ بالضَّميرِ الآخرِ، أو مفعولٌ معه، والمعنى: أنَّه يُلحَقُ بهم مَن صلحَ مِن أهلِهِم ـ وإن لم يَبلُغْ مَبلغَ فضلِهِم ـ تبعًا لهم وتعظيمًا لشأنِهِم، وهو دليلٌ على أنَّ الدَّرجةَ تَعلُو بالشَّفاعةِ، أو أن المَوصوفينَ بتلكَ الصِّفاتِ يُقرنُ بَعضُهُم ببعضٍ ـ لِمَا بينَهُم مِن القرابةِ والوُصْلةِ ـ في دخولِ الجنَّةِ زيادةً في أُنسِهِم، والتَّقييدُ بالصَّلاحِ دلالَةٌ على أنَّ مُجرَّدَ الأنسابِ لا تَنفَعُ.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ من أبوابِ المَنازلِ، أو مِن أَبوابِ الفُتوحِ والتُّحَفِ[1]، قائلين:

(٢٤) ـ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ بشارةٌ بدَوامِ السَّلامَةِ ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿عَلَيْكُم﴾[2]، أو بمَحذوفٍ؛ أي: هذا بما صَبَرتُم لا بـ﴿سَلَٰمٌ﴾ فإنَّ الخبرَ فاصِلٌ، والباءُ للسَّببيَّةِ أو البَدَليَّةِ.

---

(١) قوله: (أو من أبواب الفتوح والتحف) الفتوح جمع فتح، وهر الرزق الذي يفتح الله به عليهم مما لم يكن على بال من الأرزاق وليس التحف عطف تفسير له. انظر: «حاشية الشهاب».

(٢) قال السفاقسي: الصَّحيحُ أنَّه إنَّما يتعلَّقُ به ﴿عَلَيْكُم﴾. «حاشية السيوطي على البيضاوي» (٨/ ٣٩).

﴿فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ وقُرِئَ: (فنَعْمَ) بفتحِ النُّونِ[1]، والأصلُ: نَعِم، فسكَّنَ العينَ بنَقلِ كَسرَتِها إلى الفاءِ وبغيرِه.

(٢٥) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ﴾ يعني: مُقابلي الأوَّلين[2].

﴿مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾: مِن بَعدِمَا أَوْثَقوهُ به مِن الإقرارِ والقَبُولِ.

﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بالظُّلمِ وتَهييجِ الفِتَنِ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ عذابُ جهنَّمَ، أو سوءُ عاقِبَةِ الدُّنيا لأنَّه في مُقابلةِ ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾.

(٢٦) ـ ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾: يوسعُهُ ويُضيِّقُهُ.

﴿وَفَرِحُواْ﴾؛ أي: أهلُ مكَّةَ ﴿بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾: بما بُسِطَ لهم في الدُّنيا ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: في جَنْبِ الآخرةِ ﴿إِلَّا مَتَٰعٞ﴾: إلا مُتعةٌ لا تَدومُ؛ كعُجالَةِ الرَّاكبِ وزادِ الرَّاعي، والمعنى: أنَّهم أَشِرُوا[3] بما نَالُوا مِن الدُّنيا، ولم يَصْرِفُوه فيما يَستوجبونَ بِهِ نَعيمَ الآخرةِ، واغترُّوا بما هو في جنبِهِ نَزْرٌ قليلُ النَّفعِ سَريعُ الزَّوالِ.

(٢٧) ـ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ باقتراحِ الآياتِ بعدَ ظُهورِ المُعجِزَاتِ ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾: أَقبَلَ إلى الحَقِّ ورجعَ عَن العِنادِ، وهو جوابٌ يَجرِي مجرى التَّعجُّبِ مِن قَولِهم؛ كأنَّه قال: قُلْ لهم: ما أعظَمَ عِنادَكُم! إنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشاءُ ممَّنْ كان على صِفَتِكُم، فلا سَبيلَ إلى اهتِدائِهم وإن أُنزلَتْ كلُّ آيةٍ، ويَهدي إليه مَن أنابَ بما جئتُ به، بل بأدنى مِنه مِن الآياتِ.

---

(١) انظر: «المحتسب» (١/ ٣٥٦) عن يحيى بن وثاب.

(٢) في نسخة الخيالي: «المقابل للأولين»، وفي نسخة التفتازاني: «مقابل الأولين».

(٣) الأَشَرُ: الفَرَحُ بطرًا وكفرًا بالنِّعمَةِ.

(٢٨) ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بدلٌ مِن ﴿مَنْ﴾ أو خبرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ، ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أُنْسًا به واعتمادًا عليه ورجاءً مِنه، أو بذكرِ رَحمَتِه بعد القلقِ مِن خَشيَتِه، أو بذكرِ دَلائلِه الدالَّةِ عَلى وُجودِه ووَحدانيَّتِه، أو بكلامِه؛ يعني: القرآنَ الذي هو أقوى المُعجزاتِ.

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾: تَسكنُ إليه.

(٢٩) ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مُبتدأٌ خبرُه: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ وهو فُعْلَى مِن الطِّيبِ، قُلِبَت ياؤُه واوًا لضمَّةِ ما قبلَها مصدراً لـ(طابَ)، كبُشْرَى وزُلْفَى، ويجوزُ فيه الرَّفعُ والنَّصبُ، ولذلك قُرِئَ: (وحُسنَ مآبٍ) بالنَّصبِ[1].

(٣٠) ـ ﴿كَذَٰلِكَ﴾: مثلَ ذلك ـ يعني: إرسالَ الرُّسلِ قبلكَ ـ ﴿أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ﴾: تَقَدَّمَتْها ﴿أُمَمٌ﴾ أُرْسِلُوا إليهم، فليسَ ببِدْعٍ إرسالُكَ إليها.

﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾: لتقرأَ عليهم الكتابَ الذي أوحيناهُ إليك.

﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾: وحالُهُم أنَّهُم يكفرونَ بالبَليغِ الرَّحمَةِ، الذي أحاطَتْ بهِمْ نِعمَتُه، ووسِعَتْ كلَّ شيءٍ رَحْمَتُه، فلم يَشكُروا نِعمَهُ وخُصوصًا ما أنعمَ عليهِم بإرسالِكَ إليهِمْ، وإنزالِ القرآنِ ـ الذي هو مناطُ المَنافعِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ ـ عليهم.

وقيلَ: نزلَتْ في مُشرِكِي مكَّةَ حينَ قيلَ لهم: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [لقمان: ٦٠][2].

﴿قُلْ هُوَ رَبِّى﴾؛ أي: الرَّحمنُ خالقي ومُتوَلِّي أَمْرِي.

---

(١) نسبت لابن محيصن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧١). وقراءة الجمهور: ﴿وحُسْنُ مآب﴾.

(٢) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٧٣) من رواية الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: لا مستحقَّ للعِبادةِ سِواه ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ في نُصرَتِي عَلَيكُم ﴿وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾: مَرجِعِي ومَرجِعُكُم.

(٣١) ـ ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾ شَرطٌ حُذِفَ جَوابُهُ، والمراد منه: تَعظيمُ شَأنِ القُرآنِ، أو المبالغةُ في عِنادِ الكَفَرَةِ وتصميمِهِم؛ أي: ولو أنَّ كتابًا زُعزِعَتْ به الجبالُ عَن مَقارِّهَا ﴿أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ﴾: تصدَّعَتْ مِن خشيَةِ اللهِ عندَ قِراءتِه، أو شُقِّقَت فجُعِلَت أنهارًا وعيونًا ﴿أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ فتَقرؤُهُ، أو: فتَسمعُ وتجيبُ عندَ قِراءَتِه= لكانَ هذا القُرآنَ؛ لأنَّه الغايةُ في الإعجازِ والنِّهايةُ في التَّذكيرِ والإنذارِ.

أو: لَمَا آمَنُوا بهِ؛ كقولِه: ﴿وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ الآية [الأنعام: ١١].

وقيل: إنَّ قريشًا قالوا: يا محمَّد! إنْ سَرَّكَ أن نتَّبعكَ فسيِّر بقرآنِك الجبالَ عَن مكَّةَ حتَّى تتسِعَ لنا فنتَّخِذَ فيها بَساتينَ وقَطائِعَ، أو سخِّرْ لَنا بِهِ الرِّيحَ لنركبَها ونتَّجِرَ إلى الشَّامِ، أو ابعَثْ لَنا به قُصَيَّ بنَ كلابٍ وغيرَه مِن آبائِنا ليكلِّمُونا فيك، فنزلَتْ(١). وعلى هذا فتَقطيعُ الأرضِ: قطعُها بالسَّيرِ.

وقيل: الجوابُ مُقدَّمٌ، وهو: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ وما بينَهُما اعتراضٌ.

وتذكيرُ ﴿كُلِّمَ﴾ خاصةً لاشتِمالِ المَوْتَى على المذكَّرِ الحقيقيِّ.

---

(١) رواه أبو يعلى الموصلي في «مسنده» (٦٧٩)، وفي سنده عبد الجبار بن عمر، أبو عمر الأيلي، قال عنه يحيى بن معين: ليس بشيء، ولا يكتب حديثه. انظر: «الكامل» لابن عدي (٧/ ١٣). وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٨٥): رواه أبو يعلى من طريق عبد الجبار بن عمر الأيلي عن عبدالله بن عطاء بن إبراهيم وكلاهما وثق، وقد ضعفهما الجمهور.

وروى نحوه أيضاً الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٣٤ ـ ٥٣٥)، عن قتادة والضحاك وابن زيد.

وقد ذكره مقاتل في «تفسيره» (٢/ ٣٧٩)، والثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٢٩٨)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٣١٩)، دون راو ولا سند.

﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًا﴾: بَل للهِ القُدرةُ على كلِّ شيءٍ، وهو إضرابٌ عمَّا تَضمَّنَه ﴿لو﴾ مِن مَعنى النَّفيِ؛ أي: بل اللهُ قادِرٌ على الإتيانِ بما اقترَحُوهُ مِن الآياتِ، إلَّا أنَّ إرادَتَهُ لم تَتعلَّق بذلك لعِلْمِه بأنَّه لا تَلينُ لهُ شَكِيمَتُهُم، ويؤيِّدُ ذلك قولُه:

﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ عَن إيمانِهم مع ما رَأَوْا مِن أَحْوالِهم.

وذهبَ أكثرُهُم إلى أنَّ مَعناه: أفلَمْ يَعْلَم، لِمَا رُوِيَ أنَّ عَلِيًّا وابنَ عبَّاسٍ وجماعةً مِن الصَّحابةِ والتَّابعينَ قَرؤوا: (أفلَمْ يَتبيَّن)[١]، وهو تَفسيرُه، وإنَّما استُعملَ اليَأسُ بمعنى العلمِ لأنَّه مُسبَّبٌ عَن العلمِ بأنَّ المَيؤوسَ عَنْه لا يكونُ[٢]، ولذلك عَلَّقَه بقولِه: ﴿أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ فإنَّ مَعناه: نفيُ هُدى بَعضِ النَّاسِ لعَدَمِ تَعلُّقِ المَشيئَةِ باهتِدائِهم.

وهو على الأوَّلِ مُتعلِّقٌ بمَحذوفٍ تَقديرُه: أفلَمْ يَيْأَس الذينَ آمنوا مِن إيمانِهم علمًا مِنْهُم أَنْ لَوْ شاءَ[٣] اللهُ لهدَى النَّاسَ جميعًا، أو بـ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾[٤].

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧١)، و«المحتسب» (١/ ٣٥٧). ورواه عن علي وابن عباس الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٣٧ ـ ٥٣٨).

(٢) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «عن العلم، فإن المأيوس عنه لا يكون إلا معلومًا»، وهكذا جاءت العبارة في «حاشية الشهاب» وقال الشهاب: قوله: «فإن» بالفاء، وفي نسخة: «بأنّ» بالباء الموحدة، والأُولى أَولى، وفي نسخة: «لا يكون» بدون قوله: «إلا معلوما» فهي (كان) التامَّة، وهذه تؤيِّد ما قيل: إنّ المعنى: معلوماً انتفاؤه.

(٣) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «يشاء».

(٤) قوله: «وهو»؛ أي: ﴿أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ «على الأول»؛ أي: وهو أنَّ ﴿يَاْيۡـَٔسِ﴾ باقٍ على معناه «متعلق بمحذوف»؛ أي: وهو (عِلماً) في قوله: «تقديره: أفلم ييأس الذينَ آمنوا مِن إيمانِهم علمًا...»، وقوله: «أو بـ ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾» عطف على «محذوفٍ». انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٣٤٩).

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ﴾ مِن الكُفرِ وسُوءِ الأعمالِ ﴿قَارِعَةٌ﴾: داهيَةٌ تَقرَعُهُم وتُقَلْقِلُهُم ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ فيفزعونَ مِنْها ويتطايرُ إليهِمْ شَرَرُها.

وقيل: الآيةُ في كُفَّارِ مكَّةَ، فإنَّهُم لا يزالونَ مُصابينَ بما صنَعُوا برسولِ اللهِ، فإنَّهُ عليهِ السَّلامُ كان لا يزالُ يَبعَثُ السَّرايَا فتُغِيرُ حوالَيهم وتختَطِفُ مواشيَهم، وعلى هذا يجوزُ أَنْ يكونَ ﴿تَحُلُّ﴾ خطابًا للرَّسولِ، فإنَّه حلَّ بجَيشِهِ قريبًا مِن دارِهم عامَ الحُديبيَةِ.

﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾: الموتُ، أو القِيامَةُ، أو فَتحُ مكَّةَ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ لامتناعِ الكَذِبِ في كلامِه.

(٣٢) - ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تسليةٌ لرَسولِ اللهِ، ووعيدٌ للمُستهزئينَ به والمقترِحينَ عليه، والإملاءُ: أَنْ يُتْرَكَ ملاوةً[1] مِن الزَّمانِ في دعَةٍ وأَمْنٍ.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾؛ أي: عِقابي إيَّاهُم.

(٣٣) - ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ﴾ رقيبٌ عليهِ ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ مِن خيرٍ أو شرٍّ، لا يَخْفَى عليه شَيءٌ مِن أَعمالِهِم، ولا يفوتُ عِنْدَهُ شَيءٌ مِن جَزائِهِم، والخبرُ مَحذوفٌ تَقديرُه: كمَنْ ليسَ كذلك ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ استئنافٌ، أو عطفٌ على ﴿كَسَبَتْ﴾ إنْ جعلت (ما) مصدرية.

ويجوز أن يقدَّر ما هو خبرٌ للمبتدأ ويعطَفَ عليه (جعلوا)؛ أي: أفمَن هو بهذِهِ الصِّفَةِ لم يوحِّدُوه وجعلوا له شركاءَ، ويكونُ الظَّاهرُ فيه مَوضِعَ الضَّميرِ للتَّنبيهِ على أنَّه المُستَحِقُّ للعِبادَةِ.

---

(١) بفتحِ الميمِ وكَسرِهَا وضَمِّها، أي: حينًا وبُرهَةً. «فتوح الغيب» للطيبي (٨/ ٥٢٢).

وقوله: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ تنبيهٌ على أنَّ هؤلاءِ الشُّركاءَ لا يَستَحِقُّونَها، والمعنى: صِفُوهُم فانظُرُوا هل لهم ما يَستَحِقُّونَ به العبادةَ ويَستَأهِلُونَ الشَّرِكَةَ.

﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ﴾: بَلْ أَتُنَبِّئُونَه، وقرئ: (تُنْبِئُونَهُ) بالتَّخفيفِ[١].

﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾: بشُرَكاءَ يَستَحِقُّونَ العِبادةَ لا يَعْلَمُهُم، أو بصفاتٍ لَهُم يَستَحِقُّونَها لأَجلِها لا يَعْلَمُها، وهو العالِمُ بكُلِّ شَيءٍ.

﴿أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾: أَمْ تُسَمُّونَهُم شُركاءَ بظَاهِرٍ مِـن القَولِ مِن غيرِ حقيقَةٍ واعتبارِ مَعْنًى، كتَسمِيَةِ الزِّنجيِّ كافورًا، وهذا احتجاجٌ بَليغٌ على أسلوبٍ عجيبٍ يُنادِي على نفسهِ بالإِعجازِ.

﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾: تمويهُهُم، فتَخيَّلُوا أباطيلَ ثُمَّ خالوها حقًّا، أو: كيدُهُم للإِسلامِ بشِرْكِهم.

﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾: سبيلِ الحَقِّ. وقرأَ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وأبو عمرٍو وابنُ عامرٍ: ﴿وصَدُّوا﴾ بالفتح[٢]؛ أي: وصَدُّوا النَّاسَ عَن الإيمانِ، وقُرِئَ بالكسرِ[٣]، و: (صَدٌّ) بالتَّنوينِ[٤].

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾: يخذُلْه ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يوفِّقُه للهُدى.

(٣٤) ـ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالقَتلِ والأَسْرِ وسائرِ ما يُصيبهُمْ مِن المَصائبِ ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ لشِدَّتِه ودَوامِه ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ﴾: مِن عَذابِه، أو مِن رَحمَتِه ﴿مِن وَاقٍ﴾: حافظٍ.

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٣١٤)، و«البحر» (١٣/ ١٠٢)، عن الحسن.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٥٩)، و«التيسير» (ص: ١٣٣).

(٣) نسبت ليحيى بن وثاب، ورويت عن الكسائي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧١).

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧١) عن ابن أبي إسحاق.

(٣٥) ـ ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ صِفَتُها التي هي مَثَلٌ في الغَرابَةِ، وهو مُبتدأٌ خبرُه مَحذوفٌ عند سيبويه؛ أي: فيما قَصَصْنا عليكُم مثلُ الجنَّةِ[1].

وقيل: خبرُه: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ على طريقةِ قولِك: صِفَةُ زيدٍ أَسمَرُ، أو على حذفِ موصوفٍ؛ أي: مثلُ الجنَّةِ جنَّةٌ تَجرِي مِن تَحتِها الأنهارُ[2]، أو على زيادةِ المثلِ.

وهو[3] على قولِ سِيبويه حالٌ مِن العائدِ المَحذوفِ مِن الصِّلَةِ.

﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾؛ أي: لا يَنقَطِعُ ثَمَرُها ﴿وَظِلُّهَا﴾؛ أي: وظِلُّها كذلك لا يُنسَخُ كما يُنْسَخُ في الدُّنيَا بالشَّمسِ.

﴿تِلْكَ﴾؛ أي: الجنَّةُ المَوصوفَةُ ﴿عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ مآلُهُم ومُنتَهَى أَمرِهِم.

﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ لا غير. وفي تَرتيبِ النَّظمَيْنِ إطماعٌ للمُتَّقينَ وإِقناطٌ للكَافرينَ.

(٣٦) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني: المُسلمينَ مِن أَهلِ الكتابِ، كابنِ سلَامٍ وأصحابِهِ ومَن آمنَ مِن النَّصارى، وهم ثَمانونَ رَجلًا، أربعونَ بنَجْرانَ وثمانيةٌ باليَمنِ واثنانِ وثلاثونَ بالحَبشَةِ، أو عامَّتُهُم فإِنَّهُم كانوا يفرَحُونَ بما يُوافِقُ كتبَهُم.

﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ يعني: كَفَرَتَهُم الذين تحزَّبُوا على رَسولِ اللهِ ﷺ بالعَداوَةِ، ككَعْبِ بنِ الأَشرَفِ وأَصحابِهِ والسَّيِّدِ والعاقِبِ وأَشياعِهِمَا.

---

(١) انظر: «الكتاب» (١/ ١٤٣).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٥٠). وما سبق من قول سيبويه والذي بعده مذكور فيه.

(٣) قوله: «وهو»؛ أي: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ وهو ما يُخالِفُ شَرائِعَهُم، أو يوافِقُ ما حَرَّفوهُ مِنْها.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ جوابٌ للمُنكرينَ[1]؛ أي: قُلْ لهم: إنِّي أُمِرْتُ فيما أُنزِلَ إليَّ بأَنْ أَعبُدَ اللهَ وأوحِّدَه، وهو العمدةُ في الدِّينِ، ولا سبيلَ لَكُم إلى إنكارِهِ، وأمَّا ما تُنكِرُونَه لِمَا يخالِفُ شرائِعَكُم فليسَ ببِدْعٍ مخالفَةُ الشَّرائعِ والكتبِ الإلهيَّةِ في جُزئِيَّاتِ الأَحكامِ.

وقُرِئَ: (ولا أشركُ) بالرَّفعِ على الاستئنافِ[2].

﴿إِلَيْهِ أَدْعُواْ﴾ لا إلى غيره ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾: وإليه مَرجِعِي للجَزاءِ لا إلى غَيرِه، وهذا هو القَدْرُ المُتَّفَقُ عليه بينَ الأَنبياء، وأمَّا ما عدا ذلكَ مِن التَّفاريعِ فمِمَّا يَختَلِفُ بالأَعصارِ والأُمَمِ فلا مَعنى لإنكارِهم[3] المُخالفَةَ فيه.

(٣٧) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومِثْلَ ذلك الإنزالِ المُشتمِلِ على أصولِ الدِّياناتِ المُجْمَعِ عليها ﴿أَنزَلْنَـٰهُ حُكْمًا﴾ يحكمُ في القَضايَا والوقائعِ بما تَقتضيهِ الحِكمَةُ.

﴿عَرَبِيًّا﴾: مُترجَمًا بلسانِ العربِ لِيَسْهُلَ لهم فهمُهُ وحفظُهُ. وانتصابهُ على الحالِ.

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ التي يَدْعُونَكَ إليها لتَقريرِ دينِهم والصَّلاةِ إلى قِبلَتِهم بعدَمَا حُوِّلْتَ عنها ﴿بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ بنسخِ ذلك ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا

---

(١) في نسخة الخيالي: «للمشركين».

(٢) قراءة نافعٍ في رواية أبي خُلَيْد. انظر: «الكشاف» (٤/ ٤٠٥)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧١)، ووقع في مطبوعه: (خليل عن نافع)، وهو تحريف، وأبو خليد هو عتبة بن حماد الدمشقي. وقراءة نافع المشهورة عنه بالنصب كالباقين.

(٣) في نسخة الخيالي والتفتازاني: «لإنكار»، والمثبت من نسخة الطبلاوي.

وَاقٍ﴾ ينصرُكَ ويَمنَعُ العقابَ[١] عَنْكَ، وهو حَسمٌ لأَطماعِهِم وتهييجٌ للمُؤمنينَ على الثَّباتِ في دِينِهِم.

(٣٨) - ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ بشرًا مِثْلَك ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ نِساءً وأَوْلَادًا كما هي لكَ ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾: وما صَحَّ له ولَمْ يَكُن في وسعِه ﴿أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ تُقترَحُ عليهِ وحُكمٍ يلتمسُ منه ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فإنَّهُ المُمْلي بذلك.

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾: لكلِّ وَقتٍ وأَمَدٍ حكمٌ يُكتبُ على العبادِ على ما يَقتَضِيهِ استِصلاحُهُم.

(٣٩) - ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾: يَنسَخُ ما يَستصوِبُ نَسخَه ﴿وَيُثْبِتُ﴾ ما تَقتَضِيهِ حِكْمَتُه.

وقيل: يَمْحُو سيِّئاتِ التَّائبِ ويُثبِتُ الحَسَناتِ مَكانَها.

وقيل: يَمْحُو مِن كتابِ الحَفَظَةِ ما لا يَتعلَّقُ بهِ جزاءٌ ويتركُ غيرَهُ مُثبتًا، أو: يُثبتُ ما رآهُ وحدَهُ في صميمِ قَلبِه[٢].

وقيل: يَمْحُو قَرْنًا ويُثْبِتُ آخرينَ.

وقيل: يَمْحُو الفَاسِدَاتِ ويُثْبِتُ الكَائِنَاتِ.

وقرأَ نافِعٌ وابنُ عامرٍ وحَمزَةُ والكِسائيُّ: ﴿ويُثَبِّتُ﴾ بالتَّشديدِ[٣].

﴿وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾: أصلُ الكتبِ، وهو اللوحُ المَحفوظُ، إذ ما مِن كائنٍ إلَّا وهوَ مَكتوبٌ فيه.

---

(١) في نسخة الخيالي: «العذاب».

(٢) قوله: «أو يثبت» عطف على (ويترك غيره) «ما رآه»؛ أي: اللهُ «وحده»؛ أي: دونَ الملائكةِ «في صميم قلبه»؛ أي: قلبِ العبدِ. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٣٥٤).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٥٩).

(٤٠) ـ ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾: وكَيْفَمَا دارَت الحالُ: أَرَيْناكَ بعضَ ما أَوْعَدْناهُم أو تَوَفَّيْناكَ قبلَه ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ لا غيرَ ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾: المُجازاةُ لا عليكَ، فلا تَحْتَفِلْ بإعراضِهِم ولا تَسْتَعْجِلْ بعَذَابِهِم، فإنَّا فاعلونَ لهُ وهذا طلائِعُه:

(٤١) ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ﴾: أرضَ الكَفَرَةِ ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بما نفتحُه على المُسلمينَ مِنها.

﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾: لا رادَّ له، وحقيقتُهُ: الذي يُعقِّبُ الشَّيءَ بالإبطالِ، ومنه قيلَ لصاحبِ الحقِّ: مُعَقِّبٌ؛ لأنَّه يَقْفُو غَرِيمَهُ بالاقتضاءِ، والمعنى: أنَّه حكمٌ للإسلامِ بالإقبالِ وعلى الكُفرِ بالإدبارِ، وذلك كائنٌ لا يمكِنُ تَغييرُهُ، ومَحلُّ ﴿لَا﴾ مع المنفيِّ النَّصبُ على الحالِ؛ أي: يحكمُ نافذًا حكمُهُ.

﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فيحاسِبُهُم عمَّا قَليلٍ في الآخرَةِ بعدَمَا عَذَّبَهم بالقَتلِ والإجلاءِ في الدُّنيَا.

(٤٢) ـ ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ بأنبيائِهِم والمُؤمنينَ مِنْهُم ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ إذ لا يُؤبَهُ بمكرٍ دونَ مَكرِهِ، فإنَّه القادِرُ على ما هو المقصودُ مِنْهُ دونَ غيرِه.

﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ فيُعِدُّ جزاءَها ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ مِن الحِزبَيْنِ حيثُما يَأتيهِم العَذَابُ المُعَدُّ لهم وهُم في غَفْلَةٍ منه، وهذا كالتَّفسيرِ لِمَكرِ اللهِ بِهِم.

واللامُ تَدُلُّ على أنَّ المُرادَ بالعُقبَى: العاقِبَةُ المَحمودَةُ، مع ما في الإضافَةِ إلى ﴿ٱلدَّارِ﴾ كما عرفتَ.

وقَرَأَ ابنُ كَثيرٍ ونافِعٌ وأبو عَمرٍو: ﴿الكافِرُ﴾[1] على إرادةِ الجنسِ، وقُرِئَ:

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٥٩)، و«التيسير» (ص: ١٣٤).

(الكافرون)[١]، و: (الذين كفروا)[٢]، و: (الكـفرُ)[٣]؛ أي: أهلُه، و:(سيُعْلَم)[٤] مِن أَعْلَمَهُ: إذا أخبرَهُ.

(٤٣) ـ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ قيل: المرادُ بهم: رُؤسَاءُ اليَهودِ.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فإنَّه أظهَرَ مِن الأدلَّةِ على رِسالتي ما يُغني عن شاهدٍ يشهَدُ عَلَيْها.

﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ علمُ القُرآنِ وما أُلِّفَ عليه مِـن النَّظمِ المُعجِزِ، أو: علمُ التَّوراةِ، وهو ابنُ سَلَامٍ وأَضرابُه[٥]، أو: علمُ اللَّوحِ المَحفوظِ، وهو اللهُ؛ أي: وكَفَى بالذي يَستَحِقُّ العبادةَ وبالذي لا يعلَمُ ما في اللوحِ إلا هو شَهِيدًا بَيْنَنَا، فيُخْزِي الكاذبَ مِنَّا.

ويؤيِّدُه قراءَةُ مَن قرأَ: (ومِنْ عِنْدِه) بالكسرِ[٦].

---

(١) انظر: «المصاحف» لابن أبي داود (ص: ١٧٨)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٣١٩)، عن ابن مسعود.

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٣١٩) عن أبي بن كعب.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦١) عن بعضهم.

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦١) عن جناح بن حبيش.

(٥) اعتـرضَ عليـهِ أبـو حيَّـانَ ـ رحمَـهُ اللهُ ـ بأنَّـهُ لا يسـتقيمُ إلاَّ أن تكونَ الآيـةُ مدنيَّـةً، والجمهورُ على أنَّهـا مكِّيَّةٌ.

وقيلَ: إنَّهُ لا يُنافي كونَ الآيَةِ مكِّيَّةً، وهيَ إخبارٌ عمَّا سيشهدُوا بِهِ، أو أنَّهُم قيلَ لهُم لستُم بأهلِ كتابٍ فاسألوا أهلَهُ، فإنَّهُم في جوارِكُم، فتأمَّلْ. «حاشية الشهاب».

(٦) نسبت للنبي ﷺ، وعليٍّ وابن عباس وأُبيٍّ رضي الله عنهم، وسعيد بن جبير وعكرمة، ومجاهد بخلاف، والحسن بخلاف، وعبد الرحمن بن أبي بكرة وابن أبي إسحاق والضحاك والحكم بن عتيبة، ورُويت عن الأعمش. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» لابن خالويه (ص: ٧٢)، و«المحتسب» لابن جني (١/ ٣٥٨).

=

و﴿عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ على الأوَّلِ يَرْتَفِعُ بالظَّرفِ، فإنَّه مُعتَمِدٌ على الموصولِ، ويجوزُ أَنْ يكونَ مبتدأً والظَّرفُ خبرُهُ، وهو مُتعيِّنٌ للثَّانيةِ.

وقرئ: (ومِن عِندِهِ عُلِمَ) بالحرفِ والبِناءِ للمَفعولِ[1].

عَن رَسولِ اللهِ ﷺ: «مَن قرأ سُورةَ الرَّعدِ أُعْطِيَ مِن الأَجرِ عشرَ حَسناتٍ بوزنِ كلِّ سَحابٍ مَضَى وكلِّ سَحابٍ يكونُ إلى يومِ القِيامَةِ، وبُعِثَ يومَ القِيامَةِ مِن الموفين بعَهْدِ اللهِ»[2].

***

= ورواها الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٨٤ ـ ٥٨٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك.

وأما نسبتها للنبي ﷺ فقد قال الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٨٦) بعد أن ذكر خبرًا مرفوعًا عن النبيِّ ﷺ يؤيد هذه القراءة: وهذا خبر ليس له أصلٌ عند الثِّقات من أصحاب الزُّهري، فإذا كان ذلك كذلك، وكانت قراء الأمصار من أهل الحجاز والشَّام والعراق على القراءة الأخرى، وهي: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣]، كان التَّأويل الذي على المعنى الذي عليه قرَّاء الأمصار أولى بالصَّواب ممَّن خالفه، إذ كانت القراءة بما هم عليه مجمعون أحق بالصواب.

(١) نسبت لعلي رضي الله عنه وابن السميفع والحسن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٢)، و«المحتسب» (١/ ٣٥٨). ورواها الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٨٥ ـ ٥٨٦) عن الحسن.

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٢٠٠)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣)، من حديث أبيٍّ رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. انظر: «الفتح السماوي» (٢/ ٧٤٢)، و«الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(١٣) سورة الرعد مدنية
وآياتها ثلاث وأربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم في أول سورة البقرة، وقدمنا: أن كل سورة ابتدئت بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن، وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب، ولهذا قال: ﴿ تلك آيات الكتاب ﴾ أي هذه آيات الكتاب وهو القرآن، ثم عطف على ذلك عطف صفات فقال: ﴿ والذي أنزل إليك ﴾ أي يا محمد ﴿ من ربك الحق ﴾، وقوله: ﴿ ولكنَّ أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ كقوله: ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ اي مع هذا البيان والجلاء والوضوح لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق، والعناد، والنفاق .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾

يخبر تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه، أنه الذي بإذنه وأمره رفع السماوات بغير عمد، بل بإذنه وأمره وتسخيره رفعها عن الأرض بعداً لا تنال ولا يدرك مداها، فالسماء الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء، من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها ، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء، وبعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام، ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت، وهكذا إلى السابعة، وفي الحديث: « ما السموات السبع وما فيهن وما بينهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، والكرسي في العرش المجيد كتلك الحلقة في تلك الفلاة». وفي رواية: « العرش لا يقدر قدره إلا الله عزّ وجلّ » . وجاء عن بعض السلف: أن بعد ما بين العرش إلى الأرض مسيرة خمسين ألف سنة، وبعد ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة، وهو من ياقوتة حمراء، وقوله: ﴿ بغير عمد ترونها ﴾ السماء على الأرض مثل القبة، يعني بلا عمد، وهذا هو اللائق بالسياق، والظاهر من قوله تعالى: ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ﴾ فعلى هذا يكون قوله: ﴿ ترونها ﴾

تأكيداً لنفي ذلك، أي هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها، وهذا هو الأكمل في القدرة(١) ، وقوله تعالى: ﴿ ثم استوى على العرش﴾ تقدم تفسيره في سورة الأعراف، وأنه يمر كما جـاء من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، ولا تمثيل، تعالى الله علواً كبيراً، وقوله: ﴿وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى﴾ قيل: المراد أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة، كقوله تعالى: ﴿والشمس تجري لمستقر لها﴾، وقيل: المراد إلى مستقرهما وهو تحت العرش، وذكر الشمس والقمر لأنهما أظهر الكواكب السيارة السبعة التي هي أشرف وأعظم من الثوابت، فإذا كان قد سخر هذه فلأن يدخل في التسخير سائر الكواكب بطريق الأولى والأحرى، كما نبه بقوله تعالى: ﴿ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون﴾، مع أنه قد صرح بذلك بقوله: ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾، وقوله: ﴿ يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾ أي يوضح الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما بدأه .

۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

لما ذكر تعالى العالم العلوي، شرع في ذكر قدرته وحكمته وإحكامه للعالم السفلي، فقال: ﴿وهو الذي مد الأرض﴾ أي جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض، وأرساها بجبال راسيات شامخات، وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون، ليسقى ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم ﴿ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين﴾ أي من كل شكل صنفان ﴿ يغشي الليل النهار﴾ أي جعل كلاً منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، فإذا ذهب هذا غشيه هذا، وإذا انقضى هذا جاء الآخر فيتصرف أيضاً في الزمان كما يتصرف في المكان والسكان ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ أي في آلاء الله وحكمه ودلائله ، وقوله : ﴿وفي الأرض قطع متجاورات﴾ أي أراض يجاور بعضها بعضاً، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينفع الناس وهذه سبخة مالحة لا تنبت شيئاً، ويدخل في هذه الآية اختلاف الوان بقاع الأرض، فهذه تربة حمراء، وهذه بيضاء ، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه محجرة، وهذه سهلة، وهذه سميكة، وهذه رقيقة، والكل متجاورات، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار لا إله إلا هو ، وقوله: ﴿ وجنات من أعناب وزرع ونخيل﴾ يحتمل أن تكون عاطفة على جنات، فيكون ﴿ وزرع ونخيل﴾ مرفوعين؛ ويحتمل أن يكون معطوفاً على أعناب فيكون مجروراً، ولهذا قرأ بكل منهما طائفة

(١) وروي عن ابن عباس ومجاهد والحسن أنهم قالوا: لها عمد ولكن لا ترى فتكون جملة (ترونها) صفة لـ (عمد) أي بغير عمد مرئية، وهذا التـأويل خلاف الظاهر المتبادر وقد أشار ابن كثير رحمه الله لضعف هذا القول .

من الأئمة، وقوله: ﴿ صنوان وغير صنوان ﴾ الصنوان هو الأصول المجتمعة في منبت واحد كالرمان والتين وبعض النخيل ونحو ذلك، وغير الصنوان ما كان على أصل واحد كسائر الأشجار، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لعمر: « أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه »، وقال سفيان الثوري عن البراء رضي الله عنه: الصنوان هي النخلات في أصل واحد، وغير الصنوان المتفرقات، وقوله: ﴿ يُسقى بماء واحد ونفضّل بعضها على بعض في الأكل ﴾ قال الأعمش، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: ﴿ ونفضل بعضها على بعض في الأكل ﴾ قال: « الدقل والفارسي والحلو والحامض »[1]، أي هذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزروع في أشكالها وألوانها وطعومها وروائحها وأوراقها وازهارها، فهذا في غاية الحلاوة، وهذا في غاية الحموضة، وذا في غاية المرارة، وذا عفص، وهذا عذب، وهذا أصفر، وهذا أحمر، وهذا أبيض، وكذلك الزهورات مع أنها كلها تستمد من طبيعة واحدة وهو الماء، مع هذا الاختلاف الكثير الذي لا ينحصر ولا ينضبط، ففي ذلك آيات لمن كان واعياً، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار الذي بقدرته فاوت بين الأشياء وخلقها على ما يريد، ولهذا قال تعالى: ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾.

* وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿ وإن تعجب ﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بالمعاد، مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ودلائله في خلقه، ومع ما يعترفون به من أنه ابتدأ خلق الأشياء بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، ثم هم بعد هذا يكذبون في أنه سيعيد العالم خلقاً جديداً، فالعجب من قولهم: ﴿ أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد ﴾ وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، وأن من بدأ الخلق فالإعادة عليه أسهل، كما قال تعالى: ﴿ أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى ؟ بلى إنه على كل شيء قدير ﴾، ثم نعت المكذبين بهذا، فقال: ﴿ أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم ﴾ أي يسحبون بها في النار، ﴿ وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ أي ماكثون فيها أبداً لا يحولون عنها ولا يزولون.

* وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾

يقول تعالى: ﴿ ويستعجلونك ﴾ أي هؤلاء المكذبون، ﴿ بالسيئة قبل الحسنة ﴾ أي بالعقوبة، كما أخبر عنهم في قوله: ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ سأل سائل بعذاب واقع ﴾، وقال: ﴿ يستعجل

(١) رواه الترمذي وقال حسن غريب.

بها الذين لا يؤمنون بها﴾، وقال: ﴿وقالوا ربنا عجل لنا قطنا﴾ الآية، أي عقابنا وحسابنا، فكانوا من شدة تكذيبهم وعنادهم وكفرهم، يطلبون أن يأتيهم بعذاب الله، قال الله تعالى: ﴿وقد خلت من قبلهم المثلات﴾ أي قد أوقعنا نقمنا بالأمم الخالية، وجعلناهم عبرة وعظة لمن اتعظ بهم؛ ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمه وعفوه لعاجلهم بالعقوبة كما قال: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾، وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾ أي إنه تعالى ذو عفو وصفح وستر للناس، مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار، ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب ليعتدل الرجاء والخوف، كما قال تعالى: ﴿فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين﴾، وقال: ﴿إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ إلى أمثال ذلك من الآيات التي تجمع الرجاء والخوف، عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾ قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ أحداً العيش، ولولا وعيده وعقابه لا تكل كل أحد»[1].

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن المشركين إنهم يقولون كفراً وعناداً: لولا يأتينا بآية من ربه كما أرسل الأولون، كما تعنتوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن يزيح عنهم الجبال ويجعل مكانها مروجاً وأنهاراً، قال تعالى: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون﴾ الآية، قال الله تعالى: ﴿إنما أنت منذر﴾ إي إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التي أمرك بها، و﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾، وقوله: ﴿ولكل قوم هاد﴾ قال ابن عباس: أي ولكل قوم داع، وقال العوفي عن ابن عباس في الآية: أنت يا محمد منذر وأنا هادي كل قوم[2] عن مجاهد ﴿ولكل قوم هاد﴾ أي نبي كقوله: ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾، وقال يحيى بن رافع: ﴿ولكل قوم هاد﴾ أي قائد، وعن عكرمة: ﴿ولكل قوم هاد﴾: هو محمد ﷺ، وقال مالك ﴿ولكل قوم هاد﴾: يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ.

﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ ﴾

يخبر تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء، وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل الإناث، كما قال تعالى: ﴿ويعلم ما في الأرحام﴾ أي ما حملت من ذكر أو أنثى، أو حسن أو قبيح، أو شقي أو سعيد، أو طويل العمر أو قصيره، كقوله تعالى: ﴿هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث﴾ أي خلقكم طوراً من بعد طور، كما قال تعالى:

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.
(٢) وكذا قال الضحاك وسعيد بن جبير وغير واحد.

﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين﴾. وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكاً فيؤمر بأربع كلمات، بكتب رزقه وعمره وعمله وشقي أو سعيد»، وفي الحديث الآخر: «فيقول الملك أي رب! أذكر أم أنثى! أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيقول الله ويكتب الملك».

وقوله تعالى: ﴿وما تغيض الأرحام وما تزداد﴾، قال البخاري، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله، لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله»، وقال ابن عباس: ﴿وما تغيض الأرحام﴾ يعني السقط ﴿وما تزداد﴾، يقول ما زادت الرحم في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماماً، وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر، ومن تحمل تسعة أشهر، ومنهن من تزيد في الحمل، ومنهن من تنقص، فلذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله تعالى وكل ذلك بعلمه تعالى، وعنه: ما نقصت من تسعة وما زاد عليها، وقال الضحاك: وضعتني أمي وقد حملتني في بطنها سنتين، وولدتني وقد نبتت ثنيتي، وقال ابن جريج، عن عائشة قالت: لا يكون الحمل أكثر من سنتين قدر ما يتحرك ظل مغزل، وقال مجاهد: ﴿وما تغيض الأرحام وما تزداد﴾ قال: ما ترى من الدم في حملها وما تزداد على تسعة أشهر[1]، وقال مجاهد أيضاً ﴿وما تغيض الأرحام﴾: إراقة الدم حتى يخس الولد، ﴿وما تزداد﴾ إن لم تهرق الدم تم الولد وعظم، وقال مكحول: الجنين في بطن أمه لا يحزن ولا يغتم، وإنما يأتيه رزقه في بطن أمه من دم حيضتها فمن ثم لا تحيض الحامل، فإذا وقع إلى الأرض استهل، واستهلاله استنكاره لمكانه، فإذا قطعت سرته حوّل الله رزقه إلى ثديي أمه، حتى لا يحزن ولا يطلب ولا يغتم، ثم يصير طفلاً يتناول الشيء بكفه فيأكله، فإذا هو بلغ قال: هو الموت أو القتل أنى لي بالرزق؟ فيقول مكحول: يا ويحك، غذاك وأنت في بطن أمك، وأنت طفل صغير، حتى إذا اشتددت وعقلت قلت: هو الموت أو القتل أنى لي بالرزق؟ ثم قرأ مكحول: ﴿والله يعلم ما تحمل كل أنثى﴾ الآية، وقال قتادة: ﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾ أي بأجل، حفظ أرزاق خلقه وآجالهم وجعل لذلك أجلاً معلوماً، وفي الحديث الصحيح: ان إحدى بنات النبي ﷺ بعثت إليه أن ابناً لها في الموت، وأنها تحب أن يحضره، فبعث إليها يقول: «إن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فمروها فلتصبر ولتحتسب» الحديث بتمامه، وقوله: ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أي يعلم كل شيء مما يشاهده العباد ومما يغيب عنهم ولا يخفى عليه منه شيء ﴿الكبير﴾ الذي هو أكبر من كل شيء، ﴿المتعال﴾ أي على كل شيء، ﴿قد أحاط بكل شيء علماً﴾ وقهر كل شيء فخضعت له الرقاب ودان له العباد طوعاً وكرهاً.

سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ

(١) وبه قال الحسن البصري وقتادة والضحّاك.

يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه، وأنه سواء منهم من أسر قوله أو جهر به، فإنه يسمعه لا يخفى عليه شيء كقوله: ﴿وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى﴾، وقال: ﴿ويعلم ما تخفون وما تعلنون﴾، وقوله: ﴿ومن هو مستخف بالليل﴾ أي مختف في قعر بيته في ظلام الليل، ﴿وسارب بالنهار﴾ أي ظاهر ماش في بياض النهار وضيائه، فإن كلاهما في علم الله على السواء، كقوله تعالى: ﴿ألا حين يستغشون ثيابهم﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه﴾، وقوله: ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾ أي للعبد ملائكة يتعاقبون عليه، حرس بالليل، وحرس بالنهار، يحفظونه من الأسواء والحادثات، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فاثنان عن اليمين والشمال، يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحد من ورائه وآخر من قدامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بالليل بدلاً، حافظان وكاتبان، كما جاء في الصحيح: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار» الحديث، وفي الحديث الآخر: «إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع فاستحيوهم وأكرموهم»، وقال ابن عباس: ﴿يحفظونه من أمر الله﴾ قال: ملائكه يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه، وقال مجاهد: ما من عبد إلا له ملك موكل يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منها شيء يأتيه يريده إلا قال له الملك: وراءك، إلا شيء أذن الله فيه فيصيبه.

وقال الإمام أحمد رحمه الله، عن عبدالله قال، قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة» قالوا: وإياك يا رسول الله، قال: «وإياي، ولكن الله أعانني عليه فلا يأمرني إلا بخير»[1]. وقوله: ﴿يحفظونه من أمر الله﴾ قيل: المراد حفظهم له من أمر الله، قاله ابن عباس، وإليه ذهب مجاهد وسعيد بن جبير، وقال قتادة ﴿يحفظونه من أمر الله﴾ يحفظونه بأمر الله، وقال كعب الأحبار: لو تجلى لابن آدم كل سهل وكل حزن لرأى كل شيء من ذلك شيئاً يقيه، ولولا أن الله وكل بكم ملائكة يذبون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم إذاً لتُخُطفتم، قال أبو أمامة: ما من آدمي إلا ومعه ملك يذود عنه حتى يسلمه للذي قدر له. وقال أبو مجلز: جاء رجل إلى علي رضي الله عنه وهو يصلي، فقال: احترس، فإن ناساً يريدون قتلك، فقال: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه، إن الأجل جنة حصينة. وقال بعضهم: ﴿يحفظونه من أمر الله﴾ بأمر الله، كما جاء في الحديث أنهم قالوا: يا رسول الله أرأيت رقيا نسترقي بها، هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فقال: «هي من قدر الله»، وقال ابن أبي حاتم: «أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن قل لقومك: إنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها

(١) رواه مسلم وأحمد عن عبدالله بن مسعود.

إلى معصية الله إلا حوّل الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون »، ثم قال: إن تصديق ذلك في كتاب الله: ﴿إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[1]

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه هو الذي يسخر البرق، وهو ما يرى من النور اللامع ساطعاً من خلل السحاب، ﴿خوفاً وطمعاً﴾، قال قتادة: خوفاً للمسافر يخاف أذاه ومشقته، وطمعاً للمقيم يرجو بركته ومنفعته ويطمع في رزق الله. ﴿وينشئ السحاب الثقال﴾ أي ويخلقها منشأة جديدة، وهي لكثرة مائها ثقيلة قريبة إلى الأرض، قال مجاهد: السحاب الثقال: الذي فيه الماء، ﴿ويسبح الرعد بحمده﴾، كقوله: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾، وكان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال: « اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك »[2] .وعن أبي هريرة رفعه، أنه كان إذا سمع الرعد قال: « سبحان من يسبح الرعد بحمده »، وعن عبد الله ابن الزبير أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث، وقال: سبحان الذي يسبّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ويقول: إن هذا لوعيد شديد لأهل الأرض[3] وروى الطبراني عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: « إذا سمعتم الرعد فاذكروا الله، فإنه لا يصيب ذاكراً »، وقوله تعالى: ﴿ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء﴾ أي يرسلها نقمة ينتقم بها ممن يشاء، ولهذا تكثر في آخر الزمان؛ كما قال الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة، حتى يأتي الرجل القوم فيقول: من صعق قبلكم الغداة؟ فيقولون: صعق فلان وفلان وفلان » .

وقد روي في سبب نزولها أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً مرة إلى رجل من فراعنة العرب، فقال: « اذهب فادعه لي »، قال: فذهب إليه فقال: يدعوك رسول الله ﷺ، فقال له: من رسول الله؟ وما الله؟ أمن ذهب هو، أم من فضة هو، أم من نحاس هو؟ قال: فرجع إلى رسول الله ﷺ، فأخبره، فقال: يا رسول الله قد خبرتك أنه أعتى من ذلك، قال لي: كذا وكذا . فقال لي: « ارجع إليه ثانية »، فذهب فقال له مثلها، فرجع إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك؛ فقال: « ارجع إليه فادعه »، فرجع إليه الثالثة قال: فأعاد عليه ذلك الكلام، فبينما هو يكلمه إذ بعث الله عزّ وجلّ سحابة حيال رأسه فرعدت، فوقعت منها صاعقة فذهبت بقحف رأسه، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ويرسل الصواعق﴾ الآية[4] .وعن مجاهد قال: جاء يهودي فقال: يا محمد أخبرني عن ربك من أي شيء هو؟ من نحاس هو؟ أم من لؤلؤ، أو ياقوت؟ قال، فجاءت

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعي موقوفاً، وقد ورد نحوه في حديث مرفوع رواه ابن أبي شيبة .

(٢) رواه الترمذي والنسائي والحاكم وأحمد، وأخرجه البخاري في كتاب الأدب .

(٣) رواه مالك في الموطأ والبخاري في كتاب الأدب.

(٤) رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي وابن جرير عن أنس رضي الله عنه وأخرجه الحافظ البزار بنحوه .

صاعقة فأخذته، وأنزل الله: ﴿ويرسل الصواعق﴾ الآية، وقال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً أنكر القرآن، وكذّب النبي ﷺ، فأرسل الله صاعقة فأهلكته، وأنزل الله: ﴿ويرسل الصواعق﴾ الآية، وذكروا في سبب نزولها قصة (عامر بن الطفيل) و (أربد بن ربيعة) لما قدما على رسول الله ﷺ المدينة، فسألاه أن يجعل لهما نصف الأمر، فأبى عليهما رسول الله ﷺ، فقال له عامر بن الطفيل لعنه الله: أما والله لأملأنها عليك خيلاً جرداً، ورجالاً مرداً، فقال له رسول الله ﷺ: «يأبى الله عليك ذلك وأبناء قيلة» يعني الأنصار، ثم أنهما همّا بالفتك برسول الله ﷺ فجعل أحدهما يخاطبه، والآخر يستل سيفه ليقتله من ورائه، فحماه الله تعالى منهما وعصمه، فخرجا من المدينة، فانطلقا في أحياء العرب يجمعان الناس لحربه عليه الصلاة والسلام، فأرسل الله على (أربد) سحابة فيها صاعقة فأحرقته، وأما (عامر بن الطفيل) فأرسل الله عليه الطاعون، فخرجت فيه غدة عظيمة، فجعل يقول: يا أهل عامر غدةٌ كغدة البكر، وموتٌ في بيت سلولية، حتى ماتا لعنهما الله، وأنزل الله في مثل ذلك: ﴿ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله﴾[1]، وقوله: ﴿وهم يجادلون في الله﴾ أي يشكون في عظمته وأنه لا إله إلا هو ﴿وهو شديد المحال﴾. قال ابن جرير: شديدة مماحلته في عقوبة من طغى عليه، وعتا وتمادى في كفره، وهذه الآية شبيهة بقوله: ﴿ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين﴾، وعن علي رضي الله عنه: ﴿وهو شديد المحال﴾ أي شديد الأخذ، وقال مجاهد: شديد القوة.

لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾

﴿**له دعوة الحق**﴾ التوحيد، لا إله إلا الله[2] ﴿والذين يدعون من دونه﴾ أي ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله ﴿كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه﴾، قال علي بن أبي طالب: كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده، وهو لا يناله أبداً بيده، فكيف يبلغ فاه؟ وقال مجاهد: ﴿كباسط كفيه﴾ يدعو الماء بلسانه ويشير إليه فلا يأتيه أبداً، وقيل: المراد كقابض يده على الماء، فإنه لا يحكم منه على شيء، كما قال الشاعر:

فأصبحت مما كان بيني وبينها من الود مثل القابض الماء باليد

ومعنى هذا الكلام أن الذي يبسط يده إلى الماء إما قابضاً، وإما متناولاً له من بعد، كما أنه لا ينتفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه الذي جعله محلاً للشرب، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلهاً غيره لا ينتفعون بهم أبداً في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾.

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿١٥﴾

(١) روى هذه القصة الحافظ الطبراني عن عطاء بن يسار عن ابن عباس مفصلة أكثر من هذا.

(٢) قاله ابن عباس وقتادة.

يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذي قهر كل شيء ودان له كل شيء، ولهذا يسجد له كل شيء طوعاً من المؤمنين وكرهاً من الكافرين، ﴿وظلالهم بالغدو﴾ أي البكور، ﴿والآصال﴾ وهو آخر النهار، كقوله تعالى: ﴿أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيؤ ظلاله﴾ الآية.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو لأنهم معترفون بأنه هو الذي خلق السماوات والأرض وهو ربها ومدبرها، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم، وأولئك الآلهة لا تملك لا لنفسها ولا لعابديها بطريق الأولى نفعاً ولا ضراً، أي لا تحصل لهم منفعة ولا تدفع عنهم مضرة، فهل يستوي من عبد هذه الآلهة مع الله ومن عبد الله وحده لا شريك له فهو على نور من ربه؟ ولهذا قال: ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم﴾ أي أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب وتماثله في الخلق، فخلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره، أي ليس الأمر كذلك، فإنه لا يشابهه شيء ولا يماثله، ولا ندّ له ولا عدل، ولا وزير له ولا ولد ولا صاحبة، ﴿تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً﴾، فأنكر تعالى عليهم ذلك، حيث اعتقدوا ذلك وهو تعالى لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾، ﴿وكم من ملك في السموات﴾ الآية، وقال: ﴿إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً﴾، فإذا كان الجميع عبيداً فلم يعبد بعضهم بعضاً بلا دليل ولا برهان؟ بل بمجرد الرأي والاختراع والابتداع فحقت عليهم كلمة العذاب لا محالة، ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾.

أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه، والباطل في اضمحلاله وفنائه، فقال تعالى: ﴿أنزل من السماء ماء﴾ أي مطراً، ﴿فسالت أودية بقدرها﴾ أي أخذ كل واد بحسبه، فهذا كبير وسع كثيراً من الماء، وهذا صغير وسع بقدره، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علماً كثيراً، ومنها من لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها ﴿فاحتمل السيل زبداً رابياً﴾، أي فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زبد عالٍ عليه؛ هذا مثل، وقوله: ﴿ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع﴾ الآية؛ هذا هو المثل

الثاني وهو ما يسبك في النار من ذهب أو فضة ﴿ ابتغاء حلية ﴾ أي ليجعل حلية أو نحاساً أو حديداً فيجعل متاعاً، فإنه يعلوه زبد منه، كما يعلو ذلك زبد منه، ﴿ كذلك يضرب الله الحق والباطل ﴾، أي إذا اجتمعا لاثباتَ للباطل ولا دوام له، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء، ولا مع الذهب والفضة مما يسبك في النار، بل يذهب ويضمحل، ولهذا قال: ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء ﴾ أي لا ينتفع بـه بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي، ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح، وكذلك خبَث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب ولا يرجع منه شيء ولا يبقى إلا الماء، وذلك الذهب ونحوه ينتفع بـه، ولهذا قال: ﴿ وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال ﴾، كقوله تعالى: ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾. وقال بعض السلف: كنت إذا قرأتُ مثلاً من القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي لأن الله تعالى يقول: ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾، قال ابن عباس: هذا مثل ضربه الله احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها، فأما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع الله بـه أهله، وهو قوله: ﴿ فأما الزبد ﴾ وهو الشك ﴿ فيذهب جفاء وأما ما ينفع النـاس فيمكث في الأرض ﴾ وهو اليقين، وكما يجعل الحلي في النـار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار، فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك. وقال العوفي عن ابن عباس قوله: ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ﴾ يقول: احتمل السيل ما في الوادي من عود ودمنة، ﴿ ومما يوقدون عليه في النار ﴾ فهو الذهب والفضة والحلية والمتـاع والنحاس والحديد، فللنحاس والحديد خبث، فجعل الله مثل خبثه كزبد الماء، فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة، واما ما ينفع الأرض فما شربت من المـاء فأنبتت فجعل ذاك مثل العمل الصالح يبقى لأهله، والعمل السيء يضمحل عن أهله، كما يذهب هذا الزبد، وكذلك الهدى والحق، جاءا من عند الله فمن عمل بالحق كان له وبقي كما بقي مـا ينفع الناس في الأرض، وكذلك الحديد لا يستطاع أن يعمل منه سكين ولا سيف حتى يدخل في النار فتأكل خبثه ويخرج جيده فينتفع به، فكذلك يضمحل الباطل، فإذا كان يوم القيامة وأقيم الناس وعرضت الأعمال فيزيغ الباطل ويهلك، وينتفع أهل الحق بالحق.

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن مثل ما بعثني الله بـه من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا، وأصابت طائفة منها أخرى، إنمـا هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ؛ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني ونفع به فعلم وعلم؛ ومثل من لم يرفـــع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به».

﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ (١٨)

يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء: ﴿ للذين استجابوا لربهم ﴾ أي أطاعوا الله ورسوله وانقادوا لأوامره وصدّقوا أخباره الماضية والآتية، فلهم ﴿ الحسنى ﴾ وهو الجزاء الحسن كقوله تعالى: ﴿ وأما من آمن وعمل صالحاً

فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً﴾، وقال تعالى: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾، وقوله: ﴿والذين لم يستجيبوا له﴾ أي لم يطيعوا الله، ﴿لو أن لهم ما في الأرض جميعاً﴾ أي في الدار الآخرة، لو أنه يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ومثله معه لافتدوا به، ولكن لا يتقبل منهم، لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً ﴿أولئك لهم سوء الحساب﴾ أي في الدار الآخرة، أي يناقشون على النقير والقطمير، والجليل والحقير، ومن نوقش الحساب عذب، ولهذا قال: ﴿ومأواهم جهنم وبئس المهاد﴾.

* أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾

يقول تعالى: لا يستوي من يعلم من الناس أن الذي ﴿أنزل إليك﴾ يا محمد ﴿من ربك﴾ هو الحق الذي لا شك فيه ولا مرية، بل هو كله حق يصدق بعضه بعضاً، فأخباره كلها حق، وأوامره ونواهيه عدل، فلا يستوي من تحقق صدق ما جئت بـه يا محمد، ومن هو أعمى لا يهتدي إلى خير ولا يفهمه، ولو فهمه ما انقاد له ولا صدّقه ولا اتبعه، كقوله تعالى: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة﴾، وقال هنا: ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى﴾ أي أفهذا كهذا؟ لا استواء. وقوله: ﴿إنما يتذكر أولو الألباب﴾ أي إنما يتعظ ويعتبر أولو العقول السليمة الصحيحة؛ جعلنا الله منهم.

* ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى مخبراً عمن اتصف بهذه الصفات الحميدة بأن لهم عقبى الدار، وهي العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة ﴿الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق﴾ وليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا اؤتمن خان ﴿والذين يصلون ما أمر الله بـه أن يوصل﴾ من صلة الأرحام والإحسان إليهم وإلى الفقراء والمحاويج وبذل المعروف، ﴿ويخشون ربهم﴾ أي فيما يأتون وما يذرون من الأعمال، يراقبون الله في ذلك ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة، فلهذا أمرهم على السداد والاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم، ﴿والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم﴾ أي عن المحارم والمآثم ففطموا أنفسهم عنها لله عزّ وجلّ ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه، ﴿وأقاموا الصلاة﴾ بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي، ﴿وأنفقوا مما رزقناهم﴾ أي على الذين يجب عليهم الإنفاق لهم، من زوجات وقرابات وأجانب، من فقراء ومحاويج ومساكين، ﴿سراً وعلانية﴾ أي في السر والجهر، لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال آناء الليل وأطراف النهار، ﴿ويدرؤون

بالحسنة السيئة﴾ أي يدفعون القبيح بالحسن، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبراً واحتمالاً وصفحاً وعفواً، كقوله تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾، ولهذا قال مخبراً عن هؤلاء السعداء المتصفين بهؤلاء الصفات الحسنة بأن لهم عقبى الدار، ثم فسر ذلك بقوله: ﴿جنات عدن﴾ والعدن: الإقامة، أي جنات إقامة يخلدون فيها. وقال الضحاك في قوله: ﴿جنات عدن﴾ مدينة الجنة فيها الرسل والأنبياء والشهداء، وأئمة الهدى والناس حولهم بعد والجنات حولها، وقوله: ﴿ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم﴾ أي يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين لتقر أعينهم بهم، حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى امتناناً من الله، وإحساناً من غير تنقيص للأعلى عن درجته، كما قال تعالى: ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم﴾ الآية. وقوله: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾ أي وتدخل عليهم الملائكة من ههنا ومن ههنا للتهنئة بدخول الجنة، فعند دخولهم إياها تفد عليهم الملائكة مسلّمين مهنئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام، والإقامة في دار السلام، في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام.

روى الإمام أحمد، عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون الذين تسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته: ائتوهم فحيوهم، فتقول الملائكة: نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء ونسلم عليهم؟ فيقول: إنهم كانوا عباداً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً، وتسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء - قال - فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب ﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾»، ورواه أبو القاسم الطبراني، عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «أول ثلة يدخلون الجنة فقراء المهاجرين الذين تتقى بهم المكاره، وإذا أمروا سمعوا وأطاعوا، وإن كانت منهم حاجة إلى سلطان لم تقض حتى يموت وهي في صدره، وإن الله يدعو يوم القيامة الجنة فتأتي بزخرفها وزينتها فيقول: أين عبادي الذين قاتلوا في سبيلي وأوذوا في سبيلي وجاهدوا في سبيلي؟ ادخلوا الجنة بغير عذاب ولا حساب، وتأتي الملائكة فيسجدون ويقولون: ربنا نحن نسبّح بحمدك الليل والنهار ونقدس لك، من هؤلاء الذين آثرتهم علينا؟ فيقول الرب عزّ وجلّ: هؤلاء عبادي الذين جاهدوا في سبيلي، وأوذوا في سبيلي، فتدخل عليهم الملائكة من كل باب: ﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾»، وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ كان يزور قبور الشهداء في رأس كل حول فيقول لهم: ﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾، وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان.

وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾

هذا حال الاشقياء وصفاتهم وذكر مآلهم في الآخرة، ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون، كما أنهم اتصفوا بخلاف صفاتهم في الدنيا فأولئك كانوا يوفون بعهد الله ويصلون ما أمر الله به أن يوصل، وهؤلاء ﴿ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله بـه أن يوصل ويفسدون في الأرض﴾ كما ثبت في الحديث: «آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان» ولهذا قال: ﴿أولئك لهم اللعنة﴾ وهي الإبعاد عن الرحمة ﴿ولهم سوء الدار﴾، وهي سوء العاقبة والمـآل ﴿ومأواهم جهنم وبئس المهاد﴾. وقال أبو العالية: هي ست خصال في المنافقين، وإذا كان فيهم الظهرة على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله بعد ميثاقـه، وقطعوا مـا أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض، وإذا كانت الظهرة عليهم أظهروا الثلاث الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا .

ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾

يذكر تعالى أنه هو الذي يوسع الرزق على من يشاء ويقتر على من يشاء، لمـا له في ذلك من الحكمة والعدل، وفرح هؤلاء الكفار بمـا أوتوا من الحياة الدنيا استدراجاً لهم وإمهالا كما قال: ﴿أيحسبون أنمـا نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾، ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخر تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة فقال: ﴿وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع﴾، كما قال: ﴿قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً﴾، وقال: ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى﴾، وقال الإمام أحمد، عن المستورد أخي بني فهر قال، قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم فلينظر بم ترجع»، وأشار بالسبابة[1]، وفي الحديث الآخر أن رسول الله ﷺ مر بجدي أسك ميت، والأسك الصغير الأذنين، فقال: «والله للدنيا أهون على الله من هذا على أهله حين ألقوه»[2]

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾

يخبر تعالى عن المشركين قولهم ﴿لولا﴾ أي هلا، ﴿أنزل عليه آية من ربه﴾، كقولهم: ﴿فليأتنا بآية كما أرسل الأولون﴾ وقد تقدم الكلام على هذا غير مرة، وأن الله قادر على إجابة ما سألوا؛ ﴿قل إن الله يضل من يشاء، ويهدي إليه من أناب﴾ أي هو المضل والهادي، سواء بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا، أو لم يجبهـم إلى سؤالهم، فإن الهداية والإضلال ليس منوطاً بذلك، كما قال: ﴿وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾، وقال: ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن

(١) أخرجه مسلم في صحيحه . (٢) أخرجه مسلم أيضاً في صحيحه .

أكثرهم يجهلون﴾، ولهذا قال: ﴿قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب﴾ أي ويهدي إليه من أناب إلى الله، ورجع إليه واستعان به وتضرع لديه، ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله﴾ أي تطيب وتركن إلى جانب الله وتسكن عند ذكره، وترضى بـه مولى ونصيراً، ولهذا قال: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ أي هو حقيقي بذلك، وقوله: ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب﴾، قال ابن عباس: فرحٌ وقرة عين، وقال عكرمة: نعم ما لهم، وقال الضحاك: غبطة لهم. وقال إبراهيم النخعي: خير لهم، وقال قتادة: يقول الرجل: طوبى لك، أي أصبت خيراً، وقيل: حسنى لهم، و﴿وحسن مآب﴾ أي مرجع، وهذه الأقوال لا منافاة بينها، وروى السـدي عن عكرمة: طوبى لهم هي الجنة، وبه قال مجاهد.

وروى ابن جرير، عن شهر بن حوشب قال: طوبى شجرة في الجنة كل شجر الجنة منها أغصانها، وهكذا روى غير واحد من السلف أن طوبى شجرة في الجنة في كل دار منها غصن منها، وذكر بعضهم أن الرحمن تبارك وتعالى غرسها بيده من حبة لؤلؤة وأمرها أن تمتد، فامتدت إلى حيث يشاء الله تبارك وتعالى، وخرجت من أصلها ينابيع أنهار الجنة من عسل وخمر وماء ولبن. وروى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها»، قال: فحدثت بها النعمان بـن أبي عياش الزرقي فقال: حدثني أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام ما يقطعها. وفي صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ في قول الله تعالى: ﴿وظل ممدود﴾ قال: «في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها».

كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى وكما أرسلناك يا محمد في هذه الأمة ﴿لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك﴾ أي تبلغهم رسالة الله إليهم كذلك أرسلنا في الأمم الماضية الكافرة بالله، وقد كذب الرسل من قبلك فلك بهم أسوة، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم، قال الله تعالى: ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا﴾ أي كيف نصرناهم وجعلنا العـاقبة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة، وقوله: ﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾ أي هذه الأمة التي بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن لا يقرون به، لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بـ﴿الرحمن الرحيم﴾ ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم، وقالوا: ما ندري ما الرحمن الرحيم[1]. وفي صحيح مسلم: «إن أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن». ﴿قل هو ربي لا إله إلا هو﴾ أي هذا الذي تكفرون به أنا مؤمن بـه معترف مقر له بالربوبية والإلهية، هو ربي لا إله إلا هو ﴿عليه توكلت﴾ أي في جميع أموري، ﴿وإليه متاب﴾ أي إليـه أرجع وأنيب فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه.

(١) قاله قتادة، والحديث في صحيح البخاري.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى مادحاً للقرآن الذي أنزله على محمد ﷺ ومفضلاً له على سائر الكتب المنزلة قبله: ﴿ولو أن قرآناً سيرت به الجبال﴾ أي لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها، أو تقطع بـه الأرض وتنشق، أو تكلم بـه الموتى في قبورها، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك، لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنسان والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله ولا بسورة من مثله، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به جاحدون له، ﴿بل لله الأمر جميعاً﴾ أي مرجع الأمور كلها إلى الله عزّ وجل ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وقد يطلق اسم القرآن على كل من الكتب المتقدمة لأنه مشتق من الجمع، وفي الحديث الصحيح، قال رسول الله ﷺ: «خفف على داود القرآن، فكان يأمر بدابته أن تسرج، فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه»[(١)]، والمراد بالقرآن هو الزبور، وقوله: ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا﴾ أي من إيمان جميع الخلق ويعلموا أو يتبينوا ﴿أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً﴾ فإنه ليس ثمّ حجة ولا معجزة، أبلغ ولا أنجع في العقول والنفوس، من هذا القرآن الذي لو أنزله الله عزّ وجلّ على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي إلا وقد أوتي ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» معناه أن معجزة كل نبي انقرضت بموته وهـذا القرآن حجة باقية على الآباد لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء.

وروي أن المشركين قالوا لمحمد ﷺ: لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح، أو أحييت لنـا الموتى كما كان عيسى يحيي الموتى لقومه، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ولو أن قرآناً سيّرت به الجبال﴾[(٢)]. وقال قتادة: لو فعل هذا بقرآن غير قرآنكم لفعل بقرآنكم، وقوله: ﴿بل لله الأمر جميعاً﴾ قال ابن عباس: أي لا يصنع من ذلك إلا ما شاء ولم يكن ليفعل. وقال غير واحد من السلف في قوله: ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا﴾ أفلم يعلم الذين آمنوا، وقوله: ﴿ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم﴾ أي بسبب تكذيبهم لا تزال القوارع تصيبهم في الدنيا أو تصيب من حولهم ليتعظوا ويعتبروا، كما قال تعالى: ﴿أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون﴾، قال الحسن: ﴿أو تحل قريباً من دارهم﴾: أي القارعة، وهذا هو الظاهر من السياق، وقال العوفي عن ابن عباس ﴿تصيبهم بمـا

(١) أخرجه البخاري وأحمد عن أبي هريرة.

(٢) رواه ابن أبي حاتم، وبه قال ابن عباس والشعبي وقتادة وغير واحد في سبب نزول هذه الآية.

صنعوا قارعة﴾ قال: عذاب من السماء ينزل عليهم، ﴿أو تحل قريباً من دارهم﴾ يعني نزول رسول الله ﷺ بهم وقتاله إياهم؛ وقال عكرمة في رواية عنه ﴿قارعة﴾: أي نكبة، ﴿حتى يأتي وعد الله﴾ يعني فتح مكة، وقال الحسن البصري: يوم القيامة، وقوله: ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ أي لا ينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة: ﴿فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام﴾.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى مسلياً لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه: ﴿ولقد استهزئ برسل من قبلك﴾ أي فلك فيهم أسوة، ﴿فأمليت للذين كفروا﴾ أي أنظرتهم وأجلتهم، ﴿ثم أخذتهم﴾ أخذة رابية فكيف بلغك ما صنعت بهم وكيف كان عقابي لهم؟ كما قال تعالى: ﴿وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلي المصير﴾. وفي الصحيحين: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى: ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾ أي حفيظ عليم رقيب على كل نفس منفوسة يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر ولا يخفى عليه خافية ﴿ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه﴾، وقال تعالى: ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها﴾، وقال: ﴿سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار﴾، وقال: ﴿يعلم السر وأخفى﴾، وقال: ﴿وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير﴾، أفمن هو كذلك كالأصنام التي يعبدونها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ولا تكشف ضراً عنها ولا عن عابديها؟ وحذف هذا الجواب اكتفاء بدلالة السياق عليه، وهو قوله: ﴿وجعلوا لله شركاء﴾ أي عبدوها معه من أصنام وأنداد وأوثان، ﴿قل سموهم﴾ أي أعلمونا بهم واكشفوا عنهم حتى يعرفوا فإنهم لا حقيقة لهم، ولهذا قال: ﴿أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض﴾ أي لا وجود له، لأنه لو كان لها وجود في الأرض لعلمها، لأنه لا تخفى عليه خافية ﴿أم بظاهر من القول﴾، قال مجاهد: بظنٍّ من القول، وقال الضحاك وقتادة: بباطل من القول، أي إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر وسميتموها آلهة، ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾، ﴿بل زين للذين كفروا مكرهم﴾ قال مجاهد: قولهم أي ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه آناء الليل وأطراف النهار، كقوله تعالى: ﴿وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم﴾ الآية، ﴿وصدوا عن السبيل﴾ أي بما زين لهم من صحة ما هم عليه صدوا به عن سبيل الله، ولهذا قال: ﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾، كما قال: ﴿ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً﴾، وقال: ﴿إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل ومالهم من ناصرين﴾.

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤) * مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥)﴾

ذكر تعالى عقاب الكفار وثواب الأبرار، فقال بعد إخباره عن حال المشركين وما هم عليه من الكفر والشرك: ﴿لهم عذاب في الحياة الدنيا﴾ أي بأيدي المؤمنين قتلاً وأسراً، ﴿ولعذاب الآخرة﴾ أي المدخر مع هذا الخزي في الدنيا ﴿أشق﴾ أي من هذا بكثير كما قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين: «إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة»، وهو كما قال صلوات الله وسلامه عليه: فإن عذاب الدنيا له انقضاء، وذاك دائم أبداً في نار هي بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفاً، ووثاق لا يتصور كثافته وشدته، كما قال تعالى: ﴿فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد﴾، وقال تعالى: ﴿وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً * إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً﴾ ولهذا قرن هذا بقوله: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ أي صفتها ونعتها ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ أي سارحة في أرجائها وجوانبها، وحيث شاء أهلها يفجرونها تفجيراً، أي يصرفونها كيف شاءوا وأين شاءوا، كقوله: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن﴾ الآية، وقوله: ﴿أكلها دائم وظلها﴾ أي فيها الفواكه والمطاعم والمشارب لا انقطاع ولا فناء. وفي الصحيحين من حديث ابن عباس في صلاة الكسوف، وفيه قالوا: يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا ثم رأيناك تكعكعت، فقال: «إني رأيت الجنة - أو أريت الجنة - فتناولت منها عنقوداً، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا». وقال الحافظ أبو يعلى، عن جابر قال: بينما نحن في صلاة الظهر، إذ تقدم رسول الله ﷺ فتقدمنا، ثم تناول شيئاً ليأخذه ثم تأخر، فلما قضى الصلاة قال له أبي بن كعب: يا رسول الله صنعت اليوم في الصلاة شيئاً ما رأيناك كنت تصنعه، فقال: «إني عرضت عليّ الجنة وما فيها من الزهرة والنضرة، فتناولت منها قطفاً من عنب لآتيكم به فحيل بيني وبينه، ولو أتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا ينقصونه».

وروى الإمام أحمد والنسائي عن زيد بن أرقم قال: جاء رجل من أهل الكتاب فقال: يا أبا القاسم، تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون؟ قال: «نعم، والذي نفس محمد بيده إن الرجل منهم ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع والشهوة»، قال: إن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة وليس في الجنة الأذى، قال: «تكون حاجة أحدهم رشحاً يفيض من جلودهم كريح المسك فيضمر بطنه»، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال، قال لي رسول الله ﷺ: «إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فيخر بين يديك مشوياً»، وجاء في بعض الأحاديث أنه إذا فرغ منه عاد طائراً كما كان بإذن الله تعالى، وقد قال الله تعالى: ﴿وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة﴾، وقال: ﴿ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً﴾، وكذلك ظلها لا يزول ولا يقلص كما قال تعالى: ﴿لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلاً ظليلاً﴾. وقد تقدم في الصحيحين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب المجد الجواد المضمر السريع في ظلها مائة عام لا يقطعها» ثم قرأ: ﴿وظل ممدود﴾ وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار ليرغب في الجنة ويحذر من النار؛ ولهذا لما ذكر صفة الجنة

بما ذكر قال بعده: ﴿ تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار ﴾، كما قال تعالى: ﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة، أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾.

وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى: ﴿ والذين آتيناهم الكتاب ﴾ وهم قائمون بمقتضاه ﴿ يفرحون بما أنزل إليك ﴾ أي من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة، كما قال الله تعالى: ﴿ قل آمنوا بـه أو لا تؤمنوا – إلى قوله – إن كان وعد ربنا لمفعولاً ﴾ أي إن كان ما وعدنا الله به في كتبنا من إرسال محمد ﷺ لحقاً وصدقاً مفعولاً لا محالة وكائناً وقوله: ﴿ ومن الأحزاب من ينكر بعضه ﴾ أي ومن الطوائف من يكذب بعض ما أنزل إليك، وقال مجاهد ﴿ ومن الأحزاب ﴾: أي اليهود والنصارى ﴿ من ينكر بعضه ﴾ أي بعض ما جاءك من الحق، وهذا كما قال تعالى: ﴿ وإنَّ من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله ﴾ الآية، ﴿ قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ﴾، أي إنما بعثت بعبادة الله وحده لا شريك له، كما أرسل الأنبياء من قبلي، ﴿ إليه أدعو ﴾ أي إلى سبيله أدعو الناس، ﴿ وإليه مآب ﴾ أي مرجعي ومصيري، وقوله: ﴿ وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ﴾ أي وكما أرسلنا قبلك المرسلين وأنزلنا عليهم الكتب من السماء، كذلك أنزلنا عليك القرآن محكماً معرباً شرفناك به وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلي، الذي ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾. وقوله: ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم ﴾ أي آراءهم ﴿ بعد ما جاءك من العلم ﴾ أي من الله سبحانه، ﴿ ما لك من الله من ولي ولا واق ﴾، وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة بعد ما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية، والمحجة المحمدية على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٣٩﴾

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد رسولاً بشرياً، كذلك قد بعثنا المرسلين قبلك بشراً يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ويأتون الزوجات، ويولد لهم، وجعلنا لهم أزواجاً وذرية، وقد قال تعالى لأشرف الرسل وخاتمهم: ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ ﴾، وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «أما أنا فأصوم وأفطر وأقوم وأنام، وآكل اللحم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني». وقوله: ﴿ وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ﴾ أي لم يكن يأتي قومه بخارق، إلا إذا أذن له فيه، ليس ذلك إليه بل إلى الله عزّ وجلّ، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ﴿ لكل أجل كتاب ﴾ أي لكل مدة مضروبة كتاب مكتوب بها وكل شيء عنده

بمقدار، ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السموات والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾. وكان الضحاك يقول: ﴿لكل أجل كتاب﴾: أي لكل كتاب أجل، يعني لكل كتاب أنزل من السماء مدة مضروبة عند الله ومقدار معين، فلهذا ﴿يمحو الله ما يشاء﴾ منها ﴿ويثبت﴾ يعني حتى نسخت كلها بالقرآن الذي أنزله الله على رسوله صلوات الله وسلامه عليه، وقوله: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾ اختلف المفسرون في ذلك: فقال الثوري، عن ابن عباس: يدبر أمر السنة، فيمحو الله ما يشاء، إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت. وفي رواية ﴿يمحو الله ويثبت﴾ قال: كل شيء إلا الموت والحياة، والشقاء والسعادة، فإنه قد فرغ منهما[1]، وقال منصور: سألت مجاهداً فقلت: أرأيت دعاء أحدنا، يقول: اللهم إن كان اسمي في السعداء فأثبته فيهم، وإن كان في الأشقياء فامحه عنهم، واجعله في السعداء، فقال: حسن، ثم لقيته بعد ذلك بحول أو أكثر فسألته عن ذلك، فقال: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ الآيتين، قال: يقضى في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق أو معصية، ثم يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء، فأما كتاب السعادة والشقاوة فهو ثابت لا يغير، وقال الأعمش عن أبي وائل: إنه كان كثيراً يدعو بهذا الدعاء: اللهم إن كنت كتبتنا أشقياء فامحه، واكتبنا سعداء، وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب[2]، وقال ابن جرير، عن أبي عثمان النهدي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال وهو يطوف بالبيت ويبكي: اللهم إن كنت كتبت عليَّ شقوة أو ذنباً فامحه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب، فاجعله سعادة ومغفرة.

ومعنى هذه الأقوال أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها ويثبت منها ما يشاء، وقد يستأنس لهذا القول بما رواه الإمام أحمد، عن ثوبان قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر»[3] وثبت في الصحيح أن صلة الرحم يزيد في العمر، وفي حديث آخر: «إن الدعاء والقضاء ليعتلجان بين السماء والأرض». وقال الكلبي: يمحو من الرزق ويزيد فيه، ويمحو من الأجل ويزيد فيه، وقال العوفي عن ابن عباس: هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله، ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة، فهو الذي يمحو؛ والذي يثبت الرجل يعمل بمعصية الله وقد كان سبق له خير حتى يموت وهو في طاعة الله وهو الذي يثبت. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾ يقول: يبدل ما يشاء فينسخه، ويثبت ما يشاء فلا يبدله ﴿وعنده أم الكتاب﴾، وجملة ذلك عنده في أم الكتاب الناسخ وما يبدل وما يثبت كل ذلك في كتاب، وقال مجاهد: قالت كفار قريش لما نزلت ﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله﴾: ما نرى محمداً يملك شيئاً وقد فرغ من الأمر، فأنزلت هذه الآية تخويفاً ووعيداً لهم: إنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا ما شئنا، ونحدث في كل رمضان، فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء من أرزاق الناس ومصائبهم وما يعطيهم وما يقسم لهم. وقال الحسن البصري ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾ قال: من جاء أجله يذهب ويثبت الذي هو حي يجري إلى

---

(١) وهذا قول مجاهد أيضاً حيث قال: إلا الحياة والموت والشقاوة والسعادة فإنهما لا يتغيران.

(٢) أخرجه ابن جرير.

(٣) رواه أحمد والنسائي وابن ماجة.

أجله، وقـد اختار هـذا القول أبو جعفر بن جرير رحمه الله، وقوله: ﴿وعنده أم الكتاب﴾ قال: الحلال والحرام، وقال قتادة: أي جملة الكتاب وأصله، وقال ابن جريج عن ابن عباس: ﴿وعنده أم الكتاب﴾ قال: الذكر.

وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾

يقول تعالى لرسوله: ﴿وإما نرينك﴾ يا محمد بعض الذي نعد أعداءك من الخزي والنكال في الدنيا، ﴿أو نتوفينك﴾ أي قبل ذلك ﴿فإنما عليك البلاغ﴾ أي إنما أرسلناك لتبلغهم رسالة الله وقد فعلت ما أمرت به ﴿وعلينا الحساب﴾ أي حسابهم وجزاؤهم كقوله تعالى: ﴿إن إلينا إيابهم * ثم إن علينا حسابهم﴾. وقوله: ﴿أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ قال ابن عباس: أولم يروا أنا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض، وقال مجاهد وعكرمة: ﴿ننقصها من أطرافها﴾ قال: خرابها، وقال الحسن والضحاك: هو ظهور المسلمين على المشركين، وقال: نقصان الأنفس والثمرات وخراب الأرض، وقال الشعبي: لو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حشك[1]، ولكن تنقص الأنفس والثمرات، وقال ابن عباس في رواية: خرابها بموت علمائها وفقهائها وأهل الخير منها. وكذا قال مجاهد أيضاً: هو موت العلماء، وأنشد أحمد بن غزال:

الأرض تحيا إذا ما عاش عالمها   متى يمت عالم منها يمت طرف
كالأرض تحيا إذا ما الغيث حلَّ بها   وإن أبى عاد في أكنافها التلف

والقول الأول أولى، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية، كقوله: ﴿ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى﴾ الآية، وهذا اختيار ابن جرير.

وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾

يقول تعالى: ﴿وقد مكر الذين من قبلهم﴾ برسلهم وأرادوا إخراجهم من بلادهم فمكر الله بهم وجعل العاقبة للمتقين كقوله: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون﴾ وقوله: ﴿يعلم ما تكسب كل نفس﴾ أي أنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر وسيجزي كل عامل بعمله، ﴿وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار﴾ أي لمن تكون الدائرة والعاقبة لهم أو لأتباع الرسل، كلا، بل هي لأتباع الرسل في الدنيا والآخرة ولله الحمد والمنة.

۞ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى: يكذبك هؤلاء الكفار ويقولون: ﴿لست مرسلاً﴾ أي ما أرسلك الله، ﴿قل كفى بالله شهيداً

---

(١) الحُشّ والحِش: البستان، قال في القاموس: الحُشُّ مثلثة: المخرج لانهم كانوا يقضون حوائجهم في البساتين.

بيني وبينكم﴾ أي حسبي الله هو الشاهد عليّ وعليكم، شاهد عليّ فيما بلّغت عنه من الرسالة، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان، وقوله: ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾ قيل نزلت في عبد الله بن سلام، وهذا القول غريب، لأن هذه الآية مكية، وعبد الله بن سلام إنما أسلم في أول مقدم النبي ﷺ المدينة، والأظهر في هذا ما قاله ابن عباس: هم من اليهود والنصارى، وهو يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمد ﷺ ونعته في كتبهم المتقدمة من بشارات الأنبياء بـه، كما قال تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذين يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾، وأمثال ذلك مما فيه الإخبار عن علماء بني إسرائيل أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة.

[تمّ تفسير سورة الرعد ، ولله الحمد والمنة] .

* * *

تفسير سورة الرعد

[وهى مكية][(١)].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (١) ﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور، فقد تقدم[(٢)] فى أول سورة البقرة، وقَدَّمنا أن كل سورة تَبتدأ بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن، وتبيان أن نزوله[(٣)] من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب؛ ولهذا قال: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ أى: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن، وقيل: التوراة والإنجيل. قاله مجاهد وقتادة، وفيه نظر[(٤)]، بل هو بعيد.

ثم عطف على ذلك عطف صفات قوله: ﴿ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ أى: يا محمد، ﴿ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ ﴾ خبر تقدم مبتدؤه، وهو قوله: ﴿ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾، هذا هو الصحيح المطابق لتفسير مجاهد وقتادة. واختار ابن جرير أن تكون الواو زائدة أو عاطفة صفة[(٥)] على صفة كما قدمنا، واستشهد بقول الشاعر:

إلى المَلك القَرْمِ وابن الهُمَام ... ولَيث الكتيبة فى المُزْدَحَمْ[(٦)]

وقوله: ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴾، كقوله: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣] أى: مع هذا البيان والجلاء والوضوح، لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق والعناد والنفاق.

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) ﴾.

يخبر تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه: أنه الذى بإذنه وأمره رَفَع السموات بغير عمَد، بل بإذنه وأمره[(٧)]، وتسخيره رفعها عن الأرض بُعداً لا تنال ولا يدرك مداها، فالسماء الدنيا محيطة

---

(١) زيادة من ت، أ.

(٢) فى أ: «تقدم الكلام عليها».

(٣) فى ت، أ: «أنه نزل».

(٤) فى ت، أ: «وفيه تطويل».

(٥) فى ت، أ: «لصفة».

(٦) البيت فى تفسير الطبرى (١٦/ ٣٢١).

(٧) فى ت، أ: «بل بأمره وبإذنه».

بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها[(١)] وأرجائها، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء، وبعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام، وسمكها فى نفسها مسيرة خمسمائة عام. ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت، وبينها وبينها من البعد مسيرة خمسمائة عام، وسمكها خمسمائة عام، ثم السماء الثالثة محيطة[(٢)] بالثانية، بما فيها، وبينها[(٣)] وبينها خمسمائة عام، وسمكها خمسمائة عام، وكذا الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، كما قال [الله][(٤)] تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق: ١٢] وفى الحديث: «ما السمواتُ السبع وما فيهنّ وما بينهن فى الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فَلاَة، والكرسى فى العَرْش كتلك[(٥)] الحلقة فى تلك الفلاة[(٦)]، وفى رواية: «والعرش لا يقدر قدره إلا الله، عز وجل، وجاء عن بعض السلف أن بُعد ما بين العرش إلى الأرض مسيرة خمسين ألف سنة، وبعد ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة، وهو من ياقوتة حمراء.

وقوله: ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾: روى عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة: أنهم قالوا: لها عَمَد ولكن لا ترى.

وقال إياس بن معاوية: السماء على الأرض مثل القبة، يعنى بلا عمد. وكذا روى عن قتادة، وهذا هو اللائق بالسياق. والظاهر من قوله تعالى: ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [الحج: ٦٥]، فعلى هذا يكون قوله: ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ تأكيدا لنفى ذلك، أى: هى مرفوعة بغير عمد كما ترونها. هذا هو الأكمل فى القدرة. وفى شعر أمية بن أبى الصلت الذى آمن شعره وكفر قلبه، كما ورد فى الحديث[(٧)]، ويروى لزيد بن عمرو بن نفيل، رحمه الله ورضى عنه:

وأنتَ الذى مِنْ فَضْلِ مَنٍّ وَرَحْمَةٍ ... بَعَثْتَ إلى مُوسَى رَسُولاً مُنَاديا
فقلت له: فاذهَبْ وهارونَ فادعُوَا ... إلى الله فرْعَونَ الذى كانَ طَاغيا
وَقُولاَ له: هَلْ أنتَ سَوّيت هَذه ... بلا[وتَد حتَّى اطمأنت[(٨)] كَمَا هيا
وقُولا لَه: أأنتَ رَفَّعتَ هَذه ... بلا][(٩)]عَمَد أرفقْ إذَا بكَ بانيَا؟
وقَوُلا لَه: هَل أنتَ سَوَّيت وَسْطَهَا ... مُنيراً إذا ما جَنَّك اللَيَّل هاديا

---

(١) فى ت، أ: «جهاتها ونواحيها». (٢) فى ت: «تحيط». (٣) فى أ: «بينهما».
(٤) زيادة من أ. (٥) فى أ: «كمثل».
(٦) سبق الكلام على هذا الحديث والذى بعده مفصلاً عند تفسير الآية: ٢٥٥ من سورة البقرة.
(٧) رواه ابن عبد البر فى التمهيد (٧/٤) من طريق أبى بكر الهذلى عن عكرمة قال: قلت لابن عباس: أرأيت ما جاء عن النبى ﷺ فى أمية بن أبى الصلت: «آمن شعره وكفر قلبه؟» قال: هو حق فما أنكرتم من ذلك ؟. . . الحديث.
(٨) فى ت أ: «استقلت»، والمثبت من سيرة ابن هشام.
(٩) زيادة من ت، أ، وسيرة ابن هشام.

وقُولا له: مَنْ يُرسِلُ الشَّمس غُدوةً ... فيُصبحَ مامَسَّتْ مِنَ الأرضِ ضَاحيا؟
وَقُولا له: مَن يُنبت الحَبَّ فى الثَّرَى ... فيُصبحَ منه العُشب يَهْتَزُّ رَابيا؟
وَيُخْرجُ منه حَبَّة فى رؤوسه ... فَفى ذَاكَ آياتٌ لِمنْ كَانَ وَاعيًا[١]

وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾: تقدم تفسير ذلك فى سورة «الأعراف»[٢]، وأنه يُمَرَّر[٣] كما جاء من غير تكييف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل، تعالى الله علوا كبيرا.

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: قيل: المراد أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة، كما فى قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨].

وقيل: المراد إلى مستقرهما، وهو تحت العرش مما يلى بطن الأرض من الجانب الآخر، فإنهما وسائر الكواكب إذا وصلوا هنالك، يكونون أبعد ما يكون[٤] عن العرش؛ لأنه على الصحيح الذى تقومُ عليه الأدلة، قبة مما يلى العالم من هذا الوجه، وليس بمحيط كسائر الأفلاك؛ لأنه[٥] له قوائم وحَمَلَة يحملونه. ولا يتصوّر هذا فى الفلك المستدير، وهذا واضح لمن تَدَبَّر ما وَرَدَتْ به الآيات والأحاديث الصحيحة، ولله الحمد والمنة.

وذكر الشمس والقمر؛ لأنهما أظهر الكواكب السيارة السبعة، التى هى أشرف وأعظم من الثوابت، فإذا كان قد سخر هذه، فَلأن يدخل فى التسخير سائرُ الكواكب بطريق الأولى والأحرى، كما نبه[٦] بقوله تعالى: ﴿لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]. مع أنه قد صرح بذلك بقوله[٧]: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقوله: ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ أى: يوضح[٨] الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو، وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما ابتدأ خلقه.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ

---

(١) الأبيات فى السيرة النبوية لابن هشام (١/٢٢٨).
(٢) انظر: تفسير الآية: ٥٤.
(٣) فى ت: «يمر».
(٤) فى ت، أ: «ما يكونون».
(٥) فى ت، أ: «لأن».
(٦) فى ت: «بينه».
(٧) فى ت: «فى قوله».
(٨) فى ت، أ: «نوضح».

بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)﴾.

لما ذكر تعالى العالم العلوى، شرع فى ذكر قدرته وحكمته وإحكامه للعالم السفلى، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ﴾أى: جعلها متسعة ممتدة فى الطول والعرض، وأرساها بجبال راسيات شامخات، وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون لسقى ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح، من كل زوجين اثنين، أى: من كل شكل صنفان.

﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ أى: جعل كلا منهما [١] يطلب الآخر طلبا حثيثا، فإذا ذهب هذا غَشيه هذا، وإذا انقضى هذا جاء الآخر، فيتصرف أيضا فى الزمان كما تصرف فى المكان والسكان.

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أى: فى آلاء الله وحكمته [٢] ودلائله.

وقوله: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾ أى: أراضٍ تجاور [٣] بعضها بعضا، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينتفع به الناس، وهذه سَبَخة مالحة لا تنبت شيئا. هكذا رُوى عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جُبَيْر، والضحاك، وغيرهم.

وكذا يدخل فى هذه الآية اختلافُ ألوان بقاع الأرض، فهذه تربة حمراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه محجرة[٤]، وهذه سهلة، وهذه مرملة، وهذه سميكة، وهذه رقيقة، والكل متجاورات. فهذه بصفتها، وهذه بصفتها الأخرى، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وقوله: ﴿وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ [٥]وَنَخِيلٌ﴾: يحتمل [٦] أن تكون عاطفة على ﴿جَنَّاتٌ ﴾، فيكون ﴿وَزَرْعٍ[٧] وَنَخِيلٍ﴾ مرفوعين. ويحتمل أن يكون معطوفا على أعناب، فيكون مجرورا؛ ولهذا قرأ بكل منهما طائفة من الأئمة.

وقوله: ﴿ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾: الصنوان: هى الأصول المجتمعة فى منبت واحد، كالرمان والتين وبعض النخيل، ونحو ذلك. وغير الصنوان: ما كان على أصل واحد، كسائر الأشجار، ومنه سمى عم الرجل صنو أبيه، كما جاء فى الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لعمر: «أما شَعَرت[٨] أن عم الرجل صنو أبيه؟»[٩].

وقال سفيان الثورى، وشعبة، عن أبى إسحاق، عن البراء، رضى الله عنه: الصنوان: هى النخلات فى أصل واحد، وغير الصنوان: المتفرقات. وقاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

---

(١) فى ت: «منها». (٢) فى ت، أ: «وحكمه». (٣) فى ت: «يجاورها».
(٤) فى ت: «محجر». (٥) فى ت: «وزروع» وهو خطأ. (٦) فى ت: «تحتمل».
(٧) فى ت: «وزروع» وهو خطأ. (٨) فى أ: «أما علمت».
(٩) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٩٨٣) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه.

وقوله: ﴿ تُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾: قال الأعمش، عن أبى صالح، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ قال: «الدَّقَل والفارسى، والحُلْو والحامض». رواه الترمذى وقال: حسن غريب[1].

أى: هذا الاختلاف فى أجناس الثمرات والزروع، فى أشكالها وألوانها، وطعومها وروائحها، وأوراقها وأزهارها.

فهذا فى غاية الحلاوة وذا فى غاية الحموضة، وذا [2] فى غاية المرارة وذا عَفِص، وهذا عذب وهذا [3] جمع هذا وهذا، ثم يستحيل إلى طعم آخر بإذن الله تعالى. وهذا أصفر وهذا أحمر، وهذا أبيض وهذا أسود وهذا أزرق. وكذلك الزهورات مع أن كلها يستمد [4] من طبيعة واحدة، وهو الماء، مع هذا الاختلاف الكثير الذى لا ينحصر ولا ينضبط، ففى ذلك آيات لمن كان واعيا، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار، الذى بقدرته فاوت بين الأشياء وخلقها على ما يريد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥) ﴾.

يقول تعالى لرسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ وَإِن تَعْجَبْ﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بأمر المعاد مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ودلالاته فى خلقه على أنه القادر على ما يشاء، ومع ما يعترفون [5] به من أنه ابتدأ خلق الأشياء، فكونها بعد أن لم تكن شيئا مذكورا، ثم هم بعد هذا يكذبون خبره فى أنه سيعيد العالمين خلقا جديدا، وقد اعترفوا وشاهدوا ما هو أعجب مما كذبوا به، فالعجب من قولهم: ﴿ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾، وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، وأن من بدأ الخلق فالإعادة سهلة عليه، كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

ثم نعت المكذبين بهذا فقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ﴾ أى: يُسْحَبُون بها فى النار، ﴿ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ أى: ماكثون فيها أبدا، لا يحولون عنها ولا يزولون.

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ

(١) سنن الترمذى برقم (٣١١٨). والدقل: الردىء واليابس من التمر. والفارسى: نوع من التمر.
(٢) فى ت: «وهذا».
(٣) فى ت، أ: «وهذا قد جمع».
(٤) فى ت: «تستمد».
(٥) فى ت، أ: «يعرفون».

لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦) ﴾.

يقول تعالى: ﴿ **وَيَسْتَعْجِلُونَكَ**[1] ﴾ أى: هؤلاء المكذبون ﴿ **بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ** ﴾ أى: بالعقوبة، كما أخبر عنهم فى قوله: ﴿ **وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ . لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ** ﴾ [الحجر: ٦ ـ ٨]، وقال تعالى: ﴿ **وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ . يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ** ﴾ [العنكبوت: ٥٣، ٥٤]، وقال: ﴿ **سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ** ﴾ [المعارج: ١]، وقال: ﴿ **يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ** ﴾ [الشورى: ١٨]، ﴿ **وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ** ﴾ [ص: ١٦] أى: حسابنا وعقابنا، كما قال مخبرا عنهم: ﴿ **وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ [الأنفال: ٣٢]، فكانوا[2] يطلبون من الرسول أن يأتيهم بعذاب الله، وذلك من شدة تكذيبهم وكفرهم وعنادهم.

قال الله تعالى: ﴿ **وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ** ﴾ أى: قد أوقعنا نقمتنا بالأمم الخالية وجعلناهم مثلة وعبرة وعظة لمن اتعظ بهم.

ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمه وعفوه [وغفره][3] لعاجلهم بالعقوبة، كما قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا**[4] **مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ** ﴾ [فاطر: ٤٥].

وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة: ﴿ **وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ** ﴾ أى: إنه ذو عفو وصفح[5] وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار. ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب، ليعتدل الرجاء والخوف، كما قال تعالى: ﴿ **فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ** ﴾ [الأنعام: ١٤٧]، وقال: ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، وقال: ﴿ **نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ** ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، إلى أمثال ذلك من الآيات التى تجمع الرجاء والخوف.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن على بن زيد، عن سعيد بن المسيَّب قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ **وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾، قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله وتجاوُزه، ما هنأ أحداً العيش[6]، ولولا وعيده[7] وعقابه، لاتكل كل أحد»[8].

وروى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة الحسن بن عثمان أبى حسان الزيادى: أنه رأى رب العزة فى

(١) فى ت، أ: «ويستعجلك» وهو خطأ. (٢) فى ت: «وكانوا». (٣) زيادة من أ.
(٤) فى ت: «الناس بظلمهم» وهو خطأ. (٥) فى ت: «ذو صفح وغفر». (٦) فى ت: «العريش».
(٧) فى ت: «وعده».
(٨) ورواه الواحدى فى الوسيط (٣/٦) من طريق محمد بن أيوب، عن موسى بن إسماعيل، به مرسلاً.

النوم، ورسول الله ﷺ واقف بين يديه يشفع فى رجل من أمته، فقال له: ألم يكفك أنى أنزلت عليك فى سورة الرعد: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾؟ قال: ثم انتبهت[١].

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ⑦ ﴾.

يقول تعالى إخباراً عن المشركين أنهم يقولون كفرا وعنادا: لولا يأتينا بآية من ربه كما أرسل الأولون، كما تعتنوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهبا، وأن يزيل[٢] عنهم الجبال، ويجعل مكانها مروجا وأنهاراً، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلا أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء:٥٩].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ﴾ أى: إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التى أمرك بها، ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، أى: ولكل قوم داع.

وقال العوفى، عن ابن عباس فى تفسيرها: يقول الله تعالى: أنت يا محمد منذر، وأنا هادى كل قوم، وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جُبَيْر، والضحاك.

وعن مجاهد: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أى: نبى. كما قال: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]. وبه قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد.

وقال أبو صالح، ويحيى بن رافع: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أى: قائد.

وقال أبو العالية: الهادى: القائد، والقائد: الإمام، والإمام: العمل.

وعن عِكْرِمة، وأبى الضُّحى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قالا: هو محمد [رسول الله][٣] ﷺ.

وقال مالك: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾: منَ يدعوهم إلى الله، عز وجل.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنى أحمد بن يحيى الصوفى، حدثنا الحسن بن الحسين الأنصارى، حدثنا معاذ بن مسلم بياع الهروى، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: لما نزلت: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، قال: وضع رسول الله ﷺ يده على صدره، وقال: «أنا المنذر، ولكل قوم هاد». وأومأ بيده إلى منكب علىٍّ، فقال: «أنت الهادى يا على، بك يهتدى المهتدون من بعدى».

وهذا الحديث فيه نكارة شديدة[٤].

(١) تاريخ دمشق (٤/ ٤٧١ «المخطوط»).

(٢) فى ت، أ: «يزيح».

(٣) زيادة من أ.

(٤) تفسير الطبرى (١٦/ ٣٥٧)، وقال الذهبى فى ميزان الاعتدال (١/ ٤٨٤) بعد أن ساقه فى ترجمة الحسن بن الحسين: «رواه ابن جرير فى تفسيره، عن أحمد بن يحيى، عن الحسن، عن معاذ، ومعاذ نكرة، فلعل الآفة منه».

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا عثمان بن أبى شيبة، حدثنا المطلب بن زياد، عن السدى،عن عبد خير، عن على: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، قال: الهادى: رجل من بنى هاشم: قال الجنيد[1]: هو على بن أبى طالب، رضى الله عنه.

قال ابن أبى حاتم: وروى عن ابن عباس، فى إحدى الروايات، وعن أبى جعفر محمد بن على، نحو ذلك.

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩)﴾.

يخبر تعالى عن تمام علمه الذى لا يخفى عليه شىء، وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات، كما قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤] أى: ما حملت من ذكر أو أنثى، أو حسن أو قبيح، أو شقى أو سعيد، أو طويل العمر أو قصيره، كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: ٦] أى: خلقكم طورا من بعد طور، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤]، وفى الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله [2] ﷺ: «إن خَلْق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه ملك فيؤمر بأربع كلمات: يكتَب رزقه، وعمره، وعمله، وشقى أو سعيد»[3].

وفى الحديث الآخر: «فيقول الملك: أىْ رب، أذكر أم أنثى؟ أى رب، أشقى أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيقول الله، ويكتب المَلَك»[4].

وقوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾: قال البخارى: حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا مَعْن، حدثنا مالك، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها [5] إلا الله: لا يعلم ما فى غد إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتى المطرُ أحدٌ إلا الله، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله»[6].

---

(١) فى أ: «ابن الجنيد». (٢) فى ت: «النبى».

(٣) صحيح البخارى برقم (٣٢٠٨) وصحيح مسلم برقم (٢٦٤٣).

(٤) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٦٤٥) من حديث حذيفة بن أسيد، رضى الله عنه.

(٥) فى ت: «لا يعلمهن».

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٦٩٧).

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ﴾ يعنى: السَّقْط ﴿وَمَا تَزْدَادُ ﴾ يقول: ما زادت الرحم فى الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماما. وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر، ومنهن من تحمل تسعة أشهر، ومنهن من تزيد فى الحمل، ومنهن من تنقص، فذلك الغيض (١) والزيادة التى ذكر الله تعالى، وكل ذلك بعلمه تعالى.

وقال الضحاك، عن ابن عباس فى قوله: ﴿ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ قال: ما نقصت من تسعة وما زاد عليها.

وقال الضحاك: وضعتنى أمى وقد حملتنى فى بطنها سنتين، وولدتنى وقد نبتت ثنيَّتى.

وقال ابن جُرَيْج، عن جميلة بنت سعد، عن عائشة قالت: لا يكون الحمل أكثر من سنتين، قدر ما يتحرك ظِل مغْزَل.

وقال مجاهد: ﴿ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ قال: ما ترى من الدم فى حملها، وما تزداد على تسعة أشهر. وبه قال عطية العوفى وقتادة، والحسن البصرى، والضحاك.

وقال مجاهد أيضا: إذا رأت المرأة الدم دون التسعة زاد على التسعة، مثل أيام الحيض. وقاله عكرمة، وسعيد بن جبير، وابن زيد.

وقال مجاهد أيضا: ﴿ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ ﴾: إراقة المرأة حتى يخسَّ الولد ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ إن لم تهرق المرأة تم الولد وعظم.

وقال مكحول: الجنين فى بطن أمه لا يطلب، ولا يحزن ولا يغتم، وإنما يأتيه رزقه فى بطن أمه من دم حيضتها[٢]، فمن ثم لا تحيض الحامل. فإذا وقع إلى الأرض استهل، واستهلاله استنكار (٣) لمكانه، فإذا قطعت سرته حول الله رزقه إلى ثديى أمه حتى لا يطلب ولايحزن ولا يغتم، ثم يصير طفلا يتناول الشىء بكفه فيأكله، فإذا هو بلغ قال: هو الموت أو القتل، أنَّى لى بالرزق؟ فيقول مكحول: يا ويلك[٤] !غَذاك وأنت فى بطن أمك، وأنت طفل صغير، حتى إذا اشتددت وعقلت قلت: هو الموت أو القتل، أني لى بالرزق؟ ثم قرأ مكحول: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾.

وقال قتادة: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ أى: بأجل، حفظ أرزاق خلقه وآجالهم، وجعل لذلك أجلا معلوماً .

وفى الحديث الصحيح: أن إحدى بنات النبى ﷺ بعثت إليه: أن ابناً لها فى الموت، وأنها تحب أن يحضره. فبعث إليها يقول: «إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شىء عنده بأجل مسمى، فمروها

(١) فى ت: «الغيظ».
(٢) فى ت: «حيضها».
(٣) فى ت: «استشكار».
(٤) فى ت: «يا ويحك».

فلتصبر ولتحتسب» الحديث بتمامه[١].

وقوله: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أى: يعلم كل شيء مما يشاهده العباد ومما يغيب عنهم، ولا يخفى[٢] عليه منه شيء. ﴿الْكَبِيرُ﴾ الذى هو أكبر من كل شيء، ﴿الْمُتَعَالِ﴾ أى: على كل شيء، قد أحاط بكل شيء علما، وقهر كل شيء، فخضعت له الرقاب ودان له العباد، طوعا وكرها.

﴿ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ (١١) ﴾.

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه، سواء[٣] منهم من أسر قوله أو جهر به، فإنه يسمعه، لا يخفى عليه شيء كما قال: ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:٧]، وقال: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل:٢٥]، وقالت عائشة، رضى الله عنها: سبحان الذى وسع سمعه الأصوات، والله لقد جاءت المجادلة تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ، وأنا فى جنب البيت، وإنه ليخفى على بعض كلامها، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١].

وقوله: ﴿ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾أى: مختف فى قَعْر بيته فى ظلام الليل، ﴿ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ أى: ظاهر ماش فى بياض النهار وضيائه، فإن كليهما[٤] فى علم الله على السواء، كما قال تعالى: ﴿ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [هود:٥]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[يونس:٦١].

وقوله: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أى: للعبد ملائكة يتعاقبون عليه، حَرَس بالليل وحَرَس بالنهار، يحفظونه من الأسواء[٥] والحادثات، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فاثنان عن اليمين و[عن][٦] الشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحدا[٧] من ورائه وآخر من قدامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بالليل بدلا، حافظان وكاتبان، كما جاء فى الصحيح: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر، فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم:

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١٢٨٤) ومسلم فى صحيحه برقم (٩٢٣) من حديث أسامة بن زيد رضى الله عنه.

(٢) فى ت: «لا يخفى». (٣) فى ت: «وأنه سواء». (٤) فى ت: «كلاهما».

(٥) فى ت: «الأنواء». (٦) زيادة من ت. (٧) فى ت: «وآخر».

كيف تركتم عبادى؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون» [١]. وفى الحديث الآخر: «إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع، فاستحيوهم وأكرموهم» [٢].

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾: والمعقبات من أمر الله، وهى الملائكة.

وقال عكرمة، عن ابن عباس: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خَلَّوا عنه.

وقال مجاهد: ما من عبد إلا له [٣] مَلَك موكل، يحفظه فى نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منها شىء يأتيه يريده إلا قال الملك: وراءك إلا شىء يأذن الله فيه فيصيبه.

وقال الثورى عن حبيب بن أبى ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ قال: ذلك [٤] ملك من ملوك الدنيا، له حرس من دونه حرس.

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ يعنى: ولى الشيطان، يكون عليه الحرس. وقال عكرمة فى تفسيرها: هؤلاء الأمراء: المواكب من بين يديه ومن خلفه.

وقال الضحاك: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ قال: هو السلطان [٥] المحترس [٦] من أمر الله، وهم أهل الشرك.

والظاهر، والله أعلم، أن مُرَاد ابن عباس وعكرمة والضحاك بهذا أن حرس الملائكة للعبيد [٧] يشبه حرس هؤلاء لملوكهم وأمرائهم.

وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير هاهنا حديثاً غريباً جداً فقال:

حدثنى المثنى، حدثنا إبراهيم بن عبد السلام بن صالح القُشيرى، حدثنا على بن جرير، عن حماد بن سلمة، عن عبد الحميد بن جعفر، عن كنانة العدوى قال: دخل عثمان بن عفان على رسول الله ﷺ. فقال: يا رسول الله، أخبرنى عن العبد، كم معه من ملك [٨]؟ فقال: «ملك على يمينك على حسناتك، وهو آمر [٩] على الذى على الشمال، إذا عملت حسنة كتبت عشرا، فإذا عملت سيئة قال الذى على الشمال للذى على اليمين: أكتب؟ قال: لا، لعله يستغفر الله ويتوب. فإذا قال ثلاثا قال:

---

(١) صحيح البخارى برقم (٥٥٥، ٧٤٢٩) وصحيح مسلم برقم (٦٣٢).

(٢) رواه الترمذى فى السنن برقم (٢٨٠٠) من طريق ليث، عن نافع، عن ابن عمر، رضى الله عنه، مرفوعاً، وأوله: «إياكم والتعرى فإن معكم». الحديث. وقال الترمذى: «هذا حديث غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه».

(٣) فى ت، أ: «به». (٤) فى ت، أ: «ذكر». (٥) فى ت: «الشيطان».

(٦) فى أ: «المحروس». (٧) فى ت، أ: «للعبد». (٨) فى ت، أ: «كم ملك معه».

(٩) فى ت، أ: «وهو أمين».

نعم، اكتب أراحنا الله منه، فبئس القرين. ما أقل مراقبته لله وأقل استحياءه منا». يقول الله: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وملكان من بين يديك ومن خلفك، يقول الله: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾، وملك قابض على نصايتك، فإذا تواضعت لله رفعك، وإذا تجبرت على الله قصمك، وملكان على شفتيك، ليس يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد ﷺ، وملك قائم على فيك لا يَدَع الحية أن تدخل فى فيك، وملكان على عينيك فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمى[١]، ينزلون[٢] ملائكة الليل على ملائكة النهار؛ لأن ملائكة الليل سوى ملائكة النهار، فهؤلاء عشرون ملكا على كل آدمى وإبليس بالنهار وولده بالليل»[٣].

قال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا سفيان، حدثنى منصور، عن سالم ابن أبى الجعد عن أبيه، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة». قالوا: وإياك يا رسول الله، قال: «وإياى، ولكن أعاننى الله عليه[٤]، فلا يأمرنى إلا بخير».

انفرد بإخراجه مسلم[٥].

وقوله: ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾: قيل: المراد حفظُهم له من أمر الله. رواه على بن أبى طلحة، وغيره، عن ابن عباس. وإليه ذهب مجاهد، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النَّخَعى، وغيرهم.

وقال قتادة: ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ قال: وفى بعض القراءات: «يحفظونه بأمر الله».

وقال كعب الأحبار: لو تجلَّى لابن آدم كل سهل وحزن، لرأى كل شىء من ذلك شياطين[٦] لولا أن الله وكَّل بكم ملائكة عنكم فى مطعمكم ومشربكم وعوراتكم، إذاً لَتُخُطِّفتم.

وقال أبو أمامة[٧]: ما من آدمى إلا ومعه ملك يَذُود عنه، حتى يسلمه للذى قُدّر له.

وقال أبو مِجْلَز: جاء رجل من مُرَاد إلى على، رضى الله عنه، وهو يصلى، فقال: احترس، فإن ناساً من مراد يريدون قتلك. فقال: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدّر، فإذا جاء القَدَرُ خَليا بينه وبينه، وإن الأجل جنة حَصِينة[٨].

وقال بعضهم: ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾: بأمر الله، كما جاء فى الحديث أنهم قالوا: يا رسول الله، أرأيت رُقًى نسترقى بها، هل ترد من قَدَر الله شيئا؟ فقال: «هى من قَدَر الله»[٩].

---

(١) فى ت، أ: «على كل بنى آدم». (٢) فى ت، أ: «يبدلون».
(٣) تفسير الطبرى (١٦/ ٣٧٠).
(٤) فى ت، أ: «ولكن الله أعاننى عليه».
(٥) المسند (١/ ٣٩٧) وصحيح مسلم برقم (٢٨١٤).
(٦) فى ت، أ: «من ذلك ساء نفسه». (٧) فى أ: «أبو أسامة».
(٨) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٣٧٨).
(٩) رواه الترمذى فى السنن برقم (٢٠٦٥) من حديث أبى خزامة وقال: «حديث حسن».

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا حفص بن غياث، عن أشعث، عن جَهْم، عن إبراهيم قال: أوحى الله إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل: أن قل لقومك: إنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله، إلا تحول لهم مما يحبون إلى ما يكرهون، ثم قال: إن مصداق[١] ذلك فى كتاب الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

وقد ورد هذا فى حديث مرفوع، فقال الحافظ محمد بن عثمان بن أبى شيبة فى كتابه «صفة العرش»: حدثنا الحسن بن على، حدثنا الهيثم بن الأشعث السلمى، حدثنا أبو حنيفة اليمامى[٢] الأنصارى، عن عمير بن عبد الله[٣] قال: خطبنا على بن أبى طالب على منبر الكوفة، قال: كنت إذا سكتُّ عن رسول الله ﷺ ابتدأنى، وإذا سألته عن الخبر أنبأنى، وإنه حدثنى عن ربه، عز وجل، قال: «قال الرب: وعزتى وجلالى، وارتفاعى فوق عرشى، ما من أهل قرية ولا أهل بيت كانوا على ما كرهتُ من معصيتى، ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتى، إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابى إلى ما يحبون من رحمتى»[٤].

وهذا غريب، وفى إسناده من لا أعرفه.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣)﴾.

يخبر تعالى أنه هو الذى يسخر البرق، وهو ما يرى[٥] من النور اللامع ساطعا من خلل السحاب.

وروى ابن جرير أن ابن عباس كتب إلى أبى الجَلْد يسأله عن البرق، فقال: البرق: الماء.

وقوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾: قال قتادة: خوفا للمسافر، يخاف أذاه ومشقته، وطمعا للمقيم يرجو بركته ومنفعته، ويطمع فى رزق الله.

﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ أى: ويخلقها منشأة جديدة، وهى لكثرة مائها ثقيلة قريبة إلى الأرض.

قال مجاهد: والسحاب الثقال: الذى فيه الماء.

---

(١) فى ت، أ: «تصديق». (٢) فى هـ، ت، أ: «اليمانى» والصواب ما أثبتناه.

(٣) فى هـ، ت، أ: «عبد الملك»، والصواب ما أثبتناه.

(٤) صفة العرش برقم (١٩) والهيثم مجهول وشيخه لم أجد له ترجمة.

(٥) فى ت: «ماترى».

﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا إبراهيم بن سعد، أخبرنى أبى قال: كنت جالساً إلى جنب حُمَيْد بن عبد الرحمن فى المسجد، فمر شيخ من بنى غفار، فأرسل إليه حميد، فلما أقبل قال: يا بن أخى، وسع[١] له فيما بينى وبينك، فإنه قد صَحب رسول الله ﷺ. فجاء حتى جلس فيما بينى وبينه، فقال له حميد: ما الحديث الذى حدثتنى عن رسول الله ﷺ؟ فقال الشيخ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ينشئ السحاب، فينطق أحسن النطق، ويضحك أحسن الضحك»[٢].

والمراد ـ والله أعلم ـ أن نطقَها الرعدُ، وضحكها البرقُ.

وقال موسى بن عبيدة، عن سعد بن إبراهيم قال: يبعث الله الغيث، فلا أحسن منه مضحكا، ولا آنس منه منطقا، فضحكه البرق، ومنطقه الرعد.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا هشام بن عبيد الله الرازى، عن محمد بن مسلم قال: بلغنا أن البرق مَلَكٌ له أربعة وجوه: وجه إنسان، ووجه ثور، ووجه نسر، ووجه أسد، فإذا مَصَع[٣] بذنبه فذاك البرق[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا الحجاج، حدثنى أبو مطر، عن سالم، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا سَمع الرعْد والصواعق قال: «اللهم، لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك».

ورواه الترمذى، والبخارى فى كتاب الأدب، والنسائى فى اليوم والليلة، والحاكم فى مستدركه، من حديث الحجاج بن أرطاة، عن أبى مطر ـ ولم يسم به[٥].

وقال [الإمام][٦] أبو جعفر بن جرير: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا إسرائيل، عن أبيه[٧]، عن رجل، عن أبى هريرة، رفع الحديث قال: إنه كان إذا سمع الرعد قال: «سبحان من يُسبّح الرعد بحمده»[٨].

وروى عن على، رضى الله عنه، أنه كان إذا سمع صوت الرعد قال: سبحان من سَبَّحت له.

(١) فى ت: «أوسع».

(٢) المسند (٥/ ٤٣٥).

(٣) فى ت: «قصع».

(٤) وهذا لا أصل له من كتاب ولا سنة، وهو من الخيال.

(٥) المسند (٢/ ١٠٠) وسنن الترمذى (٣٤٥٠) والأدب المفرد برقم (٧٢٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٧٦٤)، وأما الحاكم فرواه فى المستدرك (٤/ ٢٨٦) من طريق عبد الواحد بن زياد، عن أبى مطر، به. ولم يذكر الحجاج بن أرطاة، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وأقره الذهبى، وضعف النووى هذا الحديث فى الأذكار (ص ١٦٤).

(٦) زيادة من ت، أ. (٧) فى ت، أ: «عن ليث».

(٨) تفسير الطبرى (١٦/ ٣٨٩) ورواه ابن مردويه فى تفسيره كما فى تخريج الكشاف (٢/ ١٨٤) من طريق محمد بن يحيى، عن أحمد ابن إسحاق عن أبى أحمد، عن عتاب بن زياد، عن رجل، عن أبى هريرة رفع الحدث. . . إلى آخره.

وكذا روى عن ابن عباس، والأسود بن يزيد، وطاوس: أنهم كانوا يقولون كذلك.

وقال الأوزاعى: كان ابن أبى زكريا يقول: من قال حين يسمع الرعد: سبحان الله وبحمده، لم تصبه صاعقة.

وعن عبد الله بن الزبير[١]: أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال: سبحان الذى يسبّح الرعدُ بحمده والملائكة من خيفته، ويقول: إن هذا لوعيد[٢] شديدٌ لأهل الأرض. رواه مالك فى الموطأ، والبخارى فى كتاب الأدب[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود الطيالسى، حدثنا صَدَقَة بن موسى، حدثنا محمد بن واسع، عن شتيز[٤] بن نهار، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قال ربكم عز وجل: لو أن عبيدى أطاعونى لأسقيتهم المطر بالليل، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار، ولما أسمعتهم[٥] صوت الرعد»[٦].

وقال الطبرانى: حدثنا زكريا بن يحيى الساجى، حدثنا أبو كامل الجَحْدرى، حدثنا يحيى بن كثير أبو النضر، حدثنا عبد الكريم، حدثنا عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سمعتم الرعد فاذكروا الله؛ فإنه لا يصيب ذاكرا»[٧].

وقوله: ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ ﴾ أى: يرسلها نقمَةَ ينتقم بها ممن يشاء، ولهذا تكثر فى آخر الزمان، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا محمد بن مصعب، حدثنا عمارة[٨]، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه؛ أن النبى ﷺ قال: «تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة، حتى يأتى الرجل القوم فيقول: من صُعِق تلكم[٩] الغداة؟ فيقولون صُعِق فلان وفلان وفلان»[١٠].

وقد روى فى سبب نزولها ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى:

حدثنا إسحاق، حدثنا على بن أبى سارة الشَّيبانى، حدثنا ثابت، عن أنس: أن رسول الله ﷺ بعث رَجُلا مرة إلى رجل من فراعنة العرب فقال: «اذهب فادعه لى». قال: فذهب إليه فقال: يدعوك رسول الله ﷺ. فقال له: من رسول الله؟ وما الله؟ أمِن ذهب هو؟ أم من فضة هو؟ أم من نحاس هو؟ قال: فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: يا رسول الله، قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك،

(١) فى ت، أ: «بن عمرو».
(٢) فى ت، أ: «الوعيد».
(٣) الموطأ (٢/ ٩٩٢) والأدب المفرد برقم (٧٢٤).
(٤) فى ت: «عن شمس»، وفى أ: «شمير».
(٥) فى ت: «استمعتهم».
(٦) المسند (٢/ ٣٥٩).
(٧) المعجم الكبير (١١/ ١٦٤) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٣٦): «فيه يحيى بن كثير وهو ضعيف».
(٨) فى أ: «حماد».
(٩) فى ت، أ: «قبلكم».
(١٠) المسند (٣/ ٦٤).

قال لى كذا وكذا. فقال: «ارجع إليه الثانية». أُراه، فذهب فقال له مثلها. فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك. قال: «ارجع إليه فادعه». فرجع إليه الثالثة. قال: فأعاد عليه ذلك الكلام. فبينا هو يكلمه، إذ بعث الله، عز وجل، سحابة حيال رأسه، فرَعَدت، فوقعت منها صاعقة، فذهب بقحْف رأسه فأنزل الله: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾.

ورواه ابن جرير، من حديث على بن أبى سارة، به[١]. ورواه الحافظ أبو بكر البزار، عن عبدة ابن عبد الله، عن يزيد بن هارون، عن ديلم بن غَزْوان، عن ثابت، عن أنس، فذكر نحوه[٢].

وقال: حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا عفان، حدثنا أبان بن يزيد، حدثنا أبو عمران الجَوْنى، عن عبد الرحمن بن صُحَار العبدى: أنه بلغه أن نبى الله بعثه[٣] إلى جبَّار يدعوه، فقال: أرأيتم[٤] ربكم، أذهب هو؟ أو فضة هو؟ ألؤلؤ هو؟ قال: فبينا هو يجادلهم، إذ بعث الله سحابة فرَعَدَت فأرسل عليه صاعقة فذهبت بقِحْفِ رأسه، ونزلت هذه الآية.

وقال أبو بكر بن عياش، عن ليث بن أبى سليم، عن مجاهد قال: جاء يهودى فقال: يا محمد، أخبرنى عن ربك، [من أى شىء هو][٥]، من نحاس هو؟ من لؤلؤ؟ أو ياقوت؟ قال: فجاءت صاعقة فأخذته، وأنزل الله: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾.

وقال قتادة: ذُكر لنا أنَّ رجلا أنكر القرآن، وكذَّب النبىَّ ﷺ، فأرسل الله صاعقة فأهلكته وأنزل: ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ الآية.

وذكروا فى سبب نزولها قصة عامر بن الطفيل وأربد[٦] بن ربيعة لما قدما على رسول الله ﷺ المدينة، فسألاه أن يجعل لهما نصف الأمر فأبى عليهما رسول الله ﷺ، فقال له عامر بن الطفيل ـ لعنه الله: أما والله لأملأنها عليك خيلا جرْدا ورجالا مُرْداً. فقال له رسول الله ﷺ: يأبى الله عليك ذلك وأبناء قَيْلة[٧]، يعنى: الأنصار، ثم إنهما هما بالفتك[٨] بالنبى ﷺ، وجعل أحدهما يخاطبه، والآخر يستل سيفه ليقتله من ورائه، فحماه الله منهما وعَصمه، فخرجا من المدينة فانطلقا فى أحياء العرب، يجمعان الناس لحربه، عليه السلام[٩]، فأرسل الله على أربد سحابة فيها صاعقة فأحرقته. وأما عامر بن الطفيل فأرسل الله عليه الطاعون، فخرجت فيه غُدّة عظيمة، فجعل يقول: يا آل عامر، غُدَّة كغدَّة البكْرِ، وموت فى بيت سَلُولية[١٠]؟ حتى ماتا[١١]، لعنهما الله، وأنزل الله فى مثل ذلك:

(١) مسند أبى يعلى (٦/ ١٨٣) وتفسير الطبرى (١٦/ ٣٩٢) وعلى بن أبى سارة ضعيف.

(٢) مسند البزار برقم (٢٢٢١) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٤٢): «رجال البزار، رجال الصحيح غير ديلم بن غزوان وهو ثقة».

(٣) فى ت، أ: «بعث».
(٤) فى أ: «أرأيتكم».
(٥) زيادة من ت، أ، والطبرى.
(٦) فى ت: «وأزيد».
(٧) فى ت، أ: «قبيلة».
(٨) فى أ: «بالقتل».
(٩) فى أ: «ﷺ».
(١٠) فى ت: «سلولته».
(١١) فى أ: «مات».

﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ ﴾، وفى ذلك يقول لبيد بن ربيعة، أخو أربد يرثيه:

أخشَى عَلَى أَرْبَدَ الحُتُوفَ وَلاَ ... أرْهَب نَوء السِّماك والأسَد

فَجَعَنى الرّعْدُ والصّواعِقُ بالـ ... ـفارس يَوم الكريهَة النَّجُدِ[1]

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا مَسْعَدة بن سعد[2] العطار، حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامى، حدثنى عبد العزيز بن عمران، حدثنى عبد الرحمن وعبد الله ابنا زيد بن أسلم، عن أبيهما، عن عطاء بن يسار، عن ابن عباس، أن أربد بن قيس بن جَزْء بن جليد[3] بن جعفر بن كلاب، وعامر بن الطفيل بن مالك، قدما المدينة على رسول الله ﷺ، فانتهيا إليه وهو جالس، فجلسا بين يديه، فقال عامر بن الطفيل: يا محمد، ما تجعل لى إن أسلمتُ؟ فقال رسول الله ﷺ: «لك ما للمسلمين، وعليك ما عليهم». قال عامر بن الطفيل: أتجعل لى الأمر إن أسلمت من بعدك؟ قال رسول الله ﷺ: «ليس ذلك لك ولا لقومك، ولكن لك أعنَّة الخيل». قال: أنا الآن فى أعنَّة خيل نجد، اجعل لى الوَبَر ولك المدَرَ. قال رسول الله: «لا». فلما قفلا من عنده قال عامر: أما والله لأملأنَّهَا عليك خيلا ورجالا، فقال له رسول الله ﷺ: «يمنعك الله». فلما خرج أربد وعامر، قال عامر: يا أربد، أنا أشغل عنك محمدا ﷺ بالحديث، فاضربه بالسيف، فإن الناس إذا قتلتَ محمدا لم يزيدوا على أن يرضَوا بالدية، ويكرهوا الحرب، فنعطيهم[4] الدية. قال أربد: افعل. فأقبلا راجعين إليه، فقال عامر: يا محمد، قم معى أكلمك. فقام معه رسول الله ﷺ، فجلسا إلى الجدار، ووقف معه رسول الله ﷺ يكلمه، وسَلّ أربدُ السيف، فلما وضع يده على السيف يَبست يده على قائم السيف، فلم يستطع سَلَّ السيف، فأبطأ أربد على عامر بالضرب، فالتفت رسول الله ﷺ فرأى أربد، وما يصنع، فانصرف عنهما. فلما خرج عامر وأربد من عند رسول الله ﷺ حتى إذا كانا بالحَرَّة، حَرّة واقم نزلا، فخرج إليهما سعد بن معاذ وأسَيد بن حُضَير فقالا: اشخصا يا عدوَّى الله، لعنكما الله. فقال عامر: من هذا يا سعد؟ قال: هذا أسَيد بن حُضَير الكتَائب[5]. فخرجا حتى إذا كانا بالرَّقم، أرسل الله على أربدَ صاعقة فقتلته، وخرج عامر حتى إذا كان بالخريم، أرسل الله قُرْحة فأخذته، فأدركه الليل فى بيت امرأة من بنى سلول، فجعل يمس قُرحته فى حلقه ويقول: غُدَّة كغدَّة الجمل فى بيت سَلُولية[6] ترغب أن يموت فى بيتها! ثم ركب فرسه فأحضره حتى مات عليه راجعا، فأنزل الله فيهما: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ٨ ـ ١١] ـ قال: المعقبات من أمر الله يحفظون محمداً ﷺ، ثم ذكر أربد وما قتله به، فقال: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾ الآية[7].

---

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٣٧٩ ـ ٣٨٢) عن ابن زيد.

(٢) فى هـ، ت: «سعيد» وما أثبتناه هو الصواب؛ لوقوعه فى المعجم الكبير والصغير هكذا، ولم أجد له ترجمة.

(٣) فى أ: «خالد».

(٤) فى ت، أ: «فستعطيهم». (٥) فى ت، أ: «الكاتب». (٦) فى ت: «سلولته».

(٧) المعجم الكبير (١٠/ ٣٧٩ ـ ٣٨١) وفيه عبد العزيز بن عمران، وعبد الرحمن وعبد الله ابنا زيد بن أسلم، وكلهم ضعاف.

وقوله: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ أى: يَشكّون فى عظمته، وأنه لا إله إلا هو، ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾.

قال ابن جرير: شديدة مماحَلَته فى عقوبة من طغى عليه وعتّا وتمادى فى كفره.

وهذه الآية شبيهة بقوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ. فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥٠، ٥١].

وعن على، رضى الله عنه: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ أى: شديد الأخذ. وقال مجاهد: شديد القوة.

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلا فِي ضَلالٍ (١٤)﴾.

قال على بن أبى طالب، رضى الله عنه: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ قال: التوحيد. رواه ابن جرير.

وقال ابن عباس، وقتادة، ومالك عن محمد بن المنْكَدِر: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ [قال][١]: لا إله إلا الله.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ[٢] مِن دُونِهِ﴾ أى: ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله. ﴿كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾: قال على بن أبى طالب: كمثل الذى يتناول الماء من طرف البئر بيده، وهو لا يناله أبدا بيده، فكيف يبلغ فاه؟

وقال مجاهد: ﴿كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ﴾: يدعو الماء بلسانه، ويشير إليه [بيده][٣]، فلا يأتيه أبدا.

وقيل: المراد كقابض يده على الماء، فإنه لا يحكم منه على شىء، كما قال الشاعر[٤]:

فَإِنِّى وَإِيَّاكُمْ وَشَوْقاً إليكمُ ... كَقَابِضِ مَاء لَم تَسقْه[٥] أنامِلُه

وقال الآخر[٦]:

فأصبَحْتُ ممّا كانَ بَيْنِى وبَيْنَها ... مِن الوُدِّ مِثْلَ القَابِضِ الْمَاءَ بِاليَد

ومعنى الكلام: أن هذا الذى يبسط يده إلى الماء، إما قابضا وإما متناولا له من بُعد، كما أنه لا

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى ت: «تدعون». (٣) زيادة من ت، أ، والطبرى.

(٤) هو ضابئ بن الحارث البرجمى، والبيت فى تفسير الطبرى (١٦/ ٣٩٩) وأورده البغدادى فى خزانة الأدب (٤/ ٨٠) من أبيات سبعة قالها فى الحبس. ا هـ مستفاداً من حاشية الشعب.

(٥) فى ت: «يسقه».

(٦) هو الأحوص بن محمد الأنصارى، والبيت فى تفسير الطبرى (١٦/ ٤٠٠).

ينتفع بالماء الذى لم يصل إلى فيه، الذى جعله محلا للشرب، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلها غيره، لا ينتفعون بهم أبدا فى الدنيا ولا فى الآخرة؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلا فِي ضَلالٍ﴾.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (١٥)﴾.

يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذى قهر كل شىء، ودان له كل شىء. ولهذا يسجُد له كلّ شىء طوعاً من المؤمنين، وكرها من المشركين، ﴿ وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ ﴾ أى: البُكر[١] والآصال، وهو جمع أصيل وهو آخر النهار، كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ [النحل: ٤٨].

﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦)﴾.

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو؛ لأنهم معترفون[٢] أنه هو الذى خلق السموات والأرض، وهو ربها ومدبّرها، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم، وأولئك الآلهة لا تملك لنفسها[٣]، ولا لعابديها بطريق الأولى ﴿نَفْعًا وَلا ضَرًّا﴾ أى: لا تحصل منفعة، ولا تدفع مضرة. فهل يَستَوى من عبد هذه الآلهة مع الله، ومن عبد الله وحده لا شريك له، وهو على نور من ربه؟ ولهذا قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي[٤] الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أى: أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الربّ وتماثله فى الخلق، فخلقوا كخلقه، فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره؟ أى: ليس الأمر كذلك، فإنه لا يشابهه شىء ولا يماثله، ولا ندّ له ولا عدْل[٥] له، ولا وزير له، ولا ولد ولا صاحبة، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم يعترفون[٦] أنها مخلوقة له عبيد له، كما كانوا يقولون فى تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك. وكما أخبر تعالى عنهم فى قوله: ﴿مَا[٧] نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]، فأنكر تعالى ذلك عليهم، حيث اعتقدوا

---

(١) فى أ: «بالبكرات». (٢) فى ت: «يعرفون». (٣) فى ت: «لأنفسها».
(٤) فى ت: «يستوى». (٥) فى أ: «ولا عديل». (٦) فى ت، أ: «يعرفون».
(٧) فى ت: «إنما».

ذلك، وهو تعالى لا يُشَفَّع عنده أحداً إلا بإذنه، ﴿ولا تنفعُ الشَّفَاعَةُ عنده إلا لمن أذن له﴾ [سبأ: ٢٣]، ﴿وكم من مَّلكٍ في السَّمَوَاتِ لا تُغْني شفَاعَتُهُمْ شيْئًا إلاَّ من بعْد أن يأْذنَ اللَّهُ لمن يشاءُ ويرْضى﴾ [النجم: ٢٦]، وقال: ﴿إن كلُّ من في السَّمَوَاتِ والأَرْضِ إلاَّ آتي الرَّحْمنِ عبْدًا . لقدْ أَحْصاهمْ وعدَّهمْ عدًّا . وكُلُّهم آتيه يوْمَ الْقيامة فرْدًا﴾ [مريم: ٩٣ ـ ٩٥]، فإذا كان الجميع عبيدا، فلم يعبد بعضهم بعضا بلا دليل ولا برهان، بل بمجرد الرأى والاختراع والابتداع؟ ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم تزجرهم عن ذلك، وتنهاهم عن عبادة من سوى الله، فكذبوهم وخالفوهم، فحقت عليهم كلمة العذاب لا محالة، ﴿ولا يظْلمُ ربُّك أحدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿أنزلَ منَ السَّماءِ ماءً فسالَتْ أوْديةٌ بقدرها فاحْتمل السَّيْلُ زبدًا رَّابيًا وممَّا يُوقدُون عليْه في النَّارِ ابْتغاء حلْيةٍ أوْ متاعٍ زبدٌ مّثْلُه كذلك يضْربُ اللَّهُ الْحقَّ والْباطل فأمَّا الزَّبدُ فيذْهبُ جُفاءً وأمَّا ما ينفعُ النَّاس فيمْكُثُ في الأرْضِ كذلك يضْربُ اللَّهُ الأمْثالَ (١٧)﴾.

اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق فى ثباته وبقائه، والباطل فى اضمحلاله وفنائه، فقال تعالى: ﴿أنزلَ منَ السَّماءِ ماءً﴾ أى: مطرا، ﴿فسالَتْ أوْديةٌ بقدرها﴾ أى: أخذ كل واد بحسبه، فهذا كبير وسع كثيرا من الماء، وهذا صغير فوسع بقدْره، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علما كثيرا، ومنها ما لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها، ﴿فاحْتمل السَّيْلُ زبدًا رَّابيًا﴾ أى: فجاء على وجه الماء الذى سال فى هذه الأودية زَبَدٌ عال عليه، هذا مثل، وقوله: ﴿وممَّا يُوقدُون عليْه في النَّارِ﴾، هذا هو المثل الثانى، وهو ما يسبك فى النار من ذهب أو فضة ﴿ابْتغاء حلْيةٍ﴾ أى: ليجعل حليةَ نحاس أو حديد، فيجعل متاعا فإنه يعلوه زَبَدٌ منه، كما يعلو ذلك[(١)] زبدٌ منه. ﴿كذلك يضْربُ اللَّهُ الْحقَّ والْباطل﴾ أى: إذا اجتمعا لا ثبات للباطل ولا دوام له، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء، ولا مع الذهب ونحوه مما يسبك فى النار، بل يذهب ويضمحل؛ ولهذا قال: ﴿فأمَّا الزَّبدُ فيذْهبُ جُفاءً﴾ أى: لا ينتفع به، بل يتفرق ويتمزق ويذهب فى جانبى الوادى، ويعلَق بالشجر وتنسفه الرياح. وكذلك خبَث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب، لا يرجع [(٢)]منه شىء، ولا يبقى إلا الماء[(٣)]، وذلك الذهب ونحوه ينتفع به؛ ولهذا قال: ﴿وأمَّا ما ينفعُ النَّاس فيمْكُثُ في الأرْضِ كذلك يضْربُ اللَّهُ الأمْثالَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وتلْك الأمْثالُ نضْربُها للنَّاسِ وما يعْقلُها إلاَّ الْعالمُون﴾ [العنكبوت: ٤٣].

قال بعض السلف: كنت إذا قرأتُ مثلاً من القرآن فلم أفهمه بكَيت على نفسى؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وما يعْقلُها إلا العالمُونَ﴾.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: قوله تعالى: ﴿أنزلَ منَ السَّماءِ ماءً فسالَتْ أوْديةٌ

---

(١) فى ت: «ذاك». (٢) فى ت، أ: «منه إلى شىء». (٣) فى ت، أ: «ويبقى الماء».

بِقَدَرِهَا﴾: هذا مثل ضربه الله، احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها، فأما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله. وهو قوله: **﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾**، [وهو الشك][١]، **﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾**، وهو اليقين، وكما يجعل الحَلْى فى النار فيؤخذ خالصه ويترك خَبَثه فى النار؛ فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك.

وقال العوفى عن ابن عباس قوله: **﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾** يقول: احتمل السيل ما فى الوادى من عود ودِمْنَة[٢] **﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾**، فهو الذهب والفضة والحلية والمتاع والنحاس والحديد، فللنحاس والحديد خَبَث، فجعل الله مثل خبثه كزبد الماء، فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبتت. فجعل ذاك[٣] مثل العمل الصالح يبقى لأهله، والعمل السيئ يضمحل عن أهله، كما يذهب هذا الزبد، فكذلك الهدى والحق جاءا من عند الله، فمن عمل بالحق كان له، ويبقى كما يبقى ما ينفع الناس فى الأرض. وكذلك الحديد لا يستطاع أن يعمل منه سكين ولا سيف حتى يدخل فى النار فتأكل خَبَثه، ويخرج جيده فينتفع به. كذلك يضمحل الباطل إذا كان يوم القيامة، وأقيم الناس، وعرضت الأعمال، فيزيغ الباطل ويهلك، وينتفع أهل الحق بالحق.

وكذلك رُوى فى تفسيرها عن مجاهد، والحسن البصرى، وعطاء، وقتادة، وغيرواحد من السلف والخلف.

وقد ضرب الله، سبحانه وتعالى، فى أول سورة البقرة للمنافقين مثلين ناريًا ومائيا، وهما قوله: **﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾** الآية [البقرة: ١٧]، ثم قال: **﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾** الآية [البقرة: ١٩]. وهكذا ضرَب للكافرين فى سورة النور مثلين، أحدهما: قوله: **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾** الآية [النور: ٣٩]، والسراب إنما يكون فى شدة الحر؛ ولهذا جاء فى الصحيحين: «فيقال لليهود يوم القيامة: فما تريدون؟ فيقولون: أىْ ربَّنا، عطشنا فاسقنا. فيقال: ألا تَرِدُون؟ فَيرِدُون النار فإذا هى كالسراب يَحْطِم بعضها بعضا».

ثم قال فى المثل الآخر: **﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾** الآية [النور: ٤٠]. وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضا، فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت[٤] الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا، وأصابت طائفة منها [أخرى][٥]، إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى أ: «ورمة». (٣) فى ت، أ: «ذلك».
(٤) فى ت: «وأنبتت». (٥) زيادة من ت، أ، والصحيحين.

فَقه فى دين الله ونَفَعه الله بما بعثنى[١] ونفع به، فَعَلِم وَعَلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هُدَى الله الذى أرسلت به»[٢].

فهذا مثل مائى، وقال فى الحديث الآخر الذى رواه الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن همام بن مُنَبِّه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مثلى ومثلكم، كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله[٣]، جعل الفَرَاش وهذه[٤] الدواب التى يقعن فى النار يقعن فيها، وجعل يحجزُهُنَّ ويغلبنه فيقتحمن فيها». قال: «فذلكم مثلى ومثلكم، أنا آخذ بحُجزكم عن النار، هَلُمّ عن النار [هَلُمّ عن النار، هَلُمّ][٥]، فتغلبونى فتقتحمون فيها». وأخرجاه فى الصحيحين أيضا[٦]، فهذا مثل نارى.

﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨) ﴾.

يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء فقال: ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ ﴾ أى: أطاعوا الله ورسوله، وانقادوا لأوامره، وصدقوا أخباره الماضية والآتية، فلهم ﴿ الْحُسْنَىٰ ﴾، وهو الجزاء الحسن[٧]، كما قال تعالى مخبراً عن ذى القرنين أنه قال: ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا . وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ [الكهف: ٨٧، ٨٨]، وقال تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ أى لم : يطيعوا الله ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أى: فى الدار الآخرة، لو أن يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهبا ومثله معه لافتدوا به، ولكن لا يتقبل منهم؛ لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفا ولا عدلا، ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ ﴾ أى: فى الدار الآخرة، أى: يناقشون على النقير والقطمير، والجليل والحقير، ومن نوقش الحساب عُذب؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩) ﴾.

---

(١) فى ت، أ: «بعثنى به».

(٢) صحيح البخارى برقم (٧٩) وصحيح مسلم برقم (٢٢٨٢).

(٣) فى ت: «ما حولها». (٤) فى أ: «وهذا». (٥) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٦) المسند (٢/ ٣١٢) وصحيح البخارى برقم (٦٤٨٢) وصحيح مسلم برقم (٢٢٨٤) وهو عنده من هذا الطريق.

(٧) فى ت: «الخير».

يقول تعالى: لا يستوى من يعلم من الناس أن الذى ﴿ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِن رَّبِّكَ ﴾ هو ﴿ الْحَقُّ ﴾ أى: الذى لا شك فيه ولا مرية ولا لبس فيه ولا اختلاف فيه، بل هو كله[1] حق يصدق بعضه بعضا، لا يضاد شىء منه شيئاً آخر، فأخباره كلها حق، وأوامره ونواهيه عدل، كما قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أى: صدقاً فى الإخبار، وعدلا فى الطلب، فلا يستوى من تحقق صدق[2] ما جئت به يا محمد، ومن هو أعمى لا يهتدى إلى خير ولا يفهمه، ولو فهمه ما انقاد له، ولا صدقه ولا اتبعه، كما قال تعالى: ﴿ لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]، وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾؟ أى: أفهذا كهذا؟ لا استواء[3].

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ أى: إنما يتعظ ويعتبر ويعقل أولو العقول السليمة الصحيحة[4]، جعلنا الله منهم [بفضله وكرمه][5].

﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عمن اتصف بهذه الصفات الحميدة، بأن لهم ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾، وهى العاقبة والنصرة فى الدنيا والآخرة.

﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾، وليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا حدث كذب، وإذا اؤتمن خان.

﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾، من صلة الأرحام، والإحسان إليهم وإلى الفقراء والمحاويج، وبذل المعروف، ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أى: فيما يأتون وما يذرون من الأعمال، يراقبون الله فى ذلك، ويخافون سوء الحساب فى الدار الآخرة. فلهذا أمرهم على السداد والاستقامة فى جميع حركاتهم وسكناتهم وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية.

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أى: عن المحارم والمآثم، ففطموا[6] نفوسهم عن ذلك لله عز

---

(١) فى ت، أ: «كلمة».
(٢) فى ت، أ: «صحة».
(٣) فى ت، أ: «لا سواء».
(٤) فى ت: «الصحيحة السليمة».
(٥) زيادة من أ.
(٦) فى أ: «فعظموا».

وجل؛ ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها[١] وخشوعها على الوجه الشرعى المرضى، ﴿وَأَنفقوا ممَّا رَزَقْنَاهُم﴾ أى: على الذين يجب عليهم الإنفاق لهم من زوجات وقرابات وأجانب، من فقراء ومحاويج ومساكين، ﴿سِرًّا وَعَلانِيَةً﴾ أى: فى السر والجهر، لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال، فى آناء الليل وأطراف النهار، ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ أى: يدفعون القبيح بالحسن، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبرا واحتمالا وصفحا وعفوا، كما قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥]؛ ولهذا قال مخبراً عن هؤلاء السعداء المتصفين بهذه الصفات الحسنة بأن لهم عقبى الدار، ثم فسر ذلك بقوله: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ والعدن: الإقامة، أى: جنات إقامة يخلدون[٢] فيها.

وعن عبد الله بن عمرو أنه قال: إن فى الجنة قصرا يقال له: «عدن»، حوله البروج والمروج، فيه خمسة آلاف باب، على كل باب خمسة آلاف حِبْرة[٣]، لا يدخله إلا نبى أو صديق أو شهيد.

وقال الضحاك فى قوله: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾: مدينة الجنة، فيها الرسل والأنبياء والشهداء وأئمة الهدى، والناس حولهم بعد والجنات حولها. رواهما ابن جرير.

وقوله: ﴿ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ أى: يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء، ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين؛ لتقر أعينهم بهم، حتى إنه[٤] ترفع[٥] درجة الأدنى إلى درجة الأعلى، من غير تنقيص لذلك الأعلى عن درجته، بل امتناناً من الله وإحسانا، كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعْنَاهُم[٦] ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ[٧] وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

وقوله: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ . سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾. أى: وتدخل عليهم الملائكة من هاهنا وهاهنا للتهنئة بدخول الجنة، فعند[٨] دخولهم إياها تفد عليهم الملائكة مسلِّمين مهنئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام، والإقامة فى دار السلام، فى جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام.

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنى سعيد بن أبى أيوب، حدثنا[٩] معروف بن سُوَيْد الجذامى عن أبى عُشَّانة المعافرى، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، رضى الله عنهما[١٠]، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون[١١] الذين تُسدُّ بهم الثغور،

---

(١) فى ت: «وسجودها وركوعها». (٢) فى ت: «تخلدون».
(٣) فى أ: «حرة». (٤) فى أ: «إنهم». (٥) فى أ: «ترفع من».
(٦) فى ت: «واتبعتهم». (٧) فى أ: «ذرياتهم». (٨) فى ت، أ: «عند».
(٩) فى ت، أ: «حدثنى». (١٠) فى ت: «عنه». (١١) فى ت: «المهاجرين».

وتُتَّقَى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته: ائتوهم فحيوهم. فتقول الملائكة: نحن سكان سمائك، وخيرتك من خلقك، أفتأمرنا أن نأتى هؤلاء فنسلم عليهم؟ قال: إنهم كانوا عبادًا يعبدوننى لا[(١)] يشركون بى شيئاً، وتُسَدُّ[(٢)] بهم الثغور، وتتقى[(٣)] بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره فلا يستطيع لها قضاء». قال: «فتأتيهم الملائكة عند ذلك، فيدخلون عليهم من كل باب، ﴿سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾»[(٤)].

ورواه أبو القاسم الطبرانى، عن أحمد بن رشدين، عن أحمد بن صالح، عن عبد الله بن وهب، عن عَمْرو بن الحارث، عن أبى عُشَّانة سمع عبد الله بن عمرو، عن النبى ﷺ قال: «أول ثلة يدخلون الجنة فقراء المهاجرين، الذين تتقى بهم المكاره، وإذا أمروا سمعوا وأطاعوا، وإن كانت لرجل منهم حاجة إلى سلطان لم تُقْضَ حتى يموت وهى فى صدره، وإن الله يدعو يوم القيامة الجنة فتأتى بزخرفها وزينتها، فيقول: أين عبادى الذين قاتلوا فى سبيلى، وأوذوا فى سبيلى، وجاهدوا فى سبيلى؟ ادخلوا الجنة بغير عذاب ولا حساب، وتأتى الملائكة فيسجدون ويقولون: ربنا نحن نسبحك الليل والنهار، ونُقدس لك، من هؤلاء الذين آثرتهم علينا؟ فيقول الرب عز وجل: هؤلاء عبادى الذين جاهدوا[(٥)] فى سبيلى، وأوذوا فى سبيلى فتدخل عليهم الملائكة من كل باب: ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾»[(٦)].

وقال عبد الله بن المبارك، عن بَقِيَّة بن الوليد، حدثنا أرطاة بن المنذر، سمعت رجلا من مشيخة الجند، يقال له «أبو الحجاج» يقول: جلست إلى أبى أمامة فقال: إن المؤمن ليكون متكئاً على أريكته إذا دخل الجنة، وعنده سماطان من خدم، وعند طرف السماطين باب مبوب، فيقبل الملك فيستأذن، فيقول [أقصى الخدم][(٧)] للذى يليه: «ملك يستأذن»، ويقول الذى يليه للذى يليه: «مَلَك يستأذن»، حتى يبلغ المؤمن فيقول: ائذنوا. فيقول أقربهم إلى المؤمن: ائذنوا، ويقول الذى يليه للذى يليه: ائذنوا حتى يبلغ أقصاهم الذى عندى الباب، فيفتح له، فيدخل فيسلم ثم ينصرف. رواه ابن جرير[(٨)].

ورواه ابن أبى حاتم من حديث إسماعيل بن عياش، عن أرطاة بن المنذر، عن أبى الحجاج[(٩)]

---

(١) فى ت، أ: «ولا». (٢) فى ت، أ: «ويسد». (٣) فى ت، أ: «ويتقى».

(٤) المسند (٢/١٦٨) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٢٥٩): «رجاله ثقات».

(٥) فى ت: «قاتلوا».

(٦) المعجم الكبير للطبرانى برقم (١٥٢) «القطعة المفقودة» ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٧١) من طريق محمد بن عبد الله عن ابن وهب، به نحوه، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبى.

(٧) زيادة من ت، أ، والطبرى.

(٨) تفسير الطبرى (١٦/ ٤٢٥).

(٩) كذا وقع فى تفسير الطبرى، ونقله أيضا ابن القيم فى حادى الأرواح (٢/٣٨) «أبو الحجاج» وفى ترجمته فى الجرح والتعديل (٩/ ٢٣٥) والتاريخ الكبير (٤/ ٢/٣٧٦) والثقات لابن حبان (٥/ ٥٥٢): «يوسف الالهانى، أبو الضحاك الحمصى، سمع أبا أمامة وابن عمر، وروى عنه أرطاة بن المنذر».

وانظر حاشية الأستاذ محمود شاكر على تفسير الطبرى (١٦/ ٤٢٦).

يوسف الألهانى قال: سمعت أبا أمامة، فذكر نحوه.

وقد جاء في الحديث: أن رسول الله ﷺ كان يزور قبور الشهداء فى رأس كل حول، فيقول لهم: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ وكذا أبو بكر، وعمر وعثمان[١].

﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) ﴾.

هذا حال الأشقياء وصفاتهم، وذكر مآلهم فى الدار الآخرة ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون، كما أنهم اتصفوا بخلاف صفاتهم فى الدنيا، فأولئك كانوا يوفون بعهد الله ويصلون ما أمر الله به أن يوصل، وهؤلاء ﴿ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾، كما ثبت فى الحديث: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان» وفى رواية: «وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فَجر».

ولهذا قال: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ وهى الإبعاد عن الرحمة، ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ وهى سوء العاقبة والمآل، ومأواهم جهنم وبئس القرار[٣].

وقال أبو العالية فى قوله: ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ الآية، قال: هى ست خصال فى المنافقين إذا كان فيهم الظَّهرة على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا فى الأرض. وإذا كانت الظَّهْرة عليهم أظهروا الثلاث الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا.

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ (٢٦) ﴾.

يذكر تعالى أنه هو الذى يوسع الرزق على من يشاء، ويقتره على من يشاء، لما له فى ذلك من الحكمة والعدل. وفرح هؤلاء الكفار بما أوتوا فى الحياة الدنيا استدراجا لهم وإمهالا، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ. نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخره تعالى لعباده المؤمنين فى الدار الآخرة فقال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ

---

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٤٢٦) عن سهيل عن محمد بن إبراهيم التيمى مرسلاً، وهذا معضل.

(٢) فى ت، أ: «المهاد».

الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا مَتَاعٌ﴾، كما قال: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء: ٧٧]، وقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع ويحيى بن سعيد قالا: حدثنا إسماعيل بن أبى خالد، عن قيس، عن المستورد أخى بنى فهر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا فى الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه فى اليم، فلينظر بم ترجع» وأشار بالسبابة. ورواه مسلم فى صحيحه[(١)].

وفى الحديث الآخر: أن رسول الله ﷺ مر بجَدْيٍ أسكَّ[(٢)] ميتٍ ـ والأسك[(٣)]: الصغير الأذنين ـ فقال: «والله للدنيا أهون على الله من هذا على أهله حين ألقوه»[(٤)].

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩)﴾.

يخبر تعالى عن قيل[(٥)] المشركين: ﴿لَوْلا﴾ أى: هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ كما قالوا: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥]، وقد تقدم الكلام على هذا غير مرة، وإن الله قادر على إجابة ما سألوا. وفى الحديث: أن الله أوحى إلى رسوله لما سألوه أن يحول لهم الصفا ذهباً، وأن يجرى لهم ينبوعاً، وأن يزيح الجبال من حول مكة فيصير مكانها مروج وبساتين: إن شئت يا محمد أعطيتهم ذلك، فإن كفروا فإنى أعذبهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: «بل تفتح لهم باب التوبة والرحمة»[(٦)]؛ ولهذا قال لرسوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أى: هو المضل والهادى، سواء بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا، أو لم يجبهم إلى سؤالهم؛ فإن الهداية والإضلال ليس منوطا بذلك ولا عدمه، كما قال: ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾[يونس: ١٠١]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]. وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]؛ ولهذا قال: ﴿قل إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أى: ويهدى من أناب إلى الله، ورجع إليه، واستعان به، وتضرع لديه.

---

(١) المسند (٤/ ٢٢٨) وصحيح مسلم برقم (٢٨٥٨).

(٢) فى ت، أ: «أشك». (٣) فى ت، أ: «والأشك».

(٤) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٩٥٧) من حديث جابر، رضى الله عنه.

(٥) فى ت: «قتل».

(٦) رواه أحمد فى المسند (١/ ٢٤٢) من حديث ابن عباس، رضى الله عنهما.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أى: تطيب وتركن إلى جانب [(١)] الله، وتسكن عند ذكره، وترضى به مولى ونصيراً؛ ولهذا قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ أى: هو حقيق بذلك.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾، قال ابن أبى طلحة، عن ابن عباس: فرح وقُرة عين. وقال عكرمة: نعْم ما لهم.

وقال الضحاك: غبطة لَهُم.

وقال إبراهيم النَّخعى: خير لهم.

وقال قتادة: هى كلمة عربية[(٢)]، يقول الرجل: «طوبى لك»، أى: أصبت خيرًا. وقال فى رواية: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾: حسنى لهم.

﴿وَحُسْنُ مَآبٍ﴾أى: مرجع.

وهذه الأقوال شىء واحد لا منافاة بينها.

وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾، قال: هى أرض الجنة بالحبشية.

وقال سعيد بن مَسْجُوح: طوبى اسم الجنة بالهندية. وكذا روى السدى، عن عِكْرِمة: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ أى: الجنة. وبه قال مجاهد.

وقال العوفى، عن ابن عباس: لما خلق الله الجنة وفرغ منها قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾، وذلك حين أعجبته.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب، عن جعفر، عن شَهْر بن حَوْشَب قال: ﴿طُوبَىٰ﴾ شجرة فى الجنة، كل شجر الجنة منها، أغصانها من وراء سور الجنة.

وهكذا رُوى عن أبى هريرة، وابن عباس، ومغيث بن سُمَىّ، وأبى إسحاق السَّبِيعى وغير واحد من السلف: أن طوبى شجرة فى الجنة، فى كل دار منها غصن منها.

وذكر بعضهم أن الرحمن، تبارك وتعالى، غَرَسها بيده من حبة لؤلؤة، وأمرها أن تمتد، فامتدت إلى حيث يشاء الله تبارك وتعالى، وخرجت من أصلها ينابيع أنهار الجنة، من عسل وخمر وماء ولبن[(٣)].

وقد قال عبد الله بن وهب: حدثنا عمرو بن الحارث، أن درَّاجا أبا السَّمْح حدثه، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه، [مرفوعا: «طوبى: شجرة فى الجنة مسيرة مائة سنة، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها»[(٤)].

---

(١) فى ت، أ: «جناب». (٢) فى ت، أ: «غريبة». (٣) فى ت: «ولبن وماء».

(٤) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/٤٤٣) قال أحمد، رحمه الله: «أحاديث دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد فيها ضعف».

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، سمعت عبد الله بن لَهيعة، حدثنا دَرّاج أبو السمح، أن أبا الهيثم حدثه، عن أبى سعيد الخدرى] [(١)] عن رسول الله ﷺ: أن رجلا قال: يا رسول الله، طوبى لمن رآك وآمن بك. قال: «طوبى لمن رآنى وآمن بى، ثم طوبى، ثم طوبى، ثم طوبى لمن آمن بى ولم يرنى». قال له رجل: وما طوبى؟ قال: «شجرة فى الجنة مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها»[(٢)].

وروى البخارى ومسلم جميعاً، عن إسحاق بن راهويه، عن مغيرة المخزومى، عن وَهيب، عن أبى حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها» قال: فَحَدَّثت به النعمان بن أبى عياش الزّرَقى، فقال: حدثنى أبو سعيد الخُدْرى، عن النبى ﷺ قال: «إن فى الجنة شجرة يسير الراكب الجَوَادَ المضمَّرَ السريع مائة عام ما يقطعها»[(٣)].

وفى صحيح البخارى، من حديث يزيد بن زُرَيع، عن سعيد، عن قتادة، عن أنس، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ فى قول الله: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠]، قال: «فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها»[(٤)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا سُرَيْج، حدثنا فُلَيْح، عن هلال بن على، عن عبد الرحمن بن أبى عمرة، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة[(٥)]، اقرؤوا إن شئتم ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾». أخرجاه فى الصحيحين[(٦)].

وقال [الإمام] [(٧)] أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن جعفر وحجاج قالا: حدثنا شعبة، سمعت أبا الضحاك يحدث عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ أنه قال: «إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها سبعين ـ أو: مائة ـ سنة هى شجرة الخلد»[(٨)].

وقال محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن أسماء بنت أبى بكر، رضى الله عنها، قالت: سمعت رسول الله ﷺ، وذكر سدرة المنتهى، قال: «يسير فى ظل الفنن منها الراكب مائة سنة ـ أو: قال ـ :يستظل فى الفنن منها مائة راكب، فيها فَراش الذهب، كأن ثمرها القلال». رواه الترمذى[(٩)].

---

(١) زيادة من ت، أ.

(٢) المسند(٣/ ٧١).

(٣) صحيح البخارى برقم (٦٥٥٢) وصحيح مسلم برقم (٢٨٢٧).

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٢٥١).

(٥) فى أ: «عام».

(٦) المسند (٢/ ٤٨٢).

(٧) زيادة من أ.

(٨) المسند (٢/ ٤٥٥).

(٩) سنن الترمذى برقم (٢٥٤١) وقال الترمذى: «حديث حسن غريب» وفى بعض النسخ: «حسن صحيح غريب».

وقال إسماعيل بن عياش، عن سعيد بن يوسف، عن يحيى بن أبى كثير، عن أبى سلام الأسود قال: سمعت أبا أمامة الباهلى قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد يدخل الجنة إلا انطلق به إلى طوبى، فتفتح له أكمامها، فيأخذه من أى ذلك شاء، إن شاء أبيض، وإن شاء أحمر، وإن شاء أصفر، وإن شاء أسود، مثل شقائق النعمان وأرق وأحسن»[(١)].

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن مَعْمَر، عن أشعث بن عبد الله، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: طوبى شجرة فى الجنة، يقول الله لها: «تَفَتَّقى لعبدى عَمَّا شاء؛ فتفتق له عن الخيل بسروجها ولجمها، وعن الإبل بأزمتها، وعما شاء من الكسوة»[(٢)].

وقد روى ابن جرير عن وهب بن منبه هاهنا أثراً غريباً عجيبا، قال وهب، رحمه الله: إن فى الجنة شجرة يقال لها: «طوبى»، يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها، زهرها رياط، وورقها برود، وقضبانها عنبر، وبطحاؤها ياقوت، وترابها كافور، وَوَحَلها مسك، يخرج من أصلها أنهار الخمر واللبن والعسل، وهى مجلس لأهل الجنة، فبينا هم فى مجلسهم إذ أتتهم ملائكة من ربهم يقودون نجبا مزمومة بسلاسل من ذهب وجوهها كالمصابيح حسنا[(٣)]. ووبرها كخز المِرْعِزّى[(٤)] من لينه، عليها رحال ألواحها من ياقوت، ودفوفها[(٥)] من ذهب، وثيابها من سندس وإستبرق، فينيخونها ويقولون: إن ربنا أرسلنا إليكم لتزوروه وتسلموا عليه قال: فيركبونها، فهى أسرع من الطائر، وأوطأ من الفراش، نجبا من غير مَهَنَة، يسير الرجل إلى جنب أخيه وهو يكلمه ويناجيه، لا تصيب[(٦)] أذن راحلة منها أذن الأخرى، ولا بَرك راحلة برك الأخرى، حتى إن شجرة لتتنحَّى عن طريقهم، لئلا تفرق بين الرجل وأخيه. قال: فيأتون إلى الرحمن الرحيم فيسفر لهم عن وجهه الكريم حتى ينظروا إليه، فإذا رأوه قالوا: اللهم، أنت السلام ومنك السلام، وحق لك الجلال والإكرام. قال: فيقول تعالى[عند ذلك][(٧)]: «أنا السلام ومنى السلام، وعليكم حقت رحمتى ومحبتى، مرحبا بعبادى الذين خشونى بغيب وأطاعوا أمرى».

قال: فيقولون: ربنا لم نعبدك حق عبادتك، ولم نقدرك حق قَدرك، فأذن لنا فى السجود قُدامك قال: فيقول الله: «إنها ليست بدار نصب ولا عبادة، ولكنها دار مُلْك ونعيم، وإنى قد رفعت عنكم نَصَب العبادة، فسلونى ما شئتم، فإن لكل رجل منكم أمنيته» فيسألونه، حتى إن أقصرهم أمنية ليقول: رب، تنافس[(٨)] أهل الدنيا فى دنياهم فتضايقوا فيها، رب فآتنى مثل كل شىء كانوا فيه من

---

(١) رواه ابن أبى الدنيا فى صفة الجنة برقم (١٤٦) من طريق أبى عتبة، عن إسماعيل بن عياش، به.

(٢) تفسير الطبرى (١٦/٤٣٨) ورواه ابن المبارك فى الزهد برقم (٢٦٥) من طريق معمر عن الأشعث، به. وشهر بن حوشب ضعيف.

(٣) فى ت، أ: «من حسنها». (٤) فى ت: «الرعزى». (٥) فى أ: «ورفرفها».

(٦) فى ت، أ: «لا يصيب». (٧) زيادة من ت، أ، والطبرى. (٨) فى أ: «يتنافس».

يوم خلقتها إلى أن انتهت الدنيا. فيقول الله تعالى: «لقد قَصرت بك أمنيتك، ولقد سألت دون منزلتك، هذا لك منى، [وسأتحفك بمنزلتى][١]؛ لأنه ليس فى عطائى نكد ولا تَصريد». قال: ثم يقول: «اعرضوا على عبادى ما لم يبلغ أمانيهم، ولم يخطر لهم على بال». قال: فيعرضون عليهم حتى تَقْصر بهم أمانيهم التى فى أنفسهم، فيكون فيما يعرضون عليهم براذين مُقْرنة، على كل أربعة منها سرير من ياقوتة واحدة، على كل سرير منها قبة من ذهب مُفَرَّغة، فى كل قبه منها فُرش من فُرش الجنة مُتظاهرة، فى كل قبة منها جاريتان من الحور العين، على كل جارية منهن ثوبان من ثياب الجنة، وليس فى الجنة لون إلا وهو فيهما[٢]، ولا ريح طيبة إلا قد عبقتا به[٣]، ينفذ ضوء وجوههما غلظ القبة، حتى يظن من يراهما أنهما دون القبة، يرى مخهما من فوق سوقهما، كالسلك الأبيض فى ياقوتة حمراء، يريان له من الفضل على صاحبته [٤] كفضل الشمس على الحجارة أو أفضل، ويرى هو لهما مثل ذلك، ويدخل إليهما فيحييانه ويقبلانه ويعتنقانه [٥] به، ويقولان له: والله ما ظننا أن الله يخلق مثلك. ثم يأمر الله تعالى الملائكة فيسيرون بهم صفا فى الجنة، حتى ينتهى بكل رجل منهم إلى منزلته التى أعدت له[٦].

وقد روى هذا الأثر ابن أبى حاتم بسنده، عن وهب بن منبه، وزاد: فانظروا إلى موهوب ربكم الذى وهب لكم، فإذا هو بقباب فى الرفيق الأعلى، وغرف مبنية من الدر والمرجان، وأبوابها من ذهب، وسررها من ياقوت، وفرشها من سندس وإستبرق، ومنابرها من نور، يفور من أبوابها وعراصها نور مثل شعاع الشمس عنده مثل الكوكب الدرى [٧] فى النهار المضىء، وإذا بقصور شامخة فى أعلى عليين من الياقوت يزهو نورها، فلولا أنه مُسَخر، إذاً لالتمع الأبصارَ، فما كان من تلك القصور من الياقوت [الأبيض، فهو مفروش بالحرير [٨] الأبيض، وما كان منها من الياقوت الأحمر فهو مفروش بالعبقرى الأحمر، وما كان منها من الياقوت الأخضر][٩]، فهو مفروش بالسندس الأخضر، وما كان منها من الياقوت الأصفر، فهو مفروش بالأرجوان الأصفر منزه [١٠] بالزمرد الأخضر، والذهب الأحمر، ،والفضة البيضاء، قوائمها وأركانها من الجوهر، وشُرُفها قباب من لؤلؤ، وبروجها غُرَف من المرجان. فلما انصرفوا إلى ما أعطاهم ربهم، قُرِّبت لهم براذين من ياقوت أبيض، منفوخ فيها الروح، تَجنبَها الولدان المخلدون بيد كل وليد منهم حكمة بِرْذَون من تلك البراذين، ولجمها وأعنتها من فضة بيضاء، منظومة بالدر والياقوت، سُرُوجها سُرُرٌ موضونة، مفروشة بالسندس والإستبرق. فانطلقت بهم تلك البراذين تَزَف بهم ببطن [١١]رياض الجنة. فلما انتهوا إلى

---

(١) زيادة من ت، أ، والطبرى.
(٢) فى أ: «فيها».
(٣) فى ت، أ: «عبقا بهما».
(٤) فى أ: «صاحبه».
(٥) فى ت، أ: «ويعلقانه».
(٦) تفسير الطبرى (١٦/ ٤٣٩).
(٧) فى ت، أ: «الذى».
(٨) فى أ: «من الحرير».
(٩) زيادة من ت، أ.
(١٠) فى أ: «مبوبة».
(١١) فى أ: «وبطن».

منازلهم، وجدوا الملائكة قُعُودا على منابر من نور، ينتظرونهم ليزوروهم ويصافحوهم ويهنئوهم كرامَةَ ربهم. فلما دخلوا قصورهم وجدوا فيها جميع ما تَطَاول به عليهم [١] وما سألوا وتمنوا، وإذا على باب كلّ قصر من تلك القصور أربعة جنان، [جنتان] [٢] ذواتا أفنان، وجنتان مُدْهامتان، وفيهما عينان نضاختان، وفيهما من كل فاكهة زوجان، وحور مقصورات فى الخيام، فلما تَبَيَّنُو [٣] منازلهم واستقروا قرارهم قال لهم ربهم: هل وجدتم ما وعدتكم [٤] حقا؟ قالوا: نعم وربَّنَا. قال: هل رضيتم ثواب ربكم؟ قالوا: ربنا، رضينا فارض عنا قال: برضاى [٥] عنكم حللتم دارى، ونظرتم إلى وجهى، وصافحتكم ملائكتى، فهنيئاً هنيئاً لكم، ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]، ليس فيه تنغيص ولا تَصْرِيد. فعند ذلك قالوا: الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن، وأدخلنا [٦] دار المقامة من فضله، لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب، إن ربنا لغفور شكور.

وهذا سياق غريب، وأثر عجيب ولبعضه شواهد، ففى الصحيحين: أن الله تعالى يقول لذلك الرجل الذى يكون آخر أهل الجنة دخولا الجنة: تمنّ»، فيتمنى [٧]، حتى إذا انتهت به الأمانى يقول الله تعالى: «تمن من كذا وتَمَن من كذا»، يذكره، ثم يقول: «ذلك لك، وعشرة أمثاله» [٨].

وفى صحيح مسلم، عن أبى ذر عن رسول الله ﷺ عن الله، عز وجل [٩]: «يا عبادى، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا فى صعيد واحد، فسألونى، فأعطيت كل إنسان [١٠] مسألته، ما نقص ذلك من ملكى شيئا، إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل فى البحر»، الحديث بطوله [١١].

وقال خالد بن مَعْدَان: إن فى الجنة شجرة يقال لها طوبى، لها ضروع، كلها ترضع صبيانَ أهل الجنة، وإن سَقَط المرأة يكون فى نهر من أنهار الجنة، يتقلب فيه حتى تقوم القيامة، فيبعث ابن أربعين سنة. رواه ابن أبى حاتم.

﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠) ﴾.

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد فى هذه الأمة ﴿لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أى: تبلغهم

---

(١) فى أ: «عليهم ربهم».
(٢) زيادة من ت، أ.
(٣) فى ت، أ: «تبوؤوا».
(٤) فى ت: «ما وعد ربكم».
(٥) فى ت: «فبرضاى».
(٦) فى أ: «وأحلنا».
(٧) فى ت: «فيمن».
(٨) صحيح البخارى برقم (٦٥٧٣) وصحيح مسلم برقم (١٨٢) من حديث أبى هريرة وأبى سعيد، رضى الله عنهما.
(٩) فى ت: «عن رسول الله ﷺ، عن جبريل، عن الله عز وجل».
(١٠) فى ت: «إنسان منهم».
(١١) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٧).

رسالة الله إليهم، كذلك أرسلنا فى الأمم الماضية الكافرة بالله، وقد كُذّب الرسل من قَبلك، فلك فيهم أسوة، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك، فليحذر هؤلاء من حُلول النقم بهم، فإن تكذيبهم لك أشدّ من تكذيب غيرك من المرسلين، قال الله تعالى: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النحل: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤] أى: كيف نصرناهم، وجعلنا العاقبة لهم ولأتباعهم فى الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ أى: هذه الأمة التى بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن، لا يقرّون به؛ لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم؛ ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا «بسم الله الرحمن الرحيم» وقالوا: ما ندرى ما الرحمن الرحيم. قاله قتادة، والحديث فى صحيح البخارى(١)، وقد قال الله تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن(٢)»(٣).

﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَٰهَ إِلا هُوَ ﴾أى: هذا الذى تكفرون به أنا مؤمن به، معترف مقر له بالربوبية والإلهية، هو ربى لا إله هو، ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أى: فى جميع أمورى، ﴿ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾أى: إليه أرجع وأنيب، فإنه لا يستحق ذلك أحد(٤) سواه.

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) ﴾.

يقول تعالى مادحا للقرآن الذى أنزله على محمد ﷺ، ومفضلا له على سائر الكتب المنزلة قبله: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾أى: لو كان فى الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتنشق(٥)، أو تكلم (٦) به الموتى فى قبورها، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك؛ لما فيه من الإعجاز الذى لا يستطيع الإنس والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله، ولا بسورة من مثله، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به،

(١) صحيح البخارى برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢) عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة فى قصة غزوة الحديبية.
(٢) فى أ زيادة: «وعبد الرحيم».
(٣) صحيح مسلم برقم (٢١٣٢).
(٤) فى ت: «أحد ذلك».
(٥) فى أ: «وتشقق».
(٦) فى ت: «وتشقق وتكلم».

جاحدون له، ﴿ بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا﴾[١] أى: مرجع الأمور كلها إلى الله، عز وجل، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ومن يضلل فلا هادى له، ومن يهد[٢] الله فلا مضل له.

وقد يطلق اسم القرآن على كل من الكتب المتقدمة؛ لأنه مشتق من الجميع، قال الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن همام بن مُنَبِّه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خُفِّفَت [٣] على داود القراءة، فكان يأمر بدابته أن تُسرج، فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه». انفرد بإخراجه البخارى[٤].

والمراد بالقرآن هنا الزبور.

وقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: من إيمان جميع الخلق ويعلموا أو يتبينوا[٥] ﴿ أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾، فإنه ليس ثم [٦] حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع فى النفوس والعقول من هذا القرآن، الذى لو أنزله الله على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله. وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبى إلا وقد أوتى ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»[٧]. معناه: أن معجزة كل نبى انقرضت بموته، وهذا القرآن حجة باقية على الآباد، لا تنقضى عجائبه، ولا يَخْلَقُ عن كثرة الردّ، ولا يشبع منه العلماء، هو الفصل ليس بالهزل. من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا منْجَاب بن الحارث، أنبأنا بشر بن عمارة، حدثنا عمر بن حسان، عن عطية العوفى قال: قلت له: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾الآية، قالوا لمحمد ﷺ: لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها، أو قطعت لنا [٨] الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح، أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى يحيى الموتى لقومه فأنزل الله هذه الآية. قال: قلت: هل تروون هذا الحديث عن أحد من أصحاب النبى ﷺ؟ قال: نعم، عن أبى سعيد، عن النبى ﷺ[٩].

وكذا روى ابن عباس، والشعبى، وقتادة، والثورى، وغير واحد فى سبب نزول هذه الآية، فالله أعلم.

وقال قتادة: لو فعل هذا بقرآن غير قرآنكم، فُعل بقرآنكم.

وقوله: ﴿ بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا ﴾: قال ابن عباس: [أى] [١٠] لايصنع من ذلك إلا ما يشاء، ولم

---

(١) فى ت، أ: «فلله» وهو خطأ. (٢) في ت، أ: «يهده». (٣) فى ت، أ: «خفف».
(٤) المسند (٢/ ٣١٤) وصحيح البخارى برقم (٣٤١٧).
(٥) فى أ: «ويعلموا ويتيقنوا». (٦) فى أ: «ثمت».
(٧) صحيح البخارى برقم (٤٩٨١) وصحيح مسلم برقم (١٥٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.
(٨) فى ت، أ: «بنا».
(٩) ورواه ابن مردويه فى تفسيرة كما فى تخريج الكشاف (٢/ ١٩١) من طريق بشر بن عمارة به، وإسناده ضعيف جدًا.
(١٠) زيادة من أ.

يكن ليفعل، رواه ابن إسحاق بسنده عنه، وقاله ابن جرير أيضاً.

وقال غير واحد من السلف فى قوله: ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: أفلم يعلم الذين آمنوا. وقرأ [١] آخرون: «أفلم يتبين الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعًا».

وقال أبو العالية: قد يئس [٢] الذين آمنوا أن يهدوا، ولو يشاء الله لهدى الناس جميعا.

وقوله: ﴿ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ أى: بسبب تكذيبهم، لا تزال القوارع تصيبهم فى الدنيا، أو تصيب من حولهم ليتعظوا ويعتبروا، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الأحقاف: ٢٧]، وقال: ﴿ أَفَلا يَرَوْنَ [٣] أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾[الأنبياء: ٤٤].

قال قتادة، عن الحسن: ﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ أى: القارعة. وهذا هو الظاهر من السياق.

قال أبو داود الطيالسى: حدثنا المسعودى، عن قتادة، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس فى قوله: ﴿ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم [٤] بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ قال: سرية، ﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ قال: محمد ﷺ، ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ قال: فتح مكة[٥].

وهكذا قال عِكْرِمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، فى رواية.

قال العوفى، عن ابن عباس: ﴿ تُصِيبُهُم [٦] بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ﴾ قال: عذاب من السماء ينزل عليهم ﴿ أَوْ تَحُلُّ [٧] قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ يعنى: نزول رسول الله ﷺ بهم وقتاله إياهم.

وكذا قال مجاهد، وقتادة، وقال عِكْرِمة فى رواية عنه، عن ابن عباس: ﴿ قَارِعَةٌ ﴾ أى: نكبة.

وكلهم قال: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ يعنى: فتح مكة. وقال الحسن البصرى: يوم القيامة.

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ أى: لا ينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولأتباعهم فى الدنيا والآخرة، ﴿ فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٧].

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) ﴾.

يقول تعالى مسليا لرسوله ﷺ فى تكذيب من كذبه من قومه: ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أى: فلك فيهم أسوة، ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: أنظرتهم وأجلتهم، ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أخذةً رابية، فكيف بلغك ما صنعت بهم وعاقبتهم؟ كما قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا

(١) فى ت: «وقرأها». (٢) فى ت، أ: «أيس». (٣) فى ت، أ: «أفلم يروا» وهو خطأ.
(٤) فى ت: «يصيبهم».
(٥) ومن طريق الطيالسى رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٤٥٦).
(٦) فى ت: «يصيبهم». (٧) فى ت: «أو يحل».

وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج:٤٨]، وفى الصحيحين: «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢][(١)].

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣)﴾.

يقول تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أى: حفيظ عليم رقيب على كل نفس منفوسة، يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر، ولا يخفى عليه خافية، ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾[يونس: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]، وقال: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾[الرعد: ١٠]، وقال: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾[طه: ٧]. وقال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤] أفمن هو هكذا كالأصنام التى يعبدونها[(٢)]، لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، ولا تملك نفعاً لأنفسها ولا لعابديها، ولا كشف ضر عنها ولا عن عابديها؟ وحذف هذا الجواب اكتفاء بدلالة السياق عليه، وهو قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أى: عبدوها معه، من أصنام وأنداد وأوثان.

﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أى: أعلمونا بهم، واكشفوا عنهم حتى يُعَرفوا، فإنهم لا حقيقة لهم؛ ولهذا قال: ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: لا وجود له؛ لأنه لو كان له [(٣)] وجود فى الأرض لعلمها؛ لأنه لا تخفى عليه خافية.

﴿أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾: قال مجاهد: بظن من القول.

وقال الضحاك وقتادة: بباطل من القول.

أى: إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر، وسميتموها آلهة، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ [النجم: ٢٣].

﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾: قال مجاهد: قولهم، أى: ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه

(١) صحيح البخارى برقم (٤٦٨٦) وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٣) من حديث أبى موسى، رضى الله عنه.
(٢) فى ت، أ: «عبدوها».
(٣) فى ت، أ: «لها».

آناء الليل وأطراف النهار، كما قال تعالى: ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ [فصلت: ٢٥].

«وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيل»: من قرأها بفتح الصاد، معناه: أنهم لما زين لهم ما فية وأنه حق، دعوا إليه وصدّوا الناس عن اتباع طريق الرسل. ومن قرأها ﴿ وَصُدُّوا[1] ﴾ أى: بما زين لهم من صحة ما هم عليه، صُدّوا به عن سبيل الله؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾، كما قال: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١]، وقال: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [النحل: ٣٧].

﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤) مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥) ﴾.

ذكر تعالى عقابَ الكفار وثواب الأبرار: فقال بعد، إخباره عن حال [2] المشركين وما هم عليه من الكفر والشرك: ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾أى: بأيدى المؤمنين قتلا وأسرا، ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ﴾أى: المدّخرَ [لهم] [3]، مع هذا الخزى فى الدنيا، ﴿أَشَقُّ﴾ أى: من هذا بكثير، كما قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين: «إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة»[4]. وهو كما قال، صلوات الله وسلامه عليه، فإن عذاب الدنيا له انقضاء، وذاك دائم أبدا فى نار هى بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفا، ووثاق لا يتصور كثافته وشدته، كما قال تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ . وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا. إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا. وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا. لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا. قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴾ [الفرقان: ١١ ـ ١٥].

ولهذا قرن هذا بهذا؛ فقال: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أى: صفتها ونعتها، ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾أى: سارحة فى أرجائها وجوانبها، وحيث شاء أهلها، يفجرونها تفجيراً، أى: يصرفونها كيف شاؤوا وأين شاؤوا، كما قال تعالى: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

---

(١) فى ت: «فصدوا عن السبيل». (٢) فى ت: «أحوال».

(٣) زيادة من ت، أ.

(٤) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٤٩٣) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما.

وقوله: ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ أى: فيها المطاعم [(١)] والفواكه والمشارب، لانقطاع [لها] [(٢)] ولا فناء.

وفى الصحيحين، من حديث ابن عباس فى صلاة الكسوف، وفيه قالوا: يا رسول الله، رأيناك تناولت شيئا فى مقامك هذا، ثم رأيناك تَكعْكعت فقال: «إنى رأيت الجنة ـ أو: أريت الجنة ـ فتناولت منها عنقودا، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا»[(٣)].

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو خَيْثَمَةَ، حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا عبيد الله، حدثنا أبوعَقيل، عن جابر قال: بينما نحن فى صلاة الظهر، إذ تقدم رسولُ الله ﷺ فتقدمنا، ثم تناول شيئا ليأخذه ثم تأخر. فلما قضى الصلاة قال له أبى بن كعب: يا رسول الله، صنعت اليوم فى الصلاة شيئا ما رأيناك كنت تصنعه. فقال: «إنى عرضت على الجنة وما فيها من الزهرة والنضرة، فتناولت منها قطفًا من عنب لآتيكم به، فحيل بينى وبينه، ولو أتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا يَنْقُصُونه»[(٤)].

وروى مسلم من حديث أبى الزبير، عن جابر، شاهدا لبعضه[(٥)].

وعن عتبة بن عبد السلمى: أن أعرابيا سأل النبى ﷺ عن الجنة، فقال: فيها عنب؟ قال: «نعم». قال: فما عِظَم العنقود؟ قال: «مسيرة شهر للغراب الأبقع[(٦)] ولا يفتر». رواه أحمد[(٧)].

وقال الطبرانى: حدثنا معاذ بن المثنى، حدثنا على بن المدينى، حدثنا ريحان بن سعيد، عن عباد ابن منصور، عن أيوب، عن أبى قِلاَبة، عن أبى أسماء، عن ثَوْبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل إذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها أخرى»[(٨)].

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يأكل أهل الجنة ويشربون، ولا يمتخطون ولا يتغوّطون ولا يبولون، طعامهم[(٩)] جُشَاء كريح المسك، ويلهمون التسبيح والتقديس[(١٠)] كما يلهمون النفس». رواه مسلم[(١١)].

وروى الإمام أحمد والنسائى، من حديث الأعمش، عن ثمامة[(١٢)] بن عقبة[(١٣)]، سمعت زيد بن أرقم قال: جاء رجل من أهل الكتاب فقال: يا أبا القاسم، تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون؟ قال:

---

(١) فى ت، أ: «الطعام». (٢) زيادة من ت.
(٣) صحيح البخارى برقم (٧٤٨) وصحيح مسلم برقم (٩٠٧).
(٤) ورواه أحمد فى المسند (٣/ ٣٥٢) من طريق عبيد الله وحسين بن محمد، عن عبيد الله به نحوه.
(٥) صحيح مسلم برقم (٩٠٤).
(٦) فى أ: «لا يقع».
(٧) المسند (٤/ ١٨٤).
(٨) المعجم الكبير (٢/ ١٠٢) وعباد بن منصور متكلم فيه.
(٩) فى ت، أ: «طعامهم ذلك». (١٠) فى ت، أ: «التسبيح والتكبير».
(١١) صحيح مسلم برقم (٢٨٣٥). (١٢) فى هـ، ت، أ: «تمام» والتصويب من المسند. (١٣) فى ت: «عقبة بن منبه».

«نعم، والذى نفس محمد بيده، [إن الرجل من أهل الجنة][١] ليعطى قوة مائة رجل فى الأكل والشرب والجماع والشهوة». قال: فإن الذى يأكل ويشرب تكون له الحاجة، وليس فى الجنة أذى؟ قال: «حاجة أحدهم رشح يفيض من جلودهم، كريح المسك، فيضمر بطنه»[٢].

وقال الحسن بن عرفة: حدثنا خلف بن خليفة، عن حميد الأعرج، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، قال: قال لى رسول الله ﷺ: «إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة، فيخر بين يديك مشويا[٣]»[٤].

وجاء فى بعض الأحاديث: أنه إذا فُرغ منه عاد طائراً كما كان بإذن الله تعالى.

وقد قال تعالى: ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ . لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣]، وقال: ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤].

وكذلك ظلها لا يزول ولا يقلص، كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً﴾ [النساء: ٥٧].

وقد تقدم فى الصحيحين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «إن فى الجنة شجرة، يسير الراكب المجد الجواد المضمر السريع فى ظلها مائة عام لا يقطعها»، ثم قرأ: ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ [الواقعة: ٣٠].

وكثيرا ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار، ليرغب فى الجنة ويحذّر من النار؛ ولهذا لما ذكر صفة الجنة بما ذكر، قال بعده: ﴿ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾، كما قال تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

وقال بلال بن سعد خطيب دمشق فى بعض خطبه: عباد الله[٥]، هل جاءكم مخبر يخبركم أن شيئا من عبادتكم[٦] تُقُبِّلت منكم، أو أن شيئا من خطاياكم غفرت لكم؟ ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ[٧] أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، والله لو عُجِّل لكم الثواب فى الدنيا لاستقللتم كلكم ما افتُرض عليكم، أو ترغبون[٨] فى طاعة الله لتعجيل دنياكم، ولا تنافسون فى جنة ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾. رواه ابن أبى حاتم.

---

(١) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٢) المسند (٤/ ٣٦٧).

(٣) فى ت: «مستوياً».

(٤) جزء الحسن بن عرفة برقم (٢٢) وحميد الأعرج ضعيف وأورد الذهبى هذا الحديث فى الميزان (١/ ٦١٤) من جملة مناكيره.

(٥) فى أ: «الرحمن».

(٦) فى ت، أ: «أعمالكم».

(٧) فى ت: «أم حسبتم» وهو خطأ.

(٨) فى ت، أ: «اترغبون».

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦) وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ (٣٧) ﴾.

يقول تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهم قائمون بمقتضاه ﴿ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أى: من القرآن لما فى كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به، كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١]. وقال تعالى: ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨] أى: إن كان ما وعدنا الله به فى كتبنا من إرسال محمد ﷺ لحقا وصدقا مفعولا لا محالة، وكائنا، فسبحانه ما أصدق وعده، فله الحمد وحده، ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩].

وقوله: ﴿ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ﴾ أى: ومن الطوائف من يكذّب ببعض ما أنزل إليك.

وقال مجاهد: ﴿ وَمِنَ الأَحْزَابِ﴾: اليهود والنصارى، من ينكر بعض ما جاءك من الحق. وكذا قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ ﴾ أى: إنما بعثت بعبادة الله وحده لا شريك له، كما أرسل الأنبياء من قبلى، ﴿إِلَيْهِ أَدْعُو ﴾ أى: إلى سبيله أدعو الناس، ﴿ وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ أى: مرجعى ومصيرى.

وقوله: ﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أى: وكما أرسلنا قبلك المرسلين، وأنزلنا عليهم الكتب من السماء، كذلك أنزلنا عليك القرآن محكما معربا، شرّفناك به وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلى الذى ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ١١].

وقوله: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾ أى: أراءهم، ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أى: من الله تعالى ﴿ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ ﴾ أى: من الله تعالى. وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا[(١)] سبل أهل الضلالة بعد ما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية والمحجة المحمدية، على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام

---

(١) فى ت: «يبتغوا».

[والتحية والإكرام][١].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩) ﴾.

يقول تعالى: وكما أرسلناك، يا محمد، رسولا بشريا[٢] كذلك [قد][٣] بعثنا المرسلين قبلك بَشَراً يأكلون الطعام، ويمشون فى الأسواق ويأتون الزوجات، ويولد لهم، وجعلنا لهم أزواجا وذرية، وقد قال [الله][٤] تعالى لأشرف الرسل وخاتمهم: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

وفى الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «أما أنا فأصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وآكل الدَّسَم[٥] وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى»[٦].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أنبأنا الحجاج بن أرطاة عن مكحول قال: قال أبو أيوب: قال رسول الله ﷺ: «أربع من سنن المرسلين: التعطر، والنكاح، والسواك، والحناء»[٧].

وقد رواه أبو عيسى الترمذى، عن سفيان بن وَكِيع عن حفص بن غياث، عن الحجاج، عن مكحول، عن أبى الشّمال[٨]، عن أبى أيوب... فذكره، ثم قال: وهذا أصح من الحديث الذى لم يذكر فيه أبو الشمال[٩] [١٠].

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أى: لم يكن يأتى قومه بخارق إلا إذا أُذنَ له فيه، ليس ذلك إليه، بل إلى الله، عز وجل، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أى: لكل مُدة مضروبة كتاب مكتوب بها، وكل شىء عنده بمقدار، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ[١١] وَالأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

وكان الضحاك بن مُزاحم يقول فى قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أى: لكل كتاب أجل يعنى[١٢] لكل كتاب أنزله من السماء مدة مضروبة عند الله ومقدار معين، فلهذا يمحو[١٣] ما يشاء منها ويثبت، يعنى حتى نسخت كلها بالقرآن الذى أنزله الله على رسوله، صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾: اختلف المفسرون فى ذلك، فقال الثورى، ووَكِيع، وهُشَيْم

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى أ: «بشرأ». (٣، ٤) زيادة من ت، أ.
(٥) فى ت، أ: «اللحم».
(٦) صحيح البخارى برقم (٥٠٦٣) وصحيح مسلم برقم (١٤٠١) وليس فيهما: «وآكل الدسم».
(٧) المسند (٥/٤٢١).
(٨) فى أ: «أبى السماك». (٩) فى أ: «أبو السماك».
(١٠) سنن الترمذى برقم (١٠٨٠).
(١١) فى ت، أ: «السموات» وهو خطأ. (١٢) فى ت، أ: «بمعنى». (١٣) فى ت: «يمحى».

وهُشَيْم، عن ابن أبى ليلى، عن المِنْهَال بن عمرو، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس: يدبر أمر السنة، فيمحو ما يشاء، إلا الشقاء والسعادة، والحياة والموت. وفى رواية: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾، قال: كل شىء إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة فإنهما قد فرغ منهما.

وقال مجاهد: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة، فإنهما لا يتغيران.

وقال منصور: سألت مجاهداً فقلت: أرأيت دعاء أحدنا يقول: اللهم، إن كان اسمى فى السعداء فأثبته فيهم، وإن كان فى الأشقياء فامحه عنهم واجعله فى السعداء. فقال: حَسَن. ثم لقيته بعد ذلك بحول أو أكثر، فسألته عن ذلك، فقال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ. فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان ٣، ٤]، قال: يَقضى فى ليلة القدر ما يكن فى السنَّة من رزق أو مصيبة، ثم يقدم ما[١] يشاء ويؤخر ما [٢]يشاء، فأما كتاب الشقاوة[٣] والسعادة فهو ثابت لا يُغير[٤].

وقال الأعمش، عن أبى وائل شَقِيق بن سلمة: إنه كان يكثر أن يدعو بهذا الدعاء: اللهم، إن كنت كتبتنا أشقياء فامحه، واكتبنا سعداء، وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب. رواه ابن جرير[٥].

وقال ابن جرير أيضا: حدثنا عمرو بن على، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنى أبى، عن أبى حكيمة[٦] عِصْمة، عن أبى عثمان النَّهْدى؛ أن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال وهو يطوف بالبيت وهو يبكى: اللهم، إن كنت كتبت على شقوة أو ذنباً فامحه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب، فاجعله سعادة ومغفرة[٧].

وقال حماد عن خالد الحذَّاء، عن أبى قلابة عن ابن مسعود أنه كان يدعو بهذا الدعاء أيضا.

ورواه شريك، عن هلال بن حميد، عن عبد الله بن عُكَيْم، عن ابن مسعود، بمثله.

وقال ابن جرير: حدثنى المثنى، حدثنا حجاج، حدثنا خصاف، عن أبى حمزة، عن إبراهيم؛ أن كعبا قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، لولا آية فى كتاب الله لأنبأتك بما هو كائن إلى يوم القيامة. قال: وما هى؟ قال: قال الله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[٨].

ومعنى هذه الأقوال: أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها، ويثبت منها ما يشاء، وقد يستأنس لهذا القول[٩] بما رواه الإمام أحمد:

(١، ٢) فى ت: «من».
(٣) فى ت: «الشقاء».
(٤) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٤٨٠).
(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٤٨١).
(٦) فى أ: «أبى حكيم».
(٧) تفسير الطبرى (١٦/ ٤٨١).
(٨) تفسير الطبرى (١٦/ ٤٨٤).
(٩) فى أ: «الأقوال».

حدثنا وَكِيع، حدثنا سفيان، وهو الثورى، عن عبد الله بن عيسى، عن عبد الله بن أبى الجَعْد، عن ثَوْبَان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يُصِيبه، ولا يرد القَدَر إلا الدعاء، ولا يزيد فى العمر إلا البر».

ورواه النسائى وابن ماجه، من حديث سفيان الثورى، به(١).

وثبت فى الصحيح أن صلة الرحم تزيد فى العمر(٢)، وفى الحديث الآخر: «إن الدعاء والقضاء ليعتلجان(٣) بين السماء والأرض»(٤).

وقال ابن جرير: حدثنى محمد بن سهل بن عسكر، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا ابن جُرَيْج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: إن لله لوحا محفوظا مسيرة خمسمائة عام، من درة بيضاء لها دَفَّتَان من ياقوت ـ والدفتان: لوحان ـ لله، عز وجل [كل يوم ثلاثمائة](٥) وستون لحظة، يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب(٦).

وقال الليث بن سعد، عن زيادة بن محمد، عن محمد بن كعب القُرَظى، عن فَضَالة بن عُبَيد، عن أبى الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «[إن الله](٧) يفتح الذكر فى ثلاث ساعات يَبْقين من الليل، فى الساعة الأولى منها ينظر فى الذكر الذى لا ينظر فيه أحد غيره، فيمحو ما يشاء ويثبت». وذكر تمام الحديث. رواه ابن جرير(٨).

وقال الكلبى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ قال: يمحو من الرزق ويزيد فيه، ويمحو من الأجل ويزيد فيه. فقيل له: من حدثك بهذا؟ فقال: أبو صالح، عن جابر بن عبد الله بن رئاب، عن النبى ﷺ. ثم سئل بعد ذلك عن هذه الآية فقال: يكتب القول كله، حتى إذا كان يوم الخميس، طرح منه كل شىء ليس فيه ثواب ولا عقاب، مثل قولك: أكلت وشربت، دخلت وخرجت ونحوه من الكلام، وهو صادق، ويثبت ما كان فيه الثواب، وعليه العقاب(٩).

وقال عِكْرِمة، عن ابن عباس: الكتاب كتابان: فكتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب.

وقال العوفى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ يقول: هو

---

(١) المسند (٥/ ٢٢٧) وسنن ابن ماجة برقم (٩٠).

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٥٥٧) من حديث أنس ولفظه: «من سره أن يبسط عليه رزقه، أو ينسأ فى أثره، فليصل رحمه».

(٣) فى ت، أ: «ليتعلجان».

(٤) لم أعثر عليه بهذا اللفظ.

(٥) زيادة من تفسير الطبرى، ومكانه فى هـ، ت، أ: «ثلاث».

(٦) تفسير الطبرى (١٦/ ٤٨٩).

(٧) زيادة من ت، أ، والطبرى.

(٨) تفسير الطبرى (١٦/ ٤٨٨).

(٩) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٤٨٤).

الرجل يعمل الزمانَ بطاعة الله، ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة، فهو الذى يمحو ـ والذى يثبت: الرجل يعمل بمعصية الله، وقد كان سبق له خير حتى يموت وهو فى طاعة الله، فهو الذى يثبت.

وروى عن سعيد بن جُبَير: أنها بمعنى: ﴿ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾، يقول: يبدل ما يشاء فينسخه، ويثبت ما يشاء فلا يبدله، ﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ يقول: وجملة ذلك عنده فى أم الكتاب، الناسخ، والمنسوخ، وما يبدل، وما يثبت كل ذلك فى كتاب.

وقال قتادة فى قوله: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾: كقوله: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦].

وقال ابن أبى نَجيح، عن مجاهد فى قوله: ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ قال: قالت كفار قريش حين أنزلت: ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾: ما نراك يا محمد تملك من شىء، ولقد فُرِغَ من الأمر. فأنزلت هذه الآية تخويفا ،ووعيداً لهم: إنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا ما شئنا، ونحدث فى كل رمضان، فنمحو ونثبت(١) ما نشاء من أرزاق الناس ومصائبهم، وما نعطيهم، وما نقسم لهم.

وقال الحسن البصرى: ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ قال: من جاء أجله، فَذَهبَ، ويثبت الذى هو حىّ يجرى إلى أجله.

وقد اختار هذا القول أبو جعفر بن جرير، رحمه الله.

وقوله: ﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ قال: الحلال والحرام.

وقال قتادة: أى جملة الكتاب وأصله.

وقال الضحاك: ﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ قال: كتاب عند رب العالمين.

وقال سُنَيد بن داود، حدثنى معتمر، عن أبيه، عن سَيَّار، عن ابن عباس؛ أنه سأل كعباً عن «أم الكتاب»، فقال: عَلِم الله، ما هو خالق، وما خَلْقُه عاملون، ثم قال(٢) لعلمه: «كن كتابا». فكانا(٣) كتابا.

وقال ابن جرير، عن ابن عباس: ﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ قال: الذكر، [والله أعلم](٤).

---

(١) فى ت، أ: «فيمحو ويثبت». (٢) فى ت، أ: «فقال».
(٣) فى ت، أ: «فكان». (٤) زيادة من أ.

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) ﴾.

يقول تعالى لرسوله: ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ ﴾ يا محمد ﴿ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ ﴾ أي: نعد أعداءك من الخزى[١] والنكال فى الدنيا، ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ [أي][٢]: قبل ذلك، ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ ﴾ أى: إنما أرسلناك لتبلغهم رسالة الله وقد بلغت[٣] ما أمرت به، ﴿ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ أى: حسابهم وجزاؤهم، كما قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ. لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ. إِلاَّ مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ. فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ. إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ [الغاشية: ٢١ ـ ٢٦].

وقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾؟ قال ابن عباس: أو لم يروا أنا نفتح لمحمد الأرض بعد الأرض؟

وقال فى رواية: أو لم يروا إلى القرية تخرب، حتى يكون العمران فى ناحية؟

وقال مجاهد وعكرمة: ﴿ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ قال: خرابها.

وقال الحسن والضحاك: هو ظهور المسلمين على المشركين.

وقال العَوْفى عن ابن عباس: نقصان أهلها وبركتها.

وقال مجاهد: نقصان الأنفس والثمرات وخراب الأرض.

وقال الشعبى: لو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حُشُّك، ولكن تنقص الأنفس والثمرات. وكذا قال عكرمة: لو كانت الأرض تنقص لم تجد مكانا تقعد فيه، ولكن هو الموت.

وقال ابن عباس فى رواية: خرابها بموت فقهائها وعلمائها وأهل الخير منها. وكذا قال مجاهد أيضاً: هو موت العلماء.

وفى هذا المعنى روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أحمد بن عبد العزيز أبى القاسم المصرى الواعظ[٤]، سكن أصبهان، حدثنا أبو محمد طلحة بن أسد المرئى بدمشق، أنشدنا أبو بكر الآجُرى بمكة قال: أنشدنا أحمد بن غزال لنفسه:

الأرض تحيَا إذا مـا عـاش عَالِمها ... مَتَى يمُتْ عَالم منها يمُت طَرَفُ

كالأرض تحيَا إذا ما الغيث حَل بها ... وإن أبـى عَاد فـى أكنافها التَّلَفُ

---

(١) فى ت: «الحزن». (٢) زيادة من ت، أ. (٣) فى ت، أ: «فعلت».

(٤) لم أعثر على ترجمته فى المخطوط من تاريخ دمشق ولا فى المختصر لابن منظور.

والقول الأول أولى، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية، [وكَفْرًا بعد كَفْر، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ﴾ الآية [الأحقاف: ٢٧]، وهذا اختيار ابن جرير، رحمه الله](١).

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢)﴾.

يقول: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ برسلهم، وأرادوا إخراجهم من بلادهم، فمكر الله بهم، وجعل العاقبة للمتقين، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ. فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ. فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ الآية [النمل: ٥٠ ـ ٥٢].

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: إنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر، وسيجزى كل عامل بعمله.

﴿وَسَيَعْلَمُ الكافر﴾ وقرئ: ﴿الْكُفَّارُ﴾ ﴿لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي: لمن تكون الدائرة والعاقبة، لهم أو لأتباع الرسل؟ كلا، بل هى لأتباع الرسل فى الدنيا والآخرة، ولله الحمد والمنة.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)﴾.

يقول: ويكذبك هؤلاء الكفار ويقولون: ﴿لَسْتَ مُرْسَلاً﴾ أى: ما أرسلك الله، ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أى: حسبى الله، وهو الشاهد على وعليكم، شاهد عَلَيّ فيما بلغتُ عنه من الرسالة، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان.

وقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾: قيل: نزلت فى عبد الله بن سلام. قاله مجاهد.

وهذا القول غريب؛ لأن هذه الآية مكية، وعبد الله بن سلام إنما أسلم فى أول مقدم رسول الله ﷺ المدينة. والأظهر فى هذا ما قاله العوفى، عن ابن عباس قال: هم من(٢) اليهود والنصارى.

وقال قتادة: منهم ابن سلام، وسلمان، وتميم الدارى.

وقال مجاهد ـ فى رواية ـ عنه: هو الله تعالى.

---

(١) زيادة من ت، أ.

(٢) فى ت: «فى».

وكان سعيد بن جُبَيْر ينكر أن يكون المراد بها عبد الله بن سلام، ويقول: هى مكية، وكان يقرؤها: «ومن عنده عِلِمَ الكتابُ»، ويقول: من عند الله.

وكذا قرأها مجاهد والحسن البصرى.

وقد روى ابن جرير من حديث، هارون الأعور، عن الزهرى، عن سالم، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قرأها: «ومن عنده عِلِمَ الكتابُ»، ثم قال: لا أصل له من حديث الزهرى عند الثقات[(١)].

قلت: وقد رواه الحافظ أبو يعلى فى مسنده، من طريق هارون بن موسى هذا، عن سليمان بن أرقم ـ وهو ضعيف ـ عن الزهرى، عن سالم، عن أبيه مرفوعا كذلك. ولا يثبت[(٢)]، والله أعلم.

والصحيح فى هذا: أن ﴿وَمَنْ عِندَهُ﴾ اسم جنس يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمد ﷺ ونعته فى كتبهم المتقدمة، من بشارات الأنبياء به، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الآية [الشعراء: ١٩٧]. وأمثال ذلك مما فيه الإخبار عن علماء بنى إسرائيل: أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة. وقد ورد فى حديث الأحبار، عن عبد الله بن سلام بأنه أسلم بمكة قبل الهجرة، قال الحافظ أبو نعيم الأصبهانى فى كتاب «دلائل النبوة»، وهو كتاب جليل:

حدثنا سليمان بن أحمد الطبرانى، حدثنا عَبْدان بن أحمد، حدثنا محمد بن مُصَفَّى، حدثنا الوليد بن مسلم، عن محمد بن حمزة بن يوسف، بن عبد الله بن سلام، عن أبيه، أن عبد الله بن سلام قال لأحبار اليهود: إنى أردت أن أجَدِد[(٣)] بمسجد أبينا إبراهيم وإسماعيل عهدا[(٤)]. فانطلق إلى رسول الله ﷺ وهو بمكة، فوافاهم وقد انصرفوا من الحج، فوجد رسول الله، بمنى، والناس حوله، فقام مع الناس، فلما نظر إليه رسول الله ﷺ قال: «أنت عبد الله بن سلام؟» قال: قلت: نعم. قال: «ادن». فدنوت منه، قال: «أنشدك بالله يا عبد الله بن سلام، أما تجدنى فى التوراة رسول الله؟» فقلت له: انعتْ ربنا. قال: فجاء جبريل حتى وقف بين يدى رسول الله ﷺ فقال له: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص]، فقرأها علينا رسول الله ﷺ فقال ابن سلام: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله. ثم انصرف ابن سلام إلى المدينة فكتم إسلامه. فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وأنا فوق نخلة لى أجُدُّها، فألقيت نفسى، فقالت

---

(١) تفسير الطبرى (١٦/ ٥٠٦).

(٢) مسند أبى يعلى (٩/ ٤٢٤) وقد وقع فيه: «عبد الرحيم بن موسى» بدلاً من «هارون بن موسى».

(٣) فى هـ، ت، أ: «أحدث» والمثبت من دلائل النبوة.

(٤) فى هـ، ت، أ. «عيدا» والمثبت من دلائل النبوة.

أمي: [لله][1] أنت، لو كان موسى بن عمران ما كان لك أن تلقى نفسك من رأس النخلة. فقلت: والله لأنى أسر بقدوم رسول الله ﷺ من موسى بن عمران إذ بُعث[2].

وهذا حديث غريب جداً.

(١) زيادة من ت، أ، والدلائل.

(٢) دلائل النبوة (١/ ١٢٥) وهو فى المعجم الكبير برقم (٣٧٢) «القطعة المفقودة» وأعله الهيثمى بالانقطاع.

[٢٢٨ظ] /

سورة الرعد

مختلَف فيها،[١] وهي خمس وأربعون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١﴾

﴿الٓمٓر﴾ اسم للسورة. ومَحلُّه إمّا الرفع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، أي: هذه السورة مسمّاة بهذا الاسم، وهو أظهر مِن الرفع على الابتداء؛ إذ لم يسبق العلم بالتسمية كما مرّ مرارًا. وقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ﴾ على الوجه الأوّل مبتدأ مستقلّ، وعلى الوجه الثاني مبتدأ ثانٍ، أو بدلٌ مِن الأوّل، أشيرَ به إليه إيذانًا بفخامته.

وَإمّا النصبُ بتقدير فعل يناسب المقام، نحو: "اقرأ" أو "اذكُر"، فـ﴿تِلۡكَ﴾ مبتدأ، كما إذا جعل ﴿الٓمٓر﴾ مسرودًا على نمط التعديد، أو بمعنى: "أنا الله أعلَم وأرى" على ما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما.[٢]

والخبر على التقادير قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: الكتاب العجيب الكامل، الغنيّ عن الوصف به، المعروف بذلك مِن بين الكتب، الحقيق باختصاص اسم الكتاب به، فهو عبارة عن جميع القرآن، أو عن الجميع المنزّل حينئذ، حسبما مرّ في مطلع سورة يونس عليه السلام؛ إذ هو المتبادر مِن مطلق الكتاب المستغني عن النعت. وبه يظهر ما أريدَ مِن وصف الآيات بوصف ما أضيفت إليه مِن نعوت الكمال، بخلاف ما إذا جُعل عبارة عن السورة،

---

[١] س: مدنيّة، وقيل: مكّيّة.

[٢] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٧/٥؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٣.

فإنّها ليست بتلك المثابة مِن الشهرة في الاتّصاف بذلك، المغنيةِ عن التصريح بالوصف، على أنّها عبارة عن جميع آياتها، فلا بدّ من جعل ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى كلّ واحدة منها. وفيه ما لا يخفى مِن التعسّف الذي مرّ تفصيله في سورة يونس.

﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: الكتاب المذكور بكماله، لا هذه السورة وحدَها. ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الثابت المطابِق للواقع في كلّ ما نطق به، الحقيق بأن يخصّ به الحقّيّة لعراقته فيها. وليس فيه ما يدلّ على أنّ ما عداه ليس بحقّ أصلًا، على
[٢٢٩و] أنّ حقّيّته مستتبعة لحقّيّة سائر الكتب السماويّة / لكونه مصدِّقًا لِما بين يديه ومهيمنًا عليه.

وفي التعبير عنه بالموصول وإسنادِ الإنزال إليه بصيغة المبنيّ للمفعول والتعرّضِ لوصف الربوبيّة مضافًا إلى ضميره عليه السلام مِن الدلالة على فخامة المنزَّل التابعةِ لجلالة شأن المنزِّل وتشريف المُنزَّلِ إليه والإيماءِ إلى وجه بناءِ الخبر ما لا يخفى.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بذلك الحقّ المبين، لإخلالهم بالنظر والتأمّل فيه، فعدم إيمانهم متعلّق بعنوان حقّيّته؛ لأنّه المرجع للتصديق والتكذيب، لا بعنوان كونه مُنْزَلًا كما قيل،[١] ولأنّه وارد على طريقة الوصف دون الإخبار.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣﴾

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: خلقهنّ مرتفعات. على طريقة قولهم: "سبحان مَن كبّر الفيل وصغّر البعوض"، لا أنّه رفعها بعد أن لم يكن كذلك. والجملة مبتدأ وخبر، كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ [الرعد، ٣/١٣].

---

[١] انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٤٤/٦.

﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ أي: بغير دعائم، جمع "عماد"، كإهاب وأَهَب، وهو ما يُعمد به، أي: يُسنَد، يقال: عَمَدت الحائط، أي: أدْعَمته. وقُرِئَ: "عُمُدٍ"[١] على جمع "عَمودٍ" بمعنى عمادٍ، كرُسل ورسول. وإيراد صيغة الجمع لجمع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، لا لأنّ المنفي عن كلّ واحدة منها عَمَد لا عِمادٌ.

﴿تَرَوْنَهَا﴾ استئناف استُشهد به على ما ذكر مِن رفع السماوات بغير عَمَد. وقيل: صفة لـ﴿عَمَدٍ﴾ جيء بها إيهامًا؛ لِأنّ لها عَمَدًا غير مرئيّة، هي قدرة الله سبحانه.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ أي: استولى ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ بالحفظ والتدبير. أو استوى أمره. وعن أصحابنا أنّ الاستواء على العرش صفة لله عزّ وجلّ بلا كيف. وأيًّا ما كان فليس المراد به القصد إلى إيجاد العرش وخلقِه، فلا حاجة إلى جعل كلمة ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الرتبة.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ ذلّلهما وجعلهما طائعين لِما أريدَ منهما مِن الحركات وغيرها. ﴿كُلٌّ﴾ مِن الشمس والقمر ﴿يَجْرِى﴾ حسبما أريدَ منهما ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لمدّة معيّنة / فيها تتمّ دورته، كالسنة للشمس، والشهرِ للقمر، [٢٢٩ظ]
فإنّ كلًّا منهما يجري كلّ يوم على مدارٍ معيّن مِن المدارات اليوميّة، أو لمدّةٍ ينتهي فيها حركاتهما ويخرج جميعُ ما أريدَ منهما مِن القوّة إلى الفعل، أو لغاية يتمّ عندها ذلك. والجملة بيان لحِكَم تسخيرهما.

﴿يُدَبِّرُ﴾ بما صنع مِن الرفع والاستواء والتسخير، أي: يقضي ويقدّر حسبما يقتضيه الحكمة والمصلحة ﴿ٱلْأَمْرَ﴾ أمر الخلق كلّه، وأمر ملكوته وربوبيّته. ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ الدالّةَ على كمال قدرته وبالغ حكمته، أي: يأتي بها مفصّلةً وهي ما ذُكر مِن الأفعال العجيبة، وما يتلوها مِن الأوضاع الفلكيّة الحادثة شيئًا فشيئًا، المستتبعةِ للآثار الغريبة في السُّفليات على موجَب التدبير والتقدير.

فالجملتان إمّا حالان مِن ضمير ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾، وقولُه: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ مِن تتمّة الاستواء، وإمّا مفسّرتان له؛ أو الأُولى حال منه، والثانية مِن الضمير فيها؛

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب وأبي حيوة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٣.

أو كلاهما مِن ضمائر الأفعال المذكورة، وقولُه: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ مِن تتمّة التسخير؛ أو خبران مِن قوله: ﴿ٱللَّهُ﴾، خبرًا بعد خبر، والموصول صفة للمبتدأ جيء به للدلالة على تحقيق الخبر وتعظيم شأنه، كما في قول الفرزدق:

إنّ الـذي سـمَك السـماءَ بنى لنا بـيـتًـا دعـائـمـه أعـزّ وأطـولُ[1]

﴿لَعَلَّكُم﴾ عند معاينتكم لها وعثوركم على تفاصيلها ﴿بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ﴾ بملاقاته للجزاءِ ﴿تُوقِنُونَ﴾ فإنّ مَن تدبّرها حقّ التدبّر أَيقن أنّ مَن قدر على إبداع هذه الصنائع البديعة على كلّ شيء قدير، وأنّ لهذه التدبيرات المتينة عواقبَ وغايات لا بدّ مِن وصولها، وقد بُيّنت على ألسنة الأنبياءِ عليهم السلام، أنّ ذلك[2] [٢٣٠و] ابتلاء المكلّفين ثمّ جزاؤهم حسب أعمالهم،[3] / فإذن لا بدّ مِن الإيقان بالجزاء.

ولمّا قرّر الشواهد العلويّة أردفها بذكر الدلائل السفليّة فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: بسطَها طولًا وعرضًا، قال الأصمّ: «المدّ: هو البسط إلى ما لا يدرك منتهاه»،[4] ففيه دلالة على بُعد مداها وسَعة أقطارها.[5]

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي: جبالًا ثوابت في أحيازها، مِن الرسوّ، وهو ثبات الأجسام الثقيلة. ولم يذكر الموصوف لإغناء غلبة الوصف بها عن ذلك. وانحصارُ مجيء فواعل جمعًا لفاعل في فوارس وهوالك ونواكس إنّما هو في صفات العقلاء، وأمّا في غيرهم فلا يراعى ذلك أصلًا، كما في قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [البقرة، ١٨٤/٢]، وقولِه: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البقرة، ١٩٧/٢] إلى غير ذلك.

فلا حاجة إلى أن يجعل مفردها صفةً لجمع القِلّة، أعني: أجبُلًا، ويعتبر في جمع الكثرة -أعني: جبالًا- انتظامها لطائفة مِن جموع القلّة، وتنزيل كلّ منها

---

[1] ديوان الفرزدق، ٣١٨/٢. سمَكَ الله السماءَ سَمْكًا: رفعها. الصحاح للجوهري، «سمك».

[2] وفي هامش م: بدل مِن ضمير العواقب والغايات في "بُيّنت" بطريق التفسير، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر، ٦٦/١٥]. «منه».

[3] وفي هامش م: كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود، ٧/١١]، وغير ذلك مِن النصوص. «منه».

[4] اللباب لابن عادل، ٢٤٠/١١.

[5] ط س: أقدارها.

منزلةَ مفردها كما قيل. على أنّه لا مجال لذلك، فإنّ جمعيّة كلّ مِن صيغتَي الجمعين إنّما هي باعتبار الأفراد التي تحتهما، لا باعتبار انتظام جمع القِلّة للأفراد، وجمعِ الكثرة لجموع القِلّة، فكلٌّ منهما جمع "جَبَل"، لا أنّ "جبالًا" جمع "أَجْبُل"، كما أنّ "طوائف" جمع "طائفة". ولا إلى أن يُلتَجأَ إلى جعل الوصف المذكور بالغلبة في عداد الأسماءِ التي تجمع على فواعل كما ظُنّ، على أنّه لا وجه له لِما أنّ الغلبة إنّما هي في الجمع دون المفرد. والتعبير عن الجبال بهذا العنوان لبيان تفرّع قرار الأرض على ثباتها.

﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ مجاري واسعة، والمراد ما يجري فيها مِن المياه، وفي نظمها مع الجبال في معموليّة فعل واحدٍ إشارةٌ إلى أنّ الجبال منشأ للأنهار وبيان لفائدةٍ / أخرى للجبال غيرِ كونها حافظةً للأرض عن الاضطراب المخلّ بثبات الأقدام [٢٣٠ظ] وتقلّب الحيوان، متفرّعةٍ على تمكّنه وتقلّبه، وهي تعيّشه بالماء والكلأ.

﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ متعلِّق بـ﴿جَعَلَ﴾ في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: اثنينيّةً حقيقيّةً، وهما الفردان اللذان كلّ منهما زوج الآخر. وأكّد به ﴿زَوْجَيْنِ﴾[١] لئلّا يُفهم أنّ المراد بذلك الشّفعان، إذ يطلق الزوج على المجموع، ولكنّ اثنينيّة ذلك اثنينيّة اعتباريّة، أي: جعل مِن كلّ نوع مِن أنواع الثمرات الموجودة في الدنيا ضربين وصنفين، إمّا في اللون، كالأبيض والأسود، أو في الطعم، كالحُلو والحامض، أو في القَدْر، كالصغير والكبير، أو في الكيفيّة، كالحارّ والبارد، وما أشبه ذلك. ويجوز أن يتعلّق بـ﴿جَعَلَ﴾ الأوّل، ويكون الثاني استئنافًا لبيان كيفيّة ذلك الجَعل.

﴿يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ استعارة تبعيّة تمثيليّة مبنيّة على تشبيه إزالة نور الجوّ بالظلمة بتغطية الأشياء الظاهرة بالأغطية، أي: يُستر النهار بالليل. والتركيب وإن احتمل العكس أيضًا بالحمل على تقديم المفعول الثاني على الأوّل، فإنّ ضوء النهار أيضًا ساتر لظلمة الليل، إلّا أنّ الأنسب بالليل أن يكون هو الغاشي. وعُدّ هذا في تضاعيف الآيات السفليّة -وإن كان تعلّقه بالآيات العلويّة ظاهرًا-

---

[١] ط س: الزوجين. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

باعتبار أنّ ظهوره في الأرض،[١] فإنّ الليل إنّما هو ظلّها، وفيما فوق موقع ظلّها لا ليل أصلًا، ولأنّ الليل والنهار لهما تعلّق بالثمرات مِن حيث العقد[٢] والإنضاج،[٣] على أنّهما أيضًا زوجان متقابلان مثلها. وقُرئ: "يُغَشِّي"[٤] مِن التغشية.

[٢٣١و] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر / مِن مدّ الأرض، وإيتادها بالرواسي، وإجراء الأنهار، وخلق الثمرات، وإغشاءِ الليل النهارَ. وفي الإشارة بذلك تنبيه على عِظم شأن المشار إليه في بابه. ﴿لَآيَاتٍ﴾ باهرةً. وهي آثار تلك الأفاعيل البديعة جلّت حكمة صانعها. فـ﴿فِي﴾ على معناها، فإنّ تلك الآثار مستقرّة في تلك الأفاعيل مَنوطة بها. ويجوز أن يشار بذلك إلى تلك الآثار المدلول عليها بتلك الأفاعيل، فـ﴿فِي﴾ تجريديّة.

﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإنّ التفكّر فيها يؤدّي إلى الحُكم بأنّ تكوين كلّ مِن ذلك على هذا النمط الرائق والأسلوب اللائق لا بدّ له مِن مكوِّن قادر حكيم يفعل ما يشاء، ويختار ما يريد، لا معقِّب لحُكمه، وهو الحميد المجيد.

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ﴾ جملة مستأنَفة مشتملة على طائفة أخرى مِن الآيات، أي: بِقاعٌ كثيرة مختلفة في الأوصاف، فمِن طيّبة إلى سبخة، وكريمةٍ إلى زَهيدة، وصُلبةٍ إلى رِخوة، إلى غير ذلك. ﴿مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ أي: متلاصِقات. وفي بعض المصاحف: "قِطَعًا مُتَجَاوِرَاتٍ"،[٥] أي: جعل في الأرض قِطَعًا. ﴿وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ أي: بساتينُ كثيرة منها.

﴿وَزَرْعٌ﴾ مِن كلّ نوع مِن أنواع الحبوب. وإفراده لمراعاة أصله. ولعلّ تقديمَ ذِكر الجنّات عليه مع كونه عمودَ المعاش لظهور حالها في اختلافها،

---

١ وفي هامش م: خبرُ "أنّ".
٢ وفي هامش م: ليل.
٣ وفي هامش م: نهار.
٤ قرأ بها حمزة والكسائي وخَلف ويعقوب وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢٦٩/٢.
٥ الكشّاف للزمخشري، ٥١٣/٢؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٤٩/٦.

ومباينتِها لسائرها، ورسوخِ ذلك فيها.

وتأخير قوله تعالى: ﴿وَنَخِيلٌ﴾ لئلّا يقع بينها وبين صفتها -وهي قوله تعالى: ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾- / فاصلةٌ. و"الصِّنوان" جمع "صِنْو"، كقِنوان وقِنْو؛[1] وهي النخلة التي لها رأسان وأصلها واحد. [٢٣١ظ]

وقُرئ بضمّ الصاد[2] على لغة بني تميم وقَيس.[3] وقُرئ: "جَنّاتٍ"[4] بالنصب عطفًا على ﴿زَوْجَيْنِ﴾، وبالجرّ على ﴿كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾. فلعلّ عدمَ نظم قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ في هذا السلك مع أنّ اختصاص كلّ مِن تلك القِطع بما لها مِن الأحوال والصفات بمحض جعل الخالق الحكيم جلّت قدرتُه حين مدّ الأرض ودحاها للإيماء إلى كون تلك الأحوال صفات راسخة لتلك القِطع.

وقُرئ: "وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ"[5] بالجرّ عطفًا على ﴿أَعْنَٰبٍ﴾ أو "جَنّاتٍ".[6]

﴿يُسْقَىٰ﴾ أي: ما ذُكر مِن القِطَع والجنّات والزرع والنخيل. وقُرئ بالتأنيث[7] مراعاةً للّفظ. والأوّل أوفق بمقام بيانِ اتّحاد الكلّ في حالة السقي ﴿بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ لا اختلاف في طبعه، سواء كان السقي بماء الأمطار أو بماء الأنهار.

﴿وَنُفَضِّلُ﴾ مع تآخذ أسباب التشابه بمحض قدرتنا واختيارنا ﴿بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ آخر منها ﴿فِى ٱلْأُكُلِ﴾ فيما يحصل منها مِن الثمر والطعم. وقُرئ بالياء[8] على بناء الفاعل ردًّا على ﴿يُدَبِّرُ﴾ و﴿يُفَصِّلُ﴾[9] و﴿يُغْشِى﴾.[10] وعلى بناء المفعول،[11]

---

١ القِنْو: العِذق بما فيه مِن الرُّطَب. لسان العرب لابن منظور، «قنو».

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حيوة والمفضّل وعن عاصم مِن طريق القوّاس عن حفص. انظر: والكامل للهذلي، ص ٥٧٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤/٣.

٣ بنو قَيس قبيلة مِن مُضَر مِن العدنانيّة، وهم بنو قيس بن عَيلان، واسمه الناس -بـ"النون"- بن مضر. قال المؤيّد صاحب حماه: «وقد جعل الله في قَيس مِن الكثرة أمرًا حتّى كان منه عدّة قبائل». نهاية الأرب للقلقشندي، ٤٠٣/١.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش والحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٤.

٥ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢٩٧/٢.

٦ على قراءة الجرّ.

٧ أي: "تُسْقَى". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٩٧/٢.

٨ أي: "وَيُفَضِّلُ". قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٩٧/٢.

٩ الرعد، ٢/١٣.

١٠ في الآية السابقة.

١١ أي: "وَيُفَضَّلُ بَعْضُهَا". قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن يعمَر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٤.

وفيه ما لا يخفى مِن الفخامة والدلالةِ مع أنّ عدم احتمال استناد الفعل إلى فاعل آخر مُغنٍ عن بناءِ الفعل للفاعل.[١]

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي فصِّل مِن أحوال القِطَع والجنّات ﴿لَأٓيَٰتٍ﴾ كثيرةً عظيمةً ظاهرةً ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ / يعملون على قضيّة عقولهم، فإنّ مَن عَقَلَ هذه [٢٣٢و] الأحوال العجيبة لا يَتَلَعْثَمُ في الجزم بأنّ مَن قدَر على إبداع هذه البدائع وخلقِ تلك الثمار المختلفة في الأشكال والألوان والطعوم والروائح في تلك القِطَع المتباينة المتجاورة وجَعْلِها حدائقَ ذات بهجة قادرٌ على إعادة ما أبداه؛ بل هي أهون في القياس.

وهذه الأحوال وإن كانت هي الآيات أنفسها -لا أنّها فيها- إلّا أنّه قد جُرّدت عنها أمثالُها مبالغة في كونها آية، فـ﴿فِي﴾ تجريديّة مثلَها في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ [فصلت، ٢٨/٤١]. أو المشار إليه الأحوال الكلّيّة والآياتُ أفرادُها الحادثة شيئًا فشيئًا في الأزمنة وآحادُها الواقعة في الأقطار والأمكنة المشاهَدةُ لأهلها، فـ﴿فِي﴾ على معناها.

وحيث كانت دلالة هذه الأحوال على مدلولاتها أظهرَ ممّا سبق عُلِّق كونها آياتٍ بمحض التعقّل، ولذلك لم يُتعرّض لغير تفضيل بعضِها على بعض في الأكُل الظاهر لكلّ عاقل مع تحقّق ذلك في الخواصّ والكيفيّات ممّا يتوقّف العثور عليه على نوع تأمّل وتفكّرٍ، كأنّه لا حاجة في ذلك إلى التفكّر أيضًا. وفيه تعريض بأنّ المشركين غير عاقلين.

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥﴾

﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ يا محمّد مِن شيء ﴿فَعَجَبٌ﴾ لا أعجبَ منه، حقيق بأن يُقصر عليه التعجّب ﴿قَوْلُهُمْ﴾ بعد مشاهدة ما عُدِّدَ لك مِن الآيات الشاهدة بأنّه تعالى على كلّ شيء قدير.

---

١ ط س: على الفاعل.

﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ على طريقة الاستفهام الإنكاري المفيد لكمال الاستبعاد والاستنكار. وهو في محلّ الرفع على البدليّة مِن ﴿قَوْلُهُمْ﴾ على أنّه بمعنى المَقُول، أو في محلّ النصب على المفعوليّة منه على أنّه مصدر. / فالعَجَب على الأوّل كلامُهم، وعلى الثاني تكلّمُهم بذلك. [٢٣٢ظ]

والعامل في ﴿إِذَا﴾ ما دلّ عليه قوله: ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهو "نُبعَث أو نُعادُ". وتقديم الظرف لتقوية الإنكار بالبعث بتوجيهه إليه في حالةٍ منافيةٍ له. وتكرير الهمزة في قولهم: ﴿أَءِنَّا﴾ لتأكيد الإنكار.

وليس مدارُ إنكارهم كونَهم ثابتين في الخلق الجديد بالفعل عند كونهم ترابًا؛ بل كونُهم بعرضيّة ذلك واستعدادهم له. وفيه مِن الدلالة على عُتُوِّهم وتمادِيهِم في النكير ما لا يخفى.

وقيل: وإن تعجَب مِن قولهم في إنكار البعث فعجَبٌ قولهم. والمآل وإن تعجَب فقد تعجّبت في موضع التعجّب. وقيل: وإن تعجَب مِن إنكارهم البعثَ فعجَبٌ قولهم الدالّ عليه، فتأمّل.

وقد جُوّز كون الخطاب لكلّ مَن يصلح له، أي: إن تعجَب يا مَن ينظر في هذه الآيات مِن قدرة مَن هذه أفعاله فَازْدَدْ تعجّبًا مِمَّن يُنكر مع هذه الدلائل قدرتَه تعالى على البعث، وهو أهون مِن هذه. والأنسب بقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾[١] هو الأوّل.

وقوله: ﴿فَعَجَبٌ﴾ خبر قُدّم على المبتدأ للقصر والتسجيل مِن أوّل الأمر بِكون قولهم ذاك أمرًا عجيبًا. ويجوز أن يكون مبتدأً لكونه موصوفًا بالوصف المقدّر كما أُشيرَ إليه. فالمعنى: وإن تعجَب فالعجَب الذي لا عجَب وراءه قولُهم هذا، فاعْجَب منه. وعلى الأوّل: وإن تعجَب فقولهم هذا عجَب لا عجَب فوقه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ والموصول خبره، أي: أولئك المنكِرون لقدرته تعالى على البعث ريثما عاينوا ما فُصِّل مِن الآيات الباهرة الملجِئة لهم إلى الإيمان به

---

١ في الآية التالية.

لو كانوا يبصرون ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ وتمادَوْا فِي ذلك فإنّ إنكارهم لقدرته عزّ وجلّ كفر به، وأيّ كفر! ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ مبتدأ خبره قوله: ﴿ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ أي: مقيّدون بقيود الضلال / لا يُرجى خلاصهم، أو مغلولون يوم القيامة. [٢٣٣و]

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر مِن الصفات ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ لا ينفكّون عنها. وتوسيط ضمير الفصل ليس لتخصيص الخلود بمنكري البعث خاصّة؛ بل بالجميع المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَـٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٦﴾

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ بالعقوبة التي أُنذِرُوها. وذلك حين سَألوا رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم أن يأتيهم بالعذاب استهزاءً منهم بإنذاره ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: العافية والإحسان إليهم بالإمهال، ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَـٰتُ﴾ أي: عقوبات أمثالهم مِن المكذّبين، فما لهم لا يعتبرون بها، ولا يحترزون حلول مثلِها بهم.

والجملة الحاليّة لبيان ركاكة رأيهم في الاستعجال بطريق الاستهزاء، أي: يستعجلونك بها مستهزئين بإنذارك، منكِرين لوقوع ما أنذرتهم إيّاه، والحال أنّه قد مضت العقوبات النازلة على أمثالهم مِن المكذّبين المستهزئين.

والمَثُلةُ بوزن السَّمُرةِ: العقوبةُ، سُمِّيت بها لِما بينها وبين المعاقَب عليه مِن المماثلة، ومنه المثال للقِصاص. وقُرئ: "الْمُثُلَاتُ" بضمّتين[١] بإتباع الفاء العينَ. و"الْمَثْلَاتُ" بفتح الميم وسكون الثاء،[٢] كما يقال: السَّمْرة. و"الْمُثْلَاتُ" بضمّ الميم وسكون الثاء[٣] تخفيف "الْمُثُلَاتُ". و"الْمُثَلَاتُ"[٤] جمع "مُثْلَة"، كرُكْبَةٍ ورُكَبات.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وابن قُطيب وأبي بكر وعاصم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٥.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٥.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة كذلك عن يحيى بن وثّاب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٥.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٥.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ عظيمة ﴿لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ أنفسَهم بالذنوب والمعاصي. ومحلّها النصب على الحاليّة، أي: ظالمين، والعامل فيه المغفرة، والمعنى: إنّ ربّك لغفور للناس، لا يعجّل لهم العقوبة وإن كانوا ظالمين؛ بل يمهلهم بتأخيرها.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ يعاقب مَن يشاء منهم حين يشاء، / فتأخير ما استعجلوه ليس للإهمال. [٢٣٣ظ]

وعنه عليه السلام: «لولا عفو الله وتجاوزه ما هَنأ لأحدٍ العَيشُ، ولولا وعيده وعقابه لاتَّكَل كلّ أحدٍ».[١]

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهم المستعجِلونَ أيضًا. وإنّما عُدِل عن الإضمار إلى الموصول ذمًّا لهم ونعيًا عليهم كُفْرَهم بآيات الله تعالى التي تخِرّ لها صُمّ الجبال، حيث لم يرفعوا لها رَأسًا، ولم يعدّوها مِن جنس الآيات، وقالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ مثلُ آيات موسى وعيسى عليهما السلام عِنادًا ومكابرةً، وإلّا ففِي أدنى آية أنزلت عليه عليه السلام غُنْية وعِبْرةٌ لأولي الألباب.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ مرسَل للإنذار مِن سوء عاقبة ما يأتون ويذَرون،[٢] كدأب مَن قبلَك مِن الرسل، وليس عليك إلّا الإتيان بما يُعلَمُ به نبوّتُك، وقد حصل ذلك بما لا مزيد عليه، ولا حاجة إلى إلزامهم وإلقامهم الحجَر بالإتيان بما اقترحوا مِن الآيات.

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ معيَّن، لا بالذات؛ بل بعنوان الهداية، يعني: لكلّ قوم نبيّ مخصوص له هداية مخصوصة يقتضي اختصاصَ كلّ منهم بما يختصّ به حِكَمٌ لا يعلمها إلّا الله تعالى، أو لِكلّ قوم هادٍ عظيمُ الشأن قادرٌ على ذلك هو الله سبحانه، وما عليك إلّا إنذارهم، فلا يهمَّنّك عنادهم وإنكارهم للآيات المنزّلة عليك وازدراؤهم بها.

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٧١/٥؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٦/٣.

٢ س: وما يذرون.

﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ۝٨﴾

ثمّ عقّبه بما يدلّ على كمال علمه وقدرته وشمول قضائه وقَدَرِه المبنيَّين على الحِكَم والمصالح تنبيهًا على أنّ تخصيص كلِّ قوم / بنَبيّ وكلِّ نبيّ بجنس [٢٣٤و] معيّن مِن الآيات إنّما هو للحِكَم الداعية إلى ذلك إظهارًا لِكمال قدرته على هدايتهم، لكن لا يهدي إلّا مَن تعلّق بهدايته مشيئتُه التابعة لحِكمٍ استأثر بعلمها، فقال: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ أي: تحمله. فـ﴿مَا﴾ موصولة أريدَ بها ما في بطنها مِن حين العُلوق إلى زمن الولادة، لا بعد تكامل الخلق فقط، والعِلم متعدٍّ إلى واحدٍ. أو أيَّ شيء تحمِل؟ وعلى أيّ حال هو مِن الأحوال المتواردة عليه طورًا فطورًا؟ فهي استفهاميّة معلِّقة للعِلم. أو حَمْلَها، فهي مصدريّة.

﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُ﴾ أي: تَنْقُصه وتزداده في الجُثّة كالخديج والتامّ. وفي المدّة كالمولود في أقلّ مدّة الحمل والمولود في أكثرها وفيما بينهما. قيل: إنّ الضحّاك وُلِد في سنتين،[١] وهَرِم بن حيّان[٢] في أربع، ومِن ذلك سمّي هَرِمًا.[٣] وفي العدد كالواحد فما فوقه. يُروى أنّ شَريكًا[٤] كان رابعَ أربعة.[٥] أو يعلم نقصها وازديادها لِما فيها، فالفعلان متعدّيان، كما في قوله تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ [هود، ٤٤/١١]، وقوله: ﴿وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾ [الكهف، ٢٥/١٨]، وقوله: ﴿وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖ﴾ [يوسف، ٦٥/١٢]، أو لازمان قد أُسنِدا إلى ﴿ٱلۡأَرۡحَامُ﴾ مجازًا، وهما لِما فيها.

---

١ جامع البيان للطبري، ٤٤٩/١٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٥١٥/٢.

٢ هرم بن حيّان العبدي البصري الأزدي مِن بني عبد قيس (ت. بعد ٢٦هـ/ بعد ٦٤٧م). قائد مِن كبار النسّاك والتابعين ولي بعض الحروب في أيّام عمر وعثمان رضي الله عنهم. حدّث عن عمر، وروى عنه الحسن البصري وغيره. عدّه ابن أبي حاتم في الزهّاد الثمانية، وسمّاه الجاحظ في النُّسّاك الزُّهّاد في أهل البيان. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤٨/٤؛ والأعلام للزركلي، ٨٢/٨.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٧٣/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٥١٥/٢.

٤ هو شريك بن عبد الله بن أبي نمر المدني (ت. بعد ١٤٠هـ/٧٥٧م)، التابعي، المحدِّث. حدّث عن أنس، وسعيد بن المسيّب، وكريب، وعطاء بن يسار، وجماعة. وحدّث عنه مالك، وسليمان بن بلال، وعبد العزيز الدراوَرْدي، وإسماعيل بن جعفر، وأبو ضمرة الليثي. ورَوى عنه مِن الكبار سعيد المقبُري، وذلك في الصحيح. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ١٥٩/٦؛ وتهذيب الكمال للمزّي، ٤٧٥/١٢.

٥ الكشّاف للزمخشري، ٥١٥/٢؛ اللباب لابن عادل، ٢٦٠/١١.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ مِن الأشياء ﴿عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ بقدرٍ لا يمكن تجاوزه عنه، كقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر، ٥٤/٤٩]، فإنّ كلّ حادث مِن الأعيان والأعراض له في كلّ مرتبة مِن مراتب التكوين ومباديها وقت معيّن وحال مخصوص / لا يكاد يجاوزه. والمراد بالعنديّة الحضور العلميّ؛ بل العلم الحضوري، فإنّ [٢٣٤ظ] تحقّق الأشياء في أنفسها في أيّ مرتبة كانت مِن مراتب الوجود والاستعداد لذلك عِلْم له بالنسبة إلى الله عزّ وجلّ.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ٩ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ١٠ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ١١﴾

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: الغائب عن الحِسّ ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: الحاضر له. عُبّر عنهما بهما مبالغة. وقيل: أريدَ بـ﴿ٱلْغَيْبِ﴾ المعدوم، وبـ﴿ٱلشَّهَٰدَةِ﴾ الموجود. وهو خبر مبتدأ محذوف، أو خبر بعد خبر. وقُرئ بالنصب[١] على المدح. وهذا كالدليل على ما قبله مِن قوله: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾... إلخ. ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ العظيم الشأنِ الذي كلّ شيء دونه ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾ المستعلي على كلّ شيء بقدرته، أو المنزّه عن نعوت المخلوقات.

وبعد ما بيّن سبحانه أنّه عالم بجميع أحوال الإنسان في مراتب فطرته ومحيطٌ بعَالَمَي الغيب والشهادة بيّن أنّه تعالى عالِم بجميع ما يأتون وما يذرون مِن الأفعال والأقوال، وأنّه لا فرق بالنسبة إليه بين السرّ والعلن، فقال: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ﴾ في نفسه ﴿وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ أظهَره لغيره، ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ﴾ مبالغٌ في الاختفاء، كأنّه مُختَفٍ ﴿بِٱلَّيْلِ﴾ وطالِبٌ للزيادة ﴿وَسَارِبٌ﴾ بارز يراه كلّ أحد ﴿بِٱلنَّهَارِ﴾ مِن "سَرَب سُروبًا"، أي: برَز. وهو عطفٌ على ﴿مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ﴾، أو على ﴿مُسْتَخْفٍ﴾، و﴿مَن﴾ عبارة عن الاثنين،

---

[١] أي: "عَالِمَ الغَيْبِ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٥.

كما في قوله:

تـعـالَ فَـإنْ عَـاهَـدْتَـنِـي لا تخونني   نكُنْ مثلَ مَن يَا ذِئـبُ يصطَحِبانِ[١]

كأنّه قيل: سواء منكم اثنان: مُستخفٍ بالليل، وسارِبٌ بالنهار. والاستِواء وإن أُسند إلى مَن أسرّ ومَن جهَر وإلى المستخفي والسارِب لكنّه في الحقيقة مسنَد إلى ما أسرّه وما جهر به، أو إلى الفاعل مِن حيث هو فاعل، كما في الأخيرين. وتقديم الإسرار والاستخفاء لإظهار كمال علمه تعالى، فكأنّه في التعلّق / بالخفيّات أقدم منه بالظواهر، وإلّا فنسبته إلى الكلّ سواء لِما عرفته آنفًا. [٢٣٥و]

﴿لَهُۥ﴾ أي: لكلّ ممّن أسرّ أو جهر، والمستخفي والسارب ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ ملائكة تَعتَقِب في حفظه."معقِّبة"، مِن "عقَّبه" مبالغةِ "عَقَبَهُ" إذا جاء على عَقِبه، كأنّ بعضهم يعقِّب بعضًا، أو لأنّهم يعقِّبون أقواله وأفعاله فيكتبونه. أو اعتَقَب، فأُدغمت التاء في القاف، والتاءُ للمبالغة. أو المراد بـ"المعقِّبات" الجماعات. وقُرئ: "مَعَاقِيبُ"[٢] جمع "مُعقِّب" أو "مُعَقِّبة"، على تعويض الياء مِن إحدى القافين.[٣]

﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ مِن جميع جوانبه، أو مِن الأعمال ما قدّم وأخّر، ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ مِن بأسه حين أذنب بالاستمهال والاستغفار له. أو يحفظونه مِن المَضارّ. أو يراقبون أحواله مِن أجل أَمْر الله تعالى. وقد قُرئ به.[٤] وقيل: ﴿مِنۡ﴾ بمعنى الباء. وقيل: ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ صفة ثانية لـ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾. وقيل: "المُعقِّبات" الحُرّاس والجَلَاوِزَةُ حَول السلطان يحفظونه في توهّمه مِن قضاء الله تعالى.

---

[١] للفرزدق في ديوانه، ص ٥٩٠، بلفظ:
تـعَـشَّ فـإن واثَـقْـتَـنِـي لا تَـخونُـنيْ
نكنْ مثلَ مَنْ يا ذئبُ يصطحبانِ

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البرَهْسَم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٥.

[٣] هذا قول الزمخشري في الكشّاف، ٥١٧/٢. ونقل أبو حيّان عن ابن جنّي قوله: «هو تكسير مُعْقِب بسكون العين وكسر القاف، كمُطْعِم ومَطاعيم، ومُقْدِم ومَقاديم، وكان مُعْقِبًا جمع على مَعاقِبة، ثمّ جعلت الياء في "مَعَاقِيب" عوضًا مِن الهاء المحذوفة في مَعاقِبة». البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٦١/٦.

[٤] أي: "يَحْفَظُونَهُ بِأَمْرِ الله". وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ وابن عبّاس رضي الله عنهم وعكرمة وزيد بن عليّ وجعفر بن محمّد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٥.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ مِن النعمة والعافية ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ مِن الأعمال الصالحة أو ملَكاتها التي هي فطرة الله التي فطر الناس عليها إلى أضدادها، ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا﴾ لسوء اختيارهم واستحقاقهم لذلك ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ فلا ردّ له. والعامل في ﴿إِذَا﴾ ما دلّ عليه الجواب.

﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ يلي أمرهم، ويدفع عنهم السوءَ الذي أراده الله بهم بما قدّمت أيديهم مِن تغيير ما بهم. وفيه دلالة على أنّ تخلّف مراده تعالى مُحال، وإيذان بأنّهم بما باشروه مِن إنكار البعثِ واستعجال السيّئة واقتراح الآية قد غيّروا ما بأنفسهم مِن الفطرة، واستحقّوا لِذلك حلولَ غضب الله تعالى وعذابه.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۝١٢﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا﴾ مِن الصاعقة ﴿وَطَمَعٗا﴾ / في المطر. فوجه تقديم "الخوف" على "الطمَع" ظاهر، لِما أنّ المَخوف عليه النفس أو الرزق العَتيد،[1] والمطموعَ فيه الرزق المترقّب. وقيل: الخوفُ أيضًا مِن المطر، لكنّ الخائف منه غير الطامع فيه، كالخزّاف والحرّاث. ويأباه الترتيب، اللّهمّ إلّا أن يُتكلّف ما أشيرَ إليه مِن أنّ المَخوف عليه[2] عتيد، والمطموع فيه مترقّب. [٢٣٥ظ]

وانتصابهما إمّا على المصدريّة، أي: فيخافون خوفًا، ويطمَعون طمَعًا، أو على الحاليّة مِن ﴿ٱلۡبَرۡقَ﴾، أو المخاطَبين بإضمار "ذوي"، أو بجَعل المصدرِ بمعنى المفعول أو الفاعل مبالغةً، أو على العلّيّة بتقدير المضاف، أي: إرادةَ خوف وطمع، أو بتأويل الإخافة والإطماع؛ ليتّحد فاعل العلّة والفعل المعلّل. وأمّا جَعلُ المعلَّل هي الرؤيةَ التي يتضمّنها الإراءة، على طريقة قول النابغة:

وحلّت بيوتي في يفاعٍ ممنّعٍ تَخال به راعي الحَمولة طائرا
حِذارًا على أن لا يُنال مَعادني ولا نِسوَتي حتّى يمُتنَ حرائرا[3]

---

[1] العَتيد: الحاضر المهيّأ. الصحاح للجوهري، «عتد».

[2] م ط س - عليه ["صح" في هامش م]. | فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[3] ديوان النابغة الذبياني، ص ١٣٣-١٣٤. بلفظ: "على ألّا تُنال مقادتي" بدل "على ألّا ينال معادني".

أي: أحللت بيوتي حذارًا، فلا سبيل إليه؛ لأنّ ما وقع في معرض العلّة الغائيّة -لا سيّما الخوف- لا يصلح علّةً لرؤيتهم.

﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ﴾ الغمام المنسحب في الجوّ ﴿ٱلثِّقَالَ﴾ بالماء، وهي جمعُ "ثقيلة"، وُصف بها السحاب لكونها اسم جنس في معنى الجمع، والواحدة سحابة، يقال: سحابة ثقيلة، وسحاب ثِقال، كما يقال: امرأة كريمة، ونسوة كِرام.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ۝١٣﴾

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ﴾ أي: سامعوه مِن العباد الراجين للمطر ملتبسين ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: يضجّون بـ"سبحان الله، والحمد لله". وإسناده إلى ﴿ٱلرَّعْدُ﴾ لحمله لهم على ذلك. أو يسبّح الرعد نفسه، على أنّ تسبيحه عبارة عن دلالته على وحدانيّته تعالى وفضله المستوجب لحمده.

وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه كان يقول: «سبحان مَن يسبّح الرعد بحمده».[١] وإذا اشتدّ يقول: «اللّهمّ لا تقتلْنا بغضبك، ولا تُهلِكنا بعذابك، وعَافِنا قبلَ ذلك».[٢] وعن عليّ كرّم الله تعالى[٣] وجهه: «سبحان مَن سَبَّحْتَ له».[٤]

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ اليهود سألت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن الرعد فقال: «ملَك مِن الملائكة موكَّل / بالسحاب، معه مَخَارِيقُ مِن نارٍ يسوق بها السحابَ».[٥] وعن الحسَن: «خلقٌ مِن خلق الله تعالى، ليس بملَك».[٦] [٢٣٦و]

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: يسبّح الملائكة ﴿مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ مِن هيبته وإجلاله جلّ جلاله. وقيل: الضمير لـ﴿ٱلرَّعْدُ﴾.

---

[١] جامع البيان للطبري، ٤٧٧/١٣. وأخرجه البخاري في الأدب المفرد، ص ٢٥٢ (٧٢٣)، مِن قول عبد الله بن الزبير.

[٢] مسند الإمام أحمد، ٤٨/١٠ (٥٧٦٣)؛ سنن الترمذي، ٥٠٣/٥ (٣٤٥٠).

[٣] ط س - تعالى.

[٤] جامع البيان للطبري، ٤٧٧/١٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٥١٨/٢.

[٥] سنن الترمذي، ٢٩٤/٥ (٣١١٧)؛ الدعاء للطبراني، ١٢٦١/٢ (٩٨٦).

[٦] الكشّاف للزمخشري، ٥١٩/٢؛ اللباب لابن عادل، ٢٧٤/١١.

﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ فيهلكه بذلك، ﴿وَهُمْ﴾ أي: الكفَرة المخاطَبون في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾.[١] وقد التُفِت إلى الغيبة إيذانًا بإسقاطهم عن درجة الخطاب، وإعراضًا عنهم، وتعديدًا لِجناياتهم لدى كلّ مَن يستحقّ الخطاب، كأنّه قيل: هو الذي يفعل أمثال هذه الأفاعيل العجيبة مِن إراءة البرق وإنشاءِ السحاب الثِّقال وإرسال الصواعق الدالّة على كمال علمه وقدرته، ويعقلها مَن يعقلها مِن المؤمنين.

أو الرعدُ[٢] نفسه، أو الملَكُ الموكّل به والملائكة، ويعملون بموجب ذلك مِن التسبيح والحمد والخوف مِن هيبته تعالى، ﴿وَهُمْ﴾ أي: الكفَرة الذين حُكِيَتْ هناتهم مع ذُلّهم وهَوَانِهم وحقَارة شأنِهم ﴿يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي: في شأنه تعالى حيث يفعلون ما يفعلون مِن إنكار البعث واستعجال العذاب استهزاءً واقتراح الآيات.

فـ"الواو" لعطف الجملة على ما قبلها مِن قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾... إلخ،[٣] أو على قوله: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ﴾... إلخ.[٤] وأمّا العطفُ على قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[٥] كما قيل فلا مجالَ له؛ لأنّ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾... إلخ[٦] استئناف لبيان بطلان قولِهم ذلك ونظائرِه مِن استعجال العذاب وإنكار البعث، قاطعٌ لعطف ما بعده على ما قبله. وقيل: للحال، أي: فيصيب بالصواعق مَن يشاء وهم في الجدال.

وقد أريدَ به ما أصاب أَرْبَدَ بنَ ربيعة أخا لبيدٍ فإنّه أقبل مع عامر بن الطفيل[٧] / إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يبغِيانه الغوائل، فدخلا المسجد [٢٣٦ظ]

---

١ في الآية السابقة.

٢ السياق: أي: سامعوه... أو الرعد...

٣ في الآية السابقة.

٤ الرعد، ٨/١٣.

٥ الرعد، ٧/١٣.

٦ الرعد، ٨/١٣.

٧ هو عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة العامري الجعفري. كان سيّدَ بني عامر في الجاهليّة. اختُلف في إسلامه، فأورده المستغفِري في الصحابة. قال ابن الأثير: «قول المستغفري وغيره ليس بحجّة في إسلام عامر، فإنّ عامرًا لم يَختلف أهل النقل مِن المتقدّمين أنّه مات كافرًا، وقد دعا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عليه وعلى أربد، فقال: "اللّهمّ اكفنيهما بما شئت"، فأنزل الله تعالى على أربد صاعقة، وأخذت عامرًا الغدّة، فكان يقول: "غُدّة كغُدّة البعير، وموت في بيت سلوليّة"». انظر: أسد الغابة لابن الأثير، ١٢٤/٣.

وهو عليه السلام جالس في نفر مِن الأصحاب رضي الله عنهم فاستشرفوا لِجَمالِ عامرٍ، وكان مِن أجمل الناس، وقد كان أَوْصَى إلى أَرْبَدَ أنّه إذا رَأَيتَنِي أُكلِّمُ محمّدًا عليه السلام فَدُرْ مِن خَلفِه واضربه بالسيف. فَجَعَل يكلّمه عليه السلام فدَارَ أَرْبَدُ مِن خلفه عليه السلام،[١] فاخترَط مِن سيفه شِبْرًا فحبسه الله تعالى فلم يقدِر على سَلِّه، وجعل عامر يومئ إليه، فرأى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الحال، فقال: «اللّهمّ اكْفِنيهِما بما شئت». فأرسل الله عزّ وجلّ على أَرْبَدَ صَاعقةً في يوم صَحْوٍ صائفٍ فأحرقته، ووَلّى عامر هاربًا، فنزل في بيت امرأة سلوليّة، فلمّا أصبح ضمّ عليه سلاحه، وتغيّر لَونُه، وركب فرسَه، فَجعل يَرْكُض في الصحراء، ويقولُ: «ابْرُزْ يا ملَك الموت»، ويقول الشِّعر، ويقول: «واللاتِ لئن أصحَرَ[٢] لي محمّد وصاحبه -يعني: ملك الموت- لأنفذتُهما برمح». فأرسل الله تعالى ملَكًا فلطمه بجناحه، فأزْداه في التراب، فخرجت على ركبته في الوقت غُدّة عظيمة، فعاد إلى بيت السلوليّة وهو يقول: «غُدّة كَغُدّة البعير ومَوْتٌ في بيت سلوليّة»، ثمّ دعا بفرسه فركبه، فأجراه حتّى مات على ظهره.[٣]

وقيل: أُريدَ به ما رُوي عن الحسَن أنّه كان رجل مِن طواغيت العرب فبعث النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم نفرًا مِن أصحابه يَدْعونه إلى الله عزّ وجلّ، فقال لهم: «أخبروني عمّا تدعونني إليه ما هو وممّ هو؟ مِن ذهب، أم مِن فضّة، أم مِن نحاس، أم مِن حديد، أم مِن دُرّ؟» فاستعظموا مقالته فرجعوا إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقالوا: «ما رأينا رجلًا أكفر قَلْبًا ولا أعتى على الله منه»، فقال عليه السلام: «ارجعوا إليه»، فرجعوا إليه، فما زاد إلّا مقالته الأولى وأخبث، فرجعوا إليه عليه السلام وأخبروا بما صنع، فقال عليه السلام: «ارجعوا إليه» فرجعوا إليه، فبَينما هُم عنده ينازعونه إذ ارتفعت سحابة ورعَدت وبرقت / ورمت بصاعقة فاحترق الكافر، فجاءوا يسعَون ليخبروه عليه السلام بالخبر، [٢٣٧و]

---

١ ط س - عليه السلام.

٢ أصحَر الرجل، أي: خرجَ إلى الصحراء. الصحاح للجوهري، «صحر».

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٧٧/٥؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٨٣/٣.

فاستقبلهم الأصحاب، فقالوا: «احترق صاحبكم»، قالوا: «مِن أين علمتم؟» قالوا: «أوحي إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم».[1]

﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ أي: والحال أنّه شديد المماحلة والمكابرة والمماكرة لأعدائه. مِن "محَله" إذا كاده وعرّضه للهلاك. ومنه "تمحّل" إذا تكلّف استعمالَ الحِيَل. وقيل: هو "مِحال" مِن "المَحْل" بمعنى القوّة. وقيل: محوّل مِن "الحول" أو "الحيلة"، أُعِلَّ على غير قياس. ويعضُده أنّه قُرئ بفتح الميم[2] على أنّه مَفعَل مِن حالَ يحول إذا احتال. ويجوز أن يكون بمعنى الفِقار، فيكون مثلًا في القوّة والقدرة، كقولهم: «فساعِدُ الله أشدّ، ومُوساه أحدّ».[3]

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ أي: الدعوة الثابتة الواقعة في محلّها، المجابة عند وقوعها. والإضافة للإيذان بملابستها للحقّ واختصاصها به، وكونه بمَعزِل مِن شائبة البطلان والضياع والضلال، كما يقال: كلمة الحقّ. وقيل: له دعوة الله سبحانه، أي: الدعوة اللائقة بحضرته، كما في قوله عليه السلام: «فمَن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله»،[4] والتعرّضُ لوصف الحقّيّة لتربية معنى الاستجابة. والأَولى هو الأوّل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.

وتعلّقُ الجملتين بما قبلهما مِن حيث إنّ إهلاك أربَد وعامر مِحَال مِن الله تعالى وإجابة لدعوة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عليهما إن كانت الآية

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٠/٥؛ اللباب لابن عادل، ٢٧٧/١١.

٢ أي: "المَحَال". قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٥.

٣ قطعة مِن حديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ٤٦٤/٢٨ (١٧٢٢٨)، عن أبي الأحوَص، عن أبيه، قال: أتيت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فصعّد فيّ النظر وصوّب، وقال: «أرَبّ إبل أنت أو رَبّ غنم؟» قال: مِن كلٍّ قد آتاني الله، فأكثر وأطيب، قال: «فتُنتِجها وافيةً أعينُها وآذانُها، فتَجدع هذه، فتقول: صَرْما، وتقول: بَحيرةَ الله؟ فساعِدُ الله أشدّ، ومُوساه أحدّ»... الحديث. قال ابن الأثير: «أي: لو أراد الله تحريمها بشقّ آذانها لخلقها كذلك، فإنّه يقول لها: كوني، فتكون». النهاية لابن الأثير، «سعد».

٤ صحيح البخاري، ٢٠/١ (٥٤)؛ صحيح مسلم، ١٥١٥/٣ (١٩٠٧).

نزلت في شأنهما، أو مِن حيث إنّه وعيد للكفرة على مجادلة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بحلول مِحَالِه بهم، وتحذيرٌ لهم بإجابة دعوته عليهم.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي: الأصنامَ الذين يدعوهم المشركون، فحُذف العائد.

[٢٣٧ظ] ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ مِن دون الله عزّ وجلّ ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ / مِن طلباتهم ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ﴾ أي: إلّا استجابة كائنة كاستجابة الماء لمَن بسَط كفّيه إليه مِن بعيدٍ. فالاستجابة مصدر مِن المبنيّ للفاعل على ما يقتضيه الفعل الظاهر، أعني: ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ﴾. ويجوز أن يكون مِن المبنيّ للمفعول، ويضاف إلى الباسط بناءً على استلزام المصدر مِن المبنيّ للفاعل للمصدر مِن المبنيّ للمفعول وجودًا وعدمًا، فكأنّه قيل: لا يستجيبون لهم بشيء، فلا يستجاب لهم استجابةً إلّا استجابةً كائنة كاستجابة مَن بسَط كفّيه إلى الماء، كما في قوله:

وعَضّةُ دهر يا ابنَ مروان لم يَدَعْ مِن المال إلّا مُسْحَتٌ أو مجلّفُ[١]

أي: لم يدع فلم يبقَ إلّا مُسحَتٌ أو مجلَّفٌ.

﴿لِيَبْلُغَ﴾ أي: الماء بنفسه مِن غير أن يؤخذ بشيء مِن الإناء ونحوه ﴿فَاهُ وَمَا هُوَ﴾ أي: الماء ﴿بِبَٰلِغِهِۦ﴾ ببالغ فيه أبدًا؛ لكونه جمادًا لا يشعر بعطشه، ولا يبسط يده إليه فضلًا عن الاستطاعة لِما أراده مِن البلوغ إلى فيه.

شُبّه حال المشركين في عدم حصولهم في دعاء آلهتهم على شيء أصلًا ورَكاكة رأيهم في ذلك بحال عطشان هائم لا يدري ما يفعل، قد بسط كفّيه مِن بعيد إلى الماء يبغي وصوله إلى فيه، مِن غير ملاحظة التشبيه في جميع مفردات الأطراف، فإنّ الماء في نفسه شيء نافع بخلاف آلهتهم. والمراد نفي الاستجابة رأسًا إلّا أنّه قد أُخرج الكلام مُخرج التهكّم بهم فقيل: لا يستجيبون لهم شيئًا مِن الاستجابة إلّا استجابةً كائنة في هذه الصورة التي ليست فيها شائبة الاستجابة قطعًا، فهو في الحقيقة مِن باب التعليق بالمُحال.

---

١ للفرزدق في ديوانه، ٢/١١٧، بلفظ: وعَضُّ زمانٍ يا ابنَ مروانَ لم يدَع مِن المال إلّا مُسْحَتًا أو مُجرَّفُ

وقُرئ: "تَدْعُونَ" بالتاء،[١] و"كَبَاسِطٍ" بالتنوين.[٢]

﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: ذهاب وضياع وخَسار.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ﴾ وحدَه ﴿يَسْجُدُ﴾ يخضع وينقاد لا لشيء غيرِه استقلالًا ولا اشتراكًا، فالقصر ينتظم القلبَ والإفراد ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مِن الملائكة والثقَلَين ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ أي: طائعِين وكارهين، أو انقيادَ طوعٍ وكَرهٍ، أو حالَ طوعٍ وكَرهٍ، فإنّ خضوع الكلّ لعظمة الله عزّ وجلّ وانقيادَه / لإحداث ما أراده فيهم مِن [٢٣٨و] أحكام التكوين والإعدام شاءُوا أو أَبَوا، وعدمَ مداخلة حكم غيره -بل غيرِ حكمه تعالى- في تلك الشئون ممّا لا يخفى على أحدٍ.

﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ أي: تنقاد له تعالى ظلالُ مَن له ظلّ منهم، أعني: الإنس، حيث يتصرّف على مشيئته وتتأتّى لإرادته في الامتداد والتقلّص والفَيء والزوال ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ ظرف للسجود المقدّر، أو حال مِن "الظِّلال". وتخصيص الوقتين بالذكر مع أنّ انقيادها متحقّق في جميع أوقات وجودها لظهور ذلك فيهما.

و﴿ٱلْغُدُوِّ﴾ جمع "غَداة"، كـ"فُتِيّ" في جمع "فتاةٍ"، و﴿ٱلْءَاصَالِ﴾ جمع "أَصِيل"، وقيل: جمع "أُصُلٍ"، وهو جمع "أصيل"؛ وهو ما بين العصر والمغرب. وقيل: ﴿ٱلْغُدُوِّ﴾ مصدر، ويؤيّده أنّه قُرئ: "وَالْإِيصَالِ"،[٣] أي: الدخول في الأصيل.

هذا وقد قيل: إنّ المراد حقيقةُ السجود، فإنّ الكفرة حالَ الاضطرار -وهو المعنيّ بقوله تعالى: ﴿وَكَرْهًا﴾- يخصّون السجود به سبحانه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا[٤] رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت، ٦٥/٢٩]. ولا يبعد أن يخلق الله تعالى في الظلال أفهامًا وعقولًا بها تسجد لله سبحانه كما خلقها للجبال

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليزيدي وهارون النحوي عن أبي عمرو وعن الأعمش. انظر: الكامل للهذلي، ص ٥٧٨؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البرَهْسَم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٦.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي مَجلز لاحِق السدوسي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٦.

٤ م س: وإذا.

حتّى اشتغلت بالتسبيح، وظهر فيها آثار التجلّي، كما قاله ابن الأنباري.[١] ويجوز أن يراد بسجودها ما يشاهَد فيها مِن هيئة السجود تبعًا لأصحابها.

وأنت خبير بأنّ اختصاص سجود الكافر حالةَ الضرورة والشدّة بالله سبحانه لا يُجدي، فإنّ سجودهم لأصنامهم حالةَ الرخاء مُخِلّ بالقَصر المستفاد مِن تقديم الجارّ والمجرور، فالوجه حمل السجود على الانقياد، ولأنّ تحقيق انقياد الكلّ في الإبداع والإعدام له تعالى أدخَل في التوبيخ على اتّخاذ أولياء مِن دونه مِن تحقيق سجودهم له تعالى.

وتخصيص انقياد العقلاء بالذِّكر مع كون غيرِهم أيضًا كذلك لأنّهم العمدة، وانقيادهم دليل انقياد غيرهم، على أنّه بيِّن ذلك بقوله عزّ وجلّ:

﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ١٦﴾

﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ / فإنّه لتحقيق أنّ خالقهما ومتولّي أمرَهما [٢٣٨ظ]
-مع ما فيهما على الإطلاق- هو الله سبحانه.

وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أمرٌ بالجواب مِن قِبَله عليه السلام إشعارًا بأنّه متعيّن للجوابيّة، فهو والخصم في تقريره سواء، أو أمر بحكاية اعترافهم إيذانًا بأنّه أمر لا بدّ لهم مِن ذلك، كأنّه قيل: احْكِ اعترافَهم فبكِّتْهُم بما يلزمهم مِن الحجّة وألقِمْهم الحجَر، أو أمرٌ بتَلقينهم ذلك إن تَلَعْثَمُوا في الجواب حذرًا مِن الإلزام، فإنّهم لا يتمالَكون إذ ذاك، ولا يقدرون على إنكاره.

﴿قُلۡ﴾ إلزامًا لهم وتبكيتًا: ﴿أَفَٱتَّخَذۡتُم﴾ لأنفسكم. و"الهمزة" لإنكار الواقع، كما في قولك: "أضَربتَ أباك؟"، لا لإنكار الوقوع، كما في قوله: "أَضَربْتُ أبي؟". و"الفاء" للعطف على مقدّر بعد "الهمزةِ"، أي: أَعَلِمتم أنّ ربَّهما هو الله

---

[١] البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٦٩/٦؛ اللباب لابن عادل، ٢٨٢/١١.

الذي ينقاد لأمره مَن فيهما كافّةً فاتّخذتم ﴿مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ عاجزين ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا﴾ يستجلبونه ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ يدفعونه عن أنفسهم فضلًا عن القدرة على جلب النفع لغيره، ودفع الضرر عنه، لا على أن يكون الإنكار متوجّهًا إلى المعطوفَين معًا، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة، ٤٤/٢]، إذا قدّر المعطوف عليه: "أَلَا تَسمعون"؛ بل إلى ترتّب الثاني على الأوّل مع وجوب أن يترتّب عليه نقيضُه.[١]

والمعنى: أَبَعْدَ أن علِمتم أنّ ربَّهما هو الله جلّ جلاله اتّخَذتم مِن دونه أولياءَ عجَزَةً، والحال أنّ قضيّة العلم بذلك إنّما هو الاقتصار على تولّيه، فعكستم الأمر؟ كما في قوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ [الكهف، ٥٠/١٨]. ووصفُ "الأولياءِ" ههنا بعدم المالكيّة للنفع والضرّ في ترشيح الإنكار وتأكيده كتقييد الاتّخاذ هناك بالجملة الحاليّة، أعني قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [الكهف، ٥٠/١٨]، فإنّ كلًّا منهما / ممّا ينفي [٢٣٩و] الاتّخاذ المذكور ويؤكّد إنكارَه.

﴿قُلْ﴾ تصويرًا لآرائهم الركيكة بصورة المحسوس: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ﴾ الذي هو المشرك الجاهل بالعبادة ومستحِقّها ﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾ الذي هو الموحِّد العالِم بذلك. أو الأوّل عبارة عن المعبود الغافل، والثاني إشارة إلى المعبود العالِم بكلّ شيء. ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ التي هي عبارة عن الكفر والضلال ﴿وَٱلنُّورُ﴾ الذي هو عبارة عن التوحيد والإيمان، وقُرئ بالياء.[٢]

ولمّا دلّ النظم الكريم على أنّ الكفرة فيما فعلوا مِن اتّخاذ الأصنام أولياء مِن دون الله سبحانه في الضلال المحض والخطأ البحت بحيث لا يخفى بطلانه على أحد، وأنّهم في ذلك كالأعمى الذي لا يهتدي إلى شيء أصلًا، وليس لهم في ذلك شبهة تصلُح أن تكون منشأً لغلطهم وخطئهم فضلًا عن الحجّة، أُكِّدَ ذلك فقيل:

---

[١] وفي هامش م: كما إذا قُدِّر: "أَتسمَعون؟". «منه».

[٢] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢٩٧/٢.

﴿أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ﴾ أي: بل أجَعلوا له ﴿شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ﴾ سبحانه، و"الهمزة" لإنكار الوقوع، لا لإنكار الواقع مع وقوعه، وقوله: ﴿خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ﴾ هو الذي يتوجّه إليه الإنكار، وأمّا نفس الجعل فهو واقع لا يتعلّق به الإنكار بهذا المعنى. والمعنى: أنّهم لم يجعلوا لله تعالى شركاء خلقوا كخلقه ﴿فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ بسبب ذلك وقالوا: هؤلاء خلقوا كخلقه تعالى، فاستحقّوا بذلك العبادةَ كما استحقّها، ليكون ذلك منشأً لخطئهم؛ بل إنّما جعلوا له شركاء ما هو بمَعزِل مِن ذلك بالمرّة. وفيه ما لا يخفى مِن التعريض بركاكة رأيهم، والتهكّم بهم.

﴿قُلِ﴾ تحقيقًا للحقّ وإرشادًا لهم إليه: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ كافّةً، لا خالقَ سواه فيشارِكه في استحقاق العبادة ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ﴾ المتوحّد بالألوهيّة، المتفرّد بالربوبيّة، ﴿ٱلْقَهَّٰرُ﴾ لكلّ ما سواه، فكيف يُتوهَّم أن يكون له شريك؟

[٢٣٩ظ] وبعد ما مُثِّل المشرك والشِّرك بـ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾ و﴿ٱلظُّلُمَٰتُ﴾، / والموحّد والتوحيد بـ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ و﴿ٱلنُّورُ﴾ مُثِّل الحقّ الذي هو القرآن العظيم في فيضانه مِن جناب القدس على قلوبٍ خالية عنه متفاوتةِ الاستعداد، وفي جريانه عليها ملاحظةً وحِفظًا، وعلى الألسنة مذاكرةً وتلاوةً، وفي ثباته فيها مع كونه مُمِدًّا لِحَياتها الروحانيّة وما يتلوها مِن الملَكات السنيّة والأعمال المرضيّة، بالماء النازل مِن السماء، السائلِ في أودية يابسة لم تجرِ عادتها بذلك، سَيَلَانًا مُقَدَّرًا بمِقدارٍ اقتضَتْه الحكمة في إحياء الأرض وما عليها، الباقِي فيها حسبما يدور عليه منافع الناس، وفي كونه حِلية يتحلّى به النفوس، وتصل إلى البَهجة الأبديّة، ومتاعًا يُتمتّع به في المعاش والمعاد؛ بالذهب والفضّة وسائر الفِلِزّات[١] التي يُتّخذ منها أنواع الآلات والأدوات، وتبقى منتفَعًا بها مدّةً طويلة.

ومُثِّل الباطِلُ الذي ابتُلِي به الكفرة لقُصورِ نظرهم بما يظهر فيهما مِن غير مداخلة له فيهما وإخلالٍ بصَفائهما مِن الزبَد الرابي فوقَهما المُضمَحِلّ سريعًا، فقيل:

---

[١] الفِلِزّات جمع الفِلِزّ؛ وهو جميع جواهر الأرض مِن الذهب والفضّة والنحاس وأشباهها. انظر: لسان العرب لابن منظور، «فلز».

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: مِن جهتها ﴿مَآءً﴾ أي: كثيرًا، أو نوعًا منه، وهو ماء المطر ﴿فَسَالَتْ﴾ بذلك ﴿أَوْدِيَةُۢ﴾ واقعة في مواقعه، لا جميع الأودية، إذ الأمطار لا تستوعب الأقطار. وهو جمع "وادٍ"، وهو مَفرَجٌ بين جبالٍ أو تِلال أو آكام على الشذوذ، كنادٍ وأندية، وناجٍ وأنجية. قالوا: وَجهُه أنّ "فاعلًا" يجيء بمعنى "فَعيل"، كناصر ونصير، وشاهد وشهيد، وعالِم وعليم. وحيث جُمع "فَعيل" على "أفعِلة" -كجَريب وأجْرِبة- جُمِع "فاعل" أيضًا على "أَفعِلة"، فإن أريدَ بها ما يسيل فيها مجازًا فإسناد السيلان إليها حقيقي، وإن أريدَ معناها الحقيقي فالإسناد مجازي، كما في "جرى النهرُ". وإيثار التمثيل بها على الأنهار المستمرّة الجريان لوضوح المماثلة بين شأنها وشأن ما مثّل بها كما أشيرَ إليه.

﴿بِقَدَرِهَا﴾ أي: سالت ملتبِسةً بمِقدارها الذي / عيّنه الله تعالى واقتضته [٢٤٠و] حكمته في نفع الناس، أو بمقدارها المتفاوِت قلّةً وكثرةً بحسب تفاوُت محالّها[١] صِغَرًا وكِبَرًا، لا بكونها مالئةً لها منطبِقةً عليها؛ بل بمجرّد قِلّتها بصِغرها المستلزِم لقِلّة موارد الماء وكثرتها بكِبَرها المستدعي لكثرة الموارد، فإنّ مَورِد السيل الجاري في الوادي الصغير أقلُّ مِن موارد السيل الجاري في الوادي الكبير.

هذا إن أريدَ بالأودية ما يسيل فيها، أمّا إن أريدَ بها معناها الحقيقي فالمعنى: سالت مياهها بقدر تلك الأودية على نحو ما عرفته آنفًا، أو يراد بضميرها مياهُها بطريق الاستخدام،[٢] ويراد بـ﴿قَدَرِهَا﴾ ما ذُكر أوّلًا مِن المعنيَين.

---

١ ط س: محلّها. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٢ الاستخدام: هو أن يُذكر لفظ له معنيان، فيُراد به أحدُهما، ثمّ يُراد بالضمير الراجع إلى ذلك اللفظ معناه الآخر، أو يراد بأحد ضميريه أحد معنييه، ثمّ بالآخر معناه الآخر. التعريفات للجرجاني، ص ٢٢.

﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ﴾ الجاري في تلك الأودية، أي: حَملَ معه ﴿زَبَدٗا﴾ أي: غُثاءً ورغوةً، وإنّما وُصِف ذلك بقوله تعالى: ﴿رَّابِيٗاۖ﴾ -أي: عاليًا منتفخًا فوقه- بيانًا لِما أريدَ بالاحتمال المحتمِل لكون الحَمِيل غيرَ طافٍ كالأشجار الثقيلة. وإنّما لم يُدْفَعْ ذلك الاحتمال -بأن يقال: فاحتمل السيل فوقَه- للإيذان بأنّ تلك الفوقيّة مقتضى شأن الزبَد، لا مِن جهة المحتمِل تحقيقًا للمماثلة بينه وبين ما مثّل به مِن الباطل الذي شأنه الظهور في بادي الرأي مِن غير مداخلة في الحقّ.

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ﴾ أي: يفعلون الإيقاد عليه كائنًا في النار. والضمير للناس، أُضمِر مع عدم سبق الذِّكر لظهوره. وقُرئ بالخطاب.[١] ﴿ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ﴾ أي: لِطلب اتّخاذِ حلية؛ وهي ما يُتزيّن ويُتجمَّلُ به، كالحُلِيّ المتّخذة مِن الذهب والفضّة، أو اتّخاذِ متاعٍ؛ وهو ما يُتمتَّع به مِن الأواني والآلات المتّخَذة مِن الرصاص والحديد وغير ذلك مِن الفِلِزّات. ﴿زَبَدٞ﴾ خَبَثٌ ﴿مِّثۡلُهُۥۚ﴾ مثل ما ذُكر مِن زبَد الماء في كونه رابيًا فوقَه. فقوله: ﴿زَبَدٞ﴾ مبتدأ خبره الظرف المقدَّم.

[٢٤٠ظ] و﴿مِن﴾ ابتدائيّة دالّة على مجرّد كونه مبتدِأً وناشِئًا منه، لا تبعيضيّة / معرِبة عن كونه بعضًا منه كما قيل،[٢] لِإخلالِ ذلك بالتمثيل. وفي التعبير عن ذلك بالموصول والتعرّضِ لِما في حيّز الصلة مِن إيقادِ النار عليه جَرْيٌ على سَنن الكبرياء بإظهار التهاون به، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ [القصص، ٣٨/٢٨]، وإشارة إلى كيفيّة حصول الزبَد منه بذَوَبانِه.

وفي زيادة ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ إشعار بالمبالغة في الاعتمال للإذابة وحصولِ الزبَد كما أُشيرَ إليه. وعدم التعرّض لإخراجه مِن الأرض لعدم دخل ذلك العنوان في التمثيل، كما أنّ لعنوان إنزال الماء مِن السماء دخلًا فيه حسبما فُصِّل فيما سلف؛ بل له إخلال بذلك.

---

[١] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢٩٧/٢.

[٢] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٥٢٣/٢، والبيضاوي في أنوار التنزيل، ١٨٥/٣.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثل ذلك الضرب البديع المشتمِل على نُكت رائقة ﴿يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَ﴾ أي: مَثَلَ الحقِّ ومَثَلَ الباطلِ، والحذف للإنباء عن كمال التماثل بين الممثَّل والممثَّل به، كأنّ المَثَل المضروب عينُ الحقّ والباطل.

وبعد تحقيق التمثيل مع الإيماء في تضاعيف ذلك إلى وجوه المماثلة على أبدع وجوهٍ وآنقِها حسبما أشيرَ إليه في مواقعها بيِّن عاقبة كلّ مِن الممثَّلين على وجه التمثيل مع التصريح ببعض ما به المماثلة مِن الذهاب والبقاء تتمّةً للغرض مِن التمثيل مِن الحثّ على اتّباع الحقّ الثابتِ والرَّدْعِ عن الباطل الزائل، فقيل:

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾ مِن كلّ منهما ﴿فَيَذۡهَبُ جُفَآءً﴾ أي: مَرْمِيًّا به. وقُرئ: "جُفَالًا"،[1] والمعنى واحد. ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ منهما كالماء الصافي والفِلِزّ الخالص ﴿فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أمّا الماء فيثبت بعضُه في مَناقِعه،[2] ويسلك بعضه في عروق الأرض إلى العيون والقَنَا والآبار، وأمّا الفِلِزّ فيصاغ مِن بعضه أنواعُ الحليّ ويتّخذ مِن بعضه أصنافُ الآلات والأدوات، فيُنتفَع بكلّ مِن ذلك أنواعَ الانتفاعات مدّةً طويلة.

فالمراد بالمُكث / في الأرض ما هو أعمّ مِن المُكث في نفسها ومِن البقاء في أيدي المتقلّبين فيها. وتغيير ترتيب اللفّ الواقع في الفذلكة[3] الموافق للترتيب الواقع في التمثيل[4] لمراعاة المُلاءَمةِ بين حالتَي الذهاب والبقاء وبين ذِكريهما، فإنّ المعتبر إنّما هو بقاء الباقي بعد ذهاب الذاهب، لا قبله. [٢٤١و]

﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ﴾ أي: مثل ذلك الضرب العجيب يضرب ﴿ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ في كلّ باب إظهارًا لِكمال اللطف والعناية في الإرشاد والهداية. وفيه تفخيم لشأن هذا التمثيل، وتأكيدٌ لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَ﴾ إمّا باعتبار ابتِناءِ هذا على التمثيل الأوّل، أو بجعل ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةً إليهما جميعًا.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن رؤبة بن العجاج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٦.

٢ المَنقَع، بالفتح: الموضع يَستنقِع فيه الماء، أي: يحبس، والجمع مَناقع. الصحاح للجوهري، «نقع».

٣ وفي هامش م: هو قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَ﴾. «منه».

٤ وفي هامش م: هو قوله تعالى: ﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدًا﴾. «منه».

وبعد ما بيّن شأن كلّ مِن الحقّ والباطل حالًا ومآلًا أكملَ بيانٍ شُرع في بيان حالِ أهل كلّ منهما مآلًا تكميلًا للدعوة ترغيبًا وترهيبًا فقيل:

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٨﴾

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ﴾ إذ دعاهم إلى الحقّ بفنون الدعوة التي مِن جملتها ضرب الأمثال، فإنّه ألطف ذريعة إلى تفهيم القلوب الغبيّة، وأقوى وسيلة إلى تسخير النفوس الأبيّة، كيف لا وهو تصوير للمعقول بصورة المحسوس، وإبراز لِأَوابِدِ[1] المعاني في هَيئة المأنوس؟ فأيُّ دعوةٍ أَولى منه بالاستجابة والقبول؟ ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: المثوبة الحُسنى، وهي الجنّة.

﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ﴾ وعاندوا الحقّ الجَليّ ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مِن أصناف الأموال ﴿جَمِيعًا﴾ بحيث لم يشذّ منه شاذّ في أقطارها، أو مجموعًا غير متفرّق بحسب الأزمان ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ﴾ أي: بما في الأرض ومثله معه جميعًا ليتخلّصوا عمّا بهم. وفيه مِن تهويل ما يلقاهم ما لا يحيط به البيان.

فالموصول مبتدأ، والشرطيّة كما هي خبره، لكن لا على أنّها وُضعت موضع السُّوأى -فوقعت في مقابلة الحسنى الواقعة في القرينة الأولى لمراعاة حسن المقابلة، فصار كأنّه قيل: وللذين لم يستجيبوا له السُّوأى- كما تُوهِّم، فإنّ الشرطيّة وإن دلّت على كمال سوء حالهم لكنّها بمَعزِل مِن القيام مَقام لفظ السُّوأى مصحوبًا باللام الداخلة على الموصول / أو ضميره، وعليه يدور حُصُول المرام. [٢٤١ظ]

وإنّما الواقع في تلك المقابلة ﴿سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾. وحيث كان اسم الإشارة الواقعُ مبتدأً في هذه الجملة عبارةً عن الموصول الواقع مبتدأً في الجملة السابقة كان خبرها -أعني الجملة الظرفيّة- خبرًا عن الموصول في الحقيقة، ومبيّنًا لإبهام مضمون الشرطيّة الواقعة خبرًا عنه أوّلًا، ولذلك تُرك العطف، فصار كأنّه قيل: والذين لم يستجيبوا له لهم سوء الحساب،

[1] الأوابِد: الوحوش. الصحاح للجوهري، «أبد».

وذلك في قوّة أن يُقال: وللذين لم يستجيبوا له سوء الحساب، مع زيادة تأكيد، فتمّ حسن المقابلة على أبلغ وجهٍ وآكَده.

ثمّ بيّن مؤدّى ذلك فقيل: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ أي: مرجِعُهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ وفيه نوعُ تأييد لتفسير ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بالجنّة. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي: المستقرّ. والمخصوص بالذمّ محذوف.

وقيل: "اللام" في قوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ﴾ متعلِّقة بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[1] أي: الأمثالَ السالفةَ. وقوله: ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ صفة للمصدر، أي: استجابوا الاستجابةَ الحسنى، وقولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ﴾ معطوف على الموصول الأوّل، وقولُه: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم﴾... إلخ كلام مستأنَف مَسوق لبيان ما أُعِدّ لغير المستجيبين مِن العذاب. والمعنى: كذلك يضرب الله الأمثال للمؤمنين المستجيبين والكافرين المعاندين، أي: هما مَثَلا الفريقين.

وأنت خبير بأنّ عنوانَ الاستجابة وعدمَها لا مناسبةَ بينه وبين ما يدور عليه أمرُ التمثيل، وَأنّ الاستعمال المستفيض دخول اللام على مَن يُقصد تذكيره بالمَثَل، نعم قد يستعمل في هذا المعنى أيضًا كما في قوله سبحانه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحريم، ١١/٦٦] ونظائره. على أنّ بعض الأمثال المضروبة لا سيّما المَثَل الأخير الموصول بالكلام ليس مَثَلَ الفريقين؛ بل مَثَلٌ للحقّ والباطل، ولا مَسَاغَ لجعل الفريقين مضروبًا لهم أيضًا بأن يُجعل في حكم أن يقال: كذلك يضرب الله الأمثال للناس، إذ لا وجه حينئذ لتنويعهم إلى المستجيبين وغير المستجيبين، فتأمّل.

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾

/ ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ مِن القرآن الذي مُثّل بالماء المنزّل [٢٤٢و]
مِن السماء والإبريزِ[2] الخالص في المنفعة والجدوى ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا حقَّ وراءه،

---

[1] في الآية السابقة.

[2] الإبريز: الذهب الخالص. لسان العرب لابن منظور، «برز».

أو الحقّ الذي أشيرَ إليه بالأمثال المضروبة، فيستجيب له ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ عمى القلب، لا يشاهِدُه وهُوَ نارٌ على عَلَمٍ، ولا يقدِر قدرَه وهو في أقصى مراتب العُلوّ والعِظَمِ، فيبقى حائرًا في ظلمات الجهل وغَياهب الضلال، أو لا يتذكّر بما ضُرِب مِن الأمثال، أي: كمَن لا يعلم ذلك، إلّا أنّه أريدَ زيادة تقبيح حاله فعُبّر عنه بالأعمى.

وإيراد "الفاء" بعد "الهمزة" لتوجيه الإنكار إلى ترتّب توهّم المماثلة على ظهور حال كلٍّ منهما بما ضُرب مِن الأمثال، وبُيّن المصير والمآل، كأنّه قيل: أبَعدَ ما بُيّن حال كلّ مِن الفريقين ومآلهما يُتوهّم المماثلة بينهما.[1]

ثمّ استؤنف فقيل: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بما ذكر مِن المذكّرات فيَقِفُ على ما بينهما مِن التفاوت والتنائِي ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: العقولِ الخالصة المبرَّأة مِن[2] مُشايعة الإلْف ومُعارضة الوَهم.

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝٢٠﴾

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ بما عقدوا على أنفسهم مِن الاعتراف بربوبيّته حين قالوا: "بلى"،[3] أو ما عَهِد الله عليهم في كتبه. ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ ما وثّقوه على أنفسهم وقَبِلُوه مِن الإيمان بالله وغيرِه مِن المواثيق بينهم وبين الله وبين العباد، وهو تعميم بعد تخصيص. وفيه تأكيد للاستمرار المفهوم مِن صيغة المستقبل.

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ مِن الرحِم وموالاة المؤمنين والإيمانِ بجميع الأنبياء المجمِعين على الحقّ مِن غير تفريق بين أحد منهم، ويندرج فيه مراعاةُ جميع حقوق الناس؛ بل حقوقُ كلّ ما يتعلّق بهم مِن الهِرّ والدجاج.

---

[1] وفي هامش م: والجملةُ لتقرير ما قبلها مِن اختصاص المستجيبين بالجنّة، وابتلاء غير المستجيبين بجهنّم، وتوضيحه حسبما يُعرب عنه ما سيأتي مِن قوله تعالى في حقّ الفريقين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد، ٢٢/١٣]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد، ٢٥/١٣]. «منه».

[2] س: عن.

[3] يعني: الميثاق الوارد في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف، ١٧٢/٧].

﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ خشية جَلالٍ وهَيْبةٍ ورَهْبةٍ، فلا يعصونه فيما أمَر به، ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾ فيحاسِبون أنفسهم قَبل أن يحاسَبُوا. وفيه دلالة على كمال فظاعته / حسبما ذُكر فيما قبل. [٢٤٢ظ]

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٢﴾

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على كلّ ما يكرهه النفس مِن الأفعال والتروك ﴿ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ طلبًا لرضاه خاصّةً مِن غير أن يَنظُروا إلى جانب الخلق رياءً أو سُمعة، ولا إلى جانب النفس زينة وعجبًا.

وحيث كان الصبر على الوجه المذكور ملاكَ الأمر في كلّ ما ذُكر مِن الصِّلات السابقة واللاحقة أُورِدَ على صيغة الماضي اعتناءً بشأنه، ودلالةً على وجوب تحقّقه، فإنّ ذلك ممّا لا بدّ منه، إمّا في أَنْفُس الصِّلات، كما فيما عدا الأولى والرابعةَ والخامسةَ، أو في إظهار أحكامها، كما في الصِّلات الثلاث المذكورات، فإنّها وإن استغنت عن الصبر في أنفُسها حيث لا مشقّة على النفس في الاعتراف بالربوبيّة والخشية والخوف، لكنّ إظهار أحكامها والجريَ على موجَبها غيرُ خالٍ عن الاحتياج إليه.

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضةَ ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ أي: بعضه الذي يجب عليهم إنفاقه ﴿سِرّٗا﴾ لمَن لم يُعرَف بالمال، أو لمَن لا يُتّهم بترك الزكاة، أو عند إنفاقه وإعطائه مَن يمنعه المروءة مِن أخذه ظاهرًا، ﴿وَعَلَانِيَةٗ﴾ لمَن لم يكن كما ذُكر، أو الأوّلُ في التطوّع، والثاني في الفَرْض.

﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: يُجَازُونَ الإساءةَ بالإحسان، أو يُتبِعون الحسنة السيّئة فتمحوها. عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «يَدفَعون بالحسَن مِن الكلام ما يَرِد عليهم مِن سيّء غيرِهم».[١] وعن الحسَن: «إذا حُرِموا أَعطَوا،

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ٥٢٦/٢. وفي الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٦/٥، عن ابن عبّاس رضي الله عنه في رواية الضحّاك عنه قال: «يدفعون بالصالح مِن العمل الشرّ مِن العمل».

وإذا ظُلِموا عفَوا، وإذا قُطِعُوا وَصَلُوا».[١] وعن ابن كَيسان:[٢] «إذا أذْنَبوا تابوا».[٣] وقيل: إذا رأَوا منكَرًا أمَرُوا بِتَغْيِيره.[٤] وتقديمُ المجرور على المنصوب لإظهار كمال العناية بالحسنة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلة والمَلَكات الجميلة. وهو مبتدأ،
[٢٤٣و] خبره الجملة الظرفيّة، أعني: قولَه: ﴿لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: عاقبة الدنيا / وما ينبغي أن يكون مآل أمر أهلها وهي الجنّة. وقيل: الجارّ والمجرور خبر لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، و﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ فاعل الاستقرار، وأيًّا ما كان فليس فيه قصر حتّى يرِد أنّ بعض ما في حيّز الصلة ليس مِن العزائم التي يُخِلُّ إخلالها بالموصول إلى حسن العاقبة.

والجملة خبر للموصولات المتعاطفة، أو استئناف لبيان ما استوجبوه بتلك الصفات، إن جُعلت الموصولات المتعاطفة صفاتٍ لأولي الألباب على طريقة المدح مِن غير أن يُقصد أن يكون للصِّلات المذكورة مدخل في التذكّر.

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ بدل مِن ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾،[٥] أو مبتدأٌ خبره: ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ والعَدْن: الإقامة، ثمّ صار علَمًا لجنّةٍ مِن الجِنان، أي: جنّاتٌ يقيمون فيها. وقيل: هو بُطْنَانُ الجنّة.

﴿وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ﴾ جمعُ أَبَوَي كلِّ واحد منهم، فكأنّه قيل: مِن آبائهم وأمّهاتهم ﴿وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾ وهو عطفٌ على المرفوع في ﴿يَدۡخُلُونَ﴾،

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٦/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٢٦/٢.

٢ هو محمّد بن أحمد بن كَيسان، أبو الحسن (ت. ٢٩٩هـ/٩١٢م)، النحوي. كان أحدَ المشهورين بالعلم، والمعروفين بالفهم؛ أخذ عن أبي العبّاس المبرّد، وأبي العبّاس ثعلب، وكان قيّمًا بمعرفة البصريّين والكوفيّين، و"كيسان" لقب لأبيه. وكان لابن كيسان مصنّفات كثيرة؛ منها المهذّب في النحو، وغلط أدب الكاتب، وغريب الحديث، ومعاني القرآن. انظر: نزهة الألبّاء للأنباري، ص ١٧٨؛ وبغية الوعاة للسيوطي، ١٩/١؛ والأعلام للزركلي، ٣٠٨/٥.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٦/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٢٦/٢.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٥٢٦/٢.

٥ في الآية السابقة.

وإنّما ساغ ذلك للفصل بالضمير الآخِر، أو مفعول معه، والمعنى: أنّه يُلحَق بهم مَن صلَح مِن أهلهم وإن لم يبلغ مَبلغ فضلهم تبعًا لهم تعظيمًا لشأنهم. وهو دليل على أنّ الدرجةَ تعلو بالشفاعة، وأنّ الموصوف بتلك الصفات يُقرَنُ بَعضُهم ببعضٍ لِما بينهم مِن القرابة والوُصلة في دخول الجنّة زيادةً في أُنسهم. وفي التقييد بالصلاح قطعٌ للأطماع الفارغة لمَن يتمسّك بمجرّد حبل الأنساب.

﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ مِن أبواب المنازل، أو مِن أبواب الفتوح والتُّحَف قائلين: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم﴾ بِشارة لهم بدوام السلامة ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ متعلّق بـ﴿عَلَيْكُم﴾، أو بمحذوف، أي: هذه الكرامة العظمى بما صبرتم، أي: بسبب صبركم، أو بدل ما احتملتم مِن مشاقّ الصبر / ومتاعبِه. والمعنى: لئن تعبتم [٢٤٣ظ]
في الدنيا لقد استرحتم الساعةَ. وتخصيص الصبر بما ذُكر مِن بين الصلاتِ السابقة لِما قدّمناه مِن أنّ له دخلًا في كلّ منها ومزيّةً زائدةً مِن حيث إنّه مَلاك الأمر في كلّ منها، وأنّ شيئًا منها لا يُعتدّ به إلّا بأن يكون لابتغاء وجه الربّ تعالى وتقدّس.

﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: فنِعم عُقبى الدار الجنّة. وقُرئ بفتح النون،[1] والأصل "نَعِمَ" فسُكِّن العين بنقل حركتِها إلى النون تارةً وبدونه أخرى.

وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه كان يأتي قبُورَ الشهداء على رأس كلّ حَول، فيقول: «سلام عليكم بما صبرتم، فنِعم عُقبى الدار»،[2] وكذا عن الخلفاء الأربعة،[3] رضوان الله تعالى[4] عليهم أجمعين.

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ أريدَ بهم مَن يقابل الأوّلين ويعاندهم في الاتّصاف

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٦/٣٨٢؛ والمحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٣/٣١٠.

٢ جامع البيان للطبري، ١٣/٥١٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٢٨٧. وأخرجه عبد الرزّاق في المصنّف، ٣/٥٧٣ (٦٧١٦).

٣ جامع البيان للطبري، ١٣/٥١٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٢٨٧. وأخرجه عبد الرزّاق في المصنّف، ٣/٥٧٣ (٦٧١٦).

٤ س – تعالى.

بنقائض صفاتِهم ﴿مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ مِن بعد ما أُوثقوه به مِن الاعتراف والقبول. ﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ مِن الإيمان بجميع الأنبياء المجمِعين على الحقّ حيث يؤمنون ببعضهم ويكفرون ببعضهم، ومِن حقوق الأرحام وموالاة المؤمنين وغير ذلك ممّا لا يراعون حقوقه مِن الأمور المعدودة فيما سلف.

وإنّما لم يُتعرّض لنفي الخشية والخوف عنهم صريحًا لدلالة النقض والقطع على ذلك. وأمّا عدم التعرّض لنفي الصبر المذكور فلأنّه إنّما اعتُبر تحقّقه في ضمن الحسنات المعدودة لِيَقَعْنَ مُعْتَدًّا بهِنّ، فلا وجه لنفيه عمّن بينه وبين الحسنات بُعدُ المَشرِقين، كما لا وجه لنفي الصلاة والزكاة ممّن لا يحوم حول أصل الإيمان بالله تعالى فضلًا عن فروع الشرائع. وإن أريدَ بالإنفاق التطوّع فنفيه مندرج تحت قطع ما أمر الله تعالى بوصله.

وأمّا دَرءُ السيّئة بالحسنة / فانتفاؤه عنهم ظاهر ممّا سبَق ولحِق، فإنّ مَن [٢٤٤و] يجازي إحسانَه عزّ وجلّ بنقضِ العهد ومخالفة الأمر ويباشر الفساد بدءًا حسبما يحكيه قوله عزّ وعلا: ﴿وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: بالظلم وتهييج الفِتَن، كيف يُتصوّر منه مُجازاة الإساءة بالإحسان؟ على أنّ ذلك يُشعر بأنّ له دخلًا في الإفضاء إلى العُقُوبة التي يُنْبئ عنها قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾... إلخ، أي: أولئك الموصوفون بما ذُكر مِن القبائح ﴿لَهُمُ﴾ بسبب ذلك ﴿ٱللَّعۡنَةُ﴾ أي: الإبعادُ مِن رحمة الله تعالى، ﴿وَلَهُمۡ﴾ مع ذلك ﴿سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ أي: سوءُ عاقبة الدنيا، أو عذابُ جهنّم، فإنّها دارهم؛ لأنّ ترتيب الحُكم على الموصول مشعِر بعلّيّة الصلة له.

ولا يخفى أنّه لا دخلَ له في ذلك على أكثر التفاسير، فإنّ مُجازاة السيّئة بمثلها مأذون فيها. ودفعُ الكلام السيّئ بالحسَن، وكذا الإعطاء عند المنع، والعفوُ عند الظلم، والوصلُ عند القطع، ليس ممّا يورِث تركُه تبِعةً. وأمّا ما اعتُبر اندراجُه تحت الصلة الثانية مِن الإخلال ببعض الحقوق المندوبة فلا ضَيرَ في ذلك؛ لأنّ اعتباره مِن حيث إنّه مِن مستتبِعات الإخلال بالعزائم، بالكفر ببعض الأنبياء، وعقوقِ الوالدين، وترك سائر الحقوق الواجبة. وتكريرُ ﴿لَهُمۡ﴾ للتأكيد والإيذان باختلافهما، واستقلال كلّ منهما في الثبوت.

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ أي: يوسّعه ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ مِن عباده ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يضيّقه على مَن يشاء حسبما يقتضيه الحكمة، مِن غير أن يكون لأحد مدخل في ذلك، ولا شعورٌ بحكمته، فربّما يبسطه للكافر إملاءً واستدراجًا، وربّما يضيّقه / على المؤمن زيادةً لأجره، فلا يغترّ ببسطه الكافر، كما لا يَقنط بقَدْره المؤمنُ. [٢٤٤ظ]

﴿وَفَرِحُوا۟﴾ أي: أهلُ مكّة فرحَ أَشَرٍ وبَطَرٍ، لا فرحَ سرورٍ بفضل الله تعالى ﴿بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وما بُسط لهم فيها مِن نعيمها، ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ وما يتبعها مِن النعيم ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ في جَنْبِ نعيم الآخرة ﴿إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ إلّا شيءٌ نَزْرٌ يُتمتَّع به كَعُجالة الراكب وزادِ الراعي. والمعنى: أنّهم رضوا بحظّ الدنيا مُعرِضين عن نعيم الآخرة، والحال أنّ ما أَشِرُوا به في جنب ما أَعْرَضُوا عنه شيء قليل النفع سريع النَّفاد.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: أهلُ مكّة، وإيثارُ هذه الطريقة على الإضمار مع ظهور إرادتهم عقيب ذكر فرحهم بالحياة الدنيا لذمّهم والتسجيل عليهم بالكفر فيما حُكي عنهم مِن قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فإنّ ذلك في أقصى مراتب المكابَرة والعناد، كأنّ ما أُنزل عليه عليه السلام مِن الآيات العظام الباهرة ليس بآية حتّى اقترحوا ما لا يقتضيه الحِكمة مِن الآيات المحسوسة التي لا يبقى لأحد بعد ذلك طاقة بعدم القبول، ولذلك أُمِر في الجواب بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ إضلاله مشيئة تابعة للحكمة الداعية إليها، أي: يخلق فيه الضلال لصَرفه اختيارَه إلى تحصيله ويَدعُه منهمِكًا فيه لعلمه بأنّه لا ينجَع فيه اللطف ولا ينفعه الإرشاد، كمَن كان على صفتكم في المكابرة والعناد وشدّة الشكيمة والغلوّ في الفساد، فلا سبيل له إلى الاهتداء ولو جاءَته كلّ آية.

﴿وَيَهْدِيَ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى جنابه العليّ الكبيرِ هدايةً موصلةً إليه، لا دلالةً مطلَقة على ما يوصل إليه، فإنّ ذلك غير مختصّ بالمهتدين، وفيه مِن تشريفهم ما لا يوصف. ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ / أقبل إلى الحقّ، وتأمّل في تضاعيف ما نزّل مِن دلائله الواضحة. وحقيقة الإنابة الدخول في نَوبة الخير. [٢٤٥و]

وإيثار إيرادها في الصلة على إيراد المشيئة كما في الصلة الأولى للتنبيه على الداعي إلى الهداية؛ بل إلى مشيئتها والإشعار بما دعا إلى المشيئة الأولى مِن المكابرة. وفيه حثّ للكفرة على الإقلاع عمّا هم عليه مِن العتوّ والعناد. وإيثار صيغة الماضي للإيماء إلى استدعاء الهداية لسابقة الإنابة، كما أنّ إيثار صيغة المضارع في الصلة الأولى للدلالة على استمرار المشيئة حسب استمرار مكابرتهم.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بدل مِن ﴿مَنْ أَنَابَ﴾،[1] فإن أريدَ بالهداية الهدايةُ المستمِرّة فالأمر ظاهر لظهور كون الإيمان مؤدّيًا إليها، وإن أريدَ إحداثُها فالمراد بـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الذين صار أمرهم إلى الإيمان، كما في قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة، ٢/٢]، أي: الصائرين إلى التقوى، وإلّا فالإيمان لا يؤدّي إلى الهداية نَفْسِها. أو خبر مبتدأ محذوف، أي: هم الذين آمنوا، أو منصوب على المدح.

﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾ أي: تستقرّ وتسكن ﴿بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ بكلامه المعجِز الذي لا ريب فيه، كقوله: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء، ٢١/٥٠]، وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر، ١٥/٩]، ويعلمون أن لا آيةَ أعظمُ منه فيقترحوها. والعدول إلى صيغة المضارع لإفادة دوام الاطمئنان وتجدّده حسب تجدّد الآيات وتعدّدها.

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ وحدَه ﴿تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ دون غيره مِن الأمور التي تميل إليها النفوس مِن الدنياويّات، وهذا ظاهرٌ، أمّا سائر المعجزات فالقصر مِن حيث إنّها ليست / في إفادة الطمأنينة بالنسبة إلى مَن لم يشاهدها بمثابة القرآن المجيد، [٢٤٥ظ]

---

[1] في الآية السابقة.

فإنّه معجزة باقية إلى يوم القيامة يشاهدها كلّ أحد، وتطمئنّ به القلوب كافّةً. وفيه إشعار بأنّ الكفرة ليست لهم قلوب، وأفئدتُهم هَواءٌ، حيث لم يطمئنّوا بذكر الله تعالى، ولم يعدّوه آية، وهو أظهر الآيات وأبهرها.

وقيل: تطمئنّ قلوبُهم بذكر رحمته ومغفرته بعد القلق والاضطراب مِن خشيته، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر، ٢٣/٣٩]، أو بذكر دلائله الدالّة على وحدانيّته، أو بذكره جلّ وعلا أُنسًا به وتبتّلًا إليه، فالمراد بالهداية دوامها واستمرارها.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بدل مِن ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾[١] على حذف المضاف، بدلَ الكلّ حسبما رُمز إليه، أي: قلوب الذين آمنوا. وفيه إيماء إلى أنّ الإنسان إنّما هو القلب. أو مبتدأ خبرُه الجملة الدعائيّة على التأويل، أعني: قوله: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ أو خبر مبتدأ مضمَر، أو نصب على المدح، فـ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ حال عاملُها الفعلان.

و﴿طُوبَىٰ﴾ مصدر مِن "طاب"، كـ"بُشرى" و"زُلفى"، والواو منقلِبة مِن الياء، كـ"موقِن" و"موسِر". وقرأ مَكْوَزَةُ الأعرابي:[٢] "طِيبَى"[٣] ليَسلم الياء، والمعنى: أصابوا خيرًا، ومحلُّها النصب، كـ"سلامًا لك"، أو الرفع على الابتداء وإن كانت نكرةً لكونها في معنى الدعاء، كـ"سلام عَليك"، يدلّ على ذلك القراءةُ في قوله تعالى: ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ بالنصب[٤] والرفع. واللام في ﴿لَهُمْ﴾ للبيان مثلها في "سُقيًا لك".

---

١ في الآية السابقة.

٢ هو مَكْوَزة الأعرابي (ت. نحو ٢١٠هـ/٨٢٥م)، أحد الفصحاء الذين رأى النديم كتُبهم بخطوط علماء اللغة. وكان ممّن روى عنه أبو عبيدة وأبو محلّم الشيباني. وثمّة نُقُول عن مَكْوَزة في: **الألفاظ** لابن السكّيت، و**المزهر** للسيوطي. **تاريخ التراث العربي** لسزكين، ٦١/١.

٣ قراءة شاذّة. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٥٢٨/٢؛ و**البحر المحيط** لأبي حيّان، ٣٨٦/٦؛ و**شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٥٨.

٤ القراءة بنصب ﴿وَحُسْنُ﴾ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وعيسى الكوفة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٥٨.

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مِثلُ ذلك الإرسال العظيم الشأن المصحوبِ بهذه المعجزة الباهرة ﴿أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ﴾ أي: مَضت ﴿مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ كثيرة قد أرسلَ إليهم رُسل ﴿لِّتَتْلُوَا۟﴾ لتقرأ ﴿عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ مِن الكتاب العظيم الشأن، وتهديهم إلى الحقّ رحمةً لهم. وتقديم المجرور / على المنصوب مِن قَبيل [٢٤٦و] الإبهام ثمّ البيان، كما في قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح، ٢/٩٤]، وفيه ما لا يخفى مِن ترقّب النفس إلى ما سيَرِد، وحسنِ قبولها عند وُرُودِه عليها.

﴿وَهُمْ﴾ أي: والحال أنّهم ﴿يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بالبليغ الرحمة، الذي وسعت كلَّ شيء رحمته، وأحاطت به نعمته. والعدول إلى المظهر المتعرّض لوصف الرحمة مِن حيث إنّ الإرسال ناشئٌ منها، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء، ١٠٧/٢١]، فلم يَقدُروا قدرَه، ولم يشكروا نِعَمَهُ، لا سيّما ما أنعم به عليهم بإرسال مِثلك إليهم، وإنزالِ القرآن الذي هو مدارُ المنافع الدينيّة والدنياويّة عليهم. وقيل: نزلت في مشركي مكّة حين أُمِرُوا بالسجود فقالوا: وما الرحمن؟[1]

﴿قُلْ هُوَ﴾ أي: الرحمن الذي كفرتم به وأنكرتم معرفته ﴿رَبِّى﴾ "الربّ" في الأصل بمعنى التربية؛ وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئًا فشيئًا، ثمّ وُصف به مبالغةً، كالصوم والعدل. وقيل: هو نعت، أي: خالقي ومُبلّغي إلى مراتب الكمال. وإيراده قَبل قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ -أي: لا مستحقّ للعبادة سواهُ- تنبيهٌ على أنّ استحقاق العبادة مَنوط بالربوبيّة.

وقيل: إنّ أبا جهل سمع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول: «يا الله، يا رحمن»، فرجع إلى المشركين فقال: «إنّ محمّدًا يدعو إلَهَين»، فنزلت، ونزل قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ الآية [الإسراء، ١١٠/١٧].[2]

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٩٢/٥؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٨٧/٢.

[2] التفسير الوسيط للواحدي، ١٦/٣. ونحوه في جامع البيان للطبري، ١٢٣/١٥.

﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ في جميع أموري، لا سيّما في النصرة عليكم، لا على أحد سواه. ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ خاصّةً ﴿مَتَابِ﴾ أي: توبتي، كقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر، ٥٥/٤٠].

أُمِر[١] عليه السلام بذلك إبانةً لفضل التوبة ومقدارِها عند الله تعالى، وأنّها صفة الأنبياء، وبعثًا للكفرة على الرجوع عمّا هم عليه بأبلغ وجه وألطفه، فإنّه عليه السلام حيث أُمِر بها وهو منزّه عن شائبة اقتِراف ما يوجبها مِن الذنب وإن قلّ، فتوبتُهم وهم عاكفون على أنواع الكفر والمعاصي ممّا لا بدّ منه أصلًا.

/ وقد فُسِّر "المتَابُ" بمطلق الرجوع، فقيل: مَرجعي ومَرجعكم،[٢] وزِيدَ: فيحكم بيني وبينكم. وقد قيل: فيُثيبني على مُصابرتكم،[٣] فتأمّل. [٢٤٦ظ]

﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٣١﴾

﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا﴾ أي: قرآنًا ما، وهو اسم ﴿أَنَّ﴾، والخبر قوله تعالى: ﴿سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾، وجوابُ ﴿لَوۡ﴾ محذوف لانسياق الكلام[٤] إليه بحيث يتلقّفه السامع مِن التالي. والمقصود إمّا بيان عِظم شأن القرآن العظيم وفسادِ رأي الكفرة حيث لم يَقدُروا قدرَه العليّ، ولم يَعدّوه مِن قَبيل الآيات، فاقترحوا غيرَه ممّا أوتي موسى وعيسى عليهما السلام، وإمّا بيان غلوّهم في المُكابَرة والعناد، وتماديهم في الضلال والفساد.

فالمعنى على الأوّل: لو أنّ قرآنًا سُيّرت به الجبال -أي: بإنزاله، أو بتلاوته عليها- وزُعزعت عن مَقارّها، كما فُعِل ذلك بالطور لموسى عليه السلام، ﴿أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ أي: شُقّقَتْ وجعلت أنهارًا وعيونًا، كما فُعِل بالحَجَر

---

١ وفي هامش م: إذ هو داخل تحت الأمر. «منه».
٢ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ١٨٨/٣.
٣ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٥٢٩/٢.
٤ وفي هامش م: النظم.

حين ضربه عليه السلام بعصاه، أو جُعِلت قِطعًا متصدّعة، ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: بعد أن أُحْيِيَتْ[١] بقراءته عليها كما أُحيِيَت لعيسى عليه السلام، لَكان ذلك هذا القرآنَ؛ لكونه الغاية القصوى في الانطواء على عجائب آثار قدرة الله تعالى وهيبته عزّ وجلّ، كقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر، ٥٩/٢١]، لا في الإعجاز، إذ لا مدخلَ له في هذه الآثار، ولا في التذكير والإنذار والتخويف؛ لاختصاصها بالعقلاء، مع أنّه لا علاقةَ لها بتكليم الموتى. واعتبار فيض العقول إليها مُخِلّ بالمبالغة المقصودة.

وتقديم المجرور في المواضع الثلاثة على المرفوع لِما مرّ غيرَ مرّة مِن قصد الإبهام ثمّ التفسير لزيادة التقرير؛ لأنّ بتقديم ما حقّه التأخير تبقى النفس مستشرِفة ومترقِّبة إلى المؤخَّر أنّه ماذا؟ فيتمكّن عند وروده عليها فضل تمكّن. وكلمة ﴿أَوْ﴾ في الموضعين لمنع الخلوّ، لا لمنع الجمع.

واقتراحُهم وإن كان متعلّقًا بمجرّد ظهور مثل هذه الأفاعيل العجيبة على يده
[٢٤٧و] عليه السلام، لا بظهورها بواسطة القرآن، لكنّ ذلك حيث كان مبنيًّا / على عدم اشتماله في زعمهم على الخوارق نِيط ظهورها به مبالغةً في بيان اشتماله عليها، وأنّه حقيق بأن يكون مصدرًا لكلّ خارق، وإبانةً لرَكاكة رأيهم في شأنه الرفيع، كأنّه قيل: لو أنّ ظهور أمثال ما اقترحوه مِن مقتضيات الحكمة لكان مَظهرها هذا القرآن الذي لم يعدّوه آية. وفيه مِن تفخيم شأنه العزيزِ ووصفِهم برَكاكة العقل ما لا يخفى.

﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أي: له الأمر الذي عليه يدور فَلَكُ الأكوان وجودًا وعدمًا، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد لِما يدعو إليه مِن الحِكَم البالغة. وهو إضراب عمّا تضمّنه الشرطيّة مِن معنى النفي، لا بحسب منطوقه؛ بل باعتبار موجَبه ومؤدّاه، أي: لو أنّ قرآنًا فُعِل به ما ذُكِر لكان ذلك هذا القرآنَ، ولكن لم يُفعَل؛ بل فُعِل ما عليه الشأن الآن؛ لأنّ الأمر كلّه له وحدَه، فالإضراب ليس بمتوجِّه إلى كون الأمر لله سبحانه؛ بل إلى ما يؤدّي إليه ذلك مِن كون الشأن على ما كان لِما يقتضيه الحكمة مِن بناء التكليف على الاختبار.

---

١ ط س: أحيى. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: أفلم يعلموا؟ على لغة هَوازِنَ، أو قومٍ مِن النخع، أو على استعمال اليأس في معنى العِلم لتضمّنه له. ويؤيّده قراءة عليّ وابنِ عبّاس وجماعةٍ مِن الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين: "أَفَلَمْ يَتَبَيَّنِ"[1] بطريق التفسير.

و"الفاء" للعطف على مقدَّر، أي: أَغَفِلوا عن كون الأمر جميعًا لله تعالى، فلم يعلموا ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ على حذف ضمير الشأن، وتخفيفِ ﴿أَن﴾، ﴿لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ بإظهار أمثال تلك الآثار العظيمة؟ فالإنكار متوجِّه إلى المعطوفِين جميعًا، أو أَعَلِمُوا كَوْنَ الأمر جميعًا لله، فلم يعلموا ما يوجبه ذلك العلمُ مِمّا ذُكر؟ فهو متوجّه إلى وقوع[2] المعطوف بعد[3] المعطوف عليه، أي: تخلّفِ العلم الثاني عن العلم الأوّل.

وعلى التقديرين فالإنكار إنكار الوقوع، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ [طه، ٨٦/٢٠]، لا إنكار الواقع، كما في قولك: ألم تخَفِ الله حتّى عصيتَه. ثمّ إنّ مناطَ الإنكار ليس عدمَ علمهم بمضمون الشرطيّة فقط؛ بل مع عدم علمهم بعدم تحقّق مقدَّمها، كأنّه قيل: ألم يَعلموا أنّ الله تعالى لو شاء هدايتهم لَهَداهُم، وأنّه لم يشأها؛[4] / وذلك لأنّهم كانوا يوَدّون أن يظهر ما [٢٤٧ظ]
اقترحوا مِن الآيات ليجتمعوا على الإيمان.

وعلى الثاني:[5] لو أنّ قرآنًا فُعِل به ما فصِّل مِن التعاجيب لَما آمنوا به، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الآية [الأنعام، ١١١/٦]، فالإضراب حينئذ متوجِّه إلى ما سلف مِن اقتراحهم مع كونهم في العناد على ما شُرِح، أي:

---

١ قراءة شاذّة. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٨.

٢ م ط س: ترتّب [صُحّح في هامش م]. | ولعلّ التصحيح بعد نسخ ط س.

٣ م ط س: على [صُحّح في هامش م]. | ولعلّ التصحيح بعد نسخ ط س.

٤ وفي هامش م: أي: أصلها، على أنّ الاستمرار المستفاد مِن صيغة الاستقبال معتبَر في النفي الذي يُنبئ عنه "لو" الامتناعيّة، لا في المنفي لفساد المعنى، فإنّ مدار عدم هدايتهم استمرار عدم مشيئته تعالى لها، لا عَدم استمرار مشيئته تعالى لها، وقد مرّ تحقيقه في سورة يونس عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ الآية [يونس، ١١/١٠]. «منه».

٥ وفي هامش م: وهو كون المقصود بيان غلوّهم في المكابرة والعناد. «منه».

فليس لهم ذلك، بل لله الأمر جميعًا، إن شاء أتى بما اقترحوا، وإن شاء لم يأتِ به حسبما يستدعيه داعية الحِكمة مِن غير أن يكون لأحدٍ عليه تحكّم أو اقتراح.

واليأس بمعنى القنوط، أي: ألم يعلم الذين آمنوا حالَهم هذه فلم يقنطوا مِن إيمانهم حتّى أَحَبُّوا ظهورَ مقترحاتهم؟ فالإنكار متوجّه إلى المعطوفَينِ، أو أَعلموا ذلك فلم يقنطوا مِن إيمانهم؟ فهو متوجّه إلى وقوع المعطوف بعد المعطوف عليه، أي: إلى تخلّف القُنوط عن العلم المذكور.

والإنكار على التقديرين إنكار الواقع، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف، ٦٥/٧] ونظائرِه، لا إنكارُ الوقوع، فإنّ عدم قُنوطهم منه ممّا لا مردَّ له.

وقوله تعالى: ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾... إلخ متعلّق بمحذوف، أي: أفلم ييأسوا مِن إيمانهم عِلمًا منهم أو عالمين بأنّه لو يشاء الله لهدى الناس جميعًا، وأنّه لم يشأ ذلك، أو بـ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: أفلم يقنط الذين آمنوا بأن لو يشاء الله لهدى الناس جميعًا؟ على معنى: أفلم ييأس مِن إيمانهم المؤمنون؟ بمضمون الشرطيّة، وبعدم تحقّق مقدَّمها المنفهِم مِن مكابرتهم حسبما يَحكيه كلمة ﴿لَوْ﴾، / فالوصف المذكور مِن دواعي إنكار يأسهم. [٢٤٨و]

وقيل: إنّ أبا جهل وأضرابَه قالوا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إن كنت نَبيًا سَيِّر بقرآنك الجبالَ عن مكّة حتّى تتّسعَ لنا ونتّخذَ فيها البساتين والقطائع، وقد سُخّرت لداود، فلستَ بأهون على الله منه إن كنتَ نبيًا كما زعمتَ، أو سخّرْ لنا به الريح كما سُخِّرَتْ لسليمان عليه السلام لنتّجِر عليها إلى الشام، فقد شقّ علينا قطع الشُقَّة البَعيدة، أو ابعث لنا به رَجلين أو ثلاثةً ممّن مات مِن آبائنا»، فنزلت.[١]

فمعنى "تقطيع الأرض" حينئذ: قطعها بالسير، ولا حاجةَ حينئذ إلى الاعتذار في إسناد الأفاعيل المذكورة إلى القرآن كما احتيج إليه في الوجهين الأوّلَين. وعن الفرّاء[٢] أنّه متعلّق بما قبله مِن قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾،[٣] وما بينهما اعتراض،

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٩٢/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٣٠/٢.

٢ انظر: معاني القرآن للفرّاء، ٦٣/٢.

٣ في الآية السابقة.

وهو بالحقيقة دالّ على الجواب، والتقدير: ولو أنّ قرآنًا سُيّرت به الجبال، أو قُطّعت به الأرض، أو كُلّم به الموتى، لَكفروا بالرحمن.

والتذكير في ﴿كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لتغليب المذكّر مِن الموتى على غيره.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مِن أهل مكّة ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ﴾ أي: بسبب ما صنعوه مِن الكفر والتمادي فيه. وعدمُ بيانه إمّا للقصد إلى تهويله أو استهجانه، وهو تصريح بما أَشعر به بناء الحكم على الموصول مِن علّيّة الصِلة له مع ما في صيغة "الصُنْع" مِن الإيذان برسوخهم في ذلك.

﴿قَارِعَةٌ﴾ داهية تقرعهم وتُقْلِقُهم، وهو ما كان يُصيبهم مِن أنواع البلايا والمصائبِ مِن القتل والأَسْر والنَّهب والسَّلْب. وتقديم المجرور على الفاعل لِما مرّ مرارًا مِن إرادة التفسير إثر الإبهام لزيادة التقرير والإحكام، مع ما فيه مِن بيان أنّ مدار الإصابة مِن جهتهم آثِرَ ذِي أثِيرٍ.

﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ تلك القارعة ﴿قَرِيبًا﴾ أي: مكانًا قريبًا ﴿مِن دَارِهِمْ﴾ فيَفزَعُون منها، ويتطايَر إليهم شَرارُها. شُبِّهَت القارعة بالعدوّ المتوجِّه إليهم، / فأسندَ [٢٤٨ظ]
إليها الإصابة تارة، والحلول أخرى، ففيه استعارة بالكناية، وتخييل، وترشيح.

﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ أي: موتُهم أو القيامةُ، فإنّ كلًّا منهما وعد مَحتوم لا مردّ له. وفيه دلالة على أنّ ما يصيبهم عند ذلك مِن العذاب في غاية الشدّة، وأنّ ما ذُكِر سابقًا نفحةِ يسيرة بالنسبة إليه، ثمّ حُقّق ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ أي: الوعدَ، كالميلاد والميثاق بمعنى الوِلادة والتَّوثقة؛ لاستحالة ذلك على الله سبحانه.

وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أراد بـ"القارعة" السرايا التي كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يبعثها»،[١] وكانوا بين إغارة واختطاف وتخويف بالهُجوم عليهم في ديارهم، فالإصابة والحلول حينئذ مِن أحوالهم، ويجوز على هذا

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٩٤/٥. وفي التفسير الوسيط للواحدي، ١٧/٣، عن أبي سعيد الخدري ومجاهد.

أن يكون قوله تعالى: ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ خطابًا للرسول صلّى الله عليه وسلّم مرادًا به حلوله الحديبية. والمراد بـ﴿وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ ما وعد به مِن فتح مكّة.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٣٢﴾

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ﴾ كثيرة خلَت ﴿مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: تركتُهم ملاوةً[١] مِن الزمان في أمْن ودَعَةٍ، كما يُمْلَى للبَهيمة في المَرعى. وهذا تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم عمّا لقي مِن المشركين مِن التكذيب والاقتراح على طريقة الاستهزاء به، ووَعيد لهم.

والمعنى: أنّ ذلك ليس مختصًّا بك؛ بل هو أمر مطّرد قد فُعِل ذلك برُسل كثيرة كائنة مِن قبلك، فأمهلت الذين فعلوه بهم. والعدول في الصلة إلى وصف الكفر ليس لأنّ المُملَى لهم غير المستهزئين؛ بل لإرادة الجمع بين الوصفَين، / أي: فأمليت للذين كفروا مع استهزائهم، لا باستهزائهم فقط. [٢٤٩و]

﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: عقابي إيّاهم. وفيه مِن الدلالة على تناهي كيفيّته في الشدّة والفظاعة ما لا يخفى.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٣﴾

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ أي: رقيب مهيمن ﴿عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ﴾ كائنةً مَن كانت ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ مِن خير أو شرّ، لا يخفى عليه شيء مِن ذلك؛ بل يُجازي كلًّا بعمله، وهو الله سبحانه. والخبر محذوف، أي: كمَن ليس كذلك إنكارًا لِذلك. وإدخال "الفاء" لتوجيه الإنكار إلى توهّم المماثلة غِبَّ ما عُلِم ممّا فعل تعالى بالمستهزئين مِن الإملاء المديد والأخذ الشديد ومِن كون الأمرِ كلِّه لله تعالى،

١ أقمتُ عنده مَلاوَةً مِن الدهر ومُلاوةً ومِلاوَةً، أي: حينًا وبرهةً. **الصحاح** للجوهري، «ملو».

وكونِ هداية الناس جميعًا مَنوطة بمشيئته[1] تعالى، ومِن تواتر القوارع على الكفرة إلى أن يأتي وعد الله، كأنّه قيل: أَالْأَمرُ كذلك؟ فَمَن هذا شأنه كما ليس في عِداد الأشياء حتّى تشركوه به؟ فالإنكار متوجّه إلى ترتّب المعطوف -أعني: توهّم المماثلة- على المعطوف عليه المقدّر، أعني: كون الأمر كما ذكر، كما في قولك: "أتعلم الحقّ، فلا تعمل به؟" لا إلى المعطوفين جميعًا، كما إذا قلت: "ألا تعلمه؟" فلا تعمل به.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ جملة مستقلّة جيء بها للدلالة على الخبر، أو حاليّة، أي: أفمَن هذه صفاته كما ليس كذلك، وقد جعلوا له شركاء لا شريكًا واحدًا؟ أو معطوفةٌ على الخبر إن قُدّر ما يصلح لذلك، أي: أفمَن هذا شأنه لم يوحِّدوه وجعلوا له شركاءَ؟ ووضع المظهَر موضع المضمَر للتنصيص على وحدانيّته ذاتًا واسمًا، وللتنبيه على اختصاصه باستحقاق العبادة، مع ما فيه مِن البيان بعد الإبهام بإيراده موصولًا للدلالة على التفخيم.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ تبكيت لهم إثر تبكيت، أي: سمّوهم مَنْ هُم؟ وماذا أسماؤُهم؟ أو صِفُوهم وانظروا هل لهم ما يستحِقّون به العبادةَ ويستأهلون الشركة؟ ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾ أي: بل / أتنبّئون الله ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بشركاءَ [٢٤٩ظ]
مُسْتَحِقّين للعبادة لا يعلمهم الله تعالى، ولا يعزُب عنه مثقالُ ذرّة في السماوات والأرض؟ وقُرئ بالتخفيف.[2]

﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ بل أَتُسمّونهم بشركاءَ بظاهر مِن القول مِن غير أن يكون له معنى وحقيقة، كتسمية الزنجي كافورًا، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [التوبة، ٩/٣٠].

وهاتيك الأساليب البديعة التي ورد عليها الآية الكريمة منادية على أنّها خارجة عن قدرة البشر مِن كلام خلّاق القوى والقُدَر، فتبارك الله ربّ العالمين.

---

[1] ط س: لمشيئته.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٧.

﴿بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وضع الموصول موضع المضمَر ذمًّا لهم، وتسجيلًا عليهم بالكفر، ﴿مَكۡرُهُمۡ﴾ تمويههم الأباطيل، أو كيدهم للإسلام بشركهم، ﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: سبيل الحقّ، مِن صدَّه صدًّا. وقُرئ بكسر الصاد[١] على نقل حركة الدال إليها، وقُرئ بفتحها،[٢] أي: صدّوا الناس، أو مِن "صَدّ صُدُودًا".

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾ أي: يخلُق فيه الضلالَ بسوء اختياره أو يخذُله، ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ يوفّقه للهُدى.

﴿لَّهُمۡ عَذَابٌ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ٣٤﴾

﴿لَّهُمۡ عَذَابٌ﴾ شاقّ ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بالقتل والأسر وسائر ما يصيبهم مِن المصائب، فإنّها إنّما تصيبهم عقوبة على كفرهم. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّ﴾ مِن ذلك بالشدّة والمدّة ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مِن عذابيه المذكورين ﴿مِن وَاقٖ﴾ مِن حافظ يعصِمهم مِن ذلك، فـ﴿مِنَ﴾ الأولى صلة للوقاية، والثانية مزيدة للتأكيد.

﴿۞مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۚ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ٣٥﴾

﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ أي: صفتُها العجيبةُ الشأنِ التي في الغرابة كالمَثَل ﴿ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ عن الكفر والمعاصي. وهو مبتدأ خبره محذوف عند سيبويه،[٣] أي: فيما قصصنا عليك مَثَل الجنّة. وقوله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ تفسير لذلك المَثَل، على أنّه حال مِن الضمير المحذوف مِن الصلة العائد إلى ﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾، أي: وُعِدَها، وهو الخبر عند غيره، كقولك: شأن زيد يأتيه الناس ويعظّمونه، / أو على حذف موصوف، أي: مَثَل الجنّةِ جنّةٌ تجري... إلخ. [٢٥٠و]

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. انظر: المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٣/٣١٤؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٦/٣٩٤.

[٢] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبوعمرو وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٨.

[٣] انظر: الكتاب لسيبويه، ١/١٤٣؛ وشرح كتاب سيبويه للسيرافي، ١/٤٩٨.

﴿أُكُلُهَا﴾ ثمرها ﴿دَآئِمٌ﴾ لا ينقطع ﴿وَظِلُّهَا﴾ أيضًا كذلك لا تنسخه الشمسُ كما تَنْسَخُ ظِلالَ الدنيا.

﴿تِلْكَ﴾ الجنّة المنعوتة بما ذُكر ﴿عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ الكفر والمعاصي، أي: مآلهم ومنتهى أمرهم. ﴿وَعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ لا غير، وفيه ما لا يخفى مِن إطماع المتّقين، وإقناطِ الكافرين.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ هم المسلمون مِن أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب وأضرابهما، ومَن آمَن مِن النصارى، وهم ثمانون رجلًا: أربعون بنَجران، وثمانية باليمن، واثنان وثلاثون بِالحَبَشَة. ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ إذ هو الكتاب الموعود في التوراة والإنجيل.

﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أي: مِن أحزابهم، وهم كَفَرتُهم الذين تحزّبوا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالعداوة، نحو كعب بن الأشرف والسيّد والعاقب أُسْقُفَي نجران وأتباعهما ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ وهو الشرائع الحادثة إنشاءً أوْ نَسخًا، لا ما يوافق ما حرّفوه، وإلّا لَنُعِيَ عليهم مِن أوّل الأمر أنّ مدار ذلك إنّما هو جنايات أيديهم، وأمّا ما يُوَافِق كتبَهم فلم ينكروه وإن لم يفرحوا به.

وقيل: يجوز أن يراد بالموصول الأوّل عامّتهم، فإنّهم أيضًا يفرحون به لكونه مصداقًا لكتبهم في الجملة، فحينئذ يكون قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾... إلخ تَتِمّةً بمنزلة أن يقال: ومنهم مَن ينكر بعضَه.

﴿قُلْ﴾ إلزامًا لهم وردًّا لإنكارهم: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦ﴾ أي: شيئًا مِن الأشياء، أو لا أفعل الإشراك به، والمراد قصر الأمر بالعبادة على الله تعالى، لا قصر الأمر مطلقًا على عبادته خاصّةً، أي: قل لهم: إنّما أمرت فيما أنزل إليّ بعبادة الله وتوحيده، وظاهر أن لا سبيل لكم إلى إنكاره؛ لإطباق جميع الأنبياء والكتب على ذلك، / كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ [٢٥٠ظ]

سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران، ٣/٦٤]، فما لكم تشركون به عُزيرًا والمسيحَ؟

وقُرِئ: "وَلَا أُشْرِكُ بِهِ"[١] بالرفع على الاستئناف، أي: وأنا لا أشرك به.

﴿إِلَيْهِ﴾ إلى الله تعالى خاصّة على النهج المذكور مِن التوحيد، أو إلى ما أُمرتُ به مِن التوحيد ﴿أَدْعُواْ﴾ الناسَ، لا إلى غيره، أو لا إلى شيء آخر ممّا لم يُطبِق عليه الكتب الإلهيّة والأنبياءُ عليهم السلام، فما وجه إنكاركم؟

﴿وَإِلَيْهِ﴾ إلى الله تعالى وحدَه ﴿مَـَٔابِ﴾ مَرجعي للجزاء.

وحيث كانت هذه الحجّة الباهرة لازمةً لهم لا يجدون عنها محيصًا أُمر عليه السلام بأن يخاطِبَهم بذلك إلزامًا وتبكيتًا لهم. ثمّ شُرع في ردّ إنكارهم لفروع الشرائع الواردة ابتداءً أو بدلًا مِن الشرائع المنسوخة ببيان الحكمة في ذلك فقيل:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: مَا أُنزِلَ إليك، و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مصدر ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أو أُنزِل إليك، ومحلّه النصب على المصدريّة، أي: مثل ذلك الإنزال البديع المنتظِم لأصولٍ مُجمَع عليها وفروع متشعِّبة إلى موافِقة ومخالِفة حسبما يقتضيه قضيّة الحكمة والمصلحة أنزلناه ﴿حُكْمًا﴾[٢] حاكمًا يحكم في القضايا والواقعات بالحقّ، أو يُحكَم به كذلك. والتعرّض لذلك العنوان مع أنّ بعضه ليس بحُكم لِتربية وجوب مراعاته وتحتّم المحافظة عليه.

﴿عَرَبِيًّا﴾ مترجمًا بلسان العرب. والتعرّض لذلك للإشارة إلى أنّ ذلك إحدى موادّ المخالَفة للكتب السابقة، مع أنّ ذلك مقتضى الحكمة، إذ بذلك يسهل فهمه،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جليد عن نافع. البحر المحيط لأبي حيّان، ٦/٣٩٦.

٢ وفي هامش م: أطلق عليه "الحكم" لكونه حاكمًا، كما يطلق عليه "الفرقان" لكونه فارقًا بين الحقّ والباطل. «منه».

وإدراك إعجازه. والاقتصار على اشتمال الإنزال على أصول الديانات المُجمَع عليها[١] حسبما يفيده قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ﴾... إلخ،[٢] يأباه التعرّض لاتّباع أهوائهم، وحديث المحو والإثبات، وأنّه لكلّ أجل كتاب، فإنّ المُجمَع عليه / لا يتصوّر فيه الاستتباع والاتّباع.[٣] [٢٥١و]

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾ التي يدعونك إليها مِن تقرير الأمور المخالِفة لِما أنزل إليك مِن الحقّ كالصلاة إلى بيت المقدس بعد التحويل ﴿بَعۡدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ العظيم الشأن الفائض مِن ذلك الحُكم العربي، أو العِلم بمضمونه ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ مِن جنابه العزيز. والالتفات مِن التكلّم إلى الغيبة وإيراد الاسم الجليل لتربية المهابة. قال الأزهريّ: «لا يكون إلهًا حتّى يكون معبودًا، وحتّى يكون خالقًا ورازقًا ومدبّرًا».[٤]

﴿مِن وَلِيّٖ﴾ يلي أمرك وينصرك على مَن يبغيك الغوائل، ﴿وَلَا وَاقٖ﴾ يَقيك مِن مصارع السوء. وحيث لم يستلزم نفي الناصر على العدوّ نفيَ الواقي مِن نكايته أدخل على المعطوف حرف النفي للتأكيد، كقولك: ما لي دينار ولا درهم، أو ما لك مِن بأس الله مِن ناصر وواقٍ لاتّباعك أهواءهم. وأمثال هاتِيك القوارع إنّما هي لقطع أطماع الكفرة وتهييج المؤمنين على الثبات في الدين. و"اللام" في ﴿لئن﴾ موطِّئة، و﴿مَا لَكَ﴾ سادّ مسدّ جوابَي الشرط والقَسَم.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ٣٨﴾

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا﴾ كثيرة كائنة ﴿مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗ﴾ نِساءً وأولادًا، كما جعلناها لك. وهو ردّ لما كانوا يَعيبونه صلّى الله عليه وسلّم بالزواج والولاد، كما كانوا يقولون: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾... إلخ [الفرقان، ٢٥/٧].

---

[١] وفي هامش م: مِن غير تعرّض للفروع المتشعّبة إلى الموافقة والمخالفة. «منه». | انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩٠/٣.

[٢] في الآية السابقة.

[٣] وفي هامش م: ولا المحو والإثبات، ولا التبدّل بتبدّل الآجال والأوقات. «منه».

[٤] تهذيب اللغة للأزهري، «لاه».

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ منهم، أي: ما صحّ وما استقام، ولم يكن في وسعه ﴿أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ﴾ ممّا اقترِح عليه، وحكمٍ ممّا التمس منه ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ومشيئته المبنيّة على الحِكَم والمصالح التي عليها يدور أمر الكائنات، لا سيّما مثل هذه الأمور العظام. والالتفات لِما قدّمناه، ولتحقيق مضمون الجملة بالإيماء إلى العلّة.

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ﴾ أي: لكلّ مدّة ووقت مِن المُدَدِ والأوقاتِ ﴿كِتَابٌ﴾ حُكم معيّن يكتَبُ على العباد حسبما يقتضيه الحكمة، فإنّ الشرائع كلّها لإصلاح أحوالهم في المبدأ والمعاد، / ومِن قضيّة ذلك أن يختلف حسب اختلاف أحوالهم [٢٥١ظ]
المتغيّرة حسب تغيّر الأوقات، كاختلاف العلاج حسب اختلاف أحوال المرضى بحسب الأوقات.

﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ۝٣٩﴾

﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: ينسخ ما يشاء نسخَه مِن الأحكام لِما يقتضيه الحكمة بحسب الوقت، ﴿وَيُثْبِتُ﴾ بدلَه ما فيه المصلحة، أو يُبْقِيه على حاله غيرَ مَنْسوخ، أو يُثبِت ما يشاء إثباتَه مطلقًا أعمّ منهما ومِن الإنشاء ابتداءً، أو يمحو مِن ديوان الحفَظة الذين دَيْدَنُهم كِتْبَةُ كلِّ قولٍ وعَملٍ ما لا يتعلّق به الجزاء ويُثبِت الباقيَ، أو يمحو سيّئات التائب ويُثبِت مكانها الحسنة، أو يمحو قَرنًا ويُثبِت آخرين، أو يمحو الفاسدات مِن العالم الجسماني، ويثبت الكائنات، أو يمحو الرزق ويزيد فيه، أو يمحو الأجل أو السعادة والشقاوة، وبه قال ابن عمر وابن مسعود رضي الله عنهم.[١] والقائلون به يتضرّعون إلى الله تعالى أن يجعلهم سُعَداءَ، وهذا رواه جابر عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم.[٢]

والأنسب تعميم كلّ مِن المحو والإثبات ليشمل الكلّ، ويدخل في ذلك موادُّ الإنكار دخولًا أوّليًّا. وقُرِئ بالتشديد.[٣] ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: أصله،

---

١ التفسير الوسيط للواحدي، ١٩/٣؛ معالم التنزيل للبغوي، ٣٢٤/٤.

٢ التفسير البسيط للواحدي، ٣٧٨/١٢. وانظر: جامع البيان للطبري، ٥٦٦/١٣.

٣ أي: "ويُثَبِّتُ". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي وخلَف. النشر لابن الجزري، ٢٩٨/٢.

وهو اللوح المحفوظ، إذ ما مِن شيء مِن الذاهب والثابت إلّا وهو مكتوبٌ فيه كما هو.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ﴾ أصلُه "إنْ نُرِكَ"، و﴿مَا﴾ مزيدة لتأكيد معنى الشرط، ومِن ثمّة أُلحقت النون بالفعل. ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ أو وعدناهم مِن إنزال العذاب عليهم، والعدول إلى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية، أو نعِدهم وعدًا متجدِّدًا حسبما يقتضيه الحكمة مِن إنذارٍ غِبَّ إنذارٍ، وفي إيراد "البعض" رمز إلى إراءة بعض الموعود.

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي: تبليغُ أحكام الرسالة بتمامها، لا تحقيقُ مضمون ما بلّغته مِن الوعيد الذي هو مِن جملتها، / ﴿وَعَلَيْنَا﴾ لا عليك ﴿ٱلْحِسَابُ﴾ محاسبة أعمالهم السيّئة والمؤاخذة بها، [٢٥٢و]
أي: كيفما دارت الحال أريناك بعضَ ما وعدناهم مِن العذاب الدنيوي أو لم نُرِكَهُ فعلينا ذلك، وما عليك إلّا تبليغ الرسالة، فلا تهتمَّ بما وراء ذلك، فنحن نكفيكَه، ونُتِمّ مَا وعدناك مِن الظفَر، ولا يُضجِزك تأخّرُه، فإنّ ذلك لِما نعلم مِن المصالح الخفيّة.

ثمّ طيَّب نفسه عليه السلام بطلوع تباشيره فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ استفهام إنكاري، والواو للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: أأنكرُوا نزولَ ما وعدناهم؟ أوْ أَشكّوا؟ أوْ أَلَم ينظروا في ذلك، ولم يرَوا ﴿أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ﴾ أي: أرضَ الكفر ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بأن نفتحها على المسلمين شيئًا فشيئًا، وَنُلْحِقَها بدار الإسلام، ونُذهِبَ منها أهلَها بالقتل والأسر والإجلاءِ؟ أَلَيس هذا مِن ذلك؟ ومثلُه قوله عزّ سلطانه: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الأنبياء، ٢١/٤٤].

وقوله: ﴿نَنقُصُهَا﴾ حال مِن فاعل ﴿نَأْتِي﴾ أو مِن مفعوله. وقُرِئ: "نُنَقِّصُهَا" بالتشديد.[١] وفي لفظ الإتيان المُؤذِن بالاستواء المحتوم والاستيلاءِ العظيم مِن الفخامة ما لا يخفى، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان، ٢٣/٢٥].

﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ﴾ ما يشاء كما يشاء، وقد حكم للإسلام بالعزّة والإقبال، وعلى الكفر بالذِلّة والإدبار حسبما يشاهَد مِن المخائل والآثار. وفي الالتفات مِن التكلّم إلى الغيبة وبناء الحكم على الاسم الجليل مِن الدلالة على الفخامة وتربية المهابة وتحقيق مضمون الخبر بالإشارة إلى العلّة ما لا يخفى. وهي جملة اعتراضيّة جيء بها لتأكيد فحوى ما تقدّمها.

وقوله تعالى: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ اعتراض في اعتراض لبيان علوّ شأن [٢٥٢ظ] حُكمه / جلّ جلاله. وقيل: نصب على الحاليّة، كأنّه قيل: والله يحكم نافِذًا حكمُه، كما تقول: جاء زيد لا عِمامةَ على رأسه، أي: حاسِرًا. والمُعقِّب: مَن يَكُرُّ على الشيء فيبطله، وحقيقته مَن يُعَقِّبُه ويُقَفِّيه بالردّ والإبطال، ومنه قيل لصاحب الحقّ: مُعقِّب؛ لأنّه يقفّي غريمَه بالاقتضاء والطلب.

﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فعَمّا قليل يحاسبهم ويجازيهم في الآخرة بأفانين العذاب غِبَّما عذّبهم بالقتل والأسر والإجلاء حسبما يُرَى. وقال ابن عبّاس رضي الله عنه: «سريع الانتقام».[٢]

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٤٢﴾

﴿وَقَدْ مَكَرَ﴾ الكفّار ﴿ٱلَّذِينَ﴾ خلَوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِن قَبل كفّار مكّة بأنبيائهم وبالمؤمنين كما مكَر هؤلاء. وهذا تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأنّه لا عبرةَ بمِكرهم ولا تأثيرَ؛ بل لا وجود له في الحقيقة، ولم يُصرِّحْ بذلك

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك وعطيّة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٧.

٢ التفسير البسيط للواحدي، ٣٨٥/١٢؛ اللباب لابن عادل، ٣٢٣/١١.

اكتفاءً بدلالة القصر المستفاد مِن تعليله، أعني: قولَه تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ﴾ أي: جنس المكر ﴿جَمِيعًا﴾ لا وجودَ لِمَكرِهم أصلًا، إذ هو عبارة عن إيصال المكروه إلى الغير مِن حيث لا يشعر به، وحيث كان جميع ما يأتون وَما يَذرون بعلم الله تعالى وقدرته وإنّما لهم مجرّد الكسب مِن غير فعل ولا تأثيرٍ حسبما يبيّنه قوله عزّ وجلّ: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ ومِن قضيّته عِصمة أوليائه وعقابُ الماكرين بهم توفيةً لكلّ نفس جزاءَ ما تكسبُه؛ ظهر أن ليس لمَكرهم بالنسبة إلى مَن مكروا بهم عين ولا أثَر، وأنّ المَكر كلَّه لله تعالى حيث يؤاخذهم بما كسبوا مِن فنون المعاصي التي مِن جملتها مَكرُهم مِن حيث لا يحتسبون.

أو لله المكرُ الذي باشروه جميعًا، لا لهم، على معنى أنّ ذلك ليس مكرًا منهم بالأنبياء؛ بل هو بعينه مَكر مِن الله تعالى بهم وهم لا يشعرون، حيث لا يَحيق المكر السيّء إلّا بأهله.

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ﴾ حين يقضي بمقتضى علمه فيوفّي كلّ نفس / جزاءَ ما [٢٥٣و] تَكسبه ﴿لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: العاقبة الحميدة مِن الفريقين وإن جهلوا ذلك يومئذ. وقيل: "السين" لتأكيد وقوعَ ذلك وعلمهم به حينئذ. وقُرئ: "سَيَعْلَمُ الْكَافِرُ"[١] على إرادة الجنس، و"الْكَافِرُونَ"،[٢] و"الْكُفْرُ"،[٣] أي: أهلُه، و"الَّذِينَ كَفَرُوا"،[٤] و"سَيُعْلَمُ" على صيغة المجهول[٥] مِن الإعلام، أي: سَيُخْبَر.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ قيل: قاله رؤساء اليهود.[٦] وصيغة الاستقبال

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٨.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٥٧.

٣ قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري ولم أجد قارئها. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٥٣٥. وذكر الكرماني عن ابن عمير: "وَسَيَعْلَمُ الْكَفَرَةُ". انظر: **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٥٧.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ رضي الله عنه. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٥٧.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن جناح بن حُبيش. **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٥٣٥؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٦/٤٠٢.

٦ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣/١٩١.

لاستحضار صورة كلمتهم الشنعاءِ تعجيبًا منها، أو للدلالة على تجدّد ذلك واستمراره منهم.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ فإنّه قد أظهر على رسالتي مِن الحجج القاطعة والبيّنات الساطعة ما فيه مندوحة عن شهادة شاهد آخر، ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: علم القرآن وما عليه مِن النظم المعجز، أو مَن هو مِن علماء أهل الكتاب الذين أسلموا؛ لأنّهم يشهدون بنَعته عليه السلام في كتبهم، والآيةُ مدنيّة بالاتّفاق، أو مَن عنده علم اللوح المحفوظ، وهو الله سبحانه، أي: كفى شاهدًا بيننا بالذي يستحقّ العبادة، فإنّه قد شحَن كتابه بالدعوة إلى عبادته، وأيّدَني بأنواع التأييد، وبالذي يختصّ بعلمِ ما في اللوح مِن الأشياء الثابتة[1] التي مِن جملتها رسالتي. وقُرئ: "مِنْ عِنْدِهِ" بالكسر.[2] و﴿عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ على الأوّل مرتفع بالظرف المعتمد على الموصول، أو مبتدأ خبره الظرف، وهو متعيّن على الثاني، و"مِنْ عِنْدِهِ عُلِمَ الْكِتَابُ" بالكسر وبناء المفعول ورفع ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾.[3]

عن رسول الله صلّى الله[4] عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الرعد أُعطي مِن الأجر عشر حسنات بوزن كلّ سحابٍ مضى، وكلّ سحاب يكون إلى يوم القيامة، وبُعث يوم القيامة مِن الموفّين بعَهد الله عزّ وجلّ».[5]

والله تعالى أعلم.

---

[1] م ط س: الكائنة [صُحّح في هامش م]. ولعلّ التصحيح بعد نسخ ط س.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب وأبيّ بن كعب وابن عبّاس رضي الله عنهم والحسن ومجاهد وعكرمة والضحّاك وغيرهم. انظر: المحتسب لابن جنّي، ١/٣٥٨؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٧.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ رضي الله عنه أيضًا وابن السميفع والحسَن بخلاف عنه. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٦/٤٠٣.

[4] س + تعالى.

[5] الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٢٦٧؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٣. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

١٣

سُورَةُ الرَّعْدِ

مكيةٌ إلاّ «ولا يزال الذين كفروا» الآيَةَ و«ويقول الذين كفروا لستَ مرسلاً» الآيَةَ، أو مدنيةٌ إلاّ «ولو أنّ قرآنًا» الآيتين، ثلاثٌ أو أربع أو خمس أو ستّ وأربعون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿المر﴾ اللهُ أعلم بمُراده بذلك.

﴿تِلكَ﴾: هذه الآيات ﴿آياتُ الكِتابِ﴾: القُرآنِ ـ والإضافةُ بمعنى: مِن ـ ﴿والَّذِي أُنزِلَ إلَيكَ مِن رَبِّكَ﴾ أي: القُرآنُ، مبتدأ خبرُه: ﴿الحَقُّ﴾: لا شكّ فيه، ﴿ولكِنَّ أكثَرَ النّاسِ﴾ أي: أهلِ مكّة ﴿لا يُؤمِنُونَ﴾ بأنه من عِنده تعالى.

٢ ـ ﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيرِ عَمَدٍ تَرَونَها﴾ أي: العمدَ: جمع عِماد ـ وهو الأُسطوانة، وهو صادق بأنْ لا عَمد أصلاً ـ ﴿ثُمَّ استَوَى علَى العَرشِ﴾ استواءً يليق به، ﴿وسَخَّرَ﴾: ذلَّل ﴿الشَّمسَ والقَمَرَ، كُلٌّ﴾ منهما ﴿يَجرِي﴾ في فلكه ﴿لِأجَلٍ مُسَمًّى﴾ يومِ القيامة، ﴿يُدَبِّرُ الأمرَ﴾: يقضي أمر مُلكه،

سُورَةُ الرَّعْدِ

قولُهُ: (اللَّهُ أعلَمُ) قيل: معناهُ: أنا اللهُ أعلمُ وأرى.

قولُهُ: (بأنَّهُ مِنْ عِندِهِ) لإخلالِهِم بالنَّظرِ والتَّأمُّلِ فيه.

قولُهُ: (يَوْمَ القِيَامَةِ) أي: لغايةٍ مضروبةٍ ينقطعُ دونَها سيرُه، وهي: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ١ ـ ٢] أو المعنى: لمدَّةٍ معيَّنةٍ يُتمُّ فيها أدوارَهُ.

قولُهُ: (أَمْرَ خَلقِهِ) وفي بعضِ النُّسخِ: «أمْرَ ملكِهِ» أي: يدبِّرُ أمرَ ملكوتِهِ من الإيجادِ والإعدامِ والإحياءِ والإماتةِ وغيرِ ذلك.

﴿يُفَصِّلُ﴾: يُبيِّن ﴿الآياتِ﴾: دلالاتِ قُدرته، ﴿لَعَلَّكُم﴾ ـ يا أهل مكّة ـ ﴿بِلِقاءِ رَبِّكُم﴾: بالبعث ﴿تُوقِنُونَ﴾.

٣ ـ ﴿وهُوَ الَّذِي مَدَّ﴾: بسَط ﴿الأرضَ، وجَعَلَ﴾: خلق ﴿فِيها رَواسِيَ﴾: جِبالاً ثَوابتَ ﴿وأنهارًا، ومِن كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوجَينِ اثنَينِ﴾ من كُلِّ نوع، ﴿يُغشِي﴾: يُغطِّي ﴿اللَّيلَ﴾ بظُلمته ﴿النَّهارَ. إِنَّ في ذلِكَ﴾ المذكورِ ﴿لَآياتٍ﴾: دلالاتٍ على وحدانيّته ـ تعالى ـ ﴿لِقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في صُنع الله.

٤ ـ ﴿وفي الأرضِ قِطَعٌ﴾: بِقاع مُختلفة ﴿مُتَجاوِراتٌ﴾: مُتلاصقات، فمنها طيّب وسَبِخ وقليل الرَّيع وكثيرُه، وهو من دلائل قدرته ـ تعالى ـ ﴿وجَنّاتٌ﴾: بساتينُ ﴿مِن أعنابٍ وزَرعٌ﴾، بالرفعِ عطفًا على «جنّاتٌ»، ....

قولُهُ: (يُبيِّنُ) أي: يُحدثُ الدَّلائلَ المنصوبةَ واحداً بعد واحدٍ، أو ينزِّلُ الآياتِ القرآنيَّة ويُبيِّنها مفصَّلةً.

قولُهُ: (بالبَعْثِ) أي: لكي تتفكَّروا فيها وتتحقَّقوا كمالَ قدرتِهِ، فتَعلموا أنَّ من قدرَ على خلْقِ هذه الأشياءِ وتدبيرِها قدرَ[1] على الإعادةِ والجزاءِ.

قولُهُ: (بَسَطَ) طولاً وعرضاً لتثبُتَ عليها الأقدامُ.

قولُهُ: (ثَوَابِتَ) جمعُ: راسيةٍ، من رسا الشَّيءُ: إذا ثبتَ، والتَّاءُ للتَّأنيثِ على أنَّها صفةُ أجْبُلٍ، أو للمبالغةِ.

قولُهُ: (مِنْ كُلِّ نَوعٍ) كالحُلوِ والحامِضِ، والأسودِ والأبيضِ، والصَّغيرِ والكبيرِ.

قولُهُ: (يُغَطِّي) قرأَ حمزةُ والكسائيُّ وأبو بكرٍ بتشديدِ الشِّينِ[2]؛ أي: يُلبسُه[3] مكانَهُ فيصيرُ الجوُّ مُظْلماً بعدَما كانَ مضيئاً.

قولُهُ: (دِلَالَاتٍ) فإنَّ تكوُّنَها وتخصُّصَها بوجهٍ دونَ وجهٍ دليلٌ على وجودِ صانعٍ حكيمٍ دبَّرَ أمرَها وهيَّأَ أسبابَها.

قولُهُ: (وَسَبْخٌ) ورَخوٌ وصلبٌ، وبعضُها يصلُحُ للزَّرعِ دون الشَّجرِ، وبعضُها بالعكسِ.

قولُهُ: (وَهُوَ مِن دَلَائلِ قُدرَتِهِ) فلولا تخصيصُ قادرٍ مُوقعٍ لأفعالِهِ على وجهٍ دون وجهٍ لم يكُن كذلك؛ لاشتراكِ تلك القطعِ في الطَّبيعةِ الأرضيَّةِ.

قولُهُ: (بالرَّفعِ) مكيٌّ وبصريٌّ وحفصٌ[4]، وتوحيدُ الزَّرعِ لأنَّهُ مصدرٌ في أصلِه.

---

(١) في (م) و(د): «قادر».

(٢) أي قوله تعالى: ﴿يغشي﴾. انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٥٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٦٨).

(٣) في (ص): «سلب»، وفي (د): «يلبس».

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٥٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٦٩).

والجرِّ على «أعنابٍ»، وكذا قولُه: ﴿وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ﴾: جمع صِنو ـ وهي النَّخلات، يجمعها أصل واحد وتتشعّب فُروعها ـ ﴿وغَيرُ صِنْوانٍ﴾: منفردةٌ، ﴿تُسقَى﴾، بالتاءِ أي: الجنّاتُ وما فيها، والياءِ أي: المذكورُ، ﴿بِماءٍ واحِدٍ، ونُفَضِّلُ﴾ ـ بالنون والياء ـ ﴿بَعضَها علَى بَعضٍ في الأُكُلِ﴾، بضمّ الكاف وسكونها. فمن حُلو وحامض، وهو من دلائل قُدرته تعالى. ﴿إنَّ في ذَلِكَ﴾المذكورِ ﴿لَآيَاتٍ لِقَومٍ يَعقِلُونَ﴾: يتدبّرون.

٥ ـ ﴿وإن تَعجَبْ﴾ ـ يا مُحمّد ـ من تكذيب الكُفّار لك ﴿فعَجَبٌ﴾: حقيقٌ بالعجب ﴿قَولُهُم﴾ منكرين للبعث: ﴿أإذا كُنّا تُرابًا أإنّا لَفِي خَلقٍ جَدِيدٍ﴾؟ لأنّ القادرَ على إنشاء الخلق وما تقدّم على غير مثال قادر على إعادتهم. وفي الهمزتين في الموضعين التحقيقُ،.........

قولُهُ: (وكَذَا قَولُهُ) ﴿وغير صنوان﴾.

قولُهُ: (وهِي) أي: الصِّنوانُ.

قولُهُ: (مُنْفَرِدةٌ) أي: متفرِّقاتٌ مختلفةُ الأصولِ، قالَ البيضاويُّ: وقرأ حفصٌ بالضَّمِّ[1]. ولعلَّهُ روايةٌ شاذَّةٌ[2].

قولُهُ: (والياءِ) التَّذكيرُ: شاميٌّ وعاصمٌ[3].

قولُهُ: (والياءِ) الغيبةُ: حمزةُ والكسائيُّ[4]؛ ليطابقَ قولَهُ: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾.

قولُهُ: (وسُكُونِهَا) الحِرْمِيَّانِ[5]؛ أي: في الثَّمرِ شكلاً وقَدْراً، ورائحةً وطعماً.

قولُهُ: (مِن دَلائلِ قُدْرتِهِ) فإنَّ اختلافَها مع اتِّحادِ الأصولِ[6] والأسبابِ لا يكونُ إلَّا بتخصيصِ قادرٍ مختارٍ.

قولُهُ: (مِنْ تَكذِيبِ الكُفَّارِ) أو من إنكارِهِم البعثَ.

قولُهُ: (وفِي الهَمْزَتَيْنِ.... إلخ) الحاصلُ: قالون بتحقيقِ الأولى وتسهيلِ الثَّانيةِ من الأولى وإدخالِ ألفٍ بينَهُما وبالخبرِ في الثَّاني، وورشٌ كذلك إلَّا أنَّهُ بلا إدخالٍ، وابنُ كثيرٍ بالاستفهامَينِ بلا إدخالٍ مع تحقيقِ الأولى وتسهيلِ الثَّانيةِ فيهما، وأبو عَمرو كذلكَ مع الإدخالِ، وابنُ عامرٍ في الأوَّلِ بالخبرِ وفي الثَّاني

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١٨١).

(٢) وهي كما قال، بضم الصاد في (صُنوان) في الموضعين. انظر: «مختصر شواذ القرآن» (ص: ٧٠).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٥٧)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٦٩).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٥٧)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٧٠).

(٥) انظر: «المبسوط في القراءات العشر» (ص: ١٥١)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢١٦).

(٦) في (ص): «الأحوال».

وتحقيقُ الأُولى وتسهيلُ الثانية، وإدخالُ ألف بينهما على الوجهين وتركُها. وفي قراءة بالاستفهامِ في الأوّل والخبرِ في الثاني، وأُخرى عكسُه. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِم، وأُولئِكَ الأغلالُ في أعناقِهِم، وأُولئِكَ أصحابُ النّارِ، هُم فِيها خالِدُونَ﴾.

ونزل في استعجالهم العذابَ استهزاءً: ٦ ـ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ﴾: العذابِ ﴿قَبلَ الحَسَنةِ﴾: الرحمة، ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ المَثُلاتُ﴾: جمع المَثُلة بوزن السَّمُرة، أي: عُقوباتُ أمثالهم من المُكذّبين. أفلا يعتبرون بها؟ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرةٍ لِلنّاسِ عَلَى﴾: معَ ﴿ظُلْمِهِم﴾ ـ وإلاّ لم يترك على ظهرها دابّة ـ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ العِقابِ﴾ لِمَن عصاه، ٧ ـ ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا: لَولا﴾: هلاّ ﴿أُنزِلَ عَلَيهِ﴾: على مُحمّد ﴿آيَةٌ مِن رَبِّهِ﴾ كالعصا واليد والناقة. قال تعالى: ﴿إِنَّما أَنتَ مُنذِرٌ﴾: مُخوّفٌ الكافرين، وليس عليك إتيان الآيات، ﴿وَلِكُلِّ قَومٍ هادٍ﴾: نبيٌّ يدعوهم إلى ربّهم بما يُعطيه من الآيات لا بما يقترحون.

بمحقَّقَتينِ، وأدخلَ هشامٌ بينهما ألفاً، والباقُونَ بمحقَّقَتينِ فيهما بلا إدخالٍ بينهما، إلَّا أنَّ الكسائيَّ يقرأُ بالإخبارِ في الثَّاني[١].

قولُهُ: (العَذَابَ) أي: ما هُدِّدُوا به من عذابِ الدُّنيا.

قولُهُ: (الرَّحمةِ) أو العافيةِ[٢].

قولُهُ: (أَفَلا يَعتَبِرُونَ) ولا يجوِّزونَ حلولَ مثلِها عليهِم.

قولُهُ: (مَعَ ﴿ظُلْمِهِمْ﴾) أنفسَهُم، ومحلُّهُ النَّصبُ على الحالِ، والعاملُ فيه المغفرةُ.

قولُهُ: (لِمَنْ عَصَاهُ) وعن النَّبيِّ ﷺ: «لولا عَفوُ اللهِ وتجاوزُهُ ما هَنَأَ أحداً العيشُ، ولولا وعيدُهُ وعقَابُهُ لاتَّكَلَ كلُّ أحدٍ»[٣] كذا ذكرَهُ القاضي[٤].

قولُهُ: (كالعَصَا) لعَدمِ اعتِدادِهِم[٥] بالآياتِ المنزَلةِ عليه.

قولُهُ: (الآيَاتِ) أي: المقترَحةِ عليك، وإنَّما عليكَ الإتيانُ بما تصحِّحُ به نبوَّتَك من جنسِ المعجزاتِ.

قولُهُ: (الآيَاتِ) أي: المعجزاتِ، من جنْسِ ما هو الغالبُ عليهِم.

---

(١) انظر: «تحبير التيسير في القراءات العشر» (ص: ٤٢١).

(٢) في (ص): «والعافية»، وفي (د): «أو العاقبة».

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٢١٤٥)، والثعلبي في «الكشف والبيان» (١٥٦٣)، والواحدي في «الوسيط» (٤٨٥) عن سعيد بن المسيب عن النبي ﷺ مرسلاً.

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١٨٢).

(٥) في (ص): «اعتقادهم».

٨ ـ ﴿اللهُ يَعلَمُ ما تَحمِلُ كُلُّ أُنثَى﴾ من ذكرٍ وأُنثى وواحدٍ ومتعدّدٍ وغيرِ ذلك، ﴿وما تَغِيضُ﴾: تَنقُصُ ﴿الأرحامُ﴾ من مُدّة الحمل ﴿وما تَزدادُ﴾ منه، ﴿وكُلُّ شَيءٍ عِندَهُ بِمِقدارٍ﴾: بقدْر وحَدٍّ لا يتجاوزه، ٩ ـ ﴿عالِمُ الغَيبِ والشَّهادةِ﴾: ما غاب وما شُوهد، ﴿الكَبِيرُ﴾: العظيم ﴿المُتَعالِ﴾ على خلقه بالقهر، بياءٍ ودونِها، ١٠ ـ ١١ ـ ﴿سَواءٌ مِنكُم﴾ في عِلمه ـ تعالى ـ ﴿مَن أَسَرَّ القَولَ ومَن جَهَرَ بِهِ، ومَن هُوَ مُستَخْفٍ﴾: مُستترٌ ﴿بِاللَّيلِ﴾: بظلامه ﴿وسارِبٌ﴾: ظاهر بذهاب في سَربه،...............

قولُهُ: (وغَيرِ ذَلِكَ) من كاملٍ وناقصٍ، ومؤمنٍ وكافرٍ، وطويلٍ وقصيرٍ، ونحوها.

قولُهُ: (مِن مُدَّةِ الحَملِ) والجثَّةِ والعَددِ.

قولُهُ: (مِنهُ) ممَّا ذكرَ، قالَ القاضي[١]: وأقصَى مدَّةِ الحمْلِ أربعُ سنينَ عندَنا[٢]، وخمسٌ عند مالكٍ[٣]، وثنتانِ عندَ أبي حنيفةَ[٤]، وأعلى عددِهِ لا حدَّ له.

وقيل: نهايةُ ما عُرفَ أربعةٌ، وإليه ذهبَ أبو حنيفةَ[٥].

قولُهُ: (لَا يَتَجَاوَزُهُ) ولا ينقصُ عنه.

قولُهُ: (مَا غَابَ) عن الحسِّ.

قولُهُ: (شُوهِدَ) له.

قولُهُ: (العَظِيمُ) الشَّأنِ.

قولُهُ: (بالقَهرِ) والقُدرةِ، وقيل: الكبيرُ في ذاتِه، المتعالي في صفاتِهِ.

قولُهُ: (بياءٍ) ابنُ كثيرٍ في الحالينِ[٦].

قولُهُ: (مُستَتِرٌ) أي: طالبٌ للخفاءِ في مختبأٍ باللَّيلِ.

قولُهُ: (ظاهِرٌ) يراهُ كلُّ أحدٍ، من سرَبَ: إذا برزَ[٧]، وهو عطفٌ على: ﴿مَنْ﴾ أو على: ﴿مُستَخْفٍ﴾.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١٨٢).

(٢) أي: على مذهب الشافعي، انظر: «الحاوي الكبير» (١١/ ٢٠٥).

(٣) عن مالك في أكثر الحمل ثلاث روايات: إحداها أربع سنين وهي المشهورة، والثانية خمس والثالثة سبع، انظر: «المعونة» (ص: ٩٢٣).

(٤) انظر: «التجريد» للقدوري (١٠/ ٥٣٤٣).

(٥) وانظر: «التفسير المظهري» (٥/ ٢١٩).

(٦) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٥٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٧٢).

(٧) وانظر: «تاج العروس» (٣/ ٥٤).

أي: طريقه ﴿بِالنَّهارِ، لَهُ﴾: للإنسان ﴿مُعَقِّباتٌ﴾: ملائكة تَعتَقِبُه ﴿مِن بَينِ يَدَيهِ﴾: قُدّامِه ﴿ومِن خَلفِهِ﴾: ورائه، ﴿يَحفَظُونَهُ مِن أمرِ اللهِ﴾ أي: بأمره من الجنّ وغيرهم. ﴿إنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَومٍ﴾: لا يَسلبهم نِعمةً ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأنفُسِهِم﴾ من الحالة الجميلة بالمعصية، ﴿وإذا أرادَ اللهُ بِقَومٍ سُوءًا﴾: عذابًا ﴿فلا مَرَدَّ لَهُ﴾ من المُعقّباتِ ولا غيرها، ﴿وما لَهُم﴾ ـ إن أراد الله بهم سوءًا ـ ﴿مِن دُونِهِ﴾ أي: غيرَ الله ﴿مِن﴾: زائدةٌ ﴿والٍ﴾ يمنعه عنهم.

١٢ ـ ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ البَرقَ خَوفًا﴾ للمُسافر من الصواعق ﴿وطَمَعًا﴾ للمُقيم في المطر، ﴿ويُنشِئُ﴾: يَخلق ﴿السَّحابَ الثِّقالَ﴾ بالمطر،........................

قولُهُ: (للإنسَانِ) أو لمَن أسرَّ أو جهرَ، واستخفَى أو سرَبَ.

قولُهُ: (تعقَّبُه) الظَّاهرُ كما في نسخةٍ: «تعتَقِبُهُ» في حفظِ، جمعُ: مُعقِّبَةٍ، من عقَّبَ مُبالغةُ عَقَبهُ: إذا جاءَ على عَقِبِه[1]، كأنَّ بعضَهُم يعقُبُ بعضاً، أو لأنَّهم يعقبونَ أقوالَهُ وأفعالَهُ فيكتُبونَها، أو من اعتقَبَ، فأُدغِمَتِ التَّاءُ في القافِ، والتَّاءُ للمبالغةِ، أو لأنَّ المرادَ بالمعقِّباتِ جماعاتٌ.

قولُهُ: (وَرائِهِ) أو من جوانبِهِ، أو من الأعمالِ ما قدَّمَ وأخَّرَ.

قولُهُ: (بأمرِهِ) فـ﴿مِنْ﴾ بمعنى: الباءِ، إذ التَّقديرُ: من أجلِ أمرِهِ.

قولُهُ: (وغَيرِهِم) من المضارِّ، أو من بأسِهِ متى أذنبَ بالاستمهالِ أو الاستغفارِ له، أو يراقبُونَ أحوالَهُ (مِنْ أجلِ أمرِ اللهِ)، وقد قُرِئَ به[2].

قولُهُ: (نعمَتَهُ) وعافيتَهُ.

قولُهُ: (بالمَعْصِيةِ) الأَولى: بالقَبيحَةِ؛ لحسنِ التَّقابلِ، أو يقابِلُ الطَّاعةَ بالمعصيةِ.

قولُهُ: (للمُقِيمِ) وانتصابُهُما على العلَّةِ بتقديرِ المضافِ؛ أي: إرادةَ خَوفٍ وطمعٍ.

وقيل: يخافُ المطرَ مَن يضرُّهُ، ويطمعُ فيهِ مَن ينفعُهُ.

قولُهُ: (﴿الثقالَ﴾ بالمَطَرِ) وهو جمعُ: ثقيلةٍ، وربَّما وُصفَ به السَّحابُ؛ لأنَّه اسمُ جنسٍ في معنى الجمعِ.

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (٩/ ٢٩١)، و«تاج العروس» (٣/ ٤٠٧).

(٢) وانظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١٨٣) ولم تنسب لأحد.

وقرئ: (يحفظونه بأمر الله) وهي قراءة شاذة، نسبت لعلي وابن عباس وعكرمة وزيد بن علي وجعفر بن محمد. انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٢٥٥).

١٣ ـ ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ﴾ هو مَلَك مُوكل بالسحاب يسوقه مُلتبسًا ﴿بِحَمْدِهِ﴾ أي يقول: سُبحانَ الله وبحمده، ﴿وَ﴾ تُسبّح ﴿الْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ أي: الله، ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ ـ وهي نار تخرج من السحاب ـ ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ فتُحرقه ـ نزل في رجل بعث إليه النبيّ ﷺ من يدعوه، فقال: مَن رسولُ اللهِ؟ وما اللهُ؟ أَمِن ذهب هو أم فضة أم نحاس؟ فنزلتْ به صاعقة فذهبتْ بِقِحف رأسه ـ ﴿وَهُمْ﴾ أي: الكُفّار ﴿يُجَادِلُونَ﴾: يُخاصمون النبيَّ ﴿فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾: القُوّةِ أو الأخذ.

١٤ ـ ﴿لَهُ﴾ ـ تعالى ـ ﴿دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ أي: كلمتُه ـ وهي: لا إلـٰهَ إلاّ اللهُ ـ ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾، بالياء والتاء: يعبدون ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أي: غيرَه ـ.........................

قولُهُ: (أي: اللَّهِ) وقيل: الضَّميرُ للرَّعدِ، والملائكةُ أعوانُه.

قولُهُ: (مِنَ السَّحَابِ) أي: تخرجُ منه، وإلَّا فأصلُها قطعةُ نارٍ من سوطِ الرَّعدِ تنفصِلُ في وقتِ حدَّةِ ضربِ الرَّعدِ به للسَّحابِ[١].

قولُهُ: (فَتُحرِقُهُ) بالتَّاء؛ أي: الصَّواعقُ، وبالياء؛ أي: اللهُ.

قولُهُ: (بِقِحْفِ رَأسِهِ) القِحفُ ـ بالكسرِ ـ: العظمُ فوقَ الدِّماغِ[٢].

قولُهُ: (القُوَّةِ) أي: فِعالٌ من المحلِ بمعنى القوَّةِ، وقيل: مِفعَلٌ من الحولِ أو الحيلةِ، أُعلَّ على غيرِ قياسٍ، أو (المحالُ): المماحَلةُ والمكايدةُ بأعدائِه.

قولُهُ: (أَيْ: كَلِمتُهُ) أو: له الدَّعاءُ الحقُّ، فإنَّه الَّذي يحقُّ أن يُعبَدَ أو يُدعى إلى عبادتِهِ دونَ غيرِهِ، أو: له الدَّعوةُ المجابةُ؛ فإنَّ من دعاهُ أجابَ، ويؤيِّدُه ما بعدَهُ.

قولُهُ: (والتَّاءِ) الخطابُ شاذٌّ[٣]، ومع هذا لا يُطابقُ الخبرَ أيضاً، ولعلَّهُ موجَّهٌ بالالتِفاتِ، أو التَّقديرُ: والَّذين تدعونَهُم لا يستجيبونَ لداعيهِم، على حذفِ المضافِ وهو الأظهرُ، ويلائمُهُ حينئذٍ قولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ﴾ [الرعد: ١٤] واللهُ سبحانَهُ وتعالى أعلمُ.

---

(١) انظر: «تاج العروس» (٢٦/ ٢١).

روى ابن الأنباري في «الزاهر» (٢/ ٣١٦) عن ابن عباس قال: الرعد ملك من الملائكة، وهو الذي تسمعون صوته، والبرق سوط من نور، يزجر به الملكُ السحابَ.

وروى الترمذي (٣١١٧): عن ابن عباس، قال: «أقبلت يهود إلى النبي ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم، أخبرنا عن الرعد ما هو؟ قال: «ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله» فقالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال: «زجره بالسحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أمر» قالوا: صدقت....».

(٢) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٨٤٣).

(٣) أي: (والذين تدعون) نسبت للكسائي عن أبي بكر وهارون النحوي عن أبي عمرو والأعمش، وهي قراءة شاذة.

وهم الأصنام ـ ﴿لا يَستَجِيبُونَ لَهُم بِشَيءٍ﴾ ممّا يطلبونه ﴿إلاّ﴾ استجابةً ﴿كَباسِطِ﴾ أي: كاستجابةِ باسطِ ﴿كَفَّيهِ إِلَى الماءِ﴾ على شفير البئر، يدعوه ﴿لِيَبلُغَ فاهُ﴾ بارتفاعه من البئر إليه، ﴿وما هُوَ بِبالِغِهِ﴾ أي: فاه أبدًا ـ فكذلك ما هم بمستجِيبين لهم ـ ﴿وما دُعاءُ الكافِرِينَ﴾: عِبادتُهم الأصنامَ أو حقيقةُ الدعاء ﴿إلاّ في ضَلالٍ﴾: ضياع، ١٥ ـ ﴿ولله يَسجُدُ مَن في السَّماواتِ والأرضِ طَوعًا﴾ كالمُؤمنين ﴿وكَرْهًا﴾ كالمُنافقين ومَن أُكره بالسيف، ﴿و﴾ تسجد ﴿ظِلالُهُم بِالغُدُوِّ﴾: البُكَرِ ﴿والآصالِ﴾: العشايا.

قولُهُ: (وهُمُ الأصنَامُ) أي: والأصنامُ الَّذين يدعُونها[١] المشركونَ، فحذفَ الرَّاجعَ، أو المشركونَ الَّذين يدعُونَ الأصنامَ، فحذفَ المفعولَ لدلالَةِ ﴿من دونه﴾ عليه.

قولُهُ: (يَدعُوهُ) أي: يطلبُ منهُ أن يبلغَهُ.

قولُهُ: (أَي: فَاهُ) الظَّاهرُ؛ أي: فيه، أو المرادُ يعني: فاهُ.

قولُهُ: (أَبداً) لأنَّهُم جمادٌ لا يشعرُ بدعائِهِ ولا يقدرُ على إجابتِهِ.

قولُهُ: (مَا هُمْ) أي: آلهتُهُم؛ يعني: ليسُوا بمستجيبينَ للكفَّارِ.

قولُهُ: (ضَيَاعٍ) وخسارٍ وباطلٍ.

قولُهُ: (كالمُؤمِنِينَ) من الثَّقلَينِ والملائكةِ حالةَ[٢] الشِّدَّةِ والرَّخاءِ.

قولُهُ: (كالمُنَافِقِينَ) أو الكفرةِ حالَ الشِّدَّةِ والضَّرورةِ، وانتصابُهُما بالحالِ أو العلَّةِ.

قولُهُ: (﴿و﴾ يَسْجدُ ﴿ظلالُهُم﴾) عطفٌ على ﴿مَنْ﴾ أي: وظلالُهُم بالعَرَضِ، ويحتملُ أن يُرادَ بالسُّجودِ: انقيادُهُم لإحداثِ ما أرادَه اللهُ فيهم شاؤوا أو كرِهوا، وانقيادُ ظلالِهِم لتصريفِهِ إيَّاها بالمدِّ والتَّقليصِ؛ أي: التَّنقيصِ.

قولُهُ: (العَشَايَا) «الغدوُّ» جمعُ: غَداةٍ، و«الآصالُ» جمعُ: أصيلٍ، وهو ما بين العصرِ والمغربِ[٣]، والمرادُ بهما: الدَّوامُ، أو خصَّ الوقتانِ لفضيلتِهِما[٤]، وليشملَ بركتُهُما سائرَ الأوقاتِ.

---

(١) في (م): «يدعوهم».

(٢) في (ص) و(د): «حالتي».

(٣) انظر: «الصحاح» (٤/ ١٦٢٣).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٩١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٤٦٤١) و(١٤٦٤٢) عن ابن عباس: قوله: ﴿بالغدو﴾ صلاة الغداة، وقوله: ﴿والآصال﴾ يعني بالآصال صلاة العصر، وهما أول ما فرض الله من الصلاة فأحب أن يذكرهما، ويذكر بهما عباده.

١٦ ـ ﴿قُلْ﴾ ـ يا مُحمّد ـ لقومك: ﴿مَن رَبُّ السَّماواتِ والأرضِ؟ قُلِ: اللهُ﴾، إن لم يقولوه، لا جوابَ غيرُه. ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿أفاتَّخذتُم مِن دُونِهِ﴾، أي: غيرِه، ﴿أَولِياءَ﴾: أصنامًا تعبدونها، ﴿لا يَملِكُونَ لأنفُسِهِم نَفعًا ولا ضَرًّا﴾، وتركتم مالِكَهما؟ استفهام توبيخ.

﴿قُلْ: هَل يَستَوِي الأعمَى والبَصِيرُ﴾: الكافر والمؤمن؟ ﴿أم هَل تَستَوِي الظُّلُماتُ﴾: الكُفر ﴿والنُّورُ﴾: الإيمان؟ لا. ﴿أم جَعَلُوا للهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلقِهِ، فتَشابَهَ الخَلقُ﴾ أي: خلقُ الشركاءِ بخلقِ اللهِ ﴿عَلَيهِم﴾، فاعتقدوا استحقاق عِبادتهم بخلقهم؟ استفهام إنكار، أي: ليس الأمر كذلك، ولا يستحقّ العبادةَ إلاّ الخالقُ. ﴿قُلِ: اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيءٍ﴾ لا شريكَ له فيه، فلا شريك له في العِبادة، ﴿وهُوَ الواحِدُ القَهّارُ﴾ لعِباده.

ثمّ ضرب مثلاً للحق والباطل، فقال: ١٧ ـ ﴿أنزَلَ﴾ ـ تعالى ـ ﴿مِنَ السَّماءِ ماءً﴾: مطرًا، ﴿فسالَتْ أَودِيةٌ بِقَدَرِها﴾: بمِقدار مِلْئها، ﴿فاحتَمَلَ السَّيلُ زَبَدًا رابِيًا﴾: عاليًا عليه، هو ما على وجهه من قذَر ونحوه، ﴿ومِمّا تُوقِدُونَ﴾..

قولُهُ: (لَا جَوَابَ غَيرُهُ) أو لقِّنهُم الجوابَ.

قولُهُ: (الكَافِرُ) أو الجاهلُ.

قولُهُ: (والمُؤمِنُ) أو العالمُ، وقيل: المعبودُ الغافلُ عنكم، والمعبودُ المطَّلعُ على أحوالِكُم.

قولُهُ: (الكُفرُ) وحمزةُ والكسائيُّ وشعبةُ: بالتَّذكيرِ[1].

قولُهُ: (اسْتِفهَامُ إِنكَارٍ[2]) لأنَّ التَّقديرَ: بل جعَلوا، وقولُهُ: ﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ صفةٌ لـ﴿شركاءَ﴾ داخلةٌ في حُكمِ الإنكارِ.

قولُهُ: (مِلئِهَا) أي: الأوديةِ، وهي جمعُ: وادٍ، وهو الموضعُ الَّذي يَسِيلُ فيه الماءُ بكثرةٍ، فاتُّسعَ فيه، واستُعمِلَ للماءِ الجارِي فيه، فالمعنى: فسالَتْ أنهارٌ بمِقدارِها في الصِّغرِ والكِبَرِ، أو بمقدارِها الَّذي علمَ اللهُ أنَّه نافعٌ غير ضارٍّ.

قولُهُ: (وهُو) أي: الزَّبدُ.

قولُهُ: (ونَحوِهِ) من وسخِ الغَليانِ، وقولُه: ﴿فَاحْتَمَلَ﴾ أي: رفعَ.

---

(١) أي: (يستوي)، انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٥٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٧٢).

(٢) في (م): «إنكاري».

ـ بالتاء والياء ـ ﴿عَلَيهِ في النّارِ﴾، من جواهر الأرض كالذهب والفِضّة والنُّحاس ﴿ابتِغاءَ﴾: طلبَ ﴿حِلْيَةٍ﴾: زِينة ﴿أو مَتاعٍ﴾ يُنتفع به كالأواني إذا أُذِيبَت، ﴿زَبَدٌ مِثلُهُ﴾ أي: مِثلُ زبد السيل، وهو خَبثه الذي ينفيه الكِير ـ ﴿كَذلِكَ﴾ المذكورِ ﴿يَضرِبُ اللهُ الحَقَّ والباطِلَ﴾ أي: مَثلَهما ـ ﴿فأمّا الزَّبَدُ﴾ من السيل وما أُوقد عليه من الجواهر ﴿فَيَذهَبُ جُفاءً﴾: باطلاً مَرْمِيًّا به، ﴿وأمّا ما يَنفَعُ النّاسَ﴾ من الماء والجواهر ﴿فيَمكُثُ﴾: يبقى ﴿في الأرضِ﴾ زمانًا، كذلك الباطل يضمحلّ وينمحق، وإن علا على الحقّ في بعض الأوقات، والحقُّ ثابت باق. ﴿كَذلِكَ﴾ المذكورِ ﴿يَضرِبُ﴾: يُبيِّن ﴿اللهُ الأمثالَ﴾.

١٨ ـ ﴿لِلَّذِينَ استَجابُوا لِرَبِّهِم﴾: أجابوه بالطاعة ﴿الحُسنَى﴾: الجنّةُ، ﴿والَّذِينَ لَم يَستَجِيبُوا لَهُ﴾ ـ وهم الكُفّار ـ ﴿لَو أنَّ لَهُم ما في الأرضِ جَمِيعًا ومِثلَهُ مَعَهُ لاَفتَدَوا بِهِ﴾ من العذاب، ﴿أُولئِكَ لَهُم سُوءُ الحِسابِ﴾ ـ وهو المُؤاخذة بكُلّ ما عملوه لا يُغفر منه شيء ـ ﴿ومأواهُم جَهَنَّمُ، وبِئسَ المِهادُ﴾: الفِراشُ هي!

قولُهُ: (باليَاءِ) الغيبةُ، حمزةُ والكسائيُّ وحفصٌ[1]، على أنَّ الضَّميرَ للنَّاسِ، وإضمارُهُ للعلمِ به

قولُهُ: (مِنْ جَواهِرِ الأَرْضِ) يعمُّ الفلزَّاتِ[2].

قولُهُ: (كالأَوَانِي) وآلاتِ الحربِ.

قولُهُ: (أي: مِثْلُ) أي: يحصلُ أو ينشأُ.

قولُهُ: (مَرمِيًّا بهِ) أي: يرمي به السَّيلُ والفِلزُّ[3] المذابُ، وانتصابُهُ على الحالِ.

قولُهُ: (والجَوَاهِرِ) أي: خلاصَتِها.

قولُهُ: (زَمَانًا) ينتفعُ به أهلُها.

قولُهُ: (يُبيِّنُ) لإيضاحِ المشتَبهاتِ.

قوله: (الجنَّةُ) أو المثوبةُ، مبتدأٌ خبرُهُ: ﴿للَّذينَ﴾.

قولُهُ: (الفِرَاشُ) المستقرُّ.

قولُهُ: (هيَ) يعني: المخصُوصُ بالذَّمِّ محذوفٌ.

---

(١) أي: ﴿يوقدون﴾، انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٥٩)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٧٣).

(٢) في (ص): «الفلوات».

(٣) الفِلَزُّ والفِلِزُّ: الحجارة، وقيل: هو جميع جواهر الأرض من الذهب والفضة والنحاس وأشباهها وما يرمى من خبثها. «لسان العرب» (٥/ ٣٩٢).

ونزل في حمزةَ وأبي جهل: ١٩ ـ ﴿أفمَن يَعلَمُ أنَّما أُنزِلَ إلَيكَ مِن رَبِّكَ الحَقُّ﴾ فآمن به ﴿كَمَن هُوَ أعمَى﴾ لا يعلمه ولا يُؤمن به؟ لا. ﴿إنَّما يَتَذَكَّرُ﴾: يتّعظ ﴿أُولُو الألبابِ﴾: أصحاب العُقول.

٢٠ ـ ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهدِ اللهِ﴾ المأخوذِ عليهم وهم في عالم الذرّ أو كُلِّ عهد، ﴿ولا يَنقُضُونَ المِيثاقَ﴾ بترك الإيمان أو الفرائض، ٢١ ـ ﴿والَّذِينَ يَصِلُونَ ما أمَرَ اللهُ بِهِ أن يُوصَلَ﴾ من الإيمان والرحِم وغير ذلك، ﴿ويَخشَونَ رَبَّهُم﴾ أي: وعيدَه، ﴿ويَخافُونَ سُوءَ الحِسابِ﴾ ـ تقدّم ـ ٢٢ ـ ﴿والَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على الطاعة والبلاء وعن المعصية ﴿ابتِغاءَ﴾: طلبَ ﴿وَجهِ رَبِّهِم﴾ لا غيرِه من أعراض الدنيا، ﴿وأقامُوا الصَّلاةَ وأنفَقُوا﴾ في الطاعة ﴿مِمّا رَزَقْناهُم سِرًّا وعَلانِيَةً، ويَدرَؤُونَ﴾: يدفعون ﴿بِالحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ كالجهل بالحلم والأذى بالصبر، ....

قولُهُ: (فآمَنَ) الأظهرُ: فيؤمنُ؛ ليُطابقَ ﴿يعلمُ﴾.

قولُهُ: (لَا يَعلَمُهُ) أي: عميُّ القلبِ لا يستبصرُهُ، والهمزةُ لإنكارِ أن تقعَ شبْهَةٌ في تشابُهِهِما بعدَ ما ضربَ من المثلِ.

قولُهُ: (أَو كُلِّ عَهدٍ) عهدَ اللهُ عليهم في كتبِهِ.

وقولُهُ تعالى: (﴿وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾) ما وثَّقُوا[1] من المواثيقِ بينَهم وبينَ اللهِ وبينَ العبادِ، وهو تعميمٌ بعدَ تخصيصٍ.

قولُهُ: (مِنَ الإِيمَانِ) بجميعِ الأنبياءِ.

قولُهُ: (وغَيرِ ذَلِكَ) أي: من مَوالاةِ المؤمنينَ، ومراعاةِ جميعِ حقوقِ النَّاسِ.

قولُهُ: (وَعِيدَهُ) عمُوماً.

قولُهُ: (تَقدَّمَ) أي: خصُوصاً، فيحاسِبونَ أنفسَهُم قبلَ أن يُحاسَبوا.

قولُهُ: (طَلَبَ ﴿وَجْهِ رَبِّهِم﴾) أي: رضاهُ.

قولُهُ: (لَا غَيرِه) كالفخرِ والسُّمعةِ والرِّياءِ والمالِ والجاهِ.

قالَ تَعالى: (﴿الصَّلَاةَ﴾) أي: المفروضةَ، و(﴿ممَّا رزَقْنَاهُمْ﴾) أي: بعضَهُ الَّذي وجبَ عليهم إنفاقُهُ (﴿سرًّا﴾) لمن لم يُعرفْ بالمالِ (﴿وعلانيةً﴾) لمن عُرفَ به، أو: ﴿سرًّا﴾ في التَّطوُّعِ ﴿وعلانيَةً﴾ في الفرضِ، أو كما اتَّفقَ ﴿سرًّا وعلانيةً﴾.

قولُهُ: (كالجَهلِ... إلخ) والإساءَةِ بالإحسانِ، أو يُتبعونَ الحسنةَ السَّيِّئَةَ فتَمحُوها.

---

(١) في (ص): «وثقوه».

﴿أُولئِكَ لَهُم عُقبَى الدّارِ﴾ أي: العاقبةُ المحمودة في الدار الآخرة.

٢٣ ـ هي ﴿جَنّاتُ عَدنٍ﴾: إقامةٍ، ﴿يَدخُلُونَها﴾ هم ﴿ومَن صَلَحَ﴾: آمنَ ﴿مِن آبائِهِم وأزواجِهِم وذُرِّيّاتِهِم﴾، وإن لم يعملوا بعملهم، يكونون في درجاتهم تكرمة لهم، ﴿والمَلائكةُ يَدخُلُونَ علَيهِم مِن كُلِّ بابٍ﴾ من أبواب الجنّة أو القُصور أوانَ أوّلِ دُخولهم للتهنئة، يقولون: ٢٤ ـ ﴿سَلامٌ علَيكُم﴾. هذا الثوابُ ﴿بِما صَبَرتُم﴾: بصبركم في الدنيا. ﴿فنِعمَ عُقبَى الدّارِ﴾ عقباكم!

٢٥ ـ ﴿والَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهدَ اللهِ مِن بَعدِ مِيثاقِهِ، ويَقطَعُونَ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ أن يُوصَلَ، ويُفسِدُونَ في الأرضِ﴾ بالكُفر والمعاصي، ﴿أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعنَةُ﴾: البُعد من رحمة الله، ﴿ولَهُم سُوءُ الدّارِ﴾ أي: العاقبةُ السّيئة في الدار الآخرة، وهي جهنّم. ٢٦ ـ ﴿اللهُ يَبسُطُ الرِّزقَ﴾: يُوسّعه ﴿لِمَن يَشاءُ، ويَقدِرُ﴾: يُضيّقه لمن يشاء. ﴿وفَرِحُوا﴾ أي: أهلُ مكّة فرحَ بطر ﴿بِالحَياةِ الدُّنيا﴾ أي: بما نالوه فيها، ﴿وما الحَياةُ الدُّنيا في﴾ جنب حياة ﴿الآخِرةِ إلاّ مَتاعٌ﴾: شيء قليل يُتمتّع به ويَذهب.

قولُهُ: (أَي: العَاقِبةُ) أو عاقبةُ الدُّنيا أيضاً.

قولُهُ: (هِيَ) يعني: ﴿جنَّاتُ﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ، وقيل: بدلٌ من ﴿عقبى الدَّارِ﴾، أو مبتدأٌ خبرُه ﴿يدخلُونَهَا﴾.

قولُهُ: (إِقَامَةٍ) وقيل: بُطنان الجنَّةِ.

قولُهُ: (آمَنَ) عطفٌ على المرفُوعِ في «يدخلُونَ»، وإنَّما ساغَ للفصلِ بالضَّميرِ الآخرِ (ها) أو مفعولٌ معَه، والتَّقييدُ بالصَّلاحِ دالٌّ على أنَّ مجرَّدَ النَّسبِ لا ينفعُ.

قولُهُ: (أَوِ القُصُورِ) أو الفتوحِ والتُّحفِ.

قولُهُ: (يقُولُونَ) الأظهرُ: قائلينَ؛ بشارةً بدوامِ السَّلامةِ.

قولُهُ: (هَذَا الثَّوابُ) إشارةٌ إلى أنَّ ﴿بما صبرْتُم﴾ متعلِّقٌ بمحذُوفٍ، والباءُ للسَّببيَّةِ.

قولُهُ: (أَي: العَاقِبَةُ) أو سوءُ عاقبةِ الدُّنيا.

قولُهُ: (لِمَنْ يَشاءُ) أو لَه.

قولُهُ: (بمَا نَالُوهُ فِيهَا) وتبسَّطُوا منها، ولم يصرفُوا فيما يستوجبونَ به نعيمَ العُقبى.

قولُهُ: (ويَذهَبُ) يعني: الأمتعةُ لا تدومُ[1] كعُجالةِ الرَّاكبِ وزادِ الرَّاعي.

---

(١) في (ص) زيادة: «له».

٢٧ ـ ﴿ويَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكّة: ﴿لَولا﴾: هلاّ ﴿أُنزِلَ علَيهِ﴾: على مُحمّد ﴿آيةٌ مِن رَبِّهِ﴾ كالعصا واليد والناقة. ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿إنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشاءُ﴾ إضلاله فلا تُغني الآيات عنه شيئًا، ﴿ويَهدِي﴾: يُرشد ﴿إلَيهِ﴾: إلى دِينه ﴿مَن أنابَ﴾: رجَعَ إليه، ويُبدَل مِن «مَن»: ٢٨ ـ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وتَطمَئِنُّ﴾: تسكن ﴿قُلُوبُهُم بِذِكرِ اللهِ﴾ أي: وعدِه. ﴿ألا بِذِكرِ اللهِ تَطمَئِنُّ القُلُوبُ﴾ أي: قُلوب المُؤمنين. ٢٩ ـ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ﴾: مبتدأ خبرُه: ﴿طُوبَى﴾ ـ مصدرٌ من الطِّيب أو شجرةٌ في الجنّة يسير الراكب في ظِلّها مِائَةَ عام ما يقطعها ـ ﴿لَهُم وحُسنُ مآبٍ﴾: مرجِع.

٣٠ ـ ﴿كَذلِكَ﴾: كما أرسلنا الأنبياء قبلك ﴿أرسَلْناكَ في أُمّةٍ، قَد خَلَتْ مِن قَبلِها أُمَمٌ لِتَتلُوَ﴾: تقرأ ﴿علَيهِمِ الَّذِي أوحَينا إلَيكَ﴾ أي: القُرآنَ، ﴿وهُم يَكفُرُونَ بالرَّحمنِ﴾ حيثُ قالوا لمّا أُمروا بالسجود له: «وما الرَّحمنُ»؟ ﴿قُلْ﴾ لهم يا مُحمّد: ﴿هُوَ رَبِّي، لا إلــهَ إلاّ هُوَ، علَيهِ تَوَكَّلْتُ، وإلَيهِ مَتابِ﴾.

ونزل لمّا قالوا له: «إن كنتَ نبيًّا فسيِّرْ عنّا جبالَ مكّة، واجعلْ لنا فيها أنهارًا وعُيونًا لنغرس ونزرع، وابعثْ لنا آباءنا الموتى يُكلّمونا أنك نبيّ»: ٣١ ـ ﴿ولَو أنَّ قُرآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الجِبالُ﴾: نُقلت عن أماكنها، ﴿أو قُطِّعَتْ﴾: شُقّقتْ ﴿بِهِ الأرضُ، أو كُلِّمَ بِهِ المَوتَى﴾ بأن يُحيَوا، لَما آمنوا........

قولُهُ: (إِضْلالَهُ) باقتراحِ الآياتِ بعدَ ظهورِ المعجزاتِ.

قولُهُ: (رَجعَ إِلَيهِ) وأقبلَ عليه وتمسكنَ لديهِ.

قولُهُ: (وَيُبدَلُ) أو خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ.

قولُهُ: (تَسكُنُ) أنساً به واعتِماداً عليه ورجاءً منه.

قولُهُ: (أي: وَعْدِهِ) أو مطلقاً، أو بذكرِ رحمتِهِ بعد القلقِ من خشيتِهِ، أو بذكرِ دلائلِهِ الدَّالَّةِ على وجودِهِ ووحدانيَّتِهِ، أو بكلامِهِ ـ يعني: القرآنَ ـ الَّذي هو أقوى المعجزاتِ.

قولُهُ: (مَصدَرٌ) لطابَ كبُشرَى وزُلفى، قُلبَت ياؤهُ واواً لضمَّةِ ما قَبلَها.

قولُهُ: (شُقِّقَتْ) وجُعلَت أنهاراً وعيوناً.

قولُهُ: (لَمَا آمَنُوا) جوابُ الشَّرطِ، فالمرادُ منه المبالغةُ في عنادِ الكفرِ وتصميمِهِم؛ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ الآية [الأنعام: ١١١].

أو التَّقديرُ: لكانَ هذا القرآنَ؛ لأنَّهُ الغايةُ في الإعجازِ والنِّهايةُ في التَّذكيرِ والإنذارِ، فالمرادُ منه: تعظيمُ شأنِ القرآنِ.

﴿بَل للهِ الأمرُ جَمِيعًا﴾ لا لغيره، فلا يُؤمن إلاّ من شاء إيمانَه دون غيره، وإن أُوتوا ما اقترحوا. ونزل لمّا أراد الصحابة إظهار ما اقترحوا طمعًا في إيمانهم: ﴿أفلَم يَيأسِ﴾: يَعلمِ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا أنْ﴾: مُخففةٌ أي: أنه ﴿لَو يَشاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ إلى الإيمان من غير آية؟

﴿ولا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكّة ﴿تُصِيبُهُم بِما صَنَعُوا﴾: بصنعهم، أي: كُفرهم، ﴿قارِعةٌ﴾: داهية تقرَعُهم بصُنوف البلاء من القتل والأسر والحرب والجدب، ﴿أو تَحُلُّ﴾ ـ يا مُحمّد ـ بجيشك ﴿قَرِيبًا مِن دارِهِم﴾: مكّة، ﴿حَتَّى يأتِيَ وَعدُ اللهِ﴾ بالنصر عليهم ـ ﴿إنَّ اللهَ لا يُخلِفُ المِيعادَ﴾. وقد حلَّ بالحُديبية حتّى أتى فتحُ مكّة ـ ٣٢ ـ ﴿ولَقَدِ استُهزِئَ بِرُسُلٍ مِن قَبلِكَ﴾ كما استُهزِئ بك ـ وهذا تسلية للنبيّ ـ ﴿فأملَيتُ﴾: أمهلت ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا، ثُمَّ أخَذتُهُم﴾ بالعُقوبة. ﴿فكَيفَ كانَ عِقابِ﴾؟ أي: هو واقع موقعه، فكذلك أفعل بمن استهزأ بك.

٣٣ ـ ٣٤ ـ ﴿أفمَن هُوَ قائمٌ﴾: رقيب ﴿عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ﴾: عملتْ من خير وشر ـ وهو الله ـ كمن ليس كذلك من الأصنام؟ لا ....

قولُهُ: (يَعلَمْ) هذا مذهبُ الأكثرِ؛ لما رُويَ أنَّ عليًّا وابن عبَّاسٍ وجماعةً من الصَّحابةِ والتَّابعينَ قرؤوا: (أفلم يتبيَّن)[1] وهو تفسيرُهُ، وإنَّما استُعمِلَ اليأسُ بمعنى: العلمِ؛ لأنَّهُ مسبَّبٌ عن العلمِ بأنَّ المأيوسَ عنه لا يكونُ إلَّا معلوماً، ولذلك علَّقَهُ بقولِهِ: ﴿أنْ لَو يَشَاءُ اللهُ﴾ إلخ، فإنَّ معناهُ: نفيُ هُدى بعضِ النَّاسِ لعَدمِ تعلُّقِ المشيئةِ باهتِدائِهم.

وقيلَ معناهُ: أفلم ييأسُوا من إيمانِهم معَ ما رأوا من أحوالِهم علماً منهُم أن لو يشاءُ اللهُ، فيكونُ ﴿أنْ﴾ متعلِّقاً بمحذوفٍ، وقيل: متعلِّقٌ بـ﴿آمنُوا﴾.

قولُهُ: (أي: كُفرِهِم) وسوءِ أعمالِهِم.

قولُهُ: (تَقرَعُهُم) وتقلقُهُم.

قولُهُ: (مَكَّة) تسليةٌ للنَّبيِّ، ووعيدٌ للمُستهزئينَ به.

قولُهُ: (أَمهَلتُ) الإملاءُ: أن يُتركَ ملاوةً ـ مثلَّثةُ الميمِ ـ؛ أي: قطعةً من الزَّمانِ في دَعَةٍ وأمنٍ.

قالَ تعالى: (﴿عِقَاب﴾) أي: عِقابي إيَّاهُم.

قولُهُ: (كَمَنْ) إشارةٌ إلى أنَّ الخبرَ محذوفٌ.

---

(١) انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ٧١)، وهي محمولة على التفسير لمخالفتها سواد المصحف الذي أجمعت عليه الأمة.

دلّ على هذا: ﴿وجَعَلُوا لِلهِ شُرَكاءَ. قُلْ: سَمُّوهُم﴾ له، مَن هم؟ ﴿أم﴾: بل أ ﴿تُنَبِّئُونَهُ﴾: تُخبرون الله ﴿بِما﴾ أي: بشريكٍ ﴿لا يَعلَمُـ﴾ ـه ﴿في الأرضِ﴾؟ استفهام إنكار، أي: لا شريك له إذ لو كان لعَلِمَه ـ تعالى عن ذلك ـ ﴿أم﴾: بل تُسمّونهم شُركاء ﴿بِظاهِرٍ مِنَ القَولِ﴾: بظنّ باطل لا حقيقة له في الباطن.

﴿بَل زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكرُهُم﴾: كُفرهم، ﴿وصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾: طريق الهُدى. ﴿ومَن يُضلِلِ اللهُ فما لَهُ مِن هادٍ. لَهُم عَذابٌ في الحَياةِ الدُّنيا﴾ بالقتل والأسر، ﴿ولَعَذابُ الآخِرةِ أشَقُّ﴾: أشدّ منه، ﴿وما لَهُم مِنَ اللهِ﴾ أي: عذابه ﴿مِن واقٍ﴾: مانع.

٣٥ ـ ﴿مَثَلُ﴾: صِفةُ ﴿الجنّةِ الّتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ﴾: مبتدأ خبرُه محذوف، أي: فيما يُقَصُّ عليكم، ﴿تَجرِي مِن تَحتِها الأنهارُ، أُكُلُها﴾: ما يُؤكل فيها ﴿دائمٌ﴾: لا يفنى،........

قولُهُ: (دَلَّ عَلَى هَذَا) المقدَّرِ (﴿وَجَعَلُوا﴾) وهو استئنافٌ، أو التَّقديرُ: لم يوحِّدوهُ، و﴿جعلوا﴾ عطفٌ عليه، وهو الأظهرُ، ويكونُ الظَّاهرُ فيه موضعَ المضمَرِ للتَّنبيهِ على أنَّهُ المستحِقُّ للعبادةِ.

وقولُهُ: (﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾) تنبيهاً على أنَّ هؤلاءِ الشُّركاءَ لا يستَحقُّونَ العبادَةَ، والمعنى: صِفُوهُم فانظروا هل لهم ما يستحقُّونَ به العِبادةَ ويستأهلونَ الشَّركةَ؟

قولُهُ: (لعِلْمِهِ) إذ هو العالمُ بكلِّ شيءٍ.

قولُهُ: (لَا حَقِيقَةَ لَهُ) ولا مَعنى، كتسميةِ الزِّنجيِّ كافوراً.

قولُهُ: (كُفرُهمْ) أي: كيدُهُم للإسلامِ بشركِهم أو تمويهِهِم، فتخيَّلوا أباطيلَ ثمَّ ظنُّوها، فكأنَّهُ تعالى يقولُ: دعْ ذكرَ الدَّليلِ فإنَّهُ لا فائدةَ فيه؛ لأنَّهُ زُيِّنَ لهم مكرُهُم، فلا ينتفعونَ بذكرِ هذه الدَّلائلِ.

قولُهُ: (طَرِيقِ الهُدَى) بضمِّ الصَّادِ: للكوفيِّ[1].

قولُهُ: (وَالأَسرِ) وما يصيبُهُم من المصائبِ.

قولُهُ: (أَشَدُّ) وأدومُ.

قولُهُ: (مَانِعٍ) الأظهرُ: حافظٍ.

قولُهُ: (صِفَةُ) أي: صفتُها الَّتي هي مثلٌ في الغرابةِ.

قولُهُ: (مَحْذُوفٌ) هذا عندَ سيبويه[2]، وقيلَ: خبرُهُ ﴿تجري﴾.

---

(١) أي: عاصم وحمزة والكسائي. انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٥٩)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٧٣).

(٢) انظر: «الكتاب» (١/ ١٤٣).

﴿وظِلُّها﴾ دائم لا تنسخه شمس لعدمها فيها. ﴿تِلكَ﴾ أي: الجنّة ﴿عُقبَى﴾: عاقبة ﴿الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ الشِّركَ، ﴿وعُقبَى الكافِرِينَ النّارُ﴾.

٣٦ ـ ﴿والَّذِينَ آتَيناهُمُ الكِتابَ﴾ كعبدالله بن سلام وأصحابه من مؤمني اليهود ﴿يَفرَحُونَ بِما أُنزِلَ إلَيكَ﴾ لمُوافقته ما عِندهم، ﴿ومِنَ الأحزابِ﴾ الذين تحزَّبوا عليك بالمُعاداة من المشركين واليهود ﴿مَن يُنكِرُ بَعضَهُ﴾ كذِكر الرحمن وما عدا القَصص. ﴿قُلْ: إنَّما أُمِرْتُ﴾ فيما أُنزِل إليَّ ﴿أن﴾ أي: بأن ﴿أعبُدَ اللهَ ولا أُشرِكَ بِهِ. إلَيهِ أدعُو وإلَيهِ مآبِ﴾: مَرجِعي.

٣٧ ـ ﴿وكَذلِكَ﴾ الإنزالِ ﴿أنزَلْناهُ﴾ أي: القُرآنَ ﴿حُكمًا عَرَبِيًّا﴾ بلغة العرب، تحكم به بين الناس. ﴿ولَئِنِ اتَّبَعتَ أهواءَهُم﴾ أي: الكُفّارِ فيما يدعونك إليه من مِلّتهم فَرْضًا ﴿بَعدَ ما جاءَكَ مِنَ العِلمِ﴾ بالتوحيد ﴿مالَكَ مِنَ اللهِ مِن﴾: زائدةٌ ﴿وَلِيٍّ﴾: ناصرٍ ﴿ولا واقٍ﴾: مانع من عذابه.

ونزل لمّا عيّروه بكثرة النساء: ٣٨ ـ ﴿ولَقَد أرسَلْنا رُسُلاً مِن قَبلِكَ، وجَعَلْنا لَهُم أزواجًا وذُرِّيَّةً﴾: أولادًا ـ وأنت مِثلهم ـ ﴿وما كانَ لِرَسُولٍ﴾ منهم ﴿أن يأتِيَ بِآيَةٍ إلاّ بِإذنِ اللهِ﴾ لأنهم عبيد مَربوبون.....

قولُهُ: (دَائِمٌ) أي: كذلك.

قولُهُ: (أَي: الجَنَّةُ) الموصُوفةُ.

قولُهُ: (عَاقِبَة) أي: مآلُهم[1] ومنتَهى أمرِهم.

قولُهُ: (وَمَا عَدَا القَصَصَ) أي: ممَّا يخالفُ شرائعَهُم، أو ما لا يوافقُ ما حرَّفوهُ منها.

قولُهُ: (مَرجِعِي) للجزاءِ لا إلى غيرِه، وهذا هو القدرُ المتَّفقُ عليهِ بينَ الأنبياءِ، فأمَّا ما عدَا ذلك مِن التَّفاريعِ فممَّا يختلفُ بالأعصارِ والأممِ، فلا معنى لإنكارِهم المخالفَةَ فيه.

قولُهُ: (الإِنزَالُ) المشتملُ على أصُولِ الدِّياناتِ المجمَعِ[2] عليها.

قولُهُ: (بِلُغةِ العَرَبِ) ليسهُلَ لهم فهمُهُ وحفظُهُ.

قولُهُ: (تَحكُمُ) أنت، أو القرآنُ في القَضايا والوَقائعِ بما تقتَضيهِ الحكمةُ، وانتصابُهُ على الحالِ.

قولُهُ: (مِن ملَّتِهم) أي: تقريرِ دينِهم والصَّلاةِ إلى قبلتِهم بعدَ ما حُوِّلتَ عنها.

قولُهُ: (بالتَّوحِيدِ) أي: بنسخِ ذلك.

---

(١) في (ص): «حالهم».

(٢) في (ص): «أصول الديان المجتمع».

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ﴾: مُدّةٍ ﴿كِتَابٌ﴾ مكتوب فيه تحديدُه. ٣٩ ـ ﴿يَمحُو اللهُ﴾ منه ﴿ما يَشاءُ ويُثبِتُ﴾ ـ بالتخفيف والتشديد ـ فيه ما يشاء من الأحكام وغيرها، ﴿وعِندَهُ أُمُّ الكِتابِ﴾: أصلُه الذي لا يَتغيّر منه شيء، وهو ما كتبه في الأزَل.

قولُهُ: (مَكتُوبٌ فِيهِ) أو لكلِّ أمدٍ ووقْتٍ حكمٌ يُكتَبُ على العبادِ على ما يقتَضيهِ استصلاحُهُم.

قولُهُ: (بالتَّخفِيفِ): مكّيٌّ وبصريٌّ وعاصمٌ[١].

قولُهُ: (مِنَ الأَحكَامِ) أي: ينسخُ ما يستصوبُ نسخَهُ ويثبتُ ما تقتَضيهِ حكمتُهُ.

وقيل: يمحُو سيِّئاتِ التَّائبِ ويُثبِتُ الحسناتِ مَكانَها.

وقيل: يمحو قرناً ويُثبِتُ آخرينَ.

وقيلَ: يمحُو الفاسداتِ ويُثبِتُ الكائناتِ.

وقيل: يمحو ما يشاءُ من الأسبابِ ويُثبِتُ الأقدارَ.

ويمكنُ أن يُقالَ: يمحُو ما لا يكونُ للهِ ويُثبِتُ ما أُريدَ به وجهُ اللهِ.

وعن ابنِ عبَّاسٍ وغيرِه: يمحو ما يشاءُ إلَّا الشَّقاوةَ والسَّعادةَ والحياةَ والمماتَ[٢].

وعن كثيرٍ من السَّلفِ كعُمرَ بن الخطَّابِ[٣] وابن مسعودٍ[٤] وغيرِهما: أنَّهم كانوا يدعونَ بهذا الدُّعاءِ: «اللَّهمَّ إنْ كُنتَ كتبْتَنَا أشقياءَ فامحُهُ واكتبْنَا سعداءَ، وإنْ كنتَ كتبْتَنَا سعداءَ فأثبتْنَا فإنَّكَ تمحُو ما تشاءُ وتُثبِتُ، وعندَكَ أمُّ الكتابِ». وهذا الدُّعاءُ قد نُقِلَ في الحديثِ قراءتُه في ليلةِ النِّصفِ من شعبانَ[٥].

قولُهُ: (كَتَبَهُ) أي: أثبتَهُ، أو هو اللَّوحُ المحفُوظُ، إذ ما من كائنٍ إلَّا وهو مكتوبٌ فيه.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٥٩)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٧٤).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٣٨٧)، والطبري في «تفسيره» (٢٠٤٦١)، وابن المقرئ في «معجمه» (٥٥٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٣٩٤).

(٣) رواه الفاكهي في «أخبار مكة» (٤١٨)، والطبري في «تفسيره» (٢٠٤٨١)، والدولابي في «الكنى والأسماء» (٨٧٢) بنحوه.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠٤٨٤) بنحوه.

ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٩/ ١٧١) (٨٨٧٤) مختصراً.

(٥) لعله يريد ما أورده الذهبي في «الميزان» (٤/ ١٣٢) عن أنس مرفوعا: «من صلى ليلة النصف من شعبان خمسين ركعة قضى الله له كل حاجة طلبها تلك الليلة، وإن كان كتب في اللوح المحفوظ شقيا يمحو الله ذلك ويحوله إلى السعادة...». قال الذهبي: قبح الله من وضعه ففيه من الكذب والإثم ما لا يوصف.

٤٠ ـ ﴿وإمّا﴾ ـ فيه إدغام نون «إن» الشرطيّة في «ما» المزيدة ـ ﴿نُرِيَنَّكَ بَعضَ الَّذِي نَعِدُهُم﴾ به من العذاب في حياتك، وجواب الشرط محذوف، أي: فذاك، ﴿أو نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل تعذيبهم، ﴿فإنَّما علَيكَ البَلاغُ﴾: ما عليك إلاّ التبليغ، ﴿وعلَينا الحِسابُ﴾ إذا صاروا إلينا فنُجازيهم. ٤١ ـ ﴿أوَلَم يَرَوا﴾ أي: أهلُ مكّة ﴿أنّا نأتِي الأرضَ﴾: نقصِد أرضهم، ﴿نَنقُصُها مِن أطرافِها﴾ بالفتح على النبيّ؟ ﴿واللهُ يَحكُمُ﴾ في خلقه بما يشاء، ﴿لا مُعَقِّبَ﴾: لا رادّ ﴿لِحُكمِهِ، وهُوَ سَرِيعُ الحِسابِ﴾.

٤٢ ـ ﴿وقَد مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبلِهِم﴾ من الأُمم بأنبيائهم كما مكروا بك. ﴿فـلِلّهِ المَكرُ جَمِيعًا﴾، وليس مكرهم كمكره لأنه ـ تعالى ـ ﴿يَعلَمُ ما تَكسِبُ كُلُّ نَفسٍ﴾ فيُعِدّ لها جزاءه. وهذا هو المكر كُلّه لأنه يأتيهم به من حيثُ لا يشعرون. ﴿وسَيَعلَمُ الكافِرُ﴾ المُراد به الجِنس ـ وفي قراءة: «الكُفّار» ـ ﴿لِمَن عُقبَى الدّارِ﴾ أي: العاقبةُ المحمودة في الدار الآخِرة؟ ألهم أم للنبيّ وأصحابه؟

٤٣ ـ ﴿ويَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لك: ﴿لَستَ مُرسَلاً. قُلْ﴾ لهم: ﴿كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَينِي وبَينَكُم﴾ على صِدقي ﴿ومَن عِندَهُ عِلمُ الكِتابِ﴾ من مُؤمني اليهود والنصارى!

قولُهُ: (أرْضَهُم) أي: الكفرةِ، فاللّامُ للعَهدِ، أو عوضٌ عن المضافِ إليهِ.

قولُهُ: (بأنبيَائِهِم) والمؤمنينَ منهم.

قولُهُ: (كمَكرِهِ) إذ لا يُؤبَهُ بمكرِهِم عندَ مكرِهِ، فإنَّهُ القادرُ على ما هو المقصُودُ منه دونَ غيرِهِ.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ): للشّاميِّ والكوفيِّ[1].

قولُهُ: (لَكَ) متعلِّقٌ بـ﴿يقولُ﴾، قيلَ: المرادُ رؤساءُ اليهودِ.

قولُهُ: (عَلَى صِدْقِي) فإنَّهُ من أظهرِ الأدلَّةِ على رسالَتِي، ما يُغني عن شاهِدٍ يشهَدُ عليها.

قولُهُ: (مِنْ مُؤمِنِي اليَهُودِ) فإنَّهُم يشهدُونَ بنعتِهِ في كتبِهِم، فالكتابُ: التّوراةُ، أو المرادُ: علمُ القرآنِ وما ألفَ عليهِ من النَّظمِ المعجزِ، واللهُ أعلمُ.

* * *

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٥٩)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٧٥).

سورة الرعد

جاء من طريق مجاهدٍ عن ابن عباس وعليّ بن أبي طلحةَ أنَّها مكِّيَّةٌ، ورُوي ذلك عن سعيد بن جبير، قال سعيد بنُ منصور في «سننه»: حدَّثنا أبو عوانةَ، عن أبي بشرٍ قال: سألتُ ابنَ جبير عن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٤٣] هل هو عبدُ الله بن سلام؟ فقال: كيف وهذه السورةُ مكِّيَّةٌ[1]؟

وأخرج مجاهدٌ عن ابنِ الزبير، وابنُ مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس، ومن طريق ابن جُريج وعثمانَ عن عطاء عنه، وأبو الشيخ عن قتادةَ: أنَّها مدنيَّةٌ. إلَّا أنَّ في رواية الأخير استثناءَ قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾ الآية [٣١]، فإنَّها مكِّيَّةٌ[2]. ورُوي أنَّ أوَّلَها إلى آخرِ ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ الآية [الرعد:٤٣] مدنيٌّ وباقيها مكِّيٌّ.

وفي «الإتقان»[3]: يؤيِّدُ القولَ بأنَّها مدنيَّةٌ ما أخرجه الطبرانيُّ وغيرُه عن أنس[4] أنَّ قولَه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ [الآية:٨] إلى قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الآية:١٣] نزل في قصَّةِ أربدَ بنِ قيس وعامر بن الطُّفيل حين قدما المدينةَ على رسول الله ﷺ[5]. ثُمَّ قال: والذي يجمع به بين الاختلاف أنَّها مكيةٌ إلَّا آياتٍ منها.

---

(١) سنن سعيد بن منصور (١١٧٧ ـ تفسير).

(٢) ينظر الدر المنثور ٤/ ٤٢، والإتقان ١/ ٣٦ و٤٥.

(٣) ١/ ٣٦.

(٤) كذا نقل المصنف عن السيوطي، والصواب: ابن عباس، كما في المصادر على ما يأتي.

(٥) المعجم الكبير (١٠٧٦٠)، والمعجم الأوسط (٩١٢٧)، والخبر عند ابن هشام في السيرة ٢/ ٥٦٩. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٤٢: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفي إسنادهما عبد العزيز بن عمران، وهو ضعيف.

وهي ثلاثٌ وأربعون آيةً في الكوفيِّ، وأربعٌ في المدنيِّ، وخمسٌ في البصريِّ، وسبعٌ في الشاميِّ.

ووجهُ مناسبتها لِمَا قبلها أنَّه سبحانه قال فيما تقدَّم: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف:١٠٥] فأَجْمَلَ سبحانه الآياتِ السماويةَ والأرضيَّةَ، ثمَّ فصَّلَ جلَّ شأنُه ذلك هنا أتمَّ تفصيل. وأيضاً أنَّه تعالى قد أتى هنا ـ ممَّا يدلُّ على توحيدِه عزَّ وجل ـ ما يصلحُ شرحاً لِمَا حكاه عن يوسفَ عليه السلام من قوله: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف:٣٩]. وأيضاً في كلٍّ من السورتين ما فيه تسليةٌ له ﷺ، هذا مع اشتراكِ آخرِ تلك السورةِ وأوَّل هذه فيما فيه وصفُ القرآن كما لا يخفى.

وجاء في فضلها ما أخرجه ابنُ أبي شيبة والمروزيُّ في «الجنائز» عن جابر بن زيد أنَّه كان يستحبُّ إذا حُضِرَ الميتُ أن يُقرَأَ عنده سورةُ الرعد، فإنَّ ذلك يخفِّفُ عن الميت، وأنَّه أهونُ لِقَبْضِه وأيسرُ لشأنه[١]. وجاء في ذلك أخبارٌ أُخرُ نصُّوا على وضعِها، والله تعالى أعلم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓر﴾ أخرج ابنُ جرير وأبو الشيخ عن ابنِ عباس أنَّ معنى ذلك: أنا الله أعلم وأرى[٢]. وهو أحدُ أقوالٍ مشهورةٍ في مثل ذلك.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ جَعَلَ غيرُ واحدٍ الكتابَ بمعنى السورةِ، وهو بمعنى المكتوب صادقٌ عليها من غيرِ اعتبارِ تجوُّزٍ، والإشارةُ إلى آياتها باعتبار أنَّها لتلاوة بعضها ـ والبعضُ الآخرُ في معرض التلاوة ـ صارت كالحاضرة، أو لثبوتها في اللوح، أو مع المَلَك، والمعنى: تلك الآياتُ [آياتُ][٣] السورةِ الكاملةِ العجيبةِ في

(١) مصنف ابن أبي شيبة ٣/ ٢٣٧، وعزاه للمروزي ابن حجر في التلخيص الحبير ٢/ ١٠٤، والسيوطي في الدر ٤/ ٤٢.
(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٤٠٥، وعزاه لأبي الشيخ السيوطيُّ في الدر ٤/ ٤٢، وليس فيهما: «أعلم».
(٣) ما بين حاصرتين من الكشاف ٢/ ٣٤٨، وتفسير البيضاوي ومعه حاشية الشهاب ٥/ ٢١٥.

بابها، واستُفيدَ هذا على ما قيل من اللّام، وذلك أنَّ الإضافةَ بيانيَّةٌ، فالمآلُ: ذلك الكتابُ، والخبرُ إذا عُرِّفَ بلام الجنس أفادَ المبالغةَ، وأنَّ هذا المحكومَ عليه اكْتَسبَ من الفضيلةِ ما يوجبُ جَعْلَه نفسَ الجنس، وأنَّه ليس نوعاً من أنواعِه، وحيثُ إنَّه في الظاهر كالممتنع أُريد ذلك.

وجُوِّز أن يكون المرادُ بـ «الكتاب»: القرآنَ، و«تلك» إشارةٌ إلى آياتِ السورة، والمعنى: آياتُ هذه السورةِ آياتُ القرآن الذي هو الكتابُ العجيبُ الكاملُ الغنيُّ عن الوصفِ بذلك، المعروفُ به من بين الكتب، الحقيقُ باختصاص اسم الكتاب.

والظاهرُ أنَّ المرادَ جميعُه، وجوِّز أن يراد به المنزَّلُ حينئذ، ورجِّحَ إرادةَ القرآن بأنَّه المتبادرُ من مطلق الكتاب المستَغْني عن النعت، وبه يظهرُ جميع ما أُريد من وصف الآياتِ بوصف ما أُضيفت إليه من نعوت الكمالِ؛ بخلافِ ما إذا جُعل عبارةً عن السورة، فإنَّها ليست بتلك المثابةِ من الشهرة في الاتِّصاف بذلك، المُغنيةِ عن التصريح بالوصف، وفيه بحثٌ.

وأيّاً ما كان فلا محذورَ في حَمْلِ آياتِ الكتاب على «تلك» كما لا يخفى.

وقيل: الإشارةُ بـ «تلك» إلى ما قصَّ سبحانه عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أنباءِ الرسلِ عليهم السلام، المشارِ إليها في آخر السورة المتقدِّمةِ بقوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ [يوسف:١٠٢]، وجوِّزَ على هذا أن يرادَ بالكتاب ما يشملُ التوراةَ والإنجيلَ، وأخرج ذلك ابنُ جرير عن مجاهدٍ وقتادة[(١)].

وجوَّزَ ابنُ عطيةَ هذا على تقديرِ أن تكون الإشارةُ إلى «المر» مراداً بها حروفُ المعجم أيضاً، وجَعَلَ ذلك مبتدأً أوّلاً، و«تلك» مبتدأً ثانياً، و«آيات» خبرُه، والجملةُ خبرُ الأوَّلِ، والرابطُ الإشارة[(٢)].

وأمّا قولُه سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ فالظاهرُ أنَّ الموصولَ فيه مبتدأٌ، وجملةُ «أُنزل» من الفعل ومرفوعِه صلتُه، و«من ربِّك» متعلِّقٌ بـ «أُنزل»، و«الحقُّ» خبر.

---

(١) تفسير الطبري ١٣/٤٠٦.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٩٠.

والمرادُ بالموصول عند كثيرٍ القرآنُ كلُّه، والكلامُ استدراكٌ على وصفِ السورة فقط بالكمال. وفي أسلوبه قولُ فاطمةَ الأنمارية[1] ـ وقد قيل لها: أيُّ بَنِيكِ أفضلُ؟ ـ: ربيعٌ بل عمارةُ بل قيسٌ بل أنس، ثَكِلْتُهم إنْ كنتُ أعلمُ أيُّهم أفضلُ، واللهِ إنَّهم كالحلقة المفرغةِ لا يُدرى أين طرفاها. وذلك كما أنَّها نفت التفاضُلَ آخِراً بإثبات الكمالِ لكلٍّ واحدٍ دلالةً على أنَّ كمال كلٍّ لا يُحيط به الوصف، وهو إجمالٌ بعد التفصيلِ لهذا الغرض، كذلك لمَّا أثبت سبحانه لهذه السورةِ خصوصاً الكمالَ، استدركه بأنَّ كلَّ المُنزلِ كذلك، لا يختصُّ به سورةٌ دون أُخرى؛ للدلالة المذكورة، وهو ـ على ما قيل ـ معنًى بديعٌ ووجهٌ بليغٌ ذكره صاحب «الكشاف»[2].

وقيل: إنَّه لتقرير ما قبله والاستدلالِ عليه؛ لأنَّه إذا كان كلُّ المُنزل عليه حقًّا، فذلك المُنزلُ أيضاً حقٌّ ضرورةَ أنه من كلِّ المُنزلِ، فهو كاملٌ؛ لأنَّه لا أكملَ من الحقِّ والصدق، ولخفاءِ أمر الاستدلال قال العلَّامة البيضاويُّ[3]: إنَّه كالحجَّة على ما قبله. ولعلَّ الأوَّل أولى، ومع ذا لا يخلو عن خفاءٍ أيضاً.

ولو قيل: المرادُ بالكمال فيما تقدَّم الكمالُ الراجعُ إلى الفصاحة والبلاغة، ويكونُ ذلك وصفاً للمشار إليه بالإعجاز من جهةِ ذلك، ويكونُ هذا وصفاً له بخصوصه على تقديرِ أن يكون فيه وَضْعُ الظاهرِ موضعَ الضمير، أو لما يشملُه وغيرَه على تقديرِ أن لا يكونَ فيه ذلك بكونه حقّاً مطابقاً للواقع، إذ لا تستدعي الفصاحةُ والبلاغةُ الحقيَّةَ، كما يشهدُ به الرجوعُ إلى المقامات الحريريَّة = لم يَبْعُدْ كلَّ البُعْدِ، فتدبَّر.

وجوَّزَ الحوفيُّ[4] كونَ «من ربِّك» هو الخبر، و«الحقُّ» خبر مبتدأ محذوف ـ أي: هو الحقُّ ـ أو خبرٌ بعد خبرٍ، أو كلاهما خبرٌ واحدٌ، كما قيل في الرمَّان: حلوٌ حامضٌ. وهو إعرابٌ مُتكلَّف. وجَوَّزَ أيضاً كونَ الموصول في محلِّ خفضٍ عطفاً على «الكتاب»، و«الحقُّ» حينئذٍ خبرُ مبتدأ محذوفٍ لا غير؛ قيل: والعطفُ من

---

(١) ينظر مجمع الأمثال ٢/ ٣٤٩.
(٢) ٢/ ٣٤٨.
(٣) في تفسيره مع حاشية الشهاب ٥/ ٢١٦.
(٤) كما في البحر ٥/ ٣٥٩.

عَطْفِ العامِّ على الخاصِّ، أو إحدى الصفتين على الأُخرى، كما قالوا في قوله:

هو المَلِكُ القرْمُ وابنُ الهُمَامِ... البيت[١]

وبعضُهم يجعلُه من عَطْفِ الكلِّ على الجزء، أو من عَطْفِ أحدِ المترادِفَيْن على الآخر، ولكلٍّ وجهةٌ. وإذا أُريد بالكتاب ما رُوِيَ عن مجاهدٍ وقتادةَ فأمرُ العطف ظاهرٌ.

وجوَّزَ أبو البقاء كونَ «الذي» نعتاً للكتاب بزيادةِ الواو في الصفة، كما في: أتاني كتابُ أبي حفصٍ والفاروقِ، و: النازلين والطيِّبين[٢]. وتُعقِّبَ بأنَّ الذي ذكر في زيادة الواو للإلصاق خصَّه صاحبُ «المغني»[٣] بما إذا كان النعتُ جملةً، ولم نرَ من ذكره في المفرد.

وأجاز الحوفيُّ أيضاً كونَ الموصول معطوفاً على «آيات» وجَعَلَ «الحق» نعتاً له. وهو كما ترى.

ثمَّ المقصودُ - على تقدير أن يكون «الحقُّ» خبرَ مبتدأ مذكورٍ أو محذوف - قَصْرُ الحقيّة على المُنزَّل؛ لعراقته فيها، وليس في ذلك ما يدلُّ على أنَّ ما عداه ليس بحقٍّ أصلاً، على أنَّ حقِّيَّته مستتبعةٌ لحقِّيَّةِ سائر الكتب السماوية؛ لكونه مصدِّقاً لِمَا بين يديه ومهيمناً عليه.

وساق بعضُ نُفاة القياس هذه الآيةَ - بناءً على تضمُّنها الحصرَ - في معرض الاستدلال على نفي ذلك، فقالوا: الحكمُ المستَنْبَطُ بالقياس غيرُ مُنزلٍ من عند الله تعالى، وإلَّا لكان مَن [لم][٤] يحكُمْ به كافراً؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ

---

(١) وعجزه: وليث الكتيبة في المزدحم، وهو في الخزانة ١/ ٤٥١ برواية: إلى الملك...، وسلف ٢/ ٣٥٠.

(٢) الإملاء ٣/ ٣٦٥، وقوله: النازلين والطيبين، يشير به إلى بيت الخِرنِق بنت بدر:

النازلين بكلِّ معترك والطيبين معاقدَ الأُزْر

ويروى: النازلون... والطيبين. ديوان الخرنق ص٢٩، والكتاب ١/ ٢٠٢ و٢/ ٦٤، والخزانة ٥/ ٤١، ومجاز القرآن ١/ ٦٥.

(٣) ص ٤٧٧.

(٤) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٥/ ٢١٦، والكلام منه.

أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] وكلُّ ما ليس مُنزلاً من عند الله تعالى ليس بحقٍّ؛ لهذه الآية؛ لدلالتها على أنْ لا حقَّ إلَّا ما أنزله الله تعالى.

والمثبتون لذلك أَبطلوا ما ذكروه في المقدِّمة الأولى بأنَّ المرادَ بعدم الحكم الإنكارُ وعدمُ التصديق، أو المراد مَن لم يحكم بشيءٍ أصلاً ممَّا أنزله الله تعالى، ولا شكَّ أنَّه من شأن الكفرةِ، أو المراد بما أنزله هناك التوراةُ، بقرينةِ ما قبله، ونحن غيرُ متعبَّدين بها فيَخْتَصُّ باليهود، ويكون المراد الحكمَ بكفرهم إذ لم يحكموا بكتابهم، ونحن نقول بموجبه كما بيّن في «شرح المواقف»[1].

وما ذكروه في المقدمة الثانية بأنَّ المرادَ بالمنزَّلِ من الله تعالى ما يشملُ الصريحَ وغيرَه، فيدخل فيه القياسُ لاندراجه في حكم المقيس عليه، المنزَّلِ من عنده سبحانه، وقد جاء في المنزَّلِ صريحاً: ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [الحشر: ٢] وهو دالٌّ - على ما حُقِّقَ في محلِّه[2] - على حُسْنِ اتِّباع القياسِ، على أنَّك قد علمتَ المقصودَ من الحصر.

ويحتملُ أيضاً - على ما قيل - أن يكونَ المرادُ: هو الحقُّ لا غيرُه من الكتب الغيرِ المُنزلةِ، أو المُنزلة إلى غيرِه؛ بناءً على تحريفها ونَسْخِها. وقد يقال: إنَّ دليلَهم منقوضٌ بالسنَّةِ والإجماع، والجواب الجواب.

ولا يخفى ما في التعبير عن القرآن بالموصول، وإسنادِ الإنزال إليه بصيغةِ ما لم يُسمَّ فاعلُه، والتعرُّضِ لوصف الربوبية مضافاً إلى ضميرِه عليه الصلاة والسلام، من الدلالة على فخامةِ المنزَّل، وتشريفِ المنزَّل [إليه][3]، والإيماءِ إلى وجه بناء الخبر، ما لا يخفى.

﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ قيل: هم كفَّار مكةَ. وقيل: اليهودُ والنَّصارى. والأَوْلَى أن يُرادَ أكثرُهم مطلقاً ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ①﴾ بذلك الحقِّ المبين؛ لإخلالهم بالنظر والتأمُّلِ فيه، فعدمُ إيمانهم - كما قال شيخُ الإسلام - متعلِّقٌ بعنوان حقِّيَّته؛

(١) للجرجاني ٨/ ٣٣٤.
(٢) ينظر ما سلف ٥/ ١٢٩.
(٣) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٥/ ٢، والكلام منه.

لأنَّه المرجعُ للتصديق والتكذيب، لا بعنوان كونِه منزلاً كما قيل، ولأنَّه واردٌ على سبيل الوصفِ دون الإخبار[١].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: خَلَقهنَّ مرتفعاتٍ، على طريقة: سبحانَ مَن كبَّر الفيلَ وصغَّر البعوضَ. لا أنَّه سبحانه رفَعها بعد أنْ لم تكن كذلك.

﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ أي: دعائم. وهو اسمُ جمعٍ عند الأكثر، والمفردُ: عماد، كإهاب وأَهَب. يقال: عَمَدْتُ الحائطَ أعْمِدُه عَمْداً، إذا دعمته فاعتمدَ واستند. وقيل: المفردُ: عمود، وقد جاء: أديم وأُدُم، وقَصيم وقُصُم، وفَعيلٍ وفَعول يشتركان في كثيرٍ من الأحكام. وقيل: إنَّه جمعٌ. ورُجِّحَ الأولُ بما سنشيرُ إليه إن شاء الله تعالى قريباً.

وقرأ أبو حَيْوةَ ويحيى بنُ وثَّاب: «عُمُد» بضمَّتين[٢]، وهو جمعُ: عمادٍ، كشِهاب وشُهُب. أو: عمودٍ، كرسولٍ ورُسُل. ويُجمعان في القلَّة على أعمدة. والجمعُ لجمع السماوات، لا لأنَّ المنفيَّ عن كلِّ واحدةٍ منها العمدُ لا العماد.

والجارُّ والمجرور في موضع الحال، أي: رفعها خاليةً عن عَمَدٍ.

﴿تَرَوْنَهَا﴾ استئنافٌ لا محلَّ له من الإعراب جيءَ به للاستشهاد على كون السماوات مرفوعةً كذلك، كأنَّه قيل: ما الدليلُ على ذلك؟ فقيل: رؤيتُكم لها بغير عمدٍ، فهو كقولك: أنا بلا سيفٍ ولا رمحٍ تراني.

ويحتملُ أن يكون الاستئنافُ نحوياً بدون تقديرِ سؤالٍ وجواب، والأوَّل أولى.

وجوِّز أن تكون الجملةُ في موضع الحال من السماواتِ، أي: رفعها مرئيَّةً لكم بغير عمدٍ، وهي حالٌ مقدَّرةٌ؛ لأنَّ المخاطَبِيْن حين رفعَها لم يكونوا مخلوقين، وأيّاً ما كان فالضميرُ المنصوبُ للسماوات.

وجُوِّز كون الجملة صفةً لـ «عمد» فالضميرُ لها، واستُدلَّ لذلك بقراءة أُبيٍّ: «ترونه»[٣]؛ لأنَّ الظاهر أنَّ الضميرَ عليها لـ «عمد»، وتذكيرُه حينئذٍ لائحُ الوجه؛

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٢.

(٢) الكشاف ٢/ ٣٤٩ دون نسبة، والبحر ٥/ ٣٥٩.

(٣) الكشاف ٢/ ٣٤٩، والبحر ٥/ ٣٥٩.

لأنَّه اسمُ جَمْعٍ، فلوحظ أصلُه في الإفراد. ورجوعُه إلى الرفع خلافُ الظاهر.

وعلى تقدير الوصفيَّة يحتمل توجُّه النفي إلى الصفة والموصوف، على منوال:

ولا تـرى الـضَّـبَّ بـهـا يَـنْـجَـحِـر[1]

لأنَّها لو كانت لها عمدٌ لكانت مرئيَّةً، وهذا في المعنى كالاستئناف، ويحتمل توجُّهه إلى الصفة فيفيد أنَّ لها عَمَداً لكنَّها غيرُ مرئيَّة، ورُوي ذلك عن مجاهد وغيره.

والمرادُ بها: قدرةُ الله تعالى، وهو الذي يمسكُ السماء أن تقعَ على الأرض، فيكونُ العَمَدُ على هذا استعارةً.

وأخرجَ ابنُ أبي[2] حاتم عن ابنِ عباس رضي الله عنهما أنه قال: السماءُ على أربعة أملاكٍ، كلُّ زاويةٍ موكَّلٌ بها مَلَكٌ.

وزعم بعضُهم أنَّ العَمَد جبلُ قاف، فإنَّه محيطٌ بالأرض، والسماءُ عليه كالقُبَّة. وتعقَّبه الإمام[3] بأنَّه في غاية السقوط، وسيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ ما يمكن أن يكون مرادُه في وجه ذلك.

وأنا لا أرى ما قبلَه يصحُّ عن ابن عباس، فالحقُّ أنَّ العمدَ قدرةُ الله تعالى، وهذا دليلٌ على وجود الصانع الحكيم تعالى شأنه، وذلك لأنَّ ارتفاعَ السماوات على سائر الأجسام المساويةِ لها في الجِرْمية ـ كما تقرَّر في محلِّه ـ واختصاصَها بما يقتضي ذلك، لابدَّ أن يكون لمخصّص ليس بجسمٍ ولا جسمانيٍّ يرجِّحُ بعضَ الممكنات على بعضٍ بإرادته.

ورجّحَ في «الكشف» استئناف الجملة بأنَّ الاستدلالَ برفع هذه الأجرام دون عمدٍ كافٍ، والاستشهادُ عليه بكونه مشاهَداً محسوساً تأكيدٌ للتحقيق.

ثم لا يخفى أنَّ الضميرَ المنصوبَ في «ترونها» إذا كان راجعاً إلى السماوات

---

(١) عجز بيت، صدرُه: لا يفزع الأرنبَ أهوالُها، وهو لعمرو بن أحمر، وسلف ٥/ ٥٦.

(٢) كلمة: أبي، ليست في (م)، والخبر في تفسيره ٧/ ٢٢١٥ ـ ٢٢١٦.

(٣) تفسير الرازي ١٨/ ٢٣٢.

المرفوعة اقتضى ظاهرُ الآية أنَّ المرئيَّ هو السماءُ، وقد صرَّحَ الفلاسفةُ بأنَّ المرئيَّ هو كرةُ البخار، وثخنُها ـ كما قال صاحبُ «التحفة»[١] ـ أحدٌ وخمسون ميلاً وتسعٌ وخمسون دقيقةً. والمجموعُ: سبعةَ عشر فرسخاً وثلثُ فرسخٍ تقريباً. وذكروا أنَّ سببَ رؤيتها زرقاءَ أنَّها مستضيئةٌ دائماً بأشعَّةِ الكواكب، وما وراءَها ـ لعدم قبوله الضوءَ ـ كالمظلم بالنسبة إليها، فإذا نفذ نورُ البصر من الأجزاء المستنيرةِ بالأشعة إلى الأجزاء التي هي كالمظلم، رأى الناظرُ ما فوقَه من المظلم بما يمازجُه من الضياء الأرضيِّ والضياء الكوكبيِّ لوناً متوسطاً بين الظلام والضياء، وهو اللَّونُ اللَّازَوَرْدي. وذلك كما إذا نظرنا من جسمٍ أحمرَ مُشِفٍّ إلى جسمٍ أخضرَ، فإنَّه يظهرُ لنا لونٌ مركَّبٌ من الحمرة والخضرة. وأجمعوا أنَّ السماواتِ التي هي الأفلاكُ لا تُرى؛ لأنَّها شفَّافةٌ لا لونَ لها؛ لأنَّها لا تحجب الأبصارَ عن رؤية ما وراءَها من الكواكب، وكلُّ ملوَّنٍ فإنَّه يحجب عن ذلك.

وتعقَّبَ ذلك الإمامُ الرازيُّ[٢]: بأنَّا لا نُسلِّمُ أنَّ كلَّ ملوَّنٍ حاجبٌ، فإنَّ الماءَ والزجاجَ ملوّنان؛ لأنَّهما مرئيان، ومع ذلك لا يحجبان، فإن قيل: فيهما حجبٌ عن الإبصار الكامل. قلنا: وكيف عرفتم أنَّكم أدركتم هذه الكواكبَ إدراكاً تامّاً؟. انتهى.

على أنَّ ما ذكروه لا يتمشَّى في المحدَّد، إذ ليس وراءَه شيءٌ حتى يُرى ولا في الفلك الذي يسمُّونه فلكَ الثوابت أيضاً، إذ ليس فوقَه كوكبٌ مرئيٌّ، وليس لهم أن يقولوا: لو كان كلٌّ منهما ملوَّناً لوجب رؤيتُه؛ لأنَّا نقول: جاز أن يكون لونُه ضعيفاً كلون الزجاج فلا يُرى من بعيد. ولئن سلَّمنا وجوبَ رؤيةِ لونه، قلنا: لم لا يجوزُ أن تكون هذه الزُّرقةُ الصافية المرئية لونَه وما ذُكر أوّلاً فيها دون إثباته كرةَ النار.

وما يقال: إنَّها أمرٌ يحسنُ في الشفَّاف إذا بَعُدَ عمقُه كما في ماء البحر، فإنَّه يُرى أزرقَ متفاوتَ الزُّرقةِ بتفاوت قَعْره قرباً وبُعداً، فالزُّرقةُ المذكورةُ لونٌ يتخيَّل في الجوِّ الذي بين السماء والأرض؛ لأنَّه شفَّافٌ بَعُدَ عمقُه = لا يجدي نفعاً؛ لأنَّ

(١) لعله كتاب التحفة الشاهية في الهيئة لقطب الدين محمود الشيرازي المتوفى سنة (٧١٠هـ). كشف الظنون ١/ ٣٦٧.

(٢) ذكر قوله الشريفُ الجرجاني في شرح المواقف ٧/ ٨٨.

الزُّرقةَ كما تكون لوناً متخيَّلاً قد تكون أيضاً لوناً حقيقياً قائماً بالأجسام، وما الدليلُ على أنَّها لا تحدثُ إلَّا بذلك الطريق التخيلي؟! فجاز أن تكون تلك الزُّرقةُ المرئية لوناً حقيقياً لأحد الفلَكَيْن. كذا قال بعضُ المحقِّقين(١).

وأنت تعلم أنَّه لا مانعَ عند المسلمين من كون المرئيِّ هو السماءَ الدنيا المسماةَ بـ: فلك القمر، عند الفلاسفة، بل هو الذي تقتضيه الظواهرُ، ولا نسلِّمُ أنَّ ما يذكرونه من طبقات الهواء مانعٌ(٢)، وهذه الزُّرقةُ يحتمل أن تكون لوناً حقيقياً لتلك السماء صبغها الله تعالى به حسبما اقتضته حكمتُه، وعليه الأثريُّون كما قال القسطلَّانيُّ(٣)، ويؤيِّده ظاهرُ ما صحَّ من قوله ﷺ: «ما أظلَّتِ الخضراءُ، ولا أقلَّت الغبراءُ - وفي روايةٍ: الأرضُ - من ذي لهجةٍ أصدقَ من أبي ذرٍّ»(٤). ويحتملُ أن يكون لوناً تخيُّليًّا في طبقةٍ من طبقات الهواء الشفَّافِ الذي ملأ اللهُ به ما بين السماء والأرض، ويكون لها في نفسها لونٌ حقيقيٌّ اللهُ تعالى أعلمُ بكيفيَّته، ولا بُعْدَ في أن يكون أبيضَ، وهو الذي يقتضيه بعضُ الأخبار، لكنَّا نحن نراها من وراء ذلك الهواءِ بهذه الكيفية، كما نرى الشيءَ الأبيضَ من وراء جامٍ(٥) أخضرَ أخضرَ، ومن وراء جامٍ أزرقَ أزرقَ، وهكذا.

وجاء في بعض الآثار أنَّ ذلك من انعكاس لونِ جبل قاف عليها. وتعقِّبَ بأنَّ جبلَ قافٍ لا وجودَ له، وبرهن عليه بما يردُّه - كما قال العلَّامةُ ابنُ حجرٍ(٦) - ما جاء عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما من طرقٍ أخرجَها الحفَّاظُ وجماعةٌ منهم ممَّن التزموا تخريجَ الصحيح - وقولُ الصحابيِّ ذلك ونحوُه ممَّا لا مجال للرأي فيه حكمهُ حكمُ المرفوع إلى النبيِّ ﷺ - منها أنَّ وراء أرضنا بحراً محيطاً، ثمَّ جبلاً يُقال له: قاف، ثم أرضاً ثم

---

(١) هو الجرجاني في شرح المواقف ٧/ ٨٨.

(٢) في الأصل و(م): مانعاً، والمثبت هو الجادة.

(٣) في إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ٥/ ٢٥٣.

(٤) أخرجه أحمد (٦٥١٩)، والترمذي (٣٨٠١)، وابن ماجه (١٥٦) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. وفي الباب عن غير واحد من الصحابة. ولم نقف على الرواية التي فيها: «الأرض». قال الترمذي: هذا حديث حسن. اهـ. والغبراء: الأرض. القاموس (غبر).

(٥) الجام: إناء من فضة. القاموس (جوم).

(٦) الهيتمي في تحفة المحتاج ١/ ٤٢٧.

بحراً ثم جبلاً، وهكذا حتى عدَّ سبعاً من كلٍّ[١]. وخرّجَ بعضُ أولئك عن عبد الله بنِ بُريدةَ: أنَّه جبلٌ من زمرد محيطٌ بالدنيا، عليه كنفا السماءِ[٢]. وعن مجاهدٍ مثلُه. وصاحبُ «حلِّ الرموز»[٣] أنَّ له سبعَ شعبٍ، وأنَّ لكلِّ سماءٍ منها شعبة.

وفي القلب من صحَّة ذلك ما فيه، بل أنا أجزمُ بأنَّ السماءَ ليست محمولةً إلَّا على كاهلِ القدرة، والظاهرُ أنَّها محيطةٌ بالأرض من سائر جهاتِها كما رُوي عن الحسن، وفي الزُّرقة الاحتمالان.

بقيَ الكلامُ في رؤية باقي السماواتِ، وظاهرُ الآية يقتضيه، وأظنُّكَ لا ترى ذلك، وظاهرُ بعض الآياتِ يساعدُك فتحتاجُ إلى القول بأنَّ الباقي وإن لم يكن مرئياً حقيقةً لكنه في حكم المرئيِّ؛ ضرورةَ أنَّه إذا لم يكن لهذا عمادٌ لا يتصوَّرُ أن يكون لما وراءَه عمادٌ عليه بوجهٍ من الوجوه، ويؤوَّلُ هذا إلى كون المراد: ترونها حقيقةً أو حكماً بغير عَمَدٍ. وجوِّز أن يكون المرادُ: ترون رفعَها ـ أي: السماوات ـ جميعاً بغير ذلك. وفي «الكشف» ما يشير إليه. وإذا جُعلَ الضميرُ للعَمَدِ فالأمرُ ظاهرٌ، فتدبَّر.

ومن البعيد الذي لا نراه زَعْمُ بعضِهم أنَّ «ترونها» خبرٌ في اللَّفظ ومعناه الأمر: رُوْها وانظرُوا هل لها من عَمَدٍ؟

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ سبحانه استواءً يليقُ بذاته ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِۖ﴾ وهو المحدّدُ بلسانِ الفلاسفة، وقد جاء في الأخبار مِنْ عظمه ما يبهرُ العقولَ.

وجعل غيرُ واحدٍ من الخلف الكلام استعارةً تمثيليةً للحفظِ والتدبير، وبعضُهم فسَّر «استوى» باستولى.

---

(١) ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره ١٠/ ٣٣٠٧، وأورده الحافظ ابن كثير في أول تفسير سورة ﴿قٓ﴾، وقال: أثرٌ غريبٌ لا يصحُّ سنده.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٦٤، والكنف: الجانب والناحية. النهاية (كنف).

(٣) وهو الشيخ علاء الدين علي دده بن مصطفى الموستاري ثم السكتواري، المشهور بشيخ التربة (ت ١٠٠٧ هـ). واسم كتابه: خواتم الحكم وحلّ الرموز وكشف الكنوز من لطائف العلوم والحكم. وهو مختصر في علم الحكمة. كشف الظنون ١/ ٦٨٦، والأعلام ٤/ ٢٨٧، وفهرس مخطوطات الظاهرية (التصوف) ١/ ٥١٠ ـ ٥١١.

ومذهبُ السلف في ذلك شهيرٌ، ومع هذا قدَّمنا الكلام فيه[١].

وأيًّا ما كان فليس المرادُ به القصدَ إلى إيجاد العرش، كما[٢] في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ﴾ [البقرة:٢٩] لأنَّ إيجادَه قبل إيجاد السماوات، ولا حاجة إلى إرادة ذلك مع القول بسبق الإيجاد وحمل «ثم» على التراخي في الرتبة ـ نعم قال بعضُهم: إنَّها للتراخي الرُّتْبي ـ لا لأنَّ الاستواءَ بمعنى القصدِ المذكور وهو متقدِّمٌ، بل لأنَّه [٣]صفة قديمة لائقةٌ به تعالى شأنه[٣]، وهو متقدِّمٌ على رفع السماواتِ أيضاً، وبينهما تراخٍ في الرتبة.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ ذلَّلهما وجعلَهما طائعَيْن لِمَا أُريد منهما ﴿كُلّٞ﴾ من الشمسِ والقمرِ ﴿يَجۡرِي﴾ يسيرُ في المنازل والدرجات ﴿لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ أي: وقت معيَّن، فإنَّ الشمسَ تقطعُ الفلكَ في سنةٍ، والقمرَ في شهرٍ، لا يختلف جَرْيُ كلٍّ منهما كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ . . . وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٨ ـ٣٩] وهو المرويُّ عن ابن عباس. وقيل: أي: كلٌّ يجري لغاية مضروبةٍ ينقطعُ دونَها سيرُه، وهي: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾ [التكوير: ١ـ٢] وهذا مرادُ مجاهدٍ من تفسير الأجل المسمَّى بالدنيا.

قيل: والتفسيرُ الحقُّ ما رُوي عن الحبر، وأما الثاني فلا يناسبُ الفصلُ به بين التسخير والتدبير، ثمَّ إنَّ غايتهما متَّحدةٌ، والتعبيرُ بـ «كلٌّ يجري» صريحٌ في التعدُّد، وما للغاية «إلى» دون «اللَّام»، ورُدَّ بأنَّه إن أرادَ أنَّ التعبيرَ بذلك صريحٌ في تعدُّد ذي الغاية فمسلَّم، لكن لا يُجديه نفعاً، وإن أراد صراحته في تعدُّدِ الغاية فغيرُ مسلَّم، و«اللَّامُ» تجيءُ بمعنى «إلى» كما في «المغني»[٤] وغيرِه. وأنت تعلم لا يفيد أكثر من صحة التفسير الثاني، فافهم، وما أشرنا إليه من المراد من «كلٌّ» هو الظاهرُ.

وزعم ابنُ عطية[٥] أنَّ ذكْرَ الشمسِ والقمر قد تضمَّنَ ذكْرَ الكواكب، فالمرادُ من

---

(١) ٩/ ١٣٨ وما بعدها.

(٢) بعدها في (م): قالوا.

(٣-٣) جاءت هذه العبارة في الأصل بعد كلمة: الرتبي، السابقة.

(٤) ص ٢٨٠.

(٥) في المحرر الوجيز ٣/ ٢٩٢.

«كلّ» كلٌّ منهما، وممَّا هو في معناهما من الكواكب. والحقُّ ما علمت.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: أمرَ العالمِ العلويِّ والسفليِّ، والمراد أنَّه ـ سبحانه ـ يقضي ويقدِّرُ ويتصرَّفُ في ذلك على أكملِ الوجوه، وإلَّا فالتدبيرُ بالمعنى اللُّغويِّ ـ لاقتضائه التفكُّرَ في دُبُر الأمور ـ مما لا يصحُّ نسبته إليه تعالى.

﴿يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي: ينزلها ويبيِّنها مفصَّلةً، والمرادُ بها: آياتُ الكتب المنزلة، أو القرآنُ على ما هو المناسبُ لِمَا قبل، أو المرادُ بها: الدلائلُ المشارُ إليها فيما تقدَّم، وبتفصيلها تبيينُها، وقيل: إحداثها. على ما هو المناسبُ لما بعد.

والجملتان جُوِّز أن تكونا مستأنفتَيْن، وأن تكونا حالَيْن من ضمير «استوى»، و«سخَّر» من تتمَّته بناءً على أنه جيء به لتقرير معنى الاستواء وتبيينِه، أو جملةً مفسِّرةً له. وجُوِّز أن يكون «يدبِّر» حالاً من فاعل «سخَّر»، و«يفصِّل» حالاً من فاعل «يدبِّرُ». و«الله الذي» إلخ على جميع التقادير مبتدأٌ وخبرٌ، وجُوِّز أن يكون الاسمُ الجليلُ مبتدأً، والموصولُ صفتَه، وجملةُ «يُدبِّر» خبرَه، وجملةُ «يفصل» خبراً بعد خبرٍ. ورجَّح كون ذلك مبتدأً وخبراً في «الكشف» بأنَّ قوله تعالى الآتي: (وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ) عطفٌ عليه على سبيل التقابل بين العلويَّات والسفليَّاتِ، وفي المقابِل تتعيَّنُ الخبريَّةُ، فكذلك في المقابَل ليتوافقا، ولدلالته على أنَّ كونَه كذلك هو المقصودُ بالحكم لا أنَّه ذريعةٌ إلى تحقيق الخبرِ وتعظيمِهِ كما في الوجه الآخر، ثم قال: وهو على هذا جملةٌ مقرِّرةٌ لقوله سبحانه: «والذي أنزل إليك من ربك الحق».

وعدلَ عن ضمير الربِّ إلى الاسم المظهَر الجامع؛ لترشيح التقرير، كأنَّه قيل: كيف لا يكون مُنزِلَ ـ مَنْ هذه أفعالُه ـ الحقَّ الذي لا أحقَّ منه.

وفي الإتيان بالمبتدأ والخبرِ معرفَتين ما يفيدُ تحقيقَ أنَّ هذه الأفعال أفعالُه دون مشاركةٍ؛ لا سيَّما وقد جُعلت صلاتٍ للموصول، وهذا أشدُّ مناسبةً للمقام مِنْ جَعْلِه وصفاً مفيداً تحقيقَ كونِه تعالى مدبِّراً مفصِّلاً مع التعظيم لشأنهما، كما في قول الفرزدق(١):

إنَّ الَّذي سَمَكَ السماءَ بنى لنا ... بيتاً دعائمُهُ أعزُّ وأطوَلُ

(١) ديوانه ص ١٥٥، وسلف في ٨/ ١٣٠.

وتقدُّمُ ذكرِ الآياتِ ناصرٌ ضعيفٌ؛ لأنَّ الآياتِ في الوضعَيْن مختلفةُ الدلالة، ولأنَّ المناسبَ حينئذٍ تأخُّرُه عن قوله تعالى: «وهو الذي مدَّ» إلخ، على أنَّ سوقَ تلك الصفاتِ ـ أعني: رفعَ السماواتِ وما تلاه ـ للغرض المذكور، وسوقَ مقابلاتِها لغرضٍ آخرَ منافرٌ.

وفي الأول رُوعي لطيفةٌ في تعقيب الأوائل بقوله سبحانه: «يُدبِّر» «يُفصِّل» للإيقان، والثواني بقوله تعالى: «إنَّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون» أي: مِنْ فضل السوابق لإفادتها اليقينَ، واللواحقُ ذرائع إلى حصوله؛ لأنَّ الفكرَ آلتهُ، والإشارة إلى تقدُّم الثواني بالنسبة إلينا مع التأخُّر رتبةً، وذلك فائتٌ على الوجه الآخر. اهـ. وهو من الحُسْن بمكانٍ فيما أرى.

ولا تنافيَ ـ كما قال الشهابُ[1] ـ بين الوجهين باعتبار أنَّ الوصفيةَ تقتضي المعلوميةَ، والخبريةَ تقتضي خلافها؛ لأنَّ المعلوميةَ عليهما، والمقصودُ بالإفادة قولُه تعالى: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢﴾ أي: لكي تتفكروا وتحقّقوا كمالَ قدرتِه سبحانه، فتعلموا أنَّ مَنْ قدرَ على ذلك قدرَ على الإعادة والجزاء. وحاصلُه: أنَّه سبحانه فعل كلَّ ذلك لذلك، وعلى الوجه الآخر فعلَ الأخيرَيْن لذلك، مع أنَّ الكلَّ له، ثم قال: وهذا مما يرجِّحُ الوجه الأولَ أيضاً، كما يرجِّحُه أنَّه ذكر تبيين الآياتِ، وهي الرفعُ وما تلاه فإنَّه ذكرَها ليستدلَّ بها على قدرته تعالى وعلمِه، ولا يستدلُّ بها إلَّا إذا كانت معلومةً فيقتضي كونَها صفةً. فإن قيل: لا بدَّ في الصلة أن تكون معلومةً، سواءٌ كانت صفةً أو خبراً. يقال: إذا كان ذلك صلةً دلَّ على انتساب الآياتِ إلى الله تعالى، وإذا كان خبراً دلَّ على انتسابها إلى موجودٍ مُبهَم، وهو غيرُ كافٍ في الاستدلال، فتأمَّل.

وقرأ النخعيُّ وأبو رَزين وأبان بن تغلب عن قتادةَ: «ندبِّر»، و«نُفصِّل» بالنونِ فيهما، وكذا روى أبو عمرو الداني عن الحسنِ، ووافقَ في «نفصل» بالنون: الخفَّافُ عبدُ الوهاب[2] عن أبي عمرو، وهبيرةُ عن حفص، وقال صاحب

---

(١) في حاشيته ٥/ ٢١٧.

(٢) في الأصل و(م): الخفاف وعبد الوهاب. وعبد الوهاب هو الخفاف نفسه، قرأ على أبي عمرو بن العلاء. ينظر معرفة القراء الكبار ١/ ٣٤٠.

«اللوامح»: جاء عن الحسنِ والأعمش: «نفصِّل» بالنون. وقال المهدويُّ: لم يُختلف في «يدبّر»، وليس كما قال؛ لِمَا سمعت[1].

ثم إنه تعالى لما ذكر من الشواهدِ العلوية ما ذكر، أردفَها بذكر الدلائلِ السفلية، فقال عزَّ شأنُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: بسطَها طولاً وعرضاً، قال الأصمُّ: البسطُ: المدُّ إلى ما لا يُرى منتهاه، ففيه دلالةٌ على بُعْدِ مداها وسعةِ أقطارها. وقيل: كانت مجتمعةً فدحاها من مكَّةَ من تحت البيت. وقيل: كانت مجتمعةً عندَ بيتِ المقدس فدحاها، وقال سبحانه لها: اذهبي كذا وكذا. وهو المرادُ بالمدِّ. ولا يخفى أنَّه خلافُ ما يقتضيه المقام.

واستُدلَّ بالآيةِ على أنَّها مسطَّحةٌ غيرُ كريَّة، والفلاسفةُ مختلفون في ذلك:

فذهب فريقٌ منهم إلى أنها ليست كريَّةً، وهؤلاء طائفتان: فواحدةٌ تقول: إنَّها محدَّبةٌ من فوق مسطَّحةٌ من أسفل فهي كقدحٍ كُبَّ على وجه الماء. وأخرى تقول بعكس ذلك.

وذهب الأكثرون منهم إلى أنَّها كريَّة، أمَّا في الطول؛ فلأنَّ البلاد المتوافقة في العرض أو التي لا عرض لها كلَّما كانت أقربَ إلى الغرب كان طلوعُ الشمس وسائرِ الكواكب عليها متأخِّراً بنسبةٍ واحدة، ولا يعقل ذلك إلَّا في الكُرة. وأمَّا في العرض؛ فلأنَّ السالك في الشمال كلَّما أوغلَ فيه ازداد القطبُ ارتفاعاً عليه بحسب إيغاله فيه على نسبةٍ واحدة، بحيثُ يراه قريباً من سمت رأسه، وكذلك تظهر له الكواكبُ الشمالية وتخفى عنه الكواكب الجنوبية، والسالكُ الواغلُ في الجنوب بالعكس من ذلك، وأمَّا فيما بينهما[2] فلْتركّبِ الأمرين.

وأُوردَ عليهم الاختلافُ المشاهَدُ في سطحها، فأجابوا عنه: بأنَّ ذلك لا يقدحُ في أصل الكريَّةِ الحسيَّة المعلومة بما ذُكر، فإنَّ نسبةَ ارتفاع أعظم الجبال ـ على ما استقرَّ عليه استقراؤهم، وانتهت إليه آراؤهم وهو جبلُ دُماوَنْد فيما بين الريِّ وطَبَرِسْتان، أو جبلٌ في سَرَنْديب[3] ـ إلى قُطر الأرض كنسبةِ سُبعِ عَرض شعيرةٍ إلى ذراع.

(١) القراءات الشاذة ص٦٦، والبحر ٥/ ٣٦٠، والدر المصون ٧/ ١١.
(٢) يعني بين الطول والعرض. ينظر شرح المواقف ٧/ ١٤١ ـ ١٤٢، فالكلام منه.
(٣) جزيرة عظيمة بأقصى بلاد الهند. معجم البلدان (سرنديب).

واعترض ذلك بأنَّه: هَبْ أنَّ ما ذكرتم كذلك، فما قولُكم فيما هو مغمورٌ في الماء؟ فإن قالوا: إنْ[1] كان الظاهرُ كريّاً فالباقي كذلك؛ لأنَّها طبيعةٌ واحدةٌ. قلنا: فالمرجعُ حينئذٍ إلى البساطة واقتضائها الكريةَ الحقيقية، ولا شكَّ أنه يمنعها التضاريسُ وإن لم تظهر للحسِّ؛ لكونها في غاية الصغر، لكن أنت تعلم أنَّ أربابَ التعليم يكتفون بالكريَّة الحسيَّة في السطح الظاهر، فلا يتَّجه عليهم السؤال عن المغمور، ولا يليقُ بهم الجوابُ بالرجوع إلى البساطة.

والحقُّ الذي لا ينكره إلَّا جاهلٌ أو متجاهل أنَّ ما ظهر منها كريٌّ حسّاً، ولذلك وكريَّةِ الفلك تختلف أوقات الصلاة في البلاد، فقد يكون الزوال ببلدٍ ولا يكون ببلدٍ آخرَ، وهكذا الطلوعُ والغروبُ وغيرُ ذلك.

وكريَّةُ ما عدا ما ذُكر لا يعلمها إلَّا الله تعالى. نعم، إنَّها لِعِظَم جِرْمها الظاهرِ يُشاهَد كلُّ قطعةٍ وقطرٍ منها كأنَّه مسطَّحٌ، وهكذا كلُّ دائرة عظيمة. وبذلك يُعلم أنَّه لا تنافي بين المدِّ وكونها كريَّة.

وزعم ابنُ عطية[2] أنَّ ظاهر الشريعة يقتضي أنَّها مسطَّحةٌ. وكأنَّه يقول بذلك، وهو خلافُ ما يقتضيه الدليل.

وهي عندهم ثلاثُ طبقاتٍ: الطبقةُ الصِّرفةُ المحيطة بالمركز، ثم الطبقة الطينية، ثم الطبقة المخالطة التي تتكون فيها المعادن وكثيرٌ من النباتات والحيوانات.

والصرفة منها غيرُ ملونةٍ عند بعضهم، ومال ابنُ سينا إلى أنَّها ملونةٌ، واحتجَّ عليه بأنَّ الأرض الموجودة عندنا وإن كانت مخلوطةً بغيرها ولكنا قد نجد فيها ما يكون الغالبُ عليه الأرضيَّةَ، فلو كانت الأرضُ البسيطة شفافةً لكان يجب أن نرى في شيءٍ من أجزاء الأرض ـ ممَّا ليس متكوِّناً تكوُّناً معدنياً ـ شيئاً فيه إشفاف، ولكان حكمُ الأرض في ذلك حكمَ الماء والهواء فإنَّهما وإن امتزجا إلَّا أنَّهما ما عدما الإشفافَ بالكلية.

واختلف القائلون بالتلوُّن فمنهم من قال: إنَّ لونَها هو الغبرةُ، ومنهم من زعم

(١) في (م): إذا.

(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٢٩٣.

أنَّه السوادُ، وزعم أنَّ الغبرةَ إنَّما تكون إذا خالطت الأجزاءُ الأرضيةُ أجزاءً هوائيةً فبسببها ينكسرُ ويحصل الغبرة، وأمَّا إذا اجتمعت تلك الأجزاءُ بحيثُ لا يخالطها كثيرُ هوائيةٍ اشتدَّ السوادُ، وذلك مثلُ الفحم قبل أن يترمَّد فإنَّ النارَ لا عمل لها إلَّا في تفريق المختلفات، فهي لمَّا حلَّلت ما في الخشب من الهوائية واجتمعت الأجزاءُ الأرضيةُ من غير أن يتخلَّلها شيءٌ غريبٌ، ظهرَ لونُ أجزائها وهو السواد، ثم إذا رمَّدته اختلطت بتلك الأجزاء أجزاءٌ هوائيةٌ ـ فلا جرم ـ ابيضَّت مرَّةً أخرى.

والذي صحَّ في الخبر ـ وقد سبق[1] ـ إطلاقُ الغبراءِ على الأرض، وهو محتملٌ لأن تكون سائرُ طبقاتِها كذلك، ولأن يكون وجهُها الأعلى كذلك، نعم جاء في بعض الآثارِ أنَّ في أسفل الأرض تراباً أبيضَ، وما ذكر من الطبقات مما لا يصادمُ خبراً صحيحاً في ذلك، وكونُها سبعَ طبقاتٍ بين كلِّ طبقة وطبقة كما بين كلِّ سماءٍ وسماء خمس مئة عام، وفي كلٍّ خلقٌ = غيرُ مسلَّم، ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢] لا يُثبته كما ستعلم إن شاء الله تعالى، والخبرُ في ذلك غيرُ مسلَّمِ الصحة أيضاً، ومثلُ ذلك ـ فيما أرى ـ ما رُوي عن كعب أنَّه قال لعمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه: إنَّ الله تعالى جعل مسيرةَ ما بين المشرق والمغرب خمس مئة سنةٍ، فمئةُ سنةٍ في المشرق لا يسكنُها شيءٌ من الحيوانات لا جنٌّ ولا إنسٌ ولا دابةٌ وليس في ذلك شجرةٌ، ومئةُ سنةٍ في المغرب كذلك، وثلاث مئةِ سنةٍ فيما بين المشرق والمغرب يسكنُها الحيوان[2]. وكذا ما أخرجه ابن أبي[3] حاتم عن عبد الله بن عمر من أنَّ الدنيا مسيرةُ خمس مئة عام؛ أربع مئة خرابٌ ومئةٌ عمران[4].

والمقرَّرُ عند أهل الهندسة والهيئة غيرُ هذا، فقد ذكر القدماء منهم أنَّ محيطَ دائرة الأرض الموازيةِ لدائرة نصف النَّهار ثمانيةُ آلافِ فرسخٍ، حاصلةٌ مِنْ ضربِ فراسخ درجةٍ واحدةٍ ـ وهي عندهم اثنان وعشرون فرسخاً وتُسعا فرسخ ـ في ثلاث مئة وستِّين محيطِ الدائرة العظمى على الأرض. والمتأخِّرون أنَّ ذلك ستَّةُ آلافِ

(١) ص١٤ من هذا الجزء.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢٢١٨.
(٣) لفظة: أبي، ليست في (م).
(٤) تفسير ابن ابي حاتم ٧/ ٢٢١٨، وفيه: عبد الله بن عمرو، وكذا في الدر ٤/ ٤٢، وتتمة الحديث: «في أيدي المسلمين من ذلك مسيرة سنة».

وثمانمئة فرسخ، حاصلةٌ من ضرب فراسخ درجةٍ ـ وهي عندهم تسعةَ عشرَ فرسخاً إلّا تُسعَ فرسخ ـ في المحيطِ المذكور. وعلى القولين التفاوتُ بين ما يقولُه المهندسون ومن معهم وما نُسب لغيرهم ممن تقدَّمَ أمرٌ عظيم، والحقُّ في ذلك مع المهندسين.

وزعموا أنَّ الموضعَ الطبيعيَّ للأرضِ هو الوسطُ من الفلك، وأنَّها بطبعها تقتضي أن تكون مغمورةً بالماء ساكنةً في حاق الوسط منه، لكن لمَّا حصل في جانب منها تلالٌ وجبالٌ مواضعُ عالية، وفي جانب آخرَ ضدُّ ذلك؛ لأسبابٍ ستسمعها بعدُ إن شاء الله تعالى، وكان من طبع الماءِ أن يسيلَ من المواضعِ العالية إلى المواضعِ العميقةِ لا جرمَ، انكشفَ الجانبُ المشرفُ من الأرض وسالَ الماءُ إلى الجوانب العميقة منها.

وللكواكب في زعمهم تأثيرٌ في ذلك بحسبِ المسامتات التي تتبدَّلُ عند حركاتها، خصوصاً الثوابتُ والأوجات والحضيضات المتغيّرةُ في أمكنتها.

وحكم أصحابُ الأرصاد أنَّ طولَ البرِّ المنكشف نصفُ دور الأرض، وعرضَه أحدُ أرباعها إلى ناحية الشمال، وفي تعيين أيِّ الربعَيْن الشماليَّيْن منكشِفٌ تعذُّرٌ أو تعسُّرٌ، كما قال صاحب «التحفة»[1]، وأمَّا ما عدا ذلك فقال الإمام: لم يقم دليلٌ على كونِه مغموراً في الماء ولكنَّ الأشبهَ ذلك، إذ الماءُ أكثرُ من الأرض أضعافاً؛ لأنَّ كلَّ عنصر يجب أن يكون بحيثُ لو استحال بكليَّته إلى عنصرٍ آخرَ كان مثلَه، والماءُ يصغر حجمُه عند الاستحالة أرضاً، ومع ذلك لو كان في بعض المواضع من الأرباع الثلاثةِ عمارةٌ قليلة لا يعتدُّ بها، وأما تحت القطبين فلا يمكن أن يكون عمارةٌ؛ لاشتداد البرد، وإنَّما حكموا بأنَّ المعمورَ الربعُ لأنَّهم لم يجدوا في أرصاد الحوادثِ الفلكية كالخسوفات وقرانات الكواكب التي لا اختلافَ منظرٍ لها تقدُّماً في ساعات الواغلين في المشرق لتلك الحوادثِ على ساعات الواغلين في المغرب زائداً على اثنتي عشْرةَ ساعةً مستويةً، وهي نصفُ الدَّوْر؛ لأنَّ كلَّ ساعةٍ خمسةَ عشرَ جزءاً من أجزاء معدَّل النهار تقريباً، وضربُ خمسةَ عشَر في اثني عشر مئةٌ وثمانون.

---

(١) لعله كتاب التحفة الشاهية في الهيئة لقطب الدين محمود الشيرازي، المتوفى سنة (٧١٠هـ). كشف الظنون ١/ ٣٦٧.

ونحن نقول بوجودِ الخراب وأنَّه أكثرُ من المعمور بكثير، وأكثر المعمور شماليٌّ ولا يوجد في الجنوب منه إلَّا مقدارٌ يسيرٌ، لكنَّا نقول: ما زعموه سبباً للانكشاف غيرُ مسلَّم، ونسندُ كونَ الأرض بحيث وجدت صالحةً لسكنى الحيوان وخروجِ النبات إلى قدرتهِ تعالى واختياره سبحانه، وإلَّا فمن أنصفَ عَلِمَ أنْ لا سبيلَ للعقل إلى معرفة سبب ذلك على التحقيق، وقال: إنَّه تعالى فَعَلَ ذلك في الأرض لمجرَّدِ مشيئته الموافقةِ للحكمة.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ أي: جبالاً ثوابتَ في أحيازها، من الرُّسُوّ: وهو ثباتُ الأجسام الثقيلة، ولم يذكر الموصوفَ؛ لإغناء غلبةِ الوصف بها عن ذلك.

وفواعل يكون جمعَ فاعل إذا كان صفةَ مؤنثٍ كحائضٍ، أو صفةَ ما لا يعقلُ مذكَّراً كجمل بازل وبوازل، أو اسماً جامداً أو ما جرى مجراه كحائط وحوائط. وانحصارُ مجيئه جَمْعاً لذلك في: فَوارس وهَوَالك ونواكس إنَّما هو في صفاتِ العقلاء لا مطلقاً، والجمعُ هنا في صفة ما لا يعقلُ. قيل: فلا حاجةَ إلى جَعْل المفرد هنا: راسية، صفةً لجمع القلَّة أعني: أجْبُلاً، ويعتبرُ في جمع الكثرة ـ أعني: جبالاً ـ انتظامُه لطائفةٍ من جموع القلة فينزل كلٌّ منها منزلةَ مفردهِ كما قيل، على أنَّه لا مجال لذلك؛ لأنَّ جمعية كلٍّ من صيغتي الجمعَيْن إنَّما هي لشمولِ الأفراد لا باعتبار شمول جمع القِلَّة للأفراد، وجمعِ الكثرة لجموع القلَّة، فكلٌّ منها جمعُ جبلٍ لا أنَّ جبالاً جمعُ أجبل. اهـ.

وتُعقِّب بأنه لعلَّ مَنْ قال: إنَّ الرواسيَ هنا جمعُ راسية، صفةُ أجبل، لا يلتزم ما ذكر، وأنَّه إذا صحَّ إطلاقُ أجبلٍ راسيةٍ على جبال قطرٍ مثلاً، صحَّ إطلاقُ الجبال على جبال جميعِ الأقطار من غير اعتبارِ جعلِ الجبال جمعاً لجموع القلَّةِ، نعم لا يصحُّ أن يكونَ جبال جمع أجبل؛ لأنَّه يصيرُ حينئذٍ جمعَ الجمع. وهو خلافُ ما صرَّح به أهلُ اللغة، وجعل راسية صفةَ جبل لا أَجْبُل، والتاءُ فيه للمبالغة لا للتأنيث كما في «علامة» يرد عليه أنَّ تاء المبالغة في فاعلة غيرُ مطَّرد.

وقال أبو حيان: إنَّه غلبَ على الجبال وصفُها بالرواسي، ولذا استغنَوْا بالصفة عن الموصوف، وجُمعَ جمعَ الاسم كحائط وحوائط[1]. وهو ممَّا لا حاجةَ إليه لِمَا

---

(١) البحر ٥/ ٣٦١.

سمعت. وأورد عليه أيضاً أنَّ الغلبةَ تكون بكثرة الاستعمال والكلام في صحته مِنْ أوّل الأمر، ففيما ذكره دور.

وأجيب بأنَّ كثرةَ استعمال الرواسي غيرُ جارٍ على موصوفٍ يكفي لمدعاه، وفيه تأمُّلٌ. وكذا لا حاجةَ إلى ما قيل: إنه جمعُ راسية صفة جبل مؤنثٍ باعتبار البقعة. وكلٌّ ذلك ناشئٌ من الغفلة عمَّا ذكره محقِّقو علماء العربية.

هذا والتعبيرُ عن الجبالِ بهذا العنوان لبيان تفرُّع قرارِ الأرض على ثباتها، وفي الخبر: «لمَّا خلقَ الله تعالى الأرضَ جعلَتْ تميدُ، فخلقَ الله تعالى الجبالَ عليها فاستقرَّت، فقالت الملائكةُ: ربَّنا خلقْتَ خلقاً أعظمَ من الجبال؟ قال: نعم، الحديدَ. فقالوا: ربَّنا خلقْتَ خلقاً أعظمَ من الحديد؟ قال: نعم، النارَ. فقالوا: ربَّنا خلقْتَ خلقاً أعظمَ من النار؟ قال: نعم، الماءَ. فقالوا: ربَّنا خلقْتَ خلقاً أعظمَ من الماء؟ قال: نعم، الهواء. فقالوا: ربَّنا خلقْتَ خلقاً أعظمَ من الهواء؟ قال: نعم، ابنَ آدم، يتصدَّقُ الصدقَة بيمينِه فَيُخفيها عن شمالِهِ»[١].

وأولُ جبلٍ وضع على الأرض كما أخرجَ ابنُ أبي حاتم[٢]، عن عطاء: أبو قبيس. ومجموعُ ما يُرى عليها من الجبال مئة وسبعةٌ وثمانون جبلاً.

وأبى الفلاسفةُ كونَ استقرارِ الأرض بالجبال، واختلفوا في سبب ذلك:

فالقائلون بالكُريَّةِ منهم مَنْ جعلَه جذبَ الفلكِ لها من جميع الجوانب، فيلزمُ أن تقف في الوسط، كما يُحكى عن صنم حديديٍّ في بيتٍ مغناطيسيٍّ الجوانب كلِّها، فإنَّه وقَفَ في الوسط لتساوي الجذْبِ من كلِّ جانب. وردَّ بأنَّ الأصغر أسرعُ انجذاباً إلى الجاذب من الأكبر، فما بالُ المدَرةِ[٣] لا تنجذبُ إلى الفَلَك بل تهربُ[٤] إلى المركز، وأيضاً إنَّ الأقربَ أولى بالانجذاب من الأبعدِ، فالمدرةُ المقذوفةُ إلى فوق أولى بالانجذاب على أصلهم، فكان يجب أن لا تعود.

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٢٥٣)، والترمذي (٣٣٦٩) من حديث أنس بن مالك ﷺ، وفيهما: «الريح» بدل «الهواء»، قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه.

(٢) في تفسيره ٧/٢٢١٨.

(٣) المَدَر: قطع الطين اليابس، واحدته: مدرة. القاموس (مدر).

(٤) بعدها في (م): عنه.

ومنهم مَنْ جعلَه دفعَ[١] الفَلَكِ بحركته لها من كلِّ الجوانب، كما إذا جُعل شيءٌ من التراب في قارورة كرية ثم أُديرت على قطبيها إدارةً سريعة، فإنَّه يعرض وقوفَ التراب في وسطها لتساوي الدفع من كلِّ جانبٍ. وردَّ بأنَّ الدفع إذا كانت قوَّتُه هذه القوةَ فما بالُه لا يُحَسُّ به، وأيضاً ما بال هذا الدفع لا يجعلُ حركةَ الرياح والسُّحبِ إلى جهة بعينها، وأيضاً ما بالُه لم يجعل انتقالَنا إلى المغرب أسهلَ من انتقالنا إلى المشرق، وأيضاً يجبُ أن تكون حركةُ الثقيل كلما كان أعظمَ أبطأ؛ لأنَّ اندفاع الأعظم من الدافع أبطأُ من اندفاع الأصغر، وأيضاً يجب أن تكون حركةُ الثقيل النازلِ ابتداءً أسرعَ من حركته انتهاءً؛ لأنَّه عند الابتداء أقربُ إلى الفلك.

وغيرُ القائلين بها منهم مَنْ جعلَها غيرَ متناهية من جانب السفل، وسببُ سكونها عندهم أنَّها لم يكن لها مهبطٌ تنزل فيه. ويردُّه[٢] دليلُ تناهي الأجسام. ومنهم مَنْ قال بتناهيها، وجَعَلَ السببَ طُفُوَّها على الماء إمَّا مع كون محدَّبها فوق ومسطَّحها أسفل، وإمَّا مع العكس. وردَّ بأنَّ مجرَّدَ الطُّفوّ لا يقتضي السكونَ، على أنَّ فيه عند الفلاسفة بعدُ ما فيه.

وذهب محقِّقوهم إلى أنَّ سكونَها لذاتها، لا لسبب منفصل، قال في «المباحث الشرقية»: والوجهُ المشترك في إبطال ما قالوا في سبب السكون أنْ يقال: جميعُ ما ذكرتموه من الجَذْب والدَّفْع وغيرِهما أمورٌ عارضةٌ وغيرُ طبيعية، ولا لازمةٌ للماهيَّة، فيصحُّ فرض ماهيَّة الأرض عاريةً عنها، فإذا قدَّرنا وقوعَ هذا الممكن فإمَّا أن تحصلَ في حيِّز معيَّن، أو لا تحصل فيه، وحينئذٍ إمَّا أن تحصل في كلِّ الأحياز[٣] أو لا تحصل في شيءٍ منها، والأخيران ظاهرا الفساد، فتعيَّنَ الأولُ، وهو أن تختصَّ بحيِّزٍ معيَّن، ويكون ذلك لطبعها المخصوص، ويكون حينئذٍ سكونُها في الحيِّز لذاتها لا لسببٍ منفصل، وإذا عقل ذلك فَلْيُعْقل[٤] في اختصاصها بالمركز أيضاً.

---

(١) في الأصل: رفع.
(٢) في (م): يرد.
(٣) في الأصل: الأحيان.
(٤) في الأصل: فليقل.

ثم ذكر في تكوُّن الجبال مباحثَ:

الأول: الحجرُ الكبير إنَّما يتكوَّن لأنَّ حَرًّا عظيماً يصادفُ طيناً لزجاً إمَّا دفعةً أو على سبيل التدريج.

وأمَّا الارتفاعُ فله سببٌ بالذات وسبب بالعرض، أمَّا الأولُ فكما إذا نقلتِ الريحُ الفاعلة للزلزلة طائفةً من الأرض وجعلَتْها تلًّا من التلال. وأمَّا الثاني: فأن يكون الطين بعدَ تحجُّره مختلفَ الأجزاء في الرخاوة والصلابة، وتتفق مياهٌ قوية الجري أو رياحٌ عظيمة الهبوب، فتحفر الأجزاءَ الرخوةَ وتبقى الصُّلبة، ثمَّ لا تزال السيولُ والرياح تؤثِّرُ في تلك الحفر إلى أن تغورَ غوراً شديداً ويبقى ما تنحرفُ عنه شاهقاً.

والأشبه أنَّ هذه المعمورةَ قد كانت في سالف الدهر مغمورةً في البحار، فحصل هناك الطينُ اللَّزج الكثير، ثم حصل بعدُ الانكشافُ، وتكوَّنت الجبال. وممَّا يؤيِّد هذا الظنَّ: في كثير من الأحجار ـ إذا كسرناها ـ أجزاءُ الحيوانات المائية كالأصدافِ، ثمَّ لـمَّا حصلتِ الجبالُ وانتقلت البحارُ حصلَ الشهوق؛ إمَّا لأنَّ السيولَ حفرت ما بين الجبال، وإمَّا لأنَّ ما كان من هذه المنكشفات أقوى تحجُّراً وأصلب طينةً إذا انهَدَّ ما دونه بقي أرفعَ وأعلى، إلَّا أنَّ هذه أمورٌ لا تتمُّ في مدة تفي التواريخُ بضبطها.

والثاني: سببُ عروق الطين في الجبال يحتمل أن يكون من جهةِ ما تفتَّتَ منها وتترَّب، وسالت عليه المياهُ ورطَّبته، أو خلطت به طينَها الجيد، وأن يكون من جهة أنَّ القديم من طين البحر غيرُ متَّفق الجوهرِ، منه ما يقوى تحجُّره ومنه ما يضعف، وأن يكون من جهة أنَّه يعرض للبحر أن يفيض قليلاً قليلاً على سهل وجبل، فيعرض للسهل أن يصير طيناً لزجاً مستعدًّا للتحجُّر القويِّ، وللجبل أن يتفتَّت، كما إذا نقعتَ آجُرَّةً وتراباً في الماء ثم عرضت الآجرَّةَ والطينَ على النار فإنَّه حينئذٍ تتفتَّت الآجُرَّةُ ويبقى الطين متحجِّراً.

والثالث: قد نرى بعضَ الجبال منضدوداً[1] ساقاً فساقاً فيشبه أن يكون ذلك؛

---

(١) نَضَد متاعه: جعل بعضه فوق بعض. القاموس (نضد).

لأنَّ طينتَه ترتَّبت هكذا، بأنْ كان ساقٌ قد ارْتَكَم[١] أولاً ثم حدث بعدَه في مدَّةٍ أخرى ساقٌ آخرُ فارتكم، وكان قد سال على كلِّ ساقٍ[٢] خلافُ جوهرِه، فصار حائلاً بينه وبين الساق الآخر، فلمَّا تحجَّرت المادةُ عَرَضَ للحائل أن انتثر عمَّا بين الساقين.

هذا وتعقب ما ذكروه في سبب التكوُّن بأنَّه لا يخفى أنَّ اختصاصَ بعضٍ من أجزاء الأرض بالصلابة وبعضٍ آخرَ منها بالرخاوة مع استواءِ نسبة تلك الأجزاء كلِّها إلى الفلكيات التي زعموا أنَّها المعدَّاتُ لها قَطْعاً للمجاورة والملاصقة الحاصلة بين الأجزاء الرخوة والصلبة = يستدعي سبباً مخصصاً، وعند هذا الاستدعاء يقف العقل ويحيل ذلك الاختصاصَ على سببٍ من خارج، هو الفاعلُ المختارُ جلَّ شأنه، فليت شعري لِمَ لَمْ يفعل ذلك أولاً حذفاً للمؤنة؟! نعم لا يبعدُ أن يكون ذلك من أسباب تكوُّنها بإرادة الله تعالى عند مَنْ يقول من المِلِّيِّين[٣] وغيرِهم بالوسائط، لا عند الأشاعرة، إذ الكلُّ عندهم مستندٌ إليه سبحانه ابتداءً، فلا يتصوَّر واسطة حقيقية على رأيهم.

وما ذكر من الأسباب أمورٌ لا تُفيد إلَّا ظنّاً ضعيفاً، وحديثُ رؤية أجزاء الحيواناتِ المائية كالأصداف كذلك أيضاً، فإنَّا كثيراً ما نرى ذلك في مواضع المطر، وقد أخبرني مَنْ أثقُ به أنَّه شاهد ضفادعَ وقعت مع المطر، على أنَّ ذلك لا يتمُّ على تقدير أن يكون المكشوفُ من الأرض قد انكشف في مبدأ الفطرة، ولم يكن مغموراً بالماء ثم انكشف، وهو ممَّا ذهب إليه بعضُ محقِّقي الفلاسفة أيضاً.

واعترضوا على القائلين بأنَّ الانكشافَ قد حصل بعدُ، بأنَّ أقوى أدلته أنَّ حضيضَ الشمس في جانب الجنوب، فقُربُ الشمس إلى الأرض هناك أكثرُ من جانب الشمال بقدر ثخن المتمِّم من مثلها، فتشتدُّ بذلك الحرارةُ هناك، فانجذب الماءُ من الشمال إلى الجنوب؛ لأنَّ الحرارة جذَّابةٌ للرطوبة فلذا انكشف الربعُ

(١) ارتكم الشيء: اجتمع. القاموس (ركم).
(٢) بعدها في (م): من.
(٣) المِلِّيُّون: هم أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى، ويقصد به ما يقابل الفلاسفة. ينظر «مجموع الفتاوى» ١٤/ ١٦٥.

الشماليُّ، فإذا انتقل الحضيضُ إلى جانب الشمال انعكس الأمر. ويرد عليه أنَّه لو كان كذلك لكان الربعُ الشماليُّ الآخرُ أيضاً مكشوفاً إذ لا فرقَ بين الربعين في ذلك، وفي التزام ذلك بعدٌ، على أنَّه لم يلتزمه أحد.

ثم إنَّ وجود الجبال في المغمور وجودَها في المعمور يستدعي أنَّه كان معموراً، وأنَّ الحضيض كان في غير جهته اليوم، وهو قولٌ بأن البرَّ لا يزال يكون بحراً، والبحرَ لا يزال يكون برّاً، بتبدُّل جهتي الأوج والحضيض، فيكون المنكشف تارةً جانبَ الشمال وأخرى جانبَ الجنوب، وحيثُ إنَّ ذلك إنَّما يكون على سبيل التدريج يقتضي أن نشاهدَ اليومَ[1] من جانب الجنوبِ منكشفاً ومن جانب الشمالِ مغموراً، ولا نظنُّ وجودَ ذلك، ولو كان لاشتهر، فإنَّ أوجَ الشمس اليومَ في عاشرة السرطان، وحركتُه في كلِّ سنة دقيقةٌ تقريباً، فيكون من الوقت الذي انتقل فيه من الجانب الشمالي إلى اليوم آلافٌ عديدةٌ من السنين يُغمر فيها كثيرٌ ويعمر كثير.

نعم يُحكى أنَّ جزيرةَ قبرس كانت متصلةً بالبرِّ ثم حالَ البحرُ بينهما، لكنه على تقدير ثبوتِه ليس مما نحن فيه، ولا نسلِّمُ أنَّ ينكي دنيا[2] ممَّا حدث انكشافُها، لجواز أن تكون منكشفةً من قبل، فالحقُّ أنَّ هذا البرَّ بعد أن وُجد لم يَصِرْ بحراً، وهذا البحرُ المحيط بعدَ أن أحاط لم يصِرْ برًّا، وهو الذي تقتضيه الأخبارُ الإلهية والآثارُ النبوية. نعم جاء في بعض الآثار ما ظاهرُه أنَّ الأرضَ المسكونة كانت مكشوفةً في مبدأ الفطرة كأثر الياقوتة، وفي بعضٍ آخرَ منها ما ظاهرُه أنَّها كانت مغمورةً، كخبر ابن عباس أنَّ الله تعالى لمَّا أراد أن يخلق الخلقَ، أمر الريحَ فأبدت عن حَشَفةٍ، ومنها دُحيت الأرضُ ما شاء الله تعالى في الطُّول والعرض، فجعلت تميدُ، فجعلَ عليها الجبالَ الرواسي[3]. وفي «التوراة»[4] ما هو نصٌّ في ذلك، ففي أول سفرِ الخليقة منها: أولُ ما خلق الله تعالى السماء والأرض، وكانت الأرضُ

---

(١) بعدها في (م): شيئاً.
(٢) أي: الدنيا الجديدة أمريكا. المعجم الفارسي ص٦٢٣، ووردت في (م): يكي دنيا.
(٣) أخرجه بنحوه الحاكم في المستدرك ٢/ ٥١٢ من طريق طلحة بن عمرو، عن عطاء، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. اهـ. فتعقبه الذهبيُّ فقال: طلحة بن عمرو ضعَّفوه. وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٤٣ لأبي الشيخ.
(٤) سفر التكوين، نشأة العالم والبشرية ص٦٨.

غامرةً مستبحرة[1]، وكان هناك ظلامٌ، وكانت رياحُ الإله تهبُّ على وجهِ الماء، فشاء الله تعالى أن يكون نورٌ فكان، ثم ذكر فيه أنَّه لما مضى يومٌ ثانٍ شاء الله تعالى أن يجتمع الماء من تحت السماء إلى موضعٍ واحد، ويظهر اليبسُ فكان كذلك، وسمَّى الله سبحانه اليبسَ أرضاً ومجتمعَ الماء بحاراً.

وفيه أيضاً: أنَّ خلقَ النيِّرين كان في اليوم الثالث. وهو آب عن جعل سبب الانكشاف ما سمعتَ عن قُربِ من قرب الشمس.

وما أشارت إليه هذه الآيةُ ونطق به غيرُها من الآيات من كون الجبال سبباً لاستقرار الأرض، وأنَّها لولاها لمادت، أمرٌ لا يقوم ـ على أصولنا ـ دليلٌ يأباه، فنؤمن به وإن لم نعلم ما وجهُ ذلك على التحقيق.

ويحتملُ أن يكون وجهه أنَّ الله تعالى خلق الأرضَ ـ حسبما اقتضته حكمتُه ـ ضفيرةً بالنسبة إلى سائر الكرات، وجعلَ لها مقداراً من الثقل معيَّناً، ووضعَها في المكان الذي وضَعها فيه مِنَ الماء، وأظهرَ منها ما أظهرَ وليس ذلك إلَّا بسبب مشيئته تعالى التابعةِ لحكمته سبحانه، لا لأمرٍ اقتضاه ذاتُها، فجعلَتْ تميدُ لاضطراب أمواجِ البحر المحيط بها، فوضعَ عليها من الجبال ما ثَقُلت به بحيثُ لم يبقَ للأمواج سلطانٌ عليها، وهذا كما يشاهد في السفن حيث يضعون فيها ما يثقلُها من أحجار وغيرِها؛ لنحو ذلك.

وكونُ نسبةِ ارتفاع أعظم الجبال إليها النسبةَ السابقة لا يضرُّنا في هذا المقام؛ لأنَّ الحجمَ أمرٌ والثقلَ أمرٌ آخرُ، فقد يكون ذو الحجم الصغيرِ أثقلَ من ذي الحجم الكبير بكثير. لا يقال: إنَّ خلقَها ابتداءً بحيثُ لا تزحزحُها الأمواجُ كان ممكناً، فلم لَمْ يفعله سبحانه وتعالى، بل خلقَها بحيثُ تحرِّكُها الأمواجُ ثم وضعَ عليها الجبال؛ لدفع ذلك؟ لأنَّا نقول: إنَّما فعل سبحانه هكذا لما فيه من الحِكَم التي هو ـ جلَّ شأنُه ـ بها أعلمُ، وهذا السؤال نظيرُ أن يقال: إنَّ خلقَ الإنسان ابتداءً بحيثُ لا يؤثِّر فيه الجوعُ والعطشُ مثلاً، شيئاً كان ممكناً، فلِمَ لَمْ يفعله تعالى؟ بل خلقَه بحيثُ يؤثِّران فيه، ثم خلقَ له ما يدفعُ به ذلك ليدفعه به، وله نظائرُ بَعْدُ كثيرةٌ.

---

(١) في الكتاب المقدس: وكانت الأرض خاوية خالية.

وليس ذلك إلَّا ناشئاً عن الغفلة عمَّا يترتب على ما صدر منه تعالى من الحِكَم، ولعلَّ الحكمةَ فيما نحن فيه إظهارُ مزيد عظمته ـ تجلَّت عظمتُه ـ للملائكة عليهم السلام، فإنَّ ذلك مما يوقظُ جفنَ الاستعظام، ألا تراهم كيف قالوا حين رأوْا ما رأَوْا: ربَّنا خلقت خلقاً أعظمَ من الجبال. . . إلخ.

ويقال لمن لم يؤمن بهذا: بيِّن أنت لنا حكمةَ تقدُّمِ بعض الأشياء على بعض في الخَلْق، كيفما كان التقدُّمُ، وكذا حكمة خلق الإنسان ونحوه محتاجاً، وخلق ما يزيل احتياجَه دون خلقِه ابتداءً على وجهٍ لا يحتاج معه إلى شيء. فإن بيَّن شيئاً، قلنا بمثله فيما نحن فيه، ثم إنَّا نقول: ليس حكمةُ خلق الجبال منحصرةً في كونها أوتاداً للأرض وسبباً لاستقرارها، بل هناك حِكَمٌ كثيرةٌ لا يعلمها إلَّا الله تعالى.

وقد ذكر الفلاسفةُ للجبال منافعَ كثيرةً، قالوا: إنَّ مادة السُّحبِ والعيون والمعدنِيَّات هي البخارُ، فلا تتكوَّن إلَّا في الجبال أو فيما يقرب منها.

أمَّا العيون فلأنَّ الأرض إذا كانت رِخْوةً نشفت الأبخرةُ عنها، فلا يجتمعُ منها قدرٌ يُعتدُّ به، فإذن لا تجتمع إلَّا في الأرض الصُّلبة، والجبالُ أصلبُ الأرَضين، فلا جرمَ كانت أقواها على حبس البخار حتى يجتمعَ ما يصلحُ أن يكون مادةً للعيون. ويُشبه أن يكونَ مستقرُّ الجبل مملوءاً ماءً، ويكون الجبل في حقنِه الأبخرةَ مثلَ الأنْبِيق[1] الصلب المعدِّ للتقطير لا يدعُ شيئاً من البخار يتحلَّلُ، وقعرُ الأرض الذي تحته كالقرع، والعيونُ كالأذناب التي في الأنابيق، والأوديةُ والبخارُ كالقوابل. ولذلك أكثرُ العيون إنَّما تنفجرُ من الجبال وأقلُّها في البراري، وهو مع هذا لا يكون إلَّا إذا كانت الأرضُ صلبةً.

وأمَّا إنَّ أكثرَ السحب تكون في الجبال، فلوجوهٍ: أحدها: أنَّ في باطن الجبال من النداوات ما لا يكون في باطن الأرَضين الرِّخوة. وثانيها: أنَّ الجبال بسبب ارتفاعها أبردُ، فلا جرمَ يبقى على ظاهرها من الأنداءِ والثلوج ما لا يبقى على ظاهر الأرَضين. وثالثها: أنَّ الأبخرةَ الصاعدة تكون في الجبال. وإذا ثبت ذلك

---

(١) الأنبيق: من أقدم آلات التقطير، وهو معرَّب. متن اللغة (أنب).

ظهرَ أنَّ أسباب تراكم السحب في الجبال أكثرُ؛ لأنَّ المادةَ فيها ظاهراً وباطناً أكثرُ، والاحتقانَ أشدُّ، والسببَّ المحلِّلَ ـ وهو الحرُّ ـ أقلُّ.

وأمَّا المعدنِيَّات المحتاجة إلى أبخرة، فيكون اختلاطها بالأرضية أكثر، وإقامتها في مواضعَ لا تتفرق فيها أطول، ولا شيءَ في هذا المعنى كالجبال.

ومن تأمَّل علم أنَّ للجبال منافعَ غيرَ ذلك لا تُحصى، فلا يضرُّ أنَّ بعضاً مِن الناس من وراء المنعِ؛ لبعضِ ما ذكر.

وسمعتُ من بعض العصريِّين(١) أنَّ من جملة منافعها: كونها سبباً لانكشاف هذا المقدارِ المشاهَدِ من الأرض، وذلك لاحتباس الأبخرةِ الطالبة لجهة العلوِّ فيها، وهو يقتضي أنَّ الأرضَ قبلَها كانت مغمورةً، وهو خلافُ ما يقتضيه ظاهرُ قوله عليه الصلاة والسلام: «لمَّا خلقَ اللهُ تعالى الأرضَ فجعلت تميدُ، فوضعَ عليها الجبالَ فاستقرَّت»(٢) على أنَّه يتراءى المنافاة بين جعلها أوتاداً ـ المصرَّح به في الآيات ـ وكونِها جاذبةً للأرض إلى جهة العلوِّ، ولا يرد على ما ذُكر في توجيه كونِها سبباً لاستقرار الأرض أنَّ كونَها فيها كشُرُعٍ في سفينة يُنافيه، إذ يقتضي ذلك أن تتحرَّكَ الأرضُ إلى خلاف جهة(٣) مهبِّ الهواء؛ لأنَّا من وراء منع حدوث الهواء على وجهٍ يحرِّكُها بسببه كذلك، وهذا كلُّه إذا حكَّمنا العقل في البيِّن، وتقيَّدنا بالعاديَّات. وأما إذا أسندنا كلَّ ذلك إلى قدرة الفاعل المختار جلَّ شأنُه وقلنا: إنَّه سبحانه خلق الأرضَ مائدةً، وجعل عليها الجبالَ وحفظها عن المَيْد؛ لحِكَمٍ عَلِمَها، تحارُ فيها الأفكار، ولا يُحيط بها إلَّا من أوتي علماً لَدُنِّيًّا من ذوي الأبصار = ارتفعت عنَّا جميعُ المؤن وزالت سائر المحن.

ولا يلزمنا على هذا أيضاً القولُ بأنَّ الأرضَ وسطَ العالم، كما هو رأيُ أكثر الفلاسفة المتقدِّمين والمتأخِّرين. ولم يخالف من الأوَّلين إلَّا شرذمةٌ زعموا أنَّ كرةَ النار في الوسط؛ لأنَّها أشرفُ من الأرض؛ لكونها مضيئةً لطيفةً حسنةَ اللون، وكونِ

---

(١) في هامش (م): هو الرشتي سيد كاظم. اهـ. منه.
(٢) أخرجه أحمد (١٢٢٥٣)، والترمذي (٣٣٦٩)، وقد سلف ص٢٤ من هذا الجزء.
(٣) لفظة «جهة»: ليست في الأصل.

الأرض كثيفةٌ مظلمةٌ قبيحةَ اللَّون، وحيِّزُ الأشرف يجب أن يكون أشرفَ الأحياز، وهو الوسط، فإذن هي في الوسط.

وهذا من الإقناعات الضعيفة، ومع ذلك يرد عليه أنَّا لا نسلِّمُ شرافةَ النار على الأرض مطلقاً، فإنها إن ترجَّحت عليها باللَّطافة وما معها، فالأرضُ راجحةٌ بأمور: أحدها: أنَّ النار مفرطة الكيفية مفسدة، والأرض ليست كذلك. وثانيها: أنَّها لا تبقى في المكان الغريب مثلَ ما تبقى الأرض. وثالثها: أنَّ الأرضَ حيِّزُ الحياة والنشوء، والنارُ ليست كذلك. وما ذُكِرَ من استحسان الحسِّ البصريِّ للنار يعارضُه استحسانُ الحسِّ اللمسيِّ للأرض بالنسبةِ إليها، على أنَّا لو سلَّمنا الأشرفيةَ فهي لا تقتضي إلَّا الوسطَ الشرفيَّ لا المقداريَّ، إذ لا شرفَ له، وذلك ليس هو إلَّا حيِّزُها الذي يزعمه جمهورُ المتقدِّمين لها؛ لأنَّه متوسطٌ بين الأجرام العنصرية والأجرام الفلكية.

ولم يخالف من الآخرين إلَّا شرذمةٌ قليلة هم هرشل(١) وأصحابُه، زعموا أنَّ الشمس ساكنة في وسط العالم، وكلُّ ما عداها يتحرَّك عليها، لأنَّها جرمٌ عظيم جدّاً، وكلُّ الأجرام دونَها لا سيَّما الأرض، فإنَّها بالنسبة إليها كلا شيء، والحكمةُ تقتضي سكونَ الأكبر وتحرُّكَ الأصغر. وهذا أيضاً من الإقناعات الضعيفة، مع ذلك يرد عليه أنَّ سكونَ الأصغر - لا سيَّما بين أمواج ورياح - وحركةَ الأكبر - لا سيَّما مثل الحركةِ التي يثبتها الجمهورُ للشمس - أبلغُ في القدرة، وتعليلُهم ذلك أيضاً بأنَّا لا نرى للشمس مَيْلاً عمَّا يقال له: منطقة البروج، فيقتضي أن تكون ساكنةً بخلاف غيرِها = لا يخفى ما فيه.

والذي يميل إليه كثيرٌ من الناس أنَّ تحتَ الأرض ماء، وأنَّها فيه كبطيخةٍ خضراءَ في حوض. وجاء في بعض الأخبار أنَّ الأرض على متن ثورٍ، والثورُ على ظهر حوت، والحوتُ في الماء، ولا يعلم ما تحت الماء إلَّا الذي خلقه. وذكر غير واحد أنَّ زيادة كبد ذلك الحوتِ، هو الذي يكون أوَّل طعامِ أهل الجنة، فحملوا

---

(١) هو أحد فلاسفة الإفرنج، وهو الذي اكتشف كوكب أورنوس، وسمي باسمه. ذكره المصنف عند تفسير الآية (١٦) من سورة التكوير.

الحوتَ ـ فيما صحَّ من قوله ﷺ: «أولُ شيءٍ يأكلُه أهلُ الجنَّةِ زائدةُ كبد الحوتِ»[١] ـ على ذلك الحوت، وبيَّنوا حكمةَ ذلك الأكل بأنَّه إشارةٌ إلى خراب الدنيا وبشارةٌ بفساد أساسها وأمن العود إليها، حيثُ إنَّ الأرض التي كانوا يسكنونها كانت مستقرَّةً عليه. وخصَّ الأكل بالزائدة لِما بيَّنه الأطباءُ من أنَّ العلَّة إذا وقعت في الكبد دون الزائدة، رُجيَ برؤُه، فإن وقعت في الزائدة هلك العليلُ، فأكلُهم من ذلك أدخلُ في البشرى.

ومنع بعضُهم صحَّة الأخبار الدالَّة على أنَّها ليست على الماء بلا واسطة، لا سيَّما الخبر الطويل الذي ذكره البغويُّ[٢] في سورة «ن» ولم يُنكر صحَّةَ الخبر في أنَّ أوَّل شيءٍ يأكله أهلُ الجنة زائدةُ كبد الحوت، إلَّا أنَّه قال: المرادُ بالحوت فيه: حوتٌ ما؛ بدليل ما رواه سلطان المحدِّثين البخاريُّ: «أوَّلُ ما يأكلُه أهلُ الجَّنةِ زيادةُ كبدِ حوت، يأكلُ منه سبعون ألفاً»[٣] بتنكير لفظِ حوت. ونظيرُ ذلك في «صحيح» مسلم حيثُ ذكر فيه أنَّه «تكون الأرضُ يومَ القيامة خبزةً واحدةً يكفؤها الجبَّارُ بيده، كما يكفؤ أحدُكم خبزتَه في السفر؛ نُزلاً لأهلِ الجنَّة، وأنَّ إدامَهم ثورٌ ونُون، يأكلُ من زائدةِ كبدِهما سبعون ألفاً»[٤].

وذكرُ حال الأرض فيه لا يُعين مُرادَ الخصم، فإنَّه يجوز أن يكون الجمعُ بين الإشارة على خراب الدنيا، وانقطاعِ أمر الاستعداد للمعاش، وانصرامِ الحياة العنصرية المائيَّة، أمَّا الإشارةُ إلى الأول فظاهرٌ، وأمَّا إلى الثاني فبالاستيلاء على الثور وأكلِ زائدة كبده، فإنَّه عمدةُ عدَّة الحارثِ المهتمِّ لأمر معاشه، وفي الخبر: كلُّكم حارثٌ وكلُّكم هَمَّامٌ[٥]. وأمَّا الإشارةُ إلى الثالث فبالاستيلاء على الحوت

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٢٩)، وأحمد (١٢٠٥٧) مطوّلاً من حديث أنس بن مالك ﷺ، وهو في قصة إسلام عبد الله بن سلام. وفيه: «زيادة» بدل «زائدة».

(٢) في تفسيره ٤/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥.

(٣) صحيح البخاري (٣٣٢٩) من حديث أنس ﷺ ـ وسلف قريباً ـ دون قوله: «يأكل منه سبعون ألفاً» وهذه العبارة جزء من حديث آخر عن أبي سعيد الخدري ﷺ سيأتي بعده.

(٤) صحيح مسلم (٢٧٩٢)، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، وهو عند البخاري (٦٥٢٠). والنون: الحوت. القاموس المحيط (نون).

(٥) ذكره الهروي في «المصنوع في معرفة الحديث الموضوع» ص١٣٩ وقال: ليس بحديث.

وأكلِ زائدة كبده أيضاً، فإنَّه حيوانٌ عنصريٌّ مائيٌّ لا يمكن أن يحيا سويعةً إذا فارق الماء، وبهذا يظهر المناسبةُ التامَّة بين ما اشتمل عليه الخبر.

ولا يبعدُ أن يكون ظهورُ الحياة الدنيويَّة بصورة الحوت، وما يحتاج إليه فيها من أسباب الحراثة الضروريَّة في أمر المعاش بصورة الثور، وكلُّ الصيد في جوف الفَرَا[1]، ويكون ذلك من قبيلِ ظهور الموت في صورة الكبش الأملحِ في ذلك اليوم[2].

وقال بعضُ العارفين[3] في سرِّ تخصيص الكبد: إنَّه بيتُ الدم، وهو بيتُ الحياة، ومنه تقع قسمتها في البدن إلى القلب وغيره، وبخارُ ذلك الدم وهو النفس المعبَّرُ عنه بالروح الحيواني، ففي كونِه طعاماً لأهل الجنة بشارةٌ بأنَّهم أحياء لا يموتون. وذكر أنَّه يُستخرج من الثور الطِّحَالُ، وهو في الحيوان بمنزلة الأوساخ في البدن، فإنَّه يجتمع فيه أوساخُ البدن ممَّا يعطيه البدنُ من الدم الفاسد، فيعطى لأهل النار يأكلونه، وكان ذلك من الثور؛ لأنَّه باردٌ يابسٌ كطبع الموت، وجهنَّمُ على صورة جاموس، والغذاءُ لأهل النار من طِحاله أشدُّ مناسبةً منه، فلِمَا فيه من الدميَّةِ لا يموت أهل النار، ولِمَا أنَّه من أوساخ البدن ومن الدمِ الفاسد المؤلم لا يحيَوْن ولا ينعمُون، فما يزيدُهم أكلُه إلَّا مرضاً وسقماً.

ونُقل عن الغزاليِّ ـ والعهدةُ على الناقل ـ أنَّه ﷺ سُئِل تارةً: ما تحت الأرض؟ فقال: الحوت. وسُئل أخرى فقال: الثور. وعنى عليه الصلاة والسلام بذلك البرجَيْن اللذين هما من البروج الاثني عشرَ المعلومة، وقد كان كلٌّ منهما وتدَ الأرض وقتَ السؤال، ولو كان الوتدُ إذ ذاك[4] العقربَ مثلاً؛ لقال عليه الصلاة والسلام: العقربُ تحت الأرض.

وأنت تعلم أنَّ ذلك بمعزل عن مقاصد الشارع ﷺ، ولا يتمُّ على ما وقفت عليه

(١) مثل قديم، ينظر جمهرة الأمثال ٢/ ١٦٢، والفرا: حمار الوحش.
(٢) أخرج أحمد (١١٠٦٦)، والبخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً: «يؤتى بالموت في هيئة كبش أملح..» اللفظ للبخاري.
(٣) ينظر الفتوحات المكية ١/ ٣١٦ ـ ٣١٧.
(٤) قوله: إذ ذاك، ليس في الأصل.

من أنَّ الأرض على متن الثور، والثور على متن[1] الحوت، والحوت على الماء. والقولُ بأنَّ المرادَ أنَّ الأرضَ فوق الثور باعتبار أنَّه وتدُها حين الإخبار، والثور فوق الحوت باعتبار أنَّه من البروج الشمالية والحوتُ من البروج الجنوبية، والبروجُ الشمالية في غالب المعمورة تُعَدُّ فوق البروج الجنوبية، والحوتُ فوق الماء باعتبار أنَّه ليس بينه وبينه حائلٌ يُرى = لا يُقدِمُ عليه إلَّا ثورٌ أو حمارٌ.

وبعضُهم يؤوّل خبرَ الترتيب بأنَّ المرادَ منه الإشارةُ إلى أنَّ عمارةَ الأرض موقوفةٌ على الحراثة، وهي موقوفةٌ على السعي والاضطراب، وذلك الثورُ من مبادئ الحراثة، والحوتُ لا يكاد يَسْكُن عن الحركة في الماء، وهو كما ترى.

والذي ينبغي أن يعوَّلَ عليه الإيمانُ بما جاء عن رسول الله ﷺ إذا صحَّ، فليس وراءَه ـ عليه الصلاة والسلام ـ حكيمٌ، والترتيبُ الذي يذكره الفلاسفةُ لم يأتوا له ببرهانٍ مبين، وليس عندهم فيه سوى ما يفيدُ الظنَّ، وحينئذٍ فيمكن القول بترتيبٍ آخر. نعم لا ينبغي القول بترتيبٍ يكذبه الحسُّ ويأباه العقلُ الصريح، وإنْ جاء مثلُ ذلك عن الشارع وَجَبَ تأويلُه كما لا يخفى.

وذكر بعضُ الفضلاء أنَّه لم يجئ في ترتيب الأجرام العلويَّة والسفليَّة وشرحِ أحوالها كما فعل الفلاسفةُ عن الشارع ﷺ لِمَا أنَّ ذلك ليس من المسائل المهمَّة في نظرِه عليه الصلاةُ والسلام، وليس المهمُّ إلَّا التفكُّرُ فيها، والاستدلالُ بها على وحدة الصانع وكمالِه ـ جلَّ شأنُه ـ وهو حاصلٌ بما يُحَسُّ منها، فسبحان مَنْ رفعَ السماء بغير عَمَد ومدَّ الأرضَ وجعلَ فيها رواسي.

﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ جمع: نهر، وهو: مجرى الماءِ الفائض، وتجمعُ أيضاً على: نُهُر ونُهور وأنْهُر، وتطلقُ على المياه السائلة على الأرض.

وضمّها إلى الجبال، وعلّق بهما فعلاً واحداً من حيثُ إنَّ الجبال سببٌ لتكوُّنها على ما قيل. وتُعقِّب بأنه مبنيٌّ على ما ذهب إليه بعضُ الفلاسفة من أنَّ الجبال لتركُّبها من أحجار صلبة إذا تصاعدت إليها الأبخرةُ احتبست فيها وتكاملت، فتنقلب مياهاً، وربَّما خرقَتْها فخرجت، وذُكِرَ أنَّ الذي تدلُّ عليه الآثار أنَّها تنزل من

---

(١) في (م): ظهر.

السماء، لكن لمَّا كان نزولُها عليها أكثرَ كانت كثيراً ما تخرج الأنهار منها، ويكفي هذا لتشريكهما في عاملٍ واحد وجعلهما جملةً واحدةً، وكأنَّهم عَنَوا بالنزول مِن السماءِ على الجبال نزولَ ماءِ المطر من السماء التي هي أحدُ الأجرام العلويَّة عليها. والأكثرون أنَّ النزولَ من السحاب، والمرادَ من السماء جهة العلوِّ، وهو الذي تحكم به المشاهدةُ، وقد أسلفنا لك ما يتعلَّق بذلك أوَّل الكتاب، فتذكَّر.

والأنهار التي جعلَها الله تعالى في الأرض كثيرةٌ، وذكر بعضُهم أنَّها مئةٌ وستَّةٌ وتسعون نهراً، وقيل: هي أكثرُ من ذلك. وجاء في أربعة منها أنَّها من الجنَّة، ففي «صحيح» مسلم[1] عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «سَيْحَانُ، وجَيْحَانُ، والفراتُ، والنِّيلُ، كلٌّ من أنهار الجنَّة». والأوَّلان بالألف بعد الحاء، وهما نهران في أرض الأَرْمن، فجَيْحان: نهرُ المِصِّيصَة، وسَيْحان: نهر أذنة[2]. وقولُ الجوهريِّ في «صحاحه»[3]: جَيْحان: نهرٌ بالشام. غلطٌ، أو أنَّه أراد المجازَ من حيثُ إنَّه ببلاد الأرمن، وهي مجاورةٌ للشام. وهما غيرُ سَيْحون وجَيْحون بالواو، فإنَّ سَيْحون: نهرُ الهند، وهو يجري من جبالٍ بأقاصيها ممَّا يلي العين إلى أن ينصبَّ في البحر الحبشي ممَّا يلي ساحلَ الهند، ومقدارُ جريه أربع مئة فرسخ. وجَيْحون: نهرُ بَلخ يجري من أعين إلى أن يأتيَ خُوَارَزْم، فيتفرَّق بعضُه في أماكن ويمضي باقيه إلى البحيرة التي عليها القرية المعروفة بالجرجانية أسفلَ خُوَارَزْم، يجري منه إليها السفن، طولُها مسيرة شهر، وعرضُها نحو ذلك.

وأمَّا قولُ القاضي عياض: هذه الأنهارُ الأربعة أكبرُ أنهار بلاد الإسلام، فالنيل بمصرَ، والفرات بالعراق، وسَيْحان وجَيْحان، ويقال: سيحون وجيحون ببلاد خراسان[4]. فقد قال النوويُّ: إنَّ فيه إنكاراً من أوجه: أحدها: قوله: الفراتُ بالعراق. وليست بالعراق، وإنَّما هي فاصلةٌ بين الشام والجزيرة. والثاني: قوله: سَيْحان وجَيْحان، ويقال: سَيْحون وجَيْحون. فجعل الأسماءَ مترادفةً، وليس

---

(١) برقم (٢٨٣٩)، وهو عند أحمد (٧٨٨٦).

(٢) في الأصل و(م): أدنة، بالمهملة. والمثبت من: معجم ما استعجم، ومعجم البلدان (أذنة) وهي بلد من الثغور قرب المصيصة.

(٣) مادة (جحن).

(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم ٨/ ٣٧٢.

كذلك، بل سَيْحان غيرُ سَيْحون، وجَيْحان غيرُ جَيْحون باتّفاق الناس. والثالث: قوله: ببلاد خراسان. وإنَّما سَيْحان وجَيْحان ببلاد الأرمنِ بقرب الشام[1]. انتهى.

وقد يجاب عن الأول بنحو ما أُجيبَ به عن الجوهريِّ، ولا يخفى أنَّه بعد زعم الترادف يصحُّ الحكم بأنَّهما ببلاد خراسان، كما يصحُّ الحكم بأنَّهما ببلاد الأرمن.

وفي كون هذه الأنهارِ من الجنَّة تأويلان: الأول أنَّ المرادَ تشبيهُ مياهها بمياه الجنَّة، والإخبارُ بامتيازها على ما عداها، ومثلُه كثيرٌ في الكلام. والثاني: ما ذكره القاضي عياض[2] أنَّ الإيمان عمَّ بلادَها، وأنَّ الأجسام المتغذِّية منها صائرةٌ إلى الجنَّة. وهذا ليس بشيء، ولو رُدَّ[3] إلى اعتبار التشبيه، أي: أنَّها مثلُ أنهار الجنَّة في أنَّ المتغذِّين من مائها المؤمنون، لكان أوجه. وقال النوويُّ: الأصحُّ أنَّ الكلام على ظاهره، وأنَّ لها مادةً من الجنَّة، وهي موجودة اليوم عند أهل السُّنة[4].

ويأبى التأويلَ الأول ما في «صحيح» مسلم أيضاً من حديث الإسراء: وحدَّث نبيُّ الله ﷺ أنَّه رأى أربعةَ أنهارٍ يخرجُ من أصلِها نهران ظاهران ونهران باطنان، «فقلت: يا جبريلُ ما هذه الأنهارُ؟ فقال: أمَّا النهران الباطنان فنهران في الجنَّة، وأمَّا الظاهران فالفراتُ والنيلُ»[5]. وضميرُ: أصلها، لسدرةِ المنتهى، كما جاء مبيَّناً في «صحيح» البخاري[6] وغيرِه.

والقاضي عياض قال هنا[7]: إنَّ هذا الحديث يدلُّ على أنَّ أصل سدرةِ المنتهى في الأرض؛ لخروج النيل والفرات من أصلها. وتعقَّبه النوويُّ: بأنَّ ذلك ليس بلازم، بل معناه أنَّ الأنهار تخرج من أصلها، ثمَّ تسير حيثُ أراد الله تعالى حتى

---

(١) شرح صحيح مسلم ١٧/ ١٧٦ ـ ١٧٧.

(٢) في إكمال المعلم ٨/ ٣٧٢.

(٣) في الأصل: وقد يرد.

(٤) شرح صحيح مسلم ١٧/ ١٧٧، وعبارة النووي: والجنَّة مخلوقة موجودة اليوم عند أهل السنة.

(٥) صحيح مسلم (١٦٤) من حديث مالك بن صعصعة ﷺ.

(٦) برقم (٣٢٠٧)، وهو عند أحمد (١٧٨٣٣)، والنسائي ١/ ٢١٧ ـ ٢٢١ من حديث مالك بن صعصعة ﷺ.

(٧) في إكمال المعلم ١/ ٥٠٣.

تخرجَ من الأرض وتسيرَ فيها، وهذا لا يمنعه عقلٌ ولا شرعٌ، وهو ظاهر الحديث، فوجبَ المصيرُ إليه[1]. قيل: ولعلَّ الله تعالى يوصلُ مياه هاتيك الأنهار بقدرته الباهرة إلى محالِّها التي يُشاهَدُ خروجُها منها من حيثُ لا يراها أحدٌ، وما ذلك على الله بعزيز.

والظاهرُ أنَّ المراد أصلُ مياهها الخارجة من محالِّها، لا هي وما ينضمُّ إليها من السيول وغيرها. وكأنِّي أرى بعض الناس ـ آيسني[2] ـ يلتزم ذلك في جميع ما يجري في هاتيك الأنهار، وبعضُهم أيضاً يجعل الأخبار في هذا الشأن إشاراتٍ إلى أمورٍ أنفسية فقط، وليس ممَّا ترتضيه الأنفس المَرْضيَّة. نعم أنا لا أمنع التأويلَ مع بقاء الأمر آفاقيًّا، وليس عدم اعتقاد الظاهر ممَّا يخلُّ بالدين، كما لا يخفى على من لا تعصُّبَ عنده.

وللأخباريين في هذه الأنهار كلامٌ طويل تمجُّه أسماعُ ذوي الألباب، ولا يجري في أنهار قلوبهم، ولا أراه يصلح إلَّا للإلقاء في البحر.

وجاء في بعض الأخبار مرفوعاً: «نهران مؤمنان ونهران كافران، أمَّا المؤمنان: فالنيل والفراتُ، وأمَّا الكافران: فدجلةُ وجَيْحون»[3] وحُمِل ذلك على أنَّه ﷺ شبَّه النهريْن الأوَّلَيْن لنفعهما بسهولة بالمؤمن، والنهرين الأخيرين بالكافر لعدم نفعهما، كذلك فإنَّهما إنَّما يخرج ـ في الأكثر ـ ماؤُهما بآلةٍ ومشقَّةٍ، وإلَّا فوصفُ ذلك بالإيمان والكفر على الحقيقة غيرُ ظاهر، ثم إنَّ أفضلَ الأنهار ـ كما قال غيرُ واحد ـ النيلُ، وباقيها على السواء. وزادَ بعضُهم في عداد ما هو من الجنَّة: دجلةَ، وروى في ذلك خبراً عن مقاتل، عن عكرمةَ، عن ابن عباس رضي الله عنهما[4]. وليس ممَّا يعوَّل عليه، والله تعالى أعلم.

---

(١) شرح صحيح مسلم ٢/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٢) كذا رسمت في الأصل و(م)، ولم نهتد إلى قراءة هذه الكلمة ولعلها ضرب عليها في الأصل.

(٣) أخرجه ابن العديم في بغية الطلب ١/ ٣٦٦ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفي إسناده عبد الله بن سعيد المقبري، وهو متروك، كما قال الحافظ ابن حجر في التقريب.

(٤) أخرجه ابن حبان في المجروحين ٣/ ٥٧، وابن عدي في الكامل ٦/ ٢٣١٦، والخطيب البغدادي ١/ ٥٧ ـ ٥٨ من طريق مسلمة بن عُليّ، عن مقاتل بن حيان، به مرفوعاً. ومسلمة

﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ متعلِّق بـ «جعل» في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: اثنينيَّة حقيقيَّة، وهما الفردان اللَّذان كلٌّ منهما زوجُ الآخر، وأكَّد به الزوجين لئلَّا يفهم أنَّ المراد بذلك الشفعان، إذ يطلق الزوج على الجميع[1]، لكن اثنينيَّة ذلك اعتباريَّة، أي: جعل من كلِّ نوع من أنواع الثمرات الموجودة في الدنيا ضربين وصنفين، إمَّا في اللَّون كالأبيض والأسود، أو في الطعم كالحلو والحامض، أو في القَدْر كالصغير والكبير، أو في الكيفيَّة كالحارِّ والبارد، وما أشبه ذلك.

وقيل: المعنى: خَلَق في الأرض من جميع أنواع الثمرات زوجَيْن زوجَيْن حين مدَّها، ثم تكاثرت بعد ذلك وتنوَّعت. وتُعقِّب بأنَّه دعوى بلا دليل مع أنَّ الظاهر خلافُه، فإنَّ النوع الناطق المحتاج إلى زوجين خَلَقَ ذَكَرَه أولاً فكيف في الثمرات، وتكوُّنُ واحدٍ من كلٍّ أولاً كافٍ في التكوُّن، والوجه ما ذُكر أولاً.

وجوِّز أن يتعلَّق الجارُّ بـ «جعل» الأول، ويكون الثاني استئنافاً لبيان كيفيَّة الجعل.

وزعم بعضُهم أنَّ المراد بالزوجين ـ على تقدير تعلُّق الجارِّ بـ «جعل» السابق ـ الشمسُ والقمر، وقيل: الليل والنهار. وكلا القولين ليس بشيء.

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: يلبسه مكانَه، فيصير الجوُّ مظلماً بعدما كان مضيئاً، ففيه إسنادُ ما لمكان الشيء إليه. وفي جعل الجوِّ مكاناً للنهار تجوُّزٌ؛ لأنَّ الزمان لا مكان له، والمكانُ إنَّما هو للضوء الذي هو[2] لازمُه. وجوز في الآية استعارة كقوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ [الزمر: ٥]. بجعْلِه مغشيّاً للنهار ملفوفاً عليه كاللِّباس على الملبوس. قيل: والأول أوجهُ وأبلغ.

واكتفى بذكر تغشية اللَّيل النهارَ مع تحقُّقِ عكسه؛ للعلم به منه، مع أنَّ اللَّفظ يحتملهما إلَّا أنَّ التغشية بمعنى الستر، وهي أنسبُ باللَّيل من النهار. وعُدَّ هذا في

= هذا: متروك الحديث، قال عنه ابن عدي: كل أحاديثه أو عامتها غير محفوظ. وقال أيضاً بعد أن ساق الحديث وحديثاً آخر: وهذان الحديثان... غير محفوظين، بل هما منكرا المتن.

(١) في (م): المجموع.

(٢) بعدها في الأصل: مكان.

تضاعيف الآيات السفلية، وإن كان تعلُّقه بالآيات العلوية ظاهراً باعتبار ظهوره في الأرض.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وأبو بكر: «يُغشِّي» بالتشديد[١]، وقد تقدَّم تمام الكلام في ذلك[٢].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر من مدِّ الأرض، وجَعْلِ الرواسي عليها، وإجراءِ الأنهار فيها، وخلقِ الثمرات، وإغشاء الليلِ النهارَ، وفي الإشارة بذلك تنبيهٌ على عِظَم المشار إليه في بابه.

﴿لَآيَـٰتٍ﴾ باهرة. قيل: هي آثار تلك الأفاعيل البديعة جلَّت حكمةُ صانعها، فـ «في» على معناها، فإنَّ تلك الآثار مستقرَّةٌ في تلك الأفاعيل منوطة بها، وجوِّز أن يشارَ بذلك إلى تلك الآثارِ المدلول عليها بتلك الأفاعيل.

﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣﴾ فإنَّ التفكُّرَ فيها يؤدِّي إلى الحكم بأنَّ تكوّن كلٍّ من ذلك على هذا النمط الرائق والأسلوب اللائق لابدَّ له من مكوِّنٍ قادرٍ حكيمٍ يفعلُ ما يشاء ويحكم ما يريد.

والفكرةُ ـ كما قال الراغب[٣] ـ قوَّةٌ مُطْرِقَة للعلم إلى المعلوم، والتفكُّر: جَوَلان تلك القوة بحسب نَظَرِ العقل، وذلك للإنسان دون الحيوان، ولا يقال إلَّا فيما[٤] يمكن أن يحصلَ له صورةٌ في القلب، ولهذا رُوي: «تفكَّروا في آلاء الله تعالى ولا تتفكَّروا في الله تعالى»[٥]. إذ كان الله سبحانه منزَّهاً أن يوصفَ بصورة.

وقال بعض الأدباء: الفكرُ مقلوبٌ عن الفَرْك، لكن يستعمل الفكر في المعاني وهو فركُ الأمور وبحثُها طلباً للوصول إلى حقيقتها. والمشهور أنَّه ترتيب أمور معلومة للتأدِّي إلى مجهول، وقد تقدَّم وجهُ جعل هذا مقطعاً في الآية.

---

(١) التيسير ص١١٠، والنشر ٢/ ٢٦٩.
(٢) ٨/ ١٣٧.
(٣) في المفردات (فكر).
(٤) بعدها في الأصل و(م): لا، والمثبت من المفردات (فكر).
(٥) سلف ٥/ ٢٠٨، وينظر الكلام عليه ثمة.

وذكر الإمام[١] أنَّ الأكثر في الآيات إذا ذُكِرَ فيها الدلائلُ الموجودة في العالم السفليّ أن يُجعلَ مقطعُها (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) وما يقربُ منه، وسببُه أنَّ الفلاسفةَ يسندون حوادثَ العالم السفليّ إلى الاختلافاتِ الواقعة في الإشكالات الكوكبيَّة، فردَّه الله تعالى بقوله: «لقومٍ يتفكَّرون» لأنَّ مَنْ تفكَّر فيها عَلِمَ أنَّه لا يجوز أن يكون حدوثُ تلك الحوادثِ من الاتِّصالات الفلكية. فتفكَّر.

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ مشتملة على طائفةٍ أخرى من الآيات، أي: في الأرض بقاعٌ كثيرة مختلفة في الأوصاف، فمن طيِّبة مُنبتة، ومن سبخةٍ لا تُنبت، ومن رِخوة ومن صُلبة، ومن صالحةٍ للزَّرع لا للشجر، ومن صالحةٍ للشجر لا للزرع، إلى غير ذلك.

﴿مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ أي: متلاصقة، والمقصودُ الإخبار بتفاوت أجزاء الأرض المتلاصقة على الوجه الذي علمت، وهذا هو المأثور عن الأكثرين.

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة أنَّ المعنى: وفي الأرض قرى قريبٌ بعضُها من بعض[٢]. وأخرج عن الحسن أنَّه فسَّر ذلك بالأهواز وفارس والكوفة والبصرة[٣]. ومن هنا قيل: في الآية اكتفاءٌ على حدِّ: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] والمرادُ: قِطَعٌ متجاوراتٌ وغيرُ متجاورات.

وفي بعض المصاحف: «وقطعاً متجاوراتٍ» بالنصب[٤]، أي: وجعل في الأرض قطعاً.

﴿وَجَنَّٰتٌ﴾ أي: بساتين كثيرة ﴿مِّنْ أَعْنَٰبٍ﴾ أي: من أشجار الكرم ﴿وَزَرْعٌ﴾ من كلِّ نوعٍ من أنواع الحبوب، وإفرادُه لمراعاة أصله حيثُ كان مصدراً، ولعلَّ تقديم ذكر الجنَّات عليه مع كونه عمود المعاش، لِما أنَّ في صنعة الأعناب ممَّا يبهر العقول ما لا يخفى، ولو لم يكن فيها إلَّا أنَّها مياهٌ متجمِّدةٌ في ظروف رقيقة، حتى

(١) تفسير الرازي ١٩/٧.
(٢) الدر المنثور ٤/٤٣.
(٣) الدر المنثور ٤/٤٣.
(٤) قرأ بها الحسن، الإملاء ٣/٣٦٧، والإتحاف ص٣٣٨.

أنَّ منها شفافاً لا يحجب البصر عن إدراك ما في جوفه لكفى؛ ومن هنا جاء في بعض الأخبار القدسيَّة: «أتكفرون بي وأنا خالقُ العنب»[1]. وفي «إرشاد العقل السليم»[2] تعليلُ ذلك بظهور حال الجنَّات في اختلافها ومباينتها لسائرها ورسوخِ ذلك فيها.

وتأخيرُ قوله تعالى: ﴿وَنَخِيلٌ﴾ لئلَّا يقعَ بينها وبين صفتها ـ وهي قوله تعالى: ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ ـ فاصلةٌ، أو يطولَ الفصل بين المتعاطفين.

وصِنْوان جمعُ: صِنْو، وهو الفرع الذي يجمعُه وآخرَ أصلٌ واحدٌ، وأصله: المِثْلُ، ومنه قيل للعمِّ[3]: صِنْو.

وكسرُ الصاد في الجمع كالمفرد هو اللُّغة المشهورة، وبها قرأ الجمهور. ولغةُ تميم وقيس: «صُنْوان» بالضمِّ[4]، كذِئْب وذُؤْبان، وبذلك قرأ زيدُ بن علي ﷺ والسُّلميُّ وابنُ مُصرِّف[5]، ونقله الجعبريُّ في «شرح الشاطبيَّة» عن حفص[6]. وقرأ الحسنُ وقتادةُ بالفتح[7]، وهو على ذلك اسمُ جمع كالسَّعْدان[8]، لا جمع تكسير؛ لأنَّه ليس من أبنيته. وقرأ الحسنُ: «جناتٍ» بالنصب[9]، عطفاً عند بعضٍ على «زوجين» مفعول «جعل»، و«من كل الثمرات» حينئذٍ حالٌ مقدَّمةٌ لا صلة «جعل»؛ لفساد المعنى عليه، أي: جعل فيها زوجَيْن حال كونهما[10] من كلِّ الثمرات، وجناتٍ من أعناب. ولا يجب هنا تقييدُ المعطوف بقيد المعطوف عليه. وزعم

---

(١) سلف ٣/ ٤٥١، وقال عنه المصنف ثمة: لم أجده في كتاب يعوَّل عليه.

(٢) ٥/ ٥.

(٣) في الأصل: للصنم، وقد أخرج أحمد (٨٢٨٤)، ومسلم (٩٨٣)، وأبو داود (١٦٢٣)، والترمذي (٣٧٦١) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «.... إن عمَّ الرجل صِنْوُ أبيه».

(٤) المحتسب ١/ ٣٥١، والكشاف ٢/ ٣٤٩.

(٥) القراءات الشاذة ص٦٦، والمحتسب١/ ٣٥١، والبحر ٥/ ٣٦٣.

(٦) ينظر حاشية الشهاب ٥/ ٢٢٠.

(٧) المحتسب ١/ ٣٥١، والبحر ٥/ ٣٦٣.

(٨) السعدان: نبات ذو شوك، واحدته: سعدانة. اللسان (سعد).

(٩) القراءات الشاذة ص٦٦، والبحر ٥/ ٣٦٣.

(١٠) في (م): كونه.

بعضُهم أنَّ العطف على «رواسي». وقال أبو حيان[1]: الأولى إضمارُ فعل؛ لِبعد ما بين المتعاطفَيْن. أو بالجرِّ عطفاً على «كل الثمرات» على أن يكون هو مفعولاً بزيادة «مِنْ» في الإثبات، و«زوجين اثنين» حالاً منه، والتقدير: وجعل فيها من كلِّ الثمرات حالَ كونها صنفين.

فلعلَّ عدم نظم قوله تعالى: «وفي الأرض قطع متجاورات» في هذا السلك، مع أنَّ اختصاص كلٍّ من تلك القطع بما لها من الأحوال والصفاتِ بمحضِ خَلْق الخالقِ الحكيم ـ جلَّت قدرته ـ حين مدَّ الأرضَ ودحاها ـ على ما قيل ـ الإيماءُ إلى كون تلك الأحوال صفاتٍ راسخة لتلك القِطَع.

وقرأ جمعٌ من السبعة: «وزرعٍ ونخيلٍ» بالجرِّ[2]، على أنَّ العطفَ على «أعناب» وهو كما في «الكشف» من باب:

مـتـقـلِّـداً سـيـفـاً ورمـحـاً[3]

أو المراد: أنَّ في الجنات فُرجاً مزروعةً بين الأشجار، وإلَّا فلا يقال للمزروعة وحدَها: جنَّةٌ، وهذا أحسنُ منظراً وأنزه. وادَّعى أبو حيان[4] أنَّ في جعل الجنَّة من الأعناب تجوّزاً؛ لأنَّ الجنَّةَ في الحقيقة هي الأرضُ التي فيها الأعناب.

﴿يُسْقَىٰ﴾ أي: ما ذُكر من القِطَع والجنَّات والزرع والنخيل.

وقرأ أكثرُ السبعة بالتاء[5] مراعاة للَّفظ، وهي قراءة الحسن وأبي جعفر[6]. قيل:

---

(١) في البحر ٥/ ٣٦٣.

(٢) قرأ بها نافع وابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم في رواية شعبة. التيسير ص١٣١، والنشر٢/ ٢٩٧.

(٣) عجز بيت لعبد الله بن الزبعرى، وصدره:

يـا لـيـت زوجـك قـد غـدا

وهو في ديوانه ص٣٢، وسلف ٧/ ٧١.

(٤) في البحر ٥/ ٣٦٣.

(٥) في (م): بالتأنيث، وهي قراءة العشرة ما عدا ابن عامر وعاصم ويعقوب. التيسير ص١٣١، والنشر ٢/ ٢٩٧.

(٦) البحر ٥/ ٣٦٣، والإتحاف ص٣٣٨.

والأول أوفق بمقام بيان اتِّحاد الكلِّ في حالة السَّقْي.

﴿بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ لا اختلافَ في طبعه، سواءٌ كان السَّقْيُ من ماء الأمطار أو من ماء الأنهار، وقيل: إنَّ الثاني أوفقُ بقوله سبحانه: ﴿وَنُفَضِّلُ﴾ أي: مع وجود أسباب التشابه بمحض قدرتنا وإحساننا﴿بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ آخر منها ﴿فِى ٱلْأُكُلِ﴾ لمكان التأنيث.

وأمال فتحةَ القاف حمزةُ والكسائيُّ[1].

و«الأُكُل» ـ بضمِّ الهمزة والكاف، وجاء تسكينُها ـ ما يُؤكل، وهو هنا: الثمر والحبُّ. وقولُ بعضهم: أي: في الثمر شكلاً وقدراً ورائحةً وطعماً. من باب التغليب.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «يُفضِّل» بالياء على بناء الفاعل[2]، رداً على «يدبِّر» و«يفصل» و«يغشى». وقرأ يحيى بنُ يَعْمَر ـ وهو أوَّلُ من نَقَطَ المصحف[3] ـ وأبو حيوة والحلبيُّ عن عبد الوارث: بالياء على بناء المفعول ورفع «بعضُها»[4]. وفيه ما لا يخفى من الفخامة والدلالة على أنَّ عدمَ احتمال استناد الفعل إلى فاعل آخرَ مُغنٍ عن بناء الفعل للفاعل.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي فصل من أحوال القطع وغيرها ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ كثيرة عظيمة باهرة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ يعملون على قضية عقولهم، فإنَّ مَنْ عَقلَ هاتيك الأحوالَ العجيبة، وخروجَ الثمار المختلفة في الأشكال والألوان والطعوم والروائح في تلك القطع المتباينة المتلاصقة مع اتِّحاد ما تُسقى به، بل وسائر أسباب نموِّها، لا يتلعثم في الجزم بأنَّ لذلك صانعاً حكيماً قادراً مدبِّراً لها لا يعجزه شيءٌ. وقيل: المراد: أنَّ مَنْ عَقَلَ ذلك لا يتوقَّف في الجزم بأنَّ مَنْ قدرَ على إبداع ما ذُكر قادرٌ على إعادة ما أبداه، بل هي أهونُ في القياس. ولعلَّ ما ذكرناه أولى.

---

(١) يعني من «يسقى». ينظر التيسير ص٤٦، والنشر ٢/ ٣٥ ـ ٣٦.

(٢) التيسير ص١٣١، والنشر ٢/ ٢٩٧.

(٣) ينظر معرفة القرّاء الكبار ١/ ١٦٢.

(٤) البحر ٥/ ٣٦٣.

ثمَّ إنَّ الأحوالَ وإن كانت هي الآياتِ أنفسها لا أنَّها فيها إلَّا أنها قد جرَّدت عنها أمثالَها مبالغةً في كونه آية، ف «في» تجريديَّة، مثلُها في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ [فصلت: ٢٨] على المشهور. وجوَّز أن يكون المشارُ إليه الأحوالَ الكليَّةَ، والآياتُ أفرادُها الحادثة شيئاً فشيئاً في الأزمنة، وآحادُها الواقعة في الأقطار والأمكنة المشاهدة لأهلها، ف «في» على معناها. ومنهم مَنْ فسَّر الآياتِ بالدلالات؛ لتبقى «في» على ذلك. وهو كما ترى، وحيثُ كانت دلالة هذه الأحوال على مدلولاتها أظهرَ ممَّا سبق علَّق سبحانه كونَها آياتٍ بمحض التعقُّل، كما قال أبو حيان وغيرُه[(١)]، ولذلك ـ على ما قيل ـ لم يتعرَّض ـ جلَّ شأنُه ـ لغير تفضيل بعضِها على بعض في الأُكُل الظاهر لكلِّ عاقل مع تحقُّق ذلك في الخواصِّ والكيفيات مما يتوقَّف العثورُ عليه على نوع تأمُّل وتفكُّر، كأنَّه لا حاجة إلى التفكُّر في ذلك أيضاً، وفيه تعريضٌ بأنَّ المشركين غيرُ عاقلين.

ولبعض الرُّجَّاز فيما تُشير إليه الآية:

والأرضُ فيها عِبرةٌ للمعتبر ... تُخبرُ عن صنعِ مَليكٍ مُقتدِر
تُسقى بماءٍ واحدٍ أشجارُها ... وبقعةٌ واحدةٌ قَرارُها
والشمسُ والهواءُ ليس يختلف ... وأكلُها مختلفٌ لا يأتلف
لو أنَّ ذا من عملِ الطَّبائع ... أو أنَّه صنعةُ غيرِ صانع
لم يختلفْ وكان شيئاً واحداً ... هل يشبه الأولادُ إلَّا الوالدا
الشمسُ والهواءُ يا معاندُ ... والماءُ والترابُ شيءٌ واحد
فما الذي أوجبَ ذا التفاضلا ... إلَّا حكيمٌ لم يردْه باطلاً

وأخرج ابنُ جرير[(٢)]، عن الحسن في هذه الآية أنَّه قال: هذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى لقلوب بني آدم، كانت الأرضُ في يد الرحمن طينةً واحدةً، فسطحها وبطحها، فصارت قِطَعاً متجاورةً، فينزلُ عليها الماءُ من السماء فتخرج هذه زهرتَها

(١) البحر المحيط ٥/ ٣٦٤، وتفسير أبي السعود ٥/ ٥.
(٢) في تفسيره ١٣/ ٤٢٦.

وثمرَها وشجرها وتخرج نباتَها[1]، وتخرج هذه سَبَخها وملحَها وخَبَثها، وكلتاهما تسقى بماء واحد، فلو كان الماءُ ملحاً، قيل: إنَّما استسبخت هذه من قبل الماء. كذلك الناس خلقوا من آدمَ عليه السلام، فينزل عليهم من السماء تذكرة، فترقُّ قلوب فتخشعُ وتخضعُ، وتقسو قلوبٌ فتلهو وتسهو. ثم قال: واللهِ ما جالس القرآنَ أحدٌ إلَّا قام من عنده بزيادة أو نقصان، قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]. اهـ.

قال أبو حيان[2]: وهو شبيهٌ بكلام الصوفية.

﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ أي: إن يقعْ منك عجبٌ يا محمد ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ بعد مشاهدةِ الآيات الدالَّة على عظيم قدرته تعالى، أي: فَلْيكُن عجبُك من قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ إلى آخره، فإنَّه الذي ينبغي أن يُتعجَّبَ منه.

ورفع «عجب» على أنَّه خبرٌ مقدَّمٌ، و«قولهم» مبتدأ مؤخَّر، وقدم الخبر؛ للقصر والتسجيل من أوَّل الأمر بكون قولهم أمراً عجيباً. وفي «البحر»[3] أنَّه لا بدَّ من تقدير صفة لـ «عجب»؛ لأنَّه لا يتمكَّن المعنى بمطلق، فيقدَّر - والله تعالى أعلم - فعجبٌ أيُّ عجبٍ، أو فعجبٌ غريبٌ. وإذا قدَّرناه موصوفاً جاز أن يُعرب مبتدأً؛ للمسوِّغ وهو الوصف، ولا يضرُّ كونُ الخبرِ معرفةً، وذلك كما قال سيبويه في: كم مالك: إنَّ «كم» مبتدأ؛ لوجود المسوِّغ فيه وهو الاستفهام، وفي نحو: اقْصِدْ رجلاً خيرٌ منه أبوه: إنَّ «خير» مبتدأ؛ للمسوِّغ أيضاً، وهو العمل. ونقل أبو البقاء[4] القول بأنَّ «عجب» بمعنى مُعْجِب، ثُمَّ قال: فعلى هذا يجوز أن يرتفعَ «قولهم» به. وتُعقِّب بأنَّه لا يجوز ذلك؛ لأنَّه لا يلزم من كون شيء بمعنى شيء أن يكون حكمُه في العمل حكمَه، فمعجِبٌ يعمل، و«عجب» لا يعمل، ألا ترى أنَّ فِعْلاً كذِبْح، وفَعَلاً[5] كقَبَض، وفُعْلة كغُرْفة، بمعنى مفعول، ولا يعمل عمله، فلا تقول: مررت

---

(١) بعدها عند الطبري: وتحيي مواتَها.

(٢) في البحر ٥/ ٣٦٤.

(٣) ٥/ ٣٦٦.

(٤) في الإملاء ٣/ ٣٦٨.

(٥) في (م): فعلة.

برجل ذِبْحِ كبشُه، أو قَبَضِ مالُه، أو غُرْفة ماؤه. بمعنى مذبوح كبشُه ومقبوض مالُه ومغروف ماؤُه. وقد نصُّوا على أنَّ هذه تنوب في الدلالة لا العمل عن المفعول. وحَصَر النحويون ما يرفع الفاعلَ في أشياءَ، ولم يعدُّوا المصدرَ إذا كان بمعنى اسم المفعول[1] منها.

والظاهر أنَّ «أئذا كنَّا» إلى آخره، في محلٍّ نصبِ مقول القول، محكيٌّ به، والاستفهامُ إنكاريٌّ مفيدٌ لكمال الاستبعاد والاستنكار. وجوز أن يكون في محلٍّ رفع على البدليَّة من «قولهم» على أنَّه بمعنى المقول، وهو على ما قال أبو حيان[2]: إعرابٌ متكلَّفٌ وعدولٌ عن الظاهر. وعليه فالعجب تكلُّمهم بذلك، وعلى الأول كلامهم ذلك.

والعامل في «إذا» ما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۗ﴾ وهو: نُبعث أو نعاد.

والجديدُ: ضدُّ الخَلَق والبالي، ويقال: ثوبٌ جديد. أي: كما فُرغ من عمله. وهو فعيلٌ بمعنى مفعول، كأنَّه قطع من نسجه.

وتقديمُ الظرف؛ لتقوية الإنكار بالبعث بتوجيهه إليه في حالةٍ مُنافية له، وتكريرُ الهمزة في «أئنا» لتأكيد الإنكار، وليس مدارُ إنكارهم كونَهم ثابتين في الخلق الجديد بالفعل عند كونهم تراباً، بل كونهم بعرضيَّة ذلك واستعدادهم له، وفيه من الدلالة على عُتوِّهم وتماديهم في النَّكير ما لا يخفى.

قال أبو البقاء[3]: ولا يجوز أن تنتصب «إذا» بـ «كنَّا» لأنَّها مضافةٌ إليها، ولا بـ «جديد» لأنَّ ما بعد أن لا يعمل فيما قبلها. وكذا الاستفهام. وردَّ الأول في «المغني»[4] بأنَّ «إذا» عند مَنْ يقول بأنَّ العامل فيها شرطُها ـ وهو المشهور ـ غيرُ مضافة، كما يقوله الجميع إذا جزمت، كما في قوله:

(١) في (م): الفاعل.
(٢) في البحر ٥/ ٣٦٦.
(٣) في الإملاء ٣/ ٣٧٠.
(٤) ص١٣٠ ـ ١٣١.

وإذا تُصِبْكَ خَصاصةٌ فتحمَّلِ[1]

قيل: فالوجه في ردِّ ذلك أنَّ عملَه فيها موقوفٌ على تعيين مدلولها، وتعيينُه ليس إلَّا بشرطها فيدور، ونظرَ فيه الشهاب[2] بأنَّها عندهم بمنزلة «متى» و«أيَّان» غير معيَّنة بل مبهمة، كما ذكره القائلون به، وبه صرَّح في «المغني»[3] أيضاً.

وقيل: معنى الآية: إنْ تَعجب يا محمد من قولهم في إنكار البعث، فقولُهم عجيبٌ حقيق أن يُتعجَّب منه.

وتعقَّبه في «البحر»[4] بأنَّه ليس مدلول اللفظ؛ لأنَّه جعل فيه متعلَّقَ عجبه ﷺ هو قولهم في إنكار البعث، وجوابُ الشرط هو ذلك القول، فيتَّحد الشرط والجزاء، إذ تقديرُه: إن تعجب من إنكارهم البعثَ فاعجب من قولهم في إنكار البعث. وهو غير صحيح.

وردَّ بأنَّ ذلك ممَّا اتَّحد فيه الشرط والجزاء صورةً، وتغايرا حقيقةً كما في قوله ﷺ: «من كانت هجرتُه إلى الله تعالى ورسوله، فهجرتُه إلى الله تعالى ورسوله»[5]. وقولهم: من أدرك الصمَّان[6] فقد أدرك المرعى. وهو أبلغ في الكلام، لأنَّ معناه أنَّه أمرٌ لا يكتنه كُنهه، ولا تُدرك حقيقته، وأنَّه أمر عظيم.

---

(١) هذا عجز بيت لعبد قيس بن خُفاف، وصدره:

واسْتَغْنِ ما أغناكَ ربُّكَ بالغنى

وهو في المفضليات ص٣٨٥، والأصمعيات ص٢٣٠، وفيهما: فتجمَّل، بالجيم، والمغني ص١٣١ وفيه: فتحمّل، بالحاء المهملة. قال البغدادي في شرح أبيات المغني ٢/ ٢٦٢: وتجمّل: إمّابالجيم، أي: أظهر الجمال وعدم الحاجة. . . .، وإما بالحاء المهملة، أي: تكلّف حمل هذه المشقة. قاله الدماميني. اهـ. والخصاصة: الفقر. القاموس (خصّ).

(٢) في حاشيته ٥/ ٢٢٠.

(٣) ص١٣٠.

(٤) ٥/ ٣٦٥.

(٥) أخرجه البخاري (٥٤)، ومسلم (١٩٠٧) من حديث عمر ﷺ، وسلف ٢/ ٤١٢.

(٦) الصَّمّان، بفتح الصاد وتشديد الميم: أرض غليظة دون الجبل، فيها قيعان واسعة ورياض معشبة، كانت لبني حنظلة، وقيل: هو جبل في أرض تميم أحمر ينقاد ثلاث ليال وليس له ارتفاع، وقيل غير ذلك. معجم البلدان (الصمان).

وذهب بعضٌ إلى أنَّ الخطاب في «إن تعجب» عامٌّ، والمعنى: إن تعجب يا مَنْ نظر ما في هذه الآيات، وعَلِمَ قدرةَ مَنْ هذه أفعالُه، فازدَدْ تعجُّباً ممن يُنكر ـ مع هذا ـ قدرتَه على البعث وهو أهون شيءٍ عليه. وقيل: المعنى: إنْ تجدَّدَ منك التعجُّبُ لإنكارهم البعثَ، فاستمرَّ عليه، فإنَّ إنكارهم ذلك من الأعاجيب. وقيل: المراد: إن كنت تريد أيُّها المريد عجباً، فَهَلُمَّ؛ فإنَّ من أعجب العجب إنكارَهم البعثَ.

واختلف القرَّاء في الاستفهامين ـ إذا اجتمعا ـ في أحدَ عشرَ موضعاً: هذا وفي «المؤمنين» و«العنكبوت» و«النمل» و«السجدة» و«الواقعة» و«النازعات» و«بني إسرائيل» في موضعين، وكذا في «الصافات».

فقرأ نافع والكسائي بجعل الأول استفهاماً والثاني خبراً، إلَّا في «العنكبوت» و«النمل» فعكسَ نافع. وجمع الكسائيُّ بين الاستفهامين في «العنكبوت» وأما في «النمل» فعلى أصله إلَّا أنَّه زاد نوناً.

وقرأ ابنُ عامر بجعل الأول خبراً والثاني استفهاماً إلَّا في «النمل» و«النازعات» فعكس، وزاد في «النمل» نوناً كالكسائي، وإلَّا في «الواقعة» فقرأ باستفهامين، وهي قراءة باقي السبعة في هذا الباب إلَّا ابنَ كثير وحفصاً فإنَّهما قرأا في «العنكبوت» بالخبر في الأول والاستفهام في الثاني، وهم على أصولهم في اجتماع الهمزتين من تخفيفٍ وتحقيقٍ وفصل بين الهمزتين(١).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ، والموصول خبره، أي: أولئك المنكرون للبعث ريثما عاينوا من آيات ربهم الكبرى ما يرشد إلى الإيمان لو كانوا يبصرون.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ وتمادَوْا في ذلك، فإنَّ إنكار قدرته ـ عزَّ وجل ـ إنكارٌ له سبحانه؛ لأنَّ الإله لا يكون عاجزاً، مع ما في ذلك من تكذيبه ـ جلَّ شأنُه ـ وتكذيبِ رسله، المتَّفقون عليه عليهم السلام.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ، خبرُه جملة قوله تعالى: ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ وفيه احتمالان:

---

(١) التيسير ص١٣١ ـ ١٣٢، والنشر١/ ٣٧٢، وينظر الدر المصون ٧/ ١٧.

الأول: أن يكونَ المراد وصفَهم بذلك في الدنيا، فهو تشبيهٌ وتمثيلٌ لحالهم في امتناعهم عن الإيمان وعدمِ الالتفات إلى الحقِّ، بحال طائفةٍ في أعناقهم أغلالٌ وقيود لا يُمكنهم الالتفات معها، كقوله:

كيف الرَّشادُ وقد خُلِّفت في نفرٍ لهم عن الرشدِ أغلالٌ وأقيادُ(١)

كأنَّه قيل: أولئك مقيَّدون بقيود الضلالة لا يُرجى خلاصهم.

الثاني: أن يكون المراد(٢) وصفَهم به في الآخرة.

والكلام إمَّا باقٍ على حقيقته كما قال سبحانه: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ [غافر: ٧١]. ورُوي ذلك عن الحسن قال: إنَّ الأغلال لم تجعل في أعناق أهل النار؛ لأنَّهم أعجزوا الربَّ سبحانه، ولكنَّما جُعلت في أعناقهم؛ لكي إذا طَفا بهم اللَّهبُ أرستهم في(٢) النار. وإمَّا مُخرَجٌ مخرجَ التشبيه لحالهم بحال من يقدم للسياسة.

وقيل: المراد من الأغلال أعمالهم الفاسدة التي تقلَّدوها كالأغلال. وهو جارٍ على احتمال أن يكون ذلك في الدنيا أو في الآخرة. والأول ناظرٌ إلى ما قبل، والثاني إلى قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الموصوفون بما ذكر.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥﴾ لا ينفكُّون عنها، قيل: وتوسيطُ الفصل ليس لتخصيص الخلود بمنكري البعث خاصَّةً، بل بالجميع المدلول عليه بقوله تعالى: «أولئك الذين كفروا بربهم».

وأورد على ذلك أنَّ «هم» ليس ضميرَ فصلٍ؛ لأنَّ شرطه أن يقع بين مبتدأ وخبر يكون اسماً معرفةً، أو مثل المعرفة في أنَّه لا يقبل حرف التعريف، كأفعل التفضيل، وهذا ليس كذلك؟

وأُجيب بأنَّ المراد بالفصل الضميرُ المنفصل، وأنَّه أتى به وجعل الخبر جملةً

---

(١) البيت للأفوه الأودي وهو في ديوانه ص١٠، والحماسة البصرية ٢/ ٦٩. ورواية الشطر الأول فيه:

كيف الرشاد إذا ما كنت من نفر

(٢) ليست في الأصل.

مع أنَّ الأصل فيه الإفرادُ؛ لقصد الحصر والتخصيص المذكور كما في: هو عارف.

وقال بعضهم: لعلَّ القائل بما ذُكر، لا يتبع النحاة في الاشتراط المذكور، كما أنَّ الجرجانيَّ والسهيليَّ[1] جوَّزا ذلك إذا كان الخبرُ مضارعاً واسمُ الفاعل مثله.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ بالعقوبة التي هُدِّدوا بها على الإصرار على الكفر استهزاءً وتكذيباً ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: العافية والسلامة منها، والمرادُ بكونها قبلها: أنَّ سؤالَها قبل سؤالها، أو أنَّ سؤالَها قبل انقضاء الزمان المقدَّر لها.

وأخرج ابن جرير[2] وغيرُه، عن قتادة أنَّه قال في الآية: هؤلاء مشركو العرب، استعجلوا بالشرِّ قبل الخير، فقالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ جمع: مَثُلَة، كسَمُرة وسَمُرَات، وهي: العقوبة الفاضحة. وفسَّرها ابن عباس رضي الله عنهما بالعقوبة المستأصِلة للعضو، كقطع الأذن ونحوه، سمِّيت بها لما بين العقاب والمعاقَب به من المماثلة، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] أو هي مأخوذةٌ من المثال بمعنى القِصاص، يقال: أَمْثَلْت الرجلَ من صاحبه وأقصصته، بمعنىً واحدٍ، أو هي من المَثَل المضروب؛ لعِظَمِها.

والجملة في موضع الحال؛ لبيان ركاكة رأيهم في الاستعجال بطريق الاستهزاء، أي: يستعجلونك بذلك مستهزئين بإنذارك، منكرين لوقوع ما أنذرتهم إياه، والحال أنَّه قد مضت العقوباتُ الفاضحة النازلة على أمثالهم من المكذِّبين المستهزئين.

وقرأ مجاهد والأعمش: «المَثَلات» بفتح الميم والثاء[3]. وعيسى بن عمر - وفي روايةٍ: الأعمشُ وأبو بكر - بضمِّهما[4]، وهو لغةٌ أصلية، ويحتمل أنه أتبع فيه

---

(١) كما في حاشية الشهاب ٥/ ٢٢١.

(٢) في تفسيره ١٣/ ٤٣٥ ـ٤٣٦.

(٣) الكشاف ٢/ ٣٥٠ (دون نسبة)، والبحر ٥/ ٣٦٦.

(٤) القراءات الشاذة ص٦٦، والبحر المحيط ٥/ ٣٦٦.

العين للفاء. وابنُ وثَّاب بضمِّ الميم وسكون الثاء[١]، وهي لغة تميم. وابنُ مصرِّف بفتح الميم وسكون الثاء[٢]، وهي لغة الحجازيين.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ عظيمةٍ ﴿لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ أنفسَهم بالذنوب والمعاصي.

والجارُّ والمجرور في موضع الحال من الناس، والعاملُ فيها هو العامل في صاحبها وهو «مغفرة»، أي: إنَّه تعالى لغفورٌ للناس مع كونهم ظالمين.

قيل: والآية ظاهرة في مذهب أهل السنَّة، وهو جواز مغفرة الكبائر والصغائر بدون توبة؛ لأنَّه سبحانه ذكرَ المغفرة مع الظلم، أي: الذنب، ولا يكون معه إلَّا قبل التوبة؛ لأنَّ التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

وأوَّلَ ذلك المعتزلةُ بأنَّ المراد مغفرةُ الصغائر لمجتنب الكبائر، أو مغفرتُها لمن تاب، أو المراد بالمغفرة معناها اللُّغوي: وهو السترُ، بالإمهال وتأخير العقاب إلى الآخرة، كأنه قيل: إنَّه تعالى لا يعجِّلُ للناس العقوبةَ وإن كانوا ظالمين، بل يستر عليهم بتأخيرها.

واعتُرض التأويل بالتخصيص، بأنَّه تخصيصٌ للعامِّ من غير دليل. وأجيب بأنَّ الكفر قد خُصَّ بالإجماع، فيسري التخصيصُ إلى ذلك.

وتعقب الأخير بأنَّه في غاية البعد؛ لأنه ـ كما قال الإمام[٣] ـ لا يسمَّى مثلُه مغفرةً، وإلَّا لصحَّ أن يقال: الكفار مغفورون. وردَّ بأن المغفرةَ حقيقتُها في اللغة: الستر. وكونهم مغفورين بمعنى مؤخَّرٌ عذابُهم إلى الآخرة؛ لا محذور فيه، وهو المناسب لاستعجالهم العذاب. وأُجيب بأنَّ المراد أنَّ ذلك مخالفٌ للظاهر ولاستعمال القرآن.

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٦، والمحتسب ١/ ٣٥٣.

(٢) نسبها في القراءات الشاذة ص٦٦ ليحيى بن وثاب، ونسبها ابن جني في المحتسب ١/ ٣٥٣ لعيسى الثقفي وطلحة بن سليمان وللأعمش عن يحيى بن وثاب، ونسبها أبو حيان في البحر ٥/ ٣٦٦ لابن مصرف.

(٣) تفسير الرازي ١٩/ ١٢.

وذكر العلَّامة الطِّيبي أنَّه يجب تأويلُ الآية بأحد الأوجه الثلاثة؛ لأنَّها بظاهرها كالحثِّ على الظلم؛ لأنَّه سبحانه وعدَ المغفرة البالغة مع وجود الظلم.

وتعقَّب ذلك في «الكشف» فقال: فيه نظر؛ لأنَّ الأسلوب يدلُّ على أنَّه تعالى بليغُ المغفرة لهم مع استحقاقهم لخلافها؛ لتلبُّسهم بما العقابُ أولى بهم عنده.

والظاهر أنَّ التأويل بناء على مذهب الاعتزال. وأمَّا على مذهب أهل السنَّة فإنَّما[1] يؤوَّل لو عمَّ الظلم الكفر، ثم قال: والتأويل بالستر والإمهال أحسن، فيكون قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٦﴾ لتحقيق الوعيد بهم، وإن كانوا تحت ستره وإمهاله، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ ذلك إمهال لا إهمال. والمراد بالناس إمَّا المعهودون، وهم المستعجلون المذكورون قبلُ، أو الجنس؛ دلالةً على كثرة الهالكين لتناولهم وأضرابهم، وهذا جارٍ على المذهبين، وكذا اختار الطيبي هذا التأويل وقال: هو الوجه.

والآية على وزان قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦] على ما ذكره الزمخشري في «تفسيره»[2] وأنت قد سمعت ما له وما عليه، فتدبَّر.

واختار غيرُ واحدٍ إرادة الجنس من الناس، وهو مرادٌ أيضاً في «شديد العقاب».

والتخصيص بالكفَّار غيرُ مختار، ويؤيّد ذلك ما أخرجه ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سعيد بن المسيَّب قال: لمَّا نزلت هذه الآية: «وإنَّ ربك».. إلخ، قال رسول الله ﷺ: «لولا عفوُ الله تعالى وتجاوزُه، ما هنأ أحداً العيشُ، ولولا وعيدُه وعقابه لاتَّكل كلُّ أحد»[3].

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وهم المستعجلون، كما رُوي عن قتادة، وكأنَّه إنَّما عبَّر عنهم بذلك نعياً عليهم كفرَهم بآيات الله تعالى التي تخرُّ لها صمُّ الجبال، حيثُ لم

---

(١) في الأصل: فإنه.
(٢) ٣/ ٨٢.
(٣) ابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢٢٢٤، وهو مرسل.

يرفعوا لها رأساً، ولم يعدُّوها من جنس الآيات، وقالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ مثلُ آيات موسى وعيسى عليهما السلام، من قلب العصا حيَّة، وإحياءِ الموتى، عِناداً أو مُكابرةً، وإلَّا ففي أدنى آيةٍ أُنزلت عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ غُنيةٌ وعِبرةٌ لأولي الألباب.

والتعبير بالمضارع استحضاراً للحال الماضية، وجوز أن يكون إشارةً إلى أنَّ ذلك القول ديدنُهم.

وتنوين «آيةٌ» للتعظيم، وجُوِّز أن يكون للوَحْدة.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ مُرسَلٌ للإنذار من سوء عاقبة ما نهى الله تعالى عنه، كدأبِ من قبلك من الرسل، وليس عليك إلَّا الإتيان بما يُعلم به نبوَّتُك، وقد حصل بما لا مَزيد عليه، ولا حاجة إلى إلزامهم وإلقامهم الحجرَ بالإتيان بما اقترحوه.

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾ أي: نبيٌّ داعٍ إلى الحقِّ، مرشدٌ إليه بآية تَليقُ به وبزمانه. والتنكير للإبهام، ورُوي هذا عن قتادة أيضاً ومجاهد.

وعليه فقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ استئنافٌ، جواباً عن سؤال من يقول: لماذا لم يُجابوا إلى المقترَح، فتنقطعَ حُجَّتهم ولعلَّهم يهتدون؟ بأنَّ ذلك أمرٌ مدبَّرٌ ببالغ العلم ونافذ القدرة لا عن الجُزاف واتِّباع آرائهم السخاف.

وجوز أن يراد بالهادي هو الله تعالى، ورُوي ذلك عن ابن عباس والضحاك وابن جبير، فالتنوينُ فيه للتفخيم والتعظيم، وتوجيه الآية على ذلك: أنَّهم لما أنكروا الآيات عناداً؛ لكفرهم الناشئ عن التقليد، ولم يتدبَّروا الآيات قيل: إنما أنت منذرٌ لا هادٍ، مثبتٌ للآيات[١] في صدورهم، صادٌّ لهم عن جحودهم، فإنَّ ذلك إلى الله تعالى وحده وهو سبحانه القادر وحدَه[٢] عليه.

وعلى هذا قيل: يجوز أن يكون قوله سبحانه: «الله» خبرَ مبتدأ محذوف، أي: هو الله، ويكون ذلك تفسيراً لـ «هاد»، و«يعلم» جملة مقرّرة لاستقلاله تعالى بالهداية كالعلَّة لذلك، ويجوز أن يكون جملة «الله يعلم» مقرّرة، ويكون من باب

(١) في (م): للإيمان.
(٢) قوله: وحده، ليس في (م).

إقامة الظاهر مقام المضمر، كأنَّه هو تعالى يعلم ـ أي ـ ذلك الهادي، والأول بعيد جداً.

وأخرج ابن مردويه، عن ابن عباس، وابنُ جرير، عن عكرمة وأبي الضحى: أنَّ المنذر والهادي هو رسولُ الله ﷺ[1].

ووجه ذلك بأنَّ «هاد» عطف على «منذر»، و«لكل قوم» متعلق به، قدِّم عليه للفاصلة.

وفي ذلك دليل على عموم رسالته ﷺ وشمول دعوته. وفيه الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بالجارِّ والمجرور، والنحويون في جوازه مختلفون.

وقد يجعل «هاد» خبر مبتدأ مقدَّر، أي: وهو هادٍ، أو: وأنت هادٍ، وعلى الأول فيه التفات. وقال أبو العالية: الهادي: العمل. وقال علي بن عيسى: هو السابق إلى الهدى، ولكلٍّ قوم سابقٌ سبقهم إلى الهدى. قال أبو حيان[2]: وهذا يرجعُ إلى أنَّ الهادي هو النبيُّ؛ لأنَّه الذي يسبق إلى ذلك. وعن أبي صالح أنَّه القائد إلى الخير أو إلى الشرِّ. والكلُّ كما ترى.

وقالت الشيعة: إنه عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه، ورووْا ذلك في أخبار كثيرة[3]، وذكر ذلك القشيريُّ منا.

وأخرج ابن جرير، وابن مردويه، والديلميُّ، وابنُ عساكر، عن ابن عباس قال: لمَّا نزلت «إنما أنت منذر» الآية، وضع رسولُ الله ﷺ يدَه على صدره فقال: «أنا المنذر». وأومأ بيدِه إلى مَنْكِبِ عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه، فقال: «أنت الهادي يا عليُّ، بك يهتدي المهتدون من بعدي»[4]. وأخرج عبدُ الله بن أحمد في «زوائد المسند»، وابن أبي حاتم، والطبرانيُّ في «الأوسط»، والحاكم

---

(١) الطبري في تفسيره ١٣/٤٣٨، وفيه: عن عكرمة ومنصور عن أبي الضحى.

(٢) ذكر أبو حيان هذا القول في البحر المحيط ٥/٣٦٨ ونسبه لعيسى بن عمر.

(٣) في (م): في ذلك أخباراً.

(٤) ابن جرير في تفسيره ١٣/٤٤٢، ٤٤٣، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٢/٣٥٩. قال ابن كثير عنه عند تفسير هذه الآية: وهذا الحديث فيه نكارة شديدة.

وصحَّحه، وابن عساكر أيضاً، عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه أنَّه قال في الآية: رسولُ الله ﷺ المنذرُ، وأنا الهادي. وفي لفظٍ: الهادي: رجلٌ من بني هاشم[(١)] - يعني نفسه -.

واستدلَّ بذلك الشيعةُ على خلافة عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه بعدَ رسول الله ﷺ بلا فصل. وأجيب بأنَّا لا نسلِّم صحَّة الخبر، وتصحيحُ الحاكم محكومٌ عليه بعدم الاعتبار عند أهل الأثر، وليس في الآية دلالةٌ على ما تضمَّنه بوجهٍ من الوجوه، على أنَّ قصارى ما فيه كونه - كرَّم الله تعالى وجهه - به يهتدي المهتدون بعد رسول الله ﷺ، وذلك لا يستدعي إلَّا إثباتَ مرتبة الإرشاد، وهو أمرٌ والخلافةُ التي نقول بها أمرٌ، لا تلازم بينهما عندنا.

وقال بعضهم: إنْ صحَّ الخبر يلزم القول بصحَّة خلافة الثلاثة ﷺ، حيثُ دلَّ على أنَّه - كرَّم الله تعالى وجهه - على الحقِّ فيما يأتي ويذر، وأنه الذي يُهتدى به، وهو قد بايع أولئك الخلفاء طوعاً ومدحهم وأثنى عليهم خيراً ولم يَطعُن في خلافتهم، فينبغي الاقتداءُ به والجريُ على سننه في ذلك، ودون إثبات خلاف ما أظهر خَرْط القَتَاد.

وقال أبو حيان[(٢)]: إنه ﷺ على فَرْض صحَّة الرواية، إنَّما جعل عليّاً كرَّم الله تعالى وجهه مثالاً من علماء الأُمة وهداتها إلى الدين، فكأنَّه عليه الصلاة والسلام قال: يا عليُّ، هذا وصفك. فيدخل الخلفاء الثلاث وسائر علماء الصحابة ﷺ بل وسائر علماء الأمة، وعليه فيكون معنى الآية: إنَّما أنت منذرٌ ولكلِّ قومٍ في القديم والحديث إلى ما شاء الله تعالى هداةٌ دعاة إلى الخير. اهـ.

وظاهره أنه لم يحمل تقديم المعمول[(٣)] في خبر ابن عباس ﷺ على الحصر الحقيقي، وحينئذٍ لا مانع من القول بكثرة من يُهتدى به، ويؤيِّد عدمَ الحصر ما جاء

---

(١) مسند أحمد (١٠٤١)، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٢٥، والأوسط (١٣٦١)، والمستدرك ٣/ ١٢٩-١٣٠، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٢/ ٣٥٩.
وتعقَّب الذهبيُّ تصحيحَ الحاكم فقال: بل كذب، قبَّح الله واضعه.

(٢) في البحر ٥/ ٣٦٨.

(٣) في الأصل: المحمول.

عندنا من قوله ﷺ: «اقتدُوا باللَّذين من بعدي: أبي بكرٍ وعمرَ»(١) وأخبار أُخَر متضمنة لإثبات من يهتدى به غير عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه.

وأنا أظنُّك لا تلتفت إلى التأويل ولا تعبأ بما قيل وتكتفي بمنع صحَّة الخبر، وتقول: ليس في الآية ممَّا يدل عليه عين ولا أثر.

هذا، و«ما» يحتمل أن تكون مصدرية، أي: يعلم حملَ كلِّ أُنثى من أيِّ الإناث كانت. والحمل على هذا بمعنى المحمول. وأن تكون موصولةً والعائد محذوف، أي: الذي تحمله في بطنها من حينِ العلوق إلى زمن الولادة، لا بعدَ تكامل الخلق فقط. وجوز أن تكون نكرةً موصوفةً. و«يعلم» قيل: متعدِّية إلى واحد، فهي عرفانية. ونُظر فيه بأنَّ المعرفةَ لا يصحُّ استعمالها في علم الله تعالى وهو ناشئٌ من عدم المعرفة بتحقيق ذلك، وقد تقدَّم(٢). وجوز أن تكون استفهاميةً معلّقة لـ «يعلم»(٣)، وهي مبتدأ أو مفعول مقدَّم، والجملة سادَّةٌ مسدَّ المفعولين، أي: يعلم أيّ شيءٍ تحمل.

وعلى أيِّ حالٍ هو من الأحوال المتواردة عليه طوراً فطوراً، ولا يخفى أنَّ هذا خلاف الظاهر المتبادر.

وكما جوز في «ما» هذه هذه الأوجهُ، جوّزت في «ما» بعدَها أيضاً.

ووجه مناسبة الآية لما قبلها قد عُلم ممَّا سبق، وقيل: وجهها أنَّه لما تقدَّم إنكارهم البعثَ، وكان من شُبَهِهم تفرُّقُ الأجزاء واختلاطُ بعضها ببعض بحيث لا يتهيَّأ الامتياز بينها، نبَّه سبحانه بهذه الآية على إحاطة علمه ـ جلَّ شأنه ـ إزاحةً لشبهتهم. وقيل: وجهها أنَّهم لما استعجلوا بالسيئة، نبَّه عزَّ وجل على إحاطة علمه تعالى ليفيد أنَّه ـ جلَّت حكمته ـ إنَّما يُنزل العذاب حسبما يعلم من المصلحة والحكمة.

وفي مصحف أُبيٍّ ومرَّ ما قيل في نظيره ـ: «ما تحملُ كلُّ أنثى وما تضعُ»(٤).

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٢٤٥)، والترمذي (٣٦٦٢) من حديث حذيفة ﷺ، وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٢) في سورة الأنفال، الآية (٦٠).

(٣) في الأصل: بيعلم.

(٤) البحر ٥/٣٦٩.

﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ أي: ما تنقصه وما تزداده في الجثَّة: كالخديج[1] والتامِّ، ورُوي ذلك عن ابن عباس.

وفي المدَّة: كالمولود في أقلِّ مدَّة الحمل، والمولود في أكثرها وفيما بينهما، وهو رواية أخرى عن الحبر. قيل: إنَّ الضحاك ولد لسنتين، وإنَّ هَرِمَ بن حيَّان لأربع، ومن ذلك سُمِّي: هَرِماً. وإلى كون أقصى مدَّة الحمل أربعَ سنين ذهب الشافعيُّ، وعند مالك أقصاها خمسٌ، وعند الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه أقصاها سنتان، وهو المرويُّ عن عائشة رضي الله عنها، فقد أخرج ابنُ جرير عنها: لا يكون الحملُ أكثرَ من سنتين، قدْرَ ما تتحرَّك فَلْكةُ مِغْزل[2].

وفي العدد: كالواحد فما فوق، قيل: ونهاية ما عرف أربعة، فإنَّه يُروى أنَّ شَريك بن عبد الله بن أبي نَمِر[3] القرشيَّ كان رابع أربعةٍ، وهو الذي وقف عليه إمامنا الأعظم رضي الله عنه. وقال الشافعيُّ عليه الرحمة: أخبرني شيخٌ باليمن أنَّ امرأته ولدت بطوناً في كلِّ بطن خمسةٌ. وهذا من النوادر، وقد اتَّفق مثله، لكن ما زاد على اثنين ـ لضعفه ـ لا يعيش إلَّا نادراً. وما يحكى أنه وُلد لبعضهم أربعون في بطن واحدة، كلٌّ منهم مثل الإصبع، وأنَّهم عاشوا كلُّهم، فالظاهر أنه كذب.

وقيل: المراد نقصانُ دم الحيض وازديادُه، ورُوي ذلك عن جماعة، وفيه جعل الدم في الرحم كالماء في الأرض، يغيضُ تارةً ويظهر أُخرى.

وغاض جاء متعدِّياً ولازماً، كنقص، وكذا ازداد، وهو مما اتَّفق عليه أهل اللغة[4]، فإن جعلتهما لازمَيْن لا يجوز أن تكون «ما» موصولةً أو موصوفة؛ لعدم العائد.

---

(١) الخداج: إلقاء الناقة ولدها قبل تمام الأيام. وأخدجت الناقة: جاءت بولد ناقص وإن كانت أيامه تامة. القاموس (خدج).

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٤٥٠. وفيه: قدر ما يتحول ظل مغزل. وفَلْكة المغزل: القطعة المستديرة من الخشب ونحوه تجعل في أعلاه. المعجم الوسيط (فلك).

(٣) في الأصل و(م): نمير، والمثبت من سير أعلام النبلاء ٦/ ١٥٩.

(٤) لسان العرب (غيض).

وإسنادُ الفعلين كيفما كانا إلى الأرحام فإنَّهما على اللزوم لما فيهما، وعلى التعدِّي لله جلَّ شأنه وعَظُمَ سلطانه.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء ﴿عِندَهُۥ﴾ سبحانه ﴿بِمِقْدَارٍ ۝٨﴾ بقدر، لا يُجاوزه ولا ينقص عنه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] فإنَّ كلَّ حادث من الأعراض والجواهر له في كل مرتبة من مراتب التكوين ومباديها وقتٌ معيَّن وحالٌ مخصوص لا يكاد يجاوزه، ولعلَّ حال المعدوم معلومٌ بالدلالة إذا قلنا: إنَّ الشيء هو الموجود.

و«عنده» ظرف متعلِّق بمحذوف، وقع صفة لـ «كل» أو لـ «شيء»، و«بمقدار» خبر «كل»، وجوز أن يكون الظرف متعلِّقاً بمحذوف وقع حالاً من «مقدار»، وهو في الأصل صفة له، لكنه لما قُدِّم أعرب حالاً؛ وفاءً بالقاعدة. وأن يكون ظرفاً لما يتعلَّق به الجارُّ.

والمراد بالعنديَّة الحضور العلميُّ، بل العلم الحضوريُّ على ما قيل، فإنَّ تحقق الأشياء في أنفسها[١] في أيِّ مرتبة كانت من مراتب الوجود، والاستعداد لذلك علم بالنسبة إليه تعالى، وقيل: معنى «عنده» في حكمه.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: الغائب عن الحسِّ ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: الحاضر له، عبَّر عنهما بهما مبالغةً.

وأخرج ابن أبي حاتم[٢]، عن ابن عباس أنَّ الغيبَ السِّرُّ، والشهادةَ العلانيةُ. وقيل: الأول المعدوم والثاني الموجود.

ونُقل عن بعضهم أنَّه قال: إنَّه سبحانه لا يعلم الغيب. على معنى أنْ لا غيبَ بالنسبة إليه ـ جلَّ شأنه ـ والمعدومات مشهودةٌ له تعالى، بناءً على القول برؤية المعدوم، كما برهن عليه الكورانيُّ في رسالة ألَّفها لذلك[٣].

---

(١) قوله: في أنفسها. ليس في الأصل.

(٢) في تفسيره ٧/ ٢٢٢٨.

(٣) هو الشيخ إبراهيم بن الحسن الكُوراني، (ت ١١٠١ هـ)، وسلفت ترجمته. ولعلّ الرسالة اسمها «جلاء الفهوم في رؤية المعدوم» كما سيذكره المصنف عند تفسير الآية (٤٠) من سورة النمل، حيث ذكر اسمها مختصراً، وذكر اسمها كاملاً إسماعيل باشا البغدادي في ذيل كشف الظنون ٢/ ٣٦٣ لكن دون عزوٍ إلى مؤلف.

ولا يخفى ما في ذلك من مزيد الجسارة على الله تعالى، والمصادمة لقوله جلَّ شأنه: «عالم الغيب»، ولا ينبغي لمسلم أن يتفوَّه بمثل هذه الكلمة التي تقشعرُّ من سماعها أبدانُ المؤمنين، نسأل الله تعالى أن يوفِّقنا للوقوف عند حدِّنا، ويمنَّ علينا بحسن الأدب معه سبحانه.

ورفعُ «عالم» على أنَّه خبر مبتدأ محذوف، أو خبرٌ بعد خبر.

وقرأ زيد بن عليٍّ رضي الله عنهما: «عالمَ» بالنصب على المدح[1]، وهذا الكلامُ كالدليل على ما قبله من قوله تعالى: «الله يعلم».. إلخ.

﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ العظيمُ الشأن الذي كلُّ شيءٍ دونه ﴿ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾ المستعلي على كلِّ شيءٍ في ذاته وعلمه وسائر صفاته سبحانه، وجوز أن يكون المعنى: الكبيرُ الذي يَجِلُّ عمَّا نعته به الخلْقُ من صفات المخلوقين ويتعالى عنه، فعلى الأول المرادُ تنزيهُه ـ سبحانه ـ في ذاته وصفاته عن مداناة شيءٍ منه، وعلى هذا: المراد تنزيهه تعالى عمَّا وصفَه الكفرةُ به، فهو ردٌّ لهم، كقوله جلَّ شأنه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

قال العلَّامة الطيبيُّ: إنَّ معنى: «الكبير المتعال» بالنسبة إلى مردوفه ـ وهو «عالم الغيب والشهادة» ـ هو العظيمُ الشأن، الذي يكبر عن صفات المخلوقين، ليضمَّ مع العلم العظمةَ والقدرةَ بالنظر إلى ما سبق من قوله تعالى: «ما تحمل كل أنثى» إلى آخر ما يفيد التنزيهَ عمَّا يزعمه النصارى والمشركون.

ورفع «الكبير» على أنَّه خبرٌ بعد خبر، وجوز أن يكون «عالم» مبتدأ وهو خبرُه.

﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ﴾ أي[2]: أخفاه في نفسه ولم يتلفَّظ به، وقيل: تلفَّظ به بحيثُ يُسمع[3] نفسَه دون غيره ﴿وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ من يقابل ذلك بالمعنيَيْن ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ﴾ أي[4]: مبالغٌ في الاختفاء، كأنَّه مختفٍ ﴿بِٱلَّيْلِ﴾ وطالب للزيادة ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠﴾ أي: ظاهرٌ فيه، كما رُوي عن ابن عباس.

---

(١) البحر ٥/ ٣٧٠.
(٢) ليست في (م).
(٣) في (م): لم يسمع، وهو خطأ.
(٤) ليست في (م).

وهو - على ما قال جمعٌ - في الأصل اسمُ فاعل، من سَرَبَ، إذا ذهب في سَرْبه، أي: طريقه، ويكون بمعنى: تصرف كيف شاء، قال الشاعر[1]:

أنَّى سَربتِ وكنتِ غيرَ سَروبِ ... وتُقرِّبُ الأحلامُ غيرَ قريبِ

وقال الآخر[2]:

وكلُّ أناسٍ قارَبُوا قَيْدَ فَحْلِهم ... ونحن خلَعْنَا قيْدَه فهو سارِبُ

أي: فهو متصرِّفٌ كيف شاء، لا يُدفع عن جهة، يفتخر بعزة قومه. فما ذكره الحبر لازم معناه، وقرينتُه وقوعه في مقابلة «مستخفٍ»، والظاهرُ من كلام بعضهم أنَّه حقيقةٌ في الظاهر.

ورفع «سواء» على أنَّه خبرٌ مقدم، و«من» مبتدأ مؤخَّر. ولم يثنّ الخبرَ؛ لأنَّه في الأصل مصدرٌ، وهو الآن بمعنى مستوٍ، ولم يجئ تثنيتُه في أشهر اللغات، وحكى أبو زيد: هما سواآن. و«منكم» حالٌ من الضمير المُستتر فيه، لا في «أسرَّ» و«جهر» لأنَّ ما في حيِّز الصلة والصفة لا يتقدَّم على الموصول والموصوف.

وجوَّز أبو حيان[3] كون «سواء» مبتدأ؛ لوصفه بـ «منكم»، وما بعده الخبرُ. وكذا أعرب سيبويه[4] قولَ العرب: سواءٌ عليه الخيرُ والشرُّ.

وقولُ ابنِ عطية[5]: إنَّ سيبويه ضعَّفَ ذلك بأنه ابتداءٌ بنكرة، لا يصحُّ.

---

(١) هو قيس بن الخَطيم، والبيت في ديوانه ص٥٥، ولسان العرب (سرب). ويروى أيضاً: سريت، بالياء.

(٢) وهو الأخنس بن شهاب التغلبي، شاعر جاهلي قديم، والبيت في إصلاح المنطق ص٢٢٥، والمفضليات ص٢٠٨، وصدره فيها:

أرى كل قوم قاربوا قيد فحلهم

قال السيرافي في شرح أبيات إصلاح المنطق ص٣٧٨: يعني بالفحل هاهنا السيد. يقول: كل أناس غيرنا لم يتركوا رئيسهم وسيدهم أن يفارقهم ويبعد عنهم، خشية عليه من القتل، ونحن لعزِّنا لا يجترئ أحد على سيدنا وإن كان وحده بعيداً عنا.

(٣) في البحر ٥/ ٣٧٠.

(٤) الكتاب ٢/ ٢٤ - ٢٦.

(٥) في المحرر الوجيز ٣/ ٢٩٩.

و «سارب» عطف على «من» كأنه قيل: سواءٌ منكم إنسانٌ هو مستخفٍ وآخرُ ساربٌ.

والنكتة في زيادة «هو» في الأول أنَّه الدالُّ على كمال العلم، فناسب زيادةَ تحقيق، وهو النكتة في حذف الموصوف عن «سارب» أيضاً، والوجهُ في تقديم «أسرَّ» وإعماله في صريح القول على «جهر به»[1] وإعماله في ضميره.

وجوِّز أن يكون على «مستخفٍ»، واستُشكل بأنَّ سواء يقتضي ذكرَ شيئين، فإذا كان «سارب» معطوفاً على جزء الصلة أو الصفة، لا يكون هناك إلَّا شيءٌ واحد، ولا يجيء هذا على الأول؛ لأنَّ المعنى ما علمت.

وأجيب بأنَّ «من» عبارة عن الاثنين كما في قوله:

تـعشَّ فـإنْ عـاهـدْتَـنـي لا تَـخـونُـنـي نكنْ مثلَ مَنْ يا ذئبُ يَصْطحِبانِ[2]

فكأنَّه قيل: سواءٌ منكم اثنان، مستخفٍ بالليل وساربٌ بالنهار.

قال في «الكشف»: وعلى الوجهين «من» موصوفةٌ لا موصولة، فيحمل الأوليان أيضاً[3] على ذلك؛ ليتوافق الكلُّ، وإيثارُها على الموصولة دلالةٌ على أنَّ المقصودَ الوصفُ، فإنَّ ذلك متعلّق العلم. وأمَّا لو قيل: سواءٌ الذي أسرَّ القول والذي جهر به، فإن أريد الجنسُ من باب:

ولـقـد أمُـرُّ عـلـى الـلَّـئـيـمِ يَـسُـبُّـنـي[4]

---

(١) في (م): جهره.

(٢) البيت للفرزدق، وهو في ديوانه ٢/ ٣٢٩، والكتاب ٢/ ٤١٦، والكامل ١/ ٤٧٣. وجاء في (م) والكتاب: تعال.

(٣) ليست في الأصل.

(٤) صدر بيت لرجل من بني سَلول، كما ذكر ذلك سيبويه في الكتاب ٣/ ٢٤، والبغدادي في الخزانة ١/ ٣٥٧ ـ ٣٥٨، ونسبه الأصمعي في الأصمعيات ص١٢٦ إلى شَمِر بن عمرو الحنفي، أحد شعراء بني حنيفة باليمامة، وجاء عنده: مررت، بدل: أمر. وعجز البيت:

فـمـضـيـتُ ثُـمَّـتَ قـلـتُ لا يـعـنـيـنـي

وأورده أيضاً المبرد في الكامل ٢/ ٩٨٣ ولم ينسبه، وجاء عجز البيت عنده:

فـأجـوز ثـمَّ أقـول لا يـعـنـيـنـي

فهو والأول سواءٌ، لكنَّ الأول نصٌّ. وإن أريد المعهود حقيقةً أو تقديراً، لزم إيهامُ خلاف المقصود لما مرَّ. وقيل: في الكلام موصولٌ محذوف، والتقدير: ومن هو ساربٌ، كقول أبي فراس[1]:

فليتَ الَّذي بيني وبينكَ عامرٌ وبيني وبينَ العالمينَ خَرابُ

وقول حسان:

أمَنْ يهْجُو رَسُولَ الله مِنكُمْ وَيَمْدحُه وَيَنْصرُه سَواءُ[2]

وهو ضعيفٌ جدّاً؛ لما فيه من حذف الموصول مع صدر الصلة، وقد ادَّعى الزمخشريُّ أنَّ أحد الحذفَيْن سائغٌ، لكنَّ اجتماعَهما منكرٌ من المنكرات، بخلاف البيتين[3].

وقال أبو حيان[4]: إنَّ حذف «من» هنا ـ وإن كان للعلم به ـ لا يجوز عند البصريين، ويجوز عند الكوفيين. وزعم بعضُهم أنَّ المقصود استواءُ الحالتين، سواءٌ كانتا لواحدٍ أو لاثنين، والمعنى: سواءٌ استخفاؤه وسروبُه بالنسبة إلى علم الله تعالى، فلا حاجة إلى توجيه الآية بما مرَّ، وكذا حال ما تقدَّمه، فعبَّر بأسلوبين والمقصودُ واحد.

وتُعقِّب بأنه لا تساعده العربية؛ لأنَّ «من» لا تكون مصدرية، ولا سابكَ في الكلام.

وزعم ابن عطية[5] جوازَ أن تكون الآيةُ متضمِّنةً ثلاثة أصناف: فالذي يسرُّ طرف، والذي يجهر طرف مضادٌّ للأول، والثالث متلوِّن يعصي بالليل مستخفياً ويظهر البراءة بالنهار. وهو كما ترى. ومن الغريب ما نُقل عن الأخفش وقُطْرب[6]

(١) ديوانه ص٢٤.
(٢) البيت في ديوانه ص٦٤. وفيه: فمن، بدل: أمن.
(٣) ينظر الانتصاف بحاشية الكشاف ٢/ ٣٥١.
(٤) البحر ٥/ ٣٧٠.
(٥) في المحرر الوجيز ٣/ ٣٠٠.
(٦) ينظر البحر ٥/ ٣٧٠.

تفسير المستخفي بالظاهر، فإنَّه وإن كان موجوداً في كلامهم بهذا المعنى، لكن يمنع عنه في الآية ما يمنع، ثمَّ إنَّ في بيان علمه تعالى بما ذكر بعد بيان شمول علمه سبحانه الأشياءَ كلَّها ما لا يخفى من الاعتناء بذلك.

﴿لَهُۥ﴾ الضمير راجع إلى من تقدَّم ممن أسرَّ بالقول وجهر به إلى آخره، باعتبار تأويله بالمذكور وإجرائه مجرى اسم الإشارة، وكذا المذكورة بعده.

﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ ملائكةٌ تَعْتقب في حفظه وكلاءته. جمع: مُعقِّبة، من عقَّب مبالغةً في عَقِبه، إذ جاء على عقبه، وأصله من العَقِب وهو مؤخَّر الرِّجل، ثم تجوّز به عن كون الفعل بغير فاصلٍ ومهلةٍ كأنَّ أحدَهم يطأ عَقِب الآخر، فالتفعيل للتكثير فهو إمَّا في الفاعل أو في الفعل، لا للتعدية؛ لأنَّ ثلاثيَّهُ متعدٍّ بنفسه، ويجوز أن يكون إطلاق المعقِّبات على الملائكة عليهم السلام باعتبار أنَّهم يعقبون أقوالَ الشخص وأفعالَه، أي: يتبعونها ويحفظونها بالكتابة.

وقال الزمخشريُّ[1]: إنَّ أصله معتقبات، فهو من باب الافتعال، فأُدغمت التاء في القاف كقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ [التوبة: ٩٠] أي: المعتذرون.

وتُعقِّب بأنَّه وهم فاحش، فإنَّ التاء لا تُدغم في القاف من كلمة أو كلمتين، وقد نصَّ الصرفيون على أنَّ القاف والكاف كلٌّ منهما يدغم[2] في الآخر، ولا يدغمان في غيرهما.

والتاء في معقِّبة؛ للمبالغة، كتاء نسَّابة؛ لأنَّ الملائكةَ عليهم السلام غيرُ مؤنَّثين، وقيل: هي للتأنيث، بمعنى أنَّ معقِّبة صفةُ جماعة منهم، فمعنى معقِّبات: جماعاتٌ كلٌّ جماعة منها معقِّبة.

وليس معقِّبة جمعُ معقِّب، وذكر الطبريُّ[3] أنَّه جمعُه، وشبَّه ذلك برجل ورجال ورجالات، وهو كما ترى، لكن أوَّله أبو حيان[4] بأنَّه أراد بقوله: جمع معقِّب. أنَّه

---

(١) في الكشاف ٢/ ٣٥٢.

(٢) قبلها في الأصل و(م): لا، ولعله سبق قلم من المصنف رحمه الله. والمثبت من البحر ٥/ ٣٧١، والدر المصون ٧/ ٢٧، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٢٥ ومنه نقل المصنف.

(٣) في تفسيره ١٣/ ٤٥٦.

(٤) في البحر ٥/ ٣٧١.

أُطلق من حيثُ الاستعمالُ على جمع معقِّب، وإن كان أصله أنْ يطلق على مؤنث معقِّب، فصار مثل: الواردة، للجماعة الذين يردون، وإن كان أصله أن يطلق على مؤنَّث وارد، وتشبيه ذلك بما ذُكر من حيثُ المعنى لا من حيثُ صناعةُ النحو، فبيَّن أنَّ معقِّبة من حيثُ أُريد به الجمع، كرجال من حيثُ وُضع للجمع، وأنَّ معقِّبات من حيثُ استُعمل جمعاً لمعقِّبة المستعمل في الجمع، كرجالات الذي هو جمع رجال.

وقرأ أُبيٌّ وإبراهيم: «معاقيب»[١]، وهو جمع ـ كما قال الزمخشريُّ[٢] ـ جمع معقِّب أو معقِّبة، بتشديد القاف فيهما، والياء عوض من حذف إحدى القافين في التكسير. وقال ابن جنيّ: إنَّه تكسير مُعْقِب، كمُطْعِم ومطاعيم، ومُقْدِم ومقاديم، كأنَّه جمع على مَعاقِبة، ثمَّ حذفت الهاء من الجمع وعوِّضت الياء عنها. ولعلَّه الأظهرُ[٣].

وقرئ: «معتقبات»[٤] من اعتقب.

﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقعَ صفة لمعقِّبات، أو حالاً من الضمير في الظرف الواقع خبراً له، فالمعنى: أنَّ المعقِّباتِ محيطةٌ بجميع جوانبه. أو هو متعلِّق بـ «معقِّبات»، و«من» لابتداء الغاية، فالمعنى: أنَّ المعقِّبات تحفظ ما قدَّم وأخَّر من الأعمال. أي: تحفظ جميع أعماله. وجوّز أن يكون متعلِّقاً بقوله تعالى: ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾، والجملة صفة «معقِّبات»، أو حالٌ من الضمير في الظرف.

وقرأ أبيٌّ: «مِنْ بين يَدَيْه ورقيبٌ مِنْ خَلْفه»[٥]، وابنُ عباس: «ورقباءُ مِنْ خَلْفه»، وروى مجاهدٌ عنه أنَّه قرأ: «له معقِّباتٌ مِنْ خلفه ورقيبٌ مِنْ بين يَدَيْه يحفظُونَه»[٦].

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٦ ونسبها لزياد بن أبي سفيان، والمحتسب ١/ ٣٥٥ ونسبها لعبيد الله بن زياد، ونسبها لأُبيّ وإبراهيم أبو حيان في البحر ٥/ ٣٧٢.

(٢) في الكشاف ٢/ ٣٥٢.

(٣) المحتسب ١/ ٣٥٥، وينظر البحر المحيط ٥/ ٣٧٢، والدر المصون ٧/ ٢٨، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٢٥.

(٤) البحر ٥/ ٣٧٢.

(٥) الطبري ١٣/ ٤٥٩، والبحر ٥/ ٣٧٢.

(٦) البحر ٥/ ٣٧٢، قال أبو حيان بعد ذكر هذه القراءات: وينبغي حمل هذه القراءات على التفسير، لا أنها قرآن؛ لمخالفتها سواد المصحف الذي أجمع عليه المسلمون.

﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ متعلِّقٌ بما عنده، و«من» للسببية، أي: يحفظونه من المضارِّ بسبب أمر الله تعالى لهم بذلك، ويؤيِّدُ ذلك أنَّ علياً كرَّم الله تعالى وجهه وابنَ عباس رضي الله عنهما وزيدَ بن علي وجعفر بن محمد وعكرمة رضي الله عنهم قرؤوا: «بأمر الله» بالباء[1]، وهي ظاهرة في السببية.

وجوز أن يتعلَّق بذلك أيضاً، لكن على معنى: يحفظونه من بأسه تعالى متى أذنب، بالاستمهال أو الاستغفار له، أي: يحفظونه باستدعائهم من الله تعالى أن يمهلَه ويؤخِّرَ عقابه؛ ليتوب أو يطلبون من الله تعالى أن يغفرَ له ولا يعذبه أصلاً، وقال في «البحر»[2]: إنَّ معنى الكلام يصير على هذا الوجه إلى التضمين، أي: يدعون له بالحفظ من نقمات الله تعالى.

وقال الفرَّاء[3] وجماعة: في الكلام تقديمٌ وتأخير، أي: له معقِّباتٌ من أمر الله يحفظونه من بين يديه ومن خلفه. وروي هذا عن مجاهد والنخعي وابن جُريج. فيكون «من أمر الله» متعلِّقاً بمحذوف وقع صفة لـ «معقِّبات»، أي: كائنة من أمره تعالى.

وقيل: إنَّه لا يحتاج في هذا المعنى إلى دعوى تقديم وتأخير، بأن يقال: إنَّه سبحانه وصف المعقِّبات بثلاث صفاتٍ:

إحداها: كونُها كائنةً من بين يديه ومن خلفه. وثانيتها: كونُها حافظةً له. وثالثتها: كونُها كائنةً من أمره سبحانه.

وإن جُعل «من بين يديه» متعلِّقاً بـ «يحفظونه» يكون هناك صفتان، الجملةُ والجارُّ والمجرور. وتقديمُ الوصف بالجملة على الوصف به سائغ شائع في الفصيح، وكأنَّ الوصف بالجملة الدالَّة على الديمومة في الحفظ؛ لكونه آكدُ، قُدِّم على الوصف الآخر.

وأخرج ابن أبي حاتم، وابنُ جرير، وأبو الشيخ، عن ابن عباس: أنَّ المرادَ

(١) المحتسب ١/ ٣٥٥، والبحر ٥/ ٣٧٢.
(٢) ٥/ ٣٧٢.
(٣) في معاني القرآن ٢/ ٦٠.

بالمعقِّبات الحرسُ الذين يتَّخذهم الأمراء لحفظهم من القتل ونحوه[١]. ورُوي مثله عن عكرمة.

ومعنى «يحفظونه من أمر الله» أنَّهم يحفظونه من قضاء الله تعالى وقدره، ويدفعون عنه ذلك في توهُّمه؛ لجهله بالله تعالى. ويجوز أن يكون من باب الاستعارة التهكُّمية، على حدِّ ما اشتَهر في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]. فهو مستعارٌ لضدِّه، وحقيقتُه لا يحفظونه. وعلى ذلك يخرَّج قولُ بعضهم: إنَّ المراد لا يحفظونه، لا على أنَّ هناك نفياً مقدَّراً كما يُتوهَّم.

والأكثرون على أنَّ المرادَ بالمعقِّبات الملائكةُ، وفي الصحيح: «يتعاقَبُ فيكم ملائكةٌ باللَّيلِ وملائكةٌ بالنَّهار، ويجتمعون في صَلاة الصُّبحِ وصَلاة العصرِ»[٢] وذكروا أنَّ مع العبد غيرَ الملائكة الكرام الكاتبين ملائكةً حفظةً، فقد أخرج أبو داود، وابن المنذر، وابن أبي الدنيا، وغيرُهم، عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه قال: لكلِّ عبدٍ حفظةٌ يحفظونه، لا يخرُّ عليه حائطٌ، أو يتردَّى في بئر، أو تُصيبُه دابَّةٌ، حتى إذا جاء القدَرُ الذي قُدِّر له، خلت عنه الحفظةُ، فأصابَه ما شاء الله تعالى أن يُصيبَه[٣].

وأخرجَ ابنُ أبي الدنيا، والطبرانيُّ، والصابونيُّ[٤]، عن أبي أُمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «وُكِّل بالمؤمن ثلاث مئة وستُّون مَلَكاً، يدفعون عنه ما لم يقدر عليه، من ذلك للبصر سبعةُ أملاكٍ يذبُّون عنه كما يُذَبُّ عن قصعةِ العسل من الذباب في اليوم الصائف، وما لو بدا لكم لرأيتموه على كلِّ سهلٍ وجبلٍ، كلُّهم باسطٌ يديه فاغرٌ فاه، وما لو وُكِّل العبدُ فيه إلى نفسِه طرفَةَ عينٍ لاختطفَتْه الشياطينُ»[٥].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٢٩ ـ ٢٢٣٠، وتفسير ابن جرير ١٣/ ٤٦٠.

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢)، وهو عند أحمد (٧٤٩١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه أبو داود في القدر كما في الدر المنثور ٤/ ٤٨.

(٤) هو: إسماعيل بن عبد الرحمن، أبو عثمان، النيسابوري، المفسِّر، المحدِّث، توفي سنة (٤٤٩هـ). «سير أعلام النبلاء» ١٨/ ٤٠.

(٥) الطبراني في الكبير (٧٧٠٤)، وفيه: «وكل بالمؤمن تسعون ومئة ملك، يذبون عنه ما لم يقدر عليه، من ذلك النفر تسعة أملاك يذبون عنه كما يُذَّب عن قصعة العسل. . .». وذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٤٨، ومنه نقل المؤلف.

وأخرج ابنُ جرير(١)، عن كِنانة العَدَويّ(٢) قال: دخل عثمانُ رضي الله عنه على رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، أخبرني عن العبدِ، كم معه من مَلَك؟ فقال: «مَلَكٌ عن يمينِكَ على حسناتِك، وهو أميرٌ(٣) على الذي على الشمال، إذا عملتَ حسنةً، كُتبتْ عشراً، فإذا عملتَ سيئةً، قال الذي على الشمال للذي على اليمين: أأكتبُ؟ قال: لا، لعلَّه يستغفرُ الله تعالى ويتوبُ. فإذا قال ثلاثاً، قال: نعم، اكتُب أراحنا الله تعالى منه، فبئسَ القرينُ، ما أقلَّ مراقبتَه لله سبحانه، وأقلَّ استحياءَه منه تعالى(٤)، يقولُ الله جلَّ وعلا: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨] ومَلَكان من بينِ يديك، ومَلَكان من خلفك، يقول الله تعالى: (لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ) ومَلَك قابضٌ على ناصيتِكَ، فإذا تواضعتَ لله تعالى رفعكَ، وإذا تجبَّرتَ على الله تعالى قصمَكَ(٥)، ومَلَك قائمٌ على فيك، لا يَدَعُ أن تدخلَ الحيةُ فيه، ومَلَكان على عينِكَ، فهؤلاء عشرَةُ أملاكٍ ينزلون على كلِّ بني آدم في النهار وينزل مثلُهم في الليل»(٦). والأخبار في هذا البابِ كثيرةٌ.

واستُشكل أمر الحفظ بأنَّ المقدَّرَ لا بدَّ من أن يكون، وغيرَ المقدَّرِ لا يكون أبداً، فالحفظُ من أيِّ شيء؟.

وأُجيب بأنَّ من القضاء والقدر ما هو معلَّقٌ فيكون الحفظ منه، ولهذا حَسُن تعاطي الأسباب، وإلَّا فمثل ذلك واردٌ فيها، بأن يقال: إنَّ الأمر الذي نُريد أن نتعاطاه إمَّا أن يكون مقدَّراً وجودُه فلا بدَّ أن يكون، أو مقدَّراً عدمُه فلابدَّ أن لا يكون، فما الفائدةُ في تعاطيه والتَّشبُّثِ بأسبابه؟. وتُعقِّب هذا بأنَّ ما ذكر

---

(١) في تفسيره ١٣/ ٤٥٧.

(٢) هو كنانة بن نُعيم العدَوي، أبو بكر البصري، تابعي ثقة، ذكره ابن سعد في الطبقة الثانية من أهل البصرة. طبقات ابن سعد ٧/ ٢٢٧، وتهذيب الكمال ٢٤/ ٢٢٧.

(٣) جاءت عند الطبري: وهو أمين، وهي كذلك في الدر المنثور ٤/ ٤٨، وجاءت في بعض طبعات تفسير ابن كثير: آمر.

(٤) قوله: منه تعالى، ليس في الأصل، وجاءت عند الطبري: منَّا.

(٥) جاء بعدها في المصادر: «وملكان على شفتيك، ليس يحفظان عليك إلا الصلاة على النبي».

(٦) ذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وقال: حديث غريب جداً.

إنَّما حسن منَّا؛ لجهلنا بأنَّ ما نطلبه من المعلَّق أو من غيرِه، والمسألةُ المستشكلة ليست كذلك، وأنت تعلم أنَّ الله تعالى جعل في المحسوساتِ أسباباً محسوسةً، وربط بها مسبّباتِها حسبما تقضيه حكمتُه الباهرة، ولو شاء لأوجدَ المُسبّبات من غير أسباب؛ لغناه ـ جلَّ شأنه ـ الذاتي، ولا مانع من أن يجعلَ الأمور الغير المحسوسة أسباباً يربط بها المُسببات كذلك، وحينئذ يقال: إنَّه ـ جلَّت عظمتُه ـ جعل أولئك الحفظَة أسباباً للحفظ، كما جعل في المحسوس ـ نحوَ الجَفْن للعين ـ سبباً لحفظها، مع أنَّه ليس سبباً إلَّا للحفظ ممَّا لم يبرم من قضائهِ وقدره جلَّ جلالُه، والوقوفُ على الحِكَم بأعيانِها ممَّا لم نُكلَّف به، والعلمُ بأنَّ أفعالَه تعالى لا تخلو عن الحِكَم والمصالحِ على الإجمال ممَّا يكفي المؤمن.

ويقال نحوُ هذا في أمر الكرام الكاتبين، فهم موجودون بالنصِّ، وقد جعلهم الله تعالى حَفَظةً لأعمال العبدِ، كاتبين لها، ونحن نؤمن بذلك وإن لم نعلم ما قلمُهم ولا مدادُهم وما قرطاسُهم وكيف كتابتهم وأين محلُّهم وما حكمةُ ذلك؟ مع أنَّ علمَه تعالى كافٍ في الثواب والعقاب عليها، وكذا تذكُّر الإنسان لها وعلمُه بها يومَ القيامة كافٍ في دفع ما عسى أن يختلجَ في صدره عند معاينةِ ما يترتَّبُ عليها. ومن الناس من خاضَ في بيان الحكمة، وهو أسهلُ من بيان ما معها.

وذكر الإمامُ الرازيُّ(١) في جواب السؤال عن فائدة جعلِ الملائكة ـ عليهم السلام ـ موكَّلين علينا كلاماً طويلاً، فقال: اعلم أنَّ ذلك غيرُ مستبعد؛ لأنَّ المنجِّمين اتَّفقوا على أنَّ التدبير في كلِّ يوم لكوكب على حدة، وكذا القول في كلِّ ليلة، ولا شكَّ أنَّ لتلك الكواكب أرواحاً عندهم، فتلك التدبيراتُ المختلفة لتلك الأرواح في الحقيقة، وكذا القول في تدبير الهيلاج والكدخداه(٢) على ما يقولون. وأمَّا أصحاب الطِّلَّسْمات فهذا الكلامُ مشهورٌ على ألسنتهم فإنَّهم يقولون: أخبرنا الطباع التامُّ بكذا. ومرادهم به أنَّ لكلِّ إنسان روحاً فلكيَّةً تتولى صلاحَ مهماتِه ودفعَ

---

(١) في تفسيره ١٩/ ١٩ ـ ٢٠ بنحوه.

(٢) الهيلاج والكدخداه من مصطلحات علم النجوم الذي يعرف به تأثيرات النجوم في السفليات مع دلالتها، والهيلاج عبارة عن دليل العمر، والكدخداه ـ ويقال له: الرابي ـ هو المستولي على موضع الهيلاج. معجم مقاليد العلوم ص١٧٠.

بلياته وآفاته، وإذا كان هذا متفقاً عليه بين قدماء الفلاسفة وأصحاب الأحكام، فكيف يستبعد مجيئه في الشرع؟. وتمام التحقيق فيه أنَّ الأرواحَ البشرية مختلفةٌ في جواهرها وطبائعها، فبعضُها خيِّرةٌ، وبعضُها شريرةٌ، وبعضُها حرَّةٌ، وبعضها نذلةٌ، وبعضها قويَّةُ القهر، وبعضها ضعيفته، وكما أنَّ الأمر في الأرواح البشرية كذلك فكذلك القولُ في الأرواح الفلكيَّة، ولا شكَّ أنَّ الأرواح الفلكيَّة في كلِّ بابٍ وصفةٍ أقوى من الأرواح البشرية، وكلُّ طائفة من الأرواح البشرية تكون متشاركةً في طبيعةٍ خاصَّة وصفةٍ مخصوصة، وتكون في مرتبة روح من الأرواح الفلكية مشاكلةً لها في الطبيعة والخاصيَّة، فتكون تلك الأرواح البشرية كأنَّها أولادٌ لذلك الروح الفلكي، وإذا كان الأمر كذلك فإنَّ ذلك الروح الفلكيَّ يكون مُعِيْناً على مهمَّاتها، ومُرشداً لها إلى مصالحها وعاصماً إيَّاها عن صنوف الآفات، وهذا كلامٌ ذكره مُحقِّقو الفلاسفة، وبذلك يُعلم أنَّ ما وردت به الشريعةُ أمرٌ مقبولٌ عند الكلِّ، فلا يُمكن استنكاره[1]. اهـ.

ولعلَّ مقصوده بذلك تنظيرُ أمر الحفظة مع العبد بأمر الأرواح الفلكية معه على زعم الفلاسفة في الجملة، وإلَّا فما يقوله المسلمون في أمرهم أمرٌ، وما يقوله الفلاسفة في أمر تلك الأرواح أمرٌ آخرُ، وهيهاتَ هيهاتَ أن نقول بما قالوا، فإنَّه بعيدٌ عما جاء عن الشارع ـ عليه الصلاة والسلام ـ بمراحلَ، ثم ذكر[2] ـ عليه الرحمة ـ من فوائد الحَفَظة للأعمال أنَّ العبد إذا علم أنَّ الملائكةَ عليهم السلام يحضرونه ويُحصون عليه أعماله ـ وهم هم ـ كان أقربَ إلى الحذر عن ارتكاب المعاصي، كمن يكون بين يدي أُناسٍ أَجِلَّاءَ من خدَّام الملك موكَّلين عليه، فإنَّه لا يكاد يحاول معصيةً بينهم.

وقد ذكر ذلك غيرُه ولا يخلو من حُسْن. ثم ذكر[3] عن المتكلِّمين في فائدة الصحف المكتوبة أنَّها وزنُها يومَ القيامة، فمن ثَقُلت موازينُه فهو في عيشةٍ راضية، وأمَّا من خفَّت موازينُه فأمُّه هاويةٌ، ويظهر كلٌّ من الأمرين للخلائق.

---

(١) في الأصل: إنكاره.

(٢) أي: الرازي في تفسيره ١٩/ ٢٠.

(٣) في (م): نقل.

وتعقَّبه القاضي بأنَّ ذلك بعيدٌ؛ لأنَّ الأدلَّة قد دلَّت على أنَّ كلَّ واحدٍ قبل مماته عند المُعاينة يعلم أنَّه من السُّعداء، أو من الأشقياء ـ والعياذ بالله تعالى ـ فلا يجوز توقُّفُ حصول المعرفة على الميزان. ثم أجاب بأنَّه لا يمتنع أيضاً ما ذكرناه؛ لأمرٍ يرجع إلى حصول سرور العبد عند الخلق العظيم بظهور أنَّه من أولياء الله تعالى لهم، وحصول ضدِّ ذلك لمن كان من أعداء الله تعالى(١).

ولا يخفى أنَّ هذا مبنيٌّ على أنَّ الذي يُوزَن هو الصحف، وهو أحدُ أقوالٍ في المسألة، نعم ذهب إليه جمعٌ من الأَجِلَّةِ؛ لحديث البطاقة والسجلَّات المشهور(٢)، وكذا على أنَّ الكتابة على معناها الظاهر وهو الذي ذهب إليه أهلُ الحديث بل وغيرُهم فيما أعلم.

ونَقَلَ عن حُكماء الإسلام معنىً آخرَ فقال(٣): إنَّ الكتابة عبارةٌ عن نقوش مخصوصة وُضعت بالاصطلاح لتعريف بعض المعاني المخصوصة، فلو قدَّرنا كونَ تلك النقوش دالَّة على تلك المعاني بأعيانها وذواتها، كانت تلك الكتابةُ أقوى وأكمل، وحينئذٍ نقول: إنَّ الإنسان إذا أتى بعمل من الأعمال مرَّاتٍ كثيرةً متواليةً، حصل في نفسه بسبب ذلك مَلَكةٌ قوية راسخة، فإن كانت تلك المَلَكة مَلَكةً في أعمالٍ نافعة في السعادات الروحانية، عَظُم ابتهاجُه بعدَ الموت، وإن كانت تلك الملكةُ مَلَكةً ضارَّةً في الأحوال الروحانية، عظُمَ تضرُّرُه بها بعدُ. ثم قال: إذا ثبتَ هذا فنقول: إنَّ التكرير الكثير إن(٤) كان سبباً لحصول تلك المَلَكة الراسخة، كان لكلِّ واحدٍ من تلك الأعمال أثرٌ في حصول تلك المَلَكة، وذلك الأثر وإن كان غيرَ محسوسٍ إلَّا أنَّه حاصلٌ في الحقيقة، وإذا عُرف هذا ظهرَ أنَّه لا يحصل للإنسان لمحةٌ ولا حركةٌ ولا سكون إلَّا ويحصل منه في جوهر نفسه أثرٌ من آثار السعادةِ وآثار الشقاوة، قَلَّ أو كَثُر، وهذا هو المراد من كَتْبِ الأعمال عند حكماء الإسلام، والله تعالى العالم بحقائق الأمور. انتهى. وقد رأيتُ ذلك لبعض الصوفية.

---

(١) تفسير الرازي ١٩/ ٢١.

(٢) أخرجه أحمد (٦٩٩٤)، والترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعاً.

(٣) الرازي في تفسيره ١٩/ ٢١.

(٤) في تفسير الرازي: لمَّا.

وأنت تعلم أنَّه خلاف ما نطقت به الآيات والأخبار، ونحن في أمثال هذه الأمور لا نعدل عن الظاهر ما أمكن، والحقُّ أبلج وما بعد الحقِّ إلا الضلالُ.

هذا، ومن النَّاس من جعل ضمير «له» لـ «من» الأخير، والأول أولى. ومنهم من جعله لله تعالى وما بعدَه لـ «من»، وفيه تفكيكٌ للضمائر من غير داعٍ. ومنهم من جعله للنبيِّ ﷺ وهو عليه الصلاة والسلام معلومٌ من السياق، وقد تقدَّم الإخبار عنه ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾ الآية [يونس: ٢٠].

واستدلَّ على ذلك بما أخرجه ابنُ المنذر، وابن أبي حاتم، والطبرانيُّ في «الكبير»، وابن مردويه، وأبو نعيم في «الدلائل» من طريق عطاء بن يسار، عن ابن عباس[1]: أن أربدَ بن قيس وعامرَ بنَ الطفيل قَدِما المدينةَ على رسول الله ﷺ، فانتهيا إليه وهو - عليه الصلاة والسلام - جالسٌ، فجلسا بين يديه، فقال عامر: ما تجعلُ لي إنْ أسلمتُ؟ قال النبيُّ ﷺ: «لكَ ما للمسلمين، وعليكَ ما عليهم» قال: أتجعلُ لي إن أسلمتُ الأمرَ بعدَك؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «ليس ذلك لك ولا لقومِك، ولكن لكَ أعنَّة الخيل». قال: فاجعل لي الوبر ولكَ المَدر. فقال ﷺ: «لا» فلما قَفَى من عنده قال: لأملأنَّها عليك خيلاً ورجلاً. فقال النبيُّ ﷺ: «يمنعُكَ اللهُ تعالى» وفي رواية: «وأبناءُ قَيْلة»[2] يريدُ الأوسَ والخزرجَ. فلما خرجا قال عامرٌ: يا أربدُ، إنيِّ سألهي محمداً عنك بالحديث، فاضربْه بالسيف، فإنَّ الناس إذا قتلته لم يزيدوا على أن يرضَوا بالدية، ويكرهوا الحرب، فسنعطيهم الدية. فقال أربد: أفعل. فأقبلا راجعَيْن، فقال عامر: يا محمدُ، قم معي أُكلمْك. فقام عليه الصلاة والسلام معه، فخليا إلى الجدار، ووقف عامر يُكلِّمُه، وسلَّ أربدُ السيفَ، فلمَّا وضع يده عليه، يَبِست على قائمه، فلم يستطع سلَّه، وأبطأ على عامر، فالتفتَ رسولُ الله ﷺ فرأى أربدَ وما يصنع، فانصرف عنهما فقال عامر لأربد: مالَكَ؟ قال: وضعتُ يدي على قائم سيفي فَيَبست، فلمَّا

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٣٠، والمعجم الكبير (١٠٧٦٠)، ودلائل النبوة (١٥٧)، وهو عند ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قوله. وأخرجه عنه الطبري ١٣/ ٤٦٧.

(٢) في الدر ٤/ ٤٨: وأتيا قبيلة تدعى، وقَيْلة: هي قَيْلة بنت كاهل والدة الأوس والخزرج. ينظر طبقات ابن سعد ٣/ ٤١٩، وفتح الباري ٧/ ٢٤٣.

خرجا حتى إذا كانا بالرَّقَم[١]، نزلا، فخرج إليهما سعدُ بن معاذ، وأُسيدُ بن حُضَير، فوقع بهما أُسيد قال: اشخصا يا عدوَّي الله تعالى، لعنكم الله تعالى. فقال عامر: من هذا يا سعدُ؟ فقال: هذا أُسيد بن حُضَير الكتائب. فقال: أما والله إن كان حضيرٌ صديقاً لي. ثمَّ إنَّ الله سبحانه أرسل على أربدَ صاعقةً فقتلته، وخرج عامرٌ حتى إذا كان بوادي الجُرَير[٢]، أرسل الله تعالى عليه قرحةً فأدركه الموتُ. وفي روايةٍ: أنَّه كان يصيح: يا لعامر[٣]، أغدَّةٌ كغدَّة البعير، وموتٌ في بيت سَلوليَّةٍ. فأنزل الله تعالى فيهما: (ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ) إلى قوله سبحانه: (لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ) إلى آخره، ثم قال: المعقِّباتُ من أمر الله يحفظون محمداً ﷺ. وجاء في روايةٍ أخرى عنه ﷺ أنَّه قال: هذه للنبيِّ عليه الصلاة والسلام خاصَّة[٤]. والأكثرون على اعتبار العموم. وسببُ النزول لا يأبى ذلك، والله تعالى أعلم.

ثم إنَّه سبحانه بعدَ أن ذكر إحاطة علمِه بالعباد، وأنَّ لهم معقِّباتٍ يحفظونهم من أمره جلَّ شأنه، نبَّه على لزوم الطاعة ووبالِ المعصية، فقال عزَّ مِنْ قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ﴾ من النعمةِ والعافية ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ ما اتَّصفَتْ به ذواتُهم من الأحوال الجميلة، لا ما أضمروه ونَوَوْه فقط، والمرادُ بتغيير ذلك: تبديلُه بخلافه، لا مجرَّد تركه، وجاء عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه مرفوعاً: «يقول الله تعالى: وعزَّتي وجلالي وارتفاعي فوق عرشي، ما من أهلِ قريةٍ ولا أهل بيتٍ ولا رجلٍ ببادية كانوا على ما كرهتُ من معصيتي، ثمَّ تحوَّلوا عنها إلى ما أحببْتُ من طاعتي، إلَّا تحوَّلتُ لهم عمَّا يكرهون من عذابي إلى ما يحبُّون من رحمتي، وما من أهل قريةٍ ولا أهل بيتٍ ولا رجلٍ ببادية كانوا على ما أحببتُ من

---

(١) الرَّقَم: موضع بالمدينة، تنسب إليه الرَّقَميات. معجم البلدان (رقم).

(٢) في الأصل و(م): بالجريد، واختلف رسم هذه الكلمة في المصادر، ففي دلائل النبوة والدر المنثور٤/ ٤٦: بالخريب، وفي تفسير ابن أبي حاتم: بالجريد. والمثبت من تفسير الطبري ١٣/ ٤٦٩، والجُرير: موضع بنجد. معجم ما استعجم ٢/ ٣٨٠.

(٣) في تفسير الطبري ١٣/ ٤٦٩، والدر المنثور ٤/ ٤٩: يا آل عامر.

(٤) عزاها السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٤٦ لابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبي الشيخ، وابن مردويه. وأخرجها ابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢٢٢٩ من قول أبي الجوزاء.

طاعتي ثمَّ تحوَّلوا عنها إلى ما كرهتُ من معصيتي إلَّا تحوَّلتُ لهم عمَّا يحبُّون من رحمتي إلى ما يكرهون من عذابي» أخرجه ابنُ أبي شيبةَ، وأبو الشيخ، وابنُ مردويه[١].

واستُشكل ظاهر الآية، حيثُ أفادت أنَّه لا يقع تغيير النعم بقوم حتى يقعَ تغيير منهم بالمعاصي، مع أنَّ ذلك خلافُ ما قرَّرته الشريعة من أخذ العامَّة بذنوب الخاصَّة، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] وقولُه عليه الصلاة والسلام وقد سُئِل: أنهلِكُ وفينا الصَّالحون؟: «نعم، إذا كَثُرَ الخَبَثُ»[٢]. وقوله ﷺ: «إذا رأَوا الظالمَ، ولم يأخذُوا على يديه، يوشكُ أنْ يعمَّهُم اللهُ سبحانَه بعقابٍ»[٣] في أشياءَ كثيرةٍ، وأيضاً قد يُنزل الله تعالى بالعبد مصائبَ يريدُ[٤] بها أجرَه، وقد يستدرج المذنب بترك ذلك.

وأوَّلها ابنُ عطيةَ[٥] لذلك بأنَّ المراد: حتى يقعَ تغييرٌ ما منهم أو ممَّن هو منهم، كما غيَّر سبحانه بالمنهزمين يومَ أُحد بسبب تغيير الرُّماة ما بأنفسهم.

والحقُّ أنَّ المراد أنَّ ذلك عادةُ الله تعالى الجارية في الأكثر، لا أنَّه سبحانه لا يصيب قوماً إلَّا بتقدُّم ذنب منهم، فلا إشكال. قيل: ولك أن تقول: إن قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ تتميمٌ لتدارك ما ذكر. وفيه تأمُّل.

والسوءُ يجمع كلَّ ما يسوء، من مرض، وفقر، وغيرِهما من أنواع البلاء، و«مردَّ» مصدر ميميٌّ، أي: فلا ردَّ له، والعامل في «إذا» ما دلَّ عليه الجوابُ؛ لأنَّ معمول المصدر ـ وكذا ما بعد الفاء ـ لا يتقدَّم عليه، والتقدير ـ كما قال

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب العرش (١٩)، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٤٨، وابن كثير في تفسيره عند هذه الآية، وقال: هذا حديث غريب، وفي إسناده من لا أعرفه.

(٢) جزء من حديث أخرجه أحمد (٢٧٤١٣)، والبخاري (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠) من حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٨) من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وسلف عند تفسير الآية (٢٥) من سورة الأنفال.

(٤) في (م): يزيد.

(٥) في المحرر الوجيز ٣/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣.

أبو البقاء[١] ـ: وقعَ، أو لم يُرد، أو نحو ذلك. والظاهر أنَّ «إذا» للكليَّةِ، وقد جاءت كذلك في أكثر الآيات.

﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ﴾ سبحانَه ﴿مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ يلي أمورَهم، من ضرٍّ ونفعٍ، ويدخل في ذلك دخولاً أوّلياً دفعُ السوء عنهم. وقيل: الأول إشارةٌ إلى نفي الدافع ـ بالدَّالِ ـ وهذا إشارةٌ إلى نفي الرافع ـ بالراء ـ لئلَّا يتكرَّر. ولا حاجةَ إلى ذلك كما لا يخفى.

واستدلَّ بالآية على أنَّ خلاف مراد الله تعالى محالٌ. واعترض بأنَّها إنَّما تدلُّ على أنَّه تعالى إذا أراد بقوم سوءاً، وَجبَ وقوعُه، ولا تدلُّ على أنَّ كلَّ مرادٍ له تعالى كذلك، ولا على استحالة خلافِه بل على عدم وقوعه. وأجيب بأنَّه لا فرق بين إرادة السوء وإرادة غيرِه، لكن اقتصر على إرادة الأوَّل؛ لأنَّ الكلام في الانتقام من الكفار، وهو أبلغُ في تخويفهم، فإذا امتنع ردُّ السوء، فغيرُه كذلك، والمرادُ بالاستحالة عدمُ الإمكان الوقوعي لا الذاتي، ولا يخفى أنَّ هذا خلافُ الظاهر.

ومن أعجب ما قيل: إنَّ الجمهور احتجُّوا بالآية على أنَّ المعاصي مما يشملها السوء وأنها بخلقه تعالى، ومن الناس من جعلَ الآية متعلِّقةً بقوله تعالى: (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ) إلى آخره، وبيَّن ذلك أبو حيان[٢] بما لا يرتضيه إنسانٌ. وقيل: إنَّ فيها إيذاناً بأنَّهم بما باشروه من إنكار البعث، واستعجال السيئة، واقتراح الآية، قد غيَّروا ما في أنفسهم من الفطرة، فاستحقُّوا لذلك حلولَ غضبِ الله تعالى هذا.

ووقفَ ابنُ كثير على «هاد» وكذا «واق» حيثُ وقع، وعلى «وال» هنا و«باق» في «النحل» بإثبات الياء، وباقي السبعة وقفوا بحذفها[٣]. وفي «الإقناع» لأبي جعفر ابن الباذش[٤]: عن ابن مجاهد: الوقفُ في جميع الباب لابن كثير بالياء، وهذا

---

(١) في الإملاء ٣/ ٣٧٧.

(٢) في البحر ٥/ ٣٧٣.

(٣) التيسير ص١٣٣، والنشر ٢/ ١٣٧.

(٤) هو أحمد بن علي الأنصاري الغرناطي، عالم بالقراءات. توفي سنة (٥٤٠ هـ)، وكتابه الإقناع قال عنه ابن الجزري: من أحسن الكتب، لكنه ما يخلو من أوهام. غاية النهاية ١/ ٨٣.

لا يعرفه المكيُّون. وفيه أيضاً عن أبي يعقوبَ الأزرق عن ورش أنَّه خيَّره في الوقفِ في جميع الباب، بين أن يقفَ بالياء وأن يقفَ بحذفها. كذا في «البحر»(١)، وفيه أنَّه أثبتَ ابنُ كثير وأبو عمرو في رواية ياء «المتعال» وقفاً ووصلاً، وهو الكثير في لسان العرب، وحذفَها الباقون وصلاً ووقفاً؛ لأنَّها كذلك رُسمت في الإمام(٢).

واستشهدَ سيبويه(٣) لحذفها في الفواصل والقوافي، وأجاز غيرُه حذفَها مطلقاً، ووجهُ حذفها ـ مع أنَّها تحذف مع التنوين وأل معاقبةٌ له ـ إجراء المُعاقِب مجرى المُعاقَب.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا﴾ من الصاعقةِ ﴿وَطَمَعًا﴾ في الغيث، قاله ابنُ عباس ﷺ. وأخرج أبو الشيخ عن الحسن أنَّه قال: خوفاً لأهل البحر وطَمَعاً لأهل البَرِّ. وعن قتادة: خوفاً للمسافرِ من أذى المطر، وطمعاً للمقيم في نفعه(٤). وعن الماورديِّ(٥): خوفاً من العقاب، وطمعاً في الثواب.

والمراد من البرق معناه المتبادر. وعن ابن عباس: أنَّ المراد به الماء، فهو مجازٌ من باب إطلاق الشيءِ على ما يُقارنه غالباً.

ونصب «خوفاً وطمعاً» على أنَّهما مفعولٌ له لـ «يريكم». واتِّحاد فاعل العلَّةِ والفعل المعلَّل ليس شرطاً للنصب مجمعاً، ففي «شرح الكافية»(٦) للرضي: وبعضُ النحاة لا يشترط تشاركَهما في الفاعل، وهو الذي يقوى في ظنِّي وإن كان الأغلب هو الأول. واستدلَّ على جواز عدم التشارك بما ذكرناه في حواشينا على «شرح القطر» للمصنف.

وفي «همع الهوامع»: وشَرطَ الأعلمُ والمتأخِّرون المشاركةَ للفعل في الوقت والفاعل، ولم يشترط ذلك سيبويه ولا أحدٌ من المتقدمين.

---

(١) ٥/ ٣٦٨.
(٢) في البحر ٥/ ٣٧٠: الخط.
(٣) الكتاب ٤/ ١٨٤ ـ ١٨٥.
(٤) الدر المنثور ٤/ ٤٩.
(٥) النكت والعيون: ٣/ ١٠٠.
(٦) ١/ ٥١١.

واحتاج المشترطون إلى تأويل هذا؛ للاختلاف في الفاعل، فإنَّ فاعلَ الإراءة هو اللهُ تعالى، وفاعلَ الطمع والخوف غيرُه سبحانه، فقيل: في الكلام مضافٌ مقدَّرٌ، وهو إرادة، أي: يريكم ذلك إرادةَ أن تخافوا وتطمعوا، فالمفعولُ له المضاف المقدَّر، وفاعلُه وفاعلُ الفعل المعلَّل به واحدٌ. وقيل: الخوف والطمع موضوعان موضعَ الإخافة والإطماع، كما وُضِع النباتُ موضعَ الإنبات في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح:١٧] والمصادرُ ينوب بعضُها عن بعض. أو هما مصدران محذوفا الزوائدِ كما في «شرح التسهيل».

وقيل: إنَّهما مفعولٌ له باعتبار أنَّ المخاطَبِيْن رائين؛ لأنَّ إراءتَهم مُتضمِّنةٌ لرؤيتهم، والخوفُ والطمعُ من أفعالهم، فهم فعلوا الفعلَ المعلَّل بذلك، وهو الرؤية، فيرجع إلى معنى: قعدتُ عن الحرب جُبناً. وهذا على طريقة قولِ النابغة الذبيانيِّ:

وحَلَّتْ بيوتي في يَفاعٍ مُمنَّعٍ ... يَخالُ به راعي الحَمولةِ طائرا
حِذاراً على أنْ لا تُنالَ مَقادَتي ... ولا نِسْوتي حتَّى يَمُتْنَ حرائرا[1]

حيث قيل: إنَّه على معنى: أَحلَلْتُ بيوتي حذاراً.

وردَّ ذلك المولى أبو السعود[2] بأنَّه لا سبيل إليه؛ لأنَّ ما وقع في معرض العلَّة الغائية، لا سيَّما الخوف لا يصلحُ علَّة لرؤيتهم.

وتعقَّبه عزمي زاده[3] وغيرُه بأنَّه كلامٌ واهٍ؛ لأنَّ القائل صرَّحَ بأنَّه من قَبيل: قعدتُ عن الحرب جبناً، ويريد أنَّ المفعول له حاملٌ على الفعل، وموجودٌ قبلَه، وليس ممَّا جُعل في معرض العلَّة الغائية، كما قالوا في: ضربته تأديباً، فلا وجه للردِّ عليه بما ذكر. وقيل: التعليل هنا مثلُه في لام العاقبة لا أنَّ ذلك من قبيل: قعدتُ عن الحرب جبناً، كما ظُنَّ، لأنَّ الجبنَ باعثٌ على القعودِ دونَهما؛ للرؤية، وهو غيرُ وارد؛ لأنَّه باعثٌ بلا شبهة. واعترض عليه العزميُّ بأنَّ اللَّام المقدَّرة في

---

(١) ديوان النابغة ص٦٤ ـ ٦٥. وأيضاً في الكتاب ١/ ٣٦٨. اليفاع: التلال. الحَمولَة: ما احتمل عليه القوم من بعير وحمار وغيرهما. المقادة: الانقياد.

(٢) في تفسيره ٥/ ٩.

(٣) هو مصطفى بن محمد، المعروف بـ: عزمي زاده، قاضٍ تركي مستعرب، توفي سنة (١٠٤٠هـ). الأعلام ٧/ ٢٤٠.

المفعول له لم يقل أحدٌ بأنها تكون لامَ العاقبة، ولا يساعده الاستعمال، وهو ليس بشيء، كيف وقد قال النُّحاة ـ كما في «الدر المصون»[1] ـ: إنَّه كقول النابغة السابق.

وقال أيضاً: بقي ها هنا بحثٌ، وهو أنَّ مقتضى جعلِ الآية نحو قعدتُ إلى آخره، على ما قاله ذلك القائل أن يكون الخوفُ والطمع مقدَّمَيْن في الوجود على الرؤية، وليس كذلك، بل هما إنَّما يحصلان منها. ويمكن أن يقال: المرادُ بكلٍّ من الخوف والطمع ـ على ما قاله ـ ما هو من الملَكات النفسانية، كالجبن في المثال المذكور، ويصحُّ تعليلُ الرؤية من الإراءة بهما، يعني أنَّ الرؤية التي تقعُ بإرادة الله سبحانه إنَّما كانت لما فيهم من الخوف والطمع، إذ لو لم يكن في جِبِلَّتهم ذلك لما كان لتلك الرؤية فائدةٌ. اهـ.

ولا يخفى ما فيه من التعسُّف، وقد علمتَ أنَّه غيرُ وارد.

وقيل: إنَّ النصب على الحاليَّةِ من «البرق» أو المخاطَبِيْن بتقدير مضاف، أو تأويل المصدر باسم المفعول أو الفاعل، أو إبقاءِ المصدر على ما هو عليه للمبالغة، كما قيل في: زيدٌ عَدْلٌ.

﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ﴾ أي: الغَمامَ المنسحب في الهواء ﴿ٱلثِّقَالَ ۝١٢﴾ بالماء، وهي: جمعُ ثقيلة. وُصِفَ بها السحابُ لكونه اسمَ جنس في معنى الجمع، ويذكَّرُ ويؤنَّثُ، فكأنَّه جمعُ سحابة[2]، لا أنَّه جمعٌ أو اسمُ جنس جمعيٌّ؛ لإطلاقه على الواحد وغيره.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ﴾ قيل: هو اسمٌ للصوت المعلوم. والكلامُ على حذف مضاف. أي: سامعُو الرعدِ، أو الإسنادُ مَجَازيٌّ من باب الإسناد للحامل والسبب.

الباء في قوله سبحانه: ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ للملابسة. والجارُّ والمجرور في موضع الحال، أي: يسبِّحُ السامعون لذلك الصوت مُلتبسينَ بحمدِ الله تعالى، فيضجُّون بسبحان الله والحمد لله.

---

(١) ٧/ ٣١.

(٢) بعدها في (م): ثقيلة.

وقيل: لا حذفَ ولا تجوُّزَ في الإسناد، وإنَّما التجوُّزُ في التسبيح والتحميد، حيث شبَّه دلالة الرعد بنفسِه على تنزيهه تعالى عن الشريك والعجزِ بالتسبيح والتنزيهِ اللَّفظيِّ، ودلالَته على فضلِه جلَّ شأنه ورحمتِه بحمد الحامد، لما فيهما من الدلالة على صفات الكمال، وقيل: إنَّه مجازٌ مرسلٌ، استُعمل في لازمه، وقيل: الرعد اسمُ مَلَك، فإسناد التسبيح والتحميد إليه حقيقةٌ.

قال في «الكشف»: والأشبه في الآية الحملُ على الإسناد المجازيِّ؛ ليتلاءَمَ الكلامُ، فإنَّ الرعد في المتعارَف يقعُ على الصوت المخصوص، وهو الذي يُقرَن بالذكر مع البرق والسحاب. والكلامُ في إراءة الآياتِ الدالَّة على القدرة الباهرة وإيجادها، وتسبيحُ مَلَك الرَّعدِ لا يلائم ذلك، أمَّا حملُ الصوت المخصوص للسامعين على التسبيح والتحميد[1] فشديدُ الملائمة جدّاً، وإذا حُمِلَ على الإسناد حقيقةً، فالوجه أن يكون اعتراضاً؛ دلالةً على اعتراف الملك الموكَّل بالسحاب وسائرِ الملائكة بكمال قُدرته سبحانه جلَّت قدرتُه، وجحودِ الإنسان ذلك، وأنت تعلم أنَّ تسبيحَ الملائكة على ما ادُّعي أنَّه الأشبه يبقى كالاعتراض في البيِّن.

والذي اختاره أكثرُ المحدِّثين كونَ الإسناد حقيقياً بناءً على أنَّ الرعد اسمٌ للمَلَك الذي يسوقُ السحاب، فقد أخرج أحمد، والترمذيُّ وصحَّحه، والنسائيُّ، وآخرون عن ابنِ عباس رضي الله عنهما أنَّ اليهودَ سألوا رسول الله ﷺ فقالوا: أخبرنَا ما هذا الرعدُ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «ملَكٌ من ملائكةِ الله تعالى موكَّلٌ بالسحاب، بيده مخراقٌ من نارٍ، يَزجُرُ به السحابَ، يسوقُه حيثُ أمرَه اللهُ تعالى» قالوا: فما هذا الصوتُ الذي نسمعُ؟ قال عليه الصلاة والسلام: «صوتُه» فقالوا: صدقْتَ[2]. والأخبارُ في ذلك كثيرةٌ، واستُشكلَ بأنَّه لو كان عَلَماً للمَلَك لما ساغ تنكيرُه، وقد نُكِّر في «البقرة»[3]، وأجيب بأنَّ له إطلاقين، ثانيهما إطلاقُه على نفس الصوت، والتنكيرُ على هذا الإطلاق.

---

(١) في (م): الحمد.

(٢) مسند أحمد (٢٤٨٣)، وسنن الترمذي (٣١١٧)، والنسائي في الكبرى (٩٠٢٤)، وهو جزء من حديث طويل، قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. المخاريق: جمع مِخْرَاق، وهو في الأصل ثوب يلفُّ ويضرب به الصبيان بعضهم بعضاً، والمراد هنا: آلة تزجر بها الملائكة السحاب وتسوقه. النهاية (خرق).

(٣) في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [الآية: ١٩].

وقال ابنُ عطية[١]: وقيل: إنَّ الرعدَ ريحٌ تخفق بين السحاب، ورُوي ذلك عن ابن عباس. وتعقبه أبو حيان[٢] بقوله: وهذا عندي لا يصحُّ، فإنَّ ذلك من نزغات الطبيعيين وغيرهم.

وقال الإمام[٣]: إنَّ المحققين من الحكماء يذكرون أنَّ هذه الآثارَ العلوية إنَّما تتمُّ بقوًى روحانيةٍ فلكية، وللسحاب روحٌ معيَّن من الأرواح الفلكية يُدبِّره، وكذا القولُ في الرياح وسائر الآثار العلوية، وهو عين ما قلنا من أنَّ الرعدَ اسمٌ لملك من الملائكة يسبِّحُ الله تعالى، فهذا الذي قالَه المفسرون بهذه العبارة هو عينُ ما ذكره المحققون من الحكماء، فكيف يليقُ بالعاقل الإنكار. اهـ.

وتعقبه أبو حيان[٤] أيضاً: بأنَّ غرضَه جريانُ ما يتخيلُه الفلاسفة على مناهج الشريعة، ولن يكون ذلك أبداً.

ولقد صدقَ رحمهُ الله تعالى في عدم صحة التطبيق بين ما جاءت به الشريعةُ، وما نسجَتْه عناكبُ أفكار الفلاسفة.

نعم إنَّ ذلك ممكنٌ في أقلِّ قليلٍ من ذاك وهذا، والمشهورُ عن الفلاسفة أنَّ الريحَ تحتقنُ في داخل السحاب، ويستولي البردُ على ظاهرِه، فيتجمَّدُ السطحُ الظاهر، ثمَّ إنَّ ذلك الريح يمزقه تمزيقاً عنيفاً، فيتولَّدُ من ذلك حركةٌ عنيفة، وهي موجبةٌ للسخونة، وليس البرقُ والرعدُ إلَّا ما حصل من الحركة وتسخينها. وأمَّا السحابُ فهو أبخرةٌ متصاعدة قد بلغت في صعودها إلى الطبقةِ الباردةِ من الهواء، لكنْ لما لم يقوَ البردُ، تكاثفَتْ بذلك القدرِ من البرد، واجتمعت وتقاطرت، ويقالُ للمتقاطِر: مطر.

ورُدَّ الأولُ بأنه خلافُ المعقول من وجوه:

أحدها: أنَّه لو كان الأمرُ كما ذكر، لوجب أن يكونَ كلَّما حصل البرقُ حصلَ

---

(١) في تفسيره ٣/ ٣٠٣، وفيه: تختنق، بدل: تخفق.

(٢) في البحر ٥/ ٣٧٥، وهذا الكلام لابن عطية في المحرر ٣/ ٣٠٣ قاله بعد كلامه السابق ونقله أبو حيان عنه، ونقله المصنف عن أبي حيان ظاناً أنه لأبي حيان.

(٣) في تفسيره ١٩/ ٢٦.

(٤) في البحر ٥/ ٣٧٥.

الرعدُ، وهو الصوتُ الحادث من تمزيق السحاب، ومعلومٌ أنَّه كثيراً ما يحدث البرق القويُّ من غير حدوث الرعد.

ثانيها: أنَّ السخونةَ الحاصلة بسبب قوَّةِ الحركة مقابَلةٌ بالطبيعة المائية الموجِبةِ للبرد، وعندَ حصولِ هذا المعارض القويِّ كيف تحدثُ الناريَّةُ، بل يقال: النيران العظيمة تنطفئُ بصبِّ الماء عليها، والسحابُ كلُّه ماءٌ، فكيف يمكن أن يحدثَ فيه شعلةٌ ضعيفة نارية.

ثالثها: أنَّ من مذهبكم أنَّ النارَ الصِّرفة لا لونَ لها ألبتة، فهَبْ أنَّه حصلتِ النارية بسبب قوَّةِ المحاكَّة الحاصلة في أجزاء السحاب، لكن من أين حدثَ ذلك اللَّونُ الأحمر؟

وردَّ الثاني بأنَّ الأمطارَ مختلفةٌ، فتارةً تكون قطراتُها كبيرةً، وتارةً تكون صغيرةً، وتارةً تكون متقاربةً، وأخرى تكون متباعدةً إلى غير ذلك من الاختلافاتِ، وذلك مع أنَّ طبيعةَ الأرض واحدةٌ، وطبيعةَ الشمس المسخِّنةِ للبخاراتِ واحدةٌ، يأبى أنْ يكونَ ذلك كما قرَّروا، وأيضاً التجربةُ دالَّةٌ على أنَّ للتضرُّع والدعاء في انعقاد السحابِ ونزولِ الغيث أثراً عظيماً، وهو يأبى أن يكونَ ذلك للطبيعة والخاصية، فليس كلُّ ذلك إلَّا بإحداثِ مُحدِثٍ حكيمٍ قادرٍ يخلقُ ما يشاء كيف يشاءُ.

وقال بعضُ المحققين: لا يبعدُ أن يكون في تكوُّن ما ذُكر أسبابٌ عادية، كما في الكثير من أفعاله تعالى، وذلك لا يُنافي نسبتَه إلى المُحدِثِ الحكيم القادر جلَّ شأنُه، ومن أنصفَ لم يسعه إنكارُ الأسباب بالكلية، فإنَّ بعضَها كالمعلوم بالضرورة» وبهذا أنا أقول، وقد تقدَّمَ بعضُ الكلام في هذا المقام. وكان ﷺ - كما أخرج ابنُ مردويه، عن أبي هريرة - إذا هبَّتِ الريحُ أو سمعَ صوتَ الرعدِ تغيَّرَ لونُه حتى يُعرفَ ذلك في وجهه الشريف، ثمَّ يقولُ للرعد: «سبحانَ من سبَّحت له»، وللريح: «اللهمَّ اجعلْها رحمةً ولا تجعلْها عذاباً»[1].

وأخرج أحمد، والبخاريُّ في «الأدب المفرد»، والترمذيُّ، والنسائيُّ، وغيرُهم

---

(١) عزاه له السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٥١.

عن ابن عمرَ: كان رسولُ الله ﷺ إذا سمع صوتَ الرعد والصواعق قال: «اللهمَّ لا تَقْتُلْنَا بغضَبِكَ، ولا تُهلِكْنَا بعذابِكَ، وعافِنا قبلَ ذلك»(١).

وأخرجَ أبو داود في «مراسيله»(٢) عن عبيدِ الله بن أبي جعفر: أنَّ قوماً سمعُوا الرعدَ فكبَّروا، فقال رسولُ الله ﷺ: «إذا سمعتم الرعدَ، فسبِّحُوا ولا تُكبِّروا». وأخرجَ ابنُ أبي شيبةَ عن ابن عباس: أنَّه عليه الصلاة والسلام كان يقول إذا سمع الرعدَ: «سبحانَ اللهِ وبحمدِه، سبحانَ اللهِ العظيم»(٣). وأخرجَ ابنُ مردويه، وابنُ جرير عن أبي هريرةَ قال: كان ﷺ إذا سمعَ الرعدَ، قال: «سبحانَ من يسبِّحُ الرعدُ بحمدِه»(٤).

﴿وَالْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ أي: ويسبِّحُ الملائكةُ عليهم السلام من هيبته ـ تعالى ـ وإجلالِه ـ جلَّ جلالُه ـ، وقيل: الضميرُ يعود على الرعد، والمرادُ بالملائكةِ أعوانُه، جعلَهم الله تعالى تحت يدِه خائفِين خاضعين له، وهو قولٌ ضعيف.

﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَٰعِقَ﴾ جمعُ: صاعقةٍ، وهي كالصَّاقِعة في الأصل: الهدَّةُ الكبيرة(٥)، إلَّا أنَّ الصَّقْعَ يقال في الأجسامِ الأرضيةِ، والصَّعْقُ في الأجسام العلوية، والمرادُ بها هنا النارُ النازلةُ من السحاب مع صوتٍ شديد. ﴿فَيُصِيبُ﴾ سبحانَه ﴿بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ إصابته بها، فيهلكُه.

وهذه النارُ، قيل: تحصل من احتكاك أجزاءِ السحاب، واستدلَّ بما أخرجه ابنُ المنذر، وابنُ مردويه، عن ابن عباس قال: الرعدُ مَلَكٌ اسمُه الرعدُ، وصوتُه هذا تسبيحُه، فإذا اشتدَّ زجرُه، احتكَّ السحابُ واصطدمَ من خوفِه، فتَخرُجُ(٦) الصواعقُ من بينه.

(١) مسند أحمد (٥٧٦٣)، والأدب المفرد (٧٢١)، وسنن الترمذي (٣٤٥٠)، والسنن الكبرى للنسائي (١٠٦٩٨). قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وفي الأدب المفرد: بصعقك، بدل: بغضبك.

(٢) برقم (٥٣١).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ١٠/ ٢١٥.

(٤) تفسير الطبري ١٣/ ٤٧٧، والدر المنثور ٤/ ٥١.

(٥) الهدَّة: صوت ما يقع من السحاب. النهاية (هدد).

(٦) في الأصل و(م): فتخرجه، والمثبت من الدر المنثور ٤/ ٥٠.

وقال الفلاسفةُ: إنَّ الدخانَ المُحتبِسَ في جوف السحاب إذا نزل ومزق السحابَ، قد يشتعلُ بقوَّة التسخين الحاصل من الحركة الشديدة والمصاكَّةِ العنيفة، وإذا اشتعل، فَلَطِيفُه ينطفئ سريعاً، وهو البرقُ، وكثيفُه لا ينطفئُ حتَّى يصلَ إلى الأرض، وهو الصاعقةُ، وإذا وصل إليها فربَّما صار لطيفاً ينفذُ في المتخلخل ولا يحرقه، بل يبقى منه أثرُ سواد، ويذيبُ ما يصادمُه من الأجسام الكثيفة المندمجة، فيذيبُ الذهبَ والفضَّةَ في الصرَّة مثلاً ولا يحرقُها، وإلَّا ما أحرقَ من الذوب.

وقد أخبر أهلُ التواتر بأنَّ صاعقةً وقعت منذُ زمان بشيراز على قُبَّةِ الشيخ الكبير أبي عبدِ الله بنِ خفيف[1] ـ قُدِّسَ سرُّه ـ فأذابَتْ قنديلاً فيها، ولم تحرق شيئاً منها، وربَّما كان كثيفاً غليظاً جدّاً، فيحرق كلَّ شيءٍ أصابَه، وكثيراً ما يقعُ على الجبل فيدكُّه دكّاً، وقد يقعُ على البحرِ، فيغوص فيه ويحرقُ ما فيه من الحيوانات، وربَّما كان جِرْمُ الصاعقةِ دقيقاً جدّاً مثلَ السيف، فإذا وصلَ إلى شيءٍ قطعَه بنصفين، ولا يكون مقدارُ الانفراج إلَّا قليلاً. ويحكى أنَّ صبيّاً كان نائماً بصحراءَ، فأصابتِ الصاعقةُ ساقيه، فسقطت رجلاه ولم يخرج دمٌ؛ لحصول الكيِّ من حرارتها.

وهذا الذي قالوه في سبب تكوُّنِها ليس بالبعيدِ عما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما في ذلك.

ومادَّتُها ـ على ما نقل بعضُهم عن ابن سينا ـ أجسامٌ ناريةٌ، فارقَتْها السخونةُ، وصارت لاستيلاء البرودةِ على جوهرها متكاثفةً. وقال الإمام في «شرح الإشارات»[2]: الصواعقُ ـ على ما نُقل عن الشيخ ـ تشبه الحديدَ تارةً والنحاسَ تارةً والحَجَر تارةً، وهو ظاهرٌ في أنَّ مادَّتَها ليست كذلك، وإلَّا لما اختلفت، ومن هنا قيل: إنَّ مادَّتَها الأبخرةُ والأدخنةُ الشبيهةُ بموادِّ هذه الأجسام. وقيل: إنَّها نارٌ تخرج من فمِ المَلَك الموكَّل بالسحاب، إذا اشتدَّ زجرُه.

---

(١) هو محمد بن خفيف، الفارسي الشيرازي، شيخ الصوفية، (ت ٣٧١هـ). السير ١٦/ ٣٤٢ـ٣٤٧.

(٢) هو كتاب للإمام الرازي شرح فيه كتاب الإشارات والتنبيهات في المنطق والحكمة لابن سينا. كشف الظنون ١/ ٩٤.

وأخرج ابنُ أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي عمرانَ الجَوْني قال: إنَّ بحوراً من نارٍ دونَ العرش، يكونُ منها الصواعقُ[١].

وإذا صحَّ ما رُوي عن الحِبْرِ لا يُعدَلُ عنه.

وقد أخرج سعيدُ بنُ منصور، وابنُ المنذر عنه رضي الله عنه أنَّه قال: من سمعَ صوتَ الرعدِ، فقال: سبحانَ الذي يُسبِّحُ الرَّعدُ بحمدِه، والملائكةُ من خِيفَته، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، فإنْ أصابَتْه صاعقةٌ فعليَّ دِيَتُه[٢].

وأخرج ابنُ أبي حاتم وغيرُه عن أبي جعفر، قال: الصاعقةُ تصيبُ المؤمنَ والكافرَ، ولا تصيبُ ذاكراً[٣]. وفي خبرٍ مرفوعٍ ما يؤيده، وقد أهلكَتْ أربدَ كما علمت[٤]، وقد أشار إلى ذلك أخوه لأُمِّه لبيدٌ العامريُّ بقولِه يرثيه:

أخشَى على أرْبدَ الحُتُوفَ ولا أرْهبُ نَوْءَ السِّماكِ والأسَدِ
فَجَّعني البَرقُ والصَّواعقُ بالـ فارسِ يومَ الكريهةِ النَّجُدِ[٥]

وفي تلك القصةِ ـ على ما قال ابنُ جريج[٦] وغيرُه ـ نزلت الآية. وعن مجاهد أنَّ يهودياً ناظرَ رسولَ الله ﷺ فبينا هو كذلك نزلت صاعقةٌ فأخذت قِحْفَ رأسِه، فنزلت. وقيل: إنَّه عليه الصلاة والسلام بعثَ إلى جبَّارٍ من العرب ليسلم، فقال: أخبروني عن إله محمد، أَمِنْ لؤلؤ هو أم من ذهب أم من نحاس؟ فنزلت عليه صاعقةٌ فأهلكته، فنزلت[٧].

---

(١) العظمة لأبي الشيخ ص٣٢٩، والدر المنثور ٤/ ٥٢ ـ ٥٣.
(٢) سعيد بن منصور في تفسيره (١١٦٥)، والدر المنثور ٤/ ٥١.
(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦١٨، والدر المنثور ٤/ ٥٣.
(٤) سلف ص٧٢ ـ ٧٣ من هذا الجزء.
(٥) الأبيات في شرح ديوان لبيد ص١٥٨، والكامل ٣/ ١٣٩٤، وفيهما: فجعني الرعد. قال الطوسي شارح الديوان: قوله: النَّجُد: البطل ذو نجدة، وقال: كنت أخشى عليه كل سبب من أسباب المنية، ولم أكن أفرق عليه صاعقة.
(٦) في الأصل: جرير. وهذه القصة أخرجها ابن جرير الطبري في تفسيره ١٣/ ٤٨١ ـ ٤٨٢ عن ابن جريج.
(٧) ذكرها الواحدي في أسباب النزول ص٢٧٥ ـ ٢٧٧، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣١٤ ـ ٣١٥.

و«من» مفعول «يصيب» والكلام ـ على ما في «البحر»(١) ـ من باب الإعمال، وقد أُعمل فيه الثاني، إذ كلٌّ من «يرسل» و«يصيب» يطلب «من» ولو أعمل الأول، لكان التركيبُ: ويرسلُ الصواعقَ فيصيبُ بها على من يشاء، لكن جاء على الكثير من لسان العرب المختارُ عند البصريين، وهو إعمال الثاني.

ثم إنَّه تعالى بعدَ أن ذكر علمه النافذ في كلِّ شيء، واستواء الظاهر والخفيّ عندَه تعالى، وما دلَّ على قدرته الباهرة ووحدانيته، قال جلَّ شأنُه:

﴿وَهُمْ﴾ أي: الذين كفروا وكذَّبوا الرسولَ ﷺ، وأنكرُوا آياتِه ﴿يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾ حيثُ يكذبون ما يصفُه الصادقُ به، من كمال العلم والقُدرة والتفرّد بالألوهية وإعادة الناس ومجازاتهم، فالمرادُ بالمجادلةِ فيه تعالى المجادلةُ في شأنِه سبحانه، وما أخبرَ به عنه جلَّ شأنُه.

وهي من الجَدَل بفتحتين، أشدُّ الخصومة، وأصلُه من الجَدْل بالسكون، وهو فتلُ الحبل ونحوه؛ لأنَّه يقوى به ويشدُّ طاقاتِه.

وقال الراغب(٢): أصلُ ذلك من جَدَلْتُ الحبلَ، أي: أحكمتُ فتلَه، كأنَّ المتجادلين يفتلُ كلُّ واحدٍ منهما الآخرَ عن رأيه، وقيل: الأصل في الجدال الصراعُ وإسقاطُ الإنسانِ صاحبَه على الجدالة، وهي الأرضُ الصلبة.

وإلى تفسير الآية بما ذكر ذهب الزمخشريُّ(٣)؛ قال في «الكشف»: وفي كلامه إشارةٌ إلى أنَّ في الكلام التفاتاً؛ لأنَّ قولَه تعالى: «سواء منكم»، «هو الذي يريكم» فيه التفاتٌ من الغيبةِ إلى الخطاب، وإنْ شئت فتأمَّل من قولِه تعالى: «أولئك الذين كفروا بربهم» إلى قوله سبحانه: «الكبير المتعال». ثمَّ التفتَ من الخطابِ إلى الغيبةِ، وحَسُنَ موقعُهما.

أمَّا الأول فما فيه من تخصيصِ الوعيدِ المدمَجِ في «سواء منكم» ولهذا ذيَّلَ بقوله تعالى: (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ) إلى «من وال»، وفيه من التهديدِ ما لا يخفى

---

(١) ٥/ ٣٧٥.

(٢) في المفردات (جدل).

(٣) في الكشاف ٢/ ٣٥٣.

على ذي بصيرة، والحثُّ على طلب النجاةِ، وزيادةِ التقريع في قوله تعالى: «هو الذي يريكم».

وفي مجيء «سواء منكم» «هو الذي يريكم» بعدَ قولِه تعالى: «الله يعلم» هكذا من دون حرفِ النَّسَق؛ لأنَّ الأول مقرِّرٌ لقوله سبحانه: «الله يعلم» مع زيادةِ الإدماج المذكور تحقيقاً للعلم. والثاني مقرِّرٌ لما ضمِّن من الدلالةِ على القدرة في قوله تعالى: «وكل شيء عنده بمقدار» مع رعاية نمطِ التعديد على أسلوب ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الرحمن: ١ ـ ٢] ما يبهرُ الألباب، ويُظهِر للمتأمِّل في وجه الإعجاز التنزيليِّ العجب العُجاب.

وأما الثاني فما فيه من الدلالة على أنَّهم مع وضوح الآيات، وتلاوتها عليهم، والتنبيه البالغ؛ ترغيباً وترهيباً، لم يبالُوا بها بالةً، فكأنَّه يشكو جنايَتَهم إلى مَنْ يستحقُّ الخطابَ، أو كمن يُدَمْدِمُ في نفسِه: إنيِّ أصنعُ بهم، وأفعل كَيْتَ وكَيْتَ جزاءَ ما ارتكبوه، ليرى ما يريد أن يوقعَ بهم.

وعلى هذا فقوله تعالى: «هم» إلى آخره معطوفٌ على قوله تعالى: «ويقول الذين كفروا لولا أنزل» المعطوف على «ويستعجلونك».

والعدولُ عن الفعليَّةِ إلى الاسميَّةِ وطرح رعاية التناسب؛ للدلالةِ على أنَّهم ما ازدادوا بعدَ الآياتِ إلَّا عناداً ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥][(١)].

وجاز أنْ يقال: إنَّه معطوفٌ على «هو الذي يريكم» على معنى: هو الذي يريكم هذه الآياتِ الكواملَ الدالَّةَ على القدرة والرحمة، وأنتم تجادلون فيه سبحانه. وهذا أقربُ مأخذاً، والأول أملأُ بالفائدةِ. اهـ. ومخايلُ التحقيق ظاهرةٌ عليه.

وزعمَ الطيبيُّ أنَّ الأنسبَ لتأليف النظم أن يكونَ هذا تسليةً لحبيبِه ﷺ، فإنَّه تعالى لمَّا نعى كفَّار قريش عنادَهم في اقتراحِهم الآياتِ، كآياتِ موسى وعيسى عليهما السلام، وإنكارَهم كونَ الذي جاء ـ عليه الصلاة والسلام ـ آياتٌ سلَّاه ـ جلَّ

(١) في الأصل و(م): وأما الذين كفروا. . . .

شأنه ـ بما ذُكر، كأنَّه قال: هوِّن عليك، فإنَّك لستَ مختصّاً بذلك، فإنهم مع ظهور الآياتِ البيناتِ ودلائل التوحيد، يجادلون في الله تعالى باتِّخاذ الشركاء، وإثبات الأولاد، ومع شمول علمِه ـ تعالى ـ وكمالِ قدرته ـ جلَّ جلالُه ـ ينكرون الحشرَ والنشرَ، ومع قهرِ سلطانِه وشديد سطوته يُقدِمُون على المكابرة[1] والعنادِ، فلا تذهب نفسك عليهم حسراتٍ. فليتأمَّل.

ولا يستحسنُ العطفُ على (وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ)؛ لعدم الاتِّساق.

وجوز أن تكونَ الجملةُ حالاً من مفعول «يصيب» أي: يصيبُ بها من يشاء في حال جدالِه، أو من مفعول «يشاء» على ما قيل، وهو كما ترى، ولا يعين سببُ النزول الحاليَّةَ كما لا يخفى.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ أي: المماحلة، وهي المكايدة، من مَحَلَ بفلان ـ بالتخفيف ـ إذا كادَه وعرَّضَه للهلاك، ومنه: تَمَحَّلَ لكذا، إذا تكلَّف استعمالَ الحيلةِ، واجتهدَ فيه، فهو مصدرٌ كالقتال. وقيل: هو اسمٌ لا مصدرٌ من المَحْل، بمعنى القوَّة. وحُمل على ذلك قولُ الأعشى:

فرعُ نَبْعٍ[2] يهتزُّ في غُصُنِ المجـ ... ـدِ عظيمُ النَّدى شديدُ المِحَالِ[3]

وقولُ عبد المطلب:

لا يـغـلـبـنَّ صـلـيـبُـهـم ... ومِـحـالُـهـم ـ عَـدْواً ـ مِـحَـالَـك[4]

وكأنَّ أصله من المَحْل بمعنى القَحْط. وكلا التفسيرين مرويٌّ عن ابنِ عباس.

وقيل: هو مفعل لا فِعَال، من الحول بمعنى القوَّة.

---

(١) في (م): المكايدة.

(٢) في الأصل و(م): نبل، والمثبت من مصادر التخريج الآتية، والنبع: شجر للقسيّ والسهام ينبت في قُلّة الجبل. «القاموس» (نبع).

(٣) البيت في ديوانه ص٥٧، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٢٥، ولسان العرب (محل)، وجاء فيهم: غزير الندى.

(٤) سيرة ابن هشام ١/ ٥١ وفيها: غدواً، والحيوان للجاحظ ٧/ ١٩٨ ـ ١٩٩ وفيه: أبداً، ولسان العرب (محل)، وروايته كرواية المصنف.

وقال ابن قتيبة[(١)]: هو كذلك من الحيلة المعروفة، وميمُه زائدةٌ، كميم مكان. وغلَّطه الأزهريُّ[(٢)] بأنه لو كان مِفْعلاً، لكان كمِرْوَد ومِحْوَر.

واعتذر عن ذلك بأنه أعلَّ على غير قياس، وأيَّد دعوى الزيادة بقراءة الضحَّاك والأعرج «المَحَال» بفتح الميم[(٣)]، على أنه مَفْعَل من حال يحول إذا احتال؛ لأنَّ الأصلَ توافقُ القراءتين، ويقال للحيلة أيضاً: المَحالة؛ ومنه المثل: المرءُ يَعْجِزُ لا المحالة[(٤)]. وقال أبو زيد: هو بمعنى النِّقمة، وكأنه أخذه من المَحْل بمعنى القحط أيضاً. وقال ابن عرفة: هو الجِدال، يقال: مَاحَلَ عن أمره، أي: جادل. وقيل: هو بمعنى الحقد، ورُوي عن عكرمة، وحملوه على التجوُّز.

وجوز أن يكون «المحَال» بالفتح بمعنى الفَقَار، وهو عمود الظهر وقوامه، قال في «الأساس»[(٥)]: يقال: فرس قويُّ المَحَال، أي: الفَقار، الواحدة: محالة، والميم أصلية. ويكون ذلك مثلاً في القوَّة والقدرة؛ كما جاء في الحديث الصحيح: «فساعدُ اللهِ تعالى أشدُّ ومُوساه أحدُّ»[(٦)] لأنَّ الشخص إذا اشتدَّ محالُه كان منعوتاً بشدة القوَّة والاضطلاع بما يعجز عنه غيرُه، ألا ترى إلى قولهم: فَقَرَتْه الفواقرُ[(٧)]، وهو مَثَلٌ لتوهين القوى. وبهذا الحملِ لا يلزمُ إثباتُ الجسميَّة له تعالى. والجملة الاسمية في موضع الحال من الاسم الجليل.

﴿لَهُۥ﴾ أي: لله تعالى ﴿دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ أي: الدعاء والتضرُّع الثابت الواقع في محلِّه المجاب عند وقوعه. والإضافة للإيذان بملابسة الدعوة للحقِّ، واختصاصِها به، وكونِها بمعزل من شائبة البطلان والضلال والضياع، كما يقال: كلمةُ الحقِّ،

---

(١) ينظر تفسير غريب القرآن ص٢٢٦.

(٢) في الأصل: الجوهري، والكلام في تهذيب اللغة ٥/ ٩٥، وينظر لسان العرب (محل).

(٣) القراءات الشاذة ص٦٦، والمحتسب ١/ ٣٥٦ ـ ونسباها للأعرج فقط ـ والبحر المحيط ٥/ ٣٧٦.

(٤) ذكره العسكري في جمهرة الأمثال ٢/ ٢٧٥، والميداني في مجمع الأمثال ٢/ ٣٠٩.

(٥) أساس البلاغة ص٥٨٤.

(٦) أخرجه أحمد (١٧٢٢٨)، والحاكم ١/ ٢٤ ـ ٢٥، وصحّحه ووافقه الذهبي.

(٧) الفواقر: الدواهي، واحدتها: فاقرة، كأنها تحطم فَقَار الظهر. النهاية (فقر)، ولسان العرب (فقر).

والمراد أنَّ إجابة ذلك له تعالى دون غيره، ويؤيِّدُه ما بعدُ كما لا يخفى.

وقيل: المرادُ بدعوة الحقِّ الدعاءُ عند الخوف، فإنَّه لا يُدعى فيه إلّا اللهُ تعالى كما قال سبحانه: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٦٧] وزعم الماورديُّ[١]: أنَّ هذا أشبهُ بسياق الآية.

وقيل: الدعوة بمعنى الدعاء، أي: طلبُ الإقبال، والمراد به العبادةُ؛ للاشتمال عليه[٢]، والإضافة على طرز ما تقدَّم. وبعضُهم يقول: إنَّ هذه الإضافة من إضافة الموصوف إلى الصفة، والكلامُ فيها شهير.

وحاصل المعنى أنَّ الذي يحقُّ أن يُعبدَ هو الله تعالى دون غيره.

ويُفهم من كلام البعض ـ على ما قيل ـ أنَّ الدعوةَ بمعنى الدعاء، ومتعلَّقها محذوفٌ، أي: للعبادة، والمعنى أنه الذي يحقُّ أن يُدعى إلى عبادته دون غيره.

ولا يخفى ما بين المعنيين من التلازم، فإنه إذا كانت الدعوة إلى عبادته سبحانه حقّاً كانت عبادتُه جلَّ شأنه حقّاً، وبالعكس.

وعن الحسن أنَّ المراد من الحقِّ هو اللهُ تعالى، وهو ـ كما في «البحر»[٣] ـ ثاني الوجهين اللذين ذكرهما الزمخشريُّ[٤]، والمعنى عليه كما قال: له دعوةُ المدعوِّ الحقّ الذي يسمعُ فيجيب. والأَولى ما أَشرنا إليه أولاً، وجعل الحقِّ فيه مقابلَ الباطل.

وبيَّن صاحب «الكشف» حاصلَ الوجهين بأنَّ الكلام مسوقٌ لاختصاصه سبحانه بأن يُدعى ويعبد؛ ردّاً لمن يجادل في الله تعالى ويشركُ به سبحانه الأندادَ، ولا بدَّ من أن يكون في الإضافة إشعارٌ بهذا الاختصاص، فإنْ جُعل الحقُّ في مقابل الباطل فهو ظاهرٌ، وإنْ جُعل اسماً من أسمائه تعالى كان الأصل: لله دعوته؛ تأكيداً للاختصاص من اللام والإضافة، ثم زيدَ ذلك بإقامة

---

(١) في النكت والعيون ٣/ ١٠٣.

(٢) قوله: عليه، ليس في (م).

(٣) ٥/ ٣٧٦.

(٤) في الكشاف ٢/ ٣٥٤.

الظاهرِ مقامَ المضمر معاداً بوصفٍ ينبئُ عن اختصاصها به أشدَّ الاختصاص، فقيل: له دعوة المدعوِّ الحقّ، والحقُّ من أسمائه سبحانه يدلُّ على أنَّه الثابت بالحقيقة وما سواه باطلٌ من حيثُ هو، وحقَّ بتحقيقه تعالى إياه، فيتقيَّدُ بحسب كلِّ مقام للدلالة على أنَّ مقابلَه لا حقيقةَ له، وإذا كان المدعوُّ من دونه بطلانه لعدم الاستجابة فهو الحقُّ الذي يسمعُ فيجيب. انتهى. وبهذا سقط ما قاله أبو حيان[١] في الاعتراض على الوجه الثاني من أنَّ مآله: إلى الله دعوةُ الله، وهو نظيرُ قولك: لزيد دعوةُ زيد. ولا يصحُّ ذلك. واستغني عما قال العلامة الطيبي في تأويله من أنَّ المعنى: ولله تعالى الدعوةُ التي تليقُ أنْ تنسبَ وتضاف إلى حضرته جلَّ شأنه لكونه سبحانه سميعاً بصيراً كريماً، لا يُخيِّبُ سائلَه فيجيب الدعاء. فإنَّ ذلك كما ترى قليلُ الجدوى.

ويعلم مما في «الكشف» وجهُ تعلُّقِ هذه الجملة بما تقدَّم. وقال بعضُهم: وجهُ تعلُّقِ هذه والجملة التي قبلَها ـ أعني قوله تعالى: «وهو شديد المحال» إنْ كان سبب النزول قصة أربدَ وعامر ـ أنَّ إهلاكهما من حيثُ لم يشعرا به محال من الله تعالى، وإجابةٌ لدعوة رسوله ﷺ فقد رُوي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «اللهمَّ احبِسْهما عنِّي بما شئت»[٢] أو دلالة على أن رسوله ﷺ على الحقِّ. وإن لم يكن سبب النزول ذلك، فالوجه أنَّ ذلك وعيدٌ للكفرة على مجادلتهم الرسولَ ﷺ بحلول مَحَاله بهم، وتهديدُهم بإجابةِ دعائه عليه الصلاة والسلام إنْ دعا عليهم، أو بيانُ ضلالتهم وفساد رأيهم في عبادة غير الله تعالى. ويعلم مما ذكر وجه التعلُّق على بعض التفاسير إذا قلنا: إنَّ سببَ النزول قصةُ اليهوديِّ أو الجبَّار. فتأمَّل.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي: الأصنام الذين يدعونهم، أي: المشركون، وحذفُ عائد الموصول في مثل ذلك كثيرٌ، وجوز أن يكون الموصول عبارة عن المشركين، وضمير الجمع المرفوع عائدٌ إليه، ومفعول «يدعون» محذوف، أي: الأصنام،

---

(١) في البحر ٥/ ٣٧٦.

(٢) ذكر العبارة بهذا اللفظ الشهاب في حاشيته ٥/ ٢٢٩. وجاءت عند الواحدي في أسباب النزول ص٢٧٦، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣١٤ بلفظ: «اللهم اكفنيهما...» ولم ترد في باقي المصادر التي ذكرت قصة أربد وعامر مع رسول الله ﷺ، والله أعلم.

وحُذف لدلالةِ قوله تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ عليه؛ لأنَّ معناه متجاوزين له، وتجاوزُه إنَّما هو بعبادتها.

ويؤيِّدُ الوجهَ الأول قراءةُ اليزيدي[١] عن أبي عمرو: «تَدعون» بتاء الخطاب، وضمير ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ﴾ عليه عائد على «الذين»، وعلى الثاني عائدٌ على مفعول «يدعون»، وعلى كلٍّ فالمرادُ لا يستجيب الأصنامُ ﴿لَهُم﴾ أي: للمشركين ﴿بِشَيْءٍ﴾ من طلباتهم ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ﴾ أي: لا يستجيبون شيئاً من الاستجابة وطرفاً منها إلَّا استجابةً كاستجابة الماء لمن بسط كفَّيه إليه من بعيد يطلبُه ويدعوه ﴿لِيَبْلُغَ﴾ أي: الماءُ بنفسه من غير أن يؤخذَ بشيءٍ من إناءٍ ونحوه ﴿فَاهُ وَمَا هُوَ﴾ أي: الماء ﴿بِبَٰلِغِهِۦ﴾ أي: ببالغ فيه أبداً؛ لكونه جماداً لا يشعر بعطشه وبَسْطِ يديه إليه.

وجوَّز أبو حيان[٢] كون «هو» ضميرَ الفم والهاء في «بالغه» ضمير الماءِ أي: وما فوه ببالغِ الماءَ؛ لأنَّ كلّاً منهما لا يبلغ الآخرَ على هذه الحال.

وجوَّز بعضُهم كونَ الأول ضمير «باسط» والثاني ضمير «الماء». قال أبو البقاء[٣]: ولا يجوز أن يكونَ الأولُ عائداً على «باسط» والثاني عائداً على الفم؛ لأنَّ اسمَ الفاعل إذا جرى على غير مَنْ هو له لزمَ إبرازُ الفاعل، فكان يجب على ذلك أن يقال: وما هو ببالغه الماء. والجمهور على ما سمعت أولاً.

والغرض ـ كما قال بعضُ المدقِّقين ـ نفيُ الاستجابة على البتِّ، بتصوير أنهم أحوجُ ما يكونون إليها؛ لتحصيل مباغيهم، أخيبُ ما يكون أحدٌ في سعيه لما هو مضطرٌ إليه.

والحاصلُ أنَّه شبَّه آلهتهم حين استكفائهم إيَّاهم ما أهمَّهم بلسان الاضطرار في عدم الشعور فضلاً عن الاستطاعة للاستجابة، وبقائهم لذلك في الخسار = بحال ماءٍ بمرأى من عطشانَ باسطٍ كفَّيه إليه يُناديه عبارةً وإشارةً، فهو لذلك في زيادة الكباد والبوار.

---

(١) في (ط) و(م): البزدوي، والمثبت من البحر المحيط ٥/ ٣٧٦، واليزيدي هو يحيى بن المبارك البصري، جوّد القرآن على أبي عمرو واختص به. معرفة القراء الكبار ١/ ٣٢٠.

(٢) في البحر ٥/ ٣٧٧.

(٣) في الإملاء ٣/ ٣٧٨.

والتشبيه على هذا من المركَّب التمثيلي في الأصل أبرزُ في معرض التهكُّم حيثُ أثبت أنَّهما استجابتان زيادةً في التخسير والتحسير، فالاستثناء مفرَّغٌ من أعمّ عامّ المصدر كما أشرنا إليه.

والظاهر أنَّ الاستجابةَ هناك مصدرٌ من المبنيِّ للفاعل، وهو الذي يقتضيه الفعلُ الظاهر، وجوّز أن يكون من المبنيِّ للمفعول، ويضاف إلى الباسط بناءً على استلزام المصدر من المبني للفاعل للمصدر من المبني للمفعول وجوداً وعدماً، فكأنَّه قيل: لا يستجيبون لهم بشيء، فلا يُستجاب لهم استجابةً كائنةً كاستجابةِ مَنْ بسطَ كفَّيه إلى الماء، كما في قول الفرزدق:

وعضُّ زمانٍ يا بنَ مروانَ لم يَدَعْ من المالِ إلَّا مُسْحَتٌ أو مُجلَّفُ[1]

أي: لم يدع، فلم يبق إلّا مُسحتٌ أو مجلَّفُ.

وأبو البقاء[2] يجعل الاستجابة مصدر المبني للمفعول، وإضافتُه إلى «باسط» من باب إضافة المصدر إلى مفعوله، كما في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْئَمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ [فصلت: ٤٩] والفاعلُ ضميرُ «الماء» على الوجه الثاني في الموصول.

وقد يُراد من بَسْط الكفَّين إلى الماء بسطُهما، أي: نشرُ أصابيعهما ومدُّها لشربه، لا للدعاء والإشارةِ إليه، كما أشرنا إليه فيما تقدَّم، وعلى هذا قيل: شُبِّه الداعون لغير الله تعالى بمن أراد أن يغرفَ الماءَ بيديه، فبَسطهما ناشراً أصابعه في أنَّهما لا يحصلان على طائل. وجعلَ بعضُهم وجهَ الشبه قلَّةَ الجدوى، ولعله أراد عدمَها، لكنَّه بالغَ بذكر القلَّة وإرادةِ العدم؛ دلالةً على هضم الحقِّ وإيثار الصدق، ولإشمامِ طرفٍ من التهكُّم.

والتشبيه على هذا من تشبيه المفرد المقيَّد، كقولك لمن لا يحصلُ من سعيه على شيء: هو كالراقم على الماء، فإنَّ المشبَّه هو الساعي مقيَّداً بكون سعيه

---

(١) ديوانه ٢/ ٢٦، وسلف ٣/ ٣٧٠، والرواية المشهورة للبيت:

إلا مُسْحَتاً أو مجلَّفُ

والبيت فيه كلام طويل ذكره البغدادي في خزانة الأدب ٥/ ١٤٤ ـ ١٥٣ فينظر هناك.

(٢) في الإملاء ٣/ ٣٧٨.

كذلك، والمشبَّه به هو الراقمُ مقيَّداً بكونه على الماء، كذلك فيما نحن فيه، وليس من المركَّب العقلي في شيء على ما تُوهِّم. نعم وجه الشبه عقليٌّ اعتباريٌّ، والاستثناء مفرَّغٌ عن أعمِّ عامِّ الأحوال، أي: لا يستجيب الآلهةُ لهؤلاء الكفرة الداعين، إلَّا مشبَّهين ـ أعني الداعين ـ بمن بسطَ كفَّيه ولم يقبضهما، وأخرجهما كذلك، فلم يحصل على شيء؛ لأنَّ الماء يحصل بالقبض لا بالبسط.

ورُوي عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه أنَّ ذلك تشبيهٌ بعطشانَ على شفير بئرٍ بلا رِشَاء، ولا يبلغُ قعرَ البئر، ولا الماءُ يرتفعُ إليه. وهو راجعٌ إلى الوجه الأول وليس مغايراً له كما قيل. وعن أبي عبيدة[1] أنَّ ذلك تشبيهٌ بالقابض على الماء في أنَّه لا يحصل على شيء، ثم قال: والعربُ تضرب المثل في الساعي فيما لا يدركه بذلك، وأنشد قولَ الشاعر:

فأصبحتُ ممَّا كان بيني وبينَها من الودِّ مثلَ القابضِ الماءَ باليدِ[2]

وقوله:

وإنـي وإيـاكـم وشـوقـاً إلـيـكـم كـقـابض ماءٍ لم تَسِقْهُ أناملُه[3]

وهو راجع إلى الوجه الثاني خلا أنَّه لا يظهر من «باسط» معنى قابض، فإنَّ بسط الكفِّ ظاهرٌ في نشر الأصابع ممدودةً كما في قوله:

تعوَّدَ بسطَ الكفِّ حتى لو انَّه أرادَ انقباضاً لم تُطِعْهُ أناملُه[4]

وكيفما كان فالمرادُ بباسط: شخصٌ باسطٌ، أيُّ شخصٍ كان، وما يقتضيه ظاهرُ

---

(١) مجاز القرآن ١/ ٣٢٧.

(٢) البيت دون نسبة في مجاز القرآن ١/ ٣٢٧، وتفسير الطبري ١٣/ ٤٨٨، وتفسير القرطبي ١٢/ ٤٢، ونسبه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٠٣ لأبي الهذيل.

(٣) البيت لضابئ بن الحارث البرجمي، وهو في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٢٧، وتفسير الطبري١٣/ ٤٨٨، وغريب القرآن لابن قتيبة ص٣٢٦، وتفسير القرطبي٢٢/ ١٦٩، واللسان (وسق)، والخزانة ٩/ ٣٢٣.
وقوله: لم تَسِقْهُ، أي: لم تحمله، كما في اللسان.

(٤) البيت لأبي تمام، وهو في ديوانه ٣/ ٢٩ (وروايته: ثناها لقبضٍ، بدل: أراد انقباضاً) ونقله المؤلف عن الشهاب في حاشيته ٥/ ٢٣٠.

ما رُوي عن بُكير بن معروف من أنه قابيل حيثُ إنَّه لما قتل أخاه، جعل الله تعالى عذابَه أنْ أخذَ بناصيته في البحر ليس بينه وبين الماء إلَّا إصبعٌ فهو يريدُه ولا ينالُه[1] = ممَّا لا ينبغي أن يعوَّلَ عليه.

وقُرئ: «كباسطٍ كفَّيه» بالتنوين[2]، أي: كشخصٍ يبسط كفَّيه.

﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ أي: في ضياع وخسار وباطل، والمرادُ بهذا الدعاءُ، إنْ كان دعاءَ آلهتهم فظاهرٌ أنه كذلك لكنه فُهم من السابق وحينئذٍ يكون مكرَّراً للتأكيد، وإن كان دعاءَهم اللهَ تعالى، فقد استشكلوا ذلك بأنَّ دعاء الكافر قد يُستجاب، وهو المصرَّح به في «الفتاوى»، واستجابةُ دعاء إبليس وهو رأس الكفار نصٌّ في ذلك. وأُجيب بأنَّ المراد دعاؤُهم اللهَ تعالى بما يتعلَّقُ بالآخرة، وعلى هذا يُحمل ما رُوي عن ابن عباس ﵄ من أنَّ أصواتَ الكفار محجوبةٌ عن الله تعالى، فلا يُسمع دعاؤهم. وقيل: يجوز أن يُراد دعاؤهم مطلقاً ولا يقيَّدُ بما أُجيبوا به.

﴿وَلِلَّهِ﴾ وحده ﴿يَسْجُدُ﴾ يخضعُ وينقاد، لا لشيء غيره سبحانه استقلالاً ولا اشتراكاً، فالقصر ينتظم القلب والإفراد[3]. ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مِن الملائكة والثَّقَلَيْن، كما يقتضيه ظاهرُ التعبير بـ «مَنْ»، وتخصيصُ انقياد العقلاء مع كون غيرهم أيضاً كذلك؛ لأنَّهم العمدةُ، وانقيادُهم دليلُ انقيادِ غيرهم، على أنَّ فيما يأتي إن شاء الله تعالى بياناً لذلك. وقيل: المراد ما يشمل أولئك وغيرَهم، والتعبير بـ «من» للتغليب.

﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ نصبٌ على الحال، فإن قلنا بوقوع المصدر حالاً من غير تأويل فهو ظاهرٌ، وإلَّا فهو بتأويل: طائعين وكارهين، أي: إنَّهم خاضعون لعظمته تعالى، منقادون لإحداث ما أراد سبحانه فيهم من أحكام التكوين والإعدام، شاؤوا أو أبَوْا، من غيرِ مداخلةِ حكمِ غيرِه جلَّ وعلا، بل غيرِ حكمهِ تعالى في شيء من ذلك.

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٥٣، وعزاه لابن أبي حاتم.
(٢) الكشاف ٢/ ٣٥٤، والبحر ٥/ ٣٧٧ دون نسبة.
(٣) يعني نوعي القصر الإضافي، وهما قصر القلب وقصر الإفراد. ينظر معجم المصطلحات البلاغية ص٤٦٩.

وجوز أن يكون النصبُ على العلَّة؛ فالكَره بمعنى الإكراه، وهو مصدرُ المبنيِّ للمفعول؛ ليتَّحد الفاعل بناءً على اشتراط ذلك في نصب المفعول لأجله، وهو عند مَن لم يشترط على ظاهره. وما قيل عليه من أنَّ اعتبار العليَّة في الكره غيرُ ظاهر ـ لأنَّه الذي يقابل الطَّوعَ وهو الإباءُ ولا يعقل كونه علَّةً للسجود ـ فمدفوعٌ بأنَّ العلَّة ما يَحملُ على الفعل، أو ما يترتَّب عليه، لا ما يكون غرضاً له، وقد مرَّ عن قرب[1]، فتذكره.

وقيل: النصبُ على المفعولية المطلقة، أي: سجود طوعٍ وكره.

﴿وَظِلَـٰلُهُم﴾ أي: وتنقاد له تعالى ظلالُ مَن له ذلك منهم، وهم الإنسُ فقط، أو ما يعمُّهم وكل كثيف.

وفي «الحواشي الشهابية»[2]: ينبغي أن يرجعَ الضميرُ لمن في الأرض؛ لأنَّ مَن في السماء لا ظلَّ له، إلا أن يحملَ على التغليب أو التجوُّز.

ومعنى انقياد الظلال له تعالى أنَّها تابعةٌ لتصرُّفه سبحانه ومشيئتِه في الامتداد والتقلُّص والفيء والزوال. وأصلُ الظلِّ ـ كما قال الفرَّاء[3] ـ مصدر، ثُمَّ أُطلق على الخيال الذي يظهر للجِرْم، وهو إما معكوسٌ أو مستوٍ، ويُبنى على كلٍّ منهما أحكامٌ ذكروها في محلِّها.

﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ ظرفٌ للسجود المقدَّر، والباءُ بمعنى «في» وهو كثير، والمراد بهما الدوام؛ لأنَّه يذكر مثلُ ذلك للتأبيد، قيل: فلا يقال: لم خصَّا بالذكر؟ وكذا يقال إذا كانا في موضع الحال من الظلال، وبعضُهم يعلِّلُ ذلك بأنَّ امتدادَها وتقلُّصَها في ذينك الوقتين أظهرُ.

والغُدُوّ: جمعُ: غداةٍ، كقُنيّ وقناة. والآصال: جمعُ أصيل، وهو: ما بين العصر والمغرب، وقيل: هو جمع أُصل جمعُ أصيل. وأصلُه أأصال، بهمزتين قُلبت الثانية ألفاً، وقيل: الغُدُوُّ مصدر، وأُيِّد بقراءة ابن مجلز: «الإيصال» بكسر

---

(١) عند تفسير: «خوفاً وطمعاً» من الآية: (١٢) من هذه السورة.

(٢) ٥/ ٢٣٠.

(٣) ذكر كلامه أبو حيان في البحر المحيط ٥/ ٣٧٨، وعنه نقل المصنف.

الهمزة[١]، على أنَّه مصدرُ آصَلْنا، بالمدِّ، أي: دخلنا في الأصيل، كما قاله ابنُ جنِّي[٢].

هذا وقيل: إنَّ المراد حقيقةُ السجود، فإنَّ الكفرة حالةَ الاضطرار - وهو المَعنيّ بقوله تعالى: «وكرهاً» - يخصُّون السجود به سبحانه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]. ولا يبعد أن يخلق الله تعالى في الظلال أفهاماً وعقولاً بها تسجد لله تعالى شأنُهُ، كما خلق جلَّ جلالُه ذلك للجبال حتى اشتغلَت بالتسبيح، وظهرت فيها آثارُ التجلِّي، كما قاله ابنُ الأنباري[٣]. وجوِّز أن يُراد بسجودها ما يُشاهد فيها من هيئة السجود تبعاً لأصحابها، وهذا - على ما قيل - مبنيٌّ على ارتكاب عموم المجاز في السجود المذكور في الآية، بأنْ يرادَ به الوقوعُ على الأرض، فيشمل سجودَ الظلال بهذا المعنى، أو تقديرُ فعلٍ مُؤدٍّ ذلك رافعٍ للظلال، أو خبر له كذلك، أو التزام أنَّ إرادة ما ذُكر لا يضرُّ في الحقيقة؛ لكونه بالتبعيَّة والعرض، أو أنَّ الجمعَ بين الحقيقة والمجاز جائزٌ، ولا يخفى ما في بعض الشقوق من النظر.

وعن قتادة أنَّ السجودَ عبارةٌ عن الهيئة المخصوصة، وقد عبَّر بالطوع عن سجود الملائكة عليهم السلام والمؤمنين، وبالكَرْه عن سجود من ضمَّه السيفُ إلى الإسلام، فيسجد كَرْهَاً، إما نفاقاً، أو يكونَ الكَرْه أوَّلَ حاله فتستمرّ عليه الصفة، وإن صحَّ إيمانه بعدُ. وقيل: الساجدُ طوعاً: من لا يثقل عليه السجود، والساجد كَرْهاً: مَنْ يثقلُ عليه ذلك. وعن ابن الأنباري: الأوَّلُ مَن طالت مدَّة إسلامه، فألِفَ السجودَ، والثاني مَن بدأ بالإسلام إلى أن يألف السجود[٤].

وأيًّا ما كان فـ «مَن» عامٌّ أريد به مخصوص، إذ يخرج من ذلك من لا يسجد، وقيل: هو عامٌّ لسائر أنواع العقلاء، والمراد بـ «يسجد» يجب أن يسجدَ، ولكن عبَّر عن الوجوب بالوقوع مبالغةً. واختار غيرُ واحدٍ في تفسير الآية ما ذكرناه أولاً؛ ففي

(١) المحتسب ١/٣٥٦، والكشاف ٢/٣٥٥، والبحر ٥/٣٧٨.
(٢) في المحتسب ١/٣٥٦.
(٣) ذكر كلامَه أبو السعود في تفسيره ٥/١٢.
(٤) كلمة: السجود، ليست في (م). وكلام ابن الأنباري ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/١٠٤، وأبو حيان في البحر المحيط ٥/٣٧٨.

«البحر»: والذي يظهر أنَّ مساق الآية إنَّما هو أنَّ العالَمَ كلَّه مقهورٌ لله تعالى، خاضعٌ لما أراد سبحانه منه، مقصورٌ على مشيئته، لا يكون منه إلا ما قدَّر ـ جلَّ وعلا ـ فالذين تعبدونهم كائناً ما كانوا داخلون تحت القهر، لا يستطيعون نفعاً ولا ضرًّا، ويدلُّ على هذا المعنى تشريكُ الظلالِ في السجود، وهي ليست أشخاصاً يُتصوَّرُ منها السجود بالهيئة المخصوصة، ولكنَّها داخلةٌ تحت مشيئته تعالى يصرفُها سبحانه حسبما أراد، إذ هي من العالَم، والعالمُ جواهرُه وأعراضُه داخلةٌ تحت قهر إرادته تعالى كما قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ [النحل:٤٨] وكونُ المراد بالظلال الأشخاصَ ـ كما قال بعضُهم ـ ضعيفٌ، وأضعفُ منه ما قاله ابن الأنباري، وقياسُها على الجبال ليس بشيءٍ؛ لأنَّ الجبل يمكنُ أن يكون له عقلٌ بشرط تقدير الحياة، وأمَّا الظِّلُّ فعَرَضٌ لا يُتصوَّرُ قيامُ الحياة به، وإنَّما معنى سجودِها ميلُها من جانب إلى جانب، واختلافُ أحوالها كما أراد سبحانه وتعالى[(١)].

وفي «إرشاد العقل السليم» بعد نقلِ ما قيلَ أولاً: وأنت خبيرٌ بأنَّ اختصاص سجود الكافر حالةَ الاضطرار والشدَّة لله تعالى لا يُجدي، فإنَّ سجودَه للصنم حالةَ الاختيار والرخاء مُخِلٌّ بالقصر المستفاد من تقديم الجارِّ والمجرور، فالوجهُ حملُ السجود على الانقياد، ولأنَّ تحقيقَ انقياد الكلِّ في الإبداع والإعدام له تعالى أدخلُ في التوبيخ على اتِّخاذ أولياء من دونه سبحانه وتعالى من تحقيق سجودِهم له تعالى[(٢)]. اهـ. وفي تلك الأقوالِ بعدُ ما لا يخفى على الناقد البصير.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تحقيقٌ، كما قال بعضُ المحقِّقين؛ لأنَّ خالقَهما ومتولِّي أمرهما مع ما فيهما على الإطلاق هو اللهُ تعالى، قيل: إنَّه سبحانه بعد أن ذكر انقيادَ المظروف لمشيئته تعالى ذكر ما هو كالحجَّة على ذلك من كونه ـ جلَّ وعلا خالقَ هذا الظرف العظيم الذي يبهر العقولَ، ومُدبِّرَه، أي: قل يا محمد لهؤلاء الكفارِ الذين اتخذوا مِن دونه أولياءَ: مَنْ ربُّ هذه الأجرامِ العظيمة العلوية والسفلية؟.

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٣٧٨.

(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ١٢.

﴿قُلِ ٱللَّهُۚ﴾ أمرَ ﷺ بالجواب إشعاراً بأنه متعيّنٌ للجوابية، فهو - عليه الصلاة والسلام - والخصمُ في تقريره سواءٌ، ويجوز أن يكون ذلك تلقيناً للجواب؛ ليبيِّنَ لهم ما هم عليه من مخالفتهم لما علموه، وقيل: إنَّه حكايةٌ لاعترافهم، والسياقُ يأباه.

وقال مكّي[1]: إنهم جَهِلوا الجواب فطلبوه من جهته ﷺ، فأُمر بإعلامهم به.

ويُبعده أنَّه تعالى قد أَخبر بعلمهم في قوله سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان: ٢٥] وحينئذٍ كيف يقال: إنَّهم جَهِلوا الجوابَ فطلبوه؟ نعم، قال البغويُّ[2]: رُوي أنَّه لما قال ﷺ ذلك للمشركين، عطفوا عليه فقالوا: أجبْ أنت. فأمره اللهُ تعالى بالجواب. وهو بفرض صحته لا يدلُّ على جهلهم كما لا يخفى.

﴿قُلْ﴾ إلزاماً لهم وتبكيتاً ﴿أَفَٱتَّخَذْتُم﴾ لأنفسِكم ﴿مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ عاجزين ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ﴾ وهي أعزُّ عليهم منكم ﴿نَفْعًا﴾ يستجلبونه ﴿وَلَا ضَرًّاۚ﴾ يدفعونه عنها، فضلاً عن القدرة على جَلْب النفع للغير ودفع الضَّرر عنه، والهمزةُ للإنكار. والمراد: بعد أن عَلِمتموه ربَّ السماواتِ والأرض اتَّخذتم من دونه أولياءَ في غاية العجز عن نفعِكم، فجعلتم ما كان يجبُ أن يكونَ سببَ التوحيد من علمِكم سببَ الإشراك. فالفاءُ عاطفةٌ للتسبُّبِ والتفريع، دخلتِ الهمزةُ عليه؛ لأنَّ المنكرَ الاتخاذُ بعد العلم، لا العلمُ، ولا هما معاً.

ووصفُ الأولياءِ بما ذكر ممَّا يقوِّي الإنكارَ ويؤكِّدهُ.

ويفهم - على ما قيل - من كلام البعض أنَّ هذا دليلٌ ثانٍ على ضلالهم وفساد رأيهم في اتِّخاذهم أولياءَ رجاء أن ينفعوهم. واختُلف في الدليل الأول فقيل: هو ما يُفهم من قوله تعالى: «قل أفاتخذتم من دونه أولياء» وقيل: هو ما يُفهم من قوله سبحانه: «والذين يدعون من دونه» إلخ، فتدبَّر.

﴿قُلْ﴾ تصويراً لآرائهم الركيكةِ بصورة المحسوس: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ﴾ الذي

---

(١) هو مكي بن ابي طالب، وقوله في المحرر الوجيز ٣/ ٣٠٦، والبحر المحيط ٥/ ٣٧٨.

(٢) في تفسيره ٣/ ١٢

هو المشركُ الجاهل بالعبادة ومستحقِّها ﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾ الذي هو الموحِّدُ العالِمُ بذلك. وإلى هذا ذهب مجاهد، وفي الكلام عليه استعارةٌ تصريحية. وكذا على ما قيل: إنَّ المرادَ بالأول الجاهلُ بمثل هذه الحجَّة، وبالثاني العالمُ بها، وقيل: إنَّ الكلام على التشبيه، والمراد: لا يستوي المؤمنُ والكافرُ، كما لا يستوي الأعمى والبصير، فلا مجاز. ومن الناس من فسَّر الأولَ بالمعبود الغافلِ، والثاني بالمعبود العالِم بكلِّ شيء. وفيه بعدٌ.

﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ التي هي عبارةٌ عن الكفر والضلال ﴿وَٱلنُّورُ﴾ الذي هو عبارةٌ عن الإيمان والتوحيد. ورُوي ذلك عن مجاهد أيضاً. وجمع الظلمات؛ لتعدُّدِ أنواع الكفر، ككفر[1] النصارى وكفر المجوس وكفر غيرهم، وكونُ الكفر كلِّه ملَّةً واحدةً أمرٌ آخرُ. و«أم» كما في «البحر»[2] منقطعةٌ، وتقدَّرُ بـ: «بل»، والهمزةُ على المختار، والتقدير: بل أَهَلْ تستوي، و«هل» وإن نابَتْ عن الهمزة في كثيرٍ من المواضع فقد جامعَتها أيضاً كما في قوله:

أَهَلْ رأَوْنا بوادي القُفِّ ذي الأَكَمِ[3]

وإذا جامعَتْها مع التصريح بها فَلأن تجامعَها مع «أم» المتضمنةِ لها أَولى، ويجوز فيها بعد «أم» هذه أن يؤتى بها؛ لشبهها بالأدوات الاسمية التي للاستفهام في عدم الأصالة فيه، كما في قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [يونس:٣١]. ويجوز أن لا يُؤتى بها؛ لأن «أم» متضمِّنةٌ للاستفهام، وقد جاء الأمران في قوله:

---

(١) في (ط): ككفرة.

(٢) ٥/ ٣٧٩.

(٣) البيت لزيد الخيل، وصدره:

سائلْ فوارسَ يَرْبُوعٍ بشَدَّتنا

وهو في ديوانه ص١٠٠، ومغني اللبيب ص٤٦٠، والخزانة١١/ ٢٦١ ـ وروايتهم: بسفح القاع، بدل: بوادي القف ـ والمقتضب ١/ ٤٤، والخصائص ٢/ ٤٦٣، وأمالي ابن الشجري١/ ١٦٣، وروايتهم: بسفح القُفِّ.

ويربوع: أبو حيٍّ من العرب، الشَّدَّة: الحملة، القُفّ: هي حجارة غاص بعضها في بعض لا يخالطها سهولة، وهو جبل غير أنه ليس بطويل في السماء. الأكَم: واحدتها: أَكَمة، وهي ما ارتفع من الأرض. شرح أبيات المغني للبغدادي٦/ ٦٧ ـ٧٣.

هل ما علمتَ وما استُودِعْتَ مكتومُ أَمْ حَبْلُها إذ نأَتْكَ اليومَ مَصْرومُ
أمْ هل كبيرٌ بكى لم يَقْضِ عَبْرَتَهُ إثْرَ الأحبَّةِ يوم البَيْنِ مَشْكومُ(١)

وقرأ الأخوان وأبو بكر: «أمْ هل يستوي» بالياء التحتية(٢)، ثمَّ إنَّه تعالى أكَّد ما اقتضاه الكلامُ السابق من تخطئة المشركين، فقال سبحانه: ﴿أَمْ جَعَلُوا﴾ أي: بل أَجَعلوا ﴿لِلَّهِ﴾ جلَّ وعلا ﴿شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ﴾ سبحانه وتعالى، والهمزةُ لإنكار الوقوع، وليس المنكَرُ هو الجعل؛ لأنَّه واقعٌ منهم، وإنما هو الخلق كخلقِه تعالى.

والمعنى: أنَّهم لم يجعلوا لله تعالى شركاءَ خلقوا كخلقه.

﴿فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ بسبب ذلك، وقالوا: هؤلاء خلقوا كخلق الله تعالى، واستحقُّوا بذلك العبادةَ كما استحقَّها سبحانه؛ ليكون ذلك منشأً لخطئهم، بل إنَّما جعلوا له شركاءَ عاجزين لا يقدرون على ما يقدرُ عليه الخلقُ، فضلاً عمَّا يقدر عليه الخالق، والمقصود بالإنكارِ والنفيِ هو القيدُ والمقيَّدُ على ما نصَّ عليه غيرُ واحد من المحقِّقين.

وفي «الانتصاف»(٣) أنَّ «خلقوا كخلقه» في سياق الإنكار جيءَ به للتهكُّم، فإنَّ غيرَ الله تعالى لا يخلق شيئاً، لا مساوياً ولا منحطّاً، وقد كان يكفي في الإنكار - لولا ذلك - أنَّ الآلهة التي اتَّخذوها لا تخلق.

وتعقَّبه الطيبيُّ بأنَّ إثبات التهكُّم تكلُّفٌ، فإنَّه ذِكر الشيءِ وإرادةُ نقيضه؛ استحقاراً للمخاطَب كما في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] وها هنا «كخلقه» جيء به مبالغةً في إثبات العجز لآلهتهم على سبيل الاستدراج وإرخاء العنان، فإنَّه تعالى لمَّا أنكر عليهم أولاً اتخاذَهم من دونه شركاءَ، ووصَفَها بأنَّها لا تملك لأنفسها نفعاً ولا ضرًّا فكيف تملك ذلك لغيرها؟! وأنكرَ عليهم ثانياً على سبيل التدرُّج وصفَ الخلق أيضاً، يعني: هَبْ أنَّ أولئك الشركاءَ قادرون على

(١) البيتان لعلقمة الفحل، وهما في ديوانه ص٥٠، والمفضليات ص٣٩٧، والخزانة ١١/ ٢٨٦. قال البغدادي: المشكوم: المجازَى، أي: هل تجازيك ببكائك على إثرها وأنت شيخ.

(٢) الأخوان هما: حمزة والكسائي، والقراءة في: السبعة ص٣٥٨، والتيسير ص١٣٣، والنشر٢/ ٢٩٧، وقرأ بها خلف أيضاً.

(٣) ٢/ ٣٥٥.

نفع أنفسهم وعلى نفع عَبَدَتِهم، فهل يقدرون على أن يخلقوا شيئاً؟! وهَبْ أنَّهم قادرون على خلق بعض الأشياء، فهل يقدرون على ما يقدرُ عليه الخالقُ مِنْ خلق السماوات والأرض؟! اهـ.

والحقُّ أنَّ الآية ناعيةٌ عليهم، مُتهكِّمةٌ بهم، فإنَّ من لا يملك لنفسه شيئاً من النفع والضرِّ أبعدُ من أن يفيدَهم ذلك، وكيف يُتوهَّم فيه أنَّه خالقٌ، وأنْ يشتبَه على ذي عقل، فينبَّه على نفيه، وهذا المقدار يكفي في الغرض فافهم.

﴿قُلِ﴾ تحقيقاً للحقِّ وإرشاداً لهم: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الجواهر والأعراض، ويلزمُ هذا أنْ لا خالقَ سواه؛ لئلا يلزمَ التواردُ ـ وهو المقصود ـ؛ ليدلَّ على المراد وهو نفيُ استحقاقِ غيرِه تعالى للعبادة والألوهية، أي: لا خالقَ سواه فيشاركه في ذلك الاستحقاق.

وبعموم الآية استدلَّ أهلُ السنَّة على أنَّ أفعال العباد مخلوقةٌ له تعالى، والمعتزلةُ تزعمُ التخصيصَ بغير أفعالهم. ومن الناس من يحتجُّ أيضاً لما ذهب إليه أهلُ الحقِّ بالآية الأُولى، وهو كما ترى.

﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ﴾ المتوحِّد بالألوهيَّة المنفردُ بالربوبيَّة ﴿ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ الغالبُ على كلِّ ما سواه، ومن جملة ذلك آلهتُهم، فكيف يكون المغلوبُ شريكاً له تعالى؟! وهذا ـ على ما قيل ـ كالنتيجة لما قبلَه.

وهو يحتمل أن يكونَ من مقول القول وأن يكون جملةً مستأنفةً.

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من جهتِها على ما هو المشاهَدُ، وقيل: منها نفسها، ولا تجوُّزَ في الكلام. واستُدلَّ له بآثارٍ اللهُ تعالى أعلمُ بصحتها.

وقيل: أنزلَ منها نفسها ﴿مَآءً﴾ أي: كثيراً، أو نوعاً منه، وهو ماءُ المطرِ باعتبار أنَّ مباديه منها، وذلك لتأثير الأجرامِ الفلكيَّة في تصاعد البخار، فيُتجوَّزُ في «مِنْ».

﴿فَسَالَتْ﴾ بذلك ﴿أَوْدِيَةٌ﴾ واقعة[1] في مواقعهِ لا جميع الأودية، إذِ الأمطارُ لا تستوعبُ الأقطارَ.

---

(١) في (م): دافعة.

وهو جمعُ وادٍ، قال أبو علي الفارسيُّ[1]: ولا يعلم أنَّ فاعلاً جُمعَ على أفعلة، ويشبه أن يكون ذلك لتعاقب فاعل وفعيل على الشيء الواحد، كعالِم وعليم، وشاهد وشهيد، وناصر ونصير. ثمَّ إنَّ وزنَ فاعل يُجمع على أفعال، كصاحب وأصحاب، وطائر وأطيار. ووزنَ فعيل يجمع على أفعلة، كجريب[2] وأجربة، ثمَّ لمَّا حصلتِ المناسبةُ المذكورة بين فاعل وفعيل لا جرَم يجمعُ فاعل جمعَ فعيل، فيقال: وادٍ وأودية، ويجمعُ فعيل جمعَ فاعل: يتيم وأيتام، وشريف وأشراف. اهـ.

ونظيرُ ذلك: نادٍ وأندية، وناجٍ وأنجية. قيل: ولا رابع لها. وفي «شرح التسهيل» ما يخالفه.

والوادي: الموضعُ الذي يسيل فيه الماء بكثرة، وبه سميت الفرجة بين الجبلين، ويطلق على الماء الجاري فيه، وهو اسمُ فاعلٍ من وَدَى إذا سال، فإن أُريدَ الأول فالإسنادُ مجازيٌّ، أو الكلام على تقدير مضافٍ كما قال الإمام[3]، أي: مياه أودية. وإن أُريد الثاني وهو معنًى مجازيٌّ من باب إطلاق اسم المحلِّ على الحالِّ فالإسناد حقيقيٌّ، وإيثار التمثيل بالأودية على الأنهار المستمرَّة الجريان؛ لوضوح المماثلة بين شأنها وما مثِّل بها، كما سنشيرُ إليه إن شاء الله تعالى.

﴿بِقَدَرِهَا﴾ أي: بمقدارها الذي عيَّنه اللهُ تعالى واقتضَتْه حكمتُه سبحانه في نفع الناس، أو بمقدارها المتفاوتِ قلَّةً وكثرةً، بحسب تفاوت محالِّها صغراً وكبراً، لا بكونها مالئةً لها منطبقةً عليها، بل بمجرَّد قلَّتها بصغرها المستلزم لقلَّةِ موارد الماء، وكثرتها بكبرها المستدعي لكثرةِ المواردِ، فإنَّ مواردَ السيل الجاري في الوادي الصغير أقلُّ من موارد السيل الجاري في الوادي الكبير. هذا إذا ما أُريد بالأودية ما يسيلُ فيها. أمَّا إن أُريد بها المعنى الحقيقيُّ، فالمعنى: سالت مياهُها بقدر تلك الأوديةِ على نحو ما عرفته آنفاً، أو يراد بضميرها مياهُها بطريق الاستخدام، ويراد «بقدرها» ما ذُكر أولاً من المعنيين. قاله شيخ الإسلام[4].

---

(١) ذكر كلامَه الرازيُّ في تفسيره ١٩/٣٦.
(٢) الجريب: مكيال. لسان العرب (جرب).
(٣) في تفسيره ١٩/٣٦.
(٤) هو أبو السعود في تفسيره ٥/١٤.

والجارُّ والمجرور على ـ ما نُقل عن الحوفيِّ ـ متعلِّقٌ بـ «سالت»(١)، وقال أبو البقاء(٢): إنه في موضع الصفة لـ «أودية». وجوَّز أن يكون متعلِّقاً بـ «أنزل».

وقرأ زيدُ بن عليٍّ رضي الله عنهما، والأشهبُ العقيليُّ، وأبو عمرٍو في رواية: «بقَدْرها» بسكون الدال، وهي لغة في ذلك(٣).

﴿فَٱحْتَمَلَ﴾ أي: حمل، وجاء افْتَعل بمعنى المجرَّد كاقْتَدر وقَدَر. ﴿ٱلسَّيْلُ﴾ أي: الماء الجاري في تلك الأودية، والتعريف لكونه معهوداً مذكوراً بقوله تعالى: ﴿أَوْدِيَةٌۢ﴾. ولم يجمع؛ لأنه ـ كما قال الراغب(٤) ـ مصدرٌ بحسب الأصل، وفي «البحر»(٥): إنَّه إنَّما عُرِّفَ؛ لأنَّه عنى به ما فُهم من الفعل، والذي يتضمنه الفعلُ من المصدر وإن كان نكرةً إلا أنَّه إذا عاد في الظاهر كان معرفةً، كما كان لو صرّح به نكرةً، وكذا يضمر إذا عاد ما دلَّ عليه الفعل من المصدر، نحو: مَنْ كذب كان شرًّا له، أي: الكذبُ، ولو جاء هنا مضمراً لكان جائزاً عائداً على المصدر المفهوم من سالت. اهـ.

وأورد عليه أنَّه كيف يجوزُ أن يعنى به ما فُهم من الفعل وهو حَدَثٌ، والمذكورُ المعرَّفُ عينٌ كما علمت؟ وأجيب بأنَّه بطريق الاستخدام. وردَّ بأنَّ الاستخدامَ أن يذكرَ لفظٌ بمعنىً ويعادَ عليه ضميرٌ بمعنىً آخرَ، حقيقياً كان أو مجازياً، وهذا ليس كذلك؛ لأنَّ الأوَّل مَصدرٌ أي: حَدَثٌ في ضمن الفعل، وهذا اسمُ عينٍ ظاهرٌ يتَّصفُ بذلك، فكيف يُتصوَّرُ فيه الاستخدام؟ نعم، ما ذكروه أغلبيٌّ لا يختصُّ بما ذكر، فإنَّ مثلَ الضمير اسمُ الإشارة، وكذا الاسم الظاهر. اهـ.

وانظر هل يجوز أن يرادَ من السيل المعنى المصدريُّ فلا يحتاج إلى حديث الاستخدام أم لا ؟.

---

(١) ينظر البحر ٥/ ٣٨١، والدر المصون ٧/ ٣٨.
(٢) في الإملاء ٣/ ٣٨١.
(٣) القراءات الشاذة ص٦٦، والبحر ٥/ ٣٨١.
(٤) في المفردات (سال).
(٥) ٥/ ٣٨١.

وعلى الجواز يكون المعنى: فاحتمل الماءُ المنزل من السماء بسبب السيل ﴿زَبَدًا﴾ هو: الغثاءُ الذي يطرحه الوادي إذا جاش ماؤهُ واضطربت أمواجهُ، على ما قاله أبو الحجاج الأعلمُ[١]، وهو معنى قول ابن عيسى: إنه وَضَرُ الغليان وخَبَثُه[٢]. قال الشاعر[٣]:

وما الفراتُ إذا جاشَتْ غَوارِبُه ... ترمي أواذيُّه العِبْرَيْن بالزَّبَدِ

﴿رَّابِيًا﴾ أي: عالياً منتفخاً فوق الماء، ووصفُ الزبد بذلك قيل: بياناً لما أُريد بالاحتمال المحتمل؛ لكون المحمول غيرَ طافٍ كالأشجار الثقيلة، وإنَّما لم يدفع ذلك بأن يقال: فاحتملَ السيلُ زبداً فوقَه؛ للإيذان بأنَّ تلك الفوقيَّةَ مقتضى شأن الزبد، لا من جهة المحتمل، تحقيقاً للمماثلة بينه وبين ما مثَّل به من الباطل[٤] الذي شأنهُ الظهور في مبادي الرأي من غير مداخلة في الحقِّ.

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ﴾ ابتداءُ جملة ـ كما رُوي عن مجاهد ـ معطوفةٍ على الجملة الأولى؛ لضرب مثلٍ آخرَ، أي: ومن الذي يفعلون الإيقاد. ﴿عَلَيْهِ﴾ وضميرُ الجمع للناس، أُضمر مع عدم السبق؛ لظهوره.

وقرأ أكثر السبعة، وأبو جعفر، والأعرج، وشَيْبة: «توقدون» بتاء الخطاب[٥].

---

(١) في أشعار الشعراء الستة الجاهليين ١/١٩٦.

(٢) نقل كلامه أبو حيان في البحر المحيط ٥/٣٥٨، والوضر: وسخ الدسم واللبن. اللسان (وضر).

(٣) البيت للنابغة الذبياني من قصيدته المشهورة، وهو في ديوانه ص٣٦، وأشعار الشعراء الستة الجاهليين١/١٩٦، وروايته هناك:

فما الفراتُ إذا هبّ الرياحُ له ... ترمي غواربُه العِبْرَين بالزَّبَد

وفي اللسان، وتاج العروس (عبر) كما ذكره المصنف هنا.

غواربه: ما علا من الموج، مفردها: غارب، عِبْر الوادي: شاطئه وناحيته، الأواذيّ: الأمواج، مفردها: آذيّ.

(٤) في (م): الباطن.

(٥) قرأ بها من السبعة: ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم في رواية أبي بكر. التيسير ص٣٣، والنشر٢/٢٩٧ ـ ٢٩٨، والحجة للفارسي ٥/١٦. وقراءة الأعرج وشيبة من الشواذ، وهما في البحر ٥/٣٨١.

والجارُّ متعلِّق بما عندَه، وكذا قولُه تعالى: ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ عند أبي البقاء[1] والحوفيِّ. قال أبو عليٍّ[2]: قد يُوقَد على الشيء وليس في النار، كقوله تعالى: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ [القصص: ٣٨] فإنَّ الطين الذي أمر بالوقد عليه ليس في النار، وإنما يُصيبه لهبُها، وقال مكيٌّ وغيره: إن «في النار» متعلِّق بمحذوفٍ وقع حالاً من الموصول، أي: كائناً، أو ثابتاً فيها، ومنعوا تعلُّقه بـ «توقدون»، قالوا: لأنه لا يُوقد على شيء إلا وهو في النار، والتعليقُ بذلك يتضمَّن تخصيصَ حالٍ من حال أخرى، وقال أبو حيان[3]: لو قلنا: إنه لا يُوقد على شيء إلا وهو في النار، لجاز أيضاً التعليقُ على سبيلِ التوكيد؛ كما قالوا في قوله تعالى: ﴿وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام:٣٨] وقيل: إن زيادةَ ذلك؛ للإشعار بالمبالغة في الاعتمال للإذابة وحصول الزَّبَد، والمراد بالموصول نحوُ الذهب، والفضة، والحديد، والنحاس، والرصاص، وفي عدم ذِكْرِها بأسمائها والعدولِ إلى وصفها بالإيقاد عليها المشعرِ بضربها بالمطارق؛ لأنه لأجله، وبكونها كالحطب الخسيس = تهاونٌ بها؛ إظهاراً لكبريائه جلَّ شأنه على ما قيل، وهو لا ينافي كونَ ذلك ضربَ مثلٍ للحقِّ؛ لأن مقامَ الكبرياء يقتضي التهاون بذلك، مع الإشارة إلى كونه مرغوباً فيه منتفَعاً به بقوله تعالى: ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ﴾ فوفي كلٍّ من المقامين حقَّه، فما قيل: إن الحَمْلَ على التهاون لا يناسب المقامَ؛ لأن المقصود تمثيلُ الحقِّ بها، وتحقيرُها لا يناسبُه = ساقط، فتأمَّل.

ونصب «ابتغاء» على أنه مفعولٌ له كما هو الظاهر، وقال الحوفي: إنه مصدرٌ في موضع الحال، أي: مبتغين وطالبين اتِّخاذَ حلية: وهي ما يُتزيَّن ويُتجمَّل به، كالحلي المتَّخذ من الذهب والفضة، واتخاذَ متاع: وهو ما يُتمتَّع به من الأواني والآلات المتخَذَة من الحديد، والرصاص، وغير ذلك من الفِلِزَّات.

﴿زَبَدٌ﴾ خبَثٌ ﴿مِّثْلُهُۥ﴾ أي: مثلُ ما ذُكر من زَبَد الماء في كونه رابياً فوقه، ورفع «زبد» على أنه مبتدأ خبرُه «مما توقدون»، و«من» لابتداء الغاية، دالَّةٌ على مجرَّد

---

(١) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٣٨١.

(٢) الحجة للقراء السبعة ٥/ ١٦.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٣٨٢.

كونه مبتدأً وناشئاً منه. واستظهر أبو حيان[1] كونَها للتبعيض؛ لأن ذلك الزَّبد بعضُ ما يُوقَد عليه من تلك المعادن، ولم يرتَضِهِ بعضُ المحقِّقين؛ لإخلاله ـ على ما قيل ـ بالتمثيل، وإنما لم يتعرَّض لإخراج ذلك من الأرض كما تعرَّض لعنوان إنزال الماء من السماء؛ لعدم دخل ذلك العنوان في التمثيل ـ على ما استعمله إن شاء الله تعالى ـ كما أنَّ للعنوان السابق دخلاً فيه، بل له إخلالٌ بذلك.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الضربِ البديع المشتمِلِ على نكتٍ رائقة ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ أي: مثل الحقِّ ومثل الباطل، والحذفُ للإنباء عن[2] كمال التماثُل بين الممثَّل والممثَّل به، كأنَّ المثل المضروب عينُ الحقِّ والباطل.

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾ من كلٍّ من السَّيل وما يُوقدون عليه، وأُفرد ولم يُثَنَّ، وإن تقدَّم زبدان، لاشتراكهما في مطلق الزَّبديَّة، فهما واحدٌ باعتبار القَدْر المشترك. ﴿فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ مرميًّا به، يقال: جفا الماءُ بالزَّبد: إذا قذَفَ ورمى به، ويقال: أجفأ أيضاً بمعناه، وقال ابنُ الأنباري: «جفاء» أي: متفرِّقاً، من جفأتِ الريحُ الغيمَ: إذا قطعتهُ وفرَّقته، وجفأتُ الرجلَ: صرعتُه، ويقال: جفأ الوادي وأجفأ: إذا نشف، وقُرئ: «جفالاً» باللام بدل الهمزة[3]، وهو بمعنى متفرِّقاً أيضاً، أخذاً من جفلت الريحُ الغيمَ، كجفأته، ونُسِبت هذه القراءةُ إلى رؤبة، قال ابن أبي حاتم[4]: ولا يُقرأ بقراءته؛ لأنه كان يأكلُ الفأر، يعني أنه كان أعرابيّاً جافياً، وعنه: لا تُعتبر قراءةُ الأعراب في القرآن. والنصبُ على الحاليَّة.

﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي: من الماء الصافي الخالص من الغُثاء، والجوهرِ المعدنيِّ الخالص من الخَبَث ﴿فَيَمْكُثُ﴾ يبقى ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أمَّا الماءُ فيبقى بعضُه في مناقعه، ويسلك بعضُه في عروقِ الأرض إلى العيون ونحوها، وأما الجوهرُ المعدنيُّ فيُصاغ من بعضه أنواع الحلي، ويُتَّخذ من بعضه أصنافُ الآلات والأدوات، فيُنتفَع

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٣٨٢.

(٢) في الأصل و(م): للإنباء على، والمثبت من تفسير أبي السعود ٥/ ١٥ والكلام منه، وجاء في هامش (م) ما نصه: قوله: للابناء، كذا بخطِّ المؤلف، ولعله: للابتناء، تأمل. اهـ.

(٣) القراءات الشاذة ص٦٦، والبحر المحيط ٥/ ٣٨٢.

(٤) كذا في الأصل و(م)، ولعل الصواب: أبو حاتم؛ كما في البحر والقراءات الشاذة.

بكلٍّ من ذلك أنواع الانتفاعات مدَّةً طويلة، فالمرادُ بالمُكث في الأرض ما هو أعمُّ من المُكْث في نفسها، ومن البقاء في أيدي المتقلِّبين فيها.

وتغييرُ ترتيبِ اللفِّ الواقع في الفَذْلكةِ الموافقِ للترتيب الواقعِ في التمثيل؛ قيل: لمراعاة الملاءمة بين حالتي الذهابِ والبقاء، وبين ذِكْرهما؛ فإنَّ المعتبرَ إنما هو بقاءُ الباقي بعد ذهاب الذاهب، لا قبلَه، وقيل: النكتةُ في تقديم الزَّبد على ما ينفَع هو أن الزَّبد هو الظاهرُ المنظورُ أولاً، وغيرُه باقٍ متأخِّرٌ في الوجود؛ لاستمراره، والآيةُ من الجمع والتقسيم كما لا يخفى.

وحاصلُ الكلام في الآيتين أنه تعالى مثَّل الحقَّ ـ وهو القرآنُ العظيم عند الكثير ـ في فيضانه من جَناب القُدْس على قلوبٍ خاليةٍ عنه متفاوتةِ الاستعدادِ، وفي جريانه عليها ملاحظةً وحفظاً، وعلى الألسنة مذاكرةً وتلاوةً، مع كونه مُمِدًّا لحياتها الرُّوحانية وما يتلوها من المَلَكات السَّنِيّة والأعمال المرضيةً = بالماء النازل من السماء، والسائل في أوديةٍ يابسةٍ لم تجرِ عادتُها بذلك، سيلاناً مقدَّراً بمقدارٍ اقتضتهُ الحكمةُ في إحياء الأرض وما عليها، الباقي فيها حسبما يدورُ عليه منافعُ الناس، وفي كونه حِلْيةً تتحلَّى بها النفوسُ، وتصلُ إلى البهجة الأبدية، ومتاعاً يُتمتَّع به في المعاش والمعاد بالذهب والفضة، وسائر الفِلِزَّات التي يُتَّخذ منها أنواعُ الآلات والأدوات، وتبقى منتَفَعاً بها مدةً طويلة، ومثَّل الباطلَ الذي ابتُلي به الكَفَرةُ لقصورِ نظرهم بما يظهر فيهما من غيرِ مداخلةٍ له فيهما وإخلال بصفائهما من الزَّبد الرابي فوقَهما المضمَحِلِّ سريعاً.

وصحَّ عن أبي موسى الأشعريِّ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ مَثَل ما بعثني الله تعالى به من الهدى والعلم مثَلُ غيثٍ أصاب أرضاً، فكانت منها طائفةٌ طيِّبةٌ قَبِلت الماءَ، فأنبتت الكلأَ والعشبَ الكثيرَ، وكانت منها أجادِبُ اكتسبت الماء، نفَعَ الله تعالى بها الناس، فشربوا منها، وسقوا، ورعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قِيْعان، لا تمسكُ ماءً، ولا تُنبت كَلأً، فذلك مثَلُ من فقه في دين الله تعالى، ونفعه ما بعثني الله تعالى به، فعَلِمَ وعلَّمَ، ومثَلُ مَنْ لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبَلْ هدى الله تعالى الذي أُرسِلتُ به»[1].

---

(١) صحيح البخاري (٧٩)، وصحيح مسلم (٢٢٨٢)، وقد سلف ٩/ ١٦٥.

وقال ابن عطية[1]: صدرُ الآية تنبيهٌ على قدرة الله تعالى، وإقامة الحجَّة على الكفرة، فلما فرغ من ذلك جعلَه مثالاً للحقِّ والباطل، والإيمان والكفر، واليقين في الشرع والشكِّ فيه، وكأنه أراد بعطف الإيمان وما بعده التفسيرَ للمراد بالحقِّ والباطل. وعن ابن عباس: جعل الزَّبَد إشارة إلى الشَّكِّ، والخالص منه إشارة إلى اليقين.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الضرب العجيب ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ۝١٧﴾ في كلِّ باب؛ إظهاراً لكمال اللُّطف والعناية في الإرشاد، وفيه تفخيمٌ لشأن هذا التمثيل، وتأكيدٌ لقوله سبحانه: «يضرب الله الحقَّ والباطل» إما باعتبار ابتناءِ هذا على التمثيل الأول، أو بجَعْل ذلك إشارةً إليهما جميعاً.

وبعد ما بيَّن تعالى شأنَه شأنَ كلٍّ من الحقِّ والباطل حالاً ومآلاً أكملَ بيانٍ، شرَعَ في بيان حال أهل كلٍّ منهما مآلاً؛ تكميلاً للدعوة ترغيباً وترهيباً، فقال سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ﴾ إذ دعاهم إلى الحقِّ بفنون الدعوة التي من جملتها ضربُ الأمثال؛ فإنَّ له ـ لما فيه من تصوير المعقول بصورة المحسوس ـ تأثيراً بليغاً في تسخير النفوس. والجارُّ والمجرور خبرٌ مقدَّم.

وقوله سبحانه ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: المثوبةُ الحسنى، وهي الجنةُ كما قال قتادة وغيرُه، وعن مجاهد: الحياةُ الحسنى، أي: الطَّيِّبة التي لا يَشُوبُها كَدَر أصلاً. وعن ابن عباس أن المراد جزاءُ الكلمة الحسنى، وهي لا إله إلا الله، وفيه من البُعد ما لا يخفى = مبتدأٌ مؤخَّر.

﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ﴾ سبحانه، وعاندوا الحقَّ الجَليَّ ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من أصناف الأموال ﴿جَمِيعًا﴾ بحيث لم يشذَّ منه شاذٌّ في أقطارها، أو مجموعاً غيرَ متفرِّق بحسَب الأزمان ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ﴾ أي: بالمذكور مما في الأرض ومثله معه جميعاً؛ ليتخلَّصوا عمَّا بهم، وفيه من تهويل ما يلقاهم ما لا يُحيط به البيان، والموصولُ مبتدأ، والجملةُ الشرطية خبرُه، وهي ـ على ما قيل ـ واقعةٌ موقع السُّوأى المقابلةِ للحسنى الواقعةِ في القرينة الأولى، فكأنه قيل: وللذين لم يستجيبوا له السُّوأى.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٠٧.

وتُعقِّب بأن الشرطيةَ وإن دلَّت على سوء حالهم لكنَّها بمعزلٍ عن القيام مقام لفظ السُّوأى مصحوباً باللام الجارَّة الداخلةِ على الموصول أو ضميره، وعليه يدور حصولُ المرام، فالذي ينبغي أن يعوَّل عليه أن الواقعَ في تلك المقابلةِ «سوءُ الحساب» في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ وحيث كان اسمُ الإشارة الواقعُ مبتدأ في هذه الجملة عبارةً عن الموصول الواقعِ مبتدأ في الجملة السابقة كان خبرُه ـ أعني الجملةَ الظرفيةَ ـ خبراً عن الموصول في الحقيقة، ومبيِّناً لإبهام مضمون الشرطية الواقعةِ خبراً عنه أولاً، ولذلك ترك العطف، فكأنه قيل: والذين لم يستجيبوا له لهم سوءُ الحساب، وذلك في قوةِ أن يقال: وللذين لم يستجيبوا له سوءُ الحساب مع زيادةِ تأكيدٍ، فتمَّ حُسن المقابلة على أبلغ وجهٍ وآكَدِهِ.

واعتُذر بأنه يمكن أن يكون المراد أن «لو أنَّ لهم ما في الأرض جميعاً» إلى آخر الآية واقعٌ موقع ذلك، على معنى أن رعايةَ حُسْن المقابلة لقوله تعالى: «للذين استجابوا لربهم الحسنى» تقتضي أن يقال: وللذين لم يستجيبوا له السُّوأى، ولا يُزاد على ذلك، لكنه جيء بقوله سبحانه: «لو أن لهم» إلخ بدلَ ما ذكر، ولعل في كلام الطِّيبي ما يُستأنس به لذلك.

وإلى اعتبار السُّوأى في المقابلة ذهب أيضاً صاحب «الكشف» قال: إن قولَه تعالى: «لو أن لهم» في مقابلة الحُسنى بدلَ السُّوأى مع زيادةِ تصويرٍ وتحسير، وأُوثر الإجمالُ في الأول دلالةً على أن جزاء المستجيبين لا يدخل تحت الوصف، فتدبَّر، والمرادُ بسوء الحساب، أي: الحساب السيِّئ ـ على ما رُوي عن إبراهيم النَّخَعي والحسن ـ أن يُحاسَبوا بذنوبهم كلِّها، لا يغفر لهم منها شيء، وهو المعنيُّ بالمناقشة. وعن ابن عباس: هو أن يحاسبوا، فلا تُقبل حسناتُهم، ولا تُغفر سيِّئاتُهم.

﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ أي: مرجِعُهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ بيانٌ لمؤدَّى ما تقدم، وفيه نوعُ تأييدٍ لتفسير «الحسنى» بالجنة. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾ أي: المستقرُّ، والمخصوص بالذمِّ محذوفٌ، أي: مهادُهم، أو جهنم.

وقال الزمخشريُّ[1]: اللام في قوله تعالى: «للذين استجابوا» متعلِّقةٌ

---

(١) الكشاف ٢/٣٥٦.

بـ «يضرب الله الأمثال»، وقولُه سبحانه: «الحسنى» صفةٌ للمصدر، أي: استجابوا الاستجابةَ الحُسنى، وقوله عزَّ وجلَّ: «والذين لم يستجيبوا» معطوفٌ على الموصول الأول، وقولُه جلَّ وعلا: «لو أن لهم» إلخ كلامٌ مستأنفٌ مسوقٌ لبيان ما أُعدَّ لغير المستجيبين من العذاب، والمعنى: كذلك يضرب الله تعالى الأمثالَ للمؤمنين المستجيبين والكافرين المعاندين، أي: هما مَثَلا الفريقين. انتهى.

قال أبو حيان[1]: والتفسيرُ الأول أَولى؛ لأن فيه ضربَ الأمثال غيرَ مقيَّد بمثل هذين، والله تعالى قد ضرب أمثالاً كثيرةً في هذين، وفي غيرِهما، ولأن فيه ذكرَ ثوابِ المستجيبين، بخلاف هذا؛ ولأن تقديرَ الاستجابة الحسنى مشعرٌ بتقييد الاستجابة ومقابلها، ليس نفيَ الاستجابة مطلقاً، وإنما هو نفي الاستجابة الحسنى، والله تعالى قد نفى الاستجابةَ مطلقاً، ولأنه حينئذٍ يكون «لو أن لهم» إلخ كلاماً مفلتاً أو كالمفلت؛ إذ يصيُر المعنى: كذلك يضربُ الله الأمثال للمؤمنين والكافرين «لو أنَّ لهم» إلخ، ولو كان هناك حرفٌ يربط «لو» بما قبلَها زال التفلُّت، وأيضاً إنه يُوهم الاشتراكَ في الضمير، وإن كان تخصيصُ ذلك بالكافرين معلوماً.

وتُعقِّب بأنه لا كلامَ في أولوية التفسير الأول، لكن كونُ ما ذُكر وجهاً لها محلُّ كلامٍ؛ إذ لا مقتضى في التفسير الثاني لتقييد الأمثال عموماً بمثل هذين، ألا ترى قولهَ تعالى: «كذلك»، ثم إن فيه تفهيم ثوابِ المستجيبين أيضاً، ألا يُرى إلى القصر المستفاد من تقديم الظرف؟ وأيضاً قوله تعالى: «الحسنى» صفةٌ كاشفةٌ لا مفهومَ لها؛ فإنَّ الاستجابةَ لله تعالى لا تكون إلا حُسْنى، وكيف يكون قولُه سبحانه: «لو أن لهم» إلخ مفلَّتاً، وقد قالوا: إنه كلامٌ مبتدأ لبيان حال المستجيبين، يعنون أنه استئنافٌ بيانيٌّ جواب للسؤال عن مآل حالهم؟ ثم كيف يُتوهم الاشتراكُ مع كون تخصيصه بالكافرين معلوماً؟ انتهى.

قال بعضُ المحقِّقين: إن ما ذُكر متوجِّه بحسَب بادئ الرأي والنَّظْرة الأولى، أما إذا نُظِر بعين الإنصاف بعد تسليم أنَّ ذاك أولى وأقوى، عُلم أن ما قالَه أبو حيان واردٌ؛ فإنَّ قوله تعالى: «كذلك» يقتضي أن هذا شأنُه وعادتُه عزَّ شأنُه في ضرب

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٣٨٣.

الأمثال، فيقتضي أن ما جَرَت به العادة القرآنية مقيَّد بهؤلاء، وليس كذلك، وما ذكره المتعقِّبُ ولو سلِّم فهو خلافُ الظاهر.

وأما قوله: إن ثوابَ المستجيبين معلومٌ مما ذَكَره، ففرقٌ بين العلم ضمناً والعلم صراحةً، وأما أن الصفة مؤكِّدة، أو لا مفهوم لها، فخلافُ الأصل أيضاً، وكون الجملة غيرَ مرتبطةٍ بما قبلَها ظاهر، والسؤالُ عن حال أحدِ الفريقين مع ذكرهما مُلْبِس، وعودُ الضمير على ما قبلَه مطلقاً هو المتبادر وما ذُكر لا يدفع الإيهام.

وفي «إرشاد العقل السليم»[1] بعد نقل التفسير الأخير وحمل الأمثال فيه على الأمثال السابقة: وأنت خبيرٌ بأن عنوانَ الاستجابة وعدمِها لا مناسبةَ بينه وبين ما يدورُ عليه أمرُ التمثيل، وأنَّ الاستعمالَ المستفيضَ دخولُ اللام على مَنْ يُقصَد تذكيرُه بالمثل، نعم قد يُستعمل في هذا المعنى أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحريم: ١١] ونظائرِه، على أن بعضَ الأمثال المضروبةِ لاسيما المثل الأخير الموصول بالكلام ليس مثل الفريقين، بل مثلٌ للحقِّ والباطل، ولا مساغَ لجعل الفريقين مضروباً لهم أيضاً، بأن يُجعل في حكم أن يقال: كذلك يضربُ الله الأمثال للناس؛ إذ لا وجهَ حينئذٍ لتنويعهم إلى المستجيبين وغيرِ المستجيبين.

ويؤيِّد هذا ما في «الكشف» حيث قال: إن جعل «للذين استجابوا» من تتمة الأمثال لا من صلة «يضرب» متكلَّف؛ لأنهما مثلا الحقِّ والباطل بالأصالة، ومن صلةِ «يضرب» أبعد؛ لأن الأمثال إنما ضُرِبت لمن يعقل.

ثم إن كون المراد بالأمثالِ الأمثالَ السابقةَ مبنيٌّ على أن ما تقدَّم كان أمثالاً، والمشهور أنه مَثَلان، نعم أخرج ابنُ جرير[2] وغيره عن قتادة أنه قال في الآية: هذه ثلاثةُ أمثالٍ ضَرَبَها الله تعالى في مَثَلٍ واحد.

وبعد هذا كلِّه لا شكَّ في سلامة التفسير الأول من القيل والقال، وأنه الذي

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ١٦.
(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٥٠١.

يستدعيه النظمُ الجليل؛ لأن تمامَ حُسْن الفاصلة أن تكون كاسمها، ولهذا انحطَّ قولُ امرئ القيس:

ألا أيُّها الليلُ الطويل ألا انجلي بِصبحٍ وما الإصباح منك بأمثَلِ[١]

عن قول المتنبي[٢]:

إذا كان مدحاً فالنسيبُ المقدَّم أكلُّ فصيحٍ قال شعراً متيَّمُ

وهو الذي فهمه السلفُ من الآية، ومن هنا كان أكثرُ الشيوخ يقفون على «الأمثال»، ويبتدؤون بقوله تعالى: «للذين استجابوا». وقال صاحبُ «المرشد»: إنه وقفٌ تامٌّ، والوقفُ على «الحسنى» حسنٌ، وكذا على «لافتدوا به». والعجبُ من الزمخشريِّ كيف اختار خلافَ[٣] ذلك مع وضوحه! والله تعالى أعلم.

❀ ❀ ❀

ومن باب الإشارة: ﴿الٓمٓرۚ﴾ أي: الذاتُ الأحديةُ، واسمُه العليم، واسمُه الأعظم، ومظهَرُه الذي هو الرحمةُ ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ﴾ علامات ﴿ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾ الجامع الذي هو الوجودُ المطلق.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ أي: بغير عمدٍ مرئية، بل بعمدٍ غير مرئية، وجعل الشيخُ الأكبر قُدِّس سرُّه[٤] عمادَها الإنسان الكامل، وقيل: النفس المجرَّدة التي تحرّكها بواسطة النفس المنطبعة، وهي قوةٌ جسمانية سارية في جميع أجزاء الفلك، لا يختصُّ بها جزءٌ دون جزء؛ لبساطته، وهي بمنزلة الخيال فينا. وفيه ما فيه. وقيل: رفع سماوات الأرواح بلا مادة تعمدها، بل مجردةً قائمة بنفسها. ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾بالتأثير والتقويم، وقيل: عرش القلب بالتجلِّي.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ﴾ شمسَ الرُّوح بإدراك المعارف الكلية، واستشرافِ الأنوار

(١) ديوانه ص١٨، وسلف ٨/ ٣١٢.
(٢) ديوانه ٤/ ٦٩.
(٣) وقد نقل المصنف اختياره هذا قريباً.
(٤) الفتوحات، الباب التاسع والخمسون وخمس مئة.

العالية ﴿وَٱلْقَمَرَ﴾ قمر القلب بإدراك ما في العالمين، والاستمداد من فوق ومن تحت، ثم قَبول تجلِّيات الصفات. ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو كمالُه بحسب الفطرة.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ في البداية بتهيئة الاستعداد، وترتيب المبادئ. ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ﴾ في النهاية بترتيب الكمالات والمقامات ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ﴾ عند مشاهدة آيات التجلِّيات ﴿تُوقِنُونَ﴾ عين اليقين.

وقال ابن عطاء: يدبِّر الأمر بالقضاء السابق، ويُفَصِّل الآيات بأحكام الظاهر لعلَّكم توقنون أنَّ الله تعالى الذي يُجري تلك الأحوالَ لابدَّ لكم من الرُّجوع إليه سبحانه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: أرضَ قلوبِ أوليائه ببسط أنوارِ المحبة ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ المعرفة لئلَّا تتزلزل بغلبةِ هيجان المواجيد، ﴿وَ﴾ جعل فيها ﴿أَنْهَـٰرًا﴾ من علوم الحقائق ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ وهي ثمراتُ أشجار الحِكَم المتنوعة. ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ تجلِّي الجلال، وتجلِّي الجمال. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في آيات الله تعالى.

قال أبو عثمان: الفكرُ: إراحة القلب من وساوس التدبير، وقيل: تصفيتُه لوارد الفوائد.

وقيل: الإشارة في ذلك إلى مدِّ أرض الجسد، وجعل رواسي العظام فيها، وأنهار العروق، وثمرات الأخلاق من الجود والبخل، والفجور والعفَّة، والجبن والشجاعة، والظلم والعدل وأمثالها، والسواد والبياض، والحرارة والبرودة، والمَلاسة والخشونة ونحوها، وتغشيةِ ليل ظلمة الجسمانيَّات نهار الروحانيات، وفي ذلك آياتٌ لقوم يتفكرون في صنع الله تعالى، وتطابُقِ عالَمَيه الأصغرِ والأكبر.

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ﴾ فقلوبُ المحبين مجاورةٌ لقلوب المشتاقين، وهي لقلوب العاشقين، وهي لقلوب الوالهين، وهي لقلوب الهائمين، وهي لقلوب العارفين، وهي لقلوب الموحِّدين، وقيل: في أرض القلوب قِطَع متجاورات: قطع النفوس، وقطع الأرواح، وقطع الأسرار، وقطع العقول، والأُولى تنبتُ شوكَ

الشهوات، والثانية زهرَ المعارف، والثالثةُ نباتَ كواشف الأنوار، والرابعةُ أشجارَ نورِ العلم، ﴿و﴾ فيها ﴿جَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ﴾ أي: أعناب العشق ﴿وَزَرْعٌ﴾ أي: زرع دقائق المعرفة ﴿وَنَخِيلٌ﴾ أي: نخل الإيمان ﴿صِنْوَانٌ﴾ في مقام الفَرْق ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ في مقام الجمع.

وقيل: ﴿صِنْوَانٌ﴾ إيمانٌ مع شهود، و﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ إيمانٌ بدونه. ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ وهو التجلِّي الذي يقتضيه الجودُ المطلق. ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ في الطعم الرُّوحاني.

وقيل: أُشير أيضاً إلى أن في أرض الجسد قطعاً متجاورات من العظم، واللحم، والشحم، والعصب، وجنات من أشجار القوى الطبيعية والحيوانية والإنسانية، من ﴿أَعْنَٰبٍ﴾ القوى الشهوانية التي يُعصَر منها هوى النفس، والقوى العقلية التي يُعصَر منها خمرُ المحبة والعشق، ﴿وَزَرْعٌ﴾ القوى الإنسانية، ﴿وَنَخِيلٌ﴾ سائر الحواسِّ الظاهرة والباطنة، ﴿صِنْوَانٌ﴾ كالعينين والأذنين ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ كاللسان وآلة الفكر والوهم، ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ وهو ماء الحياة، ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في أُكُلِ الإدراكات والملكات، كتفضيل مُدْرَكات العقل على الحسِّ، والبصر على اللمس، ومَلَكة الحِكْمة على العفة، وهكذا.

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ بعد ظهور الآيات ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ولم يعلموا أن القادرَ على ذلك قادرٌ على أن يُحيي الموتى.

وقيل: منشأ التعجُّب أنهم أنكروا الخلقَ الجديد يومَ القيامة، مع أنَّ الإنسان في كلِّ ساعةٍ في خلق آخر جديدٍ، بل العالمُ بأسره في كلِّ لحظةٍ يتجدَّد بتبدُّل الهيآت، والأحوال، والأوضاعِ، والصُّور، وإلى كون العالم كلَّ لحظةٍ في خلق جديد ذهب الشيخُ الأكبر قدِّس سرُّه[١]، فعنده الجوهرُ - وكذا العَرَض - لا يبقى زمانين، كما أنَّ العَرَض عند الأشعريِّ كذلك، وهذا عند الشيخ قدِّس سرُّه مبنيٌّ على أن الجواهر والأعراض كلَّها شؤونه[٢]، تعالى عمَّا يقولُه الظالمون علوًّا كبيرًا،

---

(١) وقد تكرر تصريحه بذلك، فمنه ما ذكره في الباب الخامس والتسعين والمئتين من الفتوحات.

(٢) الفتوحات، الباب الثامن والخمسون وخمس مئة.

وهو سبحانه ﴿كُلَّ يَوْمٍ﴾ أي: وقت ﴿فِي شَأْنٍ﴾، وأكثرُ الناس ينكرون على الأشعريِّ قولَه بتجدُّد الأعراض، والشيخ قدِّس سرُّه زاد في الشطرنج جَمَلاً، ولا يكاد يُدرَكُ ما يقولُه بالدليل، بل هو موقوفٌ على الكشف والشهود، وقد اغترَّ كثير من الناس بظاهرِ كلامه، فاعتقَدوه من غير تدبُّرٍ، فضلُّوا وأضلُّوا.

﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ﴾ فلم يعرفوا عظمتَه سبحانه. ﴿وَأُولَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْۖ﴾ فلا يقدرون أن يرفعوا رؤوسَهم المُنتكسة إلى النظر في الآيات. ﴿وَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لِعظَم ما أتوا.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ بمناسبة استعدادهم للشرِّ. ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُۗ﴾ عقوبةُ أمثالهم. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْۖ﴾ أنفسَهم باكتسابِ الأمور الحاجبةِ لهم عن النور ولم ترسَخْ فيهم. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن رسَخت فيه.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لعَمَى بصائرهم عن مشاهدة الآيات الشاهدة بالنبوَّة ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾ تشهدُ له ﷺ بذلك. ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ﴾ ما عليك إلا إنذارُهم لا هدايَتهم ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ هو الله تعالى. وقيل: لكلِّ طائفة شيخٌ يُعرِّفُهم طريقَ الحقِّ. ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ فيعلم ما تحمل أنثى النفس من ولد الكمال، أي: ما في قوة كلِّ استعداد. ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ أي: تغيض أرحامُ الاستعداد بترك النفس وهواها. ﴿وَمَا تَزْدَادُۖ﴾ بالتزكية وبركة الصُّحبة ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ من الكمالات ﴿عِندَهُۥ﴾ سبحانه ﴿بِمِقْدَارٍ﴾ معيَّنٍ على حسَب القابلية.

﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ﴾ في مكمَنِ استعدادِه ﴿وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ بإبرازِه إلى الفعل. ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ﴾ ظلمةِ ظُلمِهِ نفسَه. ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ بخروجه عن مقام النفس، وذهابِه في نهار نورِ الروح.

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۗ﴾ إشارةٌ إلى سوابقِ الرحمة الحافظةِ له من خاطفات الغضب، أو الإمدادات الملكوتية الحافظةِ له من جنِّ القوى الخيالية والوهمية والسبعية والبهيمية وإهلاكِها إياه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من النعم الظاهرةِ أوالباطنة ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ﴾

من الاستعداد وقوةِ القَبول. قال النصرآبادي: إن هذا الحكم عامٌّ، لكنَّ مناقشة الخواصِّ فوق مناقشة العوامِّ.

وعن بعض السلف أنه قال: إن الفأرةَ مزَّقت خُفِّي، وما أعلم ذلك إلا بذنبٍ أحدثتُه، وإلا لما سلَّطها عليَّ، وتمثَّل بقول الشاعر(١):

لو كنتُ من مازنٍ لم تَستبح إبلي   بنو اللَّقيطةِ من ذُهْلِ بنِ شَيْبانا

﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ إذ الكلُّ تحت قهرِه سبحانه، قال القاسم: إذا أراد الله تعالى هلاكَ قومٍ حسَّن مواردَه في أعينهم حتى يمشون إليها بتدبيرهم وأرجلهم، ولله تعالى درُّ من قال:

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى   فأوَّلُ ما يجني عليه اجتهادُه(٢)

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ أي: برقَ لوامعِ الأنوار القدسيَّة ﴿خَوْفٗا﴾ خائفين من سرعة انقضائه، أو بطء رجوعِه ﴿وَطَمَعٗا﴾ طامعين في ثباته وسرعةِ رجوعه. ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ بماءِ العلم والمعرفة، وقيل: يُري المحبِّين برقَ المكاشفة، ويُنشئ للعارفين سحابَ العَظَمة الثِّقالِ بماء الهيبة، فيُمطر عليهم ما يُحييهم به الحياةَ التي لا تُشبِهُها حياة، وأنشدوا للشِّبليِّ:

أظلَّت علينا منكَ يوماً غمامةٌ   أضاءت لنا برقاً وأبطا رِشاشُها

فلا غيمُها يصحو فييأسَ طامعٌ   ولا غيثُها يأتي فيَروى عِطاشُها(٣)

وعن بعضهم أنَّ البرق إشارةٌ إلى التجلِّيات البرقية التي تحصُلُ لأربابِ الأحوال، وأشهرُ التجلِّيات في تشبيهه بالبرقِ التجلِّي الذاتيُّ، وأنشدوا:

ما كان ما أوليتَ من وَصْلنا   إلا سراجاً لاح ثم انطفى(٤)

---

(١) هو قُرَيط بن أُنَيف من بَلْعَنبر، وهو في ديوان الحماسة بشرح المرزوقي ١/ ٢٣، وخزانة الأدب ٨/ ٤٤٦.

(٢) البيت في الديوان المنسوب إلى سيدنا علي ﷺ ص٤٦، وقد سلف ٢/ ١١٥.

(٣) لم نقف على من نسب البيتين إلى الشبلي، وهما في عيون الأخبار ٣/ ١٤٥ منسوبان إلى عبد الصمد بن الفضل الرقاشي، وفي معاهد التنصيص ٢/ ٥٢ منسوبان إلى بشار بن برد، وفي النجوم الزاهرة ٥/ ٢٧ منسوبان إلى مِهْيار بن مرزويه الديلمي.

(٤) أورده القشيري في تفسيره ٢/ ٢٢١ من غير نسبة.

وذكر الإمام الرباني قُدِّس سرُّه في «المكتوبات»[١] أن التجلِّي الذاتيَّ دائميٌّ للكاملين من أهل الطريقة النقشبندية، لا برقيٌّ، وأطال الكلامَ في ذلك مخالفاً لكبار السادة الصوفية كالشيخ محيي الدين وغيره، والحقُّ أن ما ذكره من التجلِّي الذاتيِّ ليس هو الذي ذكروا أنه برقيٌّ؛ كما لا يخفى على من راجع كلامَه وكلامَهم.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ﴾ أي: رعدُ سطوةِ التجلِّيات الجلاليَّة، ويُمَجِّد الله تعالى عما يتصوَّره العقلُ ملتبساً ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ وإثباتِ ما ينبغي له عزَّ شأنُه ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وتسبِّح ملائكةُ القوى الرُّوحانية ﴿مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ من هَيبة جلاله جلَّ جلاله ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ هي صواعقُ السُّبحات الإلهية عند تجلِّي القهر الحقيقيِّ المتضمِّن للُّطف الكلِّي ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ فيحرِقُه عن بقية نفسه، وفي الخبر: «إن لله تعالى سبعين ألفَ حجابٍ من نور وظلمة، لو كشَفَها لأحرقَتْ سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصرُه من خلقه»[٢]. وقال ابنُ الزنجانيِّ: الرعدُ: صعقاتُ الملائكة، والبرقُ: زفرات أفئدتهم، والمطر: بكاؤُهم. وجعل الزمخشريُّ[٣] هذا من بِدَع المتصوِّفة.

وكأني بك تقول: إن أكثر ما ذُكر في باب الإشارة من هذا الكتاب من هذا القَبِيل. والجواب: أنَّا لا ندَّعي إلا الإشارة، وأما أن ذلك مدلولُ اللفظ، أو مراد الله تعالى، فمعاذ الله تعالى من أن يمرَّ بفكري، واعتقادُ ذلك هو الضلالُ البعيد، والجهلُ الذي ليس عليه مزيد، وقد نصَّ المحقِّقون من الصوفية على أن معتقدَ ذلك كافرٌ، والعياذُ بالله تعالى، ولعلَّكَ تقول: كان الأولى مع هذا تركُ ذلك. فنقول: قد ذَكَر مِثْلَه[٤] مَنْ هو خير منَّا، والوجه في ذلك غيرُ خفيٍّ عليك لو أنصفتَ.

---

(١) ينظر ١/١٩٦ وما بعده، و٣/ ١٠٠-١٠٢.

(٢) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج أبو يعلى (٧٥٢٥) من حديث سهل بن سعد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «دون الله سبعون ألف حجاب نور وظلمة، وما تسمع نفس شيئاً من حسّ تلك الحجب إلا زهقت نفسُها». وفيه موسى بن عبيدة الربذي؛ قال عنه الهيثمي في المجمع ١/ ٧٩: لا يحتج به.
والصحيح من أحاديث الباب ما أخرجه مسلم (١٧٩) (٢٩٣) من حديث أبي موسى الأشعري قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات ..... وفيه: «حجابه من نور - وفي رواية: النار -، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

(٣) الكشاف: ٢/ ٣٥٣.

(٤) في الأصل: ذلك، والمثبت من (م).

﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ بالتفكُّر في ذاته، والنظرِ للوقوف على حقيقة صفاته ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ في دفع الأفكار والأنظار عن حَرَم ذاته، وحمى صفاته جلَّ جلاله:

هيهاتَ أن تصطاد عنقاءَ البقا   بلُعابهنَّ عناكبُ الأفكار

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ أي: الحقَّة الحقيقة بالإجابة لا لغيره سبحانه ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ الأصنام ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ أي: إلا استجابةً كاستجابة من ذكر؛ لأن ما يدعونَه بمعزلٍ عن القدرة. ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ المحجوبين ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: ضياع؛ لأنهم لا يدعون الإله الحقَّ، وإنما يدعون إلهاً توهَّموه ونحتوه في خيالهم.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ ينقاد ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الحقائق والرُّوحانيات ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ شاؤوا أو أبوا ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ هياكلهم ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ أي: دائماً، وقيل: يسجد مَنْ في السماوات، وهو الرُّوحُ والعقل والقلب، وسجودُهم طوعاً، ومَنْ في الأرض وهو النفسُ وقواها، وسجودُهم كَرْهاً. وقيل: الساجدون طوعاً: أهلُ الكشف والشُّهود، والساجدون كرهاً: أهلُ النَّظر والاستدلال.

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من سماءِ روح القُدُس ﴿مَآءً﴾ أي: ماءَ العلم ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ﴾ أي: أوديةُ القلوب ﴿بِقَدَرِهَا﴾ بقدر استعدادِها ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا﴾ من خَبَثِ صفات أرض النفس ﴿رَّابِيًا﴾ طافياً على ذلك ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ﴾ نارِ العشق من المعارفِ والكُشوف والحقائق والمعاني التي تُهيِّجُ العشقَ ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ طلب زينة النفس؛ لكونها كمالاتٍ لها ﴿أَوْ مَتَٰعٍ﴾ من الفضائل الخلقية التي تحصُلُ بسببها؛ فإنها مما تتمتَّع به النفسُ ﴿زَبَدٌ﴾ خَبَث ﴿مِّثْلُهُۥ﴾ كالنظر إليها ورؤيتها، والإعجابِ بها، وسائرِ ما يعدُّ من آفات النفس ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ منفيّاً بالعلم ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ من المعاني الحقَّة، والفضائل الخالصة ﴿فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرضِ النفس.

وقال بعضُهم: إنه تعالى شبَّه ما ينزلُ من مياه بحارِ ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله إلى قلوب الموحِّدين والعارفين والمكاشفين والمريدين بما يَنزِلُ من السماء إلى الأودية، فكما تحمِلُ الأوديةُ حسب اختلافها ماءَ المطر تحملُ تلك القلوبُ مياهَ هاتيكَ البحار حسب اختلاف حواصِلِها وأقدارِ استعداداتها في المحبَّة والمعرفة

والتوحيد، وكما أن قطراتِ الأمطار تكونُ في الأودية سيلاً، فيحتملُ السيلُ زبداً وحُثالةً وما يكون مانعاً من الجريان، يكون تواترُ أنوارِ الحقِّ سبحانه سيلَ المعارف والكشوفات، فيسيلُ في أودية القلوب، فيحتمِلُ من أوصاف البشرية وما دون الحقِّ الذي يمنع القلوبَ من رؤيةِ الغيوب ما يحتمِلُه، فيذهب جُفاء، فتصيرُ حينئذٍ مقدَّسةً عن زَبَد الرياء والسُّمعة والنفاق، والخواطر المذمومة، وتبقى سائحةً في أنوار الأزل والأبد بلا مانعٍ من العرش إلى الثَّرى. وشبَّه سبحانه أعمالَ الظاهر والباطن، وما ينفتحُ بمفاتيحها من الغيب، بجواهر الأرض من الذهب والفضة وغيرهما إذا أُذيبا للانتفاع بهما، وبيَّن تعالى أن لهما زَبَداً مثل زَبَد السَّيل، وأنه يذهب ويمكثُ أصلُهما الصافي، فكذلك أعمالُ الظاهر والباطن تدخل في بَوْدَقةِ الإخلاص ويُوقد عليهما نيرانُ الامتحان، فيذهب ما فيه حظُّ النفس، ويبقى ما هو خالصٌ لله تعالى، وهكذا الخواطرُ يبقى منها خاطرُ الحقِّ، ويضمحلُّ سريعاً خاطرُ الباطل.

وعن بعضهم: القلوبُ أوعيةٌ، وفيها أوديةٌ، فقلبٌ يسيل فيه ماءُ التوبة، وقلبٌ يسيلُ فيه ماءُ الرحمة، وقلبٌ يسيلُ فيه ماءُ الخوف، وقلبٌ يسيلُ فيه ماءُ الرجاء، وقلبٌ يسيل فيه ماءُ المعرفة، وقلبٌ يسيلُ فيه ماءُ الأنس، وكلُّ ماءٍ من هذه المياه يُنبت في القلب نوعاً من القُرْبة والقُرْب من الله عزَّ وجلَّ، ومن القلوب ما حُرِم ذلك والعياذُ بالله تعالى.

وقال ابنُ عطية[1]: رُوي عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ إلخ: يريد بالماء الشرعَ والدِّين، وبالأودية القلوبَ، ومعنى سيلانها بقدرها أخذُ النبيلِ بحظِّه والبليد بحظِّه. ثم قال: وهذا قولٌ لا يصحُّ - والله تعالى أعلم - عن ابن عباس؛ لأنه ينحو إلى قولِ أصحاب الرموز، وقد تمسَّك به الغزاليُّ[2] وأهلُ ذلك الطريق، وفيه إخراجُ اللفظ عن مفهوم كلام العرب بغير داعٍ إلى ذلك، وإن صحَّ ذلك عن ابن عباس فيقال فيه: إنما قصَدَ رضي الله عنه أن قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ معناه: الحق الذي يتقرَّر في القلوب، والباطل الذي يعتريها. اهـ.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٣٠٨.

(٢) الإحياء ١/ ١٠٢، وليس في كلامه ما يدل على تمسكه بهذا التفسير، بل المفهوم من كلامه عدم قبول مثل هذه التأويلات كما سينبه عليه المصنف قريباً.

ونحن نقول: إن صحَّ ذلك فمقصود الحبْر منه الإشارةُ، وإن كان يريد غير ظاهر فيه، وحجَّةُ الإسلام الغزاليُّ عليه الرحمةُ أشدُّ الناس على أهل الرُّموز القائلين بأن الظاهر ليس مرادَ الله تعالى كما لا يخفى على متتبِّعي كلامِهِ.

وسمعتُ من بعض الناس أن أهل الكيمياء تكلَّموا في هذه الآية على ما يوافق غرضَهم، ولم أقف على ذلك.

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ﴾ بتصفية الاستعداد عن كُدورات صفاتِ النفس ﴿ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ المثوبةُ الحسنى، وهو الكمال الفائضُ عليهم عند الصفاء ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾ تعالى وبقوا في الرذائل البشرية والكُدورات الطبيعية ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الجهةِ السُّفلية من الأموال والأسباب التي انجذبوا إليها بالمحبَّة، فأهلكوا أنفسَهم بها ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾ مما ينالُهم من الحجاب والحِرْمان ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ لوقوفهم مع الأفعال في مقام النفس ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ الحِرْمانُ ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ جهنَّم، والعياذُ بالله تعالى، ونسألُه العفوَ والعافية.

❁ ❁ ❁

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ من القرآن الذي مُثِّل بالماء المُنزَلِ من السماء، والإبريز الخالص في المنفعةِ والجدوى هو ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا حقَّ وراءه، أو الحقُّ الذي أُشير إليه بالأمثال المضروبة فيستجيب له ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ عمى القلب لا يدركُهُ، ولا يُقدِّر قدرَه وهو هو، فيبقى حائراً في ظلمات الجهل وغَياهب الضلال، ولا يتذكَّر بما يُضرب من الأمثال؟ والمراد كمن لا يعلم ذلك، إلا أنه أُريد زيادةُ تقبيح حالِهِ، فعبَّر عنه بالأعمى، والهمزةُ للإنكار، وإيرادُ الفاء بعدها لتوجيه الإنكار إلى ترتُّب توهُّم المماثلة على ظهور حال كلٍّ منهما بما ضُرب من الأمثال، وما بُيِّن من المصير والمآل، كأنه قيل: أَبَعْدَ ما بُيِّن حالُ كلٍّ من الفريقين ومآلهما يُتوهَّم المماثلةُ بينهما؟!

وقرأ زيد بنُ عليٍّ رضي الله عنهما: (أومن يعلم) بالواو مكان الفاء[1].

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٣٨٤.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بما ذُكر من المذكِّرات، فيقفُ على ما بينهما من التفاوت والتنائي ﴿أُوْلُوا الْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ أي: العقولُ الخالصة المبرَّأة من متابعة الإلفِ ومعارضةِ الوهم، فاللبُّ أخصُّ من العقل، وهو الذي ذهب إليه الراغبُ[١]، وقيل: هما مترادفان، والقصدُ بما ذكر دفعُ ما يُتوهَّم من أن الكفار عقلاءُ مع أنهم غيرُ متذكِّرين، ولو نُزِّلوا منزلةَ المجانين حسُنَ ذلك.

والآيةُ[٢] على ما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما في حمزةَ رضي الله عنه وأبي جهل، وقيل: في عمر رضي الله عنه وأبي جهل، وقيل: في عمار بن ياسر رضي الله عنه وأبي جهل، وقد أشرنا إلى وجه اتِّصالها بما قبلَها، والعلامةُ الطِّيبي بعد أن قرَّر وجهَ الاتصال بأن (أَفَمَن يَعْلَمُ) عطفٌ على جملة (لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا)، والهمزةَ مقحمةٌ بين المعطوف والمعطوف عليه، وذَكَر من معنى الآية على ذلك ما ذَكَر، قال: ثم إنك إذا أمعنتَ النظرَ وجدتَها متصلةً بفاتحة السورة، يعني بقوله تعالى: (وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ) وهو كما ترى.

﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ بما عَقدُوا على أنفسهم من الاعتراف بربوبيَّته تعالى حين قالوا: بلى، أو بما عَهِدَ الله تعالى عليهم في كتبه من الأحكام، فالمرادُ بهم ما يشمَلُ جميعَ الأمم. وإضافةُ العهد إلى الاسم الجليل من باب إضافةِ المصدر إلى مفعوله على الوجه الأول، ومن باب إضافةِ المصدرِ إلى فاعله على الثاني، وإذا أُريد بالعهد ما عَقَده الله تعالى عليهم يوم قال سبحانه: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] كانت الإضافة مطلقاً من باب إضافةِ المصدر إلى الفاعل، وهو الظاهر كما في «البحر»[٣]. وحُكي حملُ العهد على عهد (أَلَسْتُ) عن قتادة، وحملُه على ما عُهِد في الكتب عن بعضهم، ونُقل عن السدِّي حملُه على ما عُهد إليهم في القرآن، وعن القفَّال حملُه على ما في جِبِلَّتهم وعقولهم من دلائل التوحيد والنبوَّات، إلى غير ذلك، واستُظهر حملُه على العموم.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن: (لب).

(٢) في هامش الأصل: «أفمن يعلم» إلخ. اهـ. منه. وهي في هامش (م) كذلك بزيادة: هي، في أولها.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٣٨٥.

﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ۝٢٠﴾ ما وثَّقوا من المواثيق بين الله تعالى وبينهم من الإيمان به تعالى، والأحكام، والنذور، وما بينهم وبين العباد، كالعقود وما ضاهاها، وهو تعميمٌ بعد تخصيص، وفيه تأكيدٌ للاستمرار المفهوم من صيغة المستقبل.

وقال أبو حيان[١]: الظاهرُ أن هذه الجملةَ تأكيدٌ للتي قبلها؛ لأن العهدَ هو الميثاق، ويلزمُ من إيفاء العهدِ انتفاءُ نقضِه، وقال ابنُ عطية[٢]: المرادُ بالجملة الأولى: يوفُون بجميع عهودِ الله تعالى، وهي أوامرُه ونواهيه التي وصَّى الله تعالى بها عبيدَه، ويدخلُ في ذلك التزامُ[٣] جميع الفروض، وتجنُّبُ جميع المعاصي، والمراد بالجملة الثانية أنهم إذا عقَدوا في طاعة الله تعالى عهداً لم ينقضوه. اهـ. وعليه فحديثُ التعميم بعد التخصيص لا يتأتَّى كما لا يخفى.

وقد تقدَّم الله سبحانه إلى عبادِهِ في نقض الميثاق ونَهَى عنه في بضعٍ وعشرين آيةً من كتابه، كما رُوي عن قتادة.

ومن أعظمِ المواثيق ـ على ما قال ابنُ العربيِّ[٤] ـ أن لا يَسأل العبدُ سوى مولاه جلَّ شأنه. وفي قصة أبي حمزة الخُراساني ما يشهَدُ لعِظَم شأنه؛ فقد عاهَدَ رَبَّه أن لا يسأل أحداً سواه، فاتفَقَ أن وقع في بئرٍ، فلم يسأل أحداً من الناس المارِّين عليه إخراجَه منها، حتى جاء من أخرجَه بغير سؤال، ولم يَرَ مَنْ أخرجَه، فهتَفَ به هاتفٌ: كيف رأيتَ ثمرة التوكُّل؟ فينبغي الاقتداءُ به في الوفاء بالعهد، على ما قال أيضاً. وقد أنكر ابنُ الجوزيِّ[٥] فعلَ هذا الرجل، وبيَّن خطأه، وأن التوكُّلَ لا ينافي الاستغاثةَ في تلك الحال، وذكر أن سفيانَ الثوريَّ وغيرَه قالوا: لو أن إنساناً جاع فلم يسأل حتى ماتَ دخلَ النارَ، ولا يُنكَر أن يكون الله تعالى قد لطَفَ بأبي حمزةَ الجاهل، نعم لا ينبغي الاستغاثةُ بغير الله تعالى على النحوِ الذي يفعلُه الناس اليوم مع أهل القبور الذين يتخيَّلون فيهم ما يتخيَّلون، فآهاً ثم آهاً مما يفعلون.

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٣٨٥.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٠٩.
(٣) قوله: التزام، من (م).
(٤) أحكام القرآن ٣/ ١٠٩٩.
(٥) تلبيس إبليس ص٢٩٤ ـ ٢٩٥، وصفوة الصفوة ١/ ٢٦ ـ ٢٨.

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ الظاهرُ العموم في كلٍّ ما أمر الله تعالى به في كتابه وعلى لسان نبيِّه ﷺ، وقال الحسن: المراد صلةُ الرسولِ ﷺ بالإيمان به، ورُوي نحوه عن ابن جُبير، وقال قتادة: المراد صلةُ الأرحام، وقيل: صلةُ الإيمان بالعمل، وقيل: صلةُ قرابة الإسلام بإفشاء السلام، وعيادةِ المرضى، وشهودِ الجنائز، ومراعاة حقِّ الجيران والرُّفقاء والخدم. ومَنْ ذهب إلى العموم أدخل في ذلك الأنبياء عليهم السلام، ووَصْلُهم أن يؤمن بهم جميعاً، ولا يفرِّق بين أحد منهم، والناسَ على اختلافِ طبقاتهم، ووَصْلُهم بمراعاة حقوقهم، بل سائرَ الحيوانات، ووَصْلُها بمراعاة ما يُطلب في حقِّها وجوباً أو ندباً.

وعن الفضيل بن عياض أنَّ جماعةً دخلوا عليه بمكة، فقال: من أين أنتُم؟ قالوا: من أهل خراسان[1]، قال: اتقوا اللهَ تعالى وكونوا من حيث شئتُم، واعلموا أنَّ العبدَ لو أحسَنَ الإحسانَ كلَّه وكانت له دجاجةٌ فأساء إليها لم يكن محسناً.

ومفعولُ (أَمَرَ) محذوفٌ، والتقدير: ما أمرَهم الله به، و(أَن يُوصَلَ) بدلٌ من الضمير المجرورِ، أي: ما أَمَرَ الله بوصلِهِ.

﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي: وعيدَه سبحانه، والظاهرُ أن المراد به مطلقاً، وقيل: المرادُ وعيدُه تعالى على قَطْع ما أُمروا بوصله. ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرعد: ٢١] فيحاسبون أنفسَهم قبل أن يُحاسَبوا، وهذا من قَبِيل ذِكْر الخاصِّ قبل العامِّ؛ للاهتمام، والخشيةُ والخوفُ؛ قيل: بمعنى، وفي «فروق» العسكري[2] أن الخوف يتعلَّق بالمكروه ومُنزِلِهِ، تقول: خفتُ زيداً، وخفتُ المرضَ، والخشيةُ تتعلَّق بالمُنزِل دون المكروه نفسِه، ولذا قال سبحانه: «يخشون» أولاً، و«يخافون» ثانياً، وعليه فلا يكون اعتبارُ الوعيد في محلِّه، لكنَّ هذا غيرُ مسلَّم؛ لقوله تعالى: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] و﴿لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٢٥] وفرَّق الراغبُ[3] بينهما، فقال: الخشيةُ: خوفٌ يَشُوبُه تعظيمٌ، وأكثرُ ما يكون ذلك عن

---

(١) جاء في هامش (م) ما نصه: كأنهم تعرفوا إليه بأنهم من منشئه، فأجاب بأن الجامع التقوى لا المولد، وقيل: كأنهم افتخروا بأنهم من خراسان، والأول أولى. اهـ. منه.

(٢) الفروق في اللغة ص٤٢٦.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن: (خشي).

عِلْم، ولذلك خُصَّ العلماءُ بها في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]. وقال بعضُهم: الخشيةُ: أشدُّ الخوفِ؛ لأنها مأخوذةٌ من قولهم: شجرةٌ خَشِيَّة أي: يابسة، ولذا خُصَّت بالربِّ في هذه الآية، وفُرِّق بينهما أيضاً بأن الخشية تكونُ من عِظَم المخشيِّ، وإن كان الخاشي قويًّا، والخوفُ من ضعفِ الخائف، وإن كان المَخُوفُ أمراً يسيراً، يدلُّ على ذلك أن تقاليبَ الخاء والشين والياء تدلُّ على الغفلة، وفيه تدبُّر.

والحقُّ أن مثل هذه الفروق أغلبيٌّ لا كليٌّ وضعيٌّ، ولذا لم يفرِّق كثيرٌ بينهما، نعم اختار الإمام(١) أن المراد من «يخشون ربهم» أنهم يخافونَه خوفَ مهابةٍ وجلالة، زاعماً أنه لولا ذلك يلزَمُ التكرار، وفيه ما فيه.

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على كلِّ ما تكرهُهُ النفسُ من المصائبِ المالية والبدنية، وما يخالفُه هوى النفس، كالانتقام ونحوه، ويدخُلُ فيما ذُكر التكاليف ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ طلباً لرضاه تعالى من غير أن ينظروا إلى جانب الخلق رياءً أو سمعةً، ولا إلى جانبِ أنفسِهم زينةً وعُجْباً، وقيل: المرادُ طالبين ذلك، فنصب «ابتغاء» على الحالية، وعلى الأول هو منصوبٌ على أنه مفعولٌ له، والكلامُ في مثل الوجه منسوباً إليه تعالى شهيرٌ.

وفي «البحر»(٢): أن الظاهرَ منه هنا جهةُ الله تعالى، أي: الجهةَ التي تُقصَدُ عنه سبحانه بالحسنات ليقَعَ عليها المثوبةُ، كما يقال: خرج زيدٌ لوجهِ كذا، وفيه أيضاً(٣) أنه جاءت الصلةُ هنا بلفظ الماضي، وفيما تقدَّم بلفظ المضارع على سبيل التفنُّن في الفصاحة؛ لأن المبتدأ في معنى اسم الشرط، والماضي كالمضارع في اسم الشرط، فكذلك فيما أشبَهَه، ولذا قال النحويون: إذا وقع الماضي صلةً أو صفةً لنكرةٍ عامةٍ احتَمَلَ أن يُراد به المُضِيُّ، وأن يُراد به الاستقبالُ، فمن الأول: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [آل عمران:١٧٣] ومن الثاني: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة:٣٤] ويظهر أيضاً أن اختصاصَ هذه الصلةِ بالماضي وما تقدَّم

---

(١) تفسير الرازي ١٩/ ٤٢.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٣٨٦.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٣٨٥.

بالمضارع، أنَّ ما تقدَّم قُصِدَ به الاستصحابُ والالتباس، وأما هذه فقد قُصِد بها تقدُّمها على ذلك؛ لأنَّ حصول تلك الصِّلات إنما هي مرتَّبة على حصول الصبر وتقدُّمِهِ عليها، ولذا لم يأتِ صلةٌ في القرآن إلا بصيغةِ الماضي؛ إذ هو شرطٌ في حدوث التكاليف وإيقاعها.

وفي «إرشاد العقل السليم»[1]: حيث كان الصبر مَلاكَ الأمر في كلِّ ما ذُكر من الصِّلات السابقة واللاحقة أُورد بصيغة الماضي؛ اعتناءً بشأنه، ودلالةً على وجوب تحقُّقه؛ فإنَّ ذلك مما لا بدَّ منه إما في نفس الصِّلات، كما فيما عدا الأولى والرابعة والخامسة، أو في إظهار أحكامها، كما في الصلات الثلاث المذكورات؛ فإنها وإن استغنت عن الصَّبر في أنفسِها حيث لا مشقَّةَ على النفس في الاعتراف بالربوبيَّة والخشية والخوف، لكنَّ إظهارَ أحكامها والجريَ على موجبها غيرُ خالٍ عن الاحتياج إليه. وهو لا يخلو عن شيء، والأولى ـ على ما قيل ـ الاقتصارُ في التعليل على الاعتناءِ بشأنه.

وعطف قوله سبحانه: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وكذا ما بعدَه على ذلك ـ على ما نصَّ عليه غيرُ واحد ـ من باب عطفِ الخاصِّ على العامِّ، والمرادُ بـ (ٱلصَّلَوٰةَ)؛ قيل: الصلاةُ المفروضة، وقيل: مطلقاً، وهو أَولى. ومعنى إقامتها: إتمامُ أركانها وهيآتها.

﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ﴾ بعضَ ما أعطيناهم، وهو الذي وجَبَ عليهم إنفاقهُ، كالزكاة، وما يُنفقُ على العيال والمماليك، أو ما يشمَلُ ذلك، والذي نُدب ﴿سِرًّا﴾ حيث يحسُنُ السِّرُّ، كما في إنفاق من لا يُعرف بالمال إذا خشي التهمةَ في الإظهار، أو من عُرِفَ به لكن لو أظهرَه ربما داخَلَه الرياءُ والخُيَلاء، وكما في الإعطاء لمن تمنعُهُ المروءةُ من الأخذِ ظاهراً. ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ حيث تحسُنُ العلانيةُ، كما إذا كان الأمرُ خلاف ما ذُكر.

وقال بعضُهم: إن الأولَ مخصوصٌ بالتطوُّع، والثاني بأداء الواجب، وعن الحسن أن كلا الأمرين في الزكاة المفروضة، فإن لم يُتَّهم بتركِ أداء الزكاة فالأَولى

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ١٧.

أداؤُها سرًّا، وإلا فالأولى أداؤُها علانيةً. وقيل: السرُّ: ما يؤدِّيه بنفسه، والعلانيةُ: ما يؤدِّيه إلى الإمام، والأولى الحملُ على العموم، ولعلَّ تقديمَ السرِّ للإشارة إلى فضلِ صدقته، وجاء في الصَّحيح عدُّ المتصدِّق سرًّا من الذين يُظلُّهم الله تعالى في ظِلِّه يومَ القيامة[١].

﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفعون الشرَّ بالخير، ويُجازون الإساءةَ بالإحسان، على ما أخرجَه ابنُ جريرٍ عن ابن زيد[٢]، وعن ابن جُبير: يردُّون معروفاً على من يُسيء إليهم. فهو كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان:٦٣] وقال الحسن: إذا حُرِموا أعطَوا، وإذا ظُلموا عَفَوا، وإذا قُطِعوا وَصَلوا. وقيل: يُتْبِعون السيئةَ بالحسنة فتمحوها. وفي الحديث: أن مُّعاذاً قال: أوصني يا رسول الله؟ قال: «إذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها، السر بالسر، والعلانية بالعلانية»[٣]. وعن ابن كَيْسان: يدفعون بالتوبةِ معرَّةَ الذنب. وقيل: بلا إله إلا الله شِرْكَهم، وقيل: بالصدقةِ العذابَ. وقيل: إذا رأوا منكراً أَمَروا بتغييره، وقيل وقيل، ويُفهِمُ صنيعُ بعضهم[٤] اختيارَ الأول، فهم كما قيل:

يَجْزُون من ظُلم أهل الظلم مغفرةً ومن إساءةِ أهلِ السُّوء إحساناً[٥]

وهذا بخلاف خُلُق بعضِ الجهلة:

جريءٍ متى يُظْلَم يعاقِبْ بظلمه سريعاً وإن لا يُبْدَ بالظُّلم يَظْلِمِ[٦]

وقال في «الكشف»: الأظهر التعميمُ، أي: يدرؤون بالجميل السيئَ، سواء كان

---

(١) صحيح البخاري (٦٦٠)، وصحيح مسلم (١٠٣١)، وسلف ٣/ ٤٦٦.
(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٥١٠.
(٣) أخرجه هناد في الزهد (١٠٧٢)، والطبراني في الكبير ٢٠/(٣٧٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٤٨).
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٢١٨: رواه الطبراني، وأبو سلمة لم يدرك معاذاً، ورجاله ثقات.
(٤) في (م): بعض المحققين.
(٥) البيت لقُرَيط بن أُنَيف العنبري، وهو من قصيدة في الحماسة ١/ ٣١ بشرح المرزوقي، والخزانة ٧/ ٤٤١.
(٦) البيت من معلقة زهير بن أبي سلمى، وهو في ديوانه ص٢٤.

لأذاهم أو لا، مخصوصاً بهم أو لا، طاعةً أو معصية، مكرُمةً أو منقصة. ولعل الأمرَ كما قال.

وتقديمُ المجرور على المنصوب؛ لإظهار كمال العناية بالحسنة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: المنعوتون بالنعوتِ الجليلة والمَلَكات الجميلة، وليس المرادُ بهم أناساً بأعيانهم، وإن كانت الآيةُ نازلةً ـ على ما قيل ـ في الأنصار. واسمُ الإشارة مبتدأٌ، خبرُه الجملةُ الظرفية، أعني قولَه سبحانه: ﴿لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ أي: عاقبةَ الدنيا، وما ينبغي أن يكون مآلُ أمرِ أهلها، وهي الجنة، فتعريفُ (ٱلدَّارِ) للعهد، والعاقبة المطلقةُ تفسَّر بذلك، وفُسِّرت به في قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] وفسَّرها الزمخشريُّ(١) أيضاً بالجنة، إلا أنه قال: لأنَّها التي أرادَ الله تعالى أن تكون عاقبةَ الدنيا ومرجِعَ أهلِها، وفيه ـ على ما قيل ـ شائبةُ اعتزال.

وجُوِّز أن يُراد بـ (ٱلدَّارِ) الآخرة، أي: لهم العُقْبى الحسنةُ في الدار الآخرة.

وقيل: الجارُّ والمجرور خبرُ اسمِ الإشارة، و(عُقْبَى) فاعلُ الاستقرار، وأيّاً ما كان فليس فيه قصرٌ حتى يَرِدَ أنَّ بعضَ ما في حيِّزِ الصِّلة ليس من العزائم التي يخلُّ إخلالُها بالوصول إلى حُسْن العاقبة.

وقال بعضهم: إنَّ المراد: مآلُ أولئك الجنة من غير تخلُّلٍ بدخول النار، فلا بأس لو قيل بالقصر، ولا يلزَمُ عدمُ دخولِ الفاسق المعذَّبِ الجنةَ، والقول: إنه موصوفٌ بتلك الصفات في الجملة كما ترى. والجملةُ خبرٌ للموصولات المتعاطفة إن رُفعت بالابتداء، أو استئنافٌ نحويٌّ أو بيانيٌّ في جواب: ما بالُ الموصوفين بهذه الصفات؟ إن جعلت الموصولات المتعاطفة صفاتٍ لـ «أولي الألباب» على طريقة المدح، من غير أن يقصد أن يكون للصِّلات المذكورةِ مدخلٌ في التذكُّر، والأول أوجهُ؛ لما في «الكشف» من رعاية التقابُلِ بين الطائفتين، وحُسْنِ العطفِ في قوله تعالى: (وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ) وجَرْيِهما على استئناف الوصف للعالِم ومَنْ هو كأعمى.

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٥٨.

وقوله سبحانه: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ بدلٌ من «عقبى الدار» كما قال الزجَّاج[١]، بدلُ كلٍّ من كلّ، وجوَّز أبو البقاء[٢] وغيرُه أن يكون مبتدأً خبرُه قوله تعالى: ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾، وتُعقِّب بأنه بعيدٌ عن المقام، والأولى أن يكون خبر[٣] مبتدإٍ محذوفٍ كما ذكر في «البحر»[٤]، ورُدَّ بأنه لا وجهَ له؛ لأن الجملةَ بيانٌ لـ «عقبى الدار»، فهو مناسبٌ للمقام. والعدن: الإقامة والاستقرار، يقال: عدن بمكان كذا: إذا استقرَّ، ومنه المعدِنُ لمستقرِّ الجواهر، أي: جنات يقيمون فيها، وأخرج غيرُ واحدٍ عن ابن مسعود أنه قال: «جنات عدن»: بُطْنان الجنة، أي: وسطها، ورُوي نحو ذلك عن الضحَّاك، إلا أنه قال: هي مدينة وسط الجنة، فيها الأنبياءُ والشهداء وأئمَّة الهدى، وجاء فيها غيرُ ذلك من الأخبار، ومتى أُريد منها مكانٌ مخصوصٌ من الجنة كان البدلُ بدلَ بعضٍ من كلّ.

وقرأ النخَعيُّ: «جنة» بالإفراد، ورُوي عن ابن كثير وأبي عَمرو: «يُدخَلونها» مبنيّاً للمفعول[٥].

﴿وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ﴾ جمع أبوي كلٍّ واحد منهم، فكأنه قيل: من آبائهم وأمهاتهم ﴿وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ﴾، وهو ـ كما قال أبو البقاء[٦] ـ عطفٌ على المرفوع في «يدخلونها»، وإنما ساغ ذلك مع عدم التأكيد؛ للفصل بالضمير الآخر، وجُوِّزَ أن يكون مفعولاً معه. واعتُرض بأن واو المعيَّة لا تدخلُ إلا على المتبوع. ورُدَّ بأن هذا إنما ذُكر في «مع»، لا في الواو، وفيه نظر.

والمعنى: أنه يلحَقُ بهم مَنْ صلح من أهليهم، وإن لم يبلُغْ مبلَغَ فضلهم؛ تبعاً لهم؛ تعظيماً لشأنهم. أخرج ابنُ أبي حاتم وأبو الشيخ، عن ابن جُبير قال: يدخُلُ

---

(١) معاني القرآن ٣/ ١٤٧.
(٢) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٣٨٢ـ٣٨٣.
(٣) ليست في (م).
(٤) البحر المحيط ٥/ ٣٨٦.
(٥) البحر ٥/ ٣٨٦ ـ ٣٨٧، وقراءة ابن كثير وأبي عمرو هذه من الشواذ، والمشهور عنهما كسائر القراء.
(٦) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٣٨٣.

الرجل الجنةَ، فيقول: أين أمي؟ أين ولدي؟ أين زوجتي؟ فيقال: لم يعملوا مثلَ عملك، فيقول: كنتُ أعملُ لي ولهم، ثم قرأ الآية[1].

وفُسِّر «من صلح» بمن آمن، وهو المرويُّ عن مجاهد، ورُوي ذلك عن ابن عباس ﵄، وفسَّر ذلك الزجاجُ[2] بِمَنْ آمنَ وعمل صالحاً، وذكر أنه تعالى بيَّن بذلك أن الأنساب لا تنفعُ إذا لم يكن معها أعمالٌ صالحة، بل الآباءُ والأزواجُ والذرية لا يدخلون الجنةَ إلا بالأعمال الصالحة.

وردَّ عليه الواحدي[3] فقال: الصحيحُ ما رُوي عن ابن عباس؛ لأن الله تعالى جعل من ثوابِ المطيع سرورَه بحضورِ أهله معه في الجنة، وذلك يدلُّ على أنهم يدخلونَها كرامةً للمطيع الآتي بالأعمال الصالحة، فلو دخلوها بأعمالهم، لم يكن في ذلك كرامةٌ للمطيع، ولا فائدة في الوعد به؛ إذ كل مَنْ كان مصلحاً في عمله يدخُلُ الجنة.

وضعَّف ذلك الإمامُ[4] بأن المقصودَ بشارةُ المطيع بكلِّ ما يزيدُه سروراً وبهجةً، فإذا بشَّر الله تعالى المكلَّف بأنه إذا دخل الجنةَ يحضُرُ معه أهلُه يعظُم سرورُه، وتقوى بهجتُه. ويقال: إن من أعظم سرورِهم أن يجتمعوا، فيتذاكروا أحوالَهم في الدنيا، ثم يشكرون اللهَ تعالى على الخَلَاص منها، ولذلك حكى سبحانه عن بعضِ أهلِ الجنة أنه يقول: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦-٢٧].

وعلى هذا لا تكونُ الآيةُ دليلاً على أن الدرجةَ تعلو بالشفاعة. ومنهم من استدلَّ بها على ذلك على المعنى الأول لها.

وتُعقِّب بأنها أيضاً لا دلالةَ لها على ما ذُكر. وأُجيب بأنه إذا جاز أن تعلوَ بمجرَّد التبعيَّة للكاملين في الإيمان؛ تعظيماً لشأنهم، فالعلوُّ بشفاعتهم معلومٌ بالطريق الأولى.

---

(١) ليس في مطبوع تفسير ابن أبي حاتم، وأورده السيوطي في الدر ٤/ ٥٧.
(٢) معاني القرآن ٣/ ١٤٧.
(٣) انظر الوسيط ٣/ ١٤.
(٤) تفسير الرازي ١٩/ ٤٤ - ٤٥.

وقال بعضُهم: إنهم لمَّا كانوا بصلاحهم مستحقِّين لدخول الجنة، كان جعلُهم في درجتهم مقتضَى طلبِهم، وشفاعتُهم لهم بمقتضى الإضافة.

والحقُّ أن الآيةَ لا تصلُحُ دليلاً على ذلك، خصوصاً إذا كانت الواو بمعنى «مع»، فتأمَّل، والظاهر أنه لا تمييزَ بين زوجةٍ وزوجةٍ، وبذلك صرَّح الإمام [1]، ثم قال: ولعلَّ الأولى مَنْ مات عنها، أو ماتت عنه. وما رُوي عن سَوْدَة أنها لمَّا همَّ رسولُ الله ﷺ بطلاقها قالت: دَعْني يا رسولَ الله أُحشرُ في جملة نسائك [2]. كالدليلِ على ما ذُكر.

واختُلف في المرأة ذاتِ الأزواج إذا كانوا قد ماتُوا عنها: فقيل: هي في الجنةِ لآخرِ أزواجها، ويؤيِّده كونُ أمهاتِ المؤمنين زوجاتُه ﷺ فيها، من كونِ أكثرهنَّ كنَّ قد تزوَّجن قبلُ بغيره عليه الصلاة والسلام. وقيل: هي لأولِ أزواجها، كامرأةٍ أخبرَها ثقةٌ أن زوجَها قد مات، ووقع في قلبها صدقُه، فتزوَّجت بعد انقضاء عدَّتها، ثم ظهرت حياتُه؛ فإنها تكونُ له. وتُعقِّب بأن هذا ليس من هذا القَبِيل، بل هو يُشبه ما لو ماتَ رجلٌ، وأخبر معصومٌ كالنبيِّ بموته، فتزوَّجت امرأتُه بعد انقضاء العِدَّة، ثم أحياه الله تعالى، وقد قالوا في ذلك: إن زوجتَه لزوجها الثاني. وقيل: إن الزوجةَ تُخيَّرُ يومَ القيامة بين أزواجها، فمن كان منهم أحسَنَهم خُلُقاً معها كانت له، وارتضاه جمعٌ.

وقرأ ابنُ أبي عَبْلة: «صلُح» بضمِّ اللام، والفتحُ أفصح، وعيسى الثقفيُّ: «ذريَّتِهم» بالتوحيد [3].

﴿وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾﴾ من أبواب المنازل.

وأخرج ابنُ أبي حاتم عن أنس بن مالك أنه قرأ الآيةَ حتى خَتَمها، ثم قال: إنَّ المؤمن لفي خيمةٍ من دُرَّةٍ مجوَّفة، ليس فيها جِذْعٌ ولا وصل، طولُها في الهواء

---

(١) تفسير الرازي ١٩/ ٤٥.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٧٥ من حديث عائشة ﵂، وخبر تخيير سودة وجَعْلِ يومها لعائشة عند أحمد (٢٤٨٥٩)، والبخاري (٢٥٩٣)، ومسلم (١٤٦٣) عن عائشة ﵂.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٣٨٧.

ستُّون ميلاً، في كلِّ زاويةٍ منها أهلٌ ومال، لها أربعةُ آلاف مِصْراع من ذهب، يقوم على كلِّ بابٍ منها سبعون ألفاً من الملائكة، مع كلِّ ملكٍ هديَّةٌ من الرحمن ليس مع صاحبه مثلُها، لا يَصِلون إليه إلا بإذن، بينه وبينهم حجاب[1]، ورُوي عن ابن عباس ما هو أعظمُ من ذلك.

وقال أبو بكر الأصمّ[2]: أريد: من كلِّ بابٍ من أبواب البِرِّ، كباب الصلاة، وباب الزكاة، وباب الصبر، وقيل: من أبواب الفتوح والتحف. قيل: فعلى هذا المرادُ بالباب النوع، و«من» للتعليل، والمعنى: يدخلون لإتحافهم بأنواع التحف، وتُعقِّب بأن في كونِ الباب بمعنى النوع كالبابَةِ نظراً؛ فإن ظاهرَ كلام «الأساس»[3] وغيرِه يقتضي أن يكون مجازاً، أو كنايةً عما ذُكر؛ لأن الدار التي لها أبوابٌ إذا أتاهم الجمُّ الغفيرُ يدخلونها من كلِّ بابٍ، فأريدَ به دخولُ الأرزاق الكثيرةِ عليهم، وأنها تأتيهم من كلِّ جهةٍ، وتعدُّد الجهات يُشعر بتعدُّد المأتيَّات؛ فإن لكلِّ جهة تُحفة.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ أي: قائلين ذلك، وهو بشارةٌ بدوام السلامة، فالجملةُ مقولٌ لقولٍ محذوف واقعٍ حالاً من فاعل «يدخلون». وجُوِّزَ كونُها حالاً من غير تقديرٍ، أي: مسلمين، وهي في الأصل فعليَّة، أي: يسلِّمون سلاماً.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ متعلِّقٌ ـ كما قال أبو البقاء[4] ـ بما تعلَّقَ به «عليكم»، أو به نفسِهِ؛ لأنَّه نائبٌ عن متعلّقه، ومنَعَ هذا ـ كما قال السيوطيُّ ـ السَّفاقسيُّ، وقال: لا وجهَ له، والصحيحُ أنه متعلِّقٌ بما تعلَّق به «عليكم»، وجوَّز الزمخشريُّ تعلُّقَه بـ «سلام» على معنى: نسلِّم عليكم، ونكرمُكم بصبركم؛ ومنعه أبو البقاء[4] بأنَّ فيه الفصلَ بين المصدر ومعموله بالأجنبيِّ وهو الخبرُ، ووجَّه ذلك في «الدرِّ المصون»[5] بأن المنع إنما هو في المصدر المؤوَّل بحرفٍ مصدريٍّ، وهذا ليس منه،

---

(١) ليس في المطبوع من تفسير ابن أبي حاتم، وأورده السيوطي في الدر ٤/ ٥٧.

(٢) تحرف في (م) إلى: أبو الأصم. والتصحيح من تفسير الرازي ١٩/ ٤٥.

(٣) الأساس (بوب).

(٤) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٣٨٣.

(٥) الدر المصون ٧/ ٤٥.

مع أنَّ الرضيَّ[1] جوَّز ذلك مع التأويل أيضاً، وقال: لا أراه مانعاً؛ لأن كلَّ مؤوَّل بشيء لا يثبُتُ له جميع أحكامه، وجوَّز لهذه العلَّةِ العلَّامةُ الثاني تقديمَ معمولِ المصدر المؤوَّل بـ «أنْ» والفعل عليه في نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ [النور: ٢] وقال في «الكشف»: إنَّ «عليكم» نظراً إلى الأصل غيرُ أجنبيٍّ، فلذلك جاز أن يُفصل به، على أن الزمخشريَّ لم يصرِّح بأنه معمولُه، بل من مقتضاه، ولذا قال: أي: نسلِّم إلخ[2]، فدلَّ على أنَّ التعلُّق معنويٌّ يُقدَّر ما يناسبه، ولو جُعل معمولاً للظرف المستقرِّ، أعني «عليكم»، فيكون متعلِّقاً معنى بـ «سلام» ضرورةً، لكان وجهاً خالياً من التكلُّف، وجعلَه أبو حيان[3] خبرَ مبتدأ محذوفٍ، و«ما» مصدريةٌ، والباء سببيةٌ أو بدليةٌ، أي: هذا الثوابُ الجزيلُ بسبب صبركم في الدنيا على المشاقِّ، أو بَدَله. وعن أبي عمران: بما صبرتُم على دينكم. وعن الحسن: عن فضول الدنيا. وعن محمد بن النَّضر: على الفقر. والتعميمُ أولى، وتخصيصُ الصبر بالذِّكر من بين الصِّلات السابقة؛ لما أنه ملاكُ الأمر، والأمرُ المعتنى به كما علمت.

﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ أي: فنعم عاقبةُ الدنيا الجنة، وقيل: المراد بالدارِ الآخرةُ، وقال بعضُهم: المراد أنهم عُقبوا الجنةَ من جهنم، قال ابنُ عطية[4]: وهذا مبنيٌّ على ما ورد من أنَّ كلَّ رجل من أهل الجنة قد كان له مقعدٌ من النار، فصرفَه الله تعالى عنه إلى النعيم، فيُعْرَضُ عليه ويقال له: هذا مقعدُكَ من النار أبدلَكَ الله تعالى منه الجنة[5] بإيمانك وصبرِك[6].

وقرأ ابن يعمر: «فنَعِم» بفتح النون وكسر العين، وذلك هو الأصل، وابنُ وثَّاب: «فنَعْم» بفتح النون وسكون العين، وتخفيفُ فَعِلَ لغةُ تميم[7]، وجاء فيها -

(١) شرح الرضي ٣/٤٠٦.
(٢) الكشاف ٢/٣٥٨.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٣٨٧.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٣١٠.
(٥) في الأصل و(م): بالجنة، والمثبت من المحرر الوجيز.
(٦) أخرجه أحمد (١٢٢٧١)، والبخاري (١٣٣٨)، ومسلم (٢٨٧٠) من حديث أنس بن مالك، وليس فيه التقييد بالإيمان والصبر.
(٧) البحر المحيط ٥/ ٣٨٧، والدر المصون ٧/ ٤٥، وجاء في مطبوع القراءات الشاذة ص٦٦: =

كما في «الصحاح»[١] ـ: «نِعِم» بكسر النون وإتباعِ العين لها، وأشهرُ استعمالاتها ما عليه الجمهور.

وأخرج ابنُ جرير[٢]: عن محمد بن إبراهيم قال: كان النبيُّ ﷺ يأتي قبور الشهداء على رأس كلِّ حولٍ، فيقول: «﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾»، وكذا كان يفعلُ أبو بكر، وعمر، وعثمان ﷺ.

وتمسَّك بعضُهم بالآية على أن الملَكَ أفضلُ من البشر، فقال: إنه سبحانه ختَمَ مراتب سعاداتِ البشر بدخولِ الملائكة عليهم على سبيل التحيَّةِ والإكرام، والتعظيم والسلام، فكانوا أجلَّ مرتبةً من البشر لمَّا كان دخولُهم عليهم لأجل السلام والتحيةِ موجباً علوَّ درجاتهم، وشرفَ مراتبهم، ولا شكَّ أن من عاد من سفرِه إلى بيته، فإذا قيل في معرض كمالِ مرتبته: إنه يزورُه الأمير والوزير والقاضي والمفتي، دلَّ على أن درجة المزور أقلُّ وأدنى من درجات الزائرين، فكذا هاهنا، وهو من الرَّكاكة بمكان.

ولم لا يجوزُ أن يكون ما هنا نظيرُ ما إذا أتى السلطانُ بشخصٍ من عمَّاله الممتازين عندَه قد أطاعه في أوامره ونواهيه إلى محلِّ كرامته، ثم بعد أن أنزلَه المنزلَ اللائقَ به أرسل خدَمَه إليه بالهدايا والتحف، والبشارة بما يسرُّه؟ فهل إذا قيل: إن فلاناً قد أحلَّه السلطانُ محلَّ كرامته، ودارَ حكومته، وأنزلَهُ المنزلَ اللائقَ به، وأرسل خدَمَه إليه بما يسرُّه، كان ذلك دليلاً على أن أولئك الخدمَ أعلى درجةً منه؟ لا أظنُّك تقول ذلك.

نعم جاء في بعض الأخبار ما يؤيِّد بظاهره ما تقدَّم؛ فقد أخرج أحمد، والبزَّار، وابنُ حبان، والحاكم وصحَّحه، وجماعةٌ عن عبد الله بن عَمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «أولُ مَنْ يدخل الجنةَ منْ خَلْق الله تعالى فقراءُ المهاجرين، الذين تُسَدُّ بهم الثُّغور، وتُتَّقى بهم المكاره، ويموتُ أحدُهم وحاجتُه في صدره لا يستطيع لها قضاءً، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته: ائتوهم فحيُّوهم، فتقول

= فنِعِم، وعزاها لابن وثَّاب، وهي القراءة التي سيذكرها المصنف بعدها.

(١) مادة: (نعم).

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٥١٣، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق في المصنَّف (٦٧١٦).

الملائكة: ربَّنا، نحن سكَّانُ سمائك، وخِيرتُك مِنْ خَلْقك، أفتأمرُنا أن نأتي هؤلاء فنسلِّمَ عليهم؟ فيقول الله تعالى: إن هؤلاء عبادٌ لي، كانوا يعبدوني ولا يشركون بي شيئاً، وتُسدُّ بهم الثغور، وتتَّقى بهم المكاره، ويموتُ أحدُهم وحاجتُه في صدره لا يستطيع لها قضاءً. فتأتيهم الملائكةُ عند ذلك، فيدخلون عليهم من كلِّ بابٍ: سلامٌ عليكم بما صبرتُم فنعمى عقبى الدار»[1].

ومن أنصَفَ ظهرَ له أن هذا لا يدلُّ على أنَّ الملائكةَ مطلقاً أفضلُ من البشر مطلقاً كما لا يخفى، وذكر الإمام الرازيُّ[2] في تفسير الآية على الوجه المرويِّ عن الأصمِّ في تفسير دخول الملائكة من كلِّ بابٍ: أنَّ الملائكةَ طوائفُ: منهم روحانيون، ومنهم كروبيون، فالعبد إذا راضَ نفسه بأنواع الرياضات؛ كالصَّبر، والشكر، والمراقبة، والمحاسبة، ولكلِّ مرتبة من هذه المراتب جوهرٌ قدسيٌّ، وروح علويٌّ، مختصٌّ بتلك الصفة مزيدَ اختصاص، فعند الموت أشرقت تلك الجواهرُ القدسيَّة تجلَّت فيها من كلِّ روح من الأرواح السماوية ما يناسبُها من الصفات المخصوصة، فيفيضُ عليها من ملائكة الصَّبر كمالات مخصوصة نفسانيَّة لا تظهرُ إلا في مقام الصَّبر، ومن ملائكة الشكر كمالات روحانية لا تتجلَّى إلا في مقام الشكر، وهكذا القولُ في جميع المراتب. اهـ.

وتعقَّبه أبو حيان[3] بأنه كلامٌ فلسفيٌّ، لا تفهمُه العربُ، ولا جاءت به الأنبياء عليهم السلام، فهو مطروحٌ لا يلتفتُ إليه المسلمون. وأنتَ تعلم أن مثلَ هذا كلامُ كثيرٍ من الصوفيَّة.

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ أُريد بهم من يقابلُ الأوَّلين ويعاندُهم بالاتِّصاف بنقائض أوصافهم ﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ الاعتراف به، قيل: المراد بالعهد قوله سبحانه: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وبالميثاق ما هو اسمُ آلةٍ، أعني ما يوثَقُ به الشيء، وأُريدَ به الاعترافُ بقول: ﴿بَلَىٰ﴾. وقد يُسمَّى العهدُ من الطرفين

---

(١) مسند أحمد (٦٥٧٠)، ومسند البزار (٢٤٥٧)، وصحيح ابن حبان (٧٤٢١)، والمستدرك للحاكم ٢/ ٧١-٧٢.
(٢) تفسير الرازي ١٩/ ٤٥.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٣٨٧.

ميثاقاً؛ لتوثيقه بين المتعاهدين، وفسَّر الإمامُ[1] عهدَ الله تعالى بما ألزمه عبادَه بواسطةِ الدلائل العقلية؛ لأن ذلك أوكَدُ كلِّ عهدٍ وكلِّ أيمان؛ إذ الأيمان إنما تُفيد التوكيدَ بواسطةِ الدلائل الدالَّة على أنها توجبُ الوفاءَ بمقتضاها، ثم قال: والمرادُ من نقضها أن لا ينظُرَ المرءُ فيها، فلا يمكنُه حينئذٍ العملُ بموجبها، أو بأن ينظُرَ ويعلم صحَّتها، ثم يعاندَ، فلا يعمَلُ بعلمه، أو بأن ينظُرَ في الشُّبه فلا يعتقد الحقَّ، والمراد بقوله سبحانه: «من بعد ميثاقه» من بعد أن أوثَقَ إليه تلك الأدلَّة وأحكامَها؛ لأنه لا شيء أقوى مما دلَّ الله تعالى على وجوبه في أنه ينفع فعلُه ويضرُّ تركُه.

وأورد أنه إذا كان العهدُ لا يكون إلا بالميثاق فما فائدةُ: «من بعد ميثاقه»؟ وأجاب بأنه لا يمتنعُ أن يكون المراد مفارقةَ من تمكَّن من معرفته بالحلف لمن لم يتمكَّن، أو لا يمتنع أن يكون المرادُ الأدلةَ المؤكِّدةَ؛ لأنه يقال: قد تؤكد إليك بدلائل أخرى سواء كانت عقليةً أو سمعية. اهـ.

ولا يخفى أنه إذا أُريد بالعهد ذلك القولُ، وبالميثاق الاعترافُ به، لم يحتَجْ إلى القيل والقال. وحمَلَ بعضُهم العهدَ هنا على سائر ما وصَّى الله تعالى به عبادَه، كالعهد فيما سبق، والميثاق على الإقرار والقَبول.

والآيةُ ـ كما رُوي عن مقاتل ـ نزلت في أهل الكتاب.

﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ من الإيمان بجميع الأنبياء عليهم السلام المجتمعين على الحقِّ حيث يؤمنون ببعضٍ ويكفرون ببعضٍ، ومن حقوق الأرحام، وموالاة المؤمنين، وغير ذلك.

وإنما لم يتعرَّض ـ كما قال بعضُ المحقِّقين ـ لنفي الخشيةِ والخوف عنهم صريحاً؛ لدلالة النقض والقطع على ذلك. وأما عدمُ التعرُّض لنفي الصبر المذكورِ فلأنه إنما اعتُبر تحقُّقه في ضمن الحسنات المعدودة ليقَعْنَ معتدًّا بهنَّ، فلا وجهَ لنفيه عمَّن بينه وبين الحسنات بُعْدُ المشرقين، لا سيما بعدَ تقييدِهِ بكونه ابتغاءَ وجهِهِ تعالى، كما لا وجه لنفي الصلاة والإنفاق بناءً على أن المراد منه إعطاءُ الزكاة ممَّن لا يحوم حولَ الإيمان بالله تعالى، فضلاً عن فروع الشرائع، وإن أُريد بالإنفاق

---

(١) تفسير الرازي ١٩/٤٦.

ما يشمل ذلك وغيرَه فنفيُه مندرجٌ تحت قَطْع ما أمَرَ الله تعالى بوصله، بل قد يُقال باندراج نفي الصلاة أيضاً تحت ذلك، وأما درءُ السيئةِ بالحسنة فانتفاؤه عنهم ظاهرٌ مما سبق ولَحِقَ؛ فإنَّ من يُجازي إحسانَه عزَّ وجل بنقضِ عهدِهِ سبحانه، ومخالفةِ الأمر، ويباشرُ الفساد حسبما يحكيه قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بالظلم لأنفسهم وغيرهم، وتهييج الفتن بمخالفة دعوة الحق، وإثارة الحرب على المسلمين = كيف يُتصوَّر منه الدرءُ المذكور؟.

على أنه قيل: إن ذلك يُشعر بأن له دخلاً في الإفضاء إلى العقوبة التي يُنبئ عنها قولُه سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلخ، أي: أولئك الموصوفون بتلك القبائح ﴿لَهُمُ﴾ بسبب ذلك ﴿ٱللَّعْنَةُ﴾ أي: الإبعاد من رحمة الله تعالى ﴿وَلَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ أي: سوءُ عاقبة الدار، والمرادُ بها الدنيا، وسوءُ عاقبتها عذابُ جهنم، أو جهنم نفسُها، ولم يقل: سوءُ عاقبةِ الدار؛ تفادياً أن يجعلَها عاقبةً حيثُ جعل العاقبةَ المطلقةَ هي الجنة، وجُوِّز أن يراد بـ «الدار» جهنم، وبسوئها عذابُها، والأول أوجه؛ لرعايةِ التقابُل، ولأنَّ المبادر[1] إلى الفهم من الدار الدنيا بقرينةِ السابق، ولأنها الحاضرةُ في أذهانهم، ولما ذُكر من النُّكتة السرية، وذلك لأنَّ ترتيبَ الحكم على الموصول يُشعر بعِلِّية الصِّلة له، ولا يخفى أنه لا دخلَ له في ذلك على أكثر التفاسير؛ فإن مُجازاةَ السيئة بمثلها مأذون فيها، ودفعُ الكلام السيِّئ بالحسن، وكذا الإعطاء عند المنع، والعفو عند الظلم، والوصل عند القطع، ليس مما يُورِثُ تركُه تبعةً.

وأما ما اعتُبر اندراجُه تحت الصِّلة الثانية من الإخلال ببعض الحقوق المندوبة فلا ضيرَ في ذلك؛ لأن اعتبارَه من حيث إنه من مستتبعات الإخلال بالعزائم؛ كالكفر ببعض الأنبياء عليهم السلام، وعقوقِ الوالدين، وتركِ سائر الحقوق الواجبة.

وقُيِّد بالأكثر؛ لأنه على الكثير مما ذكرناه في تفسيره المدخليةُ ظاهرة، وقيل: إنه سُلِك في وصف الكَفَرة وذمِّهم، وذِكْر ما لهم في مآلهم ما لم يُسلَك في وصف المؤمنين ومدحهم، وشَرْح ما أعدَّ لهم، وما ينتهي إليه أمرُهم، فأتي في

---

(١) كذا في الأصل و(م)، ولعل صوابه: المتبادر.

أحدهما بموصولات متعدِّدة، وصلاتٍ متنوعة، إلى غير ذلك، ولم يُؤت بنحو ذلك في الآخر؛ تنبيهاً على مزيد الاعتناء بشأن المؤمنين قولاً وفعلاً، وعدمِ الاعتناء بشأن أضدادهم؛ فإنهم أنجاسٌ يُتمضمض من ذِكْرهم هذا، مع الجزم بأن مقتضى الحال هو هذا. وقيل: إنَّ المسلكين من آثار الرحمة الواسعة، فتأمَّل.

وتكرير «لهم»؛ للتأكيد والإيذان باختلافهما، واستقلال كلٍّ منهما في الثبوت.

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ أي: يوسعُه ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ من عباده ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يُضيِّق، وقيل: يُعطي بقَدْر الكفاية، والمراد بالرزقِ الدنيويُّ، لا ما يعمُّ الأخرويَّ؛ لأنه - على ما قيل - غيرُ مناسب للسياق، وقال صاحب «الكشف»: إنه شاملٌ للرزقين: الحسيِّ والمعنويِّ، الدنيويِّ والأخرويِّ، وذَكَر في بيان ربط الآية على ذلك ما ذَكَر.

وهي - كما رُوي عن ابن عباس - نزلت في أهل مكة، ثم إنها وإن كانت كذلك عامةٌ، وكأنها دفعٌ لما يُتوهَّم من أنه كيف يكونون[1] - مع ما هم عليه من الضلال - في سَعَةٍ من الرزق، فبيَّن سبحانه أن سَعَة رزقهم ليس تكريماً لهم، كما أن تضييقَ رزق بعض المؤمنين ليس إهانةً لهم، وإنما كلٌّ من الأمرين صادرٌ منه تعالى لحِكَم إلهيَّة يعلمُها سبحانه، وربما وسَّع على الكافر إملاءً واستدراجاً له، وضيَّق على المؤمن زيادةً لأجره.

وتقديمُ المسنَدِ إليه في مثل هذه الآية للتقوِّي فقط عند السَّكاكيِّ[2]، والزمخشريّ[3] يرى أنه لا مانع من أن يكون للتقوِّي والتخصيصِ، ولذا قال: أي: اللهُ وحدَه هو يبسطُ ويقدِرُ دونَ غيره سبحانه.

وقرأ زيد بنُ عليٍّ رضي الله عنهما: «ويقدُر» بضمِّ الدال حيث وقع[4].

﴿وَفَرِحُواْ﴾ استئنافٌ ناعٍ قُبْحَ أفعالهم مع ما وسَّعه عليهم. والضميرُ؛ قيل: لأهل مكة، وإن لم يسبق ذِكْرُهم، واختاره جماعةٌ، وقال أبو حيان[5]: لـ «الذين

---

(١) في الأصل: يكون، والمثبت من (م).
(٢) مفتاح العلوم ص٢٢١.
(٣) الكشاف ٢/ ٣٥٩.
(٤) البحر المحيط ٥/ ٣٨٨.
(٥) البحر المحيط ٥/ ٣٨٨.

ينقضون»، وزعم بعضُهم أن الجملةَ معطوفةٌ على صلة «الذين»، وفي الآية تقديمٌ وتأخير، ومحلٌّ هذا بعد «يفسدون في الأرض»، ولا يخفى بُعْده للاختلاف عموماً وخصوصاً، واستقبالاً ومُضِيًّا، أي: فرحوا فَرَحَ أَشَرٍ وبَطَر، لا فَرَحَ سرورٍ بفضل الله تعالى.

﴿بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ أي: بما بسَطَ لهم فيها من النعيم؛ لأن فرَحَهم ليس بنفسِ الدنيا، فنِسبةُ الفرح إليها مجازيَّةٌ، أو هناك تقديرٌ، أي: يبسُطُ الحياةَ، أو «الحياة الدنيا» مجازٌ عمَّا فيها.

﴿وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: كائنةٌ في جَنْبِ نعيمها. فالجارُّ والمجرور في موضع الحال، وليس متعلِّقاً بـ «الحياة» ولا بـ «الدنيا» كما قال أبو البقاء[1]؛ لأنهما ليسا فيها.

و «في» هذه معناها المقايسةُ، وهي كثيرةٌ في الكلام، كما يقال: ذنوبُ العبدِ في رحمة الله تعالى كقطرةٍ في بحر، وهي الداخلةُ بين مفضولٍ سابقٍ وفاضلٍ لاحق، وهي الظرفيَّةُ المجازيَّةُ؛ لأن ما يُقاس بشيء يُوضَع بجنبه.

وإسنادُ «متاع» في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾ إلى «الحياة الدنيا» يحتملُ أن يكون مجازيًّا، ويحتملُ أن يكون حقيقيّاً، والمرادُ أنها ليست إلا شيئاً نَزْراً يتمتَّع به، كعُجالة الراكب، وزادِ الراعي يُزوِّدُه أهلُه الكفَّ من التمر، أو الشيءَ من الدقيق، أو نحوَ ذلك، والمعنى إنهم رضُوا بحظِّ الدنيا معرِضين عن نعيم الآخرة، والحالُ أنَّ ما أَشِروا[2] به في جَنْب ما أعرضوا عنه نَزْر النفعِ سريعُ النفاد.

أخرج الترمذيُّ وصحَّحه عن عبد الله بن مسعود قال: نام رسولُ الله ﷺ على حصيرٍ، فقام وقد أثَّرَ في جنبه، فقلنا: يا رسول الله، لو اتَّخذنا لك [وطاءً]؟ فقال: «مالي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استظلَّ تحت شجرةٍ، ثم راح وترَكَها»[3].

---

(١) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٣٨٤.

(٢) الأَشَر: البَطَر. مختار الصحاح (أشر).

(٣) سنن الترمذي (٢٣٧٧)، وما بين حاصرتين منه، وأخرجه أيضاً أحمد (٣٧٠٩)، وابن ماجه (٤١٠٩).

وقيل: معنى الآيةِ كالخبرِ: «الدنيا مزرعةُ الآخرة»[1]. يعني: كان ينبغي أن يكون ما بسَطَ لهم في الدنيا وسيلةً إلى الآخرةِ، كمتاعِ تاجرٍ يبيعُه بما يهمُّه، وينفقُه في مقاصده، لا أن يفرحوا بها ويعدُّوها مقاصد بالذَّات. والأول أولى وأنسب.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: أهلُ مكةَ عبد الله بنُ أبي أميَّةَ وأصحابُه. وإيثارُ هذه الطريقة على الإضمار مع ظهورِ إرادتهم عَقِيبَ ذِكْر فَرَحِهم بناءً على أن ضمير «فرحوا» لهم؛ لذمِّهم والتسجيلِ عليهم بالكفر فيما حكى عنهم من قولهم: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فإنَّ ذلك في أقصى مراتبِ المكابرة والعناد؛ كأنَّ ما أُنزل عليه عليه الصلاة والسلام من الآيات العِظام الباهرةِ ليست عندهم بآيةٍ حتى اقترحوا ما لا تقتضيه الحكمةُ من الآيات، كسقوطِ السماء عليهم كِسَفاً، وسَيْر الأخشبين، وجَعْل البِطاح محارثَ ومُفْتَرَساً كالأردنّ، وإحياءِ قصيٍّ لهم، وإلى غير ذلك.

﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ إضلالَه، مشيئته تابعةٌ للحكمةِ الداعية إليها، وهو كلامٌ جارٍ مجرى التعجُّب من قولهم؛ وذلك أن الآياتِ الباهرة المتكاثرة التي أُوتيها ﷺ لم يُؤْتَها نبيٌّ قبلَه، وكفى بالقرآن وحدَه آيةً، فإذا جحدوها ولم يعتدُّوا بها كان ذلك موضعاً للتعجُّب والإنكار، وكان الظاهرُ أن يقال في الجواب: ما أعظمَ عنادَكم، وما أشدَّ تصميمَكم على الكفر ونحوه، إلا أنه وُضع هذا موضعَه للإشارة إلى أن المتعجَّب منه، يقول: «إنَّ الله يضلُّ» إلخ، أي: إنه تعالى يخلق فيمن يشاء الضلال بصرف اختياره إلى تحصيله، ويدعه منهمِكاً فيه؛ لعلمه بأنه لا ينجع فيه اللطفُ، ولا ينفعُه الإرشادُ؛ لسوء استعداده، كمن كان على صفتكم من المكابرة والعناد، وشدَّةِ الشكيمةِ والغلوِّ في الفساد، فلا سبيلَ له إلى الاهتداء ولو جاءته كلُّ آية.

﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى جانبه العليِّ الكبير. وقال أبو حيان[2]: أي: إلى دينه وشرعه سبحانه هدايةً موصلةً إليه، لا دلالةً مطلقةً إلى ما يُوْصِل؛ فإن ذلك غيرُ

---

(١) خبر موضوع، أورده السخاوي في المقاصد الحسنة(٤٩٧)، وقال: لم أقف عليه مع إيراد الغزالي له في الإحياء. اهـ. وانظر تتمة كلامه.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٣٨٩.

مختصٌ بالمهتدين، وفيه من تشريفهم ما لا يُوْصَفُ، وقيل: الضميرُ للقرآن، أو للرسول عليه الصلاة والسلام، وهو خلافُ الظاهر جدّاً.

﴿مَنْ أَنَابَ ۝٢٧﴾ أي: أقبلَ على الحقِّ، وتأمَّلَ في تضاعيف ما نزل من دلائله الواضحة. وحقيقةُ الإنابة الرجوعُ إلى نَوْبةِ الخير، وإيثارُها في الصلة على إيراد المشيئة كما في الصلة الأولى ـ على ما قال مولانا شيخُ الإسلام[1] ـ للتنبيه على الداعي إلى الهداية، بل إلى مشيئتها، والإشعارِ بما دعا إلى المشيئة الأولى من المكابرة، وفيه حثٌّ للكَفَرة على الإقلاع عمَّا هم عليه من العُتُوِّ والعناد.

وإيثارُ صيغة الماضي للإيماء إلى استدعاء الهداية السابقة، كما أنَّ إيثارَ صيغة المضارع في الصلة الأولى للدلالة على استمرار المشيئة الأولى حسب استمرار مكابرتهم.

والآيةُ صريحةٌ في مذهب أهل السنة في نسبةِ الخير والشر إليه عزَّ وجلَّ، وأوَّلها المعتزلةُ، فقال أبو علي الجُبَّائي: المعنى: يُضِلُّ من يشاءُ عن ثوابه ورحمته عقوبةً له على كفره، فلستم ممن يُجيبه الله تعالى إلى ما يسألُ؛ لاستحقاقكم العذابَ والإضلال عن الثواب، ويهدي إلى جنَّته من تاب وآمَنَ، ثم قال: وبهذا تبيَّن أن الهُدى هو الثوابُ من حيث عُلِّق بقوله تعالى: «من أناب»، والهدى الذي يفعلُه سبحانه بالمؤمن هو الثوابُ؛ لأنه يستحقُّه على إيمانه، وذلك يدلُّ على أنه تعالى يضلُّ عن الثواب بالعقاب، لا عن الدِّينِ بالكفرِ على ما ذهب إليه مَنْ خالَفَنا. اهـ. ولا يخفى ما فيه.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بدلٌ من «من أناب» بدلُ كلٍّ من كلٍّ؛ فإن أُريد بالهداية الهدايةُ المستمرَّة فالأمرُ ظاهرٌ؛ لظهورِ كون الإيمان مؤدِّياً إليها، وإن أُريد إحداثها فالمرادُ بالذين آمنوا: الذين صارَ أمرُهم إلى الإيمان كما قالوا في ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] أي: الصائرين إلى التقوى، وإلا فالإيمانُ لا يؤدِّي إلى الهداية نفسِها، ويجوز أن يكون عطفَ بيانٍ على ذلك، أو منصوباً على المدحِ، أو خبرَ مبتدأ محذوفٍ، أي: هم الذين آمنوا ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾ أي: تستقرُّ وتسكنُ ﴿بِذِكْرِ اللَّهِ﴾

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٠.

أي: بكلامه المعجزِ الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفِهِ، وهو المرويُّ عن مقاتل، وإطلاقُ الذِّكر على ذلك شائعٌ في الذِّكر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ [الأنبياء: ٥٠] و﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وسببُ اطمئنانِ قلوبهم بذلك؛ علمُهم أَنْ لا آيةَ أعظمُ منه، ومن ذلك لا يقترحون الآيات التي يقترحُها غيرُهم، والعدولُ إلى صيغة المضارع لإفادةِ دوام الاطمئنان وتجدُّدِه حسب تجدُّد المنزَلِ من الذِّكر.

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ وحدَه ﴿تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ دون غيرِه من الأمور التي تميلُ إليها النفوسُ الدنيويَّات، وإذا أريدَ سائرُ المعجزات فالقصرُ من حيث إنها ليست في إفادة الطمأنينة بالنسبة إلى مَنْ لم يشاهدها بمثابةِ القرآن المجيد؛ فإنه معجزةٌ باقيةٌ إلى يوم القيامة يشاهدُها كلُّ أحدٍ وتطمئنُّ به القلوبُ كافةً، وفيه إشعارٌ بأن الكَفَرة لا قلوبَ لهم، وأفئدتُهم هواءٌ حيث لم يطمئنُّوا به ولم يعدُّوه آيةً، وهو أظهرُ الآياتِ وأبهَرُها، وقيل: في الكلام مضافٌ مقدَّر، أي: تطمئنُّ قلوبُهم بذِكر رحمته تعالى ومغفرته بعد القلقِ والاضطراب من خشيته تعالى، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣] وهذا مناسبٌ على ما في «الكشف» للإنابة إليه تعالى، والمصدرُ عليه مضافٌ إلى الفاعل، وقيل: المرادُ بذِكر الله دلائلُه سبحانه الدالَّةُ على وحدانيته عزَّ وجلَّ والاطمئنان عن قلقِ الشكِّ والتردُّد، وهذا مناسب لذِكْر الكفر ووقوعه في مقابلته، وقيل: المراد بذِكْره تعالى أُنساً به وتبتُّلاً إليه سبحانه، فالمرادُ بالهداية دوامُها واستمرارُها. قيل: وهذا مناسبٌ أيضاً حديثَ الكفر؛ لأنَّ الكَفَرة إذا ذُكر الله تعالى وحدَه اشمأَزَّتْ قلوبهم، والمصدرُ على القولين مضافٌ إلى المفعول. والوجهُ الأولُ أشدُّ ملاءمةً للنظم، لاسيَّما لقوله تعالى: «لولا أُنزِل عليه آية من ربِّه»، والمصدرُ فيه بمعنى المفعول.

ومن الغريب ما نُقل في «تفسير الخازن»[1] أن هذا في الحَلِفِ بالله، وذلك أنَّ المؤمن إذا حُلِفَ له بالله تعالى سكَنَ قلبُه، وروى نحوَ ذلك أبو الشيخ عن السدِّي؛ فإنَّ الحملَ عليه هنا مما لا يُناسب المقام، وأما ما رُوي عن أنس من أنه ﷺ قال لأصحابه حين نزلت هذه الآية: «هل تدرونَ ما معنى ذلك»؟ قالوا: الله ورسولُه

---

(١) ٣/ ٢٠.

أعلم. قال: «من أحبَّ الله ورسولَه، وأحبَّ أصحابي»(١). ومثلُه ما رُوي عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَهُ من أنه عليه الصلاة والسلام قال حين نزلت: «ذاك من أحبَّ الله ورسولَه، وأحبَّ أهل بيتي صادقاً غيرَ كاذب، وأحبَّ المؤمنين شاهداً وغائباً»(٢). فليس المرادُ منه تفسير المراد بذِكر الله، بل بيان أن الموصوفين بما ذُكر مَنْ أحبَّ الله تعالى ورسولَه ﷺ، إلخ، وهو كذلك؛ إذ لا يكادُ يتحقَّقُ الانفكاكُ بين هاتيك الصفات، فليتأمَّل.

ولا تنافيَ بين هذه الآيةِ على سائر الأوجُه وقولِهِ تعالى: ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] لأنَّ المراد هناك: وَجِلَت من هيبتِه تعالى واستعظامِه جلَّت عظمتُه.

وذكر الإمامُ(٣) في بيان اطمئنان القلب بذِكره تعالى وجوهاً، فقال: إن الموجودات على ثلاثة أقسام: مؤثِّر لا يتأثَّر، ومتأثِّر لا يؤثِّر، وموجودٌ يؤثِّر ويتأثَّر، فالأول: هو الله تعالى. والثاني: هو الجسمُ؛ فإنه ليس له خاصيةٌ إلا القَبول للآثار المتنافية، والصفات المختلفة. والثالث: الموجودات الروحانيةُ؛ فإنها إذا توجَّهت إلى الحضرة الإلهية صارت قابلةً للآثار الفائضة عليها منها، وإذا توجَّهت إلى أعلام الأجسام اشتاقت إلى التصرُّف فيها؛ لأنَّ عالَمَ الأرواح مدبِّرٌ لعالَم الأجسام؛ فإذا عرف هذا فالقلبُ كلَّما توجَّه إلى مطالعة عالم الأجسام حصَلَ فيه الاضطرابُ والقلقُ، والميلُ الشديد إلى الاستيلاء عليه والتصرُّف فيه، وإذا توجَّه إلى مطالعة الحضرة الإلهية، وحصلت فيه الأنوارُ الصَّمَدية فهناك يكون ساكناً مطمئنّاً، وأيضاً إن القلب كلَّما وصل إلى شيءٍ فإنه يطلبُ الانتقالَ منه إلى أمرٍ آخر أشرف منه؛ لأنه لا سعادةَ في عالَم الجسم إلا وفوقها مرتبةٌ أخرى، أما إذا انتهى إلى الاستعداد بالمعارف الإلهية والأنوار القُدسية ثبَتَ واستقرَّ، فلم يقدر على الانتقال من ذلك ألبتَّةَ؛ لأنه ليس هناك درجةٌ أخرى في السعادة أعلى منه وأكملُ، وأيضاً إن الإكسير إذا وقعت ذرَّةٌ منه على الجسم النُّحاسي انقلب ذهباً باقياً على ممرِّ الدهور، صابراً

---

(١) أخرجه أبو الشيخ فيما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٤/٥٨.
(٢) أخرجه ابن مردويه فيما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٤/٥٨.
(٣) تفسير الرازي ١٩/٤٩.

على الذَّوبان الحاصل بالنار، فإكسيرُ نور الله تعالى إذا وقع في القلب أولى أن يقلِبَه جوهراً باقياً صافياً نورانياً لا يقبلُ التغيُّر والتبدُّل، ولهذه الأوجه قال سبحانه: «ألا بذِكْر الله تطمئن القلوب». اهـ.

والأولى أن يقال: إنَّ سبب الطمأنينةِ نورٌ يُفيضه الله تعالى على قلب المؤمن بسبب ذِكْره، فيُذهِبُ ما فيه من القلق والوحشة ونحوِ ذلك، وللمناقشة فيما ذُكر مجال، وسيأتي إن شاء الله تعالى في باب الإشارة ما يُشبه ذلك.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ﴾ بدلٌ من «القلوب» أي: قلوب الذين آمنوا، والأظهرُ أنه بدلُ الكلِّ؛ لأن القلوبَ في الأول قلوبُ المؤمنين المطمئنِّين، وكذلك لو عُمِّم القلبُ على معنى أنَّ قلوب هؤلاء الأجلَّاء كلُّ القلوب؛ لأنَّ الكفار أفئدتُهم هواء، وأما الحملُ على بدلِ البعض ليُعمَّم القلب من غير الملاحظة المذكورة واستنباطِ هذا المعنى من البدل فبعيدٌ، وأما احتمالُه لبدل الاشتمال، وإن استحسنه الطِّيبي، فكلا.

أو مبتدأٌ، خبرُه الجملةُ الدعائية على التأويل، أعني: قولَه سبحانه: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ أي: يقال لهم ذلك، أو لا حاجةَ إلى التأويل، والجملةُ خبريةٌ، أو خبرُ مبتدأ مضمَرٍ، أو نصب على المدح، فـ «طوبى لهم» حالٌ مقدَّرة، والعاملُ فيها الفعلان.

وقال بعضُ المحقِّقين: لعلَّ الأشبه وجهٌ آخر: وهو أن يتمَّ الكلامُ عند قوله تعالى: «من أناب»، ثم قيل: «الذين آمنوا وتطمئنُّ قلوبهم» في مقابلة «ويقول الذين كفروا لولا أُنزل»، وقولُه سبحانه: «ألا بذِكْر الله» جملةٌ اعتراضيةٌ تفيدُ: كيف لا تطمئنُّ قلوبُهم به، ولا اطمئنانَ للقلب بغيره؟! وقولُه عزَّ وجل: «الذين آمنوا» بدلٌ من الأول. وفيه إشارةٌ إلى أن ذِكْر الله أفضلُ الأعمال الصالحة، بل هو كلُّها، و«طوبى لهم» خبرُ الأول، فيتمُّ التقابُلُ بين القرينتين: «يقول الذين كفروا» و«الذين آمنوا وتطمئنُّ»، وبين جُزْئي التذييل: «يضلُّ من يشاء ويهدي إليه من أناب».

ومن الناس من زعم أن الموصولَ الأول مبتدأٌ، والموصول الثاني خبرُه، و«ألا بذكر الله» اعتراضٌ، و«طوبى لهم» دعاءٌ، وهو كما ترى. و«طوبى»: قيل: مصدرٌ من طاب؛ كبُشْرى وزُلْفى، والواو منقلبةٌ من الياء، كمُوْسِر ومُوْقِن.

وقرأ مَكْوَزَةُ الأعرابيُّ: «طِيبَى» ليسلم الياء[١]، وقال أبو الحسن الهنائي: هي جمع طِيْبة، كما قالوا في كِيْسة: كُوْسى. وتعقَّبه أبو حيان[٢] بأن فِعْلى ليست من أبنية الجموع، فلعله أراد أنه اسمُ جمع.

وعلى الأول فلهم في المعنى المراد عبارات: فأخرج ابنُ جرير[٣] وغيرُه عن ابن عباس أن المعنى: فرحٌ وقرَّة عينٍ لهم، وعن الضحَّاك: غِبْطة لهم، وعن قتادة: حُسْنى لهم، وفي روايةٍ أخرى عنه: أصابوا خيراً، وعن النَّخَعيِّ: خيرٌ كثير لهم، وفي رواية أخرى عنه: كرامةٌ لهم، وعن سُمَيط بن عَجْلان[٤]: دوامُ الخير لهم. ويرجعُ ذلك إلى معنى: العيش الطيِّب لهم.

وفي رواية عن ابن عباس وابن جُبَير أن «طوبى» اسمٌ للجنة بالحبشيَّة، وقيل: بالهنديَّة، وقال القرطبيُّ[٥]: الصحيحُ أنها عَلَم لشجرةٍ في الجنة؛ فقد أخرج أحمدُ، وابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم، وابنُ حبَّان، والطبرانيُّ، والبيهقيُّ في «البعث والنشور»، وصحَّحه السُّهيليُّ وغيرُه عن عُتْبة بن عَبْد قال: جاء أعرابيٌّ إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، أفي الجنة فاكهةٌ؟ قال: «نعم، فيها شجرةٌ تُدْعى طوبى، هي نطاقُ الفردوس». قال: أيُّ شجرِ أرضنا تُشْبه؟ قال: «ليس تُشْبه شيئاً من شجرِ أرضك، ولكن أتيتَ الشام»؟ قال: لا. قال: «فإنها تُشْبه شجرةً بالشام تُدعى: الجَوْزة، تنبُتُ على ساق واحدٍ، ثم ينتشر أعلاها». قال: ما عِظَمُ أصلها؟ قال: «لو ارتحلتَ جَذَعةً من إبلِ أهلك ما أحطتَ بأصلها حتى تنكسر

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٧، والكشاف ٢/ ٣٥٩، والبحر ٥/ ٣٩٠، والدر المصون ٧/ ٤٩، وتحرف مكوزة في البحر إلى: بكرة.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٣٨٩.
(٣) تفسير الطبري ٣/ ٥٢١.
(٤) كذا في الأصل و(م)، وصوابه: شميط، بالشين المعجمة، نص على ذلك ابن ماكولا في الإكمال، وقيل فيه: سميط، بالسين.
وهو أبو عبيد الله البصري، التيمي، العابد، روى عن مؤذن بني عدي، وروى عنه الصَّعْق بن حَزْن. الثقات لابن حبان ٦/ ٤٥١، والمؤتلف والمختلف للدارقطني ٣/ ١٢٤٧، والإكمال ٤/ ٣٦١.
(٥) تفسير القرطبي ١٢/ ٦٨.

تَرْقُوتاها هرماً». قال: فهل فيها عنبٌ؟ قال: «نعم». قال: ما عِظَم العنقودِ منه؟ قال: «مسيرةُ شهرٍ للغراب الأبقع»(١).

والأخبارُ المصرِّحة بأنها شجرةٌ في الجنة منتشرةٌ جداً. وحينئذٍ فلا كلام في جواز الابتداء بها، وإن كانت نكرةً، فمسوِّغ الابتداءِ بها ما ذهب إليه سيبويه(٢) من أنه ذهَبَ بها مذهبَ الدعاء، كقولهم: سلامٌ عليك. إلا أنه ذهب ابنُ مالك إلى أنه التَزَم فيها الرفعَ على الابتداء، وردَّ عليه بأن عيسى الثقفيَّ قرأ: «وحسنَ مَآب» بالنصب(٣)، وخرَّج ذلك ثعلبٌ على أنه معطوفٌ على «طوبى»، وأنها في موضع نصبٍ، وهي عنده مصدرٌ معمولٌ لمقدَّر، أي: طاب، واللامُ للبيان كما في: سُقيا له، ومنهم من قدَّر: جعَلَ طوبى لهم. وقال صاحب «اللوامح»: إن التقدير: يا طوبى لهم، ويا حسن مآب، فـ «حسن» معطوفٌ على المنادى، وهو مضافٌ للضمير، واللامُ مقحمةٌ كما في قوله:

يـا بـؤسَ لـلـجـهـل ضـرَّاراً لأقـوام(٤)

ولذلك سقط التنوينُ من بؤس، وكأنه قيل: يا طوباهم، ويا حسنَ مآبهم، أي: ما أطيَبَهم وأحسنَ مآبهم، كما تقول: يا طِيْبَها ليلةً، أي: ما أطيَبَها ليلةً. ولا يخفى ما فيه من التكلُّف.

وأجاب السفاقسيُّ عن ابن مالك بأنه يجوز نصبُ «حسن» بمقدَّر، أي: ورزَقَهم حسنَ مآب، وهو بعيدٌ.

وقُرِئ: «حُسْنَ مآبٌ» بفتح النون ورفع «مآب»(٥)، وخُرِّج ذلك على أن «حسن»

---

(١) مسند أحمد (١٧٦٤٢)، وتفسير الطبري ١٣/ ٥٢٨، وصحيح ابن حبان (٦٤٥٠)، والمعجم الكبير للطبراني ١٧/ (٣١٣)، والبعث والنشور (٣٠٠)، وتصحيح السهيلي له في التعريف والإعلام ص٨٤.

(٢) الكتاب ١/ ٣٣٠ ـ ٣٣١.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٣٩٠.

(٤) عجز بيت للنابغة الذبياني، وصدره كما في ديوانه ص١٠٥:

قـالـت بـنـو عـامـرٍ خـالـوا بـنـي أسـدٍ

(٥) البحر المحيط ٥/ ٣٩٠.

فعلٌ ماض أصلُه حَسُنَ، نُقلت ضمةُ السين إلى الحاء، ومثلُه جائزٌ في فعله إذا كان للمدح أو الذمِّ، كما قالوا:

.... حُسْنَ ذا أدبا[(١)]

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الإرسال العظيم الشأنِ المصحوبِ بالمعجزة الباهرة، ويجوزُ أن يراد: مثل إرسال الرسل قبلَكَ ﴿أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ﴾، فيكون قد شبَّه إرسالَه ﷺ بإرسال مَنْ قبله، وإن لم يَجْرِ لهم ذِكْر؛ لدلالة قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أي: مضت ﴿مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ كثيرةٌ قد أُرسل إليهم رسلٌ عليهم، ورُوي هذا عن الحسن، وقيل: الكاف متعلِّقة بالمعنى الذي في قوله تعالى: (قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ) إلخ، أي: كما أنفَذْنا ذلك أرسلناك، ونُقل نحوُه عن الحوفي.

وقال ابنُ عطية[(٢)]: الذي يظهر أنَّ المعنى: كما أجرَينا العادةَ في الأمم السابقة بأن نُضِلَّ ونَهدي بوحي لا بالآيات المقترحةِ، كذلك أيضاً فعلنا في هذه الأمة وأرسلناك إليهم بوحي لا بالآيات المقترحة، فنُضلُّ مَنْ نشاء ونهدي من أناب. وقال أبو البقاء[(٣)]: التقديرُ: الأمر كذلك. والحَسَنُ ما قدَّمناه وما رُوي عن الحَسَن.

و«في» بمعنى «إلى»، كما في قوله تعالى: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [إبراهيم: ٩] وقيل: هي على ظاهرها، وفيها إشارةٌ إلى أنه من جملتهم، وناشئٌ بينَهم، ولا تكون بمعنى «إلى»؛ إذ لا حاجةَ لبيان من أُرسل إليهم، وفيه نظرٌ ظاهر. وهي متعلِّقة بالفعل المذكور، وقولُ الزمخشريِّ[(٤)] في معنى الآية: يعني: أرسلناك[(٥)] إرسالاً له شأنٌ وفضلٌ على الإرسالات، ثم فسَّر كيف أرسلَه بقوله: «إلى أمةٍ قد خَلَتْ من قبلها أمم»، أي: أرسلناك في أمة قد تقدَّمها أممٌ كثيرةٌ، فهي آخرُ الأمم، وأنت خاتمُ الأنبياءِ = لم يُرِدْ به أنها لا تتعلَّق بالمذكور، بل أراد أن المُشار إليه

(١) جزء من بيت لسهم بن حنظلة الغنوي، كما في الأصمعيات ص٥٦، وسلف ٦/ ١٣٤.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣١٢.
(٣) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٣٨٥.
(٤) الكشاف ٢/ ٣٥٩.
(٥) في الأصل و(م): أرسلنا. والمثبت من الكشاف.

المبهَمَ لمَّا كان ما بعدَه تفخيماً، كان بيانُه بصِلَة ذلك الفعل حتى يزول الإبهامُ، ويجوزُ أن يريد ذلك، فيقدّر: أرسلناك ثانياً، ويكون قولُه: أي: أرسلناك في أمة، إظهاراً للمحذوف أيضاً، لا بياناً لحاصل الآية، وهو الذي آثَرَه العلامةُ الطِّيبي. والتعلُّق بالمذكور هو الظاهر.

وجملة «قد خلت» إلخ في موضع الصِّفة لـ «أمة»، وفائدةُ الوصف بذلك: قيل: ما أشار إليه الزمخشريُّ. واعتُرض بأنه لا يلزم من تقدُّم أممٍ كثيرة قبلُ أن لا يكون أمةٌ يُرسَل إليها بعدُ حتى يلزَمَ أن يكون ﷺ خاتم الأنبياء عليهم السلام، وبحثَ فيه الشهابُ[1] بأن المراد بكون إرساله عليه الصلاة والسلام عجيباً أن رسالتَه أعظمُ من كلِّ رسالة، فهي جامعةٌ لكلِّ ما يحتاج إليه، فيلزم أن لا نسخَ؛ إذ النسخُ إنما يكون للتكميل، والكامل أتمَّ كمالٍ غيرُ محتاج لتكميل، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣]. اهـ.

ولَعَمري إن الاعتراضَ قويٌّ، والبحث في غاية الضَّعف؛ إذ لا يلزمُ من كون إرساله ﷺ عجيباً ما ادَّعاه، ولو سلَّمنا ذلك لا يلزمُ منه أيضاً كونُه عليه الصلاة والسلام خاتماً؛ إذ بِعثةُ مقرِّر دينه الكامل ـ كما بُعث كثيرٌ من أنبياء بني إسرائيل لتقرير دين موسى عليه السلام ـ لا يأبى ما ذُكر من جامعية رسالته عليه الصلاة والسلام، ولزومِ عدمِ النسخ لذلك كما لا يخفى، ولعلَّه لهذا اختار بعضُهم ما رُوي عن الحسن، وقال منبِّهاً على فائدة الوصف: يعني مثلَ إرسال الرسل قبلَكَ أرسلناك إلى أممٍ تقدَّمتها أممٌ أُرسلوا إليهم، فليس بِبِدْعٍ إرسالُك إليها.

﴿لِّتَتْلُوَاْ﴾ لتقرأ ﴿عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: الكتابَ العظيمَ الشأن، ويُشعر بهذا الوصف ذِكْر الموصول غيرَ جارٍ على موصوف، وإسنادُ الفعل في صلته إلى ضمير العَظَمة، وكذا الإيصال إلى المخاطَب المعظَّم بدليل سابِقِه على ما سمعتَ أولاً. وتقديمُ المجرورِ على المنصوب من قَبِيل الإبهام ثم البيان، كما في قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح:٢] وفيه ما لا يخفى من ترقُّب النفس إلى ما سيرد، وحُسْن قَبولها له عند ورودِه عليها. وضميرُ الجمع للأمة باعتبار معناها، كما رُوعي في ضمير «خلت» لفظُها.

---

(١) حاشية الشهاب ٥/٢٣٨.

﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: بالبليغ الرحمة، الذي أحاطت بهم نعمتُه، ووَسِعَت كلَّ شيء رحمتُه، فلم يشكروا نعمَه سبحانه، لا سيَّما ما أنعم به عليهم بإرسالك إليهم، وإنزالِ القرآن الذي هو مدارُ المنافع الدينيةِ والدنيوية عليهم، بل قابلوا رحمتَه ونعمَه بالكفر، ومقتضى العقلِ عكسُ ذلك.

وكان الظاهر: بنا، إلا أنه التُفِتَ إلى الظاهر، وأُوثِرَ هذا الاسمُ الدالُّ على المبالغة في الرحمة للإشارة إلى أن الإرسال ناشئٌ منها، كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] وضميرُ الجمع للأمة أيضاً، والجملةُ في موضع الحال من فاعل «أرسلنا»، لا من ضمير «عليهم»؛ إذ الإرسالُ ليس للتلاوة عليهم حالَ كفرهم، ومنهم مَنْ جوَّز ذلك، والتلاوةُ عليهم حالَ الكفرِ ليقفوا على إعجازه، فيصدِّقوا به؛ لعلمهم بأفانينِ البلاغة، ولا ينافي تلاوتَه عليهم بعد إسلامهم.

وجُوِّز في الجملة أن تكون مستأنفةً، والضمير حسبما علمتَ، وقيل: إنه يعودُ على الذين قالوا: لولا أُنزل عليه آيةٌ من ربِّه، وقيل: يعودُ على «أُمة» وعلى «أمم»، ويكون في الآية تسليةٌ له ﷺ.

وعن قتادة، وابن جُرَيج، ومقاتل أن الآيةَ نزلت في مشركي مكة لمَّا رأوا كتابَ الصُّلح يوم الحُدَيبية، وقد كتَبَ فيه عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهَهُ: بسم الله الرحمن الرحيم فقال سُهَيل بن عَمرو: ما نعرِفُ الرحمنَ إلا مُسَيلمةَ. وقيل: سمِعَ أبو جهلٍ قولَ رسول الله ﷺ: «يا الله، يا رحمن»، فقال: إن محمداً ينهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو إلهين. فنزلت. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه لمَّا قيل لكفَّار قريش: اسجدوا للرحمن، قالوا: وما الرحمنُ؟ فنزلت[١]. وضُعِّف كلُّ ذلك بأنه غيرُ مناسبٍ؛ لأنه يقتضي أنهم يكفرون بهذا الاسم وإطلاقِهِ عليه سبحانه وتعالى، والظاهرُ أنَّ كفرَهم بمسمَّاه.

﴿قُلْ﴾ حين كفروا به سبحانه ولم يوحِّدوه ﴿هُوَ﴾ أي: الرحمنُ الذي كفرتُم به ﴿رَبِّى﴾ خالقي ومتولِّي أمري، ومُبلغي إلى مراتب الكمال. وإيرادُ هذا قبل قوله

---

(١) انظر تفسير البغوي ٣/١٩، وتفسير القرطبي ١٢/ ٦٩ ـ ٧٠.

تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا مستحقَّ للعبادة سواه، تنبيهٌ على أن استحقاقَ العبادة منوطٌ بالرُّبوبية، والجملةُ داخلة في حيِّز القول، وهي خبرٌ بعد خبرٍ عند بعض، وقال بعضٌ آخر: إنه تعالى بعد أن نَعَى على الكفَرَة حالَهم وعَكْسهم مقتضى العقل، أمرَ نبيَّه عليه الصلاة والسلام أن يُنبِّههم على خاصَّة نفسه، ووظيفته من الشكر، ومآلِ أمره؛ تأنيباً لهم، فقال: قل هو ربِّي الذي أرسلَني إليكم، وأيَّدني بما أيَّدني، ولا ربَّ لي سواه.

﴿عَلَيْهِ﴾ لا على أحدٍ سواه ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع أموري، لا سيَّما في النُّصْرة عليكم ﴿وَإِلَيْهِ﴾ خاصَّة ﴿مَتَابِ ۝٣٠﴾ أي: مرجعي، فيُثيبُني على مصابرتكم ومجاهدتكم. وقوله سبحانه: (لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ) اعتراضٌ أكِّد به اختصاصَ التوكُّل عليه سبحانه، وتفويضَ الأمور عاجلاً وآجلاً إليه، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٠٦]. اهـ. وإلى القول بالاعتراض ذهب صاحبُ «الكشف» وحمَلَ على ذلك كلامَ «الكشاف»[1] حيث ذكر بعد: «هو ربي»: الواحدُ المتعالي عن الشركاء، فقال: جعلَه فائدةَ الاعتراض بـ «لا إله إلا هو»، أي: هذا البليغُ الرَّحمة، و«لا إله إلا هو»، فهو بليغُ الانتقام كما هو بليغُ الرحمة، يرحمني وينتقمُ لي منكم، وهو تمهيدٌ أيضاً لقوله: «عليه توكلتُ» ولم يُجعل خبراً بعد خبر؛ إذ ليس المقصودُ الإخبار بأنه تعالى متوحِّدٌ بالإلهية، بل المقصودُ أن المتوحِّد بها ربِّي، وذلك يفيدُه الاعتراض، وأما أنَّ المفهوم من كلامه أنه حالٌ، ولذلك أُجري مجرى الوصف فكلَّا، إلا أن يُجعل حالاً مؤكِّدةً، ولا يُغاير الاعتراضَ إذاً كثيرَ مغايرة، لكن الأول أَمْلأُ بالفائدة. اهـ.

ولا يخفى ما في توجيه كلام «الكشاف» بذلك من الخفاء، وفي كون المقصود أن المتوحِّد بالإلهية ربي، دون الإخبارِ بأنه تعالى متوحِّدٌ بها ـ على ما قيل ـ تأمُّلٌ. ولعلَّ مبناه أن ما أثبته أوفقُ بالغرض الذي يُشير كلامُه إلى اعتباره مساقاً للآية، وفيه من المبالغة في وصفه تعالى بالتوحُّد ما لا يخفى.

نعم، قيل: للقول بالاعتراض وجهٌ وأنَّه حينئذٍ لا يبعد أن يقال: إنَّه تعالى بعد أن ذكر إرساله ﷺ إليهم، وأنَّ حالَهم أنهم يكفرون بالبليغ الرحمة، ولا يقابِلون

(١) الكشاف ٢/ ٣٦٠.

رحمتَه بالشكر فيؤمنوا به ويوحِّدوه، أمرَه بالإخبار بتخصيص توكُّله واعتمادِه على ذلك البليغِ الرحمةِ، ورجوعِه في سائر أموره إليه، إيماءً إلى أن إصرارَهم على الكفر لا يضرُّه شيئاً، وأن له عليه الصلاة والسلام عاقبةً محمودةً، وأنه سبحانه سينصُرُه عليهم، وفي ذلك من تسفيهِ رأيهم في الإصرار على الكفر، واستنهاضِهم إلى اتِّباعه ما فيه، إلا أنه عزَّ شأنُه أمرَهَ أن يقول أولاً: «هو ربي» توطئةً لذلك، وجيء بـ «لا إله إلا هو» اعتراضاً للتأكيد.

والذي يميلُ إليه الطبعُ بعد التأمُّل وملاحظةِ الأسلوب القولُ بالاعتراض، ثم لا يخفى أن حمل «وإليه متاب» على: إليه رجوعي في سائر أموري، خلافُ الظاهر، وأنه على ذلك يكونُ كالتأكيد لما قبله، وقال شيخُ الإسلام في «تفسيره»(١): أي: إليه توبتي، كقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥] أُمر عليه الصلاة والسلام بذلك إبانةً لفضل التوبة ومقدارها عند الله تعالى، وأنها صفةُ الأنبياء، وبعثاً للكَفَرة على الرجوع عمَّا هم عليه بأبلغِ وجهٍ وألطفِهِ؛ فإنه عليه الصلاة والسلام حيث أُمر بها وهو منزَّه عن شائبة اقتراف ما يُوجِبُها من الذنب وإن قلَّ، فتوبتُهم وهم عاكفون على أنواع الكفرِ والمعاصي مما لا بدَّ منه أصلاً. اهـ.

وفيه أن هذا إنما يصلُحُ باعثاً للإقلاع عن الذنب على أبلغِ وجهٍ وألطفه لو كان الكلامُ مع غير الكَفَرة الذين يحسَبون أنهم يُحسنون صنعاً، ولعلَّ ذلك ظاهرٌ عند المنصف، وقال العلَّامةُ البيضاويُّ في ذلك(٢): أي: إليه مرجعي ومرجعُكم، وكأنه أراد أيضاً: فيرحمُني وينتقِمُ منكم، والانتقامُ من الرحمن أشدُّ كما قيلَ، أعوذُ بالله تعالى من غَضَب الحليم.

وتُعقِّب بأنه إنما يتمُّ لو كان المضافُ إليه المحذوفُ ضميرَ المتكلِّم ومعه غيرُه، أي: متابُنا؛ إذ يكون حينئذٍ مرجعي ومرجعُكم تفصيلاً لذلك، ولا يكاد يقول به أحدٌ مع قوله بكسر الباء؛ فإنه يقتضي أن يكون المحذوفُ الياءَ، على أن ذلك الضميرَ لا يناسبُ ما قبلَه، ولعلَّ العلَّامةَ اعتبرَ أنَّ في الآية اكتفاءً على ما قيل،

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٢١.

(٢) تفسير البيضاوي على هامش حاشية الشهاب ٥/ ٢٣٩.

أي: متابي ومتابُكم، أو أن الكلام دالٌّ عليه التزاماً، وهذا أولى على ما قيل، فتأمل.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ أي: قرآناً ما، والمرادُ به المعنى اللغويُّ، وهو اسمُ «أنَّ»، والخبرُ قولُه تعالى شأنه: ﴿سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾، وجوابُ «لو» محذوفٌ؛ لانسياقِ الكلام إليه، كما في قوله:

فأُقسمُ لو شيءٌ أتانا رسولُه سواكَ ولكن لم نجدْ لكَ مدفعاً[1]

والمقصود إما بيانُ عِظَم شأن القرآن[2]، وفسادِ رأي الكَفَرة حيث لم يَقْدُروا قدرَه، ولم يعدُّوه من قَبِيل الآيات، واقترحوا غيرَه، وإما بيانُ غلوِّهم في المكابرة والعِناد، وتماديهم في الضلالة والفساد.

والمعنى على الأول: لو أن كتاباً سُيِّرت بإنزاله أو بتلاوته الجبالُ، وزُعزِعت عن مقارِّها، كما فُعل ذلك بالطُّور لموسى عليه السلام ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: شُقِّقت وجُعلت أنهاراً وعيوناً، كما فُعِل بالحَجَر حين ضرَبه موسى عليه السلام بعصاهُ، أو جُعلت قطعاً متصدِّعةً، ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: كلَّم أحدٌ به الموتى بأنْ أحياهم بقراءته، فتكلَّم معهم بعدُ، وذلك كما وقع الإحياءُ لعيسى عليه السلام، لكان ذلك هذا القرآن؛ لكونه الغايةَ القُصوى في الانطواء على عجائب آثارِ قدرة الله تعالى وهيبتِه عزَّ وجل، كقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] قاله بعضُ المحقِّقين.

وقيل: في التعليل: لكونه الغايةَ في الإعجاز، والنهايةَ في التذكير والإنذار. وتُعقِّب بأنه لا مدخلَ للإعجاز في هذه الآثار، والتذكيرُ والإنذارُ مختصَّان بالعقلاء، مع أنه لا علاقةَ لذلك بتكليم الموتى، واعتبارُ فيضِ العقول إليها مخلٌّ بالمبالغة المقصودة، وبُحث فيه بأن ما ذُكر أولاً من مزيد الانطواء على عجائب آثار قدرة الله تعالى أمرٌ يرجعُ إلى الهَيبة، وهي أيضاً مما لا يترتَّب عليها تكليمُ الموتى[3]، بل

(١) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٢٤٢.
(٢) بعدها في (م): العظيم.
(٣) اضطربت العبارة في الأصل، والمثبت من (م).

لعلَّها مانعةٌ من ذلك؛ لأنها حيث اقتضت تزعزُعَ الجبال، وتقطُّعَ الأرض، فلأَنْ تقتضي موتَ الأحياء دون إحياء الأموات الذي يكون التكليمُ بعده من بابٍ أولى، وفيه نظر.

والباء في المواضع الثلاثة للسببيَّة، وجُوِّز في الثالث منها أن تكون صلةَ ما عندَها. وتقديمُ المجرور فيها على المرفوع لقصد الإيهام[1]، ثم التفسيرُ لزيادة التقريرِ على ما مرَّ غير مرَّة، و«أو» في الموضعين لمنع الخُلُوِّ، لا الجمع، والتذكير في «كُلِّم» لتغليب المذكَّر من الموتى على غيره.

واقتراحُهم وإن كان متعلِّقاً بمجرَّد ظهور مثل هذه الأفاعيل العجيبة على يده ﷺ، لا بظهورها بواسطة القرآن، لكنَّ ذلك حيث كان مبنيًّا على عدم اشتماله في زعمهم على الخوارق نِيْطَ ظهورُها به؛ مبالغةً في شأن اشتماله عليه، وأنه حقيقٌ بأن يكون مصدراً لكلِّ خارقٍ، وإبانةً لركاكةِ رأيهم في شأنه الرفيع، كأنه قيل: لو أنَّ ظهورَ أمثالِ ما اقترحوه من مقتضيات الحكمة لكان مظهرُها هذا القرآن الذي لم يعدُّوه آيةً، وفيه من تفخيم شأنه العزيز، ووصفِهم بركاكةِ العقل ما لا يخفى. كذا حقَّقه بعضُ الأجلَّة، وهو من الحُسْن بمكان.

وعلى الثاني: لو أن قرآناً فُعلت به هذه الأفاعيلُ العجيبةُ لما آمنوا به، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الآية [الأنعام: ١١١]، والكلامُ على ما استظهره الشهابُ[2] على التقديرين حقيقةٌ على سبيل الفَرض، كقوله:

ولو طار ذو حافرٍ قبلَها لطارت ولكنَّه لم يطِرْ[3]

وجعلُه على الأول تمثيلاً كالآية المذكورةِ هناك ـ على ما قال ـ لا وجهَ له، وتمثيلُ الزمخشريِّ[4] بها لبيان أن القرآن يقتضي غايةَ الخشية، وصنيعُ كثيرٍ من المحقِّقين ظاهرٌ في ترجيح التقدير الأول.

---

(١) في (م): الإبهام.
(٢) حاشية الشهاب ٥/ ٢٣٩.
(٣) البيت لأُبيِّ بن ربيعة، وهو من أبيات الحماسة ٢/ ٥٥٦ بشرح المرزوقي.
(٤) الكشاف ٢/ ٣٦٠.

وفي «الكشف»: لو تأمَّلت في هذه السورة الكريمة حقَّ التأمل وجدتَ بناءَ الكلام فيها على حقِّيَّة[1] الكتاب المجيد، واشتماله على ما فيه صلاحُ الدارين، وأن السعيد كلَّ السعيد مَنْ تمسَّك بحبله، والشقيَّ كلَّ الشقيِّ من أعرض عنه إلى هواه، حيث قال تعالى أولاً: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ [الرعد:١]، ثم تعجَّب من إنكارهم ذلك بقوله سبحانه: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾ [الرعد:٧]، ثم قال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ فأثبتَ حقيَّته بالحجَّة، ثم قال جلَّ وعلا: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الرعد:١٧]، وهو مَثَلٌ للحقِّ الذي هو القرآن ومَن انتفع به، على ما فسَّره المحقِّقون. ثم صرَّح تعالى بنتيجة ذلك كلِّه بالبرهان النيِّر في قوله سبحانه: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد:١٩] ثم أعاد جلَّ شأنُه قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الرعد:٢٧] دلالةً على إنكارهم أولَ ما أتاهم، وبعد رصانةِ علمهم بحقِّيَّته فهم متمادون في الإنكار، ثم كرَّ إلى بيان الحقِّيَّة فيما نحنُ فيه، وبالَغَ المبالغةَ التي ليس بعدها، سواء جُعل داخلاً في حيِّز القول، أو جُعل ابتداءَ كلام منه تعالى تذييلاً، وهو الأبلغُ؛ ليكون مقصوداً بذاته في الإفادة المذكورة، مؤكِّداً لمجموع ما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ [الرعد:٣٠] من تعظيمِ الرسول عليه الصلاة والسلام وما أُنزل عليه، وشدَّة إنكارهم وتصميمهم، لا علاوة في أن لم يبقَ إلا التوكُّل والصبر على مجاهدتكم؛ إذ لا وراءَ هذا القرآن حتى أجيءَ به لتُسلموا، ثم فخَّمه ونعى عليهم مكابرتَهم بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد:٣٧] وأيَّد حقِّيَّةَ الكتاب فيمن أُنزل عليه في خاتمة السورة بقوله جلَّ وعلا: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ [الرعد:٤٣] إلى قوله سبحانه: ﴿عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٤٣] تنبيهاً على أنه مع ظهور أمره في إفادة الحقائق العرفانيَّة، والخلائق الإيمانيَّة، لا يَعلم حقيقةَ ما فيه إلا من تفرَّد به وبإنزاله تبارك وتعالى. اهـ.

وفي سبب النزول ـ وستعلمُه قريباً إن شاء الله تعالى ـ ما يؤيِّد الثاني، والظاهرُ ـ على ما حقَّقه وأشرنا إليه أولاً ـ أنَّ الآية على الأول متعلِّقةٌ بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾ [الرعد:٧]، وهي على الثاني متعلِّقة بقوله سبحانه:

(١) في الأصل: حقيقة، والمثبت من (م).

﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠] بياناً لتصميمهم في كفرهم وإنكارهم الآياتِ ومَنْ أتى بها لا بذلك؛ لبعد المرمى من غير ضرورة.

وقوله تعالى: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًاۗ﴾ أي: له الأمرُ الذي يدور عليه فلَكُ الأكوان وجوداً وعدماً، يفعل ما يشاءُ، ويحكم ما يريدُ حسبما تقتضيه الحكمةُ البالغة؛ قيل: إضرابٌ عمَّا تقتضيه الشرطيَّةُ من معنى النفي، لا بحسبِ منطوقِهِ، بل باعتبار موجَبه ومؤدَّاه، أي: لو أنَّ قرآناً فُعل به ما ذُكر لكان ذلك هذا القرآن، ولكن لم يفعل سبحانه، بل فعل ما عليه الشأنُ الآن؛ لأنَّ الأمرَ كلَّه له وحدَه، فالإضرابُ ليس بمتوجِّهٍ إلى كون الأمر لله تعالى، بل إلى ما يؤدِّي إليه ذلك من كون الشأن على ما كان لما تقتضيه الحكمة. وقيل: إن حاصلَ الإضراب لا يكونُ تسييرَ الجبال مع ما ذُكر[1] بقرآنٍ، بل يكون بغيره ممَّا أراده الله تعالى؛ فإنَّ الأمر له سبحانه جميعاً، وزعم بعضُهم أنَّ الأحسن العطفُ على مقدَّرٍ، أي: ليس لك من الأمر شيء، بل الأمرُ لله جميعاً.

ومعنى قوله سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أفلم يعلموا، وهي[2] - كما قال القاسم بنُ معن[3] - لغةُ هَوازن، وقال ابنُ الكلبيِّ: هي لغةُ حيٍّ من النَّخَع[4]، وأنشدوا على ذلك قولَ سُحَيم بن وَثِيل الرِّياحي:

أقول لهم بالشِّعْب إذ يأسرونني ... ألم تيأسوا أني ابنُ فارس زَهْدَمِ[5]

وقولَ رَباح بن عَدِيٍّ:

ألم ييأس الأقوامُ أنِّي أنا ابنُه ... وإن كنتُ عن أرض العشيرة نائياً[6]

---

(١) قوله: مع ما ذكر، لم يرد في الأصل، والمثبت من (م).
(٢) جاءت في الأصل هكذا: أفلم يعلم واو هي. والمثبت من (م).
(٣) هو القاسم بن معن بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود الصحابيِّ الهذلي، من علماء الكوفة بالعربية واللغة والفقه والحديث والشعر، له: النوادر، وغريب المصنف. (ت١٧٥هـ). بغية الوعاة ٢/ ٢٦٣.
(٤) قبيلة باليمن. القاموس (نخع).
(٥) البيت في تفسير الطبري ١٣/ ٥٣٥، والعقد الفريد ٥/ ٢٤١.
(٦) البيت في تفسير القرطبي ١٢/ ٧٣، وغير منسوب في تفسير الطبري ١٣/ ٥٣٦.

فإنكارُ الفرَّاء[١] ذلك، وزعمُه أنه لم يسمع أحد من العرب يقول: يئستُ بمعنى علمت، ليس في محلِّه، ومَنْ حفِظَ حجةٌ على من لم يحفظ.

والظاهرُ أن استعمال اليأس في ذلك حقيقةٌ، وقيل: مجازٌ؛ لأنه متضمِّنٌ للعلم؛ فإنَّ الآيس عن الشيء عالمٌ بأنه لا يكون، واعتُرض بأنَّ اليأسَ حينئذٍ يقتضي حصولَ العلم بالعدم، وهو مستعملٌ في العلم بالوجود؟ وأُجيب بأنه لما تضمَّن العلمَ بالعدم تضمَّن مطلقَ العلم، فاستُعمل فيه.

ويشهد لإرادة العلم هنا قراءةُ عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه، وابنِ عباس، وعليِّ بن الحسين ﷺ، وعكرمة، وابن أبي مُلَيكة، والجَحْدري، وأبي يزيد المدني، وجماعةٍ: «أفلم يتبيَّن»، من تبيَّنتُ كذا: إذا علمتَه، وهي قراءةٌ مسندةٌ إلى رسول الله ﷺ[٢]، ليست مخالفةً للسواد؛ إذ كتبوا «ييئس» بغير صورة الهمزة[٣]، وأما قولُ من قال: إنما كتبه الكاتبُ وهو ناعسٌ، فسوَّى أسنان السين، فهو قولُ زنديقٍ ملحدٍ على ما في «البحر»[٤]، وعليه فروايةُ ذلك ـ كما في «الدر المنثور»[٥] ـ عن ابن عباس ﵄ غيرُ صحيحة، وزعَمَ بعضُهم أنها قراءةُ تفسيرٍ، وليس بذاك.

والفاءُ للعطف على مقدَّر؛ أي: أَغَفِلوا عن كون الأمر جميعه لله تعالى، فلم يعلموا ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ بتخفيف «أنْ» وجعل اسمها ضميرَ الشأن، والجملة الامتناعية خبرها، و«أنْ» وما بعدها سادٌّ مسدَّ مفعولي العلم. ﴿لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۗ﴾ بإظهار أمثال تلك الآثار العظيمة، والإنكارُ على هذا متوجِّهٌ إلى المعطوفين جميعاً،

---

(١) معاني القرآن ٢/ ٦٤.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣١٣، وتفسير القرطبي ١٢/ ٧٣، والبحر المحيط ٥/ ٣٩٣، والدر المصون ٧/ ٥٣ ـ ٥٤.
وبيَّن أبو حيان معنى قوله: قراءة مسندة إلى رسول الله ﷺ، بأنها ليست تفسيراً لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ﴾ ممن قرأ بها، وإنما أرادوا إسناد قراءتها إلى النبي ﷺ.

(٣) جاء في هامش (م) ما نصه: إن رسم ييأس ولا تيأسوا بألف، ورسم غيرهما من نظائرهما بدونهما، فليراجع. اهـ منه.

(٤) البحر ٥/ ٣٩٣.

(٥) الدر المنثور ٤/ ٦٣.

أو أَعَلموا كونَ الأمر جميعاً لله تعالى، فلم يعلموا ما يوجبُه ذلك العلمُ مما ذُكر، وحينئذٍ هو متوجِّهٌ إلى ترتُّب المعطوف على المعطوف عليه، أي: تخلّف العلم الثاني عن العلم الأول.

وأيًّا ما كان فالإنكارُ إنكارُ الوقوع لا الواقع، ومناطُ الإنكار ليس عدمَ علمهم بمضمون الشرطيَّة فقط، بل عدم علمهم بعدم تحقُّق مقدَّمها، كأنه قيل: ألم يعلموا أنَّ الله تعالى لو شاء هدايتَهم لهداهم، وأنه سبحانه لم يشأ ذلك، وذلك لما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ الكفار لما سألوا الآيات ودَّ المؤمنون أن يُظهرها الله تعالى ليجتمعوا على الإيمان، هذا على التقدير الأول، وأما على التقدير الثاني فالإضرابُ متوجِّهٌ إلى ما سلف من اقتراحهم مع كونهم في العِناد على ما شُرح، والمعنى: فليس لهم ذلك، بل لله تعالى الأمرُ، إن شاء أتى بما اقترحوا، وإن شاء سبحانه لم يأتِ به، حسبما تستدعيه حكمتُه الباهرةُ من غير أن يكون لأحدٍ عليه جلَّ جلاله حكمٌ واقتراح.

واليأسُ بمعنى القنوط كما هو الشائعُ في معناه، أي: ألم يعلم الذين آمنوا حالَهم هذه، فلم يقنطوا من إيمانهم حتى ودُّوا ظهورَ مقترحاتهم؟ فالإنكارُ متوجِّه إلى المعطوفين. أو: أَعلِموا ذلك فلم يقنطوا من إيمانهم؟ فهو متوجِّه إلى وقوعِ المعطوف بعد المعطوف عليه، أي: إلى تخلُّفِ القُنوط عن العلم المذكور، والإنكارُ على هذين التقديرين إنكارُ الواقعِ لا الوقوع؛ فإنَّ عدمَ قنوطهم من ذلك مما لا مردَّ له، وقولُه تعالى: «أن لو يشاء الله» إلى آخره مفعولٌ به لِعِلْماً محذوفٌ وقع مفعولاً له، أي: أفلم ييأسوا من إيمان الكفار عِلْماً منهم بأنه لو يشاءُ الله لهدى الناسَ جميعاً، وأنه لم يشأ ذلك، وقد يُجعل العلمُ في موضع الحال، أي: عالمين بذلك، ولم يُعتبر التضمينُ؛ لبُعده، ويجوز أن يكون متعلِّقاً بـ «آمنوا» بتقدير الباء، أي: أفلم يقنَطِ الذين آمنوا وصدَّقوا بأنْ لو يشاءُ الله لهدى الناسَ جميعاً، على معنى: أفلم ييأس من إيمان هؤلاء الكفرةِ المؤمنون بمضمون هذه الشرطيَّة، وبعدمِ تحقُّقها المنفهم من مكابرتهم، حسبما يحكيه كلمةُ «لو»، فالوصفُ المذكور من دواعي إنكار يأسهم[1].

---

(١) في الأصل: رأيهم، والمثبت من (م).

وبما أشرنا إليه ينحلُّ ما قيل: من أن تعلُّق الإيمان بمضمون الشرطيَّة وتخصيصَه بالذِّكر يقتضي أنَّ لذلك دخلاً في اليأس من الإيمان، مع أنَّ الأمر بالعكس؛ لأن قدرةَ الله تعالى على هداية جميع الناس يقتضي رجاءَ إيمانهم لا اليأسَ منه، وذلك لاعتبار العلم بعدمِ تحقُّق المضمون أيضاً.

وقال بعضُهم في الجواب عن ذلك: إن وجه تخصيصِ الإيمان بذلك أنَّ إيمانَ هؤلاء الكَفَرة المصمِّمين كأنه محالٌ متعلِّقٌ بما لا يكون؛ لتوقُّفه على مشيئة الله تعالى هدايةَ جميع الناس، وذلك ما لا يكونُ بالاتفاق، وهو في معنى ما أُشير إليه.

وذكر أبو حيَّان احتمالاً آخر في الآية: وهو أن الكلامَ قد تمَّ عند قوله سبحانه: «أفلم ييأس الذين آمنوا»، وهو تقرير، أي: قد يئسَ المؤمنون من إيمانِ هؤلاء المعاندين، و«أن لو يشاء» إلخ جوابُ قسمٍ محذوفٍ، أي: أقسمُ لو يشاءُ الله لهدى الناسَ جميعاً، ويدلُّ على إضمار القسم وجودُ «أن» مع «لو» كقوله:

أمَا واللهِ أنْ لو كنتَ حرًّا ... وما بالحرِّ أنتَ ولا العتيقِ[1]

وقوله:

فأقسمُ أنْ لوِ التقينا وأنتمُ ... لكان لنا يومٌ من الشرِّ مظلمُ[2]

وقد ذكر سيبويه[3] أنَّ «أنْ» تأتي بعد القَسَم، وجعلَها ابنُ عصفور رابطةً للقسم بالجملة المقسَم عليها[4]. انتهى. وفيه من التكلُّف ما لا يخفى.

ومن الناس من جعل الإضرابَ مطلقاً عما تضمَّنه «لو» من معنى النفي، على معنى: بل اللهُ تعالى قادرٌ على الإتيان بما اقترحوا، إلا أنَّ إرادتَه لم تتعلَّق بذلك؛ لعلمه سبحانه بأنه لا تلينُ له شكيمتُهم. ولا يخفى أنه ظاهرٌ على التقدير الثاني، وأما على التقدير الأول فقد قيل: إنَّ إرادةَ تعظيم شأن القرآن لا تنافي الردَّ على

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٣٩٢، والبيت من شواهد ابن هشام في المغني ص٥٠.
(٢) البيت للمسيب بن علس، وهو من شواهد سيبويه في الكتاب ٣/ ١٠٧، وهو كذلك في المغني ص٥٠، وخزانة الأدب ١٠/ ٨٠.
(٣) الكتاب ٣/ ١٠٧.
(٤) البحر المحيط ٥/ ٣٩٢ ـ ٣٩٣.

المقترحين، وأُيِّد جانبُ الردِّ بما أخرجه ابنُ أبي شيبة، وابنُ المنذر، وغيرُهما عن الشَّعبيِّ قال: قالت قريش لرسول الله ﷺ: إن كنتَ نبيّاً كما تزعمُ فباعِدْ جَبَلَي مكةَ أخشَبَيْها هذين مسيرةَ أربعة أيام أو خمسة؛ فإنها ضيِّقةٌ، حتى نزرعَ فيها ونرعى، وابعثْ لنا آباءنا من الموتى حتى يُكلِّمونا ويُخبرونا أنك نبيٌّ، أو احملنا إلى الشام، أو إلى اليمن، أو إلى الحِيْرة حتى نذهبَ ونجيءَ في ليلة كما زعمتَ أنكَ فعلتَه. فنزلت هذه الآية(١).

وأخرج ابنُ جريرٍ وأبو الشيخ عن ابن عباس أنهم قالوا: سَيِّر بالقرآن الجبالَ، قَطِّعْ بالقرآن الأرضَ، أَخرِجْ به موتانا. فنزلت(٢). وعلى هذا لا حاجةَ إلى الاعتذار في إسناد الأفاعيل المذكورة إلى القرآن كما احتيجَ إليه فيما تقدَّم. وعلى خبر الشعبيِّ يُراد من تقطيع الأرض قطعُها بالسير.

ويشهدُ لتفسيره بما قدَّمنا أولاً ما أخرجه أبو نُعيم في «الدلائل» وغيرُه من حديث الزُّبير بن العوَّام، أنه لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صاح رسولُ الله ﷺ على أبي قُبَيس: «يا آلَ عبدِ مَنَاف، إني نذير» فجاءته عليه الصلاة والسلام قريش، فحذَّرهم وأنذرهم، فقالوا: تزعم أنك نبيٌّ يُوحى إليك، وأنَّ سليمان سُخِّر له الريحُ والجبال، وأن موسى سُخِّر له البحر، وأن عيسى كان يُحيي الموتى، فادعُ الله تعالى أن يُسيِّر عنَّا هذه الجبال، ويُفجِّر لنا الأرضَ أنهاراً، فنتخذ محارِثَ، فنزرعَ ونأكلَ، وإلا فادعُ الله تعالى أن يُحيي لنا موتانا، فنكلِّمهم ويكلِّمونا، وإلا فادعُ الله تعالى أن يجعل هذه الصخرةَ التي تحتك ذهباً، فننحِتَ منها وتُغنينا عن رحلة الشتاء والصيف، فإنك تزعمُ أنك كهيئتهم.. الخبر. وفيه: فنزلت: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْآيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩] إلى تمامِ ثلاث آيات، ونزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ الآية(٣).

---

(١) المصنف لابن أبي شيبة ١٤/ ٣٠١-٣٠٢.
(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٥٣٣.
(٣) الدر المنثور ٤/ ٦٢-٦٣، ولم نقف عليه في مطبوع الدلائل، وأخرجه أيضاً أبو يعلى في مسنده (٦٧٩). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٨٥: رواه أبو يعلى من طريق عبد الجبار بن عمر الأيلي، عن عبد الله بن عطاء، وكلاهما وثق، وضعفهما الجمهور.

هذا، وعن الفرَّاء(١) أن جواب «لو» مقدَّم، وهو قولُه تعالى: (وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ) وما بينهما اعتراضٌ(٢)، وهو - كما قيل - مبنيٌّ على جوازِ تقديم جواب الشرط عليه، ومن النحويين مَنْ يراه، ولا يخفى أنَّ في اللفظ نَبْوةً عن ذلك؛ لكون تلك الجملةِ اسميَّةً مقترنةً بالواو، ولذا أشار السَّمينُ(٣) إلى أن مرادَه أن تلك الجملةَ دليلُ الجواب، والتقديرُ: ولو أن قرآناً فُعِل به كذا وكذا لكفروا بالرحمن. وأنتَ تعلم أنه لا فرقَ بين هذا وتقدير: لَمَا آمنوا، في المعنى. وجُوِّز جعل «لو» وصليةً، ولا جوابَ لها، والجملةُ حاليَّة، أو معطوفةٌ على مقدَّر.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من أهل مكة على ما رُوي عن مُقاتل ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟﴾ أي: بسبب ما صنعوه من الكفر والتمادي فيه، وإبهامُه، إما لقصد تهويلِه أو استهجانِه، وهو تصريحٌ بما أشعر به بناءُ الحكم على الموصول من عِلِّيَّة الصِّلة له، مع ما في صيغة الصُّنع من الإيذان برسوخهم في ذلك. ﴿قَارِعَةٌ﴾ من القرع، وأصلُه: ضربُ شيءٍ بشيءٍ بقوَّة، ومنه قولُه:

ولما قَرَعنا النَّبْعَ بالنَّبْعِ بعضَه ... ببعضٍ أَبَت عِيدانُه أن تَكَسَّرا(٤)

والمرادُ بها الرَّزيَّة التي تقرعُ قلبَ صاحبها، وهي هنا: ما كان يُصيبهم من أنواع البلايا والمصائب، من القتل والأسر، والنَّهب والسَّلب.

وتقديمُ المجرور على الفاعل لما مرَّ غير مرَّةٍ من إرادة التفسير إثرَ الإبهام؛ لزيادة التقرير والإحكام، مع ما فيه من بيانِ أنَّ مدار الإصابة من جهتهم آثر ذي أثير.

﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ تلك القارعةُ ﴿قَرِيبًا﴾ مكاناً قريباً ﴿مِّن دَارِهِمْ﴾ فيفزعون منها،

---

(١) معاني القرآن ٢/ ٦٣.

(٢) قوله: وما بينهما اعتراض، لم يرد في الأصل، والمثبت من (م).

(٣) الدر المصون ٧/ ٥١.

(٤) نسبه البغدادي في الخزانة ٣/ ١٧١ للنابغة الجعدي من قصيدة طويلة أنشدها بين يدي النبي ﷺ، وهو في ديوانه ص٧١، ونسبه صاحب الحماسة ١/ ١٥٥ بشرح المرزوقي إلى زفر بن الحارث الكلابي.
قال المرزوقي: النبع: خير الأشجار التي يتخذ منها القِسِيُّ وأصلبها.

ويتطايرُ إليهم شرَرُها، شبَّه القارعةَ بالعدوِّ المتوجِّه إليهم، فأسند إليها الإصابةَ تارةً والحلولَ أخرى، ففيه استعارةٌ بالكناية، وتخييلٌ وترشيح.

﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ أي: موتُهم، أو القيامةُ؛ فإنَّ كلًّا منهما وعدٌ محتوم لا مردَّ له، وفيه دلالةٌ على أن ما يُصيبهم حينئذٍ من العذاب أشدُّ، ثم حقَّقَ ذلك بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ أي: الوعد، كالميلاد والميثاق بمعنى الولادة والتَّوثِقة، ولعلَّ المراد به ما يندرجُ تحتَه الوعدُ الذي نُسب إليه الإتيانُ لا هو فقط، قال القاضي: وهذه الآيةُ تدلُّ على بطلان من يجوِّز الخُلفَ على الله تعالى في ميعادِه، وهي وإن كانت واردةً في حقِّ الكفار إلا أن العبرةَ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وعمومُه يتناول كلَّ وعيدٍ ورد في حقِّ الفسَّاق، وأجاب الإمامُ[1] بأنَّ الخُلْف غير، وتخصيص العموم غير، ونحنُ لا نقول بالخلف، ولكن نخصِّصُ عمومات الوعيد بالآيات الدالَّة على العفو.

وأنتَ تعلم أن المشهورَ في الجواب أن آيات الوعد مطلقةٌ، وآيات الوعيد وإن وردت مطلقةً لكنها مقيدةٌ، حُذف قيدُها لمزيد التخويف، ومنشأ الأمرين عِظَمُ الرحمة، ونهايةُ الكرم، والفرقُ بين الوعد والوعيد أظهَرُ من أن يذكر. نعم قد يُطلق الوعد على ما هو وعيدٌ في نفس الأمر لنكتةٍ، وليتأمَّل فيما هنا على الوجه الذي تقرَّر.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن المراد بالقارعة السَّرايا التي كان رسولُ الله ﷺ يبعثُها، وكانوا بين غارةٍ، واختطاف، وتخويفٍ بالهجوم عليهم في دارهم، فالإصابةُ والحلول حينئذٍ من أحوالهم، وجُوِّز على هذا أن يكون قوله تعالى: «أو تحل» خطاباً لرسول الله ﷺ مراداً به حلولُ الحُدَيبية، والمرادُ بوعد الله تعالى ما وعَدَ به من فتح مكة، وعزا ذلك الطبريُّ[2] إلى ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، ورُوي عن مُقاتل، وعِكْرمة. وذهب ابنُ عطية[3] إلى أن المرادَ بـ «الذين كفروا» كفار قريش والعرب، وفسَّر القارعةَ بما ينزلُ بهم من سرايا رسول الله ﷺ. وعن الحسن وابنِ

---

(١) تفسير الرازي ١٩/ ٥٤.

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٥٤٠ ـ ٥٤٢.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣١٣.

السائب أن المرادَ بهم الكفارُ مطلقاً، قالا: وذلك الأمرُ مستمرٌّ فيهم إلى يوم القيامة، ولا يتأتَّى على هذا أن يُراد بالقارعة سرايا رسولِ الله ﷺ، فيُراد بها حينئذٍ ما ذُكر أولاً، وأنتَ تعلم أنه إذا أُريد جنسُ الكَفَرة لا يلزم منه حلولُ ما تقدَّم بجميعهم.

وقرأ مجاهدٌ وابن جُبير: «أو يَحُلُّ» بالياء على الغَيبة[١]، وخُرِّج ذلك على أن يكون الضميرُ عائداً على القارعة باعتبار أنها بمعنى البلاء، أو بجَعْل هائها للمبالغة، أو على أن يكون عائداً على الرسول عليه الصلاة والسلام. وقرأ أيضاً: «من ديارهم» على الجمع[٢].

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: تركتُهم ملاوةً - أي: من الزمان، ومنه: المَلَوان - في أمنٍ ودَعَة، كما يُملى للبهيمة في المرعى، وهذا تسليةٌ للحبيب ﷺ عمَّا لقي من المشركين من الاستهزاء به عليه الصلاة والسلام وتكذيبه، وعدم الاعتدادِ بآياته، واقتراحِ غيرِها، وكلُّ ذلك في المعنى استهزاءٌ ووعيدٌ لهم، والمعنى: أن ذلك ليس مختصًّا بك، بل هو أمرٌ مطَّرد قد فُعِلَ برسل جليلةٍ كثيرة كائنةٍ من قبلك، فأمهلتُ الذين فعلوه بهم.

والعدولُ في الصلة إلى وصفِ الكفر ليس لأنَّ المُملَى لهم غيرُ المستهزئين، بل للإشارة إلى أنَّ ذلك الاستهزاءَ كفرٌ كما قيل. وفي «الإرشاد»[٣]: لإرادة الجمع بين الوصفين، أي: فأمليتُ للذين كفروا بكفرهم مع استهزائهم، لا باستهزائهم فقط.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾ أي: عقابي إيَّاهم، والمراد التعجيبُ مما حلَّ بهم، وفيه من الدلالة على شدَّته وفظاعته ما لا يخفى.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ أي: رقيبٌ ومهيمنٌ ﴿عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ﴾ كائنة ما كانت ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ فعلت من خير أو شرٍّ، لا يخفى عليه شيء من ذلك، ولا يفوتُه ما يستحقُّه

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٣٩٣، والدر المصون ٧/ ٥٥.

(٢) القراءات الشاذة ص٧٧، والبحر المحيط ٥/ ٣٩٣، والدر المصون ٧/ ٥٥.

(٣) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٤.

كلٌّ من الجزاء، وهو الله تعالى شأنه، وما حكاه القرطبيُّ[١] عن الضحَّاك من أن المراد بذلك الملائكةُ الموكَّلون ببني آدم، فممَّا لا يكاد يُعرَّج عليه هنا.

و«من» مبتدأ، والخبر محذوفٌ، أي: كمن ليس كذلك؟ ونظيرُه قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر:٢٢] وحَسَّنَ حذفَه المقابلةُ، وقد جاء مثبتاً كثيراً، كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل:١٧] وقوله سبحانه: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: ١٩] إلى غير ذلك. والهمزةُ للاستفهام الإنكاريِّ، وإدخالُ الفاء؛ قيل: لتوجيه الإنكار إلى توهُّم المماثلة غِبَّ ما عُلم مما فعَلَ سبحانه بالمستهزئين من الإملاء والأخذ، ومن كونِ الأمر كله له سبحانه، وكونِ هداية الناس جميعاً منوطةً بمشيئته جلَّ وعلا، ومن تواترِ القوارع على الكَفَرة حتى يأتي وعدُه تعالى، كأنه قيل: الأمرُ كذلك، فمَنْ هذا شأنه كما ليس في عِداد الأشياء حتى يُشركوه به. فالإنكار متوجِّهٌ إلى ترتُّب المعطوف، أعني: توهُّم المماثلة على المعطوف عليه المقدَّر، أعني: كونَ الأمر كما ذُكر[٢]، لا إلى المعطوفين جميعاً[٣]. وفي «الكشف»: أنه ضمَّنَ هذا التعقيبَ الترقي في الإنكار، يعني: لا عجبَ من إنكارهم لآياتكَ الباهرة مع ظهورها، إنما العجبُ كلُّ العجب جعلُهم القادرَ على إنزالها، المجازي لهم على إعراضهم عن تدبُّرِ معانيها وأمثالها بقوارع تَتْرى، واحدةً غِبَّ أُخرى، يشاهدونها رأيَ عين تترامى بهم إلى دار البَوَار وأهوالها، كمَنْ لا يملكُ لنفسه ضرًّا ولا نفعاً، فضلاً عمَّن اتخذه ربًّا يرجو منه دفعاً أو جلباً! وزعم بعضُهم أن الفاءَ للتعقيب الذِّكري، أي: بعد ما ذُكر أقولُ هذا الأمر، وليس بذاك.

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ، وفيها دلالةٌ على الخبر المحذوف، وجُوِّز أن تكون معطوفةً على«كسبت» على تقدير أن تكون «ما» مصدريةً لا موصولةً، والعائدُ محذوفٌ، ولا يلزم اجتماعُ الأمرين حتى يخصَّ كلّ نفس بالمشركين، وأبعَدَ

(١) تفسير القرطبي ١٢/ ٧٧.
(٢) جاء في حاشية (م) ما نصه: كما في قولك: أتعلم الحق فلا تعمل به. اهـ منه.
(٣) جاء في حاشية (م) ما نصه: كما في قولك: ألا تعلم الحق فلا تعمل به. اهـ منه.

من قال: إنها عطفٌ على «استهزئ». وجُوِّز أن تكون حاليةً على معنى: أفمن هذه صفاتُه كمن ليس كذلك؟ وقد جعلوا له شركاء لا شريكاً واحداً!

وقال صاحب «حل العقد»[(١)]: المعنى على الحالية: أفمن هو قائمٌ على كلِّ نفس بما كسبت موجودٌ والحالُ أنهم جعلوا له شركاء، وهذا نظيرُ قولك: أجَوادٌ يعطي الناسَ ويُغنيهم موجودٌ ويحرم مِثْلي؟!

ومنهم من أجاز العطفَ على جملة: «أفمن هو قائمٌ على كلِّ نفس بما كسبت» كمن ليس كذلك؟ لأنَّ الاستفهامَ الإنكاريَّ بمعنى النفي، فهي خبريةٌ معنًى.

وقدَّر آخرون الخبر: لم يُوحِّدوه، وجعل العطفَ عليه، أي: أفمن هذا شأنُه لم يوحِّدوه وجعلوا له شركاء؟ وظاهرُ كلامهم اختصاصُ العطف على الخبر بهذا التقدير دون تقدير: كمن ليس كذلك. قال البَدْر الدَّمامينيُّ: ولم يظهر وجهُ الاختصاص، ووجَّه ذلك الفاضلُ الشُّمُنِّي[(٢)] بأن حصولَ المناسبة بين المعطوف والمعطوفِ عليه التي هي شرطُ قَبول العطف بالواو إنما هو على التقدير الأخير دون التقدير الأول، ويدل على الاشتراطِ قولُ أهل المعاني: زيدٌ يكتب ويشعر، مقبول، دون يعطي ويشعر.

وتعقَّبه الشهاب[(٣)] بأنه من قلَّة التدبُّر؛ فإنَّ مرادَهم أنه على التقدير الأول يكونُ الاستفهامُ إنكاريًّا، بمعنى: لم يكن، نفياً للتشابه على طريق الإنكار، فلو عطف جعلُهم شركاء عليه يقتضي أنه لم يكن، وليس بصحيح، وعلى التقدير الأخير الاستفهامُ توبيخيٌّ، والإنكارُ فيه بمعنى: لم كان؟ وعدمُ التوحيد وجعلُ الشركاء واقعٌ موبَّخٌ عليه منكَرٌ، فيظهرُ العطفُ على الخبر، وأما ما ذُكر من حديث التناسب فغفلةٌ؛ لأن المناسبة بين تشبيه الله سبحانه بغيره والشِّرك تامَّةٌ، وعلى الوجه الأخير عدمُ التوحيد عينُ الإشراك، فليس محلًّا للعطف عند أهل المعاني على ما ذَكره، فهو محتاجٌ إلى توجيه آخر.

---

(١) نقله الرازي في تفسيره ١٩/ ٥٦. ونقله عنه أبو حيان في البحر ٥/ ٣٩٤.

(٢) المنصف من الكلام على مغني ابن هشام ١/ ٢٣. ولم نقف على قول الدماميني في حاشيته على المغني، وقد نقله الشمني، ونقله أيضاً الشهاب في حاشيته ٥/ ٢٤٢.

(٣) حاشية الشهاب ٥/ ٢٤٢.

واختار بعض المحقِّقين التقديرَ الأول، وفي ذلك الحذفِ تعظيمٌ للقالة، وتحقيرٌ لمن زنَّ بتلك الحالة، وفي العدول عن صريح الاسم في «أفمن هو قائم» تفخيمٌ فخيمٌ بواسطة الإبهام المضمَر في إيراده موصولاً، مع تحقيق أنَّ القيام كائنٌ وهم محققون، وفي وضع الاسم الجليل موضعَ الضميرِ الراجع إلى «من» تنصيصٌ على وحدانيته تعالى ذاتاً واسماً، وتنبيهٌ على اختصاصه باستحقاق العبادة، مع ما فيه من البيان بعد الإبهام، ولعلَّ توجيه الوضع المذكور مما لا يختصُّ به تقديرٌ دون تقدير، وخصَّه بعضُهم فيما يُحتاج عليه إلى ضمير.

﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ تبكيتٌ إثرَ تبكيت، أي: سمُّوهم مَنْ هم؟ وماذا أسماؤهم؟ وفي «البحر»[1]: أن المعنى أنهم ليسوا ممن يُذكر ويُسمَّى، إنما يذكر ويُسمَّى مَنْ ينفع ويضرُّ، وهذا مثل أن يُذْكَر لك أن شخصاً يُوقَّر ويُعظَّم وهو عندك لا يستحقُّ ذلك، فتقول لذاكره: سمِّه حتى أُبيِّن لك زَيْفَه، وأنه بمعزِلٍ عن استحقاق ذلك. وقريبٌ منه ما قيل: إنَّ ذلك إنما يقال في الشيء المستحقَرِ الذي يبلغ في الحقارةِ إلى أن لا يُذكر ولا يوضَع له اسمٌ، فيقال: سَمِّه، على معنى أنه أخسُّ من أن يُذكر ويُسمَّى، ولكن إن شئتَ أن تضَعَ له اسماً فافعل، فكأنه قيل: سمُّوهم بالآلهة، على التهديد، والمعنى: سواءٌ سمَّيتُموهم بذلك أم لم تسمُّوهم به؛ فإنهم في الحقارة بحيث لا يستحقُّون أن يَلتفِتَ إليهم عاقلٌ، وقيل: إن التهديدَ هنا نظيرُ التهديد لمن نُهي عن شرب الخمر، ثم قيل له: سمِّ الخمر بعد هذا، وهو خلافُ الظاهر، وقيل: المعنى: أُذكروا صفاتهم، وانظروا هل فيها ما يستحقُّون به العبادة ويستأهلون الشّركة.

﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُۥ﴾ أي: بل أتخبرون الله تعالى ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بشركاء مستحقِّين للعبادة لا يعلمُهم سبحانه وتعالى. والمرادُ نفيها بنفي لازمها على طريق الكناية؛ لأنه سبحانه إذا كان لا يعلمُها، وهو الذي لا يعزبُ عن علمه مثقالُ ذرَّةٍ في الأرض ولا في السماء، فهي لا حقيقةَ لها أصلاً.

وتخصيصُ الأرض بالذِّكر؛ لأنَّ المشركين إنما زعموا أنه سبحانه له شركاء فيها، والضميرُ المستقرُّ في «يعلم» على هذا التفسير لله تعالى، والعائد على «ما»

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٣٩٤.

محذوفٌ كما أشرنا إلى ذلك. وجُوِّز أن يكون العائدُ ضميرَ «يعلم»، والمعنى: أتنبِّئون الله تعالى بشركة الأصنام التي لا تتَّصف بعلمٍ ألبتَّةَ؟ وذكر نفي العلم في الأرض لأنَّ الأرضَ مقرُّ الأصنام، فإذا انتفى علمُها في المقرِّ التي هي فيه فانتفاؤه في السماوات العُلى أحْرى.

وقرأ الحسنُ: «أتُنْبِئونه» بالتخفيف من الإنباء(١).

﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: بل أتسمُّونهم شركاء بظاهرٍ من القول من غير معنى متحقِّق في نفس الأمر؟ كتسمية الزنجيِّ كافوراً، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٠] ورُوي عن الضحَّاك وقتادة أن الظاهرَ من القول الباطلُ منه، وأنشدوا من ذلك قوله:

أَعَيَّرْتَنا ألبانَها ولحومَها ... وذلك عارٌ يا ابنَ رَيْطة ظاهرُ(٢)

ويُطلق الظاهر على الزائل كما في قوله:

وعيَّرها الواشون أني أُحبُّها ... وتلك شكاةٌ ظاهرٌ عنك عارُها(٣)

ومَنْ أراد ذلك هنا فقد تكلَّف. وعن الجُبَّائي أن المراد من «ظاهر من القول» ظاهرُ كتابٍ أنزله الله تعالى وسمَّى به الأصنام آلهةً حقَّة، وحاصلُ الآية نفي الدليل العقليِّ والدليل السمعيِّ على حقِّيَّة عبادتها واتخاذِها آلهة. وجُوِّز أن تكون «أم» متَّصلةً، والانقطاعُ هو الظاهر.

ولا يخفى ما في الآية من الاحتجاج والأساليب العجيبة ما ينادي بلسانٍ طَلْقٍ ذَلقٍ أنه ليس من كلام البشر، كما نصَّ على ذلك الزمخشريُّ(٤)، وبيَّن ذلك صاحبُ «الكشف» بأنه لما كان قولُه تعالى: «أفمن هو قائم» كافياً في هدم قاعدةِ الإشراك؛ للتفرُّع السابق، والتحقُّق بالوصف اللاحق مع ما ضُمِّن من

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٣٩٥.

(٢) البيت لسَبْرة بن عمرو الفَقْعسي، وهو من أبيات الحماسة ١/ ٢٣٨ بشرح المرزوقي، وقال: لم عيرتنا ألبان الإبل ولحومها، واقتناء الإبل مباح لا محظور في القديم والحديث؟!

(٣) البيت لأبي ذؤيب الهذلي. شرح أشعار الهذليين ١/ ٧٠.

(٤) الكشاف ٢/ ٣٦٢.

زيادات النكت، وكان إبطالاً من طرفِ الحقِّ، وذَيَّل بإبطاله من طرف النقيض على معنى: وليتهم إذ أشركوا بمن لا يجوز أن يُشرَكَ به أشركوا مَنْ يُتوهَّم فيه أدنى توهُّم. ورُوعي فيه أنه لا أسماءَ للشركاء فضلاً عن المسمَّى على الكناية الإيمائية، ثم بُولغ فيه بأنه لا يستأهلُ السؤالَ عن حالها بظهور فسادها، وسلك فيه مسلك الكناية التلويحيَّة من نفي العلم بنفي المعلوم، ثم منه بعدم الاستئهال.

والهمزةُ المضمَّنة فيها تدلُّ على التوبيخِ وتقريرِ أنهم يريدون أن يُنَبِّؤوا عالِمَ السرِّ والخفيَّات بما لا يعلمُه، وهذا محالٌ على محال، وفي جعله اتخاذَهم شركاء ومجادلَتَهم رسولَ الله ﷺ نكتةٌ سرية، بل نكتٌ سرية، ثم أضرب عن ذلك، وقيل: قد بيَّن الشمس لذي عينين، وما تلك التسميةُ إلا بظاهرٍ من القول من غير أن يكون تحتَه طائلٌ، وما هو إلا مجرَّد صوت فارغ حقَّ لمن تأمَّل فيه حقَّ التأمُّل أن يعترف بأنه كلامٌ مصون عن التعمُّل، صادرٌ عن خالق القوى والقدر، تتضاءل عن بلوغ طرف من أسراره أفهامُ البشر.

وقد ذيَّل الزمخشريُّ[(١)] كلامَه بقوله: فتبارك الله أحسنُ الخالقين، وهي كما في «الانتصاف» كلِمةُ حقٍّ أُريد بها باطلٌ[(٢)]، يُدندن بها مَنْ هو عن حلية الإنصاف عاطلٌ.

هذا، ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إضرابٌ عن الاحتجاج عليهم، ووُضع الموصولُ موضع الضميرِ ذمًّا لهم، وتسجيلاً عليهم بالكفر، كأنه قيل: دَعْ هذا؛ فإنه لا فائدةَ فيه؛ لأنهم زُيِّن لهم ﴿مَكْرُهُمْ﴾ كيدُهم للإسلام بشركهم أو تمويههم الأباطيل، فتكلَّفوا إيقاعَها في الخيال من غير حقيقة، ثم بعد ذلك ظنُّوها شيئاً؛ لتماديهم في الضلال، وعلى هذا: المرادُ مكرُهم بأنفسهم، وعلى الأول: مكرُهم بغيرهم، وإضافةُ «مكر» إلى ضميرهم من إضافة المصدر إلى الفاعل، وجُوِّز على الثاني أن يكون مضافاً إلى المفعول، وفيه بُعْد.

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٦٢.

(٢) الانتصاف ٢/ ٣٦٢. وعلل قوله: أريد بها باطل، بقوله: لأنه يُعرِّض فيها بخلق القرآن، فتنبَّه لها.

وقرأ مجاهدٌ: «بل زَيَّن» على البناء للفاعل، و«مكرَهم» بالنصب[١].

﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: سبيل الحقِّ، فتعريفُه للعهد أو ما عداه، كأنه غير سبيل، وفاعلُ الصدِّ إما «مكرهم» ونحوه، أو الله تعالى بختمِهِ على قلوبهم، أو الشيطانُ بإغوائه لهم، والاحتمالان الأخيران جاريان في فاعل التزيين.

وقرأ ابنُ كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «وصَدُّوا» على البناء للفاعل[٢]، وهو كالأول، من صدَّه صدًّا، فالمفعولُ محذوفٌ، أي: صَدُّوا الناسَ عن الإيمان، ويجوز أن يكون من صدَّ صدوداً، فلا مفعول. وقرأ ابنُ وثَّاب: «صِدُّوا» بكسر الصاد، وقال بعضهم: إنه قرأ كذلك في «المؤمن»، والكسر هنا لابن يَعْمَر[٣]، والفعلُ على ذلك مجهولٌ نُقلت فيه حركةُ العين إلى الفاء إجراءً له مجرى الأجوف، وقرأ ابنُ أبي إسحاق: «وصَدٌّ» بالتنوين عطفاً على «مكرهم»[٤].

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ أي: يخلقُ فيه الضلالَ؛ لسوء استعداده ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ يوفِّقُه للهدى، ويوصلُه إلى ما فيه نجاتُه.

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ﴾ شاقٌّ ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالقتل والأَسْر وسائرِ ما يُصيبهم من المصائب؛ فإنها إنما تُصيبهم عقوبةً من الله تعالى على كفرهم، وأما وقوعُ مثل ذلك للمؤمن فعلى طريقِ الثواب ورفعِ الدرجات ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ من ذلك؛ لشدَّته ودوامه.

﴿وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: من عذابه سبحانه ﴿مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾ من حافظٍ يعصمُهم من ذلك، فـ «من» الأولى صلةُ «واق»، والثانيةُ مزيدةٌ للتأكيد، ولا يضرُّ تقديمُ معمول المجرور عليه؛ لأنَّ الزائدَ لا حكم له. وجُوِّز أن تكون «من» الأولى ظرفاً مستقرًّا وقع حالاً من «واق»، وصلتُه محذوفة، والمعنى: ما لهم واقٍ وحافظٌ من عذاب الله تعالى حالَ كون ذلك الواقي من جهته تعالى ورحمته، و«من» على هذا

---

(١) البحر ٥/ ٣٩٥، وزاد ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٧ نسبتها لابن عباس.
(٢) التيسير ص١٣٣، والنشر ٢/ ٢٩٨.
(٣) القراءات الشاذة ص٦٧، والبحر ٥/ ٣٩٥، وزاد القرطبي ١٢/ ٧٩ نسبة هذه القراءة لعلقمة.
(٤) القراءات الشاذة ص٦٧، والكشاف ٢/ ٣٦٢، والبحر ٥/ ٣٩٥.

للتبيين، وجُوِّز أيضاً أن تكون لغواً متعلّقةً بما في الظرف ـ أعني: «لهم» ـ من معنى الفعل، وهي للابتداء، والمعنى: ما حصَلَ لهم من رحمة الله تعالى واقٍ من العذاب.

﴿مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: نعتُها وصفتُها؛ كما أخرجه ابنُ أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة[1]، فهو ـ على ما في «البحر»[2] ـ من مثَّلت الشيء: إذا وصفتَه وقرَّبته للفهم، ومنه: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الروم:٢٧] أي: الصفةُ العليا، وأنكر أبو عليٍّ ذلك، وقال: إنَّ تفسيرَ المَثَل بالصفة غيرُ مستقيم لغةً، ولم يوجد فيها، وإنما معناه الشبيه. وقال بعض المحقِّقين: إنه يُستعمل في ثلاثة معان: فيُستعمل بمعنى الشبيه في أصل اللغة، وبمعنى القول السائر المعروف في عُرف اللغة، وبمعنى الصِّفة الغريبة، وهو معنى مجازيٌّ له مأخوذٌ من المعنى العرفيِّ بعلاقة الغرابة؛ لأن المَثَل إنما يسيرُ بين الناس لغرابته، وأكثرُ المفسِّرين على تفسيره هنا بالصِّفة الغريبة، وهو حينئذٍ مبتدأٌ، خبرُه ـ عند سيبويه[3] ـ محذوفٌ، أي: فيما يُقصُّ ويُتلى عليكم صفةُ الجنة.

﴿ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي: عن الكفر والمعاصي، وقُدِّر مقدَّماً؛ لطول ذيل المبتدأ، ولئلَّا يُفصل بينه وبين ما يتعلَّق به معنى.

وقوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ جملةٌ مفسِّرة، كـ: (خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ) في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران:٥٩]، أو مستأنفةٌ استئنافاً بيانياً، أو حالٌ من العائد المحذوف من الصِّلة، أي: التي وُعِدَها، وقيل: هي الخبر، على طريقة قولك: شأنُ زيد يأتيه الناسُ ويعظِّمونه.

واعتُرض بأنه غيرُ مستقيم معنى؛ لأنه يقتضي أنَّ الأنهار في صفة الجنة، وهي فيها لا في صفتها، وفيه أيضاً تأنيثُ الضمير العائد على «مَثَل» حملاً على المعنى، وقد قيل: إنه قبيحٌ.

---

(١) وأورده السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٦٤ ونسبه لهما.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٣٩٥.
(٣) الكتاب ١/ ١٤٣.

وأُجيب: بأن ذاك على تأويلِ أنها تجري، فالمعنى: مَثَلُ الجنة جريانُ الأنهار، أو أنَّ الجملة في تأويل المفرد، فلا يعودُ منها ضميرٌ للمبتدأ، أو المرادُ بالصفة ما يقال فيه هذا إذا وُصف، فلا حاجة إلى الضمير كما في خبر ضمير الشأن.

وقال الطِّيبي: إن تأنيثَ الضمير لكونه راجعاً إلى «الجنة» لا إلى المَثَل، وإنما جاز ذلك لأنَّ المقصود من المضاف عينُ المضاف إليه، وذِكْره توطئةٌ له، وليس نحو غلام زيد.

وتَعقَّب كلَّ ذلك الشهابُ[1] بأنه كلامٌ ساقطٌ متعسّف؛ لأنَّ تأويل الجملة بالمصدر من غير حرف سابكٍ شاذٌّ، وكذا التأويلُ بأنه أُريد بالصفة لفظُها الموصوفُ به، وليس في اللفظ ما يدلُّ عليه، وهو تجوُّزٌ على تجوُّزٍ، ولا يخفى تكلُّفه، وقياسه على ضمير الشأن قياسٌ مع الفارق، وأما عَوْدُ الضمير على المضاف إليه دون المبتدأ في مِثْل ذلك فأضعفُ من بيتِ العنكبوت، فالحزمُ الإعراضُ عن هذا الوجه.

وعن الزَّجاج[2] أن الخبرَ محذوفٌ، والجملةُ صفةٌ له، والمرادُ: مثلُ الجنة جنةٌ تجري، إلى آخره، فيكون سبحانه قد عرَّفنا الجنةَ التي لم نَرَها بما شاهدناه من أمور الدنيا وعاينَّاه. وتعقَّبه أبو عليٍّ ـ على ما في «البحر»[3] ـ بأنه لا يصحُّ لا على معنى الصِّفة، ولا على معنى الشَّبَه؛ لأن الجنةَ التي قدَّرها جثَّةٌ، ولا تكونُ صفةً، ولأنَّ الشبه عبارةٌ عن المماثلة التي بين الشيئين، وهو حَدَثٌ، فلا يجوز الإخبار عنه بالجنة الجثَّة. ورُدَّ بأن المراد بالمَثَل المثيل، أو الشبيه، فلا غبارَ في الإخبار.

وقيل: إن التشبيهَ هنا تمثيليٌّ منتزَعٌ وجهُه من عدَّة أمورٍ من أحوال الجِنان المشاهَدَة، من جريان أنهارها، وغَضارةِ أغصانها، والتفافِ أفنانها ونحوه، ويكونُ قوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ﴾ بياناً لفضل تلك الجنان، وتمييزها عن هذه الجِنان المشاهدة. وقيل: إنَّ هذه بيانٌ لحالِ جنان الدنيا على سبيل الفَرض، وأن

---

(١) حاشية الشهاب ٥/ ٢٤٤.

(٢) معاني القرآن ٣/ ١٥٠.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٣٩٦.

فيما ذُكر انتشاراً واكتفاءً في النظير بمجرَّد جريان الأنهار، وهو لا يُناسب البلاغةَ القرآنيَّةَ، وهو كما ترى.

ونُقل عن الفرَّاء أن الجملةَ خبرٌ أيضاً[١]، إلا أن المَثَل بمعنى الشَّبه مقحمٌ، والتقديرُ: الجنة التي وُعِد المتقون تجري من تحتها الأنهار، إلى آخره، وقد عُهد إقحامُه بهذا المعنى، ومنه قولُه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وتعقَّبه أبو حيان[٢] بأنَّ إقحام الأسماء لا يجوز. ورُدَّ بأنه في كلامهم كثيرٌ، كـ:

... ثم اسمُ السلام عليكما[٣]

و«لا صدقةَ إلا عن ظهرِ غنى»[٤]، إلى غيرِ ذلك، والأولى بعد القيل والقال الوجهُ الأول؛ فإنَّه سالمٌ من التكلُّف، مع ما فيه من الإيجاز والإجمال والتفصيل.

والظاهرُ أن المراد من الأكل ما يؤكلُ فيها، ومعنى دوامه أنه لا ينقطعُ أبداً، وقال إبراهيم التيميُّ: إن لذَّته دائمةٌ، لا تُزاد بجوعٍ، ولا تُمَلُّ بشبعٍ. وهو خلافُ الظاهر.

وفسَّر بعضُهم الأكل بالثمرة، فقيل: وَجْهُه أنه ليس في جنة الدنيا غيرُه، وإن كان في الموعودةِ غيرُ ذلك من الأطعمة، واستُظهر أنَّ ذلك لإضافته إلى ضمير «الجنة»، والأطعمةُ لا يقال فيها: أُكُل الجنة، وفيه تردُّد، والظِّلُّ في الأصل ضدُّ الضحِّ، وهو عند الراغب[٥] أعمُّ من الفيء؛ فإنه يقال: ظلُّ الليل، ولا يقال: فيئُه، ويقال لكلِّ موضعٍ لم تصل إليه الشمسُ: ظلّ، ولا يُقال: الفيء، إلا لما زالت عنه، وفي «القاموس»: هو الضِّحّ والفيء، أو هو بالغداة، والفيءُ بالعشيِّ، جمعُه ظلالٌ وظُلول وأظلال، ويُعبَّر به عن العزَّة والمَنَعة[٦] وعن الرَّفاهة، والمشهور تفسيرُه هنا بالمعنى الأول.

---

(١) معاني القرآن ٢/ ٦٥، والكلام الآتي ليس فيه، وإنما نقله المصنف عن البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٣٩٦.

(٣) جزء من بيت للبيد، وهو في ديوانه ص٢١٤، وقد سلف ١١/ ٤٥٦.

(٤) أورده البخاري معلَّقاً قبل الحديث (٢٧٥٠)، وأخرجه مسنداً (١٤٢٧) بلفظ: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنًى» عن أبي هريرة ﷺ، وقد سلف بهذا اللفظ ٣/ ٢٥٣.

(٥) مفردات ألفاظ القرآن: (ظلل).

(٦) كذا نقل المصنف عن القاموس: (ظلل)، غير أن فيه: الظل بالكسر نقيض الضح، أو هو الفيء... إلخ.

وهو مبتدأ محذوفُ الخبر، أي: وأُكُلها كذلك، أي: دائمٌ، والجملةُ معطوفةٌ على الجملة التي قبلَها.

ومعنى دوامه أنه لا يُنسخ كما يُنسخ في الدنيا بالشمس؛ إذ لا شمسَ هناك على الشائع عند أهل الأثر، أو لأنها لا تأثيرَ لها على ما قيل.

ويجوزُ عندي أن يُراد بالظلِّ العزَّة والرفاهية(١)، وأن يُراد المعنى الأول، ويجعل الكلامُ كناية عن دوام الراحة.

وأكفر خارجةُ بنُ مصعب(٢) - كما رَوى عنه ذلك ابنُ المنذر وأبو الشيخ - القائلَ بعدمِ دوام الجنة كما يُحكى عن جَهْم وأتباعِهِ؛ لهذه الآية.

وبها استدلَّ القاضي على أنها لم تُخلق بعدُ؛ لأنها لو كانت مخلوقةً لوجب أن يفنى وينقطِعَ أُكُلها؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨] لكنَّ أُكُلَها لا ينقطعُ ولا يفنى؛ للآية المذكورة، فوجب أن لا تكون مخلوقةً بعدُ، ثم قال: ولا ننكِرُ أن يكون الآن جنانٌ كثيرة في السماء يتمتَّع بها مَنْ شاء الله تعالى من الأنبياء والشهداء وغيرِهم، إلا أنَّا نقول: إنَّ جنةَ الخلد إنما تُخلق بعد الإعادة. وأجاب الإمامُ(٣) عن ذلك بأن دليلَه مركَّب من شيئين: قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨] وقوله سبحانه: «أكلها دائم»، فإذا أدخلنا التخصيصَ في أحدِ هذين العمومين سقط الدليلُ، فنحن نخصِّصُ أحدَهما بالدلائل الدالَّةِ على أن الجنةَ مخلوقةٌ، كقوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣]. اهـ.

ويَرِدُ على الاستدلال أنه مشتركُ الإلزام؛ إذ الشيءُ في قوله تعالى: (كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ) الموجودُ مطلقاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ

---

(١) في (م): أو الرفاهة.

(٢) هو: أبو الحجاج، الضُّبَعي، السَّرخسي، المحدِّث، عالم أهل خراسان على لينٍ فيه، رحل في طلب العلم وهو كبير، وسمع الكثير، توفي سنة (١٦٨ هـ). الوافي بالوفيات ١٣/٢٤٢، والسير ٧/٣٢٦.

وقوله في تكفير الجهمية بهذه الآية أورده السيوطي في الدر ٤/ ٦٤ - ٦٥.

(٣) تفسير الرازي ١٩/٥٨.

عَلِيمٌ﴾[(١)] [الأنعام:١٠١] والمعنى أن كلَّ ما يوجدُ في وقت من الأوقات يصيرُ هالكاً بعد وجوده، فيصحُّ أن يقال: لو وجدت الجنةُ في وقتٍ لوجَبَ هلاكُ أُكُلِها؛ تحقيقاً للعموم، لكنَّ هلاكه[(٢)] باطلٌ؛ لقوله تعالى: «أكلها دائم»، فوجودُها في وقتٍ من الأوقات باطلٌ.

وأُجيب بأنه لعلَّ المراد من الشيء: الموجود في الدنيا فإنها دارُ الفناء، دون الموجودِ في الآخرة فإنها دارُ البقاء، وهذا كافٍ في عدم اشتراك الإلزام، وفيه أنه إن أُريد أنَّ معنى الشيء هو الموجودُ في الدنيا فهو ظاهرُ البطلان، وإن أُريد أنَّ المراد ذلك بقرينةِ كونِهِ محكوماً عليه بالهلاك، وهو إنما يكونُ في الدنيا؛ لأنها دارُ الفناء، فنقول: إنه تخصيصٌ بالقرينة اللفظية، فنحن نخصُّه بغير الجنة؛ لقوله تعالى: (أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ)، و: «أكلها دائم»، فلا يتمُّ الاستدلال.

وأجاب غيرُ الإمام بأنَّ المراد هو الدوامُ العرفيُّ، وهو عدمُ طَرَيان العدم زماناً يُقيَّد به، وهذا لا ينافي طَرَيان العدمِ عليه، وانقطاعَهُ لحظةً، على أنَّ الهلاك لا يستلزمُ الفناءَ، بل يكفي فيه الخروجُ عن الانتفاعِ المقصود، ولو سُلِّم يجوز أن يكون المرادُ أن كلَّ ممكنٍ فهو هالكٌ في حدِّ ذاته؛ بمعنى أنَّ الوجودَ الإمكانيَّ بالنظرِ إلى الوجود الواجبيِّ بمنزلة العدم.

وقيل في الجواب أيضاً: إنَّ المراد بالدوام المعنى الحقيقيُّ، أعني عدمَ طَرَيان العدم مطلقاً، والمراد بدوام الأُكُل داومُ النوع، وبالهلاك هلاكُ الأشخاص، ويجوز أن لا ينقطعَ النوعُ أصلاً مع هلاك الأشخاص، بأن يكون هلاكُ كلِّ شخصٍ معيَّنٍ من الأُكُل بعد وجودِ مثله. وهذا مبنيٌّ على ما ذهب إليه الأكثرون من أن الجنةَ لا يطرأُ عليها العدمُ ولو لحظةً، وأما على ما قيل من جريانه عليها لحظةً فلا يتمُّ؛ لأنه يلزم منه انقطاعُ النوع قطعاً، كما لا يخفى.

وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه، وابنُ مسعود رضي الله عنه: «مثال الجنة»، وفي

(١) جاء أول هذه الآية في الأصل و(م): ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ...﴾، وليس هنالك آية بهذا السياق، وأثبتنا ما رأيناه أقرب إلى مراد المصنف، ولعله أراد قوله تعالى: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

(٢) في الأصل: هلاكها، والمثبت من (م).

«اللوامح» عن السُّلَميِّ: «أمثالُ الجنة»، أي: صفاتها[1].

﴿تِلْكَ﴾ الجنةُ المنعوتةُ بما ذُكر ﴿عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الكفرَ والمعاصي، أي: مآلُهم ومنتهى أمرِهم. ﴿وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ لا غير، كما يُؤذِنُ به تعريفُ الخبر، وحُمل الاتِّقاءُ على اتِّقاء الكفرِ والمعاصي؛ لأنَّ المقام مقامُ ترغيبٍ، وعليه يكونُ العصاةُ مسكوتاً عنهم، وقد يُحمل على اتِّقاء الكفر، بقرينةِ المقابلة، فيدخُلُ العصاةُ في «الذين اتَّقوا»؛ لأنَّ عاقبتَهم الجنةُ، وإن عُذِّبوا.

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ نزلت - كما قال الماورديُّ[2] - في مؤمني أهل الكتابين، كعبد الله بن سَلَام، وكعبٍ، وأضرابِهما من اليهود، وكالذين أسلموا من النصارى، كالثمانين المشهورين، وهم أربعون رجلاً بنَجْران، وثمانيةٌ باليمن، واثنان وثلاثون بالحبشة، فالمرادُ بـ «الكتاب» التوراةُ والإنجيل.

﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ إذ هو الكتابُ الموعود فيما أُوتوه.

﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ﴾ أي: من أحزابهم: وهم كَفَرَتُهم الذين تحزَّبوا على رسول الله ﷺ بالعداوة، ككعب بن الأشرف وأصحابه، والسيدِ والعاقب أُسقُفَّي نجران وأشياعهما. وأصله جمع حِزْبٍ بكسر وسكون: الطائفةُ المتحزِّبة، أي: المجتمعة لأمرٍ ما، كعداوةٍ وحربٍ وغير ذلك، وإرادةُ جماعةٍ مخصوصةٍ منه بواسطة العهد.

﴿مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ وهو ما لا يوافقُ كتبَهم من الشرائع الحادثة إنشاءً أو نسخاً، وأما ما يوافقُ كتبَهم فلم ينكروه، وإن لم يفرحوا به.

وعن ابن عباس وابن زيد أنها نزلت في مؤمني اليهود خاصَّة، فالمراد بـ «الكتاب» التوراةُ، وبـ «الأحزاب» كَفَرَتُهم. وعن مجاهد، والحسن، وقتادة أن المراد بالموصول جميعُ أهل الكتاب؛ فإنهم كانوا يفرحون بما يوافقُ كتبَهم، فالمرادُ بـ «ما أُنزل إليك» بعضُه، وهو الموافق.

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٣٩٦، وكذلك نقل الفراء في معاني القرآن ٢/ ٦٥ قراءة السلمي، وأسند إليه رواية عن علي رضي الله عنه بمثل هذه القراءة.

(٢) النكت والعيون ٣/ ١١٦، وهو أحد أقوال ثلاثة ذكرها، ولم يرجح شيئاً منها.

واعتُرض عليه بأنه يأباه مقابلةُ قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥ﴾؛ لأنَّ إنكار البعض مشتركٌ بينهم.

وأُجيب بأن المراد من الأحزاب مَنْ حظُّه إنكارُ بعضه فحسب، ولا نصيبَ له من الفرح ببعضٍ منه؛ لشدَّة بُغضه وعداوته، وأولئك يفرحون ببعضه الموافِقِ لكتبهم.

وقيل: الظاهر أنَّ المعنى أنَّ منهم من يفرح ببعضه إذا وافَقَ كتبَهم، وبعضهم لا يفرح بذلك البعض، بل يغتمُّ به وإن وافقَها، وينكر الموافقة؛ لئلا يتَّبع أحدٌ منهم شريعتَه ﷺ كما في قصَّة الرجم.

وأنت تعلم أن الجوابين ليسا بشيء، وعلى تفسير الموصول بعامَّة أهل الكتاب فسَّر البعضُ البعضَ بما لم يوافق ما حرَّفوه، وبيَّن ذلك بأنَّ منهم مَنْ يفرح بما وافَقَ، ومنهم من يُنكره؛ لعناده وشدَّة فساده، وإنكارُهم لمخالفة المحرَّف بالقول دون القلب؛ لعلمهم به، أو هو بالنسبة لمن لم يُحرِّفه، ولعل نَعْي الإنكار أوفَقُ بالمقام من نَعْي التحريف عليهم على ما لا يخفى على المتأمِّل.

وقيل: المرادُ بالموصول مطلقُ المسلمين، وبـ «الأحزاب» اليهودُ والنصارى والمجوس[1]. وأخرج ذلك ابنُ جرير[2] عن قتادة، فالمرادُ بـ «الكتاب» القرآن، ومعنى «يفرحون» استمرارُ فَرَحهم وزيادتُه. وقالت فرقة: المرادُ بـ «الأحزاب» أحزابُ الجاهلية من العرب، وقال مقاتل: هم بنو أُميَّة، وبنو المغيرة، وآلُ أبي طلحة.

﴿قُلۡ﴾ صادعاً بالحقِّ غيرَ مكترثٍ بمنكِرِ بعضِ ما أُنزل إليك: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ﴾ أي: شيئاً من الأشياء، أو لا أفعل الإشراكَ به سبحانه، والظاهرُ أن المراد قَصْرُ الأمر على عبادته تعالى خاصَّةً، وهو الذي يقتضيه كلامُ الإمام[3]، حيث قال: إنَّ «إنَّما» للحصر، ومعناه: إني ما أُمرت إلا بعبادة الله تعالى، وهو يدلُّ

---

(١) جاء في هامش (م) ما نصه: وهم لا ينكرون كثيراً من القصص.

(٢) تفسير الطبري ١٣/٥٥٦.

(٣) تفسير الرازي ١٩/٦٠.

على أنه لا تكليفَ ولا أمرَ ولا نهيَ إلا بذلك. وقيل: معناه: إنما أُمرت بعبادته تعالى وتوحيده، لا بما أنتُم عليه.

وفي «إرشاد العقل السليم»[1] أن المعنى: إلزاماً للمنكرين، وردًّا لإنكارهم إنما أُمرت... إلى آخره، والمرادُ قصر الأمر بالعبادة على الله تعالى، لا قصرُ الأمر مطلقاً على عبادته سبحانه، أي: قل لهم: إنما أُمرتُ فيما أُنزل إليَّ بعبادة الله تعالى وتوحيده، وظاهرٌ أن لا سبيل لكم إلى إنكاره؛ لإطباق جميعِ الأنبياء عليهم السلام والكتبِ على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ٦٤] فما لكم تُشركون به عُزَيراً والمسيحَ عليهما السلام؟!

ولا يخفى أنَّ هذا التفسير مبنيٌّ على كون المراد من «الأحزاب» كَفَرَةُ أهل الكتابين، وهذا الكلامُ إلزامٌ لهم.

واعتُرض بأنَّ منهم مَنْ يُنكر التوحيد وإطباقَ جميع الأنبياء والكتب عليه، كالمثلِّثة من النصارى. وأُجيب بأنهم مع التثليث يزعمون التوحيد ولا يُنكرونه كما يدلُّ عليه قولهم: باسم الآب والابن وروح القُدُس إلهاً واحداً. وأنتَ تعلم أنَّ هذا مما لا يُحتاج إليه، والاعتراضُ ناشئٌ من الغفلة عن المراد.

وقد يقال: المعنى: إنما أُمرتُ بعبادة الله تعالى وعدمِ الإشراك به، وذلك أمرٌ تستحسنُه العقولُ وتَصْدح به الدلائلُ الآفاقيَّة والأنفسيَّة:

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنه واحدُ[2]

فإنكارُه دليلُ الحماقة وشاهدُ الجهالة، لا ينبغي لعاقلٍ أن يلتفتَ إليه، ويجري هذا على سائر تفاسير «الأحزاب».

وقرأ أبو خليد عن نافع: «ولا أشركُ»[3] بالرفع على القطع، أي: وأنا

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٥ ـ ٢٦.

(٢) البيت لأبي العتاهية، وهو في ديوانه ص١٠٤، وسلف ١/ ٢٧١.

(٣) القراءات الشاذة ص٦٧، والكشاف ٢/ ٣٦٢، وتفسير القرطبي ١٢/ ٨٣، والبحر المحيط ٥/ ٣٩٧، وقد تحرف أبو خليد في القراءات الشاذة والبحر المحيط إلى: خليل. وأبو خليد: =

لا أشرك، وجُوِّز أن يكون حالاً، أي: أن أعبد الله غيرَ مشركٍ به. قيل: وهو الأولى، لخلوِّ الاستئنافِ عن دلالة الكلام، على أنَّ المأمور به تخصيصُ العبادة به تعالى، وفيه بحث.

﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إلى الله تعالى خاصَّةً على النَّهج المذكور من التوحيد، أو إلى ما أُمرت به من التوحيد ﴿أَدْعُوا﴾ الناسَ، لا إلى غيره، ولا إلى شيء آخر ممَّا لا يُطبق عليه الكتبُ الإلهية والأنبياء عليهم السلام، فما وجهُ إنكاركم؟ قاله في «الإرشاد» أيضاً[(١)]. والأولى عودُ الضمير إلى الله تعالى، كنظيرِه السابق، وكذا اللاحق في قوله سبحانه: ﴿وَإِلَيْهِ﴾ أي: إلى الله تعالى وحدَه ﴿مَـَٔابِ ٣٦﴾ أي: مرجعي للجزاء، وعلى ذلك اقتصر العلَّامة البيضاويُّ[(٢)]، وكان قد زاد: ومرجعُكم، فيما تقدَّم غير بعيد. واعتُرض بأنه كان عليه أن يزيدَه هنا أيضاً، بل هذا المقامُ أنسبُ بالتعميم؛ ليدلَّ على ثبوت الحشر عموماً، وهو المرويُّ عن قتادة.

وقد جعل الإمامُ[(٣)] هذه الآية جامعةً لكلِّ ما يحتاجُ المرءُ إليه من معرفة المبدأ والمَعاد، فقوله سبحانه: «قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به» جامعٌ لكلِّ ما ورد التكليفُ به، وقوله تعالى: «إليه أدعو» مشيرٌ إلى نبوَّته عليه الصلاة والسلام، وقولُه جلَّ وعلا: «وإليه مآب» إشارةٌ إلى الحشر والبعث والقيامة.

وأجاب الشهابُ[(٤)] عن ذلك بقوله: إنَّ قول الزمخشريِّ[(٥)]: إليه لا إلى غيرِه مرجعي، وأنتم تقولون مثل ذلك، فلا معنى لإنكاركم، فيه بيانٌ لنكتةِ التخصيص من أنهم ينكرون حقيقةً أو حكماً، فلا حاجةَ إلى ما يقال: لا حاجةَ لذكره هنا؛ لدلالة قوله تعالى: (تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ). انتهى. وهو كما ترى.

= هو عتبة بن حماد الحكمي الدمشقي البلاطي، روى القراءة عن نافع، وله عنه نسخة. طبقات القراء ١/٤٩٨.

(١) تفسير أبي السعود ٥/٢٦.

(٢) تفسير البيضاوي على هامش حاشية الشهاب ٥/٢٤٦.

(٣) تفسير الرازي ١٩/ ٦٠ ـ ٦١.

(٤) حاشية الشهاب ٥/٢٤٦.

(٥) الكشاف ٢/٣٦١ ـ ٣٦٣.

ولعلَّ الأظهر أن يقال: إن دلالةَ الكلام عليه هنا ليست كدلالته عليه هناك؛ إذ مساقُ الآية فيه للتخويفِ اللائق به اعتبارُه، ومساقُها هنا لأمرٍ آخرَ، والاقتصارُ على ذلك كافٍ فيه.

وأنتَ تعلمُ أنه لا مانعَ من اعتباره، ويكون معنى الآية: قل في جوابهم: إني إنَّما أمرني الله تعالى بما هو من معالي الأمور، وإليه أدعو وقتاً فوقتاً، وإليه مرجعي ومرجعُكم، فيُثيبني على ما أنا عليه، وينتقمُ منكم على إنكاركم وتخلُّفكم عن اتِّباع دعوتي، أو فحينئذٍ يظهرُ حقِّيَّةُ جميع ما أُنزل إليَّ، ويتبيَّن فسادُ رأيكم في إنكاركم شيئاً منه، وقد يقال على عدم اعتباره نحو ما قيل فيما قبل: إنَّ المعنى: قل في مقابلة إنكارهم: إني إنما أمرني الله تعالى بما أمرني به، وإليه أَدعو، وإليه مرجعي فيما يعرِضُ لي في أمر الدعوة وغيرِه، فلا أُبالي بإنكاركم؛ فإنه سبحانه كافٍ مَنْ رجع إليه. ولعلَّ هذا المعنى هنا من حيث إنه فيه تأسيسٌ محضٌ أولى منه هناك.

واقتصر في «الإرشاد»(١) على جعل الكلام إلزاماً، وجعله نكتةَ أمرِه ﷺ بأن يُخاطبهم بذلك، وذكر أن قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ شروعاً(٢) في ردِّ إنكارهم لفروع الشرائع الواردة ابتداءً، أو بدلاً من الشرائع المنسوخة ببيان الحكمة في ذلك، وأن الضمير راجعٌ لـ «ما أنزل إليك» والإشارة إلى مصدر «أنزلناه»، أو «أنزل إليك»، أي: مثلُ ذلك الإنزال البديعِ الجامعِ لأصولٍ مجمع عليها، وفروعٍ متشعِّبةٍ إلى موافقةٍ ومخالفةٍ حسبما يقتضيه قضيةُ الحكمةِ، أنزلناه حاكماً يحكم في القضايا والواقعات بالحق، أو يحكم به كذلك.

والتعرُّض لهذا العنوان مع أنَّ بعضَه ليس بحكم؛ لتربية وجوبِ مراعاته، وتحتُّم المحافظةِ عليه، والتعرُّض لكونه عربيًّا، أي: مترجماً بلسان العرب؛ للإشارة إلى أنَّ ذلك إحدى موادِّ المخالفة للكتب السابقة، مع أنَّ ذلك مقتضى الحكمة؛ إذ بذلك يسهُلُ فهمُه وإدراكُ إعجازه، يعني بالنسبة إلى العرب، وأما بالنسبة إلى غيرهم فلعلَّ الحكمةَ أن ذلك يكون داعياً لتعلُّم العلوم التي يتوقَّف عليها ما ذُكر.

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٦.
(٢) في (م): شروع.

ومنهم من اقتصرَ على اشتمال الإنزال على أصول الديانات المجمَع عليها حسبما يُفيده ـ على رأيٍ ـ قولُه تعالى: «إنما أمرت أن أعبد» إلخ. وتُعقِّب بأنه يأباه التعرُّض لاتِّباع أهوائهم، وحديثُ المحوِ والإثبات، وأنه لكلِّ أجلٍ كتابٌ؛ فإن المجمَعَ عليه لا يُتصوَّر فيه الاستتباعُ والاتِّباع. وقيل: إن الإشارةَ إلى إنزال الكتب السالفة على الأنبياء عليهم السلام، والمعنى: كما أنزلنا الكتبَ على مَنْ قبلك أنزلنا هذا الكتابَ عليك؛ لأنَّ قولَه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ يتضمَّن إنزالَه تعالى ذلك، وهذا الذي أنزلناه بلسانِ العرب، كما أنَّ الكتب السالفةَ بلسان مَنْ أُنزلت عليه ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤] وإلى هذا ذهب الإمامُ وأبو حيان[١]، وقال ابنُ عطية[٢]: المعنى: كما يسَّرنا هؤلاء للفرح، وهؤلاء لإنكار البعض، أنزلناه حكماً، إلخ. وليتَه ما قيل، والأبلغ الاحتمالُ الأول مما أشرنا إليه.

ونصب «حكماً» على الحال من منصوب «أنزلناه»، وإذا أُريد به حاكماً، كان هناك مجازٌ في النسبة كما لا يخفى، ونصب «عربياً» على الحال أيضاً؛ إمَّا من ضمير «أنزلناه» كالحال الأولى، فتكونُ حالاً مترادفةً، أو من المستترِ في الأولى، فتكون حالاً متداخلةً، ويصحُّ أن يكون وصفاً لـ «حكماً» الحال، أو هي موطِّئةٌ، وهي الاسمُ الجامد الواقعُ حالاً لوصفه بمشتقٍّ، وهو الحال في الحقيقة، والأول أولى؛ لأنَّ «حكماً» مقصودٌ بالحاليَّة هنا، والحال الموطِّئةُ لا تُقصد بالذَّات.

واختار الطبرسيُّ[٣] أن معنى «حكماً» حكمةً، كما في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[٤] [مريم: ١٢] وهو أحدُ أوجهٍ ذكرها الإمامُ[٥]، ونصبه على الحال أيضاً، فلا تغفل.

واستدلَّ المعتزلةُ بالآية على حدوثِ القرآن من وجوه: الأول: أنه تعالى وصَفَه

---

(١) تفسير الرازي ١٩/ ٦١، والبحر المحيط ٥/ ٣٩٧.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣١٦.

(٣) مجمع البيان ١٣/ ١٨٣.

(٤) في الأصل و(م): «وآتيناه الحكم والنبوة»، وليس هنالك آية بهذا السياق، وقد تابع المصنف الطبرسي في سياقه لها.

(٥) تفسير الرازي ١٩/ ٦١.

بكونه مُنْزَلاً، وذلك لا يليقُ إلا بالمحدَث. الثاني: أنه وصَفَه بكونه عربيًّا، والعربيُّ أمرٌ وضعيٌّ، وما كان كذلك كان محدَثاً. الثالث: أنها دلَّت على أنه إنَّما كان حكماً عربيًّا؛ لأنَّ الله تعالى جعلَه كذلك، والمجعولُ محدَثٌ.

وأجاب الإمامُ(١) بأن كلَّ ذلك إنما يدلُّ على أن المركَّبَ من الحروف والأصوات محدَثٌ، ولا نزاعَ فيه أي: بين المعتزلة والأشاعرة، وإلا فالحنابلةُ على ما اشتهر عنهم قائلون بقِدَم الكلامِ اللفظيِّ، وقد أسلفنا في المقدِّمات كلاماً نفيساً في مسألة الكلام، فارجع إليه، ولا يهولنَّك قعاقِعُ المخالفين لسلف الأمة.

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ التي يدعونَكَ إليها، كالصلاة إلى بيت المَقْدس بعد تحويل القِبلة إلى الكعبة، وكتركِ الدعوة إلى الإسلام ﴿بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ العظيمِ الشأن، الفائضِ عليك من ذلك الحُكم العربيِّ، أو العلم بمضمونه ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ من جَنابه العزيزِ جلَّ شأنُه. والالتفاتُ من التكلُّم إلى الغَيبة، وإيرادُ الاسمِ الجليل؛ لتربيةِ المهابة. ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يلي أمرَكَ، وينصُرُك على مَنْ يبغيكَ الغوائل. ﴿وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ يَقيكَ من مصارع السُّوء. وحيث لم يستلزِمْ نفيُ الناصر على العدوِّ نفيَ الواقي من نكايته أدخَلَ في المعطوف حرفَ النفي؛ للتأكيد كقولك: ما لي دينارٌ ولا درهمٌ. أو: مالَكَ من بأسِ الله تعالى من ناصرٍ وواقٍ؛ لاتِّباعك أهواءهم بعد ما جاءك من الحقِّ.

وأمثالُ هذه القوارع إنما هي لقطعِ أطماع الكَفَرة، وتهييجِ المؤمنين على الثبات في الدِّين، لا للنبيِّ ﷺ؛ فإنه عليه الصلاة والسلام بمكانٍ لا يحتاج فيه إلى باعثٍ أو مهيِّجٍ، ومن هنا قيل: إنَّ الخطاب لغيره ﷺ.

واللامُ في «لئن» موطِّئةٌ، و«من» الثانية مزيدةٌ، و«مالك» سادٌّ مَسَدَّ جوابي الشرط والقَسَم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا﴾ كثيرةً كائنةً ﴿مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ أي: نساءً وأولاداً كما جعلناها لك.

رُوي عن الكلبي أنَّ اليهود عيَّرت رسولَ الله ﷺ، وقالوا: ما نرى لهذا الرجل

---

(١) تفسير الرازي ١٩/ ٦٢.

همَّةٌ إلا النساء والنكاح، ولو كان نبيّاً كما زعم لشغلَه أمرُ النبوَّة عن النساء. فنزلت ردّاً عليهم؛ حيث تضمَّنت أنَّ التزوُّج لا ينافي النبوةَ، وأن الجمعَ بينهما قد وقَعَ في رسلٍ كثيرةٍ قبلَه.

ذُكر أنه كان لسليمان عليه السلام ثلاث مئة امرأةٍ مهرية، وسبع مئة سُرِّيَّة، وأنه كان لداود عليه السلام مئة امرأة.

ولم يتعرَّض جلَّ شأنُه لردِّ قولهم: ما نرى لهذا الرجل همَّةً إلا النساء؛ للإشارة إلى أنه لا يستحقُّ جواباً؛ لظهور أنه عليه الصلاة والسلام لم يشغله أمرُ النساء عن شيءٍ ما من أمرِ النبوة.

وفي أدائه ﷺ للأمرين على أكملِ وجهٍ دليلٌ وأيُّ دليلٍ على مزيدِ كماله مَلَكِيَّةً وبشريةً، ومما يُوضح ذلك أنه ﷺ كان يجوع الأيامَ حتى يشدَّ على بطنه الشريفِ الحجرَ، ومع ذا يطوفُ على جميعِ نسائه في الليلةِ الواحدة، ولا يمنَعه ذاك عن هذا.

وفي تكثير نسائه عليه الصلاة والسلام فوائدُ جَمَّة، ولو لم يكن فيه سوى الوقوفِ على استواءِ سِرِّه وعَلَنِه لكفى، وذلك لأنَّ النساء من شأنهنَّ أن لا يحفظنَ سرّاً كيفما كان، فلو كان منه عليه الصلاة والسلام في السرِّ ما يُخالف العَلَن لوقفنَ عليه مع كثرتهنَّ، ولو كنَّ وقفنَ لأفشَيْنَه؛ عملاً بمقتضى طباع النساء، لاسيَّما الضَّرائر، ومَنْ وقف على الآثار، وأحاط خُبْراً بما رُوي عن هاتيك النساء الطاهرات علم أنهنَّ لم يتركنَ شيئاً من أحواله الخفيَّة إلا ذكروه. وناهيكَ ما رُوي أن الصحابةَ ﷺ اختلفوا في الإيلاج بدون إنزال: هل يُوجب الغُسْل أم لا؟ فسألوا عائشةَ ﷺ فقالت ـ ولا حياءَ في الدين ـ: فعَلَ ذلك رسول الله ﷺ معي فاغتسلنا جميعاً[1].

ورُوي أنهم طعنوا في نبوَّته بالتزوُّج، وبعدم الإتيان بما يقترحونَه من الآيات، فنزل ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: وما صحَّ، وما استقام، ولم يكن في وُسْع رسولٍ من الرسل الذين من قبلُ أن يأتي مَنْ أرسل

(١) أخرجه أحمد (٢٦٢٨٩)، والترمذي (١٠٨)، والنسائي في الكبرى (١٩٤). وأصله عند مسلم (٣٤٩).

إليهم بآيةٍ ومعجزة يقترحونها عليه إلا بتيسير الله تعالى ومشيئتِهِ المبنيةِ على المصالح والحكم التي يدورُ عليها أمرُ الكائنات.

وقد يُراد بالآيةِ الآيةُ الكتابيَّةُ النازلةُ بالحكم على وفق مراد المرسَل إليهم، وهو أوفقُ بما بعد، وجُوِّز إرادةُ الأمرين باعتبار عموم المجاز، أي: الدالِّ مطلقاً، أو على استعمال اللفظ في معنييه بناءً على جوازه. والالتفاتُ لما تقدَّم، ولتحقيق مضمون الجملة بالإيماء إلى العلَّة.

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ﴾ أي: لكلِّ وقتٍ ومدَّةٍ من الأوقات والمُدَد ﴿كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾ حكمٌ معيَّن يُكتب على العباد حسبما تقتضيه الحكمةُ؛ فإنَّ الشرائعَ كلَّها لإصلاح أحوالهم في المبدأ والمَعاد، ومن قضية ذلك أن تختلفَ حسب أحوالهم المتغيِّرةِ حسب تغيُّرِ الأوقات، كاختلاف العلاج حسب اختلاف أحوالِ المرضى بحسب الأوقات. وهذا عند بعضٍ ردٌّ لما أنكروه عليه ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ من نسخِ بعض الأحكام، كما أنَّ ما قبله ردٌّ لطعنهم بعدم الإتيان بالمعجزات المقترَحة.

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: ينسخُ ما يشاء نَسْخَه من الأحكام لما تقتضيه الحكمةُ بحسَبِ الوقت ﴿وَيُثْبِتُ﴾ بدَلَه ما فيه الحكمةُ، أو يبقيه على حاله غيرَ منسوخٍ، أو يُثبت ما يشاءُ إثباتَه مطلقاً، أعمّ منهما ومن الإنشاء ابتداءً.

وقال عكرمة: يمحو بالتوبة جميعَ الذنوب، ويثبت بدلَ ذلك حسناتٍ، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].

وقال ابنُ جُبير: يغفر ما يشاءُ من ذنوب عباده، ويتركُ ما يشاء فلا يغفرُه، وقال: يمحو ما يشاءُ ممَّن حان أجلُه، ويثبتُ ما يشاءُ ممَّن لم يأت أجلُه.

وقال عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهَه: يمحو ما يشاءُ من القرون؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ [يس: ٣١] ويثبتُ ما يشاءُ منها؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٢].

وقال الرَّبيع: هذا في الأرواح حالةَ النومِ، يقبضُها الله تعالى إليه، فمن أراد

موتَه فجأةً أمسكَ روحَه فلم يرسلها، ومن أراد بقاءَه أرسل روحَه، بيانُه قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ الآية [الزمر: ٤٢].

وعن ابن عباس والضحَّاك: يمحو من ديوان الحَفَظَة ما ليس بحسنةٍ ولا بسيئةٍ؛ لأنهم مأمورون بكَتْبِ كلِّ قولٍ وفعلٍ، ويُثبت ما هو حسنةٌ أو سيئةٌ.

وقيل: يمحو بعضَ الخلائق، ويثبت بعضاً من الأناسِيِّ وسائر الحيوانات، والنباتات، والأشجار، وصفاتها وأحوالها. وقيل: يمحو الدنيا ويُثبت الآخرة.

وقال الحسن وفرقةٌ: ذلك في آجالِ بني آدم، يكتبُ سبحانه في ليلة القدر ـ وقيل: في ليلة النِّصف من شعبان ـ آجالَ الموتى، فيمحو أناساً من ديوان الأحياء، ويُثبتهم في ديوان الأموات.

وقال السُّديُّ: يمحو القمرَ ويُثبت الشمسَ، بيانه قولُه تعالى: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢].

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما: يمحو الله تعالى ما يشاءُ من أمورِ عبادِه ويُثبت، إلا السعادةَ والشقاوة والآجال؛ فإنها لا محوَ فيها، ورواه عنه مرفوعاً ابنُ مردويه.

وقيل: هو عامٌّ في الرِّزق والأجل، والسعادة والشقاوة، ونُسب إلى جماعةٍ من الصحابة والتابعين، وكانوا يتضرَّعون إلى الله تعالى أن يجعلَهم سعداءَ؛ فقد أخرج ابنُ أبي شَيْبة في «المصنَّف» وغيرُه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ما دعا عبدٌ قطُّ بهذه الدعوات إلا وُسِّعَ عليه في معيشته: يا ذا المنِّ ولا يُمَنُّ عليه، يا ذا الجلال والإكرام، يا ذا الطَّول [والإنعام]، لا إله إلا أنتَ، ظهرَ اللاجئين، وجارَ المستجيرين، ومَأْمَنَ الخائفين، إن كنتَ كتبتني عندك في أمِّ الكتاب شقيّاً فامْحُ عنِّي اسمَ الشقاوة، وأثبتني عندك سعيداً، وإن كنتَ كتبتَني عندك في أمِّ الكتاب محروماً مقتَّراً عليَّ رزقي، فامْحُ حِرْماني، ويسِّر رزقي، وأثبتني عندك سعيداً موفَّقاً للخير؛ فإنك تقولُ في كتابك الذي أنزلتَ: «يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب»[1].

---

(١) المصنف (٢٩٥٢١)، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٦٦ ونسبه له ولابن أبي الدنيا في الدعاء، وما بين حاصرتين من المصادر.

وأخرج عَبْد بنُ حُمَيد وغيرُه عن عمر رضي الله عنه أنه قال وهو يطوفُ بالبيت: اللهمَّ إن كنتَ كتبتَ عليَّ شقوةً أو ذنباً فامحُه، واجعله سعادةً ومغفرةً؛ فإنك تمحو ما تشاءُ وتثبتُ، وعندكَ أمُّ الكتاب[١].

وأخرج ابنُ جرير[٢] عن شَقيقٍ أبي وائلٍ أنه كان يُكثر الدعاءَ بهذه الدعوات: اللهمَّ إن كنتَ كتبتَنا أشقياءَ فامحُنا، واكتبنا سعداءَ، وان كنتَ كتبتنا سعداء فأثبتنا؛ فإنك تمحو ما تشاءُ وتُثبت.

وأخرج ابنُ سَعْدٍ وغيرُه عن الكلبيِّ أنه قال: يمحو الله تعالى من الرِّزق ويزيدُ فيه، ويمحو من الأجل ويزيد فيه، فقيل له: مَنْ حدَّثكَ بهذا؟ فقال: أبو صالحٍ عن جابر بن عبد الله بن رئاب الأنصاريِّ عن النبيِّ ﷺ[٣].

وأبو حيَّان[٤] يقول: إنْ صحَّ شيء من ذلك ينبغي تأويلُه، فمن المعلوم أنَّ السعادةَ والشقاوة والرزقَ والأجلَ لا يتغيَّر شيءٌ منها.

وإلى التعميم ذهب شيخُ الإسلام[٥]، قال بعد نقل كثيرٍ من الأقوال: والأنسبُ تعميمُ كلٍّ من المحوِ والإثبات ليشمَلَ الكلَّ، ويدخلُ في ذلك موادُّ الإنكار دخولاً أوليًّا.

وما أخرجه ابنُ جريرٍ[٦] عن كعبٍ من أنه قال لعمر رضي الله عنه: يا أميرَ المؤمنين، لولا آيةٌ في كتاب الله تعالى لأُنبِّئنَّك بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة. قال: وما هي؟ قال: قولُه تعالى: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ الآية = يُشعر بذلك.

وأنتَ تعلم أنَّ المحوَ والإثباتَ إذا كان بالنسبة إلى ما في أيدي الملائكة ونحوه، فلا فرقَ بين السعادة والشقاوة، والرزقِ والأجل، وبين غيرها في أنَّ كُلًّا

---

(١) وكذلك أخرجه الطبري في تفسيره ١٣/ ٥٦٣، وزاد السيوطي نسبته في الدر المنثور ٤/ ٦٦ إلى ابن المنذر.
(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٥٦٣.
(٣) الطبقات الكبرى ٣/ ٥٣١، وأخرجها مطولة الطبري في تفسيره ١٣/ ٥٦٥ ـ ٥٦٦.
(٤) البحر المحيط ٥/ ٣٩٨.
(٥) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٧.
(٦) تفسير الطبري ١٣/ ٥٦٥.

يقبَلُ المحوَ والإثبات، وإن كانا بالنسبة إلى ما في العلم فلا فرقَ أيضاً بين تلك الأمور وبين غيرها في أن كلًّا لا يقبَلُ ذلك؛ لأنَّ العلم إنما تعلَّق بها على ما هي عليه في نفس الأمر، وإلا لكان جهلاً، وما في نفس الأمر مما لا يُتصوَّر فيه التغيُّر والتبدُّل، وكيف يُتصوَّر تغيُّر زوجية الأربعة مثلاً، وانقلابُها إلى الفرديَّة مع بقاء الأربعة أربعةً، هذا ممَّا لا يكون أصلاً، ولا أظنُّك في مِرْيةٍ من ذلك، ولا يأبى هذا عمومُ الأدلَّة الدالَّة على أنه ما شاء الله تعالى كان؛ لأنَّ المشيئةَ تابعة للعلم، والعلمُ بالشيء تابعٌ لما عليه الشيء في نفس الأمر، فهو سبحانه لا يشاءُ إلا ما عليه الشيءُ في نفس الأمر.

قيل: ويُشير إلى أن ما في العلم لا يتغيَّر قولُه سبحانه: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ بناءً على أن «أمّ الكتاب» هو العلم؛ لأنَّ جميع ما يُكتب في صُحُف الملائكة وغيرِها لا يقعُ حيثُما يقعُ إلا موافقاً لما ثبَتَ فيه، فهو أمٌّ لذلك، أي: أصلٌ له، فكأنه قيل: يمحو ما يشاءُ محوَه، ويُثبت ما يشاءُ إثباتَه مما سطر في الكتب، وثابتٌ عنده العلم الأزليُّ الذي لا يكون شيءٌ إلا على وفق ما فيه. وتفسيرُ «أمّ الكتاب» بعلم الله تعالى ممَّا رواه عبدُ الرزَّاق، وابنُ جرير[1] عن كعبٍ ﷺ، والمشهورُ أنها اللوحُ المحفوظ، قالوا: وهو أصلُ الكتب؛ إذ ما من شيء من الذاهب والثابت إلا وهو مكتوبٌ فيه كما هو، والظاهرُ أن المراد الذاهبُ والثابتُ ممَّا يتعلَّق بالدنيا[2]، لا ممَّا يتعلَّق بها وبالآخرة أيضاً؛ لقيام الدليلِ العقليِّ على تَناهي الإبعاد مطلقاً، والنقليِّ على تَناهي اللوحِ بخصوصه؛ فقد جاء أنه من دُرَّةٍ بيضاءَ، له دُفَّتان من ياقوت، طولُه مسيرةُ خمس مئة عام[3]، وامتناعُ ظرفيَّة المُتَناهي لغير المُتَناهي ضروريٌّ، ولعلَّ من يقولُ بعموم الذاهب والثابت يلتزمُ القولَ بالإجمال حيث يتعذَّر التفصيل.

وقد ذهب بعضُهم إلى تفسير «أمّ الكتاب» بما هو المشهور، والتزمَ القولَ بأن ما فيه لا يتغيَّرُ، وإنما التغيُّر لما في الكتب غيره، وهذا قائلٌ بعدم تغيُّر ما في العلم؛ لما علمت.

---

(١) تفسير عبد الرزاق ١/ ٣٣٨، وتفسير الطبري ١٣/ ٥٧٢.

(٢) جاء في هامش (م) ما نصه: وفي الأخبار ما يؤيد ذلك. اهـ منه.

(٣) أخرجه الطبري في التفسير ١٣/ ٥٧٠ عن ابن عباس ﷺ.

ورأيتُ في نسخةٍ لبعض الأفاضل كانت عندي، وفُقدت في حادثة بغداد، ألِّفت في هذه المسألة، وفيها أنه ما من شيء إلا ويمكنُ تغييرُه وتبديلُه، حتى القضاءُ الأزلي، واستدلَّ لذلك بأمورٍ منها: أنه قد صحَّ من دعائه ﷺ في القنوت: «وقني شرَّ ما قضيتَ»(١)، وفيه طلبُ الحِفْظ من شرِّ القضاء الأزليِّ، ولو لم يمكن تغييرُه ما صحَّ طلبُ الحفظ منه.

ومنها ما صحَّ في حديث التراويح من عُذْره ﷺ عن الخروج إليها، وقد اجتمع الناس ينتظرونه؛ لمزيد رغبتهم فيها؛ بقوله: «خشيتُ أن تُفرض عليكم فتعجَزوا عنها»(٢)، فإنه لا معنى لهذه الخشيةِ لو كان القضاءُ الأزليُّ لا يقبل التغيير؛ فإنه إن كان قد سبَقَ القضاءُ بأنها ستُفرض فلابدَّ أن تُفرض، وإن سبق القضاءُ بأنها لا تُفرض فمحالٌ أن تُفرض على ذلك الفَرض، على أنه قد جاء في حديث فرضِ الصلاة ليلةَ المعراج بعد ما هو ظاهرٌ في سَبْق القضاء بأنها خمسُ صلوات مفروضةٍ لا غير، فما معنى الخشية بعد العلم بذلك لولا العلمُ بإمكان التغيير والتبديل.

ومنها ما صحَّ أنه ﷺ كان يضطرب حالُه الشريفُ ليلةَ الهواء الشديد حتى إنه لا ينام، وكان يقول في ذلك: «أخشى أن تقوم الساعةُ»(٣)؛ فإنه لا معنى لهذه الخشية أيضاً مع إخبار الله تعالى أن بين يديها ما لم يُوجد إذ ذاك، كظهور المهديِّ، وخروج الدجَّال، ونزولِ عيسى عليه السلام، وخروجِ يأجوج ومأجوج، ودابةِ الأرض، وطلوع الشمس من مغربها، وغير ذلك مما يستدعي تحقُّقُه زماناً طويلاً، فلو لم يكن عليه الصلاةُ والسلام يعلم أن القضاء يمكنُ تغييرُه، وأنَّ ما قضى من أشراطها يمكنُ تبديلُه، ما خشي ﷺ من ذلك.

ومنها أن المبشَّرين بالجنة كانوا من أشدِّ الناس خوفاً من النار، حتى إن منهم من كان يقول: ليت أمِّي لم تلدني، وكان عمر رضي الله عنه يقول: لو نادى منادٍ: كلُّ

---

(١) أخرجه أحمد (١٧١٨)، وأبو داود (١٤٢٥)، والترمذي (٤٦٤)، والنسائي في المجتبى ٣/ ٢٤٨، وابن ماجه (١١٧٨) من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٩)، ومسلم (٧٦١) عن عائشة رضي الله عنها، وسلف ٨/ ٧٩.

(٣) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وينظر ما سلف ٨/ ٧٨.

الناس في الجنة إلا واحداً، لظننتُ أنِّي ذلك الواحد، وهذا مما لا معنى له مع إخبار الصادق وتبشيرِه له بالجنة، والعلمِ بأنَّ القضاء لا يتغيَّر.

ومنها أنه لولا إمكانُ التغيير للغا الدعاءُ؛ إذ المدعو به إمَّا أن يكون قد سبَقَ القضاءُ بكونه، فلا بدَّ أن يكون، وإلا فمحالٌ أن يكون، وطلبُ ما لا بدَّ أن يكون، أو محالٌ أن يكون لغوٌ، مع أنه قد ورد الأمرُ به، والقولُ بأنه لمجرَّد إظهارِ العبوديَّة والافتقارِ إلى الله تعالى، وكفى بذلك فائدةً = يأباه ظاهرُ قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٠]. وأيضاً أخرج الحاكم وصحَّحه عن ابن عباس قال: لا ينفع الحَذَر من القدر، ولكنَّ الله تعالى يمحو بالدعاء ما يشاءُ من القدر[١]. وأخرج ابنُ مردويه وابنُ عساكر عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه أنه سأل رسولَ الله ﷺ عن قوله تعالى: (يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ) الآية، فقال له عليه الصلاة والسلام: «لأُقرَّنَّ عينَكَ بتفسيرها، ولأُقرَّنَّ عينَ أُمتي بعدي بتفسيرها: الصدقةُ على وجهها، وبرُّ الوالدين، واصطناعُ المعروف، محوِّلُ الشقاءِ سعادةً، ويزيدُ في العمر، ويقي مصارعَ السُّوء»[٢]. وهذا لا يكاد يُعقَلُ على تقدير أنَّ القضاء لا يتغيَّر. وفي الأخبار والآثار مما هو ظاهرٌ في إمكان التغيُّر ما لا يُحصى كثرةً، ولعلَّ من ذلك الدعاءُ المارُّ عن ابن مسعود، ثم إن القضاءَ المعلَّقَ يرجع في المآل إلى القضاء المبرَمِ عند مثبته، فلا يفيده التعلُّق بذلك في دفع ما يَرِدُ عليه، ودفعِ ما يَرِدُ على القول بالتغيُّر من أنه يلزم منه التغيُّر في ذاته تعالى؛ لما أنه ينجرُّ إلى تغيُّر العلم، وهو يوجب التغيُّر في ذاته تعالى من صفةٍ إلى أخرى، أو يلزمُ من ذلك الجهل، وهذا مأخوذٌ من الشبهة التي ذكرها جمهورُ الفلاسفة في نفي علم الله تعالى بالجزئيات المتغيِّرة؛ فإنهم قالوا: إنه تعالى إذا علم مثلاً أن زيداً في الدار الآن، ثم خرج عنها؛ فإما أن يزول ذلك العلمُ ولا يعلمَ سبحانه أنه في الدار، أو يبقى ذلك العلم بحاله، والأولُ يوجبُ التغيُّر في ذاته سبحانه، والثاني يُوجب الجهلَ، وكلاهما نقصٌ يجب تنزيهُ الله تعالى عنه بما دفعوا به تلك الشُّبهة، وهو ما ذُكر في «المواقف» و«شرحه»[٣] من

---

(١) المستدرك ٢/ ٣٨٠.

(٢) لم نقف عليه في تاريخ دمشق، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٦٦، وفيه: يحول، بدل: محول.

(٣) المواقف مع شرح الجرجاني ٨/ ٦٨ وما بعدها.

منع لزوم التغيُّر فيه تعالى، بل التغيُّر إنما هو في الإضافات؛ لأن العلم عندنا إضافةٌ مخصوصة، وتعلُّق بين العالم والمعلوم، أو صفةٌ حقيقية ذاتُ إضافة، فعلى الأول يتغيَّر نفسُ العلم، وعلى الثاني يتغيَّر إضافاتُه فقط، وعلى التقديرين لا يلزمُ تغيُّرٌ في صفةٍ موجودة بل في مفهوم اعتباريٍّ، وهو جائز.

وأجاب كثيرٌ من الأشاعرة والمعتزلة بأنَّ العلمَ بأن الشيء وُجد، والعلم بأنه سيوجد واحدٌ؛ فإنَّ مَنْ علم أن زيداً سيدخلُ البلدَ غداً فعند حصول الغد يعلم بهذا العلم بأنَّه دخل البلدَ الآن إذا كان علمُه هذا مستمرًّا بلا غفلةٍ مزيلةٍ له، وإنما يحتاج أحدُنا إلى علم آخر متجدِّد يعلم به أنه دخل الآن؛ لطَريان الغفلة عن الأول، والباري تعالى يمتنعُ عليه الغفلةُ، فكان علمُه سبحانه بأنه وُجِدَ عينُ علمه بأنه سيوجد، فلا يلزم من تغيُّرِ المعلوم تغيُّر في العلم، ونهايةُ كلامه في هذا المقام أنه يجوز أن يتغيَّر ما في علم الله تعالى، وإلا لتعيَّن عليه سبحانه الفعلُ أو التركُ، وفيه من الحَجْر عليه جلَّ جلالُه ما لا يخفى، ولا يلزمُ من ذلك التغيُّر سوى التغيُّر في التعلُّقات وهو غيرُ ضارٍّ.

واعتُرض بأنه على هذا القول لا يبقى وثوقٌ بشيء من الأخبار الغيبية، كالحشر والنشر، وكذا لا يبقى وثوقٌ بالإخبار بأنه ﷺ خاتمُ النبيين؛ لجواز أن يكون الله تعالى قد علم ذلك حين أخبر، ثم تعلَّق علمُه بخلافه، لكنه سبحانه لم يُخبر، ولا نقص في الإخبار الأول؛ لأنه إخبارٌ عمَّا كان متعلَّق العلم إذ ذاك، وأيضاً يلزمُ من ذلك نفيُ نفس الأمر، أو نفيُ كون تعلُّق العلم على وفقه، وكلا النفيين كما ترى.

بقي الجوابُ عما تمسَّك به، وهو عن بعض ظاهرٌ، وعن بعض يحتاج إلى تأمُّل، فتأمَّل.

واستدلَّ بالآية بعضُ الشيعة القائلين بجواز البَدَاء على الله سبحانه، وفيه ما فيه.

هذا، ويخطُر لي في الآية معنًى لم أرَ مَنْ ذكره: وهو أن يُراد بقوله سبحانه: «يمحو اللهُ ما يشاءُ ويُثبِت» ما ذكرناه أولاً قبل حكاية الأقوال، وهو مما رواه

البيهقيُّ في «المدخل» وغيره عن ابن عباس[١]، وابنُ جريرٍ عن قتادة[٢]، ويُخصَّص ذلك بالأحكام الفرعيَّة، ويُراد بـ «أمّ الكتاب» الأحكام الأصليَّة؛ فإنها ممَّا لا يقبل النسخَ، وهي أصل لكلِّ كتاب باعتبار أن الأحكامَ الفرعيَّة التي فيه إنما تصحُّ ممن أتى بها، لكن لا يساعد على هذا المأثورُ عن السلف. نعم هو مناسب للمقام كما لا يخفى، وزعم الضحَّاك والفرَّاء[٣] أن في الآية قلباً، والأصل: لكلِّ كتاب أَجَل. وتُعقِّب بأنه لا يجوزُ ادِّعاء القلب إلا في ضرورة الشعر، على أنه لا داعي إليه هنا، بل قد يُدَّعى فسادُ المعنى عليه، وأيّاً ما كان فـ «أل» في «الكتاب» للجنس، فهو شامل للكثير، ولهذا فسَّره غيرُ واحد بالجمع.

وقرأ نافعٌ وابنُ عامر: «ويثبِّت» بالتشديد[٤].

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ أصله: إن نريك، و«ما» مزيدة لتأكيد معنى الشرط، ومن ثَمَّ أُلحقت النونُ بالفعل، قال ابن عطية[٥]: ولو كانت «إن» وحدَها لم يجز إلحاقُ النون، وهو مخالف لظاهر كلام سيبويه، قال ابن خروف: أجاز سيبويه الإتيان بـ «ما» وعدم الإتيان بها، والإتيان بالنون مع «ما» وعدم الإتيان بها.

والإراءة هنا بصريَّةٌ، والكافُ مفعول أوَّل، وقولُه سبحانه: ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ مفعولٌ ثانٍ، والمرادُ: بعض الذي وعدناهم من إنزالِ العذاب عليهم، والعدولُ إلى صيغة المضارع لحكايةِ الحال الماضية، أو: نعدُهم وعداً متجدِّداً حسب ما تقتضيه الحكمةُ من إنذارٍ عَقِيب إنذار. وفي إيراد البعض رمزٌ - على ما قيل - إلى إراءة بعض الموعود.

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي: تبليغُ أحكام ما أنزلنا عليك، وما تضمَّنه من الوعد والوعيد، لا تحقيقُ مضمون الوعيد الذي تضمَّنه ذلك

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٣/٥٦٦، وليس في المطبوع من المدخل للبيهقي، وقد عزاه له السيوطي في الدر المنثور ٤/٦٧.

(٢) تفسير الطبري ١٣/٥٦٧.

(٣) معاني القرآن ٢/ ٦٥.

(٤) التيسير ص١٣٤، والنشر ٢/ ٢٩٨.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٣١٨.

فالمقصورُ عليه «البلاغ»، ولهذا قدّم الخبر، وهذا الحصرُ مستفاد من «إنما» لا من التقديم، وإلا لانعكس المعنى.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ۝﴾ الظاهر أنه معطوف على ما في حيِّز «إنما» فيصيرُ المعنى: إنما علينا محاسبةُ أعمالهم السيئة، والمؤاخذة بها، دون جَبْرِهم على اتِّباعك، أو إنزال ما اقترحوه عليك من الآيات.

واعتبر الزمخشريُّ[1] عطفَه على جملة «إنما عليك البلاغ»، فيصيرُ المعنى: وعلينا لا عليكَ محاسبةُ أعمالهم. قيل: وهو الظاهرُ؛ ترجيحاً للمنطوق على المفهوم إذا اجتمع دليلا حصرٍ.

وحاصلُ معنى الآية كيفما دارت الحال: أريناكَ بعضَ ما وعدناهم من العذاب الدنيويِّ أو لم نُرِكَهُ، فعلينا ذلك، وما عليك إلا التبليغُ، فلا تهتمَّ بما وراء ذلك، فنحنُ نكفيكه ونُتمُّ ما وعدناك به من الظَّفَر، ولا يُضْجِرْكَ تأخُّرُه؛ فإنَّ ذلك لما نعلم من المصالح الخفيَّة. وفي «البحر»[2] عن الحوفي أنه تقدَّم في الآية شرطان: «نرينَّك»، و«نتوفينَّك»؛ لأن المعطوفَ على الشرط شرطٌ. وقوله تعالى: «فإنَّما عليك البلاغ» لا يصلحُ أن يكون جواباً للشرط الأول، ولا للشرطِ الثاني؛ لأنه لا يترتَّب على شيء منهما، وهو ظاهرٌ، فيحتاج إلى تأويل، وهو أن يقدَّر لكلِّ شرطٍ منهما ما يناسب أن يكون جزاءً مترتِّباً عليه، فيقال والله تعالى أعلم: وإما نُرينَّك بعضَ الذي نعدُهم، فذلك شافيك من أعدائك، ودليلُ صدقك، وإمَّا نتوفينَّك قبل حلوله بهم فلا لومَ عليك ولا عتبَ، ويكونُ قوله تعالى: «فإنما» إلخ دليلاً عليهما، والواقعُ من الشرطين هو الأول كما في بدر.

ثم إنه سبحانه طيَّبَ نفسَه عليه الصلاة والسلام بطلوع تباشير الظَّفَر، فقال جلَّ شأنه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ إلخ، والاستفهامُ للإنكار، والواو للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: أأنكروا نزولَ ما وعدناهم، أو: أشكُّوا، أو: ألم ينظروا في ذلك ولم يروا ﴿أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ﴾ أي: أرضَ الكَفَرة ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ من جوانبها؛ بأن

---

(١) الكشاف ٢/٣٦٣.

(٢) البحر المحيط ٥/٣٩٩.

نفتَحَها شيئاً فشيئاً ونُلحِقَها بدار الإسلام، ونُذهِبَ منها أهلَها بالقتل والأسرِ والإجلاء[١]، أليس هذا مقدِّمة لذاك؟

ومثل هذه الآية قولُه تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤] ورُوي ذلك عن ابن عباس، والحسن، والضحاك، وعطية، والسدِّي، وغيرهم. ورُوي عن ابن عباس أيضاً، وأخرجه الحاكم عنه وصحَّحه[٢]، أن انتقاصَ الأرض موتُ أشرافها وكُبرائها، وذهابُ العلماء منها. وفي رواية عن أبي هريرة يرفعُه إلى رسول الله ﷺ الاقتصارُ على الأخير[٣]، ورُوي أيضاً عن مجاهد، فالمرادُ من الأرض جنسُها، والأطرافُ ـ كما قيل ـ بمعنى الأشراف، ومجيءُ ذلك بهذا المعنى محكيٌّ عن ثعلب، واستشهد له الواحديُّ بقول الفرزدق:

واسأل بنا وبكم إذا وَرَدَتْ مِنىً ... أطرافُ كلِّ قبيلةٍ مَنْ يَمنع[٤]

وقريبٌ من ذلك قولُ ابن الأعرابي: الطَّرَفُ والطَّرْف: الرجلُ الكريم، وقولُ بعضهم: طرفُ كلِّ شيء خيارُه، وجعلوا من هذا قولَ عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه: العلوم أوديةٌ، في أيِّ وادٍ أخذتَ منها خسرتَ، فخذوا من كلِّ شيء طرفاً. قال ابن عطية[٥]: أراد كرَّم الله تعالى وجهه خياراً، وأنتَ تعلمُ أن الأظهر: جانباً، وادَّعى الواحديُّ أن تفسير الآية بما تقدَّم هو اللائقُ. وتعقَّبه الإمام[٦] بأنه يمكن القولُ بلياقة الثاني، وتقريرُ الآية عليه: أوَلم يروا أنَّا نُحْدِث في الدنيا من الاختلافات خراباً بعد عمارة، وموتاً بعد حياة، وذلّاً بعد عِزٍّ، ونَقْصاً بعد كمال؟وهذه تغييرات مدرَكَة بالحسِّ، فما الذي يُؤمنهم أن يقلبَ الله تعالى الأمرَ عنهم، فيجعلهم أذلَّة بعد أن كانوا أعزَّة، ومقهورين بعد أن كانوا قاهرين؟ وهو كما ترى، وقيل: نقصُها:

---

(١) في الأصل: الجلاء، والمثبت من (م).
(٢) المستدرك ٢/ ٣٥١.
(٣) أخرجه ابن مردويه فيما ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٦٨.
(٤) البيت في ديوانه ١/ ٤٢٤، وجاء فيه: من يسمع، بدل: من يمنع.
(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٣١٩.
(٦) تفسير الرازي ١٩/ ٦٧.

هلاكُ مَنْ هلك من الأمم قبل قريش، وخراب أرضهم، أي: أَوَلم يروا إهلاكَ مَنْ قبلهم، وخرابَ ديارهم؟ فكيف يأمنون من حلولِ ذلك بهم؟ والأولُ أيضاً أوفقُ بالمقام منه، ولا يخفى ما في التعبير بالإتيان المُؤْذِنِ بعظيم الاستيلاء من الفخامة، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] وفي «الحواشي الشِّهابية»(١) أن المعنى: يأتيها أمرُنا وعذابُنا، وجملةُ «ننقصها» في موضع الحال من فاعل «نأتي»، أو من مفعوله.

وقرأ الضحَّاك: «ننقِّصُها» مثقَّلاً، من نقَّص، عدَّاه بالتضعيف من نقَصَ اللازم على ما في «البحر»(٢).

﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ﴾ ما يشاءُ كما يشاء، وقد حكم لك ولأتباعكَ بالعِزِّ والإقبال، وعلى أعدائكَ ومخالفيك بالقهر والإذلال، حسبما يشاهدُه ذَوو الأبصارِ من المخائل والآثار، وفي الالتفاتِ من التكلُّم إلى الغَيبة، وبناءِ الحكم على الاسم الجليل من الدَّلالة على الفخامة، وتربيةِ المهابة، وتحقيق مضمون الخبر بالإشارة إلى العلَّة ما لا يخفى، وهي جملةٌ اعتراضيَّةٌ جيءَ بها لتأكيد فحوى ما تقدَّمَها.

وقوله سبحانه: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ اعتراضٌ أيضاً لبيان علوِّ شأن حكمِه جلَّ وعلا، وقيل: هو نصبٌ على الحال، كأنه قيل: واللهُ تعالى يحكم نافذاً حكمُه، كما تقول: جاءني زيدٌ لا عمامةَ على رأسه ولا قلنسوة، أي: حاسراً، وإليه ذهب الزمخشريُّ(٣). قيل: وإنما أوَّل الجملةَ الاسمية بالمفرد لأنَّ تجرُّدَها من الواو إذا وقعت حالاً غيرُ فصيحٍ عنده، ولا يخفى عليك أن جعلَها معترضةً أَولى وأعلى، والمعقِّبُ: من يكُرُّ على الشيء فيبطلُه، وحقيقتُه: الذي يعقب الشيءَ بالإبطال، ومنه يسمَّى الذي يطلب حقّاً من آخر معقِّباً؛ لأنه يعقب غريمَه ويتبعه للتقاضي، قال لَبِيد:

حتى تَهَجَّرَ بالرَّواح وهاجَها ... طلبُ المعقِّبِ حقَّه المظلومُ(٤)

---

(١) حاشية الشهاب ٥/ ٢٤٧.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٠٠، ونسبها ابن خالويه ص٦٧ إلى عطية العوفي.

(٣) الكشاف ٢/ ٣٦٤.

(٤) ديوان لبيد ص١٢٨.

وقد يُسمَّى الماطلُ معقِّباً؛ لأنه يُعقب كلَّ طلبٍ بردٍّ، وعن أبي عليٍّ: عقَّبني حقِّي، أي: مطلني، ويقال للبحث عن الشيء: تعقُّب، وجوَّز الراغبُ[1] أن يُراد هذا المعنى هنا على أن يكون الكلامُ نهياً للناس أن يخوضوا في البحث عن حُكْمه وحِكْمته إذا خفيت عليهم، ويكونُ ذلك من نحو النَّهي عن الخوض في سرِّ القَدَر.

﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٤١﴾ فعمَّا قليلٍ يُحاسبُهم ويُجازيهم في الآخرة بعد ما عذَّبهم بالقتل والأسر والإجلاء في الدنيا حسبما يرى، وكأنه قيل: لا تستبطئ عقابَهم؛ فإنه آتٍ لا محالةَ، وكلُّ آتٍ قريبٌ. وقال ابنُ عباس: المعنى: سريعُ الانتقام.

﴿وَقَدْ مَكَرَ﴾ الكفَّار ﴿ٱلَّذِينَ﴾ خَلَوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ من قَبْل كفَّار مكة بالأنبياء وبالمؤمنين كما فعل هؤلاء. وهذا تسليةٌ لرسول الله ﷺ بأنه لا عبرةَ بمَكْرِهم ولا تأثير، بل لا وجودَ له في الحقيقة، ولم يُصرِّح سبحانه بذلك اكتفاءً بدلالة القَصْر المستفاد من تعليله، أعني قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ﴾ أي: جنسُ المَكْر ﴿جَمِيعًا﴾ لا وجودَ لمكرهم أصلاً؛ إذ هو عبارةٌ عن إيصال المكروه إلى الغير من حيث لا يشعرُ به.

وحيث كان جميعُ ما يأتون ويَذَرون بعلمِهِ وقدرتِهِ سبحانه، وإنما لهم مجرَّدُ الكسبِ من غير فعلٍ، ولا تأثير حسبما بيَّنه قولُه تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ ومن قضيَّته عصمةُ أوليائه سبحانه، وعقابُ الماكرين بهم توفيةً لكلِّ نفسٍ جزاءَ ما كسبت = ظهَرَ أنْ ليس لمَكْرِهم بالنسبة إلى مَنْ مكروا بهم عينٌ ولا أَثَر، وأن المكر كلَّه لله تعالى، حيث يُؤاخذهم بما كَسَبوا من فنونِ المعاصي التي من جملتها مكرُهم من حيث لا يحتسبون. كذا قاله شيخُ الإسلام[2]، وقد تكلَّف قدِّس سرُّه في ذلك ما تكلَّف، وحَمَلَ الكسبَ على ما هو الشائعُ عند الأشاعرة، واللهُ تعالى لا يفرِّقُ بينه وبين الفعل، وكذا رسولُه ﷺ، والصحابةُ ﷺ، والتابعون، واللغويُّون.

(١) مفردات ألفاظ القرآن: (عقب).
(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٨.

وقيل: وجهُ الحصر أنه لا يُعتدُّ بمَكْرِ غيرِه سبحانه؛ لأنه سبحانه هو القادرُ بالذات على إصابة المكروه المقصودِ منه، وغيرُه تعالى إنْ قَدَر على ذلك فبتمكينه تعالى وإذنه، فالكلُّ راجعٌ إليه جلَّ وعلا.

وفي «الكشاف»[(١)] أن قولَه تعالى: «يعلم ما تكسب كل نفس» إلخ، تفسيرٌ لقوله سبحانه: «فللَّه المكر جميعاً»؛ لأنَّ مَنْ علم ما تكسبُ كلُّ نفسٍ، وأعدَّ لها جزاءها، فهو له المكرُ؛ لأنه يأتيهم من حيث لا يعلمون وهم في غفلةٍ مما يُراد بهم.

وقيل: الكلامُ على حذف مضافٍ، أي: فللَّه جزاءُ المَكْر. وجوّز في «أل» أن تكون للعهد، أي: له تعالى المكرُ الذي باشروه جميعاً لا لهم، على معنى أن ذلك ليس مكراً منهم بالأنبياء، بل هو بعينه مكرٌ من الله تعالى بهم وهم لا يشعرون، حيث لا يَحيقُ المكرُ السيِّئ إلا بأهله.

﴿وَسَيَعْلَمُ الكَافِرُ﴾ حين يأتيه[(٢)] العذابُ ﴿لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾ أي: العاقبةُ الحميدةُ من الفريقين، وإن جُهِلَ ذلك قبلُ، وقيل: السينُ لتأكيد وقوع ذلك وعلمِهِ به حينئذٍ، والمرادُ من «الكافر» الجنسُ، فيشمل سائر الكفار، وهذه قراءةُ الحِرميَّين وأبي عمرو، وقرأ باقي السبعة: «وسيعلمُ الكفَّار» بصيغةِ جمع التكسير[(٣)].

وقرأ ابنُ مسعود: «الكافرون» بصيغة جمع السلامة، وقرأ أُبَيٌّ: «الذين كفروا»، وقُرِئ: «الكُفْرُ»، أي: أهله، وقرأ جَنَاح بن حُبَيش: «وسيُعلم» بالبناء للمفعول من أُعلم، أي: سيُخبر[(٤)].

واللامُ للنفع، وجُوِّز أن تكون للملك على معنى: سيعلم الكَفَرة من يملك الدنيا آخراً، وفسر عطاءٌ «الكافر» بالمستهزئين، وهم خمسة، والمُقْسِمِين، وهم

---

(١) ٢/ ٣٦٤.

(٢) في (م): ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ﴾ حين يأتيهم.

(٣) التيسير ص١٣٤، والنشر ٢/ ٢٩٨.

(٤) تفسير الطبري ١٣/ ٥٨١، والقراءات الشاذة ص٦٧، والمحرر الوجيز ٣/ ٣١٩، والبحر المحيط ٥/ ٤٠١، وهي مُفسرة عند بعضهم. وقد تحرف لفظ حبيش إلى حبيس، في الأصل و(م).

ثمانية وعشرون، وقال ابنُ عباس: يريدُ بـ «الكافر» أبا جهلٍ. وما تقدَّم هو الظاهرُ، ولعلَّ ما ذُكر من باب التمثيل.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ﴾ قيل: قاله رؤساءُ اليهود. وأخرج ابنُ مَرْدويه عن ابن عباس قال: قدم على رسول الله ﷺ أُسقُفٌ من اليمن، فقال له عليه الصلاة والسلام: «هل تجدُني في الإنجيل رسولاً؟» قال: لا. فأنزل الله تعالى الآيةَ[1]. فالمرادُ من «الذين كفروا» ـ على هذا ـ هذا ومَنْ وافَقَه ورضي بقوله.

وصيغةُ الاستقبال لاستحضارِ صورة كَلِمَتهم الشَّنعاء تعجيباً منها، أو للدلالةِ على تجدُّدِ ذلك منهم واستمرارِه.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۚ﴾ فإنه جلَّ وعلا قد أظهر على رسالتي من الأدلَّة والحُجَج ما فيه غنًى عن شهادة شاهدٍ آخر. وتسميةُ ذلك شهادةً مع أنه فعلٌ وهي قولٌ مجازٌ من حيث إنه يُغني غناها، بل هو أقوى منها.

﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ أي: علمُ القرآن وما عليه من النظم المعجِزِ.

قيل: والشهادةُ إن أُريد بها تحمُّلها فالأمر ظاهرٌ، وإن أُريد بها أداؤها فالمرادُ بالموصول المتَّصف بذلك العنوان مَنْ تَرَكَ العنادَ وآمن.

وفي «الكشف» أن المعنى: كفى هذا العالم شهيداً بيني وبينكم، ولا يلزمُ من كفايته في الشهادة أن يؤدِّيها، فمن أدَّاها فهو شاهدٌ أمين، ومن لم يؤدِّها فهو خائنٌ، وفيه تعريضٌ بليغٌ بأنهم لو أنصفوا شهدوا.

وقيل: المراد بـ «الكتاب»: التوراةُ والإنجيل، والمراد بمن عندَه علمُ ذلك: الذين أسلموا من أهل الكتابين، كعبد الله بنِ سلام وأضرابه؛ فإنهم يشهدون بنَعتِه عليه الصلاة والسلام في كتابهم، وإلى هذا ذهب قتادةُ؛ فقد أخرجَ عبد الرزَّاق، وابنُ جرير، وابن المُنذر عنه أنه قال في الآية: كان من أهل الكتاب قومٌ يشهدون بالحقِّ ويعرفونه، منهم عبد الله بنُ سلام، والجارود، وتميمٌ الداريُّ، وسلمانُ الفارسيُّ[2].

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٦٩.

(٢) مصنف عبد الرزاق ١/ ٣٣٩، وتفسير الطبري ١٣/ ٥٨٣، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٦٩، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم.

وجاء عن مجاهد وغيرِه ـ وهي روايةٌ عن ابن عباس ـ أن المراد بذلك عبدُ الله، ولم يذكروا غيرَه.

وأخرج ابنُ مردويه من طريق عبد الملك بن عُمَير، عن جُنْدب قال: جاء عبد الله بنُ سلام حتى أخذ بعضادتَي باب المسجد، ثم قال: أنشُدُكم بالله تعالى، أتعلمون أنِّي الذي أُنزلت فيه: «ومن عنده علم الكتاب»؟ قالوا: اللهمَّ نعم[١]. وأنكر ابنُ جُبَير ذلك؛ فقد أخرج سعيد بنُ منصور وجماعةٌ عنه أنه سُئل: أهذا الذي عنده علمُ الكتاب هو عبد الله بنُ سلام؟ فقال: كيف وهذه السورةُ مكيةٌ؟![٢] والشعبيُّ أنكر أن يكون شيء من القرآن نزل فيه وهذا لا يعوَّل عليه، فمن حَفِظَ حجَّة على مَنْ لم يحفظ، وأُجيب عن شبهة ابن جُبير بأنهم قد يقولون: إن السورة مكيةٌ، وبعض آياتها مدنيةٌ، فلتكن هذه من ذلك، وأنتَ تعلمُ أنه لا بدَّ لهذا من نقل.

وفي «البحر»[٣] أن ما ذُكر لا يستقيم إلا أن تكون هذه الآيةُ مدنيةً، والجمهورُ على أنها مكيةٌ. وأُجيب بأن ذلك لا ينافي كونَ الآيةِ مكيةً، بأن يكون الكلامُ إخباراً عما سيشهد به، ولك أن تقول: إذا كان المعنى على طرز ما في «الكشف»، وأنه لا يلزم من كفاية من ذُكر في الشهادة أداؤها، لم يضرَّ كونُ الآية مكيةً، وعدمُ إسلام عبد الله بن سَلَام حين نزولها، بل ولا عدمُ حضوره، ولا مانعَ أن تكون الآيةُ مكية، والمرادُ من «الذين كفروا» أهلُ مكة، وممن عنده علم الكتاب اليهودُ والنصارى؛ كما أخرجه ابن جرير[٤] من طريق العوفيِّ عن ابن عباس، ويكون الحاصل الجواب بذلك: إنكم لستُم بأهل الكتاب، فاسألوا أهلَه؛ فإنهم في جواركم. نعم قال شيخ الإسلام[٥]: إنَّ الآيةَ مدنيةٌ بالاتفاق. وكأنه لم يقف على الخلاف، وقيل: المرادُ بـ «الكتاب» اللوح، و«من» عبارة عنه تعالى، ورُوي هذا

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٦٩.

(٢) سنن سعيد بن منصور (١١٧٧التفسير)، وأخرجه الطبري ١٣/ ٥٨٦.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٠١.

(٤) تفسير الطبري ١٣/ ٥٨٢.

(٥) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٩.

عن مجاهد والزجَّاج(١)، وعن الحسن: لا والله ما يعني إلا الله تعالى. والمعنى ـ كما في «الكشاف»(٢) ـ: كفى بالذي يستحقُّ العبادةَ، وبالذي لا يعلم علمَ ما في اللوح إلا هو شهيداً بيني وبينكم، وبهذا التأويل صار العطفُ مثله في قوله:

إلى الملك القَرْمِ وابنِ الهُمام وليثِ الكتيبة في المزدَحَمِ(٣)

فلا محذورَ في العطف، والحصرُ إما من الخارج؛ لأن علم ذلك محصورٌ به تعالى، أو للذهاب إلى أنَّ الظرف خبرٌ مقدَّم، فيفيد الحصرَ. وقَسَمُ الحسنِ للمبالغة في ردِّ ما زعموا على ما قيل. وفي «الكشف»: إنما بالغ الحسنُ لما قدَّمنا من بناء السُّورة الكريمة على ما بني، وجعل السابقة مثلَ الخاتمة، وما في العطف من النكتة، ولهذا فسَّره الزمخشريُّ بقوله: كفى بالذي إلخ، عطفَهُ عطفَ ذاتٍ على ذاتٍ؛ إشارةً إلى الاستقلال بالشهادة من كلٍّ واحد من الوصفين من غيرِ نظرٍ إلى الآخر، فالذي يستحقُّ العبادةَ قد شهد بما شحن الكتاب من الدَّعوة إلى عبادته، وبما أيَّد عبدَه من عندِه بأنواع التأييد، والذي لا يعلم علمَ ما في اللوح، أي: علمَ كلِّ شيء إلا هو قد شهد بما ضمَّنَ الكتابَ من المعارف، وأنزله على أسلوبٍ فائق على المتعارَف، ويعضُدُ ذلك القول أنه قرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهَه، وأُبَيٌّ، وابن عباس، وعكرمة، وابن جبير، وعبد الرحمن بن أبي بَكْرة، والضحَّاك، وسالم بن عبد الله بن عمر، وابنُ أبي إسحاق، ومجاهد، والحَكَم، والأعمش: «ومِنْ عِنْدِهِ علمُ الكتاب»(٤) بجعل «من» حرفَ جرٍّ، والجارّ والمجرور خبر مقدَّم، و«علم» مبتدأ مؤخَّر.

وقرأ عليٌّ ـ كرَّم الله تعالى وجهه ـ أيضاً، وابنُ السَّمَيْفَع، والحسنُ بخلاف عنه: «ومِنْ عندِهِ» بحرف الجر، و«عُلِمَ الكتابُ»(٥) على أن «عُلِمَ» فعلٌ مبنيٌّ للمفعول،

---

(١) معاني القرآن ٣/ ١٥١، واقتصر على قوله: و«من» يعود على الله عز وجل.
(٢) ٢/ ٣٦٤.
(٣) سلف البيت ٢/ ٣٥٠.
(٤) القراءات الشاذة ص٦٧، والبحر ٥/ ٤٠٢.
(٥) القراءات الشاذة ص٦٧، والبحر ٥/ ٤٠٢، وذكر ابن خالويه أن الحسن قرأ كذلك: «ومِنْ عندِهِ أمُّ الكتاب».

و«الكتابُ» نائب الفاعل؛ فإن ضمير «عنده» على القراءتين راجع لله تعالى كما في القراءة السابقة على ذلك التأويل، والأصل توافقُ القراءات، وقيل: المراد بـ «الكتاب» اللوحُ، وبـ «من» جبريل عليه السلام. وأخرج تفسير «من» بذلك ابنُ أبي حاتم عن ابن جُبير، وهو كما ترى.

وقال محمد ابنُ الحَنَفيَّة والباقرُ؛ كما في «البحر»[1]: المراد بـ «من» عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه، والظاهر أن المراد بـ «الكتاب» حينئذٍ القرآنُ، ولَعَمري إن عنده رضي الله عنه علمُ الكتاب كملاً، لكن الظاهر أنه كرَّم الله تعالى وجهه غيرُ مراد.

والظاهر أن «من» في قراءة الجمهور في محل جرٍّ بالعطف على لفظ الاسم الجليل، ويؤيِّده أنه قُرئ بإعادة الباء في الشواذِّ[2]، وقيل: إنه في محلِّ رفعٍ بالعطف على محلِّه؛ لأن الباء زائدةٌ، وقال ابنُ عطية[3]: يحتمل أن يكون في موضع رفعٍ على الابتداء، والخبرُ محذوفٌ تقديرُه: أعدلُ أو أمضى قولاً، أو نحو هذا مما يدلُّ عليه لفظُ «شهيداً»، ويُراد بذلك الله تعالى، وفيه من البُعد ما لا يخفى.

والعلمُ في القراءة التي وقع «عنده» فيها صلةً مرفوعٌ بالمقدَّر في الظرف، فيكون فاعلاً؛ لأن الظرفَ إذا وقع صلةً أوغَلَ في شَبَه الفعل؛ لاعتماده على الموصول، فعمل عمل الفعل، كقولك: مررتُ بالذي في الدار أخوه. فأخوه فاعلٌ، كما تقول: بالذي استقرَّ في الدار أخوه. قاله الزمخشريُّ[4]، وليس بالمتحتِّم؛ لأن الظرفَ وشبهَهُ إذا وقعا صِلَتين، أو صفتين، أو حالين، أو خبرين، أو تقدَّمَهما أداةُ نفي أو استفهام، جاز فيما بعدَهما من الاسم الظاهر أن يرتفعَ على الفاعلية، وهو الأجود، وجاز أن يكون مبتدأً والظرفُ أو شبهُهُ في موضع الخبر، والجملةُ من المبتدأ والخبر صلةٌ، أو صفةٌ، أو حال، أو خبر، وهذا مبنيٌّ على اسم الفاعل، فكما جاز ذلك فيه، وإن كان الأحسنُ إعمالَه في الاسم الظاهر، فكذلك يجوزُ فيما ناب عنه من ظرفٍ أو مجرور، وقد نصَّ سيبويه على

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٠١.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٠٢، والدر المصون ٧/ ٦٣.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٠.
(٤) الكشاف ٢/ ٣٦٥.

إجازة ذلك في نحو: مررتُ برجلٍ حسنٌ وجهُه، فأجاز رفع حسن على أنه خبرٌ مقدَّم. وقد توهَّم بعضُهم أن اسم الفاعل إذا اعتمد على شيء مما ذُكر تحتَّم إعمالُه في الظاهر، وليس كذلك. وقد أعرب الحوفيُّ «عنده علم الكتاب» مبتدأ وخبراً في صلة «من»، وهو ميلٌ إلى المرجوح، وفي الآية على القراءتين بـ «من» الجارَّة دلالةٌ على أن تشريفَ العبد بعلوم القرآن من إحسان الله تعالى إليه وتوفيقه، نسألُ الله تعالى أن يُشرِّفنا بهاتيك العلوم، ويوفِّقنا للوقوف على أسرار ما فيه من المنطوق والمفهوم، ويجعلَنا ممَّن تمسَّك بعروته الوثقى، واهتدى بهداه، حتى لا يضلَّ ولا يشقى، ببركة النبيِّ ﷺ.

❊ ❊ ❊

ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ قيل: عهدُ الله تعالى مع المؤمنين القيامُ له سبحانه بالعبودية في السرَّاء والضرَّاء. ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ فيَصِلُون بقلوبهم محبَّتَه، وبأسرارهم مشاهدتَه سبحانه وقربتَه. ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ عند تجلِّي الصفات في مقام القلب، فيشاهدون جلالَ صفة العظمة، ويلزَمُهم الهيبةُ والخشية. ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ عند تجلِّي الأفعال في مقام النفس، فينظرون إلى البطش والعقاب، فيلزمهم الخوف.

وسُئل ابنُ عطاء: ما الفرقُ بين الخشية والخوف؟ فقال: الخشيةُ من السقوط عن درجات الزُّلفى، والخوف من اللُّحوق بدَرَكات المَقْت والجفا. وقال بعضُهم: الخشيةُ أدقُّ، والخوفُ أصلب.

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ صبروا عمَّا دون الله تعالى بالله سبحانه لكشفِ أنوار وجهه الكريم، أو صبروا في سلوك سبيله سبحانه عن المألوفات طلباً لرضاه. ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ صلاةَ المشاهدة، أو اشتغلوا بالتزكية بالعبادات البدنية. ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أفادوا مما مَنَنَّا عليهم من الأحوال والمقامات والكشوف، وهذَّبوا المريدين حتى صار لهم ما صار لهم ظاهراً وباطناً، أو اشتغلوا بالتزكية بالعبادات المالية أيضاً[1]. ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ الحاصلةِ لهم من تجلِّي الصفة

---

(١) قوله: أيضاً، لم يرد في الأصل، والمثبت من (م).

الإلهية السَّنِيَّة ﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ التي هي صفةُ النفس. وقال بعضُهم: يعاشرون الناسَ بحُسْن الخُلق، فإن عامَلَهم أحدٌ بالجفاء قابلوه بالوفاء. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ البقاءُ بعد الفناء، أو العاقبةُ الحميدة.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ قيل: يدخلون جنةَ الذات ومَنْ صلح من آباء[1] الأرواح، ويدخلون جنةَ الصفات بالقلوب، ويدخلون جنةَ الأفعال ومَنْ صلح من أزواج النفوس وذُرِّيات القوى، أو يدخلون جناتِ القربِ والمشاهدة والوِصال، ومَنْ صلح من المذكورين تبعٌ لهم، ولأجلِ عينٍ ألفُ عين تكرم.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ يدخل عليهم أهلُ الجبروت وأهل المَلَكوت من كلِّ بابٍ من أبواب الصفات، محيِّين لهم بتحايا الإشراقات النورية، والإمدادات القدسية، أو يدخلُ عليهم الملائكةُ الذين صَحِبُوهم في الدنيا من كلِّ بابٍ من أبواب الطاعة، مسلِّمين عليهم بعد استقرارهم في منازلهم كما يُسلِّم أصحابُ الغائب عليه إذا قَدِم إلى منزله واستقرَّ فيه.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الإيمانَ العلميَّ بالغيب. ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ قالوا: ذِكْرُ النفس باللسان والتفكرِ في النِّعم، وذِكْرُ القلب بالتفكُّر في المَلَكوت، ومطالعةِ صفات الجمال، وذِكْرُ السرِّ بالمناجاة، وذِكْرُ الروح بالمشاهدة، وذِكْرُ الخفاء[2] بالمناغاة في العشق[3]، وذِكر الله تعالى بالفناء فيه.

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ وذلك أن النفسَ تضطربُ بظهور صفاتها وأحاديثها، وتطيشُ فيتلوَّن القلبُ ويتغيَّر لذلك، فإذا تفكَّر في المَلَكوت، ومطالعةِ أنوار الجمال والجبروت، استقرَّ واطمأنَّ، وسائرُ أنواع الذِّكْر إنما يكون بعد الاطمئنان، قال الهزجوري[4]: قلوبُ الأولياء مطمئنَّة لا تتحرَّك دائماً؛ خشيةَ أن

(١) في الأصل: من آبائهم، والمثبت من (م).
(٢) في الأصل: وذكر الخفي، والمثبت من (م).
(٣) في الأصل: بالعشق، والمثبت من (م).
(٤) كذا في الأصل و(م)، ولعله تحريف، صوابه: الهُجْويري، وهو أبو الحسن علي بن

يتجلَّى الله تعالى عليها فجأةً، فيجدَها غيرَ متَّسِمةٍ بالأدب.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ﴾ تخليةً وتحليةً ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ بالوصول إلى الفِطْرة وكمالِ الصفات ﴿وَحُسْنُ مَئَابٍ﴾ بالدخول في جنة القلب، وهي جنةُ الصفات، أو «طوبى لهم» الآن حيث لم يُوجد منهم ما يُخالف رضاء محبوبهم، «وحسنُ مآبٍ» في الآخرة حيث لا يجدون من محبوبهم خلافَ مأمولهم.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: بحسب كَسْبها ومقتضاه، أي: كما تقتضي مكسوباتُها من الصفات والأحوال التي تعرضُ لاستعدادها يُفيض عليها من الجزاء.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ ما أَخرج سبحانه أحداً من العبودية حتى سيِّد أحرارِ البَرِيَّة ﷺ. وفسَّرها أبو حفص بأنها تركُ كلِّ ملكٍ، وملازمةُ المأمور به. وقال الجُنيد قُدِّس سرُّه: لا يرتقي أحدٌ في درجات العبودية حتى يُحكِمَ فيما بينه وبين الله تعالى أوائلَ البدايات، وهي الفروضُ والواجبات، والسُّنن والأوراد، ومطايا الفضل عزائمُ الأمور، فمن أحكَمَ على نفسه هذا، مَنَّ الله تعالى عليه بما بعدَه. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ فيه ـ على ما قيل ـ إشارةٌ إلى أنه إذا شرَّف الله تعالى شخصاً بولايته لم يضرَّ به مباشرة أحكام البشرية من الأهل والولد، ولم يكن بسطُ الدنيا له قَدْحاً في ولايته.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فيه منعُ طلبِ الكرامات واقتراحِها من المشايخ. ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لكلِّ وقتٍ أمرٌ مكتوبٌ يقع فيه ولا يقع في غيره، ومن هنا قيل: الأمور مرهونة لأوقاتها. وقيل: لله تعالى خواصّ في الأزمنة والأمكنة والأشخاص.

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ قيل: يمحو عن ألواحِ العقول صورَ الأفكار،

= عثمان بن أبي علي الجلابي الحسيني، الحنفي الغَزْنوي، من قرية هُجْويرة من مضافات غَزْنين، صنف: كشف حجب المحجوب لأرباب القلوب، وهو من شروح الفصوص، وثواقب الأخبار. توفي بلاهور سنة (٤٦٥هـ). تاج العروس: (هجر)، وكشف الظنون ٢/ ١٤٨٨ و١٤٩٤، وهدية العارفين ٥/ ٦٩١.

ويثبتُ فيها أنوار الأذكار، ويمحو عن أوراق القلوب[١] علومَ الحدثان، ويثبتُ فيها لدُنيَّات علمِ العرفان، وقيل: يمحو العارفين بكشف جلاله، ويُثبتهم في وقتٍ آخر بلطفِ جماله، وقال ابنُ عطاء: يمحو أوصافَهم، ويُثبت أسرارَهم؛ لأنها موضعُ المشاهدة. وقيل: يمحو ما يشاء عن الألواح الجزئيَّة التي هي النفوسُ السماويَّة من النقوش الثابتة فيها، فيعدم عن المواد ويفني، ويثبتُ ما يشاء فيها فيوجد.

﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ العلمُ الأزليُّ القائمُ بذاته سبحانه، وقيل: لوحُ القضاء السابق الذي هو عقلُ الكلِّ، وفيه كلُّ ما كان ويكون أزلاً وأبداً على الوجهِ الكليِّ المنزَّهِ عن المحوِ والإثبات. وذكروا أن الألواح أربعةٌ: لوحُ القضاء السابق العالي عن المحو والإثبات، وهو لوحُ العقل الأول، ولوحُ القدر، وهو لوحُ النفس الناطقة الكلية التي يُفصل فيها كلياتُ اللوح الأول، وهو المسمَّى باللوح المحفوظ، ولوحُ النفوس الجزئيَّة السماويَّة التي يُنتقش فيها كلُّ ما في هذا العالم بشكله وهيئته ومقداره، وهو المسمَّى بالسماء الدنيا، وهو بمثابة خيال العالم، كما أنَّ الأول بمثابة روحه، والثاني بمثابة قلبه، ثم لوحُ الهُيولى القابلُ للصور في عالم الشهادة. اهـ. وهو كلامٌ فلسفي.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قيل: ذلك بذهابِ أهل الولاية الذين بهم عمارةُ الأرض، وقيل: الإشارةُ أنَّا نقصِدُ أرضَ الجسد وقت الشيخوخة، ننقُصُها من أطرافها بضعفِ الأعضاء والقوى الظاهرة والباطنة شيئاً فشيئاً، حتى يحصلَ الموتُ، أو نأتي أرضَ النفس وقتَ السلوك ننقُصُها من أطرافها بإفناء أفعالها بأفعالنا أوَّلاً، وبإفناء صفاتها بصفاتنا ثانياً، وبإفناء ذاتها في ذاتنا ثالثاً.

﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ لا رادَّ ولا مبدِّل لكلِّ ما حكم به، نسألُ الله تعالى أن يحكُمَ لنا بما هو خيرٌ وأولى في الآخرة والأولى، بحرمةِ النبيِّ ﷺ وشرَّفَ وعظَّم وكرَّم.

---

(١) في الأصل: العقول، والمثبت من (م).

(١٤) سُورَةُ إبراهيم مكيّة
وآياتها اثنتان وخمسون

سورةُ إبراهيم مكيةٌ وموضوعُها الأساسي هو موضوع السور المكية ، وهدفها نفس هدف المكي وهو العقيدةُ في أصولها الكبيرة من الإيمان بالله واليوم الآخر ، والإيمان بالكتب والرسل ، والتركيزُ حول الوحي والرسالة ، وتقريرُ مبدأ الحساب والجزاء . سُميت هذه السورة الكريمة « سورة إبراهيم » تخليداً لمآثر إبراهيم عليه السلام ، المبارك الأوّاه ، الشاكر المنيب « أبو الأنبياء » الذي أخلص نفسه لله فاختاره الله لخلَّته وجعل في ذرِّيته النبوة والكتاب ، وقد خصَّه تعالى بحماية جَنَاب التوحيد ، واستجاب لتلك الدعوات الطيبة الطاهرة ، حين دعا بها لنفسه ولذريته بعد أن انتهى من بناء البيت العتيق « وإذ قال إبراهيم ربِّ اجعلْ هذا البلدَ آمناً واجنُبْني وبَنِيَّ أنْ نعبدَ الأصنام . ربِّ إنهنَّ أضلَلْنَ كثيراً من الناسِ ، فمنْ تَبِعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفورٌ رحيم » ولهذا سُميت هذه السورة بسورة إبراهيم .

بدأت السورةُ الكريمة ببيانِ وظيفةِ الرسول ، وبتمجيد هذا الكتاب المعجز الذي أنزله الله نوراً وهدى وشفاءً لما في الصدور « آلر . كتابٌ أنزَلنَاهُ إليكَ لتُخْرِج الناسَ من الظلماتِ إلى النور بإذن ربهم إلى صراطِ العزيز الحميد . اللهِ الذي له ما في السموات وما في الأرض ، وويلٌ للكافرين من عذاب شديد » ثم ذكرتْ حقيقةَ وحدةِ الرسالة السماوية التي بعث الله بها الأنبياء والمرسلين ، فرسالتُهم واحدة ، ودعوتُهم

واحدة ، وهدفُهم واحد وهو تعريفُ الناسِ بالإلهِ الحقِّ ، خالقِ الكائنات ، ومنشيء العوالم ، الذي أرسل الرسل بلغاتِ أقوامهم ليبينوا لهم شريعة الله « وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسان قومه – أي بلغة قومه – ليبيّنَ لهم فيُضِلُّ الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيزُ الحكيم » وفي أثناء بيان هذه الحقيقة يَذْكُرُ تعالى أنَّ موسى قد أُرسِلَ بمثلِ ما أرسل به محمدٌ ﷺ بياناً لوَحدةِ الرسالة ووحدةِ الهدف ، وهي إنقاذُ البشرية من ظلمات الكفر والضلال ، وتذكيرهم بالله الواحد الأحد الذي تعنو له الوجوه « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أَنْ أَخرجْ قومَك من الظُّلماتِ إلى النورِ وذكّرْهمْ بأيامِ اللهِ ، إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لكلِ صبَّارٍ شكور » وإلى جانب وظيفة الرسول تتحدث السورة عن حقيقة الرسالة . وحقيقةِ الرسولِ البشرية وهي التي تحدّد وظيفته فهو إنسان يُوحَى إليه ، وهو مبلّغٌ ومنذرٌ عن الله ، وناصحٌ وأمين ، ولقد كانت بشريةُ الرسلِ هي موضعَ الاعتراض من جميع الأقوام في شتَّى الأزمان والعصور ، فقد استبعدوا أن يبعث الله الرسل من البشر ولذلك كذبوهم وردُّوا عليهم دعوتهم « قالوا إن أنتم إلا بشرٌ مثلُنا تريدون أن تصدُّونا عما كان يعبدُ آباؤنا فأتونا بسلطانٍ مبين . قالت لهم رسلُهم إنْ نحنُ إلا بشرٌ مثلُكُم ولكنَّ اللهَ يمنُّ على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطانٍ إلاّ بإذنِ الله ، وعلى اللهِ فليتوكل المؤمنون » وينتقل الحديثُ من الكلام إلى البطش والانتقام وإلى تلك الحرب السافرة ضدَّ رسل الله الكرام ﴿ وقال الذين كفروا لرسُلهمْ لنخرجنَّكم من أرضنا أو لتعودُنَّ في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكنَّ الظالمين . ولنسكنَّنكم الأرضَ من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد » ويقف الطغاة المتجبرون بقوتهم الهزيلة الضئيلة في صفٍّ ، ويقف الرسلُ الداعون المتواضعون ومعهم قوة الله العظيمة في صفٍّ ، ويدعو كلٌّ من الفريقين

بالنصر والفتح وينكشف الأمر عن هلاك الظالمين «واستفتحوا وخابَ كلُّ جبارٍ عنيد . من ورائهِ جهنَّمُ ويُسْقَى من ماءٍ صديد يتجرعُه ولا يكادُ يُسيغُه ويأتيه الموتُ من كلِ مكانٍ وما هو بميِّت ، ومن ورائِه عذابٌ غليظ » . ثم يأتي المشهد المفزعُ في الآخرة حيث يلتقي القادة المتجبرون بالأتباع الضعفاء ، الذين ضلّوا وأضلّوا غيرهم من ضعفاء العقول ، بطريق الإغراء والإغواء ، ويقفون في ساحة الحساب وقد غشيهم الذلُّ والهوان ، ويستشفع الأتباع بالقادة الزعماء ، فلا ينالهم من تلك الشفاعة إلا الحسرةُ والندم «وبرزوا للهِ جميعاً فقال الضعفاءُ للذين استكبروا إنّا كنّا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنّا من عذاب اللهِ من شيء ؟ قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواءٌ علينا أَجَزِعْنا أم صبرنا ما لنا من محيص » وتنتقل الآياتُ إلى مشهدٍ آخر في القيامة حيث يصبح الناس فريقين «فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير » ويتلظى الكفار بلهبِ النار ، ويلتفتون إلى الشيطان الذي زيَّن لهم الكفر وأغراهم بالعصيان ، فينها لون عليه باللعنة والشتائم ، وهناك يرى الإنسان عجباً ، يرى الشيطان وقد ظهر لهم على المسرح يلبس مسوح الكهّان ويخطبُ في أتباعه الغاوين خطبته الشهيرة «وقال الشيطانُ لما قُضيَ الأمرُ إن الله وعدكم وعدَ الحقِّ ، ووعدتكم فأخلفتُكم ، وما كان لي عليكم من سلطانٍ إلا أن دعوتُكم فاستجبتُمْ لي ، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيَّ – أي ما أنا بمغيثكم من عذاب الله وما أنتم بمنقذيَّ – إني كفرتُ بما أشركتموني من قبل ، إن الظالمين لهم عذابٌ أليم » ثم تنتقل الآيات إلى الحديث عن كفار مكة الذين بطروا النعمة وكفروا بآيات الله فاستحقوا الهلاك والدمار «ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمةَ الله كفراً وأحلُّوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار » وتختم السورة الكريمة ببيان نهاية المجرمين يوم الدين ، حيث

تلفح وجوهَهُم النارُ وهم في السلاسل والأغلال وقد لاقوا جزاءهم العادل « وترى المجرمين يومئذٍ مُقَرَّنين في الأصفاد. سرابيلُهُمْ من قَطِرَانٍ وتَغْشَى وجوهَهُم النارُ. ليجزي الله كل نفسٍ ما كسبت إنَّ الله سريع الحساب » وتنتهي السورةُ الكريمة بالتحذير والإنذار كما بدأتْ بالدعوة والتذكير « هذا بلاغٌ للناسِ ولِيُنْذروا به ، وليعلموا أنما هو إلهٌ واحدٌ ، وليذَّكَّرَ أولوا الألباب ».

سورة إبراهيم

[٥٢٤] أخرج ابن جرير عن عطاء بن يسار قال: نزلت هذه الآية في الذين قتلوا يوم بدر: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾[1] الآية.

* * *

[٥٢٤] (١) سورة إبراهيم: الآية (٢٨).

سورة إبراهيم

مكية إلا آيتي ٢٨ و٢٩ فمدنيتان وآياتها ٥٢ نزلت بعد سوة نوح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١﴾

اعلم أن الكلام في أن هذه السورة مكية أو مدنية طريقه الآحاد. ومتى لم يكن في السورة ما يتصل بالأحكام الشرعية فنزولها بمكة والمدينة سواء، وإنما يختلف الغرض في ذلك إذا حصل فيه ناسخ ومنسوخ فيكون فيه فائدة عظيمة وقوله: ﴿الٓر كِتَٰبٌ﴾ معناه أن السورة المسماة بالر كتاب أنزلناه إليك لغرض كذا وكذا فقوله: ﴿الٓر﴾ مبتدأ وقوله: ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبره وقوله: ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ صفة لذلك الخبر.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: دلت هذه الآية على أن القرآن موصوف بكونه منزلاً من عند الله تعالى. قالت المعتزلة: النازل والمنزل لا يكون قديمًا.

وجوابنا: أن الموصوف بالنازل والمنزل هو هذه الحروف وهي محدثة بلا نزاع.

المسألة الثانية: قالت المعتزلة: اللام في قوله: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ لام الغرض والحكمة، وهذا يدل على أنه تعالى إنما أنزل هذا الكتاب لهذا الغرض، وذلك يدل على أن أفعال الله تعالى وأحكامه معللة برعاية المصالح.

أجاب أصحابنا بأن من فعل فعلاً لأجل شيء آخر فهذا إنما يفعله لو كان عاجزًا عن تحصيل هذا المقصود إلا بهذه الواسطة وذلك في حق الله تعالى محال، وإذا ثبت بالدليل أنه يمتنع تعليل أفعال الله تعالى وأحكامه بالعلل ثبت أن كل ظاهر أشعر به فإنه مؤول محمول على معنى آخر.

المسألة الثالثة: إنما شبه الكفر بالظلمات لأنه نهاية ما يتحير الرجل فيه عن طريق الهداية وشبه الإيمان بالنور لأنه ما ينجلي به طريق هدايته.

المسألة الرابعة: قال القاضي: هذه الآية فيها دلالة على إبطال القول بالجبر من جهات: أحدها: أنه تعالى لو كان يخلق الكفر في الكافر فكيف يصح إخراجه منه بالكتاب. وثانيها: أنه تعالى أضاف الإخراج من الظلمات إلى النور إلى الرسول ﷺ فإن كان خالق ذلك الكفر هو الله

تعالى فكيف يصح من الرسول عليه الصلاة والسلام إخراجهم منه وكان للكافر أن يقول: إن الله خلق الكفر فينا فكيف يصح منك أن تخرجنا منه فإن قال لهم: أنا أخرجكم من الظلمات التي هي كفر مستقبل لا واقع، فلهم أن يقولوا: إن كان تعالى سيخلقه فينا لم يصح ذلك الإخراج وإن لم يخلقه فنحن خارجون منه بلا إخراج. وثالثها: أنه ﷺ إنما يخرجهم من الكفر بالكتاب بأن يتلوه عليهم ليتدبروه وينظروا فيه فيعلموا بالنظر والاستدلال كونه تعالى عالمًا قادرًا حكيمًا ويعلموا بكون القرآن معجزة صدق الرسول ﷺ وحينئذ يقبلوا منه كل ما أداه إليهم من الشرائع، وذلك لا يصح إلا إذا كان الفعل لهم ويقع باختيارهم، ويصح منهم أن يقدموا عليه ويتصرفوا فيه.

والجواب عن الكل أن نقول: الفعل الصادر من العبد إما أن يصدر عنه حال استواء الداعي إلى الفعل والترك أو حال رجحان أحد الطرفين على الآخر.

والأول: باطل، لأن صدور الفعل رجحان لجانب الوجود على جانب العدم، وحصول الرجحان حال حصول الاستواء محال.

والثاني: عين قولنا لأنه يمتنع صدور الفعل عنه إلا بعد حصول الرجحان، فإن كان ذلك الرجحان منه عاد السؤال، وإن لم يكن منه بل من الله تعالى، فحينئذ يكون المؤثر الأول هو الله تعالى وذلك هو المطلوب والله أعلم.

المسألة الخامسة: احتج أصحابنا على صحة قولهم في أن فعل العبد مخلوق لله تعالى بقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ فإن معنى الآية أن الرسول ﷺ لا يمكنه إخراج الناس من الظلمات إلى النور إلا بإذن ربهم، والمراد بهذا الإذن إما الأمر، وإما العلم، وإما المشيئة والخلق. وحمل الإذن على الأمر محال، لأن الإخراج من الجهل إلى العلم لا يتوقف على الأمر، فإنه سواء حصل الأمر أو لم يحصل، فإن الجهل متميز عن العلم والباطل متميز عن الحق، وأيضًا حمل الإذن على العلم محال، لأن العلم يتبع المعلوم على ما هو عليه فالعلم بالخروج من الظلمات إلى النور تابع لذلك الخروج ويمتنع أن يقال إن حصول ذلك الخروج تابع للعلم بحصول ذلك الخروج ولما بطل هذان القسمان لم يبق إلا أن يكون المراد من الإذن المشيئة والتخليق، وذلك يدل على أن الرسول ﷺ لا يمكنه إخراج الناس من الظلمات إلى النور إلا بمشيئة الله وتخليقه.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يكون المراد من الإذن الإلطاف.

قلنا: لفظ اللطف لفظ مجمل ونحن نفصل القول فيه فنقول: المراد بالإذن إما أن يكون أمرًا يقتضي ترجيح جانب الوجود على جانب العدم أو لا يقتضي ذلك، فإن كان الثاني لم يكن فيه أمر ألبتة، فامتنع أن يقال: إنه مما حصل بسببه ولأجله فبقي الأول وهو أن المراد من الإذن معنى يقتضي ترجيح جانب الوجود على جانب العدم. وقد دللنا في (الكتب العقلية) على أنه متى حصل الرجحان فقد حصل الوجوب ولا معنى لذلك إلا الداعية الموجبة وهو عين قولنا، والله أعلم.

المسألة السادسة: القائلون بأن معرفة الله تعالى لا يمكن تحصيلها إلا من تعليم الرسول ﷺ والإمام، احتجوا عليه بهذه الآية وقالوا: إنه تعالى صرح في هذه الآية بأن الرسول هو الذي يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، وذلك يدل على أن معرفة الله تعالى لا تحصل إلا من طريق التعليم.

وجوابنا: أن الرسول ﷺ يكون كالمنبه، وأما المعرفة فهي إنما تحصل بالدليل، والله أعلم.

المسألة السابعة: الآية دالة على أن طرق الكفر والبدعة كثيرة وأن طريق الخير ليس إلا الواحد، لأنه تعالى قال: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ فعبر عن الجهل والكفر بالظلمات وهي صيغة جمع وعبر عن الإيمان والهداية بالنور وهو لفظ مفرد، وذلك يدل على أن طرق الجهل كثيرة، وأما طريق العلم والإيمان فليس إلا الواحد.

المسألة الثامنة: في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ وجهان:

الأول: أنه بدل من قوله إلى النور بتكرير العامل كقوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ٧٥].

الثاني: يجوز أن يكون على وجه الاستئناف كأنه قيل: إلى أي نور فقيل: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

المسألة التاسعة: قالت المعتزلة: الفاعل إنما يكون آتيًا بالصواب والصلاح، تاركًا للقبيح والعبث إذا كان قادرًا على كل المقدورات عالمًا بجميع المعلومات غنيًا عن كل الحاجات، فإنه إن لم يكن قادرًا على الكل فربما فعل القبيح بسبب العجز، وإن لم يكن عالمًا بكل المعلومات فربما فعل القبيح بسبب الجهل، وإن لم يكن غنيًا عن كل الحاجات فربما فعل القبيح بسبب الحاجة، أما إذا كان قادرًا على الكل عالمًا الكل غنيًا عن الكل امتنع منه الإقدام على فعل القبيح، فقوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ إشارة إلى كمال القدرة، وقوله: ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ إشارة إلى كونه مستحقًا للحمد في كل أفعاله، وذلك إنما يحصل إذا كان عالمًا بالكل غنيًا عن الكل فثبت بما ذكرنا أن صراط الله إنما كان موصوفًا بكونه شريفًا رفيعًا عاليًا لكونه صراطًا مستقيمًا للإله الموصوف بكونه عزيزًا حميدًا، فلهذا المعنى: وصف الله نفسه بهذين الوصفين في هذا المقام.

المسألة العاشرة: إنما قدم ذكر العزيز على ذكر الحميد، لأن الصحيح أن أول العلم بالله العلم بكونه تعالى قادرًا، ثم بعد ذلك العلم بكونه عالمًا، ثم بعد ذلك العلم بكونه غنيًا عن الحاجات، والعزيز هو القادر والحميد هو العالم الغني، فلما كان العلم بكونه تعالى قادرًا متقدمًا على العلم بكونه عالمًا بالكل غنيًا عن الكل لا جرم قدم الله ذكر العزيز على ذكر الحميد، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝٣﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ نافع وابن عامر (اللَّهُ) مرفوعًا بالابتداء وخبره ما بعده، وقيل التقدير هو الله والباقون بالجر عطفًا على قوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ وهاهنا بحث، وهو أن جماعة من المحققين ذهبوا إلى أن قولنا: الله جار مجرى الإسم العلم لذات الله تعالى وذهب قوم آخرون إلى أنه لفظ مشتق والحق عندنا هو الأول. ويدل عليه وجوه:

الأول: أن الاسم المشتق عبارة عن شيء ما حصل له المشتق منه، فالأسود مفهومه شيء ما حصل له السواد، والناطق مفهومه شيء ما حصل له النطق، فلو كان قولنا الله اسمًا مشتقًا من معنى لكان المفهوم منه أنه شيء ما حصل له ذلك المشتق منه، وهذا المفهوم كلي لا يمتنع من حيث هو هو عن وقوع الشركة فيه، فلو كان قولنا الله لفظًا مشتقًا لكان مفهومه صالحًا لوقوع الشركة فيه، ولو كان الأمر كذلك لما كان قولنا لا إله إلا الله موجبًا للتوحيد، لأن المستثنى هو قولنا الله وهو غير مانع من وقوع الشركة فيه ولما اجتمعت الأمة على أن قولنا لا إله إلا الله يوجب التوحيد المحض علمنا أن قولنا الله جارٍ مجرى الاسم العلم.

الثاني: أنه كلما أردنا أن نذكر سائر الصفات والأسماء ذكرنا أولاً قولنا الله ثم وصفناه بسائر الصفات كقولنا هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس ولا يمكننا أن نعكس الأمر فنقول الرحمن الرحيم الله فعلمنا أن الله هو اسم علم للذات المخصوصة وسائر الألفاظ دالة على الصفات والنعوت.

الثالث: أن ما سوى قولنا الله كلها دالة، إما على الصفات السلبية، كقولنا: القدوس السلام، أو على الصفات الإضافية، كقولنا الخالق الرازق أو على الصفات الحقيقية كقولنا: العالم القادر، أو على ما يتركب من هذه الثلاثة، فلو لم يكن قولنا: الله اسمًا للذات المخصوصة لكان جميع أسماء الله تعالى ألفاظًا دالة على صفاته، ولم يحصل فيها ما يدل على ذاته المخصوصة وذلك بعيد، لأنه يبعد أن لا يكون له من حيث إنه هو اسم مخصوص. والرابع: قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] والمراد هل تعلم من اسمه الله غير الله، وذلك يدل على أن قولنا: الله اسم لذاته المخصوصة، وإذا ظهرت هذه المقدمة فالترتيب الحسن أن يذكر عقيبه الصفات كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤] فأما أن يعكس فيقال: هو الخالق المصور البارىء الله، فذلك غير جائز.

وإذا ثبت هذا فنقول: الذين قرؤا: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بالرفع أرادوا أن يجعلوا

قوله: ﴿ٱللَّهِ﴾ مبتدأ ويجعلوا ما بعده خبرًا عنه وهذا هو الحق الصحيح، فأما الذين قرؤا: ﴿ٱللَّهِ﴾ بالجر عطفًا على: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ فهو مشكل لما بينا أن الترتيب الحسن أن يقال: الله الخالق. وإما أن يقال: الخالق الله فهذا لا يحسن، وعند هذا اختلفوا في الجواب على وجوه: الأول: قال أبو عمرو بن العلاء: القراءة بالخفض على التقديم والتأخير، والتقدير: صراط الله العزيز الحميد الذي له ما في السموات. والثاني: أنه لا يبعد أن يذكر الصفة أولاً ثم يذكر الاسم ثم يذكر الصفة مرة أخرى كما يقال: مررت بالإمام الأجل محمد الفقيه وهو بعينه نظير قوله: ﴿صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وتحقيق القول فيه: أنا بينا أن الصراط إنما يكون ممدوحًا محمودًا إذا كان صراطًا للعالم القادر الغني، والله تعالى عبر عن هذه الأمور الثلاثة بقوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ ثم لما ذكر هذا المعنى وقعت الشبهة في أن ذلك العزيز من هو؟ فعطف عليها قوله: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إزالة لتلك الشبهة. الثالث: قال صاحب (الكشاف): الله عطف بيان للعزيز الحميد، وتحقيق هذا القول ما قررناه فيما تقدم. الرابع: قد ذكرنا في أول هذا الكتاب أن قولنا الله في أصل الوضع مشتق إلا أنه بالعرف صار جاريًا مجرى الإسم العلم فحيث يبدأ بذكره ويعطف عليه سائر الصفات فذلك لأجل أنه جعل اسم علم، وأما في هذه الآية حيث جعل وصفًا للعزيز الحميد، فذاك لأجل أنه حمل على كونه لفظًا مشتقًا فلا جرم بقي صفة. الخامس: أن الكفار ربما وصفوا الوثن بكونه عزيزًا حميدًا فلما قال: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ بقي في خاطر عبدة الأوثان أنه ربما كان ذلك العزيز الحميد هو الوثن، فأزال الله تعالى هذه الشبهة وقال: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي المراد من ذلك العزيز الحميد هو الله الذي له ما في السموات وما في الأرض.

المسألة الثانية: قوله: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يدل على أنه تعالى غير مختص بجهة العلو ألبتة، وذلك لأن كل ما سماك وعلاك فهو سماء، فلو حصل ذات الله تعالى في جهة فوق، لكان حاصلاً في السماء، وهذه الآية دالة على أن كل ما في السموات فهو ملكه، فلزم كونه ملكًا لنفسه وهو محال، فدلت هذه الآية على أنه منزه عن الحصول في جهة فوق.

المسألة الثالثة: احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى خالق لأعمال العباد لأنه قال: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وأعمال العباد حاصلة في السموات والأرض فوجب القول بأن أفعال العباد له بمعنى كونها مملوكة له، والملك عبارة عن القدرة فوجب كونها مقدورة لله تعالى، وإذا ثبت أنها مقدورة لله تعالى وجب وقوعها بقدرة الله تعالى، وإلا لكان العبد قد منع الله تعالى من إيقاع مقدوره وذلك محال.

واعلم أن قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يفيد الحصر والمعنى أن ما في السموات وما في الأرض له لا لغيره وذلك يدل على أنه لا مالك إلا الله ولا حاكم إلا الله ثم إنه تعالى لما

ذكر ذلك عطف على الكفار بالوعيد فقال: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾ والمعنى: أنهم لما تركوا عبادة الله تعالى الذي هو المالك للسموات والأرض ولكل ما فيهما إلى عبادة ما لا يملك ضرًا ولا نفعًا ويُخلق ولا يَخلُق، ولا إدراك لها ولا فعل، فالويل ثم الويل لمن كان كذلك، وإنما خص هؤلاء بالويل، لأن المعنى يولولون من عذاب شديد ويصيحون منه ويقولون يا ويلاه. ونظيره قوله تعالى: ﴿دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا﴾ [الفرقان: ١٣] ثم بين تعالى صفة هؤلاء الكافرين الذين توعدهم بالويل الذي يفيد أعظم العذاب وذكر من صفاتهم ثلاثة أنواع: الأول: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: إن شئت جعلت (الذين) صفة الكافرين في الآية المتقدمة وإن شئت جعلته مبتدأ وجعلت الخبر قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ وإن شئت نصبته على الذم.

المسألة الثانية: الاستحباب طلب محبة الشيء، وأقول إن الإنسان قد يحب الشيء ولكنه لا يحب كونه محبًا لذلك الشيء، مثل من يميل طبعه إلى الفسق والفجور ولكنه يكره كونه محبًا لهما، أما إذا أحب الشيء وطلب كونه محبًا له، وأحب تلك المحبة فهذا هو نهاية المحبة فقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ يدل على كونهم في نهاية المحبة للحياة الدنيوية، ولا يكون الإنسان كذلك إلا إذا كان غافلاً عن الحياة الأخروية، وعن معايب هذه الحياة العاجلة، ومن كان كذلك كان في نهاية الصفات المذمومة، وذلك لأن هذه الحياة موصوفة بأنواع كثيرة من العيوب. فأحدها: أن بسبب هذه الحياة انفتحت أبواب الآلام والأسقام والغموم والهموم والمخاوف والأحزان. وثانيها: أن هذه اللذات في الحقيقة لا حاصل لها إلا دفع الآلام، بخلاف اللذات الروحانية فإنها في أنفسها لذات وسعادات. وثالثها: أن سعادات هذه الحياة منغصة بسبب الانقطاع والإنقراض والانقضاء. ورابعها: أنها حقيرة قليلة، وبالجملة فلا يحب هذه الحياة إلا من كان غافلاً عن معايبها وكان غافلاً عن فضائل الحياة الروحانية الأخروية، ولذلك قال تعالى: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٧] فهذه الكلمة جامعة لكل ما ذكرناه.

المسألة الثالثة: إنما قال: ﴿يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ لأن فيه إضمارًا، والتقدير: يستحبون الحياة الدنيا ويؤثرونها على الآخرة، فجمع تعالى بين هذين الوصفين ليتبين بذلك أن الاستحباب للدنيا وحده لا يكون مذمومًا إلا بعد أن يضاف إليه إيثارها على الآخرة، فأما من أحبها ليصل بها إلى منافع النفس وإلى خيرات الآخرة فإن ذلك لا يكون مذمومًا حتى إذا آثرها على آخرته بأن اختار منها ما يضره في آخرته فهذه المحبة هي المحبة المذمومة.

النوع الثاني: من الصفات التي وصف الله الكفار بها قوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

واعلم أن من كان موصوفًا باستحباب الدنيا فهو ضال، ومن منع الغير من الوصول إلى سبيل الله ودينه فهو مضل، فالمرتبة الأولى إشارة إلى كونهم ضالين، وهذه المرتبة الثانية وهي

كونهم صادين عن سبيل الله إشارة إلى كونهم مضلين .

والنوع الثالث: من تلك الصفات قوله : ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ ، واعلم أن الإضلال على مرتبتين :

المرتبة الأولى: أنه يسعى في صد الغير ومنعه من الوصول إلى المنهج القويم والصراط المستقيم .

والمرتبة الثانية: أن يسعى في إلقاء الشكوك والشبهات في المذهب الحق ويحاول تقبيح صفته بكل ما يقدر عليه من الحيل ، وهذا هو النهاية في الضلال والإضلال ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ قال صاحب (الكشاف) الأصل في الكلام أن يقال : ويبغون لها عوجًا ، فحذف الجار وأوصل الفعل ، ولما ذكر الله تعالى هذه المراتب الثلاثة لأحوال هؤلاء الكفار قال في صفتهم : ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ وإنما وصف هذا الضلال بالبعد لوجوه :

الوجه الأول: أنا بينا أن أقصى مراتب الضلال هو الذي وصفه الله تعالى في هذه المرتبة فهذه المرتبة في غاية البعد عن طريق الحق ، فإن شرط الضدين أن يكونا في غاية التباعد ، مثل السواد والبياض ، فكذا هاهنا الضلال الذي يكون واقعًا على هذا الوجه يكون في غاية البعد عن الحق فإنه لا يعقل ضلال أقوى وأكمل من هذا الضلال .

والوجه الثاني: أن يكون المراد أن يبعد ردهم عن طريقة الضلال إلى الهدى ، لأنه قد تمكن ذلك في نفوسهم .

والوجه الثالث: أن يكون المراد من الضلال الهلاك ، والتقدير : أولئك في هلاك يطول عليهم فلا ينقطع ، وأراد بالبعد امتداده وزوال انقطاعه .

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى : اعلم أنه تعالى لما ذكر في أول السورة : ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١] كان هذا إنعامًا على الرسول من حيث إنه فوض إليه هذا المنصب العظيم ، وإنعامًا أيضًا على الخلق من حيث إنه أرسل إليهم من خلصهم من ظلمات الكفر وأرشدهم إلى نور الإيمان ، فذكر في هذه الآية ما يجري مجرى تكميل النعمة والإحسان في الوجهين . أما بالنسبة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، فلأنه تعالى بين أن سائر الأنبياء كانوا مبعوثين إلى قومهم خاصة ، وأما أنت يا محمد فمبعوث إلى عامة الخلق ، فكان هذا الإنعام في حقك أفضل وأكمل ، وأما بالنسبة إلى عامة الخلق ، فهو أنه تعالى ذكر أنه ما بعث رسولاً إلى قوم إلا بلسان أولئك القوم ، فإنه متى كان الأمر كذلك ، كان فهمهم لأسرار تلك الشريعة ووقوفهم على حقائقها أسهل ، وعن الغلط والخطأ أبعد . فهذا هو وجه النظم .

المسألة الثانية: احتج بعض الناس بهذه الآية على أن اللغات اصطلاحية لا توفيقية. قال لأن التوقيف لا يحصل إلا بإرسال الرسل، وقد دلت هذه الآية على أن إرسال جميع الرسل لا يكون إلا بلغة قومهم، وذلك يقتضي تقدم حصول اللغات على إرسال الرسل، وإذا كان كذلك امتنع حصول تلك اللغات بالتوقيف، فوجب حصولها بالإصطلاح.

المسألة الثالثة: زعم طائفة من اليهود يقال لهم العيسوية أن محمدًا رسول الله لكن إلى العرب لا إلى سائر الطوائف، وتمسكوا بهذه الآية من وجهين:

الأول: أن القرآن لما كان نازلاً بلغة العرب لم يعرف كونه معجزة بسبب ما فيه من الفصاحة إلا العرب وحينئذ لا يكون القرآن حجة إلا على العرب، ومن لا يكون عربيًا لم يكن القرآن حجة عليه.

الثاني: قالوا: إن قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ المراد بذلك اللسان لسان العرب، وذلك يقتضي أن يقال: إنه ليس له قوم سوى العرب، وذلك يدل على أنه مبعوث إلى العرب فقط.

والجواب: لم لا يجوز أن يكون المراد من ﴿قَوْمِهِۦ﴾ أهل بلده، وليس المراد من ﴿قَوْمِهِۦ﴾ أهل دعوته. والدليل على عموم الدعوة قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] بل إلى الثقلين، لأن التحدي كما وقع مع الإنس فقد وقع مع الجن بدليل قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

المسألة الرابعة: تمسك أصحابنا بقوله تعالى: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ على أن الضلال والهداية من الله تعالى، والآية صريحة في هذا المعنى. قال الأصحاب: ومما يؤكد هذا المعنى ما روي: أن أبا بكر وعمر أقبلا في جماعة من الناس وقد ارتفعت أصواتهما، فقال عليه السلام «مَا هَذَا» فقال بعضهم: يا رسول الله يقول أبو بكر الحسنات من الله والسيئات من أنفسنا، ويقول: عمر كلاهما من الله، وتبع بعضهم أبا بكر وبعضهم عمر، فتعرف الرسول ﷺ ما قاله أبو بكر، وأعرض عنه حتى عرف ذلك في وجهه، ثم أقبل على عمر فتعرف ما قاله وعرف البشر في وجهه ثم قال: «**أَقْضِي بَيْنَكُمَا كَمَا قَضَى بِهِ إِسْرَافِيلُ بَيْنَ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ، قَالَ جِبْرِيلُ مِثْلَ مَقَالَتِكَ يَا عُمَرُ وَقَالَ مِيكَائِيلُ مِثْلَ مَقَالَتِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ فَقَضَاءُ إِسْرَافِيلَ أَنَّ الْقَدَرَ كُلَّهُ خَيْرَهُ وَشَرَّهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَهَذَا قَضَائِي بَيْنَكُمَا**»(١) قالت المعتزلة: هذه الآية لا يمكن اجراؤها على

---

(١) **صحيح لغيره**: أورده الطبراني في (الأوسط) (٣/ ١١٣) حديث رقم/ ٢٦٤٨، من طريق مقاتل بن حيان عن عمرو بن شعيب... به، والبزار في مسنده (٦/ ٤٥٥) حديث رقم/ ٢٤٩٦، من طريق مقاتل بن حماد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده... به، وأورده الهيثمي في (المجمع) (٧/ ١٩٢)، وقال: رواه الطبراني في الأوسط واللفظ له والبزار بنحوه وفي إسناد الطبراني عمر بن الصبح وهو ضعيف جدا وشيخ البزار الموطأ بن سعيد=

ظاهرها وبيانه من وجوه:

الأول: أنه تعالى قال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ والمعنى: أنا إنما أرسلنا كل رسول بلسان قومه ليبين لهم تلك التكاليف بلسانهم، فيكون إدراكهم لذلك البيان أسهل ووقوفهم على المقصود والغرض أكمل، وهذا الكلام إنما يصح لو كان مقصود الله تعالى من إرسال الرسل حصول الإيمان للمكلفين، فأما لو كان مقصوده الإضلال وخلق الكفر فيهم لم يكن ذلك الكلام ملائمًا لهذا المقصود.

والثاني: أنه عليه السلام إذا قال لهم إن الله يخلق الكفر والضلال فيكم، فلهم أن يقولوا له فما الفائدة في بيانك، وما المقصود من إرسالك، وهل يمكننا أن نزيل كفرًا خلقه الله تعالى فينا عن أنفسنا وحينئذ تبطل دعوة النبوة وتفسد بعثة الرسل.

الثالث: أنه إذا كان الكفر حاصلاً بتخليق الله تعالى ومشيئته، وجب أن يكون الرضا به واجبًا لأن الرضا بقضاء الله تعالى واجب، وذلك لا يقوله عاقل.

والرابع: أنا قد دللنا على أن مقدمة هذه الآية وهو قوله: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١] يدل على مذهب العدل، وأيضًا مؤخرة الآية يدل عليه، وهو قوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ فكيف يكون حكيمًا من كان خالقًا للكفر والقبائح ومريدًا لها، فثبت بهذه الوجوه أنه لا يمكن حمل قوله: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ على أنه تعالى يخلق الكفر في العبد، فوجب المصير إلى التأويل، وقد استقصينا ما في هذه التأويلات في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ﴾ [البقرة: ٢٦] ولا بأس بإعادة بعضها، فالأول: أن المراد بالإضلال: هو الحكم بكونه كافرًا ضالاً كما يقال: فلان يكفر فلانًا ويضلله، أي يحكم بكونه كافرًا ضالاً، والثاني: أن يكون الإضلال عبارة عن الذهاب بهم عن طريق الجنة إلى النار، والهداية عبارة عن إرشادهم إلى طريق الجنة. والثالث: أنه تعالى لما ترك الضال على إضلاله ولم يتعرض له صار كأنه أضله، والمهتدي لما أعانه بالألطاف صار كأنه هو الذي هداه. قال صاحب (الكشاف): المراد بالإضلال: التخلية ومنع الألطاف وبالهداية التوفيق واللطف.

والجواب عن قولهم أولاً أن قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ لا يليق به أن يضلهم.

قلنا: قال الفراء: إذا ذكر فعل وبعده فعل آخر، فإن كان الفعل الثاني مشاكلاً للأول نسقته عليه، وإن لم يكن مشاكلاً له استأنفته ورفعته. ونظيره قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٢] فقوله: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٢] في موضع رفع لا يجوز إلا ذلك، لأنه لا يحسن أن يقال: يريدون أن يأبى الله، فلما لم يمكن وضع الثاني موضع الأول بطل العطف، ونظيره أيضًا قوله: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ [الحج: ٥] ومن ذلك

=ولم أعرفه وبقية رجال البزار ثقات وفي بعضهم كلام لا يضر، وأورده الألباني في (الصحيحة) (٢/ ٣٨٦) حديث (رقم/ ١٦٤٢).

قولهم: أردت أن أزورك فيمنعني المطر بالرفع غير منسوق على ما قبله لما ذكرناه، ومثله قول الشاعر:

يُرِيدُ أَنْ يُعْرِبَهُ فَيُعْجِمُه[1]

إذا عرفت هذا فنقول: هاهنا قال تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ ثم قال: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ ذكر فيضل بالرفع فدل على أنه مذكور على سبيل الاستئناف وأنه غير معطوف على ما قبله، وأقول تقرير هذا الكلام من حيث المعنى، كأنه تعالى قال: وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه، ليكون بيانه لهم تلك الشرائع بلسانهم الذي ألفوه واعتادوه، ثم قال ومع أن الأمر كذلك فإنه تعالى يضل من يشاء ويهدي من يشاء، والغرض منه التنبيه على أن تقوية البيان لا توجب حصول الهداية فربما قوي البيان ولا تحصل الهداية وربما ضعف البيان وحصلت الهداية، وإنما كان الأمر كذلك لأجل أن الهداية والضلال لا يحصلان إلا من الله تعالى. أما قوله ثانيًا: لو كان الضلال حاصلاً بخلق الله تعالى لكان للكافر أن يقول له: ما الفائدة في بيانك ودعوتك؟ فنقول: يعارضه أن الخصم يسلم أن هذه الآيات إخبار عن كونه ضالاً فيقول له الكافر: لما أخبر إلهك عن كوني كافرًا فإن آمنت صار إلهك كاذبًا فهل أقدر على جعل إلهك كاذبًا، وهل أقدر على جعل علمه جهلاً. وإذا لم أقدر عليه فكيف يأمرني بهذا الإيمان، فثبت أن هذا السؤال الذي أورده الخصم علينا هو أيضًا وارد عليه. وأما قوله ثالثًا: يلزم أن يكون الرضا بالكفر واجبًا، لأن الرضا بقضاء الله تعالى واجب وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

قلنا: ويلزمك أيضًا على مذهبك أنه يجب على العبد السعي في تكذيب الله وفي تجهيله، وهذا أشد استحالة مما ألزمته علينا، لأنه تعالى لما أخبر عن كفره وعلم كفره فإزالة الكفر عنه يستلزم قلب علمه جهلاً وخبره الصدق كذبًا. وأما قوله رابعًا: إن مقدمة الآية وهي قوله تعالى: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١] يدل على صحة الاعتزال فنقول: قد ذكرنا أن قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: ١] يدل على صحة مذهب أهل السنة. وأما قوله خامسًا: أنه تعالى وصف نفسه في آخر الآية بكونه حكيمًا وذلك ينافي كونه تعالى خالقًا للكفر مريدًا له. فنقول: وقد وصف نفسه بكونه عزيزًا والعزيز هو الغالب القاهر فلو أراد الإيمان من الكافر مع أنه لا يحصل أو أراد عمل الكفر منهم، وقد حصل لما بقي عزيزًا غالبًا. فثبت أن الوجوه التي ذكروها ضعيفة، وأما التأويلات الثلاثة التي ذكروها فقد مر إبطالها في هذا الكتاب مرارًا فلا فائدة في الإعادة.

---

(١) هذا البيت من الرجز للشاعر الحطيئة وهو الحُطَيْئة وهو: جرول بن أوس بن مالك العبسي، أبو ملكية، ؟- ٤٥ هـ/ ؟- ٦٦٥ م، شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام. كان هجاءاً عنيفاً، لم يكد يسلم من لسانه أحد، وهجا أمه وأباه ونفسه. وأكثر من هجاء الزبرقان بن بدر، فشكاه إلى عمر بن الخطاب، فسجنه عمر بالمدينة، فاستعطفه بأبيات، فأخرجه ونهاه عن هجاء الناس.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى : اعلم أنه تعالى لما بين أنه إنما أرسل محمدًا ﷺ إلى الناس ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وذكر كمال إنعامه عليه وعلى قومه في ذلك الإرسال وفي تلك البعثة، أتبع ذلك بشرح بعثة سائر الأنبياء إلى أقوامهم وكيفية معاملة أقوامهم معهم تصبيرًا للرسول عليه السلام على أذى قومه وإرشادًا له إلى كيفية مكالمتهم ومعاملتهم فذكر تعالى على العادة المألوفة قصص بعض الأنبياء عليهم السلام فبدأ بذكر قصة موسى عليه السلام، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ قال الأصم: آيات موسى عليه السلام هي العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وفلق البحر وانفجار العيون من الحجر وإظلال الجبل وإنزال المن والسلوى. وقال الجبائي: أرسل الله تعالى موسى عليه السلام إلى قومه من بني إسرائيل بآياته وهي دلالاته وكتبه المنزلة عليه، وأمره أن يبين لهم الدين. وقال أبو مسلم الأصفهاني: إنه تعالى قال في صفة محمد ﷺ: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١] وقال في حق موسى عليه السلام: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ والمقصود: بيان أن المقصود من البعثة واحد في حق جميع الأنبياء عليهم السلام، وهو أن يسعوا في إخراج الخلق من ظلمات الضلالات إلى أنوار الهدايات.

المسألة الثانية : قال الزجاج: قوله: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ أي بأن أخرج قومك. ثم قال: ﴿أَنْ﴾ هاهنا تصلح أن تكون مفسرة بمعنى أي، ويكون المعنى: ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أي أخرج قومك، كأن المعنى قلنا له: أخرج قومك. ومثله قوله: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟﴾ [ص: ٦] أي أمشوا، والتأويل قيل لهم: امشوا، وتصلح أيضًا أن تكون المخففة التي هي للخبر، والمعنى: أرسلناه بأن يخرج قومه إلا أن الجار حذف ووصلت (أن) بلفظ الأمر، ونظيره قولك: كتبت إليه أن قم وأمرته أن قم، ثم إن الزجاج حكى هذين القولين عن سيبويه.

أما قوله: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ فاعلم أنه تعالى أمر موسى عليه السلام في هذا المقام بشيئين: أحدهما: أن يخرجهم من ظلمات الكفر، والثاني: أن يذكرهم بأيام الله.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال الواحدي: أيام جمع يوم، واليوم هو مقدار المدة من طلوع الشمس إلى غروبها، وكانت الأيام في الأصل أيوام فاجتمعت الياء والواو وسبقت إحداهما بالسكون، فأدغمت إحداهما في الأخرى وغلبت الياء.

المسألة الثانية: أنه يعبر بالأيام عن الوقائع العظيمة التي وقعت فيها. يقال: فلان عالم بأيام العرب ويريد وقائعها وفي المثل (مَنْ يُرَ يَوْمًا يُرَ لَهُ) معناه: من رؤي في يوم مسرورًا بمصرع غيره ير في يوم آخر حزينًا بمصرع نفسه وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

إذا عرفت هذا، فالمعنى عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد، فالترغيب والوعد أن يذكرهم ما أنعم الله عليهم وعلى من قبلهم ممن آمن بالرسل في سائر ما سلف من الأيام، والترهيب والوعيد: أن يذكرهم بأس الله وعذابه وانتقامه ممن كذب الرسل ممن سلف من الأمم فيما سلف من الأيام، مثل ما نزل بعاد وثمود وغيرهم من العذاب، ليرغبوا في الوعد فيصدقوا ويحذروا من الوعيد فيتركوا التكذيب.

واعلم أن أيام الله في حق موسى عليه السلام منها ما كان أيام المحنة والبلاء وهي الأيام التي كانت بنو إسرائيل فيها تحت قهر فرعون ومنها ما كان أيام الراحة والنعماء مثل إنزال المن والسلوى وانفلاق البحر وتظليل الغمام.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ والمعنى أن في ذلك التذكير والتنبيه دلائل لمن كان صبارًا شكورًا، لأن الحال إما أن يكون حال محنة وبلية أو حال منحة وعطية فإن كان الأول، كان المؤمن صبارًا، وإن كان الثاني كان شكورًا. وهذا تنبيه على أن المؤمن يجب أن لا يخلو زمانه عن أحد هذين الأمرين فإن جرى الوقت على ما يلائم طبعه ويوافق إرادته كان مشغولاً بالشكر، وإن جرى ما لا يلائم طبعه كان مشغولاً بالصبر.

فإن قيل: إن ذلك التذكيرات آيات للكل فلماذا خص الصبار الشكور بها؟

قلنا: فيه وجوه: الأول: أنهم لما كانوا هم المنتفعون بتلك الآيات صارت كأنها ليست آيات إلا لهم كما في قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥].

والثاني: لا يبعد أن يقال: الانتفاع بهذا النوع من التذكير لا يمكن حصوله إلا لمن كان صابرًا أو شاكرًا، أما الذي لا يكون كذلك لم ينتفع بهذه الآيات.

واعلم أنه تعالى لما ذكر أنه أمر موسى عليه السلام بأن يذكرهم بأيام الله تعالى، حكى عن موسى عليه السلام أنه ذكرهم بها فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ فقوله: ﴿إِذْ أَنجَىٰكُم﴾ ظرف للنعمة بمعنى الأنعام، أي اذكروا إنعام الله عليكم في ذلك الوقت. بقي في الآية سؤالات:

السؤال الأول: ذكر في سورة البقرة: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾[البقرة: ٤٩] وفي سورة الأعراف: ﴿يُقَتِّلُونَ﴾[الأعراف: ١٤١] وهاهنا ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ مع الواو فما الفرق؟

والجواب: قال تعالى في سورة البقرة: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ بغير واو لأنه تفسير لقوله: ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ وفي التفسير لا يحسن ذكر الواو تقول: أتاني القوم زيد وعمرو. لأنك أردت أن تفسر القوم بهما ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ﴾[الفرقان: ٦٨، ٦٩] فالآثام لما صار مفسرًا بمضاعفة العذاب لا جرم حذف عنه الواو، أما في هذه السورة فقد أدخل الواو فيه، لأن المعنى أنهم يعذبونهم بغير التذبيح وبالتذبيح أيضًا فقوله: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ نوع آخر من العذاب لا أنه تفسير لما قبله.

السؤال الثاني: كيف كان فعل آل فرعون بلاء من ربهم؟

والجواب من وجهين: أحدهما: أن تمكين الله إياهم حتى فعلوا ما فعلوا كان بلاء من الله. والثاني: وهو أن ذلك إشارة إلى الإنجاء، وهو بلاء عظيم، والبلاء هو الابتلاء، وذلك قد يكون بالنعمة تارة، وبالمحنة أخرى، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[الأنبياء: ٣٥] وهذا الوجه أولى لأنه يوافق صدر الآية وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.

السؤال الثالث: هب أن تذبيح الأبناء كان بلاء، أما استحياء النساء كيف يكون بلاء.

الجواب: كانوا يستخدمونهن بالاستحياء في الخلاص منه نعمة، وأيضًا إبقاؤهن منفردات عن الرجال فيه أعظم المضار.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝٧﴾

اعلم أن قوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ من جملة ما قال موسى لقومه كأنه قيل: وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذن ربكم، ومعنى ﴿تَأَذَّنَ﴾ أذن ربكم. ونظير تأذن وآذن توعد وأوعد وتفضل وأفضل، ولا بد في تفعل من زيادة معنى ليس في أفعل، كأنه قيل: وإذ آذن ربكم إيذانًا بليغًا ينتفي عنده الشكوك، وتنزاح الشبهة، والمعنى: وإذ تأذن ربكم. فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ فأجرى ﴿تَأَذَّنَ﴾ مجرى قال لأنه ضرب من القول، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لَئِنْ شَكَرْتُمْ).

واعلم أن المقصود من الآية بيان أن من اشتغل بشكر نعم الله زاده الله من نعمه، ولا بد هاهنا من معرفة حقيقة الشكر ومن البحث عن تلك النعم الزائدة الحاصلة عن الاشتغال بالشكر، أما الشكر فهو عبارة عن الاعتراف بنعمة المنعم مع تعظيمه وتوطين النفس على هذه الطريقة، وأما الزيادة في النعم فهي أقسام: منها النعم الروحانية، ومنها النعم الجسمانية، أما النعم

الروحانية فهي أن الشاكر يكون أبدًا في مطالعة أقسام نعم الله تعالى وأنواع فضله وكرمه، ومن كثر إحسانه إلى الرجل أحبه الرجل لا محالة، فشغل النفس بمطالعة أنواع فضل الله وإحسانه يوجب تأكد محبة العبد لله تعالى، ومقام المحبة أعلى مقامات الصديقين، ثم قد يترقى العبد من تلك الحالة إلى أن يصير حبه للمنعم شاغلاً له عن الالتفات إلى النعمة، ولا شك أن منبع السعادات وعنوان كل الخيرات محبة الله تعالى ومعرفته، فثبت أن الاشتغال بالشكر يوجب مزيد النعم الروحانية، وأما مزيد النعم الجسمانية، فلأن الاستقراء دل على أن من كان اشتغاله بشكر نعم الله أكثر، كان وصول نعم الله إليه أكثر، وبالجملة فالشكر إنما حسن موقعه، لأنه اشتغال بمعرفة المعبود وكل مقام حرك العبد من عالم الغرور إلى عالم القدس، فهو المقام الشريف العالي الذي يوجب السعادة في الدين والدنيا.

وأما قوله: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ فالمراد منه الكفران، لا الكفر، لأن الكفر المذكور في مقابلة الشكر ليس إلا الكفران، والسبب فيه أن كفران النعمة لا يحصل إلا عند الجهل بكون تلك النعمة نعمة من الله، والجاهل بها جاهل بالله، والجهل بالله من أعظم أنواع العقاب والعذاب وأيضًا فهاهنا دقيقة أخرى وهي أن ما سوى الواحد الأحد الحق ممكن لذاته وكل ممكن لذاته فوجوده إنما يحصل بإيجاد الواجب لذاته، وعدمه إنما يحصل بإعدام الواجب لذاته، وإذا كان كذلك فكل ما سوى الحق فهو منقاد للحق مطواع له، وإذا كانت الممكنات بأسرها منقادة للحق سبحانه فكل قلب حضر فيه نور معرفة الحق وشرف جلاله، انقاد لصاحب ذلك القلب ما سواه، لأن حضور ذلك النور في قلبه يستخدم كل ما سواه بالطبع، وإذا خلا القلب عن ذلك النور ضعف وصار خسيسًا فيستخدمه كل ما سواه ويستحقره كل ما يغايره فبهذا الطريق الذوقي يحصل العلم بأن الاشتغال بمعرفة الحق يوجب انفتاح أبواب الخيرات في الدنيا والآخرة، وأما الإعراض عن معرفة الحق بالاشتغال بمجرد الجسمانيات يوجب انفتاح أبواب الآفات والمخافات في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾

اعلم أن موسى عليه السلام لما بين أن الاشتغال بالشكر يوجب تزايد الخيرات في الدنيا وفي الآخرة، والاشتغال بكفران النعم يوجب العذاب الشديد، وحصول الآفات في الدنيا والآخرة، بين بعده أن منافع الشكر ومضار الكفران لا تعود إلا إلى صاحب الشكر وصاحب الكفران أما

المعبود والمشكور فإنه متعال عن أن ينتفع بالشكر أو يستضر بالكفران، فلا جرم قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ والغرض منه بيان أنه تعالى إنما أمر بهذه الطاعات لمنافع عائدة إلى العابد لا لمنافع عائدة إلى المعبود، والذي يدل على أن الأمر كذلك ما ذكره الله في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾ وتفسيره أنه واجب الوجود لذاته واجب الوجود بحسب جميع صفاته واعتباراته، فإنه لو لم يكن واجب الوجود لذاته، لافتقر رجحان وجوده على عدمه إلى مرجح فلم يكن غنيًا، وقد فرضناه غنيًا هذا خلف، فثبت أن كونه غنيًا يوجب كونه واجب الوجود في ذاته، وإذا ثبت أنه واجب الوجود لذاته، كان أيضًا واجب الوجود بحسب جميع كمالاته، إذ لو لم تكن ذاته كافية في حصول ذلك الكمال، لافتقر في حصول ذلك الكمال إلى سبب منفصل، فحينئذ لا يكون غنيًا، وقد فرضناه غنيًا هذا خلف، فثبت أن ذاته كافية في حصول جميع كمالاته، وإذا كان الأمر كذلك كان حميدًا لذاته، لأنه لا معنى للحميد إلا الذي استحق الحمد، فثبت بهذا التقرير الذي ذكرناه أن كونه غنيًا حميدًا يقتضي أن لا يزداد بشكر الشاكرين، ولا ينتقص بكفران الكافرين، فلهذا المعنى قال: ﴿إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ وهذه المعاني من لطائف الأسرار.

واعلم أن قولنا: ﴿إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ سواء حمل على الكفر الذي يقابل الإيمان أو على الكفران الذي يقابل الشكر، فالمعنى لا يتفاوت ألبتة، فإنه تعالى غني عن العالمين في كمالاته وفي جميع نعوت كبريائه وجلاله.

ثم إنه تعالى قال: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ﴾ وذكر أبو مسلم الأصفهاني أنه يحتمل أن يكون ذلك خطابًا من موسى عليه السلام لقومه والمقصود منه أنه عليه السلام كان يخوفهم بمثل هلاك من تقدم، ويجوز أن يكون مخاطبة من الله تعالى على لسان موسى لقومه يذكرهم أمر القرون الأولى، والمقصود إنما هو حصول العبرة بأحوال المتقدمين، وهذا المقصود حاصل على التقديرين إلا أن الأكثرين ذهبوا إلى أنه ابتداء مخاطبة لقوم الرسول ﷺ.

واعلم أنه تعالى ذكر أقوامًا ثلاثة، وهم: قوم نوح وعاد وثمود.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وذكر صاحب (الكشاف) فيه احتمالين: الأول: أن يكون قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ جملة من مبتدأ وخبر وقعت اعتراضًا. والثاني: أن يقال قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ معطوف على قوم نوح وعاد وثمود وقوله: ﴿لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فيه قولان:

القول الأول: أن يكون المراد لا يعلم كنه مقاديرهم إلا الله، لأن المذكور في القرآن جملة فأما ذكر العدد والعمر والكيفية والكمية فغير حاصل.

والقول الثاني: أن المراد ذكر أقوام ما بلغنا أخبارهم أصلاً كذبوا رسلاً لم نعرفهم أصلاً، ولا

يعلمهم إلا الله والقائلون بهذا القول الثاني طعنوا في قول من يصل الأنساب إلى آدم عليه السلام كان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية يقول كذب النسابون يعني أنهم يدعون علم الأنساب وقد نفى الله علمها عن العباد، وعن ابن عباس: بين عدنان وبين إسماعيل ثلاثون أبًا لا يعرفون، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨]وقوله: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]وعن النبي ﷺ: أنه كان في انتسابه لا يجاوز معد بن عدنان بن أدد. وقال: «تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ وَتَعَلَّمُوا مِنَ النُّجُومِ مَا تَسْتَدِلُّونَ بِهِ عَلَى الطَّرِيقِ» (١)قال القاضي: وعلى هذا الوجه لا يمكن القطع على مقدار السنين من لدن آدم عليه السلام إلى هذا الوقت، لأنه إن أمكن ذلك لم يبعد أيضًا تحصيل العلم بالأنساب الموصولة.

فإن قيل: أي القولين أولى؟

قلنا: القول الثاني عندي أقرب، لأن قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ نفى العلم بهم، وذلك يقتضي نفي العلم بذواتهم إذ لو كانت ذواتهم معلومة، وكان المجهول هو مدد أعمارهم وكيفية صفاتهم لما صح نفي العلم بذواتهم، ولما كان ظاهر الآية دليلاً على نفي العلم بذواتهم لا جرم كان الأقرب هو القول الثاني، ثم إنه تعالى حكى عن هؤلاء الأقوام الذين تقدم ذكرهم أنه لما جاءتهم رسلهم بالبينات والمعجزات أتوا بأمور: أولها: قوله: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ وفي معناه قولان:

الأول: أن المراد باليد والفم الجارحتان المعلومتان.

والثاني: أن المراد بهما شيء غير هاتين الجارحتين وإنما ذكرهما مجازًا وتوسعًا. أما من قال بالقول الأول ففيه ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن يكون الضمير في ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ و ﴿أَفْوَاهِهِمْ﴾ عائدًا إلى الكفار، وعلى هذا ففيه احتمالات: الأول: أن الكفار ردوا أيديهم في أفواههم فعضوها من الغيظ والضجر من شدة

(١) صحيح: أخرجه الترمذي في (سننه) (٤/ ٣٥١) حديث رقم/ ١٩٧٩، وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب من هذا الوجه، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٣٧٤) حديث رقم/ ٨٨٥٥، كلاهما من طريق عبد الله بن المبارك عن عبد الملك بن عيسى الثقفي عن يزيد مولى المنبعث عن أبي هريرة... به، والبخاري في (الأدب المفرد) (١/ ٣٩) حديث (رقم/ ٧١).

من طريق عبدة عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر... به، ورواه أبو نعيم في (معرفة الصحابة) (١٥/ ٤٠٧) حديث رقم/ ٤٩٣٣، من طريق مسلم بن إبراهيم حدثنا وهيب عن عبد الرحمن بن حرملة عن عبد الملك بن يعلي عن العلاء بن حارجة... به، ورواه البغوي في (شرح السنة) (٦/ ٢٦٦)، والحاكم في (المستدرك) (٤/ ١٧٨) حديث رقم/ ٧٢٨٤، وقال: هذا حديث غريب، كلاهما من طريق عبد الملك بن عيسي الثقفي عن عبد الله بن يزيد مولي المنبعث عن أبي هريرة... به، ورواه البيهقي في (شعب الإيمان) (٢/ ٢٦٩) حديث رقم/ ١٧٢٣، وأورده الهيثمي في (المجمع) (١/ ١٩٣)، وقال: رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون.

نفرتهم عن رؤية الرسل واستماع كلامهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩] وهذا القول مروي عن ابن عباس وابن مسعود رحمهما الله تعالى، وهو اختيار القاضي. والثاني: أنهم لما سمعوا كلام الأنبياء عجبوا منه وضحكوا على سبيل السخرية، فعند ذلك ردوا أيديهم في أفواههم كما يفعل ذلك من غلبه الضحك فوضع يده على فيه، والثالث: أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم مشيرين بذلك إلى الأنبياء أن كفوا عن هذا الكلام واسكتوا عن ذكر هذا الحديث، وهذا مروي عن الكلبي. والرابع: أنهم أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وإلى ما تكلموا به من قولهم إنا كفرنا بما أرسلتم به، أي هذا هو الجواب عندنا عما ذكرتموه، وليس عندنا غيره إقناطًا لهم من التصديق ألا ترى إلى قوله: ﴿فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾.

الوجه الثاني: أن يكون الضميران راجعين إلى الرسل عليهم السلام وفيه وجهان:

الأول: أن الكفار أخذوا أيدي الرسل ووضعوها على أفواههم ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم.

الثاني: أن الرسل لما أيسوا منهم سكتوا ووضعوا أيدي أنفسهم على أفواه أنفسهم فإن من ذكر كلامًا عند قوم وأنكروه وخافهم، فذلك المتكلم ربما وضع يد نفسه على فم نفسه وغرضه أن يعرفهم أنه لا يعود إلى ذلك الكرم ألبتة.

الوجه الثالث: أن يكون الضمير في أيديهم يرجع إلى الكفار وفي الأفواه إلى الرسل وفيه وجهان: الأول: أن الكفار لما سمعوا وعظ الأنبياء عليهم السلام ونصائحهم وكلامهم أشاروا بأيديهم إلى أفواه الرسل تكذيبًا لهم وردًا عليهم. والثاني: أن الكفار وضعوا أيديهم على أفواه الأنبياء عليهم السلام منعًا لهم من الكلام، ومن بالغ في منع غيره من الكلام فقد يفعل به ذلك.

أما على القول الثاني: وهو أن ذكر اليد والفم توسع ومجاز ففيه وجوه:

الوجه الأول: قال أبو مسلم الأصفهاني: المراد باليد ما نطقت به الرسل من الحجج وذلك لأن إسماع الحجة انعام عظيم والإنعام يسمى يدًا. يقال لفلان عندي يد إذا أولاه معروفًا، وقد يذكر اليد. المراد منها صفقة البيع والعقد كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] فالبينات التي كان الأنبياء عليهم السلام يذكرونها ويقررونها نعم وأياد، وأيضًا العهود التي كانوا يأتون بها مع القوم أيادي وجمع اليد في العدد القليل هو الأيدي وفي العدد الكثير هو الأيادي، فثبت أن بيانات الأنبياء عليهم السلام وعهودهم صح تسميتها بالأيدي، وإذا كانت النصائح والعهود إنما تظهر من الفم فإذا لم تقبل صارت مردودة إلى حيث جاءت، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [النور: ١٥] فلما كان القبول تلقيًا بالأفواه عن الأفواه كان الدفع ردًا في الأفواه، فهذا تمام كلام أبي مسلم في تقرير هذا الوجه.

الوجه الثاني: نقل محمد بن جرير عن بعضهم أن معنى قوله: ﴿فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أنهم

سكتوا عن الجواب يقال للرجل إذا أمسك عن الجواب، رد يده في فيه وتقول العرب كلمت فلانًا في حاجة فرد يده في فيه إذا سكت عنه فلم يجب، ثم إنه زيف هذا الوجه وقال: إنهم أجابوا بالتكذيب لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾.

الوجه الثالث: المراد من الأيدي نعم الله تعالى على ظاهرهم وباطنهم ولما كذبوا الأنبياء فقد عرضوا تلك النعم للإزالة والإبطال فقوله: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي ردوا نعم الله تعالى عن أنفسهم بالكلمات التي صدرت عن أفواههم ولا يبعد حمل (في) على معنى الباء لأن حروف الجر لا يمتنع إقامة بعضها مقام بعض.

النوع الثاني: من الأشياء التي حكاها الله تعالى عن الكفار قولهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ والمعنى: إنا كفرنا بما زعمتم أن الله أرسلكم فيه لأنهم ما أقروا بأنهم أرسلوا.

واعلم أن المرتبة الأولى هو أنهم سكتوا عن قبول قول الأنبياء عليهم السلام وحاولوا إسكات الأنبياء عن تلك الدعوى، وهذه المرتبة الثانية أنهم صرحوا بكونهم كافرين بتلك البعثة.

والنوع الثالث: قولهم: ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ قال صاحب (الكشاف): وقرىء (تَدْعُونَّا) بادغام النون ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع في الريبة أو ذي ريبة من أرابه، والريبة قلق النفس وأن لا تطمئن إلى الأمر.

فإن قيل: لما ذكروا في المرتبة الثانية أنهم كافرون برسالتهم كيف ذكروا بعد ذلك كونهم شاكين مرتابين في صحة قولهم؟

قلنا: كأنهم قالوا إما أن نكون كافرين برسالتكم أو إن لم ندع هذا الجزم واليقين فلا أقل من أن نكون شاكين مرتابين في صحة نبوتكم، وعلى التقديرين فلا سبيل إلى الاعتراف بنبوتكم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾

اعلم أن أولئك الكفار لما قالوا للرسل ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٩]. قالت رسلهم: وهل تشكون في الله، وفي كونه فاطر السموات والأرض وفاطرًا لأنفسنا وأرواحنا وأرزاقنا وجميع مصالحنا وإنا لا ندعوكم إلا إلى عبادة هذا الإله المنعم ولا نمنعكم إلا عن عبادة غيره وهذه المعاني يشهد صريح العقل بصحتها، فكيف قلتم: وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب؟ وهذا النظم في غاية الحسن. وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ استفهام على سبيل الإنكار، فلما ذكر هذا المعنى أردفه بالدلالة الدالة على وجود الصانع المختار، وهو قوله: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقد ذكرنا

في هذا الكتاب أن وجود السموات والأرض كيف يدل على احتياجه إلى الصانع المختار الحكيم مرارًا وأطوارًا فلا نعيدها هاهنا .

المسألة الثانية : قال صاحب (الكشاف) : أدخلت همزة الإنكار على الظرف ، لأن الكلام ليس في الشك إنما هو في أن وجود الله تعالى لا يحتمل الشك ، وأقول من الناس من ذهب إلى أنه قبل الوقوف على الدلائل الدقيقة فالفطرة شاهدة بوجود الصانع المختار ، ويدل على أن الفطرة الأولية شاهدة بذلك وجوه :

الوجه الأول: قال بعض العقلاء : إن من لطم على وجه صبي لطمة فتلك اللطمة تدل على وجوب الصانع المختار وعلى حصول التكليف وعلى وجوب دار الجزاء وعلى وجوب النبي ، أما دلالتها على وجود الصانع المختار فلأن الصبي العاقل إذا وقعت اللطمة على وجهه يصيح ويقول : من الذي ضربني وما ذاك إلا أن شهادة فطرته تدل على أن اللطمة لما حدثت بعد عدمها وجب أن يكون حدوثها لأجل فاعل فعلها ، ولأجل مختار أدخلها في الوجود فلما شهدت الفطرة الأصلية بافتقار ذلك الحادث مع قلته وحقارته إلى الفاعل فبأن تشهد بافتقار جميع حوادث العالم إلى الفاعل كان أولى ، وأما دلالتها على وجوب التكليف ، فلأن ذلك الصبي ينادي ويصيح ويقول : لم ضربني ذلك الضارب؟ وهذا يدل على أن فطرته شهدت بأن الأفعال الإنسانية داخلة تحت الأمر والنهي ومندرجة تحت التكليف ، وأن الإنسان ما خلق حتى يفعل أي فعل شاء واشتهى ، وأما دلالتها على وجوب حصول دار الجزاء فهو أن ذلك الصبي يطلب الجزاء على تلك اللطمة وما دام يمكنه طلب ذلك الجزاء فإنه لا يتركه فلما شهدت الفطرة الأصلية بوجوب الجزاء على ذلك العمل القليل فبأن تشهد على وجوب الجزاء على جميع الأعمال كان أولى ، وأما دلالتها على وجوب النبوة فلأنهم يحتاجون إلى إنسان يبين لهم أن العقوبة الواجبة على ذلك القدر من الجناية كم هي ولا معنى للنبي إلا الإنسان الذي يقدر هذه الأمور ويبين لهم هذه الأحكام ، فثبت أن فطرة العقل حاكمة بأن الإنسان لا بد له من هذه الأمور الأربعة .

الوجه الثاني: في التنبيه على أن الإقرار بوجود الصانع بديهي هو أن الفطرة شاهدة بأن حدوث دار منقوشة بالنقوش العجيبة ، مبنية على التركيبات اللطيفة الموافقة للحكم والمصلحة يستحيل إلا عند وجود نقاش عالم ، وبان حكيم ، ومعلوم أن آثار الحكمة في العالم العلوي والسفلي أكثر من آثار الحكمة في تلك الدار المختصرة فلما شهدت الفطرة الأصلية بافتقار النقش إلى النقاش ، والبناء إلى الباني ، فبأن تشهد بافتقار كل هذا العالم إلى الفاعل المختار الحكيم كان أولى .

الوجه الثالث: أن الإنسان إذا وقع في محنة شديدة وبلية قوية لا يبقى في ظنه رجاء المعاونة من أحد ، فكأنه بأصل خلقته ومقتضى جبلته يتضرع إلى من يخلصه منها ويخرجه عن علائقها وحبائلها وما ذاك إلا شهادة الفطرة بالإفتقار إلى الصانع المدبر .

الوجه الرابع: أن الموجود إما أن يكون غنيًا عن المؤثر أو لا يكون ، فإن كان غنيًا عن المؤثر

فهو الموجود الواجب لذاته، فإنه لا معنى للواجب لذاته إلا الموجود الذي لا حاجة به إلى غيره. وإن لم يكن غنيًا عن المؤثر فهو محتاج، والمحتاج لا بد له من المحتاج إليه وذلك هو الصانع المختار.

الوجه الخامس: أن الاعتراف بوجود الإله المختار المكلف، وبوجود المعاد أحوط، فوجب المصير إليه فهذه مراتب أربعة: أولها: أن الإقرار بوجود الإله أحوط، لأنه لو لم يكن موجودًا فلا ضرر في الإقرار بوجوده وإن كان موجودًا ففي إنكاره أعظم المضار. وثانيها: الإقرار بكونه فاعلاً مختارًا لأنه لو كان موجبًا فلا ضرر في الإقرار بكونه مختارًا. أما لو كان مختارًا ففي إنكار كونه مختارًا أعظم المضار. وثالثها: الإقرار بأنه كلف عباده، لأنه لو لم يكلف أحدًا من عبيده شيئًا فلا ضرر في اعتقاد أنه كلف العباد، أما إنه لو كلف ففي إنكار تلك التكاليف أعظم المضار. ورابعها: الإقرار بوجود المعاد فإنه إن كان الحق أنه لا معاد فلا ضرر في الإقرار بوجوده، لأنه لا يفوت إلا هذه اللذات الجسمانية وهي حقيرة ومنقوصة وإن كان الحق هو وجوب المعاد ففي إنكاره أعظم المضار فظهر أن الإقرار بهذه المقامات أحوط فوجب المصير إليه، لأن بديهة العقل حاكمة بأنه يجب دفع الضرر عن النفس بقدر الإمكان.

المسألة الثالثة: لما أقام الدلالة على وجود الإله بدليل كونه فاطر السموات والأرض وصفه بكمال الرحمة والكرم والجود وبين ذلك من وجهين، الأول: قوله: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ قال صاحب (الكشاف): لو قال قائل ما معنى التبعيض في قوله من ذنوبكم، ثم أجاب فقال: ما جاء هكذا إلا في خطاب الكافرين، كقوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [نوح: ٣، ٤]. ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٣١] وقال في خطاب المؤمنين: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠] إلى أن قال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١] والاستقراء يدل على صحة ما ذكرناه، ثم قال: وكأن ذلك للتفرقة بين الخطابين، ولئلا يسوي بين الفريقين في المعاد، وقيل: إنه أراد أنه يغفر لهم ما بينهم وبين الله تعالى بخلاف ما بينهم وبين العباد من المظالم. هذا كلام هذا الرجل، وقال الواحدي في (البسيط)، قال أبو عبيدة (من) زائدة، وأنكر سيبويه زيادتها في الواجب، وإذا قلنا إنها ليست زائدة فهاهنا وجهان: أحدهما: أنه ذكر البعض هاهنا وأريد به الجميع توسعًا. والثاني: أن (من) هاهنا للبدل والمعنى لتكون المغفرة بدلاً من الذنوب فدخلت من لتضمن المغفرة معنى البدل من السيئة، وقال القاضي: ذكر الأصم أن كلمة (من) هاهنا تفيد التبعيض، والمعنى أنكم إذا تبتم فإنه يغفر لكم الذنوب التي هي من الكبائر، فأما التي تكون من باب الصغائر فلا حاجة إلى غفرانها لأنها في أنفسها مغفورة، قال القاضي: وقد أبعد في هذا التأويل، لأن الكفار صغائرهم ككبائرهم في أنها لا تغفر إلا بالتوبة وإنما تكون الصغيرة مغفورة من المؤمنين الموحدين من حيث يزيد ثوابهم على عقابها فأما من لا ثواب له أصلاً فلا يكون شيء من ذنوبه صغيرًا ولا يكون

شيء منها مغفورًا. ثم قال وفيه وجه آخر وهو أن الكافر قد ينسى بعض ذنوبه في حال توبته وإنابته فلا يكون المغفور منها إلا ما ذكره وتاب منه فهذا جملة أقوال الناس في هذه الكلمة.

المسألة الرابعة: أقول هذه الآية تدل على أنه تعالى قد يغفر الذنوب من غير توبة في حق أهل الإيمان والدليل عليه أنه قال: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ وعد بغفران بعض الذنوب مطلقًا من غير اشتراط التوبة، فوجب أن يغفر بعض الذنوب مطلقًا من غير التوبة وذلك البعض ليس هو الكفر لإنعقاد الإجماع على أنه تعالى لا يغفر الكفر إلا بالتوبة عنه والدخول في الإيمان فوجب أن يكون البعض الذي يغفر له من غير التوبة هو ما عد الكفر من الذنوب.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال كلمة (من) صلة على ما قاله أبو عبيدة أو نقول: المراد من البعض هاهنا هو الكل على ما قاله الواحدي. أو نقول: المراد منها إبدال السيئة بالحسنة على ما قاله الواحدي أيضًا أو نقول: المراد منه تمييز المؤمن عن الكافر في الخطاب على ما قاله صاحب (الكشاف) أو نقول: المراد منه تخصيص هذا الغفران بالكبائر على ما قاله الأصم. أو نقول: المراد منه الذنوب التي يذكرها الكافر عند الدخول في الإيمان على ما قاله القاضي، فنقول: هذه الوجوه بأسرها ضعيفة أما قوله: إنها صلة فمعناه الحكم على كلمة من كلام الله تعالى بأنها حشو ضائع فاسد، والعاقل لا يجوز المصير إليه من غير ضرورة، فأما قول الواحدي: المراد من كلمة (من) هاهنا هو الكل فهو عين ما قاله أبو عبيدة لأن حاصله أن قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ هو أنه يغفر لكم ذنوبكم وهذا عين ما نقله عن أبي عبيدة، وحكي عن سيبويه إنكاره، وأما قوله: المراد منه إبدال السيئة بالحسنة فليس في اللغة أن كلمة من تفيد الإبدال، وأما قول صاحب (الكشاف): المراد تمييز خطاب المؤمن عن خطاب الكافر بمزيد التشريف فهو من باب الطامات، لأن هذا التبعيض إن حصل فلا حاجة إلى ذكر هذا الجواب، وإن لم يحصل كان هذا الجواب فاسدًا، وأما قول الأصم فقد سبق إبطاله، وأما قول القاضي فجوابه: أن الكافر إذا أسلم صارت ذنوبه بأسرها مغفورة لقوله عليه السلام: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ» فثبت أن جميع ما ذكروه من التأويلات تعسف ساقط بل المراد ما ذكرنا أنه تعالى يغفر بعض ذنوبه من غير توبة وهو ما عدا الكفر، وأما الكفر فهو أيضًا من الذنوب وأنه تعالى لا يغفره إلا بالتوبة، وإذا ثبت أنه تعالى يغفر كبائر كافر من غير توبة بشرط أن يأتي بالإيمان فبأن تحصل هذه الحالة للمؤمن كان أولى، هذا ما خطر بالبال على سبيل الارتجال والله أعلم بحقيقة الحال.

النوع الثاني: مما وعد الله تعالى به في هذه الآية قوله: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وفيه وجهان:

الأول: المعنى أنكم إن آمنتم أخر الله موتكم إلى أجل مسمى وإلا عاجلكم بعذاب الاستئصال.

الثاني: قال ابن عباس: المعنى يمتعكم في الدنيا بالطيبات واللذات إلى الموت.

فإن قيل: أليس إنه تعالى قال: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] فكيف قال هاهنا: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

قلنا: قد تكلمنا في هذه المسألة في سورة الأنعام في قوله: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام: ٢] ثم حكى تعالى أن الرسل لما ذكروا هذه الأشياء لأولئك الكفار قالوا: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

واعلم أن هذا الكلام مشتمل على ثلاثة أنوع من الشبه:

فالشبهة الأولى: أن الأشخاص الإنسانية متساوية في تمام الماهية، فيمتنع أن يبلغ التفاوت بين تلك الأشخاص إلى هذا الحد، وهو أن يكون الواحد منهم رسولاً من عند الله مطلعًا على الغيب مخالطًا لزمرة الملائكة، والباقون يكونون غافلين عن كل هذه الأحوال أيضًا كانوا يقولون: إن كنت قد فارقتنا في هذه الأحوال العالية الإلهية الشريفة، وجب أن تفارقنا في الأحوال الخسيسة، وفي الحاجة إلى الأكل والشرب والحدث والوقاع، وهذه الشبهة هي المراد من قولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾.

والشبهة الثانية: التمسك بطريقة التقليد، وهي أنهم وجدوا آباءهم وعلماءهم وكبراءهم مطبقين متفقين على عبادة الأوثان. قالوا ويبعد أن يقال: إن أولئك القدماء على كثرتهم وقوة خواطرهم لم يعرفوا بطلان هذا الدين، وأن الرجل الواحد عرف فساده ووقف على بطلانه، والعوام ربما زادوا في هذا الباب كلامًا آخر، وذلك أن الرجل العالم إذا بين ضعف كلام بعض المتقدمين قالوا له إن كلامك إنما يظهر صحته لو كان المتقدمون حاضرين، أما المناظرة مع الميت فسهلة، فهذا كلام يذكره الحمقى والرعاع وأولئك الكفار أيضًا ذكروه، وهذه الشبهة هي المراد من قوله: ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾.

والشبهة الثالثة: أن قالوا المعجز لا يدل على الصدق أصلاً، وإن كانوا سلموا على أن المعجز يدل على الصدق، إلا أن الذي جاء به أولئك الرسل طعنوا فيه وزعموا أنها أمور معتادة، وأنها ليست من باب المعجزات الخارجة عن قدرة البشر، وإلى هذا النوع من الشبهة الإشارة بقوله: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ فهذا تفسير هذه الآية بحسب الوسع، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عن الكفار شبهاتهم في الطعن في النبوة، حكى عن الأنبياء عليهم السلام جوابهم عنها.

أما الشبهة الأولى: وهي قولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فجوابه: أن الأنبياء سلموا أن الأمر كذلك، لكنهم بينوا أن التماثل في البشرية والإنسانية لا يمنع من اختصاص بعض البشر بمنصب النبوة لأن هذا المنصب منصب يمن الله به على من يشاء من عباده، فإذا كان الأمر كذلك فقد سقطت هذه الشبهة.

واعلم أن هذا المقام فيه بحث شريف دقيق، وهو أن جماعة من حكماء الإسلام قالوا: إن الإنسان ما لم يكن في نفسه وبدنه مخصوصًا بخواص شريفة علوية قدسية، فإنه يمتنع عقلاً حصول صفة النبوة له. وأما الظاهريون من أهل السنة والجماعة، فقد زعموا أن حصول النبوة عطية من الله تعالى يهبها لكل من يشاء من عباده، ولا يتوقف حصولها على امتياز ذلك الإنسان عن سائر الناس بمزيد إشراق نفساني وقوة قدسية، وهؤلاء تمسكوا بهذه الآية، فإنه تعالى بين أن حصول النبوة ليس إلا بمحض المنة من الله تعالى والعطية منه، والكلام من هذا الباب غامض غائص دقيق، والأولون أجابوا عنه بأنهم لم يذكروا فضائلهم النفسانية والجسدانية تواضعًا منهم، واقتصروا على قولهم: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ بالنبوة، لأنه قد علم أنه تعالى لا يخصهم بتلك الكرامات إلا وهم موصوفون بالفضائل التي لأجلها استوجبوا ذلك التخصيص، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[الأنعام: ١٢٤].

وأما الشبهة الثانية: وهي قولهم: إطباق السلف على ذلك الدين يدل على كونه حقًا، لأنه يبعد أن يظهر للرجل الواحد ما لم يظهر للخلق العظيم، فجوابه: عين الجواب المذكور عن الشبهة الأولى، لأن التمييز بين الحق والباطل والصدق والكذب عطية من الله تعالى وفضل منه، ولا يبعد أن يخص بعض عبيده بهذه العطية وأن يحرم الجمع العظيم منها.

وأما الشبهة الثالثة: وهي قولهم: إنا لا نرضى بهذه المعجزات التي أتيتم بها، وإنما نريد معجزات قاهرة قوية.

فالجواب عنها: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وشرح هذا الجواب أن المعجزة التي جئنا بها وتمسكنا بها حجة قاطعة وبينة قاهرة ودليل تام، فأما الأشياء التي طلبتموها فهي أمور زائدة والحكم فيها لله تعالى فإن خلقها وأظهرها فله الفضل وإن لم يخلقها فله العدل ولا يحكم عليه بعد ظهور قدر الكفاية. ثم إنه تعالى حكى عن الأنبياء والرسل عليهم السلام أنهم قالوا بعد ذلك: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ والظاهر أن الأنبياء لما أجابوا عن شبهاتهم بذلك الجواب فالقوم أخذوا في السفاهة والتخويف والوعيد، وعند هذا قالت الأنبياء عليهم السلام: لا نخاف من تخويفكم ولا نلتفت إلى تهديدكم فإن توكلنا على الله واعتمادنا على فضل الله ولعل الله سبحانه كان قد أوحى إليهم أن أولئك الكفرة لا يقدرون على إيصال الشر والآفة إليهم وإن لم يكن حصل هذا الوحي، فلا يبعد منهم أن لا يلتفتوا إلى سفاهتهم لما أن أرواحهم كانت مشرقة بالمعارف الإلهية مشرقة بأضواء عالم الغيب والروح متى كانت

موصوفة بهذه الصفات فقلما يبالي بالأحوال الجسمانية وقلما يقيم لها وزنًا في حالتي السراء والضراء وطورى الشدة والرخاء، فلهذا السبب توكلوا على الله وعولوا على فضل الله وقطعوا أطماعهم عما سوى الله، والذي يدل على أن المراد ما ذكرناه قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ﴾ يعني أنه تعالى لما خصنا بهذه الدرجات الروحانية، والمعارف الإلهية الربانية فكيف يليق بنا أن لا نتوكل على الله، بل اللائق بنا أن لا نتوكل إلا عليه ولا نعول في تحصيل المهمات إلا عليه، فإن من فاز بشرف العبودية ووصل إلى مكان الإخلاص والمكاشفة يقبح به أن يرجع في أمر من الأمور إلى غير الحق سواء كان ملكًا له أو ملكًا أو روحًا أو جسمًا، وهذه الآية دالة على أنه تعالى يعصم أولياءه المخلصين في عبوديته من كيد أعدائهم ومكرهم، ثم قالوا: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ﴾ فإن الصبر مفتاح الفرج، ومطلع الخيرات، والحق لا بد وأن يصير غالبًا قاهرًا، والباطل لا بد وأن يصير مغلوبًا مقهورًا، ثم أعادوا قولهم: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ والفائدة فيه أنهم أمروا أنفسهم بالتوكل على الله في قوله ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ثم لما فرغوا من أنفسهم أمروا أتباعهم بذلك وقالوا: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وذلك يدل على أن الآمر بالخير لا يؤثر قوله إلا إذا أتى بذلك الخير أولاً، ورأيت في كلام الشيخ أبي حامد الغزالي رحمه الله فصلاً حسنًا وحاصله: أن الإنسان إما أن يكون ناقصًا أو كاملاً أو خاليًا عن الوصفين، أما الناقص فإما أن يكون ناقصًا في ذاته ولكنه لا يسعى في تنقيص حال غيره، وإما أن يكون ناقصًا ويكون مع ذلك ساعيًا في تنقيص حال الغير، فالأول: هو الضال، والثاني: هو الضال المضل، وأما الكامل فإما أن يكون كاملاً ولا يقدر على تكميل الغير وهم الأولياء، وإما أن يكون كاملاً ويقدر على تكميل الناقصين وهم الأنبياء ولذلك قال عليه السلام: «عُلَمَاءُ أُمَّتِي كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ»[1] ولما كانت مراتب النقصان والكمال ومراتب الإكمال والإضلال غير متناهية بحسب الكمية والكيفية، لا جرم كانت مراتب الولاية والحياة غير متناهية بحسب الكمال والنقصان، فالولي هو الإنسان الكامل الذي لا يقوى على التكميل، والنبي هو الإنسان الكامل المكمل، ثم قد تكون قوته الروحانية النفسانية وافية بتكميل إنسانين ناقصين وقد تكون أقوى من ذلك فيفي بتكميل عشرة ومائة وقد تكون تلك القوة قاهرة قوية تؤثر تأثير الشمس في العالم فيقلب أرواح أكثر أهل العالم من مقام الجهل إلى مقام المعرفة ومن طلب الدنيا إلى طلب الآخرة، وذلك مثل روح محمد ﷺ، فإن وقت ظهوره كان العالم مملوءًا من اليهود وأكثرهم كانوا مشبهة ومن النصارى وهم حلولية ومن المجوس وقبح مذاهبهم ظاهر ومن عبدة الأوثان وسخف دينهم أظهر من أن يحتاج إلى بيان فلما ظهرت دعوة

---

(١) **لا أصل له**: أورده الفتني في (تذكرة الموضوعات) (١/ ٢٠)، وقال: قال شيخنا الزركشي: لا أصل له ولا يعرف في كتاب معتبر وأورده العجلوني في (كشف الخفا) (٢/ ٦٤)، وقال: قال السيوطي في الدرر لا أصل له، وقال في المقاصد قال شيخنا يعني ابن حجر لا أصل له، وقبله الدميري والزركشي وزاد بعضهم ولا يعرف في كتاب معتبر.

محمد ﷺ سرت قوة روحه في الأرواح فقلب أكثر أهل العالم من الشرك إلى التوحيد، ومن التجسيم إلى التنزيه، ومن الاستغراق في طلب الدنيا إلى التوجه إلى عالم الآخرة، فمن هذا المقام ينكشف للإنسان مقام النبوة والرسالة.

إذا عرفت هذا فنقول: قوله: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى ما كانت حاصلة لهم من كمالات نفوسهم، وقولهم في آخر الأمر، وعلى الله فليتوكل المتوكلون، إشارة إلى تأثير أرواحهم الكاملة في تكميل الأرواح الناقصة فهذه أسرار عالية مخزونة في ألفاظ القرآن، فمن نظر في علم القرآن وكان غافلاً عنها كان محرومًا من أسرار علوم القرآن والله أعلم، وفي الآية وجه آخر وهو أن قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ المراد منه أن الذين يطلبون سائر المعجزات وجب عليهم أن يتوكلوا في حصولها على الله تعالى لا عليها، فإن شاء أظهرها وإن شاء لم يظهرها.

وأما قوله في آخر الآية: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ المراد منه الأمر بالتوكل على الله في دفع شر الناس الكفار وسفاهتهم، وعلى هذا التقدير فالتكرار غير حاصل لأن قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ وارد في موضعين مختلفين بحسب مقصودين متغايرين، وقيل أيضًا: الأول: ذكر لاستحداث التوكل. والثاني: للسعي في إبقائه وإدامته، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عن الأنبياء عليهم السلام، أنهم اكتفوا في دفع شرور أعدائهم بالتوكل عليه والاعتماد على حفظه وحياطته، حكى عن الكفار أنهم بالغوا في السفاهة وقالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ والمعنى: ليكونن أحد الأمرين لا محالة إما إخراجكم وإما عودكم إلى ملتنا. والسبب فيه أن أهل الحق في كل زمان يكونون قليلين وأهل الباطل يكونون كثيرين والظلمة والفسقة يكونون متعاونين متعاضدين، فلهذه الأسباب قدروا على هذه السفاهة.

فإن قيل: هذا يوهم أنهم كانوا على ملتهم في أول الأمر حتى يعودوا فيها.

قلنا: الجواب من وجوه:

الوجه الأول: أن أولئك الأنبياء عليهم السلام إنما نشأوا في تلك البلاد وكانوا من تلك القبائل

وفي أول الأمر ما أظهروا المخالفة مع أولئك الكفار، بل كانوا في ظاهر الأمر معهم من غير إظهار مخالفة فالقوم ظنوا لهذا السبب أنهم كانوا في أول الأمر على دينهم فلهذا السبب قالوا: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾.

الوجه الثاني: أن هذا حكاية كلام الكفار ولا يجب في كل ما قالوه أن يكونوا صادقين فيه فلعلهم توهموا ذلك مع أنه ما كان الأمر كما توهموه.

الوجه الثالث: لعل الخطاب وإن كان في الظاهر مع الرسل إلا أن المقصود بهذا الخطاب أتباعهم وأصحابهم ولا بأس أن يقال: إنهم كانوا قبل ذلك الوقت على دين أولئك الكفار.

الوجه الرابع: قال صاحب (الكشاف): العود بمعنى الصيرورة كثير في كلام العرب.

الوجه الخامس: لعل أولئك الأنبياء كانوا قبل إرسالهم على ملة من الملل، ثم إنه تعالى أوحى إليهم بنسخ تلك الملة وأمرهم بشريعة أخرى وبقي الأقوام على تلك الشريعة التي صارت منسوخة مصرين على سبيل الكفر، وعلى هذا التقدير فلا يبعد أن يطلبوا من الأنبياء أن يعودوا إلى تلك الملة.

الوجه السادس: لا يبعد أن يكون المعنى: أو لتعودن في ملتنا، أي إلى ما كنتم عليه قبل إدعاء الرسالة من السكوت عن ذكر معايبة ديننا وعدم التعرض له بالطعن والقدح وعلى جميع هذه الوجوه فالسؤال زائل، والله أعلم.

واعلم أن الكفار لما ذكروا هذا الكلام قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ قال صاحب (الكشاف): ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ حكاية تقتضي إضمار القول أو إجراء الإيحاء مجرى القول لأنه ضرب منه، وقرأ أبو حيوة: (لَيُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَيُسْكِنَنَّكُمْ) بالياء اعتبارًا لأوحى فإن هذا اللفظ لفظ الغيبة ونظيره قولك أقسم زيد ليخرجن ولأخرجن، والمراد بالأرض (أَرْضُ الظَّالِمِينَ وَدِيَارُهُمْ) ونظيره قوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧] ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٧] وعن النبي ﷺ: «مَنْ آذَى جَارَهُ أَوْرَثَهُ اللَّهُ دَارَهُ»(١) واعلم أن هذه الآية تدل على أن من توكل على ربه في دفع عدوه كفاه الله أمر عدوه.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ فقوله ذلك إشارة إلى أن ما قضى الله تعالى به من إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين ديارهم إثر ذلك الأمر حق لمن خاف مقامي وفيه

---

(١) أورده العجلوني في (كشف الخفا) (٢/ ٢١٩)، وقال: كذا رأيته في كلام بعض من جمع في الحديث ممن لا يعرف، لكن بلفظ ورثه بتشديد الراء فلينظر حاله، ثم رأيت النجم قال أورده في الكشاف، ولعله مثل سائر وليس بحديث ومأخذه في كتاب الله من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [إبراهيم: ١٣-١٤] ومن أمثلة العوام اصبر على جارك المشؤوم إما يموت وإما يرحل انتهى.

وجوه: الأول: موقفي وهو موقف الحساب، لأن ذلك الموقف موقف الله تعالى الذي يقف فيه عباده يوم القيامة، ونظيره قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾[النازعات: ٤٠] وقوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[الرحمن: ٤٦] الثاني: أن المقام مصدر كالقيامة، يقال: قام قيامًا ومقامًا، قال الفراء: ذلك لمن خاف قيامي عليه ومراقبتي إياه كقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾[الرعد: ٣٣]. الثالث: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ أي إقامتي على العدل والصواب فإنه تعالى لا يقضي إلا بالحق ولا حكم إلا بالعدل وهو تعالى مقيم على العدل لا يميل عنه ولا ينحرف ألبتة. الرابع: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ أي مقام العائذ عندي وهو من باب إضافة المصدر إلى المفعول، الخامس: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ أي لم خافني، وذكر المقام ههنا مثل ما يقال: سلام الله على المجلس الفلاني العالي والمراد: سلام الله على فلان فكذا ههنا.

ثم قال تعالى: ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ قال الواحدي: الوعيد اسم من أوعد إيعادًا وهو التهديد. قال ابن عباس: خاف ما أوعدت من العذاب.

واعلم أنه تعالى ذكر أولا قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ ثم عطف عليه قوله: ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ فهذا يقتضي أن يكون الخوف من الله تعالى مغايرًا للخوف من وعيد الله، ونظيره: أن حب الله تعالى مغاير لحب ثواب الله، وهذا مقام شريف عال في أسرار الحكمة والتصديق.

ثم قال: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: للاستفتاح ههنا معنيان: أحدهما: طلب الفتح بالنصرة، فقوله: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾ أي واستنصروا الله على أعدائهم، فهو كقوله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾[الأنفال: ١٩]. والثاني: الفتح الحكم والقضاء، فقول ربنا: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾ أي واستحكموا الله وسألوه القضاء بينهم، وهو مأخوذ من الفتاحة وهي الحكومة كقوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾[الأعراف: ٨٩].

إذا عرفت هذا فنقول: كلا القولين ذكره المفسرون. أما على القول الأول فالمستفتحون هم الرسل، وذلك لأنهم استنصروا الله ودعوا على قومهم بالعذاب لما أيسوا من إيمانهم: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[نوح: ٢٦] وقال موسى: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ﴾[يونس: ٨٨] الآية. وقال لوط: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[العنكبوت: ٣٠] وأما على القول الثاني: وهو طلب الحكمة والقضاء فالأولى أن يكون المستفتحون هم الأمم وذلك أنهم قالوا: اللهم إن كان هؤلاء الرسل صادقين فعذبنا، ومنه قول كفار قريش: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[الأنفال: ٣٢]. وكقول آخرين ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[العنكبوت: ٢٩].

المسألة الثانية: قال صاحب (الكشاف): قوله: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾ معطوف على قوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ

إِلَيْهِمْ﴾ وقرىء واستفتحوا بلفظ الأمر وعطفه على قوله: ﴿لَنُهْلِكَنَّ﴾ أي أوحى إليهم ربهم، وقال لهم: ﴿لَنُهْلِكَنَّ﴾ وقال لهم ﴿وَاسْتَفْتَحُواْ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: إن قلنا: المستفتحون هم الرسل، كان المعنى أن الرسل استفتحوا فنصروا وظفروا بمقصودهم وفازوا ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ وهم قومهم؛ وإن قلنا: المستفتحون هم الكفرة، فكان المعنى: أن الكفار استفتحوا على الرسل ظنًا منهم أنهم على الحق والرسل على الباطل ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ منهم وما أفلح بسبب استفتاحه على الرسل.

المسألة الثانية: الجبار ههنا المتكبر على طاعة الله وعبادته. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٤] قال أبو عبيدة عن الأحمر: يقال فيه جبرية وجبروة وجبروت وجبورة، وحكى الزجاج: الجبرية والجبر بكسر الجيم والباء والنجبار والجبرياء. قال الواحدي: فهي ثمان لغات في مصدر الجبار، وفي الحديث أن امرأة حضرت النبي ﷺ فأمرها أمرًا فأبت عليه فقال: «**دَعُوهَا فَإِنَّهَا جَبَّارَةٌ**» أي مستكبرة، وأما العنيد فقد اختلف أهل اللغة في اشتقاقه، قال النضر بن شميل: العنود الخلاف والتباعد والترك، وقال غيره: أصله من العند وهو الناحية يقال: فلان يمشي عندًا، أي ناحية، فمعنى عاند وعند. أخذ في ناحية معرضًا، وعاند فلان فلانًا إذا جانبه وكان منه على ناحية.

إذا عرفت هذا فنقول: كونه جبارًا متكبرًا إشارة إلى الخلق النفساني وكونه عنيدًا إشارة إلى الأثر الصادر عن ذلك الخلق، وهو كونه مجانبًا عن الحق منحرفًا عنه، ولا شك أن الإنسان الذي يكون خلقه هو التجبر والتكبر وفعله هو العنود وهو الانحراف عن الحق والصدق، كان خائبًا عن كل الخيرات خاسرًا عن جميع أقسام السعادات.

واعلم أنه تعالى لما حكم عليه بالخيبة ووصفه بكونه جبارًا عنيدًا، وصف كيفية عذابه بأمور:

الأول: قوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ﴾ وفيه إشكال وهو أن المراد: أمامه جهنم، فكيف أطلق لفظ الوراء على القدام والأمام؟

وأجابوا عنه من وجوه: الأول: أن لفظ (وراء) اسم لما يوارى عنك، وقدام وخلف متوار عنك، فصح إطلاق لفظ (وراء) على كل واحد منهما. قال الشاعر:

عَسَى الْكَرْبُ الَّذِي أَمْسَيْتُ فِيهِ ... يَكُونُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيبُ[1]

(١) هذا البيت من البحر الوافر للشاعر عبد الكريم البسطي وهو عبد الكريم القيسي البَسطي. ؟- ٨٩٧ هـ/ ؟-١٤٩١ م، من شعراء الأندلس في القرن الأخير من حياة العرب المسلمين في تلك الديار، وقد وصل إلينا ديوان شعره كاملاً تقريباً، ولعله آخر ديوان أندلسي يصل إلينا من خلال الأحداث القاسية التى عانى منها الأندلسيون في آخر التاريخ الإسلامي هناك ولم تحفظ لنا الوثائق الباقية سنة ولادة القيسي البسطي ولا سنة وفاته، لكن ديوانه يشير إلى=

ويقال أيضا: الموت وراء كل أحد. الثاني: قال أبو عبيدة وابن السكيت: الوراء من الأضداد يقع على الخلف والقدام، والسبب فيه أن كل ما كان خلفًا فإنه يجوز أن ينقلب قدامًا وبالعكس، فلا جرم جاز وقوع لفظ الوراء على القدام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ﴾ [الكهف: ٧٩] أي أمامهم، ويقال: الموت من وراء الإنسان. الثاني: قال ابن الأنباري (وراء) بمعنى بعد. قال الشاعر:

وَلَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ (١)

أي وليس بعد الله مذهب.

إذا ثبت هذا فنقول: إنه تعالى حكم عليه بالخيبة في قوله: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

ثم قال: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي ومن بعده الخيبة يدخل جهنم.

النوع الثاني: مما ذكره الله تعالى من أحوال هذا الكافر قوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ وفيه سؤالات:

السؤال الأول: علام عطف ﴿وَيُسْقَىٰ﴾.

الجواب: على محذوف تقديره: من ورائه جهنم يلقى فيها ويسقى من ماء صديد.

السؤال الثاني: عذاب أهل النار من وجوه كثيرة، فلم خص هذه الحالة بالذكر؟

الجواب: يشبه أن تكون هذه الحالة أشد أنواع العذاب فخصص بالذكر مع قوله: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾.

السؤال الثالث: ما وجه قوله: ﴿مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾.

الجواب: أنه عطف بيان والتقدير: أنه لما قال: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ﴾ فكأنه قيل: وما ذلك الماء فقال: ﴿صَدِيدٍ﴾ والصديد ما يسيل من جلود أهل النار. وقيل: التقدير ويسقى من ماء كالصديد. وذلك بأن يخلق الله تعالى في جهنم ما يشبه الصديد في النتن والغلظ والقذارة، وهو أيضًا يكون في نفسه صديدًا، لأن كراهته تصد عن تناوله وهو كقوله: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]. ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ [الكهف: ٢٩].

السؤال الرابع: ما معنى يتجرعه ولا يكاد يسيغه.

الجواب: التجرع تناول المشروب جرعة جرعة على الاستمرار، ويقال: ساغ الشراب في الحلق يسوغ سوغًا وأساغه إساغة. واعلم أن (يكاد).

=أنه من رجال القرن التاسع، وأنه لم يدرك سقوط غرناطة ٨٩٧ هـ.

(١) هذا عجز بيت ضمن قصيدة من البحر الطويل للشاعر النابغة الذبياني وهو النابغَة الذُبياني هو: زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني الغطفاني المضري، أبو أمامة. ؟-١٨ ق.هـ/ ؟- ٦٠٥ م، شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، من أهل الحجاز، كانت تضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ فتقصده الشعراء فتعرض عليه أشعارها، وكان الأعشى وحسان والخنساء ممن يعرض شعره على النابغة، والبيت كاملاً هكذا:

حَلَفتُ فَلَم أترُك لِنَفسِكَ رِيبَةً وَلَيسَ وَراءَ اللهَ لِلمَرءِ مَذهَبُ

فيه قولان:

القول الأول: أن نفيه إثبات، وإثباته نفي، فقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أي ويسيغه بعد إبطاء لأن العرب تقول: ما كدت أقوم، أي قمت بعد إبطاء قال تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١] يعني فعلوا بعد إبطاء، والدليل على حصول الإساغة قوله تعالى: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ [الحج: ٢٠] ولا يحصل الصهر إلا بعد الإساغة، وأيضًا فإن قوله: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ يدل على أنهم أساغوا الشيء بعد الشيء فكيف يصح أن يقال بعده إنه يسيغه ألبتة.

والقول الثاني: أن كاد للمقاربة فقول: ﴿وَلَا يَكَادُ﴾ لنفي المقاربة يعني: ولم يقارب أن يسيغه فكيف يحصل الإساغة كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور: ٤٠] أي لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها.

فإن قيل: فقد ذكرتم الدليل على حصول الإساغة، فكيف الجمع بينه وبين هذا الوجه.

قلنا عنه جوابان: أحدهما: أن المعنى: ولا يسيغ جميعه كأنه يجرع البعض وما ساغ الجميع. الثاني: أن الدليل الذي ذكرتم إنما دل على وصول بعض ذلك الشراب إلى جوف الكافر، إلا أن ذلك ليس بإساغة، لأن الإساغة في اللغة إجراء الشراب في الحلق بقبول النفس واستطابة المشروب والكافر يتجرع ذلك الشراب على كراهية ولا يسيغه، أي لا يستطيبه ولا يشربه شربًا بمرة واحدة وعلى هذين الوجهين يصبح حمل لا يكاد على نفي المقاربة، والله أعلم.

النوع الثالث: مما ذكره الله تعالى في وعيد هذا الكافر قوله: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧] والمعنى: أن موجبات الموت أحاطت به من جميع الجهات، ومع ذلك فإنه لا يموت وقيل من كل جزء من أجزاء جسده.

النوع الرابع: قوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ وفيه وجهان:

الأول: أن المراد من العذاب الغليظ كونه دائمًا غير منقطع.

الثاني: أنه في كل وقت يستقبله يتلقى عذابًا أشد مما قبله. قال المفضل: هو قطع الأنفاس وحبسها في الأجساد، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر أنواع عذابهم في الآية المتقدمة بين في هذه الآية أن أعمالهم بأسرها تصير ضائعة باطلة لا ينتفعون بشيء منها وعند هذا يظهر كمال خسرانهم لأنهم لا يجدون في

القيامة إلا العقاب الشديد وكل ما عملوه في الدنيا وجدوه ضائعًا باطلاً، وذلك هو الخسران الشديد. وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في ارتفاع قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ﴾ وجوه:

الأول: قال سيبويه: التقدير: وفيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا، أو مثل الذين كفروا فيما يتلى عليكم، وقوله: ﴿كَرَمَادٍ﴾ جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول: كيف مثلهم فقيل: أعمالهم كرماد. **الثاني:** قال الفراء: التقدير مثل أعمال الذين كفروا بربهم كرماد فحذف المضاف اعتمادًا على ذكره بعد المضاف إليه وهو قوله: ﴿أَعْمَـٰلُهُمْ﴾ ومثله قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧] أي خلق كل شيء، وكذا قوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠] المعنى ترى وجوه الذين كذبوا على الله مسودة. **الثالث:** أن يكون التقدير صفة الذين كفروا أعمالهم كرماد، كقولك صفة زيد عرضه مصون، وماله مبذول. الرابع: أن تكون أعمالهم بدلاً من قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ والتقدير: مثل أعمالهم وقوله: ﴿كَرَمَادٍ﴾ هو الخبر. الخامس: أن يكون المثل صلة وتقديره: الذين كفروا أعمالهم.

المسألة الثانية: اعلم أن وجه المشابهة بين هذا المثل وبين هذه الأعمال، هو أن الريح العاصف تطير الرماد وتفرق أجزاءه بحيث لا يبقى لذلك الرماد أثر ولا خبر، فكذا ههنا أن كفرهم أبطل أعمالهم وأحبطها بحيث لم يبق من تلك الأعمال معهم خبر ولا أثر، ثم اختلفوا في المراد بهذه الأعمال على وجوه:

الوجه الأول: أن المراد منها ما عملوه من أعمال البر كالصدقة وصلة الرحم وبر الوالدين وإطعام الجائع، وذلك لأنها تصير محبطة باطلة بسبب كفرهم، ولولا كفرهم لانتفعوا بها.

والوجه الثاني: أن المراد من تلك الأعمال عبادتهم للأصنام وما تكلفوه من كفرهم الذي ظنوه إيمانًا وطريقًا إلى الخلاص، والوجه في خسرانهم أنهم أتعبوا أبدانهم فيها الدهر الطويل لكي ينتفعوا بها فصارت وبالاً عليهم.

والوجه الثالث: أن المراد من هذه الأعمال كلا القسمين، لأنهم إذا رأوا الأعمال التي كانت في أنفسها خيرات قد بطلت، والأعمال التي ظنوها خيرات وأفنوا فيها أعمارهم قد بطلت أيضًا وصارت من أعظم الموجبات لعذابهم فلا شك أنه تعظم حسرتهم وندامتهم فلذلك قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾.

المسألة الثالثة: قرىء الرياح في يوم عاصف جعل العصف لليوم، وهو لما فيه وهو الريح أو الرياح كقولك: يوم ماطر وليلة ساكرة، وإنما السكور لريحها قال الفراء: وإن شئت قلت في يوم ذي عصوف، وإن شئت قلت: في يوم عاصف الريح فحذف ذكر الريح لكونه مذكورًا قبل ذلك، وقرىء في يوم عاصف بالإضافة.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي لا يقدرون مما كسبوا على شيء

منتفع به لا في الدنيا ولا في الآخرة وذلك لأنه ضاع بالكلية وفسد، وهذه الآية دالة على كون العبد مكتسبًا لأفعاله.

واعلم أنه تعالى لما تمم هذا المثال قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: وجه النظم أنه تعالى لما بين أن أعمالهم تصير باطلة ضائعة، بين أن ذلك البطلان والإحباط إنما جاء بسبب صدر منهم وهو كفرهم بالله وإعراضهم عن العبودية فإن الله تعالى لا يبطل أعمال المخلصين ابتداء، وكيف يليق بحكمته أن يفعل ذلك وأنه تعالى ما خلق كل هذا العالم إلا لداعية الحكمة والصواب.

المسألة الثانية: قرأ حمزة والكسائي: (خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) على اسم الفاعل على أنه خبر أن والسموات والأرض على الإضافة كقوله: ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[إبراهيم: ١٠]. ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾[الأنعام: ٩٥]. و﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾[الأنعام: ٩٦] والباقون خلق على فعل الماضي: ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بالنصب لأنه مفعول.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ نظير لقوله في سورة يونس: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [يونس: ٥] ولقوله في آل عمران: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا﴾[آل عمران: ١٩١] ولقوله في ص: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾[ص: ٢٧] أما أهل السنة فيقولون إلا بالحق وهو دلالتهما على وجود الصانع وعلمه وقدرته، وأما المعتزلة فيقولون: إلا بالحق، أي لم يخلق ذلك عبثًا بل لغرض صحيح.

ثم قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ والمعنى: أن من كان قادرًا على خلق السموات والأرض بالحق، فبأن يقدر على إفناء قوم وإماتتهم وعلى إيجاد آخرين وإحيائهم كان أولى، لأن القادر على الأصعب الأعظم بأن يكون قادرًا على الأسهل الأضعف أولى. قال ابن عباس: هذا الخطاب مع كفار مكة، يريد أميتكم يا معشر الكفار، وأخلق قومًا خيرًا منكم وأطوع منكم.

ثم قال: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي ممتنع لما ذكرنا أن القادر على إفناء كل العالم وإيجاده بأن يكون قادرًا على إفناء أشخاص مخصوصين وإيجاده أمثالهم أولى وأحرى، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ۖ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر أصناف عذاب هؤلاء الكفار ثم ذكر عقيبه أن أعمالهم تصير محبطة

باطلة، ذكر في هذه الآية كيفية خجالتهم عند تمسك أتباعهم وكيفية افتضاحهم عندهم. وهذا إشارة إلى العذاب الروحاني الحاصل بسبب الفضيحة والخجالة.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: برز معناه في اللغة ظهر بعد الخفاء. ومنه يقال للمكان الواسع: البراز لظهوره، وقيل في قوله: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧]أي ظاهرة لا يسترها شيء، وامرأة برزة إذا كانت تظهر للناس. ويقال: برز فلان على أقرانه إذا فاقهم وسبقهم، وأصله في الخيل إذا سبق أحدها. قيل: برز عليها كأنه خرج من غمارها فظهر.

إذا عرفت هذا فنقول: ههنا أبحاث:

البحث الأول: قوله: ﴿ وَبَرَزُواْ﴾ ورد بلفظ الماضي وإن كان معناه الاستقبال، لأن كل ما أخبر الله تعالى عنه فهو صدق وحق، فصار كأنه قد حصل ودخل في الوجود ونظيره قوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٥٠].

البحث الثاني: قد ذكرنا أن البروز في اللغة عبارة عن الظهور بعد الاستتار وهذا في حق الله تعالى محال، فلا بد فيه من التأويل وهو من وجوه:

الأول: أنهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش ويظنون أن ذلك خاف على الله تعالى، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله تعالى عند أنفسهم وعلموا أن الله لا يخفى عليه خافية.

الثاني: أنهم خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله وحكمه.

الثالث: وهو تأويل الحكماء أن النفس إذا فارقت الجسد فكأنه زال الغطاء والوطاء وبقيت متجردة بذاتها عارية عن كل ما سواها وذلك هو البروز لله.

البحث الثالث: قال أبو بكر الأصم قوله: ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ﴾ هو المراد من قوله في الآية السابقة: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧].

واعلم أن قوله: ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ﴾ قريب من قوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ٩، ١٠]وذلك لأن البواطن تظهر في ذلك اليوم والأحوال الكامنة تنكشف فإن كانوا من السعداء برزوا للحاكم الحكيم بصفاتهم القدسية، وأحوالهم العلوية، ووجوههم المشرقة، وأرواحهم الصافية المستنيرة فيتجلى لها نور الجلال؛ ويعظم فيها إشراق عالم القدس، فما أجل تلك الأحوال وإن كانوا من الأشقياء برزوا لموقف العظمة، ومنازل الكبرياء ذليلين مهينين خاضعين خاشعين واقعين في خزي الخجالة، ومذلة الفضيحة، وموقف المهانة والفزع، نعوذ بالله منها. ثم حكى الله تعالى أن الضعفاء يقولون للرؤساء: هل تقدرون على دفع عذاب الله عنا؟ والمعنى: أنه إنما اتبعناكم لهذا اليوم، ثم إن الرؤساء يعترفون بالخزي والعجز والذل. قالوا: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ ومن المعلوم أن اعتراف الرؤساء والسادة والمتبوعين بمثل هذا العجز والخزي والنكال يوجب الخجالة العظيمة والخزي الكامل التام،

فكان المقصود من ذكر هذه الآية: استيلاء عذاب الفضيحة والخجالة والخزي عليهم مع ما تقدم ذكره من سائر وجوه أنواع العذاب والعقاب نعوذ بالله منها، والله أعلم.

المسألة الثانية: كتبوا الضعفاء بواو قبل الهمزة في بعض المصاحف، والسبب فيه أنه كتب على لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة فيميلها إلى الواو، ونظيره علماء بني إسرائيل.

المسألة الثالثة: الضعفاء الأتباع والعوام، والذين استكبروا هم السادة والكبراء. قال ابن عباس: المراد أكابرهم الذين استكبروا عن عبادة الله تعالى: ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي في الدنيا. قال الفراء وأكثر أهل اللغة: التبع تابع مثل خادم وخدم وباقر وبقر وحارس وحرس وراصد ورصد قال الزجاج: وجائز أن يكون مصدرًا سمي به، أي كنا ذوي تبع.

واعلم أن هذه التبعية يحتمل أن يقال: المراد منها التبعية في الكفر، ويحتمل أن يكون المراد منها التبعية في أحوال الدنيا: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي هل يمكنكم دفع عذاب الله عنا.

فإن قيل: ما الفرق بين من في قوله: ﴿ مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ وبينه في قوله: ﴿ مِن شَىْءٍ﴾ .

قلنا: كلاهما للتبعيض بمعنى: هل أنتم مغنون عنا بعض شيء هو عذاب الله أي بعض عذاب الله وعند هذا حكى الله تعالى عن الذين استكبروا أنهم قالوا: ﴿ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ وفيه وجوه الأول: قال ابن عباس: معناه لو أرشدنا الله لأرشدناكم، قال الواحدي: معناه أنهم إنما دعوهم إلى الضلال، لأن الله تعالى أضلهم ولم يهدهم فدعوا أتباعهم إلى الضلال ولو هداهم لدعوهم إلى الهدى قال صاحب (الكشاف): لعلهم قالوا ذلك مع أنهم كذبوا فيه ويدل عليه قوله تعالى حكاية عن المنافقين: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨].

واعلم أن المعتزلة لا يجوزون صدور الكذب عن أهل القيامة فكان هذا القول منه مخالفًا لأصول مشايخه فلا يقبل منه، الثاني: قال صاحب (الكشاف): يجوز أن يكون المعنى لو كنا من أهل اللطف فلطف بنا ربنا واهتدينا لهديناكم إلى الإيمان. وذكر القاضي هذا الوجه وزيفه بأن قال: لا يجوز حمل هذا على اللطف، لأن ذلك قد فعله الله تعالى. والثالث: أن يكون المعنى لو خلصنا الله من العقاب وهدانا إلى طريق الجنة لهديناكم، والدليل على أن المراد من الهدى هذا الذي ذكرناه أن هذا هو الذي التمسوه وطلبوه فوجب أن يكون المراد من الهداية هذا المعنى.

ثم قال: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ أي مستو علينا الجزع والصبر والهمزة وأم للتسوية ونظيره: ﴿فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الطور: ١٦] ثم قالوا: ما لنا من محيص، أي منجي ومهرب، والمحيص قد يكون مصدرًا كالمغيب والمشيب، ومكانًا كالمبيت والمضيق، ويقال حاص عنه وحاض بمعنى واحد، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر المناظرة التي وقعت بين الرؤساء والأتباع من كفرة الإنس، أردفها بالمناظرة التي وقعت بين الشيطان وبين أتباعه من الإنس فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ وفي المراد بقوله: ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ وجوه:

القول الأول: قال المفسرون: إذا استقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، أخذ أهل النار في لوم إبليس وتقريعه فيقوم في النار فيما بينهم خطيبًا ويقول ما أخبر الله عنه بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾.

القول الثاني: أن المراد من قوله: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ لما انقضت المحاسبة، والقول الأول أولى، لأن آخر أمر أهل القيامة استقرار المطيعين في الجنة واستقرار الكافرين في النار، ثم يدوم الأمر بعد ذلك.

والقول الثالث: وهو أن مذهبنا أن الفساق من أهل الصلاة يخرجون من النار ويدخلون الجنة فلا يبعد أن يكون المراد من قوله: ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ ذلك الوقت، لأن في ذلك الوقت تنقطع الأحوال المعتبرة، ولا يحصل بعده إلا دوام ما حصل قبل ذلك، وأما الشيطان فالمراد به إبليس لأن لفظ الشيطان لفظ مفرد فيتناول الواحد وإبليس رأس الشياطين ورئيسهم، فحمل اللفظ عليه أولى، لا سيما وقد قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْخَلْقَ وَقَضَى بَيْنَهُمْ يَقُولُ الْكَافِرُ قَدْ وَجَدَ الْمُسْلِمُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَهُمْ فَمَنْ يَشْفَعُ لَنَا مَا هُوَ إِلاَّ إِبْلِيسُ هُوَ الَّذِي أَضَلَّنَا فَيَأْتُونَهُ وَيَسْأَلُونَهُ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُ هَذَا الْقَوْلَ**»(١) .

أما قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾.

ففيه مباحث:

البحث الأول: المراد أن الله تعالى وعدكم وعد الحق وهو البعث والجزاء على الأعمال فوفى لكم بما وعدكم ووعدتكم خلاف ذلك فأخلفتكم، وتقرير الكلام أن النفس تدعو إلى هذه الأحوال الدنيوية ولا تتصور كيفية السعادات الأخروية والكمالات النفسانية والله يدعو إليها ويرغب فيها كما قال: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[الأعلى: ١٧] .

(١) لم أجده إلا في التفسير وعند النيسابوري.

البحث الثاني: قوله: ﴿وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ من باب إضافة الشيء إلى نفسه كقوله: ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ [ق: ٩] ومسجد الجامع على قول الكوفيين، والمعنى: وعدكم الوعد الحق، وعلى مذهب البصريين يكون التقدير وعد اليوم الحق أو الأمر الحق أو يكون التقدير وعدكم الحق. ثم ذكر المصدر تأكيدًا.

البحث الثالث: في الآية إضمار من وجهين:

الأول: أن التقدير إن الله وعدكم وعد الحق فصدقكم ووعدتكم فأخلفتكم وحذف ذلك لدلالة تلك الحالة على صدق ذلك الوعد، لأنهم كانوا يشاهدونها وليس وراء العيان بيان ولأنه ذكر في وعد الشيطان الإخلاف فدل ذلك على الصدق في وعد الله تعالى.

الثاني: أن في قوله: ﴿وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ الوعد يقتضي مفعولاً ثانيًا وحذف ههنا للعلم به، والتقدير: ووعدتكم أن لا جنة ولا نار ولا حشر ولا حساب.

أما قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي قدرة ومكنة وتسلط وقهر فاقهركم على الكفر والمعاصي وألجئكم إليها، إلا أن دعوتكم أي إلا دعائي إياكم إلى الضلالة بوسوستي وتزييني قال النحويون: ليس الدعاء من جنس السلطان فقوله: ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ من جنس قولهم ما تحيتهم إلا الضرب، وقال الواحدي: إنه استثناء منقطع، أي لكن دعوتكم وعندي أنه يمكن أن يقال كلمة (إلا) ههنا استثناء حقيقي، لأن قدرة الإنسان على حمل الغير على عمل من الأعمال تارة يكون بالقهر والقسر، وتارة يكون بتقوية الداعية في قلبه بإلقاء الوساوس إليه، فهذا نوع من أنواع التسلط، ثم إن ظاهر هذه الآية يدل على أن الشيطان لا قدرة له على تصريع الإنسان وعلى تعويج أعضائه وجوارحه، وعلى إزالة العقل عنه كما يقوله العوام والحشوية، ثم قال: ﴿فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ يعني ما كان مني إلا الدعاء والوسوسة، وكنتم سمعتم دلائل الله وشاهدتم مجيء أنبياء الله تعالى فكان من الواجب عليكم أن لا تغتروا بقولي ولا تلتفتوا إلي فلما رجحتم قولي على الدلائل الظاهرة كان اللوم عليكم لا علي في هذا الباب.

وفي الآية مسألتان:

المسألة الأولى: قالت المعتزلة هذه الآية تدل على أشياء: الأول: أنه لو كان الكفر والمعصية من الله تعالى لوجب أن يقال: فلا تلوموني ولا أنفسكم فإن الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه. الثاني: ظاهر هذه الآية يدل على أن الشيطان لا قدرة له على تصريع الإنسان وعلى تعويج أعضائه وعلى إزالة العقل عنه كما تقول الحشوية والعوام. الثالث: أن هذه الآية تدل على أن الإنسان لا يجوز ذمه ولومه وعقابه بسبب فعل الغير، وعند هذا يظهر أنه لا يجوز عقاب أولاد الكفار بسبب كفر آبائهم.

أجاب بعض الأصحاب عن هذه الوجوه بأن هذا قول الشيطان فلا يجوز التمسك به.

وأجاب الخصم عنه: بأنه لو كان هذا القول منه باطلاً لبين الله بطلانه وأظهر إنكاره، وأيضًا فلا

فائدة في ذلك اليوم في ذكر هذا الكلام الباطل والقول الفاسد. ألا ترى أن قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ كلام حق وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ قول حق بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

المسألة الثانية: هذه الآية تدل على أن الشيطان الأصلي هو النفس، وذلك لأن الشيطان بين أنه ما أتى إلا بالوسوسة، فلولا الميل الحاصل بسبب الشهوة والغضب والوهم والخيال لم يكن لوسوسته تأثير ألبتة، فدل هذا على أن الشيطان الأصلي هو النفس.

فإن قال قائل: بينوا لنا حقيقة الوسوسة.

قلنا: الفعل إنما يصدر عن الإنسان عند حصول أمور أربعة يترتب بعضها على البعض ترتيبًا لازمًا طبيعيًا وبيانه أن أعضاء الإنسان بحكم السلامة الأصلية والصلاحية الطبيعية صالحة للفعل والترك، والإقدام والإحجام، فما لم يحصل في القلب ميل إلى ترجيح الفعل على الترك أو بالعكس فإنه يمتنع صدور الفعل، وذلك الميل هو الإرادة الجازمة، والقصد الجازم. ثم إن تلك الإرادة الجازمة لا تحصل إلا عند حصول علم أو اعتقاد أو ظن بأن ذلك الفعل سبب للنفع أو سبب للضرر فإن لم يحصل فيه هذا الإعتقاد لم يحصل الميل لا إلى الفعل ولا إلى الترك، فالحاصل أن الإنسان إذا أحس بشيء ترتب عليه شعوره بكونه ملائمًا له أو بكونه منافرًا له أو بكونه غير ملائم ولا منافر، فإن حصل الشعور بكونه ملائمًا له ترتب عليه الميل الجازم إلى الفعل وإن حصل الشعور بكونه منافرًا له ترتب عليه الميل الجازم إلى الترك، وإن لم يحصل لا هذا ولا ذاك لم يحصل الميل لا إلى ذلك الشيء ولا إلى ضده، بل بقي الإنسان كما كان، وعند حصول ذلك الميل الجازم تصير القدرة مع ذلك الميل موجبة للفعل.

إذا عرفت هذا فنقول: صدور الفعل عن مجموع القدرة والداعي الحاصل أمر واجب فلا يكون للشيطان مدخل فيه وصدور الميل عن تصور كونه خيرًا أو تصور كونه شرًا أمر واجب فلا يكون للشيطان فيه مدخل وحصول كونه خيرًا أو تصورًا كونه شرًا عن مطلق الشعور بذاته أمر لازم فلا مدخل للشيطان فيه، فلم يبق للشيطان مدخل في شيء من هذه المقامات إلا في أن يذكره شيئًا بأن يلقي إليه حديثه مثل أن الإنسان كان غافلاً عن صورة امرأة فيلقي الشيطان حديثها في خاطره فالشيطان لا قدرة له إلا في هذا المقام، وهو عين ما حكى الله تعالى عنه أنه قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى﴾ يعني ما كان مني إلا مجرد هذه الدعوة فأما بقية المراتب فما صدرت مني وما كان لي فيها أثر ألبتة. بقي في هذا المقام سؤالان:

السؤال الأول: كيف يعقل تمكن الشيطان من النفوذ في داخل أعضاء الإنسان وإلقاء الوسوسة إليه.

والجواب: للناس في الملائكة والشياطين قولان:

القول الأول: أن ما سوى الله بحسب القسمة العقلية على أقسام ثلاثة: المتحيز، والحال في

المتحيز، والذي لا يكون متحيزًا ولا حالاً فيه، وهذا القسم الثالث لم يقم الدليل ألبتة على فساد القول به بل الدلائل الكثيرة قامت على صحة القول به، وهذا هو المسمى بالأرواح فهذه الأرواح إن كانت طاهرة مقدسة من عالم الروحانيات القدسية فهم الملائكة وإن كانت خبيثة داعية إلى الشرور وعالم الأجساد ومنازل الظلمات فهم الشياطين.

إذا عرفت هذا فنقول: فعلى هذا التقدير الشيطان لا يكون جسمًا يحتاج إلى الولوج في داخل البدن بل هو جوهر روحاني خبيث الفعل مجبول على الشر، والنفس الإنسانية أيضًا كذلك فلا يبعد على هذا التقدير في أن يلقى شيء من تلك الأرواح أنواعًا من الوساوس والأباطيل إلى جوهر النفس الإنسانية، وذكر بعض العلماء في هذا الباب احتمالاً ثانيًا، وهو أن النفوس الناطقة البشرية مختلفة بالنوع، فهي طوائف، وكل طائفة منها في تدبير روح من الأرواح السماوية بعينها، فنوع من النفوس البشرية تكون حسنة الأخلاق كريمة الأفعال موصوفة بالفرح والبشر وسهولة الأمر، وهي تكون منتسبة إلى روح معين من الأرواح السماوية، وطائفة أخرى منها تكون موصوفة بالحدة والقوة والغلظة، وعدم المبالاة بأمر من الأمور، وهي تكون منتسبة إلى روح آخر من الأرواح السماوية وهذه الأرواح البشرية كالأولاد لذلك الروح السماوي وكالنتائج الحاصلة، وكالفروع المتفرعة عليها، وذلك الروح السماوي هو الذي يتولى إرشادها إلى مصالحها، وهو الذي يخصها بالإلهامات حالتي النوم واليقظة. والقدماء كانوا يسمون ذلك الروح السماوي بالطباع التام ولا شك أن لذلك الروح السماوي الذي هو الأصل والينبوع شعبًا كثيرة ونتائج كثيرة وهي بأسرها تكون من جنس روح هذا الإنسان وهي لأجل مشاكلتها ومجانستها يعين بعضها بعضًا على الأعمال اللائقة بها والأفعال المناسبة لطبائعها، ثم إنها إن كانت خيرة طاهرة طيبة كانت ملائكة وكانت تلك الإعانة مسماة بالإلهام. وإن كانت شريرة خبيثة قبيحة الأعمال كانت شياطين وكانت تلك الإعانة مسماة بالوسوسة، وذكر بعض العلماء أيضًا فيه احتمالاً ثالثًا، وهو أن النفوس البشرية والأرواح الإنسانية إذا فارقت أبدانها قويت في تلك الصفات التي اكتسبتها في تلك الأبدان وكملت فيها فإذا حدثت نفس أخرى مشاكلة لتلك النفس المفارقة في بدن مشاكل لبدن تلك النفس المفارقة حدث بين تلك النفس المفارقة وبين هذا البدن نوع تعلق بسبب المشاكلة الحاصلة بين هذا البدن وبين ما كان بدنًا لتلك النفس المفارقة، فيصير لتلك النفس المفارقة تعلق شديد بهذا البدن وتصير تلك النفس المفارقة معاونة لهذه النفس المتعلقة بهذا البدن، ومعاضدة لها على أفعالها وأحوالها بسبب هذه المشاكلة ثم إن كان هذا المعنى في أبواب الخير والبركات كان ذلك إلهامًا وإن كان في باب الشر كان وسوسة فهذه وجوه محتملة تفريعًا على القول بإثبات جواهر قدسية مبرأة عن الجسمية والتحيز، والقول بالأرواح الطاهرة والخبيثة كلام مشهور عند قدماء الفلاسفة فليس لهم أن ينكروا إثباتها على صاحب شريعتنا محمد ﷺ.

وأما القول الثاني: وهو أن الملائكة والشياطين لا بد وأن تكون أجسامًا فنقول: إن على هذا التقدير يمتنع أن يقال إنها أجسام كثيفة، بل لا بد من القول بأنها أجسام لطيفة والله سبحانه ركبها تركيبًا عجيبًا وهي أن تكون مع لطافتها لا تقبل التفرق والتمزق والفساد والبطلان ونفوذ الأجرام اللطيفة في عمق الأجرام الكثيفة غير مستبعد ألا ترى أن الروح الإنسانية جسم لطيف، ثم إنه نفذ في داخل عمق البدن فإذا عقل ذلك فكيف يستبعد نفوذ أنواع كثيرة من الأجسام اللطيفة في داخل هذا البدن، أليس أن جرم النار يسري في جرم الفحم، وماء الورد يسري في ورق الورد، ودهن السمسم يجري في جسم السمسم فكذا ههنا، فظهر بما قررنا أن القول بإثبات الجن والشياطين أمر لا تحيله العقول ولا تبطله الدلائل، وأن الإصرار على الإنكار ليس إلا من نتيجة الجهل وقلة الفطنة، ولما ثبت أن القول بالشياطين ممكن في الجملة فنقول: الأحق والأولى أن يقال: الملائكة على هذا القول مخلوقون من النور، والشياطين مخلوقون من الدخان واللهب، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧] وهذا الكلام من المشهورات عند قدماء الفلاسفة، فكيف يليق بالعاقل أن يستبعده من صاحب شريعتنا محمد ﷺ.

السؤال الثاني: لم قال الشيطان: ﴿فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ وهو أيضًا ملوم بسبب اقدامه على تلك الوسوسة الباطلة.

والجواب: أراد بذلك فلا تلوموني على ما فعلتم ولوموا أنفسكم عليه، لأنكم عدلتم عما توجبه هداية الله تعالى لكم. ثم قال الله تعالى حكاية عن الشيطان أنه قال: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال ابن عباس: بمغيثكم ولا منقذكم، قال ابن الأعرابي: الصارخ المستغيث والمصرخ المغيث. يقال: صرخ فلان إذا استغاث وقال: واغوثاه أصرخته أغثته.

المسألة الثانية: قرأ حمزة: بمصرخي بكسر الياء. قال الواحدي: وهي قراءة الأعمش ويحيى بن وثاب. قال الفراء: ولعلها من وهم القراء فإنه قل من سلم منهم عن الوهم ولعله ظن أن الباء في قوله ﴿بِمُصْرِخِىَّ﴾ خافضة لجملة هذه الكلمة وهذا خطأ لأن الياء من المتكلم خارجة من ذلك قال، ومما نرى أنهم وهموا فيه قوله: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١١٥] بجزم الهاء ظنوا والله أعلم أن الجزم في الهاء وهو خطأ، لأن الهاء في موضع نصب وقد انجزم الفعل قبلها بسقوط الياء منه، ومن النحويين من تكلف في ذكر وجه لصحته إلا أن الأكثرين قالوا إنه لحن، والله أعلم.

ثم قال تعالى حكاية عنه: ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: (ما) في قوله: ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾.

فيه قولان:

الأول: إنها مصدرية والمعنى: كفرت بإشراككم إياي مع الله تعالى في الطاعة، والمعنى: أنه جحد ما كان يعتقده أولئك الأتباع من كون إبليس شريكًا لله تعالى في تدبير هذا العالم وكفر به، أو يكون المعنى أنهم كانوا يطيعون الشيطان في أعمال الشر كما كانوا قد يطيعون الله في أعمال الخير وهذا هو المراد بالإشراك.

والثاني: وهو قول الفراء أن المعنى أن إبليس قال: إني كفرت بالله الذي أشركتموني به من قبل كفركم، والمعنى: أنه كان كفره قبل كفر أولئك الأتباع ويكون المراد بقوله: (ما) في هذا الموضع (من) والقول هو الأول، لأن الكلام إنما ينتظم بالتفسير الأول، ويمكن أن يقال أيضًا الكلام منتظم على التفسير الثاني، والتقدير كأنه يقول: لا تأثير لوسوستي في كفركم بدليل أني كفرت قبل أن وقعتم في الكفر وما كان كفري بسبب وسوسة أخرى وإلا لزم التسلسل فثبت بهذا أن سبب الوقوع في الكفر شيء آخر سوى الوسوسة، وعلى هذا التقدير ينتظم الكلام.

أما قوله: ﴿ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فالأظهر أنه كلام الله عز وجل وأن كلام إبليس تم قبل هذا الكلام، ولا يبعد أيضًا أن يكون ذلك من بقية كلام إبليس قطعًا لأطماع أولئك الكفار عن الإعانة والإغاثة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما بالغ في شرح أحوال الأشقياء من الوجوه الكثيرة، شرح أحوال السعداء، وقد عرفت أن الثواب يجب أن يكون منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم، فالمنفعة الخالصة إليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وكونها دائمة أشير إليه بقوله: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ والتعظيم حصل من وجهين: أحدهما: أن تلك المنافع إنما حصلت بإذن الله تعالى وأمره. والثاني: قوله: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ لأن بعضهم يحيي بعضًا بهذه الكلمة، والملائكة يحيونهم بها كما قال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤] والرب الرحيم يحييهم أيضًا بهذه الكلمة كما قال: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

واعلم أن السلام مشتق من السلامة وإلا ظهر أن المراد أنهم سلموا من آفات الدنيا وحسراتها أو فنون آلامها وأسقامها، وأنواع غمومها وهمومها، وما أصدق ما قالوا، فإن السلامة من محن عالم الأجسام الكائنة الفاسدة من أعظم النعم، لا سيما إذا حصل بعد الخلاص منها الفوز بالبهجة الروحانية والسعادة الملكية.

المسألة الثانية: قرأ الحسن: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على معنى وأدخلهم أنا، وعلى هذه القراءة فقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ متعلق بما بعده، أي تحيتهم فيها سلام بإذن ربهم. يعني: أن الملائكة يحيونهم بإذن ربهم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال الأشقياء وأحوال السعداء، ذكر مثالاً يبين الحال في حكم هذين القسمين، وهو هذا المثل.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى ذكر شجرة موصوفة بصفات أربعة ثم شبه الكلمة الطيبة بها.

فالصفة الأولى: لتلك الشجرة كونها طيبة، وذلك يحتمل أمورًا.

أحدها: كونها طيبة المنظر والصورة والشكل.

وثانيها: كونها طيبة الرائحة.

وثالثها: كونها طيبة الثمرة يعني أن الفواكه المتولدة منها تكون لذيذة مستطابة.

ورابعها: كونها طيبة بحسب المنفعة يعني أنها كما يستلذ بأكلها فكذلك يعظم الانتفاع بها، ويجب حمل قوله: شجرة طيبة، على مجموع هذه الوجوه لأن اجتماعها يحصل كمال الطيب.

والصفة الثانية: قوله: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ أي راسخ باق آمن الانقلاع والانقطاع والزوال والفناء وذلك لأن الشيء الطيب إذا كان في معرض الانقراض والانقضاء، فهو وإن كان يحصل الفرح بسبب وجدانه إلا أنه يعظم الحزن بسبب الخوف من زواله وانقضائه، أما إذا علم من حاله أنه باق دائم لا يزول ولا ينقضي فإنه يعظم الفرح بوجدانه ويكمل السرور بسبب الفوز به.

والصفة الثالثة: قوله: ﴿وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ وهذا الوصف يدل على كمال حال تلك الشجرة من وجهين: الأول: أن ارتفاع الأغصان وقوتها في التصاعد يدل على ثبات الأصل ورسوخ العروق. والثاني: أنها متى كانت متصاعدة مرتفعة كانت بعيدة عن عفونات الأرض وقاذورات الأبنية فكانت ثمراتها نقية ظاهرة طيبة عن جميع الشوائب.

والصفة الرابعة: قوله: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ﴾ والمراد: أن الشجرة المذكورة كانت موصوفة بهذه الصفة، وهي أن ثمرتها لا بد أن تكون حاضرة دائمة في كل الأوقات، ولا تكون مثل الأشجار التي يكون ثمارها حاضرًا في بعض الأوقات دون بعض، فهذا شرح هذه الشجرة

التي ذكرها الله تعالى في هذا الكتاب الكريم ومن المعلوم بالضرورة أن الرغبة في تحصيل مثل هذه الشجرة يجب أن تكون عظيمة، وأن العاقل متى أمكنه تحصيلها وتملكها فإنه لايجوز له أن يتغافل عنها وأن يتساهل في الفوز بها.

إذا عرفت هذا فنقول: معرفة الله تعالى والاستغراق في محبته وفي خدمته وطاعته، تشبه هذه الشجرة في هذه الصفات الأربع.

أما الصفة الأولى: وهي كونها طيبة فهي حاصلة، بل نقول: لا طيب ولا لذيذ في الحقيقة إلا هذه المعرفة وذلك لأن اللذة الحاصلة بتناول الفاكهة المعينة إنما حصلت، لأن إدراك تلك الفاكهة أمر ملائم لمزاج البدن، فلأجل حصول تلك الملاءمة والمناسبة حصلت تلك اللذة العظيمة وههنا الملائم لجوهر النفس النطقية والروح القدسية، ليس إلا معرفة الله تعالى ومحبته والاستغراق في الابتهاج به فوجب أن تكون هذه المعرفة لذيذة جدًا، بل نقول: اللذة الحاصلة من إدراك الفاكهة يجب أن تكون أقل حالاً من اللذة الحاصلة بسبب إشراق جوهر النفس بمعرفة الله وبيان هذا التفاوت من وجوه:

الوجه الأول: أن المدركات المحسوسة إنما تصير مدركة بسبب أن سطح الحاس يلاقي سطح المحسوس فقط، فأما أن يقال إن جوهر المحسوس نفذ في جوهر الحاس فليس الأمر كذلك، لأن الأجسام يمتنع تداخلها أما ههنا فمعرفة الله تعالى وذلك النور وذلك الإشراق صار ساريًا في جوهر النفس متحدًا به وكأن النفس عند حصول ذلك الإشراق تصير غير النفس التي كانت قبل حصول ذلك الإشراق فهذا فرق عظيم بين البابين.

والوجه الثاني: في الفرق أن في الالتذاذ بالفاكهة المدرك هو القوة الذائقة، والمحسوس هو الطعم المخصوص وههنا المدرك هو جوهر النفس القدسية، والمعلوم والمشعور به هو ذات الحق جل جلاله، وصفات جلاله وإكرامه، فوجب أن تكون نسبة إحدى اللذتين إلى الأخرى كنسبة أحد المدركين إلى الآخر.

الوجه الثالث: في الفرق أن اللذات الحاصلة بتناول الفاكهة الطيبة كلما حصلت زالت في الحال، لأنها كيفية سريعة الاستحالة شديدة التغير، أما كمال الحق وجلاله فإنه ممتنع التغير والتبدل واستعداد جوهر النفس لقبول تلك السعادة أيضًا ممتنع التغير، فظهر الفرق العظيم من هذا الوجه.

واعلم أن الفرق بين النوعين يقرب أن يكون من وجوه غير متناهية فليكتف بهذه الوجوه الثلاثة تنبيهًا للعقل السليم على سائرها. وأما الصفة الثانية وهي كون هذه الشجرة ثابتة الأصل، فهذه الصفة في شجرة معرفة الله تعالى أقوى وأكمل، وذلك لأن عروق هذه الشجرة راسخة في جوهر النفس القدسية، وهذا الجوهر جوهر مجرد عن الكون والفساد بعيد عن التغير والفناء، وأيضًا مدد هذا الرسوخ إنما هو من تجلي جلال الله تعالى، وهذا التجلي من لوازم كونه سبحانه.

في ذاته نور النور ومبدأ الظهور، وذلك مما يمتنع عقلاً زواله لأنه سبحانه واجب الوجود لذاته، وواجب الوجود في جميع صفاته والتغير والفناء والتبدل والزوال والبخل والمنع محال في حقه، فثبت أن الشجرة الموصوفة بكونها ثابتة الأصل ليست إلا هذه الشجرة.

الصفة الثالثة: لهذه الشجرة كونها بحيث يكون فرعها في السماء.

واعلم أن شجرة المعرفة لها أغصان صاعدة في هواء العالم الإلهي وأغصان صاعدة في هواء العالم الجسماني.

وأما النوع الأول: فهي أقسام كثيرة ويجمعها قوله عليه السلام: «التَّعْظِيمُ لِأَمْرِ اللَّهِ» ويدخل فيه التأمل في دلائل معرفة الله تعالى في عالم الأرواح، وفي عالم الأجسام، وفي أحوال عالم الأفلاك والكواكب، وفي أحوال العالم السفلي، ويدخل فيه محبة الله تعالى والشوق إلى الله تعالى والمواظبة على ذكر الله تعالى والاعتماد بالكلية على الله تعالى، والانقطاع بالكلية عما سوى الله تعالى والاستقصاء في ذكر هذه الأقسام غير مطموع فيه لأنها أحوال غير متناهية.

وأما النوع الثاني: فهي أقسام كثيرة ويجمعها قوله عليه السلام: «وَالشَّفَقَةُ عَلَى خَلْقِ اللَّهِ» ويدخل فيه الرحمة والرأفة والصفح والتجاوز عن الذنوب، والسعي في إيصال الخير إليهم، ودفع الشر عنهم، ومقابلة الإساءة بالإحسان. وهذه الأقسام أيضًا غير متناهية وهي فروع ثابتة من شجرة معرفة الله تعالى فإن الإنسان كلما كان أكثر توغلاً في معرفة الله تعالى كانت هذه الأحوال عنده أكمل وأقوى وأفضل.

وأما الصفة الرابعة: فهي قوله تعالى: ﴿ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ فهذه الشجرة أولى بهذه الصفة من الأشجار الجسمانية، لأن شجرة المعرفة موجبة لهذه الأحوال ومؤثرة في حصولها والسبب لا ينفك عن المسبب فأثر رسوخ شجرة المعرفة في أرض القلب أن يكون نظره بالعبرة كما قال: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢] وأن يكون سماعه بالحكمة كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٨] ونطقه بالصدق والصواب كما قال: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء: ١٣٥] وقال عليه السلام: «قُولُوا الْحَقَّ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ» وهذا الإنسان كلما كان رسوخ شجرة المعرفة في أرض قلبه أقوى وأكمل، كان ظهور هذه الآثار عنده أكثر، وربما توغل في هذا الباب فيصير بحيث كلما لاحظ شيئًا لاحظ الحق فيه، وربما عظم ترقيه فيه فيصير لا يرى شيئًا إلا وقد كان قد رأى الله تعالى قبله. فهذا هو المراد من قوله سبحانه وتعالى: ﴿ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ وأيضًا فما ذكرناه إشارة إلى الإلهامات النفسانية والملكات الروحانية التي تحصل في جواهر الأرواح، ثم لا يزال يصعد منها في كل حين ولحظة ولمحة كلام طيب وعمل صالح وخضوع وخشوع وبكاء وتذلل، كثمرة هذه الشجرة.

وأما قوله: ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ ففيه دقيقة عجيبة، وذلك لأن عند حصول هذه الأحوال السنية،

والدرجات العالية، قد يفرح الإنسان بها من حيث هي هي، وقد يترقى فلا يفرح بها من حيث هي هي، وإنما يفرح بها من حيث إنها من المولى، وعند ذلك فيكون فرحه في الحقيقة بالمولى لا بهذه الأحوال، ولذلك قال بعض المحققين: من آثر العرفان للعرفان فقد قال بالفاني، ومن آثر العرفان لا للعرفان، بل للمعروف فقد خاض لجة الوصول، فقد ظهر بهذا التقرير الذي شرحناه والبيان الذي فصلناه أن هذا المثال الذي ذكره-الله تعالى في هذا الكتاب مثال هادٍ إلى عالم القدس، وحضرة الجلال، وسرادقات الكبرياء، فنسأل الله تعالى مزيد الاهتداء والرحمة إنه سميع مجيب، وذكر بعضهم في تقرير هذا المثال كلامًا لا بأس به، فقال: إنما مثل الله سبحانه وتعالى الإيمان بالشجرة، لأن الشجرة لا تستحق أن تسمى شجرة، إلا بثلاثة أشياء: عرق راسخ، وأصل قائم، وأغصان عالية. كذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء: معرفة في القلب، وقول باللسان، وعمل بالأبدان، والله أعلم.

المسألة الثانية: قال صاحب الكشاف: في نصب قوله: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ وجهان:

الأول: أنه منصوب بمضمر والتقدير: جعل كلمة طيبة كشجرة طيبة، وهو تفسير لقوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾.

الثاني: قال ويجوز أن ينتصب مثلاً. وكلمة بضرب، أي ضرب كلمة طيبة مثلاً بمعنى جعلها مثلاً، وقوله: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: هي كشجرة طيبة. الثالث: قال صاحب (حل العقد) أظن أن الأوجه أن يجعل قوله: ﴿كَلِمَةٍ﴾ عطف بيان، والكاف في قوله: ﴿كَشَجَرَةٍ﴾ في محل النصب بمعنى مثل شجرة طيبة.

المسألة الثالثة: قال ابن عباس: الكلمة الطيبة هي قول لا إله إلا الله، والشجرة الطيبة هي النخلة في قول الأكثرين. وقال صاحب (الكشاف): إنها كل شجرة مثمرة طيبة الثمار كالنخلة وشجرة التين والعنب والرمان، وأراد بشجرة طيبة الثمرة، إلا أنه لم يذكرها لدلالة الكلام عليها أصلها، أي أصل هذه الشجرة الطيبة ثابت، وفرعها أي أعلاها في السماء، والمراد الهواء لأن كل ما سماك وعلاك فهو سماء ﴿تُؤْتِىٓ﴾ أي هذه الشجرة ﴿أُكُلَهَا﴾ أي ثمرها وما يؤكل منها كل حين، واختلفوا في تفسير هذا الحين فقال ابن عباس ستة أشهر، لأن بين حملها إلى صرامها ستة أشهر، جاء رجل إلى ابن عباس فقال: نذرت أن لا أكلم أخي حتى حين، فقال: الحين ستة أشهر، وتلا قوله تعالى: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ وقال مجاهد وابن زيد: سنة، لأن الشجرة من العام إلى العام تحمل الثمرة. وقال سعيد بن المسيب: شهران، لأن مدة إطعام النخلة شهران. وقال الزجاج: جميع من شاهدنا من أهل اللغة يذهبون إلى أن الحين اسم كالوقت يصلح لجميع الأزمان كلها طالت أم قصرت، والمراد من قوله: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ أنه ينتفع بها في كل وقت وفي كل ساعة ليلاً أو نهارًا أو شتاء أو صيفًا. قالوا: والسبب فيه أن النخلة إذا تركوا عليها الثمر من السنة إلى السنة انتفعوا بها في جميع أوقات السنة. وأقول: هؤلاء وإن أصابوا في

البحث عن مفردات ألفاظ الآية، إلا أنهم بعدوا عن إدراك المقصود، لأنه تعالى وصف هذه الشجرة بالصفات المذكورة، ولا حاجة بنا إلى أن تلك الشجرة هي النخلة أم غيرها، فإنا نعلم بالضرورة أن الشجرة الموصوفة بالصفات الأربع المذكورة شجرة شريفة ينبغي لكل عاقل أن يسعى في تحصيلها وتملكها لنفسه، سواء كان لها وجود في الدنيا أو لم يكن، لأن هذه الصفة أمر مطلوب التحصيل، واختلافهم في تفسير الحين أيضًا من هذا الباب، والله أعلم بالأمور.

ثم قال: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ والمعنى: أن في ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعاني، وذلك لأن المعاني العقلية المحضة لا يقبلها الحس والخيال والوهم، فإذا ذكر ما يساويها من المحسوسات ترك الحس والخيال والوهم تلك المنازعة وانطبق المعقول على المحسوس وحصل به الفهم التام والوصول إلى المطلوب.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾.

فاعلم أن الشجرة الخبيثة هي الجهل بالله، فإنه أول الآفات وعنوان المخافات ورأس الشقاوات ثم إنه تعالى شبهها بشجرة موصوفة بصفات ثلاثة:

الصفة الأولى: أنها تكون خبيثة فمنهم من قال إنها الثوم، لأنه ﷺ وصف الثوم بأنها شجرة خبيثة[(١)]، وقيل: إنها الكراث. وقيل: إنها شجرة الحنظل لكثرة ما فيها من المضار وقيل: إنها شجرة الشوك.

واعلم أن هذا التفصيل لا حاجة إليه، فإن الشجرة قد تكون خبيثة بحسب الرائحة وقد تكون بحسب الطعم، وقد تكون بحسب الصورة والمنظر وقد تكون بحسب اشتمالها على المضار الكثيرة والشجرة الجامعة لكل هذه الصفات وإن لم تكن موجودة، إلا أنها لما كانت معلومة الصفة كان التشبيه بها نافعًا في المطلوب.

والصفة الثانية: قوله: ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ وهذه الصفة في مقابلة قوله: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ ومعنى اجتثت استؤصلت وحقيقة الإجتثاث أخذ الجثة كلها، وقوله: ﴿مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ معناه: ليس لها أصل ولا عرق، فكذلك الشرك بالله تعالى ليس له حجة ولا ثبات ولا قوة.

والصفة الثالثة: قوله ما لها من قرار، وهذه الصفة كالمتممة للصفة الثانية، والمعنى أنه ليس لها استقرار. يقال: قر الشيء قرارًا كقولك: ثبت ثباتًا، شبه بها القول الذي لم يعضد بحجة فهو داحض غير ثابت.

واعلم أن هذا المثال في صفة الكلمة الخبيثة في غاية الكمال، وذلك لأنه تعالى بين كونها موصوفة بالمضار الكثيرة، وخالية عن كل المنافع أما كونها موصوفة بالمضار فإليه الإشارة

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (الأذان) باب (ما جاء في الثوم النيىء والبصل) (٢/ ٣٩٤) حديث رقم/ ٨٥٣، ومسلم في كتاب (المساجد ومواضع الصلاة) باب (نهي من أكل ثوماً أو بصلاً) (١/ ٦٨/ ٣٩٣) كلاهما من طريق يحي... به.

بقوله: ﴿خَبِيثَةٍ﴾ وأما كونها خالية عن كل المنافع فإليه الإشارة بقوله: ﴿اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بين أن صفة الكلمة الطيبة أن يكون أصلها ثابتًا، وصفة الكلمة الخبيثة أن لا يكون لها أصل ثابت بل تكون منقطعة ولا يكون لها قرار ذكر أن ذلك القول الثابت الصادر عنهم في الحياة الدنيا يوجب ثبات كرامة الله لهم، وثبات ثوابه عليهم، والمقصود: بيان أن الثبات في المعرفة والطاعة يوجب الثبات في الثواب والكرامة من الله تعالى فقوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ﴾ أي على الثواب والكرامة، وقوله: ﴿بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي بالقول الثابت الذي كان يصدر عنهم حال ما كانوا في الحياة الدنيا.

ثم قال: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ يعني كما أن الكلمة الخبيثة ما كان لها أصل ثابت ولا فرع باسق فكذلك أصحاب الكلمة الخبيثة وهم الظالمون يضلهم الله عن كراماته ويمنعهم عن الفوز بثوابه وفي الآية قول آخر وهو القول المشهور أن هذه الآية وردت في سؤال الملكين في القبر، وتلقين الله المؤمن كلمة الحق في القبر عند السؤال وتثبيته إياه على الحق. وعن النبي ﷺ أنه قال في قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ قال: «حِينَ يُقَالُ لَهُ فِي الْقَبْرِ مَنْ رَبُّكَ وَمَا دِينُكَ وَمِنْ نَبِيُّكَ فَيَقُولُ رَبِّيَ اللَّهُ وَدِينَيَ الْإِسْلَامُ ونبي محمد ﷺ»(١) والمراد من الباء في قوله: ﴿بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ هو أن الله تعالى إنما يثبتهم في القبر بسبب مواظبتهم في الحياة الدنيا على هذا القول، ولهذا الكلام تقرير عقلي وهو أنه كلما كانت المواظبة على الفعل أكثر كان رسوخ تلك الحالة في العقل والقلب أقوى، فكلما كانت مواظبة العبد على ذكر لا إله إلا الله وعلى التأمل في حقائقها ودقائقها أكمل وأتم كان رسوخ هذه المعرفة في عقله وقلبه بعد الموت أقوى وأكمل. قال ابن عباس: من داوم على الشهادة في الحياة الدنيا يثبته الله عليها في قبره ويلقنه إياها وإنما فسر الآخرة ههنا بالقبر، لأن الميت انقطع بالموت عن أحكام الدنيا ودخل في أحكام الآخرة وقوله: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ يعني أن الكفار إذا سئلوا في قبورهم قالوا: لا ندري وإنما قال ذلك لأن الله أضله وقوله: ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ يعني إن شاء هدى وإن شاء أضل ولا اعتراض عليه في فعله ألبتة.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (السنة) باب (في المسألة في القبر وعذاب القبر) (٤/ ٢٠٣٠) حديث رقم/ ٤٧٥٣، وابن ماجه في كتاب (الجنائز) باب (ما جاء في الجلوس على المقابر) (١/ ٤٩٤) حديث رقم/ ١٥٤٨، والنسائي في كتاب (الجنائز) باب (الوقوف للجنائز) (٤/ ٣٨١) حديث رقم/ ٢٠٠٠، والإمام أحمد في (مسنده) (٤/ ٢٨٧)، من طريق المنهال بن عمرو... به.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى عاد إلى وصف أحوال الكفار في هذه الآية فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ نزل في أهل مكة حيث أسكنهم الله تعالى حرمه الآمن وجعل عيشهم في السعة وبعث فيهم محمدًا ﷺ فلم يعرفوا قدر هذه النعمة، ثم إنه تعالى حكى عنهم أنواعًا من الأعمال القبيحة.

النوع الأول: قوله: ﴿بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾.

وفيه وجوه:

الأول: يجوز أن يكون بدلوا شكر نعمة الله كفرًا، لأنه لما وجب عليهم الشكر بسبب تلك النعمة أتوا بالكفر، فكأنهم غيروا الشكر إلى الكفر وبدلوه تبديلاً.

والثاني: أنهم بدلوا نفس نعمة الله كفرًا لأنهم لما كفروا سلب الله تلك النعمة عنهم فبقي الكفر معهم بدلاً من النعمة. الثالث: أنه تعالى أنعم عليهم بالرسول والقرآن فاختاروا الكفر على الإيمان.

والنوع الثاني: ما حكى الله تعالى عنهم قوله: ﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ وهو الهلاك يقال رجل بائر وقوم بور، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾[الفتح: ١٢] وأراد بدار البوار جهنم بدليل أنه فسرها بجهنم فقال: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ أي المقر وهو مصدر سمي به.

النوع الثالث: من أعمالهم القبيحة قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم بدلوا نعمة الله كفرًا ذكر أنهم بعد أن كفروا بالله جعلوا له أندادًا، والمراد من هذا الجعل الحكم والاعتقاد والقول، والمراد من الأنداد الأشباه والشركاء، وهذا الشريك يحتمل وجوهًا: أحدها: أنهم جعلوا للأصنام حظًا فيما أنعم الله به عليهم نحو قولهم هذا لله وهذا لشركائنا. وثانيها: أنهم شركوا بين الأصنام وبين خالق العالم في العبودية. وثالثها: أنهم كانوا يصرحون بإثبات الشركاء لله وهو قولهم في الحج لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك.

المسألة الثانية: قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿لِيَضِلُّوا۟﴾ بفتح الياء من ضل يضل والباقون بضم الياء من أضل غيره يضل.

المسألة الثالثة: اللام في قوله: ﴿لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ لام العاقبة لأن عبادة الأوثان سبب

يؤدي إلى الضلال ويحتمل أن تكون لام كي، أي الذين اتخذوا الوثن كي يضلوا غيرهم هذا إذا قرئ بالضم فإنه يحتمل الوجهين، وإذا قرئ بالنصب فلا يحتمل إلا لام العاقبة لأنهم لم يريدوا ضلال أنفسهم. وتحقيق القول في لام العاقبة أن المقصود من الشيء لا يحصل إلا في آخر المراتب كما قيل أول الفكر آخر العمل. وكل ما حصل في العاقبة كان شبيهًا بالأمر المقصود في هذا المعنى، والمشابهة أحد الأمور المصححة لحسن المجاز، فلهذا السبب حسن ذكر اللام في العاقبة، ولما حكى الله تعالى عنهم هذه الأنواع الثلاثة من الأعمال القبيحة قال: ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ والمراد أن حال الكافر في الدنيا كيف كانت، فإنها بالنسبة إلى ما سيصل إليه من العقاب في الآخرة تمتع ونعيم، فلهذا المعنى قال: ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ وأيضًا إن هذا الخطاب مع الذين حكى الله عنهم أنهم بدلوا نعمة الله كفرًا، فأولئك كانوا في الدنيا في نعم كثيرة فلا جرم حسن قوله تعالى: ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ وهذا الأمر يسمى أمر التهديد ونظيره قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]وكقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨]

قوله تعالى: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما أمر الكافرين على سبيل التهديد والوعيد بالتمتع بنعيم الدنيا، أمر المؤمنين في هذه الآية بترك التمتع بالدنيا والمبالغة في المجاهدة بالنفس والمال.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة والكسائي ﴿ لِعِبَادِيْ﴾ بسكون الياء، والباقون: بفتح الياء لالتقاء الساكنين فحرك إلى النصب.

المسألة الثانية: في قوله: ﴿ يُقِيمُوا﴾ وجهان: الأول: يجوز أن يكون جوابًا لأمر محذوف هو المقول تقديره: قل لعبادي الذين آمنوا أقيموا الصلاة وأنفقوا يقيموا الصلاة وينفقوا. الثاني: يجوز أن يكون هو أمرًا مقولاً محذوفًا منه لام الأمر، أي ليقيموا كقولك: قل لزيد ليضرب عمرًا وإنما جاز حذف اللام، لأن قوله: ﴿ قُلْ﴾ عوض منه ولو قيل ابتداء يقيموا الصلاة لم يجز.

المسألة الثالثة: أن الإنسان بعد الفراغ من الإيمان لا قدرة له على التصرف في شيء إلا في نفسه أو في ماله. أما النفس فيجب شغلها بخدمة المعبود في الصلاة وأما المال فيجب صرفه إلى البذل في طاعة الله تعالى. فهذه الثلاثة هي الطاعات المعتبرة، وهي الإيمان والصلاة والزكاة وتمام ما يجب أن يقال في هذه الأمور الثلاثة ذكرناه في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣].

المسألة الرابعة: قالت المعتزلة: الآية تدل على أن الرزق لا يكون حرامًا، لأن الآية دلت

على أن الانفاق من الرزق ممدوح، ولا شيء من الانفاق من الحرام بممدوح فينتج أن الرزق ليس بحرام. وقد مر تقرير هذا الكلام مرارًا.

المسألة الخامسة: في انتصاب قوله: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ وجوه:

أحدها: أن يكون على الحال أي ذوي سر وعلانية بمعنى مسرين ومعلنين.

وثانيها: على الظرف أي وقت سر وعلانية.

وثالثها: على المصدر أي انفاق سر وانفاق علانية والمراد إخفاء التطوع وإعلان الواجب.

واعلم أنه تعالى لما أمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة قال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ قال أبو عبيدة: البيع ههنا الفداء والخلال المخالة، وهو مصدر من خاللت خلالاً ومخالة، وهي المصادقة. قال مقاتل: إنما هو يوم لا بيع فيه ولا شراء ولا مخالة ولا قرابة، فكأنه تعالى يقول: أنفقوا أموالكم في الدنيا حتى تجدوا ثواب ذلك الإنفاق في مثل هذا اليوم الذي لا تحصل فيه مبايعة ولا مخالة. ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾[البقرة: ٢٥٤].

فإن قيل: كيف نفى المخالة في هاتين الآيتين، مع أنه تعالى أثبتها في قوله: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[الزخرف: ٦٧].

قلنا: الآية الدالة على نفي المخالة محمولة على نفي المخالة بسبب ميل الطبيعة ورغبة النفس، والآية الدالة على ثبوت المخالة محمولة على حصول المخالة الحاصلة بسبب عبودية الله تعالى ومحبة الله تعالى، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾

اعلم أنه لما أطال الكلام في وصف أحوال السعداء وأحوال الأشقياء، وكانت العمدة العظمى والمنزلة الكبرى في حصول السعادات معرفة الله تعالى بذاته وبصفاته، وفي حصول الشقاوة فقدان هذه المعرفة، لا جرم ختم الله تعالى وصف أحوال السعداء والأشقياء بالدلائل الدالة على وجود الصانع وكمال علمه وقدرته، وذكر ههنا عشرة أنواع من الدلائل.

أولها: خلق السموات.

وثانيها: خلق الأرض، وإليهما الإشارة بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

وثالثها: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقًا لَّكُمۡۖ﴾ .

ورابعها: قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ﴾ .

وخامسها: قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ﴾ .

وسادسها وسابعها: قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ﴾ .

وثامنها وتاسعها: قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ .

وعاشرها: قوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ﴾ وهذه الدلائل العشرة قد مر ذكرها في هذا الكتاب وتقريرها وتفسيرها مرارًا وأطوارًا ولا بأس بأن نذكر ههنا بعض الفوائد. فاعلم أن قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ، وقوله: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ خبره. ثم إنه تعالى بدأ بذكر خلق السموات والأرض، وقد ذكرنا في هذا الكتاب أن السماء والأرض من كم وجه تدل على وجود الصانع الحكيم، وإنما بدأ بذكرهما ههنا لأنهما هما الأصلان اللذان يتفرع عليهما سائر الأدلة المذكورة بعد ذلك فإنه قال بعده: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقًا لَّكُمۡۖ﴾ .

وفيه مباحث:

البحث الأول: لولا السماء لم يصح إنزال الماء منها ولولا الأرض لم يوجد ما يستقر الماء فيه، فظهر أنه لا بد من وجودهما حتى يحصل هذا المقصود وهذا المطلوب.

البحث الثاني: قوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وفيه قولان:

الأول: أن الماء نزل من السحاب وسمي السحاب سماء اشتقاقًا من السمو، وهو الارتفاع.

والثاني: أنه تعالى أنزله من نفس السماء وهذا بعيد، لأن الإنسان ربما كان واقفًا على قمة جبل عال ويرى الغيم أسفل منه فإذا نزل من ذلك الجبل يرى ذلك الغيم ماطرًا عليهم وإذا كان هذا أمرًا مشاهدًا بالبصر كان النزاع فيه باطلاً.

البحث الثالث: قال قوم: إنه تعالى أخرج هذه الثمرات بواسطة هذا الماء المنزل من السماء على سبيل العادة، وذلك لأن في هذا المعنى مصلحة للمكلفين، لأنهم إذا علموا أن هذه المنافع القليلة يجب أن تتحمل في تحصيلها المشاق والمتاعب، فالمنافع العظيمة الدائمة في الدار الآخرة أولى أن تتحمل المشاق في طلبها، وإذا كان المرء يترك الراحة واللذات طلبًا لهذه الخيرات الحقيرة، فبأن يترك اللذات الدنيوية ليفوز بثواب الله تعالى ويتخلص عن عقابه أولى. ولهذا السبب لما زال التكليف في الآخرة أنال الله تعالى كل نفس مشتهاها من غير تعب ولا نصب، هذا قول المتكلمين. وقال قوم آخرون: إنه تعالى يحدث الثمار والزروع بواسطة هذا الماء النازل من السماء، والمسألة كلامية محضة، وقد ذكرناه في سورة البقرة.

البحث الرابع: قال أبو مسلم: لفظ ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ يقع في الأغلب على ما يحصل على الأشجار، ويقع أيضًا على الزروع والنبات، كقوله تعالى: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾ [الأنعام: ١٤١] .

البحث الخامس: قال تعالى: ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ والمراد أنه تعالى إنما أخرج هذه الثمرات لأجل أن تكون رزقًا لنا، والمقصود أنه تعالى قصد بتخليق هذه الثمرات إيصال الخير والمنفعة إلى المكلفين، لأن الإحسان لا يكون إحسانًا إلا إذا قصد المحسن بفعله إيصال النفع إلى المحسن إليه.

البحث السادس: قال صاحب (الكشاف): قوله: ﴿ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ بيان للرزق، أي أخرج به رزقًا هو ثمرات، ويجوز أن يكون من الثمرات مفعول أخرج ورزقًا حال من المفعول أو نصبًا على المصدر من أخرج لأنه في معنى رزق، والتقدير: ورزق من الثمرات رزقًا لكم.

فأما الحجة الرابعة: وهي قوله: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الشورى: ٣٢].

ففيها مباحث:

البحث الأول: أن الانتفاع بما ينبت من الأرض إنما يكمل بوجود الفلك الجاري في البحر، وذلك لأنه تعالى خص كل طرف من أطراف الأرض بنوع آخر من أنعمه حتى أن نعمة هذا الطرف إذا نقلت إلى الجانب الآخر من الأرض وبالعكس كثر الربح في التجارات، ثم إن هذا النقل لا يمكن إلا بسفن البر وهي الجمال أو بسفن البحر وهي الفلك المذكور في هذه الآية.
فإن قيل: ما معنى وسخر لكم الفلك مع أن تركيب السفينة من أعمال العباد؟

قلنا: أما على قولنا إن فعل العبد خلق الله تعالى فلا سؤال، وأما على مذهب المعتزلة فقد أجاب القاضي عنه فقال: لولا أنه تعالى خلق الأشجار الصلبة التي منها يمكن تركيب السفن ولولا خلقه للحديد وسائر الآلات ولولا تعريفه العباد كيف يتخذوه ولولا أنه تعالى خلق الماء على صفة السيلان التي باعتبارها يصح جري السفينة، ولولا خلقه تعالى الرياح وخلق الحركات القوية فيها ولولا أنه وسع الأنهار وجعل فيها من العمق ما يجوز جري السفن فيها لما وقع الانتفاع بالسفن فصار لأجل أنه تعالى هو الخالق لهذه الأحوال، وهو المدبر لهذه الأمور والمسخر لها حسنت إضافة السفن إليه.

البحث الثاني: أنه تعالى أضاف ذلك التسخير إلى أمره لأن الملك العظيم قلما يوصف بأنه فعل وإنما يقال فيه إنه أمر بكذا تعظيمًا لشأنه، ومنهم من حمله على ظاهر قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] وتحقيق هذا الوجه راجع إلى ما ذكرناه.

البحث الثالث: الفلك من الجمادات فتسخيرها مجاز، والمعنى أنه لما كان يجري على وجه الماء كما يشتهيه الملاح صار كأنه حيوان مسخر له.

الحجة الخامسة: قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴾ واعلم أن ماء البحر قلما ينتفع به في الزراعات لا جرم ذكر تعالى إنعامه على الخلق بتفجير الأنهار والعيون حتى ينبعث الماء منها إلى مواضع الزرع والنبات، وأيضًا ماء البحر لا يصلح للشرب، والصالح لهذا المهم هو مياه الأنهار.

الحجة السادسة والسابعة: قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾.

واعلم أن الانتفاع بالشمس والقمر عظيم، وقد ذكره الله تعالى في آيات منها قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[نوح: ١٦] ومنها قوله: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾[الرحمن: ٥] ومنها قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾[الفرقان: ٦١] ومنها قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾[يونس: ٥] وقوله: ﴿دَآئِبَيْنِ﴾ معنى الدؤب في اللغة مرور الشيء في العمل على عادة مطردة يقال دأب يدأب دأبًا ودؤبًا وقد ذكرنا هذا في قوله: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾[يوسف: ٤٧] قال المفسرون: قوله: ﴿دَآئِبَيْنِ﴾ معناه يدأبان في سيرهما وإنارتهما وتأثيرهما في إزالة الظلمة وفي إصلاح النبات والحيوان فإن الشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل ولولا الشمس لما حصلت الفصول الأربعة، ولولاها لاختلت مصالح العالم بالكلية وقد ذكرنا منافع الشمس والقمر بالاستقصاء في أول هذا الكتاب.

الحجة الثامنة والتاسعة: قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾.

واعلم أن منافعهما مذكورة في القرآن كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١٠، ١١] وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾[يونس: ٦٧] قال المتكلمون: تسخير الليل والنهار مجاز لأنهما عرضان، والأعراض لا تسخر.

والحجة العاشرة: قوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ ثم إنه تعالى لما ذكر تلك النعمة العظيمة بين بعد ذلك أنه لم يقتصر عليها، بل أعطى عباده من المنافع والمرادات ما لا يأتي على بعضها التعديد والإحصاء فقال: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ والمفعول محذوف تقديره من كل مسؤول شيئًا، وقرىء: ﴿مِن كُلٍّ﴾ بالتنوين و ﴿مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ نفي ومحله نصب على الحال أي آتاكم من جميع ذلك غير سائليه ويجوز أن تكون (ما) موصولة والتقدير: آتاكم من كل ذلك ما احتجتم إليه ولم تصلح أحوالكم ومعايشكم إلا به، فكأنكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال، ثم إنه تعالى لما ذكر هذه النعم ختم الكلام بقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ قال الواحدي: النعمة ههنا اسم أقيم مقام المصدر يقال: أنعم الله عليه، ينعم إنعامًا ونعمة أقيم الاسم مقام الإنعام كقوله: أنفقت عليه إنفاقًا ونفقة بمعنى واحد، ولذلك لم يجمع لأنه في معنى المصدر، ومعنى قوله: ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾ أي لا تقدرون على تعديد جميعها لكثرتها.

واعلم أن الإنسان إذا أراد أن يعرف أن الوقوف على أقسام نعم الله ممتنع، فعليه أن يتأمل في شيء واحد ليعرف عجز نفسه عنه ونحن نذكر منه مثالين.

المثال الأول: أن الأطباء ذكروا أن الأعصاب قسمان، منها دماغية ومنها نخاعية. أما الدماغية فإنها سبعة ثم أتعبوا أنفسهم في معرفة الحكم الناشئة من كل واحد من تلك الأرواح السبعة، ثم مما لا شك فيه أن كل واحد من الأرواح السبعة تنقسم إلى شعب كثيرة وكل واحد من تلك الشعب أيضًا إلى شعب دقيقة أدق من الشعر ولكل واحد منها ممر إلى الأعضاء ولو أن شعبة

واحدة اختلت إما بسبب الكمية أو بسبب الكيفية أو بسبب الوضع لاختلت مصالح البنية، ثم إن تلك الشعب الدقيقة تكون كثيرة العدد جدًا، ولكل واحدة منها حكمة مخصوصة، فإذا نظر الإنسان في هذا المعنى عرف أن الله تعالى بحسب كل شظية من تلك الشظايا العصبية على العبد نعمة عظيمة لو فاتت لعظم الضرر عليه وعرف قطعًا أنه لا سبيل له إلى الوقوف عليها والاطلاع على أحوالها وعند هذا يقطع بصحة قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ وكما اعتبرت هذا في الشظايا العصبية فاعتبر مثله في الشرايين والأوردة، وفي كل واحد من الأعضاء البسيطة والمركبة بحسب الكمية والكيفية والوضع والفعل والإنفعال حتى ترى أقسام هذا الباب بحرًا لا ساحل له، وإذا اعتبرت هذا في بدن الإنسان الواحد فاعرف أقسام نعم الله تعالى في نفسه وروحه، فإن عجائب عالم الأرواح أكثر من عجائب عالم الأجساد ثم لما اعتبرت حالة الحيوان الواحد فعند ذلك اعتبر أحوال عالم الأفلاك والكواكب وطبقات العناصر وعجائب البر والبحر والنبات والحيوان وعند هذا تعرف أن عقول جميع الخلائق لو ركبت وجعلت عقلاً واحدًا ثم بذلك العقل يتأمل الإنسان في عجائب حكمة الله تعالى في أقل الأشياء لما أدرك منها إلا القليل، فسبحانه تقدس عن أوهام المتوهمين.

المثال الثاني: أنك إذا أخذت اللقمة الواحدة لتضعها في الفم فانظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها أما الأمور التي قبلها: فاعرف أن تلك اللقمة من الخبز لا تتم ولا تكمل إلا إذا كان هذا العالم بكليته قائمًا على الوجه الأصوب، لأن الحنطة لا بد منها، وأنها لا تنبت إلا معونة الفصول الأربعة، وتركيب الطبائع وظهور الرياح والأمطار، ولا يحصل شيء منها إلا بعد دوران الأفلاك، واتصال بعض الكواكب ببعض على وجوه مخصوصة في الحركات، وفي كيفيتها في الجهة والسرعة والبطء ثم بعد أن تكون الحنطة لا بد من آلات الطحن والخبز، وهي لا تحصل إلا عند تولد الحديد في أرحام الجبال، ثم إن الآلات الحديدية لا يمكن إصلاحها إلا بآلات أخرى حديدية سابقة عليها، ولا بد من انتهائها إلى آلة حديدية هي أول هذه الآلات، فتأمل أنها كيف تكونت على الأشكال المخصوصة، ثم إذا حصلت تلك الآلات فانظر أنه لا بد من اجتماع العناصر الأربعة، وهي الأرض والماء والهواء والنار حتى يمكن طبخ الخبز من ذلك الدقيق. فهذا هو النظر فيما تقدم على حصول هذه اللقمة. وأما النظر فيما بعد حصولها: فتأمل في تركيب بدن الحيوان، وهو أنه تعالى كيف خلق الأبدان حتى يمكنها الانتفاع بتلك اللقمة، وأنه كيف يتضرر الحيوان بالأكل وفي أي الأعضاء تحدث تلك المضار، ولا يمكنك أن تعرف القليل من هذه الأشياء إلا بمعرفة علم التشريح وعلم الطب بالكلية، فظهر بما ذكرنا أن الانتفاع باللقمة الواحدة لا يمكن معرفته إلا بمعرفة جملة الأمور، والعقول قاصرة على إدراك ذرة من هذه المباحث، فظهر بهذا البرهان القاهر صحة قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ ثم إنه تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ قيل: يظلم النعمة بإغفال شكرها كفار شديد

الكفران لها. وقيل: ظلوم في الشدة يشكو ويجزع، كفار في النعمة يجمع ويمنع، والمراد من الإنسان هاهنا: الجنس، يعني أن عادة هذا الجنس هو هذا الذي ذكرناه، وههنا بحثان:

البحث الأول: أن الإنسان مجبول على النسيان وعلى الملالة، فإذا وجد نعمة نسيها في الحال وظلمها بترك شكرها، وإن لم ينسها فإنه في الحال يملها فيقع في كفران النعمة، وأيضًا أن نعم الله كثيرة فمتى حاول التأمل في بعضها غفل عن الباقي.

البحث الثاني: أنه تعالى قال في هذا الموضع: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ وقال في سورة النحل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل: ١٨] ولما تأملت فيه لاحت لي فيه دقيقة كأنه يقول: إذا حصلت النعم الكثيرة فأنت الذي أخذتها وأنا الذي أعطيتها، فحصل لك عند أخذها وصفان: وهما كونك ظلومًا كفارًا، ولي وصفان عند إعطائها وهما كوني غفورًا رحيمًا، والمقصود كأنه يقول: إن كنت ظلومًا فأنا غفور، وإن كنت كفارًا فأنا رحيم أعلم عجزك وقصورك فلا أقابل تقصيرك إلا بالتوقير ولا أجازي جفاء إلا بالوفاء، ونسأل الله حسن العاقبة والرحمة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٦﴾

اعلم أنه تعالى لما بين بالدلائل المتقدمة أنه لا معبود إلا الله سبحانه وأنه لا يجوز عبادة غيره تعالى ألبتة حكى عن إبراهيم عليه السلام مبالغته في إنكار عبادة الأوثان.

واعلم أنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه طلب من الله أشياء: أحدها: قوله: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا﴾ والمراد: مكة آمنًا ذا أمن.

فإن قيل: أي فرق بين قوله: ﴿ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا﴾ [البقرة: ١٢٦] وبين قوله: ﴿ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا﴾.

قلنا: سأل في الأول أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها فلا يخافون، وفي الثاني: أن يزيل عنها الصفة التي كانت حاصلة لها، وهي الخوف، ويحصل لها ضد تلك الصفة وهو الأمن كأنه قال هو بلد مخوف فاجعله آمنًا، وقد تقدم تفسيره في سورة البقرة. وثانيها: قوله: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرىء (واجنبني) وفيه ثلاث لغات جنبه واجنبه وجنبه. قال الفراء: أهل الحجاز يقول جنبني يجنبني بالتخفيف. وأهل نجد يقولون جنبني شره وأجنبني شره، وأصله جعل الشيء عن غيره على جانب وناحية.

المسألة الثانية: لقائل أن يقول: الإشكال على هذه الآية من وجوه: أحدها: أن إبراهيم عليه السلام دعا ربه أن يجعل مكة آمنًا، وما قبل الله دعاءه، لأن جماعة خربوا الكعبة وأغاروا على مكة. وثانيها: أن الأنبياء عليهم السلام لا يعبدون الوثن ألبتة، وإذا كان كذلك فما الفائدة في قوله أجنبني عن عبادة الأصنام. وثالثها: أنه طلب من الله تعالى أن لا يجعل أبناءه من عبدة الأصنام والله تعالى لم يقبل دعاءه، لأن كفار قريش كانوا من أولاده، مع أنهم كانوا يعبدون الأصنام.

فإن قالوا: إنهم ما كانوا أبناء إبراهيم وإنما كانوا أبناء أبنائه، والدعاء مخصوص بالأبناء، فنقول: فإذا كان المراد من أولئك الأبناء أبناءه من صلبه، وهم ما كانوا إلا إسماعيل وإسحاق، وهما كانا من أكابر الأنبياء وقد علم أن الأنبياء لا يعبدون الصنم، فقد عاد السؤال في أنه ما الفائدة في ذلك الدعاء.

والجواب عن السؤال الأول من وجهين: الأول: أنه نقل أنه عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة ذكر هذا الدعاء، والمراد منه: جعل تلك البلدة آمنة من الخراب. والثاني: أن المراد جعل أهلها آمنين، كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، وهذا الوجه اتفق عليه أكثر المفسرين، وعلى هذا التقدير فالجواب من وجهين:

الوجه الأول: ما اختصت به مكة من حصول مزيد في الأمن، وهو أن الخائف كان إذا التجأ إلى مكة أمن، وكان الناس مع شدة العداوة بينهم يتلاقون بمكة فلا يخاف بعضهم بعضًا، ومن ذلك أمن الوحش فإنهم يقربون من الناس إذا كانوا بمكة، ويكونون مستوحشين عن الناس خارج مكة، فهذا النوع من الأمن حاصل في مكة فوجب حمل الدعاء عليه.

والوجه الثاني: أن يكون المراد من قوله: ﴿ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ أي بالأمر والحكم يجعله آمنًا وذلك الأمر والحكم حاصل لا محالة.

والجواب: عن السؤال الثاني قال الزجاج: معناه ثبتني على اجتناب عبادتها كما قال: ﴿وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] أي ثبتنا على الإسلام.

ولقائل أن يقول السؤال باق لأنه لما كان من المعلوم أنه تعالى يثبت الأنبياء عليهم السلام على الاجتناب من عبادة الأصنام فما الفائدة في هذا السؤال والصحيح عندي في الجواب وجهان:

الأول: أنه عليه السلام وإن كان يعلم أنه تعالى يعصمه من عبادة الأصنام إلا أنه ذكر ذلك هضمًا للنفس وإظهارًا للحاجة والفاقة إلى فضل الله في كل المطالب.

والثاني: أن الصوفية يقولون: إن الشرك نوعان: شرك جلي وهو الذي يقول به المشركون، وشرك خفي وهو تعليق القلب بالوسايط وبالأسباب الظاهرة والتوحيد المحض هو أن ينقطع نظره عن الوسايط ولا يرى متصرفًا سوى الحق سبحانه وتعالى فيحتمل أن يكون قوله:

﴿ٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ المراد منه أن يعصمه عن هذا الشرك الخفي والله أعلم بمراده.

والجواب عن السؤال الثالث من وجوه:

الأول: قال صاحب (الكشاف): قوله ﴿وَبَنِيَّ﴾ أراد بنيه من صلبه والفائدة في هذا الدعاء عين الفائدة التي ذكرناها في قوله: ﴿ٱجْنُبْنِي﴾.

والثاني: قال بعضهم أراد من أولاده وأولاد أولاده كل من كانوا موجودين حال الدعاء ولا شبهة أن دعوته مجابة فيهم.

الثالث: قال مجاهد: لم يعبد أحد من ولد إبراهيم عليه السلام صنمًا، والصنم هو التمثال المصور وما ليس بمصور فهو وثن. وكفار قريش ما عبدوا التمثال وإنما كانوا يعبدون أحجارًا مخصوصة وأشجارًا مخصوصة، وهذا الجواب ليس بقوي، لأنه عليه السلام لا يجوز أن يريد بهذا الدعاء إلا عبادة غير الله تعالى والحجر كالصنم في ذلك.

الرابع: أن هذا الدعاء مختص بالمؤمنين من أولاده والدليل عليه أنه قال في آخر الآية: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ وذلك يفيد أن من لم يتبعه على دينه فإنه ليس منه، ونظيره قوله تعالى لنوح: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾[هود: ٤٦].

والخامس: لعله وإن كان عمم في الدعاء إلا أن الله تعالى أجاب دعاءه في حق البعض دون البعض، وذلك لا يوجب تحقير الأنبياء عليهم السلام، ونظيره قوله تعالى في حق إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة: ١٢٤].

المسألة الثالثة: احتج أصحابنا بقوله: ﴿ٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ على أن الكفر والإيمان من الله تعالى، وتقرير الدليل أن إبراهيم عليه السلام طلب من الله أن يجنبه ويجنب أولاده من الكفر فدل ذلك على أن التبعيد من الكفر والتقريب من الإيمان ليس إلا من الله تعالى، وقول المعتزلة إنه محمول على الألطاف فاسد، لأنه عدول عن الظاهر، ولأنا قد ذكرنا وجوهًا كثيرة في إفساد هذا التأويل.

ثم حكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه قال: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ واتفق كل الفرق على أن قوله: ﴿أَضْلَلْنَ﴾ مجاز لأنها جمادات، والجماد لا يفعل شيئًا ألبتة، إلا أنه لما حصل الإضلال عند عبادتها أضيف إليها كما تقول فتنتهم الدنيا وغرتهم، أي افتتنوا بها واغتروا بسببها.

ثم قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ يعني في ديني واعتقادي فإنه مني، أي جار مجرى بعضي لفرط اختصاصه بي وقربه مني ومن عصاني في غير الدين فإنك غفور رحيم، واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن إبراهيم عليه السلام ذكر هذا الكلام والغرض منه الشفاعة في حق أصحاب الكبائر من أمته، والدليل عليه أن قوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ صريح في طلب المغفرة والرحمة لأولئك العصاة فنقول: أولئك العصاة إما أن يكونوا من الكفار أو لا يكونوا كذلك،

والأول باطل من وجهين: الأول: أنه عليه السلام بين في مقدمة هذه الآية أنه مبرأ عن الكفار وهو قوله: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ وأيضًا قوله: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ﴾ يدل بمفهومه على أن من لم يتبعه على دينه فإنه ليس منه ولا يهتم باصلاح مهماته. والثاني: أن الأمة مجمعة على أن الشفاعة في إسقاط عقاب الكفر غير جائزة، ولما بطل هذا ثبت أن قوله: ﴿وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ شفاعة في العصاة الذين لا يكونون من الكفار.

وإذا ثبت هذا فنقول: تلك المعصية إما أن تكون من الصغائر أو من الكبائر بعد التوبة أو من الكبائر قبل التوبة، والأول والثاني باطلان لأن قوله: ﴿وَمَنۡ عَصَانِي﴾ اللفظ فيه مطلق فتخصيصه بالصغيرة عدول عن الظاهر، وأيضًا فالصغائر والكبائر بعد التوبة واجبة الغفران عند الخصوم فلا يمكن حمل اللفظ عليه، فثبت أن هذه الآية شفاعة في إسقاط العقاب عن أهل الكبائر قبل التوبة، وإذا ثبت حصول هذه الشفاعة في حق إبراهيم عليه السلام ثبت حصولها في حق محمد ﷺ لوجوه: الأول: أنه لا قائل بالفرق. والثاني: وهو أن هذا المنصب أعلى المناصب فلو حصل لإبراهيم عليه السلام مع أنه غير حاصل لمحمد ﷺ لكان ذلك نقصانًا في حق محمد عليه السلام. والثالث: أن محمدًا ﷺ مأمور بالاقتداء بإبراهيم عليه السلام لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] وقوله: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ﴾ [النحل: ١٢٣] فهذا وجه قريب في إثبات الشفاعة لمحمد ﷺ وفي إسقاط العقاب عن أصحاب الكبائر، والله أعلم.

إذا عرفت هذا فلنذكر أقوال المفسرين: قال السدي معناه: ومن عصاني ثم تاب، وقيل: إن هذا الدعاء إنما كان قبل أن يعلم أن الله تعالى لا يغفر الشرك، وقيل من عصاني بإقامته على الكفر فإنك غفور رحيم، يعني أنك قادر على أن تغفر له وترحمه بأن تنقله عن الكفر إلى الإسلام، وقيل المراد من هذه المغفرة أن لا يعاجلهم بالعقاب بل يمهلهم حتى يتوبوا أو يكون المراد أن لا تعجل اخترامهم فتفوتهم التوبة. واعلم أن هذه الوجوه ضعيفة.

أما الأول: وهو حمل هذه الشفاعة على المعصية بشرط التوبة فقد أبطلناه.

وأما الثاني: وهو قوله إن هذه الشفاعة إنما كانت قبل أن يعلم أن الله لا يغفر الشرك فنقول: هذا أيضًا بعيد، لأنا بينا أن مقدمة هذه الآية تدل على أنه لا يجوز أن يكون مراد إبراهيم عليه السلام من هذا الدعاء هو الشفاعة في إسقاط عقاب الكفر.

وأما الثالث: وهو قوله المراد من كونه: ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أن ينقله من الكفر إلى الإيمان فهو أيضًا بعيد، لأن المغفرة والرحمة مشعرة بإسقاط العقاب ولا إشعار فيهما بالنقل من صفة الكفر إلى صفة الإيمان، والله أعلم.

وأما الرابع: وهو أن تحمل المغفرة والرحمة على تعجيل العقاب أو ترك تعجيل الإماتة فنقول هذا باطل، لأن كفار زماننا هذا أكثر منهم ولم يعاجلهم الله تعالى بالعقاب ولا بالموت مع أن

أهل الإسلام متفقون على أنهم ليسوا مغفورين ولا مرحومين فبطل تفسير المغفرة والرحمة على ترك تعجيل العقاب بهذا الوجه وظهر بما ذكرنا صحة ما قررناه من الدليل، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ۝٣٧ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٣٨ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٩ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ۝٤٠ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ۝٤١ ﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام في هذا الموضع أنه طلب في دعائه أمورًا سبعة.

المطلوب الأول: طلب من الله نعمة الأمان وهو قوله: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا﴾ [إبراهيم: ٣٥] والابتداء بطلب نعمة الأمن في هذا الدعاء يدل على أنه أعظم أنواع النعم والخيرات وأنه لا يتم شيء من مصالح الدين والدنيا إلا به، وسئل بعض العلماء الأمن أفضل أم الصحة؟ فقال: الأمن أفضل، والدليل عليه أن شاة لو انكسرت رجلها فإنها تصح بعد زمان، ثم إنها تقبل على الرعي والأكل ولو أنها ربطت في موضع وربط بالقرب منها ذئب فإنها تمسك عن العلف ولا تتناوله إلى أن تموت وذلك يدل على أن الضرر الحاصل من الخوف أشد من الضرر الحاصل من ألم الجسد.

والمطلوب الثاني: أن يرزقه الله التوحيد، ويصونه عن الشرك، وهو قوله: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

والمطلوب الثالث: قوله: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ فقوله: ﴿ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي بعض ذريتي وهو إسمعيل ومن ولد منه ﴿ بِوَادٍ﴾ هو وادي مكة ﴿ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ أي ليس فيه شيء من زرع، كقوله: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ﴾ [الزمر: ٢٨] بمعنى لا يحصل فيه اعوجاج عند بيتك المحرم، وذكروا في تسمية المحرم وجوها:

الأول: أن الله حرم التعرض له والتهاون به، وجعل ما حوله حرمًا لمكانه.

الثاني: أنه كان لم يزل ممتنعًا عزيزًا يهابه كل جبار كالشيء المحرم الذي حقه أن يجتنب.

الثالث: سمي محرمًا لأنه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكه.

الرابع: أنه حرم على الطوفان أي امتنع منه كما سمي عتيقًا لأنه أعتق منه فلم يستعل عليه.

الخامس: أمر الصائرين إليه أن يحرموا على أنفسهم أشياء كانت تحل لهم من قبل.

السادس: حرم موضع البيت حين خلق السموات والأرض وحفه بسبعة من الملائكة، وهو مثل البيت المعمور الذي بناه آدم، فرفع إلى السماء السابعة.

السابع: حرم على عباده أن يقربوه بالدماء والأقذار وغيرها: روي أن هاجر كانت أمة لسارة فوهبتها لإبراهيم عليه السلام فولدت له إسماعيل عليه السلام، فقالت سارة: كنت أرجو أن يهب الله لي ولدًا من خليله فمنعنيه ورزقه خادمتي، وقالت لإبراهيم: بعِّدهما مني فنقلهما إلى مكة وإسماعيل رضيع، ثم رجع فقالت هاجر: إلى من تكلنا؟ فقال إلى الله. ثم دعا الله تعالى بقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ﴾ إلى آخر الآية ثم إنها عطشت وعطش الصبي فانتهت بالصبي إلى موضع زمزم فضرب بقدمه ففارت عينًا، فقال رسول الله ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ لَوْلاَ أَنَّهَا عَجِلَتْ لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا»[1] ثم إن إبراهيم عليه السلام عاد بعد كبر إسماعيل واشتغل هو مع إسماعيل برفع قواعد البيت. قال القاضي: أكثر الأمور المذكورة في هذه الحكاية بعيدة لأنه لا يجوز لإبراهيم عليه السلام أن ينقل ولده إلى حيث لا طعام ولا ماء مع أنه كان يمكنه أن ينقلهما إلى بلدة أخرى من بلاد الشام لأجل قول سارة إلا إذا قلنا: إن الله أعلمه أنه يحصل هناك ماء وطعام، وأقول: أما ظهور ماء زمزم فيحتمل أن يكون إرهاصًا لإسماعيل عليه السلام، لأن ذلك عندنا جائز خلافًا للمعتزلة وعند المعتزلة أنه معجزة لإبراهيم عليه السلام.

ثم قال: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ واللام متعلقة بأسكنت أي أسكنت قومًا من ذريتي، وهم إسماعيل وأولاده بهذا الوادي الذي لا زرع فيه ليقيموا الصلاة.

ثم قال: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾.

وفيه مباحث:

البحث الأول: قال الأصمعي هوى يهوي هويًا بالفتح إذا سقط من علو إلى سفل. وقيل: ﴿تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ تريدهم، وقيل: تسرع إليهم. وقيل: تنحط إليهم وتنحدر إليهم وتنزل، يقال: هوى الحجر من رأس الجبل يهوي إذا انحدر وانصب، وهوى الرجل إذا انحدر من رأس الجبل.

البحث الثاني: أن هذا الدعاء جامع للدين والدنيا. أما الدين فلأنه يدخل فيه ميل الناس إلى الذهاب إلى تلك البلدة بسبب النسك والطاعة لله تعالى. وأما الدنيا: فلأنه يدخل فيه ميل الناس إلى نقل المعاشات إليهم بسبب التجارات، فلأجل هذا الميل يتسع عيشهم، ويكثر طعامهم ولباسهم.

البحث الثالث: كلمة ﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ تفيد التبعيض،

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (الأنبياء) باب (يزفون النسلان في المشي) (٣/ ١٢٢٦) حديث رقم/ ٣١٨٣، وأحمد في (مسنده) (١/ ٣٤٧) حديث رقم/ ٣٢٥٠، من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس... به.

والمعنى: فاجعل أفئدة بعض الناس مائلة إليهم. قال مجاهد: لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند. وقال سعيد بن جبير: لو قال أفئدة الناس، لحجت اليهود والنصارى المجوس، ولكنه قال: ﴿أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فهم المسلمون.

ثم قال: ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

وفيه بحثان:

البحث الأول: أنه لم يقل: وارزقهم الثمرات، بل قال: ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ وذلك يدل على أن المطلوب بالدعاء اتصال بعض الثمرات إليهم.

البحث الثاني: يحتمل أن يكون المراد بإيصال الثمرات إليهم إيصالها إليهم على سبيل التجارات وإنما يكون المراد: عمارة القرى بالقرب منها لتحصيل الثمار منها.

ثم قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ وذلك يدل على أن المقصود للعاقل من منافع الدنيا أن يتفرغ لأداء العبادات وإقامة الطاعات، فإن إبراهيم عليه السلام بين أنه إنما طلب تيسير المنافع على أولاده لأجل أن يتفرغوا لإقامة الصلوات وأداء الواجبات.

المطلوب الرابع: قوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ﴾.

واعلم أنه عليه السلام لما طلب من الله تيسير المنافع لأولاده وتسهيلها عليهم، ذكر أنه لا يعلم عواقب الأحوال ونهايات الأمور في المستقبل، وأنه تعالى هو العالم بها المحيط بأسرارها، فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ﴾ والمعنى: أنك أعلم بأحوالنا ومصالحنا ومفاسدنا منا، قيل: ما نخفي من الوجد بسبب حصول الفرقة بيني وبين إسماعيل، وما نعلن من البكاء، وقيل: ما نخفي من الحزن المتمكن في القلب وما نعلن يريد ما جرى بينه وبين هاجر حيث قالت له عند الوداع إلى من تكلنا؟ فقال إلى الله أكلكم، قالت آلله أمرك بهذا؟ قال نعم: قالت إذن لا نخشى[(١)].

ثم قال: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ وفيه قولان: **أحدهما:** أنه كلام الله عز وجل تصديقًا لإبراهيم عليه السلام كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٣٤]. **والثاني:** أنه من كلام إبراهيم عليه السلام يعني وما يخفي على الذي هو عالم الغيب من شيء في كل مكان، ولفظ (من) يفيد الاستغراق كأنه قيل: وما يخفى عليه شيء ما.

ثم قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾.

وفيه مباحث:

البحث الأول: اعلم أن القرآن يدل على أنه تعالى إنما أعطى إبراهيم عليه السلام هذين الولدين

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (الأنبياء) باب (يزفون النسلان في المشي) (٣/ ١٢٣٠) حديث رقم/ ٣١٨٥، والنسائي في (سننه الكبرى) (٥/ ١٠١) حديث رقم/ ٨٣٨٠، كلاهما من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس... به.

أعني إسمعيل وإسحق على الكبر والشيخوخة، فأما مقدار ذلك السن فغير معلوم من القرآن وإنما يرجع فيه إلى الروايات فقيل لما ولد إسماعيل كان سن إبراهيم تسعًا وتسعين سنة، ولما ولد إسحق كان سنه مائة واثنتي عشرة سنة وقيل ولد له إسمعيل لأربع وستين سنة وولد إسحق لتسعين سنة، وعن سعيد بن جبير: لم يولد لإبراهيم إلا بعد مائة وسبع عشرة سنة، وإنما ذكر قوله: ﴿عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾ لأن المنة بهبة الولد في هذا السن أعظم، من حيث إن هذا الزمان زمان وقوع اليأس من الولادة والظفر بالحاجة في وقت اليأس من أعظم النعم، ولأن الولادة في تلك السن العالية كانت آية لإبراهيم.

فإن قيل: إن إبراهيم عليه السلام إنما ذكر هذا الدعاء عندما أسكن إسمعيل وهاجر أمه في ذلك الوادي، وفي ذلك الوقت ما ولد له إسحق فكيف يمكنه أن يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾.

قلنا قال القاضي: هذا الدليل يقتضي أن إبراهيم عليه السلام إنما ذكر هذا الكلام في زمان آخر لا عقيب ما تقدم من الدعاء. ويمكن أيضًا أن يقال: إنه عليه السلام إنما ذكر هذا الدعاء بعد كبر إسمعيل وظهور إسحق وإن كان ظاهر الروايات بخلافه.

البحث الثاني: على في قوله: ﴿عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾ بمعنى مع كقول الشاعر:

إِنِّـي عَـلَـى مَـا تَـرَيْـنَ مِـنْ كِـبَـرِي ... أَعْـلَـمُ مِـنْ حَـيْـثُ يُـؤْكَـلُ الْـكَـتِـفُ(١)

وهو في موضع الحال ومعناه: وهب لي في حال الكبر.

البحث الثالث: في المناسبة بين قوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ وبين قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ وذلك هو كأنه كان في قلبه أن يطلب من الله إعانتهما وإعانة ذريتهما بعد موته ولكنه لم يصرح بهذا المطلوب، بل قال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ﴾ أي إنك تعلم ما في قلوبنا وضمائرنا، ثم قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ وذلك يدل ظاهرًا على أنهما يبقيان بعد موته وأنه مشغول القلب بسببهما فكان هذا دعاء لهما بالخير والمعونة بعد موته على سبيل الرمز والتعريض وذلك يدل على أن الاشتغال بالثناء عند الحاجة إلى الدعاء أفضل من الدعاء قال عليه السلام حاكيًا عن ربه أنه قال: «مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ»(٢) ثم قال: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾.

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر المنسرح وهو للشاعر قيس بن الخطيم وهو قيس بن الخطيم بن عدي الأوسي، أبو يزيد. ؟- ٢ ق. هـ/ ؟- ٦٢٠ م، شاعر الأوس وأحد صناديدها في الجاهلية. أول ما اشتهر به تتبعه قاتلي أبيه وجده حتى قتلهما، وقال في ذلك شعراً. وله في وقعة بعاث التي كانت بين الأوس والخزرج قبل الهجرة أشعار كثيرة، أدرك الإسلام وتريث في قبوله، فقتل قبل أن يدخل فيه.

(٢) **إسناده ضعيف**: أخرجه الترمذي في كتاب (فضائل القرآن) باب (٢٥) (٥/ ١٦٩) حديث رقم/ ٢٩٢٦، وقال أبو عيسي: هذا حديث حسن غريب، من طريق شهاب... به، وعبد الله بن أحمد في (المسند) حديث=

واعلم أنه لما ذكر الدعاء على سبيل الرمز والتعريض لا على وجه الإيضاح والتصريح قال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي هو عالم بالمقصود سواء صرحت به أو لم أصرح وقوله: سميع الدعاء. من قولك سمع الملك كلام فلان إذا اعتد به وقبله ومنه سمع الله لمن حمده.

المطلوب الخامس: قوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: احتج أصحابنا بهذا الآية على أن أفعال العبد مخلوقة لله تعالى فقالوا إن قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ يدل على أن ترك المنهيات لا يحصل إلا من الله وقوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾ يدل على أن فعل المأمورات لا يحصل إلا من الله، وذلك تصريح بأن إبراهيم عليه السلام كان مصرًا على أن الكل من الله.

المسألة الثانية: تقدير الآية: رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي. أي واجعل بعض ذريتي كذلك لأن كلمة (من) في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾ للتبعيض، وإنما ذكر هذا التبعيض لأنه علم باعلام الله تعالى أنه يكون في ذريته جمع من الكفار وذلك قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

المطلوب السادس: أنه عليه السلام لما دعا الله في المطالب المذكورة دعا الله تعالى في أن يقبل دعاءه فقال: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ وقال ابن عباس: يريد عبادتي بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨].

المطلوب السابع: قوله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: لقائل أن يقول: طلب المغفرة إنما يكون بعد سابقة الذنب فهذا يدل على أنه كان قد صدر الذنب عنه وإن كان قاطعًا بأن الله يغفر له فكيف طلب تحصيل ما كان قاطعًا بحصوله؟

والجواب: المقصود منه الالتجاء إلى الله تعالى وقطع الطمع إلا من فضله وكرمه ورحمته.

المسألة الثانية: إن قال قائل كيف جاز أن يستغفر لأبويه وكانا كافرين؟

فالجواب عنه من وجوه: الأول: أن المنع منه لا يعلم إلا بالتوقيف فلعله لم يجد منه منعًا فظن كونه جائزًا. الثاني: أراد بوالديه آدم وحواء. الثالث: كان ذلك بشرط الإسلام.

ولقائل أن يقول: لو كان الأمر كذلك لما كان ذلك الاستغفار باطلاً ولو لم يكن لبطل قوله

=رقم/ ١٢٥، من طريق حماد... به، والدارمي في كتاب (فضائل القرآن) باب (فضل كلام الله علي سائر الكلام) (٢/ ٣١٣) حديث رقم/ ٣٣٥٦، من طريق إسماعيل بن إبراهيم الترجماني... به، ثلاثتهم (حماد، شهاب، إسماعيل الترجماني) قال: حدثنا محمد بن الحسن بن أبي يزيد عن عمرو بن قيس عن عطية... فذكره وفي إسناد عطية: وهو ضعيف.

تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤] وقال بعضهم: كانت أمه مؤمنة، ولهذا السبب خص أباه بالذكر في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤]، والله أعلم وفي قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ قولان: **الأول:** يقوم أي يثبت وهو مستعار من قيام القائم على الرجل، والدليل عليه قولهم: قامت الحرب على ساقها، ونظيره قوله ترجلت الشمس، أي أشرقت وثبت ضوءها كأنها قامت على رجل. **الثاني:** أن يسند إلى الحساب قيام أهله على سبيل المجاز مثل قوله: ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] أي أهلها، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾

اعلم أنه لما بين دلائل التوحيد ثم حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه طلب من الله أن يصونه عن الشرك، وطلب منه أن يوفقه للأعمال الصالحة وأن يخصه بالرحمة والمغفرة في يوم القيامة ذكر بعد ذلك ما يدل على وجود يوم القيامة، وما يدل على صفة يوم القيامة، أما الذي يدل على وجود القيامة فهو قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ فالمقصود منه التنبيه على أنه تعالى لو لم ينتقم للمظلوم من الظالم، لزم أن يكون إما غافلاً عن ذلك الظالم أو عاجزًا عن الإنتقام، أو كان راضيًا بذلك الظلم، ولما كانت الغفلة والعجز والرضا بالظلم محالاً على الله امتنع أن لا ينتقم للمظلوم من الظالم.

فإن قيل: كيف يليق بالرسول ﷺ أن يحسب الله موصوفًا بالغفلة؟

والجواب من وجوه:

الأول: المراد به التثبيت على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلاً، كقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]. ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ [القصص: ٨٨] وكقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأحزاب: ٩]. **والثاني:** أن المقصود منه بيان أنه لو لم ينتقم لكان عدم الإنتقام لأجل غفلته عن ذلك الظلم، ولما كان امتناع هذه الغفلة معلومًا لكل أحد لا جرم كان عدم الانتقام محالاً. **والثالث:** أن المراد ولا تحسبنه يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون، ولكن معاملة الرقيب عليهم المحاسب على النقير والقطمير. **الرابع:** أن يكون هذا الكلام وإن كان خطابًا مع النبي ﷺ في الظاهر، إلا أنه يكون في الحقيقة خطابًا مع الأمة، وعن سفيان بن عيينة: أنه تسلية للمظلوم وتهديد للظالم، ثم بين تعالى أنه إنما يؤخر عقاب هؤلاء الظالمين ليوم موصوف بصفات.

الصفة الأولى: أنه تشخص فيه الأبصار. يقال: شخص بصر الرجل إذا بقيت عينه مفتوحة لا يطرفها، وشخوص البصر يدل على الحيرة والدهشة وسقوط القوة.

والصفة الثانية: قوله: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ وفي تفسير الإهطاع أقوال أربعة:

القول الأول: قال أبو عبيدة هو الإسراع. يقال: أهطع البعير في سيره واستهطع إذا أسرع وعلى هذا الوجه، فالمعنى: أن الغالب من حال من يبقى بصره شاخصًا من شدة الخوف أن يبقى واقفًا، فبين الله تعالى أن حالهم بخلاف هذا المعتاد، فإنهم مع شخوص أبصارهم يكونون مهطعين، أي مسرعين نحو ذلك البلاء. **القول الثاني:** في الإهطاع قال أحمد بن يحيى: المهطع الذي ينظر في ذل وخشوع. **والقول الثالث:** المهطع الساكت. **والقول الرابع:** قال الليث: يقال للرجل إذا قر وذل أهطع.

الصفة الثالثة: قوله: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ والإقناع رفع الرأس والنظر في ذل وخشوع، فقوله: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ أي رافعي رؤوسهم والمعنى أن المعتاد فيمن يشاهد البلاء أنه يطرق رأسه عنه لكي لا يراه، فبين تعالى أن حالهم بخلاف هذا المعتاد وأنهم يرفعون رؤوسهم.

الصفة الرابعة: قوله: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ والمراد من هذه الصفة دوام ذلك الشخوص، فقوله: ﴿تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ لا يفيد كون هذا الشخوص دائمًا وقوله: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ يفيد دوام هذا الشخوص، وذلك يدل على دوام تلك الحيرة والدهشة في قلوبهم.

الصفة الخامسة: قوله: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ الهواء الخلاء الذي لم تشغله الأجرام ثم جعل وصفًا فقيل: قلب فلان هواء إذا كان خاليًا لا قوة فيه، والمراد بيان أن قلوب الكفار خالية يوم القيامة عن جميع الخواطر والأفكار لعظم ما ينالهم من الحيرة ومن كل رجاء وأمل لما تحققوه من العقاب ومن كل سرور، لكثرة ما فيه من الحزن، إذا عرفت هذه الصفات الخمسة فقد اختلفوا في وقت حصولها فقيل: إنها عند المحاسبة بدليل أنه تعالى إنما ذكر هذه الصفات عقيب وصف ذلك اليوم بأنه يوم يقوم الحساب، وقيل: إنها تحصل عندما يتميز فريق عن فريق، والسعداء يذهبون إلى الجنة، والأشقياء إلى النار. وقيل: بل يحصل عند إجابة الداعي والقيام من القبور، والأول أولى للدليل الذي ذكرناه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾

اعلم أن قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾.

فيه أبحاث:

البحث الأول: قال صاحب (الكشاف): ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ مفعول ثان لقوله: ﴿وَأَنذِرِ﴾ وهو يوم القيامة.

البحث الثاني: الألف واللام في لفظ ﴿ ٱلْعَذَابُ ﴾ للمعهود السابق، يعني: وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب الذي تقدم ذكره وهو شخوص أبصارهم، وكونهم مهطعين مقنعي رؤوسهم.

البحث الثالث: الإنذار هو التخويف بذكر المضار، والمفسرون مجمعون على أن قوله: ﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ هو يوم القيامة، وحمله أبو مسلم على أنه حال المعاينة، والظاهر يشهد بخلافه، لأنه تعالى وصف اليوم بأن عذابهم يأتي فيه وأنهم يسألون الرجعة، ويقال لهم: ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ ولا يليق ذلك إلا بيوم القيامة. وحجة أبي مسلم: أن هذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ ﴾ [المنافقون: ١٠] ثم حكى الله سبحانه ما يقول الكفار في ذلك اليوم، فقال: ﴿ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ﴾ واختلفوا في المراد بقوله: ﴿ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ فقال بعضهم: طلبوا الرجعة إلى الدنيا ليتلافوا ما فرطوا فيه، وقال: بل طلبوا الرجوع إلى حال التكليف بدليل قولهم: نجب دعوتك ونتبع الرسل، وأما على قول أبي مسلم فتأويل هذه الآية ظاهر فقال تعالى مجيبًا لهم: ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ ومعناه ما ذكره الله تعالى في آية أخرى، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ [النحل: ٣٨] إلى غير ذلك مما كانوا يذكرونه من إنكار المعاد فقرعهم الله تعالى بهذا القول لأن التقريع بهذا الجنس أقوى، ومعنى: ما لكم من زوال، لا شبهة في أنهم كانوا يقولون لا زوال لنا من هذه الحياة إلى حياة أخرى، ومن هذه الدار إلى دار المجازاة، لا أنهم كانوا ينكرون أن يزولوا عن حياة إلى موت أو عن شباب إلى هرم أو عن فقر إلى غنى، ثم إنه تعالى زادهم تقريعًا آخر بقوله: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ يعني سكنتم في مساكن الذين كفروا قبلكم، وهم قوم نوح وعاد وثمود، وظلموا أنفسهم بالكفر والمعصية، لأن من شاهد هذه الأحوال وجب عليه أن يعتبر، فإذا لم يعتبر كان مستوجبًا للذم والتقريع.

ثم قال: ﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ وظهر لكم أن عاقبتهم عادت إلى الوبال والخزي والنكال.

فإن قيل: ولماذا قيل: ﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ ولم يكن القوم يقرون بأنه تعالى أهلكهم لأجل تكذيبهم؟

قلنا: إنهم علموا أن أولئك المتقدمين كانوا طالبين للدنيا ثم إنهم فنوا وانقرضوا فعند هذا يعلمون أنه لا فائدة في طلب الدنيا، والواجب الجد والاجتهاد في طلب الدين، والواجب على من عرف هذا أن يكون خائفًا وجلًا فيكون ذلك زجرًا له هذا إذا قرىء بالتاء أما إذا قرىء بالنون فلا شبهة فيه لأن التقدير كأنه تعالى قال: أولم نبين لكم كيف فعلنا بهم، وليس كل ما بين لهم تبينوه.

أما قوله: ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ فالمراد ما أورده الله في القرآن مما يعلم به أنه قادر على

الإعادة كما قدر على الإبتداء وقادر على التعذيب المؤجل كما يفعل الهلاك المعجل، وذلك في كتاب الله كثير، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر صفة عقابهم أتبعها بذكر كيفية مكرهم فقال: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في أن الضمير في قوله: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا﴾ إلى ماذا يعود؟ على وجوه: **الأول:** أن يكون الضمير عائدًا إلى الذين سكنوا في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وهذا القول الصحيح لأن الضمير يجب عوده إلى أقرب المذكورات. **والثاني:** أن يكون المراد به قوم محمد ﷺ والدليل عليه قوله: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ﴾ [إبراهيم: ٤٤] يا محمد وقد مكر قومك مكرهم وذلك المكر هو الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠] وقوله: ﴿مَكْرَهُمْ﴾ أي مكرهم العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم. **الثالث:** أن المراد من هذا المكر ما نقل أن نمروذ حاول الصعود إلى السماء فاتخذ لنفسه تابوتًا وربط قوائمه الأربع بأربعة نسور، وكان قد جوعها ورفع فوق الجوانب الأربعة من التابوت عصيًا أربعًا وعلق على كل واحدة منهن قطعة لحم ثم إنه جلس مع حاجبه في ذلك التابوت فلما أبصرت النسور تلك اللحوم تصاعدت في جو الهواء ثلاثة أيام وغابت الدنيا عن عين نمروذ ورأى السماء بحالها فنكس تلك العصي التي علق عليها اللحم فسفلت النسور وهبطت إلى الأرض، فهذا هو المراد من مكرهم. قال القاضي: وهذا بعيد جدًا لأن الخطر فيه عظيم ولا يكاد العاقل يقدم عليه وما جاء فيه خبر صحيح معتمد ولا حجة في تأويل الآية ألبتة.

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾.

فيه وجهان:

الأول: أن يكون المكر مضافًا إلى الفاعل كالأول. والمعنى: ومكتوب عند الله مكرهم فهو يجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه.

والثاني: أن يكون المكر مضافًا إلى المفعول، والمعنى: وعند الله مكرهم الذي يمكر بهم وهو عذابهم الذي يستحقونه يأتيهم به من حيث لا يشعرون ولا يحتسبون.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ فاعلم أنه قرأ الكسائي وحده ﴿لَتَزُولُ﴾ بفتح اللام الأولى ورفع اللام الأخرى منه، والباقون بكسر الأولى ونصب الثانية.

أما القراءة الأولى: فمعناها أن مكرهم كان معدًا لأن تزول منه الجبال، وليس المقصود من هذا

الكلام الإخبار عن وقوعه، بل التعظيم والتهويل وهو كقوله: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم: ٩٠].

وأما القراءة الثانية: فالمعنى: أن لفظ (إن) في قوله؛ ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ بمعنى (ما) واللام المكسورة بعدها يعني بها الجحد ومن سبيلها نصب الفعل المستقبل. والنحويون يسمونها لام الجحد ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾[آل عمران: ١٧٩]. ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران: ١٧٩] والجبال ههنا مثل لأمر النبي ﷺ ولأمر دين الإسلام وإعلامه ودلالته على معنى أن ثبوتها كثبوت الجبال الراسية لأن الله تعالى وعد نبيه إظهار دينه على كل الأديان. ويدل على صحة هذا المعنى قوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾[إبراهيم: ٤٧] أي قد وعدك الظهور عليهم والغلبة لهم. والمعنى: وما كان مكرهم لتزول منه الجبال، أي وكان مكرهم أوهن وأضعف من أن تزول منه الجبال الراسيات التي هي دين محمد ﷺ، ودلائل شريعته، وقرأ علي وعمرو: (إن كانَ مَكْرُهُمْ).

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى قال في الآية الأولى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[إبراهيم: ٤٢] وقال في هذه الآية: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ والمقصود منه التنبيه على أنه تعالى لو لم يقم القيامة ولم ينتقم للمظلومين من الظالمين، لزم إما كونه غافلاً وإما كونه مخلفًا في الوعد، ولما تقرر في العقول السليمة أن كل ذلك محال كان القول بأنه لا يقيم القيامة باطلاً وقوله: ﴿مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ يعني قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾[غافر: ٥١] وقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾[المجادلة: ٢١].

فإن قيل: هلا قيل مخلف رسله وعده، ولم قدم المفعول الثاني على الأول؟

قلنا: ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلاً، إن الله لا يخلف الميعاد، ثم قال: ﴿رُسُلِهِۦٓ﴾ ليدل به على أنه تعالى لما لم يخلف وعده أحدًا وليس من شأنه إخلاف المواعيد فكيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته، وقرىء: ﴿مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ بجر الرسل ونصب الوعد، والتقدير: مخلف رسله وعده، وهذه القراءة في الضعف، كمن قرأ قتل أولادهم شركائهم ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي غالب لا يماكر ذو انتقام لأوليائه.

اعلم أن الله تعالى لما قال: ﴿عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ بين وقت انتقامه فقال: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ وعظم من حال ذلك اليوم، لأنه لا أمر أعظم من العقول والنفوس من تغيير السموات والأرض وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: ذكر الزجاج في نصب يوم وجهين، إما على الظرف لانتقام أو على البدل من قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

المسألة الثانية: اعلم أن التبديل يحتمل وجهين: أحدهما: أن تكون الذات باقية وتتبدل صفتها بصفة أخرى. والثاني: أن تفنى الذات الأولى وتحدث ذات أخرى، والدليل على أن ذكر لفظ التبدل لإرادة التغير في الصفة جائز، أنه يقال بدلت الحلقة خاتمًا إذا أذبتها وسويتها خاتمًا فنقلتها من شكل إلى شكل، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ [الفرقان: ٧٠] ويقال: بدلت قميصي جبة أي نقلت العين من صفة إلى صفة أخرى، ويقال: تبدل زيد إذا تغيرت أحواله، وأما ذكر لفظ التبديل عند وقوع التبدل في الذوات فكقولك بدلت الدراهم دنانير، ومنه قوله: ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦] وقوله: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ [سبأ: ١٦] إذا عرفت أن اللفظ محتمل لكل واحد من هذين المفهومين ففي الآية قولان:

القول الأول: أن المراد تبديل الصفة لا تبديل الذات. قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي تلك الأرض إلا أنها تغيرت في صفاتها، فتسير عن الأرض جبالها وتفجر بحارها وتسوى، فلا يرى فيها عوج ولا أمت. وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**يُبَدِّلُ اللَّهُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرض فيبسطها ويمدها مد الأديم العاكظي فَلَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا**»(١) وقوله: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ﴾ أي تبدل السموات غير السموات، وهو كقوله عليه السلام: «**لَا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ وَلَا ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ**»(٢) والمعنى: ولا ذو عهد في عهده بكافر، وتبديل السموات بانتثار كواكبها وانفطارها، وتكوير شمسها، وخسوف قمرها، وكونها أبوابًا، وأنها تارة تكون كالمهل وتارة تكون كالدهان.

والقول الثاني: أن المراد تبديل الذات. قال ابن مسعود: تبدل بأرض كالفضة البيضاء النقية لم يسفك عليها دم ولم تعمل عليها خطيئة، فهذا شرح هذين القولين، ومن الناس من رجح القول الأول قال لأن قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ﴾ المراد هذه الأرض، والتبدل صفة مضافة إليها، وعند حصول الصفة لا بد وأن يكون الموصوف موجودًا، فلما كان الموصوف بالتبدل هو هذه الأرض

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٧/ ٤٩)، وابن راهوية في (مسنده) (١/ ٨٤/ ١٠)، كلاهما من طريق إسماعيل بن رافع المدني عن يزيد عن رجل من الأنصار عن محمد بن كعب القرظي عن رجل من الأنصار عن أبي هريرة... به، وفي إسناد مجهولين.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الديات) باب (أيقاد المسلم بالكافر) (٤/ ١٩٤٢) حديث رقم/ ٤٥٣٠، والنسائي في كتاب (القسامة) باب (القود بين الأحرار والمماليك) (٨/ ٣٨٧) حديث رقم/ ٤٧٤٨، وأحمد في (مسنده) (١/ ١٢٢) حديث رقم/ ٩٩٣، جميعا من طريق يحي بن سعيد... به.

وجب كون هذه الأرض باقية عند حصول ذلك التبدل، ولا يمكن أن تكون هذه الأرض باقية مع صفاتها عند حصول ذلك التبدل، وإلا لامتنع حصول التبدل، فوجب أن يكون الباقي هو الذات. فثبت أن هذه الآية تقتضي كون الذات باقية، والقائلون بهذا القول هم الذين يقولون: إن عند قيام القيامة لا يعدم الله الذوات والأجسام، وإنما يعدم صفاتها وأحوالها.

واعلم أنه لا يبعد أن يقال: المراد من تبديل الأرض والسموات هو أنه تعالى يجعل الأرض جهنم، ويجعل السموات الجنة، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾[المطففين: ١٨] وقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾[المطففين: ٧]، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ فنقول أما البروز لله فقد فسرناه في قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[إبراهيم: ٢١] وإنما ذكر الواحد القهار ههنا، لأن الملك إذا كان لمالك واحد غلاب لا يغالب قهار لا يقهر فلا مستغاث لأحد إلى غيره فكان الأمر في غاية الصعوبة، ونظيره قوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[غافر: ١٦] ولما وصف نفسه سبحانه بكونه قهارًا بين عجزهم وذلتهم، فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ﴾.

واعلم أنه تعالى ذكر من صفات عجزهم وذلتهم أمورًا:

فالصفة الأولى: كونهم مقرنين في الأصفاد. قرنت الشيء بالشيء إذا شددته به ووصلته. والقرآن اسم للحبل الذي يشد به شيئان. وجاء هاهنا على التكثير لكثرة أولئك القوم والأصفاد جمع صفد وهو القيد.

إذا عرفت هذا فنقول: في قوله: ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ ثلاثة أوجه: أحدها: قال الكلبي: مقرنين كل كافر مع شيطان في غل، وقال عطاء: هو معنى قوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾[التكوير: ٧٠] أي قرنت فيقرن الله تعالى نفوس المؤمنين بالحور العين، ونفوس الكافرين بقرنائهم من الشياطين، وأقول حظ البحث العقلي منه أن الإنسان إذا فارق الدنيا، فإما أن يكون قد راض نفسه وهذبها ودعاها إلى معرفة الله تعالى وطاعته ومحبته، أو ما فعل ذلك، بل تركها متوغلة في اللذات الجسدانية مقبلة على الأحوال الوهمية والخيالية، فإن كان الأول فتلك النفس تفارق مع تلك البهجة بالحضرة الإلهية، والسعادة بالعناية الصمدانية، وإن كان الثاني فتلك النفس تفارق مع الأسف والحزن والبلاء الشديد، بسبب الميل إلى عالم الجسم، وهذا هو المراد بقوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾[التكوير: ٧٠] وشيطان النفس الكافرة هي الملكات الباطلة، والحوادث الفاسدة، وهو المراد من قول عطاء: إن كل كافر مع شيطانه يكون مقرونًا في الأصفاد.

والقول الثاني: في تفسير قوله: ﴿مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ هو قرن بعض الكفار ببعض، والمراد أن تلك النفوس الشقية والأرواح المكدرة الظلمانية، لكونها متجانسة متشاكلة ينضم بعضها إلى بعض، وتنادي ظلمة كل واحدة منها إلى الأخرى، فانحدار كل واحدة منها إلى الأخرى في تلك الظلمات، والخسارات هي المراد بقوله: ﴿مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾.

والقول الثالث: قال زيد بن أرقم: قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال، وحظ العقل من ذلك أن الملكات الحاصلة في جوهر النفس إنما تحصل بتكرير الأفعال الصادرة من الجوارح والأعضاء، فإذا كانت تلك الملكات ظلمانية كدرة، صارت في المثال كأن أيديها وأرجلها قرنت وغلت في رقابها. وأما قوله: ﴿فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾.

ففيه وجهان:

أحدها: أن يكون ذلك متعلقًا بمقرنين، والمعنى: يقرنون بالأصفاد.

والثاني: أن لا يكون متعلقًا به، والمعنى: أنهم مقرنون مقيدون، وحظ العقل معلوم مما سلفت الإشارة إليه.

الصفة الثانية: قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ السرابيل جمع سربال وهو القميص، والقطران فيه ثلاث لغات: قَطْران وقِطْران وقَطِرن، بفتح القاف وكسرها مع سكون الطاء وبفتح القاف وكسر الطاء، وهو شيء يتحلب من شجر يسمى الأبهل فيطبخ ويطلى به الإبل الجرب فيحرق الجرب بحرارته وحدته، وقد تصل حرارته إلى داخل الجوف، ومن شأنه أن يتسارع فيه اشتعال النار، وهو أسود اللون منتن الريح فتطلى به جلود أهل النار حتى يصير ذلك الطلي كالسرابيل، وهي القمص فيحصل بسببها أربعة أنواع من العذاب، لذع القطران وحرقته، وإسراع النار في جلودهم واللون الوحش ونتن الريح، وأيضًا التفاوت بين قطران القيامة وقطران الدنيا كالتفاوت بين النارين، وأقول حظ العقل من هذا أن جوهر الروح جوهر مشرق لامع من عالم القدس وغيبة الجلال، وهذا البدن جارٍ مجرى السربال والقميص له، وكل ما يحصل للنفس من الآلام والغموم، فإنما يحصل بسبب هذا البدن، فلهذا البدن لذع وحرقة في جوهر النفس، لأن الشهوة والحرص والغضب إنما تتسارع إلى جوهر الروح بسببه، وكونه للكثافة والكدورة والظلمة هو الذي يخفي لمعان الروح وضوءه وهو سبب لحصول النتن والعفونة، فتشبه هذا الجسد بسرابيل من القطران والقطر، وقرأ بعضهم (مِنْ قِطْرٍ آنٍ) والقطر النحاس أو الصفر المذاب والآني المتناهي حره. قال أبو بكر بن الأنباري: وتلك النار لا تبطل ذلك القطران ولا تفنيه كما لا تهلك النار أجسادهم والأغلال التي كانت عليهم.

الصفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ ونظيره قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ [الزمر: ٢٤] وقوله: ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ [القمر: ٤٨].

واعلم أن موضع المعرفة والنكرة والعلم والجهل هو القلب، وموضع الفكر والوهم والخيال هو الرأس. وأثر هذه الأحوال إنما تظهر في الوجه، فلهذا السبب خص الله تعالى هذين العضوين بظهور آثار العقاب فيهما فقال في القلب: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾ [الهمزة: ٦، ٧] وقال في الوجه: ﴿وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ بمعنى تتغشى، ولما ذكر تعالى هذه الصفات الثلاثة قال: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ﴾ قال الواحدي: المراد منه أنفس الكفار

لأن ما سبق ذكره لا يليق أن يكون جزاء لأهل الإيمان، وأقول يمكن إجراء اللفظ على عمومه، لأن لفظ الآية يدل على أنه تعالى يجزي كل شخص بما يليق بعلمه وكسبه ولما كان كسب هؤلاء الكفار الكفر والمعصية، كان جزاؤهم هو هذا العقاب المذكور، ولما كان كسب المؤمنين الإيمان والطاعة، كان اللائق بهم هو الثواب وأيضًا أنه تعالى لما عاقب المجرمين بجرمهم فلأن يثيب المطيعين على طاعتهم كان أولى.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ والمراد أنه تعالى لا يظلمهم ولا يزيد على عقابهم الذي يستحقونه. وحظ العقل منه أن الأخلاق الظلمانية هي المبادي لحصول الآلام الروحانية وحصول تلك الأخلاق في النفس على قدر صدور تلك الأعمال منهم في الحياة الدنيا، فإن الملكات النفسانية إنما تحصل في جوهر النفس بسبب الأفعال المتكررة، وعلى هذا التقدير فتلك الآلام تتفاوت بحسب تلك الأفعال في كثرتها وقلتها وشدتها وضعفها وذلك يشبه الحساب.

ثم قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي هذا التذكير والموعظة بلاغ للناس، أي كفاية في الموعظة ثم اختلفوا فقيل: إن قوله هذا إشارة إلى كل القرآن، وقيل: بل إشارة إلى كل هذه السورة، وقيل: بل إشارة إلى المذكور من قوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ إلى قوله: ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ وأما قوله: ﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ فهو معطوف على محذوف أي لينتصحوا: ﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي بهذا البلاغ.

ثم قال: ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قد ذكرنا في هذا الكتاب مرارًا أن النفس الإنسانية لها شعبتان: القوة النظرية وكمال حالها في معرفة الموجودات بأقسامها وأجناسها وأنواعها حتى تصير النفس كالمرآة التي يتجلى فيها قدس الملكوت ويظهر فيها جلال اللاهوت ورئيس هذه المعارف والجلاء، معرفة توحيد الله بحسب ذاته وصفاته وأفعاله.

والشعبة الثانية: القوة العملية وسعادتها في أن تصير موصوفة بالأخلاق الفاضلة التي تصير مبادي لصدور الأفعال الكاملة عنها، ورئيس سعادات هذه القوة طاعة الله وخدمته.

إذا عرفت هذا فنقول: قوله: ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ إشارة إلى ما يجري مجرى الرئيس لكمال حال القوة النظرية وقوله: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ إشارة إلى ما يجري مجرى الرئيس لكمال حال القوة العملية فإن الفائدة في هذا التذكر، إنما هو الإعراض عن الأعمال الباطلة والإقبال على الأعمال الصالحة، وهذه الخاتمة كالدليل القاطع في أنه لا سعادة للإنسان إلا من هاتين الجهتين.

المسألة الثانية: هذه الآيات مشعرة بأن التذكير بهذه المواعظ والنصائح يوجب الوقوف على التوحيد والإقبال على العمل الصالح، والوجه فيه أن المرء إذا سمع هذه التخويفات والتحذيرات

عظم خوفه واشتغل بالنظر والتأمل، فوصل إلى معرفة التوحيد والنبوة واشتغل بالأعمال الصالحة.

المسألة الثالثة: قال القاضي: أول هذه السورة وآخرها يدل على أن العبد مستقل بفعله، إن شاء أطاع وإن شاء عصى، أما أول هذه السورة فهو قوله تعالى: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١] فإنا قد ذكرنا هناك أن هذا يدل على أن المقصود من إنزال الكتاب إرشاد الخلق كلهم إلى الدين والتقوى ومنعهم عن الكفر والمعصية، وأما آخر السورة فلأن قوله: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يدل على أنه تعالى إنما أنزل هذه السورة، وإنما ذكر هذه النصائح والمواعظ لأجل أن ينتفع الخلق بها فيصيروا مؤمنين مطيعين ويتركوا الكفر والمعصية، فظهر أن أول هذه السورة وآخرها متطابقان في إفادة هذا المعنى. واعلم أن الجواب المستقصى عنه مذكور في أول السورة فلا فائدة في الإعادة.

المسألة الرابعة: هذه الآية دالة على أنه لا فضيلة للإنسان ولا منقبة له إلا بسبب عقله، لأنه تعالى بين أنه إنما أنزل هذه الكتب، وإنما بعث الرسل لتذكير أولى الألباب، فلولا الشرف العظيم والمرتبة العالية لأولى الألباب لما كان الأمر كذلك.

قال المصنف رحمه الله تعالى ورضي عنه: تم تفسير هذه السورة يوم الجمعة في أواخر شعبان سنة إحدى وستمائة ختم بالخير والغفران في صحراء بغداد، ونسأل الله الخلاص من الغموم والأحزان والفوز بدرجات الجنان والخلاص من دركات النيران، إنه الملك المنان، الرحيم الديان، بحمد الله وحسن توفيقه وصلاته وسلامه على خاتم النبيين محمد وآله وسلم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

صلَّى الله على محمدٍ وآلِه وسلَّمَ تسليماً

تفسير سورة إبراهيم

مكيةٌ كلُّها في قول الحسن وعكرمة وجابر. وقال ابن عباس وقتادة: إلا آيتين منها مدنية(١). وقيل: ثلاث؛ نزلت في الذين حاربوا اللهَ ورسولَه، وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

قوله تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١﴾

قوله تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ تقدَّم معناه(٢).

﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: بالكتاب، وهو القرآن، أي: بدعائك إليه. ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: من ظلمات الكفر والضلالة والجهل إلى نور الإيمان والعلم، وهذا على التمثيل؛ لأنَّ الكفرَ بمنزلة الظُّلْمة، والإسلامَ بمنزلة النور(٣). وقيل: من البدعة إلى السُّنَّة، ومن الشَّكِّ إلى اليقين. والمعنى متقارب.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بتوفيقِه إيَّاهم ولُطفِه بهم، والباءُ في ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ متعلِّقةٌ بـ «تُخرج»(٤)، وأُضيفَ الفعلُ إلى النبيِّ ﷺ؛ لأنه الداعي والمنذرُ الهادي.

---

(١) من (ظ)، وفي غيرها: مدنيتين، والكلام في النكت والعيون ٣/ ١٢٠ .

(٢) ١/ ٢٣٧ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٥١٣ .

(٤) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٥٣ .

﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ هو كقولك: خرجتُ إلى زيدٍ العاقلِ الفاضل؛ من غير واو[١]؛ لأنهما شيءٌ واحد، واللهُ هو العزيزُ الذي لا مِثْلَ له ولا شبيه. وقيل: «العزيز»: الذي لا يَغلِبُه غالب. وقيل: «العزيز»: المَنيعُ في مُلْكِه وسُلْطانِه. «الحميد» أي: المحمودُ بكلِّ لسان، والمُمَجَّدُ في كلِّ مكانٍ على كلِّ حال.

وروى مِقْسَم عن ابن عباس قال: كان قومٌ آمنوا بعيسى ابنِ مريم، وقومٌ كفروا به، فلما بُعِثَ محمدٌ ﷺ؛ آمنَ به الذين كفروا بعيسى، وكفرَ الذين آمنوا بعيسى، فنزلت هذه الآية، ذكره الماورديُّ[٢].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أي: مِلْكاً وعبيداً واختراعاً وخلقاً. وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ وغيرُهما: «اللهُ» بالرفع على الابتداء[٣]، «الَّذِي» خبرُه. وقيل: «الَّذي» صفة، والخبر مُضمَرٌ[٤]، أي: اللهُ الذي له ما في السماوات وما في الأرض قادرٌ على كلِّ شيء. الباقون: بالخفض نعتاً للعزيز الحميد، فقدَّمَ النَّعتَ على المنعوت، كقولِكَ: مررتُ بالظريفِ زيدٍ[٥]. وقيل: على

---

(١) نقل ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٤٤ عن ابن الأنباري قوله: هذا مثل قول العرب: جلست إلى زيد، إلى العاقل الفاضل، وإنما تُعاد «إلى» بمعنى التعظيم للأمر.

(٢) في النكت والعيون ٣/ ١٢١ ، وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١١١٤)، قال الهيثمي في «المجمع» ٦/ ٣٢٣ ، وفيه أبو بلال الأشعري، وهو ضعيف.

(٣) السبعة ص٣٦٢ ، والتيسير ص١٣٤ ، وقرأ بالرفع أيضاً أبو جعفر، كما في النشر ٢/ ٢٩٨ .

(٤) الكشف عن وجوه القراءات السبع ٢/ ٢٥ .

(٥) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٥٨٩ - ٥٩٠ ، وردَّ ابن زنجلة هذا القول في «حجة القراءات» ص٣٧٦ فقال: ولا يجوز أن يقول: نعتٌ للحميد، وإنما هو كقولك: «مررتُ بزيدٍ الظريف»، فإن قلت: «بالظريفِ زيدٍ» عاد بدلاً، ولم يكن نعتاً.

البدل من «الحميد» وليس صفة؛ لأنَّ اسمَ اللهِ صارَ كالعَلَمِ فلا يُوصَفُ به[١]؛ كما لا يُوصَفُ بزيدٍ وعَمرٍو، بل يجوز أن يوصف به من حيث المعنى؛ لأنَّ معناه أنَّه المنفردُ بقدرة الإيجاد. وقال أبو عمرو: والخفض على التقديم والتأخير، مجازه: إلى صراط الله العزيز الحميد الذي له ما في السماوات وما في الأرض[٢]. وكان يعقوب[٣] إذا وقف على «الحميد» رفَعَ، وإذا وصلَ خفَضَ على النعت. قال ابنُ الأنباري[٤]: من خفَضَ وقَفَ على: «وما في الأرض».

قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قد تقدَّم معنى الويل في «البقرة»[٥] وقال الزجَّاج[٦]: هي كلمةٌ تُقال للعذاب والهَلَكة. ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي: في جهنم.

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: يختارونها على الآخرة، والكافرون يفعلون ذلك. فـ «الذينَ» في موضع خفضٍ صفةٌ لهم. وقيل: في موضع رفع خبرُ ابتداءٍ مُضمَر؛ أي: هم الذين. وقيل: «الذين يَسْتَحبُّون» مبتدأ، وخبره: «أُولَئِكَ»، وكلُّ مَنْ آثَرَ الدنيا وزَهْرَتَها، واستحبَّ البقاء في نعيمها على النعيم في الآخرة، وصدَّ عن سبيل الله ـ أي: صرفَ الناس عنه، وهو دين الله، الذي جاءت به الرسل، في قول ابن عباس وغيره ـ فهو داخل في هذه الآية؛ وقد قال ﷺ: «إنَّ أخوَفَ ما أخافُ على أمتي الأئمةُ المُضِلُّون»[٧] وهو حديث صحيح. وما أكثر ما هم في هذه الأزمان! والله المستعان.

---

(١) لفظة «به» من (ظ).

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٥٨٩ ، وأبو عمرو: هو ابن العلاء.

(٣) في رواية رُويس، وهو من العشرة. النشر ٢/ ٢٩٨ .

(٤) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٧٣٩ .

(٥) ٢/ ٢١٩ - ٢٢٢ .

(٦) في معاني القرآن ١/ ١٦٠ .

(٧) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٧٤٨٥) من حديث أبي الدرداء.

وقيل: «يَسْتَحِبُّونَ» أي: يلتمسون الدنيا من غير وجهها؛ لأنَّ نعمة الله لا تُلتَمسُ إلا بطاعته دون معصيته ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يطلبون لها زَيْغاً وميلاً لموافقة أهوائهم، وقضاء حاجاتهم وأغراضهم. والسبيل تُذكَّر وتُؤنَّث[1]. والعِوَجُ؛ بِكسر العينِ: في الدِّين والأمر والأرض، وفي كلِّ ما لم يكن قائماً. وبفتح العين: في كل ما كان قائماً، كالحائط والرُّمح ونحوه؛ وقد تقدم في «آل عمران»[2] وغيرها. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٖ﴾ أي: ذهابٍ عن الحقِّ، بعيدٍ عنه.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ﴾ أي: قبلَك يا محمد ﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ أي: بِلُغتهم؛ ليبيِّنوا لهم أمر دينهم[3]، ووحَّد اللسان ـ وإن أضافه إلى القوم ـ لأن المراد اللغة، فهي اسمُ جنسٍ يقع على القليل والكثير، ولا حُجَّةَ للعجم وغيرهم في هذه الآية؛ لأنَّ كلَّ من تُرجِمَ له ما جاء به النبيُّ ﷺ ترجمةً يفهمها لزِمَتْه الحجَّة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ:٢٨]، وقال ﷺ: «أُرسِلَ كلُّ نبيٍّ إلى أمته بلسانها، وأرسلني اللهُ إلى كلِّ أحمرَ وأسودَ من خَلْقِه»[4]. وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثم لم يؤمِنْ بالذي أُرسِلتُ به، إلا كان من أصحاب النار». خرَّجه مسلم، وقد تقدَّم[5].

﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ ردٌّ على القَدَريَّة في نفوذ المشيئة، وهو

---

(١) الصحاح (سبل).

(٢) ٥/ ٢٣٣ .

(٣) تفسير الطبري ١٣/ ٥٩٢ ، وتفسير السمرقندي ٢/ ٢٠٠ .

(٤) أخرجه الحارث بن أبي أسامة كما في بغية الباحث (٩٤٢).

(٥) صحيح مسلم (١٥٣)، وسلف ٢/ ١٦٠ .

مستأنَفٌ، وليس بمعطوفٍ على «لِيُبَيِّنَ»؛ لأن الإرسال إنما وقع للتبيين لا للإضلال. ويجوز النصبُ في «يضلُّ»؛ لأن الإرسال صار سبباً للإضلال؛ فيكون كقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨]، وإنما صار الإرسال سبباً للإضلال؛ لأنهم كفروا به لمَّا جاءهم، فصار كأنه سببٌ لكفرهم[١]. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تقدَّم معناه[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ أي: بحجَّتنا وبراهيننا، أي: بالمعجزات الدالَّة على صدقه. قال مجاهد: هي التسع الآيات[٣].

﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ نظيرُه قولُه تعالى لنبينا عليه الصلاة والسلام أول السورة: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾. وقيل: «أَنْ» هنا بمعنى: أي، كقوله تعالى: ﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا﴾ [ص:٦]: أي امشوا[٤].

قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ أي: قُلْ لهم قولاً يتذكَّرون به أيامَ الله تعالى. قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: بنعم الله عليهم[٥]. وقاله أبيّ بن كعب، ورواه مرفوعاً[٦]، أي: بما أنعم الله عليهم من النجاة من فرعون ومن التِّيه إلى سائر النِّعم.

---

(١) استبعد الزجَّاج في معاني القرآن ٣/ ١٥٤ النصب وقال: الرفع هو الوجه، وهو الكلام، وعليه القراءة.
(٢) معنى «العزيز» سلف ٢/ ٤٠٣ - ٤٠٤ ، ومعنى «الحكيم» سلف ١/ ٤٢٩ .
(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٩٣ و ٥٩٤ .
(٤) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٥٤ - ١٥٥ .
(٥) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣٤١ والطبري ١٣/ ٥٩٦ و ٥٩٧ من قول مجاهد، و١٣/ ٥٩٧ من قول قتادة، ولم نقف على من أخرجه من قول ابن عباس.
(٦) أخرجه من قول أبي بن كعب: عبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (٢١١٢٩)، وأخرجه أيضاً عنه مرفوعاً (٢١١٢٨).

وقد تُسمَّى النِّعم: الأيام، ومنه قول عمرو بن كلثوم:

وأيـــامٍ لـــنـــا غُـــرٍّ طِـــوالٍ[١]

وعن ابن عباس أيضاً ومقاتل: بوقائع الله في الأمم السالفة؛ يُقال: فلانٌ عالم بأيَّام العرب، أي: بوقائعها[٢]. قال ابن زيد: يعني: الأيام التي انتقم فيها من الأمم الخالية[٣] وكذلك روى ابنُ وهب عن مالك قال: بلاؤه. وقال الطبريّ: وعِظْهُمْ بما سلف في الأيام الماضية لهم[٤]، أي: بما كان في أيام الله من النعمة والمحنة، وقد كانوا عبيداً مستذَلِّين. واكتفى بذكر الأيام عنه؛ لأنها كانت معلومةً عندهم.

وروى سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، عن أُبيّ بن كعب قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «بينا موسى عليه السلام في قومه يُذكِّرهم بأيَّامِ الله، وأيَّامُ الله بَلاؤه ونَعماؤه» وذكر حديث الخضر[٥]. ودلَّ هذا على جواز الوعظِ المرقِّقِ للقلوب، المقوِّي لليقين، الخالي من كل بدعة، والمنزَّه عن كلِّ ضلالةٍ وشُبهة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في التذكير بأيَّام الله ﴿لَآيَٰتٍ﴾ أي: دلالات. ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي: كثير الصبر على طاعة الله، وعن معاصيه. ﴿شَكُورٍ﴾ لنعم الله. وقال قتادة: هو العبد؛ إذا أُعطِيَ شكر، وإذا ابتُلِيَ صبر[٦]. ورُوِيَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «الإيمان نصفان: نصفٌ صبر، ونصفٌ شكر» ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[٧]. ونحوه عن الشَّعبيِّ موقوفاً[٨]. وتَوارى الحسن

---

(١) شرح القصائد السبع لابن الأنباري ص٣٨٨، وعجزه: عَصَينا المَلْكَ فيها أن نَدينا، وسلف ١/ ٢١٦.

(٢) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٢٦.

(٣) تفسير الطبري ١٣/ ٥٩٧.

(٤) تفسير الطبري ١٣/ ٥٩٤.

(٥) أخرجه مسلم (٢٣٨٠): (١٧٢)، وعبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (٢١١٢٠).

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره ١٣/ ٥٩٨.

(٧) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١٥٩) من حديث أنس بن مالك، لكن في إسناده عتبة بن السكن ويزيد بن أبان الرقاشي، وهما متروكان. ميزان الاعتدال ٣/ ٢٨ و ٤/ ٤١٨.

(٨) بلفظ: الشكر نصف الإيمان، والصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله. وأخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٥٧)، والبيهقي في «الشعب» (٤٤٤٨).

البصريُّ عن الحجَّاج سبعَ سنين، فلما بلغه موتُه قال: اللهمَّ قد أمتَّه فأمِتْ سُنَّته. وسجد شكراً وقرأ: «إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ»(١).

وإنما خصَّ بالآيات كلَّ صبَّارٍ شكور؛ لأنه يَعتبِرُ بها ولا يغفُل عنها، كما قال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥] وإن كان منذِراً للجميع.

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ۝٦ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ﴾ تقدَّم في «البقرة» مستوفًى والحمد لله(٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ﴾ قيل: هو من قول موسى لقومه. وقيل: هو من قول الله، أي: واذكُرْ يا محمد إذ قال ربك كذا. و«تَأَذَّنَ» وآذنَ بمعنى: أَعْلَمَ؛ مثل: أَوْعَدَ وتَوَعَّدَ(٣)؛ رُوي معنى ذلك عن الحسن وغيره. ومنه الأذان؛ لأنه إعلام، قال الشاعر:

فَلَمْ نَشْعُرْ بضوءِ الصُّبحِ حتَّى سمِعْنا في مجالِسِنا الأَذِينا(٤)

وكان ابن مسعود يقرأ: «وإذْ قالَ ربُّكُمْ»(٥). والمعنى واحد.

﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ أي: لئن وحَّدتم وأطعتم لأزيدنَّكم مما يجب الشكر

---

(١) أخرجه بنحوه أبو نعيم في «الحلية» ٢/ ١٥٩ دون قراءة الآية.

(٢) ٢/ ٨٠ - ٨٩.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٥، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٦٩، وتفسير الطبري ١٣/ ٦٠٠.

(٤) قائله الراعي النميري، وهو في ديوانه ص٢٧٦، وفيه: «مساجدنا» بدل: «مجالسنا».

(٥) وهي قراءة شاذة، ينظر البحر المحيط ٥/ ٤٠٧، وتفسير الطبري ١٣/ ٦٠١.

عليه، وهي نعمي[١]. وقال الربيع: المعنى[٢]: لئن شكرتُم إنعامي لأزيدنَّكم من فضلي. الحسن: لئن شكرتُم نعمتي لأزيدنَّكم من طاعتي[٣]. ابن عباس: لئن وَحَّدْتُم وأطعتُم لأزيدنَّكم من الثواب[٤]. والمعنى متقارب في هذه الأقوال، والآية نصٌّ في أنَّ الشكر سببُ المزيد، وقد تقدَّم في «البقرة»[٥] ما للعلماء في معنى الشكر.

وسُئِلَ بعضُ الصُّلحاء عن الشكر لله، فقال: ألَّا تتقوَّى بنعمه على معاصيه[٦].

وحُكيَ عن داود عليه السلام أنه قال: أيْ ربِّ، كيف أشكرُك، وشكري لك نعمةٌ مجدَّدةٌ منك عليَّ. قال: يا داود، الآن شكرتَني[٧].

قلت: فحقيقةُ الشكر على هذا الاعترافُ بالنعمة للمنعِم، وألّا يصرفَها في غير طاعته؛ وأنشد الهادي[٨] وهو يأكل:

أنالَكَ رِزقَه لتقومَ فيهِ ... بطاعتِه وتشكرَ بعضَ حقِّهْ
فلم تشْكُرْ لِنعمتِهِ ولكِنْ ... قَوِيتَ على معاصِيهِ برزقِهْ[٩]

فغَصَّ باللُّقمة، وخنقته العَبْرة.

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٤.

(٢) من قوله: «وحَّدتم» إلى هذا الموضع من (ظ). وكلام الربيع في زاد المسير ٤/ ٣٤٧.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٠٢.

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٤، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٤٧.

(٥) ٢/ ١٠٤.

(٦) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٥٥٠)، والخطيب في «تاريخه» ٧/ ٢٤٤ من كلام الجنيد بن محمد البغدادي ﷺ.

(٧) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٢٩ إلى ابن أبي حاتم.

(٨) هو الخليفة موسى بن المهدي محمد بن المنصور، وليَ الخلافة بعد أبيه المهدي، مات سنة ١٧٠هـ، وعمره ثلاث وعشرون سنة، وكانت مدة خلافته سنة وشهر، وولي الخلافة من بعده أخوه الرشيد. السير ٧/ ٤٤١ - ٤٤٣.

(٩) ذكرهما بنحوهما المبرِّد في الكامل ٢٠/ ٦٦٤ في ثلاثة أبيات، نسبت في بعض نسخه لمحمود الوراق (كما ذكر محققه).

وقال جعفر الصادق: إذا سمعتَ النعمةَ نعمةَ الشكر؛ فتأهَّبْ للمزيد.

﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ أي: جحدتُم حقِّي، وقيل: نِعَمي[١]؛ وَعَدَ بالعذاب على الكفر، كما وَعَدَ بالزيادة على الشكر[٢]، وحُذفتِ الفاءُ التي في جواب الشرط من «إنْ» للشهرة[٣].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي: لا يَلحقُه بذلك نقص، بل هو الغني. «الحميدُ» أي: المحمود.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ النبأ: الخبر، والجمع: الأنباء؛ قال:

أَلَـمْ يَـأْتـيـكَ والأنـبـاءُ تَـنْـمـي[٤]

ثم قيل: هو من قول موسى. وقيل: من قول الله، أي: واذكُر يا محمد إذ قال ربُّك كذا. وقيل: هو ابتداء خطاب من الله تعالى. وخبر قوم نوح وعاد وثمود مشهورٌ، قصَّه الله في كتابه.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: لا يُحصي عددَهم إلا الله،

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٤.

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٢٣.

(٣) وقال الشوكاني في فتح القدير ٣/ ٩٦: اللام في «لئن شكرتم» هي الموطئة للقسم، وقوله: «لأزيدنَّكم» سادٌّ مسدَّ جوابي الشرط والقسم، وكذا اللام في «ولئن كفرتم»، وقوله: «إنَّ عذابي لشديد» سادٌّ مسدَّ الجوابين أيضاً.

(٤) هو صدر بيت لقيس بن زهير، وسلف عند تفسير الآية (٩٠) من سورة يوسف.

ولا يعرف نسبَهم إلا الله[١]؛ والنَّسَّابون وإن نَسَبُوا إلى آدم؛ فلا يدَّعون إحصاء جميع الأمم، وإنما ينسبون البعض، ويُمسِكون عن نسب البعض، وقد رُويَ عن النبيِّ ﷺ لمَّا سمع النَّسَّابين ينسبون إلى مَعَدِّ بنِ عدنان، ثم زادوا، فقال: «كذَبَ النسَّابون، إن الله يقول: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾»[٢].

وقد رُويَ عن عُرْوةَ بنِ الزُّبير أنه قال: ما وجدنا أحداً يعرفُ ما بين عدنان وإسماعيل[٣].

وقال ابن عباس: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يُعرفون[٤]. وكان ابن مسعود يقول حين يقرأ: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾: كذب النَّسَّابون[٥]. ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالحُجج والدَّلالات. ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: جعل أولئك القومُ أيديَ أنفسهم في أفواههم ليَعضُّوها غيظاً مما جاء به الرسل؛ إذ كان فيه تَسفيهُ أحلامهم، وشتمُ أصنامهم؛ قاله ابن مسعود[٦]، ومثله قاله عبد الرحمن بن زيد، وقرأ: ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾[٧] [آل عمران:١١٩]. وقال ابن عباس: لـمَّا سمعوا كتاب الله؛ عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم[٨]. وقال أبو صالح: كانوا إذا قال لهم نبيُّهم: أنا رسول الله إليكم، أشاروا بأصابعهم إلى أفواههم: أَنِ اسكُتْ؛

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٦٠٣ ، والوسيط ٣/ ٢٤ .

(٢) أخرجه ابن سعد ١/ ٥٦ ، وخليفة بن خياط في طبقاته ١/ ٣ عن ابن عباس، وفيه أنه قرأ قوله تعالى: ﴿وَقُرُونَۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان:٣٨] بدلاً من قوله: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وفي إسناده هشام بن محمد بن السائب الكلبي، وهو متروك، وأبوه محمد بن السائب متهم بالكذب. ميزان الاعتدال ٣/ ٥٥٦ - ٥٥٧ و ٤/ ٣٠٤ - ٣٠٥ .

(٣) أخرجه ابن سعد ١/ ٥٨ ، وخليفة بن خياط في طبقاته ١/ ٢ .

(٤) أخرجه خليفة بن خياط في طبقاته ١/ ٣ .

(٥) أخرجه ابن سعد ١/ ٥٦ .

(٦) ذكره المصنف عنه بالمعنى، وسيذكر لفظه قريباً.

(٧) الدر المنثور ٤/ ٧٢ .

(٨) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٠٧ .

تكذيباً له، وردًّا لقوله. وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى. والضميران للكفار، والقول الأول أصحُّها إسناداً؛ قال أبو عبيد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص عن عبد الله في قوله تعالى ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ قال: عَضُّوا عليها غيظاً[١]. وقال الشاعر:

لـو أنَّ سَـلـمـى أبْـصَـرَتْ تَـخَـدُّدي ... ودِقَّـةً فـي عَـظْـمِ سـاقـي ويـدي
وبُـعْـدَ أهـلـي وجَـفـاءَ عُـوَّدي ... عَـضَّـتْ من الـوَجْـدِ بـأطـرافِ الـيـدِ[٢]

وقد مضى هذا المعنى في «آل عمران» مجوَّداً، والحمد لله[٣].

وقال مجاهد وقَتادة: رَدُّوا على الرسل قولَهم، وكذَّبوهم بأفواههم. فالضمير الأول للرسل، والثاني للكفار. وقال الحسن وغيره: جعلوا أيديَهم في أفواه الرسل ردًّا لقولهم[٤]. فالضمير الأول على هذا للكفار، والثاني للرسل. وقيل: معناه: أَوْمؤوا للرسل أن يسكتوا[٥]. وقال مقاتل: أخذوا أيديَ الرسل ووضعوها على أفواه الرسل ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم[٦]. وقيل: ردَّ الرسل أيديَ القوم في أفواههم. وقيل: إن الأيديَ هنا النِّعم، أي: ردُّوا نِعَمَ الرسلِ بأفواههم، أي: بالنطق والتكذيب، ومجيء الرسل بالشرائع نِعَمٌ، والمعنى: كذَّبوا بأفواههم ما جاءت به الرسل. و«في» بمعنى الباء؛ يقال: جلستُ في البيت وبالبيت[٧]، وحروف الصفات

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٤١، والطبري ١٣/ ٦٠٥، والطبراني في «المعجم الكبير» (٩١١٩)، والحاكم ٢/ ٣٥١ من طريق سفيان الثوري، به. وعبد الله: هو ابن مسعود، ﷺ.

(٢) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٢٤، والكامل ١/ ٢٦٣.

(٣) ٥/ ٢٧٨ - ٢٨٠.

(٤) زاد المسير ٤/ ٣٤٩.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٥٦، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٢٦، والوسيط ٣/ ٢٥.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٦.

(٧) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٦٩ - ٧٠، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٥٦.

يُقام بعضُها مقامَ بعض. وقال أبو عبيدة[1]: هو ضرب مَثَل، أي: لم يُؤمنوا ولم يُجيبوا؛ والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن الجواب وسكت: قد ردَّ يدَه في فيه. وقاله الأخفش أيضاً. وقال القُتَبيُّ[2]: لم نسمع أحداً من العرب يقول: ردَّ يدَه في فيه إذا ترك ما أُمِرَ به، وإنما المعنى: عَضُّوا على الأيدي حَنَقاً وغيظاً؛ لقول الشاعر:

يَرُدُّونَ فـي فِيـهِ عَشْـرَ[3] الحـسـو دِ حـتـى يَـعَـضَّ عـلـيَّ الأكُـفَّـا[4]

يعني أنهم يَغيظون الحسود حتى يَعَضَّ على أصابعه وكفَّيه. وقال آخر:

قَـدَ افْـنـى أنـامِـلَـهُ أزْمُـهُ فـأضـحـى يَـعَـضُّ عـلـيَّ الـوَظِـيـفـا[5]

﴿وَقَالُوٓاْ﴾: يعني الأمم للرسل: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ أي: بالإرسال على زعمكم، لا أنهم أقرُّوا أنهم أرسِلوا[6]. ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ﴾ أي: في ريبٍ ومِرْيةٍ ﴿مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد. ﴿مُرِيبٍ﴾ أي: مُوجِبٍ للرِّيبة؛ يُقال: أرَبْتُه: إذا فعلتَ أمراً أوجبَ رِيبةً وشكًّا[7]، أي: نظنُّ أنكم تطلبون الملك والدنيا.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ استفهامٌ معناه الإنكار، أي: لا شكَّ

---

(١) في مجاز القرآن ١/ ٣٣٦.

(٢) في غريب القرآن ص٢٣٠ – ٢٣١، وينظر المعاني الكبير له ٢/ ٨٣٤.

(٣) في (م): غِشّ.

(٤) أورد شطره الأول ابن قتيبة في المصدرين السالفين، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٤٨.

(٥) قائله صخر الغي كما في ديوان الهذليين ٢/ ٧٣ وأورد البيت ابن قتيبة وابن الجوزي (في المصادر السالفة). قوله: الأزم: شدة العَضّ بالفم كلّه، وقيل: بالأنياب. والوَظيف: مُستدَقُّ الذراع والساق من الخيل والإبل ونحوهما. اللسان (أزم) و(وظف).

(٦) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٥، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٤٩.

(٧) تفسير الطبري ١٣/ ٦٠٩.

في الله، أي: في توحيده. قاله قتادة. وقيل: في طاعته. ويَحتَمِلُ وجهاً ثالثاً: أفي قدرة الله شكٌّ؟! لأنهم متفقون عليها ومختلفون فيما عداها[١]، يدلُّ عليه قوله: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خالقِها ومخترعِها ومنشئِها ومُوجدِها بعد العدم؛ لينبِّه على قدرته، فلا تجوز العبادةُ إلا له. ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ أي: إلى طاعته بالرسل والكتب. ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ قال أبو عبيدة[٢]: «مِنْ» زائدة. وقال سيبويه: هي للتبعيض. ويجوز أن يُذكر البعضُ والمرادُ منه الجميع. وقيل: «مِن» للبدل، وليست بزائدةٍ ولا مُبعِّضة، أي: لتكون المغفرة بدلاً من الذنوب[٣]. ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يعني الموت، فلا يعذبكم في الدنيا. ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ﴾ أي: ما أنتم ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ في الهيئة والصورة؛ تأكلون مما نأكل، وتشربون مما نشرب، ولستُم ملائكة. ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ من الأصنام والأوثان ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجَّةٍ ظاهرة؛ وكان هذا مِحالاً منهم؛ فإنَّ الرسلَ ما دَعوا إلا ومعهم المعجزات[٤].

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: في الصورة والهيئة كما قلتم. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: يتفضَّلُ عليه بالنبوّة.

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٢٥، وقول قتادة في الوسيط ٣/ ٢٥، وزاد المسير ٤/ ٣٤٩ - ٣٥٠.

(٢) في مجاز القرآن ١/ ٣٣٦.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٢٥ - ١٢٦.

(٤) النكت والعيون ٣/ ١٢٦.

وقيل: بالتوفيق والحكمة والمعرفة والهداية. وقال سهل بن عبد الله: بتلاوة القرآن وفهم ما فيه(١).

قلت: وهذا قولٌ حسن، وقد خرَّجَ الطبريُّ من حديث ابن عمر قال: قلتُ لأبي ذَرٍّ: يا عَمُّ أوصِني. قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ كما سألتني، فقال: «ما من يومٍ ولا ليلةٍ ولا ساعةٍ إلا ولله فيه صدقةٌ يمُنُّ بها على من يشاء من عباده، وما مَنَّ اللهُ تعالى على عباده بمثل أن يُلهِمَهم ذِكْرَه»(٢).

﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي: بحُجَّةٍ وآية. ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بمشيئته، وليس ذلك في قدرتنا، أي: لا نستطيع أن نأتيَ بحُجَّةٍ كما تطلبون إلا بأمره وقدرته، فلفظُه لفظُ الخبر، ومعناه النفي؛ لأنه لا يُحظَّرُ على أحدٍ ما لا يقدِرُ عليه(٣).

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ تقدَّم معناه(٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ «ما» استفهام في موضع رفعٍ بالابتداء، و«لَنَا» الخبر، وما بعدها في موضع الحال(٥)؛ التقدير: أيُّ شيءٍ لنا في ترك التوكل على الله. ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ أي: الطريق الذي يوصل إلى رحمته، ويُنجي من سَخَطِهِ ونِقْمَتِه. ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ﴾ لام قسم؛ مجازه: واللهِ لَنَصْبِرَنَّ ﴿عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ به، أي: من الإهانة والضرب، والتكذيب والقتل، ثِقةً بالله أنه يكفينا ويُثيبنا. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٢٦.

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٩٨٧)، والبزار في «مسنده» (٣٨٩٠)، وابن حبان في «المجروحين» ١/ ٢٤٤، في ترجمة حسين بن عطاء راوي الحديث، وقال: لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد لمخالفته الأثبات في الروايات، وذكره أيضاً في الثقات ٦/ ٢٠٩، وقال: يخطئ ويدلس.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٩، وفي مطبوعه «الحظر» بدلاً من «الخبر».

(٤) ٥/ ٢٩٠ - ٢٩٢.

(٥) مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠١.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾ اللام لام قسم، أي: واللهِ لَنخرجنَّكم. ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ أي: حتى تعودوا، أو: إلا أن تعودوا. قاله الطبريُّ وغيره[١]. قال ابن العربي: وهو غيرُ مفتقرٍ إلى هذا التقدير؛ فإنَّ «أوْ» على بابها من التخيير، خيَّر الكفارُ الرسلَ بين أن يعودوا في مِلَّتهم أو يُخرجوهم من أرضهم، وهذه سيرة الله تعالى في رسله وعباده، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَاۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا . سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ﴾[٢] [الإسراء:٧٦-٧٧]. وقد تقدَّم هذا المعنى في «الأعراف»[٣] وغيرها. ﴿فِي مِلَّتِنَاۖ﴾ أي: إلى ديننا، ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي: مقامَه بين يديَّ يوم القيامة، فأُضيف المصدر إلى الفاعل[٤]. والمَقام مصدرٌ كالقيام؛ يقال: قام قياماً ومَقاماً، وأضاف ذلك إليه؛ لاختصاصه به. والمَقام بفتح الميم: مكان الإقامة، وبالضَّمِّ: فِعْلُ الإقامة[٥]. و﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ أي: قيامي عليه، ومراقبتي له؛ قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسِۭ بِمَا كَسَبَتْۗ﴾ [الرعد:٣٣]. وقال الأخفش:

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٦١٢ .

(٢) أحكام القرآن ٣/ ١١٠٤ - ١١٠٥ .

(٣) ٩/ ٢٨٤ .

(٤) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٠ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٣١ ، والنكت والعيون ٣/ ١٢٦ ، وينظر قول المصنف عند تفسير الآية ٧٣ من سورة مريم.

«ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي» أي: عذابي، «وَخَافَ وَعِيدِ» أي: القرآن وزواجره. وقيل: إنه العذاب. والوعيد الاسم من الوعد.

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾ أي: واستنصروا، أي: أُذِنَ للرسل في الاستفتاح على قومهم، والدعاء بهلاكهم. قاله ابن عباس وغيره[(١)]، وقد مضى في «البقرة»[(٢)]. ومنه الحديث: إنَّ النبيَّ ﷺ كان يستفتِحُ بصعاليك المهاجرين، أي: يستنصر. وقال ابن زيد: استفتحت الأمم بالدعاء كما قالت قريش: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ الآية[(٣)] [الأنفال: ٣٢]. ورُويَ عن ابن عباس[(٤)]. وقيل: قال الرسول: «إنهم كذبوني فافتَحْ بيني وبينهم فتحاً». وقالت الأمم: إن كان هؤلاء صادقين فعذِّبنا. عن ابن عباس أيضاً[(٥)]، نظيره: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩] ﴿ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧].

﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ الجبَّار: المتكبِّر الذي لا يرى لأحدٍ عليه حقًّا. هكذا هو عند أهل اللغة، ذكره النحاس[(٦)]. والعنيد: المعاندُ للحقِّ والمُجانِبُ له. عن ابن عباس وغيره[(٧)]، يُقال: عَنَدَ عن قومه، أي: تباعد عنهم[(٨)]. وقيل: هو من العَنَد،

---

(١) ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٠ أن فرقةً قرأت: «واستفتِحوا» بكسر التاء، على معنى الأمر للرسل. ثم قال: قرأها ابن عباس ومجاهد وابن مُحيصن.

(٢) ٢/ ٢٤٨ - ٢٤٩ ، وسلف هناك أيضاً الحديث الذي سيذكره المصنف بعده.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٢٧ ، وزاد المسير ٤/ ٣٥١ .

(٤) لم نقف عليه عن ابن عباس.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٢٨ .

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٥٢١ .

(٧) أخرجه الطبري ١٣/ ٦١٥ عن مجاهد، وكذلك نقله عنه البغوي ٣/ ٢٩ ، وهو في تفسيره ١/ ٣٣٤ .

(٨) تهذيب اللغة ٢/ ٢٢١ .

وهو الناحية[١]. وعاندَ فلانٌ، أي: أخذَ في ناحيةٍ مُعْرِضاً؛ قال الشاعر:

إذا نـزلـتُ فـاجـعـلـونـي وَسَـطـا ... إنِّـي كـبـيـرٌ لا أُطِـيـقُ الـعُـنَّـدا[٢]

وقال الهَرَويُّ[٣]: قوله تعالى: ﴿جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: جائرٍ عن القصد، وهو العَنُود والعَنيد والعانِد[٤]. وفي حديث ابن عباس وسئِل عن المستحاضة، فقال: إنه عِرْقٌ عانِدٌ[٥]. قال أبو عبيد[٦]: هو الذي عَنَد وبَغى؛ كالإنسان يعانِد، فهذا العِرقُ في كثرة ما يخرج منه بمنزلته. وقال شَمِر: العانِدُ: الذي لا يرقأ[٧]. وقال عمر يذكر سيرته: أَضُمُّ العَنُود؛ قال الليث: العَنُود من الإبل: الذي لا يُخالطها، إنما هو في ناحيةٍ أبداً[٨]؛ أراد مَنْ هَمَّ بالخلاف أو بمفارقة الجماعة عطفتُ به إليها. وقال مقاتل: العنيد: المتكبر[٩]. وقال ابن كَيْسان: هو الشامخ بأنفه. وقيل: العَنُود والعَنيد: الذي يتكبَّر على الرسل ويذهب عن طريق الحقّ فلا يسلكها؛ تقول العرب: شرُّ الإبل العَنُود الذي يخرج عن الطريق[١٠]. وقيل: العنيد: العاصي. وقال قتادة: العنيد: الذي أبى أن يقول لا إله إلا الله[١١].

---

(١) ينظر الصحاح (عند).

(٢) الرجز في أدب الكاتب ص٤٩١ ، وأمالي ابن الشجري ١/ ٤٢٢ ، وخزانة الأدب ١١/ ٣٢٣ وفيه وفي (د) و(ظ): فاجعلاني بدل: فاجعلوني.

(٣) في غريب الحديث ٤/ ٢٣٥ .

(٤) قاله أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٢٩٠ .

(٥) أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث ٤/ ٢٣٤ - ٢٣٥ ، وابن المنذر في الأوسط ١/ ١٥٩ ، وقد روي من حديث عائشة كما في مسند أحمد (٢٥٣٩١)، وسنن النسائي ١/ ١٢٢ .

(٦) في غريب الحديث ٤/ ٢٣٥ .

(٧) ينظر اللسان (عند).

(٨) تهذيب اللغة ٢/ ٢٢٢ ، وغريب الحديث لابن الجوزي ٢/ ١٣٠ .

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٢٩ .

(١٠) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٦١٦ .

(١١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٤١ ، والطبري ١٣/ ٦١٦ ، وهو في الوسيط للواحدي ٣/ ٢٦ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٩ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣٠ .

قلت: والجبار والعنيد في الآية بمعنًى واحد، وإن كان اللفظ مختلفاً، وكلُّ متباعدٍ عن الحقِّ جبَّارٌ وعنيدٌ، أي: متكبِّر. وقيل: إنَّ المُرادَ به في الآية أبو جهل؛ ذكره المَهدويّ[١]. وحكى الماورديُّ في كتاب «أدب الدنيا والدين»[٢] أنَّ الوليدَ بن يزيد بن عبد الملك تفاءَل يوماً في المصحف، فخرج له قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، فمزَّقَ المصحفَ، وأنشأ يقول:

أتُوعِدُ كلَّ جَبَّارٍ عَنيدِ فها أنا ذاكَ جبَّارٌ عَنيدُ
إذا ما جِئتَ ربَّكَ يوم حَشْرٍ فَقُلْ يا رَبِّ مَزَّقني الوليدُ

فلم يلبَثْ إلا أياماً حتى قُتِلَ شرَّ قِتلةٍ، وصُلِبَ رأسُه على قصره، ثم على سُورِ بلده.

قوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي: من وراء ذلك الكافر جهنم، أي: من بعد هلاكه. ووراء بمعنى بَعْد[٣]؛ قال النابغة[٤]:

حَلَفتُ فلم أترك لِنفسكَ رِيبةً وليس وراءَ اللهِ للمرءِ مذهبُ

أي: بعد الله، جلَّ جلالُه، وكذلك قوله تعالى [في الآية التالية]: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: من بعده، وقوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ [البقرة: ٩١] أي: بما سواه. قاله الفراء[٥]. وقال أبو عبيد[٦]: بما بعده. وقيل: «مِنْ وَرَائِهِ» أي: من أمامه، ومنه قول الشاعر:

ومِن ورائِكَ يومٌ أنتَ بالِغُهُ لا حاضرٌ مُعجِزٌ عنه ولا بادِي[٧]

(١) وذكره أبو الليث في تفسيره ٢/ ٢٠٣.
(٢) ص٢٨٩ - ٢٩٠.
(٣) النكت والعيون ٣/ ١٢٨.
(٤) هو الذبياني، والبيت في ديوانه ص١٧، وسلف ١٠/ ٣٨٨.
(٥) في معاني القرآن ١/ ٦٠.
(٦) ينظر تهذيب اللغة ١٥/ ٣٠٤، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٥٦.
(٧) ذكره في النكت والعيون ٣/ ١٢٧.

وقال آخر:

أَتَرْجُو بنو مروانَ سمعي وطاعتي ... وقومي تميمٌ والفلاةُ ورائِيا[١]

وقال لبيد[٢]:

أليسَ ورائي إنْ تراخَتْ منيَّتي ... لُزومُ العَصا تُحنَى عليها الأصابعُ

يريد أمامي. وفي التنزيل: ﴿كَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ﴾ [الكهف: ٧٩] أي: أمامهم. وإلى هذا ذهب أبو عبيدة وأبو عليّ قُطرب وغيرهما[٣]. وقال الأخفش: هو كما يقال: هذا الأمر من ورائك، أي: سوف يأتيك، وأنا من وراء فلان، أي: في طلبه، وسأصل إليه[٤]. وقال النحاس[٥] في قوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي: من أمامه، وليس من الأضداد ولكنه من توارى، أي: استتَر. وقال الأزهري[٦]: إنَّ «وراء» تكون بمعنى «خلف وأمام»، فهو من الأضداد. وقاله أبو عبيدة أيضاً[٧]. واشتقاقها[٨] مما توارى واستتر، فجهنم تَوارى ولا تظهر، فصارت من وراء؛ لأنها لا تُرى. حكاه ابن الأنباري[٩]، وهو حسن.

قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ أي: من ماءٍ مثل الصديد، كما يُقال للرجل الشجاع: أسد، أي: مثلُ الأسد، وهو تمثيلٌ وتشبيه[١٠]. وقيل: هو ما يسيل من

---

(١) البيت لسوار بن المُضرَّب، كما في الكامل للمبرِّد ٢/ ٦٢٨، والأضداد لابن السكيت ص١٧٦، والأضداد للأصمعي ص٢٠، والأضداد لابن الأنباري ص٦٨. ونسبه أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٠ لمساور بن حمثان.

(٢) ديوانه ص١٧٠.

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٣٧، وسلف هذا المعنى قريباً.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢٩.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٥٢٢.

(٦) في تهذيب اللغة ١٥/ ٣٠٤.

(٧) في مجاز القرآن ١/ ٣٣٧.

(٨) في (ظ): واشتقاقه، وفي (م): واشتقاقهما.

(٩) نقله عنه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٢٨.

(١٠) المصدر السابق.

أجسام أهل النار من القيح والدم[١]. وقال محمد بن كعب القُرَظيّ والربيع بن أنس: هو غُسَالة أهل النار، وذلك ماءٌ يسيل من فروج الزُّناة والزواني[٢]. وقيل: هو من ماءٍ كراهتُه[٣] تَصدُّ عنه، فيكون الصديد مأخوذاً من الصَّدِّ.

وذكر ابن المبارك: أخبرنا صفوان بن عمرو، عن عُبيد الله بن بُسْر، عن أبي أمامة، عن النبيّ ﷺ في قوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ قال: «يُقرَّبُ إلى فِيهِ فيكرهه، فإذا أُدنيَ منه شَوَى وجهَه، ووقعتْ فَرْوةُ رأسِه، فإذا شرِبَه قَطَّعَ أمعاءَه حتى تخرجَ من دُبُرِه، يقول الله: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، ويقول الله: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ [الكهف: ٢٩]» خرَّجه التِّرمذي، وقال: حديث غريب[٤]. وعُبيد الله بن بُسْر الذي روى عنه صفوان بن عمرو حديثَ أبي أُمامة لعلَّه أن يكون أخا عبد الله بن بُسْر.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ أي: يَتَحَسَّاه جُرَعاً لا مرَّةً واحدةً؛ لمرارته وحرارته[٥]. ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أي: يبتلعه؛ يقال: جرع الماء واجترعه وتجرَّعه بمعنى[٦]. وساغ الشَّرابُ في الحلق يسوغ سَوْغاً: إذا كان سَلِساً سهلاً، وأساغه اللهُ إساغةً[٧]. و«يَكَادُ» صلة، أي: يُسيغه بعد إبطاء، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١] أي:

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٦١٩ عن الضحاك. وأخرجه أيضاً عن مجاهد، وهو في تفسيره ١/ ٣٣٤، وينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٥٧، وتفسير أبي الليث ٢/ ٢٠٣، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣١.

(٢) زاد المسير ٤/ ٣٥٣.

(٣) في (د)و(م) والنكت والعيون (والكلام منه): كرهته.

(٤) الزهد لابن المبارك ـ زوائد نعيم بن حماد ـ (٣١٤)، وسنن الترمذي (٢٥٨٣)، وأخرجه من طريق ابن المبارك أيضاً أحمد (٢٢٢٨٥)، والنسائي في الكبرى (١١٢٦٣) وغيرهما، ونقل الترمذي بإثر الحديث عن البخاري قوله: لا نعرف عبيد الله بن بُسر إلا في هذا الحديث.

(٥) زاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٥٣.

(٦) تهذيب اللغة ١/ ٣٦١.

(٧) ينظر الوسيط للواحدي ٣/ ٢٧.

فعلوا بعد إبطاء؛ ولهذا قال: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ [الحج: ٢٠]. فهذا يدلُّ على الإساغة. وقال ابن عباس: يُجيزه ولا يمرُّ به[١].

﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ قال ابن عباس: أي: يأتيه أسباب الموت من كل جهة: عن يمينه وشماله، ومن فوقه وتحته، ومن قُدَّامه وخلفه[٢]، كقوله: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]. وقال إبراهيم التيمي: يأتيه من كلِّ مكانٍ من جسده، حتى من أطراف شعره[٣]؛ للآلام التي في كلِّ مكانٍ من جسده[٤]. وقال الضحَّاك: إنه لَيأتيه الموت من كلِّ ناحيةٍ ومكان، حتى من إبهام رجليه. وقال الأخفش: يعني البلايا التي تصيب الكافر في النار سمَّاها موتاً، وهي من أعظم الموت[٥]. وقيل: إنه لا يبقى عضوٌ من أعضائه إلا وُكِّلَ به نوعٌ من العذاب؛ لو مات سبعين مرةً لكان أهونَ عليه من نوعٍ منها في فردِ لحظة؛ إما حيةٌ تَنهشُه، أو عقربٌ تَلسِبُه[٦]، أو نارٌ تَسفعُه، أو قيدٌ برجليه، أو غُلٌّ في عنقِه، أو سلسلةٌ يُقرَّنُ بها، أو تابوتٌ يكون فيه، أو زَقُّومٌ، أو حميمٌ، أو غيرُ ذلك من العذاب. وقال محمد بن كعب: إذا دعا الكافرُ في جهنم بالشراب فرآه، مات موتاتٍ، فإذا دنا منه؛ مات موتاتٍ، فإذا شرب منه؛ مات موتاتٍ، فذلك قوله: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾. قال الضحَّاك: لا يموت فيستريح. وقال ابن جُرَيج: تَعلَقُ رُوحُه في حَنْجَرتِه فلا تخرج من فِيه فيموتَ، ولا تَرجِعُ إلى مكانها من جوفه فتنفَعَه الحياة[٧].

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٩.

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٢٨، وتفسير البغوي ٣/ ٢٩، وزاد المسير ٤/ ٣٥٤.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٤٣٢، والطبري ١٣/ ٦٢١، وأبو نعيم في الحلية ٤/ ٢١٢.

(٤) النكت والعيون ٣/ ١٢٨.

(٥) زاد المسير ٤/ ٣٥٤.

(٦) في (ظ): «تلسَعُه»، وكلاهما بمعنى.

(٧) كذا نسبه ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٥٣ لابن جريج، وأخرجه الطبري ١٣/ ٦٢١ عن ابن جريج، عن مجاهد.

ونظيره قوله: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى:١٣]. وقيل: يخلق الله في جسده آلاماً، كلُّ واحدٍ منها كألم الموت. وقيل: ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾؛ لتطاول شدائد الموت به، وامتداد سكراته عليه؛ ليكون ذلك زيادةً في عذابه.

قلت: ويظهر من هذا أنه يموت، وليس كذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر:٣٦]، وبذلك وردت السنة[١]؛ فأحوال الكفار أحوالُ مَنِ استولى عليه سكراتُ الموت دائماً، والله أعلم.

﴿وَمِن وَرَائِهِ﴾ أي: من أمامه. ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: شديدٌ متواصلُ الآلامِ من غير فُتور؛ ومنه قوله: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة:١٢٣] أي: شدَّةً وقوة. وقال فُضَيل بن عِياض في قول الله تعالى: ﴿وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ قال: حبس الأنفاس[٢].

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ اختلف النَّحْويُّون في رفع «مَثَلُ» فقال سيبويه: ارتفع بالابتداء، والخبر مضمر؛ التقدير: وفيما يُتلى عليكم أو يُقصُّ: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾، ثم ابتدأ فقال: ﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ أي: كمثل رماد ﴿اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾[٣]. وقال الزَّجّاج[٤]: أي: مَثَلُ الذين كفروا فيما يُتلى عليكم أعمالُهم كرماد. وهو عند الفرَّاء على إلغاء المَثَل، التقدير: والذين كفروا بربهم

---

(١) سلف من حديث أبي سعيد الخدري ١/ ٣٧٥ .

(٢) أخرجه النحاس في معاني القرآن ٣/ ٥٢٣ .

(٣) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٦٦ ، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠١ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣١ ، وزاد المسير ٤/ ٣٥٥ .

(٤) في معاني القرآن ٣/ ١٥٧ .

أعمالهم كرماد. وعنه أيضاً أنه على حذف مضاف؛ التقدير: مثلُ أعمالِ الذين كفروا بربهم كرماد. وذكر الأول عنه المهدويّ[١]، والثاني القُشَيريُّ والثَّعلبيُّ[٢]. ويجوز أن يكون مبتدأ، كما يقال: صفةُ فلانٍ أسمر، فـ «مَثَلُ» بمعنى صفة[٣]. ويجوز في الكلام جرُّ «أعمالهم» على بدل الاشتمال من «الَّذِينَ»[٤]، واتَّصل هذا بقوله: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

والمعنى: أعمالُهم مُحْبَطة غير مقبولة. والرَّماد: ما بقي بعد احتراق الشيء، فضربَ اللهُ هذه الآية مثلاً لأعمال الكفَّار في أنَّه يَمحقُها كما تَمحقُ الرِّيحُ الشديدةُ الرَّمادَ في يومٍ عاصف. والعَصْفُ: شدة الريح[٥]، وإنما كان ذلك لأنهم أشركوا فيها غيرَ اللهِ تعالى. وفي وصف اليوم بالعُصُوف ثلاثةُ أقاويل: أحدها: أنَّ العُصُوفَ وإن كان للريح فإن اليوم قد يوصَفُ به؛ لأنَّ الرِّيحَ تكون فيه، فجاز أن يُقال: يومٌ عاصف، كما يقال: يومٌ حارٌّ ويومٌ باردٌ، والبرد والحرُّ فيهما. والثاني: أن يُريدَ: في يومٍ عاصِفِ الرِّيحِ؛ لأنها ذُكِرتْ في أول الكلام[٦]، كما قال الشاعر:

إذا جاء يومٌ مُظْلِمُ الشَّمسِ كاسِفُ[٧]

يريد: كاسفِ الشمسِ، فحذف؛ لأنه قد مرَّ ذِكْرُه؛ ذكرهما الهَرَويُّ[٨]. والثالث أنه من نعت الريح، غير أنه لمَّا جاء بعد اليوم أُتبعَ إعرابَه، كما قيل: جُحْرُ ضَبٍّ خربٍ. ذكره الثعلبيُّ والماورديُّ[٩].

---

(١) نقله عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٣١ .

(٢) وهو في معاني القرآن للفراء ٢/ ٧٢ ، ونقله عنه الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٧ .

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٥٧ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٦٦ ، وتفسير أبي الليث ٢/ ٢٠٣ .

(٤) ينظر مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠٢ .

(٥) الصحاح (عصف).

(٦) في النسخ: الكلمة، والمثبت من زاد المسير ٤/ ٣٥٤ ، والكلام فيه بنحوه.

(٧) عجز بيت لمسكين الدارمي، وهو في ديوانه ص٥٣ ، وصدره: وتضحك عرفان الدروع جلودنا.

(٨) وذكرهما ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٥٤ .

(٩) في النكت والعيون ٣/ ١٢٩ ، وينظر تفسير الطبري ١٣/ ٦٢٤ ، قال النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٦٧ : =

وقرأ ابنُ أبي إسحاق وإبراهيم بن أبي بكر: «في يومِ عاصفٍ»[١]. ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ يعني: الكفار. ﴿مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ يريد: في الآخرة، أي: من ثواب ما عملوا من البرِّ في الدنيا؛ لإحباطه بالكفر. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ أي: الخسران الكبير، وإنما جعله كبيراً بعيداً؛ لفوات استدراكه بالموت.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ الرؤية هنا: رؤية القلب[٢]؛ لأن المعنى: ألم ينتهِ عِلمُك إليه؟. وقرأ حمزة والكسائي[٣]: «خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ». ومعنى «بِالْحَقِّ»: ليستدلَّ بها على قدرته. ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها الناس، أي: هو قادرٌ على الإفناء كما قدر على إيجاد الأشياء، فلا تعصوه، فإنكم إن عصيتموه ﴿يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أفضلَ وأطوعَ منكم؛ إذ لو كانوا مثلَ الأولين فلا فائدةَ في الإبدال. ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي: بممتنعٍ[٤] مُتعذِّر.

قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: برزوا من قبورهم، يعني يوم القيامة.

= هذا مما لا ينبغي أن يُحمل كتابُ الله جلَّ وعزَّ عليه، وقد ذكر سيبويه أن هذا من العرب غلط، واستدلَّ بأنهم إذا ثنَّوْا قالوا: هذان جحرا ضبٍّ خربان لأنه قد استبان بالتثنية والتوحيد.

(١) بإضافة «يوم» إلى «عاصف». وينظر المحتسب ١/ ٣٦٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣٢.

(٢) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٣٩.

(٣) السبعة ص٣٦٢، والتيسير ص١٣٤.

(٤) في غير (ظ): منيع، وفي (ظ): ممتنع، والمثبت من زاد المسير ٤/ ٣٥٥.

والبُرُوز: الظُّهور. والبَرَاز: المكان الواسع؛ لظهوره، ومنه امرأة بَرْزة، أي: تظهر للناس[١]. فمعنى «بَرَزُوا»: ظهروا من قبورهم. وجاء بلفظ الماضي ومعناه الاستقبال[٢]، واتَّصل هذا بقوله: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: وقاربوا لمَّا استفتحوا فأهلكوا، ثم بُعِثوا للحساب، فبرزوا لله جميعاً لا يسترهم عنه ساتر. «لِلهِ» لأجل أمر الله إياهم بالبروز. ﴿فَقَالَ الضُّعَفَـٰٓؤُاْ﴾ يعني الأتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ وهم القادة: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ يجوز أن يكون تَبعٌ مصدراً، التقدير: ذوي تَبعٍ. ويجوز أن يكون جمعَ تابع، مثل: حارِس وحَرَس، وخادِم وخَدَم، وراصِد ورَصَد، وباقِر وبَقَر[٣]. ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ﴾ أي: دافعون ﴿عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: شيئاً، و«مِن» صلة؛ يُقال: أغنى عنه: إذا دفع عنه الأذى، وأغناه: إذا أوصل إليه النفع. ﴿قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ﴾ أي: لو هدانا الله إلى الإيمان لهديناكم إليه. وقيل: لو هدانا الله إلى طريق الجنة لهديناكم إليها. وقيل: لو نجَّانا الله من العذاب لنجيناكم منه[٤].

﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ﴾ هذا ابتداء؛ خبره: «أَجَزِعْنَا» أي: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: من مَهربٍ وملجأ[٥]. ويجوز أن يكون بمعنى المصدر، وبمعنى الاسم؛ يقال: حَاصَ فلانٌ عن كذا ـ أي: فرَّ وراغ ـ يَحِيص حَيْصاً وحُيوصاً وحَيَصاناً[٦]، والمعنى: ما لنا وجهٌ نتباعدُ به عن النار.

---

(١) ينظر اللسان (برز).

(٢) زاد المسير ٤/٣٥٦.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/١٥٨، وإعراب القرآن للنحاس ٢/٣٦٨، وتفسير الطبري ٣/٦٢٦، والوسيط ٣/٢٨، وتفسير البغوي ٣/ ٣٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣٢.

(٤) النكت والعيون ٣/١٢٩ - ١٣٠.

(٥) المصدر السابق.

(٦) ينظر اللسان (حيص).

ورُوِيَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «يقولُ أهلُ النار إذا اشتدَّ بهم العذاب: تعالَوا نصبِرْ، فيصبرون خمس مئة عام، فلمَّا رأوا أنَّ ذلك لا ينفعهم قالوا: هَلُمَّ فلنجزَعْ، فيجزعون ويصيحون خمس مئة عام، فلمَّا رأوا أنَّ ذلك لا ينفعهم قالوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾»[١].

وقال محمد بن كعب القُرَظيُّ: ذُكِرَ لنا أنَّ أهل النار يقول بعضهم لبعض: يا هؤلاء، قد نزلَ بكم من البلاء والعذاب ما قد تَرَون، فهلُمَّ فلنصبِرْ؛ فلعلَّ الصَّبرَ ينفعُنا كما صبرَ أهلُ الطَّاعةِ على طاعة الله، فنفعهُم الصَّبرُ إذْ صبروا فأجمعوا رأيهم على الصَّبر، فصبروا، فطالَ صبرُهم، فجزعوا، فنادَوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: مَنجًى، فقام إبليس عند ذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ يقول: لستُ بمغنٍ عنكم شيئاً ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ﴾ الحديث بطوله، وقد كتبناه في كتاب «التذكرة» بكماله[٢].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ قال الحسن: يقف إبليس يوم القيامة خطيباً في جهنم على منبرٍ من نارٍ يسمعه الخلائق جميعاً[٣]. ومعنى: «لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ» أي: حَصَل أهلُ الجنة في الجنة وأهلُ النار في النار[٤]، على ما يأتي بيانُه في «مريم» عليها السلام[٥]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ يعني: البعث والجنة والنار، وثواب المطيع وعقاب العاصي، فصدَقكم وعدَه، ووعدتُكم أن لا بعثَ ولا جنةَ ولا نارَ،

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٣٠.

(٢) التذكرة ص٤١٨، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٣/ ٦٢٧.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٣٠، وأخرجه الطبري ١٣/ ٦٣١.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٣، وتفسير الطبري ١٣/ ٦٢٨.

(٥) عند تفسير الآية (٣٤) منها.

ولا ثوابَ ولا عقابَ، فأخلفتُكم[١].

وروى ابن المبارك من حديث عُقْبةَ بنِ عامر، عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة قال: «فيقولُ عيسى: أدلُّكم على النبيِّ الأُمِّيِّ، فيأتوني، فيأذَنُ اللهُ لي أن أقومَ، فَيثُورُ مجلسي من أطيبِ ريحٍ شَمَّها أحدٌ، حتى آتيَ ربي فيُشفِّعني، ويجعلُ لي نوراً من شعر رأسي إلى ظفر قدمي، ثم يقول الكافرون: قد وجدَ المؤمنون مَنْ يشفَعُ لهم، فمن يشفَعُ لنا؟ فيقولون: ما هو غيرَ إبليس، هو الذي أضلَّنا، فيأتونه فيقولون: قد وجد المؤمنون مَنْ يشفَعُ لهم، فاشفَعْ لنا فإنَّكَ أضلَلْتنا، فَيثُور مجلسُه من أنتنِ ريحٍ شَمَّها أحدٌ، ثم يَعظُم نَحِيبُهم، ويقول عند ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ الآية[٢].

«وَعْدَ الْحَقِّ»: هو إضافةُ الشيء إلى نفسه[٣]، كقولهم: مسجد الجامع. قاله الفرَّاء[٤]. وقال البصريون: وعدكم وعدَ اليومِ الحقِّ، أو: وعدكم وعدَ الوعدِ الحقِّ فصدَقكم، فحذف المصدر لدلالة الحال. ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: من حُجَّةٍ وبيان، أي: ما أظهرتُ لكم حجَّةً على ما وعدتُكم وزيَّنْتُه لكم في الدنيا، ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ أي: أغويتكم فتابعتموني. وقيل: لم أقهركم على ما دعوتكم إليه. ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ هو استثناءٌ منقطع، أي: لكن دعوتُكم بالوَسواس فاستجبتم لي باختياركم ﴿فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾[٥]. وقيل: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٣٠ ، وينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٢٠٤ ، والوسيط ٣/ ٢٩ .

(٢) «المسند» (١١١) لابن المبارك، وفي «الزهد» (٣٧٤) له ـ زوائد نعيم بن حماد ـ وأخرجه من طريقه الطبري ١٣/ ٦٣٠ - ٦٣١ ، وفي إسناده رشدين بن سعد وعبد الرحمن بن زياد بن أنعُم الإفريقي، وهما ضعيفان. تقريب التهذيب.

(٣) المثبت من (ظ)، وفي بقية النسخ: «إلى نعته».

(٤) ينظر اللسان (جمع).

(٥) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٦٢٨ ، وتفسير أبي الليث ٢/ ٢٠٤ - ٢٠٥ ، والوسيط ٣/ ٢٩ ، وزاد المسير ٤/ ٣٥٧ .

أي: على قلوبكم وموضع إيمانكم، لكن دعوتُكم فاستجبتُم لي. وهذا على أنه خَطَبَ العاصيَ المؤمنَ والكافرَ الجاحدَ، وفيه نظر؛ لقوله: ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ فإنه يدلُّ على أنه خَطَب الكفَّارَ دون العاصين الموحِّدين، والله أعلم.

﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾: إذْ أجبتُموني[1] من غير حُجَّة. ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: بمغيثكم. ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ أي: بمُغيثيَّ. والصَّارخُ والمستصرخ: هو الذي يطلب النُّصرةَ والمعاونة، والمُصْرِخُ: هو المغيث[2]. قال سَلَامة بن جَنْدَل:

كُنَّا إذا ما أتانا صارِخٌ فَزِعٌ   كان الصُّراخُ له قَرْعَ الظَّنابيبِ[3]

وقال أُميّة بن أبي الصَّلْت:

ولا تَجزَعوا إنّي لكم غيرُ مُصْرِخٍ   وليس لكم عندي غَنَاءٌ ولا نَصْرُ[4]

يقال: صَرَخ فلانٌ، أي: استغاث، يَصرُخُ صَرخاً وصُرَاخاً وصرخة[5]. واصطَرخ بمعنى صَرَخَ. والتَّصرُّخ: تَكلُّف الصُّراخ، والمُصْرِخُ: المُغِيث، والمستصرِخ: المستغيث؛ تقول منه: استصرخَني فأصرَخْتُه. والصَّرِيخ: صوت المستصْرِخ. والصَّريخُ أيضاً: الصارِخ، وهو المغيث والمستغيث، وهو من الأضداد. قاله الجوهري[6]. وقراءة العامَّة: «بِمُصْرِخِيَّ» بفتح الياء[7]. وقرأ الأعمش وحمزة:

---

(١) في (م): إذا جئتموني، وهو تصحيف.

(٢) تهذيب اللغة ٧/ ١٣٦ .

(٣) ديوان سلامة ص١٢٥ ، والمفضليات ص١٢٤ ، والظنابيب جمع ظُنبوب: وهو حرف الساق اليابس من قُدُم، وقرع لذلك الأمر ظنبوبه: تهيَّأ له. اللسان (ظنب).

(٤) ذكره في النكت والعيون ٣/ ١٣١ ، ولم نقف عليه في ديوان أمية.

(٥) في معاجم اللغة: صرخ يصرخ صُراخاً وصَريخاً، ولم نقف على المصادر الأخرى التي ذكرها المصنف.

(٦) في الصحاح (صرخ).

(٧) السبعة ص٣٦٢ ، والتيسير ص١٣٤ .

«بِمُصْرِخِيِّ» بكسر الياء[١]. والأصل فيها: بمصرخيني[٢]، فذهبت النون للإضافة، وأُدغِمت ياءُ الجماعة في ياء الإضافة، فمن نصبَ فلأجل التضعيف، ولأنَّ ياء الإضافة إذا سكن ما قبلها تعيَّن فيها الفتح، مثل: هَوايَ وعَصايَ، فإن تحرَّكَ ما قبلها جازَ الفتحُ والإسكان، مثل: غلامِيَ وغلامَتي، ومن كسرَ فلالتقاء الساكنين حركت إلى الكسر، لأن الياء أخت الكسرة[٣]. وقال الفرّاء[٤]: قراءة حمزة وَهَمٌ منه، وقَلَّ مَنْ سَلِمَ منهم عن خطأ. وقال الزجَّاج[٥]: هذه قراءةٌ رديئةٌ ولا وجهَ لها إلا وجهٌ ضعيف. وقال قُطْرُب: هذه لغة بني يَرْبُوع، يزيدون على ياء الإضافة ياء[٦]. القُشَيريُّ: والذي يُغني عن هذا أن ما يثبت بالتواتر عن النبيِّ ﷺ فلا يجوز أن يُقال فيه هو خطأ أو قبيحٌ أو رديءٌ، بل هو في القرآن فصيح، وفيه ما هو أفصح منه، فلعلَّ هؤلاء أرادوا أن غير هذا الذي قرأ به حمزة أفصح.

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ أي: كفرتُ بإشراككم إيَّايَ مع الله تعالى في الطاعة؛ فـ «ما» بمعنى المصدر[٧]. وقال ابنُ جريج: إني كفرتُ اليوم بما كنتم تدعونه في الدنيا من الشِّرك بالله تعالى. قتادة: إني عصيتُ الله. الثوريُّ: كفرتُ بطاعتكم إياي في الدنيا. ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وفي هذه الآيات ردٌّ على القَدَرية والمعتزلة والإمامية ومن كان على طريقهم، انظُرْ إلى قول المتبوعين: «لو هدانا اللهُ لَهدَيناكُمْ» وقول إبليس: «إنَّ اللهَ وعدَكُمْ وَعْدَ الحقِّ»؛ كيف اعترفوا بالحقِّ في صفات الله تعالى وهم في دَرَكات النار، كما قال في

---

(١) قراءة حمزة من السبعة، أما قراءة الأعمش فقد نقلها عنه الزجاج في معاني القرآن ٣/ ١٥٩ ، والنحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٦٨ ، ومكي في مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠٣ .

(٢) في (م): بمصرخيين، وهو تحريف وفي (ظ): بمصرخينني.

(٣) ينظر مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠٣ ، والوسيط ٣/ ٢٩ .

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٧٥ بمعناه.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ١٥٩ .

(٦) نقله عنه مكي في مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠٤ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٥٧ .

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٤ .

موضعٍ آخر: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ﴾ [الملك: ٨-١١]. واعترافهم في دَرَكاتِ لَظى بالحقِّ ليس بنافع، وإنما ينفع الاعترافُ صاحبَه في الدنيا؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢]. و«عَسى» من الله واجبة.

قوله تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ أي: في جنَّاتٍ؛ لأن «دخلتُ» لا يتعدَّى، كما لا يتعدَّى نقيضُه، وهو خرجتُ، ولا يُقاس عليه. قاله المهدوي[1]. ولمَّا أخبر تعالى بحال أهل النار؛ أخبر بحال أهل الجنة أيضاً.

وقراءة الجماعة: «أُدْخِلَ» على أنه فِعْلٌ مبني للمفعول. وقرأ الحسن: «وَأُدْخِلُ» على الاستقبال والاستئناف[2].

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بأمره. وقيل: بمشيئته وتيسيره. وقال: «بِإِذْنِ رَبِّهِمْ» ولم يقل: بإذني؛ تعظيماً وتفخيماً. ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ تقدم في «يونس»[3]. والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ لمَّا ذكر تعالى مَثَلَ أعمال

---

(١) قال مكي في مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠٥ : الدليل على أن دخلت لا يتعدى، أن نقيضه لا يتعدى، وهو: خرجت، وكل فعل لا يتعدى نقيضه لا يتعدى هو.

(٢) المحتسب ١/ ٣٦١ .

(٣) ١٠/ ٤٥٩ .

الكفار، وأنها كرمادٍ اشتدَّتْ به الريح في يومٍ عاصف؛ ذكر مَثَلَ أقوالِ المؤمنين وغيرها، ثم فسَّر ذلك المَثَل فقال: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ الثَّمر، فحذف؛ لدلالة الكلام عليه. قال ابن عباس: الكلمة الطيبة: لا إله إلا الله، والشجرة الطيبة: المؤمن[١]. وقال مجاهد وابنُ جريج: الكلمة الطيبة: الإيمان[٢]. عطية العَوْفيُّ والربيع بن أنس: هي المؤمن نفسه[٣]. وقال مجاهد أيضاً وعكرمة: الشَّجرة: النَّخلة[٤]. فيجوز أن يكون المعنى: أصل الكلمة في قلب المؤمن - وهو الإيمان - شبَّهه بالنخلة في المَنبِتْ، وشبَّه ارتفاعَ عملِه في السماء بارتفاع فروع النَّخلة، وثوابَ اللهِ له بالثَّمر[٥].

ورُوِيَ من حديث أنسٍ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إنَّ مَثَلَ الإيمان كمثَلِ شجرةٍ ثابتةٍ، الإيمانُ عُروقُها، والصلاةُ أصلُها، والزكاةُ فروعُها، والصيامُ أغصانُها، والتآخي[٦] في اللهِ نباتُها، وحُسنُ الخُلُقِ ورقُها، والكفُّ عن محارم الله ثمرتُها»[٧].

ويجوز أن يكون المعنى: أصل النَّخلة ثابتٌ في الأرض، أي: عروقُها تشرب من الأرض، وتسقيها السماءُ من فوقها، فهي زاكيةٌ نامية.

وخرَّجَ الترمذيُّ من حديث أنس بن مالك قال: أُتِيَ رسولُ الله ﷺ بقِناعٍ فيه

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٣٥، والطبراني في الدعاء (١٥٩٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات ١/ ٢٧٢ - ٢٧٣ (٢٠٦).

(٢) ذكره عنهما الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٣٢.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٣٦ عنهما، وذكره الماوردي ٣/ ١٣٢.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٣٩، والرامهرمزي في الأمثال ص١٠٩ عن مجاهد، والطبري ١٣/ ٦٤١، والرامهرمزي ص١٠٩ عن عكرمة.

(٥) ينظر الوسيط للواحدي ٣/ ٣٠.

(٦) المثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في «تنزيه الشريعة»، وفي بقية النسخ: «التأذي».

(٧) أورده ابن عراق في «تنزيه الشريعة» ٢/ ٢٣٣ - ٢٣٤ وعزاه للحاكم، وذكر بأنه من مرسل حميد الطويل عن أنس، ثم قال: لم يُبيِّن - يعني الحاكم - علَّته مع إرساله، وهو من طريق محمد السلمي النيسابوري، وأظنه ابن أشرس، وهو متروك متهم، وشيخه حمزة بن شداد الجزري ما عرفتُه، والله أعلم.

رُطَبٌ، فقال: «مَثَلُ كلمةٍ طيِّبةٍ كشجرةٍ طيِّبةٍ أصلُها ثابتٌ وفَرْعُها في السَّماءِ، تُؤْتي أُكُلَها كُلَّ حينٍ بإذْنِ رَبِّها». قال: «هي: النَّخلة، ومَثَلُ كلمةٍ خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأرضِ ما لها مِنْ قرار». قال: «هي الحنْظَل». ورُوي عن أنسٍ قولَه، وهو أصحُّ[1]. وخرَّجَ الدَّارقطنيُّ عن ابن عمر قال: قرأ رسولُ الله ﷺ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما هي؟» فوقعَ في نفسي أنها النَّخلة[2].

قال السُّهَيليُّ[3]: ولا يصِحُّ فيها ما رُويَ عن عليٍّ بن أبي طالب أنها جَوْزة الهند؛ لِما صحَّ عن النبيِّ ﷺ من حديث ابن عمر: «إنَّ من الشجرة شجرةً لا يسقطُ ورقُها، وهي مَثَلُ المؤمن، خبِّروني ما هي؟ ثم قال: «هي النخلة». خرَّجه مالك في «الموطأ» من رواية ابن القاسم وغيره، إلَّا يحيى؛ فإنه أسقطه من روايته، وخرَّجه أهل الصحيح[4]، وزاد فيه الحارث بن أسامة[5] زيادةً تساوي رِحلة، عن النبيِّ ﷺ قال: «وهي النخلة، لا تسقط لها أنمَلة، وكذلك المؤمنُ لا تسقط له دعوة». فبيَّن معنى الحديث والمماثلة.

قلت: وذكر الغَزْنَويُّ عنه عليه الصلاة والسلام: «مَثَلُ المؤمن كالنَّخلة، إن صاحَبْتَه نفعَكَ، وإن جالَسْتَه[6] نفعَكَ، وإن شاوَرْتَه نفعَكَ، كالنخلة كلُّ شيءٍ منها

(١) سنن الترمذي (٣١١٩)، وأخرجه النسائي في الكبرى (١١١٩٨)، وأبو يعلى (٤١٦٥)، والطبري ٦٣٨/١٣ ، وابن حبان (٤٧٥) مرفوعاً. والقناع: الطبق الذي يؤكل عليه. النهاية (قنع). ثم أخرجه الترمذي بإثر الحديث (٣١١٩)، والطبري ٦٣٨/١٣ موقوفاً.

(٢) لم نقف على من خرَّجه بهذا اللفظ من حديث ابن عمر.

(٣) في التعريف والإعلام ص٨٥ .

(٤) الموطأ ص٣٣٩ ، رواية محمد بن الحسن الشيباني، وأخرجه أحمد (٥٢٧٤)، والبخاري (١٣١)، والترمذي (٢٨٦٧) من طريق مالك. وأخرجه البخاري (٦١)، ومسلم (٢٨١١) من غير طريق مالك.

(٥) كما في بغية الباحث (١٠٦٧)، وفي إسناده محمد بن ربيع، ولم نقف له على ترجمة.

(٦) في (ظ): جافيته.

يُنتفَعُ به»[١]. وقال: «كُلُوا من عَمَّتكم ـ يعني النخلة ـ خُلِقَتْ من فَضْلةِ طينة آدم عليه السلام»[٢].

وكذلك أنها برأسها تَبقى، وبقلبها تَحيا، وثمرها بامتزاج الذّكر والأنثى. وقد قيل: إنَّها لمَّا كانت أشبهَ الأشجار بالإنسان شُبِّهت به؛ وذلك أنَّ كلَّ شجرةٍ إذا قُطِعَ رأسُها تشعَّبتِ الغصونُ من جوانبها، والنخلةُ إذا قُطِعَ رأسُها يبِستْ وذهبت أصلاً، ولأنها تشبه الإنسان وسائر الحيوان في الالتقاح؛ لأنها لا تحمل حتى تُلْقَح[٣]؛ قال النبيُّ ﷺ: «خيرُ المالِ سِكَّةٌ مأبورةٌ، ومُهْرَةٌ مأمورة»[٤]. والإبارُ: اللَّقاح[٥]، وسيأتي في سورة «الحجر»[٦] بيانه.

ولأنها من فضلة طينة آدم. ويُقال: إنَّ الله عزَّ وجلَّ لمَّا صوَّرَ آدم من الطِّين فَضَلتْ

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٣٥٤١)، والرامهرمزي في الأمثال (٣٠) عن ابن عمر مرفوعاً، وفي لفظ الطبراني: «كمثل العطار» وفي لفظ الرامهرمزي: «مثل النخلة أو النحلة» على الشك. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٨٣ : فيه ليث بن أبي سليم، وهو مدلس.

لكن رواه الرامهرمزي (٣١) بإسناد آخر عنه ورجاله ثقات، بلفظ: «كمثل الشجرة...» وأخرجه الطبراني (١٣٥١٤) بإسنادٍ ثالث عنه أيضاً صححه ابن حجر في الفتح ١/ ١٤٧ ، ولفظه: «مثل المؤمن مثل النخلة ما أتاك منها نفعك».

(٢) أخرجه أبو يعلى (٤٥٥)، والعقيلي في الضعفاء ٤/ ٢٥٦ ، وابن حبان في المجروحين ٣/ ٤٤ ، والرامهرمزي (٣٥)، وابن عدي ٦/ ٢٤٢٤ من طريق مسرور بن سعيد، عن الأوزاعي، عن عروة بن رويم، عن علي مرفوعاً، وعند الجميع: «أكرموا عمتكم» بدلاً من «كلوا من». قال ابن حبان: مسرور ابن سويد يروي عن الأوزاعي المناكير التي لا يجوز الاحتجاج بها. وقال ابن عدي: هذا حديث عن الأوزاعي منكر، وعروة بن رويم عن علي ليس بالمتصل، ومسرور بن سعيد غير معروف، لم أسمع بذكره إلا بهذا الحديث. وأخرجه ابن عدي أيضاً ٢/ ٥٧٨ عن ابن عمر مرفوعاً، وفي إسناده جعفر بن أحمد بن علي. قال ابن عدي (وقد أخرج له حديثاً آخر بعده): لا أشك أن جعفراً وضعهما.

(٣) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٣٣ ، وزاد المسير ٤/ ٣٦٠ .

(٤) أخرجه أحمد (١٥٨٤٥) من حديث سويد بن هبيرة ﷺ، وهو حديث ضعيف.

(٥) والسِّكة: الطريقة المصطفة من النخل. ومُهرةٌ مأمورة: كثيرة النسل والنِّتاج. النهاية (أبر) و(أمر).

(٦) عند تفسير الآية (٢٢) منها.

قطعةُ طينٍ، فصوَّرها بيده، وغرسها في جنَّة عَدْن. قال النبيُّ ﷺ: «أكرموا عَمَّتكم» قالوا: ومن عمَّتنا يا رسول الله؟ قال: «النخلة»[١].

﴿تُؤۡتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ﴾ قال الربيع: «كُلَّ حِينٍ»: غُدوةً وعشِيةً، كذلك يصعد عمل المؤمن أول النهار وآخرَه. وقاله ابن عباس[٢]. وعنه: «تُؤْتِي أُكُلَهَا كلَّ حِينٍ» قال: هو شجر جوز الهند، لا تتعطل من ثمرة، تحمل في كل شهر. شبَّه عمل المؤمن لله عزَّ وجلَّ في كلِّ وقتٍ بالنخلة التي تُؤتي أُكُلَها في أوقاتٍ مختلفة. وقال الضحَّاك: كلَّ ساعةٍ من ليلٍ أو نهارٍ، شتاءً وصيفاً، يؤكل في جميع الأوقات، وكذلك المؤمن لا يخلو من الخير في الأوقات كلها[٣]. وقال النحاس[٤]: وهذه الأقوال متقاربةٌ غيرُ متناقضة؛ لأن الحين عند جميع أهل اللغة ـ إلا من شذَّ منهم ـ بمعنى الوقت، يقعُ لقليلِ الزمان وكثيرِه، وأنشد الأصمعيُّ بيتَ النَّابغة:

تَنَاذَرَهـا الـرَّاقُـونَ مِـن سُـوءِ سُـمِّـهـا ... تُـطَـلِّـقُـه حِـيـنـاً وحِـيـنـاً تُـراجِـعُ[٥]

فهذا يُبيِّن لك أنَّ الحين بمعنى الوقت، فالإيمان ثابتٌ في قلب المؤمن، وعملُه وقولُه وتسبيحُه عالٍ مرتفعٌ في السماء ارتفاعَ فروع النخلة، وما يكسب من بركة الإيمان وثوابه كما يُنال من ثمرة النَّخلة في أوقات السنة كلِّها، من الرُّطَب والبُسْر والبلح والزَّهْو والتَّمر والطَّلع[٦]. وفي روايةٍ عن ابن عباس: إن الشجرةَ الطيبةَ[٧] شجرةٌ في الجنة تُثمِرُ في كل وقت.

---

(١) ذكره البغوي ٣/ ٣٣ بهذا اللفظ، وقد تقدم آنفاً بغير هذا اللفظ، وذكرنا علته ثمة.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٤٥ و ٦٥١ عن الربيع، و١٣/ ٦٤٣ و ٦٤٤ عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٤٥ بنحوه.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٥٢٨ - ٥٢٩ .

(٥) ديوان النابغة الذبياني ص٨٠ ، وفيه: طوراً وطوراً، بدل: حيناً وحيناً.

(٦) ينظر الوسيط للواحدي ٣/ ٣٠ .

(٧) كلمة الطيبة ليست في (م).

و«مَثَلاً» مفعول بـ «ضَرَبَ»، و«كلمةً» بدلٌ منه، والكاف في قوله: «كشجرةٍ» في موضع نصبٍ على الحال من «كَلِمَة»؛ التقدير: كلمةً طيبةً مشبَّهةً بشجرةٍ طيبة(١).

الثانية: قوله تعالى: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ﴾ لمَّا كانتِ الأشجارُ تؤتي أُكُلَها كلَّ سنةٍ مرةً، كان في ذلك بيانُ حكم الحين؛ ولهذا قلنا: من حلف ألَّا يُكلِّم فلاناً حيناً، ولا يقول كذا حيناً: إنَّ الحين سنة(٢). وقد ورد الحينُ في موضعٍ آخرَ يُرادُ به أكثر من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ [الإنسان: ١] قيل في «التفسير»: أربعون عاماً. وحكى عكرمةُ أنَّ رجلاً قال: إن فعلتُ كذا وكذا إلى حينٍ فغلامُه حُرٌّ، فأتى عمرَ بن عبد العزيز فسأله، فسألني عنها، فقلتُ: إنَّ من الحين حيناً لا يُدرَكُ، قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأنبياء: ١١١] فأرى أن تُمسِكَ ما بين صِرام النَّخلة إلى حَمْلِها، فكأنه أعجبه(٣). وهو قول أبي حنيفة في الحين أنه ستة أشهر اتباعاً لعكرمة وغيره(٤). وقد مضى ما للعلماء في الحين في «البقرة»(٥) مستوفًى والحمد لله.

﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: الأشباه ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ويعتبرون؛ وقد تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ الكلمة الخبيثة: كلمة الكفر(٦).

---

(١) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٥، وذكر أبو حيان في البحر ٥/ ٤٢١، أنه على هذا الوجه يكون قوله: «كشجرة» نعتاً للكلمة.

(٢) سلف ١/ ٤٧٩، وقد عزاه المؤلف هناك إلى ابن خويزمنداد في أحكامه.

(٣) أخرجه بنحوه الطبري ١٣/ ٦٤٩ - ٦٥٠، ولكن ذكر فيه الآية الآنفة الذكر من سورة الإنسان بدلاً من آية الأنبياء. وسيرد بسياق آخر عند تفسير الآية الأخيرة من سور ص.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٠٨.

(٥) ١/ ٤٧٧ - ٤٨٠.

(٦) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٠٦، والوسيط للواحدي ٣/ ٣٠.

وقيل: الكافر نفسه(١). والشجرة الخبيثة: شجرة الحَنْظَل كما في حديث أنس، وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما(٢)، وعن ابن عباس أيضاً: أنها شجرةٌ لم تُخلَقْ على الأرض(٣). وقيل: هي شجرة الثُّوم عن ابن عباس أيضاً(٤). وقيل: الكَمْأَةُ أو الطُّحلَبة. وقيل: الكَشُوث(٥)، وهي شجرةٌ لا ورقَ لها ولا عروق في الأرض؛ قال الشاعر:

وهُمْ كَشُوثٌ فلا أصلٌ ولا ورقٌ(٦)

﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾: اُقتُلِعَتْ من أصلها. قاله ابن عباس؛ ومنه قول لَقِيط:

هو الجلاءُ الذي يَجتثُّ أصلَكُمُ فمن رأى مثلَ ذا يوماً ومن سَمِعَا(٧)

وقال المؤرِّج: أُخِذَتْ جُثَّتُها وهي نفسُها، والجُثَّةُ: شخصُ الإنسان قاعداً أو نائماً(٨). وَجَثَّه: قَلَعه، واجتثه: اقتلعه من فوق الأرض(٩)، أي: ليس لها أصلٌ راسخٌ يشرب بعروقه من الأرض. ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أي: من أصلٍ في الأرض. وقيل: من ثبات؛ فكذلك الكافر؛ لا حُجَّةَ له ولا ثباتَ ولا خيرَ فيه، وما يصعَدُ له قولٌ طيِّبٌ ولا عملٌ صالح(١٠).

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٥٨ - ٦٥٩ عن ابن عباس والربيع وعطية العوفي.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٥٣ -٦٥٤ ، والرامهرمزي في الأمثال ص١٠٩ عن مجاهد، وسلف حديث أنس في المسألة الأولى في الآية قبلها.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٥٤ .

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ٣٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٣ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٦١ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٣٤ ، والوسيط ٣/ ٣٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٣ ، وزاد المسير ٤/ ٣٦٠ .

(٦) صدر بيت، وعجزه: ولا نسيمٌ ولا ظلٌّ ولا ثمرُ. وذكره الميداني في مجمع الأمثال ١/ ٢٨٤ ، والصفدي في تصحيح التصحيف ص١٢٣ . والجوهري في الصحاح (كشث). وقال فيه الكشوث: نبت يتعلق بأغصان الشجر من غير أن يضرب بعرق في الأرض.

(٧) النكت والعيون ٣/ ١٣٥ - ١٣٦ ، والبيت في ديوان لقيط بن يعمر ص٨٦ وفيه: «رأياً» بدل «يوماً».

(٨) المثبت من (ظ) والصحاح، وفي بقية النسخ: قائماً.

(٩) ينظر الصحاح (جثث).

(١٠) تفسير البغوي ٣/ ٣٣ ، وينظر النكت والعيون ٣/ ١٣٥ ، وزاد المسير ٤/ ٣٦١ .

وروى معاوية بن صالح، عن عليِّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس[١] في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ قال: لا إله إلا اله، ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ قال: المؤمن، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ لا إله إلا الله ثابتة في قلب المؤمن؛ «وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ» قال: الشرك، ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ قال: المشرك، ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أي: ليس للمشرك أصلٌ يعمل عليه[٢].

وقيل: يرجع المَثَلُ إلى الدعاء إلى الإيمان، والدعاء إلى الشرك؛ لأنَّ الكلمة يُفهم منها القولُ والدعاءُ إلى الشيء.

قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ قال ابن عباس: هو لا إله إلا الله.

وروى النسائيُّ عن البراء قال[٣]: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ قال: نزلت في عذاب القبر. يُقال: مَنْ ربُّكَ؟ فيقول: ربِّيَ الله، وديني دينُ محمد ﷺ، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[٤].

قلتُ: وقد جاء هكذا موقوفاً في بعض طرق مسلم عن البراء[٥] قوله[٦]،

---

(١) قوله: «عن ابن عباس» من (ظ) وتفسير الطبري، وليس في باقي النسخ.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٣٥ و ٦٥٦ - ٦٥٧ .

(٣) كلمة «قال» مكررة في (ف) و(م).

(٤) أخرجه إلى قوله: نزلت في عذاب القبر، موقوفاً النسائي في المجتبى ٤/ ١٠١ ، وفي السنن الكبرى (١١٢٠٢). وأخرجه بتمامه موقوفاً ابن أبي شيبة ٣/ ٣٧٧ ، والطبري ١٣/ ٦٥٨ ، والآجري في الشريعة ص٣٧١ من طريق آخر عن البراء.

(٥) بعدها في (م): «أنه».

(٦) صحيح مسلم (٢٨٧١): (٧٤) بمثل رواية النسائي.

والصحيح فيه الرفع كما في صحيح مسلم وكتاب النَّسائي وأبي داود وابن ماجه وغيرهم، عن البراء، عن النبيِّ ﷺ[١]. وذكر البخاريُّ[٢]: حدثنا حفص بن عمر، قال: حدثنا شُعبة، عن علقمة بن مَرْثَد، عن سعد بن عُبيدة، عن البراء بن عازب، عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا أُقْعِدَ المؤمنُ في قبره أتاه آتٍ، ثم يشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾». وقد بيَّنَّا هذا الباب في كتاب «التذكرة»[٣]، وبيَّنا هناك من يُفتَنُ في قبره ويُسأل، فمن أراد الوقوف عليه تأمَّله هناك.

قال سهل بن عمَّار: رأيتُ يزيد بن هارون في المنام بعد موته، فقلتُ له: ما فعلَ اللهُ بك؟ فقال: أتاني في قبري مَلَكانِ فظَّانِ غليظان، فقالا: ما دِينُكَ؟ ومن ربُّكَ؟ ومن نَبيُّكَ؟ فأخذتُ بلحيتي البيضاء وقلتُ: أَلِمِثلي يُقال هذا وقد عَلَّمتُ الناسَ جوابَكما ثمانين سَنة؟! فذهبا وقالا: أكَتَبْتَ عن حَريز بن عثمان؟ قلتُ: نعم. فقالا: إنَّه كان يبغض علياً[٤] فأبْغَضَه الله.

وقيل: معنى ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ﴾: يُديمهمُ الله على القول الثابت، ومنه قول عبد الله ابن رَواحة:

يُـثَـبِّـتُ الـلـهُ مـا آتـاكَ مِـن حَـسَـنٍ ... تَثبيتَ موسى ونَصراً كالذي نُصِرا[٥]

---

(١) صحيح مسلم (٢٨٧١): (٧٣)، والمجتبى ٤/ ١٠١ - ١٠٢ ، وسنن النسائي الكبرى (١١٢٠٠)، وسنن أبي داود (٤٧٥٠)، وسنن ابن ماجه (٤٢٦٩)، وهو في مسند أحمد (١٨٥٧٥)، وصحيح البخاري بإثر الحديث (١٣٦٩) (ولم يسق لفظه) وسنن الترمذي (٣١٢٠).

(٢) في صحيحه (١٣٦٩)، وتصحف اسم شيخه في النسخ إلى جعفر بن عمر.

(٣) ص١٢٥ .

(٤) وقع في النسخ: عثمان، والمثبت من التذكرة، وشرف أصحاب الحديث ص١٠٨ ، وصفة الصفوة ٣/ ١٨ ، وسير أعلام النبلاء ٩/ ٣٦٥ ، ومن غيرها من كتب التراجم.

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٣٥ ، والبيت في ديوان عبد الله بن رواحة ص٤٦ ، وفي مطبوعه: «فثبَّت» بدل «يثبت» و«نصروا» بدل «نصرا».

وقيل: يثبتهم في الدارين جزاءً لهم على القول الثابت. وقال القَفَّال وجماعة: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: في القبر؛ لأن الموتى في الدنيا إلى أن يُبعثوا، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي: عند الحساب[١]. وحكاه الماورديُّ عن البراء قال: المراد بالحياة الدنيا: المُساءلة في القبر، وبالآخرة: المُساءلة في القيامة[٢]. ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ أي: عن حُجَّتهم في قبورهم كما ضَلُّوا في الدنيا بكفرهم، فلا يُلقِّنهم كلمةَ الحقِّ، فإذا سُئِلوا في قبورهم قالوا: لا ندري. فيقولان: لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ، وعند ذلك يُضرَب بالمقامع على ما ثبت في الأخبار[٣]، وقد ذكرنا ذلك في كتاب «التذكرة»[٤]. وقيل: يُمهلهم حتى يزدادوا ضلالاً في الدنيا.

﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ من عذابِ قومٍ وإضلالِ قوم. وقيل: إن سبب نزول هذه الآية ما رُوِيَ عن النبيِّ ﷺ لمَّا وصفَ مُساءلة مُنْكَرٍ ونكير وما يكون من جواب الميت، قال عمر: يا رسول الله، أيكونُ معي عقلي؟ قال: «نعم» قال: كُفيتُ إذاً. فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ هذه الآية[٥].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ أي: جعلوا بدلَ نعمة الله عليهم الكفرَ في تكذيبهم محمداً ﷺ، حين بعثه الله منهم وفيهم فكفروا، والمراد

---

(١) ونقله أبو الليث في تفسيره ٢/ ٢٠٦ عن الربيع بن أنس.

(٢) نقله عن الماوردي ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٧ .

(٣) منها ما أخرجه أحمد (١١٠٠٠) عن أبي سعيد الخدري ﷺ، وأحمد (١٢٢٧١)، والبخاري (١٣٣٨)، ومسلم (٢٨٧٠) عن أنس بن مالك ﷺ.

(٤) ص١١٣ - ١١٥ .

(٥) أخرجه بنحوه أحمد (٦٦٠٣) دون ذكر سبب نزول الآية من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

مشركو قريش، وأنَّ الآية نزلت فيهم. عن ابن عباس وعليٍّ وغيرهما[١]. وقيل: نزلت في المشركين الذين قاتلوا النبي ﷺ يوم بدر[٢]. قال أبو الطُّفَيل: سمعت عليًّا ﷺ يقول: هُمْ قريشٌ الذين نُحِروا يوم بدر[٣]. وقيل: نزلت في الأفْجَرَيْن من قريش بني مخزوم وبني أمية، فأما بنو أمية فمُتِّعوا إلى حين، وأما بنو مخزوم فأُهلكوا يوم بدر. قاله علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما[٤]. وقول رابع: أنهم مُتنصِّرة العرب جَبَلة بن الأَيْهَم وأصحابه حين لُطِم[٥]، فجعل له عمرُ القصاصَ بمثلها، فلم يرضَ، وأَنِفَ، فارتدَّ مُتنصِّراً، ولَحِقَ بالروم في جماعةٍ من قومه. عن ابن عباس وقتادة[٦]. ولمَّا صار إلى بلد الروم ندِمَ فقال:

تَنصَّرتِ الأشرافُ من عارِ لَطْمةٍ ... وما كان فيها لو صَبَرْتُ لها ضَرَرْ
تَكنَّفني منها لَجَاجٌ وَنَخْوةٌ ... وبِعتُ لها العينَ الصحيحةَ بالْعَوَرْ
فيا ليتَني أرعى المَخاضَ ببلدةٍ ... ولم أُنكرِ القولَ الذي قاله عُمرْ

وقال الحسن: إنها عامةٌ في جميع المشركين[٧]. ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ﴾ أي: أنزلوهم. قال ابن عباس: هم قادة المشركين يوم بدر[٨]. «أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ» أي: الذين اتبعوهم

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٧١ - ٦٧٢ عن علي ﷺ.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٧٢ عن علي ﷺ، و ١٣/ ٦٧٣ عن ابن عباس ﷺ.

(٣) ذكره بهذا اللفظ البغوي ٣/ ٣٥ ، وأخرجه عنه النسائي في الكبرى (١١٢٠٣) والطبري ١٣/ ٦٧١ بلفظ: هم كفار قريش يوم بدر.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٦٩ - ٦٧٠ عن عمر ﷺ، و١٣/ ٦٧٠ ، والحاكم ٢/ ٣٥٢ والواحدي في الوسيط ٣/ ٣١ عن علي ﷺ، وأورده في زاد المسير ٤/ ٣٤٤ عن عمر وعلي رضي الله عنهما.

(٥) في (ظ): لطم رجلاً، وهي رواية أخرى في قصته أنه لطم رجلاً وفرَّ من القصاص، ينظر مختصر تاريخ دمشق ٥/ ٣٦٨-٣٧٤ ، والبداية والنهاية ١١/ ٢٦٣-٢٦٩ ، ونهاية الأرب للنويري ١٥/ ٣١١-٣١٥ .

(٦) هو في النكت والعيون ٣/ ١٣٦ ، عن ابن عباس وحده، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٧ مختصراً، وقال: لم يُرد ابن عباس أنها فيه نزلت؛ لأن نزول الآية قبل قصته، وإنما أراد أنها تحصر من فعل جبلة إلى يوم القيامة.

(٧) النكت والعيون ٣/ ١٣٦ ، وزاد المسير ٤/ ٣٤٤ .

(٨) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٥٣٢ ، ونسبه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٣٦ لقتادة، وهو أحد الأقوال في شرح قوله: الذين بدلوا نعمة الله كفراً. وأخرجه الطبري ١٣/ ٦٧٥ و ٦٧٦ وعن أبي مالك وقتادة.

﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ قيل: جهنم. قاله ابن زيد. وقيل: يوم بدر. قاله عليٌّ بن أبي طالب ومجاهد. والبوار: الهلاك[١]؛ ومنه قول الشاعر:

فلم أرَ مثلَهمْ أبطالَ حَرْبٍ غداةَ الحرب إذْ خِيفَ البَوارُ[٢]

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ بيَّن أنَّ دار البوار جهنم كما قال ابن زيد، وعلى هذا لا يجوز الوقف على ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾؛ لأن جهنَّمَ منصوبةٌ على الترجمة عن «دار البوار»، فلو رفعَها رافعٌ بإضمارٍ[٣]، على معنى: هي جهنم، أو بما عادَ من الضمير في «يَصْلَونها»؛ لَحَسُنَ الوقف على «دار البَوار»[٤]. ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ أي: المستقرّ.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: أصناماً عبدوها، وقد تقدَّم في «البقرة»[٥]. ﴿لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: عن دينه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء، وكذلك في الحج: ﴿لِيَضِلَّ عَن سَبيلِ اللَّهِ﴾[٦] [الآية:٩]، ومثله في «لقمان» [الآية:٦]، و«الزمر» [الآية:٨]، وضَمَّها الباقون على معنى: لِيُضِلُّوا الناسَ عن سبيله، وأما من فتح فعلى معنى أنهم هم يَضِلُّون عن سبيل الله على اللزوم، أي: عاقبتهم إلى الإضلال والضلال، فهذه لام العاقبة[٧].

﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟﴾ وعيدٌ لهم، وهو إشارةٌ إلى تقليل ما هم فيه من ملاذِّ الدنيا؛ إذ هو منقطع. ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: مَردَّكم ومرجِعَكم إلى عذاب جهنم.

---

(١) الصحاح (بور).

(٢) النكت والعيون ٣/١٣٦ - ١٣٧ ، وقول ابن زيد أخرجه الطبري ١٣/٦٧٧ - ٦٧٨ .

(٣) في (ظ): بإضمار مبتدأ.

(٤) الإيضاح في الوقف والابتداء لابن الأنباري ٢/ ٧٤١ .

(٥) ١/ ٣٤٧ .

(٦) السبعة ص٢٦٧، والتيسير ص١٣٤ .

(٧) ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٨ أنها لام العاقبة على القراءة بفتح الياء، وأنها لام «كي» على القراءة بضمها، وينظر ما سلف في تفسير الآية (٨٨) من «يونس».

قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: إنَّ أهل مكة بدَّلوا نعمةَ الله بالكفر، فقُلْ لمن آمنَ وحقَّق عبوديته أن ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يعني: الصلوات الخمس، أي: قُلْ لهم: أقيموا، والأمر معه شرطٌ مُقدَّر، تقول: أطِعِ اللهَ يُدخِلْكَ الجنة؛ أي: إن أطعتَه يُدخِلْكَ الجنة. هذا قول الفراء[1]. وقال الزجّاج[2]: «يُقيموا» مجزومٌ بمعنى اللام، أي: ليقيموا، فأُسقِطَتِ اللامُ؛ لأنَّ الأمر دلَّ على الغائب بـ«قل». قال: ويَحتملُ أن يُقال: «يُقيموا» جوابُ أمرٍ محذوف؛ أي: قُلْ لهم: أقيموا الصلاةَ يُقيموا الصلاةَ[3].

﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يعني: الزكاة. عن ابن عباس وغيره[4]. وقال الجمهور: السِّرُّ ما خَفِيَ، والعلانيةُ ما ظهر. وقال القاسم بن يحيى: إنَّ السِّرَّ التطوعُ، والعلانيةَ الفرض[5]. وقد مضى هذا المعنى في «البقرة» مجوَّداً عند قوله: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ [الآية: ٢٧١][6].

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ تقدَّم في «البقرة» أيضاً[7]. و«خِلالٌ» جمع خُلَّة، كقُلَّة وقِلال. قال:

فلستُ بمَقْليِّ الخِلالِ ولا قالِ[8].

---

(١) بمعناه في معاني القرآن له ٢/ ٧٧. ونقل ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٨ عن سيبويه قوله: هو جواب شرط مقدر يتضمنه صدر الآية، تقديره: إن تقل لهم أقيموا يقيموا.

(٢) في معاني القرآن له ٣/ ١٦٢.

(٣) وهو أيضاً قول المبرد في المقتضب ٢/ ٨٤، ونقله عنه مكي في مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠٥ - ٤٠٦.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٨٠.

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٣٧.

(٦) ٤/ ٣٥٩.

(٧) ٤/ ٢٥٩ - ٢٦٢.

(٨) عجز بيت لامرئ القيس، وصدره: صرفتُ الهوى عنهنَّ من خشية الردى، وهو في ديوانه ص٣٥.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: أبدعها واخترعها على غير مثالٍ سبق. ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من السَّحاب ﴿مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: من الشجر ثمرات ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ تقدَّم معناه في «البقرة»[(١)]. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ يعني: البحار العذبة؛ لتشربوا منها وتسقوا وتزرعوا، والبحار المالحة؛ لاختلاف المنافع من الجهات. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ أي: في إصلاح ما يصلحانه من النبات وغيره، والدُّؤوب: مرور الشيء في العمل على عادةٍ جارية. وقيل: دائبين في السير امتثالاً لأمر الله، والمعنى: يجريان إلى يوم القيامة لا يَفتُران. رُوي معناه عن ابن عباس[(٢)]. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: لتسكنوا في الليل، ولتبتغوا من فضله في النهار، كما قال: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص: ٧٣].

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي: أعطاكم من كل مسؤولٍ سألتُموه شيئاً؛ فحذف عن الأخفش[(٣)]. وقيل: المعنى: وآتاكم من كلٍّ ما سألتموه، ومن كلٍّ ما لم تسألوه، فحذف، فلم نسأله شمساً ولا قمراً، ولا كثيراً من نعمه التي ابتدأنا بها. وهذا كما قال: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١][(٤)]، على ما يأتي.

---

(١) ٢/ ٤٩٤.

(٢) ينظر معاني القرآن للزجاج ٢/ ١٦٣، والوسيط للواحدي ٣/ ٣٢، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٦٤.

(٣) في معاني القرآن له ٢/ ٦٠٠.

(٤) نقله ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٦٤ - ٣٦٥ عن ابن الأنباري.

وقيل: «مِن» زائدة، أي: آتاكم كلَّ ما سألتُموه[١].

وقرأ ابن عباس والضحَّاك وغيرُهما: «وآتاكُمْ مِنْ كُلٍّ» بالتنوين «ما سألْتُمُوه»[٢]، وقد رُوِيَتْ هذه القراءة عن الحسن والضحَّاك وقَتادة؛ هي على النفي، أي: من كلٍّ لم[٣] تسألوه، كالشمس والقمر وغيرهما[٤]. وقيل: من كلِّ شيء ما سألتُموه، أي: الذي ما سألتموه[٥].

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ أي: نِعَمَ الله ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾ ولا تطيقوا عَدَّها، ولا تقوموا بحصرها؛ لكثرتها[٦]، كالسَّمع والبصر وتقويم الصُّوَر، إلى غير ذلك من العافية والرزق، نِعَمٌ لا تحصى، وهذه النّعم من الله، فَلِمَ تبدلون نِعَمَ الله بالكفر؟! وهلا استعنتُم بها على الطاعة؟!.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ الإنسان لفظ جنس، وأراد به الخصوص[٧]. قال ابن عباس: أراد أبا جهل[٨]. وقيل: جميع الكفار.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ يعني: مكة. وقد مضى

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٣٢.

(٢) المحتسب ١/ ٣٦٣، وهي قراءة شاذة.

(٣) قبلها في (م) زيادة «ما».

(٤) زاد المسير ٤/ ٣٦٥، وأخرجه الطبري ١٣/ ٦٨٥ عن الضحاك وقتادة.

(٥) ذكره الزجاج في معاني القرآن ٣/ ١٦٣.

(٦) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٣٦، وزاد المسير ٤/ ٣٦٥.

(٧) قال الزجاج في معاني القرآن ٣/ ١٦٤: هذا اسم جنسٍ يقصد به الكافر خاصةً.

(٨) زاد المسير ٤/ ٣٦٥.

في «البقرة»(١). ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ أي: اجعلني جانباً عن عبادتها(٢). وأراد بقوله: «بنيَّ» بنيه من صُلْبه(٣)، وكانوا ثمانية، فما عبدَ أحدٌ منهم صنماً(٤). وقيل: هو دعاءٌ لمن أراد الله أن يدعوَ له.

وقرأ الجَحْدَريُّ وعيسى «وَأَجْنِبْني» بقطع الألف(٥)، والمعنى واحد؛ يقال: جَنَبْتُ ذلك الأمر، وأجنَبْتُه وجَنَّبْتُه إيَّاه، فتجانَبه واجتَنَبه، أي: تركَه(٦). وكان إبراهيم التَّيْميُّ يقول في قصصه: مَنْ يأمنُ البلاءَ بعد الخليل حين يقول: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ كما عبدَها أبي وقومي(٧)؟!

قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ لمَّا كانت سبباً للإضلال أضافَ الفعل إليهنَّ مجازاً؛ فإنَّ الأصنام جماداتٌ لا تفعل(٨). ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ في التوحيد ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ﴾ أي: من أهل ديني. ﴿وَمَنۡ عَصَانِي﴾ أي: أصرَّ على الشِّرك ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قيل: قال هذا قبل أن يُعرِّفَه اللهُ أنَّ اللهَ لا يغفِرُ أن يُشرَكَ به. وقيل: غفورٌ رحيمٌ لمن تاب من معصيته قبل الموت. وقال مقاتل بن حيَّان: «وَمَنْ عَصَانِي» فيما دون الشرك(٩).

---

(١) ٢/ ٣٨٢.

(٢) زاد المسير ٤/ ٣٦٥.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٠، والوسيط ٣/ ٣٣، وتفسير البغوي ٣/ ٣٦.

(٤) وقد أخرج الطبري ١٣/ ٦٨٧ عن مجاهد أن الله استجاب لإبراهيم دعوته في ولده، فلم يعبد أحدٌ من ولده صنماً بعد دعوته.

(٥) المحتسب ١/ ٣٦٣، وهي قراءة شاذة.

(٦) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٦٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤١، وتفسير البغوي ٣/ ٣٦، والصحاح (جنب).

(٧) أخرجه عنه الطبري ١٣/ ٦٨٧ - ٦٨٨ دون قوله: كما عبدها أبي وقومي.

(٨) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٦٤، وتفسير أبي الليث ٢/ ٢٠٨، والوسيط للواحدي ٣/ ٣٣، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٦٥، وجاء في (ظ) و(ف): لا تعقل.

(٩) الأقوال الثلاثة في الوسيط للواحدي ٣/ ٣٣، وتفسير البغوي ٣/ ٣٦، وزاد المسير ٤/ ٣٦٥، والقول الأول لمقاتل بن سليمان، والتعليل الذي أورده بعده لابن الأنباري، والقول الثاني للسدي.

قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

فيه ستُّ مسائل:

الأولى: روى البخاريُّ عن ابن عباس: أولُ ما اتَّخذَ النِّساءُ المِنْطَقَ من قِبل أمِّ إسماعيل، اتخذت مِنْطَقاً لتُعفِّيَ أَثَرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيمُ وبابنِها إسماعيلَ وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دَوْحةٍ فوق زمزم في أعلى المسجد ـ وليس بمكة يومئذٍ أحد، وليس بها ماء ـ فوضعَهُما هنالك، ووضع عندهما جِراباً فيه تَمرٌ، وسِقاءً فيه ماءٌ، ثم قفَّى إبراهيمُ منطلقاً، فتَبِعَتْه أمُّ إسماعيلَ، فقالت: يا إبراهيمُ، أينَ تذهبُ وتترُكُنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنسٌ ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفِتُ إليها، فقالت له: آللهُ أمرَكَ بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذاً لا يُضيِّعُنا. ثم رجعَتْ، فانطلقَ إبراهيمُ حتى إذا كان عند الثَّنِيَّة حيث لا يَرونه، استقبلَ بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الدعوات، ورفع يديه فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ حتى بلغ: ﴿يَشْكُرُونَ﴾. وجعلتْ أمُّ إسماعيل تُرضعُ إسماعيل وتشربُ من ذلك الماء، حتى إذا نَفِدَ ما في السِّقاء؛ عطِشتَ وعَطِشَ ابنُها، وجعلت تنظر إليه يَتلوَّى ـ أو قال: يَتَلَبَّط ـ فانطلقَتْ كراهيةَ أن تنظرَ إليه، فوجدتِ الصَّفا أقربَ جبلٍ في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلتِ الواديَ تنظرُ هل ترى أحداً، فلم ترَ أحداً، فهبطت من الصَّفا، حتى إذا بلغتِ الواديَ، رفَعتْ طَرَفَ دِرْعِها، ثم سعَتْ سعيَ الإنسانِ المجهود، حتى[1] جاوزتِ الوادي، ثم أتتِ المَرْوةَ فقامت عليها، فنظرت هل ترى أحداً، فلم ترَ أحداً، ففعلت ذلك سبعَ مرات. قال ابن عباس: قال النبيُّ ﷺ: «فذلِكَ سعيُ الناسِ بينهما». فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً، فقالت: صهٍ ـ تريدُ

(١) المثبت من (ظ)، وصحيح البخاري، وفي غير (ظ): ثم.

نفسَها ـ ثم تسمَّعتْ، فسمِعَتْ أيضاً، فقالت: قد أسمعتَ إن كان عندكَ غَواث. فإذا هي بالمَلَكِ عند موضع زمزمَ، فبَحَث بعَقِبِهِ ـ أو قال: بجناحه ـ حتى ظهرَ الماءُ، فجعلت تُحَوِّضُه وتقول بيدها هكذا، وجعلَتْ تغرِفُ من الماء في سِقائها وهو يفورُ بعد ما تغرِفُ. قال ابن عباس: قال النبيُّ ﷺ: «يرحَمُ اللهُ أمَّ إسماعيل، لو تركَتْ زمزَمَ ـ أو قال: لو لم تغرِفْ من الماء ـ لكانت زمزَمُ عيناً مَعِيناً». قال: فشرِبَتْ وأرضعَتْ ولدَها، فقال لها المَلَكُ: لا تخافي الضَّيْعةَ، فإنَّ هاهنا بيتَ اللهِ؛ يَبنيه هذا الغلامُ وأبوه، وإنَّ اللهَ لا يُضيِّعُ أهلَه. وذكر الحديث بطوله(١).

مسألة: لا يجوز لأحدٍ أن يتعلَّق بهذا في طرح ولده وعياله بأرضٍ مَضْيَعَةٍ؛ اتّكالاً على العزيز الرحيم، واقتداءً بفعل إبراهيم الخليل، كما تقول غُلاةُ الصُّوفية في حقيقة التوكل، فإن إبراهيم فعلَ ذلك بأمر الله؛ لقولها(٢) في الحديث: آللهُ أمركَ بهذا؟ قال: نعم. وقد رُويَ أنَّ سارة لمَّا غارت من هاجر بعد أن ولدت إسماعيل، خرجَ بها إبراهيم عليه السلام إلى مكة، فرُوي أنَّه ركبَ البراقَ هو وهاجرُ والطِّفلُ، فجاء في يومٍ واحدٍ من الشام إلى بطن مكة، وترك ابنَه وأمَته هنالِكَ، وركب منصرفاً من يومه، فكان ذلك كلُّه بِوحيٍ من الله تعالى، فلما ولَّى دعا بضمن هذه الآية(٣).

الثانية: لمَّا أرادَ اللهُ تأسيسَ الحال، وتمهيدَ المقام، وخطَّ الموضعِ للبيت المكرَّم، والبلد المحرَّم، أرسلَ المَلَك، فبحث عن الماء وأقامه مقام الغذاء.

وفي الصحيح: أنَّ أبا ذَرٍّ ﷺ اجتزأ به ثلاثين بين يوم وليلة، قال أبو ذَرٍّ: ما كان لي طعامٌ إلا ماءُ زمزَمَ، فسمِنتُ حتى تَكَسَّرتْ عُكَنُ بَطْني(٤)، وما أجد على كبدي سَخْفَةَ

---

(١) صحيح البخاري (٣٣٦٤). قوله: المِنْطَقُ: هو ما يُشَدُّ به الوسط. لِتُعَفِّي أثرها: لِتُخفي أثرها. الدَّوحة: الشجرة الكبيرة. السِّقاء: القِربة الصغيرة. ثم قفَّ إبراهيم: ولَّى راجعاً إلى الشام. يتلبَّطُ: يتمرَّغ ويضرب بنفسه الأرض. الإنسان المجهود: الذي أصابه الجهد، وهو الأمر المُشِقُّ. غَواث؛ بفتح أوله للأكثر، وجزاء الشرط محذوف، تقديره: فأغثني. تُحَوِّضُه: تجعله مثل الحوض. عيناً مَعيناً: ظاهراً جارياً على وجه الأرض. الضَّيعة: الهلاك. فتح الباري ٦/ ٤٠٠ - ٤٠٢ .

(٢) في النسخ: لقوله، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١١٢ ، والكلام منه .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤١ ، وينظر طبقات ابن سعد ١/ ١٥٠ ، وأخبار مكة للفاكهي ٥/ ١٢٠ .

(٤) في (د) و(ز) و(م): «عكني»، والمثبت من (ظ)، وهو موافق لمصادر التخريج القادمة .

جوع. وذكر الحديث(١).

وروى الدَّارقطني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ماءُ زمزمَ لِما شُرِبَ له، إنْ شرِبْتَه تستشفي به؛ شفاكَ اللهُ، وإنْ شرِبْتَه لِشِبَعِكَ؛ أشبعَك اللهُ به، وإنْ شرِبْتَه لِقَطْعِ ظمَئِكَ؛ قطعَه، وهي هَزْمةُ جبريل، وسُقْيا الله إسماعيل»(٢).

وروى أيضاً(٣) عن عِكرمة قال: كان ابن عباس إذا شربَ من زمزمَ قال: اللهمَّ إني أسألُكَ علماً نافعاً، ورزقاً واسعاً، وشفاءً من كل داء.

قال ابن العربي(٤): وهذا موجودٌ فيه إلى يوم القيامة لمن صحَّتْ نيَّتُه، وسلمَتْ طَوِيَّتُه، ولم يكن به مكذِّباً، ولا يشربُه مجرِّباً، فإنَّ الله مع المتوكلين، وهو يفضح المجرِّبين.

وقال أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي: وحدثني أبي رحمه الله قال: دخلتُ الطَّوَاف في ليلةٍ ظلماء، فأخذني من البول ما شغلني، فجعلتُ أعتصر حتى آذاني، وخِفْتُ إن خرجتُ من المسجد أن أطأَ بعضَ تلك الأقدام، وذلك أيام الحج، فذكرتُ هذا الحديث، فدخلتُ زمزم فَتَضَلَّعْتُ منه، فذهب عني إلى الصباح(٥). ورُوِيَ

(١) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١١٢ ، والحديث أخرجه أحمد (٢١٥٢٥) ومسلم (٢٤٧٣)، والعُكَن جمع عُكْنة: وهي الطيُّ في البطن من السِّمَن. تكسَّرت: انثنت. السَّخْفة - بفتح السين وضمِّها: رِقة الجوع وضعفه. حاشية السندي على مسند أحمد.

(٢) سنن الدارقطني (٢٧٣٩) وهو من طريق محمد بن حبيب الجارودي، عن سفيان بن عيينة، عن عبد الله ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس مرفوعاً. قال ابن حجر في التلخيص الحبير ٢/ ٢٦٨ : الجارودي صدوق، إلا أن روايته شاذة، فقد رواه حفاظ أصحاب ابن عيينة: الحميدي وابن أبي عمر وغيرهما، عن ابن عيينة، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد قوله. اهـ. لكن أول الحديث وهو قوله: «ماء زمزم لما شرب له» رُوي من طرقٍ أخرى مرفوعة محتملة للتحسين بمجموعها، تُنظر في مسند أحمد (١٤٨٤٩) قوله: هزمة جبريل، أي: ضربها برجله فنبع الماء. النهاية (هزم).

(٣) في سننه (٢٧٣٨).

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١١١٢ .

(٥) لم نقف عليه في المطبوع من نوادر الأصول.

عن عبد الله بن عمرو: إنَّ في زمزمَ عيناً من(١) الجنة من قِبَلِ الركن(٢).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ «مِنْ» في قوله تعالى: «مِنْ ذُرِّيَّتي» للتبعيض، أي: أسكنتُ بعضَ ذُرِّيَّتي، يعني: إسماعيلَ وأمَّه؛ لأن إسحاق كان بالشام(٣). وقيل: هي صلة، أي: أسكنتُ ذُرِّيَّتي(٤).

الرابعة: قوله تعالى: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ يدلُّ على أنَّ البيت كان قديماً على ما رُوِيَ قبل الطُّوفان، وقد مضى هذا المعنى في سورة البقرة(٥). وأضاف البيتَ إليه؛ لأنَّه لا يملِكُه غيرُه، ووصفه بأنه مُحرَّم، أي: يَحرُمُ فيه ما يُستباح في غيره من جماعٍ واستحلال(٦). وقيل: محرّم على الجبابرة، وأن تُنتهَكَ حرمتُه، ويُستخفَّ بحقِّه. قاله قتادة وغيره(٧). وقد مضى القول في هذا في «المائدة»(٨).

الخامسة: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ خَصَّها من جملة الدِّين؛ لفضلها فيه، ومكانها منه، وهي عهد الله عند العباد؛ قال ﷺ: «خمس صلواتٍ كتبهنَّ اللهُ على العباد». الحديث(٩).

واللام في «لِيُقيموا الصَّلاةَ» لام كي، هذا هو الظاهر فيها(١٠)، وتكون متعلقةً

---

(١) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: في.

(٢) ذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص٣٣٩ بنحوه، في قصة بدء زمزم دون نسبة.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤١.

(٤) نقله العكبري في «إملاء ما منَّ به الرحمن» ٣/ ٤٠٩ عن الأخفش، وينظر زاد المسير ٤/ ٣٦٦.

(٥) ٢/ ٣٨٦ وما بعده.

(٦) النكت والعيون ٣/ ١٣٨.

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٢.

(٨) ٨/ ٢٢٠ - ٢٢٢.

(٩) أخرجه أحمد (٢٢٦٩٣)، وأبو داود (٤٢٥)، والنسائي ١/ ٢٣٠، وابن ماجه (١٤٠١).

(١٠) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٢.

بـ«أسكنتُ»[١]، ويصِحُّ أن تكون لام أمر، كأنه رغِب إلى الله أن يأتمنهم، وأن[٢] يوفِّقهم لإقامة الصلاة.

السادسة: تَضمَّنت هذه الآية أنَّ الصلاة بمكة أفضل من الصلاة بغيرها؛ لأن معنى ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أسكنتَهم عند بيتك المحرم ليقيموا فيه.

وقد اختلف العلماء هل الصلاة بمكة أفضل أو في مسجد النبيِّ ﷺ؟ فذهب عامَّةُ أهل الأثر إلى أنَّ الصلاةَ في المسجد الحرام أفضلُ من الصلاة في مسجد الرسول ﷺ بمئة صلاة، واحتجُّوا بحديث عبد الله بن الزُّبير قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاةٌ في مسجدي هذا أفضلُ من ألف صلاةٍ فيما سواه من المساجد، إلا المسجدَ الحرام، وصلاةٌ في المسجد الحرام أفضلُ من صلاةٍ في مسجدي هذا بمئة صلاة».

قال الإمام الحافظ أبو عمر[٣]: وأسند هذا الحديث حبيبٌ المُعلِّم، عن عطاء بن أبي رَباح، عن عبد الله بن الزُّبير وجوَّده، ولم يُخلِّطْ في لفظه ولا في معناه، وكان ثقةً. قال ابن أبي خَيْثَمة: سمعتُ يحيى بنَ مَعِين يقول: حبيبٌ المُعلِّم ثقة. وذكر عبد الله بن أحمد قال: سمعتُ أبي يقول: حبيبٌ المُعلِّم ثقة ما أصحَّ حديثَه! وسُئِلَ أبو زُرْعة الرازي عن حبيب المُعلِّم فقال: بصريٌّ ثقة.

قلتُ: وقد خرَّجَ حديثَ حبيب المُعلِّم هذا عن عطاء بن أبي رَباح، عن عبد الله ابن الزبير، عن النبيِّ ﷺ الحافظُ أبو حاتم محمد بن حِبَّان[٤] التميمي البُستي في المسند الصحيح له[٥]، فالحديث صحيحٌ، وهو الحُجَّة عند التنازع والاختلاف، والحمد لله.

---

(١) زاد المسير ٤/ ٣٦٧.

(٢) قبلها في (ف) و(م) زيادة: أن يأتمنهم.

(٣) هو ابن عبد البر، وكلامه في التمهيد ٦/ ٢٥ - ٢٦.

(٤) في (د) و(م): حاتم، وهو خطأ.

(٥) صحيح ابن حبان (١٦٢٠)، وهو عند أحمد (١٦١١٧).

قال أبو عمر: وقد رُويَ عن ابن عمر، عن النبيِّ ﷺ مثلُ حديث ابن الزُّبير، رواه موسى الجُهَني، عن نافع، عن ابن عمر. وموسى الجُهني كوفيٌّ ثقة، أثنى عليه القَطَّان وأحمد ويحيى وجماعتهم، وروى عنه شعبةُ والثَّوريُّ ويحيى بن سعيد.

وروى حكيم بن سيف، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن عبد الكريم، عن عطاء بن أبي رباح، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاةٌ في مسجدي هذا أفضلُ من ألف صلاةٍ فيما سواه، إلا المسجدَ الحرام، وصلاةٌ في المسجد الحرام أفضلُ من مئة ألفٍ فيما سواه». وحكيم بن سيف هذا شيخٌ من أهل الرقَّة، قد روى عنه أبو زُرْعة الرازيُّ، وأخذ عنه ابن وضَّاح، وهو عندهم شيخٌ صدوقٌ لا بأس به، فإن كان حفِظَ فَهُما حديثان، وإلا فالقول قول حبيب المُعلِّم.

وروى محمد بن وضَّاح، حدثنا يوسف بن عديٍّ، عن عمر بن عبيد، عن عبد الملك، عن عطاء، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاةٌ في مسجدي هذا أفضلُ من ألف صلاةٍ في غيره من المساجد، إلا المسجدَ الحرام، فإنَّ الصلاة فيه أفضل»(١).

قال أبو عمر: وهذا كلُّه نصٌّ في موضع الخلاف قاطعٌ له عند من أُلْهِمَ رُشدَه، ولم تَمِلْ به عصبيَّتُه(٢).

وذكر ابن حبيب عن مُطَرِّف، وعن أَصْبَغَ عن ابن وهب؛ أنهما كانا يذهبان إلى تفضيل الصلاة في المسجد الحرام على الصلاة في مسجد النبيِّ ﷺ على ما في هذا الباب(٣).

---

(١) التمهيد ٦/ ٢٧ - ٣٠، وحديث ابن عمر الأول أخرجه أحمد (٥١٥٥)، ومسلم (١٣٩٥): (٥٠٩) من طريق موسى الجهني، به دون قوله: «فإنه أفضل منه بمئة صلاة». وحديث جابر أخرجه أحمد (١٤٦٩٤)، وابن ماجه (١٤٠٦) من طرق عن عبيد الله بن عمرو الرقي، به. وحديث ابن عمر الثاني أخرجه أحمد (٤٨٣٨) من طريق عبد الملك، به.

(٢) لم نقف على قول ابن عبد البر هذا في هذه المسألة، إنما قاله في مسألة النية والقصد في الطهارة، ينظر التمهيد ٢٢/ ١٠١.

(٣) التمهيد ٦/ ٣٤.

وقدِ اتَّفق مالكٌ وسائر العلماء على أن صلاة العيدين يُبْرَز لهما في كلِّ بلدٍ إلا مكةَ، فإنها تُصلَّى في المسجد الحرام[١].

وكان عمر وعلي وابن مسعود وأبو الدَّرْداء وجابر يفضِّلون مكةَ ومسجدَها، وهم أولى بالتقليد ممن بعدهم[٢]. وإلى هذا ذهب الشافعيُّ، وهو قول عطاءٍ والمكيين والكوفيين[٣].

ورُويَ مثلُه عن مالك؛ ذكر ابن وهب في «جامعه» عن مالك أنَّ آدمَ عليه السلام لمَّا أُهبِطَ إلى الأرض قال: يا ربِّ، هذه أحبُّ إليك أن تُعبدَ فيها؟ قال: بل مكة[٤].

والمشهور عنه وعن أهل المدينة تفضيلُ المدينة، واختلف أهل البصرة والبغداديون في ذلك، فطائفةٌ تقول: مكة، وطائفةٌ تقول: المدينة[٥].

قوله تعالى: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ الأفئدة جمع فؤاد: وهي القلوب، وقد يُعبَّر عن القلب بالفؤاد كما قال الشاعر:

وإنَّ فؤاداً قادني بصَبابَةٍ[٦] إليكِ على طولِ المَدى لَصَبُورُ

وقيل: جمع وَفْد، والأصل أوفدة، فقُدِّمتِ الفاءُ، وقُلِبَتِ الواوُ ياءً كما هي، فكأنَّه قال: واجعَلْ وفوداً من الناس تَهْوي إليهم[٧]، أي: تَنزع؛ يقال: هَوَى نحوَه: إذا مال، وهَوَتِ الناقةُ تَهوي هُوِيًّا، فهي هاويةٌ: إذا عَدَتْ عَدْواً شديداً كأنها في هواء بئر[٨]، وقوله: «تَهْوِي إِلَيْهِمْ» مأخوذٌ منه.

(١) التمهيد ٦/ ٣١.
(٢) التمهيد ٦/ ٣٤.
(٣) الاستذكار ٧/ ٢٢٦.
(٤) التمهيد ٦/ ٣١.
(٥) الاستذكار ٧/ ٢٢٦.
(٦) في (ظ) وزاد المسير ٣/ ٣٦٧: لصبابة.
(٧) النكت والعيون ٣/ ١٣٨.
(٨) تهذيب اللغة ٦/ ٤٩١.

قال ابن عباس ومجاهد: لو قال: «أفئدةَ الناس» لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند واليهود والنصارى والمجوس، ولكن قال: «مِنَ النَّاس»، فهم المسلمون[١].

فقوله: ﴿تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: تحِنُّ إليهم، وتحِنُّ إلى زيارة البيت[٢]. وقرأ مجاهد: «تَهْوَى إليهم» أي: تهواهم وتُجِلُّهم[٣].

﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ فاستجاب الله دعاءه، وأنبتَ لهم بالطائف سائرَ الأشجار، وبما يجلب إليهم من الأمصار. وفي «صحيح البخاريِّ» عن ابن عباس الحديثُ الطويلُ وقد ذكرنا بعضه: «فجاء إبراهيمُ بعد ما تزوَّجَ إسماعيلُ يُطالِعُ تَرِكَتَه، فلم يجِدْ إسماعيل، فسألَ امرأتَه عنه، فقالت: خرجَ يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بِشَرٍّ، نحن في ضيقٍ وشدة؛ فشكت إليه. قال: فإذا جاء زوجُكِ فاقرَئي عليه السلام، وقولي له يُغيِّرْ عَتَبة بابه. فلمَّا جاء إسماعيلُ كأنه آنس شيئاً، فقال: هل جاءكم مِنْ أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخٌ كذا وكذا، فسألني عنكَ فأخبرتُه، وسألني كيف عيشتُنا، فأخبرته أنَّا في جَهدٍ وشدة. قال: فهل أوصاكِ بشيء؟ قالت: أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غَيِّرْ عَتَبةَ بابك. قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أُفارِقَكِ، الْحَقي بأهلك، فطلَّقها وتزوَّجَ منهم أخرى، فلبِثَ عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بَعدُ فلم يجِدْه، ودخل على امرأته فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحنُ بخيرٍ وسَعةٍ،

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١٤/ ١١٢ ، والطبري ١٣/ ٦٩٨ عن مجاهد بلفظ: لو قال: أفئدة الناس، لازدحمت عليه فارس والروم، ولكنه: ﴿أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾. وأخرج الطبري ١٣/ ٦٩٨ عن سعيد بن جبير: لو قال: أفئدة الناس تهوي إليهم، لحجَّت اليهود والنصارى والمجوس، ولكنه قال: ﴿أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فهم المسلمون، وينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٢ ، والوسيط للواحدي ٣/ ٣٤ ، والنكت والعيون ٣/ ١٣٨ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٣٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٧ .

(٣) المحتسب ١/ ٣٦٤ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٢ ، وزاد المسير ٤/ ٣٦٨ .

وأثنَتْ على الله. قال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهمَّ بارِكْ لهم في اللحم والماء. قال النبيُّ ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذٍ حَبٌّ، ولو كان لهم دعا لهم فيه». قال: فهما لا يخلو عليهما أحدٌ بغير مكة إلا لم يوافِقاه. وذكر الحديث[(١)].

وقال ابن عباس: قول إبراهيم: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾: سأل أن يجعلَ اللهُ الناسَ يَهوَون السُّكْنى بمكة، فيصير بيتاً مُحرَّماً[(٢)]. وكلٌّ ذلك كان والحمد لله، وأول من سكنه جُرْهُم. ففي البخاريِّ ـ بعد قوله: وإنَّ الله لا يُضيِّعُ أهلَه ـ: وكان البيتُ مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيولُ، فتأخذُ عن يمينه وعن شماله، وكانت كذلك[(٣)] حتى مرَّتْ بهم رُفقةٌ من جُرْهُم قافلين[(٤)] من طريق كَداء، فنزلوا بأسفلَ مكة، فرأوا طائراً عائفاً، فقالوا: إنَّ هذا الطائرَ لَيَدُورُ على ماء، لَعهدُنا بهذا الوادي وما فيه ماء. فأرسلوا جَرِيًّا أو جَرِيَّين، فإذا هُم بالماء، فأخبروهم بالماء، فأقبلوا. قال: وأمُّ إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنينَ لنا أن ننزِلَ عندَكِ؟ قالت: نعم، ولكن لا حقَّ لكم في الماء. قالوا: نعم. قال ابن عباس: قال النبيُّ ﷺ: «فألفى ذلكَ أمَّ إسماعيل وهي تُحِبُّ الأُنس». فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم، فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهلُ أبياتٍ منهم، شَبَّ الغلامُ، وماتت أمُّ إسماعيل، فجاء إبراهيم بعد ما تزوَّجَ إسماعيلُ يطالع تَرِكَته. الحديث[(٥)].

---

(١) صحيح البخاري (٣٣٦٤). وقوله: لا يخلو عليهما أحد . . . الخ، يعني: ليس أحد يخلو على اللحم والماء بغير مكة إلا اشتكى بطنه. ينظر فتح الباري ٦/ ٤٠٥ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٣٩ .

(٣) المثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في صحيح البخاري، وفي غير (ظ): وكذلك، بدل: وكانت كذلك.

(٤) في صحيح البخاري: مقبلين، وكلاهما بمعنى.

(٥) صحيح البخاري (٣٣٦٤). قوله: جُرهم: هو ابن قحطان بن عامر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح. والطائر العائف: هو الذي يحوم على الماء ويتردد ولا يمضي عنه. والجَريُّ: الرسول، وقد يُطلق على الوكيل وعلى الأجير. فتح الباري ٦/ ٤٠٣ .

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِىۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُۗ﴾ أي: ليس يخفى عليك شيء من أحوالنا. وقال ابن عباس ومقاتل: تعلم جميع ما أُخفيه وما أُعلنه من الوجد بإسماعيل وأمه حيث أسكنتهما بوادٍ غير ذي زرع. ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ قيل: هو من قول إبراهيم. وقيل: هو من قول الله تعالى لمَّا قال إبراهيم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُۗ﴾ قال الله: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾ أي: على كِبَر سِنِّي وسِنِّ امرأتي؛ قال ابن عباس: ولد له إسماعيل وهو ابنُ تسعٍ وتسعين سنة، وإسحاق وهو ابن مئةٍ واثنتي عشرة سنة. وقال سعيد بن جُبَير: بُشِّر إبراهيمُ بإسحاق بعد عشرٍ ومئةٍ سنة[١]. ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: من الثابتين على الإسلام والتزام أحكامه. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِىۚ﴾ أي: واجعَلْ من ذريتي من يُقيمها. ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ أي: عبادتي كما قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال عليه الصلاة والسلام: «الدعاءُ مُخُّ العبادة» وقد تقدم في «البقرة»[٢]. ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: استغفرَ إبراهيمُ لوالديه قبل أن يثبُتَ عنده أنهما عَدُوَّان لله. قال القُشَيريُّ: ولا يبعدُ أن تكون أمُّه مسلمةً؛ لأنَّ اللهَ ذكر عُذرَه في استغفاره لأبيه دون أمه[٣].

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٨ - ٣٩، وفيه: بشِّر إبراهيم بإسحاق وهو ابن مئة وسبع عشرة سنة.

(٢) ٣/ ١٧٨ بلفظ: «الدعاء هو العبادة» من حديث النعمان بن بشير. وأما الحديث بلفظ: «الدعاء مخُّ العبادة» فقد أخرجه الترمذي (٣٣٧١) من حديث أنس بن مالك.

(٣) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٣٨.

قلت: وعلى هذا قراءة سعيد بن جُبير: «رَبِّ اغْفِرْ لي ولوالِدِي» يعني أباه[١].

وقيل: استغفر لهما طمعاً في إيمانهما[٢]. وقيل: استغفر لهما بشرط أن يُسلما[٣]. وقيل: أراد آدم وحوّاء[٤]. وقد رُويَ أن العبد إذا قال: اللهمَّ اغفر لي ولوالديَّ، وكان أبواه قد ماتا كافِرَين، انصرفتِ المغفرةُ إلى آدم وحواء؛ لأنهما والدا الخلق أجمع. وقيل: إنه أراد ولَدَيه إسماعيل وإسحاق، وكان إبراهيم النَّخَعي يقرأ: «وَلِوَلَدَيَّ» يعني ابنَيه، وكذلك قرأ يحيى بن يَعْمَر، ذكره الماوردي والنحاس[٥]. ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال ابن عباس: من أمة محمدٍ ﷺ[٦]. وقيل: للمؤمنين كلِّهم[٧]. وهو أظهر. ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ أي: يوم يقوم الناس للحساب.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ وهذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ بعد أن عَجَّبَهُ[٨] من أفعال المشركين ومخالفتهم دين إبراهيم، أي: اصبِرْ كما صبر إبراهيم، وأَعلِمِ المشركينَ أنَّ تأخيرَ العذاب ليس للرضا بأفعالهم، بل سنَّةُ الله إمهال العصاة مدة. قال ميمون بن مِهْران: هذا وعيدٌ للظالم، وتعزيةٌ للمظلوم[٩]. ﴿إِنَّمَا

(١) المحتسب ١/ ٣٦٥.

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٣٩، وزاد المسير ٤/ ٣٦٩.

(٣) الوجيز (بهامش مراح لبيد) ١/ ٤٣٨.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٦٥، والنكت والعيون ٣/ ١٣٩، وزاد المسير ٤/ ٣٦٩.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٥٣٧ والنكت والعيون للماوردي ٣/ ١٣٩.

(٦) الوسيط للواحدي ٣/ ٣٥.

(٧) تفسير أبي الليث ٢/ ٢١٠، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩.

(٨) من (ظ)، وفي باقي النسخ: أعجبه.

(٩) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٠٣ - ٧٠٤، والخرائطي في مساوئ الأخلاق (٦٣٦)، وأبو نعيم في الحلية ٤/ ٨٣ - ٨٤.

﴿يُؤَخِّرُهُمْ﴾ يعني: مشركي مكة، يُمهِلُهم ويؤخِّرُ عذابَهم[١]. وقراءة العامة «يُؤَخِّرُهُمْ» بالياء[٢]، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ﴾. وقرأ الحسن والسُّلَمي ورُوِيَ عن أبي عَمرٍو أيضاً: «نُؤَخِّرُهُمْ» بالنون للتعظيم[٣]. ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي: لا تغمَضُ من هولِ ما تراه في ذلك اليوم. قاله الفراء. يقال: شَخَص الرجلُ بَصَرَه، وشَخَص البصرُ نفسُه، أي: سَما وطَمَح من هول ما يرى[٤]. قال ابن عباس: تَشخَصُ أبصارُ الخلائق يومئذٍ إلى الهواء؛ لشدة الحَيرةِ فلا يغمضون[٥].

﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين. قاله الحسن وقَتادة وسعيد بن جُبير[٦]، مأخوذٌ من أهطع يُهطع إهطاعاً: إذا أسرع. ومنه قوله تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٨] أي: مسرعين. قال الشاعر:

بدجلةَ دارُهُم ولقد أراهُم ... بدجلةَ مُهْطِعينَ إلى السَّماعِ[٧]

وقيل: المُهطع الذي ينظر في ذلٍّ وخشوع، أي: ناظرين من غير أن يَطرِفوا. قاله ابن عباس[٨]. وقال مجاهد والضحَّاك: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: مُديمي النظر[٩]. وقال النحاس[١٠]: والمعروف في اللغة أن يُقال: أهطعَ إذا أسرع. قال أبو عبيد: وقد

---

(١) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٧٠٤ ، والوسيط ٣/ ٣٥ ، وتفسير أبي الليث ٢/ ٢١٠ .

(٢) النشر ٢/ ٤٠٠ ، والسبعة ص٣٦٣ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٤ ، وزاد المسير ٤/ ٣٧٠ .

(٤) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٣٩ ، وتهذيب اللغة ٧/ ٧٢ .

(٥) في (م) و(ظ): لا يرمضون، وفي (د): لا يرتمضون، والمثبت من الوسيط للواحدي ٢/ ٣٥ .

(٦) النكت والعيون ٣/ ١٣٠ ، والوسيط ٣/ ٣٥ ، وزاد المسير ٤/ ٣٧٠ ، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٤٣ ، والطبري ١٣/ ٧٠٤ - ٧٠٥ عن قتادة.

(٧) النكت والعيون ٣/ ١٣٠ ، والبيت ليزيد بن مُفرِّغ، وهو في ديوانه ص١١٠ ، وفيه: «أهلها» بدل: «دارهم».

(٨) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٠٥ .

(٩) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٠٦ عنهما، ولفظ الضحاك بالمعنى.

(١٠) في معاني القرآن ٣/ ٥٣٨ .

يكون الوجهان جميعاً، يعني: الإسراع مع إدامة النظر. وقال ابن زيد: المُهطع الذي لا يرفع رأسه[١]. ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ أي: رافعي رؤوسهم ينظرون في ذُلٍّ. وإقناعُ الرأس: رفعُه. قاله ابن عباس ومجاهد[٢]. قال ابن عرفة والقُتَبيُّ وغيرهما: المُقنِعُ: الذي يرفع رأسه، ويُقبِلُ ببصره على ما بين يديه، ومنه الإقناع في الصلاة[٣] وأقنعَ صوتَه: إذا رفعه. وقال الحسن: وجوه الناس يومئذٍ إلى السماء لا ينظر أحدٌ إلى أحد[٤]. وقيل: ناكسي رؤوسهم[٥]. قال المهدويُّ: ويقال: أقنعَ: إذا رفعَ رأسه، وأقنع: إذا طأطأ رأسَه ذِلَّةً وخُضوعاً، والآية محتملةٌ للوجهين[٦]. وقاله المبرِّد[٧]. والقول الأول أعرَفُ في اللغة؛ قال الراجز:

أَنْغَضَ نَحْوي رَأْسَهُ وأَقْنَعا كأنَّما أَبْصَرَ شيئاً أَطْمَعا[٨]

وقال الشَّمَّاخ يصِفُ إبلاً:

يُباكِرْنَ العِضاهَ بِمُقْنَعَاتٍ نَواجِذُهنَّ كالْحَدَأ الوَقيعِ[٩]

يعني: برؤوسٍ مرفوعاتٍ إليها لتتناولهنَّ. ومنه قيل: مِقْنَعةٌ؛ لارتفاعها. ومنه قَنِعَ الرجلُ: إذا رَضِيَ، أي: رفع رأسَه عن السؤال. وقَنَع: إذا سأل، أي: أتى ما يتقنَّعُ

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٠٦.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٠٨ عنهما.

(٣) غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٣٣.

(٤) نقله عنه الواحدي في الوسيط ٣/ ٣٥، والبغوي في تفسيره ٣/ ٣٩، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٧١.

(٥) نقله الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٤٠ عن المؤرِّج وقتادة.

(٦) نقله عنه النحاس في معاني القرآن ٣/ ٥٣٩.

(٧) في الكامل ٢/ ١٠٢٧.

(٨) ذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣٤٤، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٤١.

(٩) ديوان الشماخ ص٢٢٠، قوله: والعِضاه: كل شجر يعظُم وله شوك، والحَدأُ جمع حَدأة: وهي الفأس ذات الرأسين. الصحاح (عضه) و(حدأ).

منه. عن النحاس[١]. وفَمٌ مُقْنَعٌ، أي: معطوفةٌ أسنانُه إلى داخل. ورجل مُقَنَّعٌ ـ بالتشديد ـ أي: عليه بَيْضَة. قاله الجوهري[٢].

﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي: لا ترجِعُ إليهم أبصارُهم من شدة النظر، فهي شاخصةُ النظر[٣]. يُقال: طَرَفَ الرجلُ يَطْرِفُ طَرْفاً: إذا أطبق جَفْنَه على الآخر[٤]، فسُمِّيَ النظرُ طَرْفاً؛ لأنه به يكون[٥]. والطَّرْفُ: العين؛ قال عَنْتَرة[٦]:

وَأَغُضُّ طَرْفي ما بَدَتْ لي جارتي ... حتَّى يُواري جارتي مَأْواها

وقال جَميل:

وَأَقْصِرُ طَرْفي دُونَ جُمْلٍ كَرامةً ... لِجُمْلٍ ولِلطَّرْفِ الذي أنا قاصِرُهْ[٧]

﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ أي: لا تعي[٨] شيئاً من شدّة الخوف. ابن عباس: خاليةٌ من كلِّ خير[٩]. السُّدِّيّ: خرجت قلوبهم من صدورهم، فنَشِبت في حلوقهم[١٠]. وقال مجاهد ومُرَّة وابن زيد: خاويةٌ خَرِبةٌ مُنخرقةٌ؛ ليس فيها خيرٌ ولا عقل، كقولك في البيت الذي ليس فيه شيء: إنما هو هَواءٌ. وقاله ابن عباس[١١].

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٥٤٠ .

(٢) في الصحاح (قنع).

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ٣٥ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٧١ .

(٤) الصحاح (طَرِفَ).

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٤١ .

(٦) في ديوانه ص٧٦ .

(٧) لم نقف عليه في ديوانه، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٤١ .

(٨) تحرفت في النسخ إلى: تغني، والتصويب من معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٦٦ ، ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ٥٤٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩ ، وزاد المسير ٤/ ٣٧١ .

(٩) أخرجه الطبري ١٣/ ٧١١ .

(١٠) ذكره عنه بنحوه أبو الليث في تفسيره ٢/ ٢١٠ ، وهو قول قتادة أخرجه عنه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٤٣ ، والطبري ١٣/ ٧١٣ ، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٧١ .

(١١) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٣/ ٧١٠ - ٧١٢ بألفاظٍ مقاربة.

والهواء في اللغة: المجوَّفُ الخالي، ومنه قول حسان:

ألا أَبـلِـغْ أبـا سُـفْـيـانَ عَـنِّـي فـأنـتَ مُـجـوَّفٌ نَـخِـبٌ هَـواءُ(١)

وقال زهير يصف ناقةً صغيرة الرأس:

كـأنَّ الـرَّحْـلَ مِـنـهـا فـوقَ صَـعْـلٍ مِـن الـظِّـلْـمـانِ جُـؤْجُـؤُهُ هَـواءُ(٢)

فارغٌ، أي: خالٍ، وفي التنزيل: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ [القصص: ١٠] أي: من كلِّ شيءٍ إلا من همِّ موسى. وقيل: في الكلام إضمار، أي: ذاتُ هواءٍ وخلاء.

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ قال ابن عباس: أراد أهل مكة(٣). ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ وهو يوم القيامة، أي: خَوِّفْهم ذلك اليوم، وإنما خصَّه(٤) بيوم العذاب ـ وإن كان يوم الثَّواب ـ لأنَّ الكلام خرج مخرج التهديد للعاصي. ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: في ذلك اليوم: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ﴾ أي: أَمْهِلْنا(٥). ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ سألوه الرجوع إلى الدنيا حين ظهرَ الحقُّ في الآخرة(٦). ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ أي: إلى الإسلام ﴿وَنَتَّبِعِ

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٤٤، والبيت في ديوان حسان ص٩.

(٢) ديوان زهير ص٦٣، وفي (م) و(د): الرجل. قوله: صَعْل، أي: دقيق الرأس والعنق، وظليم: هو الذكر من النَّعام، جمعها: ظِلمان. قال ثعلب في شرحه للديوان: كأن الرحل منها: من هذه الناقة. فوق صعلٍ: فوق ظليمٍ دقيق العُنق صغير الرأس. جؤجؤه: صدره. هواءٌ: لا مُخَّ فيه.

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ٣٦، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٧٢.

(٤) في (ظ): خُصَّ، وفي (ز) و(د) و(م): خصَّهم، والمثبت من (ف)، وهو موافق لما في النكت والعيون ٣/ ١٤٢، (والكلام منه) وينظر زاد المسير ٤/ ٣٧٢.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٠.

(٦) النكت والعيون ٣/ ١٤٢.

﴿ٱلرُّسُلَۗ﴾. فيُجابون: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ﴾ يعني: في دار الدنيا[1]. ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ قال مجاهد: هو قَسَمُ قريش أنهم لا يُبعثون[2]. ابن جُرَيج: هو ما حكاه عنهم في قوله: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾[3] [النحل: ٣٨].

﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ فيه تأويلان: أحدهما: ما لكم من انتقالٍ عن الدنيا إلى الآخرة، أي: لا تُبعثون ولا تُحشرون. وهذا قول مجاهد. والثاني: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ أي: من العذاب[4]. وذكر البيهقيُّ[5] عن محمد بن كعب القُرَظيِّ قال: لِأهلِ النَّارِ خمسُ دَعَواتٍ: يُجيبهم اللهُ في أربعة، فإذا كان في الخامسة لم يتكلَّموا بعدها أبداً، يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١]. فيُجيبهم الله: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢]. ثم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢] فيُجيبهم الله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٤]. ثم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ﴾ فيُجيبهم الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ فيقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُۚ﴾ [فاطر: ٣٧] فيُجيبهم الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧]. ويقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦]، فيُجيبهم

(١) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٢١٠، وتفسير البغوي ٣/ ٤٠، وزاد المسير ٤/ ٣٧٢.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٧١٥ - ٧١٦ بمعناه.

(٣) لم نقف عليه من قول ابن جريج، وإنما هو تتمة كلام مجاهد السالف.

(٤) النكت والعيون ٣/ ١٤٢ وعزا القول الثاني للحسن، وأخرج قول مجاهد الطبري ١٣/ ٧١٥ بنحوه.

(٥) في البعث والنشور (٦٦٠)، وفي إسناده أبو معشر نجيح بن عبد الرحمن السندي، وهو ضعيف.

الله تعالى: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨]. فلا يتكلمون بعدها أبداً. خرَّجه ابن المبارك في «رقائقه» بأطْوَلَ من هذا ـ وقد كتبناه في كتاب «التذكرة»(١) ـ وزاد في الحديث: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ قال: هذه الثالثة، وذكر الحديث، وزاد بعد قوله: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ فانقطع عند ذلك الدعاءُ والرجاء، وأقبل بعضهم على بعض؛ ينبَح بعضهم في وجه بعض، وأطبقت عليهم. قال: فحدَّثني الأزهر بن أبي الأزهر أنه ذكرَ له أن ذلك قوله: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥-٣٦].

قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ أي: في بلاد ثَمود ونحوها، فهلَّا اعتبرتُم بمساكنهم بعد ما تبيَّن لكم ما فعلنا بهم، وبعد أن ضربنا لكم الأمثال في القرآن(٢). وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمي: «ونُبَيِّنْ لَكُمْ» بنون، والجزم على أنه مستقبل، ومعناه الماضي(٣)، وليناسب قوله: ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾. وقراءة الجماعة: «وَتَبَيَّنَ»، وهي مثلها في المعنى؛ لأن ذلك لا يتبيَّنُ لهم إلا بتبيين اللهِ إيَّاه.

(١) ص٤١٧ - ٤١٩ ، ولم نقف عليه في الرقائق لابن المبارك، وقد ذكر المصنف هناك في التذكرة أن ابن المبارك رواه عن الحكم، والحكم هذا: هو ابن ظهير، وهو متروك، واتهمه ابن معين. تقريب التهذيب.

(٢) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٢١٠ ، والوسيط للواحدي ٣/ ٣٦ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٧٢ .

(٣) القراءات الشاذة ص٦٩ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٥ ، ونقل فيه ابن عطية أيضاً عن أبي عبد الرحمن أنه قرأ بضم النون ورفع النون الأخيرة، وينظر زاد المسير ٤/ ٣٧٢ .

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ﴾ أي: بالشرك بالله وتكذيب الرسل والمعاندة. عن ابن عباس وغيره[(١)]. ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ «إن» بمعنى «ما» أي: ما كان مكرُهم لتزولَ منه الجبال؛ لضعفه ووهنه. و«إن» بمعنى «ما» في القرآن في مواضع خمسة: أحدها هذا. الثاني: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤]. الثالث: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا﴾ [الأنبياء: ١٧] أي: ما كنا. الرابع: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ [الزخرف: ٨١]. الخامس: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقرأ الجماعة: «وإن كان» بالنون. وقرأ عمر وعليّ[(٢)] وابن مسعود وأُبيٌّ: «وإن كاد» بالدال[(٣)]. والعامة على كسر اللام في «لِتزولَ» على أنها لام الجحود وفتح اللام الثانية نصباً[(٤)]. وقرأ ابن مُحيْصِن وابن جُريج والكِسائي: «لَتَزُولُ»[(٥)] بفتح اللام الأولى على أنَّها لامُ الابتداء، ورفعِ الثانية، و«إنْ» مخفَّفة من الثَّقيلة، ومعنى هذه القراءة: استعظامُ مكْرِهم، أي: ولقد عظُمَ مكرُهُم حتى كادتِ الجبالُ تزول منه[(٦)].

قال الطَّبري[(٧)]: الاختيار القراءة الأولى؛ لأنها لو كانت زالت لم تكن ثابتة.

قال أبو بكر الأنباري: ولا حجةَ على مصحف المسلمين في الحديث الذي حدَّثناه أحمد بن الحسين، حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدّثنا وكيع بن الجرَّاح، عن

---

(١) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٤٢.

(٢) في (ز) و(د) و(م): عمرو بن علي، وهو خطأ.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٧٣، والمحتسب ١/ ٣٦٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٦، والنكت والعيون ٣/ ١٤٣، وزاد المسير ٤/ ٣٧٤.

(٤) ينظر مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠٧.

(٥) قراءة الكسائي من السبعة، وينظر السبعة ص٣٦٣، والتيسير ص١٣٥، وذكرها الطبري ١٣/ ٧٢٠ عن ابن جُريج عن مجاهد.

(٦) ينظر الحجة في القراءات لابن زنجلة ص٣٧٩ والوسيط ٣/ ٣٦، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٦.

(٧) في تفسيره ١٣/ ٧٢٤.

إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمن بن دانيال قال سمعت عليَّ بن أبي طالبٍ ﷺ يقول: إنَّ جبَّاراً من الجبابرة قال: لا أنتهي حتَّى أعلم من في السماوات، فعَمَدَ إلى فراخِ نُسُورٍ، فأمر أن تُطعَم اللحم، حتى إذا[1] اشتدَّتْ وعَضَلتْ واستعلجتْ؛ أمرَ بأن يُتَّخذَ تابوتٌ يسَعُ فيه رجلين، وأن يُجعَلَ فيه عصاً؛ في رأسها لحمٌ شديدٌ حُمرتُه، وأن يُسْتَوثَقَ من أرجل النسور بالأوتاد، وتُشدَّ إلى قوائم التابوت، ثم جلس هو وصاحبٌ له في التابوت، وأثَارَ النُّسورَ، فلما رأتِ اللحمَ طلَبَتْه، فجعلت ترفع التابوتَ، حتى بلغت به ما شاء الله، فقال الجبَّارُ لصاحبه: افتحِ البابَ فانظُرْ ما ترى؟ فقال: أرى الجبالَ كأنَّها ذبابٌ. فقال: أغلقِ الباب؛ ثم صعَدَتْ بالتابوت ما شاء الله أن تصعَدَ، فقال الجبَّارُ لصاحبه: افتحِ الباب فانظُرْ ما ترى؟ فقال: ما أرى إلا السماء، وما تزداد مِنَّا إلا بُعْداً. فقال: نَكِّسِ العصا. فنكَّسها، فانقضَّتِ النُّسور، فلما وقع التابوت على الأرض سُمِعتْ له هَدَّةٌ كادتِ الجبالُ تزولُ عن مراتبها منها. قال: فسمعتُ عليًّا ﷺ يقرأ: «وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولُ» بفتح اللام الأولى من «لتزول» وضم الثانية[2].

وقد ذكر الثَّعلبيُّ[3] هذا الخبر بمعناه، وأن الجبَّار هو النُّمرود الذي حاجَّ إبراهيم في ربِّه؛ قال عكرمة: كان معه في التابوت غلامٌ أمرد، وقد حمل القوس والنَّبل، فرمى بهما، فعاد إليه مُلطَّخاً بالدم، وقال: كُفيتْ نَفْسُكَ[4] إلهَ السَّماء. قال عكرمة: تَلطَّخَ بدم سمكةٍ من السماء، قذفتْ نفسَها إليه من بحرٍ في الهواء مُعلَّق. وقيل: طائرٌ من الطير أصابه السَّهمُ، ثم أمر نُمرودُ صاحبَه أن يضرب العصا وأن يُنكِّس اللحم،

---

(١) لفظة: إذا من (ظ).

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٢١ من طريق وكيع، به وأخرجه الطبري ١٣/ ٧١٨ من طريق سفيان الثوري، و ١٣/ ٧١٩ من طريق شعبة، كلاهما عن أبي إسحاق، به. لكن وقع في روايتيهما تسمية الراوي عن علي: عبد الرحمن بن أذنان، وهو مجهول، فقد ترجم له البخاري في التاريخ الكبير ٥/ ٢٥٥، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٥/ ٢١٠، ولم يذكرا عنه راوياً سوى أبي إسحاق، ولم يذكرا فيه جرحاً ولا تعديلاً، وذكره ابن حبان في ثقاته ٥/ ٨٧ على عادته في توثيق المجاهيل.

(٣) في عرائس المجالس ص٩٨ - ٩٩.

(٤) هكذا في النسخ، وفي العرائس: كفيت شغل.

فهبطتِ النُّسورُ بالتابوت، فسمعتِ الجبالُ حفيفَ التابوتِ والنّسورِ ففزعت، وظنَّتْ أنه قد حدَثَ بها حدَثٌ من السماء، وأنَّ الساعة قد قامت، فذلك قوله: «وإنْ كانَ مكرهُمْ لَتَزُولُ منهُ الجبالُ». قال القُشَيريُّ: وهذا جائز بتقدير خلق الحياة في الجبال.

وذكر الماورديُّ[1] عن ابن عباس: أنَّ النُّمرود بن كنعان بَنَى الصَّرح في قرية الرَّسِّ من سواد الكوفة، وجعل طوله خمسة آلاف ذراع وخمسين ذراعاً، وعرضه ثلاثة آلاف ذراع وخمسة وعشرين ذراعاً، وصعد منه مع النُّسور، فلما علم أنه لا سبيل له إلى السماء اتخذه حصناً، وجمع فيه أهله وولده ليتحصَّنَ فيه، فأتى اللهُ بنيانَه من القواعد، فتداعى الصَّرحُ عليهم، فهلكوا جميعاً، فهذا معنى: ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ﴾.

وفي الجبال التي عنى زوالها بمكرهم وجهان: أحدهما: جبال الأرض، والثاني: الإسلام والقرآن؛ لأنه لثبوته ورسوخه كالجبال[2].

وقال القُشَيريُّ: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي: هو عالمٌ بذلك فيجازيهم، أو عند الله جزاءُ مكرهم، فحذف المضاف.

﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ بكسر اللام، أي: ما كان مكرهم مكراً يكون له أثرٌ وخطرٌ عند الله تعالى، فالجبال مَثَلٌ لأمر النبي ﷺ[3]. وقيل: «وَإنْ كَانَ مَكْرُهُمْ» في تقديرهم «لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ» ويؤثِّر في إبطال الإسلام. وقُرِئَ: «لَتَزُولُ منهُ الجبالُ» بفتح اللام الأولى وضم الثانية، أي: كان مكراً عظيماً تزول منه الجبال[4]. ولكنَّ اللهَ حفِظَ رسولَه ﷺ، وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا﴾ [نوح: ٢٢]

---

(١) في النكت والعيون ٣/ ١٤٢ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٦٦ - ١٦٧ ، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠٧ ، والبيان لابن الأنباري ٢/ ٦٢ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٧٤ - ٣٧٥ .

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٧٩ . والقراءة المذكورة هي قراءة الكسائي، وقد ذكرها المصنف قريباً.

والجبال لا تزول، ولكنَّ العبارة عن تعظيم الشيء هكذا تكون.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ اسمُ الله تعالى و«مخلف» مفعولا تحسب؛ و«رُسُلَهُ» مفعول «وَعْدِهِ»، وهو على الاتساع، والمعنى: مخلفَ رُسُلِهِ وَعْدَه[١] قال الشاعر:

تَرَى الثَّوْرَ فيها مُدْخِلَ الظِّلِّ رأسَهُ ... وسائِرُهُ بادٍ إلى الشَّمْسِ أجْمَعُ[٢]

قال القُتَبِيُّ[٣]: هو من المُقدَّم الذي يوضِّحه التأخير، والمؤخَّر الذي يوضِّحه التقديم، وسواءٌ في قولك: مخلف وعدِه رسلَه، ومخلف رسلِه وعدَه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ أي: من أعدائه. ومن أسمائه: المنتقم، وقد بيَّنّاه في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»[٤].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أُذكُرْ يوم تبدَّل الأرض، و«غيرَ» نعتٌ لمحذوف، التقدير: أرضاً غيرَ الأرض. ويحتمل أن يكون المراد: إنَّ اللهَ عزيزٌ

---

(١) وقع في النسخ غير (ظ): مخلف وعده رسله، وفي (ظ): رسله وعده، دون لفظة: مخلف، والمثبت من مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠٨ .

(٢) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٨٠ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٧٣ ، والبيان لابن الأنباري ٢/ ٦٢ .

(٣) في تأويل مشكل القرآن ص١٤٨ .

(٤) لم نقف عليه في المطبوع منه.

ذو انتقامٍ يومَ تُبدَّلُ الأرض[١]، فيكون متعلقاً[٢] بما قبله. وقيل: هو صفةٌ لقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾[٣].

واختُلِفَ في كيفية تبديل الأرض، فقال كثيرٌ من الناس: إنَّ تبدُّل الأرض عبارةٌ عن تغير صفاتها، وتسويةِ آكامها، ونسفِ جبالها، ومدِّ أرضها. ورواه ابن مسعود ﷺ، خرَّجه ابن ماجه في «سننه»[٤]. وذكره ابن المبارك من حديث شَهْر بن حَوْشَب قال: حدَّثني ابنُ عباس قال: إذا كان يوم القيامة مُدَّتِ الأرضُ مدَّ الأديم، وزِيدَ في سَعتها كذا وكذا؛ وذكر الحديث[٥].

ورُوِي مرفوعاً من حديث أبي هُريرة، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «تُبدَّل الأرضُ غيرَ الأرضِ، فيبسُطُها ويمدُّها مدَّ الأديم العُكَاظيِّ، لا ترى فيها عِوجاً ولا أَمْتاً، ثم يزجرُ اللهُ الخلقَ زجرةً فإذا هم في الثانية في مثل مواضعهم من الأولى، مَن كان في بطنها ففي بطنها، ومَن كان على ظهرها كان على ظهرها» ذكره الغَزْنَويّ[٦].

وتبديلُ السماءِ تكويرُ شمسِها وقمرِها، وتناثرُ نجومها. قاله ابن عباس. وقيل: اختلاف أحوالها، فمرَّةً كالمُهْل ومرَّةً كالدِّهان. حكاه ابن الأنباري[٧]. وقد ذكرنا هذا الباب مُبيَّناً في كتاب «التذكرة»[٨] وذكرنا ما للعلماء في ذلك، وأنَّ الصحيح إزالة هذه

---

(١) من قوله: و«غير» إلى هذا الموضع من (ظ).

(٢) المثبت من (ظ)، وفي باقي النسخ: فتكون متعلقةً.

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٦٩ .

(٤) برقم (٤٠٨١)، وأخرجه أحمد (٣٥٥٦) عن ابن مسعود مرفوعاً، وفي إسناديهما مؤثر بن عفازة، وهو مجهول.

(٥) الزهد لابن المبارك ـ زوائد نعيم بن حماد ـ (٣٥٣)، وشهر بن حوشب ضعيف.

(٦) وأخرجه الطبري ١٣/ ٧٣٥ - ٧٣٦ من طريق إسماعيل بن رافع القاص، عن يزيد بن أبي زياد، عن رجل من الأنصار، عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي هريرة مرفوعاً. إسماعيل بن رافع ويزيد بن أبي زياد متروكان. ميزان الاعتدال ١/ ٢٢٧ و ٤/ ٤٢٥ .

(٧) نقله عنهما ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٧٦ .

(٨) ص١٩٠ - ١٩٣ .

الأرض حسب ما ثبتَ عن النبيِّ ﷺ:

روى مسلم[١] عن ثَوْبان مولى رسول الله ﷺ قال: كنتُ قائماً عند رسول الله ﷺ، فجاءه حَبْرٌ من أحبار اليهود فقال: السلامُ عليك... وذكر الحديث، وفيه: فقال اليهوديُّ: أين يكون الناس يوم تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسماوات؟ فقال رسول الله ﷺ: «في الظُّلمة دون الجِسر»[٢]. وذكر الحديث.

وخرَّجَ عن عائشة قالت: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ فأين يكون الناسُ يومئذٍ؟ قال: «على الصراط». خرَّجه ابن ماجه بإسناد مسلم سواء، وخرَّجه الترمذيُّ عن عائشة وأنها هي السائلة، وقال: هذا حديث حسن صحيح[٣].

فهذه الأحاديث تنصُّ على أنَّ السماواتِ والأرضَ تُبدَّل وتُزال، ويخلق اللهُ أرضاً أخرى يكون الناس عليها بعد كونهم على الجِسْر.

وفي «صحيح مسلم» عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحشَرُ الناسُ يومَ القيامة على أرضٍ بيضاءَ عَفْراء كقُرْصَة النَّقِيِّ ليس فيها عَلَمٌ لأحد»[٤].

وقال جابر: سألتُ أبا جعفر محمد بن علي عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ قال: تُبدَّل خُبْزةً يأكل منها الخلق يوم القيامة، ثم قرأ: ﴿وَمَا

---

(١) في صحيحه (٣١٥).

(٢) أي: الصراط. إكمال المعلم ٢/ ٦٥٣ .

(٣) صحيح مسلم (٢٧٩١)، وسنن ابن ماجه (٤٢٧٩)، وسنن الترمذي (٣١٢١)، وهو في مسند أحمد (٢٤٠٦٩).

(٤) صحيح مسلم (٢٧٩٠)، وأخرجه البخاري (٦٥٢١)، وقوله: «ليس فيها علمٌ لأحد» ليس من كلام النبي ﷺ، وجاء التصريح بذلك في رواية البخاري، ونبَّه الحافظ في الفتح ١١/ ٣٧٥ على أن هذه العبارة أُدرجت في الحديث في رواية مسلم. ومعناه: أنه ليس فيها علامة سكنى أو بناء أو أثر. والعفراء: البيضاء المائلة إلى الحمرة؛ والنَّقيّ: هو الدقيق الحوري، وهو الدرمك. شرح صحيح مسلم للنووي ١٧/ ١٣٤ .

جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾[١] [الأنبياء: ٨].

وقال ابن مسعود: إنها تُبدَّلُ بأرضٍ غيرِها بيضاءَ كالفضة، لم يُعْمَلْ عليها خطيئة[٢]. وقال ابن عباس: بأرضٍ من فضَّةٍ بيضاء[٣]. وقال عليٌّ ﷺ: تُبدَّل الأرض يومئذٍ من فضة، والسماءُ من ذهب[٤]. وهذا تبديل العين، وحسبُكَ. ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ أي: من قبورهم، وقد تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وهم المشركون. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة. ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ أي: مشدودين ﴿فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾: وهي الأغلال والقيود، واحدها صَفْد وصَفَد. ويقال: صَفَدتُه صَفْداً، أي: قَيَّدتُه، والاسمُ: الصَّفَد، فإذا أردتَ التكثير قلتَ: صَفَّدتُه تصفيداً؛ قال عمرو بن كُلْثوم[٥]:

فآبُوا بالنِّهابِ وبالسَّبايا ... وأُبْنا بالمُلوكِ مُصَفَّدينا

أي: مقيَّدينا. وقال حسان[٦]:

مِن كلِّ مأسُورٍ يُشَدُّ صِفادُهُ ... صَقْرٍ إذا لاقى الكريهةَ حامي

أي: غلُّه، وأصفدتُه إصفاداً: أعطيتُه. وقيل: صَفَدتُه وأَصْفَدتُه جاريان في القيد والإعطاء جميعاً؛ قال النابغة:

---

(١) مجمع البيان ١٣/ ٢٣٩ .

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٢٩ و ٧٣٠ ، وأبو الشيخ في العظمة (٦٠٠)، والحاكم ٤/ ٥٧٠ وصحَّح إسناده. وأخرجه البزار (١٨٥٩)، والطبراني في الكبير (١٠٣٢٣)، وفي الأوسط (٧١٦٧)، وابن عدي ٢/ ٥٤٧ عن ابن مسعود مرفوعاً. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٤٥ : رواه البزار، وفي إسناده جرير بن أيوب، وهو مجمعٌ على ضعفه.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٣٤ .

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٣٤ وفيه «الجنة» بدل «السماء».

(٥) في معلقته ص١٠٠ .

(٦) ديوانه ص٢١٥ .

فَلَمْ أُعَرِّضْ أَبَيْتَ اللعْنَ بالصَّفَدِ[١]

فالصَّفَدُ: العطاء؛ لأنه يُقيِّد ويُعَبِّد[٢]؛ قال أبو الطيب:

وقَيَّدتُ نفسي في ذَرَاكَ مَحَبَّةً ومَن وَجَدَ الإحسانَ قَيْداً تَقيَّدا[٣]

قيل: يُقرَنُ كلُّ كافرٍ مع شيطانٍ في غُلٍّ، بيانه قوله: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] يعني: قرناءهم من الشياطين. وقيل: إنهم الكفار يجمعون في الأصفاد كما اجتمعوا في الدنيا على المعاصي[٤].

﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ أي: قُمُصُهُم. عن ابن دُرَيد وغيره، واحدها سِرْبال[٥]، والفعل: تَسربلتُ وسَربلتُ غيري؛ قال كعب بن مالك:

تَلْقَاكُمُ عَصَبٌ حَوْلَ النَّبِيِّ لَهُمْ مِنْ نَسْجِ دَاودَ في الْهَيْجا سَرابيلُ[٦]

﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ يعني: قَطِران الإبل الذي تُهْنَأ به. قاله الحسن[٧]. وذلك أبلَغُ لاشتعال النار فيهم[٨].

وفي الصحيح: أنَّ النائحةَ إذا لم تَتُبْ قبل موتها تُقام يومَ القيامة وعليها سِربالٌ من قَطِرانٍ ودِرْعٌ من جَرَب[٩]. ورُوي عن جماعةٍ[١٠] أنهم قالوا: هو النُّحاس[١١].

---

(١) وصدره: هذا الثناءُ فإن تسمَعْ به حسناً، والبيت في ديوان النابغة الذبياني ص٣٧ .

(٢) أي: يُذَلِّل .

(٣) ديوان أبي الطيب المتنبي ٢/ ١٥ . وقوله: ذَرَاك، أي: كنفك. الصحاح (ذرا).

(٤) ينظر تهذيب اللغة ١٢/ ١٤٨-١٤٩ ، والنكت والعيون ٢/ ١٤٤-١٤٥ .

(٥) جمهرة اللغة ٣/ ٣٠٥ لابن دريد، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٤٥ والنكت والعيون للماوردي ٣/ ١٤٥ .

(٦) ديوان كعب ص٢٠٣ ، وفيه: مما يُعِدُّون للهيجا، بدل: من نسج داود في الهيجا.

(٧) أخرجه عنه الطبري ١٣/ ٧٤٣ ، ونقله أبو الليث في تفسيره ٢/ ٢١٢ ، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٤٥ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٧٧ .

(٨) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٧٠ .

(٩) صحيح مسلم (٩٣٤) من حديث أبي مالك الأشعري، وأخرجه أحمد (٢٢٩٠٣).

(١٠) من (ظ)، وفي بقية النسخ: حماد.

(١١) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٤٣ ، ٧٤٤ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة.

وقرأ عيسى بن عمر: «قَطْرَانٍ» بفتح القاف وتسكين الطاء[١]. وفيه قراءة ثالثة: كسر القاف وجزم الطاء[٢]؛ ومنه قول أبي النَّجْم:

جَوْنٌ كَأَنَّ الْعَرَقَ الْمَنْتُوحا لَبَّسَهُ الْقِطْرَانَ والْمُسُوحا[٣]

وقراءة رابعة: «مِنْ قِطْرٍ آنٍ» رُويت عن ابن عباس وأبي هُريرة وعكرمة وسعيد بن جُبير ويعقوب[٤]. والقِطْرُ: النحاس، والصُّفر المُذاب؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾ [الكهف: ٩٦]. و«آن»[٥]: الذي قد انتهى حرُّه؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ﴾[٦] [الرحمن: ٤٤].

﴿وَتَغۡشَىٰ﴾ أي: تضرب ﴿وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ فتغشيها. ﴿لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ﴾ أي: بما كسبت. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ تقدَّم[٧].

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ﴾ أي: هذا الذي أنزلنا إليك بلاغٌ؛ أي: تبليغٌ وعِظَةٌ. ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ أي: ليُخوَّفوا عقابَ الله عزَّ وجلَّ. وقُرِئَ: «وَلِيَنْذَرُوا» بفتح الياء والذال[٨]، يقال: نَذِرتُ بالشيء أَنْذَرُ: إذا علمتَ به فاستعددتَ له، ولم يستعملوا منه مصدراً كما لم يستعملوا من عسى وليس، وكأنهم استغنَوا بأن والفعل، كقولك: سَرَّني أن نَذِرتُ بالشيء.

---

(١) ذكر الطبري ١٣/ ٧٤٢ أن عيسى بن عمر كان يقرأ: «من قِطْران» بكسر القاف، أما قراءة فتح القاف وإسكان الطاء فقد ذكرها أبو حيان في البحر ٥/ ٤٤٠ عن عمر وعلي.

(٢) وهي قراءة عيسى بن عمر فيما ذكره الطبري كما في التعليق السابق.

(٣) ديوان أبي النجم ص٨٣. قوله: جَوْن، أي: أسود، أو أبيض (ضدٌّ). أو الأسود المشرب حمرة. والمُسوح: جمع مِسْح، وهو الكساء من الشعر.

(٤) القراءات الشاذة ص٧٠، والمحتسب ١/ ٣٦٦. وينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٨، وزاد المسير ٤/ ٣٧٧. والقراءة المشهورة عن يعقوب ـ وهو من العشرة ـ كقراءة الجماعة.

(٥) من (ظ)، وفي غيرها: الآن.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٧٠، والنكت والعيون ٣/ ١٤٥.

(٧) ٣/ ٣٥٩ - ٣٦٠.

(٨) المحتسب ١/ ٣٦٧.

﴿وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ أي: وليعلموا وحدانية الله بما أقام من الحجج والبراهين. ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي: وليتَّعِظَ أصحاب العقول[1]. وهذه اللامات في «وَلِيُنْذَرُوا» «وَلِيَعْلَمُوا» «وَلِيَذَّكَّرَ» متعلقةٌ بمحذوف؛ التقدير: ولذلك أنزلناه[2].

وروى يَمان بن رِئَاب أنَّ هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق ﷺ[3].

وسُئِلَ بعضُهم: هل لكتاب الله عنوان؟ فقال: نعم. قيل: وأين هو؟ قال: قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ إلى آخرها.

تمَّ تفسير سورة إبراهيم عليه السلام، والحمد لله.

---

(١) النكت والعيون للماوردي ٣/ ١٤٦، والوسيط للواحدي ٣/ ٣٧.

(٢) ينظر الوسيط للواحدي ٣/ ٣٧، وزاد المسير ٤/ ٣٧٨.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٤٦.

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

مكيَّةٌ[1]، وهي إحدى وخمسونَ آيةً[2]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿الٓر كِتَٰبٌ﴾؛ أي: هو كتابٌ ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ بدُعائِكَ إيَّاهُم إلى ما تضمَّنَه ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: مِن أنواعِ الضَّلالِ ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ إلى الهُدى.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾: بتوفيقِه وتَسهيلِه، مُستعارٌ مِن الإذنِ الذي هو تَسهيلُ الحِجابِ، وهو صِلَةٌ لـ﴿تُخْرِجَ﴾ أو حالٌ مِن فاعلِه أو مَفعولِه.

﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ بدلٌ مِن قَولِه: ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ بتكريرِ العاملِ، أو استئنافٌ على أنَّه جوابٌ لِمَن يسألُ عنه، وإضافَةُ الصِّراطِ إلى اللهِ إمَّا لأنَّه مقصدُهُ، أو المظهِرُ له، وتخصيصُ الوَصْفينِ للتَّنبيهِ على أنَّه لا يَذلُّ سالِكُهُ ولا يَخيبُ سائِلُه.

(٢) ـ ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ على قراءةِ نافعٍ وابنِ عامرٍ[3] مبتدأٌ وخَبرٌ، أو ﴿ٱللَّهِ﴾ خبرُ مَحذوفٍ و﴿ٱلَّذِى﴾ صِفَتُه، وعلى قراءةِ

---

(١) انظر: «البيان في عد آي القرآن» للداني (ص: ١٧١)، وفيه: مكِّيَّة إلاَّ آيتين منها نزلتا بالمدينة في قتلى قريش يوم بدر، كذا قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة، وهما قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ إلى قوله: ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾.

(٢) انظر: «البيان في عد آي القرآن» للداني (ص: ١٧١)، وفيه: وهي خمسون وآيةٌ في البَصْريّ، وآيتان في الكوفي، وأربع في المدنيين والمكي، وخمس في الشَّامي. ثم ذكر الآيات التي وقع الاختلاف فيها.

(٣) أي: بالرفع، والباقون بالجر. انظر: «السبعة» (ص: ٣٦٢)، و«التيسير» (ص: ١٣٤).

الباقينَ عطفُ بيانٍ لـ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾؛ لأنَّه كالعَلَمِ لاختِصاصهِ بالمَعبودِ[١] الحَقِّ.

﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وعيدٌ لِمَن كَفَرَ بالكِتابِ ولم يخرُجْ بهِ مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، والوَيْلُ: نقيضُ الوَأْلِ وهو النَّجاةُ، وأصلُه النَّصبُ ـ لأنَّه مصدرُ إلا أنه لم يُشتقَّ مِنه ـ لكنَّه رُفِعَ لإفادةِ الثَّباتِ.

(٣) ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ﴾: يختارونَها عليها، فإنَّ المُختارَ للشَّيءِ يطلبُ مِن نفسِهِ أَنْ يكونَ أَحبَّ إِلَيْها مِن غيرِه.

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بتعويقِ النَّاسِ عَن الإيمانِ.

وقُرِئَ: (ويُصِدُّونَ) مِن أَصَدَّهُ[٢]، وهو مَنقولٌ مِن صَدَّ صُدُودًا: إذا تنكَّبَ، وليسَ فصيحًا[٣]؛ لأنَّ في صدَّهُ مَندوحَةً عَن تكلُّفِ التَّعدِيَةِ.

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾: ويبغونَ لها زيغًا ونُكوبًا عن الحقِّ ليَقدَحُوا فيه، فحُذِفَ الجارُّ وأوصِلَ الفِعلُ إلى الضَّميرِ، والموصولُ بصِلَتِه يَحتَمِلُ الجرَّ صفةً لـ(الكافرين)، والنَّصبَ على الذمِّ، والرَّفعَ عليهِ، أو على أنَّه مُبتدأٌ خبرُه:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾؛ أي: ضَلُّوا عَن الحَقِّ ووَقَعُوا عنه بمَراحِلَ، والبعدُ

---

(١) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «على الحق»، وفي نسخة التفتازاني: «وعلى الحق».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٢)، و«الكشاف» (٤١٧/٤)، و«البحر» (١٢٨/١٣)، عن الحسن.

(٣) قال السيوطي: تَبِعَ في ذلك الزَّمخشرِيَّ. وقد قال الطِّيبِيُّ: هذا مبنيٌّ على عادَتِه ـ أي الزمخشري ـ بأنَّ القِراءَةَ ليسَتْ مَوقوفَةً على السَّماعِ، بل على الاجتهادِ، انتهى. قال الخفاجي في «الحاشية»: ليسَ هذا مبنيًّا على مذهبِ الزَّمخشريّ من أنَّ القراءَة تكونُ برأي واجتهاد دون سماع منهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، كما قيلَ. وإنما هي ليست فصيحة بالنِّسبَةِ إلى اللُّغَة الأُخرى والقراءَة الأُخرى، ولا مَحذورَ في كونِ القراءَة المُتواتِرَة أفصح من غيرها.

في الحَقيقَةِ للضَّالِّ، فوُصِفَ بهِ فِعلُهُ للمُبالغَةِ، أو للأَمْرِ(١) الذي به الضَّلالُ، فوُصِفَ به لمُلَابسَتِهِ.

(٤) ـ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ ﴾: إلا بلُغَةِ قَومِه الذي هو مِنْهُم وبُعِثَ فيهم.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ ما أُمِرُوا به فيَفْقَهُوهُ عَنْه بيُسْرٍ وسُرْعَةٍ ثمَّ يَنْقُلوهُ ويُتَرْجِمُوه لغَيْرِهِم، فإنَّهُم أَوْلَى النَّاسِ إليهِ بأَنْ يَدْعُوَهُم، وأَحَقُّ بأَنْ يُنذِرَهُم، ولذلك أُمِرَ النَّبِيُّ ﷺ بإنذارِ عَشِيرته الأقربين أَوَّلًا، ولو نزلَ على مَن بُعِثَ إلى أُمَمٍ مُختلفَةٍ كُتُبٌ على أَلسِنَتِهِم استقلَّ ذلك بنوعٍ مِن الإعجازِ، لكِنْ أَدَّى إلى اختلافِ الكَلِمَةِ وإضاعَةِ فَضْلِ الاجتِهَادِ في تعَلُّمِ الأَلفاظِ ومَعانِيها والعُلومِ المُتشعِّبَةِ مِنْها، وما في إتعابِ القَرائحِ وكَدِّ النَّفسِ مِن القُرَبِ المُقتَضِيَةِ لجَزيلِ الثَّوابِ.

وقُرِئَ: (بلِسْنِ)(٢)، وهو لغَةٌ فيهِ كرِيشٍ ورِيَاشٍ، و: (لُسُن) بضَمَّتينِ(٣)، وضَمَّةٍ وسُكونٍ(٤)، على الجَمعِ، كعُمُدٍ وعُمْدٍ.

وقيل: الضَّميرُ في ﴿قَوْمِهِۦ﴾ لِمُحمَّدٍ عليهِ السَّلامُ، وأَنَّه تَعالى أنزلَ الكُتبَ كلَّها بالعربيَّةِ ثمَّ ترجمَها جِبريلُ، أو كلُّ(٥) نبيٍّ بلغَةِ المنزلِ عليهِم، وذلك يردُّه قولُه: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ فإنَّه ضَميرُ القَومِ، والتَّوراةُ والإنجيلُ ونحوُهُما لم تنزِل لتبيِّنَ للعربِ.

---

(١) قوله: «للأمر» عطف على قوله: «للضال».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٢)، و«المحتسب» (١/ ٣٥٩)، عن أبي السمال. وزاد ابن خالويه: الأعمش.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٢) عن جناح بن حبيش.

(٤) انظر: «الكشاف» (٤/ ٤٢٠) دون نسبة.

(٥) قوله: «كلُّ» عطف على قوله: «جبريل».

﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾: فيخذلُه عَن الإيمانِ ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ بالتَّوفيقِ له ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فلا يُغلبُ على مشيئتِه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يُضِلُّ ولا يَهدِي إلا لحكمةٍ.

(٥) ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ يعني: اليدَ والعَصا وسائرَ مُعجِزاتِه.

﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ بمعنى: أي أَخرِجْ؛ لأنَّ في الإرسالِ مَعنى القولِ، أو: بأَنْ أخرِجْ، فإنَّ صِيغَ الأفعالِ سَواءٌ في الدَّلالةِ على المصدرِ، فيَصِحُّ أن يُوصَلَ بها (أنْ) الناصبةُ.

﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾: بوقائعِه التي وقعَت على الأُمَمِ الدَّارجَةِ، وأيامُ العَرَبِ: حروبُها، وقيل: بنَعمائِه وبَلائِه.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ يصبرُ على بَلائِه[1] ويشكرُ لنَعمائِه، فإنَّه إذا سمعَ بما نزلَ على مَن قبلَهُ مِن البَلاءِ وأُفيضَ عليهِمْ مِن النَّعماءِ اعتبَرَ وتَنبَّهَ لِمَا يَجِبُ عليهِ مِن الصَّبرِ والشُّكرِ.

وقيل: المرادُ: لكلِّ مؤمنٍ، وإنَّما عبَّرَ عنه[2] بذلك تنبيهًا على أنَّ الصَّبرَ والشُّكرَ عنوانُ المُؤمِنِ.

(٦) ـ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: اذكُروا نعمتَهُ وقتَ إنجائِه إيَّاكُم، ويجوزُ أن ينتَصِبَ بـ﴿عَلَيْكُمْ﴾ إن جُعِلَت مُستقرَّةً غيرَ صِلَةٍ للنِّعمَةِ، وذلك إذا أُريدَت بها العَطِيَّةُ دونَ الإنعامِ، ويجوزُ أَنْ يكونَ بدلًا مِن ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ بدلَ الاشتمالِ.

---

(١) في نسخة الخيالي: «بلاء الله».

(٢) في النسخ: «عنهم»، ولعل الصواب هو المثبت.

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ أحوالٌ مِن ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أو مِن ضَميرِ المُخاطبينِ، والمرادُ بـ﴿ٱلْعَذَابِ﴾ هاهنا غيرُ المرادِ بِهِ في سُورةِ البَقرةِ والأعرافِ؛ لأنَّه مُفسَّرٌ بالتَّذبيحِ والقتلِ ثَمَّ، ومعطوفٌ عليه التَّذبيحُ هاهنا، وهو إمَّا جنسُ العَذابِ أو استِعبادُهُم واستِعمالُهُم بالأَعمالِ الشَّاقَّةِ.

﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ من حيثُ إنَّه بإقدارِ اللهِ تَعالى إيَّاهُم وإمهالهم فيهِ[1] ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾: ابتلاءٌ مِنْه، ويجوزُ أَنْ تكونَ الإشارةُ إلى الإنجاءِ، والمرادُ بالبَلاءِ النِّعمَةُ.

(٧) ـ ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أيضًا مِن كَلامِ مُوسَى، و﴿تَأَذَّنَ﴾ بمَعنى: آذَنَ، كتَوعَّدَ وأَوْعَدَ، غيرَ أنَّه أبلَغُ لِمَا في التَّفَعُّلِ مِن مَعنى التَّكلُّفِ والمُبالَغَةِ.

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ يـا بَنـي إسـرائيلَ مـا أنعمـتُ عليكُـمْ مِـن الإنجـاءِ وغَيرِهِ بالإيمـانِ والعَمـلِ الصَّالحِ ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ نعمَةً إلـى نِعمَةٍ ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ فلَعلِّـي أُعَذِّبُكُـم علـى الكُفرانِ عَذابًا شـديدًا، ومِن عادةِ أكـرمِ الأكرمينَ أن يصـرِّحَ بالوَعدِ ويُعـرِّضَ بالوَعيدِ.

والجُملَةُ مقولُ قَولٍ مَحذوفٍ، أو مفعولُ ﴿تَأَذَّنَ﴾ على أنَّه مُجرًى مُجرى (قال)؛ لأنَّه ضربٌ مِنه.

(٨) ـ ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ مِن الثَّقلينِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾ عَن شُكرِكُم ﴿حَمِيدٌ﴾ مُستَحِقٌّ للحَمدِ في ذاتِه، مَحمودٌ تَحمَدُهُ المَلائكَةُ وتَنطِقُ

---

(١) تبعَ فيهِ الزَّمخشريَّ، وهوَ إنَّما فسَّرَهُ بِهِ بناءً على مذهبِهِ فلو قالَ: من حيثُ إنَّه بخلق الله وإيجاده، وإن كانَ بكسبهم كانَ أوفى بمذهبِ أهل السُّنَّةِ، والإشارَة على هذا إلى فعلِ آل فرعون بهم، وإنَّما عدلَ عنه؛ لأنَّهُ مُناسب لإمهالهم فتنبه له. قاله الخفاجي في «الحاشية».

بنِعَمِه ذرَّاتُ[١] المَخلوقاتِ، فما ضَررتُم بالكُفرانِ إلا أَنفُسَكُم، حيثُ حَرَمْتُموها مَزيدَ الإنعامِ، وعَرَّضْتُموهَا للعَذابِ الشَّديدِ.

(٩) ـ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ مِـن كَلامِ مُوسى عليهِ السَّلامُ، أو كَلامٌ مبتدأٌ مِن اللهِ.

﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ جمـلَةٌ وقَعَت اعتِرَاضًا، أو: ﴿الَّذين مِن بَعْدِهِم﴾ عطفٌ على ما قبلَه، و﴿لَا يَعْلَمُهُمْ﴾ اعتراضٌ[٢].

والمَعنى: أَنَّهُم لكَثْرَتِهم لا يعلَمُ عددَهُم إلا اللهُ، ولذلك قالَ ابنُ مَسعودٍ: كذبَ النَّسَّابونَ[٣].

﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾: فعَضُّـوهـا غيظًا مما جاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، كقولِه: ﴿عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩]، أو: وَضَعُوهَا عَلَيْها تَعَجُّبًا منه، أو استهزاءً عليه كمَن غلبَهُ الضَّحِكُ، أو إسكاتًا للأنبياءِ وأمرًا لهم بإطباقِ الأَفْواهِ، أو أشارُوا بها إلى ألسِنَتِهِم وما نطقَتْ بهِ مِن قَوْلِهِم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا﴾ تنبيهًا على أنْ لا جوابَ لَهُم سِواه.

أو: ردُّوها في أفواهِ الأَنبياءِ يَمْنَعُونَهُم عـن التَّكلُّمِ، وعـلى هذا يَحتَمِلُ أن يكونَ تمثيلًا.

---

(١) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «ذوات».

(٢) قـال الطِّيبيُّ: هذا أحسَـنُ مِـن الأَوَّلِ ـ أي الاعتـراض ـ؛ لأنَّ الاعتراضَ مِن التَّحاسـينِ في الكلامِ، وحَسَّـنَ مَوقِعَـه أنَّ يكـونَ مَـع التَّأكيـدِ ألطَـفُ كمـا قـال: والمَعنى أنَّهـم لكَثْرَتِهـم لا يعلَـمُ عَددَهُم إلا اللهُ، وعلـى الأَوَّلِ ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ليـسَ فـي رائحَـةٍ مِـن ذلك. «فتوح الغيـب» (٨/ ٥٥٦).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٠٤).

وقيل: الأَيْدِي بمعنى: الأَيادِي؛ أي: رَدُّوا أيادِيَ الأنبياءِ التي هيَ مواعِظُهُم وما أُوحِيَ إليهِمْ مِن الحِكَمِ والشَّرائعِ في أفواهِهِم؛ لأنَّهم إذا كذَّبُوها أو لم يَقبَلُوها، فكأنَّهُم رَدُّوها إلى حيثُ جاءَتْ منه.

﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ على زَعْمِكُم ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ﴾ مِن الإيمانِ. وقُرِئَ: (تَدعونَّا) بالإدغامِ[1].

﴿مُرِيبٖ﴾: مُوقِعٍ في الرِّيبَةِ، أو: ذِي رِيبَةٍ، وهي قَلَقُ النَّفسِ وأن لا تَطمَئِنَّ إلى شيءٍ.

(١٠) ـ ﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ﴾ أُدْخِلَت هَمزَةُ الإنكارِ على الظَّرفِ لأنَّ الكَلامَ في المَشكوكِ فيه لا في الشكِّ؛ أي: إنَّما نَدعوكُم إلى اللهِ وهو لا يَحتَمِلُ الشَّكَّ لكثرةِ الأدِلَّةِ وظهورِ دَلالَتِها عليه، وأشارُوا إلى ذلكَ بقَولِه: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وهو صِفَةٌ أو بَدَلٌ، و﴿شَكّٞ﴾ مُرتَفِعٌ بالظَّرفِ.

﴿يَدۡعُوكُمۡ﴾ إلى الإيمانِ ببَعثِهِ إيَّانا ﴿لِيَغۡفِرَ لَكُم﴾ أو: يَدعوكُم إلى المغفرَةِ، كقولك: دَعَوْتُه ليَنْصُرَنِي، على إقامَةِ المَفعولِ له مُقامَ المفعولِ به.

﴿مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾: بعضَ ذُنوبِكُم، وهو ما بينكُم وبينَهُ؛ فإنَّ الإسلامَ يَجبُّه دونَ المَظالمِ.

وقيل: جيءَ بـ﴿مِّن﴾ في خطابِ الكفرَةِ دونَ المُؤمنينَ في جميعِ القُرآنِ تفرقةً بينَ الخِطابينِ، ولعلَّ المَعنى فيه: أنَّ المَغفِرَةَ حيثُ جاءَتْ في خطابِ الكُفَّارِ مرتَّبَةٌ[2] على الإيمانِ، وحيثُ جاءَتْ في خطابِ المُؤمنينَ مَشفوعَةٌ بالطَّاعةِ والتَّجنُّبِ عَن المَعاصِي ونحوِ ذلك فتتناوَلُ الخُروجَ عَن المَظالمِ.

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٣٢٧) عن طلحة بن مصرف.

(٢) في نسخة الخيالي: «مترتبة».

﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: إلى وقتٍ سَمَّاهُ اللهُ وجعلَهُ آخرَ أعمارِكُم.

﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ لا فضلَ لَكُم علينا، فلِمَ تُخَصُّونَ بالنبوَّةِ دونَنا، ولو شاءَ اللهُ أَنْ يبعثَ إلى البشرِ رُسُلًا لبَعَثَ مِن جنسٍ أفضَلَ.

﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ بهذه الدَّعوَى[1] ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ يدلُّ على فَضلِكُم واستِحقاقِكُم لهذه المَزِيَّةِ، أو على صِحَّةِ ادِّعائِكُم النبوَّةَ، كأَنَّهُم لم يَعتَبِرُوا ما جاؤوا به مِن البَيِّنَاتِ والحُجَجِ واقترحُوا عليهم آيةً أخرى تَعنتًا ولجاجًا.

(١١) - ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ سَلَّمُوا مُشارَكتَهُم في الجنسِ، وجَعَلُوا الموجِبُ لاختِصاصِهم بالنُّبوَّةِ فضلَ اللهِ ومَنَّهُ عليهِم، وفيه دليلٌ على أنَّ النبوَّةَ عَطائيَّةٌ، وأنَّ تَرجيحَ بَعضِ الجائزاتِ على بَعضٍ بمَشيئَةِ اللهِ تَعالى.

﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ليسَ إِلَينا الإتيانُ بالآياتِ ولا تَستبدُّ به استطاعتُنا حتى نَأتِيَ بما اقتَرَحْتُموهُ، وإنَّما هو أَمْرٌ يَتعلَّقُ بمشيئَةِ اللهِ تعالى فيَخُصُّ كُلَّ نَبِيٍّ بنوعٍ مِن الآياتِ.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: فلْنَتَوَكَّل عليه في الصَّبرِ[2] على مُعانَدَتِكُم ومُعادَاتِكُم.

عمَّموا الأمرَ للإشعارِ بما يوجبُ التَّوكُّلَ، وقصَدوا به أنفسَهُم قصدًا أوَّليًا، ألا تَرى قولَه:

---

(١) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «الدعوة».

(٢) في نسخة الخيالي والتفتازاني: «بالصبر»، والمثبت من نسخة الطبلاوي.

(١٢) - ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: أيُّ عذرٍ لَنا في أن لا نتوكَّلَ ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ التي بها نَعرِفُه، ونعلمُ أنَّ الأمورَ كلَّها بيَدِه.

وقرأ أبو عَمرٍو بالتَّخفيفِ هاهنا وفي (العَنكبوتِ)[1].

﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ جوابُ قَسمٍ مَحذوفٍ أكَّدُوا به توكُّلَهُم وعدمَ مُبالاتِهم بما يَجرِي من الكُفَّارِ عليهِم.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾: فلْيَثْبُت المُتوكِّلونَ على ما استحدَثوهُ مِن تَوكُّلِهِم المُسبَّبِ عَن إيمانِهِم.

(١٣) - ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ حَلَفُوا على أنْ يكونَ أحدُ الأمرينِ: إمَّا إخراجُهُم للرُّسُلِ، أو عَوْدُهُم إلى مِلَّتِهِم، وهو بمَعْنَى الصَّيرورةِ؛ لأنَّهُم لم يَكونُوا على مِلَّتِهِم قطُّ، ويجوزُ أَنْ يكونَ الخِطابُ لكلِّ رَسولٍ ولِمَن آمنَ مَعَه، فغلَّبوا الجماعةَ على الواحدِ.

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾؛ أي: إلى الرُّسُلِ ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على إضمارِ القَولِ، أو إجراءِ الإيحاءِ مُجراهُ لأنَّه نوعٌ مِنه.

(١٤) - ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾؛ أي: أرضَهُم ودِيارَهُم، كقولِه: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقُرِئَ: (ليُهْلِكَنَّ... وليُسكِنَنَّكُم) بالياءِ[2] اعتبارًا لـ﴿أَوْحَى﴾، كقولك: أقسمَ زَيدٌ ليَخرُجَنَّ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الموحَى به، وهو إهلاكُ الظَّالِمينَ وإسكانُ المُؤمنينَ.

---

(١) أي: ﴿سُبْلَنَا﴾ بسكون الباء. انظر: «التيسير» (ص: ٨٥).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٢) عن أبي حيوة.

﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾: مَوقِفِي، وهو الموقفُ الذي يقيمُ فيه العبادَ للحُكومَةِ يومَ القِيامَةِ، أو: قيامي عليه وحِفظي لأَعمالِه. وقيل: المقامُ مُقحَمٌ.

﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾؛ أي: وَعيدِي بالعَذابِ، أو: عَذابي المَوعودَ للكُفَّارِ.

(١٥) ـ ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ﴾: سَأَلُوا مِن اللهِ الفَتحَ على أَعدائِهم، أو القَضاءَ بينَهُم وبينَ أَعدائِهم، مِن الفُتاحةِ[1]، كقولِه: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وهو مَعطوفٌ على ﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾.

والضَّميرُ للأَنبياءِ، وقيل: للكفرَةِ، وقيل: للفَريقَيْنِ، فإنَّ كلَّهُم سألوهُ أن يَنصرَ المحقَّ ويُهلِك المبطِلَ، وقُرِئَ بلفظِ الأمرِ[2] عَطْفًا على ﴿لَنُهْلِكَنَّ﴾.

﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾؛ أي: ففتحَ لهم فأفلَحَ المُؤمنونَ وخابَ كلُّ جبارٍ عاتٍ مُتكبِّرٍ على اللهِ مُعانِدٍ للحقِّ فلَمْ يُفلِح، ومَعنى الخيبَةِ إذا كانَ الاستِفتاحُ مِن الكفرَةِ أو مِن القَبيلَينِ كانَ أوقعَ.

(١٦) ـ ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾؛ أي: مِن بينِ يديهِ فإنَّه مُرْصَدٌ[3] بها واقفٌ على شَفيرِها في الدُّنيا مَبعوثٌ إليها في الآخرةِ، وقيل: مِن وَراءِ حياتِه، وحقيقتُه: ما تَوارَى عنكَ.

﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ﴾ عطفٌ على محذوفٍ تَقديرُه: مِن وَرائِه جهنَّمُ يَلْقَى فيها ما يَلْقَى ويُسْقَى.

﴿صَدِيدٍ﴾ عطفُ بيانٍ لـ﴿مَّآءٍ﴾، وهو ما يسيلُ مِن جلودِ أَهْلِ النَّارِ.

---

(١) وهي الحكومة.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٨)، و«المحتسب» (١/ ٣٥٩)، عن ابن عباس ومجاهد وابن محيصن.

(٣) أي مترقِّب.

(١٧) ـ ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾: يَتكَلَّفُ جرعَهُ، وهو صِفَةٌ لـ﴿مَّآءٍ﴾، أو حالٌ مِن الضَّميرِ في ﴿وَيُسْقَىٰ﴾.

﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾: ولا يقارِبُ أَنْ يُسيغَهُ فكيفَ يُسيغُه؟ بل يَغَصُّ به فيطولُ عذابُه، والسَّوغُ: جوازُ الشَّرابِ على الحلقِ بسُهُولةٍ وقَبولِ نَفْسٍ.

﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾؛ أي: أسبابُه مِن الشَّدائدِ فتُحِيطَ به مِن جميعِ الجِهاتِ.

وقيل: مِن كلِّ مَكانٍ مِن جَسَدِه حتَّى مِن أُصولِ شَعرِهِ وإبهامِ رِجلِه.

﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ فيَستريحَ.

﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾: ومِن بينِ يديهِ ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾؛ أي: يَستقبلُ في كلِّ وقتٍ عَذابًا أشدَّ ممَّا هو عليه.

وقيل: هو الخلودُ في النَّارِ.

وقيل: حبسُ الأَنفاسِ.

وقيل: الآيةُ مُنقطِعَةٌ عَن قصَّةِ الرسلِ نازلةٌ في أَهلِ مَكَّةَ، طلبُوا الفتحَ الذي هو المطرُ في سِنِيهِم التي أرسلَ اللهُ عليهِم بدعوةِ رسولِه فخيَّبَ رجاءَهُم فلَمْ يَسْقِهِم، ووعدَ لَهُم أن يَسْقِيَهُم في جَهنَّمَ بدلَ سُقياهُم صديدَ أهلِ النَّارِ.

(١٨) ـ ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ مُبتدأٌ خبرُه مَحذوفٌ؛ أي: فيما يُتلَى عليكُمْ صِفَتُهُم التي هي مثلٌ في الغَرابةِ، أو قولُه: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ وهي على الأوَّلِ جملةٌ مُستأنفَةٌ لبيانِ مَثَلِهِم.

وقيل: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾ بدلٌ مِن المَثَلِ[1]، والخبرُ: ﴿كَرَمَادٍ﴾.

---

(١) أي: مثل أعمالهم.

﴿ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾: حَمَلَتْهُ وأسرَعَت الذَّهابَ به، وقرأ نافعٌ: ﴿الرِّياحُ﴾[1].

﴿فِي يَوۡمٍ عَاصِفٍ﴾ العَصْفُ: اشتِدادُ الرِّيحِ، وصَفَ به زمانَه للمُبالغَةِ، كقولِهم: نهارُهُ صائِمٌ وليلُهُ قائِمٌ، شبَّهَ صَنائِعَهُم مِن الصَّدقةِ وصِلَةِ الرَّحمِ وإغاثَةِ المَلهوفِ وعِتقِ الرِّقابِ ونحوِ ذلك مِن مَكارِمِهم في حُبوطِها لبنائِهَا على غَيرِ أساسٍ مِن مَعرفَةِ اللهِ والتوجُّهِ بها إليه، أو أعمالَهم للأَصنامِ، برمادٍ[2] طيَّرَتْهُ الريحُ العاصِفَةُ.

﴿لَّا يَقۡدِرُونَ﴾ يومَ القِيامَةِ ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ مِن أَعمالِهم ﴿عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ لحبوطِه، فلا يَرَونَ له أثرًا مِن الثَّوابِ، وهو فَذْلَكَةُ التَّمثيلِ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ضَلالِهم مع حسبانِهم أَنَّهُم مُحسِنونَ ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ فإنَّه الغايَةُ في البُعدِ عَن طريقِ الحقِّ.

(١٩) ـ ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ خطابٌ للنَّبيِّ، والمرادُ بِهِ أمَّتُه. وقيل: لكلِّ واحدٍ مِن الكفرةِ على التَّلوين.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾: بالحكمةِ والوجهِ الذي يحقُّ أن تُخلقَ عليه.

وقرأ حمزَةُ والكِسائيُّ: ﴿خالقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[3].

﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾: يُعْدِمْكُم ويَخْلُقْ خلقًا آخرَ مَكانَكُم، رتَّبَ ذلك على كونِه خالقًا للسَّماواتِ والأرضِ استِدلالًا به عليه، فإنَّ مَن خلقَ أُصولَهُم وما يتوقَّفُ عليه تَخليقُهُم ثمَّ كوَّنَهُم بتَبديلِ الصُّوَرِ وتَغييرِ الطَّبائعِ، قدَرَ أَنْ يبدِّلَهُم بخلقٍ آخرَ ولم يمتنِعْ عليه ذلك كمَا قال:

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ١٧٣)، و«التيسير» (ص: ٧٨).

(٢) قوله: «برماد» متعلق بـ«شَبَّه».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٦٢)، و«التيسير» (ص: ١٣٤).

(٢٠) ـ ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾: بمُتعذِّرٍ أو مُتعسِّرٍ، فإنَّه قادِرٌ لذاتِه لا اختصاصَ له بمَقدورٍ دونَ مَقدورٍ، ومَن هذا شأنُهُ كانَ حقيقًا بأن يؤمَنَ به ويُعبَدَ رجاءَ لثوابِهِ وخَوْفًا مِن عقابِه يومَ الجَزاءِ.

(٢١) ـ ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾؛ أي: يَبرزونَ مِن قُبورِهِم يومَ القِيامَةِ لأمرِ اللهِ ومُحاسبتِه، أو للهِ على ظَنِّهِم فإنَّهُم كانوا يُخفونَ ارتكابَ الفَواحشِ ويَظنُّونَ أنَّها تَخْفَى على اللهِ، فإذا كانَ يومُ القيامَةِ انكشَفُوا للهِ عندَ أَنفُسِهِم، وإنَّما ذُكرَ بلفظِ الماضي لتحقُّقِ وُقوعِه.

﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ ﴾: الأتباعُ، جمعُ ضَعيفٍ، يريدُ به ضِعافَ الرَّأيِ، وإنَّما كتبَ بالواوِ على لَفظِ مَن يُفخِّمُ الأَلِفَ قبلَ الهمزَةِ فيُميلُها إلى الواوِ.

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ ﴾: لرُؤسائِهِم الذين استَتْبَعُوهُم واستَغْوَوْهُم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ في تكذيبِ الرُّسلِ والإعراضِ عَن نَصائِحِهِم، وهو جمعُ تابعٍ، كغَائبٍ وغَيَبٍ، أو مصدرٌ نُعِتَ به للمُبالغةِ، أو على إضمارِ مُضافٍ.

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا ﴾: رافعونَ عنَّا ﴿مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾، ﴿مِنْ ﴾ الأولى للبَيانِ واقعةٌ مَوقِعَ الحالِ، والثَّانِيَةُ للتَّبعيضِ واقِعَةٌ موقِعَ المَفعولِ؛ أي: بعضَ الشَّيءِ الذي هو عذابُ اللهِ.

ويجوزُ أَنْ تَكُونَا للتَّبعيضِ؛ أي: بعضَ شيءٍ هو بعضُ عَذابِ اللهِ، والإعرابُ ما سبقَ.

ويحتملُ أن تكونَ الأولى مَفْعولًا والثَّانيةُ مَصْدرًا؛ أي: فهَلْ أَنتُمْ مُغنونَ بعضَ العَذابِ بعضَ الإغناءِ.

﴿قَالُوا۟ ﴾؛ أي: الذين استكْبَروا جوابًا عن مُعاتبةِ الأتباعِ واعتذارًا عمَّا فعَلُوا

بهم: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ للإيمانِ ووفَّقَنا له ﴿لَهَدَيْنَـٰكُمْ﴾ ولكن ضَلَلنا فأَضْلَلناكُم؛ أي: اختَرْنا لَكُم ما اخترناهُ لأَنفُسِنا.

أو: لو هَدانا اللهُ طريقَ النَّجاةِ مِن العَذابِ لهَديناكُم وأغنيناه عَنْكُم كما عَرَّضْناكُم له، لكن سُدَّ دونَنا طريقُ الخَلاصِ.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ مَستوِيَانِ علينا الجَزَعُ والصَّبرُ ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ مَنْجًى ومَهْرَبٍ مِن العَذابِ، مِن الحَيْصِ، وهو العُدولُ على جِهَةِ الفِرارِ، وهو يحتمِلُ أَنْ يكونَ مَكانًا كالمَبيتِ، ومصدرًا كالمغيبِ.

ويجوزُ أن يكونَ قولُه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ﴾ من كلامِ الفريقينِ، ويؤيِّدُه ما رُوِيَ أَنَّهُم يقولون: تَعالَوا نَجزَعْ، فيَجْزَعونَ خمسَ مئة عامٍ فلا ينفعُهُم فيقولون: تعالَوا نَصبِرْ، فيَصبِرُونَ كذلك ثمَّ يقولون: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ﴾[1].

(٢٢) - ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾: أُحكِمَ[2] وفُرِغَ مِنْه، ودخلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ وأهلُ النَّارِ النَّارَ، خَطِيبًا في الأشقياءِ مِن الثَّقلينِ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾: وَعْدًا مِن حقِّه أَنْ يُنجَزَ، أو: وَعْدًا أنجزَهُ وهو الوَعْدُ بالبَعثِ والجزاءِ ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ وعدَ الباطلِ[3]، وهو أنْ لا بعثَ ولا حِسابَ، وإن كانا فالأَصنامُ تشفعُ لَكُم ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ جعلَ تبيُّنَ خُلفِ وَعدِهِ كالإخلافِ مِنْه.

---

(١) لم أقف فيه على خبر مرفوع أو موقوف، وإنما ورد في «تفسير مقاتل» (٢/ ٤٠٣)، وذكره عن مقاتل الثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٣٦٩). وروى الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٢٧ ـ ٦٢٨) معناه عن ابن زيد.

(٢) في نسخة التفتازاني: «حكم».

(٣) في نسخة التفتازاني: «الأباطيل».

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾: تَسلُّطٍ فأُلجِئَكُم إلى الكُفرِ والمَعاصي ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾: إلَّا دُعائي إيَّاكُم إليهَا بتَسويلي[1].

وهو ليسَ مِن جنسِ السُّلطانِ، ولكنَّهُ على طريقَةِ قَولِهم:

تَحِيَّـــةُ بَيْنِهِـــم ضَـــرْبٌ وَجِيـــعُ[2]

ويجوزُ أَنْ يكونَ الاستثناءُ مُنقَطِعًا.

﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾: أَسْرَعْتُم إجابَتِي ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ بوَسْوَسَتِي، فإنَّ مَن صَرَّحَ العَداوةَ لا يُلامُ بأَمثالِ ذلك ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ حيثُ أَطَعْتُمُونِي إذ دَعَوْتُكُم ولم تُطيعوا ربَّكُم لَمَّا دعاكُم.

واحتَجَّت المُعتزِلَةُ بأمثالِ ذلك على استقلالِ العَبدِ بأَفعالِه، وليسَ فيها ما يدلُّ عليه؛ إذ يَكفي لصِحَّتِها أن يكونَ لقُدرَةِ العَبدِ مدخلٌ ما في فعلِهِ، وهو الكسبُ الذي يقولُه أَصحابُنا.

﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾: بمُغيثِكُم مِن العَذابِ ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾: بمُغيثيَّ.

وقرأَ حمزَةُ بكسرِ اليَاءِ[3] على الأصلِ في التقاءِ السَّاكِنَينِ، وهو أصلٌ مَرفوضٌ في مثلِهِ لِمَا فيهِ مِن اجتماعِ ياءَينِ وثلاثِ كَسراتٍ[4]، مع أنَّ حركَةَ ياءِ الإضافةِ الفَتحُ،

---

(١) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «بتسويلٍ».

(٢) عجز بيت لعمرو بن معدي كرب. انظر: «الكتاب» (٣/ ٥٠)، و«النوادر» لأبي زيد (ص: ٤٢٨)، و«الخزانة» (٩/ ٢٦٥)، وقال البغدادي: ولم أره في شعره. وقد تقدم مراراً.

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٦٢)، و«التيسير» (٢: ١٣٤).

(٤) قال الخفاجي في «حاشيته»: طعن في هذهِ القراءَةِ الزَّجَّاج رحمَه اللهُ، واستضعفها تبعًا للفراء، وتبعَهُ الزَّمخشريّ، والمُصنِّفُ رحمَه اللهُ ـ يعني البيضاوي ـ والإمام ـ يعني الرازي ـ، وهوَ وهم منهم؛ فإنَّها قراءَةٌ مُتواتِرَةٌ عن السلف، والخلف، فلا يجوزُ أن يقال إنَّها خطا أو قبيحَة، وقد وجهت بأنَّها لغَة بني =

فإذا لم تُكسَر وقبلَها ألِفٌ فبالحريِّ أنْ لا تُكسرَ وقبلَها ياءٌ، أو على لُغَةِ مَن يزيدُ ياءً على ياءِ الإضافةِ إجراءً لها مُجرى الهاءِ والكافِ في: ضربتُه وأَعْطَيْتُكَهُ(١)، وحذف الياء اكتفاءً بالكسرةِ(٢).

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ (ما) إمَّا مَصدريَّةٌ و﴿مِن﴾ مُتعلِّقَةٌ بـ﴿أَشْرَكْتُمُونِ﴾؛ أي: كَفرْتُ اليومَ بإشراكِكُم إيَّايَ مِن قبلِ هذا اليومِ؛ أي: في الدُّنيا، بمَعنى: تبرَّأْتُ مِنه واستَنْكَرْتُه، كقَولِه: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

أو مَوصولَةٌ بمعنى (مَن) نحو (ما) في قولهم: (سبحانَ ما سَخَّرَكُنَّ لنا)، و﴿مِن﴾ مُتعلِّقَةٌ بـ﴿كَفَرْتُ﴾؛ أي: كفرتُ بالذي أشركتُمُونيهِ ـ وهو الله تعالى ـ بطاعَتِكُم إيَّايَ فيما دَعَوْتُكُم إليه مِن عِبادةِ الأَصنامِ وغيرِها مِن قبلِ إشراكِكُم حينَ رددْتُ أمرَهُ بالسُّجودِ لآدمَ. و(أشرك) منقولٌ مِن شَرِكْتُ زيداً للتَّعدِيَةِ إلى مَفعولٍ ثانٍ.

= يربوع كما نقلَه قُطْرُب، وأبو عمرو ونحاة الكوفَة. وانظر ردَّ أبي حيان كذلك في «البحر المحيط» (١٣/ ١٦٦).

(١) في نسخة الخيالي: «وأعطيتك».

(٢) قوله: «إجراء لها» تعليلٌ لصحة قراءةِ حمزةَ «مجرى الهاء والكاف في ضربته وأعطيتكه»؛ أي: في أن كلاً من هاء الضمير وكافِه يُتبعُ بحرف لِيْنٍ من حركته يُسمَّى صِلةً، فيقال في الهاء: لهو وبهي، وفي الكاف: أعطيتكاه وأعطيتكيه، «وحذف الياء اكتفاء بالكسرة» فيه معَ ما قبلَه خفاءٌ، وتحريرُه ما قاله غيره: إن أصلَ (مُصرِخيِّ): مُصْرِخِيِيي بثلاث ياءات: ياءِ الجمع، وياءِ الإضافة، وياءِ الصلة، لكنها حُذِفت لاجتماع الياءات، وبقيت الكسرةُ لتدلَّ على الياء المحذوفة كما في عليهِ وإليهِ، وإنما كُسِرت الياء لاجتماع سكونِ ياء الجمعِ وياء المتكلِّم بعدَ سقوط النون بالإضافة، فحُرِّكَت ياءُ المتكلِّم بالكسر على الأصل في التحريك لالتقاء الساكنين. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٣٧١).

﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تتمَّةُ كلامِهِ، أو ابتداءُ كلامٍ مِن اللهِ تَعالى، وفي حكايَةِ أمثالِ ذلك لطفٌ للسَّامعينَ، وإيقاظٌ لَهُم حتى يُحاسِبوا أنفُسَهُم ويَتدبَّرُوا عواقِبَهُم.

(٢٣) ـ ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾: بإذنِ اللهِ وأمرِهِ، والمُدخِلُونَ هم الملائكَةُ.

وقُرِئَ: (أُدْخِلُ) على التكلُّمِ[1]، فيكونُ قولُه: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ مُتعلِّقًا بقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾؛ أي: تُحيِّيهِم المَلائكَةُ بالسَّلامِ بإذنِ رَبِّهِم.

(٢٤) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ كيفَ اعتمدَهُ ووَضعَهُ ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾؛ أي: جعلَ كلمَةً طيِّبَةً كشَجرةٍ طَيِّبَةٍ، وهو تَفسيرٌ لقولِه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾.

ويَجوزُ أَنْ تكونَ ﴿كَلِمَةً﴾ بدلًا مِن ﴿مَثَلًا﴾ و﴿كَشَجَرَةٍ﴾ صِفتَها أو خبرَ مُبتدأٍ مَحذوفٍ؛ أي: هي كشَجرةٍ، وأن تكونَ أوَّلَ مفعولَيْ ﴿ضَرَبَ﴾ إجراءً له مُجرى (جعلَ).

وقد قُرِئَت بالرَّفعِ على الابتداءِ[2].

﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ في الأرضِ ضاربٌ بعُروقِه فيها ﴿وَفَرْعُهَا﴾: وأعلاها ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٢)، و«المحتسب» (١/ ٣٦١)، عن الحسن وعمرو بن عبيد.

(٢) أي: (كلمةٌ). ذكرها العكبري في «التبيان» (٢/ ٧٦٨) دون نسبة.

ويجوزُ أَنْ يريدَ: وفروعُها؛ أي: أَفْنانُها، على الاكتفاءِ بلفظِ الجنسِ لاكتِسابِه[١] الاستغراقَ مِن الإضافةِ.

وقرئ: (ثابتٍ أَصلُها)[٢]، والأَوَّلُ علـى أَصلِه، ولذلك قيل: إنَّه أَقْوى، ولعلَّ الثَّاني أبلَغُ[٣].

(٢٥) ـ ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا﴾: تُعطي ثَمرَها ﴿كُلَّ حِينٍۭ﴾ وقَّتَهُ اللهُ لإثمارِهَا ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾: بإرادَةِ خالِقِهَا وتكوينِه.

﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لأنَّ في ضَربِهَا زيادةَ إفهامٍ وتَذكيرٍ، فإنَّه تَصويرٌ للمَعاني وإدناءٌ لها مِن الحسِّ.

(٢٦) ـ ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ﴾: كمثلِ شَجرَةٍ ﴿خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ﴾: استُؤصِلَتْ وأُخِذَت جُثَّتُه في الكُلِّيَّةِ ﴿مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ لأنَّ عُروقَهَا قَريبَةٌ منه ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾: استقرار.

واختلفَ في الكلمَةِ والشَّجرَةِ؛ ففُسِّرَت الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ بكلمَةِ التَّوحيدِ ودعوةِ الإسلامِ والقُرآنِ، والكلمَةُ الخَبيثَةُ بالإشراكِ باللهِ والدُّعاءِ إلى الكُفرِ وتكذيبِ الحَقِّ،

---

(١) في نسخة التفتازاني: «لاكتسابها».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القرآن» (ص: ٧٢)، و«المحتسب» (١/ ٣٦٢)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) قوله: «والأول»؛ أي: من القراءتين «على أصله»؛ أي: وضعِه من حيثُ إفادةُ المعنى الأقوى؛ لأن في قراءة أنس أُجريت الصفةُ على الشجرة، وإذا قلتَ: (مررتُ برجلٍ أبوه قائمٌ) فهو أقوى معنًى من قولك: (مررتُ برجلٍ قائمٍ أبوه) لأن المخبَر عنه إنما هو الأبُ لا رجل، وهذا ما في «الكشاف» (٤/ ٤٤٢)، وقد حكاه المصنف مع ترجيحِه خلافَه بقوله: «ولذلك قيل: إنه أقوى، ولعل الثاني أبلغ». انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٣٧١).

ولعلَّ المُرادَ بهمَا ما يَعُمُّ ذلك، فالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ ما أَعربَ عَن حقٍّ أو دَعا إلى صَلاحٍ، والكَلِمَةُ الخبيثَةُ ما كانَ على خلافِ ذلك.

وفُسِّرَت الشَّجرةُ الطَّيِّبَةُ بالنَّخلةِ، ورُوِيَ ذلكَ مَرفوعًا(١)، وبشَجرةٍ في الجنَّةِ(٢)، والخبيثَةُ بالحَنْظَلَةِ، والكَشُوثِ(٣)، ولعلَّ المُرادَ بهما أيضًا ما يعمُّ ذلك.

(٢٧) ـ ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾: الذي ثبتَ بالحُجَّةِ عِندَهُم وتَمكَّنَ في قلوبِهِم.

﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ فلا يَزِلُّونَ إذا افتُتِنُوا(٤) في دينِهِم كزَكرِيَّاءَ ويَحيَى وجرجيسَ وشَمسُونَ(٥) والذين فتَنَهُم أَصحابُ الأُخدودِ.

---

(١) رواه الترمذي (٣١١٩)، والنسائي في «الكبرى» (١١١٩٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٧٥)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣٤١).
ورواه البخاري (١٣١) و(٤٦٩٨) و(٦١٤٤)، ومسلم (٢٨١١). وابن حبان في «صحيحه» (٢٤٣)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٤٢)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٤١) عن ابن عباس رضي الله عنهما. وصوَّب الطبري قولَ مَن قال: (هي النَّخْلَةُ) لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ.

(٣) قوله: «والكشوث»، بالثاء المثلثة: نبت يتعلق بأغصان الشجر من غير أن يضرب بعرق في الأرض. انظر: «الصحاح» (مادة: كشث).

(٤) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «إذا فتنوا».

(٥) روى قصته الطبري في «التاريخ» (٢/ ٢٢) عن وهب وملخصها: أنه كان من أهل قرية من قرى الروم، قد هداه الله لرشده، وكان قومه أهل أوثان يعبدونها، وكان منزله منها على أميال غير كثيرة، وكان يغزوهم وحده ويجاهدهم في الله، وكان قد أعطي قوة في البطش، وكان لا يوثقه حديد ولا غيره، وكان على ذلك يجاهدهم في الله ويغزوهم، ويصيب منهم حاجته، لا يقدرون منه على شيء، فأخذوه بالحيلة من قِبَل امرأته، فلما نام أوثقت يده إلى عنقه بشعر رأسه، فأوثقه ذلك، وبعثت إلى =

﴿وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ فلا يَتلَعْثَمُونَ إذا سُئِلُوا عَن مُعتقَدِهِم في المَوقِفِ، ولا تُدهِشُهُم أهوالُ[1] القيامَةِ، ورُوِيَ أنَّه عليهِ السَّلامُ ذكرَ قبضَ روحِ المُؤمنِ فقال: «ثمَّ تُعادُ رُوحُهُ في جَسَدِهِ فيأتيهِ مَلَكانِ فيُجلِسَانِه في قَبرِهِ ويَقُولانِ له: مَن ربُّكَ، وما دِينُكَ، ومَن نَبيُّكَ؟ فيقول: ربِّي اللهُ ودِيني الإسلامُ ونَبِيِّي محمَّدٌ، فيُنادِي مُنادٍ مِن السَّماءِ: أنْ صدَقَ عَبْدِي، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾»[2].

﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: الذينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُم بالاقتصارِ على التَّقليدِ فلا يهتدونَ إلى الحَقِّ ولا يَثْبُتونَ في مواقفِ الفِتَنِ.

﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ مِن تَثبيتِ بَعضٍ وإِضلالِ آخرينَ مِن غيرِ اعتراضٍ عليه.

(٢٨) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾؛ أي: شُكرَ نِعمَتِه كفرًا بأَنْ وَضعوهُ مَكانَهُ، أو بدَّلُوا نفسَ النِّعمَةِ كُفْرًا، فإنَّهُم لَمَّا كَفَرُوها سُلِبَتْ مِنْهُم فصاروا تاركينَ لها مُحَصِّلينَ للكُفْرِ بدلَها، كأَهلِ مَكَّةَ خلَقَهُم اللهُ وأَسْكَنَهُم حَرمَهُ وجَعَلَهُم قوامَ بيتِهِ ووسَّعَ عَلَيْهِم أبوابَ رِزْقِه وشَرَّفَهُم بمُحمَّدٍ ﷺ فكَفَروا ذلك، فقُحِطُوا سبعَ سِنينَ وأُسِرُوا وقُتِلُوا يومَ بَدرٍ، وصارُوا أَذِلَّاءَ فبقُوا مَسلوبي النِّعمَةِ موصوفينَ بالكُفْرِ.

= القوم، فجاءوا فأخذوه، فجدعوا أنفه وأذنيه، وفقؤوا عينيه، ووقفوه للناس بين ظهراني المئذنة ـ وكانت مئذنة ذات أساطين، وكان ملكهم قد أشرف عليها بالناس لينظروا إلى شمسون وما يصنع به ـ فدعا اللهَ شمسونُ حين مَثَلوا به ووقفوه أن يسلطه عليهم، فأُمر أن يأخذ بعمودين من عمد المئذنة التي عليها الملك والناس الذين معه فيجذبهما، فجذبهما فرد الله عليه بصره وما أصابوا من جسده، ووقعت المئذنة بالملك ومَن عليها من الناس، فهلكوا فيها هدماً.

(١) في نسخة الخيالي: «ولا تدهشهم أحوال».

(٢) رواه أبو داود (٤٧٥٣)، وبنحوه الحاكم في «المستدرك» (١٠٧) مطولًا، وسكت عنه الذهبي في «التلخيص»، ونقل ابن حجر في «فتح الباري» (٣/ ٢٣٤) عن أبي عوانة وغيره تصحيحه. ورواه مختصراً البخاري (١٣٦٩)، ومسلم (٢٨٧١).

وعَن عُمَرَ وعَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما: همُ الأفجرانِ مِن قُريشٍ: بَنُو المغيرةِ وبنُو أُميَّةَ، فأمَّا بنو المغيرَةِ فكُفِيتُمُوهُم يومَ بَدرٍ، وأمَّا بنو أُميَّةَ فمُتِّعوا إلى حينٍ[1].

﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ﴾ الذين شايَعُوهُم في الكفرِ ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾: دارَ الهَلاكِ بحَمْلِهِم على الكُفرِ.

(٢٩) - ﴿جَهَنَّمَ﴾ عطفُ بيانٍ لها ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ حالٌ مِنْها، أو مِن القَوْمِ؛ أي: داخلينَ فيها مُقاسِينَ لحرِّهَا، أو مُفسِّرٌ لفعلٍ يقدَّرُ ناصبًا لـ﴿جَهَنَّمَ﴾.

﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾؛ أي: وبئسَ المقرُّ جهنَّمُ.

(٣٠) - ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الذي هو التَّوحيدُ. وقرأَ ابنُ كَثيرٍ وأبو عَمرٍو ورُوَيسٌ عَن يعقوبَ بفَتحِ اليَاءِ[2]، وليسَ الضَّلالُ ولا الإضلالُ غرضَهُم في اتخاذِ الأَندادِ، لكنْ لَمَّا كان نتيجتَهَ جُعِلَ كالغَرضِ.

﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ﴾ بشَهَواتِكُم، أو بعِبادَةِ الأَوثانِ فإنَّها مِن قَبيلِ الشَّهواتِ التي يُتمتَّع بها، وفي التَّهديدِ بصِيغَةِ الأَمرِ إيذانٌ بأنَّ المُهدَّدَ عليه كالمَطلوبِ لإفضائِه إلى المهدَّدِ به، وأنَّ الأَمْرينِ كائنانِ لا مَحالةَ، ولذلك علَّلَه بقولِه: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾، وأنَّ المُخاطبَ لانهماكِه فيهِ كالمَأمورِ بهِ مِن آمرٍ مُطاعٍ.

(٣١) - ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ خصَّهُم بالإضافةِ تَنويهًا لهم، وتنبيهًا على أَنَّهُم المقيمونَ لحُقوقِ العُبوديَّةِ، ومَقُولُ ﴿قُل﴾ محذوفٌ يدلُّ عليهِ جَوابُه؛ أي: قُلْ لعِبادِيَ الذين آمنوا أقيمُوا الصَّلاةَ وأَنفِقوا ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ﴾

---

(١) رواه عن عمر رضي الله عنه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٧٠). ورواه عن علي رضي الله عنه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٤١٠)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٧٠).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٧)، و«التيسير» (ص: ١٣٤)، و«النشر» (٢/ ٣٩٩).

فيكونُ إيذانًا بأَنَّهُم لفرطِ مُطاوعَتِهِم الرَّسولَ عليهِ السَّلامُ بحيثُ لا ينفكُّ فِعلُهُم عَن أَمْرِه، وأنَّه كالسَّببِ الموجِبِ له، ويجوزُ أن يُقَدَّرَا بلامِ الأَمرِ لِيَصِحَّ تعلُّقُ القَولِ بهمَا، وإِنَّما حَسُنَ ذلك هاهنا ولَمْ يَحْسُن قولُه:

مُحَمَّدُ تَفْدِ نَفْسَكَ كُلُّ نَفْسٍ ... إِذَا مَا خِفْتَ مِنْ أَمْرٍ تَبَالَا[1]

لدلالَةِ ﴿قُل﴾ عليه.

وقيل: هُمَا جَوابَا (أَقيمُوا) و(أَنفِقُوا) مُقامَيْنِ مُقامَهُما، وهو ضعيفٌ؛ لأَنَّه لا بُدَّ مِن مُخالفَةٍ ما بين الشَّرطِ وجَوابِه، ولأنَّ أمرَ المُواجهَةِ لا يُجابُ بلفظِ الغَيبةِ إذا كان الفاعلُ واحِدًا.

﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ مُنتَصبانِ على المَصدَرِ؛ أي: إنفاقَ سِرٍّ وعَلانِيَةٍ، أو على الحال؛ أي: ذَوِي سرٍّ وعلانيةٍ، أو على الظَّرفِ؛ أي: وقتَيْ سِرٍّ وعَلانِيَةٍ. والأحبُّ إعلانُ الواجبِ وإخفاءُ المتطوَّعِ بِهِ.

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ فيبتاعَ المقصِّرُ ما يتداركُ به تَقصيرَهُ أو يَفْدي به نفسَه.

﴿وَلَا خِلَالٌ﴾ ولا مخالَّةَ فيشفعَ لكَ خليلٌ[2].

أو: مِن قبلِ أن يأتيَ يومٌ لا انتفاعَ فيه بمبايعَةٍ ولا مخالّةٍ، وإنما يُنتفَعُ فيه بالإنفاقِ لوَجهِ اللهِ تعالى.

وقرأَ ابنُ كَثيرٍ وأبو عَمرٍو ويعقوبُ بالفتحِ فيهِما[3] على النَّفيِ العامِّ.

---

(١) انظر: «الكتاب» (٣/ ٨)، و«المقتضب» (٢/ ١٣٢)، و«سر صناعة الإعراب» (١/ ٣٩١)، وعزاه ابن هشام في «شرح شذور الذهب» (ص: ٢٧٥) لأبي طالب.

(٢) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «خليلك».

(٣) أي: (لا بيعَ... ولا خلالَ)، انظر: «السبعة» (ص: ١٨٧)، و«التيسير» (ص: ٨٢)، و«النشر» (٢/ ٢١١).

(٣٢) ـ ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ مبتدأٌ وخَبرٌ ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ تَعيشونَ به، وهو يَشتَمِلُ المطعومَ والمَلبوسَ، وهو مفعولٌ لـ(أَخْرجَ).

و﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ بيانٌ له وحالٌ منه، ويحتمِلُ عكسَ ذلك، ويجوزُ أَنْ يُرادَ بِهِ المصدَرُ فيَنتصِبَ بالعِلَّةِ، أو المصدرِ لأنَّ (أخرج) في مَعنى: رَزَقَ.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾: بمَشيئَتِه إلى حيثُ تَوجَّهْتُم.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴾ فجعَلَهَا مُعدَّةً لانتِفاعِكُم وتَصرُّفِكُم.

وقيل: تسخيرُ هذه الأشياءِ: تَعليمُ كيفيَّةِ اتِّخاذِهَا.

(٣٣) ـ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ﴾ يَدْأبانِ في سَيرِهِما وإنارَتِهما وإِصلاحِ ما يُصلِحَانِه مِن المُكوَّناتِ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ يَتعاقبانِ لسُباتِكُم ومَعاشِكُم.

(٣٤) ـ ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾؛ أي: بعضَ جميعِ ما سَألتُمُوه؛ يعني: مِن كلِّ شيءٍ سألتموهُ شيئًا، فإنَّ الموجودَ مِن كلِّ صنفٍ بعضُ ما في قُدرةِ اللهِ، ولعلَّ المرادَ بـ﴿مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾: ما كانَ حقيقًا بأنْ يُسأَلَ لاحتياجِ النَّاسِ إليه سُئِلَ أو لَمْ يُسأَلْ.

و﴿مَا﴾ يحتملُ أَنْ تكونَ مَوصولَةً ومَوصوفَةً ومَصدريَّةً، ويكونُ المصدَرُ بمَعنى المفعولِ.

وقُرِئَ: (مِن كلٍّ) بالتَّنوين[1]؛ أي: وآتاكم مِن كلِّ شيءٍ ما احتَجْتُم إليه وسَألتموهُ

---

(١) نسبت لابن عباس والحسن والضحاك ومحمد بن علي وجعفر بن محمد وغيرهم. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٨)، و«المحتسب» (١/ ٣٦٣).

بِلسانِ الحالِ، ويجوزُ أن تكونَ ﴿مَا﴾ نافيَةً في مَوضعِ الحال؛ أي: وآتاكُمْ مِن كلِّ شَيءٍ غيرَ سائِليه.

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾: لا تَحصرُوهَا ولا تُطيقُوا عدَّ أَنواعِهَا فَضْلًا عن أفرادِهَا فإنَّها غيرُ مُتناهِيَةٍ، وفيهِ دَليلٌ على أنَّ المُفرَدَ يُفيدُ الاستغراقَ بالإضافَةِ.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ﴾ يَظلِمُ النِّعمَةَ بإغفالِ شُكرِهَا، أو: يَظلِمُ نفسَهُ بأن يُعرِّضَها للحِرمانِ.

﴿كَفَّارٌ﴾ شديدُ الكُفرانِ، وقيل: ظلومٌ في الشدَّةِ يَشكو ويَجزَعُ، كَفَّارٌ في النِّعمَةِ يَجمَعُ ويَمنَعُ.

(٣٥) - ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ بلدةَ مكَّةَ ﴿ءَامِنًا﴾: ذا أمنٍ لِمَن فيهَا، والفرقُ بينَهُ وبينَ قوله: ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦]: أنَّ المسؤولَ في الأوَّلِ إزالَةُ الخوفِ عنه وتَصييرُه آمِنًا، وفي الثَّاني جعلُهُ مِن البلادِ الآمنَةِ.

﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ﴾: بَعِّدْنِي وإيَّاهُم ﴿أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾: واجعلْنَا مِنهم في جانبٍ.

وقُرِئَ: (وأَجْنِبْنِي)(١)، وهما على لُغَةِ نَجدٍ، وأمَّا أَهلُ الحِجازِ فيَقولون: جَنِّبْنِي شرَّهُ.

وفيه دَليلٌ على أنَّ عِصمةَ الأنبياءِ بتَوفيقِ اللهِ وحِفظِه إيَّاهُم، وهو بظاهرِه لا يَتناوَلُ أحفادَهُ وجميعَ ذُرِّيَّتِه، وزعمَ ابنُ عُيينَةَ أنَّ أولادَ إسماعيلَ لم يعبُدُوا الصَّنَمَ

---

(١) نسبت للجحدري وعيسى الثقفي وابن يعمر. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٣)، و«المحتسب» (١/ ٣٦٣)، و«البحر» (١٣/ ١٩٤).

مُحْتَجًّا به، وإنَّما كانَتْ لهم حِجارَةٌ يَدورونَ بها ويُسمُّونَها: الدُّوَارَ، ويقولون: البيتُ حَجَرٌ فحيثُمَا نَصَبْنَا حَجَرًا فهو بمَنزِلَتِه[1].

(٣٦) ـ ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ فلذلك سألتُ مِنكَ العِصمَةَ واستَعَذْتُ بكَ مِن إضلالِهِنَّ. وإسنادُ الإضلالِ إليهنَّ باعتبارِ السَّببيَّةِ، كقولِه: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠].

﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾ على دِيني ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾؛ أي: بَعْضِي لا يَنفَكُّ عَنِّي في أَمرِ الدِّينِ.

﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تقدِرُ أَنْ تَغفِرَ لهُ وتَرحمَهُ ابتداءً، أو بعدَ التَّوفيقِ للتَّوبَةِ، وفيهِ دَليلٌ على أنَّ كُلَّ ذَنبٍ فللّهِ أَنْ يَغفِرَه حتَّى الشِّرك، إلا أنَّ الوَعيدَ فرَّقَ بينَهُ وبينَ غَيرِهِ.

(٣٧) ـ ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى﴾؛ أي: بعضَ ذُرِّيتي، أو: ذُريَّةً مِن ذُرِّيتي، فحُذِفَ المفعولُ وهم إسماعيلُ ومَن وُلِدَ منه، فإنَّ إسكانَه مُتضمِّنٌ لإسكانِهم.

﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ يعني: وادي مكَّةَ، فإنها حَجَرِيَّةٌ لا تُنبِتُ.

﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ الذي حرَّمْتَ التعرُّضَ له والتَّهاوُنَ به، أو: لم يَزَلْ مُعظَّمًا ممنَّعًا[2] يَهابُه الجبابرةُ، أو: منعَ منه الطُّوفانَ فلم يَستولِ عليه ولذلك سُمِّيَ عتيقًا؛ أي: أُعتِقَ منه.

ودعا بهذا الدُّعاءِ أَوَّلَ ما قَدِمَ، فلعلَّهُ قال ذلك باعتبارِ ما كان[3] أو ما سيؤولُ إليه.

---

(١) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٤٥٢).

(٢) في نسخة الخيالي: «ممتنعًا».

(٣) بعدها في نسخة الخيالي زيادة: «عليه».

رُوي: أنَّ هاجرَ كانَتْ جاريةً لسارةَ، فوَهَبَتْها إبراهيمَ عليه السَّلام فولدَتْ منه إسماعيلَ، فغارَتْ عليهما فناشَدَتْه أن يُخرِجَهُما مِن عندِها، فأخرجَهُمَا إلى أرضِ مكَّةَ، فأظهرَ اللهُ عينَ زَمْزَمَ، ثمَّ إنَّ جُرْهُمَ رأَوْا ثَمَّ طيورًا فقالوا: لا طيرَ إلا على الماءِ، فقصدوهُ فرأوهُما وعندَهُما عينُ ماء، فقالوا: أَشْرِكينا في مائكِ نُشْرِكْكِ في أَلبانِنا، ففَعَلَتْ[1].

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ اللامُ لامُ كَيْ، وهي مُتعلِّقَةٌ بـ﴿أَسۡكَنتُ﴾؛ أي: ما أسكنتُهُم بهذا الوادي البَلْقَعِ[2] مِن كلِّ مُرتفَقٍ ومُرتزَقٍ إلا لإقامةِ الصَّلاةِ عندَ بيتكَ المُحرَّمِ، وتكريرُ النِّداءِ وتَوسيطُه للإشعارِ بأنَّها المقصودةُ بالذَّاتِ مِن إسكانهم ثَمَّ، والمقصودُ مِن الدُّعاءِ تَوفيقُهُم لها.

وقيل: اللامُ لامُ الأَمرِ، والمرادُ هو الدُّعاءُ لهم بإقامةِ الصَّلاةِ، كأنَّه طلبَ مِنْهُم الإقامةَ وسأَلَ مِن اللهِ أَنْ يُوَفِّقَهُم[3] لها.

﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: أفئدةً مِن أَفئدَةِ النَّاسِ، و﴿مِّنَ﴾ للتَّبعيضِ، ولذلك قيل: لو قال: (أفئدةَ النَّاسِ) لازدَحَمَتْ عليهم فارسُ والرُّومُ ولحجَّتِ اليَهودُ والنَّصارَى.

أو للابتداءِ كقولك: القلبُ مِنِّي سَقيمٌ؛ أي: أفئدَةَ ناسٍ.

وقرأ هشام: ﴿أَفْئِيدَةً﴾ بخُلْفٍ عنه، بياءٍ بعد الهمزة[4].

---

(١) لم أجده هكذا لكن رواه البخاري (٣٣٦٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه: فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم، ولكنْ لا حقَّ لكم في الماء، قالوا: نعم.

(٢) الأَرضُ القَفْراءُ التي لا شيءَ بها.

(٣) في نسخة التفتازاني: «توفيقهم».

(٤) انظر: «التيسير» (ص: ١٣٥). ولم يذكرها ابن مجاهد في «السبعة».

وقُرِئَ: (آفِدَةً)[١]، وهو يحتمل أن يكونَ مَقلوبَ أَفْئِدَة، كآدُرٍ في أَدْؤُرٍ، وأن يكونَ اسمَ فاعلٍ مِن أَفِدَتِ الرِّحلة: إذا عَجِلَت؛ أي: جماعةً يعجلونَ نحوَهُم.

و(أَفِـدَةً) بطـرحِ الهمـزةِ للتَّخفيـفِ[٢]، وإن كانَ الوَجـهُ فيه إخراجَهـا بينَ بينَ، ويجـوزُ أن يكونَ مِـن أَفِدَ.

﴿تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾: تُسرِعُ إليهِمْ شوقًا ووِدادًا.

وقُرِئَ: (تُهوَى) على البناءِ للمَفعولِ[٣]، مِن هوَى إليه، وأهواه غيرُه.

و(تَهْوَى)[٤] من هَوِيَ يَهْوَى: إذا أحبَّ، وتَعدِيَتُه بـ(إلى) لتَضمينِ معنى النُّزوعِ.

﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ مع سُكناهُم واديًا لا نباتَ فيه ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ تلك النِّعمةَ.

فأجابَ اللهُ دعوتَهُ، فجعلَهُ حَرَمًا آمِنًا يُجبى إليه ثَمراتُ كلِّ شيءٍ، حتى توجَدُ فيه الفواكِهُ الرَّبيعيَّةُ والصَّيفيَّةُ والخريفيَّةُ في يومٍ واحدٍ.

(٣٨) ـ ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ﴾: تعلمُ سِرَّنَا كما تعلَمُ عَلَنَنا، والمعنى: أنَّك أعلَمُ بأحوالِنا ومَصالحنا وأرحَمُ بنا مِنَّا بأَنفُسِنا، فلا حاجةَ لنا إلى الطَّلَبِ، لكنَّا نَدعوكَ إظهارًا لعُبوديَّتِكَ، وافتقارًا إلى رحمتِكَ، واستِعجالًا لنيلِ ما عِندَكَ.

---

(١) رويت عن ابن كثير في غير المشهور عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٣).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٣) عن عيسى بن عمر.

(٣) انظر: «المحتسب» (١/ ٣٦٤) عن مسلمة بن عبد الله.

(٤) نسبت لعلي بن أبي طالب وأبي جعفر محمد بن علي وجعفر بن محمد ومجاهد. انظر: «المحتسب» (١/ ٣٦٤).

وقيل: ما نُخفِي من وَجْدِ الفُرقةَ، وما نُعلنُ من التَّضرُّعِ إليك والتَّوكُّلِ عليك، وتكريرُ النِّداءِ للمُبالغَةِ في التَّضرُّعِ واللَّجأِ[١] إلى اللهِ تعالى.

﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ لأنَّه العالِمُ بعلمٍ ذاتيٍّ تَستوي نسبتُه إلى كلِّ مَعلومٍ، و﴿مِن﴾ للاستغراق.

(٣٩) ـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾؛ أي: وهبَ لي وأنا كبيرٌ آيِسٌ عن الولدِ، قيَّدَ الهِبةَ بحالِ الكبرِ استعظامًا للنِّعمَةِ وإظهارًا لِمَا فيها مِن آلائِه.

﴿إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ رُوِيَ: أنَّه ولدَ له إسماعيلُ لتسعٍ وتِسعينَ سنةً، وإسحاقُ لمئةٍ وثِنْتَيْ عشرةَ سنةً.

﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾؛ أي: لَمُجِيبُه، مِن قولك: سَمِعَ الملكُ كلامي: إذا اعتدَّ به، وهو من أبنيةِ المُبالغةِ العاملَةِ عملَ الفِعلِ أضيفَ إلى مَفعولِه أو فاعلِه على إسنادِ السَّماعِ إلى دعاءِ اللهِ على المجازِ، وفيه إشعارٌ بأنَّه دَعا ربَّه وسألَ مِنه الولدَ فأجابَهُ ووهبَ له سُؤلَهُ حينما وقعَ اليأسُ مِنه ليكونَ مِن أجلِّ النِّعَمِ وأَجْلَاها.

(٤٠) ـ ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾: مُعدِّلًا لها مُواظبًا عليها ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ عطفٌ على المَنصوبِ في ﴿ٱجْعَلْنِى﴾، والتَّبعيضُ لعلمِه بإعلامِ اللهِ تَعالى أو استقرارِ عادتِه في الأُمَمِ الماضيَةِ أنَّه يَكونُ في ذُرِّيَّتِه كفَّارٌ.

﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾: واستَجِبْ دُعائي، أو: وتقبَّلْ عِبادَتِي.

(٤١) ـ ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ وقُرِئَ: (ولأبويَّ)[٢]، وقد تَقدَّمُ عذرُ استغفارِه لَهُما، وقيل: أرادَ بهما آدمَ وحوَّاءَ.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «والالتجاء».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٣) عن أبيٍّ رضي الله عنه.

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾: يَثْبُتُ، مستعارٌ مِن القيامِ على الرِّجْلِ، كقولهم: قامَتِ الحربُ على سَاقٍ، أو: يقومُ إليه أهلُهُ، فحُذِفَ المضافُ أو أُسنِدَ إليه قيامُهُم مجازًا.

(٤٢) ـ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ خطابٌ لرَسولِ اللهِ ﷺ، والمرادُ به: تثبيتُه على ما كان عليه مِن أنَّه مُطَّلِعٌ على أحوالِهِم وأفعالِهِم لا يَخفى عليه خافيَةٌ، والوعيدُ بأنَّه مُعاقِبُهُم على قليلِه وكثيرِه لا محالةَ، أو لكلِّ مَن تَوهَّمَ غفلتَهُ جَهْلًا بصِفاتِه واغترارًا بإمهالِه.

وقيل: إنَّه تَسلِيَةٌ للمَظلومِ وتَهديدٌ للظَّالمِ.

﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾: يؤخِّرُ عَذابَهُم. وعَن أَبي عَمرٍو بالنُّونِ.

﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾؛ أي: تشخَصُ أبصارُهُم فلا تَقَرُّ في أماكِنِها مِن هَولِ ما ترى.

(٤٣) ـ ﴿مُهْطِعِينَ﴾: مُسرِعينَ إلى الدَّاعي، أو: مُقبلينَ بأبصارِهِم لا يَطْرِفُونَ هَيبةً وخوفًا، وأصلُ الكَلِمَةِ هو الإقبالُ على الشَّيءِ. ﴿مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ﴾: رافعِيها.

﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ بل بَقِيَت[1] عُيونُهُم شاخِصَةً لا تَطْرِفُ، أو: لا يرجِعُ إليهِمْ نَظَرُهم فينظُروا إلى أَنفُسِهِم.

﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾: خَلاءٌ؛ أي: خاليَةٌ عَن الفهمِ لفَرطِ الحيرةِ والدَّهشةِ، ومنه يقالُ للأحمقِ وللجَبانِ: قلبُهُ هَوَاءٌ؛ أي: لا رأيَ فيه ولا قوَّةَ، قال زُهيرٌ:

مِـــن الظِّلْمَـــانِ جُؤْجُـــؤُهُ هَـــوَاءُ[2]

---

(١) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «بل تثبت».

(٢) صدرُه:

وقيل: خاليةٌ عن الخيرِ خاوِيَةٌ عن الحقِّ.

(٤٤) ـ ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ يا مُحمَّدُ ﴿يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ يعني: يومَ القِيامَةِ، أو يومَ الموتِ، فإنَّه أوَّلُ أيَّامِ عَذابِهِم، وهو مفعولٌ ثانٍ لـ﴿أنذر﴾.

﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بالشِّركِ والتَّكذيبِ: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾: أخِّرِ العَذابَ عنَّا ورُدَّنا إلى الدُّنيَا وأَمْهِلْنا إلى حدٍّ مِن الزَّمانِ قريبٍ، أو: أخِّر آجالَنا وأبقِنَا مِقدارَ ما نُؤمِنُ بك ونُجيبُ دعوتَك.

﴿نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ جوابٌ للأمرِ، ونظيرُه: ﴿لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠].

﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾ على إرادةِ القَولِ، و﴿مَا لَكُم﴾ جوابُ القَسَمِ جاءَ بلفظِ الخِطابِ على المطابقَةِ دونَ الحِكايَةِ، والمعنى: أقسَمْتُم أنَّكُم باقونَ في الدُّنيَا لا تُزالونَ بالموتِ، ولعلَّهُم أقسَمُوا بَطرًا وغُرورًا، أو دلَّ عليه حالُهُم حيثُ بَنَوْا شديدًا وأمَّلوا بعيدًا.

وقيل: أقسَمُوا أنَّهم لا ينتقلونَ إلى دارٍ أخرى، وأنَّهم إذا ماتُوا لا يزالونَ عن تلك الحالةِ إلى حالةٍ أخرى، كقوله: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨].

= كأنَّ الرَّحْـلَ مِنهـا فـوقَ صَعْـلِ

انظر: «ديوان زهير» (ص: ٦٧)، و«الحيوان» للجاحظ (٤/ ٤٥٤).

قال الطِّيبيُّ: الصَّعْلُ: الصَّغيرُ الرَّأسِ مِن الرِّجالِ والنَّعامِ مِن غيرِ قصرِ العنقِ، والجؤجؤ مِن الطائرِ والسَّفينَةِ: صَدرُهُما، يُهمَزُ ولا يُهمَزُ، يَصِفُ مَطيَّته بالقلقِ، يقول: كأنَّ رحلَ هذه المطيَّة فوقَ ظليمٍ ـ أي: نعامة ـ لا قوَّةَ في صلبِه؛ لأنَّ النَّعامَ يضربُ به المثلُ في الجبنِ. «فتوح الغيب» (٨/ ٦٢٩).

(٤٥) ـ ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ بالكفرِ والمعاصي كعادٍ وثمودَ، وأصلُ سكنَ أَنْ يُعدَّى بـ(في)، كـ: قَرَّ وغَنِيَ وأقامَ، وقد يُستعملُ بمعنى التَّبَوُّءِ فيجري مجراه، كقولك: سكنتُ الدَّار.

﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ بما تُشاهدونَ في مَنازلهم مِن آثارِ ما نزلَ بهم وما تواترَ عِندَكُم من أخبارِهِم.

﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ مِن أحوالِهِم؛ أي: بيَّنَّا لَكُم أَنَّكُم مثلُهُم في الكفرِ واستحقاقِ العَذابِ، أو صفاتِ ما فعلوا وفُعِلَ[1] بهم التي هي في الغرابَةِ كالأمثالِ المَضروبَةِ.

(٤٦) ـ ﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ ﴾ المستفرَغَ فيه جهدهُم لإبطالِ الحقِّ وتقريرِ الباطلِ.

﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾: ومكتوبٌ عندَهُ فِعلُهُم، فهو مُجازيهِمْ عليه، أو: عندَهُ ما يَمكُرُهُمْ به جزاءً لِمَكرِهِم وإبطالًا له.

﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ ﴾؛ أي: في العِظَمِ والشِّدَّةِ ﴿لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ مُسوًّى لإزالةِ الجبالِ ومُعَدًّا.

وقيل: ﴿إنْ﴾ نافيةٌ واللامُ مؤكِّدَةٌ لها، كقوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٣٣]، على أنَّ ﴿ٱلْجِبَالُ﴾ مَثَلٌ لأمرِ النبيِّ ونحوِه.

وقيل: مخفَّفَةٌ مِن الثقيلةِ، والمعنى: أنَّهم مكَروا ليُزيلوا ما هو كالجبالِ الراسِيَةِ ثباتًا وتمكُّنًا من آياتِ اللهِ وشرائعِهِ.

---

(١) في نسخة الخيالي: «ما فعلوا أو ما فعل»، وفي نسخة التفتازاني: «أو فعل»، والمثبت من نسخة الطبلاوي.

وقـرأ الكسـائيُّ: ﴿لَتَـزُولُ﴾ بالفتـحِ والرَّفعِ[1] على أنَّهـا المُخفَّفَـةُ، واللامُ هي الفاصِلَـةُ، ومعناه: تعظيـمُ مَكرِهِم.

وقُرِئَ بالفَتحِ والنَّصبِ[2] على لغَةِ مَن يفتَحُ لامَ كَيْ.

وقُرِئَ: (وإن كادَ مَكرُهُم)[3].

(٤٧) ـ ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ مثلُ قولِهِ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١]، ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١]، وأصلُـه: مُخلِـفَ رسـلِه وعـدَهُ، فقـدَّمَ المفعـولَ الثَّانـي إيذانًـا بأنـه لا يُخلـفُ الوعـدَ أصـلًا، كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]، وإذا لـم يُخلِـفْ وعـدَهُ أحـدًا فكيـفَ يخلـفُ وعدَه رسلَه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾: غالـبٌ لا يُماكَـرُ، قـادرٌ لا يُدافَـعُ ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ لأوليائِـه مِـن أعدائِه.

(٤٨) ـ ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ بدلٌ من ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ﴾، أو ظرفٌ للانتقامِ، أو مقدَّرٌ بـ: اذكر، أو: لا يُخلفُ وعدَهُ، ولا يجوزُ أَنْ يَنتَصِبَ بـ﴿مُخْلِفَ﴾؛ لأنَّ ما قبلَ (إنَّ) لا يعملُ فيما بعدَه.

﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلْأَرْضِ﴾، وتقديرُه: والسَّماواتُ غيرَ السَّماواتِ.

---

(١) وهي قراءة الكسائي، والمصدَّر بها قراءة الباقين. انظر: «السبعة» (ص: ٣٦٣)، و«التيسير» (ص: ١٣٥).

(٢) انظر: «البحر المحيط» (١٣/ ٢١٢).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٤)، و«المحتسب» (١/ ٣٦٥) عن علي وعمر وابن عباس وابن مسعود وأبيٍّ رضي الله عنهم وأبي إسحاق السَّبيعي.

ورواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٧٢٠ ـ ٧٢٣) عن عمر وأنس وابن مسعود.

والتَّبديلُ[١] يكونُ في الذَّاتِ، كقولك: بَدَّلْتُ الدَّراهِمَ بالدَّنانيرِ، وعليه قوله: ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦]، وفي الصِّفَةِ كقولِك: (بدَّلْتُ الحلقةَ خاتمًا): إذا أذبتَها وغَيَّرتَ شَكلَها، وعليه قولُه: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]، والآية تحتَمِلُهُما.

وعن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عنه: تُبدَّلُ أرضًا مِن فضَّةٍ وسماواتٍ مِن ذهبٍ[٢].

وعن ابن مسعودٍ وأنسٍ: يُحشَرُ النَّاسُ على أرضٍ بَيضاءَ لم يُخطِئْ عليها أحدٌ خطيئةً[٣].

وعن ابنِ عبَّاسٍ: هي تلك الأرضُ، وإنَّما تغيَّرُ صِفاتُها[٤]، ويدلُّ عليه ما روى أبو هريرةَ: أنَّه عليه السَّلامُ قال: «تبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ فتُبسَطُ وتُمَدُّ مدَّ الأديم العكاظيِّ، لا ترى فيها عِوَجًا ولا أمتًا»[٥].

---

(١) بعدها في نسخة الخيالي: «قد».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٧٣٣ ـ ٧٣٤).

(٣) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٧٣٠ ـ ٧٣٢). ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٤٢٤) عن عمرو بن ميمون.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في «الأهوال» (٢١٧).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٧٣٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٣١)، وهو قطعة من حديث الصور الطويل، رواه الطبراني في «الأحاديث الطوال» (٤٨). وذكره ابن كثير عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأنعام ونقل عن الطبراني قوله: هذا الحديث مشهور وهو غريب جدًّا ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة، وفي بعض ألفاظه نكارة، تفرد به إسماعيل بن رافع قاص أهل المدينة، وقد اختلف فيه فمنهم من وثقه ومنهم من ضعفه، ونص على نكارة حديثه غير واحد من الأئمة كأحمد بن حنبل وأبي حاتم الرازي وعمرو بن علي الفلاس، ومنهم من قال فيه: هو متروك، وقال ابن عدي: أحاديثه كلها فيها نظر إلا أنه يكتب حديثه في جملة الضعفاء. =

واعلم أنه لا يلزَمُ على الوَجهِ الأوَّلِ أن يكونَ الحاصِلُ بالتَّبديلِ أرضًا وسماءً على الحقيقةِ، ولا يَبعُدُ على الثَّاني أن يَجعلَ اللهُ الأرضَ جهنَّمَ والسَّماواتِ الجنَّةَ على ما أَشعرَ به قولُه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨]، وقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾ [المطففين: ٧].

﴿وَبَرَزُواْ﴾ من أجداثِهم ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾: لِمُحاسبتِه ومُجازاتِه، وتوصيفُه بالوَصفينِ للدَّلالةِ على أنَّ الأمرَ في غايةِ الصُّعوبةِ كقولِه: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، فإنَّ الأمرَ إذا كان لواحدٍ غلَّابٍ لا يُغالَبُ فلا مُستغاثَ لأحدٍ إلى غيرِه ولا مُستجار.

(٤٩) - ﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ﴾ قُرِنَ بَعضهُم مع بعضٍ بحسبِ مُشاركَتِهم في العَقائدِ والأعمالِ كقوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾ [التكوير: ٧]، أو: قُرِنُوا مع الشَّيطانِ، أو: مع ما اكتَسَبُوا من العقائدِ الزَّائغَةِ والملَكاتِ الباطلةِ، أو: قُرنت أيديهِم وأرجلُهِم إلى رقابِهم بالأغلالِ، وهو يحتمِلُ أن يكونَ تمثيلًا لِمُؤاخذَتِهم على ما اقترفَتْهُ أيديهِم وأَرجُلُهِم.

﴿فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾، أو حالٌ مِن ضَميرِه، والصَّفدُ: القيدُ، وقيل: الغُلُّ، قال سَلَامةُ بنُ جَنْدَلٍ:

= ثم قال ابن كثير: وقد اختلف عليه في إسناد هذا الحديث على وجوه كثيرة، وقد أفردتها في جزء على حدة، وأما سياقه فغريب جدًّا، ويقال: إنه جمعه من أحاديث كثيرة وجعله سياقًا واحدًا، فأنكر عليه بسبب ذلك، وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول: إنه رأى للوليد بن مسلم مصنفًا قد جمعه كالشواهد لبعض مفردات هذا الحديث. فالله أعلم.

وَزَيْـدُ الخَيْـلِ قَـدْ لَاقَـى صِفَادًا يَعَـضُّ بسـاعِدٍ وبعَظْمِ سـاقِ[١]

وأصله: الشدُّ.

(٥٠) ـ ﴿سَرَابِيلُهُم﴾: قمصانُهُـم ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ وجـاءَ (قَطْـرانٌ) و(قِطْـرانٌ) لغتيـنِ فيـه، وهـو مـا يتحلَّبُ مِـن الأبهـلِ فيُطبـخُ فتُهنأُ بـهِ الإبـلُ الجَرْبَـى، فيُحرِقُ الجَـرَبَ بحِدَّتِـه، وهـو أسـودُ لونـاً مُنتِنٌ تشـتَعِلُ فيـه النَّارُ بسـرعةٍ، تُطْلى بـه جلودُ أهـلِ النَّارِ حتى يكـونَ طلاؤُه لهم كالقُمُـصِ؛ ليَجتَمِعَ عليهِم لَذْعُ القطرانِ ووحشَـةُ لونِـه ونَتَـنُ ريحِـه مع إسـراعِ النَّارِ فـي جلودِهِم، علـى أنَّ التَّفـاوُتَ بيـن القطرانينِ كالتَّفـاوُتِ بيـنَ النَّارينِ.

ويحتمِلُ أَنْ يكونَ تمثيلًا لِمَا يحيطُ بجوهرِ النَّفسِ مِن الملكاتِ الرَّديئَةِ والهيئات الوَحِشَةِ[٢] فيجلبُ إليها أنواعًا مِن الغُمومِ والآلامِ.

وعـن يعقـوبَ: (قِطْـرٍ آن)[٣]، والقطـرُ: النُّحـاسُ أو الصُّفْرُ المـذابُ، والآني: المُتناهـي حرُّهُ.

والجملةُ حالٌ ثانيَةٌ، أو حالٌ مِن الضَّميرِ في ﴿مُقَرَّنِينَ﴾.

﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾؛ أي: وتَغشاهَا لأنَّهُم لم يَتوجَّهُوا بها إلى الحقِّ، ولم

---

(١) انظر: «ديوان سلامة بن جندل» (ص: ٧٠). والبيت شاهدٌ على أنَّ الصَّفَدَ هو الغُلُّ أَخْذاً من الصِّفادِ، ومعناه: أن زيداً يعضُّ على ساعدِه تارةً، وعلى ساقِه أخرى؛ ليتخلَّصَ من الوثاقِ.

(٢) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «الوحشية».

(٣) رويـت عـن علـي وابـن عبـاس وأبـي هريـرة وعكرمـة وغيرهـم. انظـر: «المختصـر فـي شـواذ القـراءات» (ص: ٧٤)، و«المحتسـب» (١/ ٣٦٦)، و«المحـرر الوجيـز» (٣/ ٣٤٨)، و«البحـر» (١٣/ ٢١٨).

يَستَعمِلُوا في تَدبُّرِه مشاعِرَهُم وحواسَّهُم التي خُلِقَت فيها لأجلِه، كما يطَّلِعُ على أفئِدَتِهم لأنَّها فارِغَةٌ عَن المعرفَةِ مملوءةٌ بالجهالاتِ، ونظيرُه قولُه: ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الزمر: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ [القمر: ٤٨].

(٥١) ـ ﴿ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ ﴾؛ أي: يَفعلُ بهم ذلك ليجزيَ كلَّ نَفسٍ مُجرِمَةٍ ﴿مَّا كَسَبَتْ ﴾ أو: كل نفسٍ مِن مجرمَةٍ أو مُطيعَةٍ؛ لأنه إذا بيَّنَ أنَّ المجرمينَ مُعاقَبونَ لإجرامِهم عُلمَ أنَّ المطيعينَ يُثابونَ لطاعَتِهِم، ويتعيَّنُ ذلك إنْ عُلِّقَ اللامُ بـ﴿برزوا﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ لأنه لا يَشغَلُه حسابٌ عن حسابٍ.

(٥٢) ـ ﴿ هَٰذَا ﴾ إشارةٌ إلى القرآنِ، أو السُّورَةِ، أو ما فيه من العِظَةِ والتَّذكيرِ، أو ما وصفَهُ مِن قَولِه: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ ﴾.

﴿بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ ﴾ كفايَةٌ لَهُم في المَوعِظَةِ.

﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ عطفٌ على مَحذوفٍ؛ أي: ليُنصَحُوا وليُنذَرُوا بهذا البلاغِ، فتكونُ اللامُ مُتعلِّقَةً بالبلاغِ، ويجوزُ أنْ تتعلَّقَ بمَحذوفٍ تَقديرُهُ: وليُنذَروا به أُنزلَ أو تُلِيَ.

وقُرِئَ بفتحِ الياءِ[1]، مِن نَذِرَ به: إذا عَلِمَ به واستعدَّ له.

﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ بالنَّظرِ والتَّأمُّلِ فيما فيه من الآياتِ الدالَّةِ عليه، أو المنبِّهةِ على ما يدلُّ عليه.

---

(١) نسبت ليحيى بن عمر الذارع وأحمد بن يزيد بن أسيد السلمي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٤)، و«المحتسب» (١/ ٣٦٧).

﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فيَرْتَدِعُوا عما يُردِيهِم ويَتدرَّعُوا بما يُحظِيهِم.

واعلَـمْ أنَّـه سُـبحانَهُ ذكـرَ لهـذا البـلاغِ ثـلاثَ فوائـدَ هـي الغايـةُ والحِكمَـةُ فـي إنـزالِ الكتـبِ: تكميلُ الرُّسـلِ للنَّـاسِ، واسـتكمالُ القـوَّةِ النَّظريَّةِ التـي مُنتهى كمالها التَّوحيدُ، واستِصلاحُ القُـوَّةِ العَمَليَّةِ الذي هـو[1] التَّدرُّعُ بلباسِ التَّقـوَى، جعلنا اللهُ مِن الفائزين بهما.

وعن النبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ سورةَ إبراهيمَ أُعطِيَ مِن الأجرِ عشرَ حَسناتٍ بعَددِ مَن عبدَ الأصنامَ وعددِ مَن لَمْ يَعْبُد»[2].

***

---

(١) في نسخة الخيالي: «التي هي».

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٣٠٤)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٢٢)، من حديث أبي رضي الله عنه. وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. انظر: «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(١٤) سورة إبراهيم مكية
وآياتها اثنتان وخمسون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور. ﴿كتاب أنزلناه إليك﴾ أي هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد، وهو (القرآن العظيم) الذي هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء، على أشرف رسول بعثه الله في الأرض، إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم، ﴿لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾ أي إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغي، إلى الهدى والرشد، كما قال تعالى: ﴿هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿بإذن ربهم﴾ أي هو الهادي لمن قدر له الهداية على يدي رسوله المبعوث عن أمره، يهديهم ﴿إلى صراط العزيز﴾ أي العزيز الذي لا يمانع ولا يغالب بل هو القاهر لكل ما سواه، ﴿الحميد﴾ أي المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعته وأمره ونهيه، الصادق في خبره، ﴿الله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾ بالجر على الاتباع صفة للجلالة، كقوله تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض﴾ الآية. وقوله: ﴿وويل للكافرين من عذاب شديد﴾ أي ويل لهم يوم القيامة إذ خالفوك يا محمد وكذبوك، ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، أي يقدمونها ويؤثرونها عليها ويعملون للدنيا، ونسوا الآخرة وتركوها وراء ظهورهم. ﴿ويصدون عن سبيل الله﴾ وهي اتباع الرسل، ﴿ويبغونها عوجاً﴾ أي ويحبون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة عائلة، وهي مستقيمة في نفسها، لا يضرها من خالفها ولا من خذلها، فهم في ابتغائهم ذلك في جهل وضلال بعيد من الحق لا يرجى لهم والحالة هذه صلاح .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾

هذا من لطفه تعالى بخلقه أنه يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم، ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم، كما روى الإمام أحمد عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يبعث الله عزّ وجلّ نبياً إلا بلغة قومه». وقوله: ﴿فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾ أي بعد البيان وإقامة الحجة عليهم، يضل الله من يشاء عن وجه الهدى، ويهدي من يشاء إلى الحق ﴿وهو العزيز﴾ الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ﴿الحكيم﴾ في أفعاله فيضل من يستحق الإضلال، ويهدي من هو أهل لذلك.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب، لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، كذلك أرسلنا موسى إلى بني إسرائيل بآياتنا. قال مجاهد: هي التسع الآيات، ﴿أن أخرج قومك﴾ أي أمرناه قائلين له: ﴿أخرج قومك من الظلمات إلى النور﴾ أي ادعهم إلى الخير ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال، إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان، ﴿وذكرهم بأيام الله﴾ أي بأياديه ونعمه عليهم[1]، في إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه، وإنجائه إياهم من عدوهم، وفلقه لهم البحر، وتظليله إياهم الغمام، وإنزاله عليهم المن والسلوى، إلى غير ذلك من النعم. قال ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد. وقوله: ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ أي إن فيما صنعنا بأوليائنا بني إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين، لعبرة لكل ﴿صبار﴾ أي في الضراء، ﴿شكور﴾ أي في السراء، كما قال قتادة: نعم العبد عبد إذا ابتلي صبر، وإذا أعطي شكر. وكذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أمر المؤمن كله عجب، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له».

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى حين ذكّر قومه بأيام الله عندهم ونعمه عليهم، إذ أنجاهم من آل فرعون وما كانوا

---

(١) ورد تفسير ﴿أيام الله﴾ بالنعم في حديث مرفوع في المسند عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وذكرهم بأيام الله﴾ قال: بنعم الله، قال ابن كثير: وورد موقوفاً وهو أشبه.

يسومونهم به من العذاب والإذلال، حيث كانوا يذبحون من وجد من أبنائهم، ويتركون إناثهم فأنقذهم الله من ذلك، وهذه نعمة عظيمة، ولهذا قال: ﴿وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ أي نعمة عظيمة منه عليكم في ذلك أنتم عاجزون عن القيام بشكرها. وقيل ﴿بلاء﴾ أي اختبار عظيم، ويحتمل أن يكون المراد هذا، وهذا - والله أعلم - كقوله تعالى: ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾، وقوله: ﴿وإذ تأذن ربكم﴾ أي آذنكم وأعلمكم بوعده لكم؛ ويحتمل أن يكون المعنى: وإذ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه، كقوله تعالى: ﴿وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة﴾. وقوله: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ أي لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها، ﴿ولئن كفرتم﴾ أي كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها، ﴿إن عذابي لشديد﴾ وذلك بسلبها عنهم وعقابه إياهم على كفرها، وقد جاء الحديث: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه». وقوله تعالى: ﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾ أي هو غني عن شكر عباده، وهو الحميد المحمود وإن كفره من كفره.

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾

قص الله علينا خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل مما لا يحصي عددهم إلا الله عزّ وجلّ، ﴿جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ أي بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات، وقوله: ﴿فردوا أيديهم في أفواههم﴾ اختلف المفسرون في معناه، قيل: معناه أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل يأمرونهم بالسكوت عنهم لمّا دعوهم إلى الله عزّ وجلّ، وقيل: بل وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيباً لهم، وقال مجاهد وقتادة: معناه أنهم كذبوهم وردوا عليهم قولهم بأفواههم، ويؤيد قول مجاهد: تفسير ذلك بتمام الكلام ﴿وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب﴾ فكأن هذا والله أعلم - تفسير لمعنى: ﴿فردوا أيديهم في أفواههم﴾، وقال العوفي عن ابن عباس: لما سمعوا كلام الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم، وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به الآية، يقولون: لا نصدقكم فيما جئتم به فإن عندنا فيه شكاً قوياً.

* قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ

عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة، وذلك أن أممهم لما واجهوهم بالشك فيما جاؤوهم به من عبادة الله وحده لا شريك له، قالت الرسل: ﴿ أفي الله شك ﴾، أفي وجوده شك؟ فإن الفطر شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطرار، فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده، ولهذا قالت الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه: ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ الذي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليهما فلا بد لهما من صانع، وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء وإلاهه ومليكه، وقالت لهم رسلهم: ﴿ يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ﴾ أي في الدار الآخرة، ﴿ ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ أي في الدنيا، فقالت لهم الأمم: ﴿ إن أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ أي كيف نتبعكم بمجرد قولكم ولما نر منكم معجزة، ﴿ فأتونا بسلطان مبين ﴾ أي خارق نقترحه عليكم، ﴿ قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ﴾ أي صحيح إنا بشر مثلكم في البشرية، ﴿ ولكن الله يمنّ على من يشاء من عباده ﴾ أي بالرسالة والنبوة، ﴿ وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان ﴾ على وفق ما سألتم ﴿ إلا بإذن الله ﴾، أي بعد سؤالنا إياه وإذنه لنا في ذلك، ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ أي في جميع أمورهم. ثم قالت الرسل: ﴿ وما لنا أن لا نتوكل على الله ﴾ أي وما يمنعنا من التوكل عليه؟ وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها، ﴿ ولنصبرنّ على ما آذيتمونا ﴾ أي من الكلام السيء والأفعال السخيفة، ﴿ وعلى الله فيتوكل المتوكلون ﴾.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم من الإخراج من أرضهم والنفي من بين أظهرهم، كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به: ﴿ لنخرجنّك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ﴾ الآية، وكما قال قوم لوط: ﴿ أخرجوا آل لوط من قريتكم ﴾ الآية، ولهذا قال تعالى: ﴿ فأوحى إليهم ربهم لنهلكنّ الظالمين . ولنسكننكم الأرض من بعدهم ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وإنّ جندنا لهم الغالبون ﴾، وقال تعالى: ﴿ كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ﴾، وقال تعالى: ﴿ وقال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾، وقال تعالى: ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ﴾، وقوله: ﴿ ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ﴾ أي وعيدي، هذا لمن خاف مقامي بين يدي يوم القيامة، وخشي من وعيدي وهو تخويفي وعذابي، كما قال تعالى: ﴿ فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى ﴾،

وقال: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾، وقوله: ﴿واستفتحوا﴾ أي استنصرت الرسل ربها على قومهم[1]، وقال ابن أسلم: استفتحت الأمم على أنفسها، كما قالوا: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾، ويحتمل أن يكون هذا مراداً، وهذا مراداً، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر، واستفتح رسول الله ﷺ واستنصر، وقال الله تعالى للمشركين: ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم﴾ الآية، ﴿وخاب كل جبار عنيد﴾ أي متجبر في نفسه عنيد معاند للحق، كقوله تعالى: ﴿ألقيا في جهنم كل كفار عنيد، مناع للخير معتد مريب﴾. وفي الحديث: «إنه يؤتى بجهنم يوم القيامة، فتنادي الخلائق فتقول: إني وكلت بكل جبار عنيد» الحديث، وقوله: ﴿من ورائه جهنم﴾ وراء هنا بمعنى أمام، كقوله تعالى: ﴿وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً﴾، وكان ابن عباس يقرؤها: وكان أمامهم ملك، أي من وراء الجبار العنيد جهنم، أي هي له بالمرصاد يسكنها مخلداً يوم المعاد، ويعرض عليها غدواً وعشياً إلى يوم التناد، ﴿ويسقى من ماء صديد﴾ أي في النار ليس له شراب إلا من حميم وغساق، كما قال: ﴿هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج﴾، وقال مجاهد: الصديد من القيح والدم. وقال قتادة: هو ما يسيل من لحمه وجلده، وفي رواية عنه: الصديد ما يخرج من جوف الكافر قد خالط القيح والدم، وفي حديث شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد ابن السكن قالت، قلت: يا رسول الله ما طينة الخبال؟ قال: «صديد أهل النار»، وفي رواية: «عصارة أهل النار»، وقال الإمام أحمد، عن أبي أمامة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿ويسقى من ماء صديد يتجرعه﴾ قال: «يقرب إليه فيتكرهه، فإذا أدني منه شوي وجهه ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره»، يقول تعالى: ﴿وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم﴾، ويقول: ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه﴾ الآية[2].

وقوله تعالى: ﴿يتجرعه﴾ أي يتغصصه ويتكرهه، أي يشربه قهراً وقسراً لا يضعه في فمه حتى يضربه الملك بمطراق من حديد، كما قال تعالى: ﴿ولهم مقامع من حديد﴾، ﴿ولا يكاد يسيغه﴾ أي يزدرده لسوء طعمه ولونه وريحه وحرارته أو برده الذي لا يستطاع، ﴿ويأتيه الموت من كل مكان﴾ أي يألم له جميع بدنه من كل عظم وعصب وعرق، وقال عكرمة: حتى من أطراف شعره، وقال ابن عباس: ﴿ويأتيه الموت من كل مكان﴾ قال: أنواع العذاب الذي يعذبه الله بها يوم القيامة في نار جهنم ليس منها نوع إلا يأتيه الموت منه، لو كان يموت، ولكن لا يموت لأن الله تعالى قال: ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها﴾، ومعنى كلام ابن عباس رضي الله عنه أنه ما من نوع من هذه الأنواع من العذاب إلا إذا ورد عليه، اقتضى أن يموت منه لو كان يموت، ولكنه لا يموت ليخلد في دوام العذاب والنكال، ولهذا قال تعالى: ﴿ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت﴾، وقوله: ﴿ومن ورائه عذاب غليظ﴾ أي وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ أي مؤلم صعب شديد أغلظ من الذي قبله وأدهى وأمر، وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم: ﴿فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون * ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم * ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم﴾، فأخبر أنهم تارة يكونون في أكل زقوم، وتارة في

---

(١) قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة. (٢) أخرجه الإمام أحمد وابن جرير.

شرب حميم ، وتارة يردون إلى جحيم ، عياذاً بالله من ذلك ، وهكذا قال تعالى: ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم، كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم﴾، وقال تعالى: ﴿ هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم، وتكراره وأنواعه وأشكاله، مما لا يحصيه إلا الله عزّ وجلّ، جزاء وفاقاً ﴿ وما ربك بظلام للعبيد﴾ .

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار، الذين عبدوا معه غيره، وكذبوا رسله وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح، فانهارت فقال تعالى: ﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم﴾ أي مثل أعمالهم يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى، لأنهم كانوا يحسبون أنهم كانوا على شيء، فلم يجدوا شيئاً إلا كما يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة ﴿ في يوم عاصف﴾ أي ذي ريح شديدة عاصفة قوية، فلم يقدروا على شيء من أعمالهم التي كسبوا في الدنيا، كقوله تعالى: ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته﴾، وقوله تعالى: ﴿ فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا﴾، ﴿ ذلك هو الضلال البعيد﴾ أي سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة، حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما كانوا إليه .

* أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة، بأنه خلق السماوات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس، أفليس الذي قدر على خلق هذه السماوات في ارتفاعها واتساعها وعظمتها، وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات والآيات الباهرات، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد، وأوتاد وبراري وصحارى وقفار وبحار وأشجار، ونبات وحيوان ﴿ أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى، بلى إنه على كل شيء قدير﴾، وقوله: ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز﴾ أي بعظيم ولا ممتنع ، بل هو سهل عليه إذا خالفتم أمره أن يذهبكم ويأت بآخرين على غير صفتكم .

وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾

يقول تعالى: ﴿ وبرزوا﴾ أي برزت الخلائق كلها، برها وفاجرها لله الواحد القهار، أي اجتمعوا له في براز

من الأرض، وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحداً، ﴿فقال الضعفاء﴾ وهم الأتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم ﴿للذين استكبروا﴾ عن عبادة الله وحده لا شريك له، وعن موافقة الرسل، قالوا لهم: ﴿إنا كنا لكم تبعاً﴾ أي مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا، ﴿فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء﴾ أي فهل تدفعون عنا شيئاً من عذاب الله كما كنتم تعدوننا وتمنوننا، فقالت القادة لهم: ﴿لو هدانا الله لهديناكم﴾ ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين، ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص﴾ أي ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه. قال عبدالرحمن بن أسلم: إن أهل النار قالوا: تعالوا فإنما أدرك أهل الجنة الجنة ببكائهم وتضرعهم إلى الله عزّ وجلّ، تعالوا نبك ونتضرع إلى الله، فبكوا وتضرعوا، فلما رأوا أنه لا ينفعهم، قالوا: إنما أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر، تعالوا حتى نصبر فصبروا صبراً لم ير مثله، فلم ينفعهم ذلك، فعند ذلك قالوا: ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا﴾ الآية. **قلت**: والظاهر أن هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها، كما قال تعالى: ﴿وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار﴾، وقال ﴿حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار: قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾، وقال تعالى: ﴿ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا﴾، وأما تخاصمهم في المحشر فقال تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين. قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم، بل كنتم مجرمين﴾.

وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾

يخبر تعالى عما خاطب به إبليس أتباعه بعد ما قضى الله بين عباده فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات، فقام فيهم إبليس لعنه الله يومئذ خطيباً ليزيدهم حزناً إلى حزنهم وغبناً إلى غبنهم وحسرة إلى حسرتهم فقال: ﴿إن الله وعدكم وعد الحق﴾ أي على ألسنة رسله ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعداً حقاً وخبراً صدقاً وأما أنا فوعدتكم فأخلفتكم، كما قال الله تعالى: ﴿يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾

ثم قال: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان﴾ أي ما كان لي عليكم فيما دعوتكم إليه دليل ولا حجة فيما وعدتكم به، ﴿إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي﴾ بمجرد ذلك، ، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاؤوكم به، فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه ﴿فلا تلوموني﴾ اليوم، ﴿ولوموا أنفسكم﴾ فإن الذنب لكم لكونكم خالفتم الحجج، واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل، ﴿ما أنا بمصرخكم﴾ أي بنافعكم ومنقذكم

ومخلصكم مما أنتم فيه، ﴿وما أنتم بمصرخيّ﴾ أي بنافعي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال، ﴿إني كفرت بما أشركتمون من قبل﴾ قال قتادة: أي بسبب ما أشركتموني من قبل، قال ابن جرير: يقول إني جحدت أن أكون شريكاً لله عز وجلّ، وهذا الذي قاله هو الراجح، كما قال تعالى: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ۞ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾، وقال: ﴿كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾. وقوله: ﴿إن الظالمين﴾ أي في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل لهم عذاب أليم، والظاهر من سياق الآية أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار كما قدمنا، قال الشعبي: يقوم خطيبان يوم القيامة على رؤوس الناس، يقول تعالى لعيسى بن مريم: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾؟ قال: ويقوم إبليس لعنه الله فيقول: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي﴾ الآية، ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزي والنكال، وأن خطيبهم إبليس عطف بمآل السعداء، فقال: ﴿وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا، ﴿خالدين فيها﴾ ماكثين أبداً لا يحولون ولا يزولون ﴿بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام﴾، كما قال تعالى: ﴿حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم﴾، وقال تعالى: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم﴾، وقال تعالى: ﴿ويلقون فيها تحية وسلاماً﴾، وقال تعالى: ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾.

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾

قال ابن عباس: قوله: ﴿مثل كلمة طيبة﴾: شهادة أن لا إله إلا الله ﴿كشجرة طيبة﴾ وهو المؤمن ﴿أصلها ثابت﴾ يقول: لا إله إلا الله في قلب المؤمن، ﴿وفرعها في السماء﴾ يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء؛ وقال البخاري عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «أخبروني عن شجرة تشبه - أو - كالرجل المسلم، لا يتحات ورقها صيفاً ولا شتاء، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها»، قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئاً قال رسول الله ﷺ: «هي النخلة»، فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة، قال: ما منعك أن تتكلم؟ قلت: لم أركم تتكلمون، فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئاً، قال عمر: لأن تكون قلتها أحب إليّ من كذا وكذا. وعن ابن عباس: ﴿كشجرة طيبة﴾ قال: هي شجرة في الجنة. وقوله: ﴿تؤتى أكلها كل حين﴾ قيل: غدوة وعشياً، وقيل: كل شهر، وقيل كل شهرين، وقيل غير ذلك. والظاهر من السياق أن المؤمن مثله كمثل شجرة، لا يزال يوجد منها ثمرة في كل وقت، من صيف أو شتاء أو ليل أو نهار، كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار في كل وقت وحين ﴿بإذن ربها﴾ أي كاملاً حسناً كثيراً طيباً مباركاً ﴿ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم

يتذكرون﴾. وقوله تعالى: ﴿ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة﴾ هذا مثل كفر الكافر لا أصل له ولا ثبات، مشبه بشجرة الحنظل[1]، وقوله: ﴿اجتثت﴾ أي استؤصلت ﴿من فوق الأرض ما لها من قرار﴾ أي لا أصل لها ولا ثبات، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع، ولا يصعد للكافر عمل ولا يتقبل منه شيء.

* يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾

روى **البخاري**، عن البراء بن عازب رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾»[2]. وقال الإمام أحمد، عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به الأرض فرفع رأسه فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر» مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان - قال فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها يعني على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة، فيقول الله: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: «ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت، فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره، ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول: أبشر بالذي كنت يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت فوجهك الوجه الذي يأتي بالخير؟ فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي.

قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء سود الوجه

---

(١) روي هذا في حديث مرفوع أن الشجرة الخبيثة هي الحنظلة، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

(٢) ورواه مسلم أيضاً وبقية الجماعة.

معهم المسوح فجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت، فيجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب - قال - فتفرق في جسده فينتزعه كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، فيخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾، فيقول الله: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحاً - ثم قرأ: ﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾، فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له ما دينك؟ فيقول هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي منادٍ من السماء: أن كذب عبدي، فأفرشوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: ومن أنت فوجهك الوجه يجيء بالشر؟ فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إذا خرجت روح العبد المؤمن تلقاها ملكان يصعدان بها قال حماد: فذكر من طيب ريحها وذكر المسك - قال - ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قبل الأرض، صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمرينه، فينطلق به إلى ربه عزّ وجلّ فيقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل. وإن كان الكافر إذا خرجت روحه - قال حماد - وذكر من نتنها، وذكر مقتاً ويقول أهل السماء روح خبيثة جاءت من قبل الأرض، فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل. قال أبو هريرة: فرد رسول الله ﷺ ريطة كانت عليه على أنفه هكذا. وقال ابن حبان في صحيحه، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن إذا قبض أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون: اخرجي إلى روح الله، فتخرج كأطيب ريح مسك، حتى أنه ليناوله بعضهم بعضاً يشمونه حتى يأتوا به باب السماء، فيقولون: ما هذه الريح الطيبة التي جاءت من قبل الأرض؟ ولا يأتون سماء إلا قالوا مثل ذلك حتى يأتوا به أرواح المؤمنين، فلهم أشد فرحاً به من أهل الغائب بغائبهم، فيقولون: ما فعل فلان، فيقولون: دعوه حتى يستريح، فإنه كان في غم، فيقول: قد مات أما أتاكم، فيقولون: ذهب إلى أمه الهاوية، وأما الكافر فيأتيه ملائكة العذاب بمسح فيقولون: اخرجي إلى غضب الله، فتخرج كأنتن ريح جيفة، فيذهب به إلى الأرض».

وروى العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية قال: إن المؤمن إذا حضره الموت شهدته الملائكة فسلموا عليه وبشروه بالجنة، فإذا مات مشوا مع جنازته، ثم صلوا عليه مع الناس، فإذا دفن أجلس في قبره فيقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقال له: من رسولك؟ فيقول: محمد ﷺ، فيقال له: ما شهادتك؟ فيقول:

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة.

أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فيوسع له في قبره مد بصره . وأما الكافر فتنزل عليه الملائكة فيبسطون أيديهم، والبسط هو الضرب ﴿ يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ عند الموت، فإذا أدخل قبره أقعد ، فقيل له: من ربك ؟ فلم يرجع إليهم شيئاً، وأنساه الله ذكر ذلك، وإذا قيل: من الرسول الذي بعث إليك ؟ لم يهتد له ولم يرجع إليهم شيئاً ﴿ كذلك يضل الله الظالمين﴾. وقال ابن أبي حاتم ، عن أبي قتادة الأنصاري في قوله تعالى: ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ الآية، قال: إن المؤمن إذا مات أجلس في قبره، فيقال له: من ربك ؟ فيقول: الله، فيقال له: من نبيك ؟ فيقول: محمد بن عبد الله، فيقال له: ذلك مرات ثم يفتح له باب إلى النار ، فيقال له: أنظر إلى منزلك من النار لو زغت، ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال له: انظر إلى منزلك من الجنة إذا ثبت. وإذا مات الكافر أجلس في قبره فيقال له: من ربك ؟ من نبيك ؟ فيقول : لا أدري، كنت أسمع الناس يقولون، فيقال له: لا دريت، ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى منزلك إذا ثبت، ثم يفتح له باب إلى النار، فيقال له: انظر إلى منزلك إذ زغت، فذلك قوله تعالى: ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾. وقال عبد الرزاق: عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه: ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا﴾ قال: لا إله إلا الله ﴿ وفي الآخرة﴾: المسألة في القبر، وقال قتادة أما الحياة الدنيا فيثبتهم بالخير والعمل الصالح ﴿ وفي الآخرة﴾: في القبر . وكذا روي عن غير واحد من السلف، وعن عثمان رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه وقال: « استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يسأل »[١] .

* ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾

قال البخاري : قوله : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفراً﴾، ألم تعلم، كقوله: ﴿ ألم تر كيف﴾، ﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا﴾. البوار : الهلاك، بار يبور بوراً، ﴿ قوماً بوراً﴾ هالكين . حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان عن عمرو عن عطاء سمع ابن عباس: ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفراً﴾ قال: هم كفار أهل مكة. والمعنى جميع الكفار، فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ رحمة للعالمين ونعمة للناس، فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة ، ومن ردها وكفرها دخل النار. وقال ابن أبي حاتم: قام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: ألا أحد يسألني عن القرآن ؟ فوالله لو أعلم اليوم أحداً أعلم بـه مني وإن كان من وراء البحار لأتيته، فقام عبد الله بن الكواء، فقال: مَنْ﴿ الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ﴾ ؟ قال: مشركو قريش أتتهم نعمة الله الإيمان، فبدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار. وقال سفيان الثوري، عن عمر بن الخطاب في قوله: ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفراً﴾ قال: هم الأفجران من قريش: بنو المغيرة وبنو أُميَّة، فأما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر ، وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين. وكذا رواه حمزة الزيات عن عمرو بن مرة قال، قال ابن عباس لعمر

(١) أخرجه أبوداود في سننه .

ابن الخطاب: يا امير المؤمنين هـذه الآية: ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار﴾ قال: هم الأفجران من قريش أخوالي وأعمامك، فأما أخوالي فاستأصلهم الله يوم بدر، وأما أعمامك فأملى الله لهم إلى حين. وقال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة وابن زيد: هم كفار قريش الذين قتلوا يوم بدر؛ وكذا رواه مالك في تفسيره عن نافع عن ابن عمر. وقوله: ﴿وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله﴾، أي جعلوا لـه شركاء عبدوهم معـه ودعوا الناس إلى ذلك، ثم قال تعالى: مهدداً لهم ومتوعداً لهم على لسان نبيّه ﷺ: ﴿قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار﴾ أي مهما قدرتم عليه في الدنيا فافعلوا فهما يكن من شيء ﴿فإن مصيركم إلى النار﴾ أي مرجعكم وموئلكم إليها، كما قال تعالى: ﴿نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾. وقال تعالى: ﴿متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾.

۞ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾

يقول تعالى آمراً عباده بطاعته، والقيام بحقه والإحسان إلى خلقه، بأن يقيموا الصلاة، وأن ينفقوا مما رزقهم الله، بأداء الزكوات والنفقة على القرابات والإحسان إلى الأجانب، والمراد بإقامتها هو المحافظة على وقتها وحدودهـا وركوعها وخشوعها وسجودها، وأمر تعالى بالإنفاق ممـا رزق في السر، أي في الخفية والعلانية وهي الجهر، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم ﴿من قبل أن يأتي يوم﴾ وهو يوم القيامة، ﴿لا بيع فيه ولا خلال﴾ أي ولا يقبل من أحد فدية بأن تباع نفسه، كما قال تعالى: ﴿فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا﴾. وقولـه: ﴿ولا خلال﴾ قال ابن جرير: يقول: ليس هناك مخالة خليل فيصبح عمن استوجب العقوبة عن العقاب لمخالفته، بل هناك العدل والقسط، يخبر تعالى أنه لا ينفع أحداً بيع ولا فدية، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً لو وجده، ولا تنفعه صداقة أحد ولا شفاعة أحد، إذا لقي الله كافراً، قال الله تعالى: ﴿واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون﴾، وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون﴾.

ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴿٣٤﴾

يعدد تعالى نعمه على خلقه بأن خلق لهم السموات سقفاً محفوظـاً والأرض فراشاً، ﴿وأنزل من السماء مـاء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم﴾ ما بين ثمار وزروع مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر، تجري عليه بأمر الله تعالى، وسخر البحر لحملها ليقطع المسافرون بها

من إقليم إلى إقليم آخر لجلب ما هنا إلى هناك، وما هناك إلى هنا، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر، رزقاً للعبـاد، ﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين﴾ أي يسيران لا يفتران ليلاً ولا نهاراً ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾، ﴿يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً﴾ فالشمس والقمر يتعاقبان، والليل والنهار يتعارضان، فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر، ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار﴾، وقوله: ﴿وآتاكم من كل ما سألتموه﴾ يقول: هيأ لكم كل ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم مما تسألونه بحالكم وقالكم. وقال بعض السلف: من كل ما سألتموه وما لم تسألوه، وقوله: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾، يخبر تعالى عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلاً عن القيام بشكرها، كما قال طلق بن حبيب رحمه الله: إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا تائبين، وأمسوا تائبين. وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم لك الحمد غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا». وقد روي في الأثر أن داود عليه السلام قال: يا رب كيف أشكرك وشكري لك نعمة منك عليّ؟ فقال الله تعالى: الآن شكرتني يا داود، أي حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر المنعم. وقال الإمام الشافعي رحمه الله: الحمد لله الذي لا يؤدى شكر نعمة من نعمه، إلا بنعمة حادثة توجب على مؤديها شكره بها، وقال القائل في ذلك:

لو كل جارحة مني لها لغـة ... تثني عليك بما أوليتَ من حسن
لكان ما زاد شكري إذ شكرت بـه ... إليك أبلغ في الإحسان والمنن

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

يذكر تعالى في هذا المقام محتجاً على مشركي العرب بأن البلد الحرام مكة، إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن إبراهيم الذي كانت عامرة بسببه آهلة تبرأ ممن عبد غير الله، وأنه دعا لمكة بالأمن فقال: ﴿رب اجعل هذا البلد آمناً﴾، وقد استجاب الله له فقال تعالى: ﴿أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً﴾ الآية. وقال في هذه القصة: ﴿رب اجعل هذا البلد آمناً﴾ فعرفه لأنه دعا به بعد بنائها، ولهذا قال: ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل واسحق﴾، ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، وقوله: ﴿واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام﴾ ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته، ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلائق من الناس، وأنه تبرأ ممن عبدها ورد أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم، كقول عيسى عليه السلام: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ وليس فيه أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى لا تجويز وقوع ذلك. قال عبدالله بن وهب، عن عبدالله بن عمرو أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام: ﴿رب إنهن أضللن كثيراً من الناس﴾ الآية، وقول عيسى عليه السلام: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ الآية، ثم رفع يديه ثم قال: «اللهم أمتي، اللهم أمتي، اللهم أمتي» وبكى، فقال الله: اذهب يا جبريل إلى محمد، وربك

أعلم؛ وسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه السلام، فسأله فأخبره رسول الله ﷺ ما قال، فقال الله: اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك.

رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾

وهذا يدل على أن هذا دعاء ثان بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كان بعد بنائه تأكيداً ورغبة إلى الله عزّ وجلّ، ولهذا قال: ﴿عند بيتك المحرم﴾. وقوله: ﴿ربنا ليقيموا الصلاة﴾ أي إنما جعلته محرماً ليتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾، قال ابن عباس[1]: لو قال أفئدة الناس لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم، ولكن قال: ﴿من الناس﴾ فاختُص به المسلمون. وقوله: ﴿وارزقهم من الثمرات﴾ أي ليكون ذلك عوناً لهم على طاعتك، وكما أنه واد غير ذي زرع فاجعل لهم ثماراً يأكلونها، وقد استجاب الله ذلك، كما قال: ﴿أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا﴾ وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته أنه ليس في البلد الحرام (مكة) شجرة مثمرة، وهي تجبى إليها ثمرات ما حولها استجابة لدعاء الخليل عليه السلام.

رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾

قال ابن جرير: يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم خليله أنه قال: ﴿ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن﴾ أي أنت تعلم قصدي في دعائي وما أردت بدعائي لأهل هذا البلد، وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها لا يخفى عليك منها شيء في الأرض ولا في السماء، ثم حمد ربه عزّ وجلّ على ما رزقه من الولد بعد الكبر فقال: ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء﴾ أي أنه يستجيب لمن دعاه، وقد استجاب لي فيما سألته من الولد، ثم قال: ﴿رب اجعلني مقيم الصلاة﴾ أي محافظاً عليها مقيماً لحدودها ﴿ومن ذريتي﴾ أي واجعلهم كذلك مقيمين لها[2]، ﴿ربنا وتقبل دعاء﴾ أي فيما سألتك فيه ﴿ربنا اغفر لي ولوالديّ﴾، وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه لما تبين له عداوته لله عزّ وجلّ ﴿وللمؤمنين﴾ أي كلهم ﴿يوم يقوم الحساب﴾ أي يوم تحاسب عبادك فتجازيهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

---

(١) وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما.

(٢) يعني بذريته: بني إسماعيل الذين تناسلت فيهم عرب الحجاز. وقيل أيضاً عرب اليمن، وذريته اثنا عشر رجلاً وامرأة.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾

يقول تعالى: ولا تحسبن الله – يا محمد – غافلاً عما يعمل الظالمون، أي لا تحسبنه إذاأنظرهم وأجلهم أنه غافل عنهم، مهمل لهم لا يعاقبهم على صنعهم، بل هو يحصي ذلك عليهم ويعده عليهم عداً، ﴿إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ أي من شدة الأهوال يوم القيامة: ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم وعجلتهم إلى قيام المحشر، فقال: ﴿مهطعين﴾ أي مسرعين ، كما قال تعالى: ﴿مهطعين إلى الداع﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له﴾. وقال تعالى: ﴿يوم يخرجون من الأجداث سراعاً﴾ الآية، وقوله: ﴿مقنعي رؤوسهم﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: رافعي رؤوسهم، ﴿لا يرتد إليهم طرفهم﴾ أي أبصارهم ظاهرة شاخصة مديمون النظر، لا يطرفون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والمخافة لما يحل بهم عياذاً بالله العظيم من ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وأفئدتهم هواء﴾ أي وقلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة الوجل والخوف، ولهذا قال قتادة وجماعة: إن أمكنة أفئدتهم خالية، لأن القلوب لدى الحناجر قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف. وقال بعضهم: هي خراب لا تعي شيئاً لشدة ما أخبر به تعالى عنهم، ثم قال تعالى لرسوله ﷺ :

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن قيل الذين ظلموا أنفسهم عند معاينة العذاب: ﴿ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل﴾، كقوله: ﴿حتى إذ جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم﴾ الآيتين، وقال تعالى مخبراً عنهم في حال محشرهم: ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم﴾ الآية، وقال: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وهم يصطرخون فيها﴾ الآية، قال تعالى راداً عليهم في قولهم هذا : ﴿أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال﴾ أي أو لم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه، وأنه لا معاد ولا جزاء فذوقوا هذا بذلك، قال مجاهد وغيره ﴿ما لكم من زوال﴾: أي ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة، كقوله: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت﴾ الآية، ﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال﴾ أي قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر ولم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر ﴿حكمة بالغة فما تغني النذر﴾. وروى العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وإن كان

مكرهم لتزول منه الجبال﴾ يقول: ما كان مكرهم لتزول منه الجبال، وكذا قال الحسن البصري، ووجهه ابن جرير بأن هذا الذي فعلوه بأنفسهم من شركهم بالله وكفرهم بـه ما ضر ذلك شيئاً من الجبال ولا غيرها، وإنما عاد وبال ذلك عليهم، ويشبه هذا قول الله تعالى: ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً﴾، والقول الثاني في تفسيرها ما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾ يقول: شركهم كقوله: ﴿تكاد السموات والأرض يتفطرن منه﴾ الآية، وهكذا قال الضحاك وقتادة.

* فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾

يقول تعالى مقرراً لوعده ومؤكداً ﴿فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله﴾ أي من نصرتهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، ثم أخبر تعالى أنه ذو عزة لا يمتنع عليه شيء أراده ولا يغالب، وذو انتقام ممن كفر به وجحده، ﴿فويل يومئذ للمكذبين﴾، ولهذا قال: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾ أي وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض، كما جاء في الصحيحين، عن سهل بن سعد قال، قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس فيها معلم لأحد»، وقال الإمام أحمد، عن عائشة أنها قالت: أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾ قالت، قلت: أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «على الصراط»[1]. وقال الإمام مسلم بن الحجاج في صحيحه عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: كنت قائماً عند رسول الله ﷺ فجاءه حبر من أحبار يهود فقال: السلام عليك يا محمد، فدفعته دفعة كاد يصرع منها، فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول يا رسول الله؟ فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه بـه أهله، فقال رسول الله ﷺ: «إن اسمي محمد الذي سماني بـه أهلي»، فقال اليهودي: جئت أسألك، فقال رسول الله ﷺ: «أينفعك شيئاً إن حدثتك»؟ فقال: أسمع بأذني، فنكت رسول الله ﷺ بعود معه، فقال: «سل»، فقال اليهودي: أين يكون النـاس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال رسول الله ﷺ: «هم في الظلمة دون الجسر»، قال: فمن أول الناس إجازة؟ فقال: «فقراء المهاجرين»، فقال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: «زيادة كبد النون»، قال: فما غذاؤهم في أثرها؟ قال: «ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها»، قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «من عين فيها تسمى سلسبيلاً»، قال: صدقت. قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان، قال: «أينفعك إن حدثتك»؟ قال: أسمع بأذني، قال جئت أسألك عن الولد، قال: «ماء الرجـل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا منيّ الرجل منيّ المرأة كان ذكراً بإذن الله تعالى، وإذا علا منيّ المرأة منيّ الرجل كان أنثى بإذن الله»، قال اليهودي: لقد صدقت، وإنك لنبي، ثم انصرف، فقال رسول الله ﷺ: «لقد سألني هذا عن الذي سألني عنه وما لي علم بشيء منه حتى أتاني الله به».

---

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجة، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وروى أبو جعفر بن جرير الطبري، عن عمرو بن ميمون يقول: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض﴾ قال: أرض كالفضة البيضاء نقية، لم يسفك فيها دم، ولم يعمل عليها خطيئة، ينفذهم البصر، ويسمعهم الداعي حفاة عراة كما خلقوا، قال، أراه قال قياماً حتى يلجمهم العرق، وعن عمرو بن ميمون عن عبد الله عن النبي ﷺ في قول الله عزّ وجلّ ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض﴾ قال: «أرض بيضاء لم يسفك عليها دم، ولم يعمل عليها خطيئة»[1]. وقال الربيع، عن أُبي بن كعب قال: تصير السماوات جناناً. وقال الأعمش، عن عبد الله بن مسعود: الأرض كلها نار يوم القيامة، والجنة من ورائها ترى أكوابها وكواعبها، والذي نفس عبد الله بيده إن الرجل ليفيض عرقاً حتى ترشح في الأرض قدمه، ثم يرتفع حتى يبلغ أنفه، وما مسه الحساب، قالوا: ممَ ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال مما يرى الناس ويلقون. وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أَنس عن كعب في قوله: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾ قال: تصير السماوات جناناً ويصير مكان البحر ناراً وتبدل الأرض غيرها. وقوله: ﴿وبرزوا لله﴾ أي خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله ﴿الواحد القهار﴾ أي الذي قهر كل شيء وغلبه، ودانت له الرقاب وخضعت له الألباب.

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٥١﴾

يقول تعالى: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾ وتبرز الخلائق لديّانها ترى يا محمد يومئذ المجرمين وهم الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم، ﴿مقرّنين﴾ أي بعضهم إلى بعض قد جمع بين النظراء أو الأشكال منهم كل صنف إلى صنف، كما قال تعالى: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾، وقال: ﴿وإذا النفوس زوّجت﴾، وقال: ﴿وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً﴾، وقال: ﴿والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الأصفاد﴾ والأصفاد هي القيود[2]، قال عمرو بن كلثوم:

فآبوا، بالثياب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا

وقوله تعالى: ﴿سرابيلهم من قطران﴾ أي ثيابهم التي يلبسونها من قطران، وهو الذي تهنأ به الإبل، أي تطلى، قال قتادة: وهو ألصق شيء بالنار، وكان ابن عباس يقول: القطران هو النحاس المذاب[3]، أي من نحاس حار قد انتهى حره، وقوله: ﴿وتغشى وجوههم النار﴾، كقوله: ﴿تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون﴾، وقال الإمام أحمد، عن أبي مالك الأشعري قال، قال رسول الله ﷺ: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت، والنائحة إذا لم تتب قبل موتها؛ تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب»[4]، وقوله: ﴿ليجزي الله كل نفس ما كسبت﴾ أي يوم

---

(١) رواه الحافظ أبو بكر البزار.

(٢) قاله ابن عباس وسعيد بن جبير والأعمش وعبدالرحمن بن زيد.

(٣) وهو مروي عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة.

(٤) أخرجه مسلم والإمام أحمد في المسند.

القيامة ﴿ليجزي الذين أساءوا بما عملوا﴾ الآية، ﴿إن الله سريع الحساب﴾ يحتمل أن يكون كقوله تعالى: ﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون﴾ ويحتمل أنه في حال محاسبته لعبده سريع النجاز، لأنه يعلم كل شيء ولا يخفى عليه خافية، وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم، كقوله تعالى: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾، وهذا معنى قول مجاهد: ﴿سريع الحساب﴾ إحصاءً، ويحتمل أن يكون المعنيان مرادين والله أعلم.

هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

يقول تعالى: هذا القرآن بلاغ للناس، كقوله: ﴿لأنذركم به ومن بلغ﴾ أي هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن كما قال في أول السورة: ﴿كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾ الآية، ﴿ولينذروا به﴾ أي ليتعظوا به، ﴿وليعلموا أنما هو إله واحد﴾ أي يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو، ﴿وليذكر أولو الألباب﴾ أي ذوو العقول.

[آخر تفسير سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، والحمد لله رب العالمين].

* * *

تفسير سورة إبراهيم، عليه السلام

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (٣)﴾.

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور.

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ أى: هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن العظيم، الذى هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء، على أشرف رسول بعثه الله فى الأرض، إلى جميع أهلها عَربهم وعَجَمهم(١).

﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أى: إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب؛ لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغى إلى الهدى والرشد، كما قال: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ الآية [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الحديد: ٩].

وقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أى: هو الهادى لمن قَدر له الهداية على يدى رسوله المبعوث عن أمره يهديهم ﴿إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ﴾ أى: العزيز الذى لا يمانع ولا يُغَالب، بل هو القاهر لكل ما سواه، ﴿الْحَمِيدِ﴾ أى: المحمود فى جميع أفعاله وأقواله، وشرعه وأمره ونهيه، الصادق فى خبره.

وقوله: ﴿اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ : قرأه بعضهم مستأنفاً مرفوعاً، وقرأه آخرون على الإتباع صفة للجلالة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٥٨].

وقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أى: ويل لهم يوم القيامة إذ خالفوك يا محمد

---

(١) فى ت، أ: «عربيهم وعجميهم».

وكذبوك.

ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، أى: يقدمونها ويُؤثرونها عليها، ويعملون للدنيا ونَسُوا الآخرة، وتركوها وراء ظهورهم، ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهى اتباع الرسل، ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أى: ويحبون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة عائلة[1]، وهى مستقيمة فى نفسها، لا يضرها من خالفها ولا من خذلها، فهم[2] فى ابتغائهم ذلك فى جهل وضلال بعيد من الحق، لا يرجى لهم ـ والحالة هذه ـ صلاح.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤) ﴾.

هذا من لطفه تعالى بخلقه: أنه يرسل إليهم رسلا[3] منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا وَكِيع، عن عمر[4] بن ذر قال: قال مجاهد: عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يبعث الله، عز وجل، نبيا إلا بلغة قومه»[5].

وقوله: ﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ أى: بعد البيان وإقامة الحجة عليهم يضل تعالى من يشاء عن وجه الهدى، ويهدى من يشاء إلى الحق، ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذى ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى أفعاله، فيضل من يستحق الإضلال، ويهدى من هو أهل لذلك.

وقد كانت هذه سنة الله فى خلقه: أنه ما بعث نبيا فى أمة إلا أن يكون بلغتهم، فاختص كل نبى بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم، واختص محمدَ بن عبد الله رسول الله بعموم الرسالة إلى سائر الناس، كما ثبت فى الصحيحين عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يُعطَهُن أحد من الأنبياء قبلى: نُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجداً وطَهُوراً، وأحلَّت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى، وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس عامة»[6].

وله شواهد من وجوه كثيرة، وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

---

(١) عائلة: أى جائرة.
(٢) فى ت: «ففهم».
(٣) فى أ: «رسولا».
(٤) فى أ: «عمرو».
(٥) المسند (٥/١٥٨) ومجاهد لم يسمع من أبى ذر.
(٦) صحيح البخارى برقم (٣٣٥) وصحيح مسلم برقم (٥٢١).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾.

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب، لتخرج الناس كلهم، تدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور، كذلك أرسلنا موسى فى بنى إسرائيل بآياتنا.

قال مجاهد: وهى التسع الآيات.

﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ أى: أمرناه قائلين له: ﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أى: ادعهم إلى الخير، ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان.

﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ أى: بأياديه ونعَمه عليهم، فى إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه، وإنجائه إياهم من عدوهم، وفلقه لهم البحر، وتظليله إياهم بالغمام، وإنزاله عليهم المن والسلوى، إلى غير ذلك من النعم. قال ذلك مجاهد، وقتادة، وغير واحد.

وقد ورد فيه الحديث المرفوع الذى رواه عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل فى مسند أبيه حيث[(١)] قال: حدثنى يحيى بن عبد الله مولى بنى هاشم، حدثنا محمد بن أبان الجعفى، عن أبى إسحاق، عن سعيد بن جبير [عن ابن عباس، عن أبى بن كعب، عن النبى ﷺ فى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ ، قال: «بنعم الله تبارك وتعالى]»[(٢)].

[ورواه ابن جرير][(٣)]، وابن أبى حاتم، من حديث محمد بن أبان، به[(٤)]. ورواه عبد الله ابنه[(٥)] أيضا موقوفا[(٦)]، وهو أشبه.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أى: إن فيما صنعنا بأوليائنا بنى إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين، لعبرة لكل صبَّار، أى: فى الضراء، شكور، أى: فى السراء، كما قال قتادة: نعم العبد، عبد إذا ابتُلى صبَر، وإذا أعطى شكر.

وكذا جاء فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أمر المؤمن كُلَّه عَجَب، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له»[(٧)].

---

(١) فى هـ: «فى مسنده حديث قال» والمثبت من ت، أ.
(٢) زيادة من ت، أ، والمسند.
(٣) زيادة من ت، أ.
(٤) زوائد المسند (٥/ ١٢٢) وتفسير الطبرى (١٦/ ٥٢٢).
(٥) فى ت: «بن أحمد».
(٦) زوائد المسند (٥/ ١٢٢).
(٧) صحيح مسلم برقم (٢٩٩٩) من حديث صهيب رضى الله عنه.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن موسى، حين ذكَّر قومه بأيام الله عندهم ونعَمه عليهم، إذ أنجاهم من آل فرعون، وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال، حين[1] كانوا يذبحون من وجد من أبنائهم، ويتركون إناثهم فأنقذ الله بنى إسرائيل من ذلك، وهذه نعمة عظيمة؛ ولهذا قال: ﴿ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ أى: نعمة عظيمة منه عليكم فى ذلك، أنتم عاجزون عن القيام بشكرها.

وقيل: وفيما كان يصنعه بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل ﴿ بَلَاءٌ ﴾ أى: اختبار عظيم. ويحتمل أن يكون المراد هذا وهذا، والله أعلم، كما قال تعالى: ﴿ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

وقوله: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾ أى: آذنكم وأعلمكم بوعده لكم. ويحتمل أن يكون المعنى: وإذ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه كما قال: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ [مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ][2] ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

وقوله[3]: ﴿ لَئِن[4] شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ أى: لئن شكرتم نعمتى[5] عليكم لأزيدنكم منها، ﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ ﴾ أى: كفرتم النعم وسترتموها وجَحَدتموها، ﴿ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾، وذلك بسلبها عنهم، وعقابه إياهم على كفرها.

وقد جاء فى الحديث: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»[6].

وفى المسند: أن رسول الله ﷺ مرَّ به سائل فأعطاه تمرة، فَتَسَخَّطها ولم يقبلها، ثم مر به آخر فأعطاه إياها، فقبلها وقال: تمرة من رسول الله ﷺ، فأمر له بأربعين درهما، أو كما قال.

قال الإمام أحمد: حدثنا أسود، حدثنا عمارة الصَّيدلانى، عن ثابت، عن أنس قال: أتى النبى ﷺ سائل فأمر له بتمرة فلم يأخذها ـ أو: وحَّش بها ـ قال: وأتاه آخر فأمر له بتمرة، فقال: سبحان الله! تمرة من رسول الله ﷺ. فقال للجارية: «اذهبى إلى أم سلمة، فأعطيه الأربعين درهما التى

(١) فى ت، أ: «حيث». (٢) زيادة من ت، أ. (٣) فى ت، أ: «وقال هاهنا».
(٤) فى ت، أ: «وإذ تأذن ربكم لئن». (٥) فى ت: «نعمة الله».
(٦) رواه أحمد فى المسند (٥/ ٨٠) وابن ماجة فى السنن برقم (٩٠) من حديث ثوبان رضى الله عنه، وحسنه العراقى كما فى الزوائد للبوصيرى (١/ ٦١).

عندها».

تفرد به الإمام أحمد(١).

وعمارة بن زاذان وثقه ابن حبَّان، وأحمد، ويعقوب بن سفيان(٢). وقال ابن معين: صالح. وقال أبو زُرْعَة: لا بأس به. وقال أبو حاتم: يكتب حديث ولا يحتج به، ليس بالمتين. وقال البخاري: ربما يضطرب في حديثه. وعن أحمد أيضا أنه قال: روى عنه أحاديث منكرة. وقال أبو داود: ليس بذاك. وضعفه الدارقطني، وقال ابن عدي: لا بأس به ممن يكتب حديثه.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي: هو غني عن شكر عباده، وهو الحميد المحمود، وإن كَفَره من كَفَره، كما قال: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وقال تعالى: ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦].

وفي صحيح مسلم، عن أبي ذر، عن رسول الله ﷺ فيما يروى عن ربه، عز وجل، أنه قال: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك في(٣) ملكي شيئاً. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، إلا كما ينقُص المخْيَط إذا أدخل في البحر». فسبحانه وتعالى الغني الحميد(٤).

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩)﴾.

قال ابن جرير: هذا من تمام قيل(٥) موسى لقومه(٦).

يعني: وتذكاره إياهم بأيام الله، بانتقامه من الأمم المكذبة للرسل.

وفيما قال(٧) ابن جرير نظر؛ والظاهر أنه خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة، فإنه قد قيل:

---

(١) المسند (٣/ ١٥٤).

(٢) في ت: «أحمد ويعقوب بن سفيان وابن حبان».

(٣) في ت، أ: «من».

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٧).

(٥) في أ: «قول».

(٦) تفسير الطبري (١٦/ ٥٢٩).

(٧) في ت، أ: «قاله».

إن قصة عاد وثمود ليست فى التوراة، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه وقَصَّه عليهم ذلك فلا شك[١] أن تكون هاتان القصتان فى «التوراة»، والله أعلم. وبالجملة فالله تعالى قد قص علينا خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل، مما لا يحصى عددهم[٢] إلا الله عز وجل أتتهم رسلهم بالبينات، أى: بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات.

وقال ابن[٣] إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله أنه قال فى قوله: ﴿ **لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾: كذب النسابون.

وقال عروة بن الزبير: ما وجدنا أحدا يعرف ما بعد معد بن عدنان.

وقوله: ﴿ **فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ** ﴾: اختلف المفسرون فى معناه، فقيل: معناه: أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل يأمرونهم[٤] بالسكوت عنهم، لما دعوهم إلى الله، عز وجل.

وقيل: بل وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيباً لهم.

وقيل: بل هو عبارة عن سكوتهم عن جواب الرسل .

وقال مجاهد، ومحمد بن كعب، وقتادة: معناه: أنهم كذبوهم وردوا عليهم قولهم بأفواهم.

قال ابن جرير: وتوجيهه[٥] أن «فى» هاهنا بمعنى «الباء»، قال: وقد سمع من العرب: «أدخلك الله بالجنة» يعنون: فى الجنة، وقال الشاعر:

وَأَرْغَبُ فِيها عَن لَقِيطٍ ورهْطه عَن سِنْبس لَسْتُ أرْغَب

يريد: أرغب بها[٦].

قلت: ويؤيد قول مجاهد تفسير ذلك بتمام الكلام: ﴿ **وقالوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ** ﴾، فكأن هذا [والله أعلم] [٧] تفسير لمعنى «ردّ أيديهم فى أفواههم».

وقال سفيان الثورى، وإسرائيل، عن أبى إسحاق عن أبى الأحوص، عن عبد الله فى قوله: ﴿ **فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ** ﴾ قال: عضوا عليها غَيْظًا.

وقال شعبة، عن أبى إسحاق، عن هُبَيْرَة ابن مريم، عن عبد الله أنه قال ذلك أيضا.

وقد اختاره عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، ووجهه ابن جرير مختاراً له، بقوله تعالى عن المنافقين: ﴿ **وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ** ﴾ [آل عمران: ١١٩].

وقال العوفى، عن ابن عباس: لما سمعوا كتاب[٨] الله عَجبوا، ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم.

---

(١) فى ت، أ: «لأوشك». (٢) فى ت، أ: «عدده». (٣) فى ت: «أبو».
(٤) فى ت: «يأمروهم». (٥) فى ت: «ويوجهه».
(٦) تفسير الطبرى (١٦/ ٥٣٤).
(٧) زيادة من ت، أ. (٨) فى ت: «كلام».

وقالوا: ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ يقولون: لا نصدقكم فيما جئتم به؛ فإن عندنا فيه شكا قويا.

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) ﴾.

يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة، وذلك أن أممهم لما واجهوهم بالشك فيما جاؤوهم به من عبادة الله وحده لاشريك له، قالت الرسل: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾؟

وهذا يحتمل شيئين، أحدهما: أفى وجوده شك، فإن الفطر شاهدة بوجوده، ومجبولة على الإقرار به، فإن الاعتراف به ضرورى فى الفطَر السليمة، ولكن قد يعرض [١] لبعضها شك واضطراب، فتحتاج إلى النظر فى الدليل الموصل إلى وجوده؛ ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه ﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ الذى خلقها وابتدعها على غير مثال سبق، فإن شواهد الحدوث [٢] والخلق والتسخير ظاهر عليها، فلابد لها من صانع، وهو الله لا إله إلا هو، خالق كل شىء وإلهه ومليكه.

والمعنى الثانى فى قولهم: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ أى: أفى إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك، وهو الخالق لجميع الموجودات، ولا [٣] يستحق العبادة إلا هو، وحده لا شريك له؛ فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع، ولكن تعبد [٤] معه غيره من الوسائط التى يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى.

وقالت لهم الرسل: ندعوكم [٥] ليغفر لكم من ذنوبكم، أى: فى الدار الآخرة، ﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى: فى الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ الآية [هود:٣]، فقالت لهم الأمم محاجين فى مقام الرسالة، بعد تقدير تسليمهم للمقام الأول، وحاصل ما قالوه: ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أى: كيف نتبعكم بمجرد قولكم، ولَمَّا نَر منكم معجزة؟ ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أى: خارق نقترحه عليكم.

(١) فى ت: «تعرض». (٢) فى ت، أ: «الحدث». (٣) فى ت، أ: «فلا».
(٤) فى ت، أ: «يعبد». (٥) فى هـ: «وقالت لهم رسلهم: الرسل يدعوكم»، والمثبت من ت،أ.

قالت لهم رسلهم: ﴿ إِن نَّحْنُ إِلا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: صحيح أنا بشر مثلكم في البشرية ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: بالرسالة والنبوة ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ﴾ على وفق ما سألتم ﴿إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بعد سؤالنا إياه، وإذنه لنا في ذلك، ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: في جميع أمورهم.

ثم قالت الرسل: ﴿وَمَا لَنَا أَلا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ ﴾ أي: وما يمنعنا من التوكل عليه، وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها، ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾ أي: من الكلام السيئ، والأفعال السخيفة، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧) ﴾.

يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلَهم، من الإخراج من أرضهم، والنفي من بين أظهرهم، كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به: ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]، وقال قوم لوط: ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]، وقال تعالى إخباراً عن مشركي قريش: ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وكان (١) من صنعه تعالى: أنه أظهر رسوله ونصره، وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصاراً وأعواناً وجندا، يقاتلون في سبيل الله، ولم يزل يرقيه [الله] (٢) تعالى من شيء إلى شيء، حتى فتح له مكة التي أخرجته، ومكّن له فيها، وأرغم آناف أعدائه منهم، و[من] (٣) سائر [أهل] (٤) الأرض، حتى دخل الناس في دين الله أفواجا، وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأديان، في مشارق الأرض ومغاربها في أيسر زمان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ. وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ. وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ (٥) عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾

---

(١) في ت، أ: «فكان». (٢ـ٤) زيادة من ت، أ. (٥) في ت: «لقوى» وهو خطأ.

[الأنبياء: ١٠٥]، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي: وعيدي [1] هذا لمن خاف مقامي بين يدي يوم القيامة، وخشي من وعيدي، وهو تخويفي وعذابي، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ . وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ . وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٤١]، وقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وقوله: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ أي: استنصرت الرسل ربها على قومها. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: استفتحت الأمم على أنفسها، كما قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

ويحتمل أن يكون هذا مراداً وهذا مراداً، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر، واستفتح رسول الله واستنصر، وقال الله تعالى للمشركين: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ الآية [الأنفال: ١٩]، والله أعلم.

﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: متجبر في نفسه معاند للحق، كما قال تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ . مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ [ق: ٢٤ ـ ٢٦].

وفي الحديث: «إنه يؤتى بجهنم يوم القيامة، فتنادي الخلائق فتقول: إني وُكلت بكل جبار عنيد» الحديث [2].

خاب وخسر حين اجتهد الأنبياء في الابتهال إلى ربها العزيز المقتدر.

وقوله: ﴿مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾: و«وراء» هاهنا بمعنى «أمام»، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]، وكان ابن عباس يقرؤها «وكان أمامهم ملك».

أي: من وراء الجبار العنيد جهنم، أي: هي له بالمرصاد، يسكنها مخلدا يوم المعاد، ويعرض عليها غدواً وعشيا إلى يوم التناد.

---

(١) في ت: «وعدي».

(٢) رواه أحمد في المسند (٣/ ٤٠) من حديث أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، ورواه الترمذي في السنن برقم (٢٥٧٤) من طريق الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب صحيح».

﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ أى: فى النار ليس له شراب إلا من حميم أو غساق، فهذا [١] فى غاية الحرارة، وهذا فى غاية البرد والنتن، كما قال: ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ. وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ [ص: ٥٧، ٥٨].

قال مجاهد، وعكرمة: الصديد: من القيح والدم.

وقال قتادة: هو ما يسيل من لحمه وجلده. وفى رواية عنه: الصديد: ما يخرج من جوف الكافر، قد خالط القيح والدم.

وفى حديث شَهْر بن حَوْشَب، عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: قلت: يا رسول الله، ما طينة الخبال؟ قال: «صديد أهل النار» [٢] وفى رواية: «عُصَارة أهل النار» [٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا على بن إسحاق، أنبأنا عبد الله، أنا صفوان بن عمرو، عن عبيد الله بن بُرْ، عن أبى أمامة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ. يَتَجَرَّعُهُ ﴾، قال: «يُقَرَّبُ إليه فيتكرهه، فإذا أدنى منه شَوَى وجهه، ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره. يقول الله تعالى [٤]: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، ويقول: ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ﴾» [٥] [الكهف: ٢٩].

وهكذا رواه ابن جرير، من حديث عبد الله بن المبارك، به [٦]. ورواه هو وابن أبى حاتم: من حديث بَقِيَّة ابن الوليد، عن صفوان بن عمرو، به [٧].

وقوله: ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ أى: يتغصصه ويتكرهه، أى: يشربه قهرا وقسرا، لا يضعه فى فيه [٨] حتى يضربه الملك بمطراق من حديد، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج: ٢١].

﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ أى: يزدرده لسوء لونه وطعمه وريحه، وحرارته أو برده الذى لا يستطاع.

﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أى: يألم له جميع بدنه وجوارحه وأعضائه.

قال ميمون بن مِهْرَان: من كل عظم، وعرق، وعصب.

وقال عكرمة: حتى من أطراف شعره.

---

(١) فى ت، أ: «فهذا حار».

(٢) رواه أحمد فى المسند (٦/ ٤٦٠).

(٣) وهى رواية أبى ذر، رضى الله عنه، رواها أحمد فى المسند (٥/ ١٧١).

(٤) فى أ: «عز وجل».

(٥) المسند (٥/ ٢٦٥).

(٦) تفسير الطبرى (١٦/ ٥٤٩) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢٥٨٣) من طريق عبد الله بن المبارك به، وقال: «هذا حديث غريب، وهكذا قال محمد بن إسماعيل عن عبيد الله بن بُسْرٍ، ولا نعرف عبيد الله بن بُسْر إلا فى هذا الحديث».

(٧) ورواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٥٥١) من طريق حيوة بن شريح عن بقية به.

(٨) فى ت: «لا يضعه فى فمه» وفى أ: «لا يضيعه فى فمه».

وقال إبراهيم التيمي: من موضع كل شعرة، أي: من جسده، حتى من أطراف شعره.

وقال ابن جرير: ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: من أمامه وورائه، وعن يمينه وشماله، ومن فوقه[١] ومن تحت أرجله[٢]، ومن سائر أعضاء جسده.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ قال: أنواع العذاب الذي يعذبه الله بها يوم القيامة في نار جهنم، وليس منها نوع إلا الموت يأتيه منه لو كان يموت، ولكن لا يموت؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا [كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ][٣]﴾ [فاطر: ٣٦].

ومعنى كلام ابن عباس، رضي الله عنه: أنه ما من نوع من هذه الأنواع من [هذا] [٤] العذاب إلا إذا ورد عليه اقتضى أن يموت منه لو كان يموت، ولكنه لا يموت ليخلد في دوام العذاب والنكال؛ ولهذا قال: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾.

وقوله: ﴿وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ أي: وله من بعد هذا الحال عذاب آخر غليظ، أي: مؤلم صعب شديد أغلظ من الذي قبله وأدهى وأمر. وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ . طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ. فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ. ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ . ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٤ ـ ٦٨]، فأخبر أنهم تارة يكونون في أكل زقوم، وتارة في شرب حميم، وتارة يردون إلى الجحيم[٥]، عياذاً بالله من ذلك، وهكذا قال تعالى: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ . يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ . طَعَامُ الْأَثِيمِ . كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ . كَغَلْيِ الْحَمِيمِ . خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ .ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ. ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ . إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان: ٤٣ ـ ٥٠]، وقال: ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ .فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ . وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ . لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ ﴾ [الواقعة: ٤١ ـ ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ . هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ . وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ [ص: ٥٥ ـ ٥٨]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم، وتكراره وأنواعه وأشكاله، مما لا يحصيه إلا الله، عز وجل، جزاء وفاقا، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[فصلت: ٤٦].

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨) ﴾.

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا مع الله غيره، وكذبوا رسله، وبنوا أعمالهم

---

(١) في ت: «فوقهم». (٢) في ت: «أرجلهم». (٣) زيادة من أ.
(٤) زيادة من ت، أ. (٥) في ت: «جحيم».

على غير أساس صحيح؛ فانهارت وعدموها أحوج ما كانوا إليها، فقال تعالى: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ**﴾ أي: مثل أعمال الذين كفروا يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى؛ لأنهم كانوا يحسبون أنهم على شيء، فلم يجدوا شيئاً، ولا ألفوا حاصلا إلا كما يتحصَّل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة ﴿ **فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ**﴾ أي: ذي ريح عاصفة قوية، فلا[يقدرون على شيء من أعمالهم التى كسبوها فى الدنيا إلا كما] [1] يقدرون على جمع هذا الرماد فى هذا اليوم، كما قال تعالى: ﴿**وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا**﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿**مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ**﴾ [آل عمران: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وقال فى هذه الآية: ﴿**ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ**﴾ أي: سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما هم إليه، ﴿**ذَٰلِكَ** [2] **هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ**﴾.

﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠)** ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن قدرته على مَعاد الأبدان يوم القيامة، بأنه خلق السموات والأرض التى هى أكبر من خلق الناس، أفليس الذى قدر على خلق هذه السموات، فى ارتفاعها واتساعها وعظمتها وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات، والحركات المختلفات، والآيات الباهرات، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد، وبرارى وصحارى وقفار، وبحار وأشجار، ونبات وحيوان، على اختلاف أصنافها ومنافعها، وأشكالها وألوانها؛ ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ** [3] **أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ. وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ. الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ. أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ. إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ. فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [يس: ٧٧-٨٣].

وقوله: ﴿**إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ. وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ**﴾ أي: بعظيم ولاممتنع، بل هو سهل عليه إذا خالفتم أمره، أن يذهبكم ويأت بآخرين على غير صفتكم، كما قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ. إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ. وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ**

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى ت، أ: «هذا» وهو خطأ. (٣) فى ت، أ: «ولقد خلقنا الإنسان» وهو خطأ.

بعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥ - ١٧]، وقال: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٨]، وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣].

﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (٢١) ﴾.

يقول: ﴿ وَبَرَزُوا [لِلَّهِ][1]﴾ أى: برزت الخلائق كلها، برها وفاجرها لله وحده الواحد القهار، أى: اجتمعوا له فى براز [2] من الأرض، وهو المكان الذى ليس فيه شىء يستر أحدا.

﴿ فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ وهم الأتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم الذين استكبروا عن عبادة الله وحده لا شريك له، وعن موافقة الرسل، فقالوا لهم: ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أى: مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾؟ أى: فهل تدفعون عنا شيئاً من عذاب الله، كما كنتم تَعدُونا وتمنوننا؟ فقالت القادة لهم: ﴿ لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾، ولكن حق علينا قول ربنا، وسبق فينا وفيكم قدر الله، وحقت كلمة العذاب على الكافرين.

﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أى: ليس لنا خَلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إن أهل النار قال بعضهم لبعض: تعالوا، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة ببكائهم وتضرعهم إلى الله، عز وجل، تعالوا نبك ونتضرع إلى الله، فبكوا وتضرعوا، فلما رأو ذلك لا ينفعهم قالوا: تعالوا، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر، تعالوا حتى نصبر، فصبروا صبرا لم يُر مثله، فلم ينفعهم ذلك، فعند ذلك قالوا[3]: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾.

قلت: والظاهر أن هذه المراجعة فى النار بعد دخولهم إليها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨]، وقال تعالى: ﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ[4] النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ. وَقَالَتْ أُولَاهُمْ

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت: «برار». (٣) فى أ: «فقالوا».
(٤) فى ت: «فى».

لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨، ٣٩]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا. وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا. رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾[الأحزاب: ٦٦ ـ ٦٨].

وأما تخاصمهم فى المحشر، فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ[١] مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ. وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا[٢] النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ: ٣١ ـ ٣٣].

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ (٢٣) ﴾.

يخبر تعالى عما خطب به إبليس [لعنه الله] [٣] أتباعه، بعد ما قضى الله بين عباده، فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات، فقام فيهم إبليس ـ لعنه الله ـ حينئذ خطيباً ليزيدهم حزنا إلى حزنهم[٤]، وغَبنا إلى غبْنهم، وحسرة إلى حسرتهم، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ أى: على ألسنة رسله، ووعدكم فى اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعداً حقا، وخبرا صدقا، وأما أنا فوعدتكم وأخلفتكم، كما قال الله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أى: ما كان لى عليكم فيما دعوتكم إليه من دليل ولا حجة على صدق ما وعدتكم به، ﴿ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ بمجرد ذلك، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاؤوكم بـه، فخالفتموهم فصرتـم إلى ما أنتم فيه، ﴿ فَلا تَلُومُونِي﴾ اليوم، ﴿ وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾، فإن الذنب لكم، لكونكم خالفتم الحجج واتبعتمونى بمجرد

---

(١) في ت، أ: «المجرمون» وهو خطأ.
(٢) فى ت: «وأسر» وهو خطأ.
(٣) زيادة من أ.
(٤) فى ت: «خزياً إلى خزيهم».

ما دعوتكم إلى الباطل، ﴿ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أى: بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه، ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ أى: بنافعى بإنقاذى مما أنا فيه من العذاب والنكال، ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾.

قال قتادة: أى بسبب ما أشركتمونى من قبل.

وقال ابن جرير: يقول: إنى جحدت أن أكون شريكا لله، عز وجل.

وهذا الذى قاله هو الراجح[(١)]، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، وقال: ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢].

وقوله: ﴿ إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أى: فى إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

والظاهر من سياق الآية: أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار، كما قدمنا. ولكن قد ورد فى حديث رواه ابن أبى حاتم ـ وهذا لفظه ـ وابن جرير من رواية عبد الرحمن بن زياد: حدثنى دخين [(٢)] الحَجْرى، عن عقبة بن عامر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا جمع الله الأولين والآخرين، فقضى بينهم، ففرغ من القضاء، قال المؤمنون: قد قضى بيننا ربنا، فمن يشفع لنا؟ فيقولون: انطلقوا بنا إلى آدم ـ وذكر نوحا، وإبراهيم، وموسى، وعيسى ـ فيقول عيسى: أدلكم على النبى الأمى. فيأتونى، فيأذن الله لى أن أقوم إليه فيثور [(٣)] [من] [(٤)] مجلسى من أطيب ريح شمها أحد قط، حتى آتى ربى فيشفعنى، ويجعل لى نورا من شعر رأسى إلى ظُفر قدمى، ثم يقول الكافرون هذا: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم، فمن يشفع لنا؟ ما هو إلا إبليس هو الذى أضلنا، فيأتون إبليس فيقولون: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم، فقم أنت فاشفع لنا ، فإنك أنت أضللتنا. فيقوم فيثور من مجلسه من أنتن ريح شمها أحد قط، ثم يعظم نحيبهم[(٥)]، ﴿ وَقَالَ[(٦)] الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾[(٧)].

وهذا سياق ابن أبى حاتم، ورواه ابن المبارك عن رِشْدين بن سعد، عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، عن دُخَيْن [(٨)] عن عُقْبَة، به مرفوعا[(٩)].

---

(١) فى أ: «الأرجح». (٢) فى ت، أ: «دجين». (٣) فى ت، أ: «فيفور».
(٤) زيادة من ت، أ، والطبرى. (٥) فى ت، أ: «بجهنم». (٦) فى ت، أ: «ويقول» وهو خطأ.
(٧) تفسير الطبرى (١٦/ ٥٦٢) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٧/ ٣٢٠) من طريق ابن وهب: أخبرنى ابن نعيم (كذا فى المعجم) عن دخين، عن عقبة مرفوعاً. وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٣٧٦): «فيه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، وهو ضعيف» وضعف السيوطى إسناده أيضا.
(٨) فى أ: «دجين».
(٩) ورواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٥٦٢) من طريق سويد بن نصر، عن ابن المبارك به.

وقال محمد بن كعب القُرظى، رحمه الله: لما قال أهل النار: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ قال لهم إبليس: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ الآية، فلما سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم، فنودوا: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠].

وقال عامر الشعبى: يقوم خطيبان يوم القيامة على رؤوس الناس، يقول الله لعيسى ابن مريم: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، إلى قوله: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٩]، قال: ويقوم إبليس ـ لعنه الله ـ فيقول: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ الآية.

ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزى والنَّكَال. وأن خطيبهم إبليس، عطف بحال السعداء وأنهم يدخلون يوم القيامة جنات تجرى من تحتها الأنهار سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا[(١)]، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾. ماكثين أبدا لا يحولون ولا يزولون، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الزمر: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ. سَلامٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا﴾ [الفرقان: ٧٥]، وقال: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[يونس: ١٠].

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦)﴾.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قوله: «**ومثل كلمة طيبة**»: شهادة أن لا إله إلا الله، ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهو المؤمن، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ يقول: لا إله إلا الله فى قلب المؤمن، ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء.

وهكذا قال الضحاك، وسعيد بن جُبَير، وعِكْرِمة وقتادة وغير واحد: إن ذلك عبارة عن المؤمن، وقوله الطيب، وعمله الصالح، وإن المؤمن كالشجرة من النخل، لا يزال يرفع له عمل صالح فى كل حين ووقت، وصباح ومساء.

وهكذا رواه السُّدِّى، عن مُرَّة، عن ابن مسعود قال: هى النخلة.

وشعبة، عن معاوية بن قُرَة، عن أنس: هى النخلة.

---

(١) فى ت: «شاؤوا أين شاؤوا» وفى أ: «شاؤوا حيث شاؤوا».

وحماد بن سلمة، عن شعيب بن الحبحاب، عن أنس: أن رسول الله ﷺ أتى بقناع بُسْر فقال:[١] «ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة» قال: «هى النخلة»[٢].

وروى من هذا الوجه ومن غيره، عن أنس موقوفا[٣]. وكذا نص عليه مسروق، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والضحاك، وقتادة وغيرهم.

وقال البخارى: حدثنا عُبَيدُ بن إسماعيل، عن أبى أسامة، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «أخبرونى عن شجرة تُشبه ـ أو: كالرجل ـ المسلم، لا يتحات ورقها [ولا، ولا، ولا][٤] تؤتى أكلها كل حين». قال ابن عمر: فوقع فى نفسى أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئا، قال رسول الله ﷺ: «هى النخلة». فلما قمنا قلت لعُمَر: يا أبتا، والله لقد كان وقع فى نفسى أنها النخلة. قال: ما منعك أن تكلَّم؟ قال: لم أركُم تَتكلَّمون، فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئا. قال عمر: لأن تكون قلتها أحب إلى من كذا وكذا[٥].

وقال أحمد: حدثنا سفيان، عن ابن أبى نَجيح، عن مُجاهد: صحبت ابن عمر إلى المدينة، فلم أسمعه يحدِّث عن رسول الله ﷺ إلا حديثاً واحدا ـ قال: كنا عند رسول الله ﷺ فأتى بجُمَّار. فقال: «من الشجر شجرة مثلها مثل الرجل المسلم». فأردت أن أقول: هي النخلة، فنظرت فإذا أنا أصغر القوم، [فسكتُّ][٦]، فقال رسول الله ﷺ: «هى النخلة» أخرجاه[٧].

وقال مالك وعبد العزيز، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ يوما لأصحابه: «إن من الشجر شجرة لا يَطْرحُ ورقها، مثل المؤمن». قال: فوقع الناس فى شَجر البوادى، ووقع فى قلبى أنها النخلة [فاستحييت، حتى قال رسول الله ﷺ: «هى النخلة]»[٨]. أخرجاه أيضا[٩].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبان ـ يعنى ابن يزيد العطار ـ حدثنا قتادة: أن رجلا قال: يا رسول الله، ذهب أهل الدُّثور بالأجور! فقال: «أرأيت لو عمد إلى متاع

---

(١) فى هـ، ت، أ: «فقرأ» والمثبت من الطبرى والترمذى.

(٢) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٥٧٠) والترمذى فى السنن برقم (٣١١٩) من طريق حماد بن سلمة به، وقال الترمذى: «وروى غير واحد مثل هذا موقوفاً، ولانعلم أحداً رفعه غير حماد بن سلمة، ورواه معمر وحماد بن زيد وغير واحد ولم يرفعوه».

(٣) رواه أبو بكر بن شعيب بن الحبحاب، عن أبيه، عن أنس بن مالك نحوه موقوفاً، أخرجه الترمذى فى السنن برقم (٣١١٩) ورواه حماد بن زيد، عن شعيب بن الحبحاب، عن أنس موقوفاً، أخرجه الترمذى فى السنن برقم (٣١١٩).

(٤) زياد من ت، أ، والبخارى.

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٦٩٨).

(٦) زيادة من ت، أ، والمسند،

(٧) المسند(٢/ ١٢) وصحيح البخارى برقم (٧٢) وصحيح مسلم برقم (٢٨١١).

(٨) زيادة من ت، أ، والصحيحين.

(٩) صحيح البخارى برقم (١٣١) وصحيح مسلم برقم (٢٨١١).

الدنيا، فركب بعضها على بعض أكان يبلغ السماء؟ أفلا أخبرك بعمل أصله فى الأرض وفرعه فى السماء؟». قال: ما هو يا رسول الله؟ قال: «تقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله»، عشر مرات فى دبر كل صلاة، فذاك أصله فى الأرض وفرعه فى السماء»(١).

وعن ابن عباس: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ قال: هى شجرة فى الجنة.

وقوله: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾: قيل: غُدوة وعَشيا. وقيل: كل شهر. وقيل: كل شهرين. وقيل: كل ستة أشهر. وقيل: كل سبعة أشهر. وقيل: كل سنة.

والظاهر من السياق: أن المؤمن مثله كمثل شجرة، لا يزال يوجد منها ثمر فى كل وقت من صيف أو شتاء، أو ليل أو نهار، كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار فى كل وقت وحين.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أى: كاملاً حسنا كثيراً طيبا، ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾: هذا مثل كفر الكافر، لا أصل له ولا ثبات، وشبه بشجرة الحنظل، ويقال لها: «الشريان». [رواه شعبة، عن معاوية بن قرة، عن أنس بن مالك: أنها شجرة الحنظل](٢).

وقال أبو بكر البزار الحافظ: حدثنا يحيى بن محمد بن السكن، حدثنا أبو زيد سعيد بن الربيع، حدثنا شعبة، عن معاوية بن قُرَّة، عن أنس ـ أحسبه رفعه ـ قال: «مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة»، قال: هى النخلة، ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾، قال: هى الشّرْيان»(٣).

ثم رواه عن محمد بن المثنى، عن غُنْدَر، عن شعبة، عن معاوية، عن أنس موقوفا(٤).

وقال بن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد ـ هو ابن سلمة ـ عن شعيب بن الحَبْحاب عن أنس بن مالك؛ أن النبى ﷺ قال: «ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة» هى الحنظلة». فأخبرت بذلك أبا العالية فقال: هكذا كنا نسمع.

ورواه ابن جرير، من حديث حماد بن سلمة، به(٥). ورواه أبو يعلى فى مسنده بأبسط من هذا فقال:

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/ ٢٢) وعزاه لابن أبى حاتم، وهو مرسل.

(٢) زيادة من ت، أ.

(٣) ورواه حماد بن سلمة عن شعيب بن الحبحاب عن أنس مرفوعاً مثله رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٥٧٠، ٥٨٥).

(٤) ورواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٥٨٣) عن محمد بن المثنى به موقوفاً، ورواه شبابة وعمرو بن الهيثم، عن شعبة فأوقفوه.
انظر: تفسير الطبرى (١٦/ ٥٨٣).

(٥) تفسير الطبرى (١٦/ ٥٨٥).

حدثنا غسان، عن حماد، عن شعيب، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ أتى بقناع عليه بُسْر، فقال: ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة، أصلها ثابت وفرعها فى السماء. تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها فقال: «هى النخلة» ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾، قال: «هى الحنظل»[1]. قال شعيب: فأخبرت بذلك أبا العالية فقال: كذلك كنا نسمع[2].

وقوله: ﴿اجْتُثَّتْ﴾ أى: استؤصلت ﴿مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أى: لا أصل لها ولا ثبات، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع، ولا يصعد للكافر عمل، ولا يُتَقَبَّل منه شىء.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)﴾.

قال البخارى: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، أخبرنى علقمة بن مَرْثَد قال: سمعت سعد بن عُبَيدة، عن البراء بن عازب، رضى الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل فى القبر، شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾»[3].

ورواه مسلم أيضاً وبَقِيَّة الجماعة كلهم، من حديث شعبة، به[4].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن المِنْهَال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يُلحَد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله، كأن على رؤوسنا الطير، وفى يده عود يَنْكت به فى الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر»، مرتين أو ثلاثا، ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء، بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة وحَنُوط من حَنُوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر. ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان». قال: «فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فِىِّ السِّقَاء فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وفى ذلك الحنُوط، ويخرج منها كأطيب نَفْحة مِسْك وجدت على وجه الأرض. فيصعدون بها، فلا يمرون ـ يعنى بها ـ على ملأ من الملائكة

---

(١) فى أ: «الحنظلة».

(٢) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣١١٩) عن عبد بن حميد، عن أبى الوليد، عن حماد بن سلمة به نحوه، وقد سبق الكلام عليه.

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٦٩٩).

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٨٧١) وسنن أبى داود برقم (٤٧٥٠) وسنن الترمذى برقم (٣١٢٠) وسنن النسائى (١٠١/٤) وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٦٩).

إلا قالوا: ما هذا الروح [الطيب](١)؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأحسن أسمائه التى [كانوا](٢) يسمونه بها فى الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها، حتى ينتهى به إلى السماء السابعة، فيقول الله: اكتبوا كتاب عبدى فى عِليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى».

قال: «فتُعاد روحه [فى جسده](٣)، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربى الله. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: دينى الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذى بُعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله. فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله، فآمنت به وصدقت. فينادى مناد من السماء: أن صدق عبدى، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة ـ قال: فيأتيه من رَوْحِها وطيبها، ويفسح له فى قبره مد بصره. ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذى يسرك، هذا يومك الذى كنت تُوعَد. فيقول له من أنت؟ فوجهك الوجه يجىء بالخير. فيقول: أنا عملك الصالح. فيقول: رب، أقم الساعة. رب، أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلى ومالى».

قال: «وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المُسُوح، فجلسوا منه مدَ البصر. ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجى إلى سَخَط من الله وغَضَب». قال: «فتَفرق فى جسده، فينتزعها كما ينتزع السَّفُّود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها(٤) فى يده طرفة عين، حتى يجعلوها فى تلك المسوح. ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على مَلأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأقبح أسمائه التى كان يسمونه بها فى الدنيا [حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا](٥) فيستفتح له فلا يفتح له». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿**لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ**﴾ [الأعراف: ٤٠]، فيقول الله: «اكتبوا كتابه فى سجين، فى الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحا». ثم قرأ: ﴿**وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ**﴾ [الحج: ٣١].

«فتعاد روحه فى جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدرى. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدرى. فيقولان له: ما هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه، لا أدرى. فينادى مناد من السماء: أن كذب فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار. فيأتيه من حرها وسمومها، ويُضَيَّق عليه قبره، حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل

(١ ـ ٣) زيادة من ت، أ، والمسند. (٤) فى أ: «لم يدعها». (٥) زيادة من ت، أ، والمسند

قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح فيقول: أبشر بالذى يسوؤك، هذا يومك الذى كنت توعد. فيقول: ومن أنت فوجهك [الوجه][1] يجىء بالشر. فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب، لا تقم الساعة».

ورواه أبو داود من حديث الأعمش، والنسائى وابن ماجة من حديث المنهال بن عمرو، به[2].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن يونس بن خباب[3]، عن المِنْهَال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب، رضى الله عنه، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى جنازة، فذكر نحوه.

وفيه: «حتى إذا خرج روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض، [وكل ملك فى السماء][4]، وفتحت أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله، عز وجل، أن يعرج بروحه من قبلهم».

وفى آخره: «ثم يقيض له أعمى أصم أبكم، وفى يده مرزبَّة لو ضرب بها جبل لكان ترابا، فيضربه ضربة فيصير ترابا. ثم يعيده الله، عز وجل، كما كان، فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعها كل شىء إلا الثقلين». قال البراء: ثم يفتح له باب إلى النار، ويمهد من فرش النار[5].

وقال سفيان الثورى، عن أبيه، عن خَيْثَمَة، عن البراء فى قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: عذاب القبر.

وقال المسعودى، عن عبد الله بن مُخَارق، عن أبيه، عن عبد الله قال: إن المؤمن إذا مات أجْلس فى قبره، فيقال له: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ فيثبته الله، فيقول: ربى الله، ودينى الإسلام، ونبيى محمد ﷺ. وقرأ عبد الله: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾[6].

وقال الإمام عبد بن حميد، رحمه الله، فى مسنده: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا شيبان بن عبد الرحمن، عن قتادة، حدثنا أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا وضع فى قبره، وتولى عنه أصحابه، إنه ليسمع قرع نعالهم». قال: «فيأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول فى هذا الرجل؟» قال: «فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله». قال: «فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة». قال نبى الله ﷺ: «فيراهما جميعا». قال

---

(١) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٢) المسند (٤/ ٢٨٧) وسنن أبى داود برقم (٤٧٥٣) وسنن النسائى برقم (٤/ ٧٨) وسنن ابن ماجة برقم (١٥٤٨).

(٣) فى هـ، أ: «يونس بن حبيب» والمثبت من ت والمسند.

(٤) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٥) المسند (٤/ ٢٩٥).

(٦) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٥٩٧).

قتادة: وذُكر لنا أنه يفسح له فى قبره سبعون ذراعا، ويملأ عليه خَضِراً إلى يوم القيامة.

رواه مسلم عن عبد بن حميد، به[١]. وأخرجه النسائى من حديث يونس بن محمد المؤدّب، به[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن ابن جُرَيْج، أخبرنى أبو الزبير، أنه سأل جابر بن عبد الله عن فَتَّانى القبر فقال: سمعت النبى ﷺ يقول: «إن هذه الأمة تُبْتَلَى فى قبورها، فإذا أدخل المؤمن قبره وتولى عنه أصحابه، جاء ملك شديد الانتهار، فيقول له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول المؤمن: أقول: إنه رسول الله وعبده. فيقول له المَلَك: انظر إلى مقعدك الذى كان لك فى النار، قد أنجاك الله منه، وأبدلك بمقعدك الذى ترى من النار مقعدك الذى ترى من الجنة، فيراهما كليهما. فيقول المؤمن: دعونى أبشر أهلى. فيقال له: اسكن. وأما المنافق فيقعد إذا تولى عنه أهله، فيقال له: ما كنت تقول فى هذا الرجل؟ فيقول: لا أدرى، أقول كما يقول الناس. فيقال له: لا دَرَيتَ، هذا مقعدك الذى كان لك فى الجنة، قد أبدلت مكانه مقعدك من النار».

قال جابر: فسمعت النبى ﷺ يقول: «يبعث كل عبد فى القبر على ما مات، المؤمن على إيمانه، والمنافق على نفاقه».

إسناده[٣] صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه[٤] [٥].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا عباد بن راشد، عن داود بن أبى هند، عن أبى نَضْرة، عن أبى سعيد الخدرى قال: شَهِدنا مع رسول الله ﷺ جنازة، فقال رسول الله ﷺ: «يأيها الناس، إن هذه الأمة تُبتَلى فى قبورها، فإذا الإنسان دفن وتفرق عنه أصحابه، جاءه ملك فى يده مطراق فأقعده، قال: ما تقول فى هذا الرجل؟ فإن كان مؤمنا قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله[٦]، فيقول له: صدقت. ثم يفتَح له بابا إلى النار، فيقول: هذا كان منزلك لو كفرت بربك، فأما إذ آمنت فهذا منزلك. فيفتح له بابا إلى الجنة، فيريد أن ينهض إليه، فيقول له: اسكن. ويفسح له فى قبره».

«وإن كان كافرا أو منافقا يقول[٧] له: ما تقول فى هذا الرجل؟ فيقول: لا أدرى، سمعت الناس يقولون شيئا[٨]. فيقول: لا دَرَيت ولا تَلَيت ولا اهتديت. ثم يفتح له بابا إلى الجنة، فيقول له: هذا

---

(١) المنتخب لعبد بن حميد برقم (١١٧٨) وصحيح مسلم برقم (٢٨٧٠).

(٢) سنن النسائى (٤/ ٩٧).

(٣) فى ت: «إسناد». (٤) فى ت: «ولم يخرجوه».

(٥) الذى فى المسند (٣/ ٣٤٦): حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لهيعة، عن أبى الزبير به. وكذا فى أطراف المسند لابن حجر (٢/ ١١٠).

(٦) فى أ: «وأن محمداً رسول الله». (٧) فى ت، أ: «فيقول». (٨) فى أ. «شيئا فقلته».

منزلك لو آمنت بربك، فأما إذ كفرت به فإن الله، عز وجل، أبدلك به هذا. فيفتح[١] له بابا إلى النار، ثم يقمَعه قمعةً بالمطراق يسمعها خَلْقُ الله، عز وجل، كلهم غير الثقلين». فقال بعض القوم: يا رسول الله، ما أحد يقوم عليه ملك فى يده مطراق[٢] إلا هيل عند ذلك. فقال رسول الله ﷺ: «﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾»[٣].

وهذا أيضا إسناد لا بأس به، فإن عباد بن راشد التميمى روى له البخارى مقرونا، ولكن ضعفه بعضهم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، عن ابن أبى ذئب، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن سعيد بن يَسَار، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ[٤]: «إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجى أيتها النفس المطمئنة[٥] كانت فى الجسد الطيب، اخرجى حميدة، وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان». قال: «فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعْرَج بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان. فيقولون: مرحبا بالروح الطيبة كانت فى الجسد الطيب، ادخلى حميدة، وأبشرى بروح وريحان، ورب غير غضبان» قال: فلا يزال يقال لها ذلك، حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله عز وجل.

وإذا كان الرجل السوء قالوا: اخرجى أيتها النفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث، اخرجى ذميمة، وأبشرى بحميم وغَسَّاق، وآخر من شكله أزواج. فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعْرَج بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحبا بالنفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث، ارجعى ذميمة، فإنه لا تفتح[٦] لك أبواب السماء. فيرسل[٧] من السماء، ثم يصير[٨] إلى القبر»، فيجلس الرجل الصالح فيقال له مثل ما قيل فى الحديث الأول، ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل فى الحديث الأول.

ورواه النسائى وابن ماجة، من طريق ابن أبى ذئب[٩] بنحوه[١٠].

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: إذا خرجت روح العبد المؤمن، تلقاها ملكان يصعدان بها. قال حماد: فذكر من طيب ريحها وذكر المسك. قال: ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قِبَل الأرض، صَلَّى الله عليك وعلى جَسَد كنت تَعْمُرينه، فيُنطَلَقُ به إلى ربه عز وجل، فيقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل. وإن الكافر إذا خرجت روحه. قال حماد: وذكر من

---

(١) فى ت: «ففتح». (٢) فى ت: «مطرقة».
(٣) المسند (٣/ ٣).
(٤) فى ت، أ: «عن النبى ﷺ أنه قال». (٥) فى ت، أ: «الطيبة». (٦) فى ت، أ: «يفتح».
(٧) فى ت: «فترسل». (٨) فى ت: «تصير». (٩) فى ت: «ابن أبى ذهاب» وفى أ: «ابن أبى ذر».
(١٠) المسند (٢/ ٣٦٤) وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٦٢) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٣١١): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات».

نَتْنها وذكر مقتا، ويقول أهل السماء: روح خبيثة جاءت من قِبَل الأرض. قال: فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل. قال أبو هريرة: فردّ رسول الله ﷺ رَيْطَةَ كانت عليه على أنفه، هكذا(١).

وقال ابن حبان في صحيحه: حدثنا عمر بن محمد الهمداني، حدثنا زيد بن أخزَم، حدثنا معاذ ابن هشام، حدثني أبي، عن قتادة، عن قسامة بن زهير، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن إذا قُبض، أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون: اخرجي إلى روح الله. فتخرج كأطيب ريح مسك، حتى إنه ليناوله بعضهم بعضا يشمونه حتى يأتوا به باب السماء، فيقولون ما هذا الريح الطيبة التي جاءت من قِبل الأرض؟ ولا يأتون سماء إلا قالوا مثل ذلك، حتى يأتوا به أرواح المؤمنين، فَلَهُم أشدّ فرحاً به من أهل الغائب بغائبهم، فيقولون: ما فعل فلان؟ فيقولون: دعوه حتى يستريح، فإنه كان في غمّ! فيقول: قد مات، أما أتاكم؟ فيقولون: ذُهب به إلى أمه الهاوية. وأما الكافر فيأتيه ملائكة العذاب بمِسْح فيقولون: اخرجي إلى غضب الله، فتخرج كأنتن ريح جيفة، فَيُذْهَب به إلى باب الأرض»(٢).

وقد روى أيضا من طريق هَمَّام بن يحيى، عن قتادة، عن أبي الجوزاء، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحوه. قال: «فَيُسأل: ما فعل فلان، ما فعل فلان؟ ما فعلت فلانة؟» قال: «وأما الكافر فإذا قُبضت نفسه، وذُهب بها إلى باب الأرض تقول خزنة الأرض: ما وجدنا ريحا أنتن من هذه. فَيُبْلَغُ بها الأرض السفلى»(٣).

قال قتادة: وحدثني رجل، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الله بن عمرو قال: أرواح المؤمنين تجمع بالجابية. وأرواح الكفار تجمع ببرهوت، سبخة بحضرموت.

وقال الحافظ أبو عيسى الترمذي، رحمه الله: حدثنا يحيى بن خلف، حدثنا بشر بن المفضل، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن سعيد بن أبي سعيد المقْبُرِي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قبر الميت ـ أو قال: أحدكم ـ أتاه ملكان أسودان أزرقان(٤)، يقال لأحدهما: المنكر، والآخر: النكير، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول ما كان يقول: هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا. ثم يُفسَح له في قبره سبعون ذراعا في سبعين. ثم ينوّر له فيه، ثم يقال له: نَمْ. فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم؟ فيقولان: نَمْ نومةَ العروس الذي لا يوقظه إلا أحَبُّ أهله إليه، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك. وإن كان منافقا قال: سمعت الناس يقولون فقلت مثلهم، لا أدري. فيقولان: قد كنا نعلم أنك

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٨٧٢).

(٢) صحيح ابن حبان برقم (٧٣٣) «موارد».

(٣) صحيح ابن حبان برقم (٧٣١) «موارد» ورواه الحاكم في المستدرك (١/ ٣٥١) من طريق همام به نحوه وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٤) في ت: «أزراق».

تقول ذلك، فيقال[١] للأرض: التئمي عليه. فتلتئم عليه، فتختلف أضلاعه، فلا يزال فيها معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك»[٢].

ثم قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب.

وقال حماد بن سلمة، عن محمد بن عمرو، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾. قال: «ذاك إذا قيل له فى القبر: من ربك؟ وما دينك؟ فيقول: ربى الله، ودينى الإسلام، ونبيى محمد، جاءنا بالبينات من عند الله، فآمنت به وصدّقت. فيقال له: صَدَقْتَ، على هذا عشت، وعليه مت، وعليه تُبعث»[٣].

وقال ابن جرير: حدثنا مجاهد بن موسى والحسن بن محمد قالا: حدثنا يزيد، أنبأنا محمد بن عمرو، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة[٤]. إن الميت ليسمع خفق نعالهم حين يولون عنه مدبرين، فإذا كان مؤمنا كانت الصلاة عند رأسه، والزكاة عن يمينه، والصيام عن يساره، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه، فيؤتى من عند رأسه فتقول الصلاة: ما قِبَلى مَدخَلٌ، فيؤتى من عن يمينه فتقول الزكاة: ما قِبَلى مدخل. فيؤتى عن يساره فيقول الصيام: ما قبلى مدخل. فيؤتى من عند رجليه فيقول[٥] فعل الخيرات: ما قبلى مدخل. فيقال له اجلس. فيجلس، قد تَمثّلت[٦] له الشمس، قد دنت للغروب، فيقال له أخبرنا عما[٧] نسألك. فيقول: دعونى[٨] حتى أصلى. فيقال: إنك ستفعل، فأخبرنا عما نسألك. فيقول: وعَمَّ تسألونى؟ فيقال: أرأيت هذا الرجل الذى كان فيكم، ماذا تقول فيه، وماذا تشهد به عليه؟ فيقول: أمحمد؟ فيقال له: نعم. فيقول: أشهد أنه رسول الله، وأنه جاءنا[٩] بالبينات من عند الله، فصدقناه. فيقال له: على ذلك حَيِيتَ، وعلى ذلك متّ، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله. ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعا ويُنَوَّر له فيه، ويفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى ما أعد الله لك فيها. فيزداد غبطة [وسرورا][١٠]، ثم يجعل نسمه فى النّسم الطيب، وهى طير خضر تعلق بشجر الجنة، ويعاد الجسد إلى ما بدئ منه من التراب»، وذلك قول الله: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾[١١].

ورواه ابن حبّان، من طريق المعتمر بن سليمان، عن محمد بن عمرو، وذكر جواب الكافر

---

(١) فى ت: «ويقال».

(٢) سنن الترمذى برقم (١٠٧١).

(٣) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/٥٩٦).

(٤) فى ت، أ: «عن أبى هريرة قال». (٥) فى ت: «فتقول». (٦) فى ت، أ: «مثلت».

(٧) فى ت: «كما». (٨) فى ت، أ: «دعنى». (٩) فى ت، أ: «جاء».

(١٠) زيادة من ت، أ، والطبرى.

(١١) تفسير الطبرى (١٦/٥٩٦، ٥٩٧).

وعذابه[١].

وقال البزار: حدثنا سعيد بن بحر القراطيسى، حدثنا الوليد بن القاسم، حدثنا يزيد بن كَيْسان، عن أبى حازم، عن أبى هريرة ـ أحسبه رفعه ـ قال: «إن المؤمن ينزل به الموت، ويعاين ما يعاين، فيودّ [٢] لو خرجت ـ يعنى نفسُه ـ والله يحب لقاءه، وإن المؤمن يصعد بروحه إلى السماء، فتأتيه أرواح المؤمنين، فتستخبره[٣] عن معارفهم من أهل الأرض، فإذا قال: تركت فلانا فى الأرض[٤]، أعجبهم ذلك. وإذا قال: إن فلانا قد مات، قالوا: ما جىء به إلينا. وإن المؤمن يجلس فى قبره، فيسأل: من ربك؟ فيقول: ربى الله[٥]. ويسأل: من نبيك؟ فيقول: محمد نبيى[٦]. فيقال: ماذا دينك؟ قال: دينى الإسلام. فيفتح له باب فى قبره، فيقول ـ أو: يقال ـ انظر إلى مجلسك. ثم يرى القبر فكأنما كانت رَقْدَة. وإذا كان عَدُو الله نزل به الموت وعاين ما عاين، فإنه لا يحب أن تخرج روحه أبداً، والله يبغض لقاءه، فإذا جلس فى قبره ـ أو: أجلس ـ يقال له: من ربك؟ فيقول: لا أدرى. فيقال: لا دَرَيت. فيفتح له باب من جهنم، ثم يضرب[٧] ضربة يسمعها[٨] كل دابة إلا الثقلين، ثم يقال له: نم كما ينام المنهوش». قلت لأبى هريرة: ما المنهوش؟ قال: الذى تنهشه الدواب والحيات، ثم يضيق عليه قبره.

ثم قال: لا نعلم رواه إلا الوليد بن القاسم[٩].

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا حُجَين بن المثنى، حدثنا عبد العزيز بن أبى سلمة الماجشُون، عن محمد بن المنْكَدِر قال: كانت أسماء ـ يعنى بنت الصديق ـ رضى الله عنها، تحدث عن النبى ﷺ قالت: قال: «إذا دخل الإنسان قبره، فإن كان مؤمنا أحَفّ به عملُه: الصلاةُ والصيام»، قال: «فيأتيه الملك من نحو الصلاة فترده، ومن نحو الصيام فيرده»، قال: «فيناديه: اجلس. فيجلس. فيقول له: ماذا تقول فى هذا الرجل؟ يعنى النبى ﷺ، قال: من؟ قال: محمد. قال أشهد أنه رسول الله، قال: يقول: وما يدريك؟ أدركته؟ قال: أشهد أنه رسول الله. قال: يقول: على ذلك عشتَ، وعليه متَّ، وعله تبعثُ. وإن[١٠] كان فاجراً أو كافراً، جاءه الملك ليس بينه وبينه شىء يَرُدّه، فأجلسه يقول: اجلس، ماذا تقول فى هذا الرجل؟ قال: أىّ رجل؟ قال: محمد؟ قال: يقول: والله ما أدرى، سمعت الناس يقولون شيئا فقلته. قال له الملك: على ذلك عشتَ، وعليه متَ، وعليه

---

(١) صحيح ابن حبان برقم (٧٨١) «موارد».

(٢) فى ت: «فود». (٣) فى ت: «فيستخبرونه». (٤) فى أ: «فى الدنيا».

(٥) فى ت: «الله ربى». (٦) فى ت، أ: «نبيى محمد». (٧) فى ت، أ: «يضربه».

(٨) فى ت، أ: «يسمع».

(٩) مسند البزار برقم (٨٧٤) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع (٣/ ٥٢): «فى الصحيح طرف منه رواه البزار ورجاله ثقات خلا سعيد بن بحر القراطيسى فإنى لم أعرفه».

(١٠) فى ت: «قال: وإن».

تبعثُ. قال: وتسلَّط عليه دابة فى قبره، معها سوط تَمْرَته[١] جَمرةٌ مثل غَرْب[٢] البعير، تضربه ما شاء الله، صماء لا تسمع صوتَه فترحَمه»[٣].

وقال العوفى، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، فى هذه الآية قال: إن المؤمن إذا حَضَره الموت شهدته الملائكة، فسلموا عليه وبشروه بالجنة، فإذا مات مَشَوا مع جنازته، ثم صَلَّوا عليه مع الناس، فإذا دفن أجلس فى قبره فيقال له: من ربك؟ فيقول: ربى الله. فيقال له: من رسولك؟ فيقول: محمد ﷺ. فيقال له: ما شهادتك؟ فيقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله. فيوسَّع له فى قبره مد بَصَره. وأما الكافر فتنزل عليه الملائكة، فيبسطون أيديهم ـ «والبسط»: هو الضرب ـ يضربون وجوههم وأدبارهم عند الموت. فإذا أدخل قبره أقعد، فقيل له: من ربك؟ فلم يَرْجع إليهم شيئا، وأنساه الله ذكر ذلك. وإذا قيل: من الرسول الذى بُعثَ إليكم؟ لم يهتد له، ولم يرجع إليه شيئاً، كذلك يضل الله الظالمين.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم الأودى، حدثنا شريح بن مسلمة حدثنا إبراهيم بن يوسف، عن أبيه، عن أبى إسحاق، عن عامر بن سعد البجلى، عن أبى قتادة الأنصارى فى قوله تعالى: ﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**﴾ الآية، قال: إن المؤمن إذا مات أجلس فى قبره، فيقال[٤] له: من ربك؟ فيقول: الله. فيقال له: من نبيك؟ فيقول: محمد بن عبد الله. فيقال له فى ذلك مرات. ثم يفتح له باب إلى النار، فيقال له: انظر إلى منزلك فى النار لو زُغت[٥]. ثم يفْتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى منزلك [من الجنة إذا ثبت. وإذا مات الكافر أجلس فى قبره، فيقال له: من ربك؟ من نبيك؟ فيقول: لا أدرى، كنت أسمع الناس يقولون. فيقال له: لا دريت. ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى منزلك][٦] لو ثبت، ثم يفتح له باب إلى النار، فيقال له: انظر إلى منزلك إذ زغت[٧]، فذلك قوله تعالى: ﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**﴾.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن ابن طاووس، عن أبيه: ﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ قال: لا إله إلا الله، ﴿**وَفِي الآخِرَةِ**﴾: المسألة فى القبر[٨].

وقال قتادة: أما الحياة الدنيا فيثبتهم بالخير والعمل الصالح، ﴿**وَفِي الآخِرَةِ**﴾ فى القبر. وكذا روى عن غير واحد من السلف.

وقال أبو عبد الله الحكيم الترمذى فى كتابه «نوادر الأصول»: حدثنا أبى، حدثنا عبد الله بن

---

(١) فى ت، أ: «تمر به». (٢) فى ت، أ: «عرف».
(٣) المسند (٦/ ٣٥٢).
(٤) فى ت: «يقال». (٥) فى ت: «لو رغبت». (٦) زيادة من ت، أ.
(٧) فى ت، أ: «إذ رغبت».
(٨) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٩٦).

نافع، عن ابن أبى فُدَيْك، عن عبد الرحمن بن عبد الله[١]، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الرحمن ابن سَمُرَة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم، ونحن فى مسجد المدينة، فقال: «إنى رأيت البارحة عجباً، رأيت رجلا من أمتى [جاءه ملك الموت ليقبض روحه، فجاءه برُّه بوالديه[٢] فرد عنه. ورأيت رجلا من أمتى][٣] قد بسط عليه عذاب القبر، فجاءه وُضوءه فاستنقذه من ذلك. ورأيت رجلا من أمتى [قد][٤] احتوشته الشياطين، فجاءه ذكر الله فخلصه من بينهم. ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته ملائكة العذاب، فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم. ورأيت رجلا من أمتى يلهث عطشا، كلما ورد حوضا مُنع منه، فجاءه صيامه فسقاه وأرواه. ورأيت رجلا من أمتى والنبيون قعود حلَقا حلَقا، وكلما دنا لحقة طردوه، فجاءه اغتساله من الجنابة، فأخذ بيده فأقعده إلى جنبى. ورأيت رجلا من أمتى [من][٥] بين يديه ظلمة، ومن خلفه ظلمة، وعن يمينه ظلمة، وعن شماله ظلمة، ومن فوقه ظلمة، ومن تحته ظلمة، فهو متحير فيها، فجاءته حجته وعمرته، فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه النور، ورأيت رجلا من أمتى يكلم المؤمنين فلا يكلمونه، فجاءته صلَة الرحم، فقالت: يا معشر المؤمنين، كلموه، فكلموه. ورأيت رجلا من أمتى يتقى وهَج النَّار أو شَرَرهَا بيده عن وجهه، فجاءته صدقته فصارت سترا على وجهه وظلاً على رأسه. ورأيت رجلا من أمتى قد أخذته الزبانية من كل مكان، فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، فاستنقذاه من أيديهم، وأدخلاه مع ملائكة الرحمة. ورأيت رجلا من أمتى جاثيا على ركبتيه، بينه وبين الله حجاب، فجاءه حسن خُلُقه، فأخذ بيده فأدخله على الله، عز وجل. ورأيت رجلا من أمتى قد هَوت صحيفته من قبل شماله، فجاءه خوفه من الله فأخذ صحيفته، فجعلها فى يمينه. [ورأيت رجلا من أمتى قد خف ميزانه، فجاءته أفراطه فثقلوا ميزانه][٦] ورأيت رجلا من أمتى قائما على شفير جهنم، فجاءه وجَله من الله، فاستنقذه من ذلك ومضى. ورأيت رجلا من أمتى هوى فى النار، فجاءته دموعه التى بكى من خشية الله فى الدنيا فاستخرجته من النار، [ورأيت رجلا من أمتى قائما على الصراط يُرعَد كما ترعد السَّعَفَة، فجاء حسن ظنه بالله، فسكَّن رِعْدَته، ومضى][٧]. ورأيت رجلا من أمتى على الصراط يزحف أحيانا ويحبو أحيانا، فجاءته صلاته علىَّ، فأخذت بيده فأقامته ومضى على الصراط. ورأيت رجلا من أمتى انتهى إلى أبواب الجنة، فغلقت الأبواب دونه، فجاءته شهادة: أن لا إله إلا الله، ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة»[٨].

قال القرطبى بعد إيراده هذا الحديث من هذا الوجه: هذا حديث عظيم، ذكرَ فيه أعمالا خاصة تنجى من أهوال خاصة. أورده هكذا فى كتابه «التذكرة»[٩].

---

(١) فى التذكرة: «عبد الرحمن بن أبى عبد الله». (٢) فى ت: «بوالدته». (٣ ـ ٧) زيادة من ت، أ، والتذكرة.

(٨) ذكره الزبيدى فى الإتحاف وعزاه للحكيم فى النوادر وضعفه، ورواه الخرائطى فى مكارم الأخلاق برقم (٤٩) من طريق سعيد بن عبد الله، عن على بن زيد، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الرحمن بن سمرة مرفوعاً بأخصر منه، وذكر أن ابن تيمية كان يعظم شأن هذا الحديث ويقول: «شواهد الصحة عليه».

(٩) التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة (ص ٢٤٠ ـ ٢٤٢).

وقد روى الحافظ أبو يعلى الموصلى فى هذا حديثا غريبا مطولا فقال: حدثنا أبو عبد الله[١] أحمد بن إبراهيم النُكْرِى، حدثنا محمد بن بكر البرسانى أبو عثمان، حدثنا أبو عاصم الحبطى ـ وكان من خيار أهل البصرة، وكان من أصحاب حزم، وسلام بن أبى مطيع ـ حدثنا بكر بن خُنَيس، عن ضرار بن عمرو، عن يزيد الرقاشى، عن أنس بن مالك، عن تميم الدارى، عن النبى ﷺ قال: «يقول الله، عز وجل، لملك الموت: انطلق إلى وليى فأتنى به، فإنى قد ضَربته بالسراء والضراء، فوجدته حيث أحب. ائتنى به فَلأريحنَّه[٢]».

فينطلق إليه ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة، معهم أكفان وحَنُوط من الجنة، ومعهم ضبائر الرَّيْحان، أصل الريحانة واحد وفى رأسها عشرون لونا، لكل لون منها ريح سوى ريح صاحبه، ومعهم الحرير الأبيض فيه المسك الأذفر. فيجلس[٣] ملك الموت عند رأسه، وتحف به الملائكة. ويضع كل مَلَك منهم يده على عضو من أعضائه ويَبْسط ذلك الحرير الأبيض والمسك الأذفَر تحت ذقنه، ويَفتَح له بابٌ إلى الجنة، فإن نفسه لَتَعلَّلُ عند ذلك بطرف الجنة تارة، وبأزواجها[٤] [مرة][٥] ومرةً بكسْواتها ومَرَّة بثمارها، كما يُعَلِّل الصبى أهله إذا بكى». قال: «وإن أزواجه ليبتهشن عند ذلك ابتهاشاً».

قال: «وتنزو الروح». قال البُرْسَانى: يريد أن تخرج من العَجَل إلى ما تحب. قال: «ويقول مَلَك الموت: اخرجى يا أيتها الروح الطيبة، إلى سدر مخضود، وطلح منضود، وظل ممدود، وماء مسكوب». قال: «ولَمَلَك الموت أشدّ به لطفا من الوالدة بولدها، يعرف أن ذلك الروح حبيب لربه، فهو يلتمس بلطفه تحببا لديه رضاء للرب عنه، فتُسَلَّ روحه كما تسل الشعرة من العجين». قال: «وقال الله، عز وجل: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾» [النحل: ٣٢]» وقال: «﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ .فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩]. قال: «روح من جهة الموت، وريحان يتلقى به، وجنة نعيم تقابله».

قال: «فإذا قَبض ملك الموت روحه، قال الروح للجسد: جزاك الله عنى خيرا، فقد كنت سريعا بى إلى طاعة الله، بطيئا بى عن معصية الله، فقد نجيت وأنجيت». قال: «ويقول الجسد للروح مثل ذلك».

قال: «وتبكى[٦] عليه بقاع الأرض التى كان يطيع الله فيها، وكل باب من السماء يصعد منه عمله. وينزل منه رزقه أربعين ليلة».

قال: «فإذا قَبَض ملك الموت روحه، أقامت الخمسمائة من الملائكة عند جسده، فلا يقلبه[٧] بنوآدم لشق إلا قلبته الملائكة قبلهم، وغسلته وكفنته بأكفان قبل أكفان بنى آدم، وحَنُوط قبل حنوط

(١) فى أ: «أبو عبد الرحمن». (٢) فى ت، أ: «فلأريحه». (٣) فى أ: «قال: . فيجلس».
(٤) فى ت، أ: «مرة بأزواجها». (٥) زيادة من ت، أ. (٦) فى ت: «ويبكى».
(٧) فى ت، أ: «فلا تقلبه».

بنى آدم، ويقوم من بين باب بيته إلى باب قبره صفّان من الملائكة، يستقبلونه بالاستغفار، فيصيح عند ذلك إبليس صيحة تتصدع[1] منها عظام[2] جسده». قال: «ويقول لجنوده: الويل لكم. كيف خَلَص هذا العبد منكم، فيقولون إن هذا كان عبدا معصوما».

قال: «فإذا صعد ملك الموت بروحه، يستقبله جبريل فى سبعين ألفاً من الملائكة، كلّ يأتيه ببشارة من ربه سوى بشارة صاحبه». قال: «فإذا انتهى ملك الموت بروحه إلى العرش، خَرّ الروح ساجدا». قال: «يقول الله، عز وجل، لملك الموت: انطلق بروح عبدى فضعه فى سدر مخضود، وطلح منضود، وظل ممدود، وماء مسكوب».

قال: «فإذا وضع فى قبره، جاءته الصلاة فكانت عن يمينه، وجاءه الصيام فكان عن يساره، وجاءه القرآن فكان عند رأسه، وجاءه مشيه إلى الصلاة فكان عند رجليه، وجاءه الصبر فكان ناحية القبر». قال: «فيبعث الله، عز وجل، عُنُقاً من العذاب». قال: «فيأتيه عن يمينه» قال: «فتقول الصلاة: وراءك والله ما زال دائبا عمره كله وإنما استراح الآن حين وضع فى قبره». قال: «فيأتيه عن يساره، فيقول الصيام مثل ذلك». قال: «ثم يأتيه من عند رأسه، فيقول القرآن والذكر مثل ذلك». قال: «ثم يأتيه من عند رجليه، فيقول مشيه إلى الصلاة مثل ذلك. فلا يأتيه العذاب من ناحية يلتمس هل يجد مساغاً إلا وجَد ولى الله قد أخذ جنته». قال: «فينقمع العذاب عند ذلك فيخرج». قال: «ويقول الصبر لسائر الأعمال: أما إنه لم يمنعنى أن أباشر أنا بنفسى إلا أنى نظرت ما عندكم، فإن عجزتم كنت أنا صاحبه، فأما إذ أجزأتم عنه فأنا له ذخر عند الصراط والميزان».

قال: «ويبعث الله ملكين أبصارهما كالبرق الخاطف، وأصواتهما كالرعد القاصف، وأنيابهما كالصياصى، وأنفاسهما كاللهب، يطآن فى أشعارهما، بين مَنْكِب كل واحد مسيرة كذا وكذا، وقد نزعت منهما الرأفة والرحمة، يقال لهما: منكر ونكير، فى يد كل واحد منهما مطرقة، لو اجتمع عليها ربيعة ومضر لم يُقلّوها». قال: «فيقولان له: اجلس». قال: «فيجلس فيستوى جالسا». قال: «وتقع أكفانه فى حَقَوية». قال: «فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟»».

قال: قالوا: يا رسول الله، ومن يطيق الكلام عند ذلك، وأنت تصف من المَلَكين ما تصف؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ**﴾».

قال: «فيقول: ربى الله وحده لا شريك له، ودينى الإسلام الذى دانت به الملائكة، ونبيى محمد خاتم النبيين». قال: «فيقولان: صدقت». قال: «فيدفعان القبر، فيوسعان من بين يديه أربعين ذراعا، وعن يمينه أربعين ذراعا، وعن شماله[3] أربعين ذراعا، ومن خلفه أربعين ذراعا، ومن عند رأسه

(١) فى ت، أ: «يتصدع». (٢) فى أ: «بعض عظام».
(٣) فى أ: «وعن يساره».

أربعين ذراعا، ومن عند رجليه أربعين ذراعا». قال: «فيوسعان له مائتى ذراع».

قال البرساني: فأحسبه: وأربعين ذراعا تحاط به[(١)].

قال: «ثم يقولان له: انظر فوقك، فإذا باب مفتوح إلى الجنة». قال: «فيقولان له: ولىَّ الله، هذا منزلك إذ أطعت الله». فقال رسول الله ﷺ: «والذى نفس محمد بيده[(٢)]، إنه يصل إلى قلبه عند ذلك فرحة، ولا ترتد أبداً، ثم يقال له: انظر تحتك». قال: «فينظر تحته فإذا باب مفتوح إلى النار قال: «فيقولان: ولى الله نجوت آخر ما عليك». قال: فقال رسول الله ﷺ: «إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك فرحة لا ترتد أبدا». قال: فقالت عائشة: يفتح له سبعة وسبعون باباً إلى الجنة، يأتيه ريحها وبردها، حتى يبعثه الله، عز وجل.

وبالإسناد المتقدم إلى النبى ﷺ قال: «ويقول الله تعالى لملك[(٣)] الموت: انطلق إلى عدوى فأتنى به، فإنى قد بسطت له رزقى، ويَسّرت له نعمتى، فأبى إلا معصيتى، فأتنى به لأنتقم منه».

قال: «فينطلق إليه ملك الموت فى أكره صورة ما رآها أحد من الناس قَطّ، له اثنتا عشرة[(٤)] عينا، ومعه سَفود من النار كثير الشوك، ومعه خمسمائة من الملائكة، معهم نحاس وجَمْر من جمر جهنم، ومعهم سياط من نار، لينها لين السياط وهى نار تأجج». قال: «فيضربه ملك الموت بذلك السفود ضربة يغيبُ كل أصل شوكة من ذلك السفّود فى أصل كلّ شعرة وعرق وظفر». قال: «ثم يلويه ليا شديدا». قال: «فينزع روحه من أظفار قدميه». قال: «فيلقيها» فى عقبيه[(٥)] ثم يسكر[(٦)] عند ذلك عدو الله[(٧)] سكرة، فيرفّه ملك الموت عنه». قال: «وتضرب[(٨)] الملائكة وجهه ودُبُره بتلك السياط». [قال: «فيشده ملك الموت شدة، فينزع روحه من عقبيه، فيلقيها فى ركبتيه، ثم يسكر عدو الله عند ذلك سكرة، فيرفه ملك الموت عنه». قال: «فتضرب الملائكة وجهه ودبره بتلك السياط»][(٩)]. قال: «ثم ينتره[(١٠)] ملك الموت نَترة، فينزع روحه من ركبتيه فيلقيها فى حقويه». قال: «فيسكر عدو الله عند ذلك سكرة، فيرفه ملك الموت عنه». قال: «وتضرب الملائكة[(١١)] وجهه ودبره بتلك السياط». قال: «كذلك إلى صدره، ثم كذلك إلى حلقه». قال: «ثم تبسط الملائكة ذلك النحاس وجمر جهنم تحت ذقنه». قال: «ويقول ملك الموت: اخرجى أيتها الروح اللعينة الملعونة إلى سَمُوم وحميم، وظل من يحموم، لا بارد ولا كريم».

قال: «فإذا قبض ملك الموت روحه قال الروح للجسد: جزاك الله عنى شرا، فقد كنت سريعا بى

---

(١) فى أ: «محاط».
(٢) فى أ: «والذى نفسى بيده».
(٣) فى أ: «إلى ملك».
(٤) فى أ: «اثنى عشر».
(٥) فى هـ: «ركبتيه» والمثبت من ت، أ
(٦) فى أ: «قال: فيسكر».
(٧) فى ت: «قال فيسكر عدو الله عند ذلك».
(٨) فى ت: «ويضرب».
(٩) زيادة من ت، أ.
(١٠) فى ت، أ: «فينتره».
(١١) فى ت: «فيضرب»، وفى أ: «فتضرب».

إلى معصية الله، بطيئا بى عن طاعة الله، فقد هلكت وأهلكت» قال: «ويقول الجسد للروح مثل ذلك، وتلعنه بقاع الأرض التى كان يعصى الله عليها، وتنطلق جنود إبليس إليه فيبشرونه بأنهم قد أوردوا عبدا من ولد آدم النار».

قال: فإذا وضع فى قبره ضُيق عليه قبره حتى تختلف(١) أضلاعه، حتى تدخل اليمنى فى اليسرى، واليسرى فى اليمنى» قال: «ويبعث الله إليه أفاعى دُهماً كأعناق الإبل يأخذن (٢) بأرنبته وإبهامى قدميه فيقرضنه حتى يلتقين فى وسطه».

قال: «ويبعث الله ملكين أبصارهما (٣) كالبرق الخاطف، وأصواتهما كالرعد القاصف، وأنيابهما كالصياصى، وأنفاسهما كاللهب(٤)، يطآن فى أشعارهما، بين منكبى كل واحد منهما مسيرة كذا وكذا، قد نزعت منهما الرأفة والرحمة يقال لهما: منكر ونكير، فى يد كل واحد منهما مطرقة، لو اجتمع عليها ربيعة ومضر لم يقلوها» قال: «فيقولان له: اجلس». قال: «فيستوى جالسا» قال: «وتقع أكفانه فى حقويه» قال: «فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: لا أدرى. فيقولان: لا دريت ولاتَليّت». [قال](٥) «فيضربانه ضربة يتطاير شررها فى قبره، ثم يعودان». قال: «فيقولان: انظر فوقك. فينظر، فإذا باب مفتوح من الجنة، فيقولان: هذا ـ عدوَّ الله (٦)ـ منزلك لو أطعت الله».

قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك حسرة لا ترتد أبدا».

قال: «ويقولان له: انظر تحتك فينظر تحته، فإذا باب مفتوح إلى النار، فيقولان: عدو الله،هذا منزلك إذ عصيت الله».

قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك حسرة لا ترتد أبداً».

قال: وقالت عائشة: ويفتح له سبعة وسبعون بابا إلى النار، يأتية [من] (٧)حرها وسمومها حتى يبعثه الله إليها(٨).

هذا حديث غريب جداً، وسياق عجيب، ويزيد الرقاشى ـ راويه عن أنس ـ له غرائب ومنكرات، وهو ضعيف الرواية عند الأئمة، والله أعلم.

ولهذا قال أبو داود: حدثنا إبراهيم بن موسى الرازى، حدثنا هشام ـ هو ابن يوسف ـ عن عبد الله ابن بَحير، عن هانئ مولى عثمان، عن عثمان، رضى الله عنه، قال: كان النبى ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه فقال: «استغفروا لأخيكم، واسألوا له بالتثبيت، فإنه الآن يسأل»، انفرد به أبو

(١) فى ت: «يختلف». (٢) فى أ: «يأخذونه». (٣) فى أ: «أيضا وهما».
(٤) فى ت: «كاللهيب». (٥) زيادة من ت، أ. (٦) فى ت، أ: «عدو الله هذا».
(٧) زيادة من أ.
(٨) أورده ابن حجر فى المطالب العالية (٤/ ٣٨٢) وعزاه لأبى يعلى قال: «هذا حديث عجيب السياق، وهو شاهد لكثير مما ثبت فى حديث البراء الطويل المشهور، ولكن إسناده غريب وفيه ضعف».

داود[١].

وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ الآية [الأنعام: ٩٣] حديثا مطولا جداً، من طريق غريب، عن الضحاك، عن ابن عباس مرفوعا، وفيه غرائب أيضا[٢].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠)﴾[٣].

قال البخارى: قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾: ألم تعلم؟ كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا﴾[البقرة: ٢٤٣]، البوار: الهلاك، بار يبور بَوراً، و ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٨، الفتح: ١٢]: هالكين.

حدثنا على بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عطاء سمع ابن عباس: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ قال: هم كفار أهل مكة[٤].

وقال العوفى، عن ابن عباس فى هذه الآية: هو جبلة بن الأيهم، والذين اتبعوه من العرب، فلحقوا بالروم. والمشهور الصحيح عن ابن عباس هو القول الأول، وإن كان المعنى يعم جميع الكفار؛ فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ رحمة للعالمين، ونعمة للناس، فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة، ومن ردّها وكفرها دخل النار.

وقد روى عن على نحو قول ابن عباس الأول، قال ابن أبى حاتم:

حدثنا أبى، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا شعبة، عن القاسم بن أبى بزة، عن أبى الطفيل: أن ابن الكواء سأل عليا عن ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ قال: كفار قريش يوم بدر.

حدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا يعلى بن عبيد، حدثنا بسام ـ هو الصيرفى[٥] ـ عن أبى الطفيل قال: جاء رجل إلى على فقال: يا أمير المؤمنين، من الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار

---

(١) سنن أبى داود برقم (٣٢٢١).

(٢) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٣/٣١٨) وقال: «أخرج ابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عباس فذكره».

(٣) **تنبيه**: من هذه الآية يبتدئ الاعتماد فى تخريج الأحاديث والآثار فى تفسير الطبرى على الطبعة المصورة عن الطبعة الأميرية بعد أن كان الاعتماد على الطبعة التى حققها الفاضلان الشيخ أحمد شاكر والأستاذ محمود شاكر فى ستة عشر مجلداً وطبعت فى دار المعارف، والله أسأل أن يقيض لهذا الكتاب من يكمل تحقيقه فهو من أعظم كتب التفسير وأجلها، والله المستعان.

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٧٠٠).

(٥) فى ت: «الصرفى».

البوار؟ قال: منافقو قريش.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا ابن نفيل قال: قرأت على مَعْقِل، عن ابن أبى حسين [١] قال: قام على بن أبى طالب، رضى الله عنه، فقال: ألا أحد يسألنى عن القرآن، فوالله لو أعلم اليوم أحداً أعلم منى به[٢] وإن كان من وراء البحار لأتيته. فقام عبد الله بن الكواء [٣] فقال: من الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار؟ فقال: مشركو قريش، أتتهم نعمة [٤] الله: الإيمان، فبدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار.

وقال العدوى فى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾الآية، ذكر مسلم المستوفى [٥] عن على أنه قال: هما الأفجران من قريش: بنو أمية، وبنو المغيرة، فأما بنو المغيرة فأحلوا قومهم دار البوار يوم بدر، وأما بنو أمية فأحلوا قومهم دار البوار يوم أحد. وكان أبو جهل يوم بدر، وأبو سفيان يوم أحد. وأما دار البوار فهى جهنم.

وقال ابن أبى حاتم، رحمه الله: حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا الحارث بن منصور، عن إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن عمرو بن مرة قال: سمعت عليا قرأ هذه الآية: ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ قال : هما الأفجران من قريش: بنو أمية وبنو المغيرة، فأما بنو المغيرة فأهلكوا يوم بدر، وأما بنو أمية فمتِّعوا إلى حين.

ورواه أبو إسحاق، عن عمرو بن مرة، عن على، نحوه، وروى من غير وجه عنه.

وقال سفيان الثورى، عن على بن زيد، عن يوسف بن سعد، عن عمر بن الخطاب، فى قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ قال: هما الأفجران من قريش: بنو المغيرة وبنو أمية، فأما بنو المغيرة فكُفيتمُوهُم يوم بدر، وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين.

وكذا رواه حمزة الزيات، عن عمرو بن مرة قال: قال ابن عباس لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، هذه الآية: ﴿ الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾، قال: هم الأفجران من قريش: أخوالى وأعمامك فأما أخوالى فاستأصلهم الله يوم بدر، وأما أعمامك فأملى الله لهم إلى حين.

وقال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة بن زيد[٦]: هم كفار قريش الذين قتلوا يوم بدر وكذا رواه مالك فى تفسيرة عن نافع، عن ابن عمر.

وقوله: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ ﴾ أى: جعلوا له[٧] شركاء عبدوهم معه، ودَعَوُا الناس إلى ذلك.

ثم قال تعالى مهدِّدا لهم [٨] ومتوعداً لهم على لسان نبيه ﷺ: ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾

---

(١) فى ت، أ: «حنين». (٢) فى ت، أ: «به منى». (٣) فى ت: «الكراء».
(٤) فى ت، أ: «نعم». (٥) فى أ: «المسوف». (٦) فى ت: «وقتادة وابن زيد».
(٧) فى ت: «جعلوا لله». (٨) فى ت: «له».

أى: مهما قدرتم عليه فى الدنيا فافعلوا، فمهما يكن من شىء ﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ أى: مرجعكم وموئلكم إليها، كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٧٠].

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ (٣١) ﴾.

يقول تعالى آمراً العباد [1] بطاعته والقيام بحقه، والإحسان إلى خلقه، بأن يقيموا الصلاة وهى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن ينفقوا مما رزقهم الله بأداء الزكوات، والنفقة على القرابات والإحسان إلى الأجانب.

والمراد بإقامتها هو: المحافظة على وقتها وحدودها، وركوعها وخشوعها وسجودها.

وأمر تعالى بالإنفاق مما رزق فى السر، أى: فى الخفية، والعلانية وهى: الجهر، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ وهو يوم القيامة، وهو يوم ﴿لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ﴾ أى: لا يقبل من أحد فدية بأن تباع [2] نفسه، كما قال تعالى: ﴿ فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [الحديد: ١٥].

وقوله: ﴿وَلا خِلالٌ ﴾: قال ابن جرير: يقول: ليس هناك مُخَالَة [3] خليل، فيصفح [4] عمن استوجب العقوبة، عن العقاب لمُخالَّته، بل هنالك العدل والقسط، فالخلال مصدر، من قول القائل: «خاللت فلانا، فأنا أخاله مُخَالَّة وخلالا»، ومنه قول امرىء القيس:

صَرَفتُ الهَوَى عَنْهُنَّ من خَشْيَة الرَّدَى وَلَسْتُ بِمَقْلِىَ الخلال ولا قَالِ[5].

وقال قتادة: إن الله قد علم أن فى الدنيا بيوعا وخلالا يتخالون بها فى الدنيا، فينظر رجل من يخالل وعلام صاحب، فإن كان لله فليداوم، وإن كان لغير الله فسيقطع عنه.

قلت: والمراد من هذا أنه يخبر تعالى أنه لا ينفع أحدا بيع ولا فدية، ولو افتدى بملء الأرض ذهبا لو وجده، ولا ينفعه صداقة أحد ولا شفاعة أحد إذ لقى الله كافراً، قال الله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

---

(١) فى ت، أ: «لعباده». (٢) فى ت: «يباع». (٣) فى ت: «مخالطة».
(٤) فى ت: «فصفح».
(٥) البيت فى تفسير الطبرى (١٣/١٤٩).

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾.

يعدد تعالى نعمه على خلقه، بأن خلق لهم السموات سقفاً محفوظاً[(١)]، والأرض فراشاً، وأنزل من السماء ماء فأخرج به أزواجا من نبات شتى، ما بين ثمار وزروع، مختلفه الألوان والأشكال، والطعوم والروائح والمنافع، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر، تجرى عليه بأمر الله تعالى، وسخر البحر يحملها ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر، لجلب ما هنا إلى هناك، وما هناك إلى هاهنا، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر، رزقا للعباد من شرب وسقى وغير ذلك من أنواع المنافع.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ﴾ أى: يسيران لا يقران[(٢)] ليلا ولا نهاراً، ﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠]، ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فالشمس والقمر يتعاقبان، والليل والنهار عارضان[(٣)]، فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر، ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى «وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ»[(٤)] ﴾ [لقمان: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر: ٥].

وقوله: ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾: يقول: هيأ لكم كل ما تحتاجون إليه فى جميع أحوالكم مما تسألونه بحالكم[(٥)] وقالكم.

وقال بعض السلف: من كل ما سألتموه وما لم تسألوه.

وقرأ بعضهم: «وَآتَاكُم مِّن كُلٍّ مَا سَأَلْتُمُوهُ».

وقوله: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾: يخبر عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلا عن القيام بشكرها، كما قال طلق بن حبيب، رحمه الله: إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر[(٦)] من أن يحصيها[(٧)] العباد، ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين.

---

(١) فى أ: «مرفوعاً». (٢) فى أ: «لايفتران». (٣) فى ت، أ: «يتعارضان».

(٤) فى هـ ت، أ: «ألا وهو العزيز الغفار» والصواب ما أثبتناه. (٥) فى ت، أ: «لحالكم».

(٦) فى أ: «أكبر». (٧) فى ت، أ: «تحصيها».

وفى صحيح البخارى: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم، لك الحمد غير مكْفِىّ ولا مودَع، ولا مستغنى عنه ربَّنا»(١).

وقال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده: حدثنا إسماعيل بن أبى الحارث، حدثنا داود بن المحبّر، حدثنا صالح المرْىّ عن جعفر بن زيد العَبْدِى، عن أنس، عن النبى ﷺ أنه قال: «يخرج لابن آدم يوم القيامة ثلاثة (٢) دواوين، ديوان، فيه العمل الصالح، وديوان فيه ذنوبه، وديوان فيه النعم من الله تعالى عليه، فيقول الله لأصغر (٣) نعَمه ـ أحسبَه. قال: فى ديوان النعم: خذى ثمنك من عمله الصالح، فتستوعب عمله الصالح كله، ثم تَنَحَّى وتقول: وعزتك ما استوفيت. وتبقى الذنوب والنعم(٤) فإذا أراد الله أن يرحم قال: يا عبدى، قد ضاعفتُ لك حسناتك وتجاوزت عن سيئاتك ـ أحسبه قال: ووهبت لك نعَمى» (٥). غريب، وسنده ضعيف.

وقد رُوى فى الأثر: أن داود، عليه السلام، قال: يارب، كيف أشكرك وشكرى لك نعمة منك على؟ فقال الله تعالى: الآن شكرتنى يا داود، أى: حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر النعم.

وقال الشافعى، رحمه الله: الحمد لله الذى لا يؤدى شكر نعمة من نعمه، إلا بنعمة(٦) تُوجِب على مُؤدى ماضى نعَمه بأدائها، نعمة حادثةَ توجب عليه شكره بها(٧).

وقال القائل فى ذلك:

لـو كـــل جـارِحَـة مـنّـى لهَـــا لُـغَـةٌ ... تُثْنى عَليكَ بما أوليَتَ مِنْ حَسَـــنِ

لـكــانَ ما زَادَ شكْـرى إذ شكَرتُ بـه ... إليكَ أبـلـغَ فى الإحسَان والمـنـنِ

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦) ﴾.

يذكر تعالى فى هذا المقام محتجاً على مشركى العرب، بأن البلد الحرام مكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن إبراهيم الذى كانت عامرة بسببه، آهلة تبرأ ممن عبد غير الله، وأنه دعا لمكة بالأمن فقال: ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا ﴾. وقد استجاب الله له، فقال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ

---

(١) صحيح البخارى برقم (٥٤٥٨) من حديث أبى أمامة رضى الله عنه.

(٢) فى أ: «ثلاث» وهو خطأ. (٣) فى ت، أ: «لأصغرهم».

(٤) فى ت، أ: «والنعم والعمل الصالح فيستوعب عمله الصالح كله».

(٥) مسند البزار برقم (٣٤٤٤) «كشف الأستار» وفيه داود بن المحبر وصالح المرى وهما ضعيفان.

(٦) فى هـ، ت، أ: «بنعمة حادثة» والمثبت من الرسالة.

(٧) الرسالة للشافعى (ص٧، ٨).

أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذي[(١)] بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ. فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧]، وقال فى هذه القصة: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾، فعرفه كأنه دعا به بعد بنائها؛ ولهذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة، فإنه دعا أيضا فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦]، كما ذكرناه هنالك فى سورة البقرة مستقصى مطولا.

وقال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾، ينبغى لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته.

ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلائق من الناس وأنه برىء ممن عبدها، ورد أمرهم[(٢)] إلى الله، إن شاء عذبهم[(٣)]، وإن شاء غفر لهم[(٤)]، كما قال عيسى، عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، وليس فى هذا أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى، لا تجويز[(٥)] وقوع ذلك.

قال عبد الله بن وهب: حدثنا عمرو بن الحارث، أن بكر بن سَوَادة حدثه، عن عبد الرحمن بن جُبَيْر[(٦)] عن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقول[(٧)] عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ورفع يديه، [ثم][(٨)] قال: «اللهم أمتى، اللهم أمتى، اللهم أمتى»، وبكى فقال الله: [يا جبريل][(٩)] اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم وسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل، عليه السلام، فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ ما قال، [قال][(١٠)] فقال الله: اذهب إلى محمد، فقل له: إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوؤك[(١١)].

﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧)﴾.

وهذا يدل على أن هذا دعاء ثان بعد الدعاء الأول الذى دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كان بعد بنائه، تأكيداً ورغبة إلى الله، عز وجل؛ ولهذا قال: ﴿عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾.

وقوله: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾: قال ابن جرير: هو متعلق بقوله: ﴿الْمُحَرَّمِ﴾ أى: إنما جعلته محرما ليتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده.

---

(١) فى أ: «للتى» وهو خطأ. (٢) فى أ: «أمره». (٣) فى أ: «عذبه».
(٤) فى أ: «له». (٥) فى ت: «لا تحرير». (٦) فى أ: «بن جرير».
(٧) فى ت، أ: «وقال». (٨، ٩) زيادة من ت، أ. (١٠) زيادة من ت.
(١١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٣/ ١٥١).

﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير: لو قال: «أفئدة الناس» لازدحم عليه فارس والروم واليهود [(١)] والنصارى والناس كلهم، ولكن قال: ﴿مِّنَ النَّاسِ﴾ فاختص به المسلمون.

وقوله: ﴿وارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: ليكون ذلك عونا لهم على طاعتك وكما أنه ﴿وَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ فاجعل لهم ثماراً يأكلونها. وقد استجاب الله ذلك، كما قال: ﴿أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص:٥٧]، وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته: أنه ليس فى البلد الحرام مكة شجرة مثمرة، وهى تجبى إليها ثمرات ما حولها، استجابة لخليله إبراهيم، عليه الصلاة والسلام.

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١) ﴾.

قال ابن جرير: يقول تعالى مخبرا عن إبراهيم خليله أنه قال: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ أى: أنت تعلم قصدى فى دعائى وما أردت بدعائى لأهل هذا البلد، وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها، ولايخفى عليك منها شىء فى الأرض ولا فى السماء.

ثم حمد ربه، عز وجل، على ما رزقه من الولد بعد الكبر. فقال: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾، أى: إنه ليستجيب لمن دعاه، وقد استجاب لى فيما سألته [(٢)] من الولد.

ثم قال: ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ أى: محافظا عليها مقيما لحدودها ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أى: واجعلهم كذلك مقيمين [(٣)] الصلاة ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ أى: فيما سألتك فيه كله.

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾: وقرأ بعضهم: «ولوالدى»، على الإفراد وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه [(٤)] لما تبين له عداوته [(٥)] لله، عز وجل، ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: كلهم ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ أى: يوم تحاسب عبادك فتجزيهم [(٦)] بأعمالهم، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر. [والله أعلم][(٧)].

---

(١) فى ت: «واليهود والروم».
(٢) فى ت: «فيما سألت».
(٣) فى ت، أ: «مقيمى».
(٤) فى ت: «ابنه».
(٥) فى أ: «أنه عدو».
(٦) فى ت: «فيجزيهم».
(٧) زيادة من أ.

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣) وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ﴾.

يقول [تعالى شأنه][١]: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ﴾ يامحمد ﴿ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: لا تحسبه إذ[٢] أنظرهم وأجلهم أنه غافل عنهم مهمل لهم، لا يعاقبهم على صنعهم[٣]، بل هو يحصى ذلك عليهم ويعدّه عداً، أي: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾ أي: من شدة الأهوال يوم القيامة.

ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم ومجيئهم إلى قيام المحشر فقال: ﴿ مُهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين، كما قال تعالى: ﴿ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ [يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ][٤]﴾ [القمر: ٨]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَت الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلا هَمْسًا﴾ إلى قوله: ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١٠٨ ـ ١١١]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣].

وقوله: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد وغير واحد: رافعي رؤوسهم.

﴿ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾أي: [بل][٥] أبصارهم طائرة شاخصة، يديمون النظر لا يطرفون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والمخافة[٦]، لما يحل بهم، عياذاً بالله العظيم من ذلك؛ ولهذا قال: ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ أي: وقلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة [الفزع و][٧] الوجل والخوف. ولهذا قال قتادة وجماعة: إن أمكنة أفئدتهم خالية لأن القلوب لدى الحناجر قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف. وقال بعضهم: ﴿ هَوَاءٌ﴾: خراب لاتعى[٨] شيئا.

ولشدة ما أخبر الله تعالى [به][٩] عنهم، قال لرسوله: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾.

﴿ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) ﴾.

---

(١) زيادة من أ.
(٢) في ت: «إذا».
(٣) في ت، أ: «صنيعهم».
(٤) زيادة من ت، أ، وفي هـ: «الآية».
(٥) زيادة من أ.
(٦) في ت: «والمخافة والفكرة».
(٧) زيادة من ت، أ.
(٨) في أ: «لايعي».
(٩) زيادة من ت.

يقول تعالى مخبراً عن قيل الذين ظلموا أنفسهم، عند معاينة العذاب: ﴿ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾، كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن[1] مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[المنافقون: ٩، ١٠]، وقال تعالى مخبراً عنهم فى حال محشرهم: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٧].

وقال تعالى رادا عليهم فى قولهم هذا: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ أى: أولم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحال: أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه، وأنه لا معاد ولا جزاء، فذوقوا هذا بذاك.

قال مجاهد وغيره: ﴿ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ أى: ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة، كما أخبر عنهم تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: ٣٨].

﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ أى: قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم، ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر، ولم يكن فيما أوقعنا بهم مزدجر لكم[2]﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر: ٥].

وقد روى شعبة، عن أبى إسحاق، عن عبد الرحمن [بن دابيل] [3] أن عليا، رضى الله عنه، قال فى هذه الآية: ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ قال: أخذ ذاك الذى حاج إبراهيم فى ربه نسرين صغيرين، فرباهما حتى استغلظا واستعلجا وشبا[4].

قال: فأوثق رِجْل كل واحد منهما بوتد إلى تابوت، وجوعهما، وقعد هو ورجل آخر فى التابوت قال:ـ ورفع فى التابوت عصا على رأسه اللحم ـ قال: فطارا [قال][5]: وجعل يقول لصاحبه: انظر، ما [6] ترى؟ قال: أرى كذا وكذا، حتى قال: أرى الدنيا كلها كأنها ذباب. قال: فقال: صوّب العصا،

---

(١) فى أ: «وأكون».
(٢) فى ت: «لكم مزدجر».
(٣) زيادة من ت، وفى أ: «بن دنيال».
(٤) فى ت: «فشبا».
(٥) زيادة من ت، أ.
(٦) فى ت: «ماذا».

فصوبها، فهبطا. قال: فهو قول الله، عز وجل: «وَإِن كَادَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ». قال أبو إسحاق: وكذلك هي في قراءة عبد الله: «وإن كاد مكرهم»(١).

قلت: وكذا رُوى عن أبى بن كعب، وعمر بن الخطاب، رضى الله عنهما، أنهما قرآ: «وإن كاد»، كما قرأ على. وكذا رواه سفيان الثورى، وإسرائيل، عن أبى إسحاق، عن عبد الرحمن بن أذنان(٢)، عن على، فذكر نحوه.

وكذا رُوى عن عكرمة أن سياق هذه القصة للنمرود ملك كنعان: أنه رام أسباب السماء بهذه الحيلة والمكر، كما رام ذلك بعده فرعون ملك القبط في بناء الصرح، فعجزا وضعفا. وهما أقل وأحقر، وأصغر وأدحر.

وذكر مجاهد هذه القصة عن بختنصر، وأنه لما انقطع بصره عن الأرض وأهلها، نودى أيها الطاغية: أين تريد؟ فَفَرِق، ثم سمع الصوت فوقه فصوب الرماح، فصَوبت النسور، ففزعت الجبال من هَدتها، وكادت الجبال أن تزول من حس (٣) ذلك، فذلك قوله: ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾.

ونقل ابن جُريج (٤) عن مجاهد أنه قرأها: «لَتَزُولُ منه الجبال»، بفتح اللام الأولى، وضم (٥) الثانية.

وروى العوفى عن ابن عباس فى قوله: ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ يقول: ما كان مكرهم لتزول منه الجبال. وكذا قال الحسن البصرى، ووجهه ابن جرير بأن هذا الذى فعلوه بأنفسهم من كفرهم بالله وشركهم به، ما ضر ذلك شيئا من الجبال ولا غيرها، وإنما عاد وبال ذلك على أنفسهم.

قلت: ويشبه هذا إذاً قوله تعالى: ﴿ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ [الإسراء: ٣٧].

والقول الثانى فى تفسيرها: ما رواه على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾: يقول شركهم، كقوله: ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠، ٩١]، وهكذا قال الضحاك، وقتادة.

﴿ فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ

(١) تفسير الطبرى (١٣/ ١٦٠)، وصوب العصا: خفضها وأنزلها أ. هـ. مستفادًا من حاشية الشعب.
(٢) فى ت: «أرباب»، وفى أ: «أريان». (٣) فى ت: «من حين».
(٤) فى أ: «ابن جرير». (٥) فى ت، أ: «ورفع»

الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨)﴾.

يقول تعالى مقرراً لوعده ومؤكداً: ﴿**فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ**﴾ أى: من نصرتهم فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

ثم أخبر أنه ذو عزة لا يمتنع [١] عليه شيء أراده، ولا يغالب، وذو انتقام ممن [٢] كفر به وجحده ﴿**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ**﴾ [الطور: ١١]؛ ولهذا قال: ﴿**يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ**﴾ أى: وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض، وهى هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة، كما جاء فى الصحيحين، من حديث أبى حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقُرصة النَّقىّ، ليس فيها مَعْلَم لأحد»[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبى عَدىّ، عن داود، عن الشعبى، عن مسروق، عن عائشة أنها قالت: أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿**يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**﴾، قالت: قلت: أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «على الصراط».

رواه مسلم منفرداً به دون البخارى، والترمذى، وابن ماجة، من حديث داود بن أبى هند، به[٤]. وقال الترمذى: حسن صحيح.

ورواه أحمد أيضا، عن عفان، عن وهيب[٥]، عن داود، عن الشعبى، عنها[٦]. ولم يذكر مسروقاً [٧].

وقال قتادة، عن حسان بن بلال المزنى، عن عائشة، رضى الله عنها، أنها سألت رسول الله ﷺ عن قول الله: ﴿**يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ**﴾ قال: قالت[٨]: يا رسول الله، فأين الناس يومئذ؟ قال: «لقد سألتنى[٩] عن شيء ما سألنى عنه أحد من أمتى، ذاك أن الناس على جسر جهنم[١٠]»[١١].

وروى الإمام أحمد، من حديث حبيب بن أبى عمرة، عن مجاهد، عن ابن عباس، حدثتنى عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ، عن قوله تعالى: ﴿**وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ**

---

(١) فى ت: «تمتنع». (٢) فى ت: «بمن».
(٣) صحيح البخارى برقم (٦٥٢١) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩٠).
(٤) المسند (٦/ ٣٥) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩١) وسنن الترمذى برقم (٣١٢١) وابن ماجة برقم (٤٢٧٩).
(٥) فى ت: «وهب». (٦) فى ت: «عنهما».
(٧) المسند (٦/ ١٣٤).
(٨) فى ت، أ: «قلت». (٩) فى ت: «سألتينى». (١٠) فى ت: «على حشرهم».
(١١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٣/ ١٦٦).

مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، فأين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «هم على متن جهنم»[(١)].

وقال ابن جرير: حدثنا الحسن، حدثنا على بن الجعد، أخبرنى القاسم، سمعت الحسن قال: قالت عائشة: يا رسول الله، **﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ﴾**، فأين الناس يومئذ؟ قال: «إن هذا شىء ما سألنى عنه أحد»، قال: «على الصراط يا عائشة».

ورواه أحمد، عن عفان[(٢)]، عن القاسم بن الفضل، عن الحسن، به[(٣)].

وقال الإمام مسلم بن الحجاج فى صحيحه: حدثنى الحسن بن على الحُلْوانى، حدثنا أبو تَوْبة الربيع بن نافع، حدثنا معاوية بن سلام، عن زيد ـ يعنى: أخاه ـ أنه سمع أبا سلاَّم، حدثنى أبو أسماء الرَّحَبِى؛ أن ثوبان مولى رسول الله ﷺ حدثه قال: كنت قائما عند رسول الله ﷺ، فجاءه[(٤)] حبر من أحبار اليهود، فقال: السلام عليك يا محمد. فدفعته دَفعةً كاد يُصرَع منها، فقال: لم تدفعنى؟ فقلت: ألا تقول: يا رسول الله؟! فقال اليهودى: إنما ندعوه باسمه الذى سَمَّاه به أهله! فقال رسول الله ﷺ: «إن اسمى محمدٌ الذى سمانى به أهلى». فقال اليهودى: جئت أسألك. فقال رسول الله ﷺ: «أينفعك شىء إن حدثتك؟» فقال: أسمع بأذنى. فنكت رسول الله ﷺ بعود معه، فقال: «سل». فقال اليهودى: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال رسول الله ﷺ: «هم فى الظلمة دون الجسر»[(٥)]. قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال: فقال: «[فقراء][(٦)] المهاجرين». قال اليهودى: فما تُحْفَتهمُ حين يدخلون الجنة؟ قال: «زيادة كبد النون» قال: فما غذاؤهم فى أثرها؟ قال: «ينحر لهم ثور الجنة الذى كان يأكل من أطرافها». قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «من عين فيها تسمى سلسبيلا». قال: صدقت. قال: وجئت أسألك عن شىء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبى أو رجل أو رجلان؟ قال: «ينفعك إن حدثتك؟» قال: أسمع بأذنى. قال: جئت أسألك عن الولد. قال: «ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فَعَلا منىُّ الرجل منىَّ المرأة أذكرا[(٧)] بإذن الله ـ تعالى ـ وإذا علا منى المرأة منى الرجل أنَّثا بإذن الله». قال اليهودى: لقد صدقت، وإنك لنبى. ثم انصرف، فقال رسول الله ﷺ: «لقد سألنى هذا عن الذى سألنى عنه، وما لى علم بشىء منه، حتى أتانى الله به»[(٨)].

[و][(٩)]قال أبو جعفر بن جرير الطبرى: حدثنى ابن عوف، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا ابن أبى

---

(١) المسند (٦/ ١١٧).

(٢) فى ت، أ: «عثمان».

(٣) تفسير الطبرى (١٣/ ١٦٦) والمسند (٦/ ١٠١).

(٤) فى ت: «فجاء».

(٥) فى ت: «الحشر».

(٦) زيادة من ت، أ، ومسلم.

(٧) فى أ: «ذكرا».

(٨) صحيح مسلم برقم: (٣١٥).

(٩) زيادة من ت.

مريم، حدثنا سعيد بن ثوبان الكَلاعى، عن أبى أيوب الأنصارى، قال: أتى النبىَّ ﷺ حَبْر من اليهود فقال: أرأيت إذ يقول الله فى كتابه: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾، فأين الخَلْق عند ذلك؟ فقال: «أضياف الله، فلن يعجزهم ما لديه»(١).

ورواه ابن أبى حاتم، من حديث أبى بكر بن عبد الله بن أبى مريم، به.

وقال شعبة: أخبرنا أبو إسحاق، سمعت عمرو بن ميمون ـ وربما قال: قال عبد الله، وربما لم يقل ـ فقلت له: عن عبد الله؟ فقال: سمعت عمرو بن ميمون يقول: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ﴾ قال: أرض كالفضة البيضاء نقية، لم يسفك فيها دم، ولم يعمل عليها(٢) خطيئة، ينفذهم البصر، ويُسمعهم الداعى، حفاةً عراة كما خلقوا. قال: أراه قال: قياما حتى يُلجِمَهم العرق(٣).

وروى من وجه آخر عن شعبة وعن إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن ابن مسعود، بنحوه. وكذا رواه عاصم، عن زرّ، عن ابن مسعود، به.

وقال سفيان الثورى، عن أبى إسحاق، عن عمرو بن ميمون، لم يخبر به. أورد ذلك كله ابن جرير(٤).

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عبد الله بن عبيد بن عَقِيل، حدثنا سهل بن حماد أبو عَتَّاب، حدثنا جرير بن أيوب، عن أبى إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله، عن النبى ﷺ فى قول الله، عز وجل: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ﴾ قال: «أرض بيضاء لم يسقط عليها دم(٥)، ولم يعمل عليها خطيئة». ثم قال: لا نعلم رفعه إلا جرير بن أيوب، وليس بالقوى(٦).

ثم قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثا معاوية بن هشام، عن سنان(٧)، عن جابر الجُعْفى، عن أبى جُبَيرة(٨)، عن زيد قال: أرسل رسول الله ﷺ إلى اليهود فقال: «هل تدرون لم أرسلت إليهم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أرسلت إليهم أسألهم عن قول الله: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ﴾، إنها تكون يومئذ بيضاء مثل الفضة». فلما جاؤوا سألهم فقالوا: تكون بيضاء مثل النَّقِى(٩).

وهكذا رَوى عن على، وابن عباس، وأنس بن مالك، ومجاهد بن جبير: أنها تبدل يوم القيامة بأرض من فضة.

وعن على، رضى الله عنه، أنه قال: تصير الأرض فضة، والسموات ذهبا.

---

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٣/ ١٦٤).

(٢) فى ت، أ: «فيها».

(٣، ٤) تفسير الطبرى (١٣/ ١٦٤).

(٥) فى ت: «دما».

(٦) مسند البزار برقم (٣٤٣١) «كشف الأستار» وجرير بن أيوب ضعفه الأئمة.

(٧) فى ت، أ: «شيبان». (٨) فى أ: «عن ابن حبرة».

(٩) تفسير الطبرى (١٣/ ١٦٤).

وقال الربيع: عن أبى العالية، عن أبى بن كعب قال: تصير السموات جنانا.

وقال أبو معشر، عن محمد بن كعب القرظى، أو عن محمد بن قيس فى قوله: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ﴾، قال: [تبدل][1] خبزة يأكل منها المؤمنون[2] من تحت أقدامهم[3].

وكذا رَوَى وكِيع، عن عمر بن بشير الهمدانى، عن سعيد بن جبير فى قوله: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ﴾ قال: تبدل خبزة بيضاء، يأكل المؤمن من تحت قدميه.

وقال الأعمش، عن خَيْثَمة قال: قال عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ: الأرض كلها يوم القيامة[4] نار، والجنة من ورائها ترى كواعبها وأكوابها، ويُلجِم الناس العرقُ، أو يبلغ منهم العرق، ولم يبلغوا الحساب.

وقال الأعمش أيضاً، عن المِنْهَال بن عمرو، عن قيس بن السكن[5] قال: قال عبد الله: الأرض كلها نار يوم القيامة، [و][6] الجنة من ورائها، ترى أكوابها وكواعبها، والذى نفس عبد الله بيده، إن الرجل ليفيض عرقا حتى ترسخ[7] فى الأرض قدمه، ثم يرتفع حتى يبلغ أنفه، وما مسه الحساب. قالوا[8]: مم ذاك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: مما يرى الناس يلقون[9].

وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن كعب فى قوله: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾، قال: تصير السموات جنانا، ويصير مكان البحر ناراً، وتبدل الأرض غيرها.

وفى الحديث الذى رواه أبو داود: «لا يركب البحر إلا غاز أو حاج أو معتمر، فإن تحت البحر ناراً ـ أو: تحت النار بحرا»[10].

وفى حديث الصور المشهور المروى عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ أنه قال: «تبدل الأرض غير الأرض والسموات، فيبسطها ويمدها مد الأديم العكاظى، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، ثم يزجر الله الخلق زجرة، فإذا هم فى هذه المبدلة»[11].

وقوله: ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ ﴾ أى: خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله ﴿ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أى: الذى

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت، أ: «المؤمن». (٣) فى أ: «قدميه».
(٤) فى ت: «يوم القيامة كلها». (٥) فى ت: «ابن سكن». (٦) زيادة من ت، أ.
(٧) فى ت: «يرسخ»، وفى أ: «يرشح».
(٨) فى ت: «فقالوا».
(٩) تفسير الطبرى (١٣/ ١٦٤، ١٦٥).
(١٠) سنن أبى داود برقم (٢٤٨٩) ولفظه: «فإن تحت البحر ناراً، وتحت النار بحراً» رواه من طريق بشر أبى عبد الله، عن بشير بن مسلم، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً، وقد ضعف هذا الحديث جماعة من الأئمة. انظر أقوالهم فى: السلسلة الضعيفة برقم (٤٧٨).
(١١) سبق تخريج الحديث عند تفسير سورة الأنعام.

قهر كل شيء وغلبه، ودانت له الرقاب، وخضعت له الألباب.

﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) ﴾.

يقول تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾، وتبرز الخلائق لديَّانها، ترى يا محمد يومئذ المجرمين، وهم الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم، ﴿ مُّقَرَّنِينَ﴾ أى: بعضهم إلى بعض، قد جمع بين النظراء أو الأشكال[١] منهم، كل صنف إلى صنف، كما قال تعالى: ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]، وقال: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧]، وقال: ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣]، وقال: ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ . وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٧، ٣٨].

والأصفاد: هى القيود، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، والأعمش، وعبد الرحمن بن زيد. وهو مشهور فى اللغة، قال عمرو بن كلثوم.

فَآبُوا[٢] بالثياب وبالسَّبايا   وأُبْنَا بالْمُلُوك[٣] مُصَفَّدينا[٤]

وقوله: ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ أى: ثيابهم التى يلبسونها عليهم من قطران، وهو الذى تُهنأ به الإبل، أى: تطلى، قاله قتادة. وهو ألصق شيء بالنار.

ويقال فيه: «قَطِران»، بفتح القاف وكسر الطاء، وبفتح القاف وتسكين الطاء، وبكسر القاف وتسكين الطاء، ومنه قول أبى النجم.

كأنّ قِطْراناً إذَا تَلاهَا   تَرْمى[٥] به الرّيح إلى مَجْراها[٦]

وكان ابن عباس يقول: القَطران هو: النحاس المذاب، وربما قرأها: «سَرَابليهم من قَطِران» أى: من نحاس حار قد انتهى حره. وكذا روى عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جُبَيْر، والحسن، وقتادة.

وقوله: ﴿ وَتَغْشَىٰ[٧] وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾، كقوله: ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤].

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا يحيى بن إسحاق، أنبأنا أبان بن يزيد، عن يحيى بن أبى

(١) فى ت: «النظر والأشكال».
(٢) فى ت: «فأتوا».
(٣) فى ت: «وابنا الملوك»، وفى أ: «وأبناء الملوك».
(٤) البيت فى تفسير الطبرى (١٣/ ١٦٧).
(٥) فى ت: «يرمى».
(٦) البيت فى تفسير الطبرى (١٣/ ١٦٧).
(٧) فى ت: «ويغشى».

كثير، عن زيد، عن أبى سلام، عن أبي مالك الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من أمر الجاهلية لا يُتْركن[(١)]: الفخر بالأحساب، والطعن فى الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة، والنائحة[(٢)] إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قَطران، ودرْع من جَرَب».
انفرد بإخراجه مسلم[(٣)].

وفى حديث القاسم، عن أبى أمامة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «النائحة إذا لم تتب، توقف فى طريق[(٤)] بين الجنة والنار، وسرابيلها من قطران، وتغشى وجهها النار»[(٥)].

وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ﴾ أى: يوم[(٦)] القيامة، كما قال: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: يحتمل أن يكون كقوله[(٧)] تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، ويحتمل أنه فى حال محاسبته[(٨)] لعبده سريع النَّجاز؛ لأنه يعلم كل شىء، ولا يخفى عليه خافية، وإن جميع الخلق[(٩)] بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم، كقوله تعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وهذا معنى قول مجاهد: ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: [إحصاء][(١٠)].

ويحتمل أن يكون المعنيان مرادين، والله أعلم.

﴿هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٥٢)﴾.

يقول تعالى: هذا القرآن بلاغ للناس، كقوله: ﴿لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] أى: هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجان، كما قال فى أول السورة: ﴿الَر. كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾.

﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ أى: ليتعظوا[(١١)] به، ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أى: يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو[(١٢)]، ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ أى: ذوو العقول.

---

(١) فى ت: «لابد لهن»، وفى أ: «لا يزكهن».
(٢) فى أ: «والنابحة».
(٣) المسند (٥/ ٣٤٢) وصحيح مسلم برقم (٩٣٤).
(٤) فى ت: «الطريق».
(٥) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٨/ ٢٣٨) من طريق عبيد الله بن زحر، عن على بن يزيد، عن القاسم ـ وكلهم ضعفاء ـ عن أبى أمامة به. وقد قال ابن حبان: «إذا جاء الحديث من طريق عبيد الله بن زحر عن على بن يزيد، عن القاسم، فهو مما صنعته أيديهم».
(٦) فى ت، أ: «أى يقسم يوم».
(٧) فى ت: «قوله».
(٨) فى ت: «محسباته».
(٩) فى ت: «الخلائق».
(١٠) زيادة من ت، أ.
(١١) فى ت، أ: «يتعظوا».
(١٢) فى ت، أ: «إلا الله».

/ سورة إبراهيم عليه السلام [٢٥٣ظ]

وهي إحدى وخمسون آيةً.[١]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ①﴾

﴿الٓر﴾ مرّ الكلام فيه وفي محلّه غير مرّة. وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبر له على تقدير كون ﴿الٓر﴾ مبتدأً، أو لمبتدأ مضمَر على تقدير كونه خبرًا لمبتدأٍ محذوف، أو مسرودًا على نمط التعديد، ويجوز أن يكون خبرًا ثانيًا لهذا المبتدأ المحذوف. وقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ صفة له.

وقوله تعالى: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ متعلّق بـ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، أي: لتخرجهم كافّةً بما في تضاعيفه مِن البيّنات الواضحة المُفصِحةِ عن كونه مِن عند الله عزّ وجلّ، الكاشفةِ عن العقائد الحقّة. وقُرئ: "لِيَخْرُجَ النَّاسُ"،[٢] أي: لِيَخرُج به الناسُ ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ مِن عقائد الكفر والضلال التي كلّها ظلمات محضة وجهالات صِرفة ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ إلى الحقّ الذي هو نور بَحت، لكن لا كيف ما كان، فإنّك لا تهدي مَن أحببت؛ بل ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بتيسيره وتوفيقه.

وللإنباء عن كون ذلك مَنوطًا بإقبالهم إلى الحقّ -كما يُفصِح عنه قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد، ٢٧/١٣]- استُعِير له الإذنُ الذي هو عبارة عن تسهيل الحجاب لمَن يقصد الورودَ، وأضِيفَ إلى ضميرهم اسمُ الربِّ المُفصحُ عن التربية التي هي عبارة عن تبليغ الشيء إلى كماله المتوجِّهِ إليه.

---

[١] س: سورة إبراهيم، مكيّة، وهي إحدى وخمسون أو ثنتان أو أربع أو خمس.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عياض. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٩.

وشمول الإذن بهذا المعنى للكلّ واضح، وعليه يدور كون الإنزال لإخراجهم جميعًا. وعدمُ تحقّق الإذن بالفعل في بعضهم لعدم تحقّق شرطه[١] المستنِد إلى سوء اختيارهم غيرُ مخِلّ بذلك.

و"الباء" متعلّقة بـ﴿تُخْرِجَ﴾، أو بمُضمَر وقع حالًا مِن مفعوله، أي: ملتبسين بإذن ربّهم. وجعلُه حالًا مِن فاعله[٢] يأباه إضافة الربّ إليهم، لا إليه.

وحيث كان الحقّ مع وضوحه في نفسه وإيضاحِه لغيره موصلًا إلى الله عزّ وجلّ استُعير له "النور" تارةً و"الصراط" أخرى، فقيل: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ على وجه الإبدال بتكرير العامل، كما في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف، ٧/٧٥]، وإخلالُ البدل والبيان بالاستعارة إنّما هو في الحقيقة لا في المجاز، كما في قوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة، ٢/١٨٧].

وقيل: هو استئناف مبنيّ على سؤال، كأنّه قيل: إلى أيّ نور؟ فقيل: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾. وإضافة "الصراط" / إليه تعالى لأنّه مَقصِده أو المبيِّن له. وتخصيص الوصفين بالذكر للترغيب في سلوكه ببيان ما فيه مِن الأمن والعاقبةِ الحميدة. [٢٥٤و]

﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢﴾

﴿ٱللَّهِ﴾ بالجرّ عطف بيان لـ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾؛ لجريانه مَجرى الأعلام الغالبة بالاختصاص بالمعبود بالحقّ، كالنجم في الثريّا. وقُرئ بالرفع[٣] على "هُوَ اللهُ"،[٤] أي: العزيزُ الحميد -الذي أضيفَ إليه الصراطُ- اللهُ ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ﴾ مِلكًا ومُلكًا ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما وجد فيهما داخلًا فيهما أو خارجًا عنهما متمكِّنًا فيهما، كما مرّ في آية الكرسي. ففيه على القراءتين بيانٌ لكمال فَخامة

---

١ وفي هامش م: أي: التوجّه والإقبال. «منه».

٢ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/١٩٢.

٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر، وقرأ رُويس برفع الهاء في الابتداء وخفضِها في الوصل. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٨.

٤ أي: على تقدير: "هو الله".

شأن الصراط، وإظهارٌ لتحتّم سلوكه على الناس قاطبةً. وتجويز الرفع على الابتداء بجعل الموصول خبرًا[١] مبناه الغُفول عن هذه النكتة.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ وعيد لمَن كفر بالكتاب ولم يخرج به مِن الظلمات إلى النور بالويل، وهو نقيض الوَأل؛ وهو النجاة. وأصله النصب كسائر المصادر ثمّ رُفِعَ رَفْعَها للدلالة على الثبات، كـ"سلامٌ عليك". ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ متعلّق بـ﴿وَيْلٌ﴾ على معنى: يُوَلْوِلُون[٢] ويضجّون منه قائلين: يا وَيلاه، كقوله تعالى: ﴿دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان، ١٣/٢٥].

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ③﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: يُؤْثِرونها، استفعال مِن المحبّة، فإنّ المُؤثِر للشيء على غيره كأنّه يطلب مِن نفسه أن يكون أحبّ إليها وأفضل عندها مِن غيره. ﴿عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: الحياةِ الآخرة الأبديّة.

﴿وَيَصُدُّونَ﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ التي بيّن شأنها. والاقتصار على الإضافة إلى الاسم الجليل المنطوي على كلّ وصف جميلٍ لزومُ الاختصار. وهو مِن "صَدّه صَدًّا". وقُرِئ: "يُصِدُّونَ"[٣] مِن "أَصَدّ" المنقول مِن "صَدَّ صُدودًا" إذا نَكَبَ، وهو غير فصيح كـ"أَوْقَفَ"، فإنّ في "صَدّه ووقَفَه" لَمَنْدُوحَةً عن تكلّف النقل.

﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ أي: يبغون لها، فحُذف الجارّ وأُوصِل الفعل إلى الضمير، أي: يطلبون لها ﴿عِوَجًا﴾ أي: زَيغًا واعوِجاجًا وهي أبعد شيء مِن ذلك، أي: يقولون لمَن يريدون صدّه وإضلاله: إنّها سبيل ناكِبة وزائغة غيرُ مستقيمة.

ومحلُّ موصولِ هذه الصلات الجرُّ على أنّه بدل مِن ﴿الْكَٰفِرِينَ﴾، أو صفةٌ لَهُ فيُعتبر كلُّ وَصْفٍ مِن أوصافهم بإزاء ما يناسبه مِن المعاني / المعتبرة في [٢٥٤ظ] "الصراط". فالكفر المنبئ عن الستر بإزاء كونه نورًا، واستحبابُ الحياة الدنيا

---

[١] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩٢/٣.

[٢] وفي هامش م: أي: يكرّرُون الوَيل.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٩.

الفانيةِ المُفصِحةِ عن وَخامة العاقبة بمقابلة كون سلوكه محمودَ العاقبة، والصدُّ عنه بإزاء كونه مأمونًا. وفيه مِن الدلالة على تماديهم في الغيّ ما لا يخفى.

أو النصب على الذمّ، أو الرفع على الابتداء، والخبر قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ فِي ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾، وعلى الأوّل جملة مستأنَفة وقعت معلِّلةً لِما سبق مِن لحوق الويل بهم، تأكيدًا لِما أَشعر به بناءُ الحكم على الموصول، أي: أولئك الموصوفون بالقبائح المذكورة -مِن استحباب الحياة الدنيا على الآخرة، وصدِّ الناس عن سبيل الله المستقيمة، ووصفِها بالاعوجاج وهي منه بِنُزْهٍ- في ضلال عن طريق الحقّ بعيدٍ بالغٍ في ذلك غايةَ الغايات القاصية. والبعد وإن كان مِن أحوال الضالّ إلّا أنّه قد وُصف به وصفُه مجازًا للمبالغة، كـ"جَدّ جِدّه"، و"داهية دهياء". ويجوز أن يكون المعنى في ضلال ذي بُعد، أو فيه بعد، فإنّ الضالّ قد يضلّ عن الطريق مكانًا قريبًا، وقد يضلّ بعيدًا. وفي جَعل الضلال محيطًا بهم إحاطةَ الظرف بما فيه ما لا يخفى مِن المبالغة.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤﴾

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا﴾ أي: في الأمم الخالية مِن قَبلك -كما سَيُذكَرُ إجمالًا- ﴿مِن رَّسُولٍ إِلَّا﴾ ملتبسًا ﴿بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ متكلّمًا بلغة مَن أرسلَ إليهم مِن الأمم المتّفقة على لغةٍ، سواء بعث فيهم أو لا. وقُرئ: "بِلِسْنِ"، وهو لغة فيه، كـ"رِيش ورِياش"، و"بِلُسُنِ" بضمّتين، وضمّة وسكون،[1] كعُمُدٍ وَعُمْدٍ.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ ما أُمروا به، فيتلقَّوه منه بيُسر وسرعة، ويعملوا بموجَبه مِن غير حاجةٍ إلى الترجمة ممَّن لم يؤمر به.

وحيث لم يمكن مراعاة هذه القاعدة في شأن سيّدنا صلّى الله عليه[2] وعليهم أجمعين؛ لعموم بعثته الثقلينِ كافّةً على اختلاف لغاتهم، وكان تعدُّد

---

[1] القراءات الثلاث شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال. وعن الأعمش: "بِلَسْنِ" بفتح اللام وسكون السين. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٩.

[2] س + وسلّم.

نظم الكتاب[١] المنزّل إليه حسب تعدّد ألسنة الأمم أدعى إلى التنازع واختلاف الكلمة وتطرّق أيدي التحريف، مع أنّ استقلال بعضٍ مِن ذلك بالإعجاز دون غيره مئِنّة لقدح القادحين، واتّفاقَ الجميع / فيه أمر قريب مِن الإلجاء، وحصل [٢٥٥و] البيان بالترجمة والتفسير؛ اقتضت الحكمة اتّحاد النظم المنبئ عن العزّة وجلالة الشأن المستتبع لفوائدَ غنيّة عن البيان، على أنّ الحاجة إلى الترجمة تتضاعف عند التعدّد، إذ لا بدّ لكلّ أمّة مِن معرفة توافق الكلّ وتحاذيه حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّة[٢] مِن غير مخالفة ولو في خَصلة فذّةٍ،[٣] وإنّما يتمّ ذلك بمَن يترجم عن الكلّ واحدًا أو متعدّدًا، وفيه مِن التعذّر ما يتاخم الامتناع.

ثمّ لمّا كان أشرف الأقوام وأولاهم بدعوته عليه السلام قومه الذين بُعث فيهم ولغتُهم أفضلَ اللغات نزل الكتاب المتين بلسان عربي مبين، وانتشرت أحكامه فيما بين الأمم أجمعين.

وقيل:[٤] الضمير في ﴿قَوْمِهِ﴾ لمحمّد صلّى الله عليه وسلّم، فإنّه تعالى أنزل الكتب كلّها عربيّة ثمّ ترجمها جبريل عليه السلام، أو كلّ مَن نزل عليه مِن الأنبياء عليهم السلام بلغة مَن نزل عليهم. ويردّه قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾، فإنّه ضمير القوم، وظاهر أنّ جميع الكتب لم ينزل لتبيين العرب. وَفي رَجْعِه إلى قوم كلّ نبيّ -كأنّه قيل: وما أرسلنا مِن رسول إلّا بلسان قوم محمّد عليه السلام ليبيّن الرسول لقومه الذين أرسل إليهم-[٥] ما لا يخفى مِن التكلّف.

﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ إضلالَه، أي: يخلق فيه الضلال لِمباشرة أسبابه المؤدّية إليه، أو يخذله ولا يلطف به لِما يَعلم أنّه لا ينجع فيه الإلطاف. ﴿وَيَهْدِى﴾ بالتوفيق ومنح الإلطاف ﴿مَن يَشَآءُ﴾ هدايتَه لِما فيه مِن الإنابة والإقبال إلى الحقّ.

---

١ س - الكتاب.

٢ أي: مِثْلًا بمِثل. وهو مَثَل يُضرب في التسوية بين الشيئين. ومثله "حَذْوَ النَّعْلِ بالنَّعل". والقُذَّة: مِن القَذِّ وهو القطع، يعني: قَطْع الريشة المقذوذة على قدر صاحبتها في التسوية. مجمع الأمثال للميداني، ١/١٩٥.

٣ الفَذُّ: الفردُ. الصحاح للجوهري، «فذذ».

٤ ذكره الزمخشري، وقال: «روَوه عن الضحّاك... وليس بصحيح». انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٣٩.

٥ انظر: فتوح الغيب للطيبي، ٨/٥٤٩.

والالتفات بإسناد الفعلين إلى الاسم الجليل المنطوي على الصفات لتفخيم شأنهما وترشيحِ مَناط كلّ منهما. و"الفاء" فصيحة، مثلها في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ[1] ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء، ٦٣/٢٦]، كأنّه قيل: فبيّنوه لهم، فأضلّ الله منهم مَن شاء إضلالَه لِما لا يليق إلّا به، وهدى مَن شاء هدايته لاستحقاقه لها. والحذف للإيذان بأنّ مسارعة كلّ رسول إلى ما أُمِرَ به وجريانَ كلّ مِن أهل الخذلان والهداية على سُننه أمرٌ محقّق غنيّ عن الذكر والبيان.

[٢٥٥ظ] والعدول إلى صيغة الاستقبال لاستحضار / الصورة، أو للدلالة على التجدّد والاستمرار، حسب تجدّد البيان مِن الرسل المتعاقِبة عليهم السلام. وتقديم الإضلال على الهداية إمّا لأنّه إبقاءُ ما كان على ما كان، والهداية إنشاءُ ما لم يكن، أو للمبالغة في بيان أن لا تأثير للتبيين والتذكير مِن قِبَل الرسل، وأنّ مدار الأمر إنّما هو مشيئته تعالى بإيهام أنّ ترتّب الضلالة على ذلك أسرع مِن ترتّب الاهتداء، وهذا محقِّق لِما سلف مِن تقييد الإخراج مِن الظلمات إلى النور بإذن الله تعالى.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فلا يغالَبُ في مشيئته ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل شيئًا مِن الإضلال والهداية إلّا لحكمةٍ بالغة. وفيه أنّ ما فُوّض إلى الرسل إنّما هو تبليغ الرسالة وتبيين طريق الحقّ، وأمّا الهداية والإرشاد إليه فذلك بيد الله سبحانه، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ شروع في تفصيل ما أُجمِلَ في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ الآيةَ.[2] ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: ملتبِسًا بها، وهي معجزاته التي أظهرها لبني إسرائيل. ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ بمعنى: أي: أخرِجْ؛

---

[1] م س - ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ﴾؛ م س + فقلنا. [2] في الآية السابقة.

لأنّ الإرسال فيه معنى القول، أو بأن أَخرِجْ، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ [يونس، ١٠/١٠٥]، فإنّ صيغ الأفعال في الدلالة على المصدر سواء، وهو المدار في صحّة الوصل. والمراد بذلك إخراج بني إسرائيل بعد مَهلِك فرعون.

﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ مِن الكفر والجهالات التي أدّتهم[1] إلى أن يقولوا: ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف، ٧/١٣٨]. ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ إلى الإيمان بالله وتوحيده وسائرِ ما أُمروا به. ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ أي: بنَعمائه وبلائه كما يُنبئ عنه قوله عليه السلام: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾،[2] لكن لا بما جرى عليهم فقط؛ بل عليهم وعلى مَن قبلهم مِن الأمم في الأيّام الخالية حسبما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الآيات،[3] أو بأيّامه المنطوية على ذلك كما يلوِّح به قوله: ﴿إِذْ أَنجَىٰكُم﴾.[4]

والالتفات مِن التكلّم إلى الغيبة بإضافة "الأيّام" إلى الاسم الجليل للإيذان بفخامة شأنها، والإشعارِ بعدم اختصاص ما فيها مِن المعاملة بالمخاطَب وقومه كما يوهمه الإضافة إلى ضمير التكلّم، أي: عِظْهُم بالترغيب والترهيب والوعدِ والوعيد.

وقيل:[5] / ﴿أَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ وقائعِه التي وقعت على الأمم قبلَهم، و"أيّامُ العرب": وقائعها وحروبها وملاحمها، أي: أنذِرهم وقائعَه التي دَهِمَت الأمم الدارجة. ويردّه ما تصدّى له عليه السلام بصدد الامتثال مِن التذكير بكلٍّ مِن السرّاء والضرّاء ممّا جرى عليهم وعلى غيرهم حسبما يُتلى عليك. [٢٥٦و]

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: في التذكير بها، أو في مجموع تلك النعماءِ والبلاء، أو في أيّامها ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ عظيمةً أو كثيرةً دالّةً على وحدانيّة الله تعالى وقدرته وعلمه وحكمته. فهي على الأوّل[6] عبارة عن الأيّام سواء أُريدَ بها أنفسُها أو ما فيها

---

[1] ط س: أدّاهم. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[2] في الآية التالية.

[3] إبراهيم، ١٤/٩.

[4] في الآية التالية.

[5] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٢/٥٤٠؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٣/١٩٣.

[6] وفي هامش م: هو كون ذلك إشارة إلى التذكير. «منه».

مِن النعماء والبلاء، ومعنى ظرفيّة التذكير لها كونه مناطًا لظهورها. وعلى الثالث[١] عن تلك النعماء والبلاء، ومعنى الظرفيّة ظاهر. وأمّا على الثاني[٢] فعن كلّ واحدة مِن تلك النعماء والبلاء، والمشارُ إليه المجموع المشتمل عليها مِن حيث هو مجموع، أو كلمةُ ﴿فِي﴾ تجريديّة، مثلها في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ [فصلت، ٢٨/٤١].

﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على بلائه ﴿شَكُورٍ﴾ لنَعمائه. وقيل: لكلّ مؤمن، والتعبير عنهم بذلك للإشعار بأنّ الصبر والشكر عنوان المؤمن، أي: لكلّ مَن يليق بكمال الصبر والشكر أو الإيمان ويصير أمره إليها، لا لِمَن اتّصف بها بالفعل؛ لأنّه تعليل للأمر بالتذكير المذكور السابق على التذكّر المؤدّي إلى تلك المرتبة، فإنّ مَن تذكّر ما فاض أو نزل عليه أو على مَن قبله مِن النعماء والبلاء وتنبّه لعاقبة الشكر والصبر أو الإيمان لا يكاد يفارقها. وتخصيص الآيات بهم لأنّهم المنتفِعون بها، لا لأنّها خافية عن غيرهم، فإنّ التبيين حاصل بالنسبة إلى الكلّ. وتقديم "الصبّار" على "الشكور" لتقدّم متعلّق الصبر -أعني: البلاء- على متعلّق الشكر -أعني: النعماء-، وكونِ الشكر عاقبة الصبر.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ شروع في بيان تصدّيه عليه السلام لِما أُمِر به مِن التذكير للإخراج المذكورِ. و﴿إِذْ﴾ منصوب على المفعوليّة بمُضمَر خوطب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وتعليق الذكر بالوقت مع أنّ المقصود تذكير ما وقع فيه مِن الحوادث قد مرّ سرّه غيرَ مرّة،[٣] أي: اذكر لهم وقتَ قوله عليه السلام لقومه: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بدأ عليه السلام بالترغيب لأنّه عند النفس أقبَل، وهي إليه أميَل.

---

[١] وفي هامش م: وهو كونه إشارة إلى أيّامها. «منه».

[٢] وفي هامش م: وهو كونُه إشارةً إلى مجموع النعماء والبلاء. «منه».

[٣] وفي هامش م: في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة، ٣٠/٢]، وغيره مِن المواقع. «منه».

والظرف متعلّق بنفس النعمة إن جُعلت مصدرًا، وبمحذوف وقع حالًا منها إن جعلت اسمًا، أي: اذكروا إنعامه عليكم، أو اذكروا نعمته كائنةً عليكم. وكذا كلمةُ ﴿إِذْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ / أي: اذكروا إنعامه [٢٥٦ظ]
عليكم وقت إنجائه إيّاكم مِن آل فرعونَ، أو اذكروا نعمة الله مستقرّةً عليكم وقتَ إنجائه إيّاكم منهم. أو بدلُ اشتمال مِن ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ مرادًا بها الإنعام أو العطيّة.

﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يبغونكم، مِن "سامَهُ خَسْفًا" إذا أولاه ظلمًا، وأصل السَّوم الذهاب في طلب الشيء. ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ "السوء" مصدر "ساءَ يسُوء"، والمراد به جنس العذاب السيّء، أو استعبادهم واستعمالهم في الأعمال الشاقّة والاستهانةُ بهم وغيرُ ذلك ممّا لا يُحصر. ونصبه على أنّه مفعول لـ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾.

﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ المولودين. وإنّما عطفه على ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ إخراجًا له عن مرتبة العذاب المعتاد. وإنّما فعلوا ذلك لأنّ فرعونَ رأى في المنام -أو قال له الكهنة- أنّه سيولد منهم مَن يذهب بمُلكه، فاجتهدوا في ذلك، فلم يغنِ عنهم مِن قضاء الله شيئًا.

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ أي: يُبقونهنّ في الحياة مع الذلّ والصَّغار، ولذلك عُدّ مِن جملة البلاء. والجُمل أحوال مِن ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، أو مِن ضمير المخاطبِين، أو منهما جميعًا؛ لأنّ فيها ضمير كلّ منهما.

﴿وَفِى ذَٰلِكُم﴾ أي: فيما ذكر مِن أفعالهم الفظيعة ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: ابتلاء منه، لا أنّ البلاء عين تلك الأفعال، اللّهمّ إلّا أن يُجعل ﴿فِى﴾ تجريديّة، فنسبته إلى الله تعالى إمّا مِن حيث الخلقُ أو الإقدارُ والتمكين. ﴿عَظِيمٌ﴾ لا يطاق. ويجوز أن يكون المشار إليه الإنجاءَ مِن ذلك. و"البلاء": الابتلاءُ / بالنعمة، [٢٥٧و]
وهو الأنسب كما يلوّح به التعرّض لوصف الربوبيّة. وعلى الأوّل يكون ذلك باعتبار المآل الذي هو الإنجاء، أو باعتبار أنّ بلاء المؤمِن تربيةٌ له.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝٧﴾

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ مِن جملة مقال موسى عليه السلام لقومه، معطوف على ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾، أي: اذكروا نعمة الله عليكم، واذكروا حين تأذّن ربُّكم، أي:

آذن إيذانًا بليغًا لا تبقى معه شائبةُ شبهةٍ، لِما في صيغة التفعّل مِن معنى التكلّف المحمول في حقّه سبحانه على غايته التي هي الكمال. وقيل: هو معطوف على قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنجَىٰكُم﴾،[١] أي: اذكروا نعمته تعالى في هذين الوقتين، فإنّ هذا التأذّن أيضًا نعمة مِن الله تعالى عليهم ينالون بها خيرَي الدنيا والآخرة. وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: "وَإِذْ قَالَ رَبُّكُمْ".[٢]

ولقد ذكّرهم عليه السلام أوّلًا بنَعمائه تعالى عليهم صريحًا، وضمّنه تذكيرَ ما أصابهم قبل ذلك مِن الضرّاء، ثمّ أمرهم ثانيًا بذكر ما جرى مِن الله سبحانه مِن الوعد بالزيادة على تقدير الشكر، والوعيدِ بالعذاب على تقدير الكفر. والمراد بتذكير الأوقات تذكير ما وقع فيها مِن الحوادث مفصّلةً، إذ هي محيطة بذلك، فإذا ذُكرت ذُكر ما فيها كأنّه مشاهَد مُعَايَنٌ.

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ يا بني إسرائيل ما خوّلتُكم مِن نعمة الإنجاء وإهلاك العدوّ وغير ذلك مِن النعم والآلاء الفائتة للحصر وقابلتموه بالإيمان والطاعة ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ نعمةً إلى نعمةٍ، ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ ذلك وغمَطتُموه ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ فعسى يصيبكم منه ما يصيبكم.

ومِن عادة الكرام التصريح بالوعد، والتعريضُ بالوعيد، فما ظنّك بأكرم الأكرمين؟ ويجوز أن يكون المذكور تعليلًا للجواب المحذوف، أي: لَأعذِّبنّكم.

و"اللام" في الموضعين موطِّئة للقسَم، وكلٌّ مِن الجوابين سادٌّ مَسدّ جوابَي الشرط والقسَم. والجملة إمّا مفعول / لـ﴿تَأَذَّنَ﴾ لأنّه ضرب مِن القول، أو لقولٍ مقدّر بعده، كأنّه قيل: وإذ تأذّن ربّكم فقال... إلخ. [٢٥٧ظ]

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٨ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩﴾

---

١ في الآية السابقة.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: جامع البيان للطبري، ١٣/٦٠١؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٥/٣٠٦.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ﴾ نِعَمَهُ تعالى ولم تشكروها ﴿أَنتُمْ﴾ يا بني إسرائيل ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مِن الخلائق ﴿جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ﴾ عن شكركم وشكر غيركم، ﴿حَمِيدٌ﴾ مستوجِب للحمد بذاته لكثرة ما يوجبه مِن أياديه وإن لم يحمَده أحد، أو محمود يحمَده الملائكة؛ بل كلّ ذرّة مِن ذرّات العالم ناطقة بحمده. والحمد حيث كان بمقابلة النعمة وغيرها مِن الفضائل كان أدلّ على كماله سبحانه. وهو تعليل لِما حُذف مِن جواب «إن»، أي: إن تكفروا لم يرجع وَباله إلّا عليكم فإنّ الله تعالى لغنيّ عن شكر الشاكرين.

ولعلّه عليه السلام إنّما قاله عندما عايَن منهم دلائلَ العناد، ومخائلَ الإصرار على الكفر والفساد، وتيقّن أنّه لا ينفعهم الترغيب ولا التعريضُ بالترهيب، أو قاله غِبَّ تذكيرهم بما ذُكر مِن قول الله عزّ سلطانه تحقيقًا لمَضمونه وتحذيرًا لهم مِن الكفران.

ثمّ شرع في الترهيب بتذكير ما جرى على الأمم الخالية فقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ليتدبّروا ما أصاب كلّ واحد مِن حِزْبَيِ المؤمِن والكافر، فيُقْلِعُوا عمّا هم عليه مِن الشرّ، ويُنِيبوا إلى الله تعالى. وقيل:[1] هو ابتداءُ كلام مِن الله سبحانه خطابًا للكفرة في عهد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فيختصّ تذكير موسى عليه السلام بما اختصّ ببني إسرائيل مِن السرّاء والضرّاء، والأيّامُ بالأيّام الجارية عليهم فقط. وفيه ما لا يخفى مِن البُعد، وأيضًا لا يظهر حينئذ وجه تخصيصِ تذكير الكفرة الذين في عهد النبيّ عليه الصلاة والسلام[2] بما أصاب أولئك المعدودين مع أنّ غيرهم أسوة لهم في الخلوّ قبل هؤلاء.

﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ بدل مِن الموصول، أو عطف بيان، ﴿وَعَادٍ﴾ معطوف على «قَوْمِ نُوحٍ»، ﴿وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: مِن بعد هؤلاءِ المذكورين، عطفٌ على «قَوْمِ نُوحٍ» وما عُطف عليه.

---

١ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ١٩٤/٣.

٢ م: عليه الصلاة؛ س: عليه السلام. | والمثبت مِن ط.

[٢٥٨و] وقوله تعالى: ﴿لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ / اعتراض، أو الموصول مبتدأً، و﴿لَا يَعۡلَمُهُمۡ﴾ إلى آخره خبره، والجملة اعتراض، والمعنى: أنّهم مِن الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلّا الله سبحانه. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «بين عدنانَ وإسماعيلَ ثلاثون أبًا لا يُعرفون».[١] وكان ابن مسعود رضي الله عنه إذا قرأ هذه الآية قال: «كذَب النسّابون»،[٢] يعني: أنّهم يَدّعون عِلْمَ الأنساب وقد نفى الله تعالى علمها عن العباد.

﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾ استئناف لبيان نبئِهم ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات الظاهرة والبيّنات الباهرة، فبيَّنَ كلُّ رسول لأمّتِه طريقَ الحقّ، وهداهم إليه ليخرجهم مِن الظلمات إلى النور، ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ مشيرين بذلك إلى ألسنتهم وما يصدر عنها مِن المقالة اعتناءً منهم بشأنها، وتنبيهًا للرسل على تلقّيها والمحافظة عليها، وإقناطًا لهم عن التصديق والإيمان بإعلام أن لا جواب لهم سِواه.

﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ أي: على زعمكم، وهي البيّنات التي أظهروها حجّةً على صحّة رسالاتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [هود، ٩٦/١١]، ومرادهم بالكفر بها الكفرُ بدلالتها على صحّة رسالاتهم، أو فَعَضُّوها غَيْظًا وضجَرًا مِمّا جاءت به الرسل، كقوله تعالى: ﴿عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ﴾ [آل عمران، ١١٩/٣]، أو وَضعوها عليها تعجّبًا منه واستهزاءً به، كمَن غلبه الضحِك، أو إسكاتًا للأنبياء وأمرًا لهم بإطباق الأفواه، أو ردّوها في أفواه الأنبياء عليهم السلام يمنعونهم مِن التكلّم تحقيقًا أو تمثيلًا، أو جعلوا أيدي الأنبياء في أفواههم تعجّبًا مِن عتوّهم وعنادهم، كما ينبئ عنه تعجّبهم[٣] بقولهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ﴾... إلخ.[٤]

وقيل: الأيدي بمعنى الأيادي، عبّر بها عن مواعظهم ونصائحهم وشرائعهم التي هي مدار النعم الدينيّة والدنياويّة؛ لأنّهم لمّا كذّبوها فلم يقبلوها فكأنّهم ردّوها إلى حيث جاءت منه.

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ٥٤٢/٢؛ المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٣٢٦/٣؛ الدرّ المنثور للسيوطي، ١٠/٥.

[٢] جامع البيان للطبري، ٦٠٤/١٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٠٧/٥.

[٣] وفي هامش م: أي: تعجّب الرسل. «منه».

[٤] في الآية التالية.

﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ﴾ عظيمٍ ﴿مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ﴾ مِن الإيمان بالله والتوحيد، فلا ينافي شكّهم في ذلك كفرَهم القطعي بما أرسل به الرسل مِن البيّنات، فإنّهم كفروا بها قطعًا حيث لم يعتدّوا بها / ولم يجعلوها مِن جنس المعجزات، [٢٥٨ظ]
ولذلك قالوا: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.[١] وقُرئ: "تَدْعُونَّا" بالإدغام.[٢] ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع في الريبة، مِن "أرابَه"، أو ذي ريبة، مِن "أرابَ الرجل"، وهي قلق النفس وعدم اطمئنانها بالشيء.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال ينساق إليه المقال، كأنّه قيل: فماذا قالت لهم رسلهم؟ فأجيبَ بأنّهم قالوا منكرِين عليهم ومتعجّبين مِن مقالتهم الحمقاء: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ بإدخال الهمزة على الظرف؛ للإيذان بأنّ مدار الإنكار ليس نفسَ الشكّ؛ بل وقوعُه فيما لا يكاد يُتَوَهّم فيه الشكّ أصلًا، مُتَفادين عن تطبيق الجواب على كلام الكفرة بأن يقولوا: أأنتم في شكّ مريب مِن الله تعالى؟ مبالغةً في تنزيه ساحة السُّبْحان[٣] عن شائبة الشكّ، وتسجيلًا عليهم بسخافة العقول، أي: أفِي شأنه سبحانه مِن وجوده ووحدته ووجوبِ الإيمان به وحدَه شكٌّ ما، وهو أظهر مِن كلّ ظاهر، وأجلى مِن كلّ جليّ، حتّى تكونوا مِن قِبَلِه في شكّ مريب؟

وحيث كان مقصدهم الأقصى الدعوةَ إلى الإيمان والتوحيد، وكان إظهار البيّنات وسيلةً إلى ذلك، لم يَتعرّضوا للجواب عن قول الكفرة: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ﴾، واقتَصَروا على بيان ما هو الغاية القصوى، ثمّ عقّبوا ذلك الإنكارَ

---

١ في الآية التالية.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن مصرّف. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٩.
٣ قال أبو حيّان: «سُبحان: هو اسم وُضع موضع المصدر الذي هو التسبيح، وأصله الإضافة، ثمّ استعمل مقطوعًا عنها منوّنًا في الشعر وغير منوّن، وقيل: وُضع نكرة جارية مَجرى المصادر، فعُرّف بالإضافة، وبـ"ال"، قال:
سُبحانك اللّهمّ ذا السُّبحان»
ارتشاف الضرَب لأبي حيّان، ١٣٦٦/٣.

بما يوجبه مِن الشواهد الدالّة على انتفاء المنكَر فقالوا: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: مبدعِهما وما فيهما مِن المصنوعات على نظام أنيق شاهد بتحقّق ما أنتم منه في شكّ. وهو صفة للاسم الجليل، أو بدل منه. وَ﴿شَكٌّ﴾ مرتفع بالظرف لاعتماده على الاستفهام. وجعلُه مبتدأً على أنّ الظرف خبره يفضي إلى الفصل بين الموصوف والصفة بالأجنبي، أعني: المبتدأ، والفاعلُ ليسَ بأجنبي مِن رافعه، وقد جُوّز ذلك أيضًا.

﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى الإيمان بإرساله إيّانا، لا أنّا ندعوكم إليه مِن تلقاء أنفسنا كما يوهمه قولكم: ﴿مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ﴾.[١] ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم﴾ بسببه، أو يدعوكم لأجل المغفرة، كقولك: "دعوتُه ليأكلَ معي". ﴿مِن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: بعضَها، وهو / ما [٢٥٩و]
عدا المظالم ممّا بينهم وبينه تعالى، فإنّ الإسلام يَجبُّه.

قيل: هكذا وقع في جميع القرآن في وعد الكفرة دون وعد المؤمنين تفرقةً بين الوعدين، ولعلّ ذلك لِما أنّ المغفرة حيث جاءت في خطاب الكفرة مرتّبة على مَحض الإيمان، وفي شأن المؤمنين مشفوعة بالطاعة والتجنّب عن المعاصي ونحو ذلك، فيتناول الخروج عن المظالم. وقيل: المعنى: ليغفر لكم بدلًا مِن ذنوبكم.

﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى وقتٍ سمّاه الله تعالى وجعله منتهى أعماركم على تقدير الإيمان.

﴿قَالُوٓاْ﴾ استئناف كما سبَق: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ أي: ما أنتم ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ مِن غير فضل يؤهّلكم لِما تدّعونه مِن النبوّة، ﴿تُرِيدُونَ﴾ صفة ثانية لـ﴿بَشَرٌ﴾ حملًا على المعنى، كقوله تعالى: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن، ٦٤/٦]، أو كلام مستأنَف، أي: تريدون بما تَتَصَدَّونَ له مِن الدعوة والإرشاد ﴿أَن تَصُدُّونَا﴾ بتخصيص العبادة بالله سبحانه ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ أي: عن عبادة ما استمرّ آباؤنا على عبادته مِن غير شيء يوجبه، وإلّا ﴿فَأْتُونَا﴾ أي: إن لم يكن الأمر كما قلنا -بل كنتم رسلًا مِن جهة الله تعالى كما تدّعونه- فأتونا ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ يدلّ على فضلكم

---

١ في الآية السابقة.

واستحقاقكم لتلك الرتبة، أو على صحّة ما تدّعونه مِن النبوّة حتّى نترك ما لم نَزَلْ نعبده أبًا عن جدّ.

ولقد كانوا آتوهم مِن الآيات الظاهرة والبيّنات الباهرة ما تخِرّ له صُمّ الجبال، ولكنّهم إنّما يقولون ما يقولون مِن العظائم مكابرةً وعنادًا وإراءةً لمَن وراءهم أنّ ذلك ليس مِن جنس ما ينطلق عليه السلطان المبين.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ مُجاراةً معهم في أوّل مقالتهم، وإنّما قيل: ﴿لَهُمْ﴾ لاختصاص / الكلام بهم حيث أُريدَ إلزامهم، بخلاف ما سلف مِن إنكار وقوعِ الشكّ في الله سبحانه، فإنّ ذلك عامّ وإن اختصّ بهم ما يعقُبه. [٢٥٩ظ]

﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ كما تقولون ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ﴾ بالنبوّة ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ يعنون أنّ ذلك عطيّة مِن الله تعالى[1] يعطيها مَن يشاء مِن عباده بمحض الفضل والامتنان مِن غير داعية توجبه، قالوه تواضعًا وهضمًا للنفس، أو ما نحن مِن الملائكة؛ بل نحن بشر مثلكم في الصورة، أو في الدخول تحت الجنس، ولكنّ الله تعالى يمُنّ بالفضائل والكمالات والاستعدادات[2] على مَن يشاء المَنّ بها، وما يشاء ذلك إلّا لعلمه باستحقاقه لها، وتلك الفضائل والكمالات والاستعدادات هي التي يدور عليها فلَك الاصطفاءِ للنبوّة.

﴿وَمَا كَانَ﴾ وما صحّ وما استقام ﴿لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي: بحجّة مِن الحجج فضلًا عن السلطان المبين بشيء مِن الأشياء وسبب مِن الأسباب ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فإنّه أمر يتعلّق بمشيئته تعالى، إن شاء كان، وإلّا فلا.

---

١ س - تعالى.

٢ م ط - والاستعدادات [هو في هامش م بدون إشارة إلى مكانه، ووُضع في ط قبل "والكمالات" وفي س بعده كما اثبتناه].

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ وحدَه دون ما عداه مطلقًا ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أمرٌ منهم للمؤمنين بالتوكّل، ومقصودهم حمل أنفسهم عليه آثِرَ ذِي أثِيرٍ، ألا يُرى إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا لَنَا﴾ أي: أيّ عذر لنا ﴿أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: في أن لا نتوكل عليه. والإظهار لإظهار النشاط بالتوكّل عليه والاستلذاذِ بذكر اسمه تعالى وتعليلِ التوكّل. ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا﴾ أي: والحال أنّه قَد فَعَل بنا ما يوجبه ويستدعيه حيث هدانا / ﴿سُبُلَنَا﴾ [٢٦٠و] أي: أرشد كلًّا منّا سبيلَه ومنهاجه الذي شرَع له وأوجب عليه سلوكه في الدين.

وحيث كانت أذيّة الكفّار مِمّا يوجب القلقَ والاضطراب القادح في التوكّل قالوا على سبيل التوكيد القسَمي مظهرين لكمال العزيمة: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ بالعناد واقتراح الآيات وغير ذلك ممّا لا خير فيه. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ خاصّةً ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي: فليثبت المتوكّلون على ما أحدثوه مِن التوكّل. والمراد هو المراد ممّا سبق مِن إيجاب التوكّل على أنفسهم، والمراد بـ"المتوكّلين" المؤمنون، والتعبيرُ عنهم بذلك لسبق ذكر اتّصافهم به، ويجوز أن يراد: وعليه فليتوكّلْ مَن يتوكّل دون غيره.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لعلّ هؤلاء القائلين بعضُ المتمرّدين العاتين الغالين في الكفر مِن أولئك الأممِ الكافرة التي نُقِلت مقالاتهم الشنيعة دون جميعهم كقوم شعيب وأضرابهم، ولذلك لم يُقَل: "وقالوا" ﴿لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ لم يقتنعوا بعصيانهم الرسل ومعاندتهم الحقّ بعد ما رأوا البيّنات الفائتةَ للحصر حتّى اجترأوا على مثلِ هاتِيك العظيمة التي لا يكاد يحيط بها دائرة الإمكان، فحلَفوا على أن يكون أحد المُحالَين. والعَوْدُ إمّا بمعنى مطلق الصيرورة، أو باعتبار تغليب المؤمنين على الرسل، وقد مرّ في الأعراف،[١] وسيأتي في الكهف.[٢]

---

[١] الأعراف، ٨٨/٧.

[٢] الكهف، ٢٠/١٨.

﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي: إلى الرسل ﴿رَبُّهُمۡ﴾ مالك أمرهم عند تناهي كفر الكفرة وبلوغهم مِن العتوّ إلى غاية لا مَطمَع بعدها في إيمانهم: ﴿لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على إضمار القول، أو على إجراء الإيحاءِ مُجراه؛ لكونه ضربًا منه.

﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ١٤﴾

﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ / أي: أرضَهم وديارَهم عقوبةً لهم بقولهم: [٢٦٠ظ] ﴿لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ﴾،[1] كقوله تعالى: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ [الأعراف، ١٣٧/٧]. ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي: مِن بعد إهلاكهم.

وقُرِئ: "لَيُهْلِكَنَّ"، "وَلَيُسْكِنَنَّكُمْ" بالياء[2] اعتبارًا لِـ﴿أَوۡحَىٰٓ﴾، كقولهم: "حلَف زيد لَيَخرجَنّ غدًا".

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الموحى به، وهو إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين ديارَهم، أي: ذلك الأمر محقّق ثابت ﴿لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي﴾ مَوقفي، وهو الموقف الذي يقف فيه العباد يوم يقوم الناس لربّ العالمين، أو قيامي عليه وحفظي لأعماله. وقيل: لفظ "المقام" مُقحَم.

﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ وعيدِي بالعذاب، أو عذابي الموعود للكفّار، والمعنى أنّ ذلك حقّ للمتقين، كقوله: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف، ١٢٨/٧].

﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ١٥﴾

﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾ أي: استنصروا الله على أعدائهم، كقوله تعالى: ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُ﴾ [الأنفال، ١٩/٨]، أو استحكموا وسألوه القضاء بينهم، مِن "الفَتاحة"، وهي الحكومة، كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف، ٨٩/٧]، فالضمير للرسل، وقيل: للكفرة، وقيل: للفريقين، فإنّهم سألوا أن ينصُر المحقّ ويُهلك المُبطل، وهو معطوف على ﴿أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ﴾.[3]

---

١ في الآية السابقة.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن إبراهيم النخعي وأبي البرهسم وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٠.

٣ إبراهيم، ١٣/١٤.

وقُرئ بلفظ الأمرِ[١] عطفًا على ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾،[٢] أي: أَوحى إليهم ربُّهم: لَنُهلكنّ، وقال لهم: استفتِحوا.

﴿وَخَابَ﴾ أي: خَسِرَ وهلك ﴿كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ متّصف بضدّ ما اتّصف به المتّقون، أي: فنُصِروا عند استفتاحهم، وظَفِروا بما سألوا، وأفلحوا، وخاب كلّ جبّارٍ عنيد، وهم قومُهم المعانِدون. فالخيبة بمعنى مطلق الحرمان، دون [٢٦١و] الحرمان / عن المطلوب، أو ذلك باعتبار أنّهم كانوا يزعمون أنّهم على الحقّ، أو استفتح الكفّار على الرسل وخابوا ولم يفلحوا.

وإنّما قيل: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ذمًّا لهم وتسجيلًا عليهم بالتجبّر والعناد، لا أنّ بعضهم ليسوا كذلك وأنّه لم يُصبهم الخيبة، أو استفتحوا جميعًا، فنُصر الرسل، وأُنجِزَ لهم الوعدُ، وخاب كلّ عاتٍ متمرّد. فالخيبة بمعنى الحرمان غِبَّ الطلب. وفي إسناد الخيبة إلى كلّ منهم ما لا يخفى مِن المبالغة.

﴿مِن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ١٦﴾

﴿مِن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي: بين يديه، فإنّه مُرصَد لها،[٣] واقف على شفيرها في الدنيا، مبعوث إليها في الآخرة. وقيل: مِن وراء حياته، وحقيقته ما تَوارى عنك. ﴿وَيُسْقَىٰ﴾ معطوف على مقدّر جوابًا عن سؤال سائل، كأنّه قيل: فماذا يكون إذن؟ فقيل: يُلقى فيها، ويُسقى ﴿مِن مَّآءٖ﴾ مخصوص لا كالمياه المعهودة ﴿صَدِيدٖ﴾ وهو قيح، أي: دم مختلط بمِدّةٍ يسيل مِن الجرح. قال مجاهد وغيره: «هو ما يسيل مِن أجساد أهلِ النار».[٤] وهو عطف بيان لِـ﴿مَآءٖ﴾، أُبهِمَ أوّلًا ثمّ بُيِّنَ بـ"الصَّدِيد" تهويلًا لأمره. وتخصيصه بالذكر مِن بين عذابها يدلّ على أنّه مِن أشدّ أنواعه.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ١٧﴾

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وابن مُحيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٠.

[٢] إبراهيم، ١٣/١٤.

[٣] ط س: بها.

[٤] جامع البيان للطبري، ٦١٨/١٣؛ المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٣٣١/٣.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ قيل: هو صفة لـ﴿مَآءٍ﴾، أو حال منه، والأظهر أنّه استئناف مبنيّ على السؤال، كأنّه قيل: فماذا يَفعل به؟ فقيل: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾، أي: يتكلّف جَرعه مرّة بعد أخرى؛ لغلبة العطش واستيلاء الحرارة عليه، ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أي: لا يقارب أن يسيغه فضلًا عن الإساغة؛ بل يغصّ به فيشربه بعد اللّتيّا والتي،[١] جَرعةً غِبّ جَرعة، / فيطول عذابه، تارة بالحرارة والعطش، وأخرى بشربه على تلك الحال، فإنّ السوغ انحدار الشراب في الحلق بسهولةٍ وقبولِ نفسٍ، ونفيُه لا يوجب نفي ما ذكر جميعًا. وقيل: لا يكاد يُدخله في جوفه، وعُبّر عنه بالإساغة لِما أنّها المعهودة في الأشربة. وهو حال مِن فاعل ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾، أو مِن مفعوله، أو منهما جميعًا. [٢٦١ظ]

﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: أسبابه مِن الشدائد ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ ويحيط به مِن جميع الجهات، أو مِن كلّ مكان مِن جسده حتّى مِن أصول شعره وإبهام رجله. ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ أي: والحال أنّه ليس بميّت حقيقةً كما هو الظاهر مِن مجيء أسبابه لا سيّما مِن جميع الجهات حتّى لا يتألّم بما غشيه مِن أصناف المُوبِقات.

﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ مِن بين يديه ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ يستقبل كلّ وقت عذابًا أشدّ وأشقّ ممّا كان قبله، ففيه دفع ما يتوهّم مِن الخِفّة بحسب الاعتياد، كما في عذاب الدنيا. وقيل: هو الخلود في النار. وقيل: هو حبس الأنفاس. وقيل: المراد بـ"الاستفتاح والخيبة" استسقاء أهل مكّة في سِنِيهِم التي أرسلها الله تعالى عليهم بدَعوته صلّى الله عليه وسلّم وخيبتهم في ذلك، وقد وَعَدَ لهم بدلَ ذلك صديدَ أهل النار.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ أي: صفتهم وحالهم العجيبة الشأن التي هي كالمَثَل في الغرابة، وهو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ كقولك:

---

[١] اللّتيا والّتي: يكنى بهما عن الشدّة، واللّتيّا: تصغير التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. مجمع الأمثال للميداني، ١/١٦٤.

"صفة زيد عِرضه مَهتوك وماله مَنهوب". والجملة[١] استئناف مبنيّ على سؤال مَن قال: ما بَالُ أعمالهم التي عملوها في وجوه البِرّ مِن صلة الأرحام، وإعتاقِ الرقاب، وفداء الأسارى، وإغاثة الملهوفين، / وقِرَى الأضياف، وغيرِ [٢٦٢و] ذلك ممّا هو مِن باب المكارم، حتّى آل أمرُهم إلى هذا المآل؟ فأجيب بأنّ ذلك كرمادٍ ﴿ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ حملَتْه وأسرعَتْ الذهابَ به ﴿فِي يَوۡمٍ عَاصِفٍۖ﴾ العصف اشتداد الريح، وُصف به زمانها مبالغةً، كقولك: "ليلة ساكرة"،[٢] وإنّما السُّكورُ لريحها. شُبِّهَتْ[٣] صنائعُهم المعدودة -لابتنائها على غير أساسٍ مِن معرفة الله تعالى والإيمان به والتوجّه بها إليه تعالى- برماد طيّرته الريح العاصفة.

أو استئناف مسوق لبيان أعمالهم للأصنام، أو مبتدأ خبره محذوف، كما هو رأي سيبويه،[٤] أي: فيما يتلى عليك مَثَلُهم. وقوله: ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ جملة مستأنَفة مبنيّة على سؤال مَن يقول: كيف مَثَلهم؟ فقيل: أعمالهم كَيت وكَيت، سواء أريدَ بها صنائعهم أو أعمالهم لأصنامهم. وقيل: ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ بدل مِن ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ﴾، وقولُه: ﴿كَرَمَادٍ﴾ خبره.

﴿لَّا يَقۡدِرُونَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ مِن تلك الأعمال ﴿عَلَىٰ شَيۡءٖۚ﴾ ما، أي: لا يرَون له أثرًا مِن ثواب أو تخفيف عذاب كدأب الرماد المذكور، وهو فَذْلكة التمثيل. والاكتفاء ببيانِ عدم رؤية الأثر لِأعمالهم للأصنام مع أنّ لها عقوباتٍ هائلةً للتصريح ببطلان اعتقادهم وزعمهم أنّها شفعاءُ لهم عند الله تعالى، وفيه تهكّم بهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما دلّ عليه التمثيل دلالةً واضحةً مِن ضلالهم مع حسبانهم أنّهم على شيء ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ عن طريق الحقّ والصواب، أو عن نيل الثواب.

---

١ م ط: وهو؛ س: أو هو [صُحّح في هامش م].

٢ ليلةٌ ساكِرةٌ، أي: ساكنةٌ. الصحاح للجوهري، «سكر».

٣ م + أو.

٤ انظر: الكتاب لسيبويه، ١٤٣/١؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٤٧/٢.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝٢٠﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ خطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم، والمراد به أمّته. وقيل: لكلّ أحد مِن الكفرة؛ لقوله تعالى: ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾. والرؤية رؤية القلب، وقولُه تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ سادّ مسدَّ مفعولَيها،[1] أي: ألم تعلم أنّه تعالى خلقهما ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ / ملتبسةً بالحكمة والوجهِ الصحيح الذي يحقّ أن تُخلَق عليه. وقُرئ: "خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ".[2] [٢٦٢ظ]

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يُعدِمكم بالمرّة ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: يَخلُق بدلكم خلقًا آخر مستأنَفًا لا علاقة بينكم وبينهم، رتّب قدرته تعالى على ذلك على قدرته تعالى على خلق السماوات والأرض على هذا النمط البديع إرشادًا إلى طريق الاستدلال، فإنّ مَن قدر على خلق مثل هاتِيك الأجرام العظيمة كان على تبديل خلقٍ آخرَ بهم أقدر، ولذلك قال: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ أي: إذهابكم والإتيانُ بخَلقٍ جديد مكانكم ﴿عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بمتعذّر أو متعسّر، فإنّه قادر لذاته على جميع الممكنات، لا اختصاصَ له بمقدور دون مقدور، ومَن هذا شأنه حقيقٌ بأن يؤمَن به، ويُرجَى ثوابُه، ويُخشى عقابه.

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ۝٢١﴾

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: يبرزون يوم القيامة. وإيثار صيغة الماضي للدلالة على تحقّق وقوعه، كما في قوله سبحانه: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف، ٧/٤٤]، أو لأنّه لا مضيّ ولا استقبال بالنسبة إليه سبحانه. والمراد بُروزهم مِن قبورهم لأمر الله تعالى ومحاسبته، أو لله على ظنّهم، فإنّهم كانوا يظنّون

---

[1] س: مفعوليهما.

[2] قرأ بها حمزة والكسائي وخلَف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٨.

عند ارتكابهم الفواحش سرًّا أنّها تخفى على الله سبحانه، فإذا كان يومُ القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم.

﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟﴾ الأتباعُ، جمع "ضَعيف"، والمراد ضعف الرأي، وإنّما كُتب بالواو على لفظ مَن يفخّم الألف قبل الهمزة.[١] ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ لرؤسائهم الذين استتبعُوهم واسْتَغْوَوهُم: ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿لَكُمْ تَبَعًا﴾ في تكذيب الرسل والإعراض عن نصائحهم. وهو جمع "تابع"، كـ"غَيَب" في جمع "غائب"، أو مصدر نُعِتَ به مبالغةً، أو على إضمارٍ، أي: ذَوِي تَبَع.

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ﴾ دافعون ﴿عَنَّا﴾ و"الفاء" للدلالة على سببيّة الاتّباع للإغناء. والمراد التوبيخ والعتاب والتقريع والتبكيت. / ﴿مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [٢٦٣و]
﴿مِنْ﴾ الأولى للبيان واقعةً موقع الحال، والثانية للتبعيض واقعةً موقع المفعول، أي: بعض الشيء الذي هو عذاب الله تعالى، ويجوز كونهما للتبعيض، أي: بعض شيء هو بعض عذاب الله، والإعراب كما سبق. ويجوز أن يكون الأولى مفعولًا، والثانية مصدرًا، أي: فهل أنتم مُغنون عنّا بعض العذاب بعض الإغناء؟ ويعضد الأوّل قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [غافر، ٤٠/٤٧].

﴿قَالُوا۟﴾ أي: المستكبرون جوابًا عن معاتبة الأَتْباعِ، واعتذارًا عمّا فعلوا بهم: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ أي: للإيمان وَوَفَّقَنا له ﴿لَهَدَيْنَـٰكُمْ﴾ ولكن ضَلَلْنا فأضلَلْناكم، أي: اخترنا لكم ما اخترناه لأنفسنا، أو لو هدانا الله طريق النجاة مِن العذاب لهديناكم وأغنَينا عنكم كما عرّضناكم له، ولكن سَدَّ دُوننا طريق الخلاص، ولاتَ حينَ مَناص.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ﴾ ممّا لقينا ﴿أَمْ صَبَرْنَا﴾ على ذلك، أي: مستَوٍ علينا الجزَعُ والصبر في عدم الإنجاء. و"الهمزة" و"أَم" لتأكيد التسوية، كما في قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة، ٢/٦]. وإنّما أسندوهما ونسبوا استواءَهما

---

[١] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٤٨/٢. وقال أبو داود سليمان بن نَجاح: «وكتبوا هنا ﴿ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟﴾ بواو بعد الفاء وألِف بعدها تقويةً للهمزة لخفائها، مِن غير ألف قبلها استغناءً بحركة الفاء عنها». مختصر التبيين لسليمان بن نَجاح، ٧٤٩/٣.

إلى ضمير المتكلِّم المنتظِم للمخاطبين أيضًا مبالغةً في النهي عن التوبيخ بإعلام أنّهم شركاءُ لَهم فيما ابتُلُوا به وتسليةً لهم.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَا﴾... إلخ مِن كلام الفريقين، على منوال قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ﴾ [يوسف، ٥٢/١٢]، ويؤيّده ما رُوي أنّهم يقولون: تَعالَوا نَجْزَعْ، فيَجْزَعون خمسمائة عامٍ، فلا ينفعهم، فيقولون: تَعالَوا نصبِر، فيصبرون كذلك، فلا ينفعهم، فعند ذلك يقولون ذلك.[١]

/ ولمّا كان عتاب الأَتباع مِن باب الجَزَعِ ذَيَّلوا جوابهم ببيان أن لا جدوى في ذلك فقالوا: ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ مِن مَنجَى ومَهرَب مِن العذاب، مِن "حاصَ الحِمار" إذا عدل بالفِرار. وهو إمّا اسم مكان، كالمَبيت والمَصيف، أو مصدر، كالمَغيب والمَشيب. وهي جملة مفسِّرة لإجمال ما فيه الاستواء، فلا محلّ لها مِن الإعراب، أو حال مؤكِّدة، أو بدل منه. [٢٦٣ظ]

﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٢﴾

﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ الذي أضلَّ كلا الفريقين واستتبعهما عندما عَتَباهُ بما قاله الأَتباعُ للمستكبرين ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي: أُحكمَ وفُرِغَ منه، وهو الحساب، ودخل أهل الجنّة الجنّةَ، وأهلُ النارِ النارَ، خطيبًا في محفل الأشقياء مِن الثقلين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: وعدًا مِن حقّه أن يُنْجَز فأَنْجزه، أو وَعدًا أَنْجزَهُ، وهو الوعدُ بالبعث والجزاء، ﴿وَوَعَدتُّكُمۡ﴾ أي: وعدَ الباطل، وهو أن لا بعث ولا حساب، ولئن كان فالأصنام شفعاؤكم، ولم يصرّح ببطلانه لِما دلّ عليه قوله: ﴿فَأَخۡلَفۡتُكُمۡ﴾ أي: مَوعدي، على حذف المفعول الثاني، أي: نقضته، جعل خُلفَ وعده كالإخلاف منه، كأنّه كان قادرًا على إنجازه، وأنّى لَهُ ذلك.

---

[١] قاله مقاتل. انظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ٨٤٠/٤؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٣١٣/٥.

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: تسلّطٍ أو حجّةٍ تدلّ على صدقي ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ إلّا دعائي إيّاكم إليه وتسويله، وهو وإن لم يكن مِن باب السلطان، لكنّه أبرَزَه في مَبرَزه على طريقة:

تحيّةُ بينِهم ضَربٌ وجيعُ[1]

مبالغةً في نفي السلطان عن نفسه، كأنّه قال: إنّما يكون لي عليكم سلطان إذا كان / مجرّد الدعاء مِن بابه، ويجوز كون الاستثناء منقطعًا. ﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [٢٦٤و] فأسرعتم إجابتي، ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ بوعدي إيّاكم حيث لم يكن ذلك على طريقة القَسْرِ والإلجاء كما يدلّ عليه الفاء. وقُرئ بالياء[2] على وجه الالتفات، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس، ١٠/٢٢].

﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ حيث استجبتم لي باختياركم حين دعوتكم بلا حجّة ولا دليل بمجرّد تزيينٍ وتسويلٍ، ولم تستجيبوا ربّكم إذ دعاكم دعوةَ الحقّ المقرونةَ بالبيّنات والحُجج، وليس مراده التَنصُّلَ عن توجّه اللائمة إليه بالمرّة؛ بل بيانُ أنّهم أحقّ بها منه. وليس فيه دلالة على استقلال العبد في أفعاله كما زعمت المعتزلة؛ بل يكفي في ذلك أن يكون لقدرته الكاسبة التي عليها يدور فلَكُ التكليف مدخل فيه، فإنّه سبحانه إنّما يخلق أفعاله حسبما يختاره، وعليه يترتّب السعادة والشقاوة. وما قيل مِن أنّه يستدعي أن يُقال: فلا تلوموني ولا أنفسَكم، فإنّ الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه؛[3] مبنيّ على عدم الفرق بين مذهب أهل الحقّ وبين مسلك الجبريّة.

---

[1] صدره:

وخيلٍ قد دَلَفْتُ لها بخيلٍ

وهو منسوب إلى عمرو بن مَعدي كَرِب. قال البغدادي: «وهذا البيت نسبه شرّاح أبيات الكتاب وغيرهم إلى عمرو بن مَعدِي كَرِب الصحابي، ولم أرَه في شعره». خزانة الأدب للبغدادي، ٩/٢٦٥. وانظر: شعر عمرو بن معدي كرب، ص ١٤٩. الشاهد فيه أنّه جعَل الضرب بالسيوف تحيّةً بينهم. ودلَفْت لها: قصَدت إليها وقرُبَت منها ولقيتها. يريد أنّه كان يجمع الجيوش فيَلقَى بهم أمثالَهم، وعنَى أنّه كان يرأسهم؛ لأنّ الرؤساء يجهّزون الجيوش ويسيّرونهم. شرح كتاب سيبويه للسيرافي، ٢/١٨٧.

[2] قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٥٢؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٦/٤٢٨.

[3] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٢/٥٥٠.

﴿مَآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾ أي: بمُغيثِكم مِمّا أنتم فيه مِن العذاب، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾ ممّا أنا فيه. وإنّما تَعرَّضَ لذلك مع أنّه لم يكن في حيّز الاحتمال مبالغةً في بيان عدم إصراخه إيّاهم، وإيذانًا بأنّه أيضًا مبتلًى بمثل ما ابتُلُوا به،[1] ومحتاج إلى الإصراخ، فكيف مِن إصراخ الغير، ولذلك آثر الجملة الاسميّة، فكأنّ ما مضى كان جوابًا منه عن توبيخهمَ وتقريعهم، وهذا جواب عن استغاثتهم واستعانتهم به في استدفاع / ما دهِمَهُم مِن العذاب. وقُرِئ بكسر الياء.[2] [٢٦٤ظ]

﴿إِنِّي كَفَرۡتُ﴾ اليوم ﴿بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُ﴾ أي: بإشراككم إيّاي، بمعنى: تبرّأتُ منه واستنكرته، كقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡ﴾ [فاطر، ١٤/٣٥]، يعني: أنّ إشراككم لي بالله سبحانه هو الذي يُطمِعكم في نصرتي لكم بأن كان لكم عليّ حقّ حيث جعلتموني معبودًا، وكنتُ أَوَدّ ذلك وأرغب فيه، فاليوم كفرتُ بذلك ولم أحمَده، ولم أقبَله منكم؛ بل تبرّأت منه ومنكم، فلم يبقَ بيني وبينكم علاقة.

أو كفرتُ مِن قبلُ حين أبَيتُ السجود لآدم بالذي أَشۡرَكۡتُمُونِيهِ وهو الله عزّ وجلّ، كما في قوله: "سبحان ما سخّركُنّ لنا"،[3] فيكون تعليلًا لعدم إصراخه، فإنّ الكافر بالله سبحانه بمَعزِل مِن الإغاثة والإعانة، سواء كان ذلك بالمُدافعة أو الشفاعة. وأمّا جعله تعليلًا لعدم إصراخهم إيّاه فلا وجه له، إذ لا احتمال له حتّى يحتاج إلى التعليل، ولأنّ تعليل عدم إصراخهم بكُفره يوهم أنّهم بسبيل مِن ذلك لولا المانعُ مِن جهته.

﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ تتمّة كلامه، أو ابتداء كلام مِن جهة الله عزّ وعلا.[4] وفي حكاية أمثاله لطف للسامعين وإيقاظ لهم حتّى يحاسِبوا أنفسهم ويتدبّروا عواقبهم.

---

١ س – به.
٢ قرأ بها حمزة الزيّات. النشر لابن الجزري، ٢٩٨/٢.
٣ انظر: المفصّل للزمخشري، ص ١٨٦.
٤ س: عزّ وجلّ.

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بأمره، أو بتوفيقه وهدايته. وفي التعرّض لوصف الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميرهم إظهارُ مزيد اللطف بهم. والمُدخِلون هم الملائكة عليهم السلام. وقُرئ على صيغة التكلّم،[1] فيكون قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ متعلّقًا بقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ أي: يحيّيهم الملائكة بالسلام بإذن ربّهم.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الخطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم، وقد عُلِّق بما بعده مِن قوله تعالى: ﴿كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ أي: كيف اعتمده ووضعه في موضعه اللائق به ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ منصوب بمُضمَر، أي: جعل كلمةً طيّبةً / هي كلمة التوحيد، أو كلَّ كلمة حسنة، كالتسبيحة والتحميدة والاستغفار والتوبة والدعوة. ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ أي: حكَم بأنّها مثلُها، لا أنّه تعالى صيّرها مِثلَها في الخارج، وهو تفسير لقوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ كقولك: "شرّف الأمير زيدًا؛ كساه حُلّة، وحمله على فرَس". ويجوز أن يكون ﴿كَلِمَةً﴾ بدلًا مِن ﴿مَثَلًا﴾، و﴿كَشَجَرَةٍ﴾ صفتها، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: هي كشجرة، وأن يكون أوّلَ مفعولَيْ ﴿ضَرَبَ﴾ إجراءً له مُجرى "جعل" قد أخّر عن ثانيهما -أعني: ﴿مَثَلًا﴾- لئلّا يبعد عن صفته التي هي ﴿كَشَجَرَةٍ﴾. وقد قُرئت بالرفع على الابتداء.[2] [٢٦٥و]

﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ أي: ضارب بعروقه في الأرض. وقرأ أنس بن مالك رضي الله عنه: "كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ثَابِتٍ أَصْلُهَا".[3] وقراءة الجماعة أقوى سبكًا وأنسب بقرينته،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٠.

٢ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩٨/٣. والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٣٢/٦.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أنس رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦١.

أعني: قوله عزّ وجلّ:[١] ﴿وَفَرْعُهَا﴾ أي: أعلاها ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ في جهة العلوّ، ويجوز أن يُراد "وفروعها" على الاكتفاء بلفظ الجنس عن الجمع.

﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا﴾ تعطي ثمرها ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ وقّته الله تعالى لإثمارها ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ بإرادة خالقها. والمراد بالشجرة المنعوتة إمّا النخلة، كما رُوي مرفوعًا،[٢] أو شجرة في الجنّة. ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لأنّ في ضربها زيادة إفهام وتذكير، فإنّه تصوير للمعاني بصور المحسوسات.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هي كلمة الكفر والدعاءُ إليه، أو تكذيبُ الحقّ، أو ما يعمّ الكلَّ، أو كلُّ كلمة قبيحة ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ أي: كمِثل شجرة خبيثة. قيل: هي كلّ شجرة لا يطيب ثمرها كالحَنْظَل والكَشُوثِ[٣] ونحوهما. وتغيير الأسلوب للإيذان بأنّ ذلك غيرُ مقصودِ الضربِ والبيانِ، وإنّما ذلك أمر ظاهر يعرفه كلّ أحد.

﴿اجْتُثَّتْ﴾ استؤصلت وأخذت جثّته بالكلّيّة ﴿مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ﴾ لكون عروقها قريبة منها. ﴿مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ / استقرار عليها. [٢٦٥ظ]

---

[١] س: تعالى.

[٢] منه ما أخرجه البخاري في صحيحه، ٣٤/٨ (٦١٤٤)، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أخبروني بشجرة مَثَلها مَثَل المسلم، تؤتي أكلها كلَّ حين بإذن ربّها، ولا تَحُتُّ ورقَها» فوقع في نفسي أنّها النخلة، فكرِهت أن أتكلّم وثَمَّ أبو بكر وعمر، فلمّا لم يتكلّما، قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «هي النخلة» الحديث. وما أخرجه الترمذي في سننه، ٢٩٥/٥ (٣١١٩)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: أُتي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بقِناع عليه رُطب، فقال: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم، ٢٤/١٤]، قال: «هي النخلة»، ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [إبراهيم، ٢٦/١٤]، قال: «هي الحنظل». وروى الترمذيّ مثله موقوفًا على أنس رضي الله عنه وقال: «هذا أصحّ» يعني الموقوف.

[٣] الكَشُوث: نبت يتعلّق بأغصان الشجر مِن غير أن يضرب بعِرْقٍ في الأرض. **الصحاح** للجوهري، «كشث».

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ الذي ثَبَتَ بالحجّة عندهم، وتمكّن في قلوبهم، وهو الكلمة الطيّبة التي ذُكرت صفتها العجيبة. ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فلا يُزَالون عنه إذا افتتنوا في دينهم، كزكريّا ويحيى وجرجيس[1] وشمسون[2] والذين فتنهم أصحاب الأخدود، ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ فلا يتلعثَمون إذا سُئِلوا مِن معتقَدهم في الموقف، ولا يُدْهِشُهم أهوالُ القيامة، أو عند سؤال القبر.

رُوي أنّه عليه السلام ذَكر قبض روح المؤمِن فقال: «ثمّ يعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيُجلِسانِه في قبره، فيقولانِ: "مَن رَبّك؟ وما دينك؟ ومَن نبيّك؟" فيقول: "ربّي الله، وديني الإسلامُ، ونبيّي محمّدٌ صلّى الله عليه وسلّم"، فينادي منادٍ مِن السماء أنّه صدَق عبدي»، فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾.[3] وهذا مثالُ إيتاء الشجرة المذكورة أُكلَها كلَّ حينٍ.

---

[1] قال الطيبي: «وجدت في كتاب المبتدأ المنسوب إلى أبي عبد الله محمّد بن عبد الله الكسائي أنّه قال: إنّ جَرجيس كان مِن الحواريّين أصحاب عيسى عليه السلام، وعلّمه الله الاسمَ الذي يحيا به الموتى، وكان بأرض الموصل جبّار يعبد الصنم، فدعاه جرجيس إلى عبادة الله، ونهاه عن عبادة الصنم، فأمَر به، فشَدَّ يديه ورجليه، ودعا بأمشاط مِن الحديد فسرح بها صدره وبدنه، ثمّ صبّ عليه ماء الملح، فصبّره الله عليه، ثمّ دعا بمسامير مِن حديد فسمَر عينيه وأذنيه، فصبّره الله عليه، ثمّ دعا بحوض مِن نحاس فأوقد عليه حتى ابيضّ، ثمّ ألقي عليه وأطبق رأسه، فجعله الله له بردًا وسلامًا، وزاده حسنًا وجمالًا، ثمّ قطّع إربًا إربًا، فأحياه الله، ودعاهم إلى الله، فلم يؤمن الملك، فأمر الله أن يغيّر بهم، وقلب بالمدينة عاليَها وسافلَها». فتوح الغيب للطيبي، ٥٩٤/٨.

[2] قال الثعلبي: «كانت قصّته على ما ذكر وهب بن منبّه: أنّه كان رجلًا مسلمًا، وكانت أمّه قد جعلته نذيرًا، وكان مِن أهل قرية مِن قرى الروم كانوا يعبدون الأصنام، وكان منزله منها على أميال غير كثيرة، فكان يغزوهم وحدَه، ويجاهدهم في الله فيصيب منهم»... وفيه: «فأخذوه فجدعوا أنفَه وانفذوا أذنيه وفقَئوا عينيه...، فدعا شمسون ربّه حين مثّلوا ووقفوه أن يسلّطه عليهم، فأمر أن يأخذ بعمودين مِن عُمد المدينة التي عليها الملِك والناس الذين معه، فاجتذبهما جميعا فجذبهما، فردّ الله تعالى إليه بصره وما أصابوا مِن جسده، ووقعت المئذنة بالملِك ومَن عليها مِن الناس، فهلكوا فيها هدمًا». انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢٥٧/١٠ (سورة القدر).

[3] الكشّاف للزمخشري، ٥٥٤/٢. وأخرجه بنحوه أبو داود في سننه، ١٣١/٧ (٤٧٣٥). وأخرجه البخاري في صحيحه، ٨٠/٦ (٥٦٩٩) مختصرًا.

قال الثعلبي في تفسيره:[١] «أخبرني أبو القاسم بن حبيب[٢] في سنة ستٍّ وثمانين وثلاثمائة، قال: سمعت أبا الطيّب محمد بنَ عليّ الخيّاطَ[٣] يقول: سمعتُ سَهلَ بنَ عمّار العملي[٤] يقول: رأيت يَزيدَ بنَ هارون[٥] في منامي بعد موته فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: أتاني في قبري ملكان فَظَّانِ، فقالا: مَن ربّك؟ وما دينك؟ ومَن نبيّك؟ فأخذتُ بلحيتي البيضاء، فقلت لهما: أَلِمِثْلِي يقالُ هذا، وقد علَّمتُ الناسَ جوابَكما ثمانين سنةً؟ فذهبا».

/ ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: يخلق فيهما الضلال عن الحقّ الذي ثبّت المؤمنين عليه حَسْبَ إرادتِهم واختيارهم، والمراد بهم الكفرة، بدليل ما يقابله. ووَصْفُهم بالظلم إمّا باعتبار وضعهم للشيء في غير موضعه، وإمّا باعتبار ظلمهم لأنفسهم حيث بدّلوا فطرة الله التي فطَر الناس عليها، فلم يهتدوا إلى القول الثابت، أو كلُّ مَن ظلم نفسه بالاقتصار على التقليد والإعراض عن البيّنات الواضحة، [٢٦٦و]

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٨/٥.

٢ هو الحسن بن محمّد بن حبيب بن أيّوب النيسابوري، أبو القاسم (ت. ٤٠٦هـ/١٠١٦م)، الواعظ، المفسِّر. كان أديبًا نحويًّا، عارفًا بالمغازي والقصص والسير، انتشر عنه بنيسابور العلم الكثير، وسارت تصانيفه الحِسان في الآفاق، وكان أبو القاسم الثعلبي مِن خواصّ تلاميذه. صنّف في القراءات، والتفسير، والآداب. انظر: طبقات المفسّرين للسيوطي، ص ٤٥؛ والأعلام للزركلي، ٢١٣/٢.

٣ هو محمّد بن عليّ بن الحسن، الخيّاط، النيسابوري، أبو الطيّب، سمِع أبا يحيى سهلَ بن عمّار العَتكي، وعنه أبو عبد الله الحاكم، ووَصَفه بالزاهد، وذكر أنّه حدّثه مِن أصل كتابه، وأبو الحسن محمّد بن الحسين بن داود العلوي، ووصفه بالصوفي. ترجمه الحاكم في تاريخ نيسابور، ص ١٠٦، وذكَر أنّه كان مجابَ الدعوة. الروض الباسم للمنصوري، ١١٤٢/٢.

٤ كذا في الأصول الخطّيّة، والصواب: "العَتكي". وهو سهل بن عمّار العَتكي، النيسابوري، أبو يحيى (ت. ٢٦٧هـ/٨٨٠م)، القاضي، العلّامة، الحنفي، شيخ أهل الرأي بخراسان، وقاضي هراة. ارتحل في الحديث. وسمع مِن يزيد بن هارون، وشَبابة بن سوار، وجعفر بن عون، وعبد الرحمن بن قيس، والواقدي، وعدّة. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣٢/١٣.

٥ هو يزيد بن هارون بن زاذي السلمي مولاهم، الواسطي، أبو خالد (ت. ٢٠٦هـ/٨٢١م)، الإمام، القدوة، الحافظ، شيخ الإسلام. سمع مِن عاصم الأحول، ويحيى بن سعيد الأنصاري القاضي، وسليمان التيمي، وخلق كثير. وحدّث عنه بقيّة بن الوليد -مع تقدّمه- وعليّ بن المديني، وأحمد بن حنبل، وأبو بكر بن أبي شيبة. وكان رأسًا في العلم والعمل، ثقة، حجّة، كبير الشأن. قال عليّ بن المديني: «ما رأيت أحفظَ مِن يزيد بن هارون». انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣٥٩/٩؛ والأعلام للزركلي، ١٩٠/٨.

فلا يَتَثَبَّتُ في مواقف الفِتَن، ولا يهتدي إلى الحقّ، فالمراد بـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ حينئذ المخلصون في الإيمان، الراسخون في الإيقان، كما يُنبئ عنه التثبيت، لكنّه يوهم كون كلمة التوحيد إذا كانت لا عن إيقان داخلةً تحت ما لا قرارَ له مِن الشجرة المضروبة مثلًا.

﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ مِن تثبيت بعضٍ وإضلالِ آخَرين حسبما يوجبه مشيئته التابعة للحِكَمِ البالغة المقتضية لذلك.

وفي إظهار الاسم الجليل في الموضعين مِن الفخامة وتربية المَهابة ما لا يخفى، مع ما فيه مِن الإيذان بالتفاوت في مبدأَي التثبيت والإضلال، فإنّ مبدأ صدور كلّ منهما عنه سبحانه وتعالى مِن صفاته العُلَا غيرُ ما هو مبدأ صدور الآخَر.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعجيب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم -أو لكلّ أحد- ممّا صنع الكفرة مِن الأباطيل التي لا تكاد تصدر عمّن له أدنى إدراك، أي: ألم تنظر ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ أي: شكر نعمته تعالى، بأن وضَعُوا مَوضعَه ﴿كُفْرًا﴾ عظيمًا وغَمْطًا لَها، أو بدّلوا نفسَ النعمة كفرًا، فإنّهم لَمّا كَفروها سُلِبُوها، فصاروا مستبدِلين بِها كفرًا، كأهل مكّة حيث خلقهم الله سبحانه وأسكنهم حرمَه الآمِن الذي يُجبى إليه ثمرات كلّ شيء، وجعلهم قُوّام بيته، وشرّفهم بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم، فكفروا ذلك، فقُحِطوا سبعَ سنين، وقُتِلوا وأُسِروا / يوم بدر، فصاروا أذِلّاء مسلوبي النعمة، باقين بالكفر بدلَها. [٢٦٦ظ]

وعن عُمَرَ وعليّ رضي الله تعالى[١] عنهما: «هم الأفجران مِن قريش: بنو[٢] المُغِيرة وبنو[٣] أُميّة، أمّا بنو[٤] المغيرة فكُفِيتُموهم يومَ بدر، وأمّا بنو[٥] أميّة فَمُتِّعوا إلى حين».[٦] كأنّهما يتأوّلان ما سيُتلى مِن قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ﴾ الآية.[٧]

---

١ ط س - تعالى.
٢ م: بنوا.
٣ م: بنوا.
٤ م: بنوا.
٥ م: بنوا.
٦ **جامع البيان للطبري**، ١٣/٦٦٩-٦٧٣؛ **أنوار التنزيل للبيضاوي**، ٣/١٩٩.
٧ إبراهيم، ١٤/٣٠.

﴿وَأَحَلُّواْ﴾ أي: أنزلوا ﴿قَوْمَهُمْ﴾ بإرشادهم إيّاهم إلى طريقة الشرك والضلال. وعدم التعرّض لِحُلولهم لدلالة الإحلال عليه، إذ هو فرع الحلول، كقوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود، ٩٨/١١]. ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ دار الهلاك الذي لا هَلاكَ وراءَه.

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾

﴿جَهَنَّمَ﴾ عطف بيان لها. وفي الإبهام ثمّ البيانِ ما لا يخفى مِن التهويل. ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ حال منها، أو مِن ﴿قَوْمَهُمْ﴾، أي: داخلين فيها، مُقَاسِينَ لحَرّها. أو استئناف لبيان كيفيّة الحلول، أو مفسِّر لفعل يقدَّر ناصبًا لـ﴿جَهَنَّمَ﴾. فالمراد بالإحلال المذكور حينئذ تعريضهم للهلاك بالقَتل والأسر، لكنّ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[1] أنسبُ بالتفسير الأوّل.

﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ على حذف المخصوص بالذمّ، أي: بئس المَقرّ جهنّمُ، أو بئس القرار قَرارُهم فيها. وفيه بيان أنّ حلولهم وصِلِيّهم على وجه الدوام والاستمرار.

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾

﴿وَجَعَلُواْ﴾ عطفٌ على ﴿أَحَلُّواْ﴾[2] وما عُطف عليه، داخل معهما في حيّز الصِّلة وحكمِ التعجيب، أي: جعلوا في اعتقادهم وحكمِهم ﴿لِلَّهِ﴾ الفردِ الصمَد الذي ليس كمثله شيء وهو الواحد القهّار ﴿أَندَادًا﴾ أشباهًا في التسمية، أو في العبادة؛ ﴿لِّيُضِلُّواْ﴾ قومَهم الذين يُشايِعُونهم حسبما ضلّوا ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ القَويم الذي هو التوحيد، ويُوقِعُوهم في وَرطة الكفر والضلال.

ولعلّ تغييرَ الترتيب -مع أنّ مقتضى ظاهر النظم أن يذكر كُفرانهم نعمةَ الله تعالى، / ثمّ كفرَهم بذاته تعالى باتّخاذ الأنداد، ثمّ إضلالَهم لقومهم المؤدّي إلى إحلالهم دار البوار- لِتثنِيَةِ التعجيب وتكريرِه، والإيذانِ بأنّ كلّ واحد مِن وضع الكفر موضع الشكر، وإحلالِ القومِ دارَ البوار، واتّخاذِ الأنداد للإضلال، [٢٦٧و]

[1] في الآية التالية.

[2] إبراهيم، ٢٨/١٤.

أمرٌ يُقضى منه العجَب. ولو سيق النظم على نسق الوجود لَربّما فُهِم التعجيبُ مِن مجموع الهَنَاتِ الثلاث، كما في قصّة البقرة. وقُرِئ: "لِيَضِلُّوا" بالفتح.[1] وأيًّا ما كان فليس ذلك غرضًا حقيقيًّا لهم مِن اتّخاذ الأنداد، لكن لمّا كان ذلك نتيجةً له شُبّه بالغرَض، وأُدخل عليه اللام بطريق الاستعارة التبعيّة.

﴿قُلْ﴾ تهديدًا لأولئك الضالّين المضلّين، ونعيًا عليهم، وإيذانًا بأنّهم لِشدّة إبائهم قبولَ الحقّ، وفرطِ انهماكهم في الباطل، وعدمِ ارعوائهم عن ذلك بحالٍ؛ أحِقّاءُ بأن يُضرَب عنهم صفحًا، ويُعطف عنهم عنانُ العِظة، ويُخَلَّوا وشأنَهم، ولا يُنهَوا عنه؛ بل يُؤمرُوا بمباشرته مبالغةً في التخلية والخذلان، ومسارعةً إلى بيان عاقبته الوخيمة، ويقالَ لهم: ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ بما أنتم عليه مِن الشهوات التي مِن جملتها كفران النِّعم العظام، واستتباعُ الناس في عبادة الأصنام.

﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ ليسَ إلّا، فلا بدّ لكم مِن تعاطي ما يوجب ذلك ويقتضيه مِن أحوالكم؛ بل هي في الحقيقة صورة لدخولها، ومثال له حسبما يلوِّح به قوله سبحانه: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾... إلخ،[2] فهو تعليل للأمر[3] المأمور. وفيه مِن التهديد الشديد والوعيد الأكيد ما لا يوصف.

أو قل لهم تصويرًا لِحالهم وتعبيرًا عمّا يُلجئهم إلى ذلك: تمتّعوا؛ إيذانًا بأنّهم لفَرْط انغماسهم في التمتّع بما هم فيه مِن غير صارف يَلويهم ولا عاطفٍ يثنيهم مأمورون بذلك مِن قِبَلِ آمرِ الشهوة، مُذعِنُون لحُكمِه، منقادون لِأَمرِه، / كدأب مأمورٍ ساعٍ في طاعة آمرٍ مطاعٍ، فليس قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ حينئذ تعليلًا للأمر؛ بل هو جواب شرط ينسحب عليه الكلام، كأنّه قيل: هذه حالكم، فإن دمتم عليه فإنّ مصيركم إلى النار. وفيه التهديد والوعيد، لا في الأمر. [٢٦٧ظ]

﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾

﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ خصّهم بالإضافة إليه تنويهًا لهم، وتنبيهًا على أنّهم

---

[1] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ورُويس. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٩.

[2] إبراهيم، ١٤/٢٨.

[3] وفي هامش م: أي: ﴿تَمَتَّعُواْ﴾. «منه».

المقيمون لوظائف العبوديّة، الموفون بحقوقها. وترك العطف بين الأمرين للإيذان بتباين حالهما باعتبار المَقول تهديدًا وتشريفًا.[1] والمقول ههنا محذوف دلّ عليه الجواب، أي: قل لهم: أقيموا وأنفقوا. ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ أي: يُداوِمُوا على ذلك. وفيه إيذان بكمال مطاوعتهم الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وغايةِ مسارعتهم إلى الامتثال بأوامره.

وقد جوّزوا أن يكون المقول ﴿يُقِيمُواْ﴾ ﴿وَيُنفِقُواْ﴾ بحذف لام الأمر عنهما، وإنّما حسُن ذلك دون الحذف في قوله:

مـحـمّـدُ تَـفـدِ نـفـسَـك كـلُّ نفـسٍ إذا مـا خِـفْـتَ مِـن أمـر تَـبـالا[2]

لدلالة ﴿قُل﴾ عليه.

وقيل: هما جوابا "أقيموا" و"أنفقوا" قد أُقيما مُقامهما،[3] وليس بذاك.

﴿سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ منتصبان على المصدريّة مِن الأمر المقدّر، لا مِن جواب الأمر المذكور، أي: أنفقوا إنفاق سرّ وعلانية، والأحبّ في الإنفاق إخفاء المتطوَّع به وإعلانُ الواجب. والمراد حثّ المؤمنين على الشكر لنعم الله سبحانه بالعبادة البدنيّة[4] والماليّة، وتركِ التمتّع بمتاع الدنيا والركونِ إليها كما هو صنيع الكفرة.

﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ / يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ﴾ فيبتاعَ المقصِّر ما يَتَلافَى به تقصيرَه أو يفتدي به نفسه. والمقصود نفي عقد المعاوضة بالمرّة، وتخصيصُ البيع بالذكر للإيجاز مع المبالغة في نفي العقد، إذ انتفاء البيع يستلزم انتفاءَ الشراء على أبلغ وجه، وانتفاؤه ربّما يتصوّر مع تحقّق الإيجاب مِن قِبل البائع. [٢٦٨و]

---

[1] وفي هامش م س: فإنّ مقول الأوّل الأمر التهديدي ومقول الثاني الأمر التشريفي.

[2] بغير نسبة في الكتاب لسيبويه، ٨/٣. ونسب إلى أبي طالب في شرح شذور الذهب لابن هشام، ص ٢٧٥. قال السيوطي: «و"تَفْدِ" على إظهار الجازم وهو اللام ضرورة، وفيه الشاهد. وقيل: هو مرفوع حذفت ياؤه ضرورة واكتفي بالكسرة. قال الأعلم: وهذا أشهر في الضرورة وأقرب. و"التَّبال": بفتح المثنّاة وتخفيف الموحّدة: الفساد». شرح شواهد المغني للسيوطي، ٥٩٧/٢.

[3] ذكره البيضاوي في أنوار التنزيل، ١٩٩/٣، وضعّفَه. وقال الشهاب الخفاجي: «قولٌ لبَعض النحاة، وعُزِي للمبرّد رحمه الله». حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٢٦٧/٥.

[4] س – البدنيّة.

﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾ ولا مُخالّة، فيشفع له خليل أو يسامحه بمالٍ يفتدي به نفسه. أو مِن قَبل أن يأتي يوم لا أثرَ فيه لِما لَهِجوا بتعاطيه مِن البيع والمخالّة، ولا انتفاعَ بذلك، وإنّما الانتفاع والارتفاق فيه بالإنفاق لوجه الله سبحانه. والظاهر أنّ ﴿مِن﴾ متعلّقة بـ"أنفِقوا".

وتذكير إتيان ذلك اليوم لتأكيد مضمونه -كما في سورة البقرة-[١] مِن حيث إنّ كلًّا مِن فقدان الشفاعة، وما يُتدارك به التقصير معاوضةً وتبرّعًا، وانقطاعِ آثار البيع والخلال الواقعَين في الدنيا، وعدمِ الانتفاع بهما؛ مِن أقوى الدواعي إلى الإتيان بما يبقى عوائده ويدوم فوائده مِن الإنفاق في سبيل الله عزّ وجلّ.

أو مِن حيث إنّ ادّخار المال وتركَ إنفاقه إنّما يقع غالبًا للتجارات والمُهاداة، فحيث لا يمكن ذلك في الآخرة فلا وجه لادّخاره إلى وقت الموت. وتخصيص التأكيد بذلك لمَيل الطباع إلى المال وكونها مجبولة على حبّه والضِّنّةِ به. ولا يبعُد أن يكون تأكيدًا لِمضمون الأمر بإقامة الصلاة أيضًا مِن حيث إنّ تركها كثيرًا ما يكون بالاشتغال بالبياعات والمُخالّات، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾ [الجمعة، ٦٢/١١].

[٢٦٨ظ] وقُرئ بالفتح فيهما[٢] على إرادة النفي العامّ، ودلالةُ الرفع على ذلك / باعتبارٍ خطابيٍّ هو وقوعه في جواب: هل فيه بيع أو خِلال؟

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وما فيها مِن الأجرام العلويّة ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ وما فيها مِن أنواع المخلوقات.

---

[١] في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة، ٢/٢٥٤].

[٢] أي: "لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ". قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢١١.

لمّا ذكَر أحوالَ الكافرين لنِعم الله تعالى وأمرَ المؤمنين بإقامة مراسم الطاعة شكرًا لنِعَمِه شرَع في تفصيل ما يستوجب على كافّة الأنام المثابرةَ على الشكر والطاعة مِن النِّعم العِظام والمِنَن الجِسام، حثًّا للمؤمنين عليها، وتقريعًا للكفرة المخِلّين بها، الواضعين موضعَها الكفرَ والمعاصي. وفي جعل المبتدأ الاسمَ الجليل والخبرِ الاسمَ الموصولَ بتلك الأفاعيل العظيمة مِن خلق هذه الأجرام العِظام وإنزالِ الأمطار وإخراجِ الثمرات وما يتلوها مِن الآثار العجيبة ما لا يخفى مِن تربية المهابة والدلالة على قوّة السلطان.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: السحابِ، فإنّ كلّ ما علاك سماء، أو مِن الفَلك، فإنّ المطر منه يبتدئ إلى السحاب، ومنه إلى الأرضِ على ما دلّت عليه ظواهر النصوص،[1] أو مِن أسباب سماويّة تثير الأجزاء الرطبة مِن أعماق الأرض إلى الجوّ فينعقد سحابًا ماطرًا. وأيًّا ما كان فـ﴿مِنْ﴾ ابتدائيّة.

﴿مَآءً﴾ أي: نوعًا منه، هو المطر. وتقديم المجرور على المنصوب إمّا باعتبار كونه مبدأً لنزوله، أو لتشريفه كما في قولك: "أعطاه السلطان مِن خِزانته مالًا"، أو لِما مرّ مِرارًا مِن التشويق إلى المؤخّر.

﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾ بذلك الماء ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ الفائتة للحصر، / إمّا لأنّ صيغ الجموع يتعاور بعضها موضعَ بعض، وإمّا لأنّه أريدَ بمفردها جماعة الثمرة التي في قولك: "أدركتُ ثمرة بستانِ فلان". ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ تعيشون به، وهو بمعنى المرزوق، شامل للمطعوم والملبوس، مفعول لـ﴿أَخْرَجَ﴾، و﴿مِنْ﴾ للتبيين، كقولك: "أنفقتُ مِن الدراهم ألفًا". [٢٦٩و]

ويجوز أن يكون ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ مفعولًا و﴿رِزْقًا﴾ حالًا منه، أو مصدرًا مِن ﴿أَخْرَجَ﴾؛ لأنّه بمعنى "رَزَق"، أو للتبعيض بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ﴾

---

[1] كقوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة، ١٩/٢]، ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [المؤمنون، ١٨/٢٣]، ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر، ٢١/٣٩]. وأخرج أبو الشيخ ابن حبّان في العظمة عن الحسَن، أنه سئل: المطر مِن السماء، أم مِن السحاب؟ قال: «مِن السماء، إنّما السحاب علَم ينزل عليه الماء مِن السماء». نواهد الأبكار للسيوطي، ٨٣/٢.

[فاطر، ٢٧/٣٥]، كأنّه قيل: أنزل مِن السماء بعضَ الماء، فأخرج به بعضَ الثمرات، ليكون بعضُ رزقكم، إذ لم يُنزل مِن السماء كلّ الماء، ولا أخرج بالمطر كلّ الثمار، ولا جعل كلّ الرزق ثمرًا.

وخروج الثمرات وإن كان بمشيئته عزّ وجلّ وقدرته، لكن جرت عادته تعالى بإفاضة صُوَرِها وكيفيّاتها على الموادّ الممتزَجة مِن الماء والتراب، أو أودع في الماء قوّة فاعلة وفي الأرض قوّة قابلة يتولّد مِن اجتماعهما أنواع الثمار، وهو قادر على إيجاد الأشياء بلا أسباب وموادَّ كما أبدع نفوس الأسباب كذلك؛ لِما أنَّ له تعالى في إنشائها مدرّجًا مِن طورٍ إلى طورٍ صنائعَ وحِكَمًا، يُجدِّد فيها لأولي الأبصار عِبَرًا وسكونًا إلى عظيم قدرته، ليس ذلك في إبداعها دفعةً.

وقوله: ﴿لَكُمْ﴾ صفة لقوله: ﴿رِزْقًا﴾ إن أُريدَ به المَرزوق، ومفعول به إن أُريدَ به المصدر، كأنّه قيل: رزقًا إيّاكم.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ بأن أقدَركم على صَنعتها واستعمالها بما ألهمكم كيفيّة ذلك ﴿لِتَجْرِيَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ جريًا تابعًا لإرادتكم ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ بمشيئته التي بها نِيطَ كلُّ شيء. وتخصيصه بالذكر للتنصيص على أنّ ذلك ليس بمزاولة الأعمال [٢٦٩ظ] / واستعمالِ الآلات كما يتراءى مِن ظاهر الحال.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ إن أُريدَ بها المياه العظيمة الجارية في الأنهار العظام -كما يومئ إليه ذِكرها عند البحر- فتسخيرُها جعلُها مُعَدَّة لانتفاع الناس حيث يتّخذون منها جداولَ يسقون بها زروعهم وجِنانهم وما أشبه ذلك. وإن أُريدَ بها نفس الأنهار فتسخيرُها تيسيرُها لهم.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ٣٣﴾

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ يَدأَبانِ في سيرهما وإنارَتِهما أصالةً وخلافةً، وإصلاحِهما لِما نِيط بهما صلاحُه مِن المكوِّنات. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ يتعاقَبان خِلْفة لمَنامكم ومَعاشكم، ولعَقد الثمار وإنضاجِها.

ذكر سبحانه وتعالى أنواع النعم الفائضةِ عليهم، وأبرز كلّ واحدة منها في جملة مستقلّة تنويهًا لِشأنها وتنبيهًا على رفعة مكانها وتنصيصًا على كون كلّ منها نعمةً جليلةً مستوجِبةً للشكر.

وفي التعبير عن التصريف المتعلّق بما ذكر مِن الفلك والأنهار والشمس والقمر والليل والنهار بالتسخير مِن الإشعار بما فيها مِن صعوبة المأخذ وعِزّة المنال والدلالة على عظم السلطان وشدّة المِحَال ما لا يخفى.

وتأخير تسخير الشمس والقمر عن تسخير ما تقدّمه مِن الأمور المعدودة مع ما بينه[1] وبين خلق السماوات مِن المناسبة الظاهرة لاستتباع ذكرِها لذِكر الأرض المستدعي لذِكر إنزال الماء منها إليها الموجِبِ لذِكر إخراج الرزق الذي مِن جملته ما يحصل بواسطة الفَلَك والأنهار، أو للتفادي عن توهّم كون الكلّ -أعني: خلق السماوات والأرض وتسخير الشمس والقمر- نعمةً واحدةً، كما مرّ في قصّة البقرة.

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ٣٤﴾

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي: أعطاكم بعضَ جميعِ ما سألتموه حسبما يقتضيه مشيئته التابعة للحكمة والمصلحة، كقوله سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ / ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء، ١٧/١٨]. أو آتاكم مِن كلّ ذلك [٢٧٠و]
ما احتجتم إليه ونِيط به انتظامُ أحوالكم على الوجه المقدّر، فكأنكم سألتموه، أو كلَّ ما طلبتموه بلسان الاستعداد، أو كلَّ ما سألتموه، على أنّ ﴿مِن﴾ للبيان، وكلمة ﴿كُلِّ﴾ للتكثير، كقولك: "فلان يعلم كلّ شيء"، و"أتاه كلُّ الناس"، وعليه قوله عزّ وجلّ: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام، ٦/٤٤].

وقيل: الأصل: وآتاكم مِن كلّ ما سألتموه وما لم تسألوه، فحُذف الثاني لدلالة ما أُبقيَ على ما أُلقِي.

---

[1] وفي هامش م: مع ما بينهما وبين السماوات. «منه».

وقُرئ بتنوين ﴿كُلٍ﴾[١] على أنّ ﴿مَا﴾ نافية، ومحلّ ﴿مَاسَأَلْتُمُوهُ﴾ النصب على الحاليّة، أي: آتاكم مِن كلٍّ غيرَ سائِليه.

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ التي أنعم بها عليكم ﴿لَا تُحْصُوهَا﴾ لا تطيقوا بِحصرِها ولو إجمالًا، فإنّها غير متناهية. وأصل الإحصاء أنّ الحاسب إذا بلغ عقدًا معيّنًا مِن عقود الأعداد وضع حَصاةً ليحفظ بها. ففيه إيذان بعدم بلوغ مرتبة معتدٍّ بها مِن مراتبها فضلًا عن بلوغ غايتها. كيف لا وما مِن فردٍ مِن أفراد الناس وإن كان في أقصى مراتب الفقر والإفلاس ممنوًّا بأصناف العَنايا مبتلى بأنواع الرزايا فهو بحيث لو تأمّلته ألفيتَه متقلّبًا في نِعمٍ لا تُحدّ ومِنَنٍ لا تُحصى ولا تُعدّ، كأنّه قد أعطي كلَّ ساعةٍ وآنٍ مِن النعماء ما حواه حيطة الإمكان؟

وإن كنت في ريب مِن ذلك فَقَدِّر أنّه مَلِكٌ مَلك أقطارَ العالَم، ودانت له كافّة الأمم، وأذعنت لطاعته السَّراة،[٢] وخضعت لهيبته رقابُ العُتاة، وفاز بكلّ مَرام، ونال كلّ مَنال، وحاز جميع ما في الدنيا مِن أصناف الأموال مِن غير ندٍّ يزاحمه، ولا شريك يساهمه؛ بل قَدِّر أنّ جميع ما فيها مِن حجَر ومدَرٍ يواقيتُ غالية ونفائسُ دُرَرٍ، ثمّ قَدِّر أنّه قد وقع مِن فقْدِ مشروب أو مطعوم في حالة بلغت نفسُه الحلقوم، فهل يشتري وهو في تلك الحال بجميع ما لَه مِن المُلك والمال لُقمةً تنجّيه عن رِواه،[٣] / أو شربةً تُرويه مِن ظَماه، أم يختار الهلاك فيذهب الأموالُ والأملاكُ بغير بدل يبقى عليه، ولا نفعٍ يعود إليه؟ كلّا؛ بل يبذل لذلك كلَّ ما تحويه اليدان كائنًا ما كان، وليس في صفقته شائبةُ الخسران، فإذن تلك اللقمة والشربة خيرٌ ممّا في الدنيا بألفِ رُتْبة مع أنّهما في طرَف الثُّمام،[٤] ينالهما متى شاء مِن الليالي والأيّام. [٢٧٠ظ]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والضحّاك وزيد عن يعقوب. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٦١.

٢ السَّراة: الأشراف، وسَراة كلِّ شيء ما ارتفع منه وعَلا. انظر: **لسان العرب** لابن منظور، «سرو».

٣ ماء رَواء بالفتح ممدود، أي: عَذْب. وإذا كسرتَ الراء قصَرته وكتبته بالياء وقلت: ماءٌ رِوى. ويقال: هو الذي فيه للواردة رِيّ. **الصحاح** للجوهري، «روى».

٤ «هو على طرَف الثُّمام» مَثَل يضرب في تسهيل الحاجة وقرب النجاح. والثُّمام: نبت ضعيف سهل التناول يُسدّ به خُصاص البيوت، وقالوا: إنه ينبت على قدر قامة المَرء. **مجمع الأمثال** للميداني، ٣٩٨/٢.

أو قَدِّر أنّه قد احتبس عليه النفَس، فلا دخَل منه ما خرَج، ولا خرَج منه ما ولَجَ، والحَيْنُ[١] قد حان، وأتاه الموت مِن كلّ مكان، أمَا يُعطي ذلك كلَّه[٢] بمقابلة نفَس واحد؟ بل يعطيه وهو لرأيه حامد، فإذن هو خير مِن أموال الدنيا بجملتها، ومطالبها برمّتها، مع أنّه قد أُتِيح له كلّ آنٍ مِن آنات الليالي والأيّام، حال اليقظة والمنام.

هذا مِن الظهور والجلاء بحيث لا يكاد يخفى على أحد مِن العقلاء. وإن رُمتَ العثور على حقيقة الحقّ، والوقوفَ على كلّ ما جلّ مِن السرّ ودقّ، فاعلم أنّ الإنسان بمقتضى حقيقته المُمكنة بمَعزِل عن استحقاق الوجود وما يتبعه مِن الكمالات اللائقة والملكاتِ الرائقة بحيث لو انقطع ما بينه وبين العناية الإلهيّة مِن العلاقة لَمَا استقرّ له القرار، ولا اطمأنّت به الدار، إلّا في مطمورة العدَم والبوار، ومهاوي الهلاك والدمار، لكن يفيض عليه مِن الجَناب الأقدس تعالى شأنه وتقدّس في كلّ زمانٍ يمضي وكلِّ آنٍ يمرّ وينقضي مِن أنواع الفيوض المتعلّقة بذاته ووجوده وسائر صفاته الروحانيّة والنفسانيّة والجسمانيّة ما لا يحيط به نطاق التعبير ولا يعلمه إلّا العليم الخبير.

وتوضيحه أنّه كما لا يستحقّ الوجودَ ابتداءً لا يستحقّه بقاءً، وإنّما ذلك مِن جانب المبدأ الأوّل عزّ وجلّ، فكما لا يتصوّر وجودُه ابتداءً ما لم ينسدّ عليه جميع أنحاء عدمِه الأصلي لا يتصوّر بقاؤه على الوجود بعد تحقّقه بعِلّته ما لم ينسدّ عليه جميع أنحاء عدمه الطارئ؛ لأنّ الاستمرار والدوام مِن خصائص الوجود الواجبي.

وأنت خبير بأنّ ما يتوقّف عليه وجوده مِن الأمور الوجوديّة التي هي علله وشرائطه وإن وجب كونها متناهيةً لوجوب تناهي ما دخل تحت الوجود، لكنّ الأمور العدميّة التي لها دخل في وجوده ليست كذلك، إذ لا استحالةَ في أن يكون لشيء واحد موانعُ غير متناهية، وإنّما الاستحالة في دخولها تحت الوجود،

---

١ الحَين، بالفتح: الهلاك. لسان العرب لابن منظور، «حين».

٢ س - كلّه.

فارتفاع تلك الموانع التي لا تتناهى -أعني: بقاءَها على العدم مع إمكان وجودها في أنفسها في كلّ آنٍ مِن آنات وجوده- نِعَمٌ غير متناهية حقيقةً لا ادّعاءً، وكذا الحال في وجودات عِلله وشرائطه القريبة والبعيدة ابتداءً وبقاءً، وكذا في كمالاته التابعة لوجوده.

فاتّضح أنّه يَفيض عليه كلَّ آنٍ نِعمٌ لا تتناهى مِن وجوهٍ شتّى، فسبحانك سبحانك ما أعظم سلطانَك، لا يلاحظك العيون بأنظارها، ولا يطالعك العقول بأفكارها، شأنك لا يُضاهى، وإحسانك لا يتناهى، ونحن في معرفتك حائرون، وفي إقامة مراسم شكرك قاصرون، نسألك الهداية إلى مناهج معرفتك، والتوفيقَ لأداءِ حقوقِ نعمتك، لا نحصي ثناءً عليك، لا إله إلّا أنت، نستغفرك ونتوب إليك.

[٢٧١و] / ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ﴾ يظلم النعمةَ بإغفال شكرها، أو بوضعه في غير موضعه، أو يظلم نفسَه بتعريضها للحِرمان ﴿كَفَّارٌ﴾ شديدُ الكُفران. وقيل: ظَلوم؛ في الشدّة يشكو ويجزع، كَفّار؛ في النعمة يجمع ويمنع. و"اللام" في ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ للجنس، ومصداق الحُكم بالظلم والكفرانِ بعضُ مَن وُجِدَا فيه مِن أفراده، ويدخل في ذلك ﴿ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾... إلخ[١] دخولًا أوّليًا.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ أي: واذكر[٢] وقتَ قوله عليه السلام. والمقصود مِن تذكيره تذكيرُ ما وقع فيه مِن مقالاته عليه السلام على نهج التفصيل. والمراد به تأكيد ما سلف مِن تعجيبه صلّى الله عليه وسلّم ببيان فنٍّ آخر مِن جناياتهم، حيث كفروا بالنِّعم الخاصّة بهم بعدما كفروا بالنِّعم العامّة، وعَصَوْا أباهم إبراهيم عليه السلام حيثُ أسكنهم بمكّة شرّفها الله تعالى لإقامة الصلاة والاجتناب عن عبادة الأصنام والشكر لنِعَم الله تعالى، وسألَه تعالى أن يَجْعَلَه[٣] بلدًا آمنًا، ويرزقَهم مِن الثمرات،

---

١ إبراهيم، ٢٨/١٤.

٢ ط س: اذكر.

٣ وفي هامش م: التذكير باعتبار الخبر.

ويهوي قلوب الناس إليهم مِن كلّ أوب سحيق، فاستجاب الله سبحانه دعاءَه، وجعله حرمًا آمنًا يُجْبَى إليه ثمرات كلّ شيء، فكفروا بتلك النِّعم العظام، واستبدلوا بالبلد الحرام دارَ البوار، وجعلوا لله تعالى أندادًا، وفعلوا ما فعلوا.

/ ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ يعني مكّة شرّفها الله سبحانه ﴿ءَامِنًا﴾ أي: ذا أمنٍ، [٢٧١ظ]
أو آمِنًا أهلُه بحيث لا يُخاف فيه، على ما مرّ في سورة البقرة. والفرق بينه وبين ما فيها مِن قوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة، ٢/١٢٦] أنّ المسئول هناك البلديّةُ والأمنُ معًا، وههنا الأمنُ فقط، حيث جُعِل هو المفعولَ الثاني للجَعل، وجُعِل البلد صفةً للمفعول الأوّل.

فإن حُمل على تعدّد السؤال فلعلّه عليه السلام سأل أوّلًا كِلا الأمرين فاستُجيب له في أحدهما وتأخّر الآخر إلى وقته المقدّر لِما يقتضيه مِن الحكمة الداعية إليه، ثمّ كرّر السؤال كما هو المعتاد في الدعاء والابتهال، أو كان المسئول أوّلًا مجرّدَ الأمن المصحِّحِ للسكنى كما في سائر البلاد، وقد أجيبَ إليه، وثانيًا الأمنَ المعهودَ، أو كان هو المسئول فيهما، وقد أجيب إليه أيضًا، لكنّ السؤالَ الثاني للاستدامة، والاقتصارُ على ذلك لأنّه المقصود الأصلي، أو لأنّ المعتاد في البلديّة الاستمرار بعد التحقّق، بخلاف الأمن.

وإن حُمل على وحدة السؤال وتكرّر الحكاية كما هو المتبادَر فالظاهر أنّ المسئول كِلا الأمرين، وقد حُكي أوّلًا،[١] واقتُصر ههنا على حكاية سؤال الأمن، لا لمجرّد أنّ نعمة الأمن أدخلُ في استيجاب الشكر، فذِكره أنسب بمقام تقريع الكفَرة على إغفاله كما قيل؛ بل لأنّ سؤال البلديّة قد حُكي بقوله تعالى: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾،[٢] إذ المسئول هُوِيّتُهَا إليهم للمساكنة معهم لا للحجّ فقط، وهو عين سؤال البلديّة قد حكي بعبارة أخرى، وكان ذلك أوّلَ ما قدِم عليه السلام مكّة، كما روى سعيد بن جبير عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه عليه السلام لمّا أسكن إسماعيل وهاجَر هناك وعاد متوجّهًا إلى الشام

---

١ وفي هامش م: أي: في سورة البقرة.[(١)] «منه».
| [(١)] البقرة، ٢/١٢٦.

٢ إبراهيم، ١٤/٣٧.

تبعَتْهُ هاجَر وجَعَلَتْ تقول: «إلى مَن تكِلُنا في هذا البَلْقَعِ؟»[١] وهو لا يردّ عليها جوابًا، حتّى قالت: «آللهُ أمرك بهذا؟» فقال: «نعم»، قالت: «إذًا لا يُضيّعنا»، فرَضِيَتْ، ومضى حتّى إذا استوى على ثنيّة كَداء أقبل على الوادي فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ﴾ الآية.[٢] وإنّما فصل[٣] ما بينهما تثنيةً للامتنان، وإيذانًا بأنّ كلًّا منهما نعمة جليلة مستَتبِعة لشكر كثير.

﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ﴾ بعّدني وإيّاهم ﴿أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ واجعلنا مِنه[٤] في جانب بعيد، أي: ثَبّتنا على ما كنّا عليه مِن التوحيد وملّة الإسلام والبعدِ عن عبادة الأصنام. وقُرئ: "أَجْنِبْنِي"[٥] مِن الإفعال، وهما لغة أهل نجدٍ، يقولون: / "جَنَبَنِي شَرَّهُ" و"أَجْنَبَنِي شَرَّه"، وأمّا أهل الحجاز فيقولون: "جَنَّبَنِي شَرَّه"، وفيه دليل على أنّ عصمة الأنبياء عليهم السلام بتوفيق الله تعالى. [٢٧٢و]

والظاهر أنّ المراد بِبَنِيهِ أولادُه الصلبيّة، فلا احتجاج به لابن عُيَيْنة رضي الله عنه على أنّ أحدًا مِن أولاد إسماعيل عليه السلام لم يعبُد الصنَم، وإنّما كان لكلّ قومٍ حَجَرٌ نَصَبُوه، وقالوا: هو حَجر والبيت حَجر، فكانوا يدورون به ويسمّونه الدُّوار، فاستُحِبّ أن يقال: طاف بالبيت، ولا يقالَ: دار بالبيت.[٦] وليت شِعري كيف ذهب عليه ما في القرآن العظيم مِن قَوارعَ تَنْعي على قريش عبادةَ الأصنام؟ على أنّ فيما ذكره كَرًّا على مَا فَرَّ منه.

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٦﴾

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ﴾ أي: الأصنامَ ﴿أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: تسبّبن له، كقوله تعالى:

---

١ البَلْقَع والبَلْقَعة: الأرضُ القَفرُ التي لا شيء بها. الصحاح للجوهري، «بلقع».

٢ إبراهيم، ٣٧/١٤. | جامع البيان للطبري، ٦٩٢/١٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٢/٥.

٣ وفي هامش م: ولم يجمع بينهما كما جمع أوّلًا. «منه».

٤ وفي هامش م: كما في قصّة البقرة. «منه».

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري والثقفي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦١.

٦ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٥٨/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٠٠/٣.

﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام، ٦/٧٠]. وهو تعليل لدعائه، وإنّما صدّره بالنداء إظهارًا لاعتنائه به ورغبته في استجابته.

﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾ منهم في ما[١] أدعو إليه مِن التوحيد وملّة الإسلام ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ أي: بَعضي، قاله عليه السلام مبالغةً في بيان اختصاصه به، أو متّصل بي لا ينفكّ عنّي في أمر الدين.

﴿وَمَنْ عَصَانِى﴾ أي: لم يتّبعني. والتعبير عنه بالعصيان للإيذان بأنّه عليه السلام مستمرّ على الدعوة، وأنّ عدم اتّباع مَن لم يتّبعه إنّما هو لعصيانه، لا لِأنّه لم يبلغه الدعوة. ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قادر على أن تغفِر له وترحَمَه ابتداءً، أو بعد توبته، وفيه أنّ كلّ ذنب فللّه تعالى أن يغفِره حتّى الشركِ، خلا أنّ الوعيد قضى بالفرق بينه وبين غيره.

﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ٣٧﴾

﴿رَّبَّنَآ﴾ آثر عليه السلام ضميرَ الجماعة لا لِما قيل[٢] مِن تقدّم ذِكره وذِكرِ بَنيه، وإلّا لَراعاه في قوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ﴾... إلخ؛[٣] لأنّ الدُّعاء المصدَّر به وما أورده بصدَد تمهيد مبادي إجابته مِن قوله: ﴿إِنِّىٓ أَسْكَنتُ﴾ الآيةَ متعلّق بذرّيّته، فالتعرّض لوصف ربوبيّته تعالى لهم / أدخَل في القبول وإجابةِ [٢٧٢ظ]
المسئول. ﴿مِن ذُرِّيَّتِى﴾ أي: بعضَهم، أو ذرّيّةً مِن ذرّيّتي، فحُذف المفعول، وهو إسماعيل عليه السلام وما سيولَد له، فإنّ إسكانه حيث كان على وجه الاطمئنان متضمّن لإسكانهم.

رُوي أنّ هاجر أمّ إسماعيل كانت لسارة، فوهبتْها مِن إبراهيم عليه السلام، فلمّا ولدت له إسماعيل عليه السلام غارَت عليها، فناشدته أن يُخرجها مِن عندها، فأخرجها إلى أرض مكّة، فأظهر الله تعالى عين زمزم.

---

١ س: فيما.

٢ قاله أبو حيّان في البحر المحيط، ٦/٤٤٦.

٣ في الآية السابقة.

﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ لا يكون فيه زرع أصلًا، وهو وادي مكّة شرّفها الله سبحانه. ﴿عِندَ بَيْتِكَ﴾ ظرف لـ﴿أَسْكَنتُ﴾، كقولك: "صلّيت بمكّة عند الركن"، لا أنّه صفة لـ﴿وَادٍ﴾ أو بدل منه، إذ المقصود إظهار كون ذلك الإسكان مع فقدان مباديه بالمرّة لِمَحض التقرّب إلى الله تعالى والالتجاءِ إلى جواره الكريم، كما ينبئ عنه التعرّض لعنوان الحرمة المؤذِن بعزّة الملتجئ وعصمته عن المكاره في قوله تعالى: ﴿ٱلْمُحَرَّمِ﴾ حيث حُرِّم التعرّض له والتهاون به، أو لم يزل معظّمًا ممنعًا يَهَابُه الجبابرةُ في كلّ عصر، أو مُنع منه الطوفانُ فلم يستولِ عليه، ولذلك سُمّي "عَتيقًا".

وتسميته إذ ذاك "بيتًا" ولم يكن له بناءٌ -وإنّما كان نَشَزًا مثلَ الرابية، تأتيه السيول فتأخذ ذات اليمين وذات الشمال- ليست باعتبار ما سيئول إليه الأمر مِن بنائه عليه السلام، فإنّه ينزِع إلى اعتبار عنوان الحرمة أيضًا كذلك؛ بل إنّما هي باعتبار ما كان مِن قبل، فإنّ تعدّد بناء الكعبة المعظّمة ممّا لا ريب فيه، وإنّما الاختلاف في كمّيّة عدده، وقد ذكرناها في سورة البقرة بفضل الله سبحانه.

[٢٧٣و] / ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ متوجّهين إليه متبرّكين به، وهو متعلّق بـ﴿أَسْكَنتُ﴾، وتخصيصها بالذِّكر مِن بين سائر شعائر الدين لفضلها. وتكرير النداء وتوسيطه
[٢٧٣ظ] لإظهار كمال العناية بإقامة الصلاة، / والاهتمامِ بِعَرْض أنّ الغَرَض مِن إسكانهم بذلك الوادي البَلْقَع ذلك المقصِدُ الأقصى والمطلبُ الأسنى، وكلّ ذلك لتمهيد مبادي إجابة دعائه وإعطاء مسئوله الذي لا يتسنّى ذلك المرام إلّا به، ولذلك أدخل عليه "الفاء" فقال: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: أفئِدةً مِن أفئدتهم. فـ﴿مِن﴾ للتبعيض، ولذلك قيل: لو قال: "أفئدةَ الناس" لازدحمت عليهم فارس والروم، وأمّا ما زيد عليه مِن قولهم: "ولحجّت اليهود والنصارى"[١] فغير مناسب للمقام، إذ المسئول توجيه القلوب إليهم للمُساكنة معهم، لا توجيهُها إلى البيت للحجّ، وإلّا لقيل: تهوي إليه، فإنّه عين الدعاء بالبلديّة قد حُكي بعبارة أخرى كما مرّ. أو لابتداء الغاية[٢] كقولك: "القلب منّي سقيم"، أي: أفئدةَ ناسٍ.

---

[١] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٣/٢٠١.
[٢] السياق: فـ(مِن) للتبعيض... أو لابتداء الغاية...

وقُرئ: "آفِدَةً"[1] على القلب، كـ"آدُر" في "أَدْؤُرٍ"،[2] أو على أنّه اسم فاعل مِن "أَفِدَتِ الرحلةُ"، أي: عجِلت، أي: جماعةً مِن الناس. و"أَفِدَةً"[3] بطرح الهمزة مِن "الأفئدة"، أو على النعت مِن "أَفِدَ".[4]

﴿تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ﴾ تُسرع إليهم شوقًا ووِدادًا. وقُرئ على البناء للمفعول[5] مِن "أهواه غيرَه"، و"تَهْوَى"[6] مِن باب عَلِم، أي: تحبّ، وتعديته بـ"إلى" لتضمّنه معنى الشوق والنزوع.

وأوّل آثار هذه الدعوة ما رُوي أنّه مرّت رُفقةٌ مِن جُرهم تريد الشام، فرأوا الطيرَ تحوم على الجبل، فقالوا: «إنّ هذا الطائر لَعائِف[7] على الماء»، فأشرفوا، فإذا هم بهاجَر، فقالوا لها: «إن شئتِ كنّا معكِ وَأَنِسْناكِ، والماءُ ماؤكِ»، فأذِنَتْ لهم، وكانوا معها إلى أن شَبّ إسماعيل عليه السلام وماتت هاجر، فتزوّج إسماعيل منهم كما هو المشهور.[8]

﴿وَٱرْزُقْهُم﴾ أي: ذرّيتي الذين أسكنتهم هناك، أو مع مَن ينحاز إليهم مِن الناس. وإنّما لم يخصّ الدعاء بالمؤمنين منهم -كما في قوله: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ / ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة، ١٢٦/٢]- اكتفاءً بذكر إقامة الصلاة. [٢٧٤و]
﴿مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ مِن أنواعها بأن يُجعل بقرب منه قُرًى يحصل فيها ذلك، أو يُجبى إليه مِن الأقطار الشاسعة، وقد حصل كلاهما، حتّى إنّه يجتمع فيه الفواكه الربيعيّة والصيفيّة والخريفيّة في يوم واحدٍ.

---

١ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٥٩/٢؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٤٧/٦.

٢ في جمع "دار". انظر: القاموس المحيط للفيروزابادي، «دار».

٣ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٥٩/٢؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٤٧/٦.

٤ أَفِدَ الرجل -بالكسر- يَأفَد أفدًا، أي: عَجِل، فهو أَفِد على فَعِل، أي: مستعجلٌ. وأَفِدَ الترَحُّل، أي: دنا وأزِف. الصحاح للجوهري، «أفد».

٥ أي: "تُهْوَى". قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ والحسين بن عليّ وعن سلمة بن عبد الله. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ ومحمد بن عليّ وجعفر بن محمد ومجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٢.

٧ عافَتِ الطيرُ تَعيفُ عَيْفًا، إذا كانت تحوم على الماء وتتردّد ولا تمضي تريد الوقوع، فهي عائفة. الصحاح للجوهري، «عيف».

٨ انظر: جامع البيان للطبري، ٦٩٠/١٣؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٢/٥.

رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما «أنّ الطائف كانت مِن أرض فلسطين، فلمّا دعا إبراهيم عليه السلام بهذه الدعوة رفعها الله تعالى ووضعها حيث وضعها رزقًا للحرَم».[١] وعن الزهري «أنّه تعالى نقل قرية مِن قُرى الشام فوضعها بالطائف لدعوة إبراهيم عليه السلام».[٢]

﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ تلك النعمةَ بإقامة الصلاة وأداء سائر مراسم العبوديّة.

وقيل:[٣] "اللام" في ﴿لِيُقِيمُواْ﴾ لام الأمر، والمراد أمرهم بإقامة الصلاة والدعاء مِن الله تعالى بتوفيقهم لها، ولا يناسبه "الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱجْعَلْ﴾... إلخ.

وفي دعائه عليه السلام مِن مراعاة حسن الأدب والمحافظة على قوانين الضَّراعة وعرض الحاجة واستنزال الرحمة واستجلاب الرأفة ما لا يخفى، فإنّه عليه السلام بذكر كون الوادي غيرَ ذي زرعٍ بيّنَ كمال افتقارهم إلى المسئول، وبذكر كون إسكانهم عند البيت المحرّم أشار[٤] إلى أنّ جوار الكريم يستوجب إفاضة النعيم، وبعرض كون ذلك الإسكان مع كمال إعواز مرافق المعاش لمَحض إقامة الصلاة وأداء حقوق البيت مهّد جميع مبادي إجابةِ السؤال، ولذلك قرنت دعوته عليه السلام بحُسن القبول.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٖ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨﴾

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ مِن الحاجات وغيرها، والمراد بـ﴿مَا نُخْفِي﴾ ما يقابل ﴿مَا نُعْلِنُ﴾، سواء تعلّق به الإخفاء أو لا، أي: تعلم ما نُظهره وما لا نُظهره، فإنّ علمه تعالى متعلِّق بما لا يخطر بباله ممّا فيه مِن الأحوال الخفيّة فضلًا عن إخفائه. وتقديم ﴿مَا نُخْفِي﴾[٥] على ﴿مَا نُعْلِنُ﴾ لتحقيق المساواة بينهما / في تعلّق العلم بهما على أبلغ وجه، فكأنّ تعلّقه بما يُخفى أقدم منه [٢٧٤ظ]

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٥٦٢/٢. وفي جامع البيان للطبري، ٧٠١/١٣، نحوه مِن قول محمّد بن مسلم الطائفي.

٢ تفسير ابن أبي حاتم، ٢٢٣٠/١؛ الدرّ المنثور للسيوطي، ٣٠٣/١.

٣ ذكره البيضاوي في أنوار التنزيل، ٢٠١/٣؛ وابن عادل في اللباب، ٣٩٦/١١.

٤ س: إشارة.

٥ م: ما نُخف.

بما يُعلَن، أو لأنّ مرتبة السرّ والخفاء متقدّمة على مرتبة العلَن، إذ ما مِن شيء يُعلَن إلّا وهو قبل ذلك خفيّ، فَتَعلُّقُ علمِه سبحانه بحالتِه الأولى أقدم مِن تعلّقه بحالته الثانية.

ومقصده عليه السلام أنّ إظهار هذه الحاجات وما هو مِن مباديها وتتمّاتها ليس لكونها غير معلومة لك؛ بل إنّما هو لإظهار العبوديّة والتخشّعِ لعظمتك، والتذلّلِ لعزّتك، وعرضِ الافتقار إلى ما عندك، والاستعجالِ لنَيل أياديك.

وتكرير النداء للمبالغة في الضراعة والابتهال. وضمير الجماعة لأنّ المراد ليس مجرّدَ علمه تعالى بسرّه وعلنه؛ بل بجميع خفايا المُلك والملَكوت، وقد حقّقه بقوله على وجه الاعتراض: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ لِما أنّه العالِم بالذات، فما مِن أمر يدخل تحت الوجود كائنًا ما كان في زمان مِن الأزمان إلّا ووجوده في ذاته عِلم بالنسبة إليه سبحانه.

وإنّما قال: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾... إلخ -دون أن يقول: "ويَعلم ما في السماوات والأرض"- تحقيقًا لِما عناه بقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا نُخْفِي﴾ مِن أنّ علمه تعالى بذلك ليس على وجه يكون فيه شائبة خفاء بالنسبة إلى علمه تعالى كما يكون ذلك بالنسبة إلى علوم المخلوقات.

وكلمة ﴿فِي﴾ متعلّقة بمحذوف وقع صفة لـ﴿شَيْءٍ﴾، أي: مِن شيء كائنٍ فيهما، أعمّ مِن أن يكون ذلك على وجه الاستقرار فيهما، أو على وجه الجزئيّة منهما، أو بـ﴿يَخْفَىٰ﴾. وتقديم ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ على ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾[1] مع توسيط ﴿لَا﴾ بينهما باعتبار القرب والبُعد منّا المستدعِيَين للتفاوت بالنسبة إلى علومنا.

والالتفات مِن الخطاب إلى اسم الذات المستجمِعة للصفات لتربية المَهابة والإشعار بعلّة الحكم[2] على نهج قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك، ٦٧/١٤]، والإيذانِ بعمومِه؛ لأنّه ليس بشأن يختصّ به أو بمَن يتعلّق به؛ بل شامل لجميع الأشياء، فالمناسب ذكره تعالى بعنوان مصحّح لمبدئيّة الكلّ.

---

[1] س - على ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾.

[2] وفي هامش م: وهو عدم الخفاء. «منه».

[٢٧٥و] / وقيل: هو مِن كلام الله عزّ وجلّ وارد بطريق الاعتراض لتصديقه عليه السلام كقوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ [النمل، ٣٤/٢٧]. و﴿مِن﴾ للاستغراق على الوجهين.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ﴾ أي: مع كِبَري ويأسي عن الولد. قيّد الهبة به استعظامًا للنعمة وإظهارًا لِشكرها. ﴿إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ رُوي أنّه وُلد له إسماعيل وهو ابن تسعٍ وتسعين سنةً، ووُلد له إسحاق وهو ابن مائةٍ واثنتي عشرةَ سنةً،[١] أو مائةٍ وسبعَ عشرةَ سنةً.[٢]

﴿إِنَّ رَبِّي﴾ ومالكَ أمري ﴿لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ لَمجيبه، مِن قولهم: "سمِع الملِك كلامَه" إذا اعتدّ به، وهي مِن أبنية المبالغة العاملةِ عملَ الفعل، أضيفَ إلى مفعوله أو فاعله بإسناد السماع إلى دعاء الله تعالى مجازًا، وهو مع كونه مِن تتمّة الحمد والشكر -إذ هو وَصْف له تعالى بأنّ ذلك الجميل سُنّته المستمِرّة- تعليل على طريقة التذييل للهبة المذكورة. وفيه إيذان بتضاعف النعمة فيها حيث وقعت بعد الدعاء بقوله: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات، ١٠٠/٣٧]، فاقترنت الهبة بقَبول الدعوة. وتوحيد ضمير المتكلِّم وإن كان عقيب ذِكر هبتهما لِما أنّ نعمة الهبة فائضة عليه خاصّةً، وهما مِن النِّعم، لا مِن المنعَم عليهم.

﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ٤٠﴾

﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ مثابرًا عليها مُعَدِّلًا لها. وتوحيد ضمير المتكلّم مع شمول دعوته لذرّيّته أيضًا -حيث قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي: بعضَهم مِن المذكورين ومَن يسير سيرتهما مِن أولادهما- للإشعار بأنّه المقتدَى في ذلك، وذرّيّتُه أتباع له، وأنّ ذِكرهم بطريق الاستطراد، لا كما في قوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ﴾... إلخ،[٣] فإنّ إسكانه مع عدم تحقّقه بلا ملابسةٍ لِمَن أسكنَه

---

[١] عن ابن عبّاس رضي الله عنهما في الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٣/٥، والتفسير الوسيط للواحدي، ٣٤/٣.

[٢] عن سعيد بن جبير في معالم التنزيل للبغوي، ٣٥٧/٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٦١/٢.

[٣] إبراهيم، ٣٧/١٤.

إنّما هو مذكور بطريق التمهيد للدعاء الذي هو مخصوص بذرّيّته، وإنّما خصّ هذا الدعاء ببعض ذرّيّته لعلمه مِن جهة الله تعالى أنّ بعضًا منهم لا يكون مقيمَ الصلاة، كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة، ١٢٨/٢].

/ ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ أي: دعائي هذا المتعلّق بجعلي وجعل بعض ذرّيّتي [٢٧٥ظ] مقيمي الصلاة، ثابتين على ذلك، مجتنبين عن عبادة الأصنام، ولذلك جيء بضمير الجماعة.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ۝٤١﴾

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى﴾ أي: ما فرَط منّي مِن ترك الأَولى في باب الدين وغير ذلك ممّا لا يسلَم منه البشر ﴿وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ وقُرئ بالتوحيد،[١] و"لِأَبَوَيَّ".[٢] وهذا الاستغفار منه عليه السلام إنّما كان قبل تبيُّن الأمرِ له عليه السلام. وقيل: أراد بوالدَيه آدم وحوّاء. وقيل: بشرط الإسلام،[٣] ويردّه قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الآية [الممتحنة، ٤/٦٠]، وقد مرّ في سورة التوبة[٤] نوع تحقيق للمقام، وسيأتي تمامه في سورة مريم[٥] بفضل الله عزّ وجلّ.

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ كافّة مِن ذرّيّته وغيرهم، وللإيذان باشتراك الكلّ في الدعاء بالمغفرة جيء بضمير الجماعة. ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ أي: يثبُت ويتحقّق محاسبة أعمال المكلّفين على وجه العدل، استُعير له مِن ثبوت القائم على الرّجل بالاستقامة، ومنه "قامت الحَرب على ساقٍ"، والمراد تهويله. وقيل: أسندَ إليه قيامُ أهله مجازًا، أو حُذف المضاف كما في ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف، ٨٢/١٢].

واعلم أنّ ما حُكي عنه عليه السلام مِن الأدعية والأذكار وما يتعلّق بها ليس بصادر عنه على الترتيب المحكي ولا على وجه المعيّة؛ بل صَدر عنه

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٦٢/٢؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٦٢/٢.

٣ ذكره الزمخشري في الكشّاف، ٥٦٢/٢.

٤ انظر: التوبة، ١١٤/٩.

٥ انظر: مريم، ٤٧/١٩.

في أزمنة متفرّقةٍ، حكي مرتّبًا للدلالة على سوء حال الكفرة بعد ظهور أمره في الملّة، وإرشاد الناس إليها والتضرّعِ إلى الله تعالى لمصالحهم الدينيّة والدنيويّة.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ خطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، والمراد تثبيته على ما كان عليه مِن عدم حسبانه عزّ وجلّ كذلك، نحو قوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام، ١٤/٦] ونظائره، مع ما فيه مِن الإيذان بكونه واجِبَ الاحتراز عنه في الغاية حتّى نُهِي عنه مَن لا يمكن تعاطيه، [٢٧٦و] / أو نهيُه عليه السلام عن حسبانه تعالى تاركًا لعقابهم على طريقة العفو. والتعبير عنه بذلك للمبالغة في النهي، والإيذانِ بأنّ ذلك الحسبان بمنزلة حسبانه تعالى غافلًا عن أعمالهم؛ إذ العلم بذلك مستوجِب لعقابهم لا محالةَ، فتركُه لو كان لَكان للغفلة عمّا يوجبه مِن أعمالهم الخبيثة. وفيه تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ووعدٌ له أكيدٌ[١] ووعيد للكفرة وسائر الظالمين شديد.

أو لكلّ أحد[٢] ممّن يستعجل عذابهم أو يتوهّم إهمالهم للجهل بصفاته تعالى والاغترار بإمهاله. وقيل: معناه لا تحسبنّه تعالى يعاملهم معاملة الغافل عمّا عملوا؛ بل معاملةَ مَن يحافظ على أعمالهم ويجازيهم بذلك نقيرًا وقطميرًا.

والمراد بالظالمين أهلُ مكّة ممّن عُدّت مَساويهم، مِن تبديل نعمة الله كفرًا، وإخلالِ قومهم دارَ البوار، واتّخاذِ الأنداد، كما يُؤذن به التعرّض لحكمةِ التأخير المنبئ عنه قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ﴾ الآية،[٣] أو جنسُ الظالمين، وهم داخلون في الحكم دخولًا أوّليًا.

﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ يمهلهم متمتّعين بالحظوظ الدنيويّة، ولا يعجّل عقوبتهم حسبما يشاهَد. وهو استئناف وقع تعليلًا للنهي السابق، أي: دُم على ما كنت عليه مِن عدم حسبانه تعالى غافلًا عن أعمالهم، ولا تحزن بتأخير ما تستوجبه

---

١ ط س: أكيدٌ.

٢ السياق: خطاب لرسول الله... أو لكلّ أحد...

٣ إبراهيم، ٣٠/١٤.

مِن العذاب الأليم، إنّ تأخيره للتشديد والتغليظ، أو لا تحسبنّه تعالى تاركًا لعقوبتهم لِما ترى مِن تأخيرها، إنّما ذلك لأجل هذا، أو لا تحسبنّه تعالى يعاملهم معاملة الغافل ولا يؤاخذهم بما عملوا لِما ترى مِن التأخير، إنّما هو لهذه الحكمة. وقُرئ بالنون.[١]

وإيقاع التأخير عليهم مع أنّ المؤخَّر إنّما هو عذابهم لتهويل الخَطب وتفظيع الحال ببيان أنّهم متوجّهون إلى العذاب، مُرصَدون لأمر ما، لا أنّهم باقون باختيارهم، وللدلالة على أنّ حقّهم / مِن العذاب هو الاستئصال بالمرّة، [٢٧٦ظ]
وأن لا يبقى منهم في الوجود عينٌ ولا أثرٌ، وللإيذان بأنّ المؤخَّر له مِن جملة العذاب وعنوانه، ولو قيل: إنّما يؤخِّر عذابَهم... إلخ لَما فُهم ذلك.

﴿لِيَوۡمٖ﴾ هائل ﴿تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ ترتفع أبصارُ أهل الموقف، فيدخل في زُمرتهم الكفرة المعهودون دخولًا أوّليًّا، أي: تبقى مفتوحة لا تتحرّك أجفانهم مِن هَول ما يرونه. واعتبار عدم قرارها في أماكنها إمّا باعتبار الارتفاع الحِسّي في جِرم العين، وإمّا بجعل الصيغة مِن "شَخَصَ مِن بلد إلى بلد، وسار في ارتفاع".

﴿مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ٤٣﴾

﴿مُهۡطِعِينَ﴾ مسرعين إلى الداعي، مُقبلين عليه بالخوف والذلّ والخشوع، أو مُقبلين بأبصارهم عليه، لا يُقلِعون عنه، ولا يَطرِفون هيبةً وخوفًا. وحيث كان إدامة النظر ههنا بالنظر إلى الداعي قيل: ﴿مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ﴾ أي: رافعيها مع إدامة النظر مِن غير التفات إلى شيء، قاله العَيني[٢] وابن عرفة.[٣] أو ناكسيها، ويقال:

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن وقتادة والسلمي وعبّاس عن أبي عمرو والمفضّل عن عاصم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٢.

[٢] هو محمود بن أحمد بن موسى العينتابي العيني، بدر الدين (ت. ٨٥٥هـ/١٤٥١م)، الحنفي، قاضي القضاة. ولد في عينتاب. وتفقّه بها ثمّ قدِم حلب، وأخذ بها عن الجمال يوسف الملطي. ثمّ قدم القاهرة فأخذ عن مشايخها، وبرَع في الفنون، وولي حُسبة القاهرة، وقضاء الحنفيّة، وله عدّة مصنّفات، منها: شرح البخاري، وشرح معاني الآثار للطحاوي، وشرح الشواهد الكبرى. انظر: نظم العقيان للسيوطي، ص ١٧٤؛ والأعلام للزركلي، ١٦٣/٧.

[٣] انظر: شرح سنن أبي داود للعيني، ٣١٦/٣. والعبارة في تفسير القرطبي، ٣٧٦/٩؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٤٣/٦: "قاله ابن عرفة »

"أقنَع رأسَه"، أي: طأطأها ونكَّسَها، فهو مِن الأضداد. وهما حالان ممّا دلّ عليه ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ مِن أصحابها، أو الثاني حال متداخِلة مِن الضمير في الأوّل، وإضافته غير حقيقيّة، فلا ينافي الحاليّة.

﴿لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡ﴾ أي: لا يرجِع إليهم تحريكُ أجفانهم حسبما كان يرجع إليهم كلّ لحظة؛ بل تبقى أعينهم مفتوحة لا تَطرِف، أو لا ترجع إليهم أجفانهم التي هي آلة الطَّرْف، فيكون إسناد الرجوع إلى الطَّرْف مَجازيًّا، أو هو نفس الجَفن. قال الفيروزاباديّ:[١] «الطَّرْف: العَين، لا يُجمع؛ لأنّه مصدر في الأصل، أو اسم جامع للعين».

[٢٧٧و] أو لا يرجع نظرهم إلى أنفسهم فضلًا / عن أن يرجع إلى شيء آخر فيَبقَون مَبهوتين، وهو أيضًا حال أو بدل مِن ﴿مُقۡنِعِي﴾... إلخ، أو استئناف، والمعنى: لا يزول ما اعتراهم مِن شُخوص الأبصار، وتأخيره عمّا هو مِن تتمّته مِن الإهطاع والإقناع مع ما بينه وبين الشُّخوص المذكور مِن المناسبة لتربية هذا المعنى.

﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ﴾ خالية مِن العقل والفهم لفَرط الحيرة والدهش، كأنّها نفس الهواء الخالي مِن كلّ شاغل، ومنه قيل للجبان والأحمق: "قلبه هواء"،

< والقُتَبي". | ابن عرفة: هو محمّد بن محمّد بن عرفة بن حمّاد الوَرْغَمي، أبو عبد الله (ت. ٨٠٣هـ/١٤٠٠م). فقيه تونس وإمامها وعالمها وخطيبها، تبحّر في العلوم، وفاقَ في الأصول والكلام، وتقدّم في الفقه والنحو والتفسير، قرأ القراءات على محمّد بن محمّد بن سلامة، وأخذ العلم عن جماعة مِن العلماء الجلّة، منهم والده أبو عبد الله بن الوادياشي وغيره، قال ابن الجزري: «لم يخلِّف بعدَه مثله». مِن كتبه: المختصر الكبير في فقه المالكيّة، والمختصر الشامل في التوحيد، ومختصر الفرائض، والمبسوط في الفقه، والطرق الواضحة في عمل المناصحة، والحدود في التعاريف الفقهيّة. انظر: غاية النهاية لابن الجزري، ٢/٢٤٣؛ والأعلام للزركلي، ٧/٤٣.

[١] القاموس المحيط للفيروزابادي، «طرف». | هو محمّد بن يعقوب بن محمّد بن إبراهيم، الشيرازي، الفيروزابادي، مجد الدين، أبو طاهر (ت. ٨١٧هـ/١٤١٥م)، مِن أئمّة اللغة والأدب. وُلد بكارِزين مِن أعمال شيراز، وانتقل إلى العراق، وجال في مصر والشام، ودخل بلاد الروم والهند. ورحل إلى زُبيد فأكرمه ملِكها الأشرف إسماعيل وقرأ عليه، فسكَنها، وولي قضاءها، وانتشر اسمه في الآفاق، حتّى كان مرجعَ عصره في اللغة والحديث والتفسير، أشهر كتبه القاموس المحيط، وله بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ونزهة الأذهان في تاريخ أصبهان. انظر: بغية الوعاة للسيوطي، ١/٢٧٣؛ والأعلام للزركلي، ٧/١٤٦.

أي: لا قوّةَ ولا رأيَ فيه، واعتبارُ خلوّها عن كلّ خير[١] لا يناسب المقام، وهو إمّا حال عاملُها ﴿لَا يَرْتَدُّ﴾ مفيدة لكون شخوص أبصارهم وعدمِ ارتداد طرفهم بلا فَهم ولا اختيار، أو جملةٌ مستقِلّة.

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ خطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد إعلامه أنّ تأخيرهم لماذا، وأمرٌ له بإنذارهم وتخويفهم منه. والمراد بـ﴿ٱلنَّاسَ﴾ الكفّار المعبّر عنهم بالظالمين، كما يقتضيه ظاهر إتيان العذاب، والعدول إليه مِن الإضمار للإشعار بأنّ المراد بالإنذار هو الزجر عمّا هم عليه مِن الظلم شفقةً عليهم، لا التخويف للإزعاج والإيذاء، فالمناسب عدم ذكرِهم بعنوان الظلم. أو الناسُ جميعًا، فإنّ الإنذار عامّ للفريقين، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ [يس، ١١/٣٦]، والإتيان يعمّهما مِن حيث كونُهما في الموقف، وإن كان لحوقه بالكفّار خاصّةً، أي: أنذرهم وخوّفهم.

﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ المعهود، وهو اليوم الذي وُصِف بما لا يوصف مِن الأوصاف الهائلة، أعني: يوم القيامة، وقيل: هو يوم موتهم معذّبين بالسكَرات ولقاء الملائكة بلا بشرى، أو يومُ هلاكهم بالعذاب العاجل، ويأباهُ القصر السابق.

﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: فيقولون، والعدول عنه إلى ما عليه النظم الكريم للتسجيل عليهم بالظلم، وللإشعار بأنّ مَا لَقُوه مِن الشدّة إنّما هو لظلمهم. وإيثارُه على صيغة الفاعل حسبما ذُكر أوّلًا للإيذان بأنّ الظلم / في الجملة كافٍ [٢٧٧ظ] في الإفضاء إلى ما ذُكر مِن الأهوال مِن غير حاجة إلى الاستمرار عليه كما يُنبِئ عنه صيغة الفاعل.

وعلى تقدير كون المراد بـ﴿ٱلنَّاسَ﴾ مَن يعمّ المسلمين أيضًا، فالمعنى: الذين ظلموا منهم وهم الكفّار. أو يقول:[٢] كلُّ مَن ظلَم بالشرك والتكذيب مِن المنذرين

---

[١] ذكره الزمخشري عن ابن جريج. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٥٦٤/٢.

[٢] وفي هامش م: على التقديرين. «منه».

وغيرهم مِن الأمم الخالية فإنّ إتيان العذاب يعمّهم كما يُشعر بذلك وَعدُهم باتّباع الرسل.

﴿رَبَّنَآ أَخِّرۡنَا﴾ رُدَّنا إلى الدنيا وأمهلنا ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ إلى أَمدٍ وحدٍّ مِن الزمان قريب ﴿نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ﴾ أي: الدعوةَ إليكَ وإلى توحيدك، أو دعوتَك لنا على ألسنة الرسل، ففيه إيماء إلى أنّهم صدَّقوهم في أنّهم مرسلون مِن عند الله تعالى. ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ فيما جاءونا به، أي: نتدارك ما فرّطنا فيه مِن إجابة الدعوة واتّباع الرسل. والجمع إمّا باعتبار اتّفاق الجميع على التوحيد، وكونِ عصيانهم للرسول عليه السلام عِصيانًا لهم جميعًا عليهم السلام، وإمّا باعتبار أنّ المحكي كلام ظالِمي الأمم جميعًا، والمقصودُ بيانُ وَعد كلّ أمّة باتّباع رسولها.

﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ﴾ على إضمار القول معطوفًا على ﴿فَيَقُولُ﴾ أي: فيقال لهم توبيخًا وتبكيتًا: أَلَم تؤخَّروا في الدنيا؟ ولم تكونوا أقسمتم إذ ذاك بألسنتكم بطَرًا وأَشَرًا وجهلًا وسفهًا: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾ ممّا أنتم عليه مِن التمتّع بالحظوظ الدنياويّة؟ أو بألسنة الحال حيث بنيتم مَشيدًا وَأمّلتُم بَعِيدًا، ولم تحدّثوا أنفسكم بالانتقال منها إلى هذه الحالة؟ وفيه إشعار بامتداد زمان التأخير وبُعدِ مَدَاه، أو ما لكم مِن زوالٍ مِن هذه الدار إلى دار أخرى للجزاء، كقوله تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل، ١٦/٣٨].

[٢٧٨و] وصيغة الخطاب / في جواب القسَم لمراعاة حال الخطاب في ﴿أَقۡسَمۡتُم﴾ كما في قوله: "حلَف بالله ليخرُجَنّ"، وهو أدخل في التوبيخ مِن أن يقال: "ما لنا" مراعاةً لحال المُقسِم.

ذكر البيهقيّ[١] عن محمّد بن كعب القرظي رحمه الله أنّه قال: لأهل النار خمسُ دعوات يجيبهم الله تعالى في أربعٍ منها، فإذا كانت الخامسة لم يتكلّموا بعدها أبدًا، يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ [غافر، ٤٠/١١]، فيجيبهم الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ [غافر، ٤٠/١٢]، ثمّ يقولون:

---

١ الأسماء والصفات للبيهقي، ١/٥٥٥ (٤٨٢)؛ البعث والنشور للبيهقي، ص ٣٢٨-٣٢٩ (٦٠١).

﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة، ١٢/٣٢]، فيجيبهم الله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ﴾ الآية [السجدة، ١٤/٣٢]، ثمّ يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ﴾ فيجيبهم الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم﴾ الآية، ثمّ يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ [فاطر، ٣٧/٣٥]، فيجيبهم الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر، ٣٧/٣٥]، فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ﴾ [المؤمنون، ١٠٦/٢٣]، فيجيبهم الله تعالى: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون، ١٠٨/٢٣]، فلا يتكلّمون بعدها أبدًا، إن هو إلّا زفير وشهيق، وعند ذلك انقطع رجاؤهم، وأقبل بعضهم يَنْبَحُ في وجه بعضٍ، وأُطبقت عليهم جهنّم. اللّهمّ إنّا بك نعوذ وبكنَفك نلوذ، عزّ جارك، وجلّ ثناؤك، ولا إله غيرك.

﴿وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ ۝٤٥﴾

﴿وَسَكَنتُمۡ﴾ مِن السُّكنى بمعنى التَبَوُّء والإيطان، وإنّما استُعمل بكلمة ﴿فِي﴾ حيث قيل: ﴿فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ جريًا على الأصل؛ لأنّه منقول عن مطلق السكون الذي حقّه التعدية بها، أو مِن السكون واللبث، / أي: [٢٧٨ظ]
قرَرتم في مساكنهم مُطْمَئنّين سائرين سيرتَهم في الظلم بالكفر والمعاصي غير محدِّثين لأنفسكم بما لقيه الأوّلون بسبب ما اجترحوا مِن الموبقات. وفي إيقاع الظلم على أنفسهم بعد إطلاقه فيما سلف إيذانٌ بأنّ غائلة الظلم آيِلة[١] إلى صاحبه.

والمراد بهم إمّا جميعُ مَن تقدّمَ مِن الأمم المهلَكة عن تقدير اختصاص الاستمهال، والخطاب السابق بالمنذَرين، وإمّا أوائلهم مِن قوم نوح وهود على تقدير عمومهما للكلّ، وهذا الخطاب وما يتلوه باعتبار حال أواخرهم.

---

١ س: آئِلة.

﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ بمشاهدة الآثار وتواتر الأخبار ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ مِن الإهلاك والعقوبة بما فعلوا مِن الظلم والفساد، و﴿كَيْفَ﴾ منصوب بما بعده مِن الفعل. وليس الجملة فاعلًا لـ﴿تَبَيَّنَ﴾ كما قاله بعض الكوفيين؛[١] بل فاعله ما دلّت هي عليه دلالة واضحة، أي: فعلُنا العَجيبُ بهم،[٢] كما مرّ في قوله تعالى: ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ﴾ [يوسف، ٣٥/١٢]. وقُرئ: "يُبَيِّنُ".[٣]

﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: بيّنّا لكم في القرآن العظيم -على تقدير اختصاص الخطاب بالمنذَرين- أو على ألسنة الأنبياء عليهم السلام -على تقدير عمومه لجميع الظالمين- صفاتِ ما فعلوا وما فُعِل بهم مِن الأمور التي هي في الغرابة كالأمثال المضروبة لكلّ ظالم؛ لتعتبروا بها، وتقيسوا أعمالكم على أعمالهم، ومآلَكم على مآلهم، وتنتقلوا مِن حلول العذاب العاجل إلى حلول العذاب الآجل، فترتدعوا عمّا كنتم فيه مِن الكفر والمعاصي، أو بيّنّا لكم أنكم مثلُهم في الكفر واستحقاق العذاب.

والجمل الثلاث في موقع الحال مِن ضمير ﴿أَقْسَمْتُم﴾،[٤] أي: أقسمتم بالخلود والحال أنكم سكنتم في مساكنِ المهلَكين بظلمهم، وتبيّن لكم فِعلُنا العجيبُ بهم، / ونبهناكم على جَليّة الحال بضرب الأمثال. [٢٧٩و]

﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ﴾ حال مِن الضّمير الأوّل في ﴿فَعَلْنَا بِهِمْ﴾،[٥] أو مِن الثاني، أو منهما جميعًا. وإنّما قُدّم عليه قوله تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[٦] لشدّة ارتباطه بما قبله، أي: فَعلنا بهم ما فَعلنا، والحال أنّهم قد مكروا

---

[١] انظر: شرح شذور الذهب لابن هشام، ص ٢١٧.

[٢] وفي هامش م: وفيه مِن المبالغة ما ليس في أن يقال: ما فعلنا بهم.

[٣] لم أجد مَن ذكَر القراءة بالياء. والمذكور في المصادر: "وَنُبَيِّنُ" بنون مضمومة ورفع النون الأخيرة، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، وحكاها أبو عمرو الداني عن السُّلمي. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٥٣/٦؛ واللباب لابن عادل، ٤١٠/١١.

[٤] في الآية السابقة.

[٥] في الآية السابقة.

[٦] في الآية السابقة.

في إبطال الحقّ وتقريرِ الباطل مكرَهم العظيم، الذي استفرغوا في عمله المجهودَ، وجاوزوا فيه كلّ حدٍّ معهود، بحيث لا يقدِر عليه غيرهم. فالمراد بيان تناهيهم في استحقاق ما فُعِل بهم. أو قد مكروا مكرَهم المذكورَ في ترتيب مبادي البقاء ومدافعةِ أسباب الزوال، فالمقصود إظهارُ عجزهم واضمحلال قُدرتهم وحقارتها عند قدرة الله سبحانه[١] وتعالى.

﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾ أي: جزاءُ مَكرهم الذي فعلوه، على أنّ المَكر مضاف إلى فاعله، أو أخذُه تعالى بهم، على أنّه مضاف إلى مفعوله، وتسميته "مكرًا" لكونه بمقابلة مكرهم وجودًا وذِكرًا، أو لكونه في صورة المكرِ في الإتيان مِن حيث لا يشعرون. وعلى التقديرين فالمراد به ما أفاده قوله عزّ وجلّ: ﴿كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ﴾،[٢] لا أنّه وعيد مستأنَف. والجملة حال مِن الضمير في ﴿مَكَرُواْ﴾، أي: مكروا مكرَهم وعند الله جزاؤه أو ما هو أعظم منه. والمقصود بيان فساد رأيهم حيث باشروا فعلًا مع تحقّق ما يوجب تركه.

﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ﴾ في العِظم والشدّة ﴿لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ أي: وإن كان مكرهم في غاية المتانة والشدّة، وعبّر عن ذلك بكونه مسوًّى ومُعَدًّا لإزالة الجبال عن مقارّها لكونه مَثلًا في ذلك. والجملة المصدّرة بـ﴿إن﴾ الوصليّة معطوفة على جملة مقدّرة، والمعنى: وعند الله جزاء مكرهم أو المكرُ الذي يحيق بهم إن لم يكن مكرهم لِتزول منه الجبال وإن كان... إلخ، وقد حُذف ذلك حذفًا مطّردًا لدلالة المذكور عليه دلالة واضحة، فإنّ الشيء إذا تحقّق عند وجود المانع القويّ فلَأن يتحقّق عند عدمه أَولى. / وعلى هذه النكتة يدور ما في ﴿إن﴾ الوصليّة مِن التأكيد المعنوي. والجواب محذوف دلّ عليه ما سبق، وهو قوله تعالى: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾. [٢٧٩ظ]

وقيل: ﴿إن﴾ نافية، و"اللام" لتأكيدها، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ﴾ [الأنفال، ٣٣/٨]، وينصره قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: "وَمَا كَانَ مَكْرُهُمْ".[٣] فالجملة حينئذ حال مِن الضمير في ﴿مَكَرُواْ﴾، لا مِن قوله تعالى:

---

١ ط: تعالى.

٢ في الآية السابقة.

٣ قراءة شاذّة، عزاها الزمخشري إليه رضي الله عنه. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٦٦/٢.

﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾، أي: مكروا مكرَهم والحالُ أنّ مكرَهم لم يكن لِتزول منه الجبال، على أنّها عبارة عن آيات الله تعالى وشرائعه ومعجزاته الظاهرة على أيدي الرسل السالفة عليهم السلام التي هي بمنزلة الجبال الراسيات في الرسوخ.

وأمّا كونها عبارة عن أمر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأمرِ القرآن العظيم -كما قيل-[١] فلا مجالَ له، إذ الماكرون هم المهلَكون لا الساكنون في مساكنهم مِن المخاطَبين، وإن خُصّ الخطاب بالمنذَرين.

وقيل: هي مخفّفة مِن "إنّ"، والمعنى: إنّه كان بمكرهم لِتزول منه ما هو كالجبال في الثبات ممّا ذُكر مِن الآيات والشرائع والمعجزات، والجملة كما هي حال مِن ضمير ﴿مَكَرُواْ﴾، أي: مكروا مكرَهم المعهودَ، وإنّ الشأن كان مكرهم لإزالة الآيات والشرائع، على معنى أنّه لم يكن يصحّ أن يكون منهم مكر كذلك، وكان شأن الآيات والشرائع مانعًا مِن مباشرة المكر لإزالته.

وقد قرأ الكسائيّ: "لَتَزُولُ" بفتح اللام[٢] على أنّها الفارقة، والمعنى تعظيم مكرهم، فالجملة حال مِن قوله تعالى: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾، أي: عنده تعالى جزاءُ مكرهم، أو المكرُ بهم، والحالُ أنّ مكرهم بحيث تزول منه الجبال، أي: في غاية الشدّة. وقُرئ بالفتح والنصب[٣] على لغة مَن يفتح لام "كي". وقُرئ: "وَإِنْ كَادَ مَكْرُهُمْ"،[٤] هذا هو الذي يقتضيه النظم الكريم، وينساق إليه الطبع السليم.

وقد قيل: إنّ الضمير في ﴿مَكَرُواْ﴾ للمنذَرين، والمراد بـ﴿مَكْرَهُمْ﴾ ما أفاده قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ الآية [الأنفال، ٨/٣٠]، / وغيرُه مِن أنواع مكرهم برسول الله صلّى الله عليه وسلّم. [٢٨٠و]

ولعلّ الوجهَ حينئذ أن يكون قولُه تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ﴾... إلخ حالًا مِن القول المقدّر، أي: فيقال لهم ما يقال والحال أنّهم مع ما فعلوا مِن الإقسام المذكور

---

١ قاله الثعلبي في الكشف والبيان، ٥/٣٢٦؛ والواحدي في التفسير الوسيط، ٣/٣٦.

٢ انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٠.

٣ أي: "لَتَزُولَ". قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٦/٤٥٥؛ واللباب لابن عادل، ١١/٤١٣.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عمرو وعليّ وابن مسعود وأبيّ وأبو سلمة بن عبد الرحمن وأبو إسحاق السبيعي وزيد بن عليّ. انظر: شواذ القراءات للكرماني، ص ٢٦٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٦/٤٥٤.

مع ما ينافيه مِن السكون في مساكن المهلَكين وتبيُّنِ أحوالهم وضرب الأمثال قد مكروا مَكْرَهم العظيم، أي: لم يكن الصادر عنهم مجرّدَ الإقسام الذي وُبِّخُوا به؛ بل اجترءوا على مثل هذه العظيمة. وقوله تعالى: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾ حال مِن ضمير ﴿مَكَرُواْ﴾ حسبما ذكرنا مِن قبل.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ مسوق لبيان عدم تفاوت الحال في تحقيق الجزاء بين كون مكرهم قويًا أو ضعيفًا كما مرّ هناك. وعلى تقدير كون ﴿إن﴾ نافيةً فهو حال مِن ضمير ﴿مَكَرُواْ﴾، والجبال عبارة عن أمر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، أي: وقد مكروا والحال أنّ مكرهم ما كان لتزول منه هاتيك الشرائعُ والآيات التي هي في القوّة كالجبال. وعلى تقدير كونها مخفّفة مِن المثقّلة و"اللامُ" مكسورة يكون حالًا منه أيضًا، على معنى أنّ ذلك المكر العظيم منهم كان لهذا الغرَض، على معنى أنّه لم يكن يصحّ أن يكون منهم مكر لذلك، لِما أنّ شأن الشرائع أعظمُ مِن أن يَمكُر بها ماكر. وعلى تقدير فتح "اللام" فهو حال مِن قوله تعالى: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾ كما ذكرنا مِن قبلُ، فليتأمّل.

﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ۝٤٧﴾

﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ لم يُرد به -والله سبحانه أعلم- ما وعده بقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ الآية [غافر، ٥١/٤٠]، وقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادلة، ٢١/٥٨] كما قيل،[١] فإنّه لا اختصاصَ له بالتعذيب لا سيّما الأخرويّ؛ بل ما سلف آنفًا مِن وعده بتعذيب الظالمين بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ﴾ الآية،[٢] كما يُفصِح عنه الفاء الداخلة على النهي الذي أُريدَ به تثبيته عليه السلام على ما كان عليه مِن الثقة بالله تعالى والتيقّن بإنجاز وعده المذكور المقرون بالأمر بإنذارهم يومَ إتيان العذاب المتضمّن لذكر تعذيب الأمم السالفة، بسبب كفرهم وعصيانهم رسلَهم بعد ما وعدهم بذلك كما فُصِّلت قصّة كلّ منهم في القرآن العظيم، فكأنّه قيل: وإذ قد وعدناك بعذاب / الظالمين يوم القيامة، [٢٨٠ظ]

---

[١] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٥٦٦/٢؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٢٠٣/٣.

[٢] إبراهيم، ٤٢/١٤.

وأخبرناك بما يلقَونه مِن الشدائد، وبما يسألونه مِن الردّ إلى الدنيا، وبما أجبناهم به، وقرّعناهم بعدم تأمّلهم في أحوال مَن سبقهم مِن الأمم الذين أهلكناهم بظلمهم بعد ما وعدنا رسلَهم بإهلاكهم، فَدُم على ما كنت عليه مِن اليقين بعدم إخلافنا رسلَنا وعدَنا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يُماكَرُ، وقادِر لا يُقادَر، ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ لأوليائه مِن أعدائه. والجملة تعليل للنهي المذكور، وتذييل له. وحيث كان الوعد عبارة عمّا ذكرنا مِن تَعذيبهم خاصّةً لم يُذيّل بأن يقال: "إنّ الله لا يُخلِف الميعاد"؛ بل تعرّض لوصف العزّة والانتقام المشعِرَين بذلك. والمراد بالانتقام ما أشيرَ إليه بالفعل،[١] وعُبّر عنه بالمكر.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ ظرف لمُضمَر مستأنَف ينسحب عليه النهي المذكور، أي: يُنجِزُه[٢] يومَ... إلخ، أو معطوف عليه، نحو: وارْتَقِبْ يومَ تُبدّلُ الأرض غيرَ الأرض. أو لـ﴿ٱنتِقَامٍ﴾، وهو ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾[٣] بعينه، ولكن له أحوال جمّة يُذكر كلّ مرّة بعنوان مخصوص. والتقييد به مع عموم انتقامه للأوقات كلّها للإفصاح عمّا هو المقصود به مِن تعذيب الكفرة المؤخَّر إلى ذلك اليوم بموجَب الحكمة الداعية إليه.

وقيل: بدل مِن ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾،[٤] أو نصب بـ"اذكر"، أو بإضمار "لا يُخلِف وعده يومَ تُبدّل"... إلخ، وفيه أيضًا ما في الوجه الثالث مِن الحاجة إلى الاعتذار. ولا يجوز أن ينتصب بقوله: ﴿مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ﴾؛[٥] لأنّ ما قبل "إنّ" لا يعمل فيما بعده. وقيل: هو غيرُ مانع؛ لأنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾[٦] جملة اعتراضيّة، فلا يُبالى بها فاصلًا.

---

[١] وفي هامش م: في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ [إبراهيم، ٤٥/١٤]. «منه».
[٢] وفي هامش م: أحد.
[٣] إبراهيم، ٤٤/١٤.
[٤] إبراهيم، ٤٤/١٤.
[٥] في الآية السابقة.
[٦] في الآية السابقة.

واعلم أنّ التبديل قد يكون في الذات، كما في: "بدّلتُ الدراهمَ دنانيرَ"، وعليه قوله عزّ وجلّ: ﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء، ٥٦/٤]، وقد يكون في الصفات كما في قولِك: "بدّلتُ الحلْقةَ خاتمًا" إذا غيّرتَ شكلَها، ومنه قوله تعالى: / ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان، ٧٠/٢٥] على بعض الأقوال، [٢٨١و]
والآية الكريمة ليست بنصّ في أحد الوجهين.

فعن عليّ كرّم الله تعالى[١] وجهه: «يبدّل أرضًا مِن فضّة، وسماواتٍ مِن ذهب».[٢] وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «يبدّل الأرض بأرض كالفضّة بيضاء نقيّة لم يُسفك فيها دم، ولم يُعمل عليها خطيئة».[٣] وعن ابن عبّاس رضي الله تعالى[٤] عنهما: «هي تلك الأرض وإنّما تُغيّر صفاتُها»، وأنشد:

وما الناسُ بالناس الذين عَهِدتُهم ... وما الدارُ بالدارِ التي كنت تعلمُ[٥]

ويُبدِّلُ السماوات بانتثار كواكبها، وكسوف شمسها، وخسوف قمرها، وانشقاقها، وكونها أبوابًا، ويدلّ عليه ما روى أبو هريرة رضي الله عنه أنّه صلّى الله عليه وسلّم قال: «تُبدّل الأرض غيرَ الأرض، فتُبسَط وتُمَدُّ مدَّ الأديم العُكاظي، لا ترى فيها عِوجًا ولا أمْتًا».[٦]

﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ أي: ويبدّل السماوات غير السماوات حسبما مرّ مِن التفصيل. وتقديم تبديل الأرض لقُربها منّا، ولكون تبديلها أعظمَ أثرًا بالنسبة إلينا.

﴿وَبَرَزُواْ﴾ أي: الخلائق، أو الظالمون المدلول عليهم بمعونة السباق. والمراد بروزهم مِن أجداثهم التي في بطون الأرض، أو ظهورُهم بأعمالهم

---

١ س - تعالى.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٥٦٧/٢؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٠٣/٣. ولفظه في جامع البيان للطبري، ٧٣٣/١٣: «الأرض مِن فضّة، والجنّة مِن ذهَب».

٣ جامع البيان للطبري، ٧٣٠/١٣؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٧/٣.

٤ ط س - تعالى.

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٨/٥؛ التفسير البسيط للواحدي، ٥١٤/١٢. وأخرج ابن بطّة في الإبانة الكبرى، ٥٧٤/٢ (٧٢١)، بسنده أنّ ابن عبّاس رضي الله عنهما كان يتمثّل بهذا البيت. والبيت للعبّاس بن عبد المطّلب في التذكرة الحمدونيّة لابن حمدون، ٢٩٦/٧؛ وجمهرة الأمثال للعسكري، ٩٦/١.

٦ جامع البيان للطبري، ٧٣٥/١٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٨/٥. وأخرجه في حديث طويل أبو الشيخ في العظمة، ٨٢١/٣ (٣٨٦)؛ والبيهقي في البعث والنشور، ص ٣٣٨-٣٤٤ (٦٠٩).

التي كانوا يعملونها سرًا ويزعمون أنّها لا تظهر، أو يعملون عملَ مَن يزعم ذلك. ولعلّ إسنادَ البُروز إليهم مع أنّه لأعمالهم للإيذان بتشكّلهم بأشكالٍ تناسِبُها. وهو معطوف على ﴿تُبَدَّلُ﴾، والعدول إلى صيغة الماضي للدلالة على تحقّق وقوعه، أو حالٌ مِن ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ بتقدير "قد"، والرابط بينها وبين صاحبِها "الواو".

﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ للحساب والجزاء. والتعرّض للوصفين لتهويلِ الخطب، وتربية المهابة، وإظهارِ بطلان الشرك، وتحقيقِ الانتقام في ذلك اليوم على تقدير كونه ظرفًا له، وتحقيقِ إتيان العذاب / الموعود على تقدير كونه بدلًا [٢٨١ظ] مِن ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾،[١] فإنّ الأمر إذا كان لواحدٍ غلّابٍ لا يُعازّ وقادرٍ لا يُضارّ ولا يُعارّ كان في غاية ما يكون مِن الشدّة والصعوبة.

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٤٩﴾

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ عطفٌ على ﴿بَرَزُواْ﴾،[٢] والعدول إلى صيغة المضارع لاستحضار الصورة، أو للدلالة على الاستمرار. وأمّا البروز فهو دفعيّ لا استمرارَ فيه. وعلى تقدير حاليّة ﴿بَرَزُواْ﴾[٣] فهو معطوف على ﴿تُبَدَّلُ﴾،[٤] ويجوز عطفه على عامل الظرف المقدّم، على تقدير كونِهِ يُنْجِزُهُ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يومَ إذ برزوا له عزّ وجلّ، أو يومَ إذ تُبدَّل الأرض، أو يومَ إذ يُنجِزُ[٥] وعدَه.

﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ قُرن بعضهم مع بعض حسب اقترانهم في الجرائم والجرائر، أو قُرِنوا مع الشياطين الذين أغوَوهم، أو قُرنوا مع ما اقترفوا مِن العقائد الزائغة والملَكات الرديّة والأعمال السيّئة غِبّ تَصوّر كلّ منها وتَشكّلها بما يناسبها مِن الصور الموحشة والأشكال الهائلة، أو قُرنت أيديهم وأرجلُهم إلى رقابهم. وهو حال مِن ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ في القيود أو الأغلال. وهو إمّا متعلّق بقوله تعالى: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾، أو حال مِن ضميره، أي: مصفَّدين.

---

١ إبراهيم، ١٤/٤٤.
٢ في الآية السابقة.
٣ في الآية السابقة.
٤ في الآية السابقة.
٥ ط س: ينجزه. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝﴾

﴿سَرَابِيلُهُم﴾ أي: قُمصانهم ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ جملة مِن مبتدأ وخبر، محلُّها النصب على الحاليّة مِن ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾،[١] أو مِن ضميرهم في ﴿مُقَرَّنِينَ﴾،[٢] رابطتها الضمير فقط، كما في "كلّمتُه فُوهُ إلى فِيّ"، أو مستأنَفة.

و"القَطران": ما يتحلّب مِن الأَبْهل،[٣] فيُطبَخ فتُهْنَأُ به الإبل الجَرْبَى، فيُحرق الجرَب بما فيه مِن الحدّة الشديدة، وقد يصل حرارته إلى الجوف، وهو أسود مُنتِن، يُسرع فيه اشتعال النار، يُطلى به جلود أهل النار حتّى يعود طلاؤه لهم كالسراويل؛ ليجتمع عليهم الألوان الأربعة مِن العذاب؛ لذعه، وحرقته، وإسراع النار في جلودهم، واللون الموحش / والنتن، على أنّ التفاوت بينه وبين ما [٢٨٢و] نشاهده وبين النارين لا يكاد يُقادَر قدره، فكأنّ ما نشاهِدُه منهما أسماءُ مسمّياتها في الآخرة، فبكرمه العميم نعوذ، وبكنفه الواسع نلوذ.

ويحتمل أن يكون ذلك تمثيلًا لِما يُحيط بجوهر النفس مِن الملَكات الرديّة والهيئات الموحشة، فتَجلب إليها الآلامَ والغموم؛ بل وأن يكون القَطران المذكور عينَ ما لابَسوه في هذه النشأة وجعلوه شِعارًا لهم مِن العقائد الباطلة والأعمال السيّئة المستجلِبة لفنون العذاب، قد تجسّدت في النشأة الآخرة بتلك الصورة المستتبِعة لاشتداد العذاب، عصمَنا الله سبحانه عن ذلك بمنّه ولطفه. وقُرئ: "مِن قَطْرٍ آنٍ"،[٤] أي: نُحاس مُذاب متناهٍ حرُّه.

﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: تعلوها وتحيط بها النار التي تمسّ جسدَهم المُسَرْبَلَ بالقَطران. وتخصيص الوجوه بالحُكم المذكور مع عمومه لسائر أعضائهم لكونها أعزَّ الأعضاء الظاهرةِ وأشرفَها، كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾... إلخ [الزمر، ٢٤/٣٩]، ولكونها مَجمع المشاعرِ والحواسّ

---

١ في الآية السابقة.

٢ في الآية السابقة.

٣ الأبهَل: شجر الغَرب: شجر كبير، ورقه كالطرفاء، وثمَره كالنبق، أو ورقه كالسرو، كثير الشوك، شجر العرعر أو ثمره، وهو شجر يستخرج منه القَطران. انظر: لسان العرب لابن منظور، «بهل»؛ ومعجم متن اللغة لأحمد رضا، «بهل».

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وسعيد بن جبير وعكرمة وزيد عن يعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٣.

التي خُلقت لإدراك الحقّ، وقد أعرضوا عنه، ولم يستعملوها في تدبّره، كما أنّ الفؤاد أشرف الأعضاء الباطنة ومحلُّ المعرفة، وقد مَلَئوها بالجهالات، ولذلك قيل: ﴿تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾ [الهمزة، ١٠٤/٧]، أو لخلوّها عن القَطران المغني عن ذكر غَشَيان النار لها. ولعلّ تخليتَها عنه ليتعارفوا عند انكشاف اللهَب أحيانًا، ويتضاعف عذابهم بالخِزي على رءوس الأشهاد.

وقُرئ: "تَغَشّى"،[١] أي: تتَغشّى، بحذف إحدى التاءين. والجملة نصب على الحاليّة، لا على أنّ الواو حاليّة؛ لأنّه مضارع مثبَت؛ بل على أنّها معطوفة على الحال، قاله أبو البقاء.[٢]

﴿لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ۝٥١﴾

﴿لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ﴾ متعلّق بمُضمَر، أي: يفعل بهم ذلك ليجزي ﴿كُلَّ نَفۡسٖ﴾ مجرمة ﴿مَّا كَسَبَتۡۚ﴾ مِن أنواع الكفر والمعاصي جزاءً موافقًا لعملها. وفيه إيذان بأنّ جزاءهم مناسب لأعمالهم. أو بقوله: ﴿بَرَزُواْ﴾[٣] على تقدير كونه معطوفًا على ﴿تُبَدَّلُ﴾،[٤] والضمير للخلق، وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾... إلخ[٥] اعتراض بين المتعلِّق والمتعلَّق به، أي: برزوا للحساب ليجزي الله كلَّ نفس مطيعة أو عاصية ما كسبت مِن خير أو شرّ. وقد اكتُفي بذكر عقاب العُصاة تعويلًا على شهادة الحال لا سيّما مع ملاحظة سبق الرحمة الواسعة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ إذ لا يشغله شأن عن شأن، فيتمّه في أعجل ما يكون مِن الزمان، فيوفّي الجزاء بحسبه، أو سريعُ المجيء يأتي عن قريب، أو سريعُ الانتقام كما قال ابن عبّاس رضي الله عنهما / في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [الرعد، ١٣/٤١].[٦] [٢٨٢ظ]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٣.

٢ انظر: التبيان لأبي البقاء العكبري، ٢/٧٧٥؛ واللباب لابن عادل، ١١/٤١٩.

٣ إبراهيم، ١٤/٤٨.

٤ إبراهيم، ١٤/٤٨.

٥ في الآية السابقة.

٦ التفسير البسيط للواحدي، ١٢/٣٨٥ (الرعد، ١٣/٤١)؛ اللباب لابن عادل، ١١/٣٢٣ (الرعد، ١٣/٤١).

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾

﴿هَٰذَا﴾ أي: ما ذُكر مِن قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا﴾[١] إلى قوله: ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[٢] ﴿بَلَٰغٌ﴾ كفاية في العِظة والتذكير مِن غير حاجة إلى ما انطوى عليه السورة الكريمة أو كلُّ القرآن المجيد مِن فنون العظات والقوارعِ. ﴿لِّلنَّاسِ﴾ للكفّار خاصّةً على تقدير اختصاص الإنذار بهم في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾،[٣] أو لهم وللمؤمنين كافّةً على تقدير شموله لهم أيضًا، وإن كان ما شُرِح مختصًّا بالظالمين.

﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ عطفٌ على مقدّر، و"اللام" متعلّقة بالبلاغ، أي: كفاية لهم في أن يُنْصَحُوا ويُنذَروا به، أو هذا بلاغ لهم ليفهموه ولِيُنذَروا به، على أنّ البلاغ بمعنى الإبلاغ، كما في قوله تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة، ٩٩/٥]، أو متعلّقة بمحذوف، أي: ولِيُنذَروا به أُنزل أو تُلِيَ. وقُرئ: "لِيَنْذَروا بِهِ"[٤] مِن "نذِر بالشيء" إذا علمه وحذِره واستعدّ له.

﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ﴾ بالتأمّل فيما فيه مِن الدلائل الواضحة التي هي إهلاك الأمم وإسكانُ آخَرين مساكنَهم وغيرُهما ممّا سبَق ولحِق ﴿أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لا شريكَ له. وتقديم الإنذار لأنّه الداعي إلى التأمّل المؤدّي إلى ما هو غاية له مِن العلم المذكور والتذكّر في قوله تعالى: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: ليتذكّروا ما كانوا يعملونه مِن قبلُ مِن التوحيد وغيرِه مِن شُئون الله عزّ وجلّ ومعاملته مع عباده، فيرتدعوا عمّا يُرْديهم مِن الصفات التي يتّصف بها الكفّار، ويتدرّعوا بما يُحْظِيهم مِن العقائد الحقّة والأعمال الصالحة.

وفي تخصيص التذكّر بـ"أولي الألباب" تلويح باختصاص العلم بالكفّار، ودلالةٌ على أنّ المشار إليه بهذا ما ذكرنا مِن القوارع المسوقة لشأنهم، لا كلُّ السورة المشتملة عليها وعلى ما سيق للمؤمنين أيضًا، فإنّ فيه ما يُفيدهم فائدة جديدةً.

---

١ إبراهيم، ٤٢/١٤.
٢ في الآية السابقة.
٣ إبراهيم، ٤٤/١٤.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن عمارة وأحمد بن يزيد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٣.

وحيث كان ما يفيده البلاغ مِن التوحيد وما يترتَّب عليه مِن الأحكام بالنسبة إلى الكفرة أمرًا حادثًا وبالنسبة إلى أولي الألباب الثباتَ على ذلك حسبما أشيرَ إليه عُبّر عن الأوّل بالعلم، وعن الثاني بالتذكّر، وروعي ترتيب الوجود، مع ما فيه مِن الختم بالحُسنى، والله سبحانه أعلم. ختمَنا الله بالسعادة والحُسنى، ورزقَنا الفوز بمَرضاته في الأولى والعُقبى، آمين.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة إبراهيم أُعطي مِن الأجر عشرُ حسنات بعدد مَن عبد الأصنام ومَن لم يعبُدْ».[1]

والحمد لله وحدَه.[2]

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٣٠٤؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٢٢. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

[2] وفي هامش م: إلى هنا انتهت المطالعة بفضل الله سبحانه وتعالى وقت الضحوة الكبرى مِن يوم الاثنين السادس مِن المحرّم المحترم، سنة ستّ وخمسين وتسعمائة، حامدًا لله تعالى ومصلّيًا على نبيّه عليه السلام، حسبنا الله تعالى ونعم الوكيل.

١٤

سورة إبراهيم

مكية إلاّ «ألم تر إلى الذين بدّلوا» الآيتين، إحدى أو ثنتان أو أربعٌ أو خمس وخمسون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿الر﴾ اللهُ أعلم بمُراده بذلك.

هـذا القُرآن ﴿كِتابٌ أنزَلْناهُ إلَيكَ﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿لِتُخرِجَ النّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ﴾: الكُفر ﴿إِلَى النُّورِ﴾: الإيمان ﴿بِإذنِ﴾: بأمر ﴿رَبِّهِم﴾، ويُبدل من «إلى النور»: ﴿إِلَى صِراطِ﴾: طريقِ ﴿العَزِيزِ﴾: الغالب ﴿الحَمِيدِ﴾: المحمود، ٢ ـ ٣ ـ ﴿اللهِ﴾ بالجرِّ: بدل أو عطف بيان وما بعده صِفة، والرفعِ: مبتدأ خبرُه: ﴿الَّذِي لَهُ ما في السَّماواتِ وما في الأَرضِ﴾ مُلكًا وخلقًا وعبيدًا،........................

سورة إبراهيم

قولُهُ: (هَذَا القُرْآنُ) أو هذه السُّورةُ.

قولُهُ: (بِأَمرِ) أو: بتوفيقِ.

قولُهُ: (وَيُبدَلُ) بتكريرِ العامِلِ.

قولُهُ: (المَحْمُودِ) وإضافَةُ الصِّراطِ إلى اللهِ لأنَّهُ مقصدُهُ، أو المظهِرُ له، وتخصِيصُ الوصفَينِ إشارةٌ إلى أنَّهُ لا يُذَلُّ سالكُهُ ولا يخيَّبُ سائلُهُ.

قولُهُ: (والرَّفعِ): نافعٌ وشاميٌّ[1].

قولُهُ: (مُبتَدَأٌ) أو ﴿اللهُ﴾ خبرُ محذوفٍ هو «هو»، و﴿الَّذي﴾ صفتُهُ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٦٢)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٧٦).

﴿وويلٌ لِلكافِرينَ مِن عَذابٍ شَدِيدٍ الَّذِينَ﴾: نعت ﴿يَستَحِبُّونَ﴾: يختارون ﴿الحَياةَ الدُّنيا على الآخِرةِ، ويَصُدُّونَ﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾: دِينِ الإسلام، ﴿ويَبغُونَها﴾ أي: السبيلَ ﴿عِوَجًا﴾: مُعْوَجّة. ﴿أُولئِكَ في ضَلالٍ بَعَيدٍ﴾ عن الحقّ.

٤ ـ ﴿وما أرسَلْنا مِن رَسُولٍ إلاّ بِلِسانِ﴾: بلغةِ ﴿قَومِهِ، لِيُبَيِّنَ لَهُم﴾: ليُفهّمهم ما أتى به، ﴿فيُضِلُّ اللهُ مَن يَشاءُ ويَهدِي مَن يَشاءُ ـ وهُوَ العَزِيزُ﴾ في مُلكه ﴿الحَكِيمُ﴾ في صُنعه ـ ٥ ـ ﴿ولَقَد أرسَلْنا مُوسَى بِآياتِنا﴾ التسع، وقلنا له: ﴿أَنْ أخرِجْ قَومَكَ﴾ بني إسرائيلَ ﴿مِنَ الظُّلُماتِ﴾: الكُفر ﴿إلَى النُّورِ﴾: الإيمان، ﴿وذَكِّرْهُم بِأيّامِ اللهِ﴾: بنِعَمِه. ﴿إنَّ في ذلِكَ﴾ التذكير ﴿لَآياتٍ لِكُلِّ صَبّارٍ﴾ على الطاعة ﴿شَكُورٍ﴾ للنِّعم.

٦ ـ ٧ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿إذ قالَ مُوسَى لِقَومِهِ: اذكُرُوا نِعْمةَ اللهِ علَيكُم، إذ أنجاكُم مِن آلِ فِرعَونَ، يَسُومُونَكُم سُوءَ العَذابِ، ويُذَبِّحُونَ أبناءَكُم﴾ المولودِين،..........................

قولُهُ: (نَعتٌ) فهو مجرورٌ، ويحتملُ النَّصبَ على الذَّمِّ، والرَّفعَ على أنَّهُ مبتدأٌ خبرُهُ: ﴿أولئكَ﴾.

قولُهُ: (مُعوَجَّةً) أو يَبغونَ لها زيغاً ليقدَحوا فيه، على الحذفِ والإيصالِ.

قولُهُ: (عَنِ الحَقِّ) أي: ضلُّوا عن الحقِّ ووقَعوا عنه بمراحلَ، والبعدُ في الحقيقةِ للضَّالِّ، فوصفَ به فعلَهُ للمُبالغَةِ.

قولُهُ: (لِيُفهِّمَهُمْ) بيسرٍ وسرعةٍ، ثمَّ ينقُلوهُ ويترجموهُ لغيرِهم، فإنَّهُم أولى النَّاسِ إليه بأن يَدعوهُم.

قولُهُ: (قُلْنَا) هذا التَّقديرُ غيرُ صحيحٍ؛ فإنَّ ﴿أنْ﴾ حينئذٍ لا يمكنُ أن تكونَ مصدريَّةً؛ لأنَّ المقولَ لا يكونُ إلَّا جملةً، ولا أن تكونَ مفسِّرةً؛ لأنَّها إنَّما تكونُ فيما فيه معنى القولِ لا في القولِ الصَّريحِ؛ فالصَّحِيحُ أنَّ ﴿أنْ﴾ مفسِّرةٌ؛ لأنَّ في الإرسالِ معنى القَولِ، أو مصدريَّةٌ بتقديرِ الباءِ، فإنَّ صيغَ الأفعالِ إنشائيَّةً أو خبريَّةً سواءٌ في الدَّلالةِ على المصدرِ، فيصحُّ أن يوصَلَ بها «أن» النَّاصبةُ.

قولُهُ: (نِعمِهِ) أو أنذرْهُم بوقائعِهِ الَّتي وقعَتْ على الأممِ الدَّارجةِ.

قولُهُ: (للنِّعَمِ) قيل: المرادُ: لكلِّ مؤمنٍ، وإنَّما عبَّرَ عنهم بذلك تنبيهاً على أنَّ الصَّبرَ والشُّكرَ عنوانُ المؤمنِ، ولذا قالَ ﷺ: «الإيمانُ نصفُهُ صبرٌ ونصفُهُ شكرٌ»[1].

---

(١) رواه الخرائطي في «فضيلة الشكر» (١٨)، والقضاعي في «مسنده» (١٥٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٢٦٤) من حديث يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه، قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (ص: ١٣٩٩) بعد أن عزاه لمسند الفردوس، قال: يزيد ضعيف.

﴿وِيَسْتَحيُونَ﴾: يَستبقُون ﴿نِساءَكُم﴾ لقول بعض الكهنة: إنّ مولودًا يُولد في بني إسرائيلَ يكون سببَ ذهابِ مُلكِ فِرعونَ ـ ﴿وفي ذلِكُم﴾: الإنجاءِ أو العذابِ ﴿بَلاءٌ﴾: إنعام أو ابتلاء، ﴿مِن رَبِّكُم عَظِيمٌ ـ وإذ تأذّنَ﴾: أعلمَ ﴿رَبُّكُم: لَئِنْ شَكَرتُم﴾ نعمتي بالتوحيد والطاعة ﴿لَأَزِيدَنَّكُم، ولَئِنْ كَفَرتُم﴾: جحدتم النِّعمة بالكُفر والمعصية لَأعذِّبنكم، دلّ عليه: ﴿إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ﴾.

٨ ـ ﴿وقالَ مُوسَى﴾ لقومه: ﴿إن تَكفُرُوا أنتُم ومَن في الأرضِ جَمِيعًا فإنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ﴾ عن خلقه ﴿حَمِيدٌ﴾: محمود في صُنعه بهم. ٩ ـ ﴿ألَم يأتِكُم﴾ ـ استفهامُ تقرير ـ ﴿نَبَأُ﴾: خبرُ ﴿الَّذِينَ مِن قَبلِكُم قَومِ نُوحٍ وعادٍ﴾: قومِ هودٍ ﴿وثَمُودَ﴾: قومِ صالح، ﴿والَّذِينَ مِن بَعدِهِم، لا يَعلَمُهُم إلاّ اللهُ﴾ لكثرتهم؟ ﴿جاءَتهُم رُسُلُهُم بِالبَيِّناتِ﴾: بالحُجج الواضحة على صِدقهم، ﴿فرَدُّوا﴾ أي: الأُممُ ﴿أيدِيَهُم في أفواهِهِم﴾ أي: إليها ليعضّوا عليها من شِدّة الغيظ، ....

قولُهُ: (أو ابتِلَاءٌ) لفٌّ ونشرٌ مرتَّبٌ.

قولُهُ: (﴿تَأَذَّنَ﴾) أي: أعلمَ؛ كتوعَّدَ بمعنى: أوعدَ.

قالَ تعالى: (﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1]) أي: نعمةً إلى نعمةٍ، قيلَ: لئن شكَرتُم هدايَتِي لأزيدنَّكم خدمَتِي، ولئنْ شكَرْتُم خدمَتِي لأزيدنَّكم ولايتِي، ولئن شَكَرْتُم ولايتِي لأزيدنَّكم مشاهَدتِي، ولئن شكَرْتُم مشاهَدتِي لأزيدنَّكم رُؤيَتِي[2].

قولُهُ: (دَلَّ عَلَيهِ) ومن عادَةِ أكرمِ الأكرَمينَ أن يصرِّحَ بالوَعدِ ويعرِّضَ بالوَعيدِ.

قولُهُ: (عَنْ خَلقِهِ) وشكرِهِم.

قولُهُ: (مَحمُودٌ) أو مستَحِقٌّ للحَمدِ في ذاتِهِ، يحمدُه الملائكةُ وينطقُ بنعتِهِ[3] ذرَّاتُ المخلوقاتِ، فما ضرَرتُم بالكُفرانِ إلَّا أنفسَكُم حيثُ حَرَمتُموها مزيدَ الإنعامِ وعرَّضتُموها للعَذابِ الشَّديدِ الإيلامِ.

قولُهُ: (اسْتِفهَامُ تَقْرِيرٍ) من كلامِ موسى، أو كلامٌ مبتدأٌ من اللهِ.

قولُهُ: (لِكَثرَتِهِم) أي: لا يعلمُ عددَهُم إلَّا هو، ولذا قالَ ابنُ مسعودٍ: كذبَ النَّسَّابونَ[4].

قولُهُ: (لِيَعَضُّوا) وقيل: المعنى: فردُّوا أيديَهُم إلى أفواهِ الأنبياءِ تسكيتاً لهم عن الإنباءِ[5].

---

(١) في (ص): «﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾».

(٢) هو من كلام ابن عطاء، انظر: «عرائس البيان» (٢/ ٢٥٥).

(٣) في (ص): «بنعمه».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠٥٩٢).

(٥) جاء بنحوه من قول الحسن، ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ٥٠٦)، وأبو حيان في «البحر المحيط» (٦/ ٤١٣).

﴿وقالُوا: إنّا كَفَرْنا بِما أُرسِلتُم بِهِ﴾ على زعمكم، ﴿وإنّا لَفِي شَكٍّ مِمّا تَدعُونَنا إلَيهِ مُرِيبٍ﴾: مُوقعٍ للرِّيبة.

١٠ ـ ﴿قالَتْ رُسُلُهُم: أفِي اللهِ شَكٌّ﴾، استفهام إنكار، أي: لا شكَّ في توحيده للدلائل الظاهرة عليه، ﴿فاطِرِ﴾: خالقِ ﴿السَّماواتِ والأرضِ، يَدعُوكُم﴾ إلى طاعته ﴿لِيَغفِرَ لَكُم مِن ذُنُوبِكُم﴾ ـ من: زائدةٌ، فإنّ الإسلام يُغفر به ما قبلَه، أو تبعيضيةٌ لِإخراج حُقوق العباد ـ ﴿ويُؤَخِّرَكُم﴾ بلا عذاب ﴿إلَى أجَلٍ مُسَمًّى﴾: أجلِ الموت؟ ﴿قالُوا: إن﴾: ما ﴿أنتُم إلاّ بَشَرٌ مِثلُنا، تُرِيدُونَ أن تَصُدُّونا عَمّا كانَ يَعبُدُ آباؤُنا﴾ من الأصنام. ﴿فائتُونَا بِسُلطانٍ مُبِينٍ﴾: حُجّة ظاهرة على صِدقكم.

١١ ـ ﴿قالَتْ لَهُم رُسُلُهُم: إنْ﴾: ما ﴿نَحنُ إلاّ بَشَرٌ مِثلُكُم﴾ كما قلتم، ﴿ولكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ﴾ بالنُّبوّة، ﴿وما كانَ﴾: ما ينبغي ﴿لَنا أن نأتِيَكُم بِسُلطانٍ إلاّ بِإذنِ اللهِ﴾: بأمره لأنّا عبيد مَربوبون. ﴿وعلَى اللهِ فلْيَتَوَكَّلِ المُؤمِنُونَ﴾: يثقوا به. ١٢ ـ ﴿وما لَنا ألاّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ﴾ أي: لا مانعَ لنا من ذلك، ﴿وقَد هَدانا سُبُلَنا؟ ولَنَصبِرَنَّ عَلَى ما آذَيتُمُونا﴾:........

قولُهُ: (لِلرِّيبَةِ) وهي قلقُ النَّفسِ، وأن لا تطمئنَّ إلى الشَّيءِ.

قولُهُ: (اسْتِفهَامُ) أُدخِلَت همزةُ الإنكارِ على الظَّرفِ؛ لأنَّ الكلامَ في المشكوكِ فيه لا في الشَّكِّ؛ أي: إنَّما نَدعوكُم إلى اللهِ، وهو لا يحتَمِلُ الشَّكَّ.

قولُهُ: (خَالِقِ) أو: مبدعِ، وهو صفةٌ أو بدلٌ، و﴿شكٌّ﴾ مرتفعٌ بالظَّرفِ.

قولُهُ: (إِلَى طَاعَتِهِ) ببعثِهِ إيَّانا.

قولُهُ: (بِلَا عَذَابٍ) أو تأخيراً حسناً.

قولُهُ: (أَجَلِ المَوْتِ) أي: إلى وقتٍ سمَّاهُ اللهُ وجعلَهُ آخرَ أعمارِكُم.

قولُهُ: (عَلَى صِدقِكُم) أي: على صحَّةِ ادِّعائكُمُ النُّبوَّةَ، كأنَّهُم لم يعتَبِروا ما جاؤوا به من البيِّناتِ والحججِ واقترَحوا عليهم آيةً أخرى تعنُّتاً ولجاجاً[1]، أو: على فضلِكُم واستِحقاقِكُم لهذه المزيَّةِ، وهو الأظهرُ.

قولُهُ: (بالنُّبوَّةِ) سلَّموا مشاركتَهُم في الجنسِ، وجعلُوا الموجِبَ لاختِصاصِهِم بالنُّبوَّةِ فضلَ اللهِ ومنَّه عليهم.

قولُهُ: (مِنْ ذَلكَ) أي: التَّوكُّلِ، أو: أيُّ عذرٍ لنا في تركِ التَّوكُّلِ.

---

(١) اللجاج: التمادي في الخصومة. «الصحاح» (١/ ٣٣٧).

على أذاكم. ﴿وعلَى اللهِ فلْيَتَوَكَّلِ المُتَوَكِّلُونَ﴾.

١٣ ـ ﴿وقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِم: لَنُخرِجَنَّكُم مِن أرضِنا، أو لَتَعُودُنَّ﴾: لتصيرُنّ ﴿في مِلَّتِنا﴾: دِيننا. ﴿فأوحَى إلَيهِم رَبُّهُم: لَنُهلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾: الكافرين، ١٤ ـ ﴿ولَنُسكِنَنَّكُمُ الأرضَ﴾: أرضهم ﴿مِن بَعدِهِم﴾: بعدِ هلاكهم. ﴿ذلِكَ﴾ النصر وإيراث الأرض ﴿لِمَن خافَ مَقامِي﴾ أي: مَقامَه بين يديّ، ﴿وخافَ وَعِيدِ﴾ بالعذاب.

١٥ ـ ﴿واستَفتَحُوا﴾: استنصر الرسل بالله على قومهم، ﴿وخابَ﴾: خسر ﴿كُلُّ جَبّارٍ﴾: مُتكبّر عن طاعة الله ﴿عَنِيدٍ﴾: مُعاند للحقّ، ١٦ ـ ﴿مِن وَرائِهِ﴾ أي: أمامِهِ ﴿جَهَنَّمُ﴾ يدخلها، ﴿ويُسقَى﴾ فيها ﴿مِن ماءٍ صَدِيدٍ﴾ ـ هو ما يَسيل من جَوف أهل النار مُختلطًا بالقَيح والدم ـ ١٧ ـ ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾: يبتلعه مرّة بعد مرّة لمرارته، ﴿ولا يَكادُ يُسِيغُهُ﴾: يَزدرده لقُبحه وكراهته،..........

قولُهُ: (عَلَى أَذَاكُم) يعني: ﴿ما﴾ مصدريَّةٌ.

قولُهُ: (لَتَصِيرُنَّ) يعني: العَوْدُ بمعنى الصَّيرورةِ؛ لأنَّهُم لم يكونُوا على ملَّتِهِم.

قولُهُ: (أَرضَهُم) وديارَهُم.

قولُهُ: (النَّصرُ... إلخ) أي: إشارةٌ إلى الموحَى به، وهو إهلاكُ الظَّالمينَ وإسكانُ المؤمنينَ.

قولُهُ: (أي: مَقَامَهُ) وقيل: المقامُ زائدٌ.

قولُهُ: (بالعَذَابِ) أو عَذابي الموعودَ للكفَّارِ، فعيلٌ بمعنى المفعولِ، وعلى الأوَّلِ مصدرٌ بمَعنى الإيعادِ.

قولُهُ: (خَسِرَ) أي: ففتحَ لهم فأفلحَ المؤمنُونَ وخابَ المشرِكونَ.

قولُهُ: (﴿مِنْ وَرَائِهِ﴾ أَي: أَمَامِه) أو خلفِه.

قولُهُ: (فِيهَا) عطفٌ على محذوفٍ تقديرُهُ: من ورائِهِ جهنَّمُ يُلقَى فيها ما يُلقَى ويُسْقَى، وأشارَ إلى هذا المقدَّرِ بقولِهِ: (يدخلُها).

قولُهُ: (هُوَ مَا يَسِيلُ) عطفُ بيانٍ[1] لـ﴿مَاءٍ﴾، وإنَّما سُمِّيَ ماءً لكونِهِ على صفتِهِ من السَّيلانِ.

قولُهُ: (مِنْ جوفِ) أو جلودِ.

قوله: (يَبتَلِعهُ) يتكلَّفُ جرعَهُ.

قولُهُ: (يَزدَرِدُهُ) أي: لا يقربُ أن يسيغَهُ فكيفَ يسيغُه، بل يغصُّ به فيطولُ عذابُهُ، والسَّوغُ: مجاوزةُ الشَّرابِ على الحلقِ بسهولةٍ وقبولِ نفسٍ[2].

---

(١) قوله: عطف بيان؛ أي: كلمة ﴿صديدٍ﴾ عطف بيان.

(٢) انظر: «تاج العروس» (٢٢/ ٥٠٧).

﴿ويأتِيهِ المَوتُ﴾، أي: أسبابه المُقتضية له من أنواع العذاب ﴿مِن كُلِّ مَكانٍ، وما هُوَ بِمَيِّتٍ، ومِن وَرائِهِ﴾: بعدِ ذلك العذابِ ﴿عَذابٌ غَلِيظٌ﴾: قويّ مُتّصل.

١٨ - ﴿مَثَلُ﴾: صِفةُ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِم﴾: مبتدأ، ويُبدَل منه: ﴿أعمالُهُم﴾ الصالحةُ كصِلةٍ وصدقة في عدم الانتفاع بها ﴿كَرَمادٍ اشتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ في يَومٍ عاصِفٍ﴾: شديدِ هُبوبِ الريح، فجعلتْه هباءً منثورًا لا يُقدر عليه. والمجرور خبر المبتدأ. ﴿لا يَقدِرُونَ﴾ أي: الكُفّار ﴿مِمّا كَسَبُوا﴾: عملوا في الدنيا ﴿عَلَى شَيءٍ﴾ أي: لا يجدون له ثوابًا لعدم شرطه. ﴿ذٰلِكَ هُوَ الضَّلالُ﴾: الهلاك ﴿البَعِيدُ﴾.

١٩ - ﴿أَلَم تَرَ﴾: تنظرْ يا مُخاطَبًا - استفهام تقرير - ﴿أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ بِالحَقِّ﴾؟: متعلقٌ بـ «خلقَ». ﴿إن يَشَأْ يُذهِبْكُم﴾ - أيُّها الناس - ﴿ويأتِ بِخَلقٍ جَدِيدٍ﴾ بدلَكم، ٢٠ - ﴿وما ذٰلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾: شديد.

قالَ تعالى: (﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾) أي: من جسدِهِ حتَّى من أصولِ شعرِهِ وإبهامِ رجليهِ، وقيلَ: من جميعِ الجهاتِ، (﴿وما هو بميِّتٍ﴾) فيستريحَ.

قولُهُ: (بَعدَ ذَلِكَ) أو من بينِ يديهِ عذابٌ؛ أي: يستقبلُ في كلِّ وقتٍ عذاباً أشدَّ ممَّا هو عليه، وقيلَ: حبسُ الأنفاسِ.

قولُهُ: (الصَّالِحَةُ) أي: صورةً، أو احترازٌ ممَّا قيل: ﴿أعمالُهُمْ﴾ للأصنامِ.

قولُهُ: (وَصَدَقَةٍ) وإغاثةِ ملهوفٍ ونحوِ ذلك من مكارمِهِم؛ لبنائِها على غَيرِ أساسٍ من معرفةِ اللهِ والتوجُّهِ بها إليه.

قالَ تعالى: (﴿اشتَدَّتْ بِهِ﴾) أي: حملَتهُ وأسرعَتِ الذَّهابَ به، وقرأَ نافعٌ: ﴿الرِّياحُ﴾[1].

قولُهُ: (أي: الكُفَّارُ) يومَ القيامةِ.

قولُهُ: (لِعَدَمِ شَرطِهِ) وهو الإيمانُ، أو الإخلاصُ، أو لأنَّهُم جُوزوا به في الدُّنيا.

قولُهُ: (تَنظُرْ) نظرَ اعتبارٍ.

قولُهُ: (مُتعَلِّقٌ بـ﴿خَلَقَ﴾) وقرأَ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿خالِقُ﴾ مضافاً[2].

قولُهُ: (شَدِيدٍ) أي: متعذِّرٍ أو متعسِّرٍ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ١٧٣)، و«الحجة للقراء السبعة» (٢/ ٢٤٩).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٦٢).

٢١ ـ ﴿وبَرَزُوا﴾ أي: الخلائق ـ والتعبير فيه وفيما بعده بالماضي لتحقّق وقوعه ـ ﴿لِلهِ جَمِيعًا، فقالَ الضُّعَفاءُ﴾: الأتباع ﴿لِلَّذِينَ استَكبَرُوا﴾ المتبوعين: ﴿إنّا كُنّا لَكُم تَبَعًا﴾: جمع تابع. ﴿فهَل أنتُم مُغنُونَ﴾: دافعون ﴿عَنّا مِن عَذابِ اللهِ مِن شَيءٍ﴾؟ مِن الأُولى: للتبيين، والثانية: للتبعيض. ﴿قالُوا﴾ أي: المتبوعون: ﴿لَو هَدانا اللهُ لَهَدَيناكُم﴾: لدعوناكم إلى الهُدى. ﴿سَواءٌ علَينا أجَزِعنا أم صَبَرنا. ما لَنا مِن﴾: زائدةٌ ﴿مَحِيصٍ﴾: مَلجأ.

٢٢ ـ ﴿وقالَ الشَّيطانُ﴾ إبليس، ﴿لَمّا قُضِيَ الأمرُ﴾ وأُدخل أهلُ الجنّةِ الجنّةَ وأهلُ النار النارَ، واجتمعوا عليه: ﴿إنَّ اللهَ وَعَدَكُم وَعدَ الحَقِّ﴾ بالبعث والجزاء فصدقكم، ﴿ووَعَدتُكُم﴾ أنه غير كائن ﴿فأخلَفتُكُم، وما كانَ لِي علَيكُم مِن﴾: زائدةٌ ﴿سُلطانٍ﴾: قُوّة وقُدرة أقهركم على متابعتي، ﴿إلّا﴾: لكنْ ....

قولُهُ: (أي: الخَلَائِقُ) من قبورِهم يومَ القيامةِ لأمرِ اللهِ ومحاسبتِهِ.

قولُهُ: (الأتبَاعُ) جمعُ: ضعيفٍ، يريدُ: ضعافَ الرَّأي.

قولُهُ: (جَمْعُ تَابِعٍ) كخادمٍ وخَدَمٍ، أو مصدرٌ نُعتَ به للمُبالغةِ، أو على إضمارِ مُضافٍ؛ أي: ذوي تبعٍ.

قولُهُ: (للتَّبيِينِ) واقعةٌ موقعَ الحالِ.

قولُهُ: (للتَّبعِيضِ) واقعةٌ موقعَ المفعولِ، أو زائدةٌ.

قولُهُ: (لَدَعَونَاكُمْ) ولكن ضَلَلنا فأضلَلناكُم؛ أي: اختَرْنا لكم ما اختَرْنا لأنفُسِنا.

قولُهُ: (مَلجَأ) ومَنجًى ومهربٍ من العَذابِ.

قالَ تعالى: (﴿لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ﴾) أي: أُحكمَ وفُرغَ منه.

قولُهُ: (وَاجْتَمَعُوا) أي: أهلُ النَّارِ خطيباً في الأشقِياءِ من الثَّقلينِ.

قولُهُ: (أَنَّهُ) أي: ما ذُكرَ من البعثِ والجزاءِ.

قولُهُ: (غَيرُ كَائِنٍ) وأن كانَ فالأصنامُ تشفَعُ لكم؛ يعني: وعدَ الباطلِ.

وقولُهُ: (﴿فَأَخْلَفْتُكُم﴾) جعلَ تبيُّنَ خلفِ وعدِهِ كالإخلافِ منه.

قولُهُ: (أَقهَرُكُم) وألجِئُكم.

قولُهُ: (لَكِنْ) يعني: استثناءٌ منقَطعٌ، قالَ البغويُّ: تقديرُهُ: لكن دعوتُكُم[1]، ففيه إشارةٌ إلى زيادةِ ﴿أن﴾.

(١) انظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٣٦).

﴿أَنْ دَعَوتُكُم فاستَجَبتُم لِي. فلا تَلُومُونِي ولُومُوا أنفُسَكُم﴾ على إجابتي. ﴿ما أنا بِمُصرِخِكُم﴾: بمُغيثكم، ﴿وما أنتُم بِمُصرِخِيَّ﴾، بفتح الياء وكسرها. ﴿إنِّي كَفَرتُ بِما أشرَكتُمُونِي﴾: بإشراككم إياي مع الله ﴿مِن قَبلُ﴾ في الدنيا. قال تعالى: ﴿إنَّ الظَّالِمِينَ﴾: الكافرين ﴿لَهُم عَذابٌ أَلِيمٌ﴾: مُؤلم.

٢٣ ـ ﴿وأُدخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ، تَجرِي مِن تَحتِها الأنهارُ خالِدِينَ﴾: حالٌ مُقدَّرة ﴿فِيها بِإذنِ رَبِّهِم، تَحِيَّتُهُم فِيها﴾ من الله ومن الملائكة وفيما بينهم ﴿سَلامٌ﴾.

٢٤ ـ ٢٥ ـ ﴿أَلَم تَرَ﴾: تنظرْ: ﴿كَيفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً﴾، ويُبدل منه ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ أي: لا إلـٰـه إلاّ الله،...

وقولُهُ: (﴿فاسْتَجَبْتُمْ﴾) أي: أسرعْتُم إجابَتِي فلا تلوموني بوسوَسَتِي، فإنَّ من صرَّحَ العَداوةَ لا يلامُ بأمثالِ ذلك.

قولُهُ: (عَلى إجَابَتِي) وتركِ إجابةِ ربِّكُم.

قولُهُ: (بمُغيثِكُم) من العَذابِ.

قولُهُ: (بفَتحِ اليَاءِ وكَسرِهَا) كذا في نسخةٍ، وهو الصَّوابُ، فقرأ حمزةُ: بالكسرِ، والباقونَ: بالفتحِ[1]، وفي بعضِ النُّسخِ: بفتحِ الياءِ وسكونِها، فلعلَّ السُّكونَ قراءةٌ شاذَّةٌ[2]، أو أرادَ حالةَ الوقفِ.

قولُهُ: (بإشْرَاكِكُم إيَّايَ) قرأ أبو عمرٍو: بإثباتِ الياءِ وصلًا[3]، ففي كلامِهِ إشارةٌ إلى أنَّ (ما) مصدريَّةٌ، و﴿مِن﴾ متعلِّقةٌ بـ﴿أشركتُمُوني﴾؛ أي: كفَرتُ اليومَ بإشراكِكُم إيَّايَ من قبلِ هذا اليومِ في الدُّنيا، بمعنى: تبرَّأتُ منه واستنكرتُهُ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

قولُهُ: (الكَافِرِيْنَ) تتمَّةُ كلامِهِ، أو ابتِداءُ كلامٍ من اللهِ تعالى، وفي حكايةِ أمثالِ ذلك لطفٌ للسَّامعينَ وإيقاظٌ لهم حتَّى يحاسِبوا أنفسَهُم، ويتدبَّرُوا عواقبَهُم، وإعلامٌ بأنَّ اللهَ يعلمُ أحوالَ مبدئهِم ومعادِهِم.

قولُهُ: (مِنَ اللَّهِ ومِنَ المَلَائِكَةِ) كما في نسخةٍ.

قولُهُ: (وَيُبدَلُ مِنهُ) و﴿كَشَجَرَةٍ﴾ صفتُها.

قولُهُ: (أَيْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) أي: كلمةُ التَّوحيدِ، وقيلَ: دعوةُ الإسلامِ، أو القرآنُ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٦٢)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٧٧).

(٢) لم أقف عليها في القراءات الشاذة.

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٦٤).

﴿كَشَجَرةٍ طَيِّبةٍ﴾ هي النخلة، ﴿أصلُها ثابِتٌ﴾ في الأرض ﴿وفرعُها﴾: غُصنها ﴿في السَّماءِ، تُؤتِي﴾: تُعطي ﴿أُكُلَها﴾: ثمرها ﴿كُلَّ حِينٍ بِإذنِ رَبِّها﴾: بإرادته؟ كذلك كلمة الإيمان ثابتة في قلب المؤمن، وعملُه يصعد إلى السماء ويناله بركته وثوابه كُلَّ وقت. ﴿ويَضرِبُ﴾: يُبيِّن ﴿اللهُ الأمثالَ لِلنّاسِ، لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرُونَ﴾: يتّعظون فيؤمنون.

٢٦ ـ ﴿ومَثَلُ كَلِمةٍ خَبِيثةٍ﴾ ـ هي كلمة الكُفر ـ ﴿كَشَجَرةٍ خَبِيثةٍ﴾ هي الحَنظَل، ﴿اجتُثَّتْ﴾: استُؤصلتْ ﴿مِن فَوقِ الأرضِ، مالَها مِن قَرارٍ﴾: مُستقَرّ وثبات. كذلك كلمة الكُفر لا ثبات لها ولا فرع ولا بركة. ٢٧ ـ ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَولِ الثّابِتِ﴾ ـ هو كلمة التوحيد ـ ﴿في الحَياةِ الدُّنيا وفي الآخِرةِ﴾ أي: في القبر لمّا يسألُهم الملَكانِ عن ربّهم ودِينهم ونبيّهم، فيُجيبون بالصواب كما في حديث الشيخين، ﴿ويُضِلُّ اللهُ الظّالِمِينَ﴾: الكُفّار فلا يهتدون إلى الجواب بالصواب ـ بل يقولون: «لا ندري» كما في الحديث ـ ﴿ويَفعَلُ اللهُ ما يَشاءُ﴾.

قولُهُ: (هيَ النَّخلَةُ) رُوِيَ ذلك مرفوعاً[1].

قولُهُ: (فِي الأَرضِ) ضاربٌ بعروقِهِ فيها.

قولُهُ: (غُصنُهَا) وأعلاها.

قالَ تعالى: (﴿كُلَّ حِينٍ﴾) وقّتَهُ اللهُ لإثمارِها.

قولُهُ: (بِإرَادَتهِ) وتكوينِهِ.

قولُهُ: (فيُؤمِنُونَ) لأنَّ في ضَربِها زيادةَ إفهامٍ وتذكيرٍ؛ فإنَّهُ تصويرٌ للمَعاني وتقريبٌ لها إلى الحسِّ.

قولُهُ: (اسْتُؤصِلَتْ) وأُخذَت جثَّتُهُ بالكلِّيَّةِ.

قالَ تعالى: (﴿مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ﴾) لأنَّ عروقَها قريبةٌ منه.

قولُهُ: (مُستقَرٌّ) أي: استقرارٍ.

قولُهُ: (هُو كَلِمَةُ التَّوحِيدِ) الَّذي ثبتَ بالحجَّةِ عندهُم وتمكَّنَ في قلوبِهِم.

قالَ تعالى: (﴿وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾) من تثبيتِ بعضٍ وإضلالِ بعضٍ من غَيرِ اعتراضٍ[2] عليه.

---

(١) رواه الترمذي (٣١١٩)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١١٩٨)، وأبو يعلى في «مسنده» (٤١٦٥)، والطبري في «تفسيره» (٢٠٦٧٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٧٥)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣٤١) من حديث أنس رضي الله عنه. ورجح الترمذي وقفه. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي.

(٢) في (م): «إعراض».

٢٨ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: تنظر ﴿إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ﴾ أي: شكرها ﴿كُفْرًا﴾، هم كفّار قريش، ﴿وَأَحَلُّوا﴾: أنزلوا ﴿قَوْمَهُمْ﴾ بإضلالهم إياهم ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾: الهلاك، ٢٩ ـ ﴿جَهَنَّمَ﴾: عطفُ بيان ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يدخلونها، ﴿وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ المقرُّ هي! ٣٠ ـ ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾: شركاء ﴿لِيُضِلُّوا﴾ ـ بفتح الياء وضمّها ـ ﴿عَن سَبِيلِهِ﴾: دين الإسلام؟ ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿تَمَتَّعُوا﴾ بدنياكم قليلاً. ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ﴾: مرجعكم ﴿إِلَى النَّارِ﴾.

٣١ ـ ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا، يُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً، مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ﴾: فِداءَ ﴿فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾: مُخالَّةٌ أي: صداقة تنفع، هو يوم القيامة.

٣٢ ـ ٣٣ ـ ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ﴾: السُّفن ﴿لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ﴾ بالركوب والحمل ﴿بِأَمْرِهِ﴾: بإذنه، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾:..................

قولُهُ: (أي: شُكرَها) بأن وضعوا مكانَهُ[1].

قولُهُ: (بفتحِ الياءِ): مكّيٌّ وبصريٌّ[2]، واللَّامُ للعاقبةِ.

قولُهُ: (بدُنياكُم) أي: بشهواتِكُم، أو بعبادةِ[3] الأوثانِ، والأمرُ للتَّهديدِ.

قالَ تعالى: (﴿يُقِيمُوا﴾) مفعولُ ﴿قُلْ﴾ محذوفٌ يدلُّ عليه جوابُهُ؛ أي: قُل لعِبادِيَ الَّذينَ آمَنوا: أقيموا الصَّلاةَ وأنفقوا، ويجوزُ أن يُقدَّرا بلامِ الأمرِ ليصحَّ تعلُّقُ القولِ بهما.

وقولُهُ تعالى: (﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾) منصوبانِ على المصدرِ؛ أي: إنفاقَ سرٍّ وعلانيةٍ، أو على الحالِ؛ أي: ذوي سرٍّ وعلانيةٍ، أو على الظَّرفِ؛ أي: وقتي سرٍّ وعلانيةٍ، والأحبُّ: إعلانُ الواجبِ وإخفاءُ المتطوَّعِ به.

قولُهُ: (فِداء) أي: فيبتاعُ المقصِّرُ ما يتداركُ به تقصيرَهُ أو يفدي به نفسَهُ.

قولُهُ: (مُخالَّة) وفي قراءةِ مكّيٍّ وبصريٍّ: بالفتحِ فيهما على النَّفيِ العامِّ[4].

قولُهُ: (أي: صَداقة تَنفَعُ) فيشفعَ خليلٌ، أو من قبلِ أن يأتيَ يومٌ لا انتفاعَ فيه بمبايعةٍ ولا مخالَّةٍ، وإنَّما يُنتفعُ فيه بالإنفاقِ لوجهِ اللهِ، ويمكنُ أن يُقالَ: معناهُ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ـ٨٩].

---

(١) كذا في النسخ، وفي «تفسير البيضاوي» (٣/ ١٩٩): «بأن وضعوه مكانه».

(٢) انظر: «حجة القراءات» (ص: ٣٧٨).

(٣) في (ص): «بعبادتكم».

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ١٨٧).

جاريَين في فلكهما لا يفترُان، ﴿وسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيلَ﴾ لتسكنوا فيه، ﴿والنَّهارَ﴾ لتبتغوا فيه من فضله، ٣٤ ـ ﴿وآتاكُم مِن كُلِّ ما سألتُمُوهُ﴾ على حسَب مصالحكم. ﴿وإن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ﴾، بمعنى إنعامه، ﴿لا تُحصُوها﴾: لا تُطيقوا عدّها. ﴿إنَّ الإنسانَ﴾: الكافرَ ﴿لَظَلُومٌ كَفّارٌ﴾: كثير الظلم لنفسه بالمعصية والكُفر لنِعمة ربه.

٣٥ ـ ٣٦ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿إذ قالَ إبراهِيمُ: رَبِّ، اجعَلْ هذا البَلَدَ﴾ مكّةَ ﴿آمِنًا﴾: ذا أمنٍ ـ وقد أجاب الله دُعاءَه فجعله حَرمًا لا يُسفك فيه دم إنسان، ولا يُظلم فيه أحد، ولا يُصاد صيده ولا يُختلى خَلاه ـ ﴿واجنُبْني﴾: بعّدْني ﴿وبَنِيَّ﴾ عن ﴿أن نَعبُدَ الأصنامَ. رَبِّ، إنَّهُنَّ﴾ أي: الأصنامَ ﴿أضلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النّاسِ﴾ بعِبادتهم لها. ﴿فمَن تَبِعَني﴾ على التوحيد ﴿فإنَّهُ مِنِّي﴾: من أهل دِيني، ﴿ومَن عَصاني فإنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾..

قولُهُ: (جَارِيَينِ) يدأبانِ ويدومانِ في سيرِهما وإنارتِهما وإصلاحِ ما يصلحانِهِ من المكوَّناتِ.

قولُهُ: (عَلَى حَسبِ مَصَالِحِكُم) أي: بعضَ جميعِ ما سألتُموهُ؛ يعني: من كلِّ شيءٍ سألتُموهُ شيئاً، فإنَّ الموجودَ من كلِّ صنفٍ بعضُ ما في قدرةِ[1] اللهِ، ولعلَّ المرادَ بـ﴿ما سألْتُموهُ﴾: ما كانَ حقيقاً بأن يُسأَلَ لاحتياجِ النَّاسِ إليه سُئلَ أو لم يُسأَلْ. ويمكنُ أن يكونَ المرادُ السُّؤالَ بلسانِ القالِ أو الاستعدادِ والحالِ، و﴿ما﴾ موصولةٌ أو موصوفةٌ أو مصدريَّةٌ، والمصدرُ بمعنى المفعولِ.

قولُهُ: (بمَعنَى إنعَامِهِ) الظَّاهرُ أنَّ المرادَ بالنِّعمةِ: الاسمُ لا المصدرُ.

قولُهُ: (عَدَّهَا) أي: عدَّ أنواعِها فضلاً من أفرادِها، فإنَّها غيرُ متناهيةٍ.

(﴿كفَّارٌ﴾): شديدُ الكفرانِ.

وقيلَ: ظلومٌ في الشِّدَّةِ يشكو أو يجزعُ، كفَّارٌ في النِّعمةِ يجمعُ ويمنعُ.

قولُهُ: (كَثِيرُ الظُّلمِ... إلخ) أو يظلمُ النِّعمةَ بإغفالِ شُكرِها، أو يظلمُ نفسَهُ بأن يعرِّضَها للحِرمانِ.

قولُهُ: (ذَا أَمْنٍ) لمن فيها.

قولُهُ: (بَعِّدْنِي) واجعَلْني في جانبٍ.

قولُهُ: (﴿وبَنِيَّ﴾) أي: من أصلابي.

قولُهُ: (بعبادَتِهِمْ) وإسنادُ الإضلالِ إليهنَّ باعتِبارِ السَّببيَّةِ، كقولِهِ: ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠].

(١) في (ص): «بعض ما قدره».

هذا قبلَ عِلمه أنه ـ تعالى ـ لا يَغفِر الشِّرك.

٣٧ ـ ﴿رَبَّنا، إِنِّيٓ أَسكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي: بعضَها ـ وهو إسماعيل مع أُمّه هاجَرَ ـ ﴿بِوادٍ غَيرِ ذِي زَرعٍ﴾، هو مكّة، ﴿عِندَ بَيتِكَ المُحَرَّمِ﴾ الذي كان قبل الطوفان، ﴿رَبَّنا، لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ. فاجعَلْ أفئِدةً﴾: قُلوبًا ﴿مِنَ النّاسِ تَهوِي﴾: تَميلُ وتَحِنّ ﴿إِلَيهِم﴾........

قولُهُ: (هذَا قَبلَ عِلْمِهِ) فيه، أو بعد التَّوفيقِ للتَّوبةِ، ويمكنُ حملُ العصيانِ على ما عدا الشِّركِ، والتَّبعيَّةِ على كَمالِ المتابعةِ، وتقييدُ المغفرةِ بالمشيئةِ، واللهُ أعلمُ بمرادِهِ.

قولُهُ: (هُوَ مَكَّةُ) فإنَّ واديها حجرةٌ لا تُنبِتُ، قيل: الحكمةُ فيه أنَّهُ لا يشتغلُ بالزِّراعةِ عمَّا وضعَ البيتُ لها من العبادةِ والطَّاعةِ، أو لا يعتَمِدُ على الزِّراعةِ بل على اللهِ بطريقِ الضَّراعةِ، قالَ ابنُ عطاءٍ: أسكنتُهم وادياً لا متعلَّقَ لي ولا علاقَ لهم سواكَ.

أو لأن يُجبَى إليهم ثمراتُ كلِّ شيءٍ رزقاً من لدنَّا، إظهاراً للقُدرةِ الكاملةِ والحكمَةِ البالغةِ.

قولُهُ: (الَّذِي كَانَ) فمعنى المحرَّمِ: الذي منعَ منه الطُّوفانُ فلم يستولِ عليه، ولذلك سُمِّي عتيقاً؛ أي: أُعتِقَ منه، أو معناهُ: الَّذي حرَّمتَ التَّعرُّضَ له والتَّهاونَ به، أو لم يزَل معظَّماً ممنَّعاً تهابُهُ الجبابرةُ، رُوِيَ: أنَّ هاجرَ كانت لسارةَ فوهبَتْها من إبراهيمَ فولدَتْ منه إسماعيلَ، فغارَتْ عليهما، فناشدَتهُ أن يُخرِجَهما من عندَها، فأخرجَهُما إلى أرضِ مكَّةَ، فأظهرَ اللهُ عينَ زمزمَ، ثمَّ إنَّ جُرْهمَ رأوا ثَمَّ طيوراً فقالُوا: لا طيرَ إلَّا على الماءِ، فقصَدوهُ فرأوهُما وعندَهُما عينٌ فقالُوا: أشرِكيْنا في مائكِ نشركْكِ في ألبانِنا، ففعلَتْ[1].

واللَّامُ في ﴿لِيُقِيمُوا﴾ لامُ كي، وهي متعلِّقةٌ بـ﴿أَسْكَنْتُ﴾؛ أي: ما أسكنتُهم بهذا الوادِي إلَّا لإقامةِ الصَّلاةِ عند بيتِكَ المحرَّمِ.

وقيل: لامُ الأمرِ، والمرادُ: الدُّعاءُ لهم.

قولُهُ: (قُلُوباً) أي: أفئدةً من أفئدةِ النَّاسِ، و﴿مِن﴾ للتَّبعيضِ، ولذلكَ قيل: لو قالَ: أفئدةَ النَّاسِ لازدحمَتْ عليهم فارسُ والرُّومُ، ولحجَّتِ اليهودُ والنَّصارى.

ويمكنُ أن يكونَ المعنى: خلاصةً وزبدةً من النَّاسِ.

قولُهُ: (تَمِيلُ) أو تسرعُ إليهم شَوقاً ووداداً.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٢٠١). ورواه البخاري (٣٣٦٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، لكن فيه: فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم، ولكنْ لا حقَّ لكم في الماء، قالوا: نعم.

ـ قال ابن عبّاس: لو قال «أفئدةَ الناسِ» لحنّت إليه فارسُ والروم والناس كُلّهم ـ ﴿وارزُقْهُم مِنَ الثَّمَراتِ، لَعَلَّهُم يَشكُرُونَ﴾. وقد فعَلَ بنقل الطائف إليه.

٣٨ ـ ﴿رَبَّنا، إنَّكَ تَعلَمُ ما نُخفِي﴾: نُسِرّ ﴿وما نُعلِنُ، وما يَخفَى علَى اللهِ مِن﴾: زائدةٌ ﴿شَيءٍ في الأرضِ ولا في السَّماءِ﴾. يحتمل أن يكون من كلامه ـ تعالى ـ أو كلام إبراهيم. ٣٩ ـ ٤٠ ـ ﴿الحَمدُ لِلهِ الَّذي وَهَبَ لِي﴾: أعطاني ﴿علَى﴾: معَ ﴿الكِبَرِ إسماعِيلَ﴾ ـ وُلِدَ وله تسعٌ وتسعون سنةً ـ ﴿وإسحاقَ﴾ وُلد وله مِائَةٌ وثِنتا عَشْرةَ سنةً. ﴿إنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ. رَبِّ، اجعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ و﴾ اجعلْ ﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾ من يُقيمها ـ وأتى بـ «مِن» لإعلام الله ـ تعالى ـ له أنّ منهم كُفّارًا ـ ﴿رَبَّنا وتَقَبَّلْ دُعائِي﴾ المذكورَ. ٤١ ـ ﴿رَبَّنا، اغفِرْ لِي ولِوالِدَيَّ﴾ ـ هذا قبل أن يتبيّن له عداوتهما لله عزّ وجلّ. وقيل: أسلمتْ أُمّه. وقُرِئَ: «والِدِي» مُفردًا و«وَلَدَيَّ» ـ ﴿ولِلمُؤمِنِينَ يَومَ يَقُومُ﴾: يَثبُتُ ﴿الحِسابُ﴾.

قولُهُ: (إِلَيهِ) أي: إلى قربِهِ يجبى إليه ثمراتُ كلِّ شيءٍ، قالَ القاضِي: حتَّى يوجدَ فيه الفواكِهُ الرَّبيعيَّةُ والصَّيفيَّةُ والخريفيَّةُ في يومٍ واحدٍ[1].

قولُهُ: (﴿مِنْ﴾ زَائِدَةٌ) للاستغراقِ.

قالَ تعالى: (﴿لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾) أي: مجيبُهُ.

قولُهُ: (اجعَلْ) يعني: عطفٌ على المنصُوبِ في ﴿اجعلْنِي﴾، والتَّبعيضُ لعلمِهِ بإعلامِ اللهِ أو استقراءِ عادتِهِ سبحانَهُ في الأممِ الماضيةِ أن يكونَ في ذرِّيَّتِه كفَّارٌ.

قولُهُ: (المَذكُورَ) وغيرَه، أو: عبادَتِي.

قولُهُ: (عدَاوَتهُمَا) وقيل: أرادَ بهما آدمَ وحوَّاءَ.

قولُهُ: (أَسْلمَتْ أُمُّه) وفي أبيهِ خلافٌ، والصَّحيحُ أنَّهُ ماتَ كافراً.

قولُهُ: (مُفْرَداً) فيحتملُ أحدَهُما، والظَّاهرُ: أنَّه أبوهُ.

قولُهُ: (و: وَلَدَيَّ) فلا إشكالَ، وقُرِئَ: (ولأَبَويَّ)[2] ويمكنُ أن يكونَ: وأبويَّ وذرِّيَّتي، فيكونُ المرادُ ولديهِ إسماعيلَ وإسحاقَ.

قولُهُ: (يَثبُتُ) مستَعارٌ مِنَ القيامِ على الرِّجلِ؛ كقولِهِم: قامَتِ الحربُ على ساقٍ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٢٠١).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٣) عن أبيٍّ رضي الله عنه.

٤٢ ـ قال تعالى: ﴿ولا تَحسِبَنَّ اللهَ غافِلاً عَمّا يَعمَلُ الظّالِمُونَ﴾: الكافرون من أهل مكّة. ﴿إنَّما يُؤَخِّرُهُم﴾ بلا عذاب ﴿لِيَومٍ تَشخَصُ فِيهِ الأبصارُ﴾ لهول ما ترى ـ يقال: شَخَصَ بصرُ فُلانٍ، أي: فتحه فلم يُغمضه ـ ٤٣ ـ ﴿مُهطِعِينَ﴾: مُسرِعِينَ حالٌ ﴿مُقنِعِي﴾: رافعِي ﴿رُؤُوسِهِم﴾ إلى السماء، ﴿لا يَرتَدُّ إلَيهِم طَرْفُهُم﴾: بصرهم، ﴿وأفئِدَتُهُم﴾: قُلوبهم ﴿هَواءٌ﴾: خالية من العقل لفزعهم.

٤٤ ـ ﴿وأنذِرِ﴾: خوِّفْ ـ يا مُحمّد ـ ﴿النّاسَ﴾: الكُفّار ﴿يَومَ يأتِيهِم العَذابُ﴾ هو يوم القيامة، ﴿فيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: كفروا: ﴿رَبَّنا، أخِّرْنا﴾ بأن تردّنا إلى الدنيا ﴿إلَى أجَلٍ قَرِيبٍ، نُجِبْ دَعوَتَكَ﴾ بالتوحيد، ﴿ونَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾. فيقال لهم توبيخًا: ﴿أوَلَم تَكُونُوا أقسَمتُم﴾: حلفتم ﴿مِن قَبلُ﴾ في الدنيا، ﴿ما لَكُم مِن﴾: زائدةٌ ﴿زَوالٍ﴾ عنها إلى الآخرة،..........................

قولُهُ: (الكَافِرُونَ) قيلَ: إنَّه تسليةٌ للمَظلومِ وتهديدٌ للظَّالمِ.

قولُهُ: (بلَا عَذَابٍ) أو يؤخِّرُ عذابَهُم.

قولُهُ: (فلَمْ يُغمِضْهُ) أي: أبصارُهُم.

قولُهُ: (مُسْرِعِينَ) إلى الدَّاعي.

قولُهُ: (بَصَرهُمْ) بل بقيَت عيونُهُم شاخصَةً لا تطرفُ.

قولُهُ: (خَالِيَةٌ) يعني: الهواءُ بمعنى الخلاءِ، وهو بمعنى الخاليَةِ.

قولُهُ: (لفَزَعِهِمْ) وحيرتِهِم ودهشتِهِم.

قولُهُ: (يَومُ القِيَامةِ) أو يومُ الموتِ؛ فإنَّهُ أوَّلُ أيَّامِ عذابِهِم، وهو مفعولٌ ثانٍ لـ﴿أَنْذِرِ﴾.

قولُهُ: (بِأَنْ تَرُدَّنَا) أو أخِرِ العذابَ عنَّا وردَّنا إلى الدُّنيا وأمهِلْنا إلى حدٍّ من الزَّمانِ قريبٍ، أو أخِّر آجالَنَا وأبقِنا مقدارَ ما نؤمنُ بك.

قولُهُ: (زَائِدَةٌ) و﴿مَا لَكُمْ﴾ جوابُ القسَمِ جاءَ بلفظِ الخِطابِ على المطابقةِ دونَ الحكايةِ، وإلَّا لقيل: ما لنا، والمعنى: إنَّكُم أقسمْتُم أنَّكُم باقونَ في الدُّنيا لا تُزالونَ بالموتِ، ولعلَّهُم أقسَموا بطراً وغروراً، ودلَّ عليه حالُهُم حيثُ بَنوا شديداً وأمَّلوا بعيداً.

وقيل: أقسَموا أنَّهُم لا ينتقلونَ إلى دار أُخرَى، وأنَّهُم إذا ماتُوا لا يُزالونَ عن تلك الحالةِ إلى حالةٍ أخرى؛ كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨] وقولُ الشَّيخِ: (﴿زوالٍ﴾ عنهَا إلى الآخرةِ) مائلٌ إلى هذا القيلِ.

٤٥ ـ ﴿وَسَكَنتُم﴾ فيها ﴿فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُم﴾ بالكُفر من الأُمم السابقة، ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُم: كَيفَ فَعَلْنَا بِهِم﴾ من العُقوبة؟ فلم تنزجروا، ﴿وَضَرَبْنَا﴾: بيّنّا ﴿لَكُمُ الأَمثَالَ﴾ في القُرآن، فلم تعتبروا؟

٤٦ ـ ﴿وَقَدْ مَكَرُوا﴾ بالنبيّ ﴿مَكْرَهُم﴾ حيثُ أرادوا قتله أو تقييده أو إخراجه، ﴿وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُم﴾، أي: عِلمُه أو جزاؤه، ﴿وَإِنْ﴾: ما ﴿كَانَ مَكْرُهُم﴾، وإن عظُم، ﴿لِتَزُولَ مِنهُ الجِبَالُ﴾. المعنى: لا يُعبأ به ولا يضرّ إلاّ أنفُسَهم. والمُراد بالجبال هنا قيل: حقيقتها، وقيل: شرائعُ الإسلام المُشبّهةُ بها في القرار والثبات. وفي قراءة بفتح لام «لَتَزُولُ» ورفع الفعل. فإنْ: مُخفّفة. والمراد تعظيم مكرهم. وقيل: المُراد بالمكر كُفرهم. ويُناسبه على الثانية: «تكادُ السَّماواتُ يَنفَطِرْنَ مِنهُ وتَنشَقُّ الأرضُ وتَخِرُّ الجِبالُ هَدًّا»، وعلى الأُولى ما قُرِئَ: «وما كانَ». ٤٧ ـ ﴿فَلَا تَحسَبَنَّ اللهَ مُخلِفَ وَعدِهِ رُسُلَهُ﴾ بالنصر. ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ﴾: غالب لا يُعجزه شيء ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ ممّن عصاه.

٤٨ ـ ٤٩ ـ اذكرْ ﴿يَومَ تُبَدَّلُ الأَرضُ غَيرَ الأَرضِ وَالسَّماواتُ﴾، ....

قولُهُ: (فِيهَا) أي: في الدُّنيا.

قولُهُ: (بِالكُفرِ) والمعاصِي.

قولُهُ: (مِنَ الأُممِ السَّابِقةِ) كعادٍ وثمودَ.

قولُهُ: (مِنَ العُقُوبَةِ) بما تشاهِدونَ في منازِلِهِم من آثارِ ما نزلَ بهم وما تواترَ عندكُم من أخبارِهِم.

قولُهُ: (أَو جَزَاؤُهُ) أو مكتوبٌ عندَهُ فعلُهُم فهو مجازيهم عليه.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ): للكسائيِّ[1].

قولُهُ: (فَـ﴿إِنْ﴾ مُخَفَّفَةٌ) واللَّامُ هي الفاصلةُ، وقيل: على قراءةِ الباقِي مخفَّفةٌ أيضاً، والمعنى: أَنَّهُم مكروا ليُزيلوا ما هو كالجبالِ الرَّاسيةِ ثباتاً وتمكُّناً من آياتِ اللهِ وشرائعِهِ.

قولُهُ: (عَلى الثَّانِيَةِ) أي: قراءةِ الكسائيِّ.

قولُهُ: (مَا قُرِئَ) أي: الَّذي قرئَ شاذًّا.

قولُهُ: (مِمَّنْ عصَاهُ) لمن والاهُ.

قالَ تعَالى: (﴿وَالسَّمَوَاتُ﴾) عطفٌ على ﴿الأَرْضُ﴾ أي: والسَّماواتُ غيرَ السَّماواتِ، والتَّبديلُ يكونُ في الذَّاتِ وفي الصِّفةِ، والآيةُ تحتملُهُما.

---

(١) ﴿لتزول﴾ بفتح اللام الأولى وضم الثانية. انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٦٣)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٧٩).

هو يوم القيامة، فيُحشر الناس على أرض بيضاء نقيّة كما في حديث الصحيحين، وروى مسلم حديث: سُئل النبيّ ﷺ: أينَ الناسُ يومَئذٍ؟ قالَ: «علَى الصِّراطِ»، ﴿وبَرَزُوا﴾: خرجوا من القُبور ﴿لِلهِ الواحِدِ القَهَّارِ ـ وتَرَى﴾ يا مُحمّد: تُبصِر ﴿المُجرِمِينَ﴾: الكافرين ﴿يَومَئِذٍ مُقرَّنِينَ﴾: مشدودينَ مع شياطينهم ﴿في الأصفادِ﴾: القُيود أو الأغلال، ٥٠ ـ ٥١ ـ ﴿سَرابِيلُهُم﴾: قُمصُهم ﴿مِن قَطِرانٍ﴾ لأنه أبلغ لاشتعال النار، ﴿وتَغشَى﴾: تعلو ﴿وُجُوهَهُمُ النّارُ ـ لِيَجزِيَ﴾: مُتعلّق بـ«برزوا» ﴿اللهُ كُلَّ نَفسٍ ما كَسَبَتْ﴾ من خير وشرّ. ﴿إنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسابِ﴾: يحاسِبُ جميع الخلق في قدر نصف نهار من أيام الدنيا لحديث بذلك.

قولُهُ: (نَقِيَّة) عن عليٍّ: تُبدَلُ أرضاً من فضَّةٍ وسماواتٍ من ذهبٍ[1].

قولُهُ: (أَيْنَ النَّاسُ؟) قيل: فأينَ الأشياءُ إذ ذاكَ؟ قيل: عادَتْ إلى مصادِرِها.

وقيل: متى كانوا شيئاً حتَّى صارُوا لا شيءَ؟ لأنَّهُم أقلُّ من الهباءِ في الهواءِ في جنبِ الحقِّ.

قولُهُ: (مِنَ القُبُورِ) لمحاسبةِ اللهِ ومجازاتِهِ، وتوصيفُهُ بالوصفَينِ للدّلالةِ على أنَّ الأمرَ في غايةِ الصُّعوبةِ[2] كقولِهِ: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] فإنَّ الأمرَ إذا كانَ لواحدٍ غلَّابٍ لا يغالبُ؛ فلا مستغاثَ لأحدٍ إلى غيرِهِ ولا مستَجارَ.

قولُهُ: (معَ شيَاطينِهِم) أو قُرِنَ بعضُهُم معَ بعضٍ بحسَبِ مشَاركتِهِم في العَقائدِ والأعمَالِ، أو قُرِنوا معَ ما اكتَسَبوا من العقائدِ المائلةِ عن الحقِّ، أو قُرِنَت أيديهِم وأرجلُهُم إلى رقابِهِم.

قالَ تعَالى: (﴿مِنْ قَطِرَانٍ﴾) هو ما يتحلَّبُ من شجرٍ يُسمَّى الأبهلَ[3]، فيُطبَخُ فيُطلى به الإبلُ الجربَى فيُحرِقُ الجرَبَ بحدَّتِهِ، وهو أسودُ منتنٌ تشتَعِلُ فيه النَّارُ بسرعةٍ، تُطلى به جلودُ أهلِ النَّارِ حتَّى يكونَ طلاؤهُم كالقُمصانِ ليجتَمِعَ عليهم حرقةُ القَطِرانِ ووحشَةُ لونِهِ ونتنُ ريحِهِ مع إسراعِ النَّارِ في جلودِهِم، على أنَّ التَّفاوتَ بين القطرانَينِ كالتَّفاوتِ بينَ النَّارَينِ.

قولُهُ: (يُحَاسِبُ) أو لأنَّه لا يشغَلُهُ حِسابٌ عن حِسابٍ.

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «الأهوال» (٦٦)، والطبري في «تفسيره» (١٧/ ٤٨).

(٢) في (م): «العقوبة».

(٣) الأبهل: حمل شجرة وهي العرعر؛ أو الأبهل شجرة يقال لها الإيرس؛ قال ابن سيده: وليس بعربي محض. «اللسان» (مادة: بهل).

٥٢ ـ ﴿هذا﴾ القُرآن ﴿بَلاغٌ لِلنّاسِ﴾ أي: أُنزل لتبليغهم، ﴿ولِيُنذَرُوا بِهِ، ولِيَعلَمُوا﴾ بما فيه من الحُجج ﴿أنَّما هُوَ﴾ أي: اللهُ ﴿ إلـٰـهٌ واحِدٌ، ولِيَذَّكَّرَ﴾، بإدغام التاء في الأصل في الذال: يتّعظَ ﴿أُولُو الألبابِ﴾: أصحابُ العقول.

قولُهُ: (القُرْآنُ) أو السُّورةُ، والتَّذكيرُ لتذكيرِ الخبرِ، أو: ما فيه من العظَةِ والتَّذكيرِ، أو: ما وصفَهُ من قولِهِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

وقولُهُ تعالى: (﴿بَلَاغٌ﴾) أي: كفَايةٌ لهم في الموعظَةِ (﴿وَلِيُنْذَرُوا بِهِ﴾) عطفٌ على محذوفٍ؛ أي: لِيُنصَحوا ولِيُنذَروا بهذا البلاغِ، فتكونُ اللّامُ متعلِّقةً بالبلاغِ، ولا يحتاجُ إلى تقديرِ نحوِ: أنزل، كما قدَّرَهُ الشيخُ.

ويجـوزُ أن يتعلَّـقَ[1] بمحذوفٍ تقديـرُهُ: ولينذَروا به أُنزِلَ أو تلـيَ، وبهذا عُلمَ أنَّ في كلامِ الشَّـيخِ تلفيقاً، وفَّقَ اللهُ لنا توفيقـاً، واللهُ أعلمُ.

* * *

---

(١) في (ص): «يعلق».

سورة ابراهيم

أخرج ابنُ مردويه عن ابن عباس وابن الزبير أنَّها نزلت بمكة[1]، والظاهرُ أنهما أرادا أنَّها كلَّها كذلك، وهو الذي عليه الجمهور، وأخرج النَّحاسُ في «ناسخه» عن الحبر أنَّها مكِّيةٌ إلا آيتين منها فإنَّهما نزلَتا بالمدينة، وهما: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ الآيتَين [إبراهيم: ٢٨ ـ ٢٩] نَزلَتا في قتلَى بدر من المشركين[2]، وأخرج نحوَه أبو الشيخ عن قتادة[3]، وقال الإمام: إذا لم يكن في السورة ما يتَّصل بالأحكام فنزولُها بمكةَ والمدينة سواءٌ، إذ لا يختلف الغرضُ فيه إلا أنْ يكونَ فيها ناسخٌ أو منسوخٌ فتظهرُ فائدتُه[4]. يعني أنَّه لا يختلفُ الحالُ وتظهر ثمرتُه إلا بما ذكر، فإنْ لم يكن ذلك فليس فيه إلا ضبطُ زمانِ النزول، وكفَى به فائدةً.

وهل في هذه السورةِ منسوخٌ أَوْ لا؟ قولان، والجمهورُ على الثاني، وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنَّ فيها آيةً منسوخةً، وهي قولُه تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤] فإنَّه قد نُسِخَت باعتبار الآخر بقوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨] وفيه نظرٌ.

وهي إحدى وخمسون آيةً في البصري، وقيل: خمسون فيه، واثنتان وخمسون في الكوفي، وأربعٌ في المدني، وخمسٌ في الشامي.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٦٩، وأخرج أثر ابن عباس رضي الله عنهما ابن الضريس في فضائل القرآن ص٣٤.
(٢) الناسخ والمنسوخ ٢/ ٤٨٠.
(٣) وأخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٤٨٠.
(٤) تفسير الرازي ١٩/ ٧٢.

وارتباطُها بالسورة التي قبلها واضحٌ جداً؛ لأنَّه قد ذُكر في تلك السورة من مَدْح الكتاب وبيان أنَّه مُغْنٍ عمَّا اقترحوه ما ذُكِر، وافتُتِحَت هذه بوصف الكتاب والإيماء إلى أنَّه مُغنٍ عن ذلك أيضاً، وإذا أُريد بـ ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣] الله تعالى، ناسبَ مطلعُ هذه ختامَ تلك أشدَّ مناسبة.

وأيضاً قد ذُكر في تلك إنزالُ القرآن حكماً عربيّاً، ولم يُصرَّح فيها بحكمة ذلك، وصُرِّح بها هنا.

وأيضاً تضمَّنت تلك الإخبار مِن قِبَلِهِ تعالى بأنَّه ما كان لرسول أنْ يأتيَ بآيةٍ إلا بإذن الله تعالى، وتضمَّنَت هذه الإخبار به من جهة الرسل عليهم السلام وأنَّهم قالوا: ما كان لنا أنْ نأتيَ بسلطان إلا بإذن الله.

وأيضاً ذُكر هناك أمرُه عليه الصلاة والسلام بأن (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ) وحُكي هنا عن إخوانه المرسلين عليهم السلام توكُّلُهم عليه سبحانه، وأمرهم بالتوكل عليه جلَّ شأنه.

واشتَملَت تلك على تمثيلٍ للحقِّ والباطل، واشتمَلَت هذه على ذلك أيضاً بناءً على بعض ما ستسمعُه إن شاء الله تعالى في قوله سبحانه: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ [إبراهيم: ٢٤] إلى آخره.

وأيضاً ذكر في الأُولى مِن رفعِ السماء ومدِّ الأرض وتسخير الشمس والقمر إلى غير ذلك ما ذكر، وذكر هنا نحو ذلك إلا أنَّه سبحانه اعتَبر ما ذكر أولاً آياتٍ وما ذكر ثانياً نِعَماً، وصرَّح في كلٍّ بأشياءَ لم يُصرِّح بها في الآخر.

وأيضاً قد ذكر هناك مكر الكفرة، وذكر هنا أيضاً، وذكر من وصفه ما لم يذكر هناك.

وأيضاً قال الجلال السيوطي: إنه ذكر في الأولى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ [الرعد: ٣٢] وذلك مجمَلٌ في أربعة مواضع: الرسل، والمُستهزئين، وصفة الاستهزاء، والأخذ، وقد فصِّلَت الأربعة في قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [إبراهيم: ٩] الآيات[1].

---

(١) تناسق الدرر في تناسب السور ص٦١.

وقد اشتركَت السورتان ممَّا عدا افتتاح كلٍّ منهما بالمتشابه بأنَّ كلًّا قد افتتح بالألف واختتم بالباء، وجُمِعَا أيضاً في آخر ما خُتما به، وبَقي مناسبات بينهما غير ما ذكرنا لو ذكرناها لطالَ الكلامُ، والله تعالى أعلم بما في كتابه.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ﴾ مرَّ الكلامُ فيما يتعلَّق به ﴿كِتَٰبٌ﴾ جوِّز فيه أنْ يكون خبراً لـ «الر» على تقدير كونه مبتدأً، أو لمبتدأ مضمَرٍ على تقدير كونه خبراً لمبتدأ محذوفٍ، أو مفعولاً لفعلٍ محذوف، أو مسروداً على نمط التعديد.

وجوِّز أن يكونَ خبراً ثانياً للمبتدأ الذي أُخبِرَ عنه بـ «الر»، وأن يكونَ مبتدأً، وسَوَّغ الابتداءَ به كونُه موصوفاً في التقدير، أي: كتابٌ عظيمٌ، وقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ إمَّا في موضعِ الصفة أو الخبر، وهو مع مبتدآته قيل: في موضع التفسير.

وفي إسناد الإنزال إلى ضمير العظمةِ ومخاطبتِهِ عليه الصلاة والسلام مع إسناد الإخراج إليه ﷺ في قوله سبحانه: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ = ما لا يخفى من التفخيم والتعظيم. واللام متعلِّقة بـ «أنزلناه». والمرادُ من الناس جميعُهم، أي: أنزلناه إليك لتخرجَهم كافَّةً بما في تضاعيفه من البيِّنات الواضحة المفصِحَة عن كونه من عند الله تعالى، الكاشفةِ عن العقائد الحقَّة من عقائد الكفر والضلال، وعبادةِ الله عزَّ وجل من الآلهة المختلفة كالملائكة وخواصِّ البشر والكواكب والأصنام التي كلُّها ظلماتٌ محضةٌ وجهالاتٌ صرفةٌ إلى الحقِّ المؤسَّس على التوحيد، الذي هو نورٌ بحتٌ.

وقرئ: «لِيَخْرُجَ الناسُ» بالياء التحتانية[1] في «يخرج» ورفع «الناس» به. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بتيسيره وتوفيقه تعالى، وهو مستعارٌ من الإذن الذي يوجب تسهيل الحجاب لمن يقصد الورود، ويجوز أن يكون مجازاً مرسلاً بعلاقة اللزوم، وقال

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٨.

مُحيي السنة: إذنه تعالى أمره[1]، وقيل: علمُه سبحانه، وقيل: إرادته جلَّ شأنه، وهي ـ على ما قيل ـ متقاربةٌ، ومنع الإمامُ أنْ يُرادَ بذلك الأمر أو العلم[2]، وعلَّله بما لا يخلو عن نظر.

وفي الكلام على ما ذكر أوّلاً ثلاثُ استعارات؛ إحداها ما سمعت في الإذن، والأُخرَيَان في «الظلمات» و«النور» وقد أُشيرَ إلى المراد منهما.

وجوَّز العلامة الطيبي أنْ تكون كلُّها استعارةً مركبةً تمثيليةً بتصوير الهدى بالنور، والضلالِ بالظلمة، والمكلَّفِ المنغمس في ظلمة الكفر، بحيث لا يتسهَّل له الخروجُ إلى نور الإيمان إلا بتفضُّل الله تعالى بإرسال رسولٍ بكتابٍ يُسهِّلُ عليه ذلك؛ كمن وقع في تِيْهٍ مُظلم ليس منه خلاصٌ، فبعثَ ملكٌ توقيعاً لبعض خواصِّه في استخلاصه، وضَمِن تسهيلَ ذلك على نفسه، ثم استعمل هنا ما كان مستعملاً هناك فقيل: «كتابٌ أنزلناه» إلى آخره. وكان الظاهر: بإذننا، إلا أنَّه وضع ذلك الظاهر موضع الضمير، وقيل: «ربهم» للإشعار بالتربية واللطف والفضل، وبأنَّ الهدايةَ لطفٌ محضٌ، وفيه أنَّ الكتاب والرسول والدعوة لا تُجدي دون إذن الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦]. اهـ.

وما ذكره من الاستعارة التمثيليةِ مع بلاغته وحُسنه لا يخلُو عن بُعد، وكأنَّه للإنباء عن كون التيسير والتوفيق مَنوطَين بالإقبال إلى الحقِّ، كما يُفصح عنه قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد:٢٧] استُعير لذلك الإذن الذي هو ما علمتَ، وأُضيفَ إلى ضمير «الناس» اسمُ الرَّبِّ المُفصح عن التربية التي هي عبارةٌ عن تبليغ الشيء إلى كماله المتوجّه إليه، وشمولُ الإذن بذلك المعنى للكلِّ واضحٌ، وعليه يدورُ كونُ الإنزال لإخراجهم جميعاً، وعدمُ تحقُّق الإذن بالفعل في بعضهم لعدم تحقُّق شرطِه المستنِدِ إلى سوء اختيارهم ورَدَاءة استعدادِهم غيرُ مُخلٍّ بذلك.

ومن هنا فسادُ قول الطبرسي[3]: إنَّ اللام لامُ الغرض لا لامُ العاقبةِ وإلا لزمَ أن يكونَ جميعُ الناس مؤمنين والواقعُ بخلافه.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٥.

(٢) تفسير الرازي ١٩/ ٧٤.

(٣) مجمع البيان ١٣/ ١٩٦.

وذكر الإمامُ(١) أنَّ المعتزلة استدلُّوا بهذه الآيةِ على أنَّ أفعالَ الله تعالى تُعلَّلُ برعاية المصالح، ثمَّ ساق دليلَ أصحابه على امتناع ذلك، وذكر أنَّه إذا ثَبَت الامتناعُ يَلزم تأويلُ كلِّ ما أشعَرَ بخلافه، وتأويلُه بحملِ اللام على لام العاقبة ونحوها.

ونُقل عن ابن القَيِّم(٢) وغيرِه القولُ بالتعليل، وأنَّه مذهب السلف، وأنَّ في الكتاب والسنة ما يزيدُ على عشرة آلاف موضعٍ ظاهرةٌ في ذلك، وتأويلُ الجميع خروجٌ عن الإنصاف، وليس الدليل على امتناع ذلك من المتانةِ على وجهٍ يضطرُّ معه إلى التأويل.

وللشيخ إبراهيم الكوراني في بعض رسائله كلامٌ نفيسٌ في هذا الغرض سالمٌ - فيما أرى - عن العلَّة، إنْ أردتَه فارجع إليه.

والباء متعلِّقةٌ بـ «تُخرِج» على ما هو الظاهر، وجوَّز أنْ يكون متعلِّقاً بمضمَرٍ وقع حالاً من مفعوله، أي: مُلتبسين بإذن ربِّهم، ومنهم مَن جوَّز كونَه حالاً من فاعله، أي: مُلتبساً بإذن ربِّهم. وتعقِّب بأنَّه يأباه إضافةُ الربِّ إليهم لا إليه ﷺ. ورُدَّ بما ردَّ فتأمَّل.

واستَدلَّ بالآية القائلون بأنَّ معرفةَ الله تعالى لا تحصُل إلا مِن طريق التعليم من الرسول ﷺ حيث ذكر فيها أنَّه عليه الصلاة والسلام هو الذي يُخرجُ الناس من ظلمات الضلال إلى نور الهدى، وأُجيبَ بأنَّ الرسول عليه الصلاة والسلام كالمنبِّه، وأمَّا المعرفةُ فإنَّما تحصُل من الدليل. واستَدلَّ بها أيضاً كلٌّ من المعتزلة وأهلُ السنة على مذهبه في أفعال العباد، وتفصيل ذلك في تفسير الإمام(٣).

﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١﴾ الجارُّ والمجرور بدلٌ من الجارِّ والمجرور فيما تقدَّم، أعني قوله تعالى: «إلى النور».

---

(١) تفسير الرازي ١٩/ ٧٣.
(٢) ينظر شفاء العليل ص٣٤٥.
(٣) تفسير الرازي ١٩/ ٧٣ - ٧٤.

وقال بعضهم[١]: إنَّ «صراط» بدلٌ من «النور» وأُعيدَ عاملُه وكرِّر لفظاً ليدلَّ على البدليَّة كما في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف:٧٥] ولا يضرُّ الفصلُ بين البدل والمبدَل منه بما قبله؛ لأنَّه غيرُ أجنبيٍّ، إذ هو من معمولات العامل في المبدَل منه على كلِّ حال.

واستُشكل هذا مع الاستعارة السابقةِ بأنَّ التعقيب بالبدل لا يتقاعد عن التعقيب بالبيان في مثل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة:١٨٧] وأُجيبَ بأنَّ الصراط استعارةٌ أخرى للهدى، جُعِلَ نوراً أولاً، لظهوره في نفسه واستضاءة الضلال في مهواة الهوى به، ثم جُعِل ثانياً جادةً مسلوكةً مأمونةً لا كَبُنيَّاتِ الطرق[٢] دلالةً على تمام الإرشاد.

وفي «الإرشاد»[٣] أنَّ إخلالَ البيان والبدل بالاستعارة إنَّما هو في الحقيقة لا في المجاز، وهو ظاهرٌ، وجوِّز أنْ يكون الجارُّ والمجرور متعلِّقاً بمحذوفٍ على أنَّه جوابُ سائلٍ يَسأل: إلى أيِّ نور؟ فقيل: إلى صراط.. إلى آخره، وإضافة الصراط إليه تعالى؛ لأنَّه مقصده أو المبيِّن له، وتخصيصُ الوصفَين الجليلَين بالذكر للترغيب في سلوكه، إذ في ذلك إشارةٌ إلى أنَّه يُعَزُّ سالكُه ويُحمَد سابلُه.

وقال أبو حيان[٤]: النكتة في ذلك أنَّه لمَّا ذكر قبلُ إنزاله تعالى لهذا الكتابِ، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربِّهم، ناسَبَ ذكر هاتَين الصفتَين، صفةَ العزَّة المتضمِّنةِ للقدرة والغلبة لإنزاله مثلَ هذا الكتابِ المعجزِ الذي لا يقدر عليه سواه، وصفةَ الحمد لإنعامه بأعظمِ النعم لإخراج الناسِ من الظلمات إلى النور. ووجهُ التقديم والتأخير على هذا ظاهر.

وقال الإمامُ: إنما قدَّم ذكر «العزيز» على ذكر «الحميد» لأنَّ الصحيح أنَّ أول

---

(١) في (م): وقال غير واحد.

(٢) بنيَّات الطرق: هي الطرق الصغار المتشعبة عن الطريق الكبيرة، وأطلق بُنيَّات الطريق على الأباطيل، فقيل في المثل: دع بُنيَّات الطريق. أي: عليك بمعظم الأمر ودع سفساف الأمور. مجمع الأمثال ١/ ٢٩٦، وزهر الأكم ٢/ ٢٣٨.

(٣) إرشاد العقل السليم، وهو تفسير أبي السعود ٥/ ٣٠.

(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٠٣.

العلم بالله تعالى العلمُ بكونه تعالى قادراً، ثم بعد ذلك العلمُ بكونه عالماً، ثم بعد ذلك العلمُ بكونه غنيّاً عن الحاجات، والعزيزُ هو القادرُ، والحميدُ هو العالمُ الغنيُّ، فلمَّا كان العلم بكونه تعالى قادراً مُتقدِّماً على العلم بكونه عالماً بالكلِّ غنيّاً عنه، لا جَرَم قدَّم ذِكرَ العزيز على ذكر الحميد[١]. اهـ. ولم نَرَ تفسيرَ «الحميد» بما ذكر لغيره.

وفي «المواقف» و«شرح أسماء الله الحسنى» لحجَّة الإسلام الغزالي وغيرهما: أنَّ «الحميد» هو المحمودُ المُثنَى عليه، وهو سبحانه محمودٌ بحمده لنفسه أزلاً وبحَمْد عباده له تعالى أبداً[٢]، وبين هذا وما ذكره الإمام بُعد بعيدٌ. وأمَّا ما ذكره في «العزيز» فهو قولٌ لبعضهم؛ وقيل: هو الذي لا مِثْلَ له. وربَّما يقال على هذا: إنَّ التقديمَ للاعتناء بالصفات السلبيَّة، كما يُؤذن به قولهم: التخلية أَوْلَى من التحلية، وكذا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] ولعلَّ كلامه قدِّس سرُّه بَعْدُ لا يخلو عن نظر.

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ﴾ بالرفع على ما قرأ نافعٌ وابنُ عامر[٣] خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هو الله، والموصول الآتي صفتُه، وبالجرِّ على قراءة باقي السبعة والأصمعيِّ عن نافع[٤] بدلٌ مما قبله في قول ابن عطية[٥] والحوفي وأبي البقاء[٦]، وعطفُ بيانٍ في قول الزمخشري[٧]، قال: لأنَّه أُجري مُجرى الأسماء الأعلام لغلبته واختصاصِهِ بالمعبود بحقٍّ، كما غلب النجمُ على الثريَّا. ولعلَّ جعله جارياً مجرى ذلك ليس لاشتراطه في عطف البيان، بل لأنَّ عطف البيان شرطُه إفادةُ زيادة إيضاحٍ لمتبوعه، وهي هنا بكونه كالعلم باختصاصه بالمعبود بحقٍّ، وقد خرج عن الوصفيَّة بذلك، فليس صفةً كـ «العزيز الحميد».

---

(١) تفسير الرازي ١٩/ ٧٥.

(٢) المواقف ص٣٣٥، والمقصد الأسنى ص١٣٠.

(٣) وهي أيضاً قراءة أبي جعفر، ووافقهم رويس في الابتداء فقط. التيسير ص١٣٤، والنشر ٢/ ٢٩٨.

(٤) وهي غير المشهورة عنه، وذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٢.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٢.

(٦) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٣٩٢.

(٧) الكشاف ٢/ ٣٦٥.

ثم إنَّه لا يخفَى عليك أنَّه عند الأئمة المحقِّقين علمٌ لا أنَّه كالعلم، وعن ابن عصفور أنَّه لا تُقدَّمُ صفةٌ على موصوفٍ إلا حيث سُمِعَ، وذلك قليلٌ، وللعرب فيما وُجد من ذلك وجهان:

أحدهما: أنْ تُقدِّم الصفة وتُبقيها على ما كانت عليه، وفي إعراب مثل هذا وجهان:

أحدهما: إعرابُه نعتاً مقدَّماً.

والثاني: أن يُجعل ما بعد الصفة بدلاً.

والوجه الثاني: أن تُضيفَ الصفة إلى الموصوف. اهـ.

وعلى هذا يجوز أنْ يكونَ «العزيز الحميد» صفتَين متقدِّمتَين، ويُعرب الاسمُ الجليل موصوفاً متأخِّراً، ومما جاء فيه تقديمُ ما لو أُخِّر لكان صفةً، وتأخيرُ ما لو قُدِّم لكان موصوفاً قوله:

والمُؤمنِ العائذاتِ الطيرَ يمسَحُها ... رُكبانُ مكةَ بين الغَيْل والسَّعدِ[1]

فلو جاء على الكثير لكان التركيبُ: والمؤمنِ الطير العائذاتِ، ومثله قوله:

لو كنتَ ذا نَبْلٍ وذا شَزِيْبِ[2] ... لم أَخْشَ شدَّات[3] الخبيث الذيب[4]

وجوِّز في قراءة الرفع كونُ الاسم الجليل مبتدأً، وقوله تعالى ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ﴾ أي: مِلكاً ومُلكاً ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خبرُه، وما تقدَّم أَوْلَى، فإنَّ في الوصفية من بيان كمالِ فخامة شأنِ الصراط وإظهار تحتُّم سلوكه على الناس ما ليس في

---

(١) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص٣٥. قال اليوسي في زهر الأكم ١/ ٨٠: أراد العائذات هذه الطير، والمؤمن هو الله تعالى، وقوله: يمسحها ركبان مكة، أي: يمسحون عليها ولا يهيجونها، والغَيل والسعد: أجمتان بين مكة ومنًى. وفي الأصل: السند، والمثبت من (م) والديوان.

(٢) في الأصل: تشزيب، وفي (م): تشذيب، والمثبت من المصادر، والشزيب: القوس ليست بجديدٍ ولا خَلقٍ. القاموس المحيط (شزب).

(٣) شدات: جمع شدة، وهي الحملة الواحدة، ومنه: شدّ على القوم في القتال: حمل عليهم. اللسان: (شدد).

(٤) تفسير الطبري ١٢/ ٥٩٠، والفائق للزمخشري (شزب).

الخبرية، والمرادُ بـ «ما في السموات وما في الأرض» ما وُجد داخلاً فيهما أو خارجاً عنهما، متمكِّناً فيهما، ومن الناس مَن استَدلَّ بعموم «ما» على أنَّ أفعال العباد مخلوقةٌ له تعالى، كما ذكره الإمام(١)،

وقوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ وعيدٌ لمن كَفَر بالكتاب ولم يخرج به من الظلمات إلى النور بالويل. وهو عند بعضٍ نقيضُ الوَأْل بالهمزة بمعنى النجاة، فمعناه الهلاك، وهو(٢) مصدرٌ إلا أنَّه لا يُشتَقُّ منه فعلٌ، إنما يقال: وَيْلاً له، فيُنصَب نصبَ المصادر، ثم يُرفع رَفْعها لإفادة معنى الثبات، فيقال: ويلٌ له كـ: سلامٌ عليك، وقال الراغب: قال الأصمعي: «ويلٌ» قُبوحٌ وقد يُستعمل للتحسُّر، و«وَيْسٌ» استصغارٌ، و«وَيْحٌ» ترحُّمٌ، ومَن قال: هو وادٍ في جهنَّم، لم يُرد أنَّه في اللغة موضوعٌ لذلك، وإنما أرادَ أنَّ مَن قال الله تعالى فيه ذلك، فقد استحقَّ مقرًّا من النار وثبت له ذلك(٣).

وقوله سبحانه: ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢﴾ في موضع الصفة لـ «ويل» ولا يضرُّ الفصل ـ على ما في «البحر»(٤) وغيرِه ـ بالخبر، وجوِّز أنْ يكون في موضع الحال ـ على ما في الحواشي الشهابية ـ و«من» بيانية(٥)، وجوِّز أن تكونَ ابتدائيةً على معنى أنَّ الويل بمعنى عدم النجاةِ متَّصلٌ بالعذاب الشديد وناشئٌ عنه، وقيل: إنَّ الجارَّ متعلِّق: بـ «ويل» على معنى أنَّهم يُوَلْوِلُون من العذاب ويضجُّون منه قائلينَ: يا ويلاه، كقوله تعالى: ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان:١٣]، ومنع أبو حيان(٦) وأبو البقاء(٧) ذلك لما فيه من الفَصْل بين المصدر ومعموله بالخبر، وهو لا يجوز، وقد مرَّ قريباً في «الرعد»(٨) ما يتعلَّق بذلك فتذكَّر، فما في العهد من قدم.

---

(١) تفسير الرازي ١٩/ ٧٨.

(٢) في (م): فهو.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن: (ويل) و(ويس) و(ويح).

(٤) ٥/ ٤٠٤.

(٥) حاشية الشهاب ٥/ ٢٥٠.

(٦) البحر المحيط ٥/ ٤٠٤.

(٧) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٣٩٢.

(٨) عند تفسير الآية (٢٤).

وفي «الكشاف» أنَّ «مِن عذابٍ» إلخ متَّصلٌ بالويل على معنى أنَّهم يُوَلْوِلُون[١].. إلى آخر ما ذكرنا. وهو مُحتمل لتعلُّقه به، ولتعلُّقه بمحذوف، واستظهرَ هذا في «البحر»[٢].

وفي «الكشف» أنَّ الزمخشريَّ لمَّا رأى أنَّ الويل من الذنوب لا مِن العذاب، كما يُرشد إليه قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة:٧٩] وأمثالُه، أشار هنا إلى أنَّ الاتِّصال معنويٌّ، لا مِن ذلك الوجه، فإنَّه هناك جَعَل الويلَ نفْسَ العذاب، وهنا جَعَله تلفُّظَهم بكلمة التلهُّف من شدَّة العذاب، وكلاهما صحيح، ولم يُرد أنَّ هنالك فصلاً بالخبر لقُرب ما مرَّ في قوله تعالى: (سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ). اهـ.

واعترض عليه بأنَّه لا حاجةَ لِمَا ذُكر من التكلُّف؛ لأنَّ اتِّصاله به ظاهرٌ لا يحتاجُ إلى صَرْفه للتلفُّظ بتلك الكلمة، و«مِن» بيانيةٌ لا ابتدائيةٌ حتى يحتاجَ إلى ما ذكر، ولا يخفى قوَّة ذلك، وأنَّه لا يحتاج إلى التكلُّف، ولو جعلت «مِن» ابتدائيةً، فتأمَّل. والظاهر أنَّ المراد بالعذاب الشديد عذابُ الآخرة. وجوَّز أنْ يكونَ المرادُ عذاباً يقعُ بهم في الدنيا.

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ﴾ أي: يختارونها عليها، فإنَّ المختار للشيء يطلب من نفسه أن يكونَ أحبَّ إليه من غيره، فالسين للطلب، والمحبةُ مجازٌ مرسَلٌ عن الاختيار والإيثار بعلاقة اللزوم في الجملة، فلا يضرُّ وجود أحدهما بدون الآخَر، كاختيار المريض الدواءَ المرَّ لنفعه[٣]، وتَرْكِ ما يحبُّه ويَشتهيه من الأطعمة اللذيذة لضَرَره، ولاعتبار التجوُّزِ عُدِّيَ الفعلُ بـ «على».

ويجوزُ أنْ يكونَ استفعل بمعنى أَفْعَلَ، كاستجاب بمعنى أَجَابَ، والفعلُ مضمَّنٌ معنى الاختيار والتعدية بـ «على» لذلك.

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعوقُون الناسَ ويمنعونهم عن دين الله تعالى والإيمان به، وهو الصراط الذي بُيِّن شأنه، والاقتصارُ على الإضافة إلى الاسم الجليل المنطوي على كل وَصْفٍ جميلٍ لرَوْمِ الاختصار.

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٦٥ ـ ٣٦٦.

(٢) ٥/ ٤٠٤.

(٣) في الأصل: لنفسه، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٥/ ٢٥٠.

وقرأ الحسنُ: «يُصِدُّون» من أصدَّ[1] المنقول من صدَّه صدوداً: إذا تنكَّبَ وحاد، وهو ليس بفصيحٍ بالنسبة إلى القراءة الأُخرى؛ لأنَّ في صدِّه مندوحةً عن تكلُّف النقل، ولا محذورَ في كون القراءةِ المتواترة أفصحَ من غيرها، ومن مجيء أصدَّ قولُه:

أناسٌ أَصَدُّوا الناسَ بالسَّيفِ عنهم صدودَ السَّواقي عن أُنوف الحَوَائمِ[2]

ونظيرُ هذا: وَقَّفه وأَوْقَفَه.

﴿وَيَبۡغُونَهَا﴾ أي: يبغون لها، فحذف الجارّ وأوصل الفعل إلى الضمير، أي: يطلبون لها ﴿عِوَجًاۚ﴾ أي: زيغاً واعْوِجاجاً، وهي أبعدُ شيء عن ذلك، أي: يقولون لمن يُريدون صدَّه وإضلالَه عن السبيل: هي سبيلٌ ناكبةٌ وزائغةٌ غيرُ مستقيمة، وقيل: المعنى: يطلبون أنْ يَرَوا فيها ما يكون عِوَجاً قادحاً فيها، كقول مَن لم يَصِل إلى العنقود، وليسوا بواجدين ذلك، وكِلا المعنيين أنسبُ مما قيل: إنَّ المعنى: يبغون أهلَها أنْ يعوجوا بالرِّدَّة.

ومحلُّ موصول هذه الصلات الجرُّ على أنَّه بدلٌ ـ كما قيل ـ من «الكافرين»، فيُعتَبر كلُّ وصفٍ مِن أوصافهم بما يُناسبه من المعاني المعتبرة في الصراط، فالكفرُ المنبئُ عن الستر بإزاء كونه نوراً، واستحباب الحياة الدنيا الفانيةِ المفصحةِ عن وخامة العاقبة بمقابلة كون سلوكه[3] محمودَ العاقبة، والصدُّ عنه بإزاء كون[4] سالكِهِ عزيزاً.

وقال الحوفي وأبو البقاء[5]: إنَّه صفةٌ «للكافرين»، ورَدَّ ذلك أبو حيان بأنَّ فيه الفصلَ بين الصفة والموصوفِ بأجنبيٍّ، وهو «من عذابٍ شديد» سواء كان في موضع الصفة لـ «ويل» أو متعلِّقاً بمحذوفٍ[6]، ونظيرُ ذلك على الوصفيَّة قولك:

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٨، والبحر المحيط ٥/ ٤٠٤.

(٢) البيت لذي الرمة وهو في ديوانه ٢/ ٧٧١ وفيه: رؤوس المخارم، ونقل ابن منظور في اللسان (صدد) عن ابن بري أنه هكذا صواب إنشاده، وذكره مثلَ رواية المصنِّفِ الجوهريُّ في الصحاح (صدد) والزمخشري في الكشاف ٣/ ١٩٤ دون نسبة.

(٣) في (م): مسلوكه.

(٤) في (م): كونه.

(٥) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٣٩٢.

(٦) البحر المحيط ٥/ ٤٠٤.

الدارُ لزيدٍ الحسنةُ القرشيِّ، وهو لا يجوز؛ لأنَّك قد فصلتَ بين زيدٍ وصفتِه بأجنبيٍّ عنهما، والتركيبُ الصحيح فيه أنْ يقال: الدارُ الحسنةُ لزيدٍ القرشيِّ، أو: الدارُ لزيدٍ القرشيِّ الحسنةُ، وقيل: إذا جعل «مِن عذابٍ شديد» خبرَ مبتدأ محذوفٍ، والجملةُ اعتراضيةٌ، لا يضرُّ الفصلُ بها، وهو كما ترى.

وجوِّز أنْ يكون محلُّه النصبَ على الذَّمِّ، أو الرفعَ عليه بأنْ يقدَّر أنَّه كان نعتاً فقُطِعَ، أي: هم الذين.

وجوِّز أنْ لا يُقدَّر ذلك ويُجعل مبتدأ خبرُه قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ﴾ أي: بُعْدٍ عن الحقِّ ﴿بَعِيدٍ ٣﴾ وهو على غير هذا الوجهِ استئنافٌ في موضع التعليل، وفيه تأكيدٌ لما أَشعَر به بناءُ الحكم على الموصول، والمراد أنَّهم قد ضلُّوا عن الحقِّ ووقعوا عنه بمراحل.

وفي الآية من المبالغة في ضلالهم ما لا يخفَى حيث أسند فيها إلى المصدر ما هو لصاحبه مجازاً كـ: جُدَّ جِدُّه، إلا أنَّ الفرق بين ما نحن فيه وذاك أنَّ المسندَ إليه في الأول مصدرُ غير المسند، وفي ذاك مصدرُه، وليس بينهما بُعْدٌ.

ويجوز أنْ يقال: إنَّه أسندَ فيها ما للشخص إلى سبب اتِّصافه بما وُصِف به بناءً على أنَّ البعد في الحقيقة صفةٌ له باعتبار بُعْدِ مكانه عن مقصده، وسببُ بُعدِه ضلالُه؛ لأنَّه لو لم يَضِلَّ لم يَبعُد عنه، فيكون كقولك: قَتَل فلاناً عصيانُه، والإسناد مجازيٌّ، وفيه المبالغةُ المذكورة أيضاً.

وفي «الكشاف»: هو من الإسناد المجازيِّ، والبعدُ في الحقيقة للضالِّ، فوُصِفَ به فعلُه، ويجوزُ أن يُراد: في ضلالٍ ذي بُعد، أو: فيه بعدٌ؛ لأنَّ الضالَّ قد يَضِلُّ عن الطريق مكاناً قريباً وبعيداً[1].

وكتب عليه في «الكشف»: أنَّ الإسناد المجازيَّ على جَعْل البُعدِ لصاحب الضلال؛ لأنَّه الذي يَتَباعد عن طريق الصواب[2]، فوُصِفَ ضلالُه بوصْفه مبالغةً، وليس المرادُ إبعادَهم في الضلال وتعمُّقَهم فيه.

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٦٦.

(٢) في الأصل: الطريق، وفي (م): طريق الضلال، والمثبت من حاشية الشهاب ٥/ ٢٥١.

وأما قوله: فيجوز أنْ يراد: في ضلالٍ ذي بُعد، فعلى هذا البُعْدُ صفةٌ للضلال حقيقةً بمعنى بُعدِ غورِه وأنَّه هاويةٌ لا نهايةَ لها.

وقوله: أو فيه بعدٌ، على جعل الضلال مستقَرّاً للبُعد بمنزلة مكان بعيد عن الجادَّة، وهو معنى بُعْدِه في نفسه عن الحقِّ لتضادِّهما، وإليه الإشارة بقوله: لأنَّ الضالَّ قد يَضِلُّ مكاناً بعيداً وقريباً، والغرضُ بيانُ غاية التضادِّ، وأنَّه بُعْدٌ لا يُوازن وِزَانُه، وعلى جميع التقادير البعدُ مستفادٌ من البعد المسافي إلى تفاوت ما بين الحقِّ والباطل، أو ما بين أهلهما، وجاز أنْ يكون قولُه: ذي بعدٍ، أو فيه بعدٌ، وجهاً واحداً إشارةً إلى الملابسة بين الضلال والبُعد، لا بواسطة صاحب الضلال، لكن الأوَّل أَوْلَى؛ تكثيراً للفائدة.

ثم قوله تعالى: (أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ) دون أنْ يقول سبحانه: أولئك ضالُّون ضلالاً بعيداً، للدلالة على تمكُّنهم فيه تمكُّنَ المظروف في الظرف، وتصويرِ اشتمال الضلال عليهم اشتمالَ المُحيط على المُحاط، وليكونَ كنايةً بالغةً في إثبات الوصف، ـ أعني الضلال ـ على الأوجه، فافْهم.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا﴾ أي: في الأمم الخالية من قبلك كما سيذكر إن شاء الله تعالى إجمالاً ﴿مِن رَّسُولٍ إِلَّا﴾ متلبِّساً ﴿بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ متكلِّماً بلغة مَن أُرسل إليهم من الأمم المتَّفقة على لغةٍ، سواء بُعِث فيهم أَوْ لا، وقيل: بلغة قومه الذين هو منهم وبُعث فيهم، ولا ينتقضُ الحصرُ بلوطٍ عليه السلام، فإنَّه تزوَّج منهم وسكنَ معهم، وأمَّا يُونس عليه السلام، فإنَّه من القوم الذين أُرسل إليهم كما قالوه، فلا حاجةَ إلى القول بأنَّ ذلك باعتبار الأكثر الأغلب، ولعلَّ الأَولى ما ذكرنا.

وقرأ أبو السَّمَّال وأبو الجوزاء وأبو عمران الجوني: «بِلِسْن» بإسكان السين[(١)] على وَزْن: ذِكْر، وهي لغةٌ في «لسان» كـ: رِيْش ورِيَاش، وقال صاحب «اللوامح»: إنَّه خاصٌّ باللغة، واللسان يُطلَق عليها وعلى الجارحة، وإلى ذلك ذهب ابنُ عطية[(٢)].

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٨، والمحتسب ١/ ٣٥٩، والبحر المحيط ٥/ ٤٠٥، وزاد ابن خالويه نسبتها للأعمش.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٣.

وقرأ أبو رجاء وأبو المتوكل والجحدري: «بلُسُن» بضمِّ اللام والسين[١]، وهو جمْعُ لسان كـ : عِمَاد وعُمُد.

وقرئ: «بلُسْن» بضمِّ اللام وسكون السين[٢]، وهو مخفَّف لُسُن كـ : رُسُل ورُسْل.

﴿لِيُبَيِّنَ﴾ ذلك الرسولُ ﴿لَهُمْ﴾ لأولئك القومِ الذين أُرسلَ إليهم ما كُلِّفوا به فيتلقوه منه بسهولةٍ وسرعة، فيمتثلوا ذلك من غير حاجةٍ إلى الترجمة، وحيث لم تَتَأَتَّ هذه القاعدة في شأن سيدنا محمد ﷺ وعلى إخوانه المرسلين أجمعين لعموم بِعثته وشمولِ رسالته الأسودَ والأحمرَ والجنَّ والبشرَ على اختلاف لغاتهم، وكان تعدُّد نظم الكتاب المنزل إليه ﷺ حسبَ تعدُّد ألسنة الأمم أَدْعَى إلى التنازع واختلافِ الكلمةِ وتطرُّقِ أيدي التحريف، مع أنَّ استقلالَ بعضٍ من ذلك بالإعجاز مَئِنَّةٌ لقدح القادحين، واتِّفاق الجميع فيه أمرٌ قريبٌ من الإلجاء المُنافي للتكليف، وحصر[٣] البيان بالترجمة والتفسير = اقتضَت الحكمةُ [اتحادَ النظم] المنبئ عن العزَّة وجلالةِ الشأن المستَتْبِعِ لفوائدَ غنيةٍ عن البيان على أنَّ الحاجة إلى الترجمة تَتَضاعف عند التعدُّد، إذ لابدَّ لكلِّ طائفةٍ من معرفةٍ توافقُ الكلِّ حذو القذَّة بالقذَّة من غير مخالفةٍ ولو في خَصلة فذَّة، وإنما يتمُّ ذلك بمَن يترجم عن الكلِّ واحداً أو متعدِّداً، وفيه من التعذُّر ما فيه، ثم لمَّا كان أشرفُ الأقوام وأولاهم بدعوته عليه الصلاة والسلام قومَه الذين بُعِثَ بين ظهرانَيهم، ولغتهم أفضلُ اللغات نَزَل الكتابُ المبين بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ، وانتشرَت أحكامه بين الأُمم أجمعين. كذا قرَّره شيخُ الإسلام والمسلمين[٤]، وهو من الحُسن بمكان، بَيْدَ أنَّ بعضَهم أبقَى الكلامَ على عمومه، بحيث يشمل النبيَّ ﷺ[٥]، وأراد بالقوم الذين ذلك الرسولُ منهم وبُعث

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٠٥، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٨ لجناح بن حبيش.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٠٥.

(٣) في الأصل و(م): حصل، والمثبت من تفسير أبي السعود ٥/ ٣٢. وما بين حاصرتين الآتي منه.

(٤) تفسير أبي السعود ٥/ ٣٢.

(٥) جاء في حاشية (م): ادعى بعضهم أنه ﷺ كان يعلم كل اللغات لعموم بعثته وإن كان لم يتكلم على خلاف بغير العربية فافهم ولا تغفل. اهـ منه.

فيهم، والمرادُ من قومه ﷺ العربُ كلهم[١]، ونَقَل ذلك أبو شامة في «المرشد» عن السجستاني، واحتجَّ بقوله ﷺ: «أُنْزِلَ القرآنُ على سَبْعةِ أَحْرُفٍ»[٢] وفيه نظر ظاهر.

وقال ابنُ قتيبة: المراد منهم قريش ولم يَنزل القرآنُ إلا بلغتهم[٣]. وقيل: إنَّما نزل بلغةِ مُضَرَ خاصَّةً لقول عمر رضي الله عنه: نَزَل القرآنُ بلغة مُضر.

وعيَّن بعضُهم فيما حكاه ابنُ عبد البرِّ سبعاً منهم: هُذَيل وكِنَانة وقَيس وضَبَّة وتَيم الرَّباب وأَسَد[٤] بن خزيمة وقُريش[٥].

وأخرج أبو عبيد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: نزل بلغةِ الكَعبين: كعبِ قريش وكعبِ خُزاعةَ. فقيل: وكيف؟ فقال: لأنَّ الدار واحدةٌ. يعني خزاعة كانوا جيرانَ قريش فسهُلَت عليهم لغتهم.

وجاء عن أبي صالح عنه أنَّه قال: نَزَل على سبعِ لغاتٍ منها خمسٌ بلغة العجز من هوازن، ويقال لهم: عُلْيا هوازن، ومن هنا قال أبو عمرو بن العلاء: أفصحُ العرب عُلْيا هوازن وسُفلى تميم، يعني بني دارم. والذي يذهب مذهب السجستاني يقول: إنَّ في القرآن ما نزل بلغة حِمْيَر وكنانة وجُرْهُم وأزدشنوءةِ ومَذْحِج وخَثْعَم وقيس عيلان وسعد العشيرة وكِنْدَة وعُذْرَة وحضرموت وغَسَّان ومُزَيْنَة ولَخْم وجُذَام وحنيفة واليمامة وسَبَأ وسُلَيم وعمارة وطَيِّئ وخُزاعة وعمان وتَميْم وأنمار والأشْعريِّين والأوس والخزرج ومَدْين؛ وقد مثَّل لكلٍّ ذلك أبو القاسم[٦].

---

(١) قوله: العرب كلهم، ليس في الأصل، وأثبتناه من (م).

(٢) أخرجه أحمد (١٥٨)، والبخاري (٢٤١٩)، ومسلم (٨١٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٣) غريب الحديث ١/ ٢٨٦، ونقله عنه بواسطة حاشية الشهاب ٥/ ٢٥٢.

(٤) في الأصل و(م): أسيد، والمثبت من المصادر.

(٥) عزاه لابنِ عبد البر ابنُ حجر في الفتح ٩/ ٢٧، والسيوطيُّ في الإتقان ١/ ١٥٠.

(٦) الإتقان في علوم القرآن ١/ ٤١٩ ـ ٤٢٣، وأبو القاسم هو يوسف بن علي بن عبادة الهذلي المغربي، له: الكامل في القراءات الخمسين، (ت٤٦٥هـ). كشف الظنون ٢/ ١٣٨١.

وذكر أبو بكر الواسطي: أنَّ في القرآن من اللغات خمسينَ لغةً، وسردها مُمَثِّلاً لها، إلا أنَّه ذكر أنَّ فيه من غير العربية الفُرس والنَّبط والحبشة والبَرْبر والسُّريانية والعِبرانية والقِبْط(١).

والذاهبُ إلى ما ذهب إليه ابنُ قتيبة يقول: إنَّ ما نُسب إلى غير قريش على تقدير صحة نسبتِهِ مما يُوافق لغتهم، ونَقَل أبو شامة عن بعض الشيوخ أنَّه قال: إنَّه نزل أوَّلاً بلسان قريش ومَن جاوَرَهم من العرب الفصحاء، ثم أُبيحَ لسائر العرب أنْ تقرَأه بلغاتهم التي جرَت عادتُهم باستعمالها، كاختلافهم في الألفاظ والإعراب، ولم يُكلَّف أحدٌ منهم الانتقال من لغته إلى لغةٍ أخرى؛ للمشقَّة ولِمَا كان فيهم من الحميَّة ولطَلَبِ تَسهيل المراد(٢)، لكن أنت تعلم أنَّ هذه الإباحة لم تستمرَّ، وكون المتبادر من قومه عليه الصلاة والسلام قريشاً مما لا أظنُّ أنَّ أحداً يمتري فيه، ويليه في التبادر العرب.

وفي «البحر»: أنَّ سبب نزول الآيةِ أنَّ قريشاً قالوا: ما بالُ الكتب كلّها أعجمية وهذا عربيٌّ(٣)؟ وهذا إنْ صحَّ ظاهرٌ في العموم، ثمَّ إنَّه لا يلزم من كون لغتِهِ لغةَ قريش أو العرب اختصاصُ بعثته ﷺ بهم، وإنْ زعمَت طائفةٌ من اليهود - يُقال لهم العيسوية - اختصاصَ البعثة بالعرب لذلك، وحكمةُ إنزاله بلغتهم أظهرُ من أنْ تخفَى.

وقيل: الضميرُ في «قومه» لمحمدٍ ﷺ المعلوم مِن السياق، فإنَّه كما أخرجَ ابنُ أبي [حاتم] عن سفيان الثوري: لم ينزل وحيٌ إلا بالعربية ثم تَرجَمَ كلُّ نبيٍّ لقومه(٤)، وقيل: كان يُترجم ذلك جبريلُ عليه السلام، ونُسب إلى الكلبي، وفيه أنَّه إذا لم يقع التبيين إلا بعدَ الترجمة فات الغرضُ مما ذكر.

وضميرُ «لهم» للقوم بلا خلاف، وهم المبيَّن لهم بالترجمة. وفي «الكشاف» أنَّ ذلك ليس بصحيح؛ لأنَّ ضميرَ «لهم» للقوم، وهم العرب، فيؤدّي إلى أنَّ الله تعالى أنزل التوراة مثلاً بالعربية ليُبيِّن للعرب، وهو معنًى فاسدٌ(٥).

---

(١) الإتقان ١/ ٤٢٤، وكلام أبي بكر في كتابه: الإرشاد في القراءات العشر.
(٢) فتح الباري ٩/ ٢٧.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٠٥.
(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨١٩، وما بين حاصرتين سقط من الأصل و(م).
(٥) الكشاف ٢/ ٣٦٧.

وتكلَّف الطيبي دفْعَ ذلك بأنَّ الضمير راجعٌ إلى كلِّ قوم بدلالةِ السياق، والجوابُ كما في «الكشف»: أنَّه لا يدفع عن الإيهام على خلاف مُقتضى المقام.

واحتجَّ بعض الناس بهذه الآية على أنَّ اللغاتِ اصطلاحيةٌ لا توقيفيةٌ، قال: لأنَّ التوقيف لا يحصل إلا بإرسال الرسل، وقد دلَّت الآية على أنَّ إرسال كلٍّ مِن الرسل لا يكونُ إلا بلغة قومه، وذلك يقتضي تقدُّم حصولِ اللغات على إرسال الرسول، وإذا كان كذلك امتنع حصولُ تلك اللغاتِ بالتوقيف، فوجَبَ حصولُها بالاصطلاح. انتهى.

وأُجيب بأنَّا لا نُسلِّم توقُّف التوقيف على إرسال الرسل، لجواز أنْ يخلُق الله تعالى في العقلاء علماً بأنَّ الألفاظ وضَعَها واضعٌ لكذا وكذا، ولا يلزم من هذا كونُ العاقل عالماً بالله تعالى بالضرورة، بل الذي يلزم منه ذلك لو خَلَق سبحانه في العقلاء علماً ضروريّاً بأنَّه تعالى الواضعُ، وأين هذا من ذاك، على أنَّه لا ضرَرَ في التزام خَلْقِ الله تعالى هذا العلمَ الضروريَّ، وأيُّ ضررٍ في كونه سبحانه معلومَ الوجود بالضرورة لبعض العقلاء؟! والقولُ بأنَّه يبطل التكليف حينئذٍ على عمومه، غيرُ مسلَّم، وعلى تخصيصه بالمعرفة مُسلَّم وغيرُ ضارٍّ.

﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ إضلالَه، أي: يخلق فيه الضلالَ لوجود أسبابه المؤدِّية إليه فيه، وقيل: يَخذُله فلا يَلطُف به لِمَا يعلم أنَّه لا يَنجَعُ فيه الإلطاف.

﴿وَيَهۡدِي﴾ يخلق الهدايةَ، أو يَمنَح الإلطافَ ﴿مَن يَشَآءُۚ﴾ هدايتَه لِمَا فيه من الأسباب المؤدِّية إلى ذلك، والإلتفات بإسناد الفعلَين إلى الاسم الجليل؛ لتفخيم شأنهما وترشيحِ مناطِ كلٍّ منهما، والفاءُ قيل: فصيحةٌ مثلها في قوله تعالى: ﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ﴾ [البقرة: ٦٠] كأنه قيل: فبيَّنوه لهم فأَضَلَّ الله تعالى مَن شاء إضلالَه، وهدَى مَن شاء هدايتَه حسبما اقتضَته حكمته تعالى البالغة، والحذفُ(١) للإيذان بأنَّ مسارعة كلِّ رسولٍ إلى ما أُمر به وجريان كلٍّ مِن الفعلَين على سَنَنه أمرٌ محقَّقٌ غنيٌّ عن الذكر والبيان.

---

(١) قوله: والحذف، ساقط من الأصل، وأثبتناه من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٣٢.

وفي «الكشف»: وجهُ التعقيب عن السابق كوجهه في قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦] على معنى: أنزلنا[١] الكتاب للتبيين، فمنهم مَن نفعناه بذلك البيانِ، ومنهم مَن جعلناه حجَّةً عليه، والفاء على هذا تفصيلية، والعدولُ إلى صيغة الاستقبال؛ لاستحضار الصورةِ، أو الدلالة على التجدُّد والاستمرار حيث تجدَّد البيانُ من الرسل عليهم السلام المتعاقبة عليهم، وتقديمُ الإضلال على الهداية ـ كما قال بعض المحقِّقين ـ إما لأنَّه إبقاءُ ما كان على ما كان، والهداية إنشاءُ ما لم يكن، أو للمبالغة في بيان أنَّه لا تأثيرَ للتبيين والتذكير من قِبَل الرسل عليهم السلام، وأنَّ مدار الأمر إنما هو مشيئته تعالى بإيهام أنَّ ترتُّب[٢] الضلالة أسرعُ من ترتُّب الاهتداء، وهذا محقِّقٌ لما سلَفَ من تقييد الإخراج من الظلمات إلى النور بإذن ربِّهم.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فلا يُغالَب في مشيئته تعالى ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ فلا يشاءُ ما يشاءُ إلا لحكمةٍ بالغةٍ، وفيه ـ كما في «البحر» وغيره ـ أنَّ ما فُوِّض إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام إنما هو التبليغُ وتَبيين طريق الحقِّ، وأمَّا الهدايةُ والإرشاد إليه فذلك بيد الله تعالى يفعلُ ما يشاء ويَحكمُ ما يريد[٣].

ثم إنَّ هذه الآية ظاهرةٌ في مذهب أهل السنة من أنَّ الضلالة والهدايةَ بخلقه سبحانه، وقد ذكر المعتزلةُ لها عدَّة تأويلات، وللإمام فيها كلامٌ طويلٌ إنْ أردته فارجع إليه[٤].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ شروعٌ في تفصيل ما أُجملَ في قوله تعالى: «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه» الآية. ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: ملتبساً بها، وهي ـ كما أخرج ابنُ جرير وغيرُه عن مجاهد وعطاء وعُبيد بن عُمير ـ الآيات التسع التي أجراها الله تعالى على يده عليه السلام[٥]. وقيل: يجوزُ أن يرادَ بها آياتُ التوراة.

(١) في (م): أرسلنا.
(٢) في الأصل: ترتيب، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٣٢.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٠٥، وتفسير أبي السعود ٥/ ٣٣.
(٤) تفسير الرازي ١٩/ ٨١ ـ ٨٢.
(٥) تفسير الطبري ١٥/ ١٠١، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٣٥، والدر المنثور ٤/ ٧٠.

﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ بمعنى: أي: أَخرج، ف «أَنْ» تفسيريَّة؛ لأنَّ في الإرسال معنى القول دون حروفه، أو بأنْ أخرج، فهي مصدريةٌ حُذف قبلها حرفُ الجرِّ؛ لأنَّ «أرسل» يتعدَّى بالباء، والجارُّ يطَّرد حذفُه قبل «أنَّ» و«أنْ»، واتِّصال المصدرية بالأمر أمرٌ مرَّ تحقيقه.

وزعم بعضُهم أنَّ «أنْ» هنا زائدةٌ، ولا يخفى ضعفُه، والمرادُ من قومه عليه السلام كما هو الظاهر بنو إسرائيل، ومِن إخراجهم إخراجُهم بعد مهلك فرعون.

﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ من الكفر والجهالات التي كانوا فيها وأدَّت بهم إلى أنْ يقولوا: يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهةٌ. ﴿إِلَى النُّورِ﴾ إلى الإيمان بالله تعالى وتوحيدِه وسائرِ ما أُمِرُوا به، وقيل: أَخرجْهم من ظلمات النقص إلى نور الكمال.

﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ أي: بنعمائه وبلائه كما روي عن ابن عباس ﵄، واختارَه الطبريُّ[(١)]؛ لأنَّه الأنسبُ بالمقام والأوفق بما سيأتي إن شاء الله تعالى من الكلام، والعطف على «أَخرِجْ».

وجوِّز أنْ تكون الجملةُ مستأنفةً، والالتفاتُ من التكلُّم إلى الغيبة بإضافة الأيام إلى الاسم الجليل؛ للإيذان بفخامة شأنها والإشعار - على ما قيل - بعدم اختصاص ما فيها من المعاملة بالمخاطب وقومه، كما يُوهمه الإضافة إلى ضمير المتكلِّم، وحاصلُ المعنى: عِظْهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد.

وعن ابن عباس أيضاً والربيع ومقاتل وابن زيد: المراد ب «أيام الله» وقائعُه سبحانه ونقماتُه في الأمم الخالية. ومن ذلك أيامُ العرب لحروبها وملاحمها كيوم ذي قار ويوم الفجار ويوم قِضَّة[(٢)] وغيرها، واستظهره الزمخشريُّ[(٣)] للغلبة العُرفية، وأنَّ العرب استعملَته للوقائع، وأنشدَ الطبرسيُّ[(٤)] لذلك قولَ عمرو بن كلثوم:

---

(١) في تفسيره ١٣/ ٥٩٤.
(٢) مكان معروف كانت فيه وقعة بين بكر وتغلب، تسمَّى يوم قِضَّة. تاج العروس (قضض).
(٣) في الكشاف ٢/ ٣٦٧.
(٤) مجمع البيان ١٣/ ١٩٨.

وأيــــامٍ لــنـــا غُــرٍّ[1] طِــوالٍ عَـصَـينـا الـمَـلْـكَ فـيـهـا أَنْ نَـدِيـنـا[2]

وأنشده الشهابُ[3] للمعنى السابق، وأنشد لهذا قوله:

وأيـــامـــنـــا مـــشـــهـــورة فـــي عـــدونـــا[4]

وأخرج النسائيُّ وعبد الله بنُ أحمد في «زوائد المسند» والبيهقيُّ في «شُعب الإيمان» وغيرُهم عن أُبيِّ بنِ كعبٍ عن النبيِّ ﷺ أنَّه فسَّر الأيامَ في الآية بنعم الله تعالى وآلائه[5]، وروى ذلك ابنُ المنذر عن ابن عباس ومجاهد[6]. وجَعَل أبو حيان من ذلك بيتَ عمرو[7]، والأظهرُ فيه ما ذكره الطبرسيُّ.

وأنت تعلمُ أنَّه إنْ صحَّ الحديثُ فعليه الفتوى، لكن ذكر شيخُ الإسلام في ترجيح التفسير المرويِّ عن ابن عباس رضي الله عنهما أوَّلاً على ما روي ثانياً بأنَّه يردُّ الثاني ما تصدَّى له عليه السلام بصدد الامتثال من التذكير بكلٍّ من السراء والضرَّاء مما جَرَى عليهم وعلى غيرهم حسبما يُتلَى بعدُ[8]، وهو يُبعدُ صحة الحديث، والقولُ بأنَّ النقَم بالنسبة إلى قوم نِعَمٌ بالنسبة إلى آخرين، كما قيل:

مـصـائـبُ قـومٍ عـنـدَ قـومٍ فـوائـدُ[9]

---

(١) في الأصل و(م): غرر، والمثبت من المصادر.

(٢) معلقة عمرو بن كلثوم بشرح ابن كيسان ص٥٨، وشرح القصائد المشهورات ٢/ ٩٨، وشرح القصائد العشر ص٢٦٢، وشرح المعلقات السبع ص٩٨، وورد عند ابن كيسان: ولهم، بدل: غرٌّ.

(٣) في حاشيته على البيضاوي ٥/ ٢٥٢، ولفظ عجزه فيه: عضضنا الملك فيها إن بدينا.

(٤) صدر بيت عجزه: لها غررٌ معلومةٌ وحجول، والبيت من قصيدة قيل: هي للسموءل، وقيل: هي لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي. ديوان المعاني ١/ ٣٧، وشرح الحماسة للمرزوقي ١/ ١٢١، والمثل السائر ١/ ١٧٣، ومعاهد التنصيص ١/ ٣٨٣، والتذكرة السعدية ص٣٧.

(٥) سنن النسائي الكبرى (١١١٩٦)، وزوائد عبد الله على المسند (٢١١٢٨)، وشعب الإيمان (٤٤١٨).

(٦) الدر المنثور ٤/ ٧٠.

(٧) البحر المحيط ٥/ ٤٠٦.

(٨) تفسير أبي السعود ٥/ ٣٣.

(٩) عجز بيت للمتنبي، وصدره: بذا قَضَتِ الأيامُ ما بين أهلها، وهو في ديوانه ١/ ٣٩٩.

مما لا ينبغي أنْ يَلتفتَ إليه عاقلٌ في هذا المقام. نعم إنَّ قوله تعالى: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب:٩] ظاهرٌ في تفسير الأيام بالنعم وما يستدعي غير ذلك ستسمعُ فيه أقوالاً لا يستدعيه على بعضها.

وزعم بعضُهم أنَّ المراد من قومه عليه السلام القِبطُ، «والظلمات والنور» الكفر والإيمان لا غير.

وقيل: قومُه عليه السلام القبطُ وبنو إسرائيل، وكان عليه السلام مبعوثاً إليهم جميعاً إلا أنَّه بُعِثَ إلى القِبط بالاعتراف بوحدانية الله تعالى، وأنْ لا يُشركوا به سبحانه شيئاً، وإلى بني إسرائيل بذلك وبالتكليف بفروع الشريعة.

وقيل: هم بنو إسرائيلَ فقط، إلا أنَّ المراد من «الظلمات والنور» إنْ كانوا كلُّهم مؤمنين ظلماتُ ذلِّ العبودية ونورُ عزَّة الدين، وظهور أمر الله تعالى.

ونحن نقول: نسأل الله تعالى أنْ يُخرجنا وأهلَ هذه الأقوال من ظلمات الجهل إلى نور العلم.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: في التذكير بأيَّام الله تعالى، أو في الأيام ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ عظيمةً أو كثيرةً دالَّةً على وحدانية الله تعالى وقُدرته وعلمه وحكمته، وهي على الأوَّل الأيامُ، ومعنى كونِ التذكير ظرفاً لها كونُه مناطاً لظهورها، وعلى الثاني كذلك أيضاً إلا أنَّ كلمةَ «في» تجريديَّة، أو هي عليه كل واحدةٍ من النعماء والبلاء، والمشارُ إليه المجموع المشتمل عليها من حيث هو مجموعٌ.

وجوِّز أنْ يُراد بالأيام فيما سبق أنفسُها المنطوية على النعم والنقم، فإذا كانت الإشارة إليها وحُملَت الآياتُ على النعماء والبلاء، فأمر الظرفية ظاهرٌ.

﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ كثيرِ الصبر على بلائه تعالى ﴿شَكُورٍ ۝٥﴾ كثيرِ الشكر لنعمائه عزَّ وجل.

وقيل: المراد لكلِّ مؤمنٍ، فعلى الأول الوصفان عبارتان لمعنَيين، وعلى هذا عبارةٌ عن معنى واحد على طريق الكناية كـ: حيّ مستوي القامةِ بادي البشرة، في الكناية عن الإنسان، والتعبيرُ عن المؤمن بذلك للإشعار بأنَّ الصبر والشكر عنوانُ المؤمن الدالّ على ما في باطنه. والمرادُ ـ على ما قيل ـ: لكلِّ مَن يليقُ بكمال

الصبر والشكر، أو الإيمان ويصيرُ أمرُه إلى ذلك، لا لمن اتَّصف به بالفعل؛ لأنَّ الكلام تعليلٌ للأمر بالتذكير المذكور السابق على التذكير المؤدِّي إلى تلك المرتبةِ، فإنَّ من تذكَّر ما فاضَ أو نزل عليه أو على ما قبله، من النعمة والنقمة وتنبَّهَ لعاقبة الصبرِ والشكر أو الإيمان، لا يكادُ يُفارق ذلك، وتخصيصُ الآياتِ بالصبار الشكور لأنَّه المنتفع بها، لا لأنَّها خافية عن غيره، فإنَّ التبيين حاصلٌ بالنسبة إلى الكلِّ، وتقديمُ الصبر على الشكر لما أنَّ الصبر مفتاحُ الفرج المقتضي للشكر، وقيل: لأنَّه من قَبيل التروك؛ يقال: صبَّرتُ الدابة، إذا حبستَها بلا علفٍ، والشكر ليس كذلك فإنَّه كما قال الراغب: تَصوُّرُ النعمة وإظهارُها، قيل: وهو مقلوبُ الكَشْر، أي: الكَشْف، وقيل: أصلُه من عَينٍ شَكْرَى، أي: ممتلئةٍ، فالشكر على هذا هو الامتلاءُ من ذكر المُنعِم عليه، وهو على ثلاثة أَضرُب: شُكرُ القلب، وشُكرُ اللسان، وشكر الجوارح، وذكر أن تَوفِيَةَ شُكرِ الله تعالى صعبةٌ، ولذلك لم يُثْنِ سبحانه بالشكر على أحدٍ من أوليائه إلا على اثنين نوح وإبراهيمَ عليهما السلام[1]. وقد يكون انقسام الشكر على النعمة وعدمُ انقسام الصبر على النقمة وجهاً للتقديم والتأخير، وقيل: ذلك لتقدُّم متعلّق الصبر، أعني: البلاء، على متعلّق الشكر، أعني: النعماء.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ شروعٌ في بيان تصدِّيه عليه السلام لِمَا أُمِرَ به من التذكير للإخراج المذكور. و«إذ» منصوبٌ على المفعولية عند كثيرٍ بمضمَرٍ خُوطِبَ به النبيُّ ﷺ، وتعليقُ الذِّكر بالوقت مع أنَّ المقصود تذكيرُ ما وَقَع فيه من الحوادث لِمَا مرَّ غير مرة، أي: اذكر لهم وقتَ قوله عليه السلام ﴿لِقَوْمِهِ﴾ الذين أمرناه بإخراجهم من الظلمات إلى النور: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ تعالى الجليلة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ وبدأ عليه السلام بالترغيب؛ لأنَّه عند النفس أقبلُ، وهي إليه أَميَلُ، وقيل: بدأ بهذا الأمرِ لِمَا بينه وبينَ آخِرِ الكلام السابق من مَزيد الرَّبْط، ولا يخفى أنَّ هذا إنَّما هو على تقدير أنْ يكون عليه السلام مأموراً بالترغيب والترهيب، أمَّا إذا كان مأموراً بالترغيب فقط فلا سؤالَ.

والظرفُ متعلِّقٌ بنفس النعمة إنْ جُعِلَت مصدراً بمعنى الإنعام، أو بمحذوفٍ وَقَع حالاً منها إنْ جُعِلَت اسماً، أي: اذكروا إنعامَه عليكم أو نعمتَه كائنةً عليكم.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (شكر).

و«إذ» في قوله سبحانه: ﴿إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ يجوز أنْ يتعلَّق بالنعمة أيضاً على تقدير جعلها مصدراً، أي: اذكروا إنعامَه عليكم وقتَ إنجائكم. ويجوز أنْ يتعلَّق بكلمة «عليكم» إذا كانت حالاً لا ظرفاً لغواً للنعمة؛ لأنَّ الظرف المستقرَّ لنيابته عن عامله يجوز أنْ يَعمل عملَه، أو هو على هذا معمولٌ لمتعلّقه، كأنَّه قيل: اذكروا نعمةَ الله تعالى مستقرَّةً عليكم وقتَ إنجائكم. ويجوزُ أنْ يكونَ بدلَ اشتمالٍ من «نعمةَ الله» مراداً بها الإنعامُ أو العطيةُ المنعَمُ بها.

﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ أي[1]: يبغونكم، من سَامَهُ خسفاً، إذا أَوْلاه ظلماً، وأَصلُ السَّوم كما قال الراغب: الذهابُ في طلب الشيء، فهو لفظٌ لمعنًى مركبٍ من الذهاب والطلب، فأُجرِي مُجرى الذهاب في قولهم: سامَت الإبلُ فهي سائمةٌ، ومجرى الطلب في قولهم: سمتُه كذا[2].

﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ مفعولٌ ثانٍ لـ «يسومونكم» والسُّوء مصدرُ ساءَ يسوءُ، والمرادُ جنسُ العذاب السيِّئ، أو استعبادُهم واستعمالهم في الأعمال الشاقَّة والاستهانة بهم وغيرُ ذلك.

وفي «أنوار التنزيل»: أنَّ المرادَ بالعذاب ها هنا غيرُ المراد به في سورة البقرة والأعراف؛ لأنَّه مفسَّرٌ بالتذبيح والتقتيل ثَمَّ، ومعطوفٌ عليه التذبيحُ المفاد بقوله تعالى: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ ها هنا[3]. وفيه إشارةٌ إلى وجهِ العطف وتركه مع أنَّ القصةَ واحدة، وحاصلُ ذلك أنَّه حيث طرح الواو قصدَ تفسيرَ العذاب وبيانه، فلم يعطف؛ لما بينهما من كمال الاتِّصال، وحيث عطف لم يقصد ذلك، والعذابُ إنْ كان المرادُ به الجنسَ، فالتذبيحُ لكونه أشدَّ أنواعه، عُطِفَ عليه عطْفَ جبريلَ على الملائكة عليهم السلام، تنبيهاً على أنَّه لشدَّته كأنَّه ليس من ذلك الجنس، وإنْ كان المراد به غيرَه كالاستعباد[4]، فهما متغايران، والمحلُّ محلُّ العطف.

---

(١) قوله: أي، ليس في (م).
(٢) مفردات ألفاظ القرآن (سام).
(٣) تفسير البيضاوي ٥/ ٢٥٣.
(٤) في الأصل: كالاستبعاد، والمثبت من (م).

وقد جوَّز أهلُ المعاني أنْ يكونا بمعنًى في الجميع، وذُكِرَ الثاني للتفسير، وتَرْكُ العطف في السورتين ظاهرٌ، والعطفُ هنا لعدِّ التفسير ـ لكونه أوفى بالمراد وأظهرَ ـ بمنزلةِ المغاير، وهو وجهٌ حسنٌ أيضاً.

وسببُ هذا التذبيح أنَّ فرعون رأى في المنام أو قال له الكهنة: إنه سيُولَد لبني إسرائيل مَن يذهبُ بملكه، فاجتهدوا في ذلك فلم يُغْنِ عنهم من قضاء الله تعالى شيئاً.

وقرأ ابنُ محيصن: «ويَذْبَحون»[1] مضارع ذَبَحَ ثلاثياً. وقرأ زيدُ بنُ عليٍّ رضي الله عنهما كذلك إلا أنَّه حذف الواو[2].

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ أي: يُبْقُونَهنَّ في الحياة مع الذُّلِّ، ولذلك عُدَّ من جملة البلاء، أو لأنَّ إبقاءَهُنَّ دون البنين رزيَّةٌ في نفسه، كما قيل:

ومِن أعظمِ الرُّزْءِ فيما أرَى بقاءُ البنات ومَوتُ البنينا[3]

والجُمَلُ أحوالٌ من «آل فرعون»، أو من ضمير المخاطَبين، أو منهما جميعاً؛ لأنَّ فيها ضميرَ كلٍّ منهما، ولا اختلاف في العامل؛ لأنَّه وإنْ كان في آل فرعون «مِن» في الظاهر، لكنَّه لفظ «أنجاكم» في الحقيقة، والاقتصار على الاحتمالَين الأوَّلَين هنا، وتجويز الثلاثةِ في سورة البقرة ـ كما فعل البيضاوي بيَّضَ الله تعالى غُرَّة أحواله ـ لا يظهر وَجْهُهُ.

﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ أي: فيما ذكرنا من الأفعال الفظيعة ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: ابتلاءٌ منه تعالى، لا أن[4] البلاءَ عينُ تلك الأفعال، اللهم إلا أنْ تجعلَ «في» تجريديَّة، فنسبتُه إلى الله تعالى إمَّا من حيث الخلقُ، وهو الظاهرُ، أو الإقدارُ والتمكين. ويجوز أنْ يكونَ المشارُ إليه الإنجاء من ذلك، والبلاء: الابتلاء بالنعمة، فإنَّه يكون بها كما يكون بالمحنة، قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] وقال زهير:

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٥، والبحر المحيط ٥/ ٤٠٧.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٠٧.
(٣) ذكره الشهاب في حاشيته ٥/ ٢٥٣.
(٤) في الأصل: إلا أن، وفي (م): لأن، والمثبت من تفسير أبي السعود ٥/ ١٨٩ والكلام منه.

جَزَى اللهُ بالإحسان ما فَعَلا بكم فأَبْلَاهما خيرَ البلاءِ الذي يَبْلُو[١]

وهو الأنسب بصدر الآية، ويُلوِّح إليه التعرُّض لوصف الربوبية، وعلى الأوَّل يكون ذلك باعتبار المآل الذي هو الإنجاء، أو باعتبار أنَّ بلاء المؤمن تربيةٌ له ونفعٌ في الحقيقة. ﴿عَظِيمٌ ۝٦﴾ لا يُطاقُ حملُه، أو عظيمُ الشأن جليلُ القدر.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ داخلٌ في مقول موسى عليه السلام لا كلامٌ مبتدأٌ، وهو معطوفٌ على نعمة الله، أي: اذكروا نعمةَ الله تعالى عليكم، واذكروا حينَ تأذَّن ربُّكم، أي: آذن إيذاناً بليغاً، وأَعلَمَ إعلاماً لا يبقى معه شُبهةٌ؛ لما في صيغة التفعُّل من معنى التكلُّف المحمول في حقِّه تعالى، لاستحالةِ حقيقته عليه سبحانه على غايته التي هي الكمال، وجوز عطفه على «إذ أنجاكم» أي: اذكروا نعمتَه تعالى في هذَين الوقتَين، فإنَّ هذا التأذُّن أيضاً نعمةٌ من الله تعالى عليهم لِمَا فيه من الترغيب والترهيب الباعثَين إلى ما ينالون به خيرَي الدنيا والآخرة. وفي قراءة ابن مسعود: «وإذْ قال ربُّكم»[٢].

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ ما خَوَّلْتُكم من نعمةِ الإنجاء من الإهلاك[٣] وغير ذلك، وقابلتموه بالإيمان أو بالثبات عليه أو الإخلاص فيه والعمل الصالح ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أي: نعمةً إلى نعمة، فإنَّ زيادةَ النعمة ظاهرةٌ في سَبْق نعمةٍ أُخرى. وقيل: يُفهَم ذلك أيضاً من لفظ الشكر، فإنَّه دالٌّ على سبق النعم، فليس الزيادةُ لمجرَّد الإحداث.

والظاهر ـ على ما قيل ـ أنَّ هذه الزيادة في الدنيا، وقيل: يحتمل أنْ تكونَ في الدنيا وفي الآخرة، وليس ببعيدٍ، وعن ابن عباس ﵄: لئن وحَّدتُم وأطعتُم لأزيدنَّكم في الثواب. وعن الحسن وسفيان الثوري أنَّ المعنى: لئن شكرتُم إنعامي لأزيدنَّكم من طاعتي. والكلُّ خلافُ الظاهر.

وذكر الإمام[٤] أنَّ حقيقةَ الشكر الاعترافُ بنعمة المُنعِم مع تعظيمه، وبيانُ زيادة

---

(١) والبيت في ديوانه ص١٠٩، وتقدم ١٠/ ٦٩.

(٢) ذكرها الطبري في تفسيره ١٢/ ٦٠١، وأبو حيان في البحر المحيط ٥/ ٤٠٧.

(٣) في (م): إهلاك.

(٤) تفسير الرازي ١٩/ ٨٦.

النعم به أنَّ النِّعمَ منها روحانيةٌ ومنها جسمانيةٌ، والشاكرُ يكون أبداً في مطالعة أقسامِ نِعَمِ الله تعالى وأنواعِ فضله وكرمه، وذلك يوجب تأكُّدَ محبة الله تعالى المُحسنِ عليه بذلك، ومقامُ المحبة أعلى مقامات الصديقين، ثم قد يَترقَّى العبدُ من تلك الحالة إلى أنْ يكون حبُّه للمُنعِم شاغلاً له عن الالتفات إلى النعمة، وهذه أعلَى وأغلَى، فثبَتَ من هذا أنَّ الاشتغال بالشكر يُوجبُ زيادةَ النعم الروحانية، وكونُه موجباً لزيادة النعم الجسمانية فللاستقراء الدالِّ على أنَّ كلَّ مَن كان اشتغالُه بالشكر أكثر، كان وصولُ النعم إليه أكثر، وهو كما ترى.

﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ ذلك وغمطتُموه ولم تشكروه كما تدلُّ عليه المقابلة، وقيل: المرادُ بالكفر ما يقابلُ الإيمان، كأنَّه قيل: ولئن أشركتُم ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ فعسى يُصيبكم منه ما يُصيبكم، ومن عادة الكرام غالباً التصريحُ بالوعد والتعريضُ بالوعيد، فما ظنُّك بأكرم الأكرمين، فلذا لم يقل سبحانه: إنَّ عذابي لكم، أو[١]: لأعذِّبنَّكم كما قال جلَّ وعلا: (لَأَزِيدَنَّكُمْ).

وجوَّز أنْ يكون المذكور تعليلاً للجواب المحذوف، أي: لأعذِّبنكم، وبيَّن الإمام وَجْهَ كون كفرانِ النِّعَمِ سبباً للعذاب أنَّه لا يحصلُ الكفرانُ إلا عند الجهل بكون تلك النعمةِ من عند[٢] الله تعالى؛ والجاهلُ بذلك جاهلٌ بالله تعالى، والجهلُ به سبحانه من أعظم أنواع العذاب[٣].

والآية مما اجتمع فيها القَسَمُ والشرط، فالجواب سادٌّ مسدَّ جوابيهما، والجملةُ إمَّا مفعول لـ «تأذَّنَ» لأنَّه ضَربٌ من القول، أو مفعولُ قولٍ مقدَّر منصوب على الحال سادٌّ معمولُه مسدَّه، أي: قائلاً: لئن شكرتم . . . إلخ، وهذان مذهبان مشهوران للكوفية والبصرية في أمثال ذلك.

واستدلَّ بالآية على أنَّ شكر المُنعمِ واجبٌ، وهو مما أجمعَ عليه السُّنِّيُّون والمعتزلةُ إلا أنَّ الأوَّلِينَ على وجوبه شرعاً، والآخِرينَ على وجوبه عقلاً، وهو

---

(١) ليس في (م).
(٢) قوله: عند، ليس في (م).
(٣) تفسير الرازي ١٩/ ٨٦.

مبنيٌّ على قولهم بالحُسن والقُبح العقليَّين، وقد هدَّ أركانَه أهلُ السنة، على أنَّه لو قيل به لم يكَدْ يتمُّ لهم الاستدلال بذلك في هذا المقام، كما بُيِّن في محلِّه.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ لهم: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ﴾ نِعَمَه سبحانه ولم تشكروها ﴿أَنتُمْ﴾ يا بني إسرائيل ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الناس، وقيل: من الخلائق ﴿جَمِيعًا﴾ لم يتضرَّر هو سبحانه، وإنَّما يتضرَّر من يكفُر ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ﴾ عن شكركم وشكرهم ﴿حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ مستوجبٌ للحمد بذاته تعالى، لكثرة ما يُوجبه من أياديه وإنْ لم يحمَدْه أحدٌ، أو محمودٌ تحمَدُه الملائكةُ عليهم السلام، بل كلُّ ذرَّةٍ من ذرات العالم ناطقةٌ بحمده.

والحمدُ حيث كان بمقابلة النعمة وغيرها من الفضائل كان أدلَّ على كماله جلَّ وعلا، وهو تعليلٌ لِمَا حُذف من جواب «إنْ تكفروا» كما أشرنا إليه.

ثم إنَّ موسى عليه السلام بعد أنْ ذكَّرهم أوَّلاً بنعمائه تعالى عليهم صريحاً، وضمَّنه بذكر ما أصابهم من الضراء، وأمرهم ثانياً بذكر ما جَرَى منه سبحانه من الوعد بالزيادة على الشكر والوعيدِ بالعذاب على الكفر، وحقَّق لهم مضمونَ ذلك، وحذَّرهم من عند نفسه عن الكفران ثالثاً لمَّا رأى منهم ما يوجبُ ذلك = شَرَع في الترهيب بتذكير ما جَرَى على الأمم الدارجة فقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ليتدبَّروا ما أصاب كلَّ واحدٍ من حِزبَي المؤمن والكافر، فيتمَّ له عليه السلام مقصودُه منهم. وجوز أنْ يكون من تَتمَّة قوله عليه السلام: «إن تكفروا»... إلخ على أنَّه كالبيان لِمَا أُشير إليه في الجواب من عَود ضَرَر الكفران على الكافر دونَه عزَّ وجلَّ.

وقيل: هو من كلامه تعالى جيء تَتمَّةً لقوله سبحانه: (لَئِن شَكَرْتُمْ)... إلخ، وبياناً لشدَّة عذابه، ونَقلُ كلام موسى عليه السلام مُعترِضٌ في البين، وهو كما ترى.

وقيل: هو ابتداءُ كلامٍ منه تعالى مخاطباً به أمة محمد ﷺ بعدَ ما ذكر إرسالَه عليه الصلاة والسلام بالقرآن، وقصَّ عليهم من قصص موسى عليه الصلاة والسلام مع أمته، ولعلَّ تخصيصَ تذكيرهم بما أصاب أولئك المعدودين مع قُرب غيرِهم إليهم للإشارة إلى أنَّ إهلاكَه تعالى الظالمين ونَصْرَه المؤمنين عادةٌ قديمة له سبحانه وتعالى، ومن الناس من استبعد ذلك.

﴿قَوۡمِ نُوحٖ﴾ بدلٌ من الموصول أو عطفُ بيان ﴿وَعَادٖ﴾ معطوفٌ على «قوم نوح» ﴿وَثَمُودَۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۛ﴾ أي: من بعد هؤلاء المذكورين، عطف على «قومِ نوح» وما عطف عليه، وقوله تعالى: ﴿لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ اعتراضٌ، أو الموصول مبتدأ، وهذه الجملة خبرُه، وجملةُ المبتدأ وخبرِه اعتراضٌ، والمعنى على الوجهين أنَّهم[1] من الكثرة بحيث لا يَعلمُ عددَهم إلا الله تعالى.

ومعنى الاعتراض على الأول: ألَم يأتِكم أنباءُ الجمِّ الغفير الذي لا يُحصَى كثرةً فتعتبروا بها أنَّ في ذلك لمعتبراً[2]. وعلى الثاني: هو تَرَقٍّ، ومعناه: أَلَم يأتِكم نبأُ هؤلاء ومن لا يُحصَى عددهم، كأنَّه يقول: دع التفصيلَ، فإنَّه لا مطمع في الحصر، وفيه لطفٌ لإيهام الجميع بين الإجمال والتفصيل، ولذا جعَلَه الزمخشريُّ أولَ الوجهَين[3]، وما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: بين عدنان وإسماعيلَ عليه السلام ثلاثونَ أباً لا يُعرَفون[4]، وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّه إذا قرأ هذه الآية قال: كذَبَ النسَّابون[5]. يعني أنَّهم يَدَّعون علم الأنساب، وقد نَفَى الله تعالى علمها عن العباد = أظهرُ فيه على ما قيل.

ومن هنا يعلم أنَّ ترجيحَ الطيبي الوجْهَ الأوَّل بما رجَّحه به ليس في محلِّه.

واعترض أبو حيان القولَ بالاعتراض بأنَّه لا يكونُ إلا بين جُزأين يَطلبُ أحدهما الآخر[6]، وما ذكر ليس كذلك، ومنع بأنَّ بين المعترض بينهما ارتباطاً يطلبُ به أحدُهما الآخر، لأنَّه يجوز أنْ تكونَ الجملة الآتية حالاً بتقدير «قد» والاعتراضُ يقع بين الحال وصاحبها، فليس ما ذُكر مخالفاً لكلام النحاة، ولو سلِّم أنَّها ليسَت بحاليَّةٍ فما ذكروه هنا على مصطلح أهلِ المعاني، وهم لا يشترطون الشرط المذكور، حتى جوَّزوا أنْ يكون الاعتراضُ في آخر الكلام،

---

(١) في حاشية (م): إلا أن مرجع الضمير في أنهم مختلف.

(٢) في الأصل: لمعتبر.

(٣) قوله: أول الوجهين، ساقط من الأصل، وأثبتناه من (م)، وينظر الكشاف ٢/ ٣٦٨.

(٤) الدر المنثور ٤/ ٧٢.

(٥) تفسير الطبري ١٣/ ٦٠٤.

(٦) البحر المحيط ٥/ ٤٠٨.

كما صرَّح به ابنُ هشام في «المغني»[(١)]، مع أنَّ الجملةَ الآتيةَ مُفسِّرة لما في الجملة الأولى، فهي مرتبطةٌ بها معنًى، واشتراطُ الارتباط الإعرابي عند النحاة غيرُ مسلَّم أيضاً، فتأمَّل.

وجعل أبو البقاء جملة «لا يعلمهم إلا الله» ـ على تقدير عطفِ الموصولِ على ما قبلُ ـ حالاً من الضمير في «من بعدهم»، وجوّز الاستئناف، ولعلَّه أرادَ بذلك الضمير المستقر في الجارِّ والمجرور لا الضمير المجرور بالإضافة، لفقد شرط مجيء الحال منه، وجوّز على تقدير كونِ الموصول مبتدأ كونَ تلك الجملة خبراً، وكونَها حالاً والخبر قوله تعالى: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾[(٢)]. والكثيرُ على أنَّه[(٣)] استئناف لبيان نبئهم.

﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات الظاهرة، فبيَّن كلُّ رسولٍ منهم لأمته طريقَ الحقِّ وهداهم إليه، ليخرجهم من الظلمات إلى النور ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ أي: أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقَت به ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ أي: على زعمكم، وهي البيِّنات التي أظهروها حُجَّةً على صحَّة رسالتهم.

ومرادُهم بالكفر بها الكفرُ بدلالتها على صحة رسالتهم، أو الكتب والشرائع. وحاصلُه أنهم أشاروا إلى جوابهم هذا كأنَّهم قالوا: هذا جوابنا لكم ليس عندنا غيرُه إقناطاً لهم من التصديق، وهذا كما يقع في كلام المخاطَبين أنَّهم يُشيرون إلى أنَّ هذا هو الجواب ثم يُقرِّرونه، أو يقرِّرونه ثم يُشيرون بأيديهم إلى أنَّ هذا هو الجواب، فضمير «أيديهم» و«أفواههم» إلى الكفار. والأيدي على حقيقتها، والردُّ مجازٌ عن الإشارة، وهي تحتمل المقارنةَ والتقدُّم والتأخُّر.

وقال أبو صالح: المراد أنَّهم وضَعوا أيديَهم على أفواههم مُشيرين بذلك للرسل عليهم السلام أنْ يكفُّوا ويَسكُتُوا عن كلامهم[(٤)]. كأنَّهم قالوا: اسكُتوا فلا ينفعكم الإكثار ونحن مُصرُّون على الكفر لا نُقلع عنه:

(١) ص ٥٢١.
(٢) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٣٩٥ بنحوه.
(٣) في الأصل: أنها، والمثبت من (م).
(٤) قوله: أن يكفوا ويسكتوا عن كلامهم، ليس في الأصل، وأثبتناه من (م).

فكم أنا لا أصغي وأنت تُطيل[١]

فالضميران للكفار أيضاً وسائرُ ما في النظم على حقيقته.

وأخرج ابنُ المنذر والطبرانيُّ والحاكم ـ وصحَّحه ـ عن ابن مسعود ﵁: أنَّ المراد أنَّهم عضُّوا أيديَهم غيظاً[٢]، من شدَّة نَفْرتهم من رؤية الرسل وسماع كلامهم، فالضميران أيضاً كما تقدَّم، واليدُ والفمُ على حقيقتهما، والردُّ كنايةٌ عن العضِّ، ولا يُنافي الحقيقةَ كونُ المعضوضِ الأناملَ كما في قوله تعالى: ﴿عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩] فإنَّ مَن عضَّ موضعاً من[٣] اليد، يقال حقيقةً: إنَّه عضَّ اليد، وعن ابن عباس ﵄ أنَّ المراد أنَّهم وضعوا أيديَهم على أفواههم تعجُّباً مما جاء به الرسل عليه السلام، وهذا كما يضعُ من غلبه الضحك يدَه على فِيْهِ، فالضميران وسائر ما في النظم كما في القول الثاني.

وجوز أنْ يرجعَ الضمير في «أيديهم» إلى الكفار، وفي «أفواههم» إلى الرسل عليهم السلام، وفيه احتمالان:

الأوَّلُ: أنَّهم أشاروا بأيديهم إلى أفواه الرسل عليهم السلام أن اسكُتوا.

والآخر: أنَّهم وضعوا أيديَهم على أفواه الرسل عليهم السلام منعاً لهم من الكلام. ورُوي هذا عن الحسن. والكلامُ يحتمل أنْ يكونَ حقيقةً، ويحتمل أنْ يكونَ استعارةً تمثيليَّةً بأنْ يُراد بردِّ أيدي القوم إلى أفواه الرسل عليهم السلام عدمُ قبول كلامهم واستماعه مشبَّهاً بوضع اليد على فم المتكلِّم لإسكاته.

وظاهر ما في «البحر» يقتضي أنَّه حقيقةٌ حيث قال: إنَّ ذلك أبلغُ في الردِّ وأذهبُ في الاستطالة على الرسل عليهم السلام والنَّيل منهم، وأنْ يكونَ الضميرُ في «أيديهم» للكفار، وضمير «أفواههم» للرسل عليهم السلام[٤].

---

(١) عجز بيت لبهاء الدين زهير، وهو في ديوانه ص٢٧٩، وصدره:

ويا عاذلي في لوعتي لست سامعاً

(٢) المعجم الكبير (٩١١٩)، والمستدرك ٢/ ٣٥١، وعزاه لابن المنذر السيوطيُّ في الدر المنثور ٣/ ٧٢.

(٣) في الأصل: في، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٥/ ٢٥٥.

(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٠٨.

والأيدي، جمع: يد، بمعنى النعمة، أي: رَدُّوا نِعَمَ الرسل عليهم السلام التي هي أجلُّ النعم من مواعظهم ونصائحهم وما أُوحيَ إليهم من الشرائع والأحكام في أفواههم، ويكون ذلك مَثَلاً لردِّها وتكذيبها بأنْ يُشبَّه ردَّ الكفار ذلك بردِّ الكلام الخارج من الفم، فقيل: رَدُّوا أيديَهم، أي: مواعظهم في أفواههم، والمرادُ عدمُ قبولها.

وقيل: المرادُ بالأيدي النعم، والضميرُ الأوَّل للرسل عليهم السلام أيضاً لكنَّ الضميرَ الثاني للكفار على معنى: كذَّبوا ما جاؤوا به بأفواههم، أي: تكذيباً لا مستندَ له.

و«في» بمعنى الباء، وقد أثبتَ الفرَّاء مجيئها بمعناها، وأنشدَ:

وأرغبُ فيها عن لقيطٍ ورَهْطِهِ ولكنَّني عن سِنْبِسٍ لستُ أرغبُ(١)

وضُعِّف حمل الأيدي على النعم بأنَّ مجيئها بمعنى ذلك قليلٌ في الاستعمال حتى أنكره بعضُ أهل اللغة، وإنْ كان الصحيحُ خلافه، والمعروف في ذلك الأيادي كما في قوله:

سأشكرُ عَمراً إنْ تراخَتْ مَنيَّتي أياديَ لم تُمنَنْ وإنْ هي جَلَّتِ(٢)

وبأنَّ الردَّ والأفواه يُناسب إرادةَ الجارحة، وقال أبو عبيدة: الضميران للكفار، والكلامُ ضربُ مَثَلٍ، أي: لم يؤمنوا ولم يُجيبوا، والعربُ تقول للرجل إذا سكَتَ عن الجواب وأَمسكَ: ردَّ يدَه في فِيْهِ(٣)، ومثله عن الأخفش(٤).

وتعقَّبه القُتَبيُّ: بأنَّا لم نَسمَع أحداً من العرب يقول: ردَّ فلانٌ يدَه في فِيْهِ: إذا سكَتَ وتَرَكَ ما أُمِرَ به(٥). وفيه أنَّهما سمعا ذلك، ومَن سَمِع حُجَّةٌ على مَن لم يسمع.

---

(١) معاني القرآن ٢/ ٧٠، والبيت دون نسبة في تفسير الطبري ١٣/ ٦٠٨، وزاد المسير ٤/ ٣٤٨، ولسان العرب: (ذرأ)، وجاء في هامش (م): يعني بنتاً له، ولقيط: اسم رجل، ورهطه: قبيلته، وسنبس: قبيلة أيضاً.

(٢) البيت نُسب لعبد الله بن الزبير في الأغاني ١٤/ ٢٢٣، وخزانة الأدب ٢/ ٢٦٥، ولأبي الأسود الدؤلي في اللآلي في شرح أمالي القالي ١/ ١٦٦.

(٣) مجاز القرآن ١/ ٣٣٦، ونقله عنه بواسطة البحر المحيط ٥/ ٤٠٩.

(٤) كما في البحر المحيط ٥/ ٤٠٩.

(٥) غريب القرآن ص٢٣٠ - ٢٣١، ونقله عنه بواسطة البحر المحيط ٥/ ٤٠٩.

قال أبو حيان[١]: وعلى ما ذكراه يكونُ ذلك من مجاز التمثيل، كأنَّ المُمسِك عن الجواب الساكِتَ عنه وَضَع يده على فِيْهِ. وردَّه الطبريُّ[٢] بأنَّهم قد أجابوا بالتكذيب؛ لأنَّهم قالوا: «إنَّا كفرنا» إلى آخره. وأُجيبَ بأنَّه يحتمل أنْ يكون مرادُ القائل أنَّهم أمسكوا وسكتوا عن الجواب المرضي الذي يَقتَضيه مَجيء الرسل عليهم السلام إليهم بالبيِّنات، وهو الاعتراف والتصديق.

وقال ابنُ عطية: الضميران للكفار، ويحتمل أنْ يُتجوَّزَ بـ «الأيدي» ويُراد منها ما يشمل أنواعَ المدافعة، والمعنى: ردُّوا جميعَ مدافعتهم في أفواههم، أي: إلى ما قالوا بأفواههم من التكذيب، وحاصلُه أنَّهم لم يجدوا ما يدفعون به كلام الرسل عليهم السلام سوى التكذيبِ المحضِ، وعبَّر عن جميع المدافعةِ بـ «الأيدي» إذ هي موضعُ أشدِّ المدافعة والمُرادَّة[٣].

وقيل: المرادُ أنَّهم جعلوا أيديَهم في محلِّ ألسنتهم على معنى أنَّهم آذَوا الرسل عليهم السلام بألسنتهم نحو الإيذاء بالأيدي، والذي يُطابق المقامَ وتشهد[٤] له بلاغةُ التنزيل هو الوجه الأول، ونصَّ غيرُ واحدٍ على أنَّه الوجهُ القويُّ؛ لأنَّهم لمَّا حاولوا الإنكار على الرسل عليهم السلام كلَّ الإنكار جَمَعُوا في الإنكار بين الفعل والقول، ولذا أَتَى بالفاء تنبيهاً على أنَّهم لم يمهلوا بل عقَّبوا دعوتَهم بالتكذيب وصدَّروا الجملة بـ «إنَّ»، ويَلي ذلك على ما في «الكشف» الوجهُ الثاني، ولا يخفَى ما في أكثر الوجوه الباقية، فتأمَّل.

﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ﴾ عظيم ﴿مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ﴾ من الإيمان والتوحيد، وبهذا وتفسير «ما أرسلتم به» بما ذكر أوَّلاً يندفعُ ما يُتوهَّم من المنافاة بين جزمهم بالكفر وشكِّهم هذا.

وقيل في دفع ذلك على تقدير كونِ متعلَّقَي الكفر والشَّكِّ واحداً: إنَّ الواوَ بمعنى «أو»، أي: أحدُ الأمرين لازمٌ، وهو أنَّا كفرنا جزماً بما أرسلتُم به، فإنْ لم

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٠٩.

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٦٠٩.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٦ ونحوه.

(٤) في الأصل: ويسهد، والمثبت من (م).

نجزم فلا أقلَّ من أنْ نكونَ شاكِّين فيه؛ وأيًّا ما كان فلا سبيل إلى الإقرار والتصديق.

وقيل: إنَّ الكفر عدمُ الإيمان عمَّن هو من شأنه، ف «كفرنا» بمعنى: لم نصدِّق، وبذلك فسَّره ابنُ عباس رضي الله عنهما، وذلك لا ينافي الشكَّ.

وفي «البحر» أنَّهم بادروا أولاً إلى الكفر، وهو التكذيب المحض، ثم أخبروا أنَّهم في شكٍّ، وهو التردُّد، كأنَّهم نظروا بعضَ نظر اقتضَى أن انتقلوا من التكذيب المحض إلى التردُّد، أو هما قولان من طائفَتين؛ طائفة بادَرَت بالتكذيب والكفر، وأُخرى شكَّت، والشكُّ في مثل ما جاءت به الرسل عليهم السلام كفرٌ[1]. وهذا أَوْلَى من قرينه.

وقرأ طلحة: «مما تَدْعونَّا»[2] بإدغام نون الرفع في نون الضمير، كما تُدغم في نون الوقاية في نحو: ﴿أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى﴾ [الأنعام: ٨٠].

﴿مُرِيبٍ ۝٩﴾ أي: مُوقِع في الريبة، مِن أرابني، بمعنى: أَوقَعَني في ريبة، أَوْ: ذي ريبة، مِنْ أَراب؛ صارَ ذا ريبة، وهي: قَلَقُ النفس وعدمُ اطمئنانها بالشيء، وهو صفة توكيدية.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ ينساقُ إليه المقامُ، كأنَّه قيل: فماذا قالت لهم رسلُهم حين قابلوهم بما قابلوهم به؟ فأُجيبَ بأنَّهم قالوا مُنكرينَ عليهم ومتعجِّبين من مقالتهم الحمقاء: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾! بتقديم الظرف وإدخالِ الهمزة عليه؛ للإيذان بأنَّ مدارَ الإنكار ليس نفسَ الشكِّ بل وقوعه فيمَن لا يكاد يُتوهَّم فيه الشكُّ أصلاً، ولولا هذا القصدُ لجاز تقديم المبتدأ، والقولُ بأنَّه ليس كذلك خطأٌ؛ لأنَّ وقوعَ النكرة بعد الاستفهام مسوِّغٌ للابتداء بها، وهو ممَّا لا شكَّ فيه، وكونُ ذلك المؤخَّرِ مبتدأً غيرُ متعيِّن، بل الأرجحُ كونه فاعلاً بالظرف المعتمد على الاستفهام كما ستعلمه[3] إن شاء الله تعالى.

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٠٩.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٧، والبحر المحيط ٥/ ٤٠٩.

(٣) في (م): ستعلم.

والكلامُ على تقدير مضافٍ على ما قيل، أي: أفي وحدانيةِ الله تعالى شكٌّ، بناءً على أنَّ المرسَل إليهم لم يكونوا دهريَّةً مُنكرين للصانع، بل كانوا عَبَدَةَ أصنام. وقيل: يُقدَّر: أفي[1] شأن الله، ليعمَّ الوجودَ والوحدةَ؛ لأنَّ فيهم دهريةً ومشركين. وقيل: يُقدَّر حسب المخاطَبين، وتقديرُ الشأن مطلقاً ذو شأن.

وفي عدم تطبيق الجواب على كلام الكفرة بأنْ يقولوا: أأَنتم في شكٍّ مريبٍ من الله تعالى = مبالغةٌ في تنزيه ساحة الجلال عن شائبة الشكِّ، وتسجيلٌ عليهم بسخافة العقول، أي: أفي شأن الله ـ تعالى شأنه ـ من وجودِه ووحدتِهِ ووجوبِ الإيمان به وحده شكٌّ ما، وهو أظهرُ من كلِّ ظاهر وأَجلَى من كلِّ جَليٍّ، حتى تكونوا من قِبله سبحانه في شكٍّ عظيمٍ مُريب، وحيث كان مقصدُهم الأقصى الدعوةَ إلى الإيمان والتوحيد، وكان إظهارُ البيِّنات وسيلةً إلى ذلك لم يتعرَّضوا للجواب عن قولهم: «إنَّا كفرنا» إلى آخره، واقتصروا على بيان ما هو الغايةُ القصوى، وقد يقال: إنَّهم عليهم السلام قد اقتصروا على إنكار ما ذُكر؛ لأنَّه يُعلَم منه إنكارُ وقوع الجزم بالكفر به سبحانه من باب أَولَى.

﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: مبدعهما وما فيهما من المصنوعات على نظامٍ أنيقٍ شاهدٍ بتحقُّق ما أنتم في شكٍّ منه. وفي الآية ـ كما قيل ـ إشارةٌ إلى دليل التمانع.

وجرُّ «فاطر» على أنَّه بدلٌ من الاسم الجليل، أو صفةٌ له. وحيث كان «شكٌّ» فاعلاً بالظرف وهو كالجزء من عامله لا يُعَدُّ أجنبيّاً، فليس هناك فصلٌ بين التابع والمتبوع بأجنبيٍّ وبهذا رُجِّحَت الفاعليةُ على المبتدئية؛ لأنَّ المبتدأ ليس كذلك. نعم إلى الابتدائية ذهب أبو حيان[2]، وقال: إنَّه لا يضرُّ الفصل بين الموصوف وصفتِهِ بمثل هذا المبتدأ، فيجوز أنْ تقول: في الدار زيدٌ الحسنةِ، وإنْ كان أصل التركيب: في الدار الحسنةِ زيدٌ.

وقرأ زيد بنُ عليٍّ ﷺ: «فاطرَ»[3] نصباً على المدح.

---

(١) في (م): في.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٠٩.
(٣) ذكرها أبو حيان في البحر المحيط ٥/ ٤٠٩.

ثم إنه بعد أنْ أُشيرَ إلى الدليل الدالِّ على تحقُّق ما هم في شكٍّ منه، نبَّه على عِظَم كرمه ورحمتِهِ تعالى فقيل: ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ أي: إلى الإيمان بإرساله إيّانا لا أنَّا ندعوكم إليه من تلقاء أنفسنا، كما يُوهم قولكم: «مما تدعوننا إليه». ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم﴾ بسببه، فالمدعو إليه غيرُ المغفرة. وتقديرُ الإيمان لقرينة ما سبق. ويحتمل أنْ يكونَ المدعو إليه المغفرةَ، لا لأنَّ اللام بمعنى «إلى»، فإنَّه من ضِيقِ العَطَن[1]، بل لأنَّ معنى الاختصاص ومعنى الانتهاء كلاهما واقعان في حاقٍّ[2] الموقع، فكأنَّه قيل: يدعوكم إلى المغفرة لأجلها لا لغرض آخر. وحقيقتُه أنَّ الأغراضَ غاياتٌ مقصودةٌ تُفيدُ معنى الانتهاء وزيادة، قاله في «الكشف»، وهذا نظيرُ قوله:

دعوتُ لِمَا نابني مِسْوَراً ... فلبَّى فلبَّيْ يَدَيْ مِسْوَرِ[3]

﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: بعضها، وهو ما عدا المظالم وحقوقِ العباد على ما قيل، وهو مبنيٌّ على أنَّ الإسلام إنما يرفعُ ما هو من حقوق الله تعالى الخالصة له دون غيره، والذي صحَّحه المحدِّثون في شرح ما صحَّ من قوله ﷺ: «إنَّ الإسلامَ يَهدِمُ ما قبلَه»[4] أنَّه يرفع ما قبلَه مطلقاً حتى المظالم وحقوق العباد، وأيِّد ذلك بظاهر قوله تعالى في آية أخرى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصف: ١٢] بدون «مِن»، ومِن هنا ذَهَب أبو عبيدة[5] والأخفش[6] إلى زيادة «مِن» فيما هي فيه، وجمهورُ البصريين لا يجوِّزون زيادتها في الموجب، ولا إذا جَرت المعرفة كما هنا، فلا يتأتَّى التوفيقُ بذلك بين الآيتَين، وجعَلَها الزجَّاج للبيان، ويحصل به التوفيق.

---

(١) يضرب المثل في المنع وضيق الخُلُق، فيقال: فلان ضيِّق العَطَن، والعطن: موضع مَبَارِك الإبل حول الماء. فصل المقال ص٤٣١.

(٢) الحاقُّ: الوسط. وحاقُّ كلِّ شيء: وسطه.

(٣) الكتاب ١/ ٣٥٢، وسر صناعة الإعراب ٢/ ٧٤٧، والمغني ص٧٥٣، وخزانة الأدب ٢/ ٩٣، قال البغدادي: هذا البيت من الأبيات الخمسين التي لا يعرف لها قائل. ونسبه السيوطي في شرح شواهد المغني ٢/ ٩١٠ لأعرابي من بني أسد.

(٤) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٧٨٢٧)، ومسلم (١٢١) عن عمرو بن العاص ﷺ، ولفظ أحمد: «يَجبُّ»، بدل: «يهدم».

(٥) مجاز القرآن ١/ ٣٣٦.

(٦) ينظر معاني القرآن ١/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣، والبحر المحيط ٥/ ٤٠٩، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٥٧.

وقيل: هي للبدل، أي: ليغفر لكم بدل ذنوبكم، ونُسب للواحدي.

وجوِّز أيضاً أنْ تكون للتبعيض ويُراد من البعض الجميع توسُّعاً.

وردَّ الإمام[1] الأول بأنَّ «مِن» لا تأتي للبدل، والثاني بأنَّه عين ما نُقل عن أبي عُبيدة والأخفش، وهو منكرٌ عند سيبويه والجمهور، وفيه نظر ظاهر، ولو قال: إنَّ استعمال البعض في الجميع مسلَّم، وأمَّا استعمال «مِن» التبعيضية في ذلك فغيرُ مسلَّمٍ، لكان أولَى.

وفي «البحر»: يصحُّ التبعيضُ، ويُراد بالبعض ما كان قبلَ الإسلام، وذلك لا يُنافي الحديث، وتكونُ الآية وعداً بغفران ما تقدَّم لا بغفران ما يستأنف، ويكون ذاك مسكوتاً عنه باقياً تحت المشيئة في الآية والحديث[2].

ونُقل عن الأصمِّ القول بالتبعيض أيضاً على معنى: إنَّكم إذا آمنتُم يَغفر لكم الذنوب التي هي الكبائر، وأمَّا الصغائر فلا حاجةَ إلى غفرانها؛ لأنَّها في نفسها مغفورةٌ.

واستَطْيَبَ ذلك الطيبي قال: والذي يقتضيه المقامُ هذا؛ لأنَّ الدعوةَ عامةٌ لقوله سبحانه: (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ) كأنَّه قيل: أيُّها الشاكُّون الملوَّثون بأوضار الشركِ والمعاصي إنَّ الله تعالى يدعوكم إلى الإيمان والتوحيد ليطهركم من أجناس[3] أنجاسِ الذنوب، فلا وجْهَ للتخصيص، أي: بحقوق الله تعالى الخالصة له، وقد ورد: ﴿إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨]. و«ما» للعموم سيَّما في الشرط، ومقامُ الكافر عند ترغيبه في الإسلام بسطٌ لا قبضٌ، والكفار إذا أسلموا إنَّما اهتمامُهم في الشرك ونحوه لا في الصغائر، ويُؤيِّده ما روي أنَّ أهل مكة قالوا: يزعم محمدٌ أنَّ مَن عبد الأوثان وقَتَل النفس التي حرَّم الله تعالى لم يُغفر له، فكيف ولم نهاجِر وعبدنا الأوثان وقتلنا النفس التي حرَّم الله تعالى؟! فنزلت: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ

(١) تفسير الرازي ١٩/ ٩٤.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٠٩.
(٣) في (م): أخباث.

﴿أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾[(١)] الآية [الزمر:٥٣]، وقصةُ وَحْشِيٍّ مشهورةٌ[(٢)]، وجرح ذلك القاضي، فقال: إنَّ الأصمَّ قد أَبعدَ في هذا التأويل؛ لأنَّ الكفار صغائرهم ككبائرهم في أنَّها لا تغفر، وإنَّما تكون الصغيرةُ مغفورةً من الموحِّدين من حيث إنهم يزيد ثوابهم على عقابها، وأمَّا مَن لا ثوابَ له أصلاً فلا يكون شيءٌ من ذنوبِهِ صغيراً، ولا يكون شيءٌ منها مغفوراً، ثم قال: وفي ذلك وجهٌ آخر، وهو أنَّ الكافر قد يَنسَى بعضَ ذنوبه في حال توبته وإيمانه، فلا يكون المغفور إلا ما ذكره وتاب منه. اهـ.

ولو سمع الأصمُّ هذا التوجيه لأخذ ثأرَه من القاضي، فإنَّه لَعمري توجيهٌ غيرُ وجيهٍ؛ ولو أنَّ أحداً سخَّم وجهَ القاضي لسخَّمتُ وجهَه.

وقال الزمخشري: إنَّ الاستقراء في الكافرين أنْ يأتي «من ذنوبكم»، وفي المؤمنين «ذنوبكم» وكان ذلك للتفرقة بين الخطابَين، ولئلا يُسوَّى في الميعاد بين الفريقَين[(٣)].

وحاصلُه على ما في «الكشف» أن ليس مغفرة بعضِ الذنوب للدلالة على أنَّ بعضاً آخر لا يُغفر، فإنَّه من قبيل دلالة مفهوم اللقب، ولا اعتداد به، كيف وللتخصيص فائدةٌ أخرى هي التفرقة بين الخطابَين بالتصريح بمغفرة الكلِّ، وإبقاءُ البعض في حقِّ الكفرة مسكوتاً عنه لئلا يتَّكلوا على الإيمان. وفيه أيضاً أنَّ هذا معنىً حسنٌ لا تكلُّفَ فيه.

واعترض ابنُ الكمال بأنَّ حديث التفرقة إنَّما يتم لو لم يجئ خطابٌ على العموم، وقد جاء كذلك في سورة الأنفال في قوله سبحانه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الآية:٣٨]. وأُجيبَ بأنَّ هذا غيرُ وارد، إذ المرادُ التفرقةُ فيما ذكر فيه صيغة: «ويغفر ذنوبكم» لا مطلقُ ما كان بمعناه، ولذا أسنَدَ الأمرَ إلى الاستقراء، ومثلُ الزمخشري لا يخفى عليه ما أُورد، ولا يلزم رعاية هذه النكتةِ في جميع المواد.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٢٤، وذكره الواحدي في أسباب ص٣٨٩، عن ابن عباس رضي الله عنه.
(٢) أخرجها الطبراني في المعجم الكبير ١١/ ١٩٧، والبيهقي في شعب الإيمان (٧١٤٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٣) الكشاف ٢/ ٣٦٩.

وذكر البيضاوي في وجه التفرقة بين الخطابَين ما حاصلُه: لعلَّ المعنى في ذلك أنَّها لما ترتَّبَت المغفرةُ في خطاب الكفرة على الإيمان، لَزِم فيه «مِن» التبعيضية لإخراج المظالم؛ لأنَّها غيرُ مغفورةٍ، وأمَّا في خطاب المؤمنين فلما ترتَّبَت على الطاعة واجتناب المعاصي التي من جملتها المظالم، لَمْ يحتَجْ إلى «مِن» لإخراجها؛ لأنَّها خرجَت بما رُتِّبَت عليه[1]. وهو مبنيٌّ على خلاف ما صحَّحه المحدِّثون، ويُنافيه ما ذكره في تفسير «مِن ذنوبكم» في سورة نوح عليه السلام؛ ومع ذا أُورد عليه قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ [نوح:٢-٤] حيث ذُكرت «من» مع ترتيب المغفرةِ على الطاعة واجتناب المعاصي الذي أفاده «اتقوا»، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ﴾ الآية [الصف:١٠] لعدم ذكر«من» مع ترتُّبها على الإيمان.

والجواب بأنَّه لا ضيرَ، إذ يكفي ترتُّب[2] ذلك على الإيمان في بعض المواد، فيحمل مثله على أنَّ القصد إلى ترتيبه عليه وحدَه بقرينة ذلك البعض، وما ذكر معه يحمل على الأمر به بعد الإيمان أدنَى من أنْ يقال فيه: ليس بشيء، وبالجملة توجيهُ الزمخشريِّ أوجهُ مما ذكره البيضاوي، فتأمَّل وتذكَّر.

﴿وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ إلى وقتٍ سمَّاه الله تعالى وجعلَه منتهى أعماركم على تقدير الإيمان ولا يعاجلكم بعذاب الاستئصال، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: يُمتِّعكم في الدنيا باللذَّات والطَّيِّبات إلى الموت، ولا يلزم مما ذكر القولُ بتعدُّد الأجل كما يزعمه المعتزلة، وقد مرَّ تحقيقُ ذلك[3].

﴿قَالُوٓاْ﴾ استئنافٌ كما سبق آنفاً ﴿إِنۡ أَنتُمۡ﴾ ما أنتم ﴿إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ من غير فضل يُؤهِّلكم لما تَدَّعُون من الرسالة، والزمخشريُّ تهالك في مذهبه حتى اعتقد أنَّ الكفار كانوا يعتقدون تفضيلَ المَلَك[4].

---

(١) تفسير البيضاوي ٥/ ٢٥٧، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٥٧.
(٢) في(م): ترتيب.
(٣) ٥/ ٢٩ وما بعدها.
(٤) الانتصاف ٢/ ٣٦٩ - ٣٧٠.

﴿تُرِيدُونَ﴾ صفةٌ ثانية لـ «بشر» حملاً على المعنى كقوله تعالى: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن:٦] أو كلامٌ مستأنفٌ، أي: تريدون بما أنتم عليه من الدعوة والإرشاد ﴿أَن تَصُدُّونَا﴾ بما تدعونا إليه من التوحيد وتخصيص العبادة بالله تعالى ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ عمَّا استمرَّ على عبادته آباؤنا من غير شيءٍ يوجبه.

وقرأ طلحة: «أن تصدونَّا» بتشديد النون(١)، وخُرِّج على جَعْل «أنْ» مخفَّفةً من الثقيلة وتقدير فاصل بينها وبين الفعل، أي: أنَّه قد تصدونا، وقد جاء مثل ذلك في قوله:

علموا أنْ يؤمَّلونَ فجادوا قبلَ أنْ يُسألوا بأعظَمِ سُؤْلِ(٢)

والأولَى أنْ يُخرَّج على أنَّ «أنْ» هي الثنائيَّة التي تنصب المضارع، لكنَّها لم تعمل، كما قيل في قوله تعالى: «لمن أراد أن يتمُّ الرضاعة» [البقرة:٢٣٣] في قراءة الرفع(٣)، حملاً لها على أُختها «ما» المصدرية، كما عملت «ما» حملاً عليها فيما ذكره بعضهم في قوله:

أَنْ تقرآنِ على أسماءَ وَيْحَكُما منِّي السلام وأنْ لا تُشعرا أحداً(٤)

﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ أي: إنْ لم يكن الأمرُ كما قلنا بل كنتم رسلاً من قِبَلِهِ تعالى كما تدَّعون، فأتونا بما يدلُّ على صحة ما تدَّعونه من الرسالة حتى نتركَ ما لم نَزَل نعبدُه أباً عن جدٍّ، أو على فضلكم واستحقاقكم لتلك المرتبة.

قال ابن عطية(٥): إنَّهم استبعدوا إرسال البشر فأرادوا حُجَّة عليه، وقيل: بل إنَّهم اعتقدوا مُحاليَّته وذهبوا مذهبَ البراهمة(٦)، وطلبوا الحُجَّة على جهة التعجيز، أي: بعثُكم محالٌ وإلا فأتوا بسلطانٍ مبين، أي: إنَّكم لا تفعلون ذلك أبداً. وهو

(١) البحر المحيط ٥/ ٤١٠.
(٢) شرح ابن عقيل ١/ ٣٨٨، وأوضح المسالك ص١٨٧، وشرح قطر الندى ص٢٦١.
(٣) البحر المحيط ٢/ ٢١٣، وشرح المفصل ٨/ ١٤٣، ونسباها لمجاهد.
(٤) الخصائص ١/ ٣٩٠، ومغني اللبيب ص٤٦، وشرح شواهد المغني للسيوطي ١/ ١٠٠، وخزانة الأدب ٨/ ٤٢٠.
(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٨.
(٦) البراهمة: قبيلة بالهند من ولد برهمي ملك من ملوكهم القدماء، ولهم علامة ينفردون بها وهي خيوط ملونة بحمرة وصفرة، وهم يقولون بالتوحيد على نحو قولنا إلا أنهم أنكروا النبواتِ. الفِصَل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ١/ ٦٩.

خلافُ الظاهر. وهذا الطلبُ كان بعد إتيانهم عليهم السلام لهم من الآيات الظاهرة والبينات الباهرة ما تخرُّ له الجبال الصمُّ، أَقدمَهم عليه العنادُ والمكابرة.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ مجاراةً لأوّل مقالتهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ كما تقولون وهذا كالقول بالموجب؛ لأنَّ فيه إطماعاً في الموافقة، ثم كرًّا إلى جانبهم بالإبطال بقولهم عليهم السلام: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: إنما اختصَّنا الله تعالى بالرسالة بفضلٍ منه سبحانه وامتنانٍ، والبشرية غيرُ مانعةٍ لمشيئته جلَّ وعلا، وفيه دليلٌ على أنَّ الرسالة عطائيةٌ وأنَّ ترجيحَ بعض الجائزات على بعضٍ بمشيئته تعالى، ولا يخفى ما في العدول عن: ولكنَّ الله منَّ علينا، إلى ما في النظم الجليل من التواضع منهم عليهم السلام.

وقيل: المعنى: ما نحن من الملائكة بل نحن بشرٌ مثلُكم في الصورة أو في الدخول تحت الجنس، ولكنَّ الله تعالى يَمنُّ على مَن يشاء بالفضائل والكمالات والاستعدادت التي يدور عليها فلكُ الاصطفاء للرسالة، وفي هذا ذهابٌ إلى قول بعض حكماء الإسلام: إنَّ الإنسان لو لم يكن في نفسه وبدنه مخصوصاً بخواصَّ شريفةٍ عُلْويَّةٍ قُدسيَّة، فإنَّه يمتنع عقلاً حصول صفةِ النبوَّة فيه، وأجابوا عن عدم ذكر المرسلين عليهم السلام فضائلَهم النفسانية والبدنية بأنَّه مِن باب التواضع كاختيار العموم. والحقُّ منعُ الامتناع العقلي وإن كانوا عليهم السلام جميعاً لهم مزايا وخواصُّ مرجِّحةٌ لهم على غيرهم. وإنما قيل لهم كما قيل لاختصاص الكلام بهم حيث أُريد إلزامُهم بخلاف ما سلف من إنكار وقوع الشكِّ فيه تعالى، فإنَّه عامٌّ وإن اختصَّ بهم ما يعقبه.

﴿وَمَا كَانَ لَنَا﴾ أي: ما صحَّ وما استقام ﴿أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ﴾ أي: بحجةٍ ما من الحُجَج فضلاً عن السلطان المبين الذي اقترحتموه بشيءٍ من الأشياء وسبب من الأسباب ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فإنَّه أمرٌ يتعلَّق بمشيئته تعالى إنْ شاء كان، وإلا فلا، ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ وحدَه دون ما عداه مطلقاً ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم، عمَّموا الأمر للإشعار بما يُوجب التوكُّل من الإيمان، وقصدوا به أنفسهم قصداً أوَّليًّا، ويدلُّ على ذلك قولهم: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾، ومحلُّ الخلاف في دخول المتكلم في عموم كلامِهِ حيث لم يعلم دخوله فيه

بالطريق الأولَى، أو تَقُم عليه قرينةٌ كما هنا. واحتمالُ أنْ يُراد بـ «المؤمنين» أنفسُهم و«مالنا» التفاتٌ، لا التفاتَ إليه، والجمعُ بين الواو والفاء تقدَّم الكلام فيه[1].

و«ما» استفهاميةٌ للسؤال عن السبب والعذر، و«أنْ» على تقدير حرف الجرِّ، أي: أيُّ عذرٍ لنا في عدم التوكُّل عليه تعالى، والإظهارُ لإظهار النشاط بالتوكُّل عليه جلَّ وعلا، والاستلذاذ باسمه تعالى وتعليل التوكُّل.

﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا﴾ أي: والحال أنَّه سبحانه قد فعل بنا ما يُوجب ذلك ويستدعيه حيث هدانا ﴿سُبُلَنَاۚ﴾ أي: أرشد كلًّا منَّا سبيلَه ومنهاجَه الذي شرع له، وأَوجبَ عليه سلوكَه في الدين.

وقرأ أبو عمرو: «سُبْلَنا» بسكون الباء[2].

وحيث كانت أذيَّةُ الكفار مما يوجب القلقَ والاضطرابَ القادح في التوكُّل قالوا على سبيل التوكيد القَسَميِّ مُظهرين لكمال العزيمة: ﴿وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ﴾ و«ما» مصدريَّةٌ، أي: أذاتكم إيَّانا بالعناد واقتراحِ الآيات وغيرِ ذلك مما لا خيرَ فيه، وجوَّزوا أنْ تكونَ موصولةً بمعنى «الذي» والعائدُ محذوفٌ، أي: الذي آذيتموناه، وكان الأصل: آذيتمونا به، فهل حُذفَ به أو الباء ووُصِل الفعلُ إلى الضمير؟ قولان.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ خاصَّةً ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي: فليثبُت المتوكِّلون على ما أحدثوه من التوكُّل، والمرادُ بهم المؤمنون، والتعبيرُ عنهم بذلك لسبق اتِّصافهم به، وغرضُ المرسَلين من ذلك نحو غرضهم مما تقدَّم، وربما يُتجوَّز في المسند إليه. فالمعنى: وعليه سبحانه فليتوكَّل مريدو التوكُّل، لكن الأوَّل أَولَى.

وقرأ الحسنُ بكسر لامِ الأمر في «لِيتوكَّل»[3] وهو الأصل.

هذا، وذكر بعضُهم أنَّ من خواصِّ هذا الآية دفعَ أذى البرغوث. فقد أخرج المستغفري في «الدعوات» عن أبي ذرٍّ عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا آذاك البرغوثُ فخذ

---

(١) ١٢/ ٤١٤.

(٢) التيسير ص٨٥، والنشر ٢/ ٢١٦.

(٣) المحتسب ١/ ٣٥٩، والبحر ٥/ ٤١١.

قَدَحاً من ماء واقرأ عليه سبعَ مراتٍ: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الآية، وتقول: إنْ كنتُم مؤمنين فكفُّوا شرَّكم وأذاكم عنَّا، ثم ترشُّه حولَ فراشك، فإنَّك تبيتُ آمناً من شرِّها»(١).

وأخرج الديلمي في «مسند الفردوس» عن أبي الدرداء مرفوعاً نحو ذلك إلا أنَّه ليس فيه: «إنْ كنتُم مؤمنينَ فكفُّوا شرَّكم وأذاكم عنَّا»(٢) ولم أقف على صحة الخبر، ولم أُجرِّب ذلك، إذ ليس للبرغوث وَلَعٌ بي، والحمد لله تعالى. وأظنُّ أنَّ ذلك لملوحة الدم كما أخبرني به بعض الأطباء، والله تعالى أعلمُ بحقيقة الحال.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قيل: لعلَّ هؤلاء القائلين بعضُ المتمرِّدين في الكفر من أولئك الأُمَم الكافرة التي نُقِلَت مقالاتُهم الشنيعةُ دون جميعهم، كقوم شعيب وأضرابهم، ولذلك لم يقل: وقالوا لرسلهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾، وجوِّز أنْ يكونَ المرادُ بهم أهلَ الحلِّ والعقد الذين لهم قدرةٌ على الإخراج والإدخال، ويكونُ ذلك علَّةً للعدول عن قالوا أيضاً.

و«أو» لأحد الأمرَين، ومرادُهم ليكونَنَّ أحدُ الأمرَين، إخراجُكم أو عودُكم؛ فالمقسَم عليه في وسع المقسِم، والقولُ بأنَّها بمعنى «حتى» أو «إلا أنْ» قولُ مَن لم يُمعن النظر ـ كما في «البحر» ـ فيما بعدها، إذ لا يصحُّ تركيبُ ذلك مع ما ذكر كما يصحُّ في: لأَلزَمَنَّك أو تقضيَني حقِّي.

والمرادُ من العَوْد: الصيرورةُ والانتقال من حالٍ إلى أخرى، وهو كثيرُ الاستعمال بهذا المعنى، فيندفعُ ما يُتوهَّم من أنَّ العودَ يقتضي أنَّ الرسل عليهم السلام كانوا ـ وحاشاهم ـ في ملَّة الكفر قبل ذلك(٣).

واعترض في «الفرائد» بأنَّه لو كان العودُ بمعنى الصيرورةِ لقيل: إلى ملَّتنا، فتعديتُه بـ «في» يقتضي أنَّه ضُمِّن معنى الدخول، أي: لتدخلُنَّ في ملَّتنا.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٧٢.
(٢) الفردوس بمأثور الخطاب ٥/ ٣٦٢.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤١١.

وردَّه الطيبي بأنَّه إنما يلزمُ ما ذكر لو كان «في ملتنا» صلة الفعل، أمَّا إذا جُعل خبراً له؛ لأنَّ «صار» من أخوات «كان» فلا يردُ كما في نحو: صار زيدٌ في الدار. نعم يُفهم مما ذكره وجهٌ آخر، وهو جعلُه مجازاً بمعنى: تدخلُنَّ، لا تضميناً، لأنَّه على ما قرَّروه يُقصد فيه المعنيان فلا يُدفع المحذور.

وفي «الكشف» أنَّ «في» أبلغُ من «إلى» لدلالته على الاستقرار والتمكُّن، كأنَّهم لم يرضوا بأنْ يتظاهروا أنَّهم من أهل ملَّتهم.

وقيل: المرادُ من العود في ملَّتهم سكوتُهم عنهم وتركُ مطالبتهم بالإيمان، وهو كما ترى.

وقيل: هو على معناه المتبادر، والخطابُ لكلِّ رسولٍ ولمن آمنَ معه من قومه، فغَلَّبوا الجماعة على الواحد. فإنْ كان الجماعةُ حاضرين فالأمرُ ظاهرٌ، وإلا فهناك تغليبٌ آخر في الخطاب.

وقيل: لا تغليبَ أصلاً والخطابُ للرسل وحدهم، بناءً على زعمهم أنَّهم كانوا من أهل ملَّتهم قبل إظهار الدعوة، كقول فرعون ـ عليه اللعنةُ ـ لموسى عليه السلام: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩] وقد مرَّ الكلام في مثل ذلك، فتذكَّر.

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: إلى الرسل عليهم السلام بعد ما قيل لهم ما قيل: ﴿رَبُّهُمْ﴾ مالكُ أمرهم سبحانه ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ أي: المشركين المتناهين في الظلم، وهم وأولئك القائلون، وقال ابنُ عطية[1]: خصَّ سبحانه «الظالمين» من «الذين كفروا» إذ جائز أنْ يُؤمن مِن الكفرة الذين قالوا تلك المقالة ناسٌ، فالتوعُّد بإهلاك من خلص للظلم.

و«أوحى» يحتمل أنْ يكون بمعنى: فعل الإيحاء، فلا مفعولَ له، و«لنهلكنَّ» على إضمار القول، أي: قائلاً لَنُهلكنَّ، ويحتمل أنْ يكونَ جارياً مجرى القول لكونه ضرباً منه، و«لنهلكنَّ» مفعولُه.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٠.

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: أرضَهم وديارَهم، فاللام للعهد، وعند بعضٍ عِوَضٌ عن المضاف إليه ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْۚ﴾ أي: من بعد إهلاكهم، وأَقْسم سبحانه وتعالى في مقابلة قَسَمهم، والظاهرُ أنَّ ما أَقسَم عليه جلَّ وعلا عقوبةٌ لهم على قولهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾ وفي ذلك دلالةٌ على مزيد شناعةِ ما أَتَوا به، حيث إنَّهم لمَّا أرادوا إخراجَ المخاطَبين من ديارهم جَعَل عقوبتَه إخراجَهم من دار الدنيا وتوريثَ أولئك أرضَهم وديارَهم، وفي الحديث: «مَن آذى جارَه أورثه الله تعالى دارَه»[(١)].

وقرأ أبو حيوة: «لَيُهلكنَّ الظالمين ولَيُسكننَّكم الأرضَ» بياء الغيبة[(٢)] اعتباراً لـ «أوحى» كقولك: أَقْسَمَ زيدٌ ليخرجَنَّ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الموحَى به، وهو إهلاكُ الظالمين وإسكانُ المخاطَبين ديارَهم، وبذلك الاعتبار وحَّد اسمَ الإشارة مع أنَّ المشارَ إليه اثنان، فلا حاجةَ إلى جعله من قبيل: ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَۖ﴾ [البقرة:٦٨] وإنْ صحَّ، أي: ذلك الأمر محقَّقٌ ثابتٌ.

﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ أي: موقفي الذي يقفُ به العبادُ بين يديَّ للحساب يوم القيامة، وإلى هذا ذهب الزجَّاجُ[(٣)]، فالمقامُ اسمُ مكان، وإضافتُه إلى ضميره تعالى لكونه بين يديه سبحانه. وقال الفراء[(٤)]: هو مصدرٌ ميميٌّ أُضيفَ إلى الفاعل، أي: خاف قيامي عليه بالحفظ لأعماله ومراقبتي إيَّاه. وقيل: المراد إقامتي على العدل والصوابِ وعدم الميل عن ذلك.

وقيل: لفظُ مقام مُقحَمٌ؛ لأنَّ الخوفَ من الله تعالى، أي: لمن خافني.

﴿وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ أي: وعيدي بالعذاب، فياءُ المتكلِّم محذوفةٌ للاكتفاء بالكسرةِ عنها في غير الوقف. والوعيدُ على ظاهره ومتعلَّقه محذوفٌ، وجوِّز أنْ

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف ٢/ ٣٧٠، والرازي في تفسيره ١٩/ ١٠٠، قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص٩٢: لم أجده.

(٢) القراءات الشاذة ص٦٨، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣٠، والبحر المحيط ٥/ ٤١١.

(٣) كما في البحر المحيط ٥/ ٤١٢.

(٤) كما في البحر المحيط ٥/ ٤١١.

يكون مصدراً من الوعد على وزن فَعِيْل، وهو بمعنى اسمِ المفعول، أي: عذابي الموعود للكفار، وفيه استعارة الوعد للإيعاد.

والمرادُ بـ «مَن خاف» إلخ على ما أُشيرَ إليه في «الكشاف»: المتَّقون[1]، ووقوع «ذلك» إلى آخره بعدَ «ولنُسكننَّكم الأرضَ مِن بعدهم» موقع ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ في قصة موسى عليه السلام حيث قال لقومه: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾ أي: استنصَرُوا الله تعالى على أعدائهم كقوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩] ويجوزُ أنْ يكونَ من الفتاحة، أي: الحكومة، أي: استَحْكَموا الله تعالى وطَلَبُوا منه القضاء بينهم، كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩]. والضمير للرسل عليهم السلام كما رُوي عن قتادة وغيره. والعطف على «أَوْحَى» ويُؤيِّد ذلك قراءةُ ابن عباس ومجاهد وابن محيصن: «واسْتفتِحُوا» بكسر التاء[2] أمراً للرسل عليهم السلام معطوفاً على «ليُهلِكَنَّ» فهو داخلٌ تحت الموحَى، والواوُ من الحكاية دون المحكي.

وقيل: ما قبله لإنشاء الوعد فلا يلزمُ عطفُ الإنشاء على الخبر مع أنَّ مذهبَ بعضهم تجويزُه، وأُخِّر على القراءتَين عن قوله تعالى: «لنهلكن» ـ أو «أَوْحَى إليهم» على ما في «الكشف» ـ دلالةً على أنَّهم لم يزالوا داعينَ إلى أنَّ تحقُّقَ الموعود من إهلاك الظالمين، وذلك لأنَّ «لَنُهلِكَنَّ» وعدٌ، وإنَّما حقيقة الإجابة حين الإهلاك، وليس من تفويض الترتيب إلى ذهن السامع في شيء، ولا ذلك من مقامه كما تُوهِّم.

وقال ابن زيد: الضمير للكفار، والعطف حينئذٍ على «قال الذين كفروا» أي: قالوا ذلك واستفتَحوا على نحو ما قال قريش: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ [ص: ١٦] وكأنَّهم لمَّا قَوِيَ تكذيبُهم وأذاهم ولم يُعاجَلُوا بالعقوبة ظنُّوا أن ما قيل لهم باطلٌ، فاستفْتَحوا على سبيل التهكُّم والاستهزاء، كقول قوم نوح: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [هود: ٣٢] وقوم شعيب: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الشعراء: ١٨٧] إلى غير ذلك.

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٧١.

(٢) القراءات الشاذة ص٦٨، والمحتسب ١/ ٣٥٩، والبحر المحيط ٥/ ٤١٢.

وقيل: الضميرُ للرسل عليهم السلام ومكذِّبيهم؛ لأنَّهم كانوا كلُّهم سألوا الله تعالى أنْ يَنصُر المحقَّ ويُهلك المبطلَ، وجعل بعضُهم العطف على «أَوحَى» على هذا أيضاً، بل ظاهرُ كلام بعضٍ أنَّ العطف عليه على القراءة المشهورة مطلقاً، وسيأتي إن شاء الله تعالى احتمالٌ آخر في الضمير ذكره الزمخشري[١].

﴿وَخَابَ﴾ أي: خَسِرَ وهَلَك ﴿كُلُّ جَبَّارٍ﴾ مُتكبِّرٍ عن عبادة الله تعالى وطاعته، وقال الراغب: الجبَّارُ في صفةِ الإنسان يقال لمن يَجبُر نَقيصَتَه بادِّعاء منزلةٍ من التعالي لا يستحقُّها، ولا يقال إلا على طريق الذمِّ[٢].

﴿عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ معاند للحقِّ، مُباهٍ بما عنده، وجاء فَعيلٌ بمعنى مُفاعل كثيرًا، كخليط بمعنى مُخالط، ورَضِيع بمعنى مُراضع، وذكر أبو عبيدة أنَّ اشتقاق ذلك من العَنَد، وهو: الناحية[٣]، ولذا قال مجاهد: العنيدُ: مجانِب الحقِّ. قيل: والوصف الأوَّل إشارةٌ إلى ذمِّه باعتبار الخلق النفساني، والثاني: إلى ذمِّه باعتبار الأثر الصادرِ عن ذلك الخلق، وهو كونُه مجانبًا منحرفًا عن الحقِّ.

وفي الكلام إيجازُ الحذفِ بحذف الفاءِ الفصيحةِ والمعطوف عليه، أي: استفتَحوا ففُتِح لهم وظَفِرُوا بما سألوا وأَفلحُوا، وخاب كلُّ جبارٍ عنيد وهم قومُهم المعاندون؛ فالخيبة بمعنى مطلق الحِرمان دون الحرمان عن المطلوب، أو ذلك باعتبار أنَّهم كانوا يزعُمون أنَّهم على الحقِّ، هذا إذا كان ضمير «استفتحوا» للرسل عليهم السلام، وأمَّا إذا كان للكفار فالعطف ـ كما في «البحر»[٤] ـ على «استفتحوا»، أي: استفتح الكفار على الرسل عليهم السلام وخابُوا ولم يُفلحوا. وإنَّما وضع «كلُّ جبَّارٍ عنيدٍ» موضع ضميرهم ذمًّا لهم وتسجيلًا عليهم بالتجبُّر والعناد، لا أنَّ بعضَهم ليسوا كذلك ولم تصبهم الخيبة، ويُقدَّر ـ إذا كان الضمير للرسل عليهم السلام وللكفرة ـ «استفتحوا» جميعًا؛ فنصر الرسل وخابَ كلُّ عاتٍ متمرِّد، والخيبةُ على الوجهَين بمعنى الحِرمان غِبَّ الطلب، وفي إسناد الخيبة إلى كلٍّ منهم ما لا يخفى من المبالغة.

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٧١، وسيأتي عند تفسير الآية (١٧) من هذه السورة.
(٢) مفردات ألفاظ القرآن: (جبر).
(٣) ينظر مجاز القرآن، ومختار الصحاح: (عند).
(٤) البحر المحيط ٥/ ٤١٢.

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي: من قُدَّامه وبَيْنَ يديه، كما قال الزجَّاج[1] والطبريُّ[2] وقُطربُ وجماعةٌ، وعلى ذلك قوله:

أَلـيـسَ ورائـي إنْ تـراخَـتْ مَـنِـيَّـتـي ... لُزومُ العصا تُحنَى عليها الأصابعُ[3]

ومعنى كونها قُدَّامه أنَّه مرصدٌ لها واقفٌ على شفيرها ومبعوثٌ إليها، وقيل: المرادُ مِن خَلْف حياته وبعدَها، ومِن ذلك قولُه:

حَـلَـفـتُ فـلـم أَتـرُكْ لـنـفـسـكَ رِيـبـةً ... ولـيـس وراءَ اللهِ لـلـمـرءِ مَـذهـبُ[4]

وإليه ذهب ابنُ الأنباري[5]، واستعمالُ «وراء» في هذا وذاك بناء على أنَّها من الأضداد عند أبي عبيدة[6] والأزهري[7]، فهي من المشترِكات اللفظية عندهما. وقال جماعة: إنَّها من المشترِكات المعنوية، فهي موضوعةٌ لأمرٍ عامٍّ صادقٍ على القُدَّام والخلف، وهو: ما توارى عنك. وقد تُفسَّر بالزمان مجازًا، فيقال: الأمرُ من ورائك على معنى: أنَّه سيأتيك في المستقبل من أوقاتك.

﴿وَيُسْقَىٰ﴾ قيل: عطف على متعلَّق «من ورائه» المقدَّر، والأكثرُ على أنَّه عطفٌ على مقدَّر جوابًا عن سؤال سائل، كأنَّه قيل: فماذا يكونُ إذن؟ فقيل: يَلقَى فيها ما يَلقَى ويُسقَى ﴿مِن مَّآءٍ﴾ مخصوصٍ لا كالمياه المعهودة. ﴿صَدِيدٍ ۝١٦﴾ قال مجاهد وقتادة والضحاك: هو ما يَسيلُ من أجساد أهلِ النار. وقال محمد بنُ

---

(١) معاني القرآن ٣/ ١٥٦.
(٢) في تفسيره ١٣/ ٦١٧.
(٣) البيت للبيد، وهو في ديوانه ص١٧٠، وجاء في هامش (م):
قوله:

أترجو بنو مروان سمعي وطاعتي ... وقوم تميم والفلاة ورائيا

وقوله:

عسى الكرب الذي أمسيت فيه ... يكون وراءه فرج قريب

انتهى منه.
(٤) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص١٧.
(٥) النكت والعيون ٣/ ١٢٨، والقرطبي ١٢/ ١٢٠، والبحر المحيط ٥/ ٤١٢.
(٦) مجاز القرآن ١/ ٣٣٧.
(٧) تهذيب اللغة ١٥/ ٣٠٤.

كعب والربيع: ما يسيلُ من فروج الزناة والزواني، وعن عكرمة: هو الدمُ والقيح.

وأَعربَه الزمخشريُّ[1] عطفَ بيانٍ لـ «ماء»، وفي إبهامه أوَّلًا ثم بيانه من التهويل ما لا يخفَى، وجواز عطف البيان في النكرات مذهبُ الكوفيين والفارسيِّ[2]، والبصريُّون لا يرونَه، وعلى مذهبهم هو بدلٌ من «ماء» إن اعتُبِرَ جامدًا، أو نعتٌ إنْ اعتُبِرَ فيه الاشتقاق من الصدِّ، أي: المنع من الشرب، كأنَّ ذلك الماء لمزيد قُبحه مانعٌ عن شربه. وفي «البحر»: قيل: إنَّه بمعنى مصدودٌ عنه، أي: لكراهته يُصدُّ عنه[3]. وإلى كونه نعتًا ذهب الحوفي وكذا ابنُ عطية، قال: وذلك كما تقول: هذا خاتمُ حديد[4]. وإطلاق الماء على ذلك ليس بحقيقة، وإنما أُطلقَ عليه باعتبار أنَّه بدَلُه.

وقال بعضُهم: هو نعتٌ على إسقاطِ مفيدِ التشبيه كما تقول: مررتُ برجل أسد، والتقدير: مثل صديد، وعلى هذا فإطلاقُ الماء عليه حقيقة، وبالجملة تخصيصُ السَّقي من هذا الماء بالذكر مِن بين عذابها يدلُّ على أنَّه من أشدِّ أنواعه.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ جوَّز أبو البقاء كونَه صفةً لـ «ماء»، أو حالًا منه، أو استئنافًا[5]، وجوَّز أبو حيان[6] كونَه حالًا من ضمير «يُسقَى». والاستئنافُ أظهرُ، وهو مبنيٌّ على سؤالٍ، كأنَّه قيل: فماذا يفعل به؟ فقيل: يتجرَّعُه، أي: يتكلَّفُ جَرْعَه مرَّةً بعد أُخرى لغلبة العطش واستيلاء الحرارة عليه.

﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أي: لا يُقارب أنْ يُسيغَه فضلًا عن الإساغة، بل يَغَصُّ به فيشرَبه بعد اللُّتيا والتي جُرعةً غِبَّ جُرعة، فيطول عذابُه تارةً بالحرارة والعطش،

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٧١.
(٢) كما في البحر المحيط ٥/ ٤١٣.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤١٣.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣١.
(٥) الإملاء ٣/ ٣٩٦.
(٦) البحر المحيط ٥/ ٤١٣.

وأُخرَى بشربه على تلك الحالة؛ فإنَّ السَّوغَ انحدارُ الماء انحدارَ الشراب[1] في الحَلْق بسهولةٍ وقبولِ نفس، ونفيُه لا يُفيد نَفْي ما ذُكر جميعًا. وقيل: تَفَعَّل مُطاوع فَعَّلَ، يقال: جَرَّعَه فتجَرَّع، وقيل: إنَّه موافقٌ للمجرَّد، أي: جَرَعه، كما تقول: عدا الشيءَ وتعدَّاه.

وقيل: الإساغة: الإدخال في الجوف، والمعنى: لا يُقارِبُ أنْ يُدخله في جوفه قبل أنْ يَشرَبه، ثم شَرِبه على حدِّ ما قيل في قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١] أي: ما قاربوا قبل الذبح، وعبَّر عن ذلك بالإساغة لِمَا أنَّها المعهودةُ في الأشربة.

أخرج أحمد والترمذيُّ والنسائيُّ والحاكم وصحَّحه وغيرُهم عن أبي أُمامةَ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال في الآية: «يُقرَّبُ إليه فيَتَكَرَّهُهُ فإذا أُدنِيَ منه شَوَى وَجْهَهُ ووَقعتْ فَرْوةُ رأسِهِ، فإذا شَرِبَه قَطَّع أمعاءَه حتى يَخرُجَ من دُبُره، يقول الله تعالى: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾ [محمد: ١٥] وقال سبحانه: ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ﴾ [الكهف: ٢٩][2].

و«يُسيغه» بضمِّ الياء؛ لأنَّه يُقال: ساغَ الشرابَ وأَساغَه غيرُه، وهو الفصيح، وإنْ وَرَد ثلاثيُّه متعدِّيًا أيضًا على ما ذكره أهلُ اللغة، وجملةُ «ولا يكاد» إلى آخره في موضع الحال من فاعل «يَتَجَرَّعُه» أو من مفعوله أو منهما جميعًا.

﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ﴾ أي: أسبابُه من الشدائد وأنواع العذاب، فالكلامُ على المجاز أو بتقدير مضافٍ ﴿مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾ أي: من كلِّ موضعٍ، والمرادُ: أنَّه يُحيطُ به من جميع الجهات كما رُوي عن ابن عباس ﵄، وقال إبراهيم التيميّ: من كلِّ مكانٍ من جسدِه حتى من أَطرافِ شعره، ورُوي نحوُ ذلك عن ميمون بنِ مهران ومحمد بنِ كعب، وإطلاق المكان على الأعضاء مجازٌ، والظاهرُ أنَّ هذا الإتيان في الآخرة.

---

(١) قوله: انحدار الشراب، ليس في الأصل، وأثبتناه من (م).

(٢) المسند (٢٢٢٨٥)، وسنن الترمذي (٢٥٨٣)، والسنن الكبرى للنسائي (١١١٩٩)، والمستدرك ٢/ ٣٥١، قال الترمذي: هذا حديث غريب.

وقال الأخفش[١]: أراد البلايا التي تُصيب الكافر في الدنيا سمَّاها موتًا لشدَّتها، ولا يخفَى بُعدُه؛ لأنَّ سياق الكلام في أحوال الكافرِ في جهنَّمَ وما يلقى فيها.

﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ أي: والحال أنَّه ليس بميِّتٍ حقيقةً، كما هو الظاهر من مجيء أسبابه على أتمِّ وجهٍ فيستريح مما غشيَهُ من أصناف الموبقات.

﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ أي: مِن بين يدَي مَن حُكم عليه بما مرَّ ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ يَستقبلُ كلَّ وقتٍ عذابًا أشدَّ وأشقَّ مما كان قبله، وقيل: في «ورائه» هنا نحو ما قيل فيما تقدَّم أمامَه، وذِكر هذه الجملة لدفع ما يُتوهَّم من الخِفَّة بحسب الاعتياد كما في عذاب الدنيا.

وقيل: ضمير «ورائه» يعودُ على العذاب المفهومِ من الكلام السابق لا على كلِّ جبار، وروي ذلك عن الكلبي.

والمرادُ بهذا العذابِ قيل: الخلودُ في النار، وعليه الطبرسيُّ[٢]، وقال الفضيل[٣]: هو قطعُ الأنفاس وحبسها في الأجساد.

هذا وجوّز في «الكشاف» أنْ تكونَ هذه الآية ـ أعني قوله تعالى: (وَٱسْتَفْتَحُواْ) ـ إلى هنا منقطعةً عن قصة الرسل عليهم السلام، نازلةً في أهل مكة، طلبوا الفتحَ الذي هو المطرُ في سِنِيِّهم التي أرسلت عليهم بدعوة رسول الله ﷺ[٤]، فخيَّب سبحانه رجاءَهم، ولم يَسْقهم ووعدهم أن يَسْقيَهم في جهنَّم بدلَ سقياهم صديدَ أهل النار، والواو على هذا قيل: للاستئناف، وقيل: للعطف إمَّا على قوله تعالى: (وَوَيۡلٌ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ) أو على خبر «أولئك في ضلالٍ بعيد» لقربه لفظًا ومعنًى.

والوجهُ الأول أَوجهُ؛ لبعد العهد وعدمِ قرينةِ تخصيصِ الاستفتاح بالاستمطار؛

---

(١) كما في البحر المحيط ٥/ ٤١٣.

(٢) مجمع البيان ١٣/ ٢٠٨.

(٣) في الأصل: الفضل، والمثبت من (م)، وهو الفضيل بن عياض، وأخرجه عنه ابن المنذر كما في الدر المنثور ٤/ ٧٤.

(٤) أخرجه أحمد (٣٦١٣)، والبخاري (١٠٠٧)، ومسلم (٢٧٩٨) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

ولأنَّ الكلام على ذلك التقدير يتناولُ أهل مكة تناولاً أوَّليًا، فإنَّ المقصود من ضرب القصة أنْ يعتبروا.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ، أي: فيما يُتلَى عليكم صفتُهم التي هي في الغرابة كالمَثَل، كما ذهب إليه سيبويه[١]، وقوله سبحانه: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ لبيان مَثَلِهم، ورجَّحَ ابنُ عطية[٢] كونَه مبتدأً وهذه الجملة خبره.

وتعقَّبه الحوفي بأنَّه لا يجوزُ؛ لخلوِّ الجملة عمَّا يربطُها بالمبتدأ، وليسَت نفسَه في المعنى لتستغني عن ذلك لظهور أن ليس المعنى: مثلهم هذه الجملة.

وأجاب عنه السمينُ[٣] بالتزام أنَّها نفسه، لأنَّ «مثل الذين» في تأويل ما يُقال فيهم ويُوصَفُون به إذا وُصِفوا، فلا حاجةَ إلى الرابط، كما في قولك: صفةُ زيدٍ عِرضُه مصونٌ ومالُه مبذولٌ، قيل: ولا يخفَى حسنُه إلا أنَّ المثل عليه بمعنى الصفة، والمرادُ بالصفة اللفظ الموصوف به كما يقال: صفةُ زيدٍ أسمرُ، أي: اللفظ الذي يُوصَفُ به هو هذا.

وهذا، وإنْ كان مجازًا على مجازٍ لكنَّه يُغتَفَر؛ لأنَّ الأولَ ملحَقٌ بالحقيقة لشهرته، وليس من الاكتفاء بعَوْد الضمير على المضاف إليه؛ لأنَّ المضاف ذُكِرَ توطئةً له؛ فإنَّ ذلك أضعفُ من بيت العنكبوت كما علمتَ.

وذهب الكسائي والفراء[٤] إلى أنَّ «مثل» مُقحَمٌ، وتقدَّم ما عليه وله، وقال الحوفي: هو مبتدأٌ و«كرمادٍ» خبرُه، و«أعمالُهم» بدلٌ من المبتدأ بدلَ اشتمال كما في قوله:

ما للجمال مَشْيُها وئيدًا ... أَجَنْدلًا يَحْمِلْنَ أمْ حَديدا[٥]

---

(١) ينظر الكتاب ١/ ٧١ ـ ٧٢، والبحر ٥/ ٤١٤.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣١.
(٣) الدر المصون ٧/ ٨٢.
(٤) ينظر معاني القرآن ٢/ ٧٢ ـ ٧٢، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣١، والبحر المحيط ٥/ ٤١٤.
(٥) البيت للزباء كما في أدب الكاتب ص٢٠٠، والأغاني ١٥/ ٣٢٠، ومغني اللبيب ص٧٥٨، وأوضح المسالك ص٢٣١، ومعاهد التنصيص ١/ ٣١٤، والوئيد: ذو صوت شديد.

وفيه خفاءٌ، ولعلَّه اعتبر المضاف إليه. وفي «الكشاف» جوازُ كونه بدلاً من «مثل الذين كفروا» لكن على تقدير: مَثَلُ أعمالهم، فيكونُ التقديرُ: مَثَلُ الذين كفروا مَثَلُ أعمالهم كرمادٍ[1]. قال في «الكشف»: وهو بدلُ الكلِّ من الكلِّ، وذلك لأنَّ مَثَلُهم ومَثَلُ أعمالهم متَّحدان بالذات، وفيه تفخيم. اهـ.

وقيل: إنَّه على هذا التقدير أيضاً بدلُ اشتمال؛ لأنَّ مَثَلَ أعمالهم كونُها كرمادٍ، ومثلُهم كونُ أعمالهم كرمادٍ، فلا اتِّحادَ، لكنَّ الأول سببٌ للثاني، فتأمَّل.

والرَّماد معروفٌ، وعرَّفه ابنُ عيسى بأنَّه جسمٌ يَسحَقُه الإحراق سحْقَ الغبار، ويجمع على رُمُد في الكثرة، وأَرْمِدَة في القِلَّة، وشذَّ جمعُه على أفْعِلاء، قالوا: أَرْمِداء، كذا في «البحر»[2]، وذكر في «القاموس»: أنَّ الأَرْمِدَاء كالأربعاء: الرَّماد[3]. ولم يَذكر أنَّه جمعٌ.

والمرادُ بـ «أعمالهم» ما هو من باب المكارم كصلةِ الأرحام، وعتق الرقاب، وفداءِ الأسارى، وقَرْي الأضيافِ، وإغاثةِ الملهوفين وغيرِ ذلك، وقيل: ما فعلوه لأصنامهم من القُرَب بزعمهم، وقيل: ما يعمُّ هذا وذاك، ولعلَّه الأوْلَى.

وجيء بالجملة على ما اختاره بعضُهم جوابًا لمَا يقال: ما بالُ أعمالهم التي عملوها حتى آلَ أمرُهم إلى ذلك المآل؟ إذ بُيِّن فيها أنَّها كرمادٍ ﴿ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ أي: حملَتْه وأسرعَت الذهاب به، فاشتدَّ من «شَدَّ» بمعنى «عدا»، والباء للتعدية أو للملابسة، وجوَّز أنْ يكون من الشِّدَّة بمعنى القوَّة، أي: قويَت بملابسة حَمْلِه.

﴿فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ العصفُ: اشتدادُ الريح، وُصِفَ به زمانُ هبوبها على الإسناد المجازيّ، كـ: نهاره صائمٌ وليله قائمٌ، للمبالغة. وقال الهروي: التقديرُ: في يومٍ عاصفِ الريح، فحذف الريح لتقدُّم ذكره كما في قوله:

---

(١) ينظر الكشاف ٢/ ٣٧٢، والبحر المحيط ٥/ ٤١٤.

(٢) ٥/ ٤١٤.

(٣) القاموس المحيط: (رمد).

إذا جاءَ يومٌ مظلمُ الشمسِ كاسفُ(١)

والتنوينُ على هذا عِوضٌ عن المضاف إليه، وضَعْفُ هذا القول ظاهرٌ، وقيل: إنَّ «عاصف» صفة «الريح» إلا أنَّه جُرَّ على الجوار، وفيه أنَّه لا يصحُّ وصفُ الريح به لاختلافهما تعريفاً وتنكيرًا.

وقرأ نافع وأبو جعفر: «الرياح» على الجمع(٢)، وبه يشتدُّ فسادُ الوصفية، وقرأ ابنُ أبي إسحاق وإبراهيم بنُ أبي بكر عن الحسن: «في يومِ عاصفٍ» على الإضافة(٣)، وذلك عند أبي حيان من حذفِ الموصوفِ وإقامةِ الصفة مقامَه، والتقدير: في يومِ ريحٍ عاصفٍ(٤)، وقد يقال: إنَّه من إضافة الموصوف إلى الصفة من غير حاجةٍ إلى حذفٍ عند مَن يَرَى جواز ذلك.

﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ في الدنيا من تلك الأعمال ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ ما، أي: لا يَرَون له أثرًا من ثواب أو تخفيفِ عذاب.

ويؤيِّد التعميمَ ما ورد في الصحيح عن عائشة أنَّها قالت: يا رسول الله، إنَّ ابنَ جدعانَ في الجاهلية يَصِلُ الرحمَ ويُطعمُ المسكين، فهل ذلك نافعه؟ قال: «لا ينفعُه؛ لأنَّه لم يَقُل: ربِّي اغفر لي خطيئتي يوم الدين»(٥).

وقيل: الكلامُ على حذف مضاف، أي: لا يقدرون من ثوابِ ما كسبوا على شيءٍ ما، والأَوَّلُ أَولَى، وقدم المتعلّق الأول لـ «لا يقدرون» على الثاني وعكس في البقرة لأهمية كلٍّ في آيته، وذلك ظاهرٌ لمن له أدنى بصيرة.

وحاصلُ التمثيل تشبيهُ أعمالهم في حبوطها وذهابها هباءً منثورًا لابتنائها على

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤١٤، والبيت لمسكين الدارمي، وهو في ديوانه ص٥٣، وصدره:

وتضحك عرفان الدروع جلودنا

وجاء في هامش (م): يريد كاسف الشمس.

(٢) التيسير ص١٧٨، والنشر ٢/ ٢٢٣.

(٣) القراءات الشاذة ص٦٨، والمحتسب ١/ ٣٦٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣٢، والبحر المحيط ٥/ ٤١٥.

(٤) البحر المحيط ٥/ ٤١٥.

(٥) أخرجه أحمد (٢٤٦٢١)، ومسلم (٢١٤).

غير أساسٍ من معرفة الله تعالى والإيمان به وكونها لوجهه = برمادٍ طيَّرته الريحُ العاصفُ وفرَّقْته، وهذه الجملة فذلكة ذلك والمقصود منه، قيل: والاكتفاء ببيان عدمِ رؤيةِ الأثر لأعمالهم للأصنام، مع أنَّ لها عقوبات = للتصريح ببطلان اعتقادهم وزعمهم أنَّها شفعاءُ لهم عند الله تعالى، وفيه تهكُّمٌ بهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما دلَّ عليه التمثيلُ دلالةً واضحةً من ضلالهم مع حسبانهم أنَّهم على شيء ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ عن طريق الحقِّ والصواب، وقد تقدَّم تمامُ الكلام في ذلك غير بعيدٍ.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ خطابٌ للرسول ﷺ، والمرادُ به أمتُه الذين بُعث إليهم، وقيل: خطابٌ لكلِّ واحدٍ من الكفرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ [الآية:١٩] والرؤية رؤيةُ القلب، وقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ سادٌّ مسدَّ مفعوليها، أي: ألم تعلم أنَّه تعالى خَلَقَهما ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: ملتبسةً بالحكمة والوجهِ الصحيح الذي يحقُّ أنْ يخلق عليه.

وقرأ السلميُّ: «ألم ترْ» بسكون الراء(١)، و وَجْهُهُ أنَّه أجرى الوصلَ مجرَى الوقف، قال أبو حيان: وتوجيهٌ آخرُ وهو أنَّ «ترَى» حَذفَت العربُ ألفها في قولهم: قام القوم ولو ترَ ما زيدٌ، كما حذفت ياءَ: لا أُبَالي، وقالوا: لا أُبالِ، فلمَّا دَخَل الجازمُ تُخيِّل أنَّ الراء هي آخرُ الكلمة، فسُكِّنَت للجازم، كما قالوا في: لا أبالِ، لم أُبَلْ، تخيَّلوا اللام آخرَ الكلمة(٢). والمشهور التوجيهُ الأول.

وقرأ الأخوان: «خالقُ السماواتِ والأرضِ» بصيغة اسم الفاعل، والإضافة، وجرِّ «الأرض»(٣).

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يعدمْكم أيُّها الناس، كما قاله جماعةٌ، أو أيُّها الكفرة ـ كما رُوي عن ابن عباس ـ بالمرَّة. ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾﴾ أي: يخلقُ بدلَكم خلقًا مستأنَفًا، لا علاقةَ بينكم وبينهم، والجمهورُ على أنَّه من جنس الآدميِّين، وذهب آخرون إلى أنَّه أعمُّ من أنْ يكونَ من ذلك الجنس أو من غيره.

---

(١) المحتسب ١/ ٣٦٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣٢، والبحر المحيط ٥/ ٤١٥.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤١٥ ـ ٤١٦.
(٣) التيسير ص١٣٤، والنشر ٢/ ٢٩٨، وهي قراءة خلف أيضًا.

أورَدَ سبحانه هذه الشرطيَّة بعد أنْ ذَكَرَ خَلْقَه السماواتِ والأرضَ إرشادًا إلى طريق الاستدلال، فإنَّ مَن قَدَر على خلقِ مثل هاتيك الأجرام العظيمة، كان على إعدام المخاطَبين وخَلْقِ آخرين بدَلَهم أقدرَ، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ أي: المذكور من إذهابكم والإتيان بخلقٍ جديدٍ مكانكم ﴿عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ بمتعذِّر أو متعسِّر، فإنَّه سبحانه وتعالى قادرٌ بذاته لا باستعانةٍ وواسطةٍ على جميع المُمكنات، لا اختصاصَ له بمقدورٍ دون مقدور.

وهذه الآية على ما في «الكشاف» بيانٌ لإبعادهم في الضلال وعِظَم خَطْبهم في الكفر بالله تعالى، لوضوح آياتِهِ الشاهدة له، الدالةِ على قدرته الباهرةِ وحكمتِهِ البالغةِ، وأنَّه هو الحقيقُ بأنْ يُؤمَنَ به، ويُرجى ثوابُه، ويُخشى عقابُه[١].

﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: يبرُزون يوم القيامة، وإيثار الماضي لتحقُّق الوقوع، أو لأنَّه لا مضيَّ ولا استقبالَ بالنسبة إليه سبحانه، والمرادُ ببروزهم لله ظهورهم من قبورهم للرَّائينَ لأجل حساب الله تعالى، فاللامُ للتعليل، وفي الكلام حذفُ مضافٍ.

وجوِّز أنْ تكونَ اللامُ صلةَ البروز وليس هناك حذفُ مضافٍ، ويُراد: أنَّهم ظهروا له عزَّ شأنه عند أنفسهم وعلى زعمهم، فإنَّهم كانوا يظنُّون عند ارتكابهم الفواحشَ سرًّا أنَّها تخفَى على الله تعالى، فإذا كان يوم القيامة انكشَفُوا له تعالى عند أنفسهم، وعلموا أنَّه لا تخفَى عليه جلَّ شأنه خافية، وقال ابنُ عطية: معنى «برزوا» صاروا بالبَراز، وهي: الأرضُ المتَّسِعةُ، فاستُعير ذلك لمجمع يومِ القيامة[٢]. وهذا ميلٌ إلى التعليل والحذف.

ونقل الإمامُ عن الحكماء في تأويل البروز: أنَّ النفس إذا فارقَت الجسد، فكأنَّه زال الغطاء وبقِيَت مجرَّدة بذاتها عاريةً عن كلِّ ما سواها، وذلك هو البروزُ لله تعالى[٣]. وهو كلامٌ تعدُّه العرب من الأحاجي، ولذا لم يَلتفت إليه المحدِّثون.

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٧٢.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٢.

(٣) تفسير الرازي ١٩/ ١٠٧.

وقرأ زيد بن عليٍّ رضي الله عنهما: «وبُرِّزُوا» مبنيًّا للمفعول وبتشديد الراء[١]، والمرادُ: أظهرَهم الله تعالى وأخرجَهم من قبورهم لمحاسبته.

﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ﴾ جمعُ: ضعيفٍ، والمرادُ ضعافُ الرأي وهم الأتباع، وكتب في المصحف العثماني بواو قبل الهمزة، ووجه ذلك بأنَّه على لفظ من يُفخِّم الألف قبل الهمزة فيُميلها إلى الواو، ونظيرُه ﴿عُلَمَـٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[٢] [الشعراء: ١٩٧] وردَّ ذلك الجعبريُّ قائلًا: إنَّه ليس من لغة العرب ولا حاجةَ للتوجيه بذلك؛ لأنَّ الرسم سُنَّةٌ متَّبعة، وزعَمَ ابنُ قتيبة أنَّه لغةٌ ضعيفةٌ[٣]، ولو وُجِّه بأنَّه اتباعٌ للفظه في الوقف، فإنَّ من القرَّاء مَن يقف في مثل ذلك بالواو = كان حسنًا صحيحًا. كذا ذكر، فليُراجَع[٤]. ولعلَّ مَن أنصفَ لا يَرَى أحسنَ من ترك التوجيه.

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ أي: لرؤسائهم الذين استَتْبعوهم واستَغْووهم: ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿لَكُمْ تَبَعًا﴾ في تكذيب الرسل عليهم السلام والإعراض عن نصائحهم، وهو جمعُ: تابعٍ، كخادم وخَدَم، وغائب وغَيَبٍ، أو اسمُ جمعٍ لذلك، ولم يذكُر كونه جمعًا في «البحر»[٥]. أوْ هو مصدرٌ نُعِت به مبالغةً، أوْ بتأويل أو بتقدير مضافٍ، أي: تابعين، أو ذوي تَبَع؛ وبه على سائر الاحتمالات يتعلَّق الجارُّ والمجرور، والتقديم للحصر، أي: تبعًا لكم لا لغيركم.

وقيل: المعنى: إنَّا تَبَعٌ لكم لا لرأينا، ولذا سمَّاهم الله تعالى ضعفاء، ولا يلزم منه كون الرؤساءِ أقوياءَ الرأي، حيث ضلُّوا وأضلُّوا، ولو حُمل الضعف على كونهم تحت أيديهم وتابعين لهم كان أحسنَ، وليس بذاك.

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا﴾ استفهامٌ أُريدَ به التوبيخُ والتقريع، والفاءُ للدلالة على سببيَّة الاتِّباع للإغناء، وهو من الغَنَاء بمعنى الفائدة، وضُمِّن معنى الدفع، ولذا عدِّي بـ «عن» أي: إنَّا اتَّبعناكم فيما كنتُم فيه من الضلال، فهل أنتم اليومَ دافعون

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤١٦.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٤١٦.

(٣) حاشية الشهاب ٥/ ٢٦١.

(٤) ينظر: التيسير ص٤١، وجامع البيان للداني ١/ ٢٨٣-٢٨٤، والنشر ١/ ٤٦٨ و٤٩٠.

(٥) ٥/ ٤١٦.

عنّا ﴿مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي: بعضِ الشيء، الذي هو عذابُ الله تعالى بناءً على ما قيل: إنَّ «مِن» الثانية للتبعيض واقعة موقعَ المفعول للوصف السابق، والأُولى للبيان وهي واقعةٌ موقع الحال من مجرور الثانية؛ لأنَّها لو تأخَّرت كانت صفةً له، وصفةُ النكرة إذا قُدِّمَت أُعربَت حالًا.

واعتُرض هذا الوجه بأنَّ فيه تقديم «مِن» البيانيَّة على ما تُبيِّنه وهو لا يجوز، وكذا تقديم الحال على صاحبها المجرور.

وأجيبَ بأنَّ في كلٍّ من هذَين الأمرَين اختلافًا، وقد أجاز جماعةٌ تقديمَ «مِن» البيانية، وصُحِّحَ ذلك، لأنَّه إنَّما يفوتُ بالتقديم الوصفية لا البيانية، وكذا أجازَ كثيرٌ كابن كيسان وغيره تقديمَ الحال على صاحبها المجرور، فلعلَّ الذاهب إلى هذا الوجه في الآية يرى رأي المُجوِّزين لكلٍّ من التقديمَين.

وقال بعض المدقِّقين: جاز تقديمُ هذه الحال؛ لأنَّها في الحقيقة عمَّا سدَّ مسدَّه «من شيء»، أعني: بعض، لا عن المجرور وحدَه، وفيه من البعد ما لا يخفى.

وجوِّز أنْ تكونَ الأُولَى والثانية للتبعيض، والمعنى: هل أنتم مُغنون عنَّا بعضَ شيءٍ هو بعضُ عذابِ الله تعالى؛ والإعراب كما سبق. واختار بعضُهم على هذا كونَ الحال عمَّا سدَّ مسدَّه «من شيء»، إذ لو جعل حالًا عن المجرور لآل الكلامُ إلى: هل أنتم مغنون عنَّا بعضَ بعضِ عذاب الله تعالى، ولا معنى له، وفيه أنَّه يُفيد المبالغةَ في عدم الغَنَاء كقولهم: أقلُّ من القليل، فنَفْيُ المعنَى لا معنَى له. ولا يصحُّ الإلغاء؛ إذ لا يصحُّ أنْ يتعلَّق بفعلٍ ظرفان مِن جنسٍ دون ملابسةٍ بينهما تُصَحِّح التبعيَّة.

وجَعْل الثاني بدلًا من الأول يأباه ـ كما في «الكشف» ـ اللفظُ والمعنى؛ وقد تعقَّب أبو حيان توجيهَ التبعيض في المكانَين كما سمعتَ بأنَّ ذلك يقتضي البدليَّةَ، فيكون بدلَ عامٍّ من خاصٍّ؛ لأنَّ «من شيء» أعمُّ من قوله: «من عذاب»، وهذا لا يقال؛ لأنَّ بعضيَّةَ الشيء مطلقةٌ، فلا يكون لها بعضٌ[1]، ومما ذكرنا يُعلَم ما فيه.

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤١٧.

وجوَّز أنْ تكون الأُولَى مفعولًا، والثانية صفة مصدرٍ سادَّة مسدَّه، والشيء عبارة عن إغناءٍ ما، أي: فهل أنتم مُغنون عنَّا بعضَ عذاب الله بعض الإغناء.

وتُعقِّب بأنَّه يلزم على هذا أنْ يتعلَّق بعاملٍ ظرفان، إلى آخر ما سمعْتَ آنفًا، وفيه نظرٌ؛ لأنَّه لكون أحدهما في تأويل المفعول به، والآخر في تأويل المفعول المطلق، صحَّ التعلُّق ولم يكونا من جنسٍ واحدٍ، وقد يقال: إنَّ تقييد الفعل بالثاني بعد اعتبار تقييده بالأول، فليس العاملُ واحدًا.

ونصَّ الحوفي وأبو البقاء[1] على أنَّ «من» الثانية زائدةٌ للتوكيد، وسَوَّغ زيادتها تقدُّم الاستفهام الذي هو هنا في معنى النفي، و«مِن عذاب الله» إما متعلِّقٌ بـ «مغنون» أو متعلِّق بمحذوفٍ وقَعَ حالًا من «شيء» أي: شيئًا كائنًا من عذاب الله تعالى، أو مغنون مِن عذاب الله تعالى غناءً ما.

﴿قَالُوا۟﴾ أي: المستكبرون جوابًا عن توبيخ الضعفاء وتقريعهم واعتذارًا عمَّا فعلوا بهم: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ إلى الإيمان ووفَّقنا له ﴿لَهَدَيْنَـٰكُمْ﴾ ولكن ضَلَلْنا فَضَلَّلْناكم، أي: اخترنا لكم ما اخترنا لأنفسنا، وحاصلُه على ما قيل: إنَّ ما كان منَّا في حقِّكم هو النصحُ، لكن قصرنا في رأينا.

وقال الزمخشريُّ: إنَّهم وَرَّكوا الذنبَ[2] في ضلالهم وإضلالهم على الله تعالى وكَذَبُوا في ذلك، ويدلُّ على وقوع الكذب من أمثالهم يوم القيامة قولُه تعالى حكايةً عن المنافقين: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [المجادلة: ١٨]. وقد خالف في ذلك أصول مشايخه؛ لأنَّهم لا يُجوِّزون صدور الكذب عن أهل القيامة، فلا يُقبَل منه، وجوَّز أنْ يكونَ المعنى: لو كنَّا من أهل اللطف فلَطَف بنا ربُّنا واهتدينا لهديناكم إلى الإيمان[3]، ونقل ذلك القاضي وزيَّفه كما ذكره الإمام[4].

---

(١) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٤٠٢ ـ ٤٠٣.

(٢) قال ابن منظور في اللسان (ورك): ورَّك فلان ذنبه على غيره توريكًا، إذا أضافه إليه، وإنه لمورِّك في هذا الأمر، أي: ليس له فيه ذنب.

(٣) الكشاف ٢/ ٣٧٣.

(٤) تفسير الرازي ١٩/ ١٠٩، والقاضي هو عبد الجبار.

وقيل: المعنى: لو هدانا الله تعالى إلى الرَّجعة إلى الدنيا فنُصلح ما أفسدناه لهديناكم، وهو كما ترى. وقال الجُبَّائي وأبو مسلم: المرادُ: لو هدانا الله تعالى إلى طريق الخلاصِ من العقاب والوصولِ إلى النعيم والثوابِ لهديناكم إلى ذلك. وحاصلُه: لو خَلَصنا لخلَّصناكم أيضًا، لكنْ لا مطمعَ فيه لنا ولكم. قال الإمام: والدليل على أنَّ المراد من الهدى هو هذا أنَّه الذي طلبوه والتمسوه[1].

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ﴾ مما لَقِينا ﴿أَمۡ صَبَرۡنَا﴾ على ذلك، و«سواء» اسمٌ بمعنى الاستواء مرفوعٌ على الخبرية للفعل المذكور بعده؛ لأنَّه مجرَّدٌ عن النسبة والزمان، فحكمه حكم المصدر.

والهمزة و«أم» قد جُرِّدتا عن الاستفهام لمجرَّد التسوية، ولذا صارت الجملةُ خبريةً فكأنَّه قيل: جَزَعُنا وصَبْرُنا سواءٌ علينا، أي: سيَّان، وإنما أفرد الخبر لأنَّه مصدرٌ في الأصل.

وقال الرضي في مثله: إنَّ «سواء» خبر مبتدأ محذوفٍ، أي: الأمران سواءٌ، ثم بَيَّن الأمرَين بقولهم: «أجزعنا أم صبرنا». وما قيل: من أنَّ «سواء» خبرُ مبتدأ محذوفٍ، والجملةُ جزاءٌ للجملة المذكورة بعدُ لتضمُّنها معنى الشرط، وإفادة همزة الاستفهام معنى «إنْ» لاشتراكهما في الدلالة على عدم الجزم، والتقدير: إنْ جَزَعْنا أم صبرنا فالأمران سيَّان = فتكلُّفٌ كما لا يخفى.

والجزعُ: حزنٌ يَصرِف عمَّا يُراد، فهو حزنٌ شديدٌ. وفي «البحر»: هو عدمُ احتمال الشدَّة، فهو نقيضُ الصَّبر[2]، وإنما أسندوا كلًّا من الجزع والصبر واستوائهما إلى ضمير المتكلِّم المنتظِم للمخاطَبين أيضًا مبالغةً في النهي عن التوبيخ بإعلامهم أنَّهم شركاء لهم فيما ابتُلُوا به وتسليةً لهم.

وجوِّز أنْ يكون هذا من كلام الفريقَين، فهو مردودٌ إلى ما سيق له الكلام وهو[3] الفريقان، ولا نظَرَ إلى القرب كما قيل في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ

(١) المصدر السابق ١٩/ ١٠٩.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤١٤.
(٣) في (م): وهم.

﴿أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يوسف:٥٢] وأيد ذلك بما أخرجَه ابنُ أبي حاتم والطبرانيُّ وابنُ مردويه عن كعب بنِ مالك رَفَعه إلى النبيِّ ﷺ فيما يظنُّ أنَّه قال: «يقولُ أهلُ النار: هَلمُّوا فلنصبر، فيَصْبِرُون خمسمئة عام، فلمَّا رأَوا ذلك لا ينفَعُهم قالوا: هَلمُّوا فَلْنجزع، فيبكون خمسمئة عامٍ، فلمَّا رأَوا ذلك لا ينفعهم، قالوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ الآية»[١]، وإلى كون هذه المحاورة بين الضعفاء والمستكبرين في النار ذهب بعضُهم ميلًا لظواهر الأخبار.

واستظهر أبو حيان[٢] أنَّها في موضع العرض وقتَ البروز بين يدي الله تعالى، وقولُ الأتباع: (فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا) جزعٌ منهم، وكذا جوابُ الرؤساء باعترافهم بالضلال، واحتمالُ أنَّه من كلام الأوَّلين فقط خلافُ الظاهر جدًّا.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ جملةٌ مفسِّرةٌ لإجمال ما فيه الاستواء، فلا محلَّ لها من الإعراب، أو حالٌ مؤكدةٌ، أو بدل منه، والمحيصُ من حاص: حادَ وفَرَّ، وهو إما اسمُ مكانٍ كالمبيت والمصيف، أو مصدرٌ ميميٌّ كالمغيب والمشيب، والمعنى: ليس لنا محلٌّ ننجوا فيه من عذابه، أو لا نجاةَ لنا من ذلك.

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ الذي أضلَّ كِلا الفريقَين واستَتْبَعَهما عندما عتباه وقرَّعاه على نمط ما قاله الأتباع للرؤساء ﴿لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: أُحْكِمَ وفُرِغَ منه، وهو الحساب، ودخل أهلُ الجنة الجنةَ وأهلُ النار النارَ خطيبًا في مَحْفِل الأشقياء من الثقلَين.

أخرج ابنُ جرير وغيرُه عن الحسن قال: إذا كان يومُ القيامة قامَ إبليسُ خطيبًا على منبرٍ من نارٍ فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ إلى آخره[٣]. وعن مقاتل: أنَّ الكفار يجتمعون عليه في النار باللائمة فيرقَى منبرًا من نار فيقول ذلك.

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ١٩/(١٧٢)، والدر المنثور ٤/ ٧٤.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤١٨.
(٣) تفسير الطبري ١٣/ ٦٣١، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٧٥ إلى ابن أبي حاتم وابن المنذر.

وفي بعض الآثار ما هو ظاهرٌ في أنَّ هذا في الموقف، فقد أخرج الطبرانيُّ وابنُ المبارك في «الزهد» وابنُ جرير وابنُ عساكر لكن بسند ضعيف من حديث عُقبةَ بنِ عامر يرفعُه إلى رسول الله ﷺ، «أنَّ الكفار حين يَرَون[1] شفاعةَ النبيِّ ﷺ للمؤمنين يأتُون إبليسَ فيقولون له: قد وَجَد المؤمنونَ مَن يشفعُ لهم، فقم أنت فاشفع لنا، فإنَّك أنت أضْلَلْتَنا، فيقومُ، فيثورُ من مجلسه أنتنُ ريحٍ شمَّها أحدٌ، فيقول ما قصَّ الله تعالى»[2].

ومعنى «وَعْدَ الحقِّ» وعدًا مِن حقِّه أنْ يُنجز، أو وعدًا نجز، وهو الوعدُ بالبعث والجزاء، وقيل: أراد بـ «الحقِّ» ما هو صفتُه تعالى، أي: إنَّ الله تعالى وَعَدكم وعدَه الذي لا يُخلَف، والظاهرُ أنَّه صفةُ الوعدِ، وفي الآية على الأول إيجازٌ، أي: إنَّ الله سبحانه وعدَكم وعدَ الحقِّ فوفَّاكم وأنجزكم ذلك ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ وعدَ الباطل، وهو أنْ لا بعثَ ولا حسابَ، ولئن كانا فالأصنام تشفعُ لكم.

﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ موعدي، أي: لم يتحقَّق ما أخبرتُكم به، وظهر كذبُه، وقد استُعير الإخلاف لذلك، ولو جُعل مُشاكلةً لصحَّ.

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أي: تسلُّطٍ أو حُجَّةٍ تدلُّ على صدقي ﴿إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ أي: إلا دعائي إياكم إلى الضلالة، وهو[3] وإنْ لم يكن من جنس السلطان حقيقةً، لكنَّه أَبرزَه في مبرزه، وجعَلَه منه ادِّعاء، فلذا كان الاستثناء متَّصلًا، وهو من تأكيد الشيءِ بضدِّه كقوله:

وخيلٍ قد دَلفتُ لها بخيلٍ ... تحيةُ بينهم ضربٌ وَجيعُ[4]

وهو من التهكُّم لا من باب الاستعارة أو التشبيه أو غيرهما على ما حُقِّق في موضعه، فإنْ لم يُعتَبر فيه التهكُّم والادعاء يكون الاستثناء منقطعاً على حدِّ قوله:

---

(١) في الأصل و(م): يروا، والمثبت هو الجادة.

(٢) المعجم الكبير ١٧/(٨٨٧)، والزهد (٣٧٤ زوائد نعيم)، وتفسير الطبري ١٣/ ٦٣١، وتاريخ دمشق ٧/ ٤٥٣، وأخرجه أيضاً الدارمي (٢٨٠٤).

(٣) في (م): وهذا.

(٤) البيت لعمرو بن معديكرب كما في النوادر لأبي زيد ص١٥٠، والعمدة في محاسن الشعر ٢/ ٢٩٢، وخزانة الأدب ٩/ ٢٦٥.

وبــلــدةٍ لــيــسَ بــهــا أنــيــسُ إلا الــيــعــافــيــرُ وإلا الــعــيــسُ[(١)]

وإلى الانقطاع ذهب أبو حيان وقال: إنَّه الظاهر[(٢)]، وجوَّز الإمام[(٣)] القولَ بالاتصال من غير اعتبار الادِّعاء؛ ووجَّه ذلك بأنَّ القدرة على حَمْل الإنسان على الشيء تارةً تكون بالقهر من الحامل، وتارةً تكونُ بتقويةِ الداعية في قلبه وذلك بإلقاء الوَسواس إليه، وهذا نوعٌ من أنواع التسلُّط فكأنَّه قال: ما كان لي تسلُّطٌ عليكم إلا بالوَسوسة لا بالضرب ونحوه.

﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ أي: أسرعتُم إجابتي، كما يُؤذنُ بذلك الفاء، وقيل: يُستفاد الإسراع من السين؛ لأنَّ الاستجابةَ وإنْ كانت بمعنى الإجابة لكنْ عُدَّ ذلك من التجريد، وأنَّهم كأنَّهم طلبوا ذلك من أنفسهم، فيقتضي السرعة، وفيه بعدٌ.

﴿فَلَا تَلُومُونِى﴾ بوعدي إياكم حيث لم يكن على طريق القَسْر والإلجاء كما يدلُّ عليه الفاء، وقيل: بوسوستي، فإنَّ مَن صرَّح بالعداوة وقال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦] لا يُلام بأمثال ذلك.

وقرئ: «فلا يلوموني» بالياء[(٤)] على الالتفات.

﴿وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ حيث استجبتُم لي باختياركم الناشئ عن سوء استعدادكم حين دعوتكم بلا حجَّةٍ ولا دليل، بل بمجرَّد تزيينٍ وتسويلٍ، ولم تستجيبوا لربِّكم إذ دعاكم دعوةَ الحقِّ المقرونة بالبيِّنات والحُجَج، وليس مرادُ اللَّعين التنصُّلَ عن توجُّه اللائمة إليه بالمرَّة، بل بيانُ أنَّهم أحقُّ بها منه.

وفي «الكشاف»: إنَّ في هذه الآية دليلًا على أنَّ الإنسان هو الذي يختارُ الشقاوةَ والسعادة ويُحصِّلهما لنفسه، وليس من الله تعالى إلا التمكينُ، ولا مِن الشيطان إلا التزيينُ، ولو كان الأمر كما تزعمُ المجبرة لقال: فلا تلوموني

---

(١) البيت لجِرَان العَوْد النميري، وهو في ديوانه ص٩٧ ـ وفيه: بسابسًا، بدل: وبلدة ـ وخزانة الأدب ١٠/ ١٧.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٤١٨.

(٣) تفسير الرازي ١٩/ ١١١.

(٤) القراءات الشاذة ص٦٨.

ولا أنفسَكم، فإنَّ الله تعالى قد قضَى عليكم الكفرَ وأجبرَكم عليه، وليس قولُه المحكيُّ باطلًا لا يصحُّ التعلُّقُ به، وإلا لبيَّن الله سبحانه بطلانَه وأظهرَ إنكاره، على أنَّه لا طائلَ في النطق بالباطل في ذلك المقام، ألا ترَى كيف أتى بالصدق الذي لا ريبَ فيه في قوله: «إنَّ الله وعَدَكم» إلى آخره. وقوله: «وما كانَ لي عليكم» إلى آخره[1]. اهـ.

واعترض قوله: وإلا لبيَّن سبحانه بطلانَه، بأنَّه ينقلبُ عليه في قول المستكبرين: «لو هدانا الله لهديناكم» إذ لم يُعقَّب بالبطلان على وجه التَّوْرِيك الذي ادَّعاه، وكذلك قوله: على أنَّه لا طائلَ.. إلى آخره.

والجوابُ أنَّ الأوَّل غيرُ متعيِّنٍ لذلك الوجه كما سمعتَ، ومع ذلك قد عقَّب بالبطلان في مواضعَ عديدةٍ، ويكفي حكاية الكذب عنهم في ذلك الموطن، وذلك في الموطن على توهُّم أنَّه نافعٌ كما حكَى الله تعالى عنهم، أمَّا بعدَ قضاء الأمر ودخولِ أهل الجنةِ الجنةَ، والنارِ النارَ فلا يُتوَهَّم لذلك طائلٌ ألبتة؛ لاسيَّما والشيطانُ لا غرضَ له في ذلك، فافترقا قائلًا وموطنًا وحكمًا.

بل الجوابُ أنَّ أهلَ الحقِّ لا يُنكرون توجُّه اللائمة عليهم، وأنَّ الله تعالى مقدَّسٌ عن ذلك، وحجَّته البالغةُ وقضاؤه سبحانه الحقُّ، حيث أثبتُوا للعبد القدرةَ الكاسبةَ التي يدورُ عليها فَلَك التكليف وجعلوا لها مدخلًا في ذلك، فإنَّه سبحانه إنَّما يخلقُ أفعالَه حسبما يختارُه، وسَلْبُهم التأثيرَ الذاتيَّ عن قدرته لا ينفي اللوم عنهم، كما بُيِّن في محلِّه[2].

وما ذكره من أنَّه لو كان الأمر.. إلى آخره، مبنيٌّ على عدم الفَرْق بين مذهبِ أهلِ الحقِّ الملقَّبينَ عنده بالمجبرة وبين مَسْلك المجبرة في الحقيقة، والفَرْقُ مثلُ الصبح ظاهرٌ.

هذا، واستدلَّ بظاهر الآية على أنَّ الشيطان لا قدرةَ له على تصريع الإنسان، أو تعويجِ أعضائه وجوارحِه، أو على إزالة عقله؛ لأنَّه نَفَى أنْ يكونَ له تسلُّطٌ

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٧٤بنحوه.

(٢) منها ما ورد في ٤/٣٤٨-٣٤٩، وما سيأتي في سورة الإنسان عند تفسير الآية (٣٠).

إلا بالوسوسة، وأجاب من زعم القدرة على نحو ذلك بأن المقصود في الآية نفي أن يكون له تسلُّطٌ في أمر الإضلال إلا بمحض الوسوسة، لا نفيَ أنْ يكونَ له تسلُّطٌ أصلًا، والسياقُ أدلُّ قرينةٍ على ذلك.

وانتزع بعضُهم من الآية إبطالَ التقليد في الاعتقاد، قال ابنُ الفرس: وهو انتزاعٌ حسنٌ؛ لأنَّهم اتَّبعوا الشيطان بمجرَّد دعواه ولم يطلبوا منه برهانًا، فحُكيَ ذلك عنهم متضمِّنًا لذمِّهم.

ثم الظاهرُ أن هذه الدعوة من الشيطان ـ أعني إبليس ـ بلا واسطةٍ، وهي إنْ كانت في وقت واحدٍ لمتعدِّدين فممَّا يعسرُ تصوُّره، ولا يبعدُ أنْ يقال: إنَّ له أعوانًا يفعلون كما يفعل، لكن لمَّا كان ذلك بأمره تصدَّى وحدَه لِمَا تصدَّى ونسبت الدعوة إليه، وللإمام الرازي(١) في الآية كلامٌ طويلٌ ساقه لبيان كيفيَّة الدعوة وإلقاء الشيطان الوسوسةَ في قلب الإنسان، وأكثرُه عند المحدِّثين والسلف الصالحين أشبهُ شيءٍ بوساوس الشياطين، ولعلَّ النوبة تفضي إن شاء الله تعالى إلى تحقيق ذلك بعون الله تعالى القادر المالك.

﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾ أي بمغيثكم مما أنتم فيه من العذاب، يقال: استصرخَني فأصرختُه، أي: استغاثني فأغثتُه، وأصلُه من الصُّراخ وهو مدُّ الصوت، والهمزةُ للسلب، كأنَّ المغيثَ يُزيلُ صراخَ المستغيث.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾ مما أنا فيه، وفي تعرُّضه لذلك مع أنَّه لم يكن في حيِّز الاحتمال مبالغةٌ في بيان عدم إصراخه إياهم، وإيذانٌ بأنَّه أيضًا مبتلًى بمثل ما ابتُلُوا به، ومحتاجٌ إلى الإصراخ فكيف له بإصراخ الغير، ولذلك آثرَ الجملة الاسميةَ، والمرادُ استمرارُ النفي وتأكيده(٢) لا نفْي الاستمرار، وكذا يقالُ في التأكيد، فكان ما مضَى جوابًا منه عن توبيخهم وتقريعهم، وهذا جوابُ استغاثتهم واستعانتهم به في دفع ما دَهَمَهم من العذاب.

---

(١) تفسير الرازي ١٩/١١٣ ـ ١١٤.

(٢) قوله: وتأكيده، ليس في (م).

وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة: «بمصرخيِّ» بكسر الياء[1] على الأصل في التخلُّص من التقاء الساكنَين، وذلك أنَّ الأصل: بمُصْرِخِينَ لي، فأُضيفَ وحُذفَت نونُ الجمع للإضافة، فالتقت ياءُ الجمع الساكنة وياءُ المتكلِّم، والأصل فيها السكون، فكُسِرَت لالتقاء الساكنَين وأُدغمت.

وطعَنَ في هذه القراءة كثيرٌ من النحاة، قال الفرَّاء[2]: لعلَّها مِن زعم القرَّاء، فإنَّه قلَّ مَن سَلِمَ منهم من الوهم. وقال أبو عبيد: نراهم غلطوا[3]. وقال الأخفش[4]: ما سمعتُ هذا الكسرَ من أحدٍ من العرب، ولا من أحدٍ من النحويين. وقال الزجَّاج[5]: إنَّها عند الجميع رديئةٌ مرذولة، ولا وجهَ لها إلا وُجَيهٌ ضعيفٌ. وقال الزمخشري: هي ضعيفةٌ، واستشهدوا لها ببيتٍ مجهولٍ:

قال لها هلْ لَكِ ياتا فيِّ ... قالَتْ له ما أنتَ بالمَرضيِّ[6]

وكأنَّهم قدَّروا ياءَ الإضافة ساكنةً فحرَّكوها بالكسر لِمَا عليه أصلُ التقاء الساكنَين، ولكنَّه غيرُ صحيحٍ؛ لأنَّ ياءَ الإضافة لا تكونُ إلا مفتوحةً حيث قبلها ألفٌ نحو: عصايَ، فما بالُها وقَبلها ياءٌ؟ والقولُ بأنَّه جَرَت الياءُ الأُولَى مجرَى الحرفِ الصحيح لأجل الإدغام، فكأنَّها ياءٌ وقعَت ساكنةً بعد حرفٍ صحيحٍ ساكنٍ، فحرِّكَت بالكسر على الأصل = ذهابٌ إلى القياس، وهو قياسٌ حسن، ولكنَّ الاستعمال المستفيضَ الذي هو بمنزلة الخبرِ المتواترِ تَتَضاءلُ إليه القياسات[7]. اهـ.

---

(١) قراءة حمزة في التيسير ص١٣٤، والنشر ٢/ ٢٩٨، ونسبها ليحيى بن وثاب الفراءُ في معاني القرآن ٢/ ٧٥، والنحاسُ في إعراب القرآن ٢/ ٣٦٨، والزجاجُ في معاني القرآن ٣/ ١٥٩.

(٢) معاني القرآن ٢/ ٧٥.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٤١٩.

(٤) معاني القرآن ٢/ ٥٩٩.

(٥) معاني القرآن ٣/ ١٥٩.

(٦) في هامش (م): وقبله:

أقبلَ في ثوب معافريِّ ... عند اختلاط الليل والعشيِّ

اهـ. منه. والبيت للأغلب العجلي كما في خزانة الأدب ٤/ ٤٣٠ - ٤٣١، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٦٣، وقوله: ياتا فيِّ: (يا) حرف نداء، (تا) منادى، وهو اسم إشارة يشار به إلى المؤنث، و(فيِّ): جار ومجرور متعلقان بخبر مبتدأ محذوف. ينظر خزانة الأدب.

(٧) الكشاف ٢/ ٣٧٤ - ٣٧٥.

وقد قلَّد هؤلاء الطاعنين[1] جماعة، وقد وَهِمُوا طعنًا وتقليدًا؛ فإنَّ القراءة متواترةٌ عن السلف والخلف، فلا يجوزُ أنْ يقال فيها: إنَّها خطأٌ أو قبيحةٌ أو رديئةٌ، وقد نقلَ جماعةٌ من العلماء أنَّها لغةٌ لكنَّها قلَّ استعمالُها.

ونصَّ قُطْرب على أنَّها لغةٌ في بني يَربوع فإنَّهم يكسرون ياءَ المتكلِّم إذا كان قبلها ياءٌ أُخرى، ويَصلُونها بهاء كـ: عَلَيِّه ولَدَيِّه، وقد يكتفون بالكسرة، وذلك لغةُ أهل الموصل وكثير من الناس اليوم، وقد حسَّنها أبو عمرو وهو إمامُ لغةٍ وإمامُ نحوٍ وإمامُ قراءةٍ، وعربيٌّ صحيح، ورَوَوا بيتَ النابغة:

عليِّ لعمرٍو نعمةٌ بعدَ نعمةٍ   لوالدِه ليسَتْ بذاتِ عقاربِ[2]

بكسر ياءِ: عليّ، فيه، وأنشدوا لذلك أيضاً البيت السابق، وهو للأغلب العجليّ، وجَهْلُ الزمخشريِّ به كالزجَّاج لا يُلتفَتُ إليه، وقولُه: إنَّ ياءَ الإضافة لا تكونُ إلا مفتوحةً... إلى آخره، مردودٌ بأنَّه رُوي سكونُ الياء بعدَ الألف، وقرأ به القُرَّاء في «محيايْ»[3] [الأنعام:١٦٢] وما ذكره أيضًا قياسٌ مع الفارق، فإنَّه لا يلزمُ من كسرها مع الياء المجانسةِ للكسرة كَسْرها مع الألف الغيرِ المجانسة لها، ولذا فُتحت بعدها للمجانسة، وكونُ الأصل في هذه الياء الفتحَ في كلِّ موضع غيرُ مسلَّم، كيف وهي من المبنيَّات، والأصلُ في المبنيِّ أنْ يُبنَى على السكون.

ومن الناس من وجَّه القراءة بأنَّها على لغة مَن يَزيدُ ياءً على ياء الإضافة إجراءً لها مجرى هاء الضمير وكافِهِ، فإنَّ الهاء قد تُوصَلُ بالواو إذا كانت مضمومةً كـ: هذا لهو، وضَرَبَهو، وبالياء إذا كانت مكسورةً نحو: بِهِي، والكافُ قد تلحقُها الزيادة فيقال: أعطيتكاه وأَعطيتُكِيْهِ إلا أنَّه حُذفت الياءُ هنا اكتفاءً بالكسرة.

وقال البصير[4]: كسر الياء ليكونَ طبقًا لكسر الهمزة في قوله: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ﴾

---

(١) في (م): الطاغين.

(٢) ديوان النابغة الذبياني ص٩.

(٣) وهي قراءة قالون وورش وأبي جعفر كما في التيسير ص١٠٨، والنشر ٢/٢٦٨.

(٤) لعله: أبو علي الفضل بن جعفر بن الفضل النخعي، كان أديباً ظريفاً بليغاً، وكان أعمى، فلقِّب بالبصير، وقيل: لقِّب بالبصير لذكائه وفطنته. (ت٢٥١هـ). معجم الشعراء للمرزباني ص١٨٥، ولسان الميزان ٦/٣٣٦.

لأنَّه أرادَ الوصل دون الوقف والابتداء بذلك، والكسرُ أدلُّ على الوصل من الفتح[١]، وفيه نظر.

وبالجملة لا ريبَ في صحَّة تلك القراءةِ، وهي لغةٌ فصيحةٌ، وقد روي أنَّه تكلَّم بها رسول الله ﷺ في حديث بدء الوحي وشرحِ حاله عليه الصلاة والسلام لورقةَ بنِ نَوفل[٢] رضي الله عنه، فإنكارُها محضُ جهالةٍ.

وأراد بقوله: «إنِّي كفرتُ»: إنِّي كفرتُ اليوم ﴿بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ﴾ أي: من قبل هذا اليوم، يعني في الدنيا.

و«ما» مصدريةٌ و«مِن» متعلِّقةٌ بـ «أشركتموني» أي: كفرتُ بإشراكِكُم إيَّايَ لله تعالى في الطاعة؛ لأنَّهم كانوا يُطيعونه في أعمال الشرِّ كما يُطاعُ الله تعالى في أعمال الخير، فالإشراك استعارةٌ بتشبيه الطاعةِ به وتنزيلها منزلتَه، أو لأنَّهم لمَّا أشركوا الأصنام ونحوها بإيقاعه لهم في ذلك فكأنَّهم أشركوه، والكفرُ مجازٌ عن التبرِّي كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾ [فاطر: ١٤] ومرادُ اللَّعين أنَّه إنْ كان إشراككم لي بالله تعالى هو الذي أطمعكم في نُصرتي لكم، وخَيَّل إليكم أنَّ لكم حقًّا عليَّ فإني تبرَّأتُ من ذلك ولم أحمَدْه، فلم يبقَ بيني وبينكم علاقةٌ، وإرادة اليوم حسبما ذكرنا هو الظاهر، فيكونُ الكلام محمولًا على إنشاء التبرِّي منهم يومَ القيامة.

وجوَّز النسفيُّ أنْ يكونَ إخبارًا عن أنَّه تبرَّأ منهم في الدنيا، فيكون «مِن قبلُ» متعلِّقًا بـ «كفرتُ» أو متنازعًا فيه[٣].

وجوَّز غير واحدٍ أن تكون «ما» موصولةً بمعنى «مَن» كما قيل في قولهم: سبحان ما سَخَّركُنَّ لنا، والعائدُ محذوفٌ، و«مِن قبلُ» متعلِّقٌ بـ «كفرتُ»، أي: إنِّي كفرتُ مِن قبلُ حين أبيتُ السجودَ لآدم عليه السلام بالذي أشركتُمونيه، أي: جعلتُموني شريكًا له بالطاعة وهو الله عزَّ وجلَّ، فـ: أَشْرِكَ، منقولٌ من: شركتُ

(١) مجمع البيان ١٣/ ٢١٢.
(٢) بعدها في (م): رضي الله عنه، والخبر في حاشية الشهاب ٥/ ٢٦٤.
(٣) ينظر تفسير النسفي ٢/ ٤٢٩، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٦٤ والكلام منه.

زيدًا، للتعدية إلى مفعولٍ ثانٍ، والكلامُ على هذا إقرارٌ من اللَّعين بقِدَم كفره، وبيانٌ لأنَّ خطيئتَه سابقةٌ عليهم فلا إغاثةَ لهم منه، فهو في المعنى تعليلٌ لعدم إصراخه إياهم.

وزعم الإمام: أنَّه لنفي تأثيرِ الوسوسةِ، كأنَّه يقول: لا تأثيرَ لوَسوستي في كفركم، بدليل أنِّي كفرتُ قبلَ أنْ وقعتُم في الكفر بسبب وسوسةٍ أخرى، وإلا لزِمَ التسلسل، فثبتَ بهذا أنَّ سبب الوقوع في الكفر شيءٌ آخرُ سوى الوسوسة[1]. وكان الظاهر على هذا تقديمه على قوله: «ما أنا بمصرخكم» إلى آخره، ولا يظهرُ لتأخيره نكتةٌ يَهَشُّ لها الخاطرُ.

ومنهم مَن جعله تعليلًا لعدم إصراخهم إياه، وهو مما لا وجهَ له، إذ لا احتمالَ لذلك حتى يحتاج إلى التعليل، وقيل: لأنَّ تعليل عدم إصراخهم بكفره يُوهم أنَّهم بسبيلٍ من ذلك لولا المانعُ من جهته.

واعترض بأنَّ نحو هذا الإيهام جارٍ في الوجه الأول، وهم الكفرةُ الذين لا تنفعُهم شفاعةُ الشافعين.

وتَعقَّب في «البحر» القولَ بالموصولية، بأنَّ فيه إطلاقَ «ما» على الله تعالى، والأصحُّ فيها أنَّها لا تُطلَق على آحاد مَن يعلم[2]. و«ما» في: سبحان ما سخَّركُنَّ، يجوز أنْ تكون مصدريةً بتقدير مضافٍ، أي: سبحان مُوجد أو ميسِّر تسخيركنَّ لنا.

وقال الطيبي: إنَّ «ما» لا تُستعمل في ذي العلم إلا باعتبار الوصفية فيه وتعظيم شأنه، والمثال على ذلك، أي: سبحانَ العظيمِ الشأنِ الذي سخَّركنَّ للرجال مع مكركنَّ وكيدكنَّ، وكون «ما» موصولةً عبارة عن الصنم، أي: إنِّي كفرتُ بالصنم الذي أشركتُمونيْهِ، مما لا ينبغي أنْ يُلتفَتَ إليه.

﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ الظاهرُ أنَّه من تمام كلامِ إبليسَ قطعًا لأطماع الكفار من الإغاثة والإعانة، وحَكَى اللهُ تعالى عنه ما سيقولُه في ذلك الوقت ليكونَ تنبيهًا للسامعين وحثًّا لهم على النظر في عاقبتهم والاستعدادِ لما لا بدَّ

---

(١) تفسير الرازي ١٩/ ١١٥.

(٢) الكلام من النهر الماد على هامش البحر ٥/ ٤٢٠.

منه، وأنْ يَتصوَّروا ذلك المقام الذي يقول فيه الشيطان ما يقول، فيخافوا ويعملوا ما ينفعُهم هناك.

وقيل: إنه من كلام الخزنةِ يوم ذاك.

وقيل: إنَّه ابتداءُ كلامٍ من جهته تعالى، وأُيِّد بأنَّه قرأ الحسنُ، وعمرو بنُ عبيد: «أُدخلُ»(١) في قوله تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ بصيغة المضارع المسنَدِ إلى المتكلِّم، وأنت تعلم أنَّه إذا اعتبرت هذه القراءة مؤيِّدةً لهذا القول، فلتعتبر قراءة الجمهور: «أُدخلَ» بصيغة الماضي المبنيِّ للمفعول مؤيِّدةً لمَا قبله، فإنَّ المُدخلين الملائكةُ عليهم السلام، فتأمَّل.

وكأنَّ الله تعالى لمَّا جمعَ الفريقَين في قوله سبحانه: (وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا) وذكَرَ شيئًا من أحوال الكفار ذكر ما آل إليه أمرُ المؤمنين من إدخالهم الجنةَ ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بأمره سبحانه أو بتوفيقه وهدايته جلَّ شأنُه، والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بـ «أُدخلَ» على قراءة الجمهور. وفي التعرُّض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم إظهارُ مزيد اللطفِ بهم.

وعلَّقه جماعةٌ على القراءة الأُخرَى بقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾ أي: يُحيِّيهم الملائكةُ بالسلام بإذن ربِّهم. وتعقَّب ذلك أبو حيان بأنَّ فيه تقديمَ معمول المصدر المنحَلِّ بحرفٍ مصدريٍّ وفعلٍ عليه، وهو غيرُ جائز(٢)، لِمَا أنَّ ذلك في حكم تقديمِ جزءٍ من الشيء المرتَّب الأجزاء عليه. ورُدَّ بأنَّ الظاهرَ أنَّه هنا غيرُ منحلٍّ إليهما؛ لأنَّه ليس المعنى المقصود منه أنْ يُحيَّوا فيها بسلام، ولو سَلِمَ فمراد القائل بالتعلُّقِ التعلُّقُ المعنويُّ، فالعاملُ فيه فعلٌ مقدَّرٌ يدلُّ عليه «تحيتهم» أي: يُحيّون بإذن ربِّهم.

وقال العلامة الثاني: الأظهرُ أنَّ التقديم جائزٌ إذا كان المعمولُ ظرفًا أو شِبهَهُ، وهو في الكلام كثير. والتقديرُ تكلُّفٌ، وليس كلُّ مؤوَّلٍ بشيء حكمه حكم ما أُوِّلَ

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٨، والمحتسب ١/ ٣٦١، والبحر المحيط ٥/ ٤٢٠.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٢٠ ـ ٤٢١.

به، مع أنَّ الظرف مما يكفيه رائحة من الفعل؛ لأنَّ له شأنًا ليس لغيره، لتنزُّله من الشيءِ منزلةَ نفسِهِ لوقوعه فيه وعدم انفكاكه عنه، ولهذا يُتَّسَعُ[1] في الظروف ما لا يُتَّسعُ في غيرها. اهـ.

وبالجواز أقولُ، وإنَّما لم يجعله المحقِّقون متعلِّقًا بـ «أُدخل» على تلك القراءة مع أنَّه سالم من الاعتراض ومشتَمِلٌ على الالتفات أو التجريد، وهو من المحسِّنات؛ لأنَّ قولك: أدخلته بإذني، ركيكٌ لا يناسبُ بلاغةَ التنزيل، والالتفاتُ أو التجريد حاصلٌ إذا عُلِّق بما بعدَه أيضًا.

وفي «الانتصاف» الصارفُ عن هذا الوجه، هو أنَّ ظاهر «أُدخلُ» بلفظ المتكلِّم يُشعرُ بأنَّ إدخالهم الجنةَ لم يكن بواسطةٍ بل من الله تعالى مباشرةً، وظاهرُ الإذن يُشعر بإضافة الدخول إلى الواسطة، فبينهما تنافرٌ، واستَحْسَنَ أنْ يعلَّق بـ «خالدين»، والخلودُ غيرُ الدخول فلا تنافر[2].

وتعقَّبه في «الكشف» بأنَّ ذلك لا يدفعُ الركاكة، وكأنَّه لما أنَّ الإذن للدخول لا للاستمرار بحسب الظاهر، وكونُ المرادِ: بمشيئتي وتيسيري لا يدفعُ ذلك عند التأمُّل الصادق، فما ذهب إليه ابنُ جني[3] واستَطيبَه الشيخ الطيبيُّ وارتضاه، ليس بشيءٍ لمن سلم له ذوقه.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الخطاب لسيِّد المخاطبين ﷺ، وقيل: لمن يصلُح له، والفعل معلّقٌ بما بعده من قوله تعالى: ﴿كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ أي: كيف اعتمله ووضَعَه في موضعه اللائق به. ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ نُصبَ على البدلية من «مثلًا»، و«ضَرَبَ» متعدِّية إلى مفعول واحد كما ذهب إلى ذلك الحوفيُّ والمهدويُّ وأبو البقاء[4]، وهو على ما قيل: بدلُ اشتمال، ولو جُعل بدل كلٍّ مِن كلٍّ لم يَبعُد.

واعترض عليه بأنَّه لا معنى لقولك: ضَرَبَ الله كلمةً طيِّبةً، إلا بضمِّ «مثلًا» إليه، فـ «مثلًا» هو المقصود بالنسبة، فكيف يُبدل منه غيرُه، ولا يخفَى أنَّ هذا بناء

---

(١) في (م): اتسع.
(٢) الانتصاف ٢/ ٣٧٥ ـ ٣٧٦.
(٣) المحتسب ١/ ٣٦١ ـ ٣٦٢.
(٤) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٤٠٥.

على ظاهر قول النحاة: إنَّ المبدل منه(١) في نية الطرح، وهو قولٌ(٢) غيرُ مسلَّم.

وقوله سبحانه: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ صفةُ «كلمة»، أو خبر مبتدأ محذوفٍ، أي: هي كشجرةٍ، وجوِّز أن يكونَ «كلمة» منصوبًا بمضمَر، و«ضَرَبَ» أيضًا متعدِّيةٌ لواحد، أي: جعل كلمةً طيبة كشجرةٍ طيبة، أي: حكم بأنَّها مثلها، والجملةُ تفسيرٌ لقوله سبحانه: (ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا) كقولك: شرَّف الأميرُ زيدًا، كساهُ حُلَّةً وحمله على فرس.

وتَعقَّب ذلك أبو حيان بأنَّ فيه تكلُّفَ إضمار لا ضرورة تدعو إليه(٣). وأجابَ عنه السمين بما فيه بحثٌ(٤).

وجوِّز أيضًا أن يكونَ «ضَرَبَ» المذكور متعدِّيًا إلى مفعولَين، إمَّا لكونه بمعنى جَعَل واتَّخذ، أو لتضمينه معناه، و«كلمةً» أوَّلُ مفعوليه قد أُخِّر عن ثانيهما أعني «مثلًا» لئلَّا يَبعُدَ عن صفته التي هي «كشجرةٍ»، قيل: ولا يرد على هذا بأنَّ المعنى: أنَّه تعالى ضرَبَ لكلمة طيِّبة مثلًا لا كلمةً طيِّبةً مثلًا؛ لأنَّ المثل عليه بمعنى الممثَّل به، والتقدير: ذات مثلٍ، أَوْلها مثلًا.

وقرئ: «كلمةٌ» بالرفع(٥) على الابتداء لكونها نكرةً موصوفةً، والخبرُ «كشجرةٍ»، ويجوز أنْ يكونَ خبرَ مبتدأ محذوفٍ، و«كشجرة» صفة أخرى.

﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ أي: ضاربٌ بعروقه في الأرض.

وقرأ أنس بنُ مالك: «كشجرة طيبةٍ ثابتٍ أصلُها»(٦) وقراءة الجماعة على الأصل، وذكروا أنَّها أقوى معنًى، قال ابنُ جني: لأنَّك إذا قلت: ثابتٌ أصلُها، فقد أجريت الصفة على «شجرة» وليس الثباتُ لها إنما هو للأصل، والصفةُ إذا كانت في المعنى لِمَا هو من سبب الموصوفِ قد تَجري عليه لكنَّها أخصُّ بما هي له

---

(١) قوله: منه، ليس في (م).
(٢) قوله: قول، ليس في (م).
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٢١.
(٤) الدر المصون ٧/ ٩٩.
(٥) الإملاء ٣/ ٤٠٥، والبحر المحيط ٥/ ٤٢١.
(٦) المحتسب ١/ ٣٦٢، والكشاف ٢/ ٣٧٦، والبحر المحيط ٥/ ٤٢٢.

لفظًا ومعنًى، فالأحسن تقديمُ الأصل عنايةً به، ومِن ثَمَّ قالوا: زيدٌ ضربته، فقدَّموا المفعول عنايةً به حيث إنَّ الغرض ليس ذكر الفاعل وإنما هو ذكر المفعول، ثُم لم يَقنعوا بذلك حيث أزالوه عن لفظ الفضلة وجعلوه ربَّ الجملة لفظًا فرفعوه بالابتداء، وصار «ضربته» ذيلًا له وفضلةً ملحقةً به، وكذلك قولُك: مررْتُ برجلٍ أبوه قائمٌ، أقوى معنًى من قولك: مررتُ برجلٍ قائم أبوه؛ لأنَّ المخبَر عنه بالقيام إنما هو الأب لا الرجل مع ما في التقديم هنا من حُسْنِ التقابل والتقسيم إلا أنَّ لقراءة أنس وجهًا حسنًا، وهو أنَّ «ثابت أصلُها» صفةُ الشجرة، وأصلُ الصفة أنْ تكونَ اسمًا مفردًا؛ لأنَّ الجملة إذا وقعَت صفةً حُكم على موضعها بإعراب المفرد، وذلك لم يبلغ مبلغَ الجملة، بخلاف: «أصلُها ثابتٌ» فإنَّه جملةٌ قطعًا[(١)].

وقال بعضُهم: إنَّها أبلغُ. ولم يذكر وجْهَ ذلك، فزعم مَن زعم أنَّه ما أُشير إليه من وجه الحسن، وهو بمعزلٍ عن الصواب.

وقال ابنُ تمجيد: هو أنَّه كوصف الشيء مرَّتين، مرةً صورةً ومرةً معنًى، مع ما فيه من الإجمال والتفصيل، كما في ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] فإنَّه لما قيل: «كشجرةٍ طيبةٍ ثابت» تبادَر الذهن مِن جَعْل «ثابت» صفةً لـ «شجرةٍ» صورةً أنَّ شيئًا من الشجرة متَّصفٌ بالثبات، ثم لمَّا قيل: «أصلُها» عُلم صريحًا أنَّ الثبات صفةُ أصلِ الشجرة.

وقيل: كونُها أكثرَ مبالغةً لجعل الشجرةِ بثبات أصولها ثابتةً بجميع أغصانها، فتدبَّر.

﴿وَفَرْعُهَا﴾ أي: أعلاها من قولهم: فَرَعَ الجبلَ: إذا علاه، وسمِّي الأعلى فرعاً؛ لتفرُّعه على الأصل، ولهذا أُفردَ، وإلا فكلُّ شجرةٍ لها فروعٌ وأغصانٌ. ويجوزُ أن يُراد به الفروع؛ لأنَّه مضافٌ، والإضافة حيث لا عهدَ تردُ للاستغراق، أو لأنَّه مصدرٌ بحسب الأصل، وإضافته على ما اشتهر تفيدُ العمومَ فكأنَّه قيل: وفروعها ﴿فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾﴾ أي: في جهة العلوِّ ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا﴾ تعطي ثمرَها ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ وقت أَقَّته الله تعالى لإثمارها ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ بإرادة خالقها جلَّ شأنه.

---

(١) ينظر المحتسب ١/ ٣٦٢ ـ ٣٦٣، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٦٥.

والمراد بالكلمة الطيبة شهادةُ أنْ لا إله إلا الله، على ما أخرجَهُ البيهقيُّ وغيرُه عن ابن عباس[١]، وعن الأصمِّ أنَّها القرآن، وعن ابن بحر: دعوة الإسلام، وقيل: التسبيحُ والتنزيهُ، وقيل: الثناءُ على الله تعالى مطلقًا، وقيل: كلُّ كلمةٍ حسنةٍ، وقيل: جميعُ الطاعات، وقيل: المؤمنُ نفسُه، وأخرجه ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم عن ابن عباس[٢]، وهو خلاف الظاهر، وكأنَّ إطلاقَ الكلمة عليه نظيرُ إطلاقها على عيسى عليه السلام.

والمرادُ بالشجرة المشبَّه بها النخلةُ عند الأكثرين، وروي ذلك عن ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعكرمة والضحاك وابن زيد.

وأخرج عبد الرزاق والترمذيُّ وغيرُهما عن شُعيب بن الحَبْحَاب قال: كنَّا عند أنس فأُتينا بطَبَقٍ عليه رُطَبٌ، فقال أنس لأبي العالية: كُلْ يا أبا العالية فإنَّ هذا من الشجرة التي ذكرها الله تعالى في كتابه: «ضرب الله مثلًا كلمة طيبة كشجرة طيبة ثابت أصلها»[٣].

وأخرج الترمذيُّ أيضاً والنسائيُّ وابنُ حبان والحاكم وصححه عن أنس قال: أُتي رسولُ الله ﷺ بقِناعٍ من بُسرٍ، فقال: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ حتى بلغ ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ قال: «هي النخلة»[٤].

وأخرج ابنُ مردويه[٥] عن ابن عباس أنَّها شجرةُ جوز الهند.

---

(١) الأسماء والصفات للبيهقي ١/ ٢٧٢ - ٢٧٣ (٢٠٦)، وأخرجه أيضاً الطبري ١٣/ ٦٣٥، والطبراني في الدعاء (١٥٩٨)، وفيه: علي بن أبي طلحة مولى بني العباس. قال ابن حجر في التقريب: أرسل عن ابن عباس ولم يره، صدوق قد يخطئ.

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٦٣٦، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٧٥.

(٣) تفسير عبد الرزاق ١/ ٣٤٢، وسنن الترمذي (٣١١٩)، وأخرجه أيضاً الطبري ١٣/ ٦٣٨ - ٦٣٩، والرامهرمزي في الأمثال ص١١٠، وفي الأصل: أصلها ثابت، والمثبت من الطبري والدر المنثور ٤/ ٧٦، وهي قراءة أنس رضي الله عنه كما مرَّ.

(٤) سنن الترمذي (٣١١٩)، والسنن الكبرى للنسائي (١١١٩٨)، وصحيح ابن حبان (٤٧٥)، والمستدرك ٢/ ٣٥٢، وذكر الترمذي أن الموقوف أصحُّ، والقِناعُ: الطبق الذي يؤكل عليه. النهاية: (قنع).

(٥) كما في الدر المنثور ٤/ ٧٧.

وأخرج ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم عنه رضي الله عنه أيضًا أنَّها شجرةٌ في الجنة(١). وقيل: كلُّ شجرةٍ مثمرة طيبةِ الثمار كالنخلة وشجرةِ التين والعنب والرُّمَّان وغير ذلك، وأنت تعلم أنه إذا صحَّ الحديث، ولم يتأتَّ حملُ ما فيه على التمثيل لا ينبغي العدولُ عنه.

ووجهُ تشبيه الكلمة الطيبة بمعنى شهادةِ أن لا إله إلا الله بهذه الشجرةِ المنعوتة بما ذكر أنَّ أصلَ تلك الكلمةِ ومنشأها ـ وهو الإيمان ـ ثابتٌ في قلوب المؤمنين، وما يتفرَّع منها وينبني عليها من الأعمال الصالحة والأفعال الزكية يصعد إلى السماء، وما يترتَّب على ذلك من ثواب الله تعالى ورضاه هو الثمرةُ التي تؤتيها كلَّ حين، ويقال نحو هذا على تقدير أنْ تكون الكلمةُ بمعنًى آخر، فتأمَّل.

والذاهبون إلى تفسير الشجرةِ بالنخلة من السلف اختلفوا في مقدار الحين، فأخرج البيهقيُّ عن سعيد بن المسيب أنَّه شهران قال: إنَّ النخلةَ إنما يكونُ فيها حملُها شهرَين(٢).

وأخرج ابنُ جرير عن مجاهد أنَّه سنة(٣)، وقيل غيرُ ذلك.

واختلفَت الرواياتُ عن ابن عباس، والأشهرُ أنَّه فسَّره بستَّة أَشهُر، وقال: إنَّ النخلة ما بينَ حملها إلى صرامها ستَّةُ أشهر، وأفتَى رضي الله عنه لرجلٍ حلَفَ أنْ لا يُكلِّم أخاه حِينًا أنَّه لو كلَّمه قبل ستَّةِ أشهر، حنَثَ(٤). وهو الذي قال به الحنفية، فقد ذكروا أنَّ الحين والزمان معرَّفَين أو منكَّرين واقعَين في النفي أو في الإثبات ستَّة أشهر، وعلَّلوا ذلك بأنَّ الحين قد جاء بمعنَى الساعةِ، وبمعنى أربعينَ سنةً، وبمعنى الأبد، وبمعنى ستَّةِ أَشهُر، فعند عدم النية ينصرفُ إليه؛ لأنَّه الوسط؛ ولأنَّ القليل لا يقصَدُ بالمنع لوجود الامتناع فيه عادةً، والأربعونَ سنةً لا تُقصَدُ بالحلف عادةً لأنَّه في معنى الأبد، ولو سكت عن الحين تأبَّد، فالظاهرُ أنَّه لم يقصد ذلك، ولا الأبدَ ولا أربعينَ سنةً، فيحكم بالوسط في الاستعمال، والزمان استعمل استعمال الحين. ويعتبر ابتداء الستَّةِ أشهر من وقت اليمين في نحو: لا أكلِّم فلانًا

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٦٤١، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٧٧.
(٢) السنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ٦٢، وأخرجه أيضاً الطبري ١٣/ ٦٥٠.
(٣) تفسير الطبري ١٣/ ٦٤٩.
(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٤٧.

حينًا، مثلًا، وهذا بخلاف: لأصومَنَّ حينًا، فإنَّ له أنْ يُعيِّن فيه أيَّ ستةِ أشهر شاء كما بُيِّن في محلِّه، ومتى نوى الحالفُ مقدارًا معيَّنًا في الحين وأخيه، صُدِّق؛ لأنَّه نوى حقيقةَ كلامه؛ لأنَّ كلًّا منهما للقدر المشترك بين القليل والكثير والمتوسط، واستعمل في كلٍّ كما لا يخفى على المتتبع فليتذكر.

﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ لأنَّ في ضربها زيادةَ إفهامٍ وتذكير، فإنَّه تصويرُ المعاني العقلية بصُوَر المحسوسات، وبه يرتَفع التنازع بين الحسِّ والخيال.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي كلمةُ الكفر أو الدعاء إليه أو الكذب، أو كلُّ كلمةٍ لا يرضاها الله تعالى. وقرئ: «ومثلَ» بالنصب[١] عطفًا على «كلمةً طيبةً»، وقرأ أُبيٌّ: «وضَرَبَ الله مثلًا كلمة خبيثة»[٢].

﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ ولعلَّ تغييرَ الأسلوب على قراءة الجماعة، للإيذان بأنَّ ذلك غيرُ مقصودٍ بالضرب والبيان، وإنما ذلك أمرٌ ظاهرٌ يعرفه كلُّ أحد، وفي الكلام مضافٌ مقدَّرٌ، أي: كمثل شجرةٍ خبيثة، والمثل بمعنى الصفة الغريبة[٣].

﴿ٱجْتُثَّتْ﴾ أي: اقتُلِعَت من أصلها، وحقيقةُ الاجْتِثاثِ: أَخذُ الجثة، وهي: شخصُ الشيء كلها ﴿مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ لكون عروقها قريبةً من الفوق فكأنَّها فوق ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ أي: استقرارٍ على الأرض، والمرادُ بهذه الشجرةِ المنعوتة الحنظلةُ، ورُوي ذلك أيضًا مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ[٤]، وعن الضحاك أنَّها الكَشُوث[٥]، ويُشبَّه به الرجلُ الذي لا حسَبَ له ولا نسَبَ كما قال الشاعر:

فهو الكَشُوث فلا أصلٌ ولا وَرَقٌ ... ولا نسيمٌ ولا ظلٌّ ولا ثمرُ[٦]

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٢٢.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٦، والبحر المحيط ٥/ ٤٢٢.

(٣) قوله: والمثل بمعنى الصفة الغريبة، ليس في الأصل.

(٤) أخرجه الترمذي (٣١١٩)، والطبري ١٣/ ٦٥٤، وابن حبان (٤٧٥)، وأبو يعلى (٤١٦٥)، والحاكم ٢/ ٣٥٢ من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٥) الكَشُوث: نبتٌ يتعلَّق بالأغصان ولا عرقَ له في الأرض. القاموس (كشث).

(٦) مجمع الأمثال ١/ ٢٨٤، وتصحيح التصحيف ص١٢٣، والصحاح (كشث).

وقال الزجَّاج[١] وفرقةٌ: شجرةُ الثُّوم، وقيل: شجرةُ الشَّوك، وقيل: الطُّحْلَب، وقيل: الكَمْأَةُ، وقيل: كلُّ شجرٍ لا يطيبُ له ثمر، وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّها شجرةٌ لم تُخلَق على الأرض.

والمقصودُ التشبيه بما اعتبر فيه تلك النعوت. وقال ابنُ عطية: الظاهرُ أنَّ التشبيهَ وقعَ بشجرةٍ غيرِ معيَّنة جامعة لتلك الأوصاف[٢]، وفي رواية عن الحبر أيضًا تفسيرُ هذه الشجرة بالكافر.

وروَى الإمامية ـ وأنت تعرفُ حالَهم ـ عن أبي جعفر رضي الله عنه تفسيرَها ببني أمية، وتفسيرُ الشجرة الطيبةِ برسول الله ﷺ وعليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه وفاطمةَ رضي الله عنهما وما تولَّد منهما.

وفي بعض روايات أهل السنة ما يُعكِّر على تفسير الشجرةِ الخبيثة ببني أمية، فقد أخرج ابنُ مردويه عن عديِّ بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى قَلَّب العبادَ ظهرًا وبَطْنًا فكان خَيرُ عبادِهِ العربَ، وقلَّبَ العربَ ظهرًا وبطنًا فكانَ خَيرُ العرب قريشًا، وهي الشجرةُ المباركةُ التي قال الله تعالى في كتابه: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾[٣]» لأنَّ بني أميةَ من قريش، وأخبارُ الطائفتَين في هذا الباب ركيكةٌ، وأحوالُ بني أميةَ التي يستحقُّون بها ما يستحقُّون غيرُ خفيةٍ عند الموافقِ والمخالفِ.

والذي عليه الأكثرون في هذه الشجرة الخبيثة أنَّها الحنظل، وإطلاقُ الشجرة عليه للمشاكلة، وإلا فهو نَجْمٌ لا شجَرٌ، وكذا يقال في إطلاقه على الكَشوث ونحوه.

وللإمام الرازي[٤] قدِّس سرُّه كلامٌ في هذَين المثَلَين لا بأس بذكره ملخَّصًا،

---

(١) كما في البحر المحيط ٥/ ٤٢٢.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٦.

(٣) عزاه لابن مردويه السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٧٧، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٧/ (٢٠١)، وفي إسناده: حصين السلولي، قال الذهبي في الميزان ١/ ٥٥٤: قال الدارقطني: يضع الحديث، ونقل ابن الجوزي أن ابن حبان قال: لا يجوز الاحتجاج به.

(٤) تفسير الرازي ١٩/ ١١٦.

وهو أنَّه تعالى ذكر في المَثَل الأوَّل شجرةً موصوفةً بأربعِ صفاتٍ، ثم شبَّه الكلمةَ الطيبةَ بها:

الصفة الأُولَى: كونها «طيبة» وذلك يحتمل كونَها طيبةَ المنظر، وكونَها طيبةَ الرائحة، وكونها طيبةَ الثمرة، بمعنى كونها لذيذةً مستطابةً، وكونَها طيبةَ الثمرة بمعنى كثرة الانتفاع بها، ويجبُ إرادةُ الجميع، إذ به يحصل كمالُ الطيب.

والثانية: كون أصلها ثابتًا، وهو صفةُ كمالٍ لها؛ لأنَّ الشيءَ الطيب إذا كان في معرض الزوال فهو وإن كان يحصل الفرحُ بوِجْدانه إلا أنَّه يعظمُ الحزنُ بالخوف من زواله، وأمَّا إذا لم يكن كذلك، فإنَّه يعظمُ السرورُ به من غير ما يُنغِّص ذلك.

والثالثة: كون «فرعها في السماء» وهو أيضًا صفةُ كمال لها، لأنَّها متى كانت مُرتَفعةً كانت بعيدةً عن عفونة الأرض وقاذورات الأبنية، فكانت ثمرتُها نقيَّةً خالصةً عن جميع الشوائب.

والرابعة: كونها دائمة الثمر لا أنَّ ثمرَها حاضرٌ في بعض الأوقات دون بعض، وهو صفةُ كمالٍ أيضًا، إذ الانتفاع بها غيرُ مُنقَطعٍ حينئذ.

ثم إنَّ من المعلوم بالضرورة أنَّ الرغبةَ في تحصيل مثل هذه الشجرة يجبُ أن تكونَ عظيمةً، وأنَّ العاقلَ متى أمكنه تحصيلها ينبغي أنْ يقوم له على ساقٍ ولا يتساهل عنه، والمرادُ من الكلمة المشبهةِ بذلك معرفةُ الله تعالى، والاستغراقُ في محبته سبحانه وطاعته، وشبّه ذلك للشجرة في صفاتها الأربع:

أمَّا في الأولَى فظاهرٌ بل لا لذةَ ولا طيبَ في الحقيقة إلا لهذه المعرفة؛ لأنَّها ملائمةٌ لجوهر النفس النُّطقيَّةِ والروح القدسية، ولا كذلك لذة الفواكه، إذ هي أمرٌ ملائم لمزاج البدن، ومن تأمَّل أدنَى تأمُّلٍ ظهر له فروقٌ لا تُحصَى بين اللذَّتَين.

وأما في الصفة الثانية: فثبوتُ الأصل في شجرة معرفة الله تعالى أقوَى وأكملُ؛ لأنَّ عروقها راسخة في جوهر النفس القدسية، وهو جوهرٌ مجرَّدٌ آمنٌ عن الكون والفساد، بعيدٌ عن التغير والفناء، وأيضًا مَدَدُ هذا الرسوخِ إنما هو من تجلِّي جلالِ الله تعالى، وهو من لوازم كونه سبحانه في ذاته نورَ النور ومبدأ الظهور، وذلك مما يمتنعُ عقلًا زواله.

وأما في الصفة الثالثة فلأنَّ شجرةَ المعرفةِ لها أغصانٌ صاعدةٌ في هواء العالم الإلهي، وأغصانٌ صاعدةٌ في هواء العالم الجسماني:

والنوعُ الأوَّل: أقسامُه كثيرةٌ يجمعُها قولُه ﷺ: «التعظيمُ لأمر الله تعالى»[١] ويدخلُ فيه التأمُّل في دلائل معرفتِه سبحانه كأحوال العوالمِ العلويَّةِ والسفليةِ، وكذا محبَّةُ الله تعالى والتشوُّقُ إليه سبحانه، والمواظبةُ على ذكره جلَّ شأنه، والاعتمادُ عليه وقطْعُ النظر عمَّا سواه جلَّ وعلا إلى غير ذلك.

والنوع الثاني: أقسامُه كذلك، ويجمعُها قوله عليه الصلاة والسلام: «والشفقةُ على خلق الله تعالى»[٢] ويدخل فيه الرأفةُ والرحمةُ والصفحُ، والتجاوز عن الإساءة، والسعيُ في إيصال الخير إلى عباد الله تعالى، ودفع الشرور عنهم ومقابلة الإساءة بالإحسان إلى ما لا يُحصَى، وهي فروعٌ من شجرة المعرفةِ فإنَّ الإنسان كلَّما كان متوغِّلاً فيها كانت هذه الأحوالُ عنده أكمل وأقوى.

وأمَّا في الصفة الرابعة فلأنَّ شجرة المعرفةِ موجبةٌ لِمَا علمت من الأحوال، ومؤثِّرةٌ في حصولها، والسببُ لا ينفكُّ عن المسبَّب[٣]، فدوامُ أكلِ هذه الشجرةِ أتمُّ من دوام أكل الشجرة المنعوتة، فهي أولَى بهذه الصفةِ، بل ربما توغَّل العبدُ في المعرفة، فيصيرُ بحيث كلَّما لاحظَ شيئًا لاحظ الحقَّ فيه، وربما عَظُم تَرَقِّيه فيصيرُ لا يرى شيئًا إلا يرى الله تعالى قِبَله، وأيضًا قد يحصل للنفس من هذه المعرفةِ إلهامات نفسانيةٌ ومَلَكات روحانية، ثم لا يزال يصعد منها في كلِّ حينٍ ولحظة كلامٌ طيِّب وعملٌ صالح وخضوعٌ وخشوعٌ وبكاءٌ وتذلُّلٌ كثمرة هذه الشجرة.

وفي قوله سبحانه: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ دقيقةٌ عجيبةٌ، وذلك لأنَّ الإنسانَ عند حصول هذه الأحوالِ السنيَّةِ والدرجاتِ العليةِ قد يفرح بها من حيث هي هي، وقد يتَرَقَّى

---

(١) قطعة من حديث ذكره الصغاني في الموضوعات ص٦٤، قال السخاوي في المقاصد ص٢٥٣: معناه صحيح في كثير من الأحاديث، وأما خصوص هذا اللفظ فلا أعرفه، وقال الملا علي القاري في الموضوعات الكبرى ص٢٢٦: ومن كلام بعض المشايخ حيث قال: مدار الأمر على شيئين: التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله.

(٢) ينظر التعليق السابق.

(٣) في (م): والمسبب لا ينفك عن السبب.

فلا يفرح بها كذلك، وإنما يفرحُ بها من حيث إنَّها من المولَى جلَّ جلاله، وعند ذلك يكونُ فرحُه في الحقيقة بالمولى تبارك وتعالى، ولذلك قال بعضُ المحقِّقين: مَن آثَرَ العِرفان للعرفان فقد وَقَفَ بالساحل، ومَن آثَرَ العِرفان لا للعِرفان بل للمعروف فقد خاضَ لُجَّةَ الوصول.

وذكر بعضُهم في هذا المثال كلامًا لا يخلو عن حُسْن، وهو أنَّه إنما مثَّل سبحانه الإيمان بالشجرة؛ لأنَّ الشجرة لا تستحقُّ أنْ تسمَّى شجرةً إلا بثلاثة أشياء: عِرْقٌ راسخٌ، وأصلٌ قائم، وأغصانٌ عالية، فكذلك الإيمانُ لا يتمُّ إلا بثلاثة أشياء: معرفةٌ في القلب، وقولٌ باللسان، وعملٌ بالأركان. ولم يرتَضِ قدِّس سرُّه تفسيرَ الشجرةِ بالنخلة، ولا الحينَ بما شاع فقال ـ بعد نقل كلام جماعة ـ: إنَّ هؤلاء وإنْ أصابوا في البحث عن مفردات ألفاظِ الآية إلا أنَّهم بَعُدُوا عن إدراك المقصود؛ لأنَّه تعالى وصَفَ شجرةً بالصفات المذكورة، ولا حاجةَ بنا إلى أنَّ تلك الشجرة هي النخلة أم غيرُها، فإنَّا نعلمُ بالضرورة أنَّ الشجرةَ الكذائيةَ يسعَى في تحصيلها وادِّخارها لنفسه كلُّ عاقل، سواءٌ كان لها وجودٌ في الدنيا أو لم يكن؛ لأنَّ هذه الصفةَ أمرٌ مطلوبُ التحصيل.

واختلافهم في تفسير الحين أيضًا من هذا الباب، والله تعالى أعلم.

وذكر تباركَ وتعالى في المثل الثاني شجرةً أيضًا إلا أنَّه تعالى وصَفَها بثلاث صفات:

الصفة الأولى: كونها «خبيثة» وذلك يحتملُ أنْ يكونَ بحسب الرائحة، وأن يكونَ بحسب الطعم، وأن يكونَ بحسب الصورة، وأن يكون بحسب اشتمالها على المضارِّ الكثيرة، ولا حاجةَ إلى القول بأنَّها شجرةُ كذا أو كذا، فإنَّ الشجرةَ الجامعةَ لتلك الصفات، وإنْ لم تكن موجودةً إلا أنَّها إذا كانت معلومةَ الصفة كان التشبيهُ بها نافعًا في المطلوب.

والثانيةُ: اجتثاثُها مِن فوقِ الأرضِ، وهذه في مقابلة «أصلها ثابت» في الأول.

والثالثة: نَفْيُ أنْ يكونَ لها قرارٌ، وهذه كالمتمِّمة للصفة الثانية.

والمرادُ بالكلمةِ المشبَّهة بذلك الجهلُ بالله تعالى والإشراكُ به سبحانه، فإنَّه

أَوَّلُ الآفات وعنوانُ المخافات ورأسُ الشقاوات، فخبثُه أظهرُ من أنْ يخفَى، وليس له حجَّةٌ ولا ثباتٌ ولا قوَّةٌ، بل هو داحضٌ غيرُ ثابت. اهـ. وهو كلامٌ حسنٌ لكن فيه مخالفةٌ لظواهر كثيرٍ من الآثار، فتأمَّل.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ الذي ثبت عندهم وتمكَّن في قلوبهم، وهو الكلمةُ الطيبة التي ذُكِرَت صفتُها العجيبة، والظاهرُ أنَّ الجارَّ متعلِّقٌ بـ «يُثَبِّتُ» وكذا قوله سبحانه: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: يُثبِّتُهم بالبقاء على ذلك مدَّةَ حياتهم فلا يَزِلُّون[1] إذا قُيِّضَ لهم مَن يفتنهم ويُحاول زلَلَهم عنه كما جرى لأصحاب الأخدود[2] ولجرجيس وشمسون، وكما جرى لبلال وكثيرٍ من أصحاب رسولِ الله ﷺ و رضي الله عنهم.

﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: بعد الموت، وذلك في القبر الذي هو أوَّلُ منزلٍ من منازل الآخرةِ، وفي مواقف القيامة، فلا يتلعثَمون إذا سُئلوا عن مُعتقدهم هناك ولا تُدهشُهم الأهوالُ.

وأخرج ابنُ أبي شيبة عن البراء بنِ عازب أنَّه قال في الآية: التثبيتُ في الحياة الدنيا إذا جاء الملَكان إلى الرجل في القبر قالا له: مَن ربُّك؟ قال: ربِّي الله، قالا: وما دينُك؟ قال: ديني الإسلام، قالا[3]: ومَنْ نبيُّك؟ قال: نبيِّي محمدٌ ﷺ[4]. وعلى هذا فالمرادُ من «الآخرة» يوم القيامة.

وأخرج الطبرانيُّ في «الأوسط» وابنُ مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول في هذه الآية: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ﴾ إلخ: «في الآخرةِ: القَبْر»[5]. وعلى هذا فالمرادُ بـ «الحياة الدنيا» مدَّة الحياة، وإلى ذلك ذهبَ جمهورُ

---

(١) في (م): يزالون.

(٢) سيأتي ذكر قصتهم وتخريجها عند تفسير قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾ من سورة البروج.

(٣) في الأصل و(م): قال، والمثبت من مصنف ابن أبي شيبة.

(٤) المصنف لابن أبي شيبة ٣/ ٣٧٧، وأخرجه بنحوه مرفوعًا أحمد (١٨٥٧٥)، ومسلم (٢٨٧١).

(٥) المعجم الأوسط (٥٥٧٤)، وعزاه لابن مردويه السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٧٩، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٤٤: فيه عطية العوفي وهو ضعيف.

العلماء واختاره الطبريُّ[1]. نعم اختار بعضُهم أنَّ «الحياة الدنيا» مدة حياتهم، و«الآخرة» يوم القيامة والعَرْض؛ وكأنَّ الداعي لذلك عمومُ «الذين آمنوا» وشمولهم لمؤمني الأُمم السابقة مع عدم عمومِ سؤالِ القبر.

وجوّز تعلُّق الجارِّ الأول بـ «آمنوا» على معنى: آمنوا بالتوحيد الخالص، فوحَّدوه ونزَّهوه عمَّا لا يليقُ بجنابه سبحانه، وكذا جوّز تعلُّق الجارِّ الثاني بـ «الثابت».

ومن الناس مَن زَعَم أنَّ التثبيت في الدنيا الفتحُ والنصرُ، وفي الآخرة الجنةُ والثوابُ، ولا يخفَى أنَّ هذا مما لا يكادُ يُقال، وأمرُ تعلُّقِ الجارَّين ما قدَّمنا، وهذا عند بعضهم مثالُ إيتاء الشجرةِ أُكُلَها كلَّ حين.

﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾ أي: يخلق فيهم الضلالَ عن الحقِّ الذي ثَبَّت المؤمنين عليه حسب إرادتهم واختيارهم الناشئ عن سوء استعدادهم، والمرادُ بهم الكفرةُ بدليل مقابلتهم بـ «الذين آمنوا» ووَصَفهم بالظلم إمَّا باعتبار وضعهم للشيء في غير موضعه، وإمَّا باعتبار ظُلمهم لأنفسهم، حيث بدَّلوا فطرةَ الله تعالى التي فَطَر الناسَ عليها، فلم يهتدوا إلى القول الثابت، أو حيث قلَّدوا أهلَ الضلال وأعرضُوا عن البينات الواضحةِ، وإضلالُهم ـ على ما قيل ـ في الدنيا أنَّهم لا يثبتون في مواقف الفتنِ وتَزِلُّ أقدامُهم أول شيءٍ، وهم في الآخرة أضلُّ وأزلُّ.

وأخرج ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم والبيهقيُّ من حديث ابن عباس ﵄ أنَّ الكافر إذا حضَرَه الموتُ تنزلُ عليه الملائكةُ عليهم السلام يضربون وجْهَه ودُبُرَه، فإذا دَخل قبرَه أُقعِدَ فقيل له: مَن ربُّك؟ فلم يرجع إليهم شيئًا، وأنساهُ الله تعالى ذكرَ ذلك، وإذا قيل له: مَن الرسولُ الذي بُعِثَ إليكم؟ لم يهتدِ له ولم يرجع إليهم شيئاً، فذلك قوله تعالى: (وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ)[2].

﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ من تَثْبيت بعضٍ وإضلالِ بعضٍ آخرين حسبما تُوجبه

---

(١) في تفسيره ١٣/ ٦٦٧.

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٦٦٧ ـ ٦٦٨، وعذاب القبر للبيهقي ص٣١، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٧٩.

مشيئتُه التابعةُ للحكم البالغة المقتضية لذلك، وفي إظهار الاسم الجليل في الموضعَين من الفخامة وتربيةِ المهابة ما لا يخفَى، مع ما فيه - كما قيل - من الإيذان بالتفاوت في مبادي التثبيت والإضلال، فإنَّ مبدأ صدورِ كلٍّ منهما عنه سبحانه وتعالى من صفاته العُلا غير ما هو مبدأ صدورِ الآخر، وفي ظاهر الآية من الردِّ على المعتزلة ما فيها.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تَعجيبٌ لرسول الله ﷺ أو لكلِّ أحدٍ مما صنَعَ الكفرةُ من الأباطيل، أي: ألم تنظر ﴿إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ أي: شُكرَ نعمتِهِ تعالى الواجب عليهم، ووَضعوا موضعَه ﴿كُفْرًا﴾ عظيماً وغَمْطًا لها، فالكلامُ على تقدير مضافٍ حُذف وأُقيمَ المضافُ إليه مقامَه، وهو المفعول الثاني، و«كفرًا» المفعولُ الأوَّلُ، وتوهَّم بعضُهم عكس ذلك.

وقد لا يحتاجُ إلى تقديرٍ على معنى أنَّهم بدَّلوا النعمةَ نفسَها كفرًا؛ لأنَّهم لمَّا كفروها سُلبوها، فبقوا مسلوبيها موصوفين بالكُفر، وقد ذكر هذا كالأول الزمخشريُّ[(١)]، والوجهان كما في «الكشف» - خلافاً لما قرَّره الطيبي وتابعه عليه غيرُه - متَّفقان في أنَّ التبديل ها هنا تغييرٌ في الذات، إلا أنَّه واقعٌ بين الشكر والكفر، أو بين النعمة نفسها والكفر، والمرادُ بهم أهلُ مكة، فإنَّ الله سبحانه أسكنَهم حَرَمَه، وجعَلَهم قُوَّامَ بيته، وأكرمهم بمحمد ﷺ، فكفروا نعمةَ الله تعالى بدل ما ألزمهم من الشكر العظيم، أو أصابَهم الله تعالى بالنعمة والسعةِ لإيلافهم الرحلتَين، فكفروا نعمتَه سبحانه، فضَرَبهم جلَّ جلاله بالقحطِ سبعَ سنينَ، وقُتلوا وأُسروا يومَ بدر، فحصل لهم الكفر بدلَ النعمة، وبقيَ ذلك طوقًا في أعناقهم.

وأخرج الحاكمُ وصحَّحه وابنُ جرير والطبرانيُّ وغيرُهم من طرقٍ عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه أنَّه قال في هؤلاء المبدِّلين: هما الأفجران من قريش: بنو أميةَ وبنو المغيرة؛ فأمَّا بنو المغيرة فقَطَعَ الله تعالى دابرَهم يوم بدر، وأما بنو أميةَ فَمُتِّعوا إلى حين[(٢)].

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٧٧.

(٢) المستدرك ٢/ ٣٥٢، وتفسير الطبري ١٣/ ٦٧٠، والطبراني في الأوسط (٧٧٦).

وأخرج البخاريُّ في «تاريخه» وابنُ المنذر وغيرُهما عن عمر رضي الله عنه مثل ذلك[١]. وجاء في رواية كما في «جامع الأصول»: «هم والله كفارُ قريش»[٢].

أخرج ابنُ أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: هم جبلةُ بنُ الأيهم والذين اتَّبعوه من العرب، فلحقوا بالروم[٣]. ولعلَّه رضي الله عنه لا يُريد أنَّها نزلَت في جبلةَ ومَن معه؛ لأنَّ قصتهم كانت في خلافة عمرَ رضي الله عنه، وإنَّما يُريد أنَّها تخصُّ مَن فَعَلَ فِعْلَ جبلةَ إلى يوم القيامة.

﴿وَأَحَلُّوا﴾ أي: أنزلُوا ﴿قَوْمَهُمْ﴾ بدعوتهم إياهم لما هم فيه من الضلال، ولم يتعرَّض لحلولهم لدلالة الإحلال عليه، إذ هو فرعُ الحلول كما قالوا في قوله تعالى في فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود:٩٨]. ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ أي: الهلاك، مِنْ بار يَبُور بَوَارًا وبَوْرًا، قال الشاعر:

فلم أرَ مثلَهمْ أبطالَ حَرْبٍ غداةَ الحرب إذ خِيفَ البَوارُ[٤]

وأصلُه ـ كما قال الراغبُ ـ فرطُ الكساد، ولما كان فرط الكساد يؤدِّي إلى الفساد كما قيل: كَسَد حتى فَسَد، عبَّر به عن الهلاك[٥].

﴿جَهَنَّمَ﴾ عطفُ بيان للدار، وفي الإبهام ثم البيان ما لا يخفَى من التهويل، وأعربه الحوفيُّ وأبو البقاء بدلًا منها[٦].

وقوله تعالى: ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ أي: يُقاسون حرَّها، حالٌ من الدار، أو من «جهنم»، أو من «قومهم»، أو استئنافٌ لبيان كيفيَّةِ الحلولِ، وجوَّز أبو البقاء كون «جهنم» منصوبًا على الاشتغال، أي: يصلون جهنَّمَ يصلونها، وإليه ذهب ابنُ

---

(١) التاريخ الكبير ٣/ ٣٧٣بنحوه، وعزاه لابن المنذر السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٨٤، وأخرجه أيضًا الطبري ١٣/ ٦٦٩.

(٢) جامع الأصول ٢/ ٢٠٤، وهي رواية عن علي رضي الله عنه، وأخرجها عنه النسائي في الكبرى (١١٢٠٣)، والطبري ١٣/ ٦٧١، والبيهقي في الدلائل ٣/ ٩٥.

(٣) عزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٨٥.

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٣٦ ـ ١٣٧.

(٥) مفردات ألفاظ القرآن (بور).

(٦) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٤٠٥.

عطية[١]، فالمرادُ بالإحلال حينئذ تعريضُهم للهلاك بالقتل والأَسْر، وأُيِّد بما روَى عطاء أنَّ الآية نزلَت في قتلَى بدر[٢]، وبقراءة ابن أبي عبلة: «جهنمُ» بالرفع على الابتداء، ويحتملُ أن يكونَ «جهنم» على هذه القراءة خبرَ مبتدأ محذوفٍ، واختاره أبو حيان[٣] معلِّلاً بأنَّ النصب على الاشتغال مرجوحٌ من حيث إنَّه لم يتقدَّم ما يُرجِّحه ولا ما يجعله مساويًا، وجمهورُ القراء على النصب، ولم يكونوا ليقرؤوا بغير الراجح أو المساوي، إذ: زيدٌ ضربتُه، بالرفع أرجحُ من: زيدًا ضربتُه، فلذلك كان ارتفاعُه على أنَّه خبرُ مبتدأ محذوفٍ في تلك القراءة راجحًا. وأنت تعلم أنَّ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ يرجح التفسير السابق.

﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ۝٢٩﴾ على حذف المخصوصِ بالذمِّ، أي: بئس القرار هي، أي: جهنمُ، أو بئس القرارُ قرارُهم فيها، وفيه بيانُ أنَّ حلولَهم وَصَلْيهم على وجه الدوام والاستمرار.

﴿وَجَعَلُوا۟﴾ عطفٌ على «أَحلُّوا» أو ما عطف عليه داخلٌ معه في حيِّز الصلة وحكم التعجيب، أي: جعلوا في اعتقادهم وحكمهم ﴿لِلَّهِ﴾ الفردِ الصمد الذي ليس كمثله شيءٌ وهو الواحدُ القهار ﴿أَندَادًا﴾ أمثالًا في التسمية، أو في العبادة، وقال الراغب: نِدُّ الشيءِ: مشاركُه في جوهره، وذلك ضربٌ من المماثلة، فإنَّ المِثْلَ يقال في أيِّ مشاركةٍ كانت، فكلُّ نِدٍّ مِثلٌ، وليس كلُّ مِثلٍ ندًّا[٤]. ولعلَّ المعوَّل عليه هنا ما أشرنا إليه.

﴿لِّيُضِلُّوا۟﴾ قومَهم الذين يُشايعونهم حسبما ضلُّوا ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ القويم الذي هو التوحيدُ، وقيل: مقتضَى ظاهر النظم الكريم أن يذكر كفرانَهم نعمةَ الله تعالى، ثم كفرانَهم بذاته سبحانه باتِّخاذ الأنداد، ثم إضلالَهم لقومهم المؤدِّي إلى إحلالهم دار البوار، ولعلَّ تغييرَ الترتيب لتثنية التعجيب وتكريره والإيذانِ بأنَّ كلَّ واحدٍ من هذه

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٨.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٧٦.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٢٤، وفيه قراءة ابن أبي عبلة.

(٤) مفردات ألفاظ القرآن (ندَّ).

الهَنَات يقضي منه العجب، ولو سيقَ النظمُ على نَسَقِ الوجود لَربَّما فُهِم التعجيبُ من المجموع، وله نظائر في الكتاب الجليل.

وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو ورُويس عن يعقوب: «لِيَضِلُّوا» بفتح الياء(١)، والظاهرُ أنَّ اللام في القراءتَين مثلها في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨]، وذلك أنَّه لمَّا كان الإضلال أو الضلال نتيجةً للجعل المذكور شُبِّه بالغرض والعلَّة الباعثة، فاستُعمل له حرفُه على سبيل الاستعارة التبعية، قاله غيرُ واحد. وقيل عليه: إنَّ كونَ الضلال نتيجةً للجعل لله سبحانه أندادًا غير ظاهر، إذ هو متَّحدٌ معه أو لازمٌ لا ينفكُّ عنه، إلا أنْ يُراد الحكم به أو دوامُه.

وردَّ بأنَّهم مشركون لا يعتقدون أنَّه ضلالٌ، بل يزعُمون أنَّه اهتداءٌ، فقد ترتَّب على اعتقادهم ضدُّه، على أنَّ المراد بالنتيجة ما يترتَّب على الشيء أعمُّ من أنْ يكون من لوازمه أولًا، وفيه تأمُّل.

﴿قُلْ﴾ لأولئك الضالين(٢) المتعجَّب منهم: ﴿تَمَتَّعُوا۟﴾ بما أنتم عليه من الشهوات التي من جملتها تبديلُ نعمة الله تعالى كفرًا، واستتباع الناس في الضلال، وجعل ذلك متمتَّعًا به تشبيهًا له بالمُشتَهيات المعروفة لتلذُّذهم به كتلذُّذهم بها، وفي التعبير بالأمر ـ كما قال الزمخشري(٣) ـ إيذانٌ بأنَّهم لانغماسهم بالتمتُّع بما هم عليه، وأنَّهم لا يعرفون غيرَه ولا يُريدونه، مأمورونَ به، قد أَمرَهم آمرٌ مطاعٌ لا يَسَعُهم أن يخالفوه ولا يملكون لأنفسهم أمرًا دونَه، وهو آمر الشهوة؛ وعلى هذا يكونُ قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٣٠﴾ جوابَ شرطٍ ينسحب عليه الكلام على ما أشار إليه بقوله، والمعنى: إنْ دُمتُم على ما أنتم عليه من الامتثال لآمر الشهوة، فإنَّ مصيرَكم إلى النار، ويجوز أنْ يكون الأمرُ مجازًا عن التخلية والخذلان، وأنَّ ذلك الآمر مُتَسخِّطٌ إلى غاية، ومثالُه أنْ ترى الرجل قد عزم على أمرٍ، وعندك أنَّ ذلك الأمرَ خطأٌ، وأنَّه يؤدِّي إلى ضرر عظيم، فتبالغُ في نصحه واستنزاله عن رأيه، فإذا لم تَرَ منه إلا الإباء والتصميم، حردتَ عليه وقلتَ: أنت

---

(١) التيسير ص١٣٤، والنشر ٢/ ٢٩٩.

(٢) في (م): الضلال.

(٣) الكشاف ٢/ ٣٧٨.

وشأنك، فافعل ما شئتَ، فلا تريدُ بهذا حقيقةَ الأمر، ولكنَّك كأنك تقول: فإذ قد أبيتَ قبولَ النصيحة فأنت أهلٌ ليقالَ لك: افعل ما شئتَ وتُبعث عليه، ليتبيَّنَ لك إذا فعلتَ صحةَ رأي الناصح وفسادَ رأيك. انتهى.

قال صاحب «الكشف»: إنَّ الوجهَين مشتركان في إفادة التهديد، لكنَّ الأداء إليه مختلفٌ، والأوَّل نظيرُ ما إذا أطاعَ أحد عبيدِك بعضَ من تنقم طريقتَه، فتقول: أَطِعْ فلانًا، وهذا صحيحٌ، صَدَرَ من المنقوم أمرٌ ومن العبد طاعةٌ، أو كان منه موافقةٌ لبعض ما يهواه، والقسم الأخير هو ما نحنُ فيه، والثاني ظاهر. انتهى.

وظاهر هذا أن التهديدَ على الوجهَين مفهومٌ من صيغة الأمر، ويُفهم من كلام بعضِ الأجلَّة أنَّ ذلك على الوجه الأول من الشرطية، وعلى الثاني من الأمر، وما في حيِّز الفاء تعليلٌ له، ولعلَّ النظر الدقيق قاضٍ بما أفتَى به ظاهرُ ما في «الكشف».

وذكر غيرُ واحدٍ أنَّ هذا كقول الطبيب لمريضٍ يأمرُه بالاحتماء فلا يحتمي: كُلْ ما تريد، فإنَّ مصيرَك إلى الموت. فإنَّ المقصودَ ـ كما قال صاحبُ «الفرائد» ـ التهديدُ ليرتدعَ ويقبلَ ما يقول.

وجعل الطيبي ما قُرِّر في المثال هو المراد من قول الزمخشري: إنَّ في «تمتَّعوا» إيذانًا بأنَّهم لانغماسهم إلخ. وأنت تعلم أنَّه ظاهرٌ في الوجه الثاني، فافهم.

والمصيرُ مصدر «صار» التامَّة بمعنى «رَجَع»، وهو اسمُ «إنَّ»، و«إلى النار» في موضع الخبر، ولا ينبغي أنْ يقال: إنَّه متعلِّقٌ بـ «مصير» وهو من «صار» بمعنى انتقل، ولذا عُدِّي بـ «إلى»؛ لأنَّه يدعو إلى القول بحذف خبر «إنَّ»، وحذفُه في مثل هذا التركيب قليلٌ، والكثيرُ فيما إذا كان الاسمُ نكرةً والخبرُ جارًّا ومجرورًا. والحوفي جوَّز هذا التعلُّق، فالخبرُ عنده محذوف، أي: فإنَّ مصيركم إلى النار واقعٌ أو كائنٌ لا محالة.

ثم إنَّه تعالى لمَّا هدَّد الكفار وأشارَ إلى انهماكهم في اللَّذة الفانيةِ أمر نبيَّه ﷺ أنْ يأمرَ خُلَّص عباده بالعبادة البدنية والمالية، فقال سبحانه:

﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وخصَّهم بالإضافة إليه تعالى؛ رَفْعًا لهم وتشريفًا

وتنبيهًا على أنَّهم المقيمون لوظائف العبودية المُوفون بحقوقها، وتَرْك العطفَ بين الأمرَين؛ للإيذان بتبايُنِ حالهما تهديدًا وغيرَه.

ومقولُ القول على ما ذهب إليه المبرّد والأخفش والمازني محذوف دلَّ عليه «يقيموا»[1] أي: قل لهم: أقيموا الصلاة وأنفقوا.

﴿يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ﴾ والفعل المذكور مجزومٌ على أنَّه جوابُ «قل» عندهم. وأُوردَ أنَّه لا يلزم من قوله عليه الصلاة والسلام: أقيموا وأنفقوا، أنْ يفعلوا.

وردَّ بأنَّ المقولَ لهم الخُلَّصُ، وهم متى أُمِرُوا امتثلوا، ومن هنا قالوا: إنَّ في ذلك إيذانًا بكمال مطاوعتهم وغايةِ مسارعتهم إلى الامتثال، ويشدُّ عَضُدَ ذلك حذفُ المقول؛ لما فيه من إيهام أنَّهم يفعلون من غير أمر، على أنَّ مبنى الإيراد على أنَّه يشترط في السببية التامَّة، وقد منع.

وجعل ابنُ عطية «قل» بمعنى: بلِّغ وأدِّ الشريعة، والجزم في جواب ذلك[2]. وهو قريبٌ مما تقدَّم.

وحُكي عن أبي عليٍّ وعُزيَ للمبرِّد[3] أنَّ الجزم في جواب الأمر المقول المحذوف.

وتعقَّبه أبو البقاء بأنَّه فاسدٌ لوجهَين: الأوَّل: أنَّ جواب الشرط لابدَّ أنْ يُخالف فعلَ الشرط إمَّا في الفعل، أو في الفاعل، أو فيهما، فإذا اتَّحدا لا يصحُّ، كقولك: قم تقم، إذ التقدير هنا: إن يقيموا يقيموا. والثاني: أنَّ الأمر المقدَّر للمواجهة، والفعل المذكور على لفظ الغيبة، وهو خطأ إذا كان الفاعل واحدًا[4]، وقيل عليه: إنَّ الوجه الأوَّل قريب، وأمَّا الثاني فليس بشيء؛ لأنَّه يجوز أنْ تقول: قل لعبدك أطعني يُطعْك، وإنْ كان للغيبة بعد المواجهة باعتبار حكاية الحال.

---

(١) الدر المصون ٧/ ١٠٥، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٦٧.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٩، والبحر المحيط ٥/ ٤٢٦.

(٣) المقتضب ٢/ ٨٤.

(٤) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٤٠٦ ـ ٤٠٧.

وعن أبي عليٍّ وجماعة أنَّ «يقيموا» خبرٌ في معنى الأمر، وهو مقولُ القول[١].

ورُدَّ بحذف النون، وهي في مثل ذلك لا تحذف، ومنه قوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ [الصف: ١٠-١١] إذ المرادُ منه: آمنوا، والقولُ بأنَّه لمَّا كان بمعنى الأمر بُني على حذف النون كما بُني الاسمُ المتمكّن في النداء على الضَّمِّ في نحو: يا زيدُ، لمَّا شُبِّه بـ: قَبْلُ وبَعْدُ، وما لم يُبْنَ إنما لُوحِظَ فيه لفظُه = مما لا يكاد يُلتفَتُ إليه.

وذهب الكسائي والزجاج[٢] وجماعةٌ إلى أنَّه مقولُ القول، وهو مجزومٌ بلام أمرٍ مقدَّرة، أي: لِيُقيموا ويُنفقوا، على حدِّ قول الأعشى:

محمدُ تَفْدِ نفسَك كلُّ نفسٍ ... إذا ما خِفْتَ مِن أمرٍ تَبالا[٣]

وأنت تعلم أنَّ إضمار الجازم أضعفُ من إضمار الجارِّ إلا أنَّ تقدُّم «قل» نائبٌ منابه، كما أنَّ كثرةَ الاستعمال في أمر المخاطَب ينوبُ منابَ ذلك، والشيء إذا كثر في موضعٍ أو تأكدت الدلالة عليه جاز حذفُه، منه حذفُ الجارِّ من «أنَّى» إذا كانت بمعنى: مِن أين، وبما ذكرنا من النيابة فارَقَ ما هنا ما في البيت، فلا يضرُّنا تصريحُهم فيه بكون الحذف ضرورة.

وعن ابن مالك أنَّه جعل حذفَ هذه اللام على أضرب: قليل وكثير ومتوسِّط، فالكثيرُ أنْ يكون قبله قولٌ بصيغة الأمر كما في الآية، والمتوسِّط ما تقدَّمه قولٌ غير أمرٍ كقوله:

قلتُ لبوَّابٍ لديه دارُها ... تِيذَنْ فإنِّي حَمْؤُها وجارُها[٤]

---

(١) العسكريات ص٤٩ - ٥٠.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ١٦٢ - ١٦٣، والبحر المحيط ٥/ ٤٢٦.

(٣) قال البغدادي في الخزانة ٩/ ١٤: البيت لا يعرف قائله، وقال بعض فضلاء العجم: هو للأعشى، ونسبه ابن هشام في شرح شذور الذهب ص٢٧٥ لأبي طالب عمِّ النبيِّ ﷺ. قال الشهاب في حاشيته ٥/ ٢٦٨: أراد: لتفدِ، فحذف لام الأمر، والتَّبَال هو: سوء العاقبة، وأصله وَبَال، فتاؤه مبدلة عن واو.

(٤) الرجز في المغني ص٢٩٨، وخزانة الأدب ٩/ ١٣ دون نسبة، ونسبه العيني في هامش الخزانة ٤/ ٤٤٤ لمنصور بن مرثد. قال ابن هشام: تِيذَنْ: أي: لتأذَنْ، فحذف اللام وكسر حرف المضارعة.

والقليلُ ما سوى ذلك. وظاهرُ كلام «الكشف» اختيارُ هذا الوجه، حيث قال المدقق فيه: والمعنَى على هذا أظهرُ، لكثرة ما يلزم من الإضمار، وأنَّ تقييد الجواب بقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ﴾ إلى ﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾ ليس فيه كثيرُ طائلٍ، إنما المناسب تقييدُ الأمر به.

وقال ابنُ عطية: ويظهر أنَّ مقولَ القول ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى﴾ إلخ[1]، ولا يخفَى ما في ذلك من التفكيك، على أنَّه لا يصحُّ حينئذٍ أنْ يكون «يقيموا» مجزومًا في جواب الأمر؛ لأنَّ قول: «الله الذي» إلخ لا يستدعي إقامةَ الصلاةِ والإنفاقَ إلا بتقديرٍ بعيدٍ جدًّا.

هذا، والمرادُ بالصلاة قيل: ما يعمُّ كلَّ صلاةٍ فرضًا كانت أو تطوُّعًا، وعن ابن عباس تفسيرها بالصلاة المفروضة، وفسَّر الإنفاقَ بزكاة الأموال. ولا يخفَى عليك أنَّ زكاة المال إنَّما فُرضت في السنة الثانية من الهجرة بعد صدقةِ الفطر، وأنَّ هذه السورةَ كلَّها مكيةٌ عند الجمهور، إلا آيتين[2] ليست هذه الآيةُ إحداهما عند بعضٍ، ثمَّ إن لم يكن هذا المأمور به في الآية مأمورًا به من قبلُ فالأمر ظاهرٌ، وإن كان مأمورًا به فالأمرُ للدوام، فتحقَّق ذلك ولا تَغْفُل.

﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ منتصبان على المصدرية لكن من الأمر المقدَّر، أو من الفعل المذكور على ما ذهب إليه الكسائي ومَن معه على ما قيل، والأصلُ: إنفاقَ سرٍّ وإنفاقَ علانيةٍ، فحذف المضاف وأُقيمَ المضافُ إليه مقامَه فانتصب انتصابَه.

ويجوز أنْ يكون الأصلُ: إنفاقًا سرًّا وإنفاقًا علانيةً، فحذف الموصوفَ وأُقيمَت صفتُه مقامه.

وجوَّز أنْ يكونا منتصبين على الحالية إما على التأويل بالمشتق، أو على تقدير مضافٍ، أي: مُسرِّين ومُعلنين، أو ذوي سرٍّ وعلانيةٍ، أو على الظرفية، أي: في سرٍّ وعلانية.

وقد تقدَّم الكلامُ في حكم نفقة السرِّ ونفقة العلانية[3].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٩.

(٢) في (م): والآيتين.

(٣) ص١٢٥ من هذا الجزء.

﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ فيبتاعُ المقصِّرُ ما يتلافى به تقصيرَه، أو يفتدي به نفسَه، والمقصودُ ـ كما قال بعض المحقِّقين ـ نَفْيُ عقد المعاوضة بالمرَّة، وتخصيصُ البيع بالذكر للإيجاز مع المبالغة في نَفْي العقدِ، إذ انتفاءُ البيع يستلزمُ انتفاءَ الشراء على أبلغِ وجه، وانتفاؤه ربما يُتصوَّر مع تحقُّق الإيجاب من البائع. انتهى.

وقيل: إنَّ البيع كما يُستعمَل في إعطاء المثمَن وأخذِ الثمن، وهو المعنى الشائع، يُستعمَل في إعطاء الثمن وأخذ المثمَن، وهو معنى الشراء؛ وعلى هذا جاء قوله ﷺ: «لا يبيعنَّ أحدُكم على بَيْعِ أخيه»[1]، ولا مانعَ من إرادة المعنَيَيْن هنا، فإنْ قلنا بجواز استعمال المشتَرَك في معنَيَيه مطلقًا كما قال به الشافعية، أو في النفي كما قال به ابنُ الهمام فذاك، وإلا احتجنا إلى ارتكاب عمومِ المجاز، فكأنَّه قيل: لا معاوضةَ فيه.

﴿وَلَا خِلَٰلٌ ۝٣١﴾ أي: مخالَّة، فهو كما قال أبو عبيدة[2] وغيرُه: مصدرُ خالَلْتُه كالخِلال، وقال الأخفش: هو جمعُ: خليل[3] كأخِلَّاء وأَخِلَّة، والمراد واحدٌ، وهو نَفْيُ أنْ يكون هناك خليلٌ يُنتَفع به، بأنْ يشفعَ له أو يُسامحه بما يفتدي به.

ويحتمل أنْ يكون المعنى: مِن قبل أنْ يأتيَ يومٌ لا انتفاعَ فيه لما لهجوا بتعاطيه من البيع والمخالَّة، ولا انتفاعَ بذلك، وإنَّما الانتفاعُ والارتفاقُ فيه بالإنفاق لوجه الله تعالى.

فعلى الأوَّل المنفيُّ البيعُ والخلالُ في الآخرة، وعلى هذا المراد نَفْيُ البيع والخلال اللذَيْن كانا في الدنيا، بمعنى نَفْي الانتفاع بهما، و«فيه» ظرفٌ للانتفاع المقدَّرِ حسبما أشرنا إليه، ولا يُشكل ما هنا مع قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: ٦٧] حيث أَثْبَتَ فيه المخالَّة وعدمَ العداوةِ

---

(١) أخرجه أحمد (٤٧٢٢)، والبخاري (٢١٣٩)، ومسلم (١٤١٢) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) مجاز القرآن ١/ ٣٤١.

(٣) الذي في معاني القرآن ٢/ ٥٩٩، ومجمع البيان ١٣/ ٢٢١، والبحر المحيط ٥/ ٤٢٧، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٦٨: الخلال جمع خُلَّة.

بين المتَّقين؛ لأنَّ المراد هنا على ما قيل نَفْيُ المخالَّة النافعة بذاتها في تدارك ما فات، ولم يذكر في تلك الآية أنَّ المتقين يَتَدارك بعضُهم لبعض ما فات.

وقيل في التوفيق بين الآيتين: إنَّ المراد: لا مخالَّة بسبب مَيل الطبع ورغبةِ النفس، وتلك المخالَّة الواقعةُ بين المتقين في الله تعالى، مع أنَّ الاستثناء من الإثبات لا يلزمُه النفي، وإنْ سلمَ لزومه فنَفْيُ العداوة لا يلزمُ منه المخالَّة، وهو كما ترى. ومثلُه ما قيل: إنَّ الإثباتَ والنفيَ بحسَب المواطن.

والظرفُ على ما استظهره غيرُ واحدٍ متعلِّقٌ بالأمر المقدَّر، وعلَّقه بالفعل المذكور مَن رأى رَأْيَ الكِسائي ومَن معه، بل وبعضُ مَن رأى غيرَ ذلك إلا أنَّه لا يخلُو عن شيء.

وتذكيرُ إتيان ذلك اليوم على ما في «إرشاد العقل السليم» لتأكيد مضمونِ الأمر من حيث إنَّ كلًّا مِن فقدان الشفاعة وما يُتدارك به التقصير معاوضةً وتبرُّعًا، وانقطاع آثار البيع والخلالِ الواقعَين في الدنيا، وعدم الانتفاع بهما = مِن أقوى الدواعي إلى الإتيان بما تَبقَى عوائدُه وتدومُ فوائدُه من الإنفاق في سبيل الله تعالى، أو من حيث إنَّ ادِّخار المال وترك إنفاقه إنَّما يقعُ غالبًا للتجارات والمُهاداة، فحيث لا يمكن ذلك في الآخرة، فلا وجْهَ لادِّخاره إلى وقت الموت. وتخصيصُ أمرِ الإنفاق بذلك التأكيدِ لميل النفوس إلى المال، وكونها مجبولةً على حُبِّه والضِّنَّةِ به. وفيه أنَّه لا يَبعدُ أنْ يكون تأكيدًا لمضمون الأمر بإقامة الصلاة أيضًا، من حيث إنَّ تركها كثيرًا ما يكون للاشتغال بالبياعات والمخاللات كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾[1] [الجمعة: ١١]. وأنت تعلمُ بُعدَه لفظًا بناءً على تعلُّق «سرًّا وعلانيةً» بالأمر بالإنفاق، ثم إنَّ ما ذكر من الوجهَين في الآية هو الذي ذكره بعض المحقِّقين.

واقتصر الزمخشريُّ[2] فيها على الوجه الثاني، وكلامه في تقريره ظاهرٌ في أنَّ فائدةَ التقييد الحثُّ على الإنفاق حسبما بيَّنه في «الكشف»، وفيه في تقرير الحاصل

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٤٧.

(٢) الكشاف ٢/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩.

أنَّ قولَه تعالى: (لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ) أي: لا انتفاعَ بهما، كنايةٌ عن الانتفاع بما يُقابلهما، وهو ما أُنفِقَ لوجه الله تعالى، فهو حثٌّ على الإنفاق لوجهه سبحانه، كأنَّه قيل: لينفقوا له من قَبل أنْ يأتيَ يومٌ ينتفعُ فيه بإنفاقهم المنفقون له، ولا ينفعُ الندمُ لمن أَمسكَ. والعدول إلى ما في النَّظم الجليل ليفيدَ الحصر، وأنَّ ذلك وحدَه هو المنتَفَعُ به، وليفيدَ المضادَّةَ بين ما ينفعُ عاجليًّا وما ينفعُ آجليًّا، وذَكَرَ في آية البقرة ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤] أنَّ المعنَى: من قبل أنْ يأتيَ يومٌ لا تقدرون فيه على تدارُك ما فاتكم من الإنفاق؛ لأنَّه لا بيعَ حتى تبتاعوا ما تُنفقونه، ولا خُلَّة حتى يُسامحَكم أَخِلَّاؤكم به(١).

وبيَّن المدقِّقُ وجْهَ اختصاص كلٍّ من المعنَيين بموضعه مع صحَّة جَرَيانهما جميعًا في كلٍّ من الموضعَين، بأنَّ الأوَّل خطابٌ عامٌّ، فكان الحثُّ فيه على الإنفاق مطلقًا وتصوير أنَّ الإنفاق نفسَه هو المطلوب، فليُغْتَنم قبل أنْ يأتيَ يومٌ يفوتُ فيه ولا يُدركه الطالبُ، هو الموافقَ لمقتضَى المقام، وأنَّ الثاني لمَّا اختصَّ بالخُلَّص كان الموافقُ للمقام تحريضَهم على ما هم عليه من الإنفاق ليدوموا عليه، فقيل: دوموا عليه وتمسَّكوا به تَغْتَبطوا يوم لا ينفعُ إلا مَن دام عليه، ولو قيل: دوموا عليه قبل أنْ يفوتكم ولا تدركوه، لم يكن بتلك الوكادةِ؛ لأنَّ الأول بالحثِّ على طلب أصلِ الفعل أشبه، والثاني بطلب الدوام، فتفطَّن له. اهـ. ولا يخلو عن دغدغة.

وقرأ أبو عمرو وابن كثير ويعقوب: «لا بيعَ فيه ولا خلالَ» بفتح الاسمَين(٢) تنصيصًا على استغراق النفي، ودلالةُ الرفع على ذلك باعتبار خطابي هو على ما قيل وقوعُه في جواب: هل فيه بيعٌ أو خلالٌ؟

ثم إنَّه لمَّا ذكر سبحانه أحوالَ الكافرين لنعمه، وأمرَ المؤمنين بإقامة مراسم الطاعة شكرًا لها، شرعَ جلَّ وعلا في تفصيل ما يستوجب على كافَّة الأنام المثابرة على الشكر والطاعة من النِّعم العظام والمِنَن الجسام، حثًّا للمؤمنين عليها، وتقريعًا

---

(١) الكشاف ١/ ٣٨٤.

(٢) التيسير ص٨٢، والنشر ٢/ ٢١١.

للكفرة المخلِّين أتمَّ إخلال بها، فقال عزَّ مِن قائل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ إلخ، وهذا أَولَى مما قيل: إنَّه تعالى لمَّا أطال الكلام في وصف أحوال السعداء والأشقياء، وكان حصولُ السعادة بمعرفة الله تعالى وصفاته، والشقاوةِ بالجهل بذلك، خَتَم الوصف بالدلائل الدالَّة على وجوده ـ جلَّ شأنه ـ وكمال علمه وقدرتِه فقال سبحانه ما قال، لظهور اعتبارِ المذكورات في حيِّز الصلة نِعَمًا لا دلائل.

والاسمُ الجليل مبتدأٌ والموصول خبره، ولا يخفَى ما في الكلام من تربيةِ المهابة والدلالة على قوَّة السلطان، والمرادُ: خلْقَ السماوات وما فيها من الأجرام العلويَّة، والأرضَ وما فيها من أنواع المخلوقات.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: السحاب ﴿مَآءً﴾ أي: نوعًا منه، وهو المطر، وسُمِّي السحابُ سماءً لعلوِّه، وكلُّ ما علاك سماءٌ، وقيل: المرادُ بالسماء الفلك المعلوم، فإنَّ المطر منه يتبدَّى إلى السحاب ومِن السحاب إلى الأرض، وعليه الكثير من المحدِّثين لظواهر الأخبار.

واستبعدَ ذلك الإمامُ لأنَّ الإنسان ربَّما كان واقفًا على قُلَّة جبلٍ عالٍ ويَرَى السحاب أسفلَ منه، فإذا نَزَل رآه ماطرًا. ثمَّ قال: وإذا كان هذا أمرًا مشاهداً بالبصر كان النزاعُ فيه باطلًا[1]. وأوَّلَ بعضُهم الظواهر لذلك بأنَّ معنى نزول المطر من السماء نزولُه بأسبابٍ ناشئةٍ منها.

وأيًّا ما كان فـ «مِن» ابتدائيةٌ وهي متعلِّقةٌ بـ «أنزل» وتقديم المجرور على المنصوب إما باعتبار كونه مبتدأً لنزوله، أو لتشريفه كما في قولك: أعطاه السلطان مِن خزائنه مالًا، أو لما مرَّ غيرَ مرَّة مِن التشويق إلى المؤخَّر.

﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾ أي: بذلك الماء ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ تعيشون به، وهو بمعنى المرزوق مرادًا به المعنى اللغوي، وهو كلُّ ما ينتفع به، فيشمل المطعومَ والملبوس، ونصبُه على أنَّه مفعول «أخرج»، و«مِن الثمرات» بيانٌ له فهو في موضع الحال منه، وتقدُّم «مِن» البيانية على ما تُبيِّنُه قد أجازه الكثيرُ من النحاة، وقد مرَّ

---

(١) تفسير الرازي ١٩/ ١٢٦.

الكلام في ذلك[١]. واستظهر أبو حيان المانع لذلك كون «مِن» للتبعيض، والجارُّ والمجرور في موضع الحال، و«رزقًا» مفعول «أخرج» أيضًا[٢].

وجوّز أنْ تكون «من» بمعنى بعض، مفعول «أخرج»، و«رزقًا» بمعنى مرزوقًا حالًا منه، فهو بيانٌ للمراد من بعض الثمرات؛ لأنَّ منها ما يُنتفَع به فهو رزقٌ، ومنها ما ليس كذلك. ويجوز أنْ يكون «رزقًا» باقيًا على مصدريته، ونصبُه على أنَّه مفعول له، أي: أخرج به ذلك لأجل الرزقِ والانتفاع به، أو مفعول مطلق لـ «أخرج» لأنَّ: أخرج بعض الثمرات، في معنى: رَزَق، فيكون في معنى: قعدتُ جلوسًا، على المشهور، وقيل: «من» زائدة، ولا يَرَى جوازَ ذلك هنا إلا الأخفش[٣]، و«لكم» صفة لـ «رزقًا» إنْ أُريد به المرزوق، ومفعول به إنْ أُريد به المصدر، كأنَّه قيل: رزقًا إياكم، والباء للسببية.

ومعنى كون الإخراج بسببه أنَّ الله تعالى أَودَع فيه قوَّةً مؤثِّرةً بإذنه في ذلك، حسبما جرَت به حكمتُه الباهرة، مع غناه الذاتي سبحانه عن الاحتياج إليه في الإخراج، وهذا هو رأيُ السلف الذي رَجَع إليه الأشعريُّ كما حُقِّق في موضعه[٤]، وزَعَم مَن زعم أنَّ المراد: أخرجَ عنده، والتزموا هذا التأويل في ألوفٍ من المواضع، وضلَّلوا القائلين بأنَّ الله تعالى أودَعَ في بعض الأشياء قوَّةً مؤثِّرة في شيءٍ ما، حتى قالوا: إنَّهم إلى الكفر أقربُ منهم إلى الإيمان. وأولئكَ عندي أقربُ إلى الجنون وسفاهة الرأي.

و«الثمرات» يُراد بها ما يُراد من جمع الكثرة؛ لأنَّ صِيَغَ الجموع يتعاوَرُ بعضُها موضعَ بعض، أو لأنَّه أُريدَ بالمفرد جماعةُ الثمرة التي في قولك: أكلتُ ثمرةَ بستان فلان. وقد تقدَّم[٥] لك ما ينفعُك تذكُّره في هذا المقام، فتذكَّر.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ السفن، بأنْ أَقدرَكم على صنعتها واستعمالها بما أَلْهمَكم كيفيَّةَ ذلك، وقيل: بأنْ جعلَها لا ترسُب في الماء. ﴿لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾

---

(١) ص٢٥٨ من هذا الجزء.

(٢) ينظر البحر المحيط ٥/ ٤٢٧.

(٣) معاني القرآن ١/ ٢٧٢، والبحر المحيط ٥/ ٤٢٧.

(٤) ينظر ٤/ ٣٤٦.

(٥) ٢/ ٢٢.

حيث توجَّهتُم ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ بمشيئته التي نِيْطَ بها[(١)] كلُّ شيءٍ، وتخصيصُه بالذكر ـ على ما ذكره بعضُ المحقِّقين ـ للتنصيص على أنَّ ذلك ليس بمزاولة الأعمال واستعمال الآلات كما يَتراءَى من ظاهر الحال، ويندرج في تسخير الفلك ـ كما في «البحر» ـ تسخيره[(٢)]، وكذا تسخيرُ الرياح.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾ جعلها معدَّةً لانتفاعكم حيث تشربون منها، وتتَّخذون جداولَ تسقون بها زروعَكم وجنَّاتِكم وما أشبه ذلك، هذا إذا أُريد بـ «الأنهار» المياه العظيمة الجارية في المجاري المخصوصة، وأما إذا أُريد بها نفسُ المجاري فتسخيرُها تيسيرُها لهم لتجريَ فيها المياه.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ أي: دائمَين في الحركة لا يفتران إلى انقضاء عُمُر الدنيا.

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في «العظمة» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الشمسُ بمنزلة الساقية، تجري بالنهار في السماء في فلكها، فإذا غربَت جرَت بالليل في فلكها تحت الأرض حتى تطلعَ من مشرقها، وكذلك القمر[(٣)]. والقولُ بجريانهما إذا غربا تحت الأرض مرويٌّ أيضًا عن الحسن البصري، وهو الذي يشهد له العقل السليم، وللأخباريِّين غير ذلك، وظاهر الآية إثباتُ الحركة لهما أنفسِهما.

---

(١) في (م): بها نيط.

(٢) في هامش (م): فيه استخدام، فلا تغفل. اهـ منه. والاستخدام: هو أن يُذكر لفظٌ له معنيان، فيراد أحدهما ثم يراد بالضمير الراجع إلى ذلك اللفظ معناه الآخر، أو يراد بأحد ضميريه أحدُ معنييه، ثم بالآخر معناه الآخر، فالأول كقوله:

إذا نزل السماءُ بأرض قومٍ ... رَعيناه وإن كانوا غِضابا

أراد بالسماء: الغيث، وبالضمير الراجع إليه من: رعيناه: النبت، والسماء يطلق عليهما. والثاني كقوله:

فَسَقَى الغَضَى والساكنيه وإنْ هُمُ ... شَبُّوهُ بَيْنَ جوانحي وضلوعي

أراد بأحد الضميرين الراجعَين إلى (الغضى) وهو المجرور في (الساكنيه): المكانَ، وبالآخر، وهو منصوب في (شبُّوه): النار، أي: أوقدوا بين جوانحي نار الغضى، يعني نار الهوى التي تشبه نار الغضى. التعريفات للجرجاني ص٣٣.

(٣) العظمة (٦٣٤)، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٨٥.

والفلاسفةُ يثبتون لهما حركتَين يسمُّون إحداهما الحركة الأُولَى، وهي الحركة اليومية من المشرق إلى المغرب الحاصلة لهما بقسر المحدَّد لِفلكَيهما، والأُخرَى الحركة الثانية، وهي الحركة على توالي البروج من المغرب إلى المشرق الحاصلة لهما بحركة فلكيهما حركةً ذاتيةً، ولا يُثبتون لهما حركةً في ثخن الفلك على نحو حركة السمكة في الماء، لصلابة الفلك وعدم قبوله الخرقَ أصلاً عندهم.

وأثبتَ الشيخُ الأكبر قدّسَ سرُّه في «فتوحاته»(١) حركتهما على ذلك النحو، والفلكُ عنده مثل الماء والهواء.

وذكر بعض الأخباريِّين أنَّهما وسائر الكواكب معلَّقة بسلاسلَ مِن نورٍ بأيدي ملائكة، يُسيِّرونَها كيف شاء اللهُ تعالى وحيث شاء سبحانه، والأفلاك ساكنةٌ عند هذا البعض، وكذا عند الشيخ قدِّس سرُّه على ما يقتضيه ظاهر كلامه، والأخبارُ في هذا الباب ليست بحيث تسدُّ ثغرَ الخصم، وذَكَر النسفيُّ أنَّه ليس فيها ما يعوَّل عليه.

وكلامُ الفلاسفة ما لم يكن فيه مصادمةٌ لما تحقَّق عن المُخبر الصادق ﷺ مما لا بأس به.

وفسَّر بعضُهم «دائبين» بمجدَّين تعبَيْن، وهو على التشبيه والاستعارة. وأصلُ الدأب: العادةُ المستمرَّة، ونصبُ الاسم على الحال، وتسخيرُ هذَين الكوكَبَين العظيمَين جعلُهما منيرَين مُصلحَين ما نِيطَ بهما صلاحُه من المكوَّنات، ولَعمري أنَّ الله سبحانه جعلَهما أجدَى مِن تفاريق العصا. وفي كتاب «المشارع والمطارحات»(٢) للشيخ شهاب الدين السهروردي قتيل حلب: أنَّ تأثيرَ الشمس والقمر أظهرُ الآثار السماوية، وتأثيرُ الشمس أظهرُ من تأثير القمرِ، وأظهرُ الآثار بعد الشعاع التسخينُ الحاصل منه، ولولا ذلك ما كان كونٌ ولا فساد ولا استحالة، ولا ليلٌ ولا نهارٌ، ولا فصول ولا مزاج ولا حيوانات ولا غيرُها. وأطال الكلامَ في بيان ذلك وما يتعلَّق به، ولا ضررَ عندي في اعتقاد أنَّهما مؤثِّران بإذن الله تعالى كسائر الأسباب عند السلف الصالح.

---

(١) الفتوحات المكية ٣/ ٥٤٨ وما بعدها.

(٢) المطارحات في المنطق والحكمة لابن أبي الفتوح شهاب الدين يحيى بن حبش السهروردي الحكيم المقتول سنة (٥٨٧هـ). كشف الظنون ٢/ ١٧١٣، وهدية العارفين ٢/ ٥٢١.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ٣٣﴾ يتعاقبان لسُباتكم ومعاشكم، وأَرجعَ بعضُ المحقِّقين التسخيرَ في المواضع الأربعة إلى معنى التصريف، وأصلُه سياقةُ الشيء إلى الغرض المختصِّ به قهرًا، وذكر أنَّ في التعبير عن ذلك به من الإشعار بما في ذلك من صعوبة المأخذ، وعِزَّة المنال، والدلالة على عِظَم السلطان وشدَّة المحال ما لا يخفى، والظاهرُ أنَّه في المعنى المراد به هنا مجازٌ في تلك المواضع جميعًا. ونقل أبو حيان[1] عن المتكلِّمين أنَّه مجازٌ في الأخير منها قال: لأنَّ الليل والنهار عَرَضان، والأعراضُ لا تسخَّر، وفيه قصور.

وفي إبراز كلٍّ من هذه النعم في جملة مستقلةٍ تنويهٌ لشأنها، وتنبيهٌ على رفعة مكانها، وتنصيصٌ على كون كُلٍّ نعمةً جليلة مستوجبةً للشكر.

وتأخيرُ تسخير الشمس والقمر عن تسخير ما تقدَّم من الأمور مع ما بينه وبَيْن خلق السماوات من المناسبة الظاهرة، قيل: لاستتباع ذكرِها لذكر الأرض، المستدعي لذكر إنزالِ الماء منها إليها، الموجبِ لذكر إخراجِ الرزق الذي من جملته ما يحصُلُ بواسطةِ الفُلكِ والأنهار، أو للتفادي عن توهُّم كونِ الكلِّ - أعني خَلْقَ السماوات والأرض وتسخيرَ الشمس والقمر - نعمةً واحدةً، وقد تقدَّم نظيرُه آنفًا.

وقد ذكر بعضُهم في وجه ذكر هذه المتعاطفات على هذا الأسلوب: أنَّه بدأ بخلق السماوات والأرض، لأنَّهما أصلان يتفرَّع عليهما سائرُ ما يُذكر بعدُ، وثنَّى بإنزال الماء من السماء وإخراج الثمرات به لشدَّةِ تعلُّق النفوس بالرزق، فيكونُ تقديمه من قَبيل تعجيل المسرَّةِ.

ولما كان الانتفاعُ بما ينبُتُ من الأرض إنما يكمُلُ بوجود الفُلْكِ الجواري في البحر، وذلك لأنَّه تعالى خصَّ كلَّ طَرَفٍ من أطراف الأرض بنوعٍ من ذلك، وبالنقل يكثُرُ الربحُ = ذَكَر سبحانه تسخيرَ الفلك التي يُنقَل عليها، واقتصر عليها اعتناءً بشأنها.

ولما ذكر أمْرَ الثمرات وما به يكمُلُ الانتفاع بها من حيث النقلُ ذَكَرَ تسخيرَ الأنهار العذبة التي يشربُ منها الناس في سائر الأحيان، إتمامًا لأمر الرزق، وذَكَرَ

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٢٨.

تسخيرَ الشمس والقمر بعدُ؛ لأنَّ الانتفاع بهما ليس بالمباشرة كالانتفاع بالفلك والانتفاع بالأنهار، وأخَّر تسخيرَ الليل والنهار؛ لأنهما عَرَضان وما تقدَّمهما جوهرٌ، والعَرَضُ من حيث هو بعدَ الجوهر. اهـ. وليس بشيءٍ يعوَّل عليه.

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي: أعطاكم بعضَ جميع ما سألتموه حسبما تقتضيه مشيئتُه التابعةُ للحكمة والمصلحة، فـ «مِن كلِّ» مفعولٌ ثانٍ لـ «آتى»، و«مِن» تبعيضيةٌ، وقال بعضُ الكاملين: إنَّ «كل» للتكثير والتفخيم لا للإحاطة والتعميم كما في قوله تعالى: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤].

واعترض على حمل «مِن» على التبعيض دون ابتداءِ الغاية بأنَّه يُفضي إلى إخلاء لفظ «كل» عن فائدةٍ زائدة، لأنَّ «ما» نصٌّ في العموم، بل يوهم إيتاء البعض من كلِّ فردٍ متعلِّق به السؤال، ولا وجْهَ له.

ودُفع بأنَّه بعد تسليم كون «ما» نصًّا في العموم، هنا عمومان، عمومُ الأفراد وعمومُ الأصناف بمعنى: كلّ صنفٍ صنف، وهما مقصودان هنا، فالمعنى: أعطاكم من جميع أفرادِ كلِّ صنفٍ سألتموه، فإنَّ الاحتياج بالذات إلى النوع والصنف لا لفردٍ بخصوصه، وفسّر «ما سألتموه» بما مِن شأنه أنْ يُسأل لاحتياج الناس إليه، سواء سئل بالفعل أم لم يُسأل، فلا ينفي إيتاء ما لا حاجة إليه مما لا يخطرُ بالبال، وجعلوا الاحتياجَ إلى الشيء سؤالًا له بلسان الحال، وهو من باب التمثيل، وسبيل هذا السؤال سبيلُ الجواب في رأي في قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وقيل: الأصل: وآتاكم من كلِّ ما سألتموه وما لم تسألوه، فحذف الثاني لدلالة ما أبقى على ما ألقى، و«ما» يحتمل أن تكون موصولة، والضمير المنصوب في «سألتموه» عائدٌ عليها، والتقديرُ: مِن كلِّ الذي سألتموه إياه، ومنع أبو حيان جواز أنْ يكون راجعًا إليه تعالى، ويكون العائدُ على الموصول محذوفًا مستندًا بأنَّه لو قدر متَّصلًا لزم اتِّصال ضميرَين متَّحدَي الرتبة من دون اختلاف، وهو لا يجوز ولو قدِّر منفصلًا حسبما تقتضيه القاعدةُ في مثل ذلك لزم حذفُ العائد المنفصل، وقد نصُّوا على عدم جوازه[1]. اهـ.

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٢٨.

وذهب بعضُهم إلى جواز كلا التقديرَين مدَّعيًا أنَّ مَنْع اتِّصال المتَّحدَين رتبةً خاصٌّ فيما إذا ذُكرا معًا، أما إذا ذُكر أحدُهما وحُذف الآخرُ فلا منع، إذ الاتصالُ حينئذ محضُ اعتبار، وعلَّةُ المنع لا تجري فيه، وأنَّ منع حذفِ المنفصل خاصٌّ أيضًا، فيما إذا كان الانفصال لغرضٍ معنويٍّ، كالحصر في قولك: جاء الذي إياه[1] ضربت، إذ بالحذف حينئذٍ يفوتُ ذلك الغرضُ، أما إذا كان لغرضٍ لفظيٍّ كدفع اجتماع المثلَين فلا منع، إذ ليس هناك غرضٌ يفوت.

ويحتمل أنْ تكون موصوفةً، والكلام في الضمير كما تقدَّم، وأنْ تكون مصدريةً والضمير لله تعالى، والمصدر بمعنى المفعول، أي: مسؤولكم.

وقرأ ابن عباس والضحاك والحسن ومحمد بن علي وجعفر بن محمد وعمرو بن فائد وقتادة وسلام ويعقوب ونافع في رواية: «مِن كلٍّ» بالتنوين[2]، أي: وآتاكم مِن كلٍّ شيءٍ ما احتجتُم إليه وسألتموه بلسان الحال، وجوِّز على هذه القراءة أنْ تكون «ما» نافية، والمفعول الثاني «مِن كل» كما في قوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] والجملةُ المنفية في موضع الحال، أي: آتاكم مِن كلٍّ غيرَ سائليه، وهو إخبارٌ منه تعالى بسُبُوغ نعمته سبحانه عليهم بما لم يسألوه من النعم؛ ورُوي هذا عن الضحاك، ولا يخفى أنَّ الوجه هو الأول لِمَا أنَّ القراءة على هذا الوجه تخالف القراءةَ الأُولى، والأصلُ توافقُ القراءتَين وإنْ فهم منها إيتاء ما سألوه بطريق الأولى.

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ أي: ما أنعم به عليكم كما هو الظاهر. وقال الواحدي: إنَّ «نعمة» هنا اسمٌ أُقيمَ مقام المصدر يقال: أنعمَ إنعامًا ونعمةً، كما يقال: أنفقتُ إنفاقًا ونفقةً، فالنعمةُ بمعنى الإنعام ولذا لم تُجمع[3]. والمعوَّل عليه ما أشرنا إليه من أنَّها اسمُ جنسٍ بمعنى المنعَم به، والمرادُ بها الجمعُ كأنه قيل: وإنْ تعدُّوا نعم الله ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾ وقد نصَّ بعضُهم على أنَّ المفرد يُفيد

(١) في (م): أباه.

(٢) القراءات الشاذة ص٦٨، والمحتسب ١/ ٣٦٣، والبحر المحيط ٥/ ٤٢٨، وقراءة يعقوب ونافع خلاف المشهور عنهما.

(٣) الوسيط ٣/ ٣٢ - ٣٣.

الاستغراق بالإضافة، وما قيل: إنَّ الاستغراق ليس مأخوذًا من الإضافة، بل من الشرط والجزاء المخصوصَين، فيه نظر؛ لأنَّ الحكم المذكور يقتضي صحةَ إرادته منه، ولولاه تنافيا. والمرادُ بـ «لا تحصوها» لا تطيقُوا حصرَها ولو إجمالًا، فإنَّها غيرُ متناهية، وأصلُ الإحصاء: العدُّ بالحصى، فإنَّ العرب كانوا يعتمدونه في العدِّ كاعتمادنا فيه على الأصابع، ولذا قال الأعشى:

ولَسْتَ بالأكثر منهم حَصًى وإنما العِزَّةُ للكاثرِ[1]

ثم استُعمل لمطلق العدِّ، وقال بعضُ الأفاضل: إنَّ أصلَه أنَّ الحاسب إذا بلغ عقدًا معيَّناً من عقود الأعداد وضع حصاةً ليحفظَه بها، ففيه إيذانٌ بعدم بلوغ مرتبةٍ معتدٍّ بها من مراتبها، فضلًا عن بلوغ غايتها، وهو من الحسن بمكان، إلا أنَّه ذهب إلى الأول الراغبُ[2] وغيرُه، وأوَّل الإحصاءُ بالحصر لئلا يتنافى الشرط والجزاء، إذ أثبتَ[3] في الأوَّل العدَّ ونَفَى في الثاني، ولو أُوِّل «إنْ تَعُدُّوا» بأنْ تُريدوا العدَّ، يندفعُ السؤال على ما قيل أيضًا، والأولُ أَولَى.

وقال بعض الفضلاء: إنَّ المعنى: إنْ تشرَعُوا في عدِّ أفراد نعمةٍ من نِعَمِهِ تعالى لا تطيقوا عدَّها. وإنما أتى بـ «إنْ» وعدمُ العدِّ مقطوعٌ به نظرًا إلى توهُّم أنه يُطاق، قيل: والكلام عليه أبلغُ منه على الأول، لِمَا فيه من الإشارة إلى أنَّ النعمةَ الواحدةَ لا يُمكن عدُّ تفاصيلها، وأنت[4] تعلم أنَّ الظاهر هو الأوَّلُ.

وقد ذكر الإمام[5] مثالَين يستوضح بهما الوقوف على أنَّ نعم الله تعالى لا تُحصَى ولا يُمكن أنْ تُستقصَى فقال:

الأول: أنَّ الأطباء ذكروا أنَّ الأعصاب قسمان دماغيةٌ ونخاعيةٌ، والدماغيةُ سبعةٌ، وقد أتعبوا أنفسَهم في معرفة الحِكَم الناشئةِ مِن كلِّ واحدةٍ منها، ولا شكَّ أنَّ كلَّ واحدة تنقسمُ إلى شُعبٍ كثيرة، وكلُّ واحدةٍ من تلك الشعب تنقسم أيضًا إلى

(١) ديوان الأعشى ص٩٤، والمغني ص٧٤٤، وخزانة الأدب ٨/ ٢٥٠.
(٢) مفردات ألفاظ القرآن (حصا).
(٣) في (م): إذا ثبت.
(٤) في (م): لكن أنت.
(٥) تفسير الرازي ١٩/ ١٢٩ ـ ١٣٠.

شعبٍ أدقَّ من الشعر، ولكلٍّ واحدٍ منها ممرٌّ إلى الأعضاء، ولو أنَّ واحدةً اختلَّت كيفًا أو وضعًا أو نحو ذلك، لاختلَّت مصالحُ البُنْية، ولكلٍّ منها على كثرتها حِكَم مخصوصةٌ، وكما اعتبرت هذا في الشظايا العصبية فاعتبر مثله في الشرايين والأوردة، وفي كلِّ واحدٍ من الأعضاء البسيطة والمركبة بحسب الكمية والوضع والفعل والانفعال، حتى تَرَى أقسامَ هذا الباب بحرًا لا ساحلَ له، وإذا اعتبرتَ هذا في بدن الإنسان فاعتبر في نفسه وروحه، فإنَّ عجائبَ عالم الأرواح أكثرُ من عجائب عالم الأجسام؛ وإذا اعتبرتَ أحوالَ عالم الأفلاك والكواكب، وطبقاتِ العناصر، وعجائبَ البرِّ والبحر والنبات والمعدن والحيوان، ظهَرَ لك أنَّ عقول جميع الخلائق لو رُكِّبت وجُعلَت عقلًا واحدًا وتأمَّل به الإنسانُ في حكمة الله تعالى في أقلِّ الأشياء لما أدرك منها إلا القليل.

والثاني: أنَّه إذا أخذت لقمةً من الخبز لتضعَها في فمك فانظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها، فأمَّا الأوَّلُ: فاعرف أنَّها لا تتمُّ إلا إذا كان هذا العالمُ بكليته قائمًا على الوجه الأصوب؛ لأنَّ الحنطةَ لابدَّ منها، ولا تنبتُ إلا بمعونة الفصول وتركُّبِ الطبائع وظهورِ الأمطار والرياح، ولا يحصُل شيءٌ من ذلك إلا بدوران الأفلاك واتِّصال بعض الكواكب ببعض على وجوه مخصوصة، ثم بعدَ أنْ تكون الحنطة، لابدَّ لها من آلات الطحن ونحوه، وهي لا تحصل إلا عند تولُّد الحديد في أرحام الجبال؛ ثم تأمَّل كيف تكوَّنت على الأشكال المخصوصة، ثم إذا حصلَت تلك الآلات، فانظر أنَّه لابدَّ من اجتماع العناصر حتى يُمكن الطبخ.

وأما الثاني: فتأمَّل في تركيب بدنِ الحيوان، وهو أنَّه تعالى كيف خلَقَ ذلك حتى يُمكنه الانتفاعَ بتلك اللقمة، وأنَّه كيف يتضرَّر الحيوان بالأكل؛ وفي أيِّ الأعضاء تحدُث تلك المضارُّ، فلا يمكنك أنْ تعرف القليلَ إلا بمعرفة علم التشريح وعلم الطبِّ على الوجه الأكمل، وأنَّى للعقول بإدراك كلِّ ذلك، فظهر بالبرهان الباهر صحة هذه الشرطية. اهـ.

وقال مولانا أبو السعود قُدِّس سرُّه بعد كلام: وإنْ رمتَ العثورَ على حقيقة الحقِّ، والوقوفَ على ما جلَّ من السرِّ ودقَّ، فاعلم أنَّ الإنسان بمقتضَى حقيقته الممكنة بمعزل عن استحقاق الوجودِ وما يتبعُهُ من الكمالات اللَّائقة، والمَلَكاتِ

الرَّائقة، بحيث لو انقطعَ ما بيْنَه وبين العناية الإلهية من العلاقة، لَما استقرَّ له القرار، ولا اطمأنَّت به الدارُ إلا في مطمورة العدم والبوار، ومهاوي الهلاكِ والدمار، لكن يَفيضُ عليه من الجناب الأقدس تعالى شأنُه وتقدَّس في كلِّ زمان يَمضي، وكلِّ آنٍ يمرُّ وينقضي من أنواع الفيوض المتعلِّقة بذاته ووجوده وسائرِ الصفات الروحانية والنفسانيةِ والجسمانية = ما لا يُحيطُ به نطاقُ التعبير، ولا يعلمه إلا اللطيفُ الخبير.

وتوضيحُه أنَّه كما لا يستحقُّ الوجودَ ابتداءً لا يستحقُّه بقاءً، وإنما ذلك من جناب المُبدِئ الأول عزَّ شأنه وجلَّ، فكما لا يُتصوَّرُ وجودُه ابتداءً ما لم ينسدَّ عليه جميعُ أنحاء عدمه الأصلي، لا يُتصوَّرُ بقاؤه على الوجود بعد تحقُّقه بعلَّته ما لم ينسدَّ عليه جميعُ أنحاء عدمه الطارئ؛ لأنَّ الاستمرار والدوام من خصائص الوجود الواجبي.

وأنت خبيرٌ بأنَّ ما يتوقَّفُ عليه وجوده من الأمور الوجوديَّةِ التي هي عِلَلُه وشرائطُه، وإن وَجَب كونُها متناهيةً لوجوب تناهي ما دخَلَ تحت الوجود، لكنَّ الأمورَ العدميةَ التي لها دخْلٌ في وجوده ليست كذلك، إذ لا استحالةَ في أنْ يكونَ لشيء واحد موانعُ غيرُ متناهية، وإنما الاستحالة في دخولها تحت الوجود، وارتفاع تلك الموانع التي لا تتناهى، أعني بقاءها على العدم مع إمكان وجودها في أنفسِها في كلِّ آنٍ من آناتِ وجودِه نِعَمٌ غيرُ متناهيةٍ حقيقةً لا ادِّعاءً، وكذا الحال في وجودات عِلَلِهِ وشرائطِهِ القريبة والبعيدة ابتداءً وبقاءً، وكذا في كمالاته التابعة لوجوده[(١)]. اهـ.

ويتراءى منه أنَّه قد ترك الإمامَ في تحقيق هذا المقام وراءه، وأنَّه لو سمع ذلك لاقتدَى به في ذكره، ولعدَّ من النعم اقتداءَه، وقريبٌ منه ما يقال في بيان عدم تناهي النعم: إنَّ الوجود نعمةٌ، وكذا كلُّ ما يتبعُه من الكمالات، وذلك موقوفٌ على وجوده تعالى في الأزمنة الموهومة الغير المتناهية، وتَحقُّقُ ما يتوقفُ عليه وجودُ النعمة نعمةٌ، فتحقُّقُهُ سبحانه في كل آنٍ من تلك الآنات نعمةٌ، فالنعم غيرُ متناهية.

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٤٩ ـ ٥٠.

ولك أنْ تقولَ في بيان ذلك: إنَّه ما من إنسانٍ إلا وقد دفع الله تعالى عنه من البلايا ما لا يحيطُ به نطاقُ الحصر؛ لأنَّ البلايا الداخلة تحت حيطة الإمكان غيرُ متناهية، ولا شكَّ أنَّ دفْعَ كلِّ بليَّةٍ نعمةٌ، فتكون النعم غيرَ متناهية.

ومما يُوضح عدمَ تناهي البلايا الممكنة أنَّ أهلَ النار المخلَّدين فيها لازال عذابهم بازديادٍ كما يُرشد إليه قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠] وقد ذكر غيرُ واحدٍ في ذلك أنَّهم كلَّما استغاثوا من نوعٍ من العذاب أُغيثُوا بأشدَّ من ذلك، فيكون كلُّ مرتبةٍ منه متناهياً في الشدَّة، وإنْ كانت مراتبُه غيرَ متناهيةٍ بحسب العدد والمدَّة، وعلى هذا نعم الله تعالى على المبتلَى أيضًا لا تُحصى.

وفي رواية ابن أبي الدنيا والبيهقي عن ابن مسعود قال: إنَّ لله تعالى على أهل النار منَّةً، فلو شاء أنْ يُعذِّبهم بأشدَّ من النار لعذَّبهم[1].

ثم الظاهر أنَّ المراد بالنعمة معناها اللغويُّ، أعني الأمر الملائم لا المعنى الشرعي[2]، أعني: الملائم الذي تُحمدُ عاقبتُه، إذ لا يتأتَّى عليه عمومُ الخطاب، ولا يبعُدُ إطلاقُ النعمة بذلك المعنى على نحو رفْعِ الموانع وتحقُّق العلل والشرائط حسبما ذُكِرَ سابقًا، وظاهرُ ما تقدَّم يقتضي أنَّ النعم في حدِّ ذاتها غيرُ محصورة، والآيةُ ظاهرةٌ في أنَّ الإنسان لا يحصرها بالعدِّ، وفَرْقٌ بين الأمرَين، فتدبَّر.

وبالجملة ليس للعبد إلا العجزُ عن الوقوف على نهاية نعمِهِ سبحانه وتعالى، وكذا العجزُ عن شكر ذلك، وما أحسن ما قال أبو الدرداء ﷺ: مَن لم يعرف نعمةَ الله تعالى عليه إلا في مَطعَمه ومَشربه، فقد قلَّ علمُه وحضَرَ عذابُه[3].

وأخرج البيهقي في «الشعب» وغيرُه عن سليمان التيمي قال: إنَّ الله تعالى أنعمَ على العباد على قَدْرِهِ سبحانه، وكلَّفهم الشكر على قَدْرِهم[4].

وعن طلق بنِ حبيب قال: إنَّ حقَّ الله تعالى أثقلُ من أنْ يقومَ به العبادُ، وإنَّ

---

(١) الشكر (١٨٠)، وشعب الإيمان (٤٥٧٧).

(٢) في الأصل: الأمر الشرعي، والمثبت من (م).

(٣) شعب الإيمان (٤٤٦٧).

(٤) شعب الإيمان (٤٥٧٨)، وأخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٨).

نِعَم الله سبحانه أكثرُ من أنْ يُحصيَها العباد، ولكن أصبِحوا توَّابين وأمسوا توابين[١].

وأفضلُ نعمه جلَّ شأنُه على عباده على ما رُوي عن سفيان بنِ عيينة أنْ عرَّفهم أنْ لا إله إلا الله[٢].

وأخرج ابنُ أبي الدنيا وغيرُه عن أبي أيوب القرشيِّ مولى بني هاشم أنَّ داود عليه السلام قال: ربِّ أخبرني ما أدنى نعمتك عليَّ؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا داود تنفَّسْ. فتنفس، فقال تبارك وتعالى: هذا أَدنَى نعمتي عليك[٣].

واشتهر أنَّ أوَّلَ النعم المقصودة لذاتها الوجود، وأنَّه معدِنُ كلِّ كمالٍ، كما أنَّ العدمَ معدِنُ كلِّ نقصٍ. ويدلُّ على أنَّه نعمةٌ لا يكاد يقاس بها غيرُها عند كثيرٍ من الناس أنَّ الإنسان منهم يَفدي نفسَه بملك الدنيا لو كان بيده، وعَلِمَ أنَّ الفداء ممكنٌ إذا ألَمَّ به الألمُ وتحقَّق العدم.

ومن العجيب أنَّ أبا عليٍّ الشبلي البغدادي ـ وقيل: ابنُ سينا ـ لم يَعُدَّ وجودَ الإنسان نعمةً عليه، فقد قال من أبيات:

ودهـرٌ يـنـشـرُ الأعـمـارَ نَـشْـرًا ... كـمـا لـلـغُـصـن بـالـورقِ انـتـشـارُ
ودنـيـا كـلَّـمـا وضَـعَـت جـنـيـنًـا ... غَـذَاهُ مِـن نـوائـبـهـا ظُـؤَارُ[٤]

إلى أن قال:

نُـعـاقَـب فـي الـظـهـور ومـا وُلِـدنـا ... ويُـذبَـح فـي حـشـا الأمِّ الـحُـوار[٥]
ونـنـتـظـرُ الـبـلايـا والـرزايـا ... وبَـعـدُ فـلـلـوعـيـد لـنـا انـتـظـارُ
ونـخـرجُ كـارهـيـنَ كـمـا دخـلـنـا ... خـروج الـضـبِّ أخـرجَـه الـوَجَـار[٦]

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٨٦، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٥٢٢)، وابن أبي شيبة ١٣/ ٤٨٨.
(٢) الشكر (٩٦)، وشعب الإيمان (٤٥٠٠).
(٣) الشكر (١٤٦). وأخرجه أيضًا البيهقي في شعب الإيمان (٤٦٢٣).
(٤) ظُؤَارُ: جمع (ظئر)، وهي العاطفة على ولد غيرها المرضعة له في الناس وغيرهم. القاموس (ظأر).
(٥) الحُوَار: بالضم وقد يكسر: ولد الناقة ساعة تضعُهُ، أو إلى أن يُفصَلَ عن أمه، وجمعه أَحوِرَة وحِيران وحُوران. القاموس (حور).
(٦) الوجار: بالكسر والفتح: جُحر الضَّبُع وغيرها، جمعه: أَوجِرَةٌ وَوُجُرٌ. القاموس (وَجَرَ).

فـمـاذا الامـتـنـانُ عـلـى وجـودٍ لـغـيـر الـمـوجَـدِيـن بـه الـخـيـار
فـكـانـت أنـعـمًـا لـو أنَّ كـونًـا نُـخـيَّـرُ قـبـلَـهُ أو نُـسـتـشَـار
فـهـذا الـداءُ لـيـس لـهُ دواءٌ وهـذا الـكـسـرُ لـيـس لـه انـجـبـارُ[1]

إلى آخر ما قال، ولَعَمري لقد غَمِطَ نعمةَ الله تعالى عليه وظلمها.

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ﴾ يظلم النعمةَ بإغفال شكرها بالكلية، أو بوضعه في غير موضعِه، أو يظلم نفسَه بتعريضها للحرمان بترك الشكر.

﴿كَفَّارٞ ٣٤﴾ شديدُ الكفران والجحود، وقيل: ظلومٌ في الشدَّة يشكو ويَجزعُ، كفَّارٌ في النعمة يجمع ويمنعُ، والأولُ أنسبُ بما قبله، و«أل» في «الإنسان» للجنس، ومصداقُ الحُكم بالظلم وأخيه بعضُ من وُجِدا من أفراده فيه، ويدخل في ذلك الذين بدَّلوا نعمةَ الله تعالى كفرًا، والظاهرُ أنَّ الجملةَ استئنافٌ بيانيٌّ، وَقَع جوابًا لسؤالٍ مقدَّر، كأنَّه قيل: لِمَ لَم يُراعوا حقَّها؟ أو لِمَ حرمها بعضُهم؟ وقيل: إنَّها تعليلٌ لعدم تناهي النعم، لذا أتى بصيغتَي المبالغة فيها، وهو كما ترى.

هـذا وفـي الـنـحـل: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل:١٨] وفرَّق أبو حيان بين الختمَين: بأنَّه هنا لمَّا تقدَّم قوله تعالى: (أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا) وبعده (وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا) فكان ذلك نصًّا على ما فعلوا مِن القبائح مِن الظلم والكفران، ناسَبَ أنْ يَختُمَ بذمِّ مَن وَقَع ذلك منه، فخُتِمَت الآيةُ بقوله سبحانه: «إن الإنسان لظلوم كفار».

وأمَّا في النحل فلمَّا ذكر عدَّةَ تفضُّلاتٍ وأَطنبَ فيها، وقال جلَّ شأنه: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ [النحل:١٧] أي: مَن أوجدَ هذه النعمَ السابق ذكرُها، ليس كمَن لا يقدِرُ على الخَلْق، ذَكَر من تفضُّلاته تعالى اتِّصافَه بالغفران والرحمة، تحريضًا على الرجوع إليه سبحانه، وأنَّ هاتَين الصفتَين هو جلَّ وعلا متَّصفٌ بهما، كما هو متَّصفٌ بالخلق، ففي ذلك إطماعٌ لمن آمن به تعالى وانتقل من عبادة المخلوقِ إلى عبادة الخالق تبارك وتعالى، أنَّه يغفر زَلَله السابقَ ويرحمه.

---

(١) نسبها لأبي علي الشبلي ياقوت الحموي في معجم البلدان ١٠/ ٢٣ ـ ونفى أن تكون لابن سينا ـ والكتبي في فوات الوفيات ٣/ ٣٤١.

وأيضًا فإنَّه لمَّا ذكر أنَّه تعالى هو المتفضِّلُ بالنعم على الإنسان[١] ذَكَرَ ما حصل[٢] من المُنعِم ومِن جنس المنعَم عليه، فحصَلَ من المنعِم ما يناسبُ حالةَ عطائه وهو الغفران والرحمة، إذ لولاهما لَمَا أنعمَ عليه، وحَصَل من جنس المنعَم عليه ما يناسب حالةَ الإنعام عليه ويقع معها في الجملة وهو الظلم والكفران، فكأنَّه قيل: إنْ صدَرَ من الإنسان ظلمٌ فالله تعالى غفورٌ، أو كفرانٌ فالله تعالى رحيمٌ؛ لعلمه بعَجْزِ الإنسان وقصورِه. وما نقل السخاويُّ عن عبد الرحمن بنِ زيد بنِ أسلم من أنَّ هذه الآيَةَ منسوخةٌ بآية النحل مما لا يُلتفَتُ إليه. انتهى كلامه[٣]. وفيه بحثٌ.

وقيل: إنَّما ختم سبحانه آية النحل بما ختم للإطناب هناك في ذكر النِّعم مع تقدُّم الدعوة إلى الشكر صريحًا، فكان ذلك مظنَّة التقصير فيه، ويُناسب الإطنابَ في سرد النعم أنْ يذكرَ منها[٤] ما يتعلَّق بذلك وهو الغفرانُ والرحمةُ، فتأمَّل والله تعالى أعلمُ بأسرار كتابه.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ فيه احتمالاتٌ عندهم فقيل: من ظلمات الكثرة إلى نور الوحدةِ، أو: من ظلمات صفاتِ النشأة إلى نور الفطرةِ، أو: من ظلمات حُجُب الأفعالِ والصفات إلى نور الذات، وهو المرادُ بقولهم: النورُ البَحْتُ الخالص من شَوْب المادة والمدة.

وقال جعفر: من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمات البدعة إلى نور السنة، ومن ظلمات النفوس إلى نور القلوب. وقال أبو بكر ابن طاهر: من ظلمات الظنِّ إلى نور الحقيقة. وقيل غير ذلك.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بتيسيره بهبَةِ الاستعداد وتهيئةِ أسباب الخروج إلى الفعل ﴿إِلَىٰ

(١) في الأصل: الإحسان، والمثبت من (م) والبحر المحيط ٥/٤٢٩.
(٢) في الأصل: يحصل، والمثبت من (م) والبحر المحيط.
(٣) جمال القراء ٢/٧٣٨، ونقله عنه بواسطة البحر المحيط ٥/٤٢٩.
(٤) في الأصل: فيها.

﴿صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي يقهرُ الظُّلْمةَ بالنور ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ بكمال ذاته، أو بما يَهَبُ لعبادِه المستعدِّين من الفضائل والعلوم، أو من الوجود الباقي، أو نحو ذلك ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ المحجوبين ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وهو عذابُ الحرمان ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ الحِسِّيةَ والصوريَّةَ ﴿عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ العقليةِ والمعنويَّةِ ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ المريدين ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ طريقِهِ الموصلِ إليه سبحانه ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ انحرافًا مع استقامتها.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ أي: بكلام يُناسب حالَهم واستعدادَهم وقَدْرَ عقولهم، وإلا لَمْ يفهموا، فلا يحصُلُ البيان، وعن عمر رضي الله عنه: كلِّموا الناسَ بما يفهمون، أتريدونَ أنْ يكذَّب الله تعالى ورسولُه ﷺ[1]؟

وفي «أسرار التأويل»[2]: لكلِّ نبيٍّ وصدِّيقٍ اصطلاحٌ في كلام المعرفة وطريقِ المحبةِ، يُخاطبُ به من يعرفُه من أهل السلوك، وعلى هذا لا ينبغي للصوفي أنْ يُخاطب العامَّة باصطلاحات الصوفية؛ لأنَّهم لا يعرفونه، وخطابُهم بذلك مثلُ خطاب العربيِّ بالعجمية، أو العجمَيِّ بالعربية، ومنشأ ضلالِ كثيرٍ من الناس الناظرينَ في كتب القوم جهلُهم باصطلاحاتهم، فلا ينبغي للجاهل بذلك النظر فيها؛ لأنَّها تأخذُ بيده إلى الكفر الصريح، بل توقعُهُ في هُوَّة كفرٍ، كفرُ أبي جهل إيمانٌ بالنسبة إليه، ومن هنا صدَرَ الأمر السلطاني - إذ كان الشرعُ معتنًى به - بالنهي عن مطالعة كتب الشيخ الأكبر قدِّس سرُّه ومَن انخرَطَ في سلكه.

﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ إضلالَه؛ لزوال استعدادِه بالهيئات الظلمانيَّةِ ورُسوخِها والاعتقادات الباطلةِ واستقرارِها ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ هدايتَه ممَّن بقي على استعداده، أو لم يرسخ فيه تلك الهيئات والاعتقادات.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ

(١) لم نقف عليه من قول عمر رضي الله عنه، وأخرج البخاري (١٢٧) نحوه من حديث علي رضي الله عنه، ومسلم (٥) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بلفظ: ما أنت بمحدِّثٍ قومًا حديثًا لا تبلغُهُ عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة.

(٢) لعله: مطالع أنوار التنزيل ومفاتح أسرار التأويل لعبد الرزاق بن رزق الله بن أبي بكر الحنبلي توفي (٦٦١)هـ. كشف الظنون ٢/ ١٧١٥.

﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ وهي أيامُ وِصاله سبحانه، حين كشَفَ لعباده سجفَ[1] الربوبيَّة في حضرةِ قُدسِهِ[2]، وأدناهم إلى جنابه ومَنَّ عليهم بلذيذٍ من خطابه:

سَقيًا لها ولِطِيبها ... ولحسنها وبَهائها
أيامُ لم يَلجِ النَّوى ... بَيْنَ العصا ولحائها

وما أحسن ما قيل:

وكانَتْ بالعراقِ لنا ليالٍ ... سَلَبناهنَّ من رَيْب الزمانِ
جعلناهنَّ تاريخَ الليالي ... وعنوانَ المسرَّة والأماني

وأَمَرَه عليه الصلاة والسلام بتذكير ذلك ليثور غرامهم، ويأخذَ بهم نحوَ الحبيب هيامُهم، فقد قيل:

تذكَّرَ والذكرى تَشُوقُ وذو الهوى ... يَتُوقُ ومَن يَعْلَق به الحبُّ يُصْبِهِ[3]

وجوز أنْ يُراد بـ ﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ تعالى أيَّام تجلِّيه جلَّ جلاله بصفة الجلال، وتذكيرُهم بذلك ليخافوا فيمتثلوا.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: لكلِّ مؤمنٍ بالإيمان الغيبي، إذ الصبر والشكر ـ على ما قيل ـ مقامان للسالك قبل الوصول.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ قال الجوزجاني: أي: لئن شكرتُم الإحسان لأزيدنَّكم المعرفةَ، ولئن شكرتُم المعرفةَ لأزيدنكم الوصلةَ، ولئن شكرتُم الوصلة لأزيدنكم القربَ، ولئن شكرتُم القرب لأزيدنكم الأُنسَ، ويعمُّ ذلك كلَّه ما قيل: لئن شكرتم نعمةً لأزيدنكم نعمةً خيرًا منها، وللشكر مراتب، وأعلا مراتبه: الإقرار بالعجز عنه. وفي بعض الآثار أنَّ داودَ عليه السلام قال: يا ربِّ كيف أشكركَ، والشكر من آلائك؟ فأوحى الله تعالى إليه: الآن شكرتَني يا داود[4]. وقال حمدون: شكرُ النعمة أنْ تَرى نفسَك فيها طفيليًّا.

---

(١) السَّجْف: الستر. القاموس (سجف).
(٢) في (م): قدسيةٍ.
(٣) البيت لابن خياط الدمشقي، وقد سلف ٤/١٥٣.
(٤) أخرجه أحمد في الزهد ص٨٨ ـ ٨٩، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٤١٣).

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ أي: إنَّه سبحانه لا شكَّ فيه؛ لأنَّه الظاهرُ في الآفاق والأنفُس ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ موجدِهما ومظهرِهما مِن كَتْم العدم ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ ليسترَ بنوره سبحانه ظلماتِ حُجُبِ صفاتكم، فلا تشكُّون فيه عند جليَّة اليقين ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى غاية يقتضيها استعدادُكم من السعادة.

﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ منعهم ذلك عن اتِّباع الرسل عليهم السلام.

و[1] ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ سَلَّموا لهم المشاركةَ في الجنس وجَعلُوا الموجِبَ لاختصاصهم بالنبوَّة ما مَنَّ الله تعالى به عليهم مما يُرشِّحُهم لذلك، وكثيرًا ما يقول المنكرون في حقِّ أَجِلَّة المشايخ مثل ما قال هؤلاء الكفرة في حقِّ رُسلهم، والجوابُ نحو هذا الجواب.

﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ جوابٌ عن قول أولئك: «فأتونا بسلطانٍ مبينٍ»، ويقال نحو ذلك للمنكرين الطالبين من الوليِّ الكرامةَ تعنُّتًا ولَجاجًا.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ لأنَّ الإيمان يقتضي التوكُّل، وهو الخمودُ تحت الموارد، وفسَّره بعضُهم بأنَّه طرحُ القلب في الربوبية والبدنِ في العبودية، فالمتوكِّلُ لا يُريد إلا ما يريدُه الله تعالى، ومِن هنا قيل: إنَّ الكامل لا يحبُّ إظهار الكرامة، وفي المسألة تفصيلٌ عندهم.

﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ذكر بعضُهم أنَّ البروزَ متعدِّدٌ، فبروزٌ عند القيامة الصغرى بموت الجسد، وبروزٌ عند القيامة الوسطى بالموت الإرادي، وهو الخروجُ عن حجاب صفاتِ النفس إلى عَرْصة[2] القلب. وبروزٌ عند القيامة الكبرى، وهو الخروجُ عن حجاب الآنيَّة إلى فضاء الوحدةِ الحقيقيَّة، وأنَّ حدوث[3] التقاولِ بيْن

(١) الواو، ليس في (م).
(٢) في الأصل: عرضة، والمثبت من (م) وتفسير ابن عربي ١/ ٣٧٠.
(٣) في الأصل: حديث، والمثبت من (م) وتفسير ابن عربي ١/ ٣٧٠.

الضعفاء والمستكبرين المشار إليه بقوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ إلخ فهو: بوجود المهديِّ القائم بالحقِّ، الفارقِ بين أهل الجنة والنار عند قضاء الأمر الإلهي بنجاة السعداء وهلاك الأشقياء.

وفسَّروا الشيطان بالوهم، وقد يُفسِّرونه في بعض المواضع بالنفس الأمَّارة. والقولُ المقصوصُ عنه في الآية عند ظهور سلطانِ الحقِّ، وبعضُهم حمل الشيطانَ هنا على الشيطان المعروفِ عند أهلِ الشرع، وذكر أنَّ قوله: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾ دليلُ بقائه على الشرك، حيث رأى الغير في البين، وما ثَمَّ غيرُ الله تعالى.

وإلى هذا يُشيرُ كلامُ الواسطيِّ حيث قال: مَن لامَ نفسَه فقد أشرك. ويخالفه قولُ محمد بنِ حامد: النفسُ محلُّ كلِّ لائمةٍ، فمن لم يَلُم نفسَه على الدوام ورضي عنها في حال من الأحوال، فقد أهلَكَها. ويأباه ما صحَّ في الحديث القدسي: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه»[١]. فتأمَّل.

﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ لم يذكر من يُحيِّيهم، وقد ذكروا أنَّ منهم مَن يُحيِّيهم ربُّهم، وهم أهلُ الصفوة والقربة، ومنهم مَن يُحيِّيهم الملائكةُ، وهم أهلُ الطاعات والدرجات، وما أطيبَ سلامَ المحبوبِ على محبِّه وما أَلَذَّه على قلبه:

أشارُوا بتسليمٍ فجُدْنا بأنفسٍ   تسيل[٢] مِن الآماقِ والاسم[٣] أَدمُعُ[٤]

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ * تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ﴾ إشارةٌ كما قيل إلى كلمة التوحيدِ التي غرسَها الحقُّ في أرض بساتين الأرواح، وجعل سبحانه أصلَها هناك ثابتًا بالتوفيق،

---

(١) قطعة من حديث أبي ذر ﷺ أخرجه مسلم (٢٥٧٧).
(٢) في الأصل: يسيل، والمثبت من (م) والمصدر.
(٣) في الأصل و(م): الاسم، والمثبت من المصادر.
(٤) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ٢/ ٣٤٤، وخلاصة الأثر للمحبي ٢/ ٢٠٥.

وفرعُها في سماء القربةِ، وسَقْيُها من سواقي العنايةِ، وساقُها المعرفةُ، وأغصانُها المحبة، وأوراقُها الشوقُ، وحارسُها الرعايةُ، تؤتي أكلَها في جميع الأنفاس من لطائف العبوديةِ وعرفان أنوار الربوبية.

وقال بعضُهم: الكلمةُ الطيبة: النفسُ الطيبةُ، أصلُها ثابتٌ بالاطمئنان وثباتِ الاعتقاد بالبرهان، وفرعُها في سماء الروحِ تُؤتي أكلَها من ثمرات المعارف والحِكَم والحقائق كلَّ وقتٍ بتسهيله تعالى.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ إشارةٌ إلى كلمة الكفر أو النفسِ الخبيثة، وقال جعفر الصادق رضي الله عنه: الشجرةُ الخبيثة: الشهواتُ، وأرضُها النفوسُ، وماؤها الأمل، وأوراقُها الكسل، وثمارُها المعاصي، وغايتُها النار.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ قال الصادق رضي الله عنه: يُثبِّتهم في الحياة الدنيا على الإيمان، وفي الآخرة على صدْق جوابِ الرحمن، وجعل بعضُهم القولَ الثابت قولَه سبحانه وحكمه الأزلي، أي: يُثبِّتهم على ما فيه تبجيلُهم وتوقيرُهم في الدارَين حيث حَكَم بذلك في الأزل، وحُكمُه سبحانه الثابت الذي لا يتغيَّر ولا يتبدَّل.

﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾ في الحياتَين لسوء استعدادِهم ﴿ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ من الهداية الأصليةِ والنورِ الفطري ﴿كُفۡرٗا﴾ احتجاباً وضلالًا ﴿وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ﴾ مَن تابَعَهم واقتدَى بهم في ذلك ﴿دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾ الهلاكِ والحرمان ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ من متاع الدنيا ومُشتهياتها التي يُحبونها كحبِّ الله سبحانه ﴿لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ﴾ كلَّ مَن نظر إلى ذلك والتفتَ إليه.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: سماواتِ الأرواح ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: أرضَ الأجساد ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: سماءِ عالمِ القدس ﴿مَآءٗ﴾ وهو ماءُ العلم ﴿فَأَخۡرَجَ بِهِۦ﴾ من أرض النفس ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ وهي ثمراتُ الحكم والفضائل ﴿رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾ في تقوِّي القلب بها ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ أي: فلكَ العقولِ ﴿لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ أي: بحرِ آلائه وأسرارِ مخلوقاته الدالةِ على عَظمتِه سبحانه ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ

﴿ٱلْأَنْهَـٰرَ﴾ أي: أنهار العلم التي تنتهي بكم إلى ذلك البحر العظيم ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ﴾ شمسَ الروحِ ﴿وَٱلْقَمَرَ﴾ قمرَ القلب ﴿دَآئِبَيْنِ﴾ في السير بالمكاشفة والمشاهدة ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ﴾ ليلَ ظلمةِ صفاتِ النفس ﴿وَٱلنَّهَارَ﴾ نهارِ نورِ الروح لطلب المعاش والمعاد والراحة والاستنارة[١].

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ بلسان الاستعداد، فإنَّ المسؤولَ بذلك لا يمنع ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ السابقةَ واللاحقةَ ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾ لعدم تناهيها ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ﴾ يُنقِصُ حقَّ الله تعالى أو حقَّ نفسه بإبطال الاستعداد، أو يضعُ نورَ الاستعداد في ظلمة الطبيعة ومادَّة البقاء في محلِّ الفناء ﴿كَفَّارٌ﴾ لتلك النِّعَمِ التي لا تُحصَى؛ لغفلته عن المنعِم عليه بها.

وقيل: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ﴾ لنفسه، حيث يَظنُّ أنَّ شكره يقابلُ نعمَه تعالى[٢]، ﴿كَفَّارٌ﴾ محجوبٌ عن رؤية الفضلِ عليه بدايةً ونهايةً، نسألُ الله تعالى أنْ يوفِّقنا لما يحبُّ ويرضى ويُكرِمَنا بالهداية والعناية.

❁ ❁ ❁

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ مفعولٌ لفعلٍ محذوفٍ، أي: اذكُر ذلك الوقتَ، والمقصودُ تذكيرُ ما وقَعَ فيه على نهْج ما قيل في أمثاله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ يعني مكةَ شرَّفها الله تعالى ﴿ءَامِنًا﴾ أي: ذا أَمْنٍ، فصيغةُ فاعل للنسب، كـ: لابِن وتامر؛ لأنَّ الأمنَ في الحقيقة لأهل[٣] البلد، ويجوز أنْ يكونَ الإسنادُ مجازيًّا من إسناد ما للحالِّ إلى المحلِّ، كـ: نهرٍ جارٍ، والفرقُ بين ما هنا وما في البقرة من قوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٢] أنَّه عليه السلام سأَلَ في الأوَّل أنْ يجعلَه من جملة البلاد التي يأمنُ أهلُها ولا يخافون، وفي الثاني: أنْ يُخرجَه من صفةٍ كان عليها من الخوف إلى ضدِّها من الأمن، كأنَّه قال: هو بلدٌ مخوفٌ فاجعله آمنًا، كذا في «الكشاف»[٤].

---

(١) في الأصل: الاستفادة، والمثبت من (م) وتفسير ابن عربي ١/ ٣٧٢.
(٢) في الأصل: نعمة الله، والمثبت من (م).
(٣) في (م): أهل.
(٤) ٢/ ٣٧٩.

وتحقيقُه: أنَّك إذا قلتَ: اجعل هذا خاتمًا حسنًا، فقد أشرتَ إلى المادَّة طالبًا أنْ يسبكَ منها خاتم حسن، وإذا قلتَ: اجعَلْ هذا الخاتمَ حسنًا، فقد قصدْتَ الحسن دون الخاتمية، وذلك لأنَّ محطَّ الفائدة هو المفعول الثاني؛ لأنَّه بمنزلة الخبر، وإلى هذا يرجع ما قيل في الفرق أنَّ في الأول سؤالَ أمرَين البلديةِ والأمنِ، وهاهنا سؤالُ أمرٍ واحدٍ وهو الأمنُ.

واستشكل هذا التفسيرُ بأنَّه يقتضي أنْ يكونَ سؤالُ البلدية سابقًا على السؤال المحكي في هذه السورة، وأنَّه يلزم أنْ تكونَ الدعوة الأولَى غيرَ مستجابةٍ؟

قال في «الكشف»: والتفصِّي عن ذلك إمَّا بأنَّ المسؤول أوَّلًا صلوحُه للسكنى، بأنْ يُؤمنَ فيه أهله في أكثر الأحوال على المستمرِّ في البلاد، فقد كان غيرَ صالحٍ لها بوجهٍ على ما هو المشهور في القصَّة، وثانيًا إزالةُ خوف عرض، كما يعتري البلادَ الآمنةَ أحيانًا، وإمَّا بالحمل على الاستدامة وتنزيله منزلةَ العاري عنه مبالغةً، أو بأنَّ أحدهما أمنُ الدنيا والآخر أمنُ الآخرة، أو أنَّ الدعاء الثاني صدَرَ قبل استجابةِ الأوَّل، وذكر بهذه العبارة إيماءً إلى أنَّ المسؤول الحقيقيَّ هو الأمنُ والبلدية توطئة، لا أنَّه بعد الاستجابة عراه خوفٌ، وكأنَّه بنَى الكلامَ على الترقِّي، فطلب أولًا أنْ يكونَ بلدًا آمنًا من جملة البلاد التي هي كذلك، ثم لتأكيد الطلب جعلَه مخوفًا حقيقة فطلَبَ الأمنَ؛ لأنَّ دعاء المضطر أقربُ إلى الإجابة، ولذا ذيَّلَه عليه السلام بقوله: «إني أسكنتُ» إلخ. اهـ.

وهو مبنيٌّ على تعدُّد السؤال وإنْ حُمل على وحدتِه وتكرير الحكاية كما استظهرَه بعضُهم، واستظهرَ آخرونَ الأول، لتغاير التعبير في المحلَّين، فالظاهرُ أنَّ المسؤول كلا الأمرَين وقد حُكي أولًا، واقتصر هاهنا على حكاية سؤالِ الأمن؛ لأنَّ سؤال البلديةِ قد حُكي بقوله: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ إذ المسؤولُ هويُّها إليهم للمساكنة كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما لا للحجِّ فقط، وهو عينُ سؤال البلدية، وقد حُكي بعبارة أخرى على ما اختاره بعضُ الأجلَّة، أو لأنَّ نعمة الأمن أدخلُ في استيجاب الشكر، فذكْرُه أنسبُ بمقام تقريعِ الكفرة على إغفاله على ما قيل.

وهذه الآية وما تلاها ـ أعني قصةَ إبراهيم عليه السلام ـ على ما نصَّ عليه صاحب «الكشف» واردةٌ على سبيلِ الاعتراض، مُقرِّرَةٌ لما حثَّ عليه من الشكر

بالإيمان والعمل الصالح وزجر عنه من مقابلهما مدمجًا فيها دعوةَ هؤلاء النافرين بلسان اللطف والتقريب، مؤكدةٌ لجميع ما سلف أشدَّ التأكيد.

وفي «إرشاد العقل السليم» أنَّ المرادَ منها تأكيدُ ما سلَفَ من تعجيبه ﷺ ببيان فنٍّ آخرَ من جنايات القوم، حيث كفروا بالنِّعَم الخاصة بهم بعد ما كفروا بالنعم العامة، وعصَوا أباهم إبراهيمَ عليه السلام حيث أسكنهم مكةَ ـ زادها الله تعالى شرفًا ـ لإقامة الصلاة والاجتنابِ عن عبادة الأصنام والشكر لنعم الله تعالى، وسأله أنْ يجعله بلدًا آمنًا، ويرزقهم من الثمرات، ويهوي قلوبَ الناس إليهم، فاستجاب الله تعالى دعاءه وجعله حرمًا آمنًا تجبى إليه ثمرات كلِّ شيءٍ، فكفروا بتلك النعم العظام واستبدلوا دارَ البوارِ بالبلدِ الحرامِ، وجعلوا لله تعالى أنداداً، وفعلوا ما فعلوا من القبائح الجسام(١).

﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ﴾ أي: بعِّدني وإياهم ﴿أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: عن عبادتها.

وقرأ الجحدريّ وعيسى الثقفي: «وأَجْنِبْني» بقطع الهمزة وكسر النون(٢)، بوزن أَكْرِمني، وهما لغةُ أهل نجدٍ يقولون: جنَبه مخفَّفًا، وأَجْنبه رباعيًّا، وأما أهل الحجاز فيقولون: جنَّبه، مشدَّدًا.

وأصل التجنُّب أنْ يكون الرجلُ في جانبٍ غير ما عليه غيرُه، ثم استُعمل بمعنى البعد، والمرادُ هنا ـ على ما قال الزجَّاج(٣) ـ طلبُ الثباتِ والدوام على ذلك، أي: ثَبِّتنا على ما نحن عليه من التوحيد وملَّة الإسلام والبعد عن عبادة الأصنام، وإلا فالأنبياء معصومون عن الكفر وعبادة غير الله تعالى.

وتعقَّب ذلك الإمام بأنَّه لمَّا كان من المعلوم أنَّه سبحانه يُثبِّت الأنبياء عليهم السلام على الاجتناب، فما الفائدةُ في سؤال التثبيت؟ ثم قال: والصحيحُ عندي في الجواب وجهان:

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٥٠.

(٢) القراءات الشاذة ص٦٨، والمحتسب ١/ ٣٦٣.

(٣) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ١٦٤بنحوه.

الأول: أنَّه عليه السلام وإنْ كان يعلمُ أنَّ الله تعالى يعصمُه من عبادة الأصنام إلا أنَّه ذكر ذلك؛ هضمًا لنفسه، وإظهارًا الحاجة والفاقة إلى فضل الله سبحانه وتعالى في كلِّ المطالب.

والثاني: أنَّ الصوفيةَ يقولون: إنَّ[1] الشرك نوعان: ظاهرٌ: وهو الذي يقول به المشركون، وخفيٌّ: وهو تعلُّق القلب بالوسائط والأسباب الظاهرة، والتوحيدُ المحضُ قطعُ النظر عما سوى الله تعالى. فيحتملُ أنْ يكون مرادُه عليه السلام من هذا الدعاء العصمةَ عن هذا الشرك[2]. انتهى.

ويرد على هذا الأخير أنَّه يعودُ السؤال عليه فيما أظنُّ؛ لأنَّ النظر إلى السِّوَى يُحاكي الشركَ الذي يقول به المشركون عند الصوفية، فقد قال قائلهم:

ولو خَطَرَتْ لي في سِواكَ إرادةٌ ... على خاطِري سهوًا حكمتُ بردَّتي[3]

ولا أظنُّ أنَّهم يجوِّزون ذلك للأنبياء عليهم السلام، وحيث بنى الكلام على ما قرَّروه يقال: ما فائدةُ سؤالِ العصمةِ عن ذلك، والأنبياءُ عليهم السلام معصومون عنه؟ والجواب الصحيح عندي ما قيل: إنَّ عصمة الأنبياء عليهم السلام ليسَت لأمرٍ طبيعيٍّ فيهم، بل بمحض توفيقِ الله تعالى إياهم وتفضُّله عليهم، ولذلك صحَّ طلبُها.

وفي بعض الآثار أنَّ الله سبحانه قال لموسى عليه السلام: يا موسى لا تأمن مكري حتى تجوزَ الصراطَ[4].

وأنتَ تعلمُ أنَّ المبشَّرين بالجنة على لسان الصَّادقِ المصدوق عليه الصلاة والسلام كانوا كثيرًا ما يسألون الله تعالى الجنةَ مع أنَّهم مقطوعٌ لهم بها، ولعلَّ منشأ ذلك ما قيل لموسى عليه السلام، فتدبَّر.

والمتبادر من بَنِيْهِ عليه السلام مَن كان من صُلبه، فلا يتوهَّم أنَّ الله تعالى لم

---

(١) ليس في (م).

(٢) تفسير الرازي ١٩/ ١٣٢.

(٣) جاء في هامش (م): هو ابن الفارض قدس سره. اهـ، وهو في ديوانه ص٥٢، وتقدم ١/ ٣٤١.

(٤) ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم ص٢١٨، وقال: إنه من الإسرائيليات.

يستجب دعاءَه لعبادةِ قريش الأصنام، وهم من ذرِّيَّتهِ عليه السلام، حتى يُجاب بما قاله بعضُهم مِن أنَّ المراد كلُّ مَن كان موجودًا حال الدعاء من أبنائه، ولا شكَّ أنَّ دعوتَه عليه السلام مجابةٌ فيهم، أو بأنَّ دعاءه استُجيب في بعضٍ دون بعضٍ، ولا نقص فيه كما قال الإمام[1].

وقال سفيانُ بن عيينة: إنَّ المراد ببنِيْه ما يشملُ جميع ذرِّيَّته عليه السلام، وزعَمَ أنَّه لم يَعبد أحدٌ من أولاد إسماعيلَ عليه السلام الصنمَ، وإنَّما كان لكلِّ قوم حجرٌ نصبوه وقالوا: إنَّ[2] هذا حجرٌ والبيتُ حَجَرٌ، وكانوا يدورون به ويُسمُّونه الدَّوار، ولهذا كره غيرُ واحدٍ أنْ يقال: دارَ بالبيت[3]، بل يقال: طافَ به، وعلى ذلك أيضًا حَمَل مجاهد البنين، وقال: لم يعبد أحدٌ من ولد إبراهيم عليه السلام صنمًا وإنما عَبَدَ بعضُهم الوثَنَ. وفرّق بينهما بأنَّ الصنم هو التمثال المصوَّر، والوثنَ هو: التمثال الغير المصوَّر، وليت شعري كيف ذهبت على هذَين الجليلَين ما في القرآن من قوارع تنعي على قريش عبادةَ الأصنام؟!

وقال الإمام بعد نقلِهِ كلامَ مجاهد: إنَّ هذا ليس بقويٍّ؛ لأنَّه عليه السلام لم يُرِد بهذا الدعاء إلا عبادةَ غير الله تعالى، والصنم كالوثن في ذلك[4]. ويرد مثله على ابن عيينة، ومن هنا قيل عليه: إنَّ فيما ذكره كرًّا على ما فرَّ منه؛ لأنَّ ما كانوا يصنعونه عبادة لغير الله تعالى أيضًا.

واستدلَّ بعضُ أصحابنا بالآية على أنَّ التبعيد من الكفر والتقريبَ من الإيمان ليس إلا مِن الله تعالى؛ لأنَّه عليه السلام إنما طلب التبعيد عن عبادة الأصنام منه تعالى. وحَمْلُ ذلك على الألطاف فيه ما فيه.

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ﴾ أي: الأصنام ﴿أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ أي: تَسبَّبنَ له[5] الضلال،

---

(١) تفسير الرازي ١٩/ ١٣٣.

(٢) ليس في (م).

(٣) في هامش (م): ولا يخفى أن هذا من الآداب، وإلا فقد ورد «دار» في بعض الآثار كما قال النووي. اهـ، ونقله عنه بواسطة حاشية الشهاب ٥/ ٢٧١.

(٤) تفسير الرازي ١٩/ ١٣٣.

(٥) بعدها في (م): في.

فإسناد الإضلال[(١)] إليهنَّ مجازيٌّ؛ لأنهنَّ جمادٌ لا يُعقَلُ منهنَّ ذلك، والمضِلُّ في الحقيقة هو الله تعالى، وهذا تعليلٌ لدعائه عليه السلام السابق، وصُدِّر بالنداء؛ إظهارًا للاعتناء به، ورغبةً في استجابته.

﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾ منهم فيما أدعو[(٢)] إليه من التوحيد وملَّة الإسلام ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ يحتمل أنْ تكون «مِن» تبعيضيَّةً على التشبيه، أي: فإنَّه كبعضي في عدم الانفكاكِ، ويحتمل أنْ تكون اتِّصاليةً كما في قوله ﷺ لعليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه: «أنتَ منِّي بمنزلة هارونَ مِن موسى»[(٣)] أي: فإنَّه متَّصل بي لا ينفكُّ عنِّي في أمر الدين، وتسميتُها اتِّصالية؛ لأنَّه يُفهم منها اتِّصال شيءٍ بمجرورها، وهي ابتدائيةٌ إلا أنَّ ابتدائيته باعتبار الاتصال، كذا في حواشي «شرح المفتاح» الشريفي، يعني أنَّ مجرورها ليس مبدأً أو منشأً لنفس ما قبلها بل لاتِّصاله، فإمَّا أنْ يقدَّر متعلَّقها فعلًا خاصًّا كما قاله الجلالُ السيوطي في بيان الخبر من أنَّ «منِّي» فيه خبرُ المبتدأ، و«مِن» اتصاليَّة، ومتعلّقُ الخبر خاصٌّ، والباء زائدة بمعنى: أنت متَّصلٌ بي ونازلٌ مني بمنزلة هارون مِن موسى. وإمَّا أنْ يقدَّر فعلٌ عامٌّ كما ذهب إليه الشريف هناك، أي: منزلتُه بمنزلةٍ كائنةٍ وناشئةٍ منِّي كمنزلة هارونَ مِن موسى عليهما السلام، وتقديرُه خاصًّا هنا كما فعلنا على تقدير جعلها اتِّصاليةً مما يَستطيبُه الذوقُ السليم دون تقديره عامًّا.

﴿وَمَنْ عَصَانِى﴾ أي: لم يتَّبعني، والتعبيرُ عنه بالعصيان ـ كما قيل ـ للإيذان بأنَّه عليه السلام مستمرٌّ على الدعوةِ، وأنَّ عدم اتِّباع مَن لم يتَّبعْهُ إنما هو لعصيانه لا لأنَّ الدعوة لم تبلغه.

وفي «البحر» أنَّ بين الاتِّباع والعصيان طباقًا معنويًا؛ لأنَّ الاتِّباع طاعة[(٤)].

﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٦﴾ أي: قادرٌ على أن تغفرَ له وترحمَه، وفي الكلام على

---

(١) في الأصل: الضلال، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٥/ ٢٧١.
(٢) في الأصل: أدعوه، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٥١.
(٣) أخرجه أحمد (١٤٦٣)، والبخاري (٣٧٠٦)، ومسلم (٢٤٠٤) من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ.
(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٣١.

ما أشار إليه البعضُ حذفٌ، والتقدير: ومَن عصاني فلا أدعو عليه فإنَّك.. إلخ.

وفي الآية دليلٌ على أنَّ الشرك يجوزُ أنْ يُغفرَ، ولا إشكالَ في ذلك بناءً على ما قال النووي في «شرح مسلم» مِن أنَّ مغفرةَ الشرك كانت في الشرائع القديمة جائزة في أممهم وإنَّما امتنعَت في شرعنا[1].

واختلفَ القائلون بأنَّ مغفرةَ الشركِ لم تكن جائزةً في شريعةٍ من الشرائع في توجيه الآية، فمنهم مَن ذهب إلى أنَّ المرادَ غفورٌ رحيمٌ بعد التوبة، ونسب ذلك إلى السدِّي.

ومنهم مَن ذهب إلى تقييد العصيان بما دون الشركِ، وغفل عما تقتضيه المعادلة، ورُوي ذلك عن مقاتل. وفي روايةٍ أخرى عنه أنَّه قال: إنَّ المعنى: ومَن عصاني بإقامته على الكفر فإنَّك قادرٌ على أنْ تغفرَ له وترحمه، بأنْ تنقلَه من الكفر إلى الإيمان والإسلام وتهديَه إلى الصواب.

ومنهم مَن قال: المعنى: ومَن لم يتَّبعني فيما أدعو إليه من التوحيد، وأقام على الشرك، فإنك قادرٌ على أن تستره[2] عليه وترحَمه بعدم معاجلته بالعذاب، ونظيرُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦].

ومنهم مَن قال: إنَّ الكلام على ظاهره، وكان ذلك منه عليه السلام قبل أنْ يعلمَ أنَّ الله سبحانه لا يغفرُ الشركَ، ولا نقصَ بجهل ذلك؛ لأنَّ مغفرةَ الشرك جائزةٌ عقلًا كما تقرَّر في الأصول، لكنَّ الدليل السمعيَّ مَنَع منها، ولا يلزمُ النبيَّ أنْ يعلم جميعَ الأدلَّة السمعيَّة في يوم واحدٍ.

والإمام لم يرتَضِ أكثرَ هذه الأوجه، وجعل هذا الكلامَ منه عليه السلام شفاعةً في إسقاطِ العقاب عن أهلِ الكبائر قبل التوبةِ، وأنَّه دليلٌ لحصول ذلك لنبيِّنا ﷺ فقال: إنَّ المعصيةَ المفهومةَ من الآية إمَّا أنْ تكونَ من الصغائر، أو من الكبائر بعد التوبةِ أو قبلها، والأولُ والثاني باطلان؛ لأنَّ «مَن عصاني» مطلقٌ، فتخصيصُه عدولٌ عن الظاهر، وأيضًا الصغائرُ والكبائر بعد التوبة واجبةُ الغفران عند الخصم،

---

(١) شرح مسلم ١٧/ ٧٢، ونقله بواسطة حاشية الشهاب ٥/ ٢٧١.

(٢) في الأصل: تستره.

فلا يُمكن حملُ[1] اللفظ عليه، فثَبتَ أنَّ الآيَةَ شفاعةٌ لأهل الكبائر قبل التوبة، ومتى ثبت منه عليه السلام ثبت في حقِّ نبيِّنا عليه الصلاة والسلام لمكان: ﴿أَتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [النحل:١٢٣] ونحوه، ولئلَّا يلزمَ النقص[2]. وهو كما تَرَى، وقد مرَّ لك ما ينفعُك في هذا المقام فتذكَّر هداك الله تعالى[3].

﴿رَّبَّنَآ﴾ قال في «البحر»: كرَّر النداء، رغبةً في الإجابة والالتجاء إليه تعالى، وأتَى بضمير الجماعة؛ لأنَّه تقدَّم ذِكْره عليه السلام وذِكْرُ بَنِيْهِ في قوله: «واجْنُبْنِي وبنيَّ»[4].

وتعقَّب بأنَّ ذلك يقتضي ضميرَ الجماعة في «ربِّ إنَّهنَّ» إلخ، مع أنَّه جيء فيه بضمير الواحد؟ فالوجه أنَّ ذلك؛ لأنَّ الدعاء المصدَّر به وما هو بصدَد تمهيدِ مبادي إجابته من قوله: ﴿إِنِّيٓ أَسْكَنتُ﴾ إلخ متعلِّق بذرِّيَّته، فالتعرُّضُ لوصْف ربوبيته تعالى لهم أدخلُ في القبول وإجابة المسؤول، والتأكيدُ لمزيد الاعتناء فيما قصدَه من الخبر.

و«مِن» في قوله ﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾ بمعنى بعض، وهي في تأويل المفعول به، أي: أسكنتُ بعضَ ذرِّيَّتي، ويجوز أنْ يكونَ المفعول محذوفاً، والجارُّ والمجرور صفته[5] سدَّت مسدَّه، أي: أسكنتُ ذريةً مِن ذرِّيَّتي، و«مِن» تحتملُ التبعيضَ والتبيينَ.

وزعْمُ بعضِهم أنَّ «مِن» زائدةٌ عل مذهب الأخفش[6]، لا يرتَضيه سليمُ البصيرة كما لا يخفَى.

والمرادُ بالمُسْكَن إسماعيل عليه السلام ومَن سيولد له، فإنَّ إسكانَه حيث كان على وجه الاطمئنان متضمِّنٌ لإسكانهم، والداعي للتعميم على[7] ما قيل قوله

---

(١) ليس في (م).
(٢) تفسير الرازي ١٩/ ١٣٤.
(٣) ينظر ٢/ ١٥٩.
(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٣١.
(٥) في الأصل: صفة، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٥/ ٢٧١.
(٦) معاني القرآن ١/ ٢٧٢.
(٧) في الأصل: كما.

الآتي: «ليقيموا» إلخ، ولا يخفَى أنَّ الإسكان له حقيقةٌ ولأولاده مجاز، فمَن لم يجوِّز الجمع بين الحقيقةِ والمجاز يرتكبُ لذلك عمومَ المجاز، وهذا الإسكانُ بعدما كان بينه عليه السلام وبينَ أهله ما كان، وذلك أنَّ هاجَرَ أمَّ إسماعيلَ كانت أَمَةً مِن القِبْطِ لسارةَ، فوَهَبتْها مِن إبراهيم عليه السلام، فلما ولدَت له إسماعيلَ غارَت فلم تُقَارَّهُ على كونه معها، فأخرَجَها وابنَها إلى أرض مكة فوضَعَهما عند البيت عند دوحةٍ فوق زمزم في أعلا المسجد، وليس بمكة يومئذٍ أحدٌ وليس بها ماءٌ، ووَضَع عندهما جِرابًا فيه تمرٌ، وسقاءً فيه ماءٌ، ثم قَفيَ منطلقًا، فتبعَتْهُ هاجرُ فقالت: يا إبراهيم أين تذهبُ وتتركُنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيسٌ ولا شيءٌ. قالت له ذلك مرارًا، وجَعَلَ لا يلتفتُ إليها، فقالت له: آلله أمرَك بهذا؟! قال: نعم[1]، قالت: إذن لا يُضيِّعُنا. ثم رجعَت.

وانطلق عليه السلام حتى إذا كان عند الثنيَّة حيث لا يرَوْنَه، استقبلَ بوجهه البيتَ، وكان إذ ذاك مرتَفعًا من الأرض كالرابية تأتيه السيولُ فتأخذ عن يمينه وشماله، ثم دعا بهذه الدعوات ورفع يديه فقال: «ربِّ إني أسكنت» إلى: «لعلهم يشكرون».

ثم إنها جعلَت تُرضِعُ ابنَها وتشربُ ممَّا في السقاء حتى إذا نَفَدَ عطِشَت وعطِشَ ابنُها، وجعلَت تنظرُ إليه يَتَلَبَّط[2]، فانطلقَت كراهيةَ أنْ تنظرَ إليه، فوجَدَت الصفا أقربَ جبلٍ يليها، فقامت عليه، ثم استقبلَت الوادي تنظرُ هل تَرَى أحدًا، فلم تَرَ، فهَبَطت حتى إذا بلغَت الوادي رفعَت طرفَ دِرعها، ثم سعَت سَعْيَ الإنسان المجهود حتى جاوَزَتْه، ثم أَتَت المروةَ فقامت عليها ونَظَرت هل ترى أحدًا فلم تَرَ، ففعلَت ذلك سبعَ مرَّاتٍ، ولذلك سَعَى الناسُ بينهما سبعًا[3]، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا، فقالت: صَه، تريدُ نفسَها، ثم تَسمَّعَت فسمِعَت أيضًا فقالت: قد

---

(١) في هامش (م): وبهذا يبطل استدلال بعض غلاة المتصوفة بالآية على أنَّه يجوز للإنسان أن يضع ولده وعياله في أرض مضيعة: اتكالًا. اهـ منه.

(٢) قال ابن حجر في الفتح ٦/ ٤٠١: يتمرَّغ ويضرب بنفسه الأرض.

(٣) أخرج البخاري في صحيحه ضمن الحديث (٣٣٦٤) عن ابن عباس أنه قال: قال النبي ﷺ: «فذلك سعيُ الناس بينهما».

أسمعْتَ إن كان عندك غَواثٌ، فإذا هي بالمَلَك عند موضع زَمزَم، فبحث بعَقِبِهِ حتى ظهر الماء، فجعلَت تُحوِّضُه وتغرف منه في سقائها وهو يفور، فشربَت وأرضعَت ولدَها، وقال لها المَلَك: لا تخافي الضيعةَ فإنَّ ها هنا بيتَ الله تعالى يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإنَّ الله سبحانه لا يُضيعُ أهلَه. ثم إنَّه مرَّت بهما رُفقة من جُرْهُم، فرأوا طائرًا عائفًا[1] فقالوا: لا طيرَ إلا على الماء، فبَعثُوا رسولَهم فنظر فإذا بالماء، فأتاهم فقصدوه وأمُّ إسماعيلَ عنده، فقالوا: أشركينا في مائك نُشركك في ألباننا؟ ففعلَت، فلمَّا أدرك إسماعيلُ عليه السلام زوَّجوه امرأةً منهم[2]، وتمامُ القصة في كتب السير.

﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ وهو وادي مكة شرَّفها الله تعالى، ووصفه بذلك دون غير مزروع؛ للمبالغة، لأنَّ المعنى: ليس صالحًا للزرع، ونظيرُه قوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر:٢٨] وكان ذلك لحَجَريَّته.

قال ابنُ عطية: وإنما لم يَصِفْه عليه السلام بالخلوِّ عن الماء مع أنَّه حاله[3] إذ ذاك؛ لأنَّه كان علمَ أنَّ الله تعالى لا يُضيعُ إسماعيلَ عليه السلام وأُمَّه في ذلك الوادي، وأنَّه سبحانه يَرزقُهما الماء، فنظر عليه السلام النظر البعيد[4].

وقال أبو حيان بعدَ نقله: وقد يُقال: إنَّ انتفاء كونه ذا زرعٍ مستلزمٌ لانتفاء الماء، إذ لا يمكن أنْ يُوجدَ زرعٌ إلا حيث الماء، فنفَى ما يَتسبَّبُ عن الماء، وهو الزرع، لانتفاء سببه وهو الماء[5]. اهـ.

وقال بعضهم: إنَّ طلب الماء لم يكن مهمًّا له عليه السلام لما أنَّ الوادي مظنةُ السيول، والمحتاج للماء يَدَّخِر منها ما يكفيه، وكان المهمُّ له طلبَ الثمرات،

(١) قال ابن حجر في الفتح ٦/ ٤٠٣: هو الذي يحوم على الماء ويتردد ولا يمضي عنه.
(٢) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٣٣٦٤) عن ابن عباس ﷺ، وجاء في البخاري: فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم، ولكن لا حقَّ لكم في الماء. قالوا: نعم، بدل قوله: فقالوا: أشركينا... ففعلت.
(٣) في الأصل: خال، والمثبت من (م) والمحرر الوجيز.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤١.
(٥) البحر المحيط ٥/ ٢٣٧.

فوصف ذلك بكونه غيرَ صالحٍ للزرع بياناً لكمال الافتقار إلى المسؤول. فتأمَّل.

﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ ظرف لـ «أسكنتُ» كقولك: صلَّيت بمكةَ عند الركن. وزعَمَ أبو البقاء أنَّه صفةُ «وادٍ» أو بدل منه[1]، واختارَ بعضُ الأجلَّة الأوَّلَ، إذ المقصودُ إظهارُ كونِ ذلك الإسكان مع فقدان مباديه لمحض التقرُّب إلى الله تعالى والالتجاء إلى جواره الكريم، كما يُنبئ عنه التعرُّض لعنوان الحرمة المؤذِن بعزَّة الملتَجَأ وعصمتِهِ عن المكاره، فإنَّهم قالوا: معنى كونِ البيت محرَّمًا أنَّ الله تعالى حرَّم التعرُّض له والتهاونَ به، أو أنَّه لم يزل ممنعًا عزيزًا يهابه كلُّ[2] الجبابرة في كلِّ عصرٍ، أو لأنَّه منع منه الطوفان فلم يَستولِ عليه، ولذا سمِّي: عتيقًا، على ما قيل[3]، وأبعَدَ مَن قال: إنَّه سمِّي محرَّمًا؛ لأنَّ الزائرين يُحرِّمون على أنفسهم عند زيارته أشياءَ كانت حلالًا عليهم، وسمَّاه عليه السلام بيتًا باعتبار ما كان، فإنَّه كان مبنيًّا قبل، وقيل: باعتبار ما سيكون بعدُ، وهو ينزعُ إلى اعتبار عنوان الحرمة كذلك.

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: لأنْ يقيموا، فاللام جارَّةٌ، والفعل منصوبٌ بـ «أنْ» مضمرة بعدها، والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بـ «أسكنتُ» المذكور، وتكريرُ النداء وتوسيطُه؛ لإظهار كمال العناية بإقامة الصلاة فإنَّها عمادُ الدين، ولذا خصَّها بالذكر من بين سائر شعائره، والمعنى على ما يقتضيه كلامُ غيرِ واحدٍ على الحصر، أي: ما أسكنتُهم بهذا الوادي البلْقَع الخالي من كلِّ مُرتَفَقٍ ومُرتزق إلا ليقيموا الصلاةَ عند بيتك المحرَّم، ويَعمُرُوه بذكرك وعبادتك وما تعمر به مساجدك ومتعبَّداتك، مُتبرِّكين بالبقعة التي شرَّفْتَها على البقاع، مُستَسْعدين بجوارك الكريم، مُتقرِّبين إليك بالعكوف عند بيتك والطوافِ به والركوعِ والسجودِ حولَه، مُستنزلين رحمتَك التي آثَرْتَ بها سكَّانَ حَرَمك.

وهذا الحصر ـ على ما ذكروا ـ مستفادٌ من السياق، فإنَّه عليه السلام لما قال: «بوادٍ غيرِ ذي زَرْعٍ» نَفَى أنْ يكونَ إسكانُهم للزراعة، ولمَّا قال: «عندَ بيتك المحرَّم» أثْبتَ أنَّه مكانُ عبادةٍ، فلمَّا قال: «ليقيموا» أثبتَ أنَّ الإقامة عنده عبادةٌ، وقد نَفَى

(١) الإملاء ٣/ ٤١٠.
(٢) ليس في (م).
(٣) في هامش (م): وقيل: العتيق: مقابل الجديد. اهـ. منه.

كونها للكسب، فجاء الحصرُ مع ما في «ربنا» من الإشارة إلى أنَّ ذلك هو المقصود. وعن مالك أنَّ التعليل يُفيد الحصرَ، فقد استدلَّ بقوله تعالى: ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ [النحل: ٨] على حرمة أكلها(١).

وفي «الكشف» أنَّ استفادة الحصر من تقدير محذوفٍ مؤخَّرٍ يتعلَّق به الجارُّ والمجرور، أي: ليقوموا أسكنتهم هذا الإسكان، أخبر أوَّلًا أنَّه أسكَنَهم بوادٍ قَفْرٍ، فأدمجَ فيه حاجتهم إلى الوافدين، وذكر وجه الإيثار، لشرف الجوارِ بقوله: «عند بيتك المحرَّم»، ثم صرَّح ثانيًا بأنَّه إنَّما آثر ذلك ليعمُرُوا حَرَمَك المحرَّم، وبنى عليه الدعاء الآتي، ومن الدليل على أنَّه غيرُ متعلِّق بالمذكور تخلُّلُ «ربَّنا» ثانيًا بين الفعل ومتعلَّقه، وهذا بَيِّنٌ، ولا وجهَ لاستفادة ذلك من تكرير «ربَّنا» إلا مِن هذا الوجه. اهـ.

واختار بعضُهم ما ذكرناه أوَّلًا في وجه الاستفادة، وقال: إنَّه معنًى لطيفٌ، ولا يُنافيه الفصل بالنداء؛ لأنَّه اعتراضٌ لتأكيد الأول وتذكيره، فهو كالمنبَّه عليه، فلا حاجةَ إلى تعلُّق الجارِّ بمحذوفٍ مؤخَّرٍ واستفادةِ الحصر من ذلك، وهو الذي ينبغي أنْ يُعوَّل عليه، وبجَعْلِ النداء مؤكِّدًا للأوَّل يندفعُ ما قيل: إنَّ النداء له صدرُ الكلام فلا يتعلَّق ما بعده بما قبله، فلابدَّ من تقدير متعلَّق، ووجْهُ الاندفاع ظاهرٌ.

وقيل: اللامُ لام الأمر، والفعلُ مجزومٌ بها، والمرادُ هو الدعاء لهم بإقامة الصلاة، كأنَّه طلب منهم الإقامة وسأل من الله تعالى أنْ يُوفِّقهم لها، ولا يخفَى بُعده، وأَبعدُ منه ما قاله أبو الفرج ابنُ الجوزي: إنَّ اللام متعلِّقةٌ بقوله: «واجْنُبْنِي وبَنِيَّ أنْ نعبدَ الأصنام»(٢). وفي قوله: «ليقيموا» بضمير الجمع على ما في «البحر» دلالة على أنَّ الله تعالى أعلَمه بأنَّ ولدَه إسماعيلَ عليه السلام سيعقب هنالك ويكونُ له نسلٌ(٣).

﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ﴾ أي: أفئدةً من أفئدتهم ﴿تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ أي: تُسرع إليهم شوقًا ووِدادًا، فـ «من» للتبعيض، ولذا قيل: لو قال عليه السلام: أفئدةَ الناس، لازدحمَتْ عليهم فارسُ والرومُ، وهو مبنيٌّ على الظاهر من إجابة دعائه

---

(١) الموطأ ٢/ ٤٩٧، ونقله عنه بواسطة حاشية الشهاب ٥/ ٢٧٢.
(٢) زاد المسير ٤/ ٣٦٧، ونقله عنه بواسطة البحر المحيط ٥/ ٤٣٢.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٣٢.

عليه السلام، وكونِ الجمع المضاف يُفيد الاستغراق. وروي عن ابن جبير أنَّه قال: لو قال عليه السلام: أفئدةَ الناس، لحجَّت البيتَ اليهودُ والنصارى.

وتعقِّب بأنَّه غيرُ مناسبٍ للمقام، إذ المسؤول توجيهُ القلوب إليهم للمساكنة معهم لا توجيهُها إلى البيت للحجِّ، وإلا لقيل: تهوي إليه، فإنَّه عينُ الدعاء بالبلدية قد حُكي بعبارةٍ أخرى. اهـ.

وأنت تعلم أنَّه لا منافاةَ بين الشرطيَّة في المرويّ وكون المسؤول توجيهَ القلوب إليهم للمساكنة معهم، وقد جاء نحو تلك الشرطيَّة عن ابن عباس ومجاهد كما في «الدر المنثور» وغيره[(١)]، على أنَّ بعضهم جعل هذا دعاءً بتوجيه القلوب إلى البيت، فقد أخرج ابنُ أبي شيبة وابنُ جرير وابنُ المنذر وابنُ أبي حاتم عن الحكم قال: سألتُ عكرمةَ وطاوسًا وعطاء بن أبي رباح عن هذه الآية «فاجعل».. إلى آخره، فقالوا: البيت تَهوي إليه قلوبُهم: يأتونه[(٢)]. وفي لفظٍ قالوا: هواهم إلى مكة: أنْ يحجُّوا[(٣)]. نعم هو خلافُ الظاهر.

وجوّز أنْ تكون «من» للابتداء كما في قولك: القلب منه سقيم، تريدُ قلبَه، فكأنَّه قيل: أفئدةَ ناسٍ، واعترضَه أبو حيان بأنَّه لا يظهرُ كونُها للابتداء، لأنَّه لا فعلَ هنا يُبتَدَأُ فيه لغايةٍ ينتهي إليها، إذ لا يصحُّ ابتداءُ جعل أفئدة من الناس[(٤)].

وتعقبه بعضُ الأجلَّة بقوله: وفيه بحثٌ، فإنَّ فعل الهويِّ للأفئدة يُبتَدأُ به لغايةٍ ينتهي إليها، ألا يرى إلى قوله: «إليهم». وفيه تأمُّل. اهـ.

وكأنَّ فيه إشارةً إلى ما قيل: من أنَّ الابتداء في «مِن» الابتدائية إنما هو من متعلّقها لا مطلقاً، وإن جعلناها متعلِّقةً بـ «تهوي» لا يظهرُ لتأخيره ولتوسيط الجارِّ فائدةٌ.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٨٧، وأخرجه الطبري ١٣/ ٧٠٠، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٩٩٦).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ٤/ ١١١، وتفسير الطبري ١٣/ ٦٩٩، وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٨٧.

(٣) الطبري ١٣/ ٦٩٩، والجعديات (٢٤٩)، والدر المنثور ٤/ ٨٧.

(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٣٢.

وذكر مولانا الشهابُ في توجيه الابتداء وترجيحِهِ على التبعيض كلامًا لا يخلو عن بحثٍ، فقال: اعلم أنَّه قال في «الإيضاح»: إنَّه قد يكونُ القصدُ إلى الابتداء دونَ أنْ يقصد انتهاء مخصوص إذا كان المعنَى لا يقتضي إلا المبتدأ منه، كـ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وزيدٌ أفضلُ من عمرٍو. وقد قيل: إنَّ جميع معاني «مِن» دائرةٌ على الابتداء، والتبعيضُ هنا لا يظهرُ فيه فائدةٌ كما في قوله: ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾ [مريم: ٤] فإنَّ كون قلب الشخص وعظمه بعضًا منه معنًى مكشوف غير مقصودٍ بالإفادة، فلذا جعلت للابتداء، والظرفُ مستقرٌّ للتفخيم، كأنَّ ميلَ القلب نَشأ من جملته، مع أنَّ ميلَ جملة كلِّ شخصٍ من جهة قلبه، كما أنَّ سقم قلبِ العاشق نَشأ منه، مع أنَّه إذا صَلُح صَلُح البدنُ كلُّه، وإلى هذا نَحَا المحقِّقون من شرَّاح «الكشاف»، لكنَّه معنًى غامضٌ، فتدبَّره[(١)].

والأفئدةُ مفعولٌ أوَّل لـ «اجعل»، وهو جمعُ: فؤادٍ، وفسَّروه على ما في «البحر» وغيره بالقلب، لكنْ يقال له[(٢)]: فؤاد، إذا اعتُبر فيه معنى التفؤُّد، أي: التوقُّد، يقال: فأدْتُ اللحمَ، أي: شويتُه، ولحمٌ فئيدٌ، أي: مشويٌّ، وقيل: الأفئدة هنا: القِطَعُ من الناس، بلغة قريش، وإليه ذهب ابنُ بحر. والمفعولُ الثاني جملة «تهوي»، وأصلُ الهويِّ: الهبوطُ بسرعةٍ، وفي كلام بعضهم السرعةُ، وكان حقُّه أنْ يُعدَّى باللام كما في قوله:

حتى إذا ما هَوَتْ كفُّ الوليدِ لها ... طارَتْ وفي كفِّه مِن رِيْشها بِتَكُ[(٣)]

وإنما عُدِّي بـ «إلى» لتضمينه معنى الميل كما في قوله:

تَهويْ إلى مكةَ تبغي الهدَى ... ما مؤمنُ الجنِّ كأنجاسها[(٤)]

---

(١) حاشية الشهاب ٥/ ٢٧٣.

(٢) ليس في الأصل.

(٣) البيت لزهير بن أبي سلمى، وهو في شرح ديوانه ص١٧٥، واللسان (كفف)، ووقع في (م): تبك، بدل: بتك. وبتك: قطع، واحدها: بتكة، شرح ثعلب.

(٤) البيت من هواتف الجانِّ، هُتف به لسواد بن قارب ﷺ، وأخرج قصة إسلامه مع الشِّعر أبو نعيم في الدلائل (٦٢)، وذكرها ابن عبد البر في الاستيعاب ٤/ ٢٩٥، وابن كثير في البداية والنهاية ٣/ ٥٦٣ وما بعد، وابن حجر في الإصابة ٤/ ٢٩٤، وعجز البيت يُروى بعدَّة روايات متقاربة، ينظر البداية والنهاية. وأصل القصة أخرجها البخاري (٣٨٦٦).

ولما كان ما تقدَّم كالمبادي لإجابة دعائه عليه السلام وإعطاء مسؤوله جاء بالفاء في قوله: «فاجعل» إلى آخره.

وقرأ هشام: «أفئِيدَة» بياءٍ بعد الهمزةِ، نصَّ عليه الحُلواني عنه[1]، وخُرِّج ذلك على الإشباع كما في قوله:

أعـوذُ بـالله مِـن الـعَـقْـرابِ   الـشـائـلاتِ عُـقَـدَ الأذنـابِ[2]

ولمَّا كان ذلك لا يكونُ إلا في ضرورة الشعر عند بعضهم قالوا: إنَّ هشامًا قرأ بتسهيل الهمزة كالياء، فعبَّر عنها الراوي بالياء، فظنَّ مَن أخطأ فهمه أنَّها بياءٍ بعد الهمزة، والمرادُ بياء عوضًا من الهمزة. وتعقَّب ذلك الحافظُ أبو عمرو الداني: بأنَّ النقَلَةَ عن هشام كانوا مِن أعلم الناس بالقراءة ووجوهها، فهم أجلُّ مِن أنْ يُعتَقَدَ فيهم مثل ذلك[3].

وقرئ: «آفدة» على وَزْن: ضاربة[4]، وفيه احتمالان: أحدُهما: أنْ يكون قُدِّمَت فيه الهمزةُ على الفاء فاجتمع همزتان[5]، ثانيتُهما ساكنةٌ فقُلبت ألفًا، فوزْنُه: أَعْفِلة، كما قيل في «أَدْوُر» جمع «دار»، قُلِبَت فيه الواوُ المضمومةُ همزةً، ثم قُدِّمت وقُلبت ألفًا فصار: آدُر.

وثانيهما: إنَّه اسم فاعلٍ من: أَفِدَ يأفَدُ، بمعنى: قَرُبَ وَدَنا، ويكون بمعنى عَجِلَ وهو صفةٌ لمحذوف، أي: جماعة أو جماعات آفِدة.

وقرئ: «أَفِدة» بفتح الهمزة من غير مدٍّ، وكسر الفاء بعدها دال[6]، وهو إمَّا صفة

---

(١) التيسير ص١٣٥، والنشر ٢/ ٢٩٩.

(٢) البيت في الجمل للفراهيدي ص٢٤٤، وضرائر الشعر ص٣٣، ورسالة الملائكة ص٢١٣، والمغني ص٤٨٧، واللسان (سبسب)، وتاج العروس (عقرب)، واللباب ١١/ ٣٩٧ دون نسبة.

(٣) ينظر النشر ٢/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠.

(٤) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٩ لابن كثير، وهي في الكشاف ٢/ ٣٨٠، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٢، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٧٣، والكلام الآتي منه أيضًا.

(٥) قبلها في الأصل: فيه.

(٦) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٩ لعيسى بن عمر، وهي في الكشاف ٢/ ٣٨٠، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٢.

من أَفِد بوزن: خشنة، فيكونُ بمعنى آفدة في القراءة الأُخرَى، أو أصلُه أفئدة، فنُقلَت حركةُ الهمزة إلى ما قبلها ثم طُرِحَت، وهو وجهٌ مشهورٌ عند الصرفيين والقرَّاء.

قال الأوَّلون: إذا تحرَّكت الهمزةُ بعد ساكنٍ صحيح تبقى، أو تنقل حركتها إلى ما قبلها وتحذف، ولا يجوزُ جعلُها بَيْنَ بَيْن؛ لما فيه من شبه التقاء الساكنَين، وقال صاحب «النشر» من الآخرين: الهمزةُ المتحركة بعد حرفٍ صحيح ساكنٍ ك: مسؤولًا وأفئدة وقرآن وظمآن، فيها وجهٌ واحدٌ وهو النقلُ، وحُكي فيه وجهٌ ثانٍ وهو بَيْنَ بَيْن، وهو ضعيفٌ جدًّا، وكذا قال غيرُه منهم[١]، فما قيل: إنَّ الوجه إخراجُها بَيْنَ بَيْنٍ، ليس بالوجه.

وقرأت أمُّ الهيثم: «أفوِدة» بالواو المكسورة بدل الهمزة، قال صاحب «اللوامح»: وهو جمعُ: وَفْد، والقراءة حسنة، لكنِّي لا أعرفُ هذه المرأة، بل ذكرها أبو حاتم[٢]. اهـ.

وقال أبو حيان[٣]: يحتمل أنَّه أبدل الهمزةَ في فؤاد، ثم جُمع وأُقرَّت الواو في الجمع إقرارَها في المفرد، أو هو جَمع وَفْد كما قال صاحب «اللوامح» وقُلب، إذ الأصلُ: أوفدة، وجَمْعُ فَعْل على أَفْعِلَة شاذٌّ، نحو نجد وأنجدة، ووَهْي وأَوهية، وأمُّ الهيثم: امرأةٌ نُقِل عنها شيءٌ من لغات العرب. وقرأ زيد بن عليٍّ ﵄: «إفادَة» على وزن إمَارَة[٤]، ويظهرُ أنَّ الهمزة بدلٌ من الواو المكسورة كما قالوا: إشَاح في وِشاح، فالوزن: فِعالة، أي: فاجعل ذوي وِفادة، ويجوزُ أنْ يكونَ مصدر أفاد إفادةً، أي: ذوي إفادة، وهم الناس الذين يُفيدون ويُنتَفَع بهم.

وقرأ مسلمةُ بنُ عبد الله: «تُهوَى» بضمِّ التاء مبنيًّا للمفعول[٥]، من أهوى المنقول بهمزة التعدية من هَوِي اللازم، كأنه قيل: يسرع[٦] بها إليهم.

---

(١) ينظر النشر ١/٤٠٨ و٤٣٣، ونقله عنه بواسطة حاشية الشهاب ٥/٢٧٣.
(٢) البحر المحيط ٥/٤٣٢.
(٣) البحر المحيط ٥/٤٣٢ ـ ٤٣٣.
(٤) البحر المحيط ٥/٤٣٣.
(٥) المحتسب ١/٣٦٤، والبحر المحيط ٥/٤٣٣.
(٦) في الأصل: تسرع، والمثبت من (م) والبحر المحيط.

وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه وجماعة من أهله ومجاهد: «تَهوى» مضارع هَوِي[1]، بمعنى: أحبَّ، وعدِّي بـ: «إلى»؛ لما تقدَّم.

﴿وَٱرْزُقْهُم﴾ أي: ذرِّيَّتي الذين أسكنتُهم هناك، وجوّز أن يريدَهم والذين ينحازون إليهم من الناس، وإنما لم يخصَّ عليه السلام الدعاء بالمؤمنين منهم كما في قوله: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦] اكتفاءً ـ على ما قيل ـ بذكر إقامة الصلاة.

﴿مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ من أنواعها، بأن تجعلَ بقربهم قُرًى يحصلُ فيها ذلك، أو تُجبَى إليهم من الأقطار الشاسعة، وقد حصل كلا الأمرَين، حتى إنَّه يجتمعُ في مكة المكرمةَ البواكير[2] والفواكه المختلفة الأزمان من الربيعيَّة والصيفيَّة والخريفيَّة في يومٍ واحد.

أخرج ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم عن محمد بنِ مسلم الطائفي أنَّ الطائف كانت من أرض فلسطينَ، فلمَّا دعا إبراهيمُ عليه السلام بهذه الدعوة رَفَعها الله تعالى ووَضَعها حيث وضعها رزقًا للحرم[3]. وفي رواية: أنَّ جبريل عليه السلام اقتلعها فجاء وطافَ بها حولَ البيت سبعًا، ولذا سُمِّيت الطائف ثم وَضَعها قريبَ مكة[4]. وروي نحو ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرج ابنُ أبي حاتم عن الزهري أنَّ الله تعالى نَقَل قريةً من قُرَى الشام فوضعها بالطائف لدعوة إبراهيم عليه السلام[5].

والظاهر أنَّ إبراهيمَ عليه السلام لم يكن مقصودُه من هذا الدعاءِ نقلَ أرضٍ مُنبتةٍ من فلسطينَ أو قريةٍ من قُرَى الشام، وإنَّما مقصودُه عليه السلام أنْ يرزقَهم سبحانه من الثمرات، وهو لا يتوقَّف على النقل، فليُنْظَر ما وجهُ الحكمة فيه، وأنا لستُ على يقينٍ من صحَّته ولا أُنكر ـ والعياذ بالله تعالى ـ أنَّ الله جلَّ وعلا على كلِّ شيءٍ قديرٍ، وأنه سبحانه يفعلُ ما يشاء ويحكم ما يريد.

---

(١) المحتسب ١/ ٣٦٤، والبحر ٥/ ٤٣٣.
(٢) في الأصل: البوكير، والمثبت من (م) والبحر المحيط ٥/ ٤٣٣.
(٣) الطبري ١٣/ ٧٠١، وتفسير ابن أبي حاتم ١/ ٢٣٠.
(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٣٣.
(٥) تفسير ابن أبي حاتم ١/ ٢٣٠.

﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ تلك النعمةَ بإقامة الصلاة وأداء سائرِ مراسم العبوديَّة، واستدلَّ به على أنَّ تحصيلَ منافع الدنيا إنما هي ليُستعان بها على أداء العبادات وإقامة الطاعات، ولا يخفَى ما في دعائه عليه السلام من مراعاة حسنِ الأدب والمحافظة على قوانين الضراعة وعَرْض الحاجة واستنزال الرحمة واستجلاب الرأفة، ولذا مَنَّ عليه بحُسن القَبول وإعطاء المسؤول، ولا بِدْعَ في ذلك من خليل الرحمن عليه السلام.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ﴾ من الحاجات وغيرها، وأخرج ابنُ أبي حاتم عن إبراهيمَ النخعي أنَّ مرادَه(١) عليه السلام ما نُخفي من حبِّ إسماعيلَ وأُمِّه، وما نُعلنُ لسارةَ من الجفاء لهما(٢). وقيل: ما نُخفي من الوَجْد لما وقَعَ بيننا من الفرقة، وما نعلنُ من البكاء والدعاء، وقيل: ما نُخفي من كآبة الافتراق، وما نعلن مما جَرَى بيننا وبين هاجرَ عند الوداع من قولها: إلى مَن تَكِلُنا؟ وقولي لها: إلى الله تعالى. و«ما» في جميع هذه الأقوال موصولةٌ، والعائدُ محذوف، والظاهرُ العموم، وهو المختار.

والمرادُ بـ «ما نُخفي» على ما قيل ما يقابل «ما نعلن» سواء تعلَّقَ به الإخفاءُ أو لا، أي: تعلم ما نُظهرُه وما لا نظهرُه، فإنَّ علمه تعالى متعلِّقٌ بما لا يخطُر بباله عليه السلام من الأحوال الخفيَّة، وتقديمُ «ما نُخفي» على «ما نُعلنُ» لتحقيق المساواة بينهما في تعلُّق العلم على أبلغ وجهٍ، فكأنَّ تعلُّقه بما يُخفي أقدمُ منه بما يُعلن، أو لأنَّ مرتبةَ السرِّ والخفاء متقدِّمةٌ على مرتبة العَلَن، إذ ما مِن شيءٍ يُعلَن إلا وهو قبل ذلك خفيٌّ، فتعلُّقُ علمه تعالى بحالته الأولى أقدمُ من تعلُّقه بحالته الثانية.

وجعل بعضُهم «ما» مصدريةً، والتقديمُ والتأخيرُ؛ لتحقيق المساواة أيضاً، ومن هنا قيل: أي: تعلمُ سرَّنا كما تعلم علننا.

والمقصودُ من فحوى كلامه عليه السلام أنَّ إظهار هذه الحاجاتِ وما هو من مباديها وتَتمَّاتها ليس لكونها غيرَ معلومةٍ لك، بل إنَّما هو لإظهار العبودية،

---

(١) في الأصل: أنه مرادة.
(٢) عزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٨٧ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

والتخشُّع لعظمتك، والتذلُّل لعزَّتك، وعَرْض الافتقار لما عندك، والاستعجال لنيل أيادِيْك.

وقيل: أراد عليه السلام أنَّك أعلمُ بأحوالنا ومصالحنا وأرحمُ بنا من أنفسنا فلا حاجةَ لنا إلى الطلب، لكنْ ندعوك لإظهار العبوديَّة.. إلى آخره، وقد أشار السهروردي إلى أنَّ ظهورَ الحال يُغني عن السؤال بقوله:

ويَمنعُني الشكوى إلى الناس أنَّني عليلٌ ومَن أشكو إليه عليلُ
ويَمنعُني الشكوى إلى الله أنَّه عليمٌ بما أشكوه قبل أقولُ[(١)]

وتكريرُ النداء؛ للمبالغة في الضراعة والابتهال، وضميرُ الجماعة ـ كما قال بعضُ المحقِّقين ـ لأنَّ المراد ليس مجرَّدَ علمه تعالى بما يُخفي وما يُعلن، بل بجميع خفايا الملك والملكوت، وقد حقَّقه عليه السلام بقوله على وجه الاعتراض: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ لما أنَّ عِلْمَه تعالى ذاتيٌّ فلا يتفاوت بالنسبة إليه معلومٌ دون معلوم.

وقال أبو حيَّان: لا يظهرُ تفاوتٌ بين إضافة «ربَّ» إلى ياء المتكلِّم وبين إضافته إلى جمع المتكلِّم[(٢)]. اهـ. ومما نقلنا يُعلَم وجهُ إضافة «ربَّ» هنا إلى ضمير الجمع، ولا أدري ماذا أراد أبو حيان بكلامه هذا، وما يرد عليه أظهرُ مِن أنْ يخفَى، وإنما قال عليه السلام: «وما يخفَى» إلى آخره، دون أن يقول: ويعلم ما في السماوات والأرض؛ تحقيقاً لما عناه بقوله: «تعلمُ ما نُخفي» من أنَّ علمه تعالى بذلك ليس على وجهٍ يكونُ فيه شائبةُ خفاءٍ بالنسبة إلى علمه تعالى، كما يكون ذلك بالنسبة إلى علوم المخلوقات.

وكلمةُ «في» متعلِّقة بمحذوفٍ وقع صفةً لـ «شيء» أي: لشيءٍ كائنٍ فيهما أعمُّ من أنْ يكونَ ذلك على وجه الاستقرار فيهما، أو على وجه الجزئيَّة منهما، وجوَّز أنْ تتعلَّق بـ «يَخفَى» وهو كما ترى.

---

(١) البيتان للأمير تميم بن المعز كما في زهر الآداب ١/ ٤٣٤بنحوهما، وهما بتمامهما في حاشية الشهاب ٥/ ٢٧٣ ـ٢٧٤ دون نسبة.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٣٣.

وتقديمُ «الأرض» على «السماء» مع توسيط «لا» بينهما باعتبار القُرب والبعد مِنَّا المستعدِّين للتفاوت بالنسبة إلى علومنا. والمراد من «السماء» ما يشمل السماوات كلِّها، ولو أُريد من «الأرض» جهةُ السفل، ومن «السماء» جهةُ العلوِّ كما قيل، جاز[١].

والالتفاتُ من الخطاب إلى الاسم الجليل؛ للإشعار بعلَّة الحكم والإيذان بعمومه؛ لأنَّه ليس بشأنٍ يختصُّ به أو بمَنْ يتعلَّق به، بل شاملٌ لجميع الأشياء، فالمناسبُ ذكرُه تعالى بعنوانٍ مُصَحِّح لمبدئيَّة الكُلِّ.

وعن الجبَّائي أنَّ هذا من كلام الله تعالى شأنه واردٌ بطريق الاعتراض لتصديقه عليه السلام كقوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤] والأكثرون على الأوَّل. و«مِن» على الوجْهَين؛ للاستغراق.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾ أي: مع كِبَرِ سِنِّي ويأسي عن الولد، فـ «على» بمعنى «مع» كما في قوله:

إنِّي على ما تَرَيْن من كِبَرِي أعرفُ مِن أينَ تُؤكلُ الكتفُ[٢]

والجارُّ والمجرور في موضع الحال، والتقييد بذلك؛ استعظاماً للنعمة وإظهاراً لشكرها، ويصحُّ جعل «على» بمعناها الأصلي، والاستعلاء مجازيٌّ كما في «البحر»[٣]، ومعنى استعلائه على الكِبَر أنَّه وَصَل غايتَه، فكأنَّه تجاوَزَه وعلا ظهرَه، كما يقال: على رأس السنة، وفيه من المبالغة ما لا يخفَى.

وقال بعضُهم: لو كانت للاستعلاء لكان الأنسبُ جَعْل الكِبَر مستعلياً عليه، كما في قولهم: عليَّ دَيْنٌ، وقوله: ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ﴾ [الشعراء: ١٤] بل الكبر أولى بالاستعلاء منهما حيث يَظهرُ أثرهُ في الرأس: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤] نعم يُمكن أنْ تَجري على حقيقتها بجعلها متعلِّقةً بالتمكُّن والاستمرار، أي: متمكِّناً

---

(١) في هامش (م): قيل: وهو أوفق بإفراد السماء. اهـ منه.

(٢) كتاب الأمثال ص١٠٠، وفصل المقال ص١٤٢، وتفسير الرازي ١٩/ ١٣٨، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٤.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٣٤.

مستمرًّا على الكبر، وهو الأنسبُ لإظهار ما في الهيئة من الآية حيث لم يكُن في أوَّل الكبر. اهـ. وفيه غفلةٌ عمَّا ذكرنا.

﴿إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه وُهِبَ له إسماعيل وهو ابنُ تسع وتسعين سنة، ووُهِبَ له إسحاق وهو ابنُ مئةٍ واثنتَي عشرةَ سنة، وفي روايةٍ أنَّه ولد له إسماعيل لأربعٍ وستِّين، وإسحاق لسبعين، وعن ابن جبير: لم يُولد لإبراهيم عليه السلام إلا بعد مئةٍ وسبعَ عشرةَ سنة.

﴿إِنَّ رَبِّى﴾ ومالكَ أمري ﴿لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ أي: لَمجِيْبُه، فالسمع بمعنى القَبول، والإجابةُ مجازٌ كما في: «سمع الله لمن حمده»[1]، وقولهم: سمع المَلِكُ كلامَه: إذا اعتدَّ به وقَبِلَه، وهو فَعيلٌ من أمثلة المبالغة، وأعمَلَه سيبويه[2] وخالفَ في ذلك جمهورَ البصريِّين، وخالفَ الكوفيُّون فيه[3] وفي إعمال سائر أمثلتها، وهو - إذا قلنا بجواز عملِهِ - مضافٌ لمفعولِهِ إنْ أُريدَ به المستقبل، وقيل: إنَّه غيرُ عاملٍ؛ لأنَّه قصد به الماضي أو الاستمرار.

وجوَّز الزمخشريُّ أنْ يكونَ مضافاً لفاعله المجازيِّ، فالأصلُ: سميعٌ دعاؤُه، بجعل الدعاءِ نفسِه سامعاً، والمراد أنَّ المدعوَّ - وهو الله تعالى - سامعٌ[4].

وتعقَّبه أبو حيَّان بأنَّه بعيدٌ؛ لاستلزامه أنْ يكونَ من باب الصفة المشبَّهة، وهو متعدٍّ، ولا يجوزُ ذلك إلا عند الفارسيِّ حيث لا يكونُ لَبْسٌ، نحو: زيدٌ ظالم العبيد، إذا عُلِمَ أنَّ له عبيداً ظالمين، وها هنا فيه إلباس؛ لظهور أنَّه من إضافة المثال للمفعول[5]. انتهى، وهو كلامٌ متينٌ.

والقولُ بأنَّ اللَّبْسَ منتفٍ لأنَّ المعنَى على الإسناد المجازيِّ، كلامٌ واهٍ؛ لأنَّ المجاز خلافُ الظاهر، فاللَّبس فيه أشدُّ.

---

(١) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٦٨٩)، ومسلم (٤١١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وتقدم ٢/ ٣١٧.
(٢) الكتاب١/ ١١٠، ونقله عنه بواسطة البحر المحيط ٥/ ٤٣٤.
(٣) في الأصل: في ذلك، والمثبت من (م) والبحر المحيط ٥/ ٤٣٤.
(٤) الكشاف ٢/ ٣٨١، ونقله عنه بواسطة حاشية الشهاب ٥/ ٢٧٤.
(٥) البحر المحيط ٥/ ٤٣٤، وكلام الفارسي منه.

ومثلُه القول بأنَّ عدم اللَّبس إنَّما يُشترط في إضافته إلى فاعله على القطع، وهذا كما قال بعضُ الأجلَّة مع كونه من تَتمَّة الحمد والشكر، لما فيه من وَصْفه تعالى بأنَّ قبولَ الدعاء عادتُه سبحانه المستمرَّةُ تعليلٌ على طريق التذييل للهبة المذكورة، وفيه إيذانٌ بتضاعف النعمةِ فيها حيث وقعَت بعد الدعاء بقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠] فاقترنَت الهبةُ بقَبول الدعوة.

وذكر بعضُهم أنَّ موقع قوله: «الحمد لله» وتذييله موقع الاعتراض بين أدعيته عليه السلام في هذا المكانِ تأكيداً للطلب بتذكير ما عَهِدَ من الإجابة، يتوسَّل إليه سبحانه بسابق نعمته تعالى في شأنه، كأنَّه عليه السلام يقول: اللهمَّ استجب دعائي في حقِّ ذرِّيَّتي في هذا المقام، فإنَّك لم تزل سميعَ الدعاء، وقد دعوتُك على الكبر أنْ تهَبَ لي ولداً فأجبتَ دعائي ووهبتَ[1] لي إسماعيل وإسحاق، ولا يخفَى أنَّ إسحاق عليه السلام لم يكن مولوداً عند دعائه عليه السلام السابق، فالوجهُ أنْ لا يجعل ذلك اعتراضاً، بل يحمل على أنَّ الله تعالى حكى جُملاً مما قاله إبراهيم عليه السلام في أحايينَ مختلفةٍ تشتركُ كلُّها فيما سيقَ له الكلامُ من كونه عليه السلام على الإيمان والعمل الصالح وطلب ذلك لذرِّيَّته وأنَّ ولده الحقيقيَّ من تَبِعَه على ذلك، فتَرَكَ العنادَ والكفرَ، وقد ذكر هذا صاحبُ «الكشف».

ومما يعضدُه ما أخرجه ابنُ جرير وابنُ المنذر وابنُ أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال في قوله: (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ) إلخ: قال هذا بعد ذلك بحين[2].

ووحَّد عليه السلام الضميرَ في «رب» وإنْ كان عقيب ذكر الولَدين؛ لما أنَّ نعمة الهبةِ فائضةٌ عليه عليه السلام خاصَّةً، وهما من النعم لا مِن المُنعَم عليهم.

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ معدِّلاً لها، فهو مجازٌ من: أقمتُ العودَ: إذا قوَّمتَه، فأراد[3] بهذا الدعاء الديمومةَ على ذلك، وجوَّز بعضُهم أنْ يكون المعنى مواظباً عليها، وبعضُ عظماء العلماء أخذَ الأمرَين في تفسير ذلك على أنَّ الثاني قيدٌ

---

(١) في (م): وهبت. والمثبت من الأصل وتفسير البيضاوي ٥/ ٢٧٤.
(٢) عزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٨٧.
(٣) في (م): وأراد.

للأوَّل، مأخوذٌ من صيغة الاسم والعدول عن الفعل، كما أنَّ الأوَّل مأخوذٌ من موضوعه على ما قيل، فلا يلزمُ استعمالُ اللفظِ في معنَيين مجازيَّيْن.

وتوحيدُ ضمير المتكلِّم مع شمول دعوته عليه السلام لذرِّيَّته أيضاً حيث قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيٓ﴾ للإشعار بأنَّه المقتدَى في ذلك، وذرِّيَّته أتباعٌ له[1]، فإنَّ ذِكرَهم بطريق الاستطراد، «ومِن» للتبعيض، والعطفُ كما قال أبو البقاء على مفعول «اجعل» الأول، أي: ومِن ذرِّيَّتي مقيمَ الصلاة[2].

وفي «الحواشي الشهابيَّة»: أنَّ الجارَّ والمجرور في الحقيقة صفةٌ للمعطوف على ذلك، أي: وبعضاً مِن ذرِّيَّتي، ولولا هذا التقديرُ كان ركيكاً[3]، وإنَّما خصَّ عليه السلام هذا الدعاء ببعض ذرِّيَّته؛ لعلمه من جهته تعالى أنَّ بعضاً منهم لا يكونُ مقيمَ الصلاة، بأنْ يكونَ كافراً أو مؤمناً لا يصلِّي.

وجوِّز أنْ يكونَ عَلِمَ من استقرائه عادةَ الله تعالى في الأمم الماضيةِ أنْ يكونَ في ذرِّيَّته مَن لا يُقيمُها، وهذا كقوله: ﴿وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة:١٢٨].

﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾ ظاهرُه: دعائي هذا المتعلِّق بجَعْلي وجَعْل بعضِ ذرِّيَّتي مقيمي الصلاة، ولذلك جيء بضمير الجماعة، وقيل: الدعاء بمعنى العبادة، أي: تقبَّل عبادتي. وتعقَّب بأنَّ الأنسبَ أنْ يُقال فيه: دعاءَنا حينئذ.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وهبيرة عن حفص: «دعائي» بياء ساكنة في الوصل[4]، وفي رواية البزِّيِّ عن ابن كثير أنَّه يصلُ ويقفُ بياء[5]، وقال قنبل: إنَّه يشمُّ الياء في الوصل ولا يُثبتُها ويقفُ عليها بالألف[6].

---

(١) في الأصل: تبع، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٥٤.
(٢) الإملاء ٣/ ٤١١.
(٣) حاشية الشهاب ٥/ ٢٧٤.
(٤) التيسير ص١٣٥، والنشر ٢/ ٣٠١ وهي قراءة ورش وأبي جعفر، وقراءة هبيرة عن حفص في جامع البيان للداني ٢/ ٢٣٥، ومجمع البيان ١٣/ ٢٢٥، وهي خلاف المشهور عن حفص.
(٥) التيسير ص١٣٥، والنشر ٢/ ٣٠١ وهي قراءة يعقوب أيضاً.
(٦) مجمع البيان ١٣/ ٢٢٥، وعنه نقل المصنِّف القراءات.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى﴾ أي[1]: ما فرط منِّي ممَّا أعدُّه ذنباً ﴿وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ أي: لأمِّي وأبي، وكانت أمُّه على ما روي عن الحسن مؤمنةً، فلا إشكال في الاستغفار لها. وأما استغفارُه لأبيه فقد قيل في الاعتذار عنه إنَّه كان قبل أنْ يَتبيَّن له أنَّه عدوٌّ لله سبحانه، والله تعالى قد حَكَى ما قاله عليه السلام في أحايينَ مختلفة، وقيل: إنَّه عليه السلام نَوَى شرطيَّةَ الإسلام والتوبة، وإليه ذهب ابن الخازن[2]. وقيل: أرادَ بوالده نوحاً عليه السلام، وقيل: أراد بوالده آدمَ وبوالدته[3] حوَّاءَ عليهما السلام، وإليه ذهب بعضُ مَن قال بكفر أمِّه، والوجْهُ ما تقدَّم.

وقالت الشيعة: إنَّ والديه عليه السلام كانا مؤمنَين، ولذا دعا لهما، وأمَّا الكافر فأبوه، والمرادُ به عمُّه أو جدُّه لأُمِّه، واستدلُّوا على إيمان أبويه بهذه الآية، ولم يرضوا ما قيل فيها حتى القول الأولَ؛ بناءً على زعمهم أنَّ هذا الدعاءَ كان بعد الكِبَر وهِبَةِ إسماعيل وإسحاق عليهما السلام له، وقد كان تبيَّن له في ذلك الوقت عداوة أبيه الكافر لله تعالى.

وقرأ الحسن بنُ عليٍّ ﷺ وأبو جعفر محمد وزيد ابنا عليٍّ وابنُ يعمر والزهريُّ والنخعيُّ: «ولولَدَي» بغير ألف وبفتح اللام، تثنية: ولد، يعني بهما إسماعيل وإسحاق، وأنكر عاصم الجحدريُّ هذه القراءة ونقل أنَّ في مصحف أبيٍّ: «ولأبوَي»، وفي بعض المصاحف: «ولذريتي»[4]، وعن يحيى بنِ يعمر: «ولوُلْدي» بضمِّ الواو وسكون اللام[5]، فاحتمل أنْ يكون جمعَ ولدٍ ك: أُسْدٍ في أَسَد، ويكون قد دعا عليه السلام لذرِّيَّته، وأنْ يكونَ لغةً في الولد كما في قول الشاعر:

فليتَ زياداً كان في بطن أُمِّه ... وليت زياداً كان وُلْدَ حمارِ[6]

(١) قوله: أي: ليس في الأصل، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٥٤.
(٢) تفسير الخازن ٤/ ٥٠.
(٣) في الأصل: والدته، والمثبت من(م).
(٤) المحتسب ١/ ٣٦٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٣، والكشاف ٢/ ٣٨٢، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٤.
(٥) المحتسب ١/ ٣٦٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٣، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٤.
(٦) اللسان (ولد)، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٣، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٤.

ومثل ذلك العَدَمُ والعُدْمُ، وقرأ ابنُ جبير: «ولوالدِيْ» بإسكان الياء[1] على الإفراد كقوله: واغفر لأبي. ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ كافَّةً من ذرِّيَّته وغيرِهم، ومِن هنا قال الشعبي فيما رواه عنه ابنُ أبي حاتم: ما يسرُّني بنصيبي من دعوة نوحٍ وإبراهيمَ عليهما السلام للمؤمنين والمؤمنات حُمرُ النَّعَم[2]. وللإيذان باشتراك الكلِّ في الدعاء بالمغفرة جيء بضمير الجماعة.

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ أي: يثبُت ويتحقَّق، واستعمال القيام فيما ذكر إمَّا مجازٌ مرسلٌ أو استعارةٌ، ومن ذلك: قامت الحربُ والسوقُ، وجوّز أنْ يكونَ قد شبَّه الحساب برجل قائم على الاستعارة المكنيَّة، وأثبتَ له القيام على التخييل، وأنْ يكون المرادُ: يقومُ أهلُ الحساب، فحذفَ المضاف، أو أسندَ إلى الحساب ما لأهله مجازاً. وجعل ذلك العلَّامة الثاني في شرح «التلخيص» مثل: ضَرَبَه التأديبَ، مما فيه الإسنادُ إلى السبب الغائيِّ، أي: يقومُ أهلُه لأجله. وذكر السيالكوتي إنَّه إنما قال مثله؛ لأنَّ الحساب ليس ما لأجله القيام حقيقةً، لكنَّه شبيهٌ به في ترتُّبه عليه، وفيه بحث.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ خطابٌ لكلِّ مَن توهَّم غفلتَه تعالى، وقيل: للنبيِّ ﷺ كما هو المتبادر، والمرادُ مِن النهي تثبيتُه عليه الصلاة والسلام على ما هو عليه من عدم ظنِّ أنَّ الغفلة تصدرُ منه عزَّ شأنُه كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [القصص:٨٨]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص:٨١] أي: دُمْ على ذلك، وهو مجازٌ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾ [النساء:١٣٦] وفيه إيذانٌ بكون ذلك الحسبانِ واجب الاحترازِ عنه في الغاية حتى نَهَى عنه مَن لا يُمكن تعاطيه.

وجوِّز أنْ يكونَ المرادُ من ذلك على طريق الكناية أو المجاز بمرتبَتَين الوعيدِ والتهديدِ، والمعنى: لا تحسبنَّ الله تعالى يترُكُ عقابَهم لِلُطْفِهِ وكَرمِهِ، بل هو معاقبُهم على القليل والكثير.

وأنْ يكونَ ذلك استعارةً تمثيليَّة، أي: لا تحسبنَّه تعالى يُعاملُهم معاملةَ الغافل

---

(١) المحتسب ١/ ٣٦٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٣، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٥.
(٢) عزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٨٧.

عمَّا يعملون، ولكن معاملة الرقيبِ المحاسِبِ على النقير والقِطْمير، وإلى هذه الأوجه أشار الزمخشري[1].

وتُعقِّبَ الوجهُ الأولُ بأنَّه غيرُ مناسبٍ لمقام النبوَّة؛ لأنَّه عليه الصلاة والسلام لا يُتوهَّمُ منه عدمُ الدوام على ما هو عليه من عدم الحسبانِ ليُثبَّت، وفيه نظر.

وفي «الكشف» الوجْهُ هو الأوَّل؛ لأنَّ في إطلاق الغافل عليه سبحانه ـ وإنْ كان على المجاز ـ رِكَّةً يُصانُ كلام الله تعالى عنها، وفي الكناية النظرُ إلى المجموع، فلم يَجْسُر العاقل عليه تعالى عنه، ويجوز أنْ يكون الأوَّلُ مجازاً في المرتبة الثانية بجَعْل عدم الغفلةِ مجازاً عن العلم، ثم جَعْلُه مجازاً عن الوعيد غيرُ سديدٍ؛ لعدم منافاة إرادةِ الحقيقة.

والأسلم من القيل والقال ما ذكرناه أوَّلاً من كون الخطابِ لكلِّ مَن تَوهَّم غفلتَه سبحانه وتعالى فهو[2] لغير معيَّن، وهو الذي اختاره أبو حيَّان[3]، وعن ابن عيينة: أنَّ هذا تسليةٌ للمظلوم[4] وتهديدٌ للظالم، فقيل له: مَن قال هذا؟ فغضب، وقال: إنَّما قاله مَن علمه. وقد نقل ذلك في «الكشاف»[5]، فاستظهر صاحب «الكشف» كونه تأييداً لكون الخطابِ لغير مُعيَّن.

وجوّز أنْ يكون جارياً على الأوجه، إذ على تقدير اختصاصِ الخطاب به عليه الصلاة والسلام أيضاً لا يخلو عن التسلية للطائفتَين، فتأمَّل.

والمرادُ بالظالمين: أهلُ مكة الذين عُدَّتْ مساويهم فيما سبق، أو جنسُ الظالمين، وهم داخلون دخولاً أوليًّا، والآيةُ على ما قال الطيبي: مردودةٌ إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا﴾ و﴿قُل لِّعِبَادِىَ﴾، واختارَ جعلَها تسليةً له عليه الصلاة والسلام وتهديداً للظالمين على سبيل العموم.

وقرأ طلحة: «ولا تَحْسَب» بغير نون التوكيد[6].

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٨٢.

(٢) قوله: فهو، ليس في (م)، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٥/ ٢٧٥.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٣٥.

(٤) في هامش (م): وروي نحوه عن ميمون بن مهران. ا هـ منه.

(٥) ٢/ ٣٨٢.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٤، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٥.

﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ يُمهلُهم متمتِّعين بالحظوظ الدنيوية ولا يُعجِّلُ عقوبتَهم، وهو استئنافٌ وقع تعليلاً للنهي السابق، أي: لا تحسبنَّ الله تعالى غافلاً عن عقوبة أعمالهم لما تَرَى من التأخير، إنما ذلك لأجل هذه الحكمة، وإيقاعُ التأخيرِ عليهم مع أنَّ المؤخَّرَ إنما هو عذابُهم، قيل: لتهويلِ الخطْبِ وتَفظيعِ الحال ببيان أنَّهم متوجِّهون إلى العذاب مُرْصَدون لأمرٍ ما، لا أنَّهم باقون باختيارهم، وللدلالة على أنَّ حقَّهم من العذاب هو الاستئصالُ بالمرَّة، وأنْ لا يبقَى منهم في الوجود عينٌ ولا أثرٌ، وللإيذان بأنَّ المؤخَّر ليس من جملة العذابِ وعنوانه، ولو قيل: إنَّما يُؤخِّرُ عذابَهم، لَمَا فُهم ذلك.

وقرأ السلميُّ والحسنُ والأعرجُ والمفضل عن عاصم ويونسُ بنُ حبيب عن أبي عمرو وغيرُهم: «نُؤخِّرهم» بنون العظمة[1]، وفيه التفات.

﴿لِيَوْمٍ﴾ هائلٍ ﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ أي: ترتفعُ أبصارُ أهل الموقف، فيدخل في زُمرتهم الظالمون المعهودون دخولاً أوليًّا، أي: تبقَى مفتوحةً لا تَطرِفُ ـ كما قال الراغب[2] ـ مِن هَول ما يَرَونه، وفي «البحر»: شَخَصَ البصر: أحدَّ النظر ولم يَستقرَّ مكانه[3]، والظاهرُ أنَّ اعتبار عدم الاستقرار لجعْلِ الصيغة مِن: شَخَصَ الرجلُ من بلده: إذا خَرَج منها، فإنَّه يلزمُه عدم القرارِ فيها، أو من: شُخِصَ بفلان: إذا وَرَد عليه ما يُقْلِقُه، كما في «الأساس»[4].

وحمل بعضُهم الألف واللام على العهد، أي: أبصارُهم؛ لأنَّه المناسب لما بعده، والظاهرُ لِمَا[5] روي عن قتادة، فقد أخرج عبدُ بنُ حميد وغيرُه عنه أنَّه قال في الآية: شَخَصَت[6] فيه والله أبصارُهم فلا ترتدُّ إليهم[7].

واختار بعضُهم حَمْلَ «أل» على العموم، قال: لأنَّه أبلغُ في التهويل، ولا يلزم

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٩، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٥، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٥.

(٢) مفردات الراغب (شخص).

(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٢٩.

(٤) أساس البلاغة (شخص).

(٥) في (م): مما، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٥/ ٢٧٥.

(٦) في الأصل: تشخصت، والمثبت من (م) والمصدر.

(٧) عزاه لعبد بن حميد السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٨٨، وأخرجه الطبري ١٣/ ٧٠٤.

عليه التكريرُ مع بعض الصفات الآتية، وسيأتي قريباً إن شاء الله تعالى ما قيل فيه.

﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعينَ إلى الداعي، قاله ابنُ جبير وقتادة، وقيَّده في «البحر» بقوله: بذلَّةٍ واستكانةٍ كإسراع الأسيرِ والخائفِ(١). وقال الأخفشُ: مقبلين للإصغاء، وأنشد:

بدجلةَ دارهم ولقد أراهم بدجلةَ مُهطعين إلى السماعِ(٢)

وقال مجاهد: مُديْمِينَ النظرَ لا يَطرِفُون، وقال أحمدُ بنُ يحيَى: المهطع: الذي ينظرُ في ذُلٍّ وخشوعٍ لا يقلع بصره(٣). وروَى ابنُ الأنباري أنَّ الإهطاع: التجميح، وهو: قبضُ الرجلِ ما بين عينَيه(٤)، وقيل: إنَّ الإهطاعَ: مدُّ العُنُقِ، والهَطَعُ: طولُ العنق، وذكر بعضُهم أنَّ أَهْطَعَ وهَطَع بمعنىً، وأنَّ كلَّ المعاني تدورُ على الإقبال.

﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ رافعيها مع الإقبال بأبصارهم إلى ما بين أيديهم من غير التفاتٍ إلى شيءٍ، قاله ابنُ عرفة والقتيبي(٥).

وأنشد الزجَّاج قولَ الشَّمَّاخ يصِفُ إبلاً تَرْعَى أعلا الشجر:

يُباكِرْنَ العِضاهَ بمُقْنَعاتٍ نَواجِذُهنَّ كالحَدَأ الوَقيعِ(٦)

وأنشدَه الجوهريُّ لكون الإقناعِ انعطافَ الأسنان إلى داخل الفم، يقال: فمٌ مُقْنَعٌ، أي: معطوفةٌ أسنانُهُ إلى داخله، وهو الظاهر(٧). وفسَّر ابنُ عباس رضي الله عنهما المُقْنِع بالرافع رأسَه أيضاً، وأنشدَ له قولَ زهير:

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٣٥.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٣٥، والبيت ليزيد بن مُفرِّغ، وهو في ديوانه ص١١٠، وفيه: أهلها، بدل: دارهم.

(٣) قال أحمد بن يحيى ثعلب في مجالسه ص٢٠: المهطع: الذي يرفع رأسه في ذلٍّ.

(٤) إيضاح الوقف والابتداء ص٦٦ ـ ٦٧، والدر المنثور ٤/ ٨٨.

(٥) غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٣٣، ونقله عنه بواسطه البحر المحيط ٥/ ٤٢٩.

(٦) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ١٦٦، والبيت في ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني ص٢٢٠، وفيهما: يبادرن، بدل: يباكرن.

(٧) الصحاح (قنع).

هـجانٌ وحـمـرٌ مـقـنـعـات رؤوسُـهـا وأصـفـرُ مشـمـولٌ مـن الـزهـر فـاقـعُ[1]

ويقال: أَقْنَعَ رأسَه: نكسه وطَأْطَأه، فهو من الأضداد. قال المبرِّدُ: وكونُه بمعنى رَفَع أعرف في اللغة[2]. اهـ. وقيل: ومِن المعنى الأول: قَنِعَ الرجلُ: إذا رَضِي بما هو فيه، كأنَّه رَفَع رأسه عن السؤال، وقد يقال: إنَّه من الثاني، كأنَّه طأطأ رأسه ولم يَرفعْه للسؤال ولم يستشرف إلى غير ما عنده.

ونـصبُ الـوصفَين على أنَّـهما حالان من مضافٍ محذوفٍ، أي: أصحابُ الأبصارِ، بناءً على أنَّه يقال: شَخَصَ زيدٌ ببصره، أو: الأبصار تدلُّ على أصحابها فجاءت الحالُ من المدلول عليه، ذكر ذلك أبو البقاء[3]، وجوَّز أنْ يكون «مُهطعين» منصوباً بفعلٍ مقدَّرٍ، أي: تبصرُهم مهطعين، و«مُقْنعي رؤوسِهم» على هذا قيل: حالٌ من المستتر في «مُهطعين» فهي حالٌ متداخلة، وإضافته غير حقيقيةٍ فلذا وَقَع حالاً.

وقال بعضُ الأفاضل: إنَّ في اعتبار الحاليةِ من أصحاب، حسبما ذُكر أوَّلاً ما لا يخفى من البعد والتكلُّف.

والأَوْلَى - والله تعالى أعلم - جعْلُ ذلك حالاً مقدَّرةً من مفعول «يُؤخِّرُهم» وقوله سبحانه: ﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ بيانُ حالِ عمومِ الخلائق، ولذلك أُوثِر فيه الجملة الفعلية، فإنَّ المؤمنين المخلصين لا يستمرُّون على تلك الحال، بخلاف الكفار حيث يستمرُّون عليها، ولذلك عبَّر عن حالهم بما يدلُّ على الدوام والثبات، فلا يَرِدُ على هذا توهُّم التكرارِ بين «مُهطعين» و«تشخصُ فيه الأبصار» على بعض التفاسير، وبنحو ذلك دفع[4] التكرار بَيْن الأوَّل وقولِه تعالى: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ بمعنى لا يرجعُ إليهم تحريكُ أجفانهم حسبما كان يرجعُ إليهم كلَّ لحظةٍ، فالطَّرْفُ باقٍ على أصل معناه، وهو: تحريكُ الجفن، والكلامُ كنايةٌ عن بقاء العينِ مفتوحةً على حالها.

---

(١) لم نقف عليه في ديوانه، ونسبه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٨٨ إلى ولده كعب، ولم نقف عليه في ديوانه أيضاً، وهو في مسائل نافع ص١٦٥.

(٢) الكامل ٢/ ١٠٢٧.

(٣) الإملاء ٣/ ٤١٣.

(٤) في(م): رفع.

وجوّز أنْ يُراد بالطَّرْف نفسُ الجفن مجازاً؛ لأنَّه يكون فيه ذلك، أي: لا ترجعُ إليهم أجفانُهم التي يكونُ فيها الطرفُ، وقال الجوهري: الطَّرْفُ: العينُ، ولا يُجمَعُ؛ لأنَّه في الأصل مصدرٌ، فيكون واحداً ويكون جمعاً، وذَكَر الآية[1]، وفسَّره بذلك أبو حيَّان أيضاً، وأنشد قولَ الشاعر:

وأغضُّ طَرْفي ما بدَتْ لي جارتي حتى يُواري جارتي مأواها[2]

وليس ما ذكر مُتعيّناً فيه، وهو معنىً مجازيٌّ له وكذا النظر، وجوّز إرادته على معنى: لا يرجع إليهم نظرهم لينظروا إلى أنفسهم فضلاً عن شيءٍ آخر، بل يبقون مبهوتين، ولا ينبغي كما في «الكشف» أنْ يُتخيَّل تعلُّق «إليهم» بما بعده، على معنى: لا يرجِعُ نظرُهم إلى أنفسهم، أي: لا يكون منهم نظرٌ كذلك؛ لأنَّ صلة المصدر لا تتقدَّم، والمسألة في مثل ما نحن فيه خلافيَّة، ودعوى عدمِ الجمع ادَّعاها جمعٌ، وادَّعى أبو البقاء أنَّه قد جاء مجموعاً[3].

هذا، وأنت خبيرٌ بأنَّ لزوم التكرار بين «مهطعين» و«لا يَرتدُّ إليهم طرفُهم» على بعض التفاسير متحقِّقٌ، ولا يدفعُه اعتبار الحاليَّة من مفعول «يُؤخِّرهم» على أنَّ بذلك لا يندفعُ عرقُ التكرار رأساً بين «تَشْخصُ فيه الأبصارُ» وكلٍّ من الأمرَين المذكورَين كما لا يخفى على مَن صحَّت عينُ بصيرته.

وفي «إرشاد العقل السليم»: أنَّ جملةَ «لا يَرتدُّ» إلخ حالٌ، أو بدلٌ من «مُقنعي» إلخ، أو استئنافٌ، والمعنى: لا يزولُ ما اعتراهم من شخوص الأبصار، وتأخيرُه عمَّا هو من تَتِمَّته من الإهطاع والإقناع، مع ما بينه وبين الشخوصِ المذكور من المناسبة لتربية هذا المعنى[4].

وكأنَّه أرادَ بذلك دفع التكرار، وفي انفهامِ لا يزول.. إلخ من ظاهر التركيب خفاءٌ.

---

(١) الصحاح (طرف).

(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٣٠، والبيت لعنترة، وهو في ديوانه ص٧٦.

(٣) الإملاء ٣/ ٤١٣.

(٤) تفسير أبي السعود ٥/ ٥٦.

واعتبر بعضُهم عدمَ الاستقرار في الشخوص وعدم الطرف هنا، فاعترض عليه بلزوم المنافاة.

وأُجيبَ بأنَّ الثاني بيانُ حالٍ آخرَ، وأنَّ أولئك الظالمين تارةً لا تقرُّ أعينُهم، وتارةً يبهتون فلا تطرفُ أبصارُهم، وقد جعل الحالتان المتنافيتان لعدم الفاصل كأنَّهما في حالٍ واحدٍ، كقول امرئ القيس:

مِـكَـرٍّ مِـفَـرٍّ مُـقـبِـلٍ مُـدْبِـرٍ مـعـاً   كجلمودِ صَخْرٍ حطَّه السيلُ من عَلِ[(١)]

وهذا يحتاجُ إليه على تقدير اعتبار ما ذكر، سواءٌ اعتُبر كونُ الشخوص وما بعدَه من أحوال الظالمين بخصوصهم أم لا، والأولى أنْ لا يُعتَبر في الآية ما يحوجُ لهذا الجواب، وأنْ يختار من التفاسير ما لا يلزمه صريحُ التكرار، وأنْ يجعل شخوص الأبصارِ حال عمومِ الخلائق، وما بعدَه حال الظالمين المؤخَّرين، فتأمَّل.

﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ أي: خالية من العقل[(٢)] والفَهْم؛ لفرط الحيرة والدَّهشةِ، ومنه قيل للجبان والأحمق: قلبه هواء، أي: لا قوَّة ولا رَأْيَ فيه، ومن ذلك قول زهير:

كـأنَّ الـرَّحـلَ مِـنـهـا فـوقَ صَـعْـلٍ   مـن الـظِّـلْـمـانِ جُـؤجُـؤهُ هـواءُ[(٣)]

وقول حسان:

ألا بـلِّـغ أبـا سُـفـيـانَ عـنِّـي   فـأنـتَ مُـجـوَّفٌ نَـخِـبٌ هـواءُ[(٤)]

وروي معنى ذلك عن أبي عبيدة[(٥)] وسفيان، وقال ابنُ جريج: صفرٌ من الخير

---

(١) ديوان امرئ القيس ص١٩.
(٢) في الأصل: عن العقل، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٥٦.
(٣) ديوان زهير ص٦٣، قوله: صَعْل، أي: دقيق الرأس والعنق، وظليم: هو الذكر من النعام، جمعها: ظِلمان. قال ثعلب في شرحه للديوان: كأن الرحل منها: من هذه الناقة، فوق صعل: فوق ظليم دقيق العنق صغير الرأس، جؤجؤه: صدره، هواء: لا مخّ فيه. قال الشهاب الخفاجي في حاشيته على البيضاوي ٥/ ٢٧٦: يصف ناقته بالسرعة في السير، وتشبيهها بالنعام وهو يوصف بالجبن والخوف وسرعة المشي، فإذا خاف كان أسرع وأجدَّ في السير.
(٤) ديوان حسان ص٩.
(٥) مجاز القرآن ١/ ٣٤٤.

خاليةٌ منه. وتُعقِّب بأنَّه لا يناسبُ المقام. وأخرج ابنُ أبي شيبة وابنُ المنذر عن ابن جبير أنَّه قال: أي: تمورُ في أجوافهم إلى حلوقهم ليس لها مكانٌ تستقرُّ فيه(١). والجملةُ في موضع الحال أيضاً، والعامل فيها إمَّا «يرتَدُّ» أو ما قبلَه من العوامل الصالحة للعمل. وجوِّز أنْ تكونَ جملةً مستقلةً.

وإلى الأوَّل ذهب أبو البقاء وفسَّر «هواء» بفارغة، وذَكرَ أنَّه إنَّما أُفردَ مع كونه خبراً لجمع؛ لأنَّه بمعنى فارغة، وهو يكون خبراً عن جمع كما يقال: أفئدة فارغة؛ لأنَّ(٢) تاء التأنيث فيه يدلُّ على تأنيث الجمع الذي في «أفئدتهم»، ومثل ذلك: أحوالٌ صعبة، وأفعالٌ فاسدة(٣).

وقال مولانا الشهاب: الهواء مصدرٌ، ولذا أُفرِدَ(٤). وتفسيرُه باسم الفاعل كالخالي بيانٌ للمعنى المرادِ منه المصحِّح للحمل، فلا يُنافي المبالغة في جَعْل ذلك عينَ الخلاء.

والمتبادرُ من كلام غيرِ واحدٍ أنَّ الهواء ليس بمعنى الخلاء، بل بالمعنى الذي يَهبُّ على الذِّهن من غير إعمال مروحة الفكر، ففي «البحر» بعد سرد أقوالٍ لا(٥) يقضي ظاهرُها بالمصدرية: أنَّ الكلامَ تشبيهٌ محضٌ؛ لأنَّ الأفئدةَ ليست بهواءٍ حقيقةً. ويحتمل أن يكونَ التشبيهُ في فراغها من الرجاء والطمع في الرحمة، وأنْ يكونَ في اضطراب أفئدتهم وجَيَشَانها في الصدور وأنَّها تجيء وتذهب وتبلغ الحناجر(٦). وهذا في معنى ما رُوي آنفاً عن ابن جبير.

وذكر في «إرشاد العقل السليم» ما هو ظاهر في أنَّ الكلامَ على التشبيه أيضاً حيث قال بعدَ تفسير ذلك بما ذكرنا أوَّلاً: كأنَّها نفسُ الهواء الخالي عن كلِّ شاغلٍ(٧).

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٨٨.
(٢) في الأصل: لأنه، والمثبت من (م) والمصدر.
(٣) الإملاء ٣/ ٤١٣ ـ ٤١٤.
(٤) حاشية الشهاب ٥/ ٢٧٦.
(٥) في الأصل: لما، والمثبت من (م).
(٦) البحر المحيط ٥/ ٤٣٥.
(٧) تفسير أبي السعود ٥/ ٥٦.

هذا، ثمَّ إنَّهم اختلفوا في وقت حدوث تلك الأحوال؛ فقيل عند المحاسبة، بدليل ذِكْرِها عقيبَ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ وقيل: عند إجابة الداعي والقيام من القبور. وقيل: عند ذهابِ السُّعداء إلى الجنة والأشقياءِ إلى النار، فتذكَّر ولا تغفل.

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ خطابٌ لسيِّد المخاطَبين ﷺ بعد إعلامه أنَّ تأخيرَ عذابهم لماذا؟ وأَمْرٌ له بإنذارهم وتخويفهم منه، فالمرادُ بالناس الكفارُ المعبَّر عنهم بالظالمين كما يقتضيه ظاهرُ إتيان العذاب، وإلى ذلك ذهبَ أبو حيان[1] وغيرُه. ونكتَةُ العدول إليه مِن الإضمار على ما قاله شيخ الإسلام الإشعارُ بأنَّ المرادَ بالإنذار هو الزجرُ عمَّا هم عليه من الظلم شفقةً عليهم لا التخويف للإزعاج والإيذاء، فالمناسبُ عدمُ ذكرهم بعنوان الظلم[2].

وقال الجبَّائيُّ وأبو مسلم: المرادُ بالناس ما يَشملُ أولئك الظالمين وغيرَهم من المكلَّفين، والإنذار كما يكون للكفار يكون لغيرهم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ [يس:٨] والإتيان يعمُّ الفريقَين من كونهما في الموقف، وإنْ كان لحوقُه بالكفار خاصَّةً.

وأيّاً ما كان فـ «الناس» مفعولٌ أوَّل لـ «أَنْذِر»، وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ مفعولُه الثاني على معنى: أنذرهم هولَه وما فيه. فالإيقاعُ عليه مجازيٌّ، أو هو بتقدير مضافٍ، ولا يجوزُ أنْ يكون ظرفاً للإنذار؛ لأنَّه في الدنيا، والمرادُ بهذا اليوم اليومُ المعهود، وهو اليوم الذي وُصِفَ بما يُذهل الألبابَ وهو يوم القيامة، وقيل: هو يوم موتهم معذَّبين بالسَّكَرات ولقاء الملائكة عليهم السلام بلا بُشْرَى. وروي ذلك عن أبي مسلم، أو يوم هلاكهم بالعذاب العاجل، وتُعقِّب بأنَّه يأباه القصرُ السابق، وأُجيبَ بما فيه ما فيه.

﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: فيقولون، والعدولُ عنه إلى ما في النظم الجليل، للتسجيل عليهم بالظلم والإشعار بعلِّيَّته لِما ينالُهم من الشدَّة المُنبِئ عنها القولُ،

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٣٦.

(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٥٦.

وفي العدولُ عن الظالمين المتكفِّل بما ذكر مع اختصاره وسبق الوصف به؛ للإيذان على ما قيل بأنَّ الظلم في الجملة كافٍ في الإفضاء إلى ما أفضَوا إليه من غير حاجةٍ إلى الاستمرار عليه كما يُنبئُ عنه صيغةُ اسم الفاعل.

والمعنى على ما قال الجبَّائيُّ وأبو مسلم: الذين ظلموا منهم وهم الكفَّار، وقيل: يقولُ كلُّ مَن ظَلَم بالشرك والتكذيب من المنذَرين وغيرُهم من الأمم الخالية: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ﴾ أي: عن العذاب، أو: أخِّر عذابنا، ففي الكلام تقديرُ مضافٍ، أو تجوُّزٌ في النسبة. قال الضحاك ومجاهد: إنَّهم طلبوا الردَّ إلى الدنيا والإمهال ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ أي: أَمَدٍ وحدٍّ من الزمان قريب، وقيل: إنَّهم طلبوا رفْعَ العذابِ والرجوعَ إلى حال التكليف مدَّةً يسيرةً يعملون فيها ما يُرضيه سبحانه. والمعنى على ما روي عن أبي مسلم: أخِّر آجالَنا وأبقنا أياماً ﴿نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ﴾ أي: الدعوةَ إليك وإلى توحيدك، أو دعوتَك لنا على ألسنة الرسل عليهم السلام، ففيه إيماءٌ إلى أنَّهم صدَّقوهم في أنَّهم رُسلُ الله سبحانه وتعالى. ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ﴾فيما جاؤوا به، أي: نتدارك ما فرَّطنا به من إجابة الدعوة واتِّباع الرسل عليهم السلام، ولا يخلو ذكرُ الجملتَين عن تأكيدٍ، والمقام حريٌّ به، وجمع إمَّا باعتبار اتِّفاق الجميع على التوحيد وكونِ عصيانهم للرسول ﷺ عصياناً لهم جميعاً عليهم السلام، وإمَّا باعتبار أنَّ المحكيَّ كلامُ ظالمي الأمم جميعاً، والمقصودُ بيانُ وَعْدِ كلِّ أمةٍ بالتوحيد واتِّباع رسولها، على ما قيل[1].

﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ﴾ على تقدير القول معطوفاً على «فيقول» والمعطوفُ عليه هذه الجملة، أي: فيقال لهم توبيخاً وتبكيتاً: ألم تُؤخَّروا في الدنيا ولم تكونوا حلفتُم إذ ذاك بألسنتكُم بَطَراً وأَشَراً وسَفَهَاً وجَهْلاً ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ٤٤﴾ مما أنتم عليه من التمتُّع بالحظوظ الدنياويَّة، أو بألسنة الحال ودلالةِ الأفعال حيث بَنيتُم مَشِيداً وأَمَّلتُم بعيداً، ولم تُحدِّثُوا أنفسَكم بالانتقال إلى هذه الأحوال والأهوال، وفيه إشعارٌ بامتداد زمانِ التأخير وبُعدِ مداه، أو مالكم من زوالٍ وانتقالٍ من دار الدنيا إلى دارٍ أُخرَى للجزاء كقوله تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾ [النحل: ٣٨] وروي هذا عن مجاهد.

---

(١) في الأصل: كما قيل.

وأيًّا ما كان، فـ «ما لكم» إلخ جوابُ القَسَم، و«مِن» صلةٌ لتأكيد النفي، وصيغةُ الخطاب فيه لمراعاة حالِ الخطاب في «أقسمتُم» كما في: حَلَفَ بالله تعالى ليخرجَنَّ، وهو أدخلُ في التوبيخ مِن أنْ يُقال: مالنا، مراعاةً لحال المحكيِّ الواقع في جواب قَسَمهم، وقيل: هو ابتداءُ كلامٍ مِن قِبَلِ الله تعالى جواباً لقولهم: «ربَّنا أَخِّرنا» أي: مالكم مِن زوالٍ عن هذه الحالِ، وجواب القَسَم: لا يبعثُ الله مَن في القبور، محذوفاً، وهو خلافُ المتبادر، وهذا أحدُ أجوبةٍ يُجابُ بها أهلُ النار على ما في بعض الآثار، فقد ذكر البيهقيُّ عن محمد بنِ كعب القرظي أنَّه قال: لأهل النار خمسُ دعواتٍ يُجيبُهم الله تعالى في أربعٍ منها، فإذا كانت الخامسة لم يتكلَّموا بعدها أبداً، يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١] فيجيبُهم الله عزَّ وجل: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر: ١٢].

ثم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢] فيجيبُهم جلَّ شأنه: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ الآية [السجدة: ١٤].

ثم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ فيجيبُهم تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ﴾ الآية.

ثم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧] فيجيبهم جلَّ جلاله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦] فيجيبُهم جلَّ وعلا: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] فلا يتكلَّمون بعدها، إنْ هو إلا زفيرٌ وشهيقٌ، وعند ذلك انقطعَ رجاؤهم وأقبلَ بعضُهم ينبح في وجه بعض، وأطبقَت عليهم جهنَّم[1].

اللهم إنَّا نعوذُ بك من غضبك، ونلوذُ بكَنَفك من عذابك، ونسألُك التوفيقَ للعمل الصالح في يومنا لغدنا، والتقرُّبَ إليك بما يُرضيك قبل أنْ يخرُجَ الأمرُ من يدنا.

---

(١) البعث والنشور (٦٦٠)، وأخرجه بنحوه الطبري ١٧/ ١١٩ ـ ١٢٠.

﴿وَسَكَنتُمْ﴾ من السُّكنَى بمعنى التبوُّء والاستيطان، وهو بهذا المعنى مما يتعدَّى بنفسه تقول: سكنْتُ الدار واستوطنتُها، إلا أنَّه عُدِّي هنا بـ «في» حيث قيل: ﴿فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ جَرْياً على أصل معناه، فإنَّه منقول عن سَكَنَ بمعنى قَرَّ وثبت[١]، وحقُّ ذلك التعديةُ بـ «في».

وجوِّز أنْ يكونَ المعنى: وقررتُم في مساكنهم مُطمئنِّين سائرين سيرتَهم في الظلم بالكفر والمعاصي غيرَ مُحدِّثين أنفسَكم بما لَقُوا بسبب ما اجترحُوا من الموبقات، وفي إيقاع الظلم على أنفسهم بعدَ إطلاقه فيما سلف إيذانٌ بأَنَّ غائلةَ الظلم آيلةٌ إلى صاحبه، والمرادُ بهم ـ كما قال بعضُ المحقِّقين ـ إمَّا جميعُ مَن تقدَّم من الأُمم المهلَكَةِ على تقدير اختصاصِ الاستمهال والخطاب السابق بالمنذَرين، وإمَّا أوائلُهم مِن قوم نوحٍ وهودٍ على تقدير عمومهما[٢] للكلِّ، وهذا الخطابُ وما يتلُوه باعتبار حال أواخرهم.

﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ أي: ظهر لكم على أتمِّ وجهٍ بمعاينة الآثار وتواتر الأخبار ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ من الإهلاك والعقوبة بما فعلوا من الظلم والفساد.

وفاعل «تبيَّنَ» مضمرٌ يعود على ما دلَّ عليه الكلامُ، أي: فعلُنا العجيب[٣] بهم، أو حالهم، أو خبرهم، أو نحو ذلك، و«كيف» في محلِّ نصب بـ «فعلنا»، وجملةُ الاستفهام ليسَت معمولةً لـ «تبيَّن» لأنَّه لا يعلَّق، وقيل: الجملةُ فاعل «تبيَّن» بناءً على جواز كونه جملةً، وهو قولٌ ضعيفٌ للكوفيين.

وذهب أبو حيان[٤] إلى ما ذهب إليه الجماعةُ، ثم ذكر أنَّه لا يجوزُ أنْ يكونَ الفاعل «كيف» لأنَّه لا يعملُ فيها ما قبلَها إلا ما[٥] شذَّ من قولهم: على كيفَ تبيعُ الأحمرَين؟ وقولهم: انظر إلى كيف تَصنَع؟

---

(١) في الأصل: واثبت، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٥/ ٢٧٦.
(٢) في (م): عمومها، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٥/ ٥٧.
(٣) في (م): العجب، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٥/ ٥٧.
(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٣٦.
(٥) في (م): فيما، والمثبت من الأصل والبحر.

وقرأ السُّلمي فيما حكاه عنه أبو عمرو الداني: «ونُبيِّنُ» بنون العظمة ورَفْعِ الفعل، وحكى ذلك أيضاً صاحب «اللوامح» عن عمرَ بنِ الخطاب ﷺ، وذلك على إضمار مبتدأ، أي: ونحن نُبيِّنُ، والجملة حاليَّة، وقال المهدوي عن السُّلَمي أنَّه قرأ بنون العظمة إلا أنَّه جَزَم الفعلَ عطفاً على «تكونوا» أي: أَوَلم نُبيِّنْ لكم(١).

﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ﴾ أي: في القرآن العظيم على تقدير اختصاصِ الخطابِ بالمنذرينِ، أو على ألسنة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على تقدير عمومِهِ لجميع الظالمين ﴿ٱلْأَمْثَالَ ۝٤٥﴾ أي: صفات ما فعلوا وما فُعِلَ بهم من الأمور التي هي في الغرابة كالأمثال المضروبةِ لِتَعْتَبروا وتقيسُوا أعمالَكم على أعمالهم ومآلَكم على مآلهم، وتنتقلُوا من حلول العذابِ العاجل إلى العذاب الآجلِ، فَتَرْتَدِعُوا(٢) عمَّا كنتُم فيه من الكفر والمعاصي.

وجوَّز أنْ يُراد من «الأمثال» ما هو جمعُ: مِثْل، بمعنى الشبيه، أي: بيَّنَّا لكم أنَّهم مِثْلُهم في الكفر واستحقاق العذاب، وروي هذا عن مجاهد.

والجملُ الثلاث في موقع الحال من ضمير «أقسمتُم»، أي: أقسمتُم أنْ ليس لكم زوالٌ والحال أنَّكم سكنتُم في مساكن المهلَكين بظلمهم وتَبيَّن لكم فعلُنا العجيبُ بهم، ونبَّهناكم على جَليَّة الحال بضَرْب الأمثال.

وقولُه سبحانه: ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ﴾ حالٌ من الضمير الأوَّل في «فعلْنا بهم»، أو من الثاني، أو منهما جميعاً، وقُدِّم عليه قولُه تعالى: «وضربنا لكم الأمثال» لشدَّة ارْتباطِهِ على ما قيل بما قبلَه، أي: فَعَلنا بهم ما فعلنا والحالُ أنَّهم قد مكروا في إبطال الحقِّ وتقريرِ الباطل مكْرَهم العظيمَ الذي استفرغُوا في عمله المجهودَ، وجاوزوا فيه كلَّ حدٍّ معهودٍ، بحيث لا يقدرُ عليه غيرُهم، والمرادُ بيانُ تناهيهم في استحقاق ما فُعِل بهم.

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٣٦، وقراءة السلمي بالرفع في القراءات الشاذة ص٦٩، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٥.

(٢) في الأصل و(م): فتردعوا، والمثبت من تفسير أبي السعود ٥/ ٥٨ والكلام منه.

أو: وَقَد مكروا مكْرَهم المذكورَ في ترتيب مبادئ البقاء ومدافعةِ أسباب الزوال، فالمقصودُ إظهار عجزِهم واضمِحْلال قُدرتهم وحقارتها عند قدرة الله سبحانه. قاله شيخ الإسلام[١].

وهو ظاهرٌ في أنَّ هذا مِن تتمَّة ما يُقال لأولئك الذين ظلمُوا، وهو المرويُّ عن محمد بنِ كعب القرظي، فقد أخرج عنه ابنُ جرير أنَّه قال: بلغَني أنَّ أهلَ النار ينادُون: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ إلخ فيردُّ عليهم بقوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾[٢]. وذكره ابنُ عطيَّة[٣] احتمالاً، وقيل غير ذلك مما ستعلمه إن شاء الله تعالى قريباً.

وظاهرُ كلام غيرِ واحدٍ أنَّ استفادةَ المبالغة في «مَكَرُوا مكْرَهم» من الإضافة.

وفي «الحواشي الشهابيَّة» أنَّ «مكْرَهم» منصوبٌ على أنَّه مفعولٌ مطلقٌ؛ لأنَّه لازمٌ، فدلالتُه على المبالغة لقوله تعالى الآتي: «وإنْ كان مكرهم» إلخ، لا[٤] لأنَّ إضافةَ المصدر تُفيدُ العمومَ، أي: أظهروا كلَّ مكرٍ لهم، أو لأنَّ إضافتَه ـ وأصلُه التنكير ـ لإفادة أنَّهم معروفون بذلك[٥]، وللبحث فيه مجالٌ.

﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي: جزاءُ مكرهم، على أنَّ الكلام على حذفِ مضافٍ، وجوِّز أنْ لا يكون هناك مضافٌ محذوفٌ. والمعنى: مكتوبٌ عنده تعالى مكرُهم ومعلومٌ له سبحانه، وذلك كناية عن مُجازاته تعالى لهم عليه.

وأيّاً ما كان فإضافة «مكر» إلى الفاعل وهو الظاهرُ المتبادر، وقيل: إنَّه مضافٌ إلى مفعوله على معنى: عنده تعالى مكرُهم الذي يمكرُهم به.

وتعقَّبه أبو حيان بأنَّ المحفوظَ أنَّ «مَكَرَ» لازمٌ ولم يُسمَع مُتعدِّياً[٦].

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٥٨.

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٧١٦.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٦.

(٤) قوله: لا، ساقط من الأصل، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب.

(٥) حاشية الشهاب ٥/ ٢٧٧.

(٦) البحر المحيط ٥/ ٤٣٧.

وأُجيبَ بأنَّه يجوزُ أنْ يكون المكرُ مُتجوَّزاً به أو مضمَّناً معنى الكيد أو الجزاء[(١)]، والكلام في نسبة المكر إليه تعالى وأنَّه إمَّا باعتبار المشاكلة أو الاستعارة مشهورٌ.

وذكر بعض المحققِّين أنَّ المرادَ بهذا المكرِ ما أفادَه قولُه تعالى: (كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ) لا أنَّه وعيدٌ مستأنفٌ.

والجملة حالٌ من الضمير في «مكروا» أي: مكروا مكرَهم وعند الله تعالى جزاؤه، أو ما هو أعظم[(٢)] منه. والمقصودُ بيانُ فسادِ رأيهم حيث باشروا فعلاً مع تحقُّق ما يُوجبُ تركه.

﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ أي: وإنْ كان مكرُهم في غاية الشدَّةِ والمتانة، وعبَّر عن ذلك بكونه معدّاً لإزالة الجبال عن مُقارِّها؛ لكونه مَثَلاً في ذلك. «وإنْ» شرطيَّةٌ، وصليَّةٌ عند جمع، والمرادُ أنَّه سبحانه مُجازيهم على مكرهم ومُبطلُه إنْ لم يكن في هذه الشدَّة وإنْ كان فيها، ولابدَّ على هذا الوجه من ملاحظة الإبطال، وإلا فالجزاءُ المجرَّدُ عن ذلك لا يكاد يتأتَّى معه النكتةُ التي يدورُ عليها ما في «إنْ» الوصليَّة من التأكيد المعنوي.

وجوِّز أنْ يكونَ المعنى أنَّه تعالى يُقابلُهم بمكرهم، ولا يمنَعُ من ذلك كونُ مكرِهم في غاية الشدَّةِ، فهو سبحانه وتعالى أشدُّ مكراً، ولا حاجةَ حينئذٍ إلى ملاحظة الإبطال، فتدبَّر.

وعن الحسن وجماعة أنَّ «إنْ» نافية واللام لام الجحودُ و«كان» تامَّةٌ، والمرادُ بـ «الجبال» آياتُ الله تعالى وشرائعُه ومعجزاتُه الظاهرةُ على أيدي الرسل السالفة عليهم السلام التي هي كالجبال في الرسوخ والثبات، والقصدُ إلى تحقير مكرهم وأنَّه ما كان لِتزولَ منه الآياتُ والنبوَّاتُ.

وجوِّز أنْ تكون «كان» ناقصةً، وخبرُها إما محذوفٌ، أو الفعل الذي دخلَت

(١) في الأصل: ومضمناً معنى الكيد والجزاء، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٥/ ٢٧٧.
(٢) في (م): أو هو ما أعظم، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٥/ ٥٨.

عليه اللام، على الخلاف الذي بين البصريين والكوفيين، وأُيِّدَ هذا الوجْهُ بما روي عن ابن مسعود من أنَّه قرأ: «وما كان» بـ «ما» النافية[١].

وتُعقِّبَ بأنَّ فيه معارضة للقراءة الدالَّة على عِظَمِ مكرهم كقراءة الجمهور.

وأُجيبَ بأنَّ الجبال في تلك القراءة يُشار بها إلى ما رامُوا إبطالَه من الحقِّ كما أشرنا إليه، وفي هذه على حقيقتها، فلا تعارضَ، إذ لم يتواردا على محلٍّ واحدٍ نفياً وإثباتاً.

ورُدَّ بأنَّه إذا جعل الحقُّ شبيهاً بالجبال في الثبات كان مثلَها بل أدونَ منها في هذا المعنى، فإذا نَفَى إزالتَه إيَّاه انتفى إزالته جبال الدنيا، وحينئذٍ يجيءُ الإشكال.

وتعقَّبه الشهابُ بأنَّ هذا غيرُ واردٍ؛ لأنَّ المشبَّه لا يلزمُ أنْ يكونَ أدونَ من المشبَّه به في وجه الشبه، بل قد يكونُ بخلافه، ولو سلم فقد يقدرُ على إزالة الأقوَى دونَ الآخر لمانع، كالشجاع يَقدِرُ على قتل أسدٍ ولا يقدِرُ على قَتْل رجلٍ مشبَّهٍ به لامتناعه بعدَّةٍ أو حِصْنٍ، ولا حِصنَ أحصنُ وأحمَى من تأييد الله تعالى شأنه للحقِّ، بحيث تزولُ الجبال يومَ تُنسَفُ نسفاً ولا يزول[٢]. انتهى.

وإلى تفسير «الجبال» على هذه القراءة بما ذكرنا ذهب شيخُ الإسلام، ثم قال: وأمَّا كونُها عبارةً عن أمر النبيِّ ﷺ وأَمْرِ القرآن العظيم ـ كما قيل ـ فلا مجالَ له، إذ الماكرون هم المهلَكون لا السَّاكنون في مساكنهم من المخاطَبين، وإنْ خصَّ الخطاب بالمنذَرين[٣]. وسيظهرُ لك قريباً إنْ شاء الله تعالى جوازُ ذلك على بعض الأقوال في الآية.

والجملةُ حالٌ من الضمير في «مَكَرُوا» لا مِن قوله تعالى: ﴿وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾، وجوَّز أبو البقاء[٤] وغيرُه أنْ تكونَ «إنْ»[٥] مخففةً من الثقيلة، والمعنى:

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٩، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٨.
(٢) حاشية الشهاب ٥/ ٢٧٧ ـ ٢٧٨.
(٣) تفسير أبي السعود ٥/ ٥٨.
(٤) الإملاء ٣/ ٤١٤.
(٥) ليس في (م).

إنْ كان مكرُهم ليزَول منه ما هو كالجبال في الثبات من الآيات والشرائعِ والمعجزاتِ، والجملةُ أيضاً حالٌ من الضمير المذكور، أي: مكروا مكرَهم المعهودَ وإنَّ الشأن كان مكرهم لإزالة الحقِّ من الآيات والشرائع على معنى أنَّه لم يكُن يصِحُّ أنْ يكونَ منهم مكرٌ كذلك وكان شأنُ الحقِّ مانعاً من مباشرةِ المكر لإزالتِهِ.

وقرأ ابنُ عباس ومجاهد وابن وثاب والكسائي: «لَتزولُ» بفتح اللام الأولى ورَفْعِ الفعل[١]، فـ «إنْ» على ذلك عند البصريين مخفَّفةٌ واللامُ هي الفارقة، وعند الكوفيين نافية[٢] واللام بمعنى «إلا»، والقصدُ إلى تعظيم مكرهم، فالجملةُ حالٌ من قوله تعالى: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾ أي: عنده تعالى جزاءُ مكرهم، أو المكر بهم، والحالُ أنَّ مكرَهم بحيث تزولُ منه الجبال، أي: في غاية الشدَّة.

وقرئ: «لَتزولَ» بالفتح والنصب[٣]، وخُرِّجَ ذلك على لغةٍ جاءت في فتح لام «كي».

وقرأ عمرُ وعليٌّ وأبيٌّ وعبدُ الله وأبو سلمة بنُ عبد الرحمن وأبو إسحاق السَّبيعيّ وزيدُ بنُ عليٍّ ﷺ ورحمهم: «وإنْ كاد» بِدالٍ مكان النون، و«لَتزولُ» بالفتح والرفع[٤]، وهي روايةٌ عن ابن عباس ﷺ[٥]، ونَقَل أبو حاتم عن أُبيٍّ ﷺ أنَّه قرأ: «ولولا كلمةُ الله لزالَ مِن مكرهم الجبال»[٦]. وحمل ذلك بعضهم على التفسير؛ لمخالفته لسواد[٧] المصحف مخالفة ظاهرة.

---

(١) قراءة الكسائي في التيسير ص١٣٥، والنشر ٢/ ٣٠٠، وباقي القراءات الآتية في المحتسب ١/ ٣٦٥، والطبري ١٣/ ٧٢٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٦، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٧ ـ ٤٣٨.

(٢) في الأصل: هي نافية، والمثبت من (م).

(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٣٨.

(٤) المحتسب ١/ ٤٦٥، والطبري ١٣/ ٧١٩ وما بعدها، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٧.

(٥) البحر المحيط ٥/ ٤٣٧.

(٦) البحر المحيط ٥/ ٤٣٨.

(٧) في الأصل: سواد، والمثبت من (م) والبحر المحيط ٥/ ٤٣٨.

هذا ومن الناس من قال: إنَّ الضميرَ في «مكروا» للمنذَرين، والمرادُ بمكرهم ما أفادَه قولُه عزَّ وجل: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠] وغيرُه من أنواع مكرهم برسول الله ﷺ.

قال شيخُ الإسلام: ولعلَّ الوجْهَ حينئذٍ أنْ يكونَ قولُه تعالى: (وَقَدْ مَكَرُوا۟) إلخ حالاً من القول المقدَّر، أي: فيُقال لهم ما يقال والحال أنَّهم مع ما فعلوا مِن الإقسام المذكور مع[1] ما ينافيه قد مكروا مكْرَهم العظيمَ، أي: لم يكن الصادرُ عنهم مجرَّدَ الإقسام الذي وُبِّخُوا به، بل اجترؤوا على مثل هذه العظيمة. وقوله سبحانه: (وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ) حالٌ من ضمير «مكروا» حسبما ذُكِرَ مِن[2] قبل. وقوله تعالى: (وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ) إلى آخره مسوقٌ لبيان عدم تفاوتِ الحال في تحقيق الجزاء بَيْنَ كونِ مكرهم قويًّا أو ضعيفاً كما مرَّت الإشارةُ إليه، وعلى تقدير كونِ «إنْ» نافيةً فهو حالٌ من ضمير «مكروا»، و«الجبال» عبارةٌ من أَمْرِ النبيِّ ﷺ، أي: وقد مكروا والحال أنَّ مكْرَهم ما كان لِتزولَ منه هاتيك الشرائعُ والآياتُ التي هي كالجبال في القوَّة، وعلى تقدير كونها مخفَّفةً من الثقيلة واللام مكسورة يكونُ حالاً منه أيضاً، على معنى: أنَّ ذلك المكرَ العظيمَ منهم كان لهذا الغرض، والقصدُ إلى أنَّه لم يصِحَّ أنْ يكونَ منهم مكرٌ كذلك لِمَا أنَّ شأنَ الشرائع أعظمُ مِن أنْ يُمكَرَ بها، وعلى تقدير فَتْحِ اللام فهو حالٌ من قوله تعالى: (وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ) كما ذُكِرَ سابقاً[3]. اهـ.

ويجوز أنْ يُراد بـ «مكرهم» شركُهم كما أخرجَه ابنُ جرير وغيرُه عن ابن عباس[4]، والجبالُ على حقيقتها، وأَمْرُ الجملة على ما قال.

وحاصلُ المعنى: لم يكن الصادرُ عنهم مجرَّدَ الإقسام مع ما يُنافيه بل اجترؤوا على الشِّرْك ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٨٨-٩٠] وقد رُوي عن الضحاك أنَّه صرَّح بأنَّ ما نحنُ فيه كهذه الآية.

(١) قوله: مع، ليس في الأصل، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود.
(٢) قوله: من، ليس في الأصل، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود.
(٣) تفسير أبي السعود ٥/ ٥٩.
(٤) الطبري ١٣/ ٧٢٢، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٨٩ إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

ثمَّ إنَّ القولَ بجَعْلِ الضميرِ للمنذَرين قولٌ بعدمِ دخولِ هذا الكلامِ في حيِّز ما يقال، وهو الظاهرُ كما قيل، وكذا حَمْل «الجبال» على معناها الحقيقي.

وفي «البحر»: الذي يَظهرُ أنَّ زوالَ الجبال مجازٌ ضُربَ مثلاً لمكر قريش وعِظَمه[١]، والجبالُ لا تزولُ، وفيه من المبالغة في ذمِّ مكرهم ما لا يخفى.

وأمَّا ما رُوي[٢] أنَّ جبلاً زال بحَلِفِ امرأةٍ اتَّهمَها زوجُها، وكان ذلك الجبلُ مَن حَلَفَ عليه كاذباً مات، فحَمَلَها للحَلِف، فمَكَرت بأنْ رَمَت نفسَها من الدابة، وكانت وعدَت مَن اتُّهمَت به أنْ يكون في المكان الذي وقَعَت فيه من الدابة، فأركبها زوجُها وذلك الرجل، وحلفَت على الجبل أنَّها ما مسَّها غيرُهما، فنزلَت سالمةً وأصبح الجبل قد انْدَكَّ، وكانت المرأةُ من عدنان.

وما رُوي من قصة نمروذ بنِ كوش بنِ كنعان أو بُخْتُ نصَّر واتخاذِ الأَنْسُر وصعودِهما إلى قُرب السماء في قصة طويلةٍ مشهورة، وما فعل بعضُهم من حمل الجبال على دين الإسلام والقرآنِ، وحملِ المكر على اختلافهم فيه مِن قولهم: هذا سحرٌ، هذا شعرٌ، هذا إفكٌ = فأقوال يَنبُو عنها ظاهرُ اللفظ، وبعيدٌ جدًّا قصةُ الأَنْسُر[٣]. اهـ.

واستبعدَ ذلك أيضاً ـ كما نَقَل الإمامُ ـ القاضي، وقال: إنَّ الخطر في ذلك عظيمٌ ولا يكاد العاقلُ يُقدِمُ عليه. وما جاء خبرٌ صحيحٌ مُعتمَدٌ، ولا حاجةَ في تأويل الآية إليه[٤].

ونِعْمَ ما قال في خَبر النسور، فإنَّه وإنْ جاء عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه وعن مجاهدٍ وابنِ جبير وأبي عبيدة والسديِّ وغيرِهم إلا أنَّ في الأسانيد ما لا يخفَى على مَن نَقَّر، وقد شاعَ ذلك من أخبار القصَّاص، وخبرُهم واقعٌ عن درجة القبولِ ولو

---

(١) في الأصل: عظمته، والمثبت من (م) والبحر.
(٢) في الأصل: وما روي، والمثبت من (م) والبحر المحيط، وجاء في هامش الأصل كلمة غير واضحة، ولعلَّها ضُربَ عليها.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٣٨، وخبر النمروذ واتخاذه الأنسر ذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص٩٨ ـ ٩٩، والطبري ١٣/ ٧١٩-٧٢١، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٨٩-٩٠.
(٤) تفسير الرازي ١٩/ ١٤٤.

طارُوا إلى النسر الطائر، ومِثْلُ ذلك فيما أرى خبرُ المتَّهمَةِ. فافهم والله تعالى أعلم.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ تثبيتٌ له ﷺ على ما هو عليه من الثقة بالله سبحانه والتيقُّنِ بإنجاز وعدِه تعالى بتعذيبِ الظالمين المقرُّونِ بالأمر بإنذارهم، كما يُفصحُ عنه الفاء، وقال الطيبي: واستحسَنَه التلميذُ أنَّه يجوزُ أنْ يُحملَ الوعدُ على المفاد بقوله تعالى: (وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ) وقد جعلَه وجهاً آخرَ لِمَا ذَكَره الزمخشريُّ من تفسيره له بقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١] و﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾[1] [المجادلة: ٢١] وفيه نظرٌ؛ لأنَّه لا اختصاصَ لذلك ـ كما قيل ـ بالتعذيب لا سيَّما الأخرويّ، وإضافةُ «مُخلفَ» إلى الوعد عند الجمهور من إضافة اسم الفاعل إلى المفعول الثاني كقولهم: هذا معطي درهمٍ زيداً، وهو لمَّا كان يتعدَّى إلى اثنين جازَت إضافته إلى كلٍّ منهما فينصبُ ما تأخَّر، وأنشَد بعضُهم نظيراً لذلك قوله:

تَرَى الثورَ فيها مُدْخِلَ الظلِّ رأسَه ... وسائرُهُ بادٍ إلى الشمس أَجْمَعُ[2]

وذكر أبو البقاء أنَّ هذا قريبٌ من قولهم:

يا سارقَ الليلةِ أهلَ الدار[3]

وفي «الكشاف»: أنَّ تقديمَ الوعدِ ليُعلم أنَّه تعالى لا يُخلِف الوعدَ أصلاً كقوله سبحانه: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]. ثم قال جلَّ شأنه: (رُسُلَهُۥٓ) ليُؤذنَ أنَّه إذا لم يُخلِف وعدَه أحداً، وليس مِن شأنه إخلافُ المواعيدِ، كيف يُخلِفُ رسلَه الذينَ هم خيرتُه وصفوتُه[4]؟!.

ونظر فيه ابنُ المنيِّر بأنَّ الفعلَ إذا تقيَّد بمفعولٍ انقطَعَ احتمالُ إطلاقه، وهو

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤.

(٢) الكتاب ١/ ١٨١، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص١٤٨، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٨٠، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٧٣، والبيان للأنباري ٢/ ٦٢.

(٣) الإملاء ٣/ ٤١٥، والرجز في الكتاب ١/ ١٧٥، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٨٠، وأمالي ابن الشجري ٢/ ٥٧٧، وشرح المفصل لابن يعيش ٢/ ٤٥، وخزانة الأدب ٣/ ١٠٨.

(٤) الكشاف ٢/ ٣٨٤.

هنا[١] كذلك، فليس تقديمُ الوعدِ دالًّا على إطلاقِ الوعد، بل على العناية والاهتمامِ به؛ لأنَّ الآيةَ سيقَت لتهديد الظالمين بما وَعَد سبحانه على ألسنة رسلِهِ عليهم السلام، فالمهمُّ ذكرُ الوعدِ، وكونُه على ألسنة الرسل عليهم السلام لا يتوقَّف عليه التهديدُ[٢] والتخويفُ[٣].

وقال صاحب «الإنصاف»: إنَّ هذا النظر قويٌّ، إلا أنَّ ما اعترض عليه هو القاعدةُ عند أهل البيان، كما قال الشيخُ عبدُ القاهر في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ الْجِنَّ﴾ [الأنعام:١٠٠]: أنَّه قدَّم «شركاء»؛ للإيذان بأنَّه لا يَنبغي أنْ يُتَّخذ لله تعالى شركاءُ[٤] مطلقاً، ثم ذكر «الجنَّ» تحقيراً، أي: إذا لم يُتَّخذ مِن غيرِ الجنِّ، فالجنُّ أحقُّ بأنْ[٥] لا يُتَّخذُوا[٦].

وتُعقِّب بأنَّه لا يدفع السؤال بل يُؤيِّده، وكذا ما ذكره الفاضلُ الطيبي فإنَّه مع تطويله لم يأتِ بطائل، فالوجْهُ ما في «الكشف» من أنَّ ذلك الإعلام إنما نشأ من جعل الاهتمامِ بشأن الوعدِ، فهو ما سيقَ له الكلامُ وما عداه تَبعٌ، وإفادةُ هذا الأسلوب الترقِّي كإفادة: ﴿اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه:٢٥] الإجمالَ والتفصيلَ. نعم إنَّ الظاهر من حال صاحب «الكشاف» أنَّه أَضمَرَ ـ فيما قرَّره ـ اعتزالاً، وهذه مسألةٌ أخرَى.

وقيل: «مخلف» هنا متعدٍّ إلى واحدٍ كقوله تعالى: ﴿لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران:٩] فأُضيف إليه، وانتصبَ «رُسُلَه» بـ «وعده» إذ هو مصدرٌ يَنحلُّ إلى «أنْ» والفعل، وقرأَت فرقةٌ: «مخلِفَ وعدَه رسلِه» بنصب «وعده» وإضافة «مُخلِفَ» إلى «رسله»[٧] ففصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول، وهذه القراءة تُؤيِّدُ إعرابَ الجمهور في القراءة الأولى، وأنَّه مما يتعدَّى «مخلِف» هنا إلى مفعولَين.

---

(١) في الأصل: هناك، والمثبت من (م).
(٢) قوله: عليه التهديد، ليس في الأصل، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٥/ ٢٧٨.
(٣) الانتصاف ٢/ ٣٨٤ بنحوه.
(٤) في الأصل: شريكاً، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب.
(٥) في الأصل: أن، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب.
(٦) دلائل الإعجاز ص٢٨٦، ونقله عنه بواسطة حاشية الشهاب ٥/ ٢٧٨.
(٧) معاني القرآن للفراء ٢/ ٨١، ومعاني القرآن وإعرابه للزجَّاج ٣/ ١٦٨، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٦، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٩.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالبٌ لا يماكَرُ، وقادرٌ لا يُقادَرُ ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤٧﴾ من أعدائه لأوليائه، فالجملةُ تعليلٌ للنهي المذكور وتذييلٌ له، وحيث كان الوعدُ عبارةً عن تعذيبهم خاصَّةً كما مرَّت إليه الإشارة، لم يذيَّل ـ كما قال بعض المحقِّقين ـ بأنْ يقال: إنَّ الله لا يُخلف الميعاد، بل تعرَّض لوصف العزِّ والانتقام المشعرَين بذلك، والمرادُ بالانتقام ما أُشيرَ إليه[1] بالفعل، وعبِّر عنه بالمكر.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ ظرفٌ لمضمَرٍ مُستأنَفٍ ينسحبُ عليه النهي المذكور، أي: يُنجِزُه يوم. . . إلى آخره، أو معطوف عليه نحو: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ﴾ [الدخان: ١٠] إلى آخره[2]، وجعَلَه بعضُ الفضلاء معمولاً لـ «اذكر» محذوفاً كما قيل في شأن نظائره، وقيل: ظرفٌ للانتقام، وهو يوم يأتيهم العذاب بعينه، ولكنْ له أحوالٌ جمَّةٌ يُذكَرُ كلَّ مرَّةٍ بعنوانٍ مخصوصٍ، والتقييدُ مع عموم انتقامه سبحانه للأوقات كلِّها للإفصاح عمَّا هو المقصود[3] من تعذيب الكفرةِ المؤخَّر إلى ذلك اليوم بموجب الحكمةِ المقتضيةِ له.

وجوَّز أبو البقاء تعلُّقَه بلا يُخلفُ الوعدَ مقدَّراً[4] بقرينة السابق، وفيه الوجهُ قبلَه من الحاجة إلى الاعتذار.

وقال الحوفي: هو متعلِّقٌ بـ «مُخلِفَ»، و«إنَّ الله عزيزٌ ذو انتقام» جملةٌ اعتراضيةٌ، وفيه ردٌّ لما قيل: لا يجوزُ تعلُّقه بذلك؛ لأنَّ ما قبل «إنَّ» لا يعملُ فيما بعدَها، لأنَّ لها الصدارة، ووجههُ أنَّها لكونها وما بعدها اعتراضاً لا يُبالَى بها فاصلاً.

وجوَّز الزمخشريُّ انتصابَه على البدليَّة من «يوم يأتيهم»[5]، وهو بدلُ كلٍّ من كلٍّ، وتَبِعَه بعضُ مَن مَنَع تعلُّقه بـ «مُخلِفَ» لمكان ما لَه الصدرُ. والعجبُ أنَّ العامل فيه حينئذٍ «أَنذِر» فيلزمُ عليه ما لَزِمَ القائلَ بتعلُّقه بما ذكر، فكأنَّه ذهب إلى أنَّ البدلَ له عاملٌ مقدَّرٌ، وهو ضعيف.

---

(١) في الأصل: عنه، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٥٩.
(٢) قوله: إلى آخره، ليس في الأصل، والمثبت من (م).
(٣) قوله: المقصود، ليس في الأصل، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٦٠.
(٤) الإملاء ٣/ ٤١٥.
(٥) الكشاف ٢/ ٣٨٤.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ عطف على المرفوع، أي: وتُبدَّلُ السماواتُ غيرَ السماوات، والتبديلُ قد يكونُ في الذات كما في: بَدَّلْتُ الدراهمَ دنانيرَ، ومنه قوله تعالى: ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦] وقد يكونُ في الصفات كما في قولك: بَدَّلْتُ الحلقةَ خاتماً، إذا غيَّرتَ شكلَها، ومنه قوله سبحانه: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]، والآية الكريمةُ ليست بنصٍّ في أحدِ الوجْهَين، فعن[(١)] ابنِ عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: تبدلُ الأرض: يُزادُ فيها ويُنقَصُ منها وتذهبُ آكامها وجبالُها وأوديتُها وشجرُها وما فيها، وتُمدُّ مدَّ الأديم العكاظي، وتصيرُ مستويةً لا تَرَى فيها عوجاً ولا أَمْتاً. وتبدلُ السماواتِ: بذهابِ شمسِها وقمرِها ونجومِها[(٢)]. وحاصلُه: يُغيَّرُ كلٌّ عمَّا هو عليه في الدنيا، وأنشدَ:

وما الناسُ بالناس الذين عَهِدْتُهُم ‏ ‏ ولا الدارُ بالدار التي كنتُ أعلمُ[(٣)]

وقال ابنُ الأنباري: تبدل السماوات بطيِّها وجعلِها مَرَّةً كالمُهْل ومَرَّةً وردةً كالدهان[(٤)].

وأخرج ابنُ أبي الدنيا وابنُ جرير وغيرُهما عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه أنَّه قال: تُبدَّل الأرضُ من فضةٍ، والسماءُ من ذهب[(٥)].

وأخرج ابنُ المنذر عن مجاهد أنَّه قال[(٦)]: تكونُ الأرضُ كالفضة والسماواتُ كذلك[(٧)]. وصحَّ عن ابنِ مسعود رضي الله عنه أنَّه قال: تُبدَّلُ الأرضُ أرضاً بيضاءَ كأنَّها

---

(١) في (م): نص.

(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٩١، وعزاه للبيهقي في البعث.

(٣) نسبه العباسي في معاهد التنصيص ٤/ ٦ للعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، وهو في مجالس ثعلب ١/ ٤٩، والكشاف ٢/ ٣٨٤، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٩، والذي في مجالس ثعلب وجمهرة الأمثال: تعرف، بدل: أعلم، وفي باقي المصادر: تعلم.

(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٣٩.

(٥) الطبري ١٣/ ٧٣٤، وابن أبي الدنيا في صفة الجنة (٦٢)، وأورده السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٩١.

(٦) ليس في (م).

(٧) عزاه لابن المنذر السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٩١، وأخرجه الطبري ١٣/ ٧٣٢.

سبيكةُ فضَّةٍ لم يُسفَك فيها دمٌ حرامٌ ولم يُعمَل فيها خطيئة. وروي ذلك مرفوعاً أيضاً[١]، والموقوف ـ على ما قال البيهقي[٢] ـ أصحُّ. وقد يحمل قول الإمام[٣] كرَّم الله تعالى وجهه على التشبيه.

وقال الإمام: لا يبعدُ أنْ يقال: المرادُ بتَبْديل الأرضِ جعلُها جهنَّم، وبتبديل السماوات جعلُها الجنةَ[٤].

وتُعقِّبَ بأنَّه بعيدٌ؛ لأنَّه يلزمُ أنْ تكونَ الجنةُ والنارُ غيرَ مخلوقَتين الآن، والثابتُ في الكلام والحديثِ[٥] خلافُهُ.

وأُجيبَ بأنَّ الثابت خَلْقُهما مطلقاً لا خَلْق كليهما[٦]، فيجوزُ أنْ يكونَ الموجودُ الآن بعضَهما ثم تصيرُ السماواتُ والأرضُ بعضاً منهما، وفيه أنَّ هذا ـ وإنْ صحَّحه ـ لا يقرّ به، والاستدلالُ على ذلك بقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين:١٨] وقوله سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطففين:٧] في غاية الغرابة مِن الإمام، فإنَّ في إشعار ذلك بالمقصود نظراً، فضلاً عن كونه دالًّا عليه.

نعم جاء في بعض الآثار ما يؤيِّدُ ما قاله، فقد أخرج ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم

---

(١) أخرجه موقوفاً الطبري ١٣/ ٧٢٩ ـ ٧٣٠، وأبو الشيخ في العظمة (٦٠٠)، والطبراني (٩٠٠١)، والحاكم في المستدرك ٤/ ٥٧٠ وصحح إسناده.
وأخرجه مرفوعاً البزار (١٨٥٩)، والطبراني في الكبير (١٠٣٢٣)، وفي الأوسط (٧١٦٧)، وابن عدي ٢/ ٥٤٧، وابن عساكر ٤٦/ ٤٠٧. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٤٥: وفي إسناده جرير بن أيوب، وهو مجمع على ضعفه.

(٢) استدراكات البعث والنشور (٨٢).

(٣) في الأصل: كلام الأمير، والمثبت من (م).

(٤) تفسير الرازي ١٩/ ١٥٠.

(٥) جاء في هذا المعنى أحاديث كثيرة منها ما أخرجه البخاري (٣٢٤١)، ومسلم (٢٧٣٨) عن عمران بن حصين ﷺ عن النبي ﷺ قال: «اطَّلعتُ في الجنةِ فرأيتُ أكثرَ أهلها الفقراء، واطَّلعتُ في النار فرأيتُ أكثرَ أهلها النساء»، وينظر البخاري كتاب بدء الخلق باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، والبعث والنشور للبيهقي باب: ما يستدل على أن الجنة والنار قد خلقتا وأُعدَّتا لأهلهما.

(٦) في الأصل و(م): كلهما، والمثبت من حاشية الشهاب ٥/ ٢٧٨.

عن أُبيّ بنِ كعب أنَّه قال في الآية: تصيرُ السماواتُ جناناً، ويصيرُ مكان البحر ناراً، وتُبدَّلُ الأرضُ غيرَها[١].

وأخرج ابنُ جرير عن ابن مسعود أنَّه قال: الأرضُ كلُّها نارٌ يوم القيامة[٢].

وجاء في تبديل الأرض روايات أُخر، فقد أخرج ابنُ جرير عن ابن جُبير أنَّه قال: تُبدَّلُ الأرضُ خبزةً بيضاءَ، فيأكلُ المؤمنُ من تحت قدمَيه. وأَخرجَ عن محمد بنِ كعب القرظي مثله[٣]. وأخرجَ البيهقيُّ في «البعث» عن عكرمة كذلك[٤].

وأَخرجَ ابنُ مردويه عن أفلح مولى أبي أيوب أنَّ رجلاً من يهود سأل النبيَّ ﷺ فقال: ما الذي تُبدَّلُ به الأرضُ؟ فقال: «خُبزةٌ». فقال اليهوديُّ: درمكة بأبي أنت. فضَحِكَ ﷺ ثم قال: «قاتل الله تعالى يهودَ هل تَدْرُونَ ما الدَّرمكةُ؟ لبابُ الخبز»[٥].

وقد تقدَّم خبرُ أنَّ الأرضَ تكونُ يومَ القيامة خُبزةً واحدةً يتكفَّؤُها الجبَّارُ بيده كما يتكفَّأُ أحدُكم خُبزَتَه في السفر نُزُلاً لأهل الجنة، وهو في الصحيحين من رواية أبي سعيد الخدْري مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ[٦].

وحكى بعضُهم أنَّ التبديلَ يقعُ في الأرض ولكن[٧] تُبدَّلُ لكلِّ فريقٍ بما يقتضيه حالُه، ففريقٌ من المؤمنين يكونون على خبزٍ يأكلونَ منه، وفريقٌ يكونون على فضَّةٍ، وفريقُ الكفرةِ يكونون على نارٍ، وليس تبديلُها بأيِّ شيءٍ كان بأعظمَ من خلقها بعدَ أنْ لم تكُن.

---

(١) عزاه للطبري ولابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٩١ والكلام منه، وعزاه ابن حجر في الفتح ١١/ ٣٧٦ لتفسير الربيع بن أنس، وأخرجه الطبري ١٣/ ٧٣٥، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ٣٧٠ عن كعب، وكذا ذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

(٢) الطبري ١٣/ ٧٣٣.

(٣) تفسير الطبري ١٣/ ٧٣٥.

(٤) استدراكات البعث والنشور (٨٣).

(٥) عزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٩١.

(٦) صحيح البخاري (٦٥٢٠)، وصحيح مسلم (٢٧٩٢)، وتقدم ص٣٣ من هذا الجزء.

(٧) في الأصل: لكن، والمثبت من (م).

وذكر بعضُهم أنَّها تُبدَّلُ أوّلاً صفتُها على النحو المروي عن ابن عباس ﵄، ثم تُبدَّلُ ذاتُها، ويكونُ هذا الأخيرُ بعدَ أنْ تُحدِّثَ أخبارَها، ولا مانعَ من أنْ يكونَ هنا تبديلاتٌ على أنحاء شتَّى.

وفي «صحيح مسلم» من حديث عائشةَ ﵂ مرفوعاً أنَّ الناس يومَ تُبدَّلُ على الصراط[1]. وفيه من حديث ثوبان أنَّ يهوديًّا سألَ رسول الله ﷺ: أين الناسُ يومَ تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرض؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «هم في الظُّلْمةِ دونَ الجسر»[2]، ولعلَّ المرادَ من هذا التبديل نحوٌ خاصٌّ منه، والله تعالى أعلمُ بحقيقة الحال. وتقديمُ تبديلِ الأرض؛ لقربها منَّا، ولكون تبديلها أعظم أمراً بالنسبة إلينا.

﴿وَبَرَزُوا﴾ أي: الخلائقُ أو الظالمون المدلولُ عليهم بمعونة السياق كما قيل، والمرادُ بُروزهم مِن أجداثهم التي في بطون الأرض.

وجوّز أنْ يكونَ المرادُ ظهورهم بأعمالهم التي كانوا يعملونها سرًّا ويزعمون أنَّها لا تظهرُ، أو يعملون عملَ مَنْ يَزعُمُ ذلك، ووجهُ إسنادِ البروزِ إليهم ـ مع أنَّه على هذا لأعمالهم ـ بأنَّه للإيذان بتشكُّلهم بأشكالٍ تناسبُها، وأنت تعلم أنَّ الظاهر ظهورُهم من أجداثهم، والعطفُ على «تُبدَّلُ» والعدولُ[3] إلى صيغة الماضي، للدلالة على تحقُّق الوقوع.

وجوَّز أبو البقاء أنْ تكونَ الجملةُ مستأنفةً وأنْ تكونَ حالاً من «الأرض» بتقدير «قد»[4]، والرابط[5] الواو.

وقرأ زيد بنُ عليٍّ ﵄: «وبُرِّزُوا» بضمِّ الباء وكسر الراء مشدَّدةً[6]، جعلَه مبنيًّا للمفعول على سبيل التكثير باعتبار المفعولِ لكثرة المخرَجين ﴿لِلَّهِ﴾ أي: لحُكْمِهِ

---

(١) صحيح مسلم (٢٧٩١)، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٤٠٦٩).
(٢) صحيح مسلم (٣١٥)، والجسر: هو الصراط، كما في إكمال المعلم ٢/ ٦٥٣.
(٣) في الأصل: المعدول، والمثبت من (م).
(٤) الإملاء ٣/ ٤١٥.
(٥) في الأصل: الروابط، والمثبت من (م).
(٦) البحر المحيط ٥/ ٤٤٠.

سبحانه ومجازاته ﴿ٱلْوَٰحِدِ﴾ الذي لا شريكَ له ﴿ٱلْقَهَّارِ ۝٤٨﴾ الغالبِ على كلِّ شيءٍ، والتعرُّضُ للوصفَين؛ لتهويل الخطْب وتربيةِ المهابةِ؛ لأنَّهم إذا كانوا واقفين[1] عندَ مَلِكٍ عظيم قهَّارٍ لا يُشاركُه غيرُه كانوا على خَطَرٍ، إذ لا مقاومَ له ولا مُغيثَ سواه، وفي ذلك أيضاً تحقيقُ إتيان العذابِ الموعود على[2] تقدير كونِ «يومَ تُبدَّلُ» بدلاً مِن «يومَ يأتيهم العذابُ».

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ عطفٌ على «برزُوا» والعدولُ إلى صيغة المضارع؛ لاستحضار الصورةِ أو للدلالة على الاستمرار، وأما البروزُ فهو دفعيٌّ لا استمرارَ فيه، وعلى تقدير حالية «بَرزُوا» فهو معطوف على «تُبدَّلُ» وجوِّزَ عطفُهُ على عامل الظرف المقدَّم على تقدير كونه يُنجزه مثلاً ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم إذ برزوا لله[3] تعالى، أو يومَ إذ تُبدَّلُ الأرضُ، أو يومَ إذ يُنجِزُ وعدَه، والرؤيةُ إذا كانت بصريةً فـ «المجرمين» مفعولها وقولُه تعالى: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ حالٌ منه، وإنْ كانت عِلْميةً فـ «المجرمين» مفعولُها الأوَّلُ، و«مقرَّنين»[4] مفعولُها الثاني.

والمرادُ قَرْنُ بعضِهم مع بعضٍ، وضمُّ كلٍّ لمشاركه في كفره وعمله كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧] على قول، وفي المثل: إنَّ الطيورَ على أشباهها تَقَعُ[5].

أو قُرِنُوا مع الشياطين الذين أغووهم كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ [مريم: ٦٨] إلخ.

أو قُرِنُوا مع ما اقترفوا من العقائد الزائغةِ والملكات الرديئةِ والأعمالِ السيئة غِبَّ تَصوُّرها وتشكُّلها بما يُناسبُها من الصُّور الموحشةِ والأشكالِ الهائلةِ.

أو قُرنوا مع جزاء ذلك أو كتابه، فلا حاجةَ إلى حديثِ التصوُّر بالصُّورِ.

---

(١) في الأصل: واقعين. والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٥/ ٢٧٨.
(٢) في الأصل: وعلى، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٦٠.
(٣) في الأصل: يرون الله، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٦١.
(٤) في (م): مقرنين.
(٥) مجمع الأمثال ١/ ٤٤٢ بلفظ: الطيورُ على أُلَّافها تَقَعُ.

أو قُرِنَت أيديهم وأرجلُهم إلى رقابهم، وجاء ذلك في بعض الآثار[1]، والظاهرُ أنَّه على حقيقته.

ويحتمل ـ على ما قيل ـ أنْ يكون تمثيلاً لمؤاخذتهم على ما اقترفَته أيديهم وأرجلُهم، وأصلُ المقرَّن ـ بالتشديد ـ مَن جُمِع في قَرَنٍ ـ بالتحريك ـ وهو الوَثاق الذي يُربط به.

﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٤٩﴾ جمعُ: صَفَد، ويقال فيه: صِفَادُ، وهو: القيدُ الذي يُوضَع في الرِّجْل، أو الغلُّ الذي يكون في اليد والعنق، أو ما يُضمُّ به اليدُ والرِّجْلُ إلى العنق، ويسمَّى هذا جامعة[2]، ومِن هذا قول سلامة بنِ جندل:

وزَيدُ الخيلِ قد لاقَى صفاداً يَعضُّ بساعدٍ وبعظْم ساقِ[3]

وجاء: صَفَد بالتخفيف وصَفَّد بالتشديد للتكثير، وتقول: أصفدْتُه، إذا أعطيتَه، فتأتي بالهمزة في هذا المعنى، وقيل: صَفَد وأَصْفَد معاً في القيد والإعطاء، ويُسمَّى العطاء صَفداً؛ لأنَّه يُقيِّد:

ومَنْ وَجَدَ الإحسانَ قَيْداً تقيَّدا[4]

والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بـ «مقرَّنين» أو بمحذوفٍ وقَعَ حالاً من ضميره، أي: مُصَفَّدين، وجوَّز أبو حيان كونَه في موضع الصفة لـ «مقرنين»[5].

﴿سَرَابِيلُهُم﴾ أي: قمصانُهم، جمع: سِرْبال ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ هو: ما يُحلَبُ من شَجَر الإبْهلِ[6] فيُطبَخ وتُهنَأ به الإبل الجربَى، فيحرقُ الجربَ بما فيه من الحدَّة

---

(١) أورده الرازي في تفسيره ١٧/ ١٤٨ عن زيد بن أرقم حيث قال: قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال.

(٢) في (م): جامعه. والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٥/ ٢٧٩.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٨، والكشاف ٢/ ٣٨٥، والبيضاوي ٥/ ٢٧٩.

(٤) عجز بيتٍ لأبي الطيب المتنبي، وهو في ديوانه ٢/ ١٥، وصدره:
وقَيَّدتُ نفسي في ذَرَاكَ مَحبَّةً

(٥) البحر المحيط ٥/ ٤٤٠.

(٦) الأبْهُل أو الإبْهِل: هو صنف من العرار أو هو نفسه، منه صغير الورق كالطرفاء، وكبير كالسرو، ويقارب النبق في الحجم، أحمر اللون فإذا تمَّ استواؤه اسودَّ. تذكرة أولي الألباب ١/ ٣٥.

الشديدة، وقد تصلُ حرارتُه إلى الجوف، وهو أسودُ منتنٌ يسرعُ فيه اشتعالُ النار حتى قيل: إنَّه أسرَعُ الأشياء اشتعالاً.

وفي «التذكرة»: أنَّه نوعان غليظٌ برَّاقٌ حادُّ الرائحة ويُعرَف بالبرقي، ورقيقٌ كَمِد ويُعرَفُ بالسائل، والأولُ من الشربين[1] خاصَّة، والثاني من الأرز والسدر ونحوهما، والأوَّلُ أجودُ، وهو حارٌّ يابسٌ في الثالثة أو الثانية[2]، وذَكَرَ في الزفت أنَّه من أشجار كالأرز وغيره، وأنَّه إنْ سالَ بنفسه يقال: زفت، وإنْ كان[3] بالصناعة فقَطران[4].

ويقال فيه: قَطْران بوزن سَكْران، وروي عن عمرَ وعليٍّ رضي الله عنهما أنَّهما قرآا به[5]، وقِطْرَان بوزن سِرْحَان ولم نقف على مَن قرأ بذلك[6].

والجملة من المبتدأ والخبر في موضع النصب على الحالية من «المجرمين»، أو من ضميرهم في «مقرَّنين»، أو من «مقرَّنين» نفسِه على ما قيل رابطُها الضميرُ فقط كما في: كلمتُه فوه إلى فيَّ، أو مستأنفة.

وأيًّا ما كان ففي «سَرابيلهم» تشبيهٌ بليغٌ، وذلك أنَّ المقصودَ أنَّه تُطلَى جلودُ أهلِ النار بالقَطِرَان حتى يعودَ طلاؤه كالسرابيل، وكأنَّ ذلك ليجتمعَ عليهم الألوانُ الأربعةُ من العذاب، لذعُهُ وحرقةُ وإسراعُ النار في جلودهم واللونُ الموحشُ والنَّتنُ، على أنَّ التفاوتَ بين ذلك القَطِرَان وما نشاهدُه كالتفاوت بين النارَين، فكأنَّ ما نشاهدُه منهما أسماءٌ مُسمَّياتها في الآخرة، فبكرمِهِ العميم نعوذُ، وبكنفه الواسع نلوذُ.

---

(١) الشربين: شجر كالسرو إلا أنه أشدُّ حمرةً وأزكى رائحةً وأعرض أوراقاً وأصغر ثمراً، ومنه القطران الجيد المعروف بالبرقي، وما استخرج من غيره كالأرز فضعيف، والشربين شجرٌ يدوم وجودُه وتبقى شجرتُه نحو خمسين سنة. تذكرة أولي الألباب ١/ ٢١١.

(٢) تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب ١/ ٢٦١.

(٣) قوله: كان، ليس في الأصل، والمثبت من (م).

(٤) تذكرة أولي الألباب ١/ ١٧٨.

(٥) البحر المحيط ٥/ ٤٤٠.

(٦) عزاها الطبري ١٣/ ٧٤٢ إلى عيسى بن عمر.

وجوّز أنْ يكونَ في الكلام استعارةٌ تمثيليةٌ بأنْ تُشبَّه النفسُ المتلبِّسةُ بالملكاتِ الرديئةِ كالكفر والجهلِ والعنادِ والغباوةِ بشخصٍ لَبِسَ ثياباً من زفتٍ وقَطِرَان، ووَجْهُ الشبه تَحلِّي كلٍّ منهما بأمرٍ قبيح مؤذٍ لصاحبه يستكره عند مشاهدتِهِ، ويُستعارُ لفظُ أحدهما للآخر. ولا يخفَى ما في توجيه الاستعارةِ التمثيلية بهذا من المساهلة، وهو ظاهر، على أنَّ القول بهذه الاستعارة هنا أقربُ ما يكون إلى كلام الصوفية.

وقال بعضُهم: يحتمل أنْ يكونَ القطرانُ المذكور عينَ ما لابَسُوهُ في هذه النشأة، وجعلوه شعاراً لهم من العقائد الباطلة والأعمالِ السيئة المستجلِبَةِ لفنون العذاب، قد تجسَّدَت في النشأة الآخرة بتلك الصورةِ المستتبعةِ لاشتداد العذاب، عصمنا الله تعالى من ذلك بلطفه وكرمه. وأنت تعلم أنَّ التشبيهَ البليغَ على هذا على حاله.

وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه وابنُ عباس وأبو هريرة وعكرمةُ وقتادة وجماعة من: «قَطِرٍ آنٍ»[1] على أنَّهما كلمتان منوَّنتان، أولاهما «قَطِرٍ» بفتح القاف وكسر الطاء، وهي النحاس مطلقاً أو المذاب منه، وثانيتُهما «آنٍ» بوزن: عانٍ، بمعنى شديد الحرارة. قال الحسن: قد سُعِّرَت عليه جهنَّم منذ خُلقَت فتناهى حرُّه.

﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠﴾ أي: تعلوها وتحيطُ بها النارُ التي تُسعَّر بأجسادهم المسربلة بالقطران، وتخصيصُ الوجوهِ بالحكم المذكورِ مع عمومه لسائر أعضائهم؛ لكونها أعزَّ الأعضاء الظاهرةِ وأشرفَها كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الزمر: ٢٤] ولكونها مَجمَعَ الحواسِّ والمشاعرِ التي لم يستعملوها فيما خُلقَت له من إدراك الحقِّ وتدبُّره، وهذا كما تَطَّلِعُ على أفئدتهم، لأنَّها أشرفُ الأعضاء الباطنة ومحلُّ المعرفةِ وقد ملؤوها بالجهالات، أو لخلوِّها كما قيل: عن القطران المغني عن ذكر غِشْيان النار، ووجهُ تَخْليتها عنه بأنَّ ذلك لعلَّه ليتعارفوا عند انكشاف اللَّهَب أحياناً ويتضاعفَ عذابُهم بالخزي على رؤوس الأشهاد.

---

(١) القراءات الشاذة ص٧٠، والمحتسب ١/ ٣٦٦، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٨، والبحر المحيط ٥/ ٤٤٠.

وقرئ برفع الوجوه ونصب «النارَ»(١) كأنَّه جعَلَ ورودَ الوجوهِ على النار غشْياناً لها مجازاً.

وقرئ: «تَغَشَّى» أي: تَتَغَشَّى بحذف إحدَى التاءَين(٢)، والجملة ـ كما قال أبو البقاء(٣) ـ نصبٌ على الحال كالجملة السابقة.

وفي «الكشف»: وأفاد العلَّامةُ الطيبيّ أنَّ «مقرَّنين»، «سَرابيلُهم من قَطِرَان»، «تَغْشَى»: أحوالٌ من مفعول «وترَى» جيء بها كذلك للترقِّي، ولهذا جيء بالثانية جملةً اسميَّةً؛ لأنَّ سَرابيلَ القَطِرَان الجامعة بين الأنواع الأربعة أفظعُ من الصفد، وأما «تَغْشى» فلتجديد الاستحضار المقصودِ في قوله تعالى: (وَتَرَى) لأنَّ الثاني أهولُ، والظاهرُ أنَّ الثانِيَيْن مُنقطعان مِن حكمِ الرؤيةِ؛ لأنَّ الأوَّل في بيان حالهم في الموقف إلى أنْ يُكَبَّ بهم في النار، والأخيرَين لبيان حالهم بعد دخولها، وكأنَّ الأوَّل حرَّك من السامع أنْ يقول: وإذا كان هذا شأنُهم وهم في الموقف، فكيف بهم وهم في جهنَّمَ خالدون؟! فأجيبَ بقوله سبحانه: «سرابيلهم من قطران»، وأُوثِرَ الفعلُ المضارع في الثانية، لاستحضار الحال وتجدُّد الغِشْيان حالاً فحالاً، وأكثرُ المعربين على عدم الانقطاع.

﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ﴾ متعلِّقٌ بمضمَرٍ، أي: يفعلُ بهم(٤) ذلك ليجزيَ سبحانه ﴿كُلَّ نَفْسٍ﴾ أي: مُجرِمةٍ بقرينة المقام ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ من أنواع الكفر والمعاصي جزاءً وفاقاً، وفيه إيذانٌ بأنَّ جزاءَهم مناسبٌ لأعمالهم، وجوِّز على هذا الوجه كونُ النفس أعمَّ من المجرمة والمطيعةِ، لأنَّه إذا خُصَّ المجرمون بالعقاب عُلِمَ اختصاصُ المطيعين بالثواب، مع أنَّ عقاب المجرمين وهم أعداؤهم جزاء لهم أيضاً كما قيل:

مَنْ عاشَ بعدَ عدوِّهِ ... يوماً فقد بَلَغ المُنَا(٥)

---

(١) عزاه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٨ إلى عبد الله بن مسعود، وهي في البحر ٥/ ٤٤٠.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٤١.
(٣) الإملاء ٣/ ٤١٦.
(٤) قوله: بهم، ليس في الأصل، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٦١.
(٥) حاشية الشهاب ٥/ ٢٨٠.

ويجوزُ على اعتبار العموم تعلُّق اللام بـ «بَرَزُوا» على تقدير كونه معطوفاً على «تُبدَّلُ» والضميرُ للخلق، ويكونُ ما بينهما اعتراضاً، فلا اعتراض، أي: برزوا للحساب ليجزيَ الله تعالى كلَّ نفسٍ مطيعةٍ أو عاصيةٍ ما كسَبت من خيرٍ أو شرٍّ.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝٥١﴾ لأنَّه لا يشغلُه سبحانه فيه تأمُّلٌ وتتبُّعٌ، ولا يمنعُهُ حسابٌ عن حسابٍ، حتى يَستريحَ بعضُهم عند الاشتغال بمحاسبةِ الآخرين، فيتأخَّر عنهم العذابُ، وروي عن ابن عباس ﷺ أنَّ المرادَ سريعُ الانتقام، وذكر المرتضى في «دُرَرِه»[1] وجوهاً أُخَر في ذلك.

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ﴾ أي: ما ذُكِرَ من قوله سبحانه: (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَٰفِلًا) إلى هنا، وجوّز أنْ يكونَ الإشارةُ إلى القرآن، وهو المرويُّ عن ابن زيد، أو إلى السورة، والتذكيرُ باعتبار الخبر وهو «بلاغٌ»، والكلامُ على الأوَّل أبلغُ، فكأنَّه قيل: هذا المذكورُ آنفاً كفاية في العِظةِ والتذكير من غير حاجةٍ إلى ما انطوَى عليه السورةُ الكريمةُ أو كلُّ القرآن المجيدِ من فنون العظاتِ والقوارع، وأصلُ البلاغ مصدرٌ بمعنى التبليغ، وبهذا فسَّره الراغبُ[2] في الآية، وذكر مجيئَه بمعنى الكفاية في آيةٍ أخرَى.

﴿لِّلنَّاسِ﴾ للكفَّار خاصَّةً على تقدير اختصاص الإنذار بهم في قوله سبحانه: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ﴾ أو لهم وللمؤمنين كافَّةً على تقدير شمولهم أيضاً، وإنْ كان ما شُرِحَ مختصًّا بالظالمين على ما قيل.

﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِۦ﴾ عطفٌ على محذوفٍ، أي: ليُنْصَحوا، أو لينذروا به، أو نحو ذلك، فتكونُ اللامُ متعلِّقةً بالبلاغ، ويجوزُ أنْ تتعلَّقَ بمحذوفٍ، وتقديره: ولينذروا[3] به أُنزلَ أو تُليَ، وقال الماوردي: الواو زائدةٌ، وعن المبرِّد: هو عطفُ مفردٍ على مفردٍ، أي: هذا بلاغٌ وإنذارٌ[4]، ولعلَّه تفسيرُ معنًى لا إعراب.

---

(١) غرر الفوائد ودرر القلائد المشهور بأمالي المرتضى ١/ ٣٨٩ - ٣٩١.
(٢) مفردات الراغب (بلغ).
(٣) في الأصل: لينذروا، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٦٢.
(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٤١.

وقال ابنُ عطية: أي: هذا بلاغٌ للناس وهو لينذروا به[١]، فجعَلَ ذلك خبراً لـ «هو» محذوفاً.

وقيل اللام لام الأمر، قال بعضُهم: وهو حَسَنٌ، لولا قوله سبحانه: (وَلِيَذَّكَّرَ) فإنَّه منصوبٌ لا غير، وارتَضَى ذلك أبو حيان وقال: إنَّ ما ذُكِرَ لا يخدشه، إذ لا يتعيَّنُ عطفُ «ليذكرَ» على الأمر، بل يجوزُ أنْ يُضمَرَ له فعلٌ يتعلَّق به[٢]. ولا يخفَى أنَّه تكلُّفٌ.

وقرأ يحيى بنُ عمارة الذراع عن أبيه، وأحمدُ بنُ يزيد السُّلمي: «ولِيَنذَروا» بفتح الياء والذال[٣] مضارع نَذِرَ بالشيء: إذا عَلِمَ به فاستعدَّ له، قالوا: ولم يُعرَف لـ: نَذِرَ بمعنى عَلِمَ مصدرٌ، فهو كـ: عسى وغيرها من الأفعال التي لا مصادِرَ لها، وقيل: إنَّهم استغنَوا بـ «أنْ» والفعل عن صريح المصدر.

وفي «القاموس»: نَذِرَ بالشيء كفَرِحَ: عَلِمَه فحَذِرَه، وأنذَرَه بالأمر إنذاراً ونَذْراً ونَذِيراً: أعلَمَهُ وحَذَّرَه[٤].

وقرأ مجاهد وحميد بتاءٍ مضمومةٍ وكسر الذال[٥].

﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ﴾ بالنظر والتأمُّل بما فيه من الدلائل الواضحةِ التي هي إهلاكُ الأمم وإسكانُ آخرينَ مساكنهم وغيرُهما مما تضمَّنه ما أشار إليه ﴿أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لا شريكَ له أصلاً، وتقديمُ الإنذار، لأنَّه داعٍ إلى التأمُّل المستتبِعِ للعلم المذكور.

﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾ أي: ليتذكَّروا شؤونَ الله تعالى ومعاملتَه مع عباده ونحوَ ذلك، فيرتدعوا عمَّا يُردِيهم من الصفات التي يتَّصف بها الكفارُ، ويتَدَرَّعوا بما يُحظيهم لديه عزَّ وجلَّ من العقائد الحقَّة والأعمال الصالحة. وفي تخصيص التذكُّر بأولي الألباب إعلاءٌ لشأنهم.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٨، ونقله عنه بواسطة البحر المحيط ٥/ ٤٤١.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٤١.
(٣) القراءات الشاذة ص٧٠، والمحتسب ١/ ٣٦٧، والبحر المحيط ٥/ ٤٤١.
(٤) القاموس المحيط (نذر).
(٥) البحر المحيط ٥/ ٤٤١.

وفي «إرشاد العقل السليم»: إنَّ في ذلك تلويحاً لاختصاص العلم بالكفار ودلالةً على أنَّ المشارَ إليه بهذا القوارعُ المسوقةُ لشأنهم لا كلُّ السورة المشتملةِ عليها وعلى ما سيق للمؤمنين أيضاً، فإنَّ فيه ما يُفيدُهم فائدةً جديدة، وللبحث فيه مجال، وفيه أيضاً أنَّه حيث كان ما يفيدُه البلاغ من التوحيد وما يترتَّبُ عليه من الأحكام بالنسبة إلى الكفرة أمراً حادثاً، وبالنسبة إلى أولي الألباب الثبات على ذلك، عبَّر عن الأوَّل بالعلم، وعن الثاني بالتذكُّر، ورُوعي ترتيبُ الوجود مع ما فيه من الخَتْم بالحسنَى[1].

وذكر القاضي ـ بيَّض الله تعالى غرَّةَ أحواله ـ أنَّه سبحانه ذكر لهذا البلاغِ ثلاثَ فوائدَ هي الغايةُ والحكمةُ في إنزالِ الكتبِ: تكميلُ الرسل عليهم السلام للناسِ المشار إليه بالإنذار، واستكمالُهم القوَّةَ النظريَّة التي منتهى كمالها ما يتعلَّق بمعرفةِ الله تعالى المشار إليه بالعلم، واستصلاحُ القوَّةِ العمليَّةِ التي هي التدرُّعُ بلباسِ التقوى المشار إليه بالتذكُّر[2].

والظاهرُ أنَّ المرادَ بـ «أُولي الألباب» أصحابُ العقولِ الخالصة من شوائبِ الوهْمِ مُطلقاً، ولا يقدحُ في ذلك ما قيل: إنَّ الآيةَ نزلَت في أبي بكر رضي الله عنه.

وقد ناسَبَ مُختَتَمُ هذه السورةِ مُفْتَتَحَها، وكثيراً ما جاء ذلك في سُوَر القرآن حتى زَعَم بعضُهم أنَّ قوله تعالى: ﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِۦ﴾ معطوفٌ على قوله سبحانه: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ وهو من البعد بمكان.

نسألُه سبحانه عزَّ وجل أنْ يمنَّ علينا بشآبيب العفو والغفران.

❁ ❁ ❁

هذا ومن باب الإشارة في الآيات ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ قال ابنُ عطاء: أرادَ عليه السلام أنْ يجعلَ سبحانَه قلبَه آمناً منِ الفراق والحجابِ، وقيل: اجعلْ بلَدَ قلبي ذا أمنٍ بكَ عنكَ ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ من المرغوبات الدنيَّةِ والمشتهيات الحسِّيَّة.

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٦٢.

(٢) تفسير البيضاوي ومعه حاشية الشهاب ٥/ ٢٨٠.

وقال جعفر ﷺ: أرادَ عليه السلام: لا تردَّني إلى مشاهدةِ الخلَّة، ولا تردَّ أولادي إلى مشاهدةِ النبوَّة، وعنه أنَّه قال: أصنامُ الخلَّة خطراتُ الغفلة ولحظاتُ المحبة، وفي رواية أخرى أنَّه عليه السلام كان آمناً من عبادة الأصنام في كِبَرِه وقد كَسَرَها في صِغَرِه، لكنَّه عَلِمَ أنَّ هوى كلِّ إنسانٍ صنمُه، فاستعاذ من ذلك.

وقال الجنيد قدِّسَ سِرُّه: أي: امنَعْني وبنيَّ أنْ نَرَى لأنفسنا وسيلةً إليكَ[1] غيرَ الافتقار. وقيل: كلُّ ما وقف العارفُ عليه غير الحقِّ سبحانه فهو صَنَمُه، وجاء: النفس هو الصنم الأكبر.

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ بالتعلُّق بها والانجذابِ إليها والاحتجابِ بها عنك سبحانك ﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾ في طريق المجاهدةِ والخلَّة ببذل الروح بين يديك ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ طينتُه من طينتي، وقَلبُه من قلبي، ورُوحُه من روحي، وسرُّه من سرِّي، ومَشْرَبُه في[2] الخلَّة مِن مَشربي، ﴿وَمَنْ عَصَانِى﴾ وفعل ما يقتضي الحجابَ عنك ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فلا أدعو عليه، وأفوِّضُ أمرَه إليك. قيل: إنَّ هذا منه عليه السلام دعاءٌ للعاصي بستر ظُلمتِهِ بنورِه تعالى ورحمتِه جلَّ شأنه إياه بإفاضةِ الكمال عليه بعد المغفرة. ومن كلام نبيِّنا ﷺ: «اللَّهمَّ اهدِ قومي فإنَّهم لا يعلمون»[3].

وفي «أسرار التأويل»: أنَّه عليه السلام أشارَ بقوله[4]: ﴿وَمَنْ عَصَانِى﴾ إلى مقام الجمْعِ، ولذا لم يَقُل: ومَن عصاك، ويجوزُ أنْ يقال: إنَّما أضافَ عصيانهم إلى نفسه؛ لأنَّ عصيانَ الخلقِ للخالق غيرُ ممكنٍ، وما من دابةٍ إلا وربِّي[5]

---

(١) في الأصل: إليك وسيلة، والمثبت من (م).
(٢) قوله: في، ليس في الأصل. والمثبت من (م).
(٣) أخرجه أبو نعيم في تاريخ أصبهان ٢/ ١٦١، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٦٢/ ٢٤٧، من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعاً، والديلمي في مسند الفردوس (٥٣٢٦) عن أبي هريرة عن سيدنا نوح عليه السلام، وأحمد في الزهد ص٦٦ عن عبيد بن عمير عن نوح عليه السلام، وقال السهيلي في الروض الأنف ٢/ ١٧٠: وقد ذكرها ابن إسحاق رواها عنه بعض رواة الكتاب.
وأخرجه أحمد (٣٦١١)، والبخاري (٣٤٧٧) من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعاً بلفظ: «اللهم اغفر لقومي...».
(٤) ليس في الأصل.
(٥) في الأصل: ربي، والمثبت من (م).

آخذٌ بناصيتها، فَهُمْ في كلِّ أحوالهم مجيبونَ لداعي أَلسنةِ مشيئتِهِ سبحانه وإرادته القديمة.

وسئل عبدُ العزيز المكي: لِمَ لَمْ يقُل الخليلُ: ومن[1] عصاك؟ فقال: لأنَّه عظَّمَ ربَّه عزَّ وجل وأجلَّه مِن أنْ يثبِتَ أنَّ أحداً يَجترئ على معصيته سبحانه، وكذا أجلَّه سبحانه مِن أنْ يبلُغَ أحدٌ مبلغَ ما يليقُ بشأنه عزَّ شأنه من طاعته حيث قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾.

﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ قيل: إنَّ من عادة الله تعالى أنْ يَبْتليَ خليلَه بالعظائم ليَنزِعَه عن نَفسه وعن جميع الخليقةِ؛ لئلا يَبقَى بينه وبينه حجابٌ من الحَدَثَان، فلذا أَمَر جلَّ شأنُه هذا الخليلَ أنْ يُسكنَ من ذرِّيته في وادي الحرم بلا ماءٍ ولا زادٍ لينقطعَ إليه ولا يعتمدَ إلا عليه عزَّ وجلَّ، وناداه باسم الربِّ؛ طمعاً في تربية عياله وأهلِهِ بألطافه وإيوائهم إلى جوار كرامته.

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ التي يصلُ العبدُ بها إليك ويكونُ مرآة تجلِّيك ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ تميل بوصف الإرادة والمحبةِ ليسلِّكوهم إليك ويدلُّوهم عليك، قال[2] ابنُ عطاء: من انقطع عن الخلق بالكليَّة، صرفَ الله تعالى إليه وجوهَ الخلقِ وجعَلَ مودَّته في صدورهم ومحبَّتَه في قلوبهم، وذلك مِن دعاء الخليلِ عليه السلام، لمَّا قطَعَ أهلَه عن الخلق والأسباب قال: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ قيل: أي: ثمراتِ طاعتك، وهي المقامات الرفيعة والدرجات الشريفة.

وقال الواسطي: ثمرات القلب[3]، وهي أنواعُ الحكمةِ، ورئيسُ الحكمة رؤيةُ المنَّةِ والعجزُ عن الشكر على النعمة، وهو الشكرُ الحقيقيُّ ولذلك قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ أي: يعلمون أنَّه لا يتهيَّأ لأحد أنْ يقومَ بشكرك، وثمرةُ الحكمة تُزيلُ الأمراضَ عن القلوب كما أنَّ ثمرةَ الأشجار تُزيلُ أمراضَ النفوس. وقيل: أي: ارزُقهم الأولاد الأنبياء والصلحاء، وفيه إشارةٌ إلى دعوته بسيِّد المرسلين ﷺ المعنيِّ

---

(١) قوله: ومن، ليس في الأصل، والمثبت من (م).
(٢) في الأصل: وقال، والمثبت من (م).
(٣) في (م): القلوب.

له بقوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا﴾ [البقرة:١٢٩] وأيُّ الثمراتِ أشهَى من أصفَى الأصفياء وأتقَى الأتقياء وأفضلِ أهل الأرضِ والسماءِ وحبيبِ ذي العظمةِ والكبرياءِ، فهو عليه الصلاة والسلام ثمرةُ الشجرة الإبراهيميَّة، وزهرةُ رياضِ الدعوةِ الخليليَّة، بل هو ﷺ ثمرةُ شجرةِ الوجود، ونورُ حديقة الكرم والجود، ونورُ حَدَقةِ(١) كلِّ موجودٍ ﷺ إلى اليوم المشهود.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾ قال الخوَّاص: ما نُخفي من حُبِّك وما نُعلنُ من شكرك. وقال ابنُ عطاء: ما نُخفي من الأحوال وما نُعلنُ من الآداب. وقيل: ما نُخفي من التضرُّع في عبوديتك وما نُعلنُ من ظاهر طاعتك في شريعتك. وأيضاً: ما نُخفي من أسرار معرفتك وما نُعلنُ من وظائف عبادتك. وأيضاً ما نخفي من حقائق الشوقِ إليك في قلوبنا وما نُعلنُ في غلبة مواجيدنا بإجراء العبَرَات وتصعيدِ الزفرات:

وارحمتـا للعاشقين تكلَّفوا ... سَتْرَ المحبةِ والهوَى فضَّاحُ
بالسرِّ إنْ باحوا تُباحُ دماؤهم ... وكذا دماءُ البائحين تُباحُ
وإنْ هُمُ كَتَمُوا تحدَّثَ عنهمُ ... عند الوشاةِ المدمعُ السحَّاحُ(٢)

وقال السَّيِّد علي البندنيجي قدِّس سرُّه:

كَتمتُ هَوَى حُبِّيهِ خوفَ إذاعةٍ ... فللَّه كم صبٌّ أَضرَّ بهِ الذَّيعُ
ولكنْ بَدَت آثارُه مِن تأوُّهي ... إذا فاحَ مسكٌ كيف يَخفَى له ضَوعُ(٣)

﴿وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ فيعلم ما خَفِيَ وما علن.

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ قيل: الظالم من تجاوزَ طورَه وتَبختَرَ على بساط الأنانية زاعماً أنَّه قد تضلَّع مِن ماء زمزمِ المحبةِ، واستغرقَ في لُجيٍّ بحر الفناء، وتوعَّدَه الله تعالى بتأخير فضيحتِهِ إلى يومٍ تشخَصُ فيه أبصارُ سُكارَى المعرفةِ والتوحيد، وهو يومُ

(١) في الأصل: حديقة، والمثبت من (م).
(٢) الأبيات لشهاب الدين السهروردي القتيل كما في معجم الأدباء ١٩/ ٣١٧.
(٣) لم نقف عليهما.

الكشف الأكبر حين تبدو أنوارُ سَطواتِ العزَّةِ، فيستغرقون في عظمته، بحيث لا يقدرُون على الالتفات إلى غيره، فهناك يتبيَّن الصادقُ من الكاذب:

إذا اشتبكَتْ دموعٌ في خدودٍ تبيَّنَ مَن بَكى ممَّن تباكى(١)

وقوله سبحانه: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ شرحٌ لأحوال أصحابِ الأبصار الشاخصة، وهم سكارَى المحبَّةِ على الحقيقة، قال ابنُ عطاء في «وأفئدتُهم هواء»: هذه صفةُ قلوبِ أهلِ الحقِّ متعلِّقةٌ بالله تعالى لا تقرُّ إلا معه سبحانه ولا تَسكُن إلا إليه، وليس فيها محلٌّ لغيره.

﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ طلبوا تداركَ ما فات، وذلك بتهذيب الباطنِ والظاهرِ والانتظامِ في سلوك الصادقين وهيهات ثمَّ هيهات، ثم أُجيبُوا بما يَقصِمُ الظهرَ ويَفصِمُ عُرَى الصبر وهو قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ﴾ الآية.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ وذلك عند انكشافِ أنوارِ حقيقة الوجودِ، فيظهر هلاكُ كلِّ شيءٍ إلا وجهه.

وقيل: الإشارةُ في الآية إلى تَبدُّل أرضِ قلوبِ العارفين من صفات البشريَّة إلى الصفات الروحانيَّة المقدَّسةِ بنور شهودِ جمالِ الحقِّ، وتبدُّلِ سماواتِ الأرواح من عَجْزِ صفاتِ الحدوث وضَعْفها عن أنوار العظمة بإفاضة الصفات الحقَّة.

وقيل: تبدّل أرض الطبيعة بأرض النفسِ عند الوصول إلى مقام القلبِ، وسماء القلب بسماء السرِّ، وكذا تبدّل أرض النفس بأرض القلبِ، وسماء السرِّ بسماء الروح، وكذا كلُّ مقامٍ يَعبُرُه السالك يتبدَّلُ ما فوقَه وما تحتَه كتبدُّل سماء التوكل في توحيد الأفعال بسماءِ الرضا في توحيد الصفات، ثم سماءُ الرضا بسماء التوحيد عند كشف الذات.

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ بسلاسل الشهواتِ ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ وهو قَطِرانُ أعمالهم النتنة ﴿وَتَغْشَىٰ﴾ وتستر ﴿وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ في جهنَّم الحرمان وسعيرِ الإذلال والاحتجاب عن ربِّ الأرباب.

---

(١) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ٣/ ١٣٢.

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وهـم علماء الحقيقةِ وأساطينُ المعرفةِ وعشّاقُ الحضرة وأمناءُ خزائنِ المملكةِ، جعلنا الله تعالى وإياكم ممن ذُكِّرَ فتذَكَّر، وتحقَّق في مقرِّ التوحيد وتقرَّر بمنِّه سبحانه وكرمه.

(١٥) سورة الحجر مكية وآياتها تسع وتسعون

سورةُ الحِجْر من السور المكيةِ التي استهدفتْ المقاصد الأساسية لأركان الدعوة الإسلامية من تقرير الوحي والرسالة ، وتقرير البعث والجزاء ، وإقامة الأدلة والبراهين على وحدانية ربِّ العالمين جلَّ وعلا . ومحور هذه السورة يدور حول إبراز المصير المشئوم الذي ينتظر أهلَ الجحودِ والضَّلال ، وأهلَ الكفر والعناد من المكذبين الكافرين ، ولذلك جاء التعقيب المباشر بعد ذكر قَصَص الأنبياءِ بما حلَّ بأقوامهم من النكال والدمار نتيجةً لتكذيبهم رسلَ الله . سُميت هذه السورةُ – سورةَ الحجر – لأن الله تبارك وتعالى ذكر ما حدث لقوم صالح وهم قبيلةُ ثمود – وديارهُم في الحِجْر بين المدينة والشام – وكانوا ينحتون الجبالَ بيوتاً ، يسكنون فيها وكأنهم مخلَّدون في هذه الحياة ، لا ينالهم تعبٌ ولا نَصَب ، ولا يُفرّقهم موتٌ ولا فناء ، آمنون مطمئنون حتى جاءتهم صيحة العذاب وهم في غفلتهم ساهون ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ، فقد جاءهم العذاب في وقت الصباح ، وهم في البيوت الحصينة في صُلْب الجبال ، وفي جوفِ الصخرِ المتين وفي ذلك يقول القرآن الكريم « ولقد كذَّب أصحاب الحِجْر المرسلينَ وآتيناهم آياتِنا فكانوا عنها مُعْرضين . وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين . فَأَخَذَتْهم الصيحةُ مصبحين . فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون » .

ابتدأت هذه السورةُ الكريمةُ بالإنذارِ والتهديد ، ملفَّعاً بظلٍ من التهويل

والوعيد «آلر . تلك آياتُ الكتاب وقرآنٍ مبين . رُبَمَا يودُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين . ذَرْهُمْ يأكلوا ويتمتعوا ويُلْهِهِمُ الأَمَلُ فسوف يعلمون . وما أهلكنا من قريةٍ إلا ولها كتابٌ معلوم . ما تَسْبِقُ من أُمَةٍ أَجَلها وما يستأخرون» ثم عرضتْ الآياتُ إلى موقفِ الجحودِ والعناد الذي وقفه الأقوام من الرسل الكرام ، فما من نبيٍّ إلا سخر منه قومُه ، من لَدُن نوحٍ إلى بعثة خاتم المرسلين ، وبالأخص كفارُ مكة الذين طُمست بصائرهم فراحوا يهزءون من رسول الله ﷺ ويسخرون وقد بيَّن تعالى أن هذه سنةُ المكذبين مع الأنبياء والمرسلين ، لا يؤمنون ولو جاءتهم كلُّ آية حتى يروا العذاب الأليم «ولقد أرسلنا من قبلِكَ في شيَع الأولين . وما يأتيهم من رسولٍ إلا كانوا به يستهزءون . كذلك نسلكُهُ في قلوبِ المجرمين . لا يؤمنون به وقد خَلَتْ سُنَّةُ الأولين» وقد صوَّر تعالى مشهد المكابرة والعناد لكفار مكة في ذلك التصوير المُذْهِل ، مَشهد أولئك المكذبين وهم يصعدون في السماء ، من بابٍ [illegible]ح لهم فيها ، وهم يصعدون بأجسامهم ويرون الأفلاك والأملاك ثم [illegible] بعد ذلك يكابرون ويعاندون «ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلو[illegible] يَعْرجون . لقالوا إنما سُكِّرتْ أبصارُنا بل نحنُ قومٌ مَسْحورون» ومن مشهد [illegible]ة الى مَعْرض الآيات الكونية ، مبدوءاً بمشهد السماء ، فمشهدِ الأرض . [illegible]د الرياحِ اللواقح . فمشهدِ الحياة والموت . فمشهد البعث والحشر . [illegible]لك آياتٌ باهرات معروضة في صفحة هذا الكون العجيب ، الذي ينص[illegible] اليد المُبْدعة ، ويشهد بالإعجاز في عظمة هذا الخالق الكبير ، ومع [illegible]كابر المكابرون ويعارضُ المكذبون . استمعْ إلى هذا البيان الذي ينطق بج[illegible]له ووحدانيته «ولقد جعلنا في السماءِ بروجاً وزينَّاها للناظرين . وحفظناها من كلِّ شيطانٍ رجيم . إلا من استَرقَ السمعَ فأتْبَعه شهابٌ مبين . والأرضَ مَدَدْناها

وألقينا فيها رواسيَ وأنبتنا فيها من كل شيءٍ موزون . وجعلنا لكم فيها معايشَ ومن لستم له برازقين . وإنْ من شيءٍ إلا عندنا خزائنُه وما ننزّلُه إلا بقدرٍ معلوم » . ثم تردُّ الآيات الكريمة كلَ شيءٍ في الكون إلى الإله القادر الحكيم ، خالقِ الكائنات ومبدع الأرضِ والسموات ، فترد إليه الحياة والموت ، والأحياء والأموات ، والبعث والنشور ، فمنه جل وعلا ابتدأ خلق البشر وإليه يعود « وإنَّا لنحنُ نُحيي ونُميتُ ونحن الوارثون . ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين . وإنَّ ربَك هو يحشرهم إنه حكيمٌ عليم » .

ثم تقص السورة الكريمة قصة البشرية الكبرى ، قصة الهدى والضلال ممثَّلة في خلق آدم وعدوه إبليس اللعين ، وتذكر قَسَم إبليس بإغواء أهلِ الأرض أجمعين إلا من خصَّهم الله بالهداية والتوفيق ، فإنَّ الشيطانَ لا يستطيعُ أن يحومَ حول ساحتهم لأنهم في حمى الرحمن « قال ربِّ بما أغويتني لأُزَيِّنَنَّ لهم في الأرضِ ولأُغوينَّهم أجمعينَ . إلا عبادَكَ منهم المُخْلَصِينَ . قال هذا صراطٌ عليَّ مستقيمٌ . إنَّ عبادي ليس عليهم سلطانٌ إلا من اتبعك من الغاوين . وإنَّ جهنمَ لموعدُهمْ أجمعين . لها سبعةُ أبوابٍ لكل بابٍ منهم جزء مقسوم » .

ومن قصة آدم تنتقل الآيات إلى قَصَص الأنبياء ، تسليةً لرسول الله عليه الصلاة والسلام ، وتثبيتاً لقلبه الشريف لئلا يتسرب إليه اليأسُ والقنوط ، فتذكر قصة لوط ، وقصةَ شُعيب ، وقصة صالح ، تذكرها بالإيجاز لا بالإسهاب وما حلَّ بأقوامهم المكذبين ، بدءاً من قوله تعالى « نبىءْ عبادي أني أنا الغفور الرحيم . وأن عذابي هو العذاب الأليم » إلى آخر قصة صالح . استمع إلى قوله تعالى عن قوم لوط « فأخذتهم الصيحةُ مشرقين . فجعلنا عاليَها سافِلَها وأمطرنا عليهم حجارةً من سجيل . إنَّ في ذلك لآياتٍ للمتوسّمينَ . وإنها لسبيلٍ مقيم » واستمع إلى قوله عن

قوم شعيب وهم أصحابُ الأَيكةِ ﴿ وإن كانَ أصحابُ الأَيْكةِ لظالمين . فانتقمنا منهم وإنهما لَبِإمَامٍ مبين﴾ وهكذا تنتهي تلك الحلقات الخاطفة من القصَص في السورة ، محققةً سنةَ الله في أخذ المكذبين عند انقضاء المدة التي حددها الله لهم فلن يُفلت أحدٌ من عذاب الله . وتختم السورة الكريمة بلفتِ الأنظار إلى قدرة الله الواحد القهار ، وبيان الحقِ الكامن في خلق السموات والأرض ، وبيان الساعةِ التي يعقبها الثواب والعقاب في دار العدل والجزاء « وما خلقنا السمواتِ والأرض وما بينهما إلا بالحقِ وإنَّ الساعةَ لآتيةٌ فاصفح الصفحَ الجميلَ . إن ربَّك هو الخلاقُ العليم » كما تذكّر الرسول بالصبر على الأذى في سبيل الله ، وشكر الله وعبادته والإكثار من الصلاة والتبتل والطاعة « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون . فسبّح بحمد ربك وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » .

سورة الحجر

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا﴾ [الحجر: ٢٤] الآية.

[٥٢٥] روى الترمذي والنسائي والحاكم وغيرهم(١) عن ابن عباس قال: كانت امرأة تصلي خلف رسول الله [ﷺ] حسناء من أحسن الناس، فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لئلا يراها ويستأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر فإذا ركع نظر من تحت إبطيه، فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴿٢٤﴾﴾(٢).

[٥٢٦] ك.. وأخرج ابن مردويه عن داود بن صالح أنه سأل سهل بن حنيف الأنصاري ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴿٢٤﴾﴾(٣) أنزلت في سبيل الله؟ قال: لا ولكنها في صفوف الصلاة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الحجر: ٤٥] الآية.

[٥٢٧] أخرج الثعلبي عن سلمان الفارسي لما سمع قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴿٤٣﴾﴾(٤) فرَّ ثلاثة أيام هارباً من الخوف لا يعقل، فجيء به للنبي [ﷺ]، فسأله فقال: يا رسول الله أنزلت هذه الآية: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴿٤٣﴾﴾(٥) فوالذي بعثك بالحق لقد قطعت قلبي، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴿٤٥﴾﴾(٦).

قوله تعالى ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الحجر: ٤٧] الآية.

---

[٥٢٥] (١) ورواه الواحدي في أسباب النزول من طريق عمر بن مالك عن أبي الجوزاء عن ابن عباس.

(٢) سورة الحجر: الآية (٢٤).

[٥٢٦] (٣) سورة الحجر: الآية (٢٤).

[٥٢٧] (٤) سورة الحجر: الآية (٤٣).

(٥) سورة الحجر: الآية (٤٣).

(٦) سورة الحجر: الآية (٤٥).

[٥٢٨] أخرج ابن أبي حاتم(١) عن علي بن الحسين أن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾(٢) قيل: وأي غل قال: غل الجاهلية أن بني تميم وبني عدي وبني هاشم كان بينهم في الجاهلية عداوة فلما أسلم هؤلاء القوم تحابوا فأخذت أبا بكر الخاصرة فجعل علي يسخن يده فيكمد بها خاصرة أبي بكر فنزلت هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي﴾ [الحجر: ٤٩] الآية.

[٥٢٩] أخرج الطبراني عن عبدالله بن الزبير قال مر رسول الله [ﷺ] بنفر من أصحابه يضحكون فقال: «**أتضحكون وذكر الجنة والنار بين أيديكم**» فنزلت هذه الآية: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠)﴾(٣).

[٥٣٠] وأخرج ابن مردويه من وجه آخر عن رجل من أصحاب النبي [ﷺ] قال اطلع علينا رسول الله [ﷺ] من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة فقال: «**لا أراكم تضحكون**» ثم أدبر ثم رجع القهقرى فقال: «**إني خرجت حتى إذا كنت عند الحجر جاء جبريل فقال يا محمد إن الله يقول لك لم تقنط عبادي**» ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠)﴾(٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥)﴾ [الحجر: ٩٥].

[٥٣١] ك.. أخرج البزار والطبراني عن أنس بن مالك قال مرّ النبي [ﷺ] على أناس بمكة فجعلوا يغمزون في قفاه ويقولون هذا الذي يزعم أنه نبي ومعه جبريل فغمز جبريل بإصبعه فوقع مثل الظفر في أجسادهم فصارت قروحاً حتى نتنوا فلم يستطع أحد أن يدنو منهم فأنزل الله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥)﴾(٥).

* * *

---

[٥٢٨] (١) رواه الواحدي في أسباب النزول ص (١٥٨ و ١٥٩) من طريق علي بن هاشم عن كثير النواء قال: قلت لأبي جعفر إن فلاناً حدثني عن علي بن الحسين.... الخبر.

(٢) سورة الحجر: الآية (٤٧).

[٥٢٩] (٣) سورة الحجر: الآية (٤٩و ٥٠).

[٥٣٠] (٤) سورة الحجر: الآية (٤٩و ٥٠).

[٥٣١] (٥) سورة الحجر: الآية (٩٥).

سورة الحجر

تسعون وتسع آيات مكية إلا الآية ٨٧ فمدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ① رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ② ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ③﴾

اعلم أن قوله: ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات. والمراد بالكتاب والقرآن المبين الكتاب الذي وعد الله تعالى به محمدًا ﷺ وتنكير القرآن للتفخيم، والمعنى: تلك الآيات آيات ذلك الكتاب الكامل في كونه كتابًا وفي كونه قرآنًا مفيدًا للبيان.

أما قوله: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ نافع وعاصم ﴿رُّبَمَا﴾ خفيفة الباء والباقون مشددة قال أبو حاتم: أهل الحجاز يخففون ربما، وقيس وبكر يثقلونها، وأقول في هذه اللفظة لغات، وذلك لأن الراء من رب وردت مضمومة ومفتوحة، أما إذا كانت مضمومة فالباء قد وردت مشددة ومخففة وساكنة وعلى كل التقديرات تارة مع حرف ما، وتارة بدونها وأيضًا تارة مع التاء وتارة بدونها وأنشدوا:

أَسُمَيَّ مَا يدريك أن رب فتية باكرت لذتهم بأذكر مسرع[1]

ورب بتسكين الباء وأنشدوا بيت الهذلي:

أَزُهَيْرَان يَشِبِ الْقَذَالُ فَإِنَّنِي رُبْ هَيْضَلٍ مَرِسٍ كَفَفْتُ بِهَيْضَلِ[2]

والهيضل جماعة متسلحة، وأيضًا هذه الكلمة قد تجيء حالتي تشديد الباء وتخفيفها مع حرف (ما) كقولك: ربما وربما وتارة مع التاء، وحرف (ما) كقولك: ربتما وربتما هذا كله إذا كانت الراء من رب مضمومة وقد تكون مفتوحة، فيقال: رب وربما وربتما حكاه قطرب قال أبو

---

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الكامل للشاعر والبيت هكذا:

فَسُمَيَّ ما يُدريكِ أن رُبَّ فتيَةٍ باكَرتُ لَذَّتَهُم بِأَدكَنَ مُترَعِ

والحادرة هو الحادِرَة هو: قطبة بن أوس بن محصن بن جرول المازني الفزاري الغطفاني. ؟- ٥ هـ/ ؟- ٦٢٦ م، شاعر جاهلي مخضرم مقل، يلقب بالحادرة أي الضخم أو الحويدرة، جمع محمد بن العباس اليزيدي ما بقي من شعره في ديوان.

(٢) الهذلي تقدمت ترجمته.

علي: من الحروف ما دخل عليه حرف التأنيث، نحو: ثم وثمت، ورب وربت، ولا ولات، فهذه اللغات بأسرها رواها الواحدي في (البسيط).

المسألة الثانية: رب حرف جر عند سيبويه، ويلحقها (ما) على وجهين: أحدهما: أن تكون نكرة بمعنى شيء، وذلك كقوله:

رُبَّ مَا تَكْرَهُ النُّفُوسُ مِنَ الْأَمْـ ـــر لَهُ فُرْجَةٌ كَحَلِّ العقال (١)

فـ(ما) في هذا البيت اسم والدليل عليه عود الضمير إليه من الصفة، فإن المعنى رب شيء تكرهه النفوس وإذا عاد الضمير إليه كان اسمًا ولم يكن حرفًا، كما أن قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ [المؤمنون: ٥٥] لما عاد الضمير إليه علمنا بذلك أنه اسم، ومما يدل على أن (ماء) قد يكون اسمًا إذا وقعت بعد رب وقوع من بعدها من قول الشاعر:

يا رب من ينقص أزوادنا رُحْنَ عَلَى نُقْصَانِهِ وَاغْتَدَيْنَ

فكما دخلت رب على كلمة (من) وكانت نكرة، فكذلك تدخل على كلمة (ما) فهذا ضرب والضرب الآخر أن تدخل ما كافة كما في هذه الآية والنحويون يسمون ما هذه الكافة يريدون أنها بدخلوها كفت الحرف عن العمل الذي كان، وإذا حصل هذا الكف فحينئذ تتهيأ للدخول على ما لم تكن تدخل عليه، ألا ترى أن رب إنما تدخل على الإسم المفرد نحو رب رجل يقول ذاك ولا تدخل على الفعل، فلما دخلت (ما) عليها هيأتها للدخول على الفعل كهذه الآية، والله أعلم.

المسألة الثالثة: اتفقوا على أن رب موضوعة للتقليل، وهي في التقليل نظيرة كم في التكثير، فإذا قال الرجل: ربما زارنا فلان، دل ربما على تقليله الزيارة. قال الزجاج: ومن قال إن رب يعني بها الكثرة، فهو ضد ما يعرفه أهل اللغة، وعلى هذا التقدير: فههنا سؤال، وهو أن تمني الكافر الإسلام مقطوع به، كلمة رب تفيد الظن، وأيضًا أن ذلك التمني يكثر ويتصل، فلا يليق به لفظة ﴿رُّبَمَا﴾ مع أنها تفيد التقليل.

والجواب عنه من وجوه:

الوجه الأول: أن من عادة العرب أنهم إذا أرادوا التكثير ذكروا لفظًا وضع للتقليل، وإذا أرادوا اليقين ذكروا لفظًا وضع للشك، والمقصود منه: إظهار التوقع والاستغناء عن التصريح بالغرض، فيقولون: ربما ندمت على ما فعلت، ولعلك تندم على فعلك، وإن كان العلم حاصلاً بكثرة الندم ووجوده بغير شك، ومنه قول القائل:

(١) هذا البيت للشاعر إبراهيم بن العباس الصولي وهو إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول أبو إسحاق، ١٧٦-٢٤٣ هـ/ ٧٩٢- ٨٥٧ م، كاتب العراق في عصره أصله من خراسان، وكان جده محمد من رجال الدولة العباسية ودعاتها، ونشأ إبراهيم في بغداد فتأدب فيها، وقربه الخلفاء، فكان كاتباً للمعتصم والواثق والمتوكل.

قَدْ أَتْرُكُ الْقِرْنَ مُصْفَرًا أَنَامِلُهُ [١]

والوجه الثاني: في الجواب أن هذا التقليل أبلغ في التهديد، ومعناه: أنه يكفيك قليل الندم في كونه زاجرًا لك عن هذا الفعل فكيف كثيره؟

والوجه الثالث: في الجواب أن يشغلهم العذاب عن تمني ذاك إلا في القليل.

المسألة الرابعة: اتفقوا على أن كلمة (رب) مختصة بالدخول على الماضي كما يقال: ربما قصدني عبد الله، ولا يكاد يستعمل المستقبل بعدها. وقال بعضهم: ليس الأمر كذلك والدليل عليه قول الشاعر:

رُبَّمَا تَكْرَهُ النُّفُوسُ مِنَ الْأَمْرِ

وهذا الاستدلال ضعيف، لأنا بينا أن كلمة (رب) في هذا البيت داخلة على الإسم وكلامنا في أنها إذا دخلت على الفعل وجب كون ذلك الفعل ماضيًا، فأين أحدهما من الآخر؟ إلا أني أقول قول هؤلاء الأدباء إنه لا يجوز دخول هذه الكلمة على الفعل المستقبل لا يمكن تصحيحه بالدليل العقلي، وإنما الرجوع فيه إلى النقل والاستعمال، ولو أنهم وجدوا بيتًا مشتملاً على هذا الاستعمال لقالوا إنه جائز صحيح وكلام الله أقوى وأجل وأشرف، فلم لم يتمسكوا بوروده في هذه الآية على جوازه وصحته. ثم نقول إن الأدباء أجابوا عن هذا السؤال من وجهين:

الأول: قالوا: إن المترقب في أخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحققه، فكأنه قيل: ربما ودوا.

الثاني: أن كلمة (ما) في قوله: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ اسم و ﴿يَوَدُّ﴾ صفة له، والتقدير: رب شيء يوده الذين كفروا. قال الزجاج: ومن زعم أن الآية على إضمار كان وتقديره ربما يود الذين كفروا فقد خرج بذلك عن قول سيبويه ألا ترى أن كان لا تضمر عنده ولم يجز عبد الله المقبول وأنت تريد كان عبد الله المقبول.

المسألة الخامسة: في تفسير الآية وجوه على مذهب المفسرين فإن كل أحد حمل قوله: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ على محمل آخر، والأصح ما قاله الزجاج فإنه قال: الكافر كلما رأى حالاً من أحوال العذاب ورأى حالاً من أحوال المسلم ود لو كان مسلمًا، وهذا الوجه هو الأصح. وأما المتقدمون فقد ذكروا وجوهًا. قال الضحاك: المراد منه ما يكون عند الموت، فإن

---

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر البسيط والبيت كاملا هكذا

قَد أَترُكُ القِرنَ مُصفَرّاً أَنامِلُهُ   كَأَنَّ أَثوابَهُ مُجَّت بِفِرصادِ

وهو للشاعر عبيد بن الأبرص وهو عبيد بن الأبرص بن عوف بن جشم الأسدي، أبو زياد، من مضر، ؟ - ٢٥ ق.هـ/ ؟ - ٥٩٨ م، شاعر من دهاة الجاهلية وحكمائها، وهو أحد أصحاب المجمهرات المعدودة طبقة ثانية عن المعلقات. عاصر أمرؤ القيس وله معه مناظرات ومناقضات، وعمّر طويلاً حتى قتله النعمان بن المنذر وقد وفد عليه في يوم بؤسه.

الكافر إذا شاهد علامات العقاب ود لو كان مسلمًا. وقيل: إن هذه الحالة تحصل إذا اسودت وجوههم، وقيل: بل عند دخولهم النار ونزول العذاب، فإنهم يقولون: ﴿أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ [إبراهيم: ٤٤] وروى أبو موسى أن النبي ﷺ قال: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَاجْتَمَعَ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ ومعهم من شاء الله مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ قَالَ الْكُفَّارُ لَهُمْ: أَلَسْتُمْ مُسْلِمِينَ؟ قَالُوا بَلَى، قَالُوا: فَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ إِسْلَامُكُمْ، وَقَدْ صِرْتُمْ مَعَنَا فِي النَّارِ، فَيَتَفَضَّلُ اللَّهُ تَعَالَى بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ، فَيَأْمُرُ بِإِخْرَاجِ كُلِّ مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ مِنَ النَّارِ، فَيَخْرُجُونَ مِنْهَا، فَحِينَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ» (١) وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية. وعلى هذا القول أكثر المفسرين، وروى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما يزال الله يرحم المؤمنين، ويخرجهم من النار، ويدخلهم الجنة بشفاعة الأنبياء والملائكة، حتى أنه تعالى في آخر الأمر يقول: من كان من المسلمين فليدخل الجنة (٢). قال: فهنالك يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين. قال القاضي: هذه الروايات مبنية على أنه تعالى يخرج أصحاب الكبائر من النار، وعلى أن شفاعة الرسول مقبولة في إسقاط العقاب، وهذان الأصلان عنده مردودان، فعند هذا حمل هذا الخبر على وجه يطابق قوله ويوافق مذهبه وهو أنه تعالى يؤخر إدخال طائفة من المؤمنين الجنة بحيث يغلب على ظن هؤلاء الكفرة أنه تعالى لا يدخلهم الجنة، ثم إنه تعالى يدخلهم الجنة فيزداد غم الكفرة وحسرتهم وهناك يودون لو كانوا مسلمين، قال فبهذه الطريق تصحح هذه الأخبار، والله أعلم.

فإن قيل: إذا كان أهل القيامة قد يتمنون أمثال هذه الأحوال وجب أن يتمنى المؤمن الذي يقل ثوابه درجة المؤمن الذي يكثر ثوابه، والمتمني لما لم يجده يكون في الغصة وتألم القلب وهذا يقضي أن يكون أكثر المؤمنين في الغصة وتألم القلب.

قلنا: أحوال أهل الآخرة لا تقاس بأحوال أهل الدنيا، فالله سبحانه أرضى كل أحد بما فيه ونزع عن قلوبهم طلب الزيادات كما قال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الحجر: ٤٧]، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: المعنى: دع الكفار يأخذوا حظوظهم من دنياهم فتلك أخلاقهم ولا خلاق

---

(١) صحيح: أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٤/ ٢)، والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٢٦٥) حديث رقم/ ٢٩٥٤، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي والبيهقي في (البعث والنشور) (١/ ٨٠/ ٧٥)، وابن أبي عاصم في (السنة) (٢/ ٣٧٣) حديث رقم/ ٧٠٠، جميعا من طريق خالد بن نافع الأشعري عن سعيد بن أبي بردة عن أبي بردة عن أبي موسى. . . به.

(٢) صحيح: أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٧/ ٦٢)، والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٣٨٤) حديث رقم/ ٣٣٤٥، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي والبيهقي في (البعث والنشور) (١/ ٧٦/ ٧١) جميعا من طريق جرير عن عطاء بن السائب عن مجاهد عن ابن عباس. . . به.

لهم في الآخرة وقوله: ﴿ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ يقال: لهيت عن الشيء ألهي لهيًا، وجاء في الحديث أن ابن الزبير كان إذا سمع صوت الرعد لهى عن حديثه. قال الكسائي والأصمعي: كل شيء تركته فقد لهيت عنه وأنشد:

صَرَمَتْ حِبَالَكَ فَالْهَ عَنْهَا زَيْنَبُ وَلَقَدْ أَطَلْتَ عِتَابَهَا لَوْ تَعْتِبُ

فقوله فاله عنها أي اتركها وأعرض عنها. قال المفسرون: شغلهم الأمل عند الأخذ بحظهم عن الإيمان والطاعة فسوف يعلمون.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا بهذة الآية على أنه تعالى قد يصد عن الإيمان ويفعل بالمكلف ما يكون له مفسدة في الدين، والدليل عليه أنه تعالى قال لرسوله: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ فحكم بأن إقبالهم على التمتع واستغراقهم في طول الأمل يلهيهم عن الإيمان والطاعة ثم إنه تعالى أذن لهم فيها، وذلك يدل على المقصود. قالت المعتزلة: ليس هذا إذنًا وتجويزًا بل هذا تهديد ووعيد.

قلنا ظاهر قوله: ﴿ ذَرْهُمْ﴾ إذن أقصى ما في الباب أنه تعالى نبه على أن إقبالهم على هذه الأعمال يضرهم في دينهم، وهذا عين ما ذكرناه من أنه تعالى أذن في شيء مع أنه نص على كون ذلك الشيء مفسدة لهم في الدين.

المسألة الثالثة: دلت الآية على أن إيثار التلذذ والتنعم وما يؤدي إليه طول الأمل ليس من أخلاق المؤمنين، وعن بعضهم التمرغ في الدنيا من أخلاق الهالكين، والأخبار في ذم الأمل كثيرة فمنها ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَيَشِبُّ فِيهِ اثْنَانِ: الْحِرْصُ عَلَى الْمَالِ وَطُولُ الْأَمَلِ**»(١) وعنه ﷺ أنه نقط ثلاث نُقط وقال: «**هَذَا ابْنُ آدَمَ، وَهَذَا الْأَمَلُ، وَهَذَا الْأَجَلُ، وَدُونَ الْأَمَلِ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ مَنِيَّةً فَإِنْ أَخَذَتْهُ إِحْدَاهُنَّ، وَإِلاَّ فَالْهَرَمُ مِنْ وَرَائِهِ**»(٢) وعن علي عليه السلام أنه قال: إنما أخشى عليكم اثنين: طول الأمل واتباع الهوى، فإن طول الأمل ينسي الآخرة، واتباع الهوى يصد عن الحق(٣)، والله أعلم.

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٢/ ٧٢٤/ ١٠٤٧)، والترمذي في (سننه) (٤/ ٥٧٠) حديث رقم/ ٢٣٣٩، وابن ماجه في (سننه) (٢/ ١٤١٥) حديث رقم/ ٤٢٣٤، وأحمد في (مسنده) (٣/ ١١٩) حديث رقم/ ١٢٢٢٣، جميعا من طريق قتادة عن أنس... به.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (الرقاق) باب (في الأمل وطوله) (١١/ ٢٣٩) حديث رقم/ ٦٤١٧، من طريق صدقة بن الفضل... به، والدارمي في كتاب (الرقاق) باب (في الأمل والأجل) (٢/ ١٨٧) حديث رقم/ ٢٧٢٩، من طريق مسدد حدثنا يحي... به، كلاهما (صدقة، مسدد) عن يحي بن سعيد... به.

(٣) إسناد ضعيف: أخرجه هناد في (الزهد) (١/ ٢٩٠) حديث رقم/ ٥٠٩، من طريق إسماعيل بن أبي خالد... به، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٣/ ٢٨١) حديث رقم/ ٣٥٦٣٦، من طريق زبيد بن الحارث عن رجل من بني عامر عن علي... به، وابن أبي عاصم في (الزهد) (١/ ١٣٠)، وأحمد في (فضائل الصحابة) (١/ ٥٣٠) حديث رقم/ ٨٨١، كلاهما من طريق وكيع عن إسماعيل بن أبي خالد عن زبيد قال قال علي قال وكيع وأخبرنا يزيد بن زياد ابن أبي الجعد عن مهاجر العامري عن علي... فذكره. وفي إسناده انقطاع.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ۝ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ۝﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما توعد من قبل من كذب الرسول ﷺ بقوله: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣] أتبعه بما يؤكد الزجر وهو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ﴾ في الهلاك والعذاب وإنما يقع فيه التقديم والتأخير فالذين تقدموا كان وقت هلاكهم في الكتاب معجلاً، والذين تأخروا كان وقت هلاكهم في الكتاب مؤخرًا وذلك نهاية في الزجر والتحذير.

المسألة الثانية: قال قوم المراد بهذا الهلاك عذاب الاستئصال الذي كان الله ينزله بالمكذبين المعاندين كما بينه في قوم نوح وقوم هود وغيرهم، وقال آخرون: المراد بهذا الهلاك الموت. قال القاضي: والأقرب ما تقدم، لأنه في الزجر أبلغ، فبين تعالى أن هذا الإمهال لا ينبغي أن يغتر به العاقل لأن العذاب مدخر، فإن لكل أمة وقتًا معينًا في نزول العذاب لا يتقدم ولا يتأخر وقال قوم آخرون: المراد بهذا الهلاك مجموع الأمرين وهو نزول عذاب الاستئصال ونزول الموت، لأن كل واحد منهما يشارك الآخر في كونه هلاكًا، فوجب حمل اللفظ على القدر المشترك الذي يدخل فيه القسمان معًا.

المسألة الثالثة: قال الفراء: لو لم تكن الواو مذكورة في قوله: ﴿وَلَهَا كِتَابٞ﴾ كان صوابًا كما في آية أخرى وهي قوله: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٨] وهو كما تقول: ما رأيت أحدًا إلا وعليه ثياب وإن شئت قلت: إلا عليه ثياب.

أما قوله: ﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الواحدي: من في قوله: ﴿مِنۡ أُمَّةٍ﴾ زائدة مؤكدة كقولك: ما جاءني من أحد، وقال آخرون: إنها ليست بزائدة لأنها تفيد التبعيض أي هذا الحكم لم يحصل في بعض من أبعاض هذه الحقيقة فيكون ذلك في إفادة عموم النفي آكد.

المسألة الثانية: قال صاحب (النظم) معنى سبق إذا كان واقعًا على شخص كان معناه أنه جاز وخلف كقولك سبق زيد عمرًا، أي جازه وخلفه وراءه، ومعناه أنه قصر عنه وما بلغه، وإذا كان واقعًا على زمان كان بالعكس في ذلك، كقولك: سبق فلان عام كذا معناه مضى قبل إتيانه ولم يبلغه فقوله: ﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ معناه أنه لا يحصل ذلك الأجل قبل ذلك الوقت ولا بعده، بل إنما يحصل في ذلك الوقت بعينه، والسبب فيه أن اختصاص كل حادث بوقته المعين دون الوقت الذي قبله أو بعده ليس على سبيل الاتفاق الواقع، لا عن مرجح ولا عن

مخصص فإن رجحان أحد طرفي الممكن على الآخر لا لمرجح محال، وإنما اختص حدوثه بذلك الوقت المعين لأن إله العالم خصصه به بعينه، وإذا كان كذلك، فقدرة الإله وإرادته اقتضتا ذلك التخصيص، وعلمه وحكمته تعلقا بذلك الاختصاص بعينه، ولما كان تغير صفات الله تعالى أعني القدرة والإرادة والعلم والحكمة ممتنعًا كان تغير ذلك الاختصاص ممتنعًا.

إذا عرفت هذا فنقول: هذا الدليل بعينه قائم في أفعال العباد أعني أن الصادر من زيد هو الإيمان والطاعة ومن عمرو هو الكفر والمعصية فوجب أن يمتنع دخول التغير فيهما.

فإن قالوا: هذا إنما يلزم لو كان المقتضي لحدوث الكفر والإيمان من زيد وعمرو هو قدرة الله تعالى ومشيئته. أما إذا قلنا: المقتضى لذلك هو قدرة زيد وعمرو ومشيئتهما سقط ذلك.

قلنا: قدرة زيد وعمرو ومشيئتهما إن كانتا موجبتين لذلك الفعل المعين فخالق تلك القدرة والمشيئة الموجبتين لذلك الفعل هو الذي قدر ذلك الفعل بعينه فيعود الإلزام، وإن لم تكونا موجبتين لذلك الفعل بل كانتا صالحتين له ولضده، كان رجحان أحد الطرفين على الآخر لم يكن لمرجح، فقد عاد الأمر إلى أنه حصل ذلك الاختصاص لا لمخصص وهو باطل، وإن كان لمخصص فذلك المخصص إن كان هو العبد عاد البحث ولزم التسلسل، وإن كان هو الله تعالى فحينئذ يعود البحث إلى أن فعل العبد إنما تعين وتقدر بتخصيص الله تعالى، وحينئذ لا يعود الإلزام.

المسألة الثالثة: دلت الآية على أن كل من مات أو قتل فإنما مات بأجله، وأن من قال: يجوز أن يموت قبل أجله فمخطىء.

فإن قالوا: هذا الاستدلال إنما يتم إذا حملنا قوله: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا﴾ على الموت أما إذا حملناه على عذاب الاستئصال فكيف يلزم.

قلنا: قوله: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا﴾ إما أن يدخل تحته الموت أو لا يدخل، فإن دخل الاستدلال ظاهر لازم وإن لم يدخل فنقول: إن ما لأجله وجب في عذاب الاستئصال أن لا يتقدم ولا يتأخر عن وقته المعين قائم في الموت، فوجب أن يكون الحكم ههنا كذلك، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ۝٦ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ۝٨ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾

اعلم أنه تعالى لما بالغ في تهديد الكفار ذكر بعده شبههم في إنكار نبوته.

فالشبهة الأولى: أنهم كانوا يحكمون عليه بالجنون، وفيه احتمالات: الأول: أنه عليه السلام كان يظهر عليه عند نزول الوحي حالة شبيهة بالغشي فظنوا أنها جنون، والدليل عليه قوله: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَـٰلَمِينَ﴾ [القلم: ٥١، ٥٢] وأيضًا قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن

جِنَّةٍۚ﴾ [الأعراف: ١٨٤]. والثاني: أنهم كانوا يستبعدون كونه رسولاً حقًا من عند الله تعالى، فالرجل إذا سمع كلامًا مستبعدًا من غيره فربما قال له هذا جنون وأنت مجنون لبعد ما يذكره من طريقة العقل، وقوله: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ في هذه الآية يحتمل الوجهين.

أما قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ ففيه وجهان: الأول: أنهم ذكروه على سبيل الاستهزاء كما قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] وكما قال قوم شعيب: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] وكما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] لأن البشارة بالعذاب ممتنعة. والثاني: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ في زعمه واعتقاده، وعند أصحابه وأتباعه. ثم حكى عنهم أنهم قالوا في تقرير شبههم: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: المراد لو كنت صادقًا في ادعاء النبوة لأتيتنا بالملائكة يشهدون عندنا بصدقك فيما تدعيه من الرسالة، لأن المرسل الحكيم إذا حاول تحصيل أمر، وله طريق يفضي إلى تحصيل ذلك المقصود قطعًا، وطريق آخر قد يفضي وقد لا يفضي، ويكون في محل الشكوك والشبهات، فإن كان ذلك الحكيم أراد تحصيل ذلك المقصود، فإنه يحاول تحصيله بالطريق الأول لا بالطريق الثاني، وإنزال الملائكة الذين يصدقونك، ويقررون قولك طريق يفضي إلى حصول هذا المقصود قطعًا، والطريق الذي تقرر به صحة نبوتك طريق في محل الشكوك والشبهات، فلو كنت صادقًا في ادعاء النبوة لوجب في حكمة الله تعالى إنزال الملائكة الذين يصرحون بتصديقك وحيث لم تفعل ذلك علمنا أنك لست من النبوة في شيء، فهذا تقرير هذه الشبهة، ونظيرها قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [الأنعام: ٨] وفيه احتمال آخر: وهو أن النبي ﷺ كان يخوفهم بنزول العذاب إن لم يؤمنوا به، فالقوم طالبوه بنزول العذاب وقالوا له: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الذين ينزلون عليك ينزلون علينا بذلك العذاب الموعود، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ﴾ [العنكبوت: ٥٣] ثم إنه تعالى أجاب عن هذه الشبهة بقوله: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ فنقول: إن كان المراد من قولهم: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ هو الوجه الأول، كان تقرير هذا الجواب أن إنزال الملائكة لا يكون إلا بالحق وعند حصول الفائدة، وقد علم الله تعالى من حال هؤلاء الكفار أنه لو أنزل عليهم الملائكة لبقوا مصرين على كفرهم، وعلى هذا التقرير فيصير إنزالهم عبثًا باطلاً، ولا يكون حقًا، فلهذا السبب ما أنزلهم الله تعالى، وقال المفسرون: المراد بالحق ههنا الموت، والمعنى: أنهم لا ينزلون إلا بالموت، وإلا بعذاب الاستئصال، ولم يبق بعد نزولهم إنظار ولا إمهال، ونحن لا نريد عذاب الاستئصال بهذه الأمة، فلهذا السبب ما أنزلنا الملائكة، وأما إن كان المراد من قوله تعالى: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾

استعجالهم في نزول العذاب الذي كان الرسول عليه السلام يتوعدهم به، فتقرير الجواب أن الملائكة لا تنزل إلا بعذاب الاستئصال، حكمًا في أمة محمد ﷺ أن لا نفعل بهم ذلك، وأن نمهلهم لما علمنا من إيمان بعضهم، ومن إيمان أولاد الباقين.

المسألة الثانية: قال الفراء والزجاج: لولا ولوما لغتان: معناهما: هلا ويستعملان في الخبر والاستفهام، فالخبر مثل قولك لولا أنت لفعلت كذا، ومنه قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٣١] والاستفهام كقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨] وكهذه الآية. وقال الفراء: لوما الميم فيه بدل عن اللام في لولا، ومثله استولى على الشيء واستومى عليه، وحكى الأصمعي: خاللته وخالمته إذا صادقته، وهو خلي وخلمي أي صديقي.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: ﴿مَا نُنَزِّلُ﴾ بالنون وبكسر الزاي والتشديد، والملائكة بالنصب لوقوع الإنزال عليها. والمنزل هو الله تعالى، وقرأ أبو بكر عن عاصم: (ما تنزل) على فعل ما لم يسمى فاعله، والملائكة بالرفع. والباقون: ما تنزل الملائكة على إسناد فعل النزول إلى الملائكة، والله أعلم.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ يعني: لو نزلت الملائكة لم ينظروا أي يمهلوا فإن التكليف يزول عند نزول الملائكة. قال صاحب (النظم): لفظ اذن مركبة من كلمتين: من إذ وهو اسم بمنزلة حين ألا ترى أنك تقول: أتيتك إذ جئتني أي حين جئتني. ثم ضم إليها أن، فصار إذ أن. ثم استثقلوا الهمزة، فحذفوها فصار إذن، ومجيء لفظة إذن دليل على اضمار فعل بعدها والتقدير: وما كانوا منظرين إذ كان ما طلبوا وهذا تأويل حسن.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أن القوم إنما قالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ [الحجر: ٦] لأجل أنهم سمعوا النبي ﷺ كان يقول: «**إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَزَّلَ الذِّكْرَ عَلَيَّ**»(١) ثم إنه تعالى حقق قوله في هذه الآية فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

فأما قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ فهذه الصيغة وإن كانت للجمع إلا أن هذا من كلام الملوك عند إظهار التعظيم فإن الواحد منهم إذا فعل فعلاً أو قال قولاً قال: إنا فعلنا كذا وقلنا كذا فكذا هاهنا.

المسألة الثانية: الضمير في قوله: ﴿لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ إلى ماذا يعود؟ فيه قولان:

القول الأول: أنه عائد إلى الذكر يعني: وإنا نحفظ ذلك الذكر من التحريف والزيادة والنقصان، ونظيره قوله تعالى في صفة القرآن: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢] وقال:

(١) لم أجده.

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

فإن قيل: فلم اشتغلت الصحابة بجمع القرآن في المصحف وقد وعد الله تعالى بحفظه وما حفظه الله فلا خوف عليه.

والجواب: أن جمعهم للقرآن كان من أسباب حفظ الله تعالى إياه فإنه تعالى لما أن حفظه قيضهم لذلك قال أصحابنا: وفي هذه الآية دلالة قوية على كون التسمية آية من أول كل سورة لأن الله تعالى قد وعد بحفظ القرآن، والحفظ لا معنى له إلا أن يبقى مصونًا من الزيادة والنقصان، فلو لم تكن التسمية من القرآن لما كان القرآن مصونًا عن التغيير، ولما كان محفوظًا عن الزيادة ولو جاز أن يظن بالصحابة أنهم زادوا لجاز أيضًا أن يظن بهم النقصان، وذلك يوجب خروج القرآن عن كونه حجة.

والقول الثاني: أن الكناية في قوله: ﴿لَهُۥ﴾ راجعة إلى محمد ﷺ والمعنى وإنا لمحمد لحافظون وهو قول الفراء، وقوى ابن الأنباري هذا القول فقال: لما ذكر الله الإنزال والمنزل دل ذلك على المنزل عليه فحسنت الكناية عنه، لكونه أمرًا معلومًا كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] فإن هذه الكناية عائدة إلى القرآن مع أنه لم يتقدم ذكره وإنما حسنت الكناية للسبب المعلوم فكذا ههنا، إلا أن القول الأول أرجح القولين وأحسنهما مشابهة لظاهر التنزيل، والله أعلم.

المسألة الثالثة: إذا قلنا الكناية عائدة إلى القرآن فاختلفوا في أنه تعالى كيف يحفظ القرآن قال بعضهم: حفظه بأن جعله معجزًا مباينًا لكلام البشر فعجز الخلق عن الزيادة فيه والنقصان عنه لأنهم لو زادوا فيه أو نقصوا عنه لتغير نظم القرآن فيظهر لكل العقلاء أن هذا ليس من القرآن فصار كونه معجزًا كإحاطة السور بالمدينة لأنه يحصنها ويحفظها، وقال آخرون: إنه تعالى صانه وحفظه من أن يقدر أحد من الخلق على معارضته، وقال آخرون: أعجز الخلق عن إبطاله وإفساده بأن قيض جماعة يحفظونه ويدرسونه ويشهرونه فيما بين الخلق إلى آخر بقاء التكليف، وقال آخرون: المراد بالحفظ هو أن أحدًا لو حاول تغييره بحرف أو نقطة لقال له أهل الدنيا: هذا كذب وتغيير لكلام الله تعالى حتى أن الشيخ المهيب لو اتفق له لحن أو هفوة في حرف من كتاب الله تعالى لقال له كل الصبيان: أخطأت أيها الشيخ وصوابه كذا وكذا، فهذا هو المراد من قوله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾.

واعلم أنه لم يتفق لشيء من الكتب مثل هذا الحفظ، فإنه لا كتاب إلا وقد دخله التصحيف والتحريف والتغيير، إما في الكثير منه أو في القليل، وبقاء هذا الكتاب مصونًا عن جميع جهات التحريف مع أن دواعي الملحدة واليهود والنصارى متوفرة على إبطاله وإفساده من أعظم المعجزات وأيضًا أخبر الله تعالى عن بقائه محفوظًا عن التغيير والتحريف، وانقضى الآن قريبًا من ستمائة سنة فكان هذا إخبارًا عن الغيب، فكان ذلك أيضًا معجزًا قاهرًا.

المسألة الرابعة: احتج القاضي بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ على فساد قول بعض الإمامية في أن القرآن قد دخله التغيير والزيادة والنقصان قال: لأنه لو كان الأمر كذلك لما بقي القرآن محفوظًا، وهذا الاستدلال ضعيف، لأنه يجري مجرى إثبات الشيء نفسه، فالإمامية الذين يقولون إن القرآن قد دخله التغيير والزيادة والنقصان، لعلهم يقولون إن هذه الآية من جملة الزوائد التي ألحقت بالقرآن، فثبت أن إثبات هذا المطلوب بهذه الآية يجري مجرى إثبات الشيء نفسه وأنه باطل والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١١ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٢ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾

اعلم أن القوم لما أساؤوا في الأدب وخاطبوه بالسفاهة وقالوا: إنك لمجنون، فالله تعالى ذكر أن عادة هؤلاء الجهال مع جميع الأنبياء هكذا كانت. ولك أسوة في الصبر على سفاهتهم وجهالتهم بجميع الأنبياء عليهم السلام، فهذا هو الكلام في نظم الآية

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في الآية محذوف والتقدير: ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلا أنه حذف ذكر الرسل لدلالة الإرسال عليه. وقوله: ﴿فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي في أمم الأولين وأتباعهم. قال الفراء: الشيع الأتباع واحدهم شيعة وشيعة الرجل أتباعه، والشيعة الأمة سموا بذلك، لأن بعضهم شايع بعضًا وشاكله، وذكرنا الكلام في هذا الحرف عند قوله: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ [الأنعام: ٦٥] قال الفراء: وقوله: ﴿فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف كقوله: ﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥] وقوله: ﴿بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ﴾ [القصص: ٤٤] وقوله: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥] أما قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي عادة هؤلاء الجهال مع جميع الأنبياء والرسل ذلك الاستهزاء بهم كما فعلوا بك ذكره تسلية للنبي ﷺ.

واعلم أن السبب الذي يحمل هؤلاء الجهال على هذه العادة الخبيثة أمور.

الأول: أنهم يستثقلون التزام الطاعات والعبادات والاحتراز عن الطيبات واللذات.

والثاني: أن الرسول يدعوهم إلى ترك ما ألفوه من أديانهم الخبيثة ومذاهبهم الباطلة، وذلك شاق شديد على الطباع.

والثالث: أن الرسول متبوع مخدوم والأقوام يجب عليهم طاعته وخدمته وذلك أيضًا في غاية المشقة.

والرابع: أن الرسول ﷺ قد يكون فقيرًا ولا يكون له أعوان وأنصار ولا مال ولا جاه

فالمتنعمون والرؤساء يثقل عليهم خدمة من يكون بهذه الصفة.

والخامس: خذلان الله لهم وإلقاء دواعي الكفر والجهل في قلوبهم، وهذا هو السبب الأصلي؛ فلهذه الأسباب وما يشبهها تقع الجهال والضلال مع أكابر الأنبياء عليهم السلام في هذه الأعمال القبيحة والأفعال المنكرة.

أما قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: السلك إدخال الشيء في الشيء كإدخال الخيط في المخيط والرمح في المطعون، وقيل: في قوله: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٢] أي أدخلكم في جهنم. وذكر أبو عبيدة وأبو عبيد: سلكته وأسلكته بمعنى واحد.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى يخلق الباطل في قلوب الكفار، فقالوا: قوله ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾ أي كذلك نسلك الباطل والضلال في قلوب المجرمين، قالت المعتزلة: لم يجر للضلال والكفر ذكر فيما قبل هذا اللفظ، فلا يمكن أن يكون الضمير عائدًا إليه لا يقال: إنه تعالى قال: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وقوله: ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يدل على الاستهزاء، فالضمير في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾ عائد إليه، والاستهزاء بالأنبياء كفر وضلال، فثبت صحة قولنا المراد من قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ هو أنه كذلك نسلك الكفر والضلال والاستهزاء بأنبياء الله تعالى ورسله في قلوب المجرمين، لأنا نقول: إن كان الضمير في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾ عائدًا إلى الاستهزاء وجب أن يكون الضمير في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ عائدًا أيضًا إلى الاستهزاء لأنهما ضميران تعاقبا وتلاصقا، فوجب عودهما إلى شيء واحد فوجب أن لا يكونوا مؤمنين بذلك الاستهزاء، وذلك يوجب التناقض، لأن الكافر لا بد وأن يكون مؤمنًا بكفره، والذي لا يكون كذلك هو المسلم العالم ببطلان الكفر فلا يصدق به، وأيضًا فلو كان تعالى هو الذي يسلك الكفر في قلب الكافر ويخلقه فيه فما أحد أولى بالعذر من هؤلاء الكفار، ولكان على هذا التقدير يمتنع أن يذمهم في الدنيا وأن يعاقبهم في الآخرة عليه، فثبت أنه لا يمكن حمل هذه الآية على هذ الوجه فنقول: التأويل الصحيح أن الضمير في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾ عائد إلى الذكر الذي هو القرآن فإنه تعالى قال قبل هذه الآية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩] وقال بعده: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾ أي هكذا نسلك القرآن في قلوب المجرمين، والمراد من هذا السلك هو أنه تعالى يسمعهم هذا القرآن ويخلق في قلوبهم حفظ هذا القرآن ويخلق فيها العلم بمعانيه وبين أنهم لجهلهم وإصرارهم لا يؤمنون به مع هذه الأحوال عنادًا وجهلاً، فكان هذا موجبًا للحوق الذم الشديد بهم، ويدل على صحة هذا التأويل وجهان:

الأول: أن الضمير في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ عائد إلى القرآن بالإجماع فوجب أن يكون الضمير في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾ عائدًا إليه أيضًا لأنهما ضميران متعاقبان فيجب عودهما إلى شيء

واحد. والثاني: أن قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ معناه: مثل ما عملنا كذا وكذا نعمل هذا السلك فيكون هذا تشبيهًا لهذا السلك بعمل آخر ذكره الله تعالى قبل هذه الآية من أعمال نفسه، ولم يجر لعمل من أعمال الله ذكر في سابقة هذه الآية إلا قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩]فوجب أن يكون هذا معطوفًا عليه ومشبهًا به، ومتى كان الأمر كذلك كان الضمير في قوله: ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ عائدًا إلى الذكر وهذا تمام تقرير كلام القوم.

والجواب: لا يجوز أن يكون الضمير في قوله: ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ عائدًا على الذكر، ويدل عليه وجوه:

الوجه الأول: أن قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾ مذكور بحرف النون، والمراد منه إظهار نهاية التعظيم والجلالة، ومثل هذا التعظيم إنما يحسن ذكره إذا فعل فعلاً يظهر له أثر قوي كامل بحيث صار المنازع والمدافع له مغلوبًا مقهورًا. فأما إذا فعل فعلاً ولم يظهر له أثر ألبتة، صار المنازع والمدافع غالبًا قاهرًا، فإن ذكر اللفظ المشعر بنهاية العظمة والجلالة يكون مستقبحًا في هذا المقام، والأمر ههنا كذلك لأنه تعالى سلك إسماع القرآن وتحفيظه وتعليمه في قلب الكافر لأجل أن يؤمن به، ثم إنه لم يلتفت إليه ولم يؤمن به فصار فعل الله تعالى كالهدر الضائع، وصار الكافر والشيطان كالغالب الدافع، وإذا كان كذلك كان ذكر النون المشعر بالعظمة والجلالة في قوله: ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ غير لائق بهذا المقام، فثبت بهذا أن التأويل الذي ذكروه فاسد.

والوجه الثاني: أنه لو كان المراد ما ذكروه لوجب أن يقال: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ولا يؤمنون به، أي ومع هذا السعي العظيم في تحصيل إيمانهم لا يؤمنون أما لِمَ لَمْ يذكر الواو فعلمنا أن قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ كالتفسير، والبيان لقوله: ﴿نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وهذا إنما يصح إذا كان المراد أنا نسلك الكفر والضلال في قلوبهم.

والوجه الثالث: أن قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩]بعيد، وقوله: ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ قريب، وعود الضمير إلى أقرب المذكورات هو الواجب. أما قوله: لو كان الضمير في قوله: ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ عائدًا إلى الاستهزاء لكان في قوله؛ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ عائدًا إليه، وحينئذ يلزم التناقض.

قلنا: الجواب عنه من وجوه:

الوجه الأول: أن مقضتى الدليل عود الضمير إلى أقرب المذكورات، ولا مانع من اعتبار هذا الدليل في الضمير الأول وحصل المانع من اعتباره في الضمير الثاني فلا جرم قلنا: الضمير الأول عائد إلى الاستهزاء، والضمير الثاني عائد إلى الذكر، وتفريق الضمائر المتعاقبة على الأشياء المختلفة ليس بقليل في القرآن، أليس أن الجبائي والكعبي والقاضي قالوا في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا

جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٩، ١٩٠] فقالوا هذه الضمائر من أول الآية إلى قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ عائدة إلى آدم وحواء، وأما في قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عائدة إلى غيرهما، فهذا ما اتفقوا عليه في تفاسيرهم، وإذا ثبت هذا ظهر أنه لا يلزم من تعاقب الضمائر عودها إلى شيء واحد بل الأمر فيه موقوف على الدليل فكذا ههنا، والله أعلم.

والوجه الثاني: في الجواب قال بعض الأدباء من أصحابنا قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ تفسير للكناية في قوله: ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ والتقدير: كذلك نسلك في قلوب المجرمين أن لا يؤمنوا به والمعنى نجعل في قلوبهم أن لا يؤمنوا به.

والوجه الثالث: وهو أنا بينا بالبراهين العقلية القاهرة أن حصول الإيمان والكفر يمتنع أن يكون بالعبد، وذلك لأن كل أحد إنما يريد الإيمان والصدق، والعلم والحق، وأن أحدًا لا يقصد تحصيل الكفر والجهل والكذب فلما كان كل أحد لا يقصد إلا الإيمان والحق ثم إنه لايحصل ذلك، وإنما يحصل الكفر والباطل، علمنا أن حصول ذلك الكفر ليس منه.

فإن قالوا: إنما حصل ذلك الكفر لأنه ظن أنه هو الإيمان: فنقول: فعلى هذا التقدير إنما رضي بتحصيل ذلك الجهل لأجل جهل آخر سابق عليه فينقل الكلام إلى ذلك الجهل السابق فإن كان ذلك لأجل جهل آخر لزم التسلسل وهو محال، وإلا وجب انتهاء كل الجهالات إلى جهل أول سابق حصل في قلبه لا بتحصيله بل بتخليق الله تعالى، وذلك هو الذي قلناه: أن المراد من قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ والمعنى: نجعل في قلوبهم أن لا يؤمنوا به، وهو أنه تعالى يخلق الكفر والضلال فيها، وأيضًا قدماء المفسرين مثل ابن عباس وتلامذته أطبقوا على تفسير هذه الآية بأنه تعالى يخلق الكفر والضلال فيها، والتأويل الذي ذكره المعتزلة تأويل مستحدث لم يقل به أحد من المتقدمين، فكان مردودًا، وروى القاضي عن عكرمة أن المراد كذلك نسلك القسوة في قلوب المجرمين، ثم قال القاضي: إن القسوة لا تحصل إلا من قبل الكافر بأن يستمر على كفره ويعاند، فلا يصح إضافته إلى الله تعالى، فيقال للقاضي: إن هذا يجري مجرى المكابرة، وذلك لأن الكافر يجد من نفسه نفرة شديدة عن قبول قول الرسول ونبوة عظيمة عنه حتى أنه كلما رآه تغير لونه واصفر وجهه، وربما ارتعدت أعضاؤه ولا يقدر على الالتفات إليه والاصغاء لقوله، فحصول هذه الأحوال في قلبه أمر اضطراري لا يمكنه دفعها عن نفسه، فكيف يقال: إنها حصلت بفعله واختياره؟

فإن قالوا: إنه يمكنه ترك هذه الأحوال، والرجوع إلى الانقياد والقبول فنقول هذا مغالطة محضة، لأنك إن أردت أنه مع حصول هذه النفرة الشديدة في القلب، والنبوة العظيمة في النفس يمكنه أن يعود إلى الإنقياد والقبول والطاعة والرضا فهذا مكابرة، وإن أردت أن عند زوال هذه الأحوال النفسانية يمكنه العود إلى القبول والتسليم فهذا حق، إلا أنه لا يمكنه إزالة هذه الدواعي

والصوارف عن القلب فإنه إن كان الفاعل لها هو أصل الإنسان لافتقر في تحصيل هذه الدواعي والصوارف إلى دواعي سابقة عليها ولزم الذهاب إلى ما لا نهاية له وذلك محال، وإن كان الفاعل لها هو الله تعالى فحينئذ يصح أنه تعالى هو الذي يسلك هذه الدواعي والصوارف في القلوب وذلك عين ما ذكرناه، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

ففيه قولان:

الأول: أنه تهديد لكفار مكة يقول قد مضت سنة الله بإهلاك من كذب الرسل في القرون الماضية.

الثاني: وهو قول الزجاج: وقد مضت سنة الله في الأولين بأن يسلك الكفر والضلال في قلوبهم، وهذا أليق بظاهر اللفظ.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾

اعلم أن هذا الكلام هو المذكور في سورة الأنعام في قوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧] والحاصل: أن القوم لما طلبوا نزول ملائكة يصرحون بتصديق الرسول عليه السلام في كونه رسولاً من عند الله تعالى بين الله تعالى في هذه الآية أن بتقدير أن يحصل هذا المعنى لقال الذين كفروا هذا من باب السحر وهؤلاء الذين يظن أنا نراهم فنحن في الحقيقة لا نراهم. والحاصل: أنه لما علم الله تعالى أنه لا فائدة في نزول الملائكة فلهذا السبب ما أنزلهم.

فإن قيل: كيف يجوز من الجماعة العظيمة أن يصيروا شاكّين في وجود ما يشاهدونه بالعين السليمة في النهار الواضح، ولو جاز حصول الشك في ذلك كانت السفسطة لازمة، ولا يبقى حينئذ اعتماد على الحس والمشاهدة.

أجاب القاضي عنه: بأنه تعالى ما وصفهم بالشك فيما يبصرون، وإنما وصفهم بأنهم يقولون هذا القول، وقد يجوز أن يقدم الإنسان على الكذب على سبيل العناد والمكابرة، ثم سأل نفسه وقال: أفيصح من الجمع العظيم أن يظهروا الشك في المشاهدات. وأجاب بأنه يصح ذلك إذا جمعهم عليه غرض صحيح معتبر من مواطأة على دفع حجة أو غلبة خصم، وأيضًا فهذه الحكاية إنما وقعت عن قوم مخصوصين، سألوا الرسول ﷺ إنزال الملائكة، وهذا السؤال ما كان إلا من رؤساء القوم، وكانوا قليلي العدد، وإقدام العدد القليل على ما يجري مجرى المكابرة جائز.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ يقال: ظل فلان نهاره يفعل كذا إذا فعله بالنهار ولا تقول العرب ظل يظل إلا لكل عمل عمل بالنهار، كما لا يقولون بات يبيت إلا

بالليل، والمصدر الظلول، وقوله: ﴿فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ يقال: عرج يعرج عروجًا، ومنه المعارج، وهي المصاعد التي يصعد فيها، وللمفسرين في هذه الآية قولان:

القول الأول: أن قوله: ﴿فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ من صفة المشركين. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لو ظل المشركون يصعدون في تلك المعارج وينظرون إلى ملكوت الله تعالى وقدرته وسلطانه، وإلى عبادة الملائكة الذين هم من خشيته مشفقون لشكوا في تلك الرؤية وبقوا مصرين على كفرهم وجهلهم كما جحدوا سائر المعجزات من انشقاق القمر وما خص به النبي ﷺ من القرآن المعجز الذي لا يستطيع الجن والإنس أن يأتوا بمثله.

القول الثاني: أن هذه العروج للملائكة، والمعنى: أنه تعالى لو جعل هؤلاء الكفار بحيث يروا أبوابًا من السماء مفتوحة وتصعد منها الملائكة وتنزل لصرفوا ذلك عن وجهه، ولقالوا: إن السحرة سحرونا وجعلونا بحيث نشاهد هذه الأباطيل التي لا حقيقة لها وقوله: ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾.

فيه مسألتان:

المسألة الأولى: قرأ ابن كثير ﴿سُكِرَتْ﴾ بالتخفيف، والباقون مشددة الكاف قال الواحدي سكرت غشيت وسددت بالسحر هذا قول أهل اللغة قالوا: وأصله من السكر وهو سد الشق لئلا ينفجر الماء، فكأن هذه الأبصار منعت من النظر كما يمنع السكر الماء من الجري، والتشديد يوجب زيادة وتكثيرًا وقال أبو عمرو بن العلاء: هو مأخوذ من سكر الشراب يعني أن الأبصار حارت ووقع بها من فساد النظر مثل ما يقع بالرجل السكران من تغير العقل فإذا كان هذا معنى التخفيف فسكرت بالتشديد يراد به وقوع هذا الأمر مرة بعد أخرى، وقال أبو عبيدة: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ أي غشيت أبصارنا فوجب سكونها وبطلانها، وعلى هذا القول أصله من السكون يقال: سكرت الريح سكرًا إذا سكنت وسكر الحر يسكر وليلة ساكرة لا ريح فيها وقال أوس:

جَـذَلْـتُ عَـلَـى لَـيْـلَـةٍ سَـاهِـرَةٍ فَـلَـيْـسَـتْ بِـطَـلْـقٍ وَلاَ سَـاكِـرَةٍ[1]

ويقال: سكرت عينه سكرًا إذا تحيرت وسكنت عن النظر وعلى هذا معنى سكرت أبصارنا، أي سكنت عن النظر وهذا القول اختيار الزجاج. وقال أبو علي الفارسي: سكرت صارت بحيث لا ينفذ نورها ولا تدرك الأشياء على حقائقها، وكان معنى السكر قطع الشيء عن سننه الجاري، فمن ذلك تسكير الماء وهو رده عن سننه في الجرية، والسكر في الشراب هو أن ينقطع عما كان عليه من المضاء في حال الصحو فلا ينفذ رأيه على حد نفاذه في الصحو، فهذه أقوال أربعة في تفسير ﴿سُكِّرَتْ﴾ وهي في الحقيقة متقاربة، والله أعلم.

المسألة الثانية: قال الجبائي: من جوز قدرة السحرة على أن يأخذوا بأعين الناس حتى

---

(١) تقدمت ترجمة أوس.

يروهم الشيء على خلاف ما هو عليه لم يصح إيمانه بالأنبياء والرسل، وذلك لأنهم إذا جوزوا ذلك فلعل هذا الذي يرى أنه محمد بن عبد الله ليس هو ذلك الرجل وإنما هو شيطان، ولعل هذه المعجزات التي نشاهدها ليس لها حقائق، بل هي تكون من باب الآراء الباطلة من ذلك الساحر، وإذا حصل هذا التجويز بطل الكل، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝١٨﴾

اعلم أنه تعالى لما أجاب عن شبهة منكري النبوة، وكان قد ثبت أن القول بالنبوة مفرع على القول بالتوحيد أتبعه تعالى بدلائل التوحيد. ولما كانت دلائل التوحيد منها سماوية، ومنها أرضية، بدأ منها بذكر الدلائل السماوية، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ قال الليث: البرج واحد من بروج الفلك، والبروج جمع وهي اثنا عشر برجًا، ونظيره قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١] وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١] ووجه دلالتها على وجود الصانع المختار، هو أن طبائع هذه البروج مختلفة على ما هو متفق عليه بين أرباب الأحكام، وإذا كان الأمر كذلك فالفلك مركب من هذه الأجزاء المختلفة في الماهية والأبعاض المختلفة في الحقيقة، وكل مركَّب فلا بد له من مركِّب يركِّبُ تلك الأجزاء والأبعاض بحسب الاختيار والحكمة، فثبت أن كون السماء مركبة من البروج يدل على وجود الفاعل المختار، وهو المطلوب، وأما قوله: ﴿وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ فقد استقصينا الكلام فيه في سورة الملك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ﴾ [الملك: ٥] فلا نعيد ههنا إلا القدر الذي لا بد منه قوله: ﴿وَزَيَّنَّـٰهَا﴾ أي بالشمس والقمر والنجوم ﴿لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ أي للمعتبرين بها والمستدلين بها على توحيد صانعها وقوله: ﴿وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ﴾. فإن قيل: ما معنى وحفظناها من كل شيطان رجيم، والشيطان لا قدرة له على هدم السماء فأي حاجة إلى حفظ السماء منه؟

قلنا: لما منعه من القرب منها، فقد حفظ السماء من مقاربة الشيطان فحفظ الله السماء منهم كما قد يحفظ منازلنا عن متجسس يخشى منه الفساد ثم نقول: معنى الرجم في اللغة الرمي بالحجارة. ثم قيل للقتل رجم تشبيهًا له بالرجم بالحجارة، والرجم أيضًا السب والشتم لأنه رمي بالقول القبيح ومنه قوله: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦] أي لأسبنك، والرجم اسم لكل ما يرمى به، ومنه قوله: ﴿وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ﴾ [الملك: ٥] أي مرامي لهم، والرجم القول بالظن، ومنه قوله: ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾ [الكهف: ٢٢] لأنه يرميه بذلك الظن والرجم أيضًا اللعن والطرد، وقوله الشيطان الرجيم، قد فسروه بكل هذه الوجوه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت الشياطين لا تحجب عن السموات، فكانوا يدخلونها ويسمعون أخبار الغيوب من الملائكة فيلقونها إلى

الكهنة، فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاثة سموات، فلما ولد رسول الله ﷺ منعوا من السموات كلها، فكل واحد منهم إذا أراد استراق السمع رمي بشهاب. وقوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ لا يمكن حمل لفظة ﴿إِلَّآ﴾ ههنا على الاستثناء، بدليل أن إقدامهم على استراق السمع لا يخرج السماء من أن تكون محفوظة منهم إلا أنهم ممنوعون من دخولها، وإنما يحاولون القرب منها، فلا يصح أن يكون استثناء على التحقيق، فوجب أن يكون معناه: لكن من استرق السمع. قال الزجاج: موضع ﴿مِنِ﴾ نصب على هذا التقدير. قال: وجائز أن يكون في موضع خفض، والتقدير: إلا ممن. قال ابن عباس: في قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ يريد الخطفة اليسيرة، وذلك لأن المارد من الشياطين يعلو فيرمى بالشهاب فيحرقه ولا يقتله، ومنهم من يحيله فيصير غولاً يضل الناس في البراري. وقوله: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾ ذكرنا معناه في سورة الأعراف في قصة بلعم بن باعورا في قوله: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف: ١٧٥] معناه لحقه، والشهاب شعلة نار ساطع، ثم يسمى الكوكب شهابًا، والسنان شهابًا لأجل أنهما لما فيهما من البريق يشبهان النار.

واعلم أن في هذا الموضع أبحاثًا دقيقة ذكرناها في سورة الملك وفي سورة الجن، ونذكر منها ههنا إشكالاً واحدًا، وهو أن لقائل أن يقول: إذا جوزتم في الجملة أن يصعد الشيطان إلى السموات ويختلط بالملائكة ويسمع أخبار الغيوب عنهم، ثم إنها تنزل وتلقي تلك الغيوب على الكهنة فعلى هذا التقدير وجب أن يخرج الإخبار عن المغيبات عن كونه معجزًا لأن كل غيب يخبر عنه الرسول ﷺ قام فيه هذا الاحتمال وحينئذ يخرج عن كونه معجزًا دليلاً على الصدق، لا يقال إن الله تعالى أخبر أنهم عجزوا عن ذلك بعد مولد النبي ﷺ لأنا نقول هذا العجز لا يمكن إثباته إلا بعد القطع بكون محمد رسولاً وكون القرآن حقًا، والقطع بهذا لا يمكن إلا بواسطة المعجز، وكون الإخبار عن الغيب معجزًا لا يثبت إلا بعد إبطال هذا الاحتمال وحينئذ يلزم الدور وهو باطل محال، ويمكن أن يجاب عنه بأنا نثبت كون محمد ﷺ رسولاً بسائر المعجزات، ثم بعد العلم بنبوته نقطع بأن الله تعالى أعجز الشياطين عن تلقف الغيب بهذا الطريق، وعند ذلك يصير الإخبار عن الغيوب معجز، وبهذا الطريق يندفع الدور، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح الدلائل السماوية في تقرير التوحيد أتبعها بذكر الدلائل الأرضية، وهي أنواع:

النوع الأول: قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ قال ابن عباس بسطناها على وجه الماء، وفيه احتمال آخر، وذلك لأن الأرض جسم، والجسم هو الذي يكون ممتدًا في الجهات الثلاثة، وهي الطول والعرض والثخن، وإذا كان كذلك، فتمدد جسم الأرض في هذه الجهات الثلاثة

مختص بمقدار معين لما ثبت أن كل جسم فإنه يجب أن يكون متناهيًا وإذا كان كذلك كان تمدد جسم الأرض مختصًا بمقدار معين مع أن الإزدياد عليه معقول، والانتقاص عنه أيضًا معقول، وإذا كان كذلك كان اختصاص ذلك التمدد بذلك القدر المقدر مع جواز حصول الأزيد والأنقص اختصاصًا بأمر جائز وذلك يجب أن يكون بتخصيص مخصص وتقدير مقدر، وهو الله سبحانه وتعالى.

فإن قيل: هل يدل قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ على أنها بسيطة؟

قلنا: نعم لأن الأرض بتقدير كونها كرة، فهي كرة في غاية العظمة، والكرة العظيمة يكون كل قطعة صغيرة منها، إذا نظر إليها فإنها ترى كالسطح المستوي، وإذا كان كذلك زال ما ذكروه من الإشكال، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٧] سماها أوتادًا مع أنه قد يحصل عليها سطوح عظيمة مستوية، فكذا ههنا.

النوع الثاني: من الدلائل المذكورة في هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ وهي الجبال الثوابت، واحدها راسي، والجمع راسية، وجمع الجمع رواسي، وهو كقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] وفي تفسيره وجهان:

الوجه الأول: قال ابن عباس: لما بسط الله تعالى الأرض على الماء مالت بأهلها كالسفينة فأرساها الله تعالى بالجبال الثقال لكيلا تميل بأهلها.

فإن قيل: أتقولون إنه تعالى خلق الأرض بدون الجبال فمالت بأهلها فخلق فيها الجبال بعد ذلك أو تقولون إن الله خلق الأرض والجبال معًا.

قلنا: كلا الوجهين محتمل.

والوجه الثاني: في تفسير قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ يجوز أن يكون المراد أنه تعالى خلقها لتكون دلالة للناس على طرق الأرض ونواحيها لأنها كالأعلام فلا تميل الناس عن الجادة المستقيمة ولا يقعون في الضلال وهذا الوجه ظاهر الاحتمال.

النوع الثالث: من الدلائل المذكورة في هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾.

وفيه بحثان:

البحث الأول: أن الضمير في قوله: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ يحتمل أن يكون راجعًا إلى الأرض وأن يكون راجعًا إلى الجبال الرواسي، إلا أن رجوعه إلى الأرض أولى لأن أنواع النبات المنتفع بها إنما تتولد في الأراضي، فأما الفواكه الجبلية فقليلة النفع، ومنهم من قال: رجوع ذلك الضمير إلى الجبال أولى، لأن المعادن إنما تتولد في الجبال، والأشياء الموزونة في العرف والعادة هي المعادن لا النبات.

البحث الثاني: اختلفوا في المراد بالموزون وفيه وجوه:

الوجه الأول: أن يكون المراد أنه متقدر بقدر الحاجة. قال القاضي: وهذا الوجه أقرب لأنه

تعالى يعلم المقدار الذي يحتاج إليه الناس وينتفعون به فينبت تعالى في الأرض ذلك المقدار، ولذلك أتبعه بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ لأن ذلك الرزق الذي يظهر بالنبات يكون معيشة لهم من وجهين: الأول: بحسب الأكل والانتفاع بعينه. والثاني: أن ينتفع بالتجارة فيه، والقائلون بهذا القول قالوا: الوزن إنما يراد لمعرفة المقدار فكان إطلاق لفظ الوزن لإرادة معرفة المقدار من باب اطلاق اسم السبب على المسبب قالوا: ويتأكد ذلك أيضًا بقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨] وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

والوجه الثاني: في تفسير هذا اللفظ أن هذا العالم عالم الأسباب والله تعالى إنما يخلق المعادن والنبات والحيوان بواسطة تركيب طبائع هذا العالم، فلا بد وأن يحصل من الأرض قدر مخصوص ومن الماء والهواء كذلك، ومن تأثير الشمس والكواكب في الحر والبرد مقدار مخصوص، ولو قدرنا حصول الزيادة على ذلك القدر المخصوص، أو النقصان عنه لم تتولد المعادن والنبات والحيوان فالله سبحانه وتعالى قدرها على وجه مخصوص بقدرته وعلمه وحكمته فكأنه تعالى وزنها بميزان الحكمة حتى حصلت هذه الأنواع.

والوجه الثالث: في تفسير هذا اللفظ أن أهل العرف يقولون: فلان موزون الحركات أي حركات متناسبة حسنة مطابقة للحكمة، وهذا الكلام كلام موزون إذا كان متناسبًا حسنًا بعيدًا عن اللغو والسخف فكان المراد منه أنه موزون بميزان الحكمة والعقل، بالجملة فقد جعلوا لفظ الموزون كناية عن الحسن والتناسب، فقوله: ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ أي متناسب محكوم عليه عند العقول السليمة بالحسن واللطافة ومطابقة المصلحة.

والوجه الرابع: في تفسير هذا اللفظ أن الشيء الذي ينبت من الأرض نوعان: المعادن والنبات: أما المعادن فهي بأسرها موزونة وهي الأجساد السبعة والأحجار والأملاح والزاجات وغيرها. وأما النبات فيرجع عاقبتها إلى الوزن، لأن الحبوب توزن، وكذلك الفواكه في الأكثر والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾.

فيه مسألتان:

المسألة الأولى: ذكرنا الكلام في المعايش في سورة الأعراف وقوله: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾.

فيه قولان:

القول الأول: أنه معطوف على محل لكم، والتقدير: وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين.

والقول الثاني: أنه عطف على قوله: ﴿مَعَايِشَ﴾ والتقدير: وجعلنا لكم معايش ومن لستم له برازقين، وعلى هذا القول ففيه احتمالات ثلاثة:

الاحتمال الأول: أن كلمة (من) مختصة بالعقلاء فوجب أن يكون المراد من قوله: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ العقلاء وهم العيال والمماليك والخدم والعبيد، وتقرير الكلام أن الناس يظنون في أكثر الأمر أنهم الذين يرزقون العيال والخدم والعبيد، وذلك خطأ فإن الله هو الرزاق يرزق الخادم والمخدوم، والمملوك والمالك فإنه لولا أنه تعالى خلق الأطعمة والأشربة، وأعطى القوة الغاذية والهاضمة، وإلا لم يحصل لأحد رزق.

والاحتمال الثاني: وهو قول الكلبي قال: المراد بقوله: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ الوحش والطير.

فإن قيل: كيف يصح هذا التأويل مع أن صيغة من مختصة بمن يعقل؟

قلنا: الجواب عنه من وجهين: الأول: أن صيغة من قد وردت في غير العقلاء، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾[النور: ٤٥]. والثاني: أنه تعالى أثبت لجميع الدواب رزقًا على الله حيث قال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾[هود: ٦] فكأنها عند الحاجة تطلب أرزاقها من خالقها فصارت شبيهة بمن يعقل من هذه الجهة، فلم يبعد ذكرها بصيغة من يعقل، ألا ترى أنه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾[النمل: ١٨] فذكرها بصيغة جمع العقلاء، وقال في الأصنام: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ﴾[الشعراء: ٧٧] وقال: ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[الأنبياء: ٣٣] فكذا ههنا لا يبعد إطلاق اللفظة المختصة بالعقلاء على الوحش والطير لكونها شبيهة بالعقلاء من هذه الجهة وسمعت في بعض الحكايات أنه قلت المياه في الأودية والجبال واشتد الحر في عام من الأعوام فحكى عن بعضهم أنه رأى بعض الوحش رافعًا رأسه إلى السماء عند اشتداد عطشه قال: فرأيت الغيوم قد أقبلت وأمطرت بحيث امتلأت الأودية منها.

والاحتمال الثالث: أنا نحمل قوله: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ على الإماء والعبيد، وعلى الوحش والطير، وإنما أطلق عليها صيغة من تغليبًا لجانب العقلاء على غيرهم.

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ لا يجوز أن يكون مجرورًا عطفًا على الضمير المجرور في لكم، لأنه لا يعطف على الضمير المجرور، لا يقال أخذت منك وزيد إلا بإعادة الخافض كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾[الأحزاب: ٧].

واعلم أن هذا المعنى جائز على قراءة من قرأ: ﴿تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامِ﴾[النساء: ١] بالخفض وقد ذكرنا هذه المسألة هنالك. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بين أنه أنبت في الأرض كل شيء موزون وجعل فيها معايش أتبعه بذكر ما

هو كالسبب لذلك فقال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾.

وهذا هو النوع الرابع من الدلائل المذكورة في هذه السورة على تقرير التوحيد، **وفي الآية مسائل:**

المسألة الأولى: قال الواحدي رحمه الله: الخزائن جمع الخزانة، وهي اسم المكان الذي يخزن فيه الشيء أي يحفظ والخزانة أيضًا عمل الخازن، ويقال: خزن الشيء يخزنه إذا أحرزه في خزانة، وعامة المفسرين على أن المراد بقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ هو المطر، وذلك لأنه هو السبب للأرزاق ولمعايش بني آدم وغيرهم من الطيور والوحوش، فلما ذكر تعالى أنه يعطيهم المعايش بين أن خزائن المطر الذي هو سبب المعايش عنده، أي في أمره وحكمه وتدبيره، وقوله: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ قال ابن عباس رحمهما الله: يريد قدر الكفاية، وقال الحكم: ما من عام بأكثر مطرًا من عام آخر، ولكنه يمطر قوم ويحرم قوم آخرون، وربما كان في البحر، يعني أن الله تعالى ينزل المطر كل عام بقدر معلوم، غير أنه يصرفه إلى من يشاء حيث شاء كما شاء.

ولقائل أن يقول: لفظ الآية لا يدل على هذا المعنى، فإن قوله تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ لا يدل على أنه تعالى ينزله في جميع الأعوام على قدر واحد، وإذا كان كذلك كان تفسير الآية بهذا المعنى تحكمًا من غير دليل. وأقول أيضًا: تخصيص قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ بالمطر تحكم محض، لأن قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ﴾ يتناول جميع الأشياء إلا ما خصه الدليل، وهو الموجود القديم الواجب لذاته، وقوله: ﴿إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ إشارة إلى كون تلك الأشياء مقدورة له تعالى. وحاصل الأمر فيه أن المراد أن جميع الممكنات مقدورة له، ومملوكة يخرجها من العدم إلى الوجود كيف شاء إلا أنه تعالى وإن كانت مقدوراته غير متناهية إلا أن الذي يخرجه منها إلى الوجود يجب أن يكون متناهيًا لأن دخول ما لا نهاية له في الوجود محال فقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ إشارة إلى كون مقدوراته غير متناهية وقوله: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ إشارة إلى أن كل ما يدخل منها في الوجود فهو متناه، ومتى كان الخارج منها إلى الوجود متناهيًا كان لا محالة مختصًا في الحدوث بوقت مقدر مع جواز حصوله قبل ذلك الوقت أو بعده بدلاً عنه، وكان مختصًا بحيز معين مع جواز حصوله في سائر الأحياز بدلاً عن ذلك الحيز، وكان مختصًا بصفات معينة، مع أنه كان يجوز في العقل حصول سائر الصفات بدلاً عن تلك الصفات، وإذا كان كذلك كان اختصاص تلك الأشياء المتناهية بذلك الوقت المعين والحيز المعين، والصفات المعينة بدلاً عن أضدادها لا بد وأن يكون بتخصيص مخصص وتقدير مقدر، وهذا هو المراد من قوله: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ والمعنى: أنه لولا القادر المختار الذي خصص تلك الأشياء بتلك الأحوال الجائزة لامتنع اختصاصها بتلك الصفات الجائزة، والمراد من الإنزال الإحداث والإنشاء والإبداع كقوله تعالى:

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦] وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥]، والله أعلم.

المسألة الثانية: تمسك بعض المعتزلة بهذه الآية في إثبات أن المعدوم شيء قال لأن قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ يقتضي أن يكون لجميع الأشياء خزائن، وأن تكون تلك الخزائن حاصلة عند الله تعالى، ولا جائز أن يكون المراد من تلك الخزائن الموجودة عند الله تعالى هي تلك الموجودات من حيث إنها موجودة، لأنا بينا أن المراد من قوله تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ الإحداث والإبداع والإنشاء والتكوين، وهذا يقتضي أن يكون حصول تلك الخزائن عند الله متقدمًا على حدوثها ودخولها في الوجود، وإذا بطل هذا وجب أن يكون المراد أن تلك الذوات والحقائق والماهيات كانت متقررة عند الله تعالى، بمعنى أنها كانت ثابتة من حيث إنها حقائق وماهيات، ثم إنه تعالى أنزل بعضها أي أخرج بعضها من العدم إلى الوجود.

ولقائل أن يجيب عن ذلك بقوله: لا شك أن لفظ الخزائن إنما ورد ههنا على سبيل التمثيل والتخييل، فلم لا يجوز أن يكون المراد منه مجرد كونه تعالى قادرًا على إيجاد تلك الأشياء وتكوينها وإخراجها من العدم إلى الوجود؟ وعلى هذا التقدير يسقط الاستدلال، والمباحث الدقيقة باقية، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ فاعلم أن هذا هو النوع الخامس من دلائل التوحيد،

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في وصف الرياح بأنها لواقح. أقوال:

القول الأول: قال ابن عباس: الرياح لواقح للشجر وللسحاب، وهو قول الحسن وقتادة والضحاك وأصل هذا من قولهم: لقحت الناقة وألقحها الفحل إذا ألقى الماء فيها فحملت، فكذلك الرياح جارية مجرى الفحل للسحاب. قال ابن مسعود في تفسير هذه الآية: يبعث الله الرياح لتلقيح السحاب فتحمل الماء وتمجه في السحاب، ثم إنه يعصر السحاب ويدره كما تدر اللقحة فهذا هو تفسير إلقاحها للسحاب، وأما تفسير إلقاحها للشجر فما ذكروه.

فإن قيل: كيف قال ﴿لَوَٰقِحَ﴾ وهي ملقحة؟

والجواب: ما ذهب إليه أبو عبيدة أن (لواقح) ههنا بمعنى ملاقح جمع ملقحة وأنشد لسهيل يرثي أخاه:

لِـيُـبْـكَ يَـزِيـدُ بَـائِـسٌ ذُو ضَـرَاعَـةٍ وَأَشْـعَـثُ مِـمَّـا طَـوَّحَـتْـهُ الطَّـوَائِـحُ

أراد المطوحات وقرر ابن الأنباري ذلك فقال: تقول العرب أبقل النبت فهل باقل يريدون هو مبقل وهذا يدل على جواز ورود لاقح عبارة عن ملقح.

والوجه الثاني: في الجواب قال الزجاج: يجوز أن يقال لها لواقح وإن ألحقت غيرها لأن

معناها النسبة وهو كما يقال: درهم وازن، أي ذو وزن، ورامح وسائف، أي ذو رمح وذو سيف قال الواحدي: هذا الجواب ليس بمغن، لأنه كان يجب أن يصح اللاقح. بمعنى ذات اللقاح وهذا ليس بشيء، لأن اللاقح هو المنسوب إلى اللقحة، ومن أفاد غيره اللقحة فله نسبة إلى اللقحة فصح هذا الجواب، والله أعلم.

والوجه الثالث: في الجواب أن الريح في نفسها لاقح وتقريره بطريقين:

الطريق الأول: أن الريح حاصلة للسحاب، والدليل عليه قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ [الأعراف: ٥٧] أي حملت فعلى هذا المعنى تكون الريح لاقحة بمعنى أنها حاملة تحمل السحاب والماء.

والطريق الثاني: قال الزجاج: يجوز أن يقال للريح لقحت إذا أتت بالخير، كما قيل لها عقيم إذا لم تأت بالخير، وهذا كما تقول العرب: قد لقحت الحرب وقد نتجت ولدًا أنكد يشبهون ما تشتمل عليه من ضروب الشر بما تحمله الناقة فكذا ههنا، والله أعلم.

المسألة الثانية: الريح هواء متحرك وحركة الهواء بعد أن لم يكن متحركًا لا بد له من سبب، وذلك السبب ليس نفس كونه هواء ولا شيئًا من لوازم ذاته، وإلا لدامت حركة الهواء بدوام ذاته وذلك محال، فلم يبق إلا أن يقال: إنه يتحرك بتحريك الفاعل المختار، والأحوال التي تذكرها الفلاسفة في سبب حركة الهواء عند حدوث الريح قد حكيناها في هذا الكتاب مرارًا فأبطلناها وبينا أنه لا يمكن أن يكون شيء منها سببًا لحدوث الرياح، فبقي أن يكون محركها هو الله سبحانه.

وأما قوله: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ﴾ ففيه مباحث: الأول: أن ماء المطر هل ينزل من السماء أو ينزل من ماء السحاب؟ وبتقدير أن يقال إنه ينزل من السحاب كيف أطلق الله على السحاب لفظ السماء؟ وثانيها: أنه ليس السبب في حدوث المطر ما يذكره الفلاسفة بل السبب فيه أن الفاعل المختار ينزله من السحاب إلى الأرض لغرض الإحسان إلى العباد كما قال ههنا: ﴿فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ﴾ قال الأزهري: تقول العرب لكل ما كان في بطون الأنعام ومن السماء أو نهر يجري أسقيته أي جعلته شربًا له، وجعلت له منها مسقى، فإذا كانت السقيا لسقيه قالوا سقاه، ولم يقولوا أسقاه. والذي يؤكد هذا اختلاف القراء في قوله: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾ [النحل: ٦٦] فقرؤا باللغتين، ولم يختلفوا في قوله: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] وفي قوله: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ [الشعراء: ٧٩] قال أبو علي: سقيته حتى روي وأسقيته نهرًا، أي جعلته شربًا له وقوله: ﴿فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ﴾ أي جعلناه سقيًا لكم وربما قالوا في أسقى سقى كقول لبيد يصف سحابًا:

أَقُولُ وَصَوْبُهُ مِنِّي بَعِيدٌ ... يَحُطُّ السَّيْبُ مِنْ قُلَلِ الْجِبَالِ[1]

---

(١) الشاعر لبيد بن ربيعة تقدمت ترجمته.

سَقَى قَوْمِي بَنِي نَجْدٍ وَأَسْقَى نُمَيْرًا وَالْقَبَائِلَ مِنْ هِلَالِ

فقوله: سقى قومي ليس يريد به ما يروي عطاشهم ولكن يريد رزقهم سقيًا لبلادهم يخصبون بها، وبعيد أن يسأل لقومه ما يروى العطاش وليغرهم ما يخصبون به . وأما سقيا السقية فلا يقال فيها أسقاه، وأما قول ذي الرمة :

وَأَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا أَبُثُّهُ تُكَلِّمُنِي أَحْجَارُهُ وَمَلَاعِبُهُ[1]

فمعنى أسقيه أدعو له بالسقاء، وأقول سقاه الله وقوله : ﴿وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ يعني به ذلك الماء المنزل من السماء يعني لستم له بحافظين .

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

اعلم أن هذا هو النوع السادس من دلائل التوحيد وهو الاستدلال بحصول الإحياء والإماتة لهذه الحيوانات على وجود الإله القادر المختار .

أما قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ﴾ .

ففيه قولان:

منهم من حمله على القدر المشترك بين إحياء النبات والحيوان ومنهم من يقول : وصف النبات بالإحياء مجاز فوجب تخصيصه بإحياء الحيوان ولما ثبت بالدلائل العقلية أنه لا قدرة على خلق الحياة إلا للحق سبحانه كان حصول الحياة للحيوان دليلاً قاطعًا على وجود الإله الفاعل المختار، وقوله : ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ﴾ يفيد الحصر أي لا قدرة على الإحياء ولا على الإماتة إلا لنا، وقوله : ﴿وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾ معناه : أنه إذا مات جميع الخلائق، فحينئذ يزول ملك كل أحد عند موته، ويكون الله هو الباقي الحق المالك لكل المملوكات وحده فكان هذا شبيهًا بالإرث فكان وارثًا من هذا الوجه .

وأما قوله: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ﴾ .

ففيه وجوه:

الأول: قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء : المستقدمين يريد أهل طاعة الله تعالى والمستأخرين يريد المتخلفين عن طاعة الله .

الثاني: أراد بالمستقدمين الصف الأول من أهل الصلاة، وبالمستأخرين الصف الآخر، روي أنه ﷺ رغب في الصف الأول في الصلاة، فازدحم الناس عليه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، والمعنى : أنا نجزيهم على قدر نياتهم .

---

(١) الشاعر ذو الرمة تقدمت ترجمته .

الثالث: قال الضحاك ومقاتل: يعني في وصف القتال.

الرابع: قال ابن عباس في رواية أبي الجوزاء كانت امرأة حسناء تصلي خلف رسول الله ﷺ وكان قوم يتقدمون إلى الصف الأول لئلا يروها وآخرون يتخلفون ويتأخرون ليروها وإذا ركعوا جافوا أيديهم لينظروا من تحت آباطهم فأنزل الله تعالى هذه الآية(١).

الخامس: قيل المستقدمون هم الأموات والمستأخرون هم الأحياء. وقيل المستقدمون هم الأمم السالفة، والمستأخرون هم أمة محمد ﷺ، وقال عكرمة: المستقدمون من خلق والمستأخرون من لم يخلق.

واعلم أنه تعالى لما قال: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ أتبعه بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ تنبيهًا على أنه لا يخفى على الله شيء من أحوالهم فيدخل فيه علمه تعالى بتقدمهم وتأخرهم في الحدوث والوجود وبتقدمهم وتأخرهم في أنواع الطاعات والخيرات ولا ينبغي أن نخص الآية بحالة دون حالة.

وأما قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ فالمراد منه التنبيه على أن الحشر والنشر والبعث والقيامة أمر واجب وقوله: ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ معناه: أن الحكمة تقتضي وجوب الحشر والنشر على ما قررناه بالدلائل الكثيرة في أول سورة يونس عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن هذا هو النوع السابع من دلائل التوحيد فإنه تعالى لما استدل بتخليق الحيوانات على صحة التوحيد في الآية المتقدمة أردفه بالاستدلال بتخليق الإنسان على هذا المطلوب.

المسألة الثانية: ثبت بالدلائل القاطعة أنه يمتنع القول بوجود حوادث لا أول لها، وإذا ثبت هذا ظهر وجوب انتهاء الحوادث إلى حادث أول هو أول الحوادث، وإذا كان كذلك فلا بد من انتهاء الناس إلى إنسان هو أول الناس، وإذا كان كذلك فذلك الإنسان الأول غير مخلوق من الأبوين فيكون مخلوقًا لا محالة بقدرة الله تعالى. فقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ إشارة إلى ذلك الإنسان

---

(١) صحيح: أخرجه النسائي في كتاب (الإمامة) باب (المنفرد خلف الصف) (١/ ٥٨٢) حديث رقم/ ٨٦٩، حدثنا قتيبة... به، والترمذي في كتاب (التفسير) باب (من سورة الحجر) (٥/ ٢٧٦) حديث رقم/ ٣١٢٢، حدثنا قتيبة... به، وقال أبو عيسي: هذا حديث حسن صحيح. وابن ماجه في كتاب (الصلاة) باب (الخشوع في الصلاة) (١/ ٣٣٢) حديث رقم/ ١٠٤٦، حدثنا حميد بن مسعدة وأبو بكر بن خلاد... به، وأحمد في (مسنده) (١/ ٣٠٥) حديث رقم/ ٢٧٨٤، قال: حدثنا شريح... به، وابن خزيمة في (صحيحه) (٣/ ٩٧/ ٩٨) حديث رقم/ ١٦٩٦، جميعا (قتيبة، حميد، ابن خلاد، شريح، نصر) عن نوح بن قيس... به.

الأول، والمفسرون أجمعوا على أن المراد منه هو آدم عليه السلام، ونقل في (كتب الشيعة) عن محمد بن علي الباقر عليه السلام أنه قال: قد انقضى قبل آدم الذي هو أبونا ألف ألف آدم أو أكثر وأقول: هذا لا يقدح في حدوث العالم بل لأمر كيف كان، فلا بد من الانتهاء إلى إنسان أول هو أول الناس وأما أن ذلك الإنسان هو أبونا آدم، فلا طريق إلى إثباته إلا من جهة السمع.

واعلم أن الجسم محدث، فوجب القطع بأن آدم عليه السلام وغيره من الأجسام يكون مخلوقًا عن عدم محض، وأيضًا دل قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] على أن آدم مخلوق من تراب، ودلت آية أخرى على أنه مخلوق من الطين، وهي قوله: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: ٧١] وجاء في هذه الآية أن آدم عليه السلام مخلوق من صلصال من حمأ مسنون، والأقرب أنه تعالى خلقه أولاً من تراب ثم من طين ثم من حمأ مسنون ثم من صلصال كالفخار، ولا شك أنه تعالى قادر على خلقه من أي جنس من الأجسام كان، بل هو قادر على خلقه ابتداء، وإنما خلقه على هذا الوجه إما لمحض المشيئة أو لما فيه من دلالة الملائكة ومصلحتهم ومصلحة الجن، لأن خلق الإنسان من هذه الأمور أعجب من خلق الشيء من شكله وجنسه.

المسألة الثالثة: في الصلصال قولان: قيل الصلصال الطين اليابس الذي يصلصل وهو غير مطبوخ، وإذا طبخ فهو فخار. قالوا: إذا توهمت في صوته مدًا فهو صليل، وإذا توهمت فيه ترجيعًا فهو صلصلة. قال المفسرون: خلق الله تعالى آدم عليه السلام من طين فصوره وتركه في الشمس أربعين سنة، فصار صلصالاً كالخزف ولا يدري أحد ما يراد به، ولم يروا شيئًا من الصور يشبهه إلى أن نفخ فيه الروح. وحقيقة الكلام أنه تعالى خلق آدم من طين على صورة الإنسان فجف فكانت الريح إذا مرت به سمع له صلصلة فلذلك سماه الله تعالى صلصالاً.

والقول الثاني: الصلصال هو المنتن من قولهم صل اللحم وأصل إذا نتن وتغير، وهذا القول عندي ضعيف، لأنه تعالى قال: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ وكونه حمأ مسنونًا يدل على النتن والتغير وظاهر الآية يدل على أن هذا الصلصال إنما تولد من الحمأ المسنون فوجب أن يكون كونه صلصالاً مغايرًا لكونه حمأ مسنونًا، ولو كان كونه صلصالاً عبارة عن النتن والتغير لم يبق بين كونه صلصالاً، وبين كونه حمأ مسنونًا تفاوت، وأما الحمأ فقال الليث الحمأة بوزن فعلة، والجمع الحمأ وهو الطين الأسود المنتن. وقال أبو عبيدة والأكثرون حماة بوزن كمأة وقوله: ﴿مَّسْنُونٍ﴾.

فيه أقوال:

الأول: قال ابن السكيت سمعت أبا عمرو يقول في قوله: ﴿مَّسْنُونٍ﴾ أي متغير قال أبو الهيثم يقال سن الماء، فهو مسنون أي تغير. والدليل عليه قوله تعالى: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْۖ﴾ [البقرة: ٢٥٩] أي لم يتغير.

الثاني: المسنون المحكوك وهو مأخوذ من سننت الحجر إذا حككته عليه، والذي يخرج من بينهما يقال له السنن وسمي المسن مسنًا لأن الحديد يسن عليه.

والثالث: قال الزجاج: هذا اللفظ مأخوذ من أنه موضوع على سنن الطريق لأنه متى كان كذلك فقد تغير.

الرابع: قال أبو عبيدة: المسنون المصبوب، والسنُّ والصبُّ يقال سن الماء على وجهه سنًا.

الخامس: قال سيبويه: المسنون المصور على صورة ومثال، من سنة الوجه وهي صورته.

السادس: روي عن ابن عباس أنه قال: المسنون الطين الرطب، وهذا يعود إلى قول أبي عبيدة، لأنه إذا كان رطبًا يسيل وينبسط على الأرض، فيكون مسنونًا بمعنى أنه مصبوب.

أما قوله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ﴾ فاختلفوا في أن الجان من هو؟ فقال عطاء عن ابن عباس: يريد إبليس وهو قول الحسن ومقاتل وقتادة. وقال ابن عباس في رواية أخرى: الجان هو أب الجن وهو قول الأكثرين. وسمي جانًا لتواريه عن الأعين، كما سمي الجنين جنينًا لهذا السبب، والجنين متوارٍ في بطن أمه، ومعنى الجان في اللغة الساتر من قولك: جن الشيء إذا ستره، فالجان المذكور ههنا يحتمل أنه سمي جانًا لأنه يستر نفسه عن أعين بني آدم، أو يكون من باب الفاعل الذي يراد به المفعول كما يقال في لابن وتامر وماء دافق وعيشة راضية. واختلفوا في الجن فقال بعضهم: إنهم جنس غير الشياطين والأصح أن الشياطين قسم من الجن، فكل من كان منهم مؤمنًا فإنه لا يسمى بالشيطان، وكل من كان منهم كافرًا يسمى بهذا الإسم، والدليل على صحة ذلك أن لفظ الجن مشتق من الاستتار، فكل من كان كذلك كان من الجن، وقوله تعالى: ﴿خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾ قال ابن عباس: يريد من قبل خلق آدم، وقوله: ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ معنى السموم في اللغة: الريح الحارة تكون بالنهار وقد تكون بالليل، وعلى هذا فالريح الحارة فيها نار ولها لفح وأوار، على ما ورد في الخبر أنها لفح جهنم. قيل: سميت سمومًا لأنها بلطفها تدخل في مسام البدن، وهي الخروق الخفية التي تكون في جلد الإنسان يبرز منها عرقه وبخار بطنه. قال ابن مسعود: هذه السموم جزء من سبعين جزأ من السموم التي خلق الله بها الجان وتلا هذه الآية.

فإن قيل: كيف يعقل خلق الجان من النار؟

قلنا: هذا على مذهبنا ظاهر، لأن البنية عندنا ليست شرطًا لإمكان حصول الحياة، فالله تعالى قادر على خلق الحياة والعلم في الجوهر الفرد، فكذلك يكون قادرًا على خلق الحياة والعقل في الجسم الحار، واستدل بعضهم على أن الكواكب يمتنع حصول الحياة فيها قال: لأن الشمس في غاية الحرارة وما كان كذلك امتنع حصول الحياة فيه فننقضه عليه بقوله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ بل المعتمد في نفي الحياة عن الكواكب الإجماع.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر حدوث الإنسان الأول واستدل بذكره على وجود الإله القادر المختار ذكر بعده واقعته وهو أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود له فأطاعوه إلا إبليس فإنه أبى وتمرد.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: ما تفسير كونه بشرًا. فالمراد منه كونه جسمًا كثيفًا يباشر ويلاقي والملائكة والجن لا يباشرون للطف أجسامهم عن أجسام البشر، والبشرة ظاهر الجلد من كل حيوان وأما كونه صلصالاً من حمأ مسنون فقد تقدم ذكره. وأما قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾.

ففيه قولان: الأول: فإذا سويت شكله بالصورة الإنسانية والخلقة البشرية. والثاني: فإذا سويت أجزاء بدنه باعتدال الطبائع وتناسب الأمشاج كما قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢].

وأما قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ ففيه مباحث: الأول: أن النفخ إجراء الريح في تجاويف جسم آخر، وظاهر هذا اللفظ يشعر بأن الروح هي الريح، وإلا لما صح وصفها بالنفخ إلا أن البحث الكامل في حقيقة الروح سيجيء في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] وإنما أضاف الله سبحانه روح آدم إلى نفسه تشريفًا له وتكريمًا. وقوله: ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾. فيه مباحث:

أحدها: أن ذلك السجود كان لآدم في الحقيقة أو كان آدم كالقبلة لذلك السجود، وهذا البحث قد تقدم ذكره في سورة البقرة.

وثانيها: أن المأمورين بالسجود لآدم عليه السلام هم كل ملائكة السموات أو بعضهم أو ملائكة الأرض، ومن الناس من لا يجوز أن يقال: إن أكابر الملائكة كانوا مأمورين بالسجود لآدم عليه السلام، والدليل عليه قوله تعالى في آخر سورة الأعراف في صفة الملائكة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] فقوله: ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] يفيد الحصر، وذلك يدل على أنهم لا يسجدون إلا لله تعالى وذلك ينافي كونهم ساجدين لآدم عليه السلام أو لأحد غير الله تعالى أقصى ما في الباب أن يقال: إن قوله تعالى: ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ يفيد العموم، إلا أن الخاص مقدم على العام. وثالثها: أن ظاهر الآية يدل

على أنه تعالى كما نفخ الروح في آدم عليه السلام وجب على الملائكة أن يسجدوا له، لأن قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ مذكور بفاء التعقيب وذلك يمنع من التراخي وقوله: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ قال الخليل وسيبويه قوله: ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ توكيد بعد توكيد، وسئل المبرد عن هذه الآية فقال: لو قال فسجد الملائكة احتمل أن يكون سجد بعضهم، فلما قال: ﴿كُلُّهُمْ﴾ زال هذا الاحتمال فظهر أنهم بأسرهم سجدوا، ثم بعد هذا بقي احتمال آخر وهو أنهم سجدوا دفعة واحدة أو سجد كل واحد منهم في وقت آخر فلما قال: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ ظهر أن الكل سجدوا دفعة واحدة، ولما حكى الزجاج هذا القول عن المبرد قال: وقول الخليل وسيبويه أجود، لأن أجمعين معرفة فلا يكون حالاً وقوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ أجمعوا على أن إبليس كان مأمورًا بالسجود لآدم، واختلفوا في أنه هل كان من الملائكة أم لا؟ وقد سبقت هذه المسألة بالاستقصاء في سورة البقرة وقوله: ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ استئناف وتقديره أن قائلاً قال: هلا سجد فقيل: أبى ذلك واستكبر عنه.

أما قوله: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ فاعلم أنهم أجمعوا على أن المراد من قوله: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ﴾ أي قال الله تعالى له يا إبليس وهذا يقتضي أنه تعالى تكلم معه، فعند هذا قال بعض المتكلمين: إنه تعالى أوصل هذا الخطاب إلى إبليس على لسان بعض رسله، إلا أن هذا ضعيف، لأن إبليس قال في الجواب: ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ﴾ فقوله: ﴿خَلَقْتَهُۥ﴾ خطاب الحضور لا خطاب الغيبة، وظاهره يقتضي أن الله تعالى تكلم مع إبليس بغير واسطة وأن إبليس تكلم مع الله تعالى بغير واسطة، وكيف يعقل هذا مع أن مكالمة الله تعالى بغير واسطة من أعظم المناصب وأشرف المراتب، فكيف يعقل حصوله لرأس الكفرة ورئيسهم، ولعل الجواب عنه أن مكالمة الله تعالى إنما تكون منصبًا عاليًا إذا كان على سبيل الإكرام والإعظام، فأما إذا كان على سبيل الإهانة والإذلال فلا، وقوله: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾.

فيه بحثان:

البحث الأول: اللام في قوله: ﴿لِّأَسْجُدَ﴾ لتأكيد النفي، ومعناه: لا يصح مني أن أسجد لبشر.

البحث الثاني: معنى هذا الكلام أن كونه بشرًا يشعر بكونه جسمًا كثيفًا وهو كان روحانيًا لطيفًا، فالتفرقة حاصلة بينهما في الحال من هذا الوجه. كأنه يقول: البشر جسماني كثيف له بشرة، وأنا روحاني لطيف، والجسماني الكثيف أدون حالاً من الروحاني اللطيف، والأدون كيف يكون مسجودًا للأعلى، وأيضًا أن آدم مخلوق من صلصال تولد من حمأ مسنون، فهذا الأصل في غاية الدناءة وأصل إبليس هو النار وهي أشرف العناصر، فكان أصل إبليس أشرف من أصل آدم فوجب أن يكون إبليس أشرف من آدم، والأشرف يقبح أن يؤمر بالسجود للأدون، فالكلام الأول إشارة إلى الفرق الحاصل بسبب البشرية والروحانية، وهو فرق حاصل في الحال والكلام الثاني

إشارة إلى الفرق الحاصل بحسب العنصر والأصل، فهذا مجموع شبهة إبليس وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ فهذا ليس جوابًا عن تلك الشبهة على سبيل التصريح، ولكنه جواب عنها على سبيل التنبيه. وتقريره أن الذي قاله الله تعالى نص، والذي قاله إبليس قياس، ومن عارض النص بالقياس كان رجيمًا ملعونًا. وتمام الكلام في هذا المعنى ذكرناه مستقصى في سورة الأعراف، وقوله: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ قيل المراد من جنة عدن، وقيل من السموات، وقيل من زمرة الملائكة، وتمام هذا الكلام مع تفسير الرجيم قد سبق ذكره في سورة الأعراف وقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قال ابن عباس يريد يوم الجزاء حيث يجازي العباد بأعمالهم مثل قوله: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

فإن قيل: كلمة (إلى) تفيد انتهاء الغاية فهذا يشعر بأن اللعن لا يحصل إلا إلى يوم القيامة، وعند قيام القيامة يزول اللعن.

أجابوا عنه من وجوه: الأول: المراد منه التأبيد، وذكر القيامة أبعد غاية يذكرها الناس في كلامهم كقولهم: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود: ١٠٧] في التأبيد. والثاني: أنك مذموم مدعو عليك باللعنة في السموات والأرض إلى يوم الدين من غير أن يعذب فإذا جاء ذلك اليوم عذب عذابًا ينسى اللعن معه فيصير اللعن حينئذ كالزائل بسبب أن شدة العذاب تذهل عنه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿فَأَنظِرْنِىٓ﴾ متعلق بما تقدم والتقدير: إذا جعلتني رجيمًا ملعونًا إلى يوم الدين فأنظرني فطلب الإبقاء من الله تعالى عند اليأس من الآخرة إلى وقت قيام القيامة. لأن قوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ المراد منه يوم البعث والنشور وهو يوم القيامة، وقوله: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ اعلم أن إبليس استنظر إلى يوم البعث والقيامة، وغرضه منه أن لا يموت لأنه إذا كان لا يموت قبل يوم القيامة، وظاهره أن بعد قيام القيامة لا يموت أحد فحينئذ يلزم منه أن لا يموت ألبتة. ثم إنه تعالى منعه عن هذا المطلوب وقال: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ واختلفوا في المراد منه على وجوه: **أحدها:** أن المراد من يوم الوقت المعلوم وقت النفخة الأولى حين يموت كل الخلائق، وإنما سمي هذا الوقت بالوقت المعلوم لأن من المعلوم أن يموت كل الخلائق فيه. وقيل: إنما سماه الله تعالى بهذا الاسم، لأن العالم بذلك الوقت هو الله تعالى لا غير كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]. **وثانيها:** أن المراد من يوم الوقت المعلوم هو الذي

ذكره إبليس وهو قوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ وإنما سماه تعالى بيوم الوقت المعلوم؟ لأن إبليس لما عينه وأشار إليه بعينه صار ذلك كالمعلوم.

فإن قيل: لما أجابه الله تعالى إلى مطلوبه لزم أن لا يموت إلى وقت قيام الساعة وبعد قيام القيامة لا يموت أيضًا، فيلزم أن يندفع عنه الموت بالكلية.

قلنا: يحمل قوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ إلى ما يكون قريبًا منه. والوقت الذي يموت فيه كل المكلفين قريب من يوم البعث، وعلى هذا الوجه فيرجع حاصل هذا الكلام إلى الوجه الأول.

وثالثها: أن المراد بيوم الوقت المعلوم يوم لا يعلمه إلا الله تعالى، وليس المراد منه يوم القيامة.

فإن قيل: إنه لا يجوز أن يعلم المكلف متى يموت، لأن فيه إغراء بالمعاصي، وذلك لا يجوز على الله تعالى.

أجيب عنه بأن هذا الإلزام إنما يتوجه إذا كان وقت قيام القيامة معلومًا للمكلف. فأما إذا علم أنه تعالى أمهله إلى وقت قيام القيامة إلا أنه تعالى ما أعلمه الوقت الذي تقوم القيامة فيه فلم يلزم منه الإغراء بالمعاصي.

وأجيب عن هذا الجواب بأنه وإن لم يعلم الوقت الذي فيه تقوم القيامة على التعيين إلا أنه علم في الجملة أن من وقت خلقة آدم عليه الصلاة والسلام إلى وقت قيام القيامة مدة طويلة فكأنه قد علم أنه لا يموت في تلك المدة الطويلة.

أما قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ففيه بحثان:

البحث الأول: الباء في ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ للقسم وما مصدرية، وجواب القسم لأزينن. والمعنى أقسم بإغوائك إياي لأزينن لهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[ص: ٨٢] إلا أنه في ذلك الموضع أقسم بعزة الله، وهي من صفات الذات، وفي قوله: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ أقسم بإغواء الله وهو من صفات الأفعال. والفقهاء قالوا: القسم بصفات الذات صحيح، أما بصفات الأفعال فقد اختلفوا فيه. ونقل الواحدي عن قوم آخرين أنهم قالوا: الباء ههنا بمعنى السبب، أي بسبب كوني غاويًا لأزينن كقول القائل، أقسم فلان بمعصيته ليدخلن النار، وبطاعته ليدخلن الجنة.

البحث الثاني: اعلم أن أصحابنا قد احتجوا بهذه الآية على أنه تعالى قد يريد خلق الكفر في الكافر ويصده عن الدين ويغويه عن الحق من وجوه:

الأول: أن إبليس استمهل وطلب البقاء إلى قيام القيامة مع أنه صرح بأنه إنما يطلب هذا الإمهال والإبقاء لإغواء بني آدم وإضلالهم وأنه تعالى أمهله وأجابه إلى هذا المطلوب، ولو كان تعالى يراعي مصالح المكلفين في الدين لما أمهله هذا الزمان الطويل، ولما مكنه من الإغواء والإضلال والوسوسة.

الثاني: أن أكابر الأنبياء والأولياء مجدون ومجتهدون في إرشاد الخلق إلى الدين الحق، وأن إبليس ورهطه وشيعته مجدون ومجتهدون في الضلال والإغواء، فلو كان مراد الله تعالى هو الإرشاد والهداية لكان من الواجب إبقاء المرشدين والمحققين وإهلاك المضلين والمغوين، وحيث فعل بالضد منه، علمنا أنه أراد بهم الخذلان والكفر.

الثالث: أنه تعالى لما أعلمه بأنه يموت على الكفر وأنه ملعون إلى يوم الدين كان ذلك إغراء له بالكفر والقبيح، لأنه أيس عن المغفرة والفوز بالجنة يجترىء حينئذ على أنواع المعاصي والكفر.

الرابع: أنه لما سأل الله تعالى هذا العمر الطويل، مع أنه تعالى علم منه أنه لا يستفيد من هذا العمر الطويل إلا زيادة الكفر والمعصية، وبسبب تلك الزيادة يزداد استحقاقه لأنواع العذاب الشديد كان هذا الإمهال سببًا لمزيد عذابه، وذلك يدل على أنه تعالى أراد به أن يزداد عذابه وعقابه.

الخامس: أنه صرح بأن الله أغواه فقال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ وذلك تصريح بأن الله تعالى أغواه لا يقال: هذا كلام إبليس وهو ليس بحجة، وأيضًا فهو معارض بقول إبليس: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢] فأضاف الإغواء إلى نفسه، لأنا نقول.

أما الجواب عن الأول: فهو أنه لما ذكر هذا الكلام فإن الله تعالى ما أنكره عليه وذلك يدل على أنه كان صادقًا فيما قال.

وأما الجواب عن الثاني: فهو أنه قال في هذه الآية: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ فالمراد ههنا من قوله: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ هو المراد من قوله في تلك الآية: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ إلا أنه بين في هذه الآية أنه إنما أمكنه أن يزين لهم الأباطيل لأجل أن الله تعالى أغواه قبل ذلك، وعلى هذا التقدير فقد زال التناقض ويتأكد هذا بما ذكره الله تعالى حكاية عن الشياطين في سورة القصص: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ [القصص: ٦٣].

السؤال السادس: أنه قال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ وهذا اعتراف بأن الله تعالى أغواه فنقول: إما أن يقال: إنه كان قد عرف بأن الله تعالى أغواه، أو ما عرف ذلك، فإن كان قد عرف بأن الله تعالى أغواه امتنع كونه غاويًا لأنه إنما يعرف أن الله تعالى أغواه إذا عرف أن الذي هو عليه جهل وباطل، ومن عرف ذلك امتنع بقاؤه على الجهل والضلالة، وأما إن قلنا: بأنه ما عرف أن الله أغواه فكيف أمكنه أن يقول: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ فهذا مجموع السؤالات الواردة في هذه الآية.

أما الإشكال الأول: فللمعتزلة فيه طريقان: **الطريق الأول:** وهو طريق الجبائي أنه تعالى إنما أمهل إبليس تلك المدة الطويلة، لأنه تعالى علم أنه لا يتفاوت أحوال الناس بسبب وسوسته، فبتقدير أن لا يوجد إبليس ولا وسوسته فإن ذلك الكافر، والعاصي كان يأتي بذلك الكفر والمعصية، فلما كان الأمر كذلك، لا جرم أمهله هذه المدة. **الطريق الثاني:** وهو طريق أبي هاشم أنه لا يبعد

أن يقال: إنه تعالى علم أن أقوامًا يقعون بسبب وسوسته في الكفر والمعصية، إلا أن وسوسته ما كانت موجبة لذلك الكفر والمعصية، بل الكافر والعاصي بسبب اختياره اختار ذلك الكفر وتلك المعصية، أقصى ما في الباب أن يقال: الاحتراز عن القبائح حال عدم الوسوسة أسهل منه حال وجودها، إلا أن على هذا التقدير تصير وسوسته سببًا لزيادة المشقة في أداء الطاعات، وذلك لا يمنع الحكيم من فعله، كما أن إنزال المشاق وإنزال المتشابهات صار سببًا لمزيد الشبهات، ومع ذلك فلم يمتنع فعله فكذا ههنا، وهذان الطريقان هما بعينهما الجواب عن السؤال الثاني.

وأما السؤال الثالث: وهو أن إعلامه بأنه يموت على الكفر يحمله على الجرأة على المعاصي والإكثار منها، فجوابه أن هذا إنما يلزم إذا كان علم إبليس بموته على الكفر يحمله على الزيادة في المعاصي أما إذا علم الله تعالى من حاله أن ذلك لايوجب التفاوت ألبتة، فالسؤال زائل، وهذا بعينه هو الجواب عن السؤال الرابع.

وأما السؤال الخامس: وهو أن إبليس صرح بأن الله تعالى أغواه وأضله عن الدين، فقد أجابوا عنه بأنه ليس المراد ذلك بل فيه وجوه أخرى: أحدها: المراد بما خيبتني من رحمتك لأخيبنهم بالدعاء إلى معصيتك. وثانيها؛ المراد كما أضللتني عن طريق الجنة أضلهم أنا أيضًا عنه بالدعاء إلى المعصية. وثالثها: أن يكون المراد بالإغواء الأول الخيبة، وبالثاني الإضلال. ورابعها: أن المراد بإغواء الله تعالى إياه هو أنه أمره بالسجود لآدم فأفضى ذلك إلى غيه، يعني أنه حصل ذلك الغي عقيبه باختيار إبليس، فأما أن يقال: إن ذلك الأمر صار موجبًا لذاته لحصول ذلك الغي، فمعلوم أنه ليس الأمر كذلك، هذا جملة كلام القوم في هذا الباب وكله ضعيف، أما قوله إنه لا يتفاوت الحال بسبب وسوسة إبليس فنقول: هذا باطل، ويدل عليه القرآن والبرهان، أما القرآن فقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [البقرة: ٣٦] فأضاف تلك الزلة إلى الشيطان، وقال: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧] فأضاف الإخراج إليه، وقال موسى عليه السلام: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [القصص: ١٥] وكل ذلك يدل على أن لعمل الشيطان في تلك الأفعال أثرًا، وأما البرهان فلأن بداية العقول شاهدة بأنه ليس حال من ابتلى بمجالسة شخص يرغبه أبدًا في القبائح. وينفره عن الخيرات، مثل شخص كان حاله بالضد منه، والعلم بهذا التفاوت ضروري. وأما قوله إن وجوده يصير سببًا لزيادة المشقة في الطاعة فنقول: تأثير زيادة المشقة إنما هو في كثرة الثواب على أحد التقديرين، وفي الإلقاء في العذاب الشديد على التقدير الثاني وهو التقدير الأكثر الأغلب، وكل من يراعي المصالح، فإن رعاية هذا التقدير الثاني أولى عنده من رعاية التقدير الأول لأن دفع الضرر العظيم أولى من السعي في طلب النفع الزائد الذي لا حاجة إلى حصوله أصلًا، ولما اندفع هذان الجوابان عن هذا السؤال قويت سائر الوجوه المذكورة، وأما قوله: المراد من قوله: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ الخيبة عن الرحمة أو الإضلال عن طريق الجنة فنقول: كل هذا بعيد، لأنه هو الذي خيب نفسه عن الرحمة وهو الذي أضل نفسه

عن طريق الجنة، لأنه لما أقدم على الكفر باختياره فقد خيب نفسه عن الرحمة، وأضل نفسه عن طريق الجنة فكيف يحسن إضافته إلى الله تعالى فثبت أن الإشكالات لازمة وأن أجوبتهم ضعيفة، والله أعلم.

وأما قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن إبليس استثنى المخلصين، لأنه علم أن كيده لا يعمل فيهم، ولا يقبلون منه، وذكرت في مجلس التذكير أن الذي حمل إبليس على ذكر هذا الإستثناء أن لا يصير كاذبًا في دعواه فلما احترز إبليس عن الكذب علمنا أن الكذب في غاية الخساسة.

المسألة الثانية: قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو: ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ بكسر اللام في كل القرآن، والباقون بفتح اللام. وجه القراءة الأولى أنهم الذين أخلصوا دينهم وعبادتهم عن كل شائب يناقض الإيمان والتوحيد، ومن فتح اللام فمعناه: الذين أخلصهم الله بالهداية والإيمان، والتوفيق، والعصمة، وهذه القراءة تدل على أن الإخلاص والإيمان ليس إلا من الله تعالى.

المسألة الثالثة: الإخلاص جعل الشيء خالصًا عن شائبة الغير فنقول: كل من أتى بعمل فإما أن يكون قد أتى به لله فقط أو لغير الله فقط، أو لمجموع الأمرين، وعلى هذا التقدير الثالث فإما أن يكون طلب رضوان الله راجحًا أو مرجوحًا أو معادلاً، والتقدير الرابع أن يأتي به لا لغرض أصلاً وهذا محال، لأن الفعل بدون الداعية محال.

أما الأول: فهو الإخلاص في حق الله تعالى، لأن الحامل له على ذلك الفعل طلب رضوان الله، وما جعل هذه الداعية مشوبة بداعية أخرى بل بقيت خالصة عن شوائب الغير، فهذا هو الإخلاص.

وأما الثاني: وهو الإخلاص في حق غير الله، فظاهر أن هذا لا يكون إخلاصًا في حق الله تعالى.

وأما الثالث: وهو أن يشتمل على الجهتين إلا أن جانب الله يكون راجحًا، فهذا يرجى أن يكون من المخلصين، لأن المثل يقابله المثل. فيبقى القدر الزائد خالصًا عن الشوب.

وأما الرابع والخامس: فظاهر أنه ليس من المخلصين في حق الله تعالى، والحاصل أن القسم الأول: إخلاص في حق الله تعالى قطعًا. والقسم الثاني: يرجى من فضل الله أن يجعله من قسم الإخلاص وأما سائر الأقسام فهو خارج عن الإخلاص قطعًا، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾.

ففيه وجوه:

الأول: أن إبليس لما قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ فلفظ المخلص يدل على الإخلاص، فقوله هذا عائد إلى الإخلاص، والمعنى: أن الإخلاص طريق علي وإلي، أي أنه يؤدي إلى

كرامتي وثوابي، وقال الحسن: معناه هذا صراط إلي مستقيم، وقال آخرون: هذا صراط من مر عليه، فكأنه مر علي وعلى رضواني وكرامتي وهو كما يقال: طريقك علي. الثاني: أن الإخلاص طريق العبودية فقوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي هذا الطريق في العبودية طريق علي مستقيم. الثالث: قال بعضهم: لما ذكر إبليس أنه يغوي بني آدم إلا من عصمه الله بتوفيقه تضمن هذا الكلام تفويض الأمور إلى الله تعالى وإلى إرادته فقال تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ﴾ أي تفويض الأمور إلى إرادتي ومشيئتي طريق علي مستقيم. الرابع: معناه: هذا صراط علي تقريره وتأكيده، وهو مستقيم حق وصدق، وقرأ يعقوب: ﴿صِرَٰطٌ عَلِيٌّ﴾ بالرفع والتنوين على أنه صفة لقوله: ﴿صِرَٰطَ﴾ أي هو علي بمعنى أنه رفيع مستقيم لا عوج فيه. قال الواحدي: معناه أن طريق التفويض إلى الله تعالى والإيمان بقضاء الله طريق رفيع مستقيم.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾

اعلم أن إبليس لما قال: ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أوهم هذا الكلام أن له سلطانًا على عباد الله الذين يكونون من المخلصين، فبين تعالى في هذه الآية أنه ليس له سلطان على أحد من عبيد الله سواء كانوا مخلصين أو لم يكونوا مخلصين، بل من اتبع منهم إبليس باختياره صار متبعًا له، ولكن حصول تلك المتابعة أيضًا ليس لأجل أن إبليس يقهره على تلك المتابعة أو يجبره عليها والحاصل في هذا القول: أن إبليس أوهم أن له على بعض عباد الله سلطانًا، فبين تعالى كذبه فيه، وذكر أنه ليس له على أحد منهم سلطان ولا قدرة أصلاً، ونظير هذه الآية قوله تعالى حكاية عن إبليس أنه قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢] وقال تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠] قال الجبائي: هذه الآية تدل على بطلان قول من زعم أن الشيطان والجن يمكنهم صرع الناس وإزالة عقولهم كما يقوله العامة، وربما نسبوا ذلك إلى السحرة قال وذلك خلاف ما نص الله تعالى عليه، وفي الآية قول آخر، وهو أن إبليس لما قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠] فذكر أنه لا يقدر على إغواء المخلصين صدقه الله في هذا الاستثناء فقال: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ فلهذا قال الكلبي: العباد المذكورون في هذه الآية هم الذين استثناهم إبليس.

واعلم أن على القول الأول يمكن أن يكون قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ استثناء، لأن المعنى: أن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين فإن لك عليهم سلطانًا بسبب كونهم منقادين لك في الأمر والنهي.

وأما على القول الثاني فيمتنع أن يكون استثناء، بل تكون لفظة (إلا) بمعنى لكن، وقوله:

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قال ابن عباس: يريد إبليس وأشياعه، ومن اتبعه من الغاوين.

ثم قال تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾.

وفيه قولان:

القول الأول: إنها سبع طبقات: بعضها فوق البعض وتسمى تلك الطبقات بالدركات، ويدل على كونها كذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

والقول الثاني: إن قرار جهنم مقسوم سبعة أقسام: ولكل قسم باب، وعن ابن جريج: أولها: جهنم. ثم لظى. ثم الحطمة. ثم السعير. ثم سقر. ثم الجحيم. ثم الهاوية. قال الضحاك: الطبقة الأولى: فيها أهل التوحيد يعذبون على قدر أعمالهم ثم يخرجون. والثانية: لليهود. والثالثة: للنصارى. والرابعة: للصابئين. والخامسة: للمجوس. والسادسة: للمشركين. والسابعة: للمنافقين. وقوله: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قرأ عاصم في رواية أبي بكر: ﴿جُزُءٌ مَّقْسُومٌ﴾ والباقون (جز) بتخفيف الزاي. وقرأ الزهري: (جز) بالتشديد، كأنه حذف الهمزة وألقى حركتها على الزاي، كقولك: خب في خبء، ثم وقف عليه بالتشديد.

المسألة الثانية: الجزء بعض الشيء، والجمع الأجزاء، وجزأته جعلته أجزاء. والمعنى: أنه تعالى يجزي أتباع إبليس أجزاء، بمعنى أنه يجعلهم أقسامًا وفرقًا، ويدخل في كل قسم من أقسام جهنم طائفة من هؤلاء الطوائف. والسبب فيه أن مراتب الكفر مختلفة بالغلظ والخفة، فلا جرم صارت مراتب العذاب والعقاب مختلفة بالغلظ والخفة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال أهل العقاب أتبعه بصفة أهل الثواب، وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ قولان:

القول الأول: قال الجبائي وجمهور المعتزلة: القائلون بالوعيد المراد بالمتقين هم الذين اتقوا جميع المعاصي. قالوا: لأنه اسم مدح فلا يتناول إلا من يكون كذلك.

والقول الثاني: وهو قول جمهور الصحابة والتابعين، وهو المنقول عن ابن عباس أن المراد الذين اتقوا الشرك بالله تعالى والكفر به. وأقول: هذا القول هو الحق الصحيح، والذي يدل عليه هو أن المتقى هو الآتي بالتقوى مرة واحدة، كما أن الضارب هو الآتي بالضرب مرة واحدة، والقاتل هو الآتي بالقتل مرة واحدة، فكما أنه ليس من شرط الوصف كونه ضاربًا وقاتلًا

كونه آتيًا بجميع أنواع الضرب والقتل، فكذلك ليس من شرط صدق الوصف بكونه متقيًا كونه آتيًا بجميع أنواع التقوى، والذي يقوي هذا الكلام أن الآتي بفرد واحد من أفراد التقوى يكون آتيًا بالتقوى، لأن كل فرد من أفراد الماهية فإنه يجب كونه مشتملاً على تلك الماهية، فالآتي بالتقوى يجب أن يكون متقيًا، فثبت أن الآتي بفرد واحد من أفراد التقوى يصدق عليه كونه متقيًا، ولهذا التحقيق اتفق المفسرون على أن ظاهر الأمر لا يفيد التكرار.

إذا ثبت هذا فنقول: ظاهر قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ يقتضي حصول الجنات والعيون لكل من اتقى عن شيء واحد، إلا أن الأمة مجمعة على أن التقوى عن الكفر شرط في حصول هذا الحكم، وأيضًا فإن هذه الآية وردت عقيب قول إبليس: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠] وعقيب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢] فلأجل هذه الدلائل اعتبرنا الإيمان في هذا الحكم فوجب أن لا يزيد فيه قيد آخر، لأن تخصيص العام لما كان بخلاف الظاهر فكلما كان التخصيص أقل كان أوفق لمقتضى الأصل والظاهر، فثبت أن قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ يتناول جميع القائلين بلا إله إلا الله محمد رسول الله قولاً واعتقادًا سواء كانوا من أهل الطاعة أو من أهل المعصية وهذا تقرير بين، وكلام ظاهر.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ أما الجنات فأربعة لقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢] فيكون المجموع أربعة وقوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] يؤكد ما قلناه، لأن من آمن بالله لا ينفك قلبه عن الخوف من الله تعالى وقوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ﴾ [الرحمن: ٤٦] يكفي في صدقه حصول هذا الخوف مرة واحدة، وأما العيون فيحتمل أن يكون المراد منها ما ذكر الله تعالى في قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥] ويحتمل أن يكون المراد من هذه العيون ينابيع مغايرة لتلك الأنهار.

فإن قيل: أتقولون إن كل واحد من المتقين يختص بعيون، أو تجري تلك العيون من بعض إلى بعض قيل: لا يمتنع كل واحد من الوجهين فيجوز أن يختص كل أحد بعين وينتفع به كل من في خدمته من الحور والولدان، ويكون ذلك على قدر حاجتهم وعلى حسب شهواتهم، ويحتمل أن يكون مجرى من بعضهم إلى بعض لأنهم مطهرون عن الحقد والحسد وقوله: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ يحتمل أن القائل لقوله: ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ هو الله تعالى وأن يكون ذلك القائل بعض ملائكته، وفيه سؤال لأنه تعالى حكم قبل هذه الآية بأنهم في جنات وعيون، وإذا كانوا فيها فكيف يمكن أن يقال لهم: ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾.

والجواب عنه من وجهين:

الأول: لعل المراد به قيل لهم قبل دخولهم فيها: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾.

الثاني: لعل المراد لما ملكوا جنات كثيرة فكلما أرادوا أن ينتقلوا من جنة إلى أخرى قيل لهم

ادخلوها وقوله: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ المراد ادخلوا الجنة مع السلامة من كل الآفات في الحال ومع القطع ببقاء هذه السلامة، والأمن من زوالها.

ثم قال تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ﴾ والغل الحقد الكامن في القلب وهو مأخوذ من قولهم: أغل في جوفه وتغلغل، أي إن كان لأحدهم في الدنيا غل على آخر نزع الله ذلك من قلوبهم وطيب نفوسهم، وعن علي عليه السلام أنه قال: أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم، وحكى عن الحرث بن الأعور أنه كان جالسًا عند علي عليه السلام إذ دخل زكريا بن طلحة فقال له علي: مرحبًا بك يا ابن أخي، أما والله إني لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله تعالى في حقهم: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ﴾ فقال الحرث: كلا بل الله أعدل من أن يجعلك وطلحة في مكان واحد. فقال عليه السلام: فلمن هذه الآية؟ لا أم لك يا أعور[1]، وروي أن المؤمنين يحبسون على باب الجنة فيقتص لبعضهم من بعض، ثم يؤمر بهم إلى الجنة. وقد نقى الله قلوبهم من الغل والغش، والحقد والحسد[2]، وقوله: ﴿إِخۡوَٰنًا﴾ نصب على الحال وليس المراد الأخوة في النسب بل المراد الأخوة في المودة والمخالصة كما قال: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] وقوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ السرير معروف والجمع أسرة وسرر قال أبو عبيدة يقال: سُرُر وسُرَر بفتح الراء وكذا كل فعيل من المضاعف فإن جمعه فُعُل وفُعَل نحو: سرر وسرر، وجُدُد وجُدَد قال المفضل: بعض تميم وكلب يفتحون، لأنهم يستثقلون ضمتين متواليتين في حرفين من جنس واحد، وقال بعض أهل المعاني: السرير مجلس رفيع مهيأ للسرور وهو مأخوذ منه لأنه مجلس سرور. قال الليث: وسرير العيش مستقره الذي اطمأن إليه في حال سروره وفرحه قال ابن عباس: يريد على سرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت، والسرير مثل ما بين صنعاء إلى الجابية، وقوله: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ التقابل التواجه، وهو نقيض التدابر، ولا شك أن المواجهة أشرف الأحوال وقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ﴾ النصب الإعياء والتعب أي لا ينالهم فيها تعب: ﴿وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ﴾ والمراد به كونه خلودًا بلا زوال وبقاء بلا فناء، وكمالاً بلا نقصان، وفوزًا بلا حرمان.

واعلم أن للثواب أربع شرائط: وهي أن تكون منافع مقرونة بالتعظيم خالصة عن الشوائب دائمة.

أما القيد الأول: وهو كونها منفعة فإليه الإشارة بقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾.

وأما القيد الثاني: وهو كونها مقرونة بالتعظيم فإليه الإشارة بقوله: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ لأن الله سبحانه إذا قال لعبيده هذا الكلام أشعر ذلك بنهاية التعظيم وغاية الإجلال.

---

(١) لم أجده.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (الرقاق) باب (القصاص يوم القيامة) (٥/ ٢٣٩٤) حديث رقم/ ٦١٧٠، وأحمد في (مسنده) (٣/ ١٢) حديث رقم/ ١١١١٠، كلاهما من طريق قتادة عن أبي المتوكل الناجي أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم... فذكره.

وأما القيد الثالث: وهو كون تلك المنافع خالصة عن شوائب الضرر، فاعلم أن المضار إما أن تكون روحانية، وإما أن تكون جسمانية، أما المضار الروحانية فهي الحقد، والحسد، والغل، والغضب، وأما المضار الجسمانية فكالإعياء والتعب فقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ إشارة إلى نفي المضار الروحانية وقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ إشارة إلى نفي المضار الجسمانية.

وأما القيد الرابع: وهو كون تلك المنافع دائمة آمنة من الزوال فإليه الإشارة بقوله: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ فهذا ترتيب حسن معقول بناء على القيود الأربعة المعتبرة في ماهية الثواب ولحكماء الإسلام في هذه الآية مقال، فإنهم قالوا: المراد من قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ إشارة إلى أن الأرواح القدسية النطقية نقية مطهرة عن علائق القوى الشهوانية والغضبية، مبرأة عن حوادث الوهم والخيال، وقوله: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ معناه أن تلك النفوس لما صارت صافية عن كدورات عالم الأجسام ونوازع الخيال والأوهام، ووقع عليها أنوار عالم الكبرياء والجلال فأشرقت بتلك الأنوار الإلهية، وتلألأت بتلك الأضواء الصمدية، فكل نور فاض على واحد منها انعكس منه على الآخر مثل المرايا المتقابلة المتحاذية، فلكونها بهذه الصفة وقع التعبير عنها بقوله: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾

في الآية مسألتان:

المسألة الأولى: أثبتت الهمزة الساكنة في (نبىء) صورة، وما أثبتت في قوله: ﴿دِفْءٌ﴾ [النحل: ٥] (وجزء) لأن ما قبلها ساكن فهي تحذف كثيرًا وتلقى حركتها على الساكن قبلها، ف (نبىء) في الخط على تحقيق الهمزة، وليس قبل همزة (نبىء) ساكن فأجروْها على قياس الأصل:

المسألة الثانية: اعلم أن عباد الله قسمان: منهم من يكون متقيًا، ومنهم من لا يكون كذلك، فلما ذكر الله تعالى أحوال المتقين في الآية المتقدمة، ذكر أحوال غير المتقين في هذه الآية فقال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي﴾.

واعلم أنه ثبت في أصول الفقه أن ترتيب الحكم على الوصف المناسب مشعر بكون ذلك الوصف علة لذلك الحكم، فهنا وصفهم بكونهم عبادًا له، ثم أثبت عقيب ذكر هذا الوصف الحكم بكونه غفورًا رحيمًا، فهذا يدل على أن كل من اعترف بالعبودية ظهر في حقه كون الله غفورًا رحيمًا ومن أنكر ذلك كان مستوجبًا للعقاب الأليم. وفي الآية لطائف:

إحداها: أنه أضاف العباد إلى نفسه بقوله: ﴿عِبَادِي﴾ وهذا تشريف عظيم. ألا ترى أنه لما أراد

أن يشرف محمدًا ﷺ ليلة المعراج لم يزد على قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١].

وثانيها: أنه لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ في التأكيد بألفاظ ثلاثة: أولها: قوله: ﴿أَنِّىٓ﴾. وثانيها: قوله: ﴿أَنَا﴾.

وثالثها: ادخال حرف الألف واللام على قوله: ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ولما ذكر العذاب لم يقل إني أنا المعذب وما وصف نفسه بذلك بل قال: ﴿وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾.

وثالثها: أنه أمر رسوله أن يبلغ إليهم هذا المعنى فكأنه أشهد رسوله على نفسه في التزام المغفرة والرحمة.

ورابعها: أنه لما قال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ﴾ كان معناه نبيء كل من كان معترفًا بعبوديتي، وهذا كما يدخل فيه المؤمن المطيع، فكذلك يدخل فيه المؤمن العاصي، وكل ذلك يدل على تغليب جانب الرحمة من الله تعالى. وعن قتادة قال: بلغنا عن النبي ﷺ أنه قال: «**لَوْ يَعْلَمُ الْعَبْدُ قَدْرَ عَفْوِ اللَّهِ تَعَالَى مَا تَوَرَّعَ مِنْ حَرَامٍ، وَلَوْ عَلِمَ قَدْرَ عِقَابِهِ لَبَخَعَ نَفْسَهُ**»(١) أي قتلها وعن النبي ﷺ أنه مر بنفر من أصحابه، وهم يضحكون فقال: «**أَتَضْحَكُونَ وَالنَّارُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ**»(٢) فنزل قوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝٥١ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٥٣ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ۝٥٥ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما بالغ في تقرير أمر النبوة ثم أردفه بذكر دلائل التوحيد، ثم ذكر عقيبه أحوال القيامة وصفة الأشقياء والسعداء، أتبعه بذكر قصص الأنبياء عليهم السلام ليكون سماعها مرغبًا في الطاعة الموجبة للفوز بدرجات الأنبياء، ومحذرًا عن المعصية لاستحقاق دركات الأشقياء، فبدأ أولاً بقصة إبراهيم عليه السلام، والضمير في قوله: ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ راجع إلى قوله: ﴿عِبَادِى﴾ والتقدير: ونبيء عبادي عن ضيف إبراهيم، يقال: أنبأت القوم إنباء ونبأتهم تنبئة إذا أخبرتهم وذكر تعالى في الآية أن ضيف إبراهيم عليه السلام بشروه بالولد بعد الكبر. وبانجاء المؤمنين من قوم لوط من العذاب وأخبروه أيضًا بأنه تعالى سيعذب

---

(١) مرسل: رواه ابن أبي الدنيا في (حسن الظن بالله) (١/ ٧٥) حديث رقم/ ٦٥، والطبري في (تفسيره) (١٧/ ١١١) كلاهما من طريق سعيد عن قتادة... به، وهذا الحديث من مراسيل قتادة.

(٢) لم اجده.

الكفار من قوم لوط بعذاب الاستئصال، وكل ذلك يقوي ما ذكره من أنه غفور رحيم للمؤمنين، وأن عذابه عذاب أليم في حق الكفار.

المسألة الثانية: الضيف في الأصل مصدر ضاف يضيف إذا أتى إنسانًا لطلب القرى، ثم سمى به، ولذلك وحد في اللفظ وهم جماعة.

فإن قيل: كيف سماهم ضيفًا مع امتناعهم عن الأكل؟

قلنا: لما ظن إبراهيم أنهم إنما دخلوا عليه لطلب الضيافة جاز تسميتهم بذلك. وقيل أيضًا: إن من يدخل دار الإنسان ويلتجىء إليه يسمى ضيفًا وإن لم يأكل، وقوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أي نسلم عليك سلامًا أو سلمت سلامًا، فقال إبراهيم: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي خائفون، وكان خوفه لامتناعهم من الأكل. وقيل: لأنهم دخلوا عليه بغير إذن وبغير وقت وقرأ الحسن: ﴿لَا تَوْجَلْ﴾ بضم التاء من أوجله يوجله إذا أخافه. وقرىء لا تأجل ولا تواجل من واجله بمعنى أو جله، وهذه القصة قد مر ذكرها بالاستقصاء في سورة هود. وقوله: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾.

فيه أبحاث:

البحث الأول: قرأ حمزة: (إِنَّا نَبْشُرك) بفتح النون، وتخفيف الباء، والباقون: (نُبَشِّرُكَ) بالتشديد.

البحث الثاني: قوله: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ استئناف في معنى التعليل للنهي عن الوجل، والمعنى: إنك بمثابة الآمن المبشر فلا توجل.

البحث الثالث: قوله: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ بشروه بأمرين: أحدهما: أن الولد ذكر والآخر أنه يصير عليمًا، واختلفوا في تفسير العليم، فقيل: بشروه بنبوته بعده. وقيل: بشروه بأنه عليم بالدين. ثم حكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه قال: أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون، فمعنى: ﴿عَلَىٰ﴾ ههنا للحال أي حالة الكبر، وقوله: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾.

فيه مسألتان:

المسألة الأولى: لفظ ما ههنا استفهام بمعنى التعجب كأنه قال: بأي أعجوبة تبشروني؟

فإن قيل: في الآية إشكالان: الأول: أنه كيف استبعد قدرة الله تعالى على خلق الولد منه في زمان الكبر وإنكار قدرة الله تعالى في هذا الموضع كفر. الثاني: كيف قال: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ مع أنهم قد بينوا ما بشروه به، وما فائدة هذا الإستفهام. قال القاضي: أحسن ما قيل في الجواب عن ذلك أنه أراد أن يعرف أنه تعالى يعطيه الولد مع أنه يبقيه على صفة الشيخوخة أو يقلبه شابًا، ثم يعطيه الولد، والسبب في هذا الاستفهام أن العادة جارية بأنه لا يحصل الولد حال الشيخوخة التامة وإنما يحصل في حال الشباب.

فإن قيل: فإذا كان معنى الكلام ما ذكرتم فلم قالوا: بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين.

قلنا: إنهم بينوا أن الله تعالى بشره بالولد مع إبقائه على صفة الشيخوخة وقوله: فلا تكن من القانطين. لا يدل على أنه كان كذلك، بدليل أنه صرح في جوابهم بما يدل على أنه ليس كذلك فقال: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ وفيه جواب آخر، وهو أن الإنسان إذا كان عظيم الرغبة في شيء وفاته الوقت الذي يغلب على ظنه حصول ذلك المراد فيه، فإذا بشر بعد ذلك بحصوله عظم فرحه وسروره ويصير ذلك الفرح القوي كالمدهش له والمزيل لقوة فهمه وذكائه فلعله يتكلم بكلمات مضطربة من ذلك الفرح في ذلك الوقت، وقيل أيضًا: إنه يستطيب تلك البشارة فربما يعيد السؤال ليسمع تلك البشارة مرة أخرى ومرتين وأكثر طلبًا للالتذاذ بسماع تلك البشارة، وطلبًا لزيادة الطمأنينة والوثوق مثل قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠] وقيل أيضًا: استفهم أبأمر الله تبشرون أم من عند أنفسكم واجتهادكم؟

المسألة الثانية: قرأ نافع: (تُبَشِّرونِ) بكسر النون خفيفة في كل القرآن، وقرأ ابن كثير بكسر النون وتشديدها. والباقون بفتح النون خفيفة، أما الكسر والتشديد فتقديره تبشرونني أدغمت نون الجمع في نون الإضافة، وأما الكسر والتخفيف فعلى حذف نون الجمع استثقالاً لاجتماع المثلين وطلبًا للتخفيف قال أبو حاتم: حذف نافع الياء مع النون. قال: وإسقاط الحرفين لا يجوز، وأجيب عنه: بأنه أسقط حرفًا واحدًا وهي النون التي هي علامة للرفع. وعلى أن حذف الحرفين جائز قال تعالى في موضع: ﴿وَلَا تَكُ﴾ [النحل: ١٢٧] وفي موضع: ﴿وَلَا تَكُن﴾ [النمل: ٧٠] فأما فتح النون فعلى غير الإضافة والنون علامة الرفع وهي مفتوحة أبدًا، وقوله: ﴿بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ قال ابن عباس: يريد بما قضاه الله تعالى والمعنى: أن الله تعالى قضى أن يخرج من صلب إبراهيم إسحق عليه السلام. ويخرج من صلب إسحق مثل ما أخرج من صلب آدم فإنه تعالى بشر بأنه يخرج من صلب إسحق أكثر الأنبياء فقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ إشارة إلى هذا المعنى وقوله: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ نهي لإبراهيم عليه السلام عن القنوط وقد ذكرنا كثيرًا أن نهي الإنسان عن الشيء لا يدل على كون المنهى فاعلاً للمنهى عنه كما في قوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١] ثم حكى تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه قال: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: هذا الكلام حق، لأن القنوط من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا عند الجهل بأمور: أحدها: أن يجهل كونه تعالى قادرًا عليه. وثانيها؛ أن يجهل كونه تعالى عالمًا باحتياج ذلك العبد إليه. وثالثها: أن يجهل كونه تعالى منزهًا عن البخل والحاجة والجهل فكل هذه الأمور سبب للضلال، فلهذا المعنى قال: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾.

المسألة الثانية: قرأ أبو عمرو والكسائي: (يَقْنِطُ) بكسر النون ولا تقنطوا كذلك، والباقون بفتح النون وهما لغتان: قَنَطَ يَقْنطُ، نحو ضرب يضرب، وقَنِطَ يَقْنَط نحو علم يعلم، وحكى أبو

عبيدة: قنط يقنط بضم النون، قال أبو علي الفارسي: قنط يقنط بفتح النون في الماضي وكسرها في المستقبل من أعلى اللغات يدل على ذلك اجتماعهم في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ﴾ [الشورى: ٢٨] وحكاية أبي عبيدة تدل أيضًا على أن قنط بفتح النون أكثر، لأن المضارع من فعل يجيء على يَفْعِلُ ويَفْعَل مثل فسق يفسق ويفسق ولا يجيء مضارع فعل على يَفْعُل، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝٥٧ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ۝٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ۝٦٠﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿فَمَا خَطۡبُكُمۡ﴾ سؤال عما لأجله أرسلهم الله تعالى، والخطب والشأن والأمر سواء: إلا أن لفظ الخطب أدل على عظم الحال.

فإن قيل: إن الملائكة لما بشروه بالولد الذكر العليم فكيف قال لهم بعد ذلك: ﴿فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾.

قلنا: فيه وجوه: **الأول:** قال الأصم: معناه ما الأمر الذي توجهتم له سوى البشرى. **الثاني:** قال القاضي: إنه علم أنه لو كان كمال المقصود إيصال البشارة لكان الواحد من الملائكة كافيًا، فلما رأى جمعًا من الملائكة علم أن لهم غرضًا آخر سوى إيصال البشارة فلا جرم قال: ﴿فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾. **الثالث:** يمكن أن يقال إنهم قالوا: إنا نبشرك بغلام عليم. في معرض إزالة الخوف والوجل، ألا ترى أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما خاف قالوا له: ﴿لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ [الحجر: ٥٣] ولو كان تمام المقصود من المجيء هو ذكر تلك البشارة لكانوا في أول ما دخلوا عليه ذكروا تلك البشارة، فلما لم يكن الأمر كذلك علم إبراهيم عليه الصلاة والسلام بهذا الطريق أنه ما كان مجيئهم لمجرد هذه البشارة بل كان لغرض آخر فلا جرم سألهم عن ذلك الغرض فقال: ﴿فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾.

ثم حكى تعالى عن الملائكة أنهم قالوا: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ وإنما اقتصروا على هذا القدر لعلم إبراهيم عليه السلام بأن الملائكة إذا أرسلوا إلى المجرمين كان ذلك لإهلاكهم واستئصالهم وأيضًا فقولهم: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ يدل على أن المراد بذلك الإرسال إهلاك القوم.

أما قوله تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ فالمراد من آل لوط أتباعه الذين كانوا على دينه.

فإن قيل: قوله: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ هل هو استثناء منقطع أو متصل؟

قلنا: قال صاحب (الكشاف): إن كان هذا الاستثناء استثناء من (قَوْم) كان منقطعًا، لأن القوم موصوفون بكونهم مجرمين وآل لوط ما كانوا مجرمين، فاختلف الجنسان، فوجب أن يكون

الاستثناء منقطعًا. وإن كان استثناء من الضمير في (مُجْرِمِينَ) كان متصلاً كأنه قيل: إلى قوم قد أجرموا كلهم إلا آل لوط وحدهم كما قال: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٦] ثم قال صاحب (الكشاف): ويختلف المعنى بحسب اختلاف هذين الوجهين، وذلك لأن آل لوط يخرجون في المنقطع من حكم الإرسال، لأن على هذا التقدير الملائكة أرسلوا إلى القوم المجرمين خاصة وما أرسلوا إلى آل لوط أصلاً، وأما في المتصل فالملائكة أرسلوا إليهم جميعًا ليهلكوا وينجوا، وأما قوله: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فاعلم أنه قرأ حمزة والكسائي (مُنْجُوهُمْ) خفيفة، والباقون مشددة وهما لغتان.

أما قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ قال صاحب (الكشاف): هذا استثناء من الضمير المجرور في قوله: ﴿لَمُنَجُّوهُمْ﴾ وليس ذلك من باب الاستثناء من الاستثناء، لأن الاستثناء من الإستثناء إنما يكون فيما اتحد الحكم فيه، كما لو قيل: أهلكناهم إلا آل لوط إلا امرأته، وكما لو قال: المطلق لامرأته أنت طالق ثلاثًا إلا ثنتين إلا واحدة، وكما إذا قال: المقر لفلان على عشرة دراهم إلا ثلاثة إلا درهمًا، فأما في هذه الآية فقد اختلف الحكمان، لأن قوله: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ متعلق بقوله: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ أو بقوله ﴿مُّجْرِمِينَ﴾ وقوله: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ قد تعلق بقوله: (منجوهم) فكيف يكون هذا استثناء من استثناء.

وأما قوله: ﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن معنى التقدير في اللغة: جعل الشيء على مقدار غيره. يقال: قدر هذا الشيء بهذا أي اجعله على مقداره، وقدر الله تعالى الأقوات أي جعلها على مقدار الكفاية، ثم يفسر التقدير بالقضاء، فقال: قضى الله عليه كذا، وقدره عليه أي جعله على مقدار ما يكفي في الخير والشر، وقيل في معنى: ﴿قَدَّرْنَآ﴾ كتبنا. قال الزجاج: دبرنا. وقيل: قضينا، والكل متقارب.

المسألة الثانية: قرأ أبو بكر عن عاصم ﴿قَدَّرْنَآ﴾ بتخفيف الدال ههنا وفي النمل. وقرى الباقون فيهما بالتشديد. قال الواحدي يقال: قدرت الشيء وقدرته، ومنه قراءة ابن كثير: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ [الواقعة: ٦٠] خفيفًا، وقراءة الكسائي: (والذى قدر فهدى) ثم قال: والمشددة في هذا المعنى أكثر استعمالاً لقوله تعالى؛ ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [فصلت: ١٠] وقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

المسألة الثالثة: لقائل أن يقول: لم أسند الملائكة فعل التقدير إلى أنفسهم مع أنه لله تعالى، ولم لم يقولوا: قدر الله تعالى؟

والجواب: إنما ذكروا هذه العبارة لما لهم من القرب والاختصاص بالله تعالى كما يقول خاصة الملك دبرنا كذا وأمرنا بكذا والمدبر والآمر هو الملك لا هم، وإنما يريدون بذكر هذا الكلام

إظهار ما لهم من الاختصاص بذلك الملك، فكذا ههنا. والله أعلم.

المسألة الرابعة: قوله؛ ﴿إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ في موضع مفعول التقدير قضينا أنها تتخلف وتبقى مع من يبقى حتى تهلك كما يهلكون. ولا تكون ممن يبقى مع لوط فتصل إلى النجاة والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾

اعلم أن الملائكة لما بشروا إبراهيم بالولد وأخبروه بأنهم مرسلون لعذاب قوم مجرمين ذهبوا بعد ذلك إلى لوط وإلى آله، وأن لوطًا وقومه ما عرفوا أنهم ملائكة الله، فلهذا قال لهم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ وفي تأويله وجوه: **الأول**: أنه إنما وصفهم بأنهم منكرون، لأنه عليه الصلاة والسلام ما عرفهم، فلما هجموا عليه استنكر منهم ذلك وخاف أنهم دخلوا عليه لأجل شر يوصلونه إليه، فقال هذه الكلمة. **والثاني**: أنهم كانوا شبابًا مردًا حسان الوجوه، فخاف أن يهجم قومه عليه بسبب طلبهم فقال هذه الكلمة. والثالث: أن النكرة ضد المعرفة فقوله: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ أي لا أعرفكم، ولا أعرف أنكم من أي الأقوام، ولأي غرض دخلتم علي، فعند هذه الكلمة قالت الملائكة، بل جئناك بما كانوا فيه يمترون، أي بالعذاب الذي كانوا يشكون في نزوله، ثم أكدوا ما ذكروه بقولهم: ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ قال الكلبي: بالعذاب، وقيل باليقين والأمر الثابت الذي لا شك فيه وهو عذاب أولئك الأقوام ثم أكدوا هذا التأكيد بقولهم؛ ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾

قرىء ﴿فَأَسْرِ﴾ بقطع الهمزة ووصلها من أسرى وسرى. وروى صاحب الكشاف عن صاحب الإقليد فسر ﴿مِن﴾ السير والقطع آخر الليل. قال الشاعر:

افْتَحِي الْبَابَ وَانْظُرِي فِي النُّجُومِ كَمْ عَلَيْنَا مِنْ قِطْعِ لَيْلٍ بَهِيمِ

وقوله: ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ معناه: اتبع آثار بناتك وأهلك. وقوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ الفائدة فيه أشياء:

أحدها: لئلا يتخلف منكم أحد فينا له العذاب.

وثانيها: لئلا يرى عظيم ما ينزل بهم من البلاء.

وثالثها: معناه الإسراع وترك الاهتمام لما خلف وراءه كما تقول: امض لشأنك ولا تعرج على شيء.

ورابعها: لو بقي منه متاع في ذلك الموضع، فلا يرجعن بسببه ألبتة. وقوله: ﴿وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾ قال ابن عباس: يعني الشام. قال المفضل: حيث يقول لكم جبريل. وذلك لأن جبريل عليه السلام أمرهم أن يمضوا إلى قرية معينة أهلها ما عملوا مثل عمل قوم لوط. وقوله: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ﴾ عدى قضينا بإلى، لأنه ضمن معنى أوحينا، كأنه قيل: وأوحيناه إليه مقضيًا مبتوتًا، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء: ٤] وقوله؛ ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ﴾ [يونس: ٧١] ثم إنه فسر بعد ذلك القضاء المبتوت بقوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ﴾ وفي إبهامه أولاً، وتفسيره ثانيًا تفخيم للأمر وتعظيم له. وقرأ الأعمش (إن) بالكسر على الاستئناف كان قائلاً قال أخبرنا عن ذلك الأمر، فقال: إن دابر هؤلاء، وفي قراءة ابن مسعود. وقلنا: (أنَّ دابِرَ هؤُلاءِ) ودابرهم آخرهم، يعني يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد وقوله: ﴿مُّصۡبِحِينَ﴾ أي حال ظهور الصبح.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ۝٦٧ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ۝٦٨ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ۝٦٩ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٠ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝٧١ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ۝٧٢ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ۝٧٣ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ۝٧٤ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ۝٧٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٧٧﴾

اعلم أن المراد بأهل المدينة قوم لوط، وليس في الآية دليل على المكان الذي جاؤه إلا أن القصة تدل على أنهم جاؤوا دار لوط. قيل: إن الملائكة لما كانوا في غاية الحسن اشتهر خبرهم حتى وصل إلى قوم لوط. وقيل: امرأة لوط أخبرتهم بذلك، وبالجملة فالقوم قالوا: نزل بلوط ثلاثة من المرد ما رأينا قط أصبح وجهًا ولا أحسن شكلاً منهم فذهبوا إلى دار لوط طلبًا منهم لأولئك المرد والاستبشار إظهار السرور فقال لهم لوط لما قصدوا أضيافه كلامين:

الكلام الأول: قال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾ يقال فضحه يفضحه فضحًا وفضيحة إذا أظهر من أمره ما يلزمه به العار، والمعنى أن الضيف يجب إكرامه فإذا قصدتموهم بالسوء كان ذلك إهانة بي، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ﴾ فأجابوه بقولهم: ﴿أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ والمعنى: ألسنا قد نهيناك أن تكلمنا في أحد من الناس إذا قصدناه بالفاحشة.

والكلام الثاني: مما قاله لوط قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ قيل: المراد بناته من صلبه، وقيل: المراد نساء قومه، لأن رسول الأمة يكون كالأب لهم وهو كقوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ [الأحزاب: ٦] وفي قراءة أبيّ وهو أب لهم، والكلام في هذه المباحث قد مر بالاستقصاء في سورة هود عليه السلام.

أما قوله: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ .

فيه مسائل:

المسألة الأولى: العَمر والعُمر واحد وسمي الرجل عمرًا تفاؤلاً أن يبقى ومنه قول ابن أحمر:

ذَهَبَ الشَّبَابُ وَأَخْلَقَ الْعُمْرُ[1]

وعمر الرجل يعمر عَمرًا وعُمرًا، فإذا أقسموا به قالوا: لعمرك وعمرك فتحوا العين لا غير. قال الزجاج: لأن الفتح أخف عليهم وهم يكثرون القسم بلعمري ولعمرك فالتزموا الأخف.

المسألة الثانية: في قوله: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قولان:

الأول: أن المراد أن الملائكة قالت للوط عليه السلام: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي في غوايتهم يعمهون، أي يتحيرون فكيف يقبلون قولك، ويلتفتون إلى نصيحتك.

والثاني: أن الخطاب لرسول الله ﷺ، وأنه تعالى أقسم بحياته وما أقسم بحياة أحد، وذلك يدل على أنه أكرم الخلق على الله تعالى قال النحويون: ارتفع قوله: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ بالابتداء والخبر محذوف، والمعنى: لعمرك قسمي وحذف الخبر، لأن في الكلام دليلاً عليه وباب القسم يحذف منه الفعل نحو: بالله لأفعلن، والمعنى: أحلف بالله فيحذف لعلم المخاطب بأنك حالف.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ أي صيحة جبريل عليه السلام قال أهل المعاني: ليس في الآية دلالة على أن تلك الصيحة صيحة جبريل عليه السلام فإن ثبت ذلك بدليل قوي قيل به، وإلا فليس في الآية دلالة إلا على أنه جاءتهم صيحة عظيمة مهلكة وقوله: ﴿مُشْرِقِينَ﴾ يقال شرق الشارق يشرق شروقًا لكل ما طلع من جانب الشرق، ومنه قولهم ما ذر شارق أي طلع طالع فقوله: ﴿مُشْرِقِينَ﴾ أي داخلين في الشروق يقال أشرق الرجل إذا دخل في الشروق، وهو بزوغ الشمس.

واعلم أن الآية تدل على أنه تعالى عذبهم بثلاثة أنواع من العذاب: **أحدها:** الصيحة الهائلة المنكرة. **وثانيها:** أنه جعل عاليها سافلها.

وثالثها: أنه أمطر عليهم حجارة من سجيل، وكل هذه الأحوال قد مر تفسيرها في سورة هود.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ يقال توسمت في فلان خيرًا أي رأيت فيه أثرًا منه وتفرسته فيه، واختلفت عبارات المفسرين في تفسير المتوسمين قيل: المتفرسين، وقيل: الناظرين، وقيل: المتفكرين، وقيل: المعتبرين، وقيل: المتبصرين. قال الزجاج: حقيقة المتوسمين في اللغة المتثبتون في نظرهم حتى يعرفوا سمة الشيء وصفته وعلامته، والمتوسم الناظر في السمة الدالة تقول: توسمت في فلان كذا أي عرفت وسم ذلك وسمته فيه.

ثم قال: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ الضمير في قوله: ﴿وَإِنَّهَا﴾ عائد إلى مدينة قوم لوط، وقد سبق ذكرها في قوله؛ ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾ [الحجر: ٦٧] وقوله: ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ أي هذه القرى وما ظهر

---

(١) ابن أحمر تقدمت ترجمته.

فيها من آثار قهر الله وغضبه لبسبيل مقيم ثابت لم يندرس ولم يخف، والذين يمرون من الحجاز إلى الشام يشاهدونها.

ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي كل من آمن بالله وصدق الأنبياء والرسل عرف أن ذلك إنما كان لأجل أن الله تعالى انتقم لأنبيائه من أولئك الجهال، أما الذين لا يؤمنون بالله فإنهم يحملونه على حوادث العالم ووقائعه، وعلى حصول القرانات الكوكبية والاتصالات الفلكية، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾

اعلم أن هذه هي القصة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة. فأولها: قصة آدم وإبليس. وثانيها: قصة إبراهيم ولوط. وثالثها: هذه القصة، وأصحاب الأيكة هم قوم شعيب عليه السلام، كانوا أصحاب غياض فكذبوا شعيبًا فأهلكهم الله تعالى بعذاب يوم الظلة، وقد ذكر الله تعالى قصتهم في سورة الشعراء، والأيكة الشجر الملتف. يقال: أيكة وأيك كشجرة وشجر. قال ابن عباس: الأيك هو شجر المقل، وقال الكلبي: الأيكة الغيضة، وقال الزجاج: هؤلاء أهل موضع كان ذا شجر. قال الواحدي: ومعنى إن واللام للتوكيد وإن ههنا هي المخففة من الثقيلة، وقوله: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ قال المفسرون: اشتد الحر فيهم أيامًا، ثم اضطرم عليهم المكان نارًا فهلكوا عن آخرهم وقوله: ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ فيه قولان:

القول الأول: المراد قرى قوم لوط عليه السلام والأيكة.

والقول الثاني: الضمير للأيكة ومدين لأن شعيبًا عليه السلام كان مبعوثًا إليهما فلما ذكر الأيكة دل بذكرها على مدين فجاء بضميرهما وقوله: ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي بطريق واضح والإمام اسم ما يؤتم به. قال الفراء والزجاج: إنما جعل الطريق إمامًا لأنه يؤم ويتبع. قال ابن قتيبة: لأن المسافر يأتم به حتى يصير إلى الموضع الذي يريده وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ يحتمل أنه مبين في نفسه ويحتمل أنه مبين لغيره، لأن الطريق يهدي إلى المقصد.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾

هذه هي القصة الرابعة، وهي قصة صالح. قال المفسرون: الحجر اسم وادٍ كان يسكنه ثمود وقوله: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ المراد منه صالح وحده، ولعل القوم كانوا براهمة منكرين لكل الرسل

وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ يريد الناقة، وكان في الناقة آيات كثيرة كخروجها من الصخرة وعظم خلقها وظهور نتاجها عند خروجها، وكثرة لبنها وأضاف الإيتاء إليهم وإن كانت الناقة آية لصالح لأنها آيات رسولهم، وقوله: ﴿فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ يدل على أن النظر والاستدلال واجب وأن التقليد مذموم وقوله: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ﴾ قد ذكرنا كيفية ذلك النحت في سورة الأعراف وقوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾ يريد من عذاب الله، وقال الفراء: ﴿ءَامِنِينَ﴾ أن يقع سقفهم عليهم وقوله: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي ما دفع عنهم الضر والبلاء ما كانوا يعملون من نحت تلك الجبال ومن جمع تلك الأموال، والله أعلم.

اعلم أنه تعالى لما ذكر أنه أهلك الكفار فكأنه قيل: الإهلاك والتعذيب كيف يليق بالرحيم الكريم. فأجاب عنه بأني إنما خلقت الخلق ليكونوا مشتغلين بالعبادة والطاعة فإذا تركوها وأعرضوا عنها وجب في الحكمة إهلاكهم وتطهير وجه الأرض منهم، وهذا النظم حسن إلا أنه إنما يستقيم على قول المعتزلة، قال الجبائي: دلت الآية على أنه تعالى ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا حقًا وبكون الحق لا يكون الباطل، لأن كل ما فعل باطلاً وأريد بفعله كون الباطل لا يكون حقًا ولا يكون مخلوقًا بالحق، وفيه بطلان مذهب الجبرية الذين يزعمون أن أكثر ما خلقه الله تعالى بين السموات والأرض من الكفر والمعاصي باطل.

واعلم أن أصحابنا قالوا: هذه الآية تدل على أنه سبحانه هو الخالق لجميع أعمال العباد، لأنها تدل على أنه سبحانه هو الخالق للسموات والأرض ولكل ما بينهما. ولا شك أن أفعال العباد بينهما فوجب أن يكون خالقها هو الله سبحانه، وفي الآية وجه آخر في النظم وهو أن المقصود من ذكر هذه القصص تصبير الله تعالى محمدًا عليه الصلاة والسلام على سفاهة قومه فإنه إذا سمع أن الأمم السالفة كانوا يعاملون أنبياء الله تعالى بمثل هذه المعاملات الفاسدة سهل تحمل تلك السفاهات على محمد ﷺ، ثم إنه تعالى لما بين أنه أنزل العذاب على الأمم السالفة فعند هذا قال لمحمد ﷺ: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ وإن الله لينتقم لك فيها من أعدائك ويجازيك وإياهم على حسناتك وسيئاتهم، فإنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق والعدل والإنصاف فكيف يليق بحكمته إهمال أمرك، ثم إنه تعالى لما صبره على أذى قومه رغبه بعد ذلك في الصفح عن سيئاتهم فقال: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ أي فأعرض عنهم، واحتمل ما تلقى منهم إعراضًا جميلاً بحلم وإغضاء، وقيل: هو منسوخ بآية السيف وهو بعيد، لأن المقصود من ذلك أن يظهر الخلق الحسن والعفو والصفح، فكيف يصير منسوخًا.

ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ومعناه أنه خلق الخلق مع اختلاف طبائعهم وتفاوت أحوالهم مع علمه بكونهم كذلك، وإذا كان كذلك فإنما خلقهم مع هذا التفاوت، ومع العلم بذلك التفاوت. أما على قول أهل السنة فلمحض المشيئة والإرادة. وأما على قول المعتزلة فلأجل المصلحة والحكمة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨ ﴾

اعلم أنه تعالى لما صبره على أذى قومه وأمره بأن يصفح الصفح الجميل أتبع ذلك بذكر النعم العظيمة التي خص الله تعالى محمدًا ﷺ بها، لأن الإنسان إذا تذكر كثرة نعم الله عليه سهل عليه الصفح والتجاوز، وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن قوله: ﴿ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا﴾ يحتمل أن يكون سبعًا من الآيات وأن يكون سبعًا من السور وأن يكون سبعًا من الفوائد. وليس في اللفظ ما يدل على التعيين. وأما المثاني: فهو صيغة جمع. واحده مثناة، والمثناة كل شيء يثنى، أي يجعل اثنين من قولك: ثنيت الشيء إذا عطفته أو ضممت إليه آخر، ومنه يقال: لركبتي الدابة ومرفقيها مثاني، لأنها تثنى بالفخذ والعضد، ومثاني الوادي معاطفه.

إذا عرفت هذا فنقول: سبعًا من المثاني مفهومه سبعة أشياء من جنس الأشياء التي تثنى ولا شك أن هذا القدر مجمل ولا سبيل إلى تعيينه إلا بدليل منفصل وللناس فيه أقوال: الأول: وهو قول أكثر المفسرين: إنه فاتحة الكتاب وهو قول عمر وعلي وابن مسعود وأبي هريرة والحسن وأبي العالية ومجاهد والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة، وروي أن النبي ﷺ قرأ الفاتحة وقال: هي السبع المثاني رواه أبو هريرة [(١)]، والسبب في وقوع هذا الاسم على الفاتحة أنها سبع آيات، وأما السبب في تسميتها بالمثاني فوجوه: الأول: أنها تثنى في كل صلاة بمعنى أنها تقرأ في كل ركعة. والثاني: قال الزجاج: سميت مثاني لأنها يثنى بعدها ما يقرأ معها. الثالث: سميت آيات الفاتحة مثاني، لأنها قسمت قسمين اثنين، والدليل عليه ما روي أن النبي ﷺ قال: **«يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ»** [(٢)] والحديث مشهور. الرابع: سميت مثاني لأنها

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي في كتاب (تفسير القرآن) باب (من سورة الحجر) (٥/ ٢٧٧) حديث رقم/ ٣١٢٥، من طريق الفضل بن موسى... به، وقال أبو عيسى: حديث عبد العزيز بن محمد أطول وأتم وهذا أصح من حديث عبد الحميد بن جعفر، والنسائي في كتاب (الافتتاح) باب (ولقد آتيناك سبعا من المثاني) (٢/ ٤٧٧) حديث رقم/ ٩١٣، من طريق الفضل بن موسى... به، والدارمي في كتاب (فضائل القرآن) باب (فضل فاتحة الكتاب) (٢/ ٣١٨) حديث رقم/ ٣٣٧٣، ومالك في (الموطأ) كتاب (الصلاة) باب (في أم القرآن) (١/ ٨٣) حديث رقم/ ٣٧، والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٥٥٧) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الصلاة) باب (وجوب قراءة الفاتحة) (١/ ٣٨/ ٢٩٦)، وأبو داود في كتاب (الصلاة) باب (من ترك القراءة في صلاته بفاتحة الكتاب) (١/ ٣٦٤/ ٣٦٥) حديث رقم/ ٨٢١، والترمذي في كتاب (التفسير لسورة الفاتحة) (٥/ ١٨٤) حديث رقم/ ٢٩٥٣، والنسائي في كتاب (الافتتاح) باب (ترك قراءة بسم الله الرحمن الرحيم في فاتحة الكتاب) (٢/ ٤٧٣) حديث رقم/ ٩٠٨، وابن ماجه مختصرا كتاب (إقامة الصلاة) باب (القراءة خلف الإمام) (١/ ٢٧٣) حديث رقم/ ٨٣٨، جميعا عن العلاء... به.

قسمان ثناء ودعاء، وأيضًا النصف الأول منها حق الربوبية وهو الثناء، والنصف الثاني حق العبودية وهو الدعاء. الخامس: سميت الفاتحة بالمثاني، لأنها نزلت مرتين مرة بمكة في أوائل ما نزل من القرآن ومرة بالمدينة. السادس: سميت بالمثاني، لأن كلماتها مثناة مثل: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣] ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٥-٧] وفي قراءة عمر: (غير المغضوب عليهم وغير الضالين). السابع: قال الزجاج: سميت الفاتحة بالمثاني لاشتمالها على الثناء على الله تعالى وهو حمد الله وتوحيده وملكه.

واعلم أنا إذا حملنا قوله: ﴿سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾ على سورة الفاتحة فههنا أحكام:

الحكم الأول

نقل القاضي عن أبي بكر الأصم أنه قال: كان ابن مسعود يكتب في مصحفه فاتحة الكتاب رأى أنها ليست من القرآن. وأقول: لعل حجته فيه أن السبع المثاني لما ثبت أنه هو الفاتحة. ثم إنه تعالى عطف السبع المثاني على القرآن، والمعطوف مغاير للمعطوف عليه وجب أن يكون السبع المثاني غير القرآن، إلا أن هذا يشكل بقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ﴾ [الأحزاب: ٧] وكذلك قوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨] وللخصم أن يجيب: بأنه لا يبعد أن يذكر الكل، ثم يعطف عليه ذكر بعض أجزائه وأقسامه لكونه أشرف الأقسام، أما إذا ذكر شيء ثم عطف عليه شيء آخر كان المذكور أولاً مغايرًا للمذكور ثانيًا، وههنا ذكر السبع المثاني، ثم عطف عليه القرآن العظيم، فوجب حصول المغايرة.

والجواب الصحيح: أن بعض الشيء مغاير لمجموعه، فلم لا يكفي هذا القدر من المغايرة في حسن العطف، والله أعلم.

الحكم الثاني

أنه لما كان المراد بقوله: ﴿سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾ هو الفاتحة، دل على أن هذه السورة أفضل سور القرآن من وجهين: أحدهما: أن إفرادها بالذكر مع كونها جزءًا من أجزاء القرآن، لا بد وأن يكون لاختصاصها بمزيد الشرف والفضيلة. والثاني: أنه تعالى لما أنزلها مرتين دل ذلك على زيادة فضلها وشرفها.

وإذا ثبت هذا فنقول: لما رأينا أن رسول الله ﷺ واظب على قراءتها في جميع الصلوات طول عمره، وما أقام سورة أخرى مقامها في شيء من الصلوات دل ذلك على أنه يجب على المكلف أن يقرأها في صلاته وأن لا يقيم سائر آيات القرآن مقامها وأن يحترز عن هذا الإبدال فإن فيه خطرًا عظيمًا والله أعلم.

القول الثاني: في تفسير قوله: ﴿سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾ إنها السبع الطوال وهذا قول ابن عمر

وسعيد بن جبير في بعض الروايات ومجاهد وهي: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، والتوبة معًا. قالوا: وسميت هذه السور مثاني، لأن الفرائض والحدود والأمثال والعبر ثنيت فيها وأنكر الربيع هذا القول. وقال هذه الآية مكية وأكثر هذه السور السبعة مدنية. وما نزل شيء منها شيء منها في مكة، فكيف يمكن حمل هذه الآية عليها.

وأجاب قوم عن هذا الإشكال: بأن الله تعالى أنزل القرآن كله إلى السماء الدنيا. ثم أنزله على نبيه منها نجومًا، فلما أنزله إلى السماء الدنيا، وحكم بإنزاله عليه، فهو من جملة ما آتاه، وإن لم ينزل عليه بعد.

ولقائل أن يقول: إنه تعالى قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ وهذا الكلام إنما يصدق إذا وصل ذلك الشيء إلى محمد ﷺ. فأما الذي أنزله إلى السماء الدنيا وهو لم يصل بعد إلى محمد عليه السلام، فهذا الكلام لا يصدق فيه. وأما قوله بأنه لما حكم الله تعالى بإنزاله على محمد ﷺ كان ذلك جاريًا مجرى ما نزل عليه فهذا أيضًا ضعيف، لأن إقامة ما لم ينزل عليه مقام النازل عليه مخالف للظاهر.

والقول الثالث: في تفسير السبع المثاني إنها هي السور التي هي دون الطوال والمئين وفوق المفصل، واختار هذا القول قوم واحتجوا عليه بما روى ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ اللَّهَ أَعْطَانِي السَّبْعَ الطُّوَالَ مَكَانَ التَّوْرَاةِ، وَأَعْطَانِي الْمِئِينَ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ، وَأَعْطَانِي الْمَثَانِيَ مَكَانَ الزَّبُورِ، وَفَضَّلَنِي رَبِّي بِالْمُفَصَّلِ**» قال الواحدي: والقول في تسمية هذه السور مثاني كالقول في تسمية الطوال مثاني. وأقول إن صح هذا التفسير عن رسول الله ﷺ فلا غبار عليه وإن لم يصح فهذا القول مشكل، لأنا بينا أن المسمى بالسبع المثاني يجب أن يكون أفضل من سائر السور، وأجمعوا على أن هذه السور التي سموها بالمثاني ليست أفضل من غيرها، فيمتنع حمل السبع المثاني على تلك السور.

والقول الرابع: أن السبع المثاني هوالقرآن كله، وهو منقول عن ابن عباس في بعض الروايات، وقول طاوس قالوا: ودليل هذا القول قوله تعالى: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ [الزمر ٢٣] فوصف كل القرآن بكون مثاني ثم اختلف القائلون بهذا القول في أنه ما المراد بالسبع، وما المراد بالمثاني؟ أما السبع فذكر فيه وجوهًا:

أحدها: أن القرآن سبعة أسباع.

وثانيها: أن القرآن مشتمل على سبعة أنواع من العلوم. التوحيد، والنبوة والمعاد، والقضاء، والقدر، وأحوال العالم، والقصص، والتكاليف.

وثالثها: أنه مشتمل على الأمر والنهي، والخبر والاستخبار، والنداء، والقسم، والأمثال.

وأما وصف كل القرآن بالمثاني، فلأنه كرر فيه دلائل التوحيد والنبوة والتكاليف، وهذا القول ضعيف أيضًا، لأنه لو كان المراد بالسبع المثاني القرآن، لكان قوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ عطفًا

للشيئ على نفسه، وذلك غير جائز.

وأجيب عنه بأنه إنما حسن إدخال حرف العطف فيه لاختلاف اللفظين كقول الشاعر:

إِلَى الْمَلِكِ الْقَرْمِ وَابْنِ الْهُمَامِ وَلَيْثَ الْكَتِيبَةِ فِي الْمُزْدَحَمِ

وأعلم أن هذا وإن كان جائزًا لأجل وروده في هذا البيت، إلا أنهم أجمعوا على أن الأصل خلافه.

والقول الخامس: يجوز أن يكون المراد بالسبع الفاتحة، لأنها سبع آيات، ويكون المراد بالمثاني كل القرآن ويكون التقدير: ولقد آتيناك سبع آيات هي الفاتحة وهي من جملة المثاني الذى هو القرآن وهذا القول عين الأول والتفاوت ليس إلا بقليل والله أعلم.

المسألة الثانية: لفظة (من) في قوله: ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ قال الزجاج فيها وجهان: أحدهما: أن تكون للتبعيض من القرآن أي ولقد آتيناك سبع آيات من جملة الآيات التي يثنى بها على الله تعالى وآتيناك القرآن العظيم قال ويجوز أن تكون من صلة، والمعنى: آتيناك سبعًا هي المثاني كما قال: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠] المعنى: اجتنبوا الأوثان، لا أن بعضها رجس والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ فاعلم أنه تعالى لما عرف رسوله عظم نعمه عليه فيما يتعلق بالدين، وهو أنه آتاه سبعًا من المثاني والقرآن العظيم، نهاه عن الرغبة في الدنيا فحظر عليه أن يمد عينيه إليها رغبة فيها وفي مد العين أقوال:

القول الأول: كأنه قيل له إنك أوتيت القرآن العظيم فلا تشغل سرك وخاطرك بالإلتفات إلى الدنيا ومنه الحديث: «لَيسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ» وقال أبو بكر: من أوتي القرآن فرأى أن أحدًا أوتي من الدنيا أفضل مما أوتي فقد صغر عظيمًا وعظم صغيرًا، وقيل: وافت من بعض البلاد سبع قوافل ليهود بني قريظة والنضير، فيها أنواع البز والطيب والجواهر وسائر الأمتعة، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها ولأنفقناها في سبيل الله تعالى فقال الله تعالى لهم: لقد أعطيتكم سبع آيات هي خير من هذه القوافل السبع.

القول الثاني: قال ابن عباس: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي لا تتمن ما فضلنا به أحدًا من متاع الدنيا، وقرر الواحدي هذا المعنى فقال: إنما يكون مادًا عينيه إلى الشيء إذا أدام النظر نحوه، وإدامة النظر إلى الشيء تدل على استحسانه وتمنيه، وكان ﷺ لا ينظر إلى ما يستحسن من متاع الدنيا، وروي أنه نظر إلى نعم بني المصطلق، وقد عبست في أبوالها وأبعارها فتقنع في ثوبه وقرأ هذه الآية وقوله عبست في أبوالها وأبعارها هو أن تجف أبوالها وأبعارها على أفخاذها إذا تركت من العمل أيام الربيع فتكثر شحومها ولحومها وهي أحسن ما تكون.

والقول الثالث: قال بعضهم: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي لا تحسدن أحدًا على ما أوتي من الدنيا قال القاضي: هذا بعيد، لأن الحسد من كل أحد قبيح، لأنه إرادة لزوال نعم الغير عنه، وذلك يجري

مجرى الاعتراض على الله تعالى والاستقباح لحكمه وقضائه، وذلك من كل أحد قبيح، فكيف يحسن تخصيص الرسول ﷺ به؟

أما قوله تعالى: ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ قال ابن قتيبة أي أصنافًا من الكفار، والزوج في اللغة الصنف ثم قال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ إن لم يؤمنوا فيقوى بمكانهم الإسلام وينتعش بهم المؤمنون. والحاصل أن قوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ نهي له عن الالتفات إلى أموالهم وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ نهي له عن الالتفات إليهم وأن يحصل لهم في قلبه قدر ووزن.

ثم قال: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الخفض: معناه في اللغة نقيض الرفع، ومنه قوله تعالى في صفة القيامة: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [الواقعة: ٣] أي أنها تخفض أهل المعاصي، وترفع أهل الطاعات، فالخفض معناه الوضع، وجناح الإنسان يده. قال الليث: يدا الإنسان جناحاه، ومنه قوله: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢] وخفض الجناح كناية عن اللين والرفق والتواضع، والمقصود أنه تعالى لما نهاه عن الالتفات إلى أولئك الأغنياء من الكفار أمره بالتواضع لفقراء المسلمين، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وقال في صفة أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما أمر رسوله بالزهد في الدنيا، وخفض الجناح للمؤمنين، أمره بأن يقول للقوم: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ فيدخل تحت كونه نذيرًا، كونه مبلغًا لجميع التكاليف، لأن كل ما كان واجبًا ترتب على تركه عقاب وكل ما كان حرامًا ترتب على فعله عقاب فكان الأخبار بحصول هذا العقاب داخلاً تحت لفظ النذير، ويدخل تحته أيضًا كونه شارحًا لمراتب الثواب والعقاب والجنة والنار، ثم أردفه بكونه مبينًا، ومعناه كونه آتيًا في كل ذلك بالبيانات الشافية والبينات الوافية، ثم قال بعده: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾.

وفيه بحثان:

البحث الأول: اختلفوا في أن المقتسمين من هم؟

وفيه أقوال:

القول الأول: قال ابن عباس: هم الذين اقتسموا طرق مكة يصدون الناس عن الإيمان برسول الله ﷺ، ويقرب عددهم من أربعين. وقال مقاتل بن سليمان: كانوا ستة عشر رجلاً بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم، فاقتسموا عقبات مكة وطرقها يقولون لمن يسلكها لا تغتروا بالخارج منا، والمدعي للنبوة فإنه مجنون، وكانوا ينفرون الناس عنه بأنه ساحر أو كاهن أو شاعر، فأنزل الله تعالى بهم خزيًا فماتوا شر ميتة، والمعنى: أنذرتكم مثل ما نزل بالمقتسمين.

والقول الثاني: وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما في بعض الروايات أن المقتسمين هم اليهود والنصارى، واختلفوا في أن الله تعالى لم سماهم مقتسمين؟ فقيل لأنهم جعلوا القرآن عضين آمنوا بما وافق التوراة وكفروا بالباقي. وقال عكرمة: لأنهم اقتسموا القرآن استهزاء به، فقال بعضهم: سورة كذا لي. وقال بعضهم: سورة كذا لي. وقال مقاتل بن حبان: اقتسموا القرآن وقال بعضهم سحر. وقال بعضهم شعر، وقال بعضهم كذب، وقال بعضهم: أساطير الأولين.

والقول الثالث: في تفسير المقتسمين. قال ابن زيد: هم قوم صالح تقاسموا لنبيتنه وأهله، فرمتهم الملائكة بالحجارة حتى قتلوهم، فعلى هذا الاقتسام من القسم لا من القسمة، وهو اختيار ابن قتيبة.

البحث الثالث: أن قوله: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ يقتضي تشبيه شيء بذلك فما ذلك الشيء؟

والجواب عنه من وجهين:

الوجه الأول: التقدير: ولقد آتيناك سبعًا من المثاني والقرآن العظيم كما أنزلنا على أهل الكتاب وهم المقتسمون الذين جعلوا القرآن عضين، حيث قالوا بعنادهم وجهلهم بعضه حق موافق للتوارة والإنجيل، وبعضه باطل مخالف لهما فاقتسموه إلى حق وباطل.

فإن قيل: فعلى هذا القول كيف توسط بين المشبه والمشبه به قوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ [الحجر: ٨٨] إلى آخره؟

قلنا: لما كان ذلك تسلية لرسول الله ﷺ عن تكذيبهم وعداوتهم، اعترض بما هو مدار لمعنى التسلية من النهي عن الالتفات إلى دنياهم والتأسف على كفرهم.

والوجه الثاني: أن يتعلق هذا الكلام بقوله: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾.

واعلم أن هذا الوجه لا يتم إلا بأحد أمرين: إما التزام إضمار أو التزام حذف، أما الإضمار فهو أن يكون التقدير إني أنا النذير المبين عذابًا كما أنزلناه على المقتسمين، وعلى هذا الوجه، المفعول محذوف وهو المشبه، ودل عليه المشبه به، وهذا كما تقول: رأيت كالقمر في الحسن، أي رأيت إنسانًا كالقمر في الحسن، وأما الحذف فهو أن يقال: الكاف زائدة محذوفة، والتقدير: إني أنا النذير المبين ما أنزلناه على المقتسمين، وزيادة الكاف له نظير وهو قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] والتقدير: ليس مثله شيء، وقال بعضهم: لا حاجة إلى الإضمار والحذف، والتقدير: إني أنا النذير أي أنذر قريشًا مثل ما أنزلنا من العذاب على المقتسمين وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾. **فيه بحثان:**

البحث الأول: في هذا اللفظ قولان: الأول: أنه صفة للمقتسمين. والثاني: أنه مبتدأ، وخبره هو قوله: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ﴾ [الحجر: ٩٢] وهو قول ابن زيد.

البحث الثاني: ذكر أهل اللغة في واحد عضين قولين: **القول الأول:** أن واحدها عضة مثل عزة وبرة وثبة، وأصلها عضوة من عضيت الشيء إذا فرقته، وكل قطعة عضة، وهي مما نقص منها

واو هي لام الفعل، والتعضية التجزئة والتفريق، يقال: عضيت الجزور والشاة تعضية إذا جعلتها أعضاء وقسمتها، وفي الحديث: «لاَ تَعْضِيَةَ فِي مِيرَاثٍ إلاَّ فِيمَا احْتَمَلَ الْقِسْمَةَ» أي لا تجزئه فيما لا يحتمل القسمة كالجوهرة والسيف. فقوله: ﴿جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ يريد جَزَّأوه أجزاء، فقالوا: سحر وشعر وأساطير الأولين ومفترى. **والقول الثاني:** أن واحدها عِضَة وأصلها عضهة، فاستثقلوا الجمع بين هاءين، فقالوا: عضة كما قالوا شفة، والأصل شفهة بدليل قولهم: شافهت مشافهة، وسنة وأصلها سنهة في بعض الأقوال، وهو مأخوذ من العَضْهِ: بمعنى الكذب، ومنه الحديث: «إِيَّاكُمْ وَالْعِضَه» وقال ابن السكيت: العضه بأن يعضه الإنسان ويقول فيه ما ليس فيه. وهذا قول الخليل فيما روى الليث عنه، فعلى هذا القول معنى قوله تعالى: ﴿جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ أي جعلوه مفترى. وجمعت العضة جمع ما يعقل لما لحقها من الحذف، فجعل الجمع بالواو والنون عوضًا مما لحقها من الحذف.

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يحتمل أن يكون راجعًا إلى المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين، لأن عود الضمير إلى الأقرب أولى، ويكون التقدير أنه تعالى أقسم بنفسه أن يسأل هؤلاء المقتسمين عما كانوا يقولونه من اقتسام القرآن وعن سائر المعاصي، ويحتمل أن يكون راجعًا إلى جميع المكلفين لأن ذكرهم قد تقدم في قوله: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحجر: ٨٩] أي لجميع الخلق وقد تقدم ذكر المؤمنين وذكر الكافرين، فيعود قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ على الكل، ولا معنى لقول من يقول إن السؤال إنما يكون عن الكفر أو عن الإيمان، بل السؤال واقع عنهما وعن جميع الأعمال، لأن اللفظ عام فيتناول الكل.

فإن قيل: كيف الجمع بين قوله: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وبين قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] أجابوا عنه من وجوه:

الوجه الأول: قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا يسئلون سؤال الاستفهام لأنه تعالى عالم بكل أعمالهم، وإنما يسئلون سؤال التقريع يقال لهم لم فعلتم كذا؟

ولقائل أن يقول: هذا الجواب ضعيف، لأنه لو كان المراد من قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] سؤال الاستفهام لما كان في تخصيص هذا النفي بقوله يومئذ فائدة لأن مثل هذا السؤال على الله تعالى محال في كل الأوقات.

والوجه الثاني: في الجواب أن يصرف النفي إلى بعض الأوقات، والإثبات إلى وقت آخر، لأن

يوم القيامة يوم طويل.

ولقائل أن يقول: قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] هذا تصريح بأنه لا يحصل السؤال في ذلك اليوم، فلو حصل السؤال من جزء في أجزاء ذلك اليوم لحصل التناقض.

والوجه الثالث: أن نقول: قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] يفيد عموم النفي وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ عائد إلى المقتسمين وهذا خاص ولا شك أن الخاص مقدم على العام. أما قوله: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فاعلم أن معنى الصدع في اللغة الشق والفصل، وأنشد ابن السكيت لجرير:

هَذَا الْخَلِيفَةُ فَارْضَوْا مَا قَضَى لَكُمُ ... بِالْحَقِّ يَصْدَعُ مَا فِي قَوْلِهِ حَيفٌ

فقال يصدع يفصل، وتصدع القوم إذا تفرقوا، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣] قال الفراء: يتفرقون. والصدع في الزجاجة الإبانة، أقول ولعل ألم الرأس إنما سمي صداعًا لأن قحف الرأس عند ذلك الألم كأنه ينشق. قال الأزهري: وسمي الصبح صديعًا كما يسمى فلقًا. وقد انصدع وانفلق الفجر وانفطر الصبح.

إذا عرفت هذا فنقول: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي فرق بين الحق والباطل، وقال الزجاج: فاصدع أظهر ما تؤمر به يقال: صدع بالحجة إذا تكلم بها جهارًا كقولك صرح بها، وهذا في الحقيقة يرجع أيضًا إلى الشق والتفريق، أما قوله: ﴿بِمَا تُؤْمَرُ﴾.

ففيه قولان: الأول: أن يكون (ما) بمعنى الذي أي بما تؤمر به من الشرائع، فحذف الجار كقوله:

أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ فَافْعَلْ مَا أُمِرْتَ بِهِ[1]

الثاني: أن تكون (ما) مصدرية أي فاصدع بأمرك وشأنك. قالوا: وما زال النبي ﷺ مستخفيًا حتى نزلت هذه الآية[2].

ثم قال تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي لا تبال بهم ولا تلتفت إلى لومهم إياك على إظهار الدعوة. قال بعضهم: هذا منسوخ بآية القتال وهو ضعيف، لأن معنى هذا الإعراض ترك المبالاة بهم فلا يكون منسوخًا.

ثم قال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ قيل: كانوا خمسة نفر من المشركين: الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وعدي بن قيس والأسود بن المطلب والأسود بن عبد يغوث قال جبريل لرسول الله ﷺ أمرت أن أكفيكهم فأومأ إلى عقب الوليد فمر بنبال فتعلق بثوبه سهم فلم ينعطف تعظمًا لأخذه فأصاب عرقًا في عقبه فقطعه فمات، وأومأ إلى أخمص العاص بن وائل فدخلت

---

(١) هذا البيت من قصيدة للشاعر عمرو الزبيدي تقدمت ترجمته والبيت كاملا هكذا:

أمرتُكَ الخيرَ فَافعل ما أُمرتَ بِهِ ... فَقَد تَركتكَ ذا مالَ وَذا نَشب

(٢) إسناد ضعيف: أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٧/ ١٥٢) من طريق أبي أسامة قال حدثنا موسي بن عبيدة عن أخيه عبد الله بن عبيدة قال... فذكره، في إسناده موسي بن عبيدة الربذي وهو ضعيف مع إرساله.

فيها شوكة فقال: لدغت لدغت وانتفخت رجله حتى صارت كالرحا ومات، وأشار إلى عيني الأسود بن المطلب فعمي، وأشار إلى أنف عدي بن قيس، فامتخط قيحًا فمات وأشار إلى الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد في أصل شجرة فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات (١).

واعلم أن المفسرين قد اختلفوا في عدد هؤلاء المستهزئين وفي أسمائهم وفي كيفية طريق استهزائهم، ولا حاجة إلى شيء منها، والقدر المعلوم أنهم طبقة لهم قوة وشوكة ورياسة لأن أمثالهم هم الذين يقدرون على إظهار مثل هذه السفاهة مع مثل رسول الله ﷺ في علو قدره وعظم منصبه، ودل القرآن على أن الله تعالى أفناهم وأبادهم وأزال كيدهم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر أن قومه يسفهون عليه ولا سيما أولئك المقتسمون وأولئك المستهزؤون قال له: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ لأن الجبلة البشرية والمزاج الإنساني يقتضي ذلك فعند هذا قال له: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فأمره بأربعة أشياء بالتسبيح والتحميد والسجود والعبادة واختلف الناس في أنه كيف صار الإقبال على هذه الطاعات سببًا لزوال ضيق القلب والحزن؟ فقال العارفون المحققون إذا اشتغل الإنسان بهذه الأنواع من العبادات انكشفت له أضواء عالم الربوبية، ومتى حصل ذلك الإنكشاف صارت الدنيا بالكلية حقيرة، وإذا صارت حقيرة خف على القلب فقدانها ووجدانها فلا يستوحش من فقدانها ولا يستريح بوجدانها، وعند ذلك يزول الحزن والغم. وقالت المعتزلة: من اعتقد تنزيه الله تعالى عن القبائح سهل عليه تحمل المشاق، فإنه يعلم أنه عدل منزه عن إنزال المشاق به من غير غرض ولا فائدة فحينئذ يطيب قلبه، وقال أهل السنة: إذا نزل بالعبد بعض المكاره فزع إلى الطاعات كأنه يقول: تجب على عبادتك سواء أعطيتني الخيرات أو ألقيتني في المكروهات، وقوله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد الموت وسمي الموت باليقين لأنه أمر متيقن.

فإن قيل: فأي فائدة لهذا التوقيت مع أن كل أحد يعلم أنه إذا مات سقطت عنه العبادات؟

قلنا: المراد منه: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ﴾ في زمان حياتك ولا تخل لحظة من لحظات الحياة عن هذه العبادة، والله أعلم.

تم تفسير هذه السورة، والحمد لله رب العالمين، وصلاته على سيدنا محمد وآله وسلم.

---

(١) حديث المستهزئون تقدم تخرجه في المجلد السابق.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الحجر

قوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١﴾

تقدَّم معناه[(١)]. و«الكتاب» قيل فيه: إنَّه اسمٌ لجنسِ الكتب المتقدِّمةِ من التوراة والإنجيل، ثم قرنَهما بالكتابِ المبين. وقيل: الكتابُ هو القرآنُ، جَمَع له بينَ الاسمين[(٢)].

قوله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢﴾

«رُبَّ» لا تدخلُ على الفعل، فإذا لَحِقَتْها «ما»؛ هيَّأتها[(٣)] للدخول على الفعل، تقولُ: ربَّما قام زيدٌ، وربما يقومُ زيد. ويجوزُ أن تكونَ «ما» نكرةً بمعنى شيء، و«يودُّ» صفةٌ له، أي: رُبَّ شيءٍ يودُّ الكافر[(٤)].

وقرأَ نافعٌ وعاصمٌ: «رُبَما» مخفَّف الباء. الباقون مشدَّدة[(٥)]، وهما لغتان. قال أبو حاتم: أهلُ الحجازِ يُخفِّفُون «ربَّما»[(٦)]؛ قال الشاعر[(٧)]:

---

(١) ١٠/ ٤٤٥ - ٤٤٧ .

(٢) ينظر النكت والعيون للماوردي ٣/ ١٤٧ .

(٣) في (ظ) و(د) و(ز): لحقه... هيأه.

(٤) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ٦ ، ومعاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٠٢ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٧٣ ، وأمالي ابن الشجري ٢/ ٥٦٦ - ٥٦٧ .

(٥) السبعة ص٣٦٦ ، والتيسير ص١٣٥ .

(٦) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٧٥ .

(٧) هو عدي بن الرَّعلاء الغسَّاني، وسلف البيت ٥/ ١٢ .

رُبَّمـا ضـربـةٍ بـسـيـفٍ صـقـيـلٍ بـيـن بُـصْـرَى وطـعـنـةٍ نـجـلاءِ

وتميمٌ وقيس وربيعةُ يثقِّلونها[(١)]. وحُكيَ فيها: رَبَّمَا ورَبَمَا، ورَبَّتَمَا ورَبَتَمَا، بتخفيف الباء وتشديدها أيضاً[(٢)]. وأصلُها أن تُستعمَل في القليلِ، وقد تُستعمَل في الكثيرِ، أي: يَودُّ الكفارُ في أوقاتٍ كثيرةٍ لو كانوا مسلمين[(٣)]؛ قاله الكوفيون. ومنه قولُ الشاعر:

أَلا ربَّـمـا أَهْـدَتْ لـك الـعـيـنُ نـظـرةً قُصاراكَ منها أنَّها عنك لا تُجدِي[(٤)]

وقال بعضهم: هي للتقليلِ في هذا الموضع؛ لأنهم قالوا ذلك في بعض المواضع لا في كلها[(٥)]؛ لشغلِهم بالعذاب، والله أعلم. وقال: «رُبَمَا يَوَدُّ» وهي إنَّما تكون لما وقع؛ لأنه لِصدقِ الوعد كأنه عِيانٌ قد كان.

وخرَّج الطبرانيُّ أبو القاسم من حديثِ جابر بنِ عبد الله قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ ناساً من أمَّتي يدخلون النارَ بذنوبهم، فيكونون في النارِ ما شاءَ الله أن يكونوا، ثم يُعيِّرُهم أهلُ الشرك[(٦)]، فيقولون: ما نرى ما كنتم تُخالفونا فيه من تصديقِكم وإيمانِكم نَفعكم، فلا يبقَى موحِّدٌ إلَّا أخرجَه اللهُ من النار، ثم قرأ رسولُ الله ﷺ: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾»[(٧)].

---

(١) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٧٥، وفيه: «بكر» بدل «ربيعة».

(٢) وقال ابن هشام في المغني ص١٨٤: وفي ربَّ ستَّ عشرةَ لغةً: ضمُّ الراء وفتحها، وكلاهما مع التشديد والتخفيف، والأوجه الأربعة مع تاء التأنيث ساكنة أو محركة ومع التجرد منها، فهذه اثنتا عشرة، والضمُّ والفتح مع إسكان الباء، وضم الحرفين مع التشديد ومع التخفيف.

(٣) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٤٨، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٩.

(٤) في (د) و(ز): تجزي، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٤٨.

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٤٨.

(٦) في (ظ): النار.

(٧) المعجم الأوسط للطبراني (٥١٤٢)، ونسبه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٩٢ لابن مردويه، وصحح إسناده. وقال الهيثمي في المجمع ١٠/ ٣٧٩: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح، غير بسام الصيرفي وهو ثقة.

قال الحسن: إذا رأى المشركون المؤمنين[١] وقد دخلوا الجنةَ، ومأواهم[٢] في النار، تمنَّوا أنَّهم كانوا مسلمين. وقال الضَّحَّاك: هذا التمنِّي إنَّما هو عند المعاينةِ في الدنيا حين تبيَّن[٣] لهم الهدى من الضلالة. وقيل: في القيامةِ إذا رأَوا كرامةَ المؤمنين، وذُلَّ الكافرين[٤].

قولُه تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟﴾ تهديدٌ لهم. ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ أي: يَشغلُهم عن الطاعة. يُقال: أَلهاه عن كذا، أي: شَغله، ولَهِيَ هو عن الشيء يَلْهَى[٥]. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ إذا رأَوا القيامة، وذاقوا وَبالَ ما صنعوا. وهذه الآيةُ منسوخةٌ بالسيف[٦].

الثانية: في «مسند» البزار، عن أنس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أربعةٌ من الشقاءِ: جُمودُ العينِ، وقساوةُ[٧] القلب، وطُولُ الأمل، والحِرْصُ على الدُّنيا»[٨].

وطولُ الأمل داءٌ عُضالٌ ومرضٌ مُزْمن، ومتى تمكَّن من القلب فسدَ مِزاجُه، واشتدَّ علاجه، ولم يفارقه داءٌ، ولا نجع[٩] فيه دواء، بل أعيا الأطباءَ، ويئس من

---

(١) في (د) و(ز) و(م): المسلمين، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٣/ ١٤٨.

(٢) في (ظ) و(د) و(ز): وما رأوهم، وفي النكت والعيون ٣/ ١٤٨: وصاروا هم.

(٣) في (ظ): حتى يتبين.

(٤) النكت والعيون ٣/ ١٤٧ - ١٤٨.

(٥) تهذيب اللغة ٦/ ٤٢٨.

(٦) المحرر الوجيز لابن عطية ٣/ ٣٥٠، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٨٢، وآية السيف هي قوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

(٧) في (د) و(ز): وقساء.

(٨) كشف الأستار (٣٢٣٠)، وسلف ٢/ ٢٠٥، ونقلنا ثمة كلام الذهبي فيه: حديث منكر.

(٩) في (ظ): ينجع.

بُرْئِه الحكماءُ والعلماء. وحقيقةُ الأملِ: الحرصُ على الدنيا، والانكبابُ عليها، والحب[1] لها، والإعراضُ عن الآخرة.

ورُويَ عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: «نجا أولُ هذه الأمةِ باليقين والزهدِ، ويَهلِك آخرُها بالبخل والأمل»[2].

ويُروى عن أبي الدرداءِ ﷺ، أنَّه قامَ على دَرَجِ مسجد دمشق، فقال: يا أهلَ دمشقَ، ألَا تسمعونَ من أخٍ لكم ناصح، إنَّ مَن كان قبلَكم؛ كانوا يجمعون كثيراً، ويبنون مُشَيَّداً، وَيأمُلون بعيداً، فأصبح جمعُهم بُوراً، وبنيانُهم قبوراً، وأملُهم غروراً، هذه عادٌ قد ملأتِ البلادَ أهلاً ومالاً، وخيلاً ورجالاً، فمَن يشتري مني اليوم تركتَهم بدرهمين[3]؟! وأُنشد[4]:

يا ذا[5] المؤملُ آمالاً وإن بَعُدت ... منه ويزعمُ أنْ يَحْظَى بأقصاها

أنَّى تفوزُ بما ترجوه وَيْكَ وما ... أصبحتَ في ثقةٍ من نَيْل أدناها

وقال الحسن: ما أطالَ عبدٌ الأملَ إلا أساء العملَ. وصدقَ ﷺ؛ فالأمل يُكسِلُ عن العمل[6]، ويُورثُ التراخيَ والتوانيَ، ويُعقِبُ التشاغلَ والتقاعُس، ويُخلِدُ إلى

(١) في (ظ): والحث.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ ابن أبي الدنيا في اليقين (٣) من طريق عبد الله بن لهيعة، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده. وأورده المنذري في الترغيب والترهيب (٤٨٩٦). وعبد الله بن لهيعة ضعيف.
وأخرجه الطبراني في الأوسط (٧٦٤٦)، والخطيب في تاريخ بغداد ٧/ ١٨٦ ، والمزي في تهذيب الكمال ٥/ ١٠٦ - ١٠٧ ، من طريق إبراهيم بن ميسرة، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، مرفوعاً. قال المنذري في الترغيب والترهيب (٤٧٠٢) و(٤٨٩٥): إسناده محتمل للتحسين، ومتنه غريب.

(٣) أخرجه ـ مختصراً مطولاً ـ ابن المبارك في الزهد (٨٤٧)، وابن أبي شيبة ١٣/ ٣٠٥ - ٣٠٦ ، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢١٣ ، والبيهقي في الشعب (١٠٧٣٩) و(١٠٧٤٠)، والخطيب في تاريخ بغداد ٤/ ٩٥ - ٩٦ .

(٤) في (ظ): وأنشدوا، ولم نقف على هذين البيتين.

(٥) في (ظ): يأتي.

(٦) في (ظ): فالعمل يكسل عنه الأمل.

الأرض، ويُميلُ إلى الهوى. وهذا أمرٌ قد شُوهد بالعِيان، فلا يحتاج إلى بيان، ولا يُطْلَب صاحبُه ببرهان، كما أنَّ قِصَر الأمل يبعث على العمل، ويَحمِل[١] على المبادرة، ويحثُّ على المسابقة.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤﴾

أي: أجلٌ مؤقَّت كُتِب لهم في اللوحِ المحفوظ.

قوله تعالى: ﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ۝٥﴾

«من» صلةٌ؛ كقولك: ما جاءني من أحدٍ، أي: لا تتجاوزُ أجلَها فتزيدُ عليه، ولا تتقدَّم قبلَه[٢]. ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ۝٦ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧﴾

قاله كفارُ قريش لمحمدٍ ﷺ على جهةِ الاستهزاء، ثم طلبوا منه إتيانَ الملائكة دَلالةً على صدقِه. و«لَوْ مَا» تحضيضٌ على الفعل، كـ «لولا» و«هلَّا»[٣]. وقال الفرَّاء: الميم في «لو ما» بدلٌ من اللام في «لولا». ومثلُه: استولى على الشيء. واسْتَوْمَى عليه، ومثلُه: خالَمْتُه وخاللته، فهو خِلِّي وخِلْمي، أي: صديقي[٤].

وعلى هذا يجوز «لو ما» بمعنى الخبر، تقول: لوما زيدٌ لضُرِب عمرٌو. قال الكسائي: لولا ولوما سواءٌ في الخبر والاستفهام. قال ابن مُقْبِل:

لَوْمَا الحياءُ ولوما الدِّينُ عِبتُكما ... ببعض ما فيكما إذْ عبتُما عَوَرِي[٥]

---

(١) في (د) و(ز) و(م): ويحيل.

(٢) ينظر زاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٨٣ .

(٣) ينظر الوسيط للواحدي ٣/ ٤٠ ، وزاد المسير ٤/ ٣٨٣ .

(٤) تفسير الرازي ١٩/ ١٥٩ ، وينظر اللسان (ولي).

(٥) في (ظ) و(ز): عَودي، والبيت في ديوان ابن مقبل ـ وهو تميم ـ ص٧٦ ، وفيه: لولا، بدل: لوما =

يريد: لولا الحياءُ.

وحكى النحاس[١]: لوما، ولولا، وهلَّا؛ واحدٌ. وأنشدَ أهلُ اللغة على ذلك:

تَعُدُّون عَقْرَ النِّيبِ[٢] أفضلَ مَجْدِكم بني ضَوْطَرَى لولا الكَمِيَّ المُقَنَّعا[٣]

أي: هلَّا تَعُدُّون الكَمِيَّ المُقَنَّعا.

قوله تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾﴾

قرأ حفص وحمزةُ والكسائي: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ واختارَه أبو عُبيد. وقرأ أبو بكر والمفضَّل: ﴿ما تُنَزَّلُ الملائكةُ﴾. الباقون: ﴿ما تَنَزَّلُ الملائكةُ﴾[٤]. وتقديرُه: ما تتنزل؛ بتاءين، حذفت إحداهما تخفيفاً، وقد شدَّد التاءَ البَزِّيُّ[٥]، واختاره أبو حاتم اعتباراً بقوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ [القدر: ٤].

ومعنى ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾: إلا بالقرآن. وقيل: بالرسالة؛ عن مجاهد. وقال الحسن: إلَّا بالعذاب إن لم يؤمنوا[٦]. ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ أي: لو تنزلت الملائكةُ بإهلاكِهم؛ لَما أُمْهِلوا، ولا قُبلت لهم توبةٌ. وقيل: المعنى: لو تنزلت الملائكةُ تشهدُ لك، فكفروا بعد ذلك؛ لم يُنظَرُوا[٧]. وأصلُ «إذاً»: إذْ أنْ[٨]، ومعناه: حينئذٍ، فضُمَّ

= في الموضعين، ورواية المصنف في تفسير الطبري ١٤/ ١٥، ومجاز القرآن ١/ ٣٤٦.

(١) في معاني القرآن ٤/ ١٠.

(٢) في (د) و(ز): النبت.

(٣) البيت لجرير، وهو في ديوانه ٢/ ٩٠٧، وسلف ٢/ ٣٤٢ ونسبه المصنف ثمة للأشهب بن رُميلة، و٨/ ٣٦٨.

(٤) السبعة ص٣٦٦، والتيسير ص١٣٥، وأبو بكر: هو شعبة راوي عاصم.

(٥) التيسير ص٨٣.

(٦) النكت والعيون ٣/ ١٤٩، وأثر مجاهد في تفسيره ١/ ٣٣٩، وأخرجه عنه الطبري ١٤/ ١٧ - ١٨.

(٧) ينظر الوسيط للواحدي ٣/ ٤٠، وتفسير السمرقندي ٢/ ٢١٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥١.

(٨) نسبه المالقيُّ في رصف المباني في شرح حروف المعاني ص٦٩ - ٧٠ إلى الكوفيين، ثم رده من وجهين، أحدهما: أن الأصل في الحروف البساطة، ولا يدَّعى التركيب إلا بدليل قاطع. والثاني: أنها لو كانت مركبة من «إذ» و«أن» لكانت ناصبة على كل حال، تقدمت أو تأخرت، وعدم العمل أحياناً دليل على عدم التركيب.

إليها أنْ، واستثقلوا الهمزةَ فحذفوها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ يعني: القرآن. ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ من أن يُزاد فيه أو يُنقَص منه[١]. قال قتادةُ وثابت البُنَانيُّ: حفِظه الله من أن تزيدَ فيه الشياطين باطلاً، أو تَنقُص منه حقًّا[٢]. فتولَّى سبحانه حفظَه، فلم يزل محفوظاً، وقال في غيره: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا﴾ [المائدة: ٤٤]، فوَكَل حفظَه إليهم، فبدَّلوا وغيروا[٣].

أنبأنا الشيخُ الفقيه الإمام أبو القاسم عبدُ الله[٤]، عن أبيه الشيخِ الفقيه الإمامِ المحدث أبي الحسن عليِّ بن خلف بن مَعزوز الكُومي التِّلِمْساني قال: قُرِئَ على الشيخةِ العالمة فخرِ النساء شُهْدَةَ بنتِ أبي نصر أحمدَ بنِ الفرج الدِّينَورِيِّ، وذلك بمنزلها بدارِ السلام في آخر جُمادَى الآخرة من سنةِ أربع وستين وخمس مائة، قيل لها: أخبركم الشيخ الأجلُّ العامل نقيبُ النقباء أبو الفوارس طِرادُ بن محمد الزينبي قراءةً عليه وأنت تَسمعينَ سنة تسعين وأربع مائة، أخبرنا عليُّ بن عبدِ الله بن إبراهيم، حدَّثنا أبو علي عيسى بنُ محمد بن أحمد بن عمر بن عبدِ الملك بن عبدِ العزيز بن جُريج المعروف بالطُّومَارِي، حدَّثنا الحسينُ بن فهم قال: سمعت يحيى بنَ أكثم[٥] يقول: كان للمأمون ـ وهو أميرٌ إذ ذاك[٦] ـ مجلسُ نظر، فدخل في جملةِ الناس رجلٌ يهودي حسنُ الثوب، حسنُ الوجه، طيبُ الرائحة. قال: فتكلمَ، فأحسن الكلام

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٧٤.

(٢) أخرجه عنهما عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٤٥، وأخرجه عن قتادة الطبري في التفسير ١٤/ ١٨ - ١٩.

(٣) بداية سقط في (ظ).

(٤) هو: عبد الله بن علي بن خلف بن معزوز الكُومي، ذكره الصفدي في الوافي بالوفيات ١٥/ ٤٧٩-٤٨٢ في ترجمة سنجر الأمير علم الدين الدواداري في عداد شيوخه، وقد روى عنه سنجر بمنية بني خصيب.

(٥) هو: قاضي القضاة أبو محمد، يحيى بن أكثم بن محمد بن قَطَن، ولد في خلافة المهدي، وكان من أئمة الاجتهاد، وله تصانيف منها كتاب «التنبيه». (ت ٢٤٢هـ). أخبار القضاة لوكيع ٢/ ١٦١، وسير أعلام النبلاء ١٢/ ٥.

(٦) قوله: وهو أمير إذ ذاك، ليس في (د)، وفي المنتظم لابن الجوزي ١٠/ ٥١: قبل تقلده الخلافة.

والعبارةَ. قال: فلمَّا تقوَّض المجلسُ، دعاه المأمونُ فقال له: إسرائيليٌّ؟ قال: نعم. قال له: أسلِم حتى أفعلَ لك[١] وأصنع. ووعده. فقال: ديني ودين آبائي! وانصرف. قال: فلما كان بعدَ سنةٍ جاءنا مُسْلماً، قال: فتكلَّم على الفقهِ، فأحسنَ الكلامَ، فلما تقوَّض المجلسُ، دعاه المأمونُ وقال: ألستَ صاحبَنا بالأمس؟ قال له: بلى. قال: فما كان سببُ إسلامك؟ قال: انصرفت من حضرتِك، فأحببتُ أن أمتحنَ هذه الأديانَ، وأنت تراني حسنَ الخط، فعَمَدتُ إلى التوراةِ، فكتبتُ ثلاث نسخ، فزدتُ فيها ونقصت، وأدخلتها الكنيسةَ، فاشتُرِيت مني، وعَمَدتُ إلى الإنجيل، فكتبتُ ثلاثَ نسخ، فزدتُ فيها ونقصت، وأدخلتها البِيعة، فاشتُرِيت مني، وعَمدتُ إلى القرآن، فعملت ثلاثَ نسخٍ، وزدتُ فيها ونقصت، وأدخلتها الورَّاقين فتصفَّحوها، فلمَّا أن وجدوا فيها الزيادةَ والنقصان رَمَوا بها، فلم يشتروها، فعلمتُ أنَّ هذا كتابٌ محفوظ، فكان هذا سببَ إسلامي.

قال يحيى بنُ أكثم: فَحَجَجْتُ تلك السنةَ، فلقِيت سفيانَ بنَ عُيينة، فذكرت له الخبرَ، فقال لي: مِصداقُ هذا في كتاب الله عزَّ وجلَّ. قال: قلت: في أيِّ موضعٍ؟ قال: في قولِ الله تباركَ وتعالى في التوراةِ والإنجيل: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤]، فجعلَ حِفظَه إليهم فضاعَ، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾، فحفظَه الله عزَّ وجلَّ علينا فلم يَضِع[٢].

وقيل: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ أي: لمحمد ﷺ من أن يتقوَّل علينا، أو يُتقول[٣] عليه. أو ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ من أن يُكاد أو يُقتل[٤]. نظيره ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

---

(١) في النسخ: بك، والمثبت من المنتظم ١٠/ ٥١.
(٢) نهاية السقط في (ظ)، والقصة بتمامها في المنتظم ١٠/ ٥١.
(٣) في (د) و(ز) و(م): نتقول، والمثبت من (ظ).
(٤) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٨٥، وتفسير الطبري ١٤/ ١٩، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥١ - ٣٥٢. والكشاف ٢/ ٣٨٨.

و«نحن» يجوز أن يكونَ موضعُه رفعاً بالابتداء و«نزَّلنا» الخبر. والجملةُ خبرُ «إنَّ». ويجوزُ أن يكونَ «نحن» تأكيداً لاسم «إنَّ» في موضع نصبٍ[١]، ولا تكون فاصلةً[٢]؛ لأنَّ الذي بعدَها ليس بمعرفةٍ، وإنَّما هو جملةٌ، والجملُ تكون نعوتاً[٣] للنكرات، فحكمُها حكمُ النكرات.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٠﴾

المعنى: ولقد أرسلنا من قَبلِك رسلاً، فحذف. والشِّيَع جمعُ شِيعة، وهي الأُمَّة، أي: في أُممِهم؛ قاله ابنُ عباسٍ وقتادة. الحسن: في فِرَقِهم. والشِّيعةُ: الفِرقةُ والطائفة من الناس المتآلفةُ المتفقة الكلمة، فكأنَّ الشِّيَع الفِرَقُ؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ [الأنعام: ٦٥]، أي: فِرقاً[٤]، وأصلُه مأخوذٌ من الشِّياع، وهو الحطبُ الصغارُ يوقد به الكبارُ، كما تقدَّم في «الأنعام»[٥]. وقال الكلبيُّ: إنَّ الشيَعَ هنا القُرى[٦].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١١﴾

تسليةٌ للنبيِّ ﷺ، أي: كما فَعل بك هؤلاء المشركون، فكذلك فُعِل بمَن قَبلك من الرسل[٧].

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٢ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾

قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾ أي: الضلالَ والكفرَ، والاستهزاءَ والشركَ. ﴿فِي

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٧٧.

(٢) وجوَّزه النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٧٧.

(٣) في (ظ): والجملة تكون نعتاً.

(٤) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٤٩، والوسيط ٣/ ٤٠، وزاد المسير ٤/ ٣٨٤ - ٣٨٥، وتفسير الطبري ١٤/ ١٩.

(٥) ٨/ ٤١٤.

(٦) النكت والعيون ٣/ ١٥٠، وفيه «القبائل» بدل «القرى»، وما عندنا نسخة في هامشه.

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٢، والوسيط ٣/ ٤٠، وزاد المسير ٤/ ٣٨٥.

﴿قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ من قومك، عن الحسن وقتادة وغيرهما. أي: كما سلكناهُ في قلوبِ مَن تقدم من شِيعِ الأولين؛ كذلك نَسلكُه في قلوبِ مشركي قومِك حتى لا يؤمنوا بك، كما لم يؤمن مَن قبلهم برسلهم. وروى ابنُ جُريج عن مجاهدٍ قال: نسلكُ التكذيبَ[١]. والسَّلْكُ: إدخالُ الشيء في الشيء، كإدخالِ الخيطِ في المِخْيَط. يُقال: سَلَكه يَسْلُكه سَلْكاً وسُلوكاً، وأسلكه إسلاكاً. وسَلَكَ الطريقَ سُلُوكاً وسَلْكاً، وأسلكه: دخله، والشيءَ في غيرِه مثله، والشيءَ كذلك، والرُّمْحَ، والخيطَ في الجوهرِ، كلُّه فَعَل وأفعل[٢]. وقال عَدِيُّ بن زيد:

وقد سلكوكَ في يومٍ عَصيبِ[٣]

والسِّلكُ، بالكسر الخيطُ. وفي الآيةِ ردٌّ على القَدَرية والمعتزلةِ.

وقيل: المعنى: نسلك القرآنَ في قلوبِهم، فيكذبون به. وقال الحسن ومُجاهد وقتادةُ القولَ الذي عليه أكثرُ أهل التفسير، وهو ألزمُ حجةً على المعتزلةِ. وعن الحسن أيضاً: نسلكُ الذكْرَ إلزاماً للحجة[٤]؛ ذكره الغَزْنَوِيُّ.

﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: مضت سنةُ الله بإهلاك الكفارِ، فما أقربَ هؤلاءِ من الهلاك! وقيل: «خلت سنة الأولين» بمثلِ ما فعل هؤلاء من التكذيبِ والكفر، فهم يقتدونَ بأولئك[٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾

يُقال: ظلَّ يفعل كذا، أي: يفعلُه بالنهار. والمصدرُ: الظُّلولُ. أي: لو أُجيبوا إلى

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٢، وتفسير الطبري ١٤/ ٢٠ - ٢١، والنكت والعيون ٣/ ١٥٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥٢ - ٣٥٣.

(٢) ينظر الأفعال للسرقسطي ٣/ ٤٩٥، واللسان (سلك).

(٣) عجز بيت، وصدره: وكنتُ لزازَ خصمِك لم أُعرِّد، وهو في مجاز القرآن ١/ ٢٩٤، وتفسير الطبري ١٤/ ٢٢، والأغاني ٢/ ١١١، وأورده إبراهيم الحربي في غريب الحديث ١/ ٣٠٣ دون نسبة.

(٤) النكت والعيون ٣/ ١٥٠، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٧٧.

(٥) زاد المسير ٤/ ٣٨٥، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٧٤، وتفسير السمرقندي ٢/ ٢١٥.

ما اقترحوا من الآيات، لأَصرُّوا على الكفرِ، وتعلَّلوا بالخيالاتِ[١]، كما قالوا للقرآنِ المعجز: إنه سحرٌ.

«يَعْرُجُون» من عَرَج يَعْرُج، أي: صَعِد. والمعارجُ: المصاعد. أي: لو صَعِدُوا إلى السماء، وشاهدوا الملكوتَ والملائكةَ، لأصرُّوا على الكفر؛ عن الحسنِ وغيره. وقيل: الضميرُ في «عليهِم» للمشركين. وفي «فظَلُّوا» للملائكة، تذهبُ وتَجيء. أي: لو كُشِف لهؤلاء حتى يُعاينوا أبواباً في السماء تصعدَ فيها الملائكةُ وتنزلُ، لقالوا: رأَينا بأبصارنا ما لا حقيقةَ له؛ عن ابنِ عباسٍ وقتادة[٢].

ومعنى ﴿سُكِّرَتْ﴾: سُدَّت بالسِّحرِ؛ قاله ابنُ عباس والضَّحاكُ. وقال الحسن: سُحِرت. الكلبي: أُغشيت أبصارُنا، وعنه أيضاً: عَمِيت. قتادةُ: أُخذت. وقال المُؤَرِّج: دِيرَ بنا، من الدوران، أي: صارت أبصارُنا سكرى. جُوَيْبِر: خُدِعت. وقال أبو عَمرو بنُ العلاء: «سُكِّرت»: غُشِّيت وغُطِّيت. ومنه قولُ الشاعرِ:

وطلعتْ شمسٌ عليها مِغفرُ ... وجعلت عينُ الحَرورِ تَسْكُرُ[٣]

وقال مجاهد: «سُكِّرت»: حُبِست. ومنه قولُ أوْس بنِ حِجْر:

فصرت على ليلةٍ ساهره ... فليست بطَلْقٍ ولا سَاكِرَه[٤]

قلتُ: وهذه أقوال[٥] متقاربةٌ يجمعها قولُك: مُنِعت.

---

(١) زاد المسير ٤/ ٣٨٦، والوسيط ٣/ ٤٠ - ٤١، وينظر الطبري ١٤/ ٢٣.

(٢) تفسير الطبري ١٤/ ٢٣ - ٢٥، والوسيط ٣/ ٤١، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥٣.

(٣) الرجز لجندل بن المثنى، ونسبه إليه الطبري ١٤/ ٢٩ وأورد الثاني منه، وأورده بتمامه أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣٤٨، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٥١ دون نسبة. والحَرور: الريح الحارة. الصحاح (حرر). والمعنى: يسكن حرها وتخبو. لسان العرب (قبر)، ووقع في (ظ): الجزور.

(٤) البيت في ديوانه ص٣٤، وأورده في اللسان (سكر) وفيه «جذلت» بدل «فصرت»، وأورده أيضاً بلفظ:

تزاد ليالِيَّ في طولها ... فليست بطلق ولا ساكره

وفي النكت والعيون ٣/ ١٥١: «فصرنَ» بدل: «فصرت».

(٥) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٤/ ٢٥ - ٢٩، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٧٥، والنكت والعيون ٣/ ١٥١، وزاد المسير ٤/ ٣٨٦.

قال ابنُ عُزَيز[١]: «سُكِّرت أبصارُنا»: سُدَّت أبصارُنا؛ هو من قولك: سَكَّرتُ النهرَ: إذا سَدَدْتَه. ويقال: هو من سُكْرِ الشراب، كأنَّ العينَ يلحقُها ما يلحقُ الشاربَ إذا سَكِر.

وقرأ ابنُ كَثير: «سُكِرت» بالتخفيف. والباقون بالتشديد[٢]. قال ابنُ الأعرابي: سُكِرت: مُلِئت[٣].

قال المهدَوِيُّ: والتخفيفُ والتشديدُ في «سُكرت» ظاهران، التشديدُ للتكثير، والتخفيف يؤدِّي عن معناه، والمعروف أنَّ «سَكِرَ» لا يتعدَّى.

قال أبو علي[٤]: يجوزُ أن يكون سُمِع متعدياً في البصر. ومَن قرأ: «سَكِرت»[٥] فإنه شبَّه ما عَرَض لأبصارهم بحالِ السكران، كأنَّها جرت مجرى السكران؛ لعدم تحصيله. وقد قيل: إنَّه بالتخفيفِ، من سُكرِ الشراب، وبالتشديد مأخوذٌ من سكَّرت الماء. وقيل: سُكِرت مخففاً: سُحِرت، وبالتشديد[٦]: أُخِذت، ذكرهما الماوردي.

وقال النَّحاسُ[٧]: والمعروفُ من قراءة مجاهدٍ والحسن: «سُكِرت» بالتخفيف. قال الحسنُ: أي: سُحِرت. وحكى أبو عبيد، عن أبي عبيدة أنَّه يقال: سُكِّرت أبصارُهم: إذا غَشِيها سَمادِير[٨] حتى لا يبصروا. وقال الفراء: مَن قرأ: «سَكِرت»

---

(١) في نزهة القلوب ص٢٧٦ .

(٢) السبعة ص٣٦٦ ، والتيسير ص١٣٦ .

(٣) ينظر تهذيب اللغة ١٠/ ٥٥ ، ولسان العرب (سكر).

(٤) هو الفارسي، وينظر كلامه بنحوه في الحجة للقراء السبعة ٥/ ٤٣ - ٤٤ ، وينظر الدر المصون ٧/ ١٤٩ .

(٥) هي قراءة الزهري كما في البحر المحيط ٥/ ٤٤٨ .

(٦) قوله: مأخوذ من سكرت، إلى هذا الموضع من (ظ)، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٣/ ١٥١ .

(٧) في معاني القرآن ٤/ ١٤ .

(٨) السَّمادير: قيل: هو الشيء الذي يتراءى للإنسان من ضعف بصره عند السُّكر من الشراب، وغشي النعاس والدوار. اللسان (سمدر)، وكلام أبي عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣٤٧ ، وقد نقله عنه المصنف بواسطة معاني القرآن للنحاس.

أَخذه من سُكورِ الريحِ[١].

قال النحاسُ: وهذه الأقوالُ متقاربةٌ، والأصلُ فيها ما قال أبو عَمرو بنُ العلاء رحمه الله تعالى، قال: هو من السُّكرِ في الشرابِ[٢].

وهذا قولٌ حسن، أي: غَشِيهم ما غطَّى أبصارَهم، كما غَشِيَ السكرانَ ما غطَّى عقلَه[٣]. وسكورُ الريحِ: سكونُها وفُتورُها، فهو يرجعُ إلى معنى التحيير[٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾

لمَّا ذكر كفرَ الكافرين، وعَجْزَ أصنامِهم، ذكر كمالَ قدرتِه؛ ليُستَدلَّ بها على وَحدانيتِه. والبروجُ: القصورُ والمنازل. قال ابنُ عباس: أي: جعلنا في السماء بروجَ الشمسِ والقمر، أي: منازلَهما. وأسماءُ هذه البروجِ: الحَمَل، والثَّوْر، والجَوْزاء، والسَّرطان، والأَسَد، والسُّنبُلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجَدْي، والدَّلو، والحوت[٥]. والعربُ تَعُدُّ المعرفةَ لمواقع النجومِ وأنوائها[٦] من أَجلِّ العلومِ، ويستدلُّونَ بها على الطرقاتِ والأوقاتِ، والخِصبِ والجَدْب. وقالوا: الفَلَكُ اثنا عشرَ بُرجاً، كلُّ برجٍ مِيلان ونصفٌ[٧]. وأَصلُ البروجِ الظهورُ؛ ومنه تَبرُّجُ المرأةِ بإظهارِ زينتها، وقد تقدَّم هذا المعنى في النساءِ[٨]. وقال الحسن وقتادةُ: البروجُ: النجومُ،

---

(١) في (د) و(ظ) ومعاني النحاس: سكون الريح، وعبارة الفراء في معاني القرآن ٢/ ٨٦ : قد سكرت الريح إذا سكنت وركدت، ونقل المصنف كلام الفراء بواسطة معاني القرآن للنحاس.

(٢) معاني القرآن ٤/ ١٤ ، وينظر الطبري ١٤/ ٢٦ ، وزاد المسير ٤/ ٣٨٦ .

(٣) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ٢٨ .

(٤) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٧٥ .

(٥) زاد المسير ٤/ ٣٨٧ ، و ينظر الأزمنة والأمكنة للمرزوقي ١/ ١٦١ .

(٦) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: وأبوابها.

(٧) كذا في النسخ غير (ظ)، ففيها: ليلتان ونصف، ولعل الصواب: منزلتان وثلث. كما ذكر المصنف في تفسير الآية (٣٩) من سورة ياسين، وينظر مفتاح دار السعادة ٢/ ١٩٥ ، ولسان العرب (برج).

(٨) ٦/ ٤٦٤ - ٤٦٧ .

وسُميت بذلك؛ لظهورِها وارتفاعِها. وقيل: الكواكبُ العظامُ؛ قاله أبو صالحٍ، يعني: السبعةَ السَّيَّارةَ[١]. وقال قومٌ: «بروجاً»؛ أي: قصوراً وبيوتاً فيها الحرَسُ، خَلقها الله في السماءِ[٢]. فالله أعلم. ﴿وَزَيَّنَّـٰهَا﴾ يعني: السماءَ، كما قال في سورةِ المُلْك: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥]. ﴿لِلنَّـٰظِرِينَ﴾: للمعتبرين والمُتفكّرين.

قوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾

أي: مرجوم. والرَّجمُ: الرميُ بالحجارةِ. وقيل: الرجمُ: اللَّعنُ والطردُ. وقد تقدَّم[٣]. وقال الكسائي: كلُّ رَجمٍ[٤] في القرآنِ فهو بمعنى الشَّتمِ. وزعم الكلبيُّ أنَّ السماواتِ كلَّها لم تُحفظ من الشياطين إلى زمنِ عيسى، فلما بَعث اللهُ تعالى عيسى، حُفِظ منها ثلاثُ سماوات إلى مَبعَثِ رسولِ الله ﷺ، فحُفِظ جميعُها بعدَ بَعثِه، وحُرِست منهم بالشُّهب[٥]. وقاله ابنُ عباس ﷺ. قال ابنُ عباس: وقد كانتِ الشياطين لا يُحجَبون عن السماء، فكانوا يدخُلونها، ويُلقون أخبارَها إلى[٦] الكهنةِ، فيزيدونَ عليها تسعاً، فيحدِّثون بها أهلَ الأرض، الكلمةُ حقٌّ والتسعُ باطلٌ؛ فإذا رأَوا شيئاً مما قالوه، صدَّقوهم فيما جاؤوا به، فلمَّا وُلِد عيسى ابنُ مريم عليهما السلام، مُنِعوا من ثلاثِ سماوات، فلمَّا وُلِد محمدٌ ﷺ، مُنِعوا من السماواتِ كلِّها، فما منهم من أحدٍ يريدُ استراقَ السمعِ إلا رُمِيَ بشِهابٍ[٧]، على ما يأتي.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾

أي: لكن مَنِ استرقَ السّمع، أي: الخَطْفةَ اليسيرة. فهو استثناءٌ منقطع. وقيل:

(١) وهي: زُحَل، والمشتري، والمريخ، والشمس، والزهرة، وعطارد، والقمر.
(٢) النكت والعيون ٣/ ١٥٢ ، وزاد المسير ٤/ ٣٨٧ .
(٣) ١١/ ٢٠١ .
(٤) في (د) و(ز) و(م): رجيم.
(٥) النكت والعيون ٣/ ١٥٢ .
(٦) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: على.
(٧) تفسير الطبري ١٤/ ٣٢ ، وتفسير أبي الليث ٢/ ٢١٦ ، والوسيط ٣/ ٤١ ، وزاد المسير ٤/ ٣٨٩ .

هو مُتصل، أي: إلا ممَّن استرقَ السمع[(١)]. أي: حَفِظنا السماءَ من الشياطين أنْ تسمعَ شيئاً من الوحي وغيره[(٢)]، إلا منِ استرق[(٣)] السمعَ، فإنَّا لم نحفظْها منه أن تَسمعَ الخبرَ من أخبارِ السماءِ سوى الوحي، فأمَّا الوحيُ، فلا تَسمعُ منه شيئاً[(٤)]؛ لقولِهِ: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٢]. وإذا استمعَ الشياطينُ إلى شيءٍ ليس بوحي، فإنَّهم يَقذِفونه إلى الكَهَنةِ في أسرعَ من طرفةِ عين، ثم تَتبَعُهم الشُّهبُ فتَقْتُلهم أو تَخبِلُهم، ذكره الحسنُ وابنُ عباس[(٥)].

قولُه تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ أتبعه: أدركه ولَحِقَه. شِهابٌ: كوكبٌ مُضيءٌ[(٦)]. وكذلك: ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠]. وقولُه: ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ [النمل: ٧] أي: بشعلةِ نارٍ في رأسِ عودٍ، قاله ابنُ عُزَيز[(٧)]. وقال ذو الرُّمَّة:

كأنَّه كوكبٌ في إثْرِ عِفْرِيَةٍ مُسَوَّمٌ في سَوادِ الليلِ مُنْقَضِبُ[(٨)]

وسُميَ الكوكبُ شِهاباً لأنه[(٩)] لبريقِه يُشبِهُ النارَ. وقيل: شهابٌ: شعلة من نار تبينُ لأهلِ الأرض[(١٠)]، فتحرقُهم ولا تعودُ إذا أحرقَت، كما إذا أحرقتِ النارُ لم تَعُدْ، بخلافِ الكوكبِ، فإنَّه إذا أحرقَ، عادَ إلى مكانِه.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٧٨، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٧٦، وتفسير الطبري ١٤/ ٣٢ - ٣٣.

(٢) بعدها في (ظ): من أخبار السماء.

(٣) قوله: من استرق، ليس في (ظ).

(٤) النكت والعيون ٣/ ١٥٢، وزاد المسير ٤/ ٣٩٠.

(٥) ذكر قولهما الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٥٣، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٤، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٩٠، وأخرجه عن ابن عباس الطبري ١٤/ ٣٢ - ٣٣.

(٦) الوسيط ٣/ ٤١ - ٤٢، وزاد المسير ٤/ ٣٩٠.

(٧) في (ظ): عرفة، وكلام ابن عُزيز في نزهة القلوب ص٣٦٧، دون قوله: في رأس عود.

(٨) البيت في ديوانه ١/ ١١١، قال شارحه أبو نصر الباهلي: وعفرية: شيطان، ومسوَّم: مُعْلَمٌ مسوَّم بالبياض في سواد الليل، ويكون مسوم: مخلًّى عنه. ومنقضب: مُنقضٌ.

(٩) ليست في (د) و(ز) و(م).

(١٠) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: لشعلة من نار قبس لأهل الأرض.

قال ابنُ عباسٍ: تصعدُ الشياطينُ أفواجاً تسترقُ السمعَ، فَينفردُ الماردُ منها فَيعلو، فَيُرْمَى بالشهابِ، فيصيبُ جبهتَه أو أنفَه أو ما شاء الله، فَيلتهبُ، فيأتي أصحابَه وهو يلتهبُ، فيقولُ: إنَّه كان من الأمرِ كذا وكذا، فيذهبُ أولئك إلى إخوانِهم من الكَهَنةِ، فَيزيدون عليها تسعاً، فيُحدِّثون بها أهلَ الأرضِ، الكلمةُ حقٌّ والتسعُ باطلٌ، فإذا رأَوا شيئاً مما قالوا قد كان، صَدَّقوهم بكلِّ ما جاؤوا به من كذِبهم[(١)]. وسيأتي هذا المعنى مرفوعاً في سورة «سبأ» إن شاء الله تعالى[(٢)].

واختُلِف في الشهابِ، هل يَقتُل أم لا؟ فقالَ ابن عباس: الشهابُ يَجرحُ ويُحرِق ويَخبِلُ، ولا يقتلُ. وقالَ الحسنُ وطائفةٌ: يَقتلُ؛ فعلى هذا القولِ؛ في قتلِهم بالشُّهبِ قبلَ إلقاءِ السمعِ إلى الجنِّ قولان:

أحدُهما: أنَّهم يُقتلون قبلَ إلقائِهم ما استرَقُوه من السمعِ إلى غيرهم، فعلى هذا؛ لا تصلُ أخبارُ السماءِ إلى غيرِ الأنبياء، ولذلك انقطعتِ الكِهانةُ.

والثاني: أنَّهم يُقتَلون بعد إلقائِهم ما استرقوه من السمعِ إلى غيرِهم من الجنِّ، ولذلك ما يعودون إلى استراقِه، ولو لم يصلْ، لانقطعَ الاستراقُ، وانقطع الإحراقُ. ذكره المَاورديُّ[(٣)].

قلتُ: والقولُ الأوّل أصحُّ على ما يأتي بيانُه في «الصَّافات»[(٤)].

واختُلِف: هل كانَ رميٌ بالشُّهُب قبلَ المبعثِ؟ فقال الأكثرون: نعم. وقيل: لا، وإنَّما ذلك بعدَ المبعث[(٥)]. وسيأتي بيانُ هذه المسألةِ في سورةِ الجن إن شاءَ الله تعالى. وفي «الصَّافات» أيضاً. قال الزَّجاجُ[(٦)]: والرميُ بالشهبِ من آياتِ النبيِّ ﷺ،

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٣٢ ، وينظر تفسير السمرقندي ٢/ ٢١٦ .

(٢) في الآية: ٢٣ .

(٣) في النكت والعيون ٣/ ١٥٣ .

(٤) الآية: ٨ .

(٥) زاد المسير ٤/ ٣٨٧ - ٣٨٩ .

(٦) في معاني القرآن ٣/ ١٧٦ ، وينظر زاد المسير ٤/ ٣٨٨ .

ممَّا حدثَ بعد مولِده؛ لأنَّ الشعراءَ في القديم لم يذكروهُ في أشعارِهم، ولم يُشَبِّهوا الشيءَ السريعَ به، كما شَبَّهوا بالبرقِ وبالسَّيلِ.

ولا يبعدُ أن يقالَ: انقضاضُ الكواكبِ كان في قديمِ الزمانِ، ولكنَّه لم يكن رجوماً للشياطين، ثم صار رجوماً حين وُلِد النبيُّ ﷺ[١].

وقال العلماءُ: نحنُ نرى انقضاضَ الكواكب، فيجوزُ أن يكونَ ذلك كما نرى، ثم يصير ناراً إذا أدركَ الشيطانَ. ويجوز أن يقال: يُرمَوْن بشعلةٍ من نارٍ من الهواء، فيُخيَّل إلينا أنَّه نجمٌ سَرَى. والشِّهابُ في اللغةِ: النارُ السَّاطعةُ[٢].

وذكر أبو داود[٣]، عن عامر الشعبيِّ قالَ: لمَّا بُعث النبيُّ ﷺ رُجِمت الشياطينُ بنجومٍ لم تكن تُرجَم بها قبلُ، فأتَوا عبدَ ياليل بنَ عمرو الثقفيَّ، فقالوا: إنَّ الناسَ قد فَزِعوا، وقد أعتقوا رقيقَهم، وسَيَّبوا أنعامَهم؛ لما رأو في[٤] النجومِ. فقالَ لهم، وكان رجلاً أعمى: لا تَعجَلُوا، وانظروا، فإنْ كانتِ النجومُ التي تُعرفُ فهو[٥] عند فناءِ الناسِ، وإن كانت لا تُعرف فهو من حَدَثٍ، فنَظروا؛ فإذا هي نجومٌ لا تُعرفُ، فقالوا: هذا من حَدَثٍ، فلم يَلبَثوا حتى سَمِعوا بالنبيِّ ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ۝١٩ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ۝٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾ هذا من نِعَمِه أيضاً، وممَّا يدلُّ على كمالِ قدرته. قال ابنُ عباس: بَسطناها على وجهِ الماء[٦]؛ كما قالَ: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾

(١) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٤ - ٣٥٥.

(٢) اللسان (شهب).

(٣) ليس عند أبي داود، إنما ذكره ابن عبد البر في الدرر ص١٦ - ١٧، عن أبي داود، وقد نقله المصنف عنه.

(٤) في (ظ): ما في.

(٥) في (د) و(ز) و(م): فهي (في الموضعين)، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في الدرر.

(٦) تفسير الرازي ١٩/ ١٧٠.

[النازعات: ٣٠] أي: بَسَطها. وقال: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨]. وهو يَردُّ على مَن زعم أنَّها كالكرة. وقد تقدّم[١]. ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾: جبالاً ثابتة؛ لئلا تتحركَ بأهلها. ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ أي: مقدَّر معلوم؛ قاله ابنُ عباس وسعيدُ بن جبير. وإنما قال: «موزون»؛ لأنَّ الوزنَ يُعرَف به مقدارُ الشيءِ. قال الشاعرُ:

قد كنتُ قبلَ لقائكم ذا مِرَّةٍ عندي لكلِّ مُخاصِمٍ مِيزانُهُ[٢]

وقال قتادةُ: موزونٌ يعني: مقسوم. وقال مجاهدٌ: موزونٌ: معدودٌ[٣]. ويقال: هذا كلامٌ موزونٌ، أي: منظومٌ غيرُ منتثر[٤].

فعلى هذا؛ أي: أنبتنا في الأرضِ ما يُوزَن من الجواهرِ والحيوانات والمعادنِ. وقد قال اللهُ عزَّ وجلَّ في الحيوان: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧]، والمقصودُ من الإنباتِ الإنشاءُ والإيجادُ. وقيل: ﴿أَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ أي: في الجبالِ ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ من الذهب والفضةِ والنحاسِ والرَّصاص والقَزدير[٥]، حتى الزِّرنيخ والكُحل، كلُّ ذلك يُوزن وزناً؛ رُوي معناه عن الحسن، وابن زيد. وقيل: أنْبَتْنَا في الأرض الثمارَ مما يُكال ويُوزن. وقيل: ما يوزنُ فيه الأثمانُ؛ لأنَّه أجلُّ قدراً، وأعمُّ

(١) ص٨ من هذا الجزء، وما ذكر عن الأرض أنها كالكرة لم يعد بحاجة إلى ردّ.

(٢) أورده الطبري في التفسير ٢٤/ ٥٩٤، والفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٨٧، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٥٤، وابن منظور في اللسان (وزن) دون نسبة. والمعنى كما قال الفراء: عندي وزن كلامه ونقضه.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٥٣ - ١٥٤. وأخرج عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٤٦، والطبري في التفسير ١٤/ ٣٦، عن قتادة في قوله تعالى ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ قال: معلوم.

وكذلك قول مجاهد في تفسيره ١/ ٣٤٠، وفيه: مقدر مقدور، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٤/ ٣٦ بلفظ: مقدور بقدر، وأورده ابنُ الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٩١.

(٤) في النسخ الخطية: منتشر، وهما بمعنى.

(٥) هو القصدير، المعدن المعروف.

نفعاً مما لا ثمنَ له[١].

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ يعني: المطاعمَ والمشاربَ التي يعيشون بها؛ واحدُها معيشةٌ؛ بسكون الياء. ومنه قولُ جريرٍ:

تُكلِّفُني مَعِيشةَ آلِ زيدٍ ومَنْ لي بالمرقَّق والصِّنابِ[٢]

والأصلُ: مَعْيِشةٌ؛ على مَفْعِلة؛ بتحريك الياء. وقد تقدَّم في الأعراف[٣]. وقيل: إنَّها الملابسُ؛ قاله الحسن. وقيل: إنها التصرفُ في أسبابِ الرزق مدةَ الحياة. قال المَاورديُّ[٤]: وهو الظاهرُ.

﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ يريد الدَّوابَّ والأنعام؛ قاله مجاهدٌ[٥]. وعنده[٦] أيضاً: همُ العبيدُ والأولادُ الذين قالَ الله فيهم: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١]. ولفظ «من» يجوز أن يتناولَ العبيدَ والدوابَّ إذا اجتَمعوا؛ لأنه إذا اجتمعَ مَن يَعقِل وما لا يَعقل؛ غُلِّبَ مَن يعقل، أي: جعلنا لكم فيها معايشَ وعبيداً وإماءً ودوابَّ وأولاداً نرزقُهم ولا تَرزقونهم. فـ «من» على هذا التأويل في موضعِ نصبٍ؛ قال معناه مجاهدٌ وغيرُه. وقيل: أرادَ به الوحشَ. قال سعيدٌ: قرأ علينا منصورٌ: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ قال: الوحشُ. فـ «مَن» على هذا تكون لِما لا يَعقِلُ؛ مثلُ ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾

---

(١) ينظر تفسير الطبري ١٤/٣٦ - ٣٧، ومعاني القرآن للزجاج ٣/١٧٦، والنكت والعيون ٣/١٥٤، والوسيط ٣/٤٢، وزاد المسير ٤/٣٩١.

(٢) البيت في تذييل ديوانه ٢/٨١٢، وطبقات فحول الشعراء ٢/٣٩١ - ٣٩٢، والكامل للمبرد ١/٢٠٢-٢٠٣، ووقع في تذييل الديوان: «بالصلائق» بدل «بالمرقَّق»، والصلائق جمع صَليقة، وهي الخبزة الرقيقة، والقطعة المُشواة من اللحم، كما في اللسان (صلق). والصِّناب: صباغ يتخذ من الخردل والزبيب. اللسان (صنب). وزيد هو رجلٌ من أهل اليمامة يُعرف بابن النجار. قاله ابنُ سلَّام في الطبقات.

(٣) ٩/١٦٠.

(٤) في النكت والعيون ٣/١٥٤.

(٥) في تفسيره ١/٣٤٠.

(٦) في (ظ): وعنه. ولم نقف عليه عنده، وعزاه الماوردي في النكت والعيون ٣/١٥٤ إلى ابن بحر.

الآية [النور:٤٥]، وهي في محلِّ خفضٍ عطفاً على الكافِ والميمِ في قولِه: «لكم». وفيه قبحٌ عند البصريين؛ فإنَّه لا يجوز عندَهم عطفُ الظاهرِ على المضمرِ إلَّا بإعادةِ حرفِ الجرِّ؛ مثل: مررتُ به وبزيدٍ. ولا يجوزُ: مررتُ به وزيدٍ إلَّا في الشعرِ[١]. كما قال:

فاليومَ قرَّبتَ[٢] تهجُونا وتَشْتِمُنا فَاذْهَبْ فما بكَ والأيامِ من عَجَبِ[٣]

وقد مضَى هذا المعنى في «البقرةِ» وسورةِ النساءِ[٤].

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ أي: وإن من شيءٍ من أرزاقِ الخلق ومنافعِهم إلا عندنا خزائنُه؛ يعني: المطرَ المُنزَّلَ من السماءِ؛ لأنَّ به نباتَ كلِّ شيءٍ. قال الحسنُ: المطرُ خزائنُ كلِّ شيءٍ. وقيل: الخزائنُ: المفاتيحُ، أي: في السماءِ مفاتيحُ الأرزاقِ؛ قاله الكلبيُّ. والمعنى واحدٌ[٥].

﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي: ولكن لا ننزِّله إلا على حَسَبِ مشيئتِنا، وعلى حسب حاجةِ الخلقِ إليه؛ كما قال: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ [الشورى:٢٧]. ورويَ عن ابنِ مسعود، والحَكَم بن عُتَيْبَة وغيرِهما أنَّه ليس عامٌ أكثرَ مطراً من عام، ولكنَّ اللهَ يُقسِّمه كيفَ شاء، فيُمْطَر قومٌ ويُحرَم

(١) الطبري ١٤/ ٣٧ - ٣٩، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥٥، وزاد المسير ٤/ ٣٩١ - ٣٩٢، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٧٨، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٨٦، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٧٧.

(٢) في (ظ): أقبلتَ.

(٣) أورده سيبويه في الكتاب ٢/ ٣٨٣، والمبرد في الكامل ٢/ ٩٣١، دون نسبة. وقال البغدادي في خزانة الأدب ٥/ ١٢٣: على أن حرف الجر قد يترك ضرورة عند البصريين، أي: ما بك وبالأيام عجب. ومعنى قربتَ: جعلتَ وأخذتَ.

وقال أيضاً ٥/ ١٢٩: والبيت من أبيات سيبويه الخمسين التي لم يعرف لها قائل.

(٤) ٦/ ٧.

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٥٥.

آخرون. وربَّما كان المطرُ في البحارِ والقِفار(١).

والخزائنُ جمعُ الخزانةِ، وهو الموضعُ الذي يَستُر فيه الإنسانُ ما له. والخِزانةُ أيضاً مصدر خَزَن يَخْزُن(٢). وما كان في خِزانةِ الإنسانِ كان مُعَدًّا له، فكذلك ما يُقَدِّرُ عليه الربُّ؛ فكأنه مُعَدٌّ عنده؛ قاله القشيري.

وروى جعفرُ بنُ محمد، عن أبيه، عن جده، أنه قال: في العرشِ مثالُ كلِّ شيءٍ خلقه الله في البرِّ والبحرِ. وهو تأويلُ قولِه تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾(٣). والإنزالُ بمعنى الإنشاءِ والإيجاد، كقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر:٦]، وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد:٢٥]. وقيل: الإنزال بمعنى الإعطاء، وسماه إنزالاً؛ لأنَّ أحكامَ الله إنما تَنزِل من السماء.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ﴾ قراءةُ العامةِ: «الرياح» بالجمع. وقرأ حمزةُ بالتوحيد(٤)؛ لأنَّ معنى الريحِ الجمعُ أيضاً وإن كان لفظُها لفظَ الواحد، كما يُقال: جاءتِ الريح من كل جانبٍ(٥)، كما يقال: أرضٌ سَباسِبُ(٦) وثوبٌ أخْلاقٌ. وكذلك تفعلُ العربُ في كل شيءٍ اتسعَ. وأما وجهُ قراءةِ العامة، فلأنَّ الله تعالى نعتها

---

(١) تفسير الطبري ١٤/٣٩ - ٤٠ ، والنكت والعيون ٣/ ١٥٥ ، وزاد المسير ٤/ ٣٩٢ .

(٢) ينظر اللسان (خزن).

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٧ .

(٤) التيسير ص٧٨ ، والسبعة ١٧٢ - ١٧٣ .

(٥) حجة القراءات لابن زنجلة ص٣٨٢ ، وتفسير الطبري ١٤/ ٤١ .

(٦) السبسب: المفازة، أو الأرض المستوية البعيدة. القاموس المحيط (سبب). وينظر تفسير الطبري ١٤/ ٤١ - ٤٢ .

بـ «لواقح» وهي جمع. ومعنى لواقح: حوامل؛ لأنها تحمل الماءَ والتراب والسَّحاب والخير والنفع[١]. قال الأزهري[٢]: وجعلَ الريحَ لاقحاً؛ لأنَّها تحملُ السحابَ؛ أي: تُقِلُّه وتُصَرِّفه ثم تَمْرِيه[٣] فتستَدِرُّه، أي: تُنزله؛ قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ [الأعراف: ٥٧] أي: حملت. وناقةٌ لاقح، ونُوقٌ لواقح: إذا حَملتِ الأجِنَّةَ في بطونِها. وقيل: لواقحُ بمعنى مُلْقِحة، وهو الأصلُ، ولكنها لا تُلقِح إلا وهي في نفسها لاقح، كأنَّ الرياحَ لَقِحَت بخير. وقيل: ذوات لَقْح، وكلٌّ ذلك صحيحٌ، أي: منها ما يُلقِح الشجرَ؛ كقولهم: عيشة راضية، أي: فيها رضاً، وليل نائم، أي: فيه نومٌ. ومنها ما تأتي بالسحابِ. يقال: لَقِحَتِ الناقةُ، بالكسر، لَقَحاً ولَقاحاً، بالفتح، فهي لاقح. وألقحها الفحلُ، أي: ألقى إليها الماءَ فَحملته[٤]، فالرياحُ كالفحلِ للسحاب.

قال الجوهري[٥]: ورياحٌ لَواقحُ، ولا يقال: مَلاقح، وهو من النوادر. وحكى المهدويُّ عن أبي عبيدة[٦]: لواقحُ بمعنى ملاقح، ذهبَ إلى أنَّه جمع مُلْقِحة ومُلْقِح، ثم حُذِفت زوائدُه[٧]. وقيل: هو جمعُ لاقحةٍ ولاقحٍ، على معنى ذاتِ اللِّقاحِ؛ على النَّسَب[٨]. ويجوزُ أن يكونَ معنى لاقح حاملاً، والعربُ تقولُ للجَنوب: لاقح وحامل، وللشَّمال: حائل وعقيم.

---

(١) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٦ .

(٢) تهذيب اللغة ٤/ ٥٥ - ٥٦ .

(٣) مَرَتِ الريحُ السحاب إذا أنزلت منه المطر. اللسان (مري).

(٤) في تفسير الرازي ١٩/ ١٧٥ . (والكلام فيه بنحوه): ألقى الماء فيها فحملت.

(٥) في الصحاح (لقح).

(٦) في مجاز القرآن ١/ ٣٤٨ .

(٧) الوسيط للواحدي ٣/ ٤٢ .

(٨) أي: النسب بغير ياء قال رضي الدين الاستراباذي في شرح شافية ابن الحاجب ٢/ ٨٤ : يجيء بعض ما هو على فَعَّال وفاعل بمعنى ذي كذا من غير أن يكون اسم فاعل أو مبالغة فيه. وينظر الدر المصون ٧/ ١٥٤ .

وقال عُبيد بن عُمير: يرسلُ الله المُبشِّرةَ فتَقُمُّ الأرضَ قَمًّا، ثم يرسل المُثيرةَ فتثيرُ السحاب، ثم يرسلُ المُؤلِّفة فتؤلفُه، ثم يَبعثُ اللواقحَ فتُلقِحُ الشجرَ. وقيل: الريحُ الملاقحُ التي تحملُ الندى فتمجُّه في السحابِ، فإذا اجتمعَ فيه صار مطراً[١].

وعن أبي هريرةَ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «الريحُ الجنوبُ من الجنةِ، وهي الريحُ اللواقحُ التي ذكرها اللهُ في كتابِه، وفيها منافعُ للناس»[٢].

ورُوي عنه عليه الصلاة والسلامُ أنه قالَ: «ما هبَّتْ جَنوبٌ إلاأَنبعَ الله بها عيناً غَدَقة»[٣].

وقال أبو بكر بنُ عيَّاش: لا تقطرُ قطرةٌ من السَّحابِ إلا بعدَ أن تعملَ الرياحُ الأربعُ فيها، فالصَّبا تُهيِّجُه، والدَّبُور تُلقِحُه، والجَنوبُ تُدِرُّه، والشَّمال تُفرِّقه[٤].

الثانية: روى ابنُ وهب وابنُ القاسم وأشهبُ وابنُ عبد الحكم عن مالكٍ ـ واللفظُ لأشهبَ ـ قال مالكٌ: قال الله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾، فلَقاحُ القمحِ عندي أن يُحبِّبَ ويُسَنْبِلَ، ولا أدري ما يَيْبَسُ في أكمامِه، ولكن يُحبِّب حتى يكونَ لو يَبِس حينئذٍ لم يكن فساداً لا خيرَ فيه[٥]. ولقاحُ الشجرِ كلِّها أن تُثمرَ، ثم يَسقطَ منها ما يسقطُ، ويَثبتَ ما يثبت، وليس ذلك بأن تَورَّد.

قال ابنُ العربي[٦]: إنَّما عوَّل مالكٌ في هذا التفسيرِ على تشبيهِ لَقاحِ الشجرِ بلَقاحِ

---

(١) أخرجه الطبري ١٤/ ٤٥ .

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٤/ ٤٦ ، وضعَّف ابن كثير إسناده.

(٣) ذكره البغوي في التفسير ٣/ ٤٧ ، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٥٥ ، وقال الشافعي في الأم ١/ ٢٢٥ ، ومن طريقه البيهقي في الكبرى ٣/ ٣٦٤ : وبلغني أن قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: ما هبت جنوب قط إلا أسالت وادياً.

(٤) تفسير الطبري ١٤/ ٤٥ - ٤٦ ، والبغوي ٣/ ٤٧ ، والنكت والعيون ٣/ ١٥٥ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥٦ - ٣٥٧ ، وزاد المسير ٤/ ٣٩٣ - ٣٩٤ . وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١١٤ .

(٥) في (م): فساد الأخير فيه.

(٦) في أحكام القرآن ٣/ ١١١٤ ، والكلام منه من أول المسألة الثانية.

الحَمْل، وأنَّ الولدَ إذا عَقَدَ وخُلِق ونُفِخ فيه الروحُ، كان بمنزلةِ تَحبُّبِ الثمرِ وتَسنبُلِه؛ لأنه سُمي باسمٍ تشتركُ فيه كلُّ حاملةٍ، وهو اللَّقاحُ، وعليه جاءَ الحديثُ: نهى النبيُّ ﷺ عن بيعِ الحَبِّ حتى يَشتدَّ[١].

قال ابنُ عبدِ البَرّ[٢]: الإِبَارُ عندَ أهلِ العلم في النخل: التلقيحُ، وهو أن يُؤخذَ شيءٌ من طلعِ[٣] النخلِ، فيُدْخَلَ بين ظَهرانَي طلعِ الإناث. ومعنى ذلك في سائرِ الثمارِ ظهورُ[٤] الثمرةِ من التينِ وغيرِه حتى تكونَ الثمرةُ مرئيةً منظوراً إليها. والمعتبرُ عند مالكٍ وأصحابِه فيما يُذَكَّر من الثمارِ التذكيرُ، وفيما لا يُذكَّر أن يَثبتَ من نُوَّارِه ما يَثبت، ويَسقطَ ما يَسقط. وحدُّ ذلك في الزرعِ ظُهورُه من الأرض؛ قاله مالكٌ. وقد رُوِيَ عنه أنَّ إبارَه أن يُحبِّبَ. ولم يختلفِ العلماءُ أن الحائطَ إذا انشقَّ طلعُ إناثِه، فأُخِّر إبارُه؛ وقد أُبِّر غيرُه ممَّن حالُه مثلُ حالِه؛ أنَّ حكمَه حُكْمُ ما أُبِّر؛ لأنه قد جاءَ عليه وقتُ الإبارِ وثمرتُه ظاهرةٌ بعد تغيبها في الجُفِّ[٥]. فإن أُبِّر بعضُ الحائط، كان ما لم يُؤبَّر تبعاً له، كما أنَّ الحائطَ إذا بدا صلاحُه، كان سائرُ الحائطِ تبعاً لذلك الصلاحِ في جوازِ بيعِه.

الثالثة: روى الأئمةُ كلُّهم عن ابنِ عمرَ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنِ ابتاعَ نخلاً بعد أن تُؤبَّر؛ فثمرتُها للذي باعَها إلا أن يَشترطَ المبتاعُ. ومنِ ابتاع عبداً؛ فمالُه للذي باعَه إلا أن يَشترطَه المبتاع»[٦].

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٣٧١)، والترمذي (١٢٢٨)، وابن ماجه (٢٢١٧)، وأحمد (١٣٣١٤) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٢) في التمهيد ١٣/ ٢٩١.

(٣) بعدها في (م): ذكور.

(٤) في (د) و(ز) و(م): طلوع، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في التمهيد ١٣/ ٢٩١.

(٥) في (د) و(ز) و(م): الحب، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في التمهيد ١٣/ ٢٩١، والجُفُّ: وعاء الطلع. القاموس (جفف).

(٦) أخرجه البخاري (٢٣٧٩)، ومسلم (١٥٤٣) (٨٠)، وأبو داود (٣٤٣٣)، والترمذي (١٢٤٤)، والنسائي في المجتبى ٧/ ٢٩٧، وفي الكبرى (٤٩٩١)، وابن ماجه (٢٢١١)، وأحمد (٤٥٥٢).

قال علماؤنا: إنَّما لم يَدخلِ الثمرُ المؤبَّرُ مع الأصولِ في البيعِ إلا بالشرطِ؛ لأنَّه عينٌ موجودةٌ يُحاطُ بها، أُمِنَ سقوطُها غالباً، بخلافِ التي لم تُؤبر؛ إذ ليس سُقوطُها مأموناً، فلم يَتحققْ لها وجود، فلم يَجُزْ للبائعِ اشتراطُها، ولا استثناؤها؛ لأنَّها كالجنين، وهذا هو المشهورُ من مذهبِ مالك. وقيل: يجوزُ استثناؤها، وهو قولُ الشافعي.

الرابعة: لو اشتُرِيَ النخلُ وبقي الثمرُ للبائع؛ جازَ لمشتري الأصلِ شراءُ الثمرةِ قبل طِيبها على مشهورِ قولِ مالك، ويرى لها حكمَ التبعية، وإن أُفرِدتْ بالعقد. وعنه في روايةٍ: لا يجوزُ، وبذلك قال الشافعيُ وأبو حنيفةَ، والثوري وأهلُ الظاهرِ، وفقهاءُ الحديث، وهو الأظهرُ من أحاديثِ النهي عن بيعِ الثمرةِ قبل بُدوِّ صلاحِها[١].

الخامسة: وممَّا يتعلقُ بهذا البابِ النَّهيُ عن بيعِ الملاقح، والمَلاقِحُ: الفحولُ من الإبل، الواحدُ مُلقِح. والمَلاقِحُ أيضاً: الإناثُ التي في بطونِها أولادُها، الواحدةُ مُلقَحة بفتحِ القاف. والملاقيحُ: ما في بطونِ النوقِ من الأَجِنَّة، الواحدةُ مَلقوحة، من قولهم: لُقِحَت، كالمحموم من حُمَّ، والمجنون من جُنَّ[٢]. وفي هذا جاء النَّهيُ. وقد رُوِيَ عن النبيِّ ﷺ: أنه نهى عن المَجْر[٣]، وهو بيعُ ما في بطونِ الإناث، ونَهى عن المَضامينِ والمَلاقيح[٤]. قال أبو عبيد: المضامينُ: ما في البطون، وهي الأجِنَّة. والملاقيحُ: ما في أصلابِ الفحول. وهو قولُ سعيدِ بنِ المسيب وغيرِه. وقيل بالعكس: إنَّ المضامينَ ما في ظُهورِ الجمال، والمَلاقيحَ ما في بطونِ الإناث. وهو قولُ ابنِ حبيب وغيرِه. وأيُّ الأمرين كان، فعلماءُ المسلمين مجمعون على أنَّ ذلك لا يجوزُ. وذكر المُزنيُّ عن ابنِ هشامٍ شاهداً بأنَّ الملاقيحَ ما في البطونِ لبعضِ

(١) المفهم ٤/ ٣٩٩.

(٢) الصحاح (لقح).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (١٤٤٤٠)، والبيهقي ٥/ ٣٤١، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البزار (١٢٦٨ - كشف الأستار)، والطبراني (١١٥٨١)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الأعراب:

مَنَّيْتَني[1] مَلاقحاً في الأبطُنِ تُنْتَج ما تَلْقَحُ بعد أزْمُنِ

وذكر الجوهري[2] على ذلك شاهداً قولَ الراجز:

إنَّا وَجدنا طَرَدَ الهَوامِلِ خيراً من التَّأنانِ والمسائلِ

وعِدَةِ العامِ وعامٍ قابلِ مَلقوحةً في بطنِ نابٍ حاملِ[3]

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من السَّحاب. وكلُّ ما علاك فأظلَّك يُسمَّى سماء. وقيل: من جهةِ السَّماء. ﴿مَآءً﴾ أي: قَطْراً. ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ أي: جعلنا ذلك المطرَ لسُقياكم ولشُربِ مواشيكم وأرضِكم. وقيل: سَقى وأَسقى بمعنًى. وقيل: بالفرقِ، وقد تقدَّم[4].

﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ أي: ليست خَزائنُه عندكم، أي: نحنُ الخازنون لهذا الماءِ نُنزله إذا شِئنا، ونُمسِكه إذا شئنا. ومثلُه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان:٤٨]، ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون:١٨]. وقال سفيانُ: لستم بمانعين المطرَ[5].

---

(١) في (م) واللسان (لقح): منيتي، والمثبت من النسخ الخطية، والتمهيد لابن عبد البر ١٣/ ٣١٥، وعنه نقل المصنف، وتهذيب اللغة ٤/ ٥٣، واللسان (لقح). ووقع في التمهيد «شهاب» بدل «هشام»، وقد جاء مصرَّحاً به في التهذيب واللسان وهو: عبد الملك بن هشام.

(٢) في الصحاح (لقح).

(٣) في تهذيب اللغة ٤/ ٥٢، والصحاح واللسان وأساس البلاغة (لقح): «حائل» بدل: «حامل»، ونسَبه الزمخشري إلى مالك بن الريب. والمعنى كما قال الحسن اليوسي في المحاضرات ٢/ ٥٥٠-٥٥١: إنَّ سرقة الإبل الهوامل - أي: التي لا راعي معها - خير لنا من الأنين والتشكي وسؤال الناس، فهذا يردنا، وهذا يَعِدنا بالعطاء في العام أو القابل جنيناً في بطن أمه.

(٤) ٢/ ١٣٥.

(٥) تفسير الطبري ١٤/ ٤٦ - ٤٧، والنكت والعيون ٣/ ١٥٥ - ١٥٦، وتفسير البغوي ٣/ ٤٨، وزاد المسير ٤/ ٣٩٤ - ٣٩٥.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾

أي: مَنْ قَدَر على هذه الأشياء قادرٌ على الإماتةِ ثم الإحياء بعدها ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾[1] أي: الأرضَ ومَن عليها، ولا يبقى شيءٌ سوانا. نظيرُه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠]. فمُلكُ كلِّ شيءٍ لله تعالى، ولكن مَلَّكَ عبادَه أملاكاً، فإذا ماتوا، انقطعتِ الدَّعاوى، فكانَ الله وارثاً من هذا الوجه[2]. وقيل: الإحياءُ في هذه الآية إحياءُ النطفة في الأرحامِ، فأمَّا البعثُ، فقد ذَكَره بعدَ هذا في قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْۚ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

فيه ثلاثُ مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ فيه ثمانِ تأويلاتٍ:

الأوَّلُ: «المستقدِمين»: في الخلقِ إلى اليوم، و«المستأخرين»: الذين لم يُخلَقوا بعد؛ قاله قتادةُ وعكرمةُ وغيرُهما.

الثاني: «المستقدِمين»: الأموات، و«المستأخرين»: الأحياء؛ قاله ابنُ عباس والضَّحاك.

الثالث: «المستقدمين»: مَن تقدَّم أمةَ محمد ﷺ، و«المستأخرين»: أُمةُ محمدٍ ﷺ؛ قاله مجاهد.

الرابع: «المستقدمين»: في الطاعةِ والخير، و«المستأخرين»: في المعصيةِ والشر؛ قاله الحسنُ وقتادةُ أيضاً.

الخامس: «المستقدمين» في صفوفِ الحرب، و«المستأخرين» فيها؛ قاله سعيدُ ابنُ المسيب.

---

(١) قوله: أي: من قدر إلى هنا ليس في (د) و(ز) و(م).

(٢) ينظر تفسير الوسيط للواحدي ٣/ ٤٢ - ٤٣ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٨ ، وتفسير الرازي ١٩/ ١٧٧ .

السادس: «المستقدمين»: مَنْ قُتِل في الجهاد، و«المستأخرين»: مَن لم يُقتَل؛ قاله القُرَظي.

السابع: «المستقدمين»: أوَّلُ الخَلق، و«المستأخرين»: آخرُ الخلق؛ قاله الشَّعبي.

الثامن: «المستقدمين»: في صفوفِ الصَّلاة، و«المستأخرين» فيها بسبب النساء[(١)]. وكلٌّ هذا معلومٌ لله تعالى، فإنَّه عالمٌ بكلِّ موجودٍ ومعدوم، وعالمٌ بمَن خُلِق وما هو خَالِقُه إلى يومِ القيامة. إلا أنَّ القولَ الثامن هو سببُ نزولِ الآية؛ لما رواه النَّسائيُّ والترمذيُّ[(٢)] عن أبي الجَوزاءِ، عن ابنِ عباسٍ قال: كانتِ امرأةٌ تصلي خلفَ رسولِ الله ﷺ حسناءُ من أحسنِ الناس، فكانَ بعضُ القومِ يَتقدَّمُ حتى يكونَ في الصفِّ الأوَّل؛ لئلَّا يراها، ويتأخَّرُ بعضُهم حتى يكونَ في الصفِّ المؤخر، فإذا ركعَ، نظرَ من تحتِ إبْطِه، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾. ورُوي عن أبي الجوزاءِ ولم يُذكر ابنُ عباس، وهو أَصحُّ.

الثانية: هذا يدلُّ على فضل أوَّل الوقتِ في الصَّلاة، وعلى فضلِ الصفِّ الأوَّل؛ قال النبيُّ ﷺ: «لو يعلمُ الناسُ ما في النداءِ والصفِّ الأوَّل، ثم لم يجِدوا إلا أن يَستَهِموا عليه؛ لاستَهَمُوا»[(٣)].

---

(١) تفسير الطبري ١٤/٤٨ - ٥٤، وتفسير مجاهد ١/٣٤١، وتفسير السمرقندي ٢/٢١٧ - ٢١٨، والنكت والعيون ٣/١٥٦ - ١٥٧، والوسيط ٣/٤٣، وزاد المسير ٤/٣٩٦ - ٣٩٧، وتفسير الرازي ١٩/١٧٧ - ١٧٨. ونسب ابن الجوزي والرازي القولَ الخامس إلى الضحاك بدلاً من ابن المسيب. وعدَّ ابن العربي في أحكام القرآن ٣/١١١٥ خمسة أقوال فقط.

(٢) النسائي في المجتبى ٢/١١٨، وفي الكبرى (١١٢٧٣)، والترمذي (٣١٢٢)، وابن ماجه (١٠٤٦)، وأحمد (٢٧٨٣). وأبو الجوزاء: هو أوس بن عبد الله الرَّبَعي.

وقال الترمذي: وروى جعفر بن سليمان هذا الحديث عن عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء نحوه، ولم يذكر فيه ابن عباس، وهذا أشبه أن يكون أصح من حديث نوح. وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية: حديث غريب جدًّا، وفيه نكارة شديدة. ثم رجح أن يكون من كلام أبي الجوزاء.

(٣) سلف ٥/١٣٣.

فإذا جاءَ الرجلُ عند الزوال، فنزلَ في الصفِّ الأوَّل مجاورَ الإمام؛ حازَ ثلاثَ مراتبَ في الفضل: أَوَّلَ الوقت، والصفَّ الأوَّل، ومُجاورةَ الإمام. فإن جاء عند الزوالِ، فنزلَ في الصف الآخِر، أو فيما نزلَ عن الصفِّ الأوَّل؛ فقد حازَ فضلَ أوَّلِ الوقت، وَفاتَه فضلُ الصفِّ الأوَّلِ والمجاورةِ. فإن جاءَ وقتَ الزوال، ونزلَ في الصف الأوَّل دون ما يلي الإمام؛ فقد حازَ فضلَ أوَّلِ الوقت، وفضلَ الصفِّ الأوّل، وفاتَه مجاورة الإمام. فإن جاءَ بعد الزوال، ونزلَ في الصفِّ الأوّل؛ فقد فاتَه فضيلةُ أوَّلِ الوقت، وحاز فضيلةَ الصفِّ الأوّل، ومجاورةِ الإمام. وهكذا.

ومجاورةُ الإمامِ لا تكونُ لكلّ أحد، وإنَّما هي كما قالَ ﷺ: «لِيَلِني منكم أُولو الأحلامِ والنُّهَى»[(١)] الحديث. فما يلي الإمامَ ينبغي أن يكونَ لمن كانت هذه صفتَه، فإن نَزلَها غيرُه أُخِّر، وتقدَّم هو إلى الموضعِ؛ لأنه حقُّه بأمرِ صاحبِ الشرع، كالمحرابِ هو موضعُ الإمامِ تقدَّم أو تأخر؛ قاله ابنُ العربي[(٢)].

قلتُ: وعليه يُحملُ قولُ عمرَ رضي الله عنه: تَأَخَّرْ يا فلان، تَقدَّم يا فلان. ثم يتقدَّمُ فيُكَبِّر[(٣)]. وقد رُويَ عن كعب، أنَّ الرجلَ من هذه الأمةِ لَيَخِرُّ ساجداً، فيغفرُ لِمَن خَلفه. وكان كعبٌ يتوخَّى الصفَّ المؤخَّرَ من المسجدِ رجاءَ ذلك، ويَذكُر أنَّه وَجَده كذلك في التوراة. ذكرهُ الترمذيُّ الحكيمُ في «نوادرِ الأصول»[(٤)]. وسيأتي في سورةِ الصَّافات زيادةُ بيانٍ لهذا البابِ إن شاءَ الله تعالى.

الثالثة: وكما تدلُّ هذه الآيةُ على فضلِ الصف الأوّل في الصلاة، فكذلك تدلُّ على فضلِ الصفِّ الأوَّل في القتال؛ فإنَّ القيامَ في نحر العدوِّ، وبيعَ العبدِ نفسَه من اللهِ تعالى لا يُوازيه عملٌ، فالتقدُّمُ إليه أفضلُ، ولا خلافَ فيه، ولا خفاءَ به. ولم يكن

(١) سلف ٢/ ٤٨ .

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١١١٥ - ١١١٦ .

(٣) أخرجه الطبري في التفسير ١٩/ ٦٥٣ .

(٤) نوادر الأصول ص٢٩ ، الأصل العشرون.

أحدٌ يتقدَّم في الحربِ بين يدي رسولِ الله ﷺ؛ لأنَّه كان أشجعَ الناس. قال البَرَاءُ: كنَّا ـ واللهِ ـ إذا احمرَّ البأسُ نَتَّقي به، وإنَّ الشجاعَ منَّا لَلَّذي يُحاذي به. يعني النبيَّ ﷺ[١].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ٢٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْۚ﴾ أي: للحسابِ والجزاء. ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ تقدم[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ٢٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يعني: آدمَ عليه السَّلام. ﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾ أي: من طينٍ يابسٍ؛ عن ابن عباس وغيرِه[٣]. والصَّلْصَالُ: الطينُ الحرُّ خُلِط بالرمل، فصارَ يَتصلصَلُ إذا جَفَّ، فإذا طُبِخ بالنار، فهو الفَخَّار؛ عن أبي عبيدة[٤]. وهو قولُ أكثرِ المفسرين[٥]. وأنشد أهلُ اللغة:

كعَدْوِ المُصَلْصِلِ الجَوَّالِ[٦]

وقال مجاهد[٧]: هو الطِّينُ المُنْتِنِ. واختارَه الكِسائيُّ[٨]. قال: وهو من قولِ العربِ[٩]: صلَّ اللَّحمُ وأصلَّ: إذا أنتن، مطبوخاً كان أو نِيْئاً، يَصِلُّ صُلولاً. قال الحُطَيئة:

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١١٦، وقول البراء أخرجه مسلم (١٧٧٦) (٧٩).

(٢) ١/ ٤٢٩.

(٣) تفسير الطبري ١٤/ ٥٧ - ٥٨.

(٤) في مجاز القرآن ١/ ٣٥٠.

(٥) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ٥٧، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٨٨، والنكت والعيون ٣/ ١٥٧، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥٨، وزاد المسير ٤/ ٣٩٧.

(٦) عجزُ بيت للأعشى الكبير ميمون بن قيس، وصدره: عنتريس تعدو إذا مسَّها السوط. وهو في ديوانه ص٥٧، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٥٠ - ٣٥١، واللسان (صلل).

(٧) في تفسيره ١/ ٣٤١، وأخرجه عنه الطبري في تفسيره ١٤/ ٥٨ - ٥٩.

(٨) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٢٤، وتفسير البغوي ٣/ ٤٩.

(٩) الصحاح (صلل).

ذاكَ فتـى يبـذلُ ذا قِـدْرِه لا يُفسِدُ اللحمَ لَدَيه الصُّلولُ[(١)]

وطينٌ صَلَّالٌ ومِصْلالٌ، أي: يُصوِّتُ إذا نَقَرْتَه، كما يُصوِّتُ [الفَخَّارُ] الجَديدُ[(٢)]. فكان أوَّلَ تراباً، أي: مُتفرِّقَ الأجزاءِ، ثم بُلَّ فصارَ طيناً، ثم تُرِك حتى أنتنَ، فصارَ حَمَأً مسنوناً، أي: متغيراً، ثم يَبِس فصارَ صَلصالاً؛ على قولِ الجمهورِ. وقد مضَى في «البقرة» بيانُ هذا[(٣)].

والحَمَأُ: الطينُ الأسودُ، وكذلك الحَمْأة، بالتسكين، تقولُ منه: حَمَأْتُ[(٤)] البئرَ حَمْأً؛ بالتسكين: إذا نَزعتَ حَمْأَتها. وحَمِئَتِ البئرُ حَمَأً؛ بالتحريك: كَثُرتْ حَمْأَتُها. وأَحْمَأْتُها إحماءً: أَلقيتُ فيها الحَمْأَةَ؛ عن ابنِ السِّكِّيت[(٥)]. وقال أبو عبيدة: الحَمْأَةُ، بسكونِ الميم، مثلُ الكَمْأة. والجمعُ حَمْءٌ، مثل: تَمْرةٌ وتَمر. والحَمَأُ المصدرُ، مثل: الهَلَعِ والجَزَع، ثم سُمِّي به[(٦)].

و«المسنونُ»: المتغيِّرُ. قال ابنُ عباس: هو الترابُ المبتلُّ المنتنُ، فجُعِل صَلصالاً كالفخَّار. ومثلُه قولُ مجاهدٍ وقتادةَ، قالا: المنتنُ: المُتغيِّر[(٧)]؛ من قولِهم: قد أَسِنَ الماءُ: إذا تغيَّر، ومنه: «يَتَسَنَّه»، و«ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ». ومنه قولُ أبي قيس بن الأسلت[(٨)]:

---

(١) ديوانه ص١٧٦ ، واللسان (صلل)، وصدره عند أبي حاتم السجستاني في فعلت وأفعلت ص١٢٠ : هو الفتى كلُّ الفتى فاعلموا.

(٢) في النسخ: الحديد، والمثبت من الصحاح وما بين حاصرتين منه، ووقع في اللسان (صلل): الخزف، بدل: الفخَّار .

(٣) ١/ ٤١٨ .

(٤) في (م): حمئت.

(٥) الصحاح (حمأ)، وكلام ابن السكيت في إصلاح المنطق ص٢٥٥ .

(٦) مجاز القرآن ١/ ٣٥١ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥٩ ، وزاد المسير ٤/ ٣٩٧ ، وتفسير الرازي ١٩/ ١٨٠ .

(٧) تفسير الطبري ١٤/ ٦١ - ٦٢ .

(٨) النكت والعيون ٣/ ١٥٨ .

سَقَتْ صداي رُضاباً غيرَ ذي أسنٍ كالمسكِ فُتَّ على ماءِ العناقيدِ

وقال الفَراء: هو المتغيرُ، وأصلُه من قولِهم: سَنَنْتُ الحجرَ على الحجرِ: إذا حَكَكْتَه به، وما يخرجُ من الحجرينِ يقال له: السنانة والسَّنِين، ومنه المِسَنُّ[1]. قال الشاعر:

ثم خَاصرتُها إلى القبةِ الحمـ ـراءِ تمشي في مَرْمَرٍ مَسنونِ

أي: محكوك مُمَلَّس. حُكي أنَّ يزيدَ بنَ معاوية قال لأبيه: ألا ترى عبدَ الرحمن ابنَ حسَّان يُشبِّب بابنتِك؟ فقال معاويةُ: وما قال؟ فقال: قال:

هي زَهْراءُ مثلُ لؤلؤةِ الغوَّ اصِ مِيزَتْ من جَوهرٍ مَكْنونِ

فقال معاويةُ: صدَق! فقال يزيدُ: إنه يقول:

وإذا ما نَسبْتَها لم تَجِدْها في سَناءٍ من المكارمِ دونِ[2]

فقال: صَدقَ! فقال: أينَ قولُه: ثم خَاصرتها...؟ البيتِ. فقال معاويةُ: كذبَ.

وقال أبو عبيدة[3]: المَسنونُ: المَصبوبُ. وهو من قولِ العربِ: سَننتُ الماءَ وغيرَه على الوجهِ، إذا صَبَبْتَه. والسَّنُّ: الصَّبُّ[4].

وروى عليُّ بن أبي طلحة، عن ابنِ عباس قال: المسنونُ: الرَّطبُ[5]. وهذا

---

(١) معاني القرآن ٢/ ٨٨ . للفراء، دون قوله: السنانة، ولم ينقلها أحدٌ ممَّن نقل كلام الفراء هذا، وينظر تهذيب اللغة ١٢/ ٣٠١ ، واللسان (سنن).

(٢) اختلف في نسبة هذه الأبيات، فمنهم مَن نسبها إلى أبي دَهْبَل الجمحي كما في الأغاني ٧/ ١٢٣-١٢٤ ، والكامل للمبرد ١/ ٣٨٧ ، ومنهم من نسبها إلى عبد الرحمن بن حسان بن ثابت كما في الأغاني ١٠٩/١٥ - ١١٠ ، والعقد الفريد ٥/ ٣٢٢ - ٣٢٣ ، والشعر والشعراء ١/ ٤٨٤ - ٤٨٥ ، والصحاح واللسان (سنن)، وقال المبرد في الكامل ١/ ٣٨٧ : والذي كأنه إجماع أنه لعبد الرحمن بن حسان، وهو في بنت معاوية. وفي جميع المصادر: «القبة الخضراء» بدل «القبة الحمراء».

(٣) في مجاز القرآن ١/ ٣٥١ .

(٤) ينظر الأفعال للسرقسطي ٣/ ٥٠٢ ، وتهذيب اللغة ١٢/ ٣٠١ ، وزاد المسير ٤/ ٣٩٨ .

(٥) أخرجه الطبري في التفسير ١٤/ ٦٢ ، وينظر زاد المسير ٤/ ٣٩٨ .

بمعنى المَصْبوب؛ لأنَّه لا يكونُ مصبوباً إلا وهو رَطبٌ. النَّحاس[١]: وهذا قولٌ حسن؛ لأنه يُقال: سَنَنْتُ الشيء، أي: صَببتُه. قاله[٢] أبو عمرو بنُ العلاء. ومنه الأثرُ المرويُّ عن ابن[٣] عمر أنه كان يَسُنُّ الماءَ على وجهِه ولا يَشُنُّه. والشَّنُّ، بالشين: تفريقُ الماءِ، وبالسينِ المهملةِ: صبُّه من غيرِ تفريق.

وقال سيبويه: المسنونُ: المصوَّرُ. أُخِذ من سُنَّةِ الوجهِ، وهي[٤] صورتُه. وقال ذو الرُّمَّة:

تُـرِيـك سُـنَّـةَ وجـهٍ غـيـرَ مُـقْـرِفـةٍ مـلـسـاءَ لـيس بـهـا خـالٌ ولا نَـدَبُ[٥]

وقال الأَخفش[٦]: المسنونُ: المنصوبُ القائِم، من قولهم: وجهٌ مسنونٌ: إذا كان فيه طولٌ. وقد قيل: إن الصَّلصالَ الترابُ المدقَّق[٧]؛ حكاه المهدويُّ. ومَن قال: إنَّ الصَّلصالَ هو المنتنُ، فأصلُه صلَّال، فأُبدل من إحدى اللامين الصاد[٨]. و﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾ مُفسِّرٌ لجنسِ الصَّلصال؛ كقولك: أخذتُ هذا من رجلٍ من العرب.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبلِ خلقِ آدمَ. وقال الحسنُ: يعني:

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ٢٤ - ٢٦ .

(٢) في النسخ: قال، والمثبت من النكت والعيون ٣/ ١٥٨ ، وزاد المسير ٤/ ٣٩٨ .

(٣) ليست في النسخ، والمثبت من مصنف ابن أبي شيبة ١/ ٦٧ ، والغريب للخطابي ١/ ٤٣٩ ، والنهاية في غريب الحديث ٢/ ٤١٣ ، واللسان (سنن).

(٤) في (د) و(ز) و(م): وهو، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في الوسيط للواحدي ٣/ ٤٤ ، وتفسير الرازي ١٩/ ١٨٠ .

(٥) ديوان ذي الرمة ١/ ٢٩ ، وقوله: غير مقرفة، أي: ليست بهجينة، وهي عتيقة كريمة. والندب: آثار الجراح. وينظر الصحاح (سنن).

(٦) نقله عنه السمرقندي في التفسير ٢/ ٢١٨ ، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٥٨ .

(٧) في (ظ): المرقق.

(٨) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٢٤ .

إبليسَ، خَلقه اللهُ تعالى قبل آدمَ عليه السلام. وسُمِّيَ جانًّا؛ لتواريه عن الأعين. وفي «صحيح مسلمٍ»[١] من حديثِ ثابتٍ، عن أنس، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لمَّا صوَّر الله تعالى آدمَ عليه السلام في الجنةِ، تَركه ما شاءَ الله أن يتركَه، فَجعلَ إبليسُ يُطيفُ به، يَنظرُ ما هو، فلمَّا رآه أَجوفَ، عَرفَ أنَّه خُلِق خَلقاً لا يَتمالك».

﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ قال ابنُ مسعود: نارُ السَّمومِ التي خَلقَ اللهُ منها الجانَّ جزءٌ من سبعينَ جزءاً من نارِ جَهنَّم. وقال ابنُ عباس: السَّمومُ الريحُ الحارةُ التي تقتل[٢]. وعنه: أنَّها نارٌ لا دُخانَ لها، والصَّواعقُ تكونُ منها، وهي نارٌ تكونُ بين السماء والحجاب[٣]. فإذا أَحدثَ اللهُ أمراً اخترقت الحجابَ، فَهَوتِ الصَّاعقةُ إلى ما أُمِرت، فالهَدَّةُ التي تَسمعون خَرقُ ذلك الحجابِ. وقال الحسنُ: نارُ السَّموم نارٌ دونها حجابٌ، والذي تَسمعون من انعطاطِ[٤] السحابِ صوتُها. وعن ابنِ عباس أيضاً قال: كان إبليسُ من حيٍّ من أحياءِ الملائكةِ يقالُ لهم: الجنُّ، خُلقوا من نارِ السَّموم من بين الملائكةِ. قال: وخُلِقت الجنُّ الذين ذُكِروا في القرآنِ من مارجٍ من نار[٥].

قلتُ: هذا فيه نظرٌ؛ فإنه يحتاجُ إلى سندٍ يقطعُ العُذرَ؛ إذ مثلُه لا يقالُ من جهةِ الرأي. وقد خرَّج مسلمٌ[٦] من حديثِ عروةَ، عن عائشةَ قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلِقت الملائكةُ من نورٍ، وخُلِق الجانُّ من مارجٍ من نار، وخُلق آدمُ ممَّا وُصِف لكم». فقولُه: «خُلِقت الملائكةُ من نورٍ» يقتضي العمومَ. والله أعلم.

---

(١) برقم (٢٦١١)، وهو عند أحمد (١٢٥٣٩).

(٢) تفسير الطبري ١٤/٦٣ - ٦٤ ، وزاد المسير ٤/٤٠٠ .

(٣) تفسير السمرقندي ٢/٢١٨ .

(٤) في (د) و(ز) و(م): انغطاط، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في معاني القرآن للفراء ٢/٨٨ ، والانعطاط: الانشقاق. اللسان (عطط).

(٥) تفسير الطبري ١/٤٨٢ و١٤/٦٤ ، وينظر النكت والعيون ٣/١٥٩ ، والوسيط ٣/٤٤ - ٤٥ . وقال ابن كثير في تفسير الآية ٣٤ من سورة البقرة: هذا سياق غريب، وفيه أشياء فيها نظر يطول مناقشتها.

(٦) برقم (٢٩٩٦)، وهو عند أحمد (٢٥١٩٤).

وقال الجوهريُّ: مارج من نار: نارٌ لا دخانَ لها خُلق منها الجانُّ[١]. والسَّمومُ: الريحُ الحارةُ تُؤنَّث؛ يقال منه: سُمَّ يومُنا؛ فهو يومٌ مسموم، والجمعُ سَمائمُ. قال أبو عبيدة: السَّمُومُ بالنهار، وقد تكونُ بالليل، والحَرُورُ بالليل، وقد تكونُ بالنهار[٢]. القشيريُّ: وسُمِّيتِ الريحُ الحارةُ سَموماً؛ لدخولِها في مَسامِّ البدن[٣].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ تقدمَ في «البقرة»[٤]. ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ﴾: من طين. ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ أي: سوَّيتُ خَلْقَه وصوَّرتُه. ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ النفخُ: إجراءُ الريحِ في الشيء. والرُّوحُ: جسمٌ لطيفٌ، أَجرى اللهُ العادةَ بأن يَخلُق الحياةَ في البدن مع ذلك الجسمِ. وحقيقتُه إضافةُ خَلقٍ إلى خالق؛ فالروحُ خلقٌ من خلقِه أَضافَه إلى نفسه تشريفاً وتكريماً، كقوله: أرضي، وسمائي، وبيتي، وناقة الله، وشهر الله. ومثلُه: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] وقد تقدَّم في «النساء» مبيَّناً[٥]. وذَكرنا في كتابِ «التذكرةِ»[٦] الأحاديثَ الواردةَ التي تدل على أنَّ الروحَ جسمٌ لطيف، وأنَّ النفسَ والروحَ اسمان لمسمًّى واحدٍ. وسيأتي ذلك إن شاء الله. ومَن قال: إنَّ الرُّوحَ هو الحياةُ قال: أرادَ: فإذا ركَّبْتُ فيه الحياةَ ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ أي: خِرُّوا له ساجدين. وهو سجودُ تحيةٍ وتكريمٍ لا سجودُ عبادة[٧]. ولِله أنْ يُفضِّل مَن يريد، ففضَّل الأنبياءَ على الملائكة. وقد تقدَّم في «البقرة» هذا المعنى[٨]. وقال القَفَّال:

---

(١) الصحاح (مرج).
(٢) الصحاح (سمم).
(٣) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٥٩ .
(٤) ١/ ٣٩١ .
(٥) ٧/ ٢٣١ ، وينظر الوسيط ٣/ ٤٥ .
(٦) ص١٢٤ .
(٧) تفسير الطبري ١٤/ ٦٥ ، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٨٨ .
(٨) ١/ ٤٣٥ .

كانوا أفضلَ من آدم، وامتحنَهم بالسجودِ له تعريضاً لهم للثوابِ الجزيل. وهو مذهبُ المعتزلة. وقيل: أُمِروا بالسجود لِله عندَ آدم، وكان آدمُ قِبلةً لهم[١].

قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣١﴾

قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: لا شكَّ أنَّ إبليسَ كان مأموراً بالسُّجود؛ لقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢]، وإنَّما منَعه من ذلك الاستكبارُ والاستِعظام؛ كما تقدَّم في «البقرة» بيانُه[٢]. ثم قيل: كانَ من الملائكةِ، فهو استثناءٌ من الجِنس. وقال قومٌ: لم يكن منَ الملائكة، فهو استثناءٌ منقطِع. وقد مضَى في «البقرة» هذا كلُّه مُستوفًى[٣].

وقال ابنُ عباس: الجانُّ: أبو الجن، وليسُوا شياطينَ. والشَّياطينُ: ولدُ إبليسَ، لا يموتونَ إلا مع إبليس. والجنُّ يموتون، ومنهم المؤمنُ، ومنهم الكافر. فآدمُ أبو الإنس، والجانُّ أبو الجن، وإبليسُ أبو الشياطين. ذكره الماورديُّ[٤]. والذي تقدَّم في «البقرةِ» خلافُ هذا، فتأمَّله هناك.

الثانية: الاستثناءُ من الجنس غيرِ الجنسِ صحيحٌ عند الشافعيِّ، حتى لو قال: لفلانٍ عليَّ دينارٌ إلَّا ثوباً، أو عشرةُ أثواب إلا قفيزَ حنطةٍ، وما جانسَ ذلك؛ كان مقبولاً، ويسقط عنه من المبلغِ قيمةُ الثوبِ والحِنطة. ويستوي في ذلك المكيلاتُ والموزوناتُ والمُقدَّرات. وقال مالكٌ وأبو حنيفةَ ﷺ: استثناءُ المكيلِ من الموزونِ، والموزونِ من المكيل جائزٌ، حتى لوِ استثنى الدراهمَ من الحِنطةِ، والحنطةَ من الدراهم قُبِل، فأمَّا إذا استثنى المقوَّمات من المكيلاتِ أو الموزونات، والمكيلاتِ

---

(١) ينظر تفسير الرازي ١٩/ ١٨٢ .

(٢) ١/ ٤٤١ .

(٣) ١/ ٤٣٨ .

(٤) في النكت والعيون ٣/ ١٥٨ .

من المقوَّمات، مثل أن يقولَ: عليَّ عشرةُ دنانيرَ إلا ثوباً، أو عشرة أثواب إلا ديناراً، لا يصحُّ الاستثناء، ويَلزمُ المُقِرَّ جميعُ المبلغ. وقال محمدُ بنُ الحسن: الاستثناءُ من غيرِ الجنس لا يصحُّ، ويلزمُ المُقرَّ جملةُ ما أقرَّ به[١]. والدليلُ لقولِ الشافعيِّ[٢] أنَّ لفظَ الاستثناء يُستعمل في الجنسِ وغيرِ الجنس، قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٥]، فاستثنى السَّلامَ من جملة اللَّغو، ومثلُه ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ وإبليسُ ليس من جملةِ الملائكة؛ قال الله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠]. وقال الشَّاعر:

وَبَلْدةٍ ليس بها أنيسُ إلا اليعافيرُ وإلا العِيسُ[٣]

فاستثنى اليعافيرَ وهي ذكورُ الظباء، والعِيسَ وهي الجِمالُ البيضُ، من الأنيس؛ ومثلُه قولُ النابغة[٤].

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ﴾ أي: ما المانعُ لك. ﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي: في ألَّا تكونَ.

﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ بيَّن تكبُّرَه وحسدَه،

---

(١) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٤٧١، ومختصر اختلاف العلماء ٤/ ٤١٤ - ٤١٥، والوسيط في المذهب ٣/ ٣٥٤ - ٣٥٥، وعقد الجواهر الثمينة ٢/ ٧١٣.

(٢) نهاية المحتاج ٥/ ١٠٦.

(٣) البيت لجِران العَود النميري، وهو في ديوانه ص٩٧، وسلف ٧/ ٦.

(٤) يشير إلى قوله:

وقفت فيها أُصَيلاناً أسائلها عيت جواباً وما بالربع من أحد
إلا الأواري لأياً ما أبينها والنؤي كالحوض بالمظلومة الجلد

والبيتان في ديوانه ص٣٠، وسلفا في موضعين ١/ ٤٦٠ و ٧/ ٦، واستشهد بهما على المسألة نفسها.

وأنه خيرٌ منه؛ إذ هو من نارٍ، والنارُ تأكلُ الطين[١]؛ كما تقدَّم في «الأعراف» بيانُه[٢]. ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ أي: من السَّماوات، أو من جنةِ عَدْن، أو من جملةِ الملائكةِ[٣]. ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾ أي: مرجومٌ بالشُّهب. وقيل: ملعونٌ مشتوم[٤]. وقد تقدَّم هذا كلُّه مستوفًى في «البقرة» و«الأعراف»[٥]. ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ﴾ أي: لعنتي، كما في سورة (ص) [آية: ٧٨].

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ هذا السؤالُ من إبليسَ لم يكن عن ثقةٍ[٦] منه بمنزلتِه عندَ الله تعالى، وأنَّه أهلٌ أن يُجاب له دعاءٌ، ولكنْ سألَ تأخيرَ عذابِه زيادةً في بلائِه، كفعلِ الآيسِ من السَّلامة. وأرادَ بسؤالِه الإنظارَ إلى يوم يبعثون، ألَّا يموتَ؛ لأنَّ يوم البعثِ لا موتَ فيه، ولا بعده. قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾ يعني: من المؤجَّلين. ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ قال ابنُ عباس: أرادَ به النفخةَ الأولى، أي: حين تموتُ الخلائقُ. وقيل: الوقتُ المعلومُ الذي استأثرَ اللهُ بعلمه، ويجهلُه إبليسُ، فيموتُ إبليس ثم يُبعَث؛ قال الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ﴾ [الرحمن: ٢٦]. وفي كلامِ الله تعالى له قولان: أحدهما: كلَّمه على لسانِ رسول[٧]. الثاني: كلَّمه تغليظاً في الوعيدِ، لا على وجهِ التَّكرِمةِ والتقريبِ[٨].

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٦٦ - ٦٧ .
(٢) ٩/ ١٦٥ .
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٦١ .
(٤) في (د) و(ز) و(م): مشؤوم، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في تفسير الطبري ١٤/ ٦٧ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٦١ .
(٥) ١/ ١٤١ و ٩/ ١٧٣ - ١٧٤ ، وينظر ١/ ٤٧٤ - ٤٧٥ .
(٦) في (م) ثقته، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٣/ ١٥٩ .
(٧) في (م) و(د): رسوله.
(٨) النكت والعيون ٣/ ١٥٩ - ١٦٠ .

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تقدَّم معنى الإغواءِ والزينة في «الأعراف»[١]. وتَزيينُه هنا يكون بوجهين: إمَّا بفعلِ المعاصي، وإما بشغلِهم بزينةِ الدنيا عن فعلِ الطَّاعة. ومعنى ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: لأُضلَّنَّهم عن طريق الهدى[٢].

وروى ابنُ لَهيعة عبدُ الله، عن دَرَّاج أبي السَّمح، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدريِّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ إبليسَ قال: يا ربِّ، وعِزَّتِك وجَلالِك لا أزال أُغوي بني آدمَ ما دامت أرواحُهم في أجسامهم[٣]، فقال الربُّ: وعزتي وجَلالي لا أزال أغفرُ لهم ما استغفروني»[٤].

قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾

قرأ أهلُ المدينة وأهلُ الكوفة بفتح اللام، أي: الذين استخلَصتَهم وأَخلصتَهم. وقرأ الباقون بكسرِ اللام[٥]، أي: الذين أخلصوا لك العبادةَ من فسادٍ أو رياءٍ. حكى أبو ثُمامةَ أنَّ الحواريِّين سألوا عيسى عليه السلام عن المخلِص[٦] لله، فقال: الذي يَعملُ، ولا يُحبُّ أن يَحمَدَه النَّاس.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾

قال عمرُ بن الخطاب: معناهُ: هذا صراطٌ يستقيمُ بصاحبِه حتى يَهجُمَ به على الجَنَّة. الحسن: «عليَّ» بمعنى: إليَّ. مجاهدٌ والكسائيُّ: هذا على الوعيدِ والتهديدِ؛

---

(١) ٩/ ١٧٠ و ٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٦٠ - ١٦١ .

(٣) في (ظ): أجسادهم.

(٤) أخرجه أحمد (١١٢٣٧) و(١١٢٤٤) وأبو يعلى (١٣٩٩) والبيهقي في الأسماء والصفات (٢٦٥)، والبغوي في شرح السنة (١٢٩٣).

(٥) التيسير ص١٢٨ ، والسبعة ص٣٤٨ .

(٦) في (د) و(ز) و(م): المخلصين، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٣/ ١٦١ .

كقولك لمن تُهدِّده: طريقُك عليَّ ومَصيرُك إليَّ. وكقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] فكان معنى الكلام: هذا طريقٌ مرجعُه إليَّ، فأُجازي كُلًّا بعملِه، يعني: طريقَ العُبودية. وقيل: المعنى عليَّ أن أدلَّ على الصراطِ المستقيم بالبيانِ والبُرهان. وقيل: بالتوفيقِ والهِدايةِ[(١)].

وقرأ ابنُ سِيرين وقتادةُ، والحسن وقيسُ بن عُبَاد، وأبو رجاء وحُميد، ويعقوب: «هذا صِراطٌ عليٌّ مستقِيم» برفع «عليّ» وتنوينِه[(٢)]، ومعناه: رفيعٌ مستقيم، أي: رفيعٌ في الدين والحقّ. وقيل: رفيعٌ أن يُنالَ، مستقيمٌ أن يُمال[(٣)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ قال العلماءُ: يعني: على قلوبِهم. وقال ابن عُيينةَ: أي: في أن يُلقيَهم في ذنبٍ يمنعُهم عفوي، ويُضيِّقُه عليهم. وهؤلاءِ الذين هَداهُم الله، واجتَباهم، واختارَهم، واصطَفاهم[(٤)].

قلتُ: لعلَّ قائلاً يقول: قد أخبرَ الله عن صفة[(٥)] آدمَ وحواء عليهما السلام بقوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ [البقرة: ٣٦]، وعن جملةٍ من أصحابِ نبيِّه بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾ [آل عمران: ١٥٥]، فالجوابُ ما ذُكِر، وهو أنَّه ليس له سلطانٌ على قلوبهم، ولا موضعِ إيمانِهم، ولا يُلقيهم في ذنبٍ يَؤولُ إلى عدمِ القَبول، بل تُزيلُه التوبةُ، وتَمحُوه الأَوْبَةُ. ولم يكن خروجُ آدمَ عقوبةً لما تناول، على

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٦١ .

(٢) تفسير الطبري ١٤/ ٧١ ، والنكت والعيون ٣/ ١٦١ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٦٢ ، وتفسير البغوي ٣/ ٥١ ، والمحتسب ٢/ ٣ . وقراءة يعقوب من العشرة. ينظر النشر ٢/ ٣٠١ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٦١ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٥١ ، وزاد المسير ٤/ ٤٠٢ .

(٥) في (ظ): صفيه.

ما تقدَّم في «البقرة» بيانُه[١]. وأمَّا أصحابُ النبيِّ ﷺ، فقد مضى القولُ عنهم في «آل عمران»[٢]. ثم إنَّ قولَه سبحانه: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ يحتمل أن يكونَ خاصًّا فيمن حَفِظه الله، ويحتمل أن يكونَ في أكثرِ الأوقاتِ والأحوال، وقد يكون في تسلُّطِه تفريجُ كربةٍ، وإزالةُ غُمةٍ، كما فَعل ببلال، إذ أتاه يُهَدِّيه كما يُهدَّى الصَّبيُّ حتى نام[٣]، ونامَ النبيُّ ﷺ وأصحابُه، فلم يَستيقِظوا حتى طلعتِ الشَّمس، وفَزِعوا وقالوا: ما كفارةُ ما صَنعنا بتفريطِنا في صلاتِنا؟ فقال لهم النبيُّ ﷺ: «ليسَ في النومِ تفريطٌ»، ففُرِّجَ عنهم[٤].

﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ أي: الضَّالِّين المشركين[٥]. أي: سلطانه على هؤلاء؛ دليله ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠].

الثانية: وهذه الآيةُ والتي قبلَها دليلٌ على جوازِ استثناءِ القليلِ من الكثيرِ، والكثيرِ من القليلِ، مثل أن يقولَ: عشرةٌ إلا درهماً. أو يقول: عشرة إلا تسعةً. وقال أحمدُ ابن حنبل: لا يجوزُ أن يُستَثنَى إلا قدرُ النصفِ فما دونَه، وأمَّا استثناءُ الأكثرِ من الجملةِ فلا يصحُّ. ودليلُنا هذه الآيةُ، فإنَّ فيها استثناءَ «الغاوين» من العبادِ، والعبادِ من الغاوين، وذلك يدلُّ على أن استثناءَ الأقلِّ من الجملة، واستثناءَ الأكثرِ من الجملة جائزٌ[٦].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يعني: إبليسَ ومَن اتبعَه. ﴿لَهَا سَبْعَةُ

(١) ١/ ٤٧٦.
(٢) ٥/ ٣٧٢.
(٣) أخرجه مالك في الموطأ ١/ ١٤ - ١٥ عن زيد بن أسلم مرسلاً.
(٤) ينظر حديث أبي هريرة وحديث أبي قتادة عند مسلم (٦٨٠)، و(٦٨١).
(٥) ينظر تفسير السمرقندي ٢/ ٢٢٠.
(٦) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٢، والمغني لابن قدامة ٧/ ٢٩٢ - ٢٩٤.

أَبْوَٰبٍ﴾ أي: أطباق، طبقٌ فوقَ طبق ﴿لِّكُلِّ بَابٍ﴾ أي: لكل طبقةٍ ﴿مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ أي: حظٌّ معلوم(١). ذكر ابنُ المباركِ قال: أخبرنا إبراهيمُ أبو هارون الغَنَوِيُّ قال: سمعت حِطَّان بنَ عبد الله الرَّقَاشي يقول: سمعتُ عليًا ﷺ يقولُ: هل تدرونَ كيفَ أبوابُ جهنمَ؟ قلنا: هي مثلُ أبوابِنا. قال: لا، هي هكذا بعضُها فوقَ بعض(٢). زاد الثَّعلبيُّ: ـ ووضعَ إحدى يَديهِ على الأخرى ـ وإنَّ الله وضعَ الجنانَ على الأرض، والنيرانَ بعضَها فوقَ بعض، فأسفلُها جهنمُ، وفوقَها الحُطَمةُ، وفوقها سَقَرُ، وفوقَها الجحيمُ، وفوقها لظَى، وفوقها السَّعير، وفوقها الهاوية، وكلُّ بابٍ أشدُّ حَرًّا من الذي يليه سبعينَ مرةً(٣).

قلت: كذا وقعَ هذا التفسير، والذي عليه الأكثرُ من العلماءِ أن جهنمَ أعلى الدَّرَكات، وهي مختصَّةٌ بالعُصاة من أمةِ محمد ﷺ، وهي التي تُخْلَى من أهلها، فتَصفِقُ الرياحُ أبوابَها، ثم لظَى، ثم الحُطَمةُ، ثم سعيرُ، ثم سَقرُ، ثم الجحيمُ، ثم الهاوية؛ قال الضحَّاك: في الدَّرْكِ الأعلى المُحمديُّون، وفي الثاني النَّصارى، وفي الثالث اليهودُ، وفي الرابعِ الصَّابئون، وفي الخامسِ المجوسُ، وفي السادسِ مشركو العرب، وفي السابع المنافقون وآلُ فرعونَ ومَن كفرَ من أهلِ المائدة(٤). قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] ـ وقد تقدم في النساء(٥) ـ، وقال: ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، وقال: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥].

وقَسَّم معاذُ بنُ جبل ﷺ العلماءَ السُّوءَ من هذه الأمةِ تقسيماً على تلك الأبواب،

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٧٢ - ٧٣.

(٢) الزهد لابن المبارك ص٨٥ زوائد نعيم بن حماد، وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١٣/ ١٥٤، والطبري في تفسيره ١٤/ ٧٣ - ٧٤.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٥١، والوسيط ٣/ ٤٥ - ٤٦، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٦٣، وزاد المسير ٤/ ٤٠٢-٤٠٣.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٥١، والوسيط ٣/ ٤٦، وزاد المسير ٣/ ٤٦.

(٥) ٧/ ١٩٥ - ١٩٦.

ذكرناه في كتاب «التذكرة»[١].

وروى الترمذيُّ[٢] من حديثِ ابنِ عمر قالَ: قال رسولُ الله ﷺ: «لجهنمَ سبعةُ أبواب: باب منها لمَنْ سَلَّ سيفَه على أمتي» قال: حديثٌ غريب.

وقال أُبَيُّ بن كعب: لجهنمَ سبعةُ أبواب: باب منها للحَرُورِية. وقال وَهْبُ بنُ مُنبِّه: بينَ كلِّ بابين مسيرةُ سبعينَ سنةً، كلُّ بابٍ أشدُّ حَرًّا من الذي فوقَه بسبعين ضعفاً. وقد ذكرنا هذا كلَّه في كتابِ «التذكرة»[٣].

وروى سَلَّامُ الطويلُ، عن أبي سفيان، عن أنس بن مالك، عن النبيِّ ﷺ في قولِ الله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾: جزءٌ أشركوا بالله، وجزءٌ شَكُّوا في الله، وجزءٌ غَفِلوا عن الله، وجزءٌ آثروا شهواتِهم على الله، وجزءٌ شَفَوا غيظَهم بغضبِ الله، وجزءٌ صَيَّروا رغبتَهم بحظهم من الله، وجزء عَتَوْا على الله. ذكره الحَلِيمي أبو عبد الله الحسين بن الحسن في كتاب «منهاج الدين» له[٤]، وقال: فإن كان ثابتاً، فالمشركون بالله همُ الثَّنَوِيَّة. والشَّاكون همُ الذين لا يَدرون أنَّ لهم إلهاً أو لا إلهَ لهم، ويَشكُّون في شريعتِه أنها مِن عندِه أم لا. والغافلون عن اللهِ همُ الذينَ يَجحدونه أصلاً ولا يُثبِتونه، وهم الدَّهْرية. والمُؤْثِرونَ شهواتِهم على اللهِ همُ المنهمكون في المعاصي؛ لتكذيبِهم رسلَ الله وأمرَه ونهيه. والشَّافون غيظَهم بغضبِ الله هم القاتلونَ أنبياءَ الله، وسائرَ الداعين إليه، المعذِّبون مَن ينصحُ لهم، أو يذهبُ غيرَ مذهبهم، والمُصيِّرون رغبتَهم بحظِّهم من الله هم المنكرونَ البعثَ[٥] والحساب؛

(١) ص٣٨٢ - ٣٨٣.

(٢) في سننه (٣١٢٣)، وهو في مسند أحمد (٥٦٨٩).

(٣) ص٣٨٣ - ٣٨٤، وينظر التخويف من النار لابن رجب ص٥٨.

(٤) المنهاج في شعب الإيمان ١/ ٤٧٢ - ٤٧٣، وسلَّام الطويل: هو التميمي، السعدي، وهو متروك. وأخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه ٩/ ٢٩، بلفظ: جزء أشركوا بالله، وجزء شكوا في الله، وجزء غفلوا عن الله.

(٥) المثبت من (ظ)؛ وفي غيرها: بالبعث.

فهم يَعبُدون ما يرغبون فيه، لهم جميعُ حظِّهم من الله تعالى. والعاتونَ على الله الذينَ لا يبالون بأن يكونَ ما هم فيه حقًّا أو باطلاً، فلا يتفكرون، ولا يَعتبِرون، ولا يَستدلون. واللهُ أعلمُ بما أرادَ رسولُه ﷺ إنْ ثبتَ الحديثُ.

ويُروى أنَّ سلمان الفارسيَّ ﵁ لمَّا سَمِع هذه الآيةَ: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فرَّ ثلاثةَ أيامٍ من الخوفِ لا يَعقِل، فجيءَ به إلى رسولِ الله ﷺ فسأله، فقال: يا رسولَ الله، أُنزِلت هذه الآيةُ: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فوالذي بعثَك بالحقِّ لقد قَطَعت قلبي. فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾[1] [الحجر: ٤٥].

وقال بلالٌ: كان النبيُّ ﷺ يُصلي في مسجدِ المدينة وَحْدَه، فمرَّتْ به امرأةٌ أعرابيةٌ، فصَلَّت خلفه ولم يعلمْ بها، فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآيةَ: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ فخرَّتِ الأعرابية مغشيًّا عليها، وسمعَ النبيُّ ﷺ وَجْبَتَها[2]، فانصرفَ ودعا بماءٍ فصُبَّ على وجهِها حتى أفاقت وجَلَست، فقالَ النبيُّ ﷺ: «يا هذهِ، مَا لَكِ؟» فقالت: أهذا شيءٌ من كتابِ الله المُنزَّلِ، أو تَقولُه من تِلقاءِ نفسِك؟ فقال: «يا أعرابيةُ، بل هو من كتابِ اللهِ تعالى المنزَّل»، فقالت: كلُّ عضوٍ من أعضائي يُعذَّب على كلِّ باب منها؟ قال: «يا أعرابيةُ، بل لكلِّ بابٍ منهم جزءٌ مقسوم يُعذَّبُ أهلُ كلٍّ منها على قدر أعمالِهم»، فقالت: واللهِ إني امرأةٌ مسكينةٌ، مالي مالٌ، وما لي إلا سبعةُ أَعْبُد، أُشهِدك يا رسولَ الله، أنَّ كلَّ عبدٍ منهم عن كلِّ بابٍ من أبوابِ جهنم حُرٌّ لوجه الله تعالى. فأتاه جبريلُ فقال: يا رسولَ الله، بشِّرِ الأعرابيةَ أنَّ الله قد حَرَّم عليها أبوابَ جهنمَ كلَّها، وفتح لها أبوابَ الجنةِ كلَّها[3].

---

(١) نَسبه السيوطي في لباب النقول في أسباب النزول إلى الثعلبي.

(٢) الوَجْبَةُ: السقطةُ مع الهدة. الصحاح (وجب).

(٣) نَسبه ابن رجب الحنبلي في التخويف من النار ص٥٨ - ٥٩، إلى الثعلبي في تفسيره بإسناد مجهول إلى منصور بن عبد الحميد بن أبي رباح...، فذكره، وقال: وهذا حديث لا يصح مرفوعاً، ومنصور =

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: الذين اتقَوا الفواحشَ والشركَ. ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ أي: بساتين[١]. ﴿وَعُيُونٍ﴾: هي الأنهارُ الأربعةُ: ماء، وخمر، ولبن، وعسل. وأمَّا العيونُ المذكورةُ في سورةِ الإنسان: الكافورُ والزَّنْجَبيل والسَّلسبيل، وفي «المطففين»: التَّسنيم، فيأتي ذكرُها وأهلها إن شاءَ الله.

وضمُّ العينِ من «عُيونٍ» على الأصلِ، والكسرُ مراعاةً للياء، وقُرِئ بهما[٢].

﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾ قراءةُ العامةِ: «ادخلوها» بوصلِ الألفِ وضمِّ الخاء، مِن دخل يدخُل، على الأمرِ. تقديرُه: قيل: ادخُلوها. وقرأَ الحسنُ وأبو العالية ورُوَيس عن يعقوب: «ادخِلُوها» بضم التنوين ووصلِ الألف وكسرِ الخاء على الفعلِ المجهول[٣]، من أُدخِل، أي: أَدخلَهم اللهُ إياها. ومذهبُهم كسرُ التنوين في مثل ﴿بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ [الأعراف:٤٩] وشبهِه، إلا أنَّهم هاهنا أَلقَوا حركةَ الهمزةِ على التنوين؛ إذ هي ألفُ قطعٍ، ولكن فيه انتقالٌ من كسرٍ إلى ضمٍّ ثم من ضمٍّ إلى كسرٍ، فيَثقلُ على اللسان.

﴿بِسَلَامٍ﴾ أي: بسلامةٍ من كلِّ داءٍ وآفة. وقيل: بتحيةٍ من اللهِ لهم. ﴿آمِنِينَ﴾ أي: من الموتِ والعذابِ، والعزلِ والزوالِ[٤].

= ابن عبد الحميد قال فيه ابن حبان: لا تحل الرواية عنه. والصحيح ما روى مخلد بن الحسن عن هشام بن حسان قال: خرجنا حجاجاً فنزلنا منزلاً في بعض الطريق، فقرأ رجل معنا هذه الآية..، فذكره مختصراً.

(١) تفسير السمرقندي ٢/ ٢٢٠، والوسيط ٣/ ٤٦.

(٢) قرأ نافع، وأبو عمرو، وحفص، وهشام بضم العين، والباقون بكسرها. التيسير ص١٣٦.

(٣) ينظر الكشاف ٢/ ٣٩٢، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٦٣، والبحر المحيط ٥/ ٤٥٦، والنشر ٢/ ٣٠١. وقراءة يعقوب ـ وهو من العشرة ـ المتواترة عنه كقراءة حمزة وعاصم وأبي عمرو وابن ذكوان، بكسر التنوين، وضم الخاء.

(٤) النكت والعيون ٣/ ١٦١ - ٣٦٢، وزاد المسير ٤/ ٤٠٣.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾

قال ابنُ عباس: أوّلُ ما يدخل أهلُ الجنةِ الجنةَ تَعرِضُ لهم عينانِ، فيشربون مِن إحدى العينين، فيُذهب الله ما في قلوبهم من غِلٍّ، ثم يدخلون العينَ الأخرى، فيغتسلون منها، فتشرقُ ألوانُهم وتصفُو وجوهُهم، وتجري عليهم نَضْرةُ النعيم[١]. ونحوُه عن عليٍّ ﷺ[٢].

وقال عليُّ بنُ الحسين: نزلت في أبي بكر وعمر وعليٍّ والصحابة[٣]، يعني ما كان بينهم في الجاهلية من الغِلِّ. والقول الأوّل أظهرُ؛ يدلُّ عليه سياقُ الآية. وقال عليٌّ ﷺ: أرجو أن أكون أنا وطلحةُ والزُّبير من هؤلاء[٤].

والغِلُّ: الحِقدُ والعداوةُ، يقال منه: غَلَّ يَغِلُّ. ويقال من الغُلولِ، وهو السرقةُ من المَغْنَم: غَلَّ يَغُلُّ. ويقال من الخيانة: أغَلَّ يُغِلُّ[٥]. كما قال[٦]:

جَزَى الله عنا حَمْزَةَ ابنةَ نَوْفَلٍ ... جزاءَ مُغِلٍّ بالأمانةِ كاذبِ

وقد مضى هذا في آل عمران.

﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ أي: لا ينظر بعضُهم إلى قَفَا بعضٍ؛ تواصلاً وتحابُباً، عن مجاهدٍ[٧] وغيرِه. وقيل: الأَسِرَّة تدور كيفما شاؤوا، فلا يرى أحدٌ قفا

---

(١) زاد المسير ٣/ ٢٠٠ .

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٧٦ ، وابن أبي شيبة ١٣/ ١١٢ ، والطبري في تفسيره ٢٠/ ٢٦٧ ، وابن أبي حاتم في تفسيره ١٠/ ٣٢٦٢ (١٨٤١٣).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ٧/ ٢٢٦٧ (١٢٤٠٣)، والواحدي في أسباب النزول ص٢٨١ ، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٣٠/ ٣٣٨ و ٥٤/ ٢٨٩ .

(٤) سلف ٩/ ٢٢٢ .

(٥) غريب الحديث لأبي عبيد ١/ ٢٠٠ ، وسلف ٥/ ٣٨٨ .

(٦) هو النَّمِر بن تولب، وسلف ٥/ ٣٨٨ .

(٧) أخرجه نعيم بن حماد في زوائده على زهد ابن المبارك (٤٣٤)، وهنَّاد في الزهد (٨٠)، والطبري في التفسير ١٤/ ٨٠ ، وسيأتي من قول عكرمة أيضاً في سورة الصافات، الآية (٤٤).

أحدٍ[١]. وقيل: «متقابلين»: قد أقبلت عليهم الأزواجُ، وأقبلوا عليهنَّ بالوُدِّ[٢].

وسُرُر: جمع سرير، مثل جديد وجُدُد. وقيل: هو من السرور؛ فكأنه مكانٌ رفيعٌ ممهَّدٌ للسرور[٣]. والأوّل أظهر. قال ابن عباس: على سُرُر مكلَّلة بالياقوت والزَّبَرْجَد والدُّرِّ، السريرُ ما بين صنعاءَ إلى الجابية، وما بين عدنٍ إلى أيْلة[٤].

و«إخواناً»: نصب على الحال من «المتقين»[٥] أو من المضمَر في «ادخلوها»، أو من المضمَر في «آمنين»، أو يكون حالاً مقدَّرة مِن الهاءِ والميمِ في «صدورهم»[٦].

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي: إعياءٌ وتعب[٧]. ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ دليل على أن نعيمَ الجنةِ دائمٌ لا يزول، وأن أهلَها فيها باقون ﴿أُكُلُها دائم﴾؛ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾[٨].

قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾

هذه الآية وزانُ قوله عليه الصلاة والسلام: «لو يَعلمُ المؤمنُ ما عند اللهِ من العقوبةِ ما طمع بجنَّته أحدٌ، ولو يَعلمُ الكافرُ ما عند اللهِ من الرحمةِ ما قَنِط مِن رحمتِه

---

(١) مجمع البيان للطبرسي ١٤/ ٣٠، والكشاف ٢/ ٣٩٢.

(٢) حكاه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٦٢ عن القاسم.

(٣) ينظر الصحاح (سرر) وتهذيب اللغة ١٢/ ٢٨٤، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٥١، وتفسير الطبري ١٤/ ٨٠، والرازي ١٩/ ١٩٣.

(٤) أورده الواحدي في الوسيط ٣/ ٤٦، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٤٠٤، والرازي في التفسير ١٩/ ١٩٣، والجابية: قرية من أعمال دمشق. معجم البلدان ٢/ ٩١، وأيلة: مدينة على ساحل البحر الأحمر مما يلي الشام. معجم البلدان ١/ ٢٩٢.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٨٢.

(٦) مشكل إعراب القرآن ١/ ٤١٤، وأمالي ابن الشجري ٣/ ١٩٠.

(٧) الوسيط ٣/ ٤٦، وزاد المسير ٤/ ٤٠٤.

(٨) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ٨١.

أحدٌ». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وقد تقدّم في الفاتحة[١]. وهكذا ينبغي للإنسان أن يذكُر نفسَه وغيرَه، فيخوِّفَ ويرجِّيَ، ويكون الخوفُ في الصحة أغلبَ عليه منه في المرض[٢]. وجاء في الحديث أن النبيَّ ﷺ خرج على الصحابة وهم يضحكون، فقال: «أتضحكون وبين أيديكم الجنَّةُ والنَّارُ؟!». فشقَّ ذلك عليهم، فنزلت الآية[٣]. ذكره الماورديُّ والمهدويُّ.

ولفظ الثعلبيِّ عن ابنِ عمرَ قال: اطَّلع علينا النبيُّ ﷺ من البابِ الذي يَدخُل منه بنو شَيْبَةَ ونحن نضحكُ، فقال: «ما لكم تضحكون؟ لا أراكم تضحكون»، ثم أدبَر حتى إذا كان عند الحِجْر رجع القَهْقَرى، فقال: «إني لمَّا خرجتُ؛ جاءني جبريلُ فقال: يا محمَّد لم تُقنِّطُ عبادي من رحمتي؟ ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾»[٤]. فالقُنوطُ إِياسٌ، والرجاءُ إهمالٌ، وخيرُ الأمور أوساطُها.

قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝٥١ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٥٣ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ضيفُ إبراهيم: هم الملائكةُ الذين

---

(١) ١/ ٢١٥ .

(٢) ينظر تفسير الرازي ١٩/ ١٩٥ .

(٣) أخرجه البزار (٢٢١٦) من حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٤٦ ونسبه للطبراني وقال: رواه الطبراني، وفيه موسى بن عبيدة، وهو ضعيف. اهـ، ولم نقف عليه عند الطبراني، وأورده أيضاً البغوي في معالم التنزيل ٣/ ٥٢ ، والمنذري في الترغيب والترهيب (٥٣٥٧) وقال: وليس في إسناده من تُرك ولا اتُّهم. اهـ

(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٨٩٢)، والطبري في التفسير ١٤/ ٨٢ عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، وفي إسناده: مصعب بن ثابت، وعاصم بن عبيد الله، وهما ضعيفان، كما في تقريب التهذيب. وأورده الواحدي في أسباب النزول ص٢٨٢ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٤ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٤٠٤ - ٤٠٥ .

بشَّروه بالولد وبهلاكِ قومِ لوط، وقد تقدّم ذكرهم[١]. وكان إبراهيمُ عليه السلام يُكْنَى أبا الضِّيْفان، وكان لقَصْرِه أربعةُ أبواب؛ لكيلا يفوتَه أحدٌ[٢]. وسمِّي الضيفُ ضيفاً؛ لإضافته إليك، ونزولِه عليك[٣]. وقد مضى من حكم الضيف في «هود» ما يكفي، والحمد لله.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ جُمع الخبَرُ؛ لأنَّ الضيفَ اسمٌ يصلُح للواحد والجمْع والتثنية، والمذكَّر والمؤنَّث، كالمصدر[٤]. ضافَه: مال إليه[٥] وأضافَه: أماله[٦]؛ ومنه الحديثُ: «حين تَضيَّف الشمسُ للغروبِ»[٧]، وضيفوفة السهم[٨]، والإضافة النحوية.

﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أي: سلَّموا سلاماً[٩].

﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي: فزعونَ خائفونَ، وإنما قال هذا بعد أن قرَّب العجلَ ورآهم لا يأكلون، على ما تقدَّم في هود[١٠]. وقيل: أنكر السلامَ، ولم يكن في بلادهم رَسْمُ السلام.

---

(١) في سورة هود، الآية (٦٩).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ يحيى بن معين (برواية الدوري ١٥٦٢)، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٣٣٦، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٦١٨)، وأخرجه ـ أيضاً ـ يحيى بن معين (برواية الدوري ١٥٦٣)، وابن سعد في الطبقات ١/ ٤٧، وهناد في الزهد (٦٥٠)، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٣٣٥، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٦١٧)، والبغوي في التفسير ١/ ٤٨٤ مقتصرين على القسم الأول، وهو من قول عكرمة ﷺ.

(٣) تهذيب اللغة ١٢/ ٧٣.

(٤) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ٨٣، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٢١.

(٥) قوله: مال إليه، من (ظ).

(٦) ينظر غريب الحديث لأبي عبيد ١/ ١٧ - ١٨، والصحاح (ضيف) وتهذيب اللغة ١٢/ ٧٣.

(٧) قطعة من حديث عقبة بن عامر الجهني ﷺ. أخرجه مسلم (٨٣١)، وأوله: «ثلاث ساعات كان رسول الله ﷺ ينهانا أن نصليَ فيهن...

(٨) ضاف السهم يضيف: إذا عدل عن الهدف. تهذيب اللغة ١٢/ ٧٣.

(٩) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٨٠.

(١٠) عند تفسير الآية (٧٠) منها.

﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ﴾ أي: قالت الملائكةُ: لا تخف. ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ أي: حليم؛ قاله مقاتل. وقال الجمهور: عالم. وهو إسحاق(١).

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ «أنْ» مصدرية، أي: على مسِّ الكِبَرِ إيَّايَ وزوجتي، وقد تقدَّم في هود وإبراهيم(٢). [و] حيث يقول: «فَبِمَ تُبَشِّرُونَ» استفهامُ تعجُّب. وقيل: استفهامٌ حقيقيٌّ(٣). وقرأ الحسنُ: «تُوجل» بضمِّ التاء(٤). والأعمش: «بشرتموني» بغير ألف(٥)، ونافع وشيبة: ﴿تُبَشِّرونِ﴾ بكسر النون والتخفيف؛ مثل «أتحاجُّوني» وقد تقدّم تعليله(٦). وقرأ ابنُ كَثير وابنُ محيصن: «تُبَشِّرونِّ» بكسر النونِ مشدَّدة، تقديره: تبشرونني، فأدغم النونَ في النونِ. الباقون: «تُبشرونَ» بنصبِ النونِ بغير إضافة(٧).

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ۝٥٥﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بما لا خُلْفَ فيه، وأنَّ الولدَ لابُدَّ منه. ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ أي: من الآيسين مِن الولدِ، وكان قد أَيِسَ من الولد؛ لفَرْط الكِبَر. وقراءةُ العامَّة: «مِن القانِطِين» بالألف. وقرأ الأعمشُ ويحيى بنُ وَثَّاب: «من القَنِطين» بلا ألفٍ. وروي عن أبي عمرٍو. وهو مقصورٌ من «القانطين». ويجوز أن يكون من لغةِ مَن قال: قَنِط يَقْنَط؛ مثل حذِر يحذَر(٨). وفتحُ النون وكسرُها مِن «يقنط» لغتان

(١) النكت والعيون ٣/ ١٦٣، وقوله: وهو إسحاق. أخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٥٧ من قول قتادة.

(٢) عند الآية ٧١ من سورة هود، والآية ٣٩ من سورة إبراهيم.

(٣) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٦٤، والوسيط ٣/ ٤٧.

(٤) القراءات الشاذة ص٧١، والمحتسب ٢/ ٤.

(٥) نسبها أبو حيان في البحر المحيط ٥/ ٤٥٨ للأعرج.

(٦) ٨/ ٤٤٣.

(٧) السبعة ص٣٦٧، والتيسير ص١٣٦، وقراءة ابن محيصن في إتحاف الفضلاء ص٣٤٧.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٨٣ - ٣٨٤، والبحر المحيط ٥/ ٤٥٩.

قُرئ بهما[١]. وحكي فيه «يقنُط» بالضمّ[٢]. ولم يأتِ فيه «قنُط يقنُط». ومن فتَح النونَ في الماضي والمستقبل فإنه جمعَ بين اللغتَين، فأخذ في الماضي بلغة مَن قال: قَنَط يقنِط، وفي المستقبل بلغة مَن قال: قَنِط يقنَط[٣]. ذكره المهدويُّ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾

أي: المكذِّبون الذاهبون عن طريقِ الصواب. يعني أنه استبعدَ الولدَ؛ لِكِبَر سنِّه، لا أنه قنطَ مِن رحمة الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: لما علم أنَّهم ملائكةٌ - إذ أخبروه بأمرٍ خارقٍ للعادة، وهو بُشراهم بالولد - قال: فما خطبكم؟ والخطب: الأمرُ الخطيرُ. أي: فما أمرُكم وشأنُكم، وما الذي جئتم به؟ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ أي: مشركين ضالِّين. وفي الكلام إضمارٌ، أي: أُرسلنا إلى قومٍ مجرمين؛ لنهلكَهم.

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾: أتباعَه وأهلَ دينه. ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ﴾ وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿لَمُنْجُوهُم﴾ بالتخفيف، من «أَنْجى». الباقون: بالتشديد، من «نَجَّى»[٤]، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم. والتنجية والإنجاءُ: التخليصُ.

﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ استثنى مِن آلِ لوط امرأتَه، وكانت كافرةً، فالتحقَتْ بالمجرمين في

---

(١) قرأ أبو عمرو والكسائي من السبعة بكسر النون، والباقون بفتحها. السبعة ص٣٦٧، والتيسير ص١٣٦.

(٢) وهي قراءة زيد بن علي والأشهب. البحر المحيط ٥/ ٤٥٩، والمحتسب ٢/ ٥.

(٣) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٨، والمحتسب ٢/ ٥، والصحاح، وتهذيب اللغة ١٦/ ٢٧٩.

(٤) السبعة ص٣٦٧، والتيسير ص١٣٦.

الهلاك. وقد تقدَّمت قصةُ قوم لوطٍ في «الأعراف»[(١)] وسورة «هود»[(٢)] بما فيه كفايةٌ.

﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: قضينا وكتبنا إنها لمنَ الباقين في العذاب. والغابر: الباقي.

قال[(٣)]:

لا تَكْسَعِ[(٤)] الشَّوْلَ[(٥)] بأغبارِها إنَّك لا تدري مَنِ النَّاتِجُ

الأغبار: بقايا اللَّبن.

وقرأ أبو بكرٍ والمفضَّل: «قَدَرنا» بالتخفيف هنا[(٦)] وفي النمل[(٧)]، وشدَّد الباقون. الهَرَوِيُّ: يقال: قدَّر وقَدَر، بمعنًى.

الثانية: لا خلافَ بين أهلِ اللسان وغيرِهم أنَّ الاستثناءَ من النفي إثباتٌ، ومن الإثباتِ نفيٌ؛ فإذا قال رجل: له عليَّ عشرةُ دراهمَ إلا أربعةً إلا درهماً؛ ثبت الإقرارُ بسبعة؛ لأنَّ الدرهمَ مستثنًى من الأربعة، وهو مثبت؛ لأنه مستثنًى من منفيٍّ، وكانت الأربعة منفيَّةً؛ لأنها مستثناةٌ من موجب، وهو العشرةُ، فعاد الدرهمُ إلى الستَّةِ، فصارت سبعةً.

وكذلك لو قال: عليَّ خمسةُ دراهمَ إلا درهماً إلا ثُلثَيْه؛ كان عليه أربعةُ دراهمَ

---

(١) ٩/ ٢٧٣.

(٢) ١١/ ١٧٣ وما بعدها.

(٣) الحارث بن حلِّزة، والبيت في ديوانه ص١١١، وكَسَع الناقةَ بغُبرها: تَرَكَ في خِلْفها بقيَّةً من اللبن، يريد بذلك تغزيرها، والشول: الناقة التي لم يبقَ في ضرعها إلا بقية من اللبن، والمعنى: لا تُبْقِ ذلك اللبنَ لتسمنَ الأولاد، فإنك لا تدري من ينتجها فلعلك تموت، فتكون للوارث، أو يُغار عليها. الكامل للمبرد ١/ ٤٨٤، واللسان: (شول) و(كسع).

(٤) في (د): تكشع، وفي (ظ): تلسع.

(٥) في (د): النار.

(٦) قراءة أبي بكر ـ وهو شعبة بن عياش الراوي عن عاصم ـ في السبعة ص٣٦٧، والتيسير ص١٣٦.

(٧) في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ الآية (٥٧).

وثلثٌ. وكذلك إذا قال: لفلانٍ عليَّ عشرةٌ إلا تسعةً إلا ثمانيةً إلا سبعةً؛ كان الاستثناءُ الثاني راجعاً إلى ما قَبْلَه، والثالثُ إلى الثاني، فيكون عليه درهمان؛ لأن العشرةَ إثباتٌ، والثمانيةَ إثباتٌ، فيكون مجموعها ثمانيةَ عشَر، والتسعةُ نفيٌ، والسبعةُ نفيٌ، فيكون ستَّة عشَر، تسقط من ثمانيةَ عشَر، ويبقى درهمان، وهو القَدْر الواجبُ بالإقرار لا غير.

فقوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ . إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ فاستثنى آلَ لوطٍ من القومِ المجرمين، ثم قال: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ فاستثناها من آلِ لوط، فرجعت في التأويل إلى القومِ المجرمين كما بيَّنَّا.

وهكذا الحُكم في الطلاقِ، لو قال لزوجته: أنتِ طالقٌ ثلاثاً إلا اثنتين إلا واحدةً، طلقت ثنتين؛ لأن الواحدةَ رجعت إلى الباقي من المستثنى منه، وهي الثلاث. وكذا كلُّ ما جاء من هذا، فتفهَّمه[1].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي: لا أعرفكم. وقيل: كانوا شباباً ورأى جمالاً، فخاف عليهم من فتنةِ قومه؛ فهذا هو الإنكار.

﴿قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: يشكُّون أنه نازلٌ بهم، وهو العذابُ. ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالصدق. وقيل: بالعذاب. ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ أي: في هلاكهم.

---

(١) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٨٥، والنكت والعيون ٣/ ١٦٤، وأحكام القرآن ٣/ ١١١٦ - ١١١٧، والمحصول لابن العربي ص٨٢ - ٨٥.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ تقدَّم في هود[١]. ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ أي: كن من ورائِهم؛ لئلَّا يتخلفَ منهم أحدٌ فينالَه العذابُ.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ نُهوا عن الالتفاتِ ليجِدُّوا في السير، ويتباعدوا عن القريةِ قبل أن يُفاجِئَهم الصُّبح. وقيل: المعنى: لا يتخلَّف.

﴿وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ قال ابنُ عباسٍ: يعني الشَّام[٢]. مقاتل: يعني صُغَر[٣]، قريةٌ من قُرى لوطٍ[٤]. وقد تقدَّم[٥]. وقيل: إنه مضى إلى أرضِ الخليلِ بمكان يُقال له: اليقينُ، وإنما سُمِّيَ اليقينَ؛ لأنَّ إبراهيمَ لما خَرجت الرسلُ شيَّعهم، فقال لجبريلَ: من أين يُخسَف بهم؟ قال: مِن هاهنا. وحَدَّ له حَدًّا، وذهب جبريلُ؛ فلما جاء لوطٌ، جلس عند إبراهيمَ، وارتقبا ذلك العذابَ، فلما اهتزتِ الأرضُ قال إبراهيم: أيقنتُ باللهِ، فسُمِّيَ اليقينَ.

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ أي: أوحينا إلى لوطٍ. ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ نظيره: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [الأنعام: ٤٥].

---

(١) ١١/ ١٨٢ - ١٨٣.

(٢) الوسيط ٣/ ٤٨، وتفسير البغوي ٣/ ٥٤، وزاد المسير ٤/ ٤٠٧.

(٣) في (ز) و(د): صغو، وفي (م): صفد، وفي (ظ): صَعَر، والمثبت من معجم البلدان ٣/ ٤١١ وفيه أن صُغَر على وزن زُفَر وصُرَد، وهي زُغَر التي تقدم ذكرها عنده ٣/ ١٤٢ ـ، وكذا ذكرها البغوي في تفسيره ٣/ ٥٤ ـ وأنها نَجَتْ لأن أهلها لم يكونوا يعملون الفاحشة.

(٤) زاد المسير ٤/ ٤٠٧ ونسبه إلى ابن السائب.

(٥) ١١/ ١٨٥ - ١٨٦.

﴿مُصْبِحِينَ﴾ أي: عند طلوع الصُّبح. وقد تقدَّم[١].

﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي: أهلُ مدينةِ لوطٍ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾: مستبشرينَ بالأضيافِ؛ طمعاً منهم في ركوبِ الفاحشة. ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى﴾ أي: أضيافي. ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ أي: تُخجِلُون. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ يجوز أن يكون من الخِزْي، وهو الذلُّ والهوان، ويجوز أن يكون من الخَزاية، وهو الحياءُ والخَجَل. وقد تقدَّم في هودٍ[٢]. ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: عن أن تضيفَ أحداً؛ لأنَّا نريدُ منهم الفاحشةَ. وكانوا يقصدونَ بفعلهم الغرباءَ؛ عن الحسن. وقد تقدَّم في الأعراف[٣]. وقيل: أو لم ننهكَ عن أن تُكلِّمنا في أحدٍ من الناسِ إذا قصدناه بالفاحشة. ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ أي: فتزوَّجوهُنَّ ولا تَركنوا إلى الحَرَام. وقد تقدَّم بيانُ هذا في هود[٤].

قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قال القاضي أبو بكر بنُ العربيِّ[٥]: قال المفسرون بأجمعهم: أقْسَم اللهُ تعالى هاهنا بحياةِ محمَّدٍ ﷺ تشريفاً له، أنَّ قومَه من قريشٍ في سَكْرتهم يَعْمَهُون، وفي حَيْرتِهم يتردَّدون.

قلت: وهكذا قال القاضي عِياض: أجمع أهلُ التفسيرِ في هذا أنه قسمٌ من اللهِ جلَّ جلاله بمدَّة حياةِ محمَّد ﷺ. وأصله ضمُّ العينِ؛ من العُمُر، ولكنَّها فُتحت؛ لكثرة الاستعمالِ. ومعناه: وَبَقَائِكَ يا محمَّد. وقيل: وحياتِكَ. وهذا نهايةُ التعظيم، وغايةُ

---

(١) ٨/ ٣٨١.

(٢) عند تفسير الآية (٧٨).

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٤، وتفسير البغوي ٢/ ١٧٩، وتقدم ٩/ ٢٧٧.

(٤) ١١/ ١٨٥.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١١١٨.

البِرِّ والتشريف. قال أبو الجوزاء[١]: ما أقسم اللهُ بحياةِ أحدٍ غيرِ محمَّدٍ ﷺ؛ لأنه أكرمُ البَرِيَّة عنده[٢].

قال ابنُ العربيِّ[٣]: ما الذي يَمنَعُ أن يُقسِم اللهُ سبحانه وتعالى بحياةِ لوطٍ، ويَبلغ به من التشريفِ ما شاء؟ وكلُّ ما يُعطِيه اللهُ تعالى للوطٍ من فَضْلٍ يُؤتي ضعفَيْه من شرفٍ لمحمَّدٍ ﷺ؛ لأنه أكرمُ على اللهِ منه؛ أَوَلا ترى أنه سبحانه أعطى إبراهيمَ الخُلَّة، وموسى التكليمَ، وأَعطى ذلك لمحمَّدٍ، فإذا أَقسم بحياةِ لوطٍ، فحياةُ محمَّد أَرْفعُ. ولا يَخرج من كلامٍ إلى كلامٍ لم يَجْرِ له ذِكْرٌ لغير ضرورةٍ.

قلت: ما قاله حسنٌ؛ فإنه كان يكون قَسَمُه سبحانه بحياةِ محمَّد ﷺ كلاماً معترضاً في قصة لوطٍ. قال القشيريُّ أبو نصر عبدُ الرحيمِ بنُ عبدِ الكريم في تفسيرِه: ويحتمل أن يقال: يَرجعُ ذلك إلى قومِ لوط، أي: كانوا في سَكْرتهم يَعْمَهون. وقيل: لما وعَظ لوطٌ قومَه، وقال: هؤلاء بناتي. قالت الملائكةُ: يا لوطُ: «لعَمْرُك إنَّهم لفي سَكْرتهم يَعْمَهون» ولا يدرون ما يَحِلُّ بهم صباحاً.

فإن قيل: فقد أَقسَم تعالى بالتينِ والزيتونِ وطورِ سِينين؛ فما في هذا؟ قيل له: ما من شيءٍ أَقسَم اللهُ به إلا وذلك دلالةٌ على فَضْله على ما يدخل في عِدادِه، فكذلك نبيُّنا ﷺ يجب أن يكون أفضلَ ممن هو في عِدادِه.

والعَمْر والعُمْر ـ بضمِّ العينِ وفتحِها ـ لغتان، ومعناهما واحدٌ؛ إلا أنه لا يُستَعمل في القَسَم إلا بالفتحِ؛ لكثرة الاستعمال[٤]. وتقول: عَمْرَكَ اللهَ، أي: أسألُ اللهَ تعميرَك. و«لَعَمْرُكَ»: رفعٌ بالابتداءِ، وخبرُه محذوفٌ. المعنى: لعَمْرُك مما أُقسِم به[٥].

---

(١) أوس بن عبد الله الرَّبَعي، بصري، يرسل كثيراً، ثقة، (ت ٨٣هـ). تقريب التهذيب.

(٢) الشفا للقاضي عياض ١/ ٨٦.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١١١٨.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٩.

(٥) إعراب القرآن ٢/ ٣٨٧، ومعاني القرآن ٤/ ٣٤ للنحاس، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١١٨.

الثانية: كره كثيرٌ من العلماءِ أن يقول الإنسانُ: لَعَمْري؛ لأنَّ معناه: وحياتي. قال إبراهيمُ النَّخَعِيُّ[(١)]: يُكره للرجل أن يقول: لَعَمْري؛ لأنه حَلِفٌ بحياةِ نفسِه، وذلك من كلام ضَعَفةِ الرجال. ونحو هذا قال مالكٌ: إنَّ المستضعفينَ من الرجال والمؤنَّثين يُقسِمون بحياتِك وعَيْشِك، وليس من كلامِ أهلِ الذُّكْران، وإن كان اللهُ سبحانه أقسَم به في هذه القصَّة؛ فذلك بيانٌ لشَرَف المنزلةِ والرفعةِ لمكانه، فلا يُحمَل عليه سواه، ولا يُستَعمل في غيرِه. وقال ابنُ حبيبٍ: ينبغي أن يُصرف «لعَمْرك» في الكلام لهذه الآيةِ. وقال قتادةُ: هو من كلامِ العرب. قال ابنُ العربيِّ: وبه أقول، لكنَّ الشرعَ قد قَطَعه في الاستعمال، وردَّ القَسَم إليه[(٢)].

قلت: القَسَم بـ «العمرك» و«لعمري» ونحوه في أشعارِ العربِ وفصيحِ كلامها كثيرٌ[(٣)].

قال النابغة[(٤)]:

لَـعَـمْـرِي ومـا عَـمْـرِي عـلـيَّ بـهـيِّـنٍ   لـقـد نَـطـقـتْ بُـطْـلاً عَـلَـيَّ الأقـارِعُ

آخر:

لـعَـمْـرُك إنَّ الـموتَ ما أَخْـطَـأ الـفـتـى   لـكـالـطِّـوَل الـمُـرْخَـى وثِـنْـيـاهُ بـالـيَـدِ[(٥)]

آخر:

أيُّـهـا الـمـنـكـحُ الـثُّـرَيَّـا سُـهـيـلاً   عَـمْـرَكَ الـلـهَ كـيـفَ يَـلْـتـقـيـانِ[(٦)]

---

(١) أخرجه الطبري ١٤/ ٩٣، وينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٠.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٠، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١١٨ - ١١١٩.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٩.

(٤) في ديوانه ص٨٠.

(٥) قائله طرفة بن العبد، والبيت في ديوانه ص٣٤، والطِّوَل: الحبل الذي يُطوَّل للدابة فترعى فيه. الصحاح (طول).

(٦) قائله عمر بن أبي سلمة، وهو في ديوانه ص٢٢٩.

آخر:

إذا رَضِيَتْ عليَّ بنو قُشَيْرٍ لعَمْرُ اللهِ أعْجبني رِضاها[(١)]

وقال بعض أهل المعاني: لا يجوز هذا؛ لأنه لا يُقال: للهِ عُمْرٌ، وإنما هو تعالى أزليٌّ. ذكره الزهراويُّ.

الثالثة: قد مضى الكلامُ فيما يُحلَف به وما لا يجوز الحَلِفُ به في «المائدة»[(٢)]، وذكرنا هناك قولَ أحمدَ بنِ حنبل فيمن أقسَم بالنبيِّ ﷺ لزمته الكفَّارةُ.

قال ابنُ خُوَيْزِمَنْدَاد: من جوَّز الحَلِفَ بغير اللهِ تعالى مما يجوز تعظيمُه بحقٍّ من الحقوقِ، فليس يقول إنَّها يمينٌ تتعلَّق بها كفَّارة؛ إلا أنه من قصَد الكذبَ كان ملوماً؛ لأنه في الباطن مستخِفٌّ بما وجبَ عليه تعظيمُه.

قالوا: وقوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ أي: وحياتِك. وإذا أقسَم اللهُ تعالى بحياة نبيِّه فإنَّما أرادَ بيانَ التصريح لنا أنه يجوزُ لنا أن نَحْلِفَ بحياتِه. وعلى مذهب مالكٍ معنى قوله: ﴿لَعَمْرُكَ﴾، ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ [التين: ١]، ﴿وَٱلطُّورِ . وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ [الطور: ١-٢]، ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١] ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشمس: ١]، ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ [البلد: ١-٣] كل هذا معناه: وخالقِ التينِ والزيتونِ، وبربِّ الكتابِ المَسْطُور، وبربِّ البلدِ الذي حَلَلْتَ به، وخالقِ عيشِكَ وحياتِكَ، وحقِّ محمَّدٍ؛ فاليمينُ والقَسَم حاصلٌ به سبحانه لا بالمخلوقِ.

قال ابن خُوَيْزِمَنْداد: ومن جَوَّز اليمين بغير اللهِ تعالى تأوَّل قولَه ﷺ: «لا تحلفوا بآبائكم»[(٣)]. وقال: إنَّما نَهى عن الحَلِفِ بالآباء الكفَّارِ، ألَا ترى أنه قال لما حَلَفوا بآبائهم: «لَلْجَبَلُ عند اللهِ أكرمُ من آبائكم الذين ماتوا في الجاهليةِ»[(٤)]. ومالك حَمَلَ

---

(١) القائل هو القحيف العقيلي، وهو في أدب الكاتب ص٥٠٦ ، والخصائص ٢/ ٣١١ .

(٢) ٨/ ١٣١ - ١٣٢ وما بعدها.

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٤٨)، ومسلم (١٦٤٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) لم نقف عليه.

الحديثَ على ظاهرِه.

قال ابن خُوَيْزِمنداد: واستدل أيضاً من جوَّز ذلك؛ بأنَّ أيمانَ المسلمين جَرَتْ منذ عهدِ النبيِّ ﷺ إلى يومِنا هذا أن يَحْلفوا بالنبيِّ ﷺ، حتى إنَّ أهلَ المدينة إلى يومِنا هذا إذا حاكَم أحدهم صاحبَه قال: احْلِفْ لي بحقِّ ما حواه هذا القبرُ، وبحقِّ ساكنِ هذا القبرِ، يعني النبيَّ ﷺ، وكذلك بالحرَمِ، والمشاعِرِ العظام، والرُّكنِ، والمَقام، والمِحْراب، وما يُتْلى فيه[1].

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ نصبٌ على الحال، أي: وقتَ شُروقِ الشمس. يقال: أشرقتِ الشمسُ، أي: أضاءت، وشَرقت: إذا طَلَعت. وقيل: هما لغتان بمعنًى. وأشرقَ القومُ، أي: دخلوا في وقتِ شُروقِ الشمسِ. مثل: أصبحوا وأَمْسَوْا، وهو المرادُ في الآية. وقيل: أرادَ شروقَ الفَجْر. وقيل: أوّلُ العذابِ كان عند الصبحِ، وامتدَّ إلى شُروق الشمسِ، فكان تمامُ الهلاكِ عند ذلك، والله أعلم[2]. و«الصيحة»: العذابُ[3]. وتقدّم ذكر «سِجِّيل»[4].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ روى التِّرمذيُّ الحكيمُ في «نوادر الأصول»[5]

---

(١) أكثر الفقهاء على عدم جواز الحلف بغير الله. وينظر تفصيل المسألة في فتح الباري ١١/ ٥٣١ .

(٢) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٨٧ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٨٤ ، والوسيط ٣/ ٤٩ ، وزاد المسير ٤/ ٤٠٩ ، والصحاح (شرق).

(٣) الوسيط ٣/ ٤٩ .

(٤) ١١/ ١٨٦ - ١٨٧ .

(٥) لم نقف عليه في المطبوع منه.

من حديث أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «للمتفرِّسِين»، وهو قولُ مجاهدٍ[١].

وروى أبو عيسى التِّرمذيُّ عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «اتَّقُوا فِراسَةَ المؤمنِ؛ فإنَّه يَنْظُرُ بنورِ اللهِ» ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾. قال: هذا حديثٌ غريبٌ[٢]. وقال مقاتلٌ وابنُ زيدٍ: للمتوسمين: للمتفكِّرين[٣]. الضحاك: للناظرين[٤]. قال الشاعر[٥]:

أَوَ كلَّما وَرَدَتْ عُكاظَ قبيلةٌ ... بعثُوا إليَّ عريفَهم يتوسَّمُ

وقال قتادة: للمعتبرين[٦]. قال زهير[٧]:

وفيهنَّ مَلْهًى للصديقِ ومنظَرٌ ... أنيقٌ لِعَيْنِ الناظرِ المتوسِّمِ

وقال أبو عبيدة[٨]: للمتبصِّرين. والمعنى متقارب.

وروى الترمِذيُّ الحكيمُ[٩] من حديثِ ثابتٍ عن أنس بنِ مالك قال: قال

---

(١) تفسير مجاهد ١/ ٣٤٢، وأخرجه أيضاً الطبري في تفسيره ١٤/ ٩٤ - ٩٥ . وهو عند ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٠ .

(٢) سنن الترمذي (٣١٢٧).

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٩١ ، والوسيط ٣/ ٤٩ ، والنكت والعيون ٣/ ١٦٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٥٥ ، وزاد المسير ٤/ ٤١٠ .

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ١٤/ ٩٥ و ٩٧ ، وأورده الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٦٧ .

(٥) القائل هو طريف بن تميم العنبري، وهو في الأصمعيات ص١٢٧ ، والبيان والتبيين ٣/ ١٠١ .

(٦) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٤٩ ، والطبري في تفسيره ١٤/ ٩٦ ، وأبو الشيخ في العظمة (٥٠)، وأورده الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٦٧ ، والواحدي في الوسيط ٣/ ٤٩ .

(٧) ديوانه ص١٠ (بشرح ثعلب).

(٨) في مجاز القرآن ١/ ٣٥٤ .

(٩) نوادر الأصول ص٢٧١ ، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٢٩٣٥)، والبزار (٣٦٣٢ كشف الأستار). وفي إسناده: بكر بن الحكم أبو بشر المُزَلِّق، قال الذهبي في ميزان الاعتدال ١/ ٣٤٤ : روى خبراً منكراً، وذكر الحديث.

رسولُ الله ﷺ: «إنَّ لِلهِ عزَّ وجلَّ عباداً يَعرِفونَ الناسَ بالتوسُّم».

قال العلماءُ: التوسُّمُ: تفعُّل؛ من الوَسْم، وهي العَلَامةُ التي يُستدلُّ بها على مطلوبٍ غيرِها. يقال: توسَّمتُ فيه الخيرَ: إذا رأيتَ مِيسَم ذلك فيه[١]، ومنه قولُ عبدِ الله بنِ رَوَاحةَ للنبيِّ ﷺ:

إني توسَّمتُ فيكَ الخيرَ أعرِفهُ والله يَعْلَمُ أنِّي ثابتُ البَصَرِ[٢]

آخر:

توسَّمْتُهُ لما رأيتُ مهابةً عليه وقُلتُ المرءُ مِن آلِ هاشمِ[٣]

واتَّسم الرجلُ: إذا جعَل لنفسِه عَلَامة يُعرف بها. وتوسَّم الرجلُ: طلَب كلأَ الوَسْمِيِّ[٤]. وأنشد:

وأَصْبَحْنَ كالدَّوْم النّواعِم غُدْوةً على وِجْهةٍ من ظاعنٍ مُتَوَسِّمِ[٥]

وقال ثعلب: الواسمُ: الناظرُ إليك مِن فَرْقك إلى قَدَمِك. وأصل التوسُّم: التثبُّت والتفكُّر؛ مأخوذ من الوَسْم، وهو التأثيرُ بحديدةٍ في جِلْد البعير وغيرِه، وذلك يكون بجودةِ القَريحة، وحِدَّة الخاطر، وصفاءِ الفِكْر. زاد غيرُه: وتفريغِ القلبِ من حَشْو الدنيا، وتطهيرِه من أدناسِ المعاصي، وكدُورةِ الأخلاقِ، وفُضُولِ الدنيا. روى نَهْشَلُ عن ابنِ عباس: «للمتوسمين» قال: لأهلِ الصلاحِ والخير. وزعمت الصوفيَّةُ أنَّها

(١) ينظر لسان العرب (وسم).

(٢) ديوانه ص٩٤، والبيت فيه:

إنِّي تفرَّستُ فيكَ الخيرَ أعرفه فراسةً خالَفَتْهم في الذي نظروا

(٣) البيت لأعرابي أضاف عبيدَ اللهَ بنَ العباس، وكان عند الأعرابي شاة لا يملك غيرها فذبحها له، وقدَّمها بين يديه، فكافأه عليها خمسَ مئة دينار، فقال فيه قصيدة هذا مطلعها، وذكر تتمتها المبرد في الفاضل ص٣٢، والبغدادي في خزانة الأدب ٨/ ٢٨٢.

(٤) الصحاح ولسان العرب (وسم)، وأرض موسومة: أصابها الوسميُّ، وهو مطر يكون بعد الخَرَفيِّ في البرد.

(٥) ذكره نشوان الحميري في الحور العين ص٤١.

كرامةٌ. وقيل: بل هي استدلالٌ بالعلاماتِ، ومن العلاماتِ ما يبدو ظاهراً لكلِّ أحدٍ، وبأوَّل نَظْرة، ومنها ما يَخفى فلا يبدو لكلِّ أحدٍ، ولا يُدرَك ببادئِ النظر. قال الحسن: المتوسِّمون: هم الذين يتوسَّمون الأمورَ فيعلمونَ أنَّ الذي أهلَك قومَ لوطٍ قادرٌ على أن يُهلِك الكفَّارَ؛ فهذا من الدلائلِ الظاهرة.

ومثله قولُ ابنِ عباس: ما سألَني أحدٌ عن شيء إلا عَرَفْتُ أفقيهٌ هو أو غيرُ فقيهٍ.

وروي عن الشافعي ومحمد بنِ الحسنِ أنَّهما كانا بفناء الكعبةِ، ورجلٌ على بابِ المسجد، فقال أحدهما: أراه نجاراً، وقال الآخَرُ: بل حدَّاداً، فتبادَرَ من حضَر إلى الرجلِ فسأله، فقال: كنت نجَّاراً، وأنا اليوم حدَّادٌ[(١)].

وروي عن جُنْدُبِ بنِ عبدِ الله البَجَليِّ أنه أَتى على رجلٍ يَقرأُ القرآنَ فوقف، فقال: من سَمَّع سمَّع اللهُ به، ومن رَاءى راءى اللهُ به. فقلنا له: كأنَّكَ عرَّضْتَ بهذا الرجل، فقال: إنَّ هذا يَقرأ عليكَ القرآنَ اليوم، ويخرج غداً حَرُورِيًّا؛ فكان رأسَ الحرُورِيَّة، واسمه مِرْداس[(٢)].

وروي عن الحسن البصري أنه دخَل عليه عمرو بنُ عبيدٍ فقال: هذا سيِّدُ فتيانِ البَصرةِ إن لم يُحدِث، فكان من أمرِه من القَدَر ما كان، حتى هجرَه عامَّةُ إخوانِه. وقال لأيوبَ: هذا سيِّدُ فتيانِ أهل البصرةِ؛ ولم يستثنِ، وروي عن الشَّعْبيِّ أنَّه قال لداودَ الأوديِّ[(٣)] وهو يُماريه: إنَّك لا تموتُ حتى تُكْوَى في رأسِك، وكان كذلك[(٤)].

وروي أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ ﷺ دخل عليه قومٌ من[(٥)] مَذْحِجْ فيهم الأشترُ، فصعَّد

---

(١) الرسالة القشيرية ٣/ ١٧٦ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١١٩ .

(٢) لم نقف عليه، ومرداس: هو ابن أُدَيّة ـ وهي أمه ـ ابن حُدير، أبو بلال التميمي. ينظر الكامل لابن الأثير ٢/ ٥١٧ و٥٨٢ حوادث سنتي (٥٨) و(٦١) هـ .

(٣) في (ز) و(د) و(م): الأزدي، والمثبت من (ظ) ومصدر التخريج.

(٤) نوادر الأصول ص٢٧١ .

(٥) بعدها في (ظ): بني.

فيه النظرَ وصوَّبه وقال: أيُّهم هذا؟ قالوا: مالكُ بنُ الحارثِ. فقال: ما له قاتَلَه اللهُ؟! إني لأرى للمسلمين منه يوماً عصيباً؛ فكان منه في الفتنةِ ما كان(١).

وروي عن عثمانَ بنِ عفان رضي الله عنه: أنَّ أنسَ بنَ مالك دخل عليه، وكان قد مَرَّ بالسُّوق، فنظر إلى امرأةٍ، فلما نظرَ إليه، قال عثمانُ: يَدخُل أحدُكم عليَّ وفي عينيه أثَرُ الزِّنى؟! فقال له أنسٌ: أوَحْياً بعدَ رسولِ الله ﷺ؟! فقال: لا! ولكن برهانٌ وفِراسةٌ وصِدْقٌ(٢). ومثلُه كثيرٌ عن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين.

الثانية: قال أبو بكر بن العربي: إذا ثبت أنَّ التوسُّم والتفرُّس من مداركِ المعاني؛ فإنَّ ذلك لا يترتَّب عليه حُكْم، ولا يُؤخَذ به موسومٌ ولا متفرِّس. وقد كان قاضي القضاةِ الشاميُّ المالكيُّ ببغدادَ أيام كوني بالشام يَحكُم بالفِراسةِ في الأحكام، جَرْياً على طريق إياسِ بنِ معاويةَ أيام كان قاضياً، وكان شيخُنا فخرُ الإسلام أبو بكر الشاشيُّ صنَّف جزءاً في الردِّ عليه، كتبه لي بخطِّه وأعطانِيْه. وذلك صحيحٌ؛ فإن مدارِكَ الأحكامِ معلومةٌ شرعاً، مُدرَكة قطعاً، وليست الفِراسةُ منها.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا﴾ يعني: قرى قومِ لوطٍ. ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: على طريقِ قومِكَ يا محمَّد إلى الشام(٣). ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لَعبْرةً للمصدِّقين(٤). ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾ يريد قومَ شعيب، كانوا أصحابَ غِياضٍ ورياضٍ

(١) أخرجه أحمد في العلل ١/ ٣١٥، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٧/ ١١٩ - ١٢٠، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٥٦/ ٣٧٧ - ٣٧٨.

(٢) الرسالة القشيرية ٣/ ١٨٣.

(٣) الوسيط ٣/ ٥٠ وعزاه إلى ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٨٥.

وشجرٍ مثمرٍ[١]. والأَيْكةُ: الغَيْضةُ[٢]، وهي جماعةُ الشجر، والجَمْعُ: الأَيْك[٣]. ويُروى أنَّ شجرَهم كان دَوْماً، وهو المُقْل[٤]. قال النابغة:

تَجْلُو بقَادِمَتَيْ حمامةِ أَيْكَةٍ بَرَداً أُسِفَّ لِثَاتُه بالإِثْمِدِ[٥]

وقيل: الأيكة: اسمُ القرية. وقيل: اسمُ البَلْدة[٦]. وقال أبو عبيدة: الأَيْكَة ولَيْكَة: مدينتُهم، بمنزلة بَكَّة من مكَّة[٧]. وتقدّم خبرُ شعيبٍ وقومِه[٨]. ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بطريقٍ واضحٍ في نفسِه، يعني مدينةَ قومِ لوطٍ وبقعةَ أصحابِ الأَيْكة، يَعْتَبِرُ بهما من يَمرُّ عليهما[٩].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾

الحِجْر ينطلق على معانٍ: منها حِجْرُ الكعبة. ومنها: الحَرَام؛ قال الله تعالى: ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣] أي: حراماً محرَّماً. والحِجْرُ: العَقْلُ؛ قال الله تعالى: ﴿لِّذِى حِجْرٍ﴾ [الفجر: ٥] والحِجْر: حِجْرُ القميص؛ والفتح أفصحُ. والحِجْرُ: الفرس

(١) ينظر الوسيط ٣/ ٥٠ .

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٩١ ، وتفسير الطبري ١٤/ ١٠٠ وعزاه إلى الضحاك، وعزاه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٦٨ إلى مجاهد.

(٣) تفسير الرازي ١٩/ ٢٠٤ ، ولسان العرب (أيك).

(٤) تفسير الطبري ١٤/ ١٠٠ ، والنكت والعيون ٣/ ١٦٨ ، وزاد المسير ١٩/ ٢٠٤ ، وعزاه الطبري إلى قتادة، وابن الجوزي إلى ابن عباس رضي الله عنهما. والمُقْلُ: ثَمَر شجر الدَّوْم، مُقَوٍّ للمعدة. القاموس (مقل)، وينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٧١ ، وتهذيب اللغة ١٠/ ٤١٥ .

(٥) ديوان النابغة ص٤٠ ، والقادمة؛ جمعها قوادم، وهي أربع أو عشر ريشات في مقدم الجناح، شبَّه الشاعر الشفتين لرقتهما بقادمتي حمامة، وشبَّه الأسنان بالبَرَد لشدة بياضه. القاموس المحيط (قدم)، وديوان المعاني للعسكري ١/ ٢٣٨ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٧٥ ، والصحاح (أيك).

(٧) النكت والعيون ٣/ ١٦٨ ، ولسان العرب (أيك).

(٨) ٩/ ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٩) تفسير الطبري ١٤/ ٩٨ ، وتفسير السمرقندي ٢/ ٢٢٣ ، والوسيط ٣/ ٥٠ ، وزاد المسير ٤/ ٤١٠ .

الأُنثى. والحِجْر: ديارُ ثمودَ، وهو المراد هنا، أي: المدينة؛ قاله الأزهريُّ[١]. قتادة: وهي ما بين مكَّة وتَبُوك، وهو الوادي الذي فيه ثمود[٢]. الطبريُّ: هي أرضٌ بين الحجازِ والشام، وهم قومُ صالح[٣]. وقال: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وهو صالحٌ وحْدَه، ولكن من كذَّب نبيًّا؛ فقد كذَّب الأنبياءَ كلَّهم؛ لأنَّهم على دينٍ واحدٍ في الأصول، فلا يجوز التفريقُ بينهم. وقيل: كذَّبوا صالحاً ومَن تَبِعَه ومَن تقدَّمه من النبيِّين أيضاً[٤]. والله أعلم.

روى البخاريُّ[٥] عن ابنِ عمرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لما نزل الحِجْرَ في غزوةِ تَبُوك أَمَرَهم ألَّا يشربوا من بئرِها، ولا يَسْتَقُوا منها. فقالوا: قد عَجَنَّا واستقَينا. فأَمَرَهم رسولُ الله ﷺ أن يُهَرِيْقُوا الماء، وأن يَطْرحوا ذلك العجينَ.

وفي «الصحيح»[٦] عن ابنِ عمرَ أنَّ الناسَ نزلوا مع رسولِ الله ﷺ على الحِجْرِ أرضِ ثمودَ، فاسْتَقَوْا مِن آبارِها وعَجنوا به العجينَ، فأَمَرَهم رسولُ اللهِ ﷺ أن يُهَرِيقوا ما استقَوْا، ويَعلِفوا الإبلَ العجينَ، وأَمَرَهم أن يَسْتَقُوا مِن البئرِ التي تَرِدها الناقةُ.

ورَوى أيضاً عن ابنِ عمرَ قال: مَرَرْنا مع رسولِ اللهِ ﷺ على الحِجْرِ، فقال لنا رسولُ الله ﷺ: «لا تَدخلوا مساكنَ الذين ظَلموا أنفسَهم إلا أنْ تكونوا باكِيْنَ؛ حَذَراً أن يُصِيبَكم مثلُ ما أَصابَهُم». ثم زَجَرَ فأَسْرَعَ[٧].

قلت: ففي هذه الآيةِ التي بيَّن الشارعُ حكمَها وأوضحَ أَمْرَها ثمان مسائلَ، استنبطها العلماءُ واختَلف في بعضِها الفقهاءُ:

---

(١) تهذيب اللغة ٤/ ١٣٠ - ١٣٣ ، وينظر الصحاح (حجر).

(٢) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٦٩ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٧٢ ، وزاد المسير ٤/ ٤١١ .

(٣) تفسير الطبري ١٠/ ٢٨٢ ، وأورده ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٤٤١ ونسبه إلى ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٢ ، وتفسير البغوي ٣/ ٥٥ ، والكشاف ٢/ ٣٩٦ ، وزاد المسير ٤/ ٤١١ .

(٥) في صحيحه (٣٣٧٨).

(٦) البخاري (٣٣٧٩)، ومسلم (٢٩٨١) واللفظ له.

(٧) البخاري (٣٣٨٠)، ومسلم (٢٩٨٠): (٣٩) واللفظ له.

فأوَّلها: كراهةُ دخولِ تلك المواضعِ، وعليها حَمل بعضُ العلماء دخولَ مقابرِ الكفَّار؛ فإن دَخل الإنسانُ شيئاً من تلك المواضعِ والمقابرِ فعلى الصفةِ التي أرْشَد إليها النبيُّ ﷺ من الاعتبارِ والخَوْفِ والإسراعِ. وقد قال رسولُ اللهِ ﷺ: «لا تَدخُلوا أرضَ بابلَ؛ فإنَّها ملعونةٌ»[1].

مسألة: أَمَرَ النبيُّ ﷺ بهَرْقِ ما استَقَوْا مِن بئرِ ثمودَ، وإلقاءِ ما عُجِنَ وخُبِزَ به؛ لأجلِ أنَّه ماءُ سُخْطٍ، فلم يجزِ الانتفاعُ به؛ فراراً من سَخَطِ اللهِ. وقال: «اعلِفُوه الإبلَ»[2].

قلت: وهكذا حكمُ الماءِ النَّجِسِ وما يُعجَن به.

وثانيها: قال مالكٌ: إنَّ ما لا يجوز استعمالُه مِن الطعامِ والشرابِ يجوز أن تَعْلِفَه الإبلَ والبهائمَ؛ إذ لا تكليفَ عليها؛ وكذلك قال في العسلِ النَّجِسِ: إنَّه يَعلِفُه النحلَ[3].

وثالثها: أَمَرَ رسولُ اللهِ ﷺ بعَلْفِ ما عُجن بهذا الماءِ الإبلَ، ولم يَأْمُرْ بطَرْحِه كما أَمَرَ في لحومِ الحُمُر الإنسيَّة يومَ خَيْبر[4]؛ فدلَّ على أنَّ لحمَ الحُمُر أشدُّ في التحريمِ وأغلظُ في التنجيسِ. وقد أَمَرَ رسولُ اللهِ ﷺ بكَسْبِ الحجَّام أن يُعلَف الناضحَ والرقيقَ، ولم يكن ذلك لتحريمٍ ولا تنجيسٍ. قال الشافعيُّ: ولو كان حراماً لم يأمره أن يُطعِمَه رقيقَه؛ لأنه متعبَّد فيه كما تُعبِّد في نفسه[5].

---

(١) المفهم ٧/ ٣٥٢ ، ولم نقف عليه بهذا اللفظ، بل الوارد ما أخرجه أبو داود (٤٩٠) عن علي ﷺ قال: إن حبيبي ﷺ نهاني أن أصلِّيَ في المقبرة، ونهاني أن أصلِّيَ في أرض بابل فإنها ملعونة. وضعف إسناده الحافظ ابن حجر في فتح الباري ١/ ٥٣٠ . وسيرد ص٢٤٥ من هذا الجزء وعلقه البخاري في الصلاة، باب ٥٣ ، بلفظ: ويُذكر أن علياً ﷺ كره الصلاة بخسف بابل.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١١٢ ، ولم نقف عليه بهذا اللفظ، ولعله ذكره بالمعنى، وسلف الحديث قريباً.

(٣) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٢١ .

(٤) أخرجه البخاري (٤٢١٥)، ومسلم (٥٦١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٥) ينظر اختلاف الحديث للشافعي (بهامش الأم) ٧/ ٣٤٤ - ٣٤٥ .

ورابعها: في أَمْرِه ﷺ بعَلْف الإبلِ العجينَ دليلٌ على جواز حَمْلِ الرجلِ النجاسةَ إلى كلابِه ليأكلوها؛ خلافاً لمن منَع ذلك مِن أصحابنا، وقال: تُطلَق الكلابُ عليها ولا يَحملُها إليهم(١).

وخامسها: أَمْرُه ﷺ أن يَسْتَقُوا من بئرِ الناقةِ دليلٌ على التبرُّك بآثارِ الأنبياءِ والصالحينَ، وإن تقادمتْ أعصارُهم، وخَفِيَتْ آثارُهم؛ كما أنَّ في الأوَّل دليلاً على بُغْضِ أهلِ الفسادِ، وذمِّ ديارِهم وآثارِهم. هذا، وإن كان التحقيقُ أنَّ الجماداتِ غيرُ مؤاخذاتٍ، لكنَّ المقرونَ بالمحبوبِ محبوبٌ، والمقرونَ بالمكروهِ المبغوضِ مبغوضٌ؛ كما قال كُثَيِّر(٢):

أحبُّ لحبِّها السودانَ حتى ... أحبُّ لحبِّها سودَ الكلابِ

وكما قال آخر:

أَمُرُّ على الدِّيارِ ديارِ لَيْلَى ... أقبِّل ذا الجدارَ وذا الجدارا

وما تلك الديارُ شَغَفْنَ قلبي ... ولكنْ حبُّ مَن سَكَنَ الديارا(٣)

وسادسها: منَع بعضُ العلماءِ الصلاةَ بهذا الموضع، وقال: لا تجوز الصلاةُ فيها؛ لأنَّها دارُ سُخْطٍ، وبقعةُ غَضَبٍ(٤). قال ابنُ العربيِّ: فصارت هذه البقعةُ مستثناةً مِن قوله ﷺ: «جُعلت ليَ الأرضُ مسجداً وطَهوراً»(٥) فلا يجوز التيمُّم بترابِها، ولا الوضوءُ من مائِها، ولا الصلاةُ فيها.

وقد روى الترمذيُّ عن ابنِ عمرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ نهى أن يُصلَّى في سَبْعة مواطنَ: في المَزْبلة، والمَجْزَرة، والمقبرة، وقارعة الطريق، وفي الحمَّام، وفي معاطِنِ الإبل،

---

(١) المفهم ٧/ ٣٥٥.

(٢) المفهم ٧/ ٣٥٥، وسلف ٣/ ٦.

(٣) الشعر لقيس بن الملوّح، وهو في ديوانه ص١٧٠، وفيه: وما حبُّ الديار، بدل: وما تلك الديار.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٢١.

(٥) سلف ٢/ ٢٨٣.

وفوقَ بيتِ الله. [قال:] وفي الباب عن أبي مَرْثد، وجابرٍ، وأنسٍ، [و] حديثُ ابنِ عمرَ إسنادُه ليس بذاك القوِيّ، وقد تُكُلِّم في زيد بن جَبيرة من قِبَل حفظِه[1].

وقد زاد علماؤنا: الدارَ المغصوبةَ، والكنيسةَ، والبِيعةَ، والبيتَ الذي فيه تماثيلُ، والأرضَ المغصوبةَ، أو موضعاً تَستقبِلُ فيه نائماً، أو وَجْهَ رجلٍ، أو جداراً عليه نجاسةٌ. قال ابنُ العربيّ[2]: ومن هذه المواضعِ ما مُنِعَ لحقِّ الغير، ومنه ما مُنِعَ لحقِّ اللهِ تعالى، ومنه ما مُنِعَ لأجْلِ النجاسةِ المحقَّقة أو لغلبتِها؛ فما مُنِعَ لأجلِ النجاسةِ إن فُرِشَ فيه ثوبٌ طاهرٌ كالحمَّام والمقبرة فيها أو إليها، فإنَّ ذلك جائزٌ في «المدوَّنة»[3]. وذكر أبو مصعبٍ عنه الكراهةَ. وفرَّق علماؤنا بين المقبرةِ القديمةِ والجديدةِ لأجلِ النجاسة، وبين مقبرةِ المسلمينَ والمشركينَ؛ لأنها دارُ عذابٍ، وبقعةُ سَخَطٍ؛ كالحِجر. وقال مالكٌ في «المجموعة»: لا يُصلِّي في أعطانِ الإبلِ وإن فَرش ثوباً. كأنَّه رأى لها علَّتين: الاستتارَ بها، ونفارَها، فتُفسِد على المصلِّي صلاتَه، فإن كانت واحدةً فلا بأسَ؛ كما كان النبيُّ ﷺ يفعل؛ في الحديثِ الصحيح[4].

وقال مالكٌ: لا يصلِّي على بساطٍ فيه تماثيلُ إلا من ضرورةٍ. وكَره ابنُ القاسمِ الصلاةَ إلى القِبْلةِ فيها تماثيلُ، وفي الدارِ المغصوبة، فإن فعل أجزأه. وذكر بعضُهم عن مالكٍ أنَّ الصلاةَ في الدارِ المغصوبةِ لا تُجزئ.

قال ابنُ العربيّ[5]: وذلك عندي بخلافِ الأرض، فإنَّ الدارَ لا تُدخَل إلا بإذنٍ، والأرضَ وإن كانت مِلكاً فإنَّ المسجديَّة فيها قائمةٌ لا يُبطِلها المِلكُ.

---

(١) سنن الترمذي (٣٤٦) و(٣٤٧)، وما بين حاصرتين منه. وسيرد الكلام عليه.

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١١٢٢ ، وما قبله منه.

(٣) ١/ ٧٦ .

(٤) أخرجه البخاري (٥٠٧)، ومسلم (٥٠٢) عن ابن عمر، عن النبي ﷺ أنه كان يُعرِّض راحلته فيُصلِّي إليها، قلت: أفرأيت إذا هبَّت الركاب؟ قال: كان يأخذ هذا الرحل فيعدِّله، فيصلِّي إلى آخرته، أو قال: مؤخِّره. وكان ابن عمر رضي الله عنهما يفعله.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١١٢٢ .

قلت: الصحيحُ ـ إن شاء اللهُ ـ الذي يدل عليه النظرُ والخَبَر أنَّ الصلاةَ بكلِّ موضعٍ طاهرٍ جائزةٌ صحيحةٌ. وما رُويَ من قوله ﷺ: «إنَّ هذا وادٍ به شيطانٌ»[١] وقد رواه معمر عن الزهريِّ فقال: «واخرجوا عن المَوْضِع الذي أصابتكم فيه الغفلةُ»[٢]. وقولِ عليٍّ: نهاني رسولُ الله ﷺ أن أصلِّيَ بأرضِ بابل؛ فإنها ملعونةٌ. وقولِه عليه السلام حين مرَّ بالحِجْر من ثمودَ: «لا تَدخُلوا على هؤلاءِ المعذَّبين إلا أنْ تكونوا باكِيْنَ» ونهيِه عن الصلاةِ في معاطنِ الإبلِ[٣]، إلى غير ذلك مما في هذا الباب، فإنَّه مردودٌ إلى الأصول المجتمع عليها، والدلائلِ الصحيح مجيئها.

قال الإمام الحافظ أبو عمر[٤]: المختار عندنا في هذا البابِ أنَّ ذلك الواديَ وغيرَه مِن بِقاع الأرضِ جائزٌ أن يُصلَّى فيها كلِّها ما لم تكن فيها نجاسةٌ متيقَّنةٌ تَمنع من ذلك، ولا معنى لاعتلالِ من اعتلَّ بأن موضعَ النومِ عن الصلاة موضعُ شيطانٍ، وموضعٌ ملعونٌ لا يجب أن تقام فيه الصلاةُ.

وكلُّ ما رُوي في هذا الباب من النهي عن الصلاةِ في المقبرة، وبأرضِ بابل، وأعطانِ الإبل، وغيرِ ذلك مما في هذا المعنى، كلُّ ذلك عندنا منسوخٌ ومدفوعٌ بعموم قولِه ﷺ: «جُعلت ليَ الأرضُ كلُّها مسجداً وطَهوراً»[٥]، وقولِه ﷺ مخبراً أنَّ ذلك من فضائلِه ومما خُصَّ به.

وفضائلُه عند أهلِ العلم لا يجوز عليها النَّسْخُ ولا التبديلُ ولا النقصُ، قال ﷺ: «أوتيتُ خمساً»[٦] وقد روي: ستاً[٧]، وقد روي: ثلاثاً[٨]، و: أربعاً[٩]، وهي تنتهي

(١) أخرجه بهذا اللفظ مالك في الموطأ ١/ ١٤ عن زيد بن أسلم مرسلاً وهو عند مسلم ٦٨٠ (٣١٠) بنحوه.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، إلا أنه قال: «وتحولوا» بدل: «واخرجوا».

(٣) سلفت هذه الأحاديث قريباً.

(٤) في التمهيد ٥/ ٢١٧ - ٢١٨ .

(٥) سلف ٤/ ٢٥٨ .

(٦) هو الحديث السابق.

(٧) أخرجه مسلم (٥٢٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٨) أخرجه مسلم (٥٢٢) من حديث حذيفة ﷺ.

(٩) أخرجه أحمد (١٣٦١) من حديث علي ﷺ.

إلى أزيدَ من تسع[(١)]، قال فيهن: «لم يُؤْتَهُنَّ أحدٌ قبلي: بُعِثْتُ إلى الأحمرِ والأسودِ، ونُصرت بالرُّعْبِ، وجُعلت أمتي خيرَ الأُمم، وأُحِلَّت ليَ الغنائم، وجُعلت ليَ الأرضُ مسجداً وَطَهوراً، وأُوتيتُ الشفاعةَ، وبُعثتُ بجوامعِ الكَلِم، وبينا أنا نائمٌ أُتِيْتُ بمفاتيحِ الأرضِ، فوضعتْ في يدي، وأُعطيتُ الكوثر، وخُتم بي النبيون». رواها جماعةٌ من الصحابة[(٢)]. وبَعضُهم يَذكُر بعضَها، ويَذكُر بعضُهم ما لم يَذكُر غيرُه، وهي صحاح كلُّها. وجائزٌ على فضائله الزيادةُ، وغيرُ جائزٍ فيها النقصانُ؛ ألا ترى أنه كان عبداً قبل أنْ يكون نبيًّا، ثم كان نبيًّا قبل أنْ يكون رسولاً؛ وكذلك روي عنه[(٣)]. وقال: «ما أدري ما يُفعَل بي ولا بكم» ثم نزلت: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[(٤)] [الفتح: ٢]. وسمع رجلاً يقول له: يا خيرَ البريَّة؛ فقال: «ذاك إبراهيم»[(٥)]، وقال: «لا يقولنَّ أحدكم: أنا خيرٌ مِن يُونُسَ بنِ مَتَّى»[(٦)]، وقال: «السيد يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام»[(٧)] ثم قال بعد ذلك كلِّه: «أنا

---

(١) في (د) و(ظ): سبع، وينظر اعتقاد أهل السنة والجماعة ٤/ ٨٦٢ وما بعدها، وإكمال المعلم ٢/ ٤٣٨، وفتح الباري ١/ ٤٣٩.

(٢) رُويت هذه الفضائل في أحاديث متفرقة عن عدد من الصحابة في «الصحيحين» كما مرَّ آنفاً، دون قوله: «وأعطيت الكوثر» فقد أخرجه البزار (٣/ ١٤٧ كشف الأستار)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة والجماعة (١٤٤٣) من حديث أبي هريرة ﷺ. وجوّد إسناده الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٦٩. وينظر التمهيد ٥/ ٢٢٣، والاستذكار ١/ ٣٣٨ - ٣٣٩.

(٣) أخرج عبد الرزاق ٢/ ٢٠٥ عن عطاء قال: وبينا النبي ﷺ يُعلِّم التشهد فقال رجل: وأشهد أن محمداً رسوله وعبده، فقال النبي ﷺ: قد كنت عبداً قبل أن أكون رسولاً، قل: وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. وينظر الاستذكار ١/ ٣٣٦.

(٤) أسباب النزول للواحدي ص٤٠٣ - ٤٠٤ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه مسلم (٢٣٦٩) من حديث أنس ﷺ.

(٦) أخرجه أحمد (٤١٩٧)، والبخاري (٣٤١٢) من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٧) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٠٠٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٨٩٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ١٢٨ و ٨/ ٢٠٢: فيه: نافع أبو هرمز، وهو ضعيف، أو: متروك.

سيِّدُ وَلَدِ آدمَ ولا فَخْرُ»[١]. ففضائلُه ﷺ لم تَزَلْ تزدادُ إلى أنْ قبضَه اللهُ؛ فمن هاهنا قلنا: إنَّه لا يجوزُ عليها النَّسْخُ ولا الاستثناءُ ولا النقصانُ، وجائزٌ فيها الزيادةُ[٢].

وبقوله ﷺ: «جُعِلَتْ ليَ الأرضُ مسجداً وطَهوراً»[٣] أجزنا الصلاةَ في المقبرةِ، والحمَّام، وفي كلِّ موضعٍ من الأرض إذا كان طاهراً من الأنجاسِ[٤]. وقال ﷺ لأبي ذرٍّ: «حيثما أدْرَكَتْكَ الصلاةُ فصَلِّ؛ فإنَّ الأرضَ كلَّها مسجدٌ» ذكره البخاريُّ[٥]، ولم يَخُصَّ موضعاً من موضع.

وأما مَن احتجَّ بحديثِ ابنِ وهبٍ قال: أخبرني يحيى بنُ أيوبَ، عن زيدِ بنِ جَبيرة، عن داودَ بنِ حُصَين، عن نافعٍ، عن ابنِ عمرَ - حديث الترمذيِّ الذي ذكرناه[٦] - فهو حديث انفردَ به زيدُ بنُ جَبيرة، وأنكروه عليه، ولا يُعرَف هذا الحديثُ مسنداً إلا برواية يحيى بنِ أيوبَ، عن زيدِ بنِ جَبيرة. وقد كتب الليثُ بنُ سعدٍ إلى عبدِ اللهِ بنِ نافعٍ[٧] مولى ابنِ عمرَ يسأله عن هذا الحديث؟ فكتب إليه عبدُ الله بنُ نافعٍ: لا أعلم من حدَّث بهذا عن نافعٍ إلا قد قال عليه الباطل. ذكره الحُلْوانيُّ عن سعيدِ بنِ أبي مريم، عن الليثِ، وليس فيه تخصيصُ مقبرةِ المشركينَ مِن غيرِها[٨].

وقد رُويَ عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ قال: نهاني حبيبي ﷺ أن أُصلِّيَ في المقبرة،

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٤٨)، وابن ماجه (٤٣٠٨) من حديث أبي سعيد الخدري، وهو عند مسلم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة دون قوله: «ولا فخر».

(٢) التمهيد ٥/ ٢١٨ - ٢٢٠ .

(٣) سلف ٤/ ٢٥٨ .

(٤) التمهيد ٥/ ٢٢٠ .

(٥) في صحيحه (٣٤٢٥)، وأخرجه أيضاً مسلم (٥٢٠).

(٦) وهو أن رسول الله ﷺ نهى أن يصلى في سبعة مواطن: في المزبلة، والمجزرة، والمقبرة،... الحديث، وقد سلف قريباً.

(٧) ليست في النسخ الخطية (في الموضعين)، والمثبت من (م)، والتمهيد ٥/ ٢٢٦ .

(٨) التمهيد ٥/ ٢٢٥ - ٢٢٦ .

ونهاني أن أُصلِّيَ في أرضِ بابل؛ فإنَّها ملعونةٌ[١]. وإسناده ضعيفٌ مجتمع على ضعفه، وأبو صالح الذي رواه عن عليٍّ هو سعيدُ بنُ عبدِ الرحمن الغِفاريُّ، مصريٌّ[٢] ليس بمشهورٍ، ولا يصحُّ له سماعٌ عن عليٍّ، ومَن دونَه مجهولون لا يُعرفون.

قال أبو عمر[٣]: وفي البابِ عن عليٍّ من قولِه غير مرفوع حديثٌ حسنُ الإسنادِ، رواه الفَضْلُ بنُ دُكَيْن قال: حدثنا المغيرةُ بنُ أبي الحُرِّ الكِنْديُّ، قال: حدَّثني أبو العَنْبَس حُجْرُ بنُ عَنْبَس قال: خرجنا مع عليٍّ إلى الحروريَّة، فلما جاوزنا سُورا[٤] وقع بأرضِ بابلَ، قلنا: يا أميرَ المؤمنين أمسيتَ، الصلاةَ الصلاةَ؛ فأبى أن يُكلِّم أحداً. قالوا: يا أميرَ المؤمنين، قد أمسيت. قال: بلى، ولكن لا أُصلِّي في أرضٍ خَسَفَ اللهُ بها[٥]. والمغيرة بنُ أبي الحُرِّ: كوفيٌّ ثقةٌ؛ قاله يحيى بنُ مَعين وغيرُه. وحُجر بن عنبس مِن كبارِ أصحابِ عليٍّ[٦].

وروى الترمذيُّ[٧] عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الأرضُ كلُّها مسجدٌ إلا المقبرةَ والحمَّامَ». قال الترمذيُّ: رواه سفيانُ الثوريُّ، عن عمرِو بنِ يحيى، عن أبيه، عن النبي ﷺ مُرْسلاً، وكأنَّه أثبتُ وأصحُّ.

---

(١) ذكره المصنف ص٢٣٩ من هذا الجزء بلفظ: «لا تدخلوا أرض بابل فإنها ملعونة».

(٢) في النسخ: بصري، والتصويب من التاريخ الكبير للبخاري ٣/ ٤٩١ ، والجرح والتعديل للرازي ٤/٣٩-٤٠ ، والتمهيد ٥/ ٢٢٤ .

(٣) في التمهيد ٥/ ٢٢٣ - ٢٢٤ ، وما قبله منه.

(٤) في النسخ: سوريا، والمثبت من التمهيد ٥/ ٢٢٤ ، قال الحموي في معجم البلدان ٣/ ٢٧٨ : سُورَا: موضع بالعراق من أرض بابل.

(٥) هكذا أورده ابن عبد البر في التمهيد ٥/ ٢٢٤ ، وأخرجه عبد الرزاق (١٦٢٣)، وابن أبي شيبة ٢/ ٣٧٧ ، ومن طريقه البغدادي في تاريخ بغداد ٨/ ٢٧٤ بنحوه. قال ابن حجر في «تغليق التعليق» ٢/ ٢٣١ : إسناده حسن. اهـ وسلف مرفوعاً قريباً.

(٦) التمهيد ٥/ ٢٢٤ .

(٧) في السنن (٣١٧).

قال أبو عمر[١]: فسقط الاحتجاجُ به عند من لا يَرَى المرسلَ حجَّةً، ولو ثبت كان الوجهُ ما ذكرنا. ولسنا نقولُ كما قال بعضُ المنتحِلين لمذهبِ المدنيين: إنَّ المقبرةَ في هذا الحديثِ وغيرِه أُرِيدَ بها مقبرةُ المشركينَ خاصَّةً؛ فإنَّه قال: «المقبرةَ والحمامَ» بالألِفِ واللَّام؛ فغيرُ جائز أن يُرَدَّ ذلك إلى مقبرةٍ دون مقبرةٍ، أو حمَّامٍ دون حمَّامٍ بغير توقيفٍ عليه، فهو قولٌ لا دليلَ عليه من كتابٍ ولا سُنَّة ولا خبرٍ صحيحٍ، ولا مدخلَ له في القياس، ولا في المعقول، ولا دَلَّ عليه فحوى الخطاب، ولا خُرِّجَ عليه الخبرُ.

ولا يخلو تخصيصُ مَنْ خصَّ مقبرةَ المشركين مِن أحدِ وجهين: إما أن يكونَ مِن أَجْلِ اختلافِ الكفَّار إليها بأقدامهم، فلا معنى لخصوصِ المقبرةِ بالذِّكْر؛ لأنَّ كلَّ موضعٍ هم فيه بأجسامِهم وأقدامِهم فهو كذلك، وقد جَلَّ رسولُ اللهِ ﷺ أن يَتكلَّم بما لا معنى له. أو يكون مِن أَجْلِ أنَّها بقعةُ سُخْطٍ، فلو كان كذلك ما كان رسولُ الله ﷺ ليَبْنِيَ مسجِدَه في مقبرةِ المشركين، وينبِشها، ويسوِّيها، ويَبْني عليها[٢].

ولو جاز لقائلٍ أن يَخُصَّ مِن المقابرِ مقبرةً للصلاة فيها، لكانت مقبرةُ المشركين أَولى بالخصوصِ والاستثناءِ مِن أَجْلِ هذا الحديث. وكلُّ مَن كَره الصلاةَ في المقبرةِ لم يَخُصَّ مقبرةً مِن مقبرةٍ؛ لأنَّ الألِفَ واللَّام إشارةٌ إلى الجنسِ لا إلى معهودٍ، ولو كان بين مقبرةِ المسلمين والمشركين فَرْقٌ لبيَّنه ﷺ ولم يُهْمِلْه؛ لأنَّه بُعِثَ مبيِّناً. ولو ساغَ لجاهلٍ أن يقول: مقبرةُ كذا؛ لجاز لآخَرَ أن يقول: حمَّامُ كذا؛ لأنَّ في الحديثِ المقبرةَ والحمَّامَ. وكذلك قوله: المزبلةَ والمجزرةَ؛ غيرُ جائزٍ أن يُقال: مزبلةُ كذا، ولا مَجْزَرةُ كذا، ولا طريقُ كذا؛ لأنَّ التحكُّم في دين الله غيرُ جائزٍ[٣].

وأجمع العلماءُ على أنَّ التيمُّمَ على مقبرةِ المشركينَ إذا كان الموضع طيِّباً طاهراً

---

(١) التمهيد ٥/ ٢٢٥ - ٢٢٧ .

(٢) التمهيد ٥/ ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٣) التمهيد ٥/ ٢٢٣ - ٢٢٤ .

نظيفاً جائزٌ. وكذلك أَجمعوا على أنَّ مَن صلَّى في كنيسةٍ أو بِيعةٍ على موضعٍ طاهرٍ، أنَّ صلاتَه ماضيةٌ جائزةٌ[١]. وقد تقدَّم هذا في سورة براءة[٢].

ومعلومٌ أنَّ الكنيسةَ أقربُ إلى أن تكونَ بقعةَ سُخْطٍ مِن المقبرة؛ لأنَّها بُقعةٌ يُعصى اللهُ ويُكفَر به فيها، وليس كذلك المقبرةُ[٣].

وقد وردت السُّنَّةُ باتخاذِ البِيَعِ والكنائسِ مساجدَ. روى النَّسائيُّ[٤] عن طَلْقِ بنِ عليٍّ قال: خرجنا وَفْداً إلى النبيِّ ﷺ فبايَعْناه وصَلَّينا معه، وأَخبرناه أنَّ بأرضنا بِيعةً لنا، وذكر الحديثَ. وفيه: «فإذا أَتيتم أرضَكم، فاكسروا بِيعتَكُم واتَّخِذوها مسجداً». وذكر أبو داود[٥] عن عثمانَ بنِ أبي العاص أنَّ النبيَّ ﷺ أَمَره أن يَجعل مسجدَ الطائفِ حيث كانت طواغيتُهم. وقد تقدَّم في «براءة». وحَسْبُك بمسجدِ النبيِّ ﷺ الذي أُسِّس على التقوى مبيناً في مقبرةِ المشركين؛ وهو حجَّة على كلِّ من كَره الصلاةَ فيها.

وممن كَره الصلاةَ في المقبرة، سواء كانت لمسلمينَ أو مشركينَ؛ الثوريُّ، وأبو حنيفةَ، والأوزاعيُّ، والشافعيُّ وأصحابُهم. وعند الثوريِّ: لا يُعيد. وعند الشافعيِّ: أَجزأه إذا صلَّى في المقبرة في موضعٍ ليس فيه نجاسةٌ؛ للأحاديث المعلومة[٦] في ذلك، ولحديث أبي هريرةَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «صَلُّوا في بيوتِكم ولا تتخذوها قبوراً»[٧]، ولحديث أبي مَرْثَدٍ الغَنويِّ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «لا تُصَلُّوا إلى القبورِ، ولا تَجلسوا عليها»[٨]. وهذان حديثانِ ثابتانِ مِن جهةِ الإسناد، ولا حجَّة فيهما؛

---

(١) التمهيد ٥/ ٢٢٩ .

(٢) عند الآية (١٠٧).

(٣) التمهيد ٥/ ٢٢٧ .

(٤) في المجتبى ٢/ ٣٨ .

(٥) في السنن (٤٥٠)، وسلف ٨/ ٢٥٥ .

(٦) في (د) و(ز): المعلولة، وكذا جاء في التمهيد ٥/ ٢٢٩ .

(٧) أخرجه مسلم (٧٧٧) (٢٠٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٨) أخرجه مسلم (٩٧٢) (٩٨).

لأنَّهما محتملانِ للتأويل، ولا يَجبُ أن يمتنع من الصلاةِ في كلِّ موضعٍ طاهرٍ إلا بدليلٍ لا يحتمل تأويلاً. ولم يُفرِّق أحدٌ مِن فقهاءِ المسلمين بين مقبرةِ المسلمين والمشركين إلَّا ما حكيناه مِن خَطَل[1] القولِ الذي لا يُشتَغل بمثلِه، ولا وجْهَ له في نظر، ولا في صحيحِ أثرٍ[2].

وثامنها[3]: الحائطُ يُلقَى فيه النَّتْنُ والعَذِرَةُ ليُكْرَم[4]، فلا يُصلَّى فيه حتى يُسقَى ثلاثَ مرَّات؛ لما رواه الدارقطنيُّ عن مجاهدٍ، عن ابن عباسٍ، عن النبيِّ ﷺ في الحائط يُلقَى فيه العِذَرةُ والنَّتْنُ قال: «إذا سُقي ثلاثَ مرَّات، فَصَلِّ فيه». وخرَّجه أيضاً من حديث نافعٍ عن ابنِ عمرَ أنَّه سُئل عن هذه الحيطانِ التي تُلقَى فيها العَذِراتُ وهذا الزِّبْلُ: أيُصلَّى فيها؟ فقال: إذا سُقِيَتْ ثلاثَ مرَّات، فَصَلِّ فيها. رَفَع ذلك إلى النبيِّ ﷺ. اختلفا في الإسناد[5]، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: بآياتِنا. كقوله: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ [الكهف: ٦٢] أي: بغدائِنا. والمراد: الناقةُ، وكان فيها آياتٌ جَمَّةٌ: خروجُها مِن الصخرة، ودُنُوُّ نِتاجِها عند خروجِها، وعِظَمُها حتى لم تُشْبهها ناقةٌ، وكثرةُ لبنِها حتى تكفيَهم جميعاً[6]. ويحتمل أنه كان لصالحٍ آياتٌ أُخَرُ سوى الناقةِ، كالبئرِ وغيرِه[7]. ﴿فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي: لم يعتبروا.

---

(١) الخَطَل: المنطق الفاسد المضطرب. الصحاح (خطل).

(٢) التمهيد ٥/٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٣) كذا في النسخ، ولم يذكر السابعة.

(٤) كَرَمَ أرضَه كَرَماً: دَمَلَها (أي: أصلحها) بالسِّرقين، فزكت وطابت. معجم متن اللغة (كرم).

(٥) الدارقطني (٨٨٠) و(٨٨١).

(٦) الوسيط ٣/ ٥٠ ، وزاد المسير ٤/ ٤١١ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٥٦ .

قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

النَّحْتُ في كلام العرب: البَرْيُ والنَّجْر. نَحَتَه يَنْحِتُه ـ بالكسر ـ نحتاً، أي: بَرَاه. والنُّحاتة: البُراية. والمِنْحَت: ما يُنْحَتُ به[1]. وفي التنزيل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥] أي: تَنْجُرون وتَصْنعون. فكانوا يتخذونَ من الجبال بيوتاً لأنفسِهم بشدَّة قوَّتهم. ﴿ءَامِنِينَ﴾ أي: مِن أن تَسْقُطَ عليهم أو تَخْرَب. وقيل: آمنين مِن الموتِ. وقيل: مِن العذابِ[2]. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ أي: في وقت الصبحِ، وهو نصبٌ على الحال. وقد تقدَّم ذِكْرُ الصيحةِ في هود والأعراف[3]. ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من الأموالِ والحُصُون في الجبال، ولا ما أُعْطُوه مِن القوَّة[4].

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: للزوالِ والفَناء. وقيل: أي: لأجازيَ المحسنَ والمُسِيْءَ[5]؛ كما قال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ أي: لكائنةٌ فيُجزَى كلٌّ بعملِه. ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ مثلُ: ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠] أي: تجاوز عنهم يا محمَّد، واعْفُ عفواً حسناً؛ ثم نُسِخَ بالسيف[6]. قال قتادةُ: نَسَخه قولُه: ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ

---

(١) الصحاح (نحت).

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٦٩ .

(٣) ١١/ ١٥٦ و ٩/ ٢٧١ - ٢٧٢ .

(٤) ينظر زاد المسير ٤/ ٤١٢ ، وتفسير الرازي ١٩/ ٢٠٥ .

(٥) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٥٦ .

(٦) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٧٠ ، وتفسير الرازي ١٩/ ٢٠٦ .

﴿ثُقِفْتُمُوهُمْ﴾[1] [النساء: ٩١]. وأنَّ النبيَّ ﷺ قال لهم: «لقد جئتكم بالذَّبح، وبُعثتُ بالحصادِ، ولم أبعث بالزراعة»؛ قاله عكرمةُ ومجاهدٌ[2]. وقيل: ليس بمنسوخٍ، وأنَّه أمر بالصَّفْح في حقِّ نفسِه فيما بينه وبينهم. والصَّفحُ: الإعراض؛ عن الحسنِ وغيرِه[3]. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ﴾ أي: المقدِّر للخَلْق والأخلاق. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأهل الوِفاقِ والنفاق.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧)﴾

اختلف العلماءُ في السبعِ المثاني؛ فقيل: الفاتحةُ؛ قاله عليُّ بنُ أبي طالب، وأبو هريرة، والربيعُ بنُ أنس، وأبو العالية، والحسنُ وغيرُهم[4]، ورُويَ عن النبيِّ ﷺ مِن وجوهٍ ثابتةٍ، مِن حديث أُبَيِّ بنِ كعبٍ، وأبي سعيدِ بنِ المُعَلَّى. وقد تقدَّم في تفسير الفاتحةِ[5].

وخرَّج الترمذيُّ مِن حديثِ أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الحمدُ للهِ أمُّ القرآنِ، وأمُّ الكتابِ، والسَّبْعُ المثاني». قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. وهذا نصٌّ، وقد تقدَّم في الفاتحة[6]. وقال الشاعر:

نَشَدْتُكم بِمُنْزِلِ القرآنِ أمِّ الكتابِ السبعِ مِن مَثاني[7]

وقال ابنُ عباسٍ: هي السَّبْعُ الطُّوَل: البقرةُ، وآلُ عمران، والنِّساءُ، والمائدةُ،

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٤/١٠٦ ، وأورده النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٤٨٢ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٧٠ ، وأخرجه أيضاً ابن سعد ١/ ١٠٥ عن مجاهد، والطبري في تفسيره ١٤/ ١٠٧ عن سفيان بن عيينة، وهو ضعيف لإرساله.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٧٠ .

(٤) أخرجه عنهم الطبري في تفسيره ١٤/ ١١٦ ، وينظر النكت والعيون ٣/ ١٧٠ ، وزاد المسير ٤/ ٤١٣ .

(٥) سلف ١/ ١٦٦ - ١٦٧ .

(٦) الترمذي (٣١٢٤)، وسلف ١/ ١٧٢ .

(٧) أورده أبو عبيدة في مجاز القرآن ص ١/ ٣٥٤ ، والماوردي في النكت والعيون ١/ ٢٦ و ٣/ ١٧٠ ولم ينسباه.

والأنعامُ، والأعرافُ، والأنفالُ والتوبةُ معاً؛ إذ ليس بينهما التسميةُ[١]. روى النَّسائيُّ[٢]: حدَّثنا عليُّ بنُ حُجْر، أخبرنا شَريكٌ، عن أبي إسحاقَ، عن سعيدِ بنِ جُبير، عن ابنِ عباسٍ في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ قال: السَّبْعُ الطُّوَل.

وسمِّيت مثانيَ؛ لأنَّ العِبَرَ والأحكامَ والحدودَ ثُنِّيت فيها. وأنكر قومٌ هذا، وقالوا: أُنزلت هذه الآيةُ بمكَّة، ولم يَنزِل مِنَ الطُّوَل شيء إذ ذاك. وأُجيب بأنَّ الله تعالى أَنزل القرآن إلى السماءِ الدُّنيا، ثم أنزله منها نجوماً، فما أنزله إلى السماء الدُّنيا فكأنَّما آتاه محمداً ﷺ وإنْ لم يَنزِل عليه بَعْدُ[٣].

وممَّن قال إنَّها السَّبْعُ الطُّوَل: عبدُ اللهِ بنُ مسعود، وعبدُ اللهِ بنُ عُمر، وسعيدُ بنُ جبير، ومجاهدٌ[٤]. وقال جريرٌ[٥]:

جزى اللهُ الفرزدقَ حين يُمْسِي مُضِيعاً للمفَصَّل والمثاني

وقيل: المثاني: القرآنُ كلُّه؛ قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ [الزمر: ٢٣]. هذا قولُ الضحاكِ وطاوس وأبي[٦] مالكٍ، وقاله ابنُ عباس[٧].

وقيل له: مثاني؛ لأنَّ الأنباءَ والقَصَص ثُنِّيت فيه[٨]. وقالت صفيَّة بنتُ عبدِ المطلب ترثي رسولَ اللهِ ﷺ:

فقد كان نوراً ساطعاً يُهتَدى به يُخَصُّ بتنزيل المثاني المعظَّمِ[٩]

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٣، وتفسير الرازي ١٩/ ٢٠٨.

(٢) المجتبى ٢/ ١٤٠، وأخرجه أيضاً أبو داود (١٤٥٩)، وسلف ١/ ١٧٥.

(٣) ينظر تفسير السمرقندي ٢/ ٢٢٤، وزاد المسير ٤/ ٤١٤، وتفسير الرازي ١٩/ ٢٠٨.

(٤) أخرج قولهم الطبري في التفسير ١٤/ ١٠٧ - ١٠٩.

(٥) ديوانه ص٤٦٦، وفيه: لحى، بدل: جزى.

(٦) في (د) و(ز) و(م): وأبو. والمثبت من (ظ).

(٧) أخرج قولهم الطبري في التفسير ١٤/ ١٢٠ - ١٢١، وينظر النكت والعيون ٣/ ١٧٠ - ١٧١، وزاد المسير ٤/ ٤١٤.

(٨) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ١٢٥، والنكت والعيون ٣/ ١٧١، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٧٣.

(٩) أورده الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٧١.

أي: القرآن.

وقيل: المراد بالسَّبْعِ المثاني: أقسامُ القرآن؛ من الأمْرِ والنهي، والتبشيرِ والإنذار، وضَرْبِ الأمثال، وتعديد نِعَمٍ، وأنباءِ قرونٍ؛ قاله زيادُ بنُ أبي مريمَ[١].

والصحيحُ الأوَّلُ؛ لأنه نصٌّ. وقد قدَّمنا في الفاتحة[٢] أنَّه ليس في تَسْميتها بالمثاني ما يَمنع من تسميةِ غيرِها بذلك؛ إلا أنَّه إذا وَرَدَ عن النبيِّ ﷺ؛ وثَبَتَ عنه نصٌّ في شيء لا يَحتمل التأويلَ؛ كان الوقوفُ عنده[٣].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ فيه إضمارٌ، تقديرُه: وهو أنَّ الفاتحةَ القرآنُ العظيمُ؛ لاشتمالِها على ما يتعلَّق بأصولِ الإسلام. وقد تقدَّم في الفاتحة[٤]. وقيل: الواو مُقْحَمة، التقدير: ولقد آتيناكَ سبعاً مِن المثاني القرآن العظِيم[٥]. ومنه قولُ الشاعر:

إلى المَلِكِ القَرْمِ وابنِ الهُمامِ وليثِ الكَتيبةِ في المُزْدَحَمْ[٦]

وقد تقدَّم عند قوله: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾[٧] [البقرة:٢٣٨].

قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

فيه مسألتان:

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٧١ ، وأخرجه عنه الطبري في التفسير ١٤/ ١١٩ - ١٢٠ ، وينظر زاد المسير ٤/ ٤١٤ .

(٢) ١/ ١٧٥ .

(٣) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ١٢١ .

(٤) ١/ ١٧٣ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٥٦ .

(٦) لم نقف على قائله، وأورده ابن الأنباري في الإنصاف في مسائل الخلاف ٢/ ٤٦٩ ، والزمخشري في الكشاف ١/ ١٣٣ ، والبغدادي في خزانة الأدب ١/ ٤٥١ و ٥/ ١٠٧ و ٦/ ٩١ ولم ينسبوه.

(٧) ١/ ١٨١ ، عند القول التاسع في تعيين الصلاة الوسطى.

الأولى: قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ المعنى: قد أَغْنَيْتُكَ بالقرآنِ عما في أيدي الناسِ، فإنَّه: «ليس منَّا من لم يتغنَّ بالقرآن»[1]؛ أي: ليس منَّا مَن رأى أنَّه ليس يَغْنَى بما عندَه مِن القرآن حتى يطمحَ بصرُه إلى زخارفِ الدنيا، وعنده معارفُ المولى[2].

يقال: إنه وافى سَبْعُ قوافلَ من البُصْرَى[3] وأَذْرِعاتٍ[4] ليهودِ قُريظةَ والنَّضِيرِ في يومٍ واحدٍ، فيها البَزُّ[5] والطِّيْبُ والجوهرُ وأمتعةُ البحر، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموالُ لنا؛ لتقوَّينا بها وأنفقناها في سبيل الله، فأنزل اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ أي: فهي خيرٌ لكم من القوافلِ السَّبْع، فلا تَمُدُّنَّ أعينَكم إليها[6]. وإلى هذا صار ابنُ عُيينةَ، وأورد قولَه عليه الصلاة والسلام: «ليس منَّا مَن لم يتغنَّ بالقرآن» أي: مَن لم يَسْتَغْنِ به[7]. وقد تقدَّم هذا المعنى في أوّل الكتاب[8]. ومعنى: ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أي: أمثالاً في النِّعَم، أي: الأغنياءُ بعضُهم أمثالُ بعضٍ في الغِنَى، فهم أزواجٌ[9].

الثانية: هذه الآيةُ تقتضي الزَّجْرَ عن التشوُّف إلى متاعِ الدنيا على الدَّوام، وإقبالَ العبدِ على عبادةِ مولاه. ومثله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ الآية [طه: ١٣١]. وليس كذلك؛ فإنه روي عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال:

---

(١) سلف ١/ ٢١ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٢٤ - ١١٢٥ .

(٣) من أعمال دمشق، وهي قصبة كورة حوران. معجم البلدان ١/ ٤٤١ .

(٤) بلد في أطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمَّان. معجم البلدان ١/ ١٣٠ ، وتسمى الآن: دَرعا، وتبعد ١١٠ كم جنوبي دمشق.

(٥) في (د) و(ظ) و(م): البر، والمثبت من (ز) ومصدر التخريج.

(٦) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٢٨٢ ونسبه للحسين بن الفضل، وهو عند الزمخشري في الكشاف ٢/ ٣٩٨ دون نسبة.

(٧) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤١ ، وتفسير الطبري ١٤/ ١٢٧ .

(٨) ١/ ٢١ - ٢٢ .

(٩) ينظر معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤١ ، والنكت والعيون ٣/ ١٧١ .

«حُبِّبَ إليَّ مِن دنياكُم النساءُ، والطِّيبُ، وجُعِلَتْ قُرَّةُ عيني في الصلاة»[(١)]. وكان عليه الصلاة والسلام يتشاغلُ بالنساءِ جِبِلَّةَ الآدَمِيَّة، وتشوُّفَ الخِلْقَةِ الإنسانيةِ، ويحافظُ على الطِّيْبِ، ولا تقرُّ له عينٌ إلا في الصلاة لدى مناجاةِ المولى، ويَرَى أنَّ مناجاتَه أحرى مِن ذلك وأولى[(٢)].

ولم يكن في دين محمد الرهبانيَّةُ والإقبالُ على الأعمالِ الصالحةِ بالكليَّة كما كان في دينِ عيسى، وإنما شَرَعَ اللهُ سبحانه حنيفيَّةً سمحةً خالصةً عن الحَرَج، خفيفةً على الآدميِّ، يأخذ من الآدميَّة بشهواتِها، ويَرجع إلى اللهِ بقلبٍ سليم.

ورأى القرَّاء والمخلصون من الفضلاءِ الانكفافَ عن اللَّذات والخلوصَ لربِّ الأرضِ والسماوات اليومَ أولى؛ لِمَا غَلَب على الدنيا مِن الحرام، واضْطُرَّ العبدُ في المعاشِ إلى مخالطةِ مَن لا تجوز مخالطتُه، ومصانعةِ مَن تَحْرُم مصانعتُه، فكانت القراءةُ أفضلَ، والفرارُ عن الدنيا أصوبَ للعبد وأعدلَ؛ قال ﷺ: «يأتي على الناسِ زمانٌ يكون خيرُ مالِ المسلمِ غَنَماً يتبع بها شَعَفَ الجبالِ ومواقعَ القَطْرِ؛ يَفِرُّ بدينِه مِن الفتن»[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ولا تَحزن على المشركينَ إن لم يُؤمِنوا. وقيل: المعنى: لا تَحزن على ما مُتِّعوا به في الدنيا؛ فَلَكَ في الآخرةِ أفضلُ منه. وقيل: لا تَحزن عليهم إن صاروا إلى العذابِ؛ فهم أهلُ العذاب[(٤)].

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أَلِنْ جانِبَكَ لمن آمَنَ بكَ وتواضَعْ لهم. وأصله أنَّ الطائرَ إذا ضَمَّ فَرْخَهُ إلى نفسِه بَسَطَ جناحَه ثم قَبَضَه على الفَرْخِ، فجعل ذلك وصفاً لتقريبِ الإنسانِ أتباعَه. ويقال: فلانٌ خافضُ الجناحِ، أي: وقورٌ ساكنٌ. والجناحان

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٢٩٣)، والنسائي في المجتبى ٧/ ٦١ - ٦٢، من حديث أنس ﷺ.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٢٥، والكلام الآتي منه.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ١١٢٥، والحديث أخرجه البخاري (٣٦٠٠) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٤) ينظر تفسير السمرقندي ٢/ ٢٢٥، والنكت والعيون ٣/ ١٧١.

مِن ابنِ آدمَ: جانباه؛ ومنه ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ [طه:٢٢] وجناح الطائرِ: يدُه[١].
وقال الشاعر:

وحَسْبُكَ فتيةً لزعيمِ قومٍ ... يَمُدُّ على أخي سَقَمٍ جَناحا[٢]

أي: تواضعاً وليناً.

قوله تعالى: ﴿وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ۝٨٩ كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ۝٩٠﴾

في الكلام حذف؛ أي: إني أنا النذيرُ المبينُ عذاباً، فحذف المفعول، إذ كان الإنذارُ يدلُّ عليه، كما قال في موضع آخر: ﴿أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ [فصلت:١٣]. وقيل: الكاف زائدة، أي: أنذرتُكم ما أنزلنا على المقتسِمين؛ كقوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى:١١]. وقيل: أنذرتُكم مثلَ ما أنزلنا بالمقتسِمين[٣]. وقيل: المعنى كما أنزلنا على المقتسِمين، أي: مِن العذابِ وكفيناكَ المستهزئين، فاصْدَعْ بما تُؤمر، وأعرض عن المشركين الذين بغَوْا، فإنَّا كفيناكَ أولئك الرؤساءَ الذين كُنْتَ تَلقى منهم ما تَلقى.

واختلف في «المُقْتَسِمِينَ» على أقوالٍ سبعة:

الأوّل: قال مقاتلٌ والفراءُ: هم ستَّةَ عَشَرَ رجلاً بعثَهم الوليدُ بنُ المغيرة أيَّامَ الموسمِ، فاقتسموا أعقابَ مكَّة وأنقابَها وفِجاجَها يقولون لمن سَلَكها: لا تغترُّوا بهذا الخارجِ فينا يدَّعي النبوَّةَ؛ فإنَّه مجنونٌ، وربَّما قالوا: ساحرٌ، وربَّما قالوا: شاعرٌ، وربَّما قالوا: كاهنٌ. وسُمُّوا المقتسِمين؛ لأنَّهم اقتسموا هذه الطرقَ، فأماتهم اللهُ شرَّ مِيتة، وكانوا نصبوا الوليدَ بنَ المغيرة حَكَماً على بابِ المسجد، فإذا سألوه عن

(١) الصحاح ولسان العرب (خفض) و(جنح).

(٢) كذا في النكت والعيون ٣/ ١٧١، وجاء في ديوان إبراهيم بن هرمة ص٨٨ قوله:

وحسبُكَ تهمةً ببريْءِ قومٍ ... يضمُّ على أخي سَقَمٍ جناحا

(٣) ينظر الوسيط ٣/ ٥٢، وتفسير الرازي ١٩/ ٢١٢.

النبيِّ ﷺ قال: صَدَقَ أولئك[١].

الثاني: قال قتادةُ: هم قومٌ من كفَّار قريشٍ؛ اقتسموا كتابَ اللهِ، فجعلوا بعضَه شعراً، وبعضَه سحراً، وبعضَه كهانةً، وبعضَه أساطيرَ الأوَّلين[٢].

الثالث: قال ابنُ عباسٍ: هم أهلُ الكتابِ؛ آمنوا ببعضِه وكفَروا ببعضه[٣].

وكذلك قال عكرمةُ: هم أهلُ الكتاب، وسُمُّوا مقتسِمين؛ لأنَّهم كانوا مستهزئينَ، فيقول بعضهم: هذه السورةُ لي، وهذه السورةُ لَكَ. وهو القول الرابع.

الخامس: قال قتادةُ: قسموا كتابَهم ففرَّقوه وبدَّدوه وحرَّفوه[٤].

السادس: قال زيدُ بنُ أسلَمَ: المرادُ: قومُ صالحٍ، تقاسموا على قتلِه فسُمُّوا مقتسِمين؛ كما قال تعالى: ﴿تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾[٥] [النمل: ٤٩].

السابع: قال الأخفشُ: هم قومٌ اقتسموا أيماناً تحالفوا عليها. وقيل: إنَّهم العاصُ بنُ وائلٍ، وعتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعةَ، وأبو جهلٍ بنُ هشام، وأبو البَخْتَرِيِّ بنُ هشامٍ، والنَّضْرُ بنُ الحارثِ، وأميَّةُ بنُ خَلَف، ومنبِّه بنُ الحجَّاج؛ ذكره الماورديُّ[٦].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ۝٩١﴾

هذه صفةُ المقتسِمين. وقيل: هو مبتدأٌ، وخبرُه: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ﴾[٧].

---

(١) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٩١ - ٩٢، والنكت والعيون ٣/ ١٧٢، وتفسير البغوي ٣/ ٥٨، وتفسير الرازي ١٩/ ٢١١ - ٢١٢.

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٧٢، وأخرجه عنه الطبري في تفسيره ١٤/ ١٣٥، وذكره الرازي في تفسيره ١٩/ ٢١٢ ونسبه لمقاتل بن حيان.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٧٢. وسيأتي تخريج قوله تقريباً.

(٤) النكت والعيون ٣/ ١٧٢، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٤/ ١٣١.

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٧٢ ونسبه إلى ابن زيد، وأخرجه عنه الطبري في تفسيره ١٤/ ١٣٢ - ١٣٣، وكذا ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ١٤/ ٤١٨.

(٦) في النكت والعيون ٣/ ١٧٣.

(٧) تفسير الرازي ١٩/ ٢١٣.

وواحد العِضِين: عِضَة، من عضَّيتُ الشيءَ تعضِيةً، أي: فرَّقته؛ وكلُّ فرقةٍ عِضَة[١]. وقال بعضُهم: كانت في الأصل عِضْوَة، فنقصت الواو، ولذلك جُمعت عِضِين؛ كما قالوا: عِزِين في جمع عِزَة، والأصل: عِزْوة. وكذلك ثُبَة وثِبِين[٢]. ويرجع المعنى إلى ما ذكرناه في المقتسمين. قال ابن عباس: آمنوا ببعض وكفروا ببعض[٣]. وقيل: فرَّقوا أقاويلَهم فيه، فجعلوه كذباً، وسحراً، وكَهانة، وشِعراً. عَضَوْتُه، أي: فَرَّقْتُه[٤]. قال الشاعر ـ هو رؤبة ـ:

وليس دينُ اللهِ بالمُعَضَّى[٥]

أي: بالمفرَّق.

ويقال: نقصانه الهاءُ، وأصله: عِضَهَة؛ لأنَّ العِضَةَ والعِضِينَ في لغة قريشٍ: السِّحرُ. وهم يقولون للساحر: عاضِه، وللساحرة: عاضِهة[٦]. قال الشاعر:

أعوذُ بربِّي مِن النافِثا ... تِ في عُقَدِ العاضِه المُعْضِهِ[٧]

وفي الحديث: «لَعَنَ رسولُ اللهِ ﷺ العاضِهة والمُسْتَعْضِهة»[٨]، وفُسِّر: الساحِرة والمستسحِرة[٩]. والمعنى: أكثَروا البُهْتَ على القرآن، ونوَّعوا الكذبَ فيه، فقالوا:

---

(١) الوسيط ٣/ ٥٢، والنكت والعيون ٣/ ١٧٣.

(٢) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٤، وتهذيب اللغة ١/ ١٣٠ - ١٣١، ولسان العرب (عضه).

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٠٥)، والطبري في تفسيره ١٤/ ١٣٥، والحاكم ٢/ ٣٥٥.

(٤) الصحاح (عضه).

(٥) ديوانه ص٨١، وبعده: إنَّ لنا هوَّاسةً عِرَبْضا

(٦) الصحاح (عضه).

(٧) هو في غريب الحديث للهروي ٣/ ١٨١، وتهذيب اللغة ١/ ١٣٠، والصحاح واللسان (عضه) دون نسبة.

(٨) أخرجه ابن عدي في التراجم الساقطة من الكامل ص١٠٧ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال ابن حجر في الكافي الشاف ص٩٤: في إسناده: زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام، وهما ضعيفان.

(٩) النهاية في غريب الحديث ٣/ ٢٥٥.

سحرٌ، وأَساطيرُ الأوَّلين، وأنَّه مفترًى، إلى غيرِ ذلك.

ونظيرُ عِضَة في النقصان: شَفَة، والأصل: شفَهَة، كما قالوا: سَنَة، والأصل: سَنْهة، فنقصوا الهاءَ الأصليَّةَ، وأُثبتت هاءُ العلامَة وهي للتأنيثِ.

وقيل: هو من العَضْه، وهي: النميمةُ. والعَضِيهةُ: البُهتانُ: وهو أن يعضه الإنسانَ ويقول فيه ما ليس فيه. يقال: عَضَهه عَضْهاً: رماه بالبهتان. وقد أعْضَهْتَ: أي: جِئْتَ بالبُهتان. قال الكسائيُّ: العِضَةُ: الكذبُ والبُهتانُ، وجمعها عِضُون؛ مثل عِزَة وعِزُون؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾[1]. ويقال: عَضَوه، أي: آمنوا بما أَحبُّوا منه وكفروا بالباقي، فأَحبط كفرُهم إيمانَهم. وكان الفرَّاءُ يذهب إلى أنَّه مأخوذٌ مِن العِضاه، وهي شجرُ الوادي، ويَخرج كالشَّوك[2].

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: لَنسئلنَّ هؤلاء الذين جَرَى ذِكْرُهم عمَّا عَملوا في الدنيا. وفي البخاريِّ[3]: وقال عِدَّةٌ مِن أهل العلم في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: عن لا إله إلا الله.

قلت: وهذا قد رُوِيَ مرفوعاً، روى الترمذيُّ الحكيمُ[4] قال: حدثنا الجَارود بنُ معاذ، قال: حدَّثنا الفَضْلُ بنُ موسى، عن شَريك، عن ليث، عن بشير بن نَهِيك، عن أنسِ بنِ مالكٍ، عن رسولِ الله ﷺ في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ قال: «عن قول: لا إله إلا الله»[5]. قال أبو عبد الله: معناه عندنا: عن

---

(١) الصحاح (عضه).

(٢) ذكر الفرَّاء في معاني القرآن ٢/ ٩٢ أن العضين في كلام العرب: السحر بعينه. وكذا نقله عنه الأزهري في تهذيب اللغة ١/ ١٣ ، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٧٤ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٤ .

(٣) في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب ١٨ ، قبل حديث (٢٦).

(٤) في نوادر الأصول ص٢٤٦ - ٢٤٧ ، وهو أبو عبد الله الآتي ذكره.

(٥) أخرجه الترمذي (٣١٢٦)، والطبري في تفسيره ١٤/ ١٣٩ - ١٤٠ ، وهو عند البخاري في التاريخ الكبير ٢/ ٨٦ و ٨/ ١٣٣ . قال الترمذي: هذا حديث غريب.

صِدْقِ: لا إله إلا الله، ووفائِها؛ وذلك أنَّ اللهَ تعالى ذَكَر في تنزيلِه العملَ فقال: ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ولم يقل: عمَّا كانوا يقولون، وإن كان قد يجوز أن يكون القولُ أيضاً عملَ اللسانِ، فإنَّما المعنيُّ به ما يعرفه أهلُ اللغة أنَّ القولَ قولٌ، والعملَ عملٌ. وإنما قال رسولُ اللهِ ﷺ: «عن: لا إله إلا الله» أي: عن الوفاءِ بها والصِّدْق لمقالِها. كما قال الحسنُ البصريُّ: ليس الإيمانُ بالتحلِّي ولا الدِّينُ بالتمنِّي، ولكن ما وقَر في القلوبِ وصدَّقَتْه الأعمالُ.

ولهذا[1] قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَن قال: لا إله إلا الله مخلصاً؛ دخلَ الجنةَ» قيل: يا رسولَ اللهِ، وما إخلاصُها؟ قال: «أنْ تَحجُزه عن محارمِ الله». رواه زيدُ بنُ أَرقم[2].

وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ عَهِدَ إليَّ ألَّا يأتيَني أحدٌ مِن أمَّتي بلا إلهَ إلا اللهُ، لا يَخْلِطُ بها شيئاً؛ إلا وَجَبت له الجنَّةُ» قالوا: يا رسولَ اللهِ، وما الذي يخلط بلا إلهَ إلا اللهُ؟ قال: «حرصاً على الدنيا، وجَمْعاً لها، ومَنْعاً لها، يقولون قولَ الأنبياء، ويعملونَ أعمالَ الجبابرة»[3].

وروى أنسُ بنُ مالكٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا إله إلا الله تمنَع العبادَ مِن سَخَطِ اللهِ، ما لم يؤثروا صفقةَ دنياهم على دينِهم، فإذا آثروا صفقةَ دنياهم على دينهم، ثم قالوا: لا إله إلا الله، رُدَّتْ عليهم، وقال اللهُ: كذبتُم». أسانيدها في «نوادر الأصول»[4].

قلت: والآيةُ بعمومِها تدلُّ على سؤالِ الجميعِ ومحاسبتِهم كافرِهم ومؤمِنهم، إلا

---

(١) بعدها في (ز) و(د) و(م): ما، والمثبت من (ظ).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٥٠٧٤) وفي الأوسط (١٢٥٧)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٨ وقال: في إسناده محمد بن عبد الرحمن بن غزوان، وهو وضَّاع.

(٣) هو في نوادر الأصول ص٢٤٦ ، ولم نقف عليه عند غيره.

(٤) ص٢٤٦ - ٢٤٧ ، والحديث أخرجه أيضاً ابن أبي عاصم في الزهد ص١٤٤ ، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٤٩٧). قال الرازي في العلل ٢/ ١٢١ - ١٢٢ : هذا خطأ إنما هو سهيل عن مالك بن أنس عن النبي ﷺ مرسل.

مَن دخل الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ على ما بيَّنَّاه في كتاب «التذكرة»[1].

فإن قيل: وهل يُسْأَلُ الكافرُ ويُحاسَب؟ قلنا: فيه خلافٌ، وذكرناه في «التذكرة»[1]. والذي يظهر سؤالُه؛ للآية وقولِه: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات:٢٤] وقولِه: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية:٢٥-٢٦]. فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:٧٨] وقال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن:٣٩]، وقال: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٧٤]، وقال: ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]؟ قلنا: القيامةُ مواطنُ، فموطنٌ يكون فيه سؤالٌ وكلامٌ، وموطنٌ لا يكونُ ذلك فيه. قال عكرمةُ: القيامةُ مواطنُ، يُسْأَلُ في بعضِها، ولا يُسْأَلُ في بعضِها. وقال ابنُ عباسٍ: لا يَسْأَلُهم سؤالَ استخبارٍ واستعلام؛ هل عملتم كذا وكذا؛ لأنَّ اللهَ عالمٌ بكلِّ شيءٍ، ولكن يَسْأَلُهم سؤالَ تقريعٍ وتوبيخٍ، فيقول لهم: لِمَ عصيتُم القرآنَ، وما حجَّتُكم فيه؟ واعتمد قُطْرُب هذا القولَ[2]. وقيل: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يعني: المؤمنينَ المكلَّفين؛ بيانُه قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر:٨]. والقول بالعمومِ أولى كما ذُكر. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي: بالذي تُؤمَر به، أي: بلِّغ رسالةَ اللهِ جميعَ الخَلْق؛ لتقومَ الحُجَّةُ عليهم، فقد أمَرَك اللهُ بذلك.

والصَّدْعُ: الشَّقُّ. وتصدَّع القومُ، أي: تفرَّقوا، ومنه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم:٤٣] أي: يتفرَّقون. وصَدَعْتُه فانْصَدَع: أي: انْشَقَّ. وأصلُ الصَّدْع: الفَرْق والشَّقُّ[3]. قال أبو ذُؤَيب[4] يصف الحمارَ وأُتُنَه:

---

(١) ص١٤٦ - ١٤٧.

(٢) ينظر تفسير الطبري ١٤١/٤ - ١٤٢، والبغوي ٥٨/٣ - ٥٩، وزاد المسير ٤١٩/٤ - ٤٢٠.

(٣) ينظر الصحاح، وتهذيب اللغة ٤/٢ - ٦، ولسان العرب (صدع).

(٤) هو: خويلد بن خالد، الهذلي، جاهلي إسلامي. والبيت في ديوان الهذليين ص٦، قال شارحه: الرِّبابة: خرقة تُغطَّى بها القداح، ويقال: الرِّبابة هنا هي القداح، واليَسَر: الذي يضرب بها. ويَصْدَع: يُفَرِّق ويصيح.

وكأنَّهنَّ رِبابةٌ وكأنَّه يَسَرٌ يُفيضُ على القِداحِ ويَصْدَعُ

أي: يفرِّق ويشقُّ. فقوله: ﴿اصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ قال الفرَّاءُ[1]: أراد: فاصدع بالأمرِ، أي: أَظْهِر دينَك، فـ «ما» مع الفعلِ على هذا بمنزلةِ المصدر. وقال ابنُ الأعرابي[2]: معنى ﴿اصدع بما تؤمر﴾، أي: اقْصِد. وقيل: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي: فرِّق جَمْعَهم وكلمتَهم، بأن تدعوَهم إلى التوحيدِ، فإنَّهم يتفرَّقون؛ بأن يجيبَ البعضُ. فيَرجعَ الصَّدْعُ على هذا إلى صَدْعِ جماعةِ الكفَّار.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: عن الاهتمامِ باستهزائِهم، وعن المبالاةِ بقولِهم، فقد برَّأك اللهُ عمَّا يقولون. وقال ابنُ عباسٍ: هو منسوخٌ بقولِه: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾[3] [التوبة: ٥]. وقال عبدُ اللهِ بنُ عبيد: ما زال النبيُّ ﷺ مستخفياً حتى نزل قولُه تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فخرج هو وأصحابُه[4]. وقال مجاهدٌ: أراد الجَهْرَ بالقرآن في الصلاة[5].

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾: لا تُبالِ بهم. وقال ابنُ إسحاق[6]: لما تمادَوْا في الشَّرِّ وأكثروا برسولِ الله ﷺ الاستهزاءَ أنزل اللهُ تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾. والمعنى: اِصْدَعْ بما تُؤمَر ولا تَخَفْ غيرَ اللهِ؛ فإنَّ اللهَ كافيك مَن آذاك كما كفاكَ المستهزئين.

وكانوا خمسةً من رؤساءِ أهلِ مكَّة، وهم الوليدُ بنُ المغيرة وهو رأسهم، والعاصُ ابنُ وائل، والأسودُ بنُ المطلب بنِ أسدٍ أبو زَمْعَةَ، والأسودُ بنُ عبدِ يَغُوثَ،

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٩٣ .

(٢) تهذيب اللغة ٢/ ٦ .

(٣) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٧٥ ، والأثر أخرجه الطبري في تفسيره ١٤/ ١٤٥ .

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ١٤/ ١٤٣ .

(٥) تفسير مجاهد ١/ ٣٤٤ ، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٤/ ١٤٣ .

(٦) سيرة ابن هشام ١/ ٤٠٩ ، وينظر تفسير الطبري ١٤/ ١٤٥ - ١٤٦ .

والحارثُ بنُ الطُّلاطِلَة. أهلكهم اللهُ جميعاً قبلَ يومِ بدرٍ في يومٍ واحدٍ؛ لاستهزائِهم برسولِ اللهِ ﷺ[١].

وسببُ هلاكِهم فيما ذكَر ابنُ إسحاقٍ[٢]: أنَّ جبريلَ أتى رسولَ الله ﷺ وهم يَطوفون بالبيت، فقامَ وقامَ رسولُ الله ﷺ، فمرَّ به الأسودُ بنُ المطلِّبِ، فرمَى في وجهِه بورقةٍ خضراءَ فعَمِيَ، ووَجِعت عينُه، فجعل يَضرِبُ برأسِه الجدارَ. ومرَّ به الأسودُ بنُ عبدِ يَغُوثَ، فأشار إلى بطنِه، فاستسقى بطنُه، فمات منه حَبَناً؛ يقال: حَبِنَ ـ بالكسر ـ حَبَناً، وحُبِن للمفعول: عَظُمَ بطنُه بالماءِ الأصفرِ، فهو أحبن، والمرأةُ حَبْناء؛ قاله في «الصحاح»[٣]. ومرَّ به الوليدُ بنُ المغيرة، فأشار إلى أَثَرِ جُرْحٍ بأسفلِ كعبِ رِجْله، وكان أصابَه قبل ذلك بسنين وهو يَجُرُّ سَبَلَه[٤]، وذلك أنه مرَّ برجلٍ من خزاعة يَريش نَبْلاً له، فتعلَّق سهمٌ من نَبْله بإزارِه فخَدش في رجله ذلك الخدشَ، وليس بشيء، فانتقضَ به، فقتلَه. ومرَّ به العاصُ بنُ وائلٍ، فأشار إلى أَخْمَصِ رِجْله، فخرجَ على حمارٍ له يريد الطائفَ، فرَبَض به على شِبْرِقة[٥]، فدخلت في أَخْمَصِ رِجْله شوكةٌ، فقتلَتْه. ومرَّ به الحارثُ بنُ الطُّلاطِلة، فأشار إلى رأسِه فامتخط[٦] قيحاً، فقتَلَه. وقد ذُكر في سببِ موتهم اختلافٌ قريبٌ مِن هذا[٧].

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٧٥ ، وينظر تفسير الطبري ١٤/ ١٤٦ ، وورد في (م): قيل: يوم بدر.

(٢) في السير والمغازي ص٢٧٣ - ٢٧٤ ، وينظر سيرة ابن هشام ١/ ٤١٠ ، وتفسير الطبري ١٤/ ١٤٦-١٤٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٥٩ .

(٣) الصحاح (حبن).

(٤) السَّبَل: الإزار. تفسير الطبري ١٤/ ١٤٧ .

(٥) الشِّبْرق: نبت حجازي يؤكل وله شوك. النهاية في غريب الحديث (شبرق).

(٦) في (ظ): فامتخض.

(٧) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ١٤٧ - ١٥٢ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٧٥ - ٣٧٦ ، وزاد المسير ٤/ ٤٢٢-٤٢٣ ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٤٧ ، ونسبه للطبراني في الأوسط وقال: فيه محمد بن عبد الحكيم النيسابوري، ولم أعرفه.

وقيل: إنَّهم المراد بقوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦]. شبَّه ما أصابَهم في موتِهم بالسقفِ الواقعِ عليهم؛ على ما يأتي(١).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾

هذه صفةُ المستهزئين. وقيل: هو ابتداءٌ، وخبرُه: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ أي: قلبُك؛ لأنَّ الصدرَ محلُّ القلب(٣). ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي: بما تسمعه مِن تكذيبِك وردِّ قولِك، وتنالُه ويناله أصحابُك مِن أعدائك.

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ﴾ أي: فافزع إلى الصلاةِ، فهي غايةُ التسبيحِ، ونهايةُ التقديسِ(٤)؛ وذلك تفسيرٌ لقوله: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، ولا خفاءَ أنَّ غايةَ القُرب في الصلاة حالُ السجود، كما قال عليه الصلاة والسلام: «أَقربُ ما يكون العبدُ مِن ربِّه وهو ساجدٌ، فأخلِصوا الدعاءَ»(٥). ولذلك خصَّ السجود بالذِّكْر.

الثانية: قال ابنُ العربي(٦): ظنَّ بعضُ الناسِ أنَّ المرادَ بالأمْرِ هنا السجودُ نفسُه، فرأى هذا الموضعَ محلَّ سجودٍ في القرآن، وقد شاهدتُ الإمامَ بمحرابِ زكريا مِن

(١) في سورة النحل، عند الآية ٢٦ .

(٢) الإملاء (بهامش الفتوحات الإلهية) ٣/ ٤٣٧ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٩٠ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٧٥ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٢٦ .

(٥) أخرجه مسلم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة ﷺ، وفيه: فأكثروا الدعاء، بدل: فأخلصوا الدعاء.

(٦) أحكام القرآن ٣/ ١١٢٦ .

البيتِ المقدسِ طهَّره اللهُ، يسجد في هذا الموضعِ وسجدتُ معه فيها، ولم يَرَهُ جماهيرُ العلماء.

قلت: قد ذكر أبو بكرٍ النقَّاش أنَّ هاهنا سجدةٌ عند أبي حذيفةَ ويَمان بنِ رِئاب، ورأى أنَّها واجبةٌ.

قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾

فيه مسألةٌ واحدةٌ، وهو أنَّ اليقينَ الموتُ. أَمرَه بعبادتِه إذ قصَّر عبادُه في خدمتِه، وأنَّ ذلكَ يجبُ عليه[1].

فإن قيل: فما فائدةُ قولِه: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ وكان قوله: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ﴾ كافياً في الأَمْرِ بالعبادة؟ قيل له: الفائدةُ في هذا أنَّه لو قال: «واعبد ربك» مطلقاً، ثم عبَده مرَّةً واحدةً، كان مطيعاً؛ وإذا قال: «حتى يأتيك اليقين» كان معناه: لا تُفارِق هذا حتى تموتَ.

فإن قيل: كيف قال سبحانه: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ ولم يقل: أبداً؟ فالجوابُ أنَّ «اليقينَ» أبلغُ مِن قولِه: أبداً؛ لاحتمالِ لفظِ الأبدِ للحظةِ الواحدة، ولجميعِ الأبد. وقد تقدَّم هذا المعنى[2].

والمراد: استمرارُ العبادةِ مدَّة حياتِه، كما قال العبدُ الصالحُ: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١]. ويتركَّب على هذا أنَّ الرجلَ إذا قال لامرأته: أنتِ طالقٌ أبداً، وقال: نويتُ يوماً أو شهراً، كانت عليه الرجعةُ. ولو قال: طلَّقتُها حياتَها، لم يُراجِعْها[3].

والدليل على أنَّ اليقينَ الموتُ حديثُ أمِّ العلاءِ الأنصارية، وكانت مِن

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٢٧.

(٢) ٢/ ٢٥٨.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٢٧.

المبايِعات، وفيه: فقال رسولُ الله ﷺ: «أما عثمانُ ـ أعني عثمانَ بنَ مَظْعُونٍ ـ فقد جاءه اليقينُ، وإني لأرجو له الخيرَ، واللهِ ما أدري وأنا رسولُ اللهِ ما يُفعَل به» وذكَر الحديثَ. انفرد بإخراجِه البخاريُّ[1] رحمه الله!.

وكان عمرُ بنُ عبدِ العزيز يقول: ما رأيتُ يقيناً أشبَه بالشَّكِّ مِن يقينِ الناسِ بالموت، ثم لا يَسْتَعِدُّونَ له؛ يعني كأنَّهم فيه شاكُّون[2].

وقد قيل: إنَّ اليقينَ هنا الحقُّ الذي لا ريبَ فيه مِن نصرك على أعدائِك؛ قاله ابن شجرة؛ والأوَّلُ أصحُّ، وهو قول مجاهدٍ وقتادةَ والحسنِ[3]. والله أعلم.

وقد روى جُبير بنُ نُفير، عن أبي مسلمٍ الخَوْلانيِّ أنَّه سمعَه يقولُ: إنَّ النبيَّ ﷺ قال: «ما أوحيَ إليَّ أن أَجمع المالَ وأكونَ من التاجرين، ولكن أُوحيَ إليَّ أن سبِّح بحمدِ ربِّك وكُنْ من الساجدينَ، واعبُد ربَّك حتى يأتيَك اليقينُ»[4].

تمَّ تفسير سورة الحجر، والحمد لله.

---

(١) في «صحيحه» (٢٦٨٧)، وهو عند أحمد (٢٧٤٥٧).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «اليقين» (٤٣) بنحوه.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٧٦، وأخرجه عنهم الطبري في تفسيره ١٤/ ١٥٥ - ١٥٦.

(٤) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ١٣١، وهو ضعيف لإرساله، وأخرجه الواحدي في الوسيط ٣/ ٥٤ عن جبير بن نفير مرسلاً أيضاً، وينظر الكامل لابن عدي ٣/ ٩٣٩.

سُورَةُ الحِجْرِ

مَكِّيَّةٌ، وهي تسعٌ وتسعونَ آيةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ الإشارةُ إلى آياتِ السُّورَةِ، والكتابُ هو السُّورَةُ، وكذا القرآنُ، وتَنكيرُه للتَّفخيمِ؛ أي: تلك آياتُ الجامعِ لكَونِه كِتابًا كامِلًا وقرآنًا يبيِّنُ الرُّشدَ مِن الغيِّ بَيانًا عربيًّا.

(٢) ـ ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ حين عايَنُوا حالَ المسلمينَ عندَ نُزولِ النَّصرِ أو حلولِ المَوْتِ أو يومَ القِيامةِ.

وقرأَ نافِعٌ وعاصِمٌ: ﴿رُبَمَا﴾ بالتَّخفيفِ(١)، وقُرِئَ (رَبَما) بالفتحِ والتَّخفيفِ(٢).

وفيه ثمانِ لغاتٍ: ضَمُّ الرَّاءِ وفَتحُه مع التَّشديدِ والتَّخفيفِ، وبتاءِ التَّأنيثِ ودونَها.

و(ما) كافَّةٌ تكفُّهُ عَن الجرِّ، فيَجوزُ دخولُه على الفعلِ، وحقُّهُ أن يدخلَ الماضيَ، لكنْ لمَّا كان المترقَّبُ في أخبارِ اللهِ تَعالى كالماضي في تحقُّقِه أُجري مُجراهُ.

وقيل: (ما) نَكِرَةٌ موصوفةٌ، كقوله:

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٦٦)، و«التيسير» (ص: ١٣٥).

(٢) نسبت لأبي قرة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٤).

رُبَّمَـا تَكْـرَهُ النُّفُـوسُ مِـنَ الأَمْـ ـرِ لَـهُ فُرْجَـةٌ كَحَـلِّ العِقَـالِ[١]

ومَعنى التَّقليلِ فيه: الإيذانُ بأنَّهُم لو كانوا يَودُّونَ الإسلامَ مَرَّةً فبالحريِّ أَنْ يُسارِعُوا إليه، فكيفَ وهُمْ يودُّونَه كلَّ ساعةٍ؟

وقيل: تُدهِشُهُم أهوالُ يومِ القيامَةِ، فإن كانَتْ مِنْهُم إفاقةٌ في بعضِ الأوقاتِ تمنَّوْا ذلك، والغَيبةُ في حكايةِ وِدادَتِهم كالغَيبَةِ في قولك: حلفَ باللهِ ليَفْعَلَنَّ.

(٣) ـ ﴿ ذَرْهُمْ ﴾: دَعْهُم ﴿يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ ﴾ بدُنياهُم ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾: ويشغلهُمْ تَوقُّعُهم لطولِ الأعمارِ واستِقامَةِ الأَحوالِ عَن الاستعدادِ للمَعادِ.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ سوءَ صَنيعِهِم إذا عايَنُوا جزاءَهُ.

والغَرَضُ: إِقناطُ الرَّسولِ عليهِ السَّلامُ مِن ارعوائِهِم، وإيذانُهُ بأَنَّهُم مِـن أَهـلِ الخذلانِ، وأن نصحَهُم يُعدُّ اشتغالاً بما لا طائِلَ تحتَهُ، وفيه إلزامٌ للحُجَّةِ[٢]، وتحذيرٌ عَن إيثارِ التَّنعُّمِ وما يؤدِّي إليه طولُ الأملِ.

(٤) ـ ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ أجـلٌ مُقدَّرٌ كُـتِـبَ فـي اللَّوحِ المحفوظِ، والمُستثنَى جملةٌ واقِعَةٌ صِفةً لـ﴿قَرْيَةٍ ﴾، والأصلُ أَنْ لا يدخلَهَا الواوُ، كقوله: ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٨]، لكن لَمَّا شابَهَت صورتُها صورةَ الحالِ أُدخِلَت عليها تأكيدًا للُصوقِهَا بالمَوْصوفِ.

(٥) ـ ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾؛ أي: ومـا يَستأخِرونَ عنه، وتذكيرُ ضَميرِ ﴿أُمَّةٍ﴾ فيه للحَملِ على المَعنى.

---

(١) عزاه البحتري في «الحماسة» (١/ ٤٣٧) إلى أمية بن الصلت، وفي «الحماسة البصرية» (٢/ ٧٨) لحنيف بن عمير اليشكري، ونهار ابن أخت مسيلمة الكذاب.

(٢) أي: في قولِه: ﴿ ذَرْهُمْ ﴾.

(٦) ـ ﴿ وَقَالُوا يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ ﴾ نادَوا بهِ النبيَّ عليهِ السَّلام على التَّهكُّمِ، ألا تَرى إلى ما نادَوهُ له وهو قولُه: ﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ ﴾ ونظيرُ ذلك قولُ فِرعونَ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ ﴾ [الشعراء: ٢٧]، والمعنى: إنَّك لَتقولُ قولَ المَجانينِ حينَ تَدَّعِي أنَّ اللهَ نزَّلَ عليكَ الذِّكرَ؛ أي: القرآنَ.

(٧) ـ ﴿ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا ﴾ ركَّبَ (لو) مع (ما) كما رُكِّبَ مع (لا) لِمَعنيينِ: امتناعِ الشَّيءِ لوُجودِ غَيرِه، والتَّخصيصِ.

﴿بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ ليصدِّقوكَ ويَعضدوكَ على الدَّعوةِ، كقولِه: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ٧]، أو للعقابِ على تَكذيبِنا لك كما أَتَت الأُمَمَ المُكذِّبَةَ قبلُ.

﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ في دعواكَ.

(٨) ـ ﴿ما يُنزِّلُ الملائكةَ﴾ بالياءِ مُسندٌ إلى ضَميرِ اسمِ اللهِ[١].

وقرَأَ حمزَةُ والكِسائيُّ وحفصٌ بالنُّونِ، وأبو بكرٍ بالتَّاءِ والبناءِ للمَفعولِ ورفعِ ﴿الملائِكَةُ﴾.

وقُرِئَ ﴿تَنَزَّلُ﴾ بمعنى: تَتَنزَّلُ[٢].

﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾: إلا تنزيلًا مُلتَبِسًا بالحقِّ؛ أي: بالوجهِ الذي قدَّرَه واقتَضَتْه حِكمَتُه، فلا حكمةَ في أَنْ تأتِيَكُم بصوَرٍ[٣] تُشاهدونَها فإنَّه لا يَزيدُكُم إلا لبسًا، ولا

---

(١) وأورد عليه أنّ قراءة الياء لم يقرأ بها أحد من العشرة، ولم توجد في الشواذ أيضًا، والمصنف رحمه الله تعالى بنى تفسيره عليها، وحكى قراءة السبعة بصيغة التمريض. انظر: «حاشية الشهاب».

(٢) وهذه الأخيرة هي لباقي السبعة. انظر: «السبعة» (ص: ٣٦٦)، و«التيسير» (ص: ١٣٥).

(٣) في نسخة الخيالي: «بصورة».

في مُعاجَلَتِكُم بالعُقوبَةِ فإنَّ مِنْكُم ومِن ذَراريكُم مَن سَبَقَت كَلِمَتُنا له بالإيمانِ، وقيل: الحقُّ: الوَحْيُ أو العَذابُ.

﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ ﴿إِذًا﴾ جوابٌ لهم وجَزاءٌ لشَرطٍ مُقدَّرٍ؛ أي: ولو نَزَّلْنا المَلائكَةَ ما كانوا مُنظَرِينَ.

(٩) ـ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾: القرآنَ، رَدٌّ لإنكارِهِم واستِهزائِهِم، ولذلك أكَّدَهُ مِن وُجوهٍ وقَرَّرهُ بقولِه: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾؛ أي: مِن التَّحريفِ والزِّيادةِ والنَّقصِ بأَنْ جَعلناه مُعجِزًا مُبايِنًا لكلامِ البَشرِ بحيث لا يخفى تَغييرُ نَظمِه على أَهلِ الدِّينِ، أو نَفَى تطرُّقَ الخللِ إليه في الدَّوامِ بضمانِ الحِفظِ له كمَا نَفَى أن يُطعنَ فيه بأنَّه المنزلُ له[1].

وقيل: الضَّميرُ في ﴿لَهُۥ﴾ للنَّبيِّ عليهِ السَّلامُ.

(١٠) ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: في فِرَقِهِم، جمعُ شِيعَةٍ، وهي الفِرقَةُ المُتَّفِقَةُ على طريقٍ ومَذهَبٍ، مِن شاعَهُ: إذا تَبِعَهُ، وأصلهُ: الشِّياعُ، وهو الحَطَبُ الصِّغَارُ يُوقَدُ به الكبارُ، والمعنى: نَبَّأْنا رِجالًا فيهِمْ وجَعلناهُمْ رُسُلًا فيما بَيْنَهُم.

(١١) ـ ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ كمَا يفعَلُ هؤلاءِ، وهو تَسليَةٌ للنَّبيِّ عليهِ السَّلامُ، و(ما) للحالِ لا يدخلُ إلا مضارعًا بمعنى الحالِ، أو ماضيًا قريبًا منه[2]، وهذا على حكايةِ الحالِ الماضيةِ.

(١٢) ـ ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾: نُدخِلُه ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ والسَّلْكُ: إدخالُ

---

(١) في نسخة الخيالي: «إليه».

(٢) وهذا بناء على ما ذهب إليه الزمخشري من أنها مع المضارع لنفي الحال، ومع الماضي لنفي الماضي القريب من الحال، وهو أكثريٌّ لا كلِّيٌّ، فإنها جاءت لنفي المضارع في المستقبل، كقوله: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ﴾. انظر: «حاشية الشهاب».

الشَّـيءِ في الشَّـيءِ كالخَيْطِ في المِخْيَطِ والرُّمحِ في المَطعونِ، والضَّميرُ للاستهزاءِ، وفيـه دليلٌ عَلـى أنَّه تَعالـى يُوجِـدُ الباطلَ فـي قُلوبِهِم.

(١٣) ـ وقيل: للذِّكرِ، فإنَّ الضَّميرَ الآخرَ في قولِه تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ له، وهو حالٌ مِن هذا الضَّميرِ[١]، والمعنى: مِثْلَ ذلك السَّلكِ نَسلكُ الذِّكرَ في قلوبِ المُجرمينَ مكذَّبًا غير مؤمَنٍ به، أو بيانٌ للجُملةِ المُتضمِّنَةِ له[٢].

وهذا الاحتجاجُ ضَعيفٌ؛ إذ لا يلزَمُ مِن تَعاقُبِ الضَّمائرِ توافُقُها[٣] في المرجوعِ إليهِ، ولا يَتعيَّنُ أن تكونَ الجُملَةُ حالًا من الضَّميرِ؛ لجوازِ أَنْ تكونَ حالًا من الضميرِ في ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، ولا يُنافي كونَها مُفسِّرَةً للمَعنى الأولِ، بل يقوِّيهِ.

﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: سُنَّةُ اللهِ فيهِمْ بأَنْ خذلَهُم وسَلَكَ الكُفرَ في قُلوبِهِم، أو: بإهلاكِ مَن كذَّبَ الرُّسُلَ مِنْهُم؛ فيكونُ وَعيدًا لأهلِ مَكَّةَ.

(١٤) ـ ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾؛ أي: على هؤلاءِ المُقْترِحِينَ ﴿بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾: يَصعَدونَ إلَيْها ويَرَوْنَ عَجائِبَها طولَ نَهارِهِم مُستَوْضِحينَ لِمَا يرونَ، أو: تصعدُ الملائِكَةُ وهُم يُشاهِدونَهُم.

(١٥) ـ ﴿لَقَالُوٓا۟﴾ مِن غُلُوِّهِم في العِنادِ وتَشكيكِهِم في الحَقِّ ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا﴾: سُدَّتْ عن الإبصارِ بالسِّحرِ، مِن السَّكْرِ، ويدلُّ عليهِ قراءةُ ابنِ كثيرٍ بالتَّخْفيفِ[٤].

---

(١) قوله: «وهو»؛ أي: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ «حال من هذا الضمير»؛ أي: ضمير ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ على القول بأنه للذِّكر. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٣٩٥)

(٢) قوله: «أو بيان» عطف على (حالٌ) «للجملة المتضمِّنة له»؛ أي: وهي قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٣٩٥)

(٣) في نسخة الخيالي: «من تعاقب الضميرين توافقهما».

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٣٦٦)، و«التيسير» (ص: ١٣٦).

أو حُيِّرَتْ مِن السُّكْرِ، ويدلُّ عليه قراءَةُ من قرأَ: (سَكِرَت)[١].

﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾: قَدْ سَحَرَنا مُحمَّدٌ بذلك، كما قالوه عندَ ظُهورِ غيرِه مِن الآياتِ.

وفي كَلِمَتي الحصْرِ والإضرابِ دلالةٌ على البَتِّ بأنَّ ما يَرَوْنَه لا حقيقةَ له، بل هو باطلٌ خُيِّلَ إليهِمْ بنوعٍ مِن السِّحرِ.

(١٦) ـ ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾: اثنَيْ عشرَ مُختلفةَ الهيئاتِ والخَواصِّ على ما دلَّ عليه الرَّصدُ والتَّجرِبَةُ مع بَساطةِ السَّماءِ.

﴿وَزَيَّنَّـٰهَا﴾ بالأشكالِ والهيئاتِ البَهِيَّةِ ﴿لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ للمُعتَبرينَ المُستَدِلِّينَ بها على قُدرَةِ مُبدِعِها وتَوحيدِ صانِعِها.

(١٧) ـ ﴿وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ فلا يَقدِرُ أن يَصعدَ إليهَا ويوسوسَ أهلَها، ويَتصرَّفَ في أمرِها، ويَطَّلِعَ على أَحوالِها.

(١٨) ـ ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ بدلٌ مِن ﴿كُلِّ شَيْطَـٰنٍ﴾، واستِراقُ السَّمعِ: اختِلاسُه سِرًّا، شبَّهَ بِهِ خَطْفَتَهُم اليسيرةَ مِن قُطَّانِ السَّماواتِ لِمَا[٢] بينَهُم مِن المُناسبةِ في الجوهرِ، أو بالاستدلالِ مِن أوضاعِ الكَواكبِ وحَرَكاتِها.

وعن ابنِ عبَّاسٍ: أَنَّهُم كانوا لا يُحجبونَ عَن السَّماواتِ، فلمَّا وُلِدَ عيسى مُنعوا مِن ثلاثِ سماواتٍ، فلمَّا وُلِدَ محمَّدٌ عليهِ السَّلامُ مُنِعُوا مِن كلِّها بالشُّهُب[٣].

---

(١) انظر: «المحتسب» (٢/ ٣) عن الزهري.

(٢) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «بما».

(٣) ذكر نحوه عن ابن عباس السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٢٥٣)، والثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٤٣٦)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ٥٦٦)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٧٢)، والرازي في «تفسيره» (١٩/ ١٣٠). وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ١٥٢) عن الكلبي.

ولا يَقدحُ فيه تَكوُّنُها قبلَ المولدِ؛ لجَوازِ أن يكونَ لها أسبابٌ أُخَرُ[١].

وقيل: الاستثناءُ مُنقَطِعٌ؛ أي: ولكنْ مَن استرقَ السَّمعَ.

﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾: فتَبِعَهُ ولَحِقَه ﴿شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾: ظاهرٌ للمُبصِرينَ.

والشِّهابُ: شُعلَةُ نارٍ ساطعَةٌ، وقد يطلقُ للكوكبِ والسِّنَانِ لِمَا فيهِما مِن البَريقِ.

(١٩) ـ ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾: بَسَطْناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾: جبالًا ثوابِتَ ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾: في الأرضِ، أو فيها وفي الجبالِ ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾: مُقدَّرٌ بِمقدارٍ مُعيَّنٍ تَقتَضيهِ حِكمَتُه، أو: مُستحسَنٍ مُناسِبٍ، مِن قولِهِم: كلامٌ مَوزونٌ، أو: ما يُوزَنُ ويُقدَّرُ، أو: له وزنٌ في أَبوابِ النِّعمَةِ والمنفعَةِ.

(٢٠) ـ ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ تعيشونَ بها مِن المَطاعِمِ والمَلابسِ، وقُرِئَ بالهَمزِ[٢] على التَّشبيهِ بـ(شَمائلَ).

﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ عطفٌ على ﴿مَعَٰيِشَ﴾، أو على محلِّ ﴿لَكُمْ﴾ ويريدُ بـه: العِيالَ والخَدَمَ والمَماليكَ وسائرَ ما يَظنُّونَ أنَّهم يرزقونَهُم ظنًّا كاذبًا، فإنَّ اللهَ يرزقُهُم وإيَّاهُم.

وفَذْلكَةُ الآيةِ[٣]: الاستدلالُ بجعلِ الأَرضِ ممدودةً بِمقدارٍ وشكلٍ مُعيَّنَيْنِ،

---

(١) قوله: «ولا يقدح فيه»؛ أي: في مَنعِهم مِن كلِّها بالشُّهب، وفي نسخة: (فيها) (تكوُّنُها)؛ أي: الشهب «لجواز أن يكون لها»؛ أي: للشُّهُبِ؛ أي: لتكوُّنِها، «أسباب أُخر»؛ أي: غيرُ استراقِ السَّمعِ؛ كالزِّينةِ، والاستدلالِ على الوحدانية، والاهتداءِ للطُّرُق. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٣٩٧)

(٢) ذكرها الزجاج في «معاني القرآن» (٢/ ٣٢١)، والنحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٤٥)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢/ ٣٧٧)، عن نافع، وهي خلاف المشهور عنه. وذكروها جميعهم عند الآية (١٠) من سورة الأعراف.

(٣) أي: محصلها وإجمالها.

مُختلفةَ الأَجزاءِ في الوَضعِ، محدَثةً فيها أَنواعُ النَّباتِ والحيوانِ المُختَلِفَةِ خلقةً وطَبيعةً، مع جوازِ أَنْ لا تكونَ كذلك= على كَمالِ قُدرَته وتَناهِي حِكمَتِه والتَّفرُّدِ في أُلُوهِيَّتِه، والامتنانُ على العبادِ بما أَنعمَ عَلَيهِم في ذلك ليُوَحِّدُوهُ ويَعبُدُوهُ، ثمَّ بالغَ في ذلكَ وقال:

(٢١) ـ ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾؛ أي: وما مِن شَيءٍ إلا ونحنُ قَادِرونَ على إيجادِهِ وتَكوينِهِ أضعافَ ما وُجِدَ مِنْه، فضرَبَ الخَزائنَ مَثَلًا لاقتدارِه، أو شَبَّهَ مَقدُوراتِهِ بالأَشياءِ المَخزونَةِ التي لا يُحْوِجُ إخراجُها إلى كُلفةٍ واجتِهادٍ.

﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ ﴾ مِن يَفَاعِ[١] القدرةِ ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ حَدَّهُ الحكمَةُ[٢] وتَعلَّقَتْ به المَشيئَةُ، فإنَّ تَخصيصَ بَعضِهَا بالإيجادِ في بَعضِ الأَوقاتِ على بعضِ الصِّفاتِ والحالاتِ لا بُدَّ له مِن مُخصِّصٍ حَكيمٍ.

(٢٢) ـ ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾: حوامِلَ، شبَّهَ الرِّيحَ التي جاءَتْ بخَيرٍ مِن إنشاءِ سَحابٍ ماطِرٍ بالحاملِ، كما شبَّهَ ما لا يكونُ كذلك بالعَقيمِ.

أو: مُلقِّحاتٍ للشَّجرِ والسَّحابِ، ونظيرُه: الطَّوائِحُ بمَعنى: المُطيحاتِ في قولِه:

ومُختبِطٌ ممَّا تُطيحُ الطَّوائِحُ[٣]

---

(١) كلمة: «يفاع» كتب تحتها في نسخة التفتازاني: «اليفاع: ما ارتفع. صحاح». وانظر: «الصحاح» (مادة: يفع). قال الخفاجي: وهوَ استعارَة لعظمَةِ قُدرته.

(٢) قوله: «حده الحكمة» يحتملُ أن يكون (حدًّا) مصدراً مضافاً إلى الضمير على أنه مبتدأٌ خبرُه: «الحكمةُ»، وأن يكون فعلاً و«الحكمةُ» فاعلُه، وعليه فالأَولى: حدَّتْه الحكمةُ؛ أي: بيَّنَتْه. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٣٩٧). وقال الخفاجي: (حَدَّه الحكمةُ) بلفظِ الماضي؛ أي: جعلت لهُ حدًّا.

(٣) صدره:

لِيُبْكَ يَزيدُ ضارعٌ لخُصومَةٍ

عزاه سيبويه في «الكتاب» (١/ ٢٨٨)، وأبو علي الفارسي في «الإيضاح العضدي» (ص: ٧٤) =

وقرئ: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ ﴾ على تأويلِ الجنسِ[١].

﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾: فجَعلناه لَكُم سُقْيَا ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾: قادرينَ مُتمكِّنينَ من إخراجِه، نفى عَنْهُم ما أثبتَهُ لنَفسِه[٢]، أو: حافظينَ في الغُدرانِ والعُيونِ والآبارِ، وذلك أيضًا يدلُّ على المدبِّرِ الحَكيمِ، كما تدلُّ حركةُ الهَواءِ في بعضِ الأوقاتِ مِن بعضِ الجهاتِ على وجهٍ يَنتفعُ به النَّاسُ، فإنَّ طَبيعةَ الماءِ تَقتَضِي الغَوْرَ، فوقوفُه دونَ حدٍّ لا بُدَّ له مِن سببٍ مخصِّصٍ.

(٢٣) ـ ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ ﴾ بإيجادِ الحَياةِ في بعضِ الأجسامِ القابلةِ لها ﴿وَنُمِيتُ﴾ بإزالَتِها، وقد أوَّلَ الحياةَ بما يَعُمُّ الحيوانَ والنَّباتَ، وتكريرُ الضَّميرِ للدَّلالةِ على الحصرِ.

﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾: الباقونَ إذا ماتَ الخَلائِقُ كلُّها.

= للحارث بن نهيك النهشلي، وعزاه أبو عبيدة في «مجاز القرآن» (١/ ٣٤٨) لنهشل بن حري، وغزاه أبو علي القيسي في «إيضاح» (١/ ١٠٩) لمزرد أخي الشماخ، وعزاه علي بن عدلان في «الانتخاب» (ص: ٣٠) للحارث بن ضرار، وعزاه ابن هشام في «تخليص الشواهد» للبيد (ص: ٤٨٠).

وهو بلا نسبة في «المقتضب» (٣/ ٢٨٢)، و«الخصائص» (٢/ ٣٥٣).

قال الشهاب الخفاجي في «الحاشية»: هو من شعر في رثاء يزيد النهشلي. قال: والمختبط طالب العرف المحتاج، وأصله من خبط ورق الأشجار لتأكلها الدواب، وإنما يُفعل ذلك في الجدب وشدّة الاحتياج، وتطيح بمعنى: ترمي، والطوائح: جمع المطيحة بمعنى السنين أو الجوائح الرامية له، أو جمع طائحة على التجوُّز.

(١) هي قراءة حمزة. انظر: «السبعة» (ص: ١٧٣)، و«التيسير» (ص: ٧٨).

(٢) أي: في قولِه: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾.

(٢٤) ـ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾: مَن استَقْدَمَ ولادةً ومَوْتًا ومَن استأْخرَ، أو: مَن خرجَ مِن أَصلابِ الرِّجالِ ومَن لم يخرُجْ بَعدُ، أو: مَن تَقدَّمَ في الإسلامِ والجهادِ وسبقَ إلى الطَّاعةِ أو تأخَّرَ، لا يَخْفَى عَلَينا شيءٌ مِن أَحوالِكُم. وهو بيانٌ لكمالِ علمِهِ بعدَ الاحتجاجِ على كمالِ قُدرَتِه، فإنَّ ما يدلُّ على قُدرتِهِ دليلٌ[1] على علمِهِ.

وقيل: رَغَّبَ رسولُ اللهِ ﷺ في الصفِّ الأوَّلِ فازدَحَمُوا عليه، فنزلَتْ[2].

وقيل: إنَّ امرأةً حَسناءَ كانَتْ تُصَلِّي خلفَ رَسولِ اللهِ ﷺ، فتَقدَّمَ بعضُ القَوْمِ لئلَّا ينظُرَ إليها وتأخَّرَ بعضٌ ليُبصِرَها، فنَزَلَتْ[3].

(٢٥) ـ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ لا محالةَ للجَزاءِ، وتوسيطُ الضَّميرِ للدَّلالةِ على أنَّه القادرُ والمُتولِّي لحشرِهِم لا غيرُه، وتصديرُ الجُملَةِ بـ﴿إنَّ﴾ لتَحقيقِ الوَعدِ والتَّنبيهِ على أنَّ ما سبقَ مِن الدَّلالةِ على كمالِ قُدرَتِه وعِلمِهِ بتَفاصيلِ الأَشياءِ يدلُّ

---

(١) في نسخة التفتازاني: «يدل».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٤٥٦) والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٧٦) عن الربيع بن أنس وهو مرسل. وأورده الجرجاني في «درج الدرر» (٢/ ١٧٢) من رواية الكلبي عن ابن عباس، وابنُ الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ٥٣٢) من رواية أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما، وإسناده ضعيف جداً؛ لأنه من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، والكلبي متروك، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس.

(٣) رواه الترمذي (٣١٢٢)، والنسائي في (٨٧٠)، وابن ماجه (١٠٤٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٠١)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣٤٦) وصححه، ووافقه الذهبي في «التلخيص». ورواه الترمذي عن أبي الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن أبي الجوزاء دون ذكر ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: وهذا أشبه أن يكون أصح. وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: غريب جدًّا وفيه نكارة شديدة.

على صِحَّةِ الحُكمِ، كما صرَّحَ بِهِ بقوله: ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾ باهرُ الحِكمَةِ مُتقِنٌ في أفعالِه ﴿عَلِيمٌ﴾ وَسِعَ عِلمُهُ كلَّ شيءٍ.

(٢٦) - ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ﴾: طينٍ يابِسٍ يُصلصِلُ؛ أي: يُصَوِّت إذا نُقِرَ. وقيل: هو مِن صَلْصَلَ: إذا أنتنَ، تَضعيفُ صَلَّ.

﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾: طينٍ تَغيَّرَ واسوَدَّ مِن طولِ مجاورةِ الماءِ، وهو صِفَةُ ﴿صَلْصَٰلٍ﴾؛ أي: كائنٍ مِن حمأٍ ﴿مَّسْنُونٍ﴾: مُصَوَّرٍ، مِن سُنَّةِ الوَجْهِ[1]، أو: مَصبوبٍ لِيَيْبَسَ ويَتصَوَّرَ كالجواهرِ المُذابَةِ تُصبُّ في القَوالبِ، مِن السَّنِّ: وهو الصَّبُّ، كأنَّه أفرغَ الحمأَ فصَوَّرَ مِنه تمثالَ إِنسانٍ أجوَفَ، فيَبِسَ حَتَّى إذا نُقِرَ صلصَلَ، ثمَّ غيَّرَ ذلك طَوْرًا بعدَ طَوْرٍ حتَّى سَوَّاهُ ونفخَ فيهِ مِن رُوحِهِ. أو: مُنتنٌ؛ مِن سَنَنْتُ الحجرَ على الحجرِ: إذا حَكَكْتَه بِهِ، فإِنَّ ما يسيلُ بَيْنَهُمَا يكونُ مُنْتِنًا، وسُمِّيَ سَنِينًا.

(٢٧) - ﴿وَٱلْجَآنَّ﴾: أبا الجنِّ، وقيل: إبليسَ، ويجوزُ أَنْ يرادَ به الجنسُ كما هوَ الظَّاهرُ مِن ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾؛ لأنَّ تَشعُّبَ الجنسِ لَمَّا كانَ مِن شَخصٍ واحِدٍ خُلقَ مِن مادَّةٍ واحِدَةٍ كانَ الجنسُ[2] بأَسْرِهِ مَخْلُوقًا منها.

وانتصابُهُ بفعلٍ يفسِّرُهُ: ﴿خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾: مِن قَبلِ خلقِ الإنسانِ ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾: مِن نارِ الحَرِّ الشَّديدِ النَّافذِ في المَسامِّ، ولا يَمْتَنِعُ خلقُ الحَياةِ في الأَجرامِ البَسيطَةِ كما لا يَمتَنِعُ خَلقُها في الجَواهرِ المجرَّدَةِ فَضْلًا عَن الأَجسادِ المؤلَّفَةِ التي الغالبُ فيها الجزءُ النَّاريُّ، فإنَّها أقبَلُ لها مِن التي الغالِبُ فيها الجُزءُ الأَرضيُّ[3]،

---

(١) «سنة الوجه»: صورته؛ كما في «الصحاح» (مادة: سنن)، واستشهد بقول ذي الرُّمة:

تريكَ سُنَّةَ وجهٍ غيرَ مُقرَفةٍ ... ملساءَ ليس بها خالٌ ولا نَدَبُ

(٢) في نسخة الخيالي: «لأن تشعب الجن... كان الجن».

(٣) قوله: «فإنها»؛ أي: الأجسادَ المؤلَّفةَ التي الغالبُ فيها الجزءُ الناريُّ كالجانِّ «أقبلُ لها»؛ أي: للحياةِ «من التي الغالبُ فيها الجزءُ الأرضي» كالآدميِّ. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٤٠١).

وقوله: ﴿مِن نَّارٍ﴾ باعتبارِ الغالِبِ، كقولِه: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الروم: ٢٠][1].

ومَساقُ الآيةِ كمَا هو للدَّلالَةِ على كَمالِ قُدرَةِ اللهِ وبيانِ بَدءِ[2] خَلْقِ الثَّقَلينِ، فهو للتَّنبيهِ على المُقدِّمَةِ الثَّانيَةِ التي يَتوقَّفُ عليها إمكانُ الحَشرِ، وهو قبولُ المَوادِّ للجَمعِ والإحياءِ.

(٢٨ ـ ٢٩) ـ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ واذكُرْ وقتَ قولِه ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾: عَدَّلْتُ خلقتَهُ وهَيَّأْتُه لنَفخِ الرُّوحِ فيه ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ حتَّى جَرَى آثارُهُ في تَجاويفِ أَعضائِهِ فحَيِيَ.

وأَصْلُ النَّفخِ: إجراءُ الرِّيحِ في تَجويفِ جِسْمٍ آخرَ، ولَمَّا كانَ الرُّوحُ يَتعلَّقُ أوَّلًا بالبُخارِ اللَّطيفِ المُنبعِثِ مِن القَلبِ، وتَفيضُ عليه القُوَّةُ الحَيوانيَّةُ فيَسرِي حامِلًا لها في تَجويفِ[3] الشَّرايينِ إلى أعماقِ البَدنِ، جعلَ تعلُّقَهُ بالبدنِ نَفْخًا، وإضافَةُ الرُّوحِ إلى نَفسِهِ لِمَا مرَّ في (النِّساءِ).

﴿فَقَعُواْ﴾: فاسقُطُوا ﴿لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ أَمْرٌ مِن وَقَعَ يَقَعُ.

(٣٠) ـ ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ أكَّدَ بتَأكيدينِ للمُبالَغَةِ في التَّعميمِ ومَنعِ التَّخصيصِ.

وقيل: أكَّدَ بالـ(كُلِّ) للإحاطَةِ، وبـ(أجمعينَ) للدَّلالةِ على أنَّهم سَجَدُوا مُجتمِعينَ دفعةً، وفيه نَظَرٌ؛ إذ لو كانَ الأَمرُ كذلك كانَ الثَّاني حالًا لا تأكيدًا.

---

(١) قوله: «وقوله: ﴿مِن نَّارٍ﴾ باعتبار الغالب»؛ أي: وإلا فالجانُّ خُلِقَ من العناصر الأربعة «كقوله تعالى: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩]»؛ أي: في أنَّ ذكرَ الترابِ في آدمَ باعتبار الغالبِ. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٤٠١).

(٢) في نسخة الخيالي: «مبدأ»، وفي نسخة التفتازاني: «بدو»، والمثبت من نسخة الطبلاوي.

(٣) في نسخة الخيالي والتفتازاني: «تجاويف»، والمثبت من نسخة الطبلاوي.

(٣١) ـ ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ﴾ إنْ جُعـلَ منقطعًـا اتَّصـلَ بـه قولُـه: ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾؛ أي: ولَكـنَّ إبليـسَ أَبـى، وإنْ جُعِـلَ مُتَّصِـلًا كانَ استِئْنَافًا علـى أَنَّـه جَـوابُ سَـائلٍ قـال: هَـلَّا سَـجَدَ.

(٣٢) ـ ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ ﴾: أيُّ غَرَضٍ لك فـي أَنْ لا تَـكونَ ﴿مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ لآدمَ؟

(٣٣) ـ ﴿ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ ﴾ اللامُ لتَأكيدِ النَّفيِ؛ أي: لا يَصِحُّ مِنِّي ويُنافِي حالي أَنْ أَسجُدَ ﴿لِبَشَرٍ ﴾ جِسْمانيٍّ كَثيفٍ، وأنا مَلَكٌ روحانِيٌّ.

﴿خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴾ وهو أَخسُّ العَناصرِ، وخلقْتَني مِن نارٍ وهيَ أَشرَفُها.

استَنْقَصَ آدمَ عليهِ السَّلامُ باعتبارِ[1] النَّوعِ والأَصلِ، وقَدْ سبقَ الجَوابُ عنه في (سُورَةِ الأَعرافِ).

(٣٤) ـ ﴿ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا ﴾: مِن السَّماءِ، أو: الجنَّةِ، أو: زُمْرةِ[2] الملائكَةِ.

﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴾: مَطرودٌ مِن الخَيرِ والكَرامَةِ، فإنَّ مَن يُطرَدُ يُرجَمُ بالحجرِ، أو: شَيطانٌ يُرجَمُ بالشُّهُبِ، وهو وعيدٌ يَتضمَّنُ الجَوابَ عَن شُبهَتِهِ.

(٣٥) ـ ﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ ﴾ هذا الطَّردَ والإبعادَ ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ فـإنَّـه مُنتَهى أَمَـدِ اللعنِ، فإنَّه يُناسِبُ أيامَ التَّكليفِ، ومنه زَمانُ الجَزاءِ، وما في قوله: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤٤] فبمَعنًى آخرَ يُنسى عِندَه هذه[3].

---

(١) في نسخة الخيالي: «بحسب».

(٢) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «زمر».

(٣) قوله: «فإنه منتهى أمد اللعن»؛ أي: اللعن بمعنى الطَّرْدِ والإبعادِ؛ أي: المجرد عن العقاب «يناسب =

وقيل: إنَّما حدَّ اللعنَ بهِ لأنَّهُ أَبعَدُ غايةٍ يَضرِبُها النَّاسُ[1]، أو: لأنَّهُ يُعذَّبُ فيه بما يُنسَى اللَّعنُ معه فيَصيرُ كالزَّائلِ.

(٣٦) ـ ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ﴾: فأَخِّرْنِي، والفَاءُ مُتعلِّقَةٌ بمَحذوفٍ دَلَّ عليهِ ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أرادَ أن يَجِدَ فُسحةً في الإغواءِ ونَجاةً عَن الموتِ؛ إذ لا موتَ بعدَ وَقتِ البعثِ، فأجابَهُ إلى الأوَّلِ دونَ الثَّاني.

(٣٧ ـ ٣٨) ـ ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ المُسمَّى فيه أجلُكَ عِندَ اللهِ، أو: انقراضِ النَّاسِ كُلِّهِم، وهو النَّفخَةُ الأُولى عندَ الجُمهورِ، ويجوزُ أَنْ يكونَ المُرادُ بالأيَّامِ الثَّلاثَةِ يومَ القِيامَةِ، واختلافُ العباراتِ لاختلافِ الاعتِباراتِ، فعبَّرَ عنه أوَّلًا بيومِ الجَزاءِ لِمَا عَرَفتَه، وثانيًا بيومِ البَعثِ إذ به يَحصُلُ العِلمُ بانقِطاعِ التَّكليفِ واليَأسُ عَن التَّضليلِ، وثالثًا بالمَعلومِ لوقوعِهِ في الكَلامينِ، ولا يلزَمُ من ذلك أن لا يموتَ، فلعلَّهُ يَموتُ أَوَّلَ اليَومِ ويبعثُ الخَلائِقُ في تَضاعيفِهِ، وهذه المُخاطَبَةُ وإن لم تَكُن بواسِطَةٍ لم تَدُلَّ على مَنصبِ إبليسَ؛ لأنَّ خِطابَ اللهِ له على سَبيلِ الإهانَةِ والإذلالِ.

(٣٩ ـ ٤٠) ـ ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ الباءُ للقَسَمِ، و(ما) مَصدريَّةٌ، وجوابُه ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ والمعنى: أقسِمُ بإغوائِكَ إيَّايَ لأُزَيِّنَنَّ لَهُم المَعاصِيَ في

= أيام التكليف» أما اللَّعنُ بمعنى التعذيبِ فإنما يناسب دار الجزاء، (ومنه)؛ أي: من يوم الدِّين؛ أي: زمانِه (زمان الجزاء)؛ أي: الذي يقعُ فيه التعذيبُ «وما في قوله: ﴿فَأَذَّنَ﴾ ...إلى آخره» جوابُ ما يقال: كيف غَيَّا اللعنةَ بيومِ الدِّين مع أنه أثبتَها فيه بقوله: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؟ فأجاب: بأنها ثَمَّ «بمعنًى آخرَ» غيرِ الطَّرد والإبعاد، وهو التعذيبُ الذي (تُنسى عنده) اللعنةُ بمعناهما، وهي ما أشار إليه بقوله: «هذه». انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٤٠٣).

(١) في نسخة التفتازاني: «الإنسان».

الدُّنيا التي هي دارُ الغُرورِ، كقولِه: ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وفي انعقادِ القَسَمِ بأَفعالِ اللهِ تَعالى خلافٌ.

وقيل: للسَّببيَّةِ.

والمُعتزلَةُ أَوَّلُوا الإغواءَ بالنِّسبَةِ إلى الغيِّ، أو التَّسبُّبِ له بأَمرِهِ إيَّاه بالسُّجودِ لآدمَ عليهِ السَّلامُ، أو بالإضلالِ عَن طَريقِ الجنَّةِ[1]، واعتذَرُوا عَن إمهالِ اللهِ له ـ وهو سَببٌ لزِيادَةِ غيِّهِ وتَسليطٌ له على إغواءِ بَنِي آدمَ ـ بأَنَّ اللهَ تَعالى عَلِمَ مِنْه وممَّنْ تَبِعَه أنَّهم يَموتونَ على الكُفْرِ ويَصيرونَ إلى النَّارِ، أُمهِلَ أو لم يُمْهَلْ، فإنَّ في إمْهَالِه تعريضًا لِمَن خالفَهُ لاستِحقاقِ مزيدِ الثَّوابِ، وضَعْفُ ذلك لا يَخفَى على ذَوِي الأَلبابِ[2].

﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾: ولأَحمِلَنَّهُم أَجمَعِينَ علَى الغِوَايَةِ ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾: أَخْلَصْتَهُم لطاعَتِكَ وطَهَّرْتَهُم مِن الشَّوائبِ فلا يَعمَلُ فيهِم كيدِي.

وقرأَ ابنُ كَثيرٍ وابنُ عامرٍ وأبو عَمرٍو بالكسرِ في كُلِّ القُرآنِ[3]؛ أي: الذين أَخلصُوا نُفوسَهُم للهِ.

---

(١) قوله: «والمعتزلة» القائلون بأن العبد يُوجِدُ أفعالَه بنفسه «أوَّلوا الإغواء» الذي هو مِن ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾ كالصريحِ في أن الموجدَ له هو اللهُ «بالنسبة إلى الغي» المترتِّبِ على الإغواء، لا إلى الإغواء نفسه، «أو التسبب له»؛ أي: للغيِّ (بأمره) متعلق بـ(التسبُّبِ)، «أو بالإضلال» عطف على (بالنسبة). انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٤٠٥).

(٢) قوله: «وضعفُ ذلك..»؛ أي: ما ذُكِر من التأويل والاعتذار؛ لما ثبتَ أن الموجِدَ للأشياءِ هو اللهُ، وأنَّ له أن يفعلَ ما يشاءُ، فلا يحتاجُ إلى تأويلٍ واعتذار، معَ أن التأويلَ بالإضلال مُحْوِجٌ على مذهبهم إلى تأويلٍ. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٤٠٥).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٤٨)، و«التيسير» (ص: ١٢٨).

(٤١) ـ ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ﴾: حقٌّ علـيَّ أَنْ أُراعِيَـه[1] ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ لا انحـرافَ عنـه، والإشـارةُ إلى مـا تَضمَّنَه الاستِثناءُ، وهـو تخلُّـصُ المخلَصينَ مِن إغوائِـه، أو الإخـلاصِ علـى مَعنـى: أنَّـه طريـقٌ عليَّ يُـؤدِّي إلـى الوُصولِ إلـيَّ مِن غيـرِ اعوجـاجٍ وضَلالٍ.

وقُرِئَ ﴿عَلِيٌّ﴾ مِن عُلوِّ الشَّرفِ[2].

(٤٢) ـ ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ تصـديقٌ لإبليسَ فيما استثناه، وتَغييرُ الوَضْعِ لتَعظيمِ المُخلَصِينَ، ولأنَّ المقصودَ بيانُ عِصمَتِهِم وانقطاعِ مَخالبِ الشَّيطانِ عنهم، أو: تَكذيبٌ له فيما أوهمَ أنَّ له سُلطانًا على مَن ليسَ بمُخلَصٍ مِن عبادِه، فإنَّ مُنتَهَى تَزيينِهِ التَّحريضُ والتَّدليسُ، كمَا قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وعلى هذا يكونُ الاستِثناءُ مُنقَطِعًا، وعلى الأوَّلِ يُدْفَعُ قولُ مَن شَرَطَ أَنْ يكونَ المُستثنى أقَلَّ مِن الباقي لإفضائِهِ إلى تَناقُضِ الاستثناءينِ.

(٤٣) ـ ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ﴾: لَموعِدُ الغاوينَ أو المُتَّبِعينَ ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيدٌ للضَّميرِ، أو حالٌ والعامِلُ فيها الموعِدُ إِنْ جعَلْتَهُ مَصدرًا على تقديرِ مُضافٍ، ومَعنى الإضافَةِ إنْ جعَلْتَهُ اسمَ مَكانٍ فإنَّه لا يعمَلُ.

---

(١) كذا فسَّرَهُ في «الكشَّافِ» بناءً على مذهبِهِ في الأصلحِ على اللهِ وكلمَة (علي) تستعمل للوجوب، وما ذكرَهُ المُصنِّفُ ـ رحمَه اللهُ ـ ليسَ متابعَة له، بل هوَ على أصلِ أهلِ السنة والجماعة كقولِه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] مِن أنه وإن كانَ تفضلًا منه، إلَّا أنَّه شبه بالحقِّ الواجب لتأكُّدِ ثبوته، وتحقُّق وقوعه بمُقتضى وعده. قاله الخفاجي في «الحاشية».

(٢) قرأ بها يعقوب من العشرة. انظر: «النشر» (٢/ ٣٠١). وذكرها في «المحتسب» (٢/ ٣) عن أبي رجاء وابن سيرين وقيس بن عبادة وقتادة والضحاك ويعقوب وابن شرف ومجاهد وحميد وعمرو بن ميمون وعمارة بن أبي حفصة.

(٤٤) ـ ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ يدخلونَ فيها لكَثرَتِهم، أو طبقاتٍ يَنزِلُونَها بحسبِ مَراتِبِهم في المُتابعَةِ، وهي: جهنَّمُ، ثمَّ لَظَى، ثمَّ الحُطَمَةُ، ثمَّ سَقَرُ، ثمَّ السَّعِيرُ، ثمَّ الجَحِيمُ، ثمَّ الهَاوِيَةُ.

ولعلَّ تَخصيصَ العَددِ لانحِصارِ مجامعِ المُهلِكاتِ في الركونِ إلى المَحسوساتِ، ومتابعةِ القوَّةِ الشَّهويَّةِ والغَضبيَّةِ، أو لأنَّ أهلَها سبعُ فِرَقٍ.

﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ﴾: مِن الأَتباعِ ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ أُفرِزَ لَه، فأَعلاها للمُوَحِّدينَ العُصاةِ[1]، والثَّاني لليَهودِ، والثَّالثُ للنَّصارَى، والرَّابعُ للصَّابئينَ، والخامِسُ للمَجوسِ، والسَّادسُ للمُشركينَ، والسَّابعُ للمُنافقينَ.

وقَرأَ أبو بكرٍ: ﴿جُزُءٌ﴾ بالتَّثقيلِ[2].

وقرئ: ﴿جُزٌّ﴾[3] على حذفِ الهَمزِ وإلقاءِ حركتِهِ على الزَّايِ، ثمَّ الوَقفِ عليه بالتَّشديدِ، ثمَّ إجراءِ الوَصلِ مُجرى الوقفِ.

و﴿مِّنْهُمْ﴾ حالٌ مِنه، أو من المستكنِّ في الظَّرفِ[4]، لا في ﴿مَّقْسُومٌ﴾؛ لأنَّ الصِّفةَ لا تعمَلُ فيما تقدَّمَ مَوصوفَها.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «لعصاة الموحدين».

(٢) قوله: «بالتثقيل» يعني: بضم الزاي، وقرأ باقي السبعة بالتخفيف؛ أي: بسكون الزاي. انظر: «التيسير» (ص: ٨٢).

(٣) قرأ بها أبو جعفر المدني من العشرة. انظر: «النشر» (١/ ٤٣٢). وذكرها ابنُ جني في «المحتسب» (٢/ ٤)، وابن الجزري في «النشر» (١/ ٤٣٢)، عن الزهريِّ.

(٤) قوله: «و﴿مِّنْهُمْ﴾ حال منه»؛ أي: من ﴿جُزْءٌ﴾ «أو من المستكنِّ في الظرف»؛ أي: وهو ﴿لِكُلِّ بَابٍ﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٤٠٧).

(٤٥) ـ ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ مِن اتِّباعِهِ فـي الكُفرِ والفَواحشِ، فإنَّ غيرَها مُكفَّرَةٌ ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ لكلِّ واحدٍ جنَّةٌ وعينٌ، أو لكلٍّ عِدَّةٌ مِنهُما، كقولِه: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، ثمَّ قولِه: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٦٢]، وقولِه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ [محمد: ١٥] الآيةَ.

وقرأَ نافِعٌ وأبو عمرٍو وحفصٌ وهِشامٌ: ﴿وَعُيُونٍ ﴾ و﴿ٱلْعُيُونِ ﴾ [يس: ٣٤] بضمِّ العينِ حيثُ وقعَ، والباقونَ بكسرِ العَينِ(١).

(٤٦) ـ ﴿ ٱدْخُلُوهَا﴾ على إرادةِ القَولِ، وقُرِئَ بقَطعِ الهَمزَةِ وكسرِ الخَاءِ على أنَّه ماضٍ(٢)، فلا يُكسرُ التَّنوينُ.

﴿بِسَلَٰمٍ﴾: سالمينَ، أو: مُسلَّمًا عليكُم ﴿ءَامِنِينَ ﴾ مِن الآفَةِ والزَّوالِ.

(٤٧) ـ ﴿وَنَزَعْنَا ﴾ في الدُّنيا بمَا أُلِّفَ بين قُلوبِهِم، أو في الجنَّةِ بتَطييبِ نُفوسِهِم.

﴿مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾: مِـن حقدٍ كانَ في الدُّنيَا، وعَن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عنه: أرجو أن أكونَ أنا وعُثمانُ وطَلحَةُ والزُّبَيرُ مِنهُم(٣).

أو: مِن التَّحاسُدِ على درجاتِ الجنَّةِ ومَراتبِ القربِ.

﴿إِخْوَٰنًا ﴾ حـالٌ مِـن ضَميـرِ ﴿فِى جَنَّٰتٍ ﴾، أو فاعـلِ ﴿ ٱدْخُلُوهَا﴾، أو الضَّميرِ في ﴿ ءَامِنِينَ ﴾، أو الضَّميـرِ المضـافِ إليـه والعامِـلُ فيهـا مَعنـى الإضافـةِ، وكـذا قولـه:

---

(١) انظر: «التيسير» (ص: ١٣٦).

(٢) أي: (أُدْخِلوها) على الماضي المبني للمجهول، نسبت للحسن. انظر: «تفسير الثعلبي» (١٥/ ٤٧٥)، و«الكشاف» (٤/ ٤٩٢)، ونسبت ليعقوب في رواية رويس. انظر: «النشر» (٢/ ٣٠١). والمشهور عن يعقوب: ﴿ ٱدْخُلُوهَا﴾ كقراءة الجمهور.

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٩٠١)، والإمام أحمد في «فضائل الصحابة» (١٢٩٩)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٧٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٧٨).

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ ويجوزُ أنْ يكونَا صِفَتينِ لـ﴿إِخْوَٰنًا﴾ أو حالَينِ مِن ضَميرِه؛ لأنَّه بمَعنى مُتصافِينَ، وأنْ يكونَ ﴿مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ حالًا مِن المستقِرِّ في ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾.

(٤٨) ـ ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ استئنافٌ، أو حالٌ بعدَ حالٍ، أو حالٌ مِن الضَّميرِ في ﴿مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾.

﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ فإنَّ تمامَ النِّعمَةِ بالخُلودِ.

(٤٩ ـ ٥٠) ـ ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ فَذْلكةُ ما سبقَ مِن الوَعدِ والوَعيدِ وتَقريرٌ لَهُ، وفي ذكرِ المَغفِرَةِ دليلٌ على أنَّه لم يُرَدْ بالمُتَّقينَ مَن يَتَّقِي الذُّنوبَ بأسرِها كبيرِها وصغيرِها، وفي تَوصيفِ ذاتِه بالغُفرانِ والرَّحمةِ دونَ التَّعذيبِ ترجيحُ الوَعدِ وتَأكيدُه.

(٥١) ـ وفي عطفِ ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ على ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ﴾ تحقيقٌ لهما بما يَعتبِرونَ به.

(٥٢) ـ ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾؛ أي: نُسلِّمُ عليك سَلامًا، أو: سَلَّمْنا سلامًا.

﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾: خائفونَ، وذلك لأنَّهُم دَخَلوا بغيرِ إذنٍ وبغيرِ وَقتٍ، أو لأنَّهُم امتَنَعُوا من الأكلِ، والوَجَلُ: اضطِرابُ النَّفسِ لتوقُّعِ ما تكرَهُ.

(٥٣) ـ ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ﴾ وقُرِئَ: (لا تَأْجَل)[1]، و: (لا تُوجَلْ) مِن أوجلَهُ[2]، و: (لا تُواجَلْ)[3] من واجَلَه بمعنى: أَوْجَلَهُ.

---

(١) انظر: «الكشاف» (٤/ ٤٩٤) دون نسبة، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٥) عن أبي معاذ لكن وقع فيه: (تاجل) بالألف لا بالهمزة. وذكر (تأجل) بالهمز أبو عبيدة في «مجاز القرآن» (١/ ٣٥١) على أنها لغة في توجل.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٥)، و«المحتسب» (٢/ ٤)، عن الحسن.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٥) عن أصحاب ابن مسعود، «الكشاف» (٤/ ٤٩٤) دون نسبة.

﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ استئنافٌ في مَعنى التَّعليلِ للنَّهيِ عَن الوجلِ، فإنَّ المبشَّرَ لا يُخافُ منه.

وقرأ حمزَةُ: ﴿نَبْشُرُكَ﴾ مِن البَشْرِ[1].

﴿بِغُلَٰمٍ﴾ هو إسحاقُ؛ لقولِه: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ [هود: ٧١] ﴿عَلِيمٍ﴾ إذا بلغَ.

(٥٤) ـ ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ تعجَّبَ مِن أنْ يولدَ له مع مسِّ الكبرِ إيَّاه، أو إنكارٌ لأَنْ يُبشرَ به في مثلِ هذه الحالِ، وكذلك قولُه: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾؛ أي: فبأيِّ أُعجوبَةٍ تبشِّروني؟ أو فبأيِّ شيءٍ تُبشِّروني؟ فإنَّ البِشارةَ بما لا يتصوَّرُ وقوعُه عادةً بشارةٌ بغيرِ شَيءٍ.

وقرأ ابنُ كَثيرٍ بكسرِ النُّونِ مُشدَّدَةً في كلِّ القُرآنِ[2] على إدغامِ نونِ الجَمعِ في نونِ الوِقايَةِ، ونافعٌ بكسرِها مُخفَّفَةً على حذفِ نونِ الجَمعِ استِثْقالًا لاجتماعِ المِثْلَيْنِ، ودلالةً بإبقاءِ نونِ الوقايةِ على الياءِ[3].

(٥٥) ـ ﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾: بما يكونُ لا مَحالةَ، أو: باليقينِ الذي لا لَبْسَ فيه، أو: بطريقةٍ هي حَقٌّ، وهو قولُ اللهِ تَعالى وأمرُه ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾: مِن الآيسينَ مِن ذلك، فإنَّه تَعالى قادرٌ على أن يخلقَ بشرًا من غيرِ أبوينِ، فكيفَ مِن شيخٍ فانٍ وعَجوزٍ عاقرٍ.

(٥٦) ـ وكان استعجابُ إبراهيمَ باعتبارِ العادَةِ دونَ القُدرةِ، ولذلك ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾: المخطئونَ طريقَ المعرفَةِ فلا يعرفونَ سَعةَ

---

(١) وقرأ الباقون بضم النون والتشديد. انظر: «السبعة» (ص: ٢٠٥)، و«التيسير» (ص: ٨٧ ـ ٨٨).

(٢) قيلَ: إنَّه سهو، فإنَّه لم يقعْ (تبشرون) في غيرِ هذهِ الآيةِ. نقله الخفاجي في «الحاشية».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٦٧)، و«التيسير» (ص: ١٣٦).

رَحمةِ الله وكمالَ علمِه وقُدرتِه، كما قال: ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وقرأ أبو عمرٍو والكِسائيُّ: ﴿يَقنِطْ﴾ بالكسر(١)، وقرئ بالضمِّ(٢)، وماضيهما: قَنَط بالفتح.

(٥٧) ـ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾؛ أي: فما شأنُكم الذي أُرسِلتُم لأجلِهِ سوى البشارةِ، ولعلَّه علمَ أنَّ كمالَ المَقصودِ ليسَ البشارةَ؛ لأنَّهُم كانوا عددًا، والبِشارةُ لا تَحتاجُ إلى العَددِ، ولذلك اكتُفي بالواحدِ في بشارةِ زكريَّا ومَريمَ، أو لأنَّهُم بشَّروهُ في تَضاعيفِ الحالِ لإزالةِ الوَجَلِ، ولو كانَت تمامَ المَقصودِ لابتدَؤُوا بها.

(٥٨ ـ ٦٠) ـ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يعني: قومَ لُوطٍ ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ إن كانَ استثناءً مِن ﴿قَوْمٍ﴾ كانَ مُنقَطِعًا؛ إذ القومُ مُقيَّدٌ بالإجرامِ، وإن كانَ استثناءً مِن الضَّميرِ في ﴿مُّجْرِمِينَ﴾ كانَ مُتَّصِلًا، والقومُ والإرسالُ شاملَيْنِ للمُجرمينَ وآلِ لوطٍ المؤمنين به، وكأنَّ المَعنى: إنَّا أُرْسِلْنا إلى قومٍ أجرمَ كلُّهُم إلا آلَ لوطٍ مِنْهُم لنُهلكَ المجرمينَ ونُنجي آلَ لوطٍ، ويدلُّ عليه قولُه: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ أي: مما يعذَّبُ به القومُ، وهو استئنافٌ إذا اتَّصلَ الاستثناءُ، ومُتَّصلٌ بـ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ جارٍ مَجْرَى خبرِ (لكنَّ) إذا انقطعَ، وعلى هذا جازَ أَنْ يكونَ قولُه: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ استثناءً مِن ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ أو مِن ضَميرِهِم، وعلى الأوَّلِ لا يكونُ إلَّا مِن ضَميرِهِم، لاختلافِ الحكمينِ، اللهمَّ إلا أن يُجعَلَ ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ﴾ اعتراضًا.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٦٧)، و«التيسير» (ص: ١٣٦).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٥)، و«المحتسب» (٢/ ٥)، عن زيد بن علي والأشهب العقيلي ويحيى بن يعمر وعيسى.

وقرأ حمزَةُ والكِسائيُّ: ﴿لَمُنجُوهُم﴾ مخفَّفًا[١].

﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: الباقين مع الكفرةِ لتَهْلِكَ مَعَهُم.

وقرأ أبو بكرٍ عَن عاصمٍ: ﴿قَدَّرْنَآ﴾ هنا وفي (النَّملِ) بالتَّخفيفِ[٢].

وإنَّما عُلِّقَ ـ والتَّعليقُ مِن خواصِّ أفعالِ القُلوبِ ـ لتَضمُّنِه مَعنى العلمِ.

ويجوزُ أَنْ يكونَ ﴿قَدَّرْنَآ﴾ أُجري مُجرى: قُلْنا؛ لأنَّ التَّقديرَ بمعنى القضاءِ قولٌ، وأصلُه: جعلُ الشَّيءِ على مِقدارِ غَيرِهِ، وإسنادُهُم إيَّاهُ إلى أَنفُسِهِم ـ وهو فعلُ اللهِ تَعالى ـ لِمَا لَهُم مِن القُربِ والاختِصاصِ.

(٦١ ـ ٦٢) ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ تُنكِرُكُم نَفسي وتَنفِرُ عَنكُم مَخافةَ أَنْ تَطْرُقوني بشَرٍّ.

(٦٣) ـ ﴿قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾؛ أي: ما جِئناكَ بما تُنكِرُنا لأَجلِه، بل جِئناكَ بما يَسرُّكَ ويَشفي لكَ مِن عَدوِّكَ، وهو العَذابُ الذي تَوعَّدْتَهم بهِ فيَمتَرونَ فيه.

(٦٤) ـ ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾: باليَقينِ مِن عَذابِهِم ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فيما أخبرناكَ به.

(٦٥) ـ ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾: فاذهَبْ بهم في اللَّيلِ، وقرأ الحجازيَّانِ بوصلِ الأَلفِ مِن السُّرَى[٣]، وهما بمعنًى. وقُرِئَ: (فسِرْ) من السَّيرِ[٤].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٦٧)، و«التيسير» (ص: ١٣٦).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٦٧)، و«التيسير» (ص: ١٣٦).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٨)، و«التيسير» (ص: ١٢٥). والحجازيان: نافع المدني وابن كثير المكي.

(٤) انظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٣٦٨) عن اليماني. والمشهور بهذا اللقب هو محمد بن السميفع.

﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾: في طائفةٍ مِن الليلِ، وقيل: في آخرِه، قال:

افتَحِي البابَ وانظُرِي في النُّجُومِ كَمْ عَلَيْنا مِن قِطْعِ لَيْلٍ بَهِيمِ[1]

﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ وكُنْ على إثرِهِمْ تَذودُهُم[2] وتُسرِعُ بهم وتَطَّلِعُ على حالِهِم.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ لِيَنظُرَ ما وراءَه فيرى مِن الهَولِ ما لا يُطيقُهُ، أو: فيُصيبُهُ ما أصابَهم، أو: ولا ينصرفْ أحدُكُم ولا يتخلَّفْ لغَرَضٍ فيُصيبَهُ العذابُ، وقيل: نُهُوا عن الالتفاتِ ليوطِّنُوا نُفوسَهُم على المُهاجرةِ.

﴿وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾: إلى حيثُ أَمَرَكُم اللهُ بالمُضِيِّ إليه وهو الشَّامُ أو مِصرُ، فعُدِّيَ ﴿وَٱمْضُواْ﴾ إلى ﴿حَيْثُ﴾ و﴿تُؤْمَرُونَ﴾ إلى ضَميرِهِ المحذوفِ على الاتِّساعِ.

(٦٦) ـ ﴿وَقَضَيْنَآ﴾؛ أي: أوحينا ﴿إِلَيْهِ﴾ مَقضيًّا، ولذلك عُدِّيَ بـ(إلى) ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ مُبهَمٌ تَفسيرُه: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ﴾ ومحلُّهُ النَّصبُ على البدلِ منه، وفي ذلك تَفخيمٌ للأمرِ وتَعظيمٌ له.

وقُرِئَ بالكَسرِ على الاستئنافِ[3]، والمعنى: أنهم يُستأصَلُونَ عن آخرِهِم حتى لا يبقَى مِنْهُم أحدٌ.

﴿مُّصْبِحِينَ﴾: داخلينَ في الصُّبحِ، وهو حالٌ مِن ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾، أو مِن الضَّميرِ في ﴿مَقْطُوعٌ﴾، وجمعُهُ للحَملِ على المَعنى، فـ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ في مَعنى: مُدْبِري هؤلاءِ.

---

(١) البيت دون نسبة في «العين» (١/ ١٣٩)، و«معجم ديوان العرب» (١/ ١٨٨)، و«الصحاح» (مادة: قطع)، و«الحور العين» لنشوان الحميري (ص: ٢٤٨)، و«الكشاف» للزمخشري (٤/ ٥٠٠).

(٢) أي: تسوقهم.

(٣) أي: (إنَّ). انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٥) عن الأعمش. وفيه عن ابن مسعود: (وقُلنا له إنَّ دابرَ هؤلاء).

(٦٧ ـ ٦٨) ـ ﴿ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ ﴾ سَذُومَ[1] ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ بأضيافِ لوطٍ طمعًا فيهم ﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴾ بفَضِيحَةِ ضَيْفِي، فإنَّ مَن أُسِيءَ إلى ضيفِهِ فقَدْ أُسيءَ إليهِ.

(٦٩) ـ ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ في ركوبِ الفاحِشَةِ ﴿وَلَا تُخۡزُونِ﴾ ولا تُذِلُّوني بسببِهِم، من الخِزْيِ، وهو الهوانُ، أو: لا تُخْجِلُوني فيهِم، من الخَزَايَةِ، وهي الحياءُ.

(٧٠) ـ ﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ عَن أَنْ تُجيرَ مِنْهُم أحدًا، أو: تمنعَ بينَنا وبينَهُم، فإنَّهُم كانوا يتعرَّضُونَ لكلِّ أَحدٍ، وكان لوطٌ يمنَعُهُم عنه بقَدْرِ وُسعِهِ، أو عن ضيافَةِ النَّاسِ وإنزالِهِم.

(٧١) ـ ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ ﴾ يعني: نساءَ القَوْمِ، فإنَّ نبيَّ كُلِّ أُمَّةٍ بمنزلةِ أَبيهِم، وفيه وجوهٌ ذُكِرَت في (سورةِ هُودٍ).

﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾ قضاءَ الوطَرِ، أو: ما أقولُ لَكُم.

(٧٢) ـ ﴿ لَعَمۡرُكَ ﴾ قَسَمٌ بحياةِ المُخاطَبِ، وهو النبيُّ عليهِ السَّلامُ. وقيل: لوطٌ عليهِ السَّلامُ، قالتِ المَلائِكَةُ له ذلك، والتقديرُ: لعَمْرُكَ قَسَمِي، وهو لُغَةٌ في العُمرِ، يختصُّ به القَسَمُ لإيثارِ الأَخَفِّ فيه؛ لأَنَّه كَثيرُ الدَّورِ على أَلسِنَتِهِم.

﴿إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ﴾: لفِي غَوايَتِهِم، أو: شدَّةِ غُلْمَتِهِم التي أَزالَتْ عُقولَهُم وتمييزَهُم بين خَطئِهِم والصَّوابِ الذي يُشارُ بِهِ إليهِم.

﴿يَعۡمَهُونَ﴾: يَتحيَّرونَ، فكيفَ يَسمعونَ نصحكَ؟

وقيل: الضَّميرُ لقُرَيشٍ، والجملَةُ اعتِراضٌ.

---

(١) (سذوم) بالذال المعجمة عند أكثر أهل اللغة، وروي إهمالها.

(٧٣) ـ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ يعني: صيحةً هائِلَةً مُهلِكَةً، وقيل: صيحةُ جِبريلَ.

﴿مُشْرِقِينَ﴾: داخلينَ في وقتِ شُروقِ الشَّمسِ.

(٧٤) ـ ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا﴾: عاليَ المَدينةِ، أو: عاليَ قُراهُم ﴿سَافِلَهَا﴾ وصارَتْ مُنقلِبَةً بهم.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾: مِن طِينٍ مُتحجِّرٍ، أو: طينٍ عليه كتابٌ، مِن السِّجِلِّ، وقد تقدم مزيدُ بيانٍ لهذه القصَّةِ في (سورةِ هُودٍ).

(٧٥) ـ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾: المُتفكِّرينَ المُتفرِّسينَ الذين يَتَثَبَّتونَ في نَظرِهِم حتى يعرفوا حقيقةَ الشَّيءِ بسِمَتِه.

(٧٦ ـ ٧٧) ـ ﴿وَإِنَّهَا﴾: وإنَّ المَدينةَ أو القرى ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾: ثابتٍ يَسلُكُه النَّاسُ ويرونَ آثارَها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ باللهِ ورُسُلِه.

(٧٨) ـ ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾ هُم قومُ شُعَيبٍ، كانوا يَسكنونَ الغَيْضَةَ فبعثَهُ اللهُ إليهِم فكذَّبوهُ فأُهلِكوا بالظُّلَّةِ. والأيكةُ: الشَّجرَةُ المُتكاثِفَةُ.

(٧٩) ـ ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بالإهلاكِ ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ يعني: سَدُومَ والأَيكَةَ، وقيل: الأيكَةَ ومَدْينَ، فإنَّه كانَ مَبعُوثًا إليهِما، فكانَ ذكرُ أحدِهما مُنبِّهًا على الآخرِ.

﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾: لبطريقٍ واضِحٍ، والإمامُ: اسمُ ما يُؤتَمُّ به، فسُمِّيَ به الطريق، واللَّوحُ، ومِطْمَرُ البَنَّاءِ[1]؛ لأنها مما يؤتَمُّ بهِ.

(٨٠) ـ ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يعني: ثمودَ كذَّبوا صالحًا، ومَن كَذَّبَ واحدًا مِن الرُّسلِ فكأنَّما كذَّبَ الجَميعَ، ويجوزُ أَنْ يُرادَ بـ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ صالحًا ومَن معَهُ مِن المؤمنينَ، والحِجْرُ: وادٍ بينَ المدينَةِ والشَّامِ يَسكنونَها.

---

(١) المطمر: خيط البنَّاء الذي يقوِّم عليه البِناء. انظر: «النهاية» و«معجم متن اللغة» (مادة: طمر).

(٨١) ـ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ يعني: آياتِ الكتابِ المنزلِ على نبيِّهِم، أو مُعجزاتِه كالنَّاقةِ وسَقْبِهَا وشُربِها ودَرِّهَا، أو ما نصبَ لهم مِن الأدلَّةِ.

(٨٢) ـ ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ مِن الانهدامِ ونَقْبِ اللُّصوصِ وتَخريبِ الأَعداءِ لوَثاقَتِها، أو: مِن العَذابِ لفَرطِ غَفْلَتِهِم، أو حُسبانِهِم أنَّ الجبالَ تَحميهِمْ منه.

(٨٣ ـ ٨٤) ـ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ مِن بناءِ البُيوتِ الوَثيقَةِ واستكثارِ الأَموالِ والعُدَدِ.

(٨٥) ـ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾: إلا خلقًا مُلتَبِسًا بالحقِّ لا يُلائِمُ استمرارَ الفَسادِ ودوامَ الشُّرورِ، فلذلك اقتَضَتِ الحِكمَةُ إهلاكَ أَمثالِ هَؤلاءِ وإزاحةَ فَسادِهِم مِن الأرضِ.

﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ فينتَقِمُ اللهُ لك فيها ممَّنْ كذَّبك ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ ولا تَعجَلْ بالانتِقامِ مِنْهُم، وعامِلْهُم مُعاملَةَ الصَّفوحِ الحَليمِ.

وقيل: هو مَنسوخٌ بآيةِ السَّيفِ.

(٨٦) ـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ الذي خلقَكَ وخَلقَهُم، وبيدِهِ أَمْرُكَ وأمرُهُم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالِكَ وحالِهِم، فهو حَقيقٌ بأن تَكِلَ إليه ليحكمَ بينكُم، أو هو الذي خَلقَكُم وعلمَ الأصلحَ لَكُم، وقد عَلِمَ أنَّ الصَّفحَ اليومَ أَصلَحُ.

وفي مُصحَفِ عُثمانَ وأُبَيٍّ: (هو الخالقُ)[1]، وهو يصلُحُ للقَليلِ والكَثيرِ، و(الخَلَّاقُ) يَختَصُّ بالكَثيرِ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٥) عنهما وعن مالك بن دينار وسليم التيمي والجحدري، و«المحتسب» (٢/ ٦) عن مالك بن دينار والأعمش والجحدري.

(٨٧) ـ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا ﴾: سبعَ آياتٍ، وهي الفاتِحَةُ.

وقيل: سبعَ سُوَرٍ، وهـي الطِّـوالُ، وسـابِعَتُها الأنفالُ والتَّوبَةُ فإنَّهُما في حُكمِ سُورَةٍ ولذلك لم يُفصَل بينَهُما بالتَّسمِيَةِ، وقيل: التوبةُ، وقيل: يونُسُ.

أو: الحَوامِيمَ السَّبعَ[١].

وقيل: سبعَ صحائِفَ، وهي الأسباعُ[٢].

﴿مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ بيانٌ للسَّـبعِ، و﴿ٱلْمَثَانِى﴾ مِـن التَّثنِيَةِ أو الثَّناءِ، فـإنَّ كلَّ ذلك مَثْنًى تُكـرَّرُ قراءَتُـه أو ألفاظُـهُ أو قصصُهُ ومواعظُـهُ، أو مَثنِيٌّ عليه بالبَلاغَـةِ والإعجازِ، أو مُثـنٍ علـى اللهِ بما هو أهلُـهُ مِن صِفاتِه العُظمَى وأسـمائِه الحُسْـنى، ويجـوزُ أَنْ يُرادَ بـ﴿ٱلْمَثَانِى﴾ القرآنُ، أو كتبُ اللهِ كلُّها، فيكونُ ﴿مِّنَ﴾ للتَّبعيضِ.

﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ إنْ أُريدَ بالسَّبعِ الآياتُ أو السُّوَرُ فمِن عَطْفِ الكُلِّ على البَعضِ، أو العامِّ على الخاصِّ، وإنْ أُريدَ به الأسباعُ فمِن عَطفِ أحدِ الوَصفَيْنِ على الآخرِ.

(٨٨) ـ ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ لا تَطمَـحْ ببَصَرِكَ طُـموحَ راغـبٍ ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾: أصنافًا مِن الكُفَّارِ، فإنه مُستحقَرٌ بالإضافَةِ إلى ما أوتيتَه، فإنَّه كمالٌ مَطلوبٌ بالذَّاتِ مُفْضٍ إلى دَوامِ اللذَّاتِ.

وفي حَديثِ أبي بكرٍ رضـيَ اللهُ عنه: مَن أُوتيَ القُرآنَ فرأى أنَّ أحدًا أُوتِيَ مِن الدُّنيا أَفضلَ ممَّا أُوتي فقد صغَّرَ عَظِيمًا وعَظَّمَ صَغيرًا[٣].

---

(١) قوله: «أو الحواميم...» عطف على قوله: «وهي الطوال». انظر: «فتوح الغيب» (٩/ ٥٩).

(٢) قولـه: «وقيـل: سبع صحائـف وهي الأسـباع» قـال الشـهاب فـي «الحاشـية»: الظاهـر أن المراد بالصحائـف: الصحـف النازلـة علـى الأنبياء عليهـم الصلاة والسـلام، وأنـه أنزل عليه سـبع منها، والمـراد: مـا يتضمنهـا وان لم يكـن بلفظهـا، فتأمّل.

(٣) نقل السيوطي في «حاشيته على البيضاوي» (٨/ ١٦٤) عن الشيخ ولي الدين العراقي قوله: لَمْ =

ورُوِيَ: أنَّه عليهِ السَّلامُ وافى بأَذْرعاتٍ سبعَ قوافِلَ ليَهودِ بَنِي قُرَيظَةَ والنَّضيرِ فيها أَنواعُ البَزِّ والطِّيبِ والجَواهرِ وسائرِ الأَمتِعَةِ، فقال المسلمون: لو كانَتْ هذه الأموالُ لنا لتَقوَّيْنَا بها وأنفقنَاهَا في سبيلِ اللهِ، فقال لهم: «قد أُعطِيتُمْ سبعَ آياتٍ هيَ خَيرٌ مِن هذهِ القَوافلِ السَّبعِ»[1].

= أَقِفْ عَلَيهِ مِن حَديثِ أَبي بكرٍ. انتهى. وقال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ٩٣): لم أجده عن أبي بكر، وأخرجه ابن عدي [في «الكامل» (٢/ ٣٧٧)] في ترجمة حمزة النصيبي عن زيد بن رفيع عن أبي عبيدة عن ابن مسعود رفعه: «من تعلم القرآن فظن أن أحداً أغنى منه فقد حقَّر عظيماً وعظَّم صغيراً»، وحمزة اتهموه بالوضع. وأخرجه إسحاق والطبراني من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ: «مَن أُعطي القرآن فرأى أن أحداً أُعطي أفضلَ مما أُعطي فقد عظَّم ما صغَّر الله وصغَّر ما عظم الله».
والحديث رواه المروزي في «مختصر قيام الليل» (ص: ١٧٥)، والطبراني في «الكبير» (١٤٥٧٥) (١٣/ ٦٤٩)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعًا، وفيه إسماعيل بن رافع وهو متروك، كما قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٥٩).

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٥٠٦ـ٥٠٧)، وتلميذه الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٧٧)، ونسباه للحسين بن الفضل. وتابعهما في إيراد هذا الخبر في تفاسيرهم الزمخشري وابن الجوزي والفخر الرازي والقرطبي، وعندهم جميعًا: (أن سبع قوافل وافت من بصرى وأذرعات ليهود قريظة والنضير في يوم واحد...)، فقول المصنف: «أنَّه عليهِ السَّلامُ وافى بأذرعاتٍ سبعَ قوافِلَ...» فيه نظر، فإنه يوهم أن القصة وقعت بأذرعات، بينما الوارد عند غيره يفيد أنها بالمدينة، وعليه كان رد الخازن في «تفسيره» (٣/ ٦١) لهذا الخبر بقوله: وهذا القول ضعيف، أو لا يصح؛ لأن هذه السورة مكية بإجماع أهل التفسير، وليس فيها من المدني شيء، ويهود قريظة والنضير كانوا بالمدينة، وكيف يصح أن يقال: إن سبع قوافل جاءت في يوم واحد، فيها أموال عظيمة حتى تمناها المسلمون فأنزل الله هذه الآية، وأخبرهم أن هذه السبع آيات هي خير من هذه السبع القوافل؟!
قلت: وقد ورد نحو هذه القصة بغير الإشكال المذكور، فقد ذكرها أبو حفص النسفي في «التيسير في التفسير» (٩/ ٢٢٠) عند هذه الآية فقال: (قيل: قَدمَتْ لأبي جهلٍ ـ لعنه الله ـ في يومٍ واحدٍ سبعُ قوافل للتِّجارة، معها مالٌ كثيرٌ وطعام ومطاعم وثياب، وكان بأصحاب رسول الله ﷺ يومَئذٍ عُرْيٌ وجوعٌ...) الحديث، لكن يبقى أنه ليس لهذا الحديث سند يعرف، والله أعلم.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أنَّهم لم يُؤمِنُوا، وقيل: أنَّهُم الممتَّعون[١] به.

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: وتواضَعْ لَهُم وارفُقْ بهم.

(٨٩ ـ ٩١) ـ ﴿وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ أُنذِرُكُم ببيانٍ وبُرهانٍ أنَّ عذابَ اللهِ نـازِلٌ بكُـمْ إنْ لـم تُؤمِنُـوا ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾: مثـلَ العَـذابِ الـذي أنزَلْنـا عليهـم، فهو وصـفٌ لِمَفعولِ ﴿ٱلنَّذِيرُ﴾ أُقيمَ مُقامَهُ، والمقتسِـمون: هُمْ الاثنا عشـرَ الذيـن اقتَسَـمُوا مداخـلَ مكَّةَ أيـامَ الموسـمِ لينفـِّرُوا النَّاسَ عَـن الإيمانِ بالرَّسـولِ فأهلَكَهُـم اللهُ يـومَ بَـدرٍ، أو الرَّهـطُ الذيـن اقتسَـمُوا؛ أي: تَقاسَـمُوا علـى أن يُبيِّتُـوا صالحًـا عليه السَّـلامُ.

وقيل: هو صِفَةُ مَصدرٍ مَحذوفٍ يدلُّ عليه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ﴾ فإنَّه بمَعنى: أنزَلْنَا إليك، والمُقتسِمُونَ هُم ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ حيثُ قالُوا عنادًا: (بعضُه حقٌّ موافِقٌ للتَّوراةِ والإنجيلِ وبعضُهُ باطِلٌ مخالِفٌ لهما)[٢]، أو قسَّموهُ إلى شعرٍ وسحرٍ وكهانةٍ وأساطيرِ الأوَّلينَ، أو أهلُ الكتابِ آمَنُوا ببعضِ كتبِهِم وكفروا ببعضٍ على أنَّ المراد بـ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ ما يقرؤونَه من كتبِهِم، فيكونُ ذلك تَسليَةً لَرسولِ اللهِ ﷺ، وقولُه: ﴿لَا تَمُدَّنَّ ...﴾ إلخ اعتراضًا ممدًّا لها.

﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾: أجزاءً، جمعُ عِضَةٍ، وأَصلُها عِضَوَةٌ، مِن عَضَّى الشَّاةَ: إذا جعلَها أَعْضَاءً.

---

(١) في نسخة الخيالي: «المنعمون».

(٢) وقـد روي هـذا المعنـى عـن ابن عبـاس رضـي الله عنهمـا، رواه البخـاري (٣٩٤٥) عنـه قال: هم أهـلُ الكتـابِ، جَـزَّءُوه أجـزاءً فآمَنـوا ببعضِه وكفـروا ببعضِه، يعنـي قـولَ اللهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾. ورواه (٤٧٠٥) بلفـظ: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ قـال: آمَنـوا ببعـضٍ وكفـروا ببعـضٍ، اليهـودُ والنصارى.

وقيل: فِعْلَةٌ من عَضَهْتُهُ: إذا بهتَّه[١]، وفي الحديث: «لعنَ اللهُ العاضِهَةَ والمُستَعْضِهَةَ»[٢].

وقيل: أسحارًا.

وعَن عِكرِمَةَ: العَضْهُ: السِّحرُ[٣]، وإنَّما جُمِعَ جمعَ السَّلامةِ جبرًا لِمَا حُذِفَ مِنْه.

(٩٢ ـ ٩٣) ـ والمَوصولُ بصِلَتِه صِفةٌ لـ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ أو مبتدأٌ خبرُه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ مِن التَّقسيمِ، أو النِّسبَةِ إلى السِّحرِ، فنُجازيهِمْ عليه.

وقيل: هو عامٌّ في كلِّ ما فعلوا مِن الكُفرِ والمَعاصِي.

(٩٤) ـ ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾: فاجهَرْ به، مِن صَدَعَ بالحُجَّةِ: إذا تكلَّمَ بها جهارًا، أو: افرُقْ به بينَ الحقِّ والباطلِ، وأصلُه: الإبانَةُ والتَّمييزُ، و(ما) مَصدريَّةٌ أو مَوصولَةٌ، والرَّاجعُ مَحذوفٌ؛ أي: بما تؤمَرُ به مِن الشَّرائعِ ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فلا تلتفِتْ إلى ما يقولونَ.

---

(١) أي: افتريت عليه.

(٢) رواه ابن عدي في «الكامل» (٣/ ٣٣٩)، والحربي في «غريب الحديث» (٣/ ٩٢٣)، من حديث ابن عباس مرفوعاً. قال ابن طاهر في «ذخيرة الحفاظ» (٢/ ٨٦٩): رواه سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس. وسلمة قال عنه أحمد بن حنبل: أخشى أن يكون حديثه ضعيفاً. والبخاري قال: فيه نظر.
وقال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص: ٩٤): في إسناده زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام، وهما ضعيفان.
ورواه عبد الرزاق في «المصنف» (٥٠٩٠) عن عطاء.

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٢٦٠)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ١٣٧)، والماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ١٧٣).

(٩٥) ـ ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ بقَمْعِهِم وإهلاكِهِم.

قيل: كانوا خمسَةً مِن أَشرافِ قُرَيشٍ: الوَليدُ بن المغيرةِ، والعاصُ بن وائلٍ[1]، والحارثُ بنُ قيس[2]، والأَسوَدُ بن عبدِ يَغوثَ، والأَسوَدُ بن المطلبِ، يبالغونَ في إيذاءِ النَّبيِّ عليهِ السَّلامُ والاستهزاءِ به، فقال جبريلُ لرَسولِ اللهِ ﷺ: أُمِرْتُ أَنْ أكفيكَهُم، فأومأَ إلى ساقِ الوَليدِ فمرَّ بِنَبَّالٍ فتعَلَّقَ بثوبِهِ سَهمٌ فلَمْ يَنعَطِفْ تعظُّمًا لأخذِهِ، فأصابَ عرقًا في عقبِه فقطعه فماتَ، وأومأَ إلى أخمصِ العاصِ فدخلَتْ فيها شوكَةٌ فانتفخَتْ رِجلُهُ حتَّى صارَتْ كالرَّحَى وماتَ، وأشارَ إلى أنفِ حارثٍ فامتَخطَ قيحًا فماتَ، وإلى الأسوَدِ بن عبدِ يغوثَ وهو قاعدٌ في أصلِ شَجرَةٍ فجعلَ يَنطَحُ رأسَهُ الشَّجرةَ ويضرِبُ وجهَهُ بالشَّوكِ حتَّى ماتَ، وإلى عيني الأسودِ بن المطلبِ فعَمِيَ[3].

---

(١) في نسخة التفتازاني هنا زيادة: «وحارث بن الطُّلاطِلة»، وليس في باقي النسخ، وبه يصبحون ستة، وكلهم مذكورون في الأخبار الواردة بهذه القصة، وقد وقع في تلك الأخبار بعض الاختلاف في عددهم وتعيينهم.

(٢) وقع في جميع النسخ هنا: «عدي بن قيس»، وصوابه: «الحارث بن قيس» كما في المصادر. وانظر: «حاشية الشهاب».

(٣) رواه الطبراني في «الأوسط» (٤٩٨٦)، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (٢٠٣)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣١٦)، وفي «السنن الكبرى» (٩/ ٨)، والضياء في «المختارة» (١٠/ ٩٦)، من طريق جعفر بن إياس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وصححه الذهبي في «تاريخ الإسلام» (١/ ٢٢٥).
وعزاه المصنف في «الدر المنثور» (٥/ ١٠٢) إلى ابن مردويه عن ابن عباس.
ورواه ابن حبيب النيسابوري في «عقلاء المجانين» (ص: ٩ ـ ١٠) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما. والكلبي متروك، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس.
ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٤٦٥) عن مقسم مولى ابن عباس. ورواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ١٤٧ ـ ١٤٨) عن سعيد بن جبير. ورواه بنحوه ابن إسحاق في «السيرة» (٤١٨)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ١٤٦) عن عروة بن الزبير.
وذكر نحوه الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٥٣)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٩٥)، دون نسبة.

(٩٦) ـ ﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ عاقبةَ أمرِهِم في الدَّارينِ.

(٩٧ ـ ٩٨) ـ ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ مِن الشِّركِ والطَّعنِ في القُرآنِ والاستهزاءِ بك ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ ﴾: فافزَعْ إلى اللهِ فيما نابكَ بالتَّسبيحِ والتَّحميدِ يكفِكَ ويكشِفِ الغمَّ عنك، أو: فنزِّهْهُ عمَّا يقولونَ حامِدًا له على أن هداكَ للحقِّ.

﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾: مِن المُصلِّينَ، وعنه عليه السَّلامُ: أنَّه كانَ إذا حَزَبَهُ أمرٌ فزعَ إلى الصَّلاةِ[1].

(٩٩) ـ ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾؛ أي: الموتُ، فإنَّهُ مُتيقَّنٌ لحاقُهُ كلَّ حيٍّ مَخلوقٍ، والمعنى: واعبُدْهُ ما دمتَ حَيًّا ولا تُخِلَّ بالعبادةِ لحظةً.

عن رسولِ اللهِ ﷺ: «مَن قرأَ سُورةَ الحِجْرِ كانَ له مِن الأجرِ عشرَ حَسناتٍ بعدَدِ المُهاجرينَ والأَنصارِ والمُستهزئينَ بمُحمَّدٍ عليهِ السَّلامُ»[2].

***

---

(١) رواه أبو داود (١٣١٩) من حديث حذيفة رضي الله عنه، ولفظه: (كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلى).

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٤٢٦)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ١٤٩)، من حديث أبيٍّ بن كعب رضي الله عنه. وقال المناوي في «الفتح السماوي» (٢/ ٧٤٥): وهو موضوع. وانظر: «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(١٥) سورة الحجر مكية
وآياتها تسع وتسعون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ۝١ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ۝٢ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون ۝٣﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور، وقوله تعالى: ﴿ربما يود الذين كفروا﴾ إخبار عنهم أنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر. ويتمنون لو كانوا في الدنيا مسلمين، ونقل السدي عن ابن عباس، أن كفار قريش لما عرضوا على النار تمنوا أن لو كانوا مسلمين، وقيل: المراد أن كل كافر يود عند احتضاره أن لو كان مؤمناً، وقيل: هذا إخبار عن يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾، وقال بعضهم: يحبس الله أهل الخطايا من المسلمين مع المشركين في النار، قال: فيقول لهم المشركون: ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون في الدنيا، قال: فيغضب الله لهم بفضل رحمته، فيخرجهم، فذلك حين يقول: ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾[1]. وقال مجاهد: يقول أهل النار للموحدين: ما أغنى عنكم إيمانكم؟ فإذا قالوا ذلك قال الله: أخرجوا من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، فعند ذلك قوله: ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾، وقد ورد في ذلك أحاديث مرفوعة، فقال الحافظ الطبراني، عن أنَس بن مالك رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن ناساً من أهل لا إله إلا الله يدخلون النار بذنوبهم، فيقول لهم أهل اللات والعزى: ما أغنى عنكم قولكم: ﴿لا إله إلا الله﴾ وأنتم معنا في النار؟ فيغضب الله لهم، فيخرجهم فيلقيهم في نهر الحياة، فيبرؤون من حرقهم، كما يبرأ القمر من خسوفه، ويدخلون الجنة ويسمون فيها الجهنميين».

(**الحديث الثاني**): عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتمع أهل

(١) روى هذا القول ابن جرير عن ابن عباس وأنَس بن مالك وقال: كانا يتأولان الآية: ﴿ربما يود الذين كفروا﴾ بذلك التأويل.

النار في النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة، قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى، قالوا: فما أغنى عنكم الإسلام وقد صرتم معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها، فسمع الله ما قالوا، فأمر بمن كان في النار من أهل القبلة فأخرجوا، فلما رأى ذلك من بقي من الكفار قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا - قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ - أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين * ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾»[1]. وقوله: ﴿ذرهم يأكلون ويتمتعوا﴾ تهديد شديد لهم ووعيد أكيد، كقوله تعالى: ﴿قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار﴾، وقوله: ﴿كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون﴾، ولهذا قال: ﴿ويلههم الأمل﴾ أي عن التوبة والإنابة ﴿فسوف يعلمون﴾ أي عاقبة أمرهم.

* وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾

يخبر تعالى أنه ما أهلك قرية إلا بعد قيام الحجة عليها وانتهاء أجلها، وأنه لا يؤخر أمة حان هلاكهم عن ميقاتهم ولا يتقدمون عن مدتهم، وهذا تنبيه لأهل مكة وإرشاد لهم، إلى الإقلاع عما هم عليه من الشرك والعناد والإلحاد الذي يستحقون به الهلاك.

وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾

يخبر تعالى عن كفرهم وعنادهم في قولهم: ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر﴾ أي الذي تدعي ذلك، ﴿إنك لمجنون﴾ أي في دعائك إيانا إلى اتباعك وترك ما وجدنا عليه آباءنا، ﴿لو ما﴾ أي هلا، ﴿تأتينا بالملائكة﴾ أي يشهدون لك بصحة ما جئت به كما قال فرعون: ﴿فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾، ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً﴾، وكذا قال في هذه الآية ﴿ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين﴾. وقال مجاهد في قوله: ﴿ما ننزل الملائكة إلا بالحق﴾: بالرسالة والعذاب، ثم قرر تعالى أنه هو الذي أنزل عليه الذكر وهو القرآن وهو الحافظ له من التغيير والتبديل.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾

يقول تعالى مسلياً لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من كفار قريش، إنه أرسل من قبله من الأمم الماضية، وإنه ما أتى أمة من رسول إلا كذبوه واستهزؤوا به، ثم أخبر أنه سلك التكذيب في قلوب المجرمين الذين عاندوا

---

(١) أخرجه الطبراني وابن أبي حاتم.

واستكبروا عن اتباع الهدى، قال أنس والحسن البصري: ﴿كذلك نسلكه في قلوب المجرمين﴾: يعني الشرك، وقوله: ﴿قد خلت سنة الأولين﴾: أي قد علم ما فعل تعالى بمن كذب رسله من الهلاك والدمار، وكيف أنجى الله الأنبياء وأتباعهم في الدنيا والآخرة.

* وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

يخبر تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق أنه لو فتح لهم باباً من السماء فجعلوا يصعدون فيه لما صدقوا بذلك بل قالوا: ﴿إنما سكرت أبصارنا﴾ قال مجاهد والضحاك: سدت أبصارنا، وقال قتادة عن ابن عباس: أخذت أبصارنا. وقال العوفي عن ابن عباس: شبّه علينا وإنما سحرنا، وقال الكلبي: عميت أبصارنا.

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾

يذكر تعالى خلقه السماء في ارتفاعها، وما زينها به من الكواكب الثوابت والسيارات، لمن تأمل وكرر النظر فيما يرى من العجائب والآيات الباهرات، ما يحار نظره فيه، ولهذا قال مجاهد وقتادة: البروج ههنا هي الكواكب وهذا كقوله تعالى: ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً﴾ الآية. ومنهم من قال: البروج هي منازل الشمس والقمر، ثم ذكر تعالى خلقه الأرض ومده إياها وتوسيعها وبسطها، وما جعل فيها من الجبال الرواسي والأودية والأراضي والرمال، وما أنبت فيها من الزروع والثمار المتناسبة، وقال ابن عباس: ﴿من كل شيء موزون﴾: أي معلوم[1]، ومنهم من يقول: مقدر بقدر، وقال ابن زيد: من كل شيء يوزن ويقدر بقدر، وقوله: ﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾ المعايش وهي جمع معيشة، وقوله: ﴿ومن لستم له برازقين﴾، قال مجاهد: هي الدواب والأنعام. وقال ابن جرير: هم العبيد والإماء والدواب والأنعام، والقصد أنه تعالى يمتن عليهم بما يسّر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب وصنوف المعايش، وبما سخر لهم من الدواب التي يركبونها، والأنعام التي يأكلونها، والعبيد والإماء التي يستخدمونها، ورزقهم على خالقهم لا عليهم، فلهم هم المنفعة، والرزق على الله تعالى.

وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ

(١) وكذلك قال عكرمة ومجاهد والحسن وقتادة.

مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

يخبر تعالى أنه مالك كل شيء، وأن كل شيء سهل عليه يسير لديه، وأن عنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف ﴿وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ كما يشاء وكما يريد، لما له في ذلك من الحكمة البالغة والرحمة بعباده، لا على جهة الوجوب بل هو كتب على نفسه الرحمة. قال ابن مسعود في قوله: ﴿وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ ما عام بأكثر مطراً من عام، ولا أقل، ولكنه يمطر قوم، ويحرم آخرون بما كان في البحر، قال: وبلغنا أنه ينزل مع المطر من الملائكة أكثر من عدد ولد إبليس وولد آدم، يحصون كل قطرة حيث تقع وما تنبت[١]، وقوله تعالى: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾ أي تلقح السحاب فتدر ماء وتلقح الشجر، فتفتح عن أوراقها وأكمامها، وذكرها بصيغة الجمع ليكون منها الإنتاج بخلاف الريح العقيم، فإنه أفردها ووصفها بالعقيم، وهو عدم الإنتاج، وقال أعمش، عن عبدالله ابن مسعود في قوله: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾ قال: ترسل الريح فتحمل الماء من السماء، ثم تمر مر السحاب حتى تدر كما تدر اللقحة[٢]، وقال الضحاك: يبعثها الله على السحاب فتلقحه فيمتلئ ماء، وقال عبيد بن عمير الليثي: يبعث الله المبشرة فتقم الأرض قماً، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح الشجر، ثم تلا: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾.

وقوله تعالى: ﴿فأسقيناكموه﴾ أي أنزلناه لكم عذباً يمكنكم أن تشربوا منه ﴿لو نشاء جعلناه أجاجاً﴾ كما نبّه على ذلك في قوله تعالى: ﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون * لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون﴾، وقوله: ﴿وما أنتم له بخازنين﴾، قال سفيان الثوري: بمانعين؛ ويحتمل أن المراد: وما أنتم له بحافظين، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم ونجعله معيناً وينابيع في الأرض، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به، ولكن من رحمته أنزله وجعله عذباً وحفظه في العيون والآبار والأنهار، ليبقى لهم في طول السنة يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم. وقوله: ﴿وإنا لنحن نحيي ونميت﴾ إخبار عن قدرته تعالى على بدء الخلق وإعادته، وأنه هو الذي أحيى الخلق من العدم، ثم يميتهم، ثم يبعثهم كلهم ليوم الجمع، وأخبر تعالى بأنه يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون. ثم أخبر تعالى عن تمام علمه بهم أولهم وآخرهم فقال: ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم﴾ الآية. قال ابن عباس رضي الله عنهما: المستقدمون كل من هلك من لدن آدم عليه السلام، والمستأخرون من هو حي ومن سيأتي إلى يوم القيامة، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله. وقال ابن جرير، عن مروان بن الحكم أنه قال: كان أناس يستأخرون في الصفوف من أجل النساء، فأنزل الله: ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾[٣].

وروى ابن جرير عن محمد بن أبي معشر عن أبيه أنه سمع عون بن عبدالله يذكر محمد بن كعب في قوله: ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾ وأنها في صفوف الصلاة، فقال محمد بن كعب:

---

(١) رواه ابن جرير عن عبدالله بن مسعود. (٢) وكذا قال ابن عباس وإبراهيم النخعي والضحّاك.

(٣) قال ابن كثير: ورد فيه حديث غريب جداً رواه أصحاب السنن وفيه نكارة شديدة وهو أنه كانت تصلي خلف النبي ﷺ امرأة حسناء، وكان بعض المسلمين إذا سجدوا نظروا إليها من تحت أيديهم فنزلت الآية. وقد نبه رحمه الله إلى نكارة هذه الرواية وضعفها.

ليس هكذا ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم﴾: الميت والمقتول، ﴿والمستأخرين﴾ من يخلق بعد، ﴿وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم﴾، فقال عون بن عبد الله: وفقك الله وجزاك خيراً.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾

قال ابن عباس: المراد بالصلصال التراب اليابس، كقوله تعالى: ﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار﴾. وعن مجاهد: (الصلصال) المنتن، وتفسير الآية بالآية أولى، وقوله: ﴿من حمأ مسنون﴾ أي الصلصال من حمأ وهو الطين، والمسنون الأملس، وروي عن ابن عباس أنه قال: هو التراب الرطب، وعن ابن عباس ومجاهد: أن الحمأ المسنون هو المنتن، وقيل: المراد بالمسنون ههنا المصبوب. وقوله: ﴿والجان خلقناه من قبل﴾ أي من قبل الإنسان، ﴿من نار السموم﴾ قال ابن عباس: هي السموم التي تقتل، وعن ابن عباس: أن الجان خلق من لهب النار، وقد ورد في الصحيح: «خلقت الملائكة من نور، وخلقت الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»[1]، والمقصود من الآية التنبيه على شرف آدم عليه السلام، وطيب عنصره وطهارة محتده.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾

يذكر تعالى تنويهه بذكر آدم في ملائكته، قبل خلقه له وتشريفه إياه بأمر الملائكة بالسجود له، ويذكر تخلف إبليس عدوه عن السجود له حسداً وكفراً، وعناداً واستكباراً وافتخاراً بالباطل، ولهذا قال: ﴿لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون﴾، كقوله: ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾.

قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾

يذكر تعالى أنه أمر إبليس بالخروج من المنزلة التي كان فيها من الملأ الأعلى، وأنه رجيم أي مرجوم، وأنه قد أتبعه لعنة لا تزال متصلة به لاحقة له متواترة عليه إلى يوم القيامة، وعن سعيد بن جبير أنه قال: لما لعن الله إبليس تغيرت صورته عن صور الملائكة، ورن رنة، فكل رنة في الدنيا إلى يوم القيامة منها[2]. وأنه لما تحقق الغضب الذي

(١) رواه مسلم وأحمد عن عائشة.
(٢) رواه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير.

لا مرد له سأل من تمام حسده لآدم وذريته النظرة إلى يوم القيامة، وهو يوم البعث، وأنه أجيب إلى ذلك استدراجاً له وإمهالاً، فلما تحقق النظرة قبحه الله قال ما قصّه الله تعالى :

* قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن إبليس وتمرده وعتوه أنه قال للرب: ﴿ بما أغويتني ﴾ أي بسبب ما أغويتني وأضللتني ﴿ لأزينن لهم ﴾ أي لذرية آدم عليه السلام، ﴿ في الأرض ﴾ أي أحبب إليهم المعاصي وأرغبهم فيها، ﴿ ولأغوينهم أجمعين ﴾ أي كما أغويتني وقدّرت علي ذلك، ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾، كقوله: ﴿ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً ﴾، ﴿ قال ﴾ الله تعالى له متهدداً ومتوعداً، ﴿ هذا صراط عليَّ مستقيم ﴾ أي مرجعكم إليَّ فأجازيكم بأعمالكم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وقيل: طريق الحق مرجعها إلى الله تعالى وإليه تنتهي[١]، كقوله: ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾، وقوله: ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ أي الذين قدرت لهم الهداية فلا سبيل لك عليهم، ولا وصول لك إليهم ﴿ إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ استثناء منقطع، ﴿ وإن جهنم لموعدهم أجمعين ﴾ أي جهنم موعد جميع من اتبع إبليس كما قال عن القرآن، ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾، ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب[٢] ﴿ لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ أي قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس يدخلونه لا محيد لهم عنه أجارنا الله منها، وكل يدخل من باب بحسب عمله ويستقر في درك بقدر عمله، وعن علي بن أبي طالب أنه قال: إن أبواب جهنم هكذا أطباقٌ بعضها فوق بعض، وعن هبيرة بن أبي مريم عن علي رضي الله عنه قال: أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض، فيمتلئ الأول ثم الثاني ثم الثالث، حتى تمتلىء كلها. وقال عكرمة: سبعة أبواب سبعة أطباق، وقال ابن جريج: سبعة أبواب أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية[٣]، وقال قتادة ﴿ لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾: هي والله منازل بأعمالهم، وقال الترمذي، عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: « لجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سل السيف على أمتي - أو قال على أمة محمد - »[٤]. وقال ابن أبي حاتم، عن سمرة بن جندب عن النبي ﷺ في قوله: ﴿ لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ قال: « إن من أهل النار من تأخذه النار إلى كعبيه، وإن منهم من تأخذه النار إلى حجزته، ومنهم من تأخذه النار إلى تراقيه، منازلهم بأعمالهم، فذلك قوله: ﴿ لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ ».

---

(١) قاله مجاهد والحسن وقتادة.

(٢) في اللباب : أخرج الثعلبي: أن سلمان الفارسي لما سمع قوله تعالى: ﴿ وإن جهنم لموعدهم أجمعين ﴾ فرّ ثلاثة أيام هارباً من الخوف لا يعقل، فجيء به إلى النبي ﷺ؟ فقال: يا رسول الله، أنزلت هذه الآية؟ فو الذي بعثك بالحق لقد قطعت قلبي، فأنزل الله : ﴿ إن المتقين في جنات وعيون ﴾.

(٣) روى الضحّاك عن ابن عباس نحوه، وكذلك روي عن الأعمش

(٤) رواه الترمذي وقال : لا نعرفه إلا من حديث مالك بن مغول.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾

لما ذكر تعالى حال أهل النار، عطف على ذكر أهل الجنة وأنهم في جنات وعيون. وقوله: ﴿ادخلوها بسلام﴾ أي سالمين من الآفات مسلم عليكم، ﴿آمنين﴾ أي من كل خوف وفزع، ولا تخشوا من إخراج ولا انقطاع ولا فناء. وقوله: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين﴾. عن أبي أمامة قال: لا يدخل الجنة مؤمن حتى ينزع الله ما في صدره من غل حتى ينزع منه مثل السبع الضاري، وهذا موافق لما في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة». وقال ابن جرير: دخل عمران بن طلحة على عليّ رضي الله عنه بعد ما فرغ من أصحاب الجمل فرحّب بـه وقال: إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك من الذين قال الله: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرير متقابلين﴾. وعن أبي حبيبة مولى لطلحة قال: دخل عمران بن طلحة على عليّ رضي الله عنه بعدما فرغ من أصحاب الجمل فرحب بـه وقال: إني لأرجو أن يجعلني الله وإياك من الذين قال الله: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين﴾ قال: ورجلان جالسان إلى ناحية البساط، فقالا: الله أعدل من ذلك تقتلهم بالأمس وتكونون إخواناً، فقال علي رضي الله عنه: قُوما أبعد أرض وأسحقها، فمن هم إذاً إن لم أكن أنا وطلحة؟ وفي رواية: فقام رجل من همدان فقال: الله أعدل من ذلك يا أمير المؤمنين، قال: فصاح به علي صيحة، فظننت أن القصر تدهده لها، ثم قال: إذا لم نكن نحن فمن هم؟ وقال سفيان الثوري: جاء (ابن جرموز)، قاتل الزبير، يستأذن على علي رضي الله عنه فحجبه طويلاً، ثم أذن له: فقال له: أما أهل البلاء فتجفوهم، فقال عليّ: بفيك التراب، إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير ممن قال الله: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين﴾. وقال الحسن البصري، قال عليّ: فينا والله أهل بدر نزلت هذه الآية: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين﴾. وقال الثوري في قوله: ﴿إخواناً على سرر متقابلين﴾ قال، هم عشرة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وعبدالله بن مسعود رضي الله عنهم أجمعين، وقوله: ﴿متقابلين﴾ قال مجاهد: لا ينظر بعضهم في قفا بعض، وفيه حديث مرفوع.

قال ابن أبي حاتم، عن زيد بن أبي أوفى قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فتلا هذه الآية: ﴿إخواناً على سرر متقابلين﴾ في الله ينظر بعضهم إلى بعض[1]. وقوله: ﴿لا يمسهم فيها نصب﴾ يعني المشقة والأذى، كما جاء في

---

(١) في اللباب: أخرج ابن أبي حاتم عن علي بن الحسين: أن هذه الآية: ﴿ونزعنا ما في صدورهم ...﴾ نزلت في أبي بكر، وعمر، قيل: وأي غل؟ قال: غل الجاهلية، إن بني تيم وبني عدي وبني هاشم كانوا أعداء، فلما أسلموا تحابوا، فأخذت أبا بكر الخاصرة، فجعل علي يسخن يده فيكمد بها خاصرة أبي بكر، فنزلت هذه الآية.

الصحيحين: « إن الله أمرني أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب ». وقوله: ﴿ وما هم منها بمخرجين ﴾، كقوله تعالى: ﴿ خالدين فيها لا يبغون عنها حولاً ﴾، وقوله: ﴿ نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم * وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾ أي أخبر يا محمد عبادي أني ذو رحمة وذو عذاب أليم، وقد تقدم ذكر نظير هذه الآية الكريمة وهي دالة على مقامي الرجاء والخوف، وذكر في سبب نزولها ما رواه ابن جرير عن ابن أبي رباح عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: طلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة فقال: « لا أراكم تضحكون » ثم أدبر، حتى إذا كان عند الحجر رجع علينا القهقرى فقال: « إني لما خرجت جاء جبريل عليه السلام فقال: يا محمد إن الله يقول: لم تقنط عبادي؟ ﴿ نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم * وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾ ». وقال قتادة: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: « لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام، ولو يعلم العبد قدر عذاب الله لبخع نفسه ».

وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾

يقول تعالى: وخبرهم يا محمد عن قصة ﴿ ضيف إبراهيم ﴾، والضيف يطلق على الواحد والجمع كالزور والسفر، وكيف ﴿ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجلون ﴾ أي خائفون، وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه إليهم من الضيافة وهو العجل السمين الحنيذ، ﴿ قالوا لا توجل ﴾ أي لا تخف، ﴿ وبشروه بغلام عليم ﴾ أي إسحاق عليه السلام كما تقدم في سورة هود، ثم ﴿ قال ﴾ متعجباً من كبره وكبر زوجته ومتحققاً للوعد ﴿ أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون ﴾، فأجابوه مؤكدين لما بشروه به تحقيقاً وبشارة بعد بشارة، ﴿ قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين ﴾، فأجابهم بأنه ليس يقنط ولكن يرجو من الله الولد، وإن كان قد كبر وأسنت امرأته، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك.

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى إخباراً عن إبراهيم عليه السلام لما ذهب عنه الروع وجاءته البشرى، إنه شرع يسألهم عما جاءوا له فقالوا: ﴿ إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ يعنون قوم لوط، وأخبروه أنهم سينجون آل لوط من بينهم إلا امرأته فإنها من الهالكين، ولهذا قالوا: ﴿ إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين ﴾ أي الباقين المهلكين.

فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾

يخبر تعالى عن لوط لما جاءته الملائكة في صورة شباب حسان الوجوه فدخلوا عليه داره قال: ﴿إنكم قوم منكرون * قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون﴾ يعنون بعذابهم وهلاكهم ودمارهم الذي كانوا يشكون في وقوعه بهم وحلوله بساحتهم، ﴿وأتيناك بالحق﴾ كقوله تعالى: ﴿ما ننزل الملائكة إلا بالحق﴾، وقوله: ﴿وإنا لصادقون﴾ تأكيد لخبرهم إياه بما أخبروه به من نجاته وإهلاك قومه.

* فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾

يذكر تعالى عن الملائكة أنهم أمروه أن يسري بأهله بعد مضي جانب من الليل، وأن يكون لوط عليه السلام يمشي وراءهم ليكون أحفظ لهم؛ وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشي في الغزو يزجي الضعيف ويحمل المنقطع، وقوله: ﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾ أي إذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم وذروهم فيما حل بهم من العذاب والنكال، ﴿وامضوا حيث تؤمرون﴾ كأنه كان معهم من يهديهم السبيل، ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر﴾ أي تقدمنا إليه في هذا ﴿أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾ أي وقت الصباح، كقوله في الآية الأخرى: ﴿إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب﴾.

وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾

يخبر تعالى عن مجيء قوم لوط لما علموا بأضيافه وصباحة وجوههم، وأنهم جاءوا مستبشرين بهم فرحين ﴿قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون * واتقوا الله ولا تخزون﴾ وهذا إنما قاله لهم قبل أن يعلم أنهم رسل الله، كما قال في سورة هود، وأما ههنا فتقدم ذكر أنهم رسل الله وعطف بذكر مجيء قومه ومحاجته لهم، ولكن الواو لا تقتضي الترتيب، ولا سيما إذا دل دليل على خلافه، فقالوا له مجيبين: ﴿أو لم ننهك عن العالمين﴾ أي أو ما نهيناك أن تضيف أحداً؟ فأرشدهم إلى نسائهم وما خلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة، هذا كله وهم غافلون عما يراد بهم وما قد أحاط بهم من البلاء، وماذا يصبحهم من العذاب المستقر. ولهذا قال تعالى لمحمد ﷺ: ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾، أقسم تعالى بحياة نبيّه صلوات الله وسلامه عليه، وفي هذا تشريف عظيم ومقام رفيع وجاه عريض. قال ابن عباس: ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال الله تعالى: ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ يقول: وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا ﴿إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾[1]، وقال قتادة: ﴿في سكرتهم﴾ أي ضلالتهم، ﴿يعمهون﴾ أي يلعبون، وقال ابن عباس: ﴿لعمرك﴾ لعيشك، ﴿إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ قال: يترددون.

(١) رواه ابن جرير.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿فأخذتهم الصيحة﴾ وهي ما جاءهم من الصوت القاصف عند شروق الشمس وهو طلوعها، وذلك مع رفع بلادهم إلى عنان السماء، ثم قلبها، وجعل عاليها سافلها، وإرسال حجارة السجيل عليهم. وقد تقدم الكلام على السجيل في هود بما فيه كفاية، وقوله: ﴿إن في ذلك لآيات للمتوسمين﴾ أي إن آثار هذه النقم الظاهرة على تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتوسمه بعين بصره وبصيرته، كما قال مجاهد في قوله: ﴿للمتوسمين﴾ قال: المتفرسين. وعن ابن عباس والضحّاك: للناظرين، وقال قتادة: للمعتبرين، وقال مالك عن بعض أهل المدينة: ﴿للمتوسمين﴾ للمتأملين. وقال ابن أبي حاتم، عن أبي سعيد مرفوعاً قال، قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فِراسةَ المؤمن فإنه ينظر بنور الله»، ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿إن في ذلك لآيات للمتوسمين﴾[1]. وفي رواية عن ابن عمر: «اتقوا فراسة المؤمن فإن المؤمن ينظر بنور الله»[2]. وروى الحافظ البزار عن أنس قال، قال رسول الله ﷺ: «إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم». وقوله: ﴿وإنها لبسبيل مقيم﴾ أي وإن قرية سدوم التي أصابها ما أصابها من القلب والقذف للحجارة حتى صارت بحيرة منتنة خبيثة، بطريق مهيع مسالكه مستعمرة إلى اليوم، كقوله: ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون﴾، وقال مجاهد والضحّاك: ﴿وإنها لبسبيل مقيم﴾ قال: معلم، وقال قتادة: بطريق واضح. وقال قتادة أيضاً: بصقع من الأرض واحد. وقوله: ﴿إن في ذلك لآية للمؤمنين﴾ أي إن الذي صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار، وإنجائنا لوطاً وأهله لدلالة واضحة جلية للمؤمنين بالله ورسله.

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾

أصحاب الأيكة هم قوم شعيب، قال الضحاك: الأيكة: الشجر الملتف، وكان ظلمهم بشركهم بالله وقطعهم الطريق، ونقصهم المكيال والميزان، فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلمة، وقد كانوا قريباً من قوم لوط بعدهم في الزمان ومسامتين لهم في المكان، ولهذا قال تعالى: ﴿وإنهما لبإمام مبين﴾ أي طريق مبين. قال ابن عباس: طريق ظاهر، ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال في إنذاره إياهم: ﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

أصحاب الحجر هم ثمود الذين كذبوا صالحاً نبيّهم عليه السلام، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع

(١) رواه الترمذي وابن جرير، وقال الترمذي: لا نعرفه إلا من هذا الوجه. (٢) رواه ابن جرير

المرسلين، ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين، وذكر تعالى أنه أتاهم من الآيات ما يدلهم على صدق ما جاءهم به صالح، كالناقة التي أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء، وكانت تسرح في بلادهم لها شرب ولهم شرب يوم معلوم، فلما عتوا وعقروها قال لهم: ﴿ تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب﴾، وقال تعالى: ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾، وذكر تعالى أنهم: ﴿ كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين﴾ أي من غير خوف ولا احتياج إليها بل أشراً وبطراً وعبثاً، كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحجر الذي مر بـه رسول الله ﷺ، وهو ذاهب إلى تبوك، فقنع رأسه وأسرع دابته، وقال لأصحابه: «لا تدخلوا بيوت القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم»[1]. وقوله: ﴿ فأخذتهم الصيحة مصبحين﴾ أي وقت الصباح من اليوم الرابع ، ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ أي ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التي ضنوا بمائها عن الناقة حتى عقروها لئلا تضيق عليهم في المياه، فما دفعت عنهم تلك الأموال ولا نفعتهم لما جاء أمر ربك .

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾

يقول تعالى: ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية﴾ أي بالعدل ﴿ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار﴾، ثم أخبر نبيّه بقيام الساعة وأنها كائنة لا محالة، ثم أمره بالصفح الجميل عن المشركين في أذاهم له وتكذيبهم ما جاءهم به، كقوله: ﴿ فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون﴾ ، وقال مجاهد وقتادة: كان هذا قبل القتال[2] ، وقوله: ﴿ إن ربك هو الخلاق العليم﴾ تقرير للمعاد وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة، فإنه الخلاق الذي لا يعجزه خلق شيء ﴿ العليم﴾ بما تمزق من الأجساد وتفرق في سائر أقطار الأرض كقوله: ﴿ أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم﴾ .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

يقول تعالى لنبيّه ﷺ: كما آتيناك القرآن العظيم فلا تنظرن إلى الدنيا وزينتها، وما متعنا بـه أهلها من الزهرة الفانية لنفتنهم فيه، فلا تغبطهم بما هم فيه، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حزناً عليهم في تكذيبهم لك ومخالفتهم دينك، ﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾ أي ألن لهم جانبك ، كقوله: ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم

(١) الحديث في الصحاح والسنن .

(٢) قال ابن كثير : وهو كما قالا ، فإن الآية مكية والقتال إنما شرع بعد الهجرة .

عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾، وقد اختلف في السبع المثاني ما هي؟ فقال ابن مسعود وابن عباس: هي السبع الطوال، يعنون «البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس»[1]، وقال سعيد: بين فيهن الفرائض والحدود والقصص والأحكام، وقال ابن عباس: بيّن الأمثال والخبر والعبر، ولم يعطهن أحد إلا النبي ﷺ، وأعطي موسى منهن ثنتين، (والقول الثاني): انها الفاتحة وهي سبع آيات. قال ابن عباس: والبسملة هي الآية السابعة، وقد خصكم الله بها، وقال قتادة: ذكر لنا أنهن فاتحة الكتاب وأنهن يثنين في كل ركعة مكتوبة أو تطوع؛ واختاره ابن جرير، واحتج بالأحاديث الواردة في ذلك، وقد أورد البخاري رحمه الله ههنا حديثين: (أحدهما) عن أبي سعيد بن المعلى قال: مرّ بي النبي ﷺ وأنا أصلي فدعاني، فلم آته حتى صليت فأتيته، فقال: «ما منعك أن تأتيني؟» فقلت: كنت أصلي، فقال: «ألم يقل الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم﴾ ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد»؟ فذهب النبي ﷺ ليخرج فذكرت فقال: «﴿الحمد لله رب العالمين﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته». (الثاني) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم»، فهذا نص في الفاتحة هي (السبع المثاني) والقرآن العظيم، ولكن لا ينافي وصف غيرها من السبع الطوال بذلك لما فيها من هذه الصفة، كما لا ينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضاً، كما قال تعالى: ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها مثاني﴾ فهو مثاني من وجه ومتشابه من وجه وهو القرآن العظيم أيضاً، كما أنه عليه الصلاة والسلام لما سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى، فأشار إلى مسجده والآية نزلت في مسجد قباء، فلا تنافي، فإن ذكر الشيء لا ينفي ذكر ما عداه إذا اشتركا في تلك الصفة والله أعلم. وقوله: ﴿لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾ أي استغن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية. ومن ههنا ذهب ابن عيينة إلى تفسير الحديث الصحيح: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» إلى أنه يستغنى به عما عداه، وهو تفسير صحيح ولكن ليس هو المقصود من الحديث كما تقدم في أول التفسير، وقال ابن أبي حاتم عن أبي رافع صاحب النبي ﷺ قال: ضاف النبي ﷺ ضيف، ولم يكن عند النبي ﷺ شيء يصلحه، فأرسل إلى رجل من اليهود: «يقول لك محمد رسول الله أسلفني دقيقاً إلى هلال رجب»، قال: لا، إلا برهن، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال: «أما والله إني لأمين من في السماء، وأمين من في الأرض، ولئن أسلفني أو باعني لأؤدين إليه»، فلما خرجت من عنده نزلت هذه الآية ﴿لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا﴾ إلى آخر الآية، كأنه يعزيه عن الدنيا. قال ابن عباس ﴿لا تمدن عينيك﴾ قال: نهي الرجل أن يتمنى ما لصاحبه. وقال مجاهد: ﴿إلى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾ هم الأغنياء.

وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

---

(١) وهو قول ابن عمر ومجاهد وسعيد بن جبير والضحّاك وغيرهم.

يأمر تعالى نبيّه ﷺ أن يقول للناس: ﴿إني أنا النذير المبين﴾ البين النذارة، نذير للناس من عذاب أليم، كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسلها، وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام ، وقوله: ﴿المقتسمين﴾ أي المتحالفين ، أي تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم، كقوله تعالى إخباراً عن قوم صالح إنهم : ﴿قالوا تقاسموا بالله لنبيتنّه وأهله﴾ الآية، أي نقتلهم ليلاً، قال مجاهد: تقاسموا وتحالفوا ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت﴾، ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة﴾ فكأنهم لا يكذبون بشيء من الدنيا إلا أقسموا عليه فسموا مقتسمين. قال عبدالرحمن بن زيد : المقتسمون أصحاب صالح الذين تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله، وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان فالنجاء النجاء، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبه طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت بـه، ومثل من عصاني وكذب ما جئت بـه من الحق»، وقوله: ﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ أي جزأوا كتبهم المنزلة عليهم، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، قال البخاري عن ابن عباس: ﴿جعلوا القرآن عضين﴾ قال: هم أهل الكتاب جزأوه أجزاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه[1] . وقال عكرمة: العضه، السحر بلسان قريش، تقول للساحرة: إنهـا العاضهة، وقال مجاهد: عضوه اعضاء قالوا: سحر ، وقالوا: كهانة، وقالوا: أساطير الأولين، وقال عطاء: قال بعضهم: ساحر ، وقالوا: مجنون، وقالوا: كاهن، فذلك العضين .

وقال محمد بن إسحاق، عن ابن عباس: إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا شرف فيهم، وقـد حضر الموسم، فقال لهم يا معشر قريش إنه قـد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضاً، فقالوا: وأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنـا رأياً نقول به، قال: بل أنتم قولوا لأسمع، قالوا: نقول كاهن، قال: ما هو بكاهن، قالوا: فنقول مجنون، قال ما هو بمجنون، قالوا : فنقول شاعر ، قال: ما هو بشاعر ، قالوا: فنقول ساحر ، قال: مـا هو بساحر ، قالوا: فماذا تقول ؟ قـال: والله إن لقوله لحلاوة فما أنتم بقائلين من هـذا شيئاً إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول أن تقولوا : هو ساحر ، فتفرقوا عنه بذلك، وأنزل الله فيهم: ﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ أصنافاً: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾ أولئك النفر الذين قالوا لرسول الله . وقال ابن عمر في قوله: ﴿لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾ قال: عن ﴿لا إله إلا الله﴾[2] ، وقال ابن مسعود: والذي لا إله غيره ما منكم من أحـد إلا سيخلو الله بـه يوم القيامة، فيقول: ابن آدم ماذا غرك مني بي ؟ ابن آدم ماذا عملت فيما علمت ؟ ابن آدم ماذا أجبت المرسلين ؟ وقال أبو جعفر ، عن أبي العالية في قوله: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾ قال: يسأل العباد كلهم عن خلتين يوم القيامة: عما كانوا يعبدون، وعماذا أجـابوا المرسلين، وقال ابن عيينة: عن عملك وعن مالك، وقال ابن أبي حاتم، عن معاذ بن جبل قال، قال رسول الله

(١) وروي عن مجاهد والحسن والضحاك وعكرمة وسعيد بن جبير نحو ذلك .

(٢) ورد فيه حديث مرفوع رواه الترمذي عن أنَس عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين﴾ قال : عن ﴿لا إله إلا الله﴾ .

ﷺ: « يا معاذ إن المرء يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى كحل عينيه، وعن فتات الطينة بأصبعه، فلا ألفينك يوم القيامة وأحد غيرك أسعد بما آتاك الله منك ». وقال ابن عباس في قوله: ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾، ثم قال: ﴿فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ قال: لا يسألهم هل عملتم كذا ؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول لم عملتم كذا وكذا ؟

فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بإبلاغ ما بعثه به وبإنفاذه والصدع به، وهو مواجهة المشركين به، كما قال ابن عباس في قوله: ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾: أي أمضه؛ وفي رواية (افعل ما تؤمر). وقال مجاهد: هو الجهر بالقرآن في الصلاة. وعن عبدالله بن مسعود: ما زال النبي ﷺ مستخفياً حتى نزلت: ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ فخرج هو وأصحابه، وقوله: ﴿ وأعرض عن المشركين * إنا كفيناك المستهزئين ﴾ أي بلغ ما أنزل إليك من ربك، ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله ﴿ ودوا لو تدهن فيدهنون ﴾ ولا تخفهم، فإن الله كافيك إياهم، وحافظك منهم، كقوله تعالى: ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾. وعن أنس مرَّ رسول الله ﷺ فغمزه بعضهم، فجاء جبريل - أحسبه قال: فغمزهم - فوقع في أجسادهم كهيئة الطعنة فماتوا[1]. وقال محمد بن إسحاق: كان عظماء المستهزئين خمسة نفر، وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم، من بني أسد بن عبد العزى (أبو زمعة) كان رسول الله ﷺ فيما بلغني قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه، فقال: « اللهم أعم بصره وأثكله ولده »، ومن بني زهرة (الأسود ابن عبد يغوث)، ومن بني مخزوم (الوليد بن المغيرة)، ومن بني سهم (العاص بن وائل)، ومن خزاعة (الحارث ابن الطلاطلة). فلما تمادوا في الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء أنزل الله تعالى: ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين * إنا كفيناك المستهزئين - إلى قوله - فسوف يعلمون ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون ﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد لمن جعل مع الله معبوداً آخر. وقوله: ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبّح بحمد ربك وكن من الساجدين ﴾ أي وإنا لنعلم يا محمد أنك يحصل لك من أذاهم لك ضيق صدر وانقباض، فلا يضيقنك ذلك، ولا يثنينّك عن إبلاغك رسالة الله وتوكل عليه، فإنه كافيك وناصرك عليهم، فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسبيحه وعبادته التي هي الصلاة. ولهذا قال: ﴿ فسبّح بحمد ربك وكن من الساجدين ﴾، ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى. وقوله: ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾، قال البخاري عن سالم بن عبد الله ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ قال:

---

(١) أخرجه الحافظ البزار في قوله تعالى: ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾ .

الموت[1]. والدليل على ذلك قوله تعالى إخباراً عن أهل النار أنهم قالوا: ﴿وكنا نكذب بيوم الدين • حتى أتانا اليقين﴾. وفي الصحيح: «أما هو فقد جاءه اليقين وإني لأرجو له الخير»[2]. ويستدل بهذه الآية الكريمة وهي قوله: ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتاً فيصلي بحسب حاله، كما ثبت في صحيح البخاري عن عمران بن حصين رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب»، ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم، وهذا كفر وضلال وجهل، فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا – هم وأصحابهم – أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة؛ وإنما المراد باليقين ههنا الموت، كما قدمناه، ولله الحمد والمنة.

[آخر تفسير سورة الحجر ، والحمد لله رب العالمين] .

* * *

(١) وهكذا روي عن مجاهد والحسن وقتادة وعبدالرحمن بن زيد وغيرهم أنهم فسروا اليقين بالموت.

(٢) قاله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات، فقالت أم العلاء: رحمة الله عليك، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال رسول الله ﷺ: «وما يدرك أن الله أكرمه» الحديث.

تفسير سورة الحجر

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ (١) رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣)﴾.

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور.

وقوله: **﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾**: إخبار عنهم أنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر، ويتمنون لو كانوا مع المسلمين فى الدار الدنيا[١].

ونقل[٢] السدى فى تفسيره بسنده المشهور عن ابن عباس، وابن مسعود، وغيرهما من الصحابة: أن الكفار[٣] لما عُرضوا على النار، تمنوا أن لو كانوا مسلمين.

وقيل: المراد أن كل كافر يود عند احتضاره أن لو كان مؤمنا.

وقيل: هذا إخبار عن يوم القيامة، كما فى قوله تعالى: **﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾** [الأنعام: ٢٧].

وقال سفيان الثورى، عن سلمة بن كُهَيْل، عن أبى الزعراء، عن عبد الله فى قوله: **﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾** قال: هذا فى الجُهَنَّمين إذ رأوهم يخرجون من النار.

وقال ابن جرير: حدثنا المثنى، حدثنا مسلم، حدثنا القاسم، حدثنا ابن أبى فَرْوة العَبْدى؛ أن ابن عباس وأنس بن مالك كان يَتأولان هذه الآية: **﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾**، يتأولانها: يوم يحبس الله أهل الخطايا من المسلمين مع المشركين فى النار. قال: فيقول لهم المشركون: ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون فى الدنيا. قال: فيغضب الله لهم بفضل رحمته، فيخرجهم، فذلك حين يقول: **﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾**.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثورى، عن حماد، عن إبراهيم، عن خصيف، عن مجاهد قالا: يقول أهل النار للموحدين: ما أغنى عنكم إيمانكم؟ فإذا[٤] قالوا ذلك. قال: أخرجوا من كان فى قلبه مثقال ذرة. قال: فعند ذلك قوله: **﴿[رُّبَمَا][٥]يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾**[٦].

وهكذا روى عن الضحاك، وقتادة، وأبى العالية، وغيرهم. وقد ورد فى ذلك أحاديث مرفوعة، فقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى:

---

(١) فى ت: «فى الدار الدنيا مع المسلمين». (٢) فى أ: «وقال». (٣) فى ت، أ: «أن كفار بدر».

(٤) فى ت، أ: «قال: فإذا». (٥) زيادة من ت، أ.

(٦) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٩٩).

حدثنا محمد بن العباس، هو الأخرم، حدثنا محمد بن منصور الطوسى، حدثنا صالح بن إسحاق الجهبذ[١] دلنى عليه يحيى بن معين[٢]، حدثنا مُعَرّف[٣] بن واصل، عن يعقوب بن أبى نباتة[٤]، عن عبد الرحمن الأغر، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ناسا من أهل لا إله إلا الله يدخلون النار بذنوبهم، فيقول لهم أهل اللات والعزى: ما أغنى عنكم قولكم: لا إله إلا الله وأنتم معنا فى النار؟. فيغضب الله لهم، فيخرجهم، فيلقيهم فى نهر الحياة، فيبرؤون من حرقهم كما يبرأ القمر من خسوفه، فيدخلون الجنة، ويسمَّون فيها الجهنميين»[٥]. فقال رجل: يا أنس، أنت سمعتَ هذا من رسول الله ﷺ؟ فقال أنس: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من كذب على متعمداً، فليتبوأ مقعده من النار». نعم، أنا سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا.

ثم قال الطبرانى: تفرد به الجهبذ[٦][٧].

الحديث الثانى: وقال الطبرانى أيضاً: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أبو الشعثاء[٨] على بن الحسن الواسطى، حدثنا خالد بن نافع الأشعرى، عن سعيد بن أبى بردة، عن أبيه، عن أبى موسى، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتمع أهل النار فى النار، ومعهم من شاء الله من أهل القبلة، قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى. قالوا: فما أغنى عنكم الإسلام! فقد صرتم[٩] معنا فى النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها. فسمع[١٠] الله ما قالوا، فأمر بمن كان فى النار من أهل القبلة فأخرجوا، فلما رأى ذلك من بقى من الكفار قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا». قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ﴿ **الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ . رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ** ﴾[١١].

ورواه ابن أبى حاتم، من حديث خالد بن نافع، به، وزاد فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم)، عوض الاستعاذة.

الحديث الثالث: وقال الطبرانى[١٢] أيضا: حدثنا موسى بن هارون، حدثنا إسحاق بن راهويه قال: قلت لأبى أسامة: أحدثكم أبو روق[١٣] ـ واسمه عطية بن الحارث ـ: حدثنى صالح بن أبى طريف قال: سألت أبا سعيد الخدرى فقلت له: هل سمعت رسول الله ﷺ يقول فى هذه الآية: ﴿ **رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ** ﴾؟ قال: نعم، سمعته يقول: «يُخرج الله ناسا من المؤمنين من

---

(١) فى ت: «الجهذ». (٢) فى هـ: «رأى علية بن موسى» والمثبت من المعجم.

(٣) فى ت، أ: «معروف». (٤) فى ت، أ، هـ: «يعقوب بن نباتة» والصواب ما أثبتناه من المعجم والتهذيب.

(٥) فى ت، أ: «الجهنميون». (٦) فى ت: «الجهذ».

(٧) المعجم الأوسط برقم (٤٨٢١) «مجمع البحرين» وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٣٨٠): «فيه من لم أعرفهم».

(٨) فى ت: «أبو السقا». (٩) فى ت، أ: «حشرتم». (١٠) فى أ: «فيسمع».

(١١) قال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٤٥): «رواه الطبرانى، وفيه خالد بن نافع الأشعرى، قال أبو داود: متروك. وقال الذهبى: هذا تجاوز فى الحد فلا يستحق الترك، فقد حدث عنه أحمد بن حنبل وغيره، وبقية رجاله ثقات» ورواه ابن أبى عاصم فى السنة برقم (٨٤٣) والحاكم فى المستدرك (٢/ ٢٤٢) عن أبى الشعثاء به، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

(١٢) فى ت: «وقال الطبرانى الحديث الثالث». (١٣) فى ت: «أبو أروق».

النار بعد ما يأخذ نقمته منهم»، وقال: «لما أدخلهم الله النار مع المشركين قال لهم المشركون: تزعمون أنكم أولياء الله فى الدنيا، فما بالكم معنا فى النار؟ فإذا سمع الله ذلك منهم، أذن فى الشفاعة لهم فتشفع[١] الملائكة والنبيون، ويشفع[٢] المؤمنون، حتى يخرجوا بإذن الله، فإذا رأى المشركون ذلك، قالوا: يا ليتنا كنا مثلهم، فتدركنا الشفاعة، فنخرج معهم». قال: «فذلك قول الله: ﴿ **رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ** ﴾، فيسمون فى الجنة الجُهَنَّمِيِّين[٣]، من أجل سَواد فى وجوههم، فيقولون: يا رب، أذهب عنا هذا الاسم، فيأمرهم فيغتسلون فى نهر الجنة، فيذهب ذلك الاسم عنهم»، فأقر به أبو أسامة، وقال: نعم[٤].

الحديث الرابع[٥]: وقال[٦] ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا العباس بن الوليد النَّرسى[٧]، حدثنا مسكين أبو فاطمة، حدثنى اليمان بن يزيد، عن محمد بن حِمْير[٨]، عن محمد ابن على، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «منهم من تأخذه النار إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه النار إلى حجزته، ومنهم من تأخذه النار إلى عنُقه، على قدر ذنوبهم وأعمالهم، ومنهم من يمكث فيها شهرا ثم يخرج منها، ومنهم من يمكث فيها سنة ثم يخرج منها، وأطولهم فيها مُكثاً بقدر الدنيا منذ يوم خلقت إلى أن تفنى، فإذا أراد الله أن يخرجوا منها قالت اليهود والنصارى ومن فى النار من أهل[٩] الأديان والأوثان، لمن فى النار من أهل التوحيد: آمنتم بالله وكتبه ورسله، فنحن وأنتم اليوم فى النار سواء، فيغضب الله لهم غضبا لم يغضبه لشىء فيما مضى، فيخرجهم إلى عين فى الجنة، وهو قوله: ﴿ **رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ** ﴾»[١٠].

وقوله: ﴿ **ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا** ﴾: تهديد لهم شديد، ووعيد أكيد، كقوله تعالى: ﴿ **قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ** ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، وقوله: ﴿ **كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ** ﴾ [المرسلات: ٤٦]؛ ولهذا قال: ﴿ **وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ** ﴾ أى: عن التوبة والإنابة، ﴿ **فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** ﴾ أى: عاقبة أمرهم.

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ (٤) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٥) ﴾.

يقول تعالى: إنه ما أهلك قرية إلا بعد قيام الحجة عليها وانتهاء أجلها، وإنه لا يؤخر أمة حان هلاكها[١١] عن ميقاتها ولا يتقدمون عن مدتهم. وهذا تنبيه لأهل مكة، وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما

---

(١) فى ت، أ: «فيشفع». (٢) فى ت: «وشفع». (٣) فى ت، أ: «الجهنمية».
(٤) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٢٥٩٩) «موارد» من طريق عمر بن محمد بن أبان، عن أبى أسامة به نحوه.
(٥) فى ت: «وقال الحديث الرابع». (٦) فى ت: «وحدثنا». (٧) فى ت: «الزينى»، وفى أ: «الزينبى».
(٨) فى ت، أ: «جبير»، وفى هـ: «جبر». (٩) فى ت، أ: «وأهل».
(١٠) ورواه ابن الجوزى فى العلل المتناهية (٢/ ٤٥٧) من طريق البغوى عن عباس بن الوليد النرسى به، ورواه الخطيب فى تاريخ بغداد (٦/ ١٥٦) وابن الجوزى فى العلل المتناهية (٢/ ٤٥٦) من طريق إبراهيم بن محمد السامرى، عن عباد بن الوليد الغبرى، عن أبى فاطمة، عن اليمان بن يزيد به نحوه، وقال ابن الجوزى: «هذا حديث لا يصح وفيه جماعة مجاهيل».
(١١) فى ت: «هلاكهم».

هم فيه من الشرك والعناد والإلحاد، الذى يستحقون به الهلاك.

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ (٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾.

يخبر تعالى عن كفرهم وعتوهم وعنادهم فى قولهم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ﴾ أى: الذى يدعى ذلك ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ أى: فى دعائك إيانا إلى اتباعك وترك ما وجدنا عليه آباءنا. ﴿لَوْمَا ﴾ أى: هلاَّ ﴿تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ﴾ أى: يشهدون لك بصحة ما جئت به ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، كما قال فرعون: ﴿فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسَاوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا .يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٢١، ٢٢].

وكذا[1] قال فى هذه الآية: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ﴾.

وقال مجاهد فى قوله: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلا بِالْحَقِّ ﴾: بالرسالة والعذاب.

ثم قرر تعالى أنه هو الذى أنزل الذكر، وهو القرآن، وهو الحافظ له من التغيير والتبديل.

ومنهم من أعاد الضمير فى قوله تعالى: ﴿ لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ على النبى ﷺ، كقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧] والمعنى الأول أولى، وهو ظاهر السياق، [والله أعلم][2].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (١١) كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ (١٣) ﴾.

يقول تعالى مسلياً لرسوله فى تكذيب من كذّبه من كفار قريش: إنه أرسل من قَبْله فى الأمم الماضية، وإنه ما أتى أمة رسول إلا كذبوه واستهزؤوا به.

ثم أخبر أنه سلك التكذيب فى قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى.

قال أنس، والحسن البصرى: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾: يعنى: الشرك.

وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ أى: قد علم ما فعل تعالى بمن كذب رسله من الهلاك والدمار، وكيف أنجى الله الأنبياء وأتباعهم فى الدنيا والآخرة.

---

(١) فى ت، أ: «وهكذا». (٢) زيادة من أ.

﴿ولَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (١٥)﴾.

يخبر تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق: أنه لو فتح لهم باباً من السماء، فجعلوا يصعدون فيه، لما صدّقوا بذلك، بل قالوا: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾.

قال مجاهد وابن كثير، والضحاك: سدت أبصارنا.

وقال قتادة، عن ابن عباس: أخذت أبصارنا.

وقال العوفى عن ابن عباس: شُبه علينا، وإنما سحرنا.

وقال الكلبى: عَميت أبصارنا.

وقال ابن زيد: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾، السكران(١) الذى لا يعقل.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ (١٨) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠)﴾.

يذكر تعالى خلقه السماء فى ارتفاعها وما زيَّنها به من الكواكب الثواقب، لمن تأملها، وكرر النظر(٢) فيها، يرى فيها من العجائب والآيات الباهرات، ما يحار نظره فيه. ولهذا قال مجاهد وقتادة: البروج هاهنا هى: الكواكب.

قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١]. ومنهم من قال: البروج هى: منازل الشمس والقمر.

وقال عطية العوفى: البروج هاهنا: هى قصور الحرس(٣).

وجعل الشُهب حرساً لها من مَرَدة الشياطين، لئلا يسمعوا(٤) إلى الملأ الأعلى، فمن تمرد منهم [وتقدم](٥) لاستراق السمع، جاءه ﴿شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ فأتلفه، فربما يكون قد ألقى الكلمة التى سمعها قبل أن يدركه الشهاب إلى الذى هو دونه، فيأخذها الآخر، ويأتى بها إلى وليه، كما جاء مصرحا به فى الصحيح، كما قال البخارى فى تفسير هذه الآية:

حدثنا على بن عبد الله، حدثنا سفيان(٦)، عن عمرو، عن عكرمة، عن أبى هريرة، يبلُغُ به النبى ﷺ، قال: «إذا قضى الله الأمر فى السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خُضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صَفوان». قال على، وقال غيره: صفوان ينفُذهم ذلك، فإذا فُزّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الذى قال: الحق، وهو العلى الكبير. فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع،

---

(١) فى أ: «السُكر». (٢) فى ت: «نظره». (٣) فى ت: «الحرس فيها».
(٤) فى أ: «لئلا يسَّمَّعوا». (٥) زيادة من ت، أ. (٦) فى ت: «حدثنا ابن سفيان».

هكذا واحد فوق آخر ـ ووصف سفيان بيده فَفَرَّج بين أصابع يده اليمنى، نَصَبَها بعضها[١] فوق بعض ـ فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يَرْمى بها إلى صاحبه فيحرقَه، وربما لم يدركه [حتى][٢] يَرْمى بها إلى الذى يليه، [إلى الذى][٣] هو أسفل منه، حتى يلقوها إلى الأرض ـ وربما قال سفيان: حتى تنتهى إلى الأرض فتلقى[٤] على فم الساحر ـ أو: الكاهن ـ فيكذب معها مائة كذبة[٥]، فيقولون: ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا، فوجدناه حقاً؟ للكلمة التى سمعت من السماء»[٦].

ثم ذكر، تعالى، خلقه الأرض، ومده إياها وتوسيعها وبسطها، وما جعل فيها من الجبال الرواسى، والأودية والأراضى والرمال، وما أنبت فيها من الزروع والثمار المتناسبة.

وقال ابن عباس: ﴿ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾ أى: معلوم. وكذا قال سعيد بن جبير، وعكرمة، وأبو مالك، ومجاهد، والحكم بن عُتَيبة[٧]، والحسن بن محمد، وأبو صالح، وقتادة.

ومنهم من يقول: مقدر بقدر.

وقال ابن زيد: من كل شىء يُوزَن[٨] ويقدر بقدر. وقال ابن زيد: ما تزنه [أهل][٩] الأسواق.

وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾: يذكر، تعالى، أنه صرفهم فى الأرض فى صنوف [من][١٠] الأسباب والمعايش، وهى جمع معيشة.

وقوله: ﴿ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾: قال مجاهد: وهى الدواب والأنعام.

وقال ابن جرير: هم العبيد والإماء والدواب والأنعام.

والقصد أنه، تعالى، يمتن[١١] عليهم بما يَسر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب وصنوف المعايش، وبما سخر لهم من الدواب التى يركبونها والأنعام التى يأكلونها، والعبيد والإماء التى يستخدمونها، ورزقهم على خالقهم لا عليهم فلهم هم المنفعة، والرزق على الله تعالى.

[وقوله][١٢]:

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥) ﴾.

يخبر، تعالى، أنه مالك كل شىء، وأن كل شىء سهل عليه، يسير لديه، وأن[١٣] عنده خزائن

(١) فى أ: «بعضاً».
(٢، ٣) زيادة من ت، أ، والبخارى.
(٤) فى ت، أ: «فيلقى».
(٥) فى ت، أ: «كذبة فيصدق».
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٧٠١).
(٧) فى أ: «عيينة».
(٨) فى أ: «موزون».
(٩) زيادة من ت، أ.
(١٠) زيادة من أ.
(١١) فى ت: «يمتن تعالى».
(١٢) زيادة من أ.
(١٣) فى ت، أ: «وأنه».

الأشياء من جميع الصنوف، ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾، كما يشاء وكما يريد، ولما لَهُ فى ذلك من الحكمة البالغة، والرحمة بعباده، لا على [وجه][1] الوجوب، بل هو كتب على نفسه الرحمة.

قال يزيد بن أبى زياد، عن أبى جحيفة، عن عبد الله: ما من عام بأمطر من عام، ولكن الله يقسمه حيث شاء[2]، عاماً هاهنا، وعاماً هاهنا. ثم قرأ: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾. رواه ابن جرير[3].

وقال أيضاً: حدثنا القاسم، حدثنا الحسن[4]، حدثنا هُشَيْم، أخبرنا إسماعيل بن سالم، عن الحكم بن عُتَيْبَة[5] فى قوله: ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ قال: ما[6] عام بأكثر مطراً من عام ولا أقل، ولكنه يُمطر قوم ويحرم آخرون وربما[7] كان فى البحر. قال: وبلغنا أنه ينزل مع المطر من الملائكة أكثر من عدد ولد إبليس وولد آدم، يُحصُون كلّ قطرة حيث تقع وما تنبت[8](9).

وقال البزار: حدثنا داود ـ وهو ابن بكر[10] التُسْتَرى ـ حدثنا حبَّان[11] بن أغلب بن تميم، حدثنى أبى، عن هشام، عن محمد بن سيرين، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «خزائن الله الكلام، فإذا أراد شيئاً قال له: كن، فكان»[12].

ثم قال: لا يرويه إلا أغلب، ولم يكن بالقوى، وقد حدث عنه غير واحد من المتقدمين، ولم يروه عنه إلا ابنه.

وقوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ أى: تلقح السحاب فَتُدر ماء، وتلقح الشجر فتتفتح عن أوراقها وأكمامها.

هذه «الرياح» ذكرها بصيغة الجمع، ليكون منها الإنتاج، بخلاف الريح العقيم فإنه أفردها، ووصفها بالعقيم، وهو عدم الإنتاج؛ لأنه لا يكون إلا من[13] شيئين فصاعدا.

وقال الأعمش، عن المِنْهَال بن عمرو، عن قيس بن السكن، عن عبد الله بن مسعود فى قوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ قال: ترسل الريح، فتحمل الماء من السماء، ثم تَمْرى السحاب، حتى تدر كما تَدِر اللَّقحَة.

وكذا قال ابن عباس، وإبراهيم النَّخَعى، وقتادة.

وقال الضحاك: يبعثها الله على السحاب، فتُلقحه، فيمتلئ[14] ماء.

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى أ: «يشاء».

(٣) تفسير الطبرى (١٤/ ١٤).

(٤) فى ت: «الحسين». (٥) فى أ: «عيينة». (٦) فى أ: «من».

(٧) فى هـ، ت، أ: «بما» والمثبت من الطبرى. (٨) فى ت: «ينبت».

(٩) تفسير الطبرى (١٤/ ١٤).

(١٠) وفى مخطوطة مسند البزار: «داود، وهو ابن بكير».

(١١) فى هـ، وفى مخطوطة مسند البزار: «حيان»، والمثبت من ت، أ.

(١٢) ورواه أبو الشيخ فى العظمة برقم (١٥٥) من طريق محمد بن عبد العزيز، عن حبان عن أبيه به.

(١٣) فى ت، أ: «بين». (١٤) فى ت: «فتمتلئ».

وقال عُبَيْد بن عُمَير الليثى: يبعث الله المُبشرّة فتَقمُّ الأرض قَمًّا ثم يبعث الله المثيرة[١] فتثير السحاب، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح الشجر، ثم تلا: ﴿ وأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾.

وقد روى ابن جرير، من حديث عبيس[٢] بن ميمون، عن أبى المُهَزّم، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «الريح الجنوب من الجنة، وهى [الريح اللواقح، وهى التى][٣] ذكر الله فى كتابه، وفيها منافع للناس»[٤]. وهذا إسناد ضعيف.

وقال الإمام أبو بكر عبد الله بن الزبير الحُمَيدى فى مسنده: حدثنا سفيان، حدثنا عمرو بن دينار، أخبرنى يزيد بن جُعْدُبة الليثى: أنه سمع عبد الله بن مِخْرَاق، يحدث عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق فى الجنة ريحاً بعد الريح بسبع سنين، وإن من دونها بابا مغلقاً، وإنما يأتيكم الريح من ذلك الباب، ولو فتح لأذرت ما بين السماء والأرض من شىء، وهى عند الله الأزيَبُ، وهى فيكم الجَنُوب»[٥].

وقوله: ﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ أى: أنزلناه لكم عَذْبا يُمكنكم أن تشربوا منه، ولو نشاء لجعلناه أجاجاً. كما ينبه الله[٦] على ذلك فى الآية الأخرى فى سورة «الواقعة»، وهو[٧] قوله: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ .أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ .لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨ـ٧٠]، وفى قوله: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ [النحل: ١٠].

وقوله: ﴿ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾: قال سفيان الثورى: بمانعين.

ويحتمل أن المراد: وما أنتم له بحافظين، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم، ونجعله معينا وينابيع[٨] فى الأرض، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به، ولكن من رحمته أنزله وجعله عذبا، وحفظه فى العيون والآبار والأنهار وغير ذلك، ليبقى لهم فى طول السنة، يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم.

وقوله: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾: إخبار عن قدرته تعالى على بدء الخلق وإعادته، وأنه هو الذى أحيا الخلق من العدم، ثم يميتهم ثم يبعثهم[٩] كلهم ليوم الجمع.

وأخبر أنه، تعالى، يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون.

ثم قال مخبراً عن تمام علمه بهم، أولهم وآخرهم: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا

(١) فى ت: «الميثرة». (٢) فى ت: «عنبس».
(٣) زيادة من ت، أ، والطبرى.
(٤) تفسير الطبرى (١٤/ ١٥).
(٥) مسند الحميدى (١/ ٧١) وفى إسناده يزيد بن جعدبة كذبه مالك وغيره.
(٦) فى ت، أ: «تعالى». (٧) فى ت: «وهى».
(٨) فى ت: «وينابع». (٩) فى ت: «يبعث».

الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾: قال ابن عباس، رضى الله عنهما[١]: المستقدمون: كل من هلك من لدن آدم، عليه السلام، والمستأخرون: من هو حى ومن سيأتى إلى يوم القيامة.

وروى نحوه عن عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، ومحمد بن كعب، والشعبى، وغيرهم. وهو اختيار ابن جرير، رحمه الله[٢].

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن رجل[٣]، عن مَرْوان بن الحكم أنه قال: كان أناس يستأخرون فى الصفوف من أجل النساء فأنزل الله: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾[٤].

وقد ورد فى هذا حديث غريب جدا، فقال ابن جرير:

حدثنى[٥] محمد بن موسى الحَرَشِىَ، حدثنا نوح بن قيس، حدثنا عمرو بن مالك، عن أبى الجوزاء، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: كانت تصلى خلف رسول الله ﷺ امرأة ـ قال ابن عباس: لا والله ما إنْ رأيت مثلها قط، وكان بعض المسلمين إذا صلوا استقدموا يعنى: لئلا يراها ـ وبعض يستأخرون، فإذا سجدوا نظروا إليها من تحت أيديهم!! فأنزل الله: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾.

وكذا رواه أحمد وابن أبى حاتم فى تفسيره، والترمذى والنسائى فى كتاب التفسير من سننيهما[٦]، وابن ماجة من طرق عن نوح بن قيس الحُدانى[٧]. وقد وثقه أحمد وأبو داود وغيرهما، وحكى عن ابن معين تضعيفه، وأخرج له مسلم وأهل السنن.

وهذا الحديث فيه نكارة شديدة، وقد رواه عبد الرزاق، عن جعفر بن سليمان، عن عمرو بن مالك وهو النكرى[٨] أنه سمع أبا الجوزاء يقول فى قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾، فى الصفوف فى الصلاة ﴿وَالْمُسْتَأْخِرِينَ﴾. فالظاهر أنه من كلام أبى الجوزاء فقط، ليس فيه لابن عباس ذكر[٩]. وقد قال الترمذى: هذا أشبه من رواية نوح بن قيس[١٠]، والله أعلم.

وهكذا روى ابن جرير عن محمد بن أبى معشر، عن أبيه: أنه سمع عون بن عبد الله يُذاكر محمد بن كعب فى قوله: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾، وأنها فى صفوف

---

(١) فى ت: «عنه».

(٢) انظر: تفسير الطبرى (١٤/ ١٦، ١٧).

(٣) فى هـ، ت، أ: «عن أبيه أخبرنا» والمثبت من الطبرى.

(٤) تفسير الطبرى (١٤/ ١٨).

(٥) فى أ: «حدثنا».

(٦) فى أ: «سننهما».

(٧) تفسير الطبرى (١٤/ ١٨) والمسند (١/ ٣٠٥) وسنن الترمذى برقم (٣١٢٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٢٧٣) وسنن ابن ماجة برقم (١٠٤٦).

(٨) فى ت، أ: «البكرى».

(٩) تفسير عبد الرزاق (١/ ٣٠١).

(١٠) سنن الترمذى برقم (٣١٢٢) وعبارته: «وروى جعفر بن سليمان هذا الحديث، عن عمرو بن مالك، عن أبى الجوزاء نحوه، ولم يذكر فيه عن ابن عباس، وهذا أشبه أن يكون أصح من حديث نوح».

الصلاة، فقال محمد بن كعب: ليس هكذا، ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ ﴾: الميت والمقتول و﴿الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾: من يُخلقُ بَعْدُ، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾، فقال عون بن عبد الله: وفقك الله وجزاك خيراً[١].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧) ﴾.

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: المراد بالصلصال هاهنا: التراب اليابس.

والظاهر أنه كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ . وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ [الرحمن: ١٤، ١٥].

وعن مجاهد أيضاً: الصلصال: المنتن.

وتفسير الآية بالآية أولى[٢].

وقوله: ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ أى: الصلصال من حمأ، وهو: الطين. والمسنون: الأملس، كما قال الشاعر[٣]:

ثُمَّ خاصرتها إلى القُبَّة الخضـ ـــراء تَمْشى فى مَرْمَر مَسْنُون

أى: أملس صقيل.

ولهذا روى عن ابن عباس: أنه قال: هو التراب الرطب. وعن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك أيضاً: أن الحمأ المسنون هو المنتن. وقيل: المراد بالمسنون هاهنا: المصبوب.

وقوله: ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ ﴾ أى: من قبل الإنسان ﴿ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴾ قال ابن عباس: هى السموم التى تقتل.

وقال بعضهم: السموم بالليل والنهار. ومنهم من يقول: السموم بالليل، والحرور بالنهار.

وقال أبو داود الطيالسى: حدثنا شعبة، عن أبى إسحاق قال: دخلت على عَمْرو الأصم أعوده، فقال: ألا أحدّثك حديثا سمعته من عبد الله بن مسعود، يقول: هذه السموم جزء من سبعين جزءا من السموم التى خلق[٤] منها الجان، ثم قرأ: ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴾[٥].

وعن ابن عباس: أن الجان خُلق من لهب النار، وفى رواية: من أحسن النار.

وعن عمرو بن دينار: من نار الشمس، وقد ورد فى الصحيح: «خُلقت الملائكة من نور،

(١) تفسير الطبرى (١٤/ ١٦).

(٢) فى أ: «الأولى».

(٣) هو عبد الرحمن بن حسان، والبيت فى اللسان، مادة (سنن).

(٤) فى ت، أ: «خلق الله منها».

(٥) ورواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٢١) من طريق شعبة به نحوه.

وخُلقت الجان من مارج من نار، وخُلق بنو آدم مما وصف لكم»[(١)] ومقصود الآية: التنبيه على شرف آدم، عليه السلام، وطيب عنصره، وطهارة مَحْتده[(٢)].

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٣٣) ﴾.

يذكر تعالى تنويهه بذكر آدم في ملائكته قبل خلقه له، وتشريفه إياه بأمره الملائكة بالسجود له. ويذكر تخلف إبليس عدوّه عن السجود له من بين سائر الملائكة، حَسَداً وكفراً، وعناداً واستكباراً، وافتخاراً بالباطل، ولهذا قال: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، وقوله[(٣)]: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

وقد روى ابن جرير هاهنا أثراً غريباً عجيباً، من حديث شبيب بن بشر، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس قال: لما خلق الله الملائكة قال: إني خالق بشراً من طين، فإذا سويته[(٤)] فاسجدوا له. قالوا: لا نفعل. فأرسل عليهم ناراً فأحرقتهم، ثم خلق ملائكة فقال لهم مثل ذلك، [فقالوا: لا نفعل. فأرسل عليهم نارا فأحرقتهم. ثم خلق ملائكة أخرى فقال: إني خالق بشرا من طين، فإذا أنا خلقته فاسجدوا له فأبوا، فأرسل عليهم نارا فأحرقتهم. ثم خلق ملائكة فقال: إني خالق بشرا من طين، فإذا أنا خلقته فاسجدوا له][(٥)]. قالوا[(٦)]: سمعنا وأطعنا، إلا إبليس كان من الكافرين الأولين[(٧)].

وفي ثبوت هذا عنه بعد، والظاهر أنه إسرائيلي، والله أعلم.

﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) ﴾.

يقول آمراً لإبليس أمراً كونياً لا يخالف ولا يمانع، بالخروج من المنزلة التي كان فيها من الملأ الأعلى، وإنه ﴿رَجِيمٌ﴾ أي: مرجوم. وإنه قد أتبعه لعنةً لا تزال متصلة به، لاحقةً له، متواترة عليه إلى يوم القيامة.

وعن سعيد بن جبير أنه قال: لما لعن الله إبليس، تغيرت صورته عن صورة الملائكة، ورن رنةً،

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٩٩٦) من حديث عائشة، رضي الله عنها.

(٢) في ت: «محقده». (٣) في ت، أ: «وقال في الآية الأخرى». (٤) في ت، أ: «خلقته».

(٥) زيادة من ت، أ، الطبري. (٦) في ت: «فقالوا».

(٦) تفسير الطبري (١٤/ ٢٢).

فكل رنة فى الدنيا إلى يوم القيامة منها. رواه ابن أبى حاتم.

وإنه لما تحقق الغضب الذى لا مَرَدَّ له، سأل من تمام حسده لآدم وذريته النظرة إلى يوم القيامة، وهو يوم البعث وأنه أجيب إلى ذلك استدارجاً له وإمهالا، فلما تحقق النظرة قبحه الله:

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (٤٤) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن إبليس وتمرده وعتوه أنه قال للرب: **﴿ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾**: قال بعضهم: أقسم بإغواء الله له.

قلت: ويحتمل أنه بسبب ما أغويتنى وأضللتنى **﴿ لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾** أى: لذرية آدم، عليه السلام **﴿ فِي الأَرْضِ﴾** أى: أحبب إليهم المعاصى وأرغِّبهم فيها، وأؤزّهم إليها، وأزعجهم إزعاجاً، **﴿ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ﴾** أى: كما أغويتنى ونَدَّرت على ذلك، **﴿ أَجْمَعِينَ . إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾**، كما قال: **﴿ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلا قَلِيلا﴾** [الإسراء: ٦٢].

قال الله تعالى له متهدداً ومتوعداً[(١)]: **﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾** أى: مرجعكم كلكم إلىّ، فأجازيكم بأعمالكم، إن خيرا فخير، وإن شراً فشر، كما قال تعالى: **﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾** [الفجر: ١٤].

وقيل: طريق الحق مرجعها إلى الله تعالى، وإليه تنتهى. قاله مجاهد، والحسن، وقتادة كما قال: **﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾** [النحل: ٩].

وقرأ قيس بن عُبَاد، ومحمد بن سيرين، وقتادة: «هَذَا صِرَاطٌ عَلِيٌّ مُسْتَقِيم»، كقوله: **﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾** [الزخرف: ٤] أى: رفيع. والمشهور القراءة الأولى.

وقوله: **﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾** أى: الذين قدرت لهم[(٢)] الهداية، فلا سبيل لك عليهم، ولا وصول لك إليهم، **﴿إِلا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾** استثناء منقطع.

وقد أورد ابن جَرِير هاهنا من حديث عبد الله بن المبارك، عن عبد الله بن موهب[(٣)]، حدثنا يزيد ابن قُسَيْط قال: كانت الأنبياء يكون لهم مساجد خارجةً من قراهم، فإذا أراد النبى أن يستنبئ ربه عن شيء، خرج إلى مسجده فصلى ما كتب الله له، ثم سأل ما بدا له، فبينا نبى فى مسجده إذ جاء عدو الله ـ يعنى: إبليس ـ حتى جلس بينه وبين القبلة، فقال النبى: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. [فقال

---

(١) فى ت، أ: «متوعداً ومهدداً». (٢) فى أ: «عليهم».
(٣) فى أ: «وهب».

عدو الله: أرأيت الذى تَعَوّذ منه؟ فهو هو. فقال النبى: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم][١] قال: فَرَدّد[٢] ذلك ثلاث مرات، فقال عدو الله: أخبرنى بأى شىء تنجو منى؟ فقال النبى: بل أخبرنى بأى شىء تغلب ابن آدم؟ مرتين، فأخذ كل [واحد][٣] منهما على صاحبه، فقال النبى: إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾. قال عدو الله: قد سمعت هذا قبل أن تولد. قال النبى: ويقول: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وإنى[٤] والله ما أحسست بك قط إلا استعذت بالله منك. قال عدو الله: صدقت، بهذا تنجو منى. فقال النبى: «أخبرنى بأى شىء تغلبُ ابن آدم»؟ قال: آخذه عند الغضب والهوى[٥].

وقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أى: جهنم موعد جميع من اتبع إبليس، كما قال عن القرآن: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧].

ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مقسوم﴾ أى: قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس يدخلونه، لا محيد لهم عنه ـ أجارنا الله منها ـ وكل يدخل من باب بحسب عمله، ويستقر فى دَرَك بقدر فعله.

قال إسماعيل بن عُلَيّة وشعبة كلاهما، عن أبى هارون الغَنَوىّ، عن حطان بن عبد الله أنه قال: سمعت على بن أبى طالب وهو يخطب قال: إن أبواب جهنم هكذا ـ قال أبو هارون: أطباقا بعضها فوق بعض[٦].

وقال إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن هُبَيرة بن يريم[٧]، عن على، رضى الله عنه، قال: أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض، فيمتلئ الأول، ثم الثانى، ثم الثالث، حتى تُمْلأ كلها[٨].

وقال عِكْرِمة: ﴿سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾: سبعة أطباق.

وقال ابن جُرَيْج: ﴿سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾: أولها جهنم، ثم لظَى، ثم الحُطَمة، ثم سعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية.

وروى[٩] الضحاك عن ابن عباس، نحوه. وكذا [روى][١٠] عن الأعمش بنحوه أيضا.

وقال قتادة: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾: وهى والله منازل بأعمالهم. رواهن ابن جرير.

وقال جويبر، عن الضحاك: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ قال: باب لليهود،

---

(١) زيادة من ت، أ، والطبرى. (٢) فى أ: «فرد».
(٣) زيادة من ت، والطبرى. (٤) فى أ: «وأنا».
(٥) تفسير الطبرى (١٤/ ٢٤).
(٦) رواه الطبرى فى تفسيره (١٤/ ٢٤).
(٧) فى ت: «مريم».
(٨) رواه الطبرى فى تفسيره (١٤/ ٢٤)
(٩) فى أ: «ورواه».

وباب للنصارى، وباب للصابئين، وباب للمجوس، وباب للذين أشركوا ـ وهم كفار العرب ـ وباب للمنافقين، وباب لأهل التوحيد، فأهل التوحيد يُرجَى لهم ولا يُرجى لأولئك أبداً.

وقال الترمذى: حدثنا عبد بن حُميد، حدثنا عثمان بن عمر، عن مالك بن مغْوَل، عن جُنَيد[(١)]، عن ابن عمر، عن النبى ﷺ قال: «لجهنم سبعة أبواب: باب منها لمن سلَّ السيف على أمتى ـ أو قال: على أمة محمد».

ثم قال: لا نعرفه إلا من حديث مالك بن مغْوَل[(٢)].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا، عباس بن الوليد الخلال، حدثنا زيد ـ يعنى: ابن يحيى ـ حدثنا سعيد بن بشير، عن قتادة، عن أبى نضرة، عن سَمُرة بن جُنْدَب، عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ قال: «إن من أهل النار من تأخذه النار إلى كعبيه، وإن منهم من تأخذه النار إلى حُجزته، ومنهم من تأخذه النار إلى تراقيه، منازل بأعمالهم، فذلك قوله: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾»[(٣)].

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧) لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ (٥٠)﴾.

لما ذكر تعالى حال أهل النار، عطف على ذكر أهل الجنة، وأنهم فى جنات وعيون.

وقوله: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ﴾ أى: سالمين من الآفات، مسلماً عليكم، ﴿آمِنِينَ﴾ من كل خوف وفزع، ولا تخشوا من إخراج، ولا انقطاع، ولا فناء.

وقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾: روى القاسم، عن أبى أمامة قال: يدخل أهل الجنة الجنة على ما فى صدورهم فى الدنيا من الشحناء والضغائن، حتى إذا توافوا وتقابلوا نَزَعَ الله ما فى صدورهم فى الدنيا من غل، ثم قرأ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾[(٤)].

هكذا فى هذه الرواية، والقاسم بن عبد الرحمن ـ فى روايته[(٥)] عن أبى أمامة ـ ضعيف.

وقد روى سُنَيْد فى تفسيره: حدثنا ابن فضالة، عن لقمان، عن أبى أمامة قال: لا يدخل مؤمن الجنة حتى ينزع الله ما فى صدورهم من غل، حتى ينزع منه مثل السبع الضارى[(٦)].

وهذا موافق لما فى الصحيح، من رواية قتادة، حدثنا أبو المتوكل الناجى: أن أبا سعيد الخدرى

---

(١) فى هـ، ت، أ: «حميد» والمثبت من الترمذى.

(٢) سنن الترمذى برقم (٣١٢٣) وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث مالك بن مغول».

(٣) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٥/ ٨٢) مطولاً، وأصل الحديث فى صحيح مسلم برقم (٢٨٤٥) دون ذكر الآية إلى قوله: «تأخذه النار إلى حجزته».

(٤) رواه الطبرى فى تفسيره (١٤/ ٢٥) من طريق إسرائيل، عن بشر البصرى، عن القاسم به.

(٥) فى ت: «رواية».

(٦) رواه الطبرى فى تفسيره (١٤/ ٢٥).

حدثهم: أن رسول الله ﷺ قال: «يَخلُص المؤمنون من النار، فيُحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيُقتص لبعضهم من بعضهم، مظالم كانت بينهم فى الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقّوا، أذن لهم فى دخول الجنة»(١).

وقال ابن جرير: حدثنا الحسن، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا هشام، عن محمد ـ هو ابن سيرين ـ قال: استأذن الأشتر على علىٍّ، رضى الله عنه، وعنده ابن لطلحة، فحبسه ثم أذن له. فلما دخل قال: إنى لأراك إنما احتبستنى لهذا؟ قال: أجل. قال: إنى لأراه لو كان عندك ابن لعثمان لحبستنى؟ قال: أجل إنى(٢)، لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ [إِخْوَانًا](٣) عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾(٤).

وحدثنا الحسن: حدثنا أبو معاوية الضرير، حدثنا أبو مالك الأشجعى، عن أبى حبيبة ـ مولى لطلحة ـ قال: دخل عمران بن طلحة على علىٍّ، رضى الله عنه، بعد ما فرغ من أصحاب الجمل، فرحب به وقال: إنى لأرجو أن يجعلنى الله وأباك من الذين قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ ـ قال: ورجلان جالسان على ناحية البساط، فقالا: الله أعدل من ذلك، تقتلهم بالأمس، وتكونون إخوانا! فقال على، رضى الله عنه: قُوما أبعد أرض وأسحقها! فمن هو إذاً إن لم أكن أنا وطلحة، وذكر أبو معاوية الحديث بطوله(٥).

وروى وكِيع، عن أبان بن عبد الله البجلى، عن نُعَيْم بن أبى هند، عن رِبْعى بن خِرَاش، عن على، نحوه، وقال فيه: فقام رجل من هَمْدان فقال: الله أعدل من ذاك يا أمير المؤمنين. قال: فصاح به على صيحة، فظننت أن القصر تَدهدَه لها، ثم قال: إذا لم نكن نحن فمن هو؟(٦).

وقال سعيد بن مسروق، عن أبى طلحة ـ وذكره ـ فيه: فقال الحارث الأعور ذلك، فقام إليه على، رضى الله عنه، فضربه بشىء كان فى يده فى رأسه، وقال: فمن هم(٧) يا أعور إذا لم نكن نحن؟

وقال سفيان الثورى: عن منصور، عن إبراهيم قال: جاء ابن جرموز قاتل الزبير يستأذن على علىٍّ، رضى الله عنه فحجبه طويلا، ثم أذن له، فقال له: أما أهل البلاء فتجفوهم. فقال على: بفيك التراب، إنى لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير، ممن قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٦٥٣٥).

(٢) فى أ: «أجل، قال: إنى». (٣) زيادة من ت،

(٤) تفسير الطبرى (١٤/ ٢٦).

(٥) تفسير الطبرى (١٤/ ٢٥).

(٦) رواه الطبرى فى تفسيره (١٤/ ٢٥) من طريق وكيع.

(٧) فى أ: «فمن هو».

وكذا روى الثورى، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن على، بنحوه.

وقال سفيان بن عيينة، عن إسرائيل، عن أبى موسى، سمع الحسن البصرى يقول: قال على: فينا والله ـ أهل بدر ـ نزلت هذه الآية: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾.

وقال كثير النَّواء: دخلت على أبى جعفر محمد بن على فقلت: وليى وليكم، وسلمى سلمكم،، وعدوى عدوكم، وحربى حربكم. إنى أسألك بالله: أتبرأ من أبى بكر وعمر؟ فقال: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ٥٦]، تولهما[(١)] يا كثير، فما أدركك فهو فى رقبتى هذه، ثم تلا هذه الآية: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ قال: أبو بكر، وعمر، وعلى، رضى الله عنهم أجمعين.

وقال الثورى، عن رجل، عن أبى صالح فى قوله: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾، قال: هم عشرة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص، وسعيد بن زيد، وعبد الله بن مسعود، رضى الله عنهم أجمعين.

وقوله: ﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾: قال مجاهد: لا ينظر بعضهم فى قفا بعض.

وفيه حديث مرفوع، قال ابن أبى حاتم:

حدثنا يحيى بن عبدك القزوينى، حدثنا حسان بن حسان، حدثنا إبراهيم بن بشير[(٢)]، حدثنا يحيى بن معين، عن إبراهيم القرشى، عن سعيد بن شرحبيل، عن زيد بن أبى أوفى قال: خرج علينا رسول الله ﷺ، فتلا هذه الآية: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾، فى الله، ينظر بعضهم إلى بعض[(٣)].

وقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ يعنى: المشقة والأذى، كما جاء فى الصحيحين: «إن الله أمرنى أن أبشر خديجة ببيت فى الجنة من قصَب، لا صخب فيه ولا نصب»[(٤)].

وقوله: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾، كما جاء فى الحديث: «يقال[(٥)]: يا أهل الجنة، إن لكم أن تصحوا فلا تمرضوا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا، وإن لكم أن تقيموا فلا تظعنوا أبدا»، وقال الله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨].

وقوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ أى: أخبر يا محمد عبادى أنى ذو رحمة وذو عقاب أليم.

وقد تقدم ذكر نظير هذه الآية الكريمة، وهى دالة على مقامى الرجاء والخوف، وذكر فى سبب

---

(١) فى ت: «برهما» وفى أ: «برها».

(٢) فى هـ، ت، أ: «بشر» والمثبت عن الجرح والتعديل ١/١/ ٦٠ مستفاداً من حاشية الشعب.

(٣) ورواه البخارى فى التاريخ الكبير (٣/ ٣٨٦) فى ترجمة زيد بن أبى أوفى ومن طريق حسان بن حسان به، وقال: «لا يتابع عليه».

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٨٢٠) وصحيح مسلم برقم (٢٤٣٢) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه.

(٥) فى أ: «فقال».

نزولها ما رواه موسى بن عبيدة عن مصعب بن ثابت قال: مر رسول الله ﷺ على ناس من أصحابه يضحكون، فقال: «اذكروا الجنة، واذكروا النار». فنزلت: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾، رواه ابن أبي حاتم. وهو مرسل(١).

وقال ابن جرير، حدثني المثنى، حدثنا إسحاق، أخبرنا ابن المكى، أخبرنا ابن المبارك، أخبرنا مصعب بن ثابت، حدثنا عاصم بن عبيد الله، عن ابن أبي رباح، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: طلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذى يدخل منه بنو شيبة، فقال: «ألا أراكم تضحكون؟» ثم أدبر، حتى إذا كان عند الحجر رجع إلينا القهقرى، فقال: «إنى لما خرجت جاء جبريل، عليه السلام، فقال: يا محمد، إن الله يقول(٢): لم تقنط(٣) عبادى؟ ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾»(٤).

وقال سعيد، عن قتادة فى قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام، ولو يعلم قدر عقابه لبخع نفسه»(٥).

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ (٥٦) ﴾.

يقول(٦) تعالى: وخبرهم يا محمد عن قصة ﴿ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ والضيف: يطلق على الواحد والجمع، كالزور والسَّفْر ـ وكيف ﴿دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أى: خائفون.

وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه لهم(٧) ضيافة، وهو العجل السمين الحنيذ.

﴿قَالُوا لا تَوْجَلْ﴾ أى: لا تخف، ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨] وهو إسحاق، عليه السلام، كما تقدم فى سورة هود.

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/ ٨٦) وعزاه لابن المنذر وابن أبى حاتم، وموسى بن عبيدة الربذى ضعيف.

(٢) فى أ: «يقول الله». (٣) فى ت: «يقنط».

(٤) تفسير الطبرى (١٤/ ٢٧).

(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (١٤/ ٢٧) وابن أبى الدنيا فى حسن الظن بالله برقم (٦٤) من طريق سعيد به مرسلاً، وروى موصولاً نحوه عن ابن عمر وأبى سعيد الخدرى، أما حديث ابن عمر، فرواه ابن أبى الدنيا فى حسن الظن بالله برقم (٦٣) من طريق موسى عن عطية، عن ابن عمر مرفوعاً: «لو تعلمون قدر رحمة الله عز وجل لا تكلتم وما عملتم من عمل، ولو علمتم قدر غضبه ما نفعكم شىء»، وحديث أبى سعيد، رواه البزار فى مسنده ولفظه: «لو تعلمون قدر رحمة الله لا تكلتم ـ أحسبه قال: عليها». وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٣٨٤): «إسناده حسن».

(٦) فى أ: «يخبر». (٧) فى ت، أ: «إليهم».

ثم قال[1] متعجباً من كبره وكبر زوجته ومتحققاً للوعد: ﴿ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾، فأجابوه مؤكدين لما بشروه به تحقيقاً وبشارة بعد بشارة، ﴿ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴾ وقرأ بعضهم: «القنطين»[2] ـ فأجابهم بأنه ليس يقنط، ولكن يرجو من الله الولد، وإن كان قد كبر وأسنَّت امرأته، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك.

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٥٨) إِلا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠) ﴾.

يقول تعالى إخبارا عن إبراهيم، عليه السلام، لما ذهب عنه الروع وجاءته البشرى: إنه شرع يسألهم عما جاؤوا له، فقالوا: ﴿ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾، يعنون: قوم لوط. وأخبروه أنهم سينجون آل لوط من بينهم إلا امرأته فإنها من المهلكين؛ ولهذا قالوا: ﴿ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي: الباقين الملهكين.

﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤) ﴾.

يخبر تعالى عن لوط لما جاءته الملائكة فى صورة شباب حسان الوجوه، فدخلوا عليه داره، قال: ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ. قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ يعنون: بعذابهم وهلاكهم ودمارهم الذى كانوا يشكون فى وقوعه بهم، وحلوله بساحتهم، ﴿ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾، كما قال تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨].

وقوله: ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾: تأكيد لخبرهم[3] إياه بما أخبروه به، من نجاته وإهلاك قومه، [والله أعلم][4].

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦) ﴾.

يذكر تعالى عن الملائكة أنهم أمروه أن يَسرى بأهله بعد مضى جانب من الليل، وأن يكون لوط، عليه السلام، يمشى وراءهم، ليكون أحفظ لهم.

وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشى فى الغَزاة بما كان يكون[5] ساقة، يُزجى الضعيف، ويحمل المنقطع[6].

وقوله: ﴿وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أى: إذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم، وذروهم فيما

(١) فى ت، أ: «فقال». (٢) فى ت، أ: «المقنطين».
(٣) فى ت: «بخبرهم». (٤) زيادة من أ.
(٥) فى ت: «فى الغزو إنما كان»، وفى أ: «فى الغزو وإنما يكون».
(٦) رواه أبو داود فى السنن برقم (٢٦٣٩) من حديث جابر ولفظه: «كان رسول الله ﷺ يتخلف فى المسير، فيزجى الضعيف، ويردف، ويدعو لهم».

حل بهم من العذاب والنكال، ﴿ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾، كأنه كان معهم من يهديهم السبيل.

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ﴾ أي: تقدمنا إليه في هذا ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ أي: وقت الصباح، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) ﴾.

يخبر تعالى عن مجيء قوم لوط لما علموا بأضيافه[1] وصباحة وجوههم، وأنهم جاؤوا مستبشرين بهم فرحين، ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ . وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ﴾.

وهذا إنما قاله لهم قبل أن يعلم بأنهم رسل الله كما في سياق[2] سورة هود، وأما هاهنا فتقدم ذكرُ أنهم رسل الله، وعطف بذكر مجيء قومه ومحاجته لهم. ولكن الواو لا تقتضي الترتيب، ولا سيما إذا دل دليل[3] على خلافه، فقالوا له مجيبين: ﴿ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ أي: أو ما نهيناك أن تضيف أحدا؟ فأرشدهم إلى نسائهم، وما خلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة. وقد تقدم أيضا القول في ذلك، بما أغنى عن إعادته.

هذا كله وهم غافلون عما يراد بهم، وما قد أحاط بهم من البلاء، وماذا يُصبحهم من العذاب المستقر؛ ولهذا قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾، أقسم تعالى بحياة نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، وفي هذا تشريف عظيم، ومقام رفيع وجاه عريض.

قال عمرو بن مالك النُّكْرى[4]، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس، أنه قال: ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال الله تعالى[5]: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [يقول: وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا إنهم لفي سكرتهم يعمهون][6]، رواه ابن جرير.

وقال قتادة: ﴿فِي سَكْرَتِهِمْ ﴾ أي: في ضلالتهم، ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ أي: يلعبون.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾: لعيشك، ﴿ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ قال: يتحيَّرون[7].

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً

---

(١) في ت: «بضيفانه». (٢) في ت: «سياقة». (٣) في ت: «دليله».
(٤) في ت: «البكري». (٥) في أ: «عز وجل». (٦) زيادة من ت، أ.
(٧) في ت، أ: «يتمادون».

لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) ﴾.

يقول: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ ﴾، وهى ما جاءهم من الصوت القاصف عند شروق الشمس، وهو طلوعها، وذلك مع رفع[(١)] بلادهم إلى عَنان السماء ثم قلبْها، وجعل عاليها سافلها، وإرسال حجارة السجيل عليهم. وقد تقدم الكلام على السجيل فى [سورة][(٢)] هود بما فيه كفاية.

وقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ أى: إن آثار هذه النقم ظاهرة[(٣)] على تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتوسَّمه بعين بصره وبصيرته، كما قال مجاهد فى قوله: ﴿ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ قال: المتفرسين.

وعن ابن عباس، والضحاك: للناظرين. وقال قتادة: للمعتبرين. وقال مالك عن بعض أهل المدينة: ﴿ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾: للمتأملين.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا محمد بن كثير العَبْدى، عن عمرو بن قيس، عن عطية، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فِراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله». ثم قرأ النبى ﷺ: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾.

رواه الترمذى، وابن جرير، من حديث عمرو بن قيس الملائى[(٤)]، وقال الترمذى: لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنى أحمد بن محمد الطوسى، حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا الفرات ابن السائب، حدثنا ميمون بن مِهْران، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن؛ فإن المؤمن ينظر[(٥)] بنور الله»[(٦)].

وقال ابن جرير: حدثنى أبو شرحبيل الحِمْصى، حدثنا سليمان بن سلمة، حدثنا المُؤَمَّل بن سعيد ابن يوسف الرَّحبى، حدثنا أبو المعلى أسد بن وَداعة الطائى، حدثنا وهب بن مُنَبِّه، عن طاوس بن كَيْسَان، عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «احذروا فراسة المؤمن؛ فإنه ينظر بنور الله وينطق بتوفيق الله»[(٧)].

وقال أيضاً: حدثنا عبد الأعلى بن واصل، حدثنا سعيد بن محمد الجرمى، حدثنا عبد الواحد بن واصل، حدثنا أبو بشر المزلق، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: قال النبى[(٨)] ﷺ: «إن لله عباداً

---

(١) فى ت: «رفيع».

(٢) زيادة من أ.

(٣) فى أ: «الظاهرة».

(٤) سنن الترمذى برقم (٣١٢٧) وتفسير الطبرى (١٤/ ٣١).

(٥) فى ت، أ: «يبصر».

(٦) تفسير الطبرى (١٤/ ٣٢) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٤/ ٩٤) من طريق فرات بن السائب به، وقال: «غريب من حديث ميمون لم نكتبه إلا من هذا الوجه». والفرات متروك.

(٧) تفسير الطبرى (١٤/ ٣٢) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٤/ ٨١) من طريق سليمان بن سلمة به، وقال: «غريب من حديث وهيب، تفرد به مؤمل عن أسد». وسليمان بن سلمة وشيخه المؤمل ضعيفان.

(٨) فى أ: «رسول الله».

يعرفون الناس بالتوسم»[(١)].

ورواه الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا سهل بن بحر، حدثنا سعيد بن محمد الجرمى، حدثنا أبو بشر ـ يقال له: ابن المزلق، قال: وكان ثقة ـ عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم»[(٢)].

وقوله: ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ ﴾ أى: وإن قرية سدوم التى أصابها ما أصابها من القلب الصورى والمعنوى، والقذف بالحجارة، حتى صارت بحيرة[(٣)] منتنة خبيثة لبطريق مهْيَع مسالكه[(٤)]، مستمرة إلى اليوم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

وقال مجاهد، والضحاك: ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ ﴾ قال: مُعَلَّم. وقال قتادة: بطريق واضح. وقال قتادة أيضاً: بصقع من الأرض واحد.

وقال السدى: بكتاب مبين، يعنى كقوله: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس: ١٢]، ولكن ليس المعنى على ما قال هاهنا، والله أعلم.

وقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى: إن الذى صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار وإنجائنا لوطا وأهله، لدلالة واضحة جلية[(٥)] للمؤمنين بالله ورسله.

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (٧٨) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ (٧٩) ﴾.

أصحاب الأيكة: هم قوم شعيب.

قال الضحاك، وقتادة، وغيرهما: الأيكة: الشجر الملتف.

وكان ظلمهم بشركهم بالله وقطعهم الطريق، ونقصهم المكيال والميزان. فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة، وقد كانوا قريباً من قوم لوط، بَعْدَهم فى الزمان، ومسامتين لهم فى المكان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أى: طريق مبين.

قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: طريق ظاهر؛ ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال فى نذارته إياهم: ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٩].

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا

---

(١) تفسير الطبرى (١٤/ ٣٢) ورواه القضاعى فى مسند الشهاب برقم (١٠٠٥) والطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٥٠٠٤) «مجمع البحرين» من طريق أبى بشر المزلق به، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٦٨): «إسناده حسن». وقال الذهبى فى ترجمة أبى بشر المزلق: «روى خبراً منكراً فذكره» وهذا أقرب.

(٢) مسند البزار برقم (٣٦٣٢) «كشف الأستار» وقال: «لا نعلم رواه عن ثابت، عن أنس إلا أبو بشر».

(٣) فى ت: «بخرة»، وفى أ: «بخرة».

(٤) فى ت، أ: «سالكة».

(٥) فى أ: «جليلة».

كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤) ﴾.

أصحاب الحجر هم: ثمود الذين كذبوا صالحا نبيهم، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين؛ ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين.

وذكر تعالى أنه أتاهم من الآيات ما يدلهم على صدق ما جاءهم به صالح، كالناقة التى أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء فكانت[1] تسرح فى بلادهم، لها شرب ولهم شرب يوم معلوم. فلما عتَوا وعقروها قال لهم: ﴿ **تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ** ﴾ [هود: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿**وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ** ﴾ [فصلت: ١٧].

وذكر تعالى: أنهم ﴿**كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ** ﴾ أى: من غير خوف ولا احتياج إليها، بل أشرا وبطرا وعبثا، كما هو المشاهد من صنيعهم فى بيوتهم بوادى الحجر، الذى مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك فَقَنَّع رأسه وأسرع دابته، وقال لأصحابه: «لا تدخلوا بيوت القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم»[2].

وقوله: ﴿ **فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ** ﴾ أى: وقت الصباح من[3] اليوم الرابع، ﴿ **فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ أى: ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التى ضَنُّوا بمائها عن الناقة، حتى عقروها لئلا تضيق عليهم فى المياه، فما دفعت عنهم تلك الأموال، ولا نفعتهم لما جاء أمر ربك.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨٦) ﴾.

يقول تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَق** ﴾ أى: بالعدل؛ ﴿ **لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى** ﴾ [النجم: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ** ﴾[ص: ٢٧]، وقال: ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ** ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

ثم أخبر نبيه بقيام الساعة، وإنها كائنة لا محالة، ثم أمره بالصفح الجميل عن المشركين، فى أذاهم له وتكذيبهم ما جاءهم[4] به، كما قال تعالى: ﴿ **فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**[5] ﴾ [الزخرف: ٨٩].

وقال مجاهد وقتادة وغيرهما: كان هذا قبل القتال. وهو كما قالا، فإن هذه مكية، والقتال إنما

---

(١) فى ت: «وكانت».

(٢) جاء من حديث ابن عمر، رضى الله عنهما، رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٣٨٠) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٩٨) ولفظه: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم..» الحديث. ورواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٧٠٢) بلفظ: «لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم».

(٣) فى أ: «فى». (٤) فى ت، أ: «ما جاء». (٥) فى ت: «تعلمون».

شرع بعد الهجرة.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾: تقرير للمعاد، وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة، فإنه الخلاق الذى لا يعجزه خلق ما يشاء، وهو العليم بما تمزق[1] من الأجساد، وتفرق[2] فى سائر أقطار الأرض، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ . فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨١ ـ٨٣].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨)﴾.

يقول تعالى لنبيه: كما آتيناك القرآن العظيم، فلا تنظرن إلى الدنيا وزينتها، وما متعنا به أهلها من الزهرة الفانية لنفتنهم فيه، فلا تغبطهم بما هم فيه، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حزنا عليهم فى تكذيبهم لك، ومخالفتهم دينك. ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥] أى: ألن لهم جانبك[3]، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقد اختلف فى السبع المثانى: ما هى؟

فقال ابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك وغير واحد: هى السبع الطُّوَل. يعنون: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس، نص عليه ابن عباس، وسعيد بن جبير.

وقال سعيد: بيَّن[4] فيهن الفرائض، والحدود، والقصص، والأحكام.

وقال ابن عباس: بين[5] الأمثال والخَبَر والعبر[6].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا ابن أبى عمر قال: قال سفيان: ﴿الْمَثَانِي﴾: المُثَنَّى[7]: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال وبراءة[8] سورة واحدة.

قال ابن عباس: ولم يُعْطهن أحد إلا النبى ﷺ، وأعطى موسى منهن ثنتين. رواه هُشَيم، عن الحجاج، عن الوليد بن العيزار[9]، عن سعيد بن جُبير عنه.

[و][10] قال الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: أوتى النبى ﷺ سبعاً من المثانى الطُّوَل، وأوتى موسى، عليه السلام، ستاً، فلما ألقى الألواح ارتفع[11] اثنتان وبقيت أربع.

---

(١) فى ت، أ: «يمزق». (٢) فى ت، أ: «ويفرق». (٣) فى ت: «جنابك».
(٤، ٥) فى ت، أ: «ثنى». (٦) فى ت: «الخير والشر». (٧) فى ت: «المبين».
(٨) فى ت: «وبراءة والأنفال». (٩) فى ت: «العيزان». (١٠) زيادة من ت، أ.
(١١) فى ت، أ: «رفعت».

وقال مجاهد: هى السبع الطُول. ويقال: هى القرآن العظيم.

وقال خَصيف، عن زياد بن أبى مريم فى قوله تعالى: ﴿ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي ﴾ قال: أعطيتك سبعة أجزاء: آمر، وأنهى، وأبشر[(١)]، وأنذر، وأضرب الأمثال، وأعدِّد النعم، وأنبئك بنبأ[(٢)] القرآن. رواه ابن جرير، وابن أبى حاتم.

والقول الثانى: أنها الفاتحة، وهى سبع آيات. رُوى ذلك عن عمر وعلى، وابن مسعود، وابن عباس. قال ابن عباس: والبسملة هى[(٣)] الآية السابعة، وقد خصكم الله بها. وبه قال إبراهيم النَّخعى، وعبد الله بن عبيد بن عُمَير، وابن أبى مليكة، وشَهْر بن حَوْشَب، والحسن البصرى، ومجاهد.

وقال قتادة: ذكر لنا أنهن فاتحة الكتاب، وأنهن يثنين[(٤)] فى كل قراءة. وفى رواية: فى كل ركعة مكتوبة أو تطوع.

واختاره ابن جرير، واحتج بالأحاديث الواردة فى ذلك، وقد قدمناها فى فضائل سورة «الفاتحة» فى أول التفسير، ولله الحمد.

وقد أورد البخارى، رحمه الله، هاهنا حديثين:

أحدهما: قال: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غُنْدَر، حدثنا شعبة، عن خبيب بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبى سعيد بن المعلى قال: مر بى النبى ﷺ وأنا أصلى، فدعانى فلم آته حتى صليت، ثم أتينه فقال: «ما[(٥)] منعك أن تأتينى[(٦)]؟». فقلت: كنت أصلى. فقال: «ألم يقل الله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ألا أعلمك أعظم سورة فى القرآن قبل أن أخرج من المسجد؟» فذهب النبى ﷺ ليخرج، فذكرته[(٧)] فقال: «﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته»[(٨)].

[و][(٩)]**الثانى**: قال: حدثنا آدم، حدثنا ابن أبى ذئب، حدثنا المقبرى، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أم القرآن هى: السبع المثانى والقرآن العظيم»[(١٠)].

فهذا نص فى أن الفاتحة السبع المثانى والقرآن العظيم، ولكن لا ينافى[(١١)] وصف غيرها من السبع الطُوَل بذلك، لما فيها من هذه الصفة، كما لا ينافى وصف القرآن بكماله بذلك أيضاً، كما قال تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ ﴾ [الزمر: ٢٣]، فهو مثانى من وجه، ومتشابه من وجه، وهو القرآن العظيم أيضاً، كما أنه، عليه السلام[(١٢)]، لما سُئل عن المسجد الذى أسس على التقوى، فأشار إلى مسجده، والآية نزلت فى مسجد قُباء، فلا تنافى، فإن[(١٣)] ذكر الشىء لا ينفى[(١٤)]

(١) فى أ: «وبشر».
(٢) فى أ: «نبأ».
(٣) فى أ: «على».
(٤) فى ت: «يتبين» وفى أ: «تثنى».
(٥) فى أ: «ماذا».
(٦) فى ت، أ: «تأتى».
(٧) فى ت، أ: «فذكرت».
(٨) صحيح البخارى برقم (٤٧٠٣).
(٩) زيادة من أ.
(١٠) صحيح البخارى برقم (٤٧٠٤).
(١١) فى ت: «لا تنافى».
(١٢) فى أ: «ﷺ».
(١٣) فى ت: «لأن».
(١٤) فى ت: «ينافى».

ذكر ما عداه إذا اشتركا فى تلك الصفة، والله أعلم.

وقوله: ﴿ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ ﴾ أى: استغن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية.

ومن هاهنا ذهب ابن عُيَيْنَة إلى تفسير الحديث الصحيح: «ليس منا من لم يتغَنَّ بالقرآن»[(١)]، إلى أنه يُستغنى به عما عداه، وهو تفسير صحيح، ولكن ليس هو المقصود من الحديث، كما تقدم فى أول التفسير.

وقال ابن أبى حاتم: ذكر عن وَكِيع بن الجراح، حدثنا موسى بن عبيدة، عن يزيد بن عبد الله بن قُسَيط، عن أبى رافع صاحب النبى ﷺ قال: أضاف النبىُ ﷺ ضيف[(٢)]، ولم يكن عند النبى ﷺ شىء[(٣)] يصلحه، فأرسل إلى رجل من اليهود: يقول لك محمد رسول الله: أسلفنى دقيقا إلى هلال رجب. قال: لا، إلا برَهْن. فأتيت النبى ﷺ [فأخبرته][(٤)] فقال: «أما والله إنى لأمين من فى السماء وأمين من فى الأرض، ولئن أسلفنى أو باعنى لأؤدين إليه». فلما خرجت من عنده نزلت هذه الآية: ﴿ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ إلى آخر الآية [طه: ١٣١]. كأنه[(٥)] يعزيه عن الدنيا[(٦)].

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ قال: نهى الرجل أن يتمنى مال صاحبه.

وقال مجاهد: ﴿ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ ﴾: هم الأغنياء.

﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾.

يأمر تعالى نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، أن[(٧)] يقول للناس: إنه ﴿ النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾، البين النِّذَارة، نذير للناس من عذاب أليم أن يحل بهم على تكذيبه كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسلها، وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام.

وقوله: ﴿الْمُقْتَسِمِينَ ﴾ أى: المتحالفين، أى: تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم، كما قال تعالى إخباراً عن قوم صالح أنهم: ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ [النمل: ٤٩]، أى: نقتلهم ليلا، قال مجاهد: تقاسموا: تحالفوا.

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ [النحل: ٣٨]، ﴿ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، ﴿ أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾ [الأعراف: ٤٩]، فكأنهم كانوا لا يكذبون بشىء إلا أقسموا عليه، فسموا مقتسمين.

---

(١) وانظر فيما تقدم فى فضائل القرآن، باب: من لم يتغن بالقرآن.
(٢) فى ت: «ضيفا» وهو الصواب.
(٣) فى ت، أ: «أمرا».
(٤) زيادة من ت، أ.
(٥) فى ت: «كما».
(٦) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١/ ٣٣١) من طريق عبد الله بن نمير، عن موسى بن عبيدة به نحوه، وقال العراقى: «إسناده ضعيف» وذلك لأجل موسى بن عبيدة الربذى.
(٧) فى ت، أ: «بأن».

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: المقتسمون أصحاب صالح، الذين تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله.

وفي الصحيحين، عن أبي موسى [الأشعري](١)، عن النبي ﷺ قال: «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به، كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم، إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فالنجاء النجاء! فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا، وانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبه طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبَّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكَذب ما جئت به من الحق»(٢).

وقوله: ﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ أي: جَزَّؤوا كتبهم المنزلة عليهم، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض.

قال البخاري: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هشيم، أنبأنا أبو بشر، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس: ﴿ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ قال: هم أهل الكتاب، جَزَّؤوه أجزاء، فآمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه(٣) (٤).

حدثنا عبيد الله بن موسى، عن الأعمش، عن أبي(٥) ظَبْيان، عن ابن عباس: ﴿ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴾ قال: آمنوا ببعض، وكفروا ببعض: اليهُود والنصارى(٦).

قال ابن أبي حاتم: وروى عن مجاهد، وعِكْرِمة، وسعيد بن جبير، والحسن، والضحاك، مثل ذلك.

وقال الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ قال: السحر(٧).

وقال عكرمة: العَضْهُ: السحر بلسان قريش، تقول(٨) للساحرة: إنها العاضهة(٩).

وقال مجاهد: عَضوه أعضاء، قالوا: سحر، وقالوا: كهانة، وقالوا: أساطير الأولين.

وقال عطاء: قال بعضهم: ساحر، وقال بعضهم: مجنون. وقال بعضهم كاهن. فذلك العضين(١٠). وكذا روى عن الضحاك وغيره.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عباس: أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا شرف(١١) فيهم، وقد حضر الموسم فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر

---

(١) زيادة من ت، أ.

(٢) صحيح البخاري برقم (٦٤٨٢، ٧٢٨٣) وصحيح مسلم برقم (٢٢٨٣).

(٣) صحيح البخاري برقم (٤٧٠٥).

(٤) في هـ بعد قوله «وكفروا ببعضه» ما يلي:

«حدثنا عبيد الله بن موسى، عن الأعمش، عن أبي ظبيان، عن ابن عباس: ﴿ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ قال: هم أهل الكتاب، جزؤوه أجزاء، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه» وليس في صحيح البخاري ولا في باقي النسخ، وهو خطأ.

(٥) في ت: «ابن».

(٦) صحيح البخاري برقم (٤٧٠٦).

(٧) في ت، أ: «سحر». (٨) في ت: «يقول». (٩) في ت: «الكاهنة».

(١٠) في ت: «الحضين». (١١) في ت، أ: «ذا سن».

صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيا واحدا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضا. فقالوا: وأنت يا أبا عبد شمس، فقل[١] وأقم لنا رأيا نقول به. قال: بل أنتم قولوا[٢] لأسمع. قالوا: نقول[٣]: «كاهن». قال: ما هو بكاهن. قالوا: فنقول: «مجنون». قال: ما هو بمجنون! قالوا[٤]: فنقول: «شاعر». قال: ما هو بشاعر! قالوا: فنقول: «ساحر». قال: ما هو بساحر! قالوا: فماذا نقول؟ قال: والله إن لقوله حلاوة، فما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرف أنه باطل، وإن أقرب القول أن تقولوا: هو ساحر. فتفرقوا عنه بذلك، وأنزل الله فيهم: ﴿ **الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ** ﴾: أصنافا[٥]، ﴿**فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾، دُوينك[٦] النفر الذين قالوا: ذلك لرسول الله.

وقال عطية العَوفى، عن ابن عمر[٧] فى قوله: ﴿ **لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ قال: عن لا إله إلا الله.

وقال عبد الرزاق. أنبأنا الثورى، عن ليث ـ هو ابن أبى سليم ـ عن مجاهد، فى قوله: ﴿ **لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ قال: عن [٨] لا إله إلا الله[٩].

وقد روى الترمذى، وأبو يعلى الموصلى، وابن جرير، وابن أبى حاتم، من حديث شريك القاضى، عن ليث بن أبى سليم، عن بَشير[١٠] بن نَهيك، عن أنس، عن النبى ﷺ: ﴿ **فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ [قال][١١]: عن لا إله إلا الله[١٢].

ورواه ابن إدريس، عن ليث، عن بشير[١٣]، عن أنس موقوفا[١٤].

وقال ابن جرير: حدثنا أحمد، حدثنا أبو أحمد، حدثنا شريك، عن هلال، عن عبد الله بن عُكَيم قال: قال عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ: والذى لا إله غيره، ما منكم من أحد إلا سيخلو الله به يوم القيامة، كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر، فيقول: ابن آدم، ماذا[١٥] غرك منى بى؟ ابن آدم، ماذا عملتَ فيما علمت؟ ابن آدم، ماذا أجبت المرسلين[١٦]؟

وقال أبو جعفر: عن الربيع، عن أبى العالية: قال: يسأل العباد كلهم عن خُلَّتين يوم القيامة، عما كانوا يعبدون، وماذا أجابوا المرسلين.

---

(١) فى ت: «فقيل». (٢) فى ت، أ: «تقولوا». (٣) فى ت: «فنقول».
(٤) فى أ: «قال». (٥) فى ت: «أضيافا». (٦) فى ت، أ: «أولئك».
(٧) فى أ: «عن ابن عباس». (٨) فى أ: «عن قول».
(٩) تفسير عبد الرزاق (١/ ٣٠٣).
(١٠) فى ت، أ: «بشر». (١١) زيادة من ت، أ.
(١٢) سنن الترمذى برقم (٣١٢٦) ومسند أبى يعلى (٧/ ١١١) وهو عندهما من طريق ليث بن أبى سليم، عن بشر، عن أنس، وفى تفسير الطبرى (١٤/ ٤٦) رواه من طريق شريك عن بشر عن أنس، وقال الترمذى: «هذا حديث غريب إنما نعرفه من حديث ليث ابن أبى سليم، وقد روى عبد الله بن أدريس، عن ليث بن أبى سليم، عن بشر، عن أنس نحوه ولم يرفعه».
(١٣) فى أ: «بشر».
(١٤) أشار إليه الترمذى كما تقدم، ورواه الطبرى فى تفسيره (١٤/ ٤٦) من طريق أبى كريب وأبى السائب، عن ابن إدريس به موقوفًا.
(١٥) فى ت: «ما».
(١٦) تفسير الطبرى (١٤/ ٤٦).

وقال ابن عيينة: عن عملك، وعن مالك.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن أبى الحُوَّارى، حدثنا يونس الحذاء، عن أبى حمزة الشيبانى، عن معاذ بن جبل قال: قال لى رسول الله ﷺ: «يا معاذ، إن المؤمن ليسأل[1] يوم القيامة عن جميع سعيه، حتى كحل عينيه، وعن[2] فتات الطينة بأصبعيه، فلا ألفينك يوم القيامة[3]، وأحد أسعد بما آتى[4] الله منك»[5].

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِين. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾، ثم قال: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ ﴾ [الرحمن: ٣٩] قال: لا يسألهم: هل عملتم كذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا؟

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩) ﴾.

يقول تعالى آمراً رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، بإبلاغ ما بعثه به وبإنفاذه[6] والصدع به، وهو مواجهة المشركين به، كما قال ابن عباس: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ أى: أمضه. وفى رواية: افعل ما تؤمر.

وقال مجاهد: هو الجهر بالقرآن فى الصلاة.

وقال أبو عبيدة، عن[7] عبد الله بن مسعود: ما زال النبى ﷺ مستخفيا، حتى نزلت: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾، فخرج هو وأصحابه[8].

وقوله: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ أى: بلغ ما أنزل إليك من ربك، ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله. ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم: ٩]، ولا تخفهم؛ فإن الله كافيك إياهم، وحافظك منهم، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا يحيى بن محمد بن السكن، حدثنا إسحاق بن إدريس، حدثنا عون بن كَهْمَس، عن يزيد بن درهم، قال: سمعت أنساً[9] يقول فى هذه الآية: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ

(١) فى أ: «يسأل». (٢) فى أ: «وحتى».
(٣) فى أ: «فلا ألفينك تأتى يوم القيامة». (٤) فى ت، أ: «أتاك».
(٥) ورواه أبو نعيم فى الحلية (١٠/ ٣١) من طريق إسحاق بن أبى حسان، عن أحمد بن أبى الحوارى به نحوه، وسيأتى مطولاً عند تفسير الآية: ١٤ من سورة الفجر، وقد علق الحافظ ابن كثير: «حديث غريب جداً فى إسناده نظر وفى صحته».
(٦) فى أ: «وإنفاذه». (٧) فى ت، أ: «ابن».
(٨) رواه الطبرى فى تفسيره (١٤/ ٤٧).
(٩) فى ت، أ، هـ: «عن أنس قال: «سمعت أنساً» وهو تحريف وقد وقع مثله فى كشف الأستار للهيثمى.

الْمُسْتَهْزِئِينَ. الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ قال: مر رسول الله ﷺ، فغمزه بعضهم، فجاء جبريل ـ أحسبه قال: فغمزهم فوقع فى أجسادهم ـ كهيئة الطعنة حتى ماتوا[١].

وقال محمد بن إسحاق: كان عظماء المستهزئين ـ كما حدثنى يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير ـ خمسة نفر، كانوا ذوى أسنان وشرف فى قومهم، من بنى أسد بن عبد العزى بن قُصى: الأسود بن المطلب أبو[٢] زمعة، كان رسول الله ﷺ ـ فيما بلغنى ـ قد دعا عليه، لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه [به][٣]، فقال: اللهم، أعم بصره، وأثكله ولده. ومن بنى زهرة: الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زُهرة. ومن بنى مخزوم: الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عُمَر بن مخزوم. ومن بنى سهم بن عمرو بن هُصيص بن كعب بن لؤى: العاص بن وائل بن هشام بن سُعَيد ابن سعد. ومن خزاعة: الحارث بن الطّلاطلة بن عمرو بن الحارث بن عبد عمرو بن ملْكان ـ فلما تمادوا فى الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء، أنزل الله تعالى: **﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾** إلى قوله: **﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾**.

وقال ابن إسحاق: فحدثنى يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير، أو غيره[٤] من العلماء، أن جبريل أتى رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت، فقام وقام رسول الله ﷺ إلى جنبه، فمر به الأسود [ابن المطلب فرمى فى وجهه بورقة خضراء، فعمى، ومر به الأسود][٥] بن عبد يغوث، فأشار إلى بطنه، فاستسقى[٦] بطنه، فمات منه حَبَنًا، ومر به الوليد بن المغيرة، فأشار إلى أثر جُرح بأسفل كعب رجله ـ كان أصابه قبل ذلك بسنتين وهو يجر إزاره، وذلك أنه مر برجل من خزاعة يريش نبلا له، فتعلق سهم من نبله بإزاره، فخدش رجله ذلك الخدش، وليس بشىء، فانتقض به فقتله. ومر به العاص بن وائل، فأشار إلى أخمص قدمه، فخرج على حمار له يريد الطائف، فربَض[٧] على شِبْرِقَة فدخلت فى أخمص رجله منها شوكة فقتلته. ومر به الحارث بن الطلاطلة، فأشار إلى رأسه، فامتخط قيحا، فقتله[٨].

قال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد، عن رجل، عن ابن عباس قال: كان رأسُهم الوليد بن المغيرة، وهو الذى جمعهم.

وهكذا روى عن سعيد بن جبير وعكرمة، نحو سياق محمد بن إسحاق، عن يزيد، عن عروة، بطوله، إلا أن سعيداً يقول: الحارث بن غيطلة. وعكرمة يقول: الحارث بن قيس.

قال الزهرى: وصدقا، هو الحارث بن قيس، وأمه غيطلة.

وكذا روى عن مجاهد، ومِقْسَم، وقتادة، وغير واحد، أنهم كانوا خمسة.

---

(١) مسند البزار برقم (٢٢٢٢) «كشف الأستار» ونقل عنه الهيثمى قوله: «تفرد به يزيد بن درهم، عن أنس ولا أعلم له عن أنس غيره»، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/٤٦): «فيه يزيد بن درهم، ضعفه ابن معين، ووثقه الفلاس».

(٢) فى ت: «ابن».

(٣) زيادة من ت، أ.

(٤) فى ت: «وغيره».

(٥) زيادة من ت، أ، وابن هشام والطبرى.

(٦) فى أ: «فاستقى».

(٧) فى ت، أ: «فربض به».

(٨) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/٤٠٩، ٤١٠) وتفسير الطبرى (١٤/٤٨).

وقال الشعبى: كانوا سبعة.

والمشهور الأول.

وقوله: ﴿ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُون ﴾: تهديد شديد، ووعيد أكيد، لمن جعل مع الله معبوداً آخر.

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ أى: وإنا لنعلم يا محمد أنك يحصل لك من أذاهم لك انقباض وضيق صدر. فلا يهيدنك ذلك، ولا يثنينك عن إبلاغك رسالة الله، وتوكل على الله فإنه كافيك وناصرك عليهم، فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسبيحه وعبادته التى هى الصلاة؛ ولهذا قال: ﴿ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدِى، حدثنا معاوية بن صالح، عن أبى الزاهرية، عن كثير بن مُرَّة، عن نعيم بن همَّار[١]، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله: يا ابن آدم، لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره».

رواه أبو داود[٢]، من حديث مكحول، عن كثير بن مرة، بنحوه[٣].

ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبه أمر صلَّى.

وقوله: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾: قال البخارى: قال سالم: الموت[٤].

وسالم هذا هو: سالم بن عبد الله بن عمر، كما قال ابن جرير:

حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، عن سفيان، حدثنى طارق بن عبد الرحمن، عن سالم بن عبد الله: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ قال: الموت[٥].

وهكذا قال مجاهد، والحسن، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيره[٦].

والدليل على ذلك قوله تعالى إخباراً عن أهل النار أنهم قالوا: ﴿ لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ. وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ. وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ .حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [المدثر: ٤٣ـ ٤٧].

وفى الصحيح[٧] من حديث الزهرى، عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أم العلاء ـ امرأة من الأنصار ـ أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون ـ وقد مات ـ قلت: رحمة الله عليك[٨] أبا السائب، فشهادتى عليك لقد أكرمك الله. فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمه؟»

(١) فى ت، أ: «عمار».

(٢) فى ت، آ: «أبو داود والنسائى».

(٣) المسند (٥/ ٢٨٦) وسنن أبى داود برقم (١٢٨٩).

(٤) صحيح البخارى (٨/ ٣٨٣) «فتح».

(٥) تفسير الطبرى (١٤/ ٥١).

(٦) فى ت: «وغيرهم».

(٧) فى أ: «الصحيحين».

(٨) فى ت، أ: «رحم الله قلبك».

فقلت: بأبي وأمي يا رسول الله، فمن؟ فقال: «أما هو فقد جاءه اليقين، وإني لأرجو له الخير»[١].

ويستدل من هذه الآية الكريمة وهي قوله: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ ـ على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتاً فيصلي بحسب حاله، كما ثبت في صحيح البخاري، عن عمران بن حصين، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «صَلِّ قائما، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جَنْب»[٢].

ويستدل بها[٣] على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم. وهذا كفر وضلال وجهل، فإن الأنبياء، عليهم السلام، كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبد الناس وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة. وإنما المراد باليقين هاهنا الموت، كما قدمناه. ولله الحمد والمنة، والحمد لله على الهداية، وعليه الاستعانة والتوكل، وهو المسؤول أن يتوفانا على أكمل الأحوال وأحسنها [فإنه جواد كريم][٤].

[وحسبنا الله ونعم الوكيل][٥]

---

(١) صحيح البخاري برقم (١٢٤٣).

(٢) صحيح البخاري برقم (١١١٧).

(٣) في أ: «بهذا».

(٤) زيادة من ت، أ.

(٥) زيادة من أ.

/ سورة الحجر [٢٨٣و]

مكّيّة، وهي تسع وتسعون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢﴾

﴿الٓر﴾ قد مرّ الكلام فيه وفي محلّه في مطلع سورة الرعد وأخواتها.

﴿تِلۡكَ﴾ إشارة إليه، أي: تلك السورة العظيمة الشأنِ ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الكامل المعهود الغنيّ عن الوصف به المشهور بذلك مِن بين الكتب الحقيقُ باختصاص اسم الكتاب به على الإطلاق، أي: بعضٌ منه مترجَم مستقلّ باسم خاصّ، فهو عبارة عن جميع القرآن، أو عن الجميع المنزَل إذ ذاك؛ إذ هو المتسارع إلى الفهم حينئذ عند الإطلاق، وعليه يترتّب فائدة وصف الآيات بنعت ما أضيفت إليه مِن نعوت الكمال لا على جَعْله عبارةً عن السورة؛ إذ هي في الاتّصاف بذلك ليست بتلك المرتبة مِن الشهرة حتّى يُستغنى عن التصريح بالوصف على أنّها عبارة عن جميع آياتها، فلا بدّ مِن جَعْل ﴿تِلۡكَ﴾ إشارةً إلى كلّ واحدة منها، وفيه مِن التكلّف ما لا يخفى، كما ذُكر في سورة الرعد.[١]

﴿وَقُرۡءَانٖ﴾ أي: قرآن عظيم الشأنِ ﴿مُّبِينٖ﴾ مظهِر لِما في تضاعيفه مِن الحِكَم والأحكام أو لسبيل الرشد والغيّ، أو فارقٍ بين الحقّ والباطل والحلالِ والحرام. ولقد فُخِّم شأنه العظيم مع ما جُمع فيه مِن وصفَي الكتابيّة والقرآنيّة على طريقتين: **إحداهما**: اشتماله على صفات كمال جنس الكتب الإلهيّة فكأنّه كلّها، **والثانية**: طريقة كونه ممتازًا عن غيره نسيجَ وحدِه بديعًا في بابه خارجًا عن دائرة البيان.

---

١ في الآية الأولى منها.

وأُخِّرت الطريقة الثانية لِما أنّ الإشارة إلى امتيازه عن سائر الكتب بعد التنبيه على انطوائه على كمالات غيره مِن الكتب أدخَلُ في المدح، كيلا يُتوَهَّم مِن أوّل الأمر أنّ امتيازه عن غيره لاستقلاله بأوصاف خاصّة به مِن غير اشتمال على نعوت كمالِ سائرِ الكتب الكريمة. وهكذا الكلام / في فاتحة سورةِ النمل، [٢٨٣ظ]
خلا أنّه قُدّم فيها القرآنُ على الكتاب لِما سيُذكر هناك.[١]

ولمّا بُيّن كونُ السورة الكريمة بعضًا مِن الكتاب والقرآن لتوجيه المخاطَبين إلى حُسن تلقّي ما فيها مِن الأحكام والقِصص والمواعظ شُرع في بيان ما تتضمّنه فقيل: ﴿رُبَمَا﴾ بضمّ الراء وتخفيف الباء المفتوحة، وقُرئ بالتشديد[٢] وبفتح الراء مخفّفًا[٣] وبزيادة التاء مشدّدًا.[٤] وفيه ثماني لغات: فتح الراء وضمُّها مشدَّدًا ومخفَّفًا وبزيادة التاء أيضًا مشدَّدًا ومخفَّفًا.

و"رُبَّ" حرفُ جرّ لا يدخُل إلّا على الاسم، و"ما" كافّة مصحِّحة لدخوله على الفعل، وحقُّه الدخول على الماضي، ودخولُه على قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لِما أنّ المترقَّب في أخباره تعالى كالماضي المقطوع في تحقّق الوقوع، فكأنّه قيل: ربّما وَدّ الذين كفروا، والمراد كفرهم بالكتاب والقرآن وبكونه مِن عند الله تعالى.

﴿لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ منقادين لحكمه ومذعِنين لأمره، وفيه إيذان بأنّ كفرهم إنّما كان بالجحود بعد ما علموا كونَه مِن عند الله تعالى، وتلك الوَدادة يوم القيامة أو عند موتهم أو عند معاينة حالِهم وحال المسلمين، أو عند رؤيتهم خروجَ عُصاة المسلمين مِن النار.

روى أبو موسى الأشعريُّ أنّه قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «إذا كان يومُ القيامة واجتمع أهل النار في النار ومعهم مَن شاء الله تعالى مِن أهل القِبلة

---

[١] وفي هامش م: مِن تقدّم حال القرآنيّة على الكتابيّة. «منه».

[٢] قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠١.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي قُرّة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٤.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال والضحّاك وزيد بن عليّ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٤؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٤؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٠٨٣.

قال لهم الكفّارُ: "ألستُم مسلمين؟" قالوا: "بلى"، قالوا: "فما أغنى عنكم إسلامُكم وقد صِرتُم معنا إلى النار؟" قالوا: "كانت لنا ذنوب فأُخِذنا بها"، فيغضب الله سبحانه لهم[1] بفضل رحمته، فيأمُر بكلّ مَن كان مِن أهل القِبلة في النار فيخرجون منها، فحينئذ يوَدّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين».[2] وروى مجاهد عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه قال: «لا يزال الربُّ يرحم ويُشفَع إليه حتّى يقول: "مَن كان مِن المسلمين فليدخُل الجنّة"، / فعند ذلك يتمنّون الإسلام».[3] [٢٨٤و]

والحقُّ أنّ ذلك محمول على شدّة وَدادتهم وأمّا نفس الودادةِ فليست بمختصّة بوقت دون وقت؛ بل هي مقرَّرة مستمِرّة في كلّ آنٍ يمرّ عليهم، وأنّ المراد بيانُ ذلك على ما هو عليه مِن الكثرة.

وإنّما جيء بصيغة التقليلِ جريًا على سَنن العرب فيما يقصِدون به الإفراط فيما يعكسون عنه، تقول لبعض قوّاد العساكر: "كم عندك مِن الفرسان؟" فيقول: "رُبَّ فارسٍ عندي" أو "لا تَعدَم عندي فارسًا"، وعنده مقانبُ[4] جمّةٌ مِن الكتائب، وقصدُه في ذلك التمادي في تكثير فرسانه، ولكنّه يريد إظهار براءته مِن التزيّد وإبرازَ أنّه ممّن يقلِّل لعُلوّ الهمّة كثيرَ ما عنده فضلًا عن تكثير القليل.

وهذه طريقةٌ إنّما تُسلَك إذا كان الأمر مِن الوضوح بحيث لا تحوم حوله شائبة ريب فيُصار إليه هضمًا للحقّ،[5] فدلّ النظم الكريم على وَدادةِ الكافرين للإسلام في كلّ آنٍ مِن آنات اليوم الآخر، وأنّ ذلك مِن الظهور بحيث لا يشتبِه على أحد ولو جيء بكلام يدلّ على ضدّه، وعلى أنّ تلك الوَدادة مع كثرتها في نفسها ممّا يُستقلّ بالنسبة إلى جَناب الكبرياء، وهذا هو الموافق لمقام بيان حقارة شأنِ الكفّار وعدمِ الاعتداد بما هم فيه مِن الكفر والتكذيب، كما ينطِق به قوله تعالى: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ﴾ الآية.[6]

---

١ وفي هامش م: أي: لأجلهم.

٢ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٤/٨؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٤/٣٦٨.

٣ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٤/٩؛ والمستدرك للحاكم، ٢/٣٨٤ (٣٣٤٥)؛ والتفسير البسيط للواحدي، ١٢/٥٣٨.

٤ المقانب جمع مِقنَب: جماعة الخيل والفرسان. لسان العرب لابن منظور، «قنب».

٥ وفي هامش م: أي: حقّ المتكلِّم.

٦ في الآية الآتية.

أو ذهابًا[١] إلى الإشعار بأنّ مِن شأن العاقل إذا عنّ له أمر يكون مظنون الحمد، أو قليلًا ما يكون كذلك ألّا يفارقَه ولا يقارِفَ ضدّه، فكيف إذا كان متيقِّن الحمد؟ كما في قولهم: لعلّك ستندم على ما فعلتَ، وربّما ندِم الإنسان على ما فعل، فإنّ المقصود ليس بيانَ كونِ الندم مرجوَّ الوجود بلا تيقّن به أو قليلَ الوقوع؛ بل التنبيهُ على أنّ العاقل لا يُباشر ما يُرجى فيه الندم أو يقِلّ وقوعه فيه، فكيف بقطعيّ الوقوع؟ وأنّه يكفي قليل الندم في كونه حاجزًا عن ذلك الفعل، فكيف كثيرُه؟ والمقصود مِن سلوك هذه الطريقة إظهارُ الترفّع والاستغناءِ عن التصريح بالغرض بناءً على ادِّعاء ظهوره، فالمعنى لو كانوا يودُّون الإسلام مرّة واحدة لَوجب عليهم أن يُفارقوه، فكيف وهم يودُّونه كلّ آنٍ؟ وهذا أوفَقُ بمقام استنزالهم عمّا هم عليه مِن الكفر، وهذان طريقان متمايزان / ذاتًا ومقامًا [٢٨٤ظ] فمَن ظنَّهما واحدًا فقد نأى عن توفية المقام حقَّه.

﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾

﴿ذَرۡهُمۡ﴾ دعْهم عن النهي عمّا هم عليه بالتذكرة والنصيحة، إذ لا سبيل إلى ارعوائهم عن ذلك، وبالِغْ في تخليتهم وشأنَهم؛ بل مُرْهم بتعاطي ما يتعاطَونه ﴿يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ بدنياهم. وفي تقديم "الأكل" إيذانٌ بأنّ تمتّعهم إنّما هو مِن قبيل تمتّع البهائم بالمآكل والمشارب. والمراد دوامهم على ذلك لا إحداثه، فإنّهم كانوا كذلك، أو تمتُّعُهم بلا استمتاعٍ ما يُنغِّص عيشهم مِن القوارع والزواجر، فإنّ التمتّع على ذلك الوجه أمر حادث يصلُح أن يكون مترتِّبًا على تخليتهم وشأنهم.

﴿وَيُلۡهِهِمُ﴾ ويَشْغَلْهم عن اتّباعك، أو عن التفكّر فيما هم يصيرون إليه، أو عن الإيمان والطاعة، فإنّ الأكل والتمتّع يُفضِيَان إلى ذلك. ﴿ٱلۡأَمَلُ﴾ والتوقّع لطول الأعمار وبلوغِ الأوطار واستقامةِ الأحوال وألّا يَلقَوا في العاقبة[٢] والمآل إلّا خيرًا.

---

[١] وفي هامش م: عطفٌ على "جريًا". «منه».

[٢] س: الآخرة.

فالأفعال الثلاثة مجزومة على الجوابيّة للأمر حسبما عرفتَ مِن تضمّن الأمر بالترك للأمر بها على طريقة المجاز، أو على أن يكون المراد بالأفعال المرقومة مباشرتَهم لها غافلين عن وَخامة عاقبتها غيرَ سامعين لسوء مَغَبَّتها أصلًا، ولا ريبَ في ترتّب ذلك على الأمر بالترك، فإنّ النهي عمّا هم عليه مِن ارتكاب القبائح ممّا يُشوِّش عليهم تمتُّعَهم ويُنغِّص عليهم عيشَهم فأُمِر عليه السلام بتركه ليتمرَّغوا فيما هم فيه مِن حظوظهم فيَدهَمَهم ما يَدهَمُهم وهم عنه غافلون.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سوءَ صنيعهم أو وخامةَ عاقبته أو حقيقةَ الحال التي ألجأتْهم إلى التمنّي[1] المذكور، حيث لم يعلموا ذلك مِن جهتك، وهو -مع كونه وعيدًا أيّما وعيد وتهديدًا غِبَّ تهديد- تعليلٌ للأمر بالتَّرْك، فإنّ علمَهم ذلك علّة لتَرْك النهي والنصيحةِ لهم، وفيه إلزامٌ للحجة ومبالغة في الإنذار إذ لا يتحقَّق الأمر بالضدّ إلّا بعد تكرُّر الإنذار وتقرُّرِ الجحود والإنكار، وكذلك ما ترتَّب[2] عليه مِن الأكل / والتمتّع والإلهاء. [٢٨٥و]

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ۝٥﴾

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا﴾ شروع في بيان سرِّ تأخير عذابهم إلى يوم القيامة وعدمِ نظمهم في سِلك الأُمم الدارجة في تعجيل العذاب، أي: ما أهلكنا ﴿مِن قَرۡيَةٍ﴾ مِن القُرى بالخَسف بها وبأهلها كما فُعل ببعضها، أو بإخلائها عن أهلها غِبَّ إهلاكِهم كما فُعل بآخرين.

﴿إِلَّا وَلَهَا﴾ في ذلك الشأن ﴿كِتَابٞ﴾ أي: أجل مقدَّر مكتوب في اللوح، واجبُ المراعاة بحيث لا يمكن تبديله لوقوعه حسب الحكمة المقتضية له. ﴿مَّعۡلُومٞ﴾ لا يُنسى ولا يُغفل عنه حتّى يُتصور التخلّف عنه بالتقدّم والتأخّر.

فـ﴿كِتَابٞ﴾ مبتدأ خبرُه الظرف، والجملةُ حال مِن ﴿قَرۡيَةٍ﴾، فإنّها لعمومها لاسيّما بعد تأكّدِه بكلمة ﴿مِن﴾ في حكم الموصوفة، كما أُشِيرَ إليه، والمعنى:

---

[1] وفي هامش م: هو تمنّيهم الإسلام. «منه».
[2] م: رُتِّب.

ما أهلكنا قرية مِن القرى في حال مِن الأحوال إلّا حالَ أن يكون لها كتاب، أي: أجَل مؤقَّت لمهلِكها قد كتبناه لا نُهلكها قبل بلوغه، معلومٌ لا يُغفَل عنه حتّى يمكن مخالفته بالتقدّم والتأخّر.

أو مرتفعٌ بالظرف،[١] والجملةُ كما هي حالٌ، أي: ما أهلكنا قرية مِن القرى في حال مِن الأحوال إلّا وقد كان لها في حقّ هلاكها كتابٌ، أي: أجلٌ مقدَّر مكتوب في اللوح معلومٌ لا يُغفَل عنه، أو صفةٌ[٢] لكن لا للقرية المذكورة؛ بل للمُقدَّرة التي هي بدل مِن المذكورة على المختار، فيكون بمنزلة كونه صفةً للمذكورة، أي: ما أهلكنا قرية مِن القرى إلّا قريةً لها كتابٌ معلوم، كما في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝ لَّا يُسْمِنُ﴾ [الغاشية، ٦/٨٨-٧]، فإنّ قوله تعالى: ﴿لَا يُسْمِنُ﴾ صفة، لكن لا للطعام المذكور، لأنّه إنّما يدلّ على انحصار طعامِهم الذي لا يُسمن في الضريع، وليس المراد ذلك؛ بل للطعام المُقدَّر بعد ﴿إِلَّا﴾، أي: ليس لهم طعام مِن شيء مِن الأشياء إلّا طعامٌ لا يُسمِن، فليس فيه فصل بين الموصوف والصفة بكلمة "إلّا" كما تُوُهّم.[٣]

وأمّا توسيط الواو بينهما -وإن كان القياس عدمَه- فللإيذان بكمال [٢٨٥ظ] الالتصاق بينهما مِن حيث إنّ الواو / شأنها الجمع والربط، فإنّ ما نحن فيه مِن الصفة أقوى لُصوقًا بالموصوف منها به في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ [الشعراء، ٢٠٨/٢٦]، فإنّ امتناع انفكاك الإهلاك عن الأجل المقدَّر عقليٌّ، وعن الإنذار عاديٌّ جرى عليه السنّة الإلهيّة.

ولمّا بيّن أنّ الأُمم المُهلَكة كان لكلّ منهم وقت معيَّن لهلاكهم وأنّ هلاكهم لم يكن إلّا حسبما كان مكتوبًا في اللوح، بيّن أنّ كلّ أمّة مِن الأمم منهم ومِن غيرهم لها كتابٌ لا يمكن التقدّم عليه ولا التأخّر عنه فقيل: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ﴾ مِن الأمم المُهلَكة وغيرهم ﴿أَجَلَهَا﴾ المكتوبَ في كتابها، أي: لا يجيء هلاكها قبل مجيء كتابها، أو لا تمضي أمّة قبل مُضيّ أجلها، فإنّ السّبق إذا كان واقعًا

---

[١] السياق: فـ﴿كِتَابٌ﴾ مبتدأ... أو مرتفعٌ بالظرف...

[٢] السياق: والجملة كما هي حال... أو صفة...

[٣] في الكشّاف للزمخشري، ٤١٩/٢.

على زماني فمعناه المجاوزة والتخليف، فإذا قلت: "سبق زيد عَمرًا" فمعناه أنّه جازه وخلّفه وراءه، وإذا كان واقعًا على زمان كان الأمر بالعكس.

والسرُّ في ذلك أنّ الزمان يعتبر فيه الحركة والتوجّه إلى المُتكلِّم فما سبقه يتحقّق قبل تحقّقه، وأمّا الزمانيُّ فإنّما يعتبر فيه الحركة والتوجّه إلى ما سيأتي مِن الزمان، فالسابقُ ما تقدَّم إلى المَقصِد. وإيراده بعنوان الأجل باعتبار ما يقتضيه مِن السَّبق، كما أنّ إيراده بعنوان الكتاب المعلوم باعتبار ما يُوجِبه مِن الإهلاك.

﴿وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ أي: وما يتأخّرون، وصيغةُ الاستفعال للإشعار بعَجْزهم عن ذلك مع طلَبهم له.

وإيثار صيغةِ المضارع في الفعلين بعد ما ذُكر نفيُ الإهلاكِ بصيغة الماضي، لأنّ المقصود بيان دوامهما واستمرارِهما فيما بين الأمم الماضية والباقية. وإسنادهما إلى "الأمّة" بعد إسناد الإهلاك إلى "القرية" لِما أنّ السبق والاستئخار حالُ الأمّة دون القرية مع ما في الأمّة مِن العموم لأهل تلك القُرى وغيرهم ممِن أُخِّرت عقوباتهم إلى الآخرة.

/ وتأخير ذِكر عدمِ تأخّرهم عن ذِكر عدم سبقهم مع كون المقام مقامَ المبالغة في بيان تحقّق عذابهم: إمّا باعتبار تقدّم السبقِ في الوجود، وإمّا باعتبار أنّ المراد بيان سرِّ تأخير عذابهم مع استحقاقهم لذلك. وإيراد الفعل على صيغة جمع المُذكَّر للحَمْل على المعنى مع التغليب ولرعاية الفواصل، ولذلك حُذف الجارّ والمجرور. [٢٨٦و]

والجملة مبيِّنة لِما سبَق. والمعنى أنّ تأخير عذابِهم إلى يوم القيامة حسبما أشيرَ إليه ببيان وَدادتهم للإسلام إذ ذاك، وبالأمر بتركهم وشأنهم إلى أن يعلموا حقيقة الحال إنّما هو لتأخّر أجلهم المقدَّر لِما يقتضيه مِن الحِكَم البالغة، ومِن جملتها ما عَلِم الله تعالى مِن إيمان بعضِ مَن يخرُج منهم إلى يوم القيامة.

﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ۝٦﴾

﴿وَقَالُواْ﴾ شروع في بيان كفرهم بمَن أُنزل عليه الكتاب بعد بيان كفرهم بالكتاب وما يئول إليه حالهم، والقائلون مشركو مكّةَ لغاية تماديهم في العتوّ والغيّ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾ خاطبوا به رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم لا تسليمًا لذلك واعتقادًا له؛ بل استهزاءً به عليه السلام وإشعارًا بعِلّة حكمهم الباطل في قولهم: ﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾، كدأب فرعونَ إذ قال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ﴾ [الشعراء، ٢٦/٢٧]، يعنُون: يا مَن يدّعي مثل هذا الأمر البديع الخارق للعادات، إنّك بسبب تلك الدعوى أو بشهادة ما يعتريك عندما تدّعي أنّه ينزل عليك لَمجنون.

وتقديم الجارّ والمجرور على القائم مقامَ الفاعل لأنّ إنكارهم متوجِّه إلى كون النازل ذِكرًا مِن الله، لا إلى كون المنزَّل عليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد تسليم كون النازل منه تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف، ٤٣/٣١]، فإنّ الإنكار هناك متوجِّه إلى كون المنزَّل عليه رسولَ الله تعالى. وإيراد الفعل على صيغة المجهول / لإيهام أنّ ذلك ليس بفعل له [٢٨٦ظ] فاعل، أو لتوجيه الإنكار إلى كون التنزيل عليه لا إلى استناده إلى الفاعل.

﴿لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧﴾

﴿لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا﴾ كلمة "لو" عند تركّبها مع "ما" تفيد ما تفيده عند تركّبها مع "لا" مِن معنى امتناعِ الشيء لوجود غيرِه ومعنى التحضيض، خلا أنّه عند إرادتِه لا يليها إلّا فعلٌ ظاهرًا أو مضمرًا، وعند إرادةِ المعنى الأوّل لا يليها إلّا اسمٌ ظاهرٌ أو مقدّر عند البصريّين، والمراد ههنا هو الثاني، أي: هلّا تأتينا ﴿بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ يشهدون بصحّة نبوّتِك ويعضدونك في الإنذار كقوله تعالى: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ[١] مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان، ٢٥/٧]، أو يعاقبوننا على التكذيب كما تأتي الأممَ المكذِّبةَ لرسلهم.

﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعواك، فإنّ قدرة الله تعالى على ذلك ممّا لا ريبَ فيه، وكذا احتياجُك إليه في تمشية أمرِك فإنّا لا نُصدِّقك بدون ذلك، أو إن كنتَ مِن جملة تلك الرسل الصادقين الذين عُذِّبت أممهم المكذِّبة لهم.

---

١ م س: عليه.

﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ٨﴾

﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ بالنون على بناء الفعل لضمير الجلالة مِن التنزيل، وقُرئ مِن الإنزال،[١] وقُرئ: "تُنَزَّلُ"[٢] مضارعًا مِن التنزيل على صيغة البناء للمفعول، ومِن التنزُّل بحذف إحدى التاءين،[٣] وماضيًا منه[٤] ومِن التنزيل[٥] ومِن الثلاثي.[٦]

وهو كلامٌ مَسوق إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم جوابًا لهم عن مقالتهم المَحكيّة وردًّا لاقتراحهم الباطل، ولشدّة استدعاء ذلك للجواب قُدِّم ردّه على ما هو جواب عن أوّلها، أعني قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ الآية،[٧] كما فُعل في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [هود، ٣٣/١١]، فإنّه مع كونه جوابًا عن قولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [هود، ٣٢/١١] قُدِّم على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ﴾ الآية، [هود، ٣٤/١١]، مع كونه جوابًا عن أوّل كلامهم الذي هو قولهم: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا﴾ [هود، ٣٢/١١] لِما ذُكر مِن شدّة اقتضائه للجواب، وليكونَ أحدُ الجوابين متّصلًا بالسؤال، وفي العكس يلزَم / انفصال كلّ مَن الجوابين عن سؤاله. [٢٨٧و]

والعدول عن تطبيقه لظاهر كلامهم بصدد الاقتراح، وهو أن يقال: ما تأتيهم بهم للإيذان بأنّهم قد أخطأوا في التعبير حسبما أخطأوا في الاقتراح، وأنّ الملائكة لعُلوّ رتبتهم أعلى مِن أن يُنسَبَ إليهم مطلقُ الإتيان الشامل للانتقال مِن أحد الأمكنة المتساوية إلى الأخر،[٨] بل مِن الأسفل إلى الأعلى، وأن يكون مقصِد حركاتهم أولئك الكفرة، وأن يدخلوا تحت ملكوتِ أحدٍ مِن البشر، وإنّما الذي يليق بشأنهم النزولُ مِن مقامهم العالي، وكونُ ذلك بطريق التنزيل مِن جناب الربّ الجليل.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة وسهل. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٦٤؛ **المغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ١٠٨٥.

٢ قرأ بها أبو بكر. **النشر** لابن الجزري، ٣٠١/٢.

٣ قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب. **النشر** لابن الجزري، ٣٠١/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٦٤.

٥ ما وقفتُ عليها فيما بين يديَّ من المظانّ.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وزيد بن عليّ وعُبيد بن عُمير. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٦٤؛ **المغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ١٠٨٥.

٧ في الآية الآتية.

٨ س + منها.

﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي ملتبِسًا بالوجه الذي يحِقّ ملابسةُ التنزيل به ممّا تقتضيه الحكمة وتجري به ألسنة الإلهيّة، كقوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر، ٨٥/١٥]، والذي اقترحوه مِن التنزيل لأجل الشهادة لديهم وهُم هُم ومنزلتُهم في الحقارة والهوان منزلتُهم، ممّا لا يكاد يدخل تحت الصِّحّة والحِكمة أصلًا، فإنّ ذلك مِن باب التنزيل بالوحي الذي لا يكاد يُفتَح على غير الأنبياء الكرام مِن أفراد كُمَّل المؤمنين، فكيف على أمثال أولئك الكفَرة اللئامِ؟ وإنّما الذي يدخُل في حقّهم تحت الحكمة في الجملة هو التنزيل للتعذيب والاستئصال، كما فُعِل بأضرابهم مِن الأُمم السالفة، ولو فُعِل ذلك لاستؤصلوا بالمرّة.

﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ جزاءُ الشرط مقدَّر، وفيه إيذان بإنتاج مقدِّماتهم لنقيض مطلوبهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء، ٧٦/١٧]. «قال صاحب النظم:[1] لفظةُ "إذن" مركّبة مِن "إذ" وهو اسم بمعنى الحين، تقول: أتيتُك إذ جئتَني، أي: حين جئتَني، ثمّ ضُمّ إليه "أنْ" فصار "إذْ أنْ" ثمّ استثقلوا الهمزة فحذفوها».[2] فمجيء لفظة "أنْ" دليلٌ على إضمار فعل بعدها، والتقدير: وما كانوا إذن كانَ ما طلبوه منظَرين.

والمعنى: لو نزّلناهم ما كانوا مؤخَّرين كدأب سائر الأمم المكذِّبة المستهزِئة، ومع استحقاقهم لذلك قد جرى قلم القضاء بتأخير عذابهِم إلى يوم القيامة حسبما أُجمِل في قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾... إلخ [الحجر، ٣/١٥]، وحالَ حائلُ الحكمة بينهم وبين استئصالِهم لتعلُّق العِلم والإرادة بازديادهم عذابًا وبإيمان بعض ذراريّهم، وأمّا نَظْم إيمان بعضهم في سِمْط الحكمة فيأباه مقامُ بيان تماديهم في الكفر والفساد ولَجاجهم في المكابرة والعِناد. هذا هو الذي يستدعيه إعجازُ التنزيل الجليل.

---

[1] الظاهر أنّه ابن مالك ناظم الألفيّة المشهورة. والقول المذكور عنه ههنا في "إذن" نقله عن الخليل ورجّحه. انظر: شرح التسهيل لابن مالك، ٢٠/٤.

[2] اللباب لابن عادل، ٤٣٢/١١.

وأمّا ما قيل في تعليل عدمِ موافقةِ التنزيل للحكمة مِن أنّهم حينئذ يكونون مصدِّقين عن اضطرار، أو أنّه لا حكمةَ في أن تأتيَكم بصور يُشاهدونها فإنّه لا يزيدكم إلّا لَبسًا،[١] أو أنّ إنزال الملائكة لا يكون إلّا بالحقّ وحصولِ الفائدةِ بإنزالهم، وقد عَلِم الله تعالى مِن حال هؤلاء الكفّار أنّه لو أُنزل إليهم الملائكة لبقُوا مُصرّين على كفرهم، فيصير إنزالهم عبثًا باطلًا ولا يكون حقًّا، فمع إخلال[٢] كلٍّ مِن ذلك بقطعيّة الباقي / لا يلزَم مِن فَرْض وقوع شيء مِن ذلك [٢٨٧ظ] تعجيلُ العذاب الذي يفيده قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾. هذا على تقدير كون اقتراحهم لإتيان الملائكة لأجل الشهادة.

أمّا على تقدير كون ذلك لتعذيبهم فالمعنى: إنّا ما نُنزِّل الملائكة للتعذيب إلّا تنزيلًا ملتبِسًا بالحقّ الذي يقتضيه الحِكمة ويستدعيه المصلحة حتمًا، بحيث لا محيدَ عنه، ولو نزّلناهم حسبما اقترحوا ما كان ذلك التنزيلُ ملتبِسًا بمقتضى الحِكمة الموجِبة لتأخير عذابهم إلى يوم القيامة، لا رفقًا بهم؛ بل تشديدًا عليهم كما مرّ مِن قبل، وحيث كان في نسبة تنزيلهم للتعذيب إلى عدم موافقته الحكمةَ نوعُ إيهام عدم[٣] استحقاقهم التعذيب عُدِل عمّا يقتضيه الظاهرُ إلى ما عليه النظم الكريم، فكأنّه قيل: لو نزّلناهم ما كانوا منظَرين، وذلك غيرُ موافق للحِكمة الموجِبة لتأخير عذابهم لتشديد عقابهم. وقيل: المراد بالحقّ الوحيُ. وقيل: العذابُ.[٤] فتأمّل.[٥]

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٠﴾

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ ردٌّ لإنكارهم التنزيلَ واستهزائهم برسول الله صلّى الله عليه وسلّم بذلك وتسليةٌ له، أي: نحن بعِظَم شأننا وعلوّ جنابنا نزّلنا ذلك الذِّكرَ الذي أنكروه وأنكروا نزوله عليك ونسبوك بذلك إلى الجنون وعَمَّوا مُنزِّله، حيث بنَوا الفعل للمفعول إيماء إلى أنّه أمر لا مصدرَ له وفعلٌ لا فاعلَ له.

---

[١] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤١٩؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٣٥..

[٢] السياق: وأمّا ما قيل... فمع إخلال...

[٣] س: لعدم.

[٤] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٢٠.

[٥] س: فتدّبر.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ مِن كلّ ما لا يليق به، فيدخل فيه تكذيبهم له واستهزاؤهم به دخولًا أوّليًا، فيكون وعيدًا للمستهزئين به، وأمّا الحفظ مِن مجرّد التحريف والزيادة والنقص وأمثالها فليس بمقتضى المقام. فالوجهُ الحَمْل على الحفظ مِن جميع ما يقدَح فيه مِن الطعن فيه والمجادلة في حقّيّته، ويجوز أن يُراد حفظه بالإعجاز دليلًا على التنزيل مِن عنده تعالى، إذ لو كان مِن عند غير الله سبحانه[١] لتطرّق عليه الزيادة والنقص والاختلاف. وفي سَبْك الجملتين مِن الدلالة على كمال الكبرياء والجلالة وعلى فخامة شأنِ التنزيل ما لا يخفى، وفي إيراد الثانية بالجملة الاسميّة دلالةٌ على دوام الحفظ، والله سبحانه أعلمُ. وقيل: الضمير المجرورُ للرسول صلّى الله عليه وسلّم، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة، ٥/٦٧].[٢]

وتأخير هذا الكلام وإن كان جوابًا عن أوّل كلامهم الباطل ردًّا له لِما ذُكِر آنفًا ولارتباطه بما يعقُبه مِن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ أي: رسلًا، وإنّما لم يُذكَر لدلالة ما بعده عليه. / ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ متعلِّق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾ أو بمحذوف هو [٢٨٨و]
نعت للمفعول المحذوف، أي: رسلًا كائنةً مِن قبلك.

﴿فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: فِرَقِهم وأحزابهم جمع "شِيعة": وهي الفِرقةُ المتّفقة على طريقة ومذهب، مِن "شاعه إذا تبِعه". وإضافتُه إلى ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مِن إضافة الموصوف إلى صفته[٣] عند الفرّاء،[٤] ومِن حذف الموصوف عند البصريّين، أي: شِيَع الأُمم الأوّلين، ومعنى إرسالهم فيهم: جَعْلُ كلّ منهم رسولًا فيما بين طائفة منهم ليُتابعوه في كلّ ما يأتي ويذَر مِن أمور الدِّين.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١١ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٢﴾

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ المراد نفيُ إتيانِ كلّ رسول لشِيعته الخاصّة به لا نفيُ إتيان كلّ رسول لكلّ واحدة مِن تلك الشِّيَع جميعًا، أو على سبيل البدل.

---

١ س ط – سبحانه.
٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٢٠.
٣ س: الصفة؛ ط: موصوفه. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، لعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.
٤ لم يرد القول في معاني القرآن للفرّاء، وهو له في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٧/١٤٦؛ واللباب لابن عادل، ١١/٤٣٣.

وصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة على طريقة حكاية الحال الماضية، فإنّ "ما" لا تدخل في الأغلب على مضارع إلّا وهو في معنى الحال، ولا على ماضٍ إلّا وهو قريب مِن الحال، أي: ما أتى شيعةً مِن تلك الشِّيَع رسولٌ خاصٌّ بها ﴿إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، كما يفعله هؤلاء الكفَرة.

والجملة في محلّ النصب على أنّها حال مقدَّرة مِن ضمير المفعول في ﴿يَأْتِيهِم﴾ إذا كان المرادُ بالإتيان حدوثَه، أو في محلّ الرفع على أنّها صفةُ ﴿رَسُولٍ﴾ فإنّ محلّه الرفع على الفاعليّة، أي: إلّا رسولٌ كانوا به يستهزءون. وأمّا الجرّ على أنّها صفة باعتبار لفظِه فيُفضي إلى زيادة ﴿مِن﴾ الاستغراقيّةِ في الإثبات.[1] ويجوز أن يكون منصوبًا على الوصفيّة بأن يُقدَّر الموصوفُ منصوبًا على الاستثناء.[2] وإن كان المختار الرفعَ على البدليّة.

وهٰذا كما ترى تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأنّ هذه عادة الجهّال مع الأنبياء عليهم الصلاة السلام. وحيث كان الرسول مصحوبًا بكتاب مِن عند الله تعالى تُضمِّن ذِكرُ استهزائِهم بالرسول استهزاءَهم بالكتاب، ولذلك قيل: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما دلّ عليه الكلام السابق مِن إلقاء الوحي مقرونًا بالاستهزاء، أي: مثلَ ذلك السَّلْكِ الذي سلكناه في قلوب أولئك المستهزئين برسلهم وبما جاءوا به مِن الكتب ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ / أي: الذِّكرَ ﴿فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [٢٨٨ظ]
أي: أهل مكّةَ أو جنس المجرمين، فيدخلون فيه دخولًا أوّليًّا.

ومحلُّه النصب على أنّه نعت لمصدر محذوف أو حال منه، أي: نسلُكه سَلْكًا مثلَ ذلك السَّلْك أو نسلُك السَّلكَ حالَ كونِه مثلَه، أي: مقرونًا بالاستهزاء، غيرَ مقبول لِما تقتضيه الحكمة، فإنّهم مِن أهل الخِذلان ليس لهم استحقاق لقبول الحقّ. وصيغة المضارع لكون المشار إليه[3] مُقدَّمًا في الوجود، وهو السَّلْك الواقع في الأمم السالفة، أو للدلالة على استحضار الصورة. والسَّلْكُ: إدخالُ الشيء في آخرَ، يقال: سَلكتُ الخيطَ في الإبرة والرُّمحَ في المطعون.[4]

---

١ وفي هامش م: إذ التقدير حينئذ: إلّا من رسول كانوا به يستهزءون. «منه».

٢ وفي هامش م: أي: إلّا رسولًا كانوا به يستهزءون. «منه».

٣ م ط س: المشبّه به [صحّح في هامش م ط].

٤ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٢٠.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ١٣﴾

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: بالذِّكر، حال مِن ضمير ﴿نَسْلُكُهُ﴾، أي: غيرَ مؤمَن به، أو بيانٌ للجملة السابقة فلا محلّ لها، وقد جُعل الضمير[١] للاستهزاء فيتعيَّن البيانيّة إلّا أن يُجعَل الضمير المجرور أيضًا له، على أنّ الباء للمُلابَسة، أي: نسلُك الاستهزاء في قلوبهم حالَ كونهم غيرَ مؤمنين بملابسته، والحالُ إمّا مقدَّرةٌ أو مقارِنة للإيذان بأنّ كفرهم مقارن للإلقاء، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة، ٨٩/٢]. ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: قد مضت طريقتهم التي سنّها الله تعالى في إهلاكهم حين فعلوا ما فعلوا مِن التكذيب والاستهزاء، وهو استئناف جيء به تكملة للتسلية وتصريحًا بالوعيد والتهديد.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ١٤﴾

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ أي: على هؤلاء المقترِحين المعاندين ﴿بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: بابًا ما -لا بابًا مِن أبوابها المعهودة كما قيل-[٢] ويسَّرنا لهم الرُّقيَّ والصعودَ إليه ﴿فَظَلُّواْ فِيهِ﴾ في ذلك الباب ﴿يَعْرُجُونَ﴾ بآلة أو بغيرها ويرَون ما فيها مِن العجائب عِيانًا كما يفيده الظُّلول، أو فظلّ الملائكة الذين اقترحوا إتيانَهم يعرُجون / في ذلك الباب، وهم يرَونه عِيانًا مستوضِحين طولَ نهارهم. [٢٨٩و]

﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ١٥﴾

﴿لَقَالُوٓاْ﴾ لفرْط عِنادهم وغُلوّهم في المكابرة وتفاديهم عن قَبول الحقّ: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ أي: سُدَّت مِن الإحساس مِن "السِّكر"، كما يدلّ عليه القراءةُ بالتخفيف،[٣] أو حُيِّرت كما يعضُده قراءة مَن قرأ "سَكِرَتْ"[٤] أي: حارت.

---

[١] وفي هامش م: في ﴿نَسْلُكُهُ﴾.

[٢] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤٢١/٢.

[٣] قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٠١/٢.

[٤] م س: سُكِرتْ. | والمثبتُ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة والزُّهري وابن أبي عبلة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٤؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٤.

﴿بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾ أي:[١] قد سحَرنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم، كما قالوه عند ظهور سائر الآيات الباهرة. وفي كلمتَي الحصر والإضراب دلالة على أنّهم يبتّون القول بذلك، وأنّ ما يرَونه لا حقيقةَ له وإنّما هو أمر خُيّل إليهم بالسِّحر. وفي اسميّة الجملة الثانية دلالةٌ على دوام مضمونها، وإيرادُها بعد تسكير الأبصار لبيان إنكارهم لغير ما يرونه، فإنّ عُروج كلّ منهم إلى السماء وإن كان مرئيًا لغيره فهو معلوم له بطريق الوجدان مع قطع النظر عن الأبصار، فهم يدّعون أنّ ذلك نوع آخرُ مِن السِّحر غيرُ تسكير الأبصار.

﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ١٦ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ١٧﴾

﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾ قصورًا ينزلها السيّارات، وهي البروج الاثنا عشرَ المشهورة المختلفةُ الهيئاتِ والخواصّ حسبما يدلّ عليه الرصد والتجربة مع ما اتّفق عليه الجمهور مِن بساطة السماء. والجعل إن جُعِل بمعنى الخَلْق والإبداع -وهو الظاهر- فالجارُّ متعلِّق به، وإن جُعل بمعنى التصييرِ فهو مفعول ثانٍ له متعلِّق بمحذوف، أي: جعلنا بروجًا كائنة في السماء.[٢]

﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ أي: السماء بتلك البروج المختلفةِ الأشكال والكواكب سيّاراتٍ كانت أو ثوابتَ. ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ إليها، فمعنى التزيين ظاهرٌ، أو للمُتفكّرين المُعتبِرين المُستدلّين بذلك على قدرة مُقدِّرها وحكمةِ مُدبِّرها، فتزيينُها ترتيبها على نظام بديع مستتبع للآثار الحسنة.

﴿وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ﴾ مَرميّ بالنجوم، فلا يقدِر أن يصعَد إليها، ويوسوسَ في أهلها، / ويتصرّفَ فيها ويقفَ على أحوالها. [٢٨٩ظ]

﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ١٨﴾

﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ﴾ محلُّه النصب على الاستثناء المتّصلِ إن فُسّر الحِفظ بمَنْع الشياطين عن التعرّض لها على الإطلاق والوقوف على ما فيها في الجملة،

---

[١] م - أي.

[٢] وفي هامش م: تحقيقه في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ [البقرة، ٢/٣٠].

أو المنقطِعِ إن فُسِّر ذلك بالمَنْع عن دخولها والتصرّف فيها. عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أنّهم كانوا لا يُحجَبون عن السماوات، فلمّا وُلد عيسى عليه السلام مُنعوا مِن ثلاث سماوات، ولمّا وُلد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مُنِعوا مِن السماوات كلِّها».[١] واستراق السمع اختلاسُه سِرًّا، شُبِّه به خَطفتُهم اليسيرة مِن قُطّان السماوات بما بينهم مِن المناسبة في الجوهر، أو بالاستدلال مِن الأوضاع.[٢]

﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾ أي: تبِعه ولحِقه ﴿شِهَابٌ﴾ لهب مُحرِق، وهي شعلة نار ساطعةٌ، وقد يطلَق على الكوكب والسِّنان لِما فيهما مِن البريق. ﴿مُبِينٌ﴾ ظاهرٌ أمرُه للمبصِرين.

قال مَعمَر:[٣] قلتُ لابن شِهاب الزُّهري: «أكان يُرمى بالنجوم في الجاهليّة؟» قال: «نعم، وإنّ النجم ينقضّ ويرمي الشيطان فيقتله أو يُخبّله لئلّا يعود إلى استراق السمع، ثمّ يعود إلى مكانه»، قال: «أفرأيت قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ﴾ الآية، [الجن، ٩/٧٢]»، قال: «غُلِّظت وشُدِّد أمرها حين بُعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم».[٤] قال ابن قتيبة:[٥] إنّ الرجم كان قبل مبعثِه صلّى الله عليه وسلّم، ولكن لم يكن في شدّة الحراسة كما بَعْد مبعثِه عليه السلام.[٦] قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «إنّ الشياطين يركَب بعضهم بعضًا إلى السماء الدنيا يسترقون السمعَ مِن الملائكة، فيُرمَون بالكواكب فلا يخطئ أبدًا،

---

١ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٣٧٢/٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٢١/٢.

٢ وفي هامش م: على أنّ المراد بالقطّان: ما يعمّ الكواكب. «منه».

٣ هو معمر بن راشد بن أبي عمرو الأزدي البصري، أبو عروة (ت. ١٥٣هـ/٧٧٠م). الإمام الفقيه الحافظ المتقِن الثقة شيخ الإسلام، نزيل اليمن. عُرف بالتحرّي والورع والجلالة وحُسن التصنيف. وهو مِن مؤرّخي رجال الحديث. طلب العلم وهو حَدَث. حدّث عن قتادة والزهري وعروة بن دينار وعاصم بن أبي النّجود ويحيى بن أبي كثير وغيرهم، وحدّث عنه أيوب وأبو إسحاق وعمرو بن دينار وغيرهم. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٥/٧-١١٧؛ والأعلام للزركلي، ٢٧٢/٧.

٤ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٣٧٤/٤؛ واللباب لابن عادل، ٤٤٠/١١-٤٤١.

٥ هو عبد الله بن مسلم بن قُتيبة، وقيل: المروزي، أبو محمد (ت. ٢٧٦هـ/٨٨٩م). النحوي اللغوي الفاضل الثقة، ومِن أئمّة الأدب ومِن المصنِّفين المكثرين، وُلد ببغداد وتوفّي فيها وسكن الكوفة، أشهر مؤلّفاته: أدب الكاتب، والشعر والشعراء، وعيون الأخبار، والمعارف، وتأويل مشكل القرآن، وتفسير غريب القرآن، وتأويل مختلف الحديث، وهي مطبوعة. انظر: وفيات الأعيان لابن خلّكان، ٤٢/٣؛ والأعلام للزركلي، ٣٧/٤.

٦ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٣٧٤/٤؛ واللباب لابن عادل، ٤٤١/١١.

فمنهم مَن يقتله ومنهم مَن يُحرِق وجهَه وجنبَه ويدَه حيث يشاء الله تعالى، ومنهم مَن يُخبِّله فيصير غُولًا فيُضلّ الناس في البوادي».[١] قال القرطبيّ: «اختلفوا في أنّ الشهاب هل يقتُل أم لا؟ قال ابن عبّاس: "يجرَح ويُحرِق ويُخبِّل ولا يقتُل"،[٢] وقال الحسن وطائفة: "يقتل"». قال: «والأوّل أصحّ».[٣]

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ١٩﴾

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا﴾ بسطناها، وهو بالنصب على الحذف على شريطة التفسير، ولم يُقرأ بالرفع لرجحان النصب / للعطف على الجملة الفعليّة، أعني [٢٩٠و] قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا﴾... إلخ،[٤] وليُوافقَ ما بعده، أعني قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي: جبالًا ثوابتَ، وقد مرّ بيانه في أوّل "الرعد".

﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ أي: في الأرض أو فيها وفي رواسيها ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ بميزان الحِكمة ذاتًا وصفةً ومِقدارًا. وقيل: ما يُوزَن مِن نحو الذهب والفضّة وغيرهما، أو مِن كلّ شيء مستحسَن مناسِب، أو ما يُوزَن ويُقدَّر مِن أبواب النعمة.[٥]

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ٢٠﴾

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ﴾ ما تعيشون به مِن المطاعم والملابس وغيرهما ممّا يتعلّق به البقاء، وهي بياء صريحة، وقُرئ بالهمزة[٦] تشبيهًا له بـ"الشمائل". ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ عطفٌ على ﴿مَعَـٰيِشَ﴾ أو على محلّ ﴿لَكُمْ﴾، كأنّه قيل: جعلنا لكم معايشَ وجعلنا لكم مَن لستم برازقيه مِن العِيال والمماليك والخدَم والدوابِّ وما أشبهها على طريقة التغليب، وذِكرُهم بهذا العنوان لردّ حسبانهم أنّهم يَكفُون مئوناتِهم، ولتحقيق أنّ الله تعالى هو الذي يرزقهم وإيّاهم، أو وجعلنا[٧] لكم فيها معايشَ ولمَن لستُم له برازقين.

١ معالم التنزيل للبغوي، ٣٧٢/٤؛ اللباب لابن عادل، ٤٤٠/١١.
٢ جامع البيان للطبري، ٣٣/١٤.
٣ من قوله: "قال القرطبي" بلفظ قريب في اللباب لابن عادل، ٤٤١/١١. وانظر: تفسير القرطبي، ١١/١٠.
٤ الحجر، ١٦/١٥.
٥ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٢١/٢.
٦ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٤٢١/٢.
٧ السياق: جعلنا لكم معايش... أو جعلنا...

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ﴾ ﴿إن﴾ للنفي و﴿مِن﴾ مَزيدة للتأكيد، و﴿شَيْءٍ﴾ في محلّ الرفع على الابتداء، أي: ما مِن شيء مِن الأشياء المُمكنة، فيدخُل فيها ما ذُكر دخولًا أوّليًّا.

﴿إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ الظرف خبر للمبتدأ. و﴿خَزَآئِنُهُۥ﴾ مُرتفِع به على أنّه فاعله لاعتماده، أو خبر له، والجملة خبر للمبتدأ الأوّل. والخزائن: جمع "الخِزانة" وهي ما يحفظ فيه نفائسُ الأموال لا غيرُ، غلَب في العُرف على ما للملوك والسلاطين مِن خزائن أرزاقِ الناس، شُبّهت مقدوراته تعالى الفائقة للحصر المندرجة تحت قدرتِه الشاملة في كونها مستورةً عن علوم العالَمين ومَصونةً عن وصول أيديهم مع كمال افتقارِهم إليها ورغبتِهم فيها، وكونِها مهيّأة متأتّية لإيجاده وتكوينه، بحيث متى تعلّقت الإرادة بوجودها وُجدت / بلا تأخُّر بنفائس الأموال المخزونة [٢٩٠ظ]
في الخزائن السلطانيّة، فذِكرُ الخزائن على طريقة الاستعارةِ التخييليّة.

﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ أي: ما نُوجِد وما نكوّن شيئًا مِن تلك الأشياء ملتبسًا بشيء مِن الأشياء ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي: إلّا ملتبِسًا بمقدار معيَّن تقتضيه الحكمة وتستدعيه المشيئةُ التابعة لها، لا بما تقتضيه القدرة، فإنّ ذلك غيرُ متناهٍ، فإنّ تخصيص كلّ شيء بصفة معيّنة وقدر معيّن ووقت محدود دون ما عدا ذلك، مع استواء الكلّ في الإمكان واستحقاق تعلُّق القدرة به، لا بدّ له مِن حكمة تقتضي اختصاصَ كلّ مِن ذلك بما اختصّ به، وهذا البيان سرُّ عدم تكوين الأشياء على وجه الكثرة حسبما هو في خزائن القدرة.

وهو إمّا عطفٌ على مقدَّر، أي: نُنزِّله وما نُنزِّله... إلخ، أو حال ممّا سبق، أي: عندنا خزائنُ كلّ شيء، والحال أنّا ما نُنزِّله إلّا بقدر معلوم، فالأوّل لبيان سَعة القدرة والثاني لبيان بالغ الحِكمة، وحيث كان إنشاء ذلك بطريق التفضّل مِن العالم العُلوي إلى العالم السفلي، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر، ٦/٣٩]، وكان ذلك بطريق التدريج عُبّر عنه بالتنزيل، وصيغةُ المضارع للدلالة على الاستمرار.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ﴾ عطفٌ على ﴿جَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾،[١] وما بينهما اعتراض لتحقيق ما سبق وترشيحِ ما لحِق، أي: أرسلنا الرياح ﴿لَوَٰقِحَ﴾ أي: حواملَ، شُبِّهت الريح التي تجيء بالخير مِن إنشاء سحاب ماطر بالحامل كما شُبِّه بالعقيم ما لا يكون كذلك، أو ملقِّحات بالشجر والسحاب، ونظيره "الطوائح" بمعنى المُطيحات، في قوله:

ومُختبِطٍ ممّا تُطيح الطوائحُ[٢]

أي: المُهلِكات. وقُرئ: "وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ"[٣] على إرادة الجنس.

﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بعد ما أنشأنا بتلك الرياح سحابًا ماطرًا. ﴿مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ أي: جعلناه لكم سُقيًا وهو أبلغ مِن "سقيناكموه"، / لِما فيه مِن الدلالة على جَعْل الماء مُعدًّا لهم ينتفعون به متى شاءوا. [٢٩١و]

﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ نفى عنهم ما أثبته لجنابه بقوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾،[٤] كأنّه قيل: نحن القادرون على إيجاده وخَزْنه في السحاب وإنزاله وما أنتم على ذلك بقادرين. وقيل: ما أنتم بخازنين له بعدما أنزلناه في الغُدران والآبار والعيون؛ بل نحن نخزُنه فيها لنجعلَها سقيًا لكم مع أنّ طبيعةَ الماء تقتضي الغَوْر.[٥]

---

١ الحجر، ٢٠/١٥.

٢ عجز بيت صدره:

لِيُبكَ يزيدُ ضارعٌ لخصومةٍ

واختُلف في نسبتِه: فهو للبيد بن ربيعة في ملحق ديوانه، ص ٣٦٢؛ وللحارث بن نَهيك في كتاب سيبويه ٢٨٨/١؛ وشرح الرضي على الكافية ١٩٨/١؛ ولنَهشل بن حَرّيّ في التفسير البسيط للواحدي، ٥٧٨/١٢، وللحارث بن ضِرار النهشلي في الحماسة البصرية للبصري، ٧٥٦/٢؛ ولضِرار بن نَهشل في المطوَّل للتفتازاني، ص ١٤٤؛ ومعاهد التنصيص للعبّاسي، ٢٠٣/١. والعجز بلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٤٢٢/٢. وأورد البغدادي في خزانة الأدب، ٣٠٣/١-٣١٣، نسبته إلى هؤلاء وإلى غيرهم، ورجَّح نسبته إلى نَهشل بن حَرّيّ. | والمختبط: طالب العطاء مِن غير سابق معرفة ولا وسيلة. انظر: لسان العرب لابن منظور، «خبط».

٣ قرأ بها حمزة وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٢٤/٢، ٣٠١.

٤ الآية السالفة.

٥ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٣٧/٢.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝٢٣﴾

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ﴾ بإيجاد الحياة في بعض الأجسام القابلة لها ﴿وَنُمِيتُ﴾ بإزالتها عنها، وقد يُعمَّم الإحياء والإماتة لِما يشمل الحيوان والنبات. وتقديم الضمير للحصر، وهو إمّا تأكيد للأوّل أو مبتدأ خبرُه الفعل، والجملةُ خبرٌ لـ"إنّ". ولا يجوز كونه ضميرَ الفصل، لا لأنّ اللام مانعة عن ذلك كما قيل،[1] فإنّ النحاة جوّزوا دخولَ لام التأكيد على ضمير الفصل كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ [آل عمران، ٦٢/٣]؛[2] بل «لأنّه لم يقع بين اسمين».[3]

﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ أي: الباقون بعد فناء الخلق قاطبة، المالكون للمُلك عند انقضاء زمان المُلك المجازي، الحاكمون في الكلّ أوّلًا وآخرًا، وليس لهم إلّا التصرّف الصُّوري والمُلك المجازي، وفيه تنبيهٌ على أنّ المتأخِّر ليس بوارث للمتقدِّم كما يتراءى مِن ظاهر الحال.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ۝٢٤ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝٢٥﴾

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ مَن تقدَّم منكم ولادةً وموتًا ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ مَن تأخّر ولادةً وموتًا، أو مَن خرج مِن أصلاب الآباء ومَن لم يخرُج بعدُ، أو مَن تقدَّم في الإسلام والجهاد / وسبق إلى الطاعة ومَن تأخّر [٢٩١ظ]
في ذلك، لا يخفى علينا شيء مِن أحوالكم، وهو بيان لكمال علمِه تعالى بعد الاحتجاج على كمال قدرته، فإنّ ما يدلّ عليها دليل عليه، وفي تكرير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا﴾ ما لا يخفى مِن الدلالة على كمال التأكيد.

وقيل: رغّب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في الصفّ الأوّل فازدحموا

---

[1] قاله أبو البقاء في التبيان، ٧٨٠/٢؛ ونقله السمين الحلبي في الدرّ المصون، ١٥٥/٧؛ ابن عادل في اللباب، ٤٤٨/١١.

[2] هذا الردُّ في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٥٥/٧؛ واللباب لابن عادل، ٤٤٨/١١.

[3] اللباب لابن عادل، ٤٤٨/١١.

عليه، فنزلت.[١] وقيل: إنّ امرأة حسناءَ كانت تصلّي خلف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فتقدّم بعض الناس لئلّا يراها وتأخّر آخرون ليرَوها، فنزلت.[٢]

والأوّل هو المناسب لِما سبق وما لحق مِن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي:[٣] للجزاء. وتوسيط ضمير العظَمة للدلالة على أنّه هو القادر على حَشْرهم والمتولِّي له لا غير، لأنّهم كانوا يستبعدون ذلك ويستنكرونه ويقولون: مَن يحيي العظام وهي رميم؟ أي: هو يحشُرهم لا غيرُ. وفي الالتفات والتعرّض لعنوان الربوبيّةِ إشعارٌ بعلّة الحُكم، وفي الإضافة إلى ضميره صلّى الله عليه وسلّم دلالة على اللطف به عليه السلام.

﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾ بالغ الحكمة متقِن في أفعاله، فإنّها عبارة عن العِلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه، والإتيانِ بالأفعال على ما ينبغي. ﴿عَلِيمٌ﴾ وسِع عِلمُه كلّ شيء. ولعلّ تقديمَ صفة الحكمة للإيذان باقتضائها للحشر والجزاء.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ٢٦﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: هذا النوع بأن خلقنا أصله وأوّل فرد مِن أفراده خلقًا بديعًا منطويًا على خلق سائر أفراده انطواء إجماليًا كما مرّ تحقيقه في سورة الأنعام.

﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾ مِن طين يابس غير مطبوخ، يُصلصل، أي: يصوِّت عند نقره. قيل: إذا توهّمت في صوته مدًّا فهو صليل، وإن توهّمت فيه ترجيعًا فهو صلصلة. وقيل: هو تضعيف "صلّ" إذا أنتن.[٤]

﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾ مِن طين تغيّر واسودّ بطول مجاورة الماء، وهو صفة لـ﴿صَلْصَٰلٍ﴾ أي: مِن صلصال[٥] كائن مِن حمإ ﴿مَّسْنُونٍ﴾ أي: مصوَّر، / مِن "سُنّة الوجه" وهي صورته، [٢٩٢و]

---

[١] لم أجده في مظانّه. وهو في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٣٧-٢٣٨.

[٢] مَرويّ عن ابن عبّاس بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٤/٥٣-٥٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٤٢٣؛ اللباب لابن عادل، ١١/٤٤٨.

[٣] ط س - أي.

[٤] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٢٣.

[٥] وفي هامش م: أو مكوَّنٍ كما يدلّ عليه ﴿خَلَقْنَا﴾. «منه».

أو مصبوب، مِن "سَنّ الماء": صبّه، أي: مُفرَغ على هيئة الإنسان كما تُفرَغ الصور مِن الجواهر المُذابة في القوالب. وقيل: مُنتن فهو صفة لـ﴿حَمَإٍ﴾.[١] وعلى الأوّلَين حقُّه أن يكون صفة لـ﴿صَلْصَٰلٍ﴾،[٢] وإنّما أُخِّر عن ﴿حَمَإٍ﴾ تنبيهًا على أنّ ابتداء مسنونيّته ليس في حال كونه صلصالًا؛ بل في حال كونه حمأً، كأنّه سبحانه أفرغ الحمأ فصوَّر مِن ذلك تمثال إنسان أجوفَ فيَبِس حتّى إذا نُقر صوَّت ثمّ غيَّره إلى جوهر آخرَ، فتبارك الله أحسنُ الخالقين.

﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾

﴿وَٱلْجَآنَّ﴾ أبا الجنّ. وقيل: إبليس.[٣] ويجوز أن يُراد به الجنس كما هو الظاهر مِن الإنسان لأنّ تشعُّب الجنس لمّا كان مِن فرد واحد مخلوق مِن مادّة واحدة كان الجنس بأسره مخلوقًا منها. وقُرئ بالهمز.[٤] وانتصابه بفعل يفسّره.

﴿خَلَقْنَٰهُ﴾ وهو أقوى مِن الرفع للعطف على الجملة الفعلية. ﴿مِن قَبْلُ﴾ مِن قبل خلق الإنسان. ومِن هذا يظهر جواز كون المراد بـ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ أحدَ الثقلين وبـ﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ الآخرَ، والخطاب بقوله: ﴿مِنكُمْ﴾[٥] للكلّ.

﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ مِن نار الحرّ الشديد النافذ في المسامّ. ولا امتناعَ في خَلْق الحياة في الأجرام البسيطة كما لا امتناعَ في خَلْقها في الجواهر المجرَّدة، فضلًا عن الأجسام المؤلَّفة التي غالب أجزائها الجزء الناري، فإنّها أقبل لها مِن التي غالب أجزائها الجزء الأرضي. وقوله تعالى: ﴿مِن نَّارٍ﴾ باعتبار الغالب كقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الروم، ٢٠/٣٠]. ومَساق الآية الكريمة كما هو للدلالة على كمال قدرة الله تعالى وبيان بدء خلق الثقلين، فهو للتنبيه على المقدِّمة الثانية التي يتوقَّف عليها إمكان الحشر، وهو قبول الموادّ للجمع والإحياء.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٢٣/٢.

٢ وفي هامش م: وإن أمكن كونه صفة لـ﴿حَمَإٍ﴾ أيضًا؛ لأنّه المُصوَّر والمُفرَغ. «منه».

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٢٣/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وعمرو بن عُبيد وأبي السَّمّال وأيوب السَّختياني. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٤-٧٥؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٠٨٨.

٥ الحجر، ٢٤/١٥.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ نَصب بإضمار "اذكُر"، وتذكير الوقت لِما مرّ مرارًا مِن أنّه أدخَل في تذكير ما وقع فيه مِن الحوادث، وفي التعرّض لوصف الربوبيّة المنبِئة عن تبليغ الشيء / إلى كماله اللائق به شيئًا فشيئًا مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام إشعار بعلّة الحُكم وتشريف له صلّى الله عليه وسلّم، أي: اذكُر وقت قوله تعالى: ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ﴾ فيما سيأتي. وفيه ما ليس في صيغة المضارع مِن الدلالة على أنّه تعالى فاعل له البتّةَ مِن غير صارف يثنيه ولا عاطف يَلويه. [٢٩٢ظ]

﴿بَشَرًا﴾ أي إنسانًا. قيل: ليس هذا عين العبارة الجارية وقت الخطاب؛ بل الظاهر أن يكون قد قيل لهم: إنّي خالق خلقًا مِن صفته كيت وكيت، ولكن اقتُصر عند الحكاية على الاسم. وقيل:[١] جسمًا كثيفًا يُلاقى ويُباشَر. وقيل: خلقًا بادي البشرة بلا صوف ولا شعر.

﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾ متعلِّق بـ﴿خَٰلِقٌۢ﴾، أو بمحذوف وقَع صفة لمفعوله، أي: بشرًا كائنًا مِن صلصال كائن. ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ تقدَّم تفسيره، ولا يُنافي هذا ما في قوله تعالى في سورة ص مِن قوله: ﴿بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص، ٧١/٣٨]، فإنّ عدم التعرّض عند الحكاية لوصف الطين مِن التغيّر والاسوداد -ولِما ورد عليه مِن آثار التكوين-[٢] لا يستلزم عدم التعرّض لذلك عند وقوع المحكي، غايته أنّه لم يتعرَّض له هناك اكتفاء بما شُرح ههنا.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ أي: صوَّرتُه بالصورة الإنسانيّة والخِلقة البشريّة، أو سوَّيتُ أجزاء بدنه بتعديل طبائعه. ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ النَّفخ: إجراء الرِّيح إلى تجويف جسم صالح لإمساكها والامتلاء بها. وليس ثمّة نَفْخ ولا منفوخ وإنّما هو تمثيل لإفاضة ما به الحياة بالفعل على المادّة القابلة لها، أي: فإذا كمّلتُ استعداده

---

[١] وفي هامش م: إمام رازي. | انظر: تفسير الرازي، ١٣٩/١٩.

[٢] وفي هامش م: هي المسنونيّة. «منه».

وأفضتُ عليه ما يحيا به مِن الرُّوح التي هي مِن أمري ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ﴾ أَمْر مِن "وقَع يقَع"، وفيه دليل على أن ليس المأمور به مجرَّد الانحناء كما قيل، أي: اسقُطوا له ﴿سَٰجِدِينَ﴾ تحيّة له وتعظيمًا، أو اسجدوا لله تعالى على أنّه عليه السلام بمنزلة القِبلة، حيث ظهر فيه تعاجيبُ آثار قدرته تعالى وحكمته، كقول حسّان رضي الله عنه:

أليسَ أوّلَ مَن صلّى لقبلتكم وأعلمَ الناس بالقرآن والسُّننِ[1]

﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٣٠﴾

﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: فخلقه فسوّاه فنفخ فيه الروح فسجد له الملائكة ﴿كُلُّهُمۡ﴾ بحيث لم يشذّ منهم أحد ﴿أَجۡمَعُونَ﴾ بحيث لم يتأخّر في ذلك أحدِ منهم عن أحد، ولا اختصاصَ لإفادة هذا المعنى بالحاليّة؛ بل يفيده التأكيد أيضًا، فإنّ الاشتقاق الواضح يُرشِد إلى أنّ فيه معنى الجَمْع والمعيّة بحسب الوضع، والأصل في الخطابي التنزيل على أكمَل أحوال الشيء، ولا ريبَ في أنّ السجود معًا أكملُ أصناف السجود، لكن شاع استعماله تأكيدًا وأُقيم مُقامَ "كلّ" في إفادة معنى الإحاطة مِن غير نظر إلى الكمال، فإذا فُهِمت الإحاطة مِن لفظ آخر لم يكن بدّ مِن مراعاة الأصل صونًا للكلام عن الإلغاء.[2]

وقيل: أُكِّد بتأكيدين مبالغة في التعميم.[3] هذا وأمّا أنّ سجودهم هذا هل ترتّب على ما حُكيَ مِن الأمر التعليقي كما تقتضيه هذه الآية الكريمة والتي في سورة ص، أو على الأمر التنجيزي كما يستدعيه ما في غيرهما، فقد خرجنا بفضل الله عزّ وجلّ عن عُهدة تحقيقه في تفسير سورة البقرة.[4]

---

[1] هو لحسّان بن ثابت في تفسير الرازي، ٤٢٧/٢ (البقرة، ٣٤/٢)؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٨٧/١ (البقرة، ٣٤/٢)؛ واللباب لابن عادل، ٢١٤/١١ (يوسف، ١٠٠/١٢)، وليس في ديوان حسّان بن ثابت ولا في ملحقاته.

[2] ما ذكره المُصنّف ههنا هو قول المبرّد، وهو خلافُ مذهب سيبويه فيه. قال الزجّاج في معاني القرآن وإعرابه، ١٧٩/٣: «قال سيبويه والخليل ﴿أَجۡمَعُونَ﴾ توكيد بعد توكيد، وقال محمّد بن يزيد: ﴿أَجۡمَعُونَ﴾ يدلُّ على اجتماعهم في السجود، والمعنى: فسجدوا كلُّهم في حالة واحدة. وقولُ سيبويهِ والخليل أجودُ؛ لأنّ أجمعين معرفة فلا يكون حالًا». انظر: كتاب سيبويه ٢٨٧/٢؛ ومعاني القرآن للأخفش ١٧٥/١ (البقرة، ١٩٦/٢).

[3] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٣٩/٢.

[4] في الآية الرابعة والثلاثين منها.

﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣١﴾

﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ استثناء متّصل إمّا لأنّه كان جنّيًا مفرَدًا مغمورًا بألوف مِن الملائكة فعُدّ منهم تغليبًا، وإمّا لأنّ مِن الملائكة جنسًا يتوالدون وهو منهم. وقوله تعالى: ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ استئناف مبيّن لكيفيّة عدم السجود المفهوم مِن الاستثناء، فإنّ مطلق عدم السجود قد يكون مع التردّد وبه عُلِم أنّه مع الإباء والاستكبار، أو مُنقطِع[١] فيتّصل به ما بعده، أي: / لكنّ إبليسَ أبى أن يكون معهم. [٢٩٣و]

وفيه دلالة على كمال رَكاكة رأيه حيث أدمَج في معصية واحدة ثلاثَ معاصٍ: مخالفةَ الأمر، والاستكبارَ مع تحقير آدم عليه السلام، ومفارقةَ الجماعة والإباءَ عن الانتظام في سِلك أولئك المقرَّبين الكرام.

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣٢﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال مَن قال: فماذا قال تعالى عند ذلك؟ فقيل: قال: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ﴾ أي: أيُّ سبب لك؟ لا أيُّ غرض لك؟ كما قيل؛[٢] لقوله تعالى: ما منعك ﴿أَلَّا تَكُونَ﴾ في ألّا تكون ﴿مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ لآدم مع أنّهم هم ومنزلتُهم في الشرف منزلتُهم، وما كان التوبيخ عند وقوعه لمجرّد تخلُّفه عنهم؛ بل على كلّ[٣] مِن المعاصي الثلاث المذكورة، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَ﴾ [الأعراف، ١٢/٧]، وفي سورة ص: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص، ٧٥/٣٨]، ولكن اقتُصر عند الحكاية في كلّ موطن على ما ذُكر فيه اجتزاء بما ذُكر في موطن آخرَ، وإشعارًا بأنّ كلّ واحدة مِن تلك المعاصي الثلاث كافية في التوبيخ وإظهار بطلان ما ارتكبه. وقد تُركت حكاية التوبيخ رأسًا في سورة البقرة وسورة بني إسرائيل وسورة الكهف وسورة طه.

---

١ السياق: استثناء متّصل... أو منقطع...

٢ كما في الكشّاف للزمخشري، ٤٢٤/٢.

٣ م س: لكلّ. [صُحّح في هامش م].

﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٣٣﴾

﴿قَالَ﴾ أي: إبليس، وهو أيضًا استئناف مبنيّ على السؤال الذي ينساق إليه الكلام. ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ﴾ "اللام" لتأكيد النفي، أي: يُنافي حالي ولا يستقيم منّي لأنّي مخلوق مِن أشرف العناصر وأعلاها أن أسجُد ﴿لِبَشَرٍ﴾ أي: جسم كثيف ﴿خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ اقتُصر ههنا على الإشارة الإجماليّة إلى ادِّعاء الخيريّة وشرفِ المادّة اكتفاء بما صرَّح به حين قال: أنا خير منه خلقتني مِن نار وخلقته مِن طين، ولم يكتفِ اللعين بمجرَّد ذِكر كونه عليه السلام مِن التراب الذي هو أخسّ العناصر وأسفَلُها؛ بل تعرَّض لكونه مخلوقًا منه في أخسّ أحواله مِن كونه طينًا متغيّرًا، / وقد اكتفى في سورة الأعراف [٢٩٣ظ] وسورة ص بما حُكيَ عنه ههنا فاقتُصر على حكاية تعرُّضه لخَلْقه عليه السلام مِن طين، وكذا في سورة بني إسرائيل حيث قيل: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء، ٦١/١٧].

وفي جوابه دليل على أنّ قوله تعالى: ﴿مَا لَكَ﴾[١] ليس استفسارًا عن الغرض؛ بل هو استفسار عن السبب. وفي عدوله عن تطبيق جوابه على السؤال رَوْمٌ للتفصّي[٢] عن المناقشة، وأنّى له ذلك؟ كأنّه قال: لم أمتنع عن امتثال الأمر ولا عن الانتظام في سِلك الملائكة؛ بل عمّا لا يليق بشأني مِن الخضوع للمفضول، ولقد جرى -خذَله الله تعالى- على سَنن قياس عقيم، وزلّ عنه أنّ ما يدور عليه فلَك الفضل والكمال هو التحلّي بالمعارف الربانيّة والتخلّي عن المَلَكات الرَّدِيّة، التي أقبحُها التكبّر والاستعصاء على أمر ربّ العالمين جلّ جلاله.

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٣٤﴾

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي: مِن زُمرة الملائكةِ المعزَّزين لا مِن السماء، فإنّ وسوسته لآدمَ عليه السلام في الجنّة إنّما كانت بعد هذا الطرد، وقوله تعالى:

---

١ في الآية السابقة.

٢ التفصّي: التخلّص، وأصله أن يكون الشيء في مضيق ثمّ يخرج إلى غيره. انظر: لسان العرب لابن منظور، «فصي».

﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا﴾ [الأعراف، ١٣/٧] ليس نصًّا في ذلك، فإنّ الخروج مِن بين الملإ الأعلى هبوطٌ وأيُّ هبوط؟ أو مِن الجَنّة.[١] على أنّ وسوسته كانت بطريق النداء مِن بابها كما رُوي عن الحسن البصري رضي الله عنه،[٢] أو بطريق المشافهة بعد أن احتال في دخولها وتوسّل إليه بالحيّة كما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما،[٣] ولا ينافي هذا طردَه على رءوس الأشهاد لِما يقتضيه مِن الحِكَم البالغة.

﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾ مطرود مِن كلّ خير وكرامةٍ، فإنّ مَن يُطرَدْ يُرجَمْ بالحجارة، أو شيطان يُرجَمُ بالشهب وهو وعيد يتضمّن الجوابَ عن شبهته، فإنّ مَن عارض النصَّ بالقياس فهو رجيم ملعون.

﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٣٥ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٣٦﴾

﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ﴾ الإبعادَ عن الرحمة، وحيث كان ذلك مِن جهة الله سبحانه وإن كان جاريًا على ألسنة العبادِ، قيل: في سورة ص ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ﴾ [ص، ٧٨/٣٨].

﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ / إلى يوم الجزاء والعقوبة. وفيه إشعار بتأخير عقابه وجزائِه [٢٩٤و]
إليه، وأنّ اللعنة مع كمال فظاعتها ليست جزاءً لفعله، وإنّما يتحقّق ذلك يومئذ، وفيه مِن التهويل ما لا يُوصَف، وجَعْلُ ذلك أقصى أمَد اللعنة ليس لأنّها تنقطِع هنالك؛ بل لأنّه عند ذلك يُعذَّب بما يَنسى به اللعنة مِن أفانين العذابِ، فتصير هي كالزائل.

وقيل: إنّما حُدّت به لأنّه أبعد غاية يُضَرّ بها الناس،[٤] كقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [هود، ١٠٨/١١]، وحيث أمكَن كون تأخير العقوبة مع الموت كسائر مَن أُخِّرت عقوباتهم إلى الآخرة مِن الكفَرة، طلَب اللعين تأخيرَ موته كما حُكيَ عنه بقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ﴾ أي: أمهلني وأخِّرْني ولا تُمِتْني، و"الفاء" متعلِّقة بمحذوف ينسحب عليه الكلام، أي: إذا جعلتني رجيمًا

---

[١] السياق: مِن زمرة الملائكة... أو مِن الجنّة...

[٢] ما وجدتُه فيما بين يديّ من المظانّ.

[٣] ما وجدتُه فيما بين يديّ من المظانّ.

[٤] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٤٠/٢.

فأمهلني ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ أي: آدمُ وذرّيّته للجزاء بعد فنائهم، وأراد بذلك أن يجِد فُسحة لإغوائهم ويأخذَ منهم ثأره وينجوَ مِن الموت لاستحالته بعد يوم البعث.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٣٧﴾

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾ ورودُ الجواب بالجملة الاسميّة مع التعرّض لشمول ما سأله الآخرين على وجه يُؤذِن بكون السائل تبَعًا لهم في ذلك دليلٌ على أنّه إخبار بالإنظار المقدَّر لهم أزَلًا، لا إنشاءٌ لإنظارٍ خاصٍّ به وقَع إجابةً لدعائه، أي: إنّك مِن جملة الذين أُخِّرت آجالُهم أزَلًا حسبما يقتضيه حكمة التكوين، فـ"الفاء" ليست لربط نفس الإنظار بالاستنظار؛ بل لربط الإخبار المذكور به، كما في قوله:

فـإن تـرحَـم فـأنـت لـذاك أهـل[١]

فإنّه لا إمكانَ لجَعْل "الفاء" فيه لربط ما فيه تعالى مِن الأهليّة القديمة للرحمة بوقوع الرحمة الحادثة؛ بل هي لرَبْط الإخبار بتلك الأهليّة للرحمة بوقوعها، وأنّ استنظاره كان طلبًا لتأخير الموت إذ به / يتحقَّق كونه مِن جملتهم، [٢٩٤ظ]
لا لتأخير العقوبة كما قيل.

ونظمُه في ذلك في سِلك مَن أُخِّرت عقوبتُهم إلى الآخرة في عِلم الله تعالى ممّن سبَق مِن الجنّ ولحِق مِن الثقلين لا يُلائم مَقام الاستنظار مع الحياة، ولأنّ ذلك التأخير معلوم مِن إضافة "اليوم" إلى "الدِّين" مع إضافته في السؤال إلى البعث كما عرفته، وفي سورة الأعراف: ﴿قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾ [الأعراف، ٧/١٤-١٥]، بترك التوقيت والنداء والفاء في الاستنظار والإنظار تعويلًا على ما ذُكِر ههنا وفي سورة ص، فإنّ إيراد كلام واحد على أساليبَ متعدِّدة غيرُ عزيز في الكتاب العزيز.

---

١ وفي هامش م: تمامه:

وإن تـطـرُد فـمَـن يـرحَـم سـواكـا

وما عرفتُ قائله، وهو بلا نسبة في معاهد التنصيص للعبّاسي، ١/١٧٠.

وأمّا أنّ كلّ أسلوب مِن أساليب النظم الكريم لا بدّ أن يكون له مقام يقتضيه مُغاير لمقام غيره، وأنّ ما حُكي مِن اللعين إنّما صدر عنه مرّة، وكذا جوابُه لم يقع إلّا دَفعة، فمقامُ المحاورة إن اقتضى أحدَ الأساليب المذكورة فهو المطابق لمقتضى الحال والبالغُ إلى طبقة الإعجاز وما عداه قاصر عن رُتبة البلاغة فضلًا عن الارتقاء إلى معالم الإعجاز، فقد مرّ تحقيقه بتوفيق الله تعالى في سورة الأعراف.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٣٨﴾

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ وهو وقت النفخة الأولى التي عُلم أنّه يُصعَق عندها مَن في السماوات ومَن في الأرض إلّا مَن شاء الله تعالى، ويجوز أن يكون المراد بالأيّام واحدًا، والاختلافُ في العبارات لاختلاف الاعتبارات: فالتعبيرُ بـ"يوم البعث" لأنّ غرض اللعين به يتحقّق، وبـ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[1] لِما ذُكر مِن الجزاء، وبـ﴿يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ لِما ذُكر، أو لاستئثاره تعالى بعِلمه، فلعلّ كلًّا مِن هلاك الخلق جميعًا وبَعْثهم وجزائهم في يوم واحد، يموت اللعين في أوّله ويُبعث في أواسطه ويعاقب في بقيّته. يُروى أنّ بين موتِه وبعثه أربعين سنة مِن سِني الدنيا مقدارَ ما بين النفختين.[2]

ونُقل عن / الأحنف بن قيس[3] رحمه الله أنّه قال: قدِمتُ المدينة أريدُ [٢٩٥و] أمير المؤمنين عمرَ رضي الله تعالى عنه، فإذا أنا بحلقة عظيمة وكعبُ الأحبار فيها يُحدِّث الناس وهو يقول: «لمّا حضر آدمَ عليه السلام الوفاةُ قال: "يا ربّ سيشمت بي عدوّي إبليسُ إذا رآني ميّتًا وهو مُنظَر إلى يوم القيامة"، فأجيبَ

١ الحجر، ٣٥/١٥.
٢ انظر: **معالم التنزيل** للبغوي، ٣٨١/٤.
٣ هو الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين المرّي السعدي المنقري التميمي، أبو بحر (ت. ٧٢هـ/٦٩١م). هو سيّد تميم، والعالم النبيل، وأحد العظماء الدُّهاة الفصحاء الشجعان الفاتحين. يُضرب بحلمه وسؤدده المَثل. وُلد في البصرة وأدرك النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ولم يرَه. شهد الفتوح في خراسان وشهد صفّين مع عليّ رضي الله عنه واعتزل الفتنة يوم الجمل، وولي خراسان. وله خطب وكلمات متفرّقة في كتب التاريخ والأدب. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٨٦/٤؛ **والأعلام** للزركلي، ٢٧٦/١.

"أن يا آدمُ إنّك ستَرِد إلى الجنّة ويُؤخِّر اللعين إلى النظِرة ليذوقَ ألم الموت بعدد الأوّلين والآخِرين"، ثمّ قال لملَك الموت: "صِف كيف تُذيقه الموت"، فلمّا وصفه قال: "يا ربّ حسبي"». فضجّ الناسُ وقالوا: «يا أبا إسحاقَ كيف ذلك؟» فأبى، فألحّوا فقال: «يقول الله سبحانه وتعالى لمَلَك الموت عقِيبَ النفخةِ الأولى: "قد جعلتُ فيك قوّة أهل السماوات[1] وأهلِ الأرضِين السبع، وإنّي ألبستُك اليوم أثواب السخط والغضب كلّها، فانزِلْ بغضبي وسطوتي على رجيمي إبليسَ فأذِقْه الموتَ واحمِلْ عليه فيه مرارة الأوّلين والآخِرين مِن الثقلين أضعافًا مضاعَفة، وليكن معك مِن الزبانية سبعون ألفًا قد امتلئوا غيظًا وغضبًا، وليكُن مع كلّ منهم سِلسلةٌ مِن سلاسل جهنّم وغُلٌّ مِن أغلالها، وانزِع روحَه المُنتِن بسبعين ألف كُلّاب مِن كلاليبها، ونادِ مالكًا ليفتح أبواب النيران". فينزِل مَلَك الموت بصورةٍ لو نظر إليها أهل السماوات والأرضِين لَماتوا بغتةً مِن هولها، فينتهي إلى إبليس فيقول: "قِف لي يا خبيثُ لأُذيقنّك الموت! كم مِن عمر أدركتَ وقرونٍ أضللتَ! وهذا هو الوقتُ المعلوم"». قال: «فيهرُب اللعين إلى المشرِق فإذا هو بمَلَك الموت بين عينيه، فيهرُب إلى المغرِب فإذا هو به بين عينيه، فيغوص البحارَ فتنِزُّ منه البحار فلا تقبله، فلا يزال يهرُب في الأرض ولا محيصَ له[2] / ولا ملاذَ، ثمّ يقوم في [٢٩٦و] وسط الدنيا عند قبر آدمَ عليه السلام، ويتمرَّغ في التراب مِن المشرِق إلى المغرِب ومِن المغرِب إلى المشرِق، حتّى إذا كان في الموضع الذي أُهبِط فيه آدمُ عليه السلام، وقد نَصبت له الزبانية الكلاليب وصارت الأرض كالجمرة احتوشته الزبانية وطعنوه بالكلاليب، ويبقى في النزع والعذاب إلى حيث يشاء الله تعالى، ويقال لآدمَ وحواءَ: اطَّلِعا اليوم إلى عدوّكما كيف يذوق الموت، فيطّلِعان فينظران إلى ما هو فيه مِن شدّة العذاب فيقولان: ربّنا أتممتَ علينا نعمتكَ».[3]

---

[1] س + السبع.

[2] ظهر اللوح ٢٩٥ مِن نسخة المؤلّف أبيضُ، والكلام متّصل بعده.

[3] ما وجدت مصدر المُصنِّف في هذا الخبر.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ "الباء" للقسم، و﴿مَا﴾ مصدرية، والجواب ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ أي: أقسِم بإغوائك إيّايَ لأزينَنّ[1] لهم المعاصيَ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: في الدنيا التي هي دارُ الغرور، كقوله تعالى: ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف، ١٧٦/٧]. وإقسامُه بعزّة الله المُفسَّرة بسلطانه وقهره لا يُنافي إقسامه بهذا، فإنّه فَرْع مِن فروعها وأثر مِن آثارها، فلعلّه أقسَم بهما جميعًا فحُكي تارة قسمُه بهذا وأخرى بذاك، أو للسببيّة. وقوله: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾ جوابُ قسَم محذوف، والمعنى: بسبب تسبيبك لإغوائي أقسِم لأفعلنّ بهم مثلَ ما فعلتَ بي مِن التسبيب لإغوائهم بتزيين المعاصي وتسويل الأباطيل.

والمعتزلة أوّلوا الإغواء بالنسبة إلى الغيّ أو التسبّب له بأمره إيّاه بالسجود لآدم عليه السلام، واعتذروا عن إمهال الله تعالى وتسليطه له على إغواء بني آدم بأنّه تعالى قد علِم منه وممّن تبِعه أنّهم يموتون على الكفر ويصيرون إلى النار، أُمهِل أم لم يُمهَل، وأنّ في إمهاله تعريضًا لمَن خالفه لاستحقاق مزيد الثواب.[2]

/ ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لأحمِلنّهم على الغواية، ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [٢٩٦ظ]
الذين أخلصتَهم لطاعتك وطهّرتَهم مِن الشوائب، فلا يعمل فيهم كيدي، وقُرئ بكسر اللام،[3] أي: الذين أخلصوا نفوسَهم لله عزّ وجلّ.

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝٤١﴾

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ﴾ أي: حقّ عليَّ أن أُراعيَه ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ لا عِوجَ فيه، والإشارة إلى ما تضمّنه الاستثناء وهو تخلّص المخلَصين مِن إغوائه، أو الإخلاصُ على معنى أنّه طريق يؤدّي إلى الوصول إليّ مِن غير اعوجاج وضلال،

---

١ س: لأزيّنَ.
٢ الكلام بلفظ قريب في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٤١/٢.
٣ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٩٥/٢.

والأظهرُ أنّ ذلك لِما وقع في عبارة إبليسَ حيث قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الآية، [الأعراف، ٧/١٦-١٧]، وقُرئ: "عَلِيٌّ"[١] مِن عُلوّ الشرف.

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝٤٢﴾

﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ وهم المشار إليهم بالمخلَصين ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ تسلُّط وتصرُّف بالإغواء ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ وفيه مع كونه تحقيقًا لِما قاله اللعين تفخيمٌ لشأن المخلَصين وبيانٌ لمنزلتهم ولانقطاع مَخالِب الإغواء عنهم، وأنّ إغواءه للغاوين ليس بطريق السلطان؛ بل بطريق اتّباعهم له بسوء اختيارهم.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٣﴾

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ﴾ أي: موعدُ المتّبِعين أو الغاوين، والأوّلُ أنسَب وأَدخَل في الزجر عن اتّباعه، وفيه دلالةٌ على أنّ جهنّم مكان الوعد وأنّ الموعود ممّا لا يُوصَف في الفظاعة. ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد للضمير أو حال، والعاملُ فيها الوعد إن جُعل مصدرًا على تقدير المضاف، أو معنى الإضافة إن جُعل اسم مكان.

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ۝٤٤﴾

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ يدخُلونها لكثرتهم، أو سبعُ طبقات ينزِلونها بحسب مراتبهم في الغَواية والمُتابعة، وهي: جهنّم، ثمّ لظى، ثمّ الحُطَمة، ثمّ السعير، ثمّ سَقَر، ثمّ الجحيم، ثمّ الهاوية.

﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ﴾ مِن الأتباع أو الغُواة ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ حزب مُعيَّن مُفرَز مِن
[٢٩٧و] غيره حسبما يقتضيه استعداده: / فأعلاها للموحِّدين، والثانية لليهود، والثالثة للنصارى، والرابعة للصابئين، والخامسة للمجوس، والسادسة للمشركين، والسابعة للمنافقين. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «إنّ جهنّم لمَن ادّعى الربوبيّة،

---

[١] قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠١.

ولظى لعبَدة النار، والحُطَمة لعبدة الأصنام، وسَقَر لليهود، والسعير للنصارى، والجحيم للصابئين، والهاوية للموحِّدين».[١]

ولعلّ حصْرَها في السبع لانحصار المهلِكات في المحسوسات بالحواسّ الخمس ومقتضياتِ القوّة الشهويّة والغضبيّة. وقُرئ بضمّ الزاي،[٢] وبحذف الهمزة وإلقاءِ حركتها إلى ما قبلها مع تشديدها في الوقف والوصل.[٣] و﴿مِنْهُمْ﴾ حال مِن ﴿جُزْءٌ﴾ أو مِن ضميره في الظرف لا في ﴿مَقْسُومٌ﴾، لأنّ الصفة لا تعمل فيما تقدّم موصوفَها.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٤٥﴾

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ مِن اتّباعه في الكفر والفواحش فإنّ غيرهما مُكفَّرة. ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: مستقرّون فيها خالدين، لكلّ واحد منهم جنّة وعين، أو لكلّ منهم عدةٌ منهما، كقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن، ٥٥/٤٦]. وقُرئ بكسر العين[٤] حيث وقع في القرآن العظيم.

﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝٤٦﴾

﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ على إرادة القول أمرًا مِن الله تعالى لهم بالدخول. وقُرئ: "أَدْخِلُوهَا"[٥] أمرًا منه تعالى للملائكة بإدخالهم، وقرأ الحسن: "أُدْخِلُوهَا"[٦] مبنيًّا للمفعول على صيغة الماضي مِن الإدخال. ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ ملتبِسين بسلام، أي: سالمين أو مسلَّمًا عليكم، ﴿ءَامِنِينَ﴾ مِن الآفات والزوال.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٤٧﴾

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ أي: حقدٍ كان في الدنيا، وعن عليّ رضي الله عنه:

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٢٥. وقريب منه عن الضحّاك في معالم التنزيل للبغوي، ٤/٣٨٢-٣٨٣. ولم أجده في مظانّه.

٢ قرأ بها أبو بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٢١٥.

٣ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ١/٤٠٦.

٤ قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي وابن ذكوان وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٦.

٥ قرأ بها يعقوب. الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٧/١٦١؛ واللباب لابن عادل، ١١/٤٦٣.

٦ قرأ بها رويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ١/٣٠١. ونسبها الزمخشري إلى الحسن في الكشّاف، ٢/٤٢٥.

«أرجو أن أكون أنا وعثمانُ وطلحةُ والزبير منهم».[1] رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. ﴿إِخْوَٰنًا﴾ حال مِن الضمير في قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾،[2] / أو مِن فاعل [٢٩٧ظ]
﴿ٱدْخُلُوهَا﴾،[3] أو مِن الضمير في ﴿ءَامِنِينَ﴾،[4] أو الضمير المضاف إليه، والعامل فيها معنى الإضافة، وكذلك قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾. ويجوز كونهما صفتين لـ﴿إِخْوَٰنًا﴾ أو حالين مِن ضميره، لأنّه بمعنى متصافِين، وكونُ الثاني حالًا مِن المستكنّ في الأوّل. وعن مجاهد: تدور بهم الأسرّة حيثما داروا فهم متقابلون في جميع أحوالهم.

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي: تعب بألّا يكونَ لهم فيها ما يُوجِبه مِن الكدّ في تحصيل ما لا بُدّ لهم منه، لحصول كلّ ما يريدونه مِن غير مزاولة عمل أصلًا، أو بألّا يعتريَهم ذلك وإن باشروا الحركاتِ العنيفة لكمال قوتِهم، وهو استئناف أو حال بعد حال أو حال مِن الضمير في ﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾.

﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ أبدَ الآباد لأنّ تمام النعمة بالخلود.

﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾

﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ﴾ وهم الذين عُبّر عنهم بالمتّقين ﴿أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ فذلكة لِما سلَف مِن الوعد والوعيد وتقريرٌ له، وفي ذِكر المغفرة إشعارٌ بأن ليس المراد بالمتّقين مَن يتّقي جميع الذنوب كبيرَها وصغيرَها. وفي وَصْف ذاته تعالى بها وبالرحمة على وجه القَصْر دون التعذيب إيذانٌ بأنّهما ممّا تقتضيهما الذات وأنّ العذاب إنّما يتحقّق بما يُوجِبه مِن خارج.

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾﴾

﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ عطفٌ على ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ﴾،[5] والمقصود اعتبارُهم بما جرى

---

[1] بمعناه في جامع البيان للطبري، ١٤/٧٦-٧٧؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٤٢٥.
[2] الحجر، ١٥/٤٥.
[3] في الآية السابقة.
[4] في الآية السابقة.
[5] الحجر، ١٥/٤٩.

على إبراهيمَ عليه السلام مِن البشرى في تضاعيف الخوف، وبما حلّ بقوم لوط مِن العذاب ونجاته عليه السلام مع أهله التابعين له في ضمن الخوف، وتنبُّههم لحلول انتقامه تعالى مِن المجرمين، وعِلمُهم بأنّ عذاب الله هو العذاب الأليم.

﴿عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ عن ابن عبّاس: أنّهم جبريلُ عليه السلام وملكانِ معه،[1] وقال محمّد بن كعب: وسبعةٌ معه عليه السلام. وقيل: جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ عليهم السلام. / وقال الضحّاك: كانوا تسعةً، وعن السُّدّي: كانوا [٢٩٨و] أحدَ عشرَ على صور الغلمان الوِضاءِ وجوهُهم، وعن مقاتل: أنّهم كانوا اثنَيْ عشَرَ ملَكًا عليهم السلام.[2] وإنّما لم يتعرّض لعنوان رسالتهم لأنّهم لم يكونوا مرسَلين إلى إبراهيمَ عليه السلام؛ بل إلى قوم لوط حسبما يأتي ذِكره.

﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ٥٢﴾

﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾ نصب بفعل مضمَر معطوف على ﴿نَبِّئۡ﴾، أي: واذكر وقت دخولهم عليه، أو خبرٌ مُقدَّر مضاف إلى ﴿ضَيۡفِ﴾،[3] أي: خبر ضيف إبراهيمَ حين دخولهم عليه، أو بنفس ﴿ضَيۡفِ﴾[4] على أنّه مصدر في الأصل. ﴿فَقَالُواْ﴾ عند ذلك ﴿سَلَٰمٗا﴾ أي: نُسلِّم سلامًا أو سلَّمنا أو سَلِمتَ سلامًا.

﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ﴾ أي: خائفون، فإنّ الوجَل: اضطراب النفس لتوقّع مكروه. قاله عليه السلام حين امتنعوا مِن أكل ما قرّبه إليهم مِن العجل الحنيذ، لِما أنّ المعتاد عندهم إذا نزَل بهم ضيف فلم يأكُل مِن طعامهم ظنُّوا أنّه لم يجئ بخير، لا عند ابتداء دخولهم، لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗ﴾ [هود، ٧٠/١١]، فلا مجالَ لكون خوفه عليه السلام بسبب دخولِهم بغير إذن ولا بغير وقت، إذ لو كان كذلك

---

[1] عن ابن عبّاس في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٣/٢ (هود، ٦٩/١١)، وبلا نسبة في جامع البيان للطبري، ٤٦٥/١٢ (هود، ٦٩/١١).

[2] هذه الأقوال الخمسة في معالم التنزيل للبغوي، ١٨٧/٤ (هود، ٦٩/١١)؛ وبعضها في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٣/٢ (هود، ٦٩/١١)؛ وجامع البيان للطبري، ٤٦٥/١٢ (هود، ٦٩/١١).

[3] في الآية السابقة.

[4] في الآية السابقة.

لأجابوا حينئذ بما أجابوا به، ولم يتصدَّ عليه السلام لتقريب الطعام إليهم، وإنّما لم يُذكَر ههنا اكتفاءً بما بُيِّن في غير هذا الموضع، ألا يُرى إلى أنّه لم يُذكر ههنا ردُّه عليه السلام لسلامهم.

﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٥٣﴾

﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ﴾ لا تخف، وقُرئ: "لَا تَأْجَلْ"،[1] و"لَا تُوْجَلْ"[2] مِن أَوجَله، أي: أخافَه، و"لا تُواجَلْ"[3] مِن واجله بمعنى أَوجَله. ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ استئناف لتعليل النهي عن الوجَل، فإنّ المُبشَّر به لا يكاد يحوم حول ساحته خوف ولا حُزن، كيف لا، وهو بِشارة ببقائه وبقاء أهله في عافية وسلامة زمانًا طويلًا.

﴿بِغُلَٰمٍ﴾ هو إسحاقُ عليه السلام لقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ [هود، ٧١/١١]، ولم يتعرَّض ههنا لبِشارة يعقوبَ عليه السلام / اكتفاءً بما ذُكِر في سورة هود. ﴿عَلِيمٍ﴾ إذا بلغ، وفي موضع ﴿بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات، ١٠١/٣٧]. [٢٩٨ظ]

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤﴾

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ بذلك ﴿عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ وأثَّر فيَّ، تعجَّب عليه السلام مِن بِشارتهم بالولد في حالة مُباينة للولادة، وزاد في ذلك فقال: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ أي: بأيّ أعجوبة تبشّرونني أو بأيّ شيء تُبشِّرونني، فإنّ البِشارة بما لا يُتصوّر وقوعه عادة بِشارة بغير شيء، أو بأيّ طريقة تُبشِّرونني. وقُرئ بتشديد النون المكسورة[4] على إدغام نون الجمع في نون الوقاية.

﴿قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ۝٥٥﴾

﴿قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بما يكون لا محالةَ، أو باليقين الذي لا لَبسَ فيه، أو بطريقة هي حقّ وهو أمرُ الله تعالى.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي معاذ النحوي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٥.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٥.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن أصحاب ابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٥.

[4] قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٠٢/٢.

وقوله: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ﴾ مِن الآيسين مِن ذلك، فإنّ الله تعالى قادر على أن يخلُق بشرًا بغير أبوين، فكيف مِن شيخ فانٍ وعجوز عاقر، وقُرئ: "مِنَ القَنِطِينَ".[1] وكان مقصِده عليه السلام استعظامَ نعمته تعالى عليه في ضمن التعجّب العادي المبنيّ على سُنّة الله تعالى المَسلوكة فيما بين عباده، لا استبعادَ ذلك بالنسبة إلى قدرته سبحانه، كما ينبئ عنه قولُ الملائكة: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ﴾، دون أن يقولوا: مِن المُمتَرين أو نحوه.

﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾

﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ﴾ استفهام إنكاري، أي: لا يقنَط ﴿مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾[2] المخطِئون طريقَ المعرفة والصواب، فلا يعرِفون سَعةَ رحمته وكمالَ عِلمه وقدرته، كما قال يعقوبُ عليه السلام: ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف، ٨٧/١٢]، ومرادُه نفي القُنوط عن نفسه على أبلغ وجه، أي ليس بي قنوط مِن رحمته تعالى، وإنّما الذي أقول لبيان منافاة حالي لفيضان تلك النعمة الجليلة عليّ. وفي التعرّض لوصف الربوبيّة والرحمة / ما لا يخفى مِن الجزالة. [٢٩٩و]
وقُرئ بضمّ النون،[3] وبكسرها[4] مِن "قنَط" بالفتح. ولم يكن هذه المفاوضة مِن الملائكة مع إبراهيمَ عليه السلام خاصّة؛ بل مع سارَةَ أيضًا حسبما شُرح في سورة هود،[5] ولم يُذكر ذلك ههنا اكتفاءً بما ذُكِر هناك، كما أنّه لم تُذكَر هذه هناك اكتفاء بما ذُكر ههنا.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى والأعمش، والجعفيُّ عن أبي عمرو، وطلحة بن مصرف وابن أبي عبلة، وابن الصبّاح عن حمزة، والصوفي والعنبري والكفَرتوثي والبصريُّ كلُّهم عن أبي عمرو. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٧٥؛ **وشواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٦٦؛ **المغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ١٠٩٢.

[2] س + أي.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن يعمر والأشهب العقيلي وأبي عمرو وعيسى بن عُمر والأعمش وأبي البَرَهسم، والعنبري عن أبي بكر، وأبي طاهر عن أبي الحارث عن الكسائي، وطلحة والزعفراني وزيد بن علي. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٧٥؛ **وشواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٦٦؛ **المغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ١٠٩٢.

[4] قرأ بها الكسائي وأبو عمرو ويعقوب وخلف. **النشر** لابن الجزري، ٣٠٢/٢.

[5] في الآية التاسعة والستّين منها.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ٥٧﴾

﴿قَالَ﴾ أي: إبراهيمُ، وتوسيطُه بين قوله السابق وبين قوله: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي: أمرُكم وشأنكم الخطيرُ الذي لأجله أُرسلتم سوى البِشارة ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ صريحٌ[١] في أنّ بينهما مقالة مطويّة لهم أشيرَ به إلى مكانها، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۞ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ الآية، [الإسراء، ٦١/١٧-٦٢]، فإنّ قوله الأخير ليس موصولًا بقوله الأوّل، بل هو مبنيٌّ على قوله تعالى: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾،[٢] فإنّ توسيط ﴿قَالَ﴾ بين قوليه للإيذان بعدم اتّصال الثاني بالأوّل وعدم ابتنائه عليه؛ بل على غيره.

ثمّ خطابُه لهم عليهم السلام بعنوان الرسالة بعد ما كان خطابه السابق مجرّدًا عن ذلك مع تصديره بـ"الفاء" دليلٌ على أنّ مقالتهم المطويّة كانت متضمِّنةً لبيان أنّ مجيئهم ليس لمجرّد البِشارة؛ بل لهم شأنٌ آخَرُ لأجله أُرسلوا فكأنّه قال عليه السلام: إن لم يكن شأنكم مجرّد البِشارة فماذا هو؟ فلا حاجةَ إلى الالتجاء إلى أنّ عِلمه عليه السلام بأنّ كلّ المقصود ليس البِشارة بسبب أنّهم كانوا ذوي عدد، والبِشارةُ لا تحتاج إلى عدد، ولذلك اكتُفيَ بالواحد في زكريا عليه السلام ومريمَ، ولا إلى أنّهم بشّروه[٣] في تضاعيف الحالِ / لإزالة [٢٩٩ظ]
الوجَل، ولو كانت تمامَ المقصود لابتدءوا بها. فتأمّل.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ٥٩ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ٦٠﴾

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ هم قوم لوط، لكن وُصِفوا بالإجرام، وجيء بهم بطريق التنكير ذمًّا لهم واستهانة بهم.

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ استثناء متّصل مِن الضمير في ﴿مُّجْرِمِينَ﴾،[٤] أي: إلى قوم أَجرموا جميعًا إلّا آلَ لوط، فـ"القوم" و"الإرسال" شاملان للمجرمين وغيرهم،

---

١ السياق: وتوسيطه... صريح...

٢ الحجر، ٣٤/١٥.

٣ لسياق: فلا حاجةَ إلى الالتجاء... ولا إلى أنّهم...

٤ في الآية السابقة.

والمعنى: إنّا أُرسِلنا إلى قوم أجرَم كلُّهم إلّا آلَ لوط، لنُهلِك الأوّلين وننجّيَ الآخِرين، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ﴾ أي: لوطًا وآله ﴿أَجْمَعِينَ﴾ أي: ممّا يُصيب القوم، فإنّه استئناف للإخبار بنجاتهم لعدم إجرامهم، أو لبيان ما فُهم مِن الاستثناء مِن مطلَق عدم شمول العذاب لهم، فإنّ ذلك قد يكون بكون حالهم بينَ بينَ، أو لتعليله، فإنّ مَن تعلّق بهم التنجيةُ بمَنجى مِن شمول العذاب.

أو منقطِعٌ[١] مِن ﴿قَوْمٍ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ﴾ متصلٌ بـ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ جارٍ مَجرى خبر "لكنّ"، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ استثناء مِن ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ أو مِن ضميرهم، وعلى الأوّل مِن الضمير خاصّة لاختلاف الحُكمين، اللّهمّ إلّا أن يُجعَل ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ﴾ اعتراضًا. وقُرئ بالتخفيف.[٣]

﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ الباقين مع الكفَرة لتُهلَك معهم، وقُرئ: "قَدَرْنَا"[٤] بالتخفيف، وإنّما عُلِّق فعل التقدير مع اختصاص ذلك بأفعال القلوب لتضمُّنه معنى العِلم، ويجوز حمله على معنى "قلنا" لأنّه بمعنى: القضاء قول، وأصلُه جَعْل الشيء على مِقدار غيره، / وإسنادُهم له إلى أنفسهم وهو فعل الله سبحانه لِما لهم مِن الزُّلفى والاختصاص. [٣٠٠و]

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ شروع في بيان كيفيّة إهلاك المجرمين وتنجية آل لوط حسبما أُجمِل في الاستثناء[٥] ثمّ فُصِّل في التعليل[٦] نوعَ تفصيل. ووضعُ المظهرِ موضعَ المضمر للإيذان بأنّ مجيئهم لتحقيق ما أُرسلوا به مِن الإهلاك والتنجية، وليس المراد به ابتداءَ مجيئهم؛ بل مطلقُ كينونتهم عند آل لوط، فإنّ ما حُكيَ عنه عليه السلام بقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾

---

١ السياق: استثناء متّصل... أو منقطع...

٢ في الآية السابقة.

٣ قرأ بها حمزة والكسائي ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٨.

٤ قرأ بها أبو بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٢.

٥ وفي هامش م: بقوله: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾. «منه».

٦ وفي هامش م: بقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الآية.

إنّما قاله عليه السلام[١] بعد اللُّتيّا والتي[٢] حين ضاقت عليه الحِيَل وعيَّت به العِلَلُ، لِما لم يشاهِد مِن المرسَلين عند مُقاساته الشدائدَ ومُعاناته المكائدَ مِن قومه الذين يريذون بهم ما يُريدون ما هو المعهودُ والمعتاد مِن الإعانة والإمداد فيما يأتي ويذَر عند تجشّمه في تخليصهم إنكارًا لخذلانهم له وتركِ نصرته في مثل تلك المضايقة المعترية له بسببهم، حيث لم يكونوا مباشِرين معه لأسباب المدافَعة والممانَعة حتّى ألجأته إلى أن قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود، ١١/٨٠]، حسبما فُصِّل في سورة هود.

لا أنّه قاله عند ابتداء ورودهم له خوفًا أن يطرُقوه بشَرّ كما قيل، كيف لا، وهم بجوابهم المَحكي بقوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: بالعذاب الذي كنتَ تتوعّدهم به فيمترون فيه ويُكذِّبونك، قد قشَروا العصا وبيَّنوا له عليه السلام / جليّةَ الأمر، فأنّى يمكن أن يعتريَه بعد ذلك المَساءةُ وضيق الذَّرْع؟ [٣٠٠ظ]

وليست كلمةُ ﴿بَلْ﴾ إضرابًا عن مُوجَب الخوف المذكور على معنى: ما جئناك بما تُنكِرنا لأجله؛ بل بما يسُرّك وتقَرّ به عينُك؛ بل هي إضراب عمّا فهمه عليه السلام مِن تَرْك النُّصرة له، والمعنى: ما خذلناك وما خلَّينا بينك وبينهم؛ بل جئناك بما يدمّرهم مِن العذاب الذي كانوا يُكذِّبونك حين كنتَ تتوعَّدهم به.

ولعلّ تقديمَ هذه المقاولة على ما جرى بينه وبين أهل المدينة مِن المجادلة للمسارعة إلى ذِكر بِشارة لوطٍ عليه السلام بإهلاك قومه وتنجية آله عَقيبَ ذِكر بِشارة إبراهيمَ بهما، وحيث كان ذلك مستدعيًا لبيان كيفيّة النجاة وترتيبِ مباديها أشيرَ إلى ذلك إجمالًا، ثمّ ذُكر ما فَعل القوم وما فُعل بهم ولم يُبالَ بتغيير الترتيب الوقوعي ثقةً بمراعاته في مواقعَ أُخَرَ.

ونسبة المجيء بالعذاب إليه عليه السلام مع أنّه نازل بالقوم بطريق تفويض أمره إليه لا بطريق نزوله عليه، كأنّهم جاءوه به وفوّضوا أمره إليه، ليُرسله عليهم حسبما كان يتوعَّدهم به.

---

١ م – عليه السلام.

٢ اللُّتيا والّتي: يكنى بهما عن الشدّة، واللُّتيّا: تصغير التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. مجمع الأمثال للميداني، ١/١٦٤.

﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: باليقين الذي لا مجالَ فيه للامتراء والشكّ وهو عذابهم، عُبّر عنه بذلك تنصيصًا على نفي الامتراء عنه، أو المرادُ بـ﴿ٱلْحَقِّ﴾ الإخبارُ بمجيء العذاب المذكور. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ تأكيد له، أي: آتيناك فيما قلنا بالخبر الحقّ، أي: المطابق للواقع، وإنّا لصادقون في ذلك الخبر أو في كلّ كلام، فيكون كالدليل على صدقهم فيه، وعلى الأوّل تأكيدٌ إثرَ تأكيد.

وقوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ شروع[١] في ترتيب مبادي النجاة، أي: اذهب بهم في الليل، وقُرئ بالوصل،[٢] وكلاهما مِن "السُّرى" وهو: السير في الليل. وقُرئ: "فَسِرْ"[٣] مِن "السَّير". ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ بطائفة منه، أو مِن آخره، قال:

افتحي البابَ وانظُري في النجومِ كم علينا مِن قِطْعِ ليلٍ بهيمِ[٤]

وقيل: هو بعد ما مضى منه شيءٌ صالح.[٥]

﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ وكن على أثرهم تذُودهم وتُسرع بهم وتطّلع على أحوالهم. ولعلّ إيثارَ الاتّباع على السَّوق مع أنّه المقصود بالأمر المبالغةُ في ذلك، إذ السَّوق ربّما يكون بالتقدّم / على بعض مع التأخّر عن بعض ويلزمه [٣٠١و] عادة الغفلة عن حال المتأخِّر والالتفاتُ[٦] المنهيّ عنه بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ﴾ أي: منك ومنهم ﴿أَحَدٌ﴾ فيرى ما وراءه مِن الهَول فلا يُطيقَه أو يُصيبَه ما أصابهم، أو ولا ينصرفْ منكم أحد ولا يتخلفْ لغرض فيُصيبَه العذاب.

وقيل: نُهوا عن ذلك ليوطِّنوا أنفسهم على المهاجرة، أو هو نهي عن ربط القلب بما خلّفوه، أو هو للإسراع في السير فإنّ الملتفِت قلّما يخلو عن أدنى وَقْفَة.[٧]

---

١ م: شروعي. | وهو سهو.
٢ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٠.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٦.
٤ مضى بتخريجه في تفسير الآية السابعة والعشرين من سورة يونس.
٥ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٢٨.
٦ وفي هامش م: عطفٌ على "الغفلة". «منه».
٧ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٢٨.

وعدمُ ذِكر استثناء المرأة عن الإسراء أو الالتفات لا يستدعي عدم وقوعه، فإنّ ذلك كما عرفتَ مرارًا للاكتفاء بما ذُكر في مواضعَ أُخرَ.

﴿وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾ إلى حيث أمركم الله تعالى بالمُضيّ إليه وهو الشام أو مصر. وحذفُ الصلتين على الاتّساع المشهور، وإيثارُ المُضيّ إلى ما ذُكر على الوصول إليه واللُّحوق به للإيذان بأهميّة النجاة ولمراعاة المناسبة بينه وبين ما سلف مِن الغابرين.

﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ٦٦﴾

﴿وَقَضَيۡنَا﴾ أي: أوحينا ﴿إِلَيۡهِ﴾ مَقضيًّا، ولذلك عُدِّيَ بـ"إلى". ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ﴾ مُبهَمٌ، يُفسِّره ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ﴾ على أنّه بدل منه. وإيثار اسم الإشارة على الضمير للدلالة على اتّصافهم بصفاتهم القبيحة التي هي مدار ثبوت الحُكم، أي: دابرَ هؤلاء المجرمين. وإيراد صيغة المفعول بدلَ صيغة المضارع لكونها أدخَل في الدلالة على الوقوع.

وفي لفظ "القضاء" والتعبير عن العذاب بـ﴿ٱلۡأَمۡرَ﴾ والإشارة إليه بذلك وتأخيره عن الجارّ والمجرور وإبهامِه أوّلًا ثمّ تفسيره ثانيًا مِن الدلالة على فخامة الأمر وفظاعته ما لا يخفى. وقُرئ بالكسر على الاستئناف، والمعنى: أنّهم يُستأصَلون عن آخرهم حتّى لا يبقى منهم أحد.

﴿مُّصۡبِحِينَ﴾ داخلين في الصُّبح، وهو حال مِن هؤلاء أو مِن الضمير في ﴿مَقۡطُوعٞ﴾، وجمَعه للحمل على المعنى، فإنّ ﴿دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بمعنى: مُدبري هؤلاء.

﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٦٧﴾

﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ﴾ شروع في حكاية ما صدَر عن القوم عند وقوفهم على مكان الأضياف مِن الفعل والقول، وما ترتّب عليه بعدما أشيرَ إلى ذلك إجمالًا حسبما نُبِّه عليه، أي: جاء أهل سذومَ منزلَ لوطٍ عليه السلام ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ أي: مستبشِرين بأضيافه عليه السلام طمعًا فيهم.

﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ۝٦٨ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ۝٦٩ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٠ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝٧١﴾

/ ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي﴾ الضيف حيث كان مصدرًا في الأصل أطلقَ على الواحد والمتعدِّد والمذكّر والمؤنّث، وإطلاقُه على الملائكة بحسب اعتقاده عليه السلام لكونهم في زيّ الضيف. والتأكيد ليس لإنكارهم بذلك؛ بل لتحقيق اتّصالهم به وإظهار اعتنائه بشأنهم وتشمُّره لمراعاة حقوقهم وحمايتهم عن السوء، ولذلك قال: ﴿فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾ أي: عندهم بأن تتعرَّضوا لهم بسوء فيعلموا أنّه ليس لي عندكم قدر وحُرمة، أو لا تفضحونِ بفضيحة ضيفي فإنّ مَن أسيءَ إلى ضيفه فقد أسيءَ إليه، يقال: فضحَه فَضْحًا وفضيحةً إذا أظهَر مِن أمره ما يلزمه العار. [٣٠١ظ]

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في مباشرتكم لِما يسوءني، ﴿وَلَا تُخۡزُونِ﴾ أي: لا تُذِلّوني ولا تُهينوني بالتعرّض لمَن أجَرْتُهم بمثل تلك الفَعْلة الخبيثة. وحيث كان التعرّض لهم بعد أن نهاهم عليه السلام عن ذلك بقوله: ﴿فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾[١] أكثرَ تأثيرًا في جانبه عليه السلام وأجلبَ للعار إليه، إذ التعرّض للجارّ قبل شعور المُجير بذلك ربّما يُتسامَح فيه، وأمّا بعد الشعورِ به والمُناصَبةِ لحمايته والذبِّ عنه فذاك أعظم العار، عبَّر عليه السلام[٢] عمّا يعتريه مِن جهتهم بعد النهي المذكور بسبب لَجاجهم ومُجاهرتهم بمخالفته بالخِزي وأمرَهم بتقوى الله في ذلك، وإنّما لم يصرِّح بالنهي عن نفس تلك الفاحشة لأنّه كان يعرِف أنّه لا يفيدهم ذلك.

وقيل: المراد تقوى الله تعالى في ركوب الفاحشة.[٣] ولا يساعده توسيطُه بين النهيَين عن أمرين متعلِّقين بنفسه عليه السلام، وكذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: عن التعرّض لهم بمنعهم عنّا وضيافتهم. و"الهمزة" للإنكار و"الواو" للعطف على مقدَّر، أي: ألم نتقدَّم إليك ولم ننْهَك عن ذلك، فإنّهم كانوا يتعرَّضون / لكلّ أحد مِن الغرباء بالسوء، وكان عليه السلام [٣٠٢و]

---

١ في الآية السابقة.

٢ السياق: وحيث كان... عبّر عليه السلام...

٣ كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٤٦.

ينهاهم عن ذلك بقدر وُسعِه، وكانوا قد نهَوْه عليه السلام عن أن يُجير أحدًا، فكأنّهم قالوا: ما ذكرتَ مِن الفضيحة والخِزي إنّما جاءك مِن قِبَلك لا مِن قِبَلنا إذ لولا تعرُّضك لِما نتصدّى له لَما اعتراك تلك الحالة.

ولمّا رآهم لا يُقلِعون عمّا هم عليه ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾ يعني: نساءَ القوم، فإنّ نبيّ كلّ أمّة بمنزلة أبيهم أو بناته حقيقةً، أي: فتزوّجوهنّ، وقد كانوا مِن قبلُ يطلبُونهنّ ولا يُجيبهم لخُبثهم وعدم كفاءتهم، لا لعدم مشروعيّة المُناكحة بين المسلمات والكفّار. وقد فُصِّل ذلك في سورة هود.[١]

﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ أي: قضاءَ الوطر، أو ما أقول لكم.

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ٧٢﴾

﴿لَعَمْرُكَ﴾ قسَم مِن الله تعالى بحياة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، أو مِن الملائكة بحياة لوطٍ عليهم السلام، والتقدير: لعَمرُك قسَمي، وهي لغة في "العُمر" يختصّ به القَسَم إيثارًا للخِفّة لكثرة دوَرانه على الألسنة.

﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾ غَوَايَتهم أو شدّة غِلْمتهم التي أزالت عقولَهم وتمييزَهم بين الخطأ والصواب ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتحيَّرون ويتمادَون فكيف يسمعون النصح؟ وقيل: الضمير لقريش والجملةُ اعتراض.[٢]

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ٧٣﴾

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ أي: الصيحة العظيمة الهائلة. وقيل: صيحة جبريلَ عليه السلام.[٣] ﴿مُشْرِقِينَ﴾ داخلين في وقت شروق الشمس.

﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ٧٤﴾

﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا﴾ عاليَ المدينة أو عاليَ قُراهم، وهو المفعول الأوّل لـ﴿جَعَلْنَا﴾.

---

١ في الكلام على تفسير الآية الثامنة والسبعين منها.

٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٤٦/٢.

٣ كما في الكشّاف للزمخشري، ٤٢٩/٢.

وقوله تعالى: ﴿سَافِلَهَا﴾ مفعول ثانٍ له، وهو أدخَل في الهَول والفظاعة مِن العكس كما مرّ.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ في تضاعيف ذلك قبل تمام الانقلاب ﴿حِجَارَةً﴾ كائنة ﴿مِن سِجِّيلٍ﴾ مِن طين متحجِّر، أو طينٍ عليه كتاب، وقد فُصِّل ذلك في سورة هود.[١]

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥﴾

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر / مِن القصّة ﴿لَآيَاتٍ﴾ لَعلاماتٍ يُستدلّ بها على [٣٠٢ظ] حقيقة الحقّ ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ أي: المتفكِّرين المتفرِّسين الذين يتثبّتون في نظرهم حتّى يعرِفوا حقيقة الشيء بِسِمَته.

﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ۝٧٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧﴾

﴿وَإِنَّهَا﴾ أي: المدينة أو القُرى ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: طريق ثابت يسلُكه الناس ويرَون آثارها.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فيما ذُكر مِن المدينة أو القُرى، أو في كونها بمَرأى مِن الناس يشاهدونها في ذهابهم وإيابهم ﴿لَآيَةً﴾ عظيمةً ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله ورسوله، فإنّهم الذين يعرِفون أنّ ما حاق بهم مِن العذاب الذي ترك ديارَهم بلاقعَ[٢] إنّما حاق بهم لسوء صنيعهم، وأمّا غيرُهم فيحمِلون ذلك على الاتّفاق أو الأوضاع الفلَكيّة. وإفراد "الآية" بعد جَمْعها فيما سبق لِما أنّ المشاهد ههنا بقيّةُ الآثار لا كلُّ القصّة كما فيما سلف.

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ۝٧٨﴾

﴿وَإِن كَانَ﴾ ﴿إِن﴾ مخفّفة مِن "إنّ"، وضميرُ الشأن الذي هو اسمها محذوف، و"اللام" هي الفارقة، أي: وإنّ الشأن كان ﴿أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام، والأيكة واللَّيْكة: الشجرة الملتفّة المتكاثفة، وكانت عامّة شجرهم المُقْل وكانوا يسكنونها، فبعثه الله تعالى إليهم. ﴿لَظَالِمِينَ﴾ متجاوزين مِن الحدّ.

---

[١] في الكلام على تفسير الآية الثانية والثمانين منها.

[٢] البلاقع جمع بَلْقَع: وهو الخالي. انظر: لسان العرب لابن منظور، «بلقع».

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ۝٧٩﴾

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ بالعذاب. رُوي أنّ الله تعالى سلّط عليهم الحَرّ سبعة أيّام، ثمّ بعث سحابة فالتجئوا إليها يلتمسون الرَّوْح،[١] فبعث الله تعالى عليهم منها نارًا فأحرقتهم، فهو عذابُ يوم الظُّلّة. ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ يعني سذوم والأيكة. وقيل: الأيكة ومَديَنَ، فإنّه عليه السلام كان مبعوثًا / إليهما، فذِكرُ أحدهما مُنبِّه على الآخر.[٢] [٣٠٣و]

﴿لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ لبطريق واضح. والإمام: اسم ما يؤتَمُّ به سُمِّيَ به الطريق ومَطمَر البنّاء[٣] واللوح الذي يُكتَب فيه لأنّها ممّا يؤتَمُّ به.

﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٨٠﴾

﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ﴾ يعني ثمود ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ أي: صالحًا، فإنّ مَن كذّب واحدًا مِن الأنبياء فقد كذّب الجميع لاتّفاقهم على التوحيد والأصول التي لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار. وقيل: المراد صالحٌ ومَن معه مِن المؤمنين، كما قيل: الخُبَيْبُون لخُبيب بن عبدِ الله بن الزُّبير[٤] وأصحابه.[٥] والحِجْر: وادٍ بين المدينة والشام كانوا يسكنونه.[٦]

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ۝٨١﴾

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ وهي الآياتُ المنزلة على نبيّهم، أو المعجزاتُ مِن الناقةِ وسَقْيها وشِرْبها ودرّها، أو الأدلّةُ المنصوبةِ لهم. ﴿فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾ إعراضًا كليًّا، بل كانوا معارِضين لها حيث فعلوا بالناقة ما فعلوا.

---

١ الرَّوح: نسيم الرِّيح. انظر: لسان العرب لابن منظور، «روح».

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٣٠.

٣ المِطمَر: الخيط الذي يُقوّم عليه البناء. انظر: لسان العرب لابن منظور، «طمر».

٤ هو خبيب بن عبد الله بن الزبير بن العوّام الأسدي (ت. ٩٢هـ/٧١٠م). كان عالمًا، روى عن أبيه وعن عائشة رضي الله عنها. ذكروا أنّه كان يعلم علمًا كثيرًا لا يعرفون وجهه ولا مذهبه فيه، يشبه ما يدّعي الناس مِن علم النجوم. كتب الوليد بن عبد الملك إلى عامله في المدينة عمر بن عبد العزيز أن يضربه خمسين سوطًا ففعل وصبّ على رأسه قربة في يوم بارد، وأوقفه على باب المسجد يومًا فمات، فندم عمر على ذلك وسقط في يديه واستعفى مِن المدينة. انظر: تاريخ الإسلام للذهبي، ٢/١٠٨٩.

٥ كما في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٣٠.

٦ انظر: معجم البلدان للحموي، ٢/٢٢٠.

﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ۝٨٢ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ۝٨٣﴾

﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ مِن الانهدام ونقْب اللصوص وتخريبِ الأعداء لوثاقتها، أو مِن العذاب لحُسبانهم أنّ ذلك يحميهم منه. عن جابر رضي الله عنه أنّه قال: «مررنا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على الحِجْر فقال: "لا تدخُلوا مساكنَ الذين ظلموا أنفسهم إلّا أن تكونوا باكين حذرًا أن يصيبَكم مثلُ ما أصاب هؤلاء"، ثمّ زجَر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم راحلته فأسرع حتّى خلّفها».[١]

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ﴾ وهكذا وقع في سورة هود. قيل: صاح بهم جبريلُ عليه السلام. وقيل: أتتهم مِن السماء صيحة فيها صوتُ كلّ صاعقة وصوتُ كلّ شيء في الأرض، فتقطّعت قلوبهم في صدورهم. وفي سورة الأعراف: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ [الأعراف، ٧٨/٧] أي: الزلزلة، ولعلّها مِن روادف الصيحة المستتبِعة لتموّج الهواء تموّجًا شديدًا يُفضي إليها كما مرّ في سورة هود.

﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٨٤﴾

﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم﴾ ولم يدفع عنهم ما نزل بهم ﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ مِن بناء البيوت الوثيقة والأموال الوافرة والعُدد المتكاثرة، وفيه تهكّمٌ بهم، و"الفاء" لترتيب عدم الإغناء الخاصّ بوقت نزول العذاب / حسبما كانوا يرجونه لا عدمِ الإغناء المطلَق فإنّه أمر مستمرّ. [٣٠٣ظ]

﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ۝٨٥﴾

﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: إلّا خلقًا ملتبِسًا بالحقّ والحكمة والمصلحة بحيث لا يلائم استمرار الفساد واستقرار الشرور،

---

١ بلفظ قريب في صحيح البخاري، ١٤٩/٤ (٣٣٨١)؛ وصحيح مسلم، ٢٢٨٦/٤ (٢٩٨٠)؛ وجامع البيان للطبري، ١٠٣/١٤-١٠٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٣٠/٢.

ولذلك اقتضت الحكمة إهلاك أمثال هؤلاء دفعًا لفسادهم وإرشادًا لمَن بقيَ إلى الصلاح، أو إلّا بسبب العدل والإنصاف يوم الجزاء على الأعمال كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ فينتقم الله تعالى لك فيها ممّن كذّبك، ﴿فَٱصْفَحِ﴾ أي: أعرِض عنهم ﴿ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ إعراضًا جميلًا وتحمَّلْ أذِيَّتهم ولا تعجَلْ بالانتقام منهم، وعامِلْهم معاملة الصفوح الحليم. وقيل: هي منسوخة بآية السيف.[١]

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي يبلّغك إلى غاية الكمال ﴿هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ لك ولهم ولسائر الموجودات على الإطلاق، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالك وأحوالِهم بتفاصيلها، فلا يخفى عليه شيء ممّا جرى بينك وبينهم، فهو حقيق بأن تكِل جميع الأمور إليه ليحكُم بينكم، أو هو الذي خلقكم وعلِم تفاصيل أحوالكم وقد علِم أنّ الصفح اليوم أصلحُ إلى أن يكون السيف أصلح، فهو تعليل للأمر بالصفح على التقديرين، وفي مصحف عثمانَ وأُبيّ رضي الله عنهما: "هُوَ الخَالِقُ"[٢] وهو صالح للقليل والكثير، و﴿ٱلْخَلَّٰقُ﴾ مختصّ بالكثير.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾

[٣٠٤و] ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا﴾ / سبع آيات[٣] وهي "الفاتحة"، وعليه عمرُ وعليّ وابنُ مسعود وأبو هريرة رضي الله عنهم، والحسنُ وأبو العالية ومجاهد والضحّاك وسعيد بن جُبير وقَتادة رحمهم الله تعالى.[٤] وقيل: سبعُ سور وهي الطوال التي سابعتها "الأنفال" و"التوبة" فإنّهما في حُكم سورة واحدة،

---

[١] القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٣٠.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن مالك بن دينار وسليم التيمي والجَحدري والمُعلّى وزائدة عن الأعمش، وهي كذلك في مصحف أُبيّ وعثمان. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٥؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٠٩٢.

[٣] وفي هامش م: وتنكير ﴿سَبْعًا﴾ للتفخيم، وفي الإبهام والتفسير ما لا يخفى من التمكين والتقرير.

[٤] انظر: جامع البيان للطبري، ١٤/١١٣-١١٩؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٤٣١.

ولذلك لم يُفصَل بينهما بالتسمية.[١] وقيل: "يونسُ" أو الحواميم السبع. وقيل: الصحائف السبع وهي الأسباع.[٢]

﴿مِنَ ٱلۡمَثَانِي﴾ بيان للسبع مِن التثنية وهي التكرير: فإن كان المراد "الفاتحة" وهو الظاهر، فتسميتها مثانيَ لتكرّر قراءتها في الصلاة، وأمّا تكرّر قراءتها في غير الصلاة كما قيل فليس بحيث يكون مدارًا للتسمية، ولأنّها تُثنّى بما يقرأ بعدها في الصلاة، وأمّا تكرّر نزولها فلا يكون وجهًا للتسمية لأنّها كانت مسمّاة بهذا الاسم قبل نزولها الثاني، إذ السورة مكيّة بالاتّفاق؛ وإن كان المراد غيرها مِن السوَر[٣] فوجه كونها مِن المثاني أنّ كلًّا مِن ذلك يُكرَّر قراءته وألفاظه أو قصصه ومواعظه، أو مِن الثناء لاشتماله على ما هو ثناء على الله تعالى، واحدتها "مَثْناة" أو "مَثْنية" صفة للآية.

وأمّا الصحائف[٤] وهي[٥] الأسباع فلِما وقَع فيها مِن تكرير[٦] القِصص والمواعظ والوعد والوعيد وغيرِ ذلك، ولِما فيها مِن الثناء على الله تعالى كأنّها تُثنى عليه سبحانه بأفعاله وصفاتِه الحسنى. ويجوز أن يُراد بـ﴿ٱلۡمَثَانِي﴾ القرآن لِما ذُكر، أو لأنّه مُثْنى عليه بالإعجاز؛ أو كُتُب الله كلُّها فـ﴿مِنَ﴾ للتبعيض، وعلى الأوّل للبيان.

﴿وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾[٧] إن أريدَ بـ"السبع" الآياتُ أو السوَر فمِن عَطْف الكلّ على البعض أو العامّ على الخاصّ، وإن أريدَ به الأسباع أو كلّ القرآن فهو عطفُ أحد الوصفين على الآخر كما في قوله:

إلى الملِكِ القَرْم وابنِ الهُمامِ   وليثِ الكتائبِ في المُزدَحَمْ[٨]

أي: ولقد آتيناك ما يقال له: السبع المثاني والقرآن.

---

١ انظر: جامع البيان للطبري، ١٤/١٠٧-١١١؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٤٣١.
٢ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٣١.
٣ ط س - من السوَر.
٤ ط س: السُوَر. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، لعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.
٥ ط س: أو. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، لعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.
٦ س: تكرُر.
٧ وفي هامش م: أي: العظيم القدر. «منه».
٨ مضى بتخريجه وشرحه في الكلام على تفسير الآية الرابعة والعشرين من سورة هود.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ لا تطمَحْ ببَصَرك طُموحَ راغب ولا تُدِمْ نظرك ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾ مِن زخارف الدنيا وزينتها ومحاسنها وزَهرتها.

﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾[١] أصنافًا مِن الكفَرة فإنّ ما في الدنيا مِن أصناف الأموال والذخائر بالنسبة إلى ما أوتيتَه مستحقَر لا يُعبأ به أصلًا، وفي حديث أبي بكر رضي الله تعالى عنه: / «مَن أوتيَ القرآن فرأى أنّ أحدًا أوتيَ أفضل ممّا أوتيَ فقد صغّر عظيمًا وعظّم صغيرًا»،[٢] ورُوي أنّه وافَت مِن بُصرى[٣] وأذرِعاتٍ سبعُ قوافلَ ليهود بني قُريظةَ والنَّضير فيها أنواعُ البَزِّ والطِّيب والجواهر وسائرُ الأمتعة، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوَّينا بها وأنفقناها في سبيل الله، فقيل لهم: قد أُعطِيتُم سبع آياتٍ وهي خير مِن هذه القوافل السبع.[٤] [٣٠٤ظ]

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ حيث لم يؤمنوا ولم ينتظِموا في سِلك أتباعك ليتقوّى بهم ضعفاء المسلمين. وقيل: أو أنّهم المتمتِّعون به.[٥] ويأباه كلمة "على" فإنّ تمتّعهم به لا يكون مدارًا للحزن عليهم. ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: تواضَعْ لهم، وارفُق بهم، وألِنْ جانبك لهم، وطِبْ نفسًا مِن إيمان الأغنياء.

﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: المنذِر المُظهِر لنزول عذاب الله وحلوله.

﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ قيل:[٦] إنّه متعلّق بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ﴾... إلخ،[٧] أي: أنزلنا عليك كما أنزلنا على أهل الكتاب.

---

١ وفي هامش م: وفي إبهامه تحقير له.

٢ جامع البيان للطبري، ١٤/١٢٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٣١-٤٣٢.

٣ بُصرى: بالضمّ والقصر، إحداهما: بالشام مِن أعمال دمشق وهي قصبة كورة حوران، مشهورة عند العرب قديمًا وحديثًا ذكروها كثيرًا في أشعارهم، والثانية: بُصرى مِن قرى بغداد قرب عكبراء. انظر: معجم البلدان للحموي، ١/٤٤١.

٤ الخبر في أسباب النزول للواحدي، ص ٢٨٣؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٤٣٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٤٨.

٥ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٤٨.

٦ وفي هامش م: صاحب الكشّاف. | انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٣٢.

٧ الحجر، ١٥/٨٧.

﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ أي: قسَموه إلى حقّ وباطل، حيث قالوا عِنادًا وعدوانًا: بعضُه حقّ موافِق للتوراة والإنجيل، وبعضُه باطل مخالف لهما، أو اقتسموه لأنفسهم استهزاءً حيث كان يقول بعضهم: سورة البقرة لي، وبعضُهم: سورةُ آل عمران لي، وهكذا؛[١] أو قسموا ما قرءوا مِن كتبهم وحرَّفوه فأقرّوا ببعضه وكذّبوا بعضه.

وحُمِل توسُّط قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾[٢] على إمداد ما هو المراد بالكلام مِن التسلية.[٣] وعُقِّب[٤] ذلك بأنّه جلّ المقامُ عن التشبيه، ولقد أُوتيَ عليه السلام ما لم يؤتَ أحدٌ قبله ولا بعده مثلَه.[٥]

وقيل: إنّه متعلِّق بقوله: ﴿وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ فإنّه في قوّة الأمرِ بالإنذار، كأنّه قيل: أنذِرْ قريشًا مثلَ ما أنزلنا مِن العذاب[٦] على المقتسِمين، يعني اليهودَ، وهو ما جرى على بني قريظةَ والنَّضير بأن جُعل المتوقَّع كالواقع وقد وقَع كذلك.[٧]

وأنت خبير بأنّ ما يُشبَّه به العذاب المنذَر لا بدّ أن يكون محقَّقَ الوقوع / معلومَ الحال عند المنذَرين إذ به يتحقَّق فائدة التشبيه، وهي تأكيد الإنذار وتشديده، وعذابُ بني قريظةَ والنَّضير مع عدم وقوعه إذ ذاك لم يسبِق به وعد ووعيد فهم منه في غفلة مَحْضة وشكّ مُريب، وتنزيلُ المتوقَّع منزلةَ الواقع له موقع جليل مِن الإعجاز، لكن إذا صادف مقامًا يقتضيه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح، ٤٨/١] ونظائرِه، على أنّ تخصيص الاقتسام باليهود بمجرَّد اختصاص العذاب المذكور بهم مع شِركتهم للنصارى في الاقتسام المتفرِّع على الموافقة والمخالفة، وفي الاقتسام بمعنى التحريف الشامل للكتابين؛ بل تخصيصُ العذاب المذكور بهم مع كونه مِن نتائج الاقتسامِ تخصيصٌ مِن غير مخصِّص. [٣٠٥و]

---

١ وفي هامش م: فهو تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم. «منه».
٢ الحجر، ١٥/٨٨.
٣ كما في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٣٢.
٤ وفي هامش م: المُعقِّب صاحب الكشف.
٥ انظر: الكشف لسراج الدين القزويني، ١٧٦ظ-١٧٧و.
٦ ط س - من العذاب.
٧ كما في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٣٢.

وقد جُعل الموصول مفعولًا أوّلَ لـ"أَنذِرْ"، أي: أَنذِرْ المُعَضِّين الذين يُجزِّئون القرآن إلى سِحر وشِعر وأساطيرَ، مثلَ ما أنزلنا على المقتسِمين وهم الاثنا عشرَ الذين اقتسموا مداخلَ مكّة أيّام الموسِم فقعد كلّ منهم في مَدخَل ليُنفِّروا الناس عن الإيمان برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، يقول بعضُهم: لا تغترّوا بالخارج منّا فإنّه ساحر، ويقول الآخر: شاعر، والآخر: كذّابٌ، فأهلَكهم الله تعالى يوم بدر وقبله بآفاتٍ.[١]

وفيه -مع ما فيه مِن الاشتراك لِما سبق في عدم كون العذاب الذي شُبّه به العذاب المنذَر واقعًا ولا معلومًا للمنذَرين ولا موعودَ الوقوع- أنّه لا داعيَ إلى تخصيص وصف التعضِية بهم وإخراجِ المقتسِمين مِن بينهم مع كونهم أسوةً لهم في ذلك، فإنّ وصفهم لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بما وصفوا مِن السِّحر والشِّعر والكذب متفرّع على وصفهم للقرآن بذلك، وهل هو إلّا نفسُ التعضية، ولا إلى إخراجهم مِن حُكم الإنذار على أنّ ما نزل بهم مِن العذاب لم يكن مِن الشدّة بحيث يُشبَّه به عذاب غيرهم ولا مخصوصًا بهم، بل عامًّا لكلا الفريقين، أعني المعضِّين والمُقتسِمين[٢] وغيرِهم مع أنّ بعض المنذَرين كالوليد بن المغيرة والعاصِ بن وائل[٣] والأسودِ بن المطّلب[٤] قد هلكوا قبل مهلِك أكثرِ المقتسِمين يوم بدر، ولا إلى تقديم المفعول الثاني على الأوّل كما ترى.

---

١ كما في الكشّاف للزمخشري، ٤٣٢/٢.

٢ ط س - أعني المُعضِّين والمقتسمين.

٣ هو العاص أو العاصي بن وائل بن هاشم السهمي مِن قريش (ت. نحو ٦٢٠م). هو أحد الحكّام في الجاهليّة وكان نديمًا لهشام بن المغيرة. أدرك الإسلام وظلّ على الشِرك ويُعدّ مِن المستهزئين الذين ماتوا كفّارًا، وكان على رأس بني سهم في حرب الفجّار، وهو والد الصحابي عمرو بن العاص، نزل فيه قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر، ٣/١٠٨]. ولوفاته خبر عجيب في كتب التراجم. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ١١٠/١؛ والأعلام للزركلي، ٢٤٧/٣.

٤ وفي هامش م: هؤلاء أشراف قريش ورؤساؤهم، ومنهم الأسود بن عبد يغوث والحارث بن قيس بن الطّلاطلة، وكان رئيسهم الوليد بن المغيرة، وهم المستهزءون بأعيانهم، والمُقتسمون للقرآن العظيم بقول بعضهم: هذه السورة لي، وبعضهم: هذه السورة لي، وأمّا المُقتسمون لمداخل مكّة وعِقابها لتنفير الناس وصدّهم عن الإيمان برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وهم بمَعزِل مِن الانتظام في سِلك هؤلاء الماردين، وإنّما هم مِن أعقاب الناس تابعون لأوامر هؤلاء فيما يأتون وما يذرون. قال مقاتل بن سليمان: كانوا ستّة عشرَ رجلًا بعثهم الوليد بن المغيرة أيّام الموسم، »

وقيل:[١] إنّه وصف لمفعول ﴿ٱلنَّذِيرُ﴾ أقيمَ مُقامه، والمقتسِمون هم القاعدون في مداخل مكّة كما حُرِّر.[٢]

وفيه مع ما مرّ أنّ قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا﴾ صريحٌ في أنّه مِن قول الله تعالى لا مِن قول الرسول عليه السلام، والاعتذارُ بأنّ ذلك مِن باب ما يقوله بعض خواصّ المَلِك: "أُمرنا بكذا" وإن كان الآمر هو المَلِك حسبما سلَف في قوله تعالى: ﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الحجر، ٦٠/١٥] تعسّفٌ لا يخفى،[٣] / وأنّ إعمال [٣٠٥ظ] الوصف[٤] الموصوف ممّا لم يُجوّزه البصريّون،[٥] فلا بدّ مِن الهرَب إلى مَسلَك الكوفيّين أو المصيرِ إلى جَعْله مفعولًا غيرَ صريح، أي: أنا النذير المُبين بعذاب مثل عذابِ المقتسِمين.[٦]

وقيل: المراد بـ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾[٧] الرهطُ الذين تقاسموا على أن يُبيّتوا صالحًا عليه السلام فأهلكهم الله تعالى.[٨]

وأنت تدري أنّ عذابهم حيث كان متحقِّقًا ومعلومًا للمنذَرين حسبما نطَق به القرآن العظيم صالح لأن يقع مشبَّهًا به للعذاب المنذَر، لكنّ الموصول المذكور عَقيبَه حيث لم يُمكن كونه صفةً لـ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ حينئذ، فسواء جعلناه مفعولًا أوّلَ لـ﴿ٱلنَّذِيرُ﴾[٩] أو لِما دلّ هو عليه مِن "أَنْذِرْ" لا يكون للتعرّض لعنوان التعضِية

< فاقتسموا عِقاب مكّة وطرقها قعدوا على أبوابها وأنقابها، فإذا جاء الحاجّ قال فريق منهم: لا تغترّوا بالخارج منّا والمدّعي للنبوّة، فإنّه مجنون، وقال فريق منهم: إنّه كاهن، وقال فريق آخرُ: إنّه عرّاف، وقال فريق آخرُ: إنّه شاعر، والوليد قاعد على باب المسجد نصّبوه حكمًا، فإذا سئل عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قال: صدق هؤلاء المقتسمون. ورُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنه أنّه يقرب عددهم مِن أربعين. وقيل: هم اثنا عشرَ رجلًا فعلوا ما فعلوا فأهلكهم الله تعالى يوم بدر بعد هلاك الوليد وأصحابه حسبما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنه أنّهم ماتوا قبل بدر فمن لم يفرق بين الفريقين فقد اشتبه عليه الشئون. «منه». | انظر: جامع البيان للطبري، ١٤/١٤٧-١٥٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٩٤/٤.

١ وفي هامش م: أي: قوله: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا﴾. «منه».

٢ القول في اللباب لابن عادل، ٤٩٠/١١.

٣ السياق: وفيه... تعسّف...

٤ وفي هامش م: وهو ﴿ٱلنَّذِيرُ﴾ الموصوف بـ﴿ٱلْمُبِينُ﴾. «منه».

٥ وفي هامش م: والسرّ في ذلك أنّ بالوصف يترجّح جانب الأهميّة ويزول عنه ما كان فيه من الدلالة على الحدث فلا يعمل. «منه».

٦ انظر: اللباب لابن عادل، ٤٩٠/١١.

٧ في الآية السابقة.

٨ القول في اللباب لابن عادل، ٤٩٠/١١.

٩ الحجر، ٨٩/١٥.

في حيّز الصلة ولا لعنوان الاقتسام بالمعنى المزبور في حيّز المفعول الثاني فائدة، لِما أنّ ذلك إنّما يكون للإشعار بعلّيّة الصلة والصفة للحُكم الثابت للموصول والموصوف، فلا يكون هناك وجه شبَه يدور عليه تشبيه عذابهم بعذابهم خاصّة لعدم اشتراكهم في السبب، فإنّ المُعَضّين بمَعزِل مِن التقاسُم على التبييت الذي هو السبب لهلاك أولئك، كما أنّ أولئك بمَعزِل مِن التعضِية التي هي السبب لهلاك هؤلاء، ولا علاقةَ بين السببين مفهومًا ولا وجودًا تُصحِّح وقوعَ أحدِهما في جانب والآخرِ في جانب، واتّفاقُ الفريقين على مطلَق الاتّفاق على الشرّ المفهوم مِن الاتّفاق على الشرّ المخصوص الذي هو التبييت المدلول عليه بالتقاسُم غير مفيد، إذ لا دلالةَ لعنوان التعضِية على ذلك، وإنّما يدلّ عليه اقتسامُ المداخِل.

وجعلُ الموصول مبتدأ على أنّ خبره الجملة القَسَميّة لا يليق بجزالة التنزيل وجلالة شأنِه الجليل.

إذا عرفتَ هذا فاعلم أنّ الأقرب مِن الأقوال المذكورة أنّه متعلِّق بالأوّل، وأنّ المراد بـ﴿ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾[1] أهلُ الكتابَين، وأنّ الموصول مع صلته صفة مُبيّنة لكيفيّة اقتسامهم، ومحلُّ الكاف النصب على المصدريّة، وحديثُ جلالة المقام عن التشبيه مِن لوائح النظر الجليل، والمعنى: لقد آتيناك سبعًا مِن المثاني والقرآنَ العظيم إيتاءً مماثِلًا لإنزال الكتابَين على أهلهما.

وعدمُ التعرّض لذِكر ما أنزلَ عليهم مِن الكتابين لأنّ الغرض بيان المماثلة بين الإيتاءين لا بين متعلَّقَيهما. والعدول عن تطبيق ما في جانب المشبَّه به على ما في جانب المشبَّه[2] بأن يقال: كما آتينا المقتسِمين حسبما وقَع في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾... إلخ [البقرة، ١٢١/٢]، للتنبيه على ما بين الإيتاءين مِن التنائي،[3] فإنّ الأوّل على وجه التكرِمة والامتنان فشتّان بينه وبين الثاني.

ولا يقدح ذلك في وقوعه مشبَّهًا به، فإنّ ذلك إنّما هو لمُسلَّميّته عندهم وتقدّمِ وجوده على المشبَّه زمانًا لا لمَزيّة تعود إلى ذاته كما في الصلوات الخليليّة،

[1] في الآية السابقة.
[2] س - على ما في جانب المشبَّه.
[3] في هامش م: أي التباعُد.

فإنّ التشبيه فيها ليس لكون رحمة الله تعالى الفائضة على إبراهيمَ عليه السلام وآله أتمَّ وأكملَ ممّا فاض على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وإنّما ذلك للتقدّم في الوجود والتنصيصِ عليه في القرآن العظيم، فليس في التشبيه شائبةُ إشعار بأفضليّة المشبَّه به مِن المشبَّه، فضلًا عن إيهام أفضليّة ما تعلّق به الأوّل ممّا تعلّق به الثاني.[١]

وإنّما ذُكروا بعنوان الاقتسام إنكارًا لاتّصافهم به مع تحقّق ما ينفيه مِن الإنزال المذكور وإيذانًا بأنّه كان مِن حقّهم أن يؤمنوا بكُلّه حسب إيمانهم بما أُنزل عليهم بحُكم الاشتراك في العلّة والاتّحادِ في الحقيقة التي هي مطلق الوحي.

/ وتوسيطُ قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ﴾... إلخ،[٢] لكمال اتّصاله بما هو المقصود مِن بيان حال ما أوتيَ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ولقد بيّن أوّلًا علوُّ شأنه ورفعة مكانه بحيث يستوجِب اغتباطَه عليه السلام بمكانه واستغناءَه به عمّا سواه، ثمّ نُهي عن الالتفات إلى زَهرة الدنيا، وعُبّر عن إيتائها لأهلها بالتمتيع المُنبئ عن وَشْك زوالها عنهم ثمّ عن الحزَن بعدم إيمان المنهمكين فيها، وأُمر بمراعاة المؤمنين والاكتفاء بهم عن غيرهم وبإظهار قيامه بمواجب الرسالة ومراسمِ النِّذارة حسبما فُصِّل في تضاعيف ما أوتيَ مِن القرآن العظيم، ثمّ رُجِع إلى كيفيّة إيتائه على وَجْه أُدمِج فيه ما يُزيح شُبَهَ المنكِرين ويستنزِلهم مِن العِناد مِن بيان مشاركته لِما لا ريبَ لهم في كونه وحيًا صادقًا، فتأمّل، والله عنده عِلم الكتاب. [٣٠٦و]

هذا وقد قيل:[٣] المعنى: قل إنّي أنا النذير المُبين كما قد أنزلنا في الكتب أنّك ستأتي نذيرًا على أنّ المقتسِمين أهل الكتاب.[٤] يريد أنّ ﴿مَا﴾ في ﴿كَمَا﴾[٥] موصولةٌ، والمراد بالمشابهة المستفادة مِن الكاف الموافقةُ، وهي مع ما في حيّزها في محلّ النصب على الحاليّة مِن مفعول ﴿قُلْ﴾،[٦] أي: قل هذا القول حالَ كونه كما أنزلنا على أهل الكتابين، أي: موافقًا لذلك.

---

١ في هامش م: فيما نحن فيه.
٢ الحجر، ١٥/٨٨.
٣ وفي هامش م: قاله صاحب اللباب. وعبارته: ويحتمل أن يكون المعنى... إلخ. | انظر: اللباب لابن عادل، ١١/٤٩١.
٤ وفي هامش م: انتهى.
٥ الحجر، ١٥/٩٠.
٦ الحجر، ١٥/٨٩.

فالأنسبُ حينئذ حَمْل الاقتسام على التحريف ليكون وَصْفهم بذلك تعريضًا بما فعلوا مِن تحريفهم وكِتمانهم لنَعْت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

وقوله تعالى: ﴿عِضِينَ﴾ جَمْع "عِضَة" وهي الفِرقة، أصلها عِضْوَة "فِعْلَة" مِن "عضّى الشاة تعضِيَة" إذا جعلها أعضاءً، وإنّما جُمعت جمع السلامة جبرًا للمحذوف كـ"سِنين" و"عِزين". والتعبير عن تجزئة القرآن بالتعضِيَة -التي هي: تفريق الأعضاء مِن ذي الروح المستلزمُ لإزالة حياته وإبطال اسمه دون مطلَق التجزئة والتفريق اللذَين ربّما يوجدان فيما لا يضرّه التبعيض مِن المِثليّات- للتنصيص على كمال قُبح ما فعلوه بالقرآن العظيم، وقيل: هي فِعلة مِن "عضهتُه" إذا بهتُّه. وعن عكرِمةَ: العَضْهُ:[1] السِّحر بلسان قريش،[2] فنقصانها على الأوّل واو وعلى الثاني هاء.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: لنسألنَّ يوم القيامة أصناف الكفَرة مِن المقتسِمين وغيرهم سؤالَ توبيخ وتقريع.

﴿عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا مِن قول وفعل وتَرْك، فيدخُل فيه ما ذُكِر مِن الاقتسام والتعضِيَة دخولًا أوّليًا، ولنجزيَنَّهم بذلك جزاءً موفورًا. وفيه مِن التشديد وتأكيد الوعيد ما لا يخفى. و"الفاء" لترتيب الوعيدِ على أعمالهم التي ذُكِر بعضها. وفي التعرّض لوَصْف الربوبيّة مضافًا إليه عليه السلام إظهارُ اللطف به عليه السلام.

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فاجهر به، مِن "صَدَع بالحجّة" إذا تكلّم بها جهارًا، أو افرُق بين الحقّ والباطل، وأصلُه الإبانة والتمييز، و﴿مَا﴾ مصدريّة أو موصولة والعائد محذوف، أي: ما تؤمَر به مِن الشرائع المُودَعة في تضاعيف ما أوتيتَه

---

[1] س: العِضَة.

[2] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤٣٣/٢.

مِن المثاني السبع والقرآنِ العظيم. ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي: لا تلتفت إلى ما يقولون ولا تبالِ بهم ولا تتصدَّ للانتقام منهم.

﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾ بقمعهم وتدميرهم، / قيل: كانوا خمسة مِن أشراف قريش: الوليدُ بن المغيرة، والعاصُ بن وائل، والحارثُ بن قيس بن الطُّلاطِلة،[١] والأسوَدُ بن عبد يغُوثَ،[٢] والأسودُ بن المطّلب، يبالغون في إيذاء النبيّ صلّى الله عليه وسلّم والاستهزاء به، فنزل جبريلُ عليه السلام فقال: «أُمِرت أن أكفيَكَهم»، فأومأ إلى ساق الوليد، فمرَّ بنبّال فتعلّق بثوبه سهم فلم ينعطف تعظُّمًا لأخذه، فأصاب عِرقًا في عَقِبه فقطعه فمات؛ وأومأ إلى أخمَص العاص، فدخلت فيها شوكةٌ، فقال: «لُدِغتُ لُدِغتُ»، وانتفخت رجلُه حتّى صارت كالرَّحى فمات؛ وأشار إلى عينَي الأسود بن المطَّلب، فعمِيَ؛ وإلى أنف الحارث، فامتخط قيحًا فمات، وإلى الأسوَد بن عبد يغوثَ وهو قاعد في أصل شجرة، فجعَل ينطح برأسه الشجرة ويضرِب وجهه بالشوكة حتّى مات.[٣] [٣٠٦ظ]

﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٩٦﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ وصَفهم بذلك تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم وتهوينًا للخَطْب عليه بإعلام أنّهم لم يقتصروا على الاستهزاء به

---

١ هو الحارث بن قيس بن الطُّلاطلة، وأمّه غيطلة، وهو مِن المستهزئين بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وكان مِن بين مَن نزل فيهم قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾ [الحجر، ٩٥/١٥]. قيل: كان يطوف بالكعبة ومرّ به النبيّ ومعه جبريل عليه السلام فأشار إلى رأسه فامتخط قيحًا فمات. انظر: سيرة ابن هشام، ٨/٤؛ والروض الأنف للسهيلي، ١٧/٤؛ وسير أعلام النبلاء للذهبي، ١٧/٥.

٢ هو الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة وهو ابن أخي آمنة بنت وهب أمّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وذكر البيهقي أنّه كان شديد العداوة والاستهزاء للنبيّ عليه الصلاة والسلام، وأصيبَ له ثلاثة مِن أبنائه في بدر: زمعة وعقيل والحارث. خرج يومًا إلى البريّة فعطش فاسودّ وجهه فأتى داره فلم يعرفوه وأغلقوا الباب في وجهه فمات عطشًا. انظر: نشوة الطرب لابن سعيد الأندلسي، ٣٦٦/١؛ والكامل لابن الأثير، ١٣٢/٢.

٣ بمعناه في السنن الكبرى للبيهقي، ١٤/٩-١٥ (١٧٧٣١)؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤٣٣/٢. وانظر لتفصيل تخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلَعي، ٢٢٠/٢.

عليه السلام، بل اجترءوا على العظيمة التي هي الإشراك بالله سبحانه. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبةَ ما يأتون ويذَرون.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ مِن كلمات الشِّرك والطعن في القرآن والاستهزاء به وبك. وتحليةُ الجملة بالتأكيد لإفادة تحقيق ما تتضمّنه مِن التسلية، وصيغةُ الاستقبال لإفادة استمرار العِلم حسب استمرار متعلَّقه باستمرار ما يُوجبه مِن أقوال الكفَرة.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فافزع إلى الله تعالى فيما نابَك مِن ضيق الصدر والحرَج بالتسبيح والتقديس ملتبِسًا بحمده. وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام ما لا يخفى مِن إظهار اللطف به عليه السلام والإشعارِ بعلّة الحُكم، أعني الأمرَ بالتسبيح والحمد.

﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي: المصلّين يَكفِك ويكشِف الغُمَم عنك، أو فنزِّهْه عمّا يقولون ملتبِسًا بحمده على أنْ هداك للحقّ المُبين، وعنه عليه السلام أنّه «كان إذا حزَبه أمرٌ فزِع إلى الصلاة».[١]

﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾

﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ﴾ دُمْ على ما أنت عليه مِن عبادته تعالى. وإيثار الإظهار بالعنوان السالف آنفًا لتأكيد ما سبق مِن إظهار اللطف به عليه السلام والإشعارِ بعلّة الأمرِ بالعبادة.

﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ أي: الموت، فإنّه مُتيقَّن اللُّحوقِ بكلّ حيّ مخلوق. وإسنادُ الإتيان إليه للإيذان بأنّه متوجّه إلى الحيّ طالب للوصول إليه، والمعنى: دُمْ على العبادة ما دمت حيًّا مِن غير إخلال بها لحظةً.

---

١ جامع البيان للطبري، ١٤/١٥٤؛ معالم التنزيل للبغوي، ٤/٣٩٧. وبلفظ «إذا حزبه أمر صلّى» في مسند أحمد، ٣٨/٣٣٠ (٢٣٢٩٩)؛ وسنن أبي داود، ٢/٤٨٥ (١٣١٩)؛

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورةَ الحِجْر كان له مِن الأجر عشرُ حسنات بعدد المهاجرين والأنصار والمستهزئين بمحمّد»[١] صلّى الله عليه وسلّم تسليمًا كثيرًا.[٢]

١ بلفظه في الكشف والبيان للثعلبي، ٤٢٦/١٥ (الحجر، ١/١٥)؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٣٤/٢. وهو جزء من حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١. وانظر لتفصيل تخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢٢١/٢.

٢ س + والحمد لله ربّ العالمين. | وفي هامش م: إلى هنا انتهت المطالعة بفضل الله سبحانه في آواخر شهر ربيع الأوّل، سنة ستّ وخمسين وتسعمئة، حامدًا لله سبحانه ومُصلّيًا على سيّدنا محمّد عليه السلام.

١٥

سُورَةُ الحِجْرِ

مكية، تسع وتسعون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿الر﴾ اللهُ أعلم بمُراده بذلك.

﴿تِلكَ﴾: هذه الآيات ﴿آياتُ الكِتابِ﴾: القُرآنِ ـ والإضافة بمعنى: مِن ـ ﴿وقُرآنٍ مُبِينٍ﴾: مُظهِرٍ للحقّ من الباطل. عطفٌ بزيادة صِفة. ٢ ـ ﴿رُبَّما﴾ ـ بالتشديد والتخفيف ـ ﴿يَوَدُّ﴾: يتمنّى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يوم القيامة إذا عاينوا حالهم وحال المسلمين، ﴿لَو كانُوا مُسلِمِينَ﴾. ورُبَّ: للتكثير، فإنه يكثر منهم تمنّي ذلك. وقيل: للتقليل، فإنّ الأهوال تُدهشهم فلا يُفيقون حتّى يتمنَّوا ذلك إلاّ في أحيان قليلة.

٣ ـ ﴿ذَرْهُم﴾: اترُكِ الكُفّارَ ـ يا مُحمّد ـ ﴿يأكُلُوا ويَتَمَتَّعُوا﴾ بدنياهم، ﴿ويُلْهِهِمِ﴾: يَشغلْهُم ﴿الأمَلُ﴾ بطُول العُمر وغيره عن الإيمان. ﴿فَسَوفَ يَعلَمُونَ﴾ عاقبة أمرهم. وهذا قبل الأمر بالقتال.

سُورَةُ الحِجْرِ

قولُهُ: (والتَّخفِيفِ): نافعٌ وعاصمٌ[١].

قولُهُ: (يَومَ القِيَامةِ) أو عند نزولِ النَّصرِ، أو حلولِ الموتِ.

قولُهُ: (عَنِ الإيمَانِ) والاستعدادِ للمَعادِ.

قولُهُ: (عَاقِبَةَ أَمرِهِم) أو سوءَ صنيعِهم إذا عايَنوا جزاءَهُم.

قولُهُ: (بالقِتَالِ) والأظهرُ: أنَّ المرادَ إقناطُ الرَّسولِ مِن انزجارِهِم عن القبيحِ، وأنَّ نصحَهُم بعد ذلك اشتغالٌ بما لا طائلَ تحتَهُ، وفيه تحذيرٌ عن إيثارِ التَّنعُّمِ وما يؤدِّي إليه طولُ الأملِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٦٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٨٠).

٤ ـ ﴿وما أهلَكْنا مِن﴾: زائدةٌ ﴿قَرْيةٍ﴾ أُريدَ أهلُها ﴿إلاّ ولَها كِتابٌ﴾: أجل ﴿مَعلُومٌ﴾: محدود لهلاكها، ٥ ـ ﴿ما تَسبِقُ مِن﴾: زائدةٌ ﴿أُمّةٍ أجَلَها، وما يَستأخِرُونَ﴾: يتأخّرون عنه.

٦ ـ ٧ ـ ﴿وقالُوا﴾ أي: كُفّارُ مكّة للنبيّ: ﴿يا أيُّها الَّذِي نُزِّلَ علَيهِ الذِّكرُ﴾: القرآنُ في زعمه، ﴿إنَّكَ لَمَجنُونٌ. لَوما﴾: هلاّ ﴿تأتِينا بِالمَلائكةِ، إن كُنتَ مِنَ الصّادِقِينَ﴾ في قولك: إنك نبيّ، وإنّ هذا القُرآن من عند الله. ٨ ـ قال تعالى: ﴿ما تَنَزَّلُ﴾ ـ فيه حذف إحدى التاءين ـ ﴿المَلائكةُ إلاّ بِالحَقِّ﴾: بالعذاب، ﴿وما كانُوا إذًا﴾ أي: حين نزول الملائكة بالعذاب ﴿مُنظَرِينَ﴾: مُؤخَّرين. ٩ ـ ﴿إنّا نَحنُ﴾: تأكيدٌ لاسم «إن» أو فَصْلٌ ﴿نَزَّلْنا الذِّكرَ﴾: القُرآنَ، ﴿وإنّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾ من التبديل والتحريف والزيادة والنقص.

١٠ ـ ١١ ـ ﴿ولَقَد أرسَلْنا مِن قَبلِكَ﴾ رُسلاً ﴿في شِيَعِ﴾: فِرَقِ ﴿الأوَّلِينَ، وما﴾ كان ﴿يأتِيهِم مِن رَسُولٍ إلاّ كانُوا بِهِ يَستَهزِئُونَ﴾ كاستهزاء قومك بك. وهذا تسلية له ﷺ.........................

قولُهُ: (مَحْدُودٌ) مقدَّرٌ كُتبَ في اللَّوحِ.

قولُهُ: (هَلَّا) يعني: ﴿لَو مَا﴾ كـ: لَولا، للتَّحضِيضِ.

قولُهُ: (فِيهِ حَذْفٌ) وقرأَ حمزةُ والكسائيُّ وحفصٌ بالنُّونِ ونصبِ ﴿الملائكةَ﴾، وأبو بكرٍ بالتاءِ والبناءِ للمفعولِ[1]، وقولُ البيضاويِّ: بالياءِ مسنداً إلى ضَميرِ اسمِ اللهِ، وقُرِئَ: ﴿تنزَّلُ﴾ بمعنى: تتنزَّلُ[2]؛ سهوٌ من وجهَينِ؛ جعلَ الشَّاذَّ أصلاً، وعبَّرَ عن الأصلِ بقُرِئَ.

قولُهُ: (أي: حِينَ) الظَّاهرُ: أنَّ ﴿إذنْ﴾ جوابٌ لهم، وجزاءٌ لشرطٍ مقدَّرٍ؛ أي: ولو نزَّلنا الملائكةَ ما كانوا منظَرِينَ.

قولُهُ: (بالعَذَابِ) أو بالوَحي.

قولُهُ: (تَأكِيدٌ لاسمِ ﴿إنَّ﴾) أو مبتدأٌ مع خبرِه خبرُ ﴿إنَّ﴾، وأمَّا قولُه: (أو فَصلٌ) فلا يظهرُ وجهُه.

قولُهُ: (مِنَ التَّبدِيلِ) قيل: وإنَّا لَنَحفظُه في قلوبِ أوليائنَا، وقيلَ: الضَّميرُ في ﴿لَهُ﴾ للنَّبيِّ ﷺ.

قولُهُ: (رُسُلاً) حُذفَ لدلالةِ الإرسالِ عليه.

قولُهُ: (فِرَق) جمعُ: شيعةٍ، وهي الفرقةُ المتَّفقةُ على طريقٍ ومذهبٍ، من شاعَهُ: إذا تبعَهُ، وهو من بابِ إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصُوفِ.

قولُهُ: (كَانَ) قدَّرَه لأنَّ ﴿ما﴾ للحالِ لا يدخلُ إلَّا مُضارعاً بمعنى الحالِ، أو ماضياً قريباً منهُ، والأولى أن يُحمَلَ على حكايةِ الحالِ الماضيةِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٦٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٨١).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٢٠٧). وأورد عليه أنّ قراءة الياء لم يقرأ بها أحد من العشرة، ولم توجد في الشواذ أيضًا والمصنف رحمه الله تعالى بنى تفسيره عليها، وحكى قراءة السبعة بصيغة التمريض. انظر: «حاشيه الشهاب على تفسير البيضاوي» (٥/ ٢٨٣).

١٢ ـ ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ﴾ أي: مِثلَ إدخالنا التكذيبَ في قُلوب أُولئك نُدخله ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: كُفّارِ مكة، ١٣ ـ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾: بالنبيّ، ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي سُنّةُ الله فيهم من تعذيبهم بتكذيبهم أنبياءهم ـ وهؤلاء مِثلُهم ـ ١٤ ـ ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ﴾: في الباب ﴿يَعْرُجُونَ﴾: يصعدون، ١٥ ـ ﴿لَقَالُوا: إِنَّمَا سُكِّرَتْ﴾: سُدّت ﴿أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾: يُخيَّل إلينا ذلك.

١٦ ـ ١٧ ـ ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ اثني عَشَرَ: الحَمَلَ والثَّور والجَوزاء والسَّرَطان والأسَد والسُّنبلة والمِيزان والعَقرب والقَوس والجَدْي والدَّلْو والحُوتَ ـ هي منازل الكواكبِ السبعةِ السيّارةِ: المِرّيخُ وله الحَمَلُ والعَقرب، والزُّهَرةُ ولها الثّورُ والمِيزان، وعُطارِدٌ وله الجَوزاءُ والسُّنبلة، والقمرُ وله السَّرَطانُ، والشمسُ ولها الأسَدُ، والمُشتري وله القَوسُ والحُوت، وزُحَلُ وله الجَدْيُ والدَّلْو ـ ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ بالكواكب ﴿لِلنَّاظِرِينَ، وَحَفِظْنَاهَا﴾ بالشُّهب ﴿مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾: مرجوم، ١٨ ـ ﴿إِلَّا﴾ لكنْ ﴿مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾: خَطِفَه، ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾: كوكب يُضيء، يُحرقه أو يَثقبه أو يُخبِّله.

قولُهُ: (مِثْلَ إدخَالِنَا) السَّلكُ: إدخالُ الشَّيءِ في شيءٍ كالخيطِ في المخِيطِ والرُّمحِ في المطعونِ.

قولُهُ: (التَّكْذِيبَ) الظَّاهرُ: الاستهزاءَ.

قولُهُ: (بالنَّبيِّ) أو الذِّكرِ.

قالَ تعالى: (﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ﴾) أي: على المقترحينَ.

قولُهُ: (يصعَدُونَ) إليها ويرَونَ عجائبَها طولَ نهارِهِم.

قولُهُ: (سُدَّت) من الإبصارِ بالسِّحرِ، مأخوذٌ من السَّكْرِ، وهو سَدُّ النَّهرِ، أو: حُيِّرت؛ من السُّكرِ ـ بالضَّمِّ ـ وابنُ كثيرٍ: بالتَّخفيفِ[1].

قالَ تعالى: (﴿لِلنَّاظِرِينَ﴾) أي: المعتَبرينَ المستدلِّينَ بها على قُدرةِ مبدِعِها وتَوحِيدِ صَانعِها.

قولُهُ: (بالشُّهُبِ) فلا يقدرُ أن يصعدَ إليها ويوسوِسَ أهلَها ويتصرَّفَ في أمرِها ويطَّلِعَ على أحوالِها.

قولُهُ: (لَكِنْ) يعني: الاستثناءُ منقطعٌ، ويصحُّ الاتِّصالُ بأن يكونَ ﴿مَنِ استرقَ﴾ بدلاً مِن ﴿كلِّ شيطانٍ﴾.

قولُهُ: (كَوْكَبٌ مُضِيءٌ) تفسيرٌ لـ﴿شهابٌ﴾، وأمَّا ﴿مُبِينٌ﴾ فظاهرٌ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٦٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٨٢).

١٩ ـ ﴿والأرضَ مَدَدْناها﴾: بسطناها، ﴿وألقَينا فِيها رَواسِيَ﴾: جِبالاً ثوابتَ لئلاّ تتحرّكَ بأهلها، ﴿وأنبَتْنا فِيها مِن كُلِّ شَيءٍ مَوزُونٍ﴾: معلومٍ مُقدّر، ٢٠ ـ ﴿وجَعَلْنا لكُم فِيها مَعايِشَ﴾ ـ بالياء ـ من الثمار والحبوب، ﴿و﴾ جعلنا لكم ﴿مَن لَستُم لَهُ بِرازِقِينَ﴾ من العبيد والدوابّ والأنعام. فإنما يرزقُهم الله.

٢١ ـ ﴿وإن﴾: ما ﴿مِن﴾: زائدةٌ ﴿شَيءٍ إلاّ عِندَنا خَزائِنُهُ﴾: مَفاتيحُ خزائنه، ﴿وما نُنَزِّلُهُ إلاّ بِقَدَرٍ مَعلُومٍ﴾ على حسَبِ المصالح، ٢٢ ـ ﴿وأرسَلْنا الرِّياحَ لَواقِحَ﴾: تُلقِح السحابَ فيمتلئ ماء، ﴿فأنزَلْنا مِنَ السَّماءِ﴾: السحابِ ﴿ماءً﴾: مطرًا ﴿فأسقَيناكُمُوهُ، وما أنتُم لَهُ بِخازِنِينَ﴾ أي: ليست خزائنه بأيديكم، ٢٣ ـ ﴿وإنّا لَنَحنُ نُحيِي ونُمِيتُ، ونَحنُ الوارِثُونَ﴾: الباقون نَرثُ جميعَ الخلق.

٢٤ ـ ﴿ولَقَد عَلِمْنا المُستَقدِمِينَ مِنكُم﴾ أي: من تقدّم من الخلق من لدن آدم، ﴿ولَقَد عَلِمْنا المُستأخِرِينَ﴾: المتأخّرين إلى يوم القيامة، ٢٥ ـ ﴿وإنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحشُرُهُم ـ إنَّهُ حَكِيمٌ﴾ في صُنعه ﴿عَلِيمٌ﴾ بخلقه ـ.........................

قالَ تعالى: (﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا﴾) في الأرضِ، أو: فيها وفي الجبالِ.

قولُهُ: (مُقدَّرٍ) بمقدارٍ معيَّنٍ تقتضيهِ حكمتُهُ، أو: مستَحسنٍ مناسبٍ، من قولِهِم: كلامٌ مَوزونٌ، أو: ما يوزَنُ ويقدَّرُ، أو: له وزنٌ وقَدرٌ في أبوابِ النِّعمةِ والمنفَعةِ.

قولُهُ: (بالياءِ) تعيشونَ بها من المطاعِمِ والملابسِ، وقُرِئَ: بالهمزِ على التَّشبيهِ بشمائِلَ[1].

قولُهُ: (﴿وَ﴾ جَعَلْنَا) عطفٌ على: ﴿معايش﴾ من العبيدِ والعيالِ والخدمِ وسائرِ ما يظنُّونَ أنَّهم يَرزقونَهُ ظنًّا كاذباً.

قولُهُ: (زَائِدةٌ) للتَّأكيدِ؛ أي: ما من شيءٍ إلَّا ونحنُ قادرونَ على إيجادِهِ وتكوينِهِ أضعَافَ ما وُجِدَ منه، فضربُ الخزائِنِ مثلٌ لاقتدارِهِ.

قولُهُ: (المَصَالحِ) وتعلُّقِ المشيئةِ.

قولُهُ: (تُلقِحُ) اللَّقَحُ ـ محرَّكةً ـ: الحَبَلُ؛ أي: حوامِلَ، شبَّهَ الرِّيحَ الَّتي جاءَت بخيرٍ من إنشاءِ سَحابٍ ماطرٍ بالحامِلِ، كما شبَّهَ ما لا يكونُ كذلك بالعَقيمِ، أو: مُلقِحاتٍ للشَّجرِ أو السَّحابِ، ونظيرُهُ الطَّوائحُ بمعنى المطيِحاتِ، وبهذا عرفتَ أنَّ قولَهُ: (تلقحُ) من الإلقاحِ، وقرأ حمزةُ: بالإفرادِ على تأويلِ الجنسِ[2].

قولُهُ: (أي: لَيسَتْ... إلخ) أو: حافظينَ في الغُدْرانِ والعُيونِ والآبارِ.

---

(١) قرأ بها الأعرج وخارجة عن نافع. انظر: «البحر المحيط» (٦/ ٤٧٣).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ١٧٣)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٨٢).

٢٦ ـ ﴿ولَقَد خَلَقْنا الإنسانَ﴾: آدمَ ﴿مِن صَلصالٍ﴾: طينٍ يابس يُسمَع له صلصلة إذا نُقر، ﴿مِن حَمَإٍ﴾: طينٍ أسود ﴿مُسنُونٍ﴾: متغيّرٍ، ٢٧ ـ ﴿والجانَّ﴾ أبا الجِنّ ـ وهو إبليس ـ ﴿خَلَقْناهُ مِن قَبلُ﴾ أي: قبلِ خلقِ آدمَ ﴿مِن نارِ السَّمُومِ﴾، هي نار لا دخان لها تَنفذ من المَسامّ.

٢٨ ـ ٢٩ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿إذ قالَ رَبُّكَ لِلمَلائكةِ: إنِّي خالِقٌ بَشَرًا، مِن صَلصالٍ مِن حَمَإٍ مَسنُونٍ. فإذا سَوَّيتُهُ﴾: أتممتُه، ﴿ونَفَختُ﴾: أجرَيتُ ﴿فيهِ مِن رُوحِي﴾، فصار حيًّا ـ وإضافةُ الروح إليه تشريف لآدم ـ ﴿فقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ﴾ سجودَ تحيّة بالانحناء. ٣٠ ـ ﴿فسَجَدَ المَلائكةُ كُلُّهُم أجمَعُونَ﴾ ـ فيه تأكيدان ـ ٣١ ـ ﴿إلاّ إبلِيسَ﴾ هو أبو الجنّ كان بين الملائكة، ﴿أبَى﴾: امتنع من ﴿أن يَكُونَ مَعَ السّاجِدِينَ﴾.

٣٢ ـ ٣٣ ـ ﴿قالَ﴾ تعالى: ﴿يا إبلِيسُ، مالَكَ﴾: ما منعك ﴿ألاّ﴾ ـ زائدةٌ ـ ﴿تكُونَ مَعَ السّاجِدِينَ؟ قالَ: لَم أكُنْ لِأسجُدَ﴾: لا ينبغي لي أن أسجد ﴿لِبَشَرٍ، خَلَقْتَهُ مِن صَلصالٍ مِن حَمَإٍ مَسنُونٍ﴾.

قولُهُ: (أَسْودَ) أي: اسوَدَّ وتغيَّرَ من طولِ مجاوَرةِ الماءِ.

قولُهُ: (وهُو إبلِيسُ) وفي البيضاويِّ: وقيلَ: إبليسَ[١]. فيدلُّ على المغايَرةِ، وهو الظَّاهرُ قالَ: ويجوزُ أن يُرادَ به الجنسُ كما هو الظَّاهرُ من ﴿الإنسانَ﴾[٢].

قولُهُ: (أتمَمْتُهُ) أي: أحكمْتُ خلقتَهُ وهيَّأتُه لنفخِ الرُّوحِ فيه.

قالَ تعالى: (﴿فَقَعُوا﴾) أمرٌ من وقعَ يقعُ؛ أي: اسقُطوا.

قولُهُ: (تَأكِيدَانِ) للمُبالغَةِ في التَّعميمِ ومنعِ التَّخصيصِ.

وقيلَ: أكَّدَ بالكلِّ للإحاطَةِ، وبأجمعينَ للدَّلالةِ على أنَّهُم سجَدوا مجتَمِعينَ دفعةً.

وفيه نظرٌ، إذ لو كانَ الأمرُ كذلك كانَ الثَّاني حالاً لا تأكيداً.

قولُهُ: (هُو أبُو الجِنِّ) إن جعلَ منقطعاً اتَّصلَ به قولُهُ: (﴿أَبَى﴾) أي: ولكنَّ إبليسَ أبى، وإن جُعِلَ متَّصِلاً كانَ استِئنافاً على أنَّهُ جوابُ سائلٍ قال: هلَّا سجدَ.

قولُهُ: (زَائِدَةٌ) لقولِهِ تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾ [ص: ٧٥]، وفي البيضاويِّ: أيُّ غرضٍ لك في أن لا تكونَ[٣]؟ وهو الأحسنُ؛ إذ لا يُقالُ بالزِّيادةِ إلَّا عند الضَّرورةِ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٢١٠).

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر المصدر السابق.

٣٤ ـ ﴿قَالَ: فاخرُجْ مِنها﴾ أي: من الجنّة، وقيل: من السماوات. ﴿فإنَّكَ رَجِيمٌ﴾: مطرود، ٣٥ ـ ﴿وإنَّ عليكَ اللَّعْنةَ إلَى يَومِ الدِّينِ﴾: الجزاءِ. ٣٦ ـ ﴿قالَ: رَبِّ، فأنظِرْنِي إلَى يَومِ يُبعَثُونَ﴾ أي: الناسُ.

٣٧ ـ ٣٨ ـ ﴿قَالَ: فإنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ، إلَى يَومِ الوَقتِ المَعلُومِ﴾: وقت النفخة الأُولى. ٣٩ ـ ٤٠ ـ ﴿قَالَ: رَبِّ، بِما أغوَيتَنِي﴾ أي: بإغوائك لي، والباء: للقسم، وجوابه: ﴿لأُزَيِّنَنَّ لَهُم في الأرضِ﴾ المعاصيَ ﴿ولأُغوِيَنَّهُم أجمَعِينَ، إلاّ عِبادَكَ مِنهُمُ المُخلَصِينَ﴾ أي: المُؤمنين.

قولُهُ: (أي: مِنَ الجَنَّةِ) أو زُمَرِ الملائكةِ، أو الصُّورةِ الملكيَّةِ(١).

قولُهُ: (مَطرُودٌ) من رحمةِ اللهِ والخيرِ والكرامَةِ، فإنَّ من يُطرَدُ يرجَمُ بالحجرِ، أو: شيطانٌ يُرجَمُ بالشُّهبِ، وهو وعيدٌ يتضمَّنُ الجوابَ عن شبهتِهِ.

قولُهُ: (الجَزَاءِ) فإنَّهُ منتهَى أمدِ اللَّعنِ؛ لأنَّه يناسبُ أيَّامَ التَّكليفِ، وليسَ منه زمانُ الجزاءِ.

أقولُ: وإذا جُعلَ ما بعدَ ﴿إلى﴾ داخلاً، و﴿يَومِ الدِّينِ﴾ ممتدًّا شاملاً لجزاءِ الفريقينِ في دارَي الثَّوابِ والعقابِ= فلا إشكالَ.

قولُهُ: (أَي: النَّاسُ) أرادَ أن يجدَ وسعةً في الإغواءِ ونجاةً من(٢) الموتِ، إذ لا موتَ بعد وقتِ البعثِ، فأجابَهُ إلى الأوَّلِ دونَ الثَّاني لحكمةٍ بالغَةٍ.

قولُهُ: (وَقتِ النَّفخَةِ الأُولَى) عليه الجمهورُ.

قولُهُ: (بإغوَائِكَ) يعني: ﴿ما﴾ مصدريَّةٌ.

قولُهُ: (والباءُ: للقَسَمِ) وقيلَ: للسَّببيَّةِ، إذ في انعقادِ القَسَمِ بأفعالِ اللهِ تعالى خلافٌ(٣).

قولُهُ: (المَعَاصِي) في الدُّنيا الَّتي هي دارُ الغرورِ؛ كقولِهِ: ﴿أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٧٦] أي: الدُّنيا.

قولُهُ: (المُؤمِنِينَ) الَّذين أخلصْتَهُم لطاعتِكَ، فلا يعملُ فيهم كَيدِي، وقرأَ ابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ وأبو عَمرٍو: بالكسرِ(٤)؛ أي: الَّذينَ أخلصُوا نفوسَهُم للهِ.

---

(١) في (م): «أو الصور الملائكة».

(٢) في (ص) و(د): «عن».

(٣) انظر: «فتوح الغيب» (٩/ ٣٤).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٣٤٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٥٨).

٤١ ـ ﴿قَالَ﴾ تعالى: ﴿هذا صِراطٌ عليَّ مُستَقِيمٌ﴾، وهو ٤٢ ـ ﴿إنَّ عِبادِي﴾ أي: المُؤمنين ﴿لَيسَ لَكَ عليهم سُلطانٌ﴾: قُوّة، ﴿إلاّ﴾: لكن ﴿مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغاوِينَ﴾: الكافرين، ٤٣ ـ ﴿وإنَّ جَهَنَّمَ لَمَوعِدُهُم أجمَعِينَ﴾ أي: مَن اتّبعك معك، ٤٤ ـ ﴿لَها سَبْعةُ أبوابٍ﴾: أطباقٍ، ﴿لِكُلِّ بابٍ﴾ منها ﴿مِنهُم جُزءٌ﴾: نصيب ﴿مَقسُومٌ﴾.

قالَ تعالى: (﴿عليَّ﴾) أي: حقٌّ عليَّ أن أراعيَهُ (﴿مستقيمٌ﴾): لا انحِرافَ عنه، والإشارَةُ إلى ما تضمَّنَهُ الاستثناءُ، وهو تخليصُ المخلَصينَ من إغوائِهِ، أو الإخلاصِ على معنى: أنَّ الإخلاصَ طريقٌ عليَّ يؤدِّي إلى الوصُولِ إليَّ من غيرِ اعوِجاجٍ وضلالٍ.

وقُرِئ: (عَلِيٌّ) من علوِّ الشَّرفِ[1].

قولُهُ: (وهُو) أي: الصِّراطُ.

قولُـهُ: (أي: مَـنْ اتَّبعَـكَ) أي: موعدُ المُغْـوي والمتَّبِعِ، ففيـه تغليبٌ، وقيـلَ: مَوعدُ الغاويـنَ والمتَّبِعينَ، و(﴿أجمعينَ﴾) تأكيدٌ.

قالَ تعالى: (﴿أَبْوَابٍ﴾) يدخلونَ فيها لكثرَتِهِم.

قولُهُ: (طِبَاقٍ) أي: طبَقاتٍ ينزلونَها بحسَبِ مراتبِهِم في المتابعةِ[2]، وهي: الحطمَةُ ولظًى وسقرُ والجحيمُ وسعيرُ وجهنَّمُ والهاوِيةُ، وهي أسفلُها، كذا في «المبهماتِ»[3].

قالَ تعالى: (﴿منهم﴾) منَ الأتباعِ، حالٌ من ﴿جزءٌ﴾، وقرأَ أبو بكرٍ: بضمِّ الزَّايِ[4]، قالَ الضَّحَّاكُ: بابٌ لليهودِ، وبابٌ للنَّصارى، وبابٌ للصَّابئينَ، وبابٌ للمَجوسِ، وبابٌ للذين أشرَكوا؛ وهم كفَّارُ العربِ، وبابٌ للمنافقينَ، وبابٌ لأهلِ التَّوحيدِ. أخرجَه ابنُ أبي حاتمٍ[5]، كذا في «المبهماتِ»[6].

لكن قالَ البيضاويُّ[7]: أعلاها للموحِّدينَ العُصاةِ، وأسفَلُها للمُنافقينَ. وهو الصَّحيحُ.

---

(١) وهي قراءة شاذة، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٢٦٥) ونسبت ليعقوب ومجاهد وحميد.

(٢) في (ن): «المبايعة».

(٣) وانظر: «مفحمات الأقران» (ص: ٦٢).

(٤) انظر: «تحبير التيسير» (ص: ٣٠٩).

(٥) رواه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٥/ ٨٢).

(٦) وانظر: «مفحمات الأقران» (ص: ٦٢).

(٧) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٢١٢).

٤٥ ـ ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ﴾: بساتينَ ﴿وَعُيُونٍ﴾ تجري فيها، ويقال لهم: ٤٦ ـ ﴿ادخُلُوها بِسَلامٍ﴾ أي: سالمين من كُلِّ مَخُوف، أو مع سلام أي: سَلّموا وادخلوا ﴿آمِنِينَ﴾ من كُلِّ فزع. ٤٧ ـ ﴿ونَزَعْنا ما في صُدُورِهِم مِن غِلٍّ﴾: حِقد ﴿إخوانًا﴾: حالٌ من «هم» ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ﴾: حالٌ أيضًا، أي: لاينظر بعضهم إلى قفا بعض لدوران الأسرّة بهم، ٤٨ ـ ﴿لا يَمَسُّهُم فِيها نَصَبٌ﴾: تعب ﴿وما هُم مِنها بِمُخرَجِينَ﴾ أبدًا.

٤٩ ـ ﴿نَبِّئْ﴾: خبِّرْ ـ يا مُحمّد ـ ﴿عِبادِيَ أَنِّيَ أنا الغَفُورُ﴾ للمؤمنين ﴿الرَّحِيمُ﴾ بهم، ٥٠ ـ ﴿وأَنَّ عَذابِي﴾ للعُصاة ﴿هُوَ العَذابُ الأَلِيمُ﴾: المُؤلم، ٥١ ـ ﴿ونَبِّئْهُم عَن ضَيفِ إبراهِيمَ﴾ ـ وهم ملائكة اثنا عشَرَ أو عشَرةٌ أو ثلاثةٌ منهم جِبريل ـ ٥٢ ـ ﴿إِذ دَخَلُوا عليَهِ فَقالُوا: سَلامًا﴾ ـ أي: هذا اللفظَ. ﴿قالَ﴾ إبراهيمُ لمّا عرض عليهم الأكل فلم يأكلوا: ﴿إنّا مِنكُم وَجِلُونَ﴾: خائفون. ٥٣ ـ ﴿قالُوا: لا تَوجَلْ﴾: تَخَفْ. ﴿إنّا﴾ رُسلُ ربّك ﴿نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾: ذي عِلم كثير، هو إسحاق كما ذُكر في سورة «هود».

قولُهُ: (سَالِمِينَ) أو مسلَّماً عليكُم من اللهِ أو الملائكَةِ.

قولُهُ: (مِنْ كلِّ فَزعٍ) وآفةٍ وزوالٍ وانتِقالٍ.

قولُهُ: (حِقْدٍ) أي: نزَعْنا في الدُّنيا بما ألَّفَ بين قلوبِهِم، أو في الجنَّةِ بتطييبِ نفوسِهِم من حقدٍ كانَ في الدُّنيا، وعن عليٍّ رضيَ اللهُ عنه: أرجُو أن أكونَ أنا وعثمانُ وطلحةُ والزُّبيرُ منهم[1]، أو من التَّحاسدِ على درجاتِ الجنَّةِ ومراتبِ القربةِ.

قولُهُ: (حَالٌ مِنْ همْ) أي: الضَّميرِ المضافِ إليه، والعاملُ فيه الإضافَةُ، أو مِن الضَّميرِ في ﴿جنَّاتٍ﴾ أو فاعلِ ﴿ادخلُوهَا﴾، أو الضَّميرِ في ﴿آمنين﴾.

قولُهُ: (أبداً) فإنَّ تمامَ النِّعمةِ بالخلودِ.

قولُهُ: (خَبِّرْ) هذا فَذْلَكةُ ما سبَقَ من الوَعدِ والوَعيدِ وتقريرٌ له.

قولُهُ: (أي: هذَا اللَّفظُ) أو: نسلِّمُ عليكَ سلاماً، أو: سلَّمْنا سلاماً.

قولُهُ: (لَمَّا عَرَضَ) الأَوْلى أن يقولَ: قالَ: سلامٌ ولمَّا...

قولُهُ: (ذِي عِلمٍ كَثِيرٍ) إذا بلَغَ.

قولُهُ: (فِي هُودٍ) ﴿فبشَّرْنَاهَا بإسحاقَ﴾ [هود: ٧١].

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٩٠١)، والطبري في «تفسيره» (١٤٦٦٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨٤٦٦).

٥٤ ـ ﴿قالَ: أَبَشَّرتُمُوني﴾ بالولد ﴿علَى أن مَسَّنِيَ الكِبَرُ﴾: حالٌ، أي: مع مسّه إياي؟ ﴿فَبِمَ﴾: فبأيِّ شيءٍ ﴿تُبَشِّرُونَ﴾؟ استفهام تعجّب. ٥٥ ـ ﴿قالُوا: بَشَّرْناكَ بِالحَقِّ﴾: بالصِّدق. ﴿فلا تَكُنْ مِنَ القانِطِينَ﴾: الآيسينَ. ٥٦ ـ ﴿قالَ: ومَن﴾ أي: لا ﴿يَقنِطُ﴾ ـ بكسر النون وفتحها ـ ﴿مِن رَحْمةِ رَبِّهِ إلاّ الضّالُّونَ﴾: الكافرون؟

٥٧ ـ ٥٨ ـ ﴿قالَ: فما خَطبُكُم﴾: شأنكم؟ ﴿أيُّها المُرسَلُونَ. قالُوا: إنّا أُرسِلْنا إلَى قَومٍ مُجرِمِينَ﴾: كافرين أي: قوم لوط لإهلاكهم، ٥٩ ـ ﴿إلاّ آلَ لُوطٍ. إنّا لَمُنَجُّوهُم أجمَعِينَ﴾ لإيمانهم، ٦٠ ـ ﴿إلاّ امرأتَهُ قَدَّرْنا: إنَّها لَمِنَ الغابِرِينَ﴾: الباقين في العذاب لكُفرها.

٦١ ـ ٦٢ ـ ﴿فلَمّا جاءَ آلَ لُوطٍ﴾ أي: لوطًا ﴿المُرسَلُونَ قالَ﴾ لهم: ﴿إنَّكُم قَومٌ مُنكَرُونَ﴾: لا أعرِفكم. ٦٣ ـ ﴿قالُوا: بَل جِئناكَ بِما كانُوا﴾ أي: قومُك ﴿فِيهِ يَمترُونَ﴾: يشُكّون ـ وهو العذاب ـ.....

قولُهُ: (فبِأيِّ شَيءٍ؟) فإنَّ البشارَةَ بما لا يُتَصوَّرُ وقوعُه عادةً بشارَةٌ بغيرِ شيءٍ، وابنُ كثيرٍ بتشديدِ النُّونِ، ونافعٌ بكسرِ النون[1]، وقولُ القاضي[2]: في كلِّ القرآنِ. غفلةٌ، إذ لم يُعرَف له ثانٍ.

قولُهُ: (بكَسرِ النُّونِ): بصريٌّ وكِسائيٌّ[3].

قولُهُ: (شَأنُكُم) الَّذي أرسِلتُم لأجلِهِ سوى البشارةِ، والخطبُ: الشَّأنُ العَظيمُ.

قالَ تعالى: (﴿إلَّا آلَ لُوطٍ﴾) إن كان استِثناءً من ﴿قومٍ﴾؛ كان منقطعاً إذِ القومُ مقيَّدٌ بالإجرامِ، وآلُ لوطٍ لم يكونُوا مجرمينَ، وإن كانَ استثناءً من الضَّميرِ في ﴿مجرمين﴾ كانَ متَّصلاً، والقومُ والإرسالُ شاملَينَ للمجرمينَ وآلِ لوطٍ المؤمنينَ به، وكأنَّ المعنى: إنَّا أُرسِلْنا إلى قومٍ أجرمَ كلُّهُم إلَّا آلَ لوطٍ منهم.

وقرأ حمزةُ والكَسائيُّ بتخفيفِ ﴿منجُوهُم﴾، وشعبةُ بتخفيفِ ﴿قدَرْنَا﴾[4].

قولُهُ: (أي: لُوطاً) لا حاجةَ إلى القولِ بزيادةِ ﴿آلَ﴾، وإن كانَ المقصودُ بالذَّاتِ لوطاً، بخلافِ ﴿ما تركَ آلُ موسَى وآلُ هارونَ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

قولُهُ: (العَذَابُ) الَّذي توعَّدَهُم به.

---

(١) والباقون: ﴿تبشرون﴾ بفتح النون. انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٦٧)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٨٢، ٣٨٣).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٢١٣).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٦٧)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٨٣).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٦٧)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٨٤).

٦٤ ـ ﴿وأتَيناكَ بِالحَقِّ، وإنّا لَصادِقُونَ﴾ في قولنا. ٦٥ ـ ﴿فأسْرِ بأهلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيلِ، واتَّبِعْ أدبارَهُم﴾: امشِ خلفهم، ﴿ولا يَلتَفِتْ مِنكُم أَحَدٌ﴾ لئلاّ يرى عظيم ما ينزل بهم، ﴿وامضُوا حَيثُ تُؤمَرُونَ﴾، وهو الشام.

٦٦ ـ ﴿وقَضَينا﴾: أوحَينا ﴿إلَيهِ ذلِكَ الأمرَ﴾، وهو ﴿أنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقطُوعٌ مُصبِحِينَ﴾: حالٌ أي: يتمّ استئصالهم في الصباح، ٦٧ ـ ﴿وجاءَ أهلُ المَدِينةِ﴾ مدينةِ سَدُومَ ـ وهم قوم لوط ـ لمّا أُخبروا أنّ في بيت لوط مُردًا حِسانًا وهم الملائكة، ﴿يَستَبشِرُونَ﴾: حالٌ طمعًا في فِعل الفاحشة بهم.

٦٨ ـ ٦٩ ـ ﴿قالَ﴾ لوطٌ: ﴿إنَّ هؤُلاءِ ضَيفِي. فلا تَفضَحُونِ، واتَّقُوا اللهَ ولا تُخزُونِ﴾ بقصدكم إياهم بِفِعل الفاحشة. ٧٠ ـ ﴿قالُوا: أوَلَم نَنهَكَ عَنِ العالَمِينَ﴾: عن إضافتهم؟ ٧١ ـ ﴿قالَ: هؤُلاءِ بَناتِي، إن كُنتُم فاعِلِينَ﴾ ما تُريدون من قضاء الشهوة فتزوّجوهنّ.

قولُهُ: (لِئَلّا يَرَى) أو: فيصيبَهُ ما أصابَهُم.

قولُهُ: (وهُو الشَّامُ) أو مصرُ.

قولُهُ: (أَوحَيْنَا) مقضيًّا[1]، إشارةٌ إلى أنَّهُ عُدِّي بـ﴿إلى﴾ لتضمُّنِهِ[2] معنى أوحَيْنا.

قولُهُ: (وهُو) أي: ﴿ذلكَ الأمرَ﴾ مُبهَمٌ يُفسِّرُهُ ما بعدَهُ، ومحلُّه النَّصبُ على البدلِ منه، وفي ذلك تفخيمٌ للأمرِ.

قولُهُ: (حَالٌ) مِن ﴿هؤلاءِ﴾.

قولُهُ: (فِي الصَّبَاحِ) أي: حالَ كونِهِم داخلينَ في الصَّباحِ.

قولُهُ: (سَدُوم) قالَ صاحبُ «الكشفِ»: في «تهذيبِ الأزهريِّ» بالذَّالِ المعجمةِ[3]. والأشهرُ بالدَّالِ غيرِ المعجمَةِ.

قولُهُ: (حَالٌ) أي: مستَبْشرينَ بأضيافِ لوطٍ.

قولُهُ: (عَن ضِيافَتِهِم) وفي نسخةٍ: «إضافتِهِم»، أو: عن أن تُجيرَ منهُم أحدًا.

قولُهُ: (ما تُرِيدُونَ) أو: ما أقولُ لكُم من نكاحِ بَناتِي.

---

(١) أي: معنى (قضينا إليه): أوحينا إليه مقضيًّا.

(٢) في (د) و(ن): «التضمينه».

(٣) انظر: «تهذيب اللغة» (١٢/ ٢٦٠).

٧٢ ـ قال تعالى: ﴿لَعَمرُكَ﴾ ـ خِطاب للنبيّ ﷺ ـ أي: وَحَياتِك ﴿إِنَّهُم لَفِي سَكْرَتِهِم يَعمَهُونَ﴾: يتردّدون. ٧٣ ـ ﴿فأَخَذَتْهُمُ الصَّيحةُ﴾ صيحة جِبريلَ ﴿مُشرِقِينَ﴾: وقتَ شُروق الشمس، ٧٤ ـ ﴿فجَعَلْنا عالِيَها﴾ أي: قُراهم ﴿سافِلَها﴾ بأن رفعها جِبريل إلى السماء وأسقطها مقلوبة إلى الأرض، ﴿وأمطَرْنا علَيهِم حِجارةً مِن سِجِّيلٍ﴾: طِينٍ طُبِخ بالنار.

٧٥ ـ ﴿إنَّ في ذٰلِكَ﴾ المذكور ﴿لَآياتٍ﴾: دلالاتٍ على وحدانيّة الله ﴿لِلمُتَوَسِّمِينَ﴾: للناظرين المُعتبرين، ٧٦ ـ ﴿وإنَّها﴾ أي: قُرى قوم لُوط ﴿لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ﴾: طريقِ قُريشٍ إلى الشام لم تندرس. أفلا يعتبرون بهم؟

٧٧ ـ ٧٨ ـ ﴿إنَّ في ذٰلِكَ لَآيَةً﴾: لَعِبرة ﴿لِلمُؤمِنِينَ، وإنْ﴾: مُخفّفةٌ، أي: إنّه ﴿كانَ أصحابُ الأَيكةِ﴾ هي غَيضةُ شجر بقُرب مَدْيَنَ ـ وهم قوم شُعيب ـ ﴿لَظالِمِينَ﴾ بتكذيبهم شُعيبًا، ....

قولُهُ: (لِلنَّبيِّ) وقيل: للوطٍ.

قولُهُ: (أي: وحَيَاتِكَ) أو التَّقديرُ: لعمرُكَ قسَمي، وهو لغةٌ في العُمرِ يختصُّ به القسَمُ لإيثارِ الأخفِّ فيه؛ لأنَّهُ كثيرُ الدَّورِ على ألسنتِهِم.

قالَ تعَالى: (﴿لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾) أي: غوايتِهم.

قولُهُ: (يَتَرَدَّدُونَ) متحيِّرِينَ، فكيفَ يسمعونَ نصحكَ؟

قولُهُ: (صيحَةُ جِبرِيلَ) وقيلَ: صيحةٌ هائلةٌ مُهلكةٌ.

قولُهُ: (وَقتَ) أي: داخلينَ في وقتٍ.

قولُهُ: (أَي: قُرَاهُم) أي: عالي قراهُم، أو المدينةِ.

قولُهُ: (النَّاظِرِينَ) المتفكِّرِينَ المتفرِّسينَ الَّذين يعرِفونَ الشَّيءَ بالعلامةِ، وفي الحديثِ: «اتَّقُوا فِرَاسةَ المؤمنِ فإنَّهُ ينظرُ بنُورِ اللهِ»[1].

قولُهُ: (أي: قُرَى) أو: المدينةَ.

---

(١) رواه الترمذي (٣١٢٧)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٧٨٤٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

قال الترمذي: هذا حديث غريب.

ورواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (١١٥٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨/ ١٠٢) (٧٤٩٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١١٨)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٦٦٣)، والبيهقي في «الزهد الكبير» (٣٥٨)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١١٩٧) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

وفي «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٦٨): رواه الطبراني، وإسناده حسن.

٧٩ - ﴿فانتَقَمْنا مِنهُم﴾ بأن أهلكناهم بشِدّة الحرّ، ﴿وإنَّهما﴾ أي: قُرى قوم لُوط والأيكة ﴿لَبِإمامٍ﴾: طريقٍ ﴿مُبِينٍ﴾: واضح. أفلا يعتبر بهم أهل مكّة؟

٨٠ - ﴿ولَقَد كَذَّبَ أصحابُ الحِجرِ﴾: وادٍ بين المدينة والشام - وهم ثمودُ - ﴿المُرسَلِينَ﴾ بتكذيبهم صالحًا لأنه تكذيب لباقي الرُّسل لاشتراكهم في المجيء بالتوحيد، ٨١ - ﴿وآتَيناهُم آياتِنا﴾ في الناقة، ﴿فكانُوا عَنها مُعرِضِينَ﴾: لا يتفكّرون فيها، ٨٢ - ٨٣ - ﴿وكانُوا يَنحِتُونَ مِنَ الجِبالِ بُيُوتًا آمِنِينَ، فأخَذَتْهُمُ الصَّيحةُ مُصبِحِينَ﴾: وقتَ الصباح، ٨٤ - ﴿فما أغنَى﴾: دَفَعَ ﴿عَنهُم﴾ العذابَ ﴿ما كانُوا يَكسِبُونَ﴾ من بناء الحُصون وجمع الأموال.

٨٥ - ﴿وما خَلَقْنا السَّماواتِ والأرضَ وما بَينَهُما إلاّ بِالحَقِّ، وإنَّ السّاعةَ لآتِيةٌ﴾ - لا محالةَ - فيُجازَى كُلّ أحد بعمله. ﴿فاصفَحِ﴾ - يا مُحمّد - عن قومك ﴿الصَّفحَ الجَمِيلَ﴾: أعرِضْ عنهم إعراضًا لا جزعَ فيه. وهذا منسوخ بآية السيف. ٨٦ - ﴿إنَّ رَبَّكَ هُوَ الخَلاّقُ﴾ لكُلّ شيء ﴿العَلِيمُ﴾ بكُلّ شيء.

٨٧ - ٨٨ - ٨٩ - ﴿ولَقَد آتَيناكَ سَبعًا مِنَ المَثانِي﴾، قال ﷺ: «هِيَ الفاتِحةُ». رواه الشيخان........

قولُهُ: (بَينَ مَكَّةَ) الأظهرُ: «بينَ المدينةِ» كما في بعضِ النُّسخ[1]

قولُهُ: (لِاشتِرَاكِهِم فِي المَجِيءِ بالتَّوحِيدِ) هذا التَّعليلُ غيرُ مستقيمٍ؛ لأنَّ الموحِّدَ إذا أنكرَ نبيًّا كافرٌ؛ لأنَّ من شُروطِ الإيمانِ تصديقَ الأنبياءِ في دَعوى نبوَّتِهم.

قولُهُ: (فِي النَّاقَةِ) أي: ولدِها وشربِها ودرِّها، أو ما نصبَ لهم من الأدلَّةِ.

قالَ تعَالى: (﴿آمنينَ﴾) مِن الانهدامِ ونقبِ اللُّصوصِ وتخريبِ الأعداءِ لوَثاقتِها، أو: من العَذابِ لفرطِ غفلتِهِم.

قولُهُ: (وجَمعِ الأَموَالِ) والعددِ.

قالَ تعالى: (﴿إلَّا بِالْحَقِّ﴾) أي: إلَّا خلقاً ملتبِساً بالحقِّ.

قولُهُ: (فيُجَازَى) بالياءِ أو النُّونِ.

قولُهُ: (وهَذا مَنسُوخٌ) كذا قيلَ، قالَ النَّسفيُّ: وهو بعيدٌ؛ لأنَّ المقصودَ مِن ذلك أن يُظهِرَ العفوَ والصَّفحَ، فكيف يصيرُ منسوخاً[2]؟

---

(١) وكذا هي في النسخ المعتمدة في تحقيق متن الجلالين.

(٢) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ١٩٨).

لأنها تُثنَى في كُلّ رَكعة، ﴿والقُرآنَ العَظِيمَ - لا تَمُدَّنَّ عَينَيكَ إلَى ما مَتَّعْنا بِهِ أزواجًا﴾: أصنافًا ﴿مِنهُم، ولا تَحزَنْ علَيهِم﴾ إن لم يُؤمنوا، ﴿واخفِضْ جَناحَكَ﴾: ألِنْ جانبَك ﴿لِلمُؤمِنِينَ، وقُلْ: إنِّي أنا النَّذِيرُ﴾ من عذاب الله أن ينزل عليكم ﴿المُبِينُ﴾: البيّنُ الإنذار - ٩٠ - ﴿كَما أنزَلْنا﴾ العذابَ ﴿علَى المُقتَسِمِينَ﴾ اليهودِ والنصارى ٩١ - ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا القُرآنَ﴾: أي: كُتبهم المُنزلة عليهم ﴿عِضِينَ﴾: أجزاء حيثُ آمنوا ببعض وكفروا ببعض. وقيل: المُراد بهم الذين اقتسموا طُرق مكّة يصدّون الناس عن الإسلام، وقال بعضهم في القرآن: سِحر، وبعضهم: كِهانة، وبعضهم: شِعر.

قولُهُ: (لأَنَّهَا تُثنَّى) أي: تُكرَّرُ، مِن التَّثنيةِ، فقولُهُ: (في كلِّ ركعةٍ) زائدٌ، أو يحملُ على ركعةٍ ثانيةٍ، أو المرادُ: في كلِّ صلاةٍ، فيؤيِّدُ مذهَبَنا أنَّ الرَّكعةَ الواحدةَ ليسَت بصلاةٍ.

قالَ تعالى: (﴿لَا تَمُدَّنَّ﴾) أي: لا تنظُرْ نظرَ اختيارٍ، بل انظُرْ نظرَ اعتبارٍ.

قولُهُ: (أَصْنَافاً) مِن الكفَّارِ، فإنَّهُ مستحقَرٌ بالإضافَةِ إلى ما أوتيتَهُ، فإنَّهُ كمالٌ مطلوبٌ بالذَّاتِ مُفضٍ إلى دوامِ اللَّذَّاتِ، وعن أبي بكرٍ: «مَنْ أوتيَ القرآنَ فرأى أنَّ أحداً أوتيَ مِنَ الدُّنيا أفضَلَ ممَّا أوتي فقد صغَّرَ عظيماً وعظَّمَ صغيراً» رواهُ الطَّبرانيُّ[1].

قولُهُ: (أَلِنْ) أي: تواضَعْ لهُم وارفُق بهم.

قولُهُ: (العَذَابَ) أي: مثلَ العذابِ الَّذي أنزَلْنا عليهم، فهو وصفٌ لمفعولِ ﴿النَّذيرُ﴾ أُقيمَ مقامَهُ.

قولُهُ: (اليَهُودِ... إلخ) حيثُ قالوا عناداً: بعضُهُ حقٌّ موافقٌ للتَّوراةِ والإنجيلِ، وبعضُهُ باطلٌ مخالفٌ لهما.

قولُهُ: (أي: كتُبُهُم المُنْزَلَة) على أنَّ القرآنَ ما يقرؤونَهُ من كتبِهِم.

قولُهُ: (﴿عِضِينَ﴾ أجزَاءً) جمعُ: عِضَة، وأصلُها عِضوةٌ، مِن عَضا الشَّاةَ: إذا جعَلَها أعضاءً، وإنَّما جُمِعَ جمعَ السَّلامةِ جبراً لما حُذفَ.

قولُهُ: (الَّذينَ اقتَسَمُوا) كانُوا اثني عشرَ.

قولُهُ: (طُرُق مكَّةَ) أيَّامَ الموسمِ، فأهلكهُمُ اللهُ يومَ بدرٍ.

قولُهُ: (وقالَ بعضُهُم) فيَكونونَ[2] هُم المرادَ بـالمقتَسِمينَ، وهذا قولٌ آخرُ.

قولُهُ: (وبعضُهُم: شِعرٌ) وبعضُهم: أساطيرُ الأوَّلينَ، فعَلى هذينِ القولينِ المرادُ بـ﴿القرآن﴾ كتابُنا.

---

(١) قال ابن حجر في «الكاف الشاف» (ص: ٩٤): لم أجده عن أبي بكر. ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٤٥٧٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٥٩): فيه إسماعيل بن رافع وهو متروك.

(٢) في (ص): «فيكون».

٩٢ ـ ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُم أجمَعِينَ﴾ سُؤالَ توبيخ ٩٣ ـ ٩٤ ـ ﴿عَمَّا كانُوا يَعمَلُونَ. فاصدَعْ﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿بِما تُؤمَرُ﴾ به، أي: اجهَرْ به وأمضِهِ، ﴿وأعرِضْ عَنِ المُشرِكِينَ﴾. هذا قبل الأمر بالجهاد. ٩٥ ـ ﴿إنّا كَفَيناكَ المُستَهزِئِينَ﴾ بك بأن أهلكنا كُلًّا منهم بآفة ـ وهم: الوليدُ بن المُغيرةِ، والعاصِ بنُ وائلٍ، وعديُّ بن قيسٍ، والأسْودُ بن المُطّلبِ، والأسودُ بن عبدِ يَغوثَ ـ ٩٦ ـ ﴿الَّذِينَ يَجعَلُونَ مَعَ اللهِ إلـٰهًا آخَرَ﴾: صفةٌ، وقيل: مبتدأ ولتضمنه معنى الشرط دخلت الفاء في خبره، وهو: ﴿فَسَوفَ يَعلَمُونَ﴾ عاقبة أمرهم.

٩٧ ـ ﴿ولَقَد﴾: للتحقيق ﴿نَعلَمُ أنَّكَ يَضِيقُ صَدرُكَ بِما يَقُولُونَ﴾..........................

قولُهُ: (بِهِ) فما موصولَةٌ، والرَّاجعُ محذوفٌ؛ أي: بما تؤمرُ به من الشَّرائعِ.

قولُهُ: (أي: اجهَرْ) أو: افرُقْ بين الحقِّ والباطِلِ.

قولُهُ: (هذَا) أو المعنى: فلا تلتَفِتْ إلى ما يقولونَ.

قولُهُ: (الوَلِيدُ) مرَّ بنبَّالٍ، فتعلَّقَ بثوبِهِ سهمٌ، فلم يلتفِتْ ـ تعظُّماً ـ لأخذِهِ، فأصابَ عرقاً في عقبِهِ فقطعَهُ فماتَ[1].

قولُهُ: (والعَاص) دخلَتْ شوكةٌ في أخمصِهِ فانتفخَتْ رجلُهُ حتَّى صارَت كالرَّحى وماتَ.

قولُهُ: (عَدِيُّ بنُ قيسٍ) المنقولُ في «الدُّرِّ» والبغويِّ والبيضاويِّ بدلَهُ: حارثةُ بنُ قيسٍ، وفي بعضِ نسخِ البيضاويِّ: عديُّ بن قيسٍ[2]، واللهُ أعلمُ بالصَّوابِ، أشارَ جبريلُ إلى أنفِهِ، فامتخطَ قيحاً فماتَ.

قولُهُ: (ابنُ المُطَّلبِ) أشارَ جبريلُ إلى عينِهِ فعميَ.

قولُهُ: (ابنُ عَبدِ يَغُوثَ) جعلَ ينطحُ رأسَهُ بشجرةٍ ويضربُ وجهَهُ بالشَّوكِ حتَّى ماتَ.

قولُهُ: (عَاقِبَةَ أَمرِهِمْ) في الدَّارين.

قولُهُ: (للتَّحقِيقِ) ويمكنُ التَّقليلُ لقلَّةِ التَّضييقِ؛ إذ يلزمُ من قلَّةِ المعلومِ قلَّةُ تعلُّقِ العلمِ.

---

(١) هذا والذي بعده جاء فيما رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٩٨٦)، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (٢٠٣)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٧٧٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٤٧): فيه محمد بن عبد الحكيم النيسابوري، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٤٦٥)، والطبري في «تفسيره» (١٧/ ١٥٧) عن مقسم مولى ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «الدر المنثور» (٥/ ١٠٢)، و«معالم التنزيل» (٣/ ٦٨). وفي «أنوار التنزيل» (٣/ ٢١٨): عدي بن قيس.

من الاستهزاء والتكذيب. ٩٨ ـ ﴿فَسَبِّحْ﴾ مُلتبسًا ﴿بِحَمدِ رَبِّكَ﴾ أي: قل: سُبحانَ اللهِ وبحمده، ﴿وكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾: المُصلّين، ٩٩ ـ ﴿واعبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يأتِيَكَ اليَقِينُ﴾: الموتُ.

قولُهُ: (مِن الاستِهزَاءِ) أو: فينا وفيكَ وفي القرآنِ.

قولُهُ: (المُصَلِّينَ) وكانَ ﷺ إذا حزبَهُ أمرٌ فزعَ إلى الصَّلاةِ[1].

قولُهُ: (المَوْتُ) فإنَّهُ متيقَّنٌ لحاقُه كلَّ حيٍّ مخلوقٍ.

وقالَ الغزاليُّ: الموتُ يقينٌ يشبهُ الشَّكَّ[2].

قالَ صاحبُ «الكشفِ»: ظاهرُه ما ذكرَهُ المصنِّفُ، وباطنُهُ يومئُ إلى أنَّ السَّفرَ في اللهِ لا ينقطعُ، والشُّهودَ الَّذي عليه يستقرُّ لا يحصلُ أبداً، وعن لسانِ هذا المقامِ: ﴿ربِّ زدنِي علماً﴾ [طه: ١١٤]، واللهُ تعالى أعلمُ.

***

---

(١) رواه أبو داود (١٣١٩)، وأحمد في «مسنده» (٢٣٢٩٩)، والطبري في «تفسيره» (٨٤٩)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٤٧٣٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٩١٢) عن حذيفة رضي الله عنه.

قال ابن حجر في «فتح الباري» (٣/ ١٧٢): أخرجه أبو داود بإسناد حسن.

(٢) انظر: «إحياء علوم الدين» (١/ ٧٣).

سورة الحجر

أخرج ابنُ مردويه عن ابنِ عباس وابنِ الزبير رضي الله عنهم أنَّها نزلَت بمكة[1]، ورُوي ذلك عن قتادة ومجاهد، وفي «مجمع البيان» عن الحسن أنَّها مكيةٌ إلا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾، وقوله سبحانه: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾[2].

وذكر الجلالُ السيوطيُّ في «الإتقان» عن بعضهم استثناءَ الآية الأُولَى فقط، ثم قال: قلتُ: ويَنبغي استثناءُ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ الآية [٢٤]؛ لما أخرجَه الترمذيُّ وغيرُه في سبب نزولها وأنها في صفوف الصلاةِ[3]، وعلى هذا فقولُ أبي حيان ومثله في «تفسير الخازن»: إنَّها مكية بلا خلاف[4]. الظاهرُ في عدم الاستثناء ظاهرٌ في قلَّة التتبُّع، وهي تسعٌ وتسعون آية، قال الداني، وكذا الطبرسي: بالإجماع[5]، وتحتوي ـ على ما قيل ـ على خمسِ آياتٍ نسخَتْها آيةُ السيف.

---

(١) عزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٩٢، وأخرج أثر ابن عباس ابن الضُّرَيس في فضائل القرآن ص٣٣، والنحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٤٨٢.

(٢) مجمع البيان ١٤/ ٥.

(٣) الإتقان ١/ ٤٦، والحديث عند الترمذي (٣١٢٢)، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٧٨٣)، وابن ماجه (١٠٤٦)، والنسائي ٢/ ١١٨ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أن امرأة حسناء كانت تصلي خلف رسول الله ﷺ فكان البعض يستقدم في الصف الأول لئلا يراها ويستأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخَّر، فإذا ركع نظر من تحت إبطيه، فأنزل الله الآية. وأورده ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وقال: غريب جداً، وفيه نكارة شديدة، ورجَّح أنه من كلام أبي الجوزاء الذي رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٤٣، وتفسير الخازن ٤/ ٥٥.

(٥) مجمع البيان للطبرسي ١٤/ ٥، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٨١.

ووجهُ مناسبتها لما قبلَها؛ أنَّها مُفتَتَحة بنحو ما افتتحَ به السورة السابقة، ومشتملةٌ أيضاً على شرح أحوالِ الكفرةِ يوم القيامة ووَدادتهم لو كانوا مسلمين، وقد اشتملَت الأولَى على نحو ذلك، وأيضاً ذُكر في الأُولَى طرفٌ من أحوال المجرمين في الآخرة، وذُكر هنا طرفٌ مما نال بعضاً منهم في الدنيا، وأيضاً قد ذكر سبحانه في كلٍّ مما يتعلَّق بأمر السماوات والأرض ما ذَكَر، وأيضاً فعل سبحانه نحو ذلك فيما يتعلَّق بإبراهيم عليه السلام، وأيضاً في كلٍّ مِن تسلية نبِّينا ﷺ ما فيه، إلى غير ذلك مما لا يحصى.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر﴾ قد تقدَّم الكلامُ فيه[1] ﴿تِلْكَ﴾ اختار غيرُ واحدٍ أنَّه إشارةٌ إلى السورة، أي: تلك السورةُ العظيمة الشأن ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الكاملِ الحقيق باختصاصِ اسم الكتاب به على الإطلاق كما يُشعرُ به التعريفُ، أي: بعضٌ منه مترجم مستقلٌّ باسم خاصٍّ، فالمرادُ به جميعُ القرآن، أو جميعُ المنزل إذ ذاك.

﴿وَقُرْءَانٍ﴾ عظيم الشأن، كما يُشعر به التنكير ﴿مُّبِينٍ ۝١﴾ مُظهِرٍ في تضاعيفه من الحِكَمِ والأحكام، أو لسبيل الرُّشدِ والغيِّ، أو فارقٍ بين الحق والباطل، والحلال والحرام، أو ظاهر معانيه، أو أمْرِ إعجازه، فالمبين إمَّا من المتعدِّي أو اللازم، وفي جمع وصْفَي الكتابية والقرآنية من تفخيم شأن القرآن ما فيه، حيث أُشيرَ بالأول إلى اشتماله على صفات كمال جنس[2] الكُتُب الإلهية، فكأنَّه كلُّها، وبالثاني إلى كونه ممتازاً عن غيره نسيج وحده، بديعاً في بابه، خارجاً عن دائرة البيان، قرآناً غيرَ ذي عوجٍ، ونحو هذا فاتحة سورة النمل خلا أنَّه أَخَّر هاهنا الوصفَ بالقرآنية عن الوصفِ بالكتابية، لما أنَّ الإشارةَ إلى امتيازه عن سائرِ الكتب ـ بعد التنبيه على انطوائه على كمالات غيرِه منها ـ أدخلُ في المدح، لئلَّا يتوَهَّم من أوَّل الأمر أنَّ امتيازه عن غيره لاستقلاله بأوصافٍ خاصَّةٍ به، من غير اشتماله على

---

(١) ينظر ١/٣١٨ وما بعدها.

(٢) قوله: جنس، ليس في الأصل، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/٦٣.

نُعوت كمالِ سائر الكُتُب الكريمةِ، وعكَسَ هناك؛ نظراً إلى حال تقدُّم القرآنية على حال الكتابية. قاله بعضُ المحقِّقين.

وجُوِّز أنْ يراد بالكتاب اللوحُ المحفوظُ؛ وذكر أنَّ تقديمه هنا باعتبار الوجود، وتأخيرَه هناك باعتبار تعلُّق عِلْمنا؛ لأنَّا إنما نعلمُ ثبوتَ ذلك من القرآن.

وتُعقِّب بأنَّ إضافَة الآياتِ إليه تُعكرُ على ذلك، إذ لا عهدَ باشتماله على الآيات.

والزمخشريُّ جعَلَ هنا الإشارةَ إلى ما تضمَّنَتْه السورةُ، والكتابُ وما عُطفَ عليه عبارةٌ عن السورة[١]. وذكر هناك أن الكتاب إمَّا اللوح، وإما السورة، وإما القرآن[٢]، فآثر هاهنا أحدَ الأوجه هناك.

قال في «الكشف»: لأنَّ الكتاب المطلَق على غير اللوح أظهرُ، والحملُ على السورة أوجَهُ مبالغةً كما دلَّ عليه أسلوبُ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ [الرعد:١] وليطابق المشار إليه، فإنَّه إشارةٌ إلى آيات السورة، ثم قال: وإيثارُ الحملِ على اتِّحاد المعطوف والمعطوف عليه في الصدق؛ لأنَّ الظاهرَ من إضافة الآيات ذلك.

ولمَّا كان في التعريف نوعٌ من الفخامة، وفي التنكير نوعٌ آخرُ، وكان الغرضُ الجمعَ، عرَّف الكتاب ونكَّر القرآن ها هنا، وعكس في النمل، وقدَّم المعرَّف في الموضعَين؛ لزيادةِ التنويه، ولما عقَّبه سبحانه بالحديث عن الخصوص هنالك قدَّم كونَه قرآناً؛ لأنَّه أدلُّ على خصوص المُنزَل على محمد ﷺ للإعجاز.

وتُعقِّب تفسيرُ ذلك بالسورة دون جميع القرآن، أو المُنزَل إذ ذاك بأنَّه غيرُ متسارِع إلى الفهم، والمتسارِعُ إليه عند الإطلاق ما ذكر، وعليه يترتَّبُ فائدةُ وَصْف الآياتِ بنعت ما أُضيفَت إليه من نعوت الكمال لا على جعله عبارةً عن السورة، إذ هي في الاتِّصاف بذلك ليست بتلك المرتبة من الشهرة حتى يُستغنى عن التصريح بالوصف على أنَّها عبارةٌ عن جميع آياتها، فلا بدَّ من جعل «تلك» إشارةً إلى كلِّ واحدةٍ منها. وفيه من التكلُّف ما لا يخفَى.

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٨٥.

(٢) الكشاف ٣/ ١٣٤-١٣٥.

ثم إن الزمخشريَّ بعد أنْ فسَّر المتعاطفَين بالسورة أشار إلى وجه التغايُرِ بينهما بقوله: كأنَّه قيل: الكتابُ الجامعُ للكمال والغرابةِ في البيانِ[1]، ورَمَزَ إلى أنَّه لما جُعِلَ مستقلًّا في الكمال والغرابة قصد قصدهما، فعطف أحدهما على الآخر، فالغرضُ من ذكر الذاتِ في الموضعَين الوصفان، وهذه فائدةُ إيثار هذا الأسلوب، ومِن هذا عدَّه مَن عدَّه من التجريد، قاله في «الكشف».

وقال الطيبي بعد أنْ نَقَل عن البغوي[2] توجيهَ التغايرِ بين المتعاطفَين: بأنَّ الكتاب ما يُكتَب، والقرآن ما يُجمَع بعضُه إلى بعض: فإن قلتَ: رَجَع المآل إلى أنَّ «الكتاب وقرآن» وصفان لموصوفٍ واحدٍ أُقيما مقامه، فما ذلك الموصوف؟ وكيف تقديرُه؟ فإنْ قدَّرتَه معرفةً دَفَعَهُ[3] «وقرآنٍ مبينٍ»، وإنْ ذهبتَ إلى أنَّه نكرة أَبَاهُ لفظُ «الكتاب»؟ قلتُ: أُقدِّرُه معرفةً و«قرآنٍ مبينٍ» في تأويل المعرفة؛ لأنَّ معناه: البالغُ في الغرابة إلى حدِّ الإعجاز، فهو إذاً محدودٌ بل محصورٌ، إلى آخر ما قال. وهو كلامٌ خالٍ عن التحقيق كما لا يخفَى على أربابه.

وقيل المرادُ بالكتاب التوراةُ والإنجيلُ، وبالقرآن الكتاب المنزَل على نبيِّنا ﷺ، وأخرج ذلك ابنُ جرير عن مجاهد وقتادة[4]، وأَمْرُ العطف على هذا ظاهرٌ جدًّا إلا أنَّ ذلك نفسه غيرُ ظاهرٍ، وفي المراد بالإشارة عليه خفاء أيضاً.

وفي «البحر»: أنَّ الإشارةَ على هذا القول إلى آيات الكتاب[5]، وهو كما ترى.

ثمَّ إنَّه سبحانه لمَّا بيَّنَ شأن الآيات لتوجيه المخاطَبين إلى حُسْنِ تلقي ما فيها من الأحكام والقصص والمواعظ شَرَع جلَّ شأنه في بيان المتضمَّن، فقال عزَّ قائلاً: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بما يجبُ الإيمان به، ووَدَادتهم[6] ﴿لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾ مؤمنين بذلك، وقيل: المرادُ كفرُهم بالكتاب والقرآن وبكونه من

(١) الكشاف ٢/ ٣٨٦.
(٢) في تفسيره ٣/ ٤٥.
(٣) في (م): رفعه، والمثبت من الأصل.
(٤) تفسيره الطبري ١٤/ ٥- ٦ بنحوه.
(٥) البحر المحيط ٥/ ٤٤٤.
(٦) ليست في (م).

عند الله تعالى، ووَدَادَتُهم الانقيادُ لحكمه والإذعانُ لأمره، وفيه إيذانٌ بأنَّ كفرَهم إنَّما كان بالجحود، وفيه نظرٌ، وهذه الودادةُ يومَ القيامة عند رؤيتهم خروجَ العصاةِ من النار.

أخرج ابن المبارك وابن أبي شيبة والبيهقيُّ وغيرُهم عن ابن عباس وأنس ﵄ أنَّهما تذاكرا هذه الآيةَ فقالا: هذا حيثُ يجمعُ الله تعالى بين أهلِ الخطايا من المسلمين والمشركين في النار، فيقولُ المشركون: ما أغنَى عنكم ما كنتم تعبدون، فيغضبُ الله تعالى لهم، فيخرجُهم بفَضْل رحمته[١].

وأخرج الطبرانيُّ وابنُ مردويه بسندٍ صحيحٍ عن جابر بنِ عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ ناساً من أمتي يُعذَّبون بذنوبهم فيكونُونَ في النار ما شاء الله تعالى أنْ يكونوا، ثمَّ يعيِّرهم أهل الشرك فيقولون: ما نَرَى ما كنتم فيه من تصديقكم نَفَعَكم، فلا يَبقَى موحِّدٌ إلا أَخْرَجه اللهُ تعالى من النار» ثم قرأ رسول الله ﷺ الآية[٢].

وأخرج غيرُ واحدٍ عن عليٍّ ـ كرم الله تعالى وجهه ـ وأبي موسى الأشعري وأبي سعيد الخدري نحو ذلك يرفَعُهُ كلٌّ إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام[٣]. وروي ذلك عن كثير من السلف الصالح.

فقول الزمخشري: إنَّ القول به بابٌ من الودادة[٤]؛ بيتٌ من السفاهة قَعيدته[٥] عقيدته الشوهاء.

---

(١) الزهدُ لابن المبارك (١٦٠٢)، والبعث والنشور للبيهقي (٨٢)، والطبري ١٤/ ٨، وعزاه لابن أبي شيبة السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٩٢.

(٢) المعجم الأوسط للطبراني (٥١٤٦)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٩٢. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٧٩: رجاله رجال الصحيح غير بسام الصيرفي وهو ثقة.

(٣) أخرج حديث أبي موسى الأشعري ﵁ ابنُ أبي عاصم في السنة (٨٤٣)، والطبري ١٤/ ٨، والحاكم ٢/ ٢٤٢، وأخرج حديث أبي سعيد الخدري ﵁ ابنُ حبان (٧٤٣٢). وذكر حديث علي بن أبي طالب ﵁ السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٩٣ وعزاه لابن أبي حاتم، ولابن شاهين في السنة.

(٤) الكشاف ٢/ ٣٨٦.

(٥) قَعيدةُ الرجل وقَعيدة بيته: امرأتُه. تاج العروس (قعد).

وقال الضحاك: إنَّ ذلك في الدنيا عند الموت وانكشافِ وخامة الكفر لهم، وعن ابن مسعود: إنَّ الآيةَ في كفار قريش وَدُّوا ذلك يومَ بدر حينَ رأَوا الغلَبَة للمسلمين. وفي روايةٍ عنه وعن أُناس من الصحابة ﷺ: إنَّ ذلك حين ضُربَتْ أعناقُهم فعرضوا على النار.

وذكر ابنُ الأنباري أنَّ هذه الودادة من الكفار عند كلِّ حالةٍ يُعذَّبُ فيها الكافرُ ويَسلَم المسلمُ[١].

و«ربَّ» على كثرة وقوعِها في كلام العربِ لم تقع في القرآن إلا في هذه الآية، ويقال فيها «رُبَّ» بضم الراء وتشديد الباء وفتحها، و«رَبَّ» بفتح الراء، و«رُبُّ» بضمهما، و«رُبَّتَ» بالضمِّ وفتح الباء والتاء، و«رُبَّتْ» بسكون التاء، و«رَبَّتَ»[٢] بفتح الثلاثة، و«رَبَّتْ» بفتح الأوَّلين وسكون التاء، وتخفيف الباء من هذه السبعة، و«رُبَّتا» بالضمِّ وفتح الباء المشدَّدة، و«رُبْ» بالضم والسكون، و«رَبْ» بالفتح والسكون، فهذه سبعَ عشرةَ لغةً حكاها ـ ما عدا «رُبَّتا» ـ ابنُ هشام في «المغني»[٣]. وحكى أبو حيان إحدَى عشر منها، منها[٤]: «رُبَّتا»[٥]. وإذا اعتبر ضمُّ الاتصال بـ «ما» والتجرُّد منها بلغت اللغات ما لا يخفى، وزَعَم ابنُ فضَّال[٦] في «الهوامل والعوامل» أنَّها ثنائية الوضع كـ: «قد»، وأنَّ فتح الباء مخفَّفة دون التاء ضرورةٌ، وأنَّ فتح الراء مطلقاً شاذٌّ، وهي حرف جرٍّ، خلافاً للكوفية والأخفشِ في أحد قولَيه[٧] وابنِ الطَّرَاوة[٨]، زعموا أنَّها اسمٌ مبنيٌّ كـ: «كم»، واستدلُّوا على اسميتها

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٤٤.

(٢) قوله: بسكون التاء وربت، ليست في الأصل وأثبتناه من (م).

(٣) مغني اللبيب ص ١٨٤.

(٤) قوله: منها، ليس في (م).

(٥) ذكر في تذكرة النحاة ص٥ اثني عشر وجهاً، ولم يذكر منها: ربَّتا.

(٦) في هامش (م): هو أبو الحسن علي. اهـ منه. وهو علي بن فضَّال بن علي، يعرف بالفرزدقي القيراوني النحوي المجاشعي، وله أيضاً كتاب «النكت في القرآن»، و«إكسير الذهب في صناعة الأدب والنحو»، و«شرح عنوان الإعراب»، توفي سنة (٤٧٩ هـ). معجم الأدباء ١٤/ ٩٠، والسير ١٨/ ٥٢٨.

(٧) ينظر معاني القرآن ٢/ ٦٠٢، والبحر المحيط ٥/ ٤٤٢.

(٨) سليمان بن محمد بن عبد الله أبو الحسين السبائي المالقي النحوي، أخذ عن أبي الحجاج =

بالإخبار عنها في قوله:

إنْ يقتلوك فإنَّ قَتْلَكَ لم يكُنْ عاراً عليكَ وربَّ قَتْلٍ عارْ[(١)]

ف «رب» عندهم مبتدأٌ و«عار» خبرُه، وتقعُ عندهم مصدراً كـ : ربَّ ضربة ضربْتَ، وظرفاً كـ : ربَّ يوم سرت، ومفعولاً به كـ : ربَّ رجلٍ ضربْتَ، واختار الرضي اسميتَها إلا أنَّ إعرابها عندَه رفعٌ أبداً، على أنَّها مبتدأ لا خبَرَ له كما اختار ذلك في قولهم: أقلُّ رجلٍ يقولُ ذلك إلا زيداً، وقال: إنَّها إنْ كُفَّت بـ : «ما»، فلا محلَّ لها حينئذٍ؛ لكونها كحرف النفي الداخل على الجملة، ومنَعَ ذلك البصريُّون بأنَّها لو كانت اسماً لجازَ أنْ يتعدَّى إليها الفعلُ بحرف الجر فيقال: بِرُبَّ رجلٍ عالم مررتُ، وأنْ يعود عليها الضمير ويُضاف إليها، وجميعُ علامات الاسم مُنْتَفيةٌ عنها. وأجيبَ عن البيت بأنَّ المعروفَ: وبعضُ، بدل: رُبَّ، وإنْ صحَّت تلك الروايةُ، «فعار» خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هو عارٌ، كما صرّح به في قوله:

يا رُبَّ هيجَا هي خيرٌ من دَعَه[(٢)]

والجملةُ صفةُ المجرور أو خبرُه، إذ هو في موضع مبتدأ، ويرد قياسَها على «كم» كما قال أبو علي: إنَّهم لم يفصِلُوا بينها وبين المجرور كما فَصَلوا بين «كم» وما تعمل فيه.

وفي مفادها أقوال: أحدُها: أنَّها للتقليل دائماً، وهو قولُ الأكثرين، وعُدَّ في «البسيط» منهم الخليلُ وسيبويه والأخفش والمازنيُّ والفارسيُّ[(٣)] والمبرّد[(٤)] والكسائيُّ والفرَّاء وهشام، وخَلْق آخرون.

= الأعلم والأديب أبي بكر المرشاني، له: المقدمات على كتاب سيبويه، توفي (٥٢٨هـ). الوافي بالوفيات ١٥/ ٤٢٢، وبغية الوعاة ١/ ٦٠٢.

(١) البيت لثابت بن قطنة، كما في الأغاني ١٤/ ٢٧٩، وشواهد المغني للسيوطي ١/ ٣٩٨، وخزانة الأدب ٩/ ٥٧٦. وجاء في الأغاني: بعض، بدل: رب.

(٢) عجز بيت للبيد، وهو في ديوانه ص٥٩، وصدره: لا تَزجُرِ الفتيان عن سُوء الرِّعَهْ.

(٣) ينظر كتاب الشعر له ٢/ ٣٩٢-٣٩٣.

(٤) ينظر المقتضب ٤/ ١٣٩ و٢٨٩، وممن قال بذلك ابن السراج كما في أصول النحو ١/ ٤١٦.

ثانيها: أنَّها للتكثير دائماً وعليه صاحبُ «العين»[1] وابنُ درستويه وجماعة، وروي عن الخليل.

ثالثها: واختاره الجلالُ السيوطيُّ[2] وِفاقاً للفارابي وطائفة أنَّها للتقليل غالباً والتكثير نادراً.

رابعها: عكسُه، وجَزَم به في «التسهيل»[3] واختاره ابنُ هشام في «المغني»[4].

وخامسها: أنَّها لهما من غير غلبةٍ لأحدِهما، نقله أبو حيان عن بعضِ المتأخِّرين[5].

سادسها: أنَّها لم تُوضع لواحدٍ منهما، بل هي حرفُ إثباتٍ لا يدلُّ على تكثيرٍ ولا تقليلٍ، وإنَّما يُفهم ذلك من خارجٍ، واختاره أبو حيان[6].

سابعها: أنَّها للتكثير في المباهاة، وللتقليل فيما عداه، وهو قول الأعلم وابنِ السِّيد.

---

(١) المشهور أن كتاب «العين» للخليل بن أحمد الفراهيدي، في حين ذكر الأزهري في مقدمة كتابه «تهذيب اللغة» ١/ ٢٨-٢٩ في ذِكْر علماء انتقدهم: فمن المتقدِّمين الليث بن المظفر الذي نَحَل الخليلَ بنَ أحمد تأليفَ كتاب العين جملةً لينفِّقه باسمه، ويرغِّب فيه من حوله، وأثبتَ لنا عن إسحاق بن إبراهيم الحنظلي الفقيه أنه كان يقول: كان الليث بن المظفَّر رجلاً صالحاً، ومات الخليل ولم يفرغ من كتاب العين، فأحبَّ الليث أن ينفِّق الكتاب كلَّه، فسمَّى لسانه الخليل، فإذا رأيت في الكتاب: «سألت الخليل بن أحمد» أو: «أخبرني الخليل بن أحمد» فإنه يعني الخليل نفسَه، وإذا قال: «قال الخليل» فإنما يعني لسانه نفسه، وإنما وقع الاضطراب في الكتاب من قِبَل خليل الليث. مقدمة تهذيب اللغة ١/ ٢٨-٢٩.
وقال الزبيدي في «مختصر العين» ١/ ٢٤: ونحن نَرْبأ بالخليل عن نسبة الخلل إليه أو التعرُّض للمقاومة له، بل نقول: إن الكتاب لا يصح له ولا يثبت عنه، وأكثر الظن فيه أن الخليل سبَّب أصله وثقَّف كلام العرب ثم هلك قبل كماله، فتعاطى إتمامه من لا يقوم في ذلك مقامه، فكان ذلك سببَ الخلل الواقع فيه والخطأ الموجود فيه. اهـ ولعلَّه ـ والله تعالى أعلم ـ هو الصواب.

(٢) الإتقان ١/ ٥١٥.

(٣) ص ١٤٧.

(٤) ص ١٨٠. وفي أوضح المسالك ص٣٦٤.

(٥) تذكرة النحاة ص٥.

(٦) النهر الماد (بهامش البحر المحيط) ٥/ ٤٤٣، وتذكرة النحاة ص٥.

ثامنها: أنَّها لمبهمِ العددِ، وهو قول ابنِ الباذش وابنِ طاهر. وتُصدَّر وجوباً غالباً، ونحو قوله:

تيقَّنتُ أنْ رُبَّ امرئٍ خِيْلَ خائناً أمينٍ وخوَّانٍ يُخالُ أمينا[1]

وقوله:

ولو عَلِم الأقوامُ كيف خَلفتُهم لَرُبَّ مُفدٌّ في القبور وحامدِ[2]

يحتمل أنْ يكونَ ـ كما قال الشُّمُنِّي ـ ضرورةً[3]. وقال أبو حيان[4]: المرادُ تصدُّرها على ما تتعلَّق به، فلا يقال: لقيتُ رُبَّ رجلٍ عالمٍ، وذَكَروا أنَّها قد تُسبَقُ بـ «ألا» كقوله:

ألا رُبَّ مأخوذٍ بإجرامِ غَيرِه فلا تَسْأَمَنْ هجرانَ مَن كان أَجْرَما[5]

وبـ «يا» صدر جواب شرط غالباً كقوله:

فإنْ أُمسِ مكروباً فيارُبَّ فتيةٍ[6]

ومِن غير الغالب: «يا رُبَّ كاسيةٍ» الحديث[7] ولا تُجرُّ غيرَ نكرة، وأجازَ بعضُهم جرَّها المعرَّف بـ : «أل» احتجاجاً بقوله:

رُبَّما الجامِلِ المؤبَّلِ فيهم وعَناجِيجُ بَينهنَّ المِهارُ[8]

---

(١) خزانة الأدب ٩/ ٥٦٧، والدرر اللوامع ٤/ ١٢٣.
(٢) المصدران السابقان.
(٣) ينظر المنصف من الكلام على المغني ١/ ٢٧٦ ذكره عند شاهد آخر من قول حاتم الطائي، وهو في ديوانه ص٥١:

أماويَّ إنِّي ربَّ واحدِ أمِّه أجرتُ فلا قتلٌ عليه ولا أسرُ

(٤) تذكرة النحاة ص٥.
(٥) الدرر اللوامع ٤/ ١٣٥.
(٦) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٨٦، وعجزه: كَشَفْتُ إذا ما اسودَّ وجْهُ الجبان وفيه: بهمة، بدل: فتية.
(٧) أخرجه أحمد (٢٦٥٤٥)، والبخاري (١١٢٦) من حديث أم سلمة ﵂.
(٨) البيت لأبي دؤاد الإيادي كما في شرح المفصل لابن يعيش ٨/ ٢٩، والمغني ص١٨٣، والخزانة ٩/ ٥٨٨، والدرر اللوامع ٤/ ١٢٤-١٢٥. والجامل: اسم جمع الإبل لا واحد له من لفظه. والمؤبَّل: المُعَدُّ للقُنية. والعناجيج: جياد الخيل، واحدها: عنجوج كعصفور.

وأجابَ الجمهورُ بأنَّ الروايةَ بالرفع، وإنْ صحَّ الجرُّ فـ «أل» زائدةٌ.

وفي وجوب نَعت مجرورِها خلف، فقال المبرّدُ[١] وابنُ السراج[٢] والفارسيُّ[٣]، وأكثرُ المتأخِّرين، وعُزيَ للبصريين: يجبُ؛ لإجرائها مجرى حرف النفي، حيث لا تقعُ إلا صدراً، ولا يُقدَّم عليها ما يَعملُ في الاسم بعدَها، وحُكمُ حرف النفي أنْ يدخُلَ على جملةٍ، فالأقيسُ في مجرورها أنْ يوصف بجملةٍ لذلك، وقد يُوصَف بما يجري مجراها من ظرفٍ أو مجرورٍ أو اسم فاعلٍ أو مفعولٍ، وجزم به ابنُ هشام في «المغني»[٤] وارتضاه الرضي، وقال الأخفشُ والفرَّاءُ والزجَّاجُ وابنُ طاهر وابنُ خروف وغيرُهم: لا يجبُ[٥]، وتضمُّنُها القلَّة أو الكثرةَ يقومُ مقام الوصف، واختارَه ابنُ مالك[٦]، وتَبِعَهُ أبو حيان[٧]، ونظر في الاستدلال المذكور بما لا يخفَى، وتجرُّ مضافاً إلى ضمير مجرورها معطوفاً بالواو كـ: رُبَّ رجلٍ وأخيه. ولا يقاس على ذلك عند سيبويه[٨]، وما حكاه الأصمعيُّ من مباشرة «رُبَّ» للمضاف إلى الضمير حيث قال لأعرابية: أَلِفُلان أبٌ أو أخٌ؟ فقالت: رُبَّ أبيه رُبَّ أخيه. تريدُ: رُبَّ أبٍ له، رُبَّ أخٍ له، تقديراً للانفصال، لكون «أب» و«أخ» من الأسماء التي يجوز الوصفُ بها، فلا يقاسُ عليه اتِّفاقاً. وتَجرُّ ضميراً مفرداً مذكَّراً يُفسِّره نكرةٌ منصوبةٌ مطابقةٌ للمعنى الذي يقصدُه المتكلِّمُ غيرُ مفصولةٍ عنه، وسُمِعَ جرُّه في قوله:

وربَّــهُ عَــطِــبٍ أنْــقَــذت مِــن عَــطَــبِــهْ[٩]

= وهي الخيل الطويلة الأعناق. والمهار: جمع مهر، وهو ولد الفرس، والأنثى مهرة. ينظر الدرر اللوامع.

(١) المقتضب ٤/ ٢٩٠.

(٢) أصول النحو ١/ ٤١٨.

(٣) ينظر كتاب الشعر له ١/ ٩٣-٩٤.

(٤) المغني ص١٨١.

(٥) قول الزجاج وابن طاهر وابن خروف في تذكرة النحاة ص٦.

(٦) التسهيل ص١٤٧.

(٧) تذكرة النحاة ص٦.

(٨) ينظر الكتاب ٢/ ٥٤-٥٥.

(٩) شرح ابن عقيل ٢/ ١٢، والدرر اللوامع ٤/ ١٢٧، وصدر البيت:

واهٍ رَأَيْــتُ وشــيــكــاً صَــدْعَ أعــظــمــه

على نيَّة «مِن» وهو شاذٌ، وجوَّز الكوفيةُ مطابقة الضمير للنكرة المفسَّرة تثنيةً وجمعاً وتأنيثاً كما في قوله:

رُبَّــهــا فــتــيــةً دَعَــوتُ إلــى مــا يُـورثُ الـحـمـدَ دائـمـاً فـأجـابُـوا[1]

والأصح أنَّ هذا الضميرَ معرفةٌ جَرَى مجرى النكرة، واختار ابنُ عصفور ـ تبعاً لجماعة ـ أنَّه نكرة، وأنَّ جرَّها إياه ليس قليلاً ولا شاذًّا خلافاً لابن مالك، وأنَّها زائدةٌ في الإعراب لا المعنى، وأن محلَّ مجرورها على حسب العامل لا لازم النصبِ بالفعل الذي بعدُ، أو بعاملٍ محذوفٍ خلافاً للزجَّاج[2] ومتابعيه في قولهم بذلك، لما يلزم عليه مِن تعدِّي الفعل المتعدِّي بنفسه إلى مفعوله بالواسطة، وهو لا يحتاج إليها فيعطف على محلِّه كما يعطف على لفظه، كقوله:

وَسِـنٍّ كَـسُـنَّـيْـقٍ سـنـاءً وسُـنَّـمـا ذَعَـرتُ بـمـدلاجِ الـهَـجـيـرِ نـهُـوضِ[3]

وأنها تتعلَّقُ كسائر حروف الجرِّ، وقال الرُّمَّاني وابنُ طاهر: لا تتعلَّق كالحروف[4] الزائدة، وأنَّ التعلُّقَ بالعامل الذي يكونُ خبراً لمجرورها، أو عاملاً في موضعه، أو مفسِّراً له، قاله أبو حيان[5]، وقال ابن هشام: قولُ الجمهور: إنَّها معدِّية للعامل، إنْ أرادوا المذكور فخطأٌ؛ لأنه[6] يتعدَّى بنفسه، أو محذوفاً يقدَّر بـ «حَصَل» ونحوه، كما صرَّح به جماعةٌ، ففيه تقدير ما معنى الكلام مستغنٍ عنه ولم

---

(١) المغني ص٦٣٨، والدرر اللوامع ٤/ ١٢٨.

(٢) كما في المغني ص١٨٢.

(٣) البيت لامرئ القيس، وقيل: لأبي دؤاد الإيادي، وهو في ديوان امرئ القيس ص٧٦، وفي المغني ص ١٨٢، والدرر اللوامع ٤/ ١٢٩، وسنٍّ؛ الواو واو ربَّ، والسِّنُّ هنا: الثور. وسُنَّيْق: جبل. وسناء: ارتفاعاً، ونصبه على أنه حال. وسُنَّماً: السُّنَّم: البقرة الوحشية، وقيل: إنه اسم جبل. ومدلاج: أي: فرس كثير السير. والهجير: القائلة. ونُهوض، بضمِّ النون: كثير النهوض. ينظر شرح شواهد المغني للسيوطي ١/ ٤٠٤، وورد في حاشية الشمني على المغني ١/ ٢٧٨: بالمدلاح، بالحاء المهملة، وهو الفرس الكثير العرق. . . .

(٤) في الأصل: الحرف، والمثبت من (م)، وقول الرماني وابن طاهر في تذكرة النحاة ص٧.

(٥) ينظر تذكرة النحاة ص٧.

(٦) في (م): إنه.

يلفظ به في وقتٍ، ثمَّ على التعليق، قال لُكْذةُ[(١)]: حذفُه لحنٌ. والخليلُ وسيبويه[(٢)]: نادرٌ، كقوله:

ودوِّيَّةٍ قَفْرٍ تُمَشِّي نَعامُها كَمَشْي النصارَى في خفاف اليرندجِ[(٣)]

أي: قَطَعْتُها، ويَرُدُّ لكذةُ هذا، وقولهم: رُبَّ رجلٍ قائم، ورُبَّ ابنةٍ خيرٌ من ابنٍ، وقوله:

ألا رُبَّ مَنْ تَغْتَشُّه لك ناصحٌ ومؤتَمَنٍ بالغيب غيرِ أمينِ[(٤)]

والفارسيُّ والجزوليُّ: كثير[(٥)]، وبه جَزَم ابنُ الحاجب. ورابعُها: واجبٌ كما نقله صاحبُ «البسيط» عن بعضهم. وخامسُها ـ ونقِلَ عن ابن أبي الربيع ـ: يجبُ حذفُه إنْ قامت الصفةُ مقامَه، وإلا جاز الأمران، سواءٌ كان دليل أم لا؟ ويجبُ عند المبرّد والفارسيِّ وابنِ عصفور، وهو المشهورُ كما قال أبو حيان: ورأيُ الأكثرين كونُه ماضياً معنًى[(٦)]، وقال ابن السَّرَّاج: يأتي حالاً. وابنُ مالك: يأتي مستقبلاً[(٧)]. واختارَه في «البحر»[(٨)] إلا أنَّه قال بقلَّته وكثرةِ وقوع الماضي، وأنشدَ له قولَ سليم القشيري:

ومُعتَصِمٍ بالجبن مِن خَشية الرَّدَى سَيَرْدَى وغازٍ مُشفِقٍ سَيؤُوبُ[(٩)]

(١) الحسن بن عبد الله، المعروف بـ: لُغْذة، أو: لُكذة، الأصبهاني أبو علي، من طبقة أبي حنيفة الدينوري، مشايخهما سواء، له «النوادر»، وكتاب «الصفات». بغية الوعاة ١/ ٥٠٩، ومعجم الأدباء ٨/ ١٣٩، وكلامه بنحوه في تذكرة النحاة ص٧.

(٢) ينظر الكتاب ٣/ ١٠٣.

(٣) البيت للشماخ كما في الكتاب ٣/ ١٠٤، والمعاني الكبير ١/ ٣٤٦، والدرر اللوامع ٤/ ١٣٢، الدوية: الصحراء. تُمشِّي: تُكثر المشي. واليرندج والأرندج: الجلد الأسود، ينظر الدرر اللوامع.

(٤) الكتاب ٢/ ١٠٩، واللسان (غشش)، والدرر اللوامع ١/ ٣٠١.

(٥) قول الفارسي والجزولي في تذكرة النحاة ص٧.

(٦) ينظر تذكرة النحاة ص٧، والبحر المحيط ٥/ ٤٤٤.

(٧) شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح ص١٠٦، والتسهيل ص١٤٨.

(٨) البحر المحيط ٥/ ٤٤٤.

(٩) البحر المحيط ٥/ ٤٤٤، واللباب ١١/ ٤٢٤، وشرح أبيات المغني ٣/ ٢٠٤.

وقول هند:

يـــا رُبَّ قـــائـــلـــةٍ غـــداً ... يـــا لـــهـــف أمِّ مـــعـــاويـــه[(١)]

وجعل كابن مالك الآيةَ من ذلك، وتأوَّلَها الأكثرون بأنَّه وُضع فيها المضارعُ موضعَ الماضي على حدِّ ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ [الكهف:٩٩].

وتعقَّبه ابنُ هشام بأنَّ فيه تكلُّفاً لاقتضائه أنَّ الفعل المستقبلَ عبّر به عن ماضٍ متجوَّز به عن المستقبل[(٢)].

وأجاب الشُّمُنِّي بأنَّه لا تكلُّف فيه؛ لأنَّهم قالوا: إنَّ هذه الحالة المستقبلة جُعلَت بمنزلة الماضي المتحقق، فاستعمل معها «ربما» المختصة بالماضي وعدل إلى لفظ المضارع؛ لأنَّه كلامُ مَن لا خُلْفَ في إخباره، فالمضارعُ عنده بمنزلة الماضي، فهو مستقبل في التحقيق ماضٍ بحسب التأويل[(٣)]. وهو كما ترى.

وعن أبي حيان أنَّه أجاب عن بيت هند بأنَّه من باب الوصف بالمستقبل، لا مِن باب تعلُّق «رُبَّ» بما بعدها، وهو نظيرُ قولك: رُبَّ مُسيءٍ اليومَ يُحسِنُ غداً. أي: رُبَّ رَجلٍ يُوصَفُ بهذا الوصف.

وتأوَّل الكوفيون كما في «المطول» الآية بأنَّها بتقدير «كان»، أي: ربما كان يودُّ الذين كفروا، فحذف لكثرة استعمال «كان» بعد «ربما»، وضعَّف ذلك أبو حيان؛ بأنَّ هذا ليس من مواضع إضمار كان[(٤)].

وفي «جمع الجوامع» وشرحه: أنَّ «ما» تُزادُ بعد «رُبَّ»، فالغالبُ الكفُّ وإيلاؤها حينئذٍ الفعل الماضي؛ لأنَّ التكثيرَ أو التقليلَ إنَّما يكون فيما عُرف حدُّه، والمستقبلُ مجهولٌ كقوله:

رُبـــمـــا أوفَـــيـــتُ فـــي عَـــلَـــمٍ ... تـــرْفَـــعَـــنْ ثَـــوبـــي شَـــمـــالاتُ[(٥)]

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٤٤، وشواهد التوضيح والتصحيح ص١٠٦، والمغني ٣/ ٢١٢، والدرر اللوامع ٤/ ١٣٣.

(٢) المغني ص١٨٣.

(٣) المنصف من الكلام على مغني ابن هشام ١/ ٢٧٩.

(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٤٤.

(٥) البيت لجذيمة الأبرش وهو في الكتاب ٣/ ٥١٨، والنوادر ص٢١٠، والمقتضب ٣/ ١٥، وشرح

وقد يَليها المضارعُ كـ : ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ﴾ الآية، وقد يليها الجملةُ الاسميةُ نحو:

رُبَّمـا الـجـامِـلُ الـمـؤبَّـل فـيـهـم

وقد لا تُكَفُّ نحو:

رُبَّـمـا ضـربـةٍ بـسـيـفٍ صَـقـيـلٍ   بَـيْـن بُـصـرَى وطـعـنـةٍ نَـجْـلاءِ[1]

وقيل: يتعيَّن بعدها الفعليةُ إذا كُفَّت، وإليه ذهب الفارسيُّ[2]، وأوَّل البيتَ على أنَّ «ما» نكرةٌ موصوفةٌ بجملة حُذف مبتدؤها، أي: رُبَّ شيءٍ هو الجاملُ، وقد يُحذفُ الفعلَ بعدها كقوله:

فـذلـك إنْ يَـلْـقَ الـكـريـهـةَ يَـلْـقَـهـا   حَـمـيـداً وإنْ يَـسْـتـغـنِ يـومـاً فـربَّـمـا[3]

وقد تلحق بها «ما» ولا تكفُّ كقوله:

مـــاويَّ يـــا رُبَّـــتَـــمـــا غـــارةٍ   شَـعـواءَ كـالـكـيـة بـالـمِـيـسَـمِ[4]

انتهى. وبنحو تأويل الفارسي البيتَ أَوَّلَ بعضُهم الآيةَ فقال: إنَّ «ما» نكرةٌ موصوفةٌ بجملة «يودُّ» إلى آخره، والعائد محذوفٌ، والفعل المتعلِّقُ به «رُبَّ» محذوفٌ، أي: رُبَّ شيءٍ يودُّه الذين كفروا تحقق وثبت، ونحوه قول ابنِ أبي الصلت:

رُبَّـمـا تَـجـزعُ الـنـفـوسُ مِـن الأمـر   لـه فـرجـةٌ كـحـلِّ الـعـقـالِ[5]

= ابن يعيش ٩/ ٤٠، وأمالي ابن الشجري ٢/ ٥٦٥، والمقرب ٢/ ٧٤، والمغني ص١٨٠.

(١) البيت لعدي بن الرَّعلاء الغساني كما في الأصمعيات ص١٥٢، ومعجم الشعراء ص٨٦، وأمالي ابن الشجري ٢/٥٦٦، وشرح أبيات المغني للبغدادي ٣/١٩٧، والدرر اللوامع ٤/ ٢٠٥.

(٢) ينظر الحجة ٥/ ٤٠-٤١.

(٣) اختُلِفَ في نسبة البيت، هل هو لعروة بن الورد أو لحاتم الطائي، وصحَّح الأصبهانيُّ في الأغاني ٦/ ٣٢٣ نسبته إلى حاتم الطائي، وشَبَّهَ البغداديُّ في خزانة الأدب ١٠/ ١٠ البيتَ بقصيدةٍ لحاتم ولم يجزم به، وقال: والله أعلم بقائل أبيات الشاهد، وينظر الدرر اللوامع ٤/٢٠٧.

(٤) البيت لضمرة بن ضمرة النهشلي وهو في المعاني الكبير ٢/١٠٠٥، والنوادر ص٥٥، والخزانة الشاهد (٧٦٠)، والدرر اللوامع ٤/٢٠٨-٢٠٩، والإنصاف ١/ ١٠٥، وشرح المفصل ٨/ ٣١.

(٥) كما في صلة ديوانه ص١٨٨، والكتاب ٢/٢٠٩، والخزانة ٦/ ١١٢، ونسبه بعضهم إلى غيره، ينظر: الخزانة، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٨١.

والتزمَ كون المتعلّقِ محذوفاً؛ لأنَّها حينئذٍ لا يجوز تعلُّقها بـ «يود» ولا بدَّ لها من فعلٍ تتعلَّق به، على ما صحَّحَهُ جمعٌ، وأما على ما اختاره الرضي من كونها مبتدأً لا خبرَ له، والمعنى: قليلٌ أو كثيرٌ ودادُ الذين كفروا، فلا حاجةَ إليه، وهذا التأويلُ ـ على ما قال السمرقندي ـ أحدُ قولَي البصريين.

وتعقَّبه العلامةُ التفتازاني بأنَّه لا يخفَى ما فيه من التعسُّف وبَتْرِ النظم الكريم، أي: قطع «لو كانوا مسلمين» عمَّا قبله، ووجْهُ التعسُّف أنَّ المعنى على تقليل أو تكثير ودادِهم، لا على تقليل أو تكثير شيءٍ، إلا أنْ يُرادَ: رُبَّ شيءٍ يودُّونه من حيث إنَّهم يودُّونه.

والمختارُ عندي ما اختاره أبو حيان[1]، وكذا صاحبُ «اللبِّ» من أنَّ «رُبَّ» تدخلُ على الماضي والمضارع إلا أنَّ دخولَها على الماضي أكثر، ومَن تَتبَّعَ أشعارَ العرب رَأى فيها مما دخلَت فيه على المضارع ما يُبعِدُ ارتكابَ التأويلِ معه، كما لا يخفَى على المنصف المتتبِّع.

واختلفوا في مفادها هنا، فذهب جمعٌ كثيرٌ إلى أنَّه التقليلُ، وهو ظاهرُ أكثر الآثار، حيث دلَّت على أنَّ ودادَهم ذلك عند خروج عصاةِ المسلمين من جهنَّم وبقائهم فيها. نعم، زَعَم بعضُهم أنَّ الحقَّ أنَّ ما فيها محمولٌ على شدَّة ودادِهم إذ ذاك، وأنَّ نَفْس الوداد ليس مختصًّا بوقتٍ دون وقتٍ، بل هو متقرِّرٌ مستمرٌّ في كل آنٍ يمرُّ عليهم.

ووجَّه الزمخشريُّ الإتيان بأداة التقليل على هذا بأنَّه واردٌ على مذهب العرب في قولهم: لعلَّك ستندمُ على فعلك، ورُبَّما نَدِمَ الإنسان على ما فعل، ولا يشكُّون في تَندُّمه ولا يقصِدون تقليلَه، ولكنَّهم أرادوا لو كان الندمُ مشكوكاً فيه أو قليلاً لحقَّ عليك أنْ لا تفعل هذا الفعل؛ لأنَّ العقلاء يتحرَّزون من التعرُّض للغمِّ المظنون كما يتحرَّزون من التعرُّض للغمِّ المتيقَّن، ومن القليل منه كما من الكثير، وكذلك المعنى في الآية: لو كانوا يودُّون الإسلام مرَّةً واحدةً فبالحري أن يُسارعوا إليه، فكيف وهم يودُّونه في كل ساعة[2]. اهـ.

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٤٤.
(٢) الكشاف ٢/ ٣٨٦.

والكلامُ عليه ـ على ما قيل ـ من الكناية الإيمائيَّة، وفي ذلك من المبالغة ما لا يخفَى. قال ابن المنير: لا شكَّ أنَّ العربُ تُعبِّر عن المعنى بما يؤدي عكس مقصودِه كثيراً، ومنه ـ والله تعالى أعلم ـ: ﴿وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ﴾ [الصف: ٥] المقصودُ منه توبيخُهم على أذاهم لموسى عليه السلام، على توفُّر علمهم برسالته ومناصحته لهم، وقوله:

قـد أَتـركُ الـقِـرنَ مُـصْـفَـرًّا أنـامِـلُـهُ[1]

فإنَّه إنَّما يتمدح بالإكثار من ذلك، وقد عبَّر بـ «قد» المفيدة للتقليل، وقد اختلفَ توجيهُ علماءِ البيان لذلك، فمنهم مَن وجَّهَهُ بما ذُكرَ عن الزمخشريِّ مِن التنبيه بالأدنَى على الأعلى. ومنهم مَن وجَّهَهُ بأنَّ المقصودَ في ذلك الإيذان بأنَّ المعنى قد بلَغَ الغاية، حتى كاد أنْ يرجع إلى الضدِّ، وذلك شأنُ كلِّ ما بلغ نهايتَه أنْ يعودَ إلى عكسه، وقد أفصحَ المتنبِّي[2] عن ذلك بقوله:

ولَـجُدْتَ حتى كِدْتَ تَـبْـخـلُ حـائـلاً لِـلـمُـنـتَـهَـى ومِـن الـسُّـرورِ بُـكـاءُ

وكلا الوجهَين يحمل الكلام على المبالغة بنوعٍ من الإيقاظ إليها، والعمدةُ في ذلك على سياق الكلام؛ لأنَّه إذا اقتضَى مثلاً تكثيراً فدخلَت فيه عبارةٌ يُشعرُ ظاهرُها بالتقليل، استيقَظَ السامعُ؛ لأنَّ المرادَ المبالغةُ على إحدى الطريقتَين المذكورتَين[3].

وقال في «الكشف»: الأصلُ في هذا الباب أنَّ استعارةَ أحدِ الضِّدَّين للآخر تُفيدُ المبالغة للتعكيس، ولا تختصُّ بالتهكُّم والتلميح على ما يُوهمه ظاهرُ لفظِ

---

(١) عجز بيت لعبيد بن الأبرص وصدره:

كـأنَّ أَثـوَابَـهُ مُـجَّـتْ بـفِـرصـادِ

وهو في ديوانه ص٦٤، وشرح أبيات المغني ٤/ ١٠٣ وما بعد، وخزانة الأدب ١١/ ٢٥٦، ونُسِبَ للهذلي كما في الكتاب ٤/ ٢٢٤، وشرح ابن يعيش ٨/ ١٤٧، والمغني ص٢٣١، والمصنف في تفسيره ٧/ ١٣٤. القِرْن: المماثل في الشجاعة. والأنامل: رؤوس الأصابع. الفِرْصَاد: هو التوت، شبّه الدم بحمرة عصارته. والبيت تداوله الشعراء؛ فبعضهم أخذه بلفظه وبعضهم بمعناه، فروي عن كثير منهم. ينظر شرح أبيات المغني.

(٢) في شرح ديوانه ١/ ١٥٣.

(٣) الانتصاف ٢/ ٣٨٦.

صاحبِ «المفتاح»[١] في موضع، فهو الذي عدَّ المفازةَ من هذا القبيل لقصد التفاؤل، ثم قد يختصُّ موقعها بفائدةٍ زائدةٍ كما ذكره الزمخشريُّ في هذا المقام، وليس في ذلك كنايةٌ إيمائيَّةٌ، وإنَّما ذلك من فوائد هذه الاستعارةِ، وسيجيءُ إن شاء الله تعالى فيه كلامٌ أتمُّ بسطاً في سورة التكوير[٢]. اهـ.

والحقُّ أنَّه لا مانع من القول بالكناية الإيمائيَّةِ كما لا يخفَى.

وقيل: إنَّ التقليل بالنسبة إلى زمان ذهاب عقلهم من الدهشة بمعنى أنَّهم تُدهِشُهم أهوالُ القيامة فَيَبْهَتُون، فإنْ وُجِدَت منهم إفاقةٌ ما، تمنَّوا ذلك، وظاهرُ صنيع العلامة التفتازاني في «المطول» اختيارُه، وجوّز أنْ تكونَ مستعارةً للتكثير، والقولُ بالاستعارة له لا يُحتاج إليه على القول المحكي عن صاحب «العين» ومَن معه حسبما سمعت.

وذكر ابن الحاجب أنَّها نُقلَت من التقليل إلى التحقيق كما نقلوا «قد» إذا دخلَت على المضارع منه إليه.

ومفعول «يودُّ» محذوفٌ، أي: الإسلامَ؛ بدلالة «لو كانوا مسلمين» بناء على أنَّ «لو» للتمنِّي، والجملةُ في موقع الحال، أي: قائلين لو كانوا مسلمين، وتقديرُ المفعول ما ذكرنا، هو الذي ذهب إليه غيرُ واحدٍ. وقال الشهابُ: تقديرُه النجاة، ولا ينبغي تقديرُ الإسلام؛ لأنَّه يصيرُ تقديرُه: يودُّوا الإسلام لو كانوا مسلمين، وهو حشوٌ[٣]. وفيه نظر.

وقال صاحبُ «الفرائد»: إنَّ «لو كانوا» إلى آخره مُنزَّلٌ منزلةَ المفعول. وتُعقِّب بأنَّه غيرُ ظاهرٍ، إذ ليس ذلك مما يعملُ في الجمل إلا أنْ يكونَ بمعنى ذكروا التمنِّي، ويجري مجرَى القول على مذهب بعض النحاة.

والغيبة في حكاية ودادتهم كالغيبة في قولك: حلَفَ بالله تعالى ليفعلَنَّ، ولو قلت: لَأفعلَنَّ، لجاز، وعلى ذلك جاء قوله تعالى: ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾

(١) ينظر مفتاح العلوم ص٣٧٥.
(٢) آية رقم (٢٣).
(٣) حاشية الشهاب ٥/ ٣٨٣.

[النمل: ٤٩] بالنون والياء(١)، وإيثارُ الغيبة أكثرُ؛ لئلا يلتبس، والتعليل بقلَّة التقدير ليس بشيءٍ كما كشف ذلك في «الكشف».

وأنكرَ قومٌ ورودَ «لو» للتمنِّي، وقالوا: ليست قِسْماً برأسها، وإنَّما هي الشرطيَّة أُشرِبَتْ معنى التمنِّي، وعلى الأول الأصحِّ لا جوابَ لها على الأصحِّ. وقد نصَّ على ذلك ابنُ الضائع(٢) وابنُ هشام الخضرواي(٣)، ونَقْلُ أنَّهما قالا: تحتاجُ إلى جوابٍ كجواب الشرط، سَهْوٌ؛ وذكر أبو حيان(٤) أنَّ الذي يظهرُ أنَّها لابدَّ لها مِن جوابٍ، لكنَّه التزم حذفه، لإشرابها معنى التمنِّي؛ لأنَّه متى أمكنَ تقليلُ القواعد وجَعْلُ الشيءِ من باب المجاز كان أَولَى من تكثير القواعد وادِّعاء الاشتراك؛ لأنَّه يحتاجُ إلى وضعَين، والمجازُ ليس فيه إلا وضعٌ واحدٌ وهو الحقيقةُ.

وقيل: إنَّها هنا امتناعيةٌ شرطيَّةٌ، والجوابُ محذوفٌ تقديرُه: لفازوا، ومفعول «يود» ما علمتَ.

وزعم بعضُهم مصدريَّتَها فيما إذا وقعَت بعد ما يدلُّ على التمنِّي، فالمصدرُ حينئذٍ هو المفعول، وهو على القول بأنَّ «ما» نكرةٌ موصوفةٌ بدل منها كما في «البحر»(٥).

وقرأ عاصم ونافع: «ربما» بتخفيف الباء(٦)، وعن أبي عمرو التخفيف

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف: «لَتُبَيِّتُنَّه» بتاء الخطاب وضم التاء الثانية، وقرأ الباقون بالنون وفتح التاء. كما في التيسير ص١٦٨، والنشر ٢/ ٣٣٨، وقرأ بالياء مجاهد وابن وثاب وطلحة والأعمش كما في القراءات الشاذة ص١١٠، والبحر المحيط ٧/ ٨٤، وستأتي في مكانها.

(٢) هو علي بن محمد بن علي بن يوسف الكَتَامي الإشبيلي، أبو الحسن، المعروف بابن الضائع، لازم الشَّلَوبين، له «شرح الجمل»، و«شرح كتاب سيبويه» جمع فيه بين شرحي السيرافي وابن خروف باختصار حسن، توفي (٦٨٠هـ). ينظر بغية الوعاة ٢/ ٢٠٤.

(٣) هو محمد بن يحيى بن هشام الخضراوي، أبو عبد الله، يعرف بابن البَرْذَعي، أخذ العربية عن ابن خروف والرندي، والقراءات عن أبيه، أخذ عنه الشَّلَوبين، له «الإفصاح بفوائد الإيضاح»، و«المسائل النُّخَب»، توفي (٦٤٦هـ). ينظر بغية الوعاة ١/ ٢٦٧. وينظر كلامهما في المغني ص٣٥٢.

(٤) ينظر تذكرة النحاة ص٤٢.

(٥) ينظر البحر المحيط ٥/ ٤٤٤.

(٦) التيسير ص١٣٥، والنشر ٢/ ٣٠١، وقرأ بها أيضاً أبو جعفر.

والتشديد[1]، وقرأ طلحة بنُ مصرِّف وزيدُ بنُ عليٍّ ﵄ «رُبَّتما» بزيادة تاء[2].

هذا، وإنما أطنبتُ الكلامَ في هذه الآية لا سيَّما فيما يتعلَّق بـ «رُبَّ» لما أنَّه قد جرَى لي بحثٌ في ذلك مع بعض العظاميين فأَبَانَ عن جهلٍ عظيم وحُمقٍ جَسيمٍ، ورأيتُه ـ وربِّ الكعبة ـ أجهلَ مَن رأيتُ من صغار الطلبة بـ «رُبَّ»، نعم له مِن العظاميين أمثالٌ، أَصمَّهم الله تعالى وأعمَى بالَهم وقلَّلهم ولا أكثرَ أمثالَهم.

﴿ذَرْهُمْ﴾ أي: اتركهُم، وقد استُغني غالباً عن ماضيه بماضيه، وجاء قليلاً: وَذَرَ، وفي الحديث «ذَرُوا الحبَشَةَ ما وَذَرُوكم»[3] والمرادُ من الأمر التخليةُ بينهم وبينَ شهواتهم، إذ لم تَنفعْهم النصيحةُ والإنذارُ، كأنه قيل: خَلِّهم وشَأْنَهم.

﴿يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ بدنياهم، وفي تقديم الأكل إيذانٌ بأنَّ تمتُّعهم إنَّما هو من قبيل تمتُّع البهائم بالمآكل والمشارب، والفعلُ وما عُطِفَ عليه مجزومٌ في جواب الأمر، وأشار في «الكشاف» أنَّ المرادَ المبالغةُ في تخليتهم حتى كأنَّه عليه السلام أُمِرَ أنْ يأمرَهم بما لا يزيدُهم إلا نَدَماً[4].

ووجَّهَه المدقِّقُ صاحب «الكشف» فقال: أُريدَ الأمرُ من حيث المعنَى؛ لأنَّه جعل أُكْلَهم وتمتُّعَهم الغاية المطلوبةَ من الأمر بالتخلية، والغاياتُ المطلوبةُ إنْ صحَّ الأمرُ بها كانت مأموراً بها بنفس الأمر وأبلغ من صريحه، فإذا قلتَ: لازِمْ سدَّةَ العالِم تَعلم منه ما يُنجيك في الآخرة، كان أبلغَ مِن قولك: لازِم وتعلم؛ لأنَّك جعلت الأمرَ وسيلَةَ الثاني، فهو أشدُّ مطلوبيةً، وإنْ لم يصحَّ جُعلت مأموراً بها مجازاً كقولك: أسلم تَدخُل الجنَّة. وما نحن فيه لما جعل غايةَ الأمر على التجوُّز صار مأموراً به على ما أرشدت إليه. اهـ. وهو من النفاسة بمكان.

---

(١) قراءة التشديد في التيسير ص١٣٥، والنشر ٢/ ٣٠١، وقراءة التخفيف في المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٩، والبحر المحيط ٥/ ٤٤٤.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٩، والبحر المحيط ٥/ ٤٤٤.

(٣) قطعة من حديث أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني ٥/ ٢٢٥ عن رجل من أصحاب النبي ﷺ يرفعه، وأخرجه أحمد (٢٣١٥٥) بلفظ: «اتركوا الحبشة ما تركوكم...» ـ ينظر تمام تخريجه ثمَّة ـ وهو عند أبي داود (٤٣٠٩) من حديث عبد الله بن عمرو ﵄.

(٤) الكشاف ٢/ ٣٨٦-٣٨٧.

وظنُّ أنَّ انفهامَ الأمر[١] من تقدير لامه قبل الفعل من بعض الأمر، وما في «البحر»: من أنَّه إذا جعل «ذَرْهم» أمراً بترك نصيحتهم وشُغْلِ بالِهِ ﷺ بهم لا يترتَّبُ عليه الجواب، لأنَّهم يأكلون ويتمتَّعون، سواءٌ تَرَكَ نصيحتهم أم لا = وقوفٌ في ساحل التحقيق كما لا يخفَى على من غاص في لُجَّة المعاني فاستخرج دُرَرَ الأسرار واستظْهرَ أنَّه أُمِرَ بترك قتالهم وتخلية سبيلهم وموادعتهم، ثم قال: ولذلك صحَّ أنْ يكونَ المذكورُ جواباً؛ لأنَّه عليه الصلاة والسلام لو شَغَلَهم بالقتال ومصالتَةِ السيوف وإيقاع الحروب ماهنَّأهم أكلٌ ولا تمتُّعٌ، ويدلُّ على ذلك أنَّ السورةَ مكيةٌ. وهو كما ترى[٢].

ثم المرادُ ـ على ما قيل ـ دوامُهم على ما هم عليه لا إحداثُ ما ذكر، أو تمتُّعهم بلا استماعٍ[٣] ما ينغِّصُ عيشَهم، والتمتُّع كذلك أمرٌ حادثٌ يصلُحُ أنْ يكون مرتباً على تخليتهم وشأنهم، فتأمَّل.

﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ ويشغلُهم التوقُّعُ لطول الأعمار وبلوغِ الأوطار واستقامةِ الأحوال، وأنْ لا يلقوا إلا خيراً في العاقبة والمآل، عن الإيمان والطاعة أو عن التفكُّر فيما يصيرون إليه.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ٣﴾ سوءَ صنيعِهم إذا عاينوا جزاءَه ووخامةَ عاقبته، أو حقيقة الحال التي ألجأتهم إلى التمنِّي.

وظاهرُ كلام الأكثرين أنَّ المرادَ علمُ ذلك في الآخرة، وقيل: المرادُ سوف يعلمون عاقبةَ أمرهم في الدنيا من الذُّلِّ والقتل والسبي، وفي الآخرة من العذاب السرمديِّ، وهذا كما قيل مع كونه وعيداً أيَّما وعيدٍ وتهديداً غِبَّ تهديدٍ تعليلٌ للأمر بالترك، وفيه إلزامُ الحُجَّة ومبالغةٌ في الإنذار، إذ لا يتحقَّقُ الأمرُ بالضدِّ حسبما علمتَ إلا بعد تكرُّر الإنذار وتقرُّر الجحود والإنكار، ومن أنذر فقد أعذر، وكذلك ما يترتَّب عليه من الأكل وما بعده.

---

(١) ليس في الأصل.
(٢) ينظر البحر المحيط ٥/ ٤٤٥.
(٣) في (م): استمتاع.

وفي الآيةِ إشارةٌ إلى أنَّ التلذُّذ والتنعُّم وعدمَ الاستعداد للآخرة والتأهُّب لها ليس من أخلاق مَن يطلب النجاة، وجاء عن الحسن: ما أطالَ عبدٌ الأملَ إلا أساءَ العمل.

وأخرجَ أحمدُ في «الزهد» والطبراني في «الأوسط» والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» عن عمرو بنِ شُعيب، عن أبيه، عن جدِّه، لا أعلمه إلا رَفَعه قال: «صلاحُ أوَّلِ هذه الأمةِ بالزُّهدِ واليقينِ، ويَهلكُ آخرُها بالبخل والأمل»(١).

وفي بعض الآثار عن عليٍّ كرم الله تعالى وجْهَه: إنَّما أخشَى عليكم اثنتَين: طول الأمل واتِّباع الهوى، فإنَّ طولَ الأملِ يُنسي الآخرةَ واتّباع الهوى يَصدُّ عن الحقِّ.

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ﴾ أيِّ قرية من القُرَى بالخسف بها وبأهلها الكافرين، كما فُعِل ببعضها، أو بإخلائها عن أهلها بعدَ إهلاكهم كما فعل بآخرين.

﴿إِلَّا وَلَهَا﴾ في ذلك الشأن ﴿كِتَابٌ﴾ أجلٌ مقدَّرٌ مكتوبٌ في اللوح ﴿مَّعۡلُومٌ ۝٤﴾ لا يُنسَى ولا يُغفَل عنه حتى يُتصوَّر التخلُّف عنه بالتقدُّم والتأخُّر، وهذا شروعٌ في بيان سرِّ تأخير عذابهم.

و«كتاب» مبتدأٌ، خبرهُ الظرفُ، والجملةُ حالٌ من «قرية»، ولا يلزمُ تقدُّمها لكون صاحبها نكرةً؛ لأنَّها واقعةٌ بعد النفي، وهو مسوِّغٌ لمجيء الحال؛ لأنَّه في معنى الوصف لا سيَّما وقد تأكَّد بكلمة «مِن» والمعنى: ما أهلكنا قريةً مِن القرى في حالٍ من الأحوال إلا حالَ أنْ يكونَ لها كتابٌ معلومٌ لانُهلِكُها قبل بلوغِهِ، ولا نَغْفُلُ عنه ليمكن مخالفتُه، أو مرتفِعٌ بالظرف، والجملة كما هي حالٌ أيضاً، أي: ما أهلكنا قريةً من القرى في حالٍ من الأحوال إلا وقد كان لها في حقِّ إهلاكها أجلٌ مقدَّرٌ لا يُغفَل عنه.

وقال الزمخشري: الجملةُ صفةٌ لـ «قرية»، والقياس أنْ لا يتوسَّط الواو بينهما كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٨]

---

(١) الزهد ص١٠، والمعجم الأوسط (٧٦٥٠)، وشعب الإيمان (١٠٨٤٤)، وأخرجه أيضاً ابن أبي الدنيا في اليقين (٣) بنحوه. قال المنذري في الترغيب والترهيب (٤٨٩٥): وفي إسناده احتمالٌ للتحسين.

وإنَّما توسَّطَت لتأكيد لُصوق الصفة بالموصوف، كما يقال في الحال: جاءني زيدٌ عليه ثوب، و: جاءني وعليه ثوب[١]. ووافَقَه على ذلك أبو البقاء[٢].

وتعقَّبَه في «البحر»[٣]: بأنَّا لا نعلم أحداً قاله من النحاة، وهو مبنيٌّ على أنَّ ما بعد «إلا» يجوزُ أنْ يكونَ صفةً، وقد صرَّح الأخفشُ والفارسيُّ بمنع ذلك، وقال ابنُ مالك: إنَّ جعْلَ ما بعد «إلا» صفةً لما قبلها مذهبٌ لم يُعرَف لبصريٍّ ولا كوفيٍّ، فلا يُلتفَتُ إليه، وأَبطَلَ القولَ بأنَّ الواو توسَّطت لتأكيد اللصوق.

ونُقل عن منذر بنِ سعيد[٤] أنَّ هذه الواو هي التي تُعطي أنَّ الحالةَ التي بعدَها في اللفظ هي في الزمن قبل الحالة التي قبل الواو، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣] واعتذر السَّكاكيُّ بأنَّ ذلك سهوٌ ولا عيبَ فيه[٥].

ولم يرضَ بذلك صاحب «الكشف» وانتصَرَ للزمخشريِّ وقال: قد تكرَّر هذا المعنَى منهم في هذا الكتاب فلا سهوَ كما اعتذَرَ صاحب «المفتاح»، وإذا ثَبَتَ إقحامُ الواو كما عليه الكوفيون، والقياس لا يدفعه لثبوتِهِ في الحال، وفيما أُضمِرَ بعده الجارُّ في نحو: بعتُ الشاء شاةً ودرهماً وكم وكم، وهذه تدلُّ على أنَّ الاستعارةَ شائعةٌ في الواو نوعيةً بل جنسيةً، فلا نعتبِرُ النقلَ الخصوصيَّ، ولا يكونُ من إثبات اللغةِ بالقياس؛ لثبوت النقلِ عن نحارير الكوفة، واعتضادِهِ بالقياس والمعنى.

ولا يبعدُ من صاحب «المعاني» ترجيحُ المذهب الكوفي إذا اقتضاه المقامُ، كما رجَّحوا المذهبَ التميميَّ على الحجازيِّ في باب الاستثناء عنده[٦]، ولا خفاءَ

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٨٧.
(٢) الإملاء ٣/ ٤١٨.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٤٥.
(٤) هو منذر بن سعيد، القاضي، أبو الحكم، له كتاب «أحكام القرآن»، و«الناسخ والمنسوخ»، وغير ذلك، توفي (٣٤٩هـ). ينظر بغية الوعاة ٢/ ٣٠١. وكلامه في البحر المحيط ٥/ ٤٤٥.
(٥) مفتاح العلوم ص٢٥١.
(٦) في هامش (م): وذلك أن بني تميم يجوزون الرفع في الاستثناء المنقطع، وقد قال تعالى ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] والمعنى الصحيح فيه على الانقطاع، وعلى الاتصال يحتاج إلى تكلف لصحة المعنى، فافهم. اهـ منه.

أنَّ المعنى على الوصف أبلغُ، وأنَّ هذا الوصفَ ألصقُ بالموصوف منه في قوله تعالى: (إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ) لأنَّه لازمٌ عقليٌّ، وذلك عاديٌّ جرى عليه سنة الله تعالى اهـ. وفي «الدر المصون»: أنَّه قد سبَقَ الزمخشريَّ إلى ما قاله ابنُ جنِّي، وناهيكَ به من مُقتَدى(١).

وقال بعضُ المحقِّقين: إنَّ الموصوفَ ليس القريةَ المذكورة، وإنَّما هو قريةٌ مقدَّرةٌ وقَعت بدلاً من المذكورة على المختار، فيكونُ ذلك بمنزلة كونِ الصفةِ لها، أي: ما أهلكنا قريةً من القرى إلا قريةً لها كتابٌ معلومٌ، كما في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية:٦-٧] فإنَّ «لا يُسمن» إلخ صفةٌ، لكنْ لا للطعام المذكور، لأنَّه إنَّما يدلُّ على انحصار طعامهم الذي لا يُسمنُ ولا يُغني من جوع في الضريع، وليس المرادُ ذلك، بل للطعام المقدَّر بعد «إلا» أي: ليس لهم طعامٌ مِن شيءٍ من الأشياء إلا طعامٌ لايُسمن إلخ، فليس هناك الفصلُ بين الموصوفِ والصفةِ بـ «إلا». وأما توسيطُ الواو ـ وإنْ كان القياسُ عدمَه ـ فللإيذان بكمال الاتِّصال(٢). انتهى.

ولا يخفى أنَّه لم يأت في أمر التوسيط بما يدفعُ عنه القال والقيل، وما ذكره من تقدير الموصوف بعد «إلا» يدفعُ حديثَ الفصل، لكن نقل أبو حيان عن الأخفش أنَّه قال بعدَ مَنْع الفصلِ بين الصفةِ والموصوف بـ «إلا»(٣): ونحو: ما جاءني رجلٌ إلا راكبٌ. تقديره: إلا رجلٌ راكبٌ، وفيه قُبحٌ لجعلك الصفةَ كالاسم، ولعلَّ الجوابَ عن هذا سهلٌ.

وقرأ ابنُ أبي عبلة: «إلا لها» بإسقاط الواو(٤)، وهو على ما قيل يُؤيِّدُ القولَ بزيادتها.

ولما بيَّن سبحانه أنَّ الأُمَم المهلكةَ كان لكلٍّ منهم وقتٌ معيَّنٌ لهلاكهم، وأنَّه لم يكن إلا حسبما كان مكتوباً في اللوح، بيَّن جلَّ شأنه أنَّ كلَّ أمةٍ من الأمم منهم

---

(١) الدر المصون ٧/ ١٤٢.

(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٦٥-٦٦ وفيه: بكمال الالتصاق، بدل: بكمال الاتصال.

(٣) قوله: إلا، ليس في الأصل، وأثبتناه من (م) والبحر المحيط ٥/ ٤٤٥ والكلام منه.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٠، والبحر المحيط ٥/ ٤٤٥.

ومِن غيرهم لهم كتابٌ لا يُمكن التقدُّمُ عليه ولا التأخُّر عنه، فقال عزَّ قائلاً: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ﴾ من الأمم المهلكةِ وغيرهم، فـ «مِن» مزيدةٌ للاستغراق، وقيل: إنَّها للتبعيض، وليس بذاك ﴿أَجَلَهَا﴾ المكتوبَ في كتابها، أي: لا يجيءُ هلاكُها قبل مجيء كتابها، أو لا تمضي أمةٌ قبل مُضيِّ أجلها، فإن السبق كما نَقَل الإمامُ[1] عن الخليل إذا كان واقعاً على زمانيٍّ، فمعناه المجاوزةُ والتخليفُ، فإذا قلتَ: سبَقَ زيدٌ عَمْراً، فمعناه أنَّه جاوَزَه وخلَّفَه وراءه، وأنَّ عَمْراً قَصَّر عنه ولم يبلغه، وإذا كان واقعاً على زمان، كان على عكس ذلك، فإذا قلتَ: سبَقَ فلانٌ عامَ كذا، كان معناهُ مَضَى قبل إتيانه ولم يَبلُغْه.

والسرُّ في ذلك على ما في «إرشاد العقل السليم»[2]: أنَّ الزمانَ يُعتَبرُ فيه الحركةُ والتوجُّه، فما سبَقَه يتحقَّق قبل تحقُّقه، وأما الزماني فإنَّما يُعتَبرُ فيه الحركةُ والتوجُّه إلى ما سيأتي من الزمان، فالسابقُ ما تقدَّمَ إلى المقصد، وإيرادُه بعنوان الأجل باعتبار ما يقتضيه من السبق، كما أنَّ إيرادَه بعنوان الكتاب باعتبار ما يُوجبه من الإهلاك.

﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥﴾ أي: وما يتأخَّرون، وصيغةُ الاستفعال للإشعار بعَجْزهم عن ذلك مع طلبهم له، وإيثارُ صيغة المضارع في الفعلَين بعد ما ذَكَر نَفْيَ الإهلاك بصيغة الماضي؛ لأنَّ المقصودَ بيانُ دوامهما فيما بين الأممِ الماضية والباقية، وله نظائرُ في كتاب الكريم.

وإسنادُهما إلى الأمة بعد إسنادِ الإهلاك إلى القرية؛ لِمَا أنَّ السبقَ والاستئخار حالُ الأمة بدون القرية، مع ما في الأمة من العموم لأهل تلك القُرَى وغيرِهم ممن أُخِّرَت عقوباتُهم إلى الآخرة. وتأخيرُ عدم سبقهم مع كون المقامِ مقامَ المبالغةِ في بيان تحقُّق عذابهم إمَّا باعتبار تقدُّم السبق في الوجود، وإمَّا باعتبار أنَّ المرادَ بيانُ سرِّ تأخيرِ عذابهم مع استحقاقهم لذلك.

وأُوردَ الفعلُ على صيغة جمع المذكر؛ رعايةً لمعنى «أمة» مع التغليب،

---

(١) مفاتيح الغيب ١٩/١٥٦، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي السعود في تفسيره ٥/٦٦.
(٢) تفسير أبي السعود ٥/٦٦.

كما روعي لفظُها أوَّلاً مع رعاية الفواصل، ولهذا حذف الجارّ والمجرور، والجملةُ مبيِّنةٌ لما سبَقَ ولذا فُصِلَت، والمعَنى: أنَّ تأخيرَ عذابهم إلى يوم الودادةِ حسبما أُشيرَ إليه إنَّما هو لتأخير أَجَلهم المقدَّر، لِمَا يقتضيه من الحكم، ومن جملة ذلك ما علم الله تعالى من إيمان بعضٍ مَن يخرجُ منهم. قاله شيخ الإسلام[1]. واستدلَّ بالآية على أنَّ كلَّ من مات أو قتل، فإنَّما هو ميِّتٌ بأجله، وقد بيَّن ذلك الإمام[2].

﴿وَقَالُوا۟﴾ شروعٌ في بيان كفرهم بمَن أنزلَ عليه الكتاب، المتضمِّنِ للكفر به وبيانِ ما يؤول إليه حالُهم.

والقائل أهلُ مكة، قال مقاتل: نزلَت الآيةُ في عبد الله بن أُمية، والنضر بنِ الحارث، ونوفل بن خويلد، والوليد بن المغيرة، وهم الذين قالوا له ﷺ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ أي: القرآن، وخاطبوه عليه الصلاة والسلام بذلك، مع أنَّهم الكفرةُ الذين لا يعتقدون نزولَ شيءٍ، استهزاءً وتهكُّماً، وإشعاراً بعلَّة حكمهم الباطل في قولهم: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾[3] يعنون: يا مَن يدَّعي مثل هذا الأمرِ العظيم الخارق للعادة، إنَّك بسبب تلك الدعوى متحقِّقٌ جنونُك على أتمِّ وجهٍ، وهذا كما يقول الرجل لمن يسمع منه كلاماً يستبعدُه: أنت مجنون. وقيل: حكمُهم هذا لِمَا يَظهرُ عليه عليه الصلاة والسلام من شبه الغشْي حِين ينزِلُ عليه الوحي بالقرآن، والأوَّلُ على ما قيل هو الأنسبُ بالمقام.

وذهب بعضُهم إلى أنَّ المقول الجملةُ المؤكدةُ دون النداء، أمَّا هو فمِن كلام الله تعالى؛ تبرئةً له عليه الصلاة والسلام عما نسبوه إليه مِن أوَّل الأمر.

وتعقب بأنَّه لا يناسب قولَه تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ) إلخ، فإنَّه ـ كما سيأتي إنْ شاء الله تعالى ـ ردٌّ لإنكارهم واستهزائهم.

وقد يُجابُ بأنَّ ذلك على هذا ردٌّ لما عَنَوه في ضمن قولهم المذكور، لكنَّ

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٦٦.
(٢) مفاتيح الغيب ١٩/ ١٥٧.
(٣) ينظر زاد المسير ٤/ ٣٨٣، والبحر المحيط ٥/ ٤٤٦.

الظاهر كونُ الكل(١) كلامهم، وقد سبقهم إلى نظيره فرعونُ ـ عليه اللعنة ـ بقوله في حقِّ موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧].

وتقديم الجارِّ والمجرور على نائب الفاعل ـ كما قيل ـ لأنَّ إنكارَهم متوجِّهٌ إلى كون النازلِ ذكراً من الله تعالى لا إلى كون المنزَل عليه رسول الله ﷺ بعد تسليم كونِ النازل منه تعالى كما في قوله سبحانه: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] فإنَّ الإنكار هناك متوجِّه إلى كون المنزَلِ عليه رسولَ الله عليه الصلاة والسلام.

وإيرادُ الفعلِ على صيغة المجهول لإيهام أنَّ ذلك ليس بفعلٍ له فاعلٌ، أو لتوجيه الإنكار إلى كون التنزيلِ عليه لا إلى إسناده إلى الفاعل.

وقرأ زيد بنُ عليٍّ رضي الله عنهما: «نَزَلَ عليه الذكرُ» بتخفيف «نزل» مبنياً للفاعل، ورفع «الذِّكْرُ» على الفاعل(٢)، وقرئ: «يا أيها الذي أُلقي عليه الذكرُ»(٣) قال أبو حيان: وينبغي أنْ تُجعَلَ هذه القراءة تفسيراً، لمخالفتها سوادَ المصحف(٤).

﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا﴾ كلمة «لوما» كـ «لولا» تُستعمَل في أحد معنَيَيْن: امتناعِ الشيء لوجود غيره، والتحضيض، وعند إرادة الثاني منها لا يليها إلا فعلٌ ظاهرٌ أو مضمَرٌ، وعند إرادة الأوَّل لا يليها إلا اسمٌ ظاهرٌ أو مقدَّر عند البصريين، ومنه قول ابنِ مُقْبِل:

لوما الحياءُ ولوما الدِّينُ عِبتُكما ببعض ما فيكما إذْ عِبتُما عَوَرِي(٥)

---

(١) في الأصل: الكلام.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٤٦.

(٣) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٧٠، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٥١ والزمخشري في الكشاف ٢/ ٣٨٧ إلى الأعمش. وفي المحرر: إليه، بدل: عليه.

(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٤٦.

(٥) ديوان تميم بن مقبل ص٧٦، ومجاز القرآن ١/ ٣٤٦، والطبري ١٤/ ٥، والكشاف ٢/ ٣٨٧، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥١، وشرح أبيات المغني للبغدادي ٨/ ١١٨، ورواية الديوان: لولا، بدل: لوما. وجاء في (م): الحياة، بدل: الحياء. وجاء في حاشيتها: بالراء، وقيل: بالدال، وهو السؤدد، والقصيدة على ما قال بعض الفضلاء رائية. اهـ منه.

وعن بعضهم أنَّ الميم في «لوما» بدلٌ من اللام في «لولا»، ومثله: استَوْلَى واستَوْمَى، وخالَلْتُه وخالَمْتُه، فهو خِلِّي وخِلْمي، أي: صديقي. وذكر الزمخشريُّ: أنَّ «لو» تركَّب مع «لا» و«ما» لمعنَيَيْن، و«هل» لا تركَّبُ إلا مع «لا» وحدَها للتحضيض[(١)]، واختار أبو حيان فيهما البساطةَ، وأنَّ الميم ليسَت بدلاً من اللام[(٢)]، وقال المالقي: إنَّ «لوما» لا تَرِدُ إلا للتحضيض، وهو محجوجٌ بالبيت السابق.

وأيًّاما كان فالمرادُ هنا التحضيض، أي: هلَّا تأتينا ﴿بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ يشهدون لك ويعضُدُونك في الإنذار كقوله تعالى حكايةً عنهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:٧] أو يُعاقبون على تكذيبك، كما كانت تأتي الأممَ المكذِّبة لرسلهم.

﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧﴾ في دعواك أنَّ قدرةَ الله تعالى على ذلك مِّما لا ريبَ فيه، وكذا احتياجُك إليه في تمشية أمرك، إذ لا نُصدِّقك في ذلك الأمر الخطير بدونه، أو إنْ كنتَ من جملة تلك الرسلِ الصادقين الذين عُذِّبَت أُممهم المكذِّبةُ لهم.

﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ بالنون، على بناء الفعل لضمير الجلالة من التنزيل، وهي قراءة حفص والأخوَين وابنِ مُصرِّف[(٣)].

وقرأ أبو بكر عن عاصم ويحيى بن وثاب: «تُنَزَّلُ الملائكة» بضمِّ التاء وفتح النون والزاي مبنيًّا للمفعول، ورفع: «الملائكةُ»[(٤)] على النيابة عن الفاعل.

وقرأ الحِرميَّان وباقي السبعة: «تَنَزَّل الملائكةُ» بفتح التاء والزاي على أنَّ الأصل «تَتَنَزَّل» بتاءَين، فحذِفَت إحداهما تخفيفاً، ورفع «الملائكةُ»[(٥)] على

---

(١) الكشاف ٢/٣٨٧، ونقله عنه بواسطة البحر المحيط ٥/٤٤٢.

(٢) البحر المحيط ٥/٤٤٢.

(٣) قراءة حفص والأخوين (حمزة والكسائي) في التيسير ص١٣٥، والنشر ٢/٣٠١، وهي قراءة خلف، وقراءة طلحة بن مصرف في المحرر الوجيز ٣/٣٥١، والبحر المحيط ٥/٤٤٦.

(٤) قراءة شعبة في التيسير ص١٣٥، والنشر ٢/٣٠١، وقراءة ابن وثاب في المحرر الوجيز ٣/٣٥١، والبحر المحيط ٥/٤٤٦.

(٥) التيسير ص١٣٥، والنشر ٢/٣٠١، والحِرْميَّان هما: نافع وابن كثير.

الفاعليَّة، وإبقاءُ الفعل على ظاهره أولَى من جعله بمعنى تَنَزَّل الثلاثي.

وقرأ زيد بنُ عليٍّ رضي الله عنهما: «ما نَزَلَ» ماضياً مخفَّفاً مبنيًّا للفاعل، ورفع «الملائكةُ» على الفاعلية(١).

والبيضاوي بَنَى تفسيرَه على أنَّ الفعل «يُنزِلُ» بالياء التحتيَّة مبنيًّا للفاعل، وهو ضمير الله تعالى، و«الملائكةَ» بالنصب على أنَّه مفعوله(٢).

واعتُرِض عليه بأنَّه لم يقرأ بذلك أحدٌ من العشرة، بل لم تُوجد هذه القراءة في الشواذِّ، وهو خلافُ ما سلَكَه في تفسيره، ولعله رحمه الله تعالى قد سَهَا.

وهذا الكلام مسوقٌ منه سبحانه إلى نبيِّه ﷺ جواباً لهم عن مقالتهم المحكيَّة، وردًّا لاقتراحهم الباطلِ الصادرِ عن محض التعصُّب والعناد، ولشدَّة استدعاء ذلك للجواب قدَّمَ ردَّه على ما هو جواب عن أوَّلها، أعني قوله سبحانه: (إِنَّا نَحْنُ) إلخ، والعدولُ عن تطبيقه لظاهر كلامهم بصدد الاقتراح بأنْ يقالَ مثلاً: ما تأتيهم بهم للإيذان بأنَّهم قد أخطؤوا في الاقتراح، وأنَّ الملائكةَ لعلوِّ رُتبتهم أعلَى مِن أنْ يُنسَبَ إليهم مطلقُ الإتيان الشامل للانتقال من أحد الأمكنة المتساوية إلى الآخَر منها، بل من الأسفل إلى الأعلى، وأنْ يكون مقصد حركاتهم أولئك الكفرةَ، وأنْ يدخلوا تحت ملكوت أحدٍ من البشر، وإنَّما الذي يليقُ بشأنهم النزول من مقامهم العالي، وكون ذلك بطريق التنزيلِ من جناب الربِّ الجليل. قاله شيخ الإسلام(٣).

وقيل: لعلَّ هذا جوابٌ لِمَا عسى أنْ يخطر بخاطره الشريف عليه الصلاة والسلام حين طلبوا منه الإتيانَ بالملائكة مِن سؤال التنزيلِ رغبةً في إسلامهم، فيكونُ وجهُ ذكرِ التنزيلِ ظاهراً، وهو غيرُ ظاهرٍ كما لا يخفَى.

﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: إلا تنزيلاً ملتبساً بالوجه الذي اقتضَتْه الحكمةُ، فالباء للملابسة، والجارُّ والمجرور في موضع الصفةِ للمصدر المحذوفِ مستثنًى استثناء مُفَرَّغاً، وجوِّز فيه الحاليَّةُ من الفاعل والمفعول.

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٤٦.
(٢) تفسير البيضاوي ٥/ ٢٨٤.
(٣) أبو السعود في تفسيره ٥/ ٦٧.

وجوَّز أبو البقاء أنْ تكونَ الباء للسببية متعلِّقة بـ «ننزِّل»[1]، وإليه يُشير كلام ابنِ عطيَّة الآتي إن شاء الله تعالى، والأوَّل أولَى، ومقتضى الحكمةِ التشريعيَّة والتكوينيةِ على ما قيل أنْ تكون الملائكةُ المنزلون بصُور البشر، وتنزيلُهم كذلك يُوجب اللَّبسَ، كما قال الله تعالى ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:٩] وهذا إشارةٌ إلى نَفْي ترتُّبِ الغَرَض وعدمِ النفع في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾﴾ إشارةٌ إلى حصول الضَّرر وترتُّبِ نقيض المطلوب، وكأنَّه عطف على مقدَّر يقتضيه الكلامُ السابق، كأنَّه قيل: ما نُنزِّل الملائكةَ عليهم إلا بصُوَرِ الرجال؛ لأنَّه الذي تقتضيه الحكمةُ، فيحصل اللَّبسُ فلا ينتفعون. وما كانوا ـ إذا أنزلناهم ـ منظَرين، أي: ويتضرَّرون بتنزيلهم، لأنَّا نُهلكُهم لا محالةَ ولا نُؤخِّرهم، لأنَّه قد جَرت عادتُنا في الأمم قبلَهم أنَّا لم نأتهم بآيةٍ اقترحوها إلا والعذابُ في إثرها إنْ لم يؤمنوا؛ وقد علمنا منهم ذلك، والمقصودُ نَفْيُ أنْ يكونَ لاقتراحهم الإتيانَ بهم وجهٌ على أتمِّ وجهٍ، بالإشارة إلى عدم نَفْعِه أوَّلاً، والتصريحِ بضرره ثانياً.

وقيل: يقدَّر المعطوف عليه: لا يؤمنون، كأنَّه قيل: ما ننزِّل الملائكة إلا بصُوَرِ البشر لاقتضاء الحكمةِ ذلك، فلا يؤمنون وما كانوا إذاً منظرين. وفي النفس من هذا ومما قبله شيءٌ.

وقال بعضُ المحقِّقين: إنَّ المعنى: ما نُنزِّل الملائكةَ إلا مُلتبساً بالوجه الذي يحقُّ ملابسة التنزيل به، مما تقتضيه الحكمةُ وتجري به السُّنَّة الإلهيَّة، والذي اقترحوه من التنزيل لأجل الشهادةِ لديهم وهم هم، ومنزلتهم في الحقارة[2] منزلتُهم، مما لا يكادُ يدخُل تحت الصِّحة والحكمةِ أصلاً، فإنَّ ذلك من باب التنزيل بالوحي الذي لا يكادُ يُفتَح على غير الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام مِن أفراد كلِّ المؤمنين، فكيف على أمثال أولئك الكفرةِ اللئام، وإنما الذي يدخلُ في حقِّهم تحت الحكمة في الجملة هو التنزيلُ للتعذيب والاستئصال كما فُعِلَ بأضرابهم من الأمم السالفةِ، ولو فُعِل ذلك لاستؤصلوا بالمرَّة، وما كانوا إذاً

(١) الإملاء ٣/ ٤١٩.
(٢) في الأصل و(م): الحقائق، والمثبت من تفسير أبي السعود ٥/ ٦٧ والكلام منه.

مؤخَّرين، كدأب سائر الأمم المكذِّبةِ المستهزئةِ، ومع استحقاقهم لذلك قد جَرَى قلمُ القضاء بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة حسبما أُجمِلَ في الآيات قبلُ، وحالَ حائلُ الحكمة بينهم وبين استئصالهم؛ لتعلُّقِ العلم بازديادهم عذاباً، وبإيمان بعضِ ذراريهم، ونَظْمُ إيمان بعضهم في سِمْط الحكمةِ يأباه تماديهم في الكفر والعناد، فـ «ما كانوا» إلخ جوابٌ لشرطٍ مقدَّر، أي: ولو أنزلناهم ما كانوا... إلخ.

واعترض بـ أنَّ الأوفق بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام:٩] أنْ يكونَ الوجهُ الذي يحقُّ ملابسة التنزيلِ به لمثل غَرَضِهم كونهم بصُوَر الرجال، وذلك ليس من باب التنزيل بالوحي الذي لا يكادُ يكون لهم أصلاً، فلا يتمُّ كلامُه، وفيه بحثٌ كما لا يخفَى.

وقد أخرج ابنُ جرير وابن المنذر وغيرُهما عن مجاهد تفسير «الحقِّ» هنا بالرسالة والعذاب[(١)]. ووُجِّهت الآيةُ على ذلك نحو هذا التوجيه، فقيل: المعنى: ما نُنزِّلُ الملائكةَ إلا بالرسالة والعذاب، ولو نَزَّلناهم عليهم ماكانوا منظرين؛ لأنَّ التنزيلَ عليهم بالرسالة مما لا يكادُ، فتعيَّن أنْ يكونَ التنزيل بالعذاب، وذكر الماورديُّ الاقتصارَ على الرسالة[(٢)]، ورُوي عن الحسن الاقتصار على العذاب، وفي معنى ذلك ما رُوي عن ابن عباس مِن أنَّ المعنى: ما نُنزِّل الملائكةَ إلا بالحقِّ الذي هو الموتُ الذي لا يقعُ فيه تقديمٌ ولا تأخيرٌ.

وقال ابن عطيَّة: الحقُّ ما يجب ويحقُّ من الوحي والمنافع التي أرادها الله تعالى لعباده، والمعنى: ما نُنزِّلُ الملائكةَ إلا بحقٍّ واجبٍ من وحيٍ ومنفعةٍ لا باقتراحكم، وأيضاً لو نَزَّلنا لم تُنْظَروا بعد ذلك بالعذاب[(٣)]؛ لأنَّ عادتنا إهلاكُ الأُمم المقترِحة إذا آتيناهم ما اقترحوه، وفيه ما فيه.

وقال الزمخشريُّ: المعنى: إلا تنزُّلاً ملتبساً بالحكمة والمصلحة، ولا حكمةَ في أنْ تأتيَكم عياناً تُشاهِدونهم ويَشهدون لكم بصدق النبيِّ ﷺ؛ لأنَّكم حينئذٍ

---

(١) الطبري ١٤/ ١٨، وعزاه لابن المنذر السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٩٤.
(٢) النكت والعيون ٣/ ١٤٩.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٥١.

مصدِّقون عن اضطرار[1]. وهو مبنيٌّ على أنَّ الإنزال بصُوَرهم الحقيقية، ومنه أخذ صاحبُ القيل المذكورِ أوّلاً قيلَه.

والبيضاويُّ جَعَل المنافي للحكمة إنزالَهم بصور البشر، حيث قال: لا حكمةَ في أنْ تأتيَكم بصورٍ تشاهدونها، فإنَّه لا يزيدكم إلا لَبساً[2].

وقال بعضهم: أريدَ أنَّ إنزالَ الملائكةِ لا يكونُ إلا بالحقِّ وحصولِ الفائدةِ بإنزالهم، وقد علم الله تعالى من حال هؤلاء الكفرة أنَّه لو أنزل إليهم الملائكةَ لبقُوا مُصرِّين على كفرهم، فيصيرُ إنزالُهم عبثاً باطلاً ولا يكونُ حقًّا.

وتعقَّب الأقوالَ الثلاثةَ البعضُ من المحقِّقين بأنَّه مع إخلال كلٍّ من ذلك بفظيعة الآتي، لا يلزمُ من فَرْض وقوعِ شيءٍ من ذلك تعجيلُ العذاب الذي يُفيده قولُه سبحانه: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾.

ومِن الناس مَن تكلَّفَ لتوجيه اللزومِ على بعض هذه الأقوال بما تكلَّف.

واختار بعضُهم كونَ المراد من «الحقِّ» الهلاكَ، والجملةُ بعد جوابِ سؤالٍ مقدَّرٍ، فكأنَّه لمَّا قيل: ما نُنزِّل الملائكةَ إلا بالهلاك، إذ هو الذي يحقُّ لأمثالهم من المعاندين، قيل: فليكُن ذلك، فأُجيب بأنَّه لو فعلنا ما كانوا مُنظَرين، أي: وهم قد كانوا منظرين، كما أجمِلَ فيما قبل من قوله سبحانه: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

وحاصلُ الجواب حينئذٍ على ما قيل أنَّ ما طلبوه من الإتيان بالملائكة ليشهدوا بصدق النبيِّ ﷺ مما لا يكون لهم؛ لأنَّ ما اقتضَته حكمتنا وجَرَت به عادتُنا مع أمثالهم ليس إلا التنزيل بالهلاك دونَ الشهادة، فإنَّ الحكمة لا تقتضيه والعادةَ لم تَجْرِ فيه؛ لأنَّه إنْ كان والملائكةُ بصُوَرِهم الحقيقية لم يحصل الإيمانُ بالغيب ولم يتحقَّق الاختيارُ الذي هو مدارُ التكليف، وإنْ كانَ وهم بصُوَرِ البشر حصل اللَّبسُ، فكان وجوده كعدمه، ولزم التسلسلُ.

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٨٧.

(٢) تفسير البيضاوي ٥/ ٢٨٤.

ويَمنعُ من التنزيل بالهلاك كما فُعِل مع أضرابهم من المعاندين أنَّا جعلناهم منظرين، فلو نَزَّلنا الملائكةَ وأهلكناهم عاد ذلك بالنقض لما أبرمناه حسبما نَعلَمُ فيه من الحكم.

وقيل في توجيه الآية على تقدير كونِ اقتراحهم لإتيان الملائكةِ لتعذيبهم: إنَّ المعنى: إنَّا ما نُنزِّل الملائكةَ للتعذيب إلا تنزيلاً ملتبساً بما تقتضيه الحكمةُ، ولو نَزَّلناهم حسبما اقترحوا ما كان ذلك ملتبساً بما تقتضيه؛ لأنَّها اقتضَت تأخيرَ عذابهم إلى يوم القيامة، وحيث كان في نسبة تنزيلهم للتعذيب إلى عدم موافقةِ الحكمة نوعُ إيهامٍ لعدم استحقاقهم التعذيبَ، عدل عما يقتضيه الظاهرُ إلى ما عليه النظمُ الكريم، فكأنَّه قيل: لو نزلناهم ما كانوا منظرين، وذلك غيرُ موافقٍ للحكمة، فتدبَّر جميع ذاك، والله تعالى يتولَّى هُداك.

هذا، ولفظة «إذاً» قال في «الكشاف»: جواب وجزاء؛ لأنَّ الكلامَ جوابٌ لهم وجزاءٌ لشرطٍ مقدَّرٍ، أي: ولو نَزَّلنا[1]، وصرَّح بإفادتها هذا المعنَى سيبويهِ[2] إلا أنَّ الشَّلوبِين حمل ذلك على الدوام وتكلَّف له، وأبو عليٍّ على الغالب. وقد تتمحَّضُ للجواب عنده وهي حرفٌ بسيطٌ عند الجمهور.

وذهب قومٌ إلى أنَّها اسمُ ظرفٍ، وأصلُها «إذا» الظرفيَّة لَحِقَها التنوينُ عوضاً من الجملة المضاف إليها، ونُقِلَت إلى الجزائيَّة، فبقي فيها معنى الربطِ والسببِ.

وذهب الخليل إلى أنَّها حرفٌ تَركَّب من «إذ» و«أنْ» وغَلَب عليها حكم الحرفيَّة، ونُقِلَت حركةُ الهمزةِ إلى الذال ثم حُذِفَت، والتُزِمَ هذا النقل، فكأن المعنى إذا قال القائل: أَزورُك. فقلْتَ: إذاً أزورك. قلت حينئذٍ: زيارتي واقعةٌ، ولا يتكلَّم بهذا.

وذهبَ أبو عليٍّ عمرُ بنُ عبد المجيد الزيديّ إلى أنَّها مركَّبةٌ من «إذا» و«أنْ»، وكلاهما يُعطي ما يُعطي كلُّ واحدةٍ منهما، فيعطي الربطَ كـ: إذا، والنصب كـ: أنْ، ثم حُذِفَت همزةُ «أنْ» ثم ألفُ «إذا» لالتقاء الساكنين، والظاهرُ أنَّه لو قُدِّر في

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٨٧.

(٢) الكتاب ٤/ ٢٣٤.

الكلام شرطٌ كانت لمجرَّد التأكيد، وجعلوا مِن ذلك قولَه تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا﴾ [البقرة: ١٤٥] إلخ.

ونُقِل عن الكافيجي أنَّه قال في مثل ذلك: ليست «إذاً» هذه الكلمةَ المعهودةَ، وإنَّما هي «إذا» الشرطيَّة حُذفت جملتها التي تُضافُ إليها وعوِّضَ عنها التنوين، كما في «يومئذٍ». وله سلفٌ في ذلك، فقد قال الزركشي في «البرهان» بعد ذكره لـ «إذاً» معنَيَين: وذَكَر لها بعضُ المتأخِّرين معنًى ثالثاً، وهو أنْ تكونَ مركَّبةً من «إذا»[1] التي هي ظرفُ زمانٍ ماضٍ، ومِن جملةٍ بعدها تحقيقاً أو تقديراً، لكنَّها حُذِفَت تخفيفاً وأبدِلَ منها التنوين كما في قولهم: حينئذٍ، وليسَت هذه الناصبةَ للمضارع؛ لأنَّ تلك تختصُّ به وهذه لا، بل تدخل على الماضي نحو: ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ﴾ [الإسراء: ١٠٠] وعلى الاسم نحو: ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٢] ثم قال: وهذا المعنى لم يذكره النحويُّون، لكنَّه قياس ما قالوه في «إذ»[2].

وفي «التذكرة» لأبي حيَّان: ذكر لي عَلَم الدين[3] أنَّ القاضي تقيَّ الدين بنَ رزين كان يذهبُ إلى أنَّ تنوينَ «اذاً» عِوَضٌ من الجملة المحذوفة، وليس بقول نحويٍّ.

وقال الجونيُّ: وأنا أظنُّ أنَّه يجوزُ أنْ تقول لمن قال: أنا آتيك: إذاً أكرمُكَ بالرفع، على معنى: إذا أتيتَني أكرمُك. فحذفت «أتيتَني» وعوَّضت التنوينَ فسقطَت الألفُ لالتقاء الساكنَين والنصب الذي اتفق عليه النحاة لحملها على غير هذا المعنى، وهو لا يَنْفي الرفعَ إذا أُريدَ بها ما ذكر.

وذكر الجلالُ السيوطي أنَّ الإجماع في القرآن على كتابتها بالألف، والوقف عليه دليلٌ على أنَّها اسمٌ منوَّنٌ لا حرفٌ آخرُه نونٌ، خصوصاً إذا لم تقع ناصبةً للمضارع، فالصواب إثباتُ هذا المعنى لها كما جنح إليه شيخنا الكافيجي ومَن سبَق النقلُ عنه[4].

---

(١) في الأصل ومطبوع البرهان: إذ، والمثبت من (م) والإتقان ١/ ٤٧٥، والنقل منه.
(٢) البرهان ٤/١٨٧-١٨٨. والكلام الآتي منه.
(٣) هو أحمد بن إبراهيم بن حسن، القرشي الأموي، علم الدين القِمَّني، روى عن ابن الجُمَّيْزَى وغيره، توفي بالقاهرة (٦٨٦هـ). الوافي بالوفيات ٦/ ٢١٧.
(٤) الإتقان ١/٤٧٦.

وعلى هذا فالأولَى حملُها في الآية على ما ذكر، وقد ذكرنا فيما مضى بعضاً من هذا الكلام فتذكَّر.

ثم إنَّه تعالى ردَّ إنكارهم التنزيلَ واستهزاءَهم برسول الله ﷺ وسلَّاه عليه الصلاة والسلام بقوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ أي: نحن بعِظَم شأننا وعلوِّ جانبنا نزَّلنا الذي أنكروه وأنكروا نزولَه عليك، وقالوا فيك لادعائه ما قالوا، وعمَّموا[(١)] منزله حيث بَنَوا الفعلَ للمفعول؛ إيماءً إلى أنَّه أمرٌ لا مصدرَ له، وفعلٌ لا فاعل له.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ أي: من كلِّ ما يقدحُ فيه كالتحريف والزيادة والنقصان وغير ذلك، حتى إنَّ الشيخَ المهيبَ لو غيَّر نقطةً يردُّ عليه الصبيان ويقول له مَن كان: الصوابُ كذا. ويدخلُ في ذلك استهزاءُ أولئك المستهزئين وتكذيُبهم إياه دخولاً أوليًّا، ومعنى حفظه من ذلك عدمُ تأثيره فيه، وذبُّه عنه، وقال الحسن: حفظه بإبقاء شريعته إلى يوم القيامة.

وجوَّز غيرُ واحدٍ أنْ يُراد حفظُه بالإعجاز في كلِّ وقتٍ ـ كما يدلُّ عليه الجملةُ الاسميَّةُ ـ من كلِّ زيادةٍ ونقصان وتحريفٍ وتبديلٍ.

ولم يَحفَظ سبحانه كتاباً من الكتب كذلك بل استحفَظَها جلَّ وعلا الربَّانِيِّيْنَ والأحبارَ، فوقَعَ فيها ما وقع، وتولَّى حفظَ القرآن بنفسه سبحانه، فلم يزل محفوظاً أوَّلاً وآخِراً، وإلى هذا أشار في «الكشاف»[(٢)]، ثم سأل بما حاصلُه: إن الكلام لمَّا كان مسوقاً لردِّهم وقد تمَّ الجواب بالأوَّل، فما فائدةُ التذييل بالثاني، وإنما يحسنُ إذا كان الكلامُ مسوقاً لإثبات محفوظيَّةِ الذِّكْر أوَّلاً وآخِراً؟ وأجابَ بأنَّه جيء به لغرض صحيحٍ وأدمجَ فيه المعنَى المذكور أماماً، وهو أنْ يكون دليلاً على أنَّه منزَّلٌ من عند الله تعالى آيةً. فالأوَّل وإنْ كان ردًّا كان كمجرَّد دعوى، فقيل: ولولا أنَّ الذكر من عندنا لما بقيَ محفوظاً من الزيادة والنقصان كما سِواهُ من الكلام، وذلك لأنَّ نظمَه لمَّا كان مُعجِزاً لم يمكن زيادةٌ عليه ولا نقصٌ؛ للإخلال بالإعجاز كما[(٣)] في «الكشف» وفيه إشارةٌ إلى وجه العطف وهو ظاهر.

---

(١) في (م): عملوا.
(٢) ٢/ ٣٨٨.
(٣) في (م): كذا.

وأنت تعلمُ أنَّ الإعجاز لا يكون سبباً لحفظه عن إسقاط بعض السُّوَرِ؛ لأنَّ ذلك لا يخلُّ بالإعجاز كما لا يخفى، فالمختارُ أنَّ حِفْظَ القرآن وإبقاءَه كما نزل حتى يأتيَ أمرُ الله تعالى بالإعجاز وغيرِه مما شاء الله عزَّ وجلَّ، ومِن ذلك توفيقُ الصحابة ﷺ لجمعِهِ حسبما علمتَه أوَّل الكتاب. واحتجَّ القاضي بالآية على فساد قول بعضٍ من الإمامية لا يُعبأ بهم: إنَّ القرآن قد دخله الزيادة والنقصان.

وضعَّفه الإمام بأنَّه يجري مجرى إثبات الشيء بنفسه؛ لأنَّ للقائلين بذلك أن يقولوا: إنَّ هذه الآية من جملة الزوائد[1]. ودعوى الإعجاز في هذا المقدار لا بدَّ لها من دليل.

واحتجَّ بها القائلون بحدوث الكلامِ اللفظي، وهي ظاهرةٌ فيه، ومن العجيب ما نَقَلَه عن أصحابه حيث قال: قال أصحابنا: في هذه الآية دلالةٌ على كون البسملةِ آيةً من كلِّ سورةٍ؛ لأنَّ الله تعالى قد وعَدَ حفظَ القرآن، والحفظُ لا معنى له إلا أنْ يبقَى مصوناً من الزيادة والنقصان، فلو لم تكن البسملةُ آيةً من القرآن لما كان مصوناً عن التغيير، ولَمَا كان محفوظاً عن الزيادة، ولو جاز أنْ يُظَنَّ بالصحابة أنَّهم زادوا لجاز أنْ يُظَنَّ بهم أنَّهم نقصوا، وذلك يوجبُ خروجَ القرآن عن كونه حجَّةً. اهـ.

ولعمري، إنَّ تسميةَ مثلِ هذا بالخَبال[2] أولَى من تسميته بالاستدلال.

ولا يخفَى ما في سبك الجملتَين من الدلالة على كمال الكبرياء والجلالة، وعلى فخامة شأن التنزيل، وقد اشتملتا على عدَّةٍ من وجوه التأكيد، و«نحن» ليس فصلاً لأنَّه لم يقع بين اسمَين، وإنَّما هو إمَّا مبتدأ، أو توكيدٌ لاسم «إنَّ» ويُعلَم مما قرَّرنا أنَّ ضمير «له» للذِّكْر، وإليه ذهب مجاهد وقتادة والأكثرون، وهو الظاهرُ.

وجوَّز الفراءُ[3] ـ وذهب إليه النزرُ ـ أنْ يكون راجعاً إلى النبيِّ ﷺ، أي: وإنَّا للنبيِّ الذي أُنزل عليه الذكرُ لحافظون من مكر المستهزئين كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧] والمعوَّل عليه الأوَّل.

---

(١) مفاتيح الغيب ١٩/ ١٦١.

(٢) في الأصل: بالخيال.

(٣) معاني القرآن ٢/ ٨٥.

وأُخِّر هذا الجوابُ مع أنَّه ردٌّ لأوَّلِ كلامهم الباطل؛ لِمَا أشرنا إليه فيما مرَّ، ولارتباطه بما يعقبُه من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ أي: رسلاً، كما رُوي عن ابن عباس، وإنَّما لم يُذكر؛ لظهور الدلالة عليه ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ متعلِّقٌ بـ «أرسلنا»، أو بمحذوفٍ وقَع نعتاً لمفعوله المحذوفِ، أي: رسلاً كائنةً من قبلك ﴿فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾﴾ أي: فِرَقهم، كما قال الحسن والكلبيُّ، وإليه ذهب الزجَّاج[1]، وهو ـ وكذا: أشياع ـ جمع: شِيْعَة، وهي الفِرقة[2] الجماعةُ المتَّفقةُ على طريقةٍ ومذهب، مأخوذٌ من شاع المتعدِّي، بمعنى: تَبع، لأنَّ بعضَهم يُشايعُ بعضاً ويتابعه.

وتطلقُ الشِّيْعة على الأعوان والأنصار، وأصلُ ذلك على ما قيل من الشِّيَاع ـ بالكسر والفتح ـ صغارُ الحطب يُوقَد به الكبار.

والمناسبةُ في ذلك نظراً للإطلاق الثاني ظاهرةٌ، وللإطلاق الأوَّلِ أنَّ التابعَ من حيث إنَّه تابعٌ أصغرُ ممن يتبعُه. وإضافتُه إلى «الأوَّلين» من إضافة الموصوفِ إلى صفته عند الفرَّاء[3]، ومن حذف الموصوف عند البصريين، أي: شِيَع الأُمم الأوَّلين، والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بـ «أرسلنا».

ومعنى إرسالِ الرسل في الشيع جعلُ كلٍّ منهم رسولاً فيما بين طائفةٍ منهم ليتابعوه في كلِّ ما يأتي ويَذَرُ من أمور الدين، وكأنَّه لو قيل: «إلى» بدل «في» لم يظهر إرادةُ هذا المعنى. وقيل: إنَّما عَدَل عن «إلى» إليها، للإعلام بمزيد التمكين، وزعَمَ بعضُهم أنَّ الجارَّ والمجرور متعلِّقٌ بمحذوفٍ هو صفةٌ للمفعول المقدَّرِ أو حالٌ، ولا يخفَى بُعدُه.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ حكايةُ حالٍ ماضية كما قال الزمخشريُّ؛ لأنَّ «ما» لا تدخُلُ على مضارع إلا وهو في موضع الحال، ولا على ماضٍ إلا وهو قريبٌ من الحال[4]، وهو قولُ الأكثرين.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ١٧٤.
(٢) في الأصل و(م): والفرقة، والمثبت من تفسير أبي السعود ٥/ ٦٩ والكلام منه.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٤٧، واللباب ١١/ ٤٣٣.
(٤) الكشاف ٢/ ٣٨٨.

وقال بعضهم: إنَّ الأكثر دخولُ «ما» على المضارع مراداً به الحال، وقد تدخلُ عليه مراداً به الاستقبال، وأنشدَ قولَ أبي ذؤيب:

أَودَى بـنـيَّ وأَودَعُـونـي حَـسْـرةً عـنـد الـرُّقـاد وعَـبْـرةً مـا تُـقْـلِـعُ[1]

وقولَ الأعشى[2] يمدحُ النبيَّ ﷺ:

لـه نـافـلاتٌ مـا يـغِـبُّ نـوالُـهـا ولـيـس عـطـاءُ الـيـومِ مـانـعَـه غَـدَا

وقال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ﴾ [يونس: ١٥] ولعله المختار، وإنْ كان ما هنا على الحكاية، والمرادُ نفْيُ إتيان كلِّ رسولٍ لشيعته الخاصة به، لا نَفْي إتيانِ كلِّ رسولٍ لكلِّ واحدةٍ من تلك الشِّيَع جميعاً، أو على سبيل البدل، أي: ما أَتَى شيعةً من تلك الشيع رسولٌ خاصٌّ بها ﴿إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ⁽¹¹⁾﴾ كما يفعلُه هؤلاء الكفرة، والجملةُ ـ كما قال أبو البقاء ـ في محلِّ النصب على أنَّها حالٌ من ضمير المفعول في «يأتيهم» إنْ كان المرادُ بالإتيان حدوثَه، أو في محلِّ الرفع أو الجرِّ على أنَّها صفة «رسول» على لفظه أو موضعه[3]؛ لأنَّه فاعل.

وتعقب جعلُها صفةً له باعتبار لفظه بأنَّهُ يفضي إلى زيادة «من» الاستغراقيَّة في الإثبات لمكان «إلا» وتقدير العمل في النعت بعدها.

وجوِّز أنْ تكونَ نصباً على الاستثناء وإنْ كان المختارُ الرفعَ على البدليَّة. وهذا كما ترى تسليةٌ لرسول الله ﷺ بأنَّ هذه شِنْشِنةُ جُهَّال الأمم مع المرسلين عليهم السلام قبلُ.

وحيث كان الرسول مصحوباً بكتاب من عند الله تعالى تضمَّن ذكْرُ استهزائهم بالرسول استهزاءهم بالكتاب، ولذلك قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل السَّلْك

---

(١) ديوان الهذليين ص٢، والمفضليات ص٤٢١، وخزانة الأدب ١/ ٤٢٠، والبحر المحيط ٥/ ٤٤٧ والكلام منه.

(٢) كما في ديوانه ص٤٦، والمغني ص٣٨٦، والبحر المحيط ٥/ ٤٤٧ والكلام منه، ولفظ صدره في الديوان هكذا: له صدقات ما تغب ونائلٌ.

(٣) الإملاء ٣/ ٤١٩.

الذي سلكناه في قلوب أولئك المستهزئين برسلهم وبما جاؤوا به ﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾ أي: نُدخلُه، يقال: سلكتُ الخيطَ في الإبرة، والسِّنانَ في المطعون، أي: أدخلتُ، وقرئ: «نُسْلِكُه»[1]. وسَلَكَ وأَسْلَكَ كما ذكر أبو عبيدة بمعنًى واحد[2]، والضميرُ عند جمعٍ ـ ومنهم الحسنُ على ما ذكره الغزنويُّ ـ للذِّكر.

﴿فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝١٢﴾ أي: أهل مكة، أو جنس المجرمين فيدخلون فيه دخولاً أوليًّا، ومعنى المِثْليَّة كونُه مقروناً بالاستهزاء غير المقبول لِمَا تقتضيه الحكمة، وحاصلُه أنَّه تعالى يُلقي القرآن في قلوب المجرمين مُستهزَأً به غيرَ مقبولٍ، لأنَّهم من أهل الخذلان ليس لهم استحقاقٌ لقبول الحقِّ، كما أَلْقَى سبحانه كُتبَ الرسل عليهم السلامُ في قلوب شِيَعهم مستهزأً بها غيرَ مقبولةٍ لذلك، وصيغةُ المضارع لكون المشبَّه به مقدَّماً في الوجود وهو السلك الواقع في شيع الأولين.

﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ الضميرُ للذِّكر أيضاً، والجملةُ في موضع الحال من مفعول «نَسلُكُه» أي: غيرَ مُؤمَنٍ به، وهي إما مقدَّرة وإما مقارِنة، على معنى أنَّ الإلقاء وقَعَ بعدَه الكفرُ من غير توقُّفٍ، فهما في زمانٍ واحدٍ عُرفاً، ويجوزُ أنْ تكونَ بياناً للجملة السابقة، فلا محلَّ لها من الإعراب. قال في «الكشف»: وهو الأوجهُ، لأنَّ في طريقة الإبهام والتفسير لاسيما في هذا المقام ما يُجلُّ موقع الكلام.

وفي «إرشاد العقل السليم»: أنَّه قد جعل ضمير «نَسْلُكُه» للاستهزاء المفهوم من «يستهزئون» فتتعيَّن البيانيَّةُ إلا أنْ يُجعل ضمير «به» له أيضاً، على أنَّ الباء للملابسة، أي: يَسلك الاستهزاء في قلوبهم حالَ كونهم غيرَ مؤمنين بملابسة الاستهزاء[3].

وقد ذهب إلى جواز إرجاع الضميرَين إلى الاستهزاء ابنُ عطيةَ إلا أنَّه جعَلَ الباء للسببية[4]، وكذا الفاضل الجلبي. ولا يخفى أنَّ بُعدَ ذلك يُغني عن ردِّه.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ١٧٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥٣، والكشاف ٢/ ٣٨٨.

(٢) مجاز القرآن ١/ ٣٤٧.

(٣) تفسير أبي السعود ٥/ ٧٠.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٣.

وذهب البيضاوي[١] إلى كون الضمير الأول للاستهزاء، وضميرِ «به» للذكر، وتفريقُ الضمائرِ المتعاقبةِ على الأشياء المختلفةِ إذا دلَّ الدليل عليه ليس ببِدْعٍ في القرآن، وجوَّز على هذا كونَ الجملة حالاً من «المجرمين» ولا يتعيَّن كونُها حالاً من الضمير ليتعيَّن رجوعُه للذكر، وذكَرَ أنَّ عودَه على الاستهزاء لا يُنافي كونَها مفسِّرةً بل يقوِّيه، إذ عدمُ الإيمان بالذكرِ أنسبُ بتمكُّن الاستهزاء في قلوبهم، وجَعَل الآية دليلاً على أنَّه تعالى يوجد الباطلَ في قلوبهم، ففيها ردٌّ على المعتزلة في قولهم: إنَّه قبيحٌ فلا يصدرُ منه سبحانه، وكأنَّه رحمه الله تعالى ظَنَّ أنَّ ما فعله الزمخشريُّ[٢] من جعل الضميرَين للذكر، كان رعايةً لمذهبه ففعل ما فعل، ولا يخفَى أنَّه لم يُصِب المحزَّ، وغَفَل عن قولهم: الدليل إذا طرقه الاحتمالُ بطل به الاستدلالُ.

وفي «الكشف» بعد كلام: إنَّ رَجْع الضميرِ إلى الاستهزاء أو الكفر مع ما فيه من تنافر النظم لا ينكره أهلُ الاعتزال إلا كإنكار سَلْك الذكر بصفة التكذيب، والتأويل كالتأويل، وكأنَّهم غَفَلوا عمَّا ذكره جارُ الله في الشعراء حيث أجابَ عن سؤال إسنادِ سَلكِ الذكر بتلك الصفة إلى نفسه جلَّ وعلا بأنَّ المراد تمكُّنُه مكذَّباً في قلوبهم أشدَّ التمكُّن، كشيءٍ جُبِلُوا عليه[٣]؛ ولَخَّص المعنى ها هنا بأنَّه تعالى يلقيه في قلوبهم مكذَّباً، لا أنَّ التكذيبَ فِعْلُه سبحانه.

نعم أخرج ابنُ أبي حاتم عن أنس والحسن تفسيرَ ضمير «نَسلُكُه» إلى الشرك[٤]، وأخرج هو وابنُ جرير عن ابن زيد أنَّه قال في الآية: هم كما قال الله تعالى: هو أضلَّهم ومنَعَهم الإيمان[٥]، لكنْ هذا أمرٌ وما نحنُ فيه آخر.

واعترض بعضُهم رجوعَ الضمير إلى «الذكر» بأنَّ نون العظمة لا تناسبُ ذلك، فإنَّها إنَّما تحسُنُ إذا كان فعل المعظَّم نفسَه فعلاً يَظهرُ له أثرٌ قويٌّ، وليس كذلك هنا، فإنَّه تدافعٌ وتنازعٌ فيه.

---

(١) تفسير البيضاوي ٥/ ٢٨٥بنحوه.

(٢) ينظر الكشاف ٢/ ٣٨٨.

(٣) الكشاف ٣/ ١٢٩.

(٤) عزا الأثرين السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٩٤ إلى ابن أبي حاتم، وأخرج أثر الحسن عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٤٥-٣٤٦.

(٥) الطبري ١٤/ ٢١-٢٢، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٩٥ لابن أبي حاتم.

وأجاب بأنَّ المقام إذا كان للتوبيخ يَحسُنُ ذلك، ولا يلزمُ أنْ تكونَ العظمة باعتبار القهر والغلبة، فقد تكونُ باعتبار اللطف والإحسان.

وتعقب ذلك الشهابُ بقوله: لا يخفَى أنَّه باعتبار القهر والغلبة يقتضي أنْ يؤثِّر ذلك في قلوبهم، وليس كذلك؛ لعدم إيمانهم به، وكذا باعتبار اللُّطف والإحسانِ يقتضي أنْ يكونَ سلكه في قلوبهم إنعاماً عليهم، فأيّ إنعامٍ عليهم بما يقتضي الغضب، فلا وجْهَ لما ذكر[١].

وأنت تعلم أنَّه إذا كان المرادُ سَلْكَ ذلك وتمكينه في قلوبهم مكذَّباً به غيرَ مقبولٍ، فكونُ الإسناد باعتبار القهر والغلبة مما لا ينبغي أنْ يَنْتَطح به كبشان، والأثر الظاهرُ القويُّ لذلك بقاؤهم على الكفر والإصرار على الضلال ولو جاءتهم كلُّ آية.

ولا يخفى ما في «كذلك» ممَّا يناسب نون العظمة أيضاً، وقد مرَّ التنبيه عليه غير مرَّةٍ.

﴿وَقَدْ خَلَتْ﴾ مضتْ ﴿سُنَّةُ﴾ طريقة ﴿ٱلْأَوَّلِينَ ⑬﴾ والمرادُ عادةُ الله تعالى فيهم على أنَّ الإضافة لأدنَى ملابسةٍ، لا على أنَّ الإضافَة بمعنى «في»، والمرادُ بتلك العادةِ ـ على تقدير أنْ يكونَ ضميرُ «نَسْلُكُه» للاستهزاء ـ الخِذلانُ وسَلْكُ الكفر في قلوبهم، أي: قد مضَت عادتُه سبحانه وتعالى في الأوَّلين ممَّن بَعَث إليهم الرسُلَ عليهم السلام أنْ يخذُلَهم ويسلُكَ الكفرَ والاستهزاء في قلوبهم، وعلى تقدير أنْ يكونَ للذكر الإهلاكُ، وعلى هذا قولُ الزمخشريِّ: أي: مضَت طريقتُهم التي سنَّها الله تعالى في إهلاكهم حينَ كذَّبوا برسلهم والمنزَّل عليهم، وذَكَر أنَّه وعيدٌ لأهل مكة على تكذيبهم[٢]. وإلى الأوَّل ذهَبَ الزجَّاج[٣]، وادَّعى الإمامُ أنَّه الأليَقُ بظاهر اللفظ[٤].

وبيَّن ذلك الطيبي قائلاً: إنَّ التعريفَ في «المجرمين» للعهد، والمرادُ بهم المكذِّبون مِن قوم رسولِ الله ﷺ، لأنَّهم المذكورون بعدُ، أي: مثل ذلك السَّلك

(١) حاشية الشهاب ٥/ ٢٨٥.

(٢) الكشاف ٢/ ٣٨٨.

(٣) معاني القرآن ٣/ ١٧٤.

(٤) مفاتيح الغيب ١٩/ ١٦٥-١٦٦.

الذي سَلَكناه في قلوب أولئك المستهزئين المكذِّبين للرسُل الماضين نَسلُكُه في قلوب هؤلاء المجرمين، فلك أسوةٌ بالرسل الماضية مع أممهم المكذِّبة، ولسْتَ بأوحديٍّ في ذلك وقد خَلَت سنةُ الأولين، والمقامُ مقتضٍ[١] التقريرَ والتأكيدَ، فيكون في هذا مزيدُ تسليةٍ للرسول عليه الصلاة والسلام، والوعيدُ بعيدٌ؛ لأنَّه لم يَسبِق لإهلاك الأمم ذكرٌ، وإيثارُ ذلك؛ لأنه أقربُ إلى مذهب الاعتزال. اهـ.

وفيه غَفْلةٌ عن مَغْزَى الزمخشريِّ، وقد تفطَّن لذلك صاحبُ «الكشف» ولله تعالى درُّه حيث قال: أرادَ أنَّ موقعَ «قد خَلَت» إلى آخره موقعُ الغاية في «الشعراء»، أعني قوله تعالى هناك: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [الشعراء: ٢٠١] فإنَّهم لما شُبِّهوا بهم، قيل: لا يؤمنون، وقد هلَكَ مَن قبلهم ولم يؤمنوا، فكذلك هؤلاء، ومنه يظهرُ أنَّ الكلامَ على هذا الوجه شديدُ الملاءمةِ.

وأمَّا أنَّ الوعيدَ بعيدٌ لعدم سَبْق ذكرٍ لإهلاك الأمم، ففيه أنَّ لفظ السُّنَّة مضافاً إلى ما أُضيفَ إليه يُنبئُ عن ذلك أشدَّ الإنباء، ثمَّ إنَّه ليس المقصود منه الوعيدَ على ما قرَّرناه، وقد صرَّح أيضاً بعضُ الأجلة أنَّ الجملة استئنافيةٌ جيءَ بها تكملةً للتسلية، وتصريحاً بالوعيد والتهديدِ.

ثم ما ذهب إليه الزمخشريُّ من المراد بالسُّنَّة مرويٌّ عن قتادة فقد أخرج ابنُ جرير وابن المنذر وغيرهما عنه أنَّه قال في الآية: قد خَلَت وقائعُ الله تعالى فيمَن خلا من الأمم[٢]. وعن ابن عباس أنَّ المراد سُنَّتهم في التكذيب، ولعلَّ الإضافة على هذا على ظاهرها.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ أي: على هؤلاء المقترِحين المعاندين ﴿بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ظاهرُه: باباً ما، لا باباً مِن أبوابها المعهودة كما قيل ﴿فَظَلُّوا۟ فِيهِ﴾ أي: في ذلك الباب ﴿يَعْرُجُونَ ۝١٤﴾ يصعدون حسبما نُيسِّرُه لهم، فيَرون ما فيها من الملائكة والعجائبِ طولَ نهارهم، مُستوضِحين لِمَا يرونه كما يفيده «ظلوا» لأنَّه يقال: ظلَّ يعملُ كذا: إذا فَعَلَه في النهار حيث يكونُ للشخص ظلٌّ. وجوَّز في «البحر» كونَ

---

(١) في (م): يقتضي.
(٢) الطبري ١٤/ ٢٢، وعزاه لابن المنذر السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٩٤-٩٥.

«ظل» بمعنى «صار»[١]. وهو مع كونه خلافَ الأصل مما لا داعيَ إليه.

وأيًّا ما كان فضميرُ الجمع للمقترِحين، وهو الظاهرُ المرويُّ عن الحسن، وإليه ذهب الجبائي وأبو مسلم[٢]. وأخرج ابنُ جرير[٣] عن ابن عباس ﷺ أنَّه للملائكة، ورُوي ذلك عن قتادة أيضاً، أي: فظلَّ الملائكةُ الذين اقترحوا إتيانَهم يعرُجون في ذلك الباب وهم يَرَوْنَهم على أتمِّ وجهٍ.

وقرأ الأعمش وأبو حيوة: «يعرِجون» بكسر الراء[٤]، وهي لغةُ هذيل في العروج بمعنى الصعود.

﴿لَقَالُوٓاْ﴾ لِفَرْط عنادهم وغُلوِّهم في المكابرة وتفاديهم عن قبول الحقِّ: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا﴾ أي: سُدَّت ومُنِعَت من الإبصار حقيقةً، وما نراه تخيُّل لا حقيقةَ له، أخرجه ابن أبي حاتم وغيرُه عن مجاهد[٥]، وروي أيضاً عن ابن عباس وقتادة، فهو من السَّكر بالفتح.

وقال أبو حيان: بالكسر: السَّدُّ والحَبْس[٦]، وقال ابن السيد[٧]: السَّكر، بالفتح، سدُّ الباب والنهر، وبالكسر: السَّدُّ نفسُه، ويجمع على سُكُور، قال الرَّفَّاء:

غِناؤنا فيه ألحان السكور إذا ... قلَّ الغِناءُ ورناتُ النواعير[٨]

ويشهد لهذا المعنى قراءة ابن كثير والحسن ومجاهد: «سُكِرَتْ أبصارُنا»

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٤٨.

(٢) مجمع البيان ١٤/ ١٥.

(٣) في الأصل و(م): جريج، والمثبت من الدر المنثور ٤/ ٩٥، والأثر عند الطبري ١٤/ ٢٣.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٣، والبحر المحيط ٥/ ٤٤٨.

(٥) عزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٩٥، وأخرجه الطبري ١٤/ ٢٦.

(٦) البحر المحيط ٥/ ٤٤٨.

(٧) عبد الله بن محمد بن السيد البَطَلْيَوسيّ، كان عالماً باللغات والآداب متبحراً فيها، له «شرح أدب الكاتب»، و«الحلل في شرح أبيات الجمل»، توفي (٥٥١هـ). بغية الملتمس للضبي ص٣٣٧، والمغرب في حلى المغرب للمغربي ١/ ٣٨٥-٣٨٦.

(٨) حاشية الشهاب ٥/ ٢٨٦. والرفَّاء: هو السري بن أحمد بن السري أبو الحسن الكندي الموصلي، الشاعر المشهور: أسلمه أبوه الرفَّائين صبيًّا بالموصل، فكان يرفو ويطرِّز. معجم الأدباء ١١/ ١٨٢.

بتخفيف الكاف مبنيًّا للمفعول[1]؛ لأنَّ سَكَرَ المخفَّف المتعدِّي اشتهر في معنى السَّدِّ، وعن عمرو بنِ العلاء أنَّ المراد: حُيِّرت، فهو من السُّكر ـ بالضَّمِّ ـ ضدُّ الصحو، وفسَّروه بأنَّه حالةٌ تعرض بين المرء وعقله، وأكثرُ ما يستعمل ذلك في الشراب، وقد يعتري من الغضب والعشق، ولذا قال الشاعر:

سُكرانِ سُكْرُ هوًى وسكرُ مدامةٍ ... أنَّى يفيقُ فتى به سُكرانِ[2]

والتشديد في ذلك للتعدية؛ لأنَّ سَكِرَ كفَرِحَ، لازمٌ في الأشهر، وقد حُكي تعدِّيه، فيكونُ للتكثير والمبالغة، وأرادوا بذلك أنَّه فَسَدَت أبصارُنا واعتراها خللٌ في إحساسها كما يعتري عقلَ السكران ذلك، فيختلّ إدراكُه، ففي الكلام على هذا استعارةٌ، وكذا على الأوَّل عند بعضٍ، ويشهد لهذا المعنى قراءة الزهريّ: «سَكِرَت» بفتح السين وكسر الكاف مخفَّفةً مبنيًّا للفاعل[3]؛ لأنَّ الثلاثي اللازم مشهورٌ فيه، ولأنَّ سَكَر بمعنى سدَّ، المعروفُ فيه فتحُ الكاف.

واختار الزجَّاج أنَّ المعنى: سكَنَت عن إبصار الحقائق، من سَكِرَت الريحُ تسكُر سكراً: إذا ركَدَت[4]، ويقال: ليلةٌ ساكرةٌ: لا ريحَ فيها، والتضعيف للتعدية، ولهم أقوالٌ أُخرُ متقاربةٌ في المعنى.

وقرأ أبانُ بنُ تغلب ـ وحُمِلَت لمخالفتها سواد المصحف على التفسير ـ: «سحرت أبصارنا»[5].

﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ قد سحرنا محمدٌ ﷺ كما قالوا ذلك عند ظهورِ سائر الآياتِ الباهرةِ، والظاهرُ على ما قال القطب: إنَّهم أرادوا أولاً سُكِّرَت أبصارنا لا عقولُنا، فنحن وإن تخيلنا هذه الأشياء بأبصارنا، لكن نعلمُ بعقولنا أنَّ

---

(١) قراءة ابن كثير في التيسير ص١٣٦، والنشر ٢/ ٣٠١، وقراءة الحسن ومجاهد في معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٤، والبحر المحيط ٥/ ٤٤٨.

(٢) البيت للخليع الشامي كما في يتيمة الدهر ١/ ٣٣، ونسبه أبو القاسم الحسن النيسابوري في عقلاء المجانين ص٢١ لديك الجن.

(٣) القراءات الشاذة ص٧٠-٧١، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥٣، والبحر المحيط ٥/ ٤٤٨.

(٤) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ١٧٥.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٣، والبحر المحيط ٥/ ٤٤٩.

الحال بخلافه، ثم أضربوا عن الحصر في الإبصار وقالوا: بل تجاوز ذلك إلى عقولنا.

وفسَّر الزمخشريُّ الحصرَ بأنَّ ذلك ليس إلا تسكيراً[١]. فأورد عليه بأنَّ «إنما» إنما تفيدُ الحصرَ في المذكور آخراً، وحينئذٍ يكونُ المعنى ما تقدَّم، وهو مبنيٌّ على أنَّ تقديمَ المقصورِ على المقصور عليه لازمٌ، وخلافه مُمتنعٌ، وقد قال المحقِّق في شرح «التخليص»: إنَّه يجوزُ إذا كان نفسُ التقديم يُفيد الحصرَ، كما في قولنا: إنَّما زيداً ضربت، فإنَّه لقَصْر الضرب على زيد، وقال أبو الطَّيِّب:

صفاتُه لم تَزِدْهُ معرفةً ... لكنَّها لذَّةً ذكرناها[٢]

أي: ما ذكرناها إلا لذةً. إلا أنَّ هذا لا ينفعُ فيما نحن فيه.

نعم نقل عن «عروس الأفراح» أنَّ حكم أهل المعاني غيرُ مسلَّم، فإنَّ قولك: إنَّما قمتُ، معناه: لم يَقَع إلا القيامُ، فهو لحصر الفعل وليس بآخر، ولو قصد حصرَ الفاعل لانفصل، ثم أورد عدَّةَ أمثلة من كلام المفسِّرين تدلُّ على ما ذكروه في المسألة، فالظاهرُ أنَّ الزمخشريَّ لا يرى ما قالوه مطَّرداً، وهم قد غَفَلوا عن مراده هنا، قاله الشهاب[٣]، وما نقله عن «عروس الأفراح» في: إنَّما قمتُ، مِن أنَّه لحصر الفعل، ولو كان لحصر الفاعل لانفصل، يُخالفُه ما في شرح المفتاح الشريفي من أنَّه إذا أُريدَ حصر الفعل في الفاعل المضمَر، فإنْ ذُكِرَ بعد الفعل شيءٌ من متعلَّقاته وجَبَ انفصالُ الفاعل وتأخيرُه، كما في قولك: إنَّما ضَرَبَ اليومَ أنَا، وكما في قول الفرزدق:

أنا الذائدُ الحامي الذمار وإنَّما ... يُدافعُ عن أحسابهم أنا أو مثلي[٤]

وإنْ لم يُذكر احتملَ الوجوبَ طرداً للباب وعدمه، بأنْ يجوز الانفصالُ نظراً إلى المعنى، والاتِّصالُ نظراً إلى اللفظ، إذ لا فاصل لفظيًّا. اهـ.

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٨٩.

(٢) البيت في شرح ديوانه ٤/ ٤١٠، وفيه: أسامياً، بدل: صفاته، و: إنما، بدل: لكنها.

(٣) في حاشيته على البيضاوي ٥/ ٢٨٦.

(٤) ديوان الفرزدق ٢/ ١٥٣، والمحتسب ٢/ ١٩٥، وتذكرة النحاة ص٨٥، وخزانة الأدب ٤/ ٤٦٥، وروي صدره بلفظ: أنا الضامن الراعي عليهم وإنما.

فإنَّه صريحٌ في أنَّ: إنَّما قمتُ، لحصر الفاعل وإنْ لم يجب الانفصالُ، لكن اختارَ السعدُ في شرحه وجوبَ الانفصال مطلقاً، وحكم بأنَّ الظاهر أنَّ معنى: إنَّما أقومُ، ما أنا إلا أقوم، كما نقله السمرقنديُّ. وأبو حيان مع طائفةٍ يسيرةٍ من النحاة أنكروا إفادة «إنَّما» للحصر أصلاً، وليس بالمعوَّل عليه عند المحقِّقين، لكنهم قالوا: إنَّها قد تأتي لمجرَّد التأكيد. وتمامُ الكلام في هذا المقام يُطلَب من محلِّه.

ووجَّه الشهابُ الإضرابَ بعد أنْ قال: هو جعْلُ الأوَّلِ في حكم المسكوت عنه دون النفي، ويحتمل الثاني بأنَّه إضرابٌ لأنَّ هذا ليس بواقع في نفس الأمر، بل بطريق السحر، أو هو باعتبار ما تُفيدُه الجملة من الاستمرار الذي دلَّت عليه الاسميَّةُ، أي: مسحوريَّتُنا لا تختصُّ بهذه الحالة، بل نحن مستمرُّون عليها في كل ما يُرينا من الآيات(١).

هذا، وفي هذه الآية من وصفهم بالعناد وتواطُئهم على ما هم فيه من التكذيب والفساد ما لا يخفى، وفي ذلك تأكيدٌ لما يُفهم من الآية الأولى.

وقد ذكر ابنُ المنير في المراد منها وجهاً بعيداً جدًّا فيما أرى فقال: المرادُ والله تعالى أعلم إقامةُ الحجَّة على المكذِّبين بأنَّ الله تعالى سَلَك القرآن في قلوبهم وأدخلَه في سويدائها كما سلك في قلوب المؤمنين المصدِّقين، فكذَّب به هؤلاء وصدَّق به هؤلاء، كلٌّ على علم وفَهْم ليهلِكَ من هَلَكَ عن بينةٍ ويحيا من حيَّ عن بينة، ولئلا يكونَ للكفار على الله تعالى حجَّةٌ بأنَّهم ما فهموا وجْهَ الإعجاز كما فهمها مَن آمن، فأعلمهم الله تعالى ـ وهم في مُهلةٍ وإمكان ـ أنَّهم ما كفروا إلا على علم، معاندين باغين غيرَ معذورين، ولذلك عقَّبه سبحانه بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ إلخ أي: هؤلاء فهموا القرآنَ وعلموا وجوهَ إعجازه وولج ذلك في قلوبهم ووَقَر، ولكنَّهم قومٌ سجيَّتُهم العنادُ وسِمَتُهم اللدادُ، حتى لو سَلَك بهم أوضحَ السبل وأدعاها إلى الإيمان، لقالوا بعد الإيضاح العظيم: إنَّما سُكِّرت أبصارُنا، وسُحِرْنا، وما هذه إلا خيالات لا حقائِقَ تحتها، فأسجل سبحانه عليهم

---

(١) حاشية الشهاب ٥/ ٢٨٦-٢٨٧.

بذلك أنَّهم لا عُذرَ لهم بالتكذيب من عدم سماعٍ ووعي، ووصولٍ إلى القلوب، وفهم كما فَهِمَ غيرُهم من المصدِّقين؛ لأنَّ ذلكَ كان حاصلاً لهم، وليس بهم إلا العِنادُ والإصرارُ لا غير[١]. اهـ. فليتأمَّل، والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل.

ثم إنَّه تعالى لمَّا ذَكَر حال منكري النبوَّة وكانت مفرَّعةً على التوحيد ذكر دلائلَهُ السماويَّةَ والأرضيَّةَ فقال عزَّ قائلاً: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ إلخ، وإلى هذا ذهب الإمام[٢] وغيرُه في وجه الربط.

وقال ابن عطية: إنَّه سبحانه لما ذكر أنَّهم لو رَأَوا الآيةَ المطلوبة في السماء لعاندوا وبَقُوا على ما هم فيه من الضلال، عَقَّب ذلك بهذه الآية، كأنَّه جل شأنه قال: وإنَّ في السماء لَعِبراً منصوبةً غيرَ هذه المذكورة، وكفرُهم بها وإعراضُهم عنها إصرارٌ منهم وعتوٌّ[٣]. اهـ.

والظاهرُ أنَّ الجعلَ بمعنى الخَلْق والإبداع، فالجارُّ والمجرور متعلِّقٌ به، وجُوِّز أنْ يكونَ بمعنى التصيير فهو متعلِّقٌ بمحذوفٍ على أنَّه مفعولٌ ثانٍ له، و«بروجاً» مفعوله الأول.

والبروجُ جمع بُرْجٍ، وهو لغةً: القصرُ والحصن. وبذلك فسَّره هنا عطيَّة. فقد أخرج عنه ابنُ أبي حاتم أنَّه قال: جعلنا قصوراً في السماء فيها الحرسُ، وأخرج عن أبي صالح أنَّ المرادَ بالبروج الكواكبُ العظام[٤]، وفي «البحر» عنه: الكواكبُ السيَّارة[٥]، وروى غيرُ واحدٍ عن مجاهد وقتادة أنَّها الكواكبُ من غيرِ قيدٍ. وروي عن ابن عباس تفسيرُ ذلك بالبروج الاثني عشر المشهورة، وهي ستَّةٌ شمالية، ثلاثة ربيعيَّة وثلاثةٌ صيفيَّةٌ، وأوَّلُها الحَمَلُ، وستَّةٌ جنوبيَّةٌ، ثلاثةٌ خريفيَّةٌ وثلاثةٌ شتائيَّة، وأوَّلُها الميزان، وطولُ كلِّ برجٍ عندهم «ل» درجة وعرضُه «قف» درجة، «ص» منها في جهة الشمال، ومثلُها في جهة الجنوب، وكأنَّها إنما سمِّيَت بذلك؛ لأنَّها

---

(١) الانتصاف ٢/ ٣٨٨.

(٢) مفاتيح الغيب ١٩/ ١٦٨.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٤.

(٤) عزا السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٩٥ الأثرين لابن أبي حاتم.

(٥) البحر المحيط ٥/ ٤٤٩.

كالحصن أو القصر للكوكب الحالِّ فيها، وهي في الحقيقة أجزاءُ الفلك الأعظم، وهو المحدَّد المسمَّى بلسانهم الفلكُ الأطلسُ، وفلكُ الأفلاك، وبلسان الشرع بعكسه، ولهذا يُسمِّي الشيخُ الأكبر قدَّسَ سرُّه الفلكَ الأطلسَ بفَلَك البروج[١]، والمشهور تسميةُ الفلك الثامن، وهو فَلَكُ الثوابتِ به لاعتبارهم الانقسام فيه، وكأنَّ ذلك لظهور ما تتعيَّن به الأجزاءُ من الصور فيه، وإنْ كان كلٌّ منها منتقلاً عما عيَّنه إلى آخَرَ منها، لثبوت الحركة الذاتية للثوابت على خلاف التوالي وإنْ لم يُثْبتها لها ـ لعدم الإحساس بها ـ قدماءُ الفلاسفة كما لم يُثبت الأكثرون حركَتَها على نفسها، وأثبتها الشيخُ أبو عليٍّ ومَن تَبِعَه من المحقِّقين، وقد صرَّحوا بأنَّ هذه الصُّوَرَ المسماةَ بالأسماء المعلومةِ تُوُهِّمَت على المنطقة وما يقرب منها من الجانبَين من كواكب ثابتةٍ تنظمها خطوطٌ موهومةٌ وقَعَت وقت القسمة في تلك الأقسام.

ونقل ذلك في «الكفاية»[٢] عن عامَّة المنجِّمين، وأنَّهم إنَّما توهَّمُوا لكلِّ قسمٍ صورةً ليحصلَ التفهيم والتعليم، بأنْ يقال: الدَّبَران مثلاً عينُ الأسد.

وتعَقَّب ذلك بقوله: وهذا ليس بسديدٍ عندي؛ لأنَّ تلك الصُّورَ لو كانت وهميَّةً لم يكن لها أثرٌ في أمثالها من العالم السفلي، مع أنَّ الأمر ليس كذلك، فقد قال بَطْلِيمُوس في «الثمرة»[٣]: الصُّور التي في عالم التركيب مطيعةٌ للصُّوَر الفلكيةِ، إذ هي في ذواتها على تلك الصور، فأدركَتها الأوهامُ على ما هي عليه، وفيه بحث.

ثم هذه البروجُ مختلفةُ الآثار والخواصِّ، بل لكلِّ جزءٍ من كلٍّ منها ـ وإنْ كان أقلَّ من عاشرة بل أقلَّ الأقلِّ ـ آثارٌ تخالف آثارَ الجزءِ الآخر، وكلُّ ذلك آثارُ حكمة الله تعالى وقدرته عزَّ وجلَّ. وقد ذكر الشيخ الأكبر قدس سرُّه في بعض كتبه أنَّ آثارَ النجومِ وأحكامها مفاضةٌ عليها من تلك البروج المعتبرة في المحدد.

وفي الفصل الثالث من الباب الحادي والسبعين والثلاث مئة من فتوحاته مامنه: إنَّ الله تعالى قَسم الفلكَ الأطلسَ اثنَي عشر قِسْماً، سمَّاها بروجاً، وأسكنَ

---

(١) الفتوحات المكية ٢/ ٤٣٧.
(٢) كفاية التعليم في صناعة التنجيم، فارسي، للإمام ظهير الدين أبي المحامد محمد بن مسعود بن الزكي الغزنوي. كشف الظنون ٢/ ١٤٩٧.
(٣) الثمرة في أحكام النجوم. كشف الظنون ١/ ٥٢٤.

كلَّ برجٍ منها مَلَكاً، وهؤلاء الملائكة أئمة العالم، وجعَلَ لكلٍّ منهم ثلاثين خزانة، تحتوي كلٌّ منها على علومٍ شتَّى يهبون منها للنازل بهم قدر ما تُعطيه رُتْبتُه، وهي الخزائنُ التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١] وتُسمَّى عند أهل التعاليم بدرجات الفلك، والنازلون بها هم الجواري، والمنازلُ وعيوقاتها من الثوابت والعلوم الحاصلة من تلك الخزائن الإلهيَّة هي ما يظهرُ في عالم[١] الأركان من التأثيرات، بل ما يظهرُ في مُقعَّر فلك الثوابت إلى الأرض[٢]. إلى آخرِ ما قال، وقد أطال قُدِّسَ سره الكلام في هذا الباب، وهو بمعزل عن اعتقاد المحدِّثين نقلةِ الدين عليهم الرحمة.

ثم إنَّ في اختلاف خواصِّ البروج حسبما تشهدُ به التجربة مع ما اتَّفق عليه الجمهورُ من بساطة السماء أدلَّ دليلٍ على وجود الصانع المختار جلَّ جلاله.

﴿وَزَيَّنَّـٰهَا﴾ أي: السماء بما فيها من الكواكب السيَّارات وغيرها، وهي كثيرةٌ لا يَعلمُ عدَدها إلا الله تعالى. نعم المرصودُ منها ألفٌ ونَيِّف وعشرون، ورتَّبوها على ستِّ مراتب وسمَّوها أقداراً متزايدة سُدُساً حتى كان قطرُ ما في القَدْر الأوَّل ستَّةَ أمثالِ ما في القدر السادس، وجعلوا كلَّ قدرٍ على ثلاث مراتب، وما دون السادس لم يُثْبتوه في المراتب، بل إنْ كان كقطعة السحاب يُسمونه سحابيًّا وإلا فمظلماً.

وذكر في «الكفاية» أنَّ ما كان منها في القدر الأوَّل فَجِرمُه مئةٌ وستَّةٌ وخمسون مرَّةً ونصفُ عشر الأرض. وجاء في بعض الآثار أنْ أصغرَ النجوم كالجبل العظيم.

واستظهر أبو حيَّان عود الضمير للبروج، لأنَّها المحدَّث عنها والأقرب في اللفظ[٣]. والجمهور على ما ذكرنا حذراً من انتشار الضمائر.

﴿لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ أي: بأبصارهم إليها، كما قاله بعضُهم؛ لأنَّه المناسب

---

(١) في (م): عام.

(٢) الفتوحات ٣/ ٤٣٣-٤٣٤.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٤٩.

للتزيين، وجُوِّز أنْ يُرادَ بالتزيين ترتيبُها على نظام بديعٍ مستتبعاً للآثار الحسنة، فيُراد بالناظرين المتفكِّرون المستدلُّون بذلك على قُدرة مُقدِّرها وحكمةِ مدبِّرها جلَّ شأنه.

﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ مطرودٍ عن الخيرات، ويُطلَق الرجمُ على الرمي بالرِّجام وهي الحجارة، فالمرادُ بالرجيم المرميّ بالنجوم، ويُطلَق أيضاً على الإهلاك والقتل الشنيع.

والمرادُ بحفظها من الشيطان إما منعه عن التعرُّض لها على الإطلاق والوقوف على ما فيها في الجملة، فالاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ متَّصلٌ.

وإما المنعُ عن دخولها والاختلاط مع أهلها على نحو الاختلاط مع أهل الأرض، فهو حينئذٍ منقطعٌ.

وعلى التقديرَين محلُّ «مَن» النصبُ على الاستثناء، وجوَّز أبو البقاء[١] والحوفي كونَه في محلِّ جرٍّ على أنَّه بدلٌ من «كلِّ شيطانٍ» بدل بعضٍ من كلٍّ، واستغنى عن الضمير الرابط بـ «إلا».

واعتُرِضَ بأنَّه يشترط في البدليَّة أنْ تكونَ في كلامٍ غير موجبٍ، وهذا الكلام مثبت.

ودُفع بأنَّه في تأويل المنفي، أي: لم نمكِّن منها كلَّ شيطانٍ، أو نحوه، وأُورِدَ أنَّ تأويل المثبت في غير «أَبَى» ومتصرفاته غيرُ مقيسٍ ولا حسن، فلا يقال: مات القومُ إلا زيدٌ، بمعنى: لم يعيشوا، ولعلَّ القائل بالبدليَّة لا يُسلِّم ذلك، وقد أوَّلوا بالمنفي قوله تعالى: «فشربوا منه إلا قليل»[٢] [البقرة:٢٤٩]، وقولَه عليه الصلاة والسلام: «العالَمُ هلكى إلا العالمون» الخبر[٣]، وغيرَ ذلك مما ليس فيه «أَبَى» ولا شيء من متصرِّفاته، لكن الإنصاف ضَعْفُ هذه البدليَّة، كما لا يخفى.

وجوَّز أبو البقاء أيضاً أنْ يكون في محلِّ رفعٍ على الابتداء، والخبرُ جملة قوله

---

(١) ينظر الإملاء ٣/ ٤٢١.

(٢) وهي قراءة ابن مسعود والأعمش وأُبي، كما في البحر ٢/ ٢٦٦، وتقدَّمت في موضعها.

(٣) حديث موضوع، وقد تقدم الكلام عليه ٢/ ٢٨٢.

تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ وذكَر أنَّ الفاء من أجل أنَّ «مَن» موصولٌ أو شرطٌ[1].

والاستراقُ: افتعالٌ من السرقة، وهو أخذُ الشيء بخُفْيةٍ، شُبِّه به خطفتهم اليسيرة من الملأ الأعلى، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ [الصافات: ١٠] والمرادُ بالسمع المسموع.

والشهابُ ـ على ما قال الراغب ـ الشعلةُ الساطعةُ من النار الموقَدةِ ومن العارض في الجوِّ[2]، ويُطلَقُ على الكوكب؛ لبريقه كشعلة النار، وأصلُه من الشُّهبةُ، وهي: بياضٌ مختلِطٌ بسوادٍ، وليست البياض الصافي كما يغلطُ فيه العامَّة فيقولون: فرسٌ أشهبُ للقرطاسي.

والمراد بـ «مبينٌ» ظاهرٌ أمرُه للمبصرين، ومعنى «أَتْبَعَه»: تَبِعَه، عند الأخفش نحو: رَدَفتُه وأَردَفْتُه، فليسَت الهمزةُ فيه للتعدية[3]، وقيل: «أَتْبَعَه» أخصُّ من تَبِعَه لِمَا قال الجوهريُّ: تَبعتُ القومَ تبعاً وتَبَاعَةً ـ بالفتح ـ إذا مشيتَ خلفهم، أو: مرُّوا بك فمضيتَ معهم، وأَتْبَعْتُ القومَ ـ على أَفْعَلْتُ ـ إذا كانوا قد سبقوك فلحقتَهم[4]. واستحسَنَ الفرقَ بينهما الشهابُ[5].

ولمَّا كان الإتباع محتملاً للإهلاك وغيره اختلف العلماءُ في ذلك فحكى القرطبي عن ابن عباس أنَّ الشهاب يجرحُ ويحرقُ ولا يقتلُ، وعن الحسن وطائفة أنَّه يقتل، وادَّعى أنَّ الأوَّل أصحُّ[6]، ونقل غيرُ واحدٍ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: إنَّ الشياطين يركبُ بعضُهم على بعضٍ[7] إلى السماء الدنيا يسترقون السمعَ من الملائكة عليهم السلام، فيُرْمَون بالكواكب، فلا تُخطِئُ أبداً، فمنهم من تقتلُه ومنهم

---

(١) الإملاء ٣/ ٤٢١-٤٢٢.

(٢) مفردات الراغب (شهب).

(٣) حاشية الشهاب ٥/ ٢٨٨.

(٤) الصحاح (تبع).

(٥) في حاشيته ٥/ ٢٨٨.

(٦) تفسير القرطبي ١٢/ ١٨٩.

(٧) في (م): بعضهم بعضاً.

من تحرقُ وجهه أو جنبه أو يده أو حيث يشاء الله تعالى، ومنهم مَن تَخبِلُه فيصيرُ غولاً فيضلُّ الناس في البراري. ومما لا يعوَّلُ عليه ما يُروى مِن أنَّ منهم مَن يقعُ في البحر فيكونُ تمساحاً.

ومن الناس مَن طعن ـ كما قال الإمام[1] ـ في أمر هذا الاستراق والرمي من وجوه.

أحدها: أنَّ انقضاضَ الكواكب مذكورٌ في كتب قدماء الفلاسفة، وذكروا فيه أنَّ الأرض إذا سَخَنَت بالشمس ارتفَعَ منها بخارٌ يابسٌ، فإذا بلَغَ كرة النار التي دون الفلك احترقَ بها، فتلك الشعلةُ هي الشهاب، وقد يبقَى زماناً مشتعلاً إذا كان كثيفاً، وربما حميت الأدخنةُ في برد الهواء للتعاقب فانضغَطَت مشتعلةً، وجاء أيضاً في شعر الجاهلية كما قال بشر بن أبي حازم:

والعَيْرُ يلحقها الغبار وجَحْشُها يَنْقَضُّ خَلْفَهما انقضَاضَ الكوكبِ[2]

وقال أوس بن حجر:

وانقضَّ كالدِّرِّيءِ يَتبعُه نَقْعٌ يثُورُ تَخالُه طُنُبا[3]

إلى غير ذلك.

وثانيها: أنَّ هؤلاء الشياطين كيف يجوز فيهم أنْ يُشاهدوا ألوفاً من جنسهم يسترقون السمعَ فيحترقون، ثم إنَّهم مع ذلك يعودون لصنيعهم، فإنَّ مَن له أدنى عقلٍ إذا رأى هلاكَ أبناءِ جنسه من تعاطي شيءٍ مراراً، امتنع منه.

وثالثها: أنْ يقال: إنَّ ثخنَ السماء خمس مئة عام، فهؤلاء الشياطين إنْ نفَذُوا في جِرمها وخرقوها، فهو باطلٌ لنفي أنْ يكون لها فُطورٌ على ما قال سبحانه: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك:٣] وإنْ كانوا لا ينفُذُون فكيف يمكنُهم سماع أسرارِ الملائكة عليهم السلام مع هذا البعد العظيم؟!.

(١) مفاتيح الغيب ٣٠/ ٦١.

(٢) الديوان ص٨١، وتأويل مشكل القرآن ص٣٣٣، والمعاني الكبير ٢/ ٧٣٩.

(٣) الديوان ص٣، وتأويل مشكل القرآن ص٣٣٣-٣٣٤، والمعاني الكبير ٢/ ٧٣٩، والحيوان ٦/ ٢٧٤، وتهذيب اللغة ١٤/ ٥٨، واللسان (درأ)، الدريء: الكوكب المنقض يدرأ على الشيطان. تخالُه طُنُبا: يريد تخاله فسطاطاً مضروباً. ينظر تهذيب اللغة واللسان.

ورابعها: أنَّ الملائكةَ عليهم السلام إنَّما اطَّلعوا على الأحوال المستقبلة، إما لأنَّهم طالعوها من اللوح المحفوظ، أو لأنَّهم تلقَّفوها بالوحي، وعلى التقديرَين لِمَ لَمْ يسكُتُوا عن ذكرها حتى لا تتمكَّنَ الشياطينُ من الوقوف عليها؟.

وخامسها: أنَّ الشياطينَ مخلوقون من النار، والنارُ لا تحرق النارَ، بل تقوِّيها فكيف يُعقَل زجرُهم بهذه الشهب؟.

وسادسُها: أنَّكم قلتُم: إنَّ هذا القذفَ لأجل النبوَّة، فَلِمَ دامَ بعد وفاة النبيِّ ﷺ؟.

وسابعها: أنَّ هذه الشهبَ إنما تحدث بقُرْب الأرضِ بدليل أنَّا نُشاهدُ حركاتها، ولو كانَت قريبةً من الفلك لَمَا شاهدناها، كما لم نشاهد حركاتِ الأفلاكِ والكواكب، وإذا ثَبَت أنَّها تَحدُثُ بالقرب من الأرض فكيف يقال: إنَّها تمنعُ الشياطينَ من الوصول إلى الفلك؟.

وثامنها: أنَّ هؤلاء الشياطينَ لو كان يمكنهم أنْ ينقلوا أخبارَ الملائكة عليهم السلام عن المغيبات إلى الكهنة، فَلِمَ لم ينقلوا أسرار المؤمنين إلى الكفار حتى يتوصَّلوا بواسطة وقوفهم على أسرارهم إلى إلحاق الضرر بهم؟.

وتاسعها: لِمَ لم يمنعهم الله تعالى من الصعود ابتداءً حتى لا يحتاج في دَفْعهم إلى هذه الشهب.

وقال بعضهم: أيضاً: إنَّ السماع إنَّما يُفيدهم إذا عرفوا لغةَ الملائكةِ، فلِمَ لم يجعلهم الله سبحانه جاهلين بلغتهم؛ لئلَّا يُفيدَهم السماع شيئاً، وأيضاً إن انقطع الهواء دون مُقعَّر فلك القمرِ لم يحدث هناك صوتٌ، إذ هو مِن تَموُّج الهواء، والمفروض عدمه، وإنْ لم ينقطع كان دونَ ذلك أصواتٌ هائلةٌ من تَموُّج الهواء بحركة الأجرام العظيمة، وهي تمنعُ من سماع أصواتِ الملائكة عليهم السلام في محاوراتهم، ولا يكادُ يُظَنُّ أنَّ أصواتَهم في المحاورات تغلبُ هاتيك الأصوات لتسمع معها، وأيضاً ليس في السماء الدنيا إلا القمر، ولا نراه يرمى به، وسائرُ السيَّارات فوقُ ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣] والثوابتُ في الفَلَك الثامن، والرمي بشيءٍ من ذلك يستدعي خرقَ السماء وتشقُّقَها ليصلَ الشهابُ إلى الشيطانِ، وهو مما لا يكاد يقال.

وأجاب الإمامُ[1] عن الأوَّل أولاً: بأنَّ الشهبَ لم تكن موجودة قبل البعثة، وهذا قولُ ابنِ عباس، فقد رُوي عنه أنَّه قال: كان الجنُّ يصعَدون إلى السماء فيستمعون الوحي، فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها أشياءَ من عند أنفسهم، فلما بُعثَ النبيُّ ﷺ مُنعوا مقاعدَهم، ولم يكن النجوم يُرمى بها قبلَ ذلك، فقال لهم إبليسُ: ما هذا إلا لأمرٍ حدَثَ. الخبر[2].

وروي عن أُبَيِّ بنِ كعب أنَّه قال: لم يرمَ بنجم منذ رُفِعَ عيسى عليه السلام، حتى بُعثَ رسولُ الله ﷺ فرُميَ بها، فرأَت قريشٌ ما لم تَرَ قبلُ، فجعلوا يُسيِّبون أنعامَهم، ويعتقون رقابَهم، يظنُّون أنَّه الفناء، فبَلَغ ذلك كبيرَهم فقال: لِمَ تفعلون؟ فقالوا: رُمي بالنجوم. فقال: اعتبروا، فإنْ تكُن نجومٌ معروفةٌ فهو وقتُ فناء الناس، وإلا فهو أمرٌ حدثٌ، فنظروا فإذا هي لا تعرف، فأخبروه، فقال: في الأمر مهلةٌ، وهذا عند ظهور نبيٍّ[3]. الخبر.

وكُتُب الأوائل قد توالَت عليها التحريفاتُ، فلعلَّ المتأخِّرين ألحقُوا هذه المسألةَ بها؛ طعناً في هذه المعجزةِ، وكذا الأشعار المنسوبة إلى أهل الجاهلية لعلها مختلقة عليهم.

وثانياً ـ وهو الحقُّ ـ بأنَّها كانت موجودة قبل البعثة لأسباب أُخَر، ولا نُنكر ذلك إلا أنَّه لا يُنافي أنَّها بعد البعثةِ قد تُوجدُ بسببِ دفعِ الشياطين وزجرهم. يُروى أنَّه قيل للزهري: أكانَ يُرمَى في الجاهلية؟ قال: نعم. قيل: أفرأَيت قولَه تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٩] قال: غُلِّظ وشُدِّد أمرُها حين بُعثَ النبيُّ[4] ﷺ، وعلى نحو هذا يُخرَّج ما رُوي عن ابن عباس وأبيٍّ ﷺ إنْ صحَّ.

---

(١) مفاتيح الغيب ٣٠/ ٦١.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٢٤)، والنسائي في الكبرى (١١٥٦٢)، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) في هامش (م): يروى أنه أول مَن فزع للرمي بالنجوم هذا الحيُّ من ثقيف، وأنهم جاؤوا إلى رجل منهم يقال له: عمرو بن أمية أحد بني علاج، وكان أدهى العرب فقال لهم نحو ما ذكر في هذا الخبر. اهـ منه. وأخرج هذا الأثر ابن سعد في الطبقات ١/ ١٦٣.

(٤) أخرجه أحمد (١٨٨٢)، والترمذي (٣٢٢٤)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وعن الثاني: بأنَّه إذا جاء القَدَرُ عمي البصرُ، فإذا قضَى الله تعالى على طائفةٍ منهم الحرقَ؛ لطغيانهم وضلالهم، قَيَّض لها من الدواعي ما تُقدِم معه على الفعل المفضي إلى الهلاك.

وعن الثالث: بأنَّ البعدَ بين الأرض والسماء خمس مئة عام، فأما ثخنُ الفلك فإنَّه لا يكون عظيماً.

وعن الرابع: بأنَّه روي عن الزهريِّ، عن علي بنِ الحسين بن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه، عن ابن عباس قال: بينا النبيُّ ﷺ جالسٌ في نفرٍ من أصحابه إذ رُميَ بنجم فاستنار، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما كنتُم تقولون في الجاهلية إذا حدَثَ مثلُ هذا؟» قالوا: كنَّا نقول: يولد عظيمٌ أو يموتُ عظيمٌ، قال عليه الصلاة والسلام: «فإنَّها لا تُرمَى لموتِ أحدٍ ولا لحياتِه، ولكنَّ ربَّنا تعالى إذا قَضَى الأمرَ في السماء سبَّحَت حملةُ العرشِ، ثم سبَّح أهلُ السماء، وسبَّح أهلُ كلِّ سماءٍ حتى يَنتهي التسبيحُ إلى هذه السماء، ويَستخبرُ أهلُ السماء حملةَ العرش ماذا قال ربكم؟ فَيُخبرونهم، ولا يزالُ يَنتهي الخبرُ إلى هذه السماء، فيتخطفه الجنُّ، فَيُرمَون، فما جاؤوا به فهو حقٌّ، ولكنَّهم يَزيدُون فيه»[(١)].

وعن الخامس: بأنَّ النار قد تكونُ أقوى من نارٍ أخرى، فالأقوى تُبطلُ ما دونَها.

وعن السادس: بأنَّه إنَّما دامَ؛ لأنَّه عليه الصلاة والسلام أَخْبَرَ ببطلان الكهانة[(٢)]، فلو لم يدُم هذا القذفُ لعادَت الكهانةُ، وذلك يقدَحُ في خبر الرسولِ ﷺ عن بطلانها.

وعن السابع: بأنَّ البعدَ على مذهبنا غيرُ مانعٍ من السماع، فلعلَّه سبحانه وتعالى أجرَى عادتَه بأنَّهم إذا وَقَفُوا في تلك المواضع سمعُوا كلامَ الملائكة عليهم السلام.

وعن الثامن: بأنَّه لعلَّ الله تعالى أَقْدَرَهم على استماع الغيوبِ من الملائكة وأعجزَهم عن إيصال أسرارِ المؤمنين إلى الكفار.

وعن التاسع: بأنَّه عزَّ وجل يفعلُ ما يشاءُ ويحكمُ ما يريد.

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٨٢) و(١٨٨٣)، ومسلم (٢٢٢٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢١٠)، ومسلم (٢٢٢٨) من حديث عائشة ﵂. وسيأتي ص٤٣٢ من هذا الجزء.

وبهذا يُجابُ عن الأول فيما قيل.

وأُجيبَ عن الثاني: بأنَّا نختارُ انقطاعَ الهواء، والسماعُ عندنا بخَلْقِ الله تعالى، ولا يتوقَّفُ على وجود الهواء وتموُّجه، وقد يختارُ عدم الانقطاع، ويقال: إنَّه تعالى شأنه قادرٌ على منع الهواء من التموُّج بحركة هاتيك الأجرام، وكذا هو سبحانه قادرٌ على إسماعهم - مع هاتيك الأصوات الهائلةِ - السرَّ وأخفَى.

وعن الثالث: بأنَّ كونَ الثوابتِ في الفَلَك الثامن هو الذي ذَهَب إليه الفلاسفة، واحتجُّوا عليه بأنَّ بعضَها فيه، فيجبُ أنْ يكونَ كلُّها كذلك.

أما الأول؛ فلأنَّ الثوابتَ التي تكونُ قريبةً من المنطقةِ تنكسِفُ بالسيَّارات، فوجَبَ أنْ تكونَ الثوابتُ المنكسِفَةُ فوق السيَّارات الكاسفة.

وأما الثاني؛ فلأنَّها بأسرها متحركة حركةً واحدةً بطيئةً في كلِّ مئة سنة أو أقل على الخلافِ درجةً، فلا بدَّ أنْ تكونَ مركوزةً في كرةٍ واحدةٍ، وهو احتجاجٌ ضعيفٌ، لأنَّه لا يلزمُ من كون بعضِ الثوابتِ فوقَ السيَّارات كون كلّها هناك، لأنَّه لا يبعدُ وجودُ كرةٍ تحت كرة القمرِ، وتكونُ في البطء مساويةً لكرة الثوابت، وتكونُ الكواكبُ المركوزةُ فيما يُقارب القطْبَين مركوزةً في هذه الكرة السُّفلية، إذ لا يبعدُ وجودُ كرتَين مختلفَتَين بالصِّغَر والكِبَر مع كونهما متشابهتَين في الحركة، وعلى هذا لا يمتنعُ أنْ تكونَ هذه النجومُ في السماء الدنيا.

وقد ذكر الجلالُ السيوطي وغيرُه أنَّه جاء في بعض الآثار أنَّ الكواكبَ معلَّقةٌ بسلاسل من نور بأيدي ملائكةٍ في السماء الدنيا يُسيِّرونها حيث شاء الله تعالى وكيف شاء[1]، إلا أنَّ في صحة ذلك ما فيه.

على أنَّ ما ذُكِرَ في السؤال من أنَّ ذلك يستلزمُ الخرقَ وهو مما لا يكادُ يقال، إما أنْ يكونَ مبنيًّا على القول بامتناع الخرقِ والالتئام على الفَلَك المحدَّد وغيره، وقد تقرَّر فسادُ ذلك وحقِّق إمكانُ الخرق والالتئام بما لا مزيدَ عليه في غير كتابٍ من كتب الكلام.

(١) الأثر في الوسيط ٤/٤٢٨ عن الكلبي وعطاء.

وإما أنْ يكونَ مبنيًّا على مجرَّد الاستبعاد، فهو مما لا يفيدُ شيئاً؛ لأنَّ أكثرَ الممكنات مستبعَدَةٌ، وهي واقعةٌ، ولا أظنُّك في مِريةٍ من ذلك، بل قد يقال: نحن لا نلتزمُ أنَّ الكوكبَ نفسَه يتبعُ الشيطان فيحرقَه، والشهابُ ليس نصًّا في الكوكب؛ لِمَا علمتَ ما قيل في معناه، وإنْ قيل: إنَّه بنفسه ينقضُّ ويَرمي الشيطانَ ثم يعودُ إلى مكانه لظاهر إطلاق الرجومِ على النجوم، وقولهم: رُمي بالنجم، مثلاً.

وكذا لا نلتزمُ القولَ بأنَّه ينفصلُ عن الكوكب شعلةٌ كالقبسِ الذي يُؤخَذ من النار فيُرْمَى بها، كما قاله غيرُ واحد، لنحتاجَ في الجواب عن السؤال بما تقدَّم، إذ يجوزُ أنْ يقال: إنَّه يؤثِّر حيث كان بإذن الله تعالى هذه الشعلة المسماة بالشهاب ويحرقُ بها مَن شاء الله تعالى من الشياطين.

وإطلاقُ الرجوم على النجوم وقولهم: رمي بالنجم، يحتملُ أنْ يكونَ مبنيًّا على الظاهر للرائي كما في قوله تعالى في الشمس: ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: ٨٦].

وقال الإمام(١): إنَّ هذه الشهبَ ليسَت هي الثوابت المركوزة في الفلك، وإلا لظهر نقصانٌ كثيرٌ في أعدادها، مع أنَّه لم يوجد نقصان أصلاً. وأيضاً إنَّ في جعلها رجوماً ما يُوجب النقصانَ في زينة السماء، بل هي جنسٌ آخرُ غيرُها، يُحدِثُها الله تعالى ويجعلُها رجوماً للشياطين، ولا يأباه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥] حيث أفادَ أنَّ تلك المصابيح هي الرجوم بأعيانها؛ لأنَّا نقول: كلُّ نيِّرٍ يحصُل في الجوِّ العالي فهو مصباحٌ لأهل الأرض، إلا أنَّ المصابيح منها باقيةٌ على وجه الدهر آمنةٌ من التغيُّر والفساد، ومنها ما لا يكونُ كذلك، والشهبُ من هذا القسم. وحينئذٍ يزول الإشكال. انتهى.

والجرحُ والتعديلُ بين القولَين مفوَّضان إلى شهاب ذهنك الثاقب، وفي أجوبته السابقة رحمه الله تعالى ما لا يخفَى ضعفُه، وكذا شاهدةٌ عليه بقلَّة الاطِّلاع على الأخبار الصحيحة المشهورة، ألا ترى قولَه في الجواب عن ثالث الأسئلة التسعة: إنَّ البعد بين السماء والأرض خمس مئة عام، وأمّا ثِخَنُ الفلك فإنَّه لا يكونُ عظيماً، فإنَّه مخالفٌ لما نطقَت به الشريعةُ وهَذَت به الفلسفة، أما مخالفتُه للأوَّل؛

(١) مفاتيح الغيب ٢٦/ ١٢١.

فلأنَّه قد صحَّ أنَّ سَمْكَ كلِّ سماءٍ خمس مئة عام، كما صحَّ أنَّ بين السماء والأرض(١) كذلك.

وأما مخالفتُه للثاني؛ فلأنَّه لم يقل أحدٌ من الفلاسفة: إنَّ بين السماء والأرض هذه المسافة التي ذكرها، والأفلاكُ عندَهم مختلفةٌ في الثِّخَن، وقد بيَّنوا ثِخَنَ كلٍّ بالفراسخ حسبما ذكر في كتب الأجرام والأبعاد، وذكروا في ثخن المحدَّد ما يشهد بمزيد عظمة الله جلَّ جلاله، لكن لا مستندَ لهم قطعيٌّ في ذلك، بل إنَّ قولهم: لا فضل في الفلكيَّات مع كونه أشبه شيء بالخطابيَّات يُعكِّرُ عليه.

وقوله في الجواب عن السادس: إنَّه إنما دامَ؛ لئلَّا يقدح انقطاعُه في خبر الرسول ﷺ عن بُطلان الكهانة، فإنَّه مستلزمٌ للدور، إذ الظاهرُ أنَّه عليه الصلاة والسلام إنَّما أخبر بذلك لعلمه بدوام القذفِ المانعِ من تحقُّق ما تتوقَّف عليه الكهانة.

وفي قوله في الجواب عن الخامس: إنَّ النار قد تكونُ أقوى من نارٍ أخرى فتبطلها، ظاهرٌ في أنَّ الشياطين نارٌ صِرْفة، وليس كذلك، بل الحقُّ أنَّهم يغلبُ عليهم العنصرُ الناريُّ، وقد حصل لهم بالتركيب ولو مع غَلبة هذا العنصرِ ما ليس للنار الصِّرفة، وهو ظاهر.

هذا، ثم اعلم أنَّه يجوز أنْ يكونَ استراقُ السمع من الملائكة الذين عند السماء، لا من الملائكة الذين بين كلِّ سماءٍ وسماء، ليجيءَ حديثُ الثخنِ واستبعاد السماع معه، ويشهدُ لهذا ما رواه البخاريُّ عن عروةَ بنِ الزبير عن عائشةَ ﵂ قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إنَّ الملائكةَ تنزلُ في العَنَان ـ وهو السَّحابُ ـ فَتذْكُرُ الأمرَ قُضِيَ في السماء، فَتَستَرِقُ الشياطينُ السمعَ فتسمَعُهُ، فتوحيه إلى الكُهَّان، فيكذِبُون مع الكلمة مئةَ كَذبةٍ مِن عند أنفسِهم»(٢).

ولا يُنافيه ما رواه أيضاً عن عكرمة أنَّه قال: سمعتُ أبا هريرةَ يقول: إنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا قَضَى اللهُ تعالى الأمرَ في السماء ضَرَبَت الملائكةُ أجنحتَها

---

(١) أخرجه الترمذيُّ (٣٢٩٨) من حديث أبي هريرة ﵁. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٨٦: رجاله رجال الصحيح.

(٢) صحيح البخاري (٣٢١٠)، وأخرجه مسلم (٢٢٢٨).

خُضْعاناً لقوله سبحانه، كأنَّه سِلْسِلةٌ على صَفْوان، فإذا فُزِّع عن قُلُوبهم قَالُوا: ماذا قال ربُّكم؟ قالوا: الحقَّ، وهو العليُّ الكبيرُ، فيسمَعَها مُستَرِقُ السَّمْع» الخبر[١]، إذ ليس فيه أكثر من سماعِ المستَرقِ الكلمةَ بعد قولِ الملائكة عليهم السلام بعضهم لبعض.

وعدمُ منافاة هذا لذاك ظاهرٌ عند مَن ألقى السَّمعَ وهو شهيد، وأنَّه ليس في الآيات ما هو نصٌّ في أنَّ ما نراه من الشُّهب لا يكونُ إلا لرَمْي شيطانٍ يسترقُ، بل غايةُ ما فيها أنَّه إذا استرقَ شيطانٌ أَتْبَعَهُ شهابٌ ورمي بنجمٍ، وأينَ هذا من ذاك؟

نعم في خبر الزهريِّ ما يحتاجُ معه إلى تأمُّل، وعلى هذا فيجوزُ أنْ يكونَ حدوث بعضِ ما نراه من الشُّهب لتصاعد البخار حسبما تقدَّم عن الفلاسفة، وكذا يجوزُ أنْ يكونَ صعودُ الشياطين للاستراق في كلِّ سنةٍ مثلاً مرَّةً، ولا يخفَى نفعُ هذا في الجواب عن السؤال الثاني.

ومن الناس مَن أجابَ عنه بأنَّه لا يبعدُ أنْ يكونَ المسترقونَ صنفاً من الشياطين، تقتضي ذواتُهم التصاعدَ نظيرَ تصاعد الأبخرةِ، بل يجوزُ أنْ يكونَ أولئك الشياطينُ أبخرةً تعلَّقَت بها أنفسٌ خبيثةٌ على نحو ما ذكر الفلاسفة من أنَّه قد يتعلَّقُ بذوات الأذناب نفسٌ فتغيبُ وتطلعُ بنفسها. وفيه بحثٌ.

ونقل الإمام[٢] عن الجبَّائي أنَّه قال في الجواب عن ذلك: إنَّ الحالةَ التي تعتريهم ليس لها موضعٌ معيَّنٌ، وإلا لم يذهبوا إليه، وإنَّما يُمنَعون من المصير إلى مواضعِ الملائكةِ، ومواضعها مختلفةٌ، فربَّما صاروا على موضعهم فتُصيبهم الشهبُ، وربَّما صاروا إلى غيره ولا يصادفون الملائكة فلا يُصيبهم شيءٌ، فلمَّا هلكوا في بعض الأوقات وسَلِمُوا في بعضها جاز أنْ يصيروا إلى موضعٍ يغلبُ على ظنونهم أنَّها لا تُصيبُهم فيه، كما يجوزُ فيمَن يسلك البحر أنْ يسلكَه في موضع يغلبُ على ظنِّه حصول النجاة فيه.

وتعقَّبه بقوله: ولقائلٍ أنْ يقولَ: إنَّهم إنْ صَعِدُوا فإمَّا أنْ يصلوا إلى مواضع

(١) صحيح البخاري (٤٧٠١) و(٤٨٠٠).

(٢) مفاتيح الغيب ٢٦/ ١٢١.

الملائكة، أو إلى غيرها، فإنْ وصلُوا إلى الأول احترقوا، وإن إلى الثاني لم يَظفَروا بمقصودٍ أصلاً، فعلى كلا التقديرَين المقصودُ غيرُ حاصل، فإذا حصلَت هذه التجربة وثَبَت بالاستقراء أنَّ الفوزَ بالمقصود مُحالٌ(١) وَجَب أنْ يَمتنِعُوا، وهذا بخلاف حال المسافر في البحر، فإنَّ الغالب على المسافرين فيه الفوزُ بالمقصود، ثم قال: فالأقرب في الجواب أنْ نقولَ: هذه الواقعةُ إنما تتفقُ في الندرة، فلعلَّها لا تشتهرُ بسبب كونها نادرةً فيما بين الشياطين. اهـ.

وأنت تعلمُ أنَّ هذا لا يكادُ يتمُّ إلا مع القول بأنَّه ليس كلُّ ما نراه من الشهب يحرقُ به الشياطين، والأمر مع هذا القولِ سهلٌ كما لا يخفى.

وذكر البيضاوي أنَّ استراقَ السمع خطفتُهم اليسيرة من قُطَّان السماوات لِمَا بينهم من المناسبة في الجوهر، أو بالاستدلال مِن أوضاع الكواكب وحركاتها(٢).

وذَكَر عند قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٢] أنَّ السمعَ مشروطٌ بمشاركتهم في صفات الذات وقبول فَيَضان الحقِّ والانتقاش بالصورة الملكوتيةِ، ونفوسُهم خبيثةٌ ظلمانيةٌ شريرةٌ بالذات لا تَقبل ذلك(٣).

ولا يخفَى ما فيه. فإنَّه ظاهرٌ في أنَّ الاستراق يقتضي مناسبةَ الجوهر، والسمع التامّ يقتضي المشاركةَ المذكورةَ، وهو لا يتمشَّى على أصول الشرع، وفي أنَّ تلقيهم يكونُ من الأوضاع الفلكيَّةِ، وهو مخالفٌ لصريح النَّظْم والأحاديث، مع أنَّه يقتضي أنْ يكونَ قُطَّان السماء بمعنى الكواكب وشمول «مَن» شياطين الإنس من المنجِّمين، وهو كما ترى.

وذَكَر هو وغيرُه عن ابن عباس ﵄ أنَّ الشياطين كانوا لا يُحجَبُون عن السماوات، فلمَّا وُلد عيسى عليه السلام مُنِعُوا من ثلاث سماوات، ولمَّا وُلد النبيُّ ﷺ مُنِعُوا من السموات كلِّها(٤)، اهـ.

---

(١) في (م): محقق، والمثبت من الأصل ومفاتيح الغيب ٢٦/ ١٢١.

(٢) تفسير البيضاوي (بهامش حاشية الشهاب) ٥/ ٢٨٧.

(٣) تفسير البيضاوي (بهامش حاشية الشهاب) ٧/ ٢٨.

(٤) تفسير البيضاوي (بهامش حاشية الشهاب) ٥/ ٢٨٧.

ومن الناس من ذهب أخذاً ببعض الظواهر إلى أنَّ المنعَ عند البعثة، والله تعالى أعلم.

بَقِيَ ها هنا إشكالٌ ذكره الإمامُ مع جوابه فقال: ولقائل أن يقول: إذا جوَّزتم في الجملة أنْ يصعد الشيطانُ إلى السماء ويَسمع أخبارَ الغيوب من الملائكة عليهم السلام ثم يلقيها إلى الكهنة، وَجَب أنْ يخرجَ الإخبارُ عن المغيبات عن كونه معجزاً دالًّا على الصدق؛ لأنَّ كلَّ غيبٍ يُخبرُ عنه الرسولُ عليه الصلاة والسلام يقومُ فيه هذا الاحتمال، ولا يقال: إنَّ الله تعالى أخبرَ أنَّهم عجزوا عن ذلك بعد مولده ﷺ لأنَّا نقول: هذا العجزُ[1] لا يمكنُ إثباتُه إلا بعدَ القطع بكونه عليه الصلاة والسلام رسولاً، وبكون القرآن حقًّا، والقطعُ بهذا لا يمكنُ إلا بواسطة المعجِز، وكونُ الإخبار عن الغيوب معجزاً لا يثبتُ إلا بعد إبطال هذا الاحتمال، وحينئذٍ يلزم الدور، وهو محال.

ويمكنُ أنْ يُجابَ عنه بأنَّا نثبت كونَه ﷺ رسولاً بسائر المعجزات، ثم بعد العلم بثبوت ذلك نقطعُ بأنَّ الله تعالى أَعْجَزَ الشياطينَ عن تلقُّف الغيبِ بهذا الطريق، وعند ذلك يصيرُ الإخبار عن الغيوب معجزاً، ولا يلزمُ الدور[2]. اهـ فتدبَّر، والله سبحانه وليُّ التوفيق وبيده أَزِمَّةُ التحقيق.

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ بسطناها، قال الحسن: أخذ الله تعالى طينةً فقال لها: انبسطي، فانبسطَت. وعن قتادة أنَّه قال: ذُكِرَ لنا أنَّ أمَّ القُرى مكةُ، ومنها دُحيَت الأرضُ وبُسطَت. وعن ابن عباس أنَّه قال: بسطناها على وجه الماء. وقيل: يحتمل أنْ يكونَ المرادُ: جعلناها ممتدةً في الجهات الثلاث الطولِ والعرضِ والعمقِ، والظاهرُ أنَّ المرادَ بسطُها وتوسعتُها ليحصل بها الانتفاعُ لمن حلَّها، ولا يلزمُ من ذلك نَفْي كرويتها، لِمَا أنَّ الكرةَ العظيمةَ لعظمها تُرى كالسطح المستوي.

ونصب «الأرض» على الحذف على شريطة التفسير، وهو في مثل ذلك أرجحُ من الرفع على الابتداء، للعطف على الجملة الفعلية، أعني قولَه تعالى: ﴿وَلَقَدْ

---

(١) في الأصل و(م): المعجز، والمثبت من مفاتيح الغيب، والكلام منه.
(٢) مفاتيح الغيب ١٩/ ١٦٩-١٧٠.

جعَلْنَا) إلخ، وليوافق ما بعدَه أعني قولَه سبحانه: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي: جبالاً ثوابتَ، جمع راسية جمع راسٍ، على ما قيل.

وقد بيَّن حكمةَ إلقاء ذلك فيها في قوله سبحانه: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] قال ابن عباس: إنَّ الله تعالى لما بَسَط الأرضَ على الماء مالَت كالسفينة فأرساها بالجبال الثقال؛ لئلا تميلَ بأهلها، وقد تقدَّم الكلامُ في ذلك[١].

وزعم بعضُهم[٢] أنَّه يجوزُ أنْ يكونَ المرادُ أنَّه تعالى فعلَ ذلك لتكونَ الجبالُ دالَّةً على طرق الأرض ونواحيها، فلا تميدُ الناسُ عن الجادَّة المستقيمةِ، ولا يقعون في الضلال، ثم قال: وهذا الوجهُ ظاهرُ الاحتمال. وأنت تعلم أنَّه لا يسوغ الذهابُ إليه مع وجود أخبارٍ تأباه كالجبال.

﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ أي: في الأرض، وهي إما شاملةٌ للجبال؛ لأنَّها تُعدُّ منها، أو خاصَّةٌ بغيرها؛ لأنَّ أكثرَ النباتِ وأحسنَه في ذلك. وجوَّز أنْ يكونَ الضميرُ للجبال والأرض بتأويل المذكورات مثلاً، أو للأرض بمعنى ما يقابل السماء بطريق الاستخدام، وعوده على الرواسي؛ لقربها، وحملُ الإنبات على إخراج المعادن بعيدٌ.

﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ١٩﴾ أي: مقدَّر بمقدار معيَّن تقتضيه الحكمةُ، فهو مجازٌ مستعمَلٌ في لازم معناه، أو كنايةٌ، أو مِن كلِّ شيءٍ مستحسَنٍ متناسبٍ، من قولهم: كلامٌ موزون، وأنشد المرتضَى في «درره» لهذا المعنى قولَ عمر بن أبي ربيعة:

وَحَديثٍ أَلَذُّه وهو ممَّا ... تَشْتهيه النفوسُ يُوزَنُ وَزْنا[٣]

---

(١) في الآية (٣) من سورة الرعد.

(٢) وقع في حاشية (م): هو الإمام الرازي. اهـ منه. وكلامه في تفسيره ١٩/ ١٧١.

(٣) كذا في حاشية الشهاب ٥/ ٢٨٨ والكلام منه، ولم نقف عليه في ديوان عمر بن أبي ربيعة، ثم إن المرتضى في أماليه (درره) ١/ ١٤ نسبه لمالك بن أسامة بن خارجة الفزاري، وكذلك نُسب لمالك في البيان والتبيين ١/ ١٤٧، والشعر والشعراء ٢/ ٢٨٢، ومجالس ثعلب ص٥٣١، والأغاني ١٧/ ٢٣٦، وتاريخ بغداد ١٢/ ٢١٤، وفصل المقال شرح كتاب الأمثال ١/ ٥، وتاريخ دمشق ٤٥/ ٤٣٩ و٥٦/ ٣٥٨، وسمط اللآلي شرح أمالي القالي ١/ ١٦، ولسان العرب (لحن).

وقد شاع استعمالُ ذلك في كلام العجم والمولّدِين، فيقولون: قوامٌ موزون، أي: متناسبٌ معتدِلٌ.

أو: ما لَه قدرٌ واعتبارٌ عند الناس في أبواب النعمة والمنفعة، وقال ابنُ زيد: المرادُ ما يوزن حقيقةً كالذهب والفضَّة وغيرهما.

و «مِن» كما في «البحر» للتبعيض[١]، وقال الأخفش[٢]: هي زائدة، أي: كلّ شيءٍ.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ ما تعيشون به من المطاعم والمشاربِ والملابس وغيرها مما يتعلَّق به البقاء، وهو بياء صريحة.

وقرأ الأعرجُ وخارجةُ عن نافع بالهمز، قال ابنُ عطية[٣]: والوجهُ تركُه؛ لأنَّ الياءَ في ذلك عينُ الكلمة، والقياسُ في مثله أنْ لا يُبدلَ همزةً، وإنما يُبدل إذا كان زائداً، كياء شمائل وخبائث، ولكن لمَّا كان الياءُ هنا مشابهاً للياء هناك في وقوعه بعد مَدَّةٍ زائدةٍ في الجمع، عُومل معاملتَه على خلاف القياس.

﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾ عطف على «معايش»، أي: وجعلنا لكم مَن لستُم برازقيه من العيال والمماليك والخدم والدوابِّ وما أشبهها، على طريقة التغليب كما قال الفراء[٤] وغيرُه. وذكَّرهم بهذا العنوانِ؛ لردِّ حسبان بعض الجهلة أنَّهم يُرتَزَقون منهم، أو لتحقيق أنَّ الله تعالى يرزقُهم وإياهم مع ما في ذلك من عظيم الامتنان.

ويجوزُ عطفه على محلِّ «لكم»، وجوَّز الكوفيون ويونسُ والأخفشُ وصحَّحه أبو حيان العطفَ على الضمير المجرور[٥]، وإنْ لم يُعَد الجارُّ، والمعنى على التقديرَين سواء، أي: وجعلنا لكم معايشَ ولمن لستُم له برازقين.

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٥٠.

(٢) ينظر معاني القرآن له ١/ ٢٧٢، ونقله عنه بواسطة البحر المحيط ٥/ ٤٥٠.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٥، وقراءة الأعرج وخارجة السابقة فيه، وفي البحر المحيط ٥/ ٤٥٠.

(٤) ينظر معاني القرآن له ٢/ ٨٦، والبحر المحيط ٥/ ٤٥٠.

(٥) البحر المحيط ٥/ ٤٥١، وقول يونس والأخفش فيه.

وقال الزجاج[١]: إنَّ «مَن» في محلِّ نصبٍ بفعلٍ محذوفٍ والتقدير: وأَعَشْنَا مَن لستُم... إلخ، أي: أمماً غيرَكم؛ لأنَّ المعنى أعشناكم، وقيل: إنَّه في محلِّ رفعٍ على الابتداء، وخبرُه محذوفٌ لدلالة المعنى عليه، أي: ومَن لستُم له برازقين جعلنا له فيها معايش، وهو خلافُ الظاهر.

وقال أبو حيان: لا بأسَ به، فقد أجازوا: ضربتُ زيداً وعمرٌو، بالرفع على الابتداء، أي: وعمرٌو ضربتُه، فحذف الخبر؛ لدلالة ما قبله عليه[٢].

وأخرج ابن المنذر وغيرهُ عن مجاهد أنَّ المراد بـ «مَن لستُم» إلخ الدوابُّ والأنعام[٣]، وعن منصور: الوحش، وعن بعضهم: ذاك والطير. فـ «مَن» على هذه الأقوال لِمَا لا يعقل.

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ﴾ «إنْ» نافية و«مِن» مزيدةٌ للتأكيد، و«شيءٍ» في محلِّ الرفع على الابتداء، أي: ما شيءٌ من الأشياء الممكنةِ، فيدخل فيها ما ذُكِرَ دخولاً أوليًّا، والاقتصارُ عليه قصورٌ. وزعم ابنُ جريج وغيرُه أنَّ الشيءَ هنا المطرُ خاصَّة.

﴿إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ الظرف خبرٌ للمبتدأ، و«خزائنُه» مرتفعٌ به على أنَّه فاعلُه لاعتماده، أو مبتدأٌ، والظرفُ خبرُه، والجملةُ خبرٌ للمبتدأ الأول، والخزائنُ جمع خزانة ولا تُفتَح، وهي: اسمٌ للمكان الذي يُحفَظ فيه نفائسُ الأموال لا غير، غَلَبت - على ما قيل - في العرف على ما للملوك والسلاطين من خَزائن أرزاقِ الناس، شُبِّهت مقدوراتُه تعالى الفائقة[٤] للحصر المندرجةُ تحت قدرته، الشاملةُ في كونها مستورةً عن علوم[٥] العالمين ومصونةً عن وصول أيديهم مع وفور رغبتهم فيها، وكونها متهيِّئة متأتيةً لإيجاده وتكوينه، بحيث متى تعلَّقَت الإرادةُ بوجودها وُجِدَت بلا تأخُّرٍ = بنفائس الأموال المخزونةِ في الخزائن السلطانية، فذكر الخزائن على طريقة الاستعارة التخييلية. قاله غير واحد.

---

(١) ينظر معاني القرآن له ٣/ ١٧٧، والبحر المحيط ٥/ ٤٥١ والكلام منه.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٥١.
(٣) عزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٩٥، وأخرجه الطبري ١٤/ ٣٧.
(٤) في (م): الغائبة.
(٥) في الأصل: عيون، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٧٢.

وجوّز أنْ يكونَ قد شُبِّه اقتدارُه تعالى على كلِّ شيءٍ وإيجادُه لِمَا يشاء بالخزائن المودَعةِ فيها الأشياء المعدَّة لأنْ يخرجَ منها ما شاء، فذكر ذلك على سبيل الاستعارة التمثيليَّة، والمرادُ: ما مِن شيءٍ إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه.

وقيل: الأنسبُ أنَّه مَثَلٌ لعلمه تعالى بكلِّ معلومٍ، ووجهه ـ على ما قيل ـ أنَّه يبقى «شيء» على عمومه؛ لشموله الواجب والممكن، بخلاف القدرة، ولأنَّ «عند» أنسبُ بالعلم؛ لأنَّ المقدور ليس عنده إلا بعد الوجود.

وتُعقِّب بأنَّ كون المقدوراتِ في خزائن القدرة ليس باعتبار الوجودِ الخارجيِّ بل الوجود العلمي.

وقال قومٌ: الخزائنُ على حقيقتها، وهي الأماكن التي تُحفَظ فيها الأشياءُ وأنَّ للريح مكاناً وللمطر مكاناً، ولكلِّ مكانٍ حَفَظةٌ من الملائكة عليهم السلام، ولا يخفَى أنَّه لا يمكن مع تعميم الشيء.

﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ أي: ما نُوجِدُ وما نكوِّنُ شيئاً من تلك الأشياء مُلتبساً بشيء من الأشياء ﴿إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢١﴾ أي: إلّا ملتبساً بمقدارٍ معيَّنٍ تقتضيه الحكمةُ وتستدعيه المشيئةُ التابعةُ لها من بين المقدورات الغير المتناهية، فإنَّ تخصيصَ كلِّ شيءٍ بصفةٍ معيَّنة وقَدْرٍ معيَّنٍ ووقتٍ محدودٍ دون ما عدا ذلك مع استواء الكلِّ في الإمكان(١) وصحةِ تعلُّق القدرة به لا بدَّ له من حكمةٍ تقتضي اختصاصَ كلٍّ من ذلك بما اختصَّ به، وهذا لبيان سرِّ عدم تكوُّن الأشياء على وجه الكثرة حسبما هو في الخزائن، وهو إمَّا عطفٌ على مقدَّر، أي: ننزِّله، وما ننزِّله إلا بقدرٍ إلى آخره، أو حالٌ مما سبق، أي: عندنا خزائنُ كلِّ شيءٍ، والحال أنَّا ما نُنزِّله إلا بقدرٍ إلى آخره. فالأوَّل لبيان سعةِ القدرة، والثاني لبيان بالغِ الحكمة. قاله مولانا شيخ الإسلام(٢).

وقرأ الأعمشُ: «وما نرسله إلا» إلى آخره، وهي على ما في «البحر» قراءةُ تَفسير؛ لمخالفتها لسواد المصحف(٣)، والأَوْلَى في التفسير ما ذكرنا، وإنَّما عبَّر عن إيجاد ذلك وإنشائه بالتنزيل لِمَا أنَّه بطريق التفضُّل من العالم العلويِّ إلى العالم السفليِّ.

---

(١) في الأصل و(م): الأشكال، والمثبت من تفسير أبي السعود ٥/ ٧٢ والكلام منه.
(٢) أبو السعود في تفسيره ٥/ ٧٢.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٥١.

وقيل: لِمَا أنَّ فيه إخراج الشيء مما تميلُ إليه ذاتُه من العدم إلى ما لا تميلُ إليه ذاتُه من الوجود، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر:٦] وقوله سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد:٢٥].

وكأنَّ مَن حمل الشيءَ على المطر غرَّه ظاهرُ التنزيل، فارتكب خلافَ ظاهره جدًّا، وكأنَّه لمَّا كان ذلك بطريق التدريجِ عبَّر عنه بالتنزيل، وجيء بصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار.

واستدلَّ بعضُ القائلين بشيئيَّةِ المعدوم على ذلك بهذه الآية، وقد بيَّن وجهَهُ والجوابَ عنه الإمامُ[1]، ونحن مع القائلين بالشيئيَّة.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ عطف على «جَعَلنا لكم فيها معايشَ» وما بينهما اعتراضٌ لتحقيق ما سبَقَ وترشيحِ ما لَحِقَ.

واللواقح جمع لاقِح، بمعنى: حامل، يقال: ناقةٌ لاقِحٌ، أي: حاملٌ، ووَصْفُ الرياحِ بذلك على التشبيه البليغ، شُبِّهت الريحُ التي بالسحاب الماطرِ بالناقة الحامل؛ لأنَّها حاملةٌ لذلك السحاب أو للماء الذي فيه. وقال الفرَّاء: إنَّها جمعُ لاقح على النسب كـ: لابن وتامر، أي: ذات لقاح وحمل[2]، وذهب إليه الراغب[3]، ويقال لضدِّها: ريحٌ عقيم، وقال أبو عبيدة: «لواقح» أي: مَلاقِح جمع مُلْقِحة كالطوائح في قوله:

لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ لخصومةٍ ومُخْتَبِطٌ مما تُطيح الطَّوائحُ[4]

أي: المطاوِح، جمع مُطيحَة، وهو مِن ألقَحَ الفحلُ الناقةَ: إذا ألقى ماءَه فيها لتحمل. والمرادُ مُلقِحات للسحاب أو الشجر، فيكونُ قد استُعير اللَّقح لصَبِّ المطر في السحاب أو الشجر، وإسنادُه إليها على الأوَّل حقيقةٌ وعلى الثاني مجازٌ، إذ المُلقي في الشجر السحابُ لا الريحُ.

---

(١) في مفاتيح الغيب ١٩/ ١٧٥.
(٢) ينظر معاني القرآن ٢/ ٨٧، ونقله عنه بواسطة حاشية الشهاب ٥/ ٢٨٩.
(٣) مفردات الراغب (لقح).
(٤) مجاز القرآن ١/ ٣٤٩ ونَسَب البيت فيه لنهشل، وتقدم ٥/ ٣٦٩.

والرياحُ اللواقحُ هي ريحُ الجنوب كما رواه ابنُ أبي الدنيا عن قتادة مرفوعاً[١]، وروى الديلميّ بسندٍ ضعيف عن أبي هريرة نحوَه[٢]، وأخرجَ ابنُ جرير وغيرُه عن عُبيد بن عُمير قال: يبعثُ الله تعالى المبشِّرةَ فتقُمُّ الأرضَ قَمًّا، ثم يبعثُ المثيرةَ فتُثيرُ السحابَ فتجعله كسَفاً، ثم يبعثُ المؤلِّفةَ فتُؤَلِّفُ بينه فيجعلُه ركاماً، ثم يبعثُ اللواقحَ فتُلقِحُه فيمطر[٣].

وقرأ حمزة: «وأرسلنا الريح» بالإفراد[٤] على تأويل الجنس، فتكونُ في معنى الجمع، فلذا صحَّ جعلُ «لواقح» حالاً منها، وذلك كقولهم: أهلَكَ الناسَ الدينارُ الصُّفْرُ والدرهم البيضُ. ولا تخالِفُ هذه القراءة ما قالوه في حديث: «اللهمَّ اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً»[٥] من أنَّ الرياح تُستعمَل للخير والريحَ للشرِّ، لِمَا قال الشهاب: مِن أنَّ ذلك ليس من الوضع، وإنما هو من الاستعمال، وهو أمرٌ أغلبيٌّ لا كُلِّيٌّ، فقد استُعمِلَت الريحُ في الخير أيضاً نحو قوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢] أو هو محمولٌ على الإطلاق بأنْ لا يكونَ معه قرينةٌ كالصفة والحال، وأمَّا كونُ المرادِ بالخير الدعاءَ بطول العُمُر ليَرَى رياحاً كثيرةً، فلا وجْهَ له[٦].

﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بعد ما أَنْشأنا بتلك الرياحِ سحاباً ماطراً ﴿مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ جعلناه لكم سُقْيا تَسقُون به مزارعَكم ومواشيكم، وهو على ما قيل أبلغُ من:

---

(١) عزاه لابن أبي الدنيا السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٩٦، وقال الشافعي في الأم ١/ ٢٢٥ ـ ونقله عنه البيهقي في السنن الكبرى ٣/ ٣٦٤ ـ: وبلغني أن قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما هبت جنوبٌ قطُّ إلا أسالت وادياً». وهو هكذا مرسل.

(٢) أخرجه الديلمي (٣٠٨١)، وابن أبي الدنيا في كتاب السحاب (١٣٧)، وأبو الشيخ في العظمة (٨٠٤) و(٨٠٥)، والطبري ١٤/ ٤٦، وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وضعَّف إسناده.

(٣) الطبري ١٤/ ٤٥، وأخرجه أيضاً أبو الشيخ في العظمة (٧١٩)، ونقله المؤلف بواسطة الدر المنثور ٤/ ٩٦ والكلام منه.

(٤) التيسير ص٧٨، والنشر ٢/ ٢٢٣، وقرأ بها خَلَف.

(٥) أخرجه الشافعي في مسنده ص٨١، وأبو يعلى (٢٤٥٦)، والطبري في الكبير (١١٥٣٣)، وابن عدي ٢/ ٧٦٣، وأبو الشيخ في العظمة (٨٧٤)، والخطيب في تاريخ بغداد ٧/ ١٠٠، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وتقدم ٣/ ٧١.

(٦) حاشية الشهاب ٥/ ٢٨٩.

سقيناكم، لِمَا فيه من الدلالة على جعل الماء مُعدًّا لهم ينتفعون به متى شاؤوا، وقد فرَّقَ بين أَسْقَى وسَقَى غيرُ واحدٍ، فقد قال الأزهريُّ: العربُ تقول لكلِّ ما كان من بطون الأنعام، أو من السماء، أو من نهرٍ جارٍ: أسقيتُه، أي: جعلتُ شرْباً له وجعلتُ له منه مسقًى، فإذا كان للشَّفَةِ قالوا: سَقَى، ولم يقولوا: أَسْقَى[1]. وقال أبو عليٍّ: يقال: سقيتُه حتى رَوِيَ، وأسقيتهُ نهراً: جعلتُه شرباً له[2]. وربما استعملوا سَقَى بلا همزة كأسقى، كما في قول لبيد يصفُ سحاباً:

أَقــولُ وصــوبُــهُ مــنِّــي بــعــيــدٌ يَــحُــطُّ الــشَّــثَّ مــن قُــلَــلِ الــجــبــالِ
سَــقَــى قــومــي بــنــي مَــجْــدٍ وأَسْــقَــى نُــمــيــراً والــقــبــائــلَ مــن هــلالِ[3]

فإنَّه لا يريدُ بـ : سَقَى قومي، ما يَروي عِطاشَهم، ولكنْ يُريدُ: رزقَهم سقياً لبلادهم يخصبون بها، وبعيدٌ أنْ يسألَ لقومه ما يروي، ولغيرهم ما يخصبون به، ولا يرد على قول الأزهريِّ ـ أنَّه لا يقال: أَسقَى، في سُقيا الشَّفَة ـ قولُ ذي الرُّمَّة:

وأُسْــقِــيــهِ حــتــى كــادَ مــمَّــا أُبــثُّــهُ يُــكــلِّــمُــنــي أحــجــارهُ ومَــلاعِــبُــهْ[4]

قال الإمام[5]: لأنَّه أرادَ بـ : أُسقيه، أدعو له بالسقيا، ولا يقال في ذلك كما قال أبو عبيدة[6] سوى أَسْقَى.

هذا، وقد جاء الضميرُ هنا متَّصلاً بعد ضمير منصوبٍ متَّصلٍ أَعرفُ منه، ومذهب سيبويه في مثل ذلك وجوب الاتِّصال[7].

---

(١) تهذيب اللغة ٩/ ٢٢٨، ونقله عنه بواسطة البحر المحيط ٥/ ٤٥١.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٥١.
(٣) البيتان في ديوان لبيد ص٩٣ وجاء في الأصل و(م): وصوته، بدل: وصوبه، واللثّ، بدل: الشَّثّ، ونجد، بدل: مجد. والمثبت من الديوان والمصادر. قال شارح الديوان: صوبه: مصاب مطره، والشثّ: شجر من شجر السراة. مجد: ابنة تيم بن غالب، وهي أم كلاب وكعب وعامر بني ربيعة بن عامر بن صعصعة.
(٤) ديوان ذي الرُّمة ٢/ ٨٢١، ومجاز القرآن ١/ ٣٥٠.
(٥) مفاتيح الغيب ١٩/ ١٧٧.
(٦) في (م): أبو عبيد، والمثبت الصواب، وقوله في مجاز القرآن ١/ ٣٥٠.
(٧) ينظر الكتاب ٢/ ٣٦٣-٣٦٤.

﴿وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ٢٢﴾ نَفَى سبحانه عنهم ما أثبتَه لجنابه بقوله جلَّ جلاله: (وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ) كأنَّه قيل: نحن القادرون على إيجاده وخَزْنِهِ في السحاب وإنزاله، وما أنتم على ذلك بقادرين، وقيل: المرادُ نَفْي حِفْظِهِ، أي: وما أنتم له بحافظين في مجاريه عن أنْ يغورَ، فلا تنتفعون به، وعن سفيان أنَّ المعنى: وما أنتم له بمانعين لإنزاله من السماء.

﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ﴾ بإيجاد الحياة في بعض الأجسام القابلةِ لها ﴿وَنُمِيتُ﴾ بإزالتها عنها، فالحياةُ صفةٌ وجوديةٌ، وهي كما قيل صفةٌ تقتضي الحسَّ والحركةَ الإرادية، والموتُ زوالُ تلك الصفة، وقال بعضهم: إنَّه صفةٌ وجوديَّةٌ تضادّ الحياة لظاهر قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ﴾ [الملك: ٢] وسيأتي إن شاء الله تعالى تحقيق ذلك. وقد يُعَمَّم الإحياء والإماتةُ بحيث يشملُ[1] الحيوانَ والنباتَ مثل أنْ يقال: المرادُ إعطاءُ قوَّةِ النَّماء وسَلْبها.

وتقديمُ الضمير؛ للحصر، وهو إما توكيدٌ للأول، أو مبتدأٌ خبرُه الجملةُ بعده، والمجموع خبرٌ لـ «إنَّا»، وجوَّزَ كونُه ضميرَ فصلٍ، وردَّه أبو البقاء بوجهَين: أحدهما: أنَّه لا يدخُل على الخبر الفعلي. والثاني: أنَّ اللام لا تدخُل عليه[2].

وتعقب ذلك في «الدر المصون»: بأنَّ الثاني غلطٌ فإنَّه ورَدَ دُخولُ اللام عليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ﴾ [آل عمران: ٦٢][3] ودخولُه على المضارع مما ذهب إليه الجرجانيُّ[4] وبعضُ النحاة، وجعلوا من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: ١٣] ولعلَّ ذلك المجوِّزَ ممن يَرَى هذا الرأيَ، والعجبُ من أبي البقاء، فإنه ردَّ ذلك هنا، وجوَّزه في قوله تعالى: ﴿وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠] كما نقله في «المغني»[5].

﴿وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ٢٣﴾ أي: الباقون بعد فناء الخَلْق قاطبةً، المالكون للملك عند

---

(١) في الأصل: يعم، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٧٣.
(٢) الإملاء ٣/ ٤٢٥.
(٣) الدر المصون ٧/ ١٥٥.
(٤) المغني ص٦٤٢، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٨٩ والكلام منه.
(٥) الإملاء ٤/ ٢١٨-٢١٩، والمغني ص٦٤٢، وحاشية الشهاب٥/ ٢٩٠ والكلام منه.

انقضاءِ زمان الملكِ المجازيِّ، الحاكمون في الكلِّ أوّلاً وآخِراً، وليس لأحدٍ إلا التصرفُ الصوريُّ والملك المجازيُّ، وفي هذا تنبيهٌ على أنَّ المتأخِّر ليس بوارثٍ للمتقدِّم كما يتراءى من ظاهر الحال، وتفسيرُ الوارث بالباقي مرويٌّ عن سفيان وغيره، وفُسِّر بذلك في قوله عليه الصلاة والسلام: «اللهمَّ متِّعنا بأسْماعنا وأبْصارنا وقُوَّتنا ما أَحْيَيْتَنا، واجْعَلْهُ الوارِثَ منَّا»[1] وهو من باب الاستعارة.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ مَن مات ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ مَن هو حيٌّ لم يَمُت بعدُ، أخرجه ابنُ أبي حاتم وغيرُه عن ابن عباس[2]، وفي روايةٍ أُخرَى عنه «المستقدمين» آدمُ عليه السلام ومَن مضَى من ذُرِّيته، و«المستأخرين» مَن في أصلاب الرجال، ورُوي مثله عن قتادة، وعن مجاهد «المستقدمين» مَن مضَى من الأمم، و«المستأخرين» أمةُ محمدٍ ﷺ، وقيل: مَن تقدَّم ولادةً وموتاً ومَن تأخَّر كذلك مطلقاً، وهو من المناسبة بمكان، ورُوي عن الحسن أنَّه قال: مَن سَبَق إلى الطاعة ومَن تأخَّر فيها.

ورُوي عن مُعتمر أنَّه قال: بلَغَنا أنَّ الآية في القتال، فحدَّثتُ أُبيًّا، فقال: لقد نزلَت قبل أنْ يُفرضَ القتالُ[3]. فعلى هذا أخذ الجهاد في عموم الطاعة ليس بشيءٍ، على أنَّه ليس في تفسير ذلك بالمستقدمين والمستأخرين فيها كمالُ مناسبةٍ.

والمرادُ مِن عِلْمِهِ تعالى بهؤلاء علمُه سبحانه بأحوالهم، والآية لبيان كمالِ علمه جلَّ وعلا بعد الاحتجاج على كمال قدرته تعالى، فإنَّ ما يدلُّ عليها دليلٌ عليه ضرورةَ أنَّ القادر على كلِّ شيءٍ لابدَّ من علمه بما يصنعُه، وفي تكرير قوله تعالى: (وَلَقَدْ عَلِمْنَا) ما لا يخفَى من الدلالة على التأكيد.

---

(١) أخرجه بنحوه الترمذي (٣٥٠٢) من حديث ابن عمر، والحاكم ١/ ٥٢٣ و٢/ ١٤٢ من حديث أبي هريرة. وابن السني في عمل اليوم والليلة (٥٦٥) من حديث أنس بن مالك. وأبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ١٨٢ من حديث عائشة، وتقدم ٣/ ٣٢١، قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٢) عزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٩٧، وأخرجه الطبري ١٤/ ٥٠ وتتمة الآثار فيه.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٦١-٢٢٦٢.

وأخرج أحمد والترمذي والنسائي وابنُ ماجه والحاكم وصحَّحه والبيهقيُّ في «سننه» وجماعةٌ من طريق أبي الجوزاء عن ابن عباس قال: كانت امرأةٌ تُصلِّي خَلْفَ رسولِ الله ﷺ حسناءُ من أحسن الناسِ، فكانَ بعضُ القوم يتقدَّمُ حتى يكونَ في الصف الأوَّلِ لئلا يراها، ويستأخرُ بعضُهم حتى يكونَ في الصف المؤخَّر، فإذا ركع نَظَر مِن تحت إبطَيْه، فأنزل الله تعالى الآية[1].

وأخرج عبد الرزاق وابنُ المنذر عن أبي الجوزاء أنَّه قال في الآية: ولقد عَلمنا المستقدمين منكم في الصفوف في الصلاةِ[2] ولم يَذْكُر مِن حديث المرأة شيئاً، قال الترمذي[3]: هذا أشبه أنْ يكونَ أصحَّ.

وقال الربيع بن أنس: حرَّض النبيُّ ﷺ على الصفِّ الأوَّل في الصلاة، فازدحَمَ الناس عليه وكان بنو عُذْرة دورُهم قاصيةٌ عن المسجد، فقالوا: نبيعُ دورَنا ونشتري دوراً قريبةً من المسجد، فأنزل الله تعالى الآية[4].

وأنت تعلم أنَّ العبرةَ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ومن هنا قال بعضُهم: الأَوْلَى الحملُ على العموم، أي: علمنا من اتَّصف بالتقدُّم والتأخُّر في الولادة والموت والإسلام وصفوفِ الصلاة وغير ذلك.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْۚ﴾ للجزاء، وتوسيط الضمير؛ قيل: للحصر، أي: هو سبحانه يحشرُهم لا غير، وقيل عليه: إنَّه في مثل ذلك يكونُ الفعل مُسلَّم الثبوت، والنزاعُ في الفاعل، وها هنا ليس كذلك، فالوجهُ جعلُه لإفادة التقوى.

وتعقَّب بأنَّ هذا في القصر الحقيقي غير مُسلَّم، وتصدير الجملة بـ «إنَّ» لتحقيق الوعد، والتنبيه على ما سبق يدلُّ على صحَّة الحكم. وفي الالتفات والتعرُّض

---

(١) مسند أحمد (٢٧٨٣)، وسنن الترمذي (٣١٢٢)، والمجتبى ٢/ ١١٨، وسنن ابن ماجه (١٠٤٦)، والحاكم ٢/ ٣٥٣، والسنن الكبرى للبيهقي ٣/ ٩٨. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: حديث غريب جدًّا وفيه نكارة شديدة. واستظهرأن يكون من كلام أبي الجوزاء فقط، ليس فيه لابن عباس ذِكْر.

(٢) تفسير عبد الرزاق ١/ ٣٤٨، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٩٧.

(٣) عند الحديث (٣١٢٢).

(٤) ينظر زاد المسير ٤/ ٣٩٦، واللباب ١١/ ٤٤٩.

لعنوان الربوبيَّة إشعارٌ بعلَّته. وفي الإضافة إلى ضميره ﷺ دلالةٌ على اللطف به عليه الصلاة والسلام.

وقرأ الأعمش: «يَحْشِرُهم» بكسر الشين[١].

﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾ بالغُ الحكمة، متقنٌ في أفعاله. والحكمةُ عندهم عبارةٌ عن العلم بالأشياء على ما هي عليه، والإتيان بالأفعال على ما ينبغي.

﴿عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ وَسِعَ علمُه كلَّ شيءٍ، ولعلَّ تقديمَ وصفِ الحكمة؛ للإيذان باقتضائها للحشر والجزاء، وقد نصَّ بعضُهم على أنَّ الجملةَ مستأنفَةٌ للتعليل.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: هذا النوع، بأنْ خَلَقنا أَصْلَه وأَوَّلَ فرد من أفراده خَلْقاً بديعاً منطوياً على خلق سائرِ أفرادِه انطواءً إجماليًّا.

﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾ أي: طين يابس، يُصَلْصِلُ، أي: يُصوِّتُ إذا نُقِرَ. أخرجه ابنُ أبي حاتم عن قتادة[٢]، ونقلَه في «الدر المصون»[٣] عن أبي عبيدة[٤]، ونَقَل عنه أبو حيان أنَّه قال: هو الطين المخلوطُ بالرمل[٥]. وهو روايةٌ عن ابن عباس، وفي روايةٍ أخرى عنه أنَّه الطينُ المرقَّق الذي يُصنَع منه الفخَّار، وفي أُخرى نحو الأول.

وقيل: هو من صَلْصَلَ: إذا[٦] أَنتَنَ، تضعيفُ صلَّ، يقال: صَلَّ اللحمُ وأَصلَّ، إذا أَنتَنَ، وهذا النوع من المضعَّف مصدره[٧] يُفتَح أولُه ويُكسَر، كالزلزال، ووزنه عند جمهور البصريين فَعْلَال، وقال الفرَّاء وكثيرٌ من النحويين: «فَعْفَع» كُرِّرَت الفاءُ والعين ولا لامَ، وغلَّطَهم في «الدر المصون» لأنَّ أقلَّ الأصول ثلاثةٌ: فاء وعين ولام، وقال بعضُ البصريين والكوفيين: فَعْفَل، ونُسبَ أيضاً إلى الفرَّاء، بل قيل:

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٥١، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٧١، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٨ للأعرج.

(٢) عزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٩٨.

(٣) ٧/ ١٥٥.

(٤) مجاز القرآن ١/ ٣٥٠.

(٥) البحر المحيط ٥/ ٤٤٢، والنهر الماد ٥/ ٤٥٢.

(٦) في (م): إذ، والمثبت من الأصل وتفسير البيضاوي ٥/ ٢٩٠.

(٧) في (م): مصدر.

هو المشهورُ عنه، وعن بعضٍ آخر من الكوفيين أنَّ وَزْنه فعَّل بتشديد العين، والأصلُ صَلَّل مثلاً، فلمَّا اجتمع ثلاثةُ أمثالٍ أُبدلَ الثاني من جنس الفاء. وخصَّ بعضُهم هذا الخلاف بما إذا لم يختلَّ المعنى بسقوط الثالث كـ: لَمْلَم، وكَبْكَبَ، فإنَّك تقول: لَمَّ، وكَبَّ، فلو لم يصحَّ المعنى بسقوطه نحو: سِمْسِم، فلا خلاف في أصالة الجميع[1]. وقال اليمني: ليس معنى قولهم: إنَّ الأصل صَلَّل أنَّه زيد فيه صادٌ، بل هو رباعي كـ: زلزل، والاشتراكُ في أصل المعنَى لا يقتضي أنْ يكونَ منه، إذ الدليلُ دالٌّ على أنَّ الفاء لا تُزادُ، ولكن زيادةُ الحرف تدلُّ على المعنى[2]. وذكر في «البحر» أنَّ «صلصال» بمعنى «مصلصل» كالقضقاض بمعنى المقضقض، فهو مصدرٌ بمعنى الوصف، ومثله كثير[3].

﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾ من طينٍ تغيَّر واسودَّ من مجاورة الماء، ويقال للواحدة: حَمْأَةٌ، قال الليث: بتحريك الميم، ووهمَ في ذلك، وقالوا: لا نعرفُ الحمأة في كلام العرب إلا ساكنةَ الميم، وعلى هذا أبو عبيدة والأكثرون[4].

والجارُّ والمجرور في موضع الصفة لـ: «صَلصال» كما هو السنَّةُ الشائعةُ في الجارِّ والمجرور بعد النكرة، أي: من صلصال كائنٍ من حَمأ، وقال الحوفيُّ: هو بدلٌ ممَّا قبله بإعادة الجارِّ، فكأنَّه قيل: خلقناه من حَمأ ﴿مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ أي: مُصوَّر من سُنَّة الوجه وهي صورتُه، وأنشد لذلك ابنُ عباس قولَ عمِّه حمزةَ يمدحُ النبيَّ ﷺ:

أغرُّ كأنَّ البدرَ سُنَّةُ وَجْهِهِ ... جَلا الغيمَ عنه ضوؤُه فتبدَّدا[5]

وأنشد غيره قول ذي الرُّمَّة:

تُرِيكَ سُنَّةَ وجهٍ غيرَ مُقْرفةٍ ... ملساءَ ليس بها خالٌ ولا نَدَبُ[6]

---

(١) الدر المصون ٧/ ١٥٥-١٥٦.

(٢) حاشية الشهاب ٥/ ٢٩٠.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٤٢ ووقع في الأصل و(م): كالقضاض، بدل: كالقضقاض، وهو تحريف.

(٤) مجاز القرآن ١/ ٣٥١، ونقله عنه ـ وقولَ الليث ـ بواسطة البحر المحيط ٥/ ٤٤٣.

(٥) الدر المنثور ٤/ ٩٨، وأضواء البيان ٣/ ١٤٣.

(٦) ديوان ذي الرمة ١/ ٢٩، وفي هامش (م) عند قوله: غير مقرفة: من قرفت الجرح: قشرته. اهـ. منه.
وعند قوله: ندب (بالتحريك): أثر الجرح. اهـ. منه.

أو مصبوبٌ من: سَنَّ الماءَ، صبَّه، ويقال: شَنَّ بالشين أيضاً، أي: مفرغ على هيئة الإنسان كما تُفرغ الصُّوَرُ من الجواهر المذابة في القوالب، وقال قتادة ومعمر: المسنون: المنتن. قيل: وهو من سَنَنْتُ الحجَرَ على الحجر إذا حككته به، فالذي يسيلُ بينهما سنين، ولا يكونُ إلا مُنتناً.

وقيل: هو من سَنَنتُ الحديدةَ على المِسَنِّ إذا غيرتَها بالتحديد. وأصلُه الاستمرار في جهة، من قولهم: هو على سَنَنٍ واحدٍ.

وهو صفةٌ لـ «حمأ»، ويجوز أنْ يكونَ صفةً لـ «صلصال» ولا ضيرَ في تقدُّم الصفة الغير الصريحةِ على الصريحة، فقد قال الرضي: إذا وُصِفَت النكرةُ بمفرَدٍ أو ظرفٍ أو جملة، قُدِّم المفرد في الأغلب، وليس بواجب، خلافاً لبعضهم، والدليل عليه قولُه تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام:٩٢] لكنَّه يحتاجُ إلى نكتةٍ لا سيَّما في كلام الله تعالى؛ لأنَّه لا يعدلُ عن الأصل لغير مقتض، ولعلَّ النكتة هاهنا مناسبة المقدَّم لما قبله في أنَّ كلًّا منهما من جنس المادة، وقيل: إنما أُخِّرت الصفةُ الصريحة؛ تنبيهاً على أنَّ ابتداءَ مسنونيتهِ ليس في حال كونه صلصالاً بل في حال كونه حمأً، كأنَّه سبحانه أفرَغَ الحمأ فصوَّر من ذلك تمثالُ إنسانٍ أجوف، فيبس حتى إذا نُقِرَ صَوَّت، ثم غيَّره طوراً بعد طورٍ حتى نَفَخ فيه من روحه، فتبارك الله أحسنُ الخالقين.

وقيل: المسنون: المنسوب، أي: نسب إليه ذريته، وهو كما ترى.

﴿وَٱلْجَآنَّ﴾ هو أبو الجنِّ كما روي عن ابن عباس، ويُجمَع على جنان كحائط وحِيطان، وراعٍ ورُعيان. قاله الطبرسي، وقيل: هو إبليسُ، وروي عن الحسن وقتادة[1]، لكنَّ في «الدر المصون» أنَّه هو أبو الجن[2]، وقال ابنُ بحر: هو اسمٌ لجنس الجنِّ، وتشعُّب الجنس لما كان من فردٍ واحدٍ مخلوقٍ من مادةٍ واحدةٍ كان الجنسُ مخلوقاً منها.

وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد: «والجأن» بالهمزة[3]. وانتصابه بفعل يفسره

---

(١) مجمع البيان ١٤/ ٢٤.

(٢) ينظر الدر المصون ٧/ ١٥٧، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٩١.

(٣) القراءات الشاذة ص٧١، والبحر المحيط ٥/ ٤٥٣.

﴿خَلَقْنَهُ﴾ وهو هنا أقوى من الرفع، للعطف على الجملة الفعلية ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل خَلْق الإنسان، قيل: ومن هنا يظهرُ جوازُ كون المراد بـ «المستقدمين» أحدَ الثقلين وبـ «المستأخرين» الآخر، والخطاب بقوله تعالى: «منكم» للكلِّ، وهو بعيدٌ غاية البعد.

﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾ أي: الريح الحارَّةُ التي تقتل، وروي ذلك عن ابن عباس، وأكثرُ ما تهبُّ في النهار وقد تهبُّ ليلاً. وسُمِّيت سَموماً؛ لأنَّها بلطفها تنفذُ في مسامِّ البَدَن، ومنه السمُّ القاتل، ويقال: سُمَّ يومُنا يُسَمُّ، إذا هبَّت فيه تلك الريح. وقيل: السمومُ: نارٌ لا دخانَ لها، ومنها تكونُ الصواعق، ورَوَى ذلك أبو روق عن الضحاك، عن ابن عباس، فالإضافةُ من إضافة العامِّ إلى الخاصِّ.

وقيل: السمومُ: إفراط الحرِّ، والإضافةُ من إضافة الموصوف إلى الصفة، والمرادُ: من النار المفرطة الحرارة.

وقد جاء في بعض الآثار ما يدلُّ على أنَّ النار التي خُلقَ منها الجانُّ أشدُّ حرارة من النار المعروفة؛ فقد أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «رُؤيا المسلم جزءٌ من سبعينَ جزءاً من النبوَّة، وهذه النارُ جزءٌ من سبعين جزءاً من السَّموم التي خُلقَ منها الجانُّ» وتلا عليه الصلاة والسلام الآية[1]. واستُشكل الخلقُ من النار بأنَّه كيف تُخلَق الحياةُ فيها، وهي بسيطةٌ ليست متركِّبةً من أجزاء مختلفةِ الطبع، والحياةُ كالمزاج لا تكونُ إلا في المركبات، وقد اشترطَ الحكماء فيها البنية المركَّبة؟

وأُجيبَ بمنع ذلك؛ لأنَّها إذا خُلقَت في المجرَّدات كالملائكة[2] على قولٍ والعقولِ العشرة[3] التي أثبتَها الفلاسفةُ، فبالطريق الأولَى البسائط، بل لا مانعَ

---

(١) عزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٩٨-٩٩، وقوله: «رؤيا المسلم جزءٌ من سبعين جزءاً من النبوة» أخرج نحوه أحمد (٤٦٧٨)، ومسلم (٢٢٦٥) من حديث ابن عمر وله شواهد ينظر المسند.

وقوله: «وهذه النار جزءٌ. . .» أخرجه الطبري ١٤/ ٦٤.

(٢) في الأصل: كما في الملائكة.

(٣) ليس في (م).

أيضاً أنْ تُخلَقَ في الأجزاء الفَرْدَة، خلافاً للمعتزلة حيث اشترطوا البنية المركَّبةَ من الجواهر، وليس لهم سِوَى شُبَهٍ أوهن من بيت العنكبوت على أنَّ ذلك غيرُ واردٍ رأساً؛ لأنَّ معنى كون الجنِّ مخلوقةً من نارٍ أنَّها الجزء الأعظم الغالب عليها، كالتراب في الإنسان، فليست بسيطةً.

وقال بعضُهم: إنَّ الجنَّ أجسامٌ هوائيةٌ أو ناريةٌ بمعنى أنَّهم يغلب عليهم ذلك، وهم مركَّبون من العناصر الأربعةِ كالملائكة عليهم السلام على قول.

ثم إنَّ النقلَ الظاهرَ عن أكثر الفلاسفةِ إنكارُ الجنِّ، وليس ذلك مذهب جميعهم، فقد ذهب جمعٌ عظيمٌ من قدمائهم إلى وجودهم، وهو مذهبُ جمهورِ أرباب الملل وأصحابِ الروحانيَّات، ويسمُّونهم بالأرواح السفليَّة، وزعموا أنَّهم أسرعُ إجابةً من الأرواح الفَلَكيَّة إلا أنَّها أضعفُ.

ثم[1] اختلَفَ المثبتُون، فمنهم مَن زَعَم أنَّهم ليسوا أجساماً ولا حالِّين فيها، بل هم جواهر قائمةٌ بأنفسها لكنَّها أنواعٌ مختلفةٌ بالماهية، كاختلاف ماهيات الأعراض بعد استوائها في الحاجة إلى المحلِّ، فبعضُها كريمةٌ حرَّةٌ مُحبَّةٌ للخيرات، وبعضُها دنيَّةٌ خسيسةٌ محبَّة للشرور، ولا يعلم عدَدَ أنواعهم إلا الله تعالى، ولا يَبعدُ أنْ يكونَ في أنواعها مَن يقدرُ على أفعالٍ شاقَّةٍ يعجزُ عنها قدرةُ البشر، وكذا لا يبعدُ لكلِّ نوعٍ منها تعلُّقٌ بنوعٍ مخصوصٍ من أجسام هذا العالم.

ومن الناس مَن زَعَم أنَّ هذه الأرواحَ البشرية والنفوسَ الناطقة إذا فارقت أبدانها وازدادَت قوَّةً وكمالاً بسبب ما في ذلك العالم الروحاني من انكشاف الأسرار الروحانيَّة، فإذا اتَّفق حدوثُ بدنٍ مشابهٍ للبدن الذي فارَقَته[2]، فبسبب تلك المشابهة يحصُل لتلك النفس المفارقةِ تعلُّقٌ ما بهذا البدن، وتصيرُ معاونةً لنفس ذلك البدن في أفعالها وتدبيرها لذلك البدن، فإن اتَّفقَت هذه الحالةُ في النفوس الخيِّرة، سُمي ذلك المعيَّنُ مَلَكاً وتلك الإعانةُ إلهاماً، وإن اتَّفقَت في النفوس الشريرةِ، سُمِّي ذلك المعينُ شيطاناً وتلك الإعانةُ وَسْوسةً.

---

(١) في (م): نعم.
(٢) في (م): فاوقته.

ومنهم مَن قال: إنَّهم أجسامٌ، لكن اختلفوا، فقال بعضُهم: هي مختلفةُ الماهية وإن اشتركَت في صفة. وقال آخرون: إنَّها متساويةٌ في تمام الماهية.

وقد أطال الكلامَ في ذلك الإمامُ في تفسير سورة الجنِّ[١]. وذَكَر في تفسير هذه الآية أنَّهم اختلفوا في الجنِّ، فقال بعضُهم: إنَّهم جنسٌ غير الشياطين، والأصحُّ أنَّ الشياطينَ قسمٌ من الجنِّ، فكلُّ مَن كان منهم مؤمناً فإنَّه لا يُسمَّى بالشيطان، وكلُّ مَن كان منهم كافراً سُمِّي بهذا الاسم، والدليلُ على صحَّة ذلك أنَّ لفظَ الجنِّ مشتَقٌّ من الاستتار، فكلُّ مَن كان كذلك، كان من الجنِّ[٢]. اهـ.

وما ذكره من الأصحِّ هو الذي ذهب إليه المُعظَمُ، لكن ما ذكره من الدليل ضعيف.

وقال وهب: إنَّ من الجنِّ مَن يُولَد له ويأكلون ويشربون بمنزلة الآدميين، ومنهم مَن هو بمنزلة الريح لا يتوالدُون ولا يأكلون ولا يشربون وهم الشياطين[٣].

وذكر ابن عربي: أنَّ تناسلَ الجنِّ بإلقاء الهواء في رحم الأُنثَى، كما أنَّ التناسل في البشر بإلقاء الماء في الرحم، وأنَّهم محصورون في اثنتَي عشرةَ قبيلةً أصولاً؛ ثم يتفرَّعون إلى أفخاذٍ، ويقعُ بينهم حروبٌ، وبعضُ الزوابع يكونُ عند حربهم، فإنَّ الزوبعةَ تَقابلُ ريحَين تمنع كلٌّ صاحبتَها أنْ تخترقَها، فيؤدِّي ذلك إلى الدور، وما كلُّ زوبعةٍ حرب[٤].

وأخرج البيهقي في «الأسماء» وأبو نعيم والديلمي وغيرُهم بإسناد صحيح - كما قال العراقي - عن أبي ثعلبة مرفوعاً: «الجنُّ ثلاثةُ أصنافٍ، فصنفٌ لهم أجنحةٌ يطيرونَ في الهواء، وصنفٌ حيَّاتٌ وكلابٌ، وصنفٌ يَحُلُّون ويَظْعَنُون»[٥] وفي هذه

---

(١) مفاتيح الغيب ٣٠/ ١٤٨ وما بعد.

(٢) مفاتيح الغيب ١٩/ ١٨٠.

(٣) أخرجه بنحوه الطبري ١٤/ ٦٥، وأبو الشيخ في العظمة (١٠٩٩).

(٤) الفتوحات المكية ١/ ١٣٢-١٣٣.

(٥) الأسماء والصفات (٨٢٧)، والحلية ٥/ ١٣٧، ومسند الفردوس (٢٦٤٣)، وتخريج أحاديث الإحياء ٣/ ٣٩، وأخرجه أيضاً ابن حبان (٦١٥٦)، والحاكم ٢/ ٤٥٦، وابن عبد البر في التمهيد ١٦/ ٢٦٥، والاستذكار ٢٧/ ٢٦٠-٢٦١، وقال عقبه: هذا إسناد جيد، رواته أئمة ثقات.

القسمة عندي إشكالٌ يظهرُ بالتدبُّر، ولعلَّ حاصلها أنَّ صنفاً منهم يغلبُ عليهم الطيرانُ في الهواء، وصنفٌ يغلبُ عليهم الحلُّ والارتحالُ، وصنفٌ يغلبُ عليهم المُكْثُ والتوطُّنُ ببعض المواطن، وعبَّر عنهم بالحيَّات والكلاب؛ لكثرة تشكُّلهم بذلك دون الصنفَين الآخرَين، فإنَّهم وإنْ جاز عليهم التشكُّل بالأشكال المختلفة؛ لأنَّهم من الجنِّ، وقد قالوا: إنَّهم قادرون على ذلك، وإنْ نُوزع فيه بأنَّه يستلزمُ أنْ لا تبقَى ثقةٌ بشيءٍ.

وردَّ بأنَّ الله تعالى قد تكفَّل لهذه الأمَّة بعصمتها عن أنْ يقعَ فيها ما يترتَّبُ عليه الريبةُ في الدين، ورفعُ الثقة بعالم وغيره، فاستحال شرعاً الاستلزام المذكور إلا أنَّهم لا يكثُرُ تشكُّلهم بذلك.

وربما يقال: إنَّ القدرة على التشكل إنما هي لصنفِ المتوطِّنين، وإثباتها في كلامهم للجنِّ يكفي فيه صحتُها باعتبار بعض الأصناف، لكنَّه بعيدٌ جدًّا، فليُتَدبَّر حقَّه. وقد قال الهيثمي(١): إنَّ رجال هذا الحديثِ وُثِّقوا، وفي بعضهم ضعفٌ. فإنْ كان الحديثُ لذلك ضعيفاً، فلا قيل ولا قال، والله تعالى أعلم بحقيقة الحال، وسيأتي إن شاء الله تعالى استيفاءُ الكلام في هذا المقام بعون الله تعالى الملك العلَّام(٢).

ثم إنَّ مساقَ الآية الكريمة ـ على ما قيل ـ كما هو، للدلالة على كمال قدرته تعالى شأنه وبيانِ بَدْء خَلْق الثقلَين، فهو للتنبيه على مقدِّمةٍ يتوقَّفُ عليها إمكانُ الحشر، وهي قبول المواد للجمع والإحياء، فتدبَّر.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ نُصِبَ بإضمار: اذكر، وتذكيرُ الوقت لِمَا مرَّ مراراً من أنَّه أدخلُ في تذكير ما وَقَع فيه، وفي التعرُّض لوصف الربوبيَّةِ مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام إشعارٌ بعلَّة الحكم وتشريفٌ له ﷺ، أي: اذكر وقتَ قوله تعالى ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الظاهرُ أنَّ المراد بهم ملائكةُ السماء والأرض، وزَعَم بعضُ الصوفيَّة أنَّ المرادَ بهم ملائكةُ الأرض ولا دليلَ له عليه:

---

(١) مجمع الزوائد ٨/ ١٣٦.
(٢) في سورة الجن آية (١).

﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ﴾ فيما سيأتي؛ وفيه ما ليس في صيغة المضارع من الدلالة على أنَّه تعالى فاعلٌ لذلك البتةَ من غير صارفٍ ولا عاطف ﴿بَشَرًا﴾ أي: إنساناً، وعبَّر به عنه؛ اعتباراً بظهور بَشَرته، وهي ظاهرُ الجلْد عكس الأَدَمةِ ـ خلافاً لأبي زيد، حيث عكَسَ، وغلَّطه في ذلك أبو العبَّاس[1] ـ وغيرِه من الصوف والوبر ونَحوهما، ولبعض أكابر الصوفيَّة وجهٌ آخرُ في التسمية سنذكره إن شاء الله تعالى في باب الإشارة.

ويستوي فيه الواحدُ والجمعُ وذكر الراغبُ أنَّه جاء جمعُ البشرة بَشَراً وأَبْشاراً[2]، وقيل: أُريد جسماً كثيفاً يلاقي ويُباشر، أو جسيماً بادي البشرة ولم يُرد إنساناً وإنْ كان هو إياه في الواقع، وبعضُ مَن قال إنَّه المراد قال: ليس هذا صيغةَ عينِ الحادثة وقت الخطاب، بل الظاهرُ أنْ يكونَ قد قيل لهم: إنِّي خالقٌ خلقاً من صفته كيت وكيت، ولكن اقتصَرَ عند الحكاية على الاسم.

﴿مِّن صَلْصَٰلٍ﴾ متعلِّقٌ بـ «خالق» أو بمحذوفٍ وقع صفة «بشراً» ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ تقدَّم تفسيرُه وإعرابُه، فتذكَّر فما في العهد من قِدَم.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ فعلتُ فيه ما يصيرُ به مستوياً معتدلاً مستعدًّا لفيضان الروح، وقيل: صوَّرتُه بالصُّوَر الإنسانية والخلقة البشرية. ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ النفخُ في العُرف: إجراءُ الريح من الفم أو غيرِه في تجويف جسم صالح لإمساكها والامتلاء بها، والمرادُ هنا تمثيلُ إفاضةِ ما به الحياة بالفعل على المادة القابلةِ لها، وليس هناك نفخٌ حقيقةً.

وقال حجَّةُ الإسلام: عبَّر بالنفخ الذي يكونُ سبباً لاشتعال فتيلة القابل من الطين الذي تعاقبَت عليه الأطوارُ حتى اعتَدَل واستَوَى واستعدَّ استعداداً تامًّا بنور الروح؛ كما يكونُ سبباً لاشتعال الحطب القابل مثلاً بالنار عن نتيجته ومُسبَّبِه، وهو ذلك الاشتعال، وقد يُكنَى بالسبب عن الفعل المستفادِ الذي يحصُلُ منه على سبيل المجاز، وإنْ لم يكن الفعلُ المستفادُ على صورة الفعل المستفاد منه.

---

(١) ينظر تهذيب اللغة ١١/ ٣٦٠، ومفردات الراغب (بشر).

(٢) مفردات الراغب (بشر).

ثم هذا الروحُ عنده وكذا عند جماعةٍ من المحقِّقين ليس بجسم يَحُلُّ البدنَ حلولَ الماء في الإناء مثلاً، ولا هو عَرَضٌ يحلُّ القلبَ أو الدماغَ حلولَ السوادِ في الأسود والعِلْم في العالِم، بل هو جوهرٌ مجرَّدٌ ليس داخلَ البدن ولا خارجَه، ولا متَّصلاً به ولا مُنفصلاً عنه، ولهم على ذلك عدَّة أدلَّة:

الدليلُ الأولُ: أنَّ الإنسان يمكنُه إدراكُ الأمور الكلِّيَّة، وذلك بارتسام صُوَر المدركات في المدرك، فمحلُّ تلك الصورِ إنْ كان جسماً فإمَّا أنْ يحلَّ غيرَ منقسمٍ أو منقسماً، والأوَّلُ محالٌ؛ لأنَّ الذي لا ينقسمُ من الجسم طرفٌ نقطيٌّ، والنقطةُ تمتنعُ أنْ تكونَ محلًّا للصور العقليَّة؛ لأنَّها مما لا يُعقَل حصولُ المزاج لها حتى يختلفَ حالُ استعدادها في القابليَّة وعدمها، بل إنْ كانت قابلةً للصور المذكورة وجبَ أنْ يكونَ ذلك القبولُ حاصلاً أبداً، ولو كان كذلك لكان المقبولُ[1] حاصلاً أبداً لِمَا أنَّ المبادي الفعَّالة المفارقة عامَّةُ الفيض، فلا يتخصَّص إلا لاختلاف أحوالِ القوابل، فلو كان القابلُ تامَّ الاستعدادِ لكان المقبولُ واجبَ الحصول، وحينئذٍ يكونُ جميعُ الأجسام ذوات النقط عاقلةً، ويجبُ أيضاً أنْ يبقَى البدنُ بعد الموت عاقلاً لبقاء محلِّ الصور على استعداده، وليس كذلك.

والثاني أيضاً محالٌ؛ لأنَّ الحالَّ في المنقسِم منقسمٌ، فيلزمُ أنْ تكونَ تلك الصورةُ منقسمةً أبداً، وذلك محالٌ لوجوهٍ مقرَّرة فيما بينهم.

الدليلُ الثاني: ما عوَّل عليه الشيخ وزَعَم أنَّه أجلُّ ما عنده في هذا الباب، وهو أنَّه يُمكننا أنْ نعقلَ ذواتنا، وكلُّ مَن عقل ذاتاً، فله ماهيةُ ذلك الذات؛ فإذن لنا ماهيةُ ذاتنا، فلا يخلو إمَّا أنْ يكونَ تعقُّلنا لذاتنا لأجل صورةٍ أخرى مساويةٍ لها تحصل فيها، وإمَّا أنْ لا يكونَ بل لأجل أنَّ نفسَها حاضرةٌ لها، والأولُ محالٌ؛ لأنَّه يُفضي إلى الجمع بين المثلَين، فتعيَّن الثاني، وكلُّ ما ذاته حاصلٌ لذاته كان قائماً بذاته، فإذن القوَّةُ العاقلةُ وهي الروح والنفسُ الناطقةُ قائمةٌ بنفسها، وكلُّ جسمٍ أو جسمانيٍّ فإنَّه غيرُ قائمٍ بنفسه، وأَكْثَرَ تلامذتُه من الاعتراضات وأجاب عنها.

---

(١) في الأصل: القبول.

الدليلُ الثالث: ما عوَّل عليه أفلاطون، وهو أنَّا نتخيَّل صوراً لا وجودَ لها في الخارج، ونُميِّزُ بينها وبين غيرها، فهذه الصور أمورٌ وجوديةٌ ومحلُّها يمتنع أنْ يكونَ جسمانيًّا، فإنَّ جملة بدننا بالنسبة إلى الأمور المتخيلة لنا قليلٌ من كثير، فكيف ينطبقُ الصور العظيمة على المقادير الصغيرة؟ وليس يمكنُ أنْ يقال: إنْ بعضَ تلك الصور منطبعةٌ في أبداننا وبعضها في الهواء المحيط بنا، إذ الهواءُ ليس من جملة أبداننا ولا آلة لنفوسنا في أفعالها أيضاً، وهو ظاهرٌ، فإذن محلُّ هذه الصور شيءٌ غيرُ جسمانيٍّ، وذلك هو النفسُ الناطقةُ.

الدليل الرابع: لو كان محلُّ الإدراكات شيئاً جسمانيًّا لصحَّ أنْ يقومَ ببعض ذلك الجسم علمٌ، وبالبعض الآخر جهلٌ، فيكونُ الشيء الواحدُ عالماً جاهلاً بشيءٍ واحدٍ في حالةٍ واحدةٍ.

الدليل الخامس: أنَّ الروح لو كان منطبعاً في جسم مثل قلبٍ أو دماغٍ لكان إمَّا أنْ يعقلَ دائماً ذلك الجسم، أو لا يعقلُه كذلك، أو يعقلُه في وقت دون وقت، والأقسام باطلةٌ فالقول بانطباعه باطل، وبيانُ ذلك أنْ تعقُّل الروح لذلك الجسم إمَّا أنْ يكونَ لأجل أنَّ الآلة حاضرةٌ عنده، أو لأنَّ صورةً أخرى من تلك الآلةِ تحصلُ له، فإنْ كان الأولُ فالروح إنْ أمكنَه إدراك تلك الآلةِ وإدراك نفسِ مقارنتها له، فما دامَت الآلةُ مقارنةً وجَبَ أنْ يعقلها الروح، فيكونُ دائمَ الإدراك لتلك الآلة، وإن امتنَع على الروح إدراكُ الآلة وَجَب أنْ لا يُدركَها أبداً، فظاهر أنَّه لو كان تعقُّلُ الروح لتلك الآلة لأجل المقارنة لوجب أنْ يعقلَها دائماً أو لا يعقلها كذلك، وكلا القسمَين باطلٌ، وأمَّا إنْ كان تعقُّله لها لأجل حصول صورةٍ أُخرَى منها، فالروح إنْ كانت في تلك الآلة والصورة الثانية حاصلة فيه يكونُ الصورة الثانية للآلة حالَّةً أيضاً في الآلة؛ لأنَّ الحالَّ في الحالِّ في الشيء حالٌّ في ذلك الشيء، فيلزمُ الجمعُ بين المثلَين، وإنْ لم يكن الروح في تلك الحالة بل مجرَّدة، فذلك المطلوب. واستدلَّ بغير ذلك أيضاً.

وقد ذكر الإمامُ في «المباحث»[1] من الأدلَّة اثنَي عشَرَ دليلاً ـ منها ما ذُكر ـ

---

(١) قوله: المباحث، ليس في الأصل، والمثبت من (م)، واسمه: المباحث الشرقية في العلم الإلهي والطبيعي. ينظر كشف الظنون ٢/ ١٥٧٧.

وأطالَ الكلامَ في ذلك جرحاً وتعديلاً وعوَّل في إثبات هذا المطلب على غير ذلك فقال: والذي نعوِّلُ عليه أنْ نقول: إنَّ كلَّ عاقلٍ يجدُ من نفسه أنَّه الذي[١] كان قبل، فهويَّتُه إمَّا أنْ تكونَ جسماً، وإمَّا أنْ تكونَ قائمةً بالجسم، وإمَّا أنْ لا تكونَ شيئاً من الأمرَين، والأوَّلُ باطل[٢].

أما أولاً: فلأنَّ الإنسان قد يكونُ عالماً بهويَّته عند ذُهوله عن جملة أعضائه الظاهرةِ والباطنةِ.

وأما ثانياً: فلأنَّ الأبعاض الجسمانيةَ دائمةُ التحلُّل والتبدُّل؛ لأنَّ الأسباب المحالة من الحرارةِ الخارجيةِ والداخليةِ والحركات النفسانية والبدنية مما لا تختصُّ بجزءٍ دون جزءٍ، والبدن مركَّبٌ من الأعضاء المركَّبة، وهي مركَّبةٌ من الأعضاء البسيطةِ، مثل اللحم والعظم، فيكون كلُّ جزءٍ من اللحم مثلَ الآخر في الاستعداد للتحلُّل، فإذا كانت الأجزاءُ كلُّها متساويةً في ذلك كانت نسبةُ المحلِّلات[٣] إلى كلِّ واحدٍ من الأجزاء كنسبته إلى الجزء الآخر، فلم يكن عروضُ التحلُّل لبعضٍ أَوْلَى من عروضه للبعض الآخر، فثَبتَ أنَّ هويَّة الإنسان ليست جسماً وليست أيضاً قائمةً بالجسم؛ لأنَّ القائمَ به يجبُ أنْ يتبدَّل عند تبدُّله لاستحالة انتقال الأعراضِ، فكان يلزمُ أنْ لا يجدَ الإنسانُ من نفسه أنَّه الذي كان موجوداً قبل، ولمَّا كان هذا العلمُ من العلوم البديهيَّة علمنا أنَّ هويَّةَ الإنسان ليست جسماً ولا محتاجةً إليه، فهو جوهرٌ مجرَّدٌ، وهو المطلوب.

ولا يلزمُ أنْ يكونَ لسائر الحيوانات هذا الجوهر؛ لأنَّا وإنْ عرفنا أنَّها تعلمُ هويَّات أنفسها لكنْ لا نعرفُ أنَّها تعلمُ من أنفسها أنَّها هي التي كانت موجودةً قبل.

ويمكن أنْ يحتجَّ أيضاً على هذا المطلب بأنَّا قد دَلَلْنا على أنَّ المُدرِك بجميع أصنافِ الإدراكات لجميع المُدْرَكات شيءٌ واحدٌ في الإنسان، فنقول: ذلك المُدرِك إمَّا أنْ يكونَ جسماً، أو قائماً به، أو لا ولا، والأوَّلُ ظاهرُ الفساد؛ لأنَّ الجسم من حيث هو جسمٌ لا يمكنُ أنْ يكونَ مُدرِكاً.

---

(١) تكررت في (م).
(٢) في (م): بالباطل.
(٣) في الأصل: المحلات.

والثاني أيضاً باطلٌ؛ لأنَّ تلك الصفةَ إما أنْ تكونَ قائمةً بجميع أجزاء البدن أو ببعضٍ دون بعض، والأوَّلُ باطلٌ، وإلا لكان كلُّ جزءٍ من أجزاء البدن مبصراً سامعاً متخيِّلاً متفكِّراً عاقلاً، وليس كذلك، وبطلَ أيضاً أنْ يقال: إنَّ بعضَ الأعضاء قامت به القوَّة المدرِكةُ لجميع هذه المدرَكات؛ لأنَّه يلزمُ أنْ يكونَ في البدن عضوٌ واحدٌ سامع مبصرٌ متخيِّلٌ متفكِّر عاقل، ولسنا نجدُ ذلك فينا، وبهذا ظهرَ أيضاً فسادُ ما قيل: لعلَّ القوَّةَ المدرِكة لجميع المدركات قائمةٌ بجسمٍ لطيفٍ محصورٍ في بعض الأعضاءِ لظهور أنَّا لا نجد من أبداننا موضعاً مُشتمِلاً على هذا الجسم اللطيف السامع المبصر المتخيِّل المتفكِّر العاقل.

وليس لأحدٍ أنْ يقول: هب أنَّكم لا تعرفون هذا الموضع، لكنَّ ذلك لا يدلُّ على عدمه، لأنَّا نقول: إنَّا قد دَلَّلنا على أنَّا السامعون المبصرون المتخيِّلون العاقلون، فلو كان بعضُ الأجسام ـ سواء كان جزءاً من البدن أو محصوراً في جزءٍ منه ـ موصوفاً بالقوَّة المتعلِّقة بجميع هذه المدرَكات لم يكن حقيقتُنا وهويتُنا إلا ذلك الجسم، فلو لم نعرفه لَكُنَّا لا نعرف حقيقةَ أنفسنا، وذلك باطلٌ، فثبت أنَّ الموصوف بالقوَّة المدرِكة لجميع المدرَكات ليس جسماً أصلاً ولا قائماً به، فهو جوهرٌ مجرَّدٌ، وهو المطلوب.

وذكر هؤلاء الذاهبون إلى التجرُّد أنَّه متعلِّقٌ بالبدن كتعلُّق العاشق ـ عشقاً جِبِلِّيًّا إلهاميًّا ـ بالمعشوق، حتى إنَّه لا ينقطعُ ذلك التعلُّق ما دام البدنُ مستعدًّا لأنْ يتعلَّق به، بل تعلُّق الروح أقوى من هذا التعلُّق بكثير، وهو تعلُّقُ التدبير والتصريف.

وإضافتُه إلى ضميره تعالى في الآية؛ لأنَّه سبحانه وتعالى خلقَه من غير واسطةٍ تجري مجرى الأصل والمادة، أو للتشريف.

وسئل حجَّةُ الإسلام عن ذلك فقال: لو نطقَت الشمسُ وقالت: أفضتُ على الأرض من نوري، يكونُ ذلك صدقاً، ويكون معنى النسبة: أنَّ النورَ الحاصل للأرض من جنس نور الشمس بوجهٍ من الوجوه. وإنْ كان في غاية من الضعف بالنسبة إليه.

وقد عرفتَ أنَّ الروح منزَّهٌ عن الجهة والمكان، وفي قوَّته العلمُ بجميع الأشياء، وذلك مضاهاةٌ ومناسبةٌ، ولذلك خُصَّ بالإضافة، وهذه المضاهاة ليست للجسمانيَّات أصلاً.

وليس لأحدٍ أنْ يقولَ: إنَّ في تنزيه الروح عن المكان وصفاً له بصفة الله تعالى شأنه وتقدَّسَت صفاتُه، بل بأخصِّ صفاته سبحانه، ويلزمُ من ذلك عدمُ التميُّزِ، فقد قالوا: كما يستحيلُ اجتماعُ جسمَين في مكان واحدٍ يستحيلُ أنْ يجتمَع اثنان لا في مكان، لأنَّه إنما استحال اجتماع جسمَين في مكان؛ لأنَّه لو اجتمعا لم يتميَّز أحدُهما عن الآخر، فكذلك لو وُجد اثنان كلٌّ واحدٍ منهما ليس في مكان، لم يحصل التميزُ والفرقُ بينهما، ولذا قالوا: لا يجتمعُ سوادان في محلٍّ واحدٍ حتى قيل: المثلان كالضِّدَّين؛ لأنَّا نقول: التميُّز غيرُ منحصرٍ بالمكان بل يكون به لجسمَين في مكانين وبالزمان كسوادَين في جوهر واحدٍ في زمانين، وبالحدِّ والحقيقة كالأعراض المختلفة في محلٍّ واحدٍ مثل الطعم واللون والبرودة والرطوبة في جسم واحدٍ، فإنَّ تميُّزَ كلٍّ منها عن الآخر بذاته لا بمكان ولا زمان، ومثل ذلك العلم والإرادة والقدرة، فإنَّ تميُّزَ كلٍّ أيضاً بذاته وإن كان الجميع لشيءٍ واحدٍ، فإذا تُصوِّرَ أعراضٌ مختلفةُ الحقائق في محلٍّ واحدٍ، فبأنْ يُتصَوَّر أشياء مختلفةُ الحقائق بذواتها في غير مكان أَولَى.

وكونُ الوجود لا في مكان أخصَّ صفاته سبحانه في حيِّز المنع، بل الأخصُّ أنَّه جل شأنه قَيُّومٌ، أي: قائمٌ بذاته، وكلُّ ما سواه قائمٌ به، وأنَّه تبارك وتعالى موجودٌ بذاته، وكلُّ ما سواه تعالى موجودٌ لا بذاته، بل ليس للأشياء من ذواتها إلا العدمُ، وإنَّما لها الوجودُ من غيرها على سبيل العارية، والوجودُ له سبحانه ذاتيٌّ غيرُ مستعارٍ، فالقيوميَّة ليس إلا لله عزَّ وجلَّ. انتهى.

وهذا الذي قالوه من تجرُّد الروحِ خلافُ ما عليه جمهورُ أهل السنة.

قال الشيخ عبد الرؤوف المناوي: قد خاض سائرُ الفرق غمرةَ الكلام في الروح، فما ظَفِروا بطائلٍ ولا رجعوا بنائل، وفيها أكثرُ من ألف قولٍ وليس فيها ـ على ما قال ابن جماعة ـ قولٌ صحيح، بل كلُّها قياساتٌ وتخيُّلاتٌ عقليَّة، وجمهورُ أهل السنة على أنَّها جسمٌ لطيفٌ يخالفُ الأجسام بالماهية والصفة، متصرِّفٌ في البدن، حالٌّ فيه حلولَ الزيت في الزيتون والنار في الفحم، يعبَّرُ عنه بـ: أنا وأنت[1]. وإلى ذلك ذهب إمامُ الحرمين.

---

(١) فيض القدير ٢/ ٣٤٣، وقول ابن جماعة منه.

وقال اللقاني: جمهورُ المتكلِّمين على أنَّها جسمٌ مخالفٌ بالماهية للجسم الذي تتولَّد منه الأعضاء، نورانيٌّ عُلْويٌّ خفيفٌ، حيٌّ لذاته، نافذ في جوهر الأعضاء، سارٍ فيه سريان ماء الورد في الورد والنار في الفحم، لا يتطرَّق إليه تبدُّلٌ ولا انحلالٌ، بقاؤه في الأعضاء حياةٌ، وانفصالُه عنها إلى عالم الأرواح موتٌ.

وزَعَم بعضُهم أنَّ الإنسان هو هذا الهيكلُ المحسوس وروحُه عَرَضٌ قائمٌ به، وعزاه بعضُ المتأخِّرين من المعاصرين إلى جمهور المتكلِّمين، وجعله وامتناع اتِّحاد القابل والفاعل دليلاً على إبطال كون العبد خالقاً لأفعاله.

وقد ردَّ الإمام في التفسير ذلك الزعم، وارتَضَى ما نقلناه عن الجمهور فقال: إنَّهم قالوا: لا يجوزُ أنْ يكون الإنسان عبارةً عن هذا الهيكل المحسوس(١)؛ لأنَّ أجزاءَه أبداً في الذبول والنمو، والزيادة والنقصان، والاستكمال والذوبان، ولاشكَّ أنَّ الإنسان من حيث هو هو أمرٌ باقٍ من أوَّل عُمُرِه إلى آخره، وغيرُ الباقي غيرُ الباقي، فالمشارُ إليه عند كلِّ أحدٍ بقوله: أنا، وجب أنْ يكون مغايراً لهذا الهيكل.

ثم اختلفوا عند ذلك في أنَّ المشارَ إليه بـ: أنا، أيُّ شيءٍ هو؟ والأقوالُ فيه كثيرةٌ إلَّا أنَّ أَسدَّها تحصيلاً وتلخيصاً أنَّها أجزاءٌ جسمانيَّة ساريةٌ في هذا الهيكل سريانَ الماء في الورد، والدهن في السمسم، ثم إنَّ المحقِّقين منهم قالوا: إنَّ الأجسام التي هي باقيةٌ من أول العمر إلى آخره مخالفةٌ بالماهية لِمَا تَركَّب منه الهيكل، وهي حيَّةٌ لذاتها، مدركةٌ لذاتها، نورانيَّةٌ لذاتها، فإذا خالطَت ذلك وصارَت ساريةً فيه، صارَ مستنيراً بنورها متحرِّكاً بتحريكها، ثم إنَّه أبداً في الذوبان والتحلُّل والتبدُّل، وتلك الأجزاء لمخالفتها له بالماهية باقيةٌ بحالها، وإذا فَسَد انفصلَت عنه إلى عالم القدس إن كانت سعيدةً أو عالم الآفات إنْ كانت شقيةً(٢). اهـ.

ومنه يعلم بطلانُ الاستدلال على تجرُّد الروح بإبطال كون الإنسان عبارةً عن الهيكل المحسوس كما يقتضيه كلامُ صاحب «الهياكل»(٣) حسبما يدلُّ عليه كلامُ

---

(١) في هامش (م): وبه يرد على بعض المعاصرين أيضاً، تدبَّر. اهـ منه.

(٢) مفاتيح الغيب ٩/ ٩١- ٩٢بنحوه.

(٣) تقدم ٤/ ٩٤.

شارحه الجلال حيث قال في الهيكل الثاني: أنت لا تغفلُ عن ذاتك أبداً، وما جزءٌ من أجزاء بدنك إلا تنساه أحياناً ولا يُدرَكُ الكلُّ إلا بأجزائه، فلو كنتَ أنت هذه الجملةَ ما كان يستمرُّ شعورُك بذاتك مع نسيانها، فأنت وراء هذا البدن. وقال الجلال: فلا تكون النفسُ جسماً أصلاً؛ لأنَّ غايةَ ذلك إثباتُ أنَّ النفسَ وراء هذا البدن لا إثباتُ أنَّها مع ذلك مجرَّدةٌ، لجواز أنْ تكونَ جسماً لطيفاً كما علمتَ.

وزعم القاضي أنَّ مذهب أكثر المتكلِّمين أنَّ الروح عَرَضٌ، وأنَّها هي الحياةُ، واختاره الأستاذ أبو إسحاق ولم يبالِ بلزوم قيام العَرَض بالعَرَض.

واعترض هذا الزاعم القولَ بالجسميَّة، بأنَّها لو كانت جسماً لجاز عليها الحركةُ والسكونُ كسائر الأجسام، فيلزمُ أنْ تكونَ كلُّها أرواحاً، ولوجب أنْ يكون للروح روحٌ أخرى لا إلى نهاية.

وفيه أنَّه إنَّما يلزمُ ما ذكر أنْ لو كان الجسم إنَّما كان روحاً لكونه جسماً، وليس فليس، فإنَّه إنَّما كان روحاً لمعنًى خصَّه الله تعالى به.

وقد علمتَ أنَّ القائل بالجسميَّة يقولُ: إنَّه حيٌّ لذاته، فلا يلزمُ التسلسل، وبينه وبين الجسم عنده علاقةٌ بحسب بخار لطيفٍ يُعبَّر عنه بالروح الحيواني، وعرَّفه في «الهياكل» بأنَّه جسمٌ لطيفٌ بخاريٌّ يتولَّدُ من لطائف الأخلاط وينبعثُ من التجويف الأيسر من القلب، وينبثُّ في البدن بعد أنْ يكتسبَ السلطانَ النوري من النفس الناطقة، ولولا لطفُه لما سَرَى، وهو مطيَّةُ تصرُّفات النفس، ومتى انقطَعَ انقطع تصرُّفُها.

وقال بعضهم: إنَّه اعتدال مزاجِ دم القلب، والأمرُ في ذلك سهل.

وذهب بعضُ المحقِّقين إلى أنَّ الروح تُطلَقُ على الروح التي ذُكِرَ أنَّها جسمٌ لطيفٌ سارٍ في البدن سريانَ ماء الورد في الورد، وهو غيرُ الروح الحيواني، وعلى أمرٍ ربانيٍّ شريفٍ له إشراقٌ على ذلك الجسم اللطيف، ولعلَّ ذلك هو سببُ حياة الروح بالمعنى الأوَّل وإدراكها ونورانيتها، ويُعبَّر عنه بالروح الأمري، وهو المراد من الروح في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ﴾ [الإسراء: ٨٥] الآية، ويطلقون كثيراً على الروح بالمعنى الأوَّل النفسَ الإنسانيَّةَ، وعليها بالمعنى الثاني النفسَ الناطقة.

والذي يقال فيه: إنَّه جوهرٌ مجرَّدٌ ليس جسماً ولا جسمانِياً، ولامتصلاً ولا منفصلاً، ولا داخلَ العالم ولا خارجَه، وأنَّه نورٌ من أنوار الله تعالى القائمة لا في أين، من الله عزَّ وجلَّ مَشرقُه، وإليه سبحانه مغربُه، هو الروح بهذا الإطلاق.

واختلفوا في أنَّ حدوثها هل هو قبل الأبدان أو بعدها، فقال حجَّة الإسلام: الحقُّ أنَّ الأرواح حدثَت عند استعدادِ الجسدِ للقبول، كما حدثَت الصورةُ في المرآة بحدوث الصقالة، وإنْ كان ذو الصورة سابقَ الوجود على الصقيل. وقد قال بذلك من الفلاسفة أرسطو ومتَّبعوه، واستدلُّوا عليه بأنَّها لو كانت موجودةً قبل الأبدان؛ فإمَّا أنْ تكونَ واحدةً أو كثيرةً، وعلى الأوَّل إما أنْ تتكثَّر عند التعلُّق بالبدن أوْ لا، فإنْ لم تتكثَّر كانت الروحُ الواحدةُ روحاً لكلِّ بدنٍ، ولو كان كذلك لكان ما عَلِمَه إنسانٌ علمه الكلُّ، وما جهله جهله، وذلك محالٌ، وإنْ تكثَّرت لزم انقسامُ ما ليس له حجمٌ، وهو أيضاً محال.

وعلى الثاني لابدَّ أنْ يمتازَ كلٌّ واحدةٍ منها عن صاحبتها إمَّا بالماهية أو لوازمها أو عوارضها، والأوَّلان محالان؛ لأنَّ الأرواحَ متَّحدةٌ بالنوع، والواحدُ بالنوع يَتَساوَى جميعُ أفراده بالذاتيات ولوازمها. وأمَّا العوارض فحدوثُها إنَّما هو بسبب المادة، وهي هنا البدنُ فقبله لا مادة، فلا يمكن أنْ يكون هناك عوارض مختلفةٌ.

وبعد أنْ ساق حجَّةُ الإسلام الدليلَ على هذا الطَّرْز، قيل له: ما تقول في خبر: «إنَّ الله تعالى خَلَق الأرواحَ قَبْل الأجسام بألفي عام»(١). وقوله ﷺ: «أنا أوَّل الأنبياء خَلْقاً، وآخرُهم بعثاً، وكنتُ نبيًّا وآدمُ بين الماء والطين»(٢).

فقال رحمه الله تعالى: نعم هذا يدلُّ بظاهره على تقدُّم وجود الروح على الجسد، ولكنَّ أمرَ الظواهر هيِّنٌ لسعة بابِ التأويل، وقد قالوا: إنَّ البرهان القاطع لا يُدرأ بالظاهر بل يُؤوَّل له الظاهرُ كما في ظواهر الكتاب والسنة في حقِّ الله تعالى

(١) الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ١٨٧ من حديث علي رضي الله عنه، وسيأتي الكلام عليه عند الآية [٨٥] من سورة الإسراء، قال السيوطي في الحاوي ١/ ٥٧٢-٥٧٣: ورد بإسناد ضعيف جداً فلا معوَّل عليه، والمعول عليه في ذلك الحديث الصحيح: «إن الله قدر المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة». اهـ.

(٢) سلف ٨/ ١٤٠.

المنافية لِمَا يدلُّ عليه البرهان القطعي، وحينئذٍ يقال: لعلَّ المراد من الأرواح في الخبر الأوَّل الملائكةُ عليهم السلام، وبالأجساد أجسادُ العالم من العرش والكرسيِّ والسماوات ونحوها، وإذا تفكَّرت في عِظَم هذه الأجساد لم تكَدْ تستحضر أجسادَ الآدميين، ولم تفهمها من مُطلق لفظ الأجساد، ونسبةُ أرواحِ البشر إلى أرواح الملائكة عليهم السلام كنسبة أجسادهم إلى أجساد العالم، ولو انفتَحَ عليك بابُ معرفةِ أرواح الملائكة لرأيت الأرواح البشريةَ كسراجٍ اقتبس من نارٍ عظيمة طَبَقَت العالم، وتلك النارُ هي الروح الأخير من أرواح الملائكة.

وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «أنا أوَّلُ الأنبياء خَلْقاً» فالخلقُ فيه بمعنَى التقدير دون الإيجاد، فإنَّه ﷺ قبل أنْ يُولدَ لم يكن مخلوقاً موجوداً، ولكنَّ الغايات سابقةٌ في التقدير ولاحقةٌ في الوجود، وهو معنى قول الحكيم: أوَّلُ الفكر آخرُ العمل، فالدارُ الكاملةُ أوَّلُ الأشياء في حقِّ المهندس مثلاً تقديراً وآخرها وجوداً، وما يتقدَّم على وجودها من ضَرْب اللَّبن ونحوه وسيلةٌ إليها ومقصودٌ لأجلها، ولمَّا كان المقصودُ من فطرة الآدميين إدراكَهم لسعادة القُرْب من الحضرة الإلهية، ولم يُمكنهم ذلك إلا بتعريف الأنبياء عليهم السلام كانت النبوَّة مقصودةً، والمقصودُ كمالها وغايتُها لا أوَّلها، وتمهيدُ أوَّلها وسيلةٌ إلى ذلك، وكمالُها به ﷺ، فلذلك كان أوَّلاً في التقدير وآخراً في الوجود.

وقولُه عليه الصلاة والسلام: «كنت نبيًّا وآدمُ بين الماء والطين» إشارةٌ إلى هذا أيضاً، وأنَّه لم يشأ سبحانه خَلْق آدم إلا لينتزِعَ الصافي من ذُرِّيته، ولم يزل يُستصفَى تدريجاً إلى أنْ بلَغَ كمال الصفاء، ولا يُفهَم هذا إلا بأنْ يعلم أنَّ للدار مثلاً وجودَين، وجوداً في ذهن المهندس حتى كأنَّه ينظر إلى صورتها، ووجوداً خارجَ الذهن مسبباً عن الوجود الأوَّل، فهو سابق عليه لا محالة.

وحينئذٍ يقال: إنَّ الله تعالى يُقدِّر أوَّلاً ثم يوجد على وفق التقدير ثانياً، والتقديرُ يُرسَم في اللوح المحفوظ كما يُرسَم تقديرُ المهندس أوَّلاً في لوحٍ أو قرطاس، فتصير الدار موجودةً بكمال صورتها نوعاً من الوجود يكون سبباً للوجود الحقيقي، وكما أنَّ هذه الصورة تَرتَسِمُ في لوح المهندس بواسطة القلم، والقلمُ يجري على وفق العلم، بل العلمُ يُجريه، كذلك تقديرُ صُوَرِ الأمور الإلهيَّة تَرتسمُ أوَّلاً في اللوح

المحفوظِ بواسطة القلم الإلهي، والقلم يجري على وفق العلم السابق الأزلي. واللوحُ عبارةٌ عن موجودٍ قابلٍ لنقش الصُّوَر، والقلمُ عبارةٌ عن موجودٍ منه تَفيضُ الصورُ على اللَّوح، وليس من شرطهما أنْ يكونا جسمَين، ولا يَبْعدُ أنْ يكونَ قلمُ الله تعالى ولوحُه لائقين لأصبعه ويده، وكلُّ ذلك على ما يليقُ بذاته الإلهيَّة، ويُقدَّس عن حقيقة الجسميَّة.

وقد يقال: إنَّهما جوهران روحانيان؛ أحدُهما متعلِّمٌ وهو اللوح، والآخر مُعلِّم وهو القلم، وقد أُشير إلى ذلك بقوله سبحانه: ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [العلق: ٤] فإذا فهمْتَ معنى الوجود، فقد كان نبيُّنا ﷺ قَبْلُ بالمعنى الأوَّل منهما دون المعنى الثاني. اهـ.

واعترض على الاستدلال من وجوهٍ، منها ما هو جارٍ على رأي الفلاسفة المستدلِّين بذلك أيضاً، ومنها ما لا اختصاص له برأيهم:

الأوَّل: لِمَ لا يجوز أنْ يقال: إنَّها كانت قبلَ الأبدان واحدة ثم تكثَّرت، ولا يقال: الكلُّ لو كان واحداً وكان قابلاً للانقسام يلزمُ أنْ تكونَ وحدتُه اتِّصاليةً فيكونَ جسماً؛ لأنَّا نقول: مسلَّمٌ أنَّ كلَّ ما وحدتُه اتِّصالية فإنَّه واحدٌ قابلٌ للانقسام، ولا نسلِّمُ أنَّ كلَّ واحدٍ قابل للانقسام، فوحدتُه اتِّصالية؛ لأنَّ الموجبةَ الكلِّيَّة لا تنعكس كنفسها.

الثاني: سلَّمنا أنَّها كانت متكثِّرةً، لكن لِمَ قلتمْ لابدَّ أنْ يختصَّ كلٌّ بصفةٍ مميزةٍ؛ لأنه لو كان التميُّز للاختصاص بأمرٍ ما لكان ذلك الأمر أيضاً متميِّزاً عن غيره، فإمَّا أنْ يكون تميزُه بما به تميزه، فيلزمُ الدور، أو بثالثٍ فيلزمُ التسلسل؛ ولأنَّ التميزَ لا يختصُّ بشيءٍ بعينه إلا بعد تميزه، فلو كان تميزُ الشيء عن غيره باختصاصه بشيء لزم الدور.

الثالث: سلَّمنا أنَّه لابدَّ من مميز، فَلِمَ لا يجوزُ أنْ يكونَ بذاتيٍّ؟ وبيانُه ما بيَّنوه من اختلاف النفوس بالنوع.

الرابع: سلَّمنا أنَّها لا تتميز بشيءٍ من الذاتيَّات، فَلِمَ لا يجوزُ أنْ تتميز بالعوارض؟ قولكم: إنَّ حدوثها بسبب المادة وهي هنا البدنُ، ولا بدنَ، فنقول: لِمَ لا يجوزُ أنْ يكونَ هناك بدنٌ تتعلَّقُ به وقَبلَه آخرُ، وهكذا، ولا مخلص من هذا

إلا بإبطال التناسخ فتتوقَّفُ[1] حجَّةُ إثباتِ حدوث الأرواح على ذلك الإبطال، مع أنَّ الحكماء بنَوا ذلك على الحدوث حيث قالوا بعد الفراغ من دليله: إذا ثَبَت حدوثُ النفس فلابدَّ وأنْ يكونَ لحدوثها سببٌ، وذلك هو حدوث البدن، فإذا حدَثَ البدنُ وتعلَّقَت به نفسٌ على سبيل التناسخ، وثَبَت أنَّ حدوثَ النفس سببٌ لأنْ يحدُثَ عن المبادي المفارقة نفسٌ أخرى، فحينئذٍ يلزمُ اجتماع نفسَين في بدن فيجيءُ الدور.

الخامس: سلَّمنا عدمَ تعلُّقها ببدنٍ قبلُ، لكنْ لِمَ لا يجوزُ أنْ تكونَ موصوفةً بعارضٍ باعتباره كانت متميِّزةً، ثم يكونُ كلُّ عارضٍ بسبب عارضٍ آخر لا إلى أول.

السادس: المعارضةُ وهي أنَّ الأرواح عند الفريقَين باقيةٌ بعد المفارقة، ولا يكونُ تمايزُها بالماهية ولوازمها، بل بالعوارض، لكن الأرواح الهيولانية التي لم تكتسب شيئاً من العوارض إذا فارقَت لا يكونُ فيها شيءٌ من العوارض سوى أنَّها كانت متعلِّقةً بأبدانٍ، فإنْ كفى هذا القدْرُ في وقوع التمايز، فلْيَكْفِ أيضاً كونها بحيث يحدثُ لها بعد التعلُّق بأبدانٍ متمايزةٍ، والجواب[2] قولهم: لِمَ لا يجوزُ أنْ تكونَ قبلُ واحدةً فتكثَّرَت، قلنا: لا يجوزُ؛ لأنَّ[3] كلَّ ما انقسم وَجَب أنْ يكونَ جزؤه مخالفاً لكلِّه ضرورةَ أنَّ الشيءَ مع غيره ليس هو لا مع غيره، فتلك المخالفة إن كانت بالماهية أو لوازمها وجَبَ أنْ يكونَ كلُّ واحدٍ من الأجزاء مخالفاً للآخر بالماهية، فتكونُ تلك الأجزاء قد كانت متميزةً أبداً وكانت موجودةً قبلَ التعلُّق.

فهذه الأمورُ المتعلِّقةُ الآن بالأبدان كانت متميزةً قبلَ التعلُّق بها، وإن كانت المخالفةُ لا بالماهية ولا بلوازمها، فلا بدَّ أنْ يكون الجزءُ أصغرَ مقداراً من الكلِّ، وإلا لم يكن أحدُهما أَولَى بأنْ يكونَ جزء الآخر من العكس، فثبت أنَّ كلَّ واحدٍ قابلٍ للانقسام، فلا بدَّ أنْ يكونَ ذا مقدار.

سلَّمنا أنَّ المجرَّد لا يمكن أنْ ينقسمَ بعدَ وحدتِهِ، لكن تعيُّنات تلك الأجزاء إنَّما تحدثُ بعدَ الانقسام الحاصل بعد التعلُّق بالبدن، فيكونُ تعيُّنُ كلِّ واحدٍ من

---

(١) في (م): فتوقف.
(٢) ليست في (م).
(٣) في الأصل: إن، والمثبت من (م).

تلك الأجزاء بعدَ التعلُّق بالبدن، فيكون تعيُّنُ كلٍّ واحدةٍ من تلك النفوس من حيث هي حادثاً، وهو المطلوب.

وقولُهم: لِمَ قلتُم: إنَّ الامتياز لا يوجدُ إلا عند الاختصاصِ بوصفٍ؟ قلنا: يجابُ بنحو ما ذكروه في تشخُّص التشخص.

وقولُهم: لِمَ قلتُم: إنَّ النفوس لا يجوزُ أنْ تتمايزَ بالصفات المقومة؟ قلنا: هَبْ أنَّ الأمرَ كما قلتموه إلا أنَّا لا نعرفُ بالبديهة أنَّ كلَّ نوعٍ من أنواعها فإنَّها مقولةٌ على أشخاص عدَّة بالضرورة، فإنَّا نعلمُ أنَّه ليس يجبُ أنْ يكونَ كلُّ إنسان مخالفاً لجميع الناس في الماهية، وإذا وُجِد في كلِّ نوعٍ من أنواعها شخصٌ فقد تمَّت الحجَّةُ.

وقولهم: إنَّ هذه الحجةَ مبنيَّةٌ على إبطال التناسخ. قلنا: ليس كذلك؛ لأنَّا إذا وجدنا من النوع الواحدِ شخصين، علمنا أنَّ تلك الشخصيةَ ليست معلولةً لتلك الماهيةِ؛ لأنَّ كلَّ ما كان كذلك كان نوعُه في شخصه، ولمَّا لم يكن كذلك علمنا أنَّ شخصيتَه ليست من لوازم ماهيته، فهي إذن لعلَّةٍ خارجيَّةٍ، وقد عرفت أنَّ العلة هي المادة، ومادةُ النفس هي البدنُ، فإذن تعيُّنها لابدَّ وأنْ يكون للتعلُّق ببدنٍ معيَّنٍ، فتكون لا محالة غيرَ متعينةٍ قبل ذلك البدن، فهي معدومةٌ قبلَه.

وبهذا يظهرُ أنَّ كلَّ ما نوعُه مقولٌ على كثيرين بالفعل فهو محدَثٌ، فاتَّضح من هذا أنَّه متى سلم كون النفوسِ متَّحدةً في النوع يلزمُ حدوثُها، وأنَّه لا يحتاجُ في ذلك إلى إبطال التناسخ ليجيءَ الدورُ السابق.

قولهم: لم لا يجوز أنْ تكونَ موصوفةً بعارضٍ إلخ؟ قلنا: لا يجوزُ أنْ يكونَ امتيازها بذلك؛ لأنَّ تميز النفس المعيَّنة عن غيرها حكمٌ معيَّنٌ لابدَّ له من علَّةٍ معيَّنةٍ، وتلك العلَّة لا يمكنُ أنْ تكونَ حالَّةً فيها؛ لأنَّ ذلك متوقِّفٌ على امتيازها عن غيرها، فلو توقَّف ذلك الامتيازُ على حلول ذلك الحالِّ لزم الدورُ، فإذن تلك العلَّة أمرٌ عائدٌ إلى القابل، وقبل البدن لا قابلَ، فلا تميُّزَ. والمتكلِّمون يُبطلون مثل ما ذُكِرَ بلزوم التسلسل الذي يبطله برهان التطبيق.

وأما المعارضة، فالجواب عنها بأنَّ النفوس الهيولانية يتميَّزُ بعضُها عن البعض أوَّلاً بسبب تعلُّقها بالقابل المعين، ثم إنَّه يلزمُ من تعيُّن كلٍّ واحدٍ منها شعورها

بذاتها الخاصة، وقد بُيِّن أنَّ شعورَ الشيء بذاته حالةٌ زائدةٌ على ذاته، ثم إنَّ ذلك الشعورَ يستمرُّ، فلا جَرَمَ يَبْقَى الامتياز.

والحاصلُ أنَّ الامتياز لابدَّ وأنْ يحصلَ أوَّلاً بسببٍ آخرَ حتى يحصلَ لكلٍّ من النفوس شعورٌ بذاته الخاص، وذلك السببُ في النفوس الهيولانية تعلُّقها بالأبدان، وأمَّا التي قبلَ الأبدان فلو تميَّزت لكان المميّزُ سوى الشعور؛ حتى يترتَّبَ هو عليه، وقد بُيِّنَ أنَّه ليس هناك مميِّزٌ، فلا جَرَم استَحَالَ حصولُ التميُّز، وظهر الفرق، والله تعالى الموفِّق.

وقد استدل صاحب «المعتبر»(١) على حدوثها بأنَّها لو كانت موجودةً قبل الأبدان لكانت إما متعلِّقةً بأبدانٍ أُخَرَ أَوْ لا، والأوَّل باطلٌ؛ لأنَّه قولٌ بالتناسخ، وهو باطل؛ لأنَّ أنفسَنا لو كانت من قبلُ في بدنٍ آخرَ لكنَّا نعلم الآن شيئاً من الأحوال الماضية، ونتذكَّرُ ذلك البدن، وليس فليس. والثاني كذلك؛ لأنَّها تكونُ حينئذٍ معطلةً ولا معطل في الطبيعة، وهو دليلٌ بجميع مقدماته ضعيفٌ جدًّا فلا تعتبره.

وزعم قومٌ من قدماء الفلاسفة قِدَمَها، وأوردوا لذلك أموراً:

الأولُ: أنَّ كلَّ ما يحدثُ فلا بدَّ أنْ يكونَ له مادةٌ تكونُ سبباً لأَنْ يصيرَ أَولَى بالوجود بعد أنْ كان أَولَى بالعدم، فلو كانت النفوسُ حادثةً لكانت مادية، وليس فليس.

الثاني: أنَّها لو كانت حادثةً لكان حدوثُها لحدوثِ الأبدان، لكنَّ الأبدانَ الماضية غيرُ متناهيةٍ، فالنفوسُ الآن غيرُ متناهيةٍ لكن ذلك محالٌ؛ لكونها قابلةً للزيادة والنقصان، والقابلُ لهما متناهٍ، فهي الآن متناهيةٌ، فإذن ليس حدوثُ الأبدان علةً لحدوثها، فلا يتوقَّفُ صدورُها عن عللها على حدوث أمرٍ، فتكون قديمة.

الثالث: أنَّها لو لم تكن أزليَّةً لم تكن أبديَّةً؛ لِمَا ثبت أنَّ كلَّ كائنٍ فاسدٌ، لكنَّها أبديَّةٌ إجماعاً، فهي أزليَّةٌ، ويرد عليهم أنَّه إنْ أُريد بكونها مادّيةً أنَّ حدوثها يكونُ

(١) المعتبر في المنطق لأبي بركات هبة الله بن علي بن ملكا، العلامة الفيلسوف شيخ الطب، كان يهوديًا، ثم أسلم في أواخر عمره، توفي سنة نيف وخمسين وخمس مئة. السير ٢٠/٤١٩.

متوقِّفاً على حدوث البدن، فالأمرُ كذلك، وإنْ أُريد به أنَّها تكونُ منطبعةً في البدن فَلِمَ قلتُم: إنَّه لو توقَّفَ حدوثُها على حدوث البدنِ وَجَب أنْ تكونَ منطبعةً فيه، وأيضاً للمانع أنْ يمنعَ فسادَ لزومِ كونِ النفوس الآن غيرَ متناهيةٍ، والمقدمةُ القائلة: إنَّ كلَّ قابلٍ للزيادة والنقصان متناهٍ، ليست من الأَوَّليات قطعاً كما هو ظاهر، فإذن لا تصحُّ إلاّ ببرهان، وهو لا يتقرَّر إلا فيما يحتمل الانطباق على ما بُيِّن في محلِّه.

وقولهم: لو لم تكن أزليَّةً لم تكن أبديَّةً، قضيةٌ لا حجَّةَ لهم على تصحيحها فلا تُقبل، ثم إنَّ كونَ النفوس متَّحدةً بالنوع مما قد صرَّح به جماعةٌ من المتكلِّمين كالغزالي وغيرِه، وإليه ذهب الشيخُ من الفلاسفة إلا أنَّه لم يأتِ لذلك بشبهة فضلاً عن حجَّة، واستدلَّ غيرُه بأمور:

الأول: أنَّ النفوس مشتركةٌ في أنَّها نفوسٌ بشريةٌ، فلو انفصَلَ بعضُها عن بعضٍ بمقوّمٍ ذاتيٍّ مع هذا الاشتراك، لزم التركيبُ فكانت جسمانيةً.

الثاني: أنَّا نرى الناسَ مشتركين في صحَّة العلم بالمعلومات، وفي صحَّة التخلُّق بالأخلاق، فالنفوسُ متساويةٌ في صحَّة اتِّصافها بالأفعال الإدراكيَّة والتحريكيَّة، وذلك يُوجب أنْ تكونَ متساويةً مطلقاً؛ لأنَّا لا نعقل من صفاتها إلا كونَها مدركةً ومتحرِّكةً بالإرادة، وهي متساويةٌ فيهما، فهي إذن متساويةٌ في جميع صفاتها المعقولة، فلو اختلَفت بعد ذلك لكان اختلافُها في صفاتٍ غير معقولة، ولو فتحنا هذا الباب لزم تعذُّر الحكم بتماثل شيئَين؛ لجواز اختلافهما في غير معقول عندنا، وذلك يؤدِّي إلى القدح في تماثل المتماثلات.

الثالث: أنَّه بُيِّن في محلِّه أنَّ كلَّ ماهيةٍ مجرَّدةٍ لابدَّ وأنْ تكونَ عاقلةً لحقيقةِ ذاتها، لكنَّ نَفْسَ زيدٍ مثلاً مجرَّدةٌ، فهي عاقلةٌ لذلك، ثم إنَّها لا تعقلُ إلا ماهية قويَّة على الإدراك والتحريك، فإذن ماهيتُه هذا القدرُ، وهو مشترَكٌ بينه وبين سائر النفوس بالأدلة التي ذكروها في بيان أنَّ الوجودَ مشترَكٌ فيكونُ حينئذٍ تمامُ ماهيته مقولاً على سائر النفوس، ويمتنعُ أنْ يكونَ هذا المشترَكُ فصل مقوّم في غيره، إذ هو غيرُ محتاجٍ إليه في زيد إلى فصلٍ يُميِّزُه عن غيره، فلا يحتاجُ في غيره أيضاً إلى فصل، فإنَّ الطَّبيعة الواحدةَ لا تكونُ محتاجةً غنيةً معاً، فثَبت الاتفاقُ في النوع.

وهي أدلةٌ واهيةٌ:

أما الأول: فلقائل أنْ يقولَ: لِمَ لا يجوزُ أنَّ هذه النفوسَ وإن كانت مختلفةً بالنوع فهي غيرُ متشاركةٍ في الجنس، فلا يلزمُ من ذلك الاختلافِ كونُها مركَّبةً؟ والاشتراكُ في كونها نفوساً بشريةً ونحوِه يجوزُ أنْ يكونَ اشتراكاً في أمورٍ لازمةٍ لجوهرها، ولا تكون مقوّمةً لها، فتكون مختلفةً في تمام ماهياتها، ومشتركةً في اللوازم الخارجية، مثل اشتراك الفصول المقوّمة لأنواع جنسٍ واحدٍ في ذلك الجنس، فلا يلزمُ التركيب، ولو سلَّمنا أنَّ هذه الأوصافَ ذاتيةٌ، فلِمَ لا يجوزُ أنْ تكونَ النفوسُ مركَّبةً في ماهياتها مع عدم كونها جسمانيًّا، فالسوادُ والبياض مثلاً مندرجان تحت جنسٍ، وهو اللون، فيكونُ كلٌّ منهما مركَّباً لا تركيباً جسمانيًّا، ومثل هذا يقال هنا، كيف لا وقد قالوا: الجوهرُ مقولٌ على النفس والجسم.

وأما الثاني فمدارُه الاستقراءُ، ويضعف ذلك لوجهَين: أحدُهما: أنَّه لا يمكننا أنْ نحكمَ على كلِّ إنسانٍ بكونه قابلاً لجميع المدرَكات. وثانيهما: أنَّه لا يمكننا أيضاً أنْ نحكمَ على النفس التي علمنا قبولَها لصفةٍ أنَّها قابلةٌ لجميع الصفات، كيف وضبط الصفات غيرُ ممكن.

وأما الثالث: فهو يقتضي أنْ يكونَ جميعُ المفارقات نوعاً واحداً وهو مما لا سبيلَ إليه، وذهب شِرْذمة إلى اختلافها بالنوع، وهذا المعتبرُ عند صاحب «المعتبر» وطوَّلَ الكلامَ في ذلك، وأحسنُ ما عوَّل عليه في الاستدلال له اختلافُ الناس في العلم والجهل، والقوَّة والضعف، والغضب والتحمُّل، وغير ذلك، فقال: ليس ذلك لاختلاف المزاجِ؛ لِمَا أنَّا نجدُ متساويين مزاجاً مختلفين أخلاقاً وبالعكس، وأيضاً أنَّ نفسَ النبيِّ عليه الصلاة والسلام تبلغُ قوَّتها إلى حيث تكونُ قويَّةً على التصرُّف في هيولَى هذا العالم، ومعلومٌ أنَّ ذلك ليس لقوَّة مزاجه، فليس ذلك الاختلافُ إلا لاختلافِ الجواهر.

وأنت تعلمُ أنَّ هذا ليس في الحقيقة من البراهين، بل هو من الإقناعات الضعيفة، فتدبَّر جميعَ ما ذكرناه، وسيأتي إن شاء الله تعالى تتمَّةٌ للكلام في هذا المقام(١)، وهو لَعَمْرُ الله تعالى طويلُ الذيل، وبالجملة إنَّ الوقوفَ على حقيقة

---

(١) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ...﴾ [الإسراء: ٨٥].

الروحِ أمرٌ عَسِرٌ، والطريق إليه وَعِرٌ، وقد جعل الله سبحانه ذلك من أعظم آياته الدالَّة على جلالة ذاته، وكمال صفاته، فسبحانه من إلهٍ ما أجلَّه، ومن ربٍّ ما أكمله.

﴿فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أمرٌ للملائكة عليهم السلام بالسجود لآدمَ عليه السلام على وَجْه التحيةِ والتعظيمِ، أو لله تعالى، وهو عليه السلام بمنزلة القِبْلَةِ حيث ظهرَت فيه تعاجيبُ آثارِ قدرته عزَّ وجلَّ كقول حسان:

أَلَيْس أَوَّلَ مَنْ صلَّى لقبلتكم ... وأَعلَمَ الناسِ بالقرآن والسُّنَنِ[1]

وفي أمرهم بالوقوع، أي: السقوط، دليلٌ على أن ليس المأمورُ به مجرَّدَ الانحناء كما قيل، بل السجودُ بالمعنى المتبادر.

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: فخلقَه فسوَّاه فنفخ فيه من روحه فسجدَ له الملائكة ﴿كُلُّهُمْ﴾ بحيث لم يشذَّ منهم أحدٌ ﴿أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ بحيث لم يتأخَّر في ذلك أحدٌ منهم عن أحدٍ، بل أوقعوا الفعل مجتمعين في وقتٍ واحدٍ، هذا على ما ذهب إليه الفرَّاء والمبرّد من دلالة «أجمعين» على الاجتماع في وقت الفعل، وقال البصريون: إنَّها كـ: «كل»، لإفادة العموم مطلقاً. ومن هنا منع تعاطفهما، فلا يقال: جاء القومُ كلُّهم وأجمعون، وردُّوا على ذلك بقوله تعالى حكايةً عن إبليس: (لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) لظهور أنْ لا اجتماعَ هناك.

وردَّه في «الكشف» بأنَّ الاشتقاقَ من الجمع يقتضيه؛ لأنَّه ينصرفُ إلى أكمل الأحوال، فإذا فهمت الإحاطة من لفظٍ آخَرَ وهو «كل» لم يكن بدٌّ من كونه في وقتٍ واحدٍ، وإلا كان لغواً، والردُّ بالآية منشؤه عدمُ تصوُّر وجه الدلالة. ومنه يعلم وجه فساد النظر بأنَّه لو كان الأمرُ كذلك لكان حالاً لا تأكيداً، فالحقُّ في المسألة مع الفرَّاء والمبرّد، وذلك هو الموافق لبلاغة التنزيل، وزَعَم البصريون أنَّه إنما أكّد بتأكيدَين؛ للمبالغة في التعميم ومنع التخصيص.

وزعم غيرُ واحدٍ أنَّه لا يؤكّدُ بـ «أجمع» دون «كل» اختياراً، والمختارُ وفاقاً

---

(١) نسبه لحسان البيضاويُّ في تفسيره ٢/ ١٣١، وأبو السعود ١/ ٨٧، والشهاب في حاشيته على البيضاوي ٢/ ١٣١، وتقدم ٢/ ١٠٨.

لأبي حيان جوازه؛ لكثرة وروده في الفصيح، ففي القرآن عدَّةُ آياتٍ من ذلك[(١)] وفي الصحيح: «فله سلبه أجمع»[(٢)]، «فصلُّوا جلوساً أجمعون»[(٣)] ولعلَّ منشأ الزعم وجوبُ تقديم «كلّ» عند الاجتماع.

ويردُّه أنَّ النفسَ يجبُ تقديمها على العين إذا اجتمعا، مع جواز التأكيد بالعين على الانفراد، وما ذكروه من وجوب تقديمِ «كلّ» إنَّما هو بناءً على ما علمت من الحقِّ لرعاية البساطة والتركيب.

هذا، ثم إنَّه قد تقدَّم الكلامُ في تحقيق أنَّ سجودَهم هذا هل ترتَّب على ما حُكيَ من الأمر التعليقيِّ كما يقتضيه هذه الآية الكريمة، أو على الأمر التنجيزيِّ[(٤)]، كما يستدعيه بعضُ الآيات. فتذكَّر.

﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ استنثناءٌ متَّصلٌ إما لأنَّه كان جنيًّا مُفرداً مغموراً بألوف من الملائكة، فَعُدَّ منهم تغليباً، وإما لأنَّ من الملائكة جنساً يتوالدون يقالُ لهم: جنٌّ، وهو منهم، وإما لأنَّه مَلَكٌ لا جنيٌّ، وقوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠] مؤولٌ كما ستعلمه إن شاء الله تعالى.

وقوله سبحانه: ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣١﴾ استئنافٌ مبيِّنٌ لكيفية عدم السجود المفهوم من الاستثناء بناءً على أنَّه من الإثبات نَفْيٌ، ومن النفي إثباتٌ، وهو الذي تميلُ إليه النفس، فإنَّ مطلقَ عدم السجود قد يكونُ مع التردُّد، وبه عُلِمَ أنَّه مع الإباء والاستكبار.

وجوِّز أنْ يكونَ الاستثناءُ منقطعاً، فجملةُ «أَبى» إلخ متَّصلةٌ بما قبلها، ووَجه ذلك بأنَّ «إلا» بمعنى «لكنَّ» و«إبليس» اسمُها، والجملةُ خبرُها، كذا قيل. وفي «الهمع»: إنَّ البصريين يُقدِّرون المنقطعَ بـ «لكنَّ» المشدَّدة ويقولون: إنَّما يُقدَّر بذلك؛ لأنَّه في حكم جملةٍ منفصلةٍ عن الأولى، فقولك: ما في الدار أحدٌ إلَّا

---

(١) منها قوله تعالى: ﴿وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩]، و﴿لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الحجر: ٤٣]، و﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

(٢) أخرجه أحمد (١٦٥٢٣)، ومسلم (١٧٥٤) من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه.

(٣) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٨٥٠٢)، والبخاري (٧٢٢)، ومسلم (٤١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) تقدم ١١٦/٢.

حماراً، في تقدير: لكنَّ فيها حماراً، على أنَّه استدراكٌ يُخالفُ ما بعد «لكنَّ» فيها ما قبلها غير أنَّهم اتَّسعوا فأجروا «إلَّا» مجرى «لكنَّ»، لكنْ لمَّا كانت لا يقعُ بعدها إلا المفرد ـ بخلاف «لكنَّ» فإنَّه لا يقع بعدها إلا كلامٌ تامٌّ ـ لقَّبوه بالاستثناء تشبيهاً بها إذا كانت استثناءً حقيقةً، وتفريقاً بينها وبين «لكنَّ».

والكوفيون يُقدِّرونه بـ «سوى».

وقال قومٌ منهم ابن يسعون: «إلا» مع الاسم الواقع بعدها في المنقطع يكونُ كلاماً مستأنفاً، وقال في قوله:

.... ومــا بــالــرَّبْــع مِــن أَحَــدِ

إلا الأَوَارِيَّ[1] ....

«إلا» فيه بمعنى «لكنَّ» والأَوَارِيَّ اسمٌ لها منصوبٌ بها، والخبرُ محذوفٌ، كأنَّه قال: لكن الأَوَارِيَّ بالربع، وحذف خبرَ «إلَّا» كما حذف خبر «لكنَّ» في قوله: ولكنَّ زنْجيًّا عظيمَ المشافِرِ[2]. اهـ.

والظاهرُ منه أنَّ البصريين وإنْ قدَّروه بـ «لكنَّ» لا يُعربونه هذا الإعراب، فهو تقديرُ معنًى لا تقديرُ إعرابٍ، ولعلَّ التوجيهَ السابق مبنيٌّ على مذهب ابنِ يسعون إلا أنَّه لم يُصرِّح فيه بورود الخبر مصرَّحاً به، نعم صرَّح بعضُهم بذلك، وسيأتي إن شاء الله تعالى تتمَّةٌ لهذا المبحثِ في هذه السورة[3]، فافهم.

---

(١) هذان جزءان من بيتي شعر للنابغة الذبياني هما:

وقـفـتُ فـيـهـا أُصَـيْـلانـاً أُسـائِـلُـهـا   عَـيَّـت جـوابـاً ومـا بـالـرَّبـعِ مـن أحـد

إلا الأَوَارِيَّ لَأْيــاً مــا أُبَــيِّــنُــهــا   والنُّؤيُ كالحوض بالمظلومةِ الجَلَدِ

وهما في ديوانه ص٣٠. قوله: أصيلاناً تصغير أُصْلان جمع أصيل، والأَوَاريّ: جمع آري وهو محبس الدابة، واللَّأْيُ: الشدة والإبطاء، والنُّؤيُ: حفيرة حول الخباء؛ لئلا يدخله ماء المطر. والجَلَد: الأرض الصلبة. ينظر الصحاح (أرا) (أصل) (جلد) (نأي).

(٢) البيت للفرزدق، وهو بهذا اللفظ في المحتسب ٢/ ١٨٢، والخزانة ١٠/ ٤٤٤، وبلفظ: زنجيًّا غليظاً مشافره، في الأغاني ٢١/ ٣٣٢، وشواهد المغني ص ٧٠١، والخزانة ١٠/ ٤٤٦، وبلفظ: زنجيٌّ غليظ المشافر، في الكتاب٢/ ١٣٦، والمقرب ١/ ١٠٨، والإنصاف ١/ ١٨٢، وشرح ابن يعيش ٨/ ٨٢، وفي البيت خلاف ينظر الخزانة.

(٣) عند تفسير الآية رقم (٥٨).

ووَجْهُ الانقطاع ظاهرٌ؛ لأنَّ المشهور أنَّه ليس من جنس الملائكة عليهم السلام، والانقطاعُ ـ على ما قال غيرُ واحدٍ ـ يتحقَّق بعدم دخوله في المستثنَى منه، أو في حكمه.

وما قيل: إنَّه حينئذٍ لا يكونُ مأموراً بالسجود فلا يلزمُ[1]، والاعتذارُ عنه بأنَّ الجنَّ كانوا مأمورين أيضاً، واستغنى بذكر الملائكةِ عليهم السلام عنهم وأنَّه معنى الانقطاع وتوجُّهِ اللَّوم = مِن ضيق العَطَن.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال مَن قال: فماذا قال الربُّ تعالى عند إبائه؟ فقيل: قال سبحانه: ﴿يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ﴾ أي: أيُّ سببٍ لك، كما يقتضيه الجواب، وقولُه تعالى: ما منعك ﴿أَلَّا تَكُونَ﴾ أي: في أن لا تكون ﴿مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾﴾ لِمَا خلقتُ مع أنَّهم هم ومنزلتُهم في الشرف منزلتُهم، وكأنَّ في صيغة الاستقبال إيماء إلى مزيد قُبحِ حاله، ولعلَّ التوبيخَ ليس لمجرَّد تخلُّفه عن أولئك الكرام بل لأُمورٍ حُكِيَت متفرِّقةً؛ إشعاراً بأنَّ كلًّا منها كافٍ في التوبيخ وإظهارِ بطلان ما ارتكبه وشناعتهِ، وقد تُركَت حكايةُ التوبيخ رأساً في غير سورةٍ؛ اكتفاءً بحكايتها في موضعٍ آخر[2]، والظاهر أنَّ قولَ الله تعالى له ذلك لم يكن بواسطةٍ، وهو منصبٌ عالٍ إذا كان على سبيل الإعظامِ والإجلال دون الإهانة والإذلال، كما لا يخفى.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ على نحو ما تقدَّم ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ﴾ اللام لتأكيد النَّفْي، أي: ينافي حالي ولا يستقيمُ منِّي أنْ أسجد ﴿لِبَشَرٍ﴾ جسمانيٍّ كثيفٍ ﴿خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾ إشارةٌ إجماليةٌ إلى ادِّعاء خيريَّته وشرفِ مادته، وقد نُقِل عنه ـ لعنه الله تعالى ـ التصريحُ بذلك في آية أخرى[3]، وقد عَنى اللعينُ بهذا الوصف بيانَ مزيدِ خِسَّةِ أصلِ[4] مَن لم يسجد له ـ وحاشاه ـ وقد اكتُفي في غير موضع بحكاية بعضِ ما زعمه موجباً للخِسَّة، وفي عُدُولِه عن تطبيق جوابه على السؤال رَومٌ للتفصِّي عن المناقشة، وأنَّى له ذلك، كأنَّه قيل: لَمْ أمتنع عن الانتظام في سلك الساجدين، بل عمَّا لا يليقُ بشأني من السجود للمفضول، وقد أخطأ اللعينُ حيث

(١) في حاشية الشهاب ٥/ ٩٢، (والكلام منه): فلا يذم.
(٢) في سورة صٓ، آية (٧٧-٧٨).
(٣) في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].
(٤) ليس في الأصل.

ظنَّ أنَّ الفضل كلَّه باعتبار المادة، وما درى أنَّه يكونُ باعتبار الفاعل، وباعتبار الصورة، وباعتبار الغاية، بل إنَّ ملاكَ الفضل والكمال هو التخلِّي عن الملكات الرَّديَّة، والتحلِّي بالمعارف الربانيَّة:

فشمالٌ والكاسُ فيها يمينٌ ويمينٌ لا كاسَ فيها شمالُ[1]

ولله تعالى درُّ مَن قال:

كُن ابنَ مَن شِئْتَ واكتَسِبْ أَدَباً يُغنيكَ مضمونُه عن النَّسبِ
إنَّ الفتى مَن يقولُ ها أنا ذا ليسَ الفتَى مَن يقول كان أبي[2]

على أنَّ فيما زعَمَه من فضل النار على التراب منعاً ظاهراً، وقد تقدَّم الكلام في ذلك[3].

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ كما تقدَّم أيضاً ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ قيل: الظاهرُ أنَّ الضمير للسماء وإنْ لم يَجْرِ لها ذكرٌ، وأُيِّد بظاهر قوله تعالى: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ [الأعراف:١٣] وقيل: لزمرة الملائكة عليهم السلام. ويلزمُ خروجُه من السماء إذ كونه بانزوائه عنهم في جانب لا يعدُّ خروجاً في المتبادر، وكفَى به قرينةً. وقيل: للجَنَّة؛ لقوله تعالى: (ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ) ولوقوع الوسوسةِ فيها، وَرُدَّ بأنَّ وقوعَها كان بعدَ الأمر بالخروج.

﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ مطرودٌ من كلِّ خيرٍ وكرامةٍ، فإنَّ مَن يُطرد يُرجَم بالحجارة، فالكلامُ من باب الكناية، وقيل: أي: شيطانٌ يُرجَم بالشُّهب، وهو وعيدٌ بالرجم بها، وقد تضمَّن هذا الكلامُ الجوابَ عن شبهته، حيث تضمَّن سوءَ حاله، فكأنَّه قيل: إنَّ المانع لك عن السجود شقاوتُك وسوء خاتمتك وبُعْدُك عن الخير لا شرفُ عنصرك الذي تزعُمه.

وقيل: تَضمُّنُه ذلك؛ لأنَّه عَلِمَ منه أنَّ الشرف بتشريف الله تعالى وتكريمه، فبطل ما زَعَمه مِن رجحانِهِ، إذ أبعدَه الله تعالى وأهانه، وقرَّب آدم عليه الصلاة والسلام وكرَّمه.

---

(١) عزاه العاملي في الكشكول ١/٣٦، للشيخ محمد البكري الصديقي.

(٢) البيتان في الديوان المنسوب لسيدنا علي ﷺ ص٢٥، ونَسَبَ ياقوت الحموي في معجم الأدباء ١٩/ ٢٠ البيتَ الأول فقط لميمونة بن أبي ربيعة الأصبهاني.

(٣) ينظر ٩/٣٨.

وقيل: تضمنه للجواب بالسكوت، كما قيل: جوابُ ما لا يُرتَضَى السكوتُ، وفي تفسير الرجيم بالمرجوم بالشُّهب إشارةٌ لطيفةٌ إلى أنَّ اللعينَ لمَّا افتخَرَ بالنار عُذِّب بها في الدنيا فهو كعابدِ النارِ يَهْوَاها وتَحْرِقُه.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ﴾ الإبعاد على سبيل السُّخْط، وذلك مِن الله تعالى في الآخرة عقوبة، وفي الدنيا انقطاعٌ مِن قبول فيضِهِ تعالى وتوفيقه سبحانه، ومِن الإنسان دعاءٌ بذلك، والظاهرُ أنَّ المرادَ لعنةُ الله تعالى؛ لقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ﴾ [ص:٧٨].

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ إلى يوم الجزاء، وفيه إشعارٌ بتأخير جزائه إليه، وأنَّ اللعنةَ مع كمال فظاعتها ليسَت جزاءً لفعله، وإنَّما يتحقَّق ذلك يومئذٍ، وفيه من التهويل ما فيه، وجعل ذلك غاية أمدِ اللعنة، قيل: ليس لأنَّها تنقطعُ هنالك، بل لأنَّه عند ذلك يُعذَّبُ بما يَنْسَى به اللعنة مِن أفانينِ العذاب، فتصير هي كالزائل، وقيل: إنَّما غَيَّى بذلك؛ لأنَّه أبعدُ غايةٍ يضربها الناسُ في كلامهم، فهو نظيرُ قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود:١٠٧] على قول.

وقال بعضُهم: إنَّ المرادَ باللعنة لَعْنُ الخلائق له، لعنةُ الله تعالى عليه، وذلك منقطعٌ إذا نُفخ في الصور وجاء يوم الدين، دون لَعْنِ الله تعالى له وإبعاده إياه فإنَّه متَّصلٌ إلى الأبد.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ﴾ أمهِلْني وأخِّرني ولا تُمِتْني، والفاء متعلِّقةٌ بمحذوفٍ مفهوم من الكلام، أي: إذ جعْلتَني رجيماً فأمهلْني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: آدم عليه السلام وذُرِّيَّته للجزاء، وأراد بذلك أنْ يَجِدَ فسحةً لإغوائهم ويأخذَ منهم ثأرَه.

قيل: ولينجو من الموت، إذ لا موتَ بعد البعث، وهو المرويُّ عن ابن عباس والسدي، وكأنَّه ـ عليه اللعنة ـ طَلَبَ تأخيرَ موته لذلك ولم يكتفِ بما أشار إليه سبحانه في التَّغَيِّي من التأخير لِمَا أنَّه يمكنُ كونُ تأخيرِ العقوبةِ كسائر مَن أُخِّرَت عقوباتُهم إلى الآخرة من الكفرة.

﴿قَالَ﴾ الرَّبُّ سبحانه ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ أي: من جملتهم، ومُنتَظِم في سِلْكهم. قال بعضُ الأجلَّة: إنَّ في ورود الجواب جملة اسميَّة مع التعرُّض لشمول

ما سألَه الآخرينَ على وجهٍ يُؤذِن بكون السائلِ تَبَعاً لهم في ذلك دليلاً على أنَّه إخبارٌ بالإنظار المقدَّر لهم لا لإنشاء إنظارٍ خاصٍّ به وقع إجابةً لدعائه، أي: إنَّك من جملة الذين أُخِّرَت آجالُهم أزلاً حسبما تقتضيه حكمةُ التكوين، فالفاء لربط الإخبار بالإنظار بالاستنظار كما في قوله:

فـإنْ تَـرْحَـمْ فـأنْـتَ لـذاكَ أهـلُ وإنْ تَـطْـرُدْ فَـمـنَ يَـرْحَـمْ سـواكـا[1]

لا لربط نفسِ الإنظار به، وأنَّ استنظارَه لتأخير الموتِ إذ به يتحقَّقُ كونُه من جملتهم، لا لتأخير العقوبة كما قيل، ونَظْمُه في سلك مَن أُخِّرَت عقوبتُهم إلى الآخرة في علم الله تعالى ممن سَبَق من الجنِّ ولَحِقَ من الثقلَين، لا يلائم مقامَ الاستنظار مع الحياة؛ ولأنَّ ذلك التأخيرَ معلومٌ من إضافة اليوم إلى الدين مع إضافته في السؤال إلى البعث. انتهى.

وقيل: إنَّ الفاء متعلِّقةٌ كالفاء الأولى بمحذوفٍ، والكلامُ إجابةٌ له في الجملة، أي: إذ دعوتَني فإنَّك من المنظرين.

﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٨١﴾﴾ وهو وقتُ النفخة الأولى كما روي عن ابن عباس، وعليه الجمهور.

ووصفُه بالمعلوم إمَّا على معنى أنَّ الله تعالى استأثَرَ بعلمه، أو على معنى معلومٌ حالُه، وأنَّه يَصعَقُ فيه مَن في السموات ومَن في الأرض إلا ما شاء الله تعالى. وقال آخرون: إنَّه عليه اللعنةُ أُعطِيَ مسؤولَهُ كَمَلاً[2]، وليس إلا البقاءُ إلى وقت النفخةِ الأولَى وهو آخر أيام التكليفِ، والوقتُ المشارفُ للشيء المتصل به معدودٌ منه، فأولُ يوم الدين، وأولُ يوم البعث، كأنَّه من ذلك الوقت.

واستُظهِرَ ذلك بأنَّ الملعون عالِمٌ فلا يَسأل ما يَعلمُ أنَّه لا يُجابُ إليه، وبأنَّ ما في «الأعراف»[3] لعدم ذِكْر الغايةِ فيه يدلُّ على الإجابة.

---

(١) نسبه المصنف عند تفسير الآية (٨٢) من سورة «صٓ» للشافعي. وهو في معاهد التنصيص ١/ ١٧٠ دون نسبة.

(٢) كَمَلاً: أي: كلّه. مختار الصحاح (كمل).

(٣) وهي قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾ [الآيتان: ١٤-١٥].

واعترض على الأوَّل بأنَّه غيرُ بيِّنٍ ولا مبين، وكونُه على غالب الظنِّ لا يُجدي في مثله.

وعلى الثاني بأنَّ تَرْكَ الغايةِ في سورة الأعراف يحتملُ أنْ يكونَ كترك الفاء في الاستنظار والإنظار تعويلاً على ما ذكر ها هنا وفي سورة «ص»[1]، فإنَّ إيرادَ كلام واحدٍ على أساليبَ متعددةٍ غيرُ عزيز في الكتاب العزيز.

ومن الناس القائلين بالمغايرة مَن قال: إنَّ المرادَ باليوم المعلوم اليومُ الذي عَلِمَ الله تعالى فيه انقضاءَ أجله، وهو يومُ خروج الدابة، فإنَّها هي التي تقتلُه، وقد قدَّمنا نَقْلَ هذا القولِ عن بعض السلف، وهو من الغرابة بمكان. وأغربُ منه ما قيل: إنَّه هلك في بعض غزواته ﷺ، وقد ذكرنا قبلُ أنَّ هذا مما لا يكادُ يُقبل بظاهره أصلاً.

والمشهورُ المعوَّلُ عليه عند الجمهور هو ما ذكرناه من أنَّه يموتُ عند النفخة الأولى، وبينها وبين النفخة الثانية التي يقومُ فيها الخلقُ لربِّ العالمين أربعون سنة، ونُقِلَ عن الأحنف بن قيس ـ عليه الرحمة ـ أنَّه قال: قدمتُ المدينة أُريدُ أميرَ المؤمنين كرَّم الله تعالى وجهه، فإذا أنا بحَلْقةٍ عظيمةٍ، وكعبُ الأحبار فيها يُحدِّث وهو يقول: لمَّا حضَرَ آدمَ عليه السلام الوفاةُ قال: يا ربِّ سيشمتُ بي عدوِّي إبليس إذا رآني ميتاً، وهو مُنتَظَر إلى يوم القيامة، فأُجيبَ أنْ يا آدم إنَّك ستُرَدُّ إلى الجنة ويُؤخَّرُ اللعين إلى النظرة ليذوقَ ألم الموتِ بعدد الأوَّلين والآخرين، ثم قال لملك الموت: صِفْ لي كيف تذيقُه الموت؟ فلما وصَفَه، قال: يا ربِّ حسبي. فضجَّ الناسُ وقالوا: يا أبا إسحاق كيف ذلك؟ فأبى وألَحُّوا فقال: يقول الله سبحانه لملك الموت عقيبَ النفخة الأولى: قد جعلتُ فيك قوَّةَ أهلِ السماوات وأهل الأرضين السبع، وإنِّي اليوم ألبستُكَ أثوابَ السُّخْط والغضب كلِّها، فابرُزْ بغَضَبي وسَطْوَتي على رَجيمي إبليسَ، فأَذِقْه الموتَ واحْمِل عليه فيه مرارةَ الأوَّلين والآخرين من الثقلَين أضعافاً مضاعفةً، وليكن معكَ من الزبانية سبعونَ ألفاً قد امتلؤوا غيظاً وغَضَباً، وليكن مع كلٍّ منهم سلسلةٌ من سلاسل جهنَّم، وغلٌّ من أغلالها، وانْزَع

---

(١) في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ [الآيتان: ٧٩-٨٠].

روحَه المنتنَ بسبعين ألفِ كلَّاب من كلاليبها، ونادِ مالكاً ليفتحَ أبوابَ النيران، فينزلُ الملكُ بصورةٍ لو نَظَر إليها أهلُ السماوات والأرضين لماتوا بغتةً من هولها، فينتهي إلى إبليسَ فيقولُ: قف لي يا خبيث، لأُذيقَنَّك الموتَ، كم من عُمرٍ أدركْتَ، وقَرْنٍ أَضْلَلْتَ، وهذا هو الوقتُ المعلومُ. قال: فيهربُ اللعينُ إلى المشرقِ، فإذا هو بملَك الموتِ بين عينَيه، فيهربُ إلى المغرب، فإذا هو به بين عينَيه، فيغوصُ البحارَ فيثيرُ منها البخارَ فلا تقبلهُ، فلا يزالُ يهربُ في الأرض ولا محيصَ له ولا ملاذَ، ثم يقوم في وسط الدنيا عند قبرِ آدمَ عليه السلام، ويتمرَّغُ في التراب من المشرق إلى المغرب، ومن المغرب إلى المشرق، حتى إذا كان في الموضع الذي أُهبطَ فيه آدمُ عليه السلام، وقد نَصَبَت له الزبانيةُ الكلاليبَ، وصارتَ الأرضُ كالجمرة، احتَوَشَتْه الزبانيةُ وطعنوه بالكلاليب، فيبقَى في النزع والعذابِ إلى حيث يشاءُ الله تعالى.

ويقال لآدم(١) وحواء عليهما السلام: اطَّلِعا اليومَ على عدوِّكما يذوقُ الموت، فيطَّلعانِ فينظران إلى ما هو فيه من شدَّة العذاب فيقولان: ربَّنا أتممْتَ علينا نعمتَك(٢).

وجاء في بعضِ الأخبار أنَّه حينَ لا يجدُ مفرًّا يأتي قبرَ آدمَ عليه السلام فيحثو الترابَ على رأسه ويُنادي: يا آدمُ أنت أصلُ بليَّتي. فيقال له: يا إبليسُ اسجُدْ الآن لآدمَ عليه السلام فيرتفعُ عنك ما تَرَى، فيقول: كلَّا، لم أسجد له حيًّا فكيف أسجدُ له ميتاً، وهذا إنْ صحَّ يدلُّ على أنَّ اللعينَ من العناد بمكان لا تصلُ إلى غايته الأذهان.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ أي: بسبب إغوائك إيَّاي ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾ أي: أُقسمُ لأُزيِّننَّ ﴿لَهُمْ﴾ أي: لذرِّيَّته، وهو مفهومٌ من السياق وإنْ لم يَجْرِ له ذكرٌ، وقد جاء مُصرَّحاً به في قوله تعالى حكايةً عن اللعين أيضاً: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٦٢] ومفعول «أُزَيِّنَنَّ» محذوفٌ أي: المعاصي ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: هذا الجرمِ المدحوِّ، وكأنَّ اللعينَ أشارَ بذلك إلى أنِّي أَقدِرُ على الاحتيال لآدمَ والتزيين له الأكلَ من

---

(١) في (م): يقال آدم.

(٢) ذكره أبو السعود في تفسيره ٥/ ٧٧-٧٨.

الشجرة في السماء، فأنَا على التزيين لذرِّيَّته في الأرض أقدرُ، ويجوزُ أنَّه أراد بالأرض الدنيا؛ لأنَّها محلُّ متاعها ودارها.

وذكر بعضُهم أنَّ هذا المعنى عرفيٌّ للأرض، وأنَّها إنما ذُكرَت بهذا اللفظ تحقيراً لها، ولعلَّ التقييد على ما قيل؛ للإشارة إلى أنَّ للتزيين محلًّا يُقوِّي قبولَه، أي: لأُزيننَّ لهم المعاصي في الدنيا التي هي دارُ الغرور.

وجوّز أنْ[1] يُراد بها هذا المعنى، ويُنزَّل الفعل منزلةَ اللازم ثم يعدَّى بـ «في» وفي ذلك دلالةٌ على أنَّها مُستقَرُّ التزيين، وأنَّه تمكن المظروف في ظرفه، ونحوه قول ذي الرُّمَّة:

فإنْ تَعْتَذِرْ بالمَحْلِ من ذي ضُروعها ... إلى الضَّيف يَجْرَحْ في عَرَاقيبها نَصْلي[2]

والمعنَى: لأُحَسِّنَنَّ الدنيا وأُزيِّنَنَّها لهم حتى يشتغلوا بها عن الآخرة، وجوَّزَ جعلُ الباء للقَسَم، و«ما» مصدرية أيضاً، أي: أُقسم بإغوائك إيَّاي لأُزيِّنَنَّ، وإقسامُه بعزَّة الله تعالى المفسَّرة بسلطانه وقهرِه لا ينافي إقسامَه بهذا، فإنَّه فرعٌ من فروعها وأثرٌ من آثارها، فلعلَّه أقسمَ بهما جميعاً، فحُكي تارة قَسَمُه بهذا وأُخرَى بذاك.

وزَعَم بعضُهم أنَّ السببيَّة أولَى؛ لأنَّه وقع في مكانٍ آخر: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ [ص:٨٢] والقصةُ واحدةٌ، والحملُ على مُحاورَتَين لا موجبَ له؛ ولأنَّ القَسَم بالإغواء غيرُ متعارفٍ. انتهى.

وفيه نظرٌ ظاهرٌ، فإنَّ قولَه: (فَبِعِزَّتِكَ) يحتملُ القَسَميَّة أيضاً، وقد صرَّح الطيبي بأنَّ مذهبَ الشافعية أنَّ القسمَ بالعزَّة والجلال يمين شرعاً، فالآيةُ على الزاعم لا له.

نعم إنَّ دعواه عدمَ تعارفِ القسم بالإغواء مسلَّمةٌ، وهو عندي يكفي لأولويَّة السببية، ولعدم التعارف مع عدم الإشعار بالتعظيم لا يعدُّ القسم بها يميناً شرعاً، فإنَّ القائلين بانعقاد القَسَم بصفةٍ له تعالى يشترطون أنْ تُشعِرَ بتعظيمٍ ويُتعارَف مثلُها.

---

(١) بعدها في (م): يكون.

(٢) ديوان ذي الرمة ١/١٥٦، وخزانة الأدب ٢/١٢٨.

وفي(١) نسبة الإغواء إليه تعالى بلا إنكارٍ منه سبحانه قولٌ بأنَّ الشرَّ كالخير من الله عزَّ وجل، وأوَّلَ المعتزلةُ ذلك وقالوا: المرادُ النسبةُ إلى الغيِّ ك: فَسَّقْتُه، نسبتُه إلى الفسق، لا فَعَّلْتُه، أو أنَّ المرادَ فَعَل به فعلاً حسناً أفضَى به لخبثه إلى الغي حيث أمرَه سبحانه بالسجود فأبَى واستكبر، أو أَضلَّه عن طريق الجنة وترك هدايَته واللطف به، واعتذروا عن إنظار الله تعالى إياه(٢) مع أنَّه مفضٍ إلى الإغواء القبيح بأنَّه تعالى قد علم منه وممن اتَّبعه أنَّهم(٣) يموتون على الكفر ويصيرون إلى النار، أُنظِرَ أم لم يُنظَر، وأنَّ في إنظاره تعريضاً لمن خالفه لاستحقاق مزيدِ الثواب.

وأنت تعلم أنَّ في إنظار إبليسَ ـ عليه اللعنة ـ وتمكينِهِ من الإغواء وتسليطِهِ على أكثر بني آدم ما يأبى القولَ بوجوب رعاية الأصلح المشهور عن المعتزلة، وأيضاً من زعم أنَّ حكيماً أو غيرَه يحصُر قوماً في دارٍ ويُرسلُ فيها النارَ العظيمة والأفاعي القاتلةَ الكثيرة، ولم يُرد أذى أحدٍ من أولئك القوم بالإحراق أو اللَّسْع، فقد خرج عن الفطرة البشرية. فحينئذٍ الذي تحكُم به الفطرة أنَّ الله تعالى أرادَ بالإنظار إضلالَ بعض الناس، فسبحانه مِن إلهٍ يفعلُ ما يشاء ويحكمُ ما يريد.

وتمسَّك بعضُ المعتزلة في تأويل ما تقدَّم بقوله تعالى: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ حيث أفادَ أنَّ الإغواء فعله، فلا ينبغي أنْ يُنسَب إلى الله تعالى.

وأُجيبَ بأنَّ المرادَ به هنا الحملُ على الغواية لا إيجادها، وتأويل اللاحق للسابق أَوْلَى من العكس، وبالجملة ضعفُ الاستدلال ظاهرٌ، فلا يصلح ذلك مُتمسَّكاً لهم.

﴿أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ أي: كلّهم، فهو لمجرَّد الإحاطة هنا.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ بفتح اللام، وهو قراءة الكوفيين ونافع والحسن والأعرج(٤)، أي: الذين أَخْلَصْتَهم لطاعتك وطهَّرتَهم مِن كلِّ ما يُنافي ذلك، وكأن

---

(١) في الأصل: في. بدون واو.

(٢) ليس في الأصل.

(٣) ليس في الأصل، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٧٨.

(٤) قراءة الكوفيين ونافع في التيسير ص ١٢٨، والنشر ٢/ ٢٩٥، وقرأ بها أبو جعفر وخلف، وقراءة الحسن والأعرج في البحر المحيط ٥/ ٤٥٤.

الظاهر: وأنَّ منهم مَن لا أغويه مثلاً، وعَدَل عنه إلى ما ذكر؛ لكون الإخلاص والتمحُّض لله تعالى يستلزمُ ذلك، فيكونُ من ذكر السبب وإرادة مُسبِّبه ولازِمه على طريق الكناية، وفيه إثباتُ الشيء بدليله، فهو من التصريح به، وقرأ باقي السبعةِ والجمهورُ بكسر اللام[1]، أي: الذين أخلَصُوا العملَ لك ولم يشركوا معك فيه أحداً.

﴿قَالَ﴾ الله سبحانه وتعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ﴾ أي: حقٌّ لابدَّ أنْ أُراعيه ﴿مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ لا انحرافَ فيه، فلا يُعدَل عنه إلى غيره، والإشارةُ إلى ما تضمَّنه الاستثناء وهو تخلُّص المخلَصين من إغوائه، وكلمة «عليّ» تُستعَمل للوجوب، والمعتزلة يقولون به حقيقةً؛ لقولهم بوجوب الأصلح عليه تعالى، وقال أهلُ السُّنَّة: إنَّ ذلك وإنْ كان تفضُّلاً منه سبحانه إلا أنَّه شُبِّهَ بالحقِّ الواجب لتأكيد ثبوتِهِ وتحقُّق وقوعه بمقتضَى وعده جلَّ وعلا، فجيء بـ «على» لذلك.

أو إلى ما تضمَّنه «المخلصين» بالكسر، من الإخلاص على معنى أنَّه طريقٌ يُؤدِّي إلى الوصول إليَّ مِن غير اعوجاجٍ وضلال، وهو على نحو: طريقُك عليَّ، إذا انتهى المرور عليه.

وإيثار حرف الاستعلاء على حرف الانتهاء؛ لتأكيد الاستقامةِ والشهادةِ باستعلاء مَن ثبت عليه، فهو أدلُّ على التمكُّن من الوصول، وهو تمثيلٌ، فلا استعلاء لشيء عليه سبحانه، تعالى اللهُ عن ذلك علوًّا كبيراً.

وليسَت «على» فيه بمعنى «إلى»، نعم أخرج ابنُ جرير عن الحسن أنَّه فسَّرها بها، وأخرج عن زياد بنِ أبي مريم وعبد الله بنِ كثير أنَّهما قرأا: «هذا صراط عليٌّ مستقيم»[2] وقالا: «عليَّ» هي «إليَّ» وبمنزلتها. والأمرُ في ذلك سهل، وهي متعلِّقةٌ بـ «يمر» مقدَّراً، و«صراط» متضمِّنٌ له فيتعلَّق به.

وقال بعضهم: الإشارةُ إلى انقسامهم إلى قسمَين ـ أي: ذلك الانقسام إلى غاوٍ وغيرِه ـ أمرٌ مصيرُه إليَّ، وليس ذلك لك، والعربُ تقول: طريقُك في هذا الأمر على فلان، على معنًى: إليه يصيرُ النظرُ في أمرك.

---

(١) التيسير ص ١٢٨، والنشر ٢/ ٢٩٥، والبحر المحيط ٥/ ٤٥٤.

(٢) في الأصل و(م): هذا صراط مستقيم، والمثبت من تفسير الطبري ١٤/ ٧٠.

وعن مجاهد وقتادة: إنَّ هذا تهديدٌ للَّعينِ، كما تقوُل لغيركَ: افعلْ ما شئتَ فَطريقك عليَّ، أي: لا تفوتُني، ومثلُه على ما قال الطبرسيُّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾[1] [الفجر:١٤] والمشارُ ـ على هذا ـ إليه ما أَقسَم مع التأكيد عليه، وأظهرُ هذه الأوجه على ما قيل هو الأوَّلُ، واختار في «البحر» كونَها إلى الإخلاص[2].

وقيل: الأظهرُ أنَّ الإشارةَ لِمَا وقع في عبارة إبليس عليه اللعنة، حيث قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ [الأعراف:١٦-١٧] إلخ، ولا أدري ما وجه كونه أظهر؟!.

وقرأ الضحاكُ وإبراهيم وأبو رجاء وابنُ سيرين ومجاهد وقتادة وحميد وأبو شرف ـ مولى كندة ـ ويعقوب وخلق كثير: «عليٌّ مستقيم» برفع «عليٌّ» وتنوينه[3]، أي: عالٍ؛ لارتفاع شأنه.

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ أي: تسلُّطٌ وتصرُّفٌ بالإغواء، والمرادُ بالعباد المشارُ إليهم بالمخلصين، فالإضافة للعهد، والاستثناء على هذا في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ منقطعٌ، واختارَ ذلك غيرُ واحدٍ، واستَدَلَّ عليه بسقوط الاستثناءِ في «الإسراء»[4].

وجوَّز أنْ يكونَ المرادُ بالعباد العمومَ، والاستثناءُ متَّصلٌ، والكلامُ كالتقرير لقوله: (إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ) ولذا لم يُعطَف على ما قبله، وتغييرُ الوضع؛ لتعظيم المخلصين بجعلهم هم الباقين بعد الاستثناء.

وفي الآية دليلٌ لمن جوَّز استثناءَ الأكثر، وإلى ذلك ذهب أبو عبيد والسيرافي وأكثرُ الكوفيَّة، واختاره ابن خروف والشلوبين وابن مالك[5]، وأجاز هؤلاء أيضاً

---

(١) مجمع البيان ١٤/ ٢٨.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٥٤.
(٣) قراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٠١، وقراءة باقي المذكورين في المحتسب ٢/ ٣، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٦٢، والبحر المحيط ٥/ ٤٥٤.
(٤) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الآية: ٦٥].
(٥) التسهيل ص ١٠٣.

استثناء النصف، وذهب بعضُ البصريَّة إلى أنَّه لا يجوزُ كونُ المستثنَى قَدْرَ نصف المستثنى منه أو أكثر، ويتعيَّن كونُه أقلَّ من النصف، واختاره ابنُ عصفور[١] والآمديُّ، وإليه ذهب أبو بكر الباقلاني من الأصوليِّين، وذهب البعضُ الآخرُ من علماء البلدين إلى أنَّه يجوزُ أنْ يكونَ المخرَجُ النصفَ فما دونه، ولا يجوزُ أنْ يكونَ أكثرَ، وإليه ذهب الحنابلة، واتَّفق النحويُّون كما قال أبو حيان وكذا الأصوليُّون عند الإمام[٢] والآمدي ـ خلافاً لِمَا اقتضاه نقلُ القَرَافي عن «المدخل» لابن طلحة[٣] ـ على أنَّه لا يجوزُ أنْ يكونَ المستثنى مستغرقاً للمستثنى منه، ومن الغريب نَقلُ ابنِ مالك عن الفرَّاء جوازَ: له عليَّ ألفٌ إلا ألفين.

وقيل: إنْ كان المستثنَى منه عدداً صريحاً يمتنع فيه استثناءُ النصف والأكثر، وإنْ كان غيرَ صريحٍ لا يمتنعان، وتحقيق هذه المسألة في الأصول. والمذكورُ في بعض كتب العربيةِ عن أبي حيان[٤] أنَّه قال: المستقرَأُ مِن كلام العرب إنَّما هو استثناءُ الأقل، وجميعُ ما استُدلَّ به على خلافه محتمِل التأويل؛ وأنت تعلم أنَّ الآيةَ تدفعُ مع ما تقدَّم قولَ مَن شَرَط الأقلَّ لِمَا يلزم عليه من الفساد؛ لأنَّ استثناء «الغاوين» هنا يستلزمُ على ذلك أنْ يكونوا أقلَّ من «المخلصين» الذين هم الباقون بعد الاستثناء من جنس العباد، واستثناء «المخلصين» هناك يستلزم أنْ يكونوا أقلَّ من «الغاوين» الذين هم الباقون بعد الاستثناء من ذلك، فيكون كلٌّ من المخلصين والغاوين أقلَّ من نفسه، وهو كما ترى.

وأجاب بعضُهم بأنَّ المستثنَى منه هنا جنسُ العباد الشامل للمكلَّفين وغيرِهم ممن مات قبل أنْ يكلَّف، ولا شكَّ أنَّ الغاوين أقلُّ من الباقي منهم بعد الاستثناء وهم المخلصون ومن مات غيرَ مكلَّفٍ، والمستثنى منه هناك المكلَّفون إذ هم الذين

---

(١) المقرب ١/١٦٦.

(٢) المحصول ٣/٣٧-٣٨.

(٣) هو أبو بكر عبد الله بن طلحة بن محمد اليابري، له معرفة بالنحو والأصول والفقه والتفسير، ألَّف كتاباً في شرح صدر رسالة ابن أبي زيد القيرواني، و«المدخل» إلى كتاب آخر سماه: «سيف الإسلام على مذهب مالك الإمام»، توفي سنة (٥١٨هـ). نفح الطيب للمقري ٢/٦٤٨، وبغية الوعاة ٢/٤٦.

(٤) ينظر تذكرة النحاة ص ٢٩٤.

يُعقَل حملُهم على الغواية والضلال، إذ غيرُ المكلَّف لا يُوصَف فعلُه بذلك، والمخلصون أقلُّ من الباقي منهم بعد الاستثناء أيضاً، ولا محذور في ذلك.

وذكر بعضُهم أنَّ الكثرةَ والقلَّة الادِّعائيَّتين تكفيان لصحَّة الشرط، فقد ذكر السّكاكي في آخر قسم الاستدلال: وكذا لا تقول: لفلان عليَّ ألفٌ إلا تسع مئة وتسعين، إلا وأنت تُنزلُ ذلك الواحد منزلةَ الألف بجهة من الجهات الخطابيَّة[1]. اهـ. مع أنَّه ممن يشترط كون المستثنَى أقلَّ من الباقي. وظاهرُ كلام الأصوليين يُنافيه.

وجوَّز أنْ يكونَ الاستثناء منقطعاً على تقدير إرادةِ الجنس أيضاً، ويكون الكلامُ تكذيباً للملعون فيما أوْهَم أنَّ له سلطاناً على مَن ليس بمخلص من عباده سبحانه، فإنَّ مُنتهَى قدرته أنْ يَغُرَّهم ولا يقدر على جَبْرهم على اتِّباعه كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢].

فحاصل المعنى أنَّ مَن اتَّبعك ليس لك عليهم سلطان وقهر، بل أطاعوك في الإغواء واتَّبعوك لسوء اختيارهم، ولا يضرُّ في الانقطاع دخولُ الغاوين في العباد بناءً على ما قالوا من أنَّ المعتبَر في الاتصال والانقطاع الحكمُ، ويُفهِمُ كلامُ البعض أنَّه يجوز أنْ تكون الآية تصديقاً له ـ عليه اللعنة ـ في صريح الاستثناء وتكذيباً في جعل الإخلاص علَّةً للخلاص حسبما يُشيرُ إليه كلامُه، فإنَّ الصبيان والمجانين خلصوا من إغوائه مع فقد هذه العلَّة.

و«مِن» على جميع الأوجه المذكورة لبيان الجنس، أي: الذين هم الغاوون. واستدلَّ الجبائي بنفي أنْ يكونَ له سلطان على العباد على ردِّ قولِ مَن يقول: إنَّ الشيطان يمكنه صرعُ الناس وإزالة عقولهم، وقد تقدَّم الكلام في إنكار المعتزلةِ تخبُّط الشيطان، والردُّ عليهم[2].

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ الضميرُ لمن اتَّبع أو للغاوين، ورُجِّح الثاني بالقرب وظهور ملاءمته للضمير، والأوَّل بأنَّ اعتباره أدخلُ في الزجر عن اتِّباعه مع أنَّ الثاني جيء به لبيانه.

---

(١) مفتاح العلوم ص ٥٠٩، والمؤلف نقله عنه بواسطة حاشية الشهاب ٥/ ٢٩٥.
(٢) ٣/ ٧٦.

و«أجمعين» توكيدٌ للضمير، وجوِّز أنْ يكونَ حالاً منه، ويُجعَل على هذا «الموعد» مصدراً ميميًّا ليتحقق شرط مجيء الحال من المضاف إليه، وهو كونُ المضاف مما يعملُ عمل الفعل، فإنَّهم اشترطوا ذلك، أو كونُ المضاف جزءَ المضاف إليه أو كجزئه، على ما ذكره ابنُ مالك[١] وغيرُه، ليتَّحد عاملُ الحال وصاحبُها حقيقةً أو حكماً، لكن يُقدَّر حينئذٍ مضافٌ قبله؛ لأنَّ جهنم ليسَت عين الموعد بل محلُّه، فيقدَّر محلُّ وعدِهم أو مكانه، وليس بتأويل اسم المفعول كما وهم.

وجوِّز أنْ يكونَ الموعدُ اسمَ مكانٍ، وحينئذٍ لا يحتاجُ إلى تقدير المضافِ إلا أنَّ في جواز الحاليَّة بحثاً؛ لأنَّ اسمَ المكان لا يعملُ عملَ فعله كما حقِّق في النحو، وكونُ العامل معنى الإضافة وهو الاختصاصُ على القول بأنَّه الجارُّ للمضاف إليه غيرُ مقبولٍ عند المحقِّقين؛ لأنَّ ذلك من المعاني التي لا تنصب الحال، ولا يخفَى ما في جعل «جهنم» موعداً لهم من التهكُّم والاستعارة، فكأنَّهم كانوا على ميعاد، وفيه أيضاً إشارةٌ إلى أنَّ ما أُعِدَّ لهم فيها مما لا يُوصَف في الفظاعة.

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ أي: سبع طبقاتٍ ينزلُونها بحَسَب مراتبهم في الغواية والمتابعة، روي ذلك عن عكرمة وقتادة، وأخرج أحمدُ في «الزهد» والبيهقي في «البعث» وغيرُهما من طرقٍ عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنَّه قال: أبوابُ جهنَّم سبعةٌ بعضُها فوقَ بعضٍ، فيملأ الأوَّل ثم الثاني ثم الثالث، حتى تُملأ كلّها[٢].

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﷺ: إنَّها جهنَّمُ والسعيرُ ولَظَى والحُطَمَة وسَقَر والجحيمُ والهاويةُ، وهي أسفلُها[٣]. وجاء في ترتيبها عن الأعمش وابنِ جُريج وغيرِهما غيرُ ذلك.

وذكر السهيلي في كتاب «الإعلام» أنَّه وقع في كُتُب الرقائق أسماءُ هذه

---

(١) التسهيل ص ١١٠.

(٢) الزهد ص ١٦٣، والبعث والنشور (٥٠٦) و(٥٠٧)، وأخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ١٥٤، والطبري ١٤/ ٧٤.

(٣) عزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٩٩.

الأبواب، ولم ترد في أثرٍ صحيح، وظاهرُ القرآن والحديث يدلُّ على أنَّ منها ما هو من أوصاف النار نحو: السَّعير والجحيم والحُطَمة والهاوية، ومنها ما هو عَلَمٌ للنار كلِّها نحو: جهنَّم وسَقَر ولظى، فلذا أضربنا عن ذكرها[١]. اهـ.

وأقربُ الآثار التي وقَفْنا عليها إلى الصحة فيما أظنُّ ما روي عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه؛ لكثرة مخرِّجيه، وتحتاجُ جميع الآثار إلى التزام أنْ يقال: إنَّ جهنم تُطلَق على طبقةٍ مخصوصةٍ، كما تُطلَق على النار كلِّها. وقيل: الأبوابُ على بابها، والمرادُ أنَّ لها سبعةَ أبوابٍ يدخلونها؛ لكثرتهم والإسراع بتعذيبهم.

والجملةُ ـ كما قال أبو البقاء ـ يجوزُ أنْ تكونَ خبراً ثانياً، ويجوزُ أنْ تكونَ مستأنفةً، ولا يجوزُ أنْ تكونَ حالاً من «جهنم»؛ لأنَّ «إنَّ» لا تعمل في الحال[٢].

﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ﴾ من الأتباع والغواة ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ فريقٌ معيَّنٌ مفروزٌ من غيره حسبما يقتضيه استعدادُه، فبابٌ للموحِّدين العصاة، وبابٌ لليهود، وبابٌ للنصارى، وباب للصابئين، وباب للمجوس، وباب للمشركين، وباب للمنافقين، وروي هذا الترتيب في بعض الآثار.

وعن ابن عباس أنَّ جهنم لمن ادَّعى الربوبيةَ، ولَظَى لعَبَدة النار، والحُطمة لعبدة الأصنام، وسَقَر لليهود، والسعير للنصارى، والجحيم للصابئين، والهاوية للموحِّدين العاصين، وروي غير ذلك. وبالجملة في تعيين أهلها كترتيبها اختلافٌ في الروايات.

ولعلَّ حكمةَ تخصيصِ هذا العددِ انحصارُ مجامع المهلِكات في المحسوسات بالحواسِّ الخمس ومقتضيات القوة الشهوانية والغضبية[٣]، أو أنَّ أصول الفِرَق الداخلين فيها سبعة.

وقرأ ابنُ القعقاع: «جُزٌّ» بتشديد الزاي من غير همزٍ[٤]، ووجهه أنَّه حذَفَ

---

(١) التعريف والإعلام ص ٨٩.
(٢) الإملاء ٣/ ٤٢٨.
(٣) في (م): الشهوانية الغضبية. دون واو.
(٤) النشر ١/ ٤٣٢.

الهمزةَ وألقَى حركتَها على الزاي ثم وَقَف بالتشديد، ثم أجرى الوصل مجرَى الوقف. وقرأ ابنُ وثاب: «جُزُءٌ» بضمِّ الزاي والهمز[1].

و«منهم» حالٌ من «جزء» وجاء من النكرة لتقدُّمه ووصفها، أو حال من ضميره في الجارِّ والمجرور الواقع خبراً له، ورجح بأنَّ فيه سلامةً مما في وقوع الحال من المبتدأ، والتزم بعضُهم لذلك كون المرفوع فاعلاً بالظرف ولا يجوز أنْ يكونَ حالاً من الضمير في «مقسوم» لأنَّه صفة «جزء» فلا يصح عملُه فيما قبل الموصوف، وكذا لا يجوز أنْ يكونَ صفةَ «باب» لأنَّه يقتضي أنْ يقال منها، وتنزيلُ الأبواب منزلَة العقلاء لا وَجْهَ له هنا كما لا يخفى، والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى ذمِّ مَن كان همُّه بطنَه وتنفيذَ شهواته، وقال أبو عثمان: أسوأ الناس حالاً من كان همُّه ذلك، فإنَّه محرومٌ عن الوصول إلى حَرَم القرب.

﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ رَمَوه وحاشاه ﷺ بالجنون مُشيرين إلى أنَّ سبَبَه دعواه عليه الصلاة والسلام نزول الذِّكْر الذي لم تَتَّسع له عقولُهم، والإشارةُ في ذلك أنَّه لا ينبغي لمن لم يتَّسع عقلُه لِمَا مَنَّ الله سبحانه به على أوليائه من الأسرار أنْ يُبادروهم بالإنكار ويرموهم بما لا ينبغي، كما هو عادةُ كثيرٍ من المنكرين اليومَ على الأولياء الكاملين، حيث نسبوهم فيما تكلَّموا به من الأسرار الإلهية والمعارف الرَّبانية إلى الجنون، وزَعَموا أنَّ ما تكلَّموا به من ذلك تُرَّهاتٌ وأباطيلُ خُيِّلَت لهم من الرياضات، ولا أعني بالأولياء الكاملين سوى مَن تحقَّق لدى المنصفين موافقتهم للشرع فيما يأتون ويَذَرُون، دون الذين يزعمون انتظامهم في سلكهم وهم أولياءُ الشيطان، وحزبُهم حزبُه، كبعض متصوِّفة هذا الزمان، فإنَّ الزنادقةَ بالنسبة إليهم أتقياء موحِّدون، كما لا يخفى على مَن سَبَر أحوالهم.

---

(١) البحر المحيط ٥/٤٥٥، وهي قراءة شعبة كما في التيسير ص ٨٢، والنشر ٢/٢١٦.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ قال ابنُ عطاء: أي: إنَّا نزَّلنا هذا الذكر شفاءً ورحمةً وبياناً للهدى فينتفعُ به مَن كان موسوماً بالسعادة منوَّراً بتقديس السرِّ عن دَنَس المخالفة. «وإنَّا له لحافظون» في قلوب أوليائنا، فهي خزائنُ أسرارنا.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ أشار سبحانه إلى سماء الذات وبروج الصفات والجلال، فيسيرُ في ذلك القلبُ والسرُّ والعقلُ والروح فيحصل للروح التوحيدُ والتجريدُ والتفريدُ، وللعقل المعارفُ والكواشفُ، وللقلب العشقُ والمحبةُ، والخوفُ والرجاء، والقَبْض والبسط، والعلم والخشية والأُنس والانبساط، وللسرِّ الفناءُ والبقاء، والسُّكر والصَّحْوُ.

﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ إشارةٌ إلى مَنْع كشفِ جمال صفاته سبحانه وجلال ذاته عزَّ وجل عن أبصار البطَّالين والمدَّعين والمبطلين الزائغين عن الحقِّ ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ اختلس شيئاً من سُكان هاتيك الحظائرِ القُدْسية من الكاملين ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ نار التحيُّر فهلَكَ في بوادي التيه، أو صار غولاً يُضِلُّ السائِرين السالكين لتحصيل ما ينفعُهم.

وقيل: الإشارة في ذلك: إنَّا جعلنا في سماء العقل بروجَ المقامات ومراتبَ العقول من العقل الهيولاني، والعقل بالملكة، والعقل بالفعل، والعقل المستفاد، وزيَّناها بالعلوم والمعارفِ للناظرين المتفكِّرين، وحفظناها من شياطين الأوهام الباطلةِ إلا مَن اختَطف الحكم العقلي باستراق السمع لقربه مِن أُفُق العقل فأتبعه شهابُ البرهان الواضح فطَرَده وأبطَلَ حكمه. اهـ.

ولا يخفَى ما في تزيين كلِّ مرتبةٍ من مراتب العقولِ المذكورة بالعلوم والمعارفِ للمتفكِّرين من النظر على من تفكَّر.

وقيل: الإشارةُ إلى أنَّه تعالى جَعَل في سماء القلوب بروجَ المعارف تسيرُ فيها سيَّاراتُ الهمم، وجَعَلها زينةً للناظرين إليها المطَّلعين عليها من الملائكة والروحانيين، وحَفِظها من الشياطين، فلو دَنَا إبليسُ أو جنودُه من قلب عارفٍ احترقَ بنور معرفتِهِ، ورُدَّ خاسئاً.

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه تعالى بَسَط بأنوار تجلِّي جماله وجلاله سبحانه أرضَ قلوبِ أوليائه حتى إنَّ العرش وما حوى بالنسبة إليها كحلقةٍ في فَلَاة، بل دون ذلك بكثير، وفي الخبر: «ما وَسِعَني أرضي ولا سمائي ولكنْ وسعني قلبُ عبدي المؤمن»[1] ثم إنَّه تعالى لمَّا تجلَّى عليها تزلْزَلَت من هيبته فألقَى عليها رواسي السكينة فاستقرَّت، وأنبتَ فيها بمياه بحارِ زلال نور غَيْبِهِ من جميع نباتات المعارف والكواشف والمواجيد والحالات والمقامات والآداب، وكلٌّ من ذلك موزون بميزان علمه وحكمته.

وقال بعضهم: نفوسُ العابدين أرضُ العبادة، وقلوبُ العارفين أرضُ المعرفة، وأرواحُ المشتاقين أرضُ المحبة، والرواسي: الرجاءُ والخوف والرغبةُ والرهبة، والأزهار: الأنوار التي أشرقت فيها من نور اليقين ونور العرفان ونور الحضور ونور الشهود ونور التوحيد إلى غير ذلك.

وقيل: أُشيرَ بالأرض إلى أرض النفس، أي: بَسَطْنا أرض النفس بالنور القلبي وألقينا فيها رواسي الفضائل، وأنبتنا فيها كلَّ شيءٍ من الكمالات الخلقية والأفعال الإرادية والملكات الفاضلة والإدراكات الحسية معين مقدَّر بميزان الحكمة والعدل.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ بالتدابير الجزئية ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ ممن يُنسَب إليكم ويتعلَّق بكم، قال بعضُهم: إنَّ سَبَب العيش مختلفٌ، فعيش المريدين بيُمْنِ إقباله تعالى، وعَيْشُ العارفين بلُطفِ جماله سبحانه، وعيشُ الموحِّدين بكَشْف جلاله جلَّ جلاله.

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ أي: ما من شيءٍ إلا له عندنا خزانةٌ في عالم القضاء ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ﴾ في عالم الشهادة ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ من شكلٍ وقَدرٍ ووَضْعٍ ووقت ومحلٍّ حسبما يقتضيه استعدادُه، قيل: إنَّ الإشارة في ذلك إلى دعوةِ العباد إلى حقائق التوكل وقطع الأسباب والإعراض عن الأغيار، ومن هنا قال حمدون: إنَّه سبحانه قطَعَ أطماع عبيده جلَّ وعلا بهذه الآية، فمن رفع بعد هذا حاجةً إلى غيره ـ تعالى شأنه ـ فهو جاهلٌ مَلُومٌ، وكان الجنيد قدِّس سرُّه إذا قرأ هذه الآيةَ

---

(١) المصنوع في معرفة الحديث الموضوع (٢٩٣)، وتقدم ٤/ ٢٢١.

يقول: فأين تذهبون؟ ويقال: خزائنُه تعالى في الأرض قلوبُ العارفين وفيها جواهرُ الأسرار، ومنهم مَن قال: النفوسُ خزائنُ التوفيق، والقلوبُ خزائنُ التحقيق، والألسنة خزائن الذكر، إلى غير ذلك.

﴿وَأَرْسَلْنَا﴾ على القلوب ﴿ٱلرِّيَـٰحَ﴾ النفحات الإلهية ﴿لَوَٰقِحَ﴾ بالحكم والمعارف، قال ابنُ عطاء: رياحُ العناية تُلقِّحُ الثبات على الطاعات، ورياحُ الكرم تلقِّح في القلوب معرفَةَ المنعم، ورياحُ التوكُّل تلقح في النفوس الثقةَ بالله تعالى والاعتمادَ عليه، وكلٌّ مِن هذه الرياح تظهرُ في الأبدان زيادة وفي القلوب زيادة، وقد شَقِيَ[1] من حُرِمَها.

﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: سماء الروح ﴿مَآءً﴾ من العلوم الحقيقية ﴿فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ﴾ وأحييناكم به ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ﴾ أي: لذلك الماء ﴿بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ لخلوِّكم عن العلوم قبل أنْ نُعلِّمَكم.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ﴾ القلوبَ بماء العلم والمشاهدة ﴿وَنُمِيتُ﴾ النفوسَ بالجدِّ والمجاهدة، وقيل: نحيي بالعلم، ونميت بالإفناء في الوحدة، وقيل: نحيي بمشاهدتنا قلوبَ المطيعين من موت الفراق، ونميتُ نفوسَ المريدين بالخوف منَّا وقَهْر عظمتنا عن حياة الشهوات. وقال الواسطي: نحيي مَن نشاء بنا، ونميت مَن نشاء عنَّا. وقال الورَّاق: نُحيي القلوبَ بنور الإيمان، ونميتُ النفوسَ باتِّباع الشيطان. وقيل وقيل.

﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾ للوجود، والباقون بعد الفناء ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ وهم المشتاقون الطالبون للتقدُّم ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ وهم المنجذبُون إلى عالم الحسِّ باستيلاء صفات النفس، الطالبون للتأخُّر عن عالم القدس وروضاتِ الأنس، ومن هنا قال ابن عطاء: مِن القلوب قلوبٌ هِمَّتُها مرتفعةٌ عن الأدناس والنظر إلى الأكوان، ومنها ما هي مربوطةٌ بها مقترنةٌ بنجاستها لا تنفكُّ عنها طرفة عين. وقيل: «المستَقْدِمين» الطالبون كشفَ أنوارِ الجمال والجلال، و«المستأخرين» أهل الرسوم الطالبون للحظوظ والأعراض. وقيل: الأوَّلون هم أربابُ الصَّحو الذين يتسارعون

---

(١) في (م): وشقى.

إذا دُعُوا إلى الطاعة، والآخرون سُكارى التوحيدِ والمعرفة والمحبة. وقيل: الأوَّلون هم الآخذون بالعزائم، والآخرون هم الآخذون بالرُّخَص، وقيل غيرُ ذلك.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ فيه إشارةٌ إلى عِظَم شأنِ آدمَ عليه السلام، حيث أَخْبَر سبحانه بخلقه قبل أنْ يخلقَه، وسماه بشراً؛ لأنَّه جلَّ شأنه باشَرَ خلْقَه بيديه، ولم يثن سبحانه اليدَ لأحدٍ إلا له، وهو النسخةُ الإلهية الجامعة لصفات الجمال والجلال.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ أضافَ سبحانه الروحَ إلى نفسه؛ تشريفاً لها وتعظيماً لقدرها، لِمَا أنَّها سرٌّ خفيٌّ من أسراره جلَّ وعلا، ولذا قيل: مَن عَرَف نفسه عَرَف ربَّه، وعلَّق تبارك شأنه الأمر بالسجود بالتسوية والنفخ لِمَا أنَّ أنوارَ الأسماء والصفات وسناءَ سبحات الذات إنَّما تظهرُ إذ ذاك، ولذا لمَّا تمَّ الأمرُ وجُلِّدَت[1] النسخةُ، فظهرَت أنوارُ الحقِّ، وقُرِئت سطورُ الأسرار، استَصْغَرُوا أنفسهم ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ لمَّا أعمَى الله تعالى عينَه عن مشاهدة ما شاهدوه ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ ولو شاهد ذلك لسجَدَ كما سجدوا.

﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ غلط اللعينُ في زَعْمه أنَّه خيرٌ من آدمَ عليه السلام، ولم يخطُر في باله أيضاً أنَّ المحبَّ الصادقَ يمتثلُ أمر محبوبه كيف كان، ومن هنا قيل:

لو قال تيهاً قِفْ على جَمْر الغَضَى ... لوقفتُ ممتثلاً ولم أتوقَّفِ[2]

وقال بعضُ أهل الوحدة: إنَّ الملعونَ ظنَّ أنَّه مستحكم في توحيده حيث لم يسجد لغيره تعالى، وقد أخطأ أيضاً لأنَّه لا غيرَ هناك؛ لأنَّ في حقيقة جَمْعِ الجمع ترتفعُ الغيريَّةُ وتزولُ الاثنَينيَّةُ، وأنت تعلم أنَّ هذا بمراحلَ عمَّا يدلُّ عليه كلامُه، وأنَّ الغيريَّة إذا ارتَفَعَت في هذا المقام ترتفعُ مطلقاً، فلا تبقَى غيريَّةٌ بين آدم وإبليسَ

(١) جاء في هامش (م): هي كلمة مستعملة عند العامة يقولون: جَلَّدْتُ الكتاب، أي: وضعتُ له جلداً، وبهذا المعنى استُعملَت هنا جرياً على المتعارف عندهم، وإلا قال بعض الأفاضل: جلدت الكتاب، بمعنى: أزلتُ جلدهُ فليحفظ. اهـ منه.

(٢) البيت لابن الفارض، وهو في ديوانه ص ١٥٣، وتقدم ١/ ٣٢٣.

بل ولا بينهما وبينَ شخصٍ من الأشخاص الخارجية والذهنية، ومن هنا قال قائلهم:

ما آدمُ في الكون ما إبليسُ ما ملك سليمان وما بِلقيسُ
الكلُّ عبارةٌ وأنت المعنى يا مَن هو للقلوب مغناطيسُ(١)

وقال الحسينُ بنُ منصور:

جُحُودي لك تقديس وعَقْلي فيك مَنْهوسُ(٢)
فَمَنْ آدمُ إلَّاك ومَن في البَيْن إبليسُ(٣)

وقد انتشَرَ مثلُ هذا الكلام اليومَ في الأسواق ومجالس الجهلةِ والفسَّاق، واتَّسع الخَرْقُ على الراقع، وتفاقَمَ الأمرُ، وما له سوى الله تعالى من دافع.

﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾ طريدٌ عن ساحة القرب؛ إذ القرب يقتضي الامتثال، وكلَّما ازداد العبدُ قرباً من ربِّه ازداد خضوعاً وخشوعاً.

﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ لم يُرد سبحانه أنَّه بعد ذلك يحصلُ له القرب، خلافاً لبعض أهل الوحدة، بل أرادَ جلَّ وعلا بعضَ ما قدَّمناه.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: لأُزيننَّ لهم الشهواتِ في الجهة السفلية ﴿وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ الذين أخلصتَهم لك واصطفيتَهم لمحبَّتك، أو المخلصين في طاعتهم لك، ولا يلتفتون لأحدٍ سواك، وفيه من مَدْح الإخلاص ما فيه، وفي الخبر: «العالمُ هلكَى إلا العالِمون، والعالمون هلكَى إلا العاملون، والعاملون هلكَى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر ـ أي: شرف ـ عظيم»(٤) كما ذكره السيد السند في بعض تعليقاته.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ أي: الذين يُناسبونك في الغواية والبعد ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ﴾ عدد الحواسِّ

---

(١) لم نقف عليها، وسينسبها المصنف إلى ابن عربي عند نهاية تفسير سورة فصلت.
(٢) في هامش (م) أصله: القليل اللحم من الرجال. اهـ منه. ينظر القاموس (نهس).
(٣) تفسير القشيري ٢/ ٢٧٢، دون نسبة.
(٤) سلف ٢/ ٢٨٢.

الخمسِ والقوَّتَين الشَّهويَّة والغَضَبية، وهاتان القوَّتان بابان عظيمان للضلالة المفضية إلى النار.

أخرج ابنُ جرير عن يزيد بنِ قُسَيط قال: كانت للأنبياء عليهم السلام مساجدُ خارجةٌ من قراهم، فإذا أرادَ أحدُهم أنْ يَستنبئَ ربَّه عن شيءٍ، خرج إلى مسجده فصلَّى ما كتبَ الله تعالى، ثم سأل ما بدا له، فبينما نبيٌّ في مسجده إذ جاء إبليسُ حتى جلَسَ بينه وبين القِبلة، فقال النبيُّ: أعوذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم، ثلاثاً، فقال إبليس: أخبرني بأيِّ شيءٍ تنجو منِّي؟ قال النبيُّ: بل أخبرني بأيِّ شيءٍ تغلبُ ابنَ آدم؟ فأجدَّ كلٌّ واحدٍ منهما على صاحبه، فقال النبيُّ: إنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾. قال إبليس: قد سمعتُ هذا قبل أنْ تولد. قال النبيُّ: ويقول الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وإنِّي والله تعالى ما أحسَسْتُ بك قطُّ إلا استعذْتُ بالله تعالى منك. قال إبليس: صدقتَ بهذا تنجو منِّي. فقال النبيُّ: أخبرني بأيِّ شيءٍ تغلبُ ابنَ آدم؟ قال: آخذُهُ عند الغضب وعند الهوى(١).

﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ فيكونُ لكلِّ بابٍ فرقةٌ تغلبُ عليها قوَّةُ ذلك الباب، نسألُ الله تعالى أنْ يُجيرنا منها بحرمة سيِّد ذوي الألباب ﷺ.

❁ ❁ ❁

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾ أي: مستقرُّون في ذلك خالدون فيه، والمرادُ بهم ـ على ما في «الكشاف» عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ الذين اتَّقَوا الكفرَ والفواحشَ، ولهم ذنوبٌ تكفِّرها الصلواتُ وغيرُها(٢).

وفيه أنَّ المتقي على الإطلاق مَن يَتَّقي ما يجبُ اتِّقاؤه مما نُهي عنه.

ونقل الإمامُ عن جمهور الصحابة والتابعين وذَكَر أنَّه المنقولُ عن الحبر أنَّ المرادَ بهم الذين اتَّقَوا الشرك، ثم قال: وهذا هو الحقُّ الصحيحُ، والذي يدلُّ عليه

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٧١-٧٢.
(٢) الكشاف ٢/ ٣٩٢.

أنَّ المتقي هو الآتي بالتقوى مرَّةً واحدةً، كما أنَّ الضارب هو الآتي بالضرب مرَّةً، فليس من شرط صدْقِ الوصف بكونه مُتَّقياً كونه آتياً بجميع أنواع التقوى، والذي يُقرِّر ذلك أنَّ الآتي بفردٍ واحد من أفراد التقوى يكون آتياً بالتقوى، فإنَّ الفردَ مشتملٌ على الماهية بالضرورة، وكلُّ آتٍ بالتقوى يجبُ أنْ يكونَ مُتَّقياً، فالآتي بفردٍ يجبُ كونه متقياً، ولهذا قالوا: ظاهرُ الأمر لا يفيدُ التكرار، فظاهرُ الآية يقتضي حصولَ الجنَّات والعيون لكلِّ مَن اتَّقى عن ذنبٍ واحدٍ إلا أنَّ الأمة مجمعةٌ على أنَّ التقوى عن الكفر شرطٌ في حصول هذا الحكم، وأيضاً هذه الآية ورَدَت عقيبَ قولِ إبليسَ: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾ وعقيبَ قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ فلذا اعتُبر الإيمان في هذا الحكم، فوجب أنْ لا يُزادَ فيه قيدٌ آخرُ؛ لأنَّ تخصيصَ العامِّ لما كان خلافَ الظاهر، فكلَّما كان التخصيصُ أقلَّ كان أوفقَ بمقتضَى الأصل والظاهر، فثبتَ أنَّ الحكمَ المذكورَ يتناولُ جميعَ القائلين: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ﷺ، ولو كانوا مِن أهل المعصية، وهذا تقريرٌ بيِّنٌ وكلامٌ ظاهرٌ»(1). اهـ.

وقد يقال: لا شبهةَ في أنَّ السياق يدلُّ على أنَّ المتقين هم المخلصون السابقُ ذكرُهم، وأنَّ المطلَق يُحمَلُ على الكامل، والكامل ما أشار إليه الزمخشري ولابأس بالحمل عليه، وقيل: إنَّه الأنسبُ.

وإخراجُ العصاة من النار ثابتٌ بنصوصٍ أُخَر، وكذا إدخالُ التائبين الجنةَ، بل غيرهم أيضاً، فلا يلزمُ القائل بذلك القول بما عليه المعتزلةُ من تخليد أصحاب الكبائر، كما لا يخفى.

و«أل» للاستغراق، وهو إما مجموعيٌّ، فيكونُ لكلِّ واحدٍ من المتقين جنةٌ وعينٌ، أو إفراديٌّ فيكونُ لكلٍّ جناتٌ وعيونٌ.

والمرادُ بالعيون يحتمل ـ كما قيل ـ أنْ يكونَ الأنهارَ المذكورةَ في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ الآيــة [محمد: ١٥].

---

(١) مفاتيح الغيب ١٩/ ١٩١-١٩٢.

ويحتمل أنْ يكونَ منابعَ مغايرة لتلك الأنهارِ، وهو الظاهر، وهل كلٌّ من المتقين مختصٌّ بعيونه، أو ليس مختصًّا، بل تجري من بعضٍ إلى بعضٍ، احتمالان، فإنَّه يمكن أنْ يكونَ لكلٍّ واحدٍ عينٌ وينتفعُ بها مَن في معيته، ويمكنُ أنْ تجريَ العينُ من بعضهم إلى بعضٍ؛ لأنَّهم مطهَّرون عن الحقد والحسد. وضمُّ العين من «عُيون» هو الأصلُ، وبه قرأ نافع وأبو عمرو وحفص وهشام، وقرأ الباقون بالعكس[1]؛ وهو لمناسبة الياء.

﴿ٱدۡخُلُوهَا﴾ أمرٌ لهم بالدخول مِن قِبَلِهِ تعالى، وهو بتقدير القول على أنَّه حالٌ، أي: وقد قيل لهم: ادخُلُوها، فلا يرد أنَّه بعد الحكم بأنَّهم في الجنة، كيف يقال لهم: ادخُلوها، وجوِّز أنْ يقدَّرَ مقولاً لهم ذلك، والمقارنة عرفيَّة؛ لاتِّصالهما، وقيل: يقدَّر: يقال لهم، فيكونُ مستأنفاً، ووجهُ ذِكر هذا الأمرِ بعد الحكم السابق بأنَّهم لمَّا ملكوا جنَّاتٍ كثيرةً كانوا كلَّما خرجُوا من جنةٍ إلى أخرى قيل لهم: ادخُلُوها، إلى آخره، وهو إنَّما يجري على تقدير أنْ يكونَ لكلٍّ جناتٌ، وبغير ذلك مما فيه دخل.

وقرأ الحسن: «أُدْخِلُوها»[2] على أنَّه ماضٍ مبنيٌّ للمفعول من باب الإفعال، والهمزةُ فيه للقطع، وأصلُ القياس أنْ لا يُكسَر التنوين قبلها إلا أنَّ الحسن كسره على أصل التقاء الساكنَين إجراءً لهمزة القطعِ مجرى همزةِ الوصل في الإسقاط.

وقرأ يعقوب في رواية رويس كذلك إلا أنَّه ضمَّ التنوين بإلقاء حركةِ همزة القطع عليه[3]، وعنه: «أَدخِلوها» بفتح الهمزة[4] وكسر الخاء على أنَّه أمرٌ للملائكة بإدخالهم إياها، وفتَحَ في هذه القراءةِ التنوينَ بإلقاءِ فتحةِ الهمزة عليه.

وعلى القراءة بصيغة الماضي لا حاجةَ إلى تقدير القول، والفاعلُ عليها هو الله تعالى، أي: أَدْخَلَهم الله سبحانه إياها.

﴿بِسَلَٰمٍ﴾ أي: ملتبسين به، أي: سالمين، أو مُسلَّماً عليكم، وعلى الأول يُراد سلامتُهم من الآفة والزوال في الحال، ويرادُ بالأمن في قوله سبحانه:

---

(١) التيسير ص ١٣٦، والنشر ٢/ ٢٢٦.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٥٦، وتفسير أبي السعود ٥/ ٨٠، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٩٧.
(٣) النشر ٢/ ٢٢٦، وهي غير المشهورة عنه.
(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٥٦.

﴿ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾ الأمنُ من طروِّ ذلك في الاستقبال، فلا حاجةَ إلى تخصيص السلامة بما يكون جسمانيًّا والأمن بغيره.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ أي: حقدٍ، وأصلُه على ما قيل من الغِلالَة وهو ما يُلبَسُ بين الثوبَين الشِّعارِ والدِّثارِ، وتُستَعَار للدِّرع كما يُستعارُ الدرعُ لها، وقيل: قيل للحقد: غِلٌّ؛ أَخْذاً له من انغلَّ في كذا وتَغلَّل: إذا دَخَل فيه، ومنه قيل للماء الجاري بين الشجر: غَلَل، وقد يُستعمَل الغِلُّ فيما يُضمَر في القلب ممَّا يُذَمُّ كالحسد والحقد وغيرهما.

وهذا النزع قيل في الدنيا، فقد أخرج ابنُ أبي حاتم وابن عساكر عن كثير النواء قال: قلتُ لأبي جعفر: إنَّ فلاناً حدَّثني عن علي بنِ الحسين رضي الله عنهما أنَّ هذه الآية نزلت في أبي بكرٍ وعمرَ وعليٍّ رضي الله عنهم[1]: (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ) قال: والله إنَّها لفيهم أنزلَت، وفيمَن تنزلُ إلا فيهم؟! قلتُ: وأيُّ غلٍّ هو؟ قال: غلُّ الجاهليةِ، إنَّ بني تَيْم وبني عدي وبني هاشم كان بينهم في الجاهلية، فلمَّا أسلم هؤلاء القوم تحابُّوا، فأَخذَت أبا بكر الخاصرةُ، فجَعَل عليٌّ كرم الله تعالى وجهه يُسخِّن يَده فيكوي بها خاصرةَ أبي بكر رضي الله عنه، فنزلت هذه الآية[2].

ويُشعر بذلك على ما قيل ما أخرجَه سعيدُ بنُ منصور وابن جرير وابن المنذر والحاكم وغيرُهم من طرقٍ عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنَّه قال لابن طلحة: إنِّي لأرجو أنْ أكونَ أنا وأبوك من الذين قال الله تعالى: (وَنَزَعْنَا) الآية، فقال رجلٌ من هَمْدان: إنَّ الله سبحانه أعدلُ من ذلك. فصاحَ عليٌّ كرم الله تعالى وجهَهُ عليه صيحةً تداعى لها القصرُ، وقال: فَمَن إذن إنْ لم نكن نحن أولئك[3]؟.

---

(١) جاء في هامش (م): رأيت في بعض النسخ: وعثمان رضي الله عنه، وآخِرُ الخبر لا يقتضيها، فتأمل. اهـ منه.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٦٧، وتاريخ دمشق ٣٠/ ٣٣٨ و٥٤/ ٢٨٩، وأخرجه الطبري ١٤/ ٨٠، والواحدي في أسباب النزول ص ٢٨١.

(٣) تفسير الطبري ١٤/ ٧٧، والمستدرك ٢/ ٣٥٣، وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ١٠١، وأخرجه بنحوه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٢٢٩، وأحمد في الفضائل (١٣٠٠).

وقيل: إنَّ ذلك في الآخرة بعد دخول الجنة، فقد أخرجَ ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم وابنُ مردويه من طريق القاسم عن أبي أمامة قال: يدخلُ أهلُ الجنة الجنةَ على ما في صدورهم في الدنيا من الشَّحناء والضغائن حتى إذا تَدانَوا وتقابلوا على السرر، نَزَعَ الله تعالى ما في صدورهم في الدنيا من غِلٍّ[1].

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الكريم بنِ رُشَيد قال: ينتهي أهلُ الجنة إلى باب الجنة وهم يتلاحَظُون تلاحُظ الغَيران، فإذا دخلوها نَزَعَ الله تعالى ما في صدورهم من الغلِّ[2].

وقيل: فيها قبل الدخول، فقد أخرج ابنُ أبي حاتم أيضاً عن الحسن قال: بلغَني أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يُحبَسُ أهلُ الجنةِ بعدَ ما يَجوزُون الصراطَ حتى يُؤخَذَ لبعضهم مِن بعضٍ ظلاماتهم في الدنيا، ويدخلون الجنةَ وليس في قلوب بعضِهم على بعضٍ غلٌّ»[3].

وهذا ونحوه يُؤيِّد ما قاله الإمام في المتقين[4].

وقيل: معنى الآية: طهَّر الله تعالى قلوبَهم مِن أنْ يتحاسدوا على الدرجات في الجنة، ونَزَع سبحانه منها كلَّ غلٍّ، وألَقى فيها التوادَّ والتحابَّ، والآيةُ ظاهرةٌ في وجود الغلِّ في صدورهم قبل النزع، فتأمَّل.

﴿إِخْوَانًا﴾ حالٌ من الضمير في «في جنات» وهي حالٌ مترادفةٌ إنْ جُعِل «ادخلوها» حالاً من ذلك أيضاً، أو حال من فاعل «ادخلوها» وهي مقدَّرة إنْ كان النزعُ في الجنة، أو من ضمير «آمنين» أو الضمير المضاف إليه في «صدورهم» وجازَ؛ لأنَّ المضاف بعضٌ مِن ذلك، وهي حالٌ مقدَّرةٌ أيضاً، ويقال نحو ذلك في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ ويجوزُ أنْ يكونا صِفتَين لـ «إخواناً»، أو حالَين من الضمير المستتر فيه؛ لأنَّه في معنَى المشتقِّ، أي: متصافين، ويجوزُ أنْ يكونَ «متقابلين»

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٧٥، وعزاه لابن أبي حاتم ولابن مردويه السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ١٠١.
(٢) عزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ١٠١.
(٣) ابن أبي حاتم ٥/ ١٤٧٨.
(٤) سلف قريباً.

حالاً من المستتر في «على سُرُرٍ» سواء كان حالاً أو صفةً، وأبو حيان[(١)] لا يَرَى جوازَ الحال من المضاف إليه إذا كان جزأه أو كجزئه، ويخصُّه فيما إذا كان المضافُ مما يعمل في المضاف إليه الرفعَ أو النصبَ، وزَعَم أنَّ جواز ذلك في الصورتَين السابقتَين مما تفرَّد به ابن مالك[(٢)]، ولم يقف على أنَّه نقله في «فتاويه» عن الأخفش وجماعة وافقوه فيه، واختار كون «إخواناً» منصوباً على المدح.

والسُّرُر بضمَّتَين جمع سرير، وهو معروفٌ، وأَخذُه من السرور إذا كان ذلك لأُولي النعمة، وإطلاقُه على سرير الميِّتِ؛ للتشبيه في الصورة، وللتفاؤُل بالسرور الذي يَلحَقُ الميت برجوعه إلى جوار الله عزَّ وجلَّ، وخلاصِه من سجنه المشارِ إليه بما جاء في بعض الآثار: «الدنيا سِجنُ المؤمن»[(٣)].

وكلب وبعضُ بني تميم يفتحون الراء، وكذا كلُّ مضاعفِ فعيل، ويُجمَع أيضاً على أَسِرَّة، وهي على ما رُوي عن ابن عباس ﷺ مِن ذهب مكلَّلة باليواقيت والزَّبرجَد والدُّرِّ. وسعَةُ كلٍّ كسعَة ما بين صنعاء إلى الجابية. وفي كونهم على سُرُرٍ إشارة إلى أنَّهم في رفعة وكرامةٍ تامَّةٍ.

وروي عن مجاهد أنَّ الأسرَّة تدورُ بهم حيثما داروا، فهم في جميع أحوالهم متقابلون لا ينظرُ بعضُهم إلى قفا بعض، فالتقابل: التواجه، وهو نقيضُ التدابر، ووصفهم بذلك إشارة إلى أنَّهم على أشرف أحوالِ الاجتماع. وقيل: هو إشارةٌ إلى أنَّهم يجتمعون ويتنادَمُون، وقيل: معنى «متقابلين»: متساوين في التواصل والتزاور.

وفي بعض الأخبار: إنَّ المؤمن في الجنة إذا أراد أنْ يلقَى أخاه المؤمنَ سارَ كلُّ واحدٍ منهم إلى صاحبه فيلتقيان ويتحدَّثان[(٤)].

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٥٧.

(٢) التسهيل ص ١١٠، وألفيته بشرح ابن عقيل ١/ ٦٤٣.

(٣) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٨٢٨٩)، ومسلم (٢٩٥٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٥٢، وإحياء علوم الدين ٤/ ٥٤٢. قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: أخرجه البزار من رواية الربيع بن صبيح عن الحسن عن أنس، وقال: لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد وتفرد به عن أنس، والربيع بن صبيح ضعيف جدًّا. ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب مرسلاً دون ذكر أنس. اهـ.

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا﴾ أي: في تلك الجنات ﴿نَصَبٌ﴾ تَعَبٌ ما، إمَّا بأنْ لا يكونَ لهم فيها ما يُوجبُه من السعي في تحصيل ما لابدَّ لهم منه لحصول كلِّ ما يشتهونه مِن غير مزاولةِ عملٍ أصلاً، وإمَّا بأنْ لا يعتريَهم ذلك وإنْ باشروا الحركات العنيفة؛ لكمال قوَّتهم.

وفي بعض الآثار: «إنَّ قوَّةَ الواحدِ منهم قوَّةُ أربعين رجلاً من رجال الدنيا»(١).

والجملةُ استئنافٌ نحويٌّ أو بيانيٌّ، أوحالٌ من الضمير في «في جنات»، أو من الضمير في «إخواناً»، أو من الضمير في «متقابلين»، أو من الضمير في «على سُرُرٍ».

﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: هم خالدون فيها، فالمرادُ استمرارُ النفي، وذلك لأنَّ إتمامَ النعمة بالخلود، وهذا متكرِّرٌ مع «آمنين» إنْ أُريدَ منه الأمنُ من زوالهم عن الجنة وانتقالهم منها، وارتكب ذلك؛ للاعتناء والتأكيد، وإنْ أُريدَ به الأمنُ من زوال ما هم عليه من النعيم والسرورِ والصحةِ لا يتكرَّر.

وبحث بعضُهم في لزوم التكرار بأنَّ الأمنَ من الشيء لا يستلزمُ عدمَ وقوعه، كأمن الكَفَرة من مكر الله تعالى مثلاً، وأنَّه يجوزُ أنْ يكون المرادُ زوالَ أنفسهم بالموت لا الزوال عن الجنة.

وتُعقِّب بأنَّ الثاني في غاية البعد، فإنَّه لا يقال للميت: إنَّه فيها وإنْ دُفن بها كالأول، فإنَّ الله تعالى إذا بشَّرهم بالأمن منه كيف يُتوهَّم عدمُ وقوعه.

﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ﴾ قيل: مطلقاً، وقيل: الذين عبَّر عنهم بالمتقين، أي: أَخبِرْهم ﴿أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ وهذا إجمالٌ لِمَا سبَقَ من الوعد والوعيد وتأكيدٌ له، و«أنا» إما مبتدأ، أو تأكيدٌ، أو فصلٌ، و«هو» إما مبتدأ أو فصلٌ، و«أنَّ» وما بعدها ـ قال أبو حيان ـ سادٌّ مسدَّ مفعولي «نبئ» إنْ قلنا: إنَّها تعدَّت إلى ثلاثة، ومسدَّ واحدٍ إنْ قلنا: تعدَّت إلى اثنين(٢).

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (١٩٢٦٩)، وابن حبان (٧٤٢٤) من حديث زيد بن الأرقم ﷺ، وجاءت الروايات بلفظ: «مئة رجل».

(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٥٧.

وفي ذكر المغفرة إشعارٌ على ما قيل بأنْ ليس المرادُ بالمتقين مَن يتَّقي جميعَ الذنوب، إذ لو أُريدَ ذلك لم يكن لذكرها موقع. وقيل: إنَّ ذكرها حينئذٍ لدفع توهُّم أنَّ غيرَ أولئك المتقين لا يكونُ في الجنة بأنَّه يدخلُها وإنْ لم يتب؛ لأنَّه تعالى الغفورُ الرحيم، وله وجه.

وفي توصيف ذاته تعالى بالمغفرة والرحمة دونَ التعذيب، حيث لم يقل سبحانه: وإني أنا المُعذِّب المؤلمُ؛ ترجيحٌ لجانب الوعد على الوعيد، وإنْ كان الأليمُ على ما قال غيرُ واحدٍ في الحقيقة صفةَ العذاب، وكذا لا يضرُّ في ذلك الإضافةُ؛ لأنَّها لا تقتضي حصولَ المضافِ إليه بالفعل، كما إذا قيل: ضَرْبي شديدٌ، فإنَّه يصحُّ أنْ يُرادَ منه ذاك شديدٌ إذا وقع، ويكفي في الإضافة أدنى ملابسةٍ، ويُقوِّي أمرَ الترجيح الإتيانُ بالوصفَين بصيغتَي المبالغة، وكذا ما أخرج ابنُ جرير وابنُ مردويه من طريق عطاء بنِ أبي رباح عن رجلٍ من أصحاب النبيِّ ﷺ قال: اطَّلَع علينا رسولُ الله ﷺ من الباب الذي [يدخلُ] منه بنو شيبة فقال: «ألا أراكم تضحكون» ثم أدبَرَ، حتى إذا كان عند الحجرِ رَجَع إلينا القَهْقَرَى فقال: «إنِّي لمَّا خرجْتُ جاء جبريلُ عليه السلام فقال: يا محمد، إنَّ الله تعالى يقولُ: لِمَ تُقَنِّطُ عبادي؟ ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾» الآية[1]. وتقديمُ الوعد أيضاً يؤيِّدُ ذلك، وفيه إشارةٌ إلى سَبْق الرحمة حسبما نَطَق به الخبر المشهور.

ومع هذا كلِّه في الآية ما تخشعُ منه القلوب، فقد أخرج عبدُ بنُ حميد وجماعةٌ عن قتادة أنَّه قال في الآية: بلَغَنا أنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: «لو يَعلَم العبدُ قدرَ عَفْوِ الله تعالى لَمَا تورَّعَ مِن حرامٍ، ولو يَعلَم قدرَ عذابه لبَخَعَ نفسَه»[2].

وأخرج الشيخان وغيرُهما عن أبي هريرة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ الله سبحانه خَلَق الرحمةَ يوم خلقها مئةَ رحمةٍ، فأمسك عنده تسعةً وتسعين رحمةً وأرسلَ في خلقه كلِّهم رحمةً واحدةً، فلو يعلم الكافرُ كلَّ الذي عندَه مِن رحمة لم

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٨٢، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٠٢، وأخرجه أيضاً ابن المبارك في الزهد (٨٩٢)، وما بين حاصرتين من المصادر.

(٢) عزاه لعبد بن حميد السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ١٠٢، وأخرجه الطبري ١٤/ ٨١-٨٢.

يَيْأس من الرحمة، ولو يعلم المؤمنُ بكلِّ الذي عندَ الله تعالى من العذاب لم يأمن مِن النار»[١].

ثم إنَّه تعالى لمَّا ذكر الوعدَ والوعيد ذكَر ما يُحقِّق ذلك لِمَا تضمَّنه من البشرى والإهلاك بقوله سبحانه: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۝﴾ إلخ، وقيل: إنَّه تفصيلٌ لِمَا تضمَّنَته الآيةُ السابقةُ منهما لا مِن الوعيد فقط كما قيل، والمرادُ بـ «ضيف إبراهيم» الملائكةُ عليهم السلام الذين بشَّروه بالولد وبهُلْك قومِ لوط عليه السلام، وإنَّما سُمُّوا ضيفاً؛ لأنَّهم في صورة مَن كان ينزلُ به عليه السلام من الأضياف، وكان لا ينزل به أحدٌ إلا أضافه، وكان لقَصْره عليه السلام أربعةُ أبواب، من كلِّ جهةٍ بابٌ، لئلا يفوتَه أحدٌ، ولذا كان يُكنَى أبا الضيفان. واختلف في عددهم كما تقدَّم.

وهو في الأصل مصدرٌ - والأفصحُ أنْ لا يُثنَّى ولا يُجمَع ولا يؤنَّث - للمثنى والمجموع والمؤنَّث، فلا حاجةَ إلى تكلُّف إضمارٍ، أي: أصحاب ضيف، كما قاله النحَّاس[٢] وغيرُه، ولم يتعرَّض سبحانه لعنوان رسالتهم؛ لأنَّهم لم يكونوا مُرسَلين إليه عليه السلام بل إلى قوم لوطٍ عليه السلام كما يأتي إن شاء الله تعالى ذكره.

وقرأ أبو حيوة: «ونبِّيهم» بإبدال الهمزة ياء[٣].

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ نصب على أنَّه مفعولٌ بفعل محذوفٍ معطوفٍ على «نبئ» أي: واذكر وقتَ دخولهم عليه، أو ظرفٌ لـ «ضيف» بناء على أنَّه مصدرٌ في الأصل، وجوَّز أبو البقاء[٤] كونه ظرفاً له بناءً على أنَّه مصدر الآن مضاف إلى المفعول، حيث كان التقدير: أصحابُ ضيف، حسبما سمعتَه عن النحاس وغيره، وأنْ يكون ظرفاً لخبر مضافاً إلى «ضيف» أي: خبر ضيف إبراهيم حين دخولهم عليه ﴿فَقَالُوا﴾ عند ذلك: ﴿سَلَامًا﴾ مقتطعٌ من جملة محكيةٍ بالقول، وليس منصوباً به، أي: سلَّمت

---

(١) صحيح البخاري (٦٤٦٩)، وصحيح مسلم (٢٧٥٢)، وسنن الترمذي (٣٥٤١)، ومسند أحمد (٨٤١٥).

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٣٨٢، ونقله عنه المؤلف بواسطة البحر المحيط ٥/ ٤٥٨.

(٣) البحر ٥/ ٤٥٨.

(٤) الإملاء ٣/ ٤٣١-٤٣٢.

سلاماً من السلامة، أو سلَّمنا سلاماً من التحية، وقيل: هو نعتٌ لمصدر محذوفٍ تقديرُه: فقالوا قولاً سلاماً.

﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ أي خائفون، فإنَّ الوجلَ اضطرابُ النفس لتوقُّع مكروه، وقوله عليه السلام هذا كان ـ عند غير واحدٍ ـ بعد أنْ قرَّب إليهم العجلَ الحنيذَ فلم يأكلُوا منه، وكان العادةُ أنَّ الضيفَ إذا لم يأكل مما يقدَّم له، ظنُّوا أنَّه لم يجئ بخير. وقيل: كان عند ابتداء دخولهم حيث دخلُوا عليه عليه الصلاة والسلام بغير إذنٍ وفي وقتٍ لا يُطرق في مثله، وتُعقِّب بأنَّه لو كان كذلك لأجابوا حينئذٍ بما أجابوا به، ولم يكن عليه السلام ليقرِّب إليهم الطعام، وأيضاً قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠] ظاهرٌ فيما تقدَّم، ولعلَّ هذا التصريحَ كان بعد الإيجاس.

وقيل: يحتملُ أنْ يكونَ القول هنا مجازاً بأنْ يكونَ قد ظهرَت عليه عليه الصلاة والسلام مخايلُ الخوفِ، حتى صار كالقائل المصرّح به، وإنَّما لم يُذكر هنا تقريبُ الطعام؛ اكتفاءً بذكره في غير هذا الموضع، كما لم يُذكر ردُّه عليه السلام السلامَ عليهم؛ لذلك، وقد تقدَّم ما ينفعك هنا مفصَّلاً في «هود»[1] فتذكَّره.

﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ﴾ لا تخف، وقرأ الحسن: «لا تُوجَل» بضمِّ التاء[2] مبنيًّا للمفعول من الإيجال، وقرئ: «لا تُواجَل»[3] مِن واجَلَه بمعنى أَوْجَلَه، و: «لا تَاجَل» بإبدال الواو ألفاً[4] كما قالوا: تابة في توبة.

﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ استئنافٌ في معنى التعليل للنهي عن الوجل، فإن المبَشَّر لا يكادُ يحومُ حولَ ساحته خوفٌ ولا حزنٌ، كيف لا وهي بشارةٌ ببقائه وبقاءِ أهله في عافيةٍ وسلامةٍ زماناً طويلاً.

---

(١) الآية رقم (٧٠).
(٢) القراءات الشاذة ص ٧١، والمحتسب ٢/ ٤.
(٣) قرأ بها أصحاب عبد الله كما في القراءات الشاذة ص ٧١، والبحر المحيط ٥/٤٥٨.
(٤) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٧١ لأبي معاذ، ووردت في البحر المحيط ٥/٤٥٨ دون نسبة.

﴿بِغُلَٰمٍ﴾ هو إسحاق عليه السلام؛ لأنَّه قد صُرِّح به في موضعٍ آخرَ، وقد جعل سبحانه البشارةَ هنا لإبراهيمَ، وفي آيةٍ أخرى لامرأته[1]، ولكلٍّ وجهةٌ، ولعلَّها هنا كونُها أوفقَ بإنباء العربِ عما وقَعَ لجدِّهم الأعلى عليه السلام، ولعلَّه سبحانه لم يتعرَّض ببشارة يعقوبَ؛ اكتفاءً بما ذكر في سورة هود.

والتنوينُ للتعظيم، أي: بغلامٍ عظيمِ القدر ﴿عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾ ذي علم كثير، قيل: أُريدَ بذلك الإشارةُ إلى أنَّه يكون نبيًّا، فهو على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا﴾ [الصافات: ١١٢].

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ بذلك ﴿عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ وأثَّر فيَّ، والاستفهام للتعجُّب، و«على» بمعنى «مع» مثلُها في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١٧٧] على أحد القولين في الضمير، والجارُّ والمجرور في موضع الحال، فيكونُ قد تعجَّب عليه السلام من بشارتهم إياه مع هذه الحال المنافية لذلك.

ويجوزُ أنْ يكونَ الاستفهامُ للإنكار، و«على» على ما سمعت بمعنى أنَّه لا ينبغي أنْ تكونَ البشارةُ مع الحال المذكورة.

وزَعَمَ بعضُ المنتمين إلى أهل العلم أنَّ الأَوْلى جعْلُ «على» بمعنى «في» مثلُها في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ﴾ [القصص: ١٥] وقوله سبحانه: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ [البقرة: ١٠٢] لوجهين: الاستغناءِ عن التقدير، وكونِ المصاحبة لصدقها بأوَّل المسِّ لا تُنافي البشارة. وهو لَعمري ضربٌ من الهذيان كما لا يخفَى على إنسان.

ثم إنَّه عليه السلام زادَ في ذلك فقال: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ أي: فبأيِّ أُعجوبةٍ تُبشِّرون، أو بأيِّ شيءٍ تُبشِّرون، فإنَّ البشارةَ بما لا يقعُ عادةً بشارةٌ بغير شيءٍ. وجوِّز أنْ تكونَ الباء للملابسة، والاستفهامُ سؤالٌ عن الوجه والطريقةِ، أي: تبشرون ملتبسين بأيِّ طريقةٍ؟! ولا طريقَ لذلك في العادة.

وقرأ الأعرج: «بشرتموني» بغير همزةِ الاستفهام، وابن محيصن: «الكُبْر» بضمِّ

---

(١) في سورة هود آية (٧١).

الكاف وسكون الباء[١]. وقرأ ابنُ كثير بكسر النونِ مشدَّدةً بدون ياءٍ على إدغام نونِ الجمع في نون الوقايةِ والاكتفاء بالكسرة عن الياء. وقرأ نافع بكسر النون مخففةً[٢]، واعترضَ على ذلك أبو حاتم بأنَّ مثله لا يكونُ إلا في الشعر[٣]، وهو مما لا يُلتفَتُ إليه، وخرَّج على حذف نونِ الرفع كما هو مذهبُ سيبويه[٤]؛ استثقالاً لاجتماع المثلَين ودلالةً بإبقاء نون الوقايةِ على الياء.

وقيل: حُذِفَت نونُ الوقاية وكُسرَت نون الرفع وحُذفَت الياء اجتزاءً بالكسرة، وحذفها كذلك كثيرٌ فصيحٌ. وقد قرئ به في مواضعَ عديدةٍ[٥]، ورُجِّح الأول؛ بقلَّة المؤونة، واحتمالُ عدمِ حذفِ نونٍ في هذه القراءةِ بأنْ يكون اكتُفيَ بكسر نون الرفع من أوَّل الأمر، خلافُ المنقول في كتب النحو والتصريف، وإنْ ذهب إليه بعضُهم.

وقرأ الحسن كابن كثير إلا أنَّه أثبتَ الياء[٦]. وباقي السبعة يقرؤون بفتح النون[٧]، وهي نونُ الرفع.

﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالأمر المحقَّق لا محالةَ، أو باليقين الذي لا لَبْسَ فيه، أو بطريقة هي حقٌّ، وهو أمرُ مَن له الأمرُ، القادر على خلق الولد من غير أبَوين، فكيف بإيجاده من شيخ وعجوز.

﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾ أي: الآيسين من خرق العادة لك، فإنَّ ظهورَ الخوارق على يد الأنبياء عليهم السلام كثيرٌ حتى لا يعدّ بالنسبة إليهم مخالِفاً للعادة، وكأنَّ مقصدَه عليه السلام استعظامُ نعمته تعالى عليه في ضمن التعجُّب العادي المبنيِّ على سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين عباده جلَّ وعلا، لا استبعادُ ذلك بالنسبة إلى قدرته جلَّ جلاله، فإنَّه عليه السلام بل النبيّ مطلقاً أجلُّ قدراً من

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٥، والبحر المحيط ٥/ ٤٥٨.

(٢) التيسير ص ١٣٦، والنشر ٢/ ٣٠٢.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٥٨.

(٤) الكتاب ٣/ ٥١٩-٥٢٠.

(٥) ينظر القراءات عند قوله تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، و﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١]، وغيرها.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٥، والبحر المحيط ٥/ ٤٥٨.

(٧) التيسير ص ١٣٦، والنشر ٢/ ٣٠٢.

ذلك، ويُنبئ عنه قولُ الملائكة عليهم السلام: «فلا تَكُنْ من القانطين» على ما فيه من المبالغة دون أنْ يقولوا: من الممترين ونحوه.

﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، أي: لا يقنطُ ﴿مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: الكفرة المخطئون طريقَ معرفةِ الله تعالى، فلا يعرفون سعَةَ رحمته وكمال علمه وقدرته سبحانه وتعالى، وهذا كقول ولدِه يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]. ومرادُه عليه السلام نَفْيُ القنوطِ عن نفسه بأبلغ وجهٍ، أي: ليسَ بي قنوطٌ من رحمته تعالى، وإنَّما الذي أقولُ؛ لبيان منافاةِ حالي لفيضان تلك النعمةِ الجليلة عليَّ، وفي التعرُّض لعنوان الربوبية والرحمة ما لا يخفَى من الجزالة.

وقرأ ابنُ وثاب وطلحة والأعمش وأبو عمرو في رواية: «القَنِطِين»(١)، والنحويَّان والأعمش: «يَقنِط» بكسر النون(٢)، وباقي السبعة بفتحها، وزيدُ بن عليٍّ رضي الله عنهما والأشهبُ بضمِّها(٣)، وهو شاذٌّ، وماضيه مثله في التثليث.

واستُدِلَّ بالآية على تفسير الضالِّين بما سمعْتَ لما سمعتَ من الآية على أنَّ القنوط - وهو كما قال الراغب: اليأسُ من الخير(٤) - كفرٌ، والمسألة خلافيةٌ، والشافعيةُ على أنَّ ذاك وكذا الأمنُ من المكر من الكبائر؛ للحديث الموقوف على ابن مسعود(٥)، أو المرفوع: «مِن الكبائر: الإشراكُ بالله تعالى، واليأسُ من رَوْح الله تعالى، والأمنُ من مكر الله تعالى»(٦) وقال الكمال بنُ أبي شريف: العطفُ على

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٨٣-٣٨٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٦٦، والبحر المحيط ٥/ ٤٥٩.

(٢) قراءة النحويَّيْن (أبي عمرو بن العلاء والكسائي) في التيسير ص ١٣٦، والنشر ٢/ ٣٠٢، وقرأ بها يعقوب وخلف من العشرة، وقراءة الأعمش في المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٦، والبحر المحيط ٥/ ٤٥٩.

(٣) المحتسب ٢/ ٧، والبحر المحيط ٥/ ٤٥٩.

(٤) مفردات الراغب (قنط).

(٥) أخرجه عبد الرزاق في المصنف ١٠/ ٤٦٠، والطبراني في الكبير (٨٧٨٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٠٤: إسناده صحيح.

(٦) أخرجه البزار (١٠٦ - كشف) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وفي إسناده نظر، والأشبه الموقوف على ابن مسعود، ينظر ما سلف ٩/ ٢٦٤.

الإشراك بمعنى مطلَقِ الكفر يقتضي المغايرة، فإنْ أُريدَ باليأس إنكارُ سعَةِ الرحمة الذنوبَ، وبالأمن اعتقادُ أنَّه لا مكرَ، فكلٌّ منهما كفرٌ اتِّفاقاً، لأنَّه ردٌّ للقرآن العظيم، وإنْ أُريد استعظامُ الذنوب واستبعادُ العفو عنها استبعاداً يدخل في حدِّ اليأس وغَلَبة الرجاء المدخِل له في حدِّ الأمن، فهو كبيرةٌ اتِّفاقاً. اهـ. وقد تقدَّم الكلامُ في ذلك[1]، فتذكَّر.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي: أمرُكم وشأنُكم الخطير الذي لأجله أُرسلتُم سوى البشارة ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٧﴾ لعلَّه عليه السلام علم أنَّ كمالَ المقصود ليس البشارةَ، من مقالةٍ لهم في أثناء المحاورةِ مطويةٍ هنا، وتوسيطُ «قال» بين كلامَيْه عليه السلام مشيرٌ إلى أنَّ هناك ما طُوِيَ ذكرُه، وخطابُه لهم عليهم السلام بعنوان الرسالةِ بعد ما كان خطابُه السابق مجرَّداً عن ذلك مع تصديره بالفاء ظاهرٌ في أنَّ مقالَتهم المطويَّةَ كانت متضمِّنةً ما فُهِمَ منه ذلك، فلا حاجةَ إلى الالتجاء إلى أنَّ علمه عليه السلام بأنَّ كلَّ المقصود ليس البشارة بسبب أنَّهم كانوا ذوي عددٍ، والبشارة لا تحتاج إلى عدد، ولذلك اكتُفي بواحدٍ في زكريا ومريم عليهما السلام، ولا إلى أنَّهم بشَّروه في تضاعيف الحالِ لإزالة الوجل ولو كانت تمامَ المقصود لابتدؤوا بها، على أنَّ فيما ذكر بحثاً.

فقد قيل: إنَّ التعذيبَ كالبشارة لا يحتاجُ أيضاً إلى العدد؛ ألا يرى أنَّ جبريل عليه السلام قلبَ مدائنهم بأَحَدِ جناحيه، وأيضاً يَردُ على قوله: ولذلك اكتُفي. . .إلخ، أنَّ زكريا عليه السلام لم يكتفِ في بشارته بواحد كما يدلُّ عليه قولهُ تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٩]، وأما مريمُ عليها السلام فإنَّما جاءها الواحدُ لنفخ الروح والهبةِ كما يدُلُّ عليه قوله: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [مريم: ١٣]. وأما التبشيرُ فلازمٌ لتلك الهبة وفي ضمنها، وليست مقصودةً بالذات. وأيضاً يَخدِشُ قولَه: ولو كانت تمامَ المقصود لابتدؤوا بها، ما في قصة مريم عليها السلام قالت: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٨-١٩]. فيجوز أنْ يكونَ قولهم: «لا تَوجَل» تمهيداً للبشارة.

---

(١) تقدم ١٢/ ٤٧٠-٤٧١.

وأجيبَ عن هذا بأنَّه لا وُرُود له؛ لأنَّ مريم عليها السلام ـ لنزاهة شأنها ـ أوَّل ما أبصَرَتْهُ مُتَمثِّلاً عاجلَته بالاستعاذة، فلم تَدعْه يبتدئُ بالبشارة، بخلاف ما نحن فيه، وعما تقدَّم بأنَّ المعنى إنَّ العادة الجاريةَ بين الناس ذلك، فيرسَلُ الواحدُ للبشارة، والجمعُ لغيرها من حربٍ وأخذٍ ونحو ذلك، والله تعالى يُجري الأمورَ للناس على ما اعتادوه، فلا يرد قصة جبريلَ عليه السلام في ذلك، وإنْ قيل: المراد بالملائكة في تلك الآية جبريلُ عليه السلام، كقولهم: فلانٌ يركبُ الخيل ويلبسُ الثيابَ، أي: الجنس الصادق بالواحد من ذلك، قاله بعض المحقِّقين.

وتعقِّب ما تقدَّم من كون العلم من كلامٍ وقَعَ في أثناء المحاورة وطُويَ ذِكرُه، بأنَّه بعيدٌ.

وتوسيطُ «قال» والفاء والخطاب بعنوان الرسالة لا يُقَرُّ به، أما الأول: فلِجَوَاز أنْ يكونَ لِمَا أنَّ هناك انتقالاً إلى بحث آخرَ، ومثله كثير في الكلام. وأما الثاني فلجواز أنْ تكونَ فصيحةً على معنى: إذا تحقَّقَ هذا فأخبروني ما أمرُكم الذي جئتُم له سوى البشرى؟ وأما الثالث: فلجواز أنْ يقال: إنَّه عليه السلام لم يعلم بأنَّهم ملائكةٌ مرسلون من الله تعالى إلا بعد البشارةِ، ولم يكُ يُحسنُ خطابهم بذلك عند الإنكار أو التعجب من بشارتهم، وكذا لا يحسن في الجواب كما لا يخفَى على أرباب الأذواقِ السليمةِ، بل قد يقال: إنَّه لا يحسن أيضاً عند قوله: (إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ) على تقدير أنْ يكونَ عَلِمَ عليه السلام ذلك قبلَ البشارة، لِمَا أنَّ المقام هناك ضيِّقٌ مِن أنْ يطالَ فيه الكلامُ بنحو ذلك الخطاب، فتدبَّر.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨﴾ هم قومُ لوطٍ عليه السلام، وجيءَ بهم بطريق التنكير، ووُصِفُوا بالإجرام، استهانةً بهم وذمًّا لهم ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ قال الزمخشريُّ[1]: يجوزُ أنْ يكونَ استثناءً من «قوم» بملاحظة الصفةِ، فيكونُ الاستثناءُ منقطعاً؛ لأنَّهم ليسوا قوماً مجرمين، واحتمالُ التغليب مع هذه الملاحظة ليتَّصل الاستثناءُ ليس مما يقتضيه المقامُ، ولو سلم فغيرُ ضارٌّ فيما ذكر؛ لأنَّه مبنيٌّ على الحقيقة، ولا ينافي صحَّة الاتِّصال على تقديرٍ آخر.

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٩٣.

ويجوزُ أنْ يكون استثناءً من الضمير المستتر في «مجرمين» فيكونُ الاستثناءُ متصلاً؛ لرجوع الضمير إلى القوم فقط، فيكونُ الآلُ على الأوَّل مخرَجين من حكم الإرسال المرادِ به إرسالٌ خاصٌّ، وهو ما كان للإهلاك لا مطلَقِ البعث؛ لاقتضاء المعنى له، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩﴾ خبرُ الإنباء على ما سمعتَ سابقاً، وعن الرضي أنَّ المستثنَى المنقطع منتصبٌ عند سيبويه[1] بما قبلَ «إلا» من الكلام، كما انتصَبَ المتَّصلُ به، وإنْ كانت «إلا» بمعنى «لكن»، وأمَّا المتأخِّرون من البصريين فلمَّا رأوها بمعنى «لكن» قالوا: إنَّها الناصبةُ بنفسها نصب «لكنَّ» للأسماء، وخبرُها في الأغلب محذوفٌ نحو: جاءني القومُ إلا حماراً، أي: لكنَّ حماراً لم يجئ. قالوا: وقد يجيء خبرها ظاهراً نحو قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ﴾ [يونس:٩٨].

وقال الكوفيون: «إلا» في ذلك بمعنى «سوى»، والنصبُ بعدها في الانفصال كالنصب في الاتصال، وتأويل البصريين أَولَى؛ لأنَّ المستثنى المنقطع يلزمُ مخالفتُه لِمَا قبله نفياً وإثباتاً، كما في «لكن»، وفي «سوى» لا يلزم ذلك؛ لأنَّك تقول: لي عليك ديناران سوى الدينار الفلاني. وذلك إذا كان صفةً، وأيضاً معنى «لكن» الاستدراك، والمرادُ به فيها دفعُ توهُّم المخاطَبِ دخولَ ما بعدها في حكم ما قبلَها مع أنَّه ليس بداخلٍ، وهذا هو معنى الاستثناء المنقطع بعينه. انتهى.

وزعَمَ بعضُهم أنَّ في كون «إلا» الاستثنائية تعملُ عمل «لكن» خفاءً من جهة العربية وقال: إنَّه في المعنى خبرٌ، وليس خبراً حقيقيًّا كما صرَّح به النحاة. ومما نقلناه يعلم ما فيه من النظر.

نعم صرَّح الزمخشريُّ[2] بأنَّ الجملة على تقدير الانقطاع جاريةٌ مجرى خبر «لكنَّ» وهو ظاهرٌ في أنَّها ليست خبراً في الحقيقة، وذَكَر أنَّه إنَّما قال ذلك لأنَّ الخبرَ محذوفٌ، أي: لكنَّ آلَ لوطٍ ما أُرسِلْنا إليهم، والمذكورُ دليلُه لتلازمهما، ولذا لم يجعله نفسَ الخبر بل جارٍ مجراه، وفيه غفلةٌ عن كونه مبنيًّا على ما نُقلَ عن سيبويه.

---

(١) ينظر الكتاب ٢/ ٣١٩-٣٢٠.

(٢) ينظر الكشاف ٢/ ٣٩٣.

وزعم بعضهم أنَّه قال ذلك لأنَّ الجملةَ المصدَّرة بـ «أنْ» تمتنعُ أنْ تكونَ خبراً لـ «لكنَّ»، فليراجع.

وقيل: قال ذلك؛ لأنَّ المذكور «إلا» لا «لكنَّ» وهو كما ترى.

وعلى تقدير الاتصال يكونُ الآلُ مخرجين من حكم المستثنى منه وهو الإجرام، داخلين في حكم الإرسال بمعنى البعث مطلقاً، فيكونُ الملائكة قد أُرسِلُوا إليهم جميعاً لِيُهلكوا هؤلاء ويُنجُّوا هؤلاء. وجملة «إنَّا لمنجُّوهم» على هذا مستأنفةٌ استئنافاً بيانياً، كأنَّ إبراهيم عليه السلام قال لهم حين قالوا: «إنا أُرسِلنا إلى قومٍ مجرمين إلا آلَ لوطٍ»: فما حال آل لوط؟ فقالوا: «إنَّا لمنجُّوهم» إلخ.

وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ على التقديرَين عند جار الله مستثنى من الضمير المجرور في «لمنجُّوهم» ولم يُجوِّز أنْ يكونَ استثناءً[1] من الاستثناء في شيءٍ، قال: لأنَّ ذلك إنَّما يكونُ فيما اتَّحد الحكم فيه، كقول المطلِّق: أنت طالقٌ ثلاثاً إلا اثنتَين إلا واحدةً، والمقرِّ: لفلانٍ عليَّ عشرةُ دراهمَ إلا ثلاثةً إلا درهماً، وها هنا قد اختلف الحكمان؛ لأنَّ «آل لوطٍ» متعلِّقٌ بـ «أرسلنا» أو بـ «مجرمين»، و«إلا امرأتَه» تعلَّق بـ «منجُّوهم» فأنَّى يكونُ استثناءً من استثناء[2]. انتهى.

وقد يُتوَهَّم أنَّ الإرسال إذا كان بمعنى الإهلاك فلا اختلافَ؛ إذ التقدير: إلا آلَ لوطٍ لم نُهلِكْهم، فهو بمعنى منجُّوهم، فيكونُ من الاستثناء من الاستثناء على أحد التقديرَين.

وأجاب عن ذلك صاحب «التقريب»: بأنَّ شرطَ الاستثناءِ المذكور أنْ لا يتخلَّل لفظٌ بين الاستثناءين متعدِّدٌ يصلُحُ أنْ يكونَ مستثنًى منه، وها هنا قد تخلَّل «منجُّوهم»، ولو قيل: إلا آلَ لوطٍ إلا امرأتَه، لجازَ ذلك[3].

وتُعقِّب بأنَّه لا يدفع الشبهة؛ لأنَّ السببَ حينئذٍ في امتناعه وجودُ الفاصلِ لا اختلاف الحكمَين، فلا وجْهَ للتعبير به عنه.

---

(١) في (م): من الاستثناء.

(٢) الكشاف ٢/ ٣٩٣-٣٩٤.

(٣) حاشية الشهاب ٥/ ٣٠١.

وفي «الكشف»: المرادُ من اتِّحاد الحكم اتحادُه شخصاً وعدداً، فلا يردُ أنَّ الإرسالَ إذا كان بمعنى الإهلاك كان قوله سبحانه: (إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ) وقوله تعالى: (إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ) في معنًى واحدٍ، فالاستثناء من الأول في المعنى، وإنَّما شُرِطَ الاتِّحادُ؛ لأنَّ المتصلَ كاسمه لا يجوزُ تخلُّلُ جملةٍ بين العصا ولحائها، وكذلك في المنقطع، وبه يتَّضحُ حالُ ما تقدَّمَ أتمَّ اتِّضاحٍ. وفيه أيضاً: فإنْ قلتَ: لِمَ لا يرجِعُ الاستثناء إليهما؟ قلتُ: لأنَّ الاستثناءَ متعلِّقٌ بالجملة المستقلَّةِ، والخلافُ في رجوعه إلى الجملتَين فصاعداً لا إلى جملةٍ وبعضِ جملةٍ سابقةٍ، هذا والمعنى مختلفٌ في ذلك، ومحلُّ الخلاف الجملُ المتعاطفةُ لا المنقطع بعضُها عن بعضٍ. انتهى.

والأمرُ كما ذكر في تعيين محلِّ الخلاف، والمسألةُ قَلَّ مَن تعرَّض لها من النحاة، وفيها مذاهب:

الأول: وهو الأصحُّ، وعليه ابنُ مالك[1] أنَّ الاستثناءَ يعودُ للكلِّ إلا أنْ يقومَ دليلٌ على إرادة البعضِ كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ [النور: ٥] الآية، فإنَّ (إِلَّا ٱلَّذِينَ) فيه عائدٌ إلى فسقهم وعدم قبولِ شهادتهم معاً لا إلى الجَلْد؛ للدليل، ولا يضرُّ اختلافُ العامل؛ لأنَّ ذلك مبنيٌّ على أنَّ «إلا» هي العاملة.

الثاني: أنَّه يعود للكلِّ إنْ سيقَ الكلُّ لغرضٍ واحدٍ نحو: حَبسْتُ داري على أعمامي، ووَقفْتُ بستاني على أخوالي، وسبَّلْتُ سقايتي لجيراني، إلا أنْ يُسافروا. وإلا فللأخيرة فقط نحو: أكرم العلماءَ، واحبِس دارَك على أقاربكَ، وأَعتق عبيدَك إلا الفسقةَ منهم.

الثالث: إنْ كان العطفُ بالواو عادَ للكلِّ، أو بالفاء أو «ثم» عادَ للأخيرة، وعليه ابنُ الحاجب[2].

الرابع: أنَّه خاصٌّ بالأخيرةِ، واختاره أبو حيان[3].

---

(١) ينظر التسهيل ص ١٠٤.

(٢) مختصر ابن الحاجب ص ١٢٥-١٢٦.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٦٠.

الخامس: إن اتَّحد العاملُ فللكلِّ، أو اختلفَ فللأخيرة، إذ لا يمكنُ عملُ[1] المختلفات في مستثنًى واحدٍ. وعليه البهاباذي، وهو مبنيٌّ على أنَّ عامل المستثنى الأفعالُ السابقةُ دون «إلا».

هذا، ويُوهم كلامُ بعضهم أنَّه لو جعل الاستثناء من «آل لوطٍ» لزم أنْ تكونَ امرأتُه غيرَ مُهلَكَةٍ أو غيرَ مجرمةٍ، وهو توهُّمٌ فاحشٌ؛ لأنَّ الاستثناء من «آل لوطٍ» إنْ قلنا به بملاحظة الحكمِ عليهم بالإنجاء وعدم الإهلاك أو بعدم الإجرام والصلاح، فتكونُ الامرأةُ محكوماً عليها بالإهلاك أو الإجرام. ويُرشدك إلى هذا ما ذكره الرضي فيما إذا تعدَّد الاستثناءُ وأمكنَ استثناءُ كلٍّ تالٍ من متلوِّه نحو: جاءني المكِّيون إلا قريشاً إلا بني هاشم إلا بني عقيل، حيث قال: لا يجوزُ في الموجب حينئذٍ في كلِّ وترٍ إلا النصبُ على الاستثناء؛ لأنَّه عن موجب، والقياسُ أنْ يجوزَ في كلِّ شَفعِ الإبدالُ والنصبُ على الاستثناء؛ لأنَّه عن غير موجب، والمستثنى منه مذكور، والكلامُ في وَتْرٍ وشفعِ غير الموجب على عكس هذا، وهو مبنيٌّ على ما ذهب إليه الجمهور من أنَّ الاستثناء من النفي إثباتٌ، ومن الإثبات نفيٌ، خلافاً للكسائي حيث قال: إنَّ المستثنى مسكوتٌ عن نَفْي الحكم عنه أو ثبوته له، ولا دلالةَ في الكلام على شيءٍ من ذلك، واستِفَادةُ الإثبات في كلمة التوحيد مِن عُرْف الشرع، وكما وقَعَ الخلافُ في هذه المسألة بين النحويِّين وقع بينَ الأئمة المجتهدين، وتحقيق ذلك في محلِّه.

واختار ابنُ المنير كونَ «إلا آل لوط» مستثنى من «قوم مجرمين» على أنَّه منقطعٌ، قال: وهو أَولَى وأمكنُ؛ لأنَّ في استثنائهم من الضمير العائد على قوم منكرين بُعداً من حيث إنَّ موقعَ الاستثناء إخراجُ ما لولاه لدخَل المستثنَى في حكم الأول، وهنا الدخول متعذِّرٌ مع التنكير، ولذلك قلَّما تجدُ النكرةَ يُستثنَى منها إلا في سياق نَفْيٍ، لأنَّها حينئذٍ تعمُّ فيتحقَّق الدخول لولا الاستثناءُ، ومن ثَمةَ لم يَحسُن: رأيتُ قوماً إلا زيداً. وحَسُنَ: ما رأيتُ أحداً إلا زيداً[2]. انتهى.

---

(١) في (م): حمل.
(٢) الانتصاف ٢/٣٩٣-٣٩٤.

ورُدَّ بأنَّ هذا ليس نظيرَ: رأيتُ قوماً إلا زيداً، بل من قبيل: رأيتُ قوماً أساؤوا إلا زيداً، فالوصفُ يُعيِّنُهم ويجعلُهم كالمحصورين.

قال في «همع الهوامع»: ولا يُستثنَى من النكرة في الموجب ما لم تُفِد، فلا يقال: جاء قومٌ إلا رجلاً، ولا: جاء رجالٌ إلا زيداً، لعدم الفائدة، فإنْ أفادَ جازَ نحو: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت:١٤] و: قامَ رجالٌ كانوا في دارك إلا رجلاً، على أنَّ المرادَ بالقوم أهلُ القرية، كما صرَّح به في آيةٍ أخرى[١]، فهم معنًى محصورون.

ونقل المدقِّقُ عن السكاكي أنَّه صرَّح في آخر بحث الاستدلال من كتابه بأنَّ الاستثناء من جمعٍ غيرِ محصورٍ جائزٌ على المجاز[٢]. مع أنَّ بعض الأصوليين أيضاً جوَّزوا الاستثناء من النكرة في الإيجاب، وأطلقُوا القول في ذلك. نعم المصرَّحُ به في كثير من كُتُب النحو نحوُ ما في «الهمع».

وزعم بعضُهم أنَّه ينبغي أنْ يكونَ الاستثناءُ من الظاهر والضمير منقطعاً، وعلَّل ذلك بأنَّ الضميرَ في الصفة هو عينُ الموصوف المقيَّد بالصفة.

وذكر الجلالُ السيوطي أنَّ بعضَ الفضلاء رفَعَ هذا مع عدَّة أسئلةٍ نثراً ونظماً إلى الكمال بنِ الهمام، ولم يذكر أنَّه أجابَ عنها، والجوابُ عما زعمه هنا قد مرَّت إليه الإشارة، وأما الجواب عن سائر ما استشكله وسئل عنه الكمالُ فيُغني عنه الاطلاع على السؤال، فإنه مما يُتعجَّبُ منه ومن هنا قال الشهاب أظن أن ابن الهمام إنما سكت عن جواب ذلك لوضوح اندفاعه وأنَّه لا ينبغي أنْ يصدُرَ عمَّن تحلَّى بحِلية الفضل[٣].

نعم بعد كلِّ حساب الذي ينساقُ إلى الذِّهن أنَّ الاستثناء من الظاهر لكن ذكر[٤] الرضي أنَّه إذا اجتمع شيئان فصاعداً يصلحان لأنْ يُستثنَى منهما، فهناك تفصيلٌ؛

---

(١) وهي الآية (٣١) من سورة العنكبوت.

(٢) ينظر مفتاح العلوم ص ٥٠٨، ونقل المصنفُ الكلام من حاشية الشهاب ٥/ ٣٠٠.

(٣) جاء في هامش (م) عند قوله جواب: وكلا الأمرين مذكور في حواشيه على البيضاوي، فارجع إليها إن أردت.

(٤) قوله: ذكر، ليست في (م).

فإمَّا أنْ يتغايرا معنًى أو لا ، فإنْ تغايرا وأمكَنَ اشتراكهما في ذلك الاستثناء بلا بُعدٍ اشتركا فيه نحو: ما بَرَّ أَبٌ وابنٌ إلا زيداً، أي: زيدٌ أَبٌ بارٌّ وابنٌ بارٌّ، فإنْ لم يُمكن الاشتراك نحو: ما فَضلَ ابنٌ أباً إلا زيداً، أو كان بعيداً نحو: ما ضَرَب أحدٌ أحداً إلا زيداً، فإن الأغلب مغايرةُ الفاعل للمفعول = نظرنا فإنْ تعيَّن دخولُ المستثنى في أحدهما دون الآخر فهو استثناءٌ منه وَلِيَهُ أو لا ، نحو: ما فدَى وصيٌّ نبيًّا إلا عليًّا كرَّم الله تعالى وجهه، وإن احتمل دخوله في كلٍّ واحدٍ منهما ، فإنْ تأخَّر عنهما المستثنَى فهو من الأخير نحو: ما فَضل ابنٌ أباً إلا زيداً، وكذا: ما فضل أباً ابنٌ إلا زيداً[1]؛ لأنَّ اختصاصَه بالأقرب أَولَى لما تعذَّر رجوعُه إليهما.

وإنْ تقدَّمهما معاً، فإنْ كان أحدُهما مرفوعاً لفظاً أو معنًى فالاستثناء منه، لأنَّ مرتبتَه بعدَ الفعل، فكأنَّ الاستثناء وَلِيَهُ بعدَه نحو: ما فضل إلا زيداً أباً ابنٌ، أو: من ابنٍ، وإنْ لم يكن أحدُهما مرفوعاً فالأوَّل أَولَى به لِقُربه نحو: ما فضلتُ إلا زيداً واحداً على أحد، ويُقدَّر للأخير عاملٌ.

وإن توسَّطهما فالمتقدِّم أحقُّ به؛ لأنَّ أصل المستثنَى تأخُّرُه عن المستثنى منه نحو: ما فضل أباً إلا زيدٌ ابنٌ، ويُقدَّر أيضاً للأخير عاملٌ.

وإنْ لم يتغايرا معنًى اشتركا فيه، وإن اختَلَف العاملان فيهما، نحو: ما ضرب أحدٌ وما قتل إلا خالداً، لأنَّ فاعلَ «قتل» ضميرُ «أحد». انتهى.

وجزم ابنُ مالك فيما إذا تقدَّم شيئان مثلاً يصلُح كلٌّ منهما للاستثناء منه بأنَّ الاستثناء من الأخير[2]، وأطلَق القولَ في ذلك، فليتأمَّل ذاك مع ما نحن فيه.

وقال القاضي البيضاوي: إنَّه على الانقطاع يجوزُ أنْ يجعل «إلا امرأتَه» مستثنى من «آل لوط» أو من ضمير «منجُّوهم» وعلى الاتصال يتعيَّن الثاني؛ لاختلاف الحُكمَين، اللهمَّ إلا إذا جعلت جملة «إنا لمنجُّوهم» معترضة[3]. انتهى.

ومخالفتُه لِمَا نُقِل عن الزمخشريِّ ظاهرةٌ حيث جوَّز الاستثناء من المستثنى في

---

(١) في (م): زيد.

(٢) التسهيل ص ١٠٣.

(٣) تفسير البيضاوي ٥/ ٣٠٠-٣٠١.

الانقطاع، ومنَعَه الزمخشريُّ مطلقاً، وحيث جَعَل اختلاف الحُكمَين في الاتصال وأثبتَه الزمخشريُّ مطلقاً أيضاً، وبيَّن اختلاف الحكمَين بنحو ما بُيِّن به في كلام الزمخشريِّ[١].

ولم يرتَضِ ذلك مولانا سريُّ الدين، وقال: المرادُ بالحكمَين الحكمُ المفادُ بطريق استثناء الثاني من الأوَّل، وهو على تقدير الاتِّصال إجرامُ الامرأة، والحكم المقصودُ بالإفادة، وهو الحكم عليها بالإهلاك، وبيَّنَ اتِّحاد هذا الحكم المقصود مع الحكم المفادِ بالاستثناء على تقدير الانقطاع بأنَّه على ذلك التقديرِ تكونُ «إلا» بمعنى «لكنَّ»، و«إنَّا لمنجُّوهم» خبراً له ثابتاً للآل، فيكون الحكمُ الحاصل من الاستثناء منه بعينه هو الحكم المقصود بالإفادة، ويقال على تقدير الاتصالِ والاعتراض: إنَّ الحكمين وإن اختلَفَا ظاهراً إلا أنَّه لمَّا كانت الجملةُ المعترضة كالبيان لِمَا يقتضيه الاستثناءُ الأول كان في المعنى كأنَّه هو، وصار الإخراج منه كالإخراج منه، وهذا بخلاف ما إذا كان استئنافاً، فإنَّه يكونُ منقطعاً عنه ويكونُ جواباً لسؤالٍ مقدَّرٍ، ولا يتمُّ الجواب بدون الاستثناء ولا يخلو عن الاعتراض.

وقال بعضُهم في توجيه الاستثناءِ على هذا: إنَّ هناك حُكمَين الإجرامَ والإنجاءَ، فيجرُّ الثاني الاستثناء إلى نفسه، كيلا يلزمَ الفصلُ إلا إذا جُعل اعتراضاً، فإنَّ فيه سعةً حتى يتخلَّل بَيْن الصفة وموصوفها، فيجوزُ أنْ يكون استثناءً من «آل لوط» ولذا جوَّز الرضي أنْ يقال: أكرم القومَ والنحاةَ بصريون إلا زيداً.

ويَردُ عليه أنَّ كونَ الحكم المفادِ بالاستثناء غير الحكم المقصودِ بالإفادة باقياً بحاله، ولا يحتاج الأمرُ إلى ما سمعتَ. وهو كما سمعتَ، والذي ينساقُ إلى الذهن ما ذَكَره الزمخشريُّ.

وفي «الحواشي الشهابيَّة» أنَّه الحقُّ درايةً وروايةً: أما الأول: فلأنَّ الحكم المقصودَ بالإخراج منه هو الحكمُ المخرج منه الأول، والثاني حكمٌ طارئٌ من تأويل «إلا» بـ «لكنَّ»، وهو أمرٌ تقديريٌّ، وأما الثاني: فلِمَا ذُكر في «التسهيل»[٢] من

---

(١) ينظر الكشاف ٢/ ٣٩٣-٣٩٤، وحاشية الشهاب ٥/ ٣٠١-٣٠٢.

(٢) ينظر ص ١٠٣-١٠٤.

أنَّه إذا تعدَّد الاستثناءُ فالحكمُ المخرَج منه حكمُ الأول، ومما يدلُّ عليه أنَّه لو كان الاستثناءُ مفرَّغاً في هذه الصورةِ كما إذا قلتَ: لم يَبْقَ في الدار إلا اليعافيرُ أبقاها الزمانُ إلا يعفورٌ صِيدَ منها، فإنَّه يتعيَّن إعرابُه بحسب العامل الأوَّل، كقولك: ما عندي إلا عشرةٌ إلا ثلاثةً، ثم إنَّ كلامَه مبنيٌّ على أمرٍ ومانعٍ معنويٍّ لا على عدم جوازِ تخلُّل كلامٍ منقطعٍ بين المستثنى والمستثنى منه كما قيل، وإنْ كان مانعاً أيضاً كما صرَّح به الرضي، فتدبَّر(١). انتهى. فافهم ذاك والله سبحانه يتولَّى هداك.

وقرأ الأخوان: «لَمُنْجُوْهُم» بالتخفيف(٢).

﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ أي: الباقين في عذاب الله تعالى كما أخرج ابنُ أبي حاتم عن قتادة(٣)، أو الباقين مع الكفرة لتَهلِكَ معهم. وأصلُه من الغَبَرة وهي بقيَّة اللَّبَن في الضَّرع.

وقرأ أبو بكر عن عاصم: «قَدَرنا» بالتخفيف(٤)، وكُسِرَت همزةُ «إنَّ» لتعليق الفعل بوجود لام الابتداء التي لها صدرُ الكلام، وعُلِّق مع أنَّ التعليقَ في المشهور من خواصِّ أفعال القلوب، قال الزمخشريُّ: لتضمُّن فعل التقدير معنى العلم، ولذلك فسَّر(٥) العلماءُ تقديرَ الله تعالى أفعالَ العباد بالعلم(٦).

والمرادُ بتَضْمينه ذلك قيل: المعنى المصطَلَح، وقيل: التجوُّز عن معناه الذي كأنَّه في ضِمْنه؛ لأنَّه لا يقدِّر إلا ما يعلم، ذَكَره المدقِّقُ توجيهاً لكلام الزمخشريِّ، ثم قال: وليس ذلك من باب تضمينِ الفعلِ معنى فعلٍ آخرَ في شيءٍ حتى يعترضَ بأنَّه لا ينفعُ الزمخشريَّ لبقاء معنَى الفعلين. نعم هو على أصلهم من أنَّه كنايةُ معلومٍ محقَّقٍ لا مقدَّر مرادٍ.

---

(١) حاشية الشهاب ٥/٣٠٢.

(٢) التيسير ص ١٣٦، والنشر ٢/٢٥٨، وهي قراءة يعقوب وخلف، والأخوان هما حمزة والكسائي.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٥/١٥١٩ (٨٧٠٣)، وأخرجه أيضاً الطبري ١٠/٣٠٩.

(٤) التيسير ص ١٣٦، والنشر ٢/٣٠٢.

(٥) في (م): فسره.

(٦) الكشاف ٢/٣٩٤.

وقال القاضي: جاز أنْ يقال: أُجري مجرى القولِ؛ لأنَّ التقديرَ بمعنى القضاء قولٌ[1]. وأما أنا فلا أُنكرُ على جار الله أنَّ التعليقَ لتضمُّن معنى العلم، وإنما أُنكر نَفْيَ كونه مقدوراً مراداً. انتهى. وإنما أُنكره؛ لأنَّه اعتزالٌ تأباه الظواهرُ، ومن هنا قال إبراهيمُ النَّخَعيُّ فيما أخرجه عنه ابنُ أبي حاتم: بيني وبين القدريَّةِ هذه الآيةُ، وتلاها[2].

والظاهر أنَّ هذا من كلام الملائكةِ عليهم السلام، وإنَّما أَسندُوا ذلك إلى أنفسهم، وهو فعلُ الله سبحانه؛ لِمَا لهم من الزُّلْفَى والاختصاص، وهذا كما يقول حاشيةُ السلطان: أَمرنا ورَسَمنا بكذا، والآمرُ هو في الحقيقة، وقيل - ولا يخفَى بُعدُه -: هو من كلام الله تعالى، فلا يحتاجُ إلى تأويل، قيل: وكذا لا يحتاجُ إليه إذا كان المرادُ بالتقدير العلم مجازاً.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾﴾ شروعٌ في بيان إهلاك المجرمين وتنجيةِ آلِ لوطٍ، ووضع الظاهر موضع الضمير؛ للإيذان بأنَّ مجيئَهم لتحقيق ما أُرسلُوا به من ذلك، وليس المرادُ به ابتداءَ مجيئهم بل مطلَقُ كينونتهم عند آل لوطٍ، فإنَّ ما حكي عنه عليه السلام بقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ إنما قاله عليه السلام بعد اللُّتيَّا والتي، حين ضاقَت عليه الحِيَلُ، وعَيت به العللُ، ولم يُشاهد من المرسلين عند مقاساةِ الشَّدائدِ ومعاناة المكائد من قومه الذين يُريدون بهم ما يريدون ما هو المعهودُ والمعتادُ من الإعانة والإمداد فيما يأتي ويَذَر عند تَجشُّمِه في تخليصهم = إنكاراً لخذلانهم وتركهم نَصْرَه في مثل هذه[3] المضايقةِ المعترية له بسببهم، حيث لم يكونوا عليهم السلام مباشِرين معه لأسبابِ المدافعةِ والممانعة حتى ألجأته إلى أنْ قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [الآية: ٨٠] حسبما فُصِّل في سورة هود، لا أنَّه عليه السلام قاله عند ابتداء وُرُودهم له، على معنى: إنَّكم قومٌ تُنكرُكم نفسي وتنفرُ منكم فأخافُ أنْ تَطرقوني بشرٍّ، كما قيل. كيف لا وهم بجوابهم المحكي بقوله سبحانه: ﴿قَالُواْ بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ أي: بالعذاب الذي كنتَ

(١) تفسير البيضاوي ٥/ ٣٠٢.
(٢) عزاه إلى ابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٠٢.
(٣) ليس في (م).

تتوعَّدُهم به فيمترون ويشكُّون ويكذبونك فيه، قد قشروا العصا وبيَّنوا له عليه السلام جليةَ الأمر فأنَّى يعتريه بعدَ ذلك المساءةُ وضيقُ الذَّرع(١). قاله العلامة أبو السعرد(٢) وهو كلامٌ معقول.

وجعل «بل» إضراباً عمَّا حَسِبه عليه السلام من تَرْك النصرة له، والمعنى: ما خذلناك وما خلَّينا بينك وبينهم، بل جئناك بما يدمِّرهم من العذاب الذي كانوا يكذِّبونك فيه حين تتوعدُهم به.

وجعله غيرُ واحدٍ بعد أن فسَّر قوله عليه السلام بما سمعتَ إضراباً عن موجب الخوفِ المذكورِ على معنى: ما جئناك بما تُنكرنا لأجله، بل جئناك بما فيه فرحُك وسرورُك وتَشَفِّيك من عدوِّك وهو العذابُ الذي كنتَ تَتَوَعَّدُهم به ويُكذبونك، ولم يقولوا: بعذابهم، مع حصول الغرض ليتضمَّن الكلامُ الاستئناسَ من وجهَين: تحقُّقِ عذابهم، وتحقُّقِ صدقه عليه السلام، ففيه تذكيرٌ لِمَا كان يُكابد منهم من التكذيب.

قيل: وقد كنَى عليه السلام عن خوفه ونِفَارِه بأنَّهم منكرون، فقابلوه عليه السلام بكناية أحسنَ وأحسنَ. ولا يمتنعُ فيما أرى حملُ الكلام على الكناية على ما نقلناه عن العلَّامة أيضاً، ولعلَّ تقديمَ هذه المقاولة على ما جرى بينه وبين أهلِ المدينة من المجادلة ـ كما قال ـ للمسارعة إلى ذِكْر بشارة لوطٍ عليه السلام بإهلاك قومه المجرمين، وتَنْجيةِ آله عقيبَ ذِكْر بشارةِ إبراهيم عليه السلام بهما، وحيث كان ذلك مستدعياً لبيان كيفيَّة النجاةِ وترتيبِ مباديها أُشيرَ إلى ذلك إجمالاً ثم ذُكرَ فعلُ القومِ وما فُعل بهم، ولم يُبال بتغيير الترتيب الوقوعي ثقةً بمراعاته في موضعٍ آخرَ.

ونسبةُ المجيء بالعذاب إليه عليه السلام مع أنَّه نازلٌ بالقوم بطريق تفويضِ أمره إليه، كأنَّهم جاؤوه به وفَوَّضُوا أمرَه إليه، ليرسلَه عليهم حسبما كان يتوعَّدُهم به، فالباء للتعدية، وجوَّز أنْ تكونَ للملابسة، وجوِّز الوجهان في الباء في قوله سبحانه: ﴿وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالأمر المحقَّق المتيقَّن الذي لا مجالَ للامتراء والشكِّ فيه،

(١) في الأصل: الذراع، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٨٣.
(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٨٣.

وهو عذابُهم، عبَّر عنه بذلك تنصيصاً على نَفْي الامتراء عنه، وجوِّز أنْ يُراد «بالحقِّ» الإخبارُ بمجيء العذاب المذكور.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٦٤﴾ تأكيدٌ له، أي: أتيناك فيما قلنا بالخبر الحقِّ، أي: المطابِق للواقع وإنَّا لصادقون في ذلك الخبر، أو في كلِّ خبرٍ، فيكونُ كالدليل على صدقهم فيه، وعلى الأول تأكيداً إثْرَ تأكيد.

ومن الناس مَن جوَّز كونَ الباء للملابسة، وجعل الجارَّ والمجرور في موضع الحال من ضمير المفعول، ولا يخفَى حاله.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ شروعٌ في ترتيب مبادي النجاة، أي: اذهب بهم في الليل.

وقرأ الحجازيُّون[1] بالوصل على أنَّه من «سرى» لا من «أسرى» كما في قراءة الجمهور، وهما بمعنًى على ما ذهب إليه أبو عبيدة[2]، وهو سيرُ الليل، وقال الليث: يقال: أسْرى في السير أوَّل الليل، وسَرَى في السير آخره، وروى صاحب «الإقليد»: «فَسِرْ» من سار، وحكاها ابنُ عطيَّة[3] وصاحب «اللوامح» عن اليماني[4]، وهو عامٌّ، وقيل: إنَّه مختصٌّ في السير بالنهار وليس مقلوباً من سَرَى.

﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ بطائفةٍ منه، أو من آخره، ومن ذلك قوله:

افتحي البابَ وانظُريْ في النجوم   كم علينا من قِطعِ ليلٍ بهيمِ[5]

وقيل: هو بعدَ ما مضَى منه شيءٌ صالحٌ، وفي الكلام تأكيدٌ أو تجريدٌ على قراءة الجماعة على ما قيل، وعلى قراءة: «سِرْ» لا شيءَ من ذلك، وسيأتي لهذا تتمةٌ إن شاء الله تعالى[6]. وحكى منذر بنُ سعيد أنَّ فرقةً قرأت: «بقطَع» بفتح الطاء[7].

---

(١) وهم نافع وابن كثير وأبو جعفر، وفي (م): الحجازيان. التيسير ص١٢٥، والنشر ٢/ ٢٩٠.
(٢) مجاز القرآن ١/ ٢٩٥.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٨.
(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٦١.
(٥) سلف ١١/ ١١٠.
(٦) في سورة الإسراء، آية (١).
(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٨، والبحر المحيط ٥/ ٤٦١.

﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ وكن على إثرهم تذودُهم وتُسرع بهم وتَطَّلعُ على أحوالهم، ولعلَّ إيثارَ الاتِّباع على السَّوق ـ مع أنَّه المقصودُ بالأمر كما قيل ـ للمبالغة في ذلك، إذ السَّوقُ ربَّما يكونُ بالتقدُّم على بعض مع التأخُّرِ عن بعض، ويلزمُه عادةً الغفلة عن حال المتأخِّر، والالتفاتُ المنهيُّ عنه بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ﴾ أي: منك ومنهم ﴿أَحَدٌ﴾ فيرى ما وراءه من الهَوْل ما لا يُطيقُه، أو فيُصيبُه العذابُ، فالالتفات على ظاهره، وجوِّز أنْ يكونَ المعنى: لا ينصرف أحدُكم ولا يتخلَّف لغرضٍ فيصيبَه ما يصيبُ المجرمين، فالالتفات مجازٌ؛ لأنَّ الالتفات إلى الشيء يقتضي محبَّتَه وعدمَ مفارقتِه فيتخلَّف عنده.

وذَكَر جارُ الله[1] أنَّه لمَّا بعَثَ الله تعالى الهلاكَ على قومه ونجَّاه وأهلَه إجابةً لدعوته عليهم وخَرجَ مهاجراً، لم يكن له بدٌّ من الاجتهاد في شكر الله وإدامة ذكره وتفريغ باله لذلك، فأُمِرَ بأن يُقدِّمَهم؛ لئلا يشتغلَ بمن خلفَه قلبُه، وليكونَ مطَّلعاً عليهم وعلى أحوالهم، فلا تفرُط منهم التفاتةٌ احتشاماً منه، ولا غيرُها من الهفوات في تلك الحال المَهُولةِ المحذورة، ولئلا يتخلَّفَ أحدٌ منهم لغرضٍ فيُصيبَه العذابُ، وليكونَ مسيرُه مسيرَ الهارب الذي يُقدِّم سربَه ويفوتُ به، ونُهُوا عن الالتفات؛ لئلا يَرَوا ما يَنزلُ بقومهم فيرقُّوا لهم، وليوطِّنوا نفوسَهم على المهاجرة ويُطيِّبوها عن مساكنهم ويمضُوا قُدُماً غيرَ ملتفتين إلى ما وراءهم، كالذي يتحسَّر على مفارقة وطنِهِ، فلا يزال يلوي له أخادِعَه، كما قال:

تلفَّتُّ نحوَ الحيِّ حتى وجدتُني وَجِعتُ من الإصغاء لِيتاً وأخدعَا[2]

أو جعلَ النهيَ عن الالتفات كنايةً عن مواصلة السير وتَرْكِ التواني والتوقُّفِ؛ لأنَّ مَن يتلفَّتُ لابدَّ له في ذلك من أدْنَى وقفة[3]. اهـ.

قال المدقِّق: وخُلاصةُ ذلك أنَّ فائدةَ الأمر والنهي أنْ يهاجرَ عليه الصلاة والسلام على وجهٍ يُمكِّنه وأهلَه التشمُّر لذِكْر الله تعالى والتجرُّد لشكره، وفيه مع

(١) في الكشاف ٢/ ٣٩٥.
(٢) البيت للصمة بن عبد الله القشيري، وهو في ديوانه ص٩٤، والإصغاء: الإمالة، واللِّيت: صفحة العنق. القاموس المحيط (ليت). الأخدع: عرق في جانب العنق. اللسان (خدع).
(٣) الكشاف ٢/ ٣٩٥.

ذلك إرشادٌ إلى ما هو أَدخلُ في الحزم للسير وأدبِ المسافرةِ، وما على الأمير والمأمورِ فيها، وتنبيهٌ على كيفيَّة السفر الحقيقيِّ وأنَّه أحقُّ بقَطْع العوائق وتقديم العلائق وأحقُّ، وإشارةٌ إلى أنَّ الإقبالَ بالكلية على الله تعالى إخلاصٌ[1]، فلله تعالى درُّ التنزيل ولطائفِهِ التي لا تحصى. اهـ.

وأنت تعلمُ أنَّ كونَ الفائدةِ المهاجرةَ على وجهٍ يُمكِن معه التشمُّرُ لذكر الله تعالى والتجرُّد لشكره غيرُ متبادِرٍ كما لا يخفى، ولعلَّه لذلك تركه بعضُ مختصِري كتابه، وإنما لم يَستثنِ سبحانه الامرأة عن الإسراء أو الالتفات؛ اكتفاءً بما ذكر في موضعٍ آخرَ، وليس نحو ذلك بدعاً في التنزيل.

﴿وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ قيل: أي: إلى حيث يأمرُكم الله تعالى بالمضيِّ إليه، وهو الشامُ على ما رُوي عن ابن عباس والسدي، وقيل: مصر، وقيل: الأردن، وقيل: موضعُ نجاةٍ غير معيَّنٍ، فعدَّى «امضوا» إلى «حيث»، و«تؤمرون» إلى الضمير المحذوف على الاتساع.

واعترض بأنَّ هذا مُسلَّم في تعدية «تؤمرون» إلى «حيث»، فإنَّ صلتَه ـ وهي الباء ـ محذوفةٌ، إذ الأصلُ: تؤمرون به، أي: بمضيِّه، فأوصل بنفسه[2]، وأما تعديةُ «امضُوا» إلى «حيث» فلا اتِّساعَ فيها، بل هي على الأصل؛ لكونه من الظروف المبهمةِ إلا أنْ يُجعل ما ذُكرَ تغليباً.

وأُجيبَ بأنَّ تعلُّق «حيث» بالفعل هنا ليس تعلُّق الظرفيَّة، ليتَّجه تعدِّي الفعل إليه بنفسه لكونه من الظروف المبهمة، فإنَّه مفعولٌ به غير صريحٍ نحو: سرتُ إلى الكوفةِ، وقد نصَّ النحاةُ على أنَّه قد يتصرَّف فيه، فالمحذوفُ ليس «في» بل «إلى»، فلا إشكال. اهـ.

والمذكورُ في كتب العربية أنَّ الأصل في «حيث» أنْ تكونَ ظرفَ مكانٍ، وتردُ للزمان قليلاً عند الأخفش، كقوله:

لِلفتى عقلٌ يعيشُ به ... حيث تَهدي ساقَهُ قدمُهْ[3]

---

(١) في الأصل: خلاص.
(٢) بعدها في الأصل: إليه، والكلام في حاشية الشهاب ٥/ ٣٠٣.
(٣) البيت لطرفة بن العبد، وهو في ديوانه ص ٨٦، والدرر اللوامع ٣/ ١٢٦.

أرادَ: حين تَهدي، ولا تُستعمَل غالباً إلا ظرفاً، ونَدَر جرُّها بالباء في قوله:

كـان مـنَّـا بـحـيـث يُـعْـكـي الإزارَ[1]

وبـ «إلى» في قوله:

إلـى حيـثُ ألـقَـتْ رحلَـهـا أمُّ قَـشْـعَـمِ[2]

وبـ «في» في قوله:

فأصبحَ في حيثُ التَقَينا شريدُهم   طَليقٌ ومكتوفُ اليدَين ومُرعَفُ[3]

وقال ابنُ مالك: تصرُّفها نادرٌ[4]. ومن وقوعها مجرَّدة عن الظرفية قوله:

إنَّ حـيـثُ اسـتـقـرَّ مَـن أنـت راعـيـ   ـه حـمًـى فـيـه عـزَّةٌ وأمـانُ[5]

فـ «حيث» اسم «إنَّ»، وقال أبو حيان: إنَّه غلطٌ؛ لأنَّ كونها اسم «إن» فرعٌ عن كونها تكونُ مبتدأً، ولم يُسمَع في ذلك البتة، بل اسم «إنَّ» في البيت «حمى» و«حيث» الخبر لأنَّه ظرف، والصحيحُ أنَّها لا تتصرَّفُ فلا تكونُ فاعلاً ولا مفعولاً به ولا مبتدأ. اهـ.

---

(١) اللسان (أزر)، والدرر اللوامع ٣/ ١٢٦، ورواية اللسان: كان منها بحيث تُعْكَى الإزار. وفيه (عكا): عكا بإزاره يعكو عكياً: أغلظ مَعْقِده، وقيل: إذا شده قالصاً على بطنه لئلا يسترخي لضخم بطنه.

(٢) البيت من معلقة زهير بن أبي سلمى، وهو في ديوانه ص ٢٢، والمغني ص ١٧٦، وشرح شواهد المغني للسيوطي ص ٣٨٤، وشرح أبيات المغني للبغدادي ٣/ ١٣٣، والدرر اللوامع ٣/ ١٢٧، وصدر البيت: فشَدَّ ولم يُفزِعْ بيوتاً كثيرة. ورواية المصادر عدا الدرر وشرح أبيات المغني: لدى، بدل: إلى. وأم قشعم؛ قيل: هي الحرب، وقيل: العنكبوت. الدرر.

(٣) البيت للفرزدق، وهو في ديوانه ٢/ ٢٩، والكتاب ٢/ ١٠، وخزانة الأدب ٥/ ٣٦، ورواية المصادر: ومُزعَفُ بدل: ومرعف، وأزعَفْتُ عليه: إذا أجهزت عليه وتمَّمت قتله كما ذكر صاحب الخزانة.

(٤) التسهيل ص ٩٦.

(٥) المغني ص ١٧٧، وشرح أبيات المغني ٣/ ١٣٩، والدرر اللوامع ٣/ ١٢٩، وخزانة الأدب شاهد (٥٠٢) دون نسبة، ووقع في الدرر: راجيه، بدل: راعيه.

ونقل ابن هشام وقوعها مفعولاً به عن الفارسي، وخرَّج عليه قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[1] [الأنعام: ١٢٤] وذكر أنَّها قد تُخفَضُ بـ «مِن» وبغيرها، وأنَّها لا تقعُ اسماً لـ «إنَّ» خلافاً لابن مالك[2]، وزعم الزجَّاج أنَّها اسم موصول، ومما ذكرنا يظهر حال التصرُّف فيها.

واعترض ما ذكره المجيبُ بأنَّه وإنْ دفع[3] به إشكال التعدِّي لكنَّه غيرُ صحيحٍ؛ لأنَّهم قد صرَّحوا بأنَّ الجملَ المضاف إليها لا يعودُ منها ضميرٌ إلى المضاف، قال نجمُ الأئمة: اعلَمْ أنَّ الظرفَ المضافَ إلى الجملةِ لمَّا كان ظرفاً للمصدر الذي تضمَّنته الجملةُ لم يَجُز أنْ يعودَ من الجملة ضميرٌ إليه، فلا يقال: يومَ قَدمَ زيدٌ فيه، لأنَّ الربط الذي يُطلَبُ حصولُه حَصَل بإضافة الظرف إلى الجملة وجعله ظرفاً لمضمونها، فيكون كأنك قلت: يومَ قدوم زيد فيه[4]. اهـ.

و«حيث» على ما ذكروا تلزمُ في الغالب الإضافة إلى الجملة، وكونُها فعليةً أكثرُ، وإضافتها إلى مفرد قليلةٌ نحو:

بِبِيْضِ المواضِيْ حيثُ ليِّ العمائمِ[5]

و: حيث سُهيلٍ طالعاً[6].

ولا يقاسُ على ذلك عند غير الكسائي، وأقلُّ من ذلك عدمُ إضافتها لفظاً بأنْ تُضافَ إلى محذوفة معوَّضاً عنها «ما» كقوله:

---

(١) المغني ص ١٧٦-١٧٧.

(٢) المغني ص ١٧٧.

(٣) في (م): رفع.

(٤) حاشية الشهاب ٥/ ٣٠٣.

(٥) شرح المفصل ٤/ ٩٢، والمغني ص ١٧٧، وشرح أبيات المغني للبغدادي ٣/ ١٤٠، وخزانة الأدب ٦/ ٥٥٣، وفي صدره اختلاف، قيل: ونطعنهم حيث الكلى بعد ضَرْبهم، ينظر خزانة الأدب، وفي الأصل و(م): بيض، بدل ببيض، والمثبت من المصادر.

(٦) الرجز في المغني ص ١٧٨، وخزانة الأدب شاهد (٥٠١). والدرر اللوامع ٣/ ١٢٤، وتمامه:

أما ترى حيث سهيل طالعاً نجماً يضيء كالشهاب ساطعا

إذا رَيْـدَةٌ مـن حـيـثُ مـا نـفَـحَـت لـه[1]

أي: مِن حيثُ هبَّتْ.

وهي هنا مضافةٌ للجملة بعدها فكيف يُقدّر الضمير في «. . .تؤمَرُون» عائداً عليها، وقد نصَّ بعضُهم على أنَّ «حيث» لا يصحُّ عودُ الضمير عليها، والذي في «البحر»: أنَّها ظرفُ مكان مبهم تعدَّى إليها «امضُوا» بنفسه، كما تقول: قعدْتُ حيثُ قعَدَ زيدٌ[2]، والظاهرُ أنَّ تعلُّق الفعل بها كما قال المجيب ليس تعلُّق الظرفيَّة، فلعلَّ ذلك مبنيٌّ على تضمين فعلٍ صالحٍ لأنْ يتعلَّقَ به الظرفُ المذكور، كالحلول والتوطُّن وغيرهما.

ونُقِل عن بعضهم القولُ بأنَّ «حيث» هنا ظرفُ زمانٍ، أي: امضُوا حين أُمرتُم، والمرادُ بهذا الأمر ما سبق من قوله تعالى: «فأسر بأهلك بقطع من الليل».

ورُدَّ بأنَّ الظاهر على هذا أُمرتُم دون «تؤمرون» مع أنَّ فيه استعمال «حيث» في أقلِّ معنييها وروداً من غير موجِبٍ.

وظاهرُ كلام بعض الأجلَّة أنَّ المضارع مُستعمَلٌ في مقام الماضي على المعنى الذي أُشيرَ إليه أوَّلاً، وهو يَقتضي تقدُّم أمرٍ بالمضيِّ إلى مكانٍ، فإنْ كان فصيغةُ المضارع لاستحضار الصورة، وإيثارُ المضيِّ إلى ذلك على ما قيل دون الوصول إليه واللحوق به للإيذان بأهمية النجاةِ، ولمراعاةِ المناسبة بينه وبين ما سلف من الغابرين.

﴿وَقَضَيْنَآ﴾ أي: أوحينا ﴿إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ مقضيًّا مثبتاً، فقضَى مضمَّنٌ معنى «أوحى» ولذا عُدِّي تعديته، وجعْلُ المضمَّن حالاً كما أشرنا إليه أحدُ الوجهَين المشهورَين في التضمين، و«ذلك» مبهمٌ يُفسِّره ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ﴾ على أنَّه

---

(١) وعجز البيت:

أتـاه بِـريَّـاهـا خـلـيـلٌ يُـواصـلُـه

ونسبه لأبي حية النميري السيوطيُّ في شرح شواهد المغني ١/ ٣٩٠، والبغدادي في الخزانة ٦/٥٥٩، والرَّيْدة: ريح لينة الهبوب. اللسان (ريد).

(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٦١.

بدلٌ منه كما قال الأخفش[1]، وجوَّز أبو البقاء كونَه بدلاً من «الأمر» إذا جعل بياناً لـ «ذلك» لا بدلاً، وعن الفرَّاء[2] أنَّ ذاك على إسقاط الباء، أي: بأنَّ دابر. . .إلخ، ولعلَّ المشار إليه بـ «ذلك الأمر» عليه الأمر الذي تضمَّنه قوله تعالى: ﴿وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ والباء للملابسة، والجارُّ والمجرور في موضع الحال، أي: أوحينا ذلك الأمرَ المتعلِّق بنجاته ونجاةِ آله ملابساً لبيان حال قومِهِ المجرمين من قَطْع دابرهم، وهو حسنٌ إلا أنَّه لا يخلو عن بُعدٍ.

وقرأ زيدُ بنُ عليٍّ والأعمشُ رحمهم الله تعالى: «إنَّ» بكسر الهمزة[3]، وخُرِّج على الاستئناف البياني، كأنَّه قيل: ما ذلك الأمرُ؟ فقيل في جوابه: إنَّ دابرَ. . .إلخ، أو على البدليَّة بناءً على أنَّ في الوحي معنى القول، قيل: ويُؤيِّدُه قراءةُ عبد الله: «وقلنا إنَّ دابرَ»[4]. . .إلخ، وهي قراءةُ تفسيرٍ لا قرآن؛ لمخالفتها لسواد المصحف.

والدابر الآخِر، وليس المرادُ قطعَ آخرهم، بل استئصالهم حتى لا يبقَى منهم أحدٌ.

﴿مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾ أي: داخلين في الصباح، فإنَّ الأفعال يكون للدخول في الشيء نحو: أَتْهم وأَنْجد، وهو من أَصبح التامَّة، حال من «هؤلاء» وجاز بناءً على أنَّ المضافَ بعضُه، وقد قيل بجواز مجيء الحال من المضاف إليه فيما كان المضاف كذلك، وليس العاملُ معنى الإضافة، خلافاً لبعضهم، وكونُه اسمَ الإشارة توهُّمٌ؛ لأنَّ الحال لم يقل أحدٌ إنَّ صاحبها يعملُ فيها، واختار أبو حيَّان كونه حالاً من الضمير المستكن في «مقطوعٌ» الراجع إلى «دابر» وجاز ذلك مع الاختلاف إفراداً وجمعاً رعايةً للمعنى؛ لأنَّ ذلك في معنى: دابري هؤلاء، فيتَّفقُ الحال وصاحبها جمعية.

---

(١) معاني القرآن ٢/ ٦٠٣، ونقله عنه بواسطة البحر المحيط ٥/ ٤٦١.
(٢) معاني القرآن ٢/ ٩٠، ونقله عنه بواسطة البحر المحيط ٥/ ٤٦١.
(٣) القراءات الشاذة ص ٧١، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٦٩، والبحر المحيط ٥/ ٤٦١.
(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٩٠، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٨٦، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٦٩، والبحر المحيط ٥/ ٤٦١.

وقدَّر الفراءُ[١] وأبو عبيد[٢]: إذا كانوا مصبحين، كما تقول: أنت راكباً أحسنُ منك ماشياً. وتعقِّب بأنَّه إنْ كان تقديرَ معنًى فصحيح، وإنْ كان بيانَ إعرابٍ فلا ضرورةَ تدعو إلى ذلك[٣]. كما لا يخفى.

﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ﴾ شروعٌ في حكاية ما صدَرَ من القوم عند وقوفهم على مكان الأضياف من الفعل وما ترتَّب عليه مما أُشيرَ إليه أوَّلاً على سبيل الإجمال، وهذا مقدَّمٌ وقوعاً على العلم بهلاكهم كما سمعتَ، والواوُ لا تدلُّ على الترتيب.

وقال ابنُ عطية: يحتملُ أنْ يكونَ هذا بعدَ[٤] العلم بذلك، وما صدر منه عليه السلام من المحاورة معهم كان على جهة التكتُّم[٥] عنهم والإملاء لهم والتربُّص بهم[٦]. ولا يخفَى أنَّ كونَ المساءة وضيق الذَّرع من باب التكتُّم والإملاء أيضاً[٧] مما يأبَى عنه الطبعُ السليم.

والمرادُ بالمدينة سذوم[٨]، وبأهلها أولئك القومُ المجرمون، ولعلَّ التعبير عنهم بذلك؛ للإشارة إلى كثرتهم مع ما فيه من الإشارة إلى مزيد فظاعةِ فعلهم، فإنَّ اللائق بأهل المدينة أنْ يُكرموا الغرباءَ الواردين على مدينتهم، ويُحسنوا المعاملة معهم، فهم عَدَلُوا عن هذا اللائق مع مَن حَسِبوهم غرباءَ واردين إلى قصد الفاحشةِ التي ما سبقهم بها أحدٌ من العالمين، وجاؤوا منزلَ لوطٍ عليه السلام ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ ٦٧﴾ مستبشرين مسرورين إذ قيل لهم: إنَّ عنده عليه السلام

---

(١) معاني القرآن ٢/ ٩٠، ونقله عنه بواسطة البحر المحيط ٥/ ٤٦١.
(٢) في الأصل: أبو عبيدة، والمثبت من (م) والبحر المحيط ٥/ ٤٦١.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٦١.
(٤) قوله: بعد، ساقط من الأصل، والمثبت من (م) والمحرر الوجيز.
(٥) وقع في المحرر: التهكم، بدل: التكتم، والمثبت موافق لما في البحر.
(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٨-٣٦٩، ونقله عنه بواسطة البحر المحيط ٥/ ٤٦١.
(٧) ليس في الأصل.
(٨) جاء في هامش (م): بفتح السين، على وزن فعول بفتح الفاء، وذاله معجمة، وروي إهماله، وقيل: إنه خطأ، وفي «الصحاح» والدال غير معجمة، وهو معرَّب، ولذا قيل: إنه بالإعجام بعد التعريب والإهمال قبله، وسميت المدينة باسم ملك من بقايا اليونان، وكان ظلوماً غشوماً، وكان بمدينة سرمين من أرض قنسرين. قاله الطبري. انتهى منه.

ضيوفاً مُرداً في غاية الحسن والجمال، فطمعُوا ـ قاتلهم الله تعالى ـ فيهم.

﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي﴾ الضيف ـ كما قدَّمنا(١) ـ في الأصل مصدرُ ضَافَه، فيطلق على الواحد والجمع، ولذا صحَّ جعلُه خبراً لـ «هؤلاء»، وإطلاقُه على الملائكة عليهم السلام بحَسَب اعتقادِه عليه السلام؛ لكونهم في زيِّ الضيف، وقيل: بحسب اعتقادهم لذلك، والتأكيدُ ليس لإنكارهم ذلك، بل لتحقيق اتِّصالهم به، وإظهارِ اعتنائه بهم عليهم السلام، وتشميرِه لمراعاة حقوقهم وحمايتهم عن السوء، ولذلك قال: ﴿فَلَا تَفۡضَحُونِ ۝٦٨﴾ أي: عندهم، بأنْ تتعرَّضوا لهم بسوءٍ فيعلموا أنَّه ليس لي عندكم قدرٌ، أو لا تفضحوني بفضيحة ضيفي، فإنَّ مَن أُسِيءَ إلى ضيفه فقد أُسِيءَ إليه، يقال: فضحتُه فَضْحاً وفضيحةً إذا أظهرَ مِن أمره ما يلزمُهُ به العارُ، ويقال: فضح الصُّبح إذا تبيَّن للناس.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في مباشرتكم لما يسوؤني ﴿وَلَا تُخۡزُونِ ۝٦٩﴾ أي: لا تُذلُّوني ولا تُهينوني بالتعرُّض بالسوء لِمَن أجرتُهم، فهو من الخِزْي بمعنى الذُّل والهوان، وحيث كان التعرُّض لهم بعد أنْ نهاهم عنه بقوله: «فلا تفضحون» أكثر تأثيراً في جانبه عليه السلام، وأجلب للعار إليه، إذ التعرُّض للجار قبل العلم ربَّما يُتسامح فيه، وأمَّا بعدَ العلم والمناصبةِ بحمايته والذبِّ عنه فذاك أعظمُ العارِ، عبَّر عليه السلام عمَّا يَعتريه من جهتهم بعد النَّهي المذكور بسبب لجاجهم ومجاهرتهم بمخالفتِهِ بالخزي، وأمرَهم بتقوى الله تعالى في ذلك.

وجوِّز أنْ يكونَ ذلك من الخَزَاية وهي الحياء، أي: لا تجعلوني أستَحيي من الناس بتعرُّضكم لهم بالسوء، واستظهر بعضُهم الأوَّلَ، وإنَّما لم يُصرِّح عليه السلام بالنَّهي عن نفس تلك الفاحشةِ قيل: لأنَّه كان يعرفُ أنَّه لا يُفيدهم ذلك، وقيل: رعايةً لمزيد الأدب مع ضيفه حيث لم يُصرِّح بما يَثقُل على سمعهم وتَنفُر عنه طباعُهم، ويَرَى الحرُّ الموتَ ألذَّ طعماً منه.

وقال بعضُ الأجلَّة: المرادُ بـ «اتقوا الله» أمرُهم بتقواه سبحانه عن ارتكاب الفاحشةِ.

---

(١) ص٥٠٠ من هذا الجزء.

وتعقِّب بأنَّه لا يُساعد ذلك توسيطُه بين النهيَيْن المتعلِّقَين بنفسه عليه السلام، وكذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٠﴾ أي: عن إجارة أحدٍ منهم وحيلولتِكَ بيننا وبينه، أو عن ضيافة أحدٍ منهم، والهمزةُ للإنكار، والواو على ما قال غيرُ واحدٍ للعطف على مقدَّرٍ، أي: ألم نتقدَّم إليك ولم ننْهك عن ذلك، فإنَّهم كانوا يتعرَّضون لكلِّ أحدٍ من الغرباء بالسوء، وكان عليه السلام ينهاهم عن ذلك بقَدرِ وسْعِه ويحولُ بينهم وبين مَن يَعرضُون له، وكانوا قد نَهَوه عن تعاطي مثل ذلك، فكأنَّهم قالوا: ما ذكرتَ من الفضيحة والخِزْي إنما جاءك مِن قِبَلك لا مِن قِبَلنا، إذ لولا تعرُّضُك لِمَا تَتَصدَّى له لَمَا اعتراك[1].

ولما رآهم لا يُقلعون عمَّا هم عليه ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾ يعني نساءَ القوم، أو بناته حقيقةً. وقد تقدَّم الكلام في ذلك[2]، واسمُ الإشارة مبتدأٌ، و«بناتي» خبرُه، وفي الكلام حذفٌ، أي: فتزوجوهنَّ، وجوّز أنْ يكونَ «بناتي» بدلاً أو بياناً، والخبرُ محذوف، أي: أطهرُ لكم كما في الآية الأخرى، وأنْ يكونَ «هؤلاء» في موضع نصبٍ بفعل محذوفٍ، أي: تزوَّجوا بناتي، والمتبادر الأوَّل.

﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٧١﴾ شكٌّ في قبولهم لقوله فكأنَّه قال: إنْ فعلتُم ما أقولُ لكم، وما أظنُّكم تفعلون. وقيل: إنْ كنتُم تريدون قضاءَ الشهوة فيما أحلَّ الله تعالى دون ما حرَّم، والوجه الأول كما في «الكشف» أوجَهُ.

وفي «الحواشي الشهابيَّة»: أنَّه أنسبُ بالشكِّ[3]. ويُفهِمُ صنيعُ بعضهم ترجيحَ الثاني، قيل: لتبادُرِه من الفعل، وعلى الوجهَين المفعولُ مقدَّرٌ، وجوِّز تنزيلُ الوصف منزلةَ اللازم، وجوابُ الشرط محذوفٌ، أي: فهو خيرٌ لكم، أو: فاقضوا ذلك.

﴿لَعَمۡرُكَ﴾ قَسَمٌ من الله تعالى بعُمر نبيِّنا ﷺ على ما عليه جمهور المفسرين.

---

(١) في الأصل: لما اعتراك الحالة، وفي أبي السعود ٥/ ٨٧، لما اعتراك تلك الحالة، والمثبت من (م).
(٢) تقدم في سورة هود، آية (٧٨).
(٣) حاشية الشهاب ٥/ ٣٠٤.

وأخرج البيهقي في «الدلائل» وأبو نعيم وابنُ مردويه، وغيرُهم، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما خَلَق الله تعالى وما ذَرَأ وما بَرَأ نفساً أكرمَ عليه من محمد ﷺ، وما سمعتُ اللهَ سبحانه أقسَمَ بحياة أحدٍ غيرِه قال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ﴾. . .إلخ(١).

وقيل: هو قَسَمٌ من الملائكة عليهم السلام بعُمْرِ لوطٍ عليه السلام، وهو مع مخالفته للمأثور محتاجٌ لتقدير القول، أي: قالت الملائكة للوطٍ عليهم السلام: «لعمرك». . .إلخ، وهو خلافُ الأصل، وإنْ كان سياقُ القصة شاهداً له وقرينةً عليه، فلا يرد ما قاله صاحب «الفرائد» من أنَّه تقديرٌ من غير ضرورةٍ، ولو ارتُكب مثلُه لأمكنَ إخراجُ كلِّ نصٍّ عن معناه بتقدير شيءٍ، فيرتفعُ الوثوقُ بمعاني النص، وأيًّا ما كان ف «عمرك» مبتدأٌ محذوفُ الخبرِ وجوباً، أي: قسمي أو يميني أو نحو ذلك.

والعمر بالفتح والضمِّ: البقاء والحياة، إلا أنَّهم التزموا الفتح في القسم لكثرةِ دوره فناسَبَ التخفيف، وإذا دخلتهُ اللامُ التُزِمَ فيه الفتحُ وحذفُ الخبر في القسم، وبدون اللام يجوزُ فيه النصب والرفع وهو صريحٌ، وهو مصدرٌ مضافٌ للفاعل أو المفعول، وسُمِعَ فيه دخولُ الباء وذكرُ الخبرِ قليلاً، وذُكر أنَّه إذا تجرَّد من اللام لا يتعيَّنُ للقسم، ونقل ذلك عن الجوهري(٢)، وقال ابنُ يعيش: لا يُستعمَلُ إلا فيه أيضاً(٣)، وجاء شاذًّا: رعملي، وعدُّوه من القلب، وقال أبو الهيثم: معنى «لعمرُك» لدينك الذي تعمر، ويفسَّر بالعبادة، وأنشد:

أيُّها المُنكِحُ الثريَّا سُهيلاً ... عَمْرَكَ اللهَ كيف يَلْتقيانِ(٤)

أرادَ: عبادتَك اللهَ تعالى، فإنَّه يقال ـ على ما نُقِل عن ابن الأعرابي ـ: عَمَرْتُ ربِّي، أي: عَبَدتُه، وفلانٌ عامرٌ لربِّه، أي: عابدٌ، وتَرَكْتُ فلاناً يَعمُر ربَّه، أي: يعبدُه، وهو غريب(٥).

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٤٨٨، ودلائل النبوة لأبي نعيم (٢١) و(٢٢)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٠٣، وأخرجه أيضاً أبو يعلى (٢٧٥٤)، والطبري ١٤/ ٩١-٩٢.

(٢) الصحاح (عَمَرَ).

(٣) شرح المفصل لابن يعيش ٩/ ٩١-٩٢.

(٤) البيت لعمر بن أبي ربيعة، وهو في ديوانه ص ٢٢٩، وسلف ٤/ ٤٣٨.

(٥) اللسان (عمر)، والبحر المحيط ٥/ ٤٦٢.

وفي البيت توجيهات، فقال سيبويه[١] فيه: الأصلُ: عمَّرتُك اللهَ تعالى تعميراً، فحذفَ الزوائد من المصدر وأُقيمَ مقامَ الفعل مضافاً إلى مفعوله الأوَّلِ، ومعنى عمَّرتُك: أعطيتُك عمراً بأنْ سألتُ الله تعالى أنْ يُعمِّرَك، فلمَّا ضُمِّن «عمر» معنى السؤال تعدَّى إلى المفعول الثاني - أعني الاسم الجليل - فهو على هذا منصوبٌ. وأجاز الأخفشُ رفعَهُ ليكونَ فاعلاً، أي: عمَّرك الله سبحانه تعميراً، وجوَّز الرضي أنْ يكونَ «عَمْرَك» فيه منصوباً على المفعول به لفعلٍ محذوفٍ، أي: أسألُ الله تعالى عَمْرَك، و«أسأل» متعدٍّ إلى مفعولَين، أو يكونَ المعنى: أسألُكَ بحقِّ تَعْمِيرك اللهَ تعالى، أي: اعتقادك بقاءَه وأبديَّتَه تعالى، فيكونُ انتصابُه بحذف حرفِ القسم نحو: اللهَ لأفعلنَّ، وهو مصدرٌ محذوفُ الزوائد مضافٌ إلى الفاعل، والاسمُ الجليل مفعولٌ به له، ولا بأسَ بإضافة «عَمْر» إليه تعالى، وقد جاء مضافاً كذلك، قال الشاعر:

إذا رَضِيَتْ عليَّ بنو قشيرٍ لَعَمْرُ اللهِ أعجبني رضاها[٢]

وقال الأعشى:

ولعَمْرُ مَن جَعَلَ الشهورَ علامةً مِنْها تَبَيَّنَ نَقْصها وَكَمالها[٣]

وزعَمَ بعضُهم أنَّه لا يجوزُ أنْ يقالَ: لَعَمْرُ اللهِ تعالى؛ لأنَّه سبحانه أَزَليٌّ أَبديٌّ، وكأنَّه توهَّم أنَّ العمرَ لا يُقال إلا فيما له انقطاع، وليس ذلك، وجاء في كلامهم إضافتُهُ لضمير المتكلِّم، قال النابغة:

لَعَمْرِي وما عَمْري عليَّ بهيِّنٍ[٤]

وكره النخعيُّ ذلك؛ لأنَّه حَلِفٌ بحياة المقسِم، ولا أعرفُ وجْهَ التخصيص،

---

(١) ينظر الكتاب ١/ ٣٢٢-٣٢٣.

(٢) البيت للقحيف العقيلي، وهو في أدب الكاتب ص ٥٠٦، والخصائص ٢/ ٣١١، وخزانة الأدب ١٠/ ١٣٣.

(٣) ديوان الأعشى ص ١٥٢، ولفظ عجزه في الديوان:

قدراً فبيَّن نصفها وهلالها

(٤) ديوان النابغة ص ٨٠، وعجزه:

لقد نَطَقَت بُطْلاً عليَّ الأقارعُ

فإنَّ في «لعمرك» خطاباً لشخص حلفاً بحياة المخاطب، وحكم الحلفِ بغير الله تعالى مقرَّرٌ على أتمِّ وجهٍ في محلِّه.

وقرأ ابنُ عباس رضي الله عنهما: «وعَمْرِكَ» بدون لام[1].

﴿إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ﴾ أي: لفي غوايتهم أو شدَّةِ غلمتهم التي أزالَت عقولَهم وتمييزَهم بين خطئهم والصواب الذي يُشار به إليهم.

﴿يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ يتحيَّرون، فكيف يسمَعُون النُّصحَ، وأصل العَمَه عَمَى البصيرة، وهو مُورِّثٌ للحيرة، وبهذا الاعتبار فُسِّر بذلك، والضمائرُ لأهل المدينة، والتعبيرُ بالمضارع بناءً على المأثور[2] في الخطاب لحكاية الحال الماضيةِ.

وقيل ـ ونسب إلى ابن عباس رضي الله عنهما ـ: الضمائر لقريش، واستبعدَهُ ابنُ عطية[3] وغيرُه؛ لعدم مناسبةِ السباق والسياق، ومن هنا قيل: الجملة اعتراضٌ، وجملة «يعمهون» حالٌ من الضمير في الجارِّ والمجرور، وجوِّز أنْ تكون حالاً من الضمير المجرور في «سكرتهم» والعاملُ السكرة أو معنى الإضافة، ولا يخفاك حالُه.

وقرأ الأشهبُ: «سُكرَتهم» بضمِّ السين[4]، وابن أبي عبلة: «سَكرَاتهم» بالجمع[5]، والأعمش: «سَكْرهم» بغير تاء[6]، وأبو عمرو في رواية الجهضمي: «أنَّهم» بفتح الهمزة[7]، قال أبو البقاء: وذلك على تقدير زيادة اللام، ومثله قراءة سعيد بن جبير: «إلا أنَّهم ليأكلون الطعام» بالفتح[8]، بناءً على أنَّ لام الابتداء إنما تصحبُ «إنَّ» المكسورة الهمزة، وكأنَّ التقدير على هذه القراءة: لعمرك قسمي على أنَّهم. فافهم.

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٦٢.
(٢) في الأصل: على أن المأثور، والمثبت من (م).
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٠.
(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٦٢، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٧١ للأعمش.
(٥) البحر المحيط ٥/ ٤٦٢.
(٦) القراءات الشاذة ص ٧١، والبحر المحيط ٥/ ٤٦٢.
(٧) البحر المحيط ٥/ ٤٦٢، وهي غير المشهور عنه.
(٨) الإملاء ٣/ ٤٣٥، والآية من سورة الفرقان رقم (٢٠)، وسيأتي الكلام عليها.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ يعني: صيحةٌ هائلةٌ، والتعريفُ للجنس، وقيل: صيحةُ جبريل عليه السلام، فالتعريفُ للعهد، وقال الإمام: ليس في الآية دلالةٌ على هذا التعيين، فإنْ ثبت بدليل قويٍّ قيل به[1].

وأخرج ابنُ المنذر عن ابن جريج أنَّه قال في الآية: الصيحةُ مثل الصاعقة، فكلُّ شيءٍ أُهلِكَ به قومٌ فهو صاعقةٌ وصيحةٌ[2].

﴿مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ أي: داخلين في وقت شروقِ الشمس، قال المدقِّق: والجمعُ بين ـ «مصبحين» و«مشرقين» باعتبار الابتداء والانتهاء بأنْ يكونَ ابتداءُ العذاب عندَ الصبح، وانتهاؤُه عند الشروق؛ وأخذُ الصيحةِ قهرُها إيَّاهم وتمكُّنُها منهم، ومنه الأَخيذ الأسير، ولك أنْ تقول: «مقطوعٌ» بمعنى يقطع عما قريب. انتهى. وقيل: «مُشرقين» حالٌ مقدَّرة.

﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا﴾ أي: المدينة كما هو الظاهر. وجوَّز رجوعُه إلى القرى وإنْ لم يَسبق ذكرُها، والمرادُ بـ «عاليها» وجْهُ الأرض وما عليه وهو المفعول الأوَّل لجعل، و﴿سَافِلَهَا﴾ الثاني له، وقد تقدَّم الكلامُ في ذلك[3].

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ في تضاعيف ذلك ﴿حِجَارَةً﴾ كائنة ﴿مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ من طين متحجِّر وهو في المشهور معرَّب: سنك كل، وذهب أبو عبيدة[4] وطائفة إلى أنَّه عربي، وأنَّه يقال فيه: «سجين» بالنون، واحتجُّوا بقول تميم بن مُقبل:

ضَـرْباً تَـوَاصَـى بـه الأبـطـالُ سِـجِّـيـنـا[5]

وهو كما ترى. وسئل الأصمعيُّ عن معناه في البيت فقال: لا أُفسِّره، إذ كنتُ

---

(١) مفاتيح الغيب ١٩/٢٠٣.

(٢) عزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٤/١٠٣.

(٣) في سورة هود، آية (٨١-٨٢).

(٤) في الأصل و(م): أبو عبيد، وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ١/١٨ و٢٩٦.

(٥) ديوان تميم بن أُبيّ بن مقبل ص ٣٣٣، ومجاز القرآن ١/٢٩٦ وفيه: سجيلا، بدل: سجينا، وصدر البيت:

ورَجْـلـةً يـضـربـون الـبَـيْـض عـن عُـرُض

والبيض: جمع بيضة وهي الخوذة.

أسمعُ وأنا حدث: سِجِّينا ـ بالخاء المعجمة ـ أي: سَخِناً، وسجِّين بالجيم أيضاً، وقيل: هو مأخوذٌ من السجل وهو الكتاب، أي: من طينٍ كُتِب عليه أسماؤهم، أو كتب اللهُ تعذيبَهم به، وقد مرَّ الكلام في ذلك أيضاً(١).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذكر من القصة ﴿لَآيَٰتٍ﴾ لعلاماتٍ يُستدَلُّ بها على حقيقة الحقِّ ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥﴾ قال ابن عباس: للناظرين، وقال جعفر بنُ محمد رضي الله عنهما: للمتفرِّسين. وقال مجاهد: للمعتبرين. وقيل غير ذلك، وهي معانٍ متقاربة. وفي «البحر»: التوسُّم تفعُّلٌ من الوَسْم، وهو العلامة التي يستدلُّ بها على مطلوب. وقال ثعلب: التوسُّم: النظرُ من القرن إلى القَدَم، واستقصاءُ وجوه التعريف، قال الشاعر:

أَوَكُلَّما وَرَدَتْ عُكاظَ قبيلةٌ بعثُوا إليَّ عريفَهم يتوسَّمُ(٢)

وذكر أنَّ أصلَه التثبُّتُ والتفكُّرُ، مأخوذٌ من الوَسْم، وهو التأثير بحديدةٍ محماة في جلدِ البعير أوغيره، ويقال: تَوَسَّمتُ فيه خيراً، أي: ظهرَت علاماتُه لي منه، قال عبد الله بنُ رواحة في رسول الله ﷺ:

إنِّي توسَّمتُ فيك الخيرَ أعرفُه واللهُ يَعلمُ أنِّي ثابتُ البَصَرِ(٣)

والجارُّ والمجرور في موضع الصفة «لآيات» أو متعلِّقٌ به، وهذه الآية ـ على ما قال الجلالُ السيوطي ـ أصلٌ في الفِراسة(٤)، فقد أخرج الترمذيُّ من حديث أبي سعيد مرفوعاً: «اتَّقوا فِراسةَ المؤمن؛ فإنَّه ينظرُ بنورِ الله»(٥) ثم قرأ الآية.

---

(١) في سورة هود آية رقم (٨٣).
(٢) البيت لطريف بن تميم العنبري، كما في الكتاب ٤/٧، والأصمعيات ص ١٢٧، والبيان والتبيين ٣/ ١٠١.
(٣) ديوان عبد الله بن رواحة ص ٩٤، وتفسير القرطبي ١٢/ ٢٣٤، والبحر المحيط ٥/٤٥٦، وحاشية الشهاب ٥/ ٣٠٥ والكلام منه، ورواية الديوان:

إني تفرَّستُ فيك الخيرَ أعرفه فراسة خالَفَتْهم في الذي نظروا

(٤) الإكليل في استنباط التنزيل ص ١٦٠.
(٥) سنن الترمذي (٣١٢٧)، وأخرجه أيضاً البخاري في التاريخ الكبير ٧/ ٣٥٤، والطبري ١٤/٩٦، والطبراني في الأوسط (٧٨٤٣)، قال الترمذي: هذا حديث غريب، وفيه عطية العوفي، قال ابن حجر في التقريب: صدوق يخطئ كثيراً وكان شيعياً مدلِّساً، وقد روى هنا بالعنعنة. =

وكان بعضُ المالكية يحكمُ بالفِراسة في الأحكام جَرْياً على طريق إياس بنِ معاوية.

﴿وَإِنَّهَا﴾ أي: المدينة المُهلَكة، وقيل: القرى ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ۝٧٦﴾ أي: طريقٍ ثابتٍ يسلُكه الناسُ ويَرَون آثارها، وقيل: الضميرُ للآيات، وقيل: للحجارة، وقيل: للصيحة، أي: وإنَّ الصيحةَ لبِمَرْصدٍ لمن يعملُ عملَهم لقوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]. و«مقيم» قيل: معلومٍ، وقيل: معتدٌّ دائمِ السلوك.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذكر من المدينة أو القرى أو في كونها بمَرْأى من الناس يُشاهدونها عند مرورهم عليها ﴿لَءَايَةً﴾ عظيمةً ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧﴾ بالله تعالى ورسوله ﷺ، فإنَّهم الذين يعرفون أنَّ سوءَ صنيعهم هو الذي ترك ديارَهم بلاقع، وأمَّا غيرُهم فيحملون ذلك على الاتِّفاق أو الأوضاع الفلكية، وإفرادُ الآية بعد جمعها فيما سبَقَ قيل لِمَا أنَّ المشاهدَ هاهنا بقيَّةُ الآثار لا كلُّ القصة كما فيما سلف، وقيل: للإشارة إلى أنَّ المؤمنين يكفيهم آيةٌ واحدة.

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝٧٨﴾ هم قوم شعيبٍ عليه السلام؛ و«الأيكة» في الأصل: الشجرة الملتفَّةُ، واحدةُ الأيك، قال الشاعر:

تَجْلُو بقادِمَتَي حمامةِ أيْكَة ... بَرَداً أُسِفَّ لِثَاتُه بالإثْمِدِ[1]

والمرادُ بها هنا غَيضة، أي: بقعة كثيفة الأشجارِ، بناءً على ما روي أنَّ هؤلاء القومَ كان يسكنون الغَيْضةَ وعامة شجرها الدَّومُ، وقيل: السدر، فبعث الله تعالى إليهم شعيباً فكذبوه، فأُهلكوا بما ستسمعه إنْ شاء الله تعالى.

وقيل: بلدة كانوا يسكنونها، وإطلاقُها على ما ذكر إمَّا بطريق النقل أو تسميةِ

= وأخرجه الطبراني في الكبير (٧٤٩٧)، وفي مسند الشاميين (٢٠٤٢)، وأبو نعيم في الحلية ٦/١١٨، والقضاعي في مسند الشهاب (٦٦٣)، من حديث أبي أمامة ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/٢٦٨: إسناده حسن. وفيه راشد بن سعد، قال ابن حجر في التقريب: ثقة كثير الإرسال.

(١) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص ٤٠، القادمة: جمعها قوادم، وهي أربع أو عشر ريشات في مقدم الجناح، شبه الشاعر الشفتين لرقتهما بقادِمَتَي حمامة، وشبه الأسنان بالبَرَد لشدة بياضه. القاموس المحيط (قدم)، وديوان المعاني للعسكري ١/٢٣٨.

المحلِّ باسم الحالِّ فيه، ثم غَلَب عليه حتى صار عَلَماً، وأُيِّد القول بالعلميَّة أنَّه قرئ في «الشعراء» و«صٓ»: «ليكةَ» ممنوع مِن الصرف[١].

و«إنْ» عند البصريين هي المخفَّفة من الثقيلة، واسمُها ضميرُ الشأن محذوفٌ، واللامُ هي الفارقة، وعند الفرَّاء هي النافية، ولا اسمَ لها، واللام بمعنى «إلا»[٢]، والمعوَّل عليه الأوَّل، أي: وأنَّ الشأنَ كان أولئك القومُ متجاوزين عن الحدِّ ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ جازَيناهم على جنايتهم السابقة بالعذاب؛ والضميرُ لـ «أصحاب الأيكة».

وزعم الطبرسيُّ أنَّه لهم ولقوم لوطٍ[٣]، وليس بذاك. روى غيرُ واحد عن قتادةَ قال: ذُكِرَ لنا أنَّه جل شأنه سلَّط عليهم الحَرَّ سبعة أيامٍ لا يُظلُّهم منه ظلٌّ ولا يمنعُهم منه شيءٌ، ثم بعث سبحانه عليهم سحابةً فجعلوا يلتمسون الرَّوح منها، فبعثَ عليهم منها ناراً فأكلَتهم، فهو عذابُ يومِ الظُّلة[٤].

﴿وَإِنَّهُمَا﴾ أي: محلَّي قومِ لوطٍ وقومِ شُعيب عليهما السلام، وإلى ذلك ذهب الجمهور، وقيل: الضميرُ للأيكة ومدْيَن، والثاني وإنْ لم يذكر هنا لكن ذِكرُ الأوَّل يدلُّ عليه لإرسال شعيبٍ عليه الصلاة والسلام إلى أهلهما، فقد أخرج ابنُ عساكر وغيرُه عن ابن عمرَ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ مدينَ وأصحابَ الأيكةِ أمَّتان بَعَثَ الله تعالى إليهما شعيباً عليه السلام»[٥] ولا يخلو عن بعدٍ، بل قيل: إنَّ القولَ الأولَ كذلك أيضاً؛ لأنَّ الأخبار عن مدينة قوم لوطٍ عليه السلام بأنَّها ﴿لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ٧٩﴾ أي: لبطريقٍ واضحٍ، يتكرَّر مع الأخبار عنها آنفاً بأنَّها لبسبيل

---

(١) الشعراء آية (٧٦)، و﴿ص﴾ آية (١٣)، وسيأتي في محلِّه.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٦٣.
(٣) مجمع البيان ١٤/ ٣٩.
(٤) أخرجه الطبري ١٤/ ١٠٠.
(٥) عزاه لابن عساكر السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ١٠٣، قال ابن كثير بعد تفسير الآية (١٧٦) من سورة الشعراء: وهذا غريب، وفي رفعه نظر، والأشبه أن يكون موقوفاً. وفي سنده: معاوية بن هشام، قال أحمد بن حنبل: هو كثير الخطأ. وقال ابن سعد: كان صدوقاً كثير الحديث. قال أبو داود: ثقة. ومن أوهام معاوية بن هشام روايته عن هشام بن سعد عن سعيد بن أبي هلال عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «مدين وأصحاب الأيكة...». ينظر الميزان ٤/ ١٣٨، وتهذيب التهذيب ٤/ ١١٢-١١٣.

مقيمٍ، على ما عليه أكثرُ المفسرين، وجمعُ غيرِها معها في الأخبار لا يدفعُ التكرارَ بالنسبة إليها، وكأنَّه لهذا قال بعضُهم: الضميرُ يعودُ على لوطٍ وشعيبٍ عليهما السلام، أي: وإنَّهما لبطريق من الحقِّ واضح.

وقال الجبَّائي: الضميرُ لخبر هلاكِ قوم لوطٍ وخبر هلاكِ قوم شعيبٍ، والإمام اسمٌ لِمَا يُؤتَمُّ به، وقد سُمِّي به الطريقُ، واللوحُ المحفوظ، ومطلَقُ اللوحِ المعدِّ للقراءة، وزِيْج البنَّاء، ويراد به على هذا اللوح المحفوظ.

وقال مؤرِّج: الإمامُ: الكتابُ في لغة حمير، والإخبار عنهما بأنَّهما في اللوح المحفوظ إشارةٌ إلى سَبْق حكمه تعالى بهلاك القومَين لِمَا عَلِمَه سبحانه مِن سوء أفعالهم.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ﴾ يعني ثمود ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾ حين كذَّبوا رسولَهم صالحاً عليه السلام، فإنَّ مَن كذَّب واحداً من رُسل الله سبحانه فكأنَّما كذَّب الجميع؛ لاتِّفاق كلمتهم على التوحيد والأصولِ التي لا تختلفُ باختلاف الأممِ والأعصار. وقيل: المرادُ بـ«المرسلين» صالحٌ عليه السلام ومَن معه من المؤمنين على التغليب وجعلُ الأتْباع مرسلين كما قيل: الخبيبيُّون، لخبيب بن الزبير وأصحابه، وقال الشاعر:

قَدْنيَ مِن نَصْرِ الخُبَيْبين قَدِي[1]

والقول بأنَّه نزِّلَ كلٌّ من الناقة وسَقْبها منزلةَ رسولٍ؛ لأنَّه كالداعي لهم إلى اتِّباع صالح عليه السلام فجُمع بهذا الاعتبار، لا اعتبارَ له أصلاً فيما أرى.

والحِجْرُ: وادٍ بين الحجاز والشام كانوا يسكنونَه، قال الراغبُ: يُسمَّى ما أُحيط به الحجارة حِجْراً، وبه سُمِّي حِجْرُ الكعبة، وديارُ ثمود[2]، وقد نَهى ﷺ أصحابه ﷺ كما في «صحيح البخاري»[3] وغيرِه عن الدخول على هؤلاء القوم إلا أنْ يكونوا باكين؛ حذراً من أنْ يُصيبَهم مثل ما أصابهم.

---

(١) البيت لحميد الأرقط كما في خزانة الأدب ٥/ ٣٩٣، وتقدم ٧/ ١٢٠.

(٢) مفردات الراغب (حجر).

(٣) برقم (٣٣٨٠) و(٣٣٨١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وهو عند مسلم (٢٩٨٠).

وجاء عن ابن عمر ﵄ أنَّ الناسَ عامَ غزوة تبوك استَقَوا مِن مياه الآبار التي كانت تشربُ منها ثمودُ، وعجنوا منها ونَصَبُوا القُدورَ باللحم، فأمَرَهم النبيُّ ﷺ بإهراقِ القدور، وأنْ يَعلِفُوا الإبلَ العجينَ، وأمَرَهم أنْ يستَقُوا من البئر التي كانت ترد الناقةُ(١).

﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ من الناقة وسَقْبِها(٢) وشُربها ودَرِّها.

وذكر بعضُهم أنَّ في الناقة خمسَ آياتٍ: خروجَها من الصخرة، ودُنوَّ نتاجِها عند خروجها، وعظمَها حتى لم تُشبهْها ناقةٌ، وكثرةَ لَبنها حتى يكفيهم جميعاً.

وقيل: كانت لنبيِّهم عليه السلام معجزاتٌ غير ما ذكر، ولا يضرُّنا أنَّها لم تُذكر على التفصيل، وهو على الإجمال ليس بشيء.

وقيل: المرادُ بالآيات الأدلةُ العقليةُ المنصوبة لهم الدالةُ عليه سبحانه المبثوثةُ في الأنفس والآفاقِ، وفيه بعدٌ.

وقيل: آياتُ الكتاب المُنزَل على نبيِّهم عليه السلام.

وأُورد عليه أنَّه عليه السلام ليس له كتابٌ مأثورٌ إلا أنْ يقال: الكتابُ لا يلزمُ أنْ يُنزَل عليه حقيقةً بل يكفي كونُه معه مأموراً بالأخذ بما فيه، ويكونُ ذلك في حكم نُزوله عليه، وقد يقال بتكرار النزولِ حقيقةً. ولا يخفَى قوَّةُ الإيراد.

وقيل: يجوزُ أن يُراد بالآيات ما يشملُ ما بلَغهم من آيات الرسل عليهم السلام، ومتى صحَّ أنْ يقال: إنَّ تكذيبَ واحدٍ منهم في حكم تكذيبِ الكلِّ فَلِمَ لم يصحَّ أنْ يقال: إنَّ ما يأتي به واحدٌ من الآيات كأنَّه أتى به الكلُّ. وفيه نظر، وبالجملة الظاهرُ هو التفسيرُ الأوَّل.

﴿فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾ غيرَ مقبلين على العمل بما تقتضيه، وتقديمُ المعمول؛ لرعاية تناسبِ رؤوس الآي.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧٩)، ومسلم (٢٩٨١).
(٢) في الأصل: سقيها، والسَّقب: ولد الناقة، كما في حاشية الشهاب ٥/ ٣٠٥.

﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ من نزول العذاب بهم، وقيل: من الموت؛ لاغترارِهم بطولِ الأعمار. وقيل: من الانهدام ونقبِ اللصوص وتخريب[(١)] الأعداء، لمزيد وثاقتها.

وقال ابنُ عطية: أصحُّ ما يظهرُ لي في ذلك أنَّهم كانوا يأمنون عواقبَ الآخرة فكانوا لا يعملون بحَسبها، بل يعملون بحسب الأمن[(٢)]. وتفريعُ قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ أظهرُ في تأييد الأوَّل، ووَقَع في سورة الأعراف: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾[(٣)] وَوُفِّق بينهما، بأنَّ الصيحة تُفضي إلى الرجفة، أو هي مجازٌ عنها، واستُشكل التقييدُ بـ «مُصبحين» مع ما روي في ترتيب أحوالهم بعد «أنْ» أوعدَهم عليه السلام بنزول العذابِ من أنَّه لمَّا كانت ضحوة اليوم الرابع تحنَّطوا بالصبر، وتكفَّنوا بالأنطاع[(٤)] فأتَتْهم صيحةٌ من السماء فتقطَّعَت لها قلوبُهم. فإنَّ هذا يقتضي أنَّ أخْذَ الصيحة إيَّاهم[(٥)] بعد الضحوة لا مصبحين.

وأُجيبَ بأنَّه إنْ صحَّت الرواية يحمل «مصبحين» على كون الصيحةِ في النهار دونَ الليل، أو أُطلق الصبحَ على زمانٍ مُمتدٍّ إلى الضحوة، وقيل: يُجمَعُ بين الآية والخبر بنحو ما جُمع به بين الآيتين آنفاً، وفيه تأمُّل، فتأمَّل.

﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ ولم يدفع عنهم ما نَزَل بهم ﴿مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ من نَحْت البيوتِ الوثيقة، أو منه ومن جمع الأموال والعدَد، بل خَرُّوا جاثمين هلكى، فـ «ما» الأولى نافية وتحتمل الاستفهام، و«ما» الثانية يحتمل أنْ تكونَ مصدريةً وأنْ تكونَ موصولةً، واستظهره أبو حيان[(٦)] والعائدُ عليه محذوفٌ، أي: الذي كانوا يكسبونَه.

وفي «الإرشاد»: أنَّ الفاء لترتيب عدم الإغناءِ الخاصِّ بوقت نزولِ العذاب

---

(١) في (م): تحزيب، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٥/ ٨٧.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٢.
(٣) الآية (٧٨).
(٤) النطع: البساط من الأديم. القاموس (نطع).
(٥) في الأصل: أتاهم، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٥/ ٣٠٦.
(٦) البحر المحيط ٥/ ٤٦٤.

حسبما كانوا يرجونه، لا عدم الإغناء المطلَق، فإنَّه أمرٌ مستمرٌّ[(١)]. وفي الآية من التهكُّم بهم ما لا يخفَى.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: إلا خلقاً متلبِّساً بالحقِّ والحكمة، بحيث لا يلائم استمرارَ الفساد واستقرارَ الشرور، وقد اقتضَت الحكمةُ إهلاكَ أمثال هؤلاء؛ دفعاً لفسادهم وإرشاداً لمن بَقِيَ إلى الصلاح.

﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ ولابدَّ، فننتقمُ أيضاً من أمثال هؤلاء، فالجملة الأولى إشارةٌ إلى عذابهم الدنيوي، والثانية إلى عقابهم الأُخْرَوي، وفي كلتا الجملتَين من تسليته ﷺ ما لا يخفى، مع تضمُّن الأُولى الإشارةَ إلى وَجْه إهلاكِ أولئك بأنَّه أمرٌ اقتضَته الحكمةُ.

وفي «التفسير الكبير»[(٢)] في وَجْه النظم: أنَّه تعالى لمَّا ذَكَر إهلاكَ الكفار فكأنَّه قيل: كيف يَليقُ ذلك بالرحيم؟ فأجاب سبحانه بأنَّه إنَّما خلقتُ الخلقَ ليكونوا مُشتغلين بالعبادة والطاعة، فإذا تركوها وأعرضُوا عنها وجَبَ في الحكمة إهلاكُهم وتطهيرُ الأرض منهم.

وتعقَّبه المفسِّرُ بأنَّه إنَّما يستقيمُ على قول المعتزلةِ، ثم ذَكر وجهاً آخرَ لذلك، وهو أنَّ المقصودَ من هذه القصةِ تصبيرُ النبيِّ ﷺ على سفاهة قومِهِ، فإنَّه عليه الصلاة والسلام إذا سمع أنَّ الأمم السالفةَ كانوا يعاملون أنبياءهم عليهم السلام بمثل هذه المعاملاتِ الفاسدةِ هانَ عليه عليه الصلاة والسلام تحمُّل سفاهةِ قومه.

ثم إنَّه تعالى لمَّا بيَّن إنزالَ العذابِ على الأمم السالفةِ المكذِّبة قال له ﷺ: «إنَّ الساعةَ لآتيةٌ» وإنَّ الله تعالى ينتقمُ لك فيها من أعدائك ويُجازيك وإيَّاهم على حسناتك وسيآتهم، فإنَّه سبحانه ما خَلَق السماوات والأرضَ وما بينهما إلا بالعدل والإنصاف، فكيف يليقُ بحكمته إهمالُ أمركَ.

وإلى جواز تفسير «الحق» بالعدل ذهب شيخُ الإسلام[(٣)]، وأشار إلى أنَّ الباءَ

---

(١) إرشاد العقل السليم (تفسير أبي السعود) ٥/ ٨٨.

(٢) مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) ١٩/ ٢٠٥-٢٠٦.

(٣) هو أبو السعود، ينظر تفسيره ٥/ ٨٨.

للسببيَّة، وأنَّ المعنى: ما خلقنا ذلك إلا بسبب العدلِ والإنصاف يوم الجزاء على الأعمال، وذَكر أنَّه يُنبئُ عن ذلك الجملةُ الثانية؛ ولعلَّ جَعْلَ كلِّ جملةٍ إشارة إلى شيءٍ، حسبما أشرنا إليه أَوْلَى.

واستدلَّ بالأُولى بعضُ الأشاعرةِ على أنَّ أفعالَ العباد مطلقاً مخلوقةٌ له تعالى لدخولها فيما بينهما، وزعَمَ بعضُ المعتزلة الردّ بها على القائلين بذلك؛ لأنَّ المعاصي من الأفعال الباطلة[1]، فإذا كانت مخلوقةً له سبحانه لكانت مخلوقةً بالحق، والباطلُ لا يكونُ مخلوقاً بالحقِّ، وهو كلامٌ خالٍ عن التحقيق.

﴿فَٱصْفَحِ﴾ أي: أعرِض عن الكفرة المكذِّبين ﴿ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾ وهو ما خلا عن عِتاب، على ما رَوَى غيرُ واحدٍ عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه وابن عباس رضي الله عنهما. وفسَّر الراغبُ «الصفح» نفسَه بتَرْك التثريب، وذَكَر أنَّه أبلغُ من العفو[2].

وفي أمره ﷺ بذلك إشارةٌ إلى أنَّه عليه الصلاة والسلام قادرٌ على الانتقام منهم، فكأنَّه قيل: أعرِضْ عنهم وتحمَّل أذيَّتهم ولا تَعجَل بالانتقام منهم وعاملهم معاملةَ الصفوحِ الحليمِ، وحاصلُ ذلك أمره ﷺ بمخالفتهم بخُلُقٍ رضيٍّ وحِلم وتأنٍّ بأنْ يُنذرَهم ويَدعوهم إلى الله تعالى قبل القتال ثم يُقاتلهم، وعلى هذا فالآيَةُ غيرُ منسوخةٍ وعن ابن عباس وقتادة ومجاهد والضحاك أنَّها منسوخةٌ بآية السيف، وكأنَّهم ذهبوا إلى أنَّ المرادَ بها مداراتُهم وتَرْكُ قتالهم.

وآثر هذا الأخيرَ العلامةُ الطيبيُّ، قال: ليكونَ خاتمةُ القصص جامعةً للتسلِّي والأمر بالمداراة، وتخلُّصاً إلى مشرعٍ آخر وهو قوله تعالى الآتي: ﴿وَلَقَدْ﴾ إلى آخره، ففيه حديثُ الإعراض عن زهرةِ الحياة الدنيا، وهو من أعظم أنواع الصبر[3]، لكن ذَكَر في «الكشف» أنَّ الذي يقتضيه النظمُ أنَّ قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إلى آخره، جَمْعٌ بين حاشيتَي مُفصَّل الآيات البرهانية والامتنانية، ملخَّصٌ منها مع زيادة

(١) في (م): باطلة.
(٢) مفردات الراغب (صفح).
(٣) في (م): الضر.

مبالغة من الحصر ليُلقيه المحتجُّ به إلى المعاندين، ويتسلَّى به عن استهزاء الجاحدين، وتمهيدٌ لتطرية ذِكر المقصود من كون الذكر كاملاً في شأن الهداية، وافياً بكلِّ ما عُلِّق به من الغرض القائم له بحقِّ الرعاية، ثم قال: ومنه يظهرُ أنَّ الآية عطفٌ على «وما خلقنا» إلخ عطفَ الخاصِّ على العامِّ إشارة إلى أنَّه أتمُّ النعم وأحقُّ دليلٍ وأحقُّ ما يُتشفَّى به عن الغليل، وأنَّ مَن أُوتيَه لا يضرُّه فَقْدُ شيء سواه، ومَن طَلب الهوى في غيره تُرِكَ وهواه. اهـ. فتدبَّر.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي يُبلِّغك إلى غاية الكمال ﴿هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ لك ولهم ولسائر الأشياء على الإطلاق ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾ بأحوالك وأحوالهم وبكلِّ شيءٍ، فلا يخفَى عليه جلَّ شأنُه شيءٌ ممَّا جرَى بينك وبينهم، فحقيقٌ أنْ تَكِلَ الأمورَ إليه ليحكمَ بينكم، أو هو الذي خلقكم وعلم تفاصيلَ أحوالكم، وقد علم سبحانه أنَّ الصفحَ الجميل اليومَ أصلحُ إلى أنْ يكونَ السيفُ أصلحَ، فهو تعليلٌ للأمر بالصفح على التقديرَين على ما قيل.

وقال بعض المدقِّقين: إنَّه على الأخير تذييلٌ للأمر المذكور، وعلى الأول لقوله سبحانه: (إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ).

وقرأ زيدُ بن عليٍّ رضي الله عنهما والجحدري والأعمش ومالك بن دينار: «هو الخالق» وكذا في مصحف أُبيٍّ وعثمان رضي الله عنهما[1]، وهو صالحٌ للقليل والكثير. و«الخلَّاق» مختصٌّ بالكثير و«العليم» أوفقُ به، وهو على ما قيل أنسبُ بما تقدَّم من قوله سبحانه: (وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ).

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا﴾ أي: سبعَ آيات، وهي الفاتحة، ورُوي ذلك عن عمر وعلي وابن عباس وابن مسعود وأبي جعفر وأبي عبد الله والحسن ومجاهد وأبي العالية والضحاك وابن جبير وقتادة رضي الله عنهم، وجاء ذلك مرفوعاً أيضاً إلى رسول الله ﷺ من حديث أُبيٍّ وأبي هريرة رضي الله عنهما[2].

---

(١) القراءات الشاذة ص ٧١، والمحتسب ٢/ ٦، والبحر المحيط ٥/ ٤٦٥.

(٢) حديث أبيٍّ رضي الله عنه أخرجه الترمذي (٣١٢٥)، وعبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (٢١٠٩٤).

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه ينظر تخريجه في التعليق التالي.

وقيل: سبع سُوَرٍ، وهي الطُّوَل، ورُوي ذلك أيضاً عن عمر وابن عباس وابن مسعود وابن جبير ومجاهد، وهي في روايةٍ: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف، والأنفال وبراءة سورةٌ واحدة، وفي أخرى عدَّ براءةَ دون الأنفال السابعة، وفي أخرى عدَّ يونس دونهما، وفي أخرى عدَّ الكهف.

وقيل: السبع آل «حمٓ»، وقيل: سبع صحفٍ من الصُّحُف النازلة على الأنبياء عليهم السلام، على معنى أنَّه عليه الصلاة والسلام أُوتي ما يتضمَّنُ سبعاً منها وإنْ لم يكن بلفظها، وهي الأسباع، وعن زياد بن أبي مريم: هي أمورٌ سبْعٌ: الأمرُ والنهي والبشارة والإنذار وضربُ الأمثال وتعداد النعم وأخبار الأمم.

وأصحُّ الأقوال الأول، وقد أخرجه البخاريُّ وأبو داود والترمذيُّ ورفعوه(١).

وقال أبو حيَّان(٢): إنَّه لا ينبغي العدولُ عنه، بل لا يجوزُ ذلك وأوردَ على القول بأنَّها السبع الطُّوَل أنَّ هذه السورةَ مكيَّةٌ وتلك السبع مدنيَّةٌ، ورُوي هذا عن الربيع، فقد أخرج البيهقي في «الشعب» وابن جرير وغيرهما أنَّه قيل له: إنَّهم يقولون: هي السبع الطُّوَل. فقال: لقد أُنزلَت هذه الآيةُ وما نزل من الطُّوَل شيءٌ(٣).

وأُجيبَ بأنَّ المرادَ بإيتائها إنزالُها إلى السماء الدنيا، ولا فرقَ بين المدني والمكي فيها.

واعترض بأنَّ ظاهر «آتيناك» يأباه، وقيل: إنَّه تنزيلٌ للمتوقَّع منزلةَ الواقع في الامتنان، ومثله كثير.

﴿مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ بيانٌ للسبع وهو ـ على ما قال في موضع من «الكشاف» ـ جمعُ مَثْنَى بمعنى مُردَّد ومكرَّر، ويجوزُ أنْ يكونَ مُثَنًّى مُفَعَّل من التثنية بمعنى التكرير والإعادةِ، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٤] أي: كرَّةً بعد كرَّة،

(١) صحيح البخاري (٤٧٠٤)، وسنن أبي داود (١٤٥٧)، وسنن الترمذي (٣١٢٤)، وهو في مسند أحمد (٩٧٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٦٥.
(٣) شعب الإيمان (٢٤٢٠)، والطبري ١٤/ ١١٦.

ونحو قولهم: لبَّيك وسعدَيْكَ[(١)]. وأراد كما في «الكشف»: أنَّه جمع لمعنى التكرير والإعادة كما ثُنِّي لذلك، لكنَّ استعمالَ المُثَنَّى في هذا المعنى أكثرُ؛ لأنَّه أولُ مراتبِ التكرار، ويحتملُ أنْ يريد أنَّ مَثْنَى بمعنى التكرير والإعادة كما أنَّ صريحَ المُثَنَّى كذلك في نحو «كرَّتين» ثم جُمِعَ مبالغةً، وقوله من التثنية إيضاحٌ للمعنى؛ لأنَّه من الثَّنْي بمعنى التثنية، والأولُ أرجحُ؛ نظراً إلى ظاهر اللفظ، والثاني نظراً إلى الأصل.

وقال في موضعٍ آخَر: إنَّه من التثنية أو الثناء، والواحدةُ: مثناة، أو مَثنية[(٢)]، بفتح الميم على ما في أكثر النسخ، والأقيسُ ـ على ما قال المدقق بحسب اللَّفظ ـ أنَّ ذلك مشتقٌّ من الثناء أو الثَّني، جمع مَثْنى مَفْعل منهما، إما بمعنى المصدَر جُمِع لمَّا صُيِّر صفةً، أو بمعنى المكان في الأصل نُقِلَ إلى الوصف مبالغةً نحو: أرض مَأسَدَة؛ لأنَّ محلَّ الثناء يقعُ على سبيل المجازِ على الثاني والمُثْنَى عليه، وكذلك محلُّ الثَّني، ولا بُعْدَ في باب العَدْل أنْ يكونَ منقولاً عنه لا مخترعاً ابتداءً.

وإطلاقُ ذلك على الفاتحة؛ لأنَّها تكرَّر قراءتُها في الصلاة، ورُوي هذا عن الحسن وأبي عبد الله رحمهما الله تعالى. وعن الزجَّاج لأنَّها تُثنَّى بما يُقرأُ بعدها من القرآن[(٣)]، وقيل ـ ونُسِبَ إلى الحسن أيضاً ـ: لأنَّها نَزلَت مرَّتين مرَّةً بمكَّة ومرَّةً بالمدينة.

وتعقِّبَ بأنَّها كانت مسمَّاةً بهذا الاسم قبل نزولها الثاني، إذ السورةُ كما سمعْتَ غيرَ مرَّةٍ مكِّيةٌ.

وقيل: لأنَّ كثيراً من ألفاظها مكرَّرٌ كالرحمن، والرحيم، وإياك، والصراط، وعليهم.

وقيل: لاشتمالها على الثناء على الله تعالى، والقولان كما ترى.

وقيل ـ ونُسِب إلى ابن عباس ومجاهد ـ: إنَّ إطلاقَ المثاني على الفاتحة؛

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٩٥بنحوه.
(٢) الكشاف ٢/ ٣٩٧بنحوه.
(٣) معاني القرآن ٣/ ١٨٥.

لأنَّ الله سبحانه استثناها وادَّخَرَها لهذه الأمةِ، فلم يُعطِها لغيرهم، ورُوي هذا الادِّخارُ في غيرها أيضاً، وفي غيرها أنَّ ذلك؛ لأنَّه تُكرَّر قراءتُه وألفاظُه، أو قِصَصُه ومواعظهُ، أو لِمَا فيه من الثناء عليه تعالى بما هو أهلُه جلَّ شأنه، أو لأنَّه مُثنى عليه بالبلاغة والإعجاز، أو يُثْنَى بذلك على المتكلِّم به، وعن أبي زيد البلخي أنَّ إطلاقَ المثاني على ذلك؛ لأنَّه يُثْني أهلَ الشرِّ عن شرِّهم، فتأمَّل.

وجوِّز أنْ يُراد بالمثاني القرآنُ كلُّه، وأخرج ذلك ابنُ المنذر وغيرُه عن أبي مالك[1]، وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلامُ في توجيه إطلاقها عليه مع الاختلاف في الإفراد والجمع[2].

وأنْ يُرادَ بها كُتُب الله تعالى كلُّها، فـ «مِن» للتبعيض، وعلى الأوَّل للبيان ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ بالنصب عطفٌ على «سبعاً».

فإنْ أُريدَ بها الآياتُ أو السُّورُ أو الأُمورُ السبعُ التي رُوِيَت عن زياد، فهو مِن عطف الكلِّ على الجزء بأنْ يُرادَ بالقرآن مجموعُ ما بين الدَّفتَين، أو من عطف العامِّ على الخاصِّ بأنْ يُرادَ به المعنى المشتركُ بين الكلِّ والبعض، وفيه دلالة على امتياز الخاصِّ حتى كأنَّه غيرُه، كما في عكسه.

وإنْ أُريدَ بها الأسباع فهو من عطف أحدِ الوصفَين على الآخر كما في قوله:

إلى الملكِ القَرمِ وابنِ الهمامِ[3]

البيت، بناءً على أنَّ القرآنَ في نفسه الأسباعُ، أي: ولقد آتيناك ما يقال له: السبعُ المثاني والقرآن العظيم.

واختار بعضُهم تفسيرَ «القرآن العظيم» كـ «السبع المثاني» بالفاتحة لِمَا أخرجَه البخاري عن أبي سعيد بن المُعَلَّى قال: قال رسول الله ﷺ: «الحمدُ لله ربِّ العالمين، هي السَّبعُ المثاني والقرآنُ العظيمُ الذي أوتيتُه»[4].

---

(١) عزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٠٥، وأخرجه الطبري ١٤/ ١٢٠.
(٢) في سورة الزمر، عند قوله تعالى: ﴿مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الآية: ٢٣].
(٣) عجزه: وليث الكتيبة في المزدَحَم، وسلف ٢/ ٣٥٠.
(٤) صحيح البخاري (٤٤٧٤)، وهو في مسند أحمد (١٥٧٣٠).

وفي «الكشف»: كونُها[١] الفاتحةَ أوفقُ لمقتضَى المقام لِمَا مرَّ في تخصيص «الكتاب وقرآن مبين» بالسورة، وأشدُّ طباقاً للواقع، فلم يكن إذ ذاك قد أُوتي ﷺ القرآن كلَّه. اهـ.

وأمر العطف معلومٌ مما قبله. وقرأت فرقةٌ: «والقرآنِ» بالجرِّ[٢]، عطفاً على «المثاني»، وأبعدَ مَن ذهَبَ إلى أنَّ الواو مُقحمةٌ والتقدير: سبعاً من المثاني القرآنِ العظيمِ.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ لا تطمح بنظرك طموحَ راغبٍ، ولا تُدِم نظرك ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾ من زخارفِ الدنيا وزينتها ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أصنافاً من الكفرة اليهود والنصارى والمشركين، وقيل: رجالاً مع نسائهم، والنَّهيُ قيل: له ﷺ وهو لا يقتضي الملابسةَ ولا المقاربةَ، وقيل: هو لأُمَّته وإن كان الخطابُ له عليه الصلاة والسلام، وأُيِّد بما أخرجه ابنُ جرير وغيرُه عن ابن عباس ﵄ أنَّه قال في الآية: نُهِيَ الرجلُ أنْ يَتمنَّى مالَ صاحبه[٣].

نعم كان ﷺ بعدَ نزول الآية شديدَ الاحتياط فيما تضمَّنته، فقد أخرج أبو عبيد وابن المنذر عن يحيى بن أبي كثير أنَّه عليه الصلاة والسلام مرَّ بإبلٍ لحيٍّ يقال لهم: بنو المُلَوَّح، أو بنو المصطلق، قد عَبَسَت في أبوالها وأبْعارها مِن السِّمن، فَتَقنَّع بثوبه ومرَّ ولم ينظر إليها؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ الآية[٤]، ويُعدُّ نحو هذا الفعلِ من باب سدِّ الذرائع.

ومنهم مَن أيَّدَ الأوَّل بهذا وبدلالة ظاهر السياق عليه، وحاصلُها مع ما قبل: قد أُوتيتَ النعمةَ العظمَى، التي كلُّ نعمةٍ وإنْ عظُمَت فهي بالنسبة إليها حقيرةٌ، فعليك أنْ تستغنيَ بذلك ولا ترغبَ في متاع الدنيا، وجُعِلَ من ذلك قولُه عليه الصلاة

---

(١) في (م): كونهما.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٣، والبحر المحيط ٥/ ٤٦٦ والكلام منه.

(٣) تفسير الطبري ١٤/ ١٢٨.

(٤) فضائل القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام ص ٥٤، وعزاه لابن المنذر السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ١٠٥-١٠٦، وفي الأصل و(م): عَنَسَت، بدل: عَبَسَت، والعَبَسُ: ما تعلق بأذناب الإبل من أبوالها وأبعارها يجفُّ عليها. ينظر القاموس (عبس).

والسلام: «ليس منَّا مَن لم يتغنَّ بالقرآن»[١] بناءً على أنَّ «يَتَغنَّ» من الغِنَى المقصور كيَستغني، وليس مقصوراً على الممدود، ويشهدُ لذلك ما في الحديث الصحيح في الخيل: «وأما التي هي له سِترٌ فرَجُلٌ رَبَطَها تغنِّياً وتعفُّفاً»[٢] وعن أبي بكر ﷺ: مَن أُوتي القرآن فرأى أنَّ أحداً أُوتيَ من الدنيا أفضل مما أُوتي، فقد صغَّر عظيماً وعظَّم صغيراً[٣]. وقد أخرج ابنُ المنذر عن سفيان بن عُيينة ما هو بمعناه[٤]، وقال العراقي: إنَّ الخبر مرويٌّ ولكنْ لم أقف على روايته عن أبي بكر ﷺ في شيءٍ من كُتُب الحديث[٥].

وحكى بعضُهم في سبب نزولِ الآية أنَّه وافَت من بُصرى وأذرعات سبعُ قوافلَ لقُريظةَ والنضير في يومٍ واحدٍ، فيها أنواعٌ من البُرِّ والطِّيْب والجواهر، فقال المسلمون: لو كانت لنا لتقوَّينا بها، ولأنفقناها في سبيل الله تعالى، فنزلت[٦]. فكأنَّه سبحانه يقول: قد أعطيتُكم سبعاً هي خيرٌ من سبعِ قوافل، وروي هذا عن الحسن بن الفضل.

وتُعقِّب بأنَّه ضعيفٌ، أو لا يصحّ؛ لأنَّ السورةَ مكيةٌ، وقريظة والنضير كانوا بالمدينة فكيف يصحُّ أنْ يُقالَ ذلك؟ وهو كما ترى. نعم رُوي أنَّه ﷺ وافَى بأذرعات سبعَ قوافلَ ليهود بني قريظة والنضير فيها... إلخ، وهو غيرُ معروفٍ، وقد قالوا: إنَّه لم يُعهَد سفرُه ﷺ للشام.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٢٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٢٣٧١)، ومسلم (٩٨٧)، وهو عند أحمد (٧٥٦٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) ذكره الزمخشري في الكشاف ٢/ ٣٩٨. قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص٩٣-٩٤: لم أجده عن أبي بكر.
وأخرج نحوه ابن المبارك في الزهد (٧٩٩)، والطبراني كما في مجمع الزوائد ٧/ ١٥٩، والخطيب في تاريخ بغداد ٩/ ٣٩٦ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وفيه: إسماعيل بن رافع الأنصاري، قال الهيثمي: متروك.

(٤) عزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٠٦، وذكره أبو عبيد في فضائل القرآن ص٥٣، والطبري ١٤/ ١٢٧.

(٥) تخريج أحاديث إحياء علوم الدين ١/ ٢٧٣، ونقله عنه بواسطة حاشية الشهاب ٥/ ٣٠٦.

(٦) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص ٢٨٢.

واستُؤنس بخبر النزولِ على أنَّ النَّهي معنيٌّ به سيِّدُ المخاطبين عليه الصلاة والسلام كالنَّهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ حيث إنَّهم لم يؤمنوا، وكان ﷺ يودُّ أنْ يُؤمنَ كلُّ مَن بُعِثَ إليه، ويَشقُّ عليه عليه الصلاة والسلام لمزيد شَفَقته بقاءُ الكفرة على كفرهم، ولذلك قيل له: «ولا تَحزَن عليهم» وكأنَّ مرجعَ الجملةِ الأُولَى إلى النَّهي عن الالتفات إلى أموالهم، ومرجعَ هذه الجملة إلى النَّهي عن الالتفات إليهم، وليس المعنى: لا تحزن عليهم حيث إنَّهم المتمتِّعون بذلك، فإنَّ التمتُّع به لا يكون مداراً للحزن عليهم، وكونُ المعنى: لا تحزن على تمتُّعهم بذلك، فالكلامُ على حذف مضافٍ، لا يخفَى ما فيه من ارتكاب خلافِ الظاهر من غير داعٍ إليه.

﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ كناية عن التواضع لهم والرِّفق بهم، وأصلُ ذلك أنَّ الطائرَ إذا أرادَ أنْ يَضُمَّ فَرْخه إليه بَسَط جناحَيه له، والجناحان من ابن آدم جانباه.

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾ أي: المُنذِرُ الكاشِفُ نزول عذابِ الله تعالى ونِقَمِه المخوفةِ بمَن لم يُؤمن.

﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ قيل: إنَّه متعلِّقٌ بقوله تعالى: (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ) إلخ على أنْ يكونَ في موضع نصبٍ نعتاً لمصدر من «آتينا» محذوفٍ، أي: آتيناك سبعاً من المثاني إيتاءً كما أنزلنا، وهو في معنى: أنزلْنا عليك ذلك إنزالاً كإنزالنا على أهل الكتاب.

﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ أي: قسموه إلى حقٍّ وباطلٍ، حيث قالوا عناداً وعداوةً: بعضُه حقٌّ موافقٌ للتوراة والإنجيل، وبعضُه باطلٌ مخالفٌ لهما، وتفسيرُ «المقتسمين» المذكورين بأهل الكتاب مما رُوي عن الحسن وغيرِه، وفي «الدر المنثور» أخرج البخاريُّ وسعيد بنُ منصور والحاكم وابنُ مردويه من طُرقٍ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال في الآية: هم أهل الكتاب جَزَّؤوه أجزاءً، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه[1].

---

(١) صحيح البخاري (٤٧٠٥)، والمستدرك ٢/ ٣٥٥، والدر المنثور ٤/ ١٠٦، وأخرجه الطبري ١٤/ ١٢٩.

وجاء ذلك مرفوعاً أيضاً، فقد أخرج الطبرانيُّ في «الأوسط» عن الحبر قال: سألَ رجلٌ رسول الله ﷺ قال: أرأيتَ قولَ الله تعالى: ﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ۝٩٠﴾ قال عليه الصلاة والسلام: «اليهودُ والنصارى». قال: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ۝٩١﴾ ما عِضِين؟ قال ﷺ: «آمنوا ببعضٍ وكفروا ببعض»[1].

أو اقتسَمُوه لأنفسهم استهزاءً به؛ فقد رُوي عن عكرمة أنَّ بعضَهم كان يقول: سورةُ البقرة لي، وبعضُهم: سورةُ آل عمرانَ لي، وهكذا؛ وجوِّز أنْ يُرادَ بـ«المقتسمين» أهلُ الكتاب، ويُراد من القرآن معناه اللغويُّ، أي: المقروء من كُتُبهم، أي: الذين اقتسَمُوا ما قرؤوا من كتبهم وحرَّفوه، وأقرُّوا ببعضٍ وكذَّبوا ببعضٍ، وحُمل توسُّطُ قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ﴾ إلخ بين المتعلِّق والمتعلَّق على إمداد ما هو المرادُ بالكلام من التسلية.

وتُعقِّب القولُ بهذا التعلُّقِ بأنَّه جلَّ هذا المقامُ عن التشبيه، فلقد أُوتي ﷺ ما لم يُؤتَ أحدٌ قبلَه ولا بعدَه مثلَه، وفي حَمْل القرآن على المعنى اللغويِّ ما فيه.

وقيل: هو متعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ۝٨٩﴾ لأنَّه في قوَّة الأمر بالإنذار كأنَّه قيل: أَنذِرْ قريشاً مثلَ ما أنزلنا من العذاب على المقتسمين، يعني: اليهود، وهو ما جَرَى على قريظة والنضير، بأنْ جعل المتوقَّع كالواقع، وقد وَقَع كذلك.

وتُعقِّب بأنَّ المشبَّه به العذابُ المنذَرُ ينبغي أنْ يكونَ معلوماً حالَ النزول، وهذا ليس كذلك فيلغو التشبيه، وتنزيلُ المتوقَّع منزلة الواقع له موقعٌ جليلٌ من الإعجاز، لكن إذا صادفَ مقاماً يقتضيه كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾ [الفتح: ١] ونظائرِه، على أنَّ تخصيصَ الاقتسام باليهود بمجرَّد اختصاصِ العذابِ المذكورِ بهم مع شِرْكَتهم للنصارى في الاقتسام المتفرِّع على الموافقةِ والمخالفة.

وفي الاقتسام بمعنى التحريفِ الشاملِ للكتابَين، بل تخصيص العذابِ المذكورِ بهم مع كونه من نتائج الاقتسامِ تخصيصٌ من غير مخصِّص.

---

(١) المعجم الأوسط (٦٢٠٤)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/٤٦: فيه حبيب بن حسان، وهو ضعيف.

وجوِّز أنْ يُراد بـ «المقتسمين» جماعةٌ من قريش وهي اثنا عشر، وقال ابنُ السائب: ستَّة عشَرَ رجلاً: حنظلةُ بنُ أبي سفيان، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بنُ المغيرة، وأبو جهل، والعاص بن هشام، وأبو قيس بنُ الوليد، وقيس بنُ الفاكه، وزهير بن أمية، وهلال عبد الأسود، والسائب بن صيفي، والنضر بن الحارث، وأبو البختري ابن هشام، وزَمعة بنُ الحجاج، وأميَّة بنُ خَلَف، وأوس بنُ المغيرة، أرسلَهم الوليدُ بنُ المغيرة أيامَ الموسم لِيقِفُوا على مداخل طُرُقِ مكة لِيُنفِّرُوا الناسَ عن الإيمان برسول الله ﷺ، فانقسَمُوا على هاتيكَ المداخل يقولُ بعضُهم: لا تغترُّوا بالخارج فإنَّه ساحرٌ، ويقول الآخر: كذَّابٌ، والآخرُ: شاعرٌ، إلى غير ذلك من هَذَيانهم، فأهلكهم الله تعالى يومَ بدر وقبلَه بآفات، ويُجعَلُ «الذين» منصوباً بـ «النذير» على أنَّه مفعولُه الأول، و«كما» مفعوله الثاني، أي: أُنذرُ المُعْضِين الذين يُجزِّؤون القرآن إلى سِحْرٍ وشِعْرٍ وأساطيرَ مثل ما أنزلنا على المقتسمين الذين اقتسَمُوا مداخلَ مكة وهَذَوا مثل هَذَيانهم.

وتُعقِّب بأنَّ فيه مع ما فيه من المشاركة لِمَا سَبَق في عدم كونِ العذاب الذي شُبِّه به العذابُ المنذَرُ واقعاً ومعلوماً للمنذَرين، أنَّه لا داعيَ إلى تخصيص وصْفِ التعْضِيَة بهم وإخراجِ المقتسمين من بينهم مع كونهم أسوةً لهم في ذلك، فإنَّ وصْفَهم لرسول الله ﷺ بما وَصَفُوا به من السحر والشعر والكذب متفرّعٌ على وَصْفهم للقرآن بذلك، وهل هو إلا نفسُ التعضيةِ، ولا إلى إخراجهم من حكم الإنذار، على أنَّ ما نَزَل بهم من العذاب لم يكن من الشدَّة بحيث يُشبَّهُ به عذابُ غيرِهم، ولا مخصوصاً بهم، بل هو عامٌّ لكلا الفريقَين وغيرهم، مع أنَّ بعضَ مَن عُدَّ مِن المنذَرين على قولٍ كالوليد بنِ المغيرة والأسود وغيرِهما قد هَلَكُوا قبل مَهلك أكثرِ المقتسمين يومَ بدر، ولا إلى تقديمِ المفعول الثاني على الأول كما ترى.

وقيل: إنَّه صفةٌ لمفعولِ «النذير» أُقيمَ مقامَه بعدَ حذفِهِ، والمقتسمون هم القاعدون في مداخل الطُّرق كما حُرِّر، أي: النذير عذاباً مثلَ العذاب الذي أنزلناه على المقتسمين.

وتُعقِّب أيضاً بأنَّ فيه مع ما مرَّ أنَّه يقتضي أنْ يكونَ «كما أنزلنا» من مقول الرسول ﷺ، وهو لا يصلُحُ لذلك.

واعتُذِرَ له بأنَّه كما يقول بعضُ خواصِّ الملك: أَمَرْنا بكذا، والآمرُ الملك كما تقدَّم غيرَ بعيدٍ، أو حكايةً لقول الله تعالى، وفيه من التعسُّف ما لا يخفى، وأيضاً فيه إعمالُ الوصف الموصوف في المفعول، وهو مما لا يجوز.

وأجيب بأنَّ الكوفيةَ تجوِّزُه، والقائلُ بَنَى الكلامَ على ذلك، أو أنَّ المرادَ بالمفعول المفعولُ الغيرُ الصريح، وتقديره: بعذاب، وهو لا يمنعُ الوصفَ من العمل فيه.

وقيل: المرادُ بـ «المقتسمين» على تقدير الوصفيَّة الرهطُ الذين تقاسَمُوا على أنَّ يُبيِّتُوا صالحاً عليه السلام فأهلَكَهم الله تعالى، والاقتسام بمعنى التقاسم، ولا إشكالَ في التشبيه؛ لأنَّ عذابهم أمرٌ محقَّقٌ نطَقَ به القرآن العظيمُ فيصحُّ أنْ يقَعَ مشبَّهاً به للعذاب المنذَرِ، والموصول إما مفعولٌ أوَّل للنذير، أو لِمَا دلَّ هو عليه من «أنذر».

وتُعقِّب أيضاً بأنَّ فيه بعد إغماضِ العين عمَّا في المفعوليَّة من الخلاف أو الخفاء أنَّه لا يكونُ للتعرُّض لعنوان التعضية في حيِّز الصلة، ولا لعنوان الاقتسام بالمعنى المَزْبورِ في حيِّز المفعولِ الثاني فائدةٌ، لِمَا أنَّ ذلك إنَّما يكونُ للإشعار بعلِّيَّة الصلةِ والصفةِ للحكم الثابتِ للموصول والموصوف، فلا يكونُ هناك وَجْهُ شَبَهٍ يدورُ عليه تشبيهُ عذابهم بعذابهم خاصةً، لعدم اشتراكهم في السبب، فإنَّ المُعضين بمعزلٍ من التقاسم على التبييت الذي هو السببُ لهلاك أولئك، مع أنَّ أولئك بمعزلٍ من التعضية التي هي السبب لهلاك هؤلاء، ولا علاقةَ بين السبَبَين مفهوماً ولا وجوداً تصحِّحُ وقوعَ أحدهما في جانب والآخر في جانب، واتِّفاقُ الفريقَين على مطلَق الاتِّفاق على الشرور المفهومِ من الاتِّفاق على الشرِّ المخصوصِ الذي هو التبييتُ المدلولُ عليه بالتقاسم، غيرُ مفيدٍ، إذ لا دلالةَ لعنوان التعضيةِ على ذلك، وإنما يدلُّ عليه اقتسامُ المداخل.

وجعلُ الموصول مبتدأً على أنَّ خبرَه الجملةُ القَسَمِيَّة لا يليقُ بجزالة التنزيلِ وجلالةِ شأنه الجليل. اهـ. وهذا الجَعلُ مرويٌّ عن ابن زيد، وفي روايةٍ عن ابن عباس رضي الله عنهما أخرجَها البيهقيُّ وأبو نعيم في «الدلائل» ما يقتضيه[1]، ومن هنا قيل

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/١٩٩-٢٠١ من طريق ابن إسحاق، وهو في السير والمغازي ص١٥٠-١٥٢، ولم نقف عليه عند أبي نعيم في مطبوع دلائل النبوة.

بمنعِ عدمِ اللَّياقة، وبعضُ من يُسلِّمها يقول: يجوزُ أنْ يكونَ الموصولُ صفة «المقتسمين» مراداً بهم أولئك الرهطُ، ومعنَى جعلهم القرآنَ عِضين حُكمُهم بأنَّه مفترًى وتكذيبهم به، والمرادُ منه معناه اللغويُّ، فيؤول إلى وَصْفهم بتكذيبهم بكتابهم وإعراضِهم عن الإيمان به والعمل بما فيه.

ويُوافق ما مرَّ من قوله تعالى فيهم وفي قومهم: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾ بناءً على أنَّ المرادَ بالآيات آياتُ الكتاب المُنزَل على نبيِّهم عليه السلام حسبما قيل به فيما سبق، وإنْ أَبيتَ ذلك بناءً على ما سمعتَ هنالك التَزَمنا كونَ الموصولِ مفعولاً، وقلنا: فائدةُ التعرُّضِ للعنوانَين المذكورَين على الوجه المذكور الإشارةُ إلى تَفْظيع أمرِ التكذيب وكونه في سَبَبيَّته للعذاب كالاقتسام على قتل النبيِّ، ويلتزمُ ما يُشعرُ به هذا من أَفظَعيَّة الاقتسام المزبورِ؛ لأنَّه لا يكونُ إلا عن تكذيبٍ ومزيدِ عداوةٍ للنبيِّ، وفيه بحث.

وقيل: المُصحِّحُ لوقوع أحدِ العنوانَين في جانبٍ والآخر في جانب أنَّ التكذيبَ يَنجرُّ بزعم المكذِّبين إلى إبطال أمرِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام وإطفاءِ نورِه، وهو العلَّةُ الغائيَّةُ لذلك، والاقتسام المذكورُ كذلك، وهو كما ترى.

وقال أبو البقاء ـ وليتَهُ لم يقل ـ: إنَّ «كما أنزلنا» متعلِّق بقوله تعالى: ﴿مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ وهو في موضع نصبٍ، نعتاً لمصدرٍ محذوفٍ، أي: متعناهم تمتيعاً كما أنزلنا، والمعنى: نعَّمنا بعضَهم كما عذَّبنا بعضَهم[1].

وذكر ابنُ عطيَّة وغيرُه أنَّه يحتملُ أنْ يكونَ المعنى: قل: إنِّي أنا النذيرُ المبين كما قد أنزلنا في الكتب أنَّك ستأتي نذيراً على المقتسمين، أي: أهل الكتاب[2].

ومرادُهم على ما قيل أنَّ «ما» في «كما» موصولة، والمرادُ من المشابهة المستفادةِ من الكاف الموافَقَةُ، وهي مع ما في حيِّزها في محلِّ النصب على الحاليَّة من مفعول «قل» أي: قل هذا القولَ حالَ كونِهِ كما أنزلنا على أهل الكتابَين، أي:

---

(١) الإملاء ٣/ ٤٣٥-٤٣٦.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٤.

موافقاً لذلك، والأنسبُ على هذا حَمْلُ الاقتسام على التحريف، ليكونَ وصفُهم بذلك تعريضاً بما فعلوا من تحريفهم وكتمانهم لنعت النبيِّ ﷺ.

وأنت تعلم أنَّ فيه بعداً، لكنَّه أَولَى بالنسبة إلى بعض ما تقدَّم، وقريبٌ منه ما قيل: المعنى: ولقد آتيناك سبعاً من المثاني إيتاءً موافقاً للإيتاء الذي أنزلناه على أهل الكتابَين وأخبرناهم به في كتبهم، وفيه ما فيه.

وأما جعلُها زائدةً، والمعنى: أنا النذيرُ المبينُ ما أنزلنا. فحالُه غنيٌّ عن التنبيه عليه.

وقال العلَّامة أبو السعود بعد نقل أقوالٍ عقَّبها بما عقَّبها: والأقربُ من الأقوال المذكورة أنَّ «كما أنزلنا» متعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ﴾ إلخ، وأنَّ المرادَ بـ «المقتسمين» أهلُ الكتابَين، وأنَّ الموصولَ مع صلته صفةٌ مبيِّنةٌ لكيفيَةِ اقتسامهم، ومحلُّ الكاف النصبُ على المصدريَّة، وحديثُ جلالةِ المقام عن التشبيه من لوائح النظر الجليل.

والمعنى: لقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآنَ العظيم إيتاءً مماثلاً لإنزال الكتابَين على أهلهما، وعدمُ التعرُّض لذكر ما أُنزلَ عليهم من الكتابَين؛ لأنَّ الغرَضَ بيانُ المماثلة بين الإيتاءَين لا بينَ متعلَّقيهما، والعدولُ عن تطبيق ما في جانب المشبَّه به على ما في جانب المشبَّه بأنْ يقال: كما آتينا المقتسمين حسبما وَقَع في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ﴾ [البقرة: ١٢١] إلخ للتنبيه على ما بين الإيتاءَين من التنائي، فإنَّ الأوَّل على وجه التكرمةِ والامتنان، فشتَّان بينه وبين الثاني، ولا يقدحُ ذلك في وقوعه مشبَّهاً به، فإنَّ ذلك إنَّما هو لمسلَّميَّتِه عندهم، وتقدُّم وجوده على المشبَّه زماناً لا لمزيَّةٍ تعودُ إلى ذاته، ونظيرُ ذلك ما قيل في الصلوات الإبراهيميَّة، فليس في التشبيه إشعارٌ بأفضليةِ المشبَّه به من المشبَّه، فضلاً عن إيهام ما تعلَّق به الأول مما تعلَّق به الثاني، وإنَّما ذُكروا بعنوان الاقتسام إنكاراً لاتِّصافهم به مع تحقُّق ما يَنفيه من الإنزال المذكور، وإيذاناً بأنَّهم كان من حقِّهم أنْ يُؤمنوا بكلِّه حسب إيمانهم بما أُنزل عليهم؛ بحكم الاشتراكِ في العلَّة والاتِّحادِ في[1]

(١) في الأصل: اتحاد.

الحقيقة التي هي مطلَقُ الوحي، وتوسيطُ قوله تعالى: (لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ) إلخ لكمال اتِّصاله بما هو المقصودُ من بيان حالِ ما أُوتي النبيُّ ﷺ.

ولقد بُيِّن أولاً عُلوُّ شأنه ورِفعةُ مكانِهِ ﷺ بحيث يستوجبُ اغتباطَه عليه الصلاة والسلام بمكانِهِ واستغناءه به عمَّا سواه، ثم نُهِيَ عن الالتفات إلى زهرة الدنيا، وعبَّر سبحانه عن إيتائها لأهلها بالتمتُّع المُنبئ عن وَشْك زوالها عنهم، ثم عن الحُزن؛ لعدم إيمانِ المُنهمكين فيها، وأمرَ بمراعاة المؤمنين والاكتفاء بهم عن غيرهم، وبإظهار قوَامِهِ بمواجب الرسالة ومَرَاسم النِّذارَة حسبما فُصِّل في تضاعيف ما أوتيَ من القرآن العظيم.

ثم رَجَع إلى كيفية إتيانِهِ على وَجْهٍ أَدمجَ فيه ما يزيحُ شُبَهَ المنكرِين ويستنزِلُهم من العناد من بيان مشاركتِهِ لِمَا لا ريبَ لهم في كونه وحياً صادقاً، فتأمَّل والله تعالى عندَه علمُ الكتاب[١]. اهـ وهو كلامٌ ظاهرٌ عليه مخايلُ التحقيق.

وفي «البحر» بعد نقلِ أكثرِ هذه الأقوالِ: وهذه أقوالٌ وتوجيهاتٌ مُكلفة، والذي يظهرُ لي أنَّه تعالى لمَّا أَمَره ﷺ بأنْ لا يحزَنَ على مَن لم يُؤمن، وأَمَره عليه الصلاة والسلام بخفضِ جناحِهِ للمؤمنين، أمرَه ﷺ أنْ يُعلِمَ المؤمنين وغيرَهم أنَّه هو النذيرُ المبين، لئلَّا يَظُنَّ المؤمنون أنَّهم لمَّا أُمِرَ ﷺ بخفض جناحِهِ لهم خَرَجُوا مِن عُهدةِ النِّذارة، فأُمِرَ ﷺ بأنْ يقولَ لهم: (إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ) لكم ولغيركم، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ [النازعات:٤٥] وتكونُ الكافُ نعتاً لمصدر محذوفٍ، والتقدير: وقل قولاً مثلَ ما أنزلنا على المقتسمين إنَّك نذيرٌ لهم، فالقولُ للمؤمنين في النِّذارة كالقول للكفار المقتسمين؛ لئلا يُظَنَّ إنذارُك للكفار مخالفاً لإنذار المؤمنين، بل أنت في وَصْف النِّذارة لهم بمنزلةٍ واحدةٍ تُنذِرُ المؤمنَ كما تنذرُ الكافر، كما قال تعالى: ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٨٨]. اهـ بحروفه[٢]، وهو كما ترى ركيكٌ لفظاً ومعنًى، والله تعالى أعلمُ بمراده، وعنده علم الكتاب.

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٩١.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٦٩.

و«عضين» جمع عِضَة، وأصلُها: عِضَوَة بكسر العين وفتح الضاد بمعنى جزء، فهو معتلُّ اللام من عَضَّاه بالتشديد جعلَه أعضاءً وأجزاءً، فالمعنى: جعلوا القرآن أجزاءً.

وقيل: العِضَهُ في لغة قريش: السِّحرُ، فيقولون للساحر: عاضِهٌ، وللساحرة: عاضِهَةٌ، وفي حديث رواه ابنُ عدي في «الكامل» وأبو يَعلَى في «مسنده»: «لَعَنَ اللهُ العاضِهَةَ والمُستَعْضِهَةَ»[1] وأراد ﷺ الساحرةَ والمستسحرة، أي: المستعملة لسحرِ غيرها، وهو على هذا مأخوذٌ من عَضَهْتُه، فاللام المحذوفة هاء كما في شَفَة وشاة، على القول بأنَّ أصلهما: شَفَهةٌ وشَاهةٌ، بدليل جمعهما على: شِفَاه وشِيَاه، وتصغيرهما على: شُفَيهة وشُوَيهة.

وعن الكِسائي أنَّه مِن عَضَهَه عَضْهاً وعَضِيْهةً رماه بالبهتان، قيل: وأخذُ العِضَه بمعنى السِّحر من هذا؛ لأنَّ البهتانَ لا أصلَ له، والسحر تخييلُ أمرٍ لا حقيقةَ له، وذهب الفرَّاء إلى أنَّه من العضاه وهي شجرةٌ تؤذي كالشَّوك، واختار بعضُهم الأوَّلَ، وجَمْعُ السلامةِ لجَبْر ما حُذِف منه كعِزِين وسِنِين، وإلا فحقُّه أنْ لا يُجمَع جمعَ السلامةِ المذكَّر؛ لكونه غيرَ عاقلٍ ولتغيُّر مفردِه؛ ومثل هذا كثيرٌ مطَّردٌ.

ومِن العرب مَن يُلزِمُهُ الياء، ويجعل الإعرابَ على النون فيقول: عِضِيْنك كسِنِيْنك، وهذه اللغة كثيرةٌ في تميم وأسد.

والتعبير[2] عن تجزئة القرآن بالتعضية، التي هي تفريقُ الأعضاء مِن ذي الروح المستلزمِ لإزالة حياتِهِ وإبطالِ اسمِهِ دون مطلَقِ التجزئة والتفريقِ اللذَين ربما يُوجدان فيما لا يضرُّه التبعيضُ = للتنصيص على قُبح ما فعلوه بالقرآن العظيم.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ أي: لنسألَنَّ يومَ القيامة أصنافَ الكفرةِ مطلقاً المقتسمين وغيرهم سؤالَ تقريعٍ وتوبيخٍ ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ في الدنيا من قولٍ وفعلٍ وتَرْكٍ، فيدخل فيه ما ذُكر من الاقتسام والتعضية دخولاً أوليًّا، أو لنجازينَّهم

---

(١) التراجم الساقطة من الكامل ص١٠٧ من حديث ابن عباس ﷺ. قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص٩٤: في إسناده زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام، وهما ضعيفان، ولم نقف عليه في مطبوع مسند أبي يعلى.

(٢) في الأصل و(م): وفي التعبير. والمثبت من تفسير أبي السعود ٥/ ٩٢.

على ذلك، وعلى التقديرَين لا منافاةَ بين هذه الآيةِ وقولِهِ تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْئَلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] لأنَّ المرادَ هنا حسبما أَشرنا إليه إثباتُ سؤالِ التقريعِ والتوبيخِ، أو المجازاة بناءً على أنَّ السؤالَ مجازٌ عنها، وهناك نَفْيُ سؤال الاستفهام؛ لأنَّه تعالى عالمٌ بجميع أعمالهم، ورُوي هذا عن ابن عباس، وضعَّف هذا الإمامُ بأنَّه لا معنًى لتخصيص نَفي سؤالِ الاستفهام بيوم القيامة؛ لأنَّ ذلك السؤال محالٌ عليه تعالى في كلِّ وقتٍ[1].

وأجيبَ بأنَّه بناءً على زعمهم كقوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٢١] فإنَّه يظهرُ لهم في ذلك اليوم أنَّه سبحانه لا يخفَى عليه شيءٌ، فلا يحتاجُ إلى الاستفهام.

وقيل: المرادُ لا سؤالَ يومئذٍ منه تعالى ولا مِن غيره، بخلاف الدنيا فإنَّه ربما سألَ غيرُه فيها. ورُدَّ بأنَّ قوله: لأنَّه سبحانه عالمٌ بجميع أعمالهم، يأباه.

واختارَ غيرُ واحدٍ في الجمع أنَّ النفي بالنسبة إلى بعض المواقفِ، والإثباتَ بالنسبة إلى بعضٍ آخرَ، وسيأتي تمامُ الكلام في ذلك[2].

واستظهر بعضُهم عودَ الضمير في «لنسألنهم» إلى ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ للقُرْب، وجوَّزَ أنْ يعودَ على الجميع من مؤمنٍ وكافرٍ؛ لتقدُّم ما يُشعر بذلك من قوله سبحانه: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾.

و«ما» للعموم كما هو الظاهر، وأخرج ابنُ جرير وغيرُه عن أبي العالية أنَّه قال في الآية: يُسأل العبادُ كلُّهم يومَ القيامة عن خَلَّتين: عمَّا كانوا يَعبدُون، وعمَّا أجابوا به المرسَلين[3].

وأخرج الترمذيُّ وجماعةٌ عن أَنَسٍ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «يُسألونَ عن قول: لا إله إلا الله»[4] وأخرجه البخاريُّ في تاريخه والترمذيُّ من وجهٍ آخرَ عن أنسٍ موقوفاً[5]،

---

(١) مفاتيح الغيب ١٩/ ٢١٤.

(٢) في سورة الرحمن عند تفسير الآية (٣٩).

(٣) الطبري ١٤/ ١٤١، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٠٦ إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) سنن الترمذي (٣١٢٦)، والتاريخ الكبير ٨/ ٣٣، وأخرجه أيضاً الطبري ١٤/ ١٤٠.

(٥) التاريخ الكبير ٢/ ٨٦، والترمذي (٣١٢٦)، وأخرجه أيضاً الطبري ١٤/ ١٣٩.

وروي أيضاً عن ابن عمرَ ومجاهد، والمعنى على ما في «البحر»: يسألون عن الوفاء بلا إله إلا الله والتصديقِ لمقالها بالأعمال[١].

والفاء قيل: لترتيب الوعيدِ على أعمالهم التي ذُكر بعضُها، وقيل: لتعليل النَّهي والأمرِ فيما سبق، وزعْمُ أنَّها الفاء الداخلة على خبر الموصول كما في قولك: الذي يأتيني فلَهُ درهمٌ، مبنيٌّ على أنَّ «الذين» مبتدأٌ، وقد علمتَ حالَ ذلك، وفي التعرُّض لوصفِ الربوبيَّة مضافاً إلى ضميره عليه الصلاة والسلام ما لا يخفَى من إظهار اللطف به ﷺ.

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ قال الكلبي: أي: أَظْهِرْه واجهَرْ به، يقال: صَدَع بالحجَّةِ: إذا تكلَّمَ بها جهاراً، ومِن ذلك قيل للفجر: صديع؛ لظهوره.

وجوِّز أنْ يكونَ أمراً من صَدع الزُّجَاجة، وهو تفريقُ أجزائها، أي: افرُق بين الحقِّ والباطل، وأصلُه على ما قيل الإبانة والتمييزُ، والباء على الأول صلةٌ، وعلى الثاني سببيَّةٌ.

و«ما» جوِّزَ أنْ تكونَ موصولةً، والعائدُ محذوفٌ، أي: بالذي تُؤمرُ به، فحُذِفَ الجارّ، فتعدَّى الفعل إلى الضمير فصار تُؤْمَره، ثم حُذف، ولعلَّ القائلَ بذلك لم يعتبر حذفَهُ مجروراً لفقد شرطِ حذفه بناءً على أنَّه يُشترَط في حذف العائدِ المجرور أنْ يكونَ مجروراً بمثل ما جُرَّ به الموصول لفظاً ومعنًى ومتعلَّقاً.

وقيل: التقديرُ: فاصدَع بما تُؤمَرُ بالصَّدع بهِ فحُذِفَت الباء الثانية ثم الثالثة ثم لام التعريف ثم المضاف ثم الهاء، وهو تكلُّفٌ لا داعيَ له، ويكاد يُورثُ الصُّداع.

والمرادُ بما يؤمرُ به الشرائعُ مطلقاً، وقول مجاهد كما أخرجَه عنه ابنُ أبي حاتم: إنَّ المعنى: اجهَرْ بالقرآن في الصلاة[٢]. يقتضي بظاهره التخصيصَ، ولا داعيَ له أيضاً كما لا يخفى. وأَظهرُ منه في ذلك ما روي عن ابن زيد أنَّ المرادَ بـ «ما تُؤمرُ» القرآن الذي أُوحي إليه ﷺ أنْ يُبلِّغَهم إياه. وأنْ تكون مصدريةً، أي: فاصْدَع بمأموريَّتك، وهو الذي عناه الزمخشريُّ بقوله: أي: بأمرك، مصدر من

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٦٩.

(٢) عزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٠٦، وأخرجه الطبري ١٤/ ١٤٣.

المبنيِّ للمفعول[١]، وتعقبه أبو حيان بأنه مبني على مذهب من يجوز أن يراد بالمصدر «أن» والفعل المبني للمفعول والصحيحُ أنَّ ذلك لا يجوزُ[٢].

وردَّ بأنَّ الاختلافَ في المصدر الصريحِ هل يجوزُ انحلالُه إلى حرفٍ مصدريٍّ وفِعْلٍ مجهول، أم لا؟ أمَّا أنَّ الفعل المجهول هل يُوصَلُ به حرفٌ مصدريٌّ فليس محلَّ النزاع، فإنْ كان اعتراضُه على الزمخشريِّ في تفسيره بالأمر، وأنَّه كان ينبغي أنْ يقولَ بالمأمورية، فشيءٌ آخر سهلٌ، ثم لا يخفَى ما في الآية من الجزالة.

وقال أبو عبيدة عن رؤبة: ما في القرآن أجزل[٣] منها، ويُحكَى أنَّ بعضَ العربِ سمِعَ قارئاً يَقْرَؤها فسجَدَ، فقيل له في ذلك فقال: سجدتُ لبلاغةِ هذا الكلامِ، ولم يزل ﷺ مستخفياً ـ كما روي عن عبد الله بن مسعود ـ قبل نزولها[٤]، فلمَّا نزلَت خرج هو وأصحابُه عليه الصلاة والسلام[٥].

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ أي: لا تلتفِتْ إلى ما يقولون ولا تُبالِ بهم، فليسَت الآيةُ منسوخةً، وقيل: هي من آيات المهادنة التي نسخَتها آيةُ السيف، وأخرج ذلك ابنُ أبي حاتم وأبو داود في ناسخه عن ابن عباس رضي الله عنهما[٦].

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾﴾ بك، أو بك وبالقرآن، كما رُوي عن ابن عباس؛ بقَمْعهم وتدميرهم. وأخرج الطبراني في «الأوسط»، والبيهقي وأبو نعيم كلاهما في «الدلائل»، وابن مردويه بسندٍ حسن[٧] قال: المستهزؤون: الوليد بن المغيرة،

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٩٩.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٧٠.
(٣) قوله: أجزل، ساقط من (م).
(٤) في (م): نزول ذلك.
(٥) ذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية، والسيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٠٦، وعزاه للطبري، وهو عنده ١٤/ ١٤٣ عن عبد الله بن عبيدة.
(٦) الدر المنثور ٤/ ١٠٦.
(٧) المعجم الأوسط (٤٩٨٦)، ودلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٣١٦-٣١٧، عن ابن عباس رضي الله عنهما، ودلائل النبوة لأبي نعيم ١/ ٣٥٢-٣٥٣ عن عروة بن الزبير رضي الله عنه، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٠٧، وأخرجه ابن إسحاق في السيرة ١/ ٤٠٨، والطبري ١٤/ ١٤٦ عن عروة.

والأسود بن عبدِ يَغُوث، والأسود بن المطلب، والحارث بن عيطل السهميّ، والعاص بن وائل، فأتاه جبريلُ عليه السلام فشكاهم إليه، فأراه الوليدَ فأومأ جبريلُ عليه السلام إلى أَكْحَله[١]، فقال ﷺ: «ما صنعتَ شيئاً». قال: كفيتُكَه، ثم أَراه الأسود بنَ المطلب فأومأ إلى عينَيه فقال: «ما صنعتَ شيئاً». قال: كفيتُكَه، ثم أَراه الأسودَ بن عبد يَغُوث فأومأ إلى رأسه فقال: «ما صنعتَ شيئاً». قال: كفيتُكَه؛ ثم أَراه الحارث فأومأ إلى بَطْنه فقال: «ما صنعتَ شيئاً». قال: كفيتُكَه، ثم أَراه العاص بنَ وائل فأومأ إلى أَخمَصه فقال: «ما صنعتَ شيئاً». قال: كفيتُكَه. فأما الوليدُ فمرَّ برجلٍ من خزاعة وهو يَريشُ نبلاً فأصابَ أكحله فقطَعَها، وأما الأسودُ بن المطلب فنزَلَ تحت سَمُرَةٍ فجعَلَ يقول: يا بنيَّ أَلَا تدفعون عنِّي قد هلكتُ أُطعَنُ بالشوك في عَيْنَي، فجعلوا يقولون: ما نَرَى شيئاً، فلم يَزَلْ كذلك حتى عَمِيَت عيناه، وأما الأسود بن عبد يَغُوث فخرج في رأسه قُروحٌ فمات منها، وأما الحارث فأخذَهُ الماء الأصفر في بطنه حتى خَرَج رجيعُه من فيه فمات منه، وأما العاص فركبَ إلى الطائف فربض على شبرقة فدخل في أخمص قدمه شوكة فقتلته.

وقال الكرماني في شرح «البخاري»: إنَّ المستهزئين هم السبعةُ الذين أَلقَوا الأذى ورسولُ الله ﷺ يُصلِّي كما جاء في حديث البخاري وهم: عمرو بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عُتبة، وأمية بن خَلَف، وعُقبة بن أبي مُعَيط، وعُمَارة بن الوليد[٢].

وفي «الإعلام» للسهيلي أنَّهم قُذِفُوا بقَليبِ بدرٍ[٣]، وعدَّهم بخلاف ما ذكر.

وفي «الدر المنثور» وغيره رواياتٌ كثيرةٌ مختلفةٌ في عِدَّتهم[٤] وأسمائهم وكيفيَّة هلاكهم.

---

(١) في الأوسط ودلائل البيهقي: أبجله، بدل: أكحله، والأبجل: عِرقٌ غليظٌ في الرِّجْل أو في اليد بإزاء الأكحل.

(٢) شرح البخاري للكرماني ٤/ ٩٧، عند شرح الحديث رقم (٢٤٠).

(٣) التعريف والإعلام ص ٩٠-٩١، ونقله عنه بواسطة حاشية الشهاب ٥/ ٣٠٨.

(٤) جاء في حاشية (م): عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم كانوا ثمانية. اهـ منه. وينظر اختلاف الروايات في الدر المنثور ٤/ ١٠٧.

وعدَّ الشعبيُّ منهم هبَّارَ بن الأسود. وتعقَّبه في «البحر»: بأنَّ هباراً أسلمَ يوم الفتح ورَحَل إلى المدينة[1]. فعدّه وَهْمٌ، وهذا متعيِّنٌ إذا كانت كفايتُه عليه السلام إياهم بالإهلاك كما هو الظاهر.

وقد ذكر الإمامُ نحو ما ذكرنا من اختلاف الروايات، ثم قال: ولا حاجةَ إلى شيءٍ من ذلك، والقدر المعلوم أنَّهم كانوا طائفةً لهم قوَّةٌ وشوكةٌ؛ لأنَّ أمثالَهم هم الذين يَقدِرون على مثل هذه السفاهة مع رسول الله ﷺ في علوِّ قدره وعِظَم مَنصِبه، ودلَّ القرآنُ على أنَّ الله سبحانه أفناهم وأبادهم وأزال كيدهم[2].

﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي: اتَّخذوا إلهاً يعبدونه معه تعالى، وصيغةُ الاستقبالِ لاستحضار الحالِ الماضيةِ، وفي وَصْفهم بذلك تسليةٌ لرسول الله ﷺ وتهوينٌ للخَطْب عليه عليه الصلاة والسلام بالإشارة إلى أنَّهم لم يقتصروا على الاستهزاء به ﷺ بل اجترؤوا على العظيمة التي هي الإشراك به سبحانه.

﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٩٦﴾ ما يأتون ويذرون، وفيه من الوعيد ما لا يخفى، وفي «البحر»: أنَّه وعيدٌ لهم بالمجازاة على استهزائهم وشركهم في الآخرة كما جُوزُوا في الدنيا[3].

﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧﴾ من كلماتِ الشركِ والاستهزاءِ، وتحليةُ الجملةِ بالتأكيد لإفادة تحقُّقِ ما تضمَّنه من التسلية. وصيغةُ المضارع لإفادة استمرار العلمِ حسب استمرارِ متعلّقه باستمرار ما يُوجبه من أقوال الكفرة.

﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ فافزع إلى ربِّك فيما نابَكَ من ضِيْق الصدرِ بالتسبيح ملتبساً بحمده، أي: قل: سبحانَ اللهِ والحمدُ لله، أو: فنزِّهْهُ عما يقولون حامداً له سبحانه على أنْ هداك للحقِّ، فالتسبيحُ والحمدُ بمعناهما اللغويِّ، كما أنَّهما على الأول بمعناهما العُرفيِّ، أعني قولَ تَيْنك الجملتَين، وفي التعرُّض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ﷺ ما لا يخفَى من اللطف به عليه الصلاة والسلام، والإشعار بعلَّة الحكم، أعني الأمرَ المذكور.

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٧٠.

(٢) مفاتيح الغيب ١٩/ ٢١٥.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٧٠.

﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨﴾ أي: المصلِّين، ففيه التعبيرُ عن الكلِّ بالجزء، وهذا الجزءُ على ما ذهب إليه البعضُ أفضلُ الأجزاء، لِمَا صحَّ من قوله ﷺ: «أَقْربُ ما يكونُ العبدُ مِن ربِّه وهو ساجدٌ»(١). وليس هذا موضعَ سجدةٍ، خلافاً لبعضهم.

وفي أمره ﷺ بما ذُكِرَ إرشادٌ له إلى ما يكشِفُ به الغمَّ الذي يجدُه، كأنَّه قيل: افعل ذلك يَكشِفُ عنك ربُّك الغمَّ والضيقَ الذي تجدُه في صدرك، ولمزيد الاعتناء بأمر الصلاة جيء بالأمر بها كما تَرَى مغايراً للأمر السابق على هذا الوجه المخصوص، وفي ذلك من الترغيب فيها ما لا يخفَى. وقد كان ﷺ إذا أَحْزَنَه أمرٌ فَزِعَ إلى الصلاة(٢). وصحَّ: «حُبِّبَ لي من دنياكم النساءُ، والطيبُ، وجُعِلَت قُرَّةُ عيني في الصلاة»(٣).

وذكر بعضُهم أنَّ في الآية إشارةً إلى الترغيب بالجماعة فيها. وأنَّ في عدم تقييد السجودِ بنحو: له، أو: لربِّك، إشارةً إلى أنَّه مما لا يكادُ يخطرُ بالبال إيقاعُه لغيره تعالى، فتدبَّر.

﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ﴾ دُمْ على ما أنت عليه من عبادتِهِ سبحانه، قيل: وفي الإظهار بالعنوان السالف آنفاً تأكيدٌ لِمَا سَبَق من إظهار اللطفِ به ﷺ والإشعارِ بعلَّة الأمر بالعبادة ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾ أي: الموتُ كما روي عن ابن عمرَ والحسن وقتادة وابن زيد، وسُمِّي بذلك؛ لأنَّه مُتيقَّن اللحوق بكلِّ حيٍّ، وإسنادُ الإتيان إليه؛ للإيذان بأنَّه متوجِّهٌ إلى الحيِّ، طالبٌ للوصول إليه، والمعنى: دُمْ على العبادة ما دُمْت حيًّا من غير إخلالٍ بها لحظةً، وقال ابنُ بحر: اليقينُ: النصرُ على الكافرين الذي وعده ﷺ.

وأيًّا ما كان فليس المراد به ما زعَمَه بعضُ الملحدين مما يسمُّونه بالكشف والشهود، وقالوا: إنَّ العبدَ متى حَصَل له ذلك سَقَط عنه التكليفُ بالعبادة، وهي ليسَت إلا للمحجوبين، وقد مَرَقُوا بذلك من الدين وخَرجُوا من رِبْقَة الإسلام وجماعة المسلمين.

---

(١) أخرجه أحمد (٩٤٦١)، ومسلم (٤٨٢)، من حديث أبي هريرة ﷺ، وتقدم ٤/ ١٨٦.
(٢) أخرجه أحمد (٢٣٢٩٩)، وأبو داود (١٣١٩) من حديث حذيفة بن اليمان ﷺ.
(٣) أخرجه أحمد (١٢٢٩٣) من حديث أنس ﷺ، وتقدم ٤/ ٣٣٧.

وذكر بعضُ الثقات أنَّ هذا الأمرَ كان بعدَ الإسراء والعروج إلى السماء، أفترى أنَّه ﷺ لم يتَّضِح له ليلتئذٍ صُبْح الكشف والشهودِ، ولم يَمُنَّ عليه باليقين عظيمُ الكرمِ والجودِ؟ الله أكبرُ لا يتجاسرُ على ذلك من في قلبه مثقالُ ذرةٍ من إيمان، أو رُزِق حبَّة خردلٍ من عقلٍ ينتظمُ به في سلك الإنسان، وأيضاً لم يزل ﷺ - ما دامَ حيًّا - آتياً بمراسم العبادةِ، قائماً بأعباء التكليف، لم ينحرف عن الجادَّة قَدْرَ حادَّة، أَفَيُقال: إنَّه لم يأتِهِ عليه الصلاة والسلام حتى تُوفِّي ذلك اليقينُ، ولذلك بقي في مَشاقِّ التكليف إلى أنْ قَدِم على ربِّ العالمين؟! لا أَرَى أحداً يخطُر له ذلك بجَنان ولو طالَ سلوكُه في مهامِهِ الضلالةِ وبان.

نعم ذَكَر بعضُ العلماء الكرامِ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ﴾ إلخ كلاماً متضمِّناً شيئاً مما يذكُره الصوفية، لكنَّه بعيدٌ بمراحلَ عن مَرام أولئك اللئام، ففي «الكشف»: أنَّه تعالى بعدما هَدَم قواعدَ جهالاتِ الكفرةِ، وأبرقَ وأَرْعَدَ بما أظهرَ من صنيعِهِ بالقائلين نحو مقالاتِ أولئك الفجرةِ، فَذْلَكَ الكلامَ بقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ﴾ مؤكِّداً هذا التأكيدَ البالغ الصادر عن مقام تَسَخُّطٍ بالغٍ وكبرياءٍ؛ ليُنَفِّسَ عن حبيبه عليه الصلاة والسلام أشدَّ التنفيس، ثم أرشدَ إلى ما هو أعلَى من ذلك مما يؤهِّله لمسامرة الجليسِ للجليس، وقال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ إشارةً إلى التوجُّه إليه بالكلِّية، والتجرُّدِ التامِّ عن الأغيار، والتحلِّي بصفات مَن توجَّه إليه بحُسن القبول والافتقار، إذ ذلك مُقتضَى التسبيح والحمد لمن عَقَلهما.

ثم قال سبحانه: ﴿وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ دلالةً على الاقتراب المضمَر فيه؛ لأنَّ السجودَ غايةُ الذِّلَّة والافتقار، وهو مظهرُ الفناءِ حتى نفسِهِ وشِرْكِ البقاء بمَن أَمَره بخَمْسِهِ.

وقوله تعالى شأنه: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ﴾ إلخ، ظاهرُه ظاهرٌ، وباطنُه يُومي إلى أنَّ السَّفر في الله تعالى لا ينقطِعُ، والشهود الذي عليه يُستقرُّ لا يحصل أبداً، فما مِن طامَّةٍ إلا وفوقَها طامَّة.

إذا تَغَيَّبتُ بَدَا وإنْ بدا غَيَّبني(١)

(١) نسبه لأبي حمزة الصوفي الخطيبُ في تاريخ بغداد ١/ ٣٩٢، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٥١/ ٢٥٨، ولأبي الحسين النوري أبو نعيم في الحلية ١٠/ ٢٥٠.

وعن لسان هذا المقام ﴿رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٤] اهـ.

هذا ولا يخفَى مما ذكره غيرُ واحدٍ من المفسِّرين مناسبةُ خاتمةِ هذه السورةِ لفاتحتها، وأنَّ قولَه سبحانه: (وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ) إلخ في مقابلة (وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ) والله تعالى أعلم وأحكم.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة فيما تقدَّم من الآيات ما قالوه مما ملخصه: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: أَخْبِرْهم بأنِّي أغفرُ خَطَراتِ قلوبِ العارفين بعد إدراكهم مواضعَ خطرها، وتداركهم ما هو مطلوبٌ منهم، وأرحمُهم بأنواع الفيوضات، وأُوصلُهم إلى أعلَى المكاشفات والمشاهدات.

﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾ وهو عذابُ الاحتجاب والطَّردِ عن الباب، وقال ابن عطاء: هذه الآيةُ إرشادٌ له ﷺ إلى كيفية الإرشاد كأنَّه قِيل: أَقِمْ عبادي بين الخوفِ والرجاء، ليَصِحَّ لهم سبيلُ الاستقامة في الطاعة، فإنَّ مَن غَلَب عليه رجاؤه عطَّلَه، ومَنْ غَلَب عليه خوفُه أقنطَه.

وذكر بعضُهم أنَّ فيها إشارةً إلى ترجيح جانبِ الخوف على الرجاء؛ لأنَّه سبحانه أجرَى وَصْفَي الرحمة على نفسه عزَّ وجلَّ، ولم يُجرِ العذابَ على ذلك السَّنَن.

وأنت تعلمُ أنَّ المذكور في كثيرٍ من الكتب أنَّه ينبغي للإنسان أنْ يكونَ معتدلَ الرجاءِ والخوفِ إلا عند الموت، فينبغي أنْ يكونَ رجاؤُه أَزْيدَ من خوفِه؛ وفي المقام كلامٌ طويل يُطلَبُ من موضعه.

﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ قال النوري[1]: أي: بحياتك التي خُصِّصْتَ بها من بين العالمين. وقال القرشيُّ: هذا قَسَمٌ بحياة الحبيب ﷺ. وإنما أقسم سبحانه بها؛ لأنَّها كانت به تعالى.

---

(١) في (م): النووي.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ أي: المتفرِّسين، وذَكَروا أنَّ للفِراسة مراتبَ: فبعضُها يحصُل بعين الظاهر.

وبعضُها ما يُدرِكُه آذان العارفين مما ينطِقُ به الحقُّ بألسنة الخَلْق.

وبعضُها ما يبدو في صورة المتفرِّس من أشكال تصرُّفِ الحقِّ سبحانه وإنطاقِهِ وجوده له حتى ينطِقَ جميعُ شعراتِ بدنه بألسنةٍ مختلفة، فيَرَى ويَسمَع من ظاهر نفسه ما يدلُّ على وقوع الأمور الغيبية.

وبعضُها ما يحصُل بحواسِّ الباطن، حيث وَجدَت بلطفها أوائلَ المغيبات باللائحة.

وبعضُها ما يحصُل من النفس الأمَّارة بما يبدو فيها من التمنِّي والاهتزاز، وذلك سرُّ محبته، فإنَّ الله تعالى إذا أرادَ فَتْحَ بابِ الغيب، أَلْقَى في النفس آثار بواديه، إما محبوبةً فتتمنَّى، وإما مكروهةً فتنفرُ فتفزع[1]، ولا يَعرفُ ذلك إلا ربانيُّ الصفة.

وبعضُها ما يحصُل للقلب إما بالإلهام وإما بالكشف.

وبعضُها ما يحصُل للعقل، وذلك ما يقعُ من أثقال الوحي الغيبيِّ عليه.

وبعضُها ما يحصل للروح بالواسطةِ وغيرِ الواسطة.

وبعضُها ما يحصل لِعين السرِّ وسمعه.

وبعضُها ما يحصل في سرِّ السرِّ، ظهورُ عرائس أقدارِ الغيبة ملتبسات بأشكالٍ إلهيةٍ ربانيةٍ روحانية، فيبصر تصرُّفَ الذاتِ في الصفات، ويَسمَع الصفات بوَصْف الحديثِ والخطاب من الذات بلا واسطة، وهناك منتهَى الكَشْف والفِراسة.

وسُئل الجنيدُ رضي الله عنه عن الفِراسة فقال: آياتٌ ربانيةٌ تظهرُ في أسرار العارفين، فتنطِقُ ألسنتُهم بذلك فتُصادِفُ الحقَّ، ولهم في ذلك عباراتٌ أُخَرُ.

﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ روى عمرو بنُ دينار عن محمد ابنِ الحنفية عن أبيه عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنَّه قال: الصفحُ الجميل صفحٌ لا توبيخَ فيه، ولا حقدَ

---

(١) ليس في الأصل.

بعدَه، مع الرجوع إلى ما كان قبل ملابسةِ المخالفة، وقيل: الصفحُ الجميلُ: مواساةُ المذنبِ برَفْع الخجَل عنه، ومداواةُ موضعِ آلام الندم في قلبه.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ وهي الصفاتُ السبع، أعني: الحياةَ والعلمَ والقدرةَ والإرادةَ والبصرَ والسمعَ[1] والكلامَ، ومعنى كونها مثاني: أنَّها ثُنِّي وكُرِّر ثبوتُها له ﷺ، فكانت له عليه الصلاة والسلام أولاً في مقام وجودِ القلب وتخلُّقِه بأخلاقه واتِّصافه بأوصافه، وثانياً في مقام البقاء بالوجود الحقَّانيِّ، وقيل: معنى كونها مثاني أنَّها ثَواني الصفاتِ القائمةِ بذاته سبحانه عزَّ وجلَّ ومواليدُها، وجاء: «لازالَ العبدُ يتقرَّبُ إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سَمْعَه الذي يسمَعُ به وبَصَرُه الذي يُبصرُ به»[2] الحديث.

﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ وهو عندهم: الذاتُ الجامعُ لجميع الصفات ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ إلى آخره. قال بعضُهم في ذلك: غَارَ الحقُّ سبحانه عليه عليه الصلاة والسلام أنْ يَستحسنَ من الكون شيئاً ويُعيرَه طَرْفَه، وأرادَ منه ﷺ أنْ تكونَ أوقاتُه مصروفةً إليه، وحالاتُه موقوفة عليه، وأنفاسُه النفيسةُ حبيسة عنده، وكان ﷺ كما أراد منه سبحانه، ولذلك وَقَع في المحلِّ الأعلى ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧].

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ * وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ قد مرَّ عن «الكشف» ما فيه مقْنعٌ لِمَن أراد الإشارةَ من المسترشدين.

هذا، وأسألُ الله سبحانه أنْ يحفظَنا من سوء القضا، ويَمُنَّ علينا بالتوفيق إلى ما يحبُّ ويرضَى، بحرمة النبيِّ ﷺ وآله وأصحابه ﷺ أجمعين ما جرى في تفسير كتاب الله تعالى قلم.

تم الجزء الثالث عشر من تفسير روح المعاني، ويليه الجزء الرابع عشر ويبدأ بسورة النحل

---

(١) في الأصل: السمع والبصر.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ، وأحمد (٢٦١٩٣) من حديث عائشة ﷺ.

(١٦) سورة النحل مكية وآياتها ثمان وعشرون ومائة

سورة النحل من السور المكية التي تعالج موضوعاتِ العقيدة الكبرى « الألوهيةَ ، والوحيَ ، والبعثَ والنشور » وإلى جانب ذلك تتحدث عن دلائل القدرة والوحدانية في ذلك العَالم الفسيح في السمواتِ والأرض ، والبحارِ والجبال ، والسهولِ والوديان ، والماء الهاطل ، والنبات النامي ، والفلك التي تجري في البحر ، والنجوم التي يهتدي بها السالكون في ظلمات الليل ، إلى آخر تلك المشاهد التي يراها الإنسان في حياته ، ويدركها بسمعه وبصره ، وهي صورٌ حيةٌ مشاهدة ، دالةٌ على وحدانية الله جلَّ وعلا ، وناطقةٌ بآثار قدرته التي أبدع بها الكائنات :

وفي كل شيءٍ لـه آيـةٌ : تـدلُّ على أنـه واحـدُ

سُميت هذه السورةُ الكريمة « سورةَ النحل » لاشتمالها على تلك العِبْرة البليغة التي تشير إلى عجيب صنع الخالق ، وتدلُّ على الألوهية بهذا الصنع العجيب ، فالنحل خلقٌ من مخلوقات الله تُشبه الذباب ، ولكنها تعمل بإلهامٍ من الفطرة التي أودعها إياها الخالقُ العظيم ، وتعمل بدقةٍ عجيبة يعجزُ عن مثلها العقلُ المفكِّر ، سواءٌ في بناء خلاياها ، أو في اقتسام العمل المنظَّم بينها ، أو في طريقة إفرازها للعَسَل المصفَّى الذي فيه شفاءٌ للناس ، وهي تتخذ من الجبال والشجر بيوتاً لها ، وتأكل من الأزهار ما يَلذُّها ، وكلُّ ذلك بوحيٍ وإلهامٍ من الله « الذي أعطى كلَّ شيءٍ خلقه

ثم هدى » وقد ذُكرتْ فيها هذه العجائب ليتفطن الإنسان إلى قدرته وعجيب صنعه تعالى في هذا الحيوان الضعيف ، الذي لو اجتمع مهندسُو العَالَم لحارتْ أفكارهم في بناء تلك البيوت الهندسية بتلك الدقة العجيبة « وأوحى ربُّكَ إلى النحلِ أَنْ اتَخِذي من الجبالِ بيوتاً ومن الشجرِ وممَّا يَعْرشون . ثم كلي من كلِ الثمراتِ فاسلكي سُبُل ربّكِ ذُلُلاً ، يخرج من بطونها شرابٌ مختلفٌ ألوانُه فيه شفاءٌ للناس ، إنَّ في ذلك الآية لقومٍ يتفكرون » فسبحان الله اللطيفِ الخبير ! !

ولكثْرةِ ما ذكر تعالى فيها من النِّعَم التي أفاضها على عبادة ، سمَّاها بعضهم « سورة النِّعَم » إقرأ قوله تعالى ﴿ هو الذي أنزل من السماء ماءً لكم منه شرابٌ ومنه شجرٌ فيه تُسِيمون . يُنْبِتُ لكم به الزرعَ والزيتونَ والنخيلَ والأعنابَ ، ومن كلِّ الثمراتِ إنَّ في ذلكَ لآيةً لقومٍ يتفكرون﴾ وقولَه تعالى ﴿ وهو الذي سخَّر البحرَ لتأكلوا منه لحماً طريّاً وتستخرجوا منه حِلْيَةً تلبسونها ، وترى الفُلْكَ مَواخِرَ فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ واقرأ قوله تعالى ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سَكَناً ، وجعل لكم من جلودِ الأنعامِ بيوتاً تَسْتَخِفُّونَها يومَ ظَعْنِكُمْ ويَوْمَ إقامتِكُمْ ، ومن أَصْوافِها وأَوْبارِها وأَشْعارِها أَثاثاً ومَتَاعاً إلى حين . والله جعلَ لكم ممَّا خلَق ظِلالاً ، وجَعَلَ لكم من الجبالِ أَكْناناً ، وجَعَل لكم سَرَابيلَ تَقيكُمُ الحرَّ ، وسَرَابيلَ تقيكمْ بَأْسَكُمْ ، كذلكَ يُتِمُّ نِعْمتَه عليكم لعلَّكم تُسْلِمون﴾ .

تناولت السورةُ الكريمة في البدءِ أمرَ الوحي الذي كان مجالَ إنكار المشركين واستهزائهم ، فقد كذبوا بالوحي واستبعدوا قيامَ السّاعة ، واستعجلوا الرسولَ ﷺ أن يأتيهم بالعذاب الذي خوّفهم به ، وكلما تأخر العذاب زادوا استعجالاً وزادوا استهزاءً واستهتاراً ، ولذلك بدأت السورة بهذا الخبر الحاسم الجازم ﴿ أَتَى أمرُ اللهِ فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عمَّا

يُشْركون. يُنَزّلُ الملائكةَ بالروحِ من أمرِه على من يشاء من عباده أَنْ أَنْذِروا أنه لا إلهَ إلاّ أنا فاتَّقون﴾ ثم ذكرت الآيات الكريمة دلائل الخَلْق والتقدير، مقرونةً بصنوف النعم والتذكير ﴿خَلَقَ السمواتِ والأرضَ بالحقِّ تعالى عمَّا يُشْركون. خلَق الإنسانَ من نطفةٍ فإذا هو خصيمٌ مبين. والأنعامَ خلقها لكم فيها دِفْءٌ ومنافعُ ومنها تأْكلون. ولكم فيها جمالٌ حينَ تُريحون وحينَ تَسْرحون. وتَحْملُ أثقالَكُمْ إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلا بشقِّ الأَنْفُس، إنَّ ربَّكم لرءوفٌ رحيم﴾ ومن التذكير بالنِّعَم إلى التذكير بالْمُنْعِم تتحدث الآياتِ عن الخالق المدبِّر الحكيم، الذي لا تُحْصى نِعَمُه، ولا تُسْتوفى آلاؤه، وتَقارنُ بين الإلهِ الحقّ، والأصنامِ المزيَّفة ﴿أفمن يَخْلُقُ كمن لا يَخْلق أفلا تَذَكَّرون؟ وإنْ تَعُدوا نعمةَ اللهِ لا تُحْصوها، إن الله لغفورٌ رحيم. واللهُ يعلم ما تُسرون وما تُعْلنون. والذين يَدْعون من دون اللهِ لا يَخْلُقون شيئاً وهم يُخْلَقون. أمواتٌ غيرُ أحياءٍ وما يشعرون أيان يُبْعثون﴾ ولقد هدفَتْ السورة الكريمة إلى تقرير مبدأِ «وحدانية الله» جلَّ وعلا بلَفت الأنظار إلى قدرة الله الواحد القهَّار، فخاطبتْ كل حاسةٍ في الإنسان، وكلَّ جارحةٍ في كيانه البشري، ليتجه بعقلِه إلى ربّه، ويستنيرَ بما يرى من آثار صنع اللهِ على عظمةِ اللهِ سبحانه، ولذلك جاءت الآياتُ تخاطبُ العينَ لترى، والأُذن لتسمع، والوجدان ليتأثر، والعقلَ ليتدبَّر، وحشدت الكونَ كلَّه، سماءَه وأرضَه، وشمسَه وقمرَه، وليلَه ونهارَه، وجبالَه وبحارَه، ونباتَه وثماره، وعرضَته أمام الأنظار هكذا مكشوفاً محسوساً ملموساً، تكاد كلُّ ذرةٍ فيه تشهد لله بالوحدانية ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً، وجعل لكم السَّمعَ والأَبْصارَ والأفئدةَ لعلكم تشكرون. ألمْ يَرَوْا إلى الطير مسخرَّاتٍ في جوِّ السماء ما يُمْسكُهُنَّ إلا الله، إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يؤمنون﴾

وذكرتْ السورةُ الكريمة مثلين لتقرير الحقيقةِ الكبرى التي غفَلوا عنها وهي من واقع الحياة ، أما المثل الأول فهو مثلُ العبدِ المملوكِ العاجزِ عن المُلْك والتصرف ، مع السيد القويِّ القادر الذي يتصرف في ماله وعبده كيف شاء ، وهم لا يُسوُّون بين العبد المملوك والسيد المالكِ ، فكيف يُسوُّون بين ربّ العباد وهذه الأصنام الجمادات ؟ والمثلُ الثاني مثلُ الرجلِ الضعيفِ الأبكم ، البليدِ الذهن ، والرجل القويّ المتكلم ، الآمر بالعدلِ ، المستقيم على الخير ، وإذا كان العاقل لا يُسوّي بين الأعمى والبصير ، والأبكم والمتكلّم ، فكيف تمكن التسوية بين صنمٍ أو حجر ، وبين الله سبحانه وهو القادرُ العليم ، الهادي إلى الصراطِ المستقيم ﴿ ضربَ الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ، ومَنْ رزقناه منا رزقاً حسناً فهو يُنفق منه سراً وجهراً ، هل يستوون ؟ الحمدُ لله بل أكثرهُم لا يعلمون﴾ هذا هو المثل الأول وهو واضحٌ جلي ، وأما المثل الثاني فاستمع إليه في قوله تعالى ﴿ وضربَ اللهُ مثلاً رجلين أحدهما أبكمُ لا يقدرُ على شيء ، وهو كلٌّ على مَوْلاه ، أينما يُوجِّهْهُ لا يأتِ بخيرٍ ، هَلْ يستوي هو ومَنْ يأمرُ بالعَدْلِ ، وهو على صِراطٍ مُسْتقيم ؟﴾ ويا لَه من مَثَل يفرق بين الهدى والضلال ، وعبادة الرحمن وعبادة الأوثان ! !

ثم تتابعتْ السورةُ الكريمةُ تُذكِّر الناسَ بنتيجةِ الكفر بنَعمِ اللهِ ، وعدمِ القيامِ بشكرها ، وتُحذّرهم تلك العاقبة الوخيمة التي يئول إليها مصيرُ كل معاندٍ وجاحد ﴿ وضربَ اللهُ مثلاً قريةً كانت آمنةً مطمئنةً ، يأتيها رزقها رَغَداً من كل مكان ، فكفرتْ بأَنْعُم اللهِ فأذاقها اللهُ لباسَ الجوعِ والخوفِ بما كانوا يصنعون﴾ وفي مقابلِ صورة الكفرِ ذكرتْ السورةُ نموذجاً للطاعة والشكر ، وأظهرُها نموذجُ إبراهيم الذاكرِ ، الصابرِ ، الشاكرِ ﴿ إنَّ إبراهيم كان أُمةً قانتاً للهِ حنيفاً ولم يك من المشركين .

شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراطٍ مستقيم﴾ وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، والصبرِ والعفو عمَّا يلقاه من الأذى في سبيل تبليغ دعوة الله ﴿أُدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربَّكَ هو أعلم بمن ضلَّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ إلى نهاية السورة الكريمة ﴿إنَّ الله مع الذين اتَّقَوْا والذين هم محسنون﴾

سورة النحل

[٥٣٢] ك.. أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال لما نزلت: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾(١) وغر أصحاب رسول الله [ﷺ] حتى نزلت: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾(٢) فسكتوا.

[٥٣٣] وأخرج عبدالله بن الإمام أحمد في زوائد الزهد وابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي بكر بن أبي حفص قال لما نزلت: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾(٣) قاموا فنزلت: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾(٤).

قوله تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ﴾ [النحل: ٣٨]الآية.

[٥٣٤] أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال: كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين فأتاه يتقاضاه فكان فيما يتكلم به والذي أرجوه بعد الموت أنه كذا وكذا فقال له المشرك إنك لتزعم أنك تبعث من بعد الموت فأقسم بالله جهد يمينه لا يبعث الله من يموت فنزلت الآية.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ [النحل: ٤١] الآية.

[٥٣٥] أخرج ابن جرير عن داود بن أبي هند قال نزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ إلى قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾(٥) في أبي جندل بن سهيل.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ [النحل: ٧٥] الآية.

[٥٣٦] أخرج ابن جرير(٦) عن ابن عباس في قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا﴾(٧) قال نزلت في رجل من قريش وعبده وفي قوله: ﴿رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ

---

[٥٣٢] (١) سورة النحل: الآية(١).
(٢) سورة النحل: الآية(١).
[٥٣٣] (٣) سورة النحل: الآية(١).
(٤) سورة النحل: الآية (١).
[٥٣٥] (٥) سورة النحل: الآية(٤١و ٤٢).
[٥٣٦] (٦) ورواه الواحدي في أسباب النزول من طريق إبراهيم عن عكرمة عن ابن عباس مثله ص (١٦٠).
(٧) سورة النحل: الآية(٧٥).

﴿أَبْكَمُ﴾[1] قال نزلت في عثمان ومولى له كان يكره الإسلام ويأباه وينهاه عن الصدقة والمعروف فنزلت فيهما.

قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٨٢] الآية.

[٥٣٧] أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد أن إعرابياً أتى النبي [ﷺ] فسأله فقرأ عليه: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾[2] قال الأعرابي نعم ثم قرأ عليه: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾[3] قال نعم ثم قرأ عليه كل ذلك يقول نعم حتى بلغ: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾[4] فولى الأعرابي فأنزل الله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾[5].

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟﴾ [النحل: ٩١] الآية.

[٥٣٨] ك.. أخرج ابن جرير عن بريدة قال نزلت هذه الآية في بيعة النبي [ﷺ].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟﴾ [النحل: ٩٢] الآية.

[٥٣٩] ك.. أخرج ابن أبي حاتم عن أبي بكر بن أبي حفص قال كانت سعيدة الأسدية مجنونة تجمع الشعر والليف فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾[6].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ﴾ [النحل: ١٠٣] الآية

[٥٤٠] ك.. أخرج ابن جرير[7] بسند ضعيف عن ابن عباس قال كان رسول الله [ﷺ] يعلم قنا بمكة اسمه بلعام وكان أعجمي اللسان وكان المشركون يرون

---

(١) سورة النحل: الآية(٧٦).

[٥٣٧] (٢) سورة النحل: الآية(٨٠).

(٣) سورة النحل: الآية(٨٠).

(٤) سورة النحل: الآية(٨١).

(٥) سورة النحل: الآية(٨٢).

[٥٣٩] (٦) سورة النحل: الآية(٩٢).

[٥٤٠] (٧) رواه الواحدي مرسلاً معضلاً من طريق حصين عن عبيد الله بن مسلم قال: كان لنا غلامان.... الحديث بنحوه.

رسول الله [ﷺ] يدخل عليه ويخرج من عنده فقالوا إنما يعلمه بلعام فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾(١) الآية.

[٥٤١] وأخرج ابن أبي حاتم(٢) من طريق حصين عن عبدالله بن مسلم الحضرمي قال كان لنا عبدان أحدهما يقال له يسار والآخر جبر وكانا صقليين فكانا يقرآن كتابهما ويعلمان علمهما وكان رسول الله [ﷺ] يمر بهما فيستمع قراءتهما فقالوا إنما يتعلم منهما فنزلت.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ [النحل: ١٠٦] الآية.

[٥٤٢] أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال لما أراد النبي [ﷺ] أن يهاجر إلى المدينة أخذ المشركون بلالاً وخباباً وعماراً بن ياسر فأما عمار فقال لهم كلمة أعجبتهم تقية فلما رجع إلى رسول الله [ﷺ] حدثه فقال: **«كيف كان قلبك حين قلت أكان منشرحاً بالذي قلت»** قال: لا. فأنزل الله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾(٣).

[٥٤٣] وأخرج عن مجاهد قال: نزلت هذه الآية في أناس من أهل مكة آمنوا فكتب إليهم بعض الصحابة بالمدينة أن هاجروا فخرجوا يريدون المدينة فأدركتهم قريش بالطريق ففتنوهم فكفروا مكرهين ففيهم نزلت هذه الآية.

[٥٤٤] ك.. وأخرج ابن سعد في الطبقات عن عمر بن الحكم قال كان عمار بن ياسر يعذب حتى لا يدري ما يقول وكان صهيب يعذب حتى لا يدري ما يقول وكان أبو فكيهة يعذب حتى لا يدري ما يقول وبلال وعامر بن فهيرة وقوم من المسلمين وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ [النحل: ١٢٦] الآية.

[٥٤٥] أخرج الحاكم والبيهقي في الدلائل والبزار(٤) عن أبي هريرة أن

---

(١) سورة النحل: الآية(١٠٣).

[٥٤١] (٢) راجع التعليق رقم (١) فقرة (٥٤٠).

[٥٤٢] (٣) سورة النحل: الآية(١٠٦).

[٥٤٥] (٤) ورواه الواحدي في أسباب النزول ص (١٦٣) من طريق صالح المري حدثنا سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن أبي هريرة قال «أشرف النبي ﷺ على حمزة»... الحديث.

رسول الله [ﷺ] وقف على حمزة حين استشهد وقد مثل به فقال: «**لأقتلن سبعين منهم مكانك**» فنزل جبريل والنبي [ﷺ] واقف بخواتيم سورة النحل: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم﴾(1) إلى آخر السورة فكف رسول الله [ﷺ] وأمسك عما أراد.

[٥٤٦] وأخرج الترمذي وحسنه والحاكم عن أُبي بن كعب قال لما كان يوم أُحد أصيب من الأنصار أربعة وستون ومن المهاجرين ستة منهم حمزة فمثلوا بهم فقالت الأنصار لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لنربيّن عليهم فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ﴾(2) الآية، وظاهر هذا تأخر نزولها إلى الفتح، وفي الحديث الذي قبله نزولها بأحد وجمع ابن الحصار بأنها نزلت أولاً بمكة ثم ثانياً بأحد ثم ثالثاً يوم الفتح تذكيراً من الله لعباده.

* * *

---

(1) سورة النحل: الآية (١٢٦).

[٥٤٦] (2) سورة النحل: الآية (١٢٦).

سورة النحل

مكية، إلا الآيات الثلاث الأخيرة فمدنية وآياتها: ١٢٨، نزلت بعد سورة الكهف

وحكى الأصم عن بعضهم أن كلها مدنية، وقال آخرون: من أولها إلى قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] مدني وما سواه فمكي، وعن قتادة بالعكس.

واعلم أن هذه السورة تسمى سورة النعم وهي مائة وعشرون وثمان آيات مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ۝٢﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن معرفة تفسير هذه الآية مرتبة على سؤالات ثلاثة:

فالسؤال الأول: أن رسول الله ﷺ كان يخوفهم بعذاب الدنيا تارة وهو القتل والاستيلاء عليهم كما حصل في يوم بدر، وتارة بعذاب يوم القيامة، وهو الذي يحصل عند قيام الساعة، ثم إن القوم لما لم يشاهدوا شيئًا من ذلك احتجوا بذلك على تكذيبه وطلبوا منه الإتيان بذلك العذاب وقالوا له ائتنا به. وروي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] قال الكفار فيما بينهم إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت فأمسكوا عن بعض ما تعملون حتى ننظر ما هو كائن، فلما تأخرت قالوا ما نرى شيئًا مما تخوفنا به، فنزل قوله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١] فأشفقوا وانتظروا يومها فلما امتدت الأيام قالوا: يا محمد ما نرى شيئًا مما تخوفنا به فنزل قوله: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ فوثب رسول الله ﷺ ورفع الناس رؤوسهم فنزل قوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ والحاصل أنه عليه السلام لما أكثر من تهديدهم بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة ولم يروا شيئًا نسبوه إلى الكذب.

فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ وفي تقرير هذا الجواب وجهان:

الوجه الأول: أنه وإن لم يأت ذلك العذاب إلا أنه كان واجب الوقوع والشيء إذا كان بهذه الحالة والصفة فإنه يقال في الكلام المعتاد أنه قد أتى ووقع إجراء لما يجب وقوعه بعد ذلك مجرى الواقع يقال لمن طلب الإغاثة وقرب حصولها: قد جاءك الغوث فلا تجزع.

والوجه الثاني: وهو أن يقال أن أمر الله بذلك وحكمه به قد أتى وحصل ووقع، فأما المحكوم به فإنما لم يقع، لأنه تعالى حكم بوقوعه في وقت معين فقبل مجيء ذلك الوقت لا يخرج إلى الوجود والحاصل كأنه قيل: أمر الله وحكمه بنزول العذاب قد حصل ووجد من الأزل إلى الأبد فصح قولنا أتى أمر الله، إلا أن المحكوم به والمأمور به إنما لم يحصل، لأنه تعالى خصص حصوله بوقت معين فلا تستعجلوه ولا تطلبوا حصوله قبل حضور ذلك الوقت.

السؤال الثاني: قالت الكفار: هب أنا سلمنا لك يا محمد صحة ما تقوله من أنه تعالى حكم بإنزال العذاب علينا إما في الدنيا وإما في الآخرة، إلا أنا نعبد هذه الأصنام فإنها شفعاؤنا عند الله فهي تشفع لنا عنده فنتخلص من هذا العذاب المحكوم به بسبب شفاعة هذه الأصنام.

فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فنزه نفسه عن شركة الشركاء والأضداد، والأنداد وأن يكون لأحد من الأرواح والأجسام أن يشفع عنده إلا بإذنه وما في قوله: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يجوز أن تكون مصدرية، والتقدير: سبحانه وتعالى عن إشراكهم ويجوز أن تكون بمعنى الذي، أي سبحانه وتعالى عن هذه الأصنام التي جعلوها شركاء لله، لأنها جمادات خسيسة، فأي مناسبة بينها وبين أدون الموجودات فضلاً عن أن يحكم بكونها شركاء لمدبر الأرض والسموات.

السؤال الثالث: هب أنه تعالى قضى على بعض عبيده بالسراء وعلى آخرين بالضراء ولكن كيف يمكنك أن تعرف هذه الأسرار التي لا يعلمها إلا الله، وكيف صرت بحيث تعرف أسرار الله وأحكامه في ملكه وملكوته؟

فأجاب الله تعالى عنه بقوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ وتقرير هذا الجواب أنه تعالى ينزل الملائكة على من يشاء من عبيده ويأمر ذلك العبد بأن يبلغ إلى سائر الخلق أن إله العالم واحد كلفهم بمعرفة التوحيد والعبادة وبين أنهم إن فعلوا ذلك فازوا بخيري الدنيا والآخرة، وإن تمردوا وقعوا في شر الدنيا والآخرة، فبهذا الطريق صار مخصوصًا بهذه المعارف من دون سائر الخلق، وظهر بهذا الترتيب الذي لخصناه أن هذه الآيات منتظمة على أحسن الوجوه والله أعلم.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي: (يُنَزِّلُ) بالياء وكسر الزاي وتشديدها، والملائكة بالنصب، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿يُنزِلَ﴾ بضم الياء وكسر الزاي وتخفيفها، والأول من التفعيل، والثاني من الإفعال، وهما لغتان:

المسألة الثانية: روي عن عطاء عن ابن عباس قال: يريد بالملائكة جبريل وحده. قال الواحدي: وتسمية الواحد باسم الجمع إذا كان ذلك الواحد رئيسًا مقدمًا جائز كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [نوح: ١] و﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [يوسف: ٢]. و﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩]

وفي حق الناس كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]وفيه قول آخر سيأتي شرحه بعد ذلك وقوله: ﴿ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ .

فيه قولان:

القول الأول: أن المراد من الروح الوحي وهو كلام الله ونظيره قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢] وقوله: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ١٥]قال أهل التحقيق: الجسد موات كثيف مظلم، فإذا اتصل به الروح صار حيًا لطيفًا نورانيًا. فظهرت آثار النور في الحواس الخمس، ثم الروح أيضًا ظلمانية جاهلة، فإذا اتصل العقل بها صارت مشرقة نورانية، كما قال تعالى؛ ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ﴾ [النحل: ٧٨] ثم العقل أيضًا ليس بكامل النورانية والصفاء والإشراق حتى يستكمل بمعرفة ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله ومعرفة أحوال عالم الأرواح والأجساد، وعالم الدنيا والآخرة، ثم إن هذه المعارف الشريفة الإلهية لا تكمل ولا تصفو إلا بنور الوحي والقرآن.

إذا عرفت هذا فنقول: القرآن والوحي به تكمل المعارف الإلهية، والمكاشفات الربانية وهذه المعارف بها يشرق العقل ويصفو ويكمل، والعقل به يكمل جوهر الروح، والروح به يكمل حال الجسد، وعند هذا يظهر أن الروح الأصلي الحقيقي هو الوحي والقرآن، لأن به يحصل الخلاص من رقدة الجهالة، ونوم الغفلة، وبه يحصل الانتقال من حضيض البهيمية إلى أوج الملكية، فظهر أن إطلاق لفظ الروح على الوحي في غاية المناسبة والمشاكلة، ومما يقوى ذلك أنه تعالى أطلق لفظ الروح على جبريل عليه السلام في قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] وعلى عيسى عليه السلام في قوله: ﴿رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ﴾ [يوسف: ٨٧] وإنما حسن هذا الإطلاق، لأنه حصل بسبب وجودهما حياة القلب وهي الهداية والمعارف، فلما حسن إطلاق اسم الروح عليهما لهذا المعنى، فلأن يحسن إطلاق لفظ الروح على الوحي والتنزيل كان ذلك أولى.

والقول الثاني: في هذه الآية وهو قول أبي عبيدة إن الروح ههنا جبريل عليه السلام، والباء في قوله: ﴿بِٱلرُّوحِ﴾ بمعنى مع كقولهم خرج فلان بثيابه، أي مع ثيابه وركب الأمير بسلاحه أي مع سلاحه، فيكون المعنى: ينزل الملائكة مع الروح وهو جبريل، والأول أقرب، وتقرير هذا الوجه: أنه سبحانه وتعالى ما أنزل على محمد ﷺ جبريل وحده، بل في أكثر الأحوال كان ينزل مع جبريل أفواجًا من الملائكة، ألا ترى أن في يوم بدر وفي كثير من الغزوات كان ينزل مع جبريل عليه السلام أقوام من الملائكة، وكان ينزل على رسول الله ﷺ تارة ملك الجبال. وتارة ملك البحار. وتارة رضوان. وتارة غيرهم. وقوله: ﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ يعني أن ذلك التنزيل والنزول لا يكون إلا بأمر الله تعالى، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ﴾ [مريم: ٦٤] وقوله: ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧] وقوله: ﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠] وقوله: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ

﴿مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] فكل هذه الآيات دالة على أنهم لا يقدمون على عمل من الأعمال إلا بأمر الله تعالى وإذنه، وقوله: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ يريد الأنبياء الذين خصهم الله تعالى برسالته، وقوله: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ﴾ قال الزجاج: ﴿أَنْ﴾ بدل من الروح والمعنى: ينزل الملائكة بأن أنذروا، أي أعلموا الخلائق أنه لا إله إلا أنا، والإنذار هو الإعلام مع التخويف.

المسألة الثانية: في الآية فوائد: الفائدة الأولى: أن وصول الوحي من الله تعالى إلى الأنبياء لا يكون إلا بواسطة الملائكة، ومما يقوى ذلك أنه تعالى قال في آخر سورة البقرة: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥] فبدأ بذكر الله سبحانه ثم أتبعه بذكر الملائكة، لأنهم هم الذين يتلقون الوحي من الله ابتداء من غير واسطة، وذلك الوحي هو الكتب، ثم إن الملائكة يوصلون ذلك الوحي إلى الأنبياء فلا جرم كان الترتيب الصحيح هو الابتداء بذكر الله تعالى، ثم بذكر الملائكة، ثم بذكر الكتب وفي الدرجة الرابعة بذكر الرسل.

إذا عرفت هذا فنقول: إذا أوحى الله تعالى إلى الملك فعلم ذلك الملك بأن ذلك الوحي وحي الله علم ضروري أو استدلال. وبتقدير أن يكون استدلاليًا فكيف الطريق إليه؟ وأيضًا الملك إذا بلغ ذلك الوحي إلى الرسول فعلم الرسول بكونه ملكًا صادقًا لا شيطانًا رجيمًا ضروري أو استدلالي فإن كان استدلاليًا فكيف الطريق إليه؟ فهذه مقامات ضيقة، وتمام العلم بها لا يحصل إلا بالبحث عن حقيقة الملك وكيفية وحي الله إليه، وكيفية تبليغ الملك ذلك الوحي إلى الرسول. فأما إذا أجرينا هذه الأمور على الكلمات المألوفة صعب المرام وزال النظام، وذلك لأن آيات القرآن ناطقة بأن هذا الوحي والتنزيل إنما حصل من الملائكة أو نقول: هب أن آيات القرآن لم تدل على ذلك إلا أن احتمال كون الأمر كذلك قائم في بديهة العقل.

وإذا عرفت هذا فنقول: لا نعلم كون جبريل عليه السلام صادقًا معصومًا عن الكذب والتلبيس إلا بالدلائل السمعية، وصحة الدلائل السمعية موقوفة على أن محمدًا ﷺ صادق، وصدقه يتوقف على أن هذا القرآن معجز من قبل الله تعالى، لا من قبل شيطان خبيث، والعلم بذلك يتوقف على العلم بأن جبريل صادق محق مبرأ عن التلبيس وعن أفعال الشيطان، وحينئذ يلزم الدور، فهذا مقام صعب. أما إذا عرفنا حقيقة النبوة وعرفنا حقيقة الوحي زالت هذه الشبهة بالكلية، والله أعلم.

المسألة الرابعة: هذه الآية تدل على أن الروح المشار إليها بقوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ ليس إلا لمجرد قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ وهذا كلام حق، لأن مراتب السعادات البشرية أربعة: أولها: النفسانية، وثانيها: البدنية، وفي المرتبة الثالثة: الصفات البدنية التي لا تكون من اللوازم، وفي المرتبة الرابعة: الأمور المنفصلة عن البدن.

أما المرتبة الأولى: وهي الكمالات النفسانية، فاعلم أن النفس لها قوتان: إحداهما: استعدادها لقبول صورة الموجودات من عالم الغيب، وهذه القوة المسماة بالقوة النظرية، وسعادة هذه

القوة في حصول المعارف. وأشرف المعارف وأجلها معرفة أنه لا إله إلا هو، وإليه الإشارة بقوله: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ والقوة الثانية للنفس: استعدادها للتصرف في أجسام هذا العالم، وهذه القوة هي القوة المسماة بالقوة العملية، وسعادة هذه القوة في الإتيان بالأعمال الصالحة، وأشرف الأعمال الصالحة هو عبودية الله تعالى، وإليه الإشارة بقوله: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ ولما كانت القوة النظرية أشرف من القوة العملية لا جرم قدم الله تعالى كمالات القوة النظرية، وهي قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ على كمالات القوة العملية وهي قوله: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ .

وأما المرتبة الثانية: وهي السعادات البدنية فهي أيضًا قسمان: الصحة الجسدانية، وكمالات القوى الحيوانية، أعني القوى السبع عشرة البدنية.

وأما المرتبة الثالثة: وهي السعادات المتعلقة بالصفات العرضية البدنية، فهي أيضًا قسمان: سعادة الأصول والفروع، أعني كمال الآباء. وكمال حال الأولاد.

وأما المرتبة الرابعة: وهي أخس المراتب فهي السعادات الحاصلة بسبب الأمور المنفصلة وهي المال والجاه، فثبت أن أشرف مراتب السعادات هي الأحوال النفسانية، وهي محصورة في كمالات القوة النظرية والعملية، فلهذا السبب ذكر الله ههنا أعلى حال هاتين القوتين فقال: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ .

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣﴾

اعلم أنه تعالى لما بين فيما سبق أن معرفة الحق لذاته، وهي المراد من قوله: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ ومعرفة الخير لأجل العمل به وهي المراد من قوله: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢] روح الأرواح، ومطلع السعادات، ومنبع الخيرات والكرامات، أتبعه بذكر الدلائل على وجود الصانع الإله تعالى وكمال قدرته وحكمته.

واعلم أنا بينا أن دلائل الإلهيات، إما التمسك بطريقة الإمكان في الذوات أو في الصفات. أو التمسك بطريقة الحدوث في الذوات أو في الصفات أو بمجموع الإمكان والحدوث في الذوات أو الصفات، فهذه طرق ستة، والطريق المذكور في كتب الله تعالى المنزلة، هو التمسك بطريقة حدوث الصفات وتغيرات الأحوال. ثم هذا الطريق يقع على وجهين: أحدهما: أن يتمسك بالأظهر فالأظهر مترقيًا إلى الأخفى فالأخفى، وهذا الطريق هو المذكور في أول سورة البقرة، فإنه تعالى قال: ﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] فجعل تعالى تغير أحوال نفس كل واحد دليلاً على احتياجه إلى الخالق. ثم ذكر عقيبه الاستدلال بأحوال الآباء والأمهات، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] ثم ذكر عقيبه الاستدلال بأحوال الأرض، وهي قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢] لأن الأرض أقرب إلينا من السماء، ثم ذكر في المرتبة الرابعة قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة: ٢٢] ثم ذكر في المرتبة الخامسة الأحوال المتولدة من تركيب

السماء بالأرض، فقال: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢].

الثاني من الدلائل القرآنية؛ أن يحتج الله تعالى بالأشرف فالأشرف نازلاً إلى الأدون فالأدون، وهذا الطريق هو المذكور في هذه السورة، وذلك لأنه تعالى ابتدأ في الاحتجاج على وجود الإله المختار بذكر الأجرام العالية الفلكية، ثم ثنى بذكر الاستدلال بأحوال الإنسان، ثم ثلث بذكر الاستدلال بأحوال الحيوان، ثم ربع بذكر الاستدلال بأحوال النبات، ثم خمس بذكر الاستدلال بأحوال العناصر الأربعة، وهذا الترتيب في غاية الحسن.

إذا عرفت هذه المقدمة فنقول:

النوع الأول: من الدلائل المذكورة على وجود الإله الحكيم الاستدلال بأحوال السموات والأرض فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وقد ذكرنا في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] أن لفظ الخلق من كم وجه يدل على الاحتياج إلى الخالق الحكيم، ولا بأس بأن نعيد تلك الوجوه ههنا فنقول: الخلق عبارة عن التقدير بمقدار مخصوص، وهذا المعنى حاصل في السموات من وجوه

: الأول: أن كل جسم متناه فجسم السماء متناه، وكل ما كان متناهيًا في الحجم والقدر، كان اختصاصه بذلك القدر المعين دون الأزيد والأنقص امرًا جائزًا، وكل جائز فلا بد له من مقدر ومخصص، وكل ما كان مفتقرًا إلى الغير فهو محدث.

الثاني: وهو أن الحركة الأزلية ممتنعة، لأن الحركة تقتضي المسبوقية بالغير، والأزل ينافيه فالجمع بين الحركة والأزل محال.

إذا ثبت هذا فنقول: إما أن يقال إن الأجرام والأجسام كانت معدومة في الأزل، ثم حدثت أو يقال إنها وإن كانت موجودة في الأزل إلا أنها كانت ساكنة ثم تحركت. وعلى التقديرين فلحركتها أول، فحدوث الحركة من ذلك المبدأ دون ما قبله أو ما بعده خلق وتقدير، فوجب افتقاره إلى مقدر وخالق ومخصص له. الثالث: أن جسم الفلك مركب من أجزاء بعضها حصلت في عمق جرم الفلك وبعضها في سطحه، والذي حصل في العمق كان يعقل حصوله في السطح وبالعكس، وإذا ثبت هذا كان اختصاص كل جزء بموضعه المعين أمرًا جائزًا فيفتقر إلى المخصص والمقدر، وبقية الوجوه مذكورة في أول سورة الأنعام.

واعلم أنه سبحانه لما احتج بالخلق والتقدير على حدوث السموات والأرض قال بعده: ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ والمراد أن القائلين بقدم السموات والأرض كأنهم أثبتوا لله شريكًا في كونه قديمًا أزليًا فنزه نفسه عن ذلك، وبين أنه لا قديم إلا هو، وبهذا البيان ظهر أن الفائدة المطلوبة من قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨] في أول السورة غير الفائدة المطلوبة من ذكر هذه الكلمة ههنا، لأن المطلوب هناك إبطال قول من يقول: إن الأصنام تشفع للكفار في دفع العقاب عنهم، والمقصود ههنا إبطال قول من يقول: الأجسام قديمة،

والسموات والأرض أزلية، فنزه الله سبحانه نفسه عن أن يشاركه غيره في الأزلية والقدم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝﴾

اعلم أن أشرف الأجسام بعد الأفلاك والكواكب هو الإنسان، فلما ذكر الله تعالى الاستدلال على وجود الإله الحكيم بأجرام الأفلاك، أتبعه بذكر الاستدلال على هذا المطلوب بالإنسان.

واعلم أن الإنسان مركب من بدن ونفس، فقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ اشارة إلى الاستدلال ببدنه على وجود الصانع الحكيم، وقوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ إشارة إلى الاستدلال بأحوال نفسه على وجود الصانع الحكيم.

أما الطريق الأول: فتقريره أن نقول: لا شك أن النطفة جسم متشابه الأجزاء بحسب الحس والمشاهدة، إلا أن من الأطباء من يقول إنه مختلف الأجزاء في الحقيقة، وذلك لأنه إنما يتولد من فضلة الهضم الرابع، فإن الغذاء يحصل له في المعدة هضم أول وفي الكبد هضم ثان. وفي العروق هضم ثالث. وعند وصوله إلى جواهر الأعضاء هضم رابع. ففي هذا الوقت وصل بعض أجزاء الغذاء إلى العظم وظهر فيه أثر من الطبيعة العظيمة، وكذا القول في اللحم والعصب والعروق وغيرها ثم عند استيلاء الحرارة على البدن عند هيجان الشهوة يحصل ذوبان من جملة الأعضاء، وذلك هو النطفة، وعلى هذا التقدير تكون النطفة جسمًا مختلف الأجزاء والطبائع.

إذا عرفت هذا فنقول: النطفة في نفسها إما أن تكون جسمًا متشابه الأجزاء في الطبيعة والماهية، أو مختلف الأجزاء فيها، فإن كان الحق هو الأول لم يجز أن يكون المقتضى لتولد البدن منها هو الطبيعة الحاصلة في جوهر النطفة ودم الطمث، لأن الطبيعة تأثيرها بالذات والإيجاب لا بالتدبير والاختيار. والقوة الطبيعية إذا عملت في مادة متشابهة الأجزاء وجب أن يكون فعلها هو الكرة، وعلى هذا الحرف عولوا في قولهم البسائط يجب أن تكون أشكالها الطبيعية في الكرة فلو كان المقتضى لتولد الحيوان من النطفة هو الطبيعة، لوجب أن يكون شكلها الكرة. وحيث لم يكن الأمر كذلك، علمنا أن المقتضى لحدوث الأبدان الحيوانية ليس هو الطبيعة، بل فاعل مختار، وهو يخلق بالحكمة والتدبير والاختيار.

وأما القسم الثاني: وهو أن يقال: النطفة جسم مركب من أجزاء مختلفة في الطبيعة والماهية فنقول: بتقدير أن يكون الأمر كذلك، فإنه يجب أن يكون تولد البدن منها بتدبير فاعل مختار حكيم وبيانه من وجوه:

الوجه الأول: أن النطفة رطوبة سريعة الاستحالة، وإذا كان كذلك كانت الأجزاء الموجودة فيها لا تحفظ الوضع والنسبة، فالجزء الذي هو مادة الدماغ يمكن حصوله في الأصل، والجزء الذي هو مادة القلب قد يحصل في الفوق، وإذا كان الأمر كذلك وجب أن لا تكون أعضاء الحيوان

على هذا الترتيب المعين أمرًا دائمًا ولا أكثريًا، وحيث كان الأمر كذلك، علمنا أن حدوث هذه الأعضاء على هذا الترتيب الخاص ليس إلا بتدبيرالفاعل المختار الحكيم.

والوجه الثاني: أن النطفة بتقدير أنها جسم مركب من أجزاء مختلفة الطبائع، إلا أنه يجب أن ينتهي تحليل تركيبها إلى أجزاء يكون كل واحد منها في نفسه جسمًا بسيطًا، وإذا كان الأمر كذلك، فلو كان المدبر لها قوة طبيعية لكان كل واحد من تلك البسائط يجب أن يكون شكله هو الكرة فكان يلزم أن يكون الحيوان على شكل كرات مضمومة بعضها إلى بعض، وحيث لم يكن الأمر كذلك، علمنا أن مدبر أبدان الحيوانات ليس هي الطبائع ولا تأثيرات الأنجم والأفلاك، لأن تلك التأثيرات متشابهة، فعلمنا أن مدبر أبدان الحيوانات فاعل مختار حكيم، وهو المطلوب، هذا هو الاستدلال بأبدان الحيوان على وجود الإله المختار. وهو المراد من قوله سبحانه وتعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَـةٍ﴾ وأما الاستدلال على وجود الصانع المختار الحكيم بأحوال النفس الإنسانية فهو المراد من قوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في بيان وجه الاستدلال وتقريره: أن النفوس الإنسانية في أول الفطرة أقل فهمًا وذكاء وفطنة من نفوس سائر الحيوانات، ألا ترى أن ولد الدجاجة كما يخرج من قشر البيضة يميز بين العدو والصديق فيهرب من الهرة ويلتجىء إلى الأم، ويميز بين الغذاء الذي يوافقه والغذاء الذي لا يوافقه وأما ولد الإنسان فإنه حال انفصاله عن بطن الأم، لا يميز ألبتة بين العدو والصديق ولا بين الضار والنافع، فظهر أن الإنسان في أول الحدوث أنقص حالاً وأقل فطنة من سائر الحيوانات ثم إن الإنسان بعد كبره يقوى عقله ويعظم فهمه ويصير بحيث يقوى على مساحة السموات والأرض ويقوى على معرفة ذات الله وصفاته وعلى معرفة أصناف المخلوقات من الأرواح والأجسام والفلكيات والعنصريات ويقوى على إيراد الشبهات القوية في دين الله تعالى والخصومات الشديدة في كل المطالب فانتقال نفس الإنسان من تلك البلاد المفرطة إلى هذه الكياسة المفرطة لا بد وأن يكون بتدبير إله مختار حكيم ينقل الأرواح من نقصانها إلى كمالاتها ومن جهالاتها إلى معارفها بحسب الحكمة والاختيار، فهذا هو المراد من قوله سبحانه وتعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَـةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ .

وإذا عرفت هذه الدقيقة أمكنك التنبيه لوجوه كثيرة:

المسألة الثانية: أنه تعالى إنما يخلق الإنسان من النطفة بواسطة تغيرات كثيرة مذكورة في القرآن العزيز منها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣] إلا أنه تعالى اختصر ههنا لأجل أن ذلك الاستقصاء مذكور في سائر الآيات.

وقوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾.

فيه بحثان:

البحث الأول: قال الواحدي: الخصيم بمعنى المخاصم، قال أهل اللغة: خصيمك الذي يخاصمك وفعيل بمعنى مفاعل معروف كالنسيب بمعنى المناسب، والعشير بمعنى المعاشر، والأكيل والشريب ويجوز أن يكون خصيم فاعلاً من خصم يخصم بمعنى اختصم، ومنه قراءة حمزة: ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: ٤٩].

البحث الثاني: لقوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ وجهان: أحدهما: فإذا هو منطبق مجادل عن نفسه، منازع للخصوم بعد أن كان نطفة قذرة، وجمادًا لا حس له ولا حركة، والمقصود منه: أن الانتقال من تلك الحالة الخسيسة إلى هذه الحالة العالية الشريفة لا يحصل إلا بتدبير مدبر حكيم عليم. والثاني: فإذا هو خصيم لربه، منكر على خالقه، قائل: ﴿مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] والغرض منه وصف الإنسان بالإفراط في الوقاحة والجهل، والتمادي في كفران النعمة، والوجه الأول أوفق، لأن هذه الآيات مذكورة لتقرير وجه الاستدلال على وجود الصانع الحكيم، لا لتقرير وقاحة الناس وتماديهم في الكفر والكفران.

قوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن أشرف الأجسام الموجودة في العالم السفلي بعد الإنسان سائر الحيوانات لاختصاصها بالقوى الشريفة. وهي الحواس الظاهرة والباطنة، والشهوة والغضب، ثم هذه الحيوانات قسمان: منها ما ينتفع الإنسان بها، ومنها ما لا يكون كذلك، والقسم الأول: أشرف من الثاني، لأنه لما كان الإنسان أشرف الحيوانات وجب في كل حيوان يكون انتفاع الإنسان به أكمل. وأكثر أن يكون أكمل وأشرف من غيره، ثم نقول: والحيوان الذي ينتفع الإنسان به إما أن ينتفع به في ضروريات معيشته مثل الأكل واللبس أو لا يكون كذلك، وإنما ينتفع به في أمور غير ضرورية مثل الزينة وغيرها، والقسم الأول أشرف من الثاني، وهذا القسم هو الأنعام، فلهذا السبب بدأ الله بذكره في هذه الآية، فقال: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾.

واعلم أن الأنعام عبارة عن الأزواج الثمانية وهي: الضأن، والمعز. والإبل. والبقر، وقد يقال أيضًا: الأنعام ثلاثة: الإبل. والبقر. والنعم. قال صاحب (الكشاف): وأكثر ما يقع هذا اللفظ على الإبل. وقوله: ﴿وَالْأَنْعَامَ﴾ منصوبة وانتصابها بمضمر يفسره الظاهر كقوله تعالى:

﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩]ويجوز أن يعطف على الإنسان. أي خلق الإنسان والأنعام، قال الواحدي: تم الكلام عند قوله: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا﴾ ثم ابتدأ وقال: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ ويجوز أيضًا أن يكون تمام الكلام عند قوله: ﴿لَكُمْ﴾ ثم ابتدأ وقال: ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾ قال صاحب (النظم): أحسن الوجهين أن يكون الوقف عند قوله: ﴿خَلَقَهَا﴾ والدليل عليه أنه عطف عليه قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ والتقدير لكم فيها دفء ولكم فيها جمال.

المسألة الثانية: أنه تعالى لما ذكر أنه خلق الأنعام للمكلفين أتبعه بتعديد تلك المنافع، واعلم أن منافع النعم منها ضرورية، ومنها غير ضرورية، والله تعالى بدأ بذكر المنافع الضرورية.

فالمنفعة الأولى: قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ وقد ذكر هذه المعنى في آية أخرى فقال: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ﴾ [النحل: ٨٠] والدفء عند أهل اللغة ما يستدفأ به من الأكسية، قال الأصمعي: ويكون الدفء السخونة. يقال: أقعد في دفء هذا الحائط، أي في كِنِّهِ. وقرىء: (دِفٌ) بطرح الهمزة وإلقاء حركتها على الفاء.

والمنفعة الثانية: قوله: ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ قالوا: المراد نسلها ودرها، وإنما عبر الله تعالى عن نسلها ودرها بلفظ المنفعة وهو اللفظ الدال على الوصف الأعم، لأن النسل والدر قد ينتفع به في الأكل وقد ينتفع به في البيع بالنقود، وقد ينتفع به بأن يبدل بالثياب وسائر الضروريات فعبر عن جملة هذه الأقسام بلفظ المنافع ليتناول الكل.

والمنفعة الثالثة: قوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

فإن قيل: قوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ يفيد الحصر وليس الأمر كذلك، فإنه قد يؤكل من غيرها، وأيضًا منفعة الأكل مقدمة على منفعة اللبس، فلم أخر منفعته في الذكر؟

قلنا: الجواب عن الأول: أن الأكل منها هو الأصل الذي يعتمده الناس في معايشهم، وأما الأكل من غيرها كالدجاج والبط وصيد البر والبحر، فيشبه غير المعتاد. وكالجاري مجرى التفكه، ويحتمل أيضًا أن غالب أطعمتكم منها لأنكم تحرثون بالبقر والحب والثمار التي تأكلونها منها، وأيضًا تكتسبون باكراء الإبل وتنتفعون بألبانها ونتاجها وجلودها، وتشترون بها جميع أطعمتكم.

والجواب عن السؤال الثاني: أن الملبوس أكثر بقاء من المطعوم، فلهذا قدمه عليه في الذكر.

واعلم أن هذه المنافع الثلاثة هي المنافع الضرورية الحاصلة من الأنعام. وأما المنافع الحاصلة من الأنعام التي هي ليست بضرورية فأمور:

المنفعة الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ الإراحة رد الإبل بالعشي إلى مراحها حيث تأوي إليه ليلاً، ويقال: سرح القوم إبلهم سرحًا إذا أخرجوها بالغداة إلى المرعى. قال أهل اللغة: هذه الإراحة أكثر ما تكون أيام الربيع إذا سقط الغيث وكثر الكلأ وخرجت العرب للنجعة، وأحسن ما يكون النعم في ذلك الوقت.

واعلم أن وجه التجمل بها أن الراعي إذا روحها بالعشي وسرحها بالغداة تزينت عند تلك الإراحة والتسريح الأفنية، وتجاوب فيها الثغاء والرغاء، وفرحت أربابها وعظم وقعهم عند الناس بسبب كونهم مالكين لها.

فإن قيل: لم قدمت الإراحة على التسريح؟

قلنا: لأن الجمال في الإراحة أكثر. لأنها تقبل ملأى البطون حافلة الضروع، ثم اجتمعت في الحظائر حاضرة لأهلها بخلاف التسريح، فإنها عند خروجها إلى المرعى تخرج جائعة عادمة اللبن ثم تأخذ في التفرق والإنتشار، فظهر أن الجمال في الإراحة أكثر منه في التسريح.

والمنفعة الثانية: قوله: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: الأثقال جمع ثقل وهو متاع المسافر لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس. قال ابن عباس: يريد من مكة إلى المدينة. أو إلى اليمن. أو إلى الشام. أو إلى مصر. قال الواحدي: هذا قوله والمراد كل بلد لو تكلفتم بلوغه على غير إبل لشق عليكم وخص ابن عباس هذه البلاد، لأن متاجر أهل مكة كانت إلى هذه البلاد، وقرىء: ﴿بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾ بكسر الشين وفتحها، وأكثر القراء على كسر الشين. والشَّق المشقة والشِّق نصف الشيء، وحمل اللفظ ههنا على كلا المعنيين جائز، فإن حملناه على المشقة كان المعنى: لم تكونوا بالغيه إلا بالمشقة، وإن حملناه على نصف الشيء كان المعنى: لم تكونوا بالغيه إلا عند ذهاب النصف من قوتكم أو من بدنكم ويرجع عند التحقيق إلى المشقة. ومن الناس من قال: المراد من قوله: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ﴾ الإبل فقط بدليل أنه وصفها في آخر الآية بقوله ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ﴾ وهذا الوصف لا يليق إلا بالإبل.

قلنا: المقصود من هذه الآيات تعديد منافع الأنعام فبعض تلك المنافع حاصلة في الكل وبعضها مختص بالبعض، والدليل عليه: أن قوله: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ﴾ حاصل في البقر والغنم مثل حصوله في الإبل، والله أعلم.

المسألة الثانية: احتج منكرو كرامات الأولياء بهذه الآية فقالوا: هذه الآية تدل على أن الإنسان لا يمكنه الانتقال من بلد إلى بلد إلا بشق الأنفس؛ وحمل الأثقال على الجمال ومثبتو الكرامات يقولون: إن الأولياء قد ينتقلون من بلد إلى بلد آخر بعيد في ليلة واحدة من غير تعب وتحمل مشقة، فكان ذلك على خلاف هذه الآية فيكون باطلاً، ولما بطل القول بالكرامات في هذه الصورة بطل القول بها في سائر الصور، لأنه لا قائل بالفرق.

وجوابه: أنا نخصص عموم هذه الآية بالأدلة الدالة على وقوع الكرمات. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر منافع الحيوانات التي ينتفع الإنسان بها في المنافع الضرورية والحاجات الأصلية، ذكر بعده منافع الحيوانات التي ينتفع بها الإنسان في المنافع التي ليست بضرورية، فقال: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ .

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ﴾ عطف على الأنعام، أي وخلق الأنعام لكذا وكذا، وخلق هذه الأشياء للركوب.

وقوله: ﴿وَزِينَةً﴾ أي وخلقها زينة، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا﴾ [فصلت: ١٢] المعنى: وحفظناها حفظًا. قال الزجاج: نصب قوله: ﴿وَزِينَةً﴾ على أنه مفعول له. والمعنى: وخلقها للزينة.

المسألة الثانية: احتج القائلون بتحريم لحوم الخيل بهذه الآية. فقالوا منفعة الأكل أعظم من منفعة الركوب، فلو كان أكل لحم الخيل جائزًا لكان هذا المعنى أولى بالذكر، وحيث لم يذكره الله تعالى علمنا أنه يحرم أكله، ويمكن أيضًا أن يقوى هذا الاستدلال من وجه آخر. فيقال: إنه تعالى قال في صفة الأنعام: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥] وهذه الكلمة تفيد الحصر، فيقتضي أن لا يجوز الأكل من غير الأنعام، فوجب أن يحرم أكل لحم الخيل بمقتضى هذا الحصر، ثم إنه تعالى بعد هذا الكلام ذكر الخيل والبغال والحمير وذكر أنها مخلوقة للركوب، فهذا يقتضي أن منفعة الأكل مخصوصة بالأنعام وغير حاصلة في هذه الأشياء، ويمكن الاستدلال بهذه الآية من وجه ثالث وهو أن قوله: ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ يقتضي أن تمام المقصود من خلق هذه الأشياء الثلاثة هو الركوب والزينة، ولو حل أكلها لما كان تمام المقصود من خلقها هو الركوب، بل كان حل أكلها أيضًا مقصودًا، وحينئذ يخرج جواز ركوبها عن أن يكون تمام المقصود، بل يصير بعض المقصود.

وأجاب الواحدي بجواب في غاية الحسن فقال: لو دلت هذه الآية على تحريم أكل هذه الحيوانات لكان تحريم أكلها معلومًا في مكة لأجل أن هذه السورة مكية، ولو كان الأمر كذلك لكان قول عامة المفسرين والمحدثين أن لحوم الحمر الأهلية حرمت عام خيبر باطلاً، لأن التحريم لما كان حاصلاً قبل هذا اليوم لم يبق لتخصيص هذا التحريم بهذه الشبهة فائدة، وهذا جواب حسن متين.

المسألة الثالثة: القائلون بأن أفعال الله تعالى معللة بالمصالح والحكم، احتجوا بظاهر هذه الآية فإنه يقتضي أن هذه الحيوانات مخلوقة لأجل المنفعة الفلانية، ونظيره قوله: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ١] وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا

﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] والكلام فيه معلوم.

المسألة الرابعة: لقائل أن يقول لما كان معنى الآية أنه تعالى خلق الخيل والبغال والحمير لتركبوها وليجعلها زينة لكم فلم ترك هذه العبارة؟

وجوابه أنه تعالى لو ذكر هذا الكلام بهذه العبارة لصار المعنى أن التزين بها أحد الأمور المعتبرة في المقصود، وذلك غير جائز، لأن التزين بالشيء يورث العجب والتيه والتكبر، وهذه أخلاق مذمومة والله تعالى نهى عنها وزجر عنها فكيف يقول إني خلقت هذه الحيوانات لتحصيل هذه المعاني بل قال: خلقها لتركبوها فتدفعوا عن أنفسكم بواسطتها ضرر الإعياء والمشقة، وأما التزين بها فهو حاصل في نفس الأمر، ولكنه غير مقصود بالذات، فهذا هو الفائدة في اختيار هذه العبارة.

أو اعلم أنه تعالى لما ذكر أولاً: أحوال الحيوانات التي ينتفع الإنسان بها انتفاعًا ضروريًا وثانيًا: أحوال الحيوانات التي لا ينتفع الإنسان بها انتفاعًا غير ضروري بقي القسم الثالث من الحيوانات وهي الأشياء التي لا ينتفع الإنسان بها في الغالب فذكرها على سبيل الإجمال فقال: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وذلك لأن أنواعها وأصنافها وأقسامها كثيرة خارجة عن الحد والإحصاء ولو خاض الإنسان في شرح عجائب أحوالها لكان المذكور بعد كتبة المجلدات الكثيرة كالقطرة في البحر فكان أحس الأحوال ذكرها على سبيل [illegible] كما ذكر الله تعالى في هذه الآية، وروى عطاء ومقاتل والضحاك عن ابن عباس أنه قال [illegible]ن على يمين العرش نهرًا من نور مثل السموات السبع والأرضين السبع، والبحار السبعة يدخل فيه جبريل عليه السلام كل سحر ويغتسل فيزداد نورًا إلى نوره وجمالاً إلى جماله، ثم ينتفض فيخلق الله من كل نقطة تقع من ريشه كذا وكذا ألف ملك يدخل منهم كل يوم سبعون ألفًا البيت المعمور، وفي الكعبة أيضًا سبعون ألفًا، ثم لا يعودون إليه إلى أن تقوم الساعة.

قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩ ﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح دلائل التوحيد قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي إنما ذكرت هذه الدلائل وشرحتها إزاحة للعذر وإزالة للعلة ليهلك من هلك عن بينة. ويحيى من حي عن بينة وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى:

قال الواحدي: القصد استقامة الطريق يقال: طريق قصد وقاصد إذا أداك إلى مطلوبك، إذا عرفت هذا ففي الآية حذف، والتقدير: وعلى الله بيان قصد السبيل، ثم قال: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ أي عادل مائل ومعنى الجور في اللغة الميل عن الحق والكناية في قوله: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ تعود على السبيل، وهي مؤنثة في لغة الحجاز يعني ومن السبيل ما هو جائر غير قاصد للحق وهو

أنواع الكفر والضلال، والله أعلم.

المسألة الثانية: قالت المعتزلة: دلت الآية على أنه يجب على الله تعالى الإرشاد والهداية إلى الدين وإزاحة العلل والأعذار، لأنه تعالى قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ وكلمة (على) للوجوب قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧] ودلت الآية أيضًا على أنه تعالى لا يضل أحدًا ولا يغويه ولا يصده عنه، وذلك لأنه تعالى لو كان فاعلاً للضلال لقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ وعليه جائرها أو قال: وعليه الجائر فلما لم يقل كذلك بل قال في قصد السبيل أنه عليه، ولم يقل في جور السبيل أنه عليه بل قال ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ دل على أنه تعالى لا يضل عن الدين أحدًا.

أجاب أصحابنا أن المراد على الله بحسب الفضل والكرم أن يبين الدين الحق والمذهب الصحيح فإما أن يبين كيفية الاغواء والإضلال فذلك غير واجب فهذا هو المراد، والله أعلم.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يدل على أنه تعالى ما شاء هداية الكفار، وما أراد منهم الإيمان، لأن كلمة (لو) تفيد انتفاء شيء لانتفاء شيء غيره قوله؛ ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ﴾ معناه: لو شاء هدايتكم لهداكم، وذلك يفيد أنه تعالى ما شاء هدايتهم فلا جرم ما هداهم، وذلك يدل على المقصود.

وأجاب الأصم عنه بأن المراد لو شاء أن يلجئكم إلى الإيمان لهداكم، وهذا يدل على أن مشيئة الإلجاء لم تحصل.

وأجاب الجبائي بأن المعنى: ولو شاء لهداكم إلى الجنة وإلى نيل الثواب لكنه لا يفعل ذلك إلا بمن يستحقه، ولم يرد به الهدى إلى الإيمان، لأنه مقدور جميع المكلفين.

وأجاب بعضهم فقال المراد: ولو شاء لهداكم إلى الجنة ابتداء على سبيل التفضل، إلا أنه تعالى عرفكم للمنزلة العظيمة بما نصب من الأدلة وبين، فمن تمسك بها فاز بتلك المنازل ومن عدل عنها فاتته وصار إلى العذاب، والله أعلم.

واعلم أن هذه الكلمات قد ذكرناها مرارًا وأطوارًا مع الجواب فلا فائدة في الإعادة.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾

اعلم أن أشرف أجسام العالم السفلي بعد الحيوان النبات، فلما قرر الله تعالى الاستدلال على وجود الصانع الحكيم بعجائب أحوال الحيوانات، أتبعه في هذه الآية بذكر الاستدلال على وجود الصانع الحكيم بعجائب أحوال النبات.

واعلم أن الماء المنزل من السماء هو المطر، وأما أن المطر نازل من السحاب أو من السماء

فقد ذكرناه في هذا الكتاب مرارًا، والحاصل: أن ماء المطر قسمان: أحدهما: هو الذي جعله الله تعالى شرابًا لنا ولكل حي، وهو المراد بقوله: ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ وقد بين الله تعالى في آية أخرى أن هذه النعمة جليلة فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

فإن قيل: أفتقولون إن شرب الخلق ليس إلا من المطر، أو تقولون قد يكون منه وقد يكون من غيره، وهو الماء الموجود في قعر الأرض؟

أجاب القاضي: بأنه تعالى بين أن المطر شرابنا ولم ينف أن نشرب من غيره.

ولقائل أن يقول: ظاهر الآية يدل على الحصر، لأن قوله: ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ يفيد الحصر لأن معناه منه لا من غيره.

إذا ثبت هذا فنقول: لا يمتنع أن يكون الماء العذب تحت الأرض من جملة ماء المطر يسكن هناك، والدليل عليه قوله تعالى في سورة المؤمنين: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨] ولا يمتنع أيضًا في غير العذب وهو البحر أن يكون من جملة ماء المطر، والقسم الثاني من المياه النازلة من السماء ما يجعله الله سببًا لتكوين النبات وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ إلى آخر الآية.

وفيه مباحث:

البحث الأول: ظاهر هذه الآية يقتضي أن إسامة الشجر ممكنة، وهذا إنما يصح لو كان المراد من الشجر الكلأ والعشب، وههنا قولان:

القول الأول: قال الزجاج: كل ما ثبت على الأرض فهو شجر وأنشد:

يُطْعِمُهَا اللَّحْمَ إِذَا عَزَّ الشَّجَرُ(١)

يعني أنهم يسقون الخيل اللبن إذا أجدبت الأرض، وقال ابن قتيبة في هذه الآية المراد من الشجر الكلأ، وفي حديث عكرمة لا تأكلوا ثمن الشجر فإنه سحت يعني الكلأ.

ولقائل أن يقول: إنه تعالى قال: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦] والمراد من النجم ما ينجم من الأرض مما ليس له ساق، ومن الشجر ما له ساق، هكذا قال المفسرون، وبالجملة فلما عطف الشجر على النجم دل على التغاير بينهما، ويمكن أن يجاب عنه بأنه عطف الجنس على

---

(١) هذا البيت رأيته لشاعرين الشاعر الأول هو الطرماح وهو الطِّرِمّاح بن حكيم بن الحكم، من طيء؟- ١٢٥ هـ/ ؟- ٧٤٣ م، شاعر إسلامي فحل، ولد ونشأ في الشام، وانتقل إلى الكوفة فكان معلماً فيها. واعتقد مذهب (الشراة) من الأزارقة (الخوارج)، واتصل بخالد بن عبد الله القسري فكان يكرمه ويستجيد شعره، وكان هجاءاً، معاصراً للكميت صديقاً له، لا يكادان يفترقان، قال: الجاحظ: (كان قحطانياً عصبياً)، والشاعر الثاني هو النمر بن تولب وهو النمر بن تولب بن زهير بن أقيش، ينتهي نسبه إلى عوف بن وائل بن قيس بن عبد مناة. ؟ - ١٤ هـ/ ؟ - ٦٣٥ م، شاعر جاهلي أدرك الإسلام وهو كبير فأسلم وعُد من الصحابة وروي حديثاً عن الرسول وكان له ولد يدعى ربيعة، وأخ يدعى الحارث بن تولب (سيد مُعظَّم في قومه)، ونشأ بين قومه في بلاد نجد ثم نزلوا ما بين اليمامة وهجر. توفي في آخر خلافة أبي بكر الصديق.

النوع وبالضد مشهور وأيضًا فلفظ الشجر مشعر بالاختلاط، يقال: تشاجر القوم إذا اختلط أصوات بعضهم بالبعض وتشاجرت الرماح إذا اختلطت وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥] ومعنى الاختلاط حاصل في العشب والكلأ، فوجب جواز إطلاق لفظ الشجر عليه.

القول الثاني: أن الإبل تقدر على رعي ورق الأشجار الكبار، وعلى هذا التقدير فلا حاجة إلى ما ذكرناه في القول الأول.

البحث الثاني: قوله: ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي في الشجر ترعون مواشيكم يقال: أسمت الماشية إذا خليتها ترعى، وسامت هي تسوم سومًا إذا رعت حيث شاءت فهي سوام وسائمة قال الزجاج: أخذ ذلك من السومة وهي العلامة. وتأويلها أنها تؤثر في الأرض برعيها علامات، وقال غيره: لأنها تعلم للإرسال في المرعى، وتمام الكلام في هذا اللفظ قد ذكرناه في سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ [آل عمران: ١٤].

أما قوله تعالى: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ﴾.

ففيه مباحث:

البحث الأول: هو أن النبات الذي ينبته الله من ماء السماء قسمان: أحدهما: معد لرعي الأنعام وإسامة الحيوانات، وهو المراد من قوله: ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾. والثاني: ما كان مخلوقًا لأكل الإنسان وهو المراد من قوله: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ﴾.

فإن قيل: إنه تعالى بدأ في هذه الآية بذكر ما يكون مرعى للحيوانات، وأتبعه بذكر ما يكون غذاء للإنسان، وفي آية أخرى عكس هذا الترتيب فبدأ بذكر مأكول الإنسان، ثم بما يرعاه سائر الحيوانات فقال: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾ [طه: ٥٤] فما الفائدة فيه؟

قلنا: أما الترتيب المذكور في هذه الآية فينبه على مكارم الأخلاق وهو أن يكون اهتمام الإنسان بمن يكون تحت يده أكمل من اهتمامه بحال نفسه، وأما الترتيب المذكور في الآية الأخرى، فالمقصود منه ما هو المذكور في قوله عليه السلام: «ابْدَأْ بِنَفْسِكِ ثُمَّ بِمَنْ تَعُولُ»(١).

البحث الثاني: قرأ عاصم في رواية أبي بكر: (نُنْبِتُ) بالنون على التفخيم والباقون بالياء، قال

---

(١) أورده ابن حجر في (تلخيص الحبير) (٢/ ١٨٤) حديث رقم/ ٨٧١، وقال: لم أره هكذا بل الصحيحين من حديث أبي هريرة أفضل الصدقة ما كان عن ظهر غنى واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول ولمسلم عن جابر في قصة المدبر في بعض الطرق ابدأ بنفسك فتصدق عليها فإن فضل شيء فلأهلك ورواه الشافعي عن مسلم وعبد المجيد عن ابن جريج أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابرا يقول فذكر قصة المدبر وقال فيه إذا كان أحدكم فقيرا فليبدأ بنفسه فإن كان له فضل فليبدأ مع نفسه لمن يعول (قلت) وجاء الحديث بنحوه.

صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (الزكاة) باب (لا صدقة الإ عن ظهر غنى) (٣/ ٣٤٥) حديث رقم/ ١٤٢٦، من طريق ابن وهب... به، والنسائي في كتاب (الزكاة) باب (أي الصدقة أفضل) (٣/ ٢٢) حديث رقم/ ٢٥٤٣، من طريق الليث عن أبي الزبير عن جابر قال أعتق رجل من بني عذرة عبدا له عن دبرَ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال=

الواحدي: والياء أشبه بما تقدم.

البحث الثالث: اعلم أن الإنسان خلق محتاجًا إلى الغذاء، والغذاء إما أن يكون من الحيوان أو من النبات. والغذاء الحيواني أشرف من الغذاء النباتي، لأن تولد أعضاء الإنسان عند أكل أعضاء الحيوان أسهل من تولدها عند أكل النبات لأن المشابهة هناك أكمل وأتم والغذاء الحيواني إنما يحصل من إسامة الحيوانات والسعي في تنميتها بواسطة الرعي، وهذا هو الذي ذكره الله تعالى في الإسامة، وأما الغذاء النباتي فقسمان: حبوب. وفواكه، أما الحبوب فإليها الإشارة بلفظ الزرع وأما الفواكه فأشرفها الزيتون. والنخيل. والأعناب، أما الزيتون فلأنه فاكهة من وجه وإدام من وجه آخر لكثرة ما فيه من الدهن ومنافع الأدهان كثيرة في الأكل والطلي واشتعال السرج، وأما امتياز النخيل والأعناب من سائر الفواكه، فظاهر معلوم، وكما أنه تعالى لما ذكر الحيوانات التي ينتفع الناس بها على التفصيل، ثم قال في صفة البقية: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨] فكذلك ههنا لما ذكر الأنواع المنتفع بها من النبات، قال في صفة البقية: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ تنبيهًا على أن تفصيل القول في أجناسها وأنواعها وصفاتها ومنافعها لا يمكن ذكره في مجلدات، فالأولى الاقتصار فيه على الكلام المجمل.

ثم قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وهاهنا بحثان:

البحث الأول: في شرح كون هذه الأشياء آيات دالة على وجود الله تعالى فنقول: إن الحبة الواحدة تقع في الطين فإذا مضت على هذه الحالة مقادير معينة من الوقت نفذت في داخل تلك الحبة أجزاء من رطوبة الأرض ونداوتها فتنتفخ الحبة فينشق أعلاها وأسفلها، فيخرج من أعلى تلك الحبة شجرة صاعدة من داخل الأرض إلى الهواء. ومن أسفلها شجرة أخرى غائصة في قعر الأرض وهذه الغائصة هي المسماة بعروق الشجرة، ثم إن تلك الشجرة لا تزال تزداد وتنمو وتقوى، ثم يخرج منها الأوراق والأزهار والأكمام والثمار، ثم إن تلك الثمرة تشتمل على أجسام مختلفة الطبائع مثل العنب، فإن قشره وعجمه باردان يابسان كثيفان، ولحمه وماؤه حاران رطبان لطيفان.

إذا عرفت هذا فنقول: نسبة الطبائع السفلية إلى هذا الجسم متشابهة ونسبة التأثيرات الفلكية والتحريكات الكوكبية إلى الكل متشابهة. ومع تشابه نسب هذه الأشياء ترى هذه الأجسام مختلفة في الطبع والطعم واللون والرائحة والصفة، فدل صريح العقل على أن ذلك ليس إلا لأجل فاعل قادر حكيم رحيم فهذا تقدير هذه الدلالة.

=ألك مال غيره فقال لا فقال من يشتريه مني فاشتراه نعيم بن عبد الله العدوي بثمانمائة درهم فجاء بها رسول الله ﷺ فدفعها إليه ثم قال: ابدأ بنفسك فتصدق عليها فإن فضل شيء فلأهلك فإن فضل عن أهلك شيء فلذي قرابتك فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا يقول فبين يديك وعن يمينك وعن شمالك.

البحث الثاني: أنه تعالى ختم هذه الآية بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ والسبب فيه أنه تعالى ذكر أنه: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُم مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ﴾.

ولقائل أن يقول: لا نسلم أنه تعالى هو الذي أنبتها ولم لا يجوز أن يقال: إن هذه الأشياء إنما حدثت وتولدت بسبب تعاقب الفصول الأربعة وتأثيرات الشمس والقمر والكواكب؟ وإذا عرفت هذا السؤال فما لم يقم الدليل على فساد هذا الاحتمال لا يكون هذا الدليل تامًا وافيًا بإفادة هذا المطلوب، بل يكون مقام الفكر والتأمل باقيًا، فلهذا السبب ختم هذه الآية بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن الله تعالى لما أجاب في هذه الآية عن السؤال الذي ذكرناه من وجهين: الأول: أن نقول: إن حدوث الحوادث في هذا العالم السفلي مسندة إلى الاتصالات الفلكية والتشكلات الكوكبية إلا أنه لا بد لحركاتها واتصالاتها من أسباب، وأسباب تلك الحركات إما ذواتها وإما أمور مغايرة لها، والأول باطل لوجهين: الأول: أن الأجسام متماثلة، فلو كان جسم علة لصفة لكان كل جسم واجب الاتصاف بتلك الصفة وهو محال، والثاني: أن ذات الجسم لو كانت علة لحصول هذا الجزء من الحركة لوجب دوام هذا الجزء من الحركة بدوام تلك الذات، ولو كان كذلك، لوجب بقاء الجسم على حالة واحدة من غير تغير أصلاً، وذلك يوجب كونه ساكنًا، ويمنع من كونه متحركًا، فثبت أن القول بأن الجسم متحرك لذاته يوجب كونه ساكنًا لذاته وما أفضى ثبوته إلى عدمه كان باطلاً، فثبت أن الجسم يمتنع أن يكون متحركًا لكونه جسمًا، فبقي أن يكون متحركًا لغيره، وذلك الغير إما أن يكون ساريًا فيه أو مباينًا عنه، والأول باطل، لأن البحث المذكور عائد في أن ذلك الجسم بعينه لم اختص بتلك القوة بعينها دون سائر الأجسام، فثبت أن محرك أجسام الأفلاك والكواكب أمور مباينة عنها، وذلك المباين إن كان جسمًا أو جسمانيًا عاد التقسم الأول فيه، وإن لم يكن جسمًا ولا جسمانيًا فإما أن يكون موجبًا بالذات أو فاعلاً مختارًا والأول باطل، لأن نسبة ذلك الموجب بالذات إلى جميع الأجسام على السوية، فلم يكن بعض الأجسام بقبول بعض الآثار المعينة أولى من بعض، ولما بطل هذا ثبت أن محرك الأفلاك والكواكب هو الفاعل المختار القادر المنزه عن كونه جسمًا وجسمانيًا، وذلك هو الله تعالى، فالحاصل أنا ولو حكمنا بإسناد حوادث العالم السفلي إلى

الحركات الفلكية والكوكبية فهذه الحركات الكوكبية والفلكية لا يمكن إسنادها إلى أفلاك أخرى وإلا لزم التسلسل وهو محال، فوجب أن يكون خالق هذه الحركات ومدبرها هو الله تعالى، وإذا كانت الحوادث السفلية مستندة إلى الحركات الفلكية، وثبت أن الحركات الفلكية حادثة بتخليق الله تعالى وتقديره وتكوينه، فكان هذا اعترافًا بأن الكل من الله تعالى وبإحداثه وتخليقه، وهذا هو المراد من قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ يعني إن كانت تلك الحوادث السفلية لأجل تعاقب الليل والنهار وحركات الشمس والقمر، فهذه الأشياء لا بد وأن يكون حدوثها بتخليق الله تعالى وتسخيره قطعًا للتسلسل، ولما تم هذا الدليل في هذا المقام لا جرم ختم هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يعني أن كل من كان عاقلاً علم أن القول بالتسلسل باطل ولا بد من الانتهاء في آخر الأمر إلى الفاعل المختار القدير فهذا تقرير أحد الجوابين.

والجواب الثاني عن ذلك السؤال أن نقول: نحن نقيم الدلالة على أنه لا يجوز أن يكون حدوث النبات والحيوان لأجل تأثير الطباع والأفلاك والأنجم، وذلك لأن تأثير الطبائع والأفلاك والأنجم والشمس والقمر بالنسبة إلى الكل واحد، ثم نرى أنه إذا تولد العنب كان قشره على طبع وعجمه على طبع ولحمه على طبع ثالث وماؤه على طبع رابع، بل نقول: إنا نرى في الورد ما يكون أحد وجهي الورقة الواحدة منه في غاية الصفرة، والوجه الثاني من تلك الورقة في غاية الحمرة وتلك الورقة تكون في غاية الرقة واللطافة، ونعلم بالضرورة أن نسبة الأنجم والأفلاك إلى وجهي تلك الورقة الرقيقة، نسبة واحدة، والطبيعة الواحدة في المادة الواحدة لا تفعل إلا فعلاً واحدًا، ألا ترى أنهم قالوا: شكل البسيط هو الكرة لأن تأثير الطبيعة الواحدة في المادة الواحدة يجب أن يكون متشابهًا، والشكل الذي يتشابه جميع جوانبه هو الكرة، وأيضًا إذا وضعنا الشمع فإذا استضاء خمسة أذرع من ذلك الشمع من أحد الجوانب، وجب أن يحصل مثل هذا الأثر في جميع الجوانب، لأن الطبيعة المؤثرة يجب أن تتشابه نسبتها إلى كل الجوانب.

إذا ثبت هذا فنقول: ظهر أن نسبة الشمس والقمر والأنجم والأفلاك والطبائع إلى وجهي تلك الورقة اللطيفة الرقيقة نسبة واحدة، وثبت أن الطبيعة المؤثرة متى كانت نسبتها واحدة كان الأثر متشابهًا وثبت أن الأثر غير متشابه، لأن أحد جانبي تلك الورقة في غاية الصفرة، والوجه الثاني في غاية الحمرة فهذا يفيد القطع بأن المؤثر في حصول هذه الصفات والألوان والأحوال ليس هو الطبيعة، بل المؤثر فيها هو الفاعل المختار الحكيم، وهو الله سبحانه وتعالى، وهذا هو المراد من قوله: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾.

واعلم أنه لما كان مدار هذه الحجة على أن المؤثر الموجب بالذات وبالطبيعة يجب أن يكون نسبته إلى الكل نسبة واحدة، فلما دل الحس في هذه الأجسام النباتية على اختلاف صفاتها وتنافر

أحوالها ظهر أن المؤثر فيها ليس واجبًا بالذات بل فاعلاً مختارًا فهذا تمام تقرير هذه الدلائل وثبت أن ختم الآية الأولى بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ والآية الثانية بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ والآية الثالثة بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ هو الذي نبه على هذه الفوائد النفيسة والدلائل الظاهرة والحمد لله على ألطافه في الدين والدنيا.

المسألة الثانية: قرأ ابن عامر: (والشَّمْسُ والْقَمَرُ والنُّجُومُ) كلها بالرفع على الابتداء والخبر هو قوله: ﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾ وقرأ حفص عن عاصم: (وَالنُّجُومُ) بالرفع على أن يكون قوله: ﴿وَالنُّجُومَ﴾ ابتداء وإنما حملها على هذا لئلا يتكرر لفظ التسخير، إذ العرب لا تقول سخرت هذا الشيء مسخرًا فجوابه أن المعنى أنه تعالى سخر لنا هذه الأشياء حال كونها مسخرة تحت قدرته وإرادته، وهذا هو الكلام الصحيح، والتقدير: أنه تعالى سخر للناس هذه الأشياء وجعلها موافقة لمصالحها حال كونها مسخرة تحت قدرة الله تعالى وأمره وإذنه، وعلى هذا التقدير فالتكرير الخالي عن الفائدة غير لازم والله أعلم.

بقي في الآية سؤالات:

السؤال الأول: التسخير عبارة عن القهر والقسر، ولا يليق ذلك إلا بمن هو قادر يجوز أن يقهر، فكيف يصح ذلك في الليل والنهار وفي الجمادات والشمس والقمر؟

والجواب من وجهين: الأول: أنه تعالى لما دبر هذه الأشياء على طريقة واحدة مطابقة لمصالح العباد صارت شبيهة بالعبد المنقاد المطواع، فلهذا المعنى أطلق على هذا النوع من التدبير لفظ التسخير. وعن الوجه الثاني في الجواب: وهو لا يستقيم إلا على مذهب أصحاب علم الهيئة، وذلك لأنهم يقولون: الحركة الطبيعية للشمس والقمر هي الحركة من المغرب إلى المشرق والله تعالى يحرك هذه الكواكب بواسطة حركة الفلك الأعظم من المشرق إلى المغرب، فكانت هذه الحركة قسرية، فلهذا السبب ورد فيها اللفظ التسخير.

السؤال الثاني: إذا كان لا يحصل للنهار والليل وجود إلا بسبب حركات الشمس كان ذكر النهار والليل مغنيًا عن ذكر الشمس.

والجواب: أن حدوث النهار والليل ليس بسبب حركة الشمس، بل حدوثهما بسبب حركة الفلك الأعظم الذي دللنا على أن حركته ليست إلا بتحريك الله سبحانه، وأما حركة الشمس فإنها علة لحدوث السنة لا لحدوث اليوم.

السؤال الثالث: ما معنى قوله: ﴿مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ والمؤثر في التسخير هو القدرة لا الأمر.

والجواب: أن هذه الآية مبنية على أن الأفلاك والكواكب جمادات أم لا، وأكثر المسلمين على أنها جمادات، فلا جرم حملوا الأمر في هذه الآية على الخلق والتقدير، ولفظ الأمر بمعنى الشأن والفعل كثير قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[النحل: ٤٠] ومن الناس من يقول إنها ليست جمادات فههنا يحمل الأمر على الأذن والتكليف، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما احتج على إثبات الإله في المرتبة الأولى بأجرام السموات، وفي المرتبة الثانية ببدن الإنسان ونفسه، وفي المرتبة الثالثة بعجائب خلقة الحيوانات، وفي المرتبة الرابعة بعجائب طبائع النبات ذكر في المرتبة الخامسة الاستدلال على وجود الصانع بعجائب أحوال العناصر فبدأ منها بالاستدلال بعنصر الماء.

واعلم أن علماء الهيئة قالوا: ثلاثة أرباع كرة الأرض غائصة في الماء وذاك هو البحر المحيط وهو كلية عنصر الماء وحصل في هذا الربع المسكون سبعة من البحار كما قال بعده: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان: ٢٧] والبحر الذي سخره الله تعالى للناس هو هذه البحار، ومعنى تسخير الله تعالى إياها للخلق جعلها بحيث يتمكن الناس من الانتفاع بها إما بالركوب أو بالغوص.

واعلم أن منافع البحار كثيرة والله تعالى ذكر منها في هذه الآية ثلاثة أنواع:

المنفعة الأولى: قوله تعالى: ﴿لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال ابن الأعرابي لحم طري غير مهموز، وقد طرو يطرو طراوة، وقال الفراء: طرا يطرا طراء ممدودًا وطراوة كما يقال شقي يشقى شقاء وشقاوة.

واعلم أن في ذكر الطري مزيد فائدة، وذلك لأنه لو كان السمك كله مالحًا، لما عرف به من قدرة الله تعالى ما يعرف بالطري فإنه لما خرج من البحر الملح الزعاق الحيوان الذي لحمه في غاية العذوبة علم أنه إنما حدث لا بحسب الطبيعة، بل بقدرة الله وحكمته حيث أظهر الضد من الضد.

المسألة الثانية: قال أبو حنيفة رحمه الله: لو حلف لا يأكل اللحم فأكل لحم السمك لا يحنث قالوا: لأن لحم السمك ليس بلحم، وقال آخرون: إنه يحنث لأنه تعالى نص على كونه لحمًا في هذه الآية وليس فوق بيان الله بيان. روي أن أبا حنيفة رحمه الله لما قال بهذا القول وسمعه سفيان الثوري فأنكر عليه ذلك، واحتج عليه بهذه الآية بعث إليه رجلاً وسأله عن رجل حلف لا يصلي على البساط فصلى على الأرض هل يحنث أم لا؟ قال سفيان: لا يحنث فقال السائل: أليس أن الله تعالى قال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ [نوح: ١٩] قال فعرف سفيان أن ذلك كان بتلقين أبي حنيفة.

ولقائل أن يقول: هذا الكلام ليس بقوي، لأن أقصى ما في الباب أنا تركنا العمل بظاهر القرآن في لفظ البساط للدليل الذي قام عليه فكيف يلزمنا ترك العمل بظاهر القرآن في آية أخرى والفرق بين الصورتين من وجهين:

الأول: أنه لما حلف لا يصلي على البساط فلو أدخلنا الأرض تحت لفظ البساط لزمنا أن نمنعه من الصلاة، لأنه إن صلى على الأرض المفروشة بالبساط لزمه الحنث لا محالة، ولو صلى على الأرض التي لا تكون مفروشة لزمه الحنث أيضًا على تقدير أن يدخل الأرض تحت لفظ البساط، فهذا يقتضي منعه من الصلاة، وذلك مما لا سبيل إليه بخلاف ما إذا أدخلنا لحم السمك تحت لفظ اللحم، لأنه ليس في منعه من أكل اللحم على الإطلاق محذور فظهر الفرق.

الثاني: أنا نعلم بالضرورة من عرف أهل اللغة أن وقوع اسم البساط على الأرض الخالصة مجاز أما وقوع اسم اللحم على لحم السمك فلم يعرف أنه مجاز، فظهر الفرق، والله أعلم.

وحجة أبي حنيفة رحمه الله أن: مبنى الأيمان على العادة، وعادة الناس إذا ذكر اللحم على الإطلاق أن لا يفهم منه لحم السمك بدليل أنه إذا قال الرجل لغلامه اشتر بهذه الدراهم لحمًا فجاء بالسمك كان حقيقًا بالإنكار.

والجواب: أنا رأيناكم في كتاب الأيمان تارة تعتبرون اللفظ وتارة تعتبرون العرف، وما رأيناكم ذكرتم ضابطًا بين القسمين والدليل عليه أنه إذا قال لغلامه اشتر بهذه الدراهم لحمًا فجاء بلحم العصفور كان حقيقًا بالإنكار عليه، مع أنكم تقولون إنه يحنث بأكل لحم العصفور، فثبت أن العرف مضطرب، والرجوع إلى نص القرآن متعين، والله أعلم.

المنفعة الثانية: من منافع البحر قوله تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ والمراد بالحلية اللؤلؤ والمرجان كما قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] والمراد: بلبسهم لبس نسائهم لأنهن من جملتهم، ولأن إقدامهن على التزين بها إنما يكون من أجلهم فكأنها زينتهم ولباسهم، ورأيت بعض أصحابنا تمسكوا في مسألة أنه لا يجب الزكاة في الحلي المباح بحديث عروة عن النبي ﷺ أنه قال: «لاَ زَكَاةَ فِي الْحُلِيِّ»[(١)] فقلت هذا الحديث ضعيف الرواية وبتقدير الصحة فيمكن أن يقال فيه لفظ الحلي لفظ مفرد محلى بالألف واللام، وقد بينا في أصول الفقه أن هذا اللفظ يجب حمله على المعهود السابق، والحلي الذي هو المعهود السابق هو الذي ذكره الله تعالى في كتابه في هذه الآية وهو قوله: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ فصار بتقدير صحة ذلك الخبر لا زكاة في اللآلىء، وحينئذ يسقط الاستدلال به، والله أعلم.

---

(١) أورده ابن حجر في (تلخيص الحبير) (٢/ ٤٨٨) حديث رقم/ ٨٥٥، وقال: رواه البيهقي في المعرفة من حديث عافية بن أيوب، عن الليث، عن أبي الزبير، عن جابر، ثم قال: لا أصل له، وإنما يروى عن جابر من قوله: وعافية؛ قيل: ضعيف، وقال ابن الجوزي: ما نعلم فيه جرحا، وقال البيهقي: مجهول، ونقل ابن أبي حاتم توثيقه، عن أبي زرعة.

المنفعة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ قال أهل اللغة: مخر السفينة شقها الماء بصدرها، وعن الفراء: أنه صوت جري الفلك بالرياح.

إذا عرفت هذا فقول ابن عباس: ﴿مَوَاخِرَ﴾ أي جواري، إنما حسن التفسير به، لأنها لا تشق الماء إلا إذا كانت جارية. وقوله تعالى: ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يعني لتركبوه للتجارة فتطلبوا الربح من فضل الله وإذا وجدتم فضل الله تعالى وإحسانه فلعلكم تقدمون على شكره، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَـٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥ وَعَلَـٰمَـٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦﴾

اعلم أن المقصود من هذه الآية ذكر بعض النعم التي خلقها الله تعالى في الأرض.

فالنعمة الأولى: قوله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قوله: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ يعني لئلا تميد بكم على قول الكوفيين وكراهة أن تميد بكم على قول البصريين، وذكرنا هذا عند قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧٦] والميد الحركة والاضطراب يمينًا وشمالاً يقال: ماد يميد ميدًا.

المسألة الثانية: المشهور عن الجمهور في تفسير هذه الآية أن قالوا: إن السفينة إذا ألقيت على وجه الماء، فإنها تميد من جانب إلى جانب، وتضطرب، فإذا وضعت الأجرام الثقيلة في تلك السفينة استقرت على وجه الماء فاستوت. قالوا فكذلك لما خلق الله تعالى الأرض على وجه الماء اضطربت ومادت، فخلق الله تعالى عليها هذه الجبال الثقال فاستقرت على وجه الماء بسبب ثقل هذه الجبال.

ولقائل أن يقول: هذا يشكل من وجوه: الأول: أن هذا التعليل إما أن يذكر مع تسليم كون الأرض والماء ثقيلة بالطبع أو مع المنع من هذا الأصل ومع القول بأن حركات هذه الأجسام بطباعها أو ليست بطباعها بل هي واقعة بتخليق الفاعل المختار، أما على التقدير الأول فهذا التعليل مشكل، لأن على هذا الأصل لا شك أن الأرض أثقل من الماء، والأثقل من الماء يغوص في الماء ولا يبقى طافيًا عليه وإذا لم يبق طافيًا عليه امتنع أن يقال: إنها تميد وتميل وتضطرب، وهذا بخلاف السفينة لأنها متخذة من الخشب وفي داخل الخشب تجويفات مملوءة من الهواء، فلهذا السبب تبقى الخشبة طافية على الماء فحينئذ تضطرب وتميد وتميل على وجه الماء فإذا أرسيت بالأجسام الثقيلة استقرت وسكنت فظهر الفرق، وأما على التقدير الثاني وهو أن يقال: ليس للأرض ولا للماء طبائع توجب الثقل والرسوب والأرض إنما تنزل، لأن الله تعالى أجرى عادته بجعلها كذلك وإنما صار الماء محيطًا بالأرض لمجرد إجراء العادة، وليس

ههنا طبيعة للأرض ولا للماء توجب حالة مخصوصة فنقول: فعلى هذا التقدير علة سكون الأرض هي أن الله تعالى يخلق فيها السكون وعلة كونها مائدة مضطربة هي أن الله تعالى يخلق فيها الحركة وعلى هذا التقدير فإنه يفسد القول بأن الأرض كانت مائلة فخلق الله الجبال وأرساها عليها لتبقى ساكنة، لأن هذا إنما يصح إذا كان طبيعة الأرض توجب الميدان وطبيعة الجبال توجب الإرساء والثبات، ونحن إنما نتكلم الآن على تقدير نفي الطبائع الموجبة لهذه الأحوال، فثبت أن هذا التعليل مشكل على كل التقديرات.

السؤال الثاني: هو أن إرساء الأرض بالجبال إنما يعقل لأجل أن تبقى الأرض على وجه الماء من غير أن تميد وتميل من جانب إلى جانب، وهذا إنما يعقل إذا كان الماء الذي استقرت الأرض على وجهه واقفًا فنقول: فما المقتضى لسكون ذلك الماء ووقوفه في حيزه المخصوص، فإن قلت: المقتضي لسكونه في ذلك الحيز المخصوص هو أن طبيعته المخصوصة توجب وقوفه في ذلك المعين، فلم لا تقول: مثله في الأرض وهو أن الطبيعة المخصوصة التي للأرض توجب وقوفها في ذلك الحيز المعين وذلك يفيد القول بأن الأرض إنما وقفت بسبب أن الله تعالى أرساها بالجبال. فإن قلت: المقتضى لسكون الماء في حيزه المعين هو أن الله تعالى سكن الماء بقدرته في ذلك الحيز المخصوص، فلم لا تقول مثله في سكون الأرض، وحينئذ يفسد هذا التعليل أيضًا.

السؤال الثالث: أن مجموع الأرض جسم عظيم، فبتقدير أن تميد كليته وتضطرب على وجه البحر المحيط لم تظهر تلك الحالة للناس.

فإن قيل: أليس أن الأرض تحركها البخارات المحتقنة في داخلها عند الزلازل، وتظهر تلك الحركات للناس فبم تنكرون على من يقول: إنه لولا الجبال لتحركت الأرض، إلا أنه تعالى لما أرساها بالجبال الثقال لم تقو الرياح على تحريكها.

قلنا: تلك البخارات إنما احتقنت في داخل قطعة صغيرة من الأرض، فلما حصلت الحركة في تلك القطعة الصغيرة ظهرت تلك الحركة. قال القائلون بهذا القول: إن ظهور الحركة في تلك القطعة المعينة من الأرض يجري مجرى اختلاج يحصل في عضو معين من بدن الإنسان أما لو حركت كلية الأرض لم تظهر تلك الحركة، ألا ترى أن الساكن في السفينة لا يحس بحركة كلية السفينة وإن كانت واقعة على أسرع الوجوه وأقواها فكذا ههنا، فهذا ما في هذا الموضع من المباحث الدقيقة العميقة والذي عندي في هذا الموضع المشكل أن يقال ثبت بالدلائل اليقينية أن الأرض كرة، وثبت أن هذه الجبال على سطح هذه الكرة جارية مجرى خشونات تحصل على وجه هذه الكرة.

إذا ثبت هذا فنقول: لو فرضنا أن هذه الخشونات ما كانت حاصلة بل كانت الأرض كرة حقيقية خالية عن الخشونات والتضريسات لصارت بحيث تتحرك بالاستدارة بأدنى سبب لأن الجرم

البسيط المستدير إما أن يجب كونه متحركًا بالاستدارة على نفسه وإن لم يجب ذلك عقلاً إلا أنه بأدنى سبب يتحرك على هذا الوجه، أما لما حصل على ظاهر سطح كرة الأرض هذه الجبال وكانت كالخشونات الواقعة على وجه الكرة فكل واحد من هذه الجبال إنما يتوجه بطبعه نحو مركز العالم وتوجه ذلك الجبل نحو مركز العالم بثقله العظيم وقوته الشديدة يكون جاريًا مجرى الوتد الذي يمنع كرة الأرض من الاستدارة، فكان تخليق هذه الجبال على وجه الأرض كالأوتاد المغروزة في الكرة المانعة لها عن الحركة المستديرة، فكانت مانعة للأرض من الميد والميل والاضطراب بمعنى أنها منعت الأرض من الحركة المستديرة، فهذا ما وصل إليه بحثي في هذا الباب. والله أعلم بمراده.

النعمة الثانية: من النعم التي أظهرها الله تعالى على وجه الأرض هي أنه تعالى أجرى الأنهار على وجه الأرض واعلم أنه حصل ههنا بحثان:

البحث الأول: أن قوله: ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ معطوف على قوله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ والتقدير وألقى رواسي وأنهارًا. وخلق الأنهار لا يبعد أن يسمى بالإلقاء فيقال: ألقى الله في الأرض أنهارًا كما قال: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ [ق: ٧] والإلقاء معناه الجعل ألا تر أنه تعالى قال في آية أخرى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ [فصلت: ١٠] والإلقاء يقارب الإنزال، لأن الإلقاء يدل على طرح الشيء من الأعلى إلى الأسفل، إلا أن المراد من هذا الإلقاء الجعل والخلق قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ [طه: ٣٩].

البحث الثاني: أنه ثبت في العلوم العقلية أن أكثر الأنهار إنما تتفجر منابعها في الجبال، فلهذا السبب لما ذكر الله تعالى الجبال أتبع ذكرها بتفجير العيون والأنهار.

النعمة الثالثة: قوله: ﴿وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ وهي أيضًا معطوفة على قوله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ والتقدير: وألقى في الأرض سبلاً ومعناه: أنه تعالى أظهرها وبينها لأجل أن تهتدوا بها في أسفاركم ونظيره قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [طه: ٥٣] وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي لكي تهتدوا.

واعلم أنه تعالى لما ذكر أنه أظهر في الأرض سبلاً معينة ذكر أنه أظهر فيها علامات مخصوصة حتى يتمكن المكلف من الاستدلال بها فيصل بواسطتها إلى مقصوده فقال: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ وهي أيضًا معطوفة على قوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ والتقدير: وألقى في الأرض رواسي وألقى فيها أنهارًا وسبلاً وألقى فيها علامات والمراد بالعلامات معالم الطرق وهي الأشياء التي بها يهتدي، وهذه العلامات هي الجبال والرياح ورأيت جماعة يشمون التراب وبواسطة ذلك الشم يتعرفون الطرق. قال الأخفش تم الكلام عند قوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ وقوله: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ كلام منفصل عن الأول، والمراد بالنجم الجنس كقولك: كثر الدرهم في أيدي الناس. وعن السدي هو الثريا، والفرقدان، وبنات نعش، والجدي، وقرأ الحسن: (وبالنُّجُمِ) بضمتين وبضمة

فسكون، وهو جمع نجم كَرَهْن ورُهْن والسكون تخفيف. وقيل: حذف الواو من النجم تخفيفًا.

فإن قيل: قوله: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ خطاب الحاضرين وقوله: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ خطاب للغائبين فما السبب فيه؟

قلنا: إن قريشًا كانت تكثر أسفارها لطلب المال، ومن كثرت أسفاره كان علمه بالمنافع الحاصلة من الاهتداء بالنجوم أكثر وأتم فقوله: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ إشارة إلى قريش للسبب الذي ذكرناه، والله أعلم.

واختلف المفسرون فمنهم من قال قوله: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ مختص بالبحر، لأنه تعالى لما ذكر صفة البحر وما فيه من المنافع بين أن من يسيرون فيه يهتدون بالنجم، ومنهم من قال: بل هو مطلق يدخل فيه السير في البر والبحر وهذا القول أولى، لأنه أعم في كونه نعمة ولأن الاهتداء بالنجم قد يحصل في الوقتين معًا، ومن الفقهاء من يجعل ذلك دليلاً على أن المسافر إذا عميت عليه القبلة فإنه يجب عليه أن يستدل بالنجوم وبالعلامات التي في الأرض، وهي الجبال والرياح، وذلك صحيح، لأنه كما يمكن الاهتداء بهذه العلامات في معرفة الطرق والمسالك فكذلك يمكن الاستدلال بها في معرفة طلب القبلة.

واعلم أن اشتباه القبلة إما أنْ يكون بعلامات لائحة أو لا يكون، فإن كانت لائحة وجب أن يجب الاجتهاد ويتوجه إلى حيث غلب على الظن أنه هو القبلة، فإن تبين الخطأ وجب الإعادة، لأنه كان مقصرًا فيما وجب عليه، وإن لم تظهر العلامات فههنا طريقان: **الطريق الأول:** أن يكون مخيرًا في الصلاة إلى أي جهة شاء لأن الجهات لما تساوت وامتنع الترجيح لم يبق إلا التخيير. **والطريق الثاني:** أن يصلي إلى جميع الجهات فحينئذ يعلم بيقين أنه خرج عن العهدة وهذا كما يقوله الفقهاء: فيمن نسي صلاة لا يعرفها بعينها أن الواجب عليه في القضاء أن يأتي بالصلوات الخمس ليكون على يقين من قضاء ما لزمه، ومنهم من يقول: الواجب منها واحدة فقط وهذا غلط لأنه لما لزمه أن يفعل الكل كان الكل واجبًا وإن كان سبب وجوب كل هذه الصلوات فوت الصلاة الواحدة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا
تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾
وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا
يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل الدالة على وجود القادر الحكيم على الترتيب

الأحسن والنظم الأكمل وكانت تلك الدلائل كما أنها كانت دلائل، فكذلك أيضًا كانت شرحًا وتفصيلاً لأنواع نعم الله تعالى وأقسام إحسانه أتبعه بذكر إبطال عبادة غير الله تعالى والمقصود أنه لما دلت هذه الدلائل الباهرة، والبينات الزاهرة القاهرة على وجود إله قادر حكيم، وثبت أنه هو المولي لجميع هذه النعم والمعطي لكل هذه الخيرات فكيف يحسن في العقول الاشتغال بعبادة موجود سواه لا سيما إذا كان ذلك الموجود جمادًا لا يفهم ولا يقدر، فلهذا الوجه قال بعد تلك الآيات: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ والمعنى: أفمن يخلق هذه الأشياء التي ذكرناها كمن لا يخلق بل لا يقدر ألبتة على شيء أفلا تذكرون فإن هذا القدر لا يحتاج إلى تدبر وتفكر ونظر. ويكفي فيه أن تتنبهوا على ما في عقولكم من أن العبادة لا تليق إلا بالمنعم الأعظم، وأنتم ترون في الشاهد إنسانًا عاقلاً فاهمًا ينعم بالنعمة العظيمة، ومع ذلك فتعلمون أنه يقبح عبادته فهذه الأصنام جمادات محضة، وليس لها فهم ولا قدرة ولا اختيار فكيف تقدمون على عبادتها، وكيف تجوزون الاشتغال بخدمتها وطاعتها.

المسألة الثانية: المراد بقوله: ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ الأصنام، وأنها جمادات فلا يليق بها لفظة (من) لأنها لأولي العلم. وأجيب عنه من وجوه:

الوجه الأول: أن الكفار لما سموها آلهة وعبدوها، لا جرم أجريت مجرى أولي العلم ألا ترى إلى قوله على أثره: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ .

والوجه الثاني: في الجواب أن السبب فيه المشاكلة بينه وبين من يخلق.

والوجه الثالث: أن يكون المعنى أن من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولي العلم فكيف من لا علم عنده كقوله: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٩٥] يعني أن الآلهة التي تدعونها حالهم منحطة عن حال من لهم أرجل وأيد وآذان وقلوب، لأن هؤلاء أحياء وهم أموات فكيف يصح منهم عبادتها، وليس المراد أنه لو صحت لهم هذه الأعضاء لصح أن يعبدوا.

فإن قيل: قوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ المقصود منه إلزام عبدة الأوثان، حيث جعلوا غير الخالق مثل الخالق في التسمية بالإله، وفي الاشتغال بعبادتها، فكان حق الإلزام أن يقال: أفمن لا يخلق كمن يخلق.

والجواب: المراد منه أن من يخلق هذه الأشياء العظيمة ويعطي هذه المنافع الجليلة كيف يسوى بينه وبين هذه الجمادات الخسيسة في التسمية باسم الإله، وفي الاشتغال بعبادتها والإقدام على غاية تعظيمها فوقع التعبير عن هذا المعنى بقوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ .

المسألة الثالثة: احتج بعض أصحابنا بهذه الآية على أن العبد غير خالق لأفعال نفسه فقال: إنه تعالى ميز نفسه عن سائر الأشياء التي كانوا يعبدونها بصفة الخالقية لأن قوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ الغرض منه بيان كونه ممتازًا عن الأنداد بصفة الخالقية وأنه إنما استحق الإلهية والمعبودية بسبب كونه خالقًا، فهذا يقتضي أن العبد لو كان خالقًا لبعض الأشياء لوجب كونه إلهًا

معبودًا، ولما كان ذلك باطلاً علمنا أن العبد لا يقدر على الخلق والإيجاد قالت المعتزلة الجواب: عنه من وجوه:

الوجه الأول: أن المراد أفمن يخلق ما تقدم ذكره من السموات والأرض والإنسان والحيوان والنبات والبحار والنجوم والجبال كمن لا يقدر على خلق شيء أصلاً، فهذا يقتضي أن من كان خالقًا لهذه الأشياء فإنه يكون إلهًا ولم يلزم منه أن من يقدر على أفعال نفسه أن يكون إلهًا.

والوجه الثاني: أن معنى الآية: أن من كان خالقًا كان أفضل ممن لا يكون خالقًا، فوجب امتناع التسوية بينهما في الإلهية والمعبودية، وهذا القدر لا يدل على أن كل من كان خالقًا فإنه يجب أن يكون إلهًا. والدليل عليه قوله تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٩٥]ومعناه: أن الذي حصل له رجل يمشي بها يكون أفضل من الذي حصل له رجل لا يقدر أن يمشي بها، وهذا يوجب أن يكون الإنسان أفضل من الصنم، والأفضل لا يليق به عبادة الأخس، فهذا هو المقصود من هذه الآية، ثم إنها لا تدل على أن من حصل له رجل يمشي بها أن يكون إلهًا، فكذلك ههنا المقصود من هذه الآية بيان أن الخالق أفضل من غير الخالق، فيمتنع التسوية بينهما في الإلهية والمعبودية، ولا يلزم منه أن بمجرد حصول صفة الخالقية يكون إلهًا.

والوجه الثالث في الجواب: أن كثيرًا من المعتزلة لا يطلقون لفظ الخالق على العبد. قال الكعبي في (تفسيره) إنا لا نقول: إنَّا نخلق أفعالنا: قال ومن أطلق ذلك فقد أخطأ إلا في مواضع ذكرها الله تعالى كقوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ [المائدة: ١١٠]وقوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

واعلم أن أصحاب أبي هاشم يطلقون لفظ الخالق على العبد، حتى أن أبا عبد الله البصير بالغ وقال: إطلاق لفظ الخالق على العبد حقيقة وعلى الله مجاز، لأن الخالق عبارة عن التقدير، وذلك عبارة عن الظن والحسبان، وهو في حق العبد حاصل وفي حق الله تعالى محال.

واعلم أن هذه الأجوبة قوية والاستدلال بهذه الآية على صحة مذهبنا ليس بقوي، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾.

ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما بين بالآية المتقدمة أن الاشتغال بعبادة غير الله باطل وخطأ بين بهذه الآية أن العبد لا يمكنه الإتيان بعبادة الله تعالى وشكر نعمه والقيام بحقوق كرمه على سبيل الكمال والتمام، بل العبد وإن أتعب نفسه في القيام بالطاعات والعبادات، وبالغ في شكر نعمة الله تعالى فإنه يكون مقصرًا، وذلك لأن الاشتغال بشكر النعم مشروط بعلمه بتلك النعم على سبيل التفصيل والتحصيل، فإن من لا يكون متصورًا ولا مفهومًا ولا معلومًا امتنع

الاشتغال بشكره، إلا أن العلم بنعم الله تعالى على سبيل التفصيل غير حاصل للعبد، لأن نعم الله تعالى كثيرة وأقسامها وشعبها واسعة عظيمة، وعقول الخلق قاصرة عن الإحاطة بمباديها فضلاً عن غاياتها فإنها غير معلومة على سبيل التفصيل، وما كان كذلك امتنع الاشتغال بشكره على الوجه الذي يكون ذلك الشكر لائقًا بتلك النعم. فهذا هو المفهوم من قوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ يعني: أنكم لا تعرفونها على سبيل التمام والكمال، وإذا لم تعرفوها امتنع منكم القيام بشكرها على سبيل التمام والكمال، وذلك يدل على أن شكر الخلق قاصر عن نعم الحق، وعلى أن طاعات الخلق قاصرة عن ربوبية الحق وعلى أن معارف الخلق قاصرة عن كنه جلال الحق، ومما يدل قطعًا على أن عقول الخلق قاصرة عن معرفة أقسام نعم الله تعالى أن كل جزء من أجزاء البدن الإنساني لو ظهر فيه أدنى خلل لتنغص العيش على الإنسان، ولتمنى أن ينفق كل الدنيا حتى يزول عنه ذلك الخلل. ثم إنه تعالى يدبر أحوال بدن الإنسان على الوجه الأكمل الأصلح، مع أن الإنسان لا علم له بوجود ذلك الجزء ولا بكيفية مصالحه ولا بدفع مفاسده، فليكن هذا المثال حاضرًا في ذهنك، ثم تأمل في جميع ما خلق الله في هذا العالم من المعادن والنبات والحيوان، وجعلها مهيأة لانتفاعك بها، حتى تعلم أن عقول الخلق تفنى في معرفة حكمة الرحمن في خلق الإنسان فضلاً عن سائر وجوه الفضل والإحسان.

فإن قيل: فلما قررتم أن الاشتغال بالشكر موقوف على حصول العلم بأقسام النعم، ودللتم على أن حصول العالم بأقسام النعم محال أو غير واقع، فكيف أمر الله الخلق بالقيام بشكر النعم؟

قلنا: الطريق إليه أن يشكر الله تعالى على جميع نعمه مفصلها ومجملها. فهذا هو الطريق الذي به يمكن الخروج عن عهدة الشكر. والله أعلم.

المسألة الثانية: قال بعضهم: إنه ليس لله على الكافر نعمة وقال الأكثرون: لله على الكافر والمؤمن نعم كثيرة. والدليل عليه: أن الإنعام بخلق السموات والأرض والإنعام بخلق الإنسان من النطفة، والإنعام بخلق الأنعام وبخلق الخيل والبغال والحمير، وبخلق أصناف النعم من الزرع والزيتون والنخيل والأعناب، وبتسخير البحر ليأكل الإنسان منه لحمًا طريًا ويستخرج منه حلية يلبسها كل ذلك مشترك فيه بين المؤمن والكافر، ثم أكد تعالى ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ وذلك يدل على أن كل هذه الأشياء نعم من الله تعالى في حق الكل، وهذا يدل على أن نعم الله واصلة إلى الكفار، والله أعلم.

أما قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ اعلم أنه تعالى قال في سورة إبراهيم: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وقال ههنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ والمعنى: أنه لما بين أن الإنسان لا يمكنه القيام بأداء الشكر على سبيل التفصيل: قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي غفور للتقصير الصادر عنكم في القيام بشكر نعمه، رحيم بكم حيث لم يقطع نعمه عليكم بسبب تقصيركم.

أما قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ .

ففيه وجهان:

الأول: أن الكفار كانوا مع اشتغالهم بعبادة غير الله تعالى يسرون ضروبًا من الكفر في مكايد الرسول عليه السلام فجعل هذا زجرًا لهم عنها .

والثاني: أنه تعالى زيف في الآية الأولى عبادة الأصنام بسبب أنه لا قدرة لها على الخلق والإنعام وزيف في هذه الآية أيضًا عبادتها بسبب أن الإله يجب أن يكون عالمًا بالسر والعلانية، وهذه الأصنام جمادات لا معرفة لها بشيء أصلاً فكيف تحسن عبادتها؟

أما قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ فاعلم أنه تعالى وصف هذه الأصنام بصفات كثيرة .

فالصفة الأولى: أنهم لا يخلقون شيئًا وهم يخلقون قرأ حفص عن عاصم يسرون ويعلنون ويدعون كلها بالياء على الحكاية عن الغائب، وقرأ أبو بكر عن عاصم (يدعون) بالياء خاصة على المغايبة وتسرون وتعلنون بالتاء على الخطاب، والباقون كلها بالتاء على الخطاب عطفًا على ما قبله .

فإن قيل: أليس أن قوله في أول الآية : ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ يدل على أن هذه الأصنام لا تخلق شيئًا وقوله ههنا : ﴿لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا﴾ يدل على نفس هذا المعنى، فكان هذا محض التكرير .

وجوابه: أن المذكور في أول الآية أنهم لا يخلقون شيئًا، والمذكور ههنا أنهم لا يخلقون شيئًا وأنهم مخلوقون لغيرهم، فكان هذا زيادة في المعنى، وكأنه تعالى بدأ بشرح نقصهم في ذواتهم وصفاتهم فبين أولاً أنها لا تخلق شيئًا، ثم ثانيًا أنها كما لا تخلق غيرها فهي مخلوقة لغيرها .

والصفة الثانية: قوله : ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖ﴾ والمعنى : أنها لو كانت آلهة على الحقيقة لكانوا أحياء غير أموات، أي غير جائز عليها الموت كالحي الذي لا يموت سبحانه وتعالى وأمر هذه الأصنام على العكس من ذلك .

فإن قيل: لما قال : (أموات) علم أنها غير أحياء فما الفائدة في قوله : ﴿غَيۡرُ أَحۡيَآءٖ﴾ .

والجواب من وجهين: الأول : أن الإله هو الحي الذي لا يحصل عقيب حياته موت، وهذه الأصنام أموات لا يحصل عقيب موتها الحياة . والثاني : أن هذا الكلام مع الكفار الذين يعبدون الأوثان، وهم في نهاية الجهالة والضلالة، ومن تكلم مع الجاهل الغر الغبي فقد يحسن أن يعبر عن المعنى الواحد بالعبارات الكثيرة، وغرضه منه الإعلام بكون ذلك المخاطب في غاية الغباوة وأنه إنما يعيد تلك الكلمات لكون ذلك السامع في نهاية الجهالة، وأنه لا يفهم المعنى المقصود بالعبارة الواحدة .

الصفة الثالثة: قوله : ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ والضمير في قوله : ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ عائد إلى الأصنام، وفي الضمير في قوله : ﴿يُبۡعَثُونَ﴾ قولان : أحدهما : أنه عائد إلى العابدين للأصنام

يعني أن الأصنام لا يشعرون متى تبعث عبدتهم، وفيه تهكم بالمشركين وأن آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم فكيف يكون لهم وقت جزاء منهم على عبادتهم. والثاني: أنه عائد إلى الأصنام يعني أن هذه الأصنام لا تعرف متى يبعثها الله تعالى قال ابن عباس: إن الله يبعث الأصنام ولها أرواح ومعها شياطينها فيؤمر بها إلى النار.

فإن قيل: الأصنام جمادات، والجمادات لا توصف بأنها أموات، ولا توصف بأنهم لا يشعرون كذا وكذا.

والجواب عنه من وجوه:

الأول: أن الجماد قد يوصف بكونه ميتًا قال تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ [الروم: ١٩].

والثاني: أن القوم لما وصفوا تلك الأصنام بالإلهية والمعبودية قيل لهم؛ ليس الأمر كذلك، بل هي أموات ولا يعرفون شيئًا، فنزلت هذه العبارات على وفق معتقدهم.

والثالث: أن يكون المراد بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الملائكة، وكان ناس من الكفار يعبدونهم فقال الله إنهم أموات لا بد لهم من الموت غير أحياء، أي غير باقية حياتهم: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي لا علم لهم بوقت بعثهم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما زيف فيما تقدم طريقة عبدة الأوثان والأصنام وبين فساد مذهبهم بالدلائل القاهرة قال: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ثم ذكر تعالى ما لأجله أصر الكفار على القول بالشرك وإنكار التوحيد فقال: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ والمعنى أن الذين يؤمنون بالآخرة ويرغبون في الفوز بالثواب الدائم ويخافون الوقوع في العقاب الدائم إذا سمعوا الدلائل والترغيب والترهيب، خافوا العقاب فتأملوا وتفكروا فيما يسمعونه، فلا جرم ينتفعون بسماع الدلائل، ويرجعون من الباطل إلى الحق، أما الذين لا يؤمنون بالآخرة وينكرونها فإنهم لا يرغبون في حصول الثواب ولا يرهبون من الوقوع في العقاب فيبقون منكرين لكل كلام يخالف قولهم ويستكبرون عن الرجوع إلى قول غيرهم، فلا جرم يبقون مصرين على ما كانوا عليه من الجهل والضلال.

ثم قال تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ والمعنى أنه تعالى يعلم أن إصرارهم على هذه المذاهب الفاسدة ليس لأجل شبهة تصوروها أو إشكال تخيلوه، بل ذلك لأجل التقليد والنفرة عن الرجوع إلى الحق والشغف بنصرة مذاهب الأسلاف والتكبر والنخوة. فلهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ وهذا الوعيد يتناول كل المتكبرين.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥﴾

اعلم أنه تعالى لما بالغ في تقرير دلائل التوحيد وأورد الدلائل القاهرة في إبطال مذاهب عبدة الأصنام، ذكر بعد ذلك شبهات منكري النبوة مع الجواب عنها.

فالشبهة الأولى: أن رسول الله ﷺ لما احتج على صحة نبوة نفسه بكون القرآن معجزة طعنوا في القرآن وقالوا: إنه أساطير الأولين، وليس هو من جنس المعجزات.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في أن ذلك السائل من كان؟ قيل هو كلام بعضهم لبعض، وقيل هو قول المسلمين لهم، وقيل: هو قول المقتسمين الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله ﷺ إذا سألهم وفود الحاج عما أنزل على رسول الله ﷺ.

المسألة الثانية: لقائل أن يقول: كيف يكون تنزيل ربهم أساطير الأولين؟

وجوابه من وجوه: الأول: أنه مذكور على سبيل السخرية كقوله تعالى عنهم: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ﴾[الشعراء: ٢٧]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾[الحجر: ٦] وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾[الزخرف: ٤٩]. الثاني: أن يكون التقدير هذا الذي تذكرون أنه منزل من ربكم هو أساطير الأولين. الثالث: يحتمل أن يكون المراد أن هذا القرآن بتقدير أن يكون مما أنزله الله لكنه أساطير الأولين ليس فيه شيء من العلوم والفصاحة والدقائق والحقائق.

واعلم أنه تعالى لما حكى شبههم قال: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ اللام في ليحملوا لام العاقبة، وذلك أنهم لم يصفوا القرآن بكونه أساطير الأولين لأجل أن يحملوا الأوزار، ولكن لما كانت عاقبتهم ذلك حسن ذكر هذه اللام كقوله: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾[القصص: ٨] وقوله: ﴿كَامِلَةٗ﴾ معناه: أنه تعالى لا يخفف من عقابهم شيئًا، بل يوصل ذلك العقاب بكليته إليهم، وأقول: هذا يدل على أنه تعالى قد يسقط بعض العقاب عن المؤمنين، إذ لو كان هذا المعنى حاصلاً في حق الكل، لم يكن لتخصيص هؤلاء الكفار بهذا التكميل معنى، وقوله: ﴿وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ معناه: ويحصل للرؤساء مثل أوزار الأتباع، والسبب فيه ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى الْهُدَى فَاتُّبِعَ كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنِ اتَّبَعَهُ لاَ يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ وَأَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى ضَلاَلَةٍ فَاتُّبِعَ كَانَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنِ اتَّبَعَهُ لاَ يَنْقُصُ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْءٌ**»[1].

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (العلم) باب (من سن سنة حسنة) (٤/ ١٦/ ٢٠٦٠) وأبو داود في=

واعلم أنه ليس المراد منه أنه تعالى يوصل العقاب الذي يستحقه الأتباع إلى الرؤساء، وذلك لأن هذا لا يليق بعدل الله تعالى، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩] وقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥] بل المعنى: أن الرئيس إذا وضع سنة قبيحة عظم عقابه، حتى أن ذلك العقاب يكون مساويًا لكل ما يستحقه كل واحد من الأتباع، قال الواحدي: ولفظه: ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ ليست للتبعيض، لأنها لو كانت للتبعيض لخف عن الأتباع بعض أوزارهم، وذلك غير جائز، لقوله عليه السلام: «مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ» ولكنها للجنس، أي ليحملوا من جنس أوزار الأتباع. وقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعني أن هؤلاء الرؤساء إنما يقدمون على هذا الإضلال جهلاً منهم بما يستحقونه من العذاب الشديد على ذلك الإضلال ثم إنه تعالى ختم الكلام بقوله: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ والمقصود المبالغة في الزجر.

فإن قيل: إنه تعالى لما حكى عن القوم هذه الشبهة لم يجب عنها، بل اقتصر على محض الوعيد؛ فما السبب فيه؟

قلنا: السبب فيه أنه تعالى بين كون القرآن معجزًا بطريقين: الأول: أنه ﷺ تحداهم بكل القرآن، وتارة بعشر سور، وتارة بسورة واحدة، وتارة بحديث واحد، وعجزوا عن المعارضة، وذلك يدل على كونه معجزًا. الثاني: أنه تعالى حكى هذه الشبهة بعينها في آية أخرى وهو قوله: ﴿ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥] وأبطلها بقوله: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦] ومعناه أن القرآن مشتمل على الإخبار عن الغيوب، وذلك لا يتأتى إلا ممن يكون عالمًا بأسرار السموات والأرض، فلما ثبت كون القرآن معجزًا بهذين الطريقين، وتكرر شرح هذين الطريقين مرارًا كثيرة لا جرم اقتصر في هذه الآية على مجرد الوعيد ولم يذكر ما يجري مجرى الجواب عن هذه الشبهة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ

=كتاب (السنة) باب (لزوم السنة) (٤/ ١٩٧٥) حديث رقم/ ٤٦٠٩، والترمذي في كتاب (العلم) باب (ما جاء فيمن دعا إلى الهدى فاتبع) (٥/ ٤٢) حديث رقم/ ٢٦٧٤، قال: هذا حديث حسن صحيح. وابن ماجه في كتاب (المقدمة) باب (من سن حسنة) (١/ ١٤١) حديث رقم/ ٥١٤، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٣٩٧)، جميعا من طريق العلاء بن عبد الرحمن. . . به.

أَنفُسِهِمْۖ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

اعلم أن المقصود من الآية المبالغة في وصف وعيد أولئك الكفار، وفي المراد بالذين من قبلهم قولان:

القول الأول: وهو قول الأكثر من المفسرين أن المراد منه نمروذ بن كنعان بنى صرحًا عظيمًا ببابل طوله خمسة آلاف ذراع. وقيل فرسخان، ورام منه الصعود إلى السماء ليقاتل أهلها، فالمراد بالمكر ههنا بناء الصرح لمقاتلة أهل السماء.

والقول الثاني: وهو الأصح، أن هذا عام في جميع المبطلين الذين يحاولون إلحاق الضرر والمكر بالمحقين.

أما قوله تعالى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾.

ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: أن الإتيان والحركة على الله محال، فالمراد أنهم لما كفروا أتاهم الله بزلازل قلع بها بنيانهم من القواعد والأساس.

المسألة الثانية: في قوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ قولان:

القول الأول: أن هذا محض التمثيل، والمعنى أنهم رتبوا منصوبات ليمكروا بها أنبياء الله تعالى فجعل الله تعالى حالهم في تلك المنصوبات مثل حال قوم بنوا بنيانًا وعمدوه بالأساطين فانهدم ذلك البناء، وضعفت تلك الأساطين، فسقط السقف عليهم. ونظيره قولهم: من حفر بئرًا لأخيه أوقعه الله فيه.

والقول الثاني: أن المراد منه ما دل عليه الظاهر، وهو أنه تعالى أسقط عليهم السقف وأماتهم تحته، والأول أقرب إلى المعنى.

أما قوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ ففيه سؤال: وهو أن السقف لا يخر إلا من فوقهم، فما معنى هذا الكلام.

وجوابه من وجهين:

الأول: أن يكون المقصود التأكيد.

والثاني: ربما خر السقف، ولا يكون تحته أحد، فلما قال: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ دل هذا الكلام على أنهم كانوا تحته، وحينئذ يفيد هذا الكلام أن الأبنية قد تهدمت وهم ماتوا تحتها. وقوله: ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ إن حملنا هذا الكلام على محض التمثيل فالأمر ظاهر. والمعنى: أنهم اعتمدوا على منصوباتهم. ثم تولد البلاء منها بأعيانها، وإن حملناه على الظاهر فالمعنى أنه نزل ذلك السقف عليهم بغتة، لأنه إذا كان كذلك كان أعظم في

الزجر لمن سلك مثل سبيلهم، ثم بين تعالى أن عذابهم لا يكون مقصورًا على هذا القدر، بل الله تعالى يخزيهم يوم القيامة، والخزي هو العذاب مع الهوان، وفسر تعالى ذلك الهوان بأنه تعالى يقول لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْۚ﴾ .

وفيه أبحاث:

البحث الأول: قال الزجاج: قوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ﴾ معناه: أين شركائي في زعمكم واعتقادكم. ونظيره قوله تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢] وقال أيضًا: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨] وإنما حسنت هذه الإضافة لأنه يكفي في حسن الإضافة أدنى سبب، وهذا كما يقال لمن يحمل خشبة خذ طرفك وآخذ طرفي، فأضيف الطرف إليه.

البحث الثاني: قوله: ﴿تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْۚ﴾ أي تعادون وتخاصمون المؤمنين في شأنهم، وقيل: المشاقة عبارة عن كون أحد الخصمين في شق وكون الآخر في الشق الآخر.

البحث الثالث: قرأ نافع: (تُشَاقُّونِ) بكسر النون على الإضافة، والباقون بفتح النون على الجمع ثم قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ .

وفيه بحثان:

البحث الأول: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ قال ابن عباس: يريد الملائكة، وقال آخرون هم المؤمنون يقولون حين يرون خزي الكفار يوم القيامة إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين، والفائدة فيه أن الكفار كانوا ينكرون على المؤمنين في الدنيا فإذا ذكر المؤمن هذا الكلام يوم القيامة في معرض إهانة الكافر كان وقع هذا الكلام على الكافر وتأثيره في إيذائه أكمل وحصول الشماتة به أقوى.

البحث الثاني: المرجئة احتجوا بهذه الآية على أن العذاب مختص بالكافر قالوا لأن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يدل على أن ماهية الخزي والسوء في يوم القيامة مختصة بالكافر، وذلك ينفي حصول هذه الماهية في حق غيرهم، وتأكد هذا بقول موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٤٨] ثم إنه تعالى وصف عذاب هؤلاء الكفار من وجه آخر فقال: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْۖ﴾ قرأ حمزة: (يَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ) بالياء لأن الملائكة ذكور، والباقون بالتاء للفظ.

ثم قال: ﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۚ﴾ .

وفيه قولان:

القول الأول: أنه تعالى حكى عنهم إلقاء السلم عند القرب من الموت، قال ابن عباس: أسلموا وأقروا لله بالعبودية عند الموت. وقوله: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۚ﴾ أي قالوا ما كنا نعمل من سوء! والمراد من هذا السوء الشرك، فقالت الملائكة ردًا عليهم وتكذيبًا: بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون من التكذيب والشرك، ومعنى بلى ردًا لقولهم: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۚ﴾ .

وفيه قولان:

القول الأول: أنه تعالى حكى عنهم إلقاء السلم عند القرب من الموت.

والقول الثاني: أنه تم الكلام عند قوله: ﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ ثم عاد الكلام إلى حكاية كلام المشركين يوم القيامة، والمعنى: أنهم يوم القيامة ألقوا السلم وقالوا ما كنا نعمل في الدنيا من سوء، ثم ههنا اختلفوا، فالذين جوزوا الكذب على أهل القيامة، قالوا: هذا القول منهم على سبيل الكذب وإنما أقدموا على هذا الكذب لغاية الخوف، والذين قالوا إن الكذب لا يجوز عليهم قالوا: معنى الآية، ما كنا نعمل من سوء عند أنفسنا أو في اعتقادنا، وأما بيان أن الكذب على أهل القيامة هل يجوز أم لا؟ فقد ذكرناه في سورة الأنعام في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم قالوا: ما كنا نعمل من سوء قال بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون، ولا يبعد أن يكون قائل هذا القول هو الله تعالى أو بعض الملائكة ردًا عليهم وتكذيبًا لهم، ومعنى بلى الرد لقولهم: ﴿مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ يعني أنه عالم بما كنتم عليه في الدنيا فلا ينفعكم هذا الكذب فإنه يجازيكم على الكفر الذي علمه منكم.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٣٠ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٣١ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٣٢﴾

ثم صرح بذكر العقاب فقال: ﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ۝٢٩﴾ وهذا يدل على تفاوت منازلهم في العقاب، فيكون عقاب بعضم أعظم من عقاب بعض، وإنما صرح تعالى بذكر الخلود ليكون الغم والحزن أعظم.

ثم قال: ﴿فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن قبول التوحيد وسائر ما أتت به الأنبياء، وتفسير التكبر قد مر في هذا الكتاب غير مرة، والله أعلم.

اعلم أنه تعالى لما بين أحوال الأقوام الذين إذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم؟ قالوا: أساطير الأولين. وذكر أنهم يحملون أوزارهم ومن أوزار أتباعهم، وذكر أن الملائكة تتوفاهم ظالمي أنفسهم، وذكر أنهم في الآخرة يلقون السلم، وذكر أنه تعالى يقول لهم ادخلوا أبواب جهنم، أتبعه بذكر وصف المؤمنين الذين إذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم؟ قالوا خيرًا، وذكر ما أعده لهم في الدنيا والآخرة من منازل الخيرات ودرجات السعادات ليكون وعد هؤلاء مذكورًا مع وعيد أولئك.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال القاضي: يدخل تحت التقوى أن يكون تاركًا لكل المحرمات فاعلاً لكل الواجبات، ومن جمع بين هذين الأمرين فهو مؤمن كامل الإيمان، وقال أصحابنا: يريد الذين اتقوا الشرك وأيقنوا أنه لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأقول: هذا أولى مما قاله القاضي، لأنا بينا أنه يكفي في صدق قوله فلان قاتل أو ضارب كونه آتيًا بقتل واحد وضرب واحد، ولا يتوقف صدق هذا الكلام على كونه آتيًا بجميع أنواع القتل وجميع أنواع الضرب، فعلى هذا قوله: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡا۟﴾ يتناول كل من أتى بنوع واحد من أنواع التقوى إلا أنا أجمعنا على أنه لا بد من التقوى عن الكفر والشرك فوجب أن لا يزيد على هذا القيد لأنه لما كان تقييد المطلق خلاف الأصل، كان تقييد المقيد أكثر مخالفة للأصل، وأيضًا فلأنه تعالى إنما ذكر هؤلاء في مقابلة أولئك الذين كفروا وأشركوا، فوجب أن يكون المراد من اتقى عن ذلك الكفر والشرك، والله أعلم.

المسألة الثانية: لقائل أن يقول: إنه قال في الآية الأولى، قالوا أساطير الأولين، وفي هذه الآية قالوا خيرًا، فلم رفع الأول ونصب هذا؟.

أجاب صاحب (الكشاف) عنه بأن قال: المقصود منه الفصل بين جواب المقر وجواب الجاحد يعني أن هؤلاء لما سئلوا لم يتلعثموا، وأطبقوا الجواب على السؤال بينا مكشوفًا مفعولاً للإنزال فقالوا خيرًا أي أنزل خيرًا، وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا هو أساطير الأولين وليس من الإنزال في شيء.

المسألة الثالثة: قال المفسرون هذا كان في أيام الموسم، يأتي الرجل مكة فيسأل المشركين عن محمد وأمره فيقولون إنه ساحر وكاهن وكذاب، فيأتي المؤمنين ويسألهم عن محمد وما أنزل الله عليه فيقولون خيرًا، والمعنى: أنزل خيرًا. ويحتمل أن يكون المراد الذي قالوه من الجواب موصوف بأنه خير، وقولهم خير جامع لكونه حقًا وصوابًا، ولكونهم معترفين بصحته ولزومه فهو بالضد من قول الذين لا يؤمنون بالآخرة، إنَّ ذلك أساطير الأولين على وجه التكذيب.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُوا۟﴾ وما بعده بدل من قوله: ﴿خَيۡرًا﴾ وهو حكاية لقول الذين اتقوا، أي قالوا هذا القول، ويجوز أيضًا أن يكون قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُوا۟﴾ إخبارًا عن الله، والتقدير: إن المتقين لما قيل لهم: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُوا۟ خَيۡرًاۗ﴾ ثم إنه تعالى أكد قولهم وقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُوا۟ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٌۚ﴾ وفي المراد بقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُوا۟﴾ قولان، أما الذين يقولون: إن أهل لا إله إلا الله يخرجون من النار فإنهم يحملونه على قول لا إله إلا الله مع الاعتقاد الحق، وأما المعتزلة الذين يقولون: إن فساق أهل الصلاة لا يخرجون من النار يحملون قوله: ﴿أَحۡسَنُوا۟﴾ على من أتى بالإيمان وجميع الواجبات واحترز عن كل المحرمات. وأما قوله: ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾.

ففيه قولان:

القول الأول: أنه متعلق بقوله: ﴿أَحْسَنُوا۟﴾ والتقدير: للذين اتقوا بعمل الحسنة في الدنيا فلهم في الآخرة حسنة، وتلك الحسنة هي الثواب العظيم، وقيل: تلك الحسنة هو أن ثوابها يضاعف بعشر مرات وبسبعمائة وإلى ما لا نهاية له.

والقول الثاني: أن قوله: ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلق بقوله: ﴿حَسَنَةٌ﴾ والتقدير: للذين أحسنوا أن تحصل لهم الحسنة في الدنيا، وهذا القول أولى، لأنه قال بعده: ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ﴾ وعلى هذا التقدير ففي تفسير هذه الحسنة الحاصلة في الدنيا وجوه: الأول: يحتمل أن يكون المراد ما يستحقونه من المدح والتعظيم والثناء والرفعة، وجميع ذلك جزاء على ما عملوه. والثاني: يحتمل أن يكون المراد به الظفر على أعداء الدين بالحجة وبالغلبة لهم، وباستغنام أموالهم وفتح بلادهم، كما جرى ببدر وعند فتح مكة، وقد أجلوهم عنها وأخرجوهم إلى الهجرة، وإخلاء الوطن، ومفارقة الأهل والولد وكل ذلك مما يعظم موقعه. والثالث: يحتمل أن يكون المراد أنهم لما أحسنوا بمعنى أنهم أتوا بالطاعات فتح الله عليهم أبواب المكاشفات والمشاهدات والألطاف كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧].

وأما قوله: ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ﴾ فقد بينا في سورة الأنعام في قوله: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢] بالدلائل القطعية العقلية حصول هذا الخير، ثم قال: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي لنعم دار المتقين دار الآخرة، فحذفت لسبق ذكرها، هذا إذا لم تجعل هذه الآية متصلة بما بعدها، فإن وصلتها بما بعدها قلت: ولنعم دار المتقين جنات عدن فترفع جنات على أنها اسم لنعم، كما تقول: نعم الدار دار ينزلها زيد. أما قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنها إن كانت موصولة بما قبلها، فقد ذكرنا وجه ارتفاعها، وأما إن كانت مقطوعة، فقال الزجاج: جنات عدن مرفوعة بإضمار (هِيَ) كأنك لما قلت ولنعم دار المتقين قيل: أي دار هي هذه الممدوحة فقلت: هي جنات عدن، وإن شئت قلت: جنات عدن رفع بالإبتداء، ويدخلونها خبره، وإن شئت قلت: نعم دار المتقين خبره، والتقدير: جنات عدن نعم دار المتقين.

المسألة الثانية: قوله: ﴿جَنَّٰتُ﴾ يدل على القصور والبساتين وقوله: ﴿عَدْنٍ﴾ يدل على الدوام.

وقوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ يدل على أنه حصل هناك أبنية يرتفعون عليها وتكون الأنهار جارية من تحتهم، ثم إنه تعالى قال: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾.

وفيه بحثان:

الأول: أن هذه الكلمة تدل على حصول كل الخيرات والسعادات، وهذا أبلغ من قوله:

﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١] لأن هذين القسمين داخلان في قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ مع أقسام أخرى.

الثاني: قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ يعني هذه الحالة لا تحصل إلا في الجنة، لأن قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ يفيد الحصر، وذلك يدل على أن الإنسان لا يجد كل ما يريده في الدنيا.

ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي هكذا يكون جزاء التقوى، ثم إنه تعالى عاد إلى وصف المتقين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ وهذا مذكور في مقابلة قوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٢٨] وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ صفة للمتقين في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وقوله: ﴿طَيِّبِينَ﴾ كلمة مختصرة جامعة للمعاني الكثيرة، وذلك لأنه يدخل فيه إتيانهم بكل ما أمروا به، واجتنابهم عن كل ما نهوا عنه ويدخل فيه كونهم موصوفين بالأخلاق الفاضلة مبرئين عن الأخلاق المذمومة، ويدخل فيه كونهم مبرئين عن العلائق الجسمانية متوجهين إلى حضرة القدس والطهارة، ويدخل فيه أنه طاب لهم قبض الأرواح وأنها لم تقبض إلا مع البشارة بالجنة حتى صاروا كأنهم مشاهدون لها ومن هذا حاله لا يتألم بالموت، وأكثر المفسرين على أن هذا التوفي هو قبض الأرواح، وإن كان الحسن يقول: إنه وفاة الحشر، ثم بين تعالى أنه يقال لهم عند هذه الحالة: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ فاحتج الحسن بهذا على أن المراد بذلك التوفي وفاة الحشر، لأنه لا يقال عند قبض الأرواح في الدنيا ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون، ومن ذهب إلى القول الأول وهم الأكثرون يقولون: إن الملائكة لما بشروهم بالجنة صارت الجنة كأنها دارهم وكأنهم فيها فيكون المراد بقولهم، ادخلوا الجنة أي هي خاصة لكم كأنكم فيها.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾

اعلم أن هذا هو الشبهة الثانية لمنكري النبوة، فإنهم طلبوا من النبي ﷺ أن ينزل الله تعالى

ملكًا من السماء يشهد على صدقه في ادعاء النبوة فقال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ في التصديق بنبوتك إلا أن تأتيهم الملائكة شاهدين بذلك، ويحتمل أن يقال: إن القوم لما طعنوا في القرآن بأن قالوا: إنه أساطير الأولين، وذكر الله تعالى أنواع التهديد والوعيد لهم، ثم أتبعه بذكر الوعد لمن وصف القرآن بكونه خيرًا وصدقًا وصوابًا، عاد إلى بيان أن أولئك الكفار لا ينزجرون عن الكفر بسبب البيانات التي ذكرناها، بل كانوا لا ينزجرون عن تلك الأقوال الباطلة إلا إذا جاءتهم الملائكة بالتهديد وأتاهم أمر ربك وهو عذاب الاستئصال.

واعلم أن على كلا التقديرين فقد قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي كلام هؤلاء وأفعالهم يشبه كلام الكفار المتقدمين وأفعالهم.

ثم قال: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ والتقدير: كذلك فعل الذين من قبلهم فأصابهم الهلاك المعجل وما ظلمهم الله بذلك، فإنه أنزل بهم ما استحقوه بكفرهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم بأن كفروا، وكذبوا الرسول فاستوجبوا ما نزل بهم.

ثم قال: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ والمراد أصابهم عقاب سيئات ما عملوا ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي نزل بهم على وجه أحاط بجوانبهم: ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي عقاب استهزائهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

اعلم أن هذا هو الشبهة الثالثة لمنكري النبوة، وتقريرها: أنهم تمسكوا بصحة القول بالجبر على الطعن في النبوة فقالوا: لو شاء الله الإيمان لحصل الإيمان، سواء جئت أو لم تجيء، ولو شاء الله الكفر فإنه يحصل الكفر سواء جئت أو لم تجيء، وإذا كان الأمر كذلك فالكل من الله تعالى، ولا فائدة في مجيئك وإرسالك، فكان القول بالنبوة باطلاً.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن هذه الشبهة هي عين ما حكى الله تعالى عنهم في سورة الأنعام في قوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٨]واستدلال المعتزلة به مثل استدلالهم بتلك الآية. والكلام فيه استدلالاً واعتراضًا عين ما تقدم هناك فلا فائدة في الإعادة، ولا بأس بأن نذكر منه القليل فنقول: الجواب عن هذه الشبهة هي أنهم قالوا: لما كان الكل من الله تعالى كان بعثة الأنبياء عبثًا.

فنقول: هذا اعتراض على الله تعالى، فإن قولهم: إذا لم يكن في بعثة الرسول مزيد فائدة في حصول الإيمان ودفع الكفر كانت بعثة الأنبياء غير جائزة من الله تعالى، فهذا القول جار مجرى

طلب العلة في أحكام الله تعالى وفي أفعاله، وذلك باطل، بل لله تعالى أن يحكم في ملكه وملكوته ما يشاء ويفعل ما يريد، ولا يجوز أن يقال له: لم فعلت هذا ولم لم تفعل ذلك؟ والدليل على أن الإنكار إنما توجه إلى هذا المعنى أنه تعالى صرح في آخر هذه الآية بهذا المعنى فقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ فبين تعالى أن سنته في عبيده إرسال الرسل إليهم، وأمرهم بعبادة الله ونهيهم عن عبادة الطاغوت.

ثم قال: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ والمعنى: أنه تعالى وإن أمر الكل بالإيمان، ونهى الكل عن الكفر، إلا أنه تعالى هدى البعض وأضل البعض، فهذه سنة قديمة لله تعالى مع العباد، وهي أنه يأمر الكل بالإيمان وينهاهم عن الكفر، ثم يخلق الإيمان في البعض والكفر في البعض. ولما كانت سنة الله تعالى في هذا المعنى سنة قديمة في حق كل الأنبياء وكل الأمم والملل وإنما يحسن منه تعالى ذلك بحكم كونه إلهًا منزهًا عن اعتراضات المعترضين ومطالبات المنازعين، كان إيراد هذا السؤال من هؤلاء الكفار موجبًا للجهل والضلال والبعد عن الله فثبت أن الله تعالى إنما حكم على هؤلاء باستحقاق الخزي واللعن، لا لأنهم كذبوا في قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ بل لأنهم اعتقدوا أن كون الأمر كذلك يمنع من جواز بعثة الأنبياء والرسل وهذا باطل، فلا جرم استحقوا على هذا الاعتقاد مزيد الذم واللعن. فهذا هو الجواب الصحيح الذي يعول عليه في هذا الباب. وأما من تقدمنا من المتكلمين والمفسرين فقد ذكروا فيه وجهًا آخر فقالوا: إن المشركين ذكروا هذا الكلام على جهة الاستهزاء كما قال قوم شعيب عليه السلام له: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾[هود: ٨٧] ولو قالوا ذلك معتقدين لكانوا مؤمنين، والله أعلم.

المسألة الثانية: اعلم أنه تعالى لما حكى هذه الشبهة قال: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي هؤلاء الكفار أبدًا كانوا متمسكين بهذه الشبهة.

ثم قال: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أما المعتزلة فقالوا: معناه أن الله تعالى ما منع أحدًا من الإيمان وما أوقعه في الكفر، والرسل ليس عليهم إلا التبليغ، فلما بلغوا التكاليف وثبت أنه تعالى ما منع أحدًا عن الحق كانت هذه الشبهة ساقطة. أما أصحابنا فقالوا: معناه أنه تعالى أمر الرسل بالتبليغ. فهذا التبليغ واجب عليهم، فأما أن الإيمان هل يحصل أم لا يحصل فذلك لا تعلق للرسول به، ولكنه تعالى يهدي من يشاء بإحسانه ويضل من يشاء بخذلانه.

المسألة الثالثة: احتج أصحابنا في بيان أن الهدى والضلال من الله بقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ وهذا يدل على أنه تعالى كان أبدًا في جميع الملل والأمم آمرًا بالإيمان وناهيًا عن الكفر.

ثم قال: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ يعني: فمنهم من هداه الله إلى الإيمان والصدق والحق، ومنهم من أضله عن الحق وأعماه عن الصدق وأوقعه في الكفر

والضلال، وهذا يدل على أن أمر الله تعالى لا يوافق إرادته، بل قد يأمر بالشيء ولا يريده وينهى عن الشيء ويريده كما هو مذهبنا. والحاصل أن المعتزلة يقولون: الأمر والإرادة متطابقان أما العلم والإرادة فقد يختلفان، ولفظ هذه الآية صريح في قولنا وهو أن الأمر بالإيمان عام في حق الكل أما إرادة الإيمان فخاصة بالبعض دون البعض.

أجاب الجبائي: بأن المراد: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾ لنيل ثوابه وجنته: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ﴾ أي العقاب. قال: وفي صفة قوله: ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِ﴾ دلالة على أنها العذاب دون كلمة الكفر لأن الكفر والمعصية لا يجوز وصفهما بأنه حق. وأيضًا قال تعالى بعده: ﴿فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ وهذه العاقبة هي آثار الهلاك لمن تقدم من الأمم الذين استأصلهم الله تعالى بالعذاب، وذلك يدل على أن المراد بالضلال المذكور هو عذاب الاستئصال.

وأجاب الكعبي عنه بأنه قال: قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾ أي من اهتدى فكان في حكم الله مهتديًا، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ﴾ يريد: من ظهرت ضلالته، كما يقال للظالم: حق ظلمك وتبين، ويجوز أن يكون المراد: حق عليهم من الله أن يضلهم إذا ضلوا كقوله: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

واعلم أنا بينا في آيات كثيرة بالدلائل العقلية القاطعة أن الهدى والإضلال لا يكونان إلا من الله تعالى فلا فائدة في الإعادة، وهذه الوجوه المتعسفة والتأويلات المستكرهة قد بينا ضعفها وسقوطها مرارًا، فلا حاجة إلى الإعادة، والله أعلم.

المسألة الرابعة: في الطاغوت قولان: أحدهما: أن المراد به: اجتنبوا عبادة ما تعبدون من دون الله، فسمى الكل طاغوتًا، ولا يمتنع أن يكون المراد: اجتنبوا طاعة الشيطان في دعائه لكم.

المسألة الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ﴾ يدل على مذهبنا، لأنه تعالى لما أخبر عنه أنه حقت عليه الضلالة امتنع أن لا يصدر منه الضلالة، وإلا لانقلب خبر الله الصدق كذبًا، وذلك محال ومستلزم المحال محال، فكان عدم الضلالة منهم محالاً، ووجود الضلالة منهم واجبًا عقلاً، فهذه الآية دالة على صحة مذهبنا من هذه الوجوه الكثيرة، والله أعلم. ونظائر هذه الآية كثيرة منها قوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٩٦] وقوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٧].

ثم قال تعالى: ﴿فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ والمعنى: سيروا في الأرض معتبرين لتعرفوا أن العذاب نازل بكم كما نزل بهم، ثم أكد أن من حقت عليه الضلالة فإنه لا يهتدي، فقال: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ﴾ أي إن تطلب بجهدك ذلك، فإن الله لا يهدي من يضل.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ عاصم وحمزة والكسائي (يَهْدِي) بفتح الياء وكسر الدال والباقون: (لاَ يُهْدَى) بضم الياء وفتح الدال.

أما القراءة الأولى: ففيها وجهان: الأول: فإن الله لا يرشد أحدًا أضله، وبهذا فسره ابن عباس رضي الله عنهما. والثاني: أن يهدي بمعنى يهتدي. قال الفراء: العرب تقول: قد هدي الرجل يريدون قد اهتدى، والمعنى أن الله إذا أضل أحدًا لم يصر ذلك مهتديًا.

وأما القراءة المشهورة: فالوجه فيها إن الله لا يهدي من يضل، أي من يضله، فالراجع إلى الموصول الذي هو من محذوف مقدر وهذا كقوله: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦] وكقوله: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣] أي من بعد إضلال الله إياه.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي وليس لهم أحد ينصرهم أي يعينهم على مطلوبهم في الدنيا والآخرة. وأقول أول هذه الآيات موهم لمذهب المعتزلة، وآخرها مشتمل على الوجوه الكثيرة الدالة على قولنا، وأكثر الآيات كذلك مشتملة على الوجهين، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: اعلم أن هذا هو الشبهة الرابعة لمنكري النبوة فقالوا القول بالبعث والحشر والنشر باطل، فكان القول بالنبوة باطلاً.

أما المقام الأول: فتقريره أن الإنسان ليس إلا هذه البينة المخصوصة، فإذا مات وتفرقت أجزاؤه وبطل ذلك المزاج والاعتدال امتنع عوده بعينه، لأن الشيء إذا عدم فقد فني ولم يبق له ذات ولا حقيقة بعد فنائه وعدمه، فالذي يعود يجب أن يكون شيئًا مغايرًا للأول فلا يكون عينه.

وأما المقام الثاني: وهو أنه لما بطل القول بالبعث بطل القول بالنبوة وتقريره من وجهين: الأول: أن محمدًا كان داعيًا إلى تقرير القول بالمعاد، فإذا بطل ذلك ثبت أنه كان داعيًا إلى القول الباطل ومن كان كذلك لم يكن رسولاً صادقًا. الثاني: أنه يقرر نبوة نفسه ووجوب طاعته بناء على الترغيب في الثواب والترهيب عن العقاب، وإذا بطل ذلك بطلت نبوته.

إذا عرفت هذا فنقول: قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ﴾ معناه أنهم كانوا يدعون العلم الضروري بأن الشيء إذا فني وصار عدمًا محضًا ونفيًا صرفًا، فإنه بعد هذا العدم

الصرف لا يعود بعينه بل العائد يكون شيئًا آخر غيره . وهذا القسم واليمين إشارة إلى أنهم كانوا يدعون العلم الضروري بأن عوده بعينه بعد عدمه محال في بديهة العقل : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ على أنهم يجحدون في قلوبهم وعقولهم هذا العلم الضروري ، وأما بيان أنه لما بطل القول بالبعث بطل القول بالنبوة فلم يذكره على سبيل التصريح ، لأنه كلام جلي متبادر إلى العقول فتركوه لهذا العذر . ثم إنه تعالى بين أن القول بالبعث ممكن ويدل عليه وجهان :

الوجه الأول: أنه وعد حق على الله تعالى ، فوجب تحقيقه ، ثم بين السبب الذي لأجله كان وعدًا حقًا على الله تعالى ، وهو التمييز بين المطيع وبين العاصي ، وبين المحق والمبطل ، وبين الظالم والمظلوم ، وهو قوله : ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ وهذه الطريقة قد بالغنا في شرحها وتقريرها في سورة يونس .

والوجه الثاني: في بيان إمكان الحشر والنشر أن كونه تعالى موجدًا للأشياء ومكونًا لها لا يتوقف على سبق مادة ولا مدة ولا آلة ، وهو تعالى إنما يكونها بمحض قدرته ومشيئته ، وليس لقدرته دافع ولا لمشيئته مانع فعبر تعالى عن هذا النفاذ الخالي عن المعارض بقوله : ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وإذا كان كذلك ، فكما أنه تعالى قدر على الإيجاد في الابتداء وجب أن يكون قادرًا عليه في الإعادة ، فثبت بهذين الدليلين القاطعين أن القول بالحشر والنشر والبعث والقيامة حق وصدق ، والقوم إنما طعنوا في صحة النبوة بناء على الطعن في هذا الأصل ، فلما بطل هذا الطعن بطل أيضًا طعنهم في النبوة ، والله أعلم .

المسألة الثانية : قوله : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ حكاية عن الذين أشركوا ، وقوله : ﴿بَلَى﴾ إثبات لما بعد النفي ، أي بلى يبعثهم ، وقوله : ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ مصدر مؤكد أي وعد بالبعث وعدًا حقًا لا خلف فيه ، لأن قوله يبعثهم دل على قوله وعد بالبعث ، وقوله : ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ من أمور البعث أي بلى يبعثهم ليبين لهم وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين فيما أقسموا فيه .

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى : لقائل أن يقول : قوله : ﴿كُنْ﴾ إن كان خطابًا مع المعدوم فهو محال ، وإن كان خطابًا مع الموجود كان هذا أمرًا بتحصيل الحاصل وهو محال .

والجواب: أن هذا تمثيل لنفي الكلام والمعاياة وخطاب مع الخلق بما يعقلون ، وليس خطابًا للمعدوم ، لأن ما أراده الله تعالى فهو كائن على كل حال وعلى ما أراده من الإسراع ، ولو أراد خلق الدنيا والآخرة بما فيهما من السموات والأرض في قدر لمح البصر لقدر على ذلك ، ولكن العباد خوطبوا بذلك على قدر عقولهم .

المسألة الثانية : قوله تعالى : ﴿قَوْلُنَا﴾ مبتدأ و﴿أَنْ نَقُولَ﴾ خبره و﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ من كان التامة

التي بمعنى الحدوث والوجود أي إذا أردنا حدوث شيء فليس إلا أن نقول له احدث فيحدث عقيب ذلك من غير توقف.

المسألة الثالثة: قرأ ابن عامر والكسائي (فَيَكُونَ) بنصب النون، والباقون بالرفع قال الفراء: القراءة بالرفع وجهها أن يجعل قوله: ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ﴾ كلامًا تامًا ثم يخبر عنه بأنه سيكون كما يقال: إن زيدًا يكفيه إن أمر فيفعل فترفع قولك فيفعل على أن تجعله كلامًا مبتدأ، وأما القراءة بالنصب فوجهه أن تجعله عطفًا على أن نقول، والمعنى: أن نقول كن فيكون هذا قول جميع النحويين، قال الزجاج: ويجوز أن يكون نصبًا على جواب ﴿كُن﴾ قال أبو علي لفظة (كن) وإن كانت على لفظة الأمر فليس القصد بها ههنا الأمر إنما هو والله أعلم الإخبار عن كون الشيء وحدوثه، وإذا كان الأمر كذلك فحينئذ يبطل قوله إنه نصب على جواب (كُنْ)، والله أعلم.

المسألة الرابعة: احتج بعض أصحابنا بهذه الآية على قدم القرآن فقالوا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ يدل على أنه تعالى إذا أراد إحداث شيء قال له كن فيكون، فلو كان قوله ﴿كُن﴾ حادثًا لافتقر إحداثه إلى أن يقول له كن وذلك يوجب التسلسل، وهو محال فثبت أن كلام الله قديم.

واعلم أن هذا الدليل عندي ليس في غاية القوة، وبيانه من وجوه:

الوجه الأول: أن كلمة (إذا) لا تفيد التكرار، والدليل عليه أن الرجل إذا قال لامرأته إذا دخلت الدار فأنت طالق فدخلت الدار مرة طلقت طلقة واحدة فلو دخلت ثانيًا لم تطلق طلقة ثانية فعلمنا أن كلمة إذا لا تفيد التكرار، وإذا كان كذلك ثبت أنه لا يلزم في كل ما يحدثه الله تعالى أن يقول له كن فلم يلزم التسلسل.

والوجه الثاني: أن هذا الدليل إن صح لزم القول بقدم لفظة (كن) وهذا معلوم البطلان بالضرورة، لأن لفظة: كن، مركبة من الكاف والنون، وعند حضور الكاف لم تكن النون حاضرة وعند مجيء النون تتولى الكاف، وذلك يدل على أن كلمة كن يمتنع كونها قديمة، وإنما الذي يدعي أصحابنا كونه قديمًا صفة مغايرة للفظة كن، فالذي تدل عليه الآية لا يقول به أصحابنا، والذي يقولون به لا تدل عليه الآية فسقط التمسك به.

والوجه الثالث: أن الرجل إذا قال إن فلانًا لا يقدم على قول، ولا على فعل إلا ويستعين فيه بالله تعالى فإن عاقلاً لا يقول: إن استعانته بالله فعل من أفعاله فيلزم أن يكون كل استعانة مسبوقة باستعانة أخرى إلى غير النهاية لأن هذا الكلام بحسب العرف باطل فكذلك ما قالوه.

والوجه الرابع: أن هذه الآية مشعرة بحدوث الكلام من وجوه:

الوجه الأول: أن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ يقتضي كون القول واقعًا بالإرادة، وما كان كذلك فهو محدث.

والوجه الثاني: أنه علق القول بكلمة إذا، ولا شك أن لفظة (إذا) تدخل للاستقبال.

والوجه الثالث: أن قوله: ﴿أَن نَّقُولَ لَهُ﴾ لا خلاف أن ذلك ينبىء عن الاستقبال.

والوجه الرابع: أن قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ يدل على أن حدوث الكون حاصل عقيب قوله: ﴿كُن﴾ فتكون كلمة ﴿كُن﴾ متقدمة على حدوث الكون بزمان واحد، والمتقدم على المحدث بزمان واحد يجب أن يكون محدثًا.

والوجه الخامس: أنه معارض بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧]، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]. ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]. ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ [الطور: ٣٤]، ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [الأحقاف: ١٢].

فإن قيل: فهب أن هذه الآية لا تدل على قدم الكلام، ولكنكم ذكرتم أنها تدل على حدوث الكلام فما الجواب عنه؟.

قلنا: نصرف هذه الدلائل إلى الكلام المسموع الذي هو مركب من الحروف والأصوات، ونحن نقول بكونه محدثًا مخلوقًا. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عن الكفار أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم على إنكار البعث والقيامة دل ذلك على أنهم تمادوا في الغي، والجهل، والضلال، وفي مثل هذه الحالة لا يبعد إقدامهم على إيذاء المسلمين وضرهم، وإنزال العقوبات بهم، وحينئذ يلزم على المؤمنين أن يهاجروا عن تلك الديار والمساكن، فذكر تعالى في هذه الآية حكم تلك الهجرة وبين ما لهؤلاء المهاجرين من الحسنات في الدنيا، والأجر في الآخرة من حيث هاجروا وصبروا وتوكلوا على الله، وذلك ترغيب لغيرهم في طاعة الله تعالى. قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية في ستة من الصحابة صهيب وبلال وعمار وخباب وعابس وجبير موليين لقريش فجعلوا يعذبونهم ليردوهم عن الإسلام، أما صهيب فقال لهم: أنا رجل كبير إن كنت لكم لم أنفعكم وإن كنت عليكم لم أضركم فافتدى منهم بماله فلما رآه أبو بكر قال: ربح البيع يا صهيب[1]، وقال عمر: نعم الرجل صهيب لو لم يخف الله لم يعصه، وهو ثناء عظيم يريد لو لم يخلق الله النار لأطاعه فكيف ظنك به وقد خلقها؟ وأما سائرهم فقد قالوا بعض ما أراد أهل مكة من كلمة الكفر والرجوع عن الإسلام فتركوا عذابهم، ثم هاجروا فنزلت هذه الآية، وبين الله تعالى بهذه الآية عظم محل الهجرة، ومحل المهاجرين فالوجه فيه ظاهر، لأن بسبب

---

(١) لم أجده إلا عند أهل التفسير بدون إسناد.

هجرتهم ظهرت قوة الإسلام، كما أن بنصرة الأنصار قويت شوكتهم، ودل تعالى بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾ أن الهجرة إذا لم تكن لله لم يكن لها موقع، وكانت بمنزلة الانتقال من بلد إلى بلد، وقوله: ﴿مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ معناه أنهم كانوا مظلومين في أيدي الكفار، لأنهم كانوا يعذبونهم.

ثم قال: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾.

وفيه وجوه:

الأول: أن قوله: ﴿حَسَنَةً﴾ صفة للمصدر من قوله: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ والتقدير: لنبوئنهم تبوئة حسنة، وفي قراءة علي عليه السلام: (لنبوئنهم إبواءة حسنة).

الثاني: لننزلنهم في الدنيا منزلة حسنة وهي الغلبة على أهل مكة الذين ظلموهم، وعلى العرب قاطبة، وعلى أهل المشرق والمغرب، وعن عمر أنه كان إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاء قال: خذ بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله في الدنيا وما ذخر لك في الآخرة أكبر.

والقول الثالث: لنبوئنهم مباءة حسنة وهي المدينة حيث آواهم أهلها ونصروهم، وهذا قول الحسن والشعبي وقتادة، والتقدير: لنبوئنهم في الدنيا دارًا حسنة أو بلدة حسنة يعني المدينة.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ وأعظم وأشرف؛ ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ والضمير إلى من يعود؟ فيه قولان: الأول: أنه عائد إلى الكفار، أي لو علموا أن الله تعالى يجمع لهؤلاء المستضعفين في أيديهم الدنيا والآخرة لرغبوا في دينهم. والثاني: أنه راجع إلى المهاجرين، أي لو كانوا يعلمون ذلك لزادوا في اجتهادهم وصبرهم.

ثم قال: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ وفي محل: (الَّذِينَ) وجوه:

الأول: أنه بدل من قوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾.

والثاني: أن يكون التقدير: هم الذين صبروا.

والثالث: أن يكون التقدير: أعني الذين صبروا وكلا الوجهين مدح، والمعنى: أنهم صبروا على العذاب وعلى مفارقة الوطن الذي هو حرم الله، وعلى المجاهدة وبذل الأموال والأنفس في سبيل الله، وبالجملة فقد ذكر فيه الصبر والتوكل. أما الصبر فللسعي في قهر النفس، وأما التوكل فللانقطاع بالكلية من الخلق والتوجه بالكلية إلى الحق، فالأول: هو مبدأ السلوك إلى الله تعالى. والثاني: آخر هذا الطريق ونهايته، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۚ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ

﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن هذا هو الشبهة الخامسة لمنكري النبوة كانوا يقولون: الله أعلى وأجل من أن يكون رسوله واحدًا من البشر، بل لو أراد بعثة رسول إلينا لكان يبعث ملكًا، وقد ذكرنا تقرير هذه الشبهة في سورة الأنعام فلا نعيده ههنا، ونظير هذه الآية قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨] وقالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: ٤٧] وقالوا: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ﴾ [المؤمنون: ٣٣، ٣٤] وقالوا: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ [يونس: ٢] وقالوا: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧].

فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ والمعنى: أن عادة الله تعالى من أول زمان الخلق والتكليف أنه لم يبعث رسولاً إلا من البشر، فهذه العادة مستمرة لله سبحانه وتعالى، وطعن هؤلاء الجهال بهذا السؤال الركيك أيضًا طعن قديم فلا يلتفت إليه.

المسألة الثانية: دلت الآية على أنه تعالى ما أرسل أحدًا من النساء، ودلت أيضًا على أنه ما أرسل ملكًا، لكن ظاهر قوله: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١] يدل على أن الملائكة رسل الله إلى سائر الملائكة، فكان ظاهر هذه الآية دليلاً على أنه ما أرسل رسولاً من الملائكة إلى الناس. قال القاضي: وزعم أبو علي الجبائي أنه لم يبعث إلى الأنبياء عليهم السلام إلا من هو بصورة الرجال من الملائكة. ثم قال القاضي: لعله أراد أن الملك الذي يرسل إلى الأنبياء عليهم السلام بحضرة أممهم، لأنه إذا كان كذلك فلا بد من أن يكون أيضًا بصورة الرجال، كما روي أن جبريل عليه السلام حضر عند رسول الله ﷺ في صورة دحية الكلبي وفي صورة سراقة(1)، وإنما قلنا ذلك لأن المعلوم من حال الملائكة أن عند إبلاغ الرسالة من الله تعالى إلى الرسول قد يبقون على صورتهم الأصلية الملكية، وقد روي أن النبي ﷺ رأى جبريل عليه السلام على صورته التي هو

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في (مسنده) (٢/ ١٠٧) حديث رقم/ ٥٨٥٧، من طريق إسحاق بن سويد عن يحيى بن يعمر عن ابن عمر... به، أن جبريل كان يأتي النبي ﷺ في صورة دحية، والبيهقي في (شعب الإيمان) (٥/ ١٧٥) حديث رقم/ ٦٢٥٧، من طريق عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة... به، والمروزي في (تعظيم قدر الصلاة) (١/ ٣٩١) حديث رقم/ ٣٨٢، من طريق الربيع بن أنس عن أنس... به، وجاء أيضا أن جبريل كان يأتي النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي كما أخرجه مسلم في (صحيحه) (٤/ ١٩٠٦/ ٢٤٥١)، والبخاري في (صحيحه) (٣/ ١٣٣٠) حديث رقم/ ٣٤٣٥، كلاهما من طريق أبي عثمان عن سلمان... به، أما في صورة سراقة لم أجده في سننه صحيحه.

عليها مرتين[١] ، وعليه تأولوا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾[النجم: ١٣] ولما ذكر الله تعالى هذا الكلام أتبعه بقوله: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في المراد بأهل الذكر وجوه: الأول: قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد أهل التوراة، والذكر هو التوراة. والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾[الأنبياء: ١٠٥] يعني التوراة. الثاني: قال الزجاج: فاسألوا أهل الكتب الذين يعرفون معاني كتب الله تعالى، فإنهم يعرفون أن الأنبياء كلهم بشر، والثالث: أهل الذكر أهل العلم بأخبار الماضين، إذ العالم بالشيء يكون ذاكرًا له. والرابع: قال الزجاج: معناه سلوا كل من يذكر بعلم وتحقيق. وأقول: الظاهر أن هذه الشبهة وهي قولهم: الله أعلى وأجل من أن يكون رسوله واحدًا من البشر إنما تمسك بها كفار مكة، ثم إنهم كانوا مقرين بأن اليهود والنصارى أصحاب العلوم والكتب فأمرهم الله بأن يرجعوا في هذه المسألة إلى اليهود والنصارى ليبينوا لهم ضعف هذه الشبهة وسقوطها، فإن اليهودي والنصراني لا بد لهما من تزييف هذه الشبهة وبيان سقوطها.

المسألة الثانية: اختلف الناس في أنه هل يجوز للمجتهد تقليد المجتهد؟ منهم من حكم بالجواز واحتج بهذه الآية فقال: لما لم يكن أحد المجتهدين عالمًا وجب عليه الرجوع إلى المجتهد الآخر الذي يكون عالمًا لقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فإن لم يجب فلا أقل من الجواز.

المسألة الثالثة: احتج نفاة القياس بهذه الآية فقالوا: المكلف إذا نزلت به واقعة فإن كان عالمًا بحكمها لم يجز له القياس، وإن لم يكن عالمًا بحكمها وجب عليه سؤال من كان عالمًا بها لظاهر هذه الآية، ولو كان القياس حجة لما وجب عليه سؤال العالم لأجل أنه يمكنه استنباط ذلك الحكم بواسطة القياس، فثبت أن تجويز العمل بالقياس يوجب ترك العمل بظاهر هذه الآية فوجب أن لا يجوز، والله أعلم.

وجوابه: أنه ثبت جواز العمل بالقياس بإجماع الصحابة، والإجماع أقوى من هذا الدليل، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ .

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: ذكروا في الجالب لهذه الباء وجوهًا: **الأول:** أن التقدير: وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر إلا رجالاً يوحى إليهم، وأنكر الفراء ذلك وقال: إن صلة ما قبل إلا لا يتأخر إلى

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (١/ ١٥٩/ ١٧٧)، والترمذي في (سننه) (٥/ ٢٦٢) حديث رقم (٣٠٦٨)، وأحمد في (مسنده) (٦/ ٢٣٦)، جميعا من طريق مسروق عن عائشة. . . به.

بعد، والدليل عليه: أن المستثنى عنه هو مجموع ما قبل إلا مع صلته، فما لم يصر هذا المجموع مذكورًا بتمامه امتنع إدخال الاستثناء عليه. **الثاني:** أن التقدير: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً يوحى إليهم بالبينات والزبر، وعلى هذا التقدير فقوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ متعلق بالمستثنى. **والثالث:** أن الجالب لهذا الباء محذوف، والتقدير أرسلناهم بالبينات وهذا قول الفراء. قال: ونظيره ما مر إلا أخوك بزيد ما مر إلا أخوك ثم يقول مر بزيد. **الرابع:** أن يقال: الذكر بمعنى العلم، والتقدير فاسألوا أهل الذكر بالبينات والزبر إن كنتم لا تعلمون. الخامس: أن يكون التقدير: إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر فاسألوا أهل الذكر.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ لفظة جامعة لكل ما تكامل به الرسالة، لأن مدار أمرها على المعجزات الدالة على صدق من يدعي الرسالة وهي البينات وعلى التكاليف التي يبلغها الرسول من الله تعالى إلى العباد وهي الزبر.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ظاهر هذا الكلام يقتضي أن هذا الذكر مفتقر إلى بيان رسول الله والمفتقر إلى البيان مجمل، فظاهر هذا النص يقتضي أن القرآن كله مجمل، فلهذا المعنى قال بعضهم متى وقع التعارض بين القرآن وبين الخبر وجب تقديم الخبر لأن القرآن مجمل والدليل عليه هذه الآية، والخبر مبين له بدلالة هذه الآية، والمبين مقدم على المجمل.

والجواب: أن القرآن منه محكم، ومنه متشابه، والمحكم يجب كونه مبينًا فثبت أن القرآن ليس كله مجملاً بل فيه ما يكون مجملاً فقوله: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ محمول على المجملات.

المسألة الثانية: ظاهر هذه الآية يقتضي أن يكون الرسول ﷺ هو المبين لكل ما أنزله الله تعالى على المكلفين، فعند هذا قال نفاة القياس لو كان القياس حجة لما وجب على الرسول بيان كل ما أنزله الله تعالى على المكلفين من الأحكام، لاحتمال أن يبين المكلف ذلك الحكم بطريقة القياس، ولما دلت هذه الآية على أن المبين لكل التكاليف والأحكام، هو الرسول ﷺ علمنا أن القياس ليس بحجة.

وأجيب عنه بأنه ﷺ لما بين أن القياس حجة، فمن رجع في تبيين الأحكام والتكاليف إلى القياس، كان ذلك في الحقيقة رجوعًا إلى بيان الرسول ﷺ.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ المكر في اللغة عبارة عن السعي بالفساد على سبيل الإخفاء، ولا بد ههنا من إضمار، والتقدير: المكرات السيئات، والمراد أهل مكة ومن حول المدينة. قال الكلبي: المراد بهذا المكر اشتغالهم بعبادة غير الله تعالى، والأقرب أن المراد سعيهم في إيذاء الرسول ﷺ وأصحابه على سبيل الخفية، ثم إنه تعالى ذكر في تهديدهم أمورًا أربعة: الأول: أن يخسف الله بهم الأرض كما خسف بقارون. الثاني: أن يأتيهم العذاب من

حيث لا يشعرون، والمراد أن يأتيهم العذاب من السماء من حيث يفجؤهم فيهلكهم بغتة كما فعل بقوم لوط. والثالث: أن يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين، وفي تفسير هذا التقلب وجوه: الأول: أنه يأخذهم بالعقوبة في أسفارهم، فإنه تعالى قادر على إهلاكهم في السفر كما أنه قادر على إهلاكهم في الحضر وهم لا يعجزون الله بسبب ضربهم في البلاد البعيدة بل يدركهم الله حيث كانوا، وحمل لفظ التقلب على هذا المعنى مأخوذ من قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [آل عمران: ١٩٦]. وثانيهما: تفسير هذا اللفظ بأنه يأخذهم بالليل والنهار في أحوال إقبالهم وإدبارهم وذهابهم ومجيئهم وحقيقته في حال تصرفهم في الأمور التي يتصرف فيها أمثالهم. وثالثها: أن يكون المعنى أو يأخذهم في حال ما ينقلبون في قضايا أفكارهم فيحول الله بينهم وبين إتمام تلك الحيل قسرًا كما قال: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٦٦] وحمل لفظ التقلب على هذا المعنى مأخوذ من قوله: ﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ [التوبة: ٤٨] فإنهم إذا قلبوها فقد تقلبوا فيها.

والنوع الرابع: من الأشياء التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية على سبيل التهديد قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ وفي تفسير التخوف قولان:

القول الأول: التخوف تفعل من الخوف، يقال خفت الشيء وتخوفته والمعنى أنه تعالى لا يأخذهم بالعذاب أولاً بل يخيفهم أولاً ثم يعذبهم بعده، وتلك الإخافة هو أنه تعالى يهلك فرقة فتخاف التي تليها فيكون هذا أخذًا ورد عليهم بعد أن يمر بهم قبل ذلك زمانًا طويلاً في الخوف والوحشة.

والقول الثاني: أن التخوف هو التنقص قال ابن الأعرابي يقال: تخوفت الشيء وتخفيته إذا تنقصته، وعن عمر أنه قال على المنبر: ما تقولون في هذه الآية؟ فسكتوا فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا التخوف التنقص، فقال عمر: هل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال: نعم. قال شاعرنا وأنشد:

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ مِنهَا تَامِكًا قَرِدًا ... كَمَا تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ(١)

فقال عمر: أيها الناس عليكم بديوانكم لا تضلوا، قالوا: وما ديواننا؟ قال شعر الجاهلية فيه تفسير كتابكم.

إذا عرفت هذا فنقول: هذا التنقص يحتمل أن يكون المراد منه ما يقع في أطراف بلادهم كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ [الأنبياء: ٤٤] والمعنى أنه تعالى لا يعاجلهم بالعذاب ولكن ينقص من أطراف بلادهم إلى القرى التي تجاورهم حتى يخلص الأمر إليهم فحينئذ يهلكهم، ويحتمل أن يكون المراد أنه ينقص أموالهم وأنفسهم قليلاً قليلاً حتى يأتي

---

(١) البيت لذي الرمة وتقدمت ترجمته.

الفناء على الكل فهذا تفسير هذه الأمور الأربعة، والحاصل أنه تعالى خوفهم بخسف يحصل في الأرض أو بعذاب ينزل من السماء أو بآفات تحدث دفعة واحدة حال ما لا يكونون عالمين بعلاماتها ودلائلها، أو بآفات تحدث قليلاً قليلاً إلى أن يأتي الهلاك على آخرهم ثم ختم الآية بقوله: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ والمعنى أنه يمهل في أكثر الأمر لأنه رؤوف رحيم فلا يعاجل بالعذاب.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما خوف المشركين بالأنواع الأربعة المذكورة من العذاب أردفه بذكر ما يدل على كمال قدرته في تدبير أحوال العالم العلوي والسفلي وتدبير أحوال الأرواح والأجسام، ليظهر لهم أن مع كمال هذه القدرة القاهرة، والقوة الغير المتناهية لا يعجز عن إيصال العذاب إليهم على أحد تلك الأقسام الأربعة.

المسألة الثانية: قرأ حمزة والكسائي: (أَوَلَمْ تَرَوْا) بالتاء على الخطاب، وكذلك في سورة العنكبوت: (أَوَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) [العنكبوت: ١٩] بالتاء على الخطاب، والباقون بالياء فيهما كناية عن الذين مكروا السيئات، وأيضًا أن ما قبله غيبة وهو قوله: ﴿أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ﴾ [النحل: ٤٥-٤٦] فكذا قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ وقرأ أبو عمرو وحده: (تتفيؤا) بالتاء والباقون بالياء، وكلاهما جائز لتقدم الفعل على الجمع.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ﴾ لما كانت الرؤية ههنا بمعنى النظر وصلت بإلى، لأن المراد به الاعتبار والاعتبار لا يكون بنفس الرؤية حتى يكون معها نظر إلى الشيء وتأمل لأحواله، وقوله: ﴿إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ قال أهل المعاني: أراد من شيء له ظل من جبل وشجر وبناء وجسم قائم، ولفظ الآية يشعر بهذا القيد، لأن قوله: ﴿مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ يدل على أن ذلك الشيء كثيف يقع له ظل على الأرض. وقوله: ﴿يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ﴾ إخبار عن قوله: ﴿شَيْءٍ﴾ وليس بوصف له، ويتفيأ يتفعل من الفيء يقال: فاء الظل يفيء فيئًا إذا رجع وعاد بعد ما نسخه ضياء الشمس، وأصل الفيء الرجوع، ومنه فيء المولي وذكرنا ذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِن فَاءُو فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦] وكذلك فيء المسلمين لما يعود

على المسلمين من مال من خالف دينهم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ﴾ [الحشر: ٦] وأصل هذا كله من الرجوع.

إذا عرفت هذا فنقول: إذا عدي فاء فإنه يعدى إما بزيادة الهمزة أو بتضعيف العين. أما التعدية بزيادة الهمزة فكقوله: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الحشر: ٦] وأما بتضعيف العين فكقوله فيأ الله الظل فتفيأ وتفيأ مطاوع فيأ. قال الأزهري: تفيؤ الظلال رجوعها بعد انتصاف النهار، فالتفيؤ لا يكون إلا بالعشي بعدما انصرفت عنه الشمس والظل ما يكون بالغداة وهو ما لم تنله الشمس كما قال الشاعر:

فَلَا الظِّلُّ مِنْ بَرْدِ الضُّحَى تَسْتَطِيعُهُ وَلاَ الْفَيْءُ مِنْ بَرْدِ الْعَشِيِّ تَذُوقُ(١)

قال ثعلب: أخبرت عن أبي عبيدة أن رؤبة قال: كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فيء وما لم يكن عليه الشمس فهو ظل، ومنهم من أنكر ذلك، فإن أبا زيد أنشد للنابغة الجعدي:

فَسَلَامُ الإِلَـهِ يَغْـدُو عَلَـيْـهِـمْ وَفُيُوءُ الْفِرْدَوْسِ ذَاتُ الظِّلَالِ(٢)

فهذا الشعر قد أوقع فيه لفظ الفيء على ما لم تنسخه الشمس، لأن ما في الجنة من الظل ما حصل بعد أن كان زائلاً بسبب نور الشمس وتقول العرب في جمع فيء أفياء وهي للعدد القليل، وفيوء للكثير كالنفوس والعيون، وقوله: ﴿ظِلَٰلُهُۥ﴾ أضاف الظلال إلى مفرد، ومعناه الإضافة إلى ذوي الظلال، وإنما حسن هذا، لأن الذي عاد إليه الضمير وإن كان واحدًا في اللفظ وهو قوله إلى ما خلق الله، إلا أنه كثير في المعنى، ونظيره قوله تعالى: ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف: ١٣] فأضاف الظهور وهو جمع، إلى ضمير مفرد، لأنه يعود إلى واحد أريد به الكثرة وهو قوله: ﴿مَا تَرۡكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢] هذا كله كلام الواحدي وهو بحث حسن. أما قوله: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾.

ففيه بحثان:

البحث الأول: في المراد باليمين والشمائل قولان:

القول الأول: أن يمين الفلك هو المشرق وشماله هو المغرب، والسبب في تخصيص هذين الاسمين بهذين الجانبين أن أقوى جانبي الإنساني يمينه، ومنه تظهر الحركة القوية، فلما كانت الحركة الفلكية اليومية آخذة من المشرق إلى المغرب، لا جرم كان المشرق يمين الفلك والمغرب شماله.

إذا عرفت هذا فنقول: إن الشمس عند طلوعها إلى وقت انتهائها إلى وسط الفلك تقع الأظلال

---

(١) هذا البيت للشاعر حميد بن ثور الهلالي والبيت هكذا:

فَلا الظِلّ مِنها بِالضُّحى تَستَطيعَهُ ولاَ الفيءَ مِنها بِالعشي تَذوقُ

والشاعر هو حميد بن ثور بن حزن الهلالي العامري، أبو المثنى، ؟ - ٣٠هـ/ ؟ - ٦٥٠ م. شاعر مخضرم عاش زمناً في الجاهلية وشهد حنيناً مع المشركين، وأسلم ووفد على النبي ﷺ، ومات في خلافة عثمان رضي الله عنه، وقيل أدرك زمن عبد الملك بن مروان.

(٢) النابغة الجعدي تقدمت ترجمته.

إلى الجانب الغربي، فإذا انحدرت الشمس من وسط الفلك إلى الجانب الغربي وقع الأظلال في الجانب الشرقي، فهذا هو المراد من تفيؤ الظلال من اليمين إلى الشمال وبالعكس، وعلى هذا التقدير: فالأظلال في أول النهار تبتدىء من يمين الفلك على الربع الغربي من الأرض، ومن وقت انحدار الشمس من وسط الفلك تبتدىء الأظلال من شمال الفلك واقعة على الربع الشرقي من الأرض.

القول الثاني: أن البلدة التي يكون عرضها أقل من مقدار الميل، فإن في الصيف تحصل الشمس على يسارها، وحينئذ يقع الإظلال على يمينهم، فهذا هو المراد من انتقال الأظلال عن الأيمان إلى الشمائل وبالعكس. هذا ما حصلته في هذا الباب، وكلام المفسرين فيه غير ملخص.

البحث الثاني: لقائل أن يقول: ما السبب في أن ذكر اليمين بلفظ الواحد، والشمائل بصيغة الجمع؟

وأجيب عنه بأشياء: أحدها: أنه وحد اليمين والمراد الجمع ولكنه اقتصر في اللفظ على الواحد كقوله تعالى: ﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]. وثانيها: قال الفراء: كأنه إذا وحد ذهب إلى واحدة من ذوات الأظلال، وإذا جمع ذهب إلى كلها، وذلك لأن قوله: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ لفظه واحد، ومعناه الجمع على ما بيناه فيحتمل كلا الأمرين. وثالثها: أن العرب إذا ذكرت صيغتي جمع عبرت عن إحداهما بلفظ الواحد كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] وقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]. ورابعها: أنا إذا فسرنا اليمين بالمشرق كانت النقطة التي هي مشرق الشمس واحدة بعينها، فكانت اليمين واحدة. وأما الشمائل فهي عبارة عن الانحرافات الواقعة في تلك الأظلال بعد وقوعها على الأرض وهي كثيرة، فلذلك عبر الله تعالى عنها بصيغة الجمع، والله أعلم.

المسألة الرابعة: أما قوله: ﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾.

ففيه احتمالات:

الأول: أن يكون المراد من السجود الاستسلام والانقياد يقال: سجد البعير إذا طأطأ رأسه ليركب، وسجدت النخلة إذا مالت لكثرة الحمل ويقال: أسجد لقرد السوء في زمانه، أي أخضع له قال الشاعر:

تَرَى الأُكْمَ فِيهَا سُجَّدًا لِلْحَوَافِرِ [1]

أي متواضعة، إذا عرفت هذا فنقول: إنه تعالى دبر النيرات الفلكية، والأشخاص الكوكبية بحيث يقع أضواؤها على هذا العالم السفلي على وجوه مخصوصة. ثم إنا نشاهد أن تلك الأضواء، وتلك الأظلال لا تقع في هذا العالم إلا على وفق تدبير الله تعالى وتقديره، فنشاهد أن الشمس إذا طلعت وقعت الأجسام الكثيفة أظلال ممتدة في الجانب الغربي من الأرض، ثم كلما ازدادت

(١) تقدم هذا البيت في النصف الأول من المجلد.

الشمس طلوعًا وارتفاعًا، ازدادت تلك الأظلال تقلصًا وانتقاصًا إلى الجانب الشرقي إلى أن تصل الشمس إلى وسط الفلك، فإذا انحدرت إلى الجانب الغربي ابتدأت الأظلال بالوقوع في الجانب الشرقي، وكلما ازدادت الشمس انحدارًا ازدادت الأظلال تمددًا وتزايدًا في الجانب الشرقي. وكما أنا نشاهد هذه الحالة في اليوم الواحد، فكذلك نشاهد أحوال الأظلال مختلفة في التيامن والتياسر في طول السنة، بسبب اختلاف أحوال الشمس في الحركة من الجنوب إلى الشمال وبالعكس، فلما شاهدنا أحوال هذه الأظلال مختلفة بسبب الاختلافات اليومية الواقعة في شرق الأرض وغربها، وبحسب الاختلافات الواقعة في طول السنة في يمين الفلك ويساره، ورأينا أنها واقعة على وجه مخصوص وترتيب معين، علمنا أنها منقادة لقدرة الله خاضعة لتقديره وتدبيره، فكانت السجدة عبارة عن هذه الحالة.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال: اختلاف حال هذه الأظلال معلل باختلاف سير النير الأعظم الذي هو الشمس، لا لأجل تقدير الله تعالى وتدبيره؟

قلنا: قد دللنا على أن الجسم لا يكون متحركًا لذاته، إذ لو كانت ذاته علة لهذا الجزء المخصوص من الحركة، لبقي هذا الجزء من الحركة لبقاء ذاته، ولو بقي ذلك الجزء من الحركة لامتنع حصول الجزء الآخر من الحركة، ولو كان الأمر كذلك لكان هذا سكونًا لا حركة، فالقول بأن الجسم المتحرك لذاته يوجب القول بكونه ساكنًا لذاته وإنه محال، وما أفضى ثبوته إلى نفيه كان باطلاً، فعلمنا أن الجسم يمتنع كونه متحركًا لذاته، وأيضًا فقد دللنا على أن الأجسام متماثلة في تمام الماهية، فاختصاص جرم الشمس بالقوة المعينة والخاصية المعينة لا بد وأن يكون بتدبير الخالق المختار الحكيم.

إذا ثبت هذا فنقول: هب أن اختلاف أحوال الأظلال إنما كان لأجل حركات الشمس، إلا أنا لما دللنا على أن محرك الشمس بالحركة ليس إلا الله سبحانه كان هذا دليلاً على أن اختلاف أحوال الأظلال لم يقع إلا بتدبير الله تعالى وتخليقه، فثبت أن المراد بهذا السجود الانقياد والتواضع، ونظيره قوله: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦] وقوله: ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥] قد مر بيانه وشرحه.

والقول الثاني: في تفسير هذا السجود، أن هذه الأظلال واقعة على الأرض ملتصقة بها على هيئة الساجد. قال أبو العلاء المعري في صفة واد:

بحرف يُطِيلُ الْجُنْحُ فِيهِ سُجُودَهُ ... وَلِلْأَرْضِ زِيُّ الرَّاهِبِ الْمُتَعَبِّدِ[1]

فلما كانت الأظلال تشبه بشكلها شكل الساجدين أطلق الله عليها هذا اللفظ، وكان الحسن يقول: أما ظلك فسجد لربك، وأما أنت فلا تسجد له بئسما صنعت، وقال مجاهد: ظل الكافر

(١) أبو العلاء المعري تقدمت ترجمته.

يصلي وهو لا يصلي، وقيل: ظل كل شيء يسجد لله سواء كان ذلك ساجدًا أم لا.

واعلم أن الوجه الأول أقرب إلى الحقائق العقلية، والثاني أقرب إلى الشبهات الظاهرة.

المسألة الخامسة: وقوله: ﴿سُجَّدًا﴾ حال من الظلال وقوله: ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي صاغرون، يقال: دخر يدخر دخورًا، أي صغر يصغر صغارًا، وهو الذي يفعل ما تأمره شاء أم أبى، وذلك لأن هذه الأشياء منقادة لقدرة الله تعالى وتدبيره وقوله: ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ حال أيضًا من الظلال.

فإن قيل: الظلال ليست من العقلاء فكيف جاز جمعها بالواو والنون؟

قلنا: لأنه تعالى لما وصفهم بالطاعة والدخور أشبهوا العقلاء.

أما قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قد ذكرنا أن السجود على نوعين: سجود هو عبادة كسجود المسلمين لله تعالى، وسجود هو عبارة عن الانقياد لله تعالى والخضوع، ويرجع حاصل هذا السجود إلى أنها في نفسها ممكنة الوجود والعدم قابلة لهما، وأنه لا يترجح أحد الطرفين على الآخر إلا لمرجح.

إذا عرفت هذا فنقول: من الناس من قال: المراد بالسجود المذكور في هذه الآية السجود بالمعنى الثاني وهو التواضع والانقياد، والدليل عليه أن اللائق بالدابة ليس إلا هذا السجود ومنهم من قال: المراد بالسجود ههنا هو المعنى الأول، لأن اللائق بالملائكة هو السجود بهذا المعنى لأن السجود بالمعنى الثاني حاصل في كل الحيوانات والنباتات والجمادات، ومنهم من قال: السجود لفظ مشترك بين المعنيين، وحمل اللفظ المشترك لإفادة مجموع معنييه جائز، فحمل لفظ السجود في هذه الآية على الأمرين معًا، أما في حق الدابة فبمعنى التواضع، وأما في حق الملائكة فبمعنى سجود المسلمين لله تعالى، وهذا القول ضعيف، لأنه ثبت أن استعمال اللفظ المشترك لإفادة جميع مفهوماته معًا غير جائز.

المسألة الثانية: قوله: ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ قال الأخفش: يريد من الدواب وأخبر بالواحد كما تقول ما أتاني من رجل مثله، وما أتاني من الرجال مثله، وقال ابن عباس: يريد كل ما دب على الأرض.

المسألة الثالثة: لقائل أن يقول: ما الوجه في تخصيص الدواب والملائكة بالذكر؟ فنقول فيه وجوه:

الوجه الأول: أنه تعالى بين في آية الظلال أن الجمادات بأسرها منقادة لله تعالى وبين بهذه الآية أن الحيوانات بأسرها منقادة لله تعالى، لأن أخسها الدواب وأشرفها الملائكة، فلما بين في أخسها وفي أشرفها كونها منقادة لله تعالى كان ذلك دليلًا على أنها بأسرها منقادة خاضعة لله تعالى.

والوجه الثاني: قال حكماء الإسلام: الدابة اشتقاقها من الدبيب، والدبيب عبارة عن الحركة

الجسمانية، فالدابة اسم لكل حيوان جسماني يتحرك ويدب، فلما بين الله تعالى الملائكة عن الدابة علمنا أنها ليست مما يدب، بل هي أرواح محضة مجردة، ويمكن الجواب عنه بأن الجناح للطيران مغاير للدبيب بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: المقصود من هذه الآية شرح صفات الملائكة وهي دلالة قاهرة قاطعة على عصمة الملائكة عن جميع الذنوب، لأن قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يدل على أنهم منقادون لصانعهم وخالقهم وأنهم ما خالفوه في أمر من الأمور، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤] وقوله: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧] وأما قوله: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ فهذا أيضًا يدل على أنهم فعلوا كل ما كانوا مأمورين به، وذلك يدل على عصمتهم عن كل الذنوب.

فإن قالوا: هب أن هذه الآية تدل على أنهم فعلوا كل ما أمروا به فلم قلتم إنها تدل على أنهم تركوا كل ما نهوا عنه؟

قلنا: لأن كل من نهي عن شيء فقد أمر بتركه، وحينئذ يدخل في اللفظ، وإذا ثبت بهذه الآية كون الملائكة معصومين من كل الذنوب، وثبت أن إبليس ما كان معصومًا من الذنوب بل كان كافرًا، لزم القطع بأن إبليس ما كان من الملائكة.

والوجه الثاني: في بيان هذا المقصود أنه تعالى قال في صفة الملائكة: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ثم قال لإبليس: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥] وقال أيضًا له: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣] فثبت أن الملائكة لا يستكبرون وثبت أن إبليس تكبر واستكبر فوجب أن لا يكون من الملائكة وأيضًا لما ثبت بهذه الآية وجوب عصمة الملائكة، ثبت أن القصة الخبيثة التي يذكرونها في حق هاروت وماروت كلام باطل، فإن الله تعالى وهو أصدق القائلين لما شهد في هذه الآية على عصمة الملائكة وبراءتهم عن كل ذنب، وجب القطع بأن تلك القصة كاذبة باطلة، والله أعلم. واحتج الطاعنون في عصمة الملائكة بهذه الآية فقالوا: إنه تعالى وصفهم بالخوف، ولولا أنهم يجوزون على أنفسهم الإقدام على الكبائر والذنوب وإلا لم يحصل الخوف.

والجواب من وجهين:

الأول: أنه تعالى منذرهم من العقاب فقال: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٩] وهم لهذا الخوف يتركون الذنب.

والثاني: وهو الأصح أن ذلك الخوف خوف الإجلال هكذا نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما، والدليل على صحته قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] وهذا يدل

على أنه كلما كانت معرفة الله تعالى أتم، كان الخوف منه أعظم، وهذا الخوف لا يكون إلا خوف الإجلال والكبرياء، والله أعلم.

المسألة الثانية: قالت المشبهة قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ هذا يدل على أن الإله تعالى فوقهم بالذات.

واعلم أنا بالغنا في الجواب عن هذه الشبهة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨] والذي نريده هاهنا أن قوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ معناه يخافون ربهم من أن ينزل عليهم العذاب من فوقهم، وإذا كان اللفظ محتملاً لهذا المعنى سقط قولهم، وأيضًا يجب حمل هذه الفوقية على الفوقية بالقدرة والقهر كقوله: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] والذي يقوي هذا الوجه أنه تعالى لما قال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ وجب أن يكون المقتضى لهذا الخوف هو كون ربهم فوقهم لما ثبت في أصول الفقه أن الحكم المرتب على الوصف يشعر بكون ذلك الحكم معللاً بذلك الوصف.

إذا ثبت هذا فنقول: هذا التعطيل إنما يصح لو كان المراد بالفوقية الفوقية بالقهر والقدرة لأنها هي الموجبة للخوف، أما الفوقية بالجهة والمكان فهي لا توجب الخوف بدليل أن حارس البيت فوق الملك بالمكان والجهة مع أنه أخس عبيده فسقطت هذه الشبهة.

المسألة الثالثة: دلت هذه الآية على أن الملائكة مكلفون من قبل الله تعالى وأن الأمر والنهي متوجه عليهم كسائر المكلفين، ومتى كانوا كذلك وجب أن يكونوا قادرين على الخير والشر.

المسألة الرابعة: تمسك قوم بهذه الآية في بيان أن الملك أفضل من البشرمن وجوه:

الوجه الأول: أنه تعالى قال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وذكرنا أن تخصيص هذين النوعين بالذكر إنما يحسن إذا كان أحد الطرفين أخس المراتب وكان الطرف الثاني أشرفها حتى يكون ذكر هذين الطرفين منبهًا على الباقي، وإذا كان كذلك وجب أن يكون الملائكة أشرف خلق الله تعالى.

الوجه الثاني: أن قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يدل على أنه ليس في قلوبهم تكبر وترفع وقوله: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ يدل على أن أعمالهم خالية عن الذنب والمعصية، فمجموع هذين الكلامين يدل على أن بواطنهم وظواهرهم مبرأة عن الأخلاق الفاسدة والأفعال الباطلة، وأما البشر فليسوا كذلك. ويدل عليه القرآن والخبر، أما القرآن فقوله تعالى: ﴿قُتِلَ الْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧] وهذا الحكم عام في الإنسان، وأقل مراتبه أن تكون طبيعة الإنسان مقتضية لهذه الأحوال الذميمة، وأما الخبر فقوله عليه السلام: «**مَا مِنَّا إِلاَّ وَقَدْ عَصَى أَوْ هَمَّ بِالْمَعْصِيَةِ غَيْرَ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا**»[1] ومن المعلوم بالضرورة أن المبرأ عن المعصية والهم بها أفضل ممن عصى أو هم بها.

---

(١) أورده ابن حجر في (تلخيص الحبير) (٤/ ١٩٩) حديث رقم/ ٢١١٠، وقال: المشهور بلفظ ما من آدمي إلا وقد أخطأ أو هم بخطيئة أو عملها إلا يحيى بن زكريا لم يهم بخطيئة ولم يعملها رواه أحمد وأبو يعلي والحاكم من=

الوجه الثالث: أنه لا شك أن الله تعالى خلق الملائكة قبل البشر بأدوار متطاولة وأزمان ممتدة، ثم إنه وصفهم بالطاعة والخضوع والخشوع طول هذه المدة، وطول العمر مع الطاعة يوجب مزيد الفضيلة لوجهين: الأول: قوله عليه السلام: «الشَّيْخُ فِي قَوْمِهِ كَالنَّبِيِّ فِي أُمَّتِهِ»(١) فضل الشيخ على الشاب، وما ذاك إلا لأنه لما كان عمره أطول فالظاهر أن طاعته أكثر فكان أفضل. والثاني: أنه ﷺ قال: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»(٢) فلما كان شروع الملائكة في الطاعات قبل شروع البشر فيها لزم أن يقال إنهم هم الذين سنوا هذه السنة الحسنة، وهي طاعة الخالق القدير الرحيم، والبشر إنما جاؤوا بعدهم واستنوا سنتهم، فوجب بمقتضى هذا الخبر أن كل ما حصل للبشر من الثواب فقد حصل مثله للملائكة ولهم ثواب القدر الزائد من الطاعة فوجب كونهم أفضل من غيرهم.

الوجه الرابع: في دلالة الآية على هذا المعنى قوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ وقد بينا بالدليل أن هذه الفوقية عبارة عن الفوقية بالرتبة والشرف والقدرة والقوة، فظاهر الآية يدل على أنه لا شيء فوقهم في الشرف والرتبة إلا الله تعالى، وذلك يدل على كونهم أفضل المخلوقات، والله أعلم.

=حديث بن عباس وهذا لفظه ولفظهما ما من أحد من ولد آدم إلا قد أخطأ أو هم بخطيئة ليس يحيى بن زكريا وهو من رواية علي بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران وهما ضعيفان وله طريق أخري ثم البزار من رواية محمد بن عون الخراساني وهو ضعيف وفي الباب عن أبي هريرة في الطبراني في الأوسط والكامل لابن عدي في ترجمة حجاج بن سليمان وأخرجه البيهقي بإسناد صحيح إلى الحسن عن النبي ﷺ مرسلا وأخرجه عبد الرزاق من طريق سعيد بن المسيب مرسلا أيضا.

(١) أورده القاري في (المصنوع) (١/ ١١٥) حديث رقم/ ١٦٩، وقال: أخرجه ابن حبان والديلمي ضعيف جدا وفي المقاصد جزم شيخنا وغيره بأنه موضوع وإنما هو كلام بعض السلف، وأورده العجلوني في (كشف الخفا) (٢/ ٢٢) حديث رقم/ ١٥٧٦، وقال: قال في المقاصد رواه ابن حبان في الضعفاء وكذا الديلمي عن أبي رافع مرفوعا لكن بلفظ الشيخ في أهله ورواه ابن حبان أيضا في ترجمة عبد الله بن عمر الإفريقي عن ابن عمر ثم قال وهو موضوع وقال الحافظ ابن حجر كابن تيمية أنه ليس من كلام ﷺ وإنما يقوله بعض أهل العلم وربما أورده بعضهم بلفظ الشيخ في جماعته كالنبي في قومه يتعلمون من علمه ويتأدبون من أدبه وكل ذلك باطل وروي الديلمي هم أنس مرفوعًا بجلوا المشايخ فإن تبجيل المشايخ من إجلال الله عز وجل فمن لم يبجلهم فليس منا لكن أخرجه ابن حبان في الضعفاء عن أبي رافع مرفوعا وأسنده الديلمي عنه ورواه بالجامع الصغير بلفظ الشيخ في أهله كالنبي في أمته ورواه أيضا بلفظ الشيخ في بيته كالنبي في قومه ويقويه حديث العلماء ورثة الأنبياء وإن كان ضعيفا ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

(٢) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الزكاة) باب (الحث على الصدقة ولو بشق تمرة) (٢/ ٦٩) حديث رقم/ ٧٠٤، والترمذي في كتاب (العلم) باب (فيمن دعا إلى هوى أو ضلالة) (٥/ ٤٢) حديث رقم/ ٢٦٧٥، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. والنسائي في كتاب (الزكاة) باب (التحريض على الصدقة) (٥/ ٧٩) حديث رقم/ ٢٥٥٣، وابن ماجه في كتاب (المقدمة) باب (من سن سنة حسنة أو سيئة) (١/ ٧٤) حديث رقم/ ٢٠٣، من طريق أبو عوانة... به، وأحمد في (مسنده) (٤/ ٣٥٧/ ٣٥٩)، والدارمي في كتاب (المقدمة) باب (من سن سنة حسنة أو سيئة) (١/ ١٢٤) حديث رقم/ ٥١٢، جميعا عن جرير بن عبد الله... به.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين في الآية الأولى أن كل ما سوى الله سواء كان من عالم الأرواح أو من عالم الأجسام، فهو منقاد خاضع لجلال الله تعالى وكبريائه، أتبعه في هذه الآية بالنهي عن الشرك وبالأمر بأن كل ما سواه فهو مُلكه ومِلكه وأنه غني عن الكل فقال: ﴿ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: لقائل أن يقول: إن الإلهين لا بد وأن يكونا اثنين، فما الفائدة في قوله: ﴿ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾.

وجوابه من وجوه:

أحدها: قال صاحب (النظم): فيه تقديم وتأخير، والتقدير: لا تتخذوا اثنين إلهين.

وثانيها: وهو الأقرب عندي أن الشيء إذا كان مستنكرًا مستقبحًا، فمن أراد المبالغة في التنفير عنه عبر عنه بعبارات كثيرة ليصير توالي تلك العبارات سببًا لوقوف العقل على ما فيه من القبح.

إذا عرفت هذا فالقول بوجود الإلهين قول مستقبح في العقول، ولهذا المعنى فإن أحدًا من العقلاء لم يقل بوجود إلهين متساويين في الوجوب والقدم وصفات الكمال، فقوله: ﴿ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ المقصود من تكريره تأكيد التنفير عنه وتكميل وقوف العقل على ما فيه من القبح. وثالثها: أن قوله: ﴿ إِلَٰهَيۡنِ﴾ لفظ واحد يدل على أمرين: ثبوت الإله وثبوت التعدد، فإذا قيل: لا تتخذوا إلهين لم يعرف من هذا اللفظ أن النهي وقع عن إثبات الإله أو عن إثبات التعدد أو عن مجموعهما. فلما قال: ﴿ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ ثبت أن قوله: ﴿ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ﴾ نهي عن إثبات التعدد فقط. ورابعها: أن الاثنينية منافية للإلهية، وتقريره من وجوه: الأول: أنا لو فرضنا موجودين يكون كل واحد منهما واجبًا لذاته لكانا مشتركين في الوجوب الذاتي ومتباينين بالتعين وما به المشاركة غير ما به المباينة، فكل واحد منهما مركب من جزأين، وكل مركب فهو ممكن، فثبت أن القول بأن واجب الوجود أكثر من واحد ينفي القول بكونهما واجبي الوجود. الثاني: أنا لو فرضنا إلهين وحاول أحدهما تحريك جسم والآخر تسكينه امتنع كون أحدهما أولى بالفعل من الثاني، لأن الحركة الواحدة والسكون الواحد لا يقبل القسمة أصلاً ولا التفاوت أصلاً، وإذا كان كذلك امتنع أن تكون القدرة على أحدهما أكمل من القدرة على الثاني، وإذا ثبت هذا امتنع

كون إحدى القدرتين أولى بالتأثير من الثانية، وإذا ثبت هذا فإما أن يحصل مراد كل واحد منهما وهو محال، أو لا يحصل مراد كل واحد منهما وهو محال أو لا يحصل مراد كل واحد منهما ألبتة. فحينئذ يكون كل واحد منهما عاجزًا والعاجز لا يكون إلهًا. فثبت أن كونهما اثنين ينفي كون كل واحد منهما إلهًا. الثالث: أنا لو فرضنا إلهين اثنين لكان إما أن يقدر أحدهما على أن يستر ملكه عن الآخر أو لا يقدر، فإن قدر ذاك إله والآخر ضعيف، وإن لم يقدر فهو ضعيف، والرابع: وهو أن أحدهما إما أن يقوى على مخالفة الآخر، أو لا يقوى عليه فإن لم يقو عليه فهو ضعيف، وإن قوي عليه فذاك الآخر إن لم يقو على الدفع فهو ضعيف، وإن قوي عليه فالأول المغلوب ضعيف. فثبت أن الاثنينية والإلهية متضادتان. فقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ المقصود منه التنبيه على حصول المنافاة والمضادة بين الإلهية وبين الاثنينية. والله أعلم.

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذا الكلام قال: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ والمعنى: أنه لما دلت الدلائل السابقة على أنه لا بد للعالم من الإله، وثبت أن القول بوجود الإلهين محال، ثبت أنه لا إله إلا الواحد الأحد الحق الصمد.

ثم قال بعده: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ وهذا رجوع من الغيبة إلى الحضور، والتقدير: أنه لما ثبت أن الإله واحد وثبت أن المتكلم بهذا الكلام إله، فحينئذ ثبت أنه لا إله للعالم إلا المتكلم بهذا الكلام، فحينئذ يحسن منه أن يعدل من الغيبة إلى الحضور، ويقول: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ وفيه دقيقة أخرى وهي أن قوله: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ يفيد الحصر، وهو أن لا يرهب الخلق إلا منه، وأن لا يرغبوا إلا في فضله وإحسانه، وذلك لأن الموجود إما قديم وإما محدث، أما القديم الذي هو الإله فهو واحد، وأما ما سواه فمحدث، وإنما حدث بتخليق ذلك القديم وبإيجاده، وإذا كان كذلك فلا رغبة إلا إليه ولا رهبة إلا منه، فبفضله تندفع الحاجات وبتكوينه وبتخليقه تنقطع الضرورات.

ثم قال بعده: ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وهذا حق، لأنه لما كان الإله واحدًا، والواجب لذاته واحدًا، كان كل ما سواه حاصلاً بتخليقه وتكوينه وإيجاده، فثبت بهذا البرهان صحة قوله: ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى، لأن أفعال العباد من جملة ما في السموات والأرض، فوجب أن تكون أفعال العباد لله تعالى، وليس المراد من كونها لله تعالى أنها مفعولة لله لأجله ولغرض طاعته، لأن فيها المباحات والمحظورات التي يؤتى بها لغرض الشهوة واللذة، لا لغرض الطاعة، فوجب أن يكون المراد من قولنا إنها لله أنها واقعة بتكوينه وتخليقه وهو المطلوب.

ثم قال بعده: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾ الدين ههنا الطاعة، والواصب الدائم. يقال: وصب الشيء يصب وصوبًا إذا دام، قال تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ﴾ [الصافات: ٩] ويقال: واظب على الشيء وواصب عليه إذا داوم، ومفازة واصبة أي بعيدة لا غاية لها. ويقال للعليل واصب، ليكون ذلك

المرض لازمًا له. قال ابن قتيبة: ليس من أحد يدان له ويطاع، إلا انقطع ذلك بسبب في حال الحياة أو بالموت إلا الحق سبحانه، فإن طاعته واجبة أبدًا.

واعلم أن قوله: ﴿وَاصِبًاۚ﴾ حال، والعامل فيه ما في الظرف من معنى الفعل. وأقول: الدين قد يعني به الانقياد. يقال: يا من دانت له الرقاب أي انقادت. فقوله: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾ أي انقياد كل ما سواه له لازم أبدًا، لأن انقياد غيره له معلل بأن غيره ممكن لذاته، والممكن لذاته يلزمه أن يكون محتاجًا إلى السبب في طرفي الوجود والعدم والماهيات يلزمها الإمكان لزومًا ذاتيًا، والإمكان يلزمه الاحتياج إلى المؤثر لزومًا ذاتيًا، ينتج أن الماهيات يلزمها الاحتياج إلى المؤثر لزومًا ذاتيًا فهذه الماهيات موصوفة بالانقياد لله تعالى اتصافًا دائمًا واجبًا لازمًا ممتنع التغير.

وأقول: في الآية دقيقة أخرى، وهي أن العقلاء اتفقوا على أن الممكن حال حدوثه محتاج إلى السبب المرجح، واختلفوا في الممكن حال بقائه هل هو محتاج إلى السبب؟ قال المحققون: إنه محتاج لأن علة الحاجة هي الإمكان والإمكان من لوازم الماهية فيكون حاصلاً للماهية حال حدوثها وحال بقائها فتكون علة الحاجة حال حدوث الممكن وحال بقائه، فوجب أن تكون الحاجة حاصلة حال حدوثها وحال بقائها.

إذا عرفت هذا فقوله: ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ معناه: أن كل ما سوى الحق فإنه محتاج في انقلابه من العدم إلى الوجود أو من الوجود إلى العدم إلى مرجح ومخصص، وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾ معناه أن هذا الانقياد وهذا الاحتياج حاصل دائمًا أبدًا، وهو إشارة إلى ما ذكرناه من أن الممكن حال بقائه لا يستغني عن المرجح والمخصص، وهذه دقائق من أسرار العلوم الإلهية مودعة في هذه الألفاظ الفائضة من عالم الوحي والنبوة.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ والمعنى: أنكم بعد ما عرفتم أن إله العالم واحد وعرفتم أن كل ما سواه محتاج إليه في وقت حدوثه، ومحتاج إليه أيضًا في وقت دوامه وبقائه، فبعد العلم بهذه الأصول كيف يعقل أن يكون للإنسان رغبة في غير الله تعالى أو رهبة عن غير الله تعالى؟ فلهذا المعنى قال على سبيل التعجب: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾.

ثم قال: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أنه لما بين بالآية الأولى أن الواجب على العاقل أن لا يتقي غير الله، بين في هذه الآية أنه يجب عليه أن لا يشكر أحدًا إلا الله تعالى، لأن الشكر إنما يلزم على النعمة، وكل نعمة حصلت للإنسان فهي من الله تعالى لقوله: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ فثبت بهذا أن العاقل يجب عليه أن لا يخاف وأن لا يتقي أحدًا إلا الله وأن لا يشكر أحدًا إلا الله تعالى.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الإيمان حصل بخلق الله تعالى فقالوا الإيمان نعمة، وكل نعمة فهي من الله تعالى لقوله: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ ينتج أن الإيمان

من الله وإنما قلنا: إن الإيمان نعمة، لأن المسلمين مطبقون على قولهم: الحمد لله على نعمة الإيمان، وأيضًا فالنعمة عبارة عن كل ما يكون منتفعًا به، وأعظم الأشياء في النفع هو الإيمان، فثبت أنا لإيمان نعمة.

وإذا ثبت هذا فنقول: وكل نعمة فهي من الله تعالى لقوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ وهذه اللفظة تفيد العموم، وأيضًا مما يدل على أن كل نعمة فهي من الله، لأن كل ما كان موجودًا فهو إما واجب لذاته، وإما ممكن لذاته، والواجب لذاته ليس إلا الله تعالى، والممكن لذاته لا يوجد إلا لمرجح، وذلك المرجح إن كان واجبًا لذاته كان حصول ذلك الممكن بإيجاد الله تعالى وإن كان ممكنًا لذاته عاد التقسيم الأول فيه، ولا يذهب إلى التسلسل، بل ينتهي إلى إيجاد الواجب لذته، فثبت بهذا البيان أن كل نعمة فهي من الله تعالى.

المسألة الثالثة: النعم إما دينية وإما دنيوية، أما النعم الدينية فهي إما معرفة الحق لذاته وإما معرفة الخير لأجل العمل به، وأما النعم الدنيوية فهي إما نفسانية، وإما بدنية وإما خارجية وكل واحد من هذه الثلاثة جنس تحته أنواع خارجة عن الحصر والتحديد كما قال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[إبراهيم: ٣٤] والإشارة إلى تفصيل تلك الأنواع قد ذكرناها مرارًا فلا نعيدها.

المسألة الرابعة: إنما دخلت الفاء في قوله: ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ لأن الباء في قوله: ﴿بِكُم﴾ متصلة بفعل مضمر، والمعنى: ما يكن بكم أو ما حل بكم من نعمة فمن الله.

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ قال ابن عباس: يريد الأسقام والأمراض والحاجة: ﴿فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ أي ترفعون أصواتكم بالاستغاثة، وتتضرعون إليه بالدعاء يقال: جأر يجأر جؤارًا وهو الصوت الشديد كصوت البقرة، وقال الأعشى يصف راهبًا:

يُرَاوِحُ من صلوات المليك طَوْرًا سُجُودًا وَطَوْرًا جُؤَارَا[(١)]

والمعنى: أنه تعالى بين أن جميع النعم من الله تعالى، ثم إذا اتفق لأحد مضرة توجب زوال شيء من تلك النعم فإلى الله يجأر، أي لا يستغيث أحدًا إلا الله تعالى لعلمه بأنه لا مفزع للخلق إلا هو، فكأنه تعالى قال لهم فأين أنتم عن هذه الطريقة في حال الرخاء والسلامة، ثم قال بعده: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ فبين تعالى أن عند كشف الضر وسلامة الأحوال يفترقون ففريق منهم يبقى على مثل ما كان عليه عند الضر في أن لا يفزع إلا إلى الله تعالى، وفريق منهم عند ذلك يتغيرون فيشركون بالله غيره، وهذا جهل وضلال، لأنه لما شهدت فطرته الأصلية وخلقته الغريزية عند نزول البلاء والضراء والآفات والمخافات أن لا مفزع إلا إلى الواحد، ولا مستغاث إلا الواحد فعند زوال البلاء والضراء وجب أن يبقى على ذلك الاعتقاد، فأما أنه عند نزول البلاء يقر بأنه لا مستغاث إلا الله تعالى، وعند زوال البلاء يثبت

---

(١) الأعشي تقدمت ترجمته.

الأضداد والشركاء، فهذا جهل عظيم وضلال كامل. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[العنكبوت: ٦٥].

ثم قال تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ وفي هذه اللام وجهان: الأول: أنها لام كي والمعنى أنهم أشركوا بالله غيره في كشف ذلك الضر عنهم. وغرضهم من ذلك الإشراك أن ينكروا كون ذلك الإنعام من الله تعالى، ألا نرى أن العليل إذا اشتد وجعه تضرع إلى الله تعالى في إزالة ذلك الوجع، فإذا زال أحال زواله على الدواء الفلاني والعلاج الفلاني، وهذا أكثر أحوال الخلق. وقال مصنف هذا الكتاب محمد بن عمر الرازي رحمه الله: في اليوم الذي كنت أكتب هذه الأوراق وهو اليوم الأول من محرم سنة اثنتين وستمائة حصلت زلزلة شديدة، وهزة عظيمة وقت الصبح ورأيت الناس يصيحون بالدعاء والتضرع، فلما سكتت وطاب الهواء، وحسن أنواع الوقت نسوا في الحال تلك الزلزلة وعادوا إلى ما كانوا عليه من تلك السفاهة والجهالة، وكان هذه الحالة التي شرحها الله تعالى في هذه الآية تجري مجرى الصفة اللازمة لجوهر نفس الإنسان.

والقول الثاني: أن هذه اللام لام العاقبة كقوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[القصص: ٨] يعني أن عاقبة تلك التضرعات ما كانت إلا هذا الكفر.

واعلم أن المراد بقوله: ﴿بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾.

فيه قولان:

الأول: أنه عبارة عن كشف الضر وإزالة المكروه.

والثاني: قال بعضهم: المراد به القرآن وما جاء به محمد ﷺ من النبوة والشرائع.

واعلم أنه تعالى توعدهم بعد ذلك فقال: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟﴾ وهذا لفظ أمر، والمراد منه التهديد، كقوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[الكهف: ٢٩] وقوله: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾[الإسراء: ١٠٧].

ثم قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي عاقبة أمركم وما ينزل بكم من العذاب والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بين بالدلائل القاهرة فساد أقوال أهل الشرك والتشبيه، شرح في هذه الآية

تفاصيل أقوالهم وبين فسادها وسخافتها.

فالنوع الأول: من كلماتهم الفاسدة أنهم يجعلون لما لا يعلمون نصيبًا وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: الضمير في قوله: ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ إلى ماذا يعود؟ فيه قولان: الأول: أنه عائد إلى المشركين المذكورين في قوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٥٤] والمعنى أن المشركين لا يعلمون. والثاني: أنه عائد إلى الأصنام أي لا يعلم الأصنام ما يفعل عبادها قال بعضهم: الأول أولى لوجوه: أحدها: أن نفي العلم عن الحي حقيقة وعن الجماد مجاز. وثانيها: أن الضمير في قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ عائد إلى المشركين فكذلك في قوله: ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ يجب أن يكون عائد إليهم. وثالثها: أن قوله: ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ جمع بالواو والنون. وهو بالعقلاء أليق منه بالأصنام التي هي جمادات، ومنهم من قال بل القول الثاني أولى لوجوه: الأول: أنا إذا قلنا إنه عائد إلى المشركين افتقرنا إلى إضمار، فإن التقدير: ويجعلون لما لا يعلمون إلهًا، أو لما لا يعلمون كونه نافعًا ضارًا، وإذا قلنا إنه عائد إلى الأصنام، لم نفتقر إلى الإضمار لأن التقدير: ويجعلون لما لا علم لها ولا فهم. والثاني: أنه لو كان العلم مضافًا إلى المشركين لفسد المعنى، لأن من المحال أن يجعلوا نصيبًا من رزقهم لما لا يعلمونه، فهذا ما قيل في ترجيح أحد هذين القولين على الآخر.

واعلم أنا إذا قلنا بالقول الأول افتقرنا فيه إلى الإضمار، وذلك يحتمل وجوهًا: أحدها: ويجعلون لما لا يعلمون له حقًا، ولا يعلمون في طاعته نفعًا ولا في الإعراض عنه ضررًا، قال مجاهد: يعلمون أن الله خلقهم ويضرهم وينفعهم، ثم يجعلون لما لا يعلمون أنه ينفعهم ويضرهم نصيبًا. وثانيها: ويجعلون لما لا يعلمون إلهيتها. وثالثها: ويجعلون لما لا يعلمون السبب في صيرورتها معبودة. ورابعها: المراد استحقار الأصنام حتى كأنها لقلتها لا تعلم.

المسألة الثانية: في تفسير ذلك النصيب احتمالات: الأول: المراد منه أنهم جعلوا لله نصيبًا من الحرث والأنعام يتقربون إلى الله تعالى به، ونصيبًا إلى الأصنام يتقربون به إليها، وقد شرحنا ذلك في آخر سورة الأنعام. والثاني: أن المراد من هذا النصيب، البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام، وهو قول الحسن. والثالث: ربما اعتقدوا في بعض الأشياء أنه إنما حصل بإعانة بعض تلك الأصنام، كما أن المنجمين يوزعون موجودات هذا العالم على الكواكب السبعة، فيقولون لزحل كذا من المعادن والنبات والحيوانات، وللمشتري أشياء أخرى فكذا هاهنا.

واعلم أنه تعالى لما حكى عن المشركين هذا المذهب قال: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ﴾ وهذا في هؤلاء الأقوم خاصة بمنزلة قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣] وعلى التقديرين فأقسم الله تعالى بنفسه أنه يسألهم، وهذا تهديد منه شديد، لأن المراد أنه يسألهم سؤال توبيخ وتهديد، وفي وقت هذا السؤال احتمالان: الأول: أنه يقع ذلك السؤال عند القرب

من الموت ومعاينة ملائكة العذاب، وقيل عند عذاب القبر. والثاني: أنه يقع ذلك في الآخرة، وهذا أولى لأنه تعالى قد أخبر بما يجري هناك من ضروب التوبيخ عند المسألة فهو إلى الوعيد أقرب.

النوع الثاني: من كلماتهم الفاسدة أنهم يجعلون لله البنات، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾[الزخرف: ١٩] كانت خزاعة وكنانة تقول: الملائكة بنات الله. أقول أظن أن العرب إنما أطلقوا لفظ البنات لأن الملائكة لما كانوا مستترين عن العيون أشبهوا النساء في الاستتار فأطلقوا عليهم لفظ البنات. وأيضًا قرص الشمس يجري مجرى المستتر عن العيون بسبب ضوئه الباهر ونوره القاهر فأطلقوا عليه لفظ التأنيث فهذا ما يغلب على الظن في سبب إقدامهم على هذا القول الفاسد والمذهب الباطل، ولما حكى الله تعالى عنهم هذا القول قال ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ وفيه وجوه:

الأول: أن يكون المراد تنزيه ذاته عن نسبة الولد إليه.

والثاني: تعجيب الخلق من هذا الجهل القبيح، وهو وصف الملائكة بالأنوثة ثم نسبتها بالولدية إلى الله تعالى.

والثالث: قيل في التفسير معناه معاذ الله وذلك مقارب للوجه الأول.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ أجاز الفراء في (ما) وجهين:

الأول: أن يكون في محل النصب على معنى ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون.

والثاني: أن يكون رفعًا على الابتداء كأنه تم الكلام عند قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ ثم ابتدأ فقال: ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ يعني البنين وهو كقوله: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾[الطور: ٣٩] ثم اختار الوجه الثاني وقال: لو كان نصيبًا لقال ولأنفسهم ما يشتهون، لأنك تقول جعلت لنفسك كذا وكذا، ولا تقول جعلت لك، وأبى الزجاج إجازة الوجه الأول، وقال (ما) في موضع رفع لا غير، والتقدير: ولهم الشيء الذى يشتهونه، ولا يجوز النصب لأن العرب تقول جعل لنفسه ما تشتهي، ولا تقول جعل له ما يشتهي وهو يعني نفسه. ثم إنه تعالى ذكر أن الواحد من هؤلاء المشركين لا يرضى بالولد البنت لنفسه فما لا يرتضيه لنفسه كيف ينسبه لله تعالى فقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: التبشير في عرف اللغة مختص بالخبر الذي يفيد السرور إلا أنه بحسب أصل اللغة عبارة عن الخبر الذي يؤثر في تغير بشرة الوجه، ومعلوم أن السرور كما يوجب تغير البشرة فكذلك الحزن يوجبه. فوجب أن يكون لفظة التبشير حقيقة في القسمين، ويتأكد هذا بقوله ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[آل عمران: ٢١] ومنهم من قال: المراد بالتبشير ههنا الإخبار، والقول الأول أدخل في التحقيق.

أما قوله: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ فالمعنى أنه يصير متغيرًا تغير مغتم، ويقال لمن لقي مكروهًا قد اسود وجهه غمًا وحزنًا، وأقول إنما جعل اسوداد الوجه كناية عن الغم، وذلك لأن الإنسان إذا قوي فرحه انشرح صدره وانبسط روح قلبه من داخل القلب، ووصل إلى الأطراف، ولا سيما إلى الوجه لما بينهما من التعلق الشديد، وإذا وصل الروح إلى ظاهر الوجه أشرق الوجه وتلألأ واستنار، وأما إذا قوي غم الإنسان احتقن الروح في باطن القلب ولم يبق منه أثر قوي في ظاهر الوجه، فلا جرم يربد الوجه ويصفر ويسود ويظهر فيه أثر الأرضية والكثافة، فثبت أن من لوازم الفرح استنارة الوجه وإشراقه، ومن لوازم الغم كمودة الوجه وغبرته وسواده، فلهذا السبب جعل بياض الوجه وإشراقه كناية عن الفرح وغبرته وكمودته وسواده كناية عن الغم والحزن والكراهية، ولهذا المعنى قال: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي ممتلئ غمًا وحزنًا.

ثم قال تعالى: ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ﴾ أي يختفي ويتغيب من سوء ما بشر به، قال المفسرون: كان الرجل في الجاهلية إذا ظهر آثار الطلق بامرأته توارى واختفى عن القوم إلى أن يعلم ما يولد له فإن كان ذكرًا ابتهج به، وإن كان أنثى حزن ولم يظهر للناس أيامًا يدبر فيها أنه ماذا يصنع بها؟ وهو قوله: ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ والمعنى: أيحبسه؟ والإمساك ههنا بمعنى بمعنى الحبس كقوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب: ٣٧] وإنما قال: ﴿أَيُمْسِكُهُۥ﴾ ذكره بضمير الذكران لأن هذا الضمير عائد على (ما) في قوله: ﴿مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ والهون الهوان قال النضر بن شميل يقال إنه أهون عليه هونًا وهوانًا، وأهنته هونًا وهوانًا، وذكرنا هذا في سورة الأنعام عند قوله: ﴿عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣] وفي أن هذا الهون صفة من؟ قولان: الأول: أنه صفة المولودة، ومعناه أنه يمسكها عن هون منه لها. والثاني: قال عطاء عن ابن عباس: أنه صفة للأب، ومعناه أنه يمسكها مع الرضا بهوان نفسه وعلى رغم أنفه.

ثم قال: ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ والدس إخفاء الشيء في الشيء. يروى أن العرب كانوا يحفرون حفيرة ويجعلونها فيها حتى تموت. وروي عن قيس بن عاصم أنه قال: يا رسول الله إني واريت ثماني بنات في الجاهلية فقال عليه السلام: «**أَعْتِقْ عَنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ رَقَبَةً**» فقال: يا نبي الله إني ذو إبل، فقال: «**اهد عن كل واحدة منهن هَدْيًا**»[1] وروي أن رجلاً قال يا رسول الله: ما أجد حلاوة الإسلام منذ أسلمت، فقد كانت لي في الجاهلية ابنة فأمرت امرأتي أن تزينها فأخرجتها إلي فانتهيت بها إلى واد بعيد القعر فألقيتها فيه، فقالت: يا أبت قتلتني، فكلما ذكرت قولها لم ينفعني شيء، فقال عليه السلام: «**مَا كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقَدْ هَدَمَهُ الْإِسْلَامُ وَمَا كَانَ فِي الْإِسْلَامِ يَهْدِمُهُ الاِسْتِغْفَارُ**» واعلم أنهم كانوا مختلفين في قتل البنات فمنهم من يحفر الحفيرة ويدفنها فيها إلى أن تموت، ومنهم من يرميها من شاهق جبل، ومنهم من يغرقها ومنهم من يذبحها، وهم كانوا

---

(١) أخرجه البزار في (مسنده) (١/ ٣٥٥) حديث رقم/ ٢٣٨، من طريق الحسين بن مهدي . . . به، وأورده الهيثمي في (المجمع) (٧/ ١٣٤) وقال: رواه البزار والطبراني ورجال البزار رجال الصحيح غير حسين بن مهدي الأيلي وهو ثقة.

يفعلون ذلك تارة للغيرة والحمية، وتارة خوفًا من الفقر والفاقة ولزوم النفقة، ثم إنه قال: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ وذلك لأنهم بلغوا في الاستنكاف من البنت إلى أعظم الغايات، فأولها: أنه يسود وجهه. وثانيها: أنه يختفي عن القوم من شدة نفرته عن البنت، وثالثها: أن الولد محبوب بحسب الطبيعة، ثم إنه بسبب شدة نفرته عنها يقدم على قتلها، وذلك يدل على أن النفرة عن البنت والاستنكاف عنها قد بلغ مبلغًا لا يزداد عليه. إذا ثبت هذا فالشيء الذي بلغ الاستنكاف منه إلى هذا الحد العظيم كيف يليق بالعاقل أن ينسبه لإله العالم المقدس العالي عن مشابهة جميع المخلوقات؟ ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۝ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢].

المسألة الثانية: قال القاضي: هذه الآية تدل على بطلان الخبر، لأنهم يضيفون إلى الله تعالى من الظلم والفواحش ما إذا أضيف إلى أحدهم أجهد نفسه في البراءة منه والتباعد عنه، فحكمهم في ذلك مشابه لحكم هؤلاء المشركين، ثم قال: بل أعظم، لأن إضافة البنات إليه إضافة قبح واحد، وذلك أسهل من إضافة كل القبائح والفواحش إلى الله تعالى. فيقال للقاضي، إنه لما ثبت بالدليل استحالة الصاحبة والولد على الله تعالى أردفه الله بذكر هذا الوجه الإقناعي، وإلا فليس كل ما قبح منا في العرف قبح من الله تعالى ألا ترى أن رجلاً زين إماءه وعبيده وبالغ في تحسين صورهن ثم بالغ في تقوية الشهوة فيهم وفيهن، ثم جمع بين الكل وأزال الحائل والمانع فإن هذا بالإتفاق حسن من الله تعالى وقبيح من كل الخلق، فعلمنا أن التعويل على هذه الوجوه المبينة على العرف، إنما يحسن إذا كانت مسبوقة بالدلائل القطعية اليقينية، وقد ثبت بالبراهين القطعية امتناع الولد على الله، فلا جرم حسنت تقويتها بهذه الوجوه الإقناعية. أما أفعال العباد فقد ثبت بالدلائل اليقينية القاطعة أن خالقها هو الله تعالى، فكيف يمكن إلحاق أحد البابين بالآخر لولا شدة التعصب؟ والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ والمثل السوء عبارة عن الصفة السوء وهي احتياجهم إلى الولد، وكراهتهم الإناث خوف الفقر والعار: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ أي الصفة العالية المقدسة، وهي كونه تعالى منزهًا عن الولد.

فإن قيل: كيف جاء: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ مع قوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾[النحل: ٧٤].

قلنا: المثل الذي يذكره الله حق وصدق والذي يذكره غيره فهو الباطل، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٦١ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ۚ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم

مُفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عن القوم عظيم كفرهم وقبيح قولهم، بين أنه يمهل هؤلاء الكفار ولا يعاجلهم بالعقوبة، إظهارًا للفضل والرحمة والكرم.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: احتج الطاعنون في عصمة الأنبياء عليهم السلام بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ﴾.

من وجهين:

الأول: أنه قال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ فأضاف الظلم إلى كل الناس، ولا شك أن الظلم من المعاصي، فهذا يقتضي كون كل إنسان آتيًا بالذنب والمعصية، والأنبياء عليهم السلام من الناس، فوجب كونهم آتين بالذنب والمعصية.

والثاني: أنه تعالى قال: ما ترك على ظهرها من دابة وهذا يقتضي أن كل من كان على ظهر الأرض فهو آت بالظلم والذنب، حتى يلزم من إفناء كل ما كان ظالمًا إفناء كل الناس. أما إذا قلنا: الأنبياء عليهم السلام لم يصدر عنهم ظلم فلا يجب إفناؤهم، وحينئذ لا يلزم من إفناء كل الظالمين إفناء كل الناس، وأن لا يبقى على ظهر الأرض دابة، ولما لزم علمنا أن كل البشر ظالمون سواء كانوا من الأنبياء أو لم يكونوا كذلك.

والجواب: ثبت بالدليل أن كل الناس ليسوا ظالمين لأنه تعالى قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: ٣٢] أي فمن العباد من هو ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق، ولو كان المقتصد والسابق ظالمًا لفسد ذلك التقسيم، فعلمنا أن المقتصدين والسابقين ليسوا ظالمين، فثبت بهذا الدليل أنه لا يجوز أن يقال كل الخلق ظالمون.

وإذا ثبت هذا فنقول: الناس المذكورون في قوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ﴾ إما كل العصاة المستحقين للعقاب أو الذين تقدم ذكرهم من المشركين ومن الذين أثبتوا لله البنات. وعلى هذا التقدير فيسقط الاستدلال. والله أعلم.

المسألة الثانية: من الناس من احتج بهذه الآية على أن الأصل في المضار الحرمة، فقال: لو كان الضرر مشروعًا لكان إما أن يكون مشروعًا على وجه يكون جزاء على جرم صادر منهم أو لا على هذا الوجه، والقسمان باطلان، فوجب أن لا يكون مشروعًا أصلاً.

أما بيان فساد القسم الأول، فلقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ﴾

والاستدلال به من وجهين: الأول: أن كلمة (لو) وضعت لانتفاء الشيء لانتفاء غيره. فقوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥] يقتضي أنه تعالى ما أخذهم بظلمهم وأنه ترك على ظهرها من دابة. والثاني: أنه لما دلت الآية على أن لازمة أخذ الله الناس بظلمهم هو أن لا يترك على ظهرها دابة، ثم إنا نشاهد أنه تعالى ترك على ظهرها دواب كثيرين، فوجب القطع بأنه تعالى لا يؤاخذ الناس بظلمهم، فثبت بهذا أنه لا يجوز أن تكون المضار مشروعة على وجه تقع أجزية عن الجرائم.

وأما القسم الثاني: وهو أن يكون مشروعًا ابتداء لا على وجه يقع أجزية عن جرم سابق، فهذا باطل بالإجماع، فثبت أن مقتضى هذه الآية تحريم المضار مطلقًا، ويتأكد هذا أيضًا بآيات أخرى كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦] وكقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] وكقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وكقوله عليه السلام: «لاَ ضَرَرَ وَلاَ ضِرَارَ فِي الإِسْلاَمِ»(١) وكقوله: «مَلْعُونٌ مَنْ ضَرَّ مُسْلِمًا»(٢) فثبت بمجموع هذه الآيات والأخبار أن الأصل في المضار الحرمة، فنقول: إذا وقعت حادثة مشتملة على الضرر من كل الوجوه، فإن وجدنا نصًا خاصًا يدل على كونه مشروعًا قضينا به تقديمًا للخاص على العام، وإلا قضينا عليه بالحرمة بناء على هذا الأصل الذي قررناه. ومنهم من قال هذه القاعدة تدل على أن كل ما يريده الإنسان وجب أن يكون مشروعًا في حقه، لأن المنع منه ضرر، والضرر غير مشروع بمقتضى هذا الأصل وكل ما يكرهه الإنسان وجب أن يحرم لأن وجوده ضرر والضرر غير مشروع، فثبت أن هذا الأصل يتناول جميع الوقائع الممكنة إلى يوم القيامة، ثم نقول القياس الذي يتمسك به في إثبات الأحكام إما أن يكون على وفق هذه القاعدة أو على خلافها، والأول باطل: لأن هذا الأصل يغني عنه، والثاني باطل؛ لأن النص راجح على القياس، والله أعلم.

المسألة الثالثة: قالت المعتزلة: هذه الآية دالة على أن الظلم والمعاصي ليست فعلاً لله تعالى، بل تكون أفعالاً للعباد، لأنه تعالى أضاف ظلم العباد إليهم، وما أضافه إلى نفسه. فقال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ وأيضًا فلو كان خلقًا لله تعالى لكانت مؤاخذتهم بها ظلمًا من الله

---

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه في (سننه) (٢/ ٧٨٤) حديث رقم/ ٢٣٤٠، من طريق إسحاق بن يحيى بن الوليد عن عبادة بن الصامت... به، ورواه أيضًا في الحديث رقم/ ٢٣٤١ من طريق جابر الجعفي عن عكرمة عن ابن عباس... به. ورواه أحمد في (مسنده) (١/ ٣١٣) حديث رقم/ ٢٨٦٧، من طريق جابر عن عكرمة عن ابن عباس... به، ورواه أيضا في مسنده ضمن حديث مطولا، (٥/ ٣٢٦) حديث رقم/ ٢٢٨٣٠، من طريق إسحاق بن يحيى بن الوليد بن عبادة بن الصامت عن عبادة... به، ورواه الحاكم في (المستدرك) (٢/ ٦٦) حديث رقم/ ٢٣٤٥، من طريق عمرو بن يحيى المازني عن أبيه عن أبي سعيد الخدري... به، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه، ورواه البيهقي في (سننه الكبرى) (٦/ ١٥٦) حديث رقم/ ١١٦٥٧، من طريق إسحاق بن يحيى بن الوليد بن عبادة بن الصامت عن عبادة... به، وأورده الألباني في (الصحيحة) (٢٥٠) وصححه.

(٢) لم أجده.

تعالى، ولما منع الله تعالى العباد من الظلم في هذه الآية؛ فبأن يكون منزهًا عن الظلم كان أولى، قالوا: ويدل أيضًا على أن أعمالهم مؤثرة في وجوب الثواب والعقاب أن قوله: ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾ الباء فيه تدل على العلية كما في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الأنفال: ١٣].

واعلم أن الكلام في هذه المسائل قد ذكرناه مرارًا فلا نعيده. والله أعلم.

المسألة الرابعة: ظاهر الآية يدل على أن إقدام الناس على الظلم يوجب إهلاك جميع الدواب وذلك غير جائز، لأن الدابة لم يصدر عنها ذنب، فكيف يجوز إهلاكها بسبب ظلم الناس؟

والجواب عنه من وجهين:

الوجه الأول: أنا لا نسلم أن قوله: ما ترك على ظهرها من دابة يتناول جميع الدواب.

وأجاب أبو علي الجبائي عنه: أن المراد لو يؤاخذهم الله بما كسبوا من كفر ومعصية لعجل هلاكهم، وحينئذ لا يبقى لهم نسل، ثم من المعلوم أنه لا أحدًا إلا وفي أحد آبائه من يستحق العذاب وإذا هلكوا فقد بطل نسلهم، فكان يلزمه أن لا يبقى في العالم أحد من الناس، وإذا بطلوا وجب أن لا يبقى أحد من الدواب أيضًا، لأن الدواب مخلوقة لمنافع العباد ومصالحهم، فهذا وجه لطيف حسن.

والوجه الثاني: أن الهلاك إذا ورد على الظلمة ورد أيضًا على سائر الناس والدواب، فكان ذلك الهلاك في حق الظلمة عذابًا، وفي حق غيرهم امتحانًا، وقد وقعت هذه الواقعة في زمان نوح عليه السلام.

والوجه الثالث: أنه تعالى لو آخذهم لانقطع القطر وفي انقطاعه انقطاع النبت فكان لا تبقى على ظهرها دابة، وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه سمع رجلاً يقول: إن الظالم لا يضر إلا نفسه، فقال: لاَ وَاللَّهِ بَلْ إِنَّ الْحُبَارَى فِي وَكْرِهَا لَتَمُوتَ بِظُلْمِ الظَّالِمِ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: كَادَ الْجُعْلُ يَهْلِكُ فِي جُحْرِهِ بِذَنْبِ ابْنِ آدَمَ، فهذه الوجوه الثلاثة من الجواب مفرعة على تسليم أن لفظة الدابة يتناول جميع الدواب.

والجواب الثاني: أن المراد من قوله: ما ترك على ظهرها من دابة أي ما ترك على ظهرها من كافر، فالمراد بالدابة الكافر، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩] والله أعلم.

المسألة الخامسة: الكناية في قوله: ﴿عَلَيْهَا﴾ عائدة إلى الأرض، ولم يسبق لها ذكر، إلا أن ذكر الدابة يدل على الأرض، فإن الدابة إنما تدب عليها. وكثيرًا ما يكنى عن الأرض، وإن لم يتقدم ذكرها لأنهم يقولون ما عليها مثل فلان وما عليها أكرم من فلان، يعنون على الأرض.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ليتوالدوا، وفي تفسير هذا الأجل قولان:

القول الأول: وهو قول عطاء: عن ابن عباس أنه يريد أجل القيامة.

والقول الثاني: أن المراد منتهى العمر. وجه القول الأول أن معظم العذاب يوافيهم يوم القيامة،

ووجه القول الثاني أن المشركين يؤاخذون بالعقوبة إذا انقضت أعمارهم وخرجوا من الدنيا.

النوع الثالث: من الأقاويل الفاسدة التي كان يذكرها الكفار وحكاها الله تعالى عنهم، قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾.

واعلم أن المراد من قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ أي البنات التي يكرهونها لأنفسهم، ومعنى قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ يصفون الله بذلك ويحكمون به له كقوله جعلت زيدًا على الناس أي حكمت بهذا الحكم وذكرنا معنى الجعل عند قوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ﴾ [المائدة: ١٠٣].

ثم قال تعالى: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾ قال الفراء والزجاج: موضع (أن) نصب لأن قوله: ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾ بدل من الكذب، وتقدير الكلام وتصف ألسنتهم أن لهم الحسنى. وفي تفسير ﴿الْحُسْنَى﴾.

هاهنا قولان:

الأول: المراد منه البنون، يعني أنهم قالوا لله البنات ولنا البنون.

والثاني: أنهم مع قولهم بإثبات البنات لله تعالى، يصفون أنفسهم بأنهم فازوا برضوان الله تعالى بسبب هذا القول، وأنهم على الدين الحق والمذهب الحسن.

الثالث: أنهم حكموا لأنفسهم بالجنة والثواب من الله تعالى.

فإن قيل: كيف يحكمون بذلك وهم كانوا منكرين للقيامة؟

قلنا: كلهم ما كانوا منكرين للقيامة، فقد قيل: إنه كان في العرب جمع يقرون بالبعث والقيامة، ولذلك فإنهم كانوا يربطون البعير النفيس على قبر الميت ويتركونه إلى أن يموت ويقولون: إن ذلك الميت إذا حشر فإنه يحشر معه مركوبه، وأيضًا فبتقدير أنهم كانوا منكرين للقيامة فلعلهم قالوا: إن كان محمد صادقًا في قوله بالبعث والنشور فإنه يحصل لنا الجنة والثواب بسبب هذا الدين الحق الذي نحن عليه، ومن الناس من قال: الأولى أن يحمل ﴿الْحُسْنَى﴾ على هذا الوجه بدليل أنه تعالى قال بعده: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ فرد عليهم قولهم وأثبت لهم النار، فدل هذا على أنهم حكموا لأنفسهم بالجنة. قال الزجاج: لا رد لقولهم، والمعنى ليس الأمر كما وصفوا جرم فعلهم أي كسب ذلك القول لهم النار، فعلى هذا لفظ (أن) في محل النصب بوقوع الكسب عليه. وقال قطرب (أن) في موضع رفع، والمعنى: وجب أن لهم النار وكيف كان الإعراب فالمعنى هو أنه يحق لهم النار ويجب ويثبت. وقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾ قرأ نافع وقتيبة عن الكسائي: (مُفْرِطُون) بكسر الراء، والباقون: (مُفْرَطُونَ) بفتح الراء. أما قراءة نافع فقال الفراء: المعنى أنهم كانوا مفرطين على أنفسهم في الذنوب، وقيل: أفرطوا في الافتراء على الله تعالى، وقال أبو علي الفارسي: كأنه من أفرط، أي صار ذا فرط مثل أجرب، أي صار ذا جرب والمعنى: أنهم ذوو فرط إلى النار كأنهم قد أرسلوا من يهيئ لهم مواضع فيها. وأما قراءة قوله: (مُفْرَطُونَ) بفتح الراء.

ففيه قولان:

القول الأول: المعنى، أنهم متروكون في النار. قال الكسائي: يقال ما أفرطت من القوم أحدًا، أي ما تركت. وقال الفراء: تقول العرب أفرطت منهم ناسًا، أي خلفتهم وأنسيتهم.

والقول الثاني: ﴿مُّفْرَطُونَ﴾ أي معجلون. قال الواحدي رحمه الله: وهو الاختيار ووجهه ما قال أبو زيد وغيره: فرط الرجل أصحابه يفرطهم فرطًا وفروطًا إذا تقدمهم إلى الماء ليصلح الدلاء والأرسان، وأفرط القوم الفارط، وفرطوه إذا قدموه فمعنى قوله: ﴿مُّفْرَطُونَ﴾ على هذا التقدير كأنهم قدموا إلى النار فهم فيها فرط للذين يدخلون بعدهم، ثم بين تعالى أن مثل هذا الصنع الذي يصدر من مشركي قريش قد صدر من سائر الأمم السابقين في حق الأنبياء المتقدمين عليهم السلام، فقال: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ وهذا يجري مجرى التسلية للرسول ﷺ فيما كان يناله من الغم بسبب جهالات القوم. قالت المعتزلة: الآية تدل على فساد قول المجبرة من وجوه:

الأول: أنه إذا كان خالق أعمالهم هو الله تعالى، فلا فائدة في التزيين.

والثاني: أن ذلك التزيين لما كان بخلق الله تعالى لم يجز ذم الشيطان بسببه.

والثالث: أن التزيين هو الذى يدعو الإنسان إلى الفعل، وإذا كان حصول الفعل فيه بخلق الله تعالى كان ضروريًا فلم يكن التزيين داعيًا.

والرابع: أن على قولهم، الخالق لذلك العمل، أجدر أن يكون وليًا لهم من الداعي إليه.

والخامس: أنه تعالى أضاف التزيين إلى الشيطان ولو كان ذلك المزين هو الله تعالى لكانت إضافته إلى الشيطان كذبًا.

وجوابه: إن كان مزين القبائح في أعين الكفار هو الشيطان، فمزين تلك الوساوس في عين الشيطان إن كان شيطانًا آخر لزم التسلسل. وإن كان هو الله تعالى فهو المطلوب.

ثم قال تعالى: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ وفيه احتمالان:

الأول: أن المراد منه كفار مكة وبقوله: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي الشيطان ويتولى إغواءهم وصرفهم عنك، كما فعل بكفار الأمم قبلك فيكون على هذا التقدير رجع عن أخبار الأمم الماضية إلى الإخبار عن كفار مكة.

الثاني: أنه أراد باليوم يوم القيامة، يقول فهو ولي أولئك الذين كفروا يزين لهم أعمالهم يوم القيامة، وأطلق اسم اليوم على يوم القيامة لشهرة ذلك اليوم، والمقصود من قوله: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ هو أنه لا ولي لهم ذلك اليوم ولا ناصر، وذلك لأنهم إذا عاينوا العذاب وقد نزل بالشيطان كنزوله بهم، ورأوا أنه لا مخلص له منه، كما لا مخلص لهم منه، جاز أن يوبخوا بأن يقال لهم: هذا وليكم اليوم على وجه السخرية، ثم ذكر تعالى أن مع هذا الوعيد الشديد أقام الحجة وأزاح العلة فقال: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: المعنى: أنا ما أنزلنا عليك القرآن إلا لتبين لهم بواسطة بيانات هذا القرآن الأشياء التي اختلفوا فيها، والمختلفون هم أهل الملل والأهواء، وما اختلفوا فيه، هو الدين، مثل التوحيد والشرك والجبر والقدر، وإثبات المعاد ونفيه، ومثل الأحكام، مثل أنهم حرموا أشياء تحل كالبحيرة والسائبة وغيرهما وحللوا أشياء تحرم كالميتة.

المسألة الثانية: اللام في قوله: ﴿لِتُبَيِّنَ﴾ تدل على أن أفعال الله تعالى معللة بالأغراض، ونظيره آيات كثيرة منها قوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ [إبراهيم: ١] وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وجوابه: أنه لما ثبت بالعقل امتناع التعليل وجب صرفه إلى التأويل.

المسألة الثالثة: قال صاحب (الكشاف) قوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ معطوفان على محل قوله: ﴿لِتُبَيِّنَ﴾ إلا أنهما انتصبا على أنه مفعول لهما، لأنهما فعلا الذي أنزل الكتاب، ودخلت اللام في قوله: ﴿لِتُبَيِّنَ﴾ لأنه فعل المخاطب لا فعل المنزل، وإنما ينتصب مفعولاً له ما كان فعلاً لذلك الفاعل.

المسألة الرابعة: قال الكلبي: وصف القرآن بكونه هدى ورحمة لقوم يؤمنون، لا ينفي كونه كذلك في حق الكل، كما أن قوله تعالى في أول سورة البقرة: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] لا ينفي كونه هدى لكل الناس، كما ذكره في قوله: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥] وإنما خص المؤمنين بالذكر من حيث إنهم قبلوه فانتفعوا به، كما في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥] لأنه إنما انتفع بإنذاره هذا القوم فقط، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

اعلم أنا قد ذكرنا أن المقصود الأعظم من هذا القرآن العظيم تقرير أصول أربعة: الإلهيات والنبوات والمعاد، وإثبات القضاء والقدر، والمقصود الأعظم من هذه الأصول الأربعة تقرير الآلهيات، فلهذا السبب كلما امتد الكلام في فصل من الفصول في وعيد الكفار عاد إلى تقرير الآلهيات، وقد ذكرنا في أول هذه السورة أنه تعالى لما أراد ذكر دلائل الآلهيات ابتدأ بالأجرام الفلكية، وثنى بالإنسان، وثلث بالحيوان، وربع بالنبات، وخمس بذكر أحوال البحر والأرض، فههنا في هذه الآية لما عاد إلى تقرير دلائل الإلهيات بدأ أولاً بذكر الفلكيات فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ

﴿ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ والمعنى: أنه تعالى خلق السماء على وجه ينزل منه الماء ويصير ذلك الماء سببًا لحياة الأرض، والمراد بحياة الأرض نبات الزرع والشجر والنور والثمر بعد أن كان لا يثمر، وينفع بعد أن كان لا ينفع، وتقرير هذه الدلائل قد ذكرناه مرارًا كثيرة.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع إنصاف وتدبر لأن من لم يسمع بقلبه فكأنه أصم لم يسمع.

والنوع الثاني: من الدلائل المذكورة في هذه الآيات الاستدلال بعجائب أحوال الحيوانات وهو قوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾ قد ذكرنا معنى العبرة في قوله: ﴿لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران: ١٣].

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم، وحمزة والكسائي: ﴿نُّسْقِيكُم﴾ بضم النون، والباقون بالفتح، أما من فتح النون فحجته ظاهرة تقول سقيته حتى روي أسقيه قال تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] وقال: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ [الشعراء: ٧٩] وقال: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا﴾ [محمد: ١٥] ومن ضم النون فهو من قولك أسقاه إذا جعل له شرابًا كقوله: ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧] وقوله: ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ [الحجر: ٢٢] والمعنى ههنا أنا جعلناه في كثرته وإدامته كالسقيا، واختار أبو عبيد الضم قال لأنه شرب دائم، وأكثر ما يقال في هذا المقام أسقيت.

المسألة الثانية: قوله: ﴿مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾ الضمير عائد إلى الأنعام فكان الواجب أن يقال مما في بطونها، وذكر النحويون فيه وجوهًا: الأول: أن لفظ الأنعام لفظ مفرد وضع لإفادة جمع، كالرهط والقوم والبقر والنعم، فهو بحسب اللفظ لفظ مفرد فيكون ضميره ضمير الواحد، وهو التذكير، وبحسب المعنى جمع فيكون ضميره ضمير الجمع، وهو التأنيث، فلهذا السبب قال ههنا ﴿فِى بُطُونِهِۦ﴾، وقال في سورة المؤمنين: ﴿فِى بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون: ٢١]. الثاني: قوله: ﴿فِى بُطُونِهِۦ﴾ أي في بطون ما ذكرنا، وهذا جواب الكسائي. قال المبرد: هذا شائع في القرآن. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: ٧٨] يعني هذا الشيء الطالع ربي، وقال: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ [عبس: ١١، ١٢] أي ذكر هذا الشيء.

واعلم أن هذا إنما يجوز فيما يكون تأنيثه غير حقيقي، أما الذي يكون تأنيثه حقيقيًا، فلا يجوز، فإنه لا يجوز في مستقيم الكلام أن يقال جاريتك ذهب، ولا غلامك ذهبت على تقدير أن نحمله على النسمة. الثالث: أن فيه إضمارًا، والتقدير: نسقيكم مما في بطونه اللبن إذ ليس كلها ذات لبن.

المسألة الثالثة: الفرث: سرجين الكرش. روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال: إذا استقر العلف في الكرش صار أسفله فرثًا وأعلاه دمًا وأوسطه لبنًا، فيجري الدم في العروق

واللبن في الضرع، ويبقى الفرث كما هو، فذاك هو قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا﴾ لا يشوبه الدم ولا الفرث.

ولقائل أن يقول: الدم واللبن لا يتولدان ألبتة في الكرش، والدليل عليه الحس فإن هذه الحيوانات تذبح ذبحًا متواليًا، وما رأى أحد في كرشها لا دمًا ولا لبنًا، ولو كان تولد الدم واللبن في الكرش لوجب أن يشاهد ذلك في بعض الأحوال، والشيء الذي دلت المشاهدة على فساده لم يجز المصير إليه، بل الحق أن الحيوان إذا تناول الغذاء وصل ذلك العلف إلى معدته إن كان إنسانًا، وإلى كرشه إن كان من الأنعام وغيرها، فإذا طبخ وحصل الهضم الأول فيه فما كان منه صافيًا انجذب إلى الكبد، وما كان كثيفًا نزل إلى الأمعاء، ثم ذلك الذي يحصل منه في الكبد ينطبخ فيها ويصير دمًا، وذلك هو الهضم الثاني، ويكون ذلك الدم مخلوطًا بالصفراء والسوداء وزيادة المائية، أما الصفراء فتذهب إلى المرارة، والسوداء إلى الطحال، والماء إلى الكلية، ومنها إلى المثانة، وأما ذلك الدم فإنه يدخل في الأوردة، وهي العروق النابتة من الكبد، وهناك يحصل الهضم الثالث، وبين الكبد وبين الضرع عروق كثيرة فينصب الدم في تلك العروق إلى الضرع، والضرع لحم غددي رخو أبيض فيقلب الله تعالى الدم عند انصبابه إلى ذلك اللحم الغددي الرخو الأبيض من صورة الدم إلى صورة اللبن فهذا هو القول الصحيح في كيفية تولد اللبن.

فإن قيل: فهذه المعاني حاصلة في الحيوان الذكر فلم لم يحصل منه اللبن؟

قلنا: الحكمة الإلهية اقتضت تدبير كل شيء على الوجه اللائق به الموافق لمصلحته، فمزاج الذكر من كل حيوان يجب أن يكون حارًا يابسًا، ومزاج الأنثى يجب أن يكون باردًا رطبًا، والحكمة فيه أن الولد إنما يتكون في داخل بدن الأنثى، فوجب أن تكون الأنثى مختصة بمزيد الرطوبات لوجهين: الأول: أن الولد إنما يتولد من الرطوبات، فوجب أن يحصل في بدن الأنثى رطوبات كثيرة لتصير مادة لتولد الولد. والثاني: أن الولد إذا كبر وجب أن يكون بدن الأم قابلاً للتمدد حتى يتسع لذلك الولد، فإذا كانت الرطوبات غالبة على بدن الأم كان بدنها قابلاً للتمدد، فيتسع للولد، فثبت بما ذكرنا أنه تعالى خص بدن الأنثى من كل حيوان بمزيد الرطوبات لهذه الحكمة، ثم إن الرطوبات التي كانت تصير مادة لازدياد بدن الجنين حين كان في رحم الأم، فعند انفصال الجنين تنصب إلى الثدي والضرع ليصير مادة لغذاء ذلك الطفل الصغير.

إذا عرفت هذا فاعلم أن السبب الذي لأجله يتولد اللبن من الدم في حق الأنثى غير حاصل في حق الذكر فظهر الفرق.

إذا عرفت هذا التصوير فنقول: المفسرون قالوا: المراد من قوله: ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ﴾ هو أن هذه الثلاثة تتولد في موضع واحد، فالفرث يكون في أسفل الكرش، والدم يكون في أعلاه، واللبن يكون في الوسط، وقد دللنا على أن هذا القول على خلاف الحس والتجربة، ولأن الدم لو كان

يتولد في أعلى المعدة والكرش كان يجب إذا قاء أن يقيء الدم وذلك باطل قطعًا. وأما نحن فنقول: المراد من الآية هو أن اللبن إنما يتولد من بعض أجزاء الدم، والدم إنما يتولد من الأجزاء اللطيفة التي في الفرث، وهو الأشياء المأكولة الحاصلة في الكرش، وهذا اللبن متولد من الأجزاء التي كانت حاصلة فيما بين الفرث أولاً، ثم كانت حاصلة فيما بين الدم ثانيًا، فصفاه الله تعالى عن تلك الأجزاء الكثيفة الغليظة، وخلق فيها الصفات التي باعتبارها صارت لبنًا موافقًا لبدن الطفل، فهذا ما حصلناه في هذا المقام، والله أعلم.

المسألة الرابعة: اعلم أن حدوث اللبن في الثدي واتصافه بالصفات التي باعتبارها يكون موافقًا لتغذية الصبي مشتمل على حكم عجيبة وأسرار بديعة، يشهد صريح العقل بأنها لا تحصل إلا بتدبير الفاعل الحكيم والمدبر الرحيم، وبيانه من وجوه:

الأول: أنه تعالى خلق في أسفل المعدة منفذًا يخرج منه ثقل الغذاء، فإذا تناول الإنسان غذاء أو شربة رقيقة انطبق ذلك المنفذ انطباقًا كليًا لا يخرج منه شيء من ذلك المأكول والمشروب إلى أن يكمل انهضامه في المعدة وينجذب ما صفا منه إلى الكبد ويبقى الثقل هناك، فحينئذ ينفتح ذلك المنفذ وينزل منه ذلك الثقل، وهذا من العجائب التي لا يمكن حصولها إلا بتدبير الفاعل الحكيم، لأنه متى كانت الحاجة إلى بقاء للغذاء في المعدة حاصلة انطبق ذلك المنفذ، وإذا حصلت الحاجة إلى خروج ذلك الجسم عن المعدة انفتح، فحصول الانطباق تارة والانفتاح أخرى، بحسب الحاجة وتقدير المنفعة، مما لا يتأتى إلا بتقدير الفاعل الحكيم.

الثاني: أنه تعالى أودع في الكبد قوة تجذب الأجزاء اللطيفة الحاصلة في ذلك المأكول أو المشروب، ولا تجذب الأجزاء الكثيفة، وخلق في الأمعاء قوة تجذب تلك الأجزاء الكثيفة التي هي الثقل، ولا تجذب الأجزاء اللطيفة ألبتة. ولو كان الأمر بالعكس لاختلفت مصلحة البدن ولفسد نظام هذا التركيب.

الثالث: أنه تعالى أودع في الكبد قوة هاضمة طابخة، حتى أن تلك الأجزاء اللطيفة تنطبخ في الكبد وتنقلب دمًا، ثم إنه تعالى أودع في المرارة قوة جاذبة للصفراء، وفي الطحال قوة جاذبة للسوداء، وفي الكلية قوة جاذبة لزيادة المائية، حتى يبقى الدم الصافي الموافق لتغذية البدن. وتخصيص كل واحد من هذه الأعضاء بتلك القوة والخاصية لا يمكن إلا بتقدير الحكيم العليم.

الرابع: أن في الوقت الذي يكون الجنين في رحم الأم ينصب من ذلك الدم نصيب وافر إليه حتى يصير مادة لنمو أعضاء ذلك الولد وازدياده، فإذا انفصل ذلك الجنين عن الرحم ينصب ذلك النصيب إلى جانب الثدي ليتولد منه اللبن الذي يكون غذاء له، فإذا كبر الولد لم ينصب ذلك النصيب لا إلى الرحم ولا إلى الثدي، بل ينصب على مجموع بدن المتغذي، فانصباب ذلك الدم في كل وقت إلى عضو آخر انصبابًا موافقًا للمصلحة والحكمة لا يتأتى إلا بتدبير الفاعل المختار الحكيم.

والخامس: أن عند تولد اللبن في الضرع أحدث تعالى في حلمة الثدي ثقوبًا صغيرة ومسام ضيقة، وجعلها بحيث إذا اتصل المص أو الحلب بتلك الحلمة انفصل اللبن عنها في تلك المسام الضيقة، ولما كانت تلك المسام ضيقة جدًا، فحينئذ لا يخرج منها إلا ما كان في غاية الصفاء واللطافة، وأما الأجزاء الكثيفة فإنه لا يمكنها الخروج من تلك المنافذ الضيقة فتبقى في الداخل، والحكمة في إحداث تلك الثقوب الصغيرة، والمنافذ الضيقة في رأس حلمة الثدي أن يكون ذلك كالمصفاة، فكل ما كان لطيفًا خرج، وكل ما كان كثيفًا احتبس في الداخل ولم يخرج، فبهذا الطريق يصير ذلك اللبن خالصًا موافقًا لبدن الصبي سائغًا للشاربين.

السادس: أنه تعالى ألهم ذلك الصبي إلى المص، فإن الأم كلما ألقمت حلمة الثدي في فم الصبي فذلك الصبي في الحال يأخذ في المص، فلولا أن الفاعل المختار الرحيم ألهم ذلك الطفل الصغير ذلك العمل المخصوص، وإلا لم يحصل الانتفاع بتخليق ذلك اللبن في الثدي.

السابع: أنا بينا أنه تعالى إنما خلق اللبن من فضلة الدم، وإنما خلق الدم من الغذاء الذي يتناوله الحيوان فالشاة لما تناولت العشب والماء فالله تعالى خلق الدم من لطيف تلك الأجزاء، ثم خلق اللبن من بعض أجزاء ذلك الدم، ثم إن اللبن حصلت فيه أجزاء ثلاثة على طبائع متضادة، فما فيه من الدهن يكون حارًا رطبًا، وما فيه من المائية يكون باردًا رطبًا، وما فيه من الجبنية يكون باردًا يابسًا، وهذه الطبائع ما كانت حاصلة في ذلك العشب الذي تناولته الشاة، فظهر بهذا أن هذه الأجسام لا تزال تنقلب من صفة إلى صفة ومن حالة إلى حالة، مع أنه لا يناسب بعضها بعضًا ولا يشاكل بعضها بعضًا، وعند ذلك يظهر أن هذه الأحوال إنما تحدث بتدبير فاعل حكيم رحيم يدبر أحوال هذا العالم على وفق مصالح العباد، فسبحان من تشهد جميع ذرات العالم الأعلى والأسفل بكمال قدرته ونهاية حكمته ورحمته، له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين.

أما قوله: ﴿سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾ فمعناه: جاريًا في حلوقهم لذيذًا هنيئًا. يقال: ساغ الشراب في الحلق وأساغه صاحبه، ومنه قوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ [إبراهيم: ١٧].

المسألة الخامسة: قال أهل التحقيق: اعتبار حدوث اللبن كما يدل على وجود الصانع المختار سبحانه، فكذلك يدل على إمكان الحشر والنشر، وذلك لأن هذا العشب الذي يأكله الحيوان إنما يتولد من الماء والأرض، فخالق العالم دبر تدبيرًا، فقلب ذلك الطين نباتًا وعشبًا، ثم إذا أكله الحيوان دبر تدبيرًا آخر فقلب ذلك العشب دمًا، ثم دبر تدبيرًا آخر فقلب ذلك الدم لبنًا، ثم دبر تدبيرًا آخر فحدث من ذلك اللبن الدهن والجبن، فهذا يدل على أنه تعالى قادر على أن يقلب هذه الأجسام من صفة إلى صفة، ومن حالة إلى حالة فإذا كان كذلك لم يمتنع أيضًا أن يكون قادرًا على أن يقلب أجزاء أبدان الأموات إلى صفة الحياة والعقل كما كانت قبل ذلك، فهذا الاعتبار يدل من هذا الوجه على أن البعث والقيامة أمر ممكن غير ممتنع، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر بعض منافع الحيوانات في الآية المتقدمة، ذكر في هذه الآية بعض منافع النبات.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: فإن قيل: بم تعلق قوله: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ﴾.

قلنا: بمحذوف تقديره: ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب أي من عصيرها وحذف لدلالة نسقيكم قبله عليه. وقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا﴾ بيان وكشف عن كنه الإسقاء.

المسألة الثانية: قال الواحدي: ﴿وَٱلۡأَعۡنَٰبِ﴾ عطف على الثمرات لا على النخيل، لأنه يصير التقدير: ومن ثمرات الأعناب، والعنب نفسه ثمرة وليست له ثمرة أخرى.

المسألة الثالثة: في تفسير السكر وجوه: الأول: السكر الخمر سميت بالمصدر من سكر سَكَرًا وسَكْرًا نحو: رَشَد رَشَدًا ورُشْدًا، وأما الرزق الحسن فسائر ما يتخذ من النخيل والأعناب كالرُّب والخل والدبس والتمر والزبيب.

فإن قيل: الخمر محرمة فكيف ذكرها الله في معرض الإنعام؟

أجابوا عنه من وجهين: الأول: أن هذه السورة مكية، وتحريم الخمر نزل في سورة المائدة، فكان نزول هذه الآية في الوقت الذي كانت الخمر فيه غير محرمة. الثاني: أنه لا حاجة إلى التزام هذا النسخ، وذلك لأنه تعالى ذكر ما في هذه الأشياء من المنافع، وخاطب المشركين بها، والخمر من أشربتهم فهي منفعة في حقهم، ثم إنه تعالى نبه في هذه الآية أيضًا على تحريمها، وذلك لأنه ميز بينها وبين الرزق الحسن في الذكر، فوجب أن لا يكون السكر رزقًا حسنًا، ولا شك أنه حسن بحسب الشهوة، فوجب أن يقال الرجوع عن كونه حسنًا بحسب الشريعة، وهذا إنما يكون كذلك إذا كانت محرمة.

القول الثاني: أن السكر هو النبيذ، وهو عصير العنب والزبيب والتمر إذا طبخ حتى يذهب ثلثاه ثم يترك حتى يشتد، وهو حلال عند أبي حنيفة رحمه الله إلى حد السكر، ويحتج بأن هذه الآية تدل على أن السكر حلال لأنه تعالى ذكره في معرض الإنعام والمنة، ودل الحديث على أن الخمر حرام قال عليه السلام: «الْخَمْرُ حَرَامٌ لِعَيْنِهَا»[(١)] وهذا يقتضي أن يكون السكر شيئًا غير الخمر، وكل من أثبت هذه المغايرة قال إنه النبيذ المطبوخ.

والقول الثالث: أن السكر هو الطعام قال أبو عبيدة: واحتج عليه بقول الشاعر:

جَعَلْتَ أَعْرَاضَ الْكِرَامِ سَكَرَا

أي جعلت ذمهم طعامًا لك، قال الزجاج: هذا بالخمر أشبه منه بالطعام، والمعنى أنك جعلت تتخمر بأعراض الكرام، والمعنى: أنه جعل شغفه بغيبة الناس وتمزيق أعراضهم جاريًا

(١) لم أجده بهذا اللفظ إنما جاءت الأحاديث بكثرة في الصحاح وغيرها على تحريج الخمر.

مجرى شرب الخمر. واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه الوجوه التي هي دلائل من وجه، وتعديد للنعم العظيمة من وجه آخر، قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ والمعنى: أن من كان عاقلاً، علم بالضرورة أن هذه الأحوال لا يقدر عليها إلا الله سبحانه وتعالى، فيحتج بحصولها على وجود الإله القادر الحكيم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بين أن إخراج الألبان من النعم، وإخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب دلائل قاهرة، وبينات باهرة على أن لهذا العالم إلهًا قادرًا مختارًا حكيمًا، فكذلك إخراج العسل من النحل دليل قاطع وبرهان ساطع على إثبات هذا المقصود.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ يقال وحى وأوحى، وهو الإلهام، والمراد من الإلهام أنه تعالى قرر في أنفسها هذه الأعمال العجيبة التي تعجز عنها العقلاء من البشر، وبيانه من وجوه: الأول: أنها تبني البيوت المسدسة من أضلاع متساوية، لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طباعها، والعقلاء من البشر لا يمكنهم بناء مثل تلك البيوت إلا بآلات وأدوات مثل المسطر والفرجار. والثاني: أنه ثبت في الهندسة أن تلك البيوت لو كانت مشكلة بأشكال سوى المسدسات فإنه يبقى بالضرورة فيما بين تلك البيوت فرج خالية ضائعة، أما إذا كانت تلك البيوت مسدسة فإنه لا يبقى فيما بينها فرج ضائعة، فإهداء ذلك الحيوان الضعيف إلى هذه الحكمة الخفية والدقيقة اللطيفة من الأعاجيب. والثالث: أن النحل يحصل فيما بينها واحد يكون كالرئيس للبقية، وذلك الواحد يكون أعظم جثة من الباقي، ويكون نافذ الحكم على تلك البقية، وهم يخدمونه ويحملونه عند الطيران، وذلك أيضًا من الأعاجيب. والرابع: أنها إذا نفرت من وكرها ذهبت مع الجمعية إلى موضع آخر، فإذا أرادوا عودها إلى وكرها ضربوا الطنبور والملاهي وآلات الموسيقى، وبواسطة تلك الألحان يقدرون على ردها إلى وكرها، وهذا أيضًا حالة عجيبة، فلما امتاز هذا الحيوان بهذه الخواص العجيبة الدالة على مزيد الذكاء والكياسة، وكان حصول هذه الأنواع من الكياسة ليس إلا على سبيل الإلهام وهي حالة شبيهة بالوحي، لا جرم قال تعالى في حقها: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾.

واعلم أن الوحي قد ورد في حق الأنبياء لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١] وفي حق الأولياء أيضًا قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ [المائدة: ١١١] وبمعنى الإلهام في حق البشر قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٧] وفي حق سائر الحيوانات

كما في قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ ولكل واحد من هذه الأقسام معنى خاص، والله أعلم.

المسألة الثانية: قال الزجاج: يجوز أن يقال سمي هذا الحيوان نحلاً، لأن الله تعالى نحل الناس العسل الذي يخرج من بطونها، وقال غيره النحل يذكر ويؤنث، وهي مؤنثة في لغة الحجاز، ولذلك أنثها الله تعالى، وكذلك كل جمع ليس بينه وبين واحده إلا الهاء.

ثم قال تعالى: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى﴾ هي (أن) المفسرة، لأن الإيحاء فيه معنى القول، وقرىء: (بِيُوتًا) بكسر الباء ﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ أي يبنون ويسقفون، وفيه لغتان قرىء بهما، ضم الراء وكسرها مثل يعكفون ويعكفون.

واعلم أن النحل نوعان:

النوع الأول: ما يسكن في الجبال والغياض ولا يتعهدها أحد من الناس.

والنوع الثاني: التي تسكن بيوت الناس وتكون في تعهدات الناس، فالأول هو المراد بقوله: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ﴾. والثاني: هو المراد بقوله: ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ وهو خلايا النحل.

فإن قيل: ما معنى (مِنْ) في قوله: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ وهلا قيل في الجبال وفي الشجر؟

قلنا: أريد به معنى البعضية، وأن لا تبني بيوتها في كل جبل وشجر، بل في مساكن توافق مصالحها وتليق بها.

المسألة الثانية: ظاهر قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ أمر، وقد اختلفوا فيه، فمن الناس من يقول لا يبعد أن يكون لهذه الحيوانات عقول، ولا يبعد أن يتوجه عليها من الله تعالى أمر ونهي. وقال آخرون: ليس الأمر كذلك بل المراد منه أنه تعالى خلق فيها غرائز وطبائع توجب هذه الأحوال، والكلام المستقصى في هذه المسألة مذكور في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾[النمل: ١٨].

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ لفظة (من) ههنا للتبعيض أو لابتداء الغاية، ورأيت في (كتب الطب) أنه تعالى دبر هذا العالم على وجه، وهو أنه يحدث في الهواء طل لطيف في الليالي ويقع ذلك الطل على أوراق الأشجار، فقد تكون تلك الأجزاء الطلية لطيفة صغيرة متفرقة على الأوراق والأزهار، وقد تكون كثيرة بحيث يجتمع منها أجزاء محسوسة.

أما القسم الثاني: فهو مثل الترنجبين فإنه طل ينزل من الهواء ويجتمع على أطراف الطرفاء في بعض البلدان وذلك محسوس.

وأما القسم الأول: فهو الذي ألهم الله تعالى هذا النحل حتى أنها تلتقط تلك الذرات من الأزهار

وأوراق الأشجار بأفواهها وتأكلها وتغتذي بها، فإذا شبعت التقطت بأفواهها مرة أخرى شيئًا من تلك الأجزاء وذهبت بها إلى بيوتها ووضعتها هناك، لأنها تحاول أن تدخر لنفسها غذاءها، فإذا اجتمع في بيوتها من تلك الأجزاء الطلية شيء كثير فذاك هو العسل، ومن الناس من يقول: إن النحل تأكل من الأزهار الطيبة والأوراق المعطرة أشياء، ثم إنه تعالى يقلب تلك الأجسام في داخل بدنها عسلاً، ثم إنها تقيء مرة أخرى فذاك هو العسل، والقول الأول أقرب إلى العقل وأشد مناسبة إلى الاستقراء، فإن طبيعة الترنجبين قريبة من العسل في الطعم والشكل، ولا شك أنه طل يحدث في الهواء ويقع على أطراف الأشجار والأزهار فكذا ههنا. وأيضًا فنحن نشاهد أن هذا النحل إنما يتغذى بالعسل، ولذلك فإنا إذا استخرجنا العسل من بيوت النحل نترك لها بقية من ذلك لأجل أن تغتذي بها فعلمنا أنها إنما تغتذي بالعسل وأنها إنما تقع على الأشجار والأزهار لأنها تغتذي بتلك الأجزاء الطلية العسلية الواقعة من الهواء عليها.

إذا عرفت هذا فنقول: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ كلمة (من) ههنا تكون لابتداء الغاية، ولا تكون للتبعيض على هذا القول.

ثم قال تعالى: ﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ﴾ والمعنى: ثم كلي كل ثمرة تشتهينها فإذا أكلتها فاسلكي سبل ربك في الطرق التي ألهمك وأفهمك في عمل العسل، أو يكون المراد: فاسلكي في طلب تلك الثمرات سبل ربك. أما قوله: ﴿ذُلُلًا﴾ ففيه قولان:

الأول: أنه حال من السبل لأن الله تعالى ذللها لها ووطأها وسهلها، كقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ [الملك: ١٥].

الثاني: أنه حال من الضمير في ﴿فَٱسْلُكِى﴾ أي وأنت أيها النحل ذلل منقادة لما أمرت به غير ممتنعة.

ثم قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا﴾.

وفيه بحثان:

البحث الأول: أن هذا رجوع من الخطاب إلى الغيبة والسبب فيه أن المقصود من ذكر هذه الأحوال أن يحتج الإنسان المكلف به على قدرة الله تعالى وحكمته وحسن تدبيره لأحوال العالم العلوي والسفلي، فكأنه تعالى لما خاطب النحل بما سبق ذكره خاطب الإنسان وقال: إنا ألهمنا هذا النحل لهذه العجائب، لأجل أن يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه.

البحث الثاني: أنه قد ذكرنا أن من الناس من يقول: العسل عبارة عن أجزاء طلية تحدث في الهواء وتقع على أطراف الأشجار وعلى الأوراق والأزهار، فيلقطها الزنبور بفمه، فإذا ذهبنا إلى هذا الوجه كان المراد من قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا﴾ أي من أفواهها، وكل تجويف في داخل البدن فإنه يسمى بطنًا، ألا ترى أنهم يقولون: بطون الدماغ وعنوا أنها تجاويف الدماغ، وكذا ههنا يخرج من بطونها أي من أفواهها، وأما على قول أهل الظاهر، وهو أن النحلة تأكل الأوراق والثمرات ثم تقيء فذلك هو العسل فالكلام ظاهر.

ثم قال تعالى: ﴿شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ اعلم أنه تعالى وصف العسل بهذه الصفات الثلاثة :

فالصفة الأولى: كونه شرابًا والأمر كذلك، لأنه تارة يشرب وحده وتارة يتخذ منه الأشربة .

والصفة الثانية: قوله : ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ﴾ والمعنى : أن منه أحمر وأبيض وأصفر . ونظيره قوله تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧] والمقصود منه : إبطال القول بالطبع، لأن هذا الجسم مع كونه متساوي الطبيعة لما حدث على ألوان مختلفة، دل ذلك على أن حدوث تلك الألوان بتدبير الفاعل المختار، لا لأجل إيجاد الطبيعة .

والصفة الثالثة: قوله : ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ .

وفيه قولان:

القول الأول: وهو الصحيح أنه صفة للعسل .

فإن قالوا: كيف يكون شفاء للناس وهو يضر بالصفراء ويهيج المرارة؟

قلنا: إنه تعالى لم يقل إنه شفاء لكل الناس ولكل داء وفي كل حال، بل لما كان شفاء للبعض ومن بعض الأدواء صلح بأن يوصف بأنه فيه شفاء، والذي يدل على أنه شفاء في الجملة أنه قل معجون من المعاجين إلا وتمامه وكماله إنما يحصل بالعجن بالعسل، وأيضًا فالأشربة المتخذة منه في الأمراض البلغمية عظيمة النفع .

والقول الثاني: وهو قول مجاهد أن المراد : أن القرآن شفاء للناس، وعلى هذا التقدير فقصة تولد العسل من النحل تمت عند قوله : ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ﴾ ثم ابتدأ وقال : ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي في هذا القرآن حصل ما هو شفاء للناس من الكفر والبدعة، مثل هذا الذي في قصة النحل . وعن ابن مسعود : إن العسل شفاء من كل داء، والقرآن شفاء لما في الصدور .

واعلم أن هذا القول ضعيف ويدل عليه وجهان : الأول : أن الضمير في قوله : ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ يجب عوده إلى أقرب المذكورات، وما ذاك إلا قوله : ﴿شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ﴾ وأما الحكم بعود هذا الضمير إلى القرآن مع أنه غير مذكور فيما سبق، فهو غير مناسب . والثاني : ما روى أبو سعيد الخدري : أنه جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقال : إن أخي يشتكي بطنه فقال : «اسْقِهِ عَسَلًا» فذهب ثم رجع فقال : قد سقيته فلم يغن عنه شيئًا، فقال عليه الصلاة والسلام : «اذْهَبْ وَاسْقِهِ عَسَلًا» فذهب فسقاه، فكأنما نشط من عقال، فقال : «صَدَقَ اللَّهُ وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ»(١) وحملوا قوله : «صَدَقَ اللَّهُ وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ» على قوله : ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ وذلك إنما يصح لو كان هذا صفة للعسل .

فإن قال قائل: ما المراد بقوله عليه السلام : «صَدَقَ اللَّهُ وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ»؟

---

(١) متفق عليه : أخرجه البخاري في كتاب (المرضى) باب (الشفاء في ثلاث) (٥/ ٢١٥٢) حديث رقم/ ٥٣٦٠، ومسلم في (صحيحه) (٤/ ١٧٣٦/ ٢٢١٧) كلاهما من طريق أبي المتوكل عن أبي سعيد . . . به .

قلنا: لعله عليه السلام علم بنور الوحي أن ذلك العسل سيظهر نفعه بعد ذلك، فلما لم يظهر نفعه في الحال مع أنه عليه السلام كان عالمًا بأنه سيظهر نفعه بعد ذلك، كان هذا جاريًا مجرى الكذب، فلهذا السبب أطلق عليه هذا اللفظ.

ثم إنه تعالى ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ واعلم أن تقرير هذه الآية من وجوه: الأول: اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والمعارف الغامضة مثل بناء البيوت المسدسة وسائر الأحوال التي ذكرناها. والثاني: اهتداؤها إلى جميع تلك الأجزاء العسلية من أطراف الأشجار والأوراق. والثالث: خلق الله تعالى الأجزاء النافعة في جو الهواء، ثم إلقاؤها على أطراف الأشجار والأوراق، ثم إلهام النحل إلى جمعها بعد تفريقها وكل ذلك أمور عجيبة دالة على أن إله العالم بنى ترتيبه على رعاية الحكمة والمصلحة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: لما ذكر تعالى بعض عجائب أحوال الحيوانات، ذكر بعده بعض عجائب أحوال الناس، فمنها ما هو مذكور في هذه الآية وهو إشارة إلى مراتب عمر الإنسان، والعقلاء ضبطوها في أربع مراتب:

أولها: سن النشو والنماء.

وثانيهما: سن الوقوف وهو سن الشباب.

وثالثها: سن الانحطاط القليل وهو سن الكهولة.

ورابعها: سن الانحطاط الكبير وهو سن الشيخوخة. فاحتج تعالى بانتقال الحيوان من بعض هذه المراتب إلى بعض، على أن ذلك الناقل هو الله تعالى والأطباء الطبائعيون قالوا: المقتضي لهذا الانتقال هو طبيعة الإنسان، وأنا أحكي كلامهم على الوجه الملخص وأبين ضعفه وفساده، وحينئذ يبقى أن ذلك الناقل هو الله سبحانه، وعند ذلك يصح بالدليل العقلي ما ذكر الله تعالى في هذه الآية. قال الطبائعيون: إن بدن الإنسان مخلوق من المني ومن دم الطمث، والمني والدم جوهران حاران رطبان، والحرارة إذا عملت في الجسم الرطب قللت رطوبته وأفادته نوع يبس، وهذا مشاهد معلوم، قالوا: فلا يزال ما في هذين الجوهرين من قوة الحرارة يقلل ما فيه من الرطوبة حتى تتصلب الأعضاء ويظهر فيه الانعقاد، ويحدث العظم والغضروف والعصب والوتر والرباط وسائر الأعضاء فإذا تم تكون البدن وكمل فعند ذلك ينفصل الجنين من رحم الأم ومع ذلك فالرطوبات زائدة، والدليل عليه أنك ترى أعضاء الطفل بعد انفصاله من الأم لينة لطيفة وعظامه لينة قريبة الطبع من الغضاريف، ثم إن ما في البدن من الحرارة يعمل في تلك الرطوبات

ويقللها، قالوا: ويحصل للبدن ثلاثة أحوال.

الحالة الأولى: أن تكون رطوبة البدن زائدة على حرارته، وحينئذ تكون الأعضاء قابلة للتمدد والازدياد والنماء، وذلك هو سن النشو والنماء ونهايته إلى ثلاثين سنة أو خمس وثلاثين سنة.

الحالة الثانية: أن تصير رطوبات البدن أقل ما كانت فتكون وافية بحفظ الحرارة الغريزية الأصلية إلا أنها لا تكون زائدة على هذا القدر، وهذا هو سن الوقوف وسن الشباب وغايته خمس سنين، وعند تمامه يتم الأربعون.

والحالة الثالثة: أن تقل الرطوبات وتصير بحيث لا تكون وافية بحفظ الحرارة الغريزية، وعند ذلك يظهر النقصان، ثم هذا النقصان قد يكون خفيًا وهو سن الكهولة وتمامه إلى ستين سنة وقد يكون ظاهرًا وهو سن الشيخوخة وتمامه إلى مائة وعشرين سنة فهذا هو الذي حصله الأطباء في هذا الباب، وعندي أن هذا التعليل ضعيف ويدل على ضعفه وجوه:

الوجه الأول: أنا نقول إن في أول ما كان المني منيًا وكان الدم دمًا كانت الرطوبات غالبة وكانت الحرارة الغريزية مغمورة وكانت ضعيفة بهذا السبب، ثم إنها مع ضعفها قويت على تحليل أكثر تلك الرطوبات وأبانتها من حد الدموية والمنوية إلى أن صارت عظمًا وغضروفًا وعصبًا ورباطًا، وعندما تولدت الأعضاء وكمل البدن قلت الرطوبات فوجب أن تكون للحرارة الغريزية قوة أزيد مما كانت قبل ذلك، فوجب أن يكون تحليل الرطوبات بعد تولد البدن وكماله أزيد من تحللها قبل تولد البدن، ومعلوم أنه ليس الأمر كذلك، لأن قبل تولد البدن انتقل جسم المني والدم إلى أن صار عظمًا وعصبًا، وأما بعد تولد البدن فلم يحصل مثل هذا الانتقال ولا عشر عشره فلو كان تولد هذه الأعضاء بسبب تأثير الحرارة في الرطوبة لوجب أن يكون تحلل الرطوبات بعد كمال البدن أكثر من تحللها قبل تكون البدن، ولما لم يكن الأمر كذلك علمنا أن تولد البدن إنما كان بتدبير قادر حكيم يدبر أبدان الحيوانات على وفق مصالحها، وأنه ما كان تولد البدن لأجل ما قالوه من تأثير الحرارة في الرطوبة.

والوجه الثاني: في إبطال هذا الكلام أن نقول: إن الحرارة الغريزية الحاصلة في بدن الإنسان الكامل إما أن تكون هي عين ما كان حاصلاً في جوهر النطفة أو صارت أزيد مما كانت، والأول باطل، لأن الحار الغريزي الحاصل في جوهر النطفة كان بمقدار جرم النطفة ولا شك أن جرم النطفة كان قليلاً صغيرًا، فهذا البدن بعد كبره لو لم يحصل فيه من الحرارة الغريزية إلا ذلك القدر كان في غاية القلة، ولم يظهر منه في هذا البدن أثر أصلاً، وأما الثاني: ففيه تسليم أن الحرارة الغريزية تتزايد بحسب تزايد الجثة والبدن، وإذا تزايدت الحرارة الغريزية ساعة فساعة، وثبت أن تزايدها يوجب تزايد القوة والصحة ساعة فساعة، فوجب أن يبقى البدن الحيواني أبدًا في التزايد والتكامل، وحيث لم يكن الأمر كذلك علمنا أن ازدياد حال البدن الحيواني وانتقاصه ليس بحسب الطبيعة، بل بسبب تدبير الفاعل المختار.

والوجه الثالث: وهو الذي أوردناه على الأطباء في كتابنا (الكبير في الطب) فقلنا هب أن الرطوبة الغريزية صارت معادلة للحرارة الغريزية فلم قلتم إن الحرارة الغريزية يجب أن تصير أقل مما كانت؟ وأن ينتقل الإنسان من سن الشباب إلى سن النقصان. قالوا: السبب فيه أنه إذا حصل هذا الاستواء، فالحرارة الغريزية بعد ذلك تؤثر في تخفيف الرطوبة الغريزية، فتقل الرطوبات الغريزية حتى صارت بحيث لا تفي بحفظ الحرارة الغريزية، وإذا حصلت هذه الحالة ضعفت الحرارة الغريزية أيضًا، لأن الرطوبة الغريزية كالغذاء للحرارة الغريزية، فإذا قل الغذاء ضعف المغتذي. فالحاصل: أن الحرارة الغريزية توجب قلة الرطوبة الغريزية، وقلتها توجب ضعف الحرارة الغريزية، ويلزم من ضعف إحداهما ضعف الأخرى إلى أن تنتهي إلى حيث لا يبقى من الرطوبة الغريزية شيء، وحينئذ تنطفىء الحرارة الغريزية، ويحصل الموت هذا منتهى ما قالوه في هذا الباب، وهو ضعيف، لأنا نقول: إن الحرارة الغريزية إذا أثرت في تجفيف الرطوبة الغريزية وقلتها، فلم لا يجوز أن يقال: إن القوة الغاذية تورد بدلها. فعند هذا قالوا: القوة الغاذية إنما تقوى على إيراد بدلها لو كانت الحرارة الغريزية قوية، فأما عند ضعفها فلا، فنقول: فههنا لزم الدور، لأن الرطوبة الغريزية إنما تقل وتنقص لو لم تكن القوة الغاذية وافية بإيراد بدلها، وإنما تعجز القوة الغاذية عن هذا الإيراد إذا كانت الحرارة الغريزية ضعيفة، وإنما تكون الحرارة الغريزية ضعيفة أن لو قلت الرطوبة الغريزية، وإنما تحصل هذه القلة إذا عجزت الغاذية عن إيراد البدل، فثبت أن على القول الذي قالوه يلزم الدور وأنه باطل فثبت أن تعليل انتقال الإنسان من سن إلى سن بما ذكروه من اعتبار الطبائع يوجب عليهم هذه المحالات المذكورة فكان القول به باطلاً، ولما بطل هذا القول وجب القطع بإسناد هذه الأحوال إلى الإله القادر المختار الحكيم الرحيم الذي يدبر أبدان الحيوانات على الوجه الموافق لمصالحها، وذلك هو المطلوب. وقد كنت أقرأ يومًا من الأيام سورة والمرسلات فلما وصلت إلى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ۝٢٣ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٢٠ - ٢٤] فقلت: لا شك أن المراد بهؤلاء المكذبين هم الذين نسبوا تكون الأبدان الحيوانية إلى الطبائع وتأثير الحرارة في الرطوبة، وأنا أؤمن من صميم قلبي يا رب العزة بأن هذه التدبيرات ليست من الطبائع بل من خالق العالم الذي هو أحكم الحاكمين وأكرم الأكرمين.

إذا عرفت هذا فقد صح بالدليل العقلي صدق قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ لأنه ثبت أن خالق أبدان الناس وسائر الحيوانات ليس هو الطبائع بل هو الله سبحانه وتعالى، وقوله: ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ قد بينا أن السبب الذي ذكروه في صيرورة الموت فاسد باطل، وأنه يلزم عليه القول بالدور، ولما بطل ذلك ثبت أن الحياة والموت إنما حصلا بتخليق الله، وبتقديره، وقوله: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ قد بينا بالدليل أن الطبائع لا يجوز أن تكون علة لانتقال الإنسان من الكمال إلى النقصان ومن القوة إلى الضعف فلزم القطع بأن انتقال الإنسان من الشباب إلى الشيخوخة، ومن

الصحة إلى الهرم، ومن العقل الكامل إلى أن صار خَرِفًا غافلاً ليس بمقتضى الطبيعة بل بفعل الفاعل المختار، وإذا ثبت ما ذكرنا ظهر أن الذي دل عليه لفظ القرآن قد ثبت صحته بقاطع القرآن.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ وهذا كالأصل الذي عليه تفريع كل ما ذكرناه، وذلك لأن الطبيعة جاهلة لا تميز بين وقت المصلحة ووقت المفسدة، فهذه الإنفعالات في هذا الإنسان لا يمكن إسنادها إليها. أما إله العالم ومدبره وخالقه، فهو الكامل في العلم، الكامل في القدرة، فلأجل كمال علمه يعلم مقادير المصالح والمفاسد، ولأجل كمال قدرته يقدر على تحصيل المصالح ودفع المفاسد، فلا جرم أمكن إسناد تخليق الحيوانات إلى إله العالم، فلا يمكن إسناده إلى الطبائع، والله أعلم.

المسألة الثانية: في تفسير ألفاظ الآية قال المفسرون: والله خلقكم ولم تكونوا شيئًا ثم يتوفاكم عند انقضاء آجالكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر، وهو أردؤه وأضعفه. يقال: رذل الشيء يرذل رذالة وأرذله غيره، ومنه قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾[هود: ٢٧] ومنه قوله ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾[الشعراء: ١١١] وقوله: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ هل يتناول المسلم أو هو مختص بالكافر؟

فيه قولان:

القول الأول: أنه يتناوله، قيل: إنه العمر الطويل، وعلى هذا الوجه نقل عن علي عليه السلام أنه قال: أَرْذَلُ الْعُمْرِ خَمْسٌ وَسَبْعُونَ سَنَةً[١]. وقال قتادة: تسعون سنة. وقال السدي: إنه الخرف. والقول الأول أولى؛ لأن الخرف معناه زوال العقل، فقوله: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ يدل على أنه تعالى إنما رده إلى أرذل العمر لأجل أن يزيل عقله، فلو كان المراد من أرذل العمر هو زوال العقل لصار الشيء عين الغاية المطلوبة منه وأنه باطل.

والقول الثاني: أن هذا ليس في المسلمين والمسلم لا يزداد بسبب طول العمر إلا كرامة على الله تعالى ولا يجوز أن يقال في حقه إنه يرد إلى أرذل العمر، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[التين: ٥، ٦] فبين تعالى أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ما ردوا إلى أسفل سافلين. وقال عكرمة: من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ قال ابن عباس: يريد بما صنع أولياؤه وأعداؤه ﴿قَدِيرٌ﴾ على ما يريد.

المسألة الثالثة: هذه الآية كما تدل على وجود إله العالم الفاعل المختار، فهي أيضًا تدل على صحة البعث والقيامة، وذلك لأن الإنسان كان عدمًا محضًا فأوجده الله ثم أعدمه مرة ثانية، فدل

(١) إسناده ضعيف جدًا: ذكره الثعلبي في (الكشف والبيان) (٧/ ٤٠٧) وقال: وروى الأصبغ بن نباتة عن علي... فذكره، وفي إسناده أصبغ بن نباته، قال الحافظ: متروك رمي بالرفض.

هذا على أنه لما كان معدومًا في المرة الأولى، وكان عوده إلى العدم في المرة الثانية جائزًا، فكذلك لما صار موجودًا، ثم عدم وجب أن يكون عوده إلى الوجود في المرة الثانية جائزًا، وأيضًا كان ميتًا حين كان نطفة ثم صار حيًا ثم مات فلما كان الموت الأول جائزًا كان عود الموت جائزًا، فكذلك لما كانت الحياة الأولى جائزة، وجب أن يكون عود الحياة جائزًا في المرة الثانية، وأيضًا الإنسان في أول طفوليته جاهل لا يعرف شيئًا، ثم صار عالمًا عاقلاً فاهمًا، فلما بلغ أرذل العمر عاد إلى ما كان عليه في زمان الطفولية، وهو عدم العقل والفهم، فعدم العقل والفهم في المرة الأولى عاد بعينه في آخر العمر، فكذلك العقل الذي حصل، ثم زال وجب أن يكون جائز العود في المرة الثانية، وإذا ثبتت هذه الجملة ثبت أن الذي مات وعدم فإنه يجوز عود وجوده وعود حياته وعود عقله مرة أخرى ومتى كان الأمر كذلك، ثبت أن القول بالبعث والحشر والنشر حق، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾

اعلم أن هذا اعتبار حال أخرى من أحوال الإنسان، وذلك أنا نرى أكيس الناس وأكثرهم عقلاً وفهمًا يفنى عمره في طلب القدر القليل من الدنيا ولا يتيسر له ذلك، ونرى أجهل الخلق وأقلهم عقلاً وفهمًا تنفتح عليه أبواب الدنيا، وكل شيء خطر بباله ودار في خياله فإنه يحصل له في الحال، ولو كان السبب جهد الإنسان وعقله لوجب أن يكون الأعقل أفضل في هذه الأحوال، فلما رأينا أن الأعقل أقل نصيبًا، وأن الأجهل الأخس أوفر نصيبًا، علمنا أن ذلك بسبب قسمة القسام، كما قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾ [الزخرف: ٣٢] وقال الشافعي رحمه الله تعالى:

وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى الْقَضَاءِ وَكَوْنِهِ بُؤْسُ اللَّبِيبِ وَطِيبُ عَيْشِ الْأَحْمَقِ(١)

واعلم أن هذا التفاوت غير مختص بالمال بل هو حاصل في الذكاء والبلادة والحسن والقبح والعقل والحمق والصحة والسقم والاسم الحسن والاسم القبيح، وهذا بحر لا ساحل له وقد كنت مصاحبًا لبعض الملوك في بعض الأسفار، وكان ذلك الملك كثير المال والجاه، وكانت الجنائب الكثيرة تقاد بين يديه، وما كان يمكنه ركوب واحد منها، وربما حضرت الأطعمة الشهية والفواكه العطرة عنده، وما كان يمكنه تناول شيء منها، وكان الواحد منا صحيح المزاج

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الكامل للإمام الفقيه الشافعي والشافعي فقيه من الفقهاء الأربعة وهو باختصار شديد الشافعي هو: محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي المطلبي أبو عبد الله، ١٥٠- ٢٠٤ هـ/ ٧٦٧- ٨١٩ م، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة وإليه نسبة الشافعية كافة. ولد في غزة بفلسطين وحمل منها إلى مكة وهو ابن سنتين، وزار بغداد مرتين وقصد مصر (سنة ١٩٩) فتوفي بها وقبره معروف في القاهرة.

قوي البنية كامل القوة، وما كان يجد ملء بطنه طعامًا، فذلك الملك وإن كان يفضل على هذا الفقير في المال، إلا أن هذا الفقير كان يفضل على ذلك الملك في الصحة والقوة، وهذا باب واسع إذا اعتبره الإنسان عظم تعجبه منه.

أما قوله: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾.

ففيه قولان:

القول الأول: أن المراد من هذا الكلام تقرير ما سبق في الآية المتقدمة من أن السعادة والنحوسة لا يحصلان إلا من الله تعالى، والمعنى أن الموالي والمماليك أنا رازقهم جميعًا فهم في رزقي سواء فلا يحسبن الموالي أنهم يردون على مماليكهم من عندهم شيئًا من الرزق، وانما ذلك رزقي أجريته إليهم على أيديهم وحاصل القول فيه أن المقصود منه بيان أن الرازق هو الله تعالى وأن المالك لا يرزق العبد بل الرازق للعبد والمولى هو الله تعالى، وتحقيق القول أنه ربما كان العبد أكمل عقلاً وأقوى جسمًا وأكثر وقوفًا على المصالح والمفاسد من المولى، وذلك يدل على أن ذلة ذلك العبد وعزة ذلك المولى من الله تعالى كما قال: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

والقول الثاني: أن المراد من هذه الآية الرد على من أثبت شريكًا لله تعالى، ثم على هذا القول ففيه وجهان: الأول: أن يكون هذا ردًا على عبدة الأوثان والأصنام، كأنه قيل: إنه تعالى فضل الملوك على مماليكهم، فجعل المملوك لا يقدر على ملك مع مولاه، فلما لم تجعلوا عبيدكم معكم سواء في الملك، فكيف تجعلون هذه الجمادات معي سواء في المعبودية، والثاني: قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية في نصارى نجران حين قالوا: إن عيسى ابن مريم ابن الله، فالمعنى أنكم لا تشركون عبيدكم فيما ملكتم فتكونوا سواء، فكيف جعلتم عبدي ولدًا لي وشريكًا في الإلهية؟

ثم قال تعالى: ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ معنى الفاء في قوله: ﴿فَهُمْ﴾ حتى، والمعنى: فما الذين فضلوا بجاعلي رزقهم لعبيدهم، حتى تكون عبيدهم فيه معهم سواء في الملك.

ثم قال: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قرأ عاصم في رواية أبي بكر: (تجحدون) بالتاء على الخطاب لقوله: (خلقكم وفضل بعضكم) والباقون بالياء لقوله: ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ واختاره أبو عبيدة وأبو حاتم لقرب الخبر عنه، وأيضًا فظاهر الخطاب أن يكون مع المسلمين، والمسلمون لا يخاطبون بجحد نعمة الله تعالى.

المسألة الثانية: لا شبهة في أن المراد من قوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ الإنكار على المشركين الذين أورد الله تعالى هذه الحجة عليهم.

فإن قيل: كيف يصيرون جاحدين بنعمة الله عليهم بسبب عبادة الأصنام؟

قلنا: فيه وجهان:

الوجه الأول: أنه لما كان المعطي لكل الخيرات هو الله تعالى فمن أثبت لله شريكًا فقد أضاف إليه بعض تلك الخيرات فكان جاحدًا لكونها من عند الله تعالى، وأيضًا فإن أهل الطبائع وأهل النجوم يضيفون أكثر هذه النعم إلى الطبائع وإلى النجوم، وذلك يوجب كونهم جاحدين لكونها من الله تعالى.

والوجه الثاني: قال الزجاج: المراد أنه تعالى لما قرر هذه الدلائل وبينها وأظهرها بحيث يفهمها كل عاقل، كان ذلك إنعامًا عظيمًا منه على الخلق، فعند هذا قال: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ﴾ في تقريره هذه البيانات وإيضاح هذه البينات (يَجْحَدُونَ).

المسألة الثالثة: الباء في قوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ﴾ يجوز أن تكون زائدة لأن الجحود لا يعدى بالباء كما تقول: خذ الخطام وبالخطام، وتعلقت زيدًا وبزيد، ويجوز أن يراد بالجحود الكفر فعدي بالباء لكونه بمعنى الكفر، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

اعلم أن هذا نوع آخر من أحوال الناس، ذكره الله تعالى ليستدل به على وجود الإله المختار الحكيم، وليكون ذلك تنبيهًا على إنعام الله تعالى على عبيده بمثل هذه النعم، فقوله: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ قال بعضهم: المراد أنه تعالى خلق حواء من ضلع آدم، وهذا ضعيف، لأن قوله: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ خطاب مع الكل، فتخصيصه بآدم وحواء خلاف الدليل، بل هذا الحكم عام في جميع الذكور والإناث. والمعنى: أنه تعالى خلق النساء ليتزوج بهن الذكور، ومعنى: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ مثل قوله: ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] وقوله: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١] أي بعضكم على بعض، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [الروم: ٢١] قال الأطباء وأهل الطبيعة: التفاوت بين الذكر والأنثى إنما كان لأجل أن كل من كان أسخن مزاجًا فهو الذكر، وكل من كان أكثر بردًا ورطوبة فهو المرأة. ثم قالوا: المني إذا انصب إلى الخصية اليمنى من الذكر، ثم انصب منه إلى الجانب الأيمن من الرحم كان الولد ذكرًا تامًا في الذكورة، وإن انصب إلى الخصية اليسرى من الرجل، ثم انصب منها إلى الجانب الأيسر من الرحم، كان الولد أنثى تامًا في الأنوثة، وإن انصب إلى الخصية اليمنى، ثم انصب منها إلى الجانب الأيسر من الرحم، كان الولد ذكرًا في طبيعة الإناث وإن انصب إلى الخصية اليسرى من الرجل ثم انصب منها إلى الجانب الأيمن من الرحم، كان هذا الولد أنثى في طبيعة الذكور.

واعلم أن حاصل هذا الكلام أن الذكورة علتها الحرارة واليبوسة، والأنوثة علتها البرودة والرطوبة، وهذه العلة في غاية الضعف، فقد رأينا في النساء من كان مزاجه في غاية السخونة وفي الرجال من كان مزاجه في غاية البرودة، ولو كان الموجب للذكورة والأنوثة ذلك لامتنع ذلك، فثبت أن خالق الذكر والأنثى هو الإله القديم الحكيم وظهر بالدليل الذي ذكرنا صحة قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ .

ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ قال الواحدي: أصل الحفدة من الحفد وهو الخفة في الخدمة والعمل. يقال: حفد يحفد حفدًا وحفودًا وحفدانًا إذا أسرع، ومنه في دعاء القنوت وإليك نسعى ونحفد، والحفدة جمع الحافد، والحافد كل من يخف في خدمتك ويسرع في العمل بطاعتك، يقال في جمعه الحفد بغير هاء كما يقال الرصد، فمعنى الحفدة في اللغة الأعوان والخدام، ثم يجب أن يكون المراد من الحفدة في هذه الآية الأعوان الذين حصلوا للرجل من قبل المرأة، لأنه تعالى قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ فالأعوان الذين لا يكونون من قبل المرأة لا يدخلون تحت هذه الآية.

إذا عرفت هذا فنقول: قيل هم الأختان، وقيل: هم الأصهار، وقيل: ولد الولد، والأولى دخول الكل فيه، لما بينا أن اللفظ محتمل للكل بحسب المعنى المشترك الذي ذكرناه.

ثم قال تعالى: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ لما ذكر تعالى إنعامه على عبيده بالمنكوح وما فيه من المنافع والمصالح ذكر إنعامه عليهم بالمطعومات الطيبة، سواء كانت من النبات وهي الثمار والحبوب والأشربة أو كانت من الحيوان، ثم قال: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني بالأصنام، وقال مقاتل: يعني بالشيطان، وقال عطاء: يصدقون أن لي شريكًا وصاحبة وولدًا: ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أي بأن يضيفوها إلى غير الله ويتركوا إضافتها إلى الله تعالى. وفي الآية قول آخر وهو أنه تعالى لما قال: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ قال بعده: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ والمراد منه أنهم يحرمون على أنفسهم طيبات أحلها الله لهم مثل البحيرة والسائبة والوصيلة ويبيحون لأنفسهم محرمات حرمها الله عليهم وهي الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذبح على النصب يعني لم يحكمون بتلك الأحكام الباطلة، وبإنعام الله في تحليل الطيبات، وتحريم الخبيثات يجحدون ويكفرون والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح أنواعًا كثيرة في دلائل التوحيد، وتلك الأنواع كما أنها دلائل على صحة التوحيد، فكذلك بدأ بذكر أقسام النعم الجليلة الشريفة، ثم أتبعها في هذه الآية بالرد على عبدة الأصنام فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا

يَسْتَطِيعُونَ﴾ أما الرزق الذي يأتي من جانب السماء فيعني به الغيث الذي يأتي من جهة السماء، وأما الذي يأتي من جانب الأرض فهو النبات والثمار التي تخرج منها وقوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من صفة النكرة التي هي قوله: ﴿رِزْقًا﴾ كأنه قيل: لا يملك لهم رزقًا من الغيث والنبات وقوله: ﴿شَيْـًٔا﴾ قال الأخفش: جعل قوله: ﴿شَيْـًٔا﴾ بدلاً من قوله: ﴿رِزْقًا﴾ والمعنى: لا يملكون رزقًا لا قليلاً ولا كثيرًا، ثم قال: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ والفائدة في هذه اللفظة أن من لا يملك شيئًا قد يكون موصوفًا باستطاعته أن يتملكه بطريق من الطرق، فبين تعالى أن هذه الأصنام لا تملك وليس لها أيضًا استطاعة تحصيل الملك.

فإن قيل: إنه تعالى قال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ﴾ فعبر عن الأصنام بصيغة (ما) وهي لغير أولي العلم، ثم قال: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ والجمع بالواو والنون مختص بأولى العلم فكيف الجمع بين الأمرين؟

والجواب: أنه عبر عنها بلفظ (ما) اعتبارًا لما هو الحقيقة في نفس الأمر وذكر الجمع بالواو والنون اعتبارًا لما يعتقدون فيها أنها آلهة.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾.

وفيه وجوه:

الأول: قال المفسرون: يعني لا تشبهوه بخلقه.

الثاني: قال الزجاج: أي لا تجعلوا لله مثلاً، لأنه واحد لا مثل له.

الثالث: أقول يحتمل أن يكون المراد أن عبدة الأوثان كانوا يقولون: إن إله العالم أجل وأعظم من أن يعبده الواحد منا بل نحن نعبد الكواكب أو نعبد هذه الأصنام، ثم إن الكواكب والأصنام عبيد الإله الأكبر الأعظم، والدليل عليه العرف، فإن أصاغر الناس يخدمون أكابر حضرة الملك، وأولئك الأكابر يخدمون الملك فكذا ههنا فعند هذا قال الله تعالى لهم اتركوا عبادة هذه الأصنام والكواكب ولا تضربوا لله الأمثال التي ذكرتموها وكونوا مخلصين في عبادة الإله الحكيم القدير.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وفيه وجهان:

الأول: أن الله تعالى يعلم ما عليكم من العقاب العظيم، بسبب عبادة هذه الأصنام وأنتم لا تعلمون ذلك، ولو علمتموه لتركتم عبادتها.

الثاني: أن الله تعالى لما نهاكم عن عبادة هذه الأصنام فاتركوا عبادتها، واتركوا دليلكم الذي عولتم عليه وهو قولكم الاشتغال بعبادة عبيد الملك أدخل في التعظيم من الاشتغال بعبادة نفس الملك، لأن هذا قياس، والقياس يجب تركه عند ورود النص، فلهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

اعلم أنه تعالى أكد إبطال مذهب عبدة الأصنام بهذا المثال.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في تفسير هذ المثل قولان:

القول الأول: أن المراد أنا لو فرضنا عبدًا مملوكًا لا يقدر على شيء، وفرضنا حرًا كريمًا غنيًا كثير الإنفاق سرًا وجهرًا، فصريح العقل يشهد بأنه لا تجوز التسوية بينهما في التعظيم والإجلال فلما لم تجز التسوية بينهما مع استوائهما في الخلقة والصورة والبشرية، فكيف يجوز للعاقل أن يسوي بين الله القادر على الرزق والإفضال، وبين الأصنام التي لا تملك ولا تقدر ألبتة.

والقول الثاني: أن المراد بالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء هو الكافر، فإنه من حيث إنه بقي محرومًا عن عبودية الله تعالى وعن طاعته صار كالعبد الذليل الفقير العاجز، والمراد بقوله: ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ هو المؤمن فإنه مشتغل بالتعظيم لأمر الله تعالى، والشفقة على خلق الله فبين تعالى أنهما لا يستويان في المرتبة والشرف والقرب من رضوان الله تعالى.

واعلم أن القول الأول أقرب، لأن ما قبل هذه الآية وما بعدها إنما ورد في إثبات التوحيد، وفي الرد على القائلين بالشرك فحمل هذه الآية على هذا المعنى أولى.

المسألة الثانية: اختلفوا في المراد بقوله: ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ فقيل: المراد به الصنم لأنه عبد بدليل قوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] وأما أنه مملوك ولا يقدر على شيء فظاهر، والمراد بقوله: ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ عابد الصنم لأن الله تعالى رزقه المال وهو ينفق من ذلك المال على نفسه وعلى أتباعه سرًا وجهرًا.

إذا ثبت هذا فنقول: هما لا يستويان في بديهة العقل، بل صريح العقل يشهد بأن ذلك القادر أكمل حالاً وأفضل مرتبة من ذلك العاجز، فهنا صريح العقل يشهد بأن عابد الصنم أفضل من ذلك الصنم فكيف يجوز الحكم بكونه مساويًا لرب العالمين في العبودية.

والقول الثاني: أن المراد بقوله: ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ عبد معين، وقيل: هو عبد لعثمان بن عفان، وحملوا قوله: ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ على عثمان خاصة.

والقول الثالث: أنه عام في كل عبد بهذه الصفة وفي كل حر بهذه الصفة، وهذا القول هو الأظهر، لأنه هو الموافق لما أراده الله تعالى في هذه الآية، والله أعلم.

المسألة الثالثة: احتج الفقهاء بهذه الآية على أن العبد لا يملك شيئًا.

فإن قالوا: ظاهر الآية يدل على أن عبدًا من العبيد لا يقدر على شيء، فلم قلتم: إن كل عبد كذلك؟ فنقول: الذي يدل عليه وجهان:

الأول: أنه ثبت في أصول الفقه أن الحكم المذكور عقيب الوصف المناسب يدل على كون ذلك الوصف علة لذلك الحكم، وكونه عبدًا وصف مشعر بالذل والمقهورية. وقوله: ﴿لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ حكم مذكور عقيبه فهذا يقتضي أن العلة لعدم القدرة على شيء هو كونه عبدًا، وبهذا الطريق يثبت العموم.

الثاني: أنه تعالى قال بعده: ﴿وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا﴾ فميز هذا القسم الثاني عن القسم الأول وهو العبد بهذه الصفة وهو أنه يرزقه رزقًا، فوجب أن لا يحصل هذا الوصف للعبد حتى يحصل الامتياز بين القسم الثاني وبين القسم الأول، ولو ملك العبد لكان الله قد آتاه رزقًا حسنًا، لأن الملك الحلال رزق حسن سواء كان قليلاً أو كثيرًا. فثبت بهذين الوجهين أن ظاهر الآية يقتضي أن العبد لا يقدر على شيء ولا يملك شيئًا. ثم اختلفوا فروي عن ابن عباس وغيره التشدد في ذلك حتى قال: لا يملك الطلاق أيضًا. وأكثر الفقهاء قالوا يملك الطلاق إنما لا يملك المال ولا ما له تعلق بالمال. واختلفوا في أن المالك إذا ملكه شيئًا فهل يملكه أم لا؟ وظاهر الآية ينفيه، بقي في الآية سؤالات:

السؤال الأول: لم قال: ﴿مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ وكل عبد فهو مملوك وغير قادر على التصرف؟ قلنا: أما ذكر المملوك فليحصل الامتياز بينه وبين الحر لأن الحر قد يقال: إنه عبد الله، وأما قوله: ﴿لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ قد يحصل الامتياز بينه وبين المكاتب وبين العبد المأذون، لأنهما لا يقدران على التصرف.

السؤال الثاني: ﴿وَمَن﴾ في قوله: ﴿وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ﴾ ما هي؟

قلنا: الظاهر إنها موصوفة كأنه قيل: وحرًا ورزقناه ليطابق عبدًا، ولا يمتنع أن تكون موصولة.

السؤال الثالث: لم قال: ﴿يَسۡتَوُۥنَ﴾ على الجمع؟

قلنا: معناه هل يستوي الأحرار والعبيد. ثم قال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾.

وفيه وجوه:

الأول: قال ابن عباس: الحمد لله على ما فعل بأوليائه وأنعم عليهم بالتوحيد. والثاني: المعنى أن كل الحمد لله، وليس شيء من الحمد للأصنام، لأنها لا نعمة لها على أحد. وقوله: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ يعني أنهم لا يعلمون أن كل الحمد لله وليس شيء منه للأصنام. الثالث: قال القاضي في (التفسير): قال للرسول عليه الصلاة والسلام: «قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ» ويحتمل أن يكون خطابًا لمن رزقه الله رزقًا حسنًا أن يقول: الحمد لله على أن ميزه في هذه القدرة عن ذلك العبد الضعيف. الرابع: يحتمل أن يكون المراد أنه تعالى لما ذكر هذا المثل، وكان هذا

مثلاً مطابقًا للغرض كاشفًا عن المقصود قال بعده: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يعني الحمد لله على قوة هذه الحجة وظهور هذه البينة. ثم قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني أنها مع غاية ظهورها ونهاية وضوحها لا يعلمها ولا يفهمها هؤلاء الضلال.

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى أبطل قول عبدة الأوثان والأصنام بهذا المثل الثاني، وتقريره: أنه كما تقرر في أوائل العقول أن الأبكم العاجز لا يكون مساويًا في الفضل والشرف للناطق القادر الكامل مع استوائهما في البشرية، فلأن يحكم بأن الجماد لا يكون مساويًا لرب العالمين في المعبودية كان أولى، ثم نقول: في الآية مسألتان:

المسألة الأولى: أنه تعالى وصف الرجل الأول بصفات:

الصفة الأولى: الأبكم وفي تفسيره أقوال نقلها الواحدي.

الأول: قال أبو زيد رجل أبكم، وهو العيي المقحم، وقد بكم بكمًا وبكامة، وقال أيضًا: الأبكم الأقطع اللسان وهو الذي لا يحسن الكلام.

الثاني: روى ثعلب عن ابن الأعرابي: الأبكم الذي لا يعقل.

الثالث: قال الزجاج: الأبكم المطبق الذي لا يسمع ولا يبصر.

الصفة الثانية: قوله: ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ وهو إشارة إلى العجز التام والنقصان الكامل.

والصفة الثالثة: قوله: ﴿كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ أي هذا الأبكم العاجز كل على مولاه. قال أهل المعاني: أصله من الغلظ الذي هو نقيض الحدة. يقال: كل السكين إذا غلظت شفرته فلم يقطع، وكل لسانه إذا غلظ فلم يقدر على الكلام، وكل فلان عن الأمر إذا ثقل عليه فلم ينبعث فيه. فقوله: ﴿كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ أي غليظ وثقيل على مولاه.

الصفة الرابعة: قوله: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ أي أينما يرسله، ومعنى التوجيه أن ترسل صاحبك في وجه معين من الطريق. يقال: وجهته إلى موضع كذا فتوجه إليه. وقوله: ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ معناه لأنه عاجز لا يحسن ولا يفهم. ثم قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ﴾ أي هذا الموصوف بهذه الصفات الأربع: ﴿وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ واعلم أن الآمر بالعدل يجب أن يكون موصوفًا بالنطق وإلا لم يكن آمرًا ويجب أن يكون قادرًا، لأن الأمر مشعر بعلو المرتبة وذلك لا يحصل إلا مع كونه قادرًا، ويجب أن يكون عالمًا حتى يمكنه التمييز بين العدل وبين الجور. فثبت أن وصفه بأنه يأمر بالعدل يتضمن وصفه بكونه قادرًا عالمًا، وكونه آمرًا يناقض كون الأول أبكم، وكونه قادرًا يناقض وصف الأول بأنه لا يقدر على شيء وبأنه كل على مولاه، وكونه

عالمًا يناقض وصف الأول بأنه لا يأت بخير .

ثم قال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ معناه كونه عادلاً مبرأ عن الجور والعبث .

إذا ثبت هذا فنقول: ظاهر في بديهة العقل أن الأول والثاني لا يستويان ، فكذا ههنا والله أعلم .

المسألة الثانية : في المراد بهذا المثل أقوال كما في المثل المتقدم .

فالقول الأول: قال مجاهد : كل هذا مثل إله الخلق وما يدعى من دونه من الباطل . وأما الأبكم فمثل الصنم ، لأنه لا ينطق ألبتة وكذلك لا يقدر على شيء ، وأيضًا كل على عابديه لأنه لا ينفق عليهم وهم ينفقون عليه ، وأيضًا إلى أي مهم توجه الصنم لم يأت بخير ، وأما الذي يأمر بالعدل فهو الله سبحانه وتعالى .

والقول الثاني: أن المراد من هذا الأبكم : هو عبد لعثمان بن عفان كان ذلك العبد يكره الإسلام ، وما كان فيه خير ، ومولاه وهو عثمان بن عفان كان يأمر بالعدل ؛ وكان على الدين القويم والصراط المستقيم .

والقول الثالث: أن المقصود منه : كل عبد موصوف بهذه الصفات المذمومة وكل حر موصوف بتلك الصفات الحميدة ، وهذا القول أولى من القول الأول ، لأن وصفه تعالى إياهما بكونهما رجلين يمنع من حمل ذلك على الوثن ، وكذلك بالبكم وبالكل وبالتوجه في جهات المنافع وكذلك وصف الآخر بأنه على صراط مستقيم يمنع من حمله على الله تعالى ، وأيضًا فالمقصود تشبيه صورة بصورة في أمر من الأمور ، وذلك التشبيه لا يتم إلا عند كون إحدى الصورتين مغايرة للأخرى .

وأما القول الثاني: فضعيف أيضًا ، لأن المقصود إبانة التفرقة بين رجلين موصوفين بالصفات المذكورة ، وذلك غير مختص بشخص معين ، بل أيما حصل التفاوت في الصفات المذكورة حصل المقصود ، والله أعلم .

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر في الآية الأولى مثل الكفار بالأبكم العاجز ، ومثل نفسه بالذي يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم ، ومعلوم أنه يمتنع أن يكون آمرًا بالعدل ، وأن يكون على صراط مستقيم إلا إذا كان كاملاً في العلم والقدرة ، ذكر في هذه الآية بيان كونه كاملاً في العلم

والقدرة، أما بيان كمال العلم فهو قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والمعنى: علم الله غيب السموات والأرض وأيضًا فقوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يفيد الحصر معناه: أن العلم بهذه الغيوب ليس إلا لله وأما بيان كمال القدرة فقوله: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ والساعة هي الوقت الذي تقوم فيه القيامة سميت ساعة لأنها تفجأ الإنسان في ساعة فيموت الخلق بصيحة واحدة، وقوله: ﴿إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ اللمح النظر بسرعة يقال لمحه ببصره لمحًا ولمحانًا، والمعنى: وما أمر قيام القيامة في السرعة إلا كطرف العين، والمراد منه تقرير كمال القدرة، وقوله: ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ معناه أن لمح البصر عبارة عن انتقال الجسم المسمى بالطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها، ولا شك أن الحدقة مؤلفة من أجزاء لا تتجزأ، فلمح البصر عبارة عن المرور على جملة تلك الأجزاء التي منها تألف سطح الحدقة، ولا شك أن تلك الأجزاء كثيرة، والزمان الذي يحصل فيه لمح البصر مركب من آنات متعاقبة، والله تعالى قادر على إقامة القيامة في آن واحد من تلك الآنات فلهذا قال: ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ إلا أنه لما كان أسرع الأحوال والحوادث في عقولنا وأفكارنا هو لمح البصر لا جرم ذكره. ثم قال: ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ تنبيهًا على ما ذكرناه، ولا شبهة في أنه ليس المراد طريقة الشك، بل المراد. بل هو أقرب، وقال الزجاج: المراد به الإبهام عن المخاطبين أنه تعالى يأتي بالساعة إما بقدر لمح البصر أو بما هو أسرع. قال القاضي: هذا لا يصح، لأن إقامة الساعة ليست حال تكليف حتى يقال إنه تعالى يأتي بها في زمان، بل الواجب أن يخلقها دفعة واحدة في وقت واحد، ويفارق ما ذكرناه في ابتداء خلق السموات والأرض لأن تلك الحال حال تكليف، فلم يمتنع أن يخلقهما كذلك لما فيه من مصحلة الملائكة.

واعلم أن هذا الاعتراض إنما يستقيم على مذهب القاضي، أما على قولنا في أنه تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فليس له قوة والله أعلم، ثم إنه تعالى عاد إلى الدلائل الدالة على وجود الصانع المختار فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة والكسائي (إِمّهَاتِكم) بكسر الهمزة، والباقون بضمها.

المسألة الثانية: أمهاتكم أصله أماتكم، إلا أنه زيد الهاء فيه كما زيد في أراق فقيل: أهراق وشذت زيادتها في الواحدة في قوله:

أُمَّهَتِي خِنْدَفُ وَالْيَأْسُ أَبِي

المسألة الثالثة: الإنسان خلق في مبدأ الفطرة خاليًا عن معرفة الأشياء.

ثم قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ والمعنى: أن النفس الإنسانية لما كانت في أول الخلقة خالية عن المعارف والعلوم بالله، فالله أعطاه هذه الحواس ليستفيد بها المعارف والعلوم، وتمام الكلام في هذا الباب يستدعي مزيد تقرير فنقول: التصورات والتصديقات إما أن

تكون كسبية، وإما أن تكون بديهية، والكسبيات إنما يمكن تحصيلها بواسطة تركيبات البديهيات، فلا بد من سبق هذه العلوم البديهية، وحينئذ لسائل أن يسأل فيقول: هذه العلوم البديهية إما أن يقال إنها كانت حاصلة منذ خلقنا أو ما كانت حاصلة. والأول باطل لأنا بالضرورة نعلم أنا حين كنا جنينًا في رحم الأم ما كنا نعرف أن النفي والإثبات لا يجتمعان، وما كنا نعرف أن الكل أعظم من الجزء.

وأما القسم الثاني: فإنه يقتضي أن هذه العلوم البديهية حصلت في نفوسنا بعد أنها ما كانت حاصلة، فحينئذ لا يمكن حصولها إلا بكسب وطلب، وكل ما كان كسبيًا فهو مسبوق بعلوم أخرى، فهذه العلوم البديهية تصير كسبية، ويجب أن تكون مسبوقة بعلوم أخرى إلى غير نهاية، وكل ذلك محال، وهذا سؤال قوي مشكل.

وجوابه أن نقول: الحق أن هذه العلوم البديهية ما كانت حاصلة في نفوسنا. ثم إنها حدثت وحصلت، أما قوله فيلزم أن تكون كسبية.

قلنا: هذه المقدمة ممنوعة، بل نقول: إنها إنما حدثت في نفوسنا بعد عدمها بواسطة إعانة الحواس التي هي السمع والبصر، وتقريره أن النفس كانت في مبدأ الخلقة خالية عن جميع العلوم إلا أنه تعالى خلق السمع والبصر، فإذا أبصر الطفل شيئًا مرة بعد أخرى ارتسم في خياله ماهية ذلك المبصر، وكذلك إذا سمع شيئًا مرة بعد أخرى ارتسم في سمعه وخياله ماهية ذلك المسموع وكذا القول في سائر الحواس، فيصير حصول الحواس سببًا لحضور ماهيات المحسوسات في النفس والعقل ثم إن تلك الماهيات على قسمين: أحد القسمين: ما يكون نفس حضوره موجبًا تامًا في جزم الذهن بإسناد بعضها إلى بعض بالنفي أو الإثبات، مثل أنه إذا حضر في الذهن أن الواحد ما هو، وأن نصف الاثنين ما هو كان حضور هذين التصورين في الذهن علة تامة في جزم الذهن بأن الواحد محكوم عليه بأنه نصف الاثنين، وهذا القسم هو عين العلوم البديهية.

والقسم الثاني: ما لا يكون كذلك وهو العلوم النظرية، مثل أنه إذا حضر في الذهن أن الجسم ما هو وأن المحدث ما هو، فإن مجرد هذين التصورين في الذهن لا يكفي في جزم الذهن بأن الجسم محدث، بل لابد فيه من دليل منفصل وعلوم سابقة. والحاصل: أن العلوم الكسبية إنما يمكن اكتسابها بواسطة العلوم البديهية، وحدوث هذه العلوم البديهية إنما كان عند حدوث تصور موضوعاتها وتصور محمولاتها. وحدوث هذه التصورات إنما كان بسبب إعانة هذه الحواس على جزيئاتها، فظهر أن السبب الأول لحدوث هذه المعارف في النفوس والعقول هو أنه تعالى أعطى هذه الحواس. فلهذا السبب قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ ليصير حصول هذه الحواس سببًا لانتقال نفوسكم من الجهل إلى العلم بالطريق الذي ذكرناه، وهذه أبحاث شريفة عقلية محضة مدرجة

في هذه الآيات. وقال المفسرون: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ لتسمعوا مواعظ الله ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لتبصروا دلائل الله، والأفئدة لتعقلوا عظمة الله، والأفئدة جمع فؤاد نحو أغربة وغراب. قال الزجاج: ولم يجمع فؤاد على أكثر العدد، وما قيل فيه فئدان كما قيل: غراب وغربان. وأقول: لعل الفؤاد إنما جمع على بناء جمع القلة تنبيهًا على أن السمع والبصر كثيران وأن الفؤاد قليل، لأن الفوائد إنما خلق للمعارف الحقيقية والعلوم اليقينية، وأكثر الخلق ليسوا كذلك بل يكونون مشغولين بالأفعال البهيمية والصفات السبعية، فكأن فؤادهم ليس بفؤاد، فلهذا السبب ذكر في جمعه صيغة جمع القلة.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ عطف على قوله: ﴿أَخْرَجَكُم﴾ وهذا يقتضي أن يكون جعل السمع والبصر متأخرًا عن الإخراج عن البطن، ومعلوم أنه ليس كذلك.

والجواب: أن حرف الواو لا يوجب الترتيب؛ وأيضًا إذا حملنا السمع على الاستماع والأبصار على الرؤية زال السؤال، والله أعلم.

أما قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي: (أَلَمْ تَرَوا) بالتاء والباقون بالياء على الحكاية لمن تقدم ذكره من الكفار.

المسألة الثانية: هذا دليل آخر على كمال قدرة الله تعالى وحكمته، فإنه لولا أنه تعالى خلق الطير خلقة معها يمكنه الطيران وخلق الجو خلقة معها يمكن الطيران فيه لما أمكن ذلك فإنه تعالى أعطى الطير جناحًا يبسطه مرة ويكسره أخرى مثل ما يعمله السابح في الماء، وخلق الهواء خلقة لطيفة رقيقة يسهل بسببها خرقه والنفاذ فيه، ولولا ذلك لما كان الطيران ممكنًا. وأما قوله تعالى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فالمعنى: أن جسد الطير جسم ثقيل، والجسم الثقيل يمتنع بقاؤه في الجو معلقًا من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه، فوجب أن يكون الممسك له في ذلك الجو هو الله تعالى، ثم من الظاهر أن بقاءه في الجو معلقًا فعله وحاصل باختياره، فثبت أن خالق فعل العبد هو الله تعالى. قال القاضي: إنما أضاف الله تعالى هذا الإمساك إلى نفسه، لأنه تعالى هو الذي أعطى الآلات التي لأجلها يمكن الطير من تلك الأفعال، فلما كان تعالى هو المسبب لذلك لا جرم صحت هذه الإضافة إلى الله تعالى.

والجواب: أن هذا ترك للظاهر بغير دليل وأنه لا يجوز، لا سيما والدلائل العقلية دلت على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى.

ثم قال تعالى في آخر الآية: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وخص هذه الآيات بالمؤمنين لأنهم هم المنتفعون بها وإن كانت هذه الآيات آيات لكل العقلاء، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ۝٨٠﴾

اعلم أن هذا نوع آخر من دلائل التوحيد، وأقسام النعم والفضل، والسكن المسكن، وأنشد الفراء:

جَاءَ الشِّتَاءُ وَلَمَّا أَتَّخِذْ سَكَنًا يَا وَيْحَ كَفِّي مِنْ حَفْرِ الْقَرَامِيصِ[1]

والسكن ما سكنت إليه وما سكنت فيه. قال صاحب (الكشاف): السكن فعل بمعنى مفعول، وهو ما يسكن إليه وينقطع إليه من بيت أو ألف.

واعلم أن البيوت التي يسكن الإنسان فيها على قسمين:

القسم الأول: البيوت المتخذة من الخشب والطين والآلات التي بها يمكن تسقيف البيوت، وإليها الإشارة بقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا﴾ وهذا القسم من البيوت لا يمكن نقله، بل الإنسان ينتقل إليه.

والقسم الثاني: القباب والخيام والفساطيط، وإليها الإشارة بقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ﴾ وهذا القسم من البيوت يمكن نقله وتحويله من مكان إلى مكان. واعلم أن المراد الأنطاع، وقد تعمل العرب البيوت من الأدم وهي جلود الأنعام أي يخف عليكم حملها في أسفاركم. قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: (يَوْمَ ظَعَنِكُمْ) بفتح العين والباقون ساكنة العين. قال الواحدي: وهما لغتان كالشعر والشعر والنهر والنهر.

واعلم أن الظعن سير البادية لنجعة، أو حضور ماء، أو طلب مرتع، وقد يقال لكل شاخص لسفر: ظاعن، وهو ضد الخافض. وقوله: ﴿وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ﴾ بمعنى لا يثقل عليكم في الحالين. وقوله: ﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ﴾ قال المفسرون وأهل اللغة: الأصواف للضأن والأوبار للإبل والأشعار للمعز. وقوله: ﴿أَثَٰثٗا﴾ الأثاث أنواع متاع البيت من الفرش والأكسية. قال الفراء: ولا واحد له، كما أن المتاع لا واحد له. قال: ولو جمعت، فقلت: آثثة في القليل وأثث في الكثير لم يبعد. وقال أبو زيد: واحدها أثاثة. قال ابن عباس في قوله: ﴿أَثَٰثٗا﴾ يريد طنافس وبسطًا وثيابًا وكسوة. قال الخليل: وأصله من قولهم: أث النبات والشعر إذا كثر. وقوله: ﴿مَتَٰعًا﴾ أي ما يتمتعون به. وقوله: ﴿إِلَىٰ حِينٖ﴾ يريد إلى حين البلا، وقيل: إلى حين الموت. وقيل: إلى حين بعد الحين، وقيل: إلى يوم القيامة.

فإن قيل: عطف المتاع على الأثاث والعطف يقتضي المغايرة، وما الفرق بين الأثاث والمتاع؟

---

(١) الفراء تقدمت ترجمته.

قلنا: الأقرب أن الأثاث ما يكتسي به المرء ويستعمله في الغطاء والوطاء، والمتاع ما يفرش في المنازل ويزين به.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾

اعلم أن الإنسان إما أن يكون مقيمًا أو مسافرًا، والمسافر إما أن يكون غنيًا يمكنه استصحاب الخيام والفساطيط، أو لا يمكنه ذلك فهذه أقسام ثلاثة:

أما القسم الأول: فإليه الإشارة بقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾.

وأما القسم الثاني: فإليه الإشارة بقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾

وأما القسم الثالث: فإليه الإشارة بقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ وذلك لأن المسافر إذا لم يكن له خيمة يستظل بها فإنه لا بد وأن يستظل بشيء آخر كالجدران والأشجار وقد يستظل بالغمام كما قال: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ [البقرة: ٥٧].

ثم قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ واحد الأكنان كن على قياس أحمال وحمل، ولكن المراد كل شيء وقى شيئًا، ويقال استكن وأكن إذا صار في كن.

واعلم أن بلاد العرب شديدة الحر، وحاجتهم إلى الظل ودفع الحر شديدة، فلهذا السبب ذكر الله تعالى هذه المعاني في معرض النعمة العظيمة، وأيضًا البلاد المعتدلة والأوقات المعتدلة نادرة جدًا والغالب إما غلبة الحر أو غلبة البرد. وعلى كل التقديرات فلا بد للإنسان من مسكن يأوي إليه، فكان الإنعام بتحصيله عظيمًا، ولما ذكر تعالى أمر المسكن ذكر بعده أمر الملبوس فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ السرابيل القمص واحدها سربال، قال الزجاج: كل ما لبسته فهو سربال من قميص أو درع أو جوشن أو غيره، والذي يدل على صحة هذا القول أنه جعل السرابيل على قسمين: أحدهما: ما يكون واقيًا من الحر والبرد. والثاني: ما يتقى به عن البأس والحروب، وذلك هو الجوشن وغيره، وذلك يدل على أن كل واحد من القسمين من السرابيل.

فإن قيل: لم ذكر الحر ولم يذكر البرد؟

أجابوا عنه من وجوه:

الوجه الأول: قال عطاء الخراساني: المخاطبون بهذا الكلام هم العرب وبلادهم حارة فكانت حاجتهم إلى ما يدفع الحر فوق حاجتهم إلى ما يدفع البرد كما قال: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا

﴿وَأَشْعَارِهَآ﴾ [النحل: ٨٠] وسائر أنواع الثياب أشرف، إلا أنه تعالى ذكر ذلك النوع لأنه كان إلفتهم بها أشد، واعتيادهم للبسها أكثر، ولذلك قال: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ [النور: ٤٣] لمعرفتهم بذلك وما أنزل من الثلج أعظم ولكنهم كانوا لا يعرفونه.

والوجه الثاني: في الجواب قال المبرد: إن ذكر أحد الضدين تنبيه على الآخر، قلت ثبت في العلوم العقلية أن العلم بأحد الضدين يستلزم العلم بالضد الآخر، فإن الإنسان متى خطر بباله الحر خطر بباله أيضًا البرد، وكذا القول في النور والظلمة والسواد والبياض، فلما كان الشعور بأحدهما مستتبعًا للشعور بالآخر، كان ذكر أحدهما مغنيًا عن ذكر الآخر.

والوجه الثالث: قال الزجاج: ما وقى من الحر وقى من البرد، فكان ذكر أحدهما مغنيًا عن ذكر الآخر.

فإن قيل: هذا بالضد أولى، لأن دفع الحر يكفي فيه السرابيل التي هي القمص من دون تكلف زيادة، وأما البرد فإنه لا يندفع إلا بتكليف زائد.

قلنا: القميص الواحد لما كان دافعًا للحر كان الاستكثار من القميص دافعًا للبرد فصح ما ذكرناه، وقوله: ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ يعني دروع الحديد، ومعنى البأس الشدة ويريد ههنا شدة الطعن والضرب والرمي.

واعلم أنه تعالى لما عدد أقسام نعمة الدنيا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ أي مثل ما خلق هذه الأشياء لكم وأنعم بها عليكم فإنه يتم نعمة الدنيا والدين عليكم: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ قال ابن عباس: لعلكم يا أهل مكة تخلصون لله الربوبية، وتعلمون أنه لا يقدر على هذه الإنعامات أحد سواه، ونقل عن ابن عباس أنه قرأ: (لَعَلَّكُم تَسْلَمون) بفتح التاء، والمعنى: أنا أعطيناكم هذه السرابيلات لتسلموا عن بأس الحرب، وقيل أعطيتكم هذه النعم لتتفكروا فيها فتؤمنوا فتسلموا من عذاب الله.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي فإن تولوا يا محمد وأعرضوا وآثروا لذات الدنيا ومتابعة الآباء والمعاداة في الكفر فعلى أنفسهم جنوا ذلك، وليس عليك إلا ما فعلت من التبليغ التام، ثم إنه تعالى ذمهم بأنهم يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها، وذلك نهاية في كفران النعمة.

فإن قيل: ما معنى ثم؟

قلنا: الدلالة على أن إنكارهم أمر يستبعد بعد حصول المعرفة، لأن حق من عرف النعمة أن يعترف لا أن ينكر. وفي المراد بهذه النعمة وجوه: الأول: قال القاضي: المراد بها جميع ما ذكره الله تعالى في الآيات المتقدمة من جميع أنواع النعم؛ ومعنى أنهم أنكروه هو أنهم ما أفردوه تعالى بالشكر والعبادة، بل شكروا على تلك النعم غير الله تعالى ولأنهم قالوا: إنما حصلت هذه النعم بشفاعة هذه الأصنام. والثاني: أن المراد أنهم عرفوا أن نبوة محمد ﷺ حق

ثم ينكرونها، ونبوته نعمة عظيمة كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. الثالث: يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها، أي لا يستعملونها في طلب رضوان الله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

فإن قيل: ما معنى قوله؛ ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مع أنه كان كلهم كافرين.

قلنا: الجواب من وجوه: الأول: إنما قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ﴾ لأنه كان فيهم من لم تقم عليه الحجة ممن لم يبلغ حد التكليف أو كان ناقص العقل معتوهًا، فأراد بالأكثر البالغين والأصحاء. الثاني: أن يكون المراد بالكافر الجاحد المعاند، وحينئذ نقول إنما قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ﴾ لأنه كان فهيم من لم يكن معاندًا بل كان جاهلاً بصدق الرسول عليه الصلاة والسلام وما ظهر له كونه نبيًّا حقًّا من عند الله. الثالث: أنه ذكر الأكثر والمراد الجميع، لأن أكثر الشيء يقوم مقام الكل، فذكر الأكثر كذكر الجميع، وهذا كقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥] والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝٨٤ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝٨٥﴾

اعلم أنه تعالى لما بين من حال القوم أنهم عرفوا نعمة الله ثم أنكروها وذكر أيضًا من حالهم أن أكثرهم الكافرون أتبعه بالوعيد، فذكر حال يوم القيامة فقال: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وذلك يدل على أن أولئك الشهداء يشهدون عليهم بذلك الإنكار وبذلك الكفر، والمراد بهؤلاء الشهداء الأنبياء كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فيه وجوه:

أحدها: لا يؤذن لهم في الاعتذار لقوله: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦].

وثانيها: لا يؤذن لهم في كثرة الكلام.

وثالثها: لا يؤذن لهم في الرجوع إلى دار الدنيا وإلى التكلف.

ورابعها: لا يؤذن لهم في حال شهادة الشهود، بل يسكت أهل الجمع كلهم ليشهد الشهود.

وخامسها: لا يؤذن لهم في كثرة الكلام ليظهر لهم كونهم آيسين من رحمة الله تعالى. ثم قال: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ الاستعتاب طلب العتاب، والرجل يطلب العتاب من خصمه إذا كان على جزم أنه إذا عاتبه رجع إلى الرضا، فإذا لم يطلب العتاب منه دل على أنه راسخ في غضبه وسطوته، ثم إنه تعالى أكد هذا الوعيد فقال: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ والمعنى أن المشركين إذا رأوا العذاب ووصلوا إليه، فعند ذلك لا يخفف عنهم العذاب ﴿وَلَا هُمْ﴾ أيضًا ﴿يُنظَرُونَ﴾ أي لا يؤخرون ولا يمهلون، لأن التوبة هناك غير موجودة، وتحقيقه ما يقوله المتكلمون من أن العذاب يجب أن يكون خالصًا عن شوائب النفع، وهو المراد من قوله:

﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [البقرة: ١٦٢] ويجب أن يكون العذاب دائمًا وهو المراد من قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾

اعلم أن هذا أيضًا من بقية وعيد المشركين، وفي الشركاء قولان:

القول الأول: أنه تعالى يبعث الأصنام التي كان يعبدها المشركون، والمقصود من إعادتها أن المشركين يشاهدونها في غاية الذلة والحقارة. وأيضًا أنها تكذب المشركين، وكل ذلك مما يوجب زيادة الغم والحسرة في قلوبهم، وإنما وصفهم الله بكونهم شركاء لوجهين: الأول: أن الكفار كانوا يسمونها بأنها شركاء الله. والثاني: أن الكفار جعلوا لهم نصيبًا من أموالهم.

والقول الثاني: أن المراد بالشركاء الشياطين الذين دعوا الكفار إلى الكفر، وهو قول الحسن، وإنما ذهب إلى هذا القول، لأنه تعالى حكى عن أولئك الشركاء أنهم ألقوا إلى الذين أشركوا إنهم لكاذبون، والأصنام جمادات فلا يصح منهم هذا القول، فوجب أن يكون المراد من الشركاء الشياطين حتى يصح منهم هذا القول وهذا بعيد، لأنه تعالى قادر على خلق الحياة في تلك الأصنام وعلى خلق العقل والنطق فيها، وحينئذ يصح منها هذا القول، ثم حكى تعالى عن المشركين أنهم إذا رأوا تلك الشركاء قالوا: ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك.

فإن قيل: فما فائدتهم في هذا القول؟

قلنا: فيه وجهان: **الأول:** قال أبو مسلم الأصفهاني: مقصود المشركين إحالة الذنب على هذه الأصنام وظنوا أن ذلك ينجيهم من عذاب الله تعالى أو ينقص من عذابهم، فعند هذا تكذبهم تلك الأصنام. قال القاضي: هذا بعيد، لأن الكفار يعلمون علمًا ضروريًا في الآخرة أن العذاب سينزل بهم وأنه لا نصرة ولا فدية ولا شفاعة. **والقول الثاني:** أن المشركين يقولون هذا الكلام تعجبًا من حضور تلك الأصنام مع أنه لا ذنب لها واعترافًا بأنهم كانوا مخطئين في عبادتها. ثم حكى تعالى أن الأصنام يكذبونهم، فقال: ﴿فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ والمعنى: أنه تعالى يخلق الحياة والعقل والنطق في تلك الأصنام حتى تقول هذا القول، وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ بدل من القول، والتقدير: فألقوا إليهم إنكم لكاذبون.

فإن قيل: إن المشركين ما قالوا إلا أنهم لما أشاروا إلى الأصنام قالوا: إن هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك وقد كانوا صادقين في كل ذلك، فكيف قالت الأصنام إنكم لكاذبون؟.

قلنا: فيه وجوه: والأصح أن يقال المراد من قولهم هؤلاء شركاؤنا هو أن هؤلاء الذين كنا نقول إنهم شركاء الله في المعبودية، فالأصنام كذبوهم في إثبات هذه الشركة. وقيل: المراد إنكم

لكاذبون في قولكم إنا نستحق العبادة ويدل عليه قوله تعالى: ﴿كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ﴾ [مريم: ٨٢].

ثم قال تعالى: ﴿وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ﴾ قال الكلبي: استسلم العابد والمعبود وأقروا لله بالربوبية وبالبراءة عن الشركاء والأنداد: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾.

وفيه وجهان: وقيل: ذهب عنهم ما زين لهم الشيطان من أن لله شريكًا وصاحبة وولدًا. وقيل: بطل ما كانوا يأملون من أن آلهتهم تشفع لهم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابًا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد الذين كفروا، أتبعه بوعيد من ضم إلى كفره صد الغير عن سبيل الله. وفي تفسير قوله: ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وجهان: قيل: معناه الصد عن المسجد الحرام، والأصح أنه يتناول جملة الإيمان بالله والرسول وبالشرائع، لأن اللفظ عام فلا معنى للتخصيص وقوله: ﴿زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابًا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ﴾ فالمعنى أنهم زادوا على كفرهم صد غيرهم عن الإيمان فهم في الحقيقة ازدادوا كفرًا على كفر، فلا جرم يزيدهم الله تعالى عذابًا على عذاب، وأيضًا أتباعهم إنما اقتدوا بهم في الكفر، فوجب أن يحصل لهم مثل عقاب أتباعهم لقوله تعالى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالًا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾ [العنكبوت: ١٣] ولقوله عليه السلام: «**مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»[١] ومن المفسرين من ذكر تفصيل تلك الزيادة فقال ابن عباس: المراد بتلك الزيادة خمسة أنهار من نار تسيل من تحت العرش يعذبون بها ثلاثة بالليل واثنان بالنهار، وقال بعضهم زدناهم عذابًا بحيات وعقارب كأمثال البخت، فيستغيثون بالهرب منها إلى النار ومنهم من ذكر لكل عقرب ثلثمائة فقرة في كل فقرة ثلثمائة قلة من سم. وقيل: عقارب لها أنياب كالنخل الطوال.

ثم قال تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ﴾ أي هذه الزيادة من العذاب إنما حصلت معللة بذلك الصد، وهذا يدل على أن من دعا غيره إلى الكفر والضلال فقد عظم عذابه، فكذلك إذا دعا إلى الدين واليقين، فقد عظم قدره عند الله تعالى، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنًا لِّكُلِّ شَيۡءٍ وَهُدًى وَرَحۡمَةً وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾

اعلم أن هذا نوع آخر من التهديدات المانعة للمكلفين عن المعاصي. واعلم أن الأمة عبارة عن القرن والجماعة.

(١) تقدم تخريجه قريبًا.

إذا ثبت هذا فنقول: في الآية قولان :

الأول: أن المراد أن كل نبي شاهد على أمته .

والثاني: أن كل جمع وقرن يحصل في الدنيا فلا بد وأن يحصل فيهم واحد يكون شهيدًا عليهم . أما الشهيد على الذين كانوا في عصر رسول الله ﷺ فهو الرسول بدليل قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وثبت أيضًا أنه لا بد في كل زمان بعد زمان الرسول من الشهيد فحصل من هذا أن عصرًا من الإعصار لا يخلو من شهيد على الناس وذلك الشهيد لا بد وأن يكون غير جائز الخطأ ، وإلا لافتقر إلى شهيد آخر ويمتد ذلك إلى غير النهاية وذلك باطل ، فثبت أنه لا بد في كل عصر من أقوام تقوم الحجة بقولهم وذلك يقتضي أن يكون إجماع الأمة حجة . قال أبو بكر الأصم : المراد بذلك الشهيد هو أنه تعالى ينطق عشرة من أعضاء الإنسان حتى أنها تشهد عليه وهي : الأذنان والعينان والرجلان واليدان والجلد واللسان . قال : والدليل عليه أنه قال في صفة الشهيد أنه من أنفسهم وهذه الأعضاء لا شك أنها من أنفسهم .

أجاب القاضي عنه من وجوه:

الأول: أنه تعالى قال : ﴿شَهِيدًا عَلَيْهِم﴾ أي على الأمة فيجب أن يكون غيرهم .

الثاني: أنه قال : ﴿فِى كُلِّ أُمَّةٍ﴾ فوجب أن يكون ذلك الشهيد من الأمة وآحاد الأعضاء لا يصح وصفها بأنها من الأمة ، وأما حمل هؤلاء الشهداء على الأنبياء فبعيد ، وذلك لأن كونهم أنبياء مبعوثين إلى الخلق أمر معلوم بالضرورة فلا فائدة في حمل هذه الآية عليه .

ثم قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ .

وفيه مسائل:

المسألة الأولى : وجه تعلق هذا الكلام بما قبله أنه تعالى لما قال : ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بين أنه أزاح علتهم فيما كلفوا فلا حجة لهم ولا معذرة .

المسألة الثانية : من الناس من قال : القرآن تبيان لكل شيء وذلك لأن العلوم إما دينية أو غير دينية ، أما العلوم التي ليست دينية فلا تعلق لها بهذه الآية ، لأن من المعلوم بالضرورة أن الله تعالى إنما مدح القرآن بكونه مشتملاً على علوم الدين فأما ما لا يكون من علوم الدين فلا التفات إليه ، وأما علوم الدين فإما الأصول ، وإما الفروع ، أما علم الأصول فهو بتمامه موجود في القرآن وأما علم الفروع فالأصل براءة الذمة إلا ما ورد على سبيل التفصيل في هذا الكتاب ، وذلك يدل على أنه لا تكليف من الله تعالى إلا ما ورد في هذا القرآن ، وإذا كان كذلك كان القول بالقياس باطلاً ، وكان القرآن وافيًا ببيان كل الأحكام ، وأما الفقهاء فإنهم قالوا : القرآن إنما كان تبيانًا لكل شيء ، لأنه يدل على أن الإجماع وخبر الواحد والقياس حجة ، فإذا ثبت حكم من الأحكام بأحد

هذه الأصول كان ذلك الحكم ثابتًا بالقرآن، وهذه المسألة قد سبق ذكرها بالاستقصاء في سورة الأعراف، والله أعلم.

المسألة الثالثة: روى الواحدي بإسناده عن الزجاج أنه قال: تبيانًا في معنى اسم البيان ومثل التبيان التلقاء، وروى ثعلب عن الكوفيين، والمبرد عن البصريين أنهم قالوا: لم يأت من المصادر على تفعال إلا حرفان تبيانًا وتلقاء، وإذا تركت هذين اللفظين استوى لك القياس فقلت: في كل مصدر تفعال بفتح التاء مثل تسيار وتذكار وتكرار، وقلت: في كل اسم تِفعال بكسر التاء مثل تقصار وتمثال.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾

واعلم أنه تعالى لما استقصى في شرح الوعد والوعيد والترغيب والترهيب أتبعه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ فجمع في هذه الآية ما يتصل بالتكليف فرضًا ونفلاً، وما يتصل بالأخلاق والآداب عمومًا وخصوصًا.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في بيان فضائل هذه الآية روي عن ابن عباس أن عثمان بن مظعون الجمحي قال: ما أسلمت أولاً إلا حياء من محمد عليه السلام ولم يتقرر الإسلام في قلبي فحضرته ذات يوم فبينما هو يحدثني إذ رأيت بصره شخص إلى السماء ثم خفضه عن يمينه، ثم عاد لمثل ذلك فسألته فقال: «**بَيْنَمَا أَنَا أُحَدِّثُكَ إِذَا بِجِبْرِيلَ نَزَلَ عَنْ يَمِينِي فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ، الْعَدْلُ شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَالْإِحْسَانُ الْقِيَامُ بِالْفَرَائِضِ وَإِيتَاءُ ذِي الْقُرْبَى، أَيْ صِلَةُ ذِي الْقَرَابَةِ وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ الزِّنَا، وَالْمُنْكَرِ مَا لاَ يُعْرَفُ فِي شَرِيعَةٍ وَلاَ سُنَّةٍ وَالْبَغْيِ الِاسْتِطَالَةِ**» قال عثمان: فوقع الإيمان في قلبي فأتيت أبا طالب فأخبرته فقال: يا معشر قريش اتبعوا ابن أخي ترشدوا ولئن كان صادقًا أو كاذبًا فإنه ما يأمركم إلا بمكارم الأخلاق، فلما رأى رسول الله ﷺ من عمه اللين قال: يا عماه أتأمر الناس أن يتبعوني وتدع نفسك وجهد عليه، فأبى أن يسلم فنزل قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] وعن ابن مسعود رضي الله عنه: إن أجمع آية في القرآن لخير وشر هذه الآية، وعن قتادة ليس من خلق حسن كان في الجاهلية يعمل ويستحب إلا أمر الله تعالى به في هذه الآية وليس من خلق سيء إلا نهى الله عنه في هذه الآية، وروى القاضي في (تفسيره) عن ابن ماجه عن علي عليه السلام أنه قال: أمر الله تعالى نبيه أن يعرض نفسه على قبائل العرب، فخرج وأنا معه وأبو بكر فوقفنا على مجلس عليهم الوقار فقال أبو بكر: ممن القوم؟ فقالوا: من شيبان بن ثعلبة فدعاهم رسول الله ﷺ إلى الشهادتين وإلى أن ينصروه فإن قريشًا كذبوه فقال مقرون بن عمرو: إلام تدعونا أخا قريش فتلا رسول الله ﷺ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ الآية فقال مقرون بن عمرو: دعوت والله إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك، وعن عكرمة أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية على الوليد فاستعاده، ثم قال: «إِنَّ لَهُ لَحَلَاوَةً وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً»[١]، وعن النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»[٢] والله أعلم.

المسألة الثانية: في تفسير هذه الآية، أكثر الناس في تفسير هذه الآية قال ابن عباس في بعض الروايات العدل شهادة أن لا إله إلا الله، والإحسان أداء الفرائض وقال في رواية أخرى: العدل خلع الأنداد والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه وأن تحب للناس ما تحب لنفسك فإن كان مؤمنًا أحببت أن يزداد إيمانًا، وإن كان كافرًا أحببت أن يصير أخاك في الإسلام. وقال في رواية ثالثة: العدل هو التوحيد والإحسان الإخلاص فيه. وقال آخرون: يعني بالعدل في الأفعال والإحسان في الأقوال، فلا تفعل إلا ما هو عدل ولا تقل إلا ما هو إحسان وقوله: ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ يريد صلة الرحم بالمال فإن لم يكن فبالدعاء، روى أبو مسلم عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَعْجَلَ الطَّاعَةِ ثَوَابًا صِلَةُ الرَّحِمِ إِنَّ أَهْلَ البيت ليكونون فُجَّارًا فَتَنْمَى أَمْوَالُهُمْ وَيَكْثُرُ عَدَدُهُمْ إِذَا وَصَلُوا أَرْحَامَهُمْ» وقوله: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ قيل: الزنا، وقيل: البخل، وقيل: كل الذنوب سواء كانت صغيرة أو كبيرة، وسواء كانت في القول أو في الفعل، وأما المنكر فقيل: إنه الكفر بالله تعالى، وقيل: المنكر ما لا يعرف في شريعة ولا سنة، وأما البغي فقيل: الكبر والظلم، وقيل: أن تبغي على أخيك.

واعلم أن في المأمورات كثرة وفي المنهيات أيضًا كثرة، وإنما حسن تفسير لفظ معين لشيء معين إذا حصل بين ذلك اللفظ وبين ذلك المعنى مناسبة. أما إذا لم تحصل هذه الحالة كان ذلك التفسير فاسدًا، فإذا فسرنا العدل بشيء والإحسان بشيء آخر وجب أن نبين أن لفظ العدل يناسب

---

(١) أخرجه الطبري في (تفسيره) (٢٤/ ٢٥) من طريق يزيد عن سعيد عن قتادة. . . به.

وأورده البيهقي في (الاعتقاد) (١/ ٢٨٤) حديث رقم/ ٢٥٤، وقال: ورويناعن عكرمة مرسلا. . . فذكره، وأورده الغزالي في (الإحياء) (٢/ ٣٦٠) وقال العراقي ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب بغير إسناد ورواه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بسند جيد إلا أنه قال (الوليد بن المغيرة) بدل (خالد بن عقبة) وكذا ذكره ابن إسحاق في السيرة بنحوه.

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم في كتاب (الصيد) باب (الأمر بإحسان الذبح) (٣/ ٥٧/ ١٥٤٨) وأبو داود في كتاب (الأضاحي) باب (في النهي ان تصبر البهائم) (٣/ ١٠٠) حديث رقم/ ٢٨١٥، والترمذي في كتاب (الديات) باب (في النهي عن المثلة) (٤/ ٢٣) حديث رقم/ ١٤٠٩، وقال: أبو عيسي: هذا حديث حسن صحيح. والنسائي في كتاب (الضحايا) باب (الأمر بإحداد الشفرة) (٧/ ٢٦٠) حديث رقم/ ٤٤١٧، وابن ماجه في كتاب (الذبائح) باب (إذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة) (٢/ ١٠٥٨) حديث رقم/ ٣١٧٠، وأحمد في (مسنده) (٤/ ١٢٣/ ١٢٥) والدارمي في كتاب (الأضاحي) باب (في حسن الذبيحة) (١/ ٥٤٦) حديث رقم/ ١٩٧٠، جميعا عن خالد الحذاء. . . به.

ذلك المعنى، ولفظ الإحسان يناسب هذا المعنى، فلما لم نبين هذا المعنى كان ذلك مجرد التحكم، ولم يكن جعل بعض تلك المعاني تفسيرًا لبعض تلك الألفاظ أولى من العكس، فثبت أن هذه الوجوه التي ذكرناها ليست قوية في تفسير هذه الآية، وأقول ظاهر هذه الآية يدل على أنه تعالى أمر بثلاثة أشياء، وهي العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ونهى عن ثلاثة أشياء وهي: الفحشاء، والمنكر، والبغي فوجب أن يكون العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ثلاثة أشياء متغايرة ووجب أن تكون الفحشاء والمنكر والبغي ثلاثة أشياء متغايرة، لأن العطف يوجب المغايرة فنقول: أما العدل فهو عبارة عن الأمر المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط، وذلك أمر واجب الرعاية في جميع الأشياء، ولا بد من تفصيل القول فيه فنقول: الأحوال التي وقع التكليف بها إما الاعتقادات وإما أعمال الجوارح. أما الاعتقادات: فالعدل في كلها واجب الرعاية **فأحدها**: قال ابن عباس: إن المراد بالعدل هو قول لا إله إلا الله، وتحقيق القول فيه أن نفي الإله تعطيل محض وإثبات أكثر من إله واحد تشريك وتشبيه وهما مذمومان، والعدل هو إثبات الإله الواحد وهو قول لا إله إلا الله. **وثانيها**: أن القول بأن الإله ليس بموجود ولا شيء تعطيل محض، والقول بأنه جسم وجوهر ومركب من الأعضاء، ومختص بالمكان تشبيه محض، والعدل إثبات إله موجود متحقق بشرط أن يكون منزهًا عن الجسمية والجوهرية والأعضاء والأجزاء والمكان. **وثالثها**: أن القول بأن الإله غير موصوف بالصفات من العلم والقدرة تعطيل محض، والقول بأن صفاته حادثة متغيرة تشبيه محض. والعدل هو إثبات أن الإله عالم قادر حي مع الإعتراف بأن صفاته ليست حادثة ولا متغيرة. **ورابعها**: أن القول بأن العبد ليس له قدرة ولا اختيار جبر محض، والقول بأن العبد مستقل بأفعاله قدر محض وهما مذمومان، والعدل أن يقال: إن العبد يفعل الفعل لكن بواسطة قدرة وداعية يخلقهما الله تعالى فيه. **وخامسها**: القول بأن الله تعالى لا يؤاخذ عبده على شيء من الذنوب مساهلة عظيمة، والقول بأنه تعالى يخلد في النار عبده العارف بالمعصية الواحدة تشديد عظيم، والعدل أنه يخرج من النار كل من قال واعتقد أنه لا إله إلا الله، فهذه أمثلة ذكرناها في رعاية معنى العدل في الاعتقادات، وأما رعاية العدل فيما يتعلق بأفعال الجوارح، فنذكر ستة أمثلة منها: **أحدها**: أن قومًا من نفاة التكاليف يقولون: لا يجب على العبد الاشتغال بشيء من الطاعات ولا يجب عليه الاحتراز عن شيء من المعاصي، وليس لله عليه تكليف أصلاً وقال قوم من الهند؛ ومن المانوية إنه يجب على الإنسان أن يجتنب عن كل الطيبات وأن يبالغ في تعذيب نفسه وأن يحترز عن كل ما يميل الطبع إليه حتى أن المانوية يخصون أنفسهم ويحترزون عن التزوج ويحترزون عن أكل الطعام الطيب والهند يحرقون أنفسهم ويرمون أنفسهم من شاهق الجبل، فهذان الطريقان مذمومان، والوسط المعتدل هو هذا الشرع الذي جاءنا به محمد ﷺ. **وثانيها**: أن التشديد في دين موسى عليه السلام غالب جدًا، والتساهل في دين عيسى عليه السلام غالب جدًا والوسط العدل شريعة

محمد ﷺ. قيل: كان شرع موسى عليه السلام في القتل العمد استيفاء القصاص لا محالة، وفي شرع عيسى عليه السلام العفو. أما في شرعنا فإن شاء استوفى القصاص على سبيل المماثلة، وإن شاء استوفى الدية وإن شاء عفا، وأيضًا شرع موسى يقتضي الاحتراز العظيم عن المرأة حال حيضها وشرع عيسى يقتضي حل وطء الحائض، والعدل ما حكم به شرعنا وهو أنه يحرم وطؤها احترازًا عن التلطخ بتلك الدماء الخبيثة أما لا يجب إخراجها عن الدار. وثالثها: أنه تعالى قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] يعني متباعدين عن طرفي الإفراط والتفريط في كل الأمور، وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧] وقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩] ولما بالغ رسول الله ﷺ في العبادات قال تعالى: ﴿طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١، ٢] ولما أخذ قوم في المساهلة قال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥] والمراد من الكل رعاية العدل والوسط. ورابعها: أن شريعتنا أمرت بالختان، والحكمة فيه أن رأس العضو جسم شديد الحس ولأجله عظم الالتذاذ عند الوقاع، فلو بقيت الجلدة على ذلك العضو بقي ذلك العضو على كمال القوة وشدة الإحساس فيعظم الإلتذاذ أما إذا قطعت تلك الجلدة وبقي ذلك العضو عاريًا فيلقى الثياب وسائر الأجسام فيتصلب ويضعف حسه ويقل شعوره فيقل الالتذاذ بالوقاع فتقل الرغبة فيه، فكأن الشريعة إنما أمرت بالختان سعيًا في تقليل تلك اللذة، حتى يصير ميل الإنسان إلى قضاء شهوة الجماع إلى حد الاعتدال، وأن لا تصير الرغبة فيه غالبة على الطبع، فالإخصاء وقطع الآلات على ما تذهب إليه المانوية مذموم لأنه إفراط، وإبقاء تلك الجلدة مبالغة في تقوية تلك اللذة، والعدل الوسط هو الإتيان بالختان، فظهر بهذه الأمثلة أن العدل واجب الرعاية في جميع الأحوال، ومن الكلمات المشهورة قولهم: وبالعدل قامت السموات والأرض، ومعناه: أن مقادير العناصر لو لم تكن متعادلة متكافئة، بل كان بعضها أزيد بحسب الكمية وبحسب الكيفية من الآخر، لاستولى الغالب على المغلوب ووهى المغلوب، وتنقلب الطبائع كلها إلى طبيعة الجرم الغالب، ولو كان بعد الشمس من الأرض أقل مما هو الآن، لعظمت السخونة في هذا العالم واحترق كل ما في هذا العالم، ولو كان بعدها أزيد مما هو الآن لاستولى البرد والجمود على هذا العالم، وكذا القول في مقادير حركات الكواكب ومراتب سرعتها وبطئها، فإن الواحد منها لو كان أزيد مما هو الآن أو كان أنقص مما هو الآن لاختلت مصالح هذا العالم فظهر بهذا السبب الذي ذكرناه صدق قولهم: وبالعدل قامت السماوات والأرض، فهذه إشارة مختصرة إلى شرح حقيقة العدل. وأما الإحسان فاعلم أن الزيادة على العدل قد تكون إحسانًا وقد تكون إساءة مثاله: أن العدل في الطاعات هو أداء الواجبات أما الزيادة على الواجبات فهي أيضًا طاعات وذلك من باب الإحسان، وبالجملة فالمبالغة في أداء الطاعات بحسب الكمية وبحسب الكيفية هو الإحسان. والدليل عليه: أن جبريل لما سأل النبي ﷺ عن الإحسان قال:

«الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»(١) .

فإن قالوا: لم سمي هذا المعنى بالإحسان؟

قلنا: كأنه بالمبالغة في الطاعة يحسن إلى نفسه ويوصل الخير والفعل الحسن إلى نفسه، والحاصل أن العدل عبارة عن القدر الواجب من الخيرات، والإحسان عبارة عن الزيادة في تلك الطاعات بحسب الكمية وبحسب الكيفية، وبحسب الدواعي والصوارف، وبحسب الاستغراق في شهود مقامات العبودية والربوبية، فهذا هو الإحسان.

واعلم أن الإحسان بالتفسير الذي ذكرناه دخل فيه التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله، ومن الظاهر أن الشفقة على خلق الله أقسام كثيرة وأشرفها وأجلها صلة الرحم لا جرم أنه سبحانه أفرده بالذكر فقال: ﴿وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فهذا تفصيل القول في هذه الثلاثة التي أمر الله تعالى بها. وأما الثلاثة التي نهى الله عنها، وهي الفحشاء والمنكر والبغي فنقول: إنه تعالى أودع في النفس البشرية قوى أربعة، وهي الشهوانية البهيمية والغضبية السبعية والوهمية الشيطانية والعقلية الملكية وهذه القوة الرابعة أعني العقلية الملكية لا يحتاج الإنسان إلى تأديبها وتهذيبها، لأنها من جواهر الملائكة، ومن نتائج الأرواح القدسية العلوية، إنما المحتاج إلى التأديب والتهذيب تلك القوى الثلاثة الأولى. أما القوة الشهوانية، فهي إنما ترغب في تحصيل اللذات الشهوانية، وهذا النوع مخصوص باسم الفحش، ألا ترى أنه تعالى سمى الزنا فاحشة فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢] فقوله تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ المراد منه المنع من تحصيل اللذات الشهوانية الخارجة عن إذن الشريعة، وأما القوة الغضبية السبعية فهي: أبدًا تسعى في إيصال الشر والبلاء والإيذاء إلى سائر الناس، ولا شك أن الناس ينكرون تلك الحالة، فالمنكر عبارة عن الإفراط الحاصل في آثار القوة الغضبية. وأما القوة الوهمية الشيطانية فهي أبدًا تسعى في الاستعلاء على الناس والترفع وإظهار الرياسة والتقدم، وذلك هو المراد من البغي، فإنه لا معنى للبغي إلا التطاول على الناس والترفع عليهم، فظهر بما ذكرنا أن هذه الألفاظ الثلاثة منطبقة على أحوال هذه القوى الثلاثة، ومن العجائب في هذا الباب أن العقلاء قالوا: أخس هذه القوى الثلاثة هي الشهوانية، وأوسطها الغضبية وأعلاها الوهمية. والله تعالى راعى هذا الترتيب فبدأ بالفحشاء التي هي نتيجة القوة الشهوانية، ثم بالمنكر الذي هو نتيجة القوة الغضبية، ثم بالبغي الذي هو نتيجة القوة الوهمية، فهذا ما وصل إليه عقلي وخاطري

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الإيمان) باب (بيان الإيمان والإسلام) (١/ ١/ ٣٦) من طريق وكيع... به، وأبو داود في كتاب (السنن) باب (في القدر) (٤/ ٢٢٣) حديث رقم/ ٤٦٩٦، من طريق يحيى عن عثمان بن غياث... به، والترمذي في كتاب (الإيمان) باب (في وصف جبريل للنبي ﷺ الإيمان والإسلام) (٥/ ٨) حديث رقم/ ٢٦١٠، من طريق وكيع عن كهمس... به، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. والنسائي في كتاب (الإيمان وشرائعه) باب (نعت الإسلام) (٤/ ٤٣٢) حديث رقم/ ٥٠٠٥، من طريق كهمس بن الحسن... به، كلاهما (كهمس، عثمان) عن عبد الله بن بريدة... به.

في تفسير هذه الألفاظ، فإن يك صوابًا فمن الرحمن، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان والله ورسوله عنه بريئان والحمد لله على ما خصنا بهذا النوع من الفضل والإحسان إنه الملك الديان.

ثم قال تعالى: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ والمراد بقوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمْ﴾ أمره تعالى بتلك الثلاثة ونهيه عن هذه الثلاثة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: أنه تعالى لما قال في الآية الأولى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] أردفه بهذه الآية مشتملة على الأمر بهذه الثلاثة، والنهي عن هذه الثلاثة، كان ذلك تنبيهًا على أن المراد بكون القرآن تبيانًا لكل شيء هو هذه التكاليف الستة وهي في الحقيقة كذلك، لأن جوهر النفس من زمرة الملائكة ومن نتائج الأرواح العالية القدسية إلا أنه دخل في هذا العالم خاليًا عاريًا عن التعلقات فتلك الثلاثة التي أمر الله بها هي التي ترقيها بالمعارف الإلهية والأعمال الصالحة، وتلك المعارف والأعمال هي التي ترقيها إلى عالم الغيب وسرادقات القدس، ومجاورة الملائكة المقربين في جوار رب العالمين، وتلك الثلاثة التي نهى الله عنها هي التي تصدها عن تلك السعادات وتمنعها عن الفوز بتلك الخيرات، فلما أمر الله تعالى بتلك الثلاثة، ونهى عن هذه الثلاثة فقد نبه على كل ما يحتاج إليه المسافرون من عالم الدنيا إلى مبدأ عرصة القيامة.

المسألة الثانية: قال الكعبي: الآية تدل على أنه تعالى لا يخلق الجور والفحشاء، وذلك من وجوه: الأول: أنه تعالى كيف ينهاهم عما يخترعه فيهم، وكيف ينهى عما يريد تحصيله فيهم ولو كان الأمر كما قالوا لكان كأنه تعالى قال: إن الله يأمركم أن تفعلوا خلاف ما خلقه فيكم وينهاكم عن أفعال خلقها فيكم، ومعلوم أن ذلك باطل في بديهة العقل. والثاني: أنه تعالى لما أمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، فلو أنه تعالى أمر بتلك الثلاثة ثم إنه ما فعلها لدخل تحت قوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]. وتحت قوله: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣] الثالث: أن قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ليس المراد منه الترجي والتمني، فإن ذلك محال على الله تعالى، فوجب أن يكون معناه أنه تعالى يعظكم لإرادة أن تتذكروا طاعته، وذلك يدل على أنه تعالى يريد الإيمان من الكل. الرابع: أنه تعالى لو صرح وقال: إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، ولكنه تمنع منه ويصد عنه ولا يمكن العبد منه. ثم قال: ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ ولكنه يوجد كل هذه الثلاثة في العبد شاء أم أبى وأراده منه ومنعه من تركه، ومن الاحتراز عنه لحكم كل أحد عليه بالركاكة وفساد النظم والتركيب، وذلك يدل على كونه سبحانه متعاليًا عن فعل القبائح.

واعلم أن هذا النوع من الاستدلال كثير، وقد مر الجواب عنه والمعتمد في دفع هذه

المشاغبات التعويل على سؤال الداعي وسؤال العلم، والله أعلم.

المسألة الثالثة: اتفق المتكلمون من أهل السنة ومن المعتزلة على أن تذكر الأشياء من فعل الله لا من فعل العبد، والدليل عليه هو أن التذكر عبارة عن طلب المتذكر فحال الطلب إما أن يكون له به شعور أو لا يكون له به شعور. فإن كان له شعور فذلك الذكر حاصل، والحاصل لا يطلب تحصيله. وإن لم يكن له به شعور فكيف يطلبه بعينه، لأن توجيه الطلب إليه بعينه حال ما لا يكون هو بعينه متصورًا محال.

إذا ثبت هذا فنقول: قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ معناه أن المقصود من هذا الوعظ أن يقدموا على تحصيل ذلك التذكر، فإذا لم يكن التذكر فعلاً له فكيف طلب منه تحصيله، وهذا هو الذي يحتج به أصحابنا على أن قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لا يدل على أنه تعالى يريد منه ذلك، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما جمع كل المأمورات والمنهيات في الآية الأولى على سبيل الإجمال، ذكر في هذه الآية بعض تلك الأقسام، فبدأ تعالى بالأمر بالوفاء بالعهد.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: ذكروا في تفسير قوله: ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ وجوهًا: الأول: قال صاحب (الكشاف): عهد الله هي البيعة لرسول الله ﷺ على الإسلام لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] أي ولا تنقضوا أيمان البيعة بعد توكيدها، أي بعد توثيقها باسم الله. الثاني: أن المراد منه كل عهد يلتزمه الإنسان باختياره قال ابن عباس: والوعد من العهد، وقال ميمون بن مهران من عاهدته وَفِّ بعهده مسلمًا كان أو كافرًا فإنما العهد لله تعالى. الثالث: قال الأصم: المراد منه الجهاد وما فرض الله في الأموال من حق. الرابع: عهد الله هو اليمين بالله، وقال هذا القائل: إنما يجب الوفاء باليمين إذا لم يكن الصلاح في خلافه، لأنه عليه السلام قال: «**مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ وَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ ثُمَّ لْيُكَفِّرْ**» الخامس: قال القاضي: العهد يتناول كل أمر يجب الوفاء بمقتضاه، ومعلوم أن أدلة العقل والسمع أوكد في لزوم الوفاء بما يدلان على وجوبه من اليمين ولذلك لا يصح في هذين الدليلين التغير والاختلاف، ويصح ذلك في اليمين وربما ندب فيه خلاف الوفاء.

ولقائل أن يقول: إنه تعالى قال: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ فهذا يجب أن يكون مختصًا بالعهود التي يلتزمها الإنسان باختيار نفسه لأن قوله: ﴿إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ يدل على هذا المعنى وحينئذ لا يبقى المعنى الذي ذكره القاضي معتبرًا ولأنه تعالى قال في آخر الآية: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ وهذا يدل على أن الآية واردة فيمن آمن بالله والرسول، وأيضًا يجب أن لا يحمل هذا العهد على اليمين، لأنا لو حملناه عليه لكان قوله بعد ذلك: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ تكرارًا لأن الوفاء بالعهد والمنع من النقض متقاربان، لأن الأمر بالفعل يستلزم النهي عن الترك إلا إذا قيل إن الوفاء بالعهد عام فدخل تحته اليمين، ثم إنه تعالى خص اليمين بالذر تنبيهًا على أنه أولى أنواع العهد بوجوب الرعاية، وعند هذا نقول الأولى أن يحمل هذا العهد على ما يلتزمه الإنسان باختياره ويدخل فيه المبايعة على الإيمان بالله وبرسوله ويدخل فيه عهد الجهاد، وعهد الوفاء بالملتزمات من المنذورات، والأشياء التي أكدها بالحلف واليمين، وفي قوله: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ مباحث:

البحث الأول: قال الزجاج: يقال وكدت وأكدت لغتان جيدتان، والأصل الواو، والهمزة بدل منها.

البحث الثاني: قال أصحاب أبي حنيفة رحمه الله: يمين اللغو هي يمين الغموس، والدليل عليه أنه تعالى قال: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ فنهى في هذه الآية عن نقض الأيمان، فوجب أن يكون كل يمين قابلاً للبر والحنث، ويمين الغموس غير قابلة للبر والحنث فوجب أن لا تكون من الأيمان. واحتج الواحدي بهذه الآية على أن يمين اللغو هي قول العرب لا والله وبلى والله. قال إنما قال تعالى: ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ للفرق بين الأيمان المؤكدة بالعزم وبالعقد وبين لغو اليمين.

البحث الثالث: قوله: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ عام دخله التخصيص، لأنا بينا أن الخبر دل على أنه متى كان الصلاح في نقض الأيمان جاز نقضها.

ثم قال: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ هذه واو الحال، أي لا تنقضوها وقد جعلتم الله كفيلاً عليكم بالوفاء، وذلك أن من حلف بالله تعالى فكأنه قد جعل الله كفيلاً بالوفاء بسبب ذلك الحلف.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ وفيه ترغيب وترهيب، والمراد فيجازيكم على ما تفعلون إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر. ثم إنه تعالى أكد وجوب الوفاء، وتحريم النقض وقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في المشبه به قولان:

القول الأول: أنها امرأة من قريش يقال لها رايطة، وقيل ريطة، وقيل تلقب جعراء وكانت حمقاء

تغزل الغزل هي وجواريها فإذا غزلت وأبرمت أمرتهن فنقضن ما غزلن.

والقول الثاني: أن المراد بالمثل الوصف دون التعين، لأن القصد بالأمثال صرف المكلف عنه إذا كان قبيحًا، والدعاء إليه إذا كان حسنًا، وذلك يتم به من دون التعيين.

المسألة الثانية: قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ﴾ أي من به قوة الغزل بإبرامها وفتلها.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿أَنكَٰثٗا﴾ قال الأزهري: واحدها: نكث وهو الغزل من الصوف والشعر يبرم وينسج فإذا أحكمت النسيجة قطعتها ونكثت خيوطها المبرمة ونفشت تلك الخيوط وخلطت بالصوف ثم غزلت ثانية، والنكث المصدر، ومنه يقال نكث فلان عهده إذا نقضه بعد إحكامه كما ينكث خيط الصوف بعد إبرامه.

المسألة الرابعة: في انتصاب قوله: ﴿أَنكَٰثٗا﴾ وجوه: الأول: قال الزجاج: أنكاثًا منصوب لأنه بمعنى المصدر لأن معنى نكثت نقضت ومعنى نقضت نكثت، وهذا غلط منه، لأن الأنكاث جمع نكث وهو اسم لا مصدر فكيف يكون قوله: ﴿أَنكَٰثٗا﴾ بمعنى المصدر؟ الثاني: قال الواحدي: أنكاثًا مفعول ثان كما تقول كسره أقطاعًا وفرقه أجزاء على معنى جعله أقطاعًا وأجزاء فكذا ههنا قوله: نقضت غزلها أنكاثًا أي جعلت غزلها أنكاثًا. الثالث: أن قوله: ﴿أَنكَٰثٗا﴾ حال مؤكدة.

المسألة الخامسة: قال ابن قتيبة: هذه الآية متصلة بما قبلها، والتقدير: وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها، فإنكم إن فعلتم ذلك كنتم مثل المرأة التي غزلت غزلاً وأحكمته فلما استحكم نقضته فجعلته أنكاثًا.

ثم قال تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ قال الواحدي: الدخل والدغل الغش والخيانة. قال الزجاج: كل ما دخله عيب قيل هو مدخول وفيه دخل، وقال غيره: الدخل ما أدخل في الشيء على فساد.

ثم قال: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ﴾ أربى أي أكثر من ربا الشيء يربو إذا زاد، وهذه الزيادة قد تكون في العدد وفي القوة وفي الشرف. قال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء ثم يجدون من كان أعز منهم وأشرف فينقضون حلف الأولين ويحالفون هؤلاء الذين هم أعز، فنهاهم الله تعالى عن ذلك. وقوله: ﴿أَن تَكُونَ﴾ معناه أنكم تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم بسبب أن تكون أمة أربى من أمة في العدد والقوة والشرف. فقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ استفهام على سبيل الإنكار، والمعنى: أتتخذون أيمانكم دخلاً بينكم بسبب أن أمة أزيد في القوة والكثرة من أمة أخرى.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ﴾ أي بما يأمركم وينهاكم، وقد تقدم ذكر الأمر والنهي: ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ فيتميز المحق من المبطل بما يظهر من درجات الثواب والعقاب، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما كلف القوم بالوفاء بالعهد وتحريم نقضه، أتبعه ببيان أنه تعالى قادر على أن يجمعهم على هذا الوفاء وعلى سائر أبواب الإيمان، ولكنه سبحانه بحكم الإلهية يضل من يشاء ويهدي من يشاء. أما المعتزلة: فإنهم حملوا ذلك على الإلجاء، أي لو أراد أن يلجئهم إلى الإيمان أو إلى الكفر لقدر عليه، إلا أن ذلك يبطل التكليف، فلا جرم ما ألجأهم إليه وفوض الأمر إلى اختيارهم في هذه التكاليف، وأما قول أصحابنا فيه فهو ظاهر، وهذه المناظرة قد تكررت مرارًا كثيرة، وروى الواحدي أن عزيرًا قال: يا رب خلقت الخلق فتضل من تشاء وتهدي من تشاء، فقال: يا عزير أعرض عن هذا، فأعاده ثانيًا: فقال: أعرض عن هذا، فأعاده ثالثًا، فقال: أعرض عن هذا وإلا محوت اسمك من النبوة. قالت المعتزلة: ومما يدل على أن المراد من هذه المشيئة مشيئة الإلجاء، أنه تعالى قال بعده: ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فلو كانت أعمال العباد بخلق الله تعالى لكان سؤالهم عنها عبثًا، والجواب عنه قد سبق مرارًا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما حذر في الآية الأولى عن نقض العهود والأيمان على الإطلاق، حذر في هذه الآية فقال: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ وليس المراد منه التحذير عن نقض مطلق الأيمان، وإلا لزم التكرير الخالي عن الفائدة في موضع واحد، بل المراد نهي أولئك الأقوام المخاطبين بهذا الخطاب عن نقض أيمان مخصوصة أقدموا عليها، فلهذا المعنى قال المفسرون: المراد من هذه الآية نهي الذين بايعوا رسول الله ﷺ عن نقض عهده، لأن هذا الوعيد وهو قوله: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ لا يليق بنقض عهد قبله، وإنما يليق بنقض عهد رسول الله ﷺ على الإيمان به وشرائعه. وقوله: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ مثل يذكر لكل من وقع في بلاء بعد عافية، ومحنة بعد نعمة، فإن من نقض عهد الإسلام فقد سقط عن الدرجات العالية ووقع في مثل هذه الضلالة، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي العذاب: ﴿بِمَا

صَدَدتُّمْ﴾ أي بصدكم: ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ذلك السوء الذي تذوقونه سوء عظيم وعقاب شديد، ثم أكد هذا التحذير فقال: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يريد عرض الدنيا وإن كان كثيرًا، إلا أن ما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون، يعني أنكم وإن وجدتم على نقض عهد الإسلام خيرًا من خيرات الدنيا، فلا تلتفتوا إليه، لأن الذي أعده الله تعالى على البقاء على الإسلام خير وأفضل وأكمل مما يجدونه في الدنيا على نقض عهد الإسلام إن كنتم تعلمون التفاوت بين خيرات الدنيا وبين خيرات الآخرة، ثم ذكر الدليل القاطع على أن ما عند الله خير مما يجدونه من طيبات الدنيا فقال: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ .

وفيه بحثان:

البحث الأول: الحس شاهد بأن خيرات الدنيا منقطعة، والعقل دل على أن خيرات الآخرة باقية، والباقي خير من المنقطع، والدليل عليه أن هذا المنقطع إما أن يقال: إنه كان خيرًا عاليًا شريفًا أو كان خيرًا دنيًا خسيسًا، فإن قلنا: إنه كان خيرًا عاليًا شريفًا فالعلم بأنه سينقطع يجعله منغصًا حال حصوله، وأما حال حصول ذلك الانقطاع فإنها تعظم الحسرة والحزن، وكون تلك النعمة العالية الشريفة كذلك ينغص فيها ويقلل مرتبتها وتفتر الرغبة فيها، وأما إن قلنا: إن تلك النعمة المنقطعة كانت من الخيرات الخسيسة فهمنا من الظاهر أن ذلك الخير الدائم وجب أن يكون أفضل من ذلك الخير المنقطع، فثبت بهذا أن قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ برهان قاطع على أن خيرات الآخرة أفضل من خيرات الدنيا.

البحث الثاني: أن قوله: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ يدل على أن نعيم أهل الجنة باق لا ينقطع. وقال جهم بن صفوان: إنه منقطع والآية حجة عليه. واعلم أن المؤمن إذا آمن بالله فقد التزم شرائع الإسلام والإيمان، وحينئذ يجب عليه أمران: **أحدهما:** أن يصبر على ذلك الإلتزام وأن لا يرجع عنه وأن لا ينقضه بعد ثبوته. **والثاني:** أن يأتي بكل ما هو من شرائع الإسلام ولوازمه.

إذا عرفت هذا فنقول: إنه تعالى رغب المؤمنين في القسم الأول وهو الصبر على ما التزموه، فقال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾ أي على ما التزموه من شرائع الإسلام ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي يجزيهم على أحسن أعمالهم، وذلك لأن المؤمن قد يأتي بالمباحات وبالمندوبات وبالواجبات ولا شك أنه على فعل المندوبات والواجبات يثاب لا على فعل المباحات، فلهذا قال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ ثم إنه تعالى رغب المؤمنين في القسم الثاني وهو الإتيان بكل ما كان من شرائع الإسلام فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ .

وفي الآية سؤالات:

السؤال الأول: لفظة (من) في قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ تفيد العموم فما الفائدة في ذكر الذكر والأنثى؟

والجواب: أن هذه الآية للوعد بالخيرات والمبالغة في تقرير الوعد من أعظم دلائل الكرم والرحمة إثباتًا للتأكيد وإزالة لوهم التخصيص.

السؤال الثاني: هل تدل هذه الآية على أن الإيمان مغاير للعمل الصالح؟

والجواب: نعم لأنه تعالى جعل الإيمان شرطًا في كون العمل الصالح موجبًا للثواب. وشرط الشيء مغاير لذلك الشيء.

السؤال الثالث: ظاهر الآية يقتضي أن العمل الصالح إنما يفيد الأثر بشرط الإيمان، فظاهر قوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧] يدل على أن العمل الصالح يفيد الأثر سواء كان مع الإيمان أو كان مع عدمه.

والجواب: أن إفادة العمل الصالح للحياة الطيبة مشروط بالإيمان، أما إفادته لأثر غير هذه الحياة الطيبة وهو تخفيف العقاب فإنه لا يتوقف على الإيمان.

السؤال الرابع: هذه الحياة الطيبة تحصل في الدنيا أو في القبر أو في الآخرة؟

والجواب فيه ثلاثة أقوال:

القول الأول: قال القاضي: الأقرب أنها تحصل في الدنيا بدليل أنه تعالى أعقبه بقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ولا شبهة في أن المراد منه ما يكون في الآخرة.

ولقائل أن يقول: لا يبعد أن يكون المراد من الحياة الطيبة ما يحصل في الآخرة، ثم إنه مع ذلك وعدهم الله على أنه إنما يجزيهم على ما هو أحسن أعمالهم فهذا لا امتناع فيه.

فإن قيل: بتقدير أن تكون هذه الحياة الطيبة إنما تحصل في الدنيا فما هي؟

والجواب: ذكروا فيه وجوهًا قيل: هو الرزق الحلال الطيب. وقيل: عبادة الله مع أكل الحلال، وقيل: القناعة، وقيل: رزق يوم بيوم كان النبي ﷺ يقول في دعائه: «**قَنِّعْنِي بِمَا رَزَقْتَنِي**»(١) وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه كان يدعو: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ كَفَافًا**»(٢) قال الواحدي وقول من يقول: إنه القناعة حسن مختار لأنه لا يطيب عيش أحد في الدنيا إلا عيش القانع وأما الحريص فإنه يكون أبدًا في الكد والعناء.

واعلم أن عيش المؤمن في الدنيا أطيب من عيش الكافر لوجوه: الأول: أنه لما عرف أن

---

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٦٢٦) حديث رقم/ ١٦٧٤، وابن خزيمة في (صحيحه) (٤/ ٢١٧) حديث رقم/ ٢٧٢٨، من طريق سعيد بن زيد حدثنا عطاء بن السائب حدثنا سعيد بن جبير قال كان بن عباس يقول احفظوا هذا الحديث وكان يرفعه إلى النبي ﷺ... وذكره وقال: هذا حديث وكان صحيح الإسناد ولم يخرجاه فإنهما لم يحتجا لسعيد بن زيد أخي حماد بن زيد والضياء في (الأحاديث المختارة) (١٠/ ٣٩٤) حديث رقم/ ٤١٨، من طريق عمرو بن أبي قيس عن عطاء بن السائب عن يحيى بن عمارة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس... به، والبيهقي في (شعب الإيمان) (٣/ ٤٥٣) حديث رقم/ ٤٠٤٧، من طريق سعيد بن زيد أخبرنا عطاء بن السائب أخبرنا سعيد بن جبير عن ابن عباس... به، وأورده الألباني في الضعيفة (٦٠٤٢)

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٤/ ٢٢٨١/ ١٠٥٥) من طريق أبي زرعة عن أبي هريرة... به.

رزقه إنما حصل بتدبير الله تعالى، وعرف أنه تعالى محسن كريم لا يفعل إلا الصواب كان راضيًا بكل ما قضاه وقدره، وعلم أن مصلحته في ذلك، أما الجاهل فلا يعرف هذه الأصول فكان أبدًا في الحزن والشقاء. وثانيها: أن المؤمن أبدًا يستحضر في عقله أنواع المصائب والمحن ويقدر وقوعها وعلى تقدير وقوعها يرضى بها، لأن الرضا بقضاء الله تعالى واجب، فعند وقوعها لا يستعظمها بخلاف الجاهل فإنه يكون غافلاً عن تلك المعارف، فعند وقوع المصائب يعظم تأثيرها في قلبه. وثالثها: أن قلب المؤمن منشرح بنور معرفة الله تعالى، والقلب إذا كان مملوءًا من هذه المعارف لم يتسع للأحزان الواقعة بسبب أحوال الدنيا، أما قلب الجاهل فإنه خال عن معرفة الله تعالى فلا جرم يصير مملوءًا من الأحزان الواقعة بسبب مصائب الدنيا. ورابعها: أن المؤمن عارف بأن خيرات الحياة الجسمانية خسيسة فلا يعظم فرحه بوجدانها وغمه بفقدانها، أما الجاهل فإنه لا يعرف سعادة أخرى تغايرها فلا جرم يعظم فرحه بوجدانها وغمه بفقدانها. وخامسها: أن المؤمن يعلم أن خيرات الدنيا واجبة التغير سريعة التقلب فلولا تغيرها وانقلابها لم تصل من غيره إليه.

واعلم أن ما كان واجب التغير فإنه عند وصوله إليه لا تنقلب حقيقته ولا تتبدل ماهيته، فعند وصوله إليه يكون أيضًا واجب التغير، فعند ذلك لا يطبع العاقل قلبه عليه ولا يقيم له في قلبه وزنًا بخلاف الجاهل فإنه يكون غافلاً عن هذه المعارف فيطبع قلبه عليها ويعانقها معانقة العاشق لمعشوقه فعند فوته وزواله يحترق قلبه ويعظم البلاء عنده، فهذه وجوه كافية في بيان أن عيش المؤمن العارف أطيب من عيش الكافر هذا كله إذا فسرنا الحياة الطيبة بأنها في الدنيا.

والقول الثاني: وهو قول السدي إن هذه الحياة الطيبة إنما تحصل في القبر.

والقول الثالث: وهو قول الحسن وسعيد بن جبير إن هذه الحياة الطيبة لا تحصل إلا في الآخرة والدليل عليه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الإنشقاق: ٦] فبين أن هذا الكدح باقٍ إلى أن يصل إلى ربه وذلك ما قلناه، وأما بيان أن الحياة الطيبة في الجنة فلأنها حياة بلا موت وغنى بلا فقر، وصحة بلا مرض، وملك بلا زوال، وسعادة بلا شقاء، فثبت أن الحياة الطيبة ليست إلا تلك الحياة، ثم إنه تعالى ختم الآية بقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وقد سبق تفسيره، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما قال قبل هذه الآية: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] أرشد إلى العمل الذي به تخلص أعماله عن الوساوس فقال: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: الشيطان ساع في إلقاء الوسوسة في القلب حتى في حق الأنبياء بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢] والاستعاذة بالله مانعة للشيطان من إلقاء الوسوسة بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] فلهذا السبب أمر الله تعالى رسوله بالاستعاذة عند القراءة حتى تبقى تلك القراءة مصونة عن الوسوسة.

المسألة الثانية: قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ خطاب للرسول ﷺ إلا أن المراد به الكل، لأن الرسول لما كان محتاجًا إلى الاستعاذة عند القراءة فغير الرسول أولى بها.

المسألة الثالثة: الفاء في قوله: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ للتعقيب فظاهر هذه الآية يدل على أن الاستعاذة بعد قراءة القرآن وإليه ذهب جماعة من الصحابة والتابعين قال الواحدي: وهو قول أبي هريرة ومالك وداود قالوا: والفائدة فيه أنه إذا قرأ القرآن استحق به ثوابًا عظيمًا، فإن لم يأت بالاستعاذة وقعت الوسوسة في قلبه، وتلك الوسوسة تحبط ثواب القراءة أما إذا استعاذ بعد القراءة اندفعت الوساوس وبقي الثواب مصونًا عن الإحباط. أما الأكثرون من علماء الصحابة والتابعين فقد اتفقوا على أن الاستعاذة مقدمة على القراءة، وقالوا: معنى الآية إذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ، وليس معناه استعذ بعد القراءة، ومثله إذا أكلت فقل: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ وإذا سافرت فتأهب، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟﴾ [المائدة: ٦] أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة فاغسلوا، وأيضًا لما ثبت أن الشيطان ألقى الوسوسة في أثناء قراءة الرسول بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢] ومن الظاهر أنه تعالى إنما أمر الرسول بالاستعاذة عند القراءة لدفع تلك الوساوس، فهذا المقصود إنما يحصل عند تقديم الإستعاذة.

المسألة الرابعة: مذهب عطاء: أنه تجب الاستعاذة عند قراءة القرآن سواء كانت القراءة في الصلاة أو غيرها، وسائر الفقهاء اتفقوا على أنه ليس كذلك، لأنه لا خلاف بينهم أنه إن لم يتعوذ قبل القراءة في الصلاة، فصلاته ماضية، وكذلك حال القراءة في غير الصلاة لكن حال القراءة في الصلاة آكد.

المسألة الخامسة: المراد بالشيطان في هذه الآية قيل إبليس، والأقرب أنه للجنس، لأن لجميع المردة من الشياطين حظًا في الوسوسة.

واعلم أنه تعالى لما أمر رسوله بالاستعاذة من الشيطان وكان ذلك يوهم أن للشيطان قدرة على التصرف في أبدان الناس، فأزال الله تعالى هذا الوهم، وبين أنه لا قدرة له ألبتة إلا على الوسوسة فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ويظهر من هذا أن الاستعاذة إنما تفيد إذا حضر في قلب الإنسان كونه ضعيفًا وأنه لا يمكنه التحفظ عن وسوسة

الشيطان إلا بعصمة الله تعالى، ولهذا المعنى قال المحققون: لا حول عن معصية الله تعالى إلا بعصمة الله، ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله تعالى، والتفويض الحاصل على هذا الوجه هو المراد من قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

ثم قال: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ قال ابن عباس: يطيعونه يقال: توليته أي أطعته وتوليت عنه أي أعرضت عنه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ الضمير في قوله: (به) إلى ماذا يعود؟ فيه قولان: الأول: أنه راجع إلى ربهم. والثاني: أنه راجع إلى الشيطان والمعنى بسببه، وهذا كما تقول للرجل إذا تكلم بكلمة مؤدية إلى الكفر كفرت بهذه الكلمة أي من أجلها، فكذلك قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ أي من أجله ومن أجل حمله إياهم على الشرك بالله صاروا مشركين.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى شرع من هذا الموضوع في حكاية شبهات منكري نبوة محمد ﷺ.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان إذا نزلت آية فيها شدة، ثم نزلت آية ألين منها تقول كفار قريش: والله ما محمد إلا يسخر بأصحابه، اليوم يأمر بأمر وغدًا ينهى عنه، وإنه لا يقول هذه الأشياء إلا من عند نفسه، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ ومعنى التبديل، رفع الشيء مع وضع غيره مكانه. وتبديل الآية رفعها بآية أخرى غيرها، وهو نسخها بآية سواها، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ اعتراض دخل في الكلام، والمعنى: والله أعلم بما ينزل من الناسخ والمنسوخ والتغليظ والتخفيف، أي هو أعلم بجميع ذلك في مصالح العباد، وهذا توبيخ للكفار على قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ أي إذا كان هو أعلم بما ينزل فما بالهم ينسبون محمد ﷺ إلى الافتراء لأجل التبديل والنسخ، وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون حقيقة القرآن وفائدة النسخ والتبديل وأن ذلك لمصالح العباد كما أن الطبيب يأمر المريض بشربة، ثم بعد مدة ينهاه عنها، ويأمره بضد تلك الشربة، وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ تفسير روح القدس مر ذكره في سورة البقرة. وقال صاحب (الكشاف): روح القدس جبريل عليه السلام أضيف إلى القدس وهو الطهر كما يقال: حاتم الجود وزيد الخير، والمراد الروح المقدس، وحاتم الجواد وزيد الخير، والمقدس المطهر من الماء و(من) في قوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ صلة للقرآن أي أن جبريل نزل القرآن من ربك ليثبت الذين

آمنوا أي ليبلوهم بالنسخ حتى إذا قالوا فيه هو الحق من ربنا حكم لهم بثبات القدم في الدين وصحة اليقين بأن الله حكيم فلا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ﴾ مفعول لهما معطوف على محل ليثبت، والتقدير: تثبيتًا لهم وإرشادًا وبشارة. وفيه تعريض بحصول أضداد هذه الصفات لغيرهم.

المسألة الثانية: قد ذكرنا أن مذهب أبي مسلم الأصفهاني: أن النسخ غير واقع في هذه الشريعة، فقال المراد هاهنا: إذا بدلنا آية مكان آية في الكتب المتقدمة مثل أنه حول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، قال المشركون: أنت مفتر في هذا التبديل، وأما سائر المفسرين فقالوا: النسخ واقع في هذه الشريعة، والكلام فيه على الاستقصاء المذكور في سائر السور.

المسألة الثالثة: قال الشافعي رحمه الله: القرآن لا ينسخ بالسنة، واحتج على صحته بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ وهذا يقتضي أن الآية لا تصير منسوخة إلا بآية أخرى، وهذا ضعيف لأن هذه تدل على أنه تعالى يبدل آية بآية أخرى ولا دلالة فيها على أنه تعالى لا يبدل آية إلا بآية، وأيضًا فجبريل عليه السلام قد ينزل بالسنة كما ينزل بالآية، وأيضًا فالسنة قد تكون مثبتة للآية، وأيضًا فهذا حكاية كلام الكفار، فكيف يصح التعلق به؟ والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

اعلم أن المراد من هذه الآية حكاية شبهة أخرى من شبهات منكري نبوة محمد ﷺ، وذلك لأنهم كانوا يقولون إن محمدًا إنما يذكر هذه القصص وهذه الكلمات لأنه يستفيدها من إنسان آخر ويتعلمها منه. واختلفوا في هذا البشر الذي نسب المشركون النبي ﷺ إلى التعلم منه قيل: هو عبد لبني عامر بن لؤي يقال له يعيش، وكان يقرأ الكتب، وقيل: عداس غلام عتبة بن ربيعة، وقيل: عبد لبني الحضرمي صاحب كتب، وكان اسمه جبرًا، وكانت قريش تقول: عبد بني الحضرمي يعلم خديجة وخديجة تعلم محمدًا، وقيل: كان بمكة نصراني أعجمي اللسان اسمه بلعام ويقال له أبو ميسرة يتكلم بالرومية وقيل: سلمان الفارسي، وبالجملة فلا فائدة في تعديد هذه الأسماء والحاصل أن القوم اتهموه بأنه يتعلم هذه الكلمات من غيره ثم إنه يظهرها من نفسه ويزعم أنه إنما عرفها بالوحي وهو كاذب فيه.

ثم إنه تعالى أجاب عنه بأن قال: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ ومعنى الإلحاد في اللغة الميل يقال: لحد وألحد إذا مال عن القصد، ومنه يقال للعادل عن الحق

ملحد. وقرأ حمزة والكسائي: (يَلْحَدُونَ) بفتح الياء والحاء، والباقون بضم الياء وكسر الحاء قال الواحدي: والأولى ضم الياء لأنه لغة القرآن، والدليل عليه قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ [الحج: ٢٥] والإلحاد قد يكون بمعنى الإمالة، ومنه يقال: ألحدت له لحدًا إذا حفرته في جانب القبر مائلاً عن الاستواء وقبر ملحد وملحود، ومنه الملحد لأنه أمال مذهبه عن الأديان كلها لم يمله عن دين إلى دين آخر وفسر الإلحاد في هذه الآية بالقولين: قال الفراء: يميلون من الميل، وقال الزجاج: يميلون من الإمالة، أي لسان الذين يميلون القول إليه أعجمي، وأما قوله: ﴿أَعْجَمِيٌّ﴾ فقال أبو الفتح الموصلي: تركيب ع ج م وضع في كلام العرب للإبهام والإخفاء، وضد البيان والإيضاح، ومنه قولهم: رجل أعجم وامرأة عجماء إذا كانا لا يفصحان، وعجم الذنب سمي بذلك لاستتاره واختفائه، والعجماء البهيمة لأنها لا توضح ما في نفسها، وسموا صلاتي الظهر والعصر عجماوين، لأن القراءة حاصلة فيهما بالسر لا بالجهر، فأما قولهم: أعجمت الكتاب فمعناه أزلت عجمته، وأفعلت قد يأتي والمراد منه السلب كقولهم: أشكيت فلانًا إذا أزلت ما يشكوه، فهذا هو الأصل في هذه الكلمة، ثم إن العرب تسمي كل من لا يعرف لغتهم ولا يتكلم بلسانهم أعجم وأعجميًا. قال الفراء وأحمد بن يحيى: الأعجم الذي في لسانه عجمة وإن كان من العرب، والأعجمي والعجمي الذي أصله من العجم قال أبو علي الفارسي: الأعجم الذي لا يفصح سواء كان من العرب أو من العجم، ألا ترى أنهم قالوا: زياد الأعجم لأنه كانت في لسانه عجمة مع أنه كان عربيًا، وأما معنى العربي واشتقاقه فقد ذكرناه عند قوله: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ [التوبة: ٩٧] وقال الفراء والزجاج: في هذه الآية يقال عرب لسانه عرابة وعروبة هذا تفسير ألفاظ الآية.

وأما تقرير وجه الجواب فاعلم أنه إنما يظهر إذا قلنا: القرآن إنما كان معجزًا لما فيه من الفصاحة العائدة إلى اللفظ وكأنه قيل: هب أنه يتعلم المعاني من ذلك الأعجمي إلا أن القرآن إنما كان معجزًا لما في ألفاظه من الفصاحة فبتقدير أن تكونوا صادقين في أن محمدًا ﷺ يتعلم تلك المعاني من ذلك الرجل إلا أنه لا يقدح ذلك في المقصود إذ القرآن إنما كان معجزًا لفصاحته وما ذكرتموه لا يقدح في ذلك المقصود، ولما ذكر الله تعالى هذا الجواب أردفه بالتهديد والوعيد، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ أما تفسير أصحابنا لهذه الآية فظاهر، وقال القاضي: أقوى ما قيل في ذلك إنه لا يهديهم إلى طريق الجنة، ولذلك قال بعده: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ والمراد أنهم لما تركوا الإيمان بالله لا يهديهم الله إلى الجنة بل يسوقهم إلى النار، ثم إنه تعالى بين كونهم كذابين في ذلك القول فقال: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: المقصود منه أنه تعالى بين في الآية السابقة أن الذي قالوه بتقدير أن يصح لم

يقدح في المقصود، ثم إنه تعالى بيّن في هذه الآية أن الذي قالوه لم يصح وهم كذبوا فيه، والدليل على كونهم كاذبين في ذلك القول وجوه:

الأول: أنهم لا يؤمنون بآيات الله وهم كافرون، ومتى كان الأمر كذلك كانوا أعداء للرسول ﷺ وكلام العدا ضرب من الهذيان ولا شهادة لمتهم.

والثاني: أن أمر التعلم لا يتأتى في جلسة واحدة ولا يتم في الخفية، بل التعلم إنما يتم إذا اختلف المعلم إلى المتعلم أزمنة متطاولة ومددًا متباعدة، ولو كان الأمر كذلك لاشتهر فيما بين الخلق أن محمدًا عليه السلام يتعلم العلوم من فلان وفلان.

الثالث: أن العلوم الموجودة في القرآن كثيرة وتعلمها لا يتأتى إلا إذا كان المعلم في غاية الفضل والتحقيق، فلو حصل فيهم إنسان بلغ في التعليم والتحقيق إلى هذا الحد لكان مشارًا إليه بالأصابع في التحقيق والتدقيق في الدنيا، فكيف يمكن تحصيل هذه العلوم العالية والمباحث النفيسة من عند فلان وفلان؟

واعلم أن الطعن في نبوة رسول الله ﷺ بأمثال هذه الكلمات الركيكة يدل على أن الحجة لرسول الله ﷺ كانت ظاهرة باهرة، فإن الخصوم كانوا عاجزين عن الطعن فيها، ولأجل غاية عجزهم عدلوا إلى هذه الكلمات الركيكة.

المسألة الثانية: في هذه الآية دلالة قوية على أن الكذب من أكبر الكبائر وأفحش الفواحش والدليل عليه أن كلمة (إنما) للحصر، والمعنى: أن الكذب والفرية لا يقدم عليهما إلا من كان غير مؤمن بآيات الله تعالى، وإلا من كان كافرًا وهذا تهديد في النهاية.

فإن قيل: قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ فعل وقوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ اسم وعطف الجملة الإسمية على الجملة الفعلية قبيح فما السبب في حصوله ههنا؟

قلنا: الفعل قد يكون لازمًا وقد يكون مفارقًا، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف: ٣٥] ذكره بلفظ الفعل، تنبيهًا على أن ذلك السجن لا يدوم. وقال فرعون لموسى عليه السلام: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩] ذكره بصيغة الاسم تنبيهًا على الدوام، وقال أصحابنا: إنه تعالى قال: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] ولا يجوز أن يقال إن آدم عاصٍ وغاوٍ، لأن صيغة الفعل لا تفيد الدوام، وصيغة الاسم تفيده.

إذا عرفت هذه المقدمة فنقول: قوله: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ ذكر ذلك تنبيهًا على أن من أقدم على الكذب فكأنه دخل في الكفر، ثم قال: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ تنبيهًا على أن صفة الكذب فيهم ثابتة راسخة دائمة. وهذا كما تقول: كذبت وأنت كاذب فيكون قولك وأنت كاذب زيادة في الوصف بالكذب. ومعناه: أن عادتك أن تكون كاذبًا.

المسألة الثالثة: ظاهر الآية يدل على أن الكاذب المفتري الذي لا يؤمن بآيات الله والأمر كذلك، لأنه لا معنى للكفر إلا إنكار الإلهية ونبوة الأنبياء، وهذا الإنكار مشتمل على الكذب

والافتراء. وروي أن النبي ﷺ قيل له: هل يكذب المؤمن؟ قال: (لا) ثم قرأ هذه الآية، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٠٨ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٠٩﴾

اعلم أنه تعالى لما عظم تهديد الكافرين ذكر في هذه الآية تفصيلاً في بيان من يكفر بلسانه لا بقلبه، ومن يكفر بلسانه وقلبه معًا.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ مبتدأ خبره غير مذكور، فلهذا السبب اختلف المفسرون وذكروا فيه وجوهًا:

الأول: أن يكون قوله: ﴿مَن كَفَرَ﴾ بدلاً من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ والتقدير: إنما يفتري من كفر بالله من بعد إيمانه، واستثنى منهم المكره فلم يدخل تحت حكم الافتراء، وعلى هذا التقدير: فقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ اعتراض وقع بين البدل والمبدل منه.

الثاني: يجوز أيضًا أن يكون بدلاً من الخبر الذي هو الكاذبون، والتقدير: وأولئك هم من كفر بالله من بعد إيمانه.

والثالث: يجوز أن ينتصب على الذم، والتقدير: وأولئك هم الكاذبون، أعني من كفر بالله من بعد إيمانه وهو أحسن الوجوه عندي وأبعدها عن التعسف.

والرابع: أن يكون قوله: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ شرطًا مبتدأ ويحذف جوابه، لأن جواب الشرط المذكور بعده يدل على جوابه كأنه قيل: من كفر بالله من بعد إيمانه فعليهم غضب من الله إلا من أكره: ولكن من شرح بالكفر صدرًا فعليهم غضب من الله.

المسألة الثانية: أجمعوا على أنه لا يجب عليه التكلم بالكفر يدل عليه وجوه: أحدها: أنا روينا أن بلالاً صبر على ذلك العذاب، وكان يقول: أحد أحد. روي ناسًا من أهل مكة فتنوا فارتدوا عن الإسلام بعد دخولهم فيه، وكان فيهم من أكره فأجرى كلمة الكفر على لسانه، مع أنه كان بقلبه مصرًا على الإيمان، منهم: عمار، وأبواه ياسر وسمية، وصهيب، وبلال، وخباب، وسالم، عذبوا، فأما سمية فقيل: ربطت بين بعيرين ووخزت في قبلها بحربة وقالوا: إنك

أسلمت من أجل الرجال وقتلت، وقتل ياسر وهما أول قتيلين قتلاً في الإسلام، وأما عمار فقد أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهًا، فقيل: يا رسول الله إن عمارًا كفر، فقال: كلا إن عمارًا مليء إيمانًا من فرقه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه، فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه ويقول: «مَا لَكَ إِنْ عَادُوا لَكَ فَعُدْ لَهُمْ بِمَا قُلْتَ»[1] ومنهم جبر مولى الحضرمي أكرهه سيده فكفر، ثم أسلم مولاه وأسلم وحسن إسلامهما وهاجرا.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ ليس باستثناء، لأن المكره ليس بكافر فلا يصح استثناؤه من الكافر، لكن المكره لما ظهر منه بعد الإيمان ما مثله يظهر من الكافر طوعًا صح هذا الاستثناء لهذه المشاكلة.

المسألة الرابعة: يجب ههنا بيان الإكراه الذي عنده يجوز التلفظ بكلمة الكفر، وهو أن يعذبه بعذاب لا طاقة له به، مثل التخويف بالقتل، ومثل الضرب الشديد والإيلامات القوية. قال مجاهد: أول من أظهر الإسلام سبعة، رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وخباب، وصهيب، وبلال، وعمار، وسمية. أما الرسول عليه السلام فمنعه أبو طالب، وأما أبو بكر فمنعه قومه، وأخذ الآخرون وألبسوا دروع الحديد، ثم أجلسوا في الشمس فبلغ منهم الجهد بحر الحديد والشمس، وأتاهم أبو جهل يشتمهم ويوبخهم ويشتم سمية، ثم طعن الحربة في فرجها. وقال الآخرون: ما نالوا منهم غير بلال فإنهم جعلوا يعذبونه فيقول: أحد أحد، حتى ملوا فكتفوه وجعلوا في عنقه حبلاً من ليف ودفعوه إلى صبيانهم يلعبون به حتى ملوه فتركوه. قال عمار: كلنا تكلم بالذي أرادوا غير بلال، فهانت عليه نفسه فتركوه. قال خباب: لقد أوقدوا لي نارًا ما أطفأها إلا ودك ظهري.

المسألة الخامسة: أجمعوا على أن عند ذكر كلمة الكفر يجب عليه أن يبرىء قلبه من الرضا به وأن يقتصر على التعريضات مثل أن يقول: إن محمدًا كذاب، ويعني عند الكفار أو يعني به محمدًا آخر أو يذكره على نية الاستفهام بمعنى الإنكار.

وههنا بحثان:

البحث الأول: أنه إذا أعجله من أكرهه عن إحضار هذه النية أو لأنه لما عظم خوفه زال عن قلبه ذكر هذه النية كان ملومًا وعفو الله متوقع.

البحث الثاني: لو ضيق المكره الأمر عليه وشرح له كل أقسام التعريضات وطلب منه أن يصرح بأنه ما أراد شيئًا منها، وما أراد إلا ذلك المعنى، فههنا يتعين إما التزام الكذب، وإما تعريض النفس للقتل. فمن الناس من قال: يباح له الكذب هنا، ومنهم من يقول: ليس له ذلك وهو الذي اختاره القاضي. قال: لأن الكذب إنما يقبح لكونه كذبًا، فوجب أن يقبح على كل حال،

---

(١) ذكره العقيلي في تفسيره هكذا بلفظه عن ابن عباس من غير سند وكذلك البغوي وكذلك الواحدي في (أسباب النزول) (١/ ١٩٠).

ولو جاز أن يخرج عن القبيح لرعاية بعض المصالح لم يمنع أن يفعل الله الكذب لرعاية بعض المصالح وحينئذ لا يفي وثوق بوعد الله تعالى ولا بوعيده لاحتمال أنه فعل ذلك الكذب لرعاية بعض المصالح التي لا يعرفها إلا الله تعالى.

المسألة السادسة: أجمعوا على أنه لا يجب عليه التكلم بكلمة الكفر، ويدل عليه وجوه: **أحدها**: أنا روينا أن بلالا صبر على ذَلِكَ الْعَذَابِ، وَكَانَ يَقُولُ: أَحَدٌ أَحَدٌ [١]، ولم يقل رسول الله ﷺ: بئس ما صنعت بل عظمه عليه، فدل ذلك على أنه لا يجب التكلم بكلمة الكفر، **وثانيها**: ما روي أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين فقال لأحدهما: ما تقولوا في محمد؟ فقال رسول الله، فقال: ما تقول في؟ قال أنت أيضًا، فخلاه وقال للآخر: ما تقول في محمد؟ قال رسول الله، قال: ما تقول في؟ قال: أنا أصم فأعاد عليه ثلاثًا فأعاد جوابه فقتله، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**أَمَّا الْأَوَّلُ فَقَدْ أَخَذَ بِرُخْصَةِ اللَّهِ، وَأَمَّا الثَّانِي فَقَدْ صَدَعَ بِالْحَقِّ، فَهَنِيئًا لَهُ**» [٢] وجه الاستدلال بهذا الخبر من وجهين: **الأول**: أنه سمى التلفظ بكلمة الكفر رخصة. **والثاني**: أنه عظم حال من أمسك عنه حتى قتل. **وثالثها**: أن بذل النفس في تقرير الحق أشق، فوجب أن يكون أكثر ثوابًا لقوله عليه السلام: «**أَفْضَلُ الْعِبَادَاتِ أَحْمَزُهَا**» أي أشقها. **ورابعها**: أن الذي أمسك عن كلمة الكفر طهر قلبه ولسانه عن الكفر. أما الذي تلفظ بها فهب أن قلبه طاهر عنه إلا أن لسانه في الظاهر قد تلطخ بتلك الكلمة الخبيثة، فوجب أن يكون حال الأول أفضل، والله أعلم.

المسألة السابعة: اعلم أن للإكراه مراتب.

المرتبة الأولى: أن يجب الفعل المكره عليه مثل ما إذا أكرهه على شرب الخمر وأكل الخنزير وأكل الميتة فإذا أكرهه عليه بالسيف فههنا يجب الأكل، وذلك لأن صون الروح عن الفوات واجب، ولا سبيل إليه في هذه الصورة إلا بهذا الأكل، وليس في هذا الأكل ضرر على حيوان ولا فيه إهانة لحق الله تعالى، فوجب أن يجب لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

المرتبة الثانية: أن يصير ذلك الفعل مباحًا ولا يصير واجبًا، ومثاله ما إذا أكرهه على التلفظ بكلمة الكفر فههنا يباح له ولكنه لا يجب كما قررناه.

المرتبة الثالثة: أن لا يجب ولا يباح بل يحرم، وهذا مثل ما إذا أكرهه إنسان على قتل إنسان آخر أو على قطع عضو من أعضائه فههنا يبقى الفعل على الحرمة الأصلية، وهل يسقط القصاص

---

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه في (سننه) (١/ ٥٣) حديث رقم/ ١٥٠، وأحمد في (مسنده) (١/ ٤٠٤) حديث رقم/ ٣٨٣٢، وابن أبي شيبة في (مصنفه) (١٤/ ٣١٣) حديث رقم/ ٣٧٧٤٨، والحاكم في (المستدرك) (٣/ ٣٢٠) حديث رقم/ ٥٢٣٨، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، جميعا من طريق عاصم عن زر عن عبد الله... به.

(٢) إسناد ضعيف: أخرجه ابن أبي شيبة في(مصنفه) (١٢/ ٣٥٧) حديث رقم/ ٣٣٧٠٨، من طريق يونس عن الحسن... بنحوه، وهذا إسناد مرسل من مراسيل الحسن البصري وهي ضعيفة.

عن المكره أم لا؟ قال الشافعي رحمه الله: في أحد قوليه يجب القصاص ويدل عليه وجهان.
الأول: أنه قتله عمدًا عدوانًا فيجب عليه القصاص لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾ [البقرة: ١٧٨]. والثاني: أجمعنا على أن المكره إذا قصد قتله فإنه يحل له أن يدفعه عن نفسه ولو بالقتل، فلما كان توهم إقدامه على القتل يوجب إهدار دمه، فلأن يكون عند صدور القتل منه حقيقة يصير دمه مهدرًا كان أولى، والله أعلم.

المسألة الثامنة: من الأفعال ما يقبل الإكراه عليه كالقتل والتكلم بكلمة الكفر، ومنه ما لا يقبل الإكراه عليه قيل: وهو الزنا. لأن الإكراه يوجب الخوف الشديد وذلك يمنع من انتشار الآلة، فحيث دخل الزنا في الوجود علم أنه وقع بالاختيار لا على سبيل الإكراه.

المسألة التاسعة: قال الشافعي رحمه الله: طلاق المكره لا يقع، وقال أبو حنيفة رحمه الله: يقع، وحجة الشافعي رحمه الله: قوله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ولا يمكن أن يكون المراد نفي ذاته لأن ذاته موجودة فوجب حمله على نفي آثاره، والمعنى: أنه لا أثر له ولا عبرة به، وأيضًا قوله عليه السلام: «**رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ**»(١) وأيضًا قوله عليه السلام: «**لاَ طَلاَقَ فِي إِغْلاَقٍ**»(٢) أي إكراه فإن قالوا: طلقها فتدخل تحت قوله: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٠] فالجواب لما تعارضت الدلائل، وجب أن يبقى ما كان على ما كان على ما هو قولنا، والله أعلم.

المسألة العاشرة: قوله: ﴿وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ يدل على أن محل الإيمان هو القلب والذي محله القلب إما الاعتقاد، وإما كلام النفس، فوجب أن يكون الإيمان عبارة إما عن المعرفة وإما عن التصديق بكلام النفس، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾ أي فتحه ووسعه لقبول الكفر وانتصب صدرًا على أنه مفعول لشرح، والتقدير: ولكن من شرح بالكفر صدره، وحذف الضمير لأنه لا يشكل بصدر غيره إذ البشر لا يقدر على شرح صدر غيره فهو نكرة يراد بها المعرفة.

ثم قال: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ والمعنى أنه تعالى حكم عليهم بالعذاب ثم وصف ذلك العذاب فقال: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

---

(١) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه في (سننه) (١/ ٦٥٩) حديث رقم/ ٢٠٤٣، من طريق شهر بن حوشب عن أبي ذر... به، ورواه أيضا في الحديث رقم/ ٢٠٤٥، من طريق عطاء عن بن عباس... به، والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٢١٦) حديث رقم/ ٢٨٠١، وابن حبان في (صحيحه) (١٦/ ٢٠٢) حديث رقم/ ٧٢١٩، كلاهما من طريق عبيد بن عمير عن ابن عباس... به.

(٢) **حسن**: أخرجه أبو داود في كتاب (الطلاق) باب (في الطلاق علي غلط) (٢/ ٩٤٠) حديث رقم/ ٢١٩٣، وابن ماجه في كتاب (الطلاق) باب (طلاق المكره والناس) (١/ ٦٦٠) حديث رقم/ ٢٠٤٦، وأحمد في (مسنده) (٦/ ٢٧٦) جميعا من طريق ابن إسحاق... به.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي رجحوا الدنيا على الآخرة، والمعنى: أن ذلك الارتداد وذلك الإقدام على الكفر لأجل أنه تعالى ما هداهم إلى الإيمان وما عصمهم عن الكفر. قال القاضي: المراد أن الله لا يهديهم إلى الجنة فيقال له هذا ضعيف، لأن قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ معطوف على قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ فوجب أن يكون قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ علة وسببًا موجبًا لإقدامهم على ذلك الارتداد، وعدم الهداية يوم القيامة إلى الجنة ليس سببًا لذلك الارتداد، ولا علة له بل مسببًا عنه ومعلولاً له فبطل هذا التأويل، ثم أكد بيان أنه تعالى صرفهم عن الإيمان فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ قال القاضي: الطبع ليس يمنع من الإيمان ويدل عليه وجوه: **الأول:** أنه تعالى ذكر ذلك في معرض الذم لهم، ولو كانوا عاجزين عن الإيمان به لما استحقوا الذم بتركه. **والثاني:** أنه تعالى أشرك بين السمع والبصر وبين القلب في هذا الطبع ومعلوم من حال السمع والبصر أن مع فقدهما قد يصح أن يكون مؤمنًا فضلاً عن طبع يلحقهما في القلب. **والثالث:** وصفهم بالغفلة. ومن منع من الشيء لا يوصف بأنه غافل عنه، فثبت أن المراد بهذا الطبع السمة والعلامة التي يخلقها في القلب، وقد ذكرنا في سورة البقرة معنى الطبع والختم، وأقول هذه الكلمات مع التقريرات الكثيرة، ومع الجوابات القوية مذكورة في أول سورة البقرة وفي سائر الآيات فلا فائدة في الإعادة.

ثم قال تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ قال ابن عباس: أي عما يراد بهم في الآخرة.

ثم قال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ واعلم أن الموجب لهذا الخسران هو أن الله تعالى وصفهم في الآيات المتقدمة بصفات ستة.

الصفة الأولى: أنهم استوجبوا غضب الله.

والصفة الثانية: أنهم استحقوا العذاب الأليم.

والصفة الثالثة: أنهم ﴿ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

والصفة الرابعة: أنه تعالى حرمهم من الهداية.

والصفة الخامسة: أنه تعالى طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم.

والصفة السادسة: أنه جعلهم من الغافلين عما يراد بهم من العذاب الشديد يوم القيامة فلا جرم لا يسعون في دفعها، فثبت أنه حصل في حقهم هذه الصفات الستة التي كل واحد منها من أعظم الأحوال المانعة عن الفوز بالخيرات والسعادات، ومعلوم أنه تعالى إنما أدخل الإنسان الدنيا ليكون كالتاجر الذي يشتري بطاعاته سعادات الآخرة، فإذا حصلت هذه الموانع العظيمة عظم خسرانه، فلهذا السبب قال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي هم الخاسرون لا غيرهم، والمقصود التنبيه على عظم خسرانهم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٠ يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١١١﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: أنه تعالى لما ذكر في الآية المتقدمة حال من كفر بالله من بعد إيمانه وحال من أكره على الكفر، فذكر بسبب الخوف كلمة الكفر وحال من لم يذكرها، ذكر بعده حال من هاجر من بعد ما فتن فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾.

المسألة الثانية: قرأ ابن عامر: (فَتَنُوا) بفتح الفاء على إسناد الفعل إلى الفاعل، والباقون بضم الفاء على فعل ما لم يسم فاعله. أما وجه القراءة الأولى فأمور.

الأول: أن يكون المراد أن أكابر المشركين وهم الذين آذوا فقراء المسلمين لو تابوا وهاجروا وصبروا فإن الله يقبل توبتهم.

والثاني: أن فتن وأفتن بمعنى واحد، كما يقال: مان وأمان بمعنى واحد.

والثالث: أن أولئك الضعفاء لما ذكروا كلمة الكفر على سبيل التقية فكأنهم فتنوا أنفسهم، وإنما جعل ذلك فتنة، لأن الرخصة في إظهار كلمة الكفر ما نزلت في ذلك الوقت. وأما وجه القراءة بفعل ما لم يسم فاعله فظاهر، لأن أولئك المفتونين هم المستضعفون الذين حملهم أقوياء المشركين على الردة والرجوع عن الإيمان، فبين تعالى أنهم إذا هاجروا وجاهدوا وصبروا فإن الله تعالى يغفر لهم تكلمهم بكلمة الكفر.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾ يحتمل أن يكون المراد بالفتنة هو أنهم عذبوا، ويحتمل أن يكون المراد هو أنهم خوفوا بالتعذيب، ويحتمل أن يكون المراد أن أولئك المسلمين ارتدوا. قال الحسن: هؤلاء الذين هاجروا من المؤمنين كانوا بمكة، فعرضت لهم فتنة فارتدوا وشكوا في الرسول ﷺ ثم إنهم أسلموا وهاجروا فنزلت هذه الآية فيهم، وقيل: نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح ارتد، فلما كان يوم الفتح أمر النبي ﷺ بقتله فاستجار له عثمان فأجاره رسول الله ﷺ ثم إنه أسلم وحسن إسلامه[1]، وهذه الرواية إنما تصح لو جعلنا هذه السورة مدنية أو جعلنا هذه الآية منها مدنية، ويحتمل أن يكون المراد أن أولئك الضعفاء

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الحدود) باب (الحكم فيمن ارتد) (٤/ ١٢٦) حديث (رقم/ ٤٣٥٨) مختصرًا من طريق أحمد بن محمد المروزي... به. والنسائي في كتاب (تحريم الدم) باب (توبة المرتد) (٤/ ٢٤) حديث رقم/ ٤٠٨٠، من طريق محمد بن عبد الله بن بزيع... به، كلاهما (أحمد، إسحاق) عن علي بن الحسين... به.

المعذبين تكلموا بكلمة الكفر على سبيل التقية، فقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾ يحتمل كل واحد من هذه الوجوه الأربعة، وليس في اللفظ ما يدل على التعيين.

إذا عرفت هذا فنقول: إن كانت هذه الآية نازلة فيمن أظهر الكفر، فالمراد أن ذلك مما لا إثم فيه، وأن حاله إذا هاجر وجاهد وصبر كحال من لم يكره، وإن كانت واردة فيمن ارتد فالمراد أن التوبة والقيام بما يجب عليه يزيل ذلك العقاب ويحصل له الغفران والرحمة، فالهاء في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ تعود إلى الأعمال المذكورة فيما قبل، وهي الهجرة والجهاد والصبر.

أما قوله: ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾.

ففيه أبحاث:

البحث الأول: قال الزجاج: (يوم) منصوب على وجهين. **أحدهما:** أن يكون المعنى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٠ يَوۡمَ تَأۡتِي﴾ يعني أنه تعالى يعطي الرحمة والغفران في ذلك اليوم الذي يعظم احتياج الإنسان فيه إلى الرحمة والغفران. **والثاني:** أن يكون التقدير: وذكرهم أو اذكر يوم كذا وكذا، لأن معنى القرآن العِظة والإنذار والتذكير.

البحث الثاني: لقائل أن يقول: النفس لا تكون لها نفس أخرى، فما معنى قوله: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾.

والجواب: النفس قد يراد به بدن الحي وقد يراد به ذات الشيء وحقيقته، فالنفس الأولى هي الجثة والبدن. والثانية: عينها وذاتها، فكأنه قيل: يوم يأتي كل إنسان يجادل عن ذاته ولا يهمه شأن غيره. قال تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧] وعن بعضهم: تزفر جهنم زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه يقول: يا رب نفسي نفسي حتى أن إبراهيم الخليل عليه السلام يفعل ذلك. ومعنى المجادلة عنها الاعتذار عنها كقولهم: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧] وقولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

ثم قال تعالى: ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ﴾ فيه محذوف، والمعنى: توفى كل نفس جزاء ما عملت من غير بخس ولا نقصان، وقوله: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ قال الواحدي: معناه لا ينقصون. قال القاضي: هذه الآية من أقوى ما يدل على ما نذهب إليه في الوعيد، لأنها تدل على أنه تعالى يوصل إلى كل أحد حقه من غير نقصان، ولو أنه تعالى أزال عقاب المذنب بسبب الشفاعة لم يصح ذلك.

والجواب: لا نزاع أن ظاهر العمومات يدل على قولكم، إلا أن مذهبنا أن التمسك بظواهر العمومات لا يفيد القطع، وأيضًا فظواهر الوعيد معارضة بظواهر الوعد، ثم بينا في سورة البقرة في تفسير قوله: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ [البقرة: ٨١] أن جانب الوعد راجح على جانب الوعيد من وجوه كثيرة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما هدد الكفار بالوعيد الشديد في الآخرة هددهم أيضًا بآفات الدنيا وهو الوقوع في الجوع والخوف، كما ذكره في هذه الآية.

المسألة الثانية: المثل قد يضرب بشيء موصوف بصفة معينة سواء كان ذلك الشيء موجودًا أو لم يكن موجودًا وقد يضرب بشيء موجود معين، فهذه القرية التي ضرب الله بها هذا المثل يحتمل أن تكون شيئًا مفروضًا ويحتمل أن تكون قرية معينة، وعلى هذا التقدير الثاني فتلك القرية يحتمل أن تكون مكة أو غيرها، والأكثرون من المفسرين على أنها مكة، والأقرب أنها غير مكة لأنها ضربت مثلاً لمكة، ومثل مكة يكون غير مكة.

المسألة الثالثة: ذكر الله تعالى لهذه القرية صفات:

الصفة الأولى: كونها آمنة أي ذات أمن لا يغار عليهم كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧] والأمر في مكة كان كذلك، لأن العرب كان يغير بعضهم على بعض. أما أهل مكة، فإنهم كانوا أهل حرم الله، والعرب كانوا يحترمونهم ويخصونهم بالتعظيم والتكريم.

واعلم أنه يجوز وصف القرية بالأمن، وإن كان ذلك لأهلها لأجل أنها مكان الأمن وظرف له، والظروف من الأزمنة والأمكنة توصف بما حلها، كما يقال: طيب وحار وبارد.

والصفة الثانية: قوله: ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ قال الواحدي: معناه أنها قارة ساكنة فأهلها لا يحتاجون إلى الانتقال عنها لخوف أو ضيق. أقول: إن كان المراد من كونها مطمئنة أنهم لا يحتاجون إلى الانتقال عنها بسبب الخوف، فهذا هو معنى كونها آمنة، وإن كان المراد أنهم لا يحتاجون إلى الانتقال عنها بسبب الضيق، فهذا هو معنى قوله: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ وعلى كلا التقديرين فإنه يلزم التكرار.

والجواب: أن العقلاء قالوا:

ثَـلاثَـةٌ لَـيْـسَ لَـهَـا نِـهَـايَـةٌ   الأَمْـنُ وَالـصِّـحَّـةُ وَالْـكِـفَـايَـةُ

قوله: ﴿ءَامِنَةً﴾ إشارة إلى الأمن، وقوله: ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ إشارة إلى الصحة، لأن هواء ذلك البلد لما كان ملائمًا لأمزجتهم اطمأنوا إليه واستقروا فيه، وقوله: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ إشارة إلى الكفاية. قال المفسرون وقوله: ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ السبب فيه إجابة دعوة إبراهيم عليه السلام وهو قوله: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [إبراهيم: ٣٧] ثم

إنه تعالى لما وصف القرية بهذه الصفات الثلاثة قال: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ الأنعم جمع نعمة مثل أشد وشدة أقول ههنا سؤال: وهو أن الأنعم جمع قلة، فكان المعنى: أن أهل تلك القرية كفرت بأنواع قليلة من النعم فعذبها الله، وكان اللائق أن يقال: إنهم كفروا بنعم عظيمة لله فاستوجبوا العذاب، فما السبب في ذكر جمع القلة؟

والجواب: المقصود التنبيه بالأدنى على الأعلى يعني أن كفران النعم القليلة لما أوجب العذاب فكفران النعم الكثيرة أولى بإيجاب العذاب، وهذا مثل أهل مكة لأنهم كانوا في الأمن والطمأنينة والخصب، ثم أنعم الله عليهم بالنعمة العظيمة، وهو محمد ﷺ فكفروا به وبالغوا في إيذائه فلا جرم سلط الله عليهم البلاء. قال المفسرون: عذبهم الله بالجوع سبع سنين حتى أكلوا الجيف والعظام والعلهز والقد، أما الخوف فهو أن النبي ﷺ كان يبعث إليهم السرايا فيغيرون عليهم. ونقل أن ابن الراوندي قال لابن الأعرابي الأديب: هل يذاق اللباس؟ قال ابن الأعرابي: لا باس ولا لباس يا أيها النسناس، هب أنك تشك أن محمدًا ما كان نبيًا أما كان عربيًا وكان مقصود ابن الراوندي الطعن في هذه الآية، وهو أن اللباس لا يذاق بل يلبس فكان الواجب أن يقال: فكساهم الله لباس الجوع، أو يقال: فأذاقهم الله طعم الجوع. وأقول جوابه من وجوه:

الوجه الأول: أن الأحوال التي حصلت لهم عند الجوع نوعان.

أحدهما: أن المذوق هو الطعام فلما فقدوا الطعام صاروا كأنهم يذوقون الجوع.

والثاني: أن ذلك الجوع كان شديدًا كاملاً فصار كأنه أحاط بهم من كل الجهات، فأشبه اللباس. فالحاصل أنه حصل في ذلك الجوع حالة تشبه المذوق، وحالة تشبه الملبوس، فاعتبر الله تعالى كلا الاعتبارين، فقال: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾.

والوجه الثاني: أن التقدير أن الله عرفها لباس الجوع والخوف إلا أنه تعالى عبر عن التعريف بلفظ الإذاقة وأصل الذوق بالفم، ثم قد يستعار فيوضع موضع التعرف وهو الاختبار، تقول: ناظر فلانًا وذق ما عنده. قال الشاعر:

وَمَنْ يَذُقِ الدُّنْيَا فَإِنِّي طَعِمْتُهَا ... وَسِيقَ إِلَيْنَا عَذْبُهَا وَعَذَابُهَا [1]

ولباس الجوع والخوف هو ما ظهر عليهم من الضمور وشحوب اللون ونهكة البدن وتغير الحال وكسوف البال فكما تقول: تعرفت سوء أثر الخوف والجوع على فلان، كذلك يجوز أن تقول: ذقت لباس الجوع والخوف على فلان.

والوجه الثالث: أن يحمل لفظ اللبس على المماسة، فصار التقدير: فأذاقها الله مساس الجوع والخوف.

ثم قال تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ قال ابن عباس: يريد بفعلهم بالنبي ﷺ حين كذبوه

(١) البيت من قول الإمام الفقيه الإمام الشافعي وتقدم ترجمته.

وأخرجوه من مكة وهموا بقتله. قال الفراء: ولم يقل بما صنعت، ومثله في القرآن كثير، ومنه قوله تعالى: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤] ولم يقل قائلة، وتحقيق الكلام أنه تعالى وصف القرية بأنها مطمئنة يأتيها رزقها رغدًا فكفرت بأنعم الله، فكل هذه الصفات، وإن أجريت بحسب اللفظ على القرية، إلا أن المراد في الحقيقة أهلها، فلا جرم قال في آخر الآية: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر المثل ذكر الممثل فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ﴾ يعني أهل مكة ﴿رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ يعني من أنفسهم يعرفونه بأصله ونسبه ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني الجوع الذي كان بمكة. وقيل: القتل يوم بدر، وأقول قول ابن عباس أولى لأنه تعالى قال بعده: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ يعني أن ذلك الجوع إنما كان بسبب كفركم فاتركوا الكفر حتى تأكلوا، فلهذا السبب قال: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: فكلوا يا معشر المسلمين مما رزقكم الله يريد من الغنائم. وقال الكلبي: إن رؤساء مكة كلموا رسول الله ﷺ حين جهدوا وقالوا عاديت الرجال فما بال النسوان والصبيان. وكانت الميرة قد قطعت عنهم بأمر رسول الله ﷺ فأذن في حمل الطعام إليهم فحمل إليهم الطعام فقال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ والقول ما قال ابن عباس رضي الله عنهما ويدل عليه قوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ﴾ [النحل: ١١٥] الآية يعني أنكم لما آمنتم وتركتم الكفر فكلوا الحلال الطيب وهو الغنيمة واتركوا الخبائث وهي الميتة والدم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

اعلم أن هذه الآية إلى آخرها مذكورة في سورة البقرة مفسرة هناك ولا فائدة في الإعادة وأقول: إنه تعالى حصر المحرمات في هذه الأشياء الأربعة في هذه السورة لأن لفظة: ﴿إِنَّمَا﴾ تفيد الحصر وحصرها أيضًا في هذه الأربعة في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٥] وهاتان السورتان مكيتان، وحصرها أيضًا في هذه الأربعة في سورة البقرة لأن هذه الآية بهذه اللفظة وردت في سورة البقرة وحصرها أيضًا في سورة المائدة فإنه تعالى قال في أول هذه السورة: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١]

فأباح الكل إلا ما يتلى عليهم. وأجمعوا على أن المراد بقوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ هو قوله تعالى في تلك السورة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة: ٣] فذكر تلك الأربعة المذكورة في تلك السور الثلاثة ثم قال: ﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ [المائدة: ٣] وهذه الأشياء داخلة في الميتة، ثم قال: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣] وهو أحد الأقسام الداخلة تحت قوله: ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ فثبت أن هذه السور الأربعة دالة على حصر المحرمات في هذه الأربع سورتان مكيتان، وسورتان مدنيتان، فإن سورة البقرة مدنية. وسورة المائدة من آخر ما أنزل الله تعالى بالمدينة، فمن أنكر حصر التحريم في هذه الأربع إلا ما خصه الإجماع والدلائل القاطعة كان في محل أن يخشى عليه، لأن هذه السورة دلت على أن حصر المحرمات في هذه الأربع كان شرعًا ثابتًا في أول أمر مكة وآخرها، وأول المدينة وآخرها وأنه تعالى أعاد هذا البيان في هذه السور الأربع قطعًا للأعذار وإزالة للشبهة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما حصر المحرمات في تلك الأربع بالغ في تأكيد ذلك الحصر وزيف طريقة الكفار في الزيادة على هذه الأربع تارة، وفي النقصان عنها أخرى، فإنهم كانوا يحرمون البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وكانوا يقولون ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا، فقد زادوا في المحرمات وزادوا أيضًا في المحللات وذلك لأنهم حللوا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله تعالى، فالله تعالى بين أن المحرمات هي هذه الأربعة، وبين أن الأشياء التي يقولون إن هذا حلال وهذا حرام كذب وافتراء على الله، ثم ذكر الوعيد الشديد على هذا الكذب، وأقول: إنه تعالى لما بين هذا الحصر في هذه السور الأربع، ثم ذكر في هذه الآية أن الزيادة عليها والنقصان عنها كذب وافتراء على الله تعالى وموجب للوعيد الشديد علمنا أنه لا مزيد على هذا الحصر، والله أعلم.

المسألة الثانية: في انتصاب الكذب في قوله: ﴿لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾ وجهان. الأول: قال الكسائي والزجاج: (ما) مصدرية، والتقدير: ولا تقولوا: لأجل وصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام نظيره أن يقال: لا تقولوا: لكذا كذا وكذا.

فإن قالوا: حمل الآية عليه يؤدي إلى التكرار، لأن قوله تعالى: ﴿لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ عين ذلك.

والجواب: أن قوله: ﴿لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ ليس فيه بيان كذب على الله تعالى فأعاد قوله: ﴿لِّتَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ ليحصل فيه هذا البيان الزائد ونظائره في القرآن كثيرة. وهو أنه تعالى يذكر كلامًا ثم يعيده بعينه مع فائدة زائدة. الثاني: أن تكون (ما) موصولة، والتقدير ولا تقولوا للذي تصف ألسنتكم الكذب فيه هذا حلال وهذا حرام، وحذف لفظ فيه لكونه معلومًا.

المسألة الثالثة: قوله تعال: ﴿تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ من فصيح الكلام وبليغه كأن ماهية الكذب وحقيقته مجهولة وكلامهم الكذب يكشف حقيقة الكذب ويوضح ماهيته، وهذا مبالغة في وصف كلامهم بكونه كذبًا، ونظيره قول أبي العلاء المعري(1):

سَرَى بَرْقُ الْمَعَرَّةِ بَعْدَ وَهْنٍ فَبَاتَ بِرَامَةٍ يَصِفُ الْكَلَالاَ

والمعنى: أن سرى ذلك البرق يصف الكلال فكذا ههنا، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿لِّتَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ المعنى: أنهم كانوا ينسبون ذلك التحريم والتحليل إلى الله تعالى ويقولون: إنه أمرنا بذلك. وأظن أن هذه اللام ليس لام الغرض، لأن ذلك الافتراء ما كان غرضًا لهم بل كان لام العاقبة كقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] قال الواحدي: وقوله: ﴿لِّتَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ بدل من قوله: ﴿لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ لأن وصفهم الكذب هو افتراء على الله تعالى، ففسر وصفهم الكذب بالافتراء على الله تعالى، ثم أوعد المفترين، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ ثم بيّن أن ما هم فيه من نعيم الدنيا يزول عنهم عن قريب، فقال: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ قال الزجاج: المعنى متاعهم متاع قليل، وقال ابن عباس: بل متاع كل الدنيا متاع قليل، ثم يردون إلى عذاب أليم، وهو قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بين ما يحل وما يحرم لأهل الإسلام، أتبعه ببيان ما خص اليهود به من المحرمات فقال: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ وهو الذي سبق ذكره في سورة الأنعام. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وتفسيره هو المذكور في قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾

اعلم أن المقصود بيان أن الافتراء على الله ومخالفة أمر الله لا يمنعهم من التوبة وحصول

(١) تقدمت ترجمت أبو العلاء المعري.

المغفرة والرحمة . ولفظ السوء يتناول كل ما لا ينبغي وهو الكفر والمعاصي ، وكل من عمل السوء فإنما يفعله بالجهالة ، أما الكفر فلأن أحدًا لا يرضى به مع العلم بكونه كفرًا ، فإنه ما لم يعتقد كون ذلك المذهب حقًا وصدقًا ، فإنه لا يختاره ولا يرتضيه ، وأما المعصية فما لم تصر الشهوة غالبة للعقل والعلم لم تصدر عنه تلك المعصية ، فثبت أن كل من عمل السوء فإنما يقدم عليه بسبب الجهالة ، فقال تعالى : إنا قد بالغنا في تهديد أولئك الكفار الذين يحللون ويحرمون بمقتضى الشهوة والفرية على الله تعالى ، ثم إنا بعد ذلك نقول : إن ربك في حق الذين عملوا السوء بسبب الجهالة ، ثم تابوا من بعد ذلك ، أي من بعد تلك السيئة .

وقيل: من بعد تلك الجهالة ، ثم إنهم بعد التوبة عن تلك السيئات أصلحوا ، أي آمنوا وأطاعوا الله .

ثم أعاد قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ على سبيل التأكيد .

ثم قال : ﴿لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ والمعنى : إنه لغفور رحيم لذلك السوء الذي صدر عنهم بسبب الجهالة ، وحاصل الكلام أن الإنسان وإن كان قد أقدم على الكفر والمعاصي دهرًا دهيرًا وأمدًا مديدًا ، فإذا تاب عنه وآمن وأتى بالأعمال الصالحة فإن الله غفور رحيم ، يقبل توبته ويخلصه من العذاب .

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٢١ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٢٢ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٣﴾

اعلم أنه تعالى لما زيف في هذه السورة مذاهب المشركين في أشياء ، منها قولهم بإثبات الشركاء والأنداد لله تعالى ، ومنها طعنهم في نبوة الأنبياء والرسل عليهم السلام ، وقولهم لو أرسل الله رسولاً لكان ذلك الرسول من الملائكة . ومنها قولهم بتحليل أشياء حرمها الله ، وتحريم أشياء أباحها الله تعالى ، فلما بالغ في إبطال مذاهبهم في هذه الأقوال ، وكان إبراهيم عليه السلام رئيس الموحدين وقدوة الأصوليين ، وهو الذي دعا الناس إلى التوحيد وإبطال الشرك وإلى الشرائع . والمشركون كانوا مفتخرين به معترفين بحسن طريقته مقرين بوجوب الاقتداء به ، لا جرم ذكره الله تعالى في آخر هذه السورة ، وحكى عنه طريقته في التوحيد ليصير ذلك حاملاً لهؤلاء المشركين على الإقرار بالتوحيد والرجوع عن الشرك ، واعلم أنه تعالى وصف إبراهيم عليه السلام بصفات :

الصفة الأول: أنه كان أمة ، وفي تفسيره وجوه : **الأول:** أنه كان وحده أمة من الأمم لكماله في

صفات الخير كقوله:

لَيْسَ عَلَى اللَّهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدِ(١)

الثاني: قال مجاهد، كان مؤمنًا وحده، والناس كلهم كانوا كفارًا فلهذا المعنى كان وحده أمة وكان رسول الله ﷺ يقول في زيد بن عمرو بن نفيل: «يَبْعَثُهُ اللَّهُ أُمَّةً وَحْدَهُ»(٢).

الثالث: أن يكون أمة فعلة بمعنى مفعول كالرحلة والبغية، فالأمة هو الذي يؤتم به، ودليله قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]. الرابع: أنه عليه السلام هو السبب الذي لأجله جعلت أمته ممتازين عمن سواهم بالتوحيد والدين الحق، ولما جرى مجرى السبب لحصول تلك الأمة سماه الله تعالى بالأمة إطلاقًا لاسم المسبب على السبب، وعن شهر بن حوشب لم تبق أرض إلا وفيها أربعة عشر يدفع الله بهم عن أهل الأرض إلا زمن إبراهيم عليه السلام فإنه كان وحده.

الصفة الثانية: كونه قانتًا لله، والقانت هو القائم بما أمره الله تعالى به قال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه كونه مطيعًا لله.

الصفة الثالثة: كونه حنيفًا والحنيف المائل إلى ملة الإسلام ميلاً لا يزول عنه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنه أول من اختتن وأقام مناسك الحج وضحى، وهذه صفة الحنيفية.

الصفة الرابعة: قوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ معناه: أنه كان من الموحدين في الصغر والكبر والذي يقرر كونه كذلك أن أكثر همته عليه السلام كان في تقرير علم الأصول فذكر دليل إثبات الصانع مع ملك زمانه وهو قوله: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ثم أبطل عبادة الأصنام والكواكب بقوله: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] ثم كسر تلك الأصنام حتى آل الأمر إلى أن ألقوه في النار، ثم طلب من الله أن يريه كيفية إحياء الموتى ليحصل له مزيد الطمأنينة، ومن وقف على علم القرآن علم أن إبراهيم عليه السلام كان غارقًا في بحر التوحيد.

الصفة الخامسة: قوله: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ روي أنه عليه السلام كان لا يتغدى إلا مع ضيف فلم يجد ذات يوم ضيفًا فأخر غداءه فإذا هو بقوم من الملائكة في صورة البشر فدعاهم إلى الطعام فأظهروا أن بهم علة الجذام فقال: الآن يجب عليّ مؤاكلتكم فلولا عزتكم على الله تعالى لما ابتلاكم بهذا البلاء(٣).

---

(١) هذا البيت من البحر السريع لأبي نواس أبو نُواس: الحسن بن هانىء بن عبد الأول بن صباح الحكمي بالولاء، ١٤٦-١٩٨ هـ/ ٧٦٣-٨١٣ م، شاعر العراق في عصره. ولد في الأهواز من بلاد خوزستان ونشأ بالبصرة، ورحل إلى بغداد فاتصل فيها بالخلفاء من بني العباس، ومدح بعضهم، وخرج إلى دمشق، ومنها إلى مصر، فمدح أميرها، وعاد إلى بغداد فأقام بها إلى أن توفي فيها.

(٢) **إسناده صحيح**: أخرجه أبو يعلى في (مسنده) (١٣/ ١٧٠) حديث رقم/ ٧٢١٢، من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة ويحيى... به، والبزار في (مسنده) (٤/ ١٦٥) حديث رقم/ ١٣٣١، من طريق بشر بن خالد العسكري... به، والنسائي في (السنن الكبري) (٥/ ٥٤) حديث رقم/ ٨١٨٨، من طريق أبي اسامة عن محمد بن عمرو... به.

(٣) لم أجده.

فإن قيل: لفظ الأنعم جمع قلة، ونعم الله تعالى على إبراهيم عليه السلام كانت كثيرة. فلم قال: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾.

قلنا: المراد أنه كان شاكرًا لجميع نعم الله إن كانت قليلة فكيف الكثيرة.

الصفة السادسة: قوله: ﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾ أي اصطفاه للنبوة. والاجتباء هو أن تأخذ الشيء بالكلية وهو افتعال من جبيت، وأصله جمع الماء في الحوض والجابية هي الحوض.

الصفة السابعة: قوله: ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي في الدعوة إلى الله والترغيب في الدين الحق والتنفير عن الدين الباطل، نظيره قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

الصفة الثامنة: قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قال قتادة: إن الله حببه إلى كل الخلق فكل أهل الأديان يقرون به، أما المسلمون واليهود والنصارى فظاهر، وأما كفار قريش وسائر العرب فلا فخر لهم إلا به، وتحقيق الكلام أن الله أجاب دعاءه في قوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤] وقال آخرون: هو قول المصلي منا كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وقيل: الصدق، والوفاء والعبادة.

الصفة التاسعة: قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

فإن قيل: لم قال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ولم يقل: وإنه في الآخرة في أعلى مقامات الصالحين؟

قلنا: لأنه تعالى حكى عنه أنه قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠] فقال ههنا: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ تنبيهًا على أنه تعالى أجاب دعاءه ثم إن كونه من الصالحين لا ينفي أن يكون في أعلى مقامات الصالحين فإن الله تعالى بين ذلك في آية أخرى وهي قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: ٨٣].

واعلم أنه تعالى لما وصف إبراهيم عليه السلام بهذه الصفات العالية الشريفة قال: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾.

وفيه مباحث:

البحث الأول: قال قوم: إن النبي ﷺ كان على شريعة إبراهيم عليه السلام، وليس له شرع هو به منفرد، بل المقصود من بعثته عليه السلام إحياء شرع إبراهيم عليه السلام وعول في إثبات مذهبه على هذه الآية وهذا القول ضعيف، لأنه تعالى وصف إبراهيم عليه السلام في هذه الآية بأنه ما كان من المشركين، فلما قال: ﴿ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ كان المراد ذلك.

فإن قيل: النبي ﷺ إنما نفى الشرك وأثبت التوحيد بناء على الدلائل القطعية وإذا كان كذلك لم يكن متابعًا له فيمتنع حمل قوله: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ﴾ على هذا المعنى فوجب حمله على الشرائع التي يصح حصول المتابعة فيها.

قلنا: يحتمل أن يكون المراد الأمر بمتابعته في كيفية الدعوة إلى التوحيد وهو أن يدعو إليه بطريق الرفق والسهولة وإيراد الدلائل مرة بعد أخرى بأنواع كثيرة على ما هو الطريقة المألوفة في القرآن.

البحث الثاني: قال صاحب (الكشاف): لفظة (ثم) في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ تدل على تعظيم منزلة رسول الله ﷺ وإجلال محله والإيذان بأن أشرف ما أوتي خليل الله من الكرامة وأجل ما أوتي من النعمة اتباع رسول الله ﷺ ملته من قبل، فإن هذه اللفظة دلت على تباعد هذا النعت في المرتبة عن سائر المدائح التي مدحه الله بها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ١٢٤﴾

اعلم أنه تعالى لما أمر محمدًا ﷺ بمتابعة إبراهيم عليه السلام، وكان محمد عليه السلام اختار يوم الجمعة، فهذه المتابعة إنما تحصل إذا قلنا إن إبراهيم عليه السلام كان قد اختار في شرعه يوم الجمعة، وعند هذا لسائل أن يقول: فلم اختار اليهود يوم السبت؟

فأجاب الله تعالى عنه بقوله: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾ وفي الآية قولان:

القول الأول: روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: أمرهم موسى بالجمعة وقال: تفرغوا لله في كل سبعة أيام يومًا واحدًا وهو يوم الجمعة لا تعملوا فيه شيئًا من أعمالكم، فأبوا أن يقبلوا ذلك، وقالوا: لا نريد إلا اليوم الذي فرغ فيه من الخلق وهو يوم السبت، فجعل الله تعالى السبت لهم وشدد عليهم فيه، ثم جاءهم عيسى عليه السلام أيضًا بالجمعة، فقالت النصارى: لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا واتخذوا الأحد. وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَنَا فَاخْتَلَفُوا فِيهِ وَهَدَانَا اللَّهُ لَهُ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ، الْيَهُودُ غَدًا وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ**»[(١)].

إذا عرفت هذا فنقول: قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾ أي على نبيهم موسى حيث أمرهم بالجمعة فاختاروا السبت، فاختلافهم في السبت كان اختلافهم على نبيهم في ذلك اليوم أي لأجله، وليس معنى قوله: ﴿ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾ أن اليهود اختلفوا فيه فمنهم من قال بالسبت، ومنهم من لم يقل به، لأن اليهود اتفقوا على ذلك فلا يمكن تفسير قوله: ﴿ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾ بهذا، بل الصحيح ما قدمناه.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الجمعة) باب (هل على من لم يشهد الجمعة غسل من النساء والصبيان وغيرهم) (٢/ ٤٤٤) حديث رقم/ ٨٩٦، من طريق وهيب. . . به، ومسلم في كتاب (الجمعة) باب (هداية هذه الأمة ليوم الجمعة والطيب والسواك) (٢/ ١٩/ ٥٨٥) من طريق سفيان. . . به، كلاهما (وهيب، سفيان) عن ابن طاووس. . . به.

فإن قال قائل: هل في العقل وجه يدل على أن يوم الجمعة أفضل من يوم السبت؟ وذلك لأن أهل الملل اتفقوا على أنه تعالى خلق العالم في ستة أيام، وبدأ تعالى بالخلق والتكوين من يوم الأحد وتم في يوم الجمعة، فكان يوم السبت يوم الفراغ، فقالت اليهود نحن نوافق ربنا في ترك الأعمال، فعينوا السبت لهذا المعنى، وقالت النصارى: مبدأ الخلق والتكوين هو يوم الأحد، فنجعل هذا اليوم عيدًا لنا، فهذان الوجهان معقولان، فما الوجه في جعل يوم الجمعة عيدًا لنا؟

قلنا: يوم الجمعة هو يوم الكمال والتمام وحصول التمام والكمال يوجب الفرح الكامل والسرور العظيم، فجعل يوم الجمعة يوم العيد أولى من هذا الوجه، والله أعلم.

والقول الثاني: في اختلافهم في السبت، أنهم أحلوا الصيد فيه تارة وحرموه تارة، وكان الواجب عليهم أن يتفقوا في تحريمه على كلمة واحدة.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ والمعنى: أنه تعالى سيحكم يوم القيامة للمحقين بالثواب وللمبطلين بالعقاب.

قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما أمر محمدًا ﷺ بإتباع إبراهيم عليه السلام، بين الشيء الذي أمره بمتابعته فيه، فقال: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ﴾.

واعلم أنه تعالى أمر رسوله أن يدعو الناس بأحد هذه الطرق الثلاثة وهي الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالطريق الأحسن، وقد ذكر الله تعالى هذا الجدل في آية أخرى فقال: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦] ولما ذكر الله تعالى هذه الطرق الثلاثة وعطف بعضها على بعض، وجب أن تكون طرقًا متغايرة متباينة، وما رأيت للمفسرين فيه كلامًا ملخصًا مضبوطًا.

واعلم أن الدعوة إلى المذهب والمقالة لا بد وأن تكون مبنية على حجة وبينة، والمقصود من ذكر الحجة، إما تقرير ذلك المذهب وذلك الاعتقاد في قلوب المستمعين، وإما أن يكون المقصود إلزام الخصم وإفحامه.

أما القسم الأول: فينقسم أيضًا إلى قسمين: لأن الحجة إما أن تكون حجة حقيقية يقينية قطعية مبرأة عن احتمال النقيض، وإما أن لا تكون كذلك، بل تكون حجة تفيد الظن الظاهر والإقناع الكامل، فظهر بهذا التقسيم إنحصار الحجج في هذه الأقسام الثلاثة. أولها: الحجة القطعية المفيدة للعقائد اليقينية، وذلك هو المسمى بالحكمة، وهذه أشرف الدرجات وأعلى المقامات، وهي التي قال الله في صفتها: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[البقرة: ٢٦٩]. وثانيها: الأمارات الظنية والدلائل الإقناعية وهي الموعظة الحسنة. وثالثها: الدلائل التي يكون المقصود

من ذكرها إلزام الخصوم وإفحامهم، وذلك هو الجدل، ثم هذا الجدل على قسمين:

القسم الأول: أن يكون دليلاً مركبًا من مقدمات مسلمة في المشهور عند الجمهور، أو من مقدمات مسلمة عند ذلك القائل، وهذا الجدل هو الجدل الواقع على الوجه الأحسن.

والقسم الثاني: أن يكون ذلك الدليل مركبًا من مقدمات باطلة فاسدة إلا أن قائلها يحاول ترويجها على المستمعين بالسفاهة والشغب، والحيل الباطلة، والطرق الفاسدة، وهذا القسم لا يليق بأهل الفضل إنما اللائق بهم هو القسم الأول، وذلك هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ فثبت بما ذكرنا انحصار الدلائل والحجج في هذه الأقسام الثلاثة المذكورة في هذه الآية.

إذا عرفت هذا فنقول: أهل العلم ثلاث طوائف: الكاملون الطالبون للمعارف الحقيقية والعلوم اليقينية، والمكالمة مع هؤلاء لا تمكن إلا بالدلائل القطعية اليقينية وهي الحكمة، والقسم الثاني الذين تغلب على طباعهم المشاغبة والمخاصمة لا طلب المعرفة الحقيقية والعلوم اليقينية، والمكالمة اللائقة بهؤلاء المجادلة التي تفيد الإفحام والإلزام، وهذان القسمان هما الطرفان. فالأول: هو طرف الكمال، والثاني: طرف النقصان.

وأما القسم الثالث: فهو الواسطة، وهم الذين ما بلغوا في الكمال إلى حد الحكماء المحققين، وفي النقصان والرذالة إلى حد المشاغبين المخاصمين، بل هم أقوام بقوا على الفطرة الأصلية والسلامة الخلقية، وما بلغوا إلى درجة الاستعداد لفهم الدلائل اليقينية والمعارف الحكمية، والمكالمة مع هؤلاء لا تمكن إلا بالموعظة الحسنة، وأدناها المجادلة، وأعلى مراتب الخلائق الحكماء المحققون، وأوسطهم عامة الخلق وهم أرباب السلامة، وفيهم الكثرة والغلبة، وأدنى المراتب الذين جبلوا على طبيعة المنازعة والمخاصمة، فقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾ معناه ادع الأقوياء الكاملين إلى الدين الحق بالحكمة، وهي البراهين القطعية اليقينية وعوام الخلق بالموعظة الحسنة، وهي الدلائل اليقينية الإقناعية الظنية، والتكلم مع المشاغبين بالجدل على الطريق الأحسن الأكمل.

ومن لطائف هذه الآية أنه قال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ فقصر الدعوة على ذكر هذين القسمين لأن الدعوة إن كانت بالدلائل القطعية فهي الحكمة، وإن كانت بالدلائل الظنية فهي الموعظة الحسنة، أما الجدل فليس من باب الدعوة، بل المقصود منه غرض آخر مغاير للدعوة وهو الإلزام والإفحام فلهذا السبب لم يقل ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل الأحسن، بل قطع الجدل عن باب الدعوة تنبيهًا على أنه لا يحصل الدعوة، وإنما الغرض منه شيء آخر، والله أعلم.

واعلم أن هذه المباحث تدل على أنه تعالى أدرج في هذه الآية هذه الأسرار العالية الشريفة مع أن أكثر الخلق كانوا غافلين عنها، فظهر أن هذا الكتاب الكريم لا يهتدي إلى ما فيه من الأسرار

إلا من كان من خواص أولي الأبصار.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ والمعنى: أنك مكلف بالدعوة إلى الله تعالى بهذه الطرق الثلاثة، فأما حصول الهداية فلا يتعلق بك، فهو تعالى أعلم بالضالين وأعلم بالمهتدين، والذي عندي في هذا الباب أن جواهر النفوس البشرية مختلفة بالماهية، فبعضها نفوس مشرقة صافية قليلة التعلق بالجسمانيات كثيرة الانجذاب إلى عالم الروحانيات وبعضها مظلمة كدرة قوية التعلق بالجسمانيات عديمة الالتفات إلى الروحانيات، ولما كانت هذه الاستعدادات من لوازم جواهرها، لا جرم يمتنع انقلابها وزوالها، فلهذا قال تعالى: اشتغل أنت بالدعوة ولا تطمع في حصول الهداية للكل، فإنه تعالى هو العالم بضلال النفوس الضالة الجاهلة وبإشراق النفوس المشرقة الصافية فلكل نفس فطرة مخصوصة وماهية مخصوصة، كما قال: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال الواحدي: هذه الآية فيها ثلاثة أقوال:

القول الأول: وهو الذي عليه العامة أن النبي ﷺ لما رأى حمزة وقد مثلوا به قال: «**وَاللَّهِ لَأُمَثِّلَنَّ بِسَبْعِينَ مِنْهُمْ مَكَانَكَ**» فنزل جبريل عليه السلام بخواتيم سورة النحل فكف رسول الله ﷺ وَأَمْسَكَ عَمَّا أَرَادَ(١).

وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء، وأبي بن كعب والشعبي وعلى هذا قالوا: إن سورة النحل كلها مكية إلا هذه الآيات الثلاث.

والقول الثاني: أن هذا كان قبل الأمر بالسيف والجهاد، حين كان المسلمون قد أمروا بالقتال مع من يقاتلهم ولا يبدأوا بالقتال وهو قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠] وفي هذه الآية أمر الله بأن يعاقبوا بمثل ما يصيبهم من العقوبة ولا يزيدوا.

والقول الثالث: أن المقصود من هذه الآية نهي المظلوم عن استيفاء الزيادة من الظالم، وهذا قول مجاهد والنخعي وابن سيرين قال ابن سيرين: إن أخذ منك رجل شيئًا فخذ منه مثله،

(١) تقدم تخريجه.

وأقول: إن حمل هذه الآية على قصة لا تعلق لها بما قبلها يوجب حصول سوء الترتيب في كلام الله تعالى وذلك يطرق الطعن إليه وهو في غاية البعد، بل الأصوب عندي أن يقال: المراد أنه تعالى أمر محمدًا ﷺ أن يدعو الخلق إلى الدين الحق بأحد الطرق الثلاثة وهي الحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالطريق الأحسن، ثم إن تلك الدعوة تتضمن أمرهم بالرجوع عن دين آبائهم وأسلافهم، وبالإعراض عنه والحكم عليه بالكفر والضلالة وذلك مما يشوش القلوب ويوحش الصدور، ويحمل أكثر المستمعين على قصد ذلك الداعي بالقتل تارة، وبالضرب ثانيًا وبالشتم ثالثًا، ثم إن ذلك المحق إذا شاهد تلك السفاهات، وسمع تلك المشاغبات لا بد وأن يحمله طبعه على تأديب أولئك السفهاء تارة بالقتل وتارة بالضرب، فعند هذا أمر المحقين في هذا المقام برعاية العدل والإنصاف وترك الزيادة، فهذا هو الوجه الصحيح الذي يجب حمل الآية عليه.

فإن قيل: فهل تقدحون فيما روي أنه عليه السلام ترك العزم على المثلة وكفر عن يمينه بسبب هذه الآية؟

قلنا: لا حاجة إلى القدح في تلك الرواية، لأنا نقول: تلك الواقعة داخلة في عموم هذه الآية فيمكن التمسك في تلك الواقعة بعموم هذه الآية، إنما الذي ينازع فيه أنه لا يجوز قصر هذه الآية على هذه الواقعة، لأن ذلك يوجب سوء الترتيب في كلام الله تعالى.

المسألة الثانية: اعلم أنه تعالى أمر برعاية العدل والإنصاف في هذه الآية ورتب ذلك على أربع مراتب:

المرتبة الأولى: قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ يعني إن رغبتم في استيفاء القصاص فاقنعوا بالمثل ولا تزيدوا عليه، فإن استيفاء الزيادة ظلم والظلم ممنوع منه في عدل الله ورحمته وفي قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ دليل على أن الأولى له أن لا يفعل، كما أنك إذا قلت للمريض: إن كنت تأكل الفاكهة فكل التفاح، كان معناه أن الأولى بك أن لا تأكله، فذكر تعالى بطريق الرمز والتعريض على أن الأولى تركه.

والمرتبة الثانية: الانتقال من التعريض إلى التصريح وهو قوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ وهذا تصريح بأن الأولى ترك ذلك الانتقام، لأن الرحمة أفضل من القسوة والإنفاع أفضل من الإيلام.

المرتبة الثالثة: وهو ورود الأمر بالجزم بالترك وهو قوله: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ لأنه في المرتبة الثانية ذكر أن الترك خير وأولى، وفي هذه المرتبة الثالثة صرح بالأمر بالصبر، ولما كان الصبر في هذا المقام شاقًا شديدًا ذكر بعده ما يفيد سهولته فقال: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي بتوفيقه ومعونته وهذا هو السبب الكلي الأصلي المفيد في حصول الصبر وفي حصول جميع أنواع الطاعات.

ولما ذكر هذا السبب الكلي الأصلي ذكر بعده ما هو السبب الجزئي القريب فقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ

عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ وذلك لأن إقدام الإنسان على الانتقام، وعلى إنزال الضرر بالغير لا يكون إلا عند هيجان الغضب، وشدة الغضب لا تحصل إلا لأحد أمرين: أحدهما: فوات نفع كان حاصلاً في الماضي وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ قيل معناه: ولا تحزن على قتلى أحد، ومعناه لا تحزن بسبب فوت أولئك الأصدقاء. ويرجع حاصله إلى فوت النفع. والسبب الثاني: لشدة الغضب توقع ضرر في المستقبل، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ ومن وقف على هذه اللطائف عرف أنه لا يمكن كلام أدخل في الحسن والضبط من هذا الكلام بقي في لفظ الآية مباحث:

البحث الأول: قرأ ابن كثير: (وَلَا تَكُ فِي ضِيقٍ) بكسر الضاد، وفي النمل مثله، والباقون: بفتح الضاد في الحرفين. أما الوجه في القراءة المشهورة فأمور: قال أبو عبيدة: الضيق بالكسر في قلة المعاش والمساكن، وما كان في القلب فإنه الضيق. وقال أبو عمرو: الضيق بالكسر الشدة والضيق بفتح الضاد الغم. وقال القتيبي: ضَيْق تخفيف ضَيِّق مثل هَيْن وهَيِّن ولَيْن ولَيِّن. وبهذا الطريق قلنا: إنه تصح قراءة ابن كثير.

البحث الثاني: قرىء (ولاَ تَكُنْ فِي ضَيْقٍ).

البحث الثالث: هذا من الكلام المقلوب، لأن الضيق صفة، والصفة تكون حاصلة في الموصوف ولا يكون الموصوف حاصلاً في الصفة، فكان المعنى فلا يكن الضيق فيك، إلا أن الفائدة في قوله: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ﴾ هو أن الضيق إذا عظم وقوي صار كالشيء المحيط بالإنسان من كل الجوانب وصار كالقميص المحيط به، فكانت الفائدة في ذكر هذا اللفظ هذا المعنى والله أعلم.

المرتبة الرابعة: قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ وهذا يجري مجرى التهديد لأن في المرتبة الأولى رغب في ترك الانتقام على سبيل الرمز، وفي المرتبة الثانية عدل عن الرمز إلى التصريح وهو قوله: ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ وفي المرتبة الثالثة أمرنا بالصبر على سبيل الجزم، وفي هذه المرتبة الرابعة كأنه ذكر الوعيد في فعل الانتقام فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ عن استيفاء الزيادة: ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ في ترك أصل الانتقام، فإن أردت أن أكون معك فكن من المتقين ومن المحسنين. ومن وقف على هذا الترتيب عرف أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجب أن يكون على سبيل الرفق واللطف مرتبة فمرتبة، ولما قال الله لرسوله: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ ذكر هذه المراتب الأربعة، تنبيهًا على أن الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة يجب أن تكون واقعة على هذا الوجه، وعند الوقوف على هذه اللطائف يعلم العاقل أن هذا الكتاب الكريم بحر لا ساحل له.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ معيته بالرحمة والفضل والرتبة، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ إشارة إلى التعظيم لأمر الله تعالى، وقوله: ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ إشارة إلى

الشفقة على خلق الله، وذلك يدل على أن كمال السعادة للإنسان في هذين الأمرين أعني التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله، وعبر عنه بعض المشايخ فقال: كمال الطريق صدق مع الحق وخُلُق مع الخلق، وقال الحكماء: كمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته، والخير لأجل العمل به، وعن هرم بن حيان أنه قيل له عند القرب من الوفاة أوص، فقال: إنما الوصية من المال ولا مال لي، ولكني أوصيكم بخواتيم سورة النحل.

المسألة الرابعة: قال بعضهم: إن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ منسوخ بآية السيف، وهذا في غاية البعد، لأن المقصود من هذه الآية تعليم حسن الأدب في كيفية الدعوة إلى الله تعالى، وترك التعدي وطلب الزيادة، ولا تعلق لهذه الأشياء بآية السيف، وأكثر المفسرين مشغوفون بتكثير القول بالنسخ، ولا أرى فيه فائدة والله أعلم بالصواب.

قال المصنف رحمه الله: تم تفسير هذه السورة ليلة الثلاثاء بعد العشاء الآخرة بزمان معتدل، وقال رحمه الله: الحق عزيز والطريق بعيد والمركب ضعيف والقرب بعيد والوصل هجر والحقائق مصونة والمعاني في غيب الغيب محصونة والأسرار فيما وراء العز مخزونة، وبيد الخلق القيل والقال والكمال ليس إلا لله ذي الإكرام والجلال، والحمدلله رب العالمين. وصلاته على سيدنا محمد النبي الأمي وآله وصحبه وسلم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة النحل

وهي مكِّيَّة كلُّها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر[١].

وتسمَّى: سورة النِّعم؛ بسبب ما عدَّد اللهُ فيها من نِعَمه على عباده. وقيل: هي مكية غيرَ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ الآية [١٢٦]؛ نزلت بالمدينة في شأن التمثيل بحمزة وقتلى أُحُد، وغيرَ قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الآية:١٢٧]، وغيرَ قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ الآية [١١٠]. وأما قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ [٤١] فمكِّيٌّ، في شأن هجرة الحبشة[٢].

وقال ابن عباس: هي مكِّيَّة إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة بعد قتل حمزة، وهي قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إلى قوله: ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [٩٥-٩٧][٣].

قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١﴾

قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ قيل: «أَتى» بمعنى يأتي، فهو كقولك: إنْ أكرمتني أكرمتك. وقد تقدَّم أنَّ أخبار الله تعالى في الماضي والمستقبل سواء؛ لأنه آتٍ لا محالة، كقوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف:٤٤][٤].

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٧٧ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٧ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٧٧ .

(٤) ينظر معاني القرآن للنحاس ٤/ ٥٠ ، وزاد المسير ٤/ ٤٢٧ .

و«أمرُ اللهِ»: عقابُه لمن أقام على الشركِ وتكذيبِ رسولِهِ؛ قاله الحسنُ وابنُ جُريج[١].

الضحَّاك: إنه ما جاء به القرآن من فرائضه وأحكامه[٢]. وفيه بعد؛ لأنه لم يُنقل أنَّ أحداً من الصحابة استعجلَ فرائضَ الله من قبلِ أن تُفرض عليهم، وأما مستعجلو العذابِ والعقابِ فذلك منقول عن كثير من الكفارِ؛ قريشٍ وغيرِهم[٣]، حتى قال النَّضر بن الحارث: «اللَّهُمّ إن كان هذا هو الحقَّ مِن عِندِك» الآية [الأنفال: ٣٢] فاستعجلَ العذاب[٤].

قلت: قد يستدلُّ الضحاك بقول عمر ﷺ: وافقتُ ربي في ثلاث: في مقام إبراهيم، وفي الحجاب، وفي أسارَى بدر؛ خرَّجه مسلمٌ والبخاريّ[٥]. وقد تقدَّم في سورة البقرة[٦]. وقال الزجاج[٧]: هو ما وعدهم به من المجازاة على كفرهم، وهو كقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود: ٤٠].

وقيل: هو يوم القيامة أو ما يدلُّ على قربها من أشراطها.

قال ابن عباس: لما نزلت: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: ١] قال الكفّار: إنَّ هذا يزعم أنَّ القيامةَ قد قَرُبت، فأمسِكوا عن بعض ما كنتم تعملون، فأمسَكوا وانتظروا فلم يَرَوا شيئاً، فقالوا: ما نرى شيئاً! فنزلت: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ الآية [الأنبياء: ١]. فأشفَقوا وانتظَروا قرب الساعة، فامتدَّتِ الأيامُ فقالوا: ما نرى

---

(١) مجمع البيان ١٤/ ٥٠ . وأخرجه الطبري ١٣/ ١٥٨ - ١٥٩ عن ابن جريج.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ١٥٨ ، وابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٧٦ .

(٣) ينظر تفسير الطبري ٣/ ١٦٠ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٦١ .

(٥) صحيح مسلم (٢٣٩٩) واللفظ له، وصحيح البخاري (٤٠٢) من حديث أنس ﷺ. وهو في مسند أحمد (١٥٧).

(٦) ٢/ ٣٧٤ .

(٧) في معاني القرآن ٣/ ١٨٩ .

شيئاً! فنزلت: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ فوثبَ رسولُ الله ﷺ والمسلمون وخافوا؛ فنزلت: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ فاطمأنوا، فقال النبيُّ ﷺ: «بُعثت أنا والساعةُ كهاتَين» وأشار بأصبعَيه؛ السبابة والتي تليها. يقول: إنْ كادت لتسبقني، فسبقتُها[(١)].

وقال ابن عباس: كان بَعْثُ النبيِّ ﷺ مِنْ أشراط الساعة، وإنَّ جبريلَ لَمَّا مَرَّ بأهل السماوات مبعوثاً إلى محمد ﷺ قالوا: الله أكبر، قد قامتِ الساعةُ[(٢)].

قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أي: تنزيهاً له عمَّا يصفونه به من أنه لا يقدر على قيام الساعة، وذلك أنهم يقولون: لا يقدر أحدٌ على بَعْثِ الأموات. فوصفوه بالعجز الذي لا يوصف به إلا المخلوقُ، وذلك شركٌ. وقيل: «عَمَّا يُشْرِكُونَ» أي: عن إشراكهم. وقيل: «ما» بمعنى الذي، أي: ارتفع عن الذين أشركوا به.

قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾

قرأ المفضَّل عن عاصم: «تَنَزَّل الملائكةُ[(٣)]»، والأصل تتنزَّل، فالفعل مسند إلى الملائكة. وقرأ الكسائي عن أبي بكر عن عاصم باختلاف عنه والأعمش: «تُنَزَّلُ الملائكةُ» غير مسمَّى الفاعل[(٤)]. وقرأ الجُعْفيُّ عن أبي بكر عن عاصم: «نُنَزِّلُ الملائكةَ» بالنون مسمَّى الفاعل[(٥)]، الباقون: «يُنَزِّل» بالياء مسمى الفاعل[(٦)]،

(١) تفسير البغوي ٣/ ٦١، وأسباب النزول للواحدي ص٢٨٣، وزاد المسير ٤/ ٤٢٦. وأخرج نحوه الطبري ١٤/ ١٥٩ عن ابن جريج. وقوله: «بعثت أنا والساعة كهاتين» أخرجه أحمد (١٢٢٤٥)، والبخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١) من حديث أنس ﷺ. وأخرجه أيضاً البخاري (٦٥٠٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٦١.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٨، وقراءة عاصم المشهورة عنه كقراءة الجماعة، وقرأ بها من العشرة يعقوب في رواية روح. النشر ٢/ ٣٠٢.

(٤) هذه الرواية عن عاصم ذكرها ابن مجاهد في السبعة ص٣٧٠، والفارسي في الحجة ٥/ ٥٣. وهي غير المشهورة عنه. وقراءة الأعمش في المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٨.

(٥) نسبها في المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٨ لابن أبي عبلة.

(٦) لكن قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «يُنْزِل» بسكون النون وتخفيف الزاي. السبعة ص٣٧٠، والتيسير ص٧٥.

والضمير فيه لاسم الله عزَّ وجلَّ. ورُوي عن قتادة: «نُنْزِل الملائكةَ» بالنون والتخفيف[١]. وقرأ الأعمش: «تَنْزِل» بفتح التاء وكسر الزاي[٢]، من النزول، «الملائكةُ» رفعاً مثل: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [القدر: ٤].

﴿بِٱلرُّوحِ﴾ أي: بالوحي، وهو النبوَّة؛ قاله ابنُ عباس؛ نظيره: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ١٥]. الربيع بن أنس: بكلام الله، وهو القرآن. وقيل: هو بيانُ الحقِّ الذي يجب اتباعه. وقيل: أرواح الخلق؛ قاله مجاهد، لا ينزل ملكٌ إلا ومعه روح[٣]. وكذا رُوي عن ابن عباس أن الروح خلقٌ من خلقِ اللهِ عزَّ وجلَّ كصُوَرِ ابنِ آدم، لا ينزل من السماء مَلَكٌ إلا ومعه واحدٌ منهم[٤]. وقيل: بالرحمة؛ قاله الحسن وقتادة. وقيل: بالهداية؛ لأنها تحيا بها القلوبُ كما تحيا بالروح[٥] الأبدان، وهو معنى قول الزجاج؛ قال الزجاج[٦]: الروح ما كان فيه من أمر الله حياةٌ بالإرشاد إلى أمره. وقال أبو عبيدة[٧]: الروح هنا جبريل. والباء في قوله: «بالروح» بمعنى مع، كقولك: خرج بثيابه، أي: مع ثيابه.

﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ أي: بأمره. ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ أي: على الذين اختارهم الله للنبوَّة. وهذا ردٌّ لقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

﴿أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ تحذيرٌ من عبادة الأوثان، ولذلك جاء

---

(١) ذكر هذه القراءة ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٨ ، وهي من القراءات السبعة، كما سلف في التعليق قبله.

(٢) لم نقف عليها.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٧٨ . وأخرج الطبري ١٤/ ١٦٢ و ١٦٣ هذه الأقوال.

(٤) ذكره النحاس في معاني القرآن ٤/ ٥٣ .

(٥) في (م): بالأرواح. والمثبت من النسخ موافق للنكت والعيون ٣/ ١٧٨ ، وعنه نقل المصنف.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ١٩٠ .

(٧) في (ز) و(ظ): أبو عبيد.

الإنذار؛ لأنَّ أصله التحذير مما يخاف منه. ودلَّ على ذلك قوله: «فاتقون». و«أنْ» في موضع نصب بنزع الخافض؛ أي: بأن أنذِروا أهل الكفر بأنه لا إله إلا الله، فـ«أن» في محل نصب بسقوط الخافض، أو بوقوع الإنذار عليه[١].

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: للزوال والفناء. وقيل: «بالحق» أي: للدلالة على قدرته، وأنَّ له أنْ يتعبَّد العبادَ بالطاعة، وأن يحييَ الخلقَ بعد الموت. ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: من هذه الأصنام التي لا تقدر على خلق شيء.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ لَمَّا ذكر الدليل على توحيده؛ ذَكَر بعدَه الإنسانَ ومناكدتَه وتعدِّيَ طورِه. «والإنسان» اسم للجنس.

ورُويَ أنَّ المراد به أُبَيُّ بنُ خَلَف الجُمَحيّ؛ جاء إلى النبيِّ ﷺ بعظم رَميم فقال: أترى يحيي اللهُ هذا بعد ما قد رَمَّ[٢]. وفي هذا أيضاً نزل: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٧٧] أي: خلق الإنسان من ماءٍ يَخرج من بين الصُّلب والترائب، فنقَلَه أطواراً إلى أنْ وُلِدَ ونَشَأ بحيث يخاصِم في الأمور. فمعنى الكلام: التعجيب[٣] من الإنسان: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾ [يس: ٧٨].

وقوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ أي: مخاصِم، كالنسيب بمعنى المناسب، أي: يخاصم اللهَ عزَّ وجلَّ في قدرته. و﴿مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر الخصومة. وقيل: يُبين عن نفسه الخصومةَ بالباطل. والمبين: هو المفصح عما في ضميره بمنطقه.

---

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٩٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٧٨ - ٣٧٩.
(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٢٨٤.
(٣) في النسخ الخطية: التعجب، والمثبت من (م).

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمْ﴾ لَمَّا ذَكَر الإنسانَ؛ ذَكَر ما مَنَّ به عليه. والأنعام: الإبل والبقر والغنم. وأكثر ما يقال: نَعَم وأنعام؛ للإبل، ويقال للمجموع، ولا يقال للغنم مفردة(١).

قال حسان:

عَـفَـتْ ذاتُ الأصـابـع فـالـجِـوَاءُ ... إلـى عَـذْراءَ مَـنْـزِلُـهـا خَـلاءُ

دِيـارٌ مـن بَـنِـي الـحَـسْـحَـاسِ قَـفْـرٌ ... تُـعَـفِّـيـهـا الـرَّوامِـسُ والـسـمـاءُ

وكـانـت لا يـزالُ بـهـا أنـيـسٌ ... خـلال مُـرُوجـهـا نَـعَـمٌ وشَـاءُ(٢)

فالنَّعَم هنا الإبل خاصّةً.

وقال الجوهري(٣): والنَّعَمُ واحدُ الأنعام، وهي المالُ الراعيةُ، وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل. قال الفَرَّاء: هو ذكَرٌ لا يؤنَّث، يقولون: هذا نَعَم وارد، ويجمع على نُعْمان، مثل: حَمَل وحُمْلان. والأنعام تذكَّر وتؤنَّث؛ قال الله تعالى: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ [النحل: ٦٦]، وفي موضع: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون: ٢١].

وانتصب «الأنعامَ»(٤) عطفاً على الإنسان، أو بفعل مقدَّر، وهو أوجه(٥).

الثانية: قوله تعالى: ﴿دِفْءٌ﴾ الدِّفْءُ: السَّخانة، وهو ما اسْتُدْفِئ به من أصوافها

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٩.

(٢) ديوان حسان ص٧. وتقدم البيت الأخير ٥/ ٥٤. عَفَت: دَرَسَت. وذات الأصابع والجواء: موضعان في الشام. وعذراء: موضع على بريد من دمشق. وبنو الحسحاس: أولاد الحسحاس بن مالك من بني النجار. والروامس: الرياح التي تثير التراب فترمس به الآثار، أي: تدفنها. والسماء: المطر.

(٣) في الصحاح (نعم). وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٩٥.

(٤) في (د) و(ز) و(ظ): والنصب والأنعام. والمثبت من (ف) و(م).

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٩.

وأوبارها وأشعارها، ملابسَ ولُحُفٍ وقُطُف. ورُوِيَ عن ابن عباس: دفؤها: نسلُها[١]؛ والله أعلم.

قال الجوهري في الصحاح[٢]: الدِّفْءُ: نِتاجُ الإبل وألبانُها وما ينتفع به منها؛ قال الله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾. وفي الحديث: «لنا مِنْ دِفئِهم ما سَلَّمُوا بالميثاق»[٣]. والدِّفْءُ أيضاً: السُّخونة، تقول منه: دَفِئ الرجلُ دَفاءةً؛ مثلُ: كَرِهَ كراهة. وكذلك: دَفِئَ دَفأً؛ مثلُ: ظَمِئَ ظَمأً. والاسم: الدِّفْءُ ـ بالكسر ـ وهو الشيءُ الذي يُدفئُكَ، والجمع: الأدفاء. تقول: ما عليه دِفْءٌ؛ لأنه اسم. ولا تقول: ما عليك دَفاءة؛ لأنه مصدر. وتقول: اقْعُدْ في دِفْءِ هذا الحائط؛ أي: كِنِّهِ. ورَجُلٌ دَفِئٌ على فَعِلٍ: إذا لبس ما يُدفِئه. وكذلك: رَجلٌ دَفْآنُ، وامرأةٌ دَفْأى. وقد أدفأه الثوبُ، وتدفَّأَ هو بالثوب واسْتَدْفَأَ به، وادَّفَأَ به، وهو افتعل، أي: لَبِسَ ما يُدفئه. ودَفُؤَتْ ليلتُنا، ويومٌ دَفِيءٌ على فَعِيل، وليلةٌ دفِيئةٌ، وكذلك الثوبُ والبيتُ. والمُدْفِئة: الإبلُ الكثيرة؛ لأنَّ بعضها يدفِئُ بعضاً بأنفاسها، وقد يُشَدَّد. والمُدْفَأة: الإبلُ الكثيرةُ الأوبارِ والشحومِ؛ عن الأصمعي، وأنشد للشمَّاخ:

وكيف يَضِيعُ صاحبُ مُدْفَآتٍ ... على أَثْباجِهِنَّ من الصَّقِيعِ[٤]

قوله تعالى: ﴿وَمَنَافِعُ﴾ قال ابن عباس: المنافع: نسل كل دابة[٥]. مجاهد:

---

(١) ذكره ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١١٢٨. وأخرج عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣٥٣، والطبري ١٤/ ١٦٧ عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ﴾ قال: نسل كل دابة. وسيرد قريباً. قال النحاس في معاني القرآن ٤/ ٥٤: وأحسب مذهب ابن عباس أن المنافع النسل؛ لا الدفء، على أن الأموي قد رَوى أن الدفء عند العرب نتاج الإبل والانتفاع بها، فيكون هذا فيه.

(٢) مادة (دفأ).

(٣) لم نقف عليه. وأورده ابن الأثير في النهاية (دفا) بلفظ: «لنا من دفئهم وصرامهم...».

(٤) ديوان الشماخ ص٢٢٠. والأثباج؛ جمع ثَبَج: ما بين الكاهل إلى الظهر، وقيل، ثبج كل شيء وَسَطه. مختار الصحاح (ثبج).

(٥) سلف ذكره في الحاشية.

الرُّكوب والحَمل والألبان واللحوم والسَّمْن[١].

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أفرد منفعة الأكل بالذِّكر؛ لأنها معظم المنافع. وقيل: المعنى ومن لحومها تأكلون عند الذبح.

الثالثة: دلَّت هذه الآية على لباس الصُّوف، وقد لبسه رسولُ الله ﷺ والأنبياءُ قبله كموسى وغيره. وفي حديث المغيرة: فغَسَلَ وجهَه وعليه جُبَّةٌ من صوف شاميَّة ضيِّقة الكُمَّين... الحديث، خرَّجه مسلم وغيره[٢]. قال ابنُ العربيّ[٣]: وهو شِعارُ المتقين، ولباسُ الصالحين، وشارةُ الصحابة والتابعين، واختيارُ الزهَّاد والعارفين، وهو يُلبس ليِّناً وخشناً، وجيداً ومُقارِباً ورديئاً، وإليه نُسب[٤] جماعةٌ من الناس الصوفية؛ لأنه لباسُهم في الغالب، فالياء للنَّسَب[٥] والهاء للتأنيث[٦]. وقد أنشدني بعضُ أشياخهم بالبيت المقدس طهَّره الله:

تشاجرَ الناسُ في الصوفيِّ واختلفوا ... فيه وظنُّوه مشتقًّا من الصُّوفِ
ولستُ أَنْحَلُ هذا الاسمَ غيرَ فتًى ... صافَى فصُوفيَ حتى سُمِّيَ الصُّوفي[٧]

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾

الجَمالُ: ما يُتجمَّل به ويُتزيَّن. والجَمال: الحُسْنُ. وقد جَمُل الرجلُ ـ بالضم ـ جمالاً فهو جَمِيل، والمرأة جميلة، وجَمْلاءُ أيضاً؛ عن الكسائي؛ وأنشد:

فهْي جَمْلاءُ كبدرٍ طالعٍ ... بَذَّتِ الخَلْقَ جميعاً بالجَمالْ[٨]

(١) أخرج نحوه الطبري في تفسيره ١٤/١٦٧ - ١٦٨.
(٢) صحيح مسلم (٢٧٤) (٧٩)، وهو عند أحمد (١٨١٩٣)، والبخاري (٣٦٣).
(٣) في أحكام القرآن ٣/١١٢٨.
(٤) في النسخ الخطية: ينسب. والمثبت من (م) وهو الموافق لأحكام القرآن.
(٥) قوله: (فالياء للنسب)؛ من (م)، وهو الموافق لأحكام القرآن.
(٦) في النسخ الخطية: للمبالغة. والمثبت من (م) وهو الموافق لأحكام القرآن.
(٧) نسبها القيرواني في زهر الآداب ٢/ ٨١٣ لأبي الفتح البستي.
(٨) ذكره في الصحاح (جمل)، والكلام منه. وقوله: بذَّت: سبقت وغلبت. اللسان (بذذ).

وقول أبي ذؤيب:

جَمالَكَ أيُّها القلبُ القَريحُ[(١)]

يريد: اِلْزَمْ تجمُّلَكَ وحياءَكَ، ولا تجزع جَزَعاً قبيحاً.

قال علماؤنا: فالجمال يكون في الصورة وتركيب الخِلقْة، ويكون في الأخلاق الباطنة، ويكون في الأفعال.

فأما جَمال الخِلْقة؛ فهو أمرٌ يدركه البصرُ، ويلقيه إلى القلب متلائماً، فتتعلق به النفسُ من غير معرفةٍ بوجهِ ذلك، ولا نسبته لأحد من البشر.

وأما جَمال الأخلاق؛ فكونُها على الصفات المحمودة من العِلم والحكمة، والعدلِ والعِفَّةِ، وكظمِ الغيظ، وإرادةِ الخير لكلِّ أحد.

وأما جَمال الأفعال؛ فهو وجودها ملائمةً لمصالح الخلق، وقاضيةً لجلبِ المنافع فيه، وصَرْفِ الشرِّ عنهم.

وجَمال الأنعام والدوابِّ من جَمال الخِلْقة، وهو مرئيٌّ بالأبصار، موافق للبصائر. ومن جَمالها كثرتُها[(٢)]، وقولُ الناس إذا رأوها: هذه نَعَم فلان؛ قاله السُّدِّيّ[(٣)]. ولأنها إذا راحت توفَّر حُسْنُها، وعَظُم شأنُها، وتعلَّقت القلوبُ بها[(٤)]؛ لأنها إذْ ذاك أعظمُ ما تكون أسنمةً وضروعاً؛ قاله قتادة[(٥)]. ولهذا المعنى قدَّم الرّواح على السراح؛ لتكامل دَرِّها وسرور النفس بها إذ ذاك[(٦)]. والله أعلم.

ورَوَى أشهب عن مالك قال: يقول اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ

(١) ديوان الهذليين ص٦٨، وعجزه: ستلقى مَن تحبُّ فتستريح.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٢٩.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٨٠.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٢٩.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣٥٣، والطبري ١٤/ ١٦٩.

(٦) النكت والعيون ٣/ ١٨٠.

﴿وَحِينَ تَسۡرَحُونَ﴾ وذلك في المواشي حين تروحُ إلى المرعى وتسرحُ عليه(١).

والرَّوَاح: رجوعها بالعَشِيِّ من المَرْعَى، والسَّراح بالغداة؛ تقول: سَرَحْتُ الإبلَ أَسْرَحُها سَرْحاً وسُروحاً؛ إذا غدوتَ بها إلى المَرْعَى فخلَّيتَها، وسَرَحَتْ هي، المتعدّي واللازم واحد(٢).

قوله تعالى: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٧﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ﴾ الأثقالُ أثقالُ الناسِ من متاعٍ وطعامٍ وغيرِه، وهو ما يُثقل الإنسانَ حَمْلُه. وقيل: المراد أبدانهم؛ يدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢].

والبلد: مكة؛ في قول عكرمة. وقيل: هو محمول على العموم في كل بلد مسلكه على الظهر(٣).

وشِقُّ الأنفس: مشقَّتُها وغايةُ جهدها. وقراءة العامة بكسر الشين. قال الجوهري(٤): والشِّقُّ: المَشقة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾ وهذا قد يفتح، حكاه أبو عبيدة(٥).

قال المهدوِيُّ: وكسرُ الشينِ وفتحُها في «شِقّ» متقاربان، وهما بمعنى المشقة، وهو من الشّقّ في العصا ونحوها؛ لأنه ينال منها؛ كالمشقة من الإنسان.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٣٠ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٥٥ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٨٠ . وقول عكرمة أخرجه الطبري ١٤/ ١٧٠ .

(٤) في الصحاح (شقق).

(٥) في الصحاح: أبو عبيد. وكلام أبي عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣٥٦ .

وقال الثعلبي: وقرا أبو جعفر: ﴿إِلَّا بِشَقِّ الأَنْفُسِ﴾[١] وهما لغتان، مثل: رِقّ ورَقّ، وجِصّ وجَصّ، ورِطْل ورَطْل. وينشد قولَ الشاعر[٢] بكسر الشين وفتحها:

وذي إبلٍ يَسْعَى ويحسِبُها له أخِي نَصَبٍ من شقِّها ودُؤوبِ

ويجوز أن يكون بمعنى المصدر، من: شَقَقت عليه أشُقُّ شَقًّا.

والشِّقُّ أيضاً بالكسر: النِّصْفُ، يقال: أخذت شِقَّ الشاة وشِقَّةَ الشاة[٣]. وقد يكون المراد من الآية هذا المعنى، أي: لم تكونوا بالغيه إلا بنقص من القوَّة، وذهاب شِقٍّ منها، أي: لم تكونوا تبلغوه إلا بنصف قوى أنفسكم، وذهابِ النصفِ الآخر.

والشِّقُّ أيضاً: الناحية من الجبل. وفي حديث أمِّ زَرْع: وجدني في أهل غُنيمة بِشَقٍّ[٤]. قال أبو عبيد[٥]: هو اسم موضع.

والشِّقُّ أيضاً: الشقيق، يقال: هو أخي وشِقُّ نفسي. وشِقٌّ: اسم كاهن من كهّان العرب[٦].

والشِّقُّ أيضاً: الجانب؛ ومنه قول امرئ القيس:

إذا ما بكَى مِنْ خَلْفِها انصرفَتْ له بِشِقٍّ وتحتِي شِقُّها لم يُحوَّلِ[٧]

فهو مشترك.

---

(١) النشر ٢/ ٣٠٢.

(٢) هو النمر بن تولب، كما في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٥٦، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٨٠، واللسان (شقق).

(٣) الصحاح (شقق).

(٤) أخرجه البخاري (٥١٨٩)، ومسلم (٢٤٤٨).

(٥) في غريب الحديث ٢/ ٣٠١. ونقله المصنف عنه بواسطة الصحاح (شقق) وما قبله منه.

(٦) الصحاح (شقق).

(٧) ديوان امرئ القيس ص١٢، وفيه: (انحرفت) بدل: (انصرفت). و(وشق عندنا) بدل: (وتحتي شقها).

الثانية: مَنَّ اللهُ سبحانه بالأنعام عموماً، وخَصَّ الإبلَ هنا بالذِّكر في حملِ الأثقال على سائر الأنعام؛ فإنَّ الغنمَ للسَّرْح والذبح، والبقرَ للحرث، والإبلَ للحمل(١).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما رجلٌ يسوقُ بقرةً له، قد حَمَلَ عليها، التفتتْ إليه البقرةُ فقالت: إني لم أُخلقْ لهذا، ولكنِّي إنما خُلقتُ للحَرْثِ». فقال الناس: سبحان الله، تعجُّباً وفَزَعاً، أبقرةٌ تَكَلّم؟ فقال رسول الله ﷺ: «وإني أُومِن به وأبو بكرٍ وعمر»(٢). فدلَّ هذا الحديث على أنَّ البقرَ لا يُحمل عليها ولا تُركب، وإنما هي للحرث وللأكل والنسل والرِّسْل(٣).

الثالثة: في هذه الآية دليلٌ على جوازِ السفر بالدوابِّ، وحملِ الأثقال عليها، ولكن على قَدْر ما تحتمله، من غير إسراف في الحمل، مع الرفق في السير. وقد أمر النبيُّ ﷺ بالرِّفق بها، والإراحةِ لها، ومراعاةِ التفقد لعلفها وسقيها(٤).

ورَوَى مسلمٌ من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سَافَرْتُم في الخِصْبِ؛ فأَعطُوا الإبلَ حظَّها منَ الأرض، وإذا سافرتم في السَّنَة؛ فبادروا بها نِقْيَها»(٥). رواه مالك في الموطأ عن أبي عبيد عن خالد بن مَعْدان(٦).

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٣١ .

(٢) صحيح مسلم (٢٣٨٨). وأخرجه أيضاً أحمد (٨٩٦٣)، والبخاري (٣٤٧١).

(٣) الرِّسْل: اللَّبَن.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٣١ .

(٥) صحيح مسلم (١٩٢٦)، وأخرجه أيضاً أحمد (٨٩١٨).

والسَّنة: القحط. والنِّقْي؛ بكسر النون وإسكان القاف: المخ. أي: إن سافروا في القحط عجلوا السير ليصلوا المقصد وفيها بقية من قوّتها، ولا يقللوا السير فيلحقها الضرر؛ لأنها لا تجد ما ترعى فتضعف ويذهب نقيها. شرح النووي ١٣/ ٦٩ .

(٦) الموطأ ٢/ ٩٧٩ بنحوه، وأوله: «إن الله رفيق يحب الرفق...»، ونقله المصنف عن أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٣١ .

ورَوَى معاوية بن قُرَّة قال: كان لأبي الدَّرداء جَمَلٌ يقال له: دمون، فكان يقول: يا دمون، لا تخاصمني عند ربك[١]. فالدوابُ عُجْمٌ لا تقدر أن تحتالَ لنفسها ما تحتاج إليه، ولا تقدر أن تُفصح بحوائجها، فمن ارتفق بمرافقها، ثم ضيَّعها من حوائجها؛ فقد ضيَّع الشكرَ، وتعرَّض للخصومة بين يدي الله تعالى.

ورَوَى مطر بن محمد قال: حدَّثنا أبو داود قال: حدَّثنا أبو خَلدة[٢] قال: حدَّثنا المسيَّب بن دارم[٣] قال: رأيتُ عمرَ بنَ الخطاب ﷺ ضَرَبَ جمَّالاً وقال: تحمل على بعيرك ما لا يطيق[٤]؟

قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾

فيه ثمان مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ﴾ بالنصب معطوف، أي: وخلق الخيل. وقرأ ابنُ أبي عَبْلة: «والخيلُ والبِغالُ والحمِيرُ» بالرفع فيها كلِّها. وسُمِّيت الخيلُ خيلاً لاختيالها في المِشْية[٥]. وواحد الخيل: خائل، كضائن واحد ضَيْن. وقيل: لا واحد له. وقد تقدَّم هذا في «آل عمران»[٦]، وذكرنا الأحاديث هناك.

ولمّا أفرد سبحانه الخيلَ والبغالَ والحميرَ بالذِّكرِ؛ دلَّ على أنها لم تدخل تحت لفظ الأنعام. وقيل: دخلت؛ ولكن أفردها بالذِّكر لِمَا يتعلق بها من الركوب؛ فإنه يكثر

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد ص٤١٤، وابن عساكر في تاريخه ١٣/ ٧٧٦ (مخطوط دار البشير).

(٢) في النسخ: ابن خالد. وهو خطأ، والتصويب من مصادر التخريج والتهذيب. وأبو خلدة هو خالد بن دينار.

(٣) في النسخ: المسيب بن آدم. وهو خطأ، والتصويب من مصادر التخريج والتهذيب.

(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٧/ ١٢٧، ومن طريقه ابن عساكر في تاريخه ١٦/ ٥١٦ (مخطوط). وأبو داود هو سليمان بن داود الطيالسي.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٣٨٠.

(٦) ٥/ ٥٠.

في الخيل والبغال والحمير.

الثانية: قال العلماء: ملَّكنا اللهُ تعالى الأنعامَ والدوابَّ، وذلَّلها لنا، وأباحَ لنا تسخيرَها والانتفاعَ بها رحمةً منه تعالى لنا، وما مَلَكه الإنسانُ وجاز له تسخيرُه من الحيوان؛ فكِراؤه له جائز بإجماع أهل العلم، لا اختلافَ بينهم في ذلك. وحُكم كِراء الرواحلِ والدوابِّ مذكور في كتب الفقه.

الثالثة: لا خلاف بين العلماء في اكتراء الدوابِّ والرواحل للحمل عليها والسفر بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ﴾ الآية. وأجازوا أن يُكرِيَ الرجلُ الدابَّةَ والراحلةَ إلى مدينة بعينها؛ وإن لم يُسَمِّ أين ينزل منها، وكم من مَنْهل[1] ينزل فيه، وكيف صفة سيره، وكم ينزل في طريقه، واجتَزَوا بالمتعارف بين الناس في ذلك. قال علماؤنا: والكِراء يجري مجرَى البيوع فيما يحلُّ منه ويحرم.

قال ابن القاسم فيمن اكترى دابةً إلى موضعٍ كذا بثوبٍ مَرَويٍّ ولم يصف رُقعته وذرعه: لم يجز: لأن مالكاً لا يجيز هذا في البيع، ولا يجيز في ثمن الكِراء إلا ما يجوز في ثمن البيع[2].

قلت: ولا يُختلف في هذا إن شاء الله؛ لأن ذلك إجارة.

قال ابن المنذر[3]: وأجمع كلُّ مَن يُحفظ عنه من أهل العلم على أنَّ مَنِ اكتَرى دابَّةً ليحملَ عليها عشرةَ أقفزة قمح، فحمل عليها ما اشترط، فتلِفت؛ أنْ لا شيءَ عليه. وهكذا إن حمل عليها عشرة أقفزة شعير.

واختلفوا فيمن اكترَى دابةً ليحمل عليها عشرةَ أقفزةٍ، فحمل عليها أحدَ عشر

---

(١) المنهل: المورد، وهو عين ماء ترده الإبل في المراعي، وتسمى المنازل التي في المفاوز على طرق السُّفَّار: مناهل؛ لأن فيها ماءً. مختار الصحاح (نهل).

(٢) ينظر المدونة ٤/ ٤٧٠ .

(٣) في الإشراف ١/ ٢١١ .

قفيزاً؛ فكان الشافعيُّ وأبو ثَوْر يقولان: هو ضامنٌ لقيمة الدابةِ، وعليه الكِراء. وقال ابنُ أبي لَيْلَى: عليه قيمتها، ولا أجر عليه. وفيه قول ثالث وهو: أنَّ عليه الكِراءَ، وعليه جزء من أجر وجزء[1] من قيمة الدابة؛ بقدر ما زاد من الحِمل؛ وهذا قول النعمان ويعقوب ومحمد. وقال ابنُ القاسم صاحبُ مالك[2]: لا ضمانَ عليه في قول مالك إذا كان القفيز الزائد لا يَفْدح[3] الدابة، ويُعلم أن مثله لا تعطَب فيه الدابة، ولِرَبِّ الدابةِ أجرُ القفيزِ الزائدِ مع الكِراء الأول؛ لأن عطبها ليس من أجل الزيادة. وذلك بخلاف مجاوزة المسافة؛ لأنَّ مجاوزةَ المسافة تَعَدٍّ كلُّه، فيضمن إذا هلكت في قليله وكثيره. والزيادةُ على الحِمل المشترط اجتمع فيه إذنٌ وتعدٍّ، فإذا كانت الزيادةُ لا تُعطِب في مثلها؛ عُلم أنَّ هلاكَها مما أُذن له فيه.

الرابعة: واختلف أهلُ العلم في الرجل يكتري الدابَّةَ بأجر معلوم إلى موضع مسمًّى، فيتعدَّى فيتجاوز ذلك المكان، ثم يرجع إلى المكان المأذونِ له في المصير إليه:

فقالت طائفة: إذا جاوز ذلك المكان ضَمِنَ، وليس عليه في التعدِّي كِراء؛ هكذا قال الثوري.

وقال أبو حنيفة: الأجرُ له فيما سمَّى، ولا أجرَ له فيما لم يسمِّ؛ لأنه خالف فهو ضامن، وبه قال يعقوب.

وقال الشافعيُّ: عليه الكِراءُ الذي سمَّى، وكِراءُ المثلِ فيما جاوزَ ذلك، ولو عَطِبت؛ لزمه قيمتها[4].

ونحوه قال الفقهاء السبعة، مشيخةُ أهل المدينة؛ قالوا: إذا بلغ المسافةَ، ثم

---

(١) في الإشراف: وعليه جزء من أحد عشر جزءاً.

(٢) في المدونة ٤/ ٤٨١ . ونقله المصنف عنه بواسطة الإشراف.

(٣) يفدح: يثقل. مختار الصحاح (فدح).

(٤) الإشراف ١/ ٢١٠ - ٢١١ . وما قبله منه.

زاد؛ فعليه كِراءُ الزيادة إن سلمت، وإنْ هلكت ضَمِن.

وقال أحمد وإسحاق وأبو ثور: عليه الكِراء والضمان. قال ابن المنذر(١): وبه نقول.

وقال ابن القاسم: إذا بلغ المكتري الغايةَ التي اكترى إليها، ثم زاد ميلاً ونحوَه، أو أميالاً أو زيادة كثيرة فعطِبت الدابة؛ فلربِّها كراؤه الأول؛ والخيارُ في أخذه كِراءَ الزائد بالغاً ما بلغ، أو قيمةَ الدابة يوم التعدِّي.

ابن الموَّاز: وقد روي أنه ضامنٌ ولو زاد خُطوة. وقال ابن القاسم عن مالك في زيادة المِيل ونحوه: وأما ما يعدل الناس إليه في المرحلة فلا يضمن(٢).

وقال ابن حبيب عن ابن الماجِشُون وأصْبَغ: إذا كانت الزيادة يسيرة، أو جاوز الأمدَ الذي تكاراها إليه بيسير، ثم رجع بها سالمةً إلى موضعِ تكاراها إليه فماتت، أو ماتت في الطريق إلى الموضع الذي تكاراها إليه؛ فليس له إلا كِراءُ الزيادةِ، كردِّه لِمَا تسلَّف من الوديعة. ولو زاد كثيراً مما فيه مقام الأيام الكثيرة التي يتغيَّر في مثلها سوقها؛ فهو ضامن، كما لو ماتت في مجاوزة الأمد أو المسافة؛ لأنه إذا كانت زيادة يسيرة مما يُعلم أن ذلك مما لم يُعِنْ على قتلها، فهلاكها بعدَ ردِّها إلى الموضع المأذون له فيه كهلاك ما تسلَّف من الوديعة بعد ردِّه لا محالة، وإن كانت الزيادةُ كثيرةً؛ فتلك الزيادةُ قد أعانت على قتلها(٣).

الخامسة: قال ابن القاسم وابن وهب: قال مالك: قال الله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ فجعلَها للركوب والزينة، ولم يجعلْها للأكل؛ ونحوه عن أشهب(٤). ولهذا قال أصحابنا: لا يجوز أكلُ لحومِ الخيل والبغال والحمير؛ لأن

(١) في الإشراف ١/ ٢١١.

(٢) ينظر النوادر والزيادات ٧/ ١١٨.

(٣) ينظر النوادر والزيادات ٧/ ١١٧.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٣٢. والموطأ ٢/ ٤٩٧.

الله تعالى لَمَّا نصَّ على الركوب والزينة دلَّ على أنَّ ما عداه بخلافه. وقال في الأنعام: ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ مع ما امتنَّ اللهُ منها من الدِّفءِ والمنافع، فأباح لنا أكلَها بالذكاة المشروعة فيها.

وبهذه الآية احتجَّ ابنُ عباس والحَكَمُ بنُ عُتَيْبَة، قال الحَكَم: لحومُ الخيل حرامٌ في كتاب الله، وقرأ هذه الآية والتي قبلها وقال: هذه للأكل، وهذه للركوب[1].

وسُئل ابنُ عباس عن لحوم الخيل فكرهها، وتلا هذه الآية وقال: هذه للركوب، وقرأ الآية التي قبلها: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۚ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ﴾ ثم قال: هذه للأكل[2]. وبه قال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما والأوزاعيّ ومجاهد وأبو عبيد وغيرهم[3]، واحتجُّوا بما خرَّجه أبو داود والنَّسائي والدَّارَقُطْنيّ وغيرُهم عن صالح ابن يحيى بن المِقْدام بن مَعْدِيكَرِب، عن أبيه، عن جده، عن خالد بن الوليد: أنَّ رسولَ الله ﷺ نَهَى يومَ خَيْبَر عن أكلِ لحوم الخيلِ والبغالِ والحميرِ، وكلِّ ذي ناب من السِّباع أو مِخْلَب من الطير. لفظ الدَّارَقُطْنِيّ[4]. وعند النَّسائي[5] أيضاً عن خالد بن الوليد أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول: «لا يَحِلُّ أَكْلُ لُحومِ الخيلِ والبغالِ والحمير».

وقال الجمهور من الفقهاء والمحدِّثين: هي مباحة. ورُوي عن أبي حنيفة. وشَذَّت طائفةٌ فقالت بالتحريم؛ منهم الحَكَم كما ذكرنا، ورُوي عن أبي حنيفة. حكى الثلاث روايات عنه الرُّويانِيُّ في بحر المذهب على مذهب الشافعيّ.

قلت: الصحيح الذي يدلُّ عليه النظرُ والخبرُ جوازُ أكلِ لحوم الخيل، وأنَّ الآيَة

---

(١) أخرجه الطبري ١٤/ ١٧٤.

(٢) أخرجه الطبري ١٤/ ١٧٣ و ١٧٤.

(٣) ينظر التمهيد ١٠/ ١٢٧.

(٤) سنن الدارقطني (٤٧٦٩) و(٤٧٧٠)، وأبو داود (٣٧٩٠)، والنسائي في المجتبى ٧/ ٢٠٢، وفي الكبرى (٤٨٢٥)، وابن ماجه (٣١٩٨). وهو في مسند أحمد (١٦٨١٧). وإسناده ضعيف.

(٥) في المجتبى ٧/ ٢٠٢، وفي الكبرى (٤٨٢٤).

والحديثَ لا حجَّةَ فيهما لازمةٌ. أَمَّا الآية فلا دليل فيها على تحريم الخيل؛ إذ لو دلَّت عليه لدلَّت على تحريم لحوم الحُمُر، والسورة مكية، وأيُّ حاجة كانت إلى تجديد تحريم لحوم الحُمر عَامَ خَيْبَر؛ وقد ثبت في الأخبار تحليلُ الخيل على ما يأتي. وأيضاً لَمَّا ذَكَر تعالى الأنعام؛ ذَكَرَ الأغلبَ من منافعها وأهمَّ ما فيها، وهو حمل الأثقال والأكل، ولم يذكرِ الركوبِ ولا الحرثَ بها ولا غير ذلك مصرَّحاً به، وقد تُركبُ ويُحرث بها؛ قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [غافر: ٧٩]. وقال في الخيل: ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ فذكر أيضاً أغلبَ منافعها والمقصودَ منها، ولم يذكر حمل الأثقال عليها، وقد تحمل كما هو مشاهد، فلذلك لم يذكر الأكل. وقد بيَّنه نبيُّه عليه الصلاة والسلام الذي جُعل إليه بيانُ ما أُنزل عليه على ما يأتي[١]، ولا يلزم من كونها خُلقت للركوب والزينة أَلَّا تؤكل، فهذه البقرة قد أنطقها خالقُها الذي أنطق كلَّ شيء فقالت: إنما خُلقتُ للحرث[٢]. فيلزم مَن عَلَّل أنَّ الخيلَ لا تؤكلُ لأنها خُلقت للركوب؛ أَلَّا تؤكل البقرُ لأنها خُلقت للحرث، وقد أجمع المسلمون على جواز أكلها، فكذلك الخيل بالسُّنَّة الثابتة فيها؛ روى مسلم من حديث جابر قال: نَهَى رسولُ الله ﷺ يومَ خَيْبَرَ عن لُحومِ الحُمُرِ الأهليَّةِ، وأَذِنَ في لُحومِ الخيلِ[٣]. وقال النسائيُّ[٤]: عن جابر: أطعَمَنا رسولُ الله ﷺ يومَ خيبر لحومَ الخيلِ، ونهانا عن لُحومِ الحُمُر. وفي رواية[٥] عن جابر قال: كُنَّا نأكلُ لحومَ الخيلِ على عهدِ رسولِ الله ﷺ.

فإن قيل: الروايةُ عن جابر بأنهم أكلوها في خَيْبَر حكايةُ حالٍ، وقضيَّةٌ في عَيْن،

---

(١) عند تفسير الآية ٤٤ من هذه السورة.

(٢) تقدم ص٢٧٧ من هذا الجزء.

(٣) صحيح مسلم (١٩٤١). وأخرجه أيضاً أحمد (١٤٨٩٠)، والبخاري (٤٢١٩).

(٤) في المجتبى ٧/ ٢٠١، وفي الكبرى (٤٨٢١) و(٤٨٢٢).

(٥) في المجتبى ٧/ ٢٠١، وفي الكبرى (٤٨٢٣).

فيحتمل أن يكونوا ذبحوا لضرورةٍ، ولا يُحتجُّ بقضايا الأحوال[(١)].

قلنا: الروايةُ عن جابر وإخباره بأنهم كانوا يأكلون لحوم الخيل على عهد رسولِ الله ﷺ يُزيل ذلك الاحتمال، ولئن سلَّمناه؛ فمعَنا حديث أسماء قالت: نَحَرْنا فرساً على عهدِ رسولِ الله ﷺ ونحن بالمدينة فأكلناه؛ رواه مسلم[(٢)]. وكلُّ تأويلٍ من غير ترجيح في مقابلة النصِّ فإنما هو دعوى، لا يُلتفت إليه ولا يُعرَّج عليه.

وقد رَوَى الدَّارقطنيّ[(٣)] زيادةً حسنةً ترفع كلَّ تأويل في حديث أسماء، قالت أسماء: كان لنا فرسٌ على عهد رسول الله ﷺ أرادت أن تموت، فذبحناها فأكلناها. فذَبْحُها إنما كان لخوف الموت عليها لا لغير ذلك من الأحوال. وبالله التوفيق.

فإن قيل: حيوان من ذوات الحوافر؛ فلا يؤكلُ كالحمار؟

قلنا: هذا قياس الشَّبَه، وقد اختلف أرباب الأصول في القول به، ولئن سلَّمناه؛ فهو منتقض بالخنزير؛ فإنه ذو ظِلْف، وقد بايَنَ ذوات الأظلاف، وعلى أنَّ القياسَ إذا كان في مقابلة النصِّ فهو فاسدُ الوضعِ لا التفات إليه.

قال الطبريّ[(٤)]: وفي إجماعهم على جواز ركوبِ ما ذُكر للأكل دليلٌ على جوازِ أكلِ ما ذُكر للركوب.

السادسة: وأما البغال فإنها تُلحق بالحمير. إن قلنا: إنَّ الخيلَ لا تؤكل؛ فإنها تكون متولِّدة من عينين لا يؤكلان. وإن قلنا: إنَّ الخيل تؤكل، فإنها عينٌ متولدةٌ من مأكولٍ وغيرِ مأكول، فغلب التحريمُ على ما يلزم في الأصول[(٥)]. وكذلك ذبح المولود بين كافرين، أحدُهما من أهل الذكاة، والآخر ليس من أهلها؛ لا تكون ذكاةً، ولا

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٣٢ .

(٢) في صحيحه (١٩٤٢). وأخرجه أيضاً أحمد (٢٦٩١٩)، والبخاري (٥٥١٠).

(٣) في سننه (٤٧٨٤).

(٤) في تفسيره ١٤/ ١٧٦ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٣٣ .

تحلُّ به الذبيحة. وقد مضى في «الأنعام»[١] الكلام في تحريم الحُمُر، فلا معنى للإعادة. وقد علل تحريمَ أكلِ الحمار بأنه أبدَى جوهرَه الخبيثَ، حيث نزا على ذَكَر وتلوَّط؛ فسُمِّي رِجساً[٢].

السابعة: في الآية دليلٌ على أنَّ الخيلَ لا زكاةَ فيها؛ لأنَّ الله سبحانه مَنَّ علينا بما أباحنا منها، وكرَّمنا به من منافعها، فغير جائزٍ أن يلزم فيها كلفة إلا بدليل. وقد رَوَى مالك، عن عبد الله بن دينار، عن سليمان بن يَسَار، عن[٣] عِرَاك بن مالك، عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لَيْسَ على المُسْلمِ في عَبْدِهِ ولا فَرَسِهِ صَدَقَةٌ»[٤].

ورَوَى أبو داود، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «لَيْسَ في الخَيْلِ والرَّقيقِ زكاةٌ، إلا زكاةَ الفِطْرِ في الرقيقِ»[٥]؛ وبه قال مالكٌ والشافعيُّ والأوزاعيُّ والليثُ وأبو يوسف ومحمد. وقال أبو حنيفة: إنْ كانت إناثاً كلُّها أو ذكوراً وإناثاً، ففي كلِّ فرسٍ دينارٌ إذا كانت سائمة، وإنْ شاء قوَّمها فأخرج عن كلِّ مئتي درهم خمسةَ دراهم[٦]. واحتجَّ بأثرٍ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «في الخيلِ السَّائمةِ في كلِّ فَرَسٍ

(١) ٩/ ٨٦ - ٨٧ .

(٢) نوادر الأصول ص١٣٢ .

(٣) في (د) و(ظ): وعن. قال ابن عبد البر في التمهيد ١٧/ ١٢٣ : هكذا هذا الحديث في الموطأ عند جماعة الرواة... وهذا الحديث أخطأ فيه يحيى بن يحيى، كخطئه في الحديث الذي قبله سواء، وأدخل بين سليمان وعراك بن مالك واواً، فجعل الحديث لعبد الله بن دينار وعراك، وهو خطأ غير مشكل، وهذان الموضعان مما عُدَّ عليه من غلطه في الموطأ، والحديث محفوظ في الموطآت كلها وغيرها: لسليمان بن يسار، عن عراك بن مالك، وهما تابعان نظيران، وعراك أسنُّ من سليمان، وسليمان عندهم أفقه، وكلاهما ثقة جليل عالم.

(٤) موطأ مالك ١/ ٢٧٧ . وأخرجه أيضاً أحمد (٧٢٩٥)، والبخاري (١٤٦٣)، ومسلم (٩٨٢).

(٥) سنن أبي داود (١٥٩٤) وفي إسناده: عبيد الله، عن رجل، عن مكحول. قال ابن عبد البر في التمهيد ١٧/ ١٣٦ : هذه الزيادة جاءت في هذا الحديث كما ترى، ولا ندري من الرجل الذي رواها عن مكحول، وإنما كنا نعرف هذه الزيادة لجعفر بن ربيعة عن عراك بن مالك؛ هذا إن صحت عنه أيضاً... وهذا لم يجئ به غير جعفر بن ربيعة، إلا أنه قد رُوي بأسانيد معلولة كلها، فاحتج بهذه الزيادة بعض من ذهب مذهب العراقيين.

(٦) ينظر التمهيد ٤/ ٢١٥ .

دينارٌ»[١]، وبقوله ﷺ: «الخيلُ ثلاثةٌ...» الحديث، وفيه: «ولم يَنْسَ حَقَّ اللهِ في رِقابها ولا ظُهورِها»[٢].

والجواب عن الأوَّل؛ أنه حديث لم يروِه إلا غَوْرك السَّعْدي، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر. قال الدَّارَقُطْنِيّ[٣]: تفرَّد به غورك عن جعفر، وهو ضعيف جداً، ومَنْ دونَه ضعفاء.

وأما الحديث؛ فالحق المذكور فيه هو الخروج عليها إذا وقع النَّفيرُ، وتعيَّن بها لقتال العدوِّ؛ إذا تعيَّن ذلك عليه، ويَحمل المنقطعينَ عليها إذا احتاجوا لذلك، وهذا واجبٌ عليه إذا تعيَّن ذلك، كما يتعيَّن عليه أن يُطعمَهم عند الضرورة، فهذه حقوقُ الله في رقابها.

فإن قيل: هذا هو الحقُّ الذي في ظهورها، وبقي الحقُّ الذي في رقابها.

قيل: قد رُوي: «لا يَنسَى حقَّ الله فيها». ولا فرق بين قوله: «حقُّ الله فيها» أو: «في رقابها وظهورها» فإن المعنى يرجع إلى شيء واحد؛ لأن الحقَّ يتعلَّق بجملتها.

وقد قال جماعة من العلماء: إنَّ الحقَ هنا حُسْنُ مِلْكها، وتعهُّدُ شبعها، والإحسانُ إليها، وركوبُها غير مشقوق عليها؛ كما جاء في الحديث: «لا تتخذوا ظُهورَها كَراسِيَّ»[٤]. وإنما خصَّ رقابَها بالذكر؛ لأنَّ الرقابَ والأعناق تستعار كثيراً في مواضع الحقوقِ اللازمة، والفروضِ الواجبة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]. وكثر عندهم استعمالُ ذلك واستعارتُه، حتى جعلوه في

---

(١) أخرجه الدارقطني (٢٠١٩)، والطبراني في الأوسط (٧٦٦١)، والبيهقي ٤/ ١١٩ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ٦٩ : رواه الطبراني في الأوسط، وفيه الليث بن حماد وغورك، وكلاهما ضعيف.

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٧٥٦٣)، والبخاري (٢٣٧١)، ومسلم (٩٨٧) عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) في سننه عقب (٢٠١٩).

(٤) أخرجه أحمد (١٥٦٢٩) من حديث معاذ بن أنس الجهني بلفظ: «ولا تتخذوها كراسيَّ لأحاديثكم..».

الرِّباع[١] والأموال؛ ألا ترى قول كُثَيِّر:

غَمْرُ الرداءِ إذا تبسَّمَ ضاحكاً غَلِقتْ لِضَحْكَته رِقابُ المالِ[٢]

وأيضاً؛ فإنَّ الحيوان الذي تجب فيه الزكاةُ له نصابٌ من جنسه، ولَمَّا خرجتِ الخيلُ عن ذلك؛ عَلِمْنا سقوطَ الزكاةِ فيها.

وأيضاً؛ فإيجابُه الزكاةَ في إناثها منفردةً دون الذكور؛ تناقض منه، وليس في الحديث فصلٌ بينهما. ونقيس الإناثَ على الذكور في نفي الصدقة؛ بأنه حيوان مُقْتَنًى لنسله، لا لدرِّه، ولا تجبُ الزكاةُ في ذكوره، فلم تجب في إناثه، كالبغال والحمير[٣]. وقد رُويَ عنه أنه لا زكاة في إناثها وإن انفردت كذكورها منفردة، وهذا الذي عليه الجمهور.

قال ابن عبد البر[٤]: الخبر في صدقة الخيل عن عمر صحيحٌ من حديث الزُّهرِيِّ وغيرِه. وقد رُويَ من حديث مالك، رواه عنه جُوَيرية، عن الزهري: أنَّ السائبَ بنَ يزيد قال: لقد رأيت أبي يُقوِّم الخيلَ، ثم يدفعُ صدقتها إلى عمر[٥]. وهذا حجةٌ لأبي حنيفة وشيخِه حمادِ بنِ أبي سليمان، لا أعلم أحداً من فقهاء الأمصار أوجب الزكاةَ في الخيل غيرهما. تفرَّد به جُوَيرِية عن مالك؛ وهو ثقة.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَزِينَةً﴾ منصوبٌ بإضمار فعل؛ المعنى: وجعلها زينة. وقيل: هو مفعول من أجله[٦]. والزينة: ما يُتزيَّن به، وهذا الجمال والتزيين وإنْ كان

---

(١) الرباع؛ جمع الرَّبْع: المنزل ودار الإقامة، وربع القوم: محلتهم. النهاية (ربع).

(٢) التمهيد ٤/ ٢١٠، وما قبله منه. وشعر كثير في ديوانه ص٢٩٥. وقوله: غمر الرداء: كثير المعروف، سخيّ. وقوله (غلقت): استحقت. القاموس (غمر، غلق).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٣٥.

(٤) في التمهيد ٤/ ٢١٧.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٦٨٨٧)، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٢/ ٢٦.

(٦) أي: وللزينة. مشكل إعراب القرآن ١/ ٤١٧.

من متاع الدنيا؛ فقد أذن الله سبحانه لعباده فيه؛ قال النبيُّ ﷺ: «الإِبلُ عِزٌّ لأهلها، والغَنَمُ بركةٌ، والخيلُ في نَواصِيها الخَيرُ». خرَّجه البَرْقانيُّ وابنُ ماجه في السنن. وقد تقدَّم في الأنعام[١].

وإنما جمع النبيُّ ﷺ العِزَّ في الإبل؛ لأنَّ فيها اللباسَ والأكلَ واللَّبَنَ والحَمْلَ والغزْو؛ وإنْ نَقَصَها الكَرُّ والفَرُّ. وجعل البركة في الغنم لِمَا فيها من اللباسِ والطعام والشرابِ وكثرةِ الأولاد؛ فإنها تلد في العام ثلاث مرّات، إلى ما يتبعه من السَّكِينة، وتحمل صاحبَها عليه من خفضِ الجناح ولينِ الجانب؛ بخلاف الفَدَّادين[٢] أهل الوَبَر. وقرنَ النبيُّ ﷺ الخيرَ بنواصي الخيلِ بقية الدهر؛ لِمَا فيها من الغنيمة المستفادة للكسب والمعاش، وما يوصل إليه من قهرِ الأعداء، وغَلَبِ الكفار، وإعلاءِ كلمة الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال الجمهور: من الخلق. وقيل: من أنواع الحشرات والهوامّ في أسافل الأرض والبرِّ والبحر، مما لم يَرَه البشرُ، ولم يسمعوا به. وقيل: «ويخلق ما لا تعلمون» مما أعدَّ اللهُ في الجنة لأهلها، وفي النار لأهلها، مما لم تَرَه عينٌ، ولم تسمع به أذن، ولا خَطَرَ على قَلبِ بشر[٣].

وقال قَتادة والسُّدِّي: هو خَلْقُ السُّوسِ في الثياب، والدودِ في الفواكه[٤]. ابن عباس: عين تحت العرش؛ حكاه الماوَرْدِيّ[٥].

الثعلبي: وقال ابن عباس: عن يمين العرش نهرٌ من النور مثل السماوات السبع

(١) سنن ابن ماجه (٢٣٠٥) من حديث عروة البارقي، وتقدم في آل عمران ٥/ ٥٤.

(٢) الفدادون: كثيرو الإبل، كان إذا ملك أحدهم المئتين من الإبل إلى الألف؛ قيل له: فداد. النهاية (فدد).

(٣) تفسير الطبري ١٤/ ١٧٦ - ١٧٧.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٦٣.

(٥) في النكت والعيون ٣/ ١٨٠.

والأرضين السبع والبحار السبع سبعين مرَّة، يدخله جبريلُ كلَّ سَحَرٍ فيغتسلُ، فيزداد نوراً إلى نوره، وجمالاً إلى جماله، وعِظَماً إلى عِظَمه، ثم ينتفضُ، فيُخرج اللهُ من كلِّ ريشةٍ سبعين ألف قطرة، ويخرج من كلِّ قطرة سبعةُ آلاف مَلَك، يدخل منهم كلَّ يوم سبعون ألف مَلَك إلى البيت المعمور، وفي الكعبة سبعون ألفاً لا يعودون إليه إلى يوم القيامة(١).

وقول خامس: وهو ما رُوِيَ عن النبيِّ ﷺ: «إنها أرضٌ بيضاء، مسيرة الشمس ثلاثين يوماً، مشحونة خلقاً لا يعلمون أنَّ الله تعالى يُعصَى في الأرض». قالوا: يا رسول الله، مِن ولد آدم؟ قال: «لا يعلمون أنَّ الله خلق آدمَ». قالوا: يا رسول الله، فأين إبليس منهم؟ قال: «لا يعلمون أنَّ الله خلق إبليس»، ثم تلا: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذكره الماوردي(٢).

قلت: ومن هذا المعنى ما ذكر البيهقي عن الشعبي قال: إنَّ لله عباداً من وراء الأندلس، كما بيننا وبين الأندلس، ما يرون أنَّ الله عصاه مخلوقٌ، رَضْراضهم(٣) الدُّرُّ والياقوت، وجبالُهم الذهبُ والفضة، لا يحرثون ولا يزرعون ولا يعملون عملاً، لهم شجرٌ على أبوابهم لها ثمر؛ هي طعامهم، وشجرٌ لها أوراقٌ عِراض؛ هي لباسهم. ذكره في بدء الخلق من كتاب الأسماء والصفات(٤). وخرّج من حديث موسى بن عقبة، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُذِنَ لي أنْ أُحدِّثَ عَنْ مَلَكٍ من ملائكة الله من حَمَلَةِ العرش، ما بين شَحْمةِ أُذنِه إلى عاتقِه مسيرةُ سبع مئة عامٍ»(٥).

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٥٧ ، وفيما يورده الثعلبي من مثل هذه الأخبار نظر.

(٢) في النكت والعيون ٣/ ١٨١ ، وليس في ذلك خبر صحيح.

(٣) الرضراض: الحصى، أو صغارها. القاموس (رضض).

(٤) حديث (٨٣٠). وهو مقطوع على الشعبي، وفي متنه نظر. ثم إن في إسناده القاسم بن سلمان، لم يذكر في الرواة عنه إلا علي بن ثابت، كما في التاريخ الكبير ٧/ ١٦٥ ، فهو في عداد المجهولين.

(٥) الأسماء والصفات (٨٤٦). وأخرجه أيضاً أبو داود في سننه (٤٧٢٧). قال ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٦٦٥ : إسناده على شرط الصحيح.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: على الله بيانُ قصدِ السبيل، فحذف المضافَ؛ وهو البيان. والسبيلُ: الإسلامَ، أي: على الله بيانُه بالرسل والحجج والبراهين. وقَصْدُ السبيلِ: استعانةُ الطريق؛ يقال: طريقٌ قاصد، أي: يؤدِّي إلى المطلوب.

﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ أي: ومنَ السبيل جائر، أي: عادلٌ عن الحقِّ، فلا يهتدى به؛ ومنه قول امرئ القيس[1]:

ومنَ الطريقةِ جائرٌ وهُدًى قَصْدُ السبيلِ ومنه ذو دَخْلِ

وقال طَرَفة[2]:

عَدَوْلِيَّةٌ أو مِن سَفِينِ ابنِ يامِنٍ يَجُورُ بها المَلَّاحُ طَوْراً ويَهتدِي

العَدَوْلِيَّة: سفينةٌ منسوبة إلى عَدَوْلَى؛ قرية بالبحرين. والعَدَوْلِيُّ: المَلَّاح؛ قاله في الصحاح[3]. وفي التنزيل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وقد تقدَّم[4].

وقيل: المعنى: ومنهم جائرٌ عن سبيلِ الحقِّ، أي: عادلٌ عنه فلا يَهتدي إليه. وفيهم قولان: أحدهما: أنهم أهل الأهواء المختلفة؛ قاله ابنُ عباس[5]. الثاني: مِلَلُ الكفر من اليهودية والمجوسية والنصرانية[6].

---

(١) ديوانه ص٢٣٨ .

(٢) ديوانه ص٢٠ .

(٣) (عدل).

(٤) ٩/ ١١٥ .

(٥) أخرجه الطبري ١٤/ ١٧٩ - ١٨٠ .

(٦) نسبه الواحدي في الوسيط ٣/ ٥٨ للكلبي.

وفي مصحف عبد الله: «ومِنكم جائر»، وكذا قرأ عليٌّ: «ومنكم» بالكاف[١].

وقيل: المعنى: وعنها جائر، أي: عن السبيل. فـ«مِن» بمعنى عن.

وقال ابن عباس: أي: مَن أراد اللهُ أن يهديَه سهَّل له طريقَ الإيمان، ومَن أراد أن يضلَّه ثَقَّلَ عليه الإيمانَ وفروعَه.

وقيل: معنى «قَصْدُ السبيل»: مسيركم ورجوعكم.

والسبيل واحدة بمعنى الجمع، ولذلك أنَّث الكناية فقال: «ومنها»، والسبيل مؤنثة في لغة أهل الحجاز[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بيَّن أن المشيئة لله تعالى، وهو يصحِّح ما ذهب إليه ابن عباس في تأويل الآية، ويردُّ على القَدَرية ومَن وافقها؛ كما تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾﴾

الشراب ما يُشرب، والشجر معروف. أي: يُنبت من الأمطار أشجاراً وعروشاً ونباتاً. و﴿تُسِيمُونَ﴾: ترعون إبلكم؛ يقال: سامت السائمة تسوم سَوْماً، أي: رعت، فهي سائمة. والسَّوَام والسائم بمعنًى، وهو المال الراعي. وجمع السائم والسائمة: سوائم. وأسمتُها أنا، أي: أخرجتها إلى الرَّعْي، فأنا مُسِيم وهي مُسامة وسائمة. قال:

أَوْلَى لك ابنَ مُسِيمَةِ الأَجْمالِ[٣]

---

(١) قراءة ابن مسعود أخرجها عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣٥٤ ، والطبري ١٤/ ١٧٩ . وقراءة علي ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٧٢ ، والنحاس في معاني القرآن ٤/ ٥٨ . وقال السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١١٢ : أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن الأنباري في المصاحف عن علي أنه كان يقرأ هذه الآية: فمنكم جائر.

(٢) ينظر معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٠٥ .

(٣) قائله الأخطل، وهو في ديوانه ص١٥٩ ، وصدره: مثل ابن بزعة أو كآخر مثله. وتقدم ٥/ ٥٢ .

وأصل السَّوْم: الإبعاد في المرعَى[١].

وقال الزجاج[٢]: أُخِذ من السُّومة، وهي العلامة، أي: إنها تؤثِر في الأرض علامات برعيها، أو لأنها تُعلَّم للإرسال في المرعَى.

قلت: والخيل المسوَّمة تكون المرعِيَّة. وتكون المُعَلَّمة. وقوله: «مُسَوِّمِين»؛ قال الأخفش: تكون مُعَلَّمين، وتكون مُرْسَلين؛ من قولك: سوَّم فيها الخيل، أي: أرسلها، ومنه السائمة، وإنما جاء بالياء والنون؛ لأن الخيل سُوِّمت وعليها ركبانها[٣].

قوله تعالى: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١١﴾

قوله تعالى: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم: «نُنبِت»؛ بالنون على التعظيم. العامة بالياء[٤]؛ على معنى: ينبت الله لكم.

يقال: نَبَتَتِ الأرضُ وأَنْبَتَتْ بمعنًى، ونَبَتَ البَقْلُ وأَنْبَتَ بمعنًى. وأنشد الفرّاء:

رأيتُ ذوِي الحاجاتِ حَوْلَ بيوتهم ... قَطِيناً [لهم] حتى إذا أنبتَ البَقْلُ[٥]

أي: نبت. وأَنبتَه اللهُ فهو منبوتٌ، على غير قياس. وأنبتَ الغلامُ: نَبتتْ عانتُه. ونَبَّتُّ الشجرَ: غرستُه؛ يقال: نَبِّتْ أَجَلَكَ بين عينيك. ونَبَّتُّ الصبيَّ تنبيتاً: رَبَّيْتُه.

---

(١) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ١٨١ .

(٢) في معاني القرآن ٣/ ١٩٢ .

(٣) الصحاح (سوم). وينظر معاني القرآن للأخفش ١/ ٤٢٠ .

(٤) السبعة ص٣٧٠ ، والتيسير ص١٣٧ .

(٥) البيت لزهير، وهو في شرح ديوانه ص١١١ ، وما بين حاصرتين منه، ووقع في (م): بها. ولم نقف عليه في معاني القرآن للفراء. والقطين: أهل الرجل وحَشَمه، أو الساكن النازل في الدار. شرح ديوان زهير لثعلب ص١١١ .

والمَنْبِتُ: موضع النبات؛ يقال: ما أحسنَ نابِتَةَ بني فلان، أي: ما تَنْبُتُ عليه أموالُهم وأولادُهم. وَنَبَتَتْ لهم نابتةٌ: إذا نشأ لهم نَشْءٌ صغار. وإنَّ بني فلان لَنابِتَةُ شَرٍّ. والنَّوابتُ من الأحداث: الأغمار. والنَبِيتُ: حيٌّ من اليمن. واليَنْبُوتُ: شجر؛ كلُّه عن الجوهريّ[١].

﴿وَٱلزَّيْتُونَ﴾ جمع زيتونة. ويقال للشجرة نفسها: زيتونة، وللثمرة: زيتونة. وقد مضى في سورة الأنعام[٢] حكمُ زكاة هذه الثمار، فلا معنى للإعادة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإنزالِ والإنباتِ ﴿لَأَيَةً﴾ أي: دلالةً ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: للسكون والأعمال؛ كما قال: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص: ٧٣].

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي: مُذَلَّلات لمعرفة الأوقات، ونضج الثمار والزرع، والاهتداء بالنجوم في الظلمات.

وقرأ ابن عامر وأهل الشام: ﴿والشمسُ والقمرُ والنجومُ مسخراتٌ﴾ بالرفع على الابتداء والخبر. الباقون بالنصب عطفاً على ما قبله. وقرأ حفص عن عاصم برفع «والنجومُ»، «مسخراتٌ» خبرُه[٣].

وقُرئ: «والشمسَ والقمرَ والنجومَ» بالنصب، «مسخراتٌ» بالرفع[٤]، وهو خبر ابتداء محذوف، أي: هي مسخرات. وهي في قراءة مَن نَصَبها حالٌ مؤكدة؛ كقوله:

---

(١) في الصحاح (نبت).

(٢) ص٥٣ وما بعدها من هذا الجزء.

(٣) السبعة ص٣٧٠، والتيسير ص١٣٧.

(٤) لم نقف على هذه القراءة.

﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ [البقرة: ٩١]. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: عن الله ما نبَّههم عليه، ووفَّقهم له.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ﴾ أي: وسخَّر ما ذرأ في الأرض لكم.

«ذَرَأَ» أي: خَلَق. ذرأ اللهُ الخلقَ، يذرؤهم ذَرْءاً: خَلَقَهم، فهو ذارئ؛ ومنه الذُّرِّيَّة، وهي نَسْلُ الثَّقَلين، إلَّا أنَّ العربَ تركت هَمْزَها، والجمع: الذراريّ[1]. يقال: أنمى الله ذَرْأَك وذَرْوَك، أي: ذرِّيَّتك[2]. وأصلُ الذَّرْوِ والذَّرْءِ: التفريقُ عن جَمْعٍ. وفي الحديث: ذَرْءُ النارِ[3]، أي: إنَّهم خُلِقُوا لها.

الثانية: ما ذرأه الله سبحانه؛ منه مسخَّرٌ مذلَّلٌ كالدوابِّ والأنعام والأشجار وغيرها، ومنه غير ذلك. والدليل عليه ما رواه مالك في الموطأ[4] عن كعب الأحبار قال: لولا كلماتٌ أقولهنَّ لجعلتني يهودُ حماراً. فقيل له: وما هنَّ؟ فقال: أعوذ بوجهِ اللهِ العظيمِ الذي ليس شيءٌ أعظمَ منه، وبكلمات الله التامّات التي لا يجاوزهنَّ بَرٌّ ولا فاجر، وبأسماء الله الحسنى كلِّها ما علمتُ منها وما لم أعلم، مِن شرِّ ما خَلَقَ وبَرَأ وذَرَأ.

---

(١) الصحاح (ذرأ).

(٢) تهذيب اللغة ١٥/٣.

(٣) أخرجه عبد بن حميد ـ كما في الدر المنثور ٣/١٤١ ـ عن ابن عباس موقوفاً، قال: (إن الله ضرب بيمينه على منكب آدم، فخرج منه مثل اللؤلؤ في كفه، فقال: هذا للجنة، وضرب بيده الأخرى على منكبه الشمال، فخرج منه سواد مثل الحمم فقال: هذا ذرء النار). وأورد أبو عبيد في غريب الحديث ٣/٣٢٨ أن عمر ﷺ كتب إلى خالد بن الوليد... وإني أظنكم آل المغيرة ذرء النار.

(٤) ٢/٩٥١ - ٩٥٢.

وفيه عن يحيى بن سعيد أنه قال: أُسْرِي برسولِ الله ﷺ، فرأى عفريتاً مِنَ الجنِّ يطلبه بشُعلة من نار، الحديث، وفيه: وشرِّ ما ذَرَأ في الأرض[١]. وقد ذكرناه وما في معناه في غير هذا الموضع[٢].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾ «مختلِفاً» نصبٌ على الحال. و«ألوانُه»: هيئاتُه ومناظرُه، يعني الدوابَّ والشجرَ وغيرَها.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: في اختلاف ألوانها. ﴿لَءَايَةً﴾ أي: لعبرة. ﴿لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي يتّعظون ويعلمون أنَّ في تسخيرِ هذه المكوَّناتِ لَعلامات على وحدانية الله تعالى، وأنه لا يَقْدِرُ على ذلك أحدٌ غيرُه.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾

فيه تسع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾ تسخيرُ البحرِ هو تمكينُ البشرِ من التصرُّفِ فيه، وتذليلُه بالركوب والإرفاءِ[٣] وغيرِه، وهذه نعمة من نِعَمِ اللهِ علينا، فلو شاء سلَّطه علينا وأغرقنا. وقد مضى الكلام في البحر وفي صيده[٤]. وسمَّاه هنا لحماً.

واللحومُ عند مالك ثلاثةُ أجناس: فلحمُ ذواتِ الأربع جنسٌ، ولحمُ ذواتِ

---

(١) موطأ مالك ٢/ ٩٥٠ - ٩٥١ ، وأخرجه من طريقه النسائي في السنن الكبرى (١٠٧٢٦)، وابن عبد البر في التمهيد ٢٤/ ١١٢ .

(٢) سيأتي عند تفسير الآية ٣٩ من سورة النمل.

(٣) قال في الصحاح (رفأ): أرفأت السفينة: قربتها من الشط، وذلك الموضع مُرفأ، وأرفأت إليه: لجأت.

(٤) ينظر ٢/ ٩٠ و ٨/ ٢٠٨ .

الريش جنسٌ، ولحمُ ذواتِ الماء جنسٌ. فلا يجوز بيعُ الجنسِ من جنسه متفاضلاً، ويجوز بيعُ لحمِ البقر والوحش بلحم الطير والسمك متفاضلاً، وكذلك لحم الطير بلحم البقر والوحش والسمك يجوز متفاضلاً.

وقال أبو حنيفة: اللحوم كلُّها أصنافٌ مختلفة كأصولها؛ فلحمُ البقر صنفٌ، ولحمُ الغنم صنفٌ، ولحمُ الإبل صنفٌ، وكذلك الوحش مختلِفٌ، وكذلك الطير، وكذلك السمك، وهو أحد قولي الشافعيّ. والقولُ الآخر: أنَّ الكلَّ من النَّعَم والصيد والطير والسمك جنسٌ واحد لا يجوز التفاضل فيه. والقول الأوَّل هو المشهور من مذهبه عند أصحابه.

ودليلُنا هو أنَّ الله تعالى فرَّق بين أسماء الأنعام في حياتها فقال: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ ثم قال: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣-١٤٤]، فلمَّا أنْ أَمَّ[١] الجميع إلى اللحم قال: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [المائدة: ١] فجمعَها بِلحمٍ واحدٍ لتقارب منافعها، كتقارب لحم الضأن والمعز. وقال في موضع آخر: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢١]، وهذا جَمْعُ طائرٍ الذي هو الواحد، لقوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]، فجَمَعَ لحمَ الطيرِ كلِّه باسم واحد، وقال هنا: ﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾ فجمعَ أصنافَ السمكِ بذكرٍ واحد، فكان صِغارُه ككِبارِه في الجمع بينهما.

وقد رُوي عن ابن عمر أنه سُئل عن لحم المَعْز بلحم الكباش: أشيءٌ واحد؟ فقال: لا[٢]. ولا مخالف له، فصار كالإجماع، والله أعلم.

ولا حجة للمخالف في نهيه ﷺ عن بيع الطعام إلَّا مِثْلاً بِمثْل؛ فإنَّ الطعامَ في الإطلاق يتناولُ الحنطةَ وغيرَها من المأكولات، ولا يتناول اللحمَ؛ ألا تَرَى أنَّ

(١) أي قصد.

(٢) لم نقف عليه.

القائلَ إذا قال: أكلتُ اليومَ طعاماً؛ لم يَسبِقِ الفهمُ منه إلى أكلِ اللحم، وأيضاً فإنه مُعارَض بقوله ﷺ: «إذا اخْتَلفَ الجِنْسَانِ فَبِيعُوا كَيفَ شِئْتُم»(١) وهذان جنسان، وأيضاً فقد اتفقنا على جوازِ بيعِ اللحم(٢) بلحم الطير متفاضلاً، لا لعلَّةٍ(٣) أنه بَيْعُ طعامٍ لا زكاةَ له بِيعَ بلحمٍ ليس فيه الزكاة، كذلك بيع السمك بلحم الطير متفاضلاً(٤).

الثانية: وأما الجرادُ فالمشهور عندنا جوازُ بيعِ بعضه ببعض متفاضلاً. وذُكر عن سُحْنون أنه يَمنع من ذلك، وإليه مال بعضُ المتأخرين ورآه مما يدَّخر(٥).

الثالثة: اختلف العلماء فيمَن حلف ألَّا يأكلَ لحماً؛ فقال ابن القاسم: يحنَثُ بكلِّ نوعٍ من هذه الأنواع الأربعة. وقال أشهب في المجموعة: لا يحنث إلَّا بأكل لحوم الأنعام دون الوحش وغيره، مراعاةً للعُرف والعادة، وتقديماً لها على إطلاق اللفظ اللغويّ(٦)، وهو أحسن.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ يعني به اللؤلؤَ والمَرْجان؛ لقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢](٧).

وإخراج الحِلية إنما هي فيما عرف من المِلْح فقط. ويقال: إنَّ في الزمرد بحرياً.

---

(١) أخرجه الربيع في مسنده ص١٥٣ عن ابن عباس مرفوعاً، وتمامه: «إلا ما نهيتكم عنه». وأورده ابن عبد البر في التمهيد ١٩/ ١٨٢ . وأورده الآمدي في الإحكام ٣/ ٢٢٩ بلفظ: «البر بالبر» إلى قوله: «فإذا اختلف الجنسان فبيعوا كيف شئتم يداً بيد». وأخرج نحوه أحمد (٢٢٧٢٧)، ومسلم (١٥٨٧) (٨١) من حديث عبادة بن الصامت ولفظه: «الذهب بالذهب... فإذا اختلفت الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد».

(٢) في (ظ): اللبن، بدل: بيع اللحم.

(٣) لفظة: لا، من (د). ووقع في (ظ): لعلة فيه.

(٤) ينظر المنتقى ٥/ ٢٦ - ٢٨ ، والاستذكار ٢٠/ ١١٢ - ١١٤ .

(٥) ينظر المنتقى ٥/ ٢٦ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٣٥ .

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٣٦ .

وقد خُطِّئ الهُذَليُّ في قوله في وصف الدرَّة:

فـجـاء بـهـا مـن دُرَّة لَـطَـمِـيَّـة على وجهها ماء الفرات يَدوم

فجعلها من الماء الحلو[١].

فالحلية حقٌّ، وهي نِحْلَةُ اللهِ تعالى لآدمَ وولدِه. خُلق آدمُ وتُوِّجَ وكُلِّلَ بإكليلِ الجنة، وخُتم بالخاتم الذي ورثه عنه سليمانُ بنُ داود صلوات الله عليهم، وكان يقال له: خاتم العِزِّ، فيما رُوي.

الخامسة: امتنَّ اللهُ سبحانه على الرجال والنساء امتناناً عامًّا بما يخرج من البحر، فلا يحرم عليهم شيء منه، وإنما حَرَّم الله تعالى على الرجال الذهب والحرير[٢].

رَوَى الصحيحُ عن عمرَ بنِ الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَلْبَسُوا الحريرَ، فإنَّه مَنْ لَبِسَهُ في الدنيا؛ لَمْ يَلْبَسْهُ في الآخرة»[٣]. وسيأتي في سورة الحج الكلام فيه إن شاء الله[٤].

وروى البخاريُّ عن ابن عمر: أنَّ رسولَ الله ﷺ اتَّخذَ خاتَماً مِنْ ذَهَبٍ، وجَعَلَ فَصَّهُ ممَّا يَلِي باطنَ كَفِّهِ، ونَقَشَ فيه: محمدٌ رسولُ الله؛ فاتَّخَذَ الناسُ مِثْلَه، فلما رَآهم

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٨٣ . وما قبله منه، والبيت لأبي ذؤيب الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ص٥٧ ، ولفظه:

فجاء بها ما شئت من لطمية يدوم الفرات فوقها ويموج

وكذلك ذكره صاحب اللسان (فرت) وقال: ليس هنالك فرات؛ لأن الدر لا يكون في الماء العذب، وإنما يكون في البحر. قال في تاج العروس (لطم): درَّة لَطَمية: منسوبة إلى اللطائم؛ وهي الأسواق التي تباع فيها العطريات، وقد سئل الأصمعي: هل تكون الدرة في سوق المسك؟ فقال: تحمل معهم في عيرهم. وقيل: لطمية: في عير لطمية. وقيل: لطمية: نسبتها إلى التطام البحر عليها بأمواجها.

(٢) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٣٦ .

(٣) صحيح البخاري (٥٨٣٠)، وصحيح مسلم (٢٠٦٩) (١١) واللفظ له. وهو في مسند أحمد (٩٢) بنحوه.

(٤) عند تفسير الآية ٢٣ منها.

قدِ اتَّخذُوها رَمَى به، وقال: «لَا أَلْبَسُهُ أبداً». ثمَّ اتَّخَذَ خَاتَماً مِنْ فِضَّةٍ، فاتَّخَذَ الناسُ خواتيمَ الفِضَّة. قال ابنُ عمر: فَلبِسَ الخاتمَ بعد النبيِّ ﷺ أبو بكرٍ، ثم عمرُ، ثم عثمان، حتى وَقَعَ من عثمانَ في بئر أرِيس[1]. قال أبو داود[2]: لم يختلفِ الناسُ على عثمانَ حتى سَقَطَ الخاتمُ من يده.

وأجمع العلماء على جواز التختم بالوَرِق على الجملة للرجال. قال الخطابيُّ[3]: وكُره للنساء التختمُ بالفضة؛ لأنه من زِيِّ الرجال، فإنْ لم يجدْنَ ذهباً فليصفِّرنه بزعفران أو بشبهه.

وجمهور العلماء من السلف والخلف على تحريم اتخاذ الرجالِ خاتمَ الذهب؛ إلا ما رُوي عن أبي بكر بن عبد الرحمن[4] وخَبَّاب، وهو خلافٌ شاذٌّ، وكلٌّ منهما لم يبلغهما النهي والنسخ[5]. والله أعلم.

وأما ما رواه أنسُ بن مالك أنه رَأى في يَدِ رسول الله ﷺ خاتماً من وَرِقٍ يوماً واحداً، ثم إنَّ الناس اصطنعوا الخواتمَ من وَرِقٍ ولبِسوها، فطَرَحَ رسولُ الله ﷺ خاتَمه، فطرح الناسُ خواتيمهم ـ أخرجه الصحيحان واللفظ للبخاريّ[6] ـ فهو عند

---

(١) صحيح البخاري (٥٨٦٦). وأخرجه أيضاً أحمد (٦٣٣١)، ومسلم (٢٠٩١).

(٢) في سننه عقب الحديث (٤٢١٨).

(٣) في معالم السنن ٤/ ١٩٠ ، ونقله المصنف عنه بواسطة المفهم ٥/ ٤١١ .

(٤) كذا نقل المصنف عن أبي العباس القرطبي في المفهم ٥/ ٤٠٨ ، والكلام للقاضي عياض في إكمال المعلم ٦/ ٦٠٣ ، وفيه: أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وكذلك أورده من قبله ابن عبد البر في التمهيد ١٧/ ١٠٩ ؛ قال: وقد روي عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أنه كان يتختم بالذهب. قال: وهذا ـ إن صح عنه أو عن غيره ـ فلا معنى له لشذوذه... وجائز أن لا يبلغه الخبر بالنهي عن ذلك.

(٥) ينظر المفهم ٥/ ٤٠٨ . وأخرج أحمد (٤٠٢٥)، والبخاري (٤٣٩١) الحديث عن خباب مطولاً، وفيه: ثم التفت (أي: ابن مسعود) إلى خباب وعليه خاتم من ذهب فقال: ألم يأنِ لهذا الخاتم أن يلقى؟ قال: أما إنك لن تراه عليَّ بعد اليوم، فألقاه. قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٨/ ١٠١ : ولعل خباباً كان يعتقد أن النهي عن لبس الرجال خاتم الذهب للتنزيه، فنبهه ابن مسعود على تحريمه، فرجع إليه مسرعاً.

(٦) صحيح البخاري (٥٨٦٨)، ومسلم (٢٠٩٣) (٦٠). وهو في مسند أحمد (١٢٦٣١).

العلماء وَهَمٌ من ابن شهاب؛ لأنَّ الذي نَبَذَ رسولُ الله ﷺ إنما هو خاتم الذهب. رواه عبد العزيز بن صُهيب وثابت وقتادة عن أنس، وهو خلاف ما رَوَى ابنُ شهاب عن أنس، فوجب القضاءُ بالجماعة على الواحد إذا خالفها، مع ما يشهد للجماعة من حديث ابن عمر[١].

السادسة: إذا ثبتَ جوازُ التختم للرجال بخاتم الفضة والتحلِّي به، فقد كره ابنُ سِيرين وغيرُه من العلماء نقشَه، وأن يكون فيه ذكرُ الله. وأجاز نقشَه جماعةٌ من العلماء[٢].

ثم إذا نقش عليه اسمَ اللهِ أو كلمةَ حِكْمةٍ أو كلماتٍ من القرآن، وجعله في شماله، فهل يدخل به الخلاء ويستنجي بشماله؟ خفَّفه سعيدُ بن المُسيِّب ومالك[٣].

قيل لمالك: إن كان في الخاتم ذِكْرُ اللهِ، ويلبسه في الشمال، أيستنجي به؟ قال: أرجو أن يكون خفيفاً[٤]. ورُوي عنه الكراهة، وهو الأَوْلى[٥]. وعلى المنع من ذلك أكثرُ أصحابِه.

وقد رَوَى هَمَّام، عن ابن جُرَيج، عن الزُّهري، عن أنس قال: كانَ رسولُ الله ﷺ إذا دَخَلَ الخَلاءَ وَضَعَ خَاتمه[٦]. قال أبو داود: هذا حديث منكر، وإنما يُعرف عن ابن جُريج، عن زياد بن سعد، عن الزُّهري، عن أنس: أَنَّ النبيَّ ﷺ اتَّخذ خاتماً من وَرِق، ثم ألقاه. قال أبو داود: لم يحدِّث بهذا إلَّا هَمَّام[٧].

---

(١) ينظر الاستذكار ٢٦/ ٣٥٤، والمفهم ٥/ ٤١٢ - ٤١٣.

(٢) ينظر الاستذكار ٢٦/ ٣٦٠.

(٣) المفهم ٥/ ٤١١.

(٤) الاستذكار ٢٦/ ٣٦٠.

(٥) المفهم ٥/ ٤١١.

(٦) أخرجه أبو داود (١٩)، والترمذي (١٧٤٦)، والنسائي في المجتبى ٧/ ١٧٨، وفي الكبرى (٩٤٧٠)، وابن ماجه (٣٠٣). قال الترمذي: حديث حسن غريب. وقال النسائي: هذا الحديث غير محفوظ.

(٧) سنن أبي داود عقب الحديث (١٩). وينظر تلخيص الحبير ١/ ١٠٧ - ١٠٨.

السابعة: رَوَى البخاري عن أنس بن مالك: أنَّ رسولَ الله ﷺ اتَّخَذَ خَاتماً من فِضَّةٍ، ونَقَشَ فيه: «محمد رسول الله»، وقال: «إنِّي اتَّخَذْتُ خَاتماً مِن وَرِق، ونَقَشْتُ فيه: محمدٌ رَسولُ الله، فلا يَنْقِشَنَّ أَحَدٌ على نَقْشِهِ»(١).

قال علماؤنا: فهذا دليلٌ على جوازِ نَقْشِ اسمِ صاحبِ الخاتم على خاتمه(٢).

قال مالك: ومن شأن الخلفاءِ والقضاةِ نقشُ أسمائهم على خواتيمهم، ونهيُه عليه الصلاة والسلام: لا ينقشنَّ أحدٌ على نَقْشِ خاتمه؛ من أجل أنَّ ذلك اسمُه وصِفتُه برسالةِ الله له إلى خلقه.

ورَوَى أهلُ الشام أنه لا يجوز اتخاذ الخاتم لغير ذي سلطان(٣). وروى في ذلك حديثاً عن أبي رَيحانة(٤)، وهو حديثٌ لا حجةَ فيه لضعفه. وقوله عليه الصلاة والسلام: «لا ينقشنَّ أحدٌ على نقشه» يردُّه، ويدلُّ على جوازِ اتخاذ الخاتم لجميع الناس؛ إذا لم يُنقشْ على نقشِ خاتمه.

وكان نقش خاتم الزُّهريِّ: «محمدٌ يَسأل اللهَ العافية». وكان نقش خاتم مالك: «حسبي الله ونعم الوكيل»(٥). وذكر الترمذيُّ الحكيم في نوادر الأصول أنَّ نقشَ خاتم موسى عليه السلام: «لكل أجل كتاب»(٦) وقد مضى في الرعد(٧).

وبلغَ عمرَ بنَ عبد العزيز أنَّ ابنه اشترى خاتماً بألف درهم، فكتب إليه: إنه بلغني

---

(١) صحيح البخاري (٥٨٧٧). وأخرجه أيضاً أحمد (١٤٠٩١)، ومسلم (٢٠٩٢).

(٢) المفهم ٥/ ٤١١ .

(٣) ينظر الاستذكار ٢٦/ ٣٥٨ .

(٤) أخرجه أحمد (١٧٢١١)، وأبو داود (٤٠٤٩)، والنسائي في المجتبى ٨/ ١٤٣ - ١٤٤ وفي الكبرى (٩٣١٣). ولفظه عند أحمد: أن رسول الله ﷺ نهى عن الخاتم إلا لذي سلطان.

(٥) ذكرهما ابن رجب في كتاب أحكام الخواتيم ص٧٥ .

(٦) لم نقف عليه في مطبوع نوادر الأصول. وذكره ابن رجب في كتاب أحكام الخواتيم ص٦٦ .

(٧) ص٨٧ من هذا الجزء.

أنكَ اشتريتَ خاتماً بألف درهم، فبِعْهُ وأطعمْ منه ألفَ جائع، واشترِ خاتماً من حديدٍ بدرهم، واكتب عليه: رَحِمَ اللهُ امْرَأً عَرَفَ قَدْرَ نَفْسِه[١].

الثامنة: مَنْ حَلَفَ ألَّا يلبسَ حُلِيًّا، فلبس لؤلؤاً؛ لم يحنثْ؛ وبه قال أبو حنيفة. قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد: لأن هذا وإن كان الاسمُ اللغويُّ يتناولُه فلم يقصده باليمين، والأيمان تُخَص بالعرف، ألَا تَرى أنه لو حلف ألَّا ينامَ على فراشٍ، فنام على الأرض؛ لم يحنَث، وكذلك لا يستضيء بسراج، فجلس في الشمس؛ لا يحنث، وإنْ كان اللهُ تعالى قد سَمَّى الأرضَ فراشاً، والشمس سراجاً.

وقال الشافعيُّ وأبو يوسف ومحمد: مَنْ حلف ألَّا يلبس حُلِيًّا، ولبس اللؤلؤَ، فإنه يحنث؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ والذي يخرج منه: اللؤلؤ والمرجان[٢].

التاسعة: قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ قد تقدَّم ذكر الفُلْك وركوب البحر في «البقرة»[٣] وغيرها.

وقوله: «مَوَاخِرَ» قال ابن عباس: جَوارِيَ[٤]، من جَرَت تجري. سعيد بن جُبير: معترضة. الحسن: مواقر[٥]. قتادة والضحاك: أي: تذهب وتجيء، مقبلةً ومدبرةً بريحٍ واحدة[٦]. وقيل: «مواخر»: ملججة في داخل البحر؛ وأصلُ المَخْرِ: شقُّ الماء عن يمين وشمال.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٥/٣٠٦ . وأورده المناوي في فيض القدير ٤/٢٩ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١١٣٦ .

(٣) ٢/٩٠ و ٤٩٤ .

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢٤٨٥).

(٥) أخرجه الطبري ١٤/١٨٦ . وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٤/٤٣٥ وقال: يعني المملوءة.

(٦) أخرج عبد الرزاق ٢/٣٥٤ ، والطبري ١٤/١٨٨ قول قتادة. وأخرج ابن أبي حاتم (١٢٤٨٨) قول الضحاك، وذكره النحاس في معاني القرآن ٤/٥٩ .

مَخرتِ السفينةُ تَمْخَرُ وتَمْخُرُ مَخراً ومُخوراً: إذا جَرَتْ تشقُّ الماءَ مع صوت؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ يعني جَوارِيَ؛ قاله الجوهري[(١)]. ومَخَرَ السابحُ: إذا شَقَّ الماءَ بصدره، ومَخَرَ الأرضَ: شقَّها للزراعة، ومَخَرَها بالماء: إذا حبسَ الماءَ فيها حتى تصير أرِيضة، أي: خليقةً بجودة نبات الزرع.

وقال الطبري[(٢)]: المَخْرُ في اللغة: صوتُ هبوبِ الريح. ولم يقيِّد كونه في ماء. وقال: إنَّ من ذلك قولَ واصل مولى أبي عُيينة: إذا أرادَ أحدُكم البولَ فليتمخَّرِ الريح[(٣)]، أي: لينظر في صوتها في الأجسام من أين تَهُبُّ، فيتجنَّب استقبالَها؛ لئلا تردَّ عليه بَوْلَه.

﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: ولتركبوه للتجارة وطلب الربح. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تقدم جميع هذا في «البقرة»[(٤)]، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ أي: جبالاً ثابتة. رَسَا يرسو: إذا ثبت وأقام. قال:

فصَبَرْتُ عارِفةً لذلك حُرّةً ترسو إذا نفسُ الجبان تطلَّعُ[(٥)]

﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي: لئلّا تَميدَ؛ عند الكوفيين. وكراهية أن تميد؛ على قول البصريين. والمَيْد: الاضطراب يميناً وشمالاً[(٦)]؛ ماد الشيءُ، يَميدُ ميداً: إذا تحرك؛

(١) في الصحاح (مخر).

(٢) في تفسيره ١٤/١٨٨ .

(٣) أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث ٢/١٩٣ . وينظر تلخيص الحبير ١/١٠٧ .

(٤) ٢/٤٩٤ .

(٥) قائله عنترة، وهو في ديوانه ص٤٩ . وتقدم ٢/٦٥ .

(٦) تفسير الرازي ٢٠/٧ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/٣٩٣ .

ومادتِ الأغصانُ: تمايلت، ومادَ الرجلُ: تبختر(١).

قال وهب بن مُنبِّه: خلق اللهُ الأرضَ فجعلت تميد وتمور، فقالت الملائكة: إنَّ هذه غير مُقِرَّةٍ أحداً على ظهرها. فأصبحت وقد أُرْسِيت بالجبال، ولم تدرِ الملائكةُ ممَّ خُلقت الجبال(٢).

وقال عليُّ بنُ أبي طالب ﷺ: لَمَّا خلقَ اللهُ الأرضَ قَمَصَت ومالت، وقالت: أيْ رَبِّ، أتجعل عليَّ مَنْ يعمل بالمعاصي والخطايا، ويُلقي عليَّ الجِيف والنَّتْن! فأرْسَى اللهُ تعالى فيها من الجبال ما ترون وما لا ترون(٣).

ورَوَى الترمذيُّ في آخر كتاب التفسير: حدَّثنا محمد بن بشار، حدَّثنا يزيد بن هارون، أخبرنا العوَّام بن حَوْشَب، عن سليمان بن أبي سليمان، عن أنس بن مالك، عن النبيِّ ﷺ قال: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الأرضَ جعلتْ تَمِيدُ، فخلقَ الجبالَ، فعادَ بها عليها، فاستقرَّت، فعَجِبتِ الملائكةُ مِنْ شِدَّةِ الجبالِ؛ قالوا: يَا ربِّ هل مِنْ خَلْقِكَ شيءٌ أَشَدُّ مِنَ الجبالِ؟ قال: نعم، الحديدُ. قالوا: يا رَبِّ، فهلْ مِنْ خَلْقِكَ شيءٌ أَشَدُّ مِنَ الحديدِ؟ قال: نعم، النارُ. فقالوا: يا رَبِّ، فهلْ مِنْ خَلْقِكَ شيءٌ أَشَدُّ منَ النارِ؟ قال: نعم، الماء. قالوا: يا رَبِّ، فهلْ مِنْ خَلْقِكَ شيءٌ أَشَدُّ منَ الماءِ؟ قال: نعم، الريحُ. قالوا: يا رَبِّ، فهلْ مِنْ خَلْقِكَ شيءٌ أَشَدُّ منَ الريح؟ قال: نعم، ابنُ آدمَ؛ تَصَدَّقَ بصَدَقةٍ بيمينِهِ يُخفيها مِنْ شِمالِهِ». قال أبو عيسى: هذا حديثٌ غريبٌ لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه(٤).

قلت: وفي هذه الآية أدلُّ دليلٍ على استعمال الأسباب، وقد كان قادراً على

---

(١) الصحاح (ميد).

(٢) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٦٤ . وأخرج نحوه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣٥٤ ، والطبري ١٤/ ١٩٠ عن الحسن.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ١٤/ ١٨٩ - ١٩٠ ، وأبو الشيخ في العظمة (٩٠٦). وحسَّن إسناده ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٣٨٥ . وقوله: قمصت؛ نفرت. النهاية (قمص). وفي العظمة: نطقت بدل: قمصت.

(٤) سنن الترمذي (٣٣٦٩). وأخرجه أيضاً أحمد (١٢٢٥٣)، وإسناده ضعيف.

سكونها دون الجبال. وقد تقدَّم هذا المعنى[١].

﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ أي: وجعل فيها أنهاراً، أو: ألقَى فيها أنهاراً. ﴿وَسُبُلًا﴾ أي: طُرُقاً ومسالكَ.

﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: إلى حيث تقصِدون من البلاد، فلا تَضِلُّون ولا تَتحيَّرون[٢].

قوله تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ قال ابن عباس: العلاماتُ: معالمُ الطُّرقِ بالنهار، أي: جعل للطُّرق علاماتٍ يقع الاهتداءُ بها. ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ يعني بالليل، والنجمُ يراد به النجوم[٣].

وقرأ ابنُ وَثَّاب: «وبِالنُّجْم». الحسن: بضم النون والجيم جميعاً[٤]، ومراده النجوم، فقصره؛ كما قال الشاعر:

إنَّ الفقيرَ بيننا قاضٍ حَكَمْ ... أَنْ تَرِدَ الماءَ إذا غابَ النُّجُمْ

وكذلك القول لمن قرأ: «النُّجْم»؛ إلَّا أنه سَكَّنَ استخفافاً. ويجوز أن يكون النُّجُم جمعَ نَجْم، كسُقُف وسَقْف[٥].

واختلف في النجوم؛ فقال الفراء[٦]: الجَدْي والفرقدان.

---

(١) ٥/ ٢٩٠.

(٢) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ١٩١ - ١٩٢.

(٣) أخرجه الطبري ١٤/ ١٩٢.

(٤) ذكر ابن خالويه ص٧٢ قراءة الحسن. وذكر ابن جني في المحتسب ٢/ ٨ القراءتين.

(٥) ينظر المحتسب ٢/ ٨. وفيه الرجز دون نسبة.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٩٨.

وقيل: الثريا؛ قال الشاعر:

حتى إذا ما استقلَّ النَّجْمُ في غَلَسٍ وغُودِرَ البَقْلُ مَلْوِيٌّ ومحصودُ[(١)]

أي: منه ملوِيٌّ، ومنه محصود، وذلك عند طلوع الثريا يكون.

وقال الكَلْبِيُّ: العلامات: الجبال. وقال مجاهد: هي النجوم؛ لأن من النجوم ما يُهتَدى بها، ومنها ما يكون علامة لا يُهتدى بها؛ وقاله قَتادة والنَّخَعِيّ[(٢)].

وقيل: تم الكلام عند قوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ﴾، ثم ابتدأ وقال: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾[(٣)]. وعلى الأوَّل: أي: وجعل لكم علاماتٍ ونجوماً تهتدون بها. ومن العلامات الرياح يُهتدَى بها.

وفي المراد بالإهتداء قولان: أحدهما: في الأسفار، وهذا قول الجمهور. الثاني: في القِبْلة. وقال ابن عباس: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ قال: «هو الجَدْيُ يا ابنَ[(٤)] عباس، عليه قِبلتُكم، وبه تهتدون في بَرِّكم وبَحركم» ذكره الماوردي[(٥)].

الثانية: قال ابن العربيّ[(٦)]: أمَّا جميع النجوم فلا يَهتدِي بها إلا العارفُ بمطالعها ومغاربها، والمفرِّقُ[(٧)] بين الجنوبي والشمالي منها، وذلك قليل في الآخِرين. وأما

---

(١) قائله ذو الرمة، وهو في شرح ديوانه ٢/ ١٣٦٦ . وفيه: وأحصد البقل أو مُلْوٍ ومحصود قال شارحه أبو نصر: استقل النجم: أي طلع بعد النور عند الصبح.

(٢) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٤/ ١٩٢ - ١٩٣ . وينظر زاد المسير ٤/ ٤٣٦ .

(٣) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٦٤ .

(٤) في (ظ): قال ابن. وانظر التعليق التالي.

(٥) في النكت والعيون ٣/ ١٨٢ - ١٨٣ . وحديث ابن عباس ذكره الديلمي في مسند الفردوس (٢٦٤٧). وذكره أبو حيان في البحر ٥/ ٤٨١ إلى قوله: «الجدي» وقال: ولو صح هذا لم يعدل أحد عنه. اهـ وجعل آخر الحديث موقوفاً على ابن عباس، وهو الموافق لـ (ظ).

(٦) في أحكام القرآن ٣/ ١١٣٧ .

(٧) في النسخ: والفرق. والمثبت من أحكام القرآن.

الثُّرَيَّا فلا يهتدي بها إلا مَن يَهتدي بجميع النجوم. وإنما الهَدْي لكلِّ أحدٍ بالجَدْي والفَرْقَدين؛ لأنها من النجوم المنحصرةِ المطالع، الظاهرةِ السَّمْت، الثابتةِ في المكان، فإنها تدور على القطب الثابت دوراناً مُحصَّلاً، فهي أبداً هَدْيُ الخلق في البَرِّ إذا عميتِ الطرقُ، وفي البحر عند مَجرَى السفن، وفي القِبْلة إذا جُهل السَّمْتُ، وذلك على الجملة بأن تجعل القطبَ على ظَهْرِ منكبكَ الأيسر، فما استقبلتَ فهو سَمْتُ الجهة.

قلت: وسأل ابنُ عباس رسولَ الله ﷺ عن النجم فقال: «هو الجَدْي، عليه قبلتكم، وبه تهتدون في بَرِّكم وبحركم». وذلك أنَّ آخرَ الجدي بناتُ نَعْشٍ الصغرى والقطب الذي تستوي عليه القبلة بينها.

الثالثة: قال علماؤنا: وحكم استقبال القبلة على وجهين:

أحدهما: أن يراها ويعاينها، فيلزمَه استقبالُها وإصابتُها وقصدُ جهتها بجميع بدنه.

والآخر: أن تكون الكعبة بحيث لا يراها، فيلزمه التوجُّهُ نحوها وتلقاءها بالدلائل؛ وهي الشمسُ والقمرُ والنجومُ والرياحُ، وكلُّ ما يمكن به بمعرفة جهتها. ومَن غابت عنه، وصلَّى مجتهداً إلى غير ناحيتها، وهو ممن يمكنه الاجتهاد؛ فلا صلاة له. فإذا صلَّى مجتهداً مستدِلًا، ثم انكشف له بعد الفراغ من صلاته أنه صَلَّى إلى غير القبلة، أعاد إن كان في وقتها، وليس ذلك بواجب عليه؛ لأنه قد أدَّى فرضَه على ما أُمِرَ به[1]. وقد مضى هذا المعنى في «البقرة»[2] مستوفًى، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ﴾ هو الله تعالى ﴿كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ يريد الأصنام. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أخبر عن الأوثان التي لا تَخلقُ ولا تَضرُّ ولا تنفع، كما يُخبر عمَّن يعقلُ على

(١) الكافي لابن عبد البر ١/١٩٨، وينظر التمهيد ١٧/ ٥٤.

(٢) ٢/ ٤٤٣.

ما تستعمله العرب في ذلك؛ فإنهم كانوا يعبدونها فذُكرت بلفظ «مَن»، كقوله: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ﴾ [الأعراف: ١٩٥] وقيل: لاقتران الضمير في الذِّكر بالخالق.

قال الفراء: هو كقول العرب: اشتبه عليَّ الراكبُ وجملُه، فلا أدري مَن ذا ومَن ذا؛ وإنْ كان أحدُهما غير إنسان(١).

قال المَهْدَوِيّ: ويُسأل بـ«من» عن الباريء تعالى، ولا يُسأل عنه بـ«ما»؛ لأن «ما» إنما يُسأل بها عن الأجناس، والله تعالى ليس بذي جنس، ولذلك أجاب موسى عليه السلام حين قال له: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩]، ولم يُجب حين قال له: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] إلا بجواب «مَن»، وأضرَب عن جواب «ما» حين كان السؤالُ فاسداً. ومعنى الآية: مَن كان قادراً على خَلْقِ الأشياءِ المتقدمةِ الذِّكْرِ، كان بالعبادة أحقَّ ممَن هو مخلوقٌ لا يَضرُّ ولا يَنفع؛ ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: ١١] ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ تقدم في إبراهيم(٢). ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أي: ما تُبطنونه وما تظهرونه. وقد تقدَّم جميع هذا مستوفًى.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ قراءة العامة: «تدعون» بالتاء؛ لأن ما قبله خطاب. رَوَى أبو بكر عن عاصم وهُبيرة عن حفص: «يدعون» بالياء، وهي

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٩٨ . ووقع في مطبوعه: وحمله، وهو خطأ.

(٢) ص١٤٥ من هذا الجزء.

قراءة يعقوب[(١)]. فأما قوله: ﴿مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ فكلهم بالتاء على الخطاب؛ إلا ما رَوَى هُبيرةُ، عن حفص، عن عاصم أنه قرأ بالياء[(٢)].

﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ أي: لا يقدرون على خلق شيء ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ أي: هم أموات؛ يعني الأصنامَ، لا أرواح فيها، ولا تَسمع، ولا تُبصر، أي: هي جماداتٌ، فكيف تعبدونها وأنتم أفضل منها بالحياة؟! ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني الأصنام ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

وقرأ السُّلَمِيُّ: «إِيَّان» بكسر الهمزة[(٣)]، وهما لغتان، وموضعه نصب بـ «يبعثون» وهي في معنى الاستفهام؛ والمعنى: لا يدرون متى يبعثون. وعَبَّر عنها كما عَبَّر عن الآدميين؛ لأنهم زعموا أنها تَعقل عنهم وتَعلم وتَشفع لهم عند الله تعالى، فجَرَى خطابهم على ذلك.

وقد قيل: إنَّ اللهَ يبعث الأصنامَ يوم القيامة ولها أرواح، فتتبرأ من عبادتهم، وهي في الدنيا جماد لا تَعلم متى تُبعث.

قال ابن عباس: تُبعث الأصنامُ، وتُركَّبُ فيها الأرواحُ ومعها شياطينها، فيتبرؤون من عَبَدتهم[(٤)]، ثم يُؤمر بالشياطين والمشركين إلى النار[(٥)].

وقيل: إنَّ الأصنامَ تُطرح في النار مع عَبَدتها يوم القيامة؛ دليله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٩٨].

وقيل: تَمَّ الكلامُ عند قوله: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ثم ابتدأ فوصف المشركين بأنهم أموات، وهذا الموت موت كفر. «وما يشعرون أيان يبعثون» أي: وما

---

(١) لا خلاف عن عاصم بقراءتها بالياء. ينظر السبعة ص٣٧١ ، والتيسير ص١٣٧ ، والنشر ٢/ ٣٠٣ .

(٢) السبعة ص٣٧١ ، والقراءة المتواترة عن عاصم بالتاء، كالجماعة.

(٣) القراءات الشاذة ص٧٢ ، والمحتسب ٢/ ٩ .

(٤) في (م): عبدتها.

(٥) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٤٣٧ - ٤٣٨ .

يدري الكفارُ متى يبعثون، أي: وقت البعث؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث حتى يستعدُّوا للقاء الله. وقيل: أي: وما يُدريهم متى الساعة، ولعلها تكون قريباً.

قوله تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ لَمَّا بيَّنَ استحالةَ الإشراكِ بالله تعالى، بيَّنَ أنَّ المعبودَ واحدٌ لا ربَّ غيره، ولا معبودَ سواه. ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ أي: لا تقبل الوعظَ، ولا ينجع فيها الذكر، وهذا ردٌّ على القدرية. ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: متكبِّرون متعظِّمون عن قبول الحق. وقد تقدَّم في «البقرة»[١] معنى الاستكبار.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: من القول والعمل فيجازيهم.

قال الخليل: «لا جرم» كلمةُ تحقيق، ولا تكون إلا جواباً؛ يقال: فعلوا ذلك؛ فيقال: لا جَرَمَ سيندمون. أي: حقًّا أنَّ لهم النار[٢]. وقد مضى القول في هذا في «هود»[٣] مستوفًى.

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ أي: لا يُثيبهم ولا يثني عليهم.

وعن الحسين بن عليٍّ أنه مَرَّ بمساكين قد قدَّموا كِسَراً بينهم[٤] وهم يأكلون، فقالوا: الغداءَ يا أبا عبد الله، فنزل وجلس معهم، وقال: «إنه لا يحبُّ المستكبِرين» فلما فرغ قال: قد أجبتُكم، فأجيبوني، فقاموا معه إلى منزله، فأطعمهم، وسقاهم،

---

(١) ١/٤٤١.

(٢) ينظر العين للخليل ٦/١١٩، وكتاب سيبويه ٣/١٣٨.

(٣) ١١/٩٤ - ٩٥.

(٤) في (ز) و(ظ) و(ف): لهم.

وأعطاهم، وانصرفوا[(١)]. قال العلماء: وكلُّ ذنبٍ يمكن التستر منه وإخفاؤه إلا الكِبرَ؛ فإنه فسقٌ يلزمه الإعلان، وهو أصلُ العصيانِ كلِّه. وفي الحديث الصحيح: «إنَّ المتكبرينَ يُحشرون أمثالَ الذَّرِّ يومَ القيامة، يَطؤهم الناسُ بأقدامهم لتكبُّرهم» أو كما قال ﷺ[(٢)]. تَصْغُر لهم أجسامُهم في المحشر حتى يضرّهم صِغَرُها، وتَعْظُم لهم في النار حتى يضرّهم عِظَمُها.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ يعني: وإذا قيل لمن تقدَّم ذكرُه ممن لا يؤمن بالآخرة، وقلوبهم منكرة بالبعث: «ماذا أنزل ربكم؟»[(٣)].

قيل: القائل النضر بن الحارث، وأن الآية فيه نزلت، وكان خرج إلى الحِيرة فاشتَرى أحاديث «كَلِيلة ودِمْنة» فكان يقرأ على قريش ويقول: ما يقرأُ محمدٌ على أصحابه إلا أساطيرَ الأولين، أي: ليس هو من تنزيل ربِّنا[(٤)]. وقيل: إنَّ المؤمنين هم القائلون لهم اختباراً[(٥)]، فأجابوا بقولهم: «أساطِير الأوّلين». فأقرُّوا بإنكار شيء هو أساطير الأوَّلين.

والأساطير: الأباطيل والتُّرَّهات. وقد تقدَّم في الأنعام[(٦)].

والقول في «ماذا أنزل ربكم» كالقول في «ماذا ينفقون»[(٧)].

---

(١) أخرج نحوه مختصراً أحمد في الزهد ص٢١٣، والطبري في تفسيره ١٤/ ١٩٨، وابن العديم في بغية الطلب ٦/ ٢٥٩٠.

(٢) أخرج نحوه أحمد (٦٦٧٧)، والترمذي (٢٤٩٢) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، ولفظه: «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس، يعلوهم كل شيء من الصغار حتى يدخلوا سجناً في جهنم...». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٨٤.

(٤) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٨٧. وتقدم ٩/ ٤٩٥.

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٨٤.

(٦) ٨/ ٣٤٦.

(٧) تقدم ٣/ ٤١٣.

وقوله: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ خبرُ ابتداءٍ محذوف؛ التقدير: الذي أنزله أساطير الأولين(١).

قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ﴾ قيل: هي لام كَي، وهي متعلقةٌ بما قبلها. وقيل: لام العاقبة؛ كقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨]؛ أي: قولُهم في القرآن والنبيِّ أدَّاهم إلى أن حملوا أوزارهم، أي: ذنوبَهم. ﴿كَامِلَةً﴾ لم يتركوا منها شيئاً لنكبةٍ أصابتهم في الدنيا بكفرهم. وقيل: هي لام الأمر، والمعنى التهدّد(٢).

﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قال مجاهد: يحملون وِزْرَ مَن أضلُّوه، ولا يَنْقُص من إثمِ المُضَلِّ شيءٌ(٣).

وفي الخبر: «أيُّما دَاعٍ دَعَا إلى ضَلالةٍ فَاتُّبِعَ، فإنَّ عليه مِثْلَ أَوْزارِ مَنِ اتَّبَعَهُ، مِنْ غير أنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزارِهم شيءٌ، وأَيُّما داعٍ دَعَا إلى هُدًى فَاتُّبِعَ، فَلَهُ مِثْلُ أُجُورِهم، مِنْ غير أنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهم شيءٌ» خرَّجه مسلم بمعناه(٤).

و«مِن» للجنس لا للتبعيض؛ فدُعاة الضلالة عليهم مثلُ أوزارِ مَنِ اتَّبعهم.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: يُضلُّون الخلقَ جهلاً منهم بما يلزمهم من الآثام؛ إذ لو علموا لَمَا أَضلُّوا. ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي: بئس الوزرُ الذي يحملونه. ونظير هذه الآية: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت:٣١]. وقد تقدَّم في آخر

(١) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٩٤.

(٢) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٨٧.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٦٣. وأخرج نحوه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٢٥٠٦)، والطبري ١٤/ ٢٠٠.

(٤) أخرجه بهذا اللفظ الطبري ١٤/ ٢٠١ عن الربيع مرفوعاً. وأخرجه مسلم (٢٦٧٤) بنحوه من حديث أبي هريرة ﷺ، وهو في مسند أحمد (٩١٦٠).

«الأنعام»[(١)] بيان قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: سبقهم بالكفر أقوامٌ مع الرسل المتقدِّمين، فكانت العاقبةُ الجميلة للرسل. ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ قال ابن عباس وزيد بن أسلم وغيرهما: إنه النُّمْرود بن كنعان وقومُه، أرادوا صعودَ السماء وقتالَ أهله، فبَنَوا الصرحَ؛ ليصعَدوا منه بعد أن صَنَعَ بالنسورِ ما صنع، فخرَّ؛ كما تقدَّم بيانُه في آخر سورةِ إبراهيم[(٢)]. ومعنى «فَأَتَى اللهُ بنيانَهُم» أي: أتى أمرُه البنيانَ، إمّا زلزلةً أو ريحاً، فخرَّبته.

قال ابن عباس ووهب: كان طولُ الصَّرْح في السماء خمسةَ آلاف ذراعٍ، وعرضُه ثلاثةَ آلاف. وقال كعب ومقاتل: كان طوله فرسخين، فهبَّت ريحٌ فألقت رأسه في البحر وخرَّ عليهم الباقي. ولمَّا سقط الصرح، تبلبلت ألْسُنُ الناس من الفزع يومئذٍ، فتكلموا بثلاثة وسبعين لساناً، فلذلك سُمِّيَ بابل، وما كان لسانٌ قبل ذلك إلّا السُّرْيانية[(٣)]. وقد تقدَّم هذا المعنى في «البقرة»[(٤)].

وقرأ ابن هُرْمز وابن مُحَيْصن «السُّقُف» بضم السين والقاف جميعاً[(٥)]. وضمَّ مجاهد السين وأسكن القاف تخفيفاً[(٦)]، كما تقدَّم في «وبالنجم» في الوجهين[(٧)].

---

(١) ٩/ ١٤٥.

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٨٥ - ١٨٦، وأخرجه الطبري ١٤/ ٢٠٤ - ٢٠٥ عنهما. وهي أخبار غير صحيحة وسلف الكلام ٩/ ٣٨٠ - ٣٨١.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٦٦، وينظر تفسير الطبري ١٤/ ٢٠٤. وردَّ ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٤٤٠ سبب تسمية بابل بهذا الاسم.

(٤) ١/ ٤٢٣.

(٥) القراءات الشاذة ص٧٢، وينظر البحر المحيط ٥/ ٤٨٥.

(٦) المحتسب ٢/ ٩.

(٧) يعني عند قوله تعالى: ﴿وَعَلَـٰمَـٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ الآية ١٦ من هذه السورة.

والأشبهُ أن يكون جمع سقف. والقواعدُ أصولُ البناء، وإذا اختلَّت القواعد، سقط البناء.

وقوله: ﴿مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ قال ابن الأعرابي: وُكِّد[١] ليُعلمَك أنَّهم كانوا حالِّين تحته. والعرب تقول: خرَّ علينا سقفٌ، ووقع علينا حائطٌ إذا كان يملكه وإن لم يكن وقعَ عليه، فجاء بقوله: «مِن فوقِهم» ليخرجَ هذا الشك الذي في كلام العرب، فقال: «من فوقهم»، أي: عليهم وقع وكانوا تحتَه، فهلكوا وما أُفلتوا[٢]. وقيل: إنَّ المراد بالسقفِ السماءُ؛ أي: إن العذابَ أتاهم من السماء التي هي فوقهم، قاله ابن عباس[٣]. وقيل: إن قوله: «فأتى اللهُ بنيانَهم من القواعِدِ» تمثيل، والمعنى: أهلكهم، فكانوا بمنزلة من سقط عليه بنيانه[٤]. وقيل: المعنى أحبط الله أعمالهم، فكانوا بمنزلة من سقط بنيانه[٥]. وقيل: المعنى أبطل مكرهم وتدبيرهم، فهلكوا كما هلك من نزل عليه السقف من فوقه[٦]. وعلى هذا اختُلِفَ في الذين خرَّ عليهم السقف، فقال ابن عباس وابن زيد ما تقدَّم[٧]. وقيل: إنه بُخْتَنَصَّر وأصحابه، قاله بعضُ المفسرين. وقيل: المرادُ المقتسمون الذي ذكرهم الله في سورة الحجر، قاله الكلبيُّ. وعلى هذا التأويل يخرجُ وجهُ التمثيل، والله أعلم.

﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ أي: من حيث ظَنُّوا أنهم في أمان[٨].

---

(١) في (د) و(ظ): وكذا.

(٢) ينظر زاد المسير ٤/ ٤٤٠ - ٤٤١ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٨٥ ، وأخرجه الطبري ١٤/ ٢٠٦ .

(٤) قاله ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن ص٢٤٢ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٩٥ .

(٦) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٣٣ .

(٧) كذا قال، والذي سلف أنه زيد بن أسلم، وكذلك هو في النكت والعيون ٣/ ١٨٦ .

(٨) تفسير البغوي ٣/ ٦٦ ، والوسيط ٣/ ٦٠ ، وزاد المسير ٤/ ٤٤١ .

وقال ابن عباس: يعني البعوضةَ التي أهلكَ الله بها نُمروداً[١].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أي: يفضحهم بالعذاب، ويُذلُّهم به ويهينهم. ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ أي: بزعمكم وفي دعواكم، أي: الآلهة التي عبدتُم دوني، وهو سؤالُ توبيخ[٢]. ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ أي: تعادون أنبيائي بسببهم، فَلْيدفعوا عنكم هذا العذاب. وقرأ ابن كَثِير: «شُرَكَايَ» بياءٍ مفتوحةٍ من غير همز، والباقون بالهمز[٣]. نافع: «تُشَاقُّونِ» بكسر النون على الإضافة، أي: تعادونني فيهم. وفتحها الباقون[٤]. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ قال ابن عباس: أي: الملائكة. وقيل: المؤمنون[٥]. ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: الهوان والذل يوم القيامة. ﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾ أي: العذاب[٦]. ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ هذا من صفةِ الكافرين. و«ظَالِمِي أَنْفُسِهِم» نَصبٌ على الحال، أي: وهم ظالمون أنفسَهم إذ أوردوها مواردَ الهلاك. ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: الاستسلام[٧]. أي: أقرُّوا لله بالربوبية، وانقادوا عند

---

(١) نُمروذ بالذال، وأهل البصرة يقولون: نمرود بالدال. مجالس ثعلب ص١٨١ .

(٢) الوسيط ٣/ ٦٠ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٨٨ .

(٣) السبعة ص٣٧١ ، و التيسير ص١٣٧ ، وقراءة ابن كثير هذه هي من رواية البزي بخلاف عنه.

(٤) السبعة ص٣٧١ - ٣٧٢ ، والتيسير ص١٣٧ .

(٥) زاد المسير ٤/ ٤٤١ ، وتفسير الرازي ٢٠/ ٢١ ، ونسبَ ابن عطية القول الثاني في المحرر الوجيز ٣/ ٣٨٨ إلى يحيى بن سلام.

(٦) تفسير الطبري ١٤/ ٢٠٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ٦٦ .

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٣٨٩ .

الموت، وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭ﴾ أي: من شرك. فقالت لهم الملائكة: ﴿بَلَىٰٓ﴾ قد كنتم تعملون الأسواء[١]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

وقال عكرمة: نزلت هذه الآيةُ بالمدينة في قومٍ أسلموا بمكة ولم يهاجروا، فأخرجتهم قريش إلى بدر كُرهاً فقُتِلوا بها، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بقبض أرواحِهم[٢]. ﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ في مُقامهم بمكةَ وتركِهم الهجرة. ﴿فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾ يعني: في خروجِهم معهم. وفيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه الصلح؛ قاله الأخفش.

الثاني: الاستسلام؛ قاله قُطْرُب.

الثالث: الخضوع؛ قاله مقاتل.

﴿مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭ﴾ يعني: من كفر. ﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ يعني: أنَّ أعمالكم أعمالُ الكفار[٣]. وقيل: إنَّ بعض المسلمين لمَّا رأَوا قلةَ المؤمنين رجعوا إلى المشركين، فنزلت فيهم[٤]. وعلى القولِ الأول، فلا يخرج كافرٌ ولا منافق من الدنيا حتى ينقادَ ويستسلِم، ويخضعَ ويَذِل، ولا تنفعهم حينئذٍ توبةٌ ولا إيمان، كما قال: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ﴾ [غافر:٨٥]. وقد تقدَّم هذا المعنى، وتقدَّم في «الأنفال» أن الكفارُ يُتوفَّون بالضرب والهوان، وكذلك في «الأنعام»[٥]. وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[٦].

---

(١) زاد المسير ٤/ ٤٤٢.

(٢) تفسير الطبري ١٤/ ٢٠٨، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٨٩.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٨٦.

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٣٣.

(٥) الأنفال ١٠/ ٤٤ - ٤٥، والأنعام ٩/ ١٢٧.

(٦) ص١٧ و ٢٠ و ٢٧.

قوله تعالى: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ أي: يُقال لهم ذلك عندَ الموت. وقيل: هو بِشارةٌ لهم بعذاب القبر؛ إذ هو بابٌ من أبواب جهنَّم للكافرين. وقيل: لا تصلُ أهلُ الدركة الثانية إليها مثلاً إلَّا بدخول الدركةِ الأولى، ثم الثانية، ثم الثالثة هكذا. وقيل: لكل دركةٍ بابٌ مفرد، فالبعضُ يدخلون من بابٍ، والبعض يدخلون من بابٍ آخر. فاللهُ أعلم. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها[1]. ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى﴾ أي: مقام ﴿الْمُتَكَبِّرِينَ﴾: الذين تكبَّروا عن الإيمان، وعن عبادةِ الله تعالى[2]، وقد بيَّنهم بقوله الحقّ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥].

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾ أي: قالوا: أنزل خيراً[3]، وتَمَّ الكلام. و«ماذا» على هذا اسمٌ واحد[4]. وكان يَرِدُ الرجلُ من العرب مكَّةَ في أيام الموسم، فيسألُ المشركين عن محمدٍ عليه الصلاة والسلام، فيقولون: ساحرٌ أو شاعرٌ، أو كاهنٌ أو مجنون، ويسأل المؤمنين فيقولون: أنزلَ الله عليه الخيرَ والهدى[5]، والمرادُ القرآن[6]. وقيل: إنَّ هذا يُقال لأهل الإيمانِ يوم القيامة. قال

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٢٠٩ .

(٢) الوسيط ٣/ ٦١ .

(٣) تفسير الطبري ١٤/ ٢١٠ ، والكشاف ٢/ ٤٠٧ ، وزاد المسير ٤/ ٤٤٣ .

(٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ١٩٦ .

(٥) الوسيط ٣/ ٦١ ، وتفسير الرازي ٢٠/ ٢٣ .

(٦) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٩٠ .

الثعلبي: فإن قيل: لِمَ ارتفع الجوابُ في قوله: «أساطِيرُ الأوّلين» وانتصبَ في قوله: «خيراً»؟ فالجوابُ: أنَّ المشركين لم يؤمنوا بالتنزيل، فكأنَّهم قالوا: الذي يقوله محمدٌ هو أساطيرُ الأوّلين. والمؤمنون آمنوا بالنزول فقالوا: أنزل خيراً[١]. وهذا مفهوم معناه من الإعراب، والحمدُ لله.

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ قيل: هو من كلامِ الله عزَّ وجلَّ. وقيل: هو من جملة كلامِ الذين اتقوا[٢]. والحسنةُ هنا: الجنة، أي: مَن أطاع الله فله الجنةُ غداً. وقيل: «للذين أحسنوا» اليومَ حسنةٌ في الدنيا من النصرِ والفتح والغَنيمة[٣]: ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أي: ما ينالون في الآخرة من ثواب الجنة خيرٌ وأعظم من دار الدنيا[٤]؛ لفنائها وبقاءِ الآخرة. ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فيه وجهان: قال الحسن: المعنى: ولنِعمَ دارُ المتقين الدنيا؛ لأنهم نالوا بالعملِ فيها ثوابَ الآخرة ودخولَ الجنة. وقيل: المعنى: ولنعم دارُ المتقين الآخرة[٥]. وهذا قولُ الجمهور، وعلى هذا تكون ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ بدلاً من الدار، فلذلك ارتفع[٦]. وقيل: ارتفعَ على تقديرِ: هي جنات، فهي مبيِّنةٌ لقوله: «دَارُ المتّقِين»، أو تكون مرفوعةً بالابتداء، التقدير: جناتُ عدنٍ نِعمَ دارُ المتقين[٧]. ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ في موضع الصفة، أي: مدخولة. وقيل: «جنات» رُفع بالابتداء، وخبرُه «يدخلونها»[٨] وعليه يُخرَّج قولُ الحسن.

---

(١) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ٢١٠، والكشاف ٢/ ٤٠٧، وتفسير الرازي ٢٠/ ٢٣.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٩٠.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٦٧، وزاد المسير ٤/ ٤٤٣.

(٤) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ٢١٠.

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٨٧، وزاد المسير ٤/ ٤٤٣.

(٦) ذكره ابن كثير في تفسير هذه الآية.

(٧) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٩٩، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٩٦، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٩٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٩٠.

(٨) المحرر الوجيز ٣/ ٣٩٠.

والله أعلم. ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ تقدَّم معناه في «البقرة»[(١)]. ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ أي: مما تمنَّوه وأرادوه[(٢)]. ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: مثل هذا الجزاءِ يجزي الله المتقين.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ قرأ الأعمش وحمزة: «يتوفاهم الملائكة» في الموضعين بالياء، واختاره أبو عبيد؛ لما رُوي عن ابنِ مسعود أنه قال: إنَّ قريشاً زعموا أنَّ الملائكة إناثٌ فذكِّروهم أنتم. الباقون بالتاء[(٣)]؛ لأن المرادَ به الجماعةُ من الملائكة. و﴿طَيِّبِينَ﴾ فيه ستةُ أقوال:

الأوّل: «طَيِّبين»: طاهرين من الشرك.

الثاني: صالحين.

الثالث: زاكيةً أفعالهم وأقوالهم.

الرابع: طَيِّبة[(٤)] الأنفس ثقةً بما يَلقَونَه من ثواب الله تعالى.

الخامس: طيبةً نفوسُهم بالرجوعِ إلى الله.

السادس: «طيبين» أن تكون وفاتهم طيِّبةً سهلةً لا صعوبةَ فيها ولا ألَمَ، بخلافِ ما تُقبض به روحُ الكافر والمُخلِّط[(٥)]. والله أعلم.

﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكونَ السلامُ إنذاراً لهم بالوفاة. الثاني: أن يكون تبشيراً لهم بالجنة؛ لأنَّ السلامَ أمان[(٦)]. وذكر ابنُ المبارك

(١) ١/ ٣٥٩ - ٣٦٠.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٣٤.

(٣) السبعة ص٣٧٢، والتيسير ص١٣٧، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٩٠، وذكر أثر ابن مسعود مكي بن أبي طالب في الكشف عن وجوه القراءات السبع ٢/ ٣٧، وسلف نحوه ٥/ ١١٢.

(٤) في (ظ) و(م): طيبين.

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٨٧، وزاد المسير ٤/ ٤٤٣ - ٤٤٤.

(٦) النكت والعيون ٣/ ١٨٧.

قال: حدَّثني حَيْوَة قال: أخبرني أبو صخر، عن محمد بن كعب القُرَظِيِّ قال: إذا اسْتَنْقَعَتْ نفسُ العبدِ المؤمن؛ جاءه مَلَك الموت فقال: السلامُ عليك وَليَّ الله، الله يقرأُ عليك السلام. ثم نزعَ بهذه الآية: «الذين تتوفاهم الملائكة طيِّبين يقولونَ سلام عليكم»[(١)].

وقال ابن مسعود: إذا جاء ملكُ الموت يقبض روحَ المؤمن قال: ربُّك يُقرِئك السلام. وقال مجاهد: إنَّ المؤمن ليُبَشَّرُ بصلاحِ ولده من بعده لِتَقرَّ عينُه. وقد أتينا على هذا في «كتاب التذكرة»[(٢)] وذكرنا هناك الأخبارَ الواردة في هذا المعنى، والحمد لله.

وقوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون معناه: أَبْشِروا بدخولِ الجنة. الثاني: أن يقولوا ذلك لهم في الآخرة. ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني: في الدنيا من الصَّالحات[(٣)].

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ هذا راجعٌ إلى الكفار، أي: ما ينتظرون إلَّا أن تأتيَهُم الملائكة لقبض أرواحهم وهم ظالمون لأنفسِهم. وقرأ الأعمشُ وابن وَثَّاب وحمزة والكسائيُّ وخَلَف: «يأتيهم الملائكة» بالياء، والباقون بالتاء على ما تقدَّم[(٤)]. ﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي: بالعذاب من القتل، كيومِ بدر، أو الزلزلةِ والخَسْفِ في الدنيا. وقيل: المرادُ يومُ القيامة[(٥)]. والقومُ لم ينتظروا هذه الأشياءَ؛

---

(١) الزهد لابن المبارك ص١٤٩، وأخرجه أبو الشيخ في العظمة ص٢٠٢، وهو مقطوع، وسلف ١١/١٧ - ١٨.

(٢) ص٥٠، وأخرج أثرَ مجاهد أبو نعيم في الحلية ٣/ ٢٨٥، وأخرج أثرَ ابن مسعود المروزيُّ، وابنُ أبي الدنيا، وأبو الشيخ كما في الدر المنثور ٥/ ٢٠٦.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٨٧.

(٤) السبعة ص٣٧٢، والتيسير ص١٠٨، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٩١.

(٥) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ٢١٤، وتفسير أبي الليث ٢/ ٢٣٤، وتفسير البغوي ٣/ ٦٨، وزاد المسير ٤/ ٤٤٤.

لأنهم ما آمنوا بها، ولكنَّ امتناعَهم عن الإيمان أوجبَ عليهم العذاب، فأُضيف ذلك إليهم، أي: عاقبتهم العذاب. ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ أي: أصرُّوا على الكفر، فأتاهم أمرُ الله، فهلكوا. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: بتعذيبهم وإهلاكِهم، ولكن ظلموا أنفسَهم بالشرك[(١)].

قوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٤﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ قيل: فيه تقديمٌ وتأخير، التقدير: كذلك فعلَ الذين من قبلهم فأصابهم سيئاتُ ما عملوا، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسَهم يظلمون، فأصابهم عقوباتُ كفرهم وجزاءُ الخبيث من أعمالهم[(٢)]. ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: أحاطَ بهم ودار. ﴿مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي: عقاب استهزائِهم[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾ أي: شيئاً، و«مِن» صلة. قال الزجَّاج[(٤)]: قالوه استهزاءً، ولو قالوه عن اعتقادٍ لكانوا مؤمنين. وقد مضى هذا في سورةِ الأنعام[(٥)] مبيَّناً معنًى وإعراباً، فلا معنى للإعادة.

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ أي: مثل هذا التكذيبِ والاستهزاءِ فعلَ مَن كان قبلهم بالرسل، فأُهلكوا. ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي: ليس عليهم إلَّا

---

(١) زاد المسير ٤/ ٤٤٤ - ٤٤٥.

(٢) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٦٨، وتفسير الرازي ٢٠/ ٢٦.

(٣) تفسير الرازي ٢٠/ ٢٦.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ١٩٧.

(٥) ٩/ ١٠٢.

التبليغ، وأمَّا الهدايةُ؛ فهي إلى الله تعالى[١].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي: بأنِ اعبدوا اللهَ ووحِّدوه. ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أي: اتركوا كُلَّ معبودٍ دون الله، كالشيطانِ والكاهن والصنم، وكلَّ مَن دعا إلى الضَّلالِ. ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ﴾ أي: أرشده إلى دينِه وعبادته[٢]. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ أي: بالقضاء السَّابق عليه حتى مات على كفره[٣]، وهذا يردُّ على القَدَرِيَّة؛ لأنهم زعموا أنَّ الله هدى الناسَ كلَّهم ووفَّقهم للهدى، واللهُ تعالى يقول: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ وقد تقدَّم هذا في غيرِ موضع[٤]. ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: فسيروا معتبرين في الأرض. ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: كيف صار آخرُ أمرِهم إلى الخرابِ والعذابِ والهلاك[٥].

قوله تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ﴾ أي: إن تطلب يا محمدُ بجُهدك هداهم؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ أي: لا يُرشد مَن أضلَّهُ، أي: مَن سبق له مِن الله

---

(١) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٢٣٥، وزاد المسير ٤/ ٤٤٥.

(٢) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٢٣٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٩٢، والوسيط ٣/ ٦٢، والبغوي ٣/ ٦٨.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٦٨.

(٤) ينظر ١٠/ ٤٨١ - ٤٨٢.

(٥) الوسيط ٣/ ٦٢، وتفسير البغوي ٣/ ٦٨.

الضلالةُ؛ لم يهده[1]. وهذه قراءةُ ابن مسعود، وأهلِ الكوفة[2]. فـ «يَهْدِي» فعلٌ مستقبَل، وماضيه هَدَى. و«مَن» في موضعِ نصب بـ «يهدي». ويجوزُ أن يكونَ هَدَى يَهْدي بمعنى اهتدى يهتدي، رواه أبو عبيد عن الفراء[3] قال: كما قُرِئَ: «أمَّن لا يَهْدِي إلَّا أنْ يُهْدَى» [يونس:٣٥] بمعنى يهتدي. قال أبو عبيد: ولا نعلم أحداً روى هذا غير الفراء، وليس بمتَّهمٍ فيما يحكيه. النحاس: حُكيَ لي عن محمد بن يزيد: كأنَّ معنى «لَا يَهْدِي مَن يُضِلّ»: مَن عَلِم ذلك منه، وسبقَ ذلك له عنده، قال: ولا يكون يهدي بمعنى يهتدي إلَّا أن يكون يُهْدي أو يُهْدَى[4]. وعلى قولِ الفراء «يَهْدي» بمعنى يهتدي، فيكون «مَن» في موضع رفع، والعائدُ إلى «مَن» الهاء المحذوفة من الصِّلةِ، والعائدُ إلى اسم «إنَّ» الضمير المستكِنَّ في «يُضِلُّ»[5]. وقرأ الباقون: «لا يُهْدَى» بضم الياء وفتح الدال[6]، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، على معنى: مَن أَضلَّه الله لم يهدِه هادٍ، دليلُه قوله: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ [الأعراف:١٨٦] و«مَن» في موضع رفعٍ على أنه اسم ما لم يُسَمَّ فاعله[7]، وهي بمعنى الذي، والعائدُ عليها من صلتِها محذوف[8]، والعائد على اسم إنَّ مِن «فإنَّ الله» الضمير المستكِنُّ في «يُضلُّ». ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ تقدَّم معناه[9].

---

(١) ينظر الطبري ١٤/ ٢١٧، والوسيط ٣/ ٦٢، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٩٢.

(٢) السبعة ص٣٧٢، والتيسير ص١٣٧، وتفسير الطبري ١٤/ ٢١٧ - ٢١٨، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٩٢.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٩٩.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٦٥ - ٦٦، وما قبله منه.

(٥) الحجة لأبي علي الفارسي ٥/ ٦٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٩٢.

(٦) وهم: ابن كثير وأبو عمرو ونافع وابن عامر. السبعة ص٣٧٢، والتيسير ص١٣٧.

(٧) ينظر الطبري ١٤/ ٢١٨، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٩٩، وحجة القراءات ص٣٨٩.

(٨) الحجة لأبي علي الفارسي ٥/ ٦٤.

(٩) ينظر ٥/ ١٥٦ و ١٩٨ و ٤٧٥.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ هذا تعجيبٌ من صنعهم، إذ أقسموا بالله، وبالغوا في تغليظ اليمين بأنَّ الله لا يبعثُ مَن يموت[1]. ووجهُ التعجيب أنهم يُظهرون تعظيمَ الله فيُقسمون به ثم يُعجِّزونه عن بَعثِ الأموات. وقال أبو العالية: كان لرجلٍ من المسلمين على مشرك دينٌ فتقاضاه، وكان[2] في بعض كلامِه: والذي أَرجوه بعد الموت إنه لكذا، فأقسم المشركُ بالله: لا يبعثُ الله مَن يموت. فنزلت الآية. وقال قتادة: ذُكر لنا أنَّ ابن عباس قال له رجل: يا ابن عباس، إنَّ ناساً يزعمون أن عليًّا مبعوثٌ بعدَ الموت قَبْل الساعة، ويتأوَّلون هذه الآية. فقال ابنُ عباس: كَذب أولئك! إنَّما هذه الآيةُ عامةٌ للناس، لو كان عليٌّ مبعوثاً قبلَ القيامة؛ ما نكحنَا نساءَه، ولا قَسمنَا ميراثه[3].

﴿بَلَىٰ﴾ هذا ردٌّ عليهم، أي: بلى ليبعثنَّهم[4]. ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ مصدر مؤكِّد؛ لأن قولَه «يبعثهم»[5] يدلُّ على الوعد، أي: وعد البعث وعداً حقًّا[6]. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنهم مبعوثون. وفي البخاري[7] عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ: «قال الله تعالى: كذَّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأمَّا تكذيبُه إيَّايَ، فقولُه: لن يعيدني كما بدأني، وأما شتمه إيَّايَ فقوله: اتخذ الله ولداً. وأنا

(١) الوسيط ٣/ ٦٢ .

(٢) في (ظ): وقال.

(٣) أخرج الطبري ١٤/ ٢١٩ - ٢٢١ أثر أبي العالية وقتادة، وينظر زاد المسير ٤/ ٤٤٦ - ٤٤٧ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٩٣ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٣٩٣ ، والكشاف ٢/ ٤٠٩ .

(٥) يعني القول المقدر، كما ذكر قبل.

(٦) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٩٣ ، والكشاف ٢/ ٤٠٩ ، والوسيط ٣/ ٦٢ - ٦٣ .

(٧) برقم (٤٩٧٤)، وهو عند أحمد (٨٢٢٠).

الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُوًا أحد». وقد تقدَّم، ويأتي[١].

قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ أي: ليُظهِرَ لهم. ﴿ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي: من أمر البعث. ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ بالبعث وأقسموا عليه[٢] ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ﴾ وقيل: المعنى ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً؛ ليبيِّنَ لهم الذي يختلفون فيه. والذي اختلف فيه المشركون والمسلمون أمورٌ: منها البعثُ، ومنها عبادةُ الأصنام[٣]، ومنها إقرار قومٍ بأن محمداً حقٌّ ولكن منعَهم من اتباعِه التقليدُ، كأبي طالب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾

أعلَمهم سهولةَ الخلق عليه، أي: إذا أردنا أن نبعثَ مَن يموت، فلا تعبَ علينا ولا نصبَ في إحيائهم، ولا في غير ذلك ممَّا نُحدثه؛ لأنَّا إنَّما نقولُ له: كن، فيكون[٤]. قراءةُ ابن عامر والكسائيِّ: «فيكونَ» نصباً عطفاً على «أن نقول». وقال الزجَّاج: يجوز أن يكون نصباً على جواب «كن»[٥]. الباقون بالرفع على معنى فهو يكون[٦]. وقد مضى القولُ فيه في «البقرة» مستوفًى[٧]. وقال ابنُ الأنباريِّ: أوقعَ لفظَ الشيءِ على المعلومِ عندَ الله قبلَ الخلق؛ لأنه بمنزلةِ ما وُجِد وشوهد[٨].

---

(١) سلف ٢/ ٣٣٣ ، وسيرد عند تفسير الآية (٩٣) من مريم، والآية (٥٧) من الأحزاب.

(٢) ينظر الطبري ١٤/ ٢٢١ .

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٩٨ - ١٩٩ .

(٤) تفسير الطبري ١٤/ ٢٢٢ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٩٨ .

(٥) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ١٩٨ ، وأنكر النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٩٦ قول الزجاج هذا؛ لأنه إخبار لا يجوز فيه الجواب.

(٦) السبعة ص٣٧٣ ، والتيسير ص١٣٧ .

(٧) ٢/ ٣٣٨ .

(٨) زاد المسير ٤/ ٤٤٧ ، ولم ينسبه لابن الأنباري.

وفي الآية دليلٌ على أن القرآن غير مخلوق؛ لأنه لو كان قولُه: «كن» مخلوقاً؛ لاحتاج إلى قولٍ ثانٍ، والثاني إلى ثالثٍ، وتسلسل وكان مُحالاً[١].

وفيها دليلٌ على أن الله سبحانه مريدٌ لجميع الحوادثِ كلِّها خيرِها وشرِّها نفعِها وضرِّها، والدليلُ على ذلك أنَّ مَن يرى في سلطانِه ما يكرهه ولا يريده، فلأحدِ شيئين: إمَّا لكونه جاهلاً لا يدري، وإمَّا لكونه مغلوباً لا يطيق، ولا يجوز ذلك في وَصفِه سبحانه، وقد قام الدليلُ على أنه خالقٌ لاكتساب العباد[٢]، ويستحيل أن يكون فاعلاً لشيءٍ وهو غيرُ مريد له؛ لأن أكثر أفعالِنا يحصل على خلاف مقصودِنا وإرادتنا، فلو لم يكنِ الحقُّ سبحانه مريداً لها؛ لكانتْ تلك الأفعالُ تحصل من غير قصدٍ، وهذا قولُ الطبيعيين[٣]، وقد أجمعَ الموحِّدون على خلافِه وفسادِه.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ قد تقدَّم في «النِّساء» معنى الهجرة[٤]، وهي تركُ الأوطان والأهل والقرابة في الله أو في دين الله، وتركُ السيئات. وقيل: «في» بمعنى اللام، أي: لِله. ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ أي: عُذِّبوا في الله[٥]. نزلت في صُهَيب وبلال وخبَّاب وعمَّار، عذَّبهم أهل مكةَ حتى قالوا لهم ما أرادوا، فلما خلَّوهم هاجروا إلى المدينة، قاله الكَلْبيُّ[٦]. وقيل: نزلت في أبي جَنْدل ابن سهيل. وقال قتادة: المرادُ أصحابُ محمد ﷺ، ظلمهم المشركون بمكةَ،

---

(١) تفسير الرازي ٢٠/ ٣٢.

(٢) ينظر تفسير الرازي ٢٦/ ١٤٩ و ٢٤٦ - ٢٤٧.

(٣) في النسخ الخطية: الطبائع، والمثبت من (م).

(٤) ٧/ ٦٥.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٦٩.

(٦) النكت والعيون ٣/ ١٨٩.

وأخرجوهم حتى لحقَ طائفةٌ منهم بالحبشة، ثم بوَّأهم الله تعالى دارَ الهجرة، وجعلَ لهم أنصاراً من المؤمنين(١). والآيةُ تعمُّ الجميع.

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ في الحسنة ستةُ أقوال:

الأوَّل: نزولُ المدينة، قاله ابنُ عباس والحسن والشَّعْبيُّ وقَتادة.

الثاني: الرزقُ الحسن، قاله مجاهد.

الثالث: النصرُ على عدوِّهم، قاله الضحَّاك.

الرابع: أنه لسانُ صدق، حكاه ابن جُريج(٢).

الخامس: ما استولَوا عليه من فتوحِ البلاد، وصار لهم فيها من الولايات.

السادس: ما بقي لهم في الدنيا من الثناءِ، وما صار فيها لأولادهم من الشرف(٣). وكلُّ ذلك اجتمعَ لهم بفضل الله، والحمد لله.

﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أي: ولأجرُ دارِ الآخرة أكبر، أي: أكبر من أن يعلمَه أحدٌ قبل أن يشاهدَه، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠].

﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كان هؤلاءِ الظالمون يعلمون ذلك. وقيل: هو راجعٌ إلى المؤمنين. أي: لو رأوا ثوابَ الآخرة وعاينوه؛ لعلِموا أنه أكبرُ من حسنةِ الدنيا(٤). ورُويَ أنَّ عمرَ بن الخطاب ﷺ كان إذا دفعَ إلى المهاجرين العطاءَ قال: هذا ما وَعدكم اللهُ في الدنيا، وما ادَّخرَ لكم في الآخرة أكثرُ، ثم تلا عليهم هذه الآيَة(٥).

---

(١) زاد المسير ٤/٤٤٨، وأخرج القولين الطبري ١٤/ ٢٢٣ و ٢٢٥. وأبو جندل بن سهيل: اسمه عبد الله، كان من السابقين إلى الإسلام، وممَّن عُذِّب بسبب إسلامه، استشهد باليمامة وهو ابن ثمان وثلاثين سنة. الإصابة ١١/ ٦٤ - ٦٥.

(٢) كذا في النسخ، وفي النكت والعيون٣/ ١٨٨، والكلام منه: ابن جرير، ونسبه في زاد المسير ٤/ ٤٤٨ إلى مجاهد، وهو في تفسيره ١/ ٣٤٧.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٨٨ - ١٨٩.

(٤) ينظر تفسير الرازي ٢٠/ ٣٤.

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٨٩، وأخرجه الطبري ١٤/ ٢٢٤ - ٢٢٥.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾

قيل: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدلٌ من «الذين» الأوّل. وقيل: مِن الضمير في «لَنُبَوِّئَنَّهُمْ»(١) وقيل: هم الذين صَبروا على دينهم(٢). ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في كل أمورهم(٣). وقال بعضُ أهلِ التحقيق: خيارُ الخلق مَن إذا نابَه أمرٌ صبر، وإذا عجزَ عن أمرٍ توكَّل؛ قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ قراءةُ العامة: «يُوحَى» بالياء وفتح الحاء. وقرأ حفص عن عاصم: «نُوحِي إليهم» بنون العَظَمةِ، وكسرِ الحاء(٤). نزلتْ في مشركي مكةَ حيثُ أنكروا نبوَّةَ محمدٍ ﷺ وقالوا: اللهُ أعظمُ من أن يكونَ رسوله بشراً، فهلَّا بعث إلينا مَلَكاً(٥)، فردَّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ إلى الأمم الماضيةِ يا محمد ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ آدميين.

﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ قال سفيان: يعني مؤمني أهلِ الكتاب(٦). ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يُخبرونكم أنَّ جميع الأنبياء كانوا بشراً. وقيل: المعنى: فاسألوا أهلَ الكتاب، فإن لم يؤمنوا، فهم معترفونَ بأنَّ الرسل كانوا من البشر(٧). رُوِيَ معناه عن

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٩٦.

(٢) تفسير الرازي ٢٠/ ٣٥.

(٣) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ٢٢٦.

(٤) السبعة ص٣٧٣، والتيسير ص١٣٠.

(٥) أسباب النزول للواحدي ص٢٨٤ - ٢٨٥.

(٦) أخرجه الطبري ١٤/ ٢٢٧ بنحوه عن سفيان عن الأعمش.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٠٠ - ٢٠١.

ابنِ عباس ومجاهد[١]. وقال ابنُ عباس: أهلُ الذكرِ: أهلُ القرآن[٢]. وقيل: أهل العلم[٣]، والمعنى متقاربٌ.

﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ قيل: «بالبينات» متعلق بـ «أرسلنا». وفي الكلام تقديمٌ وتأخير، أي: ما أرسلنا من قبلكَ بالبينات والزُّبُر إلَّا رجالاً ـ أي: غير رجال، فـ «إلَّا» بمعنى غير، كقوله: لا إله إلا الله، وهذا قولُ الكلبيِّ[٤] ـ نوحِي إليهم. وقيل: في الكلام حذفٌ دلَّ عليه: «أرسلنا»، أي: أرسلناهم بالبيناتِ والزبر[٥]. ولا يتعلق «بِالبيِّناتِ» بـ «أرسلنا» الأوَّل على هذا القول؛ لأنَّ ما قبل «إلَّا» لا يعملُ فيما بعدها، وإنما يتعلقُ بـ «أرسلنا» المقدَّرة، أي: أرسلناهم بالبيِّنات. وقيل: مفعول بـ «تعلمون» والباء زائدة[٦]، أو نُصب بإضمار أعني[٧]، كما قال الأعشى:

وليس مُجيراً إن أتى الحيَّ خائفٌ ... ولا قائلاً إلَّا هو المتعيَّبا[٨]

أي: أعني المتعيِّب. والبينات: الحُجَج والبراهين. والزُّبُر: الكتب. وقد تقدَّم في آل عمران[٩]. ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ يعني: القرآن. ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ في هذا الكتاب من الأحكام والوعد والوعيد بقولِك وفعلِك؛ فالرسول ﷺ مبيِّن عن الله عزَّ وجلَّ مرادَه ممَّا أجمله في كتابه من أحكام الصلاة والزكاة، وغيرِ ذلك مما لم

(١) أخرجه الطبري عنهما ١٤/ ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(٢) أخرجه الطبري ١٤/ ٢٢٨ - ٢٢٩ عن ابن زيد، وهو كذلك في النكت والعيون ٣/ ١٨٩ ، وزاد المسير ٤/ ٤٤٩ ، وزاد نسبته ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٩٥ لابن جبير .

(٣) أخرجه الطبري ١٤/ ٢٨٨ عن أبي جعفر.

(٤) أورده الطبري ١٤/ ٢٢٩ - ٢٣٠ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٩٥ دون نسبة.

(٥) نسبه الرازي في تفسيره ٢٠/ ٣٧ إلى الفراء.

(٦) الكشاف ٢/ ٤١١ .

(٧) تفسير الطبري ١٤/ ٢٣٠ .

(٨) في ديوانه ص١٦٣ ، وتفسير الطبري ١٤/ ٢٣٠ .

(٩) سلف ٥/ ٤٤٦ - ٤٤٧ .

يفصِّله. وقد تقدَّم هذا المعنى مستوفًى في مقدِّمة الكتاب(١)، والحمد لله. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيتَّعظون.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: بالسيئات، وهذا وعيدٌ للمشركين الذين احتالوا في إبطال الإسلام. ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ قال ابن عباس: كما خُسِفَ بقارون(٢)، يقال: خَسفَ المكانُ يَخسِف خُسوفاً: ذهب في الأرض، وخسف اللهُ به الأرضَ خَسْفاً(٣)، أي: غاب به فيها، ومنه قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١]. وخَسَف هو في الأرض وخُسِف به. والاستفهامُ بمعنى الإنكار، أي: يجب ألَّا يأمَنوا عقوبةً تَلحقهم كما لحقت المكذِّبين(٤). ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ كما فعل بقوم لوطٍ وغيرِهم. وقيل: يريد يومَ بدر(٥)؛ فإنهم أُهلكوا ذلك اليوم، ولم يكن شيءٌ منه في حسابهم.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ﴾ أي: في أسفارهم وتصرُّفهم؛ قاله قتادة(٦). ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: مسابقين اللهَ ولا فائتيه. وقيل: «في تَقَلُّبِهِم»: على فراشهم أينما كانوا(٧). وقال الضحَّاك: بالليل والنهار(٨).

---

(١) ١/ ٦٤ - ٦٨.

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٦٤ دون نسبة، وذكره عن ابن عباس ابن الجوزي ٣/ ٥٩ في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ من سورة الأنعام.

(٣) في النسخ: خسوفاً، والمثبت من الصحاح (خسف) والكلام منه.

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ٦٤.

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٦٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) أخرجه الطبري ١٤/ ٢٣٤.

(٧) ينظر الوسيط ٣/ ٦٤.

(٨) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٦٩، وزاد المسير ٤/ ٤٥١، وأخرجه الطبري ١٤/ ٢٣٤ عن ابن جريج.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: أي: على تنقُّصٍ من أموالهم ومواشيهم وزروعِهم[١]. وكذا قال ابنُ الأعرابي: أي: على تنقُّص من الأموال والأنفس والثمرات حتى أهلكهم كلَّهم.

وقال الضحاك: هو من الخوف؛ المعنى: يأخذ طائفةً ويَدَعُ طائفةً، فتخاف الباقيةُ أن يَنزلَ بها ما نزل بصاحبتها[٢]. وقال الحسن: «على تَخَوُّفٍ» أن يأخذ القرية فتخافه القرية الأخرى[٣]، وهذا هو معنى القولِ الذي قبله بعينه، وهما راجعان إلى المعنى الأوَّل، وأنَّ التخوُّف التنقُّصُ؛ تخوَّفه: تنقَّصه، وتخوَّفه الدهرُ وتخوَّنه، بالفاء والنون؛ بمعنًى؛ يقال: تخوَّنني فلانٌ حَقِّي: إذا تنقَّصك[٤]. قال ذو الرُّمَّة:

لا بل هو الشوق مِن دارٍ تَخوَّنها ... مَرًّا سحابٌ ومَرًّا بارِحٌ تَرِبُ[٥]

وقال لبيد:

تخوَّنها نزولي وارتحالي

أي: تنقَّص لحمَها وشحمَها[٦].

وقال الهيثم بن عَدِيٍّ: التخوُّف، بالفاء: التنقُّص، لغةٌ لأزدِ شَنُوءة[٧]. وأنشد:

تخوَّفُ غَدْرِهم مالي وأُهدي ... سلاسلَ في الحلوق لها صليلُ[٨]

---

(١) أخرجه الطبري ١٤/ ٢٣٧ - ٢٣٨ بنحوه. وينظر معاني القرآن للنحاس ٤/ ٦٩ - ٧٠.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٦٩، وأخرجه الطبري ١٤/ ٢٣٨.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٩٠.

(٤) ينظر تهذيب اللغة ٧/ ٥٨٣، والصحاح (خون).

(٥) ديوانه ١/ ١٩، والبارح: الريح الحارة في الصيف. القاموس (برح).

(٦) الصحاح (خون)، وبيت لبيد في ديوانه ص٧٦ (بشرح الطوسي) وصدره: عُذافِرةٌ تَقَمَّصُ بالرُّدافى. وهو في وصف ناقته. والعذافرة: الضخمة القوية الشديدة. تقمص: تنزو به. الرادفى: راكبها الذي يرتدف خلف الراكب. قاله الطوسي.

(٧) تفسير الطبري ١٤/ ٢٣٥، وزاد المسير ٤/ ٤٥١.

(٨) هو في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٦٠، وغريب الحديث لإبراهيم الحربي ٢/ ٨٣٥، وتفسير =

وقال سعيد بن المسيب: بينما عمر بنُ الخطاب ﷺ على المنبر قال: يا أيها الناس، ما تقولون في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ فسكت الناسُ، فقال شيخٌ من بني هُذَيل: هي لغتنا يا أمير المؤمنين، التخوُّف: التنقُّص. فخرج رجل فقال: يا فلان، ما فعل دَيْنُك؟ قال: تخوَّفته، أي: تنقَّصته؛ فرجع فأخبر عمر، فقال عمر: أتعرف العربُ ذلك في أشعارهم؟ قال: نعم؛ قال شاعرنا أبو كبِيرٍ الهُذَليُّ يصف ناقةً تنقَّصَ السيرُ سنامَها بعد تَمْكِه واكتنازه:

تخوَّفَ الرَّحْلُ منها تامِكاً قَرِداً ... كما تخوَّفَ عُودَ النَّبْعة السَّفَنُ[١]

فقال عمر: يا أيها الناس، عليكم بديوانكم شعرِ الجاهلية؛ فإنَّ فيه تفسيرَ كتابكم ومعانيَ كلامكم[٢].

تَمَكَ السَّنامُ يَتْمُكُ تَمْكاً، أي: طال وارتفع، فهو تامِك. والسَّفَن والمِسْفن: ما يُنْجَر به الخشب[٣].

وقال اللَّيث بن سعد: «على تخوُّفٍ» على عَجَل[٤]. وقيل: على تقريعٍ بما قدَّموه من ذنوبهم، وهذا مرويٌّ عن ابن عباس أيضاً. وقال قتادة: «على تخوّف» أن يعاقب

= الطبري ١٤/ ٢٣٥ ، والفائق ١/ ٢٩٩ دون نسبة، والبيت الذي قبله: ألام على الهجاء وكل يوم يلاقيني من الجيران غولُ. وقوله: سلاسل، يعني قوافي.

(١) هكذا نسبه هنا، وكذا في تفسير البيضاوي ٣/ ١٨٢ ، ونسبه الأزهري في تهذيب اللغة ٧/ ٥٩٤ لابن مقبل، وهو في ديوانه ص٤٠٥ ، ونسبه في الصحاح (خوف، سفن) لذي الرُّمَّة، ونسبه الزمخشري في الكشاف ٢/ ٤١١ وفي أساس البلاغة ص١٧٨ إلى زهير، ونسبه البكري في سمط اللآلي ص٧٣٨ لقعنب ابن أمّ صاحب، ونسبه الأصفهاني في الأغاني في ترجمة حماد الراوية لابن مزاحم الثمالي، وأورده الطبري ١٤/ ٢٣٥ ولم ينسبه.

(٢) أخرجه الطبري ١٤/ ٢٣٦ عن رجل، عن عمر ﷺ بنحوه. وينظر الكشاف ٢/ ٤١١ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٩٦ ، وتفسير الرازي ٢٠/ ٣٩ .

(٣) ينظر الصحاح (تمك) و(سفن)، والقَرِد: الذي يركب بعضه بعضاً. والنبع: شجر تتخذ منه القِسِيّ. الصحاح (قرد) و(نبع).

(٤) النكت والعيون ٣/ ١٩٠ .

أو يتجاوز[١].

﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: لا يُعاجِل، بل يُمْهِل.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

قرأ حمزة والكِسائيُّ وخلفٌ ويحيى والأعمش ﴿تَرَوْا﴾ بالتاء[٢]؛ على أنَّ الخطاب لجميع الناس. الباقون بالياء؛ خبراً عن الذين يمكرون السيئات؛ وهو الاختيار. ﴿مِن شَيْءٍ﴾ يعني: من جسمٍ قائم له ظلٌّ من شجرة أو جبل؛ قاله ابن عباس. وإن كانت الأشياء كلُّها سميعةً مطيعةً لله تعالى.

﴿يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب وغيرُهما بالتاء[٣]؛ لتأنيث الظِّلال. الباقون بالياء، واختاره أبو عبيد. أي: يميل من جانب إلى جانب، ويكون أولَ النهار على حال ويتقلَّص، ثم يعود في آخر النهار على حالةٍ أخرى، فدورانُها وَمَيَلانُها من موضعٍ إلى موضعِ سجودُها، ومنه قيل للظِلِّ بالعَشِيِّ: فَيْءٌ؛ لأنه فاء من المغرب إلى المشرق، أي: رجع. والفَيْءُ: الرجوع[٤]، ومنه ﴿حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]. رُوِيَ معنى هذا القولِ عن الضحاك وقتادة وغيرهما[٥]، وقد مضى هذا المعنى في سورة الرعد[٦]. وقال الزجَّاج[٧]: يعني سجودَ الجسم، وسجودُه انقيادُه

(١) أخرجهما الطبري ١٤/ ٢٣٧ - ٢٣٨.

(٢) قراءة حمزة والكسائي في السبعة ص٣٧٣، والتيسير ص١٣٨، وقراءة خلف في النشر ٢/ ٣٠٤، وقراءة الأعمش في إتحاف فضلاء البشر ص٣٥١.

(٣) قراءة أبي عمرو في السبعة ص٣٧٤، والتيسير ص١٣٨، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٠٤.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٧١.

(٥) أخرجه عنهما الطبري ١٤/ ٢٣٩ - ٢٤٠.

(٦) ص٤٥ من هذا الجزء.

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٢٠٢.

وما يُرَى فيه من أَثَر الصَّنْعة، وهذا عامٌّ في كلِّ جسم.

ومعنى ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي: خاضعون صاغرون. والدُّخور: الصَّغار والذُّلُّ. يقال: دَخَر الرجلُ، بالفتح؛ فهو داخِر، وأدخره اللهُ[1]. وقال ذو الرُّمَّة:

فلم يبقَ إلَّا داخرٌ في مُخَيَّسٍ ومُنْجَحِرٌ في غير أرضك في جُحْرِ

كذا نسبه الماورديُّ لذي الرُّمَّة، ونسبه الجوهريُّ للفرزدق[2] وقال: المُخَيَّس: اسم سجنٍ كان بالعراق، أي: موضع التذلُّل. وقال:

أَمَا تراني كَيِّساً مُكَيَّسا بَنَيْتُ بعدَ نافعٍ مُخَيَّسَا[3]

ووحَّد اليمينَ في قوله: «عنِ اليَمينِ» وجمعَ الشمالَ؛ لأنَّ معنى اليمين وإن كان واحداً الجمعُ. ولو قال: عن الأيمان والشمائل، واليمين والشمائل، أو اليمين والشمال، أو الأيمان والشمال، لجاز؛ لأن المعنى للكثرة. وأيضاً فمن شأن العرب إذا اجتمعت علامتان في شيءٍ واحد أن تجمعَ إحداهما وتُفْرِدَ الأخرى، كقوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة:٧]، وكقوله: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧] ولو قال: على أسماعهم، وإلى الأنوار، لجاز. ويجوز أن يكون ردُّ اليمين على لفظ «ما» والشمائل على معناها[4]. ومثل هذا في الكلام كثير. قال الشاعر:

الواردون وتَيْمٌ في ذُرَا سَبَإٍ قد عَضَّ أعناقَهم جِلْدُ الجواميسِ[5]

---

(١) الصحاح (دخر).

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٩١ ، والصحاح (خيس). والبيت في ديوان ذي الرمة ٢/ ٩٧٩ .

(٣) قائله علي بن أبي طالب ﷺ كما في العقد الفريد ٤/ ١٨٣ ، وجمهرة الأمثال ١/ ٧٩ ، واللسان (خيس). وجاء فيه: نافع؛ هو سجن بالكوفة كان غير مستوثق البناء، وكان من قصب، فكان المحبوسون يهربون منه، وقيل: إنه نقب وأفلت منه المحبَّسون، فهدمه علي ﷺ، وبنى المخيَّس لهم من مدر.

(٤) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٧١ .

(٥) قائله جرير، وهو في ديوانه ص٢٥٢ ، والشطر الأول فيه: تدعوك تيم وتيم في قرى سبأ. أراد أنهم أسرى، وفي أعناقهم أطواق من جلد الجواميس.

ولم يقل: جلود.

وقيل: وحَّد اليمين؛ لأن الشمس إذا طلعت وأنت متوجِّهٌ إلى القِبلة، انبسط الظلُّ عن اليمين، ثم في حال يميل إلى جهة الشمال، ثم حالات، فسمَّاها شمائل.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾ أي: من كل ما يَدِبُّ على الأرض. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يعني: الملائكة الذين في الأرض، وإنما أفردهم بالذِّكر لاختصاصهم بشرف المنزلة، فميَّزهم من صفة الدبيب بالذِّكر وإن دخلوا فيها؛ كقوله: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن:٦٨]. وقيل: لخروجهم من جملة مَن يَدِبُّ، لِمَا جعل الله لهم من الأجنحة، فلم يدخلوا في الجملة، فلذلك ذُكروا[١]. وقيل: أراد «ولِلهِ يسجد ما في السماواتِ» من الملائكة والشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب، «وما فِي الأرضِ مِن دابةٍ» وتسجد ملائكةُ الأرض[٢]. ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادة ربِّهم. وهذا ردٌّ على قريش حيث زعموا أنَّ الملائكة بناتُ الله.

ومعنى ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ أي: عقابَ ربِّهم وعذابَه؛ لأنَّ العذابَ المُهلِكَ إنما ينزل من السماء. وقيل: المعنى: يخافون قدرةَ ربِّهم التي هي فوق قدرتهم؛ ففي الكلام حذف[٣]. وقيل: معنى «يخافون ربهم مِن فوقِهِم» يعني الملائكة، يخافون ربَّهم؛ وهي من فوق ما في الأرض من دابَّة ومع ذلك يخافون؛ فلأَنْ يخافَ مَن دونَهم أولى؛ دليلُ هذا القولِ قولُه تعالى: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ يعني: الملائكة[٤].

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٩٢ .

(٢) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٧١ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٩٩ .

(٣) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٩٢ ، والوسيط للواحدي ٣/ ٦٥ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٩٩ .

(٤) ينظر الوسيط للواحدي ٣/ ٦٥ .

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّٰىَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ قيل: المعنى: لا تتخذوا اثنين إلهين[(١)]. وقيل: جاء قولُه: «اثنينِ» توكيداً. ولمَّا كان الإله الحقُّ لا يتعدَّد، وأنَّ كل مَن يتعدَّد فليس بإله، اقتصر على ذِكْرِ الاثنين؛ لأنَّه قصدَ نفيَ التعديد[(٢)]. ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ يعني ذاتَه المقدَّسة. وقد قام الدليل العقليُّ والشرعيُّ على وحدانيَّته حسبما تقدَّم في «البقرة» بيانُه[(٣)]، وذكرناه في اسمه الواحدِ في «شرح الأسماء»[(٤)] والحمد لله. ﴿فَإِيَّٰىَ فَارْهَبُونِ﴾ أي: خافون. وقد تقدَّم في «البقرة»[(٥)].

قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ الدِّين: الطاعة والإخلاص. و«وَاصِباً» معناه دائماً؛ قاله الفرَّاء[(٦)]، حكاه الجوهريُّ[(٧)]. وَصَبَ الشيءُ يَصِب وُصوباً، أي: دام[(٨)]. ووَصَبَ الرجل على الأمر: إذا واظبَ عليه. والمعنى: طاعةُ اللهِ واجبةٌ أبداً. وممن قال: واصباً: دائماً: الحسنُ ومجاهد وقتادة والضحَّاك[(٩)]. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ [الصافات:٩] أي: دائم. وقال الدُّؤَلي:

لا أبتغي الحمدَ القليلَ بقاؤه ... بذمٍ يكون الدَّهرَ أجمعَ واصبا[(١٠)]

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٩٧ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٩٩ .
(٢) ينظر المصدران السابقان.
(٣) ٢/ ٤٨٨ - ٤٨٩ .
(٤) ص١٦١ - ١٦٧ .
(٥) ٢/ ٩ .
(٦) معاني القرآن ٢/ ١٠٤ .
(٧) الصحاح (وصب)، وما بعده منه.
(٨) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٧٢ .
(٩) النكت والعيون ٣/ ١٩٣ ، وأخرجه الطبري ١٤/ ٢٤٧ - ٢٤٩ .
(١٠) رواية عجزه في ديوانه ص٥٢ . هي كما في البيت التالي، وفيه أيضاً: لا أشتري، بدل: ما أبتغي. وينظر التعليق التالي.

أنشد الغزنويُّ والثعلبيُّ وغيرهما:

ما أبتغي الحمدَ القليلَ بقاؤه يوماً بذمِّ الدهر أجمعَ واصبا[١]

وقيل: الوَصَب: التعبُ والإعياء[٢]، أي: تجب طاعة الله تعالى وإن تعب العبدُ فيها. ومنه قولُ الشاعر:

لا يُمسِك الساقَ مِن أَيْنٍ ولا وَصَبٍ ولا يَعَضُّ على شُرْسُوفِهِ الصَّفَرُ[٣]

وقال ابن عباس: «واصباً»: واجباً. الفرَّاءُ والكلبي: خالصاً[٤].

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ أي: لا ينبغي أن تتقوا غيرَ الله. ف«غير» نصب ب«تتقون».

قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝٥٤ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٥٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ قال الفرَّاء[٥]: «ما» بمعنى الجزاء،

---

(١) قوله: أنشد الغزنوي... هذا الموضع، ليس في (د) و(ظ) و(ز)، والبيت في مجاز القرآن ١/ ٣٦١، وتفسير الطبري ١٤/ ٢٤٧، والنكت والعيون ٣/ ١٩٣، وزاد المسير ٤/ ٤٥٦، والأغاني ١٢/ ٣٠٩.

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٩٣.

(٣) قائله أعشى باهلة عامر بن الحارث أبو قحفان يرثي أخاه لأمه المنتشر بن وهب الباهلي. وهو في الأصمعيات ص٩٠، والكامل ٣/ ١٤٣١، وتفسير الطبري ١٤/ ٢٤٧. وفي جمهرة أشعار العرب ٢/ ٧١٨ - ٧١٩، والخزانة ١/ ١٩٧ كل شطر منه لبيت، وهما:

لا يتأرَّى لما في القِدر يرقُبه ولا يعض على شرسوفه الصفر

لا يغمز الساق من أين ولا وصب ولا يزال أمام القوم يقتفر

لا يتأرَّى: لا يتحبس ويتلبث. الشرسوف: طرف الضلع. الصفر: دويبة مثل الحية تكون في البطن تعتري من به شدة الجوع. لا يغمز الساق: لا يجسُّها، يصف جَلَده وتحمُّله للمشاقّ. الأين: الإعياء. الاقتفار: اتباع الآثار. قاله البغدادي في الخزانة.

(٤) النكت والعيون ٣/ ١٩٣، وقول ابن عباس أخرجه الطبري ١٤/ ٢٤٩، وكلام الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٠٤.

(٥) في معاني القرآن ٢/ ١٠٤.

والباء في «بكم» متعلِّقةٌ بفعل مضمَر، تقديره: وما يكن بكم. ﴿مِّن نِّعۡمَةٍ﴾ أي: صحةِ جسمٍ وَسَعة رزق وولد، فمن الله[1]. وقيل: المعنى: وما بكم من نعمةٍ فمن الله هي. ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ أي: السّقمُ والبلاء والقَحْط.

﴿فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾ أي: تَضِجُّون بالدُّعاء. يقال: جَأر يَجْأر جُؤاراً. والجُؤار مثلُ الخُوار؛ يقال: جَأَرَ الثورُ يَجْأر، أي: صاح. وقرأ بعضهم: «عجلاً جسَداً لَهُ جُؤَارٌ» [طه:٨٨]؛ حكاه الأخفش. وجَأَرَ الرجلُ إلى الله، أي: تضرَّع بالدعاء[2]. وقال الأعشى يصف بقرةً:

فطافت ثلاثاً بين يومٍ وليلة ... وكان النكير أن تُضِيفَ وتجأرا[3]

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ﴾ أي: البلاء والسقم. ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ بعد إزالة البلاء وبعد الجؤار. فمعنى الكلام التعجيبُ من الإشراك بعد النجاةِ من الهلاك، وهذا المعنى مكرَّر في القرآن، وقد تقدَّم في «الأنعام» و«يونس»، ويأتي في «سبحان» وغيرِها[4]. وقال الزجَّاج[5]: هذا خاصٌّ بمن كفر.

﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ أي: ليجحدوا نعمةَ الله التي أنعم بها عليهم مِن كَشْف الضُّرِّ والبلاء. أي: أشركوا ليجحدوا، فاللام لام «كي». وقيل: لام العاقبة[6]. وقيل: «لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْنَاهُمْ» أي: ليجعلوا النعمة سبباً للكفر[7]، وكلُّ هذا فعلٌ خبيثٌ؛ كما

---

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٠٤ .

(٢) الصحاح (جأر).

(٣) البيت في ديوان النابغة الجعدي ص٤١ ، ونسبه إليه سيبويه في الكتاب ٣/ ٥٦٣ ، والبغدادي في الخزانة ٣/ ٣١٧ (دار صادر) وقال: وصف النابغة الجعدي به بقرة وحشية أكل السبعُ ولدَها فطافت، وروي: أقامت ثلاثة أيام وثلاث ليال تطلبه، ولا إنكار عندها ولا غناء إلا الإضافة، وهي الجزع والإشفاق والجؤار. اهـ وشطره الأول في الديوان: فجالت على وحشيِّها مستتبَّة.

(٤) تقدم ٨/ ٤١٢ - ٤١٣ و ١٠/ ٤٦٤ - ٤٦٥ ، ويأتي عند تفسير الآية (٦٧) من الإسراء.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٢٠٤ .

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٧٢ .

(٧) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٧٣ .

قال:

والكفرُ مَخْبَثَةٌ لنفس المُنْعِمِ[١]

﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ أمرُ تهديد. وقرأ عبد الله[٢]: «قل[٣] تمتعوا». ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: عاقبةَ أمركم.

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ ذكر نوعاً آخرَ من جهالتهم، وأنهم يجعلون لِمَا لا يعلمون أنه يضرُّ وينفع ـ وهي الأصنام ـ شيئاً من أموالهم يتقرَّبون به إليه؛ قاله مجاهدٌ وقتادة[٤] وغيرهما. فـ «يعلمون» على هذا للمشركين. وقيل: هي للأوثان، وجرى بالواو والنون مَجرى مَن يعقل[٥]، فهو ردٌّ على «ما»، ومفعولُ «يعلم» محذوف، والتقدير: ويجعل هؤلاء الكفارُ للأصنام التي لا تعلم شيئاً نصيباً. وقد مضى في «الأنعام» تفسيرُ هذا المعنى في قوله: ﴿فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا﴾[٦] [الآية: ١٣٦]. ثم رجع من الخبر إلى الخطاب فقال: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ﴾ وهذا سؤالُ توبيخ. ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ أي: تختلقونه من الكذب على الله أنَّه أمركم بهذا.

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ نزلت في خُزاعة وكِنانة؛ فإنَّهم زعموا أنَّ

---

(١) البيت لعنترة، وصدره: نُبِّئتُ عَمراً غير شاكرِ نعمتي. وهو في ديوانه ص٢٨ ، والخزانة ١/ ٣٣٦ . والكفر هنا: الجحد. ومَخبثة، بفتح الميم: من الخُبث. قاله البغدادي.

(٢) في (د): ووعد الله، وفي (ز): وواعد الله.

(٣) في (ف): قال. ولم نقف على القراءة.

(٤) أخرجه الطبري ١٤/ ٢٥٣ عنهما.

(٥) ينظر زاد المسير ٤/ ٤٥٨ .

(٦) ٩/ ٣٦ - ٣٨ .

الملائكة بناتُ الله[(١)]، فكانوا يقولون: ألحِقوا البناتِ بالبنات. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ نزَّه نفسَه وعظَّمها عما نسبوه إليه من اتخاذ الأولاد.

﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: يجعلون لأنفسهم البنينَ ويأنفون من البنات. وموضع «ما» رفعٌ بالابتداء، والخبر «لهم». وتمَّ الكلامُ عند قوله: «سبحانه»[(٢)]. وأجاز الفرَّاء[(٣)] كونَها نصباً، على تقدير: ويجعلون لهم ما يشتهون. وأنكره الزجَّاج[(٤)] وقال: العرب تستعمل في مثل هذا: ويجعلون لأنفسهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾ أي: أُخبر أحدُهم بولادة بنت. ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ أي: متغيِّراً، وليس يريد السَّوادَ الذي هو ضدُّ البياض، وإنما هو كنايةٌ عن غَمِّه بالبنت. والعرب تقول لكل مَن لقي مكروهاً: قد اسودَّ وجهُه غمًّا وحزناً؛ قاله الزجَّاج[(٥)]. وحكى الماورديُّ[(٦)] أنَّ المراد سوادُ اللون، قال: وهو قولُ الجمهور.

﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: ممتلئٌ من الغَمِّ. وقال ابن عباس: حزين. وقال الأخفش: هو الذي يَكظِم غيظه فلا يُظهرُه. وقيل: إنه المغموم الذي يُطْبِق فاه فلا يتكلَّم من الغَمِّ؛ مأخوذٌ من الكِظامة، وهو شدُّ فَمِ القِرْبة؛ قاله عليُّ بنُ عيسى[(٧)]. وقد تقدَّم هذا المعنى في سورة يوسف[(٨)].

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٦٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٧٣ ، وزاد المسير ٤/ ٤٥٨ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٩٨ .

(٣) في معاني القرآن له ٢/ ١٠٥ .

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ٢٠٦ .

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٢٠٦ .

(٦) النكت والعيون ٣/ ١٩٤ ، وما قبله منه.

(٧) النكت والعيون ٣/ ١٩٤ ، وقول ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه الطبري ١٤/ ٢٥٦ .

(٨) ١١/ ٤٣٢ .

قوله تعالى: ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ﴾ أي: يختفي ويتغيَّب. ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ أي: من سوء الحزن والعار والحياء الذي يلحقه بسبب البنت.

﴿أَيُمْسِكُهُۥ﴾ ذكَّر الكنايةَ؛ لأنَّه مردودٌ على «ما»[١]. ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾ أي: هوان. وكذا قرأ عيسى الثقفيُّ: «على هوان»[٢]. والهُون: الهوان بلغة قريش؛ قاله اليزيديّ[٣]، وحكاه أبو عبيد عن الكِسائيّ[٤]. وقال الفرَّاء: هو القليل بلغة تميم. وقال الكسائيّ: هو البلاء والمشقَّة[٥]. وقالت الخَنْساء[٦]:

نُهينُ النفوسَ وهُونُ النفو ... سِ يومَ الكريهةِ أبقى لها

وقرأ الأعمش: «أيمسِكه على سوءٍ» ذكره النحاس[٧]، قال: وقرأ الجَحْدَرِيُّ: «أم يدسُّها في التراب»، يردُّه على قوله: «بالأنثى»، ويلزمه أن يقرأ: «أيمسِكها». ثم قيل: يرجع الهوانُ إلى البنت؛ أي: أيمسكها وهي مهانةٌ عنده. وقيل: يرجع إلى المولود له، أي: أيمسكه على رغم أنفِه أمْ يدسُّه في التراب، وهو ما كانوا يفعلونه من دفن البنت حيَّة[٨].

قال قتادة: كان مُضَرُ وخُزاعة يدفِنون البناتِ أحياءً؛ وأشدُّهم في هذا تميم.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٧٣ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٧٦ ، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٧٣ للجحدري.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٩٤ ، وينظر تفسير الطبري ١٤/ ٢٥٧ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٧٦ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٩٤ ، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ١٠٦ - ١٠٧ .

(٦) ديوانها ص١٢١ .

(٧) في معاني القرآن ٤/ ٧٦ .

(٨) ينظر تفسير الرازي ٢٠/ ٥٥ .

زعموا خوفَ القهر عليهم، وطمعِ غيرِ الأكفاء فيهنَّ[١].

وكان صَعْصَعة بنُ ناجية عَمُّ الفرزدق[٢] إذا أحسَّ بشيء من ذلك، وجَّه إلى والد البنت إبلاً يستحييها بذلك[٣]. فقال الفرزدق يفتخر:

وعمِّي الذي منَعَ الوائداتْ ... وأحيا الوَئيدَ فلم يُوأَدِ[٤]

وقيل: دَسُّها: إخفاؤها عن الناس حتى لا تُعرف، كالمدسوس في التراب؛ لإخفائه عن الأبصار، وهذا محتمِل[٥].

مسألة: ثبت في «صحيح مسلم»[٦] عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءتني امرأةٌ ومعها ابنتان لها، فسألتني، فلم تجد عندي [شيئاً] غيرَ تمرةٍ واحدة، فأعطيتُها إياها، فأخذَتْها، فقسَمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها شيئاً، ثم قامت فخرجت وابنتاها، فدخل عليَّ النبيُّ ﷺ، فحدَّثته حديثَها، فقال النبيُّ ﷺ: «من ابتُلي من البنات بشيء فأحسن إليهنَّ، كنَّ له سِتْراً من النار». ففي هذا الحديثِ ما يدلُّ على أنَّ البناتِ بليَّة، ثم أخبر أنَّ في الصبر عليهنَّ والإحسان إليهنَّ ما يَقي من النار.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: جاءتني مسكينةٌ تحمل ابنتين لها، فأطعمتها ثلاثَ تمرات، فأعطت كلَّ واحدةٍ منهما تمرةً، ورفعت إلى فيها تمرةً لتأكلَها، فاستطعمتها ابنتاها، فشقَّت التمرةَ التي كانت تريد أن تأكلَها بينهما؛ فأعجبني شأنُها، فذكرتُ الذي صنعتْ لرسول الله ﷺ فقال: «إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد

---

(١) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٧٣.

(٢) كذا في تفسير البغوي ٣/ ٧٣، والكلام منه، وقال ابن حجر في الإصابة ٥/ ١٤٢: وبه جزم أبو عمر، لكن ليس للفرزدق عم اسمه صعصعة، وإنما صعصعة جده.

(٣) أخرجه ضمن حديث طويل البزار (٧٢ كشف الأستار)، والطبراني في الكبير (٧٤١٢).

(٤) ديوانه ص١٧٣ برواية: ومنا الذي... وفي المصادر: وجدي الذي..

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٩٥.

(٦) برقم (٢٦٢٩)، وهو عند أحمد (٢٤٥٧٢) والبخاري (١٤١٨). وما سيرد بين حاصرتين منها.

أوجب لها بها الجنةَ، أو أعتقها بها من النار».

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن عالَ جاريتين حتى تَبْلُغا، جاء يومَ القيامة أنا وهو» وضمَّ أصابعه، خرَّجهما أيضاً مسلم رحمه الله[(١)].

وخرَّج أبو نُعيم الحافظُ من حديث الأعمش، عن أبي وائلٍ، عن عبدِ الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن كانت له بنتٌ فأدَّبها فأحسن أدبَها، وعلَّمها فأحسن تعليمها، وأسبغَ عليها من نِعَمِ الله التي أسبغَ عليه، كانت له سِتْراً وحجاباً من النار»[(٢)].

وخُطب إلى عَقيل بنِ عُلَّفة[(٣)] ابنتُه الجرباء فقال:

إنـي وإن سِيـق إلـيَّ الـمَـهْـرُ ألْـفٌ وعُـبـدانٌ وخُـورٌ[(٤)] عَـشْـرُ
أَحَـبُّ أصـهـاري إلـيَّ الـقـبـرُ[(٥)]

وقال عبد الله بنُ طاهر[(٦)]:

(١) برقم (٢٦٣٠) و(٢٦٣١). وهما عند أحمد (٢٤٦١١) و(١٢٤٩٨).

(٢) حلية الأولياء ٥/ ٥٧، وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير (١٠٤٤٧). قال أبو نعيم: غريب من حديث الأعمش، تفرَّد به الأموي عن طلحة، وقال الهيثمي في المجمع ٨/ ١٥٨ : فيه طلحة بن زيد، وهو وضاع. اهـ، ويغني عنه ما أخرجه البخاري (١٤١٨)، ومسلم (٢٦٢٩) عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت امرأة معها ابنتان لها تسأل... وفيه: فقال النبي ﷺ: من ابتلي من هذه البنات بشيء كنَّ له ستراً من النار.

(٣) ابن الحارث بن معاوية، يكنى أبا العملَّس وأبا الجرباء، وهو شاعر مجيد مقلٌّ، من شعراء الدولة الأموية، وابنته الجرباء تزوجها يزيد بن عبد الملك. الأغاني ١٢/ ٢٥٤.

(٤) في المصادر: وذود: وهو ما بين الثنتين إلى التسع من الإبل. النهاية (ذود)، والخور: النُّوق الغُزُر. القاموس (خور).

(٥) ديوان المعاني ٢/ ٢٥١، وزهر الآداب ١/ ٤٨٤، والصاهل والشاحج ص٥٧٥، وبهجة المجالس ٢/ ٧٦٨.

(٦) كذا وقع في النسخ، والبيتان المذكوران في ديوان المعاني ٢/ ٢٥١، وزهر الآداب ١/ ٤٨٤ منسوبان لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر، وهو الأمير أبو أحمد الخزاعي، ولي شرطة بغداد، وكان رئيساً جليلاً، وشاعراً محسناً، ومترسلاً بليغاً. مات سنة ٣٠٠هـ وأما عبد الله بن طاهر فهو الأمير العادل أبو العباس، حاكم خراسان وما وراء النهر، له يد في النظم والنثر. مات سنة ٢٣٠هـ السير ١٤/ ٦٢ و ١٠/ ٢٥٢.

لـكـل أبـي بـنـتٍ يـراعـي شـؤونـهـا ثـلاثـةُ أصـهـارٍ إذا حُـمـد الـصِّـهْـرُ
فَـبَـعْـلٌ يُـراعِـيـهـا وخِـدْرٌ يَـكُـنُّـهـا وقـبـرٌ يُـوارِيـهـا وخـيـرُهـمـا الـقَـبـر

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: في إضافةِ البناتِ إلى خالقِهم وإضافةِ البنين إليهم. نظيرُه: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢١-٢٢][١] أي: جائرة، وسيأتي.

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: لهؤلاء الواصفينَ لله البنات[٢] ﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: صفةُ السَّوء مِن الجهل والكفر. وقيل: هو وَصْفُهم اللهَ تعالى بالصَّاحبة والولد[٣]. وقيل: أي: العذاب والنار[٤].

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: الوصف الأعلى من الإخلاص والتوحيد؛ قاله قتادة. وقيل: أي: الصفة العليا بأنه خالقٌ رازق قادر ومُجازٍ[٥]. وقال ابن عباس: «مثل السَّوء»: النار، و«المثل الأعلى»: شهادة أنْ لا إله إلا الله[٦]. وقيل: ليس كمثله شيء[٧]. وقيل: «ولله المثل الأعلى» كقوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ [النور: ٣٥].

فإن قيل: كيف أضاف المَثَلَ هنا إلى نفسِه، وقد قال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ﴾

---

(١) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٧٣ .
(٢) تفسير البغوي ٣/ ٧٣ .
(٣) النكت والعيون ٣/ ١٩٥ .
(٤) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٢٣٩ .
(٥) النكت والعيون ٣/ ١٩٥ ، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٤/ ٢٥٨ .
(٦) تفسير البغوي ٣/ ٧٣ .
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢٥٤٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

[النحل: ٧٤]؟ فالجواب أنَّ قوله: «فلا تضربوا لله الأمثال» أي: الأمثالَ التي توجب الأشباهَ والنقائص؛ أي: لا تضربوا لله مثلاً يقتضي نَقْصاً وتشبيهاً بالخَلْق؛ والمَثَلُ الأعلى وصفُه بما لا شبيه له ولا نظير، جَلَّ وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون عُلُوًّا كبيراً[١]. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تقدَّم معناه[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٦١﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ أي: بكفرهم وافترائهم، وعاجَلَهم ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ أي: على الأرض، فهو كنايةٌ عن غير مذكور، لكنْ دلَّ عليه قولُه: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ فإنَّ الدابَّة لا تَدِبُّ إلا على الأرض. والمعنى المراد: مِن دابَّة كافرة، فهو خاصٌّ[٣]. وقيل: المعنى: أنَّه لو أهلك الآباءَ بكفرهم، لم تكن الأبناء[٤]. وقيل: المراد بالآية العموم[٥]، أي: لو آخذ اللهُ الخَلْقَ بما كسبوا، ما ترك على ظهر هذه الأرضِ من دابة من نبيٍّ ولا غيرِه؛ وهذا قول الحسن.

وقال ابن مسعود وقرأ هذه الآية: لو آخذ اللهُ الخلائقَ بذنوب المذنبينَ، لأَصاب العذابُ جميعَ الخَلْق حتى الجِعْلانَ[٦] في جُحْرها، ولأمسك الأمطارَ من السماء والنباتَ من الأرض، فمات الدوابُّ، ولكنَّ اللهَ يأخذ بالعفو والفَضْل؛ كما قال: ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

---

(١) ينظر مجمع البيان ١٤/ ٨٨ .

(٢) ١/ ٤٢٩ ، ٢/ ٤٠٣ - ٤٠٤ .

(٣) ينظر زاد المسير ٤/ ٤٥٩ .

(٤) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٩٦ ، وتفسير البغوي ٣/ ٧٤ .

(٥) ينظر زاد المسير ٤/ ٤٥٩ .

(٦) جمع جُعَل: حيوان كالخنفساء يكثر في المواضع الندية. والأثر أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٢٧٠)، والطبري ١٤/ ٢٦٠ مختصراً بنحوه.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ أي: أجلُ موتهم ومنتهى أعمارِهم ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ وقد تقدَّم(١).

فإن قيل: فكيف يَعمُّ بالهلاك مع أنَّ فيهم مؤمناً ليس بظالم؟ قيل: يجعل هلاك الظالم انتقاماً وجزاءً، وهلاكَ المؤمن معوَّضاً بثواب الآخرة(٢).

وفي «صحيح مسلم»(٣) عن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أراد اللهُ بقوم عذاباً، أصاب العذابُ مَن كان فيهم، ثم بُعثوا على نياتهم(٤)».

وعن أمِّ سَلمة وسُئلت عن الجيش الذي يُخسف به ـ وكان ذلك في أيام ابنِ الزبير ـ فقالت: قال رسول الله ﷺ: «يعوذُ بالبيت عائذ، فيُبعث إليه بَعْث، فإذا كانوا ببَيْداءَ من الأرض خُسِف بهم» فقلت: يا رسول الله، فكيف بمن كان كارهاً؟ قال: «يُخسَف به معهم، ولكنه يبعث يوم القيامة على نيَّته»(٥).

وقد أتينا على هذا المعنى مُجَوَّداً في كتاب «التذكرة»(٦)، وتقدَّم في «المائدة» وآخر «الأنعام» ما فيه كفاية(٧)، والحمد لله. وقيل: «فإذا جاء أجلهم» أي: فإذا جاء يومُ القيامة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أي: من البنات. ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ

---

(١) ٩/٢١٢.

(٢) ينظر تفسير الرازي ٢٠/٥٩.

(٣) برقم (٢٨٧٩)، وهو عند أحمد (٤٩٨٥)، والبخاري (٧١٠٨).

(٤) في المصادر: أعمالهم.

(٥) أخرجه مسلم (٢٨٨٢)، وهو عند أحمد (٢٦٤٧٥) بنحوه مختصر.

(٦) ص٥٢٨ - ٥٣٢.

(٧) ٨/٢٤٨، ٩/١٤٥.

﴿ٱلْكَذِبَ﴾ أي: وتقول ألسنتُهم الكذبَ. ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ قال مجاهد: هو قولهم: إنَّ لهم البنينَ ولله البنات[١]. «الكذِبَ» مفعولُ «تصِف»، و«أنَّ» في محل نصبٍ بدل من الكذب؛ لأنَّه بيانٌ له[٢]. وقيل: «الحسنى»: الجزاء الحسن؛ قاله الزجَّاج[٣].

وقرأ ابن عباس وأبو العالية ومجاهد وابن مُحَيْصِن: «الكُذُبُ» برفع الكاف والذال والباء؛ نعتاً للألسنة[٤]؛ وكذا ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ﴾[٥] [النحل:١١٦]. والكُذُب: جمع كَذوب[٦]، مثل: رَسُول ورُسُل، وصَبُور وصُبُر، وشَكُور وشُكُر.

﴿لَا﴾ رَدٌّ لقولهم، وتَمَّ الكلام، أي: ليس كما يزعمون. ﴿جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ أي: حقًّا أنَّ لهم النار[٧]. وقد تقدَّم مستوفًى[٨].

﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾: متركون منسيُّون في النار؛ قاله ابنُ الأعرابيِّ وأبو عبيدة والكسائيُّ والفراء، وهو قول سعيد بنِ جبير ومجاهد. وقال ابن عباس وسعيد بنُ جبير أيضاً: مُبعَدون. قتادة والحسن: معجَّلون إلى النار مقدَّمون إليها[٩].

والفارط: الذي يتقدم إلى الماء؛ ومنه قولُ النبيِّ ﷺ: «أنا فَرَطُكم على الحوض»

(١) أخرجه الطبري ١٤/ ٢٦٢ .

(٢) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٠٠ ، والمحتسب لابن جني ٢/ ١١ .

(٣) معاني القرآن ٣/ ٢٠٧ .

(٤) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٠٠ ، فقد نسب القراءة ـ نقلاً عن أبي حاتم ـ إلى أهل الشام أو بعضهم. ونسبها في المحتسب ٢/ ١١ لمعاذ، وفي زاد المسير ٤/ ٤٦٠ لأبي العالية والنخعي وابن أبي عبلة.

(٥) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٧٣ ، وابن جني في المحتسب ٢/ ١٢ لمسلمة بن محارب، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٥٠٢ لابن أبي عبلة.

(٦) ينظر المحتسب ٢/ ١١ .

(٧) النكت والعيون ٣/ ١٩٦ ، وينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٠٧ ، وزاد المسير ٤/ ٤٦٠ .

(٨) ١١/ ٩٤ - ٩٥ .

(٩) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٤/ ٢٦٣ - ٢٦٦ ، وينظر معاني القرآن للنحاس ٤/ ٨٠ .

أي: متقدِّمكم[١]. وقال القَطاميّ[٢]:

فاسْتَعجَلونا وكانوا مِن صحابتِنا كما تَعَجَّلَ فُرَّاطٌ لِوُرَّادِ

والفُرَّاط: المتقدِّمون في طلب الماء. والوُرَّاد: المتأخرون[٣].

وقرأ نافعٌ في رواية وَرْش: «مُفْرِطون» بكسرِ الراء وتخفيفها[٤]، وهي قراءةُ عبدالله بنِ مسعود وابنِ عباس[٥]، ومعناه: مُسرِفون في الذنوب والمعصية، أي: أَفرطوا فيها[٦]. يقال: أفرط[٧] فلانٌ على فلان: إذا أَرْبَى عليه، وقال له أكثرَ مما قال من الشَّرِّ.

وقرأ أبو جعفر القارئ: «مُفَرِّطون» بكسرِ الراء وتشديدها، أي: مضيِّعون أمرَ الله؛ فهو مِن التفريط في الواجب[٨].

قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: أعمالَهم الخبيثة. هذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ بأنَّ مَن تقدَّمه من الأنبياء قد كفر بهم قومُهم. ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: ناصرُهم في الدنيا على زعمهم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة. وقيل: «فهو ولِيُّهم» أي: قرينُهم في النار[٩]. ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يعني يومَ القيامة،

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٩٦. والحديث سلف ٥/ ٢٥٧ و ٨/ ٣٥٨.

(٢) ديوانه ص٩٠.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٩٦.

(٤) وقرأ بها نافع في رواية قالون أيضاً. السبعة ص٣٧٤، والتيسير ص١٣٨.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٠٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٠٤.

(٦) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٩٦.

(٧) في (د) ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ٨٠: فرط.

(٨) النكت والعيون ٣/ ١٩٧، وقراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٠٤.

(٩) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٤٠.

وأطلقَ عليه اسمَ اليوم؛ لشهرته. وقيل: يقال لهم يومَ القيامة: هذا وليُّكم فاستنصِروا به لينجيَكم مِن العذاب؛ على جهة التوبيخ لهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي: القرآن ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ من الدين والأحكام فتقومَ الحجةُ عليهم ببيانك[1]. وعطف «هُدًى ورحمةً» على موضع قوله: «لِتُبَيِّنَ» لأنَّ محلَّه نصبٌ. ومجاز الكلام: وما أنزلنا عليك الكتابَ إلَّا تِبياناً للناس[2]. ﴿وَهُدًى﴾ أي: رَشَداً ورحمةً للمؤمنين.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: السحاب. ﴿مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ عاد الكلامُ إلى تعداد النِّعَم، وبيانِ كمال القدرة. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي: دلالةً على البعث وعلى وحدانيته؛ إذ علموا أنَّ معبودَهم لا يستطيع شيئاً، فتكون هذه الدَّلالة ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ عن الله تعالى بالقلوب لا بالآذان[3]؛ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾

فيه عشرُ مسائلَ:

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٦٩.

(٢) ينظر الكشاف ٢/ ٤١٦، وتفسير الرازي ٢٠/ ٦٢.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٧٥.

الأولى: قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ قد تقدَّم القولُ في الأنعام[(١)]، وهي هنا الأصنافُ الأربعة: الإبلُ والبقر، والضَّأنُ والمَعْز[(٢)]. ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي: دَلالةً على قدرةِ الله ووَحدانيتِه وعظمتِه. والعِبرةُ أصلُها تمثيلُ الشيءِ بالشيءِ؛ لتُعرَفَ حقيقتُه من طريق المشاكلة، ومنه ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟﴾ [الحشر: ٢]. وقال أبو بكر الورَّاق: العبرةُ في الأنعامِ تسخيرُها لأربابِها وطاعتُها لهم، وتَمرُّدُك على ربك وخِلافُك له في كل شيء، ومِن أعظمِ العِبَرِ بريءٌ يَحمِل مذنباً.

الثانية: قوله تعالى: ﴿نُّسْقِيكُم﴾ قراءةُ أهلِ المدينة وابنِ عامر، وعاصمٍ في رواية أبي بكر: بفتح النون، من سَقَى يَسْقِي. وقرأ الباقونَ وحفصٌ عن عاصم بضم النونِ، من أسقى يُسقي، وهي قراءةُ الكوفيين وأهلِ مكة. قيل: هما لغتان[(٣)]. وقال لَبِيد:

سَقَى قَومِي بَني مَجْدٍ وأسقَى ... نُمَيْراً والقبائلَ من هِلالِ[(٤)]

وقيل: يُقال لما كان مِن يدكَ إلى فيه: سَقيتُه، فإذا جعلتَ له شِرْباً، أو عَرَّضتَه لِأنْ يشربَ بفيه، أو بزرعه[(٥)]؛ قلت: أَسقيتُه؛ قاله ابنُ عُزَيز[(٦)]، وقد تقدم[(٧)].

وقرأتْ فرقةٌ: «تسقِيكم» بالتاء[(٨)]، وهي ضعيفةٌ[(٩)]، يعني: الأنعام. وقُرِئ بالياء[(١٠)]، أي: يَسقِيكم اللهُ عزَّ وجلَّ. والقُراءُ على القراءتين المتقدِّمين؛ ففتحُ النونِ

---

(١) ٩/ ٧٣.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٠٤.

(٣) التيسير ص١٣٨، والسبعة ص٣٧٤، وينظر الطبري ١٤/ ٢٧٠، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٠١، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٤٩ - ٣٥٠.

(٤) ديوان لبيد بين ربيعة ص١١٠، وسلف ٢/ ١٣٥.

(٥) في (م): يزرعه.

(٦) في نزهة القلوب ص٨١ - ٨٢.

(٧) ٢/ ١٣٥.

(٨) وهي قراءة أبي جعفر من العشرة. ينظر النشر ٢/ ٣٠٤.

(٩) المحرر الوجيز ٣/ ٤٠٥.

(١٠) وهي قراءة أبي رجاء، وهي شاذة ينظر البحر المحيط ٥/ ٥٠٨.

لغةُ قريش، وضمُّها لغةُ حِمير.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾ اختَلفَ الناسُ في الضميرِ من قوله: «مما في بطونِهِ» على ماذا يَعود؟ فقيل: هو عائدٌ إلى ما قبلَه، وهو جمعُ المؤنث. قال سيبويهِ: العربُ تخبرُ عن الأنعامِ بخبرِ الواحد. قال ابنُ العربيّ(١): وما أراه عوَّل عليه إلَّا من هذه الآية، وهذا لا يُشبهُ منصبَه، ولا يليقُ بإدراكه. وقيل: لمَّا كان لفظُ الجمع وهو اسم الجنس يُذكَّر ويؤنث فيقال: هو الأنعامُ وهي الأنعامُ، جازَ عَودُ الضمير بالتذكير؛ وقاله الزجاجُ(٢). وقال الكسائيُّ: معناهُ: ممَّا في بطونِ ما ذكرناه، فهو عائدٌ على المذكور(٣)، وقد قالَ الله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۞ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ [عبس:١١] وقال الشاعر:

مثل الفِراخ نُتِقَتْ(٤) حواصلُه

ومثلُه كثيرٌ. وقال الكسائيُّ: ﴿مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾ أي: ممَّا في بطونِ بعضِه؛ إذِ الذكورُ لا ألبانَ لها، وهو الذي عوَّل عليه أبو عُبيدة. وقال الفراء(٥): الأنعامُ والنَّعَمُ واحد، والنَّعَم يُذكَّر، ولهذا تقولُ العربُ: هذا نَعَمٌ واردٌ، فرجع الضميرُ إلى لفظِ النَّعَم الذي هو بمعنى الأنعام. قال ابن العربي(٦): إنَّما رجع التذكيرُ إلى معنى الجمع، والتأنيثُ إلى معنى الجماعة، فذكَّره هنا باعتبارِ لفظ الجمع، وأنَّثه في سورة المؤمنين باعتبارِ

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١١٣٩ .

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٠٩ ونقله المصنف بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٠٧ .

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٠٩ .

(٤) في النسخ والمسائل العسكرية لأبي علي الفارسي ص١١٧ ، وشرح شواهد الإيضاح لابن بري ص٣٤٧ ، والمحتسب ٢/ ١٥٣ ، واللسان (نعم) و(خلف): نتفت، والمثبت من مجالس ثعلب كما نبَّه عليه عبد السلام هارون رحمه الله، وكذلك جاء في معاني القرآن للفراء ١/ ١٣٠ و ٢/ ١٠٩ ، وتفسير الطبري ١٤/ ٢٧٢ - ٢٧٣ ، ونتق نتوقاً: امتلأ جلده شحماً ولحماً، تهذيب اللغة ٩/ ٦٢ .

(٥) في معاني القرآن ٢/ ١٠٨ .

(٦) في أحكام القرآن ٣/ ١١٣٩ .

لفظ الجماعة فقال: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون: ٢١]. وبهذا التأويلِ ينتظمُ المعنى انتظاماً حسناً، والتأنيثُ باعتبارِ لفظ الجماعة، والتذكيرُ باعتبار لفظِ الجمع أكثرُ من رَمل يَبْرِين وتَيْهَاء فِلَسْطِين[١].

الرابعة: استنبطَ بعض العلماء الجِلَّة ـ وهو القاضي إسماعيلُ ـ من عَودِ هذا الضَّمير، أنَّ لبن الفحل يُفيد التحريم، وقال: إنَّما جيء به مذكَّراً؛ لأنه راجعٌ إلى ذكرِ النَّعم؛ لأنَّ اللبنَ للذَّكَر محسوبٌ، ولذلك قضى النبيُّ ﷺ بأنَّ لبن الفحلِ يُحرِّم حينَ أنكرته عائشةُ في حديثِ أفْلح أخي أبي القُعَيس[٢]، فللمرأةِ السَّقيُ وللرجلِ اللقاحُ، فجرى الاشتراكُ فيه بينهما[٣]. وقد مضى القولُ في تحريمِ لبن الفحل في «النساء»[٤] والحمدُ لله.

الخامسة: قولُه تعالى: ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾ نبَّه سبحانه على عظيمِ قدرتِه بخروج اللبنِ خالصاً بين الفَرْث والدم. والفَرْثُ: الزِّبلُ الذي ينزلُ إلى الكَرِش، فإذا خرجَ لم يُسَمَّ فَرْثاً. يقال: أَفْرَثْتُ الكَرِشَ: إذا أخرجتَ ما فيها[٥]. والمعنى: أنَّ الطعام يكونُ منه ما في الكَرِش، ويكون منه الدَّم، ثم يخلُص اللبن من الدم، فأعلم الله سبحانه أنَّ هذا اللبنَ يخرجُ من بينِ ذلك، وبينِ الدَّم في العروق[٦]. وقال ابنُ عباس: إنَّ الدابة تأكلُ العلفَ، فإذا استقرَّ في كَرِشِها، طَبَخْته، فكانَ أسفلُه فَرْثاً، وأوسطُه لبناً، وأعلاه دماً، والكبدُ مُسلَّط على هذه الأصنافِ، فتَقسِم الدمَ وتُميِّزه

(١) يبرين من أصقاع البحرين به منبران وهناك الرمل الموصوف بالكثرة، كما في معجم البلدان ٥/ ٤٢٧. وفي (ظ) وأحكام القرآن: «مها» بدل «تيهاء».

(٢) سلف ٦/ ١٨٥.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٣٩.

(٤) ٦/ ١٨٤.

(٥) الصحاح (فرث).

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤٠.

وتُجريه في العروق، وتُجري اللبنَ في الضَّرعِ، ويَبقى الفرثُ كما هو في الكَرِش[١]، ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر: ٥]. ﴿خَالِصًا﴾ يريدُ من حمرةِ الدمِ، وقذارةِ الفَرْث، وقد جَمعهما وعاءٌ واحد[٢]. وقال ابنُ بحر: خالصاً بياضُه[٣]. قال النابغةُ:

بخَالصةِ الأرْدانِ خُضْرِ المناكبِ[٤]

أي: بيض الأكمام. وهذه قدرةٌ لا تنبغي إلا للقائمِ على كل شيءٍ بالمصلحة.

السادسة: قال النَّقَّاش: في هذا دليلٌ على أنَّ المَنِيَّ ليس بنجسٍ. وقاله أيضاً غيره، واحتجَّ بأن قال: كما يخرجُ اللبنُ من بين الفَرثِ والدمِ سائغاً خالصاً، كذلك يجوزُ أن يَخرجَ المنيُّ على مخرجِ البولِ طاهراً. قال ابنُ العربي: إنَّ هذا لجهلٌ عظيم، وأخذٌ شنيع. اللبنُ جاء الخبرُ عنه مجيءَ النعمةِ والمِنَّةِ الصادرة عن القدرةِ؛ ليكون عِبرةً، فاقتضى ذلك كلُّه وصفَ الخلوصِ واللذة، وليسَ المَنيُّ من هذهِ الحالةِ حتى يكونَ ملحقاً به أو مَقِيساً عليه[٥].

قلت: قد يُعارَض هذا بأن يقال: وأيُّ مِنةٍ أعظمُ وأرفع من خروج المني الذي يكون عنه الإنسانُ المكرم؛ وقد قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق: ٧]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢] وهذا غايةٌ في الامتنان. فإن قيل: إنه يَتنجَّس بخروجِه في[٦] مجرى البولِ؟ قلنا: هو ما أردناه، فالنَّجاسةُ عارضةٌ وأَصلُه طاهر، وقد قيل: إن مَخْرَجه غيرُ مخرجِ

---

(١) تفسير الوسيط ٣/ ٧٠، وتفسير الرازي ٢٠/ ٦٤.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤٠.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٩٧.

(٤) ديوان النابغة الذبياني ص١٢، وصدره: يصونون أجساداً قديماً نعيمُها. وقال الجوهري في الصحاح (خضر) الرُّدنُ أصل الكمِّ. وأراد النابغة بقوله هذا سَعةَ ما هم فيه من الخِصب.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤٠.

(٦) في (ظ): من.

البول وخاصَّةً المرأة، فإنَّ مَدخلَ الذكرِ منها ومخرجَ الولدِ غيرُ مخرجِ البولِ على ما قالَه العلماء. وقد تقدَّم في «البقرة».

فإن قيل: أصلُه دمٌ فهو نجس؟ قلنا: ينتقضُ بالمِسكِ؛ فإنَّ أصلَه دمٌ وهو طاهر. وممَّن قال بطهارتِه الشافعيُّ وأحمدُ وإسحاقُ وأبو ثور وغيرُهم[١]؛ لحديثِ عائشةَ رضي الله عنها قالت: كنتُ أفركُه من ثوبِ رسولِ الله ﷺ يابساً بظُفُري[٢]. قال الشافعيُّ: فإن لم يُفْرَك فلا بأس به[٣]. وكان سعدُ بن أبي وَقَّاص يفركُ المنيَّ من ثوبه. وقال ابن عباس: هو كالنُّخامةِ أَمِطْه عنك بإذْخِرةٍ، وامسَحْه بخِرقة[٤]. فإن قيل: فقد ثبتَ عن عائشةَ أنَّها قالت: كنت أغسِل المنيَّ من ثوبِ رسولِ الله ﷺ، ثم يخرجُ إلى الصلاة في ذلك الثوب وأنا أنظرُ إلى أثرِ الغسل فيه؟[٥] قلنا: يحتملُ أن تكونَ غَسلَتْه استقذاراً كالأشياءِ التي تُزال من الثوب كالنجاسة، ويكون هذا جَمْعاً بين الأحاديث[٦]. والله أعلم. وقال مالك وأصحابه والأَوْزاعيُّ: هو نجس[٧]. قال مالك: غسلُ الاحتلام من الثوبِ أمرٌ واجبٌ مُجمع[٨] عليه عندنا، وهو قولُ الكوفيين. ويُروى عن عمر بنِ الخطاب، وابنِ مسعود، وجابر بن سمرة أنَّهم غسلوه من ثيابِهم. واختُلِف فيه عن ابنِ عمر وعائشةَ. وعلى هذين القولين في نجاسة المني وطهارتِه التابعون[٩].

---

(١) الأوسط ٢/ ١٥٩ - ١٦٠، والمجموع ٢/ ٥٦١.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٨) و(٢٩٠)، وأحمد (٢٤٠٦٤).

(٣) الأم ١/ ٤٧.

(٤) أخرجه عنهما الشافعي في الأم ١/ ٤٨، وابن المنذر في الأوسط ٢/ ١٥٩.

(٥) أخرجه البخاري (٢٢٩) و(٢٣٠)، ومسلم (٢٨٩).

(٦) ينظر الأم ١/ ٤٨.

(٧) المجموع ٢/ ٥٦١.

(٨) في (د) و(ز) و(م): مجتمع، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في الأوسط ٢/ ١٥٨، وعنه نقل المصنف كلام مالك، وينظر المدونة ١/ ٢١.

(٩) ينظر الأوسط ٢/ ١٥٧، والمجموع ٢/ ٥٦١.

السابعة: في هذه الآيةِ دليلٌ على جواز الانتفاعِ بالألبان من الشرب وغيره[١]، فأمَّا لبنُ الميتة، فلا يجوز الانتفاعُ به[٢]؛ لأنه مائعٌ طاهر حصل في وعاءٍ نجس، وذلك أنَّ ضَرْعَ الميتة نجسٌ واللبنَ طاهرٌ، فإذا حُلِب صار مأخوذاً من وعاءٍ نجس. فأمَّا لبنُ المرأة الميتة، فاختَلَف أصحابُنا فيه، فَمن قال: إن الإنسانَ طاهرٌ حيًّا وميتاً، فهو طاهر. ومن قال: يَنْجُس بالموت، فهو نجس[٣]. وعلى القولين جميعاً تثبتُ الحرمةُ؛ لأنَّ الصبي قد يَغتذي به كما يَغتذي من الحية، وذلك أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «الرَّضاعُ ما أنبتَ اللحم، وأنشَزَ العظم»[٤]. ولم يَخُصَّ؛ وقد مَضى في «النساء»[٥].

الثامنة: قوله تعالى: ﴿سَآيِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي: لذيذاً هيِّناً لا يَغَصُّ به مَن شَرِبه. يُقالُ: ساغَ الشرابُ يسوغُ سَوغاً، أي: سَهُل مدخلُه في الحلقِ، وأساغه شاربُه، وسُغتُه أنا أسيغُه وأسُوغه، يتعدَّى ولا يتعدَّى، والأجودُ: أسغتُه إساغةً. يقال: أَسِغْ لي غُصَّتي، أي: أَمهلني ولا تُعجلني، وقال تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ [إبراهيم:١٧]. والسِّواغ، بكسر السين: ما أسغتَ به غُصَّتَك. يقال: الماءُ سِواغُ الغُصَص؛ ومنه قول الكُمَيْت:

فكانت سِوَاغاً أن جَئِزْتُ بغُصَّةٍ[٦]

وروي أنَّ اللبنَ لم يَشْرَقْ به أحدٌ قطُّ، وروي ذلك عن النبيِّ ﷺ[٧].

التاسعة: في هذه الآيةِ دليلٌ على استعمالِ الحلاوة والأطعمةِ اللذيذة وتناولِها،

---

(١) ينظر المدونة ١/ ٢٠ .

(٢) أحكام القرآن للجصاص ١/ ١٢٠ .

(٣) ينظر المجموع ٢/ ٥٧٥ ، ومختصر اختلاف العلماء للطحاوي ٤/ ٣٥٧ - ٣٥٨ .

(٤) أخرجه أحمد (٤١١٤)، وأبو داود (٢٠٦٠) من حديث عبد الله بن مسعود.

(٥) ٦/ ١٨١ - ١٨٢ .

(٦) عَجزُه: يضيق بها ذرعاً سواها طبيبها، وهو في ديوان الكميت ص٦٦ ، واللسان (سوغ)، ووقع في الديوان: «إذ عثرت» بدل «أن جئزت». وجَئِزَ بالماء يجأَزُ: إذا غَصَّ به. اللسان (جأز).

(٧) أورده الطبري في التفسير ١٤/ ٢٧٤ ، ولم يُشِر إلى رفعه.

ولا يقال: إنَّ ذلك يناقضُ الزهدَ أو يباعده، لكن إذا كان من وجهِه، ومن غيرِ سَرَف ولا إكثارٍ. وقد تقدَّم هذا المعنى في «المائدة»[١] وغيرها. وفي الصحيحِ عن أنس قال: لقد سقيتُ رسولَ الله ﷺ بقَدَحي هذا الشرابَ كلَّه: العسلَ والنبيذَ، واللبنَ والماءَ[٢]. وقد كَرِه بعضُ القُرَّاء أكلَ الفَالوذَج واللبنِ من الطعام، وأباحَه عامةُ العلماء. وروي عن الحسنِ أنه كانَ على مائدة[٣] ومعه مالكُ بن دينار، فأُتي بفَالوذَج، فامتنعَ عن أكلِه، فقال له الحسنُ: كُلْ! فإنَّ عليكَ في الماءِ البارد أكثرَ من هذا[٤].

العاشرة: روى أبو داود[٥] وغيرُه عن ابنِ عباس قال: أُتي رسولُ الله ﷺ بلبنٍ فشربَ، فقال رسولُ الله ﷺ «إذا أكلَ أحدكم طعاماً، فليقل: اللَّهُمّ باركْ لنا فيه وأطعِمنا خيراً منه. وإذا سُقِيَ لبناً فليقل: اللَّهُمَّ باركْ لنا فيه، وزِدْنا منه؛ فإنَّه ليس شيءٌ يُجزئ من[٦] الطعامِ والشراب إلّا اللبن».

قال علماؤنا[٧]: فكيفَ لا يكون ذلك وهو أوّلُ ما يَغتذي به الإنسانُ وتَنْمِي به الجثثُ والأبدان، فهو قوتٌ خَليٌّ عن المفاسد، به قِوامُ الأجسام، وقد جعلَه اللهُ تعالى علامةً لجبريل على هدايةِ هذه الأمةِ التي هي خيرُ الأممِ أمةً؛ فقال في الصحيح: «فجاءني جبريلُ بإناءٍ من خمرٍ، وإناءٍ من لبن، فاخترتُ اللبنَ، فقالَ لي جبريل: اخترتَ الفِطرةَ، أما إنَّك لو اخترتَ الخمرَ غَوَتْ أُمتُك»[٨]. ثم إنَّ في الدعاءِ

---

(١) ٨/ ١١٩.

(٢) أخرجه البخاري بعد (٥٦٣٨) قال: قال أنس: لقد سقيت رسول الله ﷺ في هذا القدح أكثر من كذا وكذا.

(٣) في (ظ): مائدته.

(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٧/ ١٧٦، وسلف ٨/ ١١٩.

(٥) في السنن (٣٧٣٠)، والترمذي (٣٤٥٥) وقال: هذا حديث حسن.

(٦) في (د) و(ز) و(م): عن، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في سنن أبي داود.

(٧) ينظر إكمال المعلم ١/ ٥٠١.

(٨) أخرجه البخاري (٣٣٩٤)، ومسلم (١٦٨) من حديث أبي هريرة.

بالزيادة منه علامةَ الخِصب، وظهورَ الخيراتِ والبركات، فهو مبارك كله.

قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ﴾ قال الطبري[١]: ومن[٢] ثمراتِ النخيل والأعنابِ ما تتخذون. فحذف «ما»، ودلَّ على حذفِه قولُه: «منه». وقيل: المحذوفُ «شيءٌ» والأمرُ قريب. وقيل: معنى «منه» أي: من المذكورِ، فلا يكونُ في الكلامِ حذفٌ، وهو أولى. ويجوزُ أن يكون قولُه: «ومِن ثمراتِ» عطفاً على «الأنعام»، أي: ولكم من ثمراتِ النخيلِ والأعنابِ عبرةٌ. ويجوزُ أن يكونَ معطوفاً على «مما» أي: ونسقيكم أيضاً مشروباتٍ من ثمرات[٣].

الثانية: قولُه تعالى: ﴿سَكَرًا﴾ السَّكَر ما يُسْكِر. هذا هو المشهورُ في اللغةِ. قال ابنُ عباس: نزلت هذه الآيةُ قبل تحريمِ الخمر. وأرادَ بالسَّكَر الخمر، وبالرِّزقِ الحسن جميعَ ما يُؤكل ويُشرب حلالاً من هاتين الشجرتين. وقال بهذا القول ابنُ جُبير والنَّخَعِيُّ والشَّعبِيُّ وأبو ثور[٤]. وقد قيل: إنَّ السَّكَر الخَلُّ بلغةِ الحبشة، والرزقَ الحسنَ الطعامُ. وقيل: السَّكَر: العصيرُ الحلوُ الحلال[٥]، وسُمِّيَ سَكَراً؛ لأنه قد يصيرُ مسكراً إذا بقي، فإذا بلغَ الإسكارَ حَرُمَ. قال ابنُ العربي: أَسَدُّ هذه الأقوالِ قولُ ابن عباس، ويخرجُ ذلك على أحدِ معنيين، إما أن يكونَ ذلك قبل تحريمِ الخمر، وإما أن يكونَ المعنى: أنعمَ الله عليكم بثمراتِ النخيل والأعناب تتَّخذون منه ما حرَّم

---

(١) في تفسيره ١٤/ ٢٧٤ .

(٢) في (د) و(ز) و(م): التقدير ومن...، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في تفسير الطبري.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤١ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٠٥ ، وينظر تفسير الطبري ١٤/ ٢٧٤-٢٧٥ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٠٥ ، وفي : «زيد» بدل «ثور».

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٩٨ ، وزاد المسير ٤/ ٤٦٤ - ٤٦٥ ، وينظر تفسير الطبري ١٤/ ٢٨١ .

الله عليكم اعتداءً منكم، وما أحلَّ لكم اتفاقاً أو قصداً إلى منفعةِ أنفسكم. والصَّحيحُ أنَّ ذلك كان قبلَ تحريمِ الخمر، فتكون منسوخةً؛ فإنَّ هذه الآيةَ مكيةٌ باتفاقِ من العلماءِ، وتحريمَ الخمرِ مَدنيٌّ[(١)].

قلت: فعلى أنَّ السَّكَر الخَلُّ أو العصيرُ الحلو لا نسخَ، وتكون الآيةُ محكمةً، وهو حَسن. قال ابنُ عباس: الحبشة يسمُّون الخلَّ السَّكَرَ، إلا أنَّ الجمهورَ على أن السَّكَرَ الخمرُ، منهم ابنُ مسعود، وابنُ عمر، وأبو رَزين، والحسن، ومجاهد، وابن أبي لَيْلى، والكَلْبيُّ، وغيرُهم ممَّن تقدّم ذكرهم، كلُّهم قالوا: السَّكَرُ ما حرَّمه الله من ثمرتيهما. وكذا قال أهلُ اللغةِ: السكَر اسمٌ للخمر وما يُسكر[(٢)]، وأنشدوا:

بئسَ الصُّحاةُ وبئسَ الشَّربُ شَربُهُم ... إذا جَرى فيهمُ المُزَّاءُ والسَّكَرُ[(٣)]

والرزقُ الحسنُ: ما أحلَّه الله من ثمرتيهما. وقيل: إن قولَه: «تَتَخِذُون مِنه سَكَراً» خبرٌ معناه الاستفهامُ بمعنى الإنكار؛ أي: أَتتخذون منه سَكراً، وَتَدَعون رزقاً حسناً الخلَّ والزبيبَ والتمر، كقولِه: ﴿فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] أي: أَفَهم الخالدون. والله أعلم. وقال أبو عبيدة[(٤)]: السَّكَر الطُّعمُ، يقال: هذا سَكَرٌ لك، أي: طُعمٌ. وأنشدَ:

جَعلتَ عَيْبَ الأكْرَمين سَكَراً[(٥)]

أي جَعلتَ ذمَّهم طُعماً. وهذا اختيارُ الطبري[(٦)] أنَّ السَّكَر ما يُطعم من الطعامِ

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤١ .

(٢) تفسير الطبري ١٤/ ٢٨٢ - ٢٨٣ ، والنكت والعيون ٣/ ١٩٨ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٠٥ ، وزاد المسير ٤/ ٤٦٤ ، وتهذيب اللغة ١٠/ ٥٨ .

(٣) البيت للأخطل وهو في ديوانه ص١١٠ ، والمُزَّاءُ: ضربٌ من الأشربة. الصحاح (مزز).

(٤) في مجاز القرآن ١/ ٣٦٣ .

(٥) نسبه في مجاز القرآن ١/ ٣٦٣ إلى جندل، وهو عند الطبري ١٤/ ٢٨٤ ، والنكت والعيون ٣/ ١٩٨ ، واللسان (سكر) دون نسبة.

(٦) في التفسير ١٤/ ٢٨٥ .

وحَلٌّ شربُه من ثمارِ النخيل والأعناب، وهو الرزقُ الحسنُ، فاللفظُ مختلفٌ، والمعنى واحد، مثل ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:٨٦]. وهذا حسنٌ ولا نسخَ، إلا أنَّ الزجاجَ قال: قولُ أبي عبيدة هذا لا يُعرف، وأهلُ التفسير على خلافِه، ولا حجةَ له في البيت الذي أنشده؛ لأنَّ معناه عندَ غيره أنه يصفُ أنَّها تتخمرُ بعيوبِ الناس.

وقال الحنفيون: المرادُ بقولِه: «سَكَراً» ما لا يُسكر من الأنبذةِ؛ والدليلُ عليه أنَّ الله سبحانَه وتعالى امتنَّ على عبادِه بما خَلَق لهم من ذلك، ولا يقعُ الامتنانُ إلا بمحلَّلٍ لا بمحرَّم، فيكون ذلك دليلاً على جوازِ شربِ ما دون المسكرِ من النبيذ، فإذا انتهى إلى السكرِ لم يَجُز، وعَضَدوا هذا من السنةِ بما رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «حرَّم الله الخمرَ بعينِها والسَّكَر من غيرِها»[1]. وبما رواه عبدُ الملك بنُ نافع، عن ابن عمر قالَ: رأيتُ رجلاً جاء إلى رسولِ الله ﷺ، وهو عندَ الرُّكْنِ، ودفعَ إليه القَدَحَ، فرفعه إلى فيه، فوجدَه شديداً، فردَّه إلى صاحبه، فقال له حينئذٍ رجلٌ من القوم: يا رسولَ الله، أحرامٌ هو؟ فقال: «عليَّ بالرجلِ» فأُتِي به، فأخذ منه القدحَ، ثم دعا بماء فصبَّه فيه، ثم رفَعه إلى فيهِ فقَطَّب، ثم دعا بماءٍ أيضاً فصبَّه فيه ثم قال: «إذا اغتَلمتْ عليكم هذه الأوعيةُ، فاكسِروا متُونَها بالماء»[2]. ورُوي أنه عليه الصلاة والسلام كانَ يُنْبَذُ له فيشربُه ذلك اليوم، فإذا كانَ من اليومِ الثاني أو الثالث سقاهُ الخادمَ إذا تغيَّر، ولو كان حراماً ما سَقاه إياه[3].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤٢ ، والحديث أخرجه العقيلي في الضعفاء ٢/ ٤٢٤ ، من حديث علي ﷺ، مرفوعاً. وقال العقيلي: وهذا يُعرف عن عبد الله بن شداد بن الهاد، عن ابن عباس قوله. والموقوف أخرجه النسائي في الكبرى (٥١٧٤) و(٦٧٤٧) و(٦٧٤٨)، وفي المجتبى ٨/ ٣٢١ ، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/ ٢١٤ ، عن ابن عباس موقوفاً. وينظر الدراية ٢/ ٢٥١ .

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٥١٨٤)، وفي المجتبى ٨/ ٣٢٣ . وقال: عبد الملك بن نافع ليس بالمشهور، ولا يحتج بحديثه، والمشهور عن ابن عمر خلاف حكايته. ومعنى اغتلمت: أي: إذا جاوزت حدَّها الذي لا يسكر إلى حدها الذي يسكر. النهاية في غريب الحديث ٣/ ٣٨٢ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤٢ ، وأخرجه مسلم (٢٠٠٤) من حديث ابن عباس.

قال الطحاوي: وقد رَوى أبو عَون الثَّقفي، عن عبدِ الله بن شداد، عن ابنِ عباس قال: حُرِّمت الخمرُ بعينِها القليلُ منها والكثيرُ، والسَّكَرُ من كلِّ شرابٍ. خرَّجه الدارقطنيُّ أيضاً[١]. ففي هذا الحديثِ وما كان مثلُه، أنَّ غيرَ الخمر لم تُحرَّم عينُه كما حُرِّمتِ الخمرُ بعينها[٢]. قالوا: والخمرُ شراب العنب لا خلافَ فيها، ومن حجتهم أيضاً ما رواه شَريك بنُ عبد الله، حدثنا أبو إسحاق الهمداني، عن عَمرو بنِ ميمون قال: قال عمرُ بن الخطاب: إنا نأكلُ لحومَ هذه الإبلِ، وليس يَقطعُه في بطونِنا إلا النبيذُ. قال شريك: ورأيتُ الثَّورِيَّ يشربُ النبيذَ في بيتِ خَيرِ[٣] أهل زمانِه مالكِ بن مِغول.

والجوابُ أن قولهم: إنَّ الله سبحانه وتعالى امتنَّ على عبادِه، ولا يكون امتنانُه إلا بما أحلَّ. فصحيحٌ، بَيْد أنه يحتملُ أن يكونَ ذلك قبل تحريمِ الخمر، كما بيَّنَّاه فيكون منسوخاً كما قدَّمناه. قال ابنُ العربيِّ: إن قيل: كيفَ يُنسَخ هذا وهو خبرٌ، والخبرُ لا يدخله النَّسخ؟ قلنا: هذا كلامُ مَنْ لم يتحققِ الشريعة، وقد بيَّنَّا أنَّ الخبر إذا كان عن الوجودِ الحقيقيِّ، أو عن إعطاءِ ثوابٍ فضلاً من الله، فهو الذي لا يدخلُه النسخُ، فأمَّا إذا تضمَّن الخبرُ حكماً شرعيًّا، فالأحكام تتبدَّل وتُنسخ، جاءت بخبرٍ أو أمرٍ، ولا يرجعُ النسخُ إلى نفس اللفظ، وإنَّما يرجعُ إلى ما تضمَّنه، فإذا فَهِمتم هذا خَرجتُم عن الصِّنف الغبيِّ الذي أخبرَ الله عن الكفار فيه بقوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٠١]. المعنى أنَّهم جَهِلوا أن الربَّ يأمر بما يشاءُ، ويكلفُ ما يشاءُ، ويرفع من ذلك بعَدْلِه ما يشاءُ، ويُثبِتُ ما يشاء، وعنده أمُّ الكتاب[٤].

---

(١) الطحاوي في مختصر اختلاف العلماء ٤/ ٣٧٥، وشرح معاني الآثار ٤/ ٢١٤، والدارقطني (٤٦٦٦).

(٢) مختصر اختلاف العلماء ٤/ ٣٧٥.

(٣) في (م): حَبر، وأخرج أثر عمر الطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/ ٢١٨، والدارقطني (٤٦٨١) و(٤٦٨٤)، والبيهقي ٨/ ٢٩٩، وابن عدي في الكامل ٨/ ٢٩٩.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤٢ - ١١٤٣.

قلتُ: هذا تشنيعٌ شنيعٌ حتى يُلحِقَ فيه العلماءَ الأخيار في قصورِ الفهم بالكفارِ، والمسألةُ أصوليةٌ، وهي أنَّ الأخبارَ عن الأحكام الشرعيةِ، هل يجوزُ نسخُها أم لا؟ اختُلِف في ذلك، والصحيحُ جوازُه؛ لهذه الآيةِ وما كان مثلُها[١]، ولأنَّ الخبرَ عن مشروعيةِ حكمٍ ما يَتضمنُ طلبَ ذلك المشروعِ، وذلك الطلبُ هو الحكمُ الشرعيُّ الذي يُستدلُّ على نسخِه. والله أعلم.

وأمَّا ما ذكروا من الأحاديثِ، فالأولُ والثاني ضعيفان[٢]؛ لأنه عليه الصلاة والسلام قد رُوي عنه بالنقلِ الثابتِ أنه قال: «كلُّ شرابٍ أسكرَ فهو حرامٌ»[٣] وقال: «كلُّ مسكرٍ خمرٌ، وكل مسكرٍ حرام»[٤] وقال: «ما أسكر كثيرُه فقليلُه حرام»[٥]. قال النَّسائيُّ: وهؤلاءِ أهلُ الثَّبت والعدالةِ مشهورون بصحةِ النقل، وعبدُ الملك لا يقومُ مقامَ واحدٍ منهم، ولو عاضَده مِن أشكالِه جماعةٌ، وبالله التوفيق[٦].

وأمَّا الثالثُ ـ وإن كان صحيحاً ـ فإنَّه ما كان يسقيهِ للخادمِ على أنَّه مسكر، وإنَّما كان يسقيه؛ لأنَّه متغيرُ الرائحةِ، وكان ﷺ يَكره أن تُوجَد منه الرائحةُ، فلذلك لم يَشربْه، ولذلك تَحيَّل عليه أزواجُه في عسلِ زينبَ، بأنْ قيل له: إنَّا نجدُ منكَ ريحَ مغافِير؟ يعني: ريحاً منكرةً، فلم يَشربْه بعدُ[٧]. وسيأتي في «التحريم».

---

(١) في (ظ): لهذه الأمة ولا كان مثلها.

(٢) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤٣ .

(٣) أخرجه البخاري (٥٥٨٥)، ومسلم (٢٠٠١)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) أخرجه مسلم (٢٠٠٣) والنسائي في الكبرى (٥١٩١)، وأحمد (٤٦٤٤)، من حديث عبد الله بن عمر.

(٥) أخرجه النسائي في الكبرى (٥٠٩٧)، وابن ماجه (٣٣٩٤)، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/ ٢١٧ ، من حديث عبد الله بن عمرو.

(٦) السنن الكبرى للنسائي إثر حديث (٥١٩١).

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤٣ ، وحديث المغافير أخرجه البخاري (٥٢٦٧) و(٦٦٩١)، ومسلم (١٤٧٤)، وأحمد (٢٥٨٥٢)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

وفي النهاية في غريب الحديث ٣/ ٣٧٤ : مغافير: واحدها مُغْفُور بالضم، وله ريح كريهة منكرة، ويقال أيضاً: المغاثير.

وأمَّا حديثُ ابنِ عباس، فقد رُوي عنه خلافُ ذلك من روايةِ عطاء وطاوس ومجاهد، أنَّه قال: ما أسكر كثيرُه فقليلُه حرامٌ، ورواه عنه قيس بن حَبْتَر[١]، وكذلك فُتياه في المسكر؛ قاله الدَّارَقُطْنيُّ. والحديثُ الأول رواه عنه عبدُ الله بن شدَّاد، وقد خالفه الجماعةُ، فسقط القولُ به مع ما ثبتَ عن النبيِّ ﷺ.

وأمَّا ما روي عن عمرَ من قوله: ليسَ يقطعُه في بطونِنا إلا النبيذُ. فإنه يريدُ غيرَ المسكر بدليل ما ذكرنا. وقد روى النَّسائيُّ عن عتبةَ بن فَرْقَد قال: كان النبيذُ الذي شربَه عمرُ بن الخطاب قد خُلِّل. قال النسائيُّ: وممَّا يدلُّ على صحةِ هذا حديثُ السائب، قال الحارثُ بن مِسْكين قراءةً عليه وأنا أسمعُ: عن ابنِ القاسم، حدثني مالك، عن ابنِ شهاب، عن السَّائب بن يزيد، أنه أخبرَه أنَّ عمر بن الخطاب خرجَ عليهم فقال: إني وجدتُ من فلانٍ ريحَ شراب، فزعم أنه شرابُ الطِّلاء، وأنا سائلٌ عمَّا شَرِب، فإن كان مسكراً جَلدتُه، فجلده عمرُ بن الخطاب ﷺ الحدَّ تامًّا[٢]. وقد قال في خطبتِه على منبرِ رسول الله ﷺ: أمَّا بعد، أيها الناسُ، فإنه نزلَ تحريمُ الخمر وهي من خمسة: من العنبِ، والعسل، والتمر، والحنطة، والشعير، والخمرُ ما خَامرَ العقلَ[٣]. وقد تقدَّم في «المائدةِ»[٤].

فإن قيل: فقد أحلَّ شربَه إبراهيمُ النَّخَعِيُّ، وأبو جعفر الطَّحاويُّ وكان إمامَ أهلِ زمانه، وكان سفيانُ الثوريُّ يَشربُه. قلنا: ذكرَ النَّسائيّ في كتابِه[٥] أنَّ أولَ مَن أحلَّ المسكر من الأنبذة إبراهيمُ النخعيُّ. وهذه زلةٌ من عالمٍ وقد حَذَّرنا من زلةِ العالم، ولا

(١) في النسخ: دينار، والمثبت من سنن الدارقطني بعد رقم (٤٦٦٦)، ولم نجد قيس بن دينار في الرواة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) السنن الكبرى (٥١٩٧) و(٥١٩٨)، والمجتبى ٨/ ٣٢٦.

(٣) صحيح البخاري (٥٥٨١)، وصحيح مسلم (٣٠٣٢).

(٤) ٨/ ١٥٩.

(٥) السنن الكبرى (٥٢٤١)، والمجتبى ٨/ ٣٣٥.

حجةَ في قولِ أحدٍ مع السنة[١]. وذكر النسائيُّ[٢] أيضاً عن ابنِ المبارك قال: ما وجدتُ الرخصةَ في المسكرِ عن أحدٍ صحيحاً إلا عن إبراهيمَ. قال أبو أسامة: ما رأيتُ رجلاً أطلبَ للعلمِ من عبدِ الله بنِ المبارك في[٣] الشاماتِ ومصرَ، واليمنِ والحجاز[٤]. وأمَّا الطحاويُّ وسفيانُ، لو صحَّ ذلك عنهما، لم يُحتَجَّ بهما على مَن خالفهما من الأئمةِ في تحريمِ المسكر مع ما ثبتَ من السنةِ، على أنَّ الطحاويَّ قد ذكر في كتابِه الكبير في الاختلافِ خلافَ ذلك.

قال أبو عُمر بنُ عبد البر في كتابِ «التمهيد»[٥] له: قال أبو جعفر الطحاويُّ: اتفقتِ الأمةُ على أن عصيرَ العنب إذا اشتدَّ وغَلَى وقَذفَ بالزَّبد، فهو خمرٌ ومُستحلُّه كافر. واختلفوا في نَقِيع التمرِ إذا غلى وأسكر. قال: فهذا يدلُّ[٦] على أنَّ حديث يحيى ابن أبي كثير، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: «الخمرُ من هاتينِ الشَّجرتين: النخلةِ والعنبِ»[٧] غيرُ معمولٍ به عندَهم؛ لأنَّهم لو قَبِلوا الحديثَ لكَفَّروا[٨] مستحلَّ نقيعِ التمر، فثبتَ أنه لم يدخل في الخمرِ المحرَّمةِ غيرُ عصيرِ العنب الذي قدِ اشتدَّ وبلغ أن يُسكِر. قال: ثم لا يَخلو من أن يكون التحريمُ معلَّقاً بها فقط غيرَ مقيسٍ عليها غيرُها، أو يجبُ القياس عليها، فوجدناهم جميعاً قد قاسوا عليها نقيعَ التمرِ إذا غَلَى وأسكر كثيرُه، وكذلك نقيعُ الزبيب. قال: فوجبَ قياساً على ذلك أن يَحرُمَ كلُّ ما أسكر من الأشربة. قال: وقد روي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «كلُّ مسكرٍ حرامٌ»[٩]

(١) التمهيد ١/ ٢٥٥ .
(٢) في السنن الكبرى (٥٢٤٢)، والمجتبى ٨/ ٣٣٥ .
(٣) ليست في النسخ، وهي من تحفة الأشراف (١٨٩٤١).
(٤) السنن الكبرى للنسائي (٥٢٤٣)، والمجتبى ٨/ ٣٣٥ .
(٥) ٢٥٦/١ .
(٦) في (د) و(ز) و(م): يدلك، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في التمهيد.
(٧) أخرجه مسلم (١٩٨٥)، وأحمد (٧٧٥٣).
(٨) في (د) و(ز) و(م): لأكفروا، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في التمهيد ١/ ٢٥٦ .
(٩) سلف آنفاً.

واستغني عن سندِه؛ لقبولِ الجميعِ له، وإنَّما الخلافُ بينهم في تأويله، فقال بعضُهم: أرادَ به جنسَ ما يُسكِر. وقال بعضُهم: أرادَ به ما يقعُ السكر عندَه، كما لا يسمى قاتلاً إلا مع وجودِ القتلِ[1].

قلت: فهذا يدلُّ على أنه مُحرَّم عندَ الطحاوي؛ لقوله: فوجبَ قياساً على ذلك أن يَحرُم كلُّ ما أسكرَ من الأشربة. وقد روى الدَّارَقُطْنيُّ في «سننه»[2] عن عائشةَ رضي الله عنها أنها قالت: إنَّ الله لم يحرِّمِ الخمرَ لاسمِها، وإنَّما حَرَّمها لعاقبتِها. فكلُّ شرابٍ يكون عاقبتُه كعاقبةِ الخمر، فهو حرامٌ كتحريمِ الخمر.

قال ابنُ المنذر[3]: وجاءَ أهلُ الكوفة بأخبارٍ معلولة، وإذا اختلفَ الناسُ في الشيءِ وجبَ ردُّ ذلك إلى كتابِ الله، وسنةِ رسوله عليه الصلاة والسلام، وما رُوي عن بعضِ التابعين أنَّه شربَ الشرابَ الذي يُسكِر كثيرُه، فللقومِ ذنوبٌ يستغفرون اللهَ منها، وليسَ يخلو ذلك من أحدِ معنيين: إمَّا مخطئٌ أخطأَ في التأويلِ على حديثٍ سمعه، أو رجلٌ أتى ذنباً لعلَّه أن يُكثِر من الاستغفارِ لله تعالى، والنبيُّ ﷺ حجةُ الله على الأوَّلين والآخِرين من هذه الأمة.

وقد قيل في تأويلِ الآية: إنَّها إنَّما ذُكِرت للاعتبار، أي: مَن قدَرَ على خلقِ هذه الأشياء قادرٌ على البعث، وهذا الاعتبارُ لا يختلفُ بأن كانتِ الخمرُ حلالاً أو حراماً، فاتخاذُ السَّكَرِ لا يدلُّ على التحريم، وهو كما قال تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩] والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾

فيه ثلاثُ مسائل:

---

(١) التمهيد ١/ ٢٥٦ .

(٢) برقم (٤٦٦٩).

(٣) في الإشراف ٢/ ٣٧٧ - ٣٧٩ .

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ قد مضى القولُ في الوَحْي وأنه قد يكون بمعنى الإلهام[١]، وهو ما يَخلقُه الله تعالى في القلبِ ابتداءً من غيرِ سببٍ ظاهر، وهو من قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس:٧]. ومن ذلك البهائمُ وما يَخلُق الله سبحانه فيها من دَرْكِ منافِعها، واجتنابِ مضارها، وتدبير معاشِها[٢]. وقد أخبر عزَّ وجلَّ بذلك عن المَوات فقال: ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا . بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة:٤]. قال إبراهيم الحَرْبيُّ: لِله عزَّ وجلَّ في المَواتِ قدرةٌ لم يُدْرَ ما هي، لم يأتِها رسولٌ من عندِ الله، ولكنَّ الله تعالى عرَّفها ذلك، أي: ألهمَها. ولا خلافَ بين المتأوِّلين أنَّ الوحيَ هنا بمعنى الإلهام. وقرأ يحيى بنُ وَثَّاب «إلى النَّحَلِ» بفتح الحاء[٣]. وسُمِّي نحلاً؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ نَحَله العسلَ الذي يَخرجُ منه؛ قاله الزَّجاج[٤]. الجوهريُّ: والنحلُ والنحلةُ: الدَّبْرُ، يقع على الذكر والأنثى، حتى يقال: يَعْسُوب[٥]. والنحلُ يؤنث في لغةِ أهل الحجاز، وكلُّ جمعٍ ليس بينه وبينَ واحِده إلا الهاء[٦]. ورُوي من حديثِ أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «الذُّبانُ كلُّها في النار يجعلُها عذاباً لأهل النارِ إلا النحل» ذكره الترمذيُّ الحكيمُ في «نوادر الأصول»[٧]. ورَوى عن ابن عباس قال: نهى رسولُ الله ﷺ عن قتلِ النملةِ والنحلةِ، والهُدْهُدِ والصُّرَدِ. خرَّجه أبو داود أيضاً[٨]، وسيأتي في «النمل»[٩] إن شاء الله تعالى.

---

(١) ٥/ ١٣٠ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤٤ .

(٣) القراءات الشاذة لابن خالويه ص٧٣ .

(٤) تفسير الرازي ٢٠/ ٧٠ .

(٥) الصحاح (نحل).

(٦) ينظر المذكر والمؤنث للفراء ص٢٠ ، والمذكر والمؤنث للسجستاني ص٧٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٠٢ ، وتفسير الرازي ٢٠/ ٧٠ .

(٧) ص١٣٢ ، الأصل الرابع والتسعون.

(٨) نوادر الأصول ص١٣١ ، الأصل الرابع والتسعون. وهو عند أبي داود (٥٢٦٧)، وأحمد (٣٠٦٦).

(٩) عند تفسير الآية ١٨ منها.

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ﴾ هذا إذا لم يكن لها مالكٌ. ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ جعل الله بيوتَ النحلِ في هذه الثلاثةِ الأنواع، إمَّا في الجبال وكُوَاها، وإمَّا في متجوفِ الأشجار، وإمَّا فيما يعرِش ابنُ آدم من الأجباح[(١)] والخلايا والحيطانِ وغيرها. وعَرَش معناهُ هنا: هيَّأَ، وأكثرُ ما يُستعمل فيما يكون من إتقانِ الأغصانِ والخشب وترتيبِ ظلالها، ومنه العريشُ الذي صُنِع لرسولِ الله ﷺ يومَ بدر، ومن هذا لفظةُ العرش. يقالُ: عَرَش يَعْرِش ويعرُش بكسرِ الراء وضمها، وقُرِئ بهما. قرأ ابنُ عامر بالضمِّ، وسائرُهم بالكسرِ، واختلف في ذلك عن عاصم[(٢)].

الثالثة: قال ابنُ العربيِّ[(٣)]: ومِن عجيبِ ما خلقَ الله في النحل أنْ ألهمَها لاتخاذ بيوتِها مُسدَّسة، فبذلك اتصلت حتى صارت كالقطعةِ الواحدةِ، وذلك أنَّ الأشكالَ من المثلَّث إلى المُعشَّر إذا جُمع كلُّ واحدٍ منها إلى أمثالِه لم يتصل، وجاءت بينهما فُرَجٌ، إلا الشكلَ المسدَّس؛ فإنه إذا جُمِع إلى أمثالِه، اتصلَ كأنه كالقطعةِ الواحدةِ.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ وذلك أنَّها إنَّما تأكل النوَّارَ من الأشجارِ. ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ أي: طرقَ ربك. والسُّبُل: الطرقُ، وأضافَها إليه؛ لأنه خالقها. أي: ادخلي طرقَ ربك؛ لطلبِ الرزق في الجبالِ وخلالِ الشجر. ﴿ذُلُلًا﴾ جمعُ ذَلول، وهو المنقاد، أي: مطيعة مسخَّرة. فـ «ذُلُلاً» حالٌ من النحل، أي: تنقادُ وتذهبُ حيث شاء صاحبُها؛ لأنَّها تتبعُ أصحابَها حيث ذهبوا؛ قاله ابنُ زيد. وقيل: المرادُ بقوله: «ذُلُلاً» السُّبلُ. يقول: مذلَّلٌ طرقُها سهلةٌ للسلوكِ عليها؛ واختاره الطبريُّ،

---

(١) جمع الجَبْح، وهي خلية العسل. القاموس المحيط (جبح).

(٢) التيسير ص١١٣، والسبعة ص٣٧٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٠٦، والكلام منه.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١١٤٤.

و«ذُلُلاً» حالٌ من السُّبلِ. واليَعْسُوبُ سيدُ النحل، إذا وقف وَقَفتْ، وإذا سارَ سارت[١].

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ **فيه تسعُ مسائل:**

الأولى: قولُه تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا﴾ رجعَ الخطابُ إلى الخبرِ على جهة تعديدِ النعمة، والتنبيهِ على العِبرة فقالَ: «يخرج مِن بطونِها شراب» يعني: العسل. وجمهورُ الناسِ على أنَّ العسلَ يخرجُ من أفواهِ النحل، وورد عن عليِّ بنِ أبي طالب ﷺ أنه قالَ في تحقيرِه للدنيا: أشرف لباسِ ابنِ آدم فيها لعابُ دودة، وأشرفُ شرابِه رَجِيعُ نحلة. فظاهرُ هذا أنَّه من غيرِ الفم[٢]. وبالجملةِ فإنَّه يخرج ولا يُدرَى من فِيها أو أسفلِها، ولكن لا يتمُّ صلاحُه إلا بحمَّى أنفاسِها. وقد صنعَ أرسطا طاليس بيتاً من زجاجٍ لينظرَ إلى كيفيةِ ما تصنع، فأبتْ أن تعملَ حتى لطختْ باطن الزجاج بالطين؛ ذكره الغَزنويُّ. وقال: «مِن بطونِها»؛ لأنَّ استحالةَ الأطعمةِ لا تكونُ إلا في البطن[٣].

الثانية: قوله تعالى: ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ يريدُ أنواعَه من الأحمر والأبيض والأصفر، والجامد والسائل، والأمُّ واحدةٌ والأولاد مختلفون دليلٌ على أن القدرةَ نوَّعته بحسبِ تنويع الغذاء، كما يختلفُ طعمه بحسبِ اختلافِ المراعي، ومن هذا المعنى قولُ زينب للنبيِّ ﷺ: جَرَسَتْ نحلُه العُرْفُط. حين شبَّهت رائحتَه برائحةِ المغافير[٤].

الثالثة: قولُه تعالى: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ الضميرُ للعسل؛ قاله الجُمهور[٥]. أي: في العسلِ شفاءٌ للناس. ورُوي عن ابنِ عباس والحسن، ومجاهد والضحاك، والفراء

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٢٨٨ - ٢٨٩ ، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٠٩ ، والنكت والعيون ٣/ ١٩٩ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٠٦ ، وتفسير السمرقندي ٢/ ٢٤١ ، والصحاح (عسب).

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢١٠ - ٢١١ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٠٦ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢١٠ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤٥ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٠٦ . وقول السيدة زينب رضي الله عنها أخرجه البخاري (٦٩٧٢)، ومسلم (١٤٧٤) (٢١)، وأحمد (٢٤٣١٦) من حديث عائشة رضي الله عنها. وجَرَسَتْ، أي: أكلت. والعُرْفُط: شجرٌ. اللسان (جرس) و(عرفط).

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٠٦ .

وابن كَيْسان: الضميرُ للقرآن، أي: في القرآن شفاءٌ[١]. النحاسُ[٢]: وهذا قولٌ حسن؛ أي[٣]: فيما قَصصنا عليكم من الآياتِ والبراهينِ شفاءٌ للناس. وقيل: العسلُ فيه شفاءٌ، وهذا القولُ بَيِّن أيضاً؛ لأنَّ أكثرَ الأشربةِ والمعجوناتِ التي يُتعالجُ بها أصلُها من العسلِ.

قال القاضي أبو بكر بن العربيّ[٤]: مَن قال إنَّه القرآن بعيدٌ، ما أراهُ يصحُّ عنهم، ولو صحَّ نقلاً لم يصحَّ عقلاً؛ فإن مساقَ الكلامِ كلِّه للعسل، ليس للقرآنِ فيه ذكرٌ.

قال ابن عطية[٥]: وذهبَ قومٌ من أهل الجهالةِ إلى أنَّ هذه الآيةَ يُراد بها أهلُ البيت وبنو هاشم، وأنَّهم النحلُ، وأنَّ الشرابَ القرآنُ والحكمة، وقد ذَكر هذا بعضُهم في مجلسِ المنصور أبي جعفر العباسيِّ، فقال له رجلٌ ممَّن حضر: جعلَ الله طعامَك وشرابَك مما يخرجُ من بطونِ بني هاشم، فأضحكَ الحاضرينَ، وبُهِت الآخرُ، وظهرتْ سخافةُ قولِه[٦].

الرابعة: اختلفَ العلماءُ في قولِه تعالى: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ﴾ هل هو على عمومِه أم لا؟ فقالت طائفةٌ: هو على العموم في كلِّ حال ولكلِّ أحد، فرُوي عن ابنِ عمرَ أنه كان لا يشكو قرحةً ولا شيئاً إلا جعل عليه عسلاً، حتى الدُّمَّل إذا خرجَ عليه طَلى عليه عسلاً. وحكى النَّقَّاش عن أبي وَجْرةَ أنه كانَ يكتحلُ بالعسلِ، ويستمشي بالعسلِ، ويتداوى بالعسل. وروى أن عوف بنَ مالك الأشجعي مرضَ فقيلَ له: ألا

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٩٩ - ٢٠٠، والمفهم ٥/ ٦١٠، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٠٩، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤٦، وأخرج أثر مجاهد ابن أبي شيبة ١٠/ ٤٨٦، والطبري في التفسير ١٤/ ٢٨٩.

(٢) في معاني القرآن ٤/ ٨٤ - ٨٥.

(٣) في (م): أو، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في معاني القرآن للنحاس، والكلام منه.

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١١٤٦.

(٥) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٠٧، وينظر الكشاف للزمخشري ٢/ ٤١٨.

(٦) المفهم ٥/ ٦١٠، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤٥ - ١١٤٦، وتفسير الرازي ٢٠/ ٧٢.

نعالجك؟ فقال: ائتوني بالماء، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ [ق:٩] ثم قال: ائتوني بعسل، فإن الله تعالى يقول: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾، وائتوني بزيت، فإن الله تعالى يقول: ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [النور:٣٥]، فجاؤوه بذلك كله فخلطه جميعاً ثم شربه فبرئ. ومنهم مَن قال: إنَّه على العموم إذا خُلِط بالخل ويطبخ[١]، فيأتي شراباً يُنتفَع به في كل حالةٍ من كل داء.

وقالت طائفة: إن ذلك على الخصوص، ولا يقتضي العمومَ في كل علةٍ وفي كل إنسان، بل إنه خبرٌ عن أنه يشفي كما يشفي غيرُه من الأدويةِ في بعض، وعلى حالٍ دون حال؛ ففائدةُ الآية إخبارٌ منه في أنه دواءٌ، كما[٢] كَثُر الشفاءُ به، وصار خليطاً ومُعيناً للأدويةِ في الأشربةِ والمعاجين. وليس هذا بأولِ لفظٍ خُصِّص، فالقرآنُ مملوء منه، ولغةُ العرب يأتي فيها العامُّ كثيراً بمعنى الخاص، والخاصُّ بمعنى العام. وممَّا يدل على أنه ليس على العمومِ أنَّ «شفاء» نكرةٌ في سياقِ الإثبات، ولا عمومَ فيها باتفاق أهلِ اللسان، ومحقِّقي أهل العلم، ومختلفي أهلِ الأصول. لكنْ قد حملته طائفةٌ من أهلِ الصدق والعزمِ على العموم، فكانوا يستشفون بالعسلِ من كلِّ الأوجاعِ والأمراض، وكانوا يُشفَون من عِللهم ببركةِ القرآن، وبصحةِ التصديق والإيقانِ. ابنُ العربي: ومَن ضَعُفت نيتُه، وغَلبتْهُ على الدِّين عادتُه، أخذه مفهوماً على قولِ الأطباء، والكلُّ مِن حِكَم الفعَّال لما يشاء[٣].

الخامسة: إنْ قال قائل: قد رأينا مَن ينفعُه العسلُ ومَن يضره، فكيف يكون شفاءً للناس؟ قيل له: الماءُ حياة كلِّ شيءٍ وقد رأينا مَن يقتله الماءُ إذا أخذه على ما يُضادُّه من علةٍ في البدن، وقد رأينا شفاءَ العسلِ في أكثر هذه الأشربة؛ قال معناه الزَّجاج[٤].

---

(١) في (ظ): يصبح.

(٢) في النسخ: لما، والمثبت من المحرر الوجيز ٣/ ٤٠٦، والكلام منه، وينظر الكشاف ٢/ ٤١٨، وتفسير الرازي ٢٠/ ٧٢ - ٧٣.

(٣) المفهم ٥/ ٦١٠، وأحكام القرآن ٣/ ١١٤٦.

(٤) في معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٢١١.

وقد اتفقَ الأطباءُ عن بَكْرةِ أبيهم على مدحِ عمومِ منفعةِ السَّكَنْجَبين[١] في كل مرض، وأصلُه العسل، وكذلك سائرُ المعجونات. على أنَّ النبيَّ ﷺ قد حَسَم ذا[٢] الإشكال، وأزاحَ وجهَ الاحتمالِ حين أمرَ الذي يشتكي بطنَه بشرب العسل، فلما أخبره أخوه بأنه لم يزده إلا استطلاقاً، أمرهُ بعَود الشراب له فبرئ؛ وقال: «صدقَ اللهُ، وكَذب بطنُ أخيك»[٣].

السادسة[٤]: اعترض بعضُ زنادقةِ الأطباء على هذا الحديث فقال: قد أجمعتِ الأطباء على أنَّ العسل يُسهل، فكيف يُوصَف لمن به الإسهالُ؟ فالجواب: أنَّ ذلك القولَ حقٌّ في نفسه لمن حصلَ له التصديقُ بنبيِّه عليه الصلاة والسلام، فيستعمله على الوجهِ الذي عيَّنه، وفي المحلِّ الذي أمره، بعقدِ نية وحُسن طَويَّة، فإنه يرى منفعتَه ويدرك بركتَه، كما قد اتفق لصاحبِ هذا العسل وغيره كما تقدَّم. وأمَّا ما حَكَى من الإجماعِ، فدليلٌ على جهلِه بالنقل حيثُ لم يقيِّد وأطلق. قال الإمامُ أبو عبد الله المازريُّ: ينبغي أن يُعلمَ أنَّ الإسهالَ يَعرِض من ضروبٍ كثيرة؛ منها: الإسهالُ الحادث عن التُّخم والهَيْضات[٥]؛ والأطباءُ مجمعون في مثل هذا على أنَّ علاجه بأن يُترك للطبيعة وفعلِها، وإنِ احتاجت إلى مُعينٍ على الإسهال، أُعينت ما دامتِ القوّة باقية، فأمَّا حبسُها فضرر، فإذا وضحَ هذا قلنا: فيمكنُ أن يكون ذلك الرجلُ أصابه الإسهالُ عنِ امتلاء وهَيْضة، فأمره النبيُّ ﷺ بشربِ العسل، فزاده إلى أن فَنِيت المادةُ، فوقف الإسهالُ فوافقه شربُ العسل. فإذا خرجَ هذا عن صناعةِ الطب، أذِن ذلك بجهلِ المعترضِ بتلك الصناعة. قال: ولسنا نستظهرُ على قولِ نبيِّنا بأن يصدقَه الأطباءُ

---

(١) شرابٌ يُتَّخذ من خل وعسل. معرب سركنكبين. معجم متن اللغة (سكنجبين).

(٢) في (د) و(ز) و(م): داء، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ٣/١١٤٦، والكلام منه.

(٣) أخرجه أحمد (١١١٤٦)، والبخاري (٥٦٨٤)، ومسلم (٢٢١٧) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) المفهم ٥/٦٠٨ - ٦٠٩.

(٥) الهَيْضَة: مرض من أعراضه القيء الشديد والإسهال والهزال، (الكولرا). المعجم الوسيط (هيض).

بل لو كذَّبوه، لكذَّبناهم وكفَّرناهم[١] وصدَّقناه ﷺ؛ فإن أَوجدونا بالمشاهدةِ صحةَ ما قالوه، فنفتقر حينئذٍ إلى تأويل كلامِ رسول الله ﷺ وتخريجِه على ما يصحُّ؛ إذ قامتِ الدَّلالةُ على أنه لا يكذب.

السابعة: في قوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ﴾ دليلٌ على جوازِ التعالج بشرب الدواء وغير ذلك خلافاً لمن كره ذلك من جِلَّة العلماء[٢]، وهو يردُّ على الصوفية الذين يزعمون أنَّ الولاية لا تتمُّ إلا إذا رضي بجميعِ ما نزلَ به من البلاء، ولا يجوزُ له مداواة. ولا معنى لمن أنكر ذلك، روى الصحيحُ عن جابرٍ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لكلِّ داءٍ دواء، فإذا أُصيب دواءُ الداءِ؛ بَرَأَ بإذن الله»[٣].

وروى أبو داود، والترمذيُّ عن أسامةَ بن شريك قال: قالتِ الأعرابُ: ألا نَتداوَى يا رسولَ الله؟ قال: «نعم. يا عبادَ الله تداوَوْا؛ فإنَّ الله لم يضع داءً إلا وضعَ له شفاءً أو دواءً إلا داءً واحداً» قالوا: يا رسول الله وما هو؟ قال: «الهَرَم» لفظ الترمذي[٤]، وقال: حديثٌ حسن صحيح. ورَوَى عن أبي خِزَامة، عن أبيه قال: سألت رسولَ الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، أَرأيت رُقًى نسترقيها، ودواءً نتداوى به، وتُقاةً نتقيها، هل تَرُدُّ من قَدَر الله شيئاً؟ قال: «هي من قدرِ الله»[٥] قال: حديثٌ حسن، ولا يُعرف لأبي خِزامةَ غيرُ هذا الحديثِ.

وقال ﷺ: «إن كان في شيءٍ من أدويتكم خيرٌ، ففي شرطةِ مِحجَم، أو شربةِ من عسل، أو لَذْعةٍ بنار، وما أُحبُّ أن أكْتَوِيَ» أخرجه الصحيحُ[٦].

---

(١) في (م): ولكفرناهم، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في المفهم ٥/ ٦٠٩ .

(٢) القبس ٣/ ١١٢٩ .

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٠٤).

(٤) سنن أبي داود (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨)، وهو عند أحمد (١٨٤٥٤).

(٥) سنن الترمذي (٢٠٦٥)، وهو عند أحمد (١٥٤٧٢).

(٦) البخاري (٥٦٨٣)، ومسلم (٢٢٠٥)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

والأحاديثُ في هذا الباب أكثرُ من أن تُحصى، وعلى إباحةِ التداوي والاسترقاءِ جمهورُ العلماء. رُوي أنَّ ابن عمر اكتوى من اللَّقْوة، ورُقي من العقرب[(١)]. وعن ابن سِيرين، أنَّ ابنَ عمر كان يسقي ولدَه التِّرياقَ[(٢)]. وقال مالك: لا بأسَ بذلك[(٣)].

وقد احتجَّ مَن كره ذلك بما رواه أبو هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «دَخلتْ أمةٌ بقَضِّها وقَضِيضها الجنةَ؛ كانوا لا يَستَرْقُون، ولا يَكْتَوُون، ولا يَتطيَّرون، وعلى ربهم يتوكلون»[(٤)]. قالوا: فالواجبُ على المؤمن أن يتركَ ذلك اعتصاماً بالله، وتوكلاً عليه، وثقةً به، وانقطاعاً إليه[(٥)]؛ فإنَّ الله تعالى قد عَلِم أيام المرضِ، وأيام الصحة، فلو حَرَص الخلقُ على تقليلِ ذلك، أو زيادته ما قَدَروا، قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢]. وممَّن ذهب إلى هذا جماعةٌ من أهلِ الفضل والأثر، وهو قولُ ابنِ مسعود، وأبي الدرداء رضوان الله عليهما.

دخل عثمانُ بن عفان على ابنِ مسعود في مرضِه الذي قُبِض فيه، فقال له عثمان: ما تشتكي؟ قال: ذُنوبي. قال: فما تشتهي؟ قال: رحمةَ ربي. قال: ألا أدعو لك طبيباً؟ قال: الطبيبُ أمرضني... وذكر الحديث[(٦)]. وسيأتي بكمالِه في فضلِ الواقعةِ إن شاء الله تعالى.

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٩٤٤ ، وعبد الرزاق في المصنف (١٩٧٧٤)، من طريق أيوب، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/ ٣٢٣ ، من طريق أبي حنيفة، وابن أبي شيبة ٧/ ٦٤ ، والبيهقي ٩/ ٣٤٣ ، من طريق عبيد الله بن عمر، كلهم عن نافع، أنَّ ابن عمر... واللَّقوة: داءٌ في الوجه. القاموس (لقو).

(٢) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ٥/ ٢٧ ، بهذا اللفظ. وأخرجه ابن أبي شيبة ٧/ ٧٧ ، بنحوه. والترياق: دواء مركب، وهو مُعرَّب من اليونانية. القاموس (ترق).

(٣) التمهيد ٥/ ٢٧٧ .

(٤) أخرجه ابن حبان (٧٢٦)، وإسناده ضعيف من أجل محمد بن عيسى بن حيان المدائني. ويغني عنه ما أخرجه البخاري (٥٧٥٢)، من حديث ابن عباس ﷺ. وذكر فيه رسول الله ﷺ سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، وهم الذين لا يتطيرون ولا يكتوون ولا يسترقون، وعلى ربهم يتوكلون.

(٥) ينظر القبس ٣/ ١١٢٧ .

(٦) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٤٩٧)، وابن عبد البر في التمهيد ٥/ ٢٦٩.

وذكر وكيع قال: حدَّثنا أبو هلال، عن معاويةَ بنِ قُرة قال: مرِضَ أبو الدَّرداءِ، فعادوه وقالوا: ألا ندعو لك طبيباً؟ قال: الطبيبُ أضجعني[١]. وإلى هذا ذهب الربيعُ ابن خُثَيْم[٢]. وكره سعيدُ بن جُبير الرُّقَى[٣]، وكان الحسنُ يكره شربَ الأدوية كلِّها إلا اللبنَ والعسل[٤].

وأجاب الأوّلون عن الحديث بأنَّه لا حجةَ فيه؛ لأن يحتملُ أن يكون قَصدَ إلى نوع من الكيّ مكروهٍ؛ بدليلِ كَيِّ النبيِّ ﷺ أُبَيًّا يومَ الأحزابِ على أَكْحَلِه لمَّا رُمِي[٥]. وقال: «الشفاء في ثلاثة» كما تقدّم[٦]. ويحتملُ أن يكونَ قصد إلى الرُّقى بما ليس في كتابِ الله، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ [الإسراء: ٨٢]، على ما يأتي بيانُه. ورَقَى أصحابَه، وأَمَرهم بالرُّقيةِ[٧]، على ما يأتي بيانُه.

الثامنة: ذهبَ مالكٌ وجماعةُ أصحابه إلى أنْ لا زكاةَ في العسل وإن كان مطعوماً مُقتاتاً[٨]. واختلفَ فيه قولُ الشافعي، والذي قطعَ به في قوله الجديد: أنه لا زكاةَ فيه[٩]. وقال أبو حنيفة بوجوبِ زكاةِ العسل في قليلِه وكثيره؛ لأنَّ النصابَ عنده فيه

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ٨/٦ ، و ١٣/٣٠٩ ، وأحمد في الزهد ص١٦٨ ، وأبو نعيم في الحلية ١/٢١٨ .

(٢) أخرجه عنه ابن أبي شيبة ٨/٥ ، و ١٣/٣٩٩ - ٤٠٠ .

(٣) التمهيد ٥/٢٧٠ .

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ٨/٤ .

(٥) أخرجه مسلم (٢٢٠٧)، من حديث جابر، والأكحل عرقٌ في اليد يُفصد. الصحاح (كحل).

(٦) أخرجه بهذا اللفظ البخاري (٥٦٨٠) و(٥٦٨١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره المصنف من قبل من حديث جابر ﷺ.

(٧) أخرجه البخاري (٥٧٤٤)، ومسلم (٢١٩١)، من حديث عائشة رضي الله عنها، أنَّ رسول الله ﷺ كان يرقي يقول: «امسح الباسَ ربَّ الناس، بيدك الشفاء، لا كاشف له إلا أنت».
وأخرج البخاري أيضاً (٥٧٣٨)، ومسلم (٢١٩٥)، من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: أمرني رسول الله ﷺ، أو: أمر أن يُسترقى من العين.

(٨) النوادر والزيادات ٢/١٠٩ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/١١٤٧ .

(٩) مختصر اختلاف العلماء للجصاص ١/٤٥٦ ، وبدائع الصنائع ٢/٥١٢ .

ليس بشرط. وقال محمد بنُ الحسن: لا شيء فيه حتى يبلغَ خمسة[(١)] أفراق، والفَرْقُ ستة وثلاثون رطلاً من أرطالِ العراق. وقال أبو يوسف: في كلِّ عشرةِ أزقاق زِقٌّ[(٢)]؛ متمسكاً بما رواه الترمذيُّ[(٣)] عن ابنِ عمرَ قال: قالَ رسول الله ﷺ: «في العسلِ في كل عشرةِ أزقاق زِقٌّ» قال أبو عيسى: في إسناده مقالٌ، ولا يصحُّ عن النبيِّ ﷺ في هذا الباب كبيرُ شيءٍ، والعملُ على هذا عندَ أكثرِ أهل العلم، وبه يقول أحمدُ وإسحاق، وقال بعضُ أهلِ العلم: ليس في العسلِ شيءٌ.

التاسعة: قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: يعتبرون؛ ومن العبرة في النحلِ بإنصافِ النظرِ وإلطافِ الفكر في عجيبِ أمرِها، فيشهدُ اليقين بأنَّ ملهمها الصنعةَ اللطيفة مع البنيةِ الضعيفة، وحِذْقِها باحتيالها في تفاوت أحوالها، هو اللهُ سبحانه وتعالى؛ كما قال: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ الآية. ثم إنها تأكلُ الحامضَ والمُرَّ، والحلو والمالح والحشائشَ الضارةَ، فيجعله الله تعالى عسلاً حلواً وشفاءً، وفي هذا دليلٌ على قدرتِه[(٤)].

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ بيّن معناه. ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ يعني أَردأه وأَوضعَه. وقيل: الذي يُنقِص قوتَه وعقله ويُصَيِّره إلى الخَرَف ونحوه. وقال ابن عباس: يعني إلى أسفلِ العمر، يصيرُ كالصبي الذي لا عقلَ له[(٥)]، والمعنى

(١) في (د) و(ز) و(م): ثمانية، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في بدائع الصنائع ٢/ ٥١١ ، وينظر مختصر الطحاوي ص٤٧ ، والمبسوط ٣/ ١٥ - ١٦ .

(٢) المبسوط للسرخسي ٣/ ١٦ .

(٣) في سننه (٦٢٩). والزِّقُّ: السقاء. الصحاح (زقق).

(٤) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ٢٩١ ، وتفسير الرازي ٢٠/ ٧٣ .

(٥) الوسيط ٣/ ٧٣ ، وزاد المسير ٤/ ٤٦٧ .

متقاربٌ. وفي «صحيح البخاري»[١] عن أنس بنِ مالك قال: كان رسولُ الله ﷺ يتعوَّذ يقول: «اللَّهُمَّ إني أعوذُ بك من الكسل، وأعوذُ بك من الجُبنِ، وأعوذُ بك من الهَرَم، وأعوذُ بك من البخل». وفي حديثِ سعدِ بنِ أبي وَقّاص: «وأعوذُ بك أن أُردَّ إلى أرذلِ العمرِ» الحديث. خرَّجه البخاري[٢].

﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ أي: يرجع إلى حالةِ الطفوليةِ فلا يعلم ما كانَ يعلمُ قبلُ من الأمورِ؛ لفرطِ الكِبَرِ[٣]. وقد قيل: هذا لا يكونُ للمؤمنِ؛ لأن المؤمنَ لا يُنزَع عنه علمه[٤]. وقيل: المعنى: لكيلا يعملَ بعد علمٍ شيئاً؛ فعَبَّر عن العملِ بالعلمِ لافتقاره إليه؛ لأنَّ تأثيرَ الكبر في عملِه أبلغُ من تأثيرِه في علمِه[٥]. والمعنى المقصودُ الاحتجاجُ على منكري البعثِ، أي: الذي ردَّه إلى هذه الحال قادرٌ على أن يميتَه ثم يحييَه[٦].

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ أي: جعلَ منكم غنيًّا وفقيراً، وحرّاً وعبداً[٧]. ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا﴾ أي: في الرزق. ﴿بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي: لا يردُّ المولى على ما ملكت يمينُه ممَّا رُزِق شيئاً حتى يستوي المملوكُ والمالكُ في المال. وهذا مَثَلٌ ضربَه الله لعَبَدةِ الأصنام، أي: إذا لم يكن عبيدُكم

(١) برقم (٦٣٧١)، وهو عند مسلم (٢٧٠٦).

(٢) برقم (٢٨٢٢).

(٣) تفسير الطبري ١٤/ ٢٩٢، وزاد المسير ٤/ ٤٦٧.

(٤) تفسير الوسيط ٣/ ٧٣، وتفسير الرازي ٢٠/ ٧٧.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٢٠٠ - ٢٠١.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢١١، وتفسير الرازي ٢٠/ ٧٧، وزاد المسير ٤/ ٤٦٨.

(٧) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢١٢، وزاد المسير ٤/ ٤٦٨.

معكم سواءً، فكيفَ تجعلون عبيدي معي سواءً؟ فلمَّا لم يكنْ يَشركُهم عبيدُهم في أموالِهم؛ لم يَجُزْ لهم أن يشاركوا اللهَ تعالى في عبادةِ غيرِه من الأوثان والأنصابِ وغيرهما مما عُبِد؛ كالملائكةِ والأنبياءِ وهم عبيدُه وخَلقُه. حكى معناه الطبريُّ[١]، وقاله ابنُ عباس ومجاهدٌ وقتادة وغيرهم[٢]. وعن ابن عباسٍ أيضاً: أنَّها نزلت في نصارى نَجْرَان حين قالوا: عيسى ابنُ الله. فقال الله لهم: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ أي: لا يردُّ المولى على ما ملكت يمينهُ مما رُزِق حتى يكونَ المولى والعبدُ في المال شَرَعاً سواءً، فكيفَ تَرضَون لي ما لا تَرضَون لأنفسِكم فتجعلون لي ولداً من عبيدي[٣]. ونظيرُها: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ [الروم: ٢٨] على ما يأتي. ودلَّ هذا على أنَّ العبدَ لا يملكُ، على ما يأتي آنفاً[٤].

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ جَعل بمعنى خَلق؛ وقد تقدم. ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ يعني: آدم خُلِق منه حَواء. وقيل: المعنى: جعلَ لكم من أنفسكم، أي: من جِنسِكم ونوعِكم وعلى خلقتِكم، كما قال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] أي: من الآدميين[٥]. وفي هذا ردٌّ على العربِ التي كانت تعتقد أنَّها كانت تَزوَّجُ الجنَّ وتُباضِعُها، حتى روي أنَّ عمرو بنَ هند[٦]

---

(١) في التفسير ١٤/ ٢٩٢ - ٢٩٣، وينظر الوسيط ٣/ ٧٣، وزاد المسير ٤/ ٤٦٨.

(٢) أخرجه عنهم الطبري في التفسير ١٤/ ٢٩٣ - ٢٩٥.

(٣) تفسير الرازي ٢٠/ ٧٩، وزاد المسير ٤/ ٤٦٨.

(٤) كذا قال، وسيرد في تفسير الآية الآتية برقم (٧٥).

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٠٨، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ٢١٢، وبحر العلوم ٢/ ٢٤٢، والنكت والعيون ٣/ ٢٠٢.

(٦) كذا في النسخ وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤٨، وجاء في النوادر ص١٤٦ - ١٤٧، والجمهرة =

تزوج منهم غُولاً، وكان يَخْبَؤها عن البرقِ، لئلّا تراهُ فتنفرَ، فلما كان في بعضِ الليالي لمح[1] البرقُ وعاينتهُ السِّعلاةُ[2]، فقالت: عمرو! ونَفَرت، فلم يَرها أبداً. وهذا من أكاذيبِها، وإن كان جائزاً في حكمِ الله وحكمتِه، فهو ردٌّ على الفلاسفةِ الذين يُنكِرون وجودَ الجنِّ، ويحيلون طعامهم[3]. ﴿أَزْوَٰجًا﴾ زوجُ الرجل هي ثانيتُه، فإنه فردٌ، فإذا انضافتْ إليه، كانا زوجين، وإنَّما جُعِلت الإضافةُ إليه دونها؛ لأنَّه أصلُها في الوجودِ كما تقدَّم[4].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ **فيه خمس مسائل:**

الأولى: قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ﴾ ظاهرٌ في تعديدِ النعمةِ في الأبناء، ووجودُ الأبناءِ يكون منهما معاً، ولكنَّه لمَّا كان خلقُ المولودِ فيها وانفصالُه عنها؛ أُضيف إليها، ولذلك تَبِعها في الرقِّ والحريةِ، وصار مثلَها في المالية. قال ابن العربيّ: سمعتُ إمامَ الحنابلة بمدينةِ السلام أبا الوفاء عليَّ بن عقيل يقول: إنَّما تبعَ الولدُ الأم في المالية، وصار بحكمِها في الرِّقِّ والحرِّية؛ لأنه انفصلَ عن الأب نطفةً لا قيمةَ له، ولا ماليةَ فيه ولا منفعةَ، وإنَّما اكتسب ما اكتسبَ بها ومنها، فلأجلِ ذلك تبعها، كما لو أكلَ رجل تمراً في أرضِ رجلٍ، وسقطت منه نواةٌ في الأرضِ من يد الآكلِ، فصارت نخلةً، فإنها ملكُ صاحبِ الأرض دون الآكلِ بإجماعٍ من الأُمةِ؛ لأنها انفصلت عن الآكلِ ولا قيمةَ لها[5].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَحَفَدَةً﴾ روى ابنُ القاسم عن مالكٍ قال: وسألتُه عن

= ٣/ ١٥٢ ، وسمط اللآلي ٢/ ٧٠٣ ، والفصول والغايات ص٢١٠ ، ورسالة الصاهل والشاحج ص٢٩٤ ، عمرو بن يربوع بن حنظلة.

(١) في (م): لمع، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤٨ .

(٢) السِّعلاةُ: أخبث الغيلان. الصحاح (سعل).

(٣) كذا في النسخ وأحكام القرآن لابن العربي، ولعلها: طاعتهم، وينظر الفهرست لابن النديم ص٣٧٠ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤٨ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤٨ - ١١٤٩ .

قوله تعالى: «بَنِينَ وَحَفَدَةً» قال: الحَفَدةُ: الخدمُ والأعوانُ في رأيي. ورُوي عن ابن عباس في قوله تعالى: «وَحَفَدَةً» قال: هم الأعوانُ، مَن أعانَك فقد حَفَدك. قيل له: فهل تعرفُ العربُ ذلك؟ قال: نعم وتقوله، أوَ ما سمعت قولَ الشاعر:

حَفَدَ الولائدُ حولهنَّ وأسلِمَتْ بأكفِّهِنَّ أزِمَّةُ الأجمالِ[١]

أي: أسرعنَ الخدمةَ. والولائدُ: الخدمُ، الواحدةُ وليدة؛ قال الأعشى:

كلِّفتُ مجهولَها نُوقاً يمانيةً إذا الحُداةُ على أكسائِها حَفَدُوا[٢]

أي: أسرعوا. وقال ابنُ عرفة: الحَفَدةُ عندَ العربِ الأعوانُ، فكلُّ مَن عمل عملاً أطاع فيه وسارعَ فهو حافدٌ، قال: ومنه قولُهم: «إليك نسعى ونحْفِدُ»[٣]، والحَفَدانُ: السرعةُ. قال أبو عبيد[٤]: الحَفَدُ: العملُ والخدمةُ. وقال الخليل بن أحمد[٥]: الحَفَدةُ عند العرب الخدمُ. وقاله مجاهد[٦]. وقال الأزهري[٧]: قيل: الحَفَدةُ أولادُ الأولادِ. ورُوي عن ابنِ عباس[٨]. وقيل: الأختان؛ قاله ابنُ مسعود، وعلقمةُ، وأبو الضحا،

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥٠ - ١١٥١ ، وينظر القبس ٣/ ١٠٧٢ . والبيت نسبَه ابن دريد في الجمهرة ٢/ ١٢٣ إلى الفرزدق، ونسبه أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣٦٤ والطبري في تفسيره ١٤/ ٣٠٢ ، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ٢٠٢ إلى جميل، ونسبه أبو عبيد الهروي في غريب الحديث ٣/ ٣٧٤ إلى الأخطل، وسيأتي قريباً عند المصنف منسوباً إلى كثير، ولم نقف عليه في دواوين هؤلاء الشعراء، وهو عند الطبراني في الكبير (١٠٥٩٧) ١٠/ ٢٥٠ في سؤالات نافع بن الأزرق لابن عباس، ونسبه لأمية ابن أبي الصلت، ولم نقف عليه في ديوانه، وهو عند الطبري في التفسير ١٤/ ٢٩٨ دون نسبة.

(٢) لم نقف عليه للأعشى، والبيت للراعي النميري وهو في ديوانه ص٥٨ ، ونسبه إليه أيضاً الطبري في التفسير ١٤/ ٣٠٣ ، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ٢٠٢ - ٢٠٣ ، ومحمد بن المبارك في منتهى الطلب ٦/ ٣٧ ، والأكساء جمع الكُسْي، وهو مؤخرُ العَجُزِ وكلِّ شيء. القاموس (كسي).

(٣) قطعة من حديث دعاء القنوت، وسلف ٥/ ٣١٠ ، وينظر اللسان (حفد).

(٤) في غريب الحديث ٣/ ٣٧٤ .

(٥) في العين ٣/ ١٨٥ ، وينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥١ .

(٦) في تفسيره ١/ ٣٤٩ ، وأخرجه عنه الطبري في التفسير ١٤/ ٢٩٩ .

(٧) في تهذيب اللغة ٤/ ٤٢٨ .

(٨) أخرجه عنه الطبري في التفسير ١٤/ ٣٠١ .

وسعيدُ بن جُبير، وإبراهيم[١]؛ ومنه قولُ الشاعر:

فلو أنَّ نفسي طاوعتني لأصبحتْ ... لها حَفَدٌ مما يُعَدُّ كثيرُ

ولكنها نفسٌ عليَّ أبيَّةٌ ... عيوفٌ لإصهارِ اللئامِ قَذورُ[٢]

ورَوى زِرٌّ، عن عبدِ الله قال: الحَفَدةُ الأصهارُ. وقاله إبراهيم[٣]، والمعنى متقارب. قال الأصمعي[٤]: الخَتَنُ مَن كان من قِبَل المرأةِ، مثل أبيها وأخيها وما أشبههما؛ والأصهارُ منهما جميعاً. يقال: أصهرَ فلانٌ إلى بني فلانٍ وصاهرَ. وقولُ عبدِ الله: همُ الأختانُ، يحتملُ المعنيين جميعاً. يحتملُ أن يكونَ أرادَ أبا المرأة وما أشبهه مِن أقربائها، ويحتملُ أن يكونَ أرادَ: وجعلَ لكم من أزواجِكم بنين وبناتٍ تزوجونهنَّ، فيكون لكم بسببهن أختان. وقال عكرمةُ: الحَفَدةُ مَن نفعَ الرجلَ من ولدِه[٥]. وأَصلُه من: حَفَد يحفِد، بفتحِ العين في الماضي، وكسرِها في المستقبل، إذا أسرعَ في سيره[٦]؛ كما قال كُثَيِّر:

حفدَ الولائدُ بينهن... البيت[٧].

ويقال: حَفَدْتُ وأَحفدْتُ، لغتان: إذا خَدَمْتَ. ويقال: حافد وحَفَد؛ مثل: خادم وخَدَم، وحافد وحَفَدة مثل: كافر وكفرة[٨]. قال المهدوي: ومَن جعلَ الحَفَدةَ

---

(١) أخرجه عنهم إلا علقمة الطبريُّ في التفسير ١٤/ ٢٩٦ - ٢٩٨، وينظر النكت والعيون ٣/ ٢٠٢، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٠٨.

(٢) البيتان للصحابي الجليل النعمان بن بشير الأنصاري، كما في ديوانه ص١٠٢، وهما في النكت والعيون ٣/ ٢٠٢، وزاد المسير ٤/ ٤٦٩ دون نسبة.

(٣) أخرجه عنهما الطبري في التفسير ١٤/ ٢٩٧ - ٢٩٨.

(٤) تهذيب اللغة ٧/ ٣٠٠.

(٥) أخرجه عنه الطبري في التفسير ١٤/ ٢٩٨ - ٢٩٩.

(٦) ينظر الصحاح (حفد).

(٧) سلف آنفاً.

(٨) ينظر الصحاح (حفد)، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١١٠.

الخدمَ؛ جعله منقطعاً مما قبلَه ينوي به التقديمَ؛ كأنَّه قال: جَعلَ لكم حَفَدةً، وجعلَ لكم من أزواجكم بنينَ.

قلت: ما قاله الأزهريُّ من أنَّ الحفدةَ أولادُ الأولادِ هو ظاهرُ القرآن، بل نصُّه؛ ألا ترى أنه قال: «وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة» فجعلَ الحفدةَ والبنين منهن. وقال ابنُ العربيِّ: الأظهرُ عندي في قوله «بنين وحفدة» أنَّ البنينَ أولادُ الرجل لصُلْبه والحفدةَ أولادُ ولده، وليس في قوةِ اللفظ أكثر من هذا، ويكونُ تقديرُ الآية على هذا: وجعلَ لكم من أزواجِكم بنينَ ومن البنينَ حفدةً[1]. وقال معناه الحسنُ[2].

الثالثة: إذا فَرَّعنا على قولِ مجاهد وابنِ عباس، ومالك وعلماءِ اللغة في قولهم: إنَّ الحَفَدةَ الخدمُ والأعوان، فقد خرجتْ خدمةُ الولدِ والزوجة من القرآن بأبدعِ بيان؛ قاله ابن العربيِّ[3]. روى البخاريُّ[4] وغيرُه، عن سهل بنِ سعد، أنَّ أبا أُسَيْد السَّاعدي دعا النبيَّ ﷺ لعرسِه، فكانت امرأتُه خادمَهم... الحديث، وقد تقدَّم في سورة هود[5]. وفي «الصحيح» عن عائشةَ قالت: أنا فَتلتُ قلائدَ بُدْن النبيِّ ﷺ بيدي[6]. الحديث. ولهذا قال علماؤنا: عليها أن تفرشَ الفراشَ، وتطبخَ القِدْرَ، وتَقُمَّ الدار، بحسب حالِها وعادةِ مثلها؛ قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف:١٨٩]، فكأنَّه جمعَ لنا فيها السَّكَنَ والاستمتاع وضرباً من الخدمة بحسبِ جَري العادة.

الرابعة: ويخدُم الرجلُ زوجتَه فيما خفَّ من الخدمةِ، ويُعينها؛ لما رَوته عائشةُ

---

(١) أحكام القرآن ٣/ ١١٥٠ .

(٢) أخرجه عنه الطبري في التفسير ١٤/ ٢٩٩ .

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١١٥١ .

(٤) في صحيحه (٥١٧٦)، ومسلم (٢٠٠٦).

(٥) ١١/ ١٦٦ .

(٦) أخرجه البخاري (١٧٠٠)، ومسلم (١٣٢١).

أن النبيَّ ﷺ كانَ يكونُ في مَهْنةِ أهلِه، فإذا سمع الأذانَ خرج[١]. وهذا قولُ مالك: ويُعينُها[٢]. وفي أخلاقِ النبيِّ ﷺ أنه كان يخصِفُ النعلَ، ويَقُمُّ البيتَ، ويَخِيطُ الثوب[٣]. وقالت عائشةُ وقد قيل لها: ما كان يعملُ رسولُ الله ﷺ في بيتِهِ؟ قالت: كان بشراً من البشرِ يَفْلي ثوبَه، ويحلبُ شاتَه، ويخدُم نفسَه[٤].

الخامسة: وينفقُ على خادمةٍ واحدة، وقيل: على أكثر، على قدرِ الثروةِ والمنزلة. وهذا أمرٌ دائرٌ على العرفِ الذي هو أصلٌ من أصولِ الشريعة، فإنَّ نساءَ الأعرابِ وسكانِ البوادي يخدُمنَ أزواجهنَّ في استعذابِ الماءِ وسياسةِ الدوابِّ، ونساءَ الحواضرِ يخدُم المُقِلُّ منهم زوجتَه فيما خفَّ ويُعينُها، وأمَّا أهلُ الثروةِ فيُخدِمون[٥] أزواجهنَّ ويترفهنَ معهم إذا كان لهم منصبُ ذلك؛ فإنْ كان أمراً مشكلاً شَرطتْ عليه الزوجةُ ذلك، فتُشهِدُ أنه قد عرفَ أنَّها ممَّن لا تخدمُ نفسَها، فالتزمَ[٦] إخدامَها، فينفذُ ذلك، وتنقطعُ الدعوى فيه[٧].

قوله تعالى: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: من الثمارِ والحبوبِ والحيوان. ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ﴾ يعني: الأصنام؛ قاله ابنُ عباس[٨]. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ قراءةُ الجمهورِ بالياء، وقرأ أبو عبد الرحمن بالتاء[٩]. ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بالإسلامِ. ﴿هُمْ يَكْفُرُونَ﴾[١٠].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٦).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥١ .

(٣) أخرجه أبو الشيخ في أخلاق النبي ص٢٠ - ٢١ و ٦٢ ، من حديث عائشة.

(٤) أخرجه الترمذي في الشمائل (٣٣٦).

(٥) في النسخ الخطية: فيخدمن، والمثبت من (م)، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥٠ .

(٦) في (ظ): فللقوم.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥٠ .

(٨) النكت والعيون٣/ ٢٠٣ ، وتفسير الرازي ٢٠/ ٨١ ، وزاد المسير ٤/ ٤٧٠ .

(٩) المحرر الوجيز ٣/ ٤٠٨ .

(١٠) الوسيط ٣/ ٧٤ ، والنكت والعيون ٣/ ٢٠٣ ، وزاد المسير ٤/ ٤٧٠ .

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يعني: المطر. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني: النبات[1]. ﴿شَيْـًٔا﴾ قال الأخفش[2]: هو بدلٌ من الرزقِ. وقال الفرَّاء[3]: هو منصوبٌ بإيقاعِ الرزقِ عليه، أي: يعبدون ما لا يملكُ أن يرزقَهم شيئاً. ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي: لا يقدرون على شيءٍ، يعني: الأصنام. ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: لا تُشبِّهوا به هذه الجمادات؛ لأنه واحدٌ قادر لا مثلَ له[4]. وقد تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

فيه خمسُ مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ نبَّه تعالى على ضلالةِ المشركين، وهو مُنتظَمٌ بما قبلَه من ذكرِ نِعمِ الله عليهم، وعدمِ مثلِ ذلك من آلهتهم. «ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً» أي: بيَّن شَبهاً، ثم ذكر ذلك فقال: ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ أي: كما لا يستوي عندكم عبدٌ مملوك لا يقدرُ من أمرِه على شيء، ورجلٌ حُرٌّ قد رُزِق رزقاً حسناً، فكذلك أنا وهذه[5] الأصنام. فالذي هو مثالٌ في هذه الآية هو عبدٌ بهذه الصفةِ مملوكٌ لا يقدرُ على شيءٍ من المال، ولا من أمرِ نفسه، وإنَّما هو مسخَّرٌ بإرادةِ سيدِه[6]. ولا يلزمُ من

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/٢٤٣.

(٢) في معاني القرآن له ٢/٦٠٧.

(٣) في معاني القرآن له ٢/١١٠، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/٤٠٣.

(٤) تفسير الطبري ١٤/٣٠٥، والوسيط ٣/٧٤، والمحرر ٣/٤٠٩، وزاد المسير ٤/٤٧١.

(٥) في (ظ): وعبدة.

(٦) تفسير الطبري ١٤/٣٠٧ و٣٠٩ و٣١١، وزاد المسير ٤/٤٧٢.

الآيةِ أنَّ العبيدَ كلَّهم بهذه الصفةِ؛ فإنَّ النكرةَ في الإثباتِ لا تقتضي الشمولَ عندَ أهلِ اللسان كما تقدَّم، وإنما تفيدُ واحداً[١]، فإذا كانت بعدَ أمرٍ أو نهيٍ أو مضافةً إلى مصدرٍ، كانت للعمومِ الشيوعي[٢]، كقولِه: أعتِقْ رجلاً، ولا تُهِن رجلاً، والمصدر كإعتاق رقبةٍ، فأيَّ رجلٍ أعتقَ فقد خرجَ عن عهدةِ الخطاب، ويصحُّ منه الاستثناءُ.

وقال قتادة[٣]: هذا المثلُ للمؤمنِ والكافرِ. فذهبَ قتادةُ إلى أنَّ العبدَ المملوك هو الكافرُ؛ لأنَّه لا ينتفعُ في الآخرة بشيءٍ من عبادتِه، وإلى أنَّ معنى «وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً» المؤمنُ. والأولُ عليه الجمهورُ من أهلِ التأويل. قال الأَصَمُّ[٤]: المرادُ بالعبدِ المملوكُ الذي ربَّما يكون أشدَّ من مولاه أَسْراً[٥]، وأنضرَ وجهاً، وهو لسيدِه ذليلٌ لا يقدرُ إلا على ما أَذِنَ له فيه؛ فقال الله تعالى ضرباً للمثال: أي: فإذا كان هذا شأنَكُم وشأنَ عبيدِكم، فكيفَ جَعلتم أحجاراً أمواتاً[٦] شركاءَ لله تعالى في خلقِه وعبادته، وهي لا تعقلُ ولا تسمعُ؟!.

الثانية: فَهِمَ المسلمون من هذه الآية ومما قبلها نقصانَ رتبةِ العبدِ عن الحرِّ في المِلْك، وأنه لا يملكُ شيئاً وإن مُلِّكَ. قال أهلُ العراق: الرِّقُّ ينافي المِلكَ[٧]، فلا يملكُ شيئاً البتةَ بحال، وهو قولُ الشافعيِّ في الجديد، وبه قال الحسنُ وابنُ سِيرين. ومنهم مَن قال: يملكُ؛ إلا أنه ناقصُ المِلك؛ لأنَّ لسيدِه أن ينتزعَه منه أيَّ وقتٍ شاء، وهو قولُ مالك ومَنِ اتبعه، وبه قال الشافعيُّ في القديم، وهو قولُ أهلِ

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥٣.

(٢) في النسخ الخطية: الشرعي، والمثبت من (م).

(٣) أخرجه عنه الطبري في تفسيره ١٤/ ٣٠٧ - ٣٠٨.

(٤) نقله عنه الكيا الهراسي في أحكام القرآن ٤/ ٢٤٤.

(٥) الأسر: الخَلْق. الصحاح (أسر).

(٦) في (م): مواتاً، والمثبت من النسخ الخطية، وأحكام القرآن للهراسي ٤/ ٢٤٤.

(٧) المبسوط ٤/ ١٥٠.

الظاهر، ولهذا قال أصحابُنا: لا تجبُ عليه عبادةُ الأموالِ من زكاةٍ وكفَّارات، ولا من عباداتِ الأبدانِ ما يقطعُه عن خدمةِ سيدِه؛ كالحجِّ والجهاد وغيرِ ذلك.

وفائدةُ هذه المسألةِ أنَّ سيدَه لو مَلَّكه جاريةً، جازَ له أن يطأَها بمِلكِ اليمين، ولو مَلَّكه أربعينَ من الغنمِ، فحالَ عليها الحولُ، لم تجب على السيدِ زكاتُها؛ لأنَّها مِلكُ غيرِه، ولا على العبدِ؛ لأنَّ مِلكَه غير مستقرٌّ. والعراقيُّ يقولُ: لا يجوزُ له أن يطأَ الجاريةَ، والزكاةُ في النصاب واجبةٌ على السيدِ كما كانت[1]. ودلائلُ هذه المسألةِ للفريقين في كتبِ الخلاف.

وأدلُّ دليلٍ لنا قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ [الروم: ٤٠] فسوَّى بينَ العبدِ والحرِّ في الرزقِ والخلق. وقال عليه الصلاة والسلامُ: «من أعتقَ عبداً وله مالٌ...»[2] فأضافَ المال إليه. وكان ابنُ عمر يَرى عبدَه يتسرَّى في مالِه فلا يعيبُ عليه ذلك[3]. ورُوي عن ابنِ عباس أنَّ عبداً له طلَّق امرأتَه طلقتين، فأمره أن يرتجعَها بمِلكِ اليمين[4]؛ فهذا دليلٌ على أنَّه يملكُ ما بيدِه، ويفعلُ فيه ما يفعلُ المالكُ في مِلكِه ما لم يَنتزِعْه سيدُه. واللهُ أعلم.

الثالثة: وقد استدلَّ بعضُ العلماء بهذه الآية على أنَّ طلاقَ العبدِ بيد سيده، وعلى أنَّ بيع الأمةِ طلاقُها، معوِّلاً على قولِه تعالى: ﴿لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾. قال: فظاهرُه يفيدُ أنه لا يقدر على شيءٍ أصلاً، لا على المِلكِ ولا على غيرِه، فهو على عمومِه، إلا أن يدلَّ دليل على خِلافِه. وفيما ذكرناه عن ابنِ عمرَ وابنِ عباس ما يدلُّ على التخصيصِ[5]. والله تعالى أعلم.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥٣ - ١١٥٤ ، والإشراف على مذاهب العلماء ٤/ ١٣٠ - ١٣١ .

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٩٢)، ومسلم (١٥٠٣)، من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٢٨٣٦)، والبيهقي ٧/ ١٥٢ .

(٤) أخرجه عبد الرزاق (١٢٨٤٣).

(٥) ينظر الاستذكار ١٧/ ٢٩٢ - ٢٩٣ .

الرابعة: قال أبو منصور[١] في عقيدتِه: الرزقُ ما وقعَ الاغتذاء به. وهذه الآيةُ تردُّ هذا التخصيصَ، وكذلك قولُه تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]. و﴿أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ [البقرة: ٢٥٤] وغير ذلك من قولِ النبيِّ ﷺ: «جُعِل رزقي تحتَ ظِلِّ رُمْحِي»[٢] وقولِه: «أرزاقُ أُمتي في سنابكِ خيلِها، وأسِنةِ رماحِها»[٣]. فالغنيمةُ كلُّها رزق، وكلُّ ما صحَّ به الانتفاعُ فهو رزقٌ، وهو مراتبُ: أعلاها ما يُغذي. وقد حصَر رسولُ الله ﷺ وجوهَ الانتفاعِ في قوله: «يقولُ ابنُ آدم: مالي مالي، وهل لكَ من مالِك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لبستَ فأبليتَ، أو تَصدَّقت فأمضيت»[٤]. وفي معنى اللباسِ يدخلُ الركوبُ وغيرُ ذلك[٥]. وفي ألسنةِ المحدِّثين: السَّماعُ رزقٌ[٦]، يعنون سماعَ الحديث، وهو صحيحٌ.

الخامسة: قولُه تعالى: ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾: هو المؤمنُ؛ يطيعُ الله في نفسِه وماله. والكافرُ لمَّا لم ينفق في الطاعةِ؛ صار كالعبدِ الذي لا يملكُ شيئاً. ﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾ أي: لا يستوون[٧]، ولم يقل: يستويان؛ لمكانِ «مَن»؛ لأنه اسم مبهمٌ يصلحُ للواحد والاثنين والجمع، والمذكر والمؤنث. وقيل: «إنّ عبداً مملوكاً»، «ومن رزقناه» أُريدَ بهما الشُّيوعُ في الجنس.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: هو مستحقٌّ للحمدِ دون ما يعبدون من

---

(١) محمد بن محمد بن محمود الماتريدي، كان من كبار العلماء، له كتاب التوحيد، والمقالات، وتأويلات القرآن، وغيرها (ت ٣٣٣هـ). الجواهر المضية ٣/ ٣٦٠ - ٣٦١ .

(٢) سلف ١٠/ ١٦٠ ، وهو ضعيف.

(٣) أخرجه يحيى بن آدم في الخراج (٢٥٥)، وابن أبي شيبة في المصنف ٥/ ٣٣٥ ، عن مكحول، مرسلاً.

(٤) أخرجه أحمد (١٦٣٠٥) و(١٦٣٠٦)، ومسلم (٢٩٥٨) من حديث عبد الله بن الشِّخِّير ﷺ.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٣٠٩ - ٣١٠ .

(٦) المجاز والمجيز لأبي طاهر السلفي ١/ ٧٥ و ٨٠ .

(٧) تفسير الطبري ١٤/ ٣٠٧ - ٣٠٨ .

دونِه؛ إذ لا نعمةَ للأصنامِ عليهم من يدٍ ولا معروف، فتُحمَد عليه، إنَّما الحمدُ الكامل لله؛ لأنه المنعمُ الخالق. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ أي: أكثرُ المشركين ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ الحمد لي، وجميعَ النعمة مني. وذكرَ الأكثرَ وهو يريدُ الجميع[١]، فهو خاصٌّ أُريد به التعميمُ. وقيل: أي: بل أكثرُ الخلقِ لا يعلمون، وذلك أنَّ أكثرَهم المشركون.

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ هذا مَثَلٌ آخر ضربه الله تعالى لنفسه وللوثَن[٢]، فالأبكمُ الذي لا يقدرُ على شيءٍ هو الوثنُ، والذي يأمُر بالعدل هو الله تعالى؛ قاله قَتادة وغيره[٣]. وقال ابنُ عباس: الأبكمُ عبد كان لعثمانَ ﷺ، وكان يَعرِضُ عليه الإسلامَ فيأبى، ويأمر بالعدل عثمانُ[٤]. وعنه أيضاً: أنه مَثَلٌ لأبي بكر الصدِّيق ومولًى له كافر. وقيل: الأبكم أبو جهل، والذي يأمرُ بالعدل عَمَّار بنُ ياسر العَنْسِيّ[٥]، وعَنْس، بالنون: حيٌّ من مَذْحِج، وكان حليفاً لبني مخزوم رهطِ أبي جهل، وكان أبو جهل يُعذِّبه على الإسلامِ، ويعذب أمَّه سُمَيَّة، وكانت مولاةً لأبي جهل، وقال لها ذاتَ يوم: إنَّما آمنتِ بمحمد؛ لأنك تُحبِّينَه لجمالِه، ثم طَعنها بالرمحِ في قُبُلِها فماتت، فهي أوَّل شهيدٍ مات في الإسلام[٦]، رحمَها الله. من كتابِ النقاش وغيرِه. وسيأتي هذا في آيةِ الإكراه[٧] مبيَّناً إن شاء الله تعالى.

---

(١) الوسيط ٣/ ٧٥.

(٢) تفسير الطبري ١٤/ ٣٠٩، والنكت والعيون ٣/ ٢٠٤.

(٣) أخرجه الطبري في التفسير ١٤/ ٣١٠ عن قتادة، و ١٤/ ٣١١ عن مجاهد.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ١٤/ ٣١١ - ٣١٢، والواحدي في الوسيط ٣/ ٧٥.

(٥) ينظر البحر المحيط ٥/ ٥١٩ - ٥٢٠.

(٦) السيرة الحلبية ١/ ٤٨٣، والأوائل للعسكري ١/ ٣١٢.

(٧) الآية ١٠٦ من هذه السورة.

وقال عطاء: الأبكمُ أُبَيُّ بنُ خلَف، كان لا ينطقُ بخير. ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ أي: قومِه؛ لأنه كان يُؤذيهم ويؤذي عثمانَ بنَ مَظْعُون[1]. وقال مقاتل: نزلتْ في هاشم[2] بنِ عمرو بنِ الحارث، كان كافراً قليلَ الخير يعادي النبيَّ ﷺ. وقيل: إنَّ الأبكم الكافرُ، والذي يأمرُ بالعدلِ المؤمنُ جملةً بجملة؛ روي عن ابنِ عباس[3]، وهو حَسَن؛ لأنه يَعُمُّ.

والأبكَمُ: الذي لا نطقَ له. وقيل: الذي لا يعقل. وقيل: الذي لا يسمعُ ولا يبصر[4]. وفي التفسيرِ: إنَّ الأبكم هاهنا الوثنُ. بيَّن أنه لا قدرةَ له ولا أمر، وأنَّ غيرَه ينقلُه ويَنْحِتُه، فهو كَلٌّ عليه. واللهُ الآمرُ بالعدل، الغالبُ على كل شيءٍ. وقيل: المعنى «وهو كَلٌّ على مولاه» أي: ثِقْلٌ على وَلِيِّه وقرابتِه، ووبالٌ على صاحبِه وابنِ عمه[5]. وقد يُسمَّى اليتيم كَلًّا؛ لثقلِه على مَن يَكفُلُه؛ ومنه قولُ الشاعر:

أكُولٌ لمالِ الكَلِّ قبلَ شبابِه إذا كان عظمُ الكَلِّ غيرَ شديدِ[6]

والكَلُّ أيضاً: الذي لا ولدَ له ولا والد[7]. والكَلُّ: العيالُ، والجمع الكُلُول[8]؛ يقال منه: كَلَّ السكينُ يَكِلُّ كَلًّا، أي: غَلُظت شفرتُه فلم يَقطع.

---

(١) زاد المسير ٤/ ٤٧٣ - ٤٧٤ .

(٢) كذا في النسخ وتفسير البغوي ٣/ ٧٨ والخبر فيه، ولعله هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث القرشي العامري، ذكره ابن إسحاق في المؤلفة ممن أعطاه النبي ﷺ دون المئة من غنائم حنين. الإصابة ١٠/ ٢٥٠ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٠٤ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢١٣ .

(٥) مجاز القرآن ١/ ٣٦٤ ، وتفسير السمرقندي ٢/ ٢٤٣ .

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤١١ ، والبيت في العين ٥/ ٢٧٩ ، وتهذيب اللغة ٩/ ٤٤٦ ، واللسان (كلل) دون نسبة.

(٧) تهذيب اللغة ٩/ ٤٤٦ .

(٨) العين ٥/ ٢٧٩ .

﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ قرأ الجمهورُ: «يُوَجِّههُّ»، وهو خطُّ المصحف؛ أي: أينما يرسلُه صاحبه لا يأتِ بخير؛ لأنه لا يَعرف ولا يَفهم ما يقال له، ولا يُفهم عنه. وقرأ يحيى بن وَثّاب: «أينما يُوَجَّهُ» على الفعلِ المجهول. وروي عن ابنِ مسعود[1] أيضاً: «تُوَجِّهه»[2] على الخطاب.

﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: هل يستوي هذا الأبكمُ، ومَن يأمرُ بالعدل على الصِّراطِ المستقيم؟!.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقدَّم معناه. وهذا متصلٌ بقولِه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: شرعُ التحليلِ والتحريمِ إنَّما يَحسُن ممَّن يُحيطُ بالعواقبِ والمصالحِ، وأنتم أيُّها المشركون لا تُحيطون بها؛ فلِمَ تتحكَّمون؟!.

﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ وتُجازَوْن فيها بأعمالِكم. والساعةُ هي الوقتُ الذي تقومُ فيه القيامة؛ سُمِّيت ساعةً؛ لأنَّها تفجأُ الناسَ في ساعة، فيموتُ الخلقُ بصيحة. واللَّمْحُ: النظرُ بسرعة؛ يقال: لَمَحه لَمْحاً ولَمَحاناً[3]. ووجهُ التأويلِ أنَّ الساعة لمَّا كانت آتيةً ولابدَّ، جُعِلت من القربِ كلمحِ البصرِ[4]. وقال الزَّجاجُ[5]: لم يُرِدْ أنَّ الساعة تأتي في لمحِ البصر، وإنَّما وَصفَ سرعةَ القدرةِ على الإتيانِ بها؛ أي: يقول للشيءِ: كن، فيكون. وقيل: إنَّما مَثَّل بلمحِ البصر؛ لأنَّه يلمحُ السماءَ مع

(١) بعدها في (ز): وعن ابن مسعود.

(٢) في النسخ: توجه، والمثبت من المحرر الوجيز ٣/ ٤١١، والكلام منه، وقد نصَّ على أنها بهاءين أبو حيان في البحر المحيط ٥/ ٥٢٠. وينظر القراءات الشاذة ص٧٣، والمحتسب ٢/ ١١.

(٣) تفسير الرازي ٢٠/ ٨٨، والوسيط ٣/ ٧٥.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤١١، وزاد المسير ٤/ ٤٧٤.

(٥) في معاني القرآن له ٣/ ٢١٤، ونقله المصنف عنه بواسطة تفسير أبي الليث السمرقندي ٢/ ٢٤٤.

ما هي عليه من البعدِ من الأرض. وقيل: هو تمثيلُ للقربِ؛ كما يقول القائل: ما السَّنةُ إلا لحظةٌ، وشبهِه. وقيل: المعنى: هو عندَ الله كذلك لا عندَ المخلوقين؛ دليلُه قولُه: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦-٧].

﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ ليس «أو» للشكِّ بل، للتمثيلِ بأَيِّهما أراد الممثِّل[1]. وقيل: دخلتْ لشكِّ المخاطب. وقيل: «أو» بمنزلة بل[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ ذكر أنَّ من نعمه أنْ أخرجكم من بطون أمَّهاتكم أطفالاً لا عِلْمَ لكم بشيء. وفيه ثلاثة أقاويل:

أحدها: لا تعلمون شيئاً مما أُخِذ عليكم من الميثاق في أصلاب آبائكم.

الثاني: لا تعلمون شيئاً مما قضى عليكم من السعادة والشقاء[3].

الثالث: لا تعلمون شيئاً من منافعكم. وتَمَّ الكلام، ثمَّ ابتدأ فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ﴾ أي: التي تعلمون بها وتدركون؛ لأنَّ الله جعل[4] ذلك لعباده قبل إخراجهم من البطون، وإنَّما أعطاهم ذلك بعد ما أخرجهم[5]، أي: وجعل لكم السمْعَ لتسمَعوا به الأمر والنهي، والأبصارَ لتبصروا بها آثارَ صُنعه، والأفئدةَ لِتَصِلُوا بها إلى معرفته.

---

(١) في (ظ): المثل.

(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ٢٤٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٤١١.

(٣) في (د) و(ظ): الشقاوة.

(٤) في (ز) و(ف): لا أنَّ الله جعل، وفي (ظ): لا أن جعل ذلك، والمثبت من (د) و(م)، وهو الصواب.

(٥) تفسير الطبري ١٤/ ٣١٥، ومعنى قوله: وإنما أعطاهم ذلك...، أي: أعطاهم العلم والعقل بعدما أخرجهم من بطون أمهاتهم، وينظر تفسير البغوي ٣/ ٧٩.

والأفئدةُ: جمع الفؤاد؛ نحو غُراب وأغربة[١].

وقد قيل: في ضمن قوله: «وجعل لَكُمُ السَّمْعَ»: إثبات النطق؛ لأنَّ من لم يسمع لم يتكلَّم، وإذا وُجِدت حاسَّة السمع وُجِد النطق.

وقرأ الأعمش وابن وَثَّاب وحمزة: «إِمِّهاتكم» هنا وفي النُّور والزُّمَر والنَّجم[٢]، بكسر الهمزة والميم. وأمَّا الكسائي فكسرَ الهمزة وفتح الميم؛ وإنَّما كان هذا للإتباع. الباقون بضمِّ الهمزة وفتح الميم على الأصل[٣].

وأصل الأُمَّهات: أُمَّات، فزيدت الهاء تأكيداً، كما زادوا هاءً في أهرقتُ الماء؛ وأصله: أرقت[٤]. وقد تقدَّم هذا المعنى في«الفاتحة»[٥].

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فيه تأويلان: أحدهما: تشكرون نعمَه. الثاني: يعني تبصرون آثارَ[٦] صَنْعته؛ لأنَّ إبصارَها يؤدي إلى الشكر.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ قرأ يحيى بن وَثّاب والأعمشُ وابن عامر وحمزة ويعقوب: «تروا» بالتَّاء على الخطاب، واختاره أبو عبيد. الباقون: بالياء؛ على الخبر[٧].

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢١٤ .

(٢) الآية (٦١) من سورة النور. والآية (٦) من سورة الزمر، والآية (٣٢) من سورة النجم.

(٣) السبعة ص٢٢٨ ، والتيسير ص٩٤ ، غير أن قراءتي حمزة والكسائي المذكورتين هما في حالة الوصل؛ لإتباع الكسرة الكسرة. وأما قراءة الأعمش؛ فهي بحذف الهمزة مع كسر الميم المشددة كما قيدها ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٤١١ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢١٤ .

(٥) ١/ ١٧٣ ، وينظر ٦/ ١٧٧ .

(٦) في (ظ): آيات.

(٧) القراءة عن ابن عامر وحمزة في التيسير ص١٣٨ ، وعن يعقوب في النشر ٢/ ٣٠٤ ، ونسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٤١١ إلى طلحة بن مصرف والأعمش وابن هرمز.

﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾: مُذَلَّلاتٍ لأمر الله تعالى؛ قاله الكلبي. وقيل: «مسخراتٍ»: مُذَلَّلاتٍ لمنافعكم.

﴿فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ الجوُّ: ما بين السماء والأرض، وأضاف الجَوَّ إلى السماء؛ لارتفاعه عن الأرض. وفي قوله: «مسخراتٍ» دليلٌ على مُسَخِّرٍ سَخَّرها، ومُدَبِّرٍ مَكَّنها من التصرُّف.

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ في حال القبض والبسط والاصطفاف، بيَّن لهم كيف يعتبرون بها على وحدانيته. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ أي: علاماتٍ وعِبراً ودلالات. ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله وبما جاءت به رسلُهم.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾

فيه عشر مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿جَعَلَ﴾ معناه: صيَّر. وكلُّ ما علاك فأظلَّك؛ فهو سقف وسماء، وكلُّ ما أَقَلَّك فهو أرض، وكلُّ ما ستَرَك من جهاتك الأربع فهو جدار؛ فإذا انتظمتْ واتصلت فهو بيت(١). وهذه الآيةُ فيها تعديدُ نِعَمِ الله تعالى على النَّاس في البيوت، فذكر أولاً بيوتَ المدن، وهي التي للإقامة الطويلة(٢).

وقوله: ﴿سَكَنًا﴾ أي: تسكنون فيها، وتهدأُ جوارحُكم من الحركة، وقد تتحرك فيه وتسكن في غيره؛ إلَّا أنَّ القولَ خُرِّج على الغالب، وعدَّ هذا في جملة النِّعم؛ فإنَّه لو شاء خلق العبد مضطرباً أبداً كالأفلاك، لكان ذلك كما خلق وأراد، ولو خلَقه ساكناً كالأرض، لكان كما خلَق وأراد، ولكنَّه أوجدَه خلقاً يتصرَّفُ للوجهين،

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥٥ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤١٢ .

ويختلفُ حاله بين الحالتين، وردَّده كيف وأين.

والسَّكَنُ مصدرٌ يوصفُ به الواحد والجمع.

ثم ذكرَ تعالى بيوتَ النُّقلة والرِّحلة[1] وهي:

الثانية: فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ أي: من الأنطاع والأدَم[2]. ﴿بُيُوتًا﴾ يعني الخيام والقِباب يَخِفُّ عليكم حَمْلُها في الأسفار[3].

﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ الظَّعْن: سير البادية في الانتجاع[4] والتحوُّل من موضعٍ إلى موضع[5]؛ ومنه قول عنترة[6]:

ظعنَ الذين فراقَهم أتوقَّعُ ... وجرى ببينهم الغرابُ الأبقعُ

والظعن: الهودج أيضاً[7]؛ قال:

ألا هل هاجَك الأظعانُ إذْ بانوا ... وإذْ جادَت بوشكِ البَيْنِ غِرْبانُ[8]

وقُرِئ بإسكان العين وفتحها[9] كالشَّعْر والشَّعَر.

وقيل: يحتمل أن يعمَّ به[10] بيوت الأدَم وبيوت الشعر وبيوت الصوف؛ لأنَّ هذه

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤١٢، وذكر الألوسي في روح المعاني ١٤/ ٢٠٥ أن «سكن» بمعنى مسكون وأنه ليس بمصدر كما ذهب إليه ابن عطية، والنُّقْلة: الاسم من الانتقال من موضع إلى موضع.

(٢) الأنطاع جمع نِطع، وهو بساط من أديم، والأدَم جمع أديم، وهو الجلد.

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ٧٦، وتفسير البغوي ٣/ ٧٩.

(٤) أي: طلب الكلأ في موضعه.

(٥) مجمع البيان ١٤/ ١٠٨.

(٦) ديوانه ص٤٨.

(٧) الذي في المعاجم: الظعينة: الهودج، تهذيب اللغة ٢/ ٣٠٠، والصحاح ولسان العرب (ظعن).

(٨) ذكره ابن رشيق في العمدة ٢/ ٣٠٣. بلفظ: وإذ صاحت بشطِّ البين. بدل: وإذ جادت بوشك البين.

(٩) قرأ بإسكان العين: عاصم وحمزة والكسائي وابن عامر، وبفتحها نافع، وابن كثير، وأبو عمرو. السبعة ص٣٧٥، والتيسير ص١٣٨.

(١٠) في (د): يحتمل أنهم بيوت، وفي (م): يحتمل أن يعم بيوت، وفي (ظ): يحتمل أن تعم به بيوت، والمثبت من (ز) و(ف)، وهو الموافق للمحرر الوجيز ٣/ ٤١٢، والكلام منه.

من الجلود؛ لكونها نابتةً[١] فيها؛ نحا إلى ذلك ابن سَلام. وهو احتمالٌ حسن، ويكون قوله «ومِنْ أَصْوَافِهَا» ابتداءُ كلام[٢]، كأنَّه قال: جعل أثاثاً؛ يريد الملابسَ والوطاء، وغير ذلك؛ قال الشاعر:

أهاجتْكَ الظعائنُ يوم بانوا بذي الزِّيِّ الجميل من الأثاثِ[٣]

ويحتمل أنْ يريد بقوله: «من جلود الأنعام» بيوتَ الأَدَم فقط كما قدمناه أولاً. ويكون قوله: «ومن أصوافها» عطفاً على قوله: «من جلود الأنعام»؛ أي: جعل بيوتاً أيضاً.

قال ابن العربي[٤]: وهذا أمرٌ انتشر في تلك الديار، وعَزَبت[٥] عنه بلادُنا، فلا تُضرب الأخبِيَة عندنا إلَّا من الكَتَّان والصُّوف، وقد كان للنبيِّ ﷺ قُبَّةٌ من أَدَم[٦]، وناهيك من أَدَم الطائف غلاءً في القيمة[٧]، واعتلاءً في الصِّفة[٨]، وحُسناً في البشَرة، ولم يَعُدَّ ذلك ﷺ تَرَفاً، ولا رآه سَرَفاً؛ لأنه مما امتنَّ الله سبحانه من نعمته، وأذنَ فيه من متاعه، وظهرت وجوهُ منفعته في الاكتنان والاستظلال الذي لا يقدِر على الخروج عنه جنسُ الإنسان.

---

(١) في النسخ: ثابتة، والمثبت من المحرر الوجيز ٣/ ٤١٢، والكلام منه.

(٢) في المحرر الوجيز: عطف على قوله: «من جلود الأنعام»، وسيذكر المصنف هذا الإعراب عندما يفسر جلود الأنعام ببيوت الأدم فقط، وينظر الدر المصون ٧/ ٢٧٣ - ٢٧٤.

(٣) البيت لمحمد بن نمير الثقفي كما في مجاز القرآن ١/ ٣٦٥، والكامل ٢/ ٧٨٦، والأغاني ٦/ ١٩٦، وهو في المجاز بلفظ: بذي الرئي. وذكر هذه الرواية الطبري في تفسيره ١٤/ ٣١٨. والرئي: المظهر. اللسان (رأي).

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١١٥٥.

(٥) في (د) و(ز) و(ف) وأحكام القرآن: وعربت، والمثبت من (م) و(ظ) ونسخة كما في حاشية أحكام القرآن.

(٦) أخرج البخاري (٣١٧٦) عن عوف بن مالك قال: أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك، وهو في قبة من أدم فقال: اعدد ستاً... الحديث.

(٧) قوله: في القيمة، من (م) وأحكام القرآن.

(٨) في (م): الصنعة. والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لأحكام القرآن.

ومن غريب ما جرى أنِّي زُرت بعض المتزهِّدين من الغافلين مع بعض المحدِّثين، فدخلنا عليه في خباء كَتَّان، فعرضَ عليه صاحبي المحدِّثُ أنْ يحملَه إلى منزله ضيفاً، وقال: إنَّ هذا موضعٌ يكثر فيه الحَرُّ، والبيتُ أرفق بك، وأطيب لنفسي فيك؛ فقال: هذا الخِباءُ لَنَا كثير، وكان في صنعنا[1] من الحقير؛ فقلت: ليس كما زعمت! فقد كان لرسول الله ﷺ - وهو رئيسُ الزُّهاد - قُبَّةٌ من أَدَمٍ طائفيٍّ، يسافرُ معها، ويستظلُّ بها؛ فبُهت، ورأيتُه على منزلة من العِيِّ، فتركته مع صاحبي وخرجت عنه[2].

الثالثة[3]: قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ﴾ أَذِن اللهُ سبحانه بالانتفاع بصوف الغنم ووَبَر الإبل وشعر المعز، كما أَذِن في الأعظم، وهو ذبحُها وأكلُ لحومها[4]، ولم يذكر القطن والكَتّان؛ لأنَّه لم يكن في بلاد العرب المخاطبين به، وإنَّما عدَّد عليهم ما أنعم به عليهم، وخوطبوا فيما عَرفوا بما فهموا. وما قام مقامَ هذه، ونابَ منابها؛ فيدخلُ في الاستعمال والنعمة مدخلَها؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ [النور:٤٣]، فخاطبهم بالبَرَد لأنَّهم كانوا يعرفون نزولَه كثيراً عندهم، وسكتَ عن ذكر الثلج؛ لأنَّه لم يكن في بلادهم، وهو مثلُه في الصِّفة والمنفعة، وقد ذكرهما النبيُّ ﷺ معاً في التطهير فقال: «اللَّهُمَّ اغسلني بماءٍ وثلجٍ وبَرَد»[5].

قال ابن عباس: الثلجُ: شيءٌ أبيضُ ينزل من السماء، وما رأيته قَطُّ.

وقيل: إنَّ تَرْكَ ذكر القُطن والكَتَّان؛ إنَّما كان إعراضاً عن السَّرَف[6]؛ إذْ مَلْبس

(١) في (د): صنفنا، وفي أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥٦ : صنفها. والمثبت من (ز) و(ظ) و(ف) و(م).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥٥ - ١١٥٦ .

(٣) في (ز): الرابعة.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥٦ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥٨ ، وسلف الحديث بنحوه ١/ ١٨٠ ، وهو في الصحيحين.

(٦) في (م): الترف.

عباد الله الصالحين إنَّما هو الصُّوف. وهذا فيه نظر، فإنَّه سبحانه يقول: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ﴾ [الأعراف:٢٦] حسبما تقدَّم بيانه في «الأعراف»[١]. وقال هنا: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾، فأشارَ إلى القطن والكَتَّان في لفظة «سرابيل». والله أعلم[٢].

و﴿أَثَٰثًا﴾ قال الخليل: متاعاً منضماً بعضُه إلى بعض؛ من أَثَّ: إذا كثر[٣]. قال:

وفَـرْعٍ يَـزِيـنُ الـمَـتْـنَ أسـودَ فـاحـمٍ أثـيـثٍ كقِـنْـوِ الـنخلـةِ الـمُـتَـعَـثْـكِـلِ[٤]

ابن عباس: «أَثَاثاً»: ثياباً. وقد تقدَّم[٥].

وتضمَّنت هذه الآيةُ جوازَ الانتفاع بالأصواف والأوبار والأشعار على كلِّ حال، ولذلك قال أصحابنا: صوفُ الميتة وشعرُها طاهرٌ يجوز الانتفاعُ به على كلِّ حال، ويُغسَل مخافةَ أنْ يكون عَلِق به وَسَخٌ، وكذلك روت أمُّ سلمة عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «لا بأس بمَسْكِ[٦] الميتة إذا دُبغ، وصوفِها وشعرِها إذا غُسل»[٧]؛ لأنَّه مما لا يَحُلُّه الموت، وسواء كان شعرَ ما يؤكل لحمه أو لا، كشعر ابنِ آدم والخنزير، فإنَّه طاهرٌ كلُّه؛ وبه قال أبو حنيفة[٨]، ولكنَّه زاد علينا فقال: القَرْن والسِّنُّ والعظم مثلُ الشعر؛

---

(١) ٩/ ١٨٦ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤١٢ .

(٣) ينظر مجمل اللغة ١/ ٧٨ ، وتفسير الطبري ١٤/ ٣١٨ ، وزاد المسير ٤/ ٤٧٧ ، وتفسير الرازي ٢٠/ ٩٢ .

(٤) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٦ بلفظ: يُغَشِّي المتن. قال شارحه: الفرع: الشعر الطويل. والفاحم: شديد السواد كالفحم. والأثيث: الكثير النبات. والقنو: العذق. والمتعثكل: المتداخل لكثرته.

(٥) أورده الواحدي في الوسيط ٣/ ٧٦ بنحوه. وسيرد قولٌ ثان لابن عباس في المسألة العاشرة. والقول أن الأثاث بمعنى الثياب. سلف في المسألة الثانية.

(٦) في (د) و(م): بجلد، والمثبت من (ز) و(ظ) و(ف) وهما بمعنى.

(٧) سلف ٣/ ٢٧ ، وينظر أحكام القرآن للجصاص ١/ ١٢١ ، والأوسط ٢/ ٢٧٢ - ٢٧٣ ، والمنتقى للباجي ٣/ ١٣٧ .

(٨) ينظر الأوسط لابن المنذر ٢/ ٢٨٠ ، والمبسوط ١/ ٢٠٢ - ٢٠٤ .

قال: لأنَّ هذه الأشياءَ كلَّها لا روح فيها، فلا تَنْجس بموت الحيوان. وقال الحسن البَصْرِيُّ والليثُ بنُ سعد والأوزاعِيُّ: إنَّ الشعور كلَّها نجسةٌ، ولكنها تَطهر بالغسل. وعن الشافعي ثلاثُ روايات: الأولى: طاهرةٌ لا تنجس بالموت. الثانية: تنجس. الثالثة: الفرق بين شعر ابنِ آدم وغيره، فشعرُ ابنِ آدم طاهر، وما عداه نجس(١).

ودليلنا عموم قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ الآية. فمَنَّ علينا بأنْ جعل لنا الانتفاعَ بها، ولم يخصَّ شعر الميتة من المُذَكَّاة، فهو عموم إلَّا أنْ يمنع منه دليل. وأيضاً فإنَّ الأصلَ كونُها طاهرةً قبل الموت بإجماع، فمن زعم أنَّه انتقل إلى نجاسة، فعليه الدليل.

فإنْ قيل قوله(٢): ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة:٣]، وذلك عبارةٌ عن الجملة.

قلنا: نخصُّه(٣) بما ذكرنا؛ فإنَّه منصوصٌ عليه في ذكر الصوف، وليس في آيتكم ذكره صريحاً، فكان دليلنا أَوْلى. والله أعلم(٤).

وقد عوَّل الشيخُ الإمام أبو إسحاق إمامُ الشافعية ببغداد على أنَّ الشعرَ جزءٌ متصلٌ بالحيوان خِلْقة، فهو يَنْمِي بنمائه، ويتنجَّس بموته كسائر الأجزاء.

وأُجيبَ بأنَّ النَّماء ليس بدليلٍ على الحياة؛ لأنَّ النباتَ ينمِي، وليس بحَيٍّ. وإذا عوَّلوا على النماء المتصلِ لِمَا على الحيوان؛ عوَّلنا نحن على الإبانة التي تدلُّ على عدم الإحساس الذي يدلُّ على عدم الحياة(٥).

وأما ما ذكره الحنفيُّون في العظم والسنِّ والقَرْن أنَّه مثل الشعر، فالمشهور عندنا أنَّ ذلك نجس كاللحم. وقال ابنُ وهب مثلَ قول أبي حنيفة.

---

(١) المفهم ٤/ ٤٦٢، وينظر المجموع ١/ ٢٨٩ - ٢٩١.
(٢) لفظة: قوله. من (م).
(٣) في (د) و(ز): خصه.
(٤) ينظر أحكام القرآن للجصاص ١/ ١٢١. والمنتقى للباجي ١/ ١٣٧.
(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥٨.

ولنا قول ثالث: هل تُلْحق أطراف القرون والأظلاف بأصولها أو بالشعر؟ قولان. وكذلك الشَّعرِيُّ من الريش؛ حكمُه حكم الشعر، والعظمِيُّ منه حكمه حكمه(١).

ودليلنا قوله ﷺ: «لا تنتفعوا من الميتة بشيء»(٢). وهذا عامٌّ فيها وفي كل جزءٍ منها، إلَّا ما قامَ دليلُه؛ ومن الدليل القاطع على ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨]، وقال: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ [البقرة:٢٥٩]، وقال: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون:١٤]، وقال: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ [النازعات:١١]، فالأصلُ هي العظام، والروح والحياة فيها كما في اللَّحم والجلد. وفي حديث عبد الله بن عُكَيم: «لا تنتفعوا من الميتة بإهابٍ ولا عَصَب»(٣).

فإن قيل: قد ثبت في الصحيح أنَّ النبيَّ ﷺ قال في شاة ميمونة: «ألا انتفعتم بجلدها؟»، فقالوا: يا رسول الله، إنها ميتةٌ؟! فقال: «إنما حَرُم أكلها»(٤). والعظم لا يؤكل.

قلنا: العظمُ يؤكل، وخاصَّةً عظم الجمل الرضيع والجَدْي والطير، وعظمُ الكبير يُشوى ويؤكل. وما ذكرناه قبلُ يدُلُّ على وجود الحياة فيه، وما كان طاهراً بالحياة ويستباحُ بالذَّكاة؛ ينجس بالموت. والله أعلم.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ عامٌّ في جلد الحيِّ والميت، فيجوز

---

(١) ينظر المفهم ٤/ ٤٦٢ .

(٢) أخرجه بهذا اللفظ الطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ٤٦٨ ، وابن حبان في صحيحه (١٢٧٩)، والبيهقي في السنن الكبرى ١/ ٢٥ ، وهو أحد روايات حديث عبد الله بن عُكيم الذي سيذكره المصنف بعده.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (١٨٧٨٠)، وأبو داود (٤١٢٧)، والترمذي (١٧٢٩)، والنسائي ٧/ ١٧٥ ، وابن ماجه (٣٦١٣) وابن حبان (١٢٧٨). قال الترمذي: هذا حديث حسن. غير أن الحديث مضطرب كما ذكر ابن عبد البر في التمهيد ٤/ ١٦٤ ، والحازمي في الاعتبار ص٣٩ ، وعبد الله بن عُكيم لا يُعرف له سماع من النبي ﷺ كما في التاريخ الكبير للبخاري ٥/ ٣٩ .

(٤) أخرجه البخاري (١٤٩٢)، ومسلم (٣٦٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو عند أحمد (٢٣٦٩).

الانتفاعُ بجلود الميتة وإنْ لم تدبغ؛ وبه قال ابنُ شهاب الزهريُّ والليثُ بن سعد. قال الطحاويُّ[١]: لم نجد عن[٢] أحدٍ من الفقهاء جوازَ بيع جلد الميتة قبل الدباغ إلَّا عن الليث. قال أبو عمر[٣]: يعني من الفقهاء أئمة الفتوى بالأمصار بعد التابعين، وأمَّا ابن شهاب فذلك عنه صحيح، وهو قول أباه جمهورُ أهل العلم. وقد رُويَ عنهما خلافُ هذا القول، والأولُ أشهر.

قلت: قد ذكر الدَّارَقُطْنيُّ في «سننه» حديث يحيى بن أيوب عن يونس وعُقيل عن الزهريّ[٤]، وحديثَ بقية عن الزُّبيدي، وحديث محمد بن كثير العبديّ وأبي سلمة المِنْقَريّ عن سليمان بن كثير عن الزهريّ[٥]، وقال في آخرها: هذه أسانيد صحاح.

السادسة[٦]: اختلفَ العلماء في جلد الميتة إذا دُبغ هل يطهر أم لا؛ فذكر ابنُ عبد الحكم عن مالك ما يُشبه مذهب ابن شهاب في ذلك. وذكره ابن خُوَيْزِمَنْداد في كتابه عن ابن عبد الحكم أيضاً. قال ابن خُوَيْزِمَنْداد: وهو قول الزهريّ والليث. قال: والظاهر من مذهب مالك ما ذكره ابن عبد الحكم، وهو أنَّ الدِّباغَ لا يُطهِّر جلدَ الميتة، ولكنْ يُبيح الانتفاع به في الأشياء اليابسة، ولا يُصلَّى عليه ولا يؤكل فيه[٧].

وفي «المدوّنة»[٨] لابن القاسم: من اغتصب جلدَ ميتةٍ غيرَ مدبوغ فأتلفه؛ كان

---

(١) في مختصر اختلاف العلماء ١/ ١٦٠ - ١٦١ ، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عبد البر في التمهيد ٤/ ١٥٦ .

(٢) في (د) و(ز) و(ظ): عند، والمثبت من (ف) و(م) وهو الموافق للتمهيد.

(٣) في التمهيد ٤/ ١٥٦ .

(٤) سنن الدارقطني (٩٨)، وهو حديث ابن عباس في الصحيحين الذي ذكره المصنف آخر المسألة الثالثة عن شاة ميمونة.

(٥) سنن الدارقطني (١٠١) (١٠٢) بنحو ما قبله.

(٦) كذا في النسخ، ولم يرد فيها: الخامسة.

(٧) التمهيد ٤/ ١٥٦ - ١٥٧ .

(٨) ١٤/ ٣٦٦ . ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عبد البر في التمهيد ٤/ ١٥٧ .

عليه قيمته. وحكى أنَّ ذلك قول مالك. وذكر أبو الفرج أنَّ مالكاً قال: من اغتصبَ لرجلٍ جلدَ ميتةٍ غير مدبوغ؛ فلا شيء عليه. قال إسماعيل: إلَّا أنْ يكون لمجوسيّ[1]. وروى ابن وهب وابن عبد الحكم عن مالك جوازَ بيعه، وهذا في جلد كلِّ ميتةٍ إلّا الخنزيرَ وحده؛ لأنَّ الذَّكاة لا تعمل فيه، فالدِّباغُ أولى[2].

قال أبو عمر[3]: وكلُّ جلدٍ ذُكِّي؛ فجائزٌ استعماله للوضوء وغيره. وكان مالكٌ يكره الوضوء في إناء جلدِ الميتة بعد الدباغ على اختلاف من قوله، ومرَّةً قال: إنَّه لم يكرهه إلَّا في خاصَّة نفسه، ويَكره الصلاةَ عليه وبيعَه، وتابعه على ذلك جماعةٌ من أصحابه. وأمَّا أكثر المدنيين فعلى إباحة ذلك وإجازته؛ لقول رسول الله ﷺ: «أيُّما إهابٍ دبغ فقد طهر»[4]. وعلى هذا أكثرُ أهل الحجاز والعراق من أهل الفقه والحديث، وهو اختيارُ ابن وهب[5].

السابعة: ذهبَ الإمام أحمد بن حنبل ﷺ إلى أنَّه لا يجوز الانتفاع بجلود الميتة في شيءٍ وإنْ دُبغت؛ لأنَّها كلحم الميتة. والأخبارُ بالانتفاع بعد الدباغ تردُّ قولَه. واحتجَّ بحديث عبد الله بن عكيم - رواه أبو داود[6] - قال: قُرِئ علينا كتابُ رسول الله ﷺ بأرض جهينة، وأنا غلامٌ شابٌّ: «ألَّا تستمتعوا من الميتة بإهابٍ ولا عَصَب». وفي رواية: «قبلَ موته بشهر»[7].

رواه القاسم بن مخيمرة عن عبد الله بن عُكيم، قال: حدثنا مَشيخةٌ لنا أنَّ النبيَّ ﷺ

---

(١) التمهيد ٤/ ١٥٧ ، والاستذكار ١٥/ ٣٤١ وأبو الفرج هو عمرو بن محمد، وإسماعيل هو ابن إسحاق.

(٢) ينظر الاستذكار ١٥/ ٣٤٠ و ٣٤٩ ، وعقد الجواهر الثمينة لابن شاس ١/ ٣١ ، والمفهم ٤/ ٤٦٣ .

(٣) في الكافي ١/ ١٦٣ .

(٤) أخرجه أحمد (١٨٩٥)، ومسلم (٣٦٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وسلف ٣/ ٢٦ .

(٥) التمهيد ٤/ ١٧٢ ، والكافي ١/ ١٦٣ .

(٦) في سننه (٤١٢٧)، وسلف ص٣٩٧ من هذا الجزء.

(٧) سنن أبي داود (٤١٢٨).

كتبَ إليهم[١].

قال داود بنُ عليٍّ: سألتُ يحيى بنَ مَعين عن هذا الحديث فضعَّفه، وقال: ليس بشيء، إنَّما يقول: حدثني الأشياخ.

قال أبو عمر[٢]: ولو كان ثابتاً لاحتملَ أنْ يكون مخالفاً للأحاديث المروية عن ابن عباس، وعائشة، وسلمة بن المُحَبِّق، وغيرهم[٣]، لأنَّه جائزٌ أنْ يكون معنى حديث ابن عُكيم أنْ لا تنتفعوا من الميتة بإهابٍ قبل الدباغ؛ وإذا احتملَ ألَّا يكون مخالفاً فليس لنا أن نجعلَه مخالفاً، وعلينا أنْ نستعمل الخبرين ما أمكن، وحديثُ عبد الله بن عكيم وإنْ كانَ قبلَ موت النبيِّ ﷺ بشهر كما جاء في الخبر؛ فيمكن أنْ تكونَ قصَّةُ ميمونة وسماعُ ابن عباس منه: «أيُّما إهابٍ دبغ فقد طهر» قبلَ موته بجمعةٍ، أو دون جمعة، والله أعلم[٤].

الثامنة: المشهورُ عندنا أنَّ جلدَ الخنزير لا يدخل في الحديث، ولا يتناوله العموم، وكذلك الكلب عند الشافعيِّ.

وعند الأوزاعي وأبي ثور: لا يطهر بالدِّباغ إلا جلد ما يؤكل لحمه[٥].

---

(١) هي إحدى روايات حديث عبد الله بن عُكيم السالف، وقد أخرج هذه الرواية الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٢٤١)، وابن حبان (١٢٧٩)، وذكره المصنف آخر المسألة الثالثة، ونقلنا ثمة عن ابن عبد البر أنه حديث مضطرب.

(٢) في التمهيد ٤/ ١٦٤ - ١٦٥ وما قبله منه.

(٣) حديث ابن عباس هوفي شاة ميمونة، وسلف آخر المسألة الثالثة، وهو في الصحيحين، وحديث عائشة أخرجه أبو داود (٤١٢٤) والنسائي في المجتبى ٧/ ١٧٤ ، والكبرى (٤٥٥٦)، وابن ماجه (٣٦١٢) ولفظه عند النسائي: سئل النبي ﷺ عن جلود الميتة فقال: «دباغها طهورها». وحديث سلمة بن المحبق أخرجه أبو داود (٤١٢٥)، والنسائي في المجتبى ٧/ ١٧٣ ، والكبرى (٤٥٥٥) ولفظه عند أبي داود أن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أتى على بيت فإذا قربةٌ معلقةٌ، فسأل الماء، فقالوا: يا رسول الله إنها ميتة فقال: «دباغها طهورها». وسلمة بن المحبِّق يكنى أبا سنان، له رواية، وسكن البصرة. الإصابة ٤/ ٢٣٥ .

(٤) التمهيد ٤/ ١٦٤ - ١٦٥ ، والاستذكار ١٥/ ٣٤٦ .

(٥) التمهيد ٤/ ١٧٦ . وينظر المفهم ٤/ ٤٦٣ ، ومختصر اختلاف العلماء للطحاوي ١/ ١٦١ .

وروى مَعْن بن عيسى عن مالك أنَّه سُئل عن جلد الخنزير إذا دبغ، فكرهه. قال ابن وَضَّاح: وسمعت سُحْنُوناً يقول: لا بأس به؛ وكذلك قال محمد بن عبد الحكم وداود بن عليّ وأصحابه؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «أيُّما مَسْكٍ دُبغ؛ فقد طهر»(١).

قال أبو عمر(٢): يَحتمل أنْ يكون أراد بهذا القول عمومَ الجلود المعهود الانتفاعُ بها، فأمَّا الخنزير فلم يدخل في المعنى؛ لأنَّه غير معهود الانتفاع بجلده، إذ لا تعمل فيه الذَّكاة. ودليلٌ آخر: وهو ما قاله النَّضْر بن شُمَيل: إنَّ الإهابَ جلدُ البقر والغنم والإبل، وما عداه فإنَّما يُقال له: جلدٌ، لا إهابٌ.

قلت: وجلدُ الكلب وما لا يؤكل لحمه أيضاً غيرُ معهود الانتفاع به فلا يطهر؛ وقد قال ﷺ: «أكْلُ كلِّ ذي نابٍ من السِّباع حرامٌ»(٣) فليست الذَّكاةُ فيها ذكاةً، كما أنَّها ليست في الخنزير ذكاة. وروى النَّسائيُّ عن المقدامِ بنِ معدِ يكرب قال: نهى رسولُ الله ﷺ عن الحرير والذَّهب ومَيَاثر النمور(٤).

التاسعة: اختلف الفقهاء في الدباغ التي تطهر به جلودُ الميتة ما هو؟ فقال أصحاب مالك ـ وهو المشهور من مذهبه ـ: كلُّ شيء دَبَغَ الجلدَ من ملح، أو قَرَظ، أو شَبٍّ، أو غير ذلك؛ فقد جاز الانتفاع به. وكذلك قال أبو حنيفة وأصحابه، وهو قول داود(٥).

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ عن ابن عباس الطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ٤٧٠، وابن عبد البر في التمهيد ٤/ ١٧٨. وسلف تخريجه ٣/ ٢٦ بلفظ: أيما إهاب، والكلام السابق في الاستذكار ١٥/ ٣٤٧ - ٣٤٨.

(٢) في التمهيد ٤/ ١٧٨.

(٣) أخرجه مسلم (١٩٣٣) عن أبي هريرة، وسلف ٧/ ٢٥١.

(٤) سنن النسائي الكبرى (٤٥٦٦)، والمجتبى ٧/ ١٧٦. والمياثر جمع مِيْثَرة: وهو السرج. المصباح المنير (وثر).

(٥) الاستذكار ١٥/ ٣٤٩، وينظر المبسوط ١/ ٢٠٢، والقَرَظ: وَرَق السَّلَم يُدبغ به الأديم. المصباح المنير (قرظ). والشَّبُّ: حجارة الزَّاج. القاموس (شبب)، وينظر المغرب للمطرزي ص٤٣٢، والمصباح المنير (شبب).

وللشافعيّ في هذه المسألة قولان؛ أحدهما: هذا، والآخر: أنه لا يُطَهِّر إلا الشَّبُّ والقَرَظ؛ لأنَّه الدباغ المعهود على عهد النبيّ ﷺ، وعليه خرج الخطاب[1]، والله أعلم.

النَّسائيّ: عن ميمونة زوجِ النبيِّ ﷺ أنَّه مرَّ برسول الله ﷺ رجالٌ من قريش يجرُّون شاةً لهم مثلَ الحصان؛ فقال لهم رسول الله ﷺ: «لو أخذتم إهابها». قالوا: إنَّها ميتة. فقال رسول الله ﷺ: «يُطهِّرها الماءُ والقَرَظ»[2].

العاشرة: قوله تعالى: ﴿أَثَٰثًا﴾؛ الأثاثُ: متاع البيت، واحدها أَثَاثة؛ هذا قول أبي زيد الأنصاري[3].

وقال الأمويُّ: الأثاث: متاع البيت، وجمعه أَثَّة وأُثُث[4].

وقال غيرهما: الأثاثُ: جميع أنواع المال، ولا واحدَ له من لفظه[5].

وقال الخليل: أصلُه من الكثرة واجتماع بعض المتاع إلى بعضٍ حتى يكثر، ومنه: شعر أَثِيث، أي: كثير. وأَثَّ شعرُ فلانٍ يَئِثُّ أَثًّا: إذا كثُر والتفَّ[6]؛ قال امرؤ القيس[7]:

---

(١) في (د) و(م): خرّج الخطابي ـ والله أعلم ـ ما رواه النسائي...، والمثبت من (ظ) و(ف). وهو الموافق لما في التمهيد ٤/ ١٨٣ - ١٨٤ ، والاستذكار ١٥/ ٣٤٩ - ٣٥٠ ، والكلام منه

(٢) المجتبى ٧/ ١٧٤ - ١٧٥ ، والكبرى (٤٥٦٠)، وأخرجه أحمد (٢٦٨٣٣)، وأبو داود (٤١٢٦).

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤١٢ . وذكر الطبري في تفسيره ١٤/ ٣١٨ أن الأثاث مثل المتاع؛ لم يسمع له بواحد، وقال: حُكي عن بعض النحويين أنه كان يقول: واحد الأثاث أثاثة، ولم أر أهل العلم بكلام العرب يعرفون ذلك.

(٤) ينظر تهذيب اللغة ١٥/ ١٦٦ ، وتفسير الرازي ٢٠/ ٩٢ .

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤١٢ .

(٦) تفسير الطبري ١٤/ ٣١ ، وينظر زاد المسير ٤/ ٤٧٧ .

(٧) في ديوانه ص١٦ ، وسلف البيت ص٣٩٥ من هذا الجزء.

وفَرْعٍ يَزِينُ المتنَ أسودَ فاحمٍ أثيثٍ كقِنْوِ النّخلةِ المُتَعَثْكِلِ

وقيل: الأثاثُ: ما يلبس ويفترش[١]. وقد تأثَّثت: إذا اتخذت أثاثاً. وعن ابن عباس ﷺ: «أثاثاً»: مالاً[٢].

وقد تقدَّم القول في الحين[٣]، وهو هنا وقتٌ غير معيَّن بحسَب كلِّ إنسان، إمَّا بموته، وإمَّا بفقد تلك الأشياء التي هي أثاث. ومن هذه اللفظة قول الشاعر:

أهاجَتْكَ الظعائنُ يومَ بانُوا بذي الزِّيِّ الجميلِ من الأثاث[٤]

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾

فيه ستُّ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ظِلَالًا﴾ الظِّلال: كلُّ ما يُستظَلُّ به من البيوت والشجر. وقوله: ﴿مِّمَّا خَلَقَ﴾ يعمُّ جميعَ الأشخاص المظِلَّة[٥].

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَكْنَانًا﴾ الأكنان: جمع كِنٍّ، وهو الحافظ من المطر والريح وغير ذلك[٦]؛ وهي هنا الغيران في الجبال[٧]، جعلها الله عدَّةً للخلق يأوون إليها، ويتحصَّنون بها، ويعتزلون عن الخَلْق فيها. وفي «الصحيح»[٨] أنّه عليه الصلاة

---

(١) غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٤٦ .

(٢) أخرجه الطبري ١٤/ ٣١٩ .

(٣) ١/ ٤٧٧ - ٤٧٨ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤١٢ ، والبيت لمحمد بن نمير الثقفي وسلف ص٣٩٣ من هذا الجزء.

(٥) ينظر زاد المسير ٤/ ٤٧٧ .

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤١٢ .

(٧) تفسير الطبري ١٤/ ٣٢١ وعزاه إلى قتادة. والغيران جمع الغار. القاموس (غور).

(٨) صحيح البخاري (٣)، وصحيح مسلم (١٦٠)، وهو عند أحمد (٢٥٩٥٩) عن عائشة رضي الله عنها، والكلام في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥٨ - ١١٥٩ .

والسلام كان في أولِ أمره يتعبَّد بغار حِرَاء ويمكثُ فيه الليالي... الحديث.

وفي «صحيح البخاريّ»[١] قال: خرجَ رسول الله ﷺ من مكَّة مهاجراً هارباً من قومه؛ فارًّا بدينه مع صاحبه أبي بكر حتى لحقا بغارٍ في جبل ثَوْر، فكمَنَا[٢] فيه ثلاثَ ليال يبيت عندهما فيه عبدُ الله بنُ أبي بكر، وهو غلام شابٌّ ثَقِف لَقِن[٣]، فيَدَّلجُ من عندهما بسحَرٍ، فيصبحُ مع قريشٍ بمكة[٤] كبائت؛ فلا يسمع أمراً يُكادان به إلا وَعاه حتى يأتيَهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فُهَيْرة مولى أبي بكرٍ مِنْحَةً من غنمٍ، فيُرِيْحها عليهما حين[٥] تذهب ساعةٌ من العشاء فيَبِيتان في رِسْل - وهو لبنُ مِنحتهما ورَضِيفُهما[٦] - حتى يَنْعِق بهما عامرُ بنُ فُهَيْرة بغَلَس[٧]، يفعل ذلك في كلِّ ليلةٍ من تلك الليالي الثلاث... وذكر الحديث. انفردَ بإخراجه البخاري.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ يعني: القُمُص، واحدها سِربال[٨]. ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ يعني: الدروعَ التي تقي النَّاس في

---

(١) برقم (٣٩٠٥).

(٢) في (ز) و(ظ): فمكث، وفي (د) و(ف): فمكثا. والمثبت من (م)، وهو موافق لما في صحيح البخاري.

(٣) قوله: ثَقِف، بفتح المثلثة وكسر القاف، ويجوز إسكانها وفتحها، وبعدها فاء، أي: الحاذق، تقول: ثقفت الشيء: إذا أقمت عِوَجَه، وقوله: لَقِن، بفتح اللام وكسر القاف بعدها نون، أي: السريع الفهم. فتح الباري ٧/ ٢٣٧ . ووقع في (ظ): لَقِف، بدل: لَقِن. ومعناه: خفيف حاذق، يقال: فلان ثَقِفٌ لَقِف. القاموس (لقف).

(٤) لفظة: بمكة. من (م) وصحيح البخاري.

(٥) في (د) و(ز) و(ظ): حتى، والمثبت من (ف) و(م) وهو الموافق لصحيح البخاري.

(٦) لفظة: ورضيفهما. من (م) وصحيح البخاري. والرَّضيف؛ هو اللبن المرضوف، أي: التي وُضعت فيه الحجارة المحماة بالشمس أو النار لينعقد وتزول رخاوته. فتح الباري ٧/ ٢٣٧ .

(٧) قوله: ينعق بهما، بالتثنية، هي لأبي ذر، أحد رواة صحيح البخاري، أي: يُسمعهما صوته إذا زجر غنمه. ورواية الآخرين: ينعق بها، أي: يصيح بغنمه، والنعيق صوت الراعي إذا زجر الغنم. فتح الباري. وقوله: الغَلَس، أي: ظلمة آخر الليل.

(٨) الوسيط للواحدي ٣/ ٧٦ .

الحرب، ومنه قول كعب بنِ زهير:

شُمُّ العرانِينِ أبطالٌ لَبُوسُهمُ ... من نَسْجِ داودَ في الهَيْجَا سَرابِيلُ[(١)]

الرابعة: إنْ قال قائل: كيف قال ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ ولم يذكر السهل، وقال: ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ ولم يذكر البَرْد؟ فالجواب أنَّ القومَ كانوا أصحابَ جبال، ولم يكونوا أصحاب سهل، وكانوا أهلَ حَرٍّ، ولم يكونوا أهل بَرْد، فذكر لهم نعمه التي تختصُّ بهم[(٢)]؛ كما خصَّهم بذكر الصوف وغيره، ولم يذكر القطن والكتّان ولا الثلج؛ كما تقدم[(٣)]، فإنَّه لم يكن ببلادهم؛ قال معناه عطاء الخراسانيُّ[(٤)] وغيره. وأيضاً: فذِكرُ أحدهما يدلُّ على الآخر، ومنه قول الشاعر[(٥)]:

وما أدري إذا يَمَّمت أرضاً ... أُريدُ الخيرَ أيُّهما يَلِيني

أألخيرُ الذي أنا أبتغيهِ ... أمِ الشَّرُّ الذي هو يبتغيني

الخامسة: قال العلماء: في قوله تعالى: ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ دليلٌ على اتخاذ العباد عُدَّة الجهاد ليستعينوا بها على قتال الأعداء، وقد لبسَها النبيُّ ﷺ تُقاةَ الجراحة وإنْ كان يطلبُ الشهادة، وليس على العبد أنْ يطلبها بأنْ يستسلمَ للحتوف، وللطعن بالسِّنان، وللضرب بالسيوف، ولكنَّه يلبسُ لأْمةَ[(٦)] حربٍ؛ لتكون له قوّةً على قتال عدوِّه، ويقاتلُ لتكون كلمةُ الله هي العليا، ويفعلُ الله بعدُ ما يشاء.

---

(١) ديوان كعب ص٩١ . وشُمّ جمع أَشَم؛ وهو الذي في قصبة أنفه علوٌ مع استواء أعلاه، والعرانين: جمع عرنين وهو الأنف. واللَّبوس بفتح اللام: اللباس. والمراد به هنا ما يلبس من السلاح والنسج المنسوج. شرح قصيدة بانت سعاد لابن هشام ص٨٥ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٠٦ .

(٣) ص٣٩٤ من هذا الجزء.

(٤) أخرجه الطبري ١٤/ ٣٢٣ - ٣٢٤ .

(٥) هو المثقب العبدي، والبيتان في ديوانه ص٢١٢ - ٢١٣ . وينظر المحرر الوجيز ٣/ ٤١٣ . وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥٩ .

(٦) اللأْمَة: الدرع. المصباح المنير (لوم).

السادسة: قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ قرأ ابن مُحَيْصِن وحميد: «تَتِمُّ» بتاءين، «نعمتُه»: رفعاً على أنَّها الفاعل[١]. الباقون: «يُتِمُّ» بضمِّ الياء؛ على أنَّ اللهَ هو يُتمُّها.

و«تُسْلِمون»؛ قراءةُ ابن عباس وعكرمة: «تَسْلَمون» بفتح التَّاء واللام، أي: تَسْلَمون من الجراح، وإسنادُه ضعيف؛ رواه عَبَّاد بن العوَّام، عن حنظلةَ، عن شَهْر، عن ابن عباس[٢]. الباقون: بضمِّ التاء، ومعناه: تستسلمون وتنقادون إلى معرفة الله وطاعته؛ شكراً على نعمه[٣].

قال أبو عبيد: والاختيارُ قراءة العامَّة؛ لأنَّ ما أنعمَ الله به علينا من الإسلام أفضلُ مما أنعم به من السلامة من الجراح.

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن النظر والاستدلال والإيمان. ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ أي: ليس عليك إلَّا التبليغ، وأمَّا الهداية فإلينا.

قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ قال السُّدِّيُّ: يعني: محمداً ﷺ، أي: يعرفون نبوَّته ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ ويُكذِّبونه. وقال مجاهد: يريدُ ما عدَّد اللهُ عليهم في هذه السورة من النِّعم، أي: يعرفون أنَّها من عند الله ويُنكِرونها بقولهم إنَّهم ورثوا ذلك عن آبائهم[٤]. وبمثله قال قتادة[٥].

---

(١) ذكرها النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٤٠٥، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٤١٣. ونسباها لابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٤/ ٣٢٢ من طريقين عن حنظلة، به. وحنظلة ـ وهو السدوسي ـ وشهر ـ وهو ابن حوشب ـ ضعيفان، وقد ردَّ الطبريُّ أيضاً هذه القراءة.

(٣) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥٩ - ١١٦٠.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٠٧، وأخرج قوليهما الطبري ١٤/ ٣٢٥ - ٣٢٦.

(٥) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٨٠.

وقال عَوْن بن عبد الله: هو قولُ الرجل: لولا فلانٌ لكان كذا، ولولا فلانٌ ما أصبتُ كذا، وهو يعرف أن[١] النفع والضرَّ من عند الله.

وقال الكَلْبِيُّ: هو أنَّ رسول الله ﷺ لمَّا عرَّفهم بهذه النِّعم كلِّها، عرفوها وقالوا: نَعم، هي كلُّها نِعَمٌ من الله، ولكنها بشفاعة آلهتنا[٢].

وقيل: يعرفونَ نعمة الله بتقلُّبهم فيها، وينكرونها بترك الشكر عليها. ويَحتمل سادساً: يعرفونها في الشدَّة، وينكرونها في الرخاء. ويَحتمل سابعاً: يعرفونها بأقوالهم، وينكرونها بأفعالهم[٣]. ويَحتمل ثامناً: يعرفونها بقلوبهم، ويجحدونها بألسنتهم؛ نظيرها: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤].

﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ يعني: جميعهم[٤]؛ حسبما تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ نظيره: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ وقد تقدَّم[٥] [النساء: ٤١].

﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: في الاعتذار والكلام، كقوله: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦]. وذلك حين تُطبق عليهم جهنَّم، كما تقدَّم في أوَّل «الحجر»، ويأتي.

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يعني: يُسترضون، أي: لا يُكلَّفون أنْ يُرضوا ربَّهم؛ لأنَّ

---

(١) في (د) و(م): وهم يعرفون، بدل: وهو يعرف أن، ومن هذا الموضع إلى آخر الكلام ليس من قول عون، وقد أخرجه الطبري ١٤/ ٣٢٦، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٢٠٧ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٨٠ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٠٧ .

(٤) زاد المسير ٤/ ٤٧٩ وعزاه إلى الحسن.

(٥) ٦/ ٣٢٥ .

الآخرة ليست بدار تكليف، ولا يُتركون إلى رجوع الدنيا فيتوبون[١].

وأصل الكلمة من العَتْب، وهي المَوْجِدة؛ يقال: عَتَب عليه يَعتُب: إذا وَجَدَ عليه، فإذا فاوضه ما عَتَب عليه فيه، قيل: عاتبه، فإذا رجع إلى مسرَّتك فقد أعتَب، والاسم: العُتبى، وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يُرضي العاتبَ؛ قاله الهرَوِيُّ[٢].
وقال النابغة:

فإنْ كنتُ مظلوماً فعبداً ظلمتَه ... وإن تكُ[٣] ذا عُتْبَى فمثلُكَ يُعْتِبُ[٤]

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝٨٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: أشركوا. ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ أي: عذاب جهنَّم بالدخول فيها. ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: لا يُمهلَون؛ إذْ لا توبةَ لهم ثَمَّ.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝٨٦ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝٨٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ﴾ أي: أصنامَهم وأوثانَهم التي عبدوها، وذلك أنَّ اللهَ يَبعث معبودِيهم فيتبعونَهم حتى يُورِدوهم النَّارَ. وفي «صحيح مسلم»: «من كان يَعبدُ شيئاً فَلْيَتَّبِعْه، فيتَّبع مَن كان يعبدُ الشمسَ الشمسَ، ويتَّبعُ مَن كان يعبدُ القمرَ القمرَ، ويتَّبعُ مَن كان يعبدُ الطواغيتَ الطواغيتَ». الحديث، خرَّجه مِن حديث أنس[٥]، والترمذيُّ مِن حديث أبي هريرة، وفيه: «فيُمَثَّل لصاحبِ الصليبِ

(١) تفسير البغوي ٣/ ٨٠.

(٢) نسبه الطبرسي للزجاج في مجمع البيان ١٤/ ١٠٩.

(٣) في (د) و(ز) و(م): كنت، والمثبت من (ظ) و(ف)، وهو الموافق لما في الديوان.

(٤) ديوان النابغة الذبياني ص١٨، وفيه: فإن أكُ مظلوماً فعبد ظلمته...

(٥) صحيح مسلم (١٨٢). وهو قطعة من حديث أبي هريرة، وليس من حديث أنس.

صليبُه، ولصاحبِ التصاويرِ تصاويرُه، ولصاحبِ النارِ نارُه، فيَتْبعون ما كانوا يعبدون» وذكر الحديث(١).

﴿قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ﴾ أي: الذين جعلناهم لك شركاءَ. ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: ألقت إليهم الآلهةُ القولَ، أي: نَطَقَتْ بتكذيبِ مَن عَبَدها؛ بأنَّها لم تكن آلهةً، ولا أمَرَتهم بعبادتِها، فيُنطق اللهُ الأصنامَ حتى تَظهر عند ذلك فضيحةُ الكفَّار. وقيل: المرادُ بذلك الملائكةُ الذين عبدوهم.

﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ يعني: المشركينَ، أي: استسلموا لعذابِه، وخضعوا لعزِّه. وقيل: استسلم العابدُ والمعبودُ، وانقادوا لحكمِه فيهم.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: زال عنهم ما زَيَّن لهم الشيطانُ، وما كانوا يؤمِّلون مِن شفاعةِ آلهتهم.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ قال ابنُ مسعود: عقارب أنيابُها كالنخل الطِّوال؛ وحيات مثلُ أعناق الإبل؛ وأفاعي كأنَّها البَخَاتِيّ تَضربُهم، فتلك الزيادةُ، وقيل: المعنى: يَخرجون مِن النَّارِ إلى الزَّمْهرير، فيبادرونَ مِن شدَّة بَرْدِه إلى النَّار. وقيل: المعنى: زِدْنا القادةَ عذاباً فوق السَّفِلة؛ فأَحَدُ العذابَيْن على كُفرهم، والعذابُ الآخَرُ على صدِّهم(٢).

﴿بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ في الدنيا مِن الكُفر والمعصية.

---

(١) سنن الترمذي (٢٥٥٧)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ٣٣٠ - ٣٣١ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٢١٦ ، والوسيط ٢/ ٢٤٦ ، وتفسير البغوي ٣/ ٨١ ، والزمخشري ٢/ ٤٢٤ .

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وهم الأنبياءُ، شهداءُ على أُمَمهم يومَ القيامة، بأنَّهم قد بلَّغوا الرسالةَ ودعَوْهم إلى الإيمان، وفي كلِّ زمانٍ شهيدٌ وإن لم يكن نبيًّا، وفيهم قولان:

أحدُهما: أنَّهم أئمةُ الهدى الذين هم خلفاءُ الأنبياء.

الثاني: أنَّهم العلماءُ الذين حَفِظَ اللهُ بهم شرائعَ أنبيائه(١).

قلت: فعلى هذا لم تكن فترةٌ إلا وفيها مَن يوحِّد اللهَ؛ كقُسِّ بنِ ساعدة، وزيدِ بنِ عمرِو بنِ نُفيل الذي قال فيه النبيُّ ﷺ: «يُبعَث أمةً وحدَه»(٢)، وسَطِيح(٣)، ووَرَقةَ بنِ نَوْفلٍ الذي قال فيه النبيُّ ﷺ: «رأيته ينغمس في أنهار الجنة»(٤). فهؤلاء ومَن كان مثلَهم حجَّةٌ على أهل زمانِهم وشهيدٌ عليهم. والله أعلم.

وقوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ تقدَّم في البقرة والنساء(٥).

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٠٨.

(٢) سلف ٢/ ٣٩٧.

(٣) هو ربيع بن ربيعة الكاهن، من بني مازن بن الأزد، كان يتكلم بكل أعجوبة في الكهانة. ثمار القلوب للثعالبي ص١٢٥ - ١٢٦، وجمهرة أنساب العرب ص٣٧٤ - ٣٧٥.

(٤) أخرجه ابن السكن كما في الإصابة ١٠/ ٣٠٦ بلفظ: رأيت ورقة على نهر من أنهار الجنة، وأخرج أبو يعلى ٤/ ٤١ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سئل النبي ﷺ عن أبي طالب: هل تنفعه نبوتك؟ قال: نعم...، وفيه: وسئل عن خديجة - لأنها ماتت قبل الفرائض وأحكام القرآن - فقال: أبصرتها على نهر من أنهار الجنة... وسئل عن ورقة بن نوفل قال: أبصرته في بُطنان الجنة عليه سندس.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٤١٦: رواه أبو يعلى، وفيه مجالد، وهذا مما مدح من حديث مجالد، وبقية رجاله رجال الصحيح. اهـ والبُطنان: الوسط. النهاية (بطن).

(٥) ٢/ ٤٣٥ - ٤٣٧ و ٦/ ٣٢٥ - ٣٢٦.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ نظيره: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨]، وقد تقدَّم، فلينظر هناك(١). وقال مجاهدٌ: تبياناً للحلالِ والحرام(٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ رُويَ عن عثمانَ بنِ مَظْعُون أنه قال: لما نَزلت هذه الآيةُ؛ قرأتُها على عليِّ بنِ أبي طالب ﷺ، فتعجَّب، فقال: يا آلَ غالب، اتَّبِعوه تُفلحوا، فواللهِ إنَّ اللهَ أرسلَه ليأمرَكم بمكارم الأخلاقِ(٣). وفي حديث: إنَّ أبا طالب لما قيل له: إنَّ ابنَ أخيكَ زعمَ أنَّ اللهَ أنزل عليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ الآية، قال: اتَّبِعوا ابنَ أخي، فواللهِ إنَّه لا يأمرُ إلا بمحاسنِ الأخلاق. وقال عكرمةُ: قَرَأَ النبيُّ ﷺ على الوليدِ بنِ المغيرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ إلى آخرها، فقال: يا ابنَ أخي أَعِدْ! فأعاد عليه، فقال: والله إنَّ له لحلاوةً، وإنَّ عليه لَطلاوةً، وإنَّ أصله لَمُورِقٌ، وأعلاه لمثمرٌ، وما هو بقولِ بشر(٤)!.

وذكر الغَزْنَوِيُّ أنَّ عثمانَ بنَ مظعونٍ هو القارئُ. قال عثمانُ: ما أَسلمتُ ابتداءً إلَّا حياءً مِن رسول الله ﷺ حتى نَزلت هذه الآيةُ وأنا عنده، فاستقرَّ الإيمانُ في قلبي، فقرأتُها على الوليدِ بنِ المغيرة فقال: يا ابنَ أخي أَعِدْ! فأَعَدْتُ، فقال: واللهِ إنَّ له لحلاوةً، ... وذكر تمامَ الخبر(٥).

---

(١) ٨/ ٣٧١.

(٢) أخرجه عنه الطبري ١٤/ ٣٣٣ - ٣٣٤.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤١٦، وينظر تفسير السمرقندي ٢/ ٢٤٧، وتفسير الرازي ٢٠/ ١٠٠.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٨٢، والرازي ٢٠/ ١٠١.

(٥) أخرجه السمرقندي في التفسير ٢/ ٢٤٧، وينظر تفسير الرازي ٢٠/ ١٠٠.

وقال ابنُ مسعود: هذه أَجمعُ آيةٍ في القرآن لخيرٍ يُمتَثل، ولشَرٍّ يُجتَنب[١]. وحكى النقَّاشُ قال: يُقال: زكاةُ العدلِ: الإحسانُ، وزكاةُ القُدْرة: العفو، وزكاةُ الغنى: المعروفُ، وزكاةُ الجاهِ: كَتْبُ الرَّجُلِ إلى إخوانه[٢].

الثانية: اختلف العلماءُ في تأويلِ العدلِ والإحسانِ، فقال ابنُ عباس: العدلُ: لا إله إلا الله، والإحسانُ: أداءُ الفرائض. وقيل: العدلُ: الفرضُ، والإحسانُ: النافلةُ. وقال سفيانُ بنُ عُيينة: العدلُ هاهنا: استواءُ السريرة، والإحسانُ: أن تكون السريرةُ أفضلَ مِن العلانية[٣]. عليُّ بن أبي طالب: العدلُ: الإنصافُ، والإحسانُ: التفضُّلُ.

قال ابنُ عطيةَ[٤]: العدلُ: هو كلُّ مفروض من عقائدَ وشرائعَ؛ في أداء الأمانات، وتَرْكِ الظلم، والإنصافِ، وإعطاءِ الحقِّ. والإحسانُ: هو فعلُ كلِّ مندوبٍ إليه، فمن الأشياء ما هو كلُّه مندوبٌ إليه، ومنها ما هو فرضٌ، إلا أنَّ حَدَّ الإجزاءِ منه داخلٌ في العدل، والتكميلُ الزائدُ على الإجزاء داخلٌ في الإحسان. وأما قولُ ابنِ عباس ففيه نظر؛ لأنَّ أداءَ الفرائضِ هي الإسلامُ حسبما فسَّره رسولُ الله ﷺ في حديث سؤال جبريلَ، وذلك هو العدلُ، وإنَّما الإحسانُ التكميلاتُ والمندوبُ إليه حسبما يقتضيه تفسيرُ النبيِّ ﷺ في حديث سؤالِ جبريل بقوله: «أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنّه يَراك». فإنْ صحَّ هذا عن ابنِ عباس فإنَّما أراد الفرائضَ مكملة.

وقال ابنُ العربي[٥]: العدلُ بين العبد وبين ربِّه إيثارُ حقِّه تعالى على حظِّ نفسِه،

(١) أخرجه الطبري في التفسير ١٤/ ٣٣٧، وهو عند البخاري في الأدب المفرد (٤٨٩) بنحوه، وينظر الوسيط ٣/ ٧٩، وتفسير الرازي ٢٠/ ١٠٠.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤١٦.

(٣) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ٣٣٥ - ٣٣٧، والنكت والعيون ٣/ ٢٠٩، وزاد المسير ٤/ ٤٨٣، وتفسير الرازي ٢٠/ ١٠١.

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٤١٦.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١١٦٠.

وتقديمُ رضاه على هواه، والاجتنابُ للزواجر، والامتثالُ للأوامر. وأما العدلُ بينه وبين نفسِه فَمنعُها مما فيه هلاكُها؛ قال الله تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠] وعُزوبُ الأطماع عن الاتباع، ولزومُ القناعةِ في كلِّ حالٍ ومعنًى. وأما العدل بينه وبين الخَلْق؛ فبذلُ النصيحة، وتَرْكُ الخيانة فيما قَلَّ وكَثُر، والإنصافُ مِن نفسِك لهم بكلِّ وجه، ولا يكون منك إساءةٌ إلى أحدٍ بقولٍ ولا فعل، لا في سِرٍّ ولا في عَلَنٍ، والصبرُ على ما يُصيبك منهم مِن البلوى، وأقلُّ ذلك الإنصافُ وتَرْكُ الأذى.

قلت: هذا التفصيل في العدل حَسَنٌ وعدلٌ. وأما الإحسانُ فقد قال علماؤنا: الإحسانُ مصدرُ أحسنَ يُحْسِن إحساناً. ويقال على معنيين:

أحدهما متعدٍّ بنفسِه؛ كقولك: أحسنتُ كذا، أي: حسَّنته وكمَّلته، وهو منقولٌ بالهمزة، مِن حَسُنَ الشيءُ.

وثانيهما: متعدٍّ بحرفِ جرٍّ، كقولك: أحسنتُ إلى فلان، أي: أوصلتُ إليه ما يَنتفِعُ به(١).

قلت: وهو في هذه الآيةِ مرادٌ بالمعنيين معاً، فإنَّه تعالى يُحِبُّ مِن خَلْقه إحسانَ بعضِهم إلى بعض، حتى إن الطائرَ في سجنك، والسِّنَّوْر في دارك، لا ينبغي أن تَقْصُر تعهُّده بإحسانك؛ وهو تعالى غنيٌّ عن إحسانهم، ومنه الإحسانُ والنِّعَم والفَضْل والمِنَن(٢). وهو في حديث جبريلَ بالمعنى الأوّل لا بالثاني؛ فإنَّ المعنى الأوَّل راجعٌ إلى إتقان العبادةِ ومراعاتها؛ بآدابِها المصحِّحة والمكمِّلة، ومراقبة الحقِّ فيها، واستحضارِ عظمتِه وجلالِه حالةَ الشُّروع وحالةَ الاستمرار. وهو المراد بقوله: «أن تعبدَ اللهَ كأنَّك تراه، فإن لم تكن تَرَاه، فإنَّه يَرَاك»(٣).

---

(١) المفهم ١/ ١٤٢ - ١٤٣ .

(٢) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٦٠ - ١١٦١ .

(٣) المفهم ١/ ١٤٣ .

وأربابُ القلوبِ في هذه المراقبة على حالين: أحدهما غالبٌ عليه مشاهدةُ الحقِّ، فكأنَّه يراه، ولعلَّ النبيَّ ﷺ أشار إلى هذه الحالةِ بقوله: «وجُعلت قُرَّةُ عيني في الصلاة»(١). وثانيهما: لا ينتهي إلى هذا، لكن يَغلِبُ عليه أنَّ الحقَّ سبحانه مُطَّلِع عليه ومشاهدٌ له، وإليه الإشارةُ بقولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٨]، وقولِه: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ [يونس: ٦١](٢).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: القرابة؛ يقول: يُعطيهم المالَ، كما قال: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء: ٢٦] يعني: صِلَته. وهذا من بابِ عطفِ المندوبِ على الواجب، وبه استدلَّ الشافعيُّ في إيجاب إيتاءِ المُكاتَب؛ على ما يأتي بيانه.

وإنما خَصَّ ذا القُربى؛ لأنَّ حقوقَهم أوْكَدُ، وصلتَهم أوجبُ؛ لتأكيدِ حقِّ الرَّحِم التي اشتقَّ اللهُ اسمَها مِن اسمِه، وجَعَل صِلَتَها مِن صِلَتِه. فقال في «الصحيح»: «أما تَرْضَيْنَ أنْ أصِل مَن وَصَلك، وأقطعَ مَن قَطَعك»(٣). ولا سِيَّما إذا كانوا فقراءَ.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِۚ﴾ الفحشاءُ: الفُحْشُ، وهو كلُّ قبيحٍ مِن قولٍ أو فعل. ابنُ عباس: هو الزنى. والمنكَر: ما أنكره الشرعُ بالنهي عنه، وهو يعمُّ جميعَ المعاصي والرذائلِ والدناءاتِ على اختلافِ أنواعها. وقيل: هو الشِّرْك. والبَغْيُ: هو الكِبْر والظُّلْم والحِقْد والتَّعدِّي؛ وحقيقتُه: تجاوز الحدِّ، وهو داخلٌ تحت المنكَر، لكنه تعالى خصَّه بالذِّكْر؛ اهتماماً به؛ لشدَّة ضَرَره(٤).

---

(١) رواه أحمد (١٢٢٩٣)، والنسائي في المجتبى ٧/ ٦١ - ٦٢ من حديث أنس ﷺ.

(٢) المفهم ١/ ١٤٣.

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٣٠)، ومسلم (٢٥٥٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٤١٦، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٦١، وأثر ابن عباس أخرجه الطبري في التفسير ١٤/ ٣٣٦.

وفي الحديث عن النبيِّ ﷺ: «لا ذَنْبَ أسرعُ عقوبةً مِن بَغْيٍ»(١). وقال عليه الصلاة والسلام: «الباغي مصروعٌ»(٢). وقد وَعد اللهُ مَن بُغِيَ عليه بالنَّصْر. وفي بعضِ الكتب المنزَّلة: لو بَغَى جبلٌ على جبلٍ، لجُعل الباغي منهما دَكًّا(٣).

الخامسة: ترجم الإمامُ أبو عبد الله محمَّد بنُ إسماعيلَ البخاريُّ في «صحيحه» فقال: باب قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾، ﴿ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾، وتركِ إثارة الشَّرِّ على مسلم أو كافر. ثم ذكر حديثَ عائشةَ في سِحْر لَبِيد بنِ الأعْصَم النبيَّ ﷺ(٤). قال ابنُ بطَّال(٥): فتأوَّل ﷺ مِن هذه الآياتِ تَرْكَ إثارةِ الشَّرِّ على مسلم أو كافر؛ كما دلَّ عليه حديثُ عائشةَ حيث قال عليه الصلاة والسلام: «أمَّا اللهُ فقد شفاني، وأما أنا فأكره أنْ أُثِير على الناس شرًّا»(٦). ووجه ذلك ـ والله أعلم ـ أنَّه تأوَّل في قولِ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ الندبَ بالإحسانِ إلى المُسِيْء، وتَرْكَ معاقبتِه على إساءتِه.

فإن قيل: كيف يصحُّ هذا التأويلُ في آيات البغي؟

قيل: وجه ذلك ـ والله أعلم ـ أنَّه لمَّا أعلم اللهُ عبادَه بأنَّ ضَرَر البغي ينصرفُ

---

(١) هكذا أورده ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٤١٦ ، وأخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١٢١٥) عن علي ﷺ بنحوه. وفي الباب عن أبي بكرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ما من ذنب أحرى أن يعجِّل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا ـ مع ما يدخر له في الآخرة ـ من قطيعة الرحم والبغي. أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٩)، وأبو داود (٤٩٠٢)، والترمذي (١٥١٣)، وابن ماجه (٤٢١١).

(٢) أورده ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٤١٦ .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٨٨)، وأبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ٣٢٢ موقوفاً على ابن عباس، وأخرجه وكيع في الزهد (٤٢٦)، وهناد في الزهد (١٣٩٥) عن مجاهد مرسلاً. قال ابن أبي حاتم في علل الحديث ٢/ ٢٣٤ : والموقوف أصح. اهـ. والكلام من المحرر الوجيز ٣/ ٤١٦ .

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٦٨) و(٥٧٦٣)، ومسلم (٢١٨٩)، وسلف ٢/ ٢٧٦ .

(٥) في شرحه لصحيح البخاري ٩/ ٢٥٧ .

(٦) هو الحديث السالف الذكر.

على الباغي بقوله: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾، وضَمِن تعالى نُصرةَ من بُغِيَ عليه، كان الأولى بمَن بُغِيَ عليه شُكْر اللهِ على ما ضَمِنَ مِن نصرِهِ، ومقابلة ذلك بالعفو عمن بَغَى عليه؛ وكذلك فعَل النبيُّ ﷺ باليهودي الذي سحَره، وقد كان له الانتقامُ منه بقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦]. ولكن آثَرَ الصفحَ؛ أخذاً بقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

السادسة: تضمَّنت هذه الآيةُ الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المنكر، وقد تقدَّم القولُ فيهما(١). رُويَ أنَّ جماعةً رَفعت عاملَها إلى أبي جعفرٍ المنصور العباسي، فحاجَّها العاملُ وغلَبها، بأنَّهم لم يُثبتوا عليه كبيرَ ظُلْم ولا جَوْرَه في شيء؛ فقام فتًى مِن القوم فقال: يا أميرَ المؤمنين، إن الله يأمر بالعدل والإحسان، وإنه عدَل ولم يُحسِن. قال: فعجِب أبو جعفرٍ من إصابتِه، وعزَل العاملَ(٢).

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ لفظٌ عامٌّ لجميع ما يُعقَد باللسان ويلتزمه الإنسانُ مِن بيعٍ، أو صِلَة، أو مواثقة في أمر موافقٍ للديانة. وهذه الآيةُ مضمَّن قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ لأنَّ المعنى فيها: افعلوا كذا، وانتهوا عن كذا؛ فعُطف على ذلك التقدير.

وقد قيل: إنَّها نزلت في بَيعة النبيِّ ﷺ على الإسلام. وقيل: نزلت في التزامِ الحِلْفِ الذي كان في الجاهلية، وجاء الإسلامُ بالوفاء به؛ قاله قتادةُ ومجاهدٌ وابنُ زيد(٣). والعمومُ يتناول كلَّ ذلك كما بيَّنَّاه.

---

(١) ٥/ ٧٣ - ٧٦.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤١٧.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤١٧، وينظر تفسير الطبري ١٤/ ٣٣٨ - ٣٣٩، والنكت والعيون ٣/ ٢١٠.

روى «الصحيحُ» عن جُبَيْرِ بنِ مُطْعِم قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حِلْفَ في الإسلام، وأيُّما حِلْفٍ كان في الجاهلية لم يزِدْه الإسلامُ إلا شدَّةً»(١) يعني في نُصرة الحقِّ والقيامِ به والمواساة.

وهذا كنحو حِلْف الفُضُول الذي ذكَره ابنُ إسحاق(٢)، قال: اجتمعت قبائلُ مِن قريشٍ في دار عبدِ اللهِ بنِ جُدْعان؛ لشَرَفه ونسبِه، فتعاقدوا وتعاهدوا على ألَّا يجدوا بمكَّة مظلوماً مِن أهلِها أو غيرِهم إلا قاموا معه حتى تُرَدَّ عليه مَظْلِمتُه؛ فسمَّت قريشٌ ذلك الحِلْفَ حِلْفَ الفُضول. أي: حِلْف الفضائل .والفضولُ هنا: جَمْعُ فَضْل(٣)، للكثرة، كفَلْس وفُلُوس. روى ابنُ إسحاق، عن ابنِ شهاب قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لقد شَهِدْتُ فِي دارِ عبدِ الله بنِ جُدْعان حِلْفاً ما أُحِبُّ أن لي به حُمْرَ النَّعَم، لو أُدعى به في الإسلام لأَجبتُ»(٤).

وقال ابنُ إسحاق(٥): تحامَل الوليدُ بنُ عُتبة على حسينِ بنِ عليٍّ في مال له، لسلطانِ الوليد فإنه كان أميراً على المدينة، فقال له حسينُ بنُ عليٍّ: أَحْلِفُ بالله لتُنْصِفَنِّي مِن حقِّي، أو لآخذنَّ سيفي، ثم لأقومنَّ في مسجدِ رسول الله ﷺ، ثمَّ لأدعونَّ بِحلْف الفُضول. قال عبدُ اللهِ بنُ الزبير: وأنا أَحْلِفُ واللهِ لئن دعانا لآخُذَنَّ سيفي، ثم لأقومنَّ معه حتى ينتصفَ مِن حقِّه، أو نموتَ جميعاً. وبَلغتِ المِسْوَرَ بنَ مَخْرمة، فقال مثلَ ذلك. وبَلغت عبدَ الرحمن بنَ عثمان بنِ عبيد الله التيمي، فقال مثلَ ذلك. فلما بلغَ ذلك الوليدَ أنصفه.

قال العلماءُ: فهذا الحِلْفُ الذي كان في الجاهلية هو الذي شدَّه الإسلام، وخصَّه

---

(١) سلف ٧/ ٢٤٨ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٣٣ - ١٣٤ .

(٣) سلف ٧/ ٢٤٨ .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٣٤ ، وسلف ٧/ ٢٤٧ .

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٣٥ .

النبيُّ عليه الصلاة والسلام مِن عموم قوله: «لا حِلْفَ في الإسلام». والحكمة في ذلك أنَّ الشرعَ جاء بالانتصار مِن الظالم، وأَخْذِ الحقِّ منه، وإيصالِه إلى المظلوم، وأوجب ذلك بأصل الشريعة إيجاباً عامًّا على مَن قَدر مِن المكلَّفين، وجعل لهم السبيلَ على الظالمين، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٤٢]. وفي «الصحيح»: «أُنْصُر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قالوا: يا رسولَ الله، هذا ننصُرُه مظلوماً، فكيف ننصرُه ظالماً؟ قال: «تَأخُذ على يدَيْه» ـ في رواية: «تمنعُه مِن الظلم» ـ «فإنَّ ذلك نَصْرُه»[(١)]. وقد تقدَّم قولُه عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الناسَ إذا رأوا الظالمَ ولم يأخذوا على يدَيْه، أَوشكَ أنْ يَعُمَّهم اللهُ بعقابٍ مِن عندِه»[(٢)].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُوا ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ يقول: بعد تشديدِها وتغليظِها[(٣)]، يقال: توكيد وتأكيد، ووكَّد وأكَّد، وهما لغتان[(٤)].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ يعني: شهيداً. ويقال: حافظاً، ويقال: ضامناً. وإنما قال: «بَعْدَ تَوْكِيدِها» فَرْقاً بين اليمين المؤكَّدة بالعَزْم، وبين لَغْوِ اليمين.

وقال ابنُ وهب وابنُ القاسم عن مالك: التوكيدُ هو حَلِفُ الإنسانِ في الشيء الواحدِ مراراً، يُردِّد فيه الأيمانَ ثلاثاً أو أكثرَ مِن ذلك، كقوله: واللهِ لا أنقصُه مِن كذا، واللهِ لا أنقصه مِن كذا، واللهِ لا أنقصه مِن كذا. قال: فكفَّارة ذلك واحدةٌ مثل كفَّارة اليمين.

وقال يحيى بنُ سعيد: هي العهودُ، والعهدُ يمينٌ، ولكنَّ الفرقَ بينهما أنَّ العهدَ لا

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٣) وسلف ٣/ ٢٤٩ .

(٢) سلف ٣/ ٣٨٦ .

(٣) عزاه الطبري في تفسيره ١٤/ ٣٤٠ إلى قتادة.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢١٧ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤١٧ .

يُكفَّر. قال النبيُّ ﷺ: «يُنْصَبُ لكلِّ غادرٍ لواءٌ يومَ القيامة عند استه بقَدْرِ غَدْرته، يقال: هذه غدرةُ فلانٍ»[١]. وأما اليمينُ باللهِ فقد شرَع اللهُ سبحانه فيها الكفَّارةَ بخصلةٍ واحدة، وحلِّ ما انعقدت عليه اليمينُ. وقال ابنُ عمر: التوكيدُ هو أن يَحْلِفَ مرَّتين، فإن حلَف واحدةً، فلا كفَّارةَ فيه. وقد تقدَّم في المائدة[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ النَّقْضُ والنَّكْثُ واحدٌ، والاسمُ النِّكْثُ والنِّقْض، والجمع الأنكاث. فشبَّهت هذه الآيةُ الذي يَحلِف ويُعاهِد ويُبرِم عهدَه ثم يَنقُضه، بالمرأةِ تَغزل غَزْلها وتفتِله مُحْكَماً ثم تَحُلُّه[٣].

ويُروى أنَّ امرأةً حمقاءَ كانت بمكَّة تُسمَّى رَيْطةَ بنتَ عمرو بنِ كعبِ بنِ سعدِ بنِ تيمِ بنِ مُرَّة كانت تفعلُ ذلك، فبها وقَع التشبيهُ، قاله الفرَّاء[٤]، وحكاه عبدُ الله بنُ كثير، والسُّدِّيّ، ولم يسمِّيا المرأةَ. وقال مجاهد وقتادة: وذلك ضَرْبُ مَثلٍ، لا على امرأةٍ معيَّنة[٥].

و«أنكاثاً» نصبٌ على الحال[٦]. والدَّخَل: الدَّغَل والخديعةُ والغِشُّ. قال أبو عبيدة[٧]: كلُّ أمرٍ لم يكن صحيحاً، فهو دَخَل[٨].

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٦، وسلف ٥/ ٣٩٠.
(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٦٢، وينظر ما سلف ٨/ ١٢١ وما بعدها.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤١٧.
(٤) في معاني القرآن ٢/ ١١٢ - ١١٣.
(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤١٧ - ٤١٨، وأخرج أثر مجاهد وقتادة الطبري في التفسير ١٤/ ٣٤٢ - ٣٤٣.
(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢١٧، والمحرر الوجيز ٣/ ٤١٨.
(٧) معاني القرآن للفراء ٢/ ١١٣، والنكت والعيون ٣/ ٢١١، والمحرر الوجيز ٣/ ٤١٨، وتهذيب اللغة ٧/ ٢٧١.
(٨) في مجاز القرآن ١/ ٣٦٧.

﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ قال المفسِّرون: نزلت هذه الآيةُ في العرب الذين كانت القبيلةُ منهم إذا حالفت أخرى، ثم جاءت إحدَاهما قبيلةٌ كثيرةٌ قويَّة فداخلَتْها، غَدرت الأُولى، ونَقضت عهدَها، ورجعت إلى هذه الكبرى ـ قاله مجاهد ـ فقال الله تعالى: لا تنقضوا العهودَ مِن أجل أنَّ طائفةً أكثرُ مِن طائفةٍ أُخرى، أو أكثرُ أموالاً، فتنقضون أيمانكم إذا رأيتم الكثرةَ والسَّعة في الدنيا لأعدائكم المشركين(١).

والمقصود النَّهْيُ عن العَوْد إلى الكفر بسببِ كثرة الكفَّار وكثرةِ أموالهم. وقال الفرَّاء: المعنى: لا تغدِروا بقومٍ لِقلَّتهم وكثرتِكم، أو لقلَّتكم وكثرتِهم، وقد غرَّرتموهم بالأيمان(٢).

﴿أَرْبَىٰ﴾ أي: أكثر؛ مِن رَبَا الشيء يَرْبُو: إذا كَثُرَ(٣).

والضمير في «به» يحتمل أن يعودَ على الوفاءِ الذي أَمَرَ اللهُ به، ويحتمل أن يعودَ على الرِّباء، أي: إنَّ اللهَ تعالى ابتلى عبادَه بالتحاسد، وطلبِ بعضِهم الظهورَ على بعض، واختبرهم بذلك ليرى مَن يجاهد نفسَه فيخالفها، ممَّن يَتَّبعها ويَعملُ بمقتضى هواها(٤)، وهو معنى قوله: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ مِن البعثِ وغيرِه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: على مِلَّة واحدة.

---

(١) تفسير مجاهد ١/ ٣٥١، والمحرر الوجيز ٣/ ٤١٨، وأخرجه الطبري ١٤/ ٣٤٥.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ١١٣، ووقع في (د) و(ظ): عزرتموهم، وفي (م): عززتموهم، والمثبت من (ز)، ومصدر النقل.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٠٧.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤١٨.

﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ بخذلانِه إيَّاهم؛ عَدْلاً منه فيهم. ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ بتوفيقِه إيَّاهم؛ فضلاً منه عليهم[١]، ولا يُسأل عما يَفعل، بل تُسألون أنتم. والآية تردُّ على أهل القَدَر كما تقدم. واللام في «وليبينَنَّ» و«لتسألنَّ» مع النون المشدَّدة يدلَّان على قَسَم مضمر، أي: واللهِ ليُبيِّننَّ لكم ولتُسْألنَّ[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلَاۢ بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلَاۢ بَيْنَكُمْ﴾ كرَّر ذلك تأكيداً. ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ مبالغة في النهي عنه لِعظَم موقعِه في الدِّين، وتردُّده في معاشرات الناس، أي: لا تعقِدوا الأيمان بالانطواء على الخديعة والفسادِ؛ فتزِلَ قَدَمٌ بعد ثبوتِها، أي: عن الإيمان بعد المعرفة باللهِ. وهذه استعارةٌ للمستقيم الحالِ يقع في شرٍّ عظيم ويَسقط فيه؛ لأنَّ القَدَم إذا زلَّت نقلت الإنسانَ من حالِ خيرٍ إلى حال شرٍّ، ومن هذا المعنى قول كُثَيِّر:

فلما توافينا ثَبَتُّ وَزَلَّتِ[٣]

والعرب تقول لكلِّ مبتلًى بعد عافية، أو ساقطٍ في وَرْطة: زلَّت قَدَمُه[٤]؛ كقول الشاعر:

سَيُمنَعُ منكَ السبقُ إن كنتَ سابقاً ... وتُقتَل إن زلَّت بكَ القَدَمانِ[٥]

ويقال لمن أخطأ في شيء: زلَّ فيه.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٨٣.

(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ٢٤٨، والوسيط ٣/ ٨٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٤١٨.

(٣) ديوان كثير ص٧٩، وصدره: وكنَّا سلكنا في صَعود من الهوى، والكلام من المحرر الوجيز ٣/ ٤١٩.

(٤) مجاز القرآن ١/ ٣٦٧.

(٥) البيت لبشر بن أبيٍّ بن حمام العبسي، وهو في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ٤٥٣.

ثم توعَّد تعالى بعدُ بعذاب في الدنيا وعذابٍ عظيم في الآخرة[١]. وهذا الوعيدُ إنَّما هو فيمن نقَض عهدَ رسولِ الله ﷺ، فإنَّ مَن عاهدَه ثم نقَض عهدَه؛ خرج عن الإيمان، ولهذا قال: ﴿وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: بصدِّكم. وذَوْقُ السُّوء في الدنيا هو ما يَحُلُّ بهم مِن المكروه[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ﴾ نهيٌ عن الرُّشَا وأَخْذِ الأموال على نَقْضِ العهد، أي: لا تَنقضوا عهودَكم لعَرَض قليل من الدنيا. وإنما كان قليلاً ـ وإن كَثُرَ ـ لأنه ممَّا يَزولُ، فهو على التحقيق قليلٌ، وهو المراد بقوله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ﴾ فبيَّن الفَرْقَ بين حالِ الدنيا وحالِ الآخرة؛ بأنَّ هذه تنفَد وتَحولُ، وما عندَ الله مِن مواهبِ فَضْله ونعيمِ جنَّته ثابتٌ لا يزول لمن وَفَّى بالعهدِ، وثَبَتَ على العقد[٣]. ولقد أحسنَ من قال:

المالُ ينفَدُ حِلُّه وحرامُه ... يوماً وتبقى في غدٍ آثامُهُ
ليس التَّقِيُّ بمتَّقٍ لإلهه ... حتى يطيبَ شرابُه وطعامُهُ[٤]

آخر:

هَبِ الدنيا تُساقُ إليكَ عفواً ... أليسَ مصيرُ ذاكَ إلى انتقالِ
وما دنياكَ إلا مِثْلُ فَيْءٍ ... أظلَّكَ ثم آذنَ بالزوالِ[٥]

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤١٩ .
(٢) ينظر زاد المسير ٤/ ٤٨٧ .
(٣) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٤١٩ .
(٤) البيتان في بهجة المجالس ٣/ ٨٠ ، ووفيات الأعيان ٦/ ١٤١ .
(٥) البيتان لأبي العتاهية، وهما في ديوانه ص٢٩٧ .

قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟﴾ أي: على الإسلام والطاعاتِ وعن المعاصي. ﴿أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: من الطاعاتِ، وجعلها أحسنَ؛ لأنَّ ما عداها من الحسَن مباحٌ، والجزاءُ إنَّما يكون على الطاعاتِ من حيث الوعدُ مِن الله.

وقرأ عاصمٌ وابنُ كثير: «ولنجزِيَنَّ» بالنون؛ على التعظيم. الباقون: بالياء[1].

وقيل: إنَّ هذه الآيةَ: «ولا تشتروا» إلى هنا، نزلت في امرئ القيسِ بنِ عابسٍ الكنديِّ وخصمِه ابن أَسْوع، اختصما في أرضٍ فأراد امرؤ القيسِ أن يَحْلِفَ، فلما سمعَ هذه الآيَةَ، نَكلَ وأقرَّ له بحقِّه، والله أعلم[2].

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ﴾ شرطٌ وجوابُه. وفي الحياة الطيبة خمسةُ أقوال:

الأوّل: أنه الرزقُ الحلالُ؛ قاله ابن عباس، وسعيد بنُ جُبير، وعطاء، والضحَّاك[3].

الثاني: القناعةُ؛ قاله الحسن البصري، وزيد بنُ وهب، ووَهْبُ بنُ منبِّه. ورواه الحَكَم، عن عكرمةَ، عن ابن عباسٍ، وهو قولُ عليِّ بن أبي طالب ﷺ[4].

---

(١) السبعة ص٣٧٥، والتيسير ص١٣٨. ولابن ذكوان الوجهان.

(٢) هكذا أورده السمرقندي في التفسير ٢/ ٢٤٩، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٤٨٧ - ٤٨٨ في سبب نزول هذه الآية، وأورده الواحدي في أسباب النزول ص٤٧ في سورة البقرة، في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ الآية ١٨٨، والخبر عند مسلم (١٣٩) من حديث وائل بن حجر ﷺ، وفيه أن الخصم اسمه ربيعة بن عبدان.

(٣) أخرجه الطبري في التفسير ١٤/ ٣٥٠ - ٣٥٢ عن ابن عباس والضحاك، وأورده البغوي في التفسير ٣/ ٨٣ عن سعيد بن جبير وعطاء.

(٤) أخرجه الطبري في التفسير ١٤/ ٣٥٢ عن الحسن البصري وعلي بن أبي طالب، وأورده ابن الجوزي =

الثالث: توفيقُه إلى الطاعات، فإنَّها تؤدِّيه إلى رضوانِ الله؛ قال معناه الضحَّاك[١]. وقال أيضاً: من عمل صالحاً وهو مؤمنٌ في فاقةٍ ومَيْسرة، فحياتُه طيِّبة، ومن أَعرضَ عن ذِكْرِ اللهِ ولم يُؤمِن بربِّه، ولا عَمِلَ صالحاً، فمعيشتُه ضَنْكٌ لا خيرَ فيها[٢]. وقال مجاهد وقَتادةُ وابنُ زيد: هي الجنَّة، وقاله الحسن[٣]، وقال: لا تطيبُ الحياةُ لأحدٍ إلا في الجنَّة[٤]. وقيل: هي السعادة، روي عن ابنِ عباس أيضاً[٥]. وقال أبو بكر الورَّاق: هي حلاوةُ الطاعة[٦].

وقال سهلُ بنُ عبد الله التُّسْتَرِيُّ: هي أن ينزعَ عن العبدِ تدبيرَه، ويردَّ تدبيرَه إلى الحقِّ. وقال جعفرٌ الصادقُ: هي المعرفةُ بالله، وصِدْقُ المَقام بين يدي الله. وقيل: الاستغناءُ عن الخَلْق، والافتقارُ إلى الحقِّ. وقيل: الرِّضا بالقضاء[٧].

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم﴾ أي: في الآخرة. ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾. وقال: «فلنحيينَّه»، ثم قال: «ولنجزينَّهم»؛ لأنَّ «مَن» يصلح للواحد والجمْع[٨]، فأعاد مرَّة على اللفظ، ومرَّة على المعنى؛ وقد تقدَّم. وقال أبو صالح: جلس ناسٌ مِن أهلِ التوراة، وناسٌ مِن أهل الإنجيل، وناسٌ مِن أهل الأوثان، فقال هؤلاء: نحن أفضلُ، وقال هؤلاء: نحن أفضلُ؛ فنزلت[٩].

= في زاد المسير ٤/ ٤٨٨ - ٤٨٩ عن الحسن ووهب بن منبِّه، والنحاس في معاني القرآن ٤/ ١٠٤ عن ابن عباس.

(١) النكت والعيون ٣/ ٢١٢، وزاد المسير ٤/ ٤٨٩.

(٢) أخرجه الطبري في التفسير ١٤/ ٣٥٢.

(٣) أخرجه عنهم الطبري في التفسير ١٤/ ٣٥٣ - ٣٥٤، وأورده الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٢١٢ عن مجاهد وقتادة.

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ٨٢.

(٥) أخرجه الطبري في التفسير ١٤/ ٣٥٣، وأورده الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٢١٢.

(٦) زاد المسير ٤/ ٤٨٩.

(٧) النكت والعيون ٣/ ٢١٢.

(٨) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٦٨.

(٩) أخرجه عنه الطبري في التفسير ١٤/ ٣٥٦ - ٣٥٧، ونقله عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٤١٩.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾

فيه مسألةٌ واحدةٌ: وهي أنَّ هذه الآيةَ متَّصِلةٌ بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتابَ تِبْيَاناً لِكلِّ شَيْءٍ﴾. فإذا أخذْتَ في قراءتِه، فاستعذ بالله مِن أن يَعْرِضَ لك الشيطانُ؛ فيصدَّك عن تدبُّره والعملِ بما فيه. وليس يريد استعذ بعد القراءة؛ بل هو كقولك: إذا أكلتَ فقُل: بسم الله، أي إذا أردتَ أن تأكُل(١).

وقد روى [ابن] جُبير بنُ مُطْعِم عن أبيه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ حين افتتح الصلاةَ قال: «اللهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ مِن الشيطانِ مِن هَمْزِه ونَفْخِه ونَفْثِه»(٢). وروى أبو سعيد الخُدْريُّ أنَّ النبيَّ ﷺ كان يتعوَّذ في صلاته قبل القراءة(٣).

قال الكِيَا الطبري: ونُقل عن بعضِ السلَف التعوُّذ بعد القراءةِ مطلقاً، احتجاجاً بقوله: تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ ولا شكَّ أنَّ ظاهرَ ذلك يقتضي أن تكون الاستعاذةُ بعد القراءةِ؛ كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا﴾ [النساء: ١٠٣]. إلا أنَّ غيرَه محتمِلٌ، مثلُ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾ [الأنعام: ١٥٣]، ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣]؛ وليس المرادُ به أن يسألَها مِن وراءِ حجاب بعد سؤالٍ متقدِّم. ومثلُه قولُ القائل: إذا قلتَ فاصْدُق، وإذا أحرمتَ فاغتسِل؛ يعني: قبل الإحرام. والمعنى في جميع ذلك: إذا أردتَ ذلك؛ فكذلك الاستعاذةُ(٤). وقد تقدَّم هذا المعنى، وتقدَّم القولُ في الاستعاذة مستوفًى(٥).

---

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢١٨.

(٢) سنن أبي داود (٧٦٤) وما بين حاصرتين منه، وسلف ١/ ١٣٦.

(٣) سنن أبي داود (٧٧٥)، وسلف ١/ ١٣٦.

(٤) أحكام القرآن للكيا الطبري ٤/ ٢٤٥ - ٢٤٦.

(٥) ١/ ١٣٥ وما بعدها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: بالإغواء والكُفْر، أي: ليس لك قدرةٌ على أن تَحملهم على ذنبٍ لا يُغفَر؛ قاله سفيان. وقال مجاهد: لا حجَّةَ له على ما يَدعوهم إليه مِن المعاصي. وقيل: إنَّه ليس له عليهم سلطانٌ بحال؛ لأنَّ اللهَ تعالى صَرَفَ سلطانَه عليهم حين قال عَدُوُّ اللهِ إبليسُ لعنه اللهُ: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩-٤٠] قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[1] [الحجر: ٤٢].

قلت: قد بَيَّنَّا أنَّ هذا عامٌّ يَدخلُه التخصيصُ، وقد أغوى آدمَ وحوَّاءَ عليهما السلام بسلطانِه، وقد شَوَّش على الفضلاءِ أوقاتَهم بقوله: «مَن خَلَقَ رَبَّكَ؟» حسبما تقدَّم في آخر الأعراف بيانه[2].

﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ أي: يطيعونه. يقال: تولَّيتُه، أي: أطعتُه، وتولَّيتُ عنه، أي: أعْرَضْتُ عنه[3].

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ أي: بالله؛ قاله مجاهد والضحَّاك[4]. وقيل: يرجع «به» إلى الشيطان؛ قاله الربيعُ بنُ أنس[5] والقُتَبيُّ[6]. والمعنى: والذين هم من أجلِه مشركون. يقال: كفرتُ بهذه الكلمة، أي: مِن أجلِها. وصار فلانٌ بك عالماً، أي:

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢١٣، وأثر سفيان أخرجه ابن أبي الدنيا في التوكل (٢٥)، والطبري في التفسير ١٤/ ٣٥٨ - ٣٥٩. وأثر مجاهد في تفسيره ١/ ٣٥٢، وأخرجه عنه الطبري ١٤/ ٣٥٨ بنحوه، وينظر زاد المسير ٤/ ٤٩٠.

(٢) ٩/ ٤٢٣، وسلف تخريج الحديث هناك.

(٣) تفسير الرازي ٢٠/ ١١٥.

(٤) أخرجه عنهما الطبري في التفسير ١٤/ ٣٦٠ - ٣٦١، وينظر تفسير مجاهد ٤/ ٣٥١.

(٥) أخرجه عنه الطبري في التفسير ١٤/ ٣٦١.

(٦) غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٤٨ - ٢٤٩.

مِن أَجلِك. أي: والذي تولَّى الشيطانَ مشركونَ بالله[١].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ قيل: المعنى: بدَّلنا شريعةً متقدِّمة بشريعةٍ مستأنفَة؛ قاله ابنُ بحر[٢]. مجاهد: أي: رفعنا آيةً وجعلنا موضعَها غيرَها[٣]. وقال الجمهورُ: نَسَخنا آيةً بآيةٍ أشدَّ منها عليهم[٤]. والنسخُ والتبديلُ: رَفْعُ الشيء مع وَضْعِ غيرِه مكانه. وقد تقدَّم الكلامُ في النَّسْخِ في البقرةِ مستوفًى[٥].

﴿قَالُوٓا۟﴾ يريد كفَّار قريش. ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ أي: كاذبٌ مختلِق؛ وذلك لما رَأَوا مِن تبديلِ الحُكْم. فقال الله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ اللهَ شرَعَ الأحكامَ وتبديلَ البعضِ بالبعض.

وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ يعني: جبريلَ، نزلَ بالقرآنِ كلِّه ناسخِه ومنسوخِه[٦]. ورُويَ بإسنادٍ صحيحٍ عن عامر الشَّعْبيِّ قال: وُكِّل إسرافيلُ بمحمَّد ﷺ ثلاثَ سنينَ، فكان يأتيهِ بالكلمة والكلمة، ثم نزَل عليه جبريلُ بالقرآن[٧]. وفي «صحيح مسلم» أيضاً أنه نزَل عليه بسورة الحمد مَلَكٌ لم يَنزِل إلى الأرضِ قَطُّ. كما

(١) زاد المسير ٤/ ٤٩١.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢١٤.

(٣) تفسير مجاهد ١/ ٣٥٢، وأخرجه عنه الطبري في التفسير ١٤/ ٣٦٣.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢١٤، دون قوله: أشدّ منها عليهم.

(٥) ٢/ ٣٠٠ وما بعدها.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٢١.

(٧) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٢/ ١٣٢، وابن عبد البر في الاستيعاب ١/ ٧٠ - ٧١.

تقدَّم في الفاتحة بيانه[(١)].

﴿مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: مِن كلامِ ربِّك. ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: بما فيه مِن الحُجج والآيات. ﴿وَهُدًى﴾ أي: وهو هدًى ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ اختُلف في اسم هذا الذي قالوا إنَّما يعلِّمه؛ فقيل: هو غلامُ الفاكهِ بنِ المغيرة، واسمه جَبْر، كان نصرانيًّا فأسلم؛ وكانوا إذا سمعوا من النبيِّ ﷺ ما مضى وما هو آتٍ ـ مع أنَّه أمِّيٌّ لم يَقرأ ـ قالوا: إنَّما يُعلِّمه جَبْر وهو أعجميٌّ؛ فقال الله تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: كيف يعلِّمه جَبْر ـ وهو أعجميٌّ ـ هذا الكلام الذي لا يَستطيعُ الإنسُ والجنُّ أن يُعارِضوا منه سورةً واحدةً فما فوقَها. وذكر النقَّاشُ أنَّ مولى جَبْر كان يَضرِبه ويقول له: أنت تعلِّم محمداً، فيقول: لا واللهِ، بل هو يعلِّمني ويَهديني.

وقال ابنُ إسحاق: كان النبيُّ ﷺ ـ فيما بلغني ـ كثيراً ما يَجلسُ عند المَرْوَة إلى غلامٍ نصرانيٍّ يقال له: جَبْرٌ، عبدُ بني الحَضْرمي، وكان يَقرأُ الكُتُبَ، فقال المشركون: واللهِ ما يُعلِّم محمداً ما يأتي به إلا جَبْرٌ النصرانيُّ[(٢)].

وقال عكرمة: اسمه يَعيش، عبدٌ لبني الحَضْرمي، كان رسولُ الله ﷺ يلقِّنه القرآنَ؛ ذكره الماورديُّ[(٣)].

---

(١) ١/١٧٨ - ١٧٩، والحديث في صحيح مسلم (٨٠٦). وقد ذكر المصنف ثمة أن جبريل عليه السلام نزل بالفاتحة، بمكة، وأن المَلَك نزل بثوابها بالمدينة.

(٢) سيرة ابن هشام ١/٣٩٣، وأخرجه عنه أيضاً الطبري في التفسير ١٤/٣٦٦.

(٣) النكت والعيون ٣/٢١٤ - ٢١٥، وأخرجه الطبري في التفسير ١٤/٣٦٥.

وذكر الثعلبيُّ عن عكرمةَ وقتادةَ أنَّه غلامٌ لبني المغيرةَ، اسمه يَعيش، وكان يَقرأُ الكُتُبَ الأعجميَّة، فقالت قريش: إنما يعلِّمه بشر، فنزلت[١]. المهدويُّ عن عكرمةَ: هو غلامٌ لبني عامر بن لؤي، واسمه يَعيش[٢].

وقال عبدُ الله بنُ مسلم الحَضْرميُّ: كان لنا غلامان نصرانيان مِن أهل عين التمر، اسمُ أحدِهما يسار، واسمُ الآخَر جَبْر. كذا ذكر الماورديُّ والقشيريُّ والثعلبيُّ؛ إلا أنَّ الثعلبيَّ قال: يقال لأحدهما: نَبْت، ويكنى أبا فُكَيْهة، والآخَر: جبر، وكانا صَيْقَلَين يعملانِ السيوفَ؛ وكانا يقرأان كتاباً لهم. الثعلبي: يقرأانِ التوراةَ والإنجيلَ. الماورديُّ والمهدويُّ: التوراة. فكان رسولُ الله ﷺ يمرُّ بهما ويَسمع قراءتهما، وكان المشركونَ يقولون: يتعلَّم منهما. فأنزل اللهُ هذه الآيةَ وأكذبهم[٣].

وقيل: عنَوْا سلمانَ الفارسيَّ ﷺ؛ قاله الضحَّاك[٤].

وقيل: نصرانياً بمكَّة اسمه بَلْعام، وكان غلاماً يَقرأُ التوراةَ؛ قاله ابنُ عباس. وكان المشركونَ يَرَوْنَ رسولَ الله ﷺ حين يَدخلُ عليه ويَخرج مِن عنده، فقالوا: إنَّما يُعلِّمه بَلْعام[٥].

وقال القُتَبِيّ: كان بمكَّة رجلٌ نصرانيٌّ يقال له: أبو ميسرةَ، يتكلَّم بالروميَّة، فربما قعَد إليه رسولُ الله ﷺ، فقال الكفَّار: إنَّما يَتعلَّم محمَّدٌ منه، فنزلت. وفي رواية: أنَّه عدَّاس غلامُ عتبةَ بنِ ربيعةَ[٦].

---

(١) أخرجه عنهما الطبري في التفسير ١٤/ ٣٦٥ - ٣٦٦ ، وينظر الوسيط ٣/ ٨٤ ، وتفسير الرازي ٢٠/ ١١٧ .

(٢) تفسير الرازي ٢٠/ ١١٧ .

(٣) أخرجه الطبري ١٤/ ٣٦٧ - ٣٦٨ ، والواحدي في أسباب النزول ص٢٨٧ - ٢٨٨ . وينظر النكت والعيون ٣/ ٢١٥ .

(٤) أخرجه الطبري في التفسير ١٤/ ٣٦٨ ، وينظر تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٠٣ ، وزاد المسير ٤/ ٤٩٣ .

(٥) أخرجه الطبري في التفسير ١٤/ ٣٦٥ ، وأورده الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٢١٤ ونسبه إلى مجاهد.

(٦) تفسير الرازي ٢٠/ ١١٧ .

وقيل: عابسٌ غلامُ حُوَيطِب بنِ عبد العُزَّى، ويسارٌ أبو فُكيهة مَولى ابنِ الحَضْرمي، وكانا قد أسلما[(١)]. والله أعلم.

قلت: والكلُّ مُحتمِل؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ ربَّما جلَس إليهم في أوقاتٍ مختلفة ليعلِّمهم مما علَّمه اللهُ، وكان ذلك بمكة.

وقال النحَّاسُ[(٢)]: وهذه الأقوالُ ليست بمتناقضةٍ لأنَّه يجوز أن يكونوا أَوْمَؤُوا إلى هؤلاءِ جميعاً، وزعموا أنهم يعلِّمونه.

قلت: وأما ما ذكره الضحَّاك من أنَّه سلمان، ففيه بُعْدٌ؛ لأنَّ سلمانَ إنَّما أتى النبيَّ ﷺ بالمدينة، وهذه الآيةُ مكيَّة[(٣)].

﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ الإلحادُ: الميلُ؛ يقال: لحد وألحد، أي: مال عن القصد[(٤)]. وقد تقدَّم في الأعراف[(٥)].

وقرأ حمزةُ: «يَلْحَدون» بفتح الياء والحاء[(٦)]، أي: لسان الذي يميلونَ إليه ويشيرون أعجميٌّ. والعُجْمة: الإخفاءُ وضدُّ البيان. ورجلٌ أعجمُ وامرأةٌ عجماءُ، أي: لا يُفصِح، ومنه: عُجْم الذَّنَب، لاستتارِه. والعجماءُ: البهيمةُ؛ لأنَّها لا تُوضِح عن نفسها. وأعجمتُ الكتابَ، أي: أزلتُ عُجْمَتَه. والعرب تُسمِّي كلَّ مَن لا يَعرِف لغتَهم ولا يتكلَّم بكلامِهم أعجميًّا. وقال الفرَّاءُ: الأعجمُ: الذي في لسانِه عُجْمةٌ وإن كان مِن العرب، والأعجميُّ أو العَجَميُّ: الذي أصلُه مِن العجم. وقال أبو علي: الأعجميُّ الذي لا يُفصِح، سواءٌ كان من العربِ أو من العَجَم، وكذلك الأعجمُ والأعجميُّ:

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ١١٣ وللزجاج ٣/ ٢١٩، وتفسير البغوي ٣/ ٨٦، وزاد المسير ٤/ ٤٩٣.
(٢) في معاني القرآن ٤/ ١٠٧.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٢١، وزاد المسير ٤/ ٤٩٣.
(٤) الوسيط ٣/ ٨٥، وينظر غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٤٩.
(٥) ٩/ ٣٩٥.
(٦) وقرأ بها أيضاً من السبعة الكسائي. السبعة لابن مجاهد ص٣٧٥، والتيسير ص١٣٨.

المنسوبُ إلى العَجَم، وإن كان فصيحاً[١].

وأراد باللسانِ القرآنَ؛ لأنَّ العربَ تقول للقصيدة والبيت: لسانٌ؛ قال الشاعر:

لسانُ الشَّرِّ تُهْدِيها إلينا وخُنتَ وما حَسِبْتُكَ أن تَخُونا

يعني باللسان: القصيدةَ[٢].

﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: أفصحُ ما يكون من العربية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: هؤلاء المشركون الذين لا يُؤمنون بالقرآن ﴿لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ﴾ هذا جوابُ وَصْفِهم النبيَّ ﷺ بالافتراء. ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ هذا مبالغةٌ في وَصْفِهم بالكذب؛ أي: كلُّ كذبٍ قليلٌ بالنسبة إلى كذِبهم. ويقال: كذب فلان، ولا يقال: إنه كاذبٌ؛ لأنَّ الفعل قد يكون لازماً، وقد لا يكون لازماً. فأما النعتُ فيكون لازماً، ولهذا يقال: عصى آدمُ ربَّه فغَوَى، ولا يقال: إنه عاصٍ غاوٍ. فإذا قيل: كذب فلان، فهو كاذبٌ، كان مبالغةً في الوصف بالكذب؛ قاله القشيريُّ[٣].

---

(١) تفسير الرازي ٢٠/١١٨.

(٢) النكت والعيون ٣/٢١٥، والبيت في تفسير الطبري ١٤/٣٧٠، والمحرر الوجيز ٣/٤٢١.

(٣) ينظر زاد المسير ٤/٤٩٤، وتفسير الرازي ٢٠/١١٩ - ١٢٠. وقال ابن الجوزيّ: أي إنَّ الكذب نعتٌ لازمٌ لهم، وعادةٌ من عاداتهم.

قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

فيه إحدى وعشرون مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾ هذا متصلٌ بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١] فكان مبالغةً في الوصف بالكذب؛ لأنّ معناه: لا ترتدُّوا عن بيعةِ الرسولِ ﷺ، أي: مَنْ كفرَ مِن بعدِ إيمانِه وارتدَّ، فعليه غضبُ الله.

قال الكلبي: نزلتْ في عبد الله بن سعدِ بن أبي سَرْح، ومِقْيَسِ بن صُبابةَ، وعبدِ الله بن خَطَل، وقيسِ بن الوليد بن المغيرة، كفروا بعد إيمانهم. ثم قال: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾(١).

وقال الزجاج: «مَن كفر باللهِ مِن بعد إيمانِهِ» بدلٌ ممن يفتري الكذبَ، أي: إنَّما يفتري الكذبَ مَن كفَرَ بالله من بعدِ إيمانه(٢). لأنه رأى الكلامَ إلى آخرِ الاستثناء غيرَ تامٍّ، فعلَّقه بما قبله.

وقال الأخفش: «مَن» ابتداءٌ وخبرُه محذوفٌ، اكتُفِيَ منه بخبر «مَن» الثانية، كقولك: مَن يأتِنا مَن يُحسِنْ نكرِمْه(٣).

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ هذه الآية نزلت في عمّارِ بن ياسر، في قول أهل التفسير؛ لأنه قاربَ بعضَ ما نَدَبوه إليه؛ قال ابنُ عباس: أخذَه المشركون، وأخذوا أباه وأمَّه سُمَيَّةَ، وصُهَيباً وبلالاً وخَبّاباً وسالماً، فعذَّبوهم، ورُبطتْ سُمَيةُ بين بعيرين، ووُجِئَ قُبُلها بحربة، وقيل لها: إنكِ أسلمْتِ من أجل الرجال، فقُتلتْ وقُتلَ

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢١٥ - ٢١٦ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢١٩ .

(٣) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٠٨ بمعناه، وذكره الطبري ١٤/ ٣٧٢ عن بعض نحويِّي الكوفة، وفيه: مَن يأتنا، فمَن يُحسِن نكرمه، بمعنى: مَن يُحسن ممَّن يأتنا نكرمه.

زوجُها ياسر، وهما أولُ قتيلين في الإسلام. وأمَّا عَمَّارٌ، فأعطاهم ما أرادوا بلسانه مُكْرَهاً، فشكا ذلك إلى رسولِ الله ﷺ، فقال له رسولُ الله ﷺ: «كيف تجدُ قلبك»؟ قال: مطمئنٌ بالإيمان. فقال رسول الله ﷺ: «فإنْ عادوا فَعُدْ»[1].

وروى منصورُ بن المُعْتَمِر، عن مجاهدٍ قال: أولُ شهيدةٍ في الإسلام أمُّ عمار، قتلَها أبو جهل[2]. وأولُ شهيدٍ من الرجال مِهْجَعٌ مولى عمرَ[3]. وروى منصورٌ أيضاً عن مجاهد قال: أولُ من أظهر الإسلامَ سبعةٌ: رسولُ الله ﷺ، وأبو بكر، وبلالٌ، وخَبَّابٌ، وصهيب، وعَمَّار، وسُميَّة أمُّ عمار. فأمَّا رسولُ الله ﷺ فمنعَه أبو طالب، وأما أبو بكر فمنعه قومُه، وأخذوا الآخرين فألبسوهم أدراعَ الحديد، ثم صَهَروهم في الشمس حتى بلغَ منهم الجهدُ كلَّ مبلغٍ من حرِّ الحديد والشمس، فلمَّا كان من العشيِّ أتاهم أبو جهل ومعه حربةٌ، فجعل يَسُبُّهم ويوبِّخهم، وأتى سُميَّةَ فجعل يسبُّها ويَرْفُثُ، ثم طعن فَرْجَها حتى خرجت الحربة من فمها فقتلها رضي الله عنها. قال: وقال الآخرون ما سألوا[4] إلا بلالاً، فإنَّه هانتْ عليه نفسُه في الله، فجعلوا يُعذبونه ويقولون له: ارجعْ عن دينك، وهو يقول: أَحَدٌ أحد، حتى ملُّوه، ثم كتَّفوه وجعلوا في عُنُقِه حبلاً من ليف، ودفعوه إلى صِبيانهم يلعبون به بين أَخْشَبَيْ مكةَ، حتى ملُّوه

(١) أسباب النزول للواحدي ص٢٨٨ ، وأخرجه الطبري ١٤/ ٣٧٣ - ٣٧٤ بنحوه من طريق عطية العوفي عن ابن عباس. قال الحافظ في الفتح ١٢/ ٣١٢ : وفي سنده ضعف. اهـ. وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٦٠ ، والطبري ١٤/ ٣٧٤ عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر. قال الحافظ في الفتح ١٢/ ٣١٢ : وهذا مرسل ورجاله ثقات، وأخرجه البيهقي [السنن الكبرى ٨/ ٢٠٨ - ٢٠٩] من هذا الوجه، فزاد في السند فقال: عن أبي عبيدة عن أبيه، وهو مرسل أيضاً. اهـ. وقال في الدراية ٢/ ١٩٧ : وإسناده صحيح إن كان محمد بن عمار سمعه من أبيه.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٣/ ٢٣٣ ، وابن أبي شيبة ١٤/ ٧٦ .

(٣) أخرجه ابن سعد ٣/ ٣٩١ - ٣٩٢ ، وابن أبي شيبة ١٤/ ٧٧ عن القاسم بن عبد الرحمن. وأخرجه عبد الرزاق (٩٧٢٧) مطولاً عن عكرمة ومهجع العكِّي هو مولى عمر بن الخطاب، أصابه سباءٌ، فمنَّ عليه عمر فأعتقه، وكان من السابقين إلى الإسلام، وشهد بدراً، واستشهد بها. الإصابة ٩/ ٢٩٧ .

(٤) في (م): سئلوا.

وتركوه. قال: فقال عمار: كلُّنا تكلمَ بالذي قالوا، لولا أنَّ الله تدارَكنا، غيرَ بلال؛ فإنه هانت عليه نفسُه في الله، فهان على قومِه حتى ملُّوه وتركوه. والصحيحُ أن أبا بكرٍ اشترى بلالاً فأعتقه(١).

وروى ابنُ أبي نَجيح، عن مجاهد، أنَّ ناساً من أهل مكة آمنوا، فكتب إليهم بعضُ أصحاب محمدٍ ﷺ بالمدينة: أن هاجروا إلينا، فإنا لا نراكم منّا حتى تهاجروا إلينا، فخرجوا يريدونَ المدينةَ حتى أدركتْهم قريشٌ بالطريق، ففتنوهم فكفروا مُكْرَهين، ففيهم نزلت هذه الآية(٢). ذكر الروايتين عن مجاهد إسماعيلُ بن إسحاق.

وروى الترمذيُّ عن عائشةَ قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما خُيِّر عمَّارٌ بين أمرين إلا اختار أرشدَهما» هذا حديثٌ حسن غريب(٣).

وروى عن أنسِ بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الجنةَ تشتاقُ إلى ثلاثة: عليٍّ وعمارٍ وسلمانَ بنِ ربيعة». قال الترمذيُّ: هذا حديثٌ [حسن] غريب لا نعرفه إلا من حديثِ الحسن بن صالح(٤).

الثالثة: لمَّا سمحَ الله عزَّ وجلَّ بالكفر به ـ وهو أصلُ الشريعة ـ عندَ الإكراه، ولم يؤاخِذْ به، حملَ العلماءُ عليه فروعَ الشريعةِ كلَّها، فإذا وقع الإكراهُ عليها لم يؤاخذ به، ولم يَتَرتَّبْ عليه حكمٌ، وبه جاء الأثرُ المشهور عن النبيِّ ﷺ: «رُفِعَ عن أمتي الخطأُ والنسيان وما استُكرِهوا عليه»(٥) الحديث. والخبرُ وإن لم يصحَّ سندُه، فإنَّ

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١١٦٨، وأخرجه عن مجاهد ابن سعد ٣/٢٣٣ دون قول عمار ﷺ، وأخرجه مع قول عمار ابن عساكر في تاريخه ٤٣/٣٦٧. وأخرجه ابن أبي شيبة ١٢/١٤٩ و ١٤/٣١٣، وابن ماجه (١٥٠)، وأحمد (٣٨٣٢) من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٢) تفسير مجاهد ١/٣٥٣، وأسباب النزول للواحدي ص٢٨٨، وتفسير البغوي ٣/٨٦.

(٣) سنن الترمذي (٣٧٩٩)، ومسند أحمد (٢٤٨٢٠). ووقع عند الترمذي: أسدَّهما، بدل: أرشدهما.

(٤) سنن الترمذي (٣٧٩٧)، وما بين حاصرتين منه، ومن التحفة ١/١٦٦.

(٥) سلف ٤/٥٠١، وذكر هناك أن النوويَّ حسَّنه في الأربعين، وأعلَّه أبو حاتم كما نقله ابنه في العلل ١/٤٣١، لكن قال الحافظ في الفتح ٥/١٦١: أُعل بعلةٍ غيرِ قادحة.

معناه صحيحٌ باتفاقٍ من العلماء؛ قاله القاضي أبو بكر بن العربيّ(١). وذكر أبو محمد عبدُ الحق أنَّ إسنادَه صحيحٌ، قال: وقد ذكره أبو بكر الأصيلي في «الفوائد»، وابنُ المنذر في كتاب «الإقناع»(٢).

الرابعة: أجمعَ أهلُ العلمِ على أنَّ مَن أُكرِهَ على الكفر حتى خَشِيَ على نفسه القتلَ، أنه لا إثمَ عليه إن كفرَ وقلبُه مطمئنٌّ بالإيمان، ولا تَبِين منه زوجتُه ولا يُحكَمُ عليه بحكم الكفر، هذا قولُ مالكٍ والكوفيين والشافعيّ، غيرَ محمدِ بن الحسن فإنه قال: إذا أَظهرَ الشركَ كان مرتدًّا في الظاهر، وفيما بينَه وبين الله تعالى على الإسلام، وتَبِينُ منه امرأتُه ولا يصلَّى عليه إن مات، ولا يَرِثُ أباه إن مات مسلِماً(٣). وهذا قولٌ يردُّه الكتابُ والسنة، قال الله تعالى: «إلّا مَن أكرِه» الآية. وقال: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ﴾ [آل عمران:٢٨]. وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النساء:٩٧] الآية. وقال: ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾ [النساء:٩٨] الآية. فعذَرَ اللهُ المستضعفين الذين لا(٤) يمتنعون مِن تركِ ما أمَرَ الله به(٥)، والمكرَهُ لا يكون إلا مُستضعَفاً غيرَ ممتنِعٍ من فعلِ ما أُمِرَ به؛ قاله البخاريُّ.

الخامسة: ذهبتْ طائفةٌ من العلماء إلى أنَّ الرُّخصةَ إنما جاءت في القول، وأمَّا في الفعلِ؛ فلا رخصةَ فيه، مثل أن يُكرَهوا على السجود لغيرِ الله أو الصلاةِ لغيرِ القِبلة، أو قتلِ مسلمٍ أو ضَرْبِه أو أكلِ مالِه، أو الزِّنى وشربِ الخمر وأكلِ الربا؛ يروى هذا عن الحسن البصريِّ ﷺ. وهو قول الأوزاعيِّ وسُحْنون(٦) من علمائنا.

---

(١) في أحكام القرآن ٣/١١٦٨ - ١١٦٩ .

(٢) ٢/ ٥٨٤ .

(٣) الإشراف ٢/ ٢٤٥ .

(٤) قوله: لا، ليس في (ف) و(م)، والمثبت من (د) و(ز) و(ظ) وصحيح البخاري قبل الحديث (٦٩٤٠).

(٥) قال الحافظ في الفتح ١٢/ ٣١٣ في شرح هذه العبارة: يعني إلا إذا غُلبوا.

(٦) يَنظر فتح الباري ١٢/ ٣١٤ .

وقال محمدُ بن الحسن: إذا قيل للأسير: اسجد لهذا الصنمِ وإلا قتلتُك. فقال: إن كان الصنمُ مقابِلَ القِبلة فلْيسجدْ وتكون نِيته لله تعالى، وإن كان لغير القِبلة فلا يسجدْ وإن قتلوه[١]. والصحيحُ أنه يسجدُ وإن كان لغير القبلة، وما أحراه بالسجود حينئذٍ. ففي الصحيح عن ابنِ عمرَ قال: كان رسول الله ﷺ يصلِّي وهو مُقبلٌ من مكةَ إلى المدينة على راحلتِه حيث كان وجهُه، قال: وفيه نزلتْ ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[٢] [البقرة: ١١٥] في رواية[٣]: ويُوتِر عليها، غيرَ أنه لا يصلِّي عليها المكتوبةَ.

فإذا كان هذا مُباحاً في السفر في حالةِ الأمن لِتَعَبِ النزولِ عن الدابة للتنفُّل، فكيف بهذا؟

واحتجَّ مَن قَصَرَ الرخْصَةَ على القولِ بقولِ ابنِ مسعود: : ما من كلامٍ يَدرأُ عنِّي سوطين من ذي سلطانٍ إلا كنتُ متكلِّماً به[٤]. فقصَرَ الرخصةَ على القول ولم يَذْكرِ الفعل، وهذا لا حجةَ فيه؛ لأنه يَحتملُ أن يجعلَ للكلام مثالاً وهو يريدُ أنَّ الفعل في حكمه.

وقالت طائفةٌ: الإكراهُ في الفعل والقولِ سواءٌ إذا أَسَرَّ الإيمان. روي ذلك عن عمرَ بنِ الخطاب ومكحولٍ، وهو قولُ مالكٍ وطائفة من أهل العراق. روى ابن القاسم عن مالك: أنّ من أُكْرِهَ على شرب الخمر أوتَرْكِ الصلاة أو الإفطارِ في رمضانَ، أنَّ الإثمَ عنه مرفوع[٥].

السادسة: أجمعَ العلماءُ على أنَّ مَن أُكرهَ على قَتْل غيرِه أنه لا يجوزُ له الإقدامُ

---

(١) النوادر والزيادات ١٠/ ٢٤٧ .

(٢) صحيح مسلم (٧٠٠) (٣٣)، وسلف ٢/ ٣٢٦ و ٤٥٥ .

(٣) عند مسلم (٧٠٠) (٣٩).

(٤) أخرجه ابن حزم في المحلى ١١/ ١٤٢ .

(٥) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٤٢٣ ، وفتح الباري ١٢/ ٣١٤ ، وأورد العيني في عمدة القاري ٢٤/ ٩٨ أثر عمر ومكحول.

على قتله ولا انتهاك حُرمته بجَلْدٍ أو غيرِه، ويَصبرُ على البلاء الذي نزل به، ولا يحلُّ له أن يَفْدِيَ نفسَه بغيره، ويسألُ اللهَ العافيةَ في الدنيا والآخرة(١).

واختُلِفَ في الزنى، فقال مُطَرِّفٌ وأَصْبَغُ وابنُ عبد الحكم وابن الماجِشُون: لا يفعل أحدٌ ذلك، وإن قُتل لم يفعلْه، فإن فَعَلَه فهو آثمٌ ويلزمه الحَدُّ(٢)؛ وبه قال أبو ثَوْرٍ والحسن(٣). قال ابن العربي(٤): الصحيحُ أنه يجوزُ الإقدامُ على الزنى، ولا حَدَّ عليه، خلافاً لمن ألزمه ذلك؛ لأنه رأى أنَّها شهوةٌ خُلقِية لا يُتصوَّرُ الإكراهُ عليها، وغَفَل عن السبب في باعثِ الشهوة وهو الإلجاءُ إلى ذلك، وهو الذي أسقطَ حُكْمَه، وإنَّما يجب الحَدُّ على شهوةٍ بَعَثَ عليها سببٌ اختياري، فقاس الشيءَ على ضِدِّه، فلم يَحْلَ(٥) بصوابٍ من عنده.

وقال ابن خُوَيْزِمَنْداد في أحكامه: اختلفَ أصحابُنا متى أُكرِهَ الرجلُ على الزنى، فقال بعضهم: عليه الحدُّ؛ لأنه إنَّما يفعلُ ذلك باختياره. وقال بعضهم: لا حدَّ عليه. قال ابن خُوَيْزمنداد: وهو الصحيح. وقال أبو حنيفةَ: إن أكرهه غيرُ السلطان حُدَّ، وإن أكرهه السلطانُ؛ فالقياسُ أن يُحدَّ، ولكنْ أستحسنُ ألَّا يُحَدَّ. وخالفَه صاحباهُ فقالا: لا حدَّ عليه في الوجهين، ولم يُراعُوا الانتشارَ وقالوا: متى عَلِمَ أنه يتخلَّصُ من القتل بفعلِ الزنى، جاز أن ينتشرَ(٦). قال ابنُ المنذر(٧): لا حدَّ عليه، ولا فرقَ بين السلطان في ذلك وغيرِ السلطان.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٦٥ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٢٤ ، ولم يذكر ابن الماجشون.

(٣) الإشراف ٢/ ٤٣ .

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١١٦٥ - ١١٦٦ .

(٥) قال الأزهري في تهذيب اللغة ٥/ ٢٣٧ : ويقال: ما حَليتُ منه شيئاً حَلْياً، أي: ما أصبت.

(٦) المبسوط ٩/ ٥٩ .

(٧) في الإشراف ٢/ ٤٣ .

السابعة: اختلف العلماءُ في طلاقِ المكْرَه وعتاقِه؛ فقال الشافعيُّ وأصحابه: لا يَلْزمه شيءٌ[١]. وذكر ابن وهب عن عمرَ وعلي وابنِ عباس أنهم كانوا لا يَرون طلاقَه شيئاً[٢]. وذكره ابن المنذر[٣] عن ابن الزبير وابن عمر، وابن عباسٍ وعطاء، وطاوسَ والحسنِ، وشريح والقاسم، وسالم ومالكٍ، والأوزاعيّ وأحمدَ، وإسحاقَ وأبي ثور. وأجازت طائفةٌ طلاقَه، رُويَ ذلك عن الشَّعبي والنَّخَعيّ وأبي قلابةَ والزهري وقَتادة، وهو قول الكوفيين. قال أبو حنيفة: طلاقُ المكره يلزم[٤]؛ لأنه لم يعدَمْ فيه أكثرَ من الرضا، وليس وجودُه بشرط في الطلاق كالهازل. وهذا قياسٌ باطل؛ فإنَّ الهازلَ قاصدٌ إلى إيقاع الطلاق راضٍ به، والمكرهَ غيرُ راضٍ، ولا نيةَ له في الطلاق، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّما الأعمال بالنيات»[٥]. وفي البخاري: وقال ابنُ عباس فيمن يُكْرِهه اللصوصُ فيطلِّق: ليس بشيءٍ، وبه قال ابنُ عمر وابنُ الزبير، والشعبيُّ والحسن[٦].

وقال الشعبي: إن أكْرَهه اللصوصُ؛ فليس بطلاق، وإن أكْرهه السلطانُ؛ فهو طلاق. وفسَّره ابنُ عيينةَ فقال: إنَّ اللصَّ يُقدِم على قتله، والسلطانُ لا يقتله[٧].

الثامنة: وأمَّا بيعُ المكْرَهِ والمضغوط؛ فله حالتان:

الأولى: أنْ يبيعَ مالَه في حقٍّ وجَبَ عليه، فذلك ماض سائغٌ لا رجوعَ فيه عند

---

(١) الأم ٣/ ٢١٠ ، والإشراف ٤/ ١٩٢ ، والاستذكار ١٨/ ١٥٢ .

(٢) النوادر والزيادات ١٠/ ٢٥٣ ، وأخرج الآثار عنهم عبد الرزاق في المصنف ٦/ ٤٠٦ - ٤٠٩ ، وابنُ أبي شيبة ٥/ ٤٨ - ٤٩ .

(٣) في الإشراف ٤/ ١٩٢ .

(٤) تحفة الفقهاء ٢/ ١٩٥ .

(٥) أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧) (١٥٥)، من حديث عمر بن الخطاب ﷺ، وسلف ٣/ ٢٧٠ .

(٦) صحيح البخاري قبل حديث (٦٩٤٠).

(٧) أخرجه عبد الرزاق (١١٤٢٢).

الفقهاء؛ لأنه يَلزمه أداءُ الحق إلى ربه من غير المبيع، فلمَّا لم يفعلْ ذلك، كان بيعُه اختياراً منه فلَزِمَه.

وأما بيعُ المكرَهِ ظلماً أو قهراً؛ فذلك بيعٌ لا يجوزُ عليه، وهو أولى بمتاعه، يأخذُه بلا ثمن، ويتبَعُ المشتري بالثمن ذلك الظالمَ، فإنْ فاتَ المتاعُ، رجعَ بثمنه أو بقيمتِه بالأكثرِ من ذلك على الظالم إذا كان المشتري غيرَ عالمٍ بظلمه. قال مُطرفٌ: ومَن كان من المشترين يعلم حالَ المُكرَه؛ فإنه ضامنٌ لِمَا ابتاعَ من رقيقه وعُروضه كالغاصب، وكلُّ ما[1] أحدثَ المبتاع في ذلك من عتقٍ أو تدبير أو تحبيس، فلا يَلزم المكرَهَ، وله أخذُ متاعِه.

قال سُحْنون: أجمعَ أصحابُنا وأهل العراق على أنّ بيعَ المكْرَه على الظلمِ والجَوْر لا يجوز. وقال الأَبْهَرِيُّ: إنه إجماع[2].

التاسعة: وأمَّا نكاحُ المكرَهِ، فقال سُحْنون: أَجمعَ أصحابُنا على إبطال نِكاح المكرهِ والمكرهة، وقالوا: لا يجوز المقام عليه؛ لأنه لم ينعقد. قال محمد بن سُحنون: وأجاز أهل العراق نكاحَ المكره، وقالوا: لو أُكرهَ على أن ينكِحَ امرأةً بعشرةِ آلافِ درهم، وصداقُ مثلِها ألفُ درهم: إنَّ النكاحَ جائزٌ وتَلزمُه الألفُ ويبطُلُ الفَضْلُ. قال محمد: فكما أبطلوا الزائد على الألْفِ، فكذلك يَلزمهم إبطالُ النكاحِ بالإكراه[3]. وقولُهم خلافُ السُّنة الثابتةِ في حديث خَنْساءَ بنت خِذام الأنصاريةِ[4]، ولأمرِه ﷺ بالاستئمار في أَبضاعِهن، وقد تقدّم[5]، فلا معنى لقولهم.

---

(١) في (د) و(ز) و(م): كلَّما، والمثبت من (ف) ومن المحرر الوجيز ٣/ ٤٢٣ ، والكلام منه.

(٢) النوادر والزيادات ١٠/ ٢٧٤ .

(٣) النوادر والزيادات ١٠/ ٢٥٧ - ٢٥٨ .

(٤) أخرجه أحمد (٢٦٧٨٦ زيادات عبد الله)، والبخاري (٥١٣٨) بلفظ: عن خنساء بنت خِذام أنَّ أباها زوَّجها وهي كارهة، وكانت ثيباً، فردَّ النبي ﷺ نكاحه.

(٥) ٥/ ٣٨١ .

العاشرة: فإنْ وطئهَا المُكْرَهُ على النكاح غيرَ مكْرَهٍ على الوطء والرضا بالنكاح، لَزِمَهُ النكاحُ عندنا على المسمَّى من الصَّداق، ودُرِئَ عنه الحدُّ. وإن قال: وطِئْتُها على غير رضاً مني بالنكاح؛ فعليه الحدُّ والصداقُ المسمَّى؛ لأنه مدَّعٍ لإبطالِ الصَّداقِ المسمَّى، وتُحَدُّ المرأةُ إن تقدمتْ[1] وهي عالمةٌ أنه مكرهٌ على النكاح. وأمَّا المكرَهةُ على النكاح وعلى الوطء، فلا حدَّ عليها، ولها الصداق، ويُحدُّ الواطئ، فاعلمْه. قاله سحنون.

الحادية عشرة: إذا استُكرهتِ المرأةُ على الزنى؛ فلا حدَّ عليها؛ لقوله: «إلا من أكره»، وقولِه عليه الصلاة والسلام: «إنَّ اللهَ تجاوز عن أمتي الخطأَ والنسيانَ وما استُكرِهوا عليه»[2]، ولقولِ الله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النور:٣٣] يريدُ الفتياتِ. وبهذا المعنى حَكَم عمرُ في الوليدة التي استكرهَها العبدُ، فلم يَحُدَّها[3]. والعلماء مُتفقون على أنه لا حدَّ على امرأةٍ مستكرهَة[4].

وقال مالك[5]: إذا وُجِدت المرأةُ حاملاً وليس لها زوجٌ، فقالت: استُكْرِهتُ، فلا يُقْبَلُ ذلك منها وعليها الحَدُّ، إلّا أن تكونَ لها بيِّنةٌ، أو جاءت تَدْمَى على أنها أُتِيت[6]، أو ما أشبهَ ذلك. واحتجَّ بحديث عمرَ بنِ الخطاب أنه قال: الرَّجْمُ في كتاب الله حقٌّ على مَن زنى من الرجال والنساء إذا أَحْصَنَ إذا قامت البينةُ، أو كان الحَبَل

(١) في (ز) و(م): أقدمت، والمثبت من (ظ) و(د) و(ف)، وهو الموافق لما في النوادر والزيادات ١٠/٢٥٨ - ٢٥٩، والكلام منه.

(٢) سلف ٤/٥٠١.

(٣) أخرجه البخاري (٦٩٤٦)، ومالك في «الموطأ» ٢/٨٢٧.

(٤) ينظر الاستذكار ٢٤/١١٣، والمنتقى ٥/٢٧١، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن المنذر في الإشراف ٢/٤١.

(٥) في الموطأ ٢/٨٢٧ - ٨٢٨.

(٦) في النسخ: أوتيت، والمثبت من الموطأ ٢/٨٢٨، والإشراف ٢/٤١.

أو الاعتراف[١]. قال ابن المنذر[٢]: وبالقول الأوَّل أقولُ.

الثانية عشرة: واختلفوا في وجوبِ الصداق للمستكرهة، فقال عطاء والزُّهْرِيُّ: لها صداقُ مثلِها؛ وهو قولُ مالكٍ والشافعيِّ وأحمدَ وإسحاقَ وأبي ثور. وقال الثَّوْرِيُّ: إذا أُقيمَ الحدُّ على الذي زنى بها بَطَلَ الصَّداقُ. ورُوِيَ ذلك عن الشعبي، وبه قال أصحابُ مالكٍ وأصحابُ الرأي. قال ابن المنذر: القولُ الأول صحيحٌ[٣].

الثالثة عشرة: إذا أُكرِهَ الإنسانُ على إسلام أهلِه لِمَا لم يَحِلَّ، أَسْلَمَها ولم يَقْتُلْ نفسَه دونها، ولا احتمل أذيَّةً في تخليصها. والأصلُ في ذلك ما خَرّجه البخاريُّ عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «هاجر إبراهيمُ عليه السلام بسارةَ، ودخل بها قرية فيها ملكٌ من الملوك أو جبارٌ من الجبابرة، فأرسلَ إليه أن أرسِلْ بها إليّ، فأرسلَ بها فقام إليها فقامت تتوضأ وتصلّي، فقالت: اللهم إن كنتُ آمنتُ بك وبرسولك فلا تسلِّط عليَّ هذا الكافر، فغُطَّ حتى رَكَض برجله»[٤]. ودلَّ هذا الحديثُ أيضاً على أنّ سارةَ لمَّا لم يكنْ عليها ملامةٌ، فكذلك لا يكونُ على المستكرهة ملامةٌ، ولا حدَّ فيما هو أكبرُ من الخَلْوة. والله أعلم.

الرابعة عشرة: وأمّا يمينُ المكْرَهِ فغيرُ لازمةٍ عند مالكٍ والشافعي وأبي ثور وأكثرِ العلماء. قال ابن الماجِشون: وسواءٌ حلَفَ فيما هو طاعةٌ لله أو فيما هو معصيةٌ إذا أكره على اليمين؛ وقاله أَصْبَغ. وقال مطرّف: إن أُكره على اليمين فيما هو لله معصيةٌ أو ليس في فِعْلِه طاعةٌ ولا معصيةٌ فاليمينُ فيه ساقطة، وإن أُكره على اليمين فيما هو طاعةٌ مثلُ أن يأخذَ الوالي رجلاً فاسقاً فيُكرِهَه أن يحلِفَ بالطلاق [أنْ] لا يشربَ

---

(١) أخرجه أحمد (٢٧٦)، والبخاري (٦٨٢٩)، ومسلم (١٦٩١) (١٥).

(٢) في الإشراف ٢/ ٤١ .

(٣) الإشراف ٢/ ٤٢ .

(٤) أخرجه البخاري (٦٩٥٠)، ومسلم (٢٣٧١) (١٥٤)، والكلام نقله المصنف من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٦٩ - ١١٧٠ .

خمراً، أو لا يفسقَ ولا يَغُشَّ في عمله، أو الوالدُ يحلِّفُ ولدَه تأديباً له فإن اليمينَ تلزَمُ، وإن كان المكرِهُ قد أخطأ فيما يكلِّف من ذلك. وقال به ابن حبيب[١]. وقال أبو حنيفة ومن اتبعه من الكوفيين: إنه إنْ حَلَفَ ألَّا يفعلَ ففعل حَنِث[٢]، قالوا: لأن المكْرَه له أن يورِّيَ في يمينه كلِّها، فلمَّا لم يورِّ، ولا ذهبتْ نيَّته إلى خلاف ما أكره عليه، فقد قَصَدَ إلى اليمين. احتج الأوَّلون بأن قالوا: إذا أُكره عليها فنيَّتُه مخالفةٌ لقوله؛ لأنه كارهٌ لِمَا حلفَ عليه.

الخامسة عشرة: قال ابن العربيّ[٣]: ومن غريب الأمرِ أنَّ علماءَنا اختلفوا في الإكراه على الحِنث هل يقعُ به أم لا؟ وهذه مسألةٌ عراقيةٌ سَرَتْ لنا منهم، لا كانتْ هذه المسألةُ ولا كانوا! وأيُّ فَرقٍ يا معشرَ أصحابِنا بين الإكراه على اليمين في أنها لا تَلْزَمُ، وبين الحِنْث في أنه لا يقع؟ فاتقوا الله وراجعوا بصائركم، ولا تغترُّوا بهذه الروايةِ فإنها وصمةٌ في الدِّراية.

السادسة عشرة: إذا أُكرهَ الرجلُ على أن يحلِفَ وإلا أُخِذَ له مالٌ، كأصحابِ المَكْس[٤] وظَلَمةِ السعاة وأهل الاعتداء، فقال مطرف[٥]: لا تَقِيَّة له في ذلك، وإنما يدرَأُ المرءُ بيمينه عن بدنه لا مالِه. وقال ابنُ الماجشون: لا يحنَثُ وإن درأ عن ماله ولم يخفْ على بدنه. وقال ابن القاسم بقول مطرف، ورواه عن مالك، وقاله ابن عبد الحكم وأصْبَغ[٦].

قلت: قولُ ابنِ الماجشون صحيحٌ؛ لأنَّ المدافعةَ عن المال كالمدافعة عن

---

(١) النوادر والزيادات ١٠/ ٣٠٦، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٢٤.

(٢) تحفة الفقهاء ٢/ ٢٩١.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١١٦٩.

(٤) المكس: الضريبة التي يأخذها الماكس، وأصله الجباية. اللسان (مكس).

(٥) في النسخ: مالك، والمثبت من المحرر الوجيز ٣/ ٤٢٤، والكلام منه.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٢٤، وينظر النوادر والزيادات ١٠/ ٣٠٧.

النفس؛ وهو قول الحسن وقتادةَ وسيأتي. وقال رسولُ الله ﷺ: «إن دماءَكم وأموالَكم وأعراضَكم عليكم حرامٌ»[(١)] وقال: «كلُّ المسلم على المسلم حرامٌ؛ دمُه ومالُه وعِرضُه»[(٢)]. وروى أبو هريرةَ قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيتَ إن جاء رجلٌ يريد أَخْذَ مالي؟ قال: «فلا تُعطِه مالك». قال: أرأيت إن قاتلَني؟ قال: «قاتِلْه» قال: أرأيتَ إن قتلني؟ قال: «فأنت شهيد» قال: أرأيتَ إن قتلتُه؟ قال: «هو في النار». خرَّجه مسلم. وقد مضى الكلام فيه[(٣)].

وقال مطرِّف وابن الماجشون: وإن بدَرَ الحالفُ بيمينه للوالي الظالم قبل أن يُسألها؛ ليَذُبَّ بها عما خافَ عليه من ماله وبدنه، فحلَفَ له فإنها تَلْزَمُه. وقاله ابنُ عبد الحكم وأصبغ. وقال أيضاً ابن الماجشون فيمن أَخَذَه ظالمٌ فحلَفَ له بالطلاق البتَّةَ من غيرِ أن يُحلِّفَه وترَكَه وهو كاذبٌ، وإنما حلَفَ خوفاً من ضرْبه وقَتْلِه وأَخْذِ ماله: فإن كان إنَّما تبرَّع باليمين غلبةَ خوفٍ ورجاءَ النجاةِ من ظُلْمه، فقد دخل في الإكراه ولا شيءَ عليه، وإن لم يحلِفْ على رجاء النجاةِ فهو حانث[(٤)].

السابعة عشرة: قال المحققون من العلماء: إذا تلفَّظَ المُكرَهُ بالكفر؛ فلا يجوزُ له أن يُجريَه على لسانه إلا مُجرَى المعاريض، «فإنَّ في المعاريض لمندوحةً عن الكذب»[(٥)]. ومتى لم يكن كذلك كان كافراً؛ لأن المعاريضَ لا سلطانَ للإكراه عليها. مثاله: أن يقال له: اكفر بالله، فيقولُ: باللاهي، فيزيدُ الياء. وكذلك إذا قيل له: اكفر بالنبي، فيقول: هو كافر بالنبيّ، مشدَّداً وهو المكان المرتفعُ من الأرض. ويُطلَقُ على ما يُعمَلُ من الخُوصِ[(٦)] شِبهَ المائدة، فيقصِدُ أحدَهما بقلبه، ويبرَأُ من الكفر، ويبرأ

(١) أخرجه البخاري (١٧٣٩) ومسلم (١٦٧٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وسلف ٣/ ٢٢٨ .

(٢) أخرجه أحمد (٨٧٢٢)، ومسلم (٢٥٦٤) (٣٢)، من حديث أبي هريرة.

(٣) ٧/ ٤٤٤ ، وهو عند مسلم (١٤٠).

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٢٤ ، والنوادر والزيادات ١٠/ ٣٠٧ - ٣٠٨ .

(٥) سلف ١١/ ٤٤٠ .

(٦) الخوص: ورق النخل. القاموس المحيط (خوص).

من إثمه. فإن قيل له: اكفر بالنبيء مهموزاً فيقول: هو كافرٌ بالنبيء، يريد بالمُخبِرِ. أيَّ مخبرٍ كان، كطُلَيحةَ[١] ومُسَيْلِمةَ الكذابِ. أو يريد به النبيَّ الذي قال فيه الشاعر:

فأصبح رَتْماً دُقاق الحَصَى مكانَ النبيِّ من الكاثب[٢]

الثامنة عشرة: أجمع العلماء على أنَّ مَن أُكره على الكفر فاختار القتل، أنه أعظمُ أجراً عند الله ممن اختار الرُّخصة[٣].

واختلفوا فيمن أُكره على غير القتلِ من فعلٍ ما لا يَحِلُّ له؛ فقال أصحاب مالك: الأخذ بالشِّدَّة في ذلك واختيارُ القتل والضربِ أفضلُ عند الله من الأخذ بالرخصة، ذكره ابنُ حبيب وسُحنون.

وذكر ابنُ سُحنون عن أهل العراقِ أنه إذا تهدَّد بقتلٍ أو قطعٍ أو ضربٍ يخاف منه التلف، فله أنْ يفعلَ ما أُكره عليه مِن شربِ خمرٍ أو أكل خنزير؛ فإنْ لم يفعل حتى قُتل، خِفنا أن يكونَ آثماً؛ لأنه كالمضطر[٤].

وروى خَبَّاب بنُ الأَرَتِّ قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسِّدٌ بُرْدَةً له في ظل الكعبة فقلنا: أَلَا تستنصرُ لنا، أَلَا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان مَن قبلَكم يُؤخذ

(١) هو: طليحة بن خويلد الأسدي، ارتدَّ وادعى النبوة، ثم هرب إلى الشام، وأسلم إسلاماً صحيحاً، وشهد القادسية ونهاوند مع المسلمين، ويقال إنه استشهد بنهاوند. الإصابة ٥/ ٢٤٤.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٦٦، والبيت لأوس بن حجر من قصيدة يرثي بها فَضالة بن كلدة الأسدي وهو شاعر أيضاً وكان صديقاً لأوس بن حجر، والبيت في ديوانه ص١١، والاشتقاق ص٤٦٢، والمعاني الكبير ٣/ ١٢٣٠، والتعازي والمراثي ص٣٣. والرواية في الديوان والمعاني والتعازي: لأصبح بدل فأصبح، ووقع في الديوان والتعازي: كمتن النبي، وفي المعاني الكبير: كظهر النبي.
قال المبرد في التعازي والمراثي ص٣٥: لو دافع الجبل العظيم متحاملاً عليه، لأصبح الجبل رتماً كظهر النبي، وهو رمل بعينه، من الكاثب، أي: كمكان هذا من هذا. ومثَّله أبو عبيدة فقال: كقولك: كظهر المربد من البصرة. والمرتوم: المحطوم المدقوق، يقال: رَتَم أنفه، أي: دقه. وقوله: دُقاق الحصى، أي: دقيق، مثل قولك: رجل طُوال وطويل.

(٣) النوادر والزيادات ١٠/ ٢٤٨.

(٤) ينظر النوادر والزيادات ١٠/ ٢٤٧.

الرجلُ فيُحفر له في الأرض، فيُجعل فيها، فيجاء بالمِنشار فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويُمْشَط بأمشاط الحديد ما دون لحمِه وعَظْمِه، فما يَصُدُّه ذلك عن دينه. واللهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمر حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ لا يخاف إلا اللهَ والذئبَ على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[١].

فوَصْفُه ﷺ هذا عن الأمم السالفةِ على جهة المدح لهم، والصبرِ على المكروه في ذات الله تعالى، وأنهم لم يكفروا في الظاهر ويُبْطِنوا الإيمانَ ليدفعوا العذابَ عن أنفسهم. وهذه حجَّةُ مَن آثرَ الضربَ والقتلَ والهوانَ[٢] على الرخصة، والمقامَ بدار الجِنَان. وسيأتي لهذا مزيدُ بيانٍ في سورة الأُخدود[٣] إن شاء اللهُ تعالى.

وذكر أبو بكر محمد[٤] بن الفرج البَغْداديّ قال: حدَّثنا سُرَيج[٥] بنُ يونس، عن إسماعيل بنِ إبراهيم، عن يونس بن عُبيد، عن الحسن: أنَّ عيوناً لمسيلِمة أخذوا رجلين من أصحاب النبيِّ ﷺ فذهبوا بهما إلى مسيلِمة، فقال لأحدهما: أتشهد أنَّ محمداً رسولُ الله؟ قال: نعم. قال: أتشهد أني رسولُ الله؟ قال: نعم. فخلَّى عنه. وقال للآخر: أتشهد أنَّ محمداً رسول الله؟ قال: نعم. قال: وتشهدُ أني رسول الله؟ قال: أنا أصمُّ لا أسمع، فقدَّمه فضرب عنقه. فجاء هذا إلى النبيِّ ﷺ فقال: هلكتُ! قال: «وما أهلكَك»؟ فذكر الحديثَ، قال: «أمَّا صاحبُك فأخذ بالثقة، وأما أنت فأخذت بالرخصة. علامَ أنت عليه الساعة»؟ قال: أشهد أنك رسولُ الله. قال: «أنتَ على ما أنتَ عليه»[٦].

(١) أخرجه أحمد (٢١٠٥٧)، والبخاري (٣٦١٢).

(٢) قوله: والهوان، ليس في (د) و(ز) و(ظ).

(٣) عند تفسير الآيات (٤ - ٧) منها.

(٤) في (ظ): وذكر أبومحمد، وفي باقي النسخ: وذكر أبو بكر محمد بن محمد، والمثبت هو الصواب، وهو محمد بن الفرج البغدادي الأزرق، توفي سنة (٢٨١هـ) السير ١٣/ ٣٩٤ .

(٥) في (ف): شريج، وفي باقي النسخ: شريح، وهما تصحيف.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة ١٢/ ٣٥٧ - ٣٥٨ عن إسماعيل بن إبراهيم، به. وأخرجه أبو داود في المراسيل (٣٢٦) من طريق خالد، عن يونس، به.

الرخصة فيمن حلَّفه سلطانٌ ظالم على نفسه، أو على أن يدلَّه على رجل أو مالِ رجل؛ فقال الحسن: إذا خاف عليه وعلى ماله؛ فلْيحلفْ ولا يكفِّر يمينه، وهو قول قتادةَ إذا حلف على نفسه أو مالِ نفسه. وقد تقدَّم ما للعلماء في هذا[١].

وذكر موسى بنُ معاوية[٢] أنَّ أبا سعيد بنَ أشرسَ صاحبَ مالكٍ استحلفه السلطانُ بتونسَ على رجلٍ أراد السلطانُ قتلَه أنه ما آواه، ولا يَعلمُ له موضعاً، قال: فحلف له ابنُ أشرس، وابنُ أشرس يومئذٍ قد علم موضعَه وآواه، فحلَّفه بالطلاق ثلاثاً، فحلف له ابنُ أشرس، ثم قال لامرأته: اعتزلي، فاعتزلته، ثم ركب ابنُ أشرس حتى قدِم على البهلول بنِ راشد[٣] القيروانَ، فأخبره بالخبر، فقال له البهلول: قال مالك: إنك حانث. فقال ابنُ أشرس: وأنا سمعت مالكاً يقول ذلك، وإنما أردت الرخصة ـ أو كلامٌ هذا معناه ـ فقال له البهلول بنُ راشد: قال الحسن البصريُّ: إنه لا حِنْثَ عليك. قال: فرجع ابنُ أشرس إلى زوجتِه وأخذ بقول الحسن.

وذكر عبد الملك بنُ حبيب قال: حدَّثني [علي بن] معبد، عن المسيب بنِ شريك، عن أبي شيبة قال: سألت أنس بنَ مالك عن الرجل يؤخذ بالرجل، هل ترى أن يَحْلِفَ ليقيَه بيمينه؟ فقال: نعم؛ وَلأنْ أحلفَ سبعين يميناً وأحنَثَ أحبُّ إليَّ أنْ أَدُلَّ على مسلم[٤].

وقال إدريس بنُ يحيى: كان الوليد بنُ عبد الملك يأمر جواسيسَ يتجسَّسون

---

(١) في المسألة الرابعة عشرة.

(٢) أبو جعفر الصُّمادِحي، المغربي الإفريقي، الإمام المفتي. كان ثقة مأموناً، عالماً بالحديث والفقه صالحاً. السير ١٢/ ١٠٨.

(٣) أبو عمر، كان ثقة مجتهداً ورعاً مستجاب الدعوة. مات سنة (٢٨٣) هـ. ترتيب المدارك ١/ ٣٣٠. والقصة فيه بنحوها.

(٤) النوادر والزيادات ١٠/ ٣٠٩، وما سلف بين حاصرتين منه. والمسيب بن شريك وأبو شيبة ـ وهو يوسف بن إبراهيم الجوهري ـ ضعيفان. ميزان الاعتدال ٤/ ١١٤ و ٤٦١.

الخلق يأتونه بالأخبار، قال: فجلس رجلٌ منهم في حَلْقة رجاء بنِ حَيْوة، فسمع بعضَهم يقع في الوليد، فرفع ذلك إليه، فقال: يا رجاء، أُذْكَرُ بالسوء في مجلسك ولم تغيِّر! فقال: ما كان ذلك يا أميرَ المؤمنين! فقال له الوليد: قل: آللهِ الذي لا إله إلا هو، قال: آللهِ الذي لا إله إلا هو؛ فأمر الوليدُ بالجاسوس فضربه سبعين سَوْطاً، فكان يَلقى رجاء فيقول: يا رجاء، بك يُستقى المطر، وسبعون سوطاً في ظهري! فيقول رجاء: سبعون سَوطاً في ظهرك خيرٌ لك من أن يُقتلَ رجلٌ مسلم(١).

التاسعة عشرة: واختلف العلماء في حَدِّ الإكراه؛ فروي عن عمر بنِ الخطاب ﷺ أنه قال: ليس الرجل آمناً على نفسه إذا أخفته أو أوثقته أو ضربته(٢). وقال ابن مسعود: ما كلامٌ يَدرأ عني سَوْطين إلَّا كنتُ متكلِّماً به. وقال الحسن: التَّقِيَّة جائزةٌ لمؤمن إلى يوم القيامة(٣). إلَّا أنَّ الله تبارك وتعالى ليس يجعل في القتل تقيَّة. وقال النَّخَعيُّ: القيد إكراه، والسِّجن إكراه، والوعيد إكراه(٤). وهذا قولُ مالك، إلا أنه قال: والوعيد المخوف إكراهٌ وإن لم يقع، إذا تحقَّق ظلمُ ذلك المتعدِّي وإنفاذُه لما يتوعَّد به(٥)، وليس عند مالكٍ وأصحابِه في الضرب والسجن توقيت، إنما هو ما كان يؤلم من الضَّرب، وما كان من سجن يَدخل منه الضِّيقُ على المكرَه. وإكراهُ السلطان وغيرِه عند مالكٍ إكراه(٦).

---

(١) ذكر هذه القصة ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٨/ ١١٣ - ١١٤ ، والذهبي في السير ٤/ ٥٦١ عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١١٤٢٤) و(١٨٧٩٢) وفيه: أجعته بدل أخفته. والبيهقي ٧/ ٣٥٨-٣٥٩ بلفظ: إذا جُوعت. وأورده ابن عبد البر في الاستذكار ١٨/ ١٥٥ بلفظ: إذا أُخيف أو ضرب أو أوثق.

(٣) النوادر والزيادات ١٠/ ٢٤٦ ، ٢٥١ ، وكلام ابن مسعود في المحرر الوجيز ٣/ ٤٢٣ أيضاً، وتقدم في المسألة الخامسة.

(٤) النوادر والزيادات ١٠/ ٣٠٦ عن النخعي وشريح، وفيه: والوعيد المخوف كره. وقوله: والوعيد إكراه، ليس في (م). وأخرجه عن شريح عبد الرزاق (١١٤٢٣)، والبيهقي ٧/ ٣٥٩ .

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٢٤ ، وينظر النوادر والزيادات ١٠/ ٢٥١ .

(٦) النوادر والزيادات ١٠/ ٢٤٩ .

وتناقَض الكوفيُّون فلم يجعلوا السِّجنَ والقيدَ إكراهاً على شرب الخمر وأكلِ الميتة؛ لأنه لا يُخاف منهما التَّلَفُ. وجعلوهما إكراهاً في إقراره: لفلانٍ عندي ألفُ درهم[١].

قال ابن سحنون: وفي إجماعهم على أنَّ الألم والوجَعَ الشديد إكراهٌ ما يدلُّ على أنَّ الإكراه يكون مِن غير تَلَفِ نفس [أو عضو][٢].

وذهب مالكٌ إلى أنَّ مَن أُكره على يمين بوعيد أو سجنٍ أو ضربٍ أنه يَحلف ولا حِنْث عليه؛ وهو قول الشافعيِّ وأحمدَ وأبي ثَوْرٍ وأكثرِ العلماء[٣].

الموفية عشرين: ومن هذا الباب ما ثبت: «إنَّ من المعاريض لمندوحةً عن الكَذِب»[٤]. وروى الأعمش، عن إبراهيم النَّخَعيِّ أنه قال: لا بأس إذا بلَغ الرجلَ عنك شيءٌ أن تقول: واللهِ، إنَّ الله يعلم ما قلتُ فيك مِن ذلك مِن شيء[٥]. قال عبدالملك بنُ حبيب: معناه: إنَّ الله يعلم الذي[٦] قلت، وهو في ظاهره انتفاءٌ من القول، ولا حِنث على مَن قال ذلك في يمينه، ولا كَذِبَ عليه في كلامه.

وقال النخعيُّ: كان لهم كلامٌ مِن ألغاز الأيمانِ يدرؤون به عن أنفسهم، لا يرون ذلك من الكذب، ولا يخشون فيه الحِنث. قال عبد الملك: وكانوا يسمُّون ذلك: المعاريضَ من الكلام، إذا كان ذلك في غير مكرٍ ولا خديعةٍ في حقٍّ.

وقال الأعمش: كان إبراهيم النخعيُّ إذا أتاه أحدٌ يكره الخروجَ إليه، جلس في مسجد بيته، وقال لجاريته: قولي له: هو واللهِ في المسجد[٧].

---

(١) ينظر النوادر والزيادات ١٠/ ٢٥٠ .

(٢) النوادر والزيادات ١٠/٢٤٩ ، وما بين حاصرتين منه.

(٣) ينظر النوادر والزيادات ١٠/٣٠٦ ، والإشراف ١/ ٤٦٥ .

(٤) سلف ١١/ ٤٤٠ ، وص٤٤٣ من هذا الجزء.

(٥) ينظر النوادر والزيادات ٤/ ٩ .

(٦) في (ظ) و(ف) و(م): أن الذي، وهو خطأ.

(٧) ينظر النوادر والزيادات ٤/ ٩ .

وروى مغيرةُ، عن إبراهيم، أنه كان يُجيز للرجل من البَعْث إذا عُرضوا على أميرِهم أن يقول: واللهِ ما أهتدي إلَّا ما سدَّد لي غيري، ولا أركب إلَّا ما حملني غيري، ونحو هذا من الكلام.

قال عبد الملك: يعني بقوله: غيري، اللهَ تعالى، هو مسدِّدُه وهو يحمله؛ فلم يكونوا يرون على الرجل في هذا حِنثاً في يمينه، ولا كذباً في كلامه، وكانوا يكرهون أنْ يقالَ هذا في خديعةٍ وظلمٍ وجحدانِ حقٍّ، فمن اجترأ وفعل أَثِم في خديعته، ولم تجب عليه كفَّارةٌ في يمينه[١].

الحادية والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أي: وسَّعه لقَبول الكفر، ولا يَقدِرُ أحدٌ على ذلك إلَّا الله؛ فهو يردُّ على القَدَرية. و«صدراً» نصبٌ على المفعول[٢]. ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهو عذابُ جهنَّم.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك الغضب. ﴿بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: اختاروها على الآخرة. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ «أنَّ» في موضع خفضٍ عطفاً على «بأنهم». ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ثم وصفهم فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: عن فهم المواعظ. ﴿وَسَمْعِهِمْ﴾ عن كلام الله تعالى. ﴿وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ عن النظر في الآيات. ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ عمَّا يراد بهم. ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ تقدَّم[٣].

---

(١) ينظر المصدر السابق.

(٢) تفسير الرازي ٢٠/١٢٣ .

(٣) ١١/٩٤ - ٩٥ .

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا﴾ هذا كلُّه في عمَّار. والمعنى: وصبروا على الجهاد؛ ذكره النحَّاس(١).

وقال قتادة: نزلت في قومٍ خرجوا مهاجرين إلى المدينة بعد أن فتنَهم المشركون وعذَّبوهم، وقد تقدَّم ذِكرُهم في هذه السورة(٢).

وقيل: نزلت في ابن أبي سَرْح، وكان قد ارتدَّ ولَحِق بالمشركين، فأمر النبيُّ ﷺ بقتله يوم فتحِ مكة، فاستجار بعثمان، فأجاره النبيُّ ﷺ؛ ذكره النَّسائيُّ عن عِكرمة، عن ابن عباس قال في سورة النحل: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فنُسخ واستثني من ذلك، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهو عبد الله بنُ سعد بنِ أبي سَرْح الذي كان على مصر، كان يكتب لرسول الله ﷺ، فأزلَّه الشيطانُ فلحق بالكفار، فأمر به أن يُقتلَ يومَ الفتح، فاستجار له عثمان بنُ عفان، فأجاره رسولُ الله ﷺ(٣).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ أي: إنَّ الله غفور رحيم في ذلك(٤)، أو ذكِّرهم ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ أي: تُخاصم وتحاجُّ عن نفسها.

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ١٠٨ ، وينظر ص٤٣٢-٤٣٤ من هذا الجزء.

(٢) ص٤٣٢-٤٣٤ من هذا الجزء، وينظر أسباب النزول للواحدي ص٢٨٩ .

(٣) المجتبى ٧/ ١٠٧ ، والكبرى (٣٥١٨)، وأخرج أبو داود (٤٣٥٨) القطعة الأخيرة منه.

(٤) يعني التقدير: غفور رحيم يومَ تأتي كلُّ نفس. . . إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤١٠ .

جاء في الخبر: إنَّ كل أحدٍ يقول يوم القيامة: نفسي نفسي، من شدَّة هول يومِ القيامة، سوى محمدٍ ﷺ فإنه يسأل في أمته[١].

وفي حديث عمر أنه قال لكعب الأحبار: يا كعب، خوِّفنا، هيِّجنا، حدِّثنا، نبِّهنا. فقال له كعب: يا أميرَ المؤمنين، والذي نفسي بيده، لو وافيتَ يومَ القيامة بمثل عمل سبعين نبيًّا، لأتَتْ عليك تاراتٌ[٢] لا يُهِمُّك إلَّا نفسُك، وإنَّ لِجهنم زفرةً لا يبقى مَلَكٌ مقرَّبٌ ولا نبيٌّ منتخَب إلا وقع جاثياً على رُكبتيه، حتى إنَّ إبراهيم الخليل لَيُدْلي بالخُلَّة فيقول: يا ربِّ، أنا خليلُك إبراهيم، لا أسألك اليومَ إلا نفسي! قال: يا كعب، أين تجد ذلك في كتاب الله؟ قال: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[٣].

وقال ابن عباس في هذه الآية: ما تزال الخصومةُ بالناس يومَ القيامة حتى تُخاصِمَ الروحُ الجسد، فتقول الروح: ربِّ، الروحُ منك أنت خلقته، لم تكن لي يدٌ أَبْطِشُ بها، ولا رِجلٌ أمشي بها، ولا عين أُبصِر بها، ولا أذن أسمع بها، ولا عقل أعقِل به، حتى جئتُ فدخلت في هذا الجسد، فَضَعِّف عليه أنواعَ العذاب ونجِّني، فيقول الجسد: ربِّ، أنت خلقتني بيدك، فكنتُ كالخشبة، ليس لي يدٌ أبطِشُ بها، ولا قَدَمٌ أسعَى به، ولا بصرٌ أُبصِر به، ولا سَمْعٌ أسمع به، فجاء هذا كشعاع النور، فبه نطقَ لساني، وبه أبصرَتْ عيني، وبه مشَتْ رجلي، وبه سمعتْ أُذني، فضعِّف عليه أنواعَ العذاب ونجِّني منه. قال: فيضرِبُ اللهُ لهما مَثَلاً: أعمى ومُقْعَداً دخلا بستاناً فيه ثمار، فالأعمى لا يُبصِر الثمرة، والمُقْعد لا ينالُها، فنادى المُقعَدُ الأعمى: اِيتني

---

(١) أخرجه مطولاً أحمد (٩٦٢٣)، والبخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة ﷺ. وفي الباب عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم، تنظر في مسند أحمد.

(٢) جمع تارة.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ١٣/ ١٥٤ - ١٥٥ ، وأحمد في الزهد ص١٥١ ، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ٣٦٨ - ٣٦٩ بنحوه.

فاحملْنِي آكلْ وأُطعِمْك، فدنا منه فحمله، فأصابوا من الثمرة، فعلى من يكون العذاب؟! قال: عليكما جميعاً العذاب؛ ذكره الثعلبي(١).

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ هذا متَّصلٌ بذِكر المشركين. وكان رسول الله ﷺ دعا على مُشركي قريش وقال: «اللَّهمَّ اشدُدْ وطأتك على مُضرَ، واجعلها عليهم سنينَ كَسِني يوسفَ»، فابتُلُوا بالقحط حتى أكلوا العِظام(٢)، ووجَّه إليهم رسولُ الله ﷺ طعاماً فَفرِّق فيهم(٣).

﴿كَانَتْ ءَامِنَةً﴾ لا يُهاج أهلُها ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ من البَرِّ والبحر، نظيره: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [القصص: ٥٧] الآية(٤). ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ الأنْعُم: جمع النِّعمة؛ كالأشُدّ: جمع الشِّدَّة(٥). وقيل: جمع نُعْمَى، مثل: بُؤسى وأَبؤس(٦). وهذا الكفران تكذيبٌ بمحمد ﷺ.

﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ﴾ أي: أذاق أهلَها. ﴿لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ سمَّاه لباساً؛ لأنه يظهر عليهم من الهُزال وشُحوبة اللونِ وسوء الحال ما هو كاللِّباس(٧). ﴿بِمَا كَانُوا۟

---

(١) وذكره أيضاً البغوي في تفسيره ٣/ ٨٧.

(٢) أخرجه أحمد (٣٦١٣)، والبخاري (١٠٠٧)، ومسلم (٢٧٩٨) من حديث ابن مسعود ﷺ، وفي الباب عن أبي هريرة ﷺ عند أحمد (٧٢٦٠)، والبخاري (٦٢٠٠)، ومسلم (٦٧٥)، وقد سلف ٤/ ٣٠٤.

(٣) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٨٨، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٥٠١، والرازي في تفسيره ٢٠/ ١٣٠.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٨٨.

(٥) هذا قول سيبويه كما في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤١٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٢٦. وقال قطرب وأبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣٦٩: واحد الأنعم: نُعْم. وينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٢١.

(٦) لم نقف على من ذكر هذا الجمع، وفي معاجم اللغة: أَبْؤُس جمع بُؤس، وأَنْعُم جمع نُعْم. وقال الطبري في تفسيره ١٤/ ٣٨٥: وكان بعض أهل الكوفة يقول: أنعم جمع نعماء، مثل: بأساء وأبؤس.

(٧) النكت والعيون ٣/ ٢١٧.

﴿يَصْنَعُونَ﴾ أي: من الكفر والمعاصي.

وقرأه حفص بنُ غياث ونصر بن عاصم وابنُ أبي إسحاق والحسن، وأبو عمرٍو فيما روى عنه عبدُ الوارث وعبيدٌ وعباسٌ: «والخوفَ» نصباً بإيقاع «أذاقها» عليه[1]، عطفاً على «لباسَ الجوعِ»، أي: أذاقها الله لباس الجوع[2] وأذاقها الخوفَ. وهو بعث النبيِّ ﷺ سراياه التي كانت تُطيف بهم[3]. وأصل الذَّوق بالفم، ثم يُستعار فيوضع موضعَ الابتلاء[4].

وضرب مكة مثلاً لغيرها من البلاد، أي: إنها مع جوار بيتِ الله وعِمارةِ مسجده، لمَّا كفر أهلُها؛ أصابهم القَحْط، فكيف بغيرها من القُرى. وقد قيل: إنها المدينة، آمنت برسول الله ﷺ، ثم كفرت بأنْعُم الله بقتل عثمان بنِ عفان، وما حدث بها بعد رسولِ الله ﷺ من الفتن. وهذا قول عائشةَ وحفصة زَوجَي النبيِّ ﷺ. وقيلَ: إنه مَثَلٌ مضروبٌ بأيِّ قريةٍ كانت على هذه الصفةِ من سائر القرى[5].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾ هذا يدلُّ على أنها مكة. وهو قول ابنِ عباس ومجاهدٍ وقتادة[6]. ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ وهو الجوع الذي وقع بمكة.

---

(١) ذكر رواية عبد الوارث وعبيد عن أبي عمرو ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٥٠٠ وهي غير المشهورة عن أبي عمرو، والقراءة المشهورة عنه كقراءة الجماعة. وعبيد: هو ابن عقيل بن صبيح أبو عمرو الهلالي البصري. قال البخاري: مات في رمضان سنة ٢٠٧ هـ. وعباس هو ابن الفضل بن عمرو أبو الفضل الواقفي الأنصاري البصري، قاضي الموصل. توفي سنة ١٨٦ هـ. غاية النهاية ١/ ٤٩٦ و ٣٥٣.

(٢) قوله: أي: أذاقها الله لباس الجوع، ليس في (د) و(م).

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٨٨.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٠٩.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٢١٧، وقول حفصة رضي الله عنها أخرجه الطبري ١٤/ ٣٨٤.

(٦) أخرجه عنهم الطبري ١٤/ ٣٨٣.

وقيل: الشدائد، والجوعُ منها.

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: كلوا يا معشرَ المسلمين من الغنائم. وقيل: الخطاب للمشركين؛ لأن النبيَّ ﷺ بعث إليهم بطعام رِقَّةً عليهم، وذلك أنهم لما ابتُلوا بالجوع سبعَ سنين، وقطع العرب عنهم المِيرَة[1] بأمر النبيِّ ﷺ أكلوا العظام المُحرَقةَ والجِيفةَ والكلاب الميتة والجلود والعِلْهِز، وهو الوَبَر يعالَج بالدَّم. ثم إنَّ رؤساء مكة كلَّموا رسولَ الله ﷺ حين جُهدوا، وقالوا: هذا عذابُ الرجال، فما بالُ النساء والصِّبيان؟ وقال له أبو سفيان: يا محمد، إنك جئتَ تأمر بصلة الرَّحم والعفو، وإنَّ قومك قد هلَكوا؛ فادعُ اللهَ لهم. فدعا لهم رسولُ الله ﷺ، وأَذِن للناس بحمل الطعام إليهم وهم بعدُ مشركون[2].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

تقدم في «البقرة» القولُ فيها مستوفًى[3].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾

فيه مسألتان:

---

(١) أي: الطعام.

(٢) زاد المسير ٤/ ٥٠١ ، وهذا الكلام جزء من الحديث الذي فيه: «اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف» السالف قريباً.

(٣) ٤/ ٢٢ وما بعدها.

الأولى: قوله تعالى: ﴿لِمَا تَصِفُ﴾ «ما» هنا مصدريَّة، أي: لوصف[١]. وقيل: اللام لامُ سببٍ وأجْل، أي: لا تقولوا لأجل وصفكم «الكَذِبَ»[٢] بنزع الخافض، أي: لِمَا تصف ألسنتكم من الكذب. وقُرئ: «الكُذُبُ» بضمِّ الكاف والذال والباء، نعتاً للألسنة، وقد تقدَّم[٣].

وقرأ الحسن هنا خاصَّةً: «الكَذِبِ» بفتح الكاف وخفضِ الذال والباء[٤]، نعتاً لـ«ما»؛ التقدير: ولا تقولوا لوصف ألسنتكم الكذبِ[٥]. وقيل: على البدل من «ما» أي: ولا تقولوا للكذب[٦] الذي تصفه ألسنتكم: هذا حلالٌ وهذا حرام؛ لتفتروا على اللهِ الكذب.

الآية خطابٌ للكفار الذين حرَّموا البحائرَ والسَّوائب، وأحلُّوا ما في بطون الأنعام وإنْ كان مَيْتةً. فقوله: «هذا حلال» إشارةٌ إلى ميتة بطونِ الأنعام، وكلِّ ما أحلُّوه. وقوله: «وهذا حرام» إشارةٌ إلى البحائر والسوائب وكلِّ ما حرَّموه[٧].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ * مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾ أي: ما هم فيه مِن نعيم الدنيا يزولُ عن قريب. وقال الزجَّاج[٨]: أي: متاعُهم متاعٌ قليل. وقيل: لهم متاعٌ قليل[٩]، ثم يُردُّون إلى عذابٍ أليم.

---

(١) بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤١٠ ، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٤٢٦ .

(٢) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٨٨ .

(٣) ص٣٤٧ من هذا الجزء.

(٤) القراءات الشاذة ص٧٣ ، والمحتسب ٢/ ١٢ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤١٠ ، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٤٢٦ ، والكشاف ٢/ ٤٣٣ . قال أبو حيان في البحر ٥/ ٥٤٥ : وهذا عندي لا يجوز؛ وذلك أنهم نصوا على أن «أن» المصدرية لا ينعت المصدر المنسبك منها ومن الفعل... وحكم باقي الحروف المصدرية حكم «أن».

(٦) في (د) و(ز) و(ظ): الكذب، والمثبت من (ف) و(م)، وينظر معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٠٩ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٢٩ .

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٤٢٩ .

(٨) في معاني القرآن ٣/ ٢٢٢ ، ونقله المصنف عن الوسيط للواحدي ٣/ ٨٩ .

(٩) من قوله: وقيل: لهم متاع قليل، ليس في (ظ) و(ف).

الثانية: أسند الدَّارِميُّ أبو محمدٍ في «مسنده»: أخبرنا هارون، عن حفص، عن الأعمش قال: ما سمعتُ إبراهيمَ قطُّ يقول: حلال، ولا: حرام، ولكن كان يقول: كانوا يكرهون، وكانوا يستحبُّون[1].

وقال ابن وَهْب: قال مالك: لم يكن من فُتْيا الناسِ أن يقولوا: هذا حلال وهذا حرام، ولكن يقولون: إيَّاكم كذا وكذا، ولم أكن لِأصنعَ هذا.

ومعنى هذا: أنَّ التحليل والتحريمَ إنما هو لله عزَّ وجلَّ، وليس لأحد أن يقولَ أو يُصرِّحَ بهذا في عين من الأعيان، إلَّا أن يكونَ الباريءُ تعالى يُخبر بذلك عنه. وما يؤدي إليه الاجتهادُ في أنه حرامٌ يقول: إني أكره [كذا]. وكذلك كان مالكٌ يفعل اقتداءً بمن تقدَّم مِن أهل الفتوى. فإن قيل: فقد قال فيمن قال لزوجته: أنت عليَّ حرام: إنها حرام، ويكون ثلاثاً[2]. فالجواب أنَّ مالكاً لمَّا سمع عليَّ بن أبي طالب يقول: إنها حرام، اقتدى به. وقد يقوى الدليلُ على التحريم عند المجتهد، فلا بأس عند ذلك أن يقولَ ذلك، كما يقول: إنَّ الربا حرام؛ في غير الأعيان السِّتَّة[3]. وكثيراً ما يطلق مالكٌ رحمه الله: فذلك حرام لا يصلح؛ في الأموال الرِّبَويَّة، وفيما خالف المصالحَ وخرج عن طريق المقاصد؛ لقوَّة الأدلةِ في ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ بيَّن أنَّ الأنعامَ والحَرْث حلالٌ لهذه الأمة، فأما اليهودُ فَحُرِّمت عليهم منها أشياء. ﴿حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ أي: في سورة

(١) مسند الدارمي (١٨٤)، وإبراهيم: هو النخعي.

(٢) الموطأ ٢/ ٥٥٢ . والكلام من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٧١ ، وما بين حاصرتين منه.

(٣) الأعيان الستة هي: الذهب والفضة، والبرّ والشعير، والتمر والملح. أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٧١ ، والكلام منه.

الأنعام[١]. ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ أي: بتحريم ما حرَّمنا عليهم، ولكن ظلموا أنفسَهم، فحرَّمنا عليهم تلك الأشياءَ عقوبةً لهم، كما تقدّم في «النساء»[٢].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي: الشِّرك[٣]؛ قاله ابنُ عباس. وقد تقدم في النساء[٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ دعا عليه الصلاة والسَّلام مشركي العرب إلى مِلَّة إبراهيم، إذ كان أباهم وبانيَ البيتِ الذي به عِزُّهم.

والأُمَّة: الرجل الجامعُ للخير[٥]، وقد تقدَّم محاملُه[٦].

وقال ابن وهب وابنُ القاسم عن مالك، قال: بلغني أنَّ عبد الله بنَ مسعود قال: يرحم اللهُ معاذاً، كان أُمَّة قانتاً. فقيل له: يا أبا عبد الرحمن، إنما ذكر اللهُ عزَّ وجلَّ بهذا إبراهيمَ عليه السلام. فقال ابن مسعود: إنَّ الأُمَّة الذي يُعلِّم الناسَ الخير، وإنَّ القانت هو المُطيع[٧]. وقد تقدم القنوت في «البقرة»[٨] و«حنيفاً» في «الأنعام»[٩].

---

(١) أخرج هذا القول الطبري ١٤/ ٣٩١ - ٣٩٢ عن الحسن وعكرمة وقتادة.

(٢) ٧/ ٢١٥ - ٢١٦ .

(٣) الوجيز للواحدي ١/ ٤٦٨ (على هامش مراح لبيد).

(٤) ٦/ ١٥١ ، وينظر الوسيط للواحدي ٣/ ٨٩ .

(٥) تهذيب اللغة ١٥/ ٦٣٤ .

(٦) ٢/ ٣٩٧ .

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٧٢ . وأخرجه الطبري ١٤/ ٣٩٤ - ٣٩٥ ، و٣٩٦ - ٣٩٧ ، والطبراني في الكبير (٩٩٤٣)، والحاكم ٢/ ٣٥٨ ، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٣٠ من غير طريق مالك.

(٨) ٢/ ٣٣٤ و ٤/ ١٨٣ - ١٨٥ .

(٩) ٨/ ٤٤٢ ، لكن ذكر المصنف ثمة معناه مختصراً، وقد بسط معناه في سورة البقرة ٢/ ٤١٤ .

قوله تعالى: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةًۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿شَاكِرًا﴾ أي: كان شاكراً. ﴿لِّأَنْعُمِهِ﴾ الْأَنْعم: جمع نِعْمة، وقد تقدَّم[(١)]. ﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾ أي: اختاره.

﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَءَاتَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قيل: الولد الطيِّب. وقيل: الثناءُ الحَسن. وقيل: النبوَّة. وقيل: الصلاة [عليه] مقرونةً بالصلاة على محمد عليه الصلاة والسلام في التشهد. وقيل: إنه ليس أهلُ دين إلَّا وهم يتولَّونه[(٢)]. وقيل: بقاءُ ضيافته وزيارة قبره[(٣)]. وكلُّ ذلك أعطاه اللهُ، وزاده ﷺ.

﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾. «مِن» بمعنى: مع، أي: مع الصالحين؛ لأنه كان في الدنيا أيضاً مع الصالحين. وقد تقدَّم هذا في «البقرة»[(٤)].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

قال ابن عمر: أُمِر باتِّباعه في مناسك الحجِّ كما علَّم إبراهيمَ جبريلُ عليهما السلام[(٥)]. وقال الطبري: أُمِرَ باتّباعه في التبرُّؤ من الأوثان والتديُّن[(٦)] بالإسلام. وقيل: أُمِر باتِّباعه في جميع مِلَّته إلَّا ما أُمر بتركه؛ قاله بعضُ أصحاب الشافعيِّ على كل ما حكاه الماوردي[(٧)].

---

(١) ص٤٥٢ من هذا الجزء.

(٢) وردت هذه الأقوال في زاد المسير ٤/ ٥٠٤ ، وما بين حاصرتين منه.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢١٩ .

(٤) ٢/ ٤٠٦ .

(٥) الوسيط للواحدي ٣/ ٩١ .

(٦) في النسخ: التزين، والمثبت من النكت والعيون ٣/ ٢١٩ ـ وعنه نقله المصنف ـ وزاد المسير ٤/ ٥٠٤-٥٠٥ ، وهو بمعناه في تفسير الطبري ١٤/ ٣٩٨ .

(٧) في النكت والعيون ٣/ ٢١٩ .

والصحيح الاتباعُ في عقائد الشرعِ دون الفروع؛ لقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

مسألة: في هذه الآية دليلٌ على جواز اتِّباع الأفضلِ للمفضول لمَّا تقدَّم إلى الصواب[١] والعملِ به، ولا دَرَك على الفاضل في ذلك[٢]؛ لأن النبيَّ ﷺ أفضلُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد أُمِر بالاقتداء بهم فقال تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]. وقال هنا: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي: لم يكن في شرع إبراهيمَ ولا مِن دينه، بل كان سَمْحاً لا تغليظَ فيه، وكان السبتُ تغليظاً على اليهود في رفض الأعمال وتركِ التبسُّط في المعاش؛ بسبب اختلافهم فيه[٣]، ثم جاء عيسى عليه السلام بيوم الجمعة فقال: تفرَّغوا للعبادة في كل سبعةِ أيامٍ يوماً واحداً، فقالوا: لا نريد أن يكونَ عيدُهم بعد عيدِنا، فاختاروا الأحد[٤].

وقد اختلف العلماءُ في كيفيةِ ما وقع لهم من الاختلاف، فقالت: طائفة: إنَّ موسى عليه السلام أَمرهم بيوم الجمعة وعيَّنه لهم، وأخبرهم بفضيلته على غيره، فناظروه أنَّ السبتَ أفضلُ، فقال الله له: دَعْهم وما اختاروا لأنفسهم.

وقيل: إن الله تعالى لم يُعيِّنْه لهم، وإنما أمرهم بتعظيم يومٍ في الجمعة[٥]،

---

(١) في (د) و(ز): الأصول، والمثبت من (ظ) و(ف)، وهو الموافق للمحرر الوجيز ٣/ ٤٣١، والكلام منه ومن النكت والعيون ٣/ ٢١٩. وينظر مجمع البيان ١٤/ ١٣٦.

(٢) أي: لا تَبِعة. الصحاح (درك).

(٣) بنحوه المحرر الوجيز ٣/ ٤٣١.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٩٠، وتفسير الرازي ٢٠/ ١٣٧.

(٥) يعني: أمرهم بتعظيم يوم في الأسبوع، ولم يرد في المعاجم الجمعة بمعنى الأسبوع. ووقع في (د) و(ف): يوم الجمعة.

فاختلف اجتهادُهم في تعيينه، فعيَّنت اليهودُ السبت؛ لأن اللهَ تعالى فرغ فيه من الخَلْق. وعيَّنت النصارى يومَ الأحد؛ لأن الله تعالى بدأ فيه بالخلق. فألزِم كلٌّ منهم ما أدَّاه إليه اجتهادُه. وعيَّن اللهُ لهذه الأمةِ يومَ الجمعة من غير أنْ يَكِلَهم إلى اجتهادهم؛ فضلاً منه ونعمة[1]، فكانت خيرَ الأمم أُمَّةً.

روى الصحيحُ عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخِرون الأوَّلون يومَ القيامة، ونحن أوَّلُ مَن يدخل الجنة، بَيْدَ أنهم أُوتوا الكتابَ مِن قَبْلنا وأوتيناه مِن بعدهم، فاختلفوا فيه، فهدانا اللهُ لمَا اختلفوا فيه من الحقّ، فهذا يومُهم الذي اختلفوا فيه، فهدانا الله له ـ قال: يوم الجمعة ـ فاليوم لنا، وغداً لليهود، وبعد غدٍ للنصارى»[2].

فقوله: «فهذا يومُهم الذي اختلفوا فيه» يقوِّي قولَ مَن قال: إنه لم يُعيَّن لهم، فإنه لو عُيِّن لهم وعاندوا لمَا قيل: «اختلفوا». وإنما كان ينبغي أن يقالَ: فخالَفوا فيه وعاندوا. ومما يُقوِّيه أيضاً قولُه عليه الصلاة والسلام: «أضلَّ اللهُ عن الجمعة مَن كان قبلَنا»[3]. وهذا نصٌّ في المعنى.

وقد جاء في بعض طُرُقه: «فهذا يومُهم الذي فرض اللهُ عليهم، فاختلفوا فيه»[4]. وهو حُجَّةٌ للقول الأول. وقد روي: «إنَّ الله كتب الجمعةَ على مَن قَبْلَنا[5]، فاختلفوا فيه وهدانا اللهُ له، فالناسُ لنا فيه تَبَعٌ»[6].

قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾ يريد: في يوم الجمعة كما بيَّنَّاه؛ اختلفوا

---

(١) المفهم ٢/ ٤٩١ - ٤٩٢ .

(٢) أخرجه أحمد (٧٣١٠)، والبخاري (٨٧٦)، ومسلم (٨٥٥): (٢٠)، وسلف ١٠/ ٣٤٦ .

(٣) المفهم ٢/ ٤٩٢ ، والحديث أخرجه مسلم (٨٥٦): (٢٢) من حديث حذيفة ﷺ مطولاً.

(٤) أخرجه مسلم (٨٥٥): (٢١)، والكلام في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٧٣ ، والمفهم ٢/ ٤٩٢ .

(٥) في (د) و(م): كان قبلنا.

(٦) أخرجه أحمد (٧٢١٤) من حديث أبي هريرة ﷺ .

على نبيِّهم موسى وعيسى. ووجهُ الاتصال بما قبله: أنَّ النبيَّ ﷺ أُمِر باتِّباع الحقّ، وحذَّر اللهُ الأُمَّةَ من الاختلاف عليه فيشدِّدَ عليهم كما شَدَّد على اليهود(١).

قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

فيه مسألةٌ واحدة: هذه الآيةُ نزلت بمكة في وقت الأمرِ بمهادنةِ قريش، وأمرَه أن يدعوَ إلى دين الله وشَرعِه بتلطُّف ولينٍ دون مُخاشنةٍ وتعنيف، وهكذا ينبغي أن يُوعَظَ المسلمون إلى يوم القيامة. فهي مُحكَمةٌ في جهة العصاة من الموحِّدين، ومنسوخةٌ بالقتال في حقِّ الكافرين. وقد قيل: إنَّ مَن أمكنت معه هذه الأحوالُ من الكفار ورُجي إيمانُه بها دون قتال، فهي محكمة(٢). والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

فيه أربعُ مسائل:

الأولى: أطبق جمهورُ أهل التفسيرِ أنَّ هذه الآيةَ مدنيَّة، نزلت في شأن التمثيلِ بحمزةَ في يوم أُحُد، ووقع ذلك في «صحيح» البخاريِّ وفي كتاب السِّيَر(٣). وذهب النحَّاس إلى أنها مكِّية(٤)، والمعنى متَّصلٌ بما قبلَها من المكيِّ اتِّصالاً حسناً؛ لأنها تتدرَّج الرُّتبُ من الذي يُدْعَى ويُوعَظ، إلى الذي يُجادل، إلى الذي يُجازَى على فِعْله.

---

(١) ينظر مجمع البيان ١٤/ ١٣٦.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٢.

(٣) في (ظ): كتاب التفسير، والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق للمحرر الوجيز (والكلام منه) ولم نقف على أن الآية نزلت بشأن التمثيل بحمزة في صحيح البخاري، وإنما فيه أنه مُثِّل بأبي جابر بن عبد الله وبأنس بن النضر ﷺ (١٢٩٣) و(٢٨٠٥). وقصة حمزة ﷺ سيذكرها المصنف قريباً.

(٤) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٤٨٤، ونقله المصنف عنه بواسطة المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٢.

ولكن ما روى الجمهورُ أثبتُ(١).

روى الدَّارَقُطْنيُّ عن ابن عباس قال: لمَّا انصرف المشركون عن قتلى أُحُد، انصرف رسول الله ﷺ فرأى منظراً ساءه، رأى حمزةَ قد شُقَّ بطنه، واصطُلِم أنفُه، وجُدِعت أُذناه، فقال: «لولا أنْ يحزنَ النساءُ أو تكونَ سُنَّةً بعدي، لَتركتُه حتى يبعثَه الله من بطون السِّباع والطير، لأُمثلنَّ مكانَه بسبعين رجلاً». ثم دعا بِبُردة وغطَّى بها وجهَه، فخرجت رجلاه، فغطَّى رسولُ الله ﷺ وجهه وجعل على رِجلَيه من الإذْخِر، ثم قدَّمه فكبَّر عليه عشراً، ثم جَعَلَ يُجاء بالرَّجل فيوضعُ وحمزةُ مكانَه، حتى صلَّى عليه سبعين صلاة، وكان القتلى سبعين، فلمَّا دُفنوا وفُرغ منهم، نزلت هذه الآية: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾. فصبر رسولُ الله ﷺ ولم يُمَثِّل بأحد(٢).

خرَّجه إسماعيل بنُ إسحاق من حديث أبي هريرة(٣)، وحديثُ ابنِ عباس أكمل.

وحكى الطبريُّ(٤) عن فِرقة أنها قالت: إنما نزلت هذه الآيةُ فيمن أُصيب بظُلَامة ألَّا ينالَ من ظالمه إذا تمكَّن إلا مثلَ ظُلامتِه لا يتعدَّاه إلى غيره. وحكاه الماورديُّ عن ابن سيرين ومجاهد(٥).

الثانية: واختلف أهل العلم فيمن ظلمه رجلٌ في أخذ مالٍ، ثم ائتمن الظالمُ المظلومَ على مال، هل يجوز له خيانتُه في القَدْر الذي ظَلَمه؟ فقالت فرقة: له ذلك، منهم ابنُ سيرين وإبراهيم النَّخَعيُّ وسفيانُ ومجاهد؛ واحتجَّت بهذه الآيةِ وعمومِ

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٢ .

(٢) سنن الدارقطني (٤٢٠٩)، وأخرجه من طريقه الواحدي في أسباب النزول ص٢٨٩ - ٢٩٠ .

(٣) وأخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٢٩٠ ، والبيهقي في الدلائل ٣/ ٢٨٩ ، وفي إسناده صالح المُرِّي، وهو ضعيف، كما في تقريب التهذيب ص٢١٢ .

(٤) في تفسيره ١٤/ ٤٠٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٢ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٢٢١ ، وأخرجه عنهما الطبري ١٤/ ٤٠٥- ٤٠٦ .

لفظِها. وقال مالكٌ وفرقةٌ معه: لا يجوز له ذلك، واحتجُّوا بقول رسولِ الله ﷺ: «أدِّ الأمانةَ إلى من ائتمنك، ولا تَخُنْ مَن خانك». رواه الدارَقطنيّ(١). وقد تقدَّم هذا في «البقرة» مستوفًى(٢).

ووقع في مسند ابنِ إسحاق(٣) أنَّ هذا الحديثَ إنما ورد في رجل زنى بامرأةِ آخر، ثم تمكَّن الآخرُ من زوجة الثاني بأنْ تركها عنده وسافر؛ فاستشار ذلك الرجلُ رسولَ الله ﷺ في الأمر، فقال له: «أدِّ الأمانةَ إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك». وعلى هذا يتقوَّى قولُ مالكٍ في أمر المال؛ لأن الخيانة لاحقةٌ في ذلك، وهي رذيلة لا انفكاكَ عنها، فينبغي أن يتجنَّبها لنفسه؛ فإن تمكَّن من الانتصاف مِن مالٍ لم يأتمنه عليه، فيُشبه أنَّ ذلك جائز، وكأن اللهَ حَكَم له؛ كما لو تمكَّن الأخذَ بالحكم من الحاكم.

وقد قيل: إنَّ هذه الآيةَ منسوخة، نسختها: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الآية: ١٢٧](٤).

الثالثة: في هذه الآية دليلٌ على جواز التماثل في القِصاص؛ فمَن قتَل بحديدة قُتل بها. ومَن قتَل بحجر قُتل به(٥)، ولا يتعدَّى قَدْرَ الواجب، وقد تقدَّم هذا المعنى في «البقرة» مستوفًى(٦)، والحمد لله.

الرابعة: سمَّى اللهُ تعالى الإذاياتِ في هذه الآية عقوبةً، والعقوبةُ حقيقةً إنما

(١) في سننه (٢٩٣٥) و(٢٩٣٦) و(٢٩٣٧) من حديث أُبيّ بن كعب وأبي هريرة وأنس ﷺ، والكلام في المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٢ .

(٢) ٣/ ٢٤٨ - ٢٤٩ .

(٣) كذا في النسخ، وفي المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٣ (والكلام منه): ابن سنجر، وسلفت ترجمته ٥/ ١٤ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٢١ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٧٨ .

(٦) ٣/ ٢٥٢ - ٢٥٥ .

هي الثانية، وإنما فعل ذلك ليستويَ اللَّفظان، وتتناسبَ ديباجةُ[١] القول، وهذا بعكس قوله: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥] فإنَّ الثانيَ هنا هو المجاز، والأوَّلَ هو الحقيقة. قاله ابنُ عطية.

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

فيه مسألةٌ واحدة: قال ابن زيد: هي منسوخةٌ بالقتال. وجمهورُ الناس على أنها مُحْكَمة[٢]، أي: اصبِر بالعفو عن المعاقبة بمثل ما عاقبوا من المُثْلة. ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على قتلى أُحد؛ فإنهم صاروا إلى رحمة الله[٣].

﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ﴾ ضَيْق: جمع ضِيْقة، قال الشاعر:

كَشَفَ الضِّيْقَةَ عنا وفَسَحْ[٤]

وقراءة الجمهورِ بفتح الضَّاد. وقرأ ابنُ كَثير بكسر الضاد، ورويت عن نافع، وهو غلطٌ ممن رواه. قال بعض اللغويين: الكسرُ والفتح في الضاد لغتان في المصدر[٥].

قال الأخفش: الضَّيق والضِّيق مصدر: ضاق يضيق[٦]. والمعنى: لا يضيق صدرُك مِن كفرهم. وقال الفرَّاء[٧]: الضَّيق: ما ضاق عنه صدرك، والضِّيق: ما يكون

---

(١) في (ز) و(ف) و(م): دباجة، وفي (د): وباجة، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٢، والكلام منه.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٣.

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ٩١، وزاد المسير ٤/ ٥٠٨.

(٤) الصحاح (ضيق)، وصدر البيت: فلئن ربُّك مِن رحمته. وقائله الأعشى، وهو في ديوانه ص٢٨٧.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٣، وقراءة ابن كثير في السبعة ص٣٧٦، والتيسير ص١٣٩، والقراءة المشهورة عن نافع كقراءة الجمهور. قال النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٤١١: هذا لا يُعرف عن نافع.

(٦) الوسيط للواحدي ٣/ ٩٢.

(٧) في معاني القرآن ٢/ ١١٥.

في الذي يَتَّسع ويضيق؛ مثلُ الدار والثوب. وقال ابن السِّكِّيت: هما سواء؛ يقال: في صدره ضَيق وضِيق[١] القُتَبي[٢]: ضَيْق: مخفَّفُ ضَيِّق، أي: لا تكن في أمرٍ ضَيِّق، فَخُفِّف، مثل: هَيِّن وهَيْن. وقال ابن عرفة: يقال: ضاق الرجل: إذا بخل، وأضاق: إذا افتقر[٣].

وقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ أي: الفواحشَ والكبائرَ بالنصر والمعونةِ والفضل والبِرِّ والتأييد[٤].

وتقدَّم معنى الإحسان[٥].

وقيل لهَرِم بن حَيَّان[٦] عند موته: أَوْصِنا، فقال: أُوصيكم بآيات اللهِ وآخرِ سورة النحل: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ إلى آخرها[٧].

تم الجزء الثاني عشر من تفسير القرطبي، ويليه الجزء الثالث عشر ويبدأ بسورة الإسراء

(١) تهذيب اللغة ٩/ ٢١٧ .

(٢) في غريب القرآن له ص٢٤٩ - ٢٥٠ .

(٣) ينظر الصحاح (ضيق).

(٤) بنحوه الوجيز للواحدي ١/ ٤٧٠ (على هامش مراح لبيد).

(٥) ٢/ ١٣١ .

(٦) في (م): حِبّان: وهو خطأ، وسلفت ترجمته ص٢٢ من هذا الجزء.

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٦٢ - ٥٦٣ ، وأحمد في الزهد ص٢٨٢ ، والطبري في تفسيره ١٤/ ٤٠٩-٤١٠ .

سُورَةُ النَّحلِ

مَكيَّةٌ غيرَ ثلاثِ آياتٍ في آخرِها[1]، وهي مئةٌ وثمانٍ وعِشرونَ آيةً

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾ كانوا يَستعجِلونَ ما أوعدَهُم الرَّسولُ مِن قيامِ السَّاعةِ وإهلاكِ اللهِ إيَّاهُم كما فعلَ يومَ بدرٍ استهزاءً وتكذيبًا، ويقولون: إنْ صحَّ ما يقولُه فالأَصنامُ تَشفَعُ لنا وتُخلِّصُنَا منه فنزلت[2]، والمعنى: أنَّ الأمرَ الموعودَ به بمنزلةِ الآتي المُتحقِّقِ مِن حيثُ إنَّه واجبُ الوُقوعِ فلا تَستَعجِلُوا وقوعَهُ فإنَّه لا خيرَ لَكُم فيه ولا خلاصَ لَكُم عنه.

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ تبرَّأَ وجلَّ عَن أنْ يكونَ له شَريكٌ فيَدفعَ ما أرادَ بهم.

وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ بالتَّاءِ على وَفقِ قولِه: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾، والباقونَ بالياءِ[3] على تلوينِ الخطابِ، أو: على أنَّ الخطابَ للمُؤمنينَ، أو: لهم ولغيرِهم لِمَا رُوِيَ: أنَّه لمَّا نزل ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١] قال الكفَّارُ فيما بينهم: أَمْسِكوا عن بعضِ ما تعملون، فلمَّا تأخرتْ قالوا: ما نرى شيئاً! فنزلت: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ [الأنبياء: ١]

---

(١) رواه النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٥٤١) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) لم أجده هكذا، وقد روي في سبب النزول نحو هذا وسيأتي قريباً.

(٣) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٣٢٤)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢١).

فأَشْفَقوا وانتَظَروا فلمَّا امتدَّتِ الأيامُ قالوا: يا محمدُ! ما نرى شيئاً، فنزلَتْ ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ فوثبَ النَّبيُّ ورفعَ النَّاسُ رؤوسَهُم فنزلَتْ: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾ [فاطمأنُّوا][1].

(٢) ـ ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾: بالوحيِ، أو القُرآنِ، فإنَّه يُحيي به القُلوبَ الميتةَ بالجَهلِ، أو يقومُ في الدِّينِ مقامَ الرُّوحِ في الجسدِ، وذكرَه عقيبَ ذلك إشارةً إلى الطَّريقِ الذي به عَلِمَ الرَّسولُ تحقُّقَ ما تَوَعَّدَهُم به ودُنوَّهُ، وإزاحةً لاستبعادِهِم اختصاصَه بالعلمِ به.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو: ﴿يُنْزِلُ﴾ مِن أنزلَ[2]، وعَن يعقوبَ مِثلُه[3]، وعنه: ﴿تَنزَّلُ﴾ بمَعنى: تتنزَّلُ[4].

وقرأَ أبو بكرٍ: ﴿تُنَزَّلَ﴾ على المُضارعِ المَبنيِّ للمَفعولِ مِن التَّنزيلِ[5].

﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾: بأمرِه ومِن أَجلِه ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ أن يتَّخذَهُ رسولًا.

---

(١) ذكره أبو الليث السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٢٦٥)، والثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ١٠)، والواحدي في «أسباب النزول» (٢٧٨)، والجرجاني في «درج الدرر» (٢/ ١٨١)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٧)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ٥٤٩)، والقرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٢٦٨)، جميعهم عن ابن عباس رضي الله عنهما ولم يذكر أحد له سنداً. وذكره أيضاً الزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٥١٩) دون نسبة، وما بين معكوفتين منه ومن باقي المصادر.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٠)، و«التيسير» (ص: ٧٥).

(٣) هي رواية رويس عن يعقوب. انظر: «النشر» (٢/ ٣٠٢).

(٤) هي رواية روح عن يعقوب. انظر: «النشر» (٢/ ٣٠٢).

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٠)، و«معاني القراءات» للأزهري (٢/ ٧٥)، من طريق الكسائي عن أبي بكر، وقال الأزهري: ما رواه غيره. وانظر: «إعراب القراءات» لابن خالويه (ص: ٢٠٠)، و«الحجة» لأبي علي الفارسي (٥/ ٤٢).

﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ﴾: بأن أَنذِرُوا؛ أي: أَعلِموا ـ مِن نَذِرْتُ بكَذا: إذا عَلِمتَه ـ ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾: أنَّ الشَّأنَ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾، أو: خوِّفوا أهلَ الكُفرِ والمَعاصي بأنَّه لا إله إلا أنا.

وقولـه: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ رجـوعٌ إلى مُخاطَبَتِهـم بما هو المقصودُ، و﴿أَنْ﴾ مُفسِّـرَةٌ؛ لأنَّ الـرُّوحَ بمَعنـى الوَحـيِ الدَّالِّ علـى القَـوْلِ، أو مَصدريَّـةٌ في مَوضـعِ الجرِّ بدلًا مـن (الـرُّوحِ)، أو النَّصـبِ بنَزعِ الخافـضِ، أو مخفَّفَةٌ مِـن الثَّقيلَةِ.

والآيةُ تَدلُّ على أنَّ نزولَ الوَحيِ بواسِطَةِ الملائكةِ، وأنَّ حاصِلَهُ: التَّنبيهُ على التَّوحيدِ الذي هو مُنتهَى كمالِ القُوَّةِ العلميَّةِ، والأمرُ بالتَّقوَى الذي هـو أَقْصَى كمالاتِ القوَّةِ العمليَّةِ، وأنَّ النبوَّةَ عطائيَّةٌ، والآياتُ التي بعدَها دليلُ وَحدانيَّتِه مِن حيثُ إنَّها تَدُلُّ على أنَّهُ تَعالى هو الموجِدُ لأصولِ العالمِ وفروعِه على وَفْقِ الحكمةِ والمصلحةِ، ولو كانَ له شَريكٌ لقدرِ عَلى ذلك، فيلزمُ التَّمانعُ.

(٣) ـ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾: أوجدَهُما عـلـى مقـدارٍ وشكلٍ وأوضاعٍ وصِفاتٍ مُختلفةٍ قدَّرَها وخصَّصَها بحكمَتِه.

﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ منهما، أو: ممَّا يفتقِرُ في وجودِهِ أو بقائِهِ إليهِمَا، أو: ممَّا لا يقدرُ على خَلقِهما، وفيه دليلٌ على أنَّه تَعالى ليسَ مِن قَبيلِ الأَجرامِ.

(٤) ـ ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ جمـادٍ لا حِـسَّ لَهـا ولا حـراكَ، سيَّالةٍ لا تحفَـظُ الوضـعَ والشَّـكلَ ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾: مِنطيـقٌ مُناظِـرٌ مُجـادِلٌ ﴿مُّبِينٌ﴾ للحُـجَّـةِ.

أو: خصيمٌ مُكافِحٌ لخالقِه، قائل: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨].

رُوِيَ: أنَّ أُبيَّ بنَ خَلَفٍ أتى النَّبيَّ ﷺ بعظمٍ رَميمٍ وقال: يا محمَّدُ! أتَرى[١] اللهَ يُحيِي هذا بعدَما قد رمَّ، فنزلت[٢].

(٥) ـ ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ﴾: الإبلَ والبقرَ والغنَمَ، وانتصابُه بمُضمَرٍ يُفسِّرُه: ﴿خَلَقَهَاۗ لَكُمْ﴾، أو بالعَطفِ على ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ و﴿خَلَقَهَاۗ لَكُمْ﴾ بيانُ ما خُلقَت لأَجلِه، وما بعدَهُ تَفصيلٌ له.

﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾: ما يُدْفَأُ به فيَقي البردَ ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾: نَسلُها ودَرُّهَا وظُهورُها، وإنما عبَّرَ عَنْها بالمنافعِ لتَتناولَ عِوَضَها[٣].

---

(١) في نسخة الخيالي زيادة: «أن».

(٢) ذكره أبو حفص النسفي في «التيسير في التفسير» عند هذه الآية، وفيه: (أمية بن خلف). وفي آخره: فأنزل الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] الآيات.
ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٠٠١)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٨٧) عن الزهري عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: ١٧].
ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٤٩٨)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٤٨٧) عن قتادة، في نزول قوله تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨].
وكذا جاء في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٦١ ـ ٣٦٢) عن ابن إسحاق.
وكذا رواه البيهقي في «البعث والنشور» (١٦) عن أبي مالك، و(١٧) عن مقاتل بن سليمان.
وكذا رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٨١٢١) عن مجاهد. وفي رواية سعيد بن جبير عند الطبري (١٩/ ٤٨٧) أنه العاص بن وائل السهمي، وكذا رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٦٠٦) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما. وهو في نزول آية (يس) أيضاً.
فمما تقدم يظهر أن الروايات شبه متفقة على نزولها في آية (يس)، وما روي عن الزهري في آية الأنفال فليس هو سبب النزول لبعد المسافة بين القصة ونزول الآية، بل لنوع ارتباط بينهما.

(٣) قوله: «لتتناول عوضها»؛ أي: أجرتَها، وفي نسخة: (غرضها)؛ أي: وهو النفعُ. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٤٢٣).

﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾؛ أي: تأكلونَ ما يُؤكَلُ مِنْها مِن اللُّحومِ والشُّحومِ والألبانِ. وتقديمُ الظَّرفِ للمُحافظةِ على رؤوسِ الآيِ، أو لأنَّ الأكلَ مِنْها هو المعتادُ المعتمَدُ عليه في المعاشِ، وأمَّا الأَكلُ مِن سائرِ الحيواناتِ المأكولةِ فعَلى سبيلِ التَّداوِي أو التَّفكُّهِ.

(٦) ـ ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ﴾: زينةٌ ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾: تردُّونها مِن مراعيها إلى مَرَاحِها[١] بالعَشِيِّ ﴿وَحِينَ تَسۡرَحُونَ﴾: تُخرِجُونَها بالغَداةِ إلى المراعي، فإنَّ الأفنيةَ تتزيَّنُ بها في الوقتينِ، ويَجلُّ أهلُهَا في أعيُنِ النَّاظرينَ إليها، وتقديمُ الإراحَةِ لأنَّ الجمالَ فيها أظهَرُ، فإنَّها تُقبِلُ مَلْأَى البُطونِ حافِلَةَ الضُّروعِ، ثمَّ تأوي إلى الحظائرِ حاضرةً لأَهلِها.

وقرئ: (حينًا)[٢] على أن ﴿تُرِيحُونَ﴾ و﴿تَسۡرَحُونَ﴾ وصفٌ له بمعنى: تُريحونَ فيه وتَسرحونَ فيه.

(٧) ـ ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ﴾: أحمالَكُم ﴿إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ﴾ إن لم تكُنِ الأنعامُ ولم تُخْلَقْ، فضلًا أن تَحمِلُوها على ظُهورِكُم إليه.

﴿إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِ﴾: إلا بكلفَةٍ ومَشَقَّةٍ. وقُرِئَ بالفتحِ[٣]، وهو لغَةٌ فيه، وقيل: المفتوحُ مَصدرُ شَقَّ الأَمرُ عليه، وأصله: الصَّدعُ، والمكسورُ بمعنى النِّصفِ، كأنَّه ذهبَ نِصفُ قوَّتِه بالتَّعبِ.

---

(١) أي: مقرها.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٦) عن عكرمة والضحاك.

(٣) أي: بفتح الشين في ﴿بِشِقِّ﴾، قرأ بها أبو جعفر من العشرة، والباقون بكسرها. انظر: «النشر» (٢/ ٣٠٢).

﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيثُ رَحِمَكُم بخَلقِها لإنفاعِكُم[١] وتَيسيرِ الأَمرِ عَلَيْكُم.

(٨) ـ ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ﴾ عطفٌ على (الأنعامَ) ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾؛ أي: لِتَرْكَبُوها ولتتزيَّنُوا بها زينةً.

وقيل: هي مَعطوفةٌ على محلِّ ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾، وتغييرُ النَّظمِ لأنَّ الزِّينةَ بفعلِ الخالقِ، والرُّكوبَ ليسَ بفعلِه، ولأنَّ المقصودَ مِن خلقِها الرُّكوبُ، وأمَّا التَّزيُّنُ بها فحاصِلٌ بالعَرَضِ.

وقُرِئَ بغيرِ واوٍ[٢]، وعلى هذا يحتمِلُ أَنْ يكونَ عِلَّةً لـ(تركبوها)، أو مصدرًا في موقعِ الحالِ مِن أحدِ الضَّميرينِ؛ أي: مُتَزيِّنينَ، أو مُتزيَّنًا بها.

واستُدلَّ به على حرمةِ لُحومِها، ولا دليلَ فيه؛ إذ لا يلزمُ من تَعليلِ الفعلِ بما يُقصدُ منه غالبًا أن لا يُقصدَ منه غيرُه أصلًا، ويدلُّ عليه أنَّ الآيةَ مَكيَّةٌ، وعامَّةُ المفسِّرينَ والمُحدِّثينَ على أنَّ الحُمُرَ الأهليَّةَ حُرِّمَت عامَ خيبرَ.

﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ لَمَّا فصَّلَ الحيواناتِ التي يُحتاجُ إليها غالبًا احتياطًا ضروريًّا أو غيرَ ضروريٍّ أجمَلَ غيرَها، ويجوزُ أَنْ يكونَ إخبارًا بأنَّ لَهُ مِن الخلائقِ ما لا عِلمَ لنا به، وأن يرادَ به ما خلقَ في الجنَّةِ والنَّارِ ممَّا لم يَخطُر على قلبِ بَشرٍ.

(٩) ـ ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾: بيانُ مُستقيمِ الطَّريقِ الموصِلِ إلى الحقِّ، أو: إقامَةُ السَّبيلِ وتعديلُها رحمةً وفَضْلًا، أو: عليه قَصْدُ السَّبيلِ يصلُ إليه مَن يَسلكُهُ

---

(١) الموجود في اللُّغَةِ النَّفع لا الإنفاع، وقد استعملَه المُصنِّفُ ـ رحمَه اللهُ تعالى ـ في مواضعَ من كتابه، وخُطِئ فيه. «حاشية الشهاب». وقد تقدم التنبيه عليه.

(٢) أي: (لتركبوها زينة). انظر: «المحتسب» (٢/ ٨) عن أبي عياض.

لا محالةَ، يقال: سبيلٌ قَصْدٌ وقاصِدٌ؛ أي: مُستقيمٌ، كأنَّه يقصدُ الوجهَ الذي يقصدُهُ السَّالكُ لا يميلُ عَنْه.

والمرادُ بـ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾: الجنسُ، ولذلك أضافَ إليه القصدَ، وقال: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾[1]: حائدٌ عَن القصدِ، أو عَن اللهِ تَعالى، وتغييرُ الأُسلوبِ[2] لأنَّه ليسَ بحَقٍّ على اللهِ أَنْ يبيِّنَ طرقَ الضَّلالةِ، ولأنَّ المقصودَ بيانُ سَبيلِه، وتقسيمُ السَّبيلِ إلى القصدِ والجائرِ إنَّما جاء[3] بالعَرَضِ.

وقُرِئَ: (ومنكُم جائرٌ)[4]؛ أي: عن القَصْدِ.

﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ أي: ولو شاء هدايتكم أجمعِينَ لهداكم إلى قصدِ السبيلِ هدايةً مُستلزِمةً للاهتداء.

(١٠) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: مِن السَّحابِ، أو: مِن جانبِ السَّماءِ ﴿مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾: ما تَشربونَه، و﴿لَّكُم﴾ صِلَةُ ﴿أَنزَلَ﴾ أو خبرُ ﴿شَرَابٌ﴾، و(مِن) تبعيضيَّةٌ مُتعلِّقَةٌ به[5]، وتقديمُها يُوهِمُ حصرَ المَشروبِ فيه، ولا بأسَ بِهِ

---

(١) قوله: «ولذلك أضاف...»، يعني: لما كان المراد الجنس أضاف القصد إليه؛ لأن السبيلَ القصدَ نوعٌ من جنس السبيل، ولذا أيضاً قال: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾؛ أي: أن السبيل إما مستقيم وهو المراد من القصد، وإما معوج وهو الجائر. انظر: «فتوح الغيب» (٩/ ٨٧).

(٢) قوله: «وتغيير الأسلوب»؛ أي: حيثُ قال في الأول: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾، وفي الثاني: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾، دون: وعليه جائرُها. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٨٧).

(٣) في نسخة الخيالي: «والجائر وقع».

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٦) عن علي رضي الله عنه.

(٥) قوله: «ومن تبعيضية» يعني: التي في ﴿مِّنْهُ﴾ «متعلقة به»؛ أي: بـ﴿شَرَابٌ﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٨٧).

لأنَّ مِياهَ العيونِ والآبارِ منه، لقولِه: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ﴾ [الزمر: ٢١]، وقولِه: ﴿فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨].

﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾: ومنه يكونُ شَجرٌ؛ يعني: الشَّجرَ الذي ترعاه المواشِي.

وقيل: كلُّ ما نبتَ على الأرضِ شَجرٌ، قال:

نَعْلِفُهَا اللَّحْمَ إِذَا عَزَّ الشَّجَرْ وَالخَيْلُ فِي إِطْعَامِهَا اللَّحْمَ ضَرَرْ[(١)]

﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾: تَرْعَوْنَ، مِن سَامَتِ الماشِيَةُ وأَسَامَهَا صاحِبُها، وأَصْلُها: السُّوْمَةُ، وهي العلامَةُ؛ لأنَّها تُؤثِّرُ بالرَّعيِ علاماتٍ.

(١١) - ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ﴾ وقرأَ أبو بكرٍ بالنُّونِ على التَّفخيمِ[(٢)].

﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: وبعضَ كلِّهَا؛ إذ لم يُنبِتْ في الأرضِ كلَّ ما يمكنُ مِن الثِّمارِ، ولعلَّ تقديمَ ما يُسامُ فيه على ما يُؤكَلُ منه لأنَّه سيصيرُ غِذاءً حيوانيًّا هو أشرَفُ الأغذيَةِ، ومِن هذا تَقديمُ الزَّرعِ والتَّصريحُ بالأجناسِ الثلاثةِ وتَرتيبُهَا.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ على وُجودِ الصَّانعِ وحِكمَتِه، فإنَّ مَن تأمَّلَ أنَّ الحبَّةَ تقعُ في الأرضِ وتَصِلُ إليها نَداوةٌ تَنفُذُ فيها فيَنشقُّ أعلاها ويخرجُ مِنه ساقُ الشَّجرةِ، ويَنشقُّ أسفَلُها فيخرجُ منه عروقُها، ثم ينمو ويخرجُ منه الأوراقُ والأَزهارُ والأَكمامُ والثِّمارُ، ويشتمِلُ كلٌّ مِنْهَا على أجسامٍ مختلفَةِ الأشكالِ والطِّباعِ، مع اتِّحادِ الموادِّ ونسبَةِ الطَّبائعِ السُّفليَّةِ والتَّأثيراتِ الفَلَكِيَّةِ إلى الكُلِّ[(٣)]=

---

(١) البيت للنَّمر بن تولب. انظر: «الرسائل» للجاحظ (٢/ ٣٢٩)، و«الشعر والشعراء» (١/ ٢٩٩).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٠)، و«التيسير» (ص: ١٣٧).

(٣) قوله: «ونسبةِ الطبائع» بالجر عطفاً على «المواد»؛ أي: ومع اتحاد نسبة الطبائع السفلية ومع اتحاد نسبة التأثيرات الفلكية إلى الكل، يعني: اتحادُ المواد واتحادُ نسبة الطبائع واتحادُ نسبة التأثيرات الفلكية =

عَلِمَ أنَّ ذلكَ ليسَ إلا بفعلِ فاعلٍ مُختارٍ مُقدَّسٍ عَن مُنازعَةِ الأَضدادِ والأَندادِ، ولعلَّ فصلَ الآيةِ بهِ[١] لذلك.

(١٢) ـ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ والنجومَ﴾ بأَنْ هَيَّأَهَا لِمَنافِعِكُم ﴿مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ حالٌ من الجميعِ؛ أي: نَفَعَكُم بها حالَ كونِها مُسخَّراتٍ للهِ خلقَها ودبَّرها كيفَ شاء، أو لِمَا خُلقنَ[٢] له بإيجادِه وتقديرِه، أو لحكمِه، وفيه إيذانٌ بالجوابِ عَمَّا عَسَى أن يقالَ: إنَّ المؤثِّرَ في تكوينِ النَّباتِ حركاتُ الكَواكبِ وأوضاعُها، فإنَّ ذلك ـ إن سلِّمَ ـ فلا ريبَ في أنَّها أيضًا ممكنةُ الذَّواتِ والصِّفاتِ، واقعةٌ على بعضِ الوجوهِ المحتملةِ، فلا بدَّ لها مِن موجِدٍ مخصِّصٍ مختارٍ واجبِ الوُجودِ دفعًا للدَّورِ والتَّسلسُلِ.

أو مصدرٌ ميميٌّ[٣] جُمِعَ لاختلافِ الأنواعِ.

وقرأَ حَفصٌ: ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ﴾ على الابتداءِ والخبرِ، فيكونُ تَعميمًا للحُكمِ بعدَ تخصيصِه، ورفعَ ابنُ عامرٍ ﴿الشمسُ والقمرُ﴾ أيضًا[٤].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ جمعَ الآيةَ وذكَرَ العقلَ؛ لأنَّها تدلُّ أنواعًا مِن الدلالةِ ظاهرةً لذَوِي العقولِ السَّليمةِ غيرَ مُحوجَةٍ إلى استيفاءِ فكرٍ كَأحوالِ النَّباتِ.

= إلى الكل كان يقتضي اتحاد الأشكال والأوضاع والهياكل والهيئات والصفات. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١/ ٢٣٣).

(١) كذا في بعضِ النُّسخِ، وفي بعضِها إسقاط لفظِ (به). «حاشية الخفاجي».

(٢) قوله: «أو لما خلقن له» عطف على «لله».

(٣) قوله: «أو مصدر» عطف على «حالٌ».

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٠)، و«التيسير» (ص: ١٣٧).

(١٣) ـ ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ عطفٌ على ﴿اللَّيْلَ﴾؛ أي: وسخَّرَ لكُم ما خلقَ لكُم فيها من حيوانٍ ونَباتٍ.

﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾: أصنافُه، فإنَّها تَتخالَفُ باللونِ غالبًا.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾: إنَّ اختلافَها في الطِّباعِ والهيئاتِ والمناظرِ ليسَ إلا بصُنعِ صانعٍ حكيمٍ.

(١٤) ـ ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾: جَعلَه بحيثُ تَتمكَّنُونَ مِن الانتفاعِ به بالرُّكوبِ والاصطيادِ والغوصِ ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ هو السَّمكُ، ووصفَهُ بالطَّراوةِ لأنَّه أرطَبُ اللحومِ يُسرِعُ(١) إليه الفسادُ فيُسارَعُ إلى أكلِه، ولإظهارِ قُدرَتِه في خَلْقِه خَلَقَه عَذْبًا طَرِيًّا في ماءٍ زُعاقٍ(٢).

وتمسَّكَ به مالِكٌ والثَّوريُّ على أنَّ مَن حلفَ أن لا يأكلَ لحمًا حَنِثَ بأكلِ السَّمكِ(٣).

وأُجيبَ عنه: بأنَّ مَبْنى الأَيْمانِ على العُرفِ، وهو لا يُفهَمُ مِنهُ عندَ الإطلاقِ، ألا تَرى أنَّ اللهَ سمَّى الكافِرَ دابَّةً، ولا يحنثُ الحالِفُ على أن لا يركبَ دابَّةً برُكوبِه.

﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ كاللؤلؤِ والمرجانِ؛ أي: تلبسُ نِساؤُكُم، فأسندَ إليهم لأنَّهنَّ مِن جُملَتِهم، ولأنَّهنَّ يَتزيَّنَّ بها لأجلِهِمْ.

﴿وَتَرَى الْفُلْكَ﴾: السُّفُنَ ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾: جواريَ فيه تَشُقُّهُ بحَيْزُومِها(٤)، مِن المَخْرِ، وهو شَقُّ الماءِ، وقيل: صوتُ جريِ الفُلكِ.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «فيسرع»، وفي نسخة الخيالي: «ويسرع». والمثبت من نسخة الطبلاوي، والمعنى على الكل: أنه وُصِف بالطَّراوةِ لأن الفساد يُسرِعُ إليه.

(٢) الزُّعاق: الماء المُرُّ الغليظ الذي لا يُطاق شُربه من أُجوجته. انظر: «تهذيب اللغة» (١/ ١٢٧).

(٣) انظر: «المدونة» (١/ ٦٠١)، «الإشراف» لابن المنذر (٧/ ١٥٩).

(٤) هو وَسطُ الصَّدرِ وما يُضمُّ عليه الحِزام. «فتوح الغيب» (٩/ ٩٣).

﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾: مِن سَعَةِ رزقِه برُكوبِها للتِّجارةِ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: تعرفونَ نِعَمَ اللهِ فتقومونَ بحَقِّها، ولعلَّ تَخصيصَهُ بتَعقيبِ الشُّكرِ لأنَّه أقوى في بابِ الإنعامِ مِن حَيثُ إنَّه جعلَ المَهالكَ سَبَبًا للانتفاعِ وتحصيلِ المَعاشِ.

(١٥) - ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾: جبالًا رواسِيَ ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾: كراهةَ أَنْ تميلَ بِكُم وتَضطَرِبَ، وذلك لأنَّ الأرضَ قبلَ أن تُخلقَ فيها الجبالُ كانَتْ كُرةً حقيقيَّةً بسيطةَ الطَّبعِ، وكان مِن حقِّها أَنْ تتحرَّكَ بالاستدارةِ كالأَفلاكِ، وأن تتحرَّكَ بأدنى سببٍ للتَّحريكِ، فلَمَّا خُلِقَت الجِبالُ على وَجهِها تَفاوتَت جوانِبُها وتَوجَّهَت الجِبالُ بثِقَلِها نحو المركزِ فصارَتْ كالأَوتادِ التي تمنَعُها عن الحركةِ.

وقيل: لَمَّا خلقَ اللهُ الأرضَ جعَلَتْ تَمُورُ فقالَت المَلائِكَةُ: ما هي بمقرٍّ أحدٍ على ظهرِها، فأصبحَتْ وقد أُرسيَتْ بالجبالِ(١).

﴿وَأَنْهَٰرًا﴾: وجعلَ فيها أنهارًا لأنَّ (ألقى) فيه معناه ﴿وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لمقاصدِكُم، أو إلى مَعرِفَةِ اللهِ.

(١٦) - ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾: مَعالِمَ يَستدِلُّ بها السَّابلَةُ مِن جبلٍ وسَهلٍ وريحٍ ونحوِ ذلك ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بالليلِ في البراري والبِحَارِ، والمرادُ بالنَّجمِ: الجِنسُ، ويدلُّ عليه قراءَةُ: (وبالنُّجُـمِ) بضمَّتينِ، وضمَّةٍ وسكونٍ، على الجمعِ(٢).

وقيل: الثُّرَيَّا والفَرْقَدانِ وبناتُ نَعشٍ والجَديُ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ٣١) عن وهب بن منبه.

(٢) القراءتان في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٦)، و«المحتسب» (٢/ ٨)، بضمتين عن الحسن، وبضم فسكون عن يحيى.

ولعلَّ الضَّميرَ لقُرَيشٍ؛ لأنَّهُم كانوا كثيري الأسفارِ للتِّجارَةِ، مَشهورينَ بالاهتداءِ في مَسايرِهِم بالنُّجومِ، وإخراجُ الكلامِ عن سَنَنِ الخطابِ، وتقديمُ النَّجمِ، وإقحامُ الضَّميرِ= للتَّخصيصِ، كأنه قيل: وبالنَّجمِ خُصوصًا هؤلاء خصوصًا يهتدونَ، فالاعتبارُ بذلك والشُّكرُ عليه ألزمُ لَهُم وأوجَبُ عليهم.

(١٧) ـ ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ إنكارٌ بعدَ إقامَةِ الدَّلائلِ المتكاثرَةِ على كمالِ قُدرَتِه وتَناهي حكمَتِه، والتَّفرُّدِ بخلقِ ما عدَّدَ مِن مُبدَعاتِه، لأنْ يُساويَه ويستحِقَّ مشاركتَهُ ما لا يقدرُ على خلقِ شَيءٍ مِن ذلك، بل على إيجادِ شيءٍ مّا، وكان حقُّ الكَلامِ: أفمَنْ لا يخلقُ كمَنْ يخلُقُ، لكنَّه عكسَ تنبيهًا على أنَّهُم بالإشراكِ باللهِ جَعَلُوه مِن جنسِ المَخلوقاتِ العَجَزَةِ شَبيهًا بها.

والمرادُ بـ(مَن لا يخلقُ): كلُّ ما عُبِدَ مِن دونِ اللهِ مغلَّبًا فيه أولو العلمِ مِنْهم، أو: الأصنامُ، وإجراؤُها مُجرى أولي العلمِ لأنَّهُم سمَّوْهَا آلهةً، ومِن حقِّ الإلهِ أنْ يَعلمَ، أو للمُشاكلَةِ بينَهُ وبينَ مَن يَخلقُ، أو للمبالغَةِ، فكأنَّه قيل: إنَّ مَن يَخلُقُ ليسَ كمَنْ لا يَخلقُ مِن أُولي العلم، فكيفَ بما لا عِلمَ عِندَه؟

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ فتَعرِفُوا فسادَ ذلك، فإنَّه لجَلائِهِ كالحاصلِ للعَقلِ، الذي يحضرُ عِندَه بأدنى تذكُّرٍ والتِفَاتٍ.

(١٨) ـ ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾: لا تَضبِطُوا عددَها فضلًا أن تُطيقُوا القيامَ بشُكرِهَا، أَتبعَ ذلك تعدادَ النِّعَمِ وإلزامَ الحُجَّةِ على تفرُّدِه باستحقاقِ العبادةِ تَنبيهًا على أنَّ وراءَ ما عدَّدَ نِعَماً لا تنحصِرُ، وأنَّ حقَّ عِبادَتِه غيرُ مَقدورٍ.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ﴾ حيثُ يتجاوزُ عَن تقصيرِكُم في أداءِ شُكرِها.

﴿رَّحِيمٌ ﴾ لا يقطَعُها لتَفريطِكُم فيه ولا يعاجِلُكُم بالعقوبةِ على كُفرانِها.

(١٩) ـ ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ مِن عَقائِدكُم وأَعمالِكُم، وهو وعيدٌ وتَزييفٌ للشركِ باعتبارِ العلمِ.

(٢٠) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: والآلهةُ الذين تَعبدونَهُم مِن دونِه. وقرأَ أبو بكرٍ[١]: ﴿يَدۡعُونَ﴾ بالياءِ، وقرأَ حَفصٌ ثلاثتَها بالياءِ[٢].

﴿لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا﴾ لَمَّا نَفى المشاركةَ بينَ مَن يَخلقُ ومَن لا يخلقُ بيَّن أنَّها لا تخلقُ شيئًا، ليَنْتُجَ أنَّهُم لا يشاركونَهُ، ثمَّ أكَّدَ ذلك بأَنْ أثبتَ لَهُم صِفاتٍ تُنافي الألوهيَّةَ فقال: ﴿وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ لأنَّها ذواتٌ مُمكِنَةٌ مُفتقِرةٌ الوجودِ إلى التَّخليقِ، والإلهُ يَنبغي أن يكونَ واجبَ الوُجودِ.

(٢١) ـ ﴿أَمۡوَٰتٌ﴾: هم أمواتٌ لا يَعتريهِم الحياةُ، أو: أمواتٌ حالًا أو مآلًا.

﴿غَيۡرُ أَحۡيَآءٖ﴾ بالذَّاتِ؛ ليتناولَ كلَّ معبودٍ، والإلهُ ينبغي أن يكونَ حيًّا بالذَّاتِ لا يَعتريه المماتُ.

﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾: ولا يعلمونَ وقتَ بَعثِهِم أو بعثِ عَبدَتِهِم، فكيفَ يَكونُ لَهُم وقتُ جزاءٍ على عبادَتِهِم، والإلهُ يَنبغي أَنْ يكونَ عالِمًا بالغُيوبِ مُقدِّرًا للثوابِ والعِقابِ، وفيه تَنبيهٌ على أنَّ البعثَ مِن تَوابعِ التَّكليفِ.

(٢٢) ـ ﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ تكريرٌ للمدَّعى بعدَ إقامةِ الحجَّةِ ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾ بيانٌ لِمَا اقتضى إصرارَهُم بعدَ وُضوحِ الحقِّ، وذلك: عدمُ إيمانِهِم بالآخرةِ، فإنَّ المؤمنَ بها يكونُ طالبًا للدَّلائلِ مُتأمِّلًا فيما

---

(١) في نسخة التفتازاني: «عاصم ويعقوب».

(٢) قراءة ﴿يَدۡعُونَ﴾ بالياء من رواية أبي بكر وحفص كلاهما عن عاصم في «السبعة» (ص: ٣٧١) و«التيسير» (ص: ١٣٧)، وعن يعقوب في «النشر» (٢/ ٣٠٣). أما قراءة (يسرون) و(يعلنون) بالياء فهي من رواية هبيرة عن حفص في غير المشهور عنه. انظر: «السبعة» (ص: ٣٧١).

يَسـمعُ فينتفِـعُ بـه، والكافرَ بها يكـونُ حالُه بالعكسِ، وإنـكارُ قُلوبِهم مـا لا يُعرفُ إلا بالبُرهـانِ اتِّباعًا للأسـلافِ وركونًا إلـى المألوفِ فإنَّـه يُنافي النَّظرَ، والاستكبارُ[1] عن اتِّبـاعِ الرَّسـولِ وتَصديقِه والالتفـاتِ إلى قولِـه، والأوَّلُ هو العمدةُ في البـابِ، ولذلك رتَّـبَ عليه ثبـوتَ الآخَرين.

(٢٣) ـ ﴿لَا جَرَمَ﴾: حقًّا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فيُجازيهم، وهو في مَوضعِ الرَّفعِ بـ﴿جَرَمَ﴾؛ لأنَّه مصدرٌ أو فعلٌ.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ فضلًا عن الذينَ استكبروا عن توحيدِه أو اتِّباعِ الرَّسولِ.

(٢٤) ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ القائلُ بعضُهم على التَّهكُّمِ، أو الوافدون عليهم، أو المسلمون ﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: ما تدَّعونَ نُزولَهُ ـ أو: المنزلُ ـ أساطيرُ الأوَّلين، وإنَّما سمَّوهُ مُنزَلًا على التَّهكُّمِ، أو على الفَرْضِ؛ أي: على تَقديرِ أنَّه منزلٌ فهو أساطيرُ لا تحقيقَ فيه، والقائلونَ له قيل: هم المقتسِمونَ[2].

(٢٥) ـ ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: قالوا ذلك إضلالًا للنَّاسِ فحمَلُوا أوزارَ ضَلالِهم كاملةً، فإنَّ إضلالَهُم نتيجةُ رُسوخِهم في الضَّلالِ.

﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾: وبعـضَ أوزارِ ضَـلالِ مَـن يُضِلُّونَهُـم، وهـو حصَّةُ التَّسـبُّبِ.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «واستكبارهم». وعلى كل فهو معطوف على «عدمُ إيمانهم»، وكذلك قوله: «إنكار قلوبهم».

(٢) والمقتسِمون: هُمُ الاثنا عشرَ الذين اقتَسَمُوا مداخلَ مكَّةَ أيامَ الموسمِ لينفِّرُوا النَّاسَ عَن الإيمانِ بالرَّسولِ فأهلَكَهُم اللهُ يومَ بَدرٍ. انظر ما تقدم عند تفسير الآية (٩٠) من سورة الحجر.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حالٌ مِن المفعولِ؛ أي: يُضِلُّونَ مَن لا يعلَمُ أنَّهُم ضُلَّالٌ، وفائدَتُها: الدَّلالةُ على أنَّ جهلَهُم لا يَعْذُرهُم؛ إذ كان عليهم أن يبحَثُوا ويميِّزوا بين المحقِّ والمُبطِلِ.

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾: بئسَ شيئًا يَزِرُونَهُ فِعلُهُم.

(٢٦) ـ ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: سَوَّوا منصوباتٍ ليَمْكُروا بها رسلَ اللهِ ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾: فأتاها أمرُه مِن جهةِ العُمُدِ التي بَنَوْا عليها بأن ضُعْضِعَتْ ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ وصارَتْ سببَ هَلاكِهِم ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾: لا يَحتَسِبونَ ولا يَتوقَّعونَ، وهو على سبيلِ التَّمثيلِ.

وقيل: المرادُ به نُمْرود بنُ كِنعانَ، بنى الصَّرحَ ببابلَ سمكُه خمسَةُ آلافِ ذِراعٍ ليترصَّدَ أمرَ السَّماءِ، فأهبَّ اللهُ الرِّيحَ فخرَّ عليه وعلى قومِه فهَلَكُوا[1].

(٢٧) ـ ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾: يُذِلُّهُم ويُعَذِّبُهم بالنَّارِ، كقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٩٢].

﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ أضافَ إلى نفسِهِ استهزاءً أو حكايةً لإضافَتِهِم زيادةً في تَوبيخِهِم.

وقرأ البَزِّيُّ بخلافٍ عنه: ﴿أينَ شُركاي﴾ بغيرِ همزٍ والباقونَ بالهَمزِ[2].

﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾: تُعادُونَ المُؤمنينَ في شأنِهم، وقرأَ نافعٌ بكسرِ النُّونِ[3] بمعنى: تشاقونَني، فإنَّ مشاقَّةَ المُؤمنينَ كمشاقَّةِ اللهِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٢٠٤) عن زيد بن أسلم.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٧١)، و«التيسير» (ص: ١٣٧)، و«النشر» (٢/ ٣٠٣). ورجح ابن الجزري أن قراءة ابن كثير بالهمز، وأن ما روي عنه من طريق البزي روي حكاية لا رواية، والعمل على الهمز.

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٧١)، و«التيسير» (ص: ١٣٧).

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾؛ أي: الأنبياءُ والعُلَماءُ الذين كانوا يَدْعونَهُم إلى التَّوحيدِ فيُشاقُّونَهُم ويتكبَّرونَ[1] عليهم، أو: الملائكةُ: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ﴾: الذِّلةَ والعَذابَ ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وفائدةُ قولِهم إظهارُ الشَّماتةِ وزيادةُ الإهانةِ، وحكايتِه[2] لأنْ يكونَ لطفًا لِمَن سَمِعه.

(٢٨) ـ ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وقرأَ حمزَةُ بالياءِ[3]، وقُرِئ بإدغامِ التَّاءِ في التاء[4]، وموضِعُ المَوصولِ يحتمِلُ الأوجُهَ الثَّلاثةَ.

﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بأَنْ عرَّضوها للعَذابِ المخلَّدِ.

﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾: فسالمَوا وأَخبَتوا حين عايَنوا الموتَ ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ﴾ قائلين: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ﴾ ﴿مِن سُوٓءٍ﴾: كُفرٍ وعدوانٍ.

ويجوزُ أَنْ يكون تفسيرَ ﴿ٱلسَّلَمَ﴾، على أنَّ المرادَ به: القولُ الدَّالُّ على الاستسلامِ.

﴿بَلَىٰٓ﴾؛ أي: فتُجِيبُهُم الملائكةُ: بلى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهو يجازيكُم عليه.

وقيل: قوله: ﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾ إلى آخرِ الآيةِ استئنافٌ ورجوعٌ إلى شرحِ حالِهم يومَ القيامةِ، وعلى هذا أَوَّلَ مَن لم يُجوِّز الكذبَ يومئذٍ ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾؛ بأَنَّا لم نَكُن في زَعمِنا واعتقادنا عاملِين سوءًا، ويحتملُ أَنْ يكونَ الرادُّ عليهِم هو اللهُ أو أولو العلمِ.

---

(١) في نسخة الطبلاوي: «فيتكبرون»، وفي نسخة التفتازاني: «وينكرون».

(٢) قوله: «وحكايته» عطف على «قولهم»؛ أي: وفائدةُ حكايةِ ذلك عنهم. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٤٣٦).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٢)، و«التيسير» (ص: ١٣٧).

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٦) عن ابن كثير.

(٢٩) ـ ﴿فَادْخُلُوٓا أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ كلُّ صنفٍ بابَها المعدَّ له.

وقيل: (أبوابُ جهنم): أصنافُ عذابِها.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ جهنَّمُ.

(٣٠) ـ ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا﴾ يعني: المؤمنينَ: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾؛ أي: أنزلَ خيرًا، وفي نصبِهِ دليلٌ على أنَّهُم لم يتلعثَمُوا في الجوابِ، وأطبقوا على السُّؤالِ مُعترفينَ بالإنزالِ على خلافِ الكفرةِ.

روي: أنَّ أحياءَ العربِ كانوا يَبعثونَ أيَّامَ الموسمِ مَن يأتيهِم بخبرِ النَّبيِّ ﷺ، فإذا جاءَ الوافدُ المقتسِمينَ قالوا له ما قالوا، وإذا جاءَ المؤمنينَ قالوا له ذلك[1].

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾: مُكافأةٌ في الدُّنيا ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ﴾؛ أي: ولَثوابُهم في الآخرةِ خيرٌ مِنها، وهو عِدَةٌ للَّذينَ اتَّقَوا على قولِهم، ويجوزُ أَنْ يكونَ بما بعدَهُ حكايةً لقولِهم بدلًا وتفسيرًا لـ﴿خَيْرًا﴾ على أنه مُنتصِبٌ بـ﴿قَالُوا﴾.

﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: دارُ الآخرةِ، فحُذِفَت لتقدُّمِ ذكرِها.

وقولـه: (٣١) ـ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ خبـرُ مُبتـدأٍ مَحـذوفٍ، ويجـوزُ أَنْ يكـونَ المخصـوصَ بالمَـدحِ.

﴿يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ مِن أَنواعِ المشتهَياتِ، وفي تَقديمِ الظَّرفِ تنبيهٌ على أنَّ الإنسانَ لا يجدُ جميعَ ما يُريدُه إلا في الجنَّةِ.

﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: مثلَ هذا الجزاءِ يَجزيهِم، وهو يؤيِّدُ الوجهَ الأوَّل.

(٣٢) ـ ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾: طاهرينَ مَن ظلمِ أَنفُسِهم بالكفرِ والمعاصي؛ لأنَّه في مقابلةِ ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

---

(١) الخبر دون سند ولا راو في «تفسير الثعلبي» (١٦/ ٣٩)، و«البسيط» للواحدي (١٣/ ٥١).

وقيل: فَرِحينَ ببشارةِ الملائكةِ إيَّاهُم بالجنَّةِ.

أو: طيبين بقبضِ أرواحِهم؛ لتوجُّهِ نُفوسِهم بالكليَّةِ إلى حَضرةِ القُدسِ.

﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ﴾ لا يَحيقُكُم بعدُ مَكروهٌ ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ حين تُبعثونَ فإنَّها مُعدَّةٌ لكم على أعمالِكُم.

وقيل: هذا التَّوفِّي وفاةُ الحشرِ؛ لأنَّ الأمرَ بالدُّخولِ حينئذٍ.

(٣٣) ـ ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾: ما ينتظرُ الكفَّارُ المارُّ ذكرُهم ﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لقبضِ أرواحِهم. وقرأ حمزَةُ والكِسائيُّ بالياءِ[1].

﴿أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَ﴾: القيامةُ، أو العذابُ المستأصِلُ.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلَ ذلك الفعلِ مِن الشِّركِ والتَّكذيبِ ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ فأصابَهم ما أصابَهم ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بتدميرِهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ بكُفرِهم ومَعاصيهم المؤدِّيَةِ إليه.

(٣٤) ـ ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾؛ أي: جزاءُ سيئاتِ أعمالِهم، على حذفِ المُضافِ أو تسميةِ الجزاءِ باسمِها.

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾: وأحاطَ بهم جزاؤُه، والحَيْقُ لا يُستعمَلُ إلا في الشرِّ.

(٣٥) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾ إنَّما قالوا ذلك استهزاءً ومنعًا للبعثةِ والتَّكليفِ، مُتمسِّكينَ بأنَّ ما شاءَ اللهُ يجبُ وما لم يشأ يمتنِعُ، فما الفائدةُ فيهما؟ أو إنكارًا لقبحِ ما أُنكرَ عليهم من الشِّركِ وتحريمِ البحائرِ ونحوِها محتجِّينَ بأنَّها لو كانت مُستقبَحةً

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٢)، و«التيسير» (ص: ١٠٨).

لَمَا شاءَ اللهُ صدورَها عنهم ولشاءَ خِلافَه مُلْجِئًا إليه، لا اعتذارًا؛ إذ لم يَعتقِدُوا قبحَ أَعمالِهم، وفيما بعدُ تنبيهٌ على الجوابِ من الشُّبهتينِ.

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فأشرَكُوا باللهِ وحرَّموا حِلَّهُ وردُّوا رُسلَه ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾: إلا الإبلاغُ الموضِّحَ للحقِّ، وهو إن لم يؤثِّر في هُدَى مَن شاءَ اللهُ هُداهُ لكنَّه يؤدِّي إليه على سبيلِ التَّوسُّطِ، وما شاءَ اللهُ وُقوعَهُ إنَّما يجبُ وقوعُه لا مطلقًا بل بأسبابٍ قدَّرَها.

ثمَّ بيَّنَ أنَّ البعثةَ أمرٌ جرَتْ به السنَّةُ الإلهيَّةُ في الأُمَمِ كلِّها سببًا لهُدَى مَن أرادَ اهتداءَه وزيادةً لضَلالِ مَن أراد ضلالَه، كالغذاءِ الصَّالحِ فإنَّه ينفعُ المزاجَ السَّوِيَّ ويقوِّيهِ، ويَضُرُّ المنحرفَ ويُفنيهِ، بقوله:

(٣٦) - ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ يأمرُ بعبادةِ اللهِ واجتنابِ الطَّاغوتِ ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾: وَفَّقَهُم للإيمانِ بإرشادِهِم ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ إذ لم يُوفِّقْهُم ولم يُرِدْ هُدَاهُم، وفيه تنبيهٌ على فسادِ الشُّبهَةِ الثَّانيَةِ لِمَا فيهِ مِن الدَّلالةِ على أنَّ تحقُّقَ الضَّلالِ وثباتَه بفعلِ اللهِ تَعالى وإرادته مِن حيثُ إنَّه قَسيمُ مَن هَدَى اللهُ، وقد صرَّحَ بِهِ في الآيةِ الأخرى.

﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يا معشرَ قُرَيشٍ ﴿فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ مِن عادٍ وثمودَ وغيرِهم لعلَّكُم تَعتبرونَ.

(٣٧) - ﴿إِن تَحْرِصْ﴾ يا محمَّدُ ﴿عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾: مَن يُريد ضَلالَه، وهو المعنيُّ بـ﴿مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾.

وقرأَ غيرُ الكوفِيِّين: ﴿لا يُهْدَى﴾ على البناءِ للمَفعولِ[1]، وهو أبلَغُ.

---

(١) هي قراءة ابن كثير وأبي عمرو ونافع وابن عامر، وقرأ الكوفيون: ﴿لَا يَهْدِى﴾ بفتح الياء وكسر =

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾: مَن ينصرُهُم بدفعِ العذابِ عَنْهُم.

(٣٨) ـ ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ عطفٌ على ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ إيذانًا بأنَّهُم كما أنكرُوا التَّوحيدَ أنكرُوا البعثَ مُقسِمينَ عليه زيادةً في البتِّ على فَسادِه، ولقد ردَّ اللهُ عليهِم أبلغَ رَدٍّ فقال: ﴿بَلَىٰ﴾ يبعثُهُم ﴿وَعْدًا﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ لنَفسهِ، وهو ما دلَّ عليه ﴿بَلَىٰ﴾ فإنَّ ﴿يَبْعَثُ﴾ موعدٌ مِن الله ﴿عَلَيْهِ﴾ إنجازُه؛ لامتناعِ الخُلفِ في وَعدِهِ، أو لأنَّ البعثَ مُقتضَى حكمتِه.

﴿حَقًّا﴾ صِفَةٌ أخرى للوَعدِ.

﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنهم يُبعثون: إمَّا لعَدَمِ علمِهم بأنه مِن مَوَاجِبِ الحكمةِ التي جرتْ عادتُه بمراعاتها، وإمَّا لقصورِ نظرِهم بالمألوفِ فيَتوهَّمون امتناعَه، ثم إنه تعالى بيَّن الأَمْرَين فقال:

(٣٩) ـ ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾؛ أي: يبعَثُهُم ليُبيِّنَ لَهُم بعضَ ﴿ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وهو الحقُّ ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰذِبِينَ﴾ فيما كانوا يَزعمونَ، وهو إشارةٌ إلى السَّببِ الدَّاعي إلى البَعثِ، المُقتضي له مِن حيثُ الحكمةُ، وهو التميزُ بين الحقِّ والباطلِ والمحقِّ والمبطلِ بالثوابِ والعقابِ، ثمَّ قال:

(٤٠) ـ ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ وهو بيانُ إمكانِه، وتقريرُه: أنَّ تكوينَ اللهِ تعالى بمَحضِ قدرتِه ومَشيئَتِهِ لا توقُّفُ له على سَبْقِ الموادِّ والمُدَدِ، وإلا لَزِمَ التَّسلسُلُ، فكمَا أَمْكنَ لَهُ تكوينُ الأَشياءِ ابتداءً بلا سَبْقِ مادَّةٍ ومثالٍ أَمْكنَ له تكوينُها إعادةً بعدَه.

= الدَّال، ولم يختلفوا في ﴿يُضِلُّ﴾ أنها مضمومة الياء مكسورة الضَّاد. انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٢)، و«التيسير» (ص: ١٣٧).

ونَصَبَ ابنُ عامرٍ والكِسائيُّ: ﴿فيكونَ﴾[1] عطفًا على ﴿نَقُولَ﴾، أو جوابًا للأمرِ.

(٤١) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ هُم رسولُ اللهِ ﷺ، وأَصحابُه المهاجرونَ، ظَلَمَهُم قريشٌ فهاجرَ بعضُهُم إلى الحَبشةِ ثمَّ إلى المدينةِ، وبعضُهُم إلى المدينةِ، والمحبوسونَ المعذَّبونَ بمكَّةَ بعدَ هجرةِ رسولِ اللهِ ﷺ، وهم بلالٌ وصُهَيبٌ وخَبَّابٌ وعمَّارٌ وعابسٌ وأبو جَنْدلٍ وسُهَيلٌ.

وقوله: ﴿فِى ٱللَّهِ﴾؛ أي: في حقِّهِ ولوَجهِهِ.

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾: مَبَاءةً حَسَنةٌ، وهي المدينةُ، أو: تَبوِئَةً حَسنةً.

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ مما تعجَّلَ لهم في الدُّنيا.

وعَن عُمَرَ رضيَ اللهُ عنه: أنَّه كانَ إذا أعطى رجلًا مِن المهاجرينَ عطاءَه قال له: خُذ باركَ اللهُ لك فيه، هذا ما وعَدَكَ اللهُ في الدُّنيا، وما ادَّخر لك في الآخرةِ أفضَلُ[2].

﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ الضَّميرُ للكُفَّارِ؛ أي: لو علموا أنَّ اللهَ يجمعُ لهؤلاءِ المهاجرينَ خيرَ الدَّارينِ لوافَقوهُم؛ أي: للمُهاجرينَ.

وقيل: للمُهاجرين؛ أي: لو علموا ذلك لزادُوا في اجتِهادِهِم وصَبرِهِم.

(٤٢) ـ ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على الشَّدائدِ كأذى الكفرةِ ومُفارقةِ الوطنِ، ومحلُّهُ النَّصبُ أو الرَّفعُ على المدحِ ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ مُنقَطِعينَ إلى اللهِ مُفوِّضِينَ إليه الأمرَ كلَّه.

(٤٣) ـ ﴿وما أَرْسَلْنا مِن قَبْلِكَ إلَّا رِجالاً يُوْحَى إلَيْهِم﴾[3] ردٌّ لقولِ قريشٍ: اللهُ

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٢ ـ ٣٧٣)، و«التيسير» (ص: ١٣٧).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٢٢٤).

(٣) ﴿يُوْحَى﴾ بالياء والبناء للمجهول قراءة السبعة عدا حفصاً فإنه قرأ: ﴿نُوْحِي﴾ بالنون والبناء للمعلوم. انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٣).

أعظَمُ مِن أَنْ يكونَ رسولُه بشرًا؛ أي: جَرَت السنَّةُ الإلهيَّةُ بأنْ لا يبعثَ للدَّعوةِ العامَّةِ إلا بشرًا يوحِي إليه على ألسنَةِ المَلائكةِ، والحكمةُ في ذلك قد ذُكرت في سورةِ الأنعامِ، فإن شككْتُم فيه ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾: أهلَ الكتابِ، أو: عُلماءَ الأخبارِ؛ ليُعلمُوكُم ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وفي الآيةِ دَليلٌ على أنَّه تَعالى لم يُرسِل امرأةً ولا ملَكًا للدَّعوةِ العامَّةِ، وأمَّا قوله: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١] معناه: رُسلًا إلى الملائكةِ أو إلى الأنبياءِ.

وقيل[١]: لم يُبعثوا إلى الأنبياءِ إلا ممثَّلينَ بصورةِ الرِّجالِ. ورُدَّ بما رُوِيَ: أنَّه عليه السَّلامُ رأى جبريلَ صلواتُ اللهِ عليه على صورَتِه التي هو عليها مَرَّتينِ[٢].

وعلى وُجوبِ المراجعةِ إلى العُلماءِ فيما لا يُعلَمْ.

(٤٤) ـ ﴿بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾؛ أي: أرسلناهُم بالبيِّناتِ والزُّبرِ[٣]؛ أي: المعجزاتِ والكتبِ، كأنَّه جوابُ قائلٍ قال: بمَ أُرسِلُوا؟ ويجوزُ أَنْ يتعلَّقَ بـ(ما أَرْسَلْنا) داخلًا في الاستثناءِ مع ﴿رِجَالًا﴾؛ أي: وما أَرسَلْنا إلا رجالًا بالبيِّناتِ؛ كقَولِكَ: ما ضربتُ إلا زيدًا بالسَّوطِ[٤]، أو صِفَةً لهم[٥]؛ أي: رجالًا ملْتَبِسينَ بالبيِّناتِ، أو بـ﴿يُوحَىٰ﴾

---

(١) القائل هو الجُبائي من المعتزلة. كما قال الخفاجي في «الحاشية».

(٢) رواه البخاري (٤٨٥٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) قوله: «أي: أرسلناهم بالبينات والزبر..» يعني: أنه متعلق بمقدر يدل عليه ما قبله، وإنما قدَّمَ هذا الوجه لأنه المختار السالم من الاعتراض. انظر: «حاشية الشهاب».

(٤) قوله: «ويجوز أن يتعلق بـ(ما أرسلنا) داخلًا في الاستثناء» فيه تسمُّحٌ؛ لأنه متعلق بـ(أرسلنا) فقط، ودخوله في الاستثناء والحصر بناء على ما جوَّزه بعض النحاة من جواز أن يُستثنَى بأداةٍ واحدةٍ شيئان دون عطف، فيقالَ: ما أعطى أحدٌ شيئاً إلا زيدٌ درهماً، وأنه يجري في الاستثناء المفرغ أيضاً، لكن أكثر النحاة على منعه. المصدر السابق.

(٥) قوله: «أو صفةً لهم»؛ أي: لـ﴿رِجَالًا﴾، وهو معطوف على «داخلًا» لأنه متعلِّقٌ معنًى بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾، =

على المفعوليَّةِ، أو الحالِ مِن القائمِ مقامَ فاعلِه وهو ﴿إِلَيْهِمْ﴾[1]، على أنَّ قولَه: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ﴾ اعتراضٌ، أو بـ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ على أنَّ الشَّرطَ للتَّبكيتِ والإلزامِ.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾؛ أي: القرآنَ، وإنَّما سُمِّيَ ذِكرًا لأنَّه مَوعِظَةٌ وتَنبيهٌ.

﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ في الذِّكرِ بتوسُّطِ إنزالِه إليك ممَّا أُمِرُوا به ونُهوا عنه، وممَّا تَشابَه عليهِم، والتَّبيينُ أعمُّ مِن أن ينصَّ بالمقصودِ أو يرشدَ إلى ما يدلُّ عليه كالقِياسِ ودليلِ العَقلِ.

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾: وإرادةَ أَنْ يتأمَّلُوا فيه فيتنبَّهُوا للحقائقِ.

(٤٥) ـ ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ أي: المكَراتِ السَّيِّئاتِ، وهم الذين احتَالُوا لهلاكِ الأنبياءِ، أو الذين مَكَروا رسولَ اللهِ وراموا صدَّ أصحابِه عن الإيمانِ.

﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ كما خَسَفَ بقارونَ ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بَغتَةً مِن جانبِ السَّماءِ كما فُعِلَ بقومِ لُوطٍ.

(٤٦) ـ ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ﴾؛ أي: مُتقلِّبينَ في مَسايِرِهم ومَتاجِرِهم ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

(٤٧) ـ ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾: على مخافةٍ بأنْ يُهلِكَ قومًا قَبْلَهُم فيَتخوَّفُوا فيأتيَهم العَذابُ وهُم مُتخوِّفونَ، أو: على أن ينقصَ شيئًا بعدَ شيءٍ في أنفُسِهم وأموالِهم حتى يَهلِكُوا، مِن تَخوَّفْتُه: إذا تَنقَّصْتَه.

= ولا يكون حالاً من ﴿رِجَالًا﴾ لتنكُّره وتقدُّمه. المصدر السابق.

(١) قوله: «أو بـ﴿يوحَى﴾ على المفعولية...»؛ كونه مفعولًا لـ﴿يُوحى﴾ بواسطة الباء، ومثله يسمى مفعولاً أيضا، والحالية من ضمير الرجال في قوله: ﴿إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: يوحَى إليهم ملتبسين بالبينات. المصدر السابق.

رُوِيَ أنَّ عمرَ رضيَ اللهُ عنه قال على المِنبَرِ: ما تقولون فيها؟ فسَكتوا، فقامَ شيخٌ مِن هُذيلٍ فقال: هذه لُغَتُنا، التَّخوُّفُ: التَّنقُّصُ، فقال: هل تعرِفُ العربُ ذلك في أَشعارِها؟ قال: نعم، قال شاعرُنا أبو كبيرٍ يَصِفُ ناقَتَه:

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ مِنْهَا تَامِكًا قَرِدًا ... كَمَا تَخَوَّفَ عُودَ النَّبعَةِ السَّفَنُ(١)

---

(١) هكذا نسبه لأبي كبير الهذليِّ: الثعلبيُّ في «تفسيره» (٦/ ١٩)، والواحدي في «البسيط» (١/ ٤٠١)، وأبو القاسم النيسابوري في «إيجاز البيان عن معاني القرآن» (٢/ ٤٨٢)، والقرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٢٣٢)، واسم أبي كبير: عامر بن الحُلَيس، وهو أحد بني سعد بن هُذَيل ثم أحد بني جُرَيْب، وهو شاعر هذلي معروف. انظر: «ديوان الهذليين» (٢/ ٨٨). ولم أجد البيت في «ديوان الهذليين»، لكن قال الشهاب الخفاجي في «الحاشية»: والبيت من قصيدة له مذكورة في شعر هذيل. قال: وفي كلام المصنف رحمه الله تعالى (يعني: البيضاوي، حيث نسبه لأبي كبير) إصلاح لما في «الكشاف» من نسبة البيت لزهير مع أنه ليس له، وهو مناقض لما نقله (يعني الزمخشري) من قول الهذلي: «شاعرنا»، فإن زهيراً ليس بهذلي. انتهى.

ونسب لابن مقبل في «القلب والإبدال» لابن السكيت (ص: ٩)، و«تهذيب اللغة» للأزهري (٧/ ٢٤٢). وهو في «ديوانه» (ص: ٤٠٥).

ونسب لذي الرُّمة في «الصحاح» للجوهري (مادة: خوف وسفن)، وهو في ملحق «ديوانه» (٣/ ١٩١٧).

قال الزبيدي في «تاج العروس» (مادة: سفن): هكذا في نسخ «الصحاح» لذي الرمة، وقيل: لابن مقبل، وأورده أبو عدنان في كتاب «النبل» لابن المزاحم الثمالي وقال: لم أجده في شعر ذي الرمة، وقال غيره: هو لعبد الله بن عجلان النهدي جاهلي.

وهو يصف ناقة تنقَّص السيرُ سنامها بعد تمكه واكتنازه، والتامك: السنام المرتفع المشرف، والقَرِد بفتح القاف وكسر الراء، يقال: صوف قرد؛ أي: متلبد، وسحاب قرد؛ أي: ركب بعضه بعضاً، والنبع: شجر يتخذ منه القسيُّ، والسَّفَن بفتح السين والفاء هو المِبْرَد، يصف ناقة أثر الرحل في سنامها بعد تمكه واكتنازه، فأكله وانتقصه كما ينتقص المبرد العود. قاله الشهاب الخفاجي في «حاشيته على البيضاوي».

فقال عُمَرُ: عليكم بدِيوانِكُم لا تَضِلُّوا، قالوا: وما ديوانُنا؟ قال: شِعرُ الجاهليَّةِ، فإنَّ فيه تَفسيرَ كتابِكُم[1] ومعانيَ كلامِكُم.

﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيثُ لا يُعاجِلُكُم بالعُقوبَةِ.

(٤٨) - ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ استفهامُ إنكارٍ؛ أي: قَد رأَوْا أمثالَ هذه الصَّنائعِ فما بالُهم لم يَتفكَّرُوا فيها ليَظهرَ لهم كمالُ قُدرَتِه وقهرِه فيخافوا منه؟

و﴿مَا﴾ موصولةٌ مُبهمةٌ بيانُها: ﴿يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ﴾[2]؛ أي: أولم ينظروا إلى المخلوقاتِ التي لها ظلالٌ مُتفيِّئَةٌ.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿تَرَوْا﴾ بالتاء، وأبو عمرو: ﴿تَتَفَيَّأُ﴾ بالتاء[3].

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾: عَن أَيمانِها وشَمائِلها؛ أي: عَن جانبي كلِّ واحدٍ مِنها، استعارةٌ مِن يمينِ الإنسانِ وشمالِه، ولعلَّ توحيدَ اليَمينِ وجمعَ الشَّمائلِ لاعتبارِ اللفظِ والمعنى، كتَوحيدِ الضَّميرِ في ﴿ظِلَالُهُ﴾ وجمعِه في قوله: ﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ وهما حالانِ مِن الضَّميرِ في قولِه: ﴿ظِلَالُهُ﴾، والمرادُ مِن السُّجودِ: الاستسلامُ، سواءٌ كان بالطَّبعِ أو الاختيارِ، يقال: سَجَدت النَّخلَةُ: إذا مالَتْ لكَثرةِ الحملِ، وسَجدَ البَعيرُ: إذا طأطأَ رأسَه ليُركبَ.

أو ﴿سُجَّدًا﴾ حالٌ مِن الظِّلالِ، و﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ حالٌ مِن الضَّميرِ، والمعنى: يرجعُ الظلالُ بارتفاعِ الشَّمسِ وانحِدارِها، أو باختلافِ مَشارِقِها ومَغارِبِها، بتَقديرِ اللهِ تعالى مِن جانبٍ إلى جانبٍ مُنقادةً لِمَا قدِّرَ لها مِن التَّفيُّؤِ، أو واقعةً

---

(١) في نسخة التفتازاني: «تفسيرًا لكتابكم».

(٢) قوله: «بيانها: ﴿يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ﴾»: فيه نقصٌ، وعبارةُ «الكشاف»: بيانُه: ﴿مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٤٤٥)، وانظر: «الكشاف» (٤/ ٥٥٤).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٣ - ٣٧٤)، و«التيسير» (ص: ١٣٨).

علـى الأرضِ مُلتصِقـةً بهـا علـى هيئةِ السَّـاجدِ، والأجـرامُ في أَنفُسِـها أيضًـا داخرةٌ؛ أي: صاغـرةٌ مُنقـادةٌ لأفعـالِ اللهِ فيها.

وجمع ﴿دَٰخِرُونَ﴾ بالواوِ لأنَّ مِن جُملَتِها مَن يَعقِلُ، أو لأنَّ الدُّخورَ مِن أوصافِ العُقلاءِ.

وقيـل: المرادُ بـ﴿ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾: يمينُ الفَلَك: وهـو جانِبُه الشَّرقيُّ؛ لأنَّ الكواكبَ تظهَرُ منه آخذةً في الارتفاعِ والسُّطوعِ، وشمالُه: وهو الجانبُ الغربيُّ المُقابلُ له، فإنَّ الظِّلالَ في أوَّلِ النَّهارِ تَبتدِئُ مِن المشرقِ واقعةً على الربعِ الغربيِّ مِن الأَرضِ، وعندَ الزَّوالِ تَبتدِئُ مِن المغربِ واقعةً على الربعِ الشَّرقيِّ مِن الأرضِ.

(٤٩) ـ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: ينـقـادُ انقيـادًا يعمُّ الانقيادَ لإرادتِه وتأثيرِه طبعًا، والانقيادَ لتكليفِه وأمرِه طَوْعًا؛ ليَصِحَّ إسنادُه إلى عامَّةِ أَهلِ السَّماواتِ والأَرضِ.

وقولـه: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ بيـانٌ لَهُمـا؛ لأنَّ الدَّبيـبَ هـو الحركـةُ الجِسـمانيَّةُ، سـواءٌ كان فـي أرضٍ أو سَـماءٍ ﴿والملائكـةُ﴾ عطـفٌ علـى المبيَّـنِ به عطـفَ جبريلَ على الملائكـةِ للتَّعظيـمِ، أو عطفَ المُجرَّداتِ على الجِسـمانيَّاتِ، وبه احتـجَّ مَن قال: إنَّ الملائكـةَ أَرواحٌ مُجرَّدَةٌ.

أو: بيانٌ لـ﴿ما في الأرض﴾، و﴿الملائكة﴾ تكريرٌ لـ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وتعيينٌ له إجلالًا وتعظيمًا، والمرادُ به: ملائكَتُها مِن الحَفَظَةِ وغَيرِهِم، و﴿مَا﴾ لَمَّا استُعمِلَ للعُقلاءِ كمَا استُعملَ لغيرِهِم كان استعمالُه حيثُ اجتمعَ القَبيلانِ أَوْلَى مِن إطلاقِ (مَن) تغليبًا للعُقَلاءِ.

﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عَن عبادَتِه.

(٥٠) ـ ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾: يخافونَـه أن يرسـلَ عذابًـا مـن فوقِهـم، أو: يخافونَـه وهـو فوقَهُـم بالقهـرِ، لقولـه: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨]، والجملـةُ حـالٌ مِن الضَّميرِ في ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أو بيانٌ لـه وتقريرٌ؛ لأنَّ مَن خافَ اللهَ لم يَستكبرْ عَن عبادَتِه.

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ مِن الطَّاعةِ والتَّدبيرِ، وفيه دليلٌ على أنَّ الملائكةَ مُكلَّفونَ مُدارونَ بين الخوفِ والرَّجاءِ.

(٥١) ـ ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ ذُكر العَددُ ـ مع أنَّ المعدودَ يدلُّ عليه ـ دلالةً على أنَّ مَساقَ النَّهيِ إليه، أو إيماءً بأنَّ الاثنينيَّةَ تُنافي الألوهيَّةَ، كما ذُكرَ الواحدُ في قولِه: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ المقصودَ إثباتُ الوَحدانيَّةِ دونَ الإلهيَّةِ، أو التَّنبيهِ على أنَّ الوحدةَ مِن لَوازمِ الإلهيَّةِ.

﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ نقلَ مِن الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ مُبالغةً في التَّرهيبِ، وتَصريحًا بالمقصودِ، كأنَّه قال: فأنا ذلك الإلهُ الواحِدُ فإيَّايَ فارهبون لا غير.

(٥٢) ـ ﴿ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خـلـقًـا وملـكًـا ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ﴾؛ أي: الطَّاعةُ ﴿وَاصِبًا﴾: لازمًا؛ لِمَا تقرَّرَ مِن أنَّه الإلهُ وحدَهُ والحقيقُ بأن يُرهَبَ منه.

وقيل: ﴿وَاصِبًا﴾ من الوَصَبِ؛ أي: وله الدِّينُ ذا كُلفَةٍ.

وقيل: ﴿ٱلدِّينُ﴾: الجزاءُ؛ أي: وله الجزاءُ دائمًا لا ينقطِعُ ثَوابُه لِمَن آمنَ وعقابُه لِمَن كفرَ.

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ ولا ضارَّ سِواه كمَا لا نافعَ غيرُهُ كما قال:

(٥٣) ـ ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: وأيُّ شـيءٍ اتَّصـلَ بكُـم مِـن نعمـةٍ فهـوَ مِـن اللهِ، و﴿ما﴾ شـرطيَّةٌ، أو مَوصولـةٌ مُتضمِّنَةٌ مَعنى الشَّـرطِ باعتبـارِ الإخبارِ

دون الحصولِ، فإنَّ استقرارَ النِّعمةِ بهم يكونُ سببًا للإخبارِ بأنَّها مِن اللهِ لا لِحصولها منه.

﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾: فما تتضرَّعونَ إلا إليه، والجُؤارُ: رفعُ الصَّوتِ في الدُّعاءِ والاستغاثةِ.

(٥٤-٥٥) - ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ وهم كُفَّارُكُم ﴿لِيَكْفُرُوا۟﴾ بعبادةِ غيرِه، هذا إذا كان الخطابُ عامًّا، فإن كان خاصًّا بالمشركينَ كان (مِن) للبيانِ، كأنَّه قال: فإذا فريقٌ وهم أنتُم، ويجوزُ أن تكونَ (مِن) للتَّبعيضِ، على أن يَعتبِرَ بعضُهُم[1] كقولِه: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ [لقمان: ٣٢].

﴿بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ من نعمةِ الكَشفِ عنهم، كأنَّهُم قصَدُوا بشركِهم كفرانَ النِّعمَةِ أو إنكارَ كَونِها مِن الله ﴿فَتَمَتَّعُوا۟﴾ أمرُ تَهديدٍ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أغلظَ الوعيدِ[2].

وقُرِئَ: (فيُمتَّعوا) مبنيًّا للمفعولِ[3]، عطفًا على ﴿لِيَكْفُرُوا۟﴾، وعلى هذا جازَ أن تكونَ اللامُ لامَ الأمرِ الواردِ للتَّهديدِ والفاءُ للجَوابِ.

(٥٦) - ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لآلهتِهِم التي لا علمَ لها لأنَّها جمادٌ، فيكونُ الضَّميرُ لـ(ما)، أو التي لا يعلمونَها فيعتقدونَ فيها جهالاتٍ مثلَ أنها تنفعُهم وتشفَعُ لهم، على أنَّ العائدَ إلى (ما) محذوفٌ.

---

(١) قوله: «على أن يَعتبر بعضُهم» بالبناء للفاعل في «يعتبر»، ورفعِ «بعضُهم»؛ أي: بناءً على اعتبار بعضهم بما رآه، فيرجعَ عن شركه. انظر: «حاشية الشهاب».

(٢) في نسخة التفتازاني: «أغلظَ وعيدٍ»، وفي نسخة الخيالي: «أغلظ وعيده»، والمثبت من نسخة الطبلاوي.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٧) عن أبي العالية، و«المحتسب» (٢/ ١٠) عن مكحول عن أبي رافع عن النبي ﷺ.

أو: لجهلِهم، على أنَّ (ما) مَصدريَّةٌ والمجعولَ له محذوفٌ للعلمِ به.

﴿نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ مِن الزُّروعِ والأنعامِ.

﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ مِن أنَّها آلهةٌ حقيقةٌ بالتَّقرُّبِ إليها، وهو وعيدٌ لهم عليه.

(٥٧) ـ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾ كانَتْ خُزاعةُ وكِنانَةُ يقولون: الملائكةُ بناتُ الله ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيهٌ له مِن قولِهم، أو تعجُّبٌ منه ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ يعني: البنين.

ويجوزُ في ﴿مَّا يَشْتَهُونَ﴾ الرَّفعُ بالابتداءِ، والنَّصبُ بالعَطفِ على ﴿ٱلْبَنَٰتِ﴾، على أنَّ الجعلَ بمعنى الاختيارِ، وهو وإن أَفْضَى إلى أن يكونَ ضميرُ الفاعلِ والمفعولِ لشَيءٍ واحدٍ لكنَّه لا يَبْعُدُ تَجويزُه في المعطوفِ[١].

(٥٨) ـ ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾: أُخبِرَ بولادَتِها ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ﴾: صارَ أو دامَ النَّهارَ كُلَّه ﴿مُسْوَدًّا﴾ من الكآبةِ والحياءِ مِن النَّاسِ، واسودادُ الوجهِ كنايةٌ عن الاغتمامِ والتَّشويرِ.

﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾: مملوءٌ غَيظًا مِن المرأةِ.

(٥٩) ـ ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾: يستَخفي[٢] مِنْهُم ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾: مِن سوءِ المُبشَّرِ به عُرفًا ﴿أَيُمْسِكُهُۥ﴾ مُحدِّثاً نفسَه مُتفكِّراً في أنْ يترُكَه ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾: ذُلٍّ ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾: أم يُخفيهِ فيه ويَئِدُه، وتذكيرُ الضَّميرِ للَفظِ ﴿مَا﴾، وقُرِئَ بالتَّأنيثِ فيهما[٣].

---

(١) قال ابنُ هشامٍ: إنَّما يَصِحُّ في الآيةِ العطفُ المَذكورُ إذا قدِّرَ أنَّ الأصلَ: ولأنفُسِهم، ثمَّ حذفَ المُضافُ، وذلك تكلُّفٌ. قال: ومِن العَجبِ أنَّ الفَرَّاءَ والزَّمخشَريَّ والحوفِيَّ قدَّرُوا العطفَ المَذكورَ ولم يُقدِّرُوا المضافَ المحذوفَ ولا يَصِحُّ العطف إلا به. «مغني اللبيب» (ص: ٤٩١).

(٢) في نسخة التفتازاني: «يستحيي».

(٣) أي: (أيُمسكها على هُون أم يَدسُّها). انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٧) عن الجحدري.

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ حيثُ يجعلونَ لِـمَن تَعالى عن الولدِ ما هذا محلُّهُ عندَهُم.

(٦٠) ـ ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِ﴾: صِفَةُ السَّوءِ، وهـي الحاجَةُ إلـى الولدِ المناديةُ بالموتِ واستبقاءُ الذُّكورِ استِظهارًا بهم، وكراهةُ الإناثِ ووأدُهنَّ خشيةَ الإملاقِ.

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ وهـو الوُجوبُ الذَّاتيُّ، والغِنى المُطلقُ، والجودُ الفائِقُ، والنَّزاهةُ عن صفاتِ المخلوقين ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾: المنفردُ بكَمالِ القُدرَةِ والحكمَةِ.

(٦١) ـ ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم﴾: بكُفْرِهم ومَعاصيهِم ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا﴾: على الأَرضِ، وإنَّما أَضْمرَهَا مِن غَيرِ ذكرٍ لدَلالَةِ النَّاسِ أو الدَّابَّةِ عليها.

﴿مِن دَآبَّةٖ﴾ قطُّ بشُؤمِ ظُلْمِهِم، وعن ابن مسعود: كادَ الجُعَلُ يَهْلِكُ في جُحرِهِ بذَنبِ ابنِ آدمَ[١].

أو: مِن دابَّةٍ ظالِمَةٍ.

وقيل[٢]: لو أُهلِكَ الآباءُ بكُفرِهم لم يَكُنِ الأبناءُ.

﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ سمَّاهُ لأَعمارِهِم أو لعَذابِهِم كَيْ يَتوالَدُوا.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ بل هَلَكوا أو عُذِّبُوا حينئذٍ لا محالةَ، ولا يلزَمُ مِن عُمومِ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ وإضافةِ الظُّلمِ إليهم أن يكونَ كلُّهم ظالمينَ حتَّى الأنبياءُ عليهِم السَّلامُ؛ لجوازِ أَنْ يُضافَ إليهم ما شاعَ فيهم وصدرَ عَن أكثَرِهِم.

(٦٢) ـ ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَ﴾؛ أي: ما يكرهونَ لأَنفُسِهِم؛ مِن البناتِ، والشُّركاءِ في الرِّياسةِ، والاستخفافِ بالرُّسُلِ، وأراذلِ الأموالِ.

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٢٧٣)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٢٦٠).

(٢) قاله الجُبائي من المعتزلة. كما قال الخفاجي في «الحاشية».

﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ مع ذلك، وهو ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾؛ أي: عندَ اللهِ، كقوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

وقُرِئَ: (الكُذُبُ)[١] جمعُ كَذُوبٍ صِفةٌ للألسنَةِ.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ ردٌّ لكلامِهم وإثباتٌ لضدِّهِ ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾: مقدَّمون إلى النار، من أَفْرَطْتُه في طلب الماء: إذا قدَّمْتَه.

وقرأ نافع بكسر الراء[٢] على أنه من الإفراط في المعاصي.

وقرئ بالتشديد مفتوحًا[٣] من فرَّطْتُه في طلب الماء، ومكسورًا[٤] من التفريط في الطاعات.

(٦٣) ـ ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ فأصرُّوا على قَبائِحِها وكفَروا بالمُرسلين ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾؛ أي: في الدُّنيا، وعبَّر بـ﴿الْيَوْمَ﴾ عن زَمانِها.

أو: فهو وَلِيُّهُم حين كانَ يُزيِّنُ لهم، أو يومَ القيامةِ، على أنَّه حكايةُ حالٍ ماضِيَةٍ أو آتيةٍ.

ويجوزُ أَنْ يكونَ الضَّميرُ لقُريشٍ[٥]؛ أي: زيَّن الشيطانُ للكَفَرةِ المُتقدِّمينَ

---

(١) انظر: «المحتسب» (٢/ ١١) عن معاذ.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٤)، و«التيسير» (ص: ١٣٨).

(٣) نسبها ابن خالويه في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٧) لأبي جعفر. ونسبت في «شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٢٧٣) للأعرج وابن أبي عبلة.

(٤) وهي قراءة أبي جعفر المدني من العشرة. انظر: «النشر» (٢/ ٣٥٤).

(٥) قال أبو حيَّان: هذا فيه بعدٌ؛ لاختلافِ الضَّمائرِ، مِن غيرِ ضَرورةٍ تدعو إلى ذلك ولا إلى حَذفِ المُضافِ، بل الضَّميرُ في الظَّاهرِ عائدٌ إلى ﴿أُمَمٍ﴾. «البحر المحيط» (١٣/ ٣٨٩).

أعمالَهُم، وهو وليُّ هؤلاءِ اليومَ يغرُّهُم[1] ويُغويهِم، وأن يقدَّرَ مضافٌ؛ أي: فهو وَلِيُّ أمثالِهم.

والوليُّ: القَرينُ، أو النَّاصِرُ، فيكونُ نَفْيًا للنَّاصرِ لهم على أبلغِ الوُجوهِ.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في القيامةِ.

(٦٤) ـ ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾: للنَّاسِ ﴿الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ مِن التَّوحيدِ والقَدَرِ وأحوالِ المَعادِ وأحكامِ الأَفعالِ.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ مَعطوفانِ على محلِّ ﴿لِتُبَيِّنَ﴾، فإنَّهُما فِعلَا المنزِلِ بخِلافِ التَّبيينِ.

(٦٥) ـ ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: أنبتَ فيها أَنواعَ النَّباتِ بعدَ يبسِها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سَماعَ تَدبُّرٍ وإنصافٍ.

(٦٦) ـ ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾: دلالةً يُعْبَرُ بها مِن الجهلِ إلى العلمِ ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ استئنافٌ لبيانِ العِبرَةِ، وإنَّما ذكَّرَ الضَّميرَ ووحَّدَه هاهنا للَّفظِ، وأنَّثَه في (سورةِ المؤمنينَ) للمَعنى، فإنَّ الأَنعامَ اسمُ جمعٍ، ولذلك عدَّه سيبويهِ في المفرداتِ المبنيَّةِ على أفعالٍ، كأَخلاقٍ[2] وأَكيَاشٍ[3].

ومَن قال: إنَّه جمعُ نَعَمٍ= جعَلَ الضَّميرَ للبعضِ، فإنَّ اللَّبَنَ لبَعضِها دونَ جَميعِها، أو لواحِدِه، أو له على المعنى، فإنَّ المرادَ به الجنسُ.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «يغريهم».

(٢) جمع خَلَق؛ ضدّ جديد.

(٣) انظر: «الكتاب» (٣/ ٢٣٠). والأكياش: ضربٌ من الثياب تُغزل مرتين، وفي المثل: عليك بالثوب الأكياش فإنه من لباس الأكياس. «حاشية الجاربردي على الكشاف» (ج٢/ و٦٢أ).

وقـرأ نافـعٌ وابـنُ عامرٍ وأبـو بكـرٍ ويَعقـوبُ: ﴿نَسـقيكُم﴾ بالفَتـحِ هاهنا وفي (المؤمنين)[١].

﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا﴾ فإنَّه يُخلقُ مِن بعضِ أَجزاءِ الدَّمِ المتولِّدِ مِن الأجزاءِ اللطيفَةِ التي في الفَرْثِ، وهو الأشياءُ المأكولةُ المنهضِمَةُ بعضَ الانهضامِ في الكَرِشِ.

وعن ابنِ عبَّاسٍ: أنَّ البَهيمةَ إذا اعتلفَتْ وانطبَخَ العلفُ في كرشِها كان أسفَلُه فرثًا وأوسطُه لبنًا وأعلاه دمًا[٢].

ولعلَّه إنْ صَحَّ[٣] فالمرادُ: أنَّ أوسطَهُ يكونُ مادَّةَ اللبنِ، وأعلاه مادَّةَ الدَّمِ الذي يغذِّي[٤] البدنَ؛ لأنَّهُما لا يتكوَّنان فـي الكرشِ، بل الكبدُ يَجْذِبُ صفاوةَ الطَّعامِ المنهضِمِ في الكرشِ ويُبقي ثُفْلَه وهو الفرثُ، ثمَّ يُمسِكُها ريثما يَهضِمُها هضمًا ثانيًا، فيحدثُ أخلاطٌ أربعَةٌ معَها مائيَّةٌ، فتميِّزُ القوَّةُ المميِّزةُ تلك المائيَّةَ بما زادَ على قَدْرِ الحاجةِ مِن المرَّتينِ وتدفَعُها إلى الكليَةِ والمرارةِ والطِّحالِ، ثم يوزِّعُ الباقي على الأعضاءِ بحَسَبِها، فيجري إلى كلٍّ حقَّه على ما يليقُ به بتقديرِ الحكيمِ العَليمِ.

ثـم إنْ كانَ الحيـوانُ أنثـى زادَ أخلاطُهـا علـى قَـدْرِ غذائِهـا لاسـتيلاءِ البـردِ والرُّطوبـةِ علـى مزاجِهـا، فيندفعُ الزَّائـدُ أولًا إلى الرَّحـمِ لأجلِ الجَنينِ، فـإذا انفصلَ

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٤)، و«التيسير» (ص: ١٣٨)، و«النشر» (٢/ ٣٠٤).

(٢) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٢٨٠)، والثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٢٧)، والواحدي في «البسيط» (١٣/ ١١٣)، والرازي في «تفسيره» (٢٠/ ٢٣٢)، وأخرجه القزاز كما في «فتح الباري» (١٠/ ٧١).

(٣) ولم يصح؛ لأنه من رواية أبي صالح عن ابن عباس، كما صرح السمرقندي والواحدي، ورواه عن أبي صالح الكلبي كما جاء عند الرازي، والكلبي متروك، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس.

(٤) بعدها في نسخة التفتازاني: «به».

انصبَّ ذلك الزائدُ أو بعضُه إلى الضُّروعِ فيَبْيَضُّ بمُجاورةِ لحومها الغُدديةِ البيضِ فيَصيرُ لبنًا.

ومَن تَدبَّرَ صنعَ اللهِ في إحداثِ الأخلاطِ والألبانِ، وإعدادِ مقارِّهَا ومَجاريها والأسبابِ المولِّدَةِ لها، والقُوَى المتصرِّفةِ فيها كلَّ وقتٍ على ما يليقُ به، اضطرَّ إلى الإقرارِ بكمالِ حِكمَتِه وتَناهي رَحمَتِه.

و(مِن) الأُولى تَبعيضيَّةٌ؛ لأنَّ اللَّبنَ بعضُ ما في بطونها، والثَّانيةُ ابتدائيَّةٌ كقولك: سَقيتُ مِن الحوضِ؛ لأنَّ بين الفَرثِ والدَّم المحلَّ الذي يُبتدأُ منه الإسقاءُ، وهي مُتعلِّقَةٌ بـ﴿نُّسۡقِيكُم﴾، أو حالٌ مِن ﴿لَّبَنًا﴾ قدِّم عليه؛ لتنكيرِه، وللتَّنبيهِ على أنَّه موضعُ العبرةِ.

﴿خَالِصًا﴾: صافيًا لا يَستصحِبُ لونَ الدَّمِ ولا رائحةَ الفَرثِ، أو: مُصفًّى عما يَصحَبُه مِن الأجزاءِ الكثيفةِ بتَضييقِ مخرجِه.

﴿سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾: سهلَ المُرورِ في حَلقِهِم، وقُرِئَ: (سَيِّغًا) بالتَّشديدِ والتَّخفيفِ(١).

(٦٧) ـ ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ﴾ مُتعلِّقٌ بمَحذوفٍ؛ أي: ونسقيكُمْ مِن ثَمراتِ النَّخيلِ والأعنابِ؛ أي: مِن عَصيرِهِما، وقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرًا﴾ استئنافٌ لبَيانِ الإسقاءِ.

أو: بـ﴿تَتَّخِذُونَ﴾، و﴿مِنۡهُ﴾ تكريرٌ للظَّرفِ تَأكيدًا.

أو: خبرٌ لِمَحذوفٍ صِفَتُه: ﴿تَتَّخِذُونَ﴾؛ أي: ومِن ثمراتِ النَّخيلِ والأعنابِ ثمرٌ تَتَّخذونَ مِنه.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٧) بالتشديد عن عيسى، و«المحتسب» (٢/ ١١) بالتخفيف عن الثقفي.

وتذكيرُ الضَّميرِ علـى الوجهينِ الأوَّلينِ لأنَّه للمُضافِ المحذوفِ الذي هو العَصيرُ، أو لأنَّ الثَّمراتِ بمَعنى الثَّمرِ.

والسَّكَرُ مصدَرٌ سُمِّيَ به الخمرُ.

﴿وَرِزۡقًا حَسَنًا﴾ كالتَّمرِ والزَّبيبِ والدِّبسِ والخَلِّ.

والآيةُ إن كانَتْ سابقَةً على تحريمِ الخَمرِ فدالَّةٌ على كَراهَتِها، وإلَّا فجامِعَةٌ بين العِتابِ والمِنَّةِ.

وقيل: السَّكَرُ النَّبيذُ، وقيل: الطُّعْمُ، قال:

جَعَلْـتَ أَعْـرَاضَ الكِـرَامِ سَـكَرَا[1]

أي: تَنَقَّلْتَ بأعراضِهم[2].

وقيل: ما يَسُدُّ الجوعَ، من السَّكْرِ، فيكونُ الرِّزقُ ما يحصُلُ مِن أثمانِه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾: يستعملونَ عُقولَهُم بالنَّظرِ والتَّأمُّلِ في الآياتِ.

(٦٨) ـ ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾: ألهمَهَا وقذفَ في قلوبِها. وقُرِئَ: (إلى النَّحَلِ) بفَتحتينِ[3].

---

(١) شطر بيت ورد في المصادر بلا تتمة، وهو بلفظ المؤلف في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٠٩)، و«تهذيب اللغة» (١٠/ ٣٥)، و«اللسان» (مادة: سكر). وجاء في «مجاز القرآن» (١/ ٣٦٣)، و«تفسير الطبري» (١٤/ ٢٨٤)، و«تفسير الثعلبي» (١٦/ ٧٤)، برواية:

جعلـت عيـب الأكرميـن سـكرا

ونسبه أبو عبيدة لجندل، ولعله جندل بن المثنى الطهوي المترجم له في «سمط اللآلي» (ص: ٦٤٤).

(٢) أي: جعلت أعراضهم نُقلًا.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٧) عن عيسى.

﴿أَنِ ٱتَّخِذِى﴾: بأَنِ اتَّخِذِي، ويجوزُ أن تكونَ مُفسِّرَةً لأنَّ في الإيحاءِ معنى القولِ.

وتأنيثُ الضَّميرِ على المعنى، فإنَّ النَّحلَ مُذكَّرٌ.

﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ ذُكر بحرفِ التَّبعيضِ لأنَّها لا تَبْني في كلِّ جبلٍ وكلِّ شَجرٍ وكلِّ ما يُعْرَشُ مِن كَرْمٍ أو سَقْفٍ، ولا في كلِّ مكانٍ منها، وإنَّما سُمِّيَ ما تَبنيهِ لتَتعسَّلَ فيه بيتًا تشبيهًا ببناءِ الإنسانِ؛ لِمَا فيهِ مِن حُسنِ الصَّنعَةِ وصِحَّةِ القِسمَةِ التي لا يَقْوَى[1] عليها حُذَّاقُ المُهندسينَ إلا بآلاتٍ وأَنظارٍ دَقيقَةٍ، ولعلَّ ذكرَهُ للتَّنبيهِ على ذلك.

وقُرِئَ ﴿بِيُوتًا﴾ بكسرِ الباءِ للياءِ[2].

وقرأ ابنُ عامرٍ وأبو بكرٍ: ﴿يَعرُشُونَ﴾ بضمِّ الرَّاءِ[3].

(٦٩) ـ ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: مِن كلِّ ثمرةٍ تَشتهينَها مُرِّها وحُلوِهَا ﴿فَٱسْلُكِى﴾ ما أكلتِ ﴿سُبُلَ رَبِّكِ﴾: في مَسالِكِه التي يُحيلُ فيها بقُدرَتِه النَّورَ المرَّ عسلًا مِن أَجوافِكَ.

أو: فاسلُكِي الطُّرُقَ التي أَلهمكِ في عملِ العَسلِ.

أو: فاسلُكِي راجعةً إلى بُيوتكِ سُبلَ ربِّكِ لا تتوعَّرُ عليكَ ولا تلتبِسُ.

﴿ذُلُلًا﴾: جمع ذلولٍ، وهي حالٌ مِن السُّبُلِ؛ أي: مذلَّلةً، ذلَّلها اللهُ وسهَّلَها لكِ، أو مِن الضَّميرِ في (اسلكي)؛ أي: وأنتِ ذُلُلٌ منقادةٌ لِمَا أُمِرْتِ به.

---

(١) في نسخة الخيالي: «لا يقوم».

(٢) وهي قراءة جمهور السبعة، وقرأ أبو عمرو وورش وحفص بضم الباء. انظر: «السبعة» (ص: ١٧٨)، و«التيسير» (ص: ٨٠).

(٣) هذا هو الموجود في النسخ الصَّحيحة، ووقعَ في نسخةٍ بكسرِ الرَّاء، وهو من تحريف الناسخ. قاله الخفاجي في «الحاشية». وانظر: «السبعة» (ص: ٣٧٤)، و«التيسير» (ص: ١١٣).

﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا﴾ عَدلَ به عَن خطابِ النَّحلِ إلى خطـابِ النَّاسِ لأنَّه محلُّ الإنعامِ عليهم، والمقصودُ مِن خلقِ النَّحلِ وإلهامِه لأجلِهم.

﴿شَرَابٞ﴾ يعني: العسلَ؛ لأنَّه ممَّا يُشربُ، واحتجَّ به مَن زعمَ أنَّ النَّحلَ تأكلُ الأزهارَ والأوراقَ العَطِرَةَ فتستحيلُ في باطنِها عسلًا، ثم تقيءُ ادِّخارًا للشِّتاءِ، ومن زعمَ أنها تلتقِطُ بأفواهِها أجزاءً طليَّةً حلوةً صغيرةً مُتفرقَةً على الأوراقِ والأزهارِ، وتضعُها في بيوتِها ادخارًا، فإذا اجتمعَ في بيوتِها شيءٌ كثيرٌ مِنها كان العسلُ= فسَّر البطونَ بالأفواهِ.

﴿مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ أبيـضُ وأصفـرُ وأحمـرُ وأسـوَدُ بسـببِ اختلافِ سـنِّ النَّحلِ أو الفـصلِ.

﴿فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِ﴾ إمَّا بنفسِه كما في الأمراضِ البَلغميَّةِ، أو مع غيرِه كما في سائرِ الأمراضِ؛ إذ قلَّما يكونُ مَعجونٌ إلا والعسلُ جزءٌ مِنه، مع أنَّ التنكيرَ فيه مشعِرٌ بالتَّبعيضِ، ويجوزُ أن يكونَ للتَّعظيمِ.

وعن قتادةَ: أنَّ رَجُلًا جاءَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقال: إنَّ أَخِي يَشتكِي بطنَه، فقال: «اسقِهِ العسلَ»، فذهبَ ثمَّ رجعَ فقال: قد سَقَيْتُه فما نفعَ فقال: «اذهَبْ واسقِهِ عَسَلًا، فقد صدقَ اللهُ وكذبَ بطنُ أَخيكَ»، فسَقاهُ فشَفاه الله فبَرِئَ، فكأنَّما أُنشطَ مِن عقالٍ[1].

وقيل: الضَّميرُ للقُرآنِ، أو لِمَا بيَّنَ اللهُ مِن أَحوالِ النَّحلِ.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإنَّ مَن تدبَّر اختصاصَ النَّحلِ بتلك العُلومِ

---

(١) رواه دون قوله: «فكأنَّما أُنشطَ مِن عقالٍ»: البخاري (٥٦٨٤)، ومسلم (٢٢١٧)، من رواية قتادة عن أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ورواه بتمامه عبد الرزاق في «مصنفه» (٢١٢٤١)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٣٦٨٦)، عن قتادة مرسلاً.

الدَّقيقةِ والأفعالِ العَجيبةِ حقَّ التَّدبُّرِ عَلِمَ قطعًا أنَّه لا بدَّ له مِن قادرٍ حكيمٍ يُلهِمُها ذلك ويَحمِلُها عليه.

(٧٠) ـ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ بآجالٍ مُختلفةٍ ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ﴾: يُعادُ ﴿إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾: أخسِّهِ؛ يعني: الهرمَ الذي يَشابهُ الطُّفوليَّةَ في نقصانِ القوَّةِ والعقلِ، وقيل: هو خمسٌ وتسعونَ سنةً، وقيل: خمسٌ وسبعون[1].

﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾: ليصيرَ إلى حالةٍ شَبيهةٍ بحالِ الطُّفوليَّةِ في النِّسيانِ وسوءِ الفَهمِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بمقاديرِ أعمارِهم ﴿قَدِيرٌ﴾ يُميتُ الشَّابَّ النَّشيطَ ويُبقي الهَرِمَ الفانيَ.

وفيه تنبيهٌ على أنَّ تَفاوُتَ آجالِ النَّاسِ ليس إلا بتقديرِ قادرٍ حَكيمٍ ركَّب أبنِيَتَهُم وعدَّلَ أمزِجَتَهم على قَدْرٍ معلومٍ، ولو كان ذلك مُقتَضَى الطِّباعِ لم يَبلُغِ التَّفاوتُ هذا المبلغَ.

(٧١) ـ ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ﴾ فمِنْكُم غنيٌّ ومِنْكُم فقيرٌ، ومِنْكُم مَوالٍ يَتولَّوْنَ رِزقَهُم ورِزقَ غيرِهِم، ومِنكُم مماليكُ حالُهم على خلافِ ذلك.

﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ﴾: بمُعطي رِزقِهِم ﴿عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ﴾: على مماليكِهِم، فإنَّما يَرُدُّون عليهِم رزقَهُم الذي جعلَه اللهُ في أَيديهِم.

﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾: فالمَوالي والمَماليكُ سواءٌ في أنَّ اللهَ رزَقَهُم، فالجملةُ لازِمَةٌ للجُملَةِ المَنفيَّةِ أو مُقرِّرَةٌ لها، ويجوزُ أَنْ تكونَ واقِعَةً موقِعَ الجَوابِ، كأنه قيل: فما الذين فُضِّلُوا برادِّي رِزقِهِم على ما ملكَتْ أيمانُهُم فيَستووا في الرِّزقِ، على أنَّه

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٢٩٢) من قول علي رضي الله عنه.

ردٌّ وإنكارٌ على المشركينَ، فإنَّهُم يُشرِكُونَ باللهِ بعضَ مخلوقاتِه في الأُلوهيَّةِ، ولا يرضونَ أَنْ يُشارِكَهُم عبيدُهُم فيما أنعمَ اللهُ عليهِمْ فيُساووهم فيه.

﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ حيث يَتَّخِذُونَ له شُركاءَ، فإنَّه يقتَضِي أن يُضافَ إليهم بعضُ ما أنعمَ اللهُ عليهم ويَجحَدُوا أنَّه مِن عندِ اللهِ، أو: حيثُ أنكَرُوا أمثالَ هذه الحُجَجِ بعدَما أنعمَ اللهُ عليهِم بإيضاحِها، والباءُ لتَضمُّنِ الجُحودِ معنى الكُفرِ.

وقرأَ أبو بَكرٍ: ﴿تَجْحَدون﴾ بالتَّاءِ[1]، لقوله: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ و﴿فَضَّلَ بَعْضَكُمْ﴾.

(٧٢) ـ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾؛ أي: مِن جنسِكُم لتَأْنَسُوا بها ولتكونَ أولادُكُم مِثْلَكم، وقيل: هو خَلْقُ حوَّاءَ من آدمَ.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾: وأولادَ أولادٍ، أو: بناتٍ فإنَّ الحافِدَ هو المسرعُ في الخدمةِ، والبناتُ يَخْدُمْنَ في البُيوتِ أتمَّ خِدمَةٍ.

وقيل: هُم الأَخْتانُ على البَناتِ، وقيل: الرَّبائِبُ.

ويجوزُ أن يرادَ بها البَنونَ أنفسُهم، والعَطفُ لتَغايُرِ الوَصفَيْنِ.

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: مِن اللَّذائذِ، أو: من الحلالاتِ، و﴿مِّنَ﴾ للتَّبعيضِ، فإنَّ المَرزوقَ[2] في الدُّنيا أُنموذَجٌ مِنها.

﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ وهو أنَّ الأَصنامَ تَنْفَعُهم، أو: أنَّ مِن الطَّيِّباتِ ما يَحرمُ عليهِم كالبَحائرِ والسَّوائبِ ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ حيثُ أَضافوا نِعمَهُ إلى الأصنامِ، أو حرَّمُوا ما أحلَّ اللهُ لَهُم.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٤)، و«التيسير» (ص: ١٣٨).

(٢) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «الرزق».

وتَقديمُ الصِّلَةِ على الفعلِ إمَّا للاهتمامِ، أو لإيهامِ التَّخصيصِ مُبالغَةً، أو للمُحافظَةِ على الفَواصلِ.

(٧٣) ـ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا﴾ مِن مَطَرٍ ونَبَاتٍ. و﴿رِزْقًا﴾ إنْ جعلتَهُ مَصدَرًا فـ﴿شَيْـًٔا﴾ مَنصوبٌ به، وإلا فبدلٌ عنه.

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أن يَتملَّكُوهُ؛ إذ لا استطاعةَ لهم أصلًا، وجمعُ الضَّميرِ فيه وتَوحيدُه في ﴿لَا يَمْلِكُ﴾ لأنَّ (ما) مُفرَدٌ في مَعنى الآلهةِ، ويجوزُ أنْ يعودَ إلى الكُفَّارِ؛ أي: ولا يستطيعُ هؤلاءِ مع أنَّهُم أحياءٌ مُتصرِّفونَ شيئًا من ذلك فكيف بالجَمادِ؟!

(٧٤) ـ ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾: فلا تجعَلُوا له مثلًا تُشركونَ به، أو تَقيسُونَه عليه، فإنَّ ضربَ المثلِ تَشبيهُ حالٍ بحالٍ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ فسادَ ما تُعَوِّلُونَ عليه مِن القِياسِ على أنَّ عِبادةَ عبيدِ الملِكِ أدخَلُ في التَّعظيمِ مِن عِبادَتِه، أو عِظَمَ جُرمِكُم فيما تفعلونَ ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك، ولو عَلِمْتُموهُ لَمَا جَرُؤتُم عليه، فهو تَعليلٌ للنَّهيِ.

أو: إنَّه يعلَمُ كُنْهَ الأَشياءِ وأنتُمْ لا تَعلَمونَه، فدَعُوا رأيَكُم دونَ نَصِّه.

ويجوزُ أَنْ يُرادَ: فلا تَضرِبُوا للهِ الأمثالَ، فإنَّه يعلَمُ كيفَ يضربُ الأمثالَ وأنتُمْ لا تعلمونَ، ثمَّ عَلَّمَهُم كيفَ يضربُ فضربَ مثلًا لنفسِهِ ولِمَن عُبِدَ دونَهُ فقال:

(٧٥) ـ ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾ مَثَّلَ ما يُشرَكُ به بالمملوكِ العاجزِ عن التَّصرُّفِ رأسًا، ومثَّلَ نفسَهُ بالحرِّ المالكِ الذي رزقَهُ اللهُ مالًا كثيرًا فهو يَتصرَّفُ فيه وينفقُ مِنه كيفَ شاء، واحتجَّ بامتناعِ الإشراكِ والتَّسويةِ بينَهُما ـ مع تشارُكِهِما في الجنسيَّةِ والمَخلوقِيَّةِ ـ على امتناعِ التَّسوِيَةِ بين الأَصنامِ التي هي أعجَزُ المَخلوقاتِ وبين اللهِ الغَنِيِّ القَادرِ على الإطلاقِ.

وقيل: هو تمثيلٌ للكَافرِ المَخذولِ والمؤمنِ الموفَّقِ، وتقييدُ العبدِ بالمَملوكِ للتَّمييزِ مِن الحرِّ، فإنَّه أيْضًا عبدُ اللهِ، وبسَلْبِ القدرةِ للتَّمييزِ عَن المُكاتَبِ والمَأذونِ، وجعلُهُ قسيمًا للمالكِ المُتَصرِّفِ يدلُّ على أنَّ المملوكَ لا يَملِكُ.

والأظهَرُ أنَّ (مَن) مَوصوفَةٌ ليطابقَ ﴿عَبْدًا﴾، وجمعُ الضَّميرِ في ﴿يَسْتَوُۥنَ﴾ لأنَّه للجِنسينِ، فإنَّ المَعنى: هَلْ يَستَوِي الأحرارُ والعَبيدُ.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كلُّ الحمدِ له لا يَستحقُّهُ غيرُه فضلًا عن العبادةِ؛ لأنَّه مُولي النِّعَمِ كُلِّها.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيضيفونَ نِعمَهُ إلى غيرِه ويعبدونَه لأجلِها.

(٧٦) - ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾: وُلِدَ أخرَسَ لا يَفهَمُ ولا يُفهِمُ ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ مِن الصَّنائعِ والتَّدابيرِ لنُقصانِ عَقلِه.

﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾: عيالٌ وثِقْلٌ على مَن يَلِي أمرَه ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾ حيثُما يُرسِلْه مولاهُ في أمرٍ، وقُرِئَ: (يُوَجَّهْ) على البناء للمفعول[1].

و: (يُوَجِّهْ)[2] بمعنى: يَتوَجَّهْ، كقوله: أينما أُوَجِّهْ ألقَ سَعْداً[3].

---

(١) نسبت لابن مسعود رضي الله عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٧)، و«المحتسب» (٢/ ١٠).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٧)، و«المحتسب» (٢/ ١٠)، عن ابن مسعود وعلقمة ويحيى ومجاهد وطلحة.

(٣) قوله: «أينما أوجه ألق سعداً» قال الطيبي في «فتوح الغيب» (٩/ ١٦٩): يُضربُ لمن يتلقى الشرَّ أيةَ سَلَك، وعن بعضٍ: أصله أن أضبطَ كان سيدَ قومه، فأصابه منهم جفوةٌ، فارتحل عنهم إلى آخَرين، فرآهم يصنعون بساداتهم مثلَ صنيع قومه، فقال: «أينما أوجِّهْ ألقَ سعداً»، وسعدٌ كان شرِّيراً. وانظر: «أمثال العرب» للضبي (ص: ٥٠).

و: (تَوَجَّهَ) بلفظِ الماضي[1].

﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾: بِنُجْحٍ وكِفايةِ مُهِمٍّ.

﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾: ومَن هو فَهِمٌ مِنْطِيقٌ ذو كِفايَةٍ ورشدٍ، ينفَعُ النَّاسَ بحثِّهِم على العَدلِ الشَّاملِ لِمَجامِعِ الفَضائلِ.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: وهو في نَفسِه على طَريقٍ مُستقيمٍ، لا يتوجَّهُ إلى مطلبٍ إلَّا ويبلغُه بأقربِ سَعيٍ.

وإنَّما قابلَ تلك الصِّفاتِ بهذينِ الوَصفينِ لأنَّهُما كمالُ ما يُقابِلُهما.

وهذا تَمثيلٌ ثانٍ ضربَهُ اللهُ لنَفسِهِ وللأصنامِ لإبطالِ المُشاركَةِ بينَهُ وبينَها، أو للمُؤمنِ والكافرِ.

(٧٧) ـ ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يختصُّ به علمُه لا يعلمُهُ غيرُه، وهو ما غابَ فيهِما عَن العبادِ بأنْ لم يَكُن محسوسًا ولم يدلَّ عليه محسوسٌ.

وقيل: يومُ القيامةِ، فإنَّ عِلمَهُ غائبٌ عَن أهلِ السَّماوات والأرضِ.

﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ﴾: وما أمرُ قيامِ القيامةِ في سُرعَتِه وسُهولَتِه ﴿إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾: إلا كرجعِ الطَّرْفِ مِن أعلى الحَدقة إلى أَسفَلِها ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾: أو أمرُها أقرَبُ منه بأَنْ يكونَ في زَمانِ نصفِ تلك الحركةِ، بل والآنِ الذي تَبتدِئُ فيه، فإنَّه تعالى يُحيِي الخلائقَ دفعةً، وما يوجدُ دفعةً كان في آنٍ.

و(أو) للتَّخييرِ، أو بمعنى: بل.

وقيل: معناه: إنَّ قيامَ السَّاعةِ وإنْ تراخَى فهو عندَ اللهِ كالشَّيءِ الذي يقولون فيه: (هو كلَمحِ البَصرِ أو هو أقرَبُ) مبالغةً في استِقرابِه.

---

(١) نسبت لابن عمير. انظر: «شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٢٧٤).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدرُ أَنْ يُحييَ الخَلائقَ دفعةً كما قَدَرَ أنْ أحياهم مُتدرِّجًا، ثمَّ دلَّ على قُدرَتِه فقال:

(٧٨) ـ ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ وقرأَ الكِسائيُّ بكسرِ الهمزةِ على أنَّه لُغةٌ أو إتْباعٌ لِمَا قبلَها، وحمزةُ بكسرِها وكسرِ الميمِ[1]. والهاءُ مَزيدَةٌ مِثلُها في: أَهْرَاقَ.

﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾: جُهَّالًا مُستَصحِبينَ جهلَ الجَماديَّةِ.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ أداةً تتعلَّمونَ بها، فتحسُّونَ بمَشاعِرِكُم جُزئيَّاتِ الأشياءِ فتُدرِكُونَها، ثمَّ تَتنبَّهونَ بقُلوبِكُم بمُشاركاتٍ ومُبايناتٍ بينها بتكرارِ الإحساسِ حتَّى تَتحصَّلَ لَكُم العُلومُ البَديهيَّةُ وتَتمكَّنُوا مِن تَحصيلِ المَعالمِ الكَسْبيَّةِ بالنَّظرِ فيها.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: كي تَعرِفُوا ما أنعَمَ عَلَيكُم طَوْرًا بعدَ طَوْرٍ فتَشكُرُونَه.

(٧٩) ـ ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾ قرأَهُ ابنُ عامرٍ وحمزةُ ويَعقوبُ بالتَّاءِ[2] عَلى أنَّه خِطابٌ للعامَّةِ.

﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾: مُذلَّلاتٍ للطَّيرانِ بما خلقَ لَها مِن الأَجنِحَةِ والأَسبابِ المُواتيةِ له ﴿فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾: في الهواءِ المُتباعدِ مِن الأَرضِ ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ فيه ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فإنَّ ثقلَ جَسدِها يَقتَضِي سُقوطَها[3]، ولا علاقةَ فوقَها ولا دعامَةَ تحتَها تُمسِكُها.

---

(١) كَسَرهما حمزة في الوصل، والكسائيُّ يكسر الهمزة في الوصل ويفتح الميم، والباقون يضمون الهمزة ويفتحون الميم في الحالين، والابتداء للجميع بضم الهمزة وفتح الميم. انظر: «التيسير» (ص: ٩٤).

(٢) انظر: «التيسير» (ص: ١٣٨)، و«النشر» (٢/ ٣٠٤).

(٣) في نسخة التفتازاني: «السقوط»، وفي نسخة الخيالي: «سقوطاً»، والمثبت من نسخة الطبلاوي.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾: تسخيرِ الطَّيرِ للطَّيرانِ بأنْ خلقَها خِلقةً يمكنُ معها الطَّيرانُ، وخَلقِ الجوِّ بحيثُ يُمكِنُ الطَّيرانُ فيه، وإمساكِها في الهواءِ على خلافِ طَبعِها ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنَّهم هُم المنتفعونَ بها.

(٨٠) - ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾: مَوضِعًا تَسكنونَ فيه وقتَ إقامَتِكُم، كالبيوتِ المُتَّخَذةِ مِن الحجرِ والمَدَرِ، فَعَلٌ بمَعنى مَفعولٍ.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ هي القِبابُ المتَّخَذةُ مِن الأَدَمِ، ويجوزُ أن يتناولَ المتَّخَذةَ مِن الوَبَرِ والصُّوفِ والشعرِ، فإنَّها مِن حيثُ إنَّها نابتةٌ على جلودِها يَصْدُقُ عليها أنَّها مِن جلودِها.

﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾: تَجِدونَها خفيفةً يَخِفُّ عليكُم حملُها ونَقلُها ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾: وقتَ ترحالِكُم، ووضعُها أو ضربُها ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾: وقتَ الحضرِ أو النُّزولِ.

وقرأَ الحِجازيَّانِ والبصريَّان: ﴿يَوْمَ ظَعَنِكُم﴾ بالفتحِ[1]، وهو لغةٌ.

﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا﴾ الصُّوفُ للضَّائنَةِ، والوبرُ للإبلِ، والشَّعرُ للمعزِ، وإضافتُها إلى ضميرِ ﴿الْأَنْعَامِ﴾ لأنَّها مِن جُملَتِها.

﴿أَثَاثًا﴾: ما يُلبَسُ ويُفرَشُ ﴿وَمَتَاعًا﴾: ما يُتَّجَرُ به ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾: إلى مُدَّةٍ مِن الزَّمانِ؛ فإنَّها لصَلابَتِها تَبقى مُدَّةً مَديدةً، أو: إلى حينِ مماتِكُم، أو: إلى أن تَقْضوا منه أوطارَكُم.

(٨١) - ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ﴾: مِن الشَّجرِ والجبَلِ والأَبنِيَةِ وغيرِها ﴿ظِلَالًا﴾ تتفيَّؤونَ به حرَّ الشَّمسِ ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾: مواضِعَ تَسكنونَ فيها؛ مِن الكُهوفِ والبُيوتِ المنحوتَةِ فيها، جمعُ كِنٍّ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٥)، و«التيسير» (ص: ١٣٨)، و«النشر» (٢/ ٣٠٤). والحجازيان: نافع المدني وابن كثير المكي، والبصريان: أبو عمرو ويعقوب.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾: ثِيابًا مِن الصُّوفِ والكَتَّانِ والقطنِ وغيرها ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ خصَّهُ بالذِّكرِ اكتفاءً بأحدِ الضِّدَّينِ، أو لأنَّ وقايةَ الحرِّ كانَتْ أهمَّ عندَهُم.

﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ يعني: الدُّروعَ والجَواشِنَ، والسِّربالُ يَعُمُّ كلَّ ما يُلبَسُ.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: كإتمامِ هذه النِّعَمِ التي تقدَّمَتْ ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾؛ أي: تَنظرونَ في نِعَمِه فتؤمِنونَ به، أو: تنقادونَ لحُكْمِه.

وقرئ: (تَسْلَمون) مِن السَّلامَةِ[1]؛ أي: تشكرونَ فتَسلمونَ مِن العَذابِ، أو: تنظرونَ فيها فتَسلَمُونَ مِن الشِّركِ، وقيل: تَسْلَمونَ مِن الجراحِ بلبسِ الدُّروعِ.

(٨٢) ـ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾: أعرَضُوا ولَمْ يَقبَلُوا مِنكَ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ فلا يَضرُّكَ، فإنَّما عليك البَلاغُ وقد بلَّغتَ، وهذا مِن إقامَةِ السَّببِ مُقامَ المُسبَّبِ.

(٨٣) ـ ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: يعرِفُ المُشرِكُونَ نعمَهُ التي عدَّدَها علَيْهم وغيرَها حيثُ يَعترِفُونَ بها وبأنَّها مِن اللهِ ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ بعبادَتِهم غيرَ المنعِمِ بها، وقولِهم: إنَّها بشَفاعةِ آلهتِنا، أو بسببِ كذا، أو بإعراضِهم عَن أداءِ حُقوقِها.

وقيل: ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾: نبوَّةَ محمَّدٍ عليهِ السَّلامُ، عرفُوها بالمُعجزاتِ ثمَّ أَنكَرُوها عنادًا، ومَعنى ﴿ثُمَّ﴾: استبعادُ الإنكارِ بعدَ المعرِفَةِ.

﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: الجاحدونَ عِنادًا، وذكرَ الأكثَرَ: إمَّا لأنَّ بعضَهُم لم يعرِفِ الحقَّ لنُقصَانِ العقلِ أو التَّفريطِ في النَّظرِ، أو لم تَقُمْ عليه الحجَّةُ لأنَّه لم يبلُغْ حدَّ التَّكليفِ، وإمَّا لأنَّه مُقامُ مُقامَ الكلِّ كمَا في قولِه: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٥].

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٧) عن ابن عباس.

(٨٤) ـ ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ وهو نَبيُّهَا يشهَدُ لَهُم وعليهِمْ بالإيمانِ والكُفرِ.

﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ في الاعتذارِ إذ لا عُذرَ لَهُم، وقيل: في الرُّجوعِ إلى الدُّنيا.

و﴿ثُمَّ﴾ لزيادةِ ما يَحيقُ بهم مِن شدَّةِ المنعِ عَن الاعتذارِ لِمَا فيه مِن الإقناطِ الكُليِّ على ما يُـمْنَوْنَ بهِ[1] مِن شهادَةِ الأَنبياءِ عليهِم.

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾: ولا هُم يُسْتَرضونَ. مِن العُتبَى وهي الرِّضَا.

وانتصابُ ﴿يومَ﴾ بمَحذوفٍ تقديرُهُ: اذكُرْ، أو: خوِّفْهُم، أو: يَحيقُ بهم ما يَحيقُ، وكذا قولُه:

(٨٥) ـ ﴿ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ ﴾ عذابَ جهنَّم ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾؛ أي: العذابُ ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾: يُمْهَلُون.

(٨٦) ـ ﴿ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ ﴾: أوثانَهُم التي دَعَوْها شُركاءَ، أو الشَّياطينَ الذين شارَكُوهُم في الكفرِ بالحملِ عليه.

﴿قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ ﴾: نعبُدُهم، أو: نُطيعُهُم، وهو اعترافٌ بأنَّهُم كانوا مُخطئينَ في ذلك، أو التماسٌ بأن يُشطَّرَ عذابُهُم.

﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾؛ أي: أجابوهُم بالتَّكذيبِ في أنَّهُم شُركاءُ اللهِ، أو أنَّهُم عَبَدُوهم حقيقةً، وإنَّما عَبَدوا أهواءَهُم، كقولِه: ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ [مريم: ٨٢]، ولا يمتَنِعُ إنطاقُ الأصنامِ به حينئذٍ، أو: في أنَّهُم حملوهُم[2]

---

(١) قوله: «على ما يُمْنَون به» متعلق بـ«زيادة» في قوله: «لزيادة ما يحيق بهم»، و«يمنون» مبني للمجهول. «حاشية الشهاب».

(٢) قوله: «أو في أنهم حملوهم» معطوف على «في أنهم شركاء..». انظر: «حاشية القونوي» (١١/ ٣٥٨).

على الكفرِ وألزَمُوهُم إيَّاه، كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: ٢٢].

(٨٧) ـ ﴿وَأَلْقَوْا۟﴾: وألقَى الذين ظلَمُوا ﴿إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾: الاستسلامَ لحُكمِه بعدَ الاستكبارِ في الدُّنيا ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾: وضاعَ عَنْهُم وبطلَ ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ مِن أنَّ آلِهَتَهُم يَنصُرونَهُم ويَشفعونَ لَهُم حينَ كَذَّبُوهم وتَبرَّؤُوا منهم.

(٨٨) ـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بالمنعِ عَن الإسلامِ والحملِ على الكُفرِ ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا﴾ لصَدِّهِم ﴿فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ المستحَقِّ بكُفرِهِم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾: بكونِهم مُفسدينَ بصَدِّهِم.

(٨٩) ـ ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني: نبيَّهُم، فإنَّ نبيَّ كلِّ أمَّةٍ بُعِثَ مِنهم ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمَّد ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: على أمَّتِكَ.

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ استئنافٌ، أو حالٌ بإضمارِ (قد) ﴿تِبْيَٰنًا﴾: بيانًا بليغًا ﴿لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ مِن أُمورِ الدِّينِ على التَّفصيلِ، أو الإجمالِ بالإحالةِ إلى السُّنَّةِ أو القياسِ.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ للجميعِ، وإنَّما حِرمانُ المَحرومِ مِن تَفريطِه، ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ خاصَّةً.

(٩٠) ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾: بالتوسُّطِ في الأُمورِ: اعتقادًا كالتَّوحيدِ المُتوسِّطِ بين التَّعطيلِ والتَّشريكِ، والقولِ بالكسبِ المتوسِّطِ بينَ محضِ الجَبرِ والقَدَرِ، وعَمَلًا كالتَّعبُّدِ بأداءِ الواجباتِ المتوسِّطِ بين البطالةِ والترهُّبِ، وخُلُقًا كالجُودِ المتوسِّطِ بين البُخلِ والتَّبذيرِ.

﴿وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾: إحسانِ الطَّاعاتِ، وهو إمَّا بحسبِ الكميَّةِ كالتَّطوُّعِ بالنَّوافلِ،

أو بحسبِ الكيفيَّةِ كما قال عليه السَّلام: «الإحسانُ أَنْ تَعبُدَ اللهَ كأنَّكَ تَراه، فإِنْ لَمْ تكُن تَراهُ فإنَّهُ يَراكَ»(١).

﴿وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: وإعطاءِ الأقاربِ ما يحتاجونَ إليه، وهو تخصيصٌ بعدَ تعميمٍ للمُبالغَةِ.

﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾: عن الإفراطِ في مُشايعَةِ القُوَّةِ الشَّهويَّةِ كالزِّنَا، فإنَّه أقبَحُ أحوالِ الإنسانِ وأشنَعُها.

﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾: ما ينكَرُ على مُتعاطيهِ في إثارةِ القُوَّةِ الغَضبيَّةِ.

﴿وَٱلْبَغْيِ﴾: والاستعلاءِ والاستيلاءِ على النَّاسِ والتَّجبُّرِ عليهِم، فإنَّها الشَّيطنَةُ التي هي مُقتَضى القوَّةِ الوَهميَّةِ.

ولا يوجَدُ مِن الإنسانِ شَرٌّ إلَّا وهو مُندَرِجٌ في هذه الأَقسامِ صادِرٌ بتوسُّطِ إحدى هذه القُوَى الثَّلاثِ، ولذلك قال ابنُ مَسعودٍ: هي أجمَعُ آيةٍ في القرآنِ للخَيرِ والشرِّ(٢).

وصارَتْ سببَ إسلامِ عُثمانَ بنَ مَظعون(٣).

ولو لم يَكُن في القُرآنِ غيرُ هذه الآيةِ لصَدَقَ عليه أنَّه تِبيانٌ لكلِّ شَيءٍ وهُدًى ورحمَةٌ للعَالَمين، ولعلَّ إيرادَها عقيبَ قولِه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ للتَّنبيهِ عليه.

---

(١) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه مسلم (٨) من حديث عمر رضي الله عنه.

(٢) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٦٠٠٢)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٣٧)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٩/ ١٣٢)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣٥٨).

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٩١٩)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٨٩٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨٣٢٢)، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

﴿يَعِظُكُمۡ﴾ بالأمرِ والنَّهيِ والميزِ بينَ الخيرِ والشرِّ ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾: تَتَّعِظونَ.

(٩١) ـ ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ يعني: البيعةَ لرسولِ اللهِ على الإسلامِ كقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].

وقيل: كلَّ(١) أمرٍ يجبُ الوَفاءُ به. ولا يلائمُه قولُه: ﴿إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾.

وقيل: النَّذرَ، وقيل: الأَيمانَ باللهِ.

﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ﴾: أيمانَ البَيْعةِ، أو مُطلَقَ الأيمانِ ﴿بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾: توثيقِها بذكرِ اللهِ تعالى، ومنه: (أكَّدَ) بقلبِ الواوِ همزةً.

﴿وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًا﴾: شاهدًا بتلكَ البيعَةِ، فإنَّ الكَفيلَ مُراعٍ لحالِ المَكفولِ به رَقيبٌ عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ في نَقضِ الأيمانِ والعُهودِ.

(٩٢) ـ ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا﴾ ما غَزَلَتْه، مصدرٌ بمَعنى مَفعولٍ ﴿مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿نَقَضَتۡ﴾؛ أي: نقضَتْ غزلَها مِن بعدِ إبرامٍ وإحكامٍ ﴿أَنكَٰثٗا﴾: طاقاتٍ نُكِثَ فتْلُها، جمعُ نِكْثٍ، وانتصابُه على الحالِ مِن ﴿غَزۡلَهَا﴾ أو المفعولِ الثَّاني لـ﴿نَقَضَتۡ﴾ فإنَّه بمعنى: صَيَّرَت.

والمرادُ به: تَشبيهُ النَّاقضِ بمَن هذا شَأنُهُ، وقيل بـ: رَيْطَةَ بنتِ سعدِ بنِ تَيْمٍ القُرَشيَّةِ؛ فإنَّها كانَتْ خرقاءَ تفعَلُ ذلك(٢).

﴿تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ حالٌ مِن الضَّميرِ في ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾، أو في الجارِّ الواقعِ موقِعَ الخبرِ؛ أي: لا تكونوا مُتشبِّهينَ بامرأةٍ هذا شأنُها مُتَّخذِي

(١) بنصبِ (كلَّ)، وكذا (النذر) و(الأيمان)، ويجوزُ رفعُها. قاله الخفاجي في «الحاشية».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ١١٢)، والبغوي في «تفسيره» (٥/ ٣٩)، عن الكلبي ومقاتل.

أيمانِكُم مَفسدَةً ودَخلًا بينكُم، وأصلُ الدَّخلِ: ما يَدخلُ الشَّيءَ ولَمْ يَكُن مِنه.

﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ بأنْ تكونَ جماعةٌ أزيَدَ عَددًا وأوفَرَ مالًا من جماعةٍ.

والمعنى: لا تَغدِروا بقومٍ لكثرَتِكُم وقِلَّتِهِم، أو لكثرةِ مُنابذِيهِم وقوَّتِهِم؛ كقُريشٍ، فإنَّهُم كانوا إذا رأَوا شوكةً في أعادِي حُلَفَائِهِم نَقَضُوا عهدَهُم وحالَفُوا أعداءَهُم.

﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ الضَّميرُ لـ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ﴾ لأنَّه بمعنى المصدَرِ؛ أي: يختبرُكُم بكَونِهِم أَرْبَى لينظُرَ: أتتَمَسَّكُونَ بحبلِ الوَفاءِ بعَهدِ اللهِ وبَيعَةِ رَسولِه، أَمْ تَغترُّونَ بكَثرَةِ قُرَيشٍ وشَوكَتِهِم وقِلَّةِ المُؤمنينَ وضَعفِهِم؟

وقيل: الضَّميرُ للرُّبوِّ، وقيل: للأمرِ بالوَفاءِ.

﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ إذا جازاكم على أَعمالِكُم بالثَّوابِ والعِقاب.

(٩٣) ـ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ مُتفقَةً على الإسلامِ ﴿وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ بالخذلانِ ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ بالتَّوفيقِ ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ سؤالَ تَبكيتٍ ومُجازاةٍ.

(٩٤) ـ ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ تصريحٌ بالنَّهيِ عنه بعدَ التَّضمينِ تأكيدًا ومُبالغَةً في قُبحِ المنهيِّ ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ﴾؛ أي: عن محجَّةِ الإسلامِ ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ عليها، والمرادُ: أقدامُهُم، وإنَّما وَحَّدَ ونَكَّرَ للدَّلالةِ على أنَّ زللَ قَدمٍ واحدَةٍ عظيمٌ، فكيفَ بأَقدامٍ كَثيرَةٍ.

﴿وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ﴾: العذابَ في الدُّنيا ﴿بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: بسببِ صُدودِكُم عَنِ الوَفاءِ، أو: صَدِّكُم غيرَكُم عنه، فإنَّ مَن نقضَ البَيعةَ وارتَدَّ جعلَ ذلك سُنَّةً لغيرِه.

﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرةِ.

(٩٥) ـ ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾: ولا تستبدِلُوا عهدَ اللهِ وبيعةَ رَسولِه ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: عِوَضًا يَسيرًا، وهو ما كانَتْ قُرَيشٌ يَعِدُونَ لضعافِ المُسلمينَ ويَشترطونَ لهم على الارتدادِ.

﴿إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ﴾ مِن النَّصرِ والتَّغنيمِ في الدُّنيا والثَّوابِ في الآخرةِ ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما يَعِدُونكُم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: إن كُنتُم مِن أَهلِ العلمِ والتَّمييزِ.

(٩٦) ـ ﴿مَا عِندَكُمْ﴾ مِن أَعراضِ الدُّنيا ﴿يَنفَدُ﴾: يَنقَضِي ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ﴾ مِن خَزائنِ رَحمَتِه ﴿بَاقٍ﴾ لا ينفَدُ، وهو تَعليلُ الحكمِ السَّابقِ، ودليلٌ على أنَّ نعيمَ أهلِ الجنَّةِ باقٍ.

﴿ولَيَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم﴾ على الفاقةِ وأذى الكُفَّارِ، أو على مشاقِّ التَّكاليفِ. وقرأ ابن كثير وعاصم بالنون[1].

﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بما تَرَجَّحُ فِعلُهُ من أعمالهم كالواجباتِ والمندوباتِ[2]، أو بجزاءٍ أحسنَ مِن أعمالِهم.

(٩٧) ـ ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ بيَّنه بالنَّوعينِ دَفْعًا للتَّخصيصِ ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إذ لا اعتدادَ بأعمالِ الكَفَرةِ في استحقاقِ الثَّوابِ، وإنَّما المُتوقَّعُ عليها تخفيفُ العقابِ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٥)، و«التيسير» (ص: ١٣٨).

(٢) قوله: «بما ترجح فعله...» لما كان ظاهر النظم أنهم لا يجازون على الحسن منها أوَّله بأنّ المراد بالأحسن ما ترجَّح فعله على تركه، فيشمل الواجبَ والمندوبَ، والحسنُ هو المباح فإنه لا يثاب عليه. انظر: «حاشية الشهاب».

﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ في الدُّنيا يعيشُ عَيْشًا طَيِّبًا، فإنَّه إن كان مُوسرًا فظاهرٌ، وإن كان مُعسِرًا كان يطيبُ عَيشُه بالقَناعةِ والرِّضا بالقسمةِ وتوقُّعِ الأجرِ العظيمِ في الآخرةِ، بخلافِ الكافرِ فإنَّه إن كانَ مُعسرًا فظاهرٌ، وإن كانَ مُوسرًا لم يَدَعِ الحرصُ وخوفُ الفواتِ أن يَتهنَّأَ بعَيشِهِ، وقيل: في الآخرةِ.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ مِن الطَّاعةِ.

(٩٨) ـ ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: إذا أردتَ قِراءتَهُ، كقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٦] ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾: فاسأَلِ اللهَ أَنْ يُعيذَكَ مِن وَساوِسِهِ لئلَّا يُوَسوِسَكَ في القراءةِ.

والجمهورُ على أنَّه للاستحبابِ، وفيه دليلٌ على أنَّ المُصلِّيَ يَستعيذُ في كلِّ ركعَةٍ؛ لأنَّ الحكمَ المرتَّبَ على شرطٍ يَتكرَّرُ بتكرُّرِه قياسًا، وتعقيبُه لذكرِ العَملِ الصَّالحِ والوعدِ عليه إيذانٌ بأَنَّ الاستعاذةَ عندَ القراءةِ مِن هذا القَبيلِ.

وعن ابنِ مَسعودٍ: قرأتُ على رَسولِ اللهِ ﷺ فقلتُ: أعوذُ بالسَّميعِ العَليمِ مِن الشَّيطانِ الرَّجيمِ، فقال: «قل: أعوذُ باللهِ مِن الشَّيطانِ الرَّجيمِ، هكذا أقرأنيهِ جِبريلُ عَن القَلمِ عَن اللوحِ المَحفوظِ»[1].

(٩٩) ـ ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ﴾: تَسلُّطٌ ووِلايَةٌ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ على أَولياءِ الله المؤمنينَ بهِ والمتوكِّلينَ عليه، فإنَّهم لا يُطيعونَ أوامِرَه

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ١٢٢ ـ ١٢٣) مسلسلًا، وعنه تلميذه الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٨٣ ـ ٨٤)، ورواه أيضاً ابن الجوزي في «المسلسلات» (١٩).

وقد وردت الاستعاذة بهذه الصيغة: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم» في عدة أحاديث منها حديث أبي سعيد عند أبي داود (٧٧٥) والترمذي (٢٤٢)، وحديث عائشة رضي الله عنها عند أبي داود (٧٨٥)، وحديث معقل بن يسار عند الترمذي (٢٩٢٢).

ولا يَقبلونَ وَساوِسَهُ إلَّا فيما يحتقرونَ على ندورٍ وغفلةٍ، ولذلك أُمِرُوا بالاستعاذةِ، فذكرَ السَّلطنةَ بعدَ الأمرِ بالاستعاذةِ لئلَّا يُتوهَّمَ مِنه أنَّ له سُلطانًا.

(١٠٠) ـ ﴿إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾: يُحبُّونَهُ ويُطيعونه ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ﴾: باللهِ، أو بسببِ الشيطانِ ﴿مُشْرِكُونَ﴾.

(١٠١) ـ ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ بالنَّسخِ فجَعلنا الآيةَ النَّاسخَةَ مكانَ المَنسوخَةِ لفظًا أو حُكمًا ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ مِن المَصالح، فلَعلَّ ما يكونُ مَصلحَةً في وَقتٍ يَصيرُ مَفسدَةً بعدَهُ فينسخُه، وما لا يكونُ مَصلحَةً حينئذٍ يكونُ مَصلحَةً الآنَ فيُثبتُهُ مَكانَهُ.

وقرأَ ابنُ كَثيرٍ وأبو عَمرٍو: ﴿يُنْزِلُ﴾ بالتخفيف(١).

﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: الكفرةُ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ مُتَقَوِّلٌ على اللهِ تَأمرُ بشَيءٍ ثمَّ يَبدو لك فتَنْهَى عنه، وهو جوابُ ﴿إذا﴾.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ اعتراضٌ لتَوبيخِ الكُفَّارِ على قَولِهم، والتَّنبيهِ على فَسادِ سَنَدِهم، ويَجوزُ أَنْ يكونَ حالًا.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حكمَةَ الأَحكامِ ولا يُميِّزونَ الخطأَ مِن الصَّوابِ.

(١٠٢) ـ ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ يعني: جبريلَ، وإضافَةُ الرُّوحِ إلى القدسِ ـ وهو الطُّهرُ ـ كقَولهم: حاتمُ الجودِ. وقرأَ ابنُ كثيرٍ: ﴿رُوحُ القُدْسِ﴾ بالتخفيف(٢).

وفي ﴿يُنَزِّلُ﴾ و﴿نَزَّلَهُۥ﴾ تنبيهٌ على أنَّ إنزالَهُ مُدرَّجًا على حسبِ المَصالحِ بما(٣) يَقتَضِي التَّبديلَ(٤).

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٠)، و«التيسير» (ص: ٧٥).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٥)، و«التيسير» (ص: ٧٤).

(٣) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «مما»، والمثبت من نسخة الخيالي، وانظر التعليق الآتي.

(٤) قوله: «تنبيه على أن إنزاله مدرجاً...» «مدرجاً» بصيغة المفعول؛ أي: بالتدريج، وهو مقابلُ الدفعي، =

﴿مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾: مُلْتَبِسًا بالحِكمَةِ ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على الإيمانِ بأنَّه كلامُه، فإنَّهم إذا سَمِعُوا الناسخَ وتَدبَّرُوا ما فيه مِن رعايةِ الصَّلاحِ والحكمَةِ رسخَتْ عَقائدُهُم واطمأَنَّتْ قُلوبُهُم.

﴿وَهُدًى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ المنقادينَ لحُكمِه، وهمَا مَعطوفانِ على مَحلِّ ﴿لِيُثَبِّتَ﴾؛ أي: تثبيتًا وهدايةً وبِشارةً، وفيه تَعريضٌ بحُصولِ أَضدادِ ذلك لغَيرِهِم.

وقُرِئ: (لِيُثْبِتَ) بالتَّخفيفِ(١).

(١٠٣) ـ ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞ﴾ يعنُون: جَبرًا الرُّومِيَّ غُلامَ عامرِ بنِ الحَضرَمِيِّ(٢).

وقيل: جَبرًا ويَسارًا؛ كانا يَصنَعانِ السَّيفَ(٣) بمكَّةَ ويَقرآنِ التَّوراةَ والإنجيلَ، كانَ الرَّسولُ عليهِ السَّلامُ يمرُّ عليهِمَا ويَسمَعُ ما يَقرآنِه(٤).

= وهو إشارة إلى الفرق بين الإنزال والتنزيل، يعني: أنه لم ينزل دفعة واحدة بل دفعات على حسب المصالح الدينية، والمصالح تختلف باختلاف الأزمان، فكم من شيء يلزم في وقت ويمتنع في آخر، فكونه كذلك مما يؤيد صحة النسخ وحسنه، فلذلك اختار صيغة (نَزَّل) هنا دون (أنزل) لمناسبته لمقتضى المقام، فقوله: «على حسب المصالح» خبر «أن»، و«بما يقتضي» بدل منه أو حال من الضمير المستتر في «مدرّجاً»، و«بما..» خبر، وقوله: «بما» بالباء السببية، وفي نسخة: «مما»، وليس الإنزال التدريجي هنا مخصوصاً بالناسخ والمنسوخ كما قيل، بل شامل له، وقوله: «ملتبساً...» إشارة إلى أنّ الباء للملابسة، وأنّ الحق بمعنى الحكمة والصواب المقتضي للتبديل. انظر: «حاشية الشهاب».

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٧) عن أبي حيوة.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٦٧) عن عبد الله بن كثير.

(٣) الأولى: (السيوف) كما في «الكشَّاف» (٤/ ٥٩٩).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٦٧ ـ ٣٦٨)، والبيهقي في «الشعب» (١٣٨)، عن عبد الله بن مسلم الحضرمي.

وقيـل: عائشًـا ـ أو: يعيـشَ ـ غـلامَ حُوَيطـبِ بـنِ عبدِ العُـزَّى، قد أسـلَمَ وكان صاحبَ كتـبٍ[١].

وقيل: سلمانَ الفارسيَّ[٢].

﴿لِسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾: لغةُ الرَّجلِ الذي يُميلونَ قولَهُم عن الاستقامةِ إليه، مأخوذٌ مِن لحدِ القبرِ ـ وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ: ﴿يَلْحَدون﴾ بفتحِ اليَاءِ[٣] ـ لسانٌ أعجمِيٌّ غيرُ بَيِّنٍ.

﴿وَهَـٰذَا﴾: وهذا القُرآنُ ﴿لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾: ذو بيانٍ وفَصاحَةٍ.

والجملتانِ مُستأنفَتَانِ لإبطالِ طَعْنِهِم، وتَقريرُهُ يَحتَمِلُ وَجهَيْنِ:

أحدُهُما: أنَّ ما يَسمَعُه منه كلامٌ أعجمِيٌّ لا يَفهَمُه هو ولا أَنتُم، والقُرآنُ عَربيٌّ تَفهَمُونَه بأَدْنى تأمُّلٍ، فكيفَ يكونُ ما تَلَقَّفَه منه؟

وثانيهِمَا: هَبْ أنَّه تعلَّمَ مِنْهُ المَعنى باستِماعِ كَلامِه، لكِنْ لم يتلقَّف منه اللفظَ؛ لأنَّ ذاك أَعجَمِيٌّ وهذا عَرَبيٌّ، والقُرآن كما هو مُعجِزٌ باعتبارِ المَعنى فهو مُعجِزٌ مِن حيثُ اللَّفظُ، مع أنَّ العُلومَ الكَثيرةَ التي في القرآنِ لا يُمكِنُ تَعلُّمُها إلَّا بمُلازَمَةِ مُعلِّمٍ فائقٍ في تلكَ العُلومِ مُدَّةً مُتطاوِلَةً، فكيفَ تَعلَّمَ جميعَ ذلك مِن غُلامٍ سوقيٍّ سمعَ منه بعضَ أوقاتِ مرورِه عليه كُلَيْمَاتٍ أَعجميَّةً لعلَّهُما لم يَعرِفَا مَعناها.

---

(١) ذكره الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ١١٣)، والزجاج في «معاني القرآن» (٣/ ٢١٩)، والثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ١٢٨).

ورواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٦٥ ـ ٣٦٦) عن عكرمة وقتادة. واقتصرا في اسمه على: «يعيش».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٦٨) عن الضحاك.

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٥)، و«التيسير» (ص: ١٣٨).

وطعنُهُم في القُرآنِ بأَمثالِ هذه الكَلِماتِ الرَّكيكةِ دليلٌ على غايَةِ عجزِهِم.

(١٠٤) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لا يُصَدِّقُونَ أنَّها مِن عندِ الله ﴿لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ إلى الحقِّ أو إلى سبيلِ النَّجاةِ، وقيل: إلى الجنَّةِ.

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرةِ، هدَّدَهُم على كُفرِهِم بالقُرآنِ بعدَما أماطَ شُبهَهُم ورَدَّ طَعْنَهُم فيه، ثمَّ قلَبَ[1] الأمرَ عليهِم فقال:

(١٠٥) ـ ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لأَنَّهُم لا يخافونَ عقابًا يردَعُهُم عنه.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الذينَ كَفرُوا، أو إلى قُريشٍ ﴿هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾؛ أي: الكاذبونَ على الحَقيقَةِ، أو: الكامِلونَ في الكَذِبِ؛ لأنَّ تَكذيبَ آياتِ اللهِ والطَّعنَ فيها بهذه الخُرافاتِ أعظَمُ الكَذبِ، أو: الذين عادَتُهُم الكَذِبُ لا يَصرِفُهُم عنه دينٌ ولا مُروءَةٌ، أو: الكاذبونَ في قَولِهِم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭ﴾، ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞ﴾.

(١٠٦) ـ ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ بدلٌ مِن ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ وما بينَهُما اعتراضٌ، أو مِن ﴿أولئك﴾، أو مِن ﴿ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾، أو مبتدأٌ خبرُهُ مَحذوفٌ دلَّ عليهِ قولُه: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾، ويجوزُ أَنْ ينتصبَ بالذَّمِّ، وأن تكونَ ﴿مَن﴾ شرطيَّةً مَحذوفَةَ الجَوابِ.

﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾ على الافتراءِ، أو كلمةِ الكُفرِ، استثناءٌ مُتَّصِلٌ؛ لأنَّ الكُفرَ لُغَةً يَعمُّ القَولَ والعقدَ كالإيمانِ.

﴿وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ لم تتغيَّرْ عَقِيدَتُه، وفيه دَليلٌ على أنَّ الإيمانَ هو التَّصديقُ بالقَلبِ.

---

(١) في نسخة الخيالي: «ثم غلَّظ».

﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾: اعتقدَهُ وطابَ بِهِ نفسًا ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إذ لا أعظمَ مِن جُرمِه.

رُوِيَ: أنَّ قُرَيْشًا أكْرَهُوا عَمَّارًا وأبويهِ ياسرًا وسُمَيَّةَ على الارتدادِ، فرَبَطُوا سُمَيَّةَ بينَ بَعِيرَيْنِ ووُجِئَ بحربةٍ في قُبُلِها وقالوا: إنَّكِ أسلَمْتِ مِن أجلِ الرِّجالِ! فقُتِلَتْ، وقَتَلُوا ياسِرًا، وهمَا أوَّلُ قَتِيلَيْنِ في الإسلامِ، وأعطاهُمْ عمَّارٌ بلسانِهِ ما أرادُوا مُكرَهًا فقيل: يا رسولَ اللهِ! إنَّ عمارًا كفَرَ! فقال: «كلا، إنَّ عمارًا مُلِئَ إيمانًا مِن قَرْنِهِ إلى قدمِهِ، واختلَطَ الإيمانُ بلَحمِهِ ودَمِهِ»، فأتى عمارٌ رَسولَ اللهِ ﷺ وهو يَبْكِي، فجَعلَ رسولُ اللهِ يمسَحُ عَينيهِ وقال: «ما لك؟ إن عادوا لكَ فعُدْ لَهُم بما قلتَ»(١).

وهو دليلٌ على جَوازِ التَّكلُّمِ بالكُفرِ عندَ الإكراهِ، وإن كانَ الأفضَلُ أن يتجنبَ عنه إعزازًا للدِّينِ كما فعلَهُ أبواه؛ لِمَا رُوِيَ أنَّ مُسيلِمَةَ أخذَ رَجُلَينِ فقال لأحدِهِما: ما تقولُ في مُحمَّدٍ؟ قال: رسولُ الله، قال: فما تقولُ فيَّ؟ فقال: أنتَ أيضًا، فخلَّاه، وقال للآخر: ما تقولُ في مُحمَّدٍ؟ قال: رسولُ اللهِ، فقال: ما تقولُ فيَّ؟ قال: أنا أصَمُّ،

---

(١) ذكره بتمامه الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ١٣٥ ـ ١٣٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما دون سند.

وروى يحيى بن سلام في «تفسيره» (١/ ٩٢)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١٥٠٩)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٧٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٠٤)، عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر، قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذَّبوه حتى باراهم في بعض ما أرادوا، فشكا ذلك إلى النبيّ ﷺ، فقال النبيُّ ﷺ: «كَيْفَ تَجدُ قَلْبَكَ؟» قال: مطمئنًّا بالإيمان. قال النبيُّ ﷺ: «فإنْ عادُوا فَعُدْ». قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١٢/ ٣١٢): وهو مرسل ورجاله ثقات.

ورواه الحاكم في «المستدرك» (٣٣٦٢) عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر عن أبيه، وصححه، وقال الحافظ: وهو مرسل أيضاً، وأخرج الطبري [في «تفسيره» (١٤/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤)] من طريق عطية العوفي عن ابن عباس نحوه مطولاً وفي سنده ضعف.

فأعادَ عليه ثلاثًا فأعادَ جوابَهُ فقتَلَه، فبلغَ رسولَ اللهِ ﷺ فقال: «أمَّا الأوَّلُ فقَدْ أخذَ برُخْصَةِ اللهِ، وأمَّا الثَّاني فقَدْ صَدَعَ بالحقِّ فهنيئًا له»(١).

(١٠٧) ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الكُفرِ بعدَ الإيمانِ، أو الوعيدِ ﴿بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: بسببِ أنَّهم آثَرُوهَا علَيْها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: الكافرينَ في عِلْمِه إلى ما يوجِبُ ثباتَ الإيمانِ ولا يَعصِمُهُم عَن الزَّيغِ.

(١٠٨) ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ فأبَتْ عَن إدراكِ الحقِّ والتَّأمُّلِ فيه ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾: الكاملونَ في الغَفلَةِ؛ إذ أغفَلَتْهُم الحالةُ الرَّاهِنَةُ عَن تدبُّرِ العَواقِبِ.

(١٠٩) ـ ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ إذ ضَيَّعوا أعمارَهُم وصَرَفُوها فيما أَفْضَى بهِم إلى العذابِ المُخلَّدِ.

(١١٠) ـ ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾؛ أي: عُذِّبُوا كعَمَّارٍ بالولايةِ والنَّصرِ، و﴿ثُمَّ﴾ لتباعُدِ حالِ هؤلاء عَن حالِ أولئك.

وقرأ ابنُ عامرٍ: ﴿فتَنوا﴾ بالفَتحِ(٢)؛ أي: بعدمَا عَذَّبُوا المؤمنينَ كالحَضرميِّ، أكرَهَ مَولاه جَبْرًا حتَّى ارتَدَّ ثمَّ أسلَمَا وهاجَرَا(٣).

﴿ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ﴾ على الجهادِ وما أَصابَهُم مِن المَشاقِّ.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٣٠٣٧). ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٥٢٤) عن معمر قال: (سمعت أن مسيلمة أخذ رجلين...) فذكره.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٦)، و«التيسير» (ص: ١٣٨).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ١٣٩ ـ ١٤٠) عن مقاتل.

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾: مِن بَعدِ الهِجرةِ والجِهادِ والصَّبرِ ﴿لَغَفُورٞ﴾ لِمَا فَعَلُوا قبلُ ﴿رَّحِيمٞ﴾ يُنعمُ عليهِمْ مُجازاةً على ما صَنَعوا بَعدُ.

(١١١) ـ ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ﴾ مَنصوبٌ بـ﴿رَّحِيمٞ﴾ أو بـ: اذكر.

﴿تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾: تجادِلُ عَن ذاتِها وتَسْعى في خَلاصِها، لا يُهِمُّها شَأنُ غَيرِها فيَقولُ: نفسي نفسي.

﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ﴾: جزاءَ ما عَمِلَت ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾: لا يُنقصونَ أُجورَهُم.

(١١٢) ـ ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ﴾؛ أي: جَعَلَها مثلًا لكلِّ قومٍ أنعمَ اللهُ عليهِم فأبطَرَتْهُم النِّعمَةُ فكفَرُوا فأنزلَ اللهُ بهِم نقمتَهُ، أو: لمكَّةَ.

﴿كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ﴾ لا يزعِجُ أهلَها خَوْفٌ ﴿يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا﴾: أقواتُها ﴿رَغَدٗا﴾: واسِعًا ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٖ﴾ مِن نَواحِيها ﴿فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ﴾: بنِعَمِه، جمعُ نِعْمَةٍ على تَركِ الاعتدادِ بالتَّاءِ، كدِرْعٍ وأَدْرُعٍ، أو جمعُ نُعْمٍ كبُؤْسٍ وأَبْؤُسٍ.

﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ﴾ استعارَ الذَّوقَ لإدراكِ أثرِ الضَّررِ، واللِّباسَ لِمَا غَشِيَهُم واشتملَ عليهِمْ مِن الجُوعِ والخَوْفِ، وأوقعَ الإذاقةَ عليهِ بالنَّظرِ إلى المُستعارِ لَهُ كقولِ كُثَيِّرٍ:

غَمْرُ الرِّداءِ إذا تَبَسَّمَ ضاحِكًا ... غَلِقَتْ لِضحكَتِهِ رِقابُ المَالِ[1]

---

(١) انظر: «ديوان كثير عزة» (ص: ٢٩٥)، و«إصلاح المنطق» (ص: ١٢ و٣٨)، و«غريب الحديث» لابن قتيبة (٢/ ٩٢)، و«الزاهر» لابن الأنباري (١/ ٤٣٢)، و«أمالي القالي» (٢/ ٢٩١)، و«الصحاح» (مادة: غمر).

قوله: «غلقت لضحكته..» يقال: غلق الرهن: إذا استحقه المرتهن، وذلك إذا لم يُفتكَّ في الوقت المشروط. والبيت في مدح عبد العزيز بن مروان، قال السيرافي في «شرح أبيات إصلاح المنطق» =

فإنَّه استعارَ الرِّداءَ للمَعروفِ؛ لأنَّه يَصونُ عِرْضَ صاحبِهِ صونَ الرِّداءِ لِمَا يُلقَى عليه، وأضافَ إليه الغَمْرَ الذي هو وصفُ المَعروفِ والنَّوالِ، وقد يُنظرُ إلى المُستعارِ، كقولِه:

يُنَازِعُنِـي رِدَائِـي عَبْـدُ عـمـرٍو رُوَيْدَكَ يَـا أَخَـا عَمْـرِو بـنِ بَكْرِ

لِيَ الشَّـطْرُ الـذي مَلَكَـتْ يَمِينِي وَدُونَـــكَ فَاعْتَجِرْ مِنْهُ بِشَـطْرِ(١)

استعارَ الرِّداءَ لِسَيْفِهِ ثمَّ قال: (فاعتَجِرْ) نَظَرًا إلى المُستعَارِ.

﴿بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾: بصَنيعِهِم.

(١١٣) ـ ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ يعني: محمَّدًا صَلواتُ اللهِ عليه، والضَّميرُ لأهلِ مَكَّةَ، عادَ إلى ذكرِهِم بعدَ ما ذكرَ مثلَهُم ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾؛ أي: حالَ التباسِهِم بالظُّلمِ، والعَذابُ: ما أصابَهُم مِن الجَدْبِ الشَّديدِ وواقعةِ بَدرٍ.

(١١٤) ـ ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ أمرَهُم بأكلِ ما أحلَّ اللهُ لَهُم وشُكرِ ما أَنعمَ عليهِمْ بعدَما زجرَهُم عَن الكُفرِ وهدَّدَهُم عليهِ بما ذكرَ

= (ص: ٥٣): يقول: إذا ضحك وسُرَّ وهب ماله وفرقه، ومعنى «غلقت»: حصلت للموهوب له، من قولك: غلق الرهن: إذا حصل للمرتهن ولم يسترجعه الراهن.

(١) البيتان دون نسبة في «شرح ديوان المتنبي» لأبي العلاء (ص: ٣٦١)، و«سمط اللآلي» للبكري (١/ ٩٠٥ و٩٣٥)، و«الكشاف» (٤/ ٦٠٨). وذكرهما ابن المظفر الحاتمي في «الرسالة الموضحة» (ص: ١٤٠)، من إنشاد ابن دريد.

قال الطِّيبيُّ: الاعتجارُ لفُّ العمامَةِ على الرَّأسِ، يقول: يُجاذِبُني سَيفي عبدُ عمرو يريدُ أن يأخُذَه مني فقلتُ: رويدَكَ فلي النِّصفُ الأعلى منه الذي هو في يَميني، وخذ أنتَ النِّصفَ الآخرَ فلفَّه على رأسِك. «فتوح الغيب» (٩/ ٢١٢).

مِـن التَّمثيـلِ والعَـذابِ الذي حـلَّ بهِمْ؛ صَـدًّا لَهُم عَـن صَنيـعِ الجاهليَّـةِ ومَذاهِبِها الفاسِدَةِ.

﴿وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾: تُطيعونَ، أو: إنْ صحَّ زَعمُكُم أنَّكُم تَقصِدُونَ بعِبادَةِ الآلِهَةِ عبادتَه.

(١١٥) ـ ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لـمَّا أمرَهُم بتناوُلِ ما أحَلَّ لَهُم عدَّدَ عليهِم مُحرَّمَاتِه؛ ليُعلمَ أنَّ ما عَداها حِلٌّ لَهُم، ثمَّ أكَّدَ ذلك بالنَّهيِ عَن التَّحريمِ والتَّحليلِ بأَهوائِهم فقال:

(١١٦) ـ ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ كما قالوا: ﴿مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ الآية [الأنعام: ١٣٩].

ومُقتَضَى سِياقِ الكَلامِ وتَصديرِ الجُملَةِ بـ﴿إنَّما﴾: حَصْرُ المحرماتِ في الأَجناسِ الأَربعَةِ إلا ما ضُمَّ إليه دليلٌ كالسِّباعِ والحُمُرِ الأَهليَّةِ.

وانتصابُ ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ بـ﴿لا تَقُولُوا﴾، و﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ بدلٌ منه، أو مُتعلِّقٌ بـ﴿تَصِفُ﴾ على إرادةِ القولِ؛ أي: ولا تَقولُوا الكَذِبَ لِمَا تَصِفُه أَلسِنَتُكُم فتَقولُ: ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾، أو مَفعولُ ﴿لا تَقُولُوا﴾ و﴿ٱلْكَذِبَ﴾ مُنتَصِبٌ بـ﴿تَصِفُ﴾، و(ما) مَصدريَّةٌ[1]؛ أي: ولا تقولوا: هذا حَلالٌ وهذا حَرامٌ لوَصفِ أَلسِنَتِكُم الكَذِبَ؛ أي: لا تُحرِّمُوا ولا تُحَلِّلُوا بمُجرَّدِ قَولٍ تنطقُ به أَلسِنَتُكُم مِن غيرِ دَليلٍ.

---

(١) قوله: «و(ما) مصدرية»؛ أي: على الوجه الأخير، قال الزمخشري: ولك أن تَنْصِبَ ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ بـ﴿تَصِفُ﴾ وتَجعَلَ (ما) مصدريةً، وتُعلِّقَ ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ بـ(لا تقولوا). انظر: «الكشاف» (٤/ ٦١٠).

ووصفُ ألسنَتِهم الكذبَ مُبالغَةٌ في وَصفِ كَلامِهِم بالكَذبِ، كأنَّ حقيقةَ الكَذِبِ كانت مَجهولَةً وأَلسِنَتُهُم تَصِفُها وتُعرِّفُها بكلامِهِم هذا، ولذلك عُدَّ مِن فَصيحِ الكَلامِ كقولهم: وَجهُهَا يَصِفُ الجمالَ، وعينُها تَصِفُ السِّحرَ.

وقرِئَ: (الكَذبِ) بالجرِّ[1] بدلٌ مِن (ما).

و: (الكُذُبُ) جمعُ كذوبٍ بالرَّفعِ[2] صفَةٌ للألسِنَةِ، وبالنَّصبِ[3] على الذمِّ، أو بمَعنى: الكَلِمَ الكواذِبَ، أو هو جمعُ كِذَابٍ.

﴿لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ تعليلٌ لا يتضمَّنُ الغرضَ[4].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾ لَمَّا كانَ المُفتَري يَفتري لتَحصيلِ مَطلوبٍ نَفَى عَنْهُم الفَلاحَ وبيَّنَه بقولِه:

(١١٧) ـ ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾؛ أي: ما يَفترونَ لأَجلِهِ ـ أو ما هُم فيه ـ مَنفعَةٌ قَليلَةٌ تنقَطِعُ عَن قريبٍ ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ في الآخِرَةِ.

(١١٨) ـ ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ﴾؛ أي: في (سورةِ الأنعامِ) في قولِه: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖ﴾ [الأنعام: ١٤٦] ﴿مِن قَبۡلُ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿قَصَصۡنَا﴾ أو بـ﴿حَرَّمۡنَا﴾.

﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾ بالتَّحريمِ ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ حيثُ فَعَلوا ما عوقِبُوا

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٧) عن الحسن، و«المحتسب» (٢/ ١٢) عن الحسن بخلاف والأعرج وابن يعمر وابن أبي إسحاق وغيرهم.

(٢) انظر: «المحتسب» (٢/ ١٢) عن مسلمة بن محارب.

(٣) انظر: «المحتسب» (٢/ ١٢ ـ ١٣) عن يعقوب.

(٤) قوله: «تعليل لا يتضمن الغرض» يعني: أنها لام الصيرورة والعاقبة المستعارة من التعليلية؛ إذ ما صدر منهم ليس لأجل هذا بل لأغراض أخر يترتب عليها ما ذكر. انظر: «حاشية الشهاب».

به عليه، وفيه تَنبيهٌ على الفرقِ بينَهُم وبين غيرِهِم في التَّحريمِ، وأنه كما يكونُ للمضرَّةِ يكونُ للعُقوبَةِ.

(١١٩) ـ ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾: بسبَبِها، أو: مُلْتبِسينَ بها لتَعُمَّ الجَهلَ باللهِ وبعقابِه وعدمَ التَّدبرِ في العواقبِ لغلبَةِ الشَّهوةِ، والسُّوءُ يَعُمُّ الافتراءَ على اللهِ وغيرَه[١].

﴿ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾: مِن بعدِ التَّوبةِ ﴿لَغَفُورٌ﴾ لذلك السُّوءِ ﴿رَّحِيمٌ﴾ يثيبُ على الإنابَةِ.

(١٢٠) ـ ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾؛ لكَمالِه واستجماعِه فضائلَ لا تكادُ توجَدُ إلَّا مُفرَّقَةً في أشخاصٍ كثيرةٍ، كقولِه:

وَلَيْسَ مِنَ اللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ ... أَنْ يَجْمَعَ العَالَمَ فِي وَاحِدِ[٢]

وهو رئيسُ المُوَحِّدينَ وقُدوَةُ المُحقِّقينَ، جادلَ فِرقَ المُشركينَ، وأبطلَ مَذاهِبَهُم الزَّائغةَ بالحُجَجِ الدَّامِغةِ، ولذلك عقَّبَ ذِكرَهُ بتَزييفِ مَذاهبِ المُشركينَ مِن الشِّركِ والطَّعنِ في النبوَّةِ وتحريمِ ما أحلَّه.

أو: لأنَّه كانَ وحدَهُ مُؤمِنًا، وكان سائرُ النَّاسِ كُفَّارًا.

---

(١) قوله: «بسببها» فالباء للسببية، والمراد بالجهالة: السببُ الحامل لهم على العمل كالغيرة الجاهلية الحاملة على القتل وغيرِ ذلك، وقوله: «أو ملتبسين» فهي للملابسة، وقوله: «لتعم الجهل بالله وعقابه» متعلق بتقدير «ملتبسين» تعليل له؛ و«عدم التدبر» بالنصب معطوف على «الجهل»، و«لغلبة الشهوة» متعلق بـ«ملتبسين»، وقيل: بقوله: ﴿عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ﴾ و«غيره» منصوب معطوف على «الافتراء». انظر: «حاشية الشهاب».

(٢) البيت لأبي نواس مِن أبياتٍ يمدحُ بها الفضلَ بن الرَّبيعِ. انظر: «ديوانه» (ص: ٢١٨)، و«الشعر والشعراء» لابن قتيبة (٢/ ٨١٥)، و«الصناعتين» لأبي هلال العسكري (ص: ٢١٦).

وقيل: هي فُعْلَةٌ بمَعنى مَفعولٍ، كالرُّحْلَةِ والنُّخبَةِ، مِن أَمَّه: إذا قَصدَهُ أو اقتَدَى به، فإنَّ النَّاسَ كانوا يَؤُمُّونَهُ للاستفادةِ ويَقتدونَ بسِيرَتِه؛ لقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤].

﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾: مُطيعًا له قائمًا بأوامره ﴿حَنِيفًا﴾: مائلًا عن الباطلِ.

﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ كما زَعَموا، فإنَّ قُرَيشًا كانوا يزعمونَ أنَّهم على مِلَّةِ إبراهيمَ.

(١٢١) ـ ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ ذُكرَ بلفظِ القِلَّةِ للتَّنبيهِ على أنَّه كانَ لا يُخلُّ بشُكرِ النِّعَمِ القَليلةِ، فكيفَ بالكثيرةِ؟!

﴿اجْتَبَاهُ﴾ للنبوَّةِ ﴿وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ في الدَّعوةِ إلى اللهِ.

(١٢٢) ـ ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ بأنْ حَبَّبَه إلى النَّاسِ حتى إنَّ أربابَ المِلَلِ يَتولَّونَهُ ويُثْنونَ عليه، ورزقَه أولادًا طيبةً وعمرًا طويلًا في السَّعةِ والطَّاعةِ.

﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾: لَمِن أهلِ الجنَّةِ كما سأَلَه بقولِه: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

(١٢٣) ـ ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمَّدُ، و﴿ثُمَّ﴾ إمَّا لتَعظيمِه والتَّنبيهِ على أنَّ أجلَّ ما أُوتي إبراهيمُ اتِّباعُ الرَّسولِ عليه السَّلامُ مِلَّتَه، أو لتراخي أيَّامِه.

﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ في التَّوحيدِ والدَّعوةِ إليه بالرفقِ، وإيرادِ الدَّلائلِ مرَّةً بعدَ أخرى، والمجادلةِ مع كلِّ أحدٍ على حسبِ فَهمِه.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بل كان قُدوةَ المُوحِّدينَ.

(١٢٤) ـ ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ﴾: تعظيمُ السَّبتِ والتَّخلِّي فيه للعبادةِ ﴿عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾؛ أي: على نبيِّهم، وهم اليَهودُ أَمَرَهُم مُوسى عليهِ السَّلامُ أن

يَتفرَّغُوا للعبادةِ يومَ الجمعةِ فأَبَوْا وقالوا: نريدُ يومَ السَّبتِ لأنَّه تَعالى فرغَ فيه مِن خلقِ السَّماواتِ والأرضِ، وألزَمَهُم اللهُ السَّبتَ وشدَّدَ الأمرَ عليهم(١).

وقيل: مَعناه: إنَّما جُعلَ وبالُ السَّبتِ ـ وهو المسخُ ـ على الذين اختلفُوا فيه فأحلُّوا الصَّيدَ فيه تارةً وحرَّمُوه أُخرى، واحتالوا له الحِيلَ.

وذِكْرُهم هاهنا لتهديدِ المُشركينَ كذكرِ القَريةِ التي كَفَرَت بأنعُمِ الله.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بالمجازاةِ على الاختلافِ، أو بمجازاةِ كلِّ فَريقٍ بما يَستَحِقُّه.

(١٢٥) ـ ﴿ادْعُ﴾ مَن بُعِثْتَ إليهم ﴿إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾: إلى الإسلامِ ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾: بالمقالةِ المُحكمَةِ، وهو الدَّليلُ الموضحُ للحقِّ المزيحُ للشُّبهةِ ﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾: الخطاباتِ المُقنِعَةِ والعِبَرِ النَّافِعَةِ، والأُولى لدعوةِ خواصِّ الأُمَّةِ الطَّالبينَ للحقائقِ والثَّانيةُ لدَعوةِ عوامِّهم.

﴿وَجَادِلْهُم﴾: وجادِلْ مُعانِديهِمْ ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾: بالطَّريقَةِ التي هي أحسَنُ طرقِ المُجادلةِ: مِن الرفقِ واللينِ، وإيثارِ الوَجهِ الأيسرِ، والمُقدِّماتِ التي هي أَشْهَرُ(٢)، فإنَّ ذلك أنفَعُ في تَسكينِ لَهَبِهم وتَليينِ شَغَبِهم(٣).

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾؛ أي: إنَّما عليك

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٤٩٣)، و«تفسير يحيى بن سلام» (١/ ٩٨) وعزاه للكلبي، و«تأويلات أهل السنة» (٦/ ٥٩٣) عن بعضهم، و«تفسير الثعلبي» (١٦/ ١٥٧) عن الكلبي أيضاً.

(٢) في نسخة التفتازاني: «والمقدمات الأشهر»، وفي نسخة الطبلاوي: «والمقدمات التي أشهر»، والمعنى واحد، والمراد: أنها لشهرتها تكون مسلمة عندهم لا يمكن إنكارها بخلاف المقدمات المموهة الباطلة فإنّ الجدل بها ديدن المبطلين. انظر: «حاشية الشهاب».

(٣) الشَّغَب: تهييج الشر والفساد.

البَلاغُ والدَّعوةُ، وأمَّا حصولُ الهدايةِ والضَّلالِ والمُجازاةِ عليهما فلا عليك، بل اللهُ أعلَمُ بالضَّالِّينَ والمُهتدينَ، وهو المُجازي لهم.

(١٢٦) - ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ لَمَّا أمرَهُ بالدَّعوةِ وبيَّنَ طرقَها أشارَ إليه وإلى مَن شايعهُ بالمُخالقةِ[١] ومُراعاةِ العَدلِ مع مَن يُناصِبُهُم، فإنَّ الدَّعوةَ لا تَنفكُّ عنه مِن حيثُ إنَّها تتضمَّنُ رفضَ العاداتِ، وتركَ الشَّهواتِ، والقدحَ في دينِ الأَسلافِ، والحكمَ عليهِمْ بالكُفرِ والضَّلالِ.

وقيل: إنَّه عليه السَّلامُ لَمَّا رأى حمزةَ وقد مُثِّلَ به فقال: «واللهِ لَئِنْ أَظْفَرَنِي اللهُ بِهِمْ لَأُمَثِّلَنَّ بسبعينَ مكانكَ» فنزلَتْ، فكَفَّرَ عَن يمينِه[٢].

---

(١) قوله: «بالمخالقة» ضبط بالخاء المعجمة والقاف؛ أي: التخلق بالأخلاق المرضية كالصبر والصفح والاتصاف به في معاملة الخلق. انظر: «حاشية الشهاب»، و«حاشية القونوي» (١١/ ٤٢١).
وجاء في نسخة الخيالي: «يتابعه بترك المخالفة» بدل: «شايعه بالمخالقة». وفي نسخة التفتازاني والطبلاوي: «بالمخالفة» بالفاء، وهو الواقع فيما وقفت عليه من مطبوعات البيضاوي. انظر: مطبوع البيضاوي مع كل من «حاشية شيخ زاده» (٥/ ٣٤٥)، و«حاشية الأنصاري» (٣/ ٤٨٢)، و«حاشية الشهاب»، و«حاشية القونوي» (١١/ ٤٢١). وقد أشار القونوي لرواية «المخالفة» بالفاء في بعض النسخ لكن كأنها وقعت عنده دون كلمة «ترك»؛ أي: «بالمخالفة»، ولذلك قال: ولا يظهر وجهه. بينما قال الشهاب: ولو قرئت بالفاء كان له وجه. ولم يبين ذلك الوجه.
قلت: وقوله: «بترك المخالفة» لم أجد من شرحه، ولعل تفسيره في عبارة «الكشاف» (٤/ ٦١٨) حيث قال في شرح معنى الآية: إنْ صُنع بكم صَنيعُ سوءٍ مِن قتلٍ أو نحوِه فقابِلوه بمِثْله ولا تَزيدوا عليه.

(٢) رواه البزار في «مسنده» (٩٥٣٠)، وابن المنذر في «تفسيره» (٢/ ٤٤٧)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٩٣٧)، والحاكم في «المستدرك» (٤٨٩٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وصححه الحاكم وتعقبه الذهبي بقوله: صالح المري واه.
ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١٠٥١)، والدارقطني في «سننه» (٤٢٠٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال الدارقطني: فيه عبد العزيز بن عمران ضعيف. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١٢٠): رواه الطبراني، وفيه أحمد بن أيوب بن راشد وهو ضعيف. =

وفيه دليلٌ على أنَّ للمُقتَصِّ أن يُماثِلَ الجانيَ، وليسَ له أَنْ يُجاوِزَ، وحثٌّ على العفوِ تعريضًا بقولِه: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ﴾ وتَصريحًا على الوجهِ الآكَدِ بقولِه:

﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ﴾؛ أي: الصَّبرُ ﴿خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ مِن الانتقامِ للمُنتقِمينَ، ثمَّ صرَّحَ بالأمرِ بِهِ لرسولِه؛ لأنَّه أَولَى الناسِ به؛ لزيادةِ عِلْمِه باللهِ ووُثُوقِه عليه، فقال:

(١٢٧) ـ ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾: إلَّا بتَوفيقِه وتَثبيتِه ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾: على الكافرينَ، أو: على المُؤمنينَ وما فُعِلَ بهم.

﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾: في ضيقِ صَدرٍ مِن مَكرِهِم.

وقرأَ ابنُ كَثيرٍ: ﴿فِي ضِيقٍ﴾ هنا وفي (النمل)[1]، وهما لُغتانِ كالقَوْلِ والقِيلِ، ويجوزُ أَنْ يكونَ الضَّيْقُ تَخفيفَ ضَيِّقٍ.

(١٢٨) ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ المعاصِيَ ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ في أَعمالِهِم، بالولايةِ والفَضلِ.

أو: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ اللهَ بتَعظيمِ أَمرِهِ ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ بالشَّفقةِ على خلقِهِ.

عن النبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ سورةَ النَّحلِ لم يحاسِبْهُ اللهُ بما أنعمَ عليه في دارِ الدُّنيا، وإن ماتَ في يومٍ تَلاها أو ليلةٍ كانَ له من الأجرِ كالذي ماتَ وأحسنَ الوَصِيَّةَ»[2].

***

= ورواه الدارقطني (٤٢٠٩) من طريق آخر من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: لم يروه غير إسماعيل بن عياش وهو مضطرب الحديث عن غير الشاميين.

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٦)، و«التيسير» (ص: ١٣٩).

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ٨)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٥٥)، من حديث أبيٍّ رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. وانظر: «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(١٦) سورة النحل مكية
وآياتها ثمان وعشرون ومائة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١﴾

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها، معبّرا بصيغة الماضي الدال على التحقق والوقوع لا محالة، كقوله: ﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون﴾، وقال: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ ،وقوله ﴿فلا تستعجلوه﴾ أي قرب ما تباعد فلا تستعجلوه، والضمير يعود على العذاب، كقوله تعالى: ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون﴾، فإنهم استعجلوا العذاب قبل كونه استبعاداً وتكذيباً، ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم بـه غيره، وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد، تعالى وتقدس علواً كبيراً، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة[١]، فقال: ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ .

﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ٢﴾

يقول تعالى: ﴿ينزل الملائكة بالروح﴾ أي الوحي كقوله: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾، وقوله: ﴿على من يشاء من عباده﴾ وهم الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾، وقال: ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس﴾ ، وقال: ﴿يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده﴾، وقوله: ﴿أن أنذروا﴾ أي لينذروا ﴿أنه لا إله إلا أنا فاتقون﴾ أي فاتقوا عقوبتي لمن خالف أمري وعبد غيري .

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٤﴾

يخبر تعالى عن خلقه العالَم العلوي وهو السماوات، والعالَم السفلي وهو الأرض بما حوت، وأن ذلك مخلوق بالحق لا للعبث بل ﴿ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى﴾، ثم نزه نفسه عن شرك

---

(١) في اللباب: أخرج ابن مردويه: لما نزلت ﴿أتى أمر الله﴾ وغمر أصحاب رسول الله حتى نزلت ﴿فلا تستعجلوه﴾ فسكتوا – وأخرج عبدالله بن الإمام أحمد: لما نزلت ﴿أتى أمر الله﴾ قاموا، فنزلت: ﴿فلا تستعجلوه﴾ .

من عبد معه غيره وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له ؛ فلهذا يستحق أن يعبد وحده لا شريك له، ثم نبه على خلق جنس الإنسان ﴿من نطفة﴾ أي مهينة ضعيفة، فلما استقل ودرج إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه ويحارب رسله، وهو إنما خلق ليكون عبداً لا ضداً كقوله تعالى: ﴿ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيراً﴾. وقوله: ﴿أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾. وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن بشر بن جحاش قال: بصق رسول الله ﷺ في كفه، ثم قال: «يقول الله تعالى: ابن آدم ! أنّى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك فعدلتك مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت الحلقوم ، قلت أتصدق، وأنّى أوان الصدقة ؟ »[1]

﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾

يمتن تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهي (الإبل والبقر والغنم) وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون، ومن ألبانها يشربون، ويأكلون من أولادها وما لهم فيها من الجمال وهو الزينة، ولهذا قال: ﴿ولكم فيها جمال حين تريحون﴾، وهو وقت رجوعها عشياً من المرعى، فإنها تكون أمده خواصر وأعظمه ضروعاً وأعلاه أسنمة، ﴿وحين تسرحون﴾ أي غدوة حين تبعثونها المرعى، ﴿وتحمل أثقالكم﴾ وهي الأحمال الثقيلة التي تعجزون عن نقلها وحملها، ﴿إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس﴾ وذلك في الحج والعمرة والغزو والتجارة وما جرى مجرى ذلك، تستعملونها في أنواع الاستعمال من ركوب وتحميل كقوله تعالى: ﴿الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ◦ ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون﴾، ولهذا قال ههنا بعد تعداد هذه النعم: ﴿إن ربكم لرؤوف رحيم﴾ أي ربكم الذي قيض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم كقوله: ﴿وذللناها لهم فنها ركوبهم ومنها يأكلون﴾، وقال: ﴿وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون﴾، قال ابن عباس: ﴿لكم فيها دفء﴾ أي ثياب، ﴿ومنافع﴾ ما تنتفعون به من الأطعمة والأشربة، ومنافع نسل كل دابة. وقال مجاهد: ﴿لكم فيها دفء﴾ أي لباس ينسج و ﴿منافع﴾ مركبٌ ولحم ولبن. وقال قتادة: دفء ومنافع يقول: لكم فيها لباس ومنفعة وبُلغة، وكذا قال غير واحد من المفسرين بألفاظ متقاربة .

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾

هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده، يمتن به عليهم وهو ﴿الخيل والبغال والحمير﴾ التي جعلها للركوب والزينة بها وذلك أكبر المقاصد منها، ولما فصلها من الأنعام وأفردها بالذكر ، استدل من استدل من العلماء ممن ذهب إلى تحريم لحوم الخيل بذلك على ما ذهب إليه فيها، كالإمام أبي حنيفة رحمه الله ومن وافقه

(١) رواه الإمام أحمد وابن ماجة في السنن .

من الفقهاء بأنه تعالى قرنها بالبغال والحمير، وهي حرام، كما ثبتت بـه السنّة النبوية، وذهب إليه أكثر العلماء. وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير عن ابن عباس: أنه كان يكره لحوم الخيل والبغال والحمير، وكان يقول: قال الله تعالى: ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفئ ومنافع ومنها تأكلون﴾ فهذه للأكل، ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها﴾ فهذه للركوب، ويستأنس لهذا بحديث رواه الإمام أحمد عن خالد بن الوليد رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير، ولكن لا يقاوم ما ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبدالله قال: نهى رسول الله ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية وأذن في لحوم الخيل، وعن جابر قال: ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير، فنهانا رسول الله ﷺ عن البغال والحمير، ولم ينهنا عن الخيل[1]، وفي صحيح مسلم عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرساً فأكلناه ونحن بالمدينة فهذه أدل وأقوى وأثبت، وإلى ذلك صار جمهور العلماء مالك والشافعي وأحمد وأصحابهم وأكثر السلف والخلف والله أعلم.

وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾

لما ذكر تعالى في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها التي يركبونها ويبلغون عليها حاجة في صدورهم، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة، شرع في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه، فبيَّن أن الحق منها ما هي موصلة إليه فقال: ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾، كقوله: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾، وقال: ﴿هذا صراط عليَّ مستقيم﴾، قال مجاهد في قوله: ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾، قال: طريق الحق على الله. وقال السدي: ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ الإسلام، وقال ابن عباس: وعلى الله البيان أي يبين الهدى والضلالة[2]. وقول مجاهد ههنا أقوى من حيث السياق، لأنه تعالى أخبر أن ثم طرقاً تسلك إليه، فليس يصل إليه منها إلا طريق الحق، وهي الطريق التي شرعها ورضيها، وما عداها مسدودة والأعمال فيها مردودة، ولهذا قال تعالى: ﴿ومنها جائر﴾ أي حائد مائل زائل عن الحق. قال ابن عباس وغيره: هي الطرق المختلفة والآراء والأهواء المتفرقة كاليهودية والنصرانية والمجوسية، وقرأ ابن مسعود: ﴿منكم جائر﴾؛ ثم أخبر تعالى أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيئته فقال: ﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾، كما قال تعالى: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾، وقال: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾ الآية.

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾

لما ذكر تعالى ما أنعم بـه عليهم من الأنعام والدواب، شرع في ذكر نعمته عليهم في إنزال المطر من السماء - وهو العلو - مما لهم فيه بلغة ومتاع لهم ولأنعامهم فقال: ﴿لكم منه شراب﴾ أي جعله عذباً زلالاً يسوغ لكم شرابه ولم يجعله ملحاً أجاجاً، ﴿ومنه شجر فيه تسيمون﴾ أي وأخرج لكم منه شجراً ترعون فيه أنعامكم، كما قال ابن

---

(١) رواه أحمد وأبو داود. (٢) وكذا قال قتادة والضحّاك.

عباس[1] : ﴿ تسيمون﴾ أي ترعون ومنه الإبل السائمة، والسوم: الرعي . روى ابن ماجة أن رسول الله ﷺ نهى عن السوم قبل طلوع الشمس. وقوله: ﴿ ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات﴾ أي يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها، ولهذا قال: ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾ أي دلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: ﴿ أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ؟ أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون﴾ ، ثم قال تعالى :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

ينبّه تعالى عباده على آياته العظام، ومننه الجسام في تسخيره الليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر يدوران، والنجوم الثوابت والسيارات في أرجاء السماوات، نوراً وضياء ليهتدى بها في الظلمات، وكل منها يسير في فلكه الذي جعله الله تعالى فيه، يسير بحركة مقدرة لا يزيد عليها ولا ينقص عنها، والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسهيله كقوله: ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾ ولهـذا قال: ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ أي لدلالات على قدرته تعالى الباهرة وسلطانه العظيم، لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه. وقوله: ﴿ وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه﴾ لما نبه تعالى على معالم السماء نبه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة والأشياء المختلفة، من الحيوانات والمعادن والنباتات والجمادات، على اختلاف ألوانها وأشكالها وما فيها من المنافع والخواص ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يذكرون﴾ أي آلاء الله ونعمه فيشكرونها .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَـٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَـٰمَـٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾

يخبر تعالى عن تسخيره البحر المتلاطم الأمواج، ويمتن على عباده بتذليله لهم وتيسيرهم للركوب فيه، وما يخلقه فيه من اللآلئ والجواهر النفيسة، وتسهيله للعباد استخراجهم من قراره حلية يلبسونها، وتسخيره البحر لحمل السفن التي تمخره أي تشقه، وقيل: تمخر الرياح وكلاهما صحيح، الذي أرشد العباد إلى صنعتها، وهداهم إلى ذلك إرثاً عن نوح عليه السلام، فإنه أول من ركب السفن، وله كان تعليم صنعتها، ثم أخذها الناس عنه قرناً بعد قرن وجيلاً بعد

(١) وهو قول عكرمة والضحّاك وقتادة وابن زيد .

جيل، يسيرون من قطر إلى قطر، ومن بلد إلى بلد، لجلب ما هناك من الأرزاق، ولهذا قال تعالى: ﴿ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ أي نعمه وإحسانه؛ ثم ذكر تعالى الأرض وما ألقى فيها من الرواسي الشامخات والجبال الراسيات لتقر الأرض ولا تميد، أي تضطرب بما عليها من الحيوانات، فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك، ولهذا قال: ﴿والجبال أرساها﴾ وقال الحسن: لما خلقت الأرض كانت تميد فقالوا: ما هذه بمقرة على ظهرها أحداً، فأصبحوا وقد خلقت الجبال، فلم تدر الملائكة مم خلقت الجبال؟ وقال سعيد، عن قيس بن عبادة: إن الله لما خلق الأرض جعلت تمور فقالت الملائكة: ما هذه بمقرة على ظهرها أحداً، فأصبحت صبحاً وفيها رواسيها[1]. وقوله: ﴿وأنهاراً وسبلاً﴾ أي جعل فيها أنهاراً تجري من مكان إلى مكان آخر رزقاً للعباد ينبع في موضع، وهو رزق لأهل موضع آخر، فيقطع البقاع والبراري والقفار، ويخترق الجبال والآكام، فيصل إلى البلد الذي سخر لأهله، وهي سائرة في الأرض يمنة ويسرة وجنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً، ما بين صغار وكبار، وأودية تجري حيناً وتنقطع في وقت، وما بين نبع وجمع، وقوي السير وبطيئه بحسب ما أراد وقدّر وسخّر ويسر، فلا إله إلا هو ولا رب سواه، وكذلك جعل فيها ﴿سبلاً﴾ أي طرقاً يسلك فيها من بلاد إلى بلاد حتى إنه تعالى ليقطع الجبل حتى يكون ما بينهما ممراً ومسلكاً، كما قال تعالى: ﴿وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً﴾ الآية. وقوله: ﴿وعلامات﴾ أي دلائل من جبال كبار وآكام صغار ونحو ذلك يستدل بها المسافرون براً وبحراً إذا ضلوا الطرق. وقوله: ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾ أي في ظلام الليل، قاله ابن عباس، ثم نبّه تعالى على عظمته وأنه لا تنبغي العبادة إلا له دون ما سواه من الأوثان التي لا تخلق شيئاً بل هم يخلقون، ولهذا قال: ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق؟ أفلا تذكرون﴾ ثم نبههم على كثرة نعمه عليهم وإحسانه إليهم فقال: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم﴾ أي يتجاوز عنكم ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك، ولو أمركم به لضعفتم وتركتم، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم، ولكنه غفور رحيم يغفر الكثير ويجازي على اليسير. وقال ابن جرير: يقول: إن الله لغفور لما كان منكم من تقصير في شكر بعض ذلك إذا تبتم وأنبتم إلى طاعته واتباع مرضاته، رحيم بكم لا يعذبكم بعد الإنابة والتوبة.

* وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾

يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر، وسيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ثم أخبر أن الأصنام التي يدعونها من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون، كما قال الخليل: ﴿أتعبدون ما تنحتون؟ والله خلقكم وما تعملون﴾، وقوله: ﴿أموات غير أحياء﴾ أي هي جمادات لا أرواح فيها فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ﴿وما يشعرون أيان يبعثون﴾ أي لا يدرون متى تكون الساعة فكيف يرتجى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء؟ إنما يرجى ذلك من الذي يعلم كل شيء وهو خالق كل شيء.

---

(١) وفي رواية ابن جرير عن علي قال: لما خلق الله الأرض قمصت وقالت: أي ربِّ تجعل عليَّ بني آدم يعملون الخطايا ويجعلون =

* ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣)﴾

يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ إن هذا لشيء عجاب﴾، وقال تعالى: ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾، وقوله: ﴿وهم مستكبرون﴾ أي عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم التوحيد. كما قال: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿لا جرم﴾ أي حقاً، ﴿أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ أي وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء ﴿إنه لا يحب المستكبرين﴾.

* ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥)﴾

يقول تعالى: وإذا قيل لهؤلاء المكذبين ﴿ماذا أنزل ربكم قالوا﴾ معرضين عن الجواب ﴿أساطير الأولين﴾ أي لم ينزل شيئاً إنما هذا الذي يتلى علينا أساطير الأولين، أي مأخوذ من كتب المتقدمين، كما قال تعالى: ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً﴾ أي يفترون على الرسول ويقولون أقوالاً متضادة مختلفة كلها باطلة، كما قال تعالى: ﴿أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً﴾ وذلك أن كل من خرج عن الحق فمهما قال أخطأ، وكانوا يقولون: ساحر وشاعر وكاهن ومجنون، ثم استقر أمرهم إلى ما اختلقه لهم شيخهم المسمى بالوليد بن المغيرة لما ﴿فكر وقدر، فقتل كيف قدر، ثم قتل كيف قدر، ثم نظر، ثم عبس وبسر، ثم أدبر واستكبر، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر﴾ أي ينقل، ويحكى: فتفرقوا عن قوله ورأيه قبحهم الله، قال الله تعالى: ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾، أي إنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك ليتحملوا أوزارهم ومن أوزار الذين يتبعونهم ويوافقونهم، أي يصير عليهم خطيئة ضلالهم في أنفسهم، وخطيئة إغوائهم لغيرهم واقتداء أولئك بهم، كما جاء في الحديث: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»، روى العوفي عن ابن عباس في الآية: ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾ إنها كقوله: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾، وقال مجاهد: يحملون أثقالهم، ذنوبهم وذنوب من أطاعهم، ولا يخفف عمن أطاعهم من العذاب شيئاً.

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ

= عليّ الخبث؟ قال: فأرسى الله فيها من الجبال ما ترون وما لا ترون.

﴿حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۝٢٦ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝٢٧﴾

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قد مكر الذين من قبلهم﴾ قال: هو النمروذ الذي بنى الصرح؛ وقال زيد بن أسلم: أول جبار كان في الأرض النمروذ، وقال آخرون: بل هو بختنصر، وقال آخرون: هذا من المثل لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله وأشركوا في عبادته غيره، كما قال نوح عليه السلام: ﴿ومكروا مكراً كباراً﴾ أي احتالوا في إضلال الناس بكل حيلة وأمالوهم إلى شركهم بكل وسيلة كما يقول لهم أتباعهم يوم القيامة، ﴿بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً﴾ الآية. وقوله: ﴿فأتى الله بنيانهم من القواعد﴾ أي اجتثه من أصله وأبطل عملهم، كقوله تعالى: ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله﴾، وقوله: ﴿فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب﴾، وقال الله ههنا: ﴿فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ثم يوم القيامة يخزيهم﴾ أي يظهر فضائحهم وما كانت تجنه ضمائرهم فيجعله علانية كقوله تعالى: ﴿يوم تبلى السرائر﴾ أي تظهر وتشتهر، كما في الصحيحين عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غدرته، فيقال: هذه غدرة فلان بن فلان». وهكذا هؤلاء يظهر للناس ما كانوا يسرونه من المكر ويخزيهم الله على رؤوس الخلائق، ويقول لهم الرب تبارك وتعالى مقرعاً لهم وموبخاً: ﴿أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم؟﴾ تحاربون وتعادون في سبيلهم أين هم عن نصركم وخلاصكم ههنا؟ ﴿هل ينصرونكم أو ينتصرون﴾، ﴿فما له من قوة ولا ناصر﴾، فإذا توجهت عليهم الحجة وقامت عليهم الدلالة: وحقت عليهم الكلمة وسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار، ﴿قال الذين أوتوا العلم﴾ وهم السادة في الدنيا والآخرة، ﴿إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين﴾ أي الفضيحة والعذاب محيط اليوم بمن كفر بالله، وأشرك به ما لا يضره وما لا ينفعه.

﴿۞ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ ۚ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٨ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ۝٢٩﴾

يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمي أنفسهم عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم الخبيثة ﴿فألقوا السلم﴾ أي أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين: ﴿ما كنا نعمل من سوء﴾، كما يقولون يوم المعاد: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾، قال الله مكذباً لهم في قيلهم ذلك: ﴿بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون * فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين﴾ أي بئس المقيل والمقام، والمكان، من دار هوان لمن كان متكبراً عن آيات الله واتباع رسله، وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم، وينال أجسادهم في قبورها من حرها وسمومها، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم، وخلدت في نار جهنم ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا

ولا يخفف عنهم من عذابها﴾، كما قال الله تعالى: ﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾

هذا خبر عن السعداء بخلاف ما أخبر به عن الأشقياء، فإن أولئك قيل لهم: ﴿ماذا أنزل ربكم﴾ قالوا: معرضين عن الجواب، لم ينزل شيئاً إنما هذا أساطير الأولين، وهؤلاء قالوا: خيراً أي أنزل خيراً، أي رحمة وبركة لمن اتبعه وآمن به، ثم أخبر عما وعد الله عباده فيما أنزله على رسله، فقال: ﴿للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة﴾ الآية، كقوله تعالى: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾ أي من أحسن عمله في الدنيا أحسن الله إليه عمله في الدنيا والآخرة، ثم أخبر بأن دار الآخرة خير، أي من الحياة الدنيا والجزاء فيها أتم من الجزاء في الدنيا، كقوله: ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾، وقال تعالى: ﴿والآخرة خير وأبقى﴾، وقال لرسوله ﷺ: ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾، ثم وصف الدار الآخرة فقال: ﴿ولنعم دار المتقين﴾، وقوله: ﴿جنات عدن﴾ بدل من دار المتقين، أي لهم في الآخرة جنات عدن أي مقام يدخلونها، ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ أي بين أشجارها وقصورها، ﴿لهم فيها ما يشاءون﴾، كقوله تعالى: ﴿وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون﴾، وفي الحديث: «إن السحابة لتمر بالملأ من أهل الجنة وهم جلوس على شرابهم، فلا يشتهي أحد منهم شيئاً إلا أمطرته عليه، حتى إن منهم لمن يقول: أمطرينا كواعب أتراباً فيكون ذلك»، ﴿كذلك يجزي الله المتقين﴾، أي كذلك يجزي الله كل من آمن به واتقاه وأحسن عمله. ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار أنهم طيبون، أي مخلصون من الشرك والدنس وكل سوء، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة، كقوله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾. وقد قدمنا الأحاديث الواردة في قبض روح المؤمن وروح الكافر عند قوله تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾ الآية.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾

يقول تعالى مهدداً للمشركين على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا: هل ينتظر هؤلاء إلا الملائكة أن تأتيهم لقبض أرواحهم، قاله قتادة، ﴿أو يأتي أمر ربك﴾ أي يوم القيامة وما يعاينونه من الأهوال. وقوله: ﴿كذلك فعل الذين من قبلهم﴾ أي هكذا تمادى في شركهم أسلافهم ونظراؤهم وأشباههم من المشركين، حتى ذاقوا بأس

الله، وحلوا فيما هم فيه من العذاب والنكال، ﴿وما ظلمهم الله﴾ لأنه تعالى أعذر إليهم وأقام حججه عليهم بإرسال رسله، وإنزال كتبه، ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاءوا به؛ فلهذا أصابتهم عقوبة الله على ذلك، ﴿وحاق بهم﴾ أي أحاط بهم من العذاب الأليم، ﴿ما كانوا به يستهزئون﴾ أي يسخرون من الرسل إذا توعدوهم بعقاب الله فلهذا يقال لهم يوم القيامة ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الاشراك واعتذارهم محتجين بالقدر بقولهم: ﴿لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء﴾ أي من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك، مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم ما لم ينزل بـه سلطاناً، ومضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلنا لأنكره علينا بالعقوبة ولما أمكننا منه، قال تعالى راداً عليهم شبهتهم: ﴿فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾ أي ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم، بل قـد أنكره عليكم أشد الإنكار ونهاكم عنه آكد النهي، وبعث في كل أمة أي في كل قرن وطائفة من الناس رسولاً، فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب. ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول: ﴿لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء﴾؟ فمشيئته تعالى الشرعية عنهم منتفية لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله؛ وأما مشيئته الكونية وهي تمكينهم من ذلك قدراً فلا حجة لهم فيها، لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة، ثم إنه تعالى قـد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل، فلهذا قال: ﴿فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليهم الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ أي اسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب الحق، كيف ﴿دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها﴾، فقال: ﴿ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير﴾، ثم أخبر الله تعالى رسوله ﷺ أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم، إذا كان الله قـد أراد إضلالهم، كقوله تعالى: ﴿ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً﴾، وقال نوح لقومه: ﴿ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم﴾، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل﴾. كما قال الله: ﴿من يضلل الله فلا هادي لـه

ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾، وقوله: ﴿فإن الله﴾ أي شأنه وأمره، ﴿لا يهدي من يضل﴾ أي من أضله، فمن ذا الذي يهديه من بعد الله؟ أي لا أحد ﴿وما لهم من ناصرين﴾ أي ينقذونه من عذابه ووثاقه ﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾.

وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين أنهم حلفوا فأقسموا بالله ﴿جهد أيمانهم﴾ أي اجتهدوا في الحلف وغلظوا الأيمان أنه لا يبعث الله من يموت، أي استبعدوا ذلك وكذبوا الرسل في إخبارهم لهم بذلك، وحلفوا على نقيضه. فقال تعالى مكذباً لهم وراداً عليهم: ﴿بلى﴾ أي بلى سيكون ذلك، ﴿وعداً عليه حقاً﴾ أي لا بد منه، ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي فلجهلهم يخالفون الرسل ويقعون في الكفر. ثم ذكر تعالى حكمته في المعاد وقيام الأجساد يوم التناد فقال: ﴿ليبين لهم﴾ أي للناس، ﴿الذي يختلفون فيه﴾ أي من كل شيء، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين﴾ أي في أيمانهم وأقسامهم لا يبعث الله من يموت. ثم أخبر تعالى عن قدرته على ما يشاء وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، والمعاد من ذلك إذا أراد كونه فإنما يأمر بـه مرة واحدة، فيكون كما يشاء كقوله ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾، وقال: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ أي انه تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر بـه فإنه تعالى لا يمانع، ولا يخالف، لأنه الواحد القهار، العظيم الذي قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شيء فلا إلٓه إلا هو ولا رب سواه.

وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين في سبيله ابتغاء مرضاته، الذين فارقوا الدار والإخوان والخلان رجاء ثواب الله وجزائه، وقد وعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة فقال: ﴿لنبوئنهم في الدنيا حسنة﴾، قال ابن عباس: المدينة، وقيل: الرزق الطيب، قاله مجاهد، ولا منافاة بين القولين، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم فعوضهم الله خيراً منها في الدنيا، فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله بما هو خير له منه، وكذلك وقع، فإن الله مكن لهم في البلاد، وحكمهم على رقاب العباد، وصاروا أمراء حكاماً وكل منهم للمتقين إماماً، وأخبر أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا فقال: ﴿ولأجر الآخرة أكبر﴾ أي مما أعطيناهم في الدنيا ﴿لو كانوا يعلمون﴾ أي لو كان المتخلفون عن الهجرة معهم يعلمون ما ادخر الله لمن أطاعه واتبع رسوله، ولهذا كان عمر

ابن الخطاب رضي الله عنه إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه يقول: خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله في الدنيا، وما ادخر لك في الآخرة أفضل، ثم قرأ هذه الآية: ﴿لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾، ثم وصفهم تعالى فقال: ﴿الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون﴾ أي صبروا على الأذى من قومهم متوكلين على الله الذي أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة.

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾

قال ابن عباس: لما بعث الله محمداً ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً فأنزل الله: ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس﴾ الآية، وقال: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ يعني أهل الكتب الماضية أبشراً كانت الرسل إليهم أم ملائكة؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم، وإن كانوا بشراً فلا تنكروا أن يكون محمد ﷺ رسولاً، والغرض أن هذه الآية الكريمة أخبرت بأن الرسل الماضين قبل محمد ﷺ كانوا بشراً كما هو بشر، كما قال تعالى: ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾، وقال: ﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل﴾، وقال تعالى: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ﴾، ثم أرشد الله تعالى من شك في كون الرسل كانوا بشراً إلى سؤال أصحاب الكتب المتقدمة عن الأنبياء الذين سلفوا، هل كان أنبياؤهم بشراً أو ملائكة، ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم ﴿بالبينات﴾ أي بالحجج والدلائل ﴿والزبر﴾ وهي الكتب، قاله ابن عباس ومجاهد، والزبر: جمع زبور، تقول العرب: زبرت الكتاب إذا كتبته. وقال تعالى: ﴿وكل شيء فعلوه في الزبر﴾، وقال: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾، ثم قال تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر﴾ يعني القرآن ﴿لتبين للناس ما نزّل إليهم﴾ أي من ربهم لعلمك بمعنى ما أنزل الله عليك، وحرصك عليه واتباعك له، ولعلمنا بأنك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم فتفصل لهم ما أجمل وتبين لهم ما أشكل والمراد بأهل الذكر أهل الكتاب[1]، ﴿ولعلهم يتفكرون﴾ أي ينظرون لأنفسهم فيهتدون فيفوزون بالنجاة في الدارين.

أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾

يخبر تعالى عن حلمه وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها، ويمكرون بالناس في دعائهم إياهم وحملهم عليها مع قدرته على أن يخسف بهم الأرض، أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون، أي من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم، كقوله تعالى: ﴿أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور﴾، وقوله: ﴿أو يأخذهم

(١) قاله ابن عباس ومجاهد والأعمش وعبد الرحمن بن زيد.

في تقلبهم﴾ أي في تقلبهم في المعايش واشتغالهم بها في أسفار ونحوها من الأشغال الملهية، قال قتادة والسدي: تقلبهم أي أسفارهم، وقال مجاهد والضحّاك: ﴿في تقلبهم﴾ في الليل والنهار، كقوله: ﴿أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون﴾، وقوله: ﴿فما هم بمعجزين﴾ أي لا يعجزون الله على أي حال كانوا عليه، وقوله: ﴿أو يأخذهم على تخوف﴾ أي أو يأخذهم الله في حال خوفهم من أخذه لهم، فإنه يكون أبلغ وأشد، فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد، ولهذا قال ابن عباس: ﴿أو يأخذهم على تخوف﴾ يقول: إن شئت أخذته على أثر موت صاحبه وتخوفه بذلك[1]. ثم قال تعالى: ﴿فإن ربكم لرؤوف رحيم﴾ أي حيث لم يعاجلكم بالعقوبة، كما ثبت في الصحيحين «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم»، وقال تعالى: ﴿وكأي من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلي المصير﴾.

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ۩

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه الذي خضع له كل شيء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها، جماداتها وحيواناتها ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة، فأخبر أن كل ما له ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال، أي بكرة وعشياً فإنه ساجد بظله لله تعالى. قال مجاهد: إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله عزّ وجلّ، وقوله: ﴿وهم داخرون﴾ أي صاغرون. وقال مجاهد أيضاً: سجود كل شيء فيؤه، وأمواج البحر صلاته، ونزلهم منزلة من يعقل إذ أسند السجود إليهم، فقال: ﴿ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة﴾، كما قال: ﴿ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال﴾، وقوله: ﴿والملائكة وهم لا يستكبرون﴾ أي تسجد لله أي غير مستكبرين عن عبادته، ﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾ أي يسجدون خائفين وجلين من الرب جل جلاله، ﴿ويفعلون ما يؤمرون﴾ أي مثابرين على طاعته تعالى وامتثال أوامره، وترك زواجره.

۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾

---

(١) وكذا روي عن مجاهد وقتادة والضحّاك وغيرهم.

يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه لا ينبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، فإنه مالك كل شيء وخالقه وربه ﴿وله الدين واصباً﴾، قال ابن عباس ومجاهد: أي دائماً، وعن ابن عباس أيضاً: أي واجباً، وقال مجاهد: أي خالصاً له، أي له العبادة وحده ممن في السماوات والأرض، كقوله: ﴿ألا لله الدين الخالص﴾، ثم أخبر أنه مالك النفع والضر، وأن ما بالعباد من رزق ونعمة وعافية ونصر فمن فضله عليهم، وإحسانه إليهم، ﴿ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون﴾ أي لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو، فإنكم عند الضرورات تلجأون إليه، وتسألونه وتلحون في الرغبة إليه مستغيثين به، كقوله تعالى: ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه﴾، وقال ههنا: ﴿ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون * ليكفروا بما آتيناهم﴾ قيل: اللام ههنا لام العاقبة، وقيل: لام التعليل بمعنى قيضنا لهم ذلك ليكفروا أي يستروا ويجحدوا نعم الله عليهم، مع أنه المسدي إليهم النعم، الكاشف عنهم النقم، ثم توعدهم قائلاً: ﴿فتمتعوا﴾ أي اعملوا ما شئتم وتمتعوا بما أنتم فيه قليلاً ﴿فسوف تعلمون﴾ أي عاقبة ذلك.

* وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾

يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد بغير علم وجعلوا للأوثان نصيباً مما رزقهم الله، فقالوا: ﴿هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا﴾ أي جعلوا لآلهتهم نصيباً مع الله وفضلوها على جانبه، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذي افتروه وائتفكوه، وليقابلنهم عليه وليجازينهم أوفر الجزاء في نار جهنم فقال: ﴿تالله لتسألن عما كنتم تفترون﴾، ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة إناثاً وجعلوها بنات الله، فعبدوها معه، فنسبوا إليه تعالى الولد ولا ولد له، ثم أعطوه أخس القسمين من الأولاد وهو البنات وهم لا يرضونها لأنفسهم، كما قال: ﴿ألكم الذكر وله الأنثى؟ تلك إذاً قسمة ضيزى﴾، وقوله ههنا: ﴿ويجعلون لله البنات سبحانه﴾ أي عن قولهم وإفكهم، ﴿ألا إنهم من إفكهم ليقولن ولد الله وإنهم لكاذبون. أصطفى البنات على البنين؟ ما لكم كيف تحكمون﴾، وقوله: ﴿ولهم ما يشتهون﴾ أي يختارون لأنفسهم الذكور ويأنفون لأنفسهم من البنات التي نسبوها إلى الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. فإنه ﴿إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً﴾ أي كئيباً من الهم ﴿وهو كظيم﴾ ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن، ﴿يتوارى من القوم﴾ أي يكره أن يراه الناس، ﴿من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب﴾ أي إن أبقاها أبقاها مهانة لا يورثها ولا يعتني بها، ويفضل أولاده الذكور عليها، ﴿أم يدسه في التراب﴾ أي يئدها وهو أن يدفنها فيه حية كما كانوا يصنعون في الجاهلية، أفمن يكرهونه هذه الكراهة ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله؟ ﴿ألا ساء ما يحكمون﴾ أي بئس ما قالوا،

وبئس ما قسموا، وبئس ما نسبوه إليه ، كقوله تعالى: ﴿وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم﴾ ، وقوله ههنا: ﴿للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء﴾ أي النقص إنما ينسب إليهم ﴿ولله المثل الأعلى﴾ أي الكمال المطلق من كل وجه وهو منسوب إليه ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ .

* وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾

يخبر تعالى عن حلمه بخلقه مع ظلمهم، وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة، أي لأهلك دواب الأرض ومعهم بنو آدم، ولكن الرب جل جلاله يحلم ويستر، وينظر إلى أجل مسمى أي لا يعاجلهم بالعقوبة إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحداً. وفي الحديث: «إن الله لا يؤخر شيئاً إذا جاء أجله، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها الله العبد فيدعون له من بعده، فيلحقه دعاؤهم في قبره، فذلك زيادة العمر»[1].
وقوله: ﴿ويجعلون لله ما يكرهون﴾ أي من البنات ومن الشركاء الذين هم عبيده وهم يأنفون أن يكون عند أحدهم شريك له في ماله، وقوله: ﴿وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى﴾ إنكار عليهم في دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى في الدنيا، كقوله: ﴿ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾، وقوله: ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاً وولداً﴾ فجمع هؤلاء بين عمل السوء، وتمني الباطل بأن يجازوا على ذلك حسناً وهذا مستحيل، يعملون السيئات ويجزون الحسنات؟ أيجتنى من الشوك العنب؟ ولهذا قال تعالى رداً عليهم في تمنيهم ذلك: ﴿لا جرم﴾ أي حقاً لا بد منه، ﴿أن لهم النار﴾ أي يوم القيامة، ﴿وأنهم مفرطون﴾، قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم: منسيون فيها مضيعون، وهذا كقوله تعالى: ﴿فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾ وعن قتادة أيضاً ﴿مفرطون﴾: أي معجلون إلى النار من الفرط وهو السابق إلى الورد، ولا منافاة لأنهم يعجل بهم يوم القيامة إلى النار وينسون فيها أي يخلدون.

تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾

يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رسلاً فكذبت الرسل، فلك يا محمد في إخوتك من المرسلين أسوة فلا يهمنَّك تكذيب قومك لك، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل فإنما حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم ما

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء مرفوعاً .

فعلوه. ﴿فهو وليهم اليوم﴾ أي هم تحت العقوبة والنكال، والشيطان وليهم ولا يملك لهم خلاصاً، ولا صريخ لهم ولهم عذاب أليم، ثم قال تعالى لرسوله إنه إنما أنزل عليه الكتاب ليبين للناس الذي يختلفون فيه، فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه، ﴿وهدى﴾ أي للقلوب، ﴿ورحمة﴾ أي لمن تمسك به، ﴿لقوم يؤمنون﴾، وكما جعل سبحانه القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها كذلك يحيي الأرض بعد موتها بما أنزله عليها من السماء من ماء ﴿إن في ذلك لآية لقوم يسمعون﴾ أي يفهمون الكلام ومعناه.

وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

يقول تعالى: ﴿وإن لكم﴾ أيها الناس ﴿في الأنعام﴾ وهي الإبل والبقر والغنم، ﴿لعبرة﴾ أي لآية ودلالة على حكمة خالقها وقدرته ورحمته ولطفه، ﴿نسقيكم مما في بطونه﴾ الضمير عائد على الحيوان، فإن الأنعام حيوانات، أي نسقيكم مما في بطن هذا الحيوان، وفي الآية الأخرى ﴿مما في بطونها﴾ ويجوز هذا وهذا، كما في قوله: ﴿كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره﴾، وقوله: ﴿من بين فرث ودم لبناً خالصاً﴾ أي يتخلص الدم بياضه وطعمه وحلاوته، من بين فرث ودم في باطن الحيوان، فيسري كل إلى موطنه إذا نضج الغذاء في معدته، فيصرف منه دم إلى العروق، ولبن إلى الضرع، وبول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، وكل منها لا يشوب الآخر، ولا يمازجه بعد انفصاله عنه ولا يتغير به. وقوله: ﴿لبناً خالصاً سائغاً للشاربين﴾ أي لا يغص به أحد، ولما ذكر اللبن وأنه تعالى جعله شراباً للناس سائغاً ثنى بذكر ما يتخذه الناس من الأشربة من ثمرات النخيل والأعناب، وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه، ولهذا امتن به عليهم فقال: ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً﴾، قال ابن عباس: السكر ما حرم من ثمرتيهما، والرزق الحسن ما أحل من ثمرتيهما، وفي رواية: السكر حرامه، والرزق الحسن حلاله، يعني ما يبس منهما من تمر وزبيب، وما عمل منهما من طلاء وهو الدبس وخل ونبيذ حلال يشرب قبل أن يشتد، كما وردت السنة بذلك ﴿إن في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾ ناسب ذكر العقل ههنا فإنه أشرف ما في الإنسان، ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها وقال الله تعالى: ﴿وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون﴾؟

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾

المراد بالوحي هنا (الإلهام) والهداية والإرشاد للنحل، أن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوي إليها، ومن الشجر ومما يعرشون، ثم أذن لها تعالى إذناً قدرياً تسخيرياً أن تأكل من كل الثمرات، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى

مذللة لها أي مسهلة عليها حيث شاءت من هذا الجو العظيم والبراري الشاسعة والأودية والجبال الشاهقة، ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل، فتبني الشمع من أجنحتها، وتقيء العسل من فيها، ثم تصبح إلى مراعيها. وقوله تعالى: ﴿ فاسلكي سبل ربك ذللاً﴾ أي فاسلكيها مذللة لك، نص عليه مجاهد، وقوله تعالى: ﴿يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس﴾ ما بين أبيض وأصفر وأحمر، وغير ذلك من الألوان الحسنة على اختلاف مراعيها ومأكلها منها، وقوله: ﴿ فيه شفاء للناس﴾ أي في العسل شفاء للناس، أي من أدواء تعرض لهم. قال بعض من تكلم على الطب النبوي: لو قال فيه الشفاء للناس لكان دواء لكل داء، ولكن قال: فيه شفاء للناس[١]، أي يصلح لكل أحد من أدواء باردة، فإنه حار، والشيء يداوى بضده. عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال إن أخي استطلق بطنه، فقال: «اسقه عسلاً» فذهب فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يا رسول الله سقيته عسلاً فما زاده إستطلاقاً. قال: «اذهب فاسقه عسلاً»، فذهب فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يا رسول الله ما زاده إلا استطلاقاً، فقال رسول الله ﷺ، «صدق الله وكذب بطن أخيك، اذهب فاسقه عسلاً»، فذهب فسقاه عسلاً فبرئ[٢]. قال بعض العلماء بالطب: كان هذا الرجل عنده فضلات، فلما سقاه عسلاً وهو حار تحللت فأسرعت في الاندفاع، فزاده إسهالاً، فاعتقد الأعرابي أن هذا يضره وهو مصلحة لأخيه، ثم سقاه فازداد التحليل والدفع، ثم سقاه فكذلك، فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن استمسك بطنه وصلح مزاجه واندفعت الأسقام والآلام ببركة إشارته عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام. وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الحلواء والعسل. وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «الشفاء في ثلاثة: في شرطة محجم، أو شربة عسل، أو كية بنار، وأنهى أمتي عن الكي».

وقال البخاري، عن جابر بن عبدالله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن كان في شيء من أدويتكم خير: ففي شرطة محجم، أو شربة عسل، أو لذعة بنار توافق الداء، وما أحب أن أكتوى». وفي الحديث: «عليكم بالشفاءين: العسل والقرآن»[٣]، وعن علي بن أبي طالب أنه قال: إذا أراد أحدكم الشفاء فليكتب آية من كتاب الله في صحفة، وليغسلها بماء السماء، وليأخذ من امرأته درهماً عن طيب نفس منها، فليشتر به عسلاً فليشربه كذلك فإنه شفاء، أي من وجوه: قال الله تعالى: ﴿ ونتزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾، وقال: ﴿وأنزلنا من السماء ماء مباركاً﴾، وقال: ﴿ فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً﴾، وقال في العسل: ﴿ فيه شفاء للناس﴾، وقوله: ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾ أي إن في إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقة إلى السلوك في هذه المهامه والاجتناء من سائر الثمار، ثم جمعها للشمع والعسل وهو أطيب الأشياء لآية لقوم يتفكرون في عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر الحكيم العليم الكريم الرحيم.

---

(١) روي عن مجاهد وابن جرير في قوله: ﴿ فيه شفاء للناس﴾ أن المراد به القرآن وهذا قول صحيح في نفسه، ولكن ليس هو الظاهر ههنا من سياق الآية، فإن الآية ذكر فيها العسل فالضمير يعود إليه والله أعلم.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري.

(٣) رواه ابن ماجة عن ابن مسعود مرفوعاً، قال ابن كثير: وإسناده جيد.

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾

يخبر تعالى عن تصرفه في عباده، وأنه هو الذي أنشأهم من العدم، ثم بعد ذلك يتوفاهم، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم. وقد روي عن علي رضي الله عنه ﴿ أرذل العمر ﴾: خمس وسبعون سنة. وفي هذا السن يحصل له ضعف القوى والخرف وسوء الحفظ وقلة العلم، ولهذا قال: ﴿ لكي لا يعلم بعد علم شيئاً ﴾ أي بعد ما كان عالماً أصبح لا يدري شيئاً من الفند والخرف، ولهذا روى البخاري عند تفسير هذه الآية عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يدعو: «أعوذ بك من البخل والكسل والهرم وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة الدجال وفتنة المحيا والممات».

﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

يبين تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه لله من الشركاء، وهم يعترفون أنها عبيد له، كما كانوا يقولون في تلبيتهم في حجهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، فقال تعالى منكراً عليهم: أنتم لا ترضون أن تساووا عبيدكم فيما رزقناكم فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيد له في الإلهية والتعظيم؟ قال ابن عباس في هذه الآية: لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني؟ فذلك قوله: ﴿ أفبنعمة الله يجحدون ﴾. وقال في الرواية الأخرى عنه: فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم؟ وقال مجاهد: هذا مثل الآلهة الباطلة. وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله فهل منكم من أحد يشاركه مملوكه في زوجته وفي فراشه فتعدلون بالله خلقه وعباده؟ فإن لم ترض لنفسك هذا فالله أحق أن ينزه منك، وقوله: ﴿ أفبنعمة الله يجحدون ﴾ أي كيف جحدوا نعمته وأشركوا معه غيره. وعن الحسن البصري قال: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: (واقنع برزقك من الدنيا فإن الرحمن فضل بعض عباده على بعض في الرزق، بلاء يبتلي به كلا، فيبتلي من بسط له كيف شكره لله وأداؤه الحق الذي افترض عليه فيما رزقه وخوله)[1].

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

يذكر تعالى نعمه على عبيده بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم، ولو جعل الأزواج من نوع

---

(١) رواه ابن أبي حاتم.

آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة، ولكن من رحمته خلق من بني آدم ذكوراً وإناثاً، وجعل الإناث أزواجاً للذكور، ثم ذكر تعالى أنه جعل من الازواج البنين والحفدة وهم أولاد البنين، عن ابن عباس: ﴿ بنين وحفدة ﴾ هم الولد وولد الولد، وقال مجاهد : ﴿ بنين وحفدة ﴾ ابنه وخادمه، وقال طاووس وغير واحد: الحفدة الخدم. وعن عكرمة أنه قال: الحفدة من خَدَمَك من ولدك وولد ولدك، قال الضحّاك: إنما كانت العرب تخدمها بنوها. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هم الأصهار، قال ابن جرير: وهذه الأقوال كلها داخلة في معنى الحفدة وهو الخدمة، ومنه قوله في القنوت: (وإليك نسعى ونحفد) ولما كانت الخدمة قد تكون من الأولاد والخدم والأصهار فالنعمة حاصلة بهذا كله، ولهذا قال: ﴿ وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ﴾، **قلت**: فمن جعل ﴿ وحفدة ﴾ متعلقاً بأزواجكم فلا بد أن يكون المراد الأولاد وأولاد الأولاد أو الأصهار، لأنهم أزواج البنات أو أولاد الزوجة، فإنهم يكونون غالباً تحت كنف الرجل وفي حجره وفي خدمته، وأما من جعل الحفدة الخدم فعنده أنه معطوف على قوله: ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ﴾ أي جعل لكم الأزواج والأولاد خدماء، وقوله: ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ أي من المطاعم والمشارب، ثم قال تعالى منكراً على من أشرك في عبادة المنعم غيره : ﴿ أفبالباطل يؤمنون ﴾ ؟ وهم الأنداد والأصنام ﴿ وبنعمة الله هم يكفرون ﴾ ؟ أي يسترون نعم الله عليهم ويضيفونها إلى غيره .

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾

يقول تعالى إخباراً عن المشركين الذين عبدوا معه غيره مع أنه هو المنعم المتفضل الخالق الرازق وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان ﴿ما لا يملك لهم رزقاً من السماوات والأرض شيئاً﴾ أي لا يقدر على إنزال مطر ولا إنبات زرع ولا شجر، ولا يملكون ذلك لأنفسهم، أي ليس لهم ذلك ولا يقدرون عليه لو أرادوه، ولهذا قال تعالى: ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾ أي لا تجعلوا له أنداداً وأشباهاً وأمثالاً ﴿ إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ أي أنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا هو وأنتم بجهلكم تشركون به غيره .

* ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

قال ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن، وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير، فالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء مثل الكافر، والمرزوق الرزق الحسن فهو ينفق منه سراً وجهراً هو المؤمن، وقال مجاهد: هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى، فهل يستوي هذا وهذا ؟ ولما كان الفرق بينهما ظاهراً واضحاً بيناً لا يجهله إلا كل غبي قال الله تعالى: ﴿ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

قال مجاهد: وهذا أيضاً المراد بـه الوثن والحق تعالى، يعني أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشيء ولا يقدر على شيء بالكلية، فلا مقال ولا فعال، وهو مع هذا ﴿ كلٌّ ﴾ أي عيال وكلفة على مولاه ﴿ أينما يوجهه ﴾ أي يبعثه ﴿ لا يأت بخير ﴾ ولا ينجح مسعاه ﴿ هل يستوي ﴾ من هذه صفاته ﴿ ومن يأمر بالعدل ﴾ أي بالقسط فمقاله حق وفعاله مستقيمة ﴿ وهو على صراط مستقيم ﴾، وقال ابن عباس: هو مثل للكافر والمؤمن أيضاً كما تقدم: وقال ابن جرير: نزلت في رجل من قريش وعبده يعني قوله: ﴿ عبداً مملوكاً ﴾ الآية، وفي قوله: ﴿ وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم - إلى قوله - وهو على صراط مستقيم ﴾ قال: هو عثمان بن عفان، قال: والأبكم الذي أينما يوجه لا يأت بخير قال: هو مولى لعثمان بن عفان، كان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المؤونة، وكان الآخر يكره الإسلام ويأباه، وينهاه عن الصدقة والمعروف، فنزلت فيهما[1]

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

يخبر تعالى عن كمال علمه وقدرته على الأشياء في علمه غيب السماوات والأرض واختصاصه بعلم الغيب، فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلعه تعالى على ما يشاء، وفي قدرته التامة التي لا تخالف ولا تمانع، وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون كما قال: ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ أي فيكون ما يريد كطرف العين، وهكذا قال ههنا: ﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير ﴾ ، ثم ذكر تعالى منته على عباده في إخراجه إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ثم بعد هذا يرزقهم السمع الذي بـه يدركون الأصوات، والأبصار التي بهـا يحسون المرئيات، والأفئدة وهي العقول ، وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدريج قليلاً قليلاً، كلما كبر زيد في سمعه وبصره وعقله حتى يبلغ أشده، وإنمـا جعل تعالى هذه في الإنسان ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى، فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه، كما جـاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: « يقول تعالى: من عـادى لي وليـاً فقد بارزني بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أفضل من أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا

(١) ذكر السهيلي: أن الأبكم، هو أبو جهل لعنه الله، واسمه عمرو بن هشام بن المغيرة. والذي يأمر بالعدل: هو عمار بن ياسر العنسي المذحجي، وكان أبو جهل يعذبه على الإسلام، ويعذّب أمه سمية، وكانت مولاة لأبي جهل، وقد طعنها بالرمح في قلبها، فماتت، فهي أول شهيدة في الإسلام.

أحببته كنت سمعه الذي يسمع بـه ، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن دعاني لأجيبنه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه » . فمعنى الحديث أن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله عزّ وجلّ، فلا يسمع إلا لله ، ولا يبصر إلا لله أي ما شرعه الله له، ولا يبطش ولا يمشي إلا في طاعة الله عزّ وجلّ مستعيناً بالله في ذلك كله. ولهذا جاء في بعض رواية الحديث في غير الصحيح: « في يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي »، ولهذا قال تعالى: ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾، كقوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾، ثم نبّه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض كيف جعله يطير بجناحين بين السماء والأرض في جو السماء ما يملكه هناك إلا الله بقدرته تعالى التي جعل فيها قوى تفعل ذلك، وسخر الهواء يحملها ، وبسير الطير كذلك كما قال تعالى في سورة الملك: ﴿أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافّات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير﴾، وقال ههنا: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ .

۞ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾

يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عبيده بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم يأوون إليها، ويستترون بها وينتفعون بهـا بسائر وجوه الانتفاع. وجعل لهم أيضاً من جلود الأنعام بيوتاً، أي من الأدم يستخفون حملها في أسفارهم ليضربوها لهم في إقامتهم في السفر والحضر. ولهذا قال: ﴿تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومـن أصوافها﴾ أي الغنم، ﴿وأوبارها﴾ أي الإبل، ﴿وأشعارها﴾ أي المعز ، والضمير عـائد على الأنعام ﴿أثاثاً﴾ أي تتخذون منه أثاثاً، وهو المال وقيل: المتاع، وقيل: الثياب، والصحيح أعم من هذا كله فإنـه يتخذ من الأثاث البسط والثياب وغير ذلك، ويتخذ مالاً وتجارة . وقوله: ﴿إلى حين﴾ أي إلى أجل مسمى ووقت معلوم. وقوله: ﴿والله جعل لكم مما خلق ظلالاً﴾، قال قتادة، يعني الشجر ﴿وجعل لكم من الجبال أكناناً﴾ أي حصوناً ومعاقل كما ﴿جعل لكم سرابيل تقيكم الحر﴾ وهي الثياب من القطن والكتان والصوف ﴿وسرابيل تقيكم بأسكم﴾ كالدروع من الحديد المصفح والزرد وغير ذلك، ﴿كذلك يتم نعمته عليكم﴾ أي هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم وما تحتاجون إليه ليكون عوناً لكم على طاعته وعبادته، ﴿لعلكم تسلمون﴾ أي من الإسلام، وقوله: ﴿فإن تولوا﴾ أي بعد هذا البيان وهذا الامتنان فلا عليك منهم، ﴿فإنما عليك البلاغ المبين﴾ وقد أديته إليهم، ﴿يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها﴾ أي يعرفون أن الله تعالى هو المسدي إليهم ذلك وهو المتفضل به عليهم، ومع هذا

ينكرون ذلك ويعبدون معه غيره ويسندون النصر والرزق إلى غيره ﴿وأكثرهم الكافرون﴾، عن مجاهد أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فسأله فقرأ عليه رسول الله ﷺ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً﴾ فقال الأعرابي: نعم، قال: ﴿وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً﴾. الآية، قال الأعرابي: نعم، ثم قرأ عليه كل ذلك، يقول الأعرابي: نعم، حتى بلغ: ﴿كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون﴾ فولّى الأعرابي، فأنزل الله: ﴿يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها﴾[1] الآية.

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة، وأنه يبعث من كل أمة شهيداً وهو نبيها، يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى: ﴿ثم لا يؤذن للذين كفروا﴾ أي في الاعتذار لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه كقوله: ﴿هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾، فلهذا قال: ﴿ولا هم يستعتبون ۝ وإذا رأى الذين ظلموا﴾ أي الذين أشركوا ﴿العذاب فلا يخفف عنهم﴾ أي لا يفتر عنهم ساعة واحدة ﴿ولا هم ينظرون﴾ أي لا يؤخر عنهم، بل يأخذهم سريعاً من الموقف بلا حساب، ثم أخبر تعالى عن تبري آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها فقال: ﴿وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم﴾ أي الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ﴿قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك ۝ فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون﴾ أي قالت لهم الآلهة كذبتم ما نحن أمرناكم بعبادتنا كما قال تعالى: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون﴾ وقوله: ﴿وألقوا إلى الله يومئذ السلم﴾ قال: قتادة وعكرمة: ذلوا واستسلموا يومئذ، أي استسلموا لله جميعهم، فلا أحد إلا سامع مطيع. وكقوله: ﴿أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا﴾ أي ما أسمعهم وما أبصرهم يومئذ، وقال: ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا﴾ الآية، وقال: ﴿وعنت الوجوه للحي القيوم﴾ أي خضعت وذلت واستكانت وأنابت واستسلمت. وقوله: ﴿وألقوا إلى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجير، ثم قال تعالى: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً﴾ الآية، أي عذاباً على كفرهم وعذاباً على صدهم الناس عن اتباع الحق، وهذا دليل على تفاوت الكفار في عذابهم كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم، كما قال تعالى: ﴿قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن مجاهد.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ: ﴿ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء﴾ يعني أمتك، أي اذكر ذلك اليوم وهوله وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع، وهذه الآية شبيهة بقوله: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾، وقوله: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾ قال ابن مسعود: قد بين لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء، وقال مجاهد: كل حلال وكل حرام. وقول ابن مسعود أعم وأشمل، فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وكل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم، ﴿وهدى﴾ أي للقلوب، ﴿ورحمة وبشرى للمسلمين﴾.

﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾

يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل وهو القسط، ويندب إلى الإحسان كقوله تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾، وقال: ﴿والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على شرعية العدل والندب إلى الفضل. وقال ابن عباس ﴿إن الله يأمر بالعدل﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وقال سفيان بن عيينة: العدل في هذا الموضع هو استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله عملاً، والإحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته، وقوله: ﴿وإيتاء ذي القربى﴾ أي يأمر بصلة الأرحام، كما قال: ﴿وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً﴾، وقوله: ﴿وينهى عن الفحشاء والمنكر﴾، فالفواحش المحرمات والمنكرات ما ظهر منها من فاعلها، ولهذا قال في الموضع الآخر: ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾، وأما البغي فهو العدوان على الناس. وقد جاء في الحديث: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم»، وقوله: ﴿يعظكم﴾ أي يأمركم بما يأمركم به من الخير وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشر ﴿لعلكم تذكرون﴾. وقال الشعبي، عن ابن مسعود يقول: إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ الآية[1]، وقال قتادة: ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون بـه ويستحسنونه إلا أمر الله به، وليس من خلق سيء كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدم فيه، وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها، وفي الحديث: «إن الله يحب معالي الأخلاق ويكره سَفْسَافها». وقال الحافظ أبو يعلى عن علي بن عبد الملك بن عمير عن أبيه قال: بلغ أكثم بن صيفي مخرج النبي

(١) أخرجه ابن جرير الطبري.

ﷺ فأراد أن يأتيه فأبى قومه أن يدعوه وقالوا: أنت كبيرنا لم تكن لتخف إليه، قال: فليأته من يبلغه عني ويبلغني عنه، فانتدب رجلان، فأتيا النبي ﷺ فقالا: نحن رسل أكثم بن صيفي، وهو يسألك من أنت وما أنت؟ فقال الله ﷺ: «أما من أنا فأنا محمد بن عبدالله، وأما ما أنا فأنا عبدالله ورسوله»، قال، ثم تلا عليهم هذه الآية: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ الآية، قالوا: ردد علينا هذا القول، فردد عليهم حتى حفظوه، فأتيا أكثم فقالا: أبى أن يرفع نسبه، فسألنا عن نسبه فوجدناه زاكي النسب وسطاً في مضر - أي شريفاً - وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها، فلما سمعهن أكثم قال: إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملائمها، فكونوا في هذا الأمر رؤوساً ولا تكونوا فيه أذناباً. وعن عثمان بن أبي العاص قال: كنت عند رسول الله ﷺ جالساً إذ شخص بصره فقال: «أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السورة: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾[1]» الآية.

وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾

هذا مما يأمر الله تعالى به وهو الوفاء بالعهود والمواثيق والمحافظة على الأيمان المؤكدة، ولهذا قال: ﴿ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها﴾، ولا تعارض بين هذا وبين قوله: ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم﴾ الآية، وبين قوله تعالى: ﴿ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم﴾ أي لا تتركوها بلا كفارة، وبين قوله عليه السلام فيما ثبت عنه في الصحيحين أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إني والله - إن شاء الله - لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها، وفي رواية: وكفرت عن يميني» لا تعارض بين هذا كله ولا بين الآية المذكورة ههنا وهي قوله: ﴿ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها﴾، لأن هذه الأيمان المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق، لا الأيمان التي هي واردة على حث أو منع؛ ولهذا قال مجاهد في قوله: ﴿ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها﴾ يعني الحلف، أي حلف الجاهلية. ويؤيده ما رواه الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال، قال رسول الله ﷺ: «لا حلف في الإسلام، وإيما حلف كان في الجاهلية فإنه لا يزيده الإسلام إلا شدة»[2]، ومعناه أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه، فإن في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه. وقال ابن جرير، عن بريدة في قوله: ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم﴾ قال: نزلت في بيعة النبي ﷺ، كان من أسلم بايع النبي ﷺ على الإسلام، فقال: ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم﴾ هذه البيعة التي بايعتم على الإسلام، ﴿ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها﴾ لا يحملنكم قلة محمد وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام. وقوله: ﴿إن الله يعلم ما تفعلون﴾ تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها. وقوله: ﴿ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند. (٢) رواه أحمد ومسلم عن جبير بن مطعم مرفوعاً.

قوة إنكاثاً﴾. قال السدي: هذه امرأة خرقاء كانت بمكة كلما غزلت شيئاً نقضته بعد إبرامه، وقال مجاهد وقتادة: هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده، وهذا القول أرجح وأظهر، سواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا، وقوله: ﴿أنكاثاً﴾ أي أنقاضاً، ﴿تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم﴾ أي خديعة ومكراً ﴿أن تكون أمة هي أربى من أمة﴾ أي تحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمئنوا إليكم، فإذا أمكنكم الغدر بهم غدرتم، فنهى الله عن ذلك لينبه بالأدنى على الأعلى، قال ابن عباس ﴿أن تكون أمة هي أربى من أمة﴾: أي أكثر، وقال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعز، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز فنهوا عن ذلك، وقوله: ﴿إنما يبلوكم الله به﴾ قال ابن جرير: أي بأمره إياكم بالوفاء بالعهد ﴿وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون﴾ فيجازي كل عامل بعمله من خير وشر.

وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

يقول الله تعالى: ﴿ولو شاء الله لجعلكم﴾ أيها الناس ﴿أمة واحدة﴾ أي لوفق بينكم ولما جعل اختلافاً ولا تباغض ولا شحناء، ﴿ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾ ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم فيجازيكم عليها على الفتيل والنقير والقطمير؛ ثم حذر تعالى عباده عن اتخاذ الأيمان دخلاً: أي خديعة ومكراً لئلا تزل قدم ﴿بعد ثبوتها﴾ مثلٌ لمن كان على الاستقامة فحاد عنها، وزل عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحانثة، المشتملة على الصد عن سبيل الله، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به لم يبق له وثوق بالدين، فيصد بسببه عن الدخول في الإسلام، ولهذا قال: ﴿وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم﴾، ثم قال تعالى: ﴿ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً﴾ أي لا تعتاضوا عن الأيمان بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها، فإنها قليلة ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خير له، أي جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وآمن به، وطلبه وحفظ عهده رجاء موعوده، ولهذا قال: ﴿إن كنتم تعلمون ۞ ما عندكم ينفد﴾ أي يفرغ وينقضي فإنه إلى أجل معدود، ﴿وما عند الله باق﴾ أي وثوابه لكم في الجنة باق لا انقطاع ولا نفاد له، فإنه دائم لا يحول ولا يزول ﴿ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ قسم من الرب تعالى مؤكد باللام أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم أي ويتجاوز عن سيئها.

مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحاً، وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيّه ﷺ، من ذكر أو أنثى من بني آدم وقلبه مؤمن بالله ورسوله، بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة، والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت، وقد روي عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه فسرها بالقناعة. وقال ابن عباس: انها هي السعادة، وقال الحسن ومجاهد وقتادة: لا يطيب لأحد حياة إلا في الجنة، وقال الضحاك: هي الرزق الحلال والعبادة في الدنيا. **والصحيح** أن الحياة الطيبة تشمل هذ كله، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه». وفي رواية: «قد أفلح من هدي للإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به»(١). وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا همام عن يحيى عن قتادة عن أنس ابن مالك قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطى بها في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً»(٢)

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ۝١٠٠﴾

هذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيّه ﷺ، إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعينوا بالله من الشيطان الرجيم، وهذا أمر ندب ليس بواجب، حكى الإجماع على ذلك أبو جعفر بن جرير وغيره من الأئمة. وقد قدمنا الأحاديث الواردة في الاستعاذة مبسوطة في أول التفسير ولله الحمد والمنة. وقوله: ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ قال الثوري: ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه، وقال آخرون: معناه لا حجة له عليهم، وقال آخرون كقوله: ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾، ﴿إنما سلطانه على الذين يتولونه﴾. قال مجاهد: يطيعونه، وقال آخرون: اتخذوه ولياً من دون الله ﴿وهم به مشركون﴾، أي أشركوه في عبادة الله، ويحتمل أن تكون الباء سببية أي صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٠١ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝١٠٢﴾

يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم وأنه لا يتصور منهم الإيمان، وقد كتب عليهم الشقاوة وذلك أنهم إذا رأوا تغير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا لرسول الله ﷺ: ﴿إنما أنت مفتر﴾ أي كذاب، وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. وقال مجاهد: ﴿بدلنا آية مكان آية﴾: أي ورفعناها وأثبتنا

(١) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي.

(٢) أخرجه أحمد ومسلم في صحيحه.

غيرها. وقال قتادة: هو كقوله تعالى: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها﴾ الآية، فقال تعالى مجيباً لهم: ﴿قل نزله روح القدس﴾ أي جبريل ﴿من ربك بالحق﴾ أي بالصدق والعدل، ﴿ليثبت الذين آمنوا﴾ فيصدقوا بما أنزل أولاً وثانياً وتخبت له قلوبهم، ﴿وهدى وبشرى للمؤمنين﴾ أي وجعله هادياً وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسله.

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبهت أن محمداً إنما يعلمه هذا الذي يتلوه علينا من القرآن بشر، ويشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم، غلام لبعض بطون قريش، وكان بياعاً يبيع عند الصفا، وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء، وذاك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية، فلهذا قال الله تعالى راداً عليهم في افترائهم ذلك: ﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾ أي القرآن، أي فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على بني إسرائيل، كيف يتعلم من رجل أعجمي؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل. قال محمد بن إسحاق كان رسول الله ﷺ - فيما بلغني - كثيراً ما يجلس عند المروة إلى غلام نصراني يقال له (جبر) عبد لبعض بني الحضرمي، فأنزل الله: ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾. وعن عكرمة وقتادة كان اسمه (يعيش)، وقال ابن جرير، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعلم قيناً بمكة، وكان اسمه بلعام، وكان أعجمي اللسان، وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده، فقالوا: إنما يعلمه بلعام، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾.

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾

يخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره، وتغافل عما أنزله على رسوله ﷺ ولم يكن له قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته، وما أرسل به رسله في الدنيا ولهم عذاب أليم موجع في الآخرة، ثم أخبر تعالى أن رسوله ﷺ ليس بمفتر ولا كذاب لأنه إنما يفتري الكذب على الله وعلى رسوله ﷺ شرار الخلق ﴿الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾ من الكفرة والملحدين المعروفين بالكذب عند الناس، والرسول محمد ﷺ كان أصدق الناس، وأبرهم وأكملهم علماً وعملاً، وإيماناً وإيقاناً، معروفاً بالصدق في قومه لا يشك في ذلك أحد منهم، بحيث لا يدعى بينهم إلا بالأمين محمد؛ ولهذا قال هرقل ملك الروم، لأبي سفيان: (فما كان ليدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله عزّ وجلّ).

۞ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا

﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

أخبر تعالى عمن كفر به بعد الإيمان والتبصر وشرح صدره بالكفر، واطمأن به، أنه قد غضب عليه لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه، وأن لهم عذاباً عظيماً في الدار الآخرة، لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا، ولم يهد الله قلوبهم ويثبتهم على الدين الحق، فطبع على قلوبهم، فهم لا يعقلون بها شيئاً ينفعهم، وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها، فهم غافلون عما يراد بهم، ﴿لا جرم﴾ أي لا بد ولا عجب أن من هذه صفته، ﴿أنهم في الآخرة هم الخاسرون﴾ أي الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة - وأما قوله: ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرها لما ناله من ضرب وأذى وقلبه يأبى ما يقول، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله. وقد روي عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في (عمار بن ياسر) حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ، فوافقهم على ذلك مكرهاً، وجاء معتذراً إلى النبي ﷺ فأنزل الله هذه الآية. وقال ابن جرير: أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه، حتى قاربهم في بعض ما أرادوا، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئناً بالإيمان، قال النبي ﷺ: «إن عادوا فعد»، وفيه أنه سب النبي ﷺ، وذكر آلهتهم بخير، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فقال: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئناً بالإيمان، فقال: «إن عادوا فعد»، وفي ذلك أنزل الله: ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾، ولهذا اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالي إبقاء لمهجته، ويجوز له أن يأبى كما كان بلال رضي الله عنه يأبى عليهم ذلك وهم يفعلون به الأفاعيل، حتى إنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر ويأمرونه بالشرك بالله فيأبى عليهم وهو يقول: أحد، أحد، ويقول: والله لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها، رضي الله عنه وأرضاه. وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري لما قال له مسيلمة الكذاب: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم، فيقول: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع، فلم يزل يقطعه إرباً إرباً وهو ثابت على ذلك.

والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه ولو أفضى إلى قتله، كما ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة (عبد الله بن حذافة السهمي) أحد الصحابة أنه أسرته الروم فجاءوا به إلى ملكهم فقال له: تنصر وأنا أشركك في ملكي وأزوجك ابنتي، فقال له: لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين ما فعلت، فقال: إذاً أقتلك، فقال أنت وذاك، قال: فأمر به فصلب، وأمر الرماة فرموه قريباً من يديه ورجليه، وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى، ثم أمر به فأنزل، ثم أمر بقدر من نحاس، فأحميت وجاء بأسير من المسلمين، فألقاه وهو ينظر، فإذا هو عظام تلوح، وعرض عليه فأبى، فأمر به أن يلقى فيها فرفع في البكرة ليلقى فيها، فبكى، فطمع فيه ودعاه، فقال: إني إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة تلقى في

هذه القدر الساعة في الله، فأحببت أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفس تعذب هذا العذاب في الله. وفي بعض الروايات: أنه سجنه ومنع منه الطعام والشراب أياماً، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير، فلم يقربه، ثم استدعاه فقال: ما منعك أن تأكل؟ فقال: أما إنه قد حل لي، ولكن لم أكن لأشمتك بي، فقال له الملك: فقبّلْ رأسي، وأنا أطلقك، فقال: وتطلق معي جميع أسارى المسلمين، قال: نعم، فقبّل رأسه، فأطلقه، وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده، فلما رجع قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حق على كل مسلم أن يقبّل رأس عبدالله ابن حذافة، وأنا أبدأ، فقام فقبل رأسه رضي الله عنهما.

* ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ * يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾

هؤلاء صنف آخر كانوا مستضعفين بمكة مهانين في قومهم فوافقوهم على الفتنة، إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه، وانتظموا في سلك المؤمنين، وجاهدوا معهم الكافرين وصبروا، فأخبر تعالى أنه من بعدها أي تلك الفعلة وهي الإجابة إلى الفتنة لغفور لهم رحيم بهم يوم معادهم ﴿يوم تأتي كل نفس تجادل﴾ أي تحاج ﴿عن نفسها﴾ ليس أحد يحاج عنها لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة ﴿وتوفى كل نفس ما عملت﴾ أي من خير وشر ﴿وهم لا يظلمون﴾ أي لا ينقص من ثواب الخير، ولا يزاد على ثواب الشر ولا يظلمون نقيراً.

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾

هذا مثل أريد به أهل مكة؟ فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يتخطف الناس من حولها، ومن دخلها كان آمناً لا يخاف، كما قال تعالى: ﴿أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا﴾، وهكذا قال ههنا: ﴿يأتيها رزقها رغداً﴾، أي هنيئاً سهلاً، ﴿من كل مكان فكفرت بأنعم الله﴾ أي جحدت آلاء الله عليها وأعظمها بعثة محمد ﷺ إليهم، كما قال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار﴾ ولهذا بدلهم الله بحاليهم الأولين خلافهما فقال: ﴿فأذاقها الله لباس الجوع والخوف﴾ أي ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجبى إليها ثمرات كل شيء ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان، وذلك أنهم استعصوا على رسول الله ﷺ، وأبوا إلا خلافه، فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف، فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم، فأكلوا العلهز، وهو وبر يخلط بدمه إذا نحروه. وقوله: ﴿والخوف﴾ وذلك أنهم بدلوا بأمنهم خوفاً من رسول الله ﷺ وأصحابه، حين هاجروا إلى المدينة من سطوته وسراياه وجيوشه، وجعل كل ما لهم في دمار

وسفال، حتى فتحها الله على رسوله، ﷺ وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول ﷺ الذي بعثه الله فيهم منهم وامتن به عليهم في قوله: ﴿لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم﴾ الآية. وهذا الذي قلناه من أن هذا المثل ضرب لأهل مكة قاله ابن عباس، وإليه ذهب مجاهد وقتادة والزهري رحمهم الله .

فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بأكل رزقه الحلال الطيب وبشكره على ذلك، فإنه المنعم المتفضل به ابتداء، ثم ذكر تعالى ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم في دينهم ودنياهم من الميتة والدم ولحم الخنزير، ﴿وما أهل لغير الله به﴾ أي ذبح على غير اسم الله ومع هذا، ﴿فمن اضطر إليه﴾ أي احتاج من غير بغي ولا عدوان، ﴿فإن الله غفور رحيم﴾. وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية في سورة البقرة بما فيه كفاية عن إعادته ولله الحمد. ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين الذين حللوا وحرموا، بمجرد ما وصفوه واصطلحوا عليه وابتدعوه في جاهليتهم، فقال: ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب﴾ ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي، أو حلل شيئاً مما حرم الله أو حرم شيئاً مما أباح الله بمجرد رأيه وتشهيه، ثم توعد على ذلك فقال: ﴿إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾ أي في الدنيا ولا في الآخرة، أما في الدنيا فمتاع قليل، وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم، كما قال: ﴿نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾، وقال: ﴿إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ۞ متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾ .

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾

لما ذكر تعالى أنه إنما حرم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، ذكر سبحانه وتعالى ما كان حرمه على اليهود في شريعتهم قبل أن ينسخها، وما كانوا فيه من الآصار والتضييق والأغلال والحرج فقال: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل﴾ أي في سورة الأنعام، ﴿وما ظلمناهم﴾ أي فيما ضيقنا عليهم، ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي فاستحقوا ذلك، كقوله: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً﴾، ثم أخبر تعالى تكرماً وامتناناً في حق العصاة المؤمنين أن من تاب منهم إليه تاب عليه فقال: ﴿ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة﴾ قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل ﴿ثم تابوا من

بعد ذلك وأصلحوا﴾، أي أقلعوا عما كانوا فيه من المعاصي وأقبلوا على فعل الطاعات، ﴿إن ربك من بعدها﴾ أي تلك الفعلة والزلة ﴿لغفور رحيم﴾.

إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾

يمدح تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم، إمام الحنفاء ووالد الأنبياء، ويبرئه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية فقال: ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً﴾، فأما الأمة: فهو الإمام الذي يقتدى بـه، والقانت: هو الخاشع المطيع، والحنيف المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد، ولهـذا قال: ﴿ولم يك من المشركين﴾، قال عبدالله بن مسعود: الأمة معلم الخير، والقانت المطيع لله ورسوله. وقال ابن عمر: الأمة الذي يعلم الناس دينهم. وقال مجاهد ﴿أمة﴾ أي أمة وحده، والقانت: المطيع. وعنه كان مؤمناً وحده والناس كلهم إذ ذاك كفار، وقال قتادة: كان إمام هدى، والقانت: المطيع لله، وقوله: ﴿شاكراً لأنعمه﴾ أي قائماً بشكر نعم الله عليه، كقوله تعالى: ﴿وإبراهيم الذي وفّى﴾ أي قام بجميع ما أمره الله تعالى به. وقوله: ﴿اجتباه﴾ أي اختاره واصطفاه كقوله: ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا بـه عالمين﴾، ثم قال: ﴿وهداه إلى صراط مستقيم﴾ وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضي. وقولـه: ﴿وآتيناه في الدنيـا حسنة﴾ أي جمعنـا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه في إكمال حياته الطيبة، ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾. وقال مجاهد في قوله: ﴿وآتيناه في الدنيا حسنة﴾ أي لسان صدق، وقوله: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً﴾ أي ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء ﴿أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾، كقوله في الأنعام: ﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم * ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾، ثم قال تعالى منكراً على اليهود:

إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾

لا شك أن الله تعالى شرع في كل ملة يوماً من الأسبوع يجتمع الناس فيه للعبادة، فشرع تعالى لهـذه الأمة يوم الجمعة لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخليقة واجتمعت فيه وتمت النعمة على عباده، ويقال إن الله تعالى شرع ذلك لبني إسرائيل على لسان موسى، فعدلوا عنه، واختاروا السبت لأنه اليوم الذي لم يخلق فيه الرب شيئاً من المخلوقات الذي كمل خلقها يوم الجمعة، فألزمهم تعالى بـه في شريعة التوراة، ووصاهم أن يتمسكوا بـه، وأن يحافظوا عليه مع أمره إياهم بمتابعة محمد ﷺ إذا بعثه وأخذ مواثيقهم وعهودهم على ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه﴾، قال مجاهد: اتبعوه وتركوا الجمعة، وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب

من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع اليهود غداً والنصارى بعد غد »[1]

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله محمداً ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله بالحكمة. قال ابن جرير: وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنّة والموعظة الحسنة، أي بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس ذكرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى، وقوله: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾، أي من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب كقوله تعالى: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم﴾ الآية، فأمره تعالى تعالى بلين الجانب، كما أمر بـه موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون في قوله: ﴿فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى﴾. وقوله: ﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله﴾ الآية، أي قد علم الشقي منهم والسعيد، وكتب ذلك عنده وفرغ منه فادعهم إلى الله، ولا تذهب نفسك على من ضل منهم حسرات، فإنه ليس عليـك هداهم إنما أنت نذير، عليك البلاغ وعلينا الحساب، ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾، ﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾.

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾

يأمر تعالى بالعدل في القصاص والمماثلة في استيفاء الحق، قال ابن سيرين: إن أخذ منكم رجل شيئاً فخذوا مثله، وكذا قـال مجاهد والحسن البصري واختاره ابن جرير، وقال ابن زيد: كانوا قـد أمروا بالصفح عن المشركين فأسلم رجال ذوو منعة، فقالوا: يا رسول الله، لو أذن الله لنـا لانتصرنا من هؤلاء الكلاب، فنزلت هـذه الآية ثم نسخ ذلك بالجهاد. قال عطاء بن يسار: نزلت سورة النحل كلها بمكة، وهي مكية إلا ثلاث آيات من آخرها، نزلت بالمدينة، بعد أحد حين قتل حمزة رضي الله عنه ومثل بـه، فقال رسول الله ﷺ: « لئن أظهرني الله عليهم لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم، فلما سمع المسلمون ذلك قالوا: والله لئن ظهرنا عليهم لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط فأنزل الله: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ إلى آخر السورة، وقال الحافظ أبو بكر البزار، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنـه حين استشهد، فنظر إلى منظر لم ينظر إلى منظر أوجع للقلب منه، أو قال لقلبه، فنظر إليه وقد مُثّل به، فقال: « رحمة الله عليك، إن كنت ما علمتك إلا وصولاً للرحم، فعولاً للخيرات، والله لولا حزن من بعدك عليك لسرني أن أتركك حتى

(١) هذا لفظ البخاري.

يحشرك الله من بطون السباع - أو كلمة نحوها - أما والله على ذلك لأمثلن بسبعين كمثلتك »، فنزل جبريل على محمد ﷺ بهذه السورة وقرأ: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ إلى آخر الآية، فكفر رسول الله ﷺ يعني عن يمينه وأمسك عن ذلك(١). وهـذه الآية الكريمة لهـا أمثال في القرآن، فإنها مشتملة على مشروعية العـدل والندب إلى الفضل، كما في قوله: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾، ثم قال: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾، الآية. وقال: ﴿والجروح قصاص﴾، ثم قال: ﴿فمن تصدق بـه فهو كفارة له﴾، وقال في هذه الآية: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾، ثم قال: ﴿ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾، وقوله تعالى: ﴿واصبر ومـا صبرك إلا بالله﴾ تأكيد للأمر بالصبر، وإخبار بأن ذلك لا ينـال إلا بمشيئة الله وإعانته، وحوله وقوته، ثم قال تعالى: ﴿ولا تحزن عليهم﴾، أي على من خالفك فإن الله قدر ذلك، ﴿ولا تك في ضيق﴾ أي غم، ﴿مما يمكرون﴾ أي مما يجهدون أنفسهم في عداوتك وإيصال الشر إليك، فإن الله كافيك وناصرك ومؤيدك ومظهرك ومظفرك بهم، وقوله: ﴿إن الله مـع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾، أي معهم بتـأييده ونصره ومعونته وهـديه وسعيه.

[آخر تفسير سورة النحل ، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) قال ابن كثير في إسناده ضعف.

[بسم الله الرحمن الرحيم وما توفيقى إلا بالله][١]

تفسير سورة النحل

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) ﴾.

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبراً بصيغة الماضى الدال على التحقق[٢] والوقوع لا محالة [كما قال تعالى] [٣]: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، وقال: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

وقوله: ﴿ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ أى: قرب ما تباعد فلا تستعجلوه.

يحتمل أن يعود الضمير على الله، ويحتمل أن يعود على العذاب، وكلاهما متلازم، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ. يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٣، ٥٤].

وقد ذهب الضحاك فى تفسير هذه الآية إلى قول عجيب، فقال فى قوله: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أى: فرائضه وحدوده.

وقد رده ابن جرير فقال: لا نعلم أحداً استعجل الفرائض[٤] والشرائع قبل وجودها[٥]، بخلاف العذاب فإنهم استعجلوه قبل كونه، استبعاداً وتكذيباً.

قلت: كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨].

وقال ابن أبى حاتم: ذُكر عن يحيى بن آدم، عن أبى بكر بن عياش، عن محمد بن عبد الله ـ مولى المغيرة بن شعبة ـ عن كعب بن علقمة، عن عبد الرحمن بن حُجيرة، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ «تطلع عليكم عند الساعة سحابة سوداء من المغرب مثل الترس، فما تزال ترتفع فى السماء، ثم ينادى مناد فيها: يا أيها الناس. فيقبل الناس بعضهم على بعض: هل سمعتم؟ فمنهم من يقول: نعم. ومنهم من يشك. ثم ينادى[٦] الثانية: يا أيها الناس. فيقول الناس بعضهم لبعض: هل سمعتم؟ فيقولون: نعم. ثم ينادى الثالثة: يا أيها الناس، أتى أمر الله فلا تستعجلوه. قال رسول الله ﷺ: «فو الذى نفسى بيده، إن الرجلين لينشران الثوب فما يطويانه أبدا، وإن الرجل ليمدن حوضه فما يسقى فيه[٧] شيئاً أبداً، وإن الرجل ليحلب ناقته فما يشربه أبداً ـ قال ـ ويشتغل[٨] الناس»[٩].

(١) زيادة من ف، أ. (٢) فى أ: «التحقيق». (٣) زيادة من ت، ف، أ.
(٤) فى ف، أ: «بالفرائض». (٥) فى أ: «وجودهما». (٦) فى ت، أ: «ينادى مناد».
(٧) فى ف: «منه». (٨) فى ت: «ويستعمل».
(٩) ورواه الحاكم فى المستدرك (٤/ ٥٣٩): حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا الحسن بن على بن عفان، حدثنا يحيى بن =

ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره، وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد، تعالى وتقدس علواً كبيراً، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة، قال: ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

﴿ يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ (٢) ﴾.

يقول تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ﴾ أي: الوحى كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقوله: ﴿عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهم الأنبياء، كما قال: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال: ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال: ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ. يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٥، ١٦].

وقوله: ﴿أَنْ أَنذِرُوا﴾ أى: لينذروا ﴿ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا﴾،[كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا ﴾][(١)] ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال فى هذه [الآية][(٢)]: ﴿فَاتَّقُونِ﴾ أى: فاتقوا عقوبتى لمن خالف أمرى وعبد غيرى.

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٤) ﴾.

يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوى وهو السموات، والعالم السفلى وهو الأرض بما حوت، وأن ذلك مخلوق بالحق لا للعبث[(٣)]، بل ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

ثم نزه نفسه عن شرك من عبد معه غيره [من الأصنام التى لا تخلق شيئا وهم يخلقون فكيف ناسب أن يعبد معه غيره][(٤)]، وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له، فلهذا يستحق[(٥)] أن يعبد وحده لا شريك له.

ثم نبه على خلق جنس الإنسان ﴿ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أى: ضعيفة مهينة، فلما استقل ودَرَج إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه، ويحارب رسله، وهو إنما خلق ليكون عبداً لا ضداً، كما قال تعالى:

= آدم به، وقال: «صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه».

ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٧/ ٣٢٥): حدثنا الحسين التسترى، حدثنا أبو كريب، حدثنا يحيى بن آدم به، وقال المنذرى فى الترغيب والترهيب (٤/ ٣٨٢): «رواه الطبرانى بإسناد جيد رواته ثقات مشهورون».

(١) زيادة من ت، ف، أ. (٢) زيادة من ت، أ. (٣) فى أ: «لا للعب».

(٤) زيادة من ت، ف. (٥) فى: أ: «استحق».

﴿وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا . ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرا﴾ [الفرقان: ٥٤، ٥٥]، وقال: ﴿أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم . قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾ [يس: ٧٧ ـ ٧٩].

وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد وابن ماجه عن بُسْر بن جَحَّاش قال: بصق رسول الله فى كفه، ثم قال: «يقول الله: ابن آدم، أنَّى تُعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك فعدلتك مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: أتصدقُ. وأنى أوان الصدقة؟»[(١)].

﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧)﴾.

يمتن تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام، وهى الإبل والبقر والغنم، كما فصلها فى سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع، من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون، ومن ألبانها يشربون، ويأكلون من أولادها، وما لهم فيها من الجمال وهو الزينة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ﴾ وهو وقت رجوعها عشياً من المرعى[(٢)]، فإنها تكون أمَدّه[(٣)] خواصر، وأعظمه ضروعاً، وأعلاه أسنمة، ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أى: غُدوة حين تبعثونها إلى المرعى.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾: وهى الأحمال المثقلة[(٤)] التى تَعجزُون عن نقلها وحملها، ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ﴾ وذلك فى الحج والعمرة والغزو والتجارة، وما جرى مجرى ذلك، تستعملونها فى أنواع الاستعمال، من ركوب وتحميل، كما قال تعالى: ﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون . وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ [المؤمنون: ٢١، ٢٢]، وقال تعالى: ﴿الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون . ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون . ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون﴾ [غافر: ٧٩ ـ ٨١]؛ ولهذا قال هاهنا بعد تعداد هذه النعم: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أى: ربكم الذى قيَّض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم، كما قال: ﴿أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون . وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون﴾ [يس: ٧١، ٧٢]، وقال: ﴿وجعل لكم من

---

(١) المسند (٤/ ٢١٠) وسنن ابن ماجه برقم (٢٧٠٧) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/ ٣٦٥): «إسناد صحيح رجاله ثقات، ورواه أحمد فى مسنده من حديث بسر، وأصله فى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة».

(٢) فى ت: «الرعى». (٣) فى ت، ف: «أعده». (٤) فى ت، ف، أ: «الثقيلة».

الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ. لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ. وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢ ـ ١٤].

قال ابن عباس: ﴿**لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ**﴾ أى: ثياب، والمنافع: ما تنتفعون به من الأطعمة والأشربة.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل، عن سِمَاك، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس: ﴿**دِفْءٌ وَمَنَافِعُ**﴾: نسل كل دابة.

وقال مجاهد: ﴿**لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ**﴾ قال: لباس ينسج، ومنافع تُركَبُ، ولحم ولبن.

وقال قتادة: ﴿**دِفْءٌ وَمَنَافِعُ**﴾ يقول: لكم فيها لباس، ومنفعة، وبُلْغة.

وكذا قال غير واحد من المفسرين، بألفاظ متقاربة.

﴿**وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ** (٨)﴾.

هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده، يمتن به عليهم، وهو: الخيل والبغال والحمير، التى جعلها للركوب والزينة بها، وذلك أكبر المقاصد منها، ولما فَصَلَها من الأنعام وأفردها بالذكر استدل من استدل من العلماء ـ ممن ذهب إلى تحريم لحوم الخيل ـ بذلك على ما ذهب إليه فيها، كالإمام أبى حنيفة، رحمه الله[(١)]، ومن وافقه من الفقهاء[(٢)]؛ لأنه تعالى قرنها بالبغال والحمير، وهى حرام، كما ثبتت به السنة النبوية، وذهب إليه أكثر العلماء.

وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنى يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، أنبأنا هشام الدَّسْتُوَائى، حدثنا يحيى بن أبى كثير، عن مولى نافع بن علقمة، أن ابن عباس كان يكره لحوم الخيل والبغال والحمير، وكان يقول: قال الله: ﴿**وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ**﴾ فهذه للأكل، ﴿**وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا**﴾ فهذه للركوب[(٣)].

وكذا روى من طريق سعيد بن جُبَير وغيره، عن ابن عباس، بمثله. وقال مثل ذلك الحكم بن عتيبة[(٤)]، رضى الله عنه[(٥)]، أيضا، واستأنسوا بحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده:

حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا بَقِيَّة بن الوليد، حدثنا ثور بن يزيد، عن صالح بن يحيى بن المقدام بن معد يكرب، عن أبيه، عن جده، عن خالد بن الوليد، رضى الله عنه، قال: نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الخيل، والبغال، والحمير.

وأخرجه أبو داود، والنسائى، وابن ماجه، من حديث صالح بن يحيى بن المقدام ـ وفيه كلام ـ به[(٦)].

ورواه أحمد أيضا من وجه آخر بأبسط من هذا وأدل منه فقال:

---

(١) فى ف، أ: «رحمة الله عليه». (٢) فى ت: «العلماء».

(٣) تفسير الطبرى (١٤/ ٥٧).

(٤) فى ت، ف، أ: «عيينة». (٥) فى ت: «رحمه الله».

(٦) المسند (٤/ ٨٩) وسنن أبى داود برقم (٣٧٩٠) وسنن النسائى (٧/ ٢٠٢) وسنن ابن ماجة برقم (٣١٩٨).

حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا محمد بن حرب، حدثنا سليمان بن سليم، عن صالح بن يحيى بن المقدام، عن جده المقدام بن معد يكرب قال: غزونا مع خالد بن الوليد الصائفة، فقَرِم[١] أصحابنا إلى اللحم، فسألونى رَمَكة، فدفعتها إليهم فَحبَلوها وقلت[٢]: مكانكم حتى آتى خالداً فأسأله. فأتيته فسألته، فقال: غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة خيبر، فأسرع الناس فى حظائر يهود، فأمرنى أن أنادى: «الصلاة جامعة، ولا يدخل الجنة إلا مسلم» ثم قال: «أيها الناس، إنكم قد أسرعتم فى حظائر يهود، ألا لا تحل[٣] أموال المعاهدين إلا بحقها، وحرام عليكم لحوم الأتن[٤] الأهلية وخيلها وبغالها، وكل ذى ناب من السباع، وكل ذى مخلب من الطير»[٥].

والرمكة: هى الحِجْرَة. وقوله: حَبَلوها، أى: أوثقوها فى الحبل ليذبحوها. والحظائر: البساتين القريبة من العمران.

وكأن هذا الصنيع وقع بعد إعطائهم العهد ومعاملتهم على الشطر، والله أعلم.

فلو صحّ هذا الحديث لكان نصاً فى تحريم لحوم الخيل، ولكن لا يقاوِمُ ما ثبت فى الصحيحين، عن جابر بن عبد الله قال: نهى رسول الله ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية، وأذن فى لحوم الخيل[٦].

ورواه أحمد وأبو داود بإسنادين، كل منهما على شرط مسلم، عن جابر قال: ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير، فنهانا رسول الله ﷺ عن البغال والحمير، ولم ينهنا عن الخيل[٧].

وفى صحيح مسلم، عن أسماء بنت أبى بكر، رضى الله عنهما، قالت: نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرسا فأكلناه ونحن بالمدينة[٨].

فهذه أدل وأقوى وأثبت، وإلى ذلك صار جمهورُ العلماء: مالك، والشافعى، وأحمد، وأصحابهم، وأكثر السلف والخلف، والله أعلم.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا ابن جُرَيْج، عن ابن أبى مُلَيْكَة، عن ابن عباس قال: كانت الخيل وحشية، فذللها الله لإسماعيل بن إبراهيم، عليهما السلام.

وذكر وهب بن منبه فى إسرائيلياته: أن الله خلق الخيل من ريح الجنوب، والله[٩] أعلم.

فقد دل النص على جواز ركوب هذه الدواب، ومنها البغال. وقد أهديت إلى رسول الله ﷺ بغلة، فكان يركبها، مع أنه قد نَهَى عن إنزاء الحمر على الخيل لئلا ينقطع النسل.

قال الإمام أحمد: حدثنى محمد بن عبيد، حدثنا عمر من آل حذيفة، عن الشعبى، عن دَحْية الكلبى قال: قلت: يا رسول الله، ألا أحمل لك حماراً على فرس، فتنتج لك بغلا، فتركبها؟ قال: «إنما يفعل ذلك الذين لا يعلمون»[١٠].

---

(١) فى ت: «فغرم». (٢) فى أ: «فقلت». (٣) فى ف: «لا يحل».
(٤) فى ت، ف: «الحمر».
(٥) المسند (٤/ ٨٩).
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٢١٩، ٥٥٢٤) وصحيح مسلم برقم (١٩٤١).
(٧) المسند (٣/ ٣٥٦) وسنن أبى داود برقم (٣٧٨٩).
(٨) صحيح مسلم برقم (١٩٤٢).
(٩) فى ت: «فالله».
(١٠) المسند (٤/ ٣١١).

﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) ﴾.

لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يُسَار عليه فى السبل الحسية، نبه على الطرق المعنوية الدينية، وكثيراً ما يقع فى القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية، كما قال تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقال: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

ولما ذكر فى هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها، التى يركبونها[(١)] ويبلغون عليها حاجة فى صدورهم، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة ـ شرع فى ذكر الطرق التى يسلكها الناس إليه، فبيَّن أن الحق منها ما هى موصلة إليه، فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾، كما قال: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال: ﴿ هَٰذَا[(٢)] صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١].

قال مجاهد: فى [قوله][(٣)]: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ قال: طريق الحق على الله.

وقال السدى: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ قال: الإسلام.

وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ يقول: وعلى الله البيان، أى: تبين[(٤)] الهدى والضلال[(٥)].

وكذا روى على بن أبى طلحة، عنه. وكذا قال قتادة، والضحاك. وقولُ مجاهد هاهنا أقوى من حيث السياق؛ لأنه تعالى أخبر أن ثم طرقاً تسلك إليه، فليس يصل إليه منها إلا طريقُ الحق، وهى الطريق[(٦)] التى شرَعها ورضيها وما عداها مسدودة[(٧)]، والأعمال فيها مردودة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ أى: حائد[(٨)] مائل زائغ عن الحق.

قال ابن عباس وغيره: هى الطرق المختلفة، والآراء والأهواء المتفرقة، كاليهودية والنصرانية والمجوسية، وقرأ ابن مسعود: «ومنكم جائر».

ثم أخبر أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيئته، فقال: ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾، كما قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) ﴾.

---

(١) فى ت: «تركبونها». (٢) فى ف: «وقال: قال هذا». (٣) زيادة من ت، ف، أ.
(٤) فى ت، ف: «يبين». (٥) فى ت، ف: «الضلالة». (٦) فى ت: «الطرق».
(٧) فى أ: «مسدود». (٨) فى ت: «جائر».

لما[١] ذكر سبحانه ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب، شرع فى ذكر نعمته عليهم، فى إنزال[٢] المطر من السماء ـ وهو العلو ـ مما لهم فيه بُلْغَة ومتاع لهم ولأنعامهم، فقال: ﴿ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ أى: جعله عذباً زلالا، يسوغ لكم شرابه، ولم يجعله ملحا أجاجا.

﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أى: وأخرج لكم به شجراً ترعون فيه أنعامكم. كما قال ابن عباس، وعكرمة والضحاك، وقتادة وابن زيد، فى قوله: ﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أى: ترعون.

ومنه الإبل السائمة، والسوم: الرعى.

وروى ابن ماجه: أن رسول الله ﷺ نهى عن السوم قبل طلوع الشمس[٣].

وقوله: ﴿ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أى: يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد، على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أى: دلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [النمل: ٦٠] ثم قال[٤] تعالى:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴿١٣﴾ ﴾

ينبه تعالى عباده على آياته العظام، ومننه الجسام، فى تسخيره الليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر يدوران، والنجوم الثوابت والسيارات، فى أرجاء السموات نورا وضياء للمهتدين بها فى الظلمات، وكل منها يسير فى فلكه الذى جعله الله تعالى فيه، يسير بحركة مُقدرة، لا يزيد عليها ولا ينقص منها. والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسييره، كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أى: لدلالات على قدرته الباهرة وسلطانه العظيم، لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه.

وقوله: ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾: لما نبه سبحانه على معالم السموات[٥]، نبه على

---

(١) فى ف: «كما». (٢) فى ت: «إنزاله».

(٣) سنن ابن ماجة برقم (٢٢٠٦) ورواه الحاكم فى المستدرك (٤/ ٢٣٤) كلاهما من طريق الربيع بن حبيب، عن نوفل بن عبد الملك، عن أبيه، عن على بن أبى طالب قال: نهى رسول الله ﷺ عن السوم... فذكر الحديث. وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/ ١٧٧): «هذا إسناد ضعيف لضعف ابن نوفل بن عبد الملك والربيع بن حبيب».

(٤) فى أ: «وقال». (٥) فى ت، ف، أ: «السماء».

ما خلق فى الأرض من الأمور العجيبة والأشياء المختلفة، من الحيوانات والمعادن والنباتات[١] [والجمادات][٢] على اختلاف ألوانها وأشكالها، وما فيها من المنافع والخواص ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أى: آلاء الله ونعمه فيشكرونها.

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨)﴾.

يخبر تعالى عن تسخيره[٣] البحر المتلاطم الأمواج، ويمتن على عباده بتذليله لهم، وتيسيرهم للركوب فيه، وجعله السمك والحيتان فيه، وإحلاله[٤] لعباده لحمها حيها وميتها، فى الحل والإحرام[٥]، وما يخلقه فيه من اللآلئ والجواهر النفيسة، وتسهيله للعباد استخراجها من قرارها حلية يلبسونها، وتسخيره البحر لحمل[٦] السفن التى تمخره، أى: تشقه.

وقيل: تمخر الرياح. وكلاهما صحيح بجؤجئها وهو صدرها المسنَّم ـ الذى أرشد العباد إلى صنعتها، وهداهم إلى ذلك، إرثا عن أبيهم نوح، عليه السلام؛ فإنه أول من ركب السفن، وله كان تعليم صنعتها، ثم أخذها الناس عنه قرناً بعد قرن، وجيلا بعد جيل، يسيرون من قطر إلى قطر، وبلد إلى بلد، وإقليم إلى إقليم، تجلب ما هنا إلى هنالك، وما هنالك إلى هنا[٧]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أى: نعمه وإحسانه.

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده: وجدت فى كتابى عن محمد بن معاوية[٨] البغدادى: حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن [عمر، عن][٩] سُهَيْل بن أبى صالح، عن أبيه، عن أبى هريرة [رفعه][١٠] قال: كلم الله هذا البحر الغربى، وكلم البحر الشرقى، فقال للبحر الغربى: إنى حامل فيك عباداً من عبادى، فكيف أنت صانع فيهم[١١]؟ قال: أغرقهم. قال: بأسك فى نواحيك. وأحملهم على يدى. وحرّمه الحلية والصيد. وكلم هذا البحر الشرقى فقال: إنى حامل فيك عباداً من عبادى، فما أنت صانع بهم؟ فقال: أحملهم على يدى، وأكون لهم[١٢] كالوالدة لولدها. فأثابه الحلية والصيد[١٣].

---

(١) فى أ: «والنبات». (٢) زيادة من ف، أ. (٣) فى أ: «تسخير».
(٤) فى ت: «وإجلاله». (٥) فى أ: «والحرم». (٦) فى ت: «كحمل».
(٧) فى ف، أ: «تجلب ما هاهنا إلى هناك وما هناك إلى هاهنا».
(٨) فى ت: «معاوية بن محمد». (٩) زيادة من ف، أ، ومسند البزار.
(١٠) زيادة من مسند البزار. (١١) فى ت، ف،أ: «بهم». (١٢) فى ف: «بهم».
(١٣) مسند البزار برقم (١٦٦٩) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع (٥/ ٢٨١): «رواه البزار وجادة، وفيه عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر العمرى وهو متروك». ورواه الخطيب البغدادى فى تاريخه (١٠/ ٢٣٣، ٢٣٤) من هذا الطريق قال: «وتابعه أبو=

ثم قال البزار: لا نعلم من رواه عن سهيل غير عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر(١)، وهو منكر الحديث. وقد رواه سهيل عن النعمان بن أبى عياش(٢)، عن عبد الله بن عمرو(٣) موقوفاً(٤).

ثم ذكر تعالى الأرض، وما جعل فيها من الرواسى الشامخات والجبال الراسيات، لتقر الأرض ولا تميد، أى: تضطرب بما عليها من الحيوان فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك؛ ولهذا قال: ﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ [النازعات: ٣٢].

وقال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَر، عن قتادة، سمعت الحسن يقول: لما خُلقت الأرض كانت تميد، فقالوا: ما هذه بمقرّة على ظهرها أحداً فأصبحوا وقد خُلقت الجبال، لم(٥) تدر الملائكة مِمّ خلقت الجبال(٦).

وقال سعيد، عن قتادة، عن الحسن، عن قيس بن عُبَاد: أن الله تعالى لما خلق الأرض، جعلت تمور، فقالت الملائكة: ما هذه بمقرّة على ظهرها أحداً، فأصبحت صبحا وفيها رواسيها.

وقال ابن جرير: حدثنى المثنى، حدثنا حجاج بن مِنْهَال، حدثنا حماد، عن عطاء بن السائب، عن عبد الله بن حَبِيب، عن على بن أبى طالب(٧)، رضى الله عنه، قال: لما خلق الله الأرض قمصت وقالت: أى رَب، تجعل علىَّ بنى آدم يعملون علىّ الخطايا ويجعلون علىّ الخبث؟ قال: فأرسى الله فيها من الجبال ما ترون وما لا ترون، فكان إقرارها كاللحم يترجرج(٨)(٩).

وقوله: ﴿ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً ﴾ أى: وجعل فيها أنهاراً تجرى من مكان إلى مكان آخر، رزقاً للعباد، ينبع فى موضع وهو رزق لأهل موضع آخر، فيقطع البقاع والبرارى والقفار، ويخترق(١٠) الجبال والآكام، فيصل إلى البلد الذى سُخِّر لأهله. وهى سائرة فى الأرض يمنة ويسرة، وجنوباً وشمالا، وشرقاً وغرباً، ما بين صغار وكبار، وأودية تجرى حيناً وتنقطع(١١) فى وقت، وما بين نبع وجمع،

= عبيدالله أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، فرواه عن عمه عبد الله بن وهب، عن عبد العزيز بن محمد الدراوردى عن سهيل عن أبيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن كعب الأحبار، وخالفهما خالد بن عبد الله الواسطى، فرواه عن سهيل عن النعمان بن أبى عياش الزرقى عن عبد الله بن عمرو موقوفاً لم يجاوزه، ورفعه غير ثابت».

(١) فى ف: «عمرو». (٢) فى أ: «عباس». (٣) فى ت، أ، هـ: «عمر» وهو خطأ.

(٤) رواه الخطيب البغدادى فى تاريخه (١٠/ ٢٣٤) من طريق سعيد بن منصور، عن خالد بن عبد الله، عن سهيل بن أبى صالح به. وقال الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية (١/ ٢٠): «قلت: الموقوف على عبد الله بن عمرو بن العاص أشبه، فإنه قد كان وجد يوم اليرموك زاملتين مملوءتين كتباً من علوم أهل الكتاب، فكان يحدث منهما بأشياء كثيرة من الإسرائيليات منها المعروف والمشهور والمنكور والمردود، فأما المعروف فتفرد به عبد الرحمن بن عبد الله بن عمرو بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب أبو القاسم المدنى قاضيها. قال فيه الإمام أحمد: ليس بشىء وقد سمعته منه، ثم مزقت حديثه كان كذاباً وأحاديثه مناكير. وكذا ضعفه ابن معين وأبو زرعة وأبو حاتم والجوزجانى والبخارى وأبو داود والنسائى. وقال ابن عدى: عامة أحاديثه مناكير وأفظعها حديث البحر».

(٥) فى ت، ف: «فلم».

(٦) تفسير عبد الرزاق (١/ ٣٠٦).

(٧) فى أ: «طلحة». (٨) فى أ: «ترجرج».

(٩) تفسير الطبرى (١٤/ ٦٢).

(١٠) فى ت، ف: «ويخرق». (١١) فى ت: «وتقطع».

وقوى السير وبطيئه، بحسب ما أراد وقدر، وسخر ويسر فلا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وكذلك جعل فى الأرض سبلاً، أى: طرقاً يسلك فيها من بلاد إلى بلاد، حتى إنه تعالى ليقطع الجبل حتى يكون(١) ما بينهما ممراً ومسلكاً، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ [الأنبياء: ٣١].

وقوله: ﴿ وَعَلَامَاتٍ ﴾ أى: دلائل من جبال كبار وآكام صغار، ونحو ذلك، يستدل بها المسافرون برًا وبحراً إذا ضلوا الطريق [بالنهار](٢).

وقوله: ﴿ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ أى: فى ظلام الليل، قاله ابن عباس.

وعن مالك فى قوله: ﴿ وَعَلَامَاتٍ ﴾: يقولون: النجوم، وهى الجبال.

ثم قال تعالى منبها على عظمته، وأنه لا تنبغى العبادة إلا له دون ما سواه من الأوثان، التى لا تخلق شيئاً بل هم يخلقون؛ ولهذا قال: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

ثم نبههم على كثرة نعمه عليهم وإحسانه إليهم، فقال: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أى: يتجاوز عنكم، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك، ولو أمركم به لضعفتم وتركتم، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم، ولكنه غفور رحيم، يغفر الكثير، ويجازى على(٣) اليسير.

وقال ابن جرير: يقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لما كان منكم من تقصير فى شكر بعض ذلك، إذا تبتم وأنبتم إلى طاعته واتباع مرضاته، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بكم أن يعذبكم، [أى](٤): بعد الإنابة والتوبة(٥).

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر، وسيجزى كل عامل بعمله يوم القيامة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ثم أخبر أن الأصنام التى يدعونها(٦) من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون، كما قال الخليل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ. وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦].

وقوله: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾ أى: هى جمادات لا أرواح فيها(٧)، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ أى: لا يدرون متى تكون الساعة، فكيف يرتجى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء؟ إنما يرتجى(٨) ذلك من الذى يعلم كل شىء، وهو خالق كل شىء.

---

(١) فى أ: «ليكون». (٢) زيادة من ت، ف. (٣) فى ت: «ويتجاوز عن».

(٤) زيادة من ت، ف.

(٥) تفسير الطبرى (١٤/ ٦٤).

(٦) فى ت: «تدعونها». (٧) فى ت، ف، أ: «لها». (٨) فى ت، ف، أ: «يرجى».

﴿ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣) ﴾.

يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد، وأخبر أن الكافرين تُنكر[1] قلوبهم ذلك، كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك: ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٥].

وقوله: ﴿ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي: عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده، كما قال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ لا جَرَمَ ﴾ أي: حقاً ﴿ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أي: وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء، ﴿ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥) ﴾.

يقول تعالى: وإذا قيل لهؤلاء المكذبين: ﴿ مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا ﴾ معرضين عن الجواب: ﴿ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ أي: لم ينزل شيئاً، إنما هذا الذي يتلى علينا أساطير الأولين، أي: مأخوذ من كتب المتقدمين، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الفرقان: ٥] أي: يفترون على الرسول، ويقولون [فيه][2] أقوالا مختلفة متضادة[3]، كلها باطلة[4]، كما قال تعالى: ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان: ٩]، وذلك أن كل من خرج عن الحق فمهما قال أخطأ، وكانوا يقولون: ساحر، وشاعر، وكاهن، ومجنون. ثم استقر أمرهم إلى ما اختلقه لهم شيخهم الوحيد المسمى بالوليد بن المغيرة المخزومي، لما ﴿ فَكَّرَ وَقَدَّرَ. فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ نَظَرَ. ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ. ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ. فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ [المدثر: ١٨ـ ٢٤] أي: ينقل ويحكى، فتفرقوا عن قوله ورأيه، قبحهم الله.

قال الله تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي: إنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك فيتحملوا[5] أوزارهم ومن أوزار الذين يتبعونهم ويوافقونهم، أي: يصير[6] عليهم خطيئة ضلالهم[7] في أنفسهم، وخطيئة إغوائهم لغيرهم واقتداء أولئك بهم، كما جاء في الحديث: «من دعا إلى هُدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثلُ آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً».

(١) في ت: «ينكر». (٢) زيادة من ت، ف، أ. (٣) في ت، ف: «متضادة مختلفة».
(٤) في ت، ف، أ: «باطل». (٥) في ت، ف، أ: «ليتحملوا».
(٦) في ف: «تصير». (٧) في ف: «عنادهم».

وقال [الله] (١) تعالى: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وهكذا(٢) روى العوفى عن ابن عباس فى قوله: ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾: إنها كقوله: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وقال مجاهد: يحملون أثقالهم: ذنوبهم وذنوب من أطاعهم، ولا يخفف عمن أطاعهم من العذاب شيئاً.

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) ﴾.

قال العوفى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ قال: هو نمرود الذى(٣) بنى الصرح.

قال ابن أبى حاتم: وروى عن مجاهد نحوه.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن زيد بن أسلم: أولُ جبار كان فى الأرض نمرود، فبعث الله عليه بَعُوضة، فدخلت فى منخرة، فمكث أربعمائة سنة يضرب رأسه بالمطارق، وأرحم الناس به من جمع يديه فضرب بهما رأسه، وكان جبارا أربعمائة سنة، فعذبه الله أربعمائة سنة كملكه، ثم أماته الله. وهو الذى كان بنى صرحاً إلى السماء، وهو الذى قال الله: ﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ ﴾.

وقال آخرون: بل هو بختنصر. وذكروا من المكر الذى حكى الله هاهنا، كما قال فى سورة إبراهيم: ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

وقال آخرون: هذا من باب المثل، لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله وأشركوا فى عبادته غيره، كما قال نوح، عليه السلام: ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ [نوح: ٢٢] أى: احتالوا فى إضلال الناس بكل حيلة وأمالوهم إلى شركهم بكل وسيلة، كما يقول لهم أتباعهم يوم القيامة: ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ﴾ [الآية](٤) [سبأ: ٣٣].

وقوله: ﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ ﴾ أى: اجتثه من أصله، وأبطل عملهم، وأصلها(٥) كما قال تعالى: ﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقوله: ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ ﴾ [الحشر: ٢].

وقال هاهنا: ﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا

---

(١) زيادة من ت. (٢) فى ت، أ: «لهذا». (٣) فى ت، ف، أ: «حين».
(٤) زيادة من ف. (٥) فى ت، ف، أ: «وأصله».

يشعرون. ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أي: يظهر فضائحهم، وما كانت تُجنّه ضمائرهم، فيجعله علانية، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩] أي: تظهر وتشتهر(١)، كما فى الصحيحين(٢) عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غَدْرَته، فيقال: هذه غَدْرَة فلان بن فلان»(٣).

وهكذا هؤلاء، يظهر للناس ما كانوا يسرونه من المكر، ويخزيهم الله على رؤوس الخلائق، ويقول لهم الرب تبارك وتعالى مقرعا لهم وموبخا: ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ﴾: تحاربون وتعادون فى سبيلهم، [أى](٤): أين هم عن نصركم وخلاصكم هاهنا؟ ﴿ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٣]، ﴿ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠]. فإذا توجهت عليهم الحجة، وقامت عليهم الدلالة، وحقت عليهم الكلمة، وأسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار(٥)، ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ ـ وهم السادة فى الدنيا والآخرة، والمخبرون عن الحق فى الدنيا والآخرة، فيقولون حينئذ: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أى: الفضيحة والعذاب اليوم [محيط](٦) بمن كفر بالله، وأشرك به مالا يضره ولا ينفعه.

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩) ﴾.

يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمى أنفسهم عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم: ﴿ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ﴾أى: أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين: ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ ﴾، كما يقولون يوم المعاد: ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٣]، ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ [المجادلة: ١٨].

قال الله مكذبا لهم فى قيلهم ذلك: ﴿ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ. فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ(٧) مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أى: بئس المقيل والمقام والمكان من دار هوان، لمن كان متكبراً عن آيات الله واتباع رسله.

وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم، ويأتى(٨) أجسادهم فى قبورها من حرها وسمومها، فإذا كان يوم القيامة سلكت(٩) أرواحهم فى أجسادهم، وخلدت فى نار جهنم، ﴿ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]، كما قال الله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ

---

(١) فى ت: «يظهر ويستتر». (٢) فى ت: «الصحيح».
(٣) صحيح البخارى برقم (٣١٨٨) وصحيح مسلم برقم (١٧٣٥).
(٤) زيادة من ت، ف، أ. (٥) فى ت، ف، أ: «لا قرار». (٦) زيادة من ف.
(٧) فى ت: «فبئس». (٨) فى ت، أ: «وينال». (٩) فى ت: «سالت».

الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) ﴾.

هذا خبر عن السعداء، بخلاف ما أخبر به عن الأشقياء، فإن أولئك قيل لهم: ﴿ **مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ**﴾، فقالوا معرضين عن الجواب: لم[1] ينزل شيئاً، إنما هذا [2] أساطير الأولين. وهؤلاء ﴿ **قَالُوا خَيْرًا**﴾ أى: أنزل خيرا، أى: رحمة وبركة وحسناً لمن اتبعه وآمن به.

ثم أخبروا عما وعد الله [به][3] عباده فيما أنزله على رسله فقالوا: ﴿ **لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ**﴾، كما قال تعالى: ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [النحل: ٩٧]، أى: من أحسن عمله فى الدنيا أحسن الله إليه فى الدنيا والآخرة.

ثم أخبروا بأن دار الآخرة خير، أى: من الحياة الدنيا، والجزاء فيها أتم من الجزاء فى الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ**[4] **وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ** ﴾ [القصص: ٨٠] وقال تعالى: ﴿ **وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ** ﴾ [آل عمران: ١٩٨] وقال تعالى ﴿**وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ**﴾ [الأعلى: ١٧]، وقال لرسوله ﷺ[5]: ﴿**وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ**﴾ [الضحى: ٤].

ثم وصفوا الدار الآخرة فقالوا[6]: ﴿**وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ**﴾.

وقوله: ﴿**جَنَّاتُ عَدْنٍ**﴾: بدل من [قوله][7]: ﴿ **دَارُ الْمُتَّقِينَ** ﴾ أى: لهم فى [الدار][8] الآخرة ﴿**جَنَّاتُ عَدْنٍ** ﴾ أى: إقامة[9] يدخلونها ﴿ **تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ** ﴾ أى: بين أشجارها وقصورها، ﴿ **لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ**﴾، كما قال تعالى: ﴿ **وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ**[10] **الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ [الزخرف: ٧١]، وفى الحديث: «إن السحابة لتمر بالملأ من أهل الجنة وهم جلوس على شرابهم[11]، فلا يشتهى أحد منهم شيئاً إلا أمطرته عليهم، حتى إن منهم لمن يقول: أمطرينا كواعب أتراباً، فيكون ذلك[12]»[13].

﴿ **كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ** ﴾ أى: كذلك[14] يجزى الله كل من آمن به واتقاه وأحسن عمله.

ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار، أنهم[15] طيبون، أى: مخلصون من الشرك والدنس

---

(١) فى أ: «أى: لم». (٢) فى أ: «هو». (٣) زيادة من ت، أ.

(٤) فى ت، ف، أ: «وقال الذين أوتوا العلم والإيمان» وهو خطأ.

(٥) فى ت، أ: «صلوات الله عليه وسلامه»، وفى ف: «صلوات الله عليه».

(٦) فى ت، ف، أ: «ثم وصف الدار الآخرة فقال». (٧) زيادة من أ.

(٨) زيادة من ف، أ. (٩) فى أ: «مقامة». (١٠) فى ت، أ: «تشتهى» وهو خطأ.

(١١) فى أ: «سرائرهم». (١٢) فى ف: «كذلك».

(١٣) رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره من حديث أبى أمامة رضى الله عنه، وسيأتى بإسناده عند تفسير الآية: ٣٣ من سورة النبأ.

(١٤) فى ف، أ: «هكذا». (١٥) فى ت، ف، أ: «وهم».

وكل سوء، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم[١] بالجنة، ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٢].

وقد قدمنا الأحاديث الواردة فى قبض روح المؤمن وروح الكافر عند قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٤)﴾.

يقول تعالى متهدداً للمشركين على تماديهم فى الباطل واغترارهم بالدنيا: هل ينتظر هؤلاء إلا الملائكة أن تأتيهم بقبض أرواحهم، قاله قتادة.

﴿أَوْ يَأْتِيَ[٢] أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أى: يوم القيامة وما يعاينونه[٣] من الأهوال.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أى: هكذا تمادى فى شركهم أسلافهم ونظراؤهم وأشباههم من المشركين حتى[٤] ذاقوا بأس الله، وحلوا فيما هم فيه من العذاب والنكال. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾؛ لأنه تعالى أعذر إليهم، وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه، ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أى: بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاؤوا به، فلهذا أصابتهم[٥] عقوبة الله على ذلك، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أى: أحاط بهم من العذاب الأليم ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أى: يسخرون من الرسل إذا توعدوهم بعقاب الله؛ فلهذا يقال يوم القيامة: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٤].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٧)﴾.

---

(١) فى أ: «ويبشرونهم». (٢) فى أ: «أو يأتيهم» وهو خطأ. (٣) فى أ: «وما يعاينون».
(٤) فى ت: «حين». (٥) فى ت، ف: «أصابهم».

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الشرك واعتذارهم محتجين بالقدر، فى قولهم: ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾ أى: من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك، مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء[١] أنفسهم، ما لم ينزل الله به سلطانا.

ومضمون كلامهم: أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلنا، لأنكره علينا بالعقوبة ولما مكنا[٢] منه. قال الله راداً عليهم شبهتهم: ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾؟ أى: ليس الأمر كما تزعمون أنه لم يعيره عليكم[٣] ولم[٤] ينكره، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار، ونهاكم عنه آكد النهى، وبعث فى كل أمة رسولا، أى: فى كل قرن من الناس وطائفة رسولا، وكلهم يدعو[٥] إلى عبادة الله، وينهى[٦] عن عبادة ما سواه: ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾، فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك، منذ حدث الشرك فى بنى آدم، فى قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذى طبقت دعوته الإنس والجن فى المشارق والمغارب، وكلهم كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾، فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول: ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾، فمشيئته تعالى الشرعية منتفية[٧]؛ لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله، وأما مشيئته الكونية، وهى[٨] تمكينهم من ذلك قدرا، فلا حجة لهم فيها[٩]؛ لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله فى ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة.

ثم إنه تعالى قد أخبر أنه عير[١٠] عليهم، وأنكر[١١] عليهم بالعقوبة فى الدنيا بعد إنذار الرسل؛ فلهذا قال: ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ أى: اسألوا[١٢] عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب الحق كيف ﴿ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ [محمد: ١٠]، ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [الملك: ١٨].

ثم أخبر تعالى رسوله ﷺ أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم، إذا كان الله قد أراد إضلالهم، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ [المائدة: ٤١]، وقال نوح لقومه: ﴿ وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ [هود: ٣٤]، وقال فى هذه الآية

---

(١) فى ف: «من قِبَل».
(٢) فى ت: «ولما مكننا»، وفى ف: «ولا مكننا».
(٣) فى ت، أ: «لم يعير».
(٤) فى أ: «ولا».
(٥) فى ف: «يدعون».
(٦) فى ف: «وينهون».
(٧) فى ف: «منفية».
(٨) فى ف: «فهى».
(٩) فى ت، ف، أ: «فيه».
(١٠) فى أ: «عيره».
(١١) فى أ: «وأنكره».
(١٢) فى أ: «فاسألوا».

الكريمة: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾، كما قال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ[(١)] فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

فقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ أي: شأنه وأمره أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ فلهذا قال: ﴿لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ أي: من أضله فمن الذى يهديه من بعد الله؟ أي: لا أحد ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ أي: ينقذونهم[(٢)] من عذابه ووثاقه، ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٠)﴾.

يقول تعالى مخبرا عن المشركين: أنهم حلفوا فأقسموا ﴿بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي: اجتهدوا فى الحلف وغلظوا الأيمان على أنه ﴿لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ أي: استبعدوا ذلك، فكذبوا[(٣)] الرسل فى إخبارهم لهم بذلك، وحلفوا على نقيضه. فقال تعالى مكذبا لهم ورادا عليهم: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: بلى سيكون ذلك، ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ[(٤)] حَقًّا﴾ أي: لابد منه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فَلجَهْلهم[(٥)] يخالفون الرسل ويقعون فى الكفر.

ثم ذكر تعالى حكمته فى المعاد وقيام الأجساد يوم التناد، فقال: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ أي: للناس ﴿الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي: من كل شيء، و﴿لِيَجْزِيَ[(٦)] الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ أي: فى أيمانهم وأقسامهم: لا يبعث الله من يموت؛ ولهذا يدعون يوم القيامة إلى نار جهنم دعا، وتقول[(٧)] لهم الزبانية: ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ . أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ . اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٤ ـ ١٦].

ثم أخبر تعالى عن قدرته[(٨)] على ما يشاء، وأنه لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء، وإنما أمره إذا[(٩)] أراد شيئاً أن يقول له: «كن»، فيكون، والمعاد من ذلك إذا أراد كونه فإنما يأمر به مرة واحدة، فيكون كما يشاء، كما قال[(١٠)]: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، وقال: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا[(١١)] لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] أي: أن يأمر به دفعة[(١٢)] واحدة فإذا هو كائن،

---

(١) فى ت: «ويمدهم» وهو خطأ. (٢) فى ت، ف، أ: «ينقذهم». (٣) فى ت، ف، أ: «وكذبوا».
(٤) فى أ: «عليهم» وهو خطأ. (٥) فى أ: «فبجهلهم». (٦) فى ت، ف، أ: «ويجزى» وهو خطأ.
(٧) فى ف، أ: «فيقول». (٨) فى ت: «عن قدرة». (٩) فى ف: «وأنه إذا».
(١٠) فى ف، أ: «وقال». (١١) فى ت: «أمرنا» وهو خطأ. (١٢) فى أ: «مرة».

كما قال الشاعر[(١)]:

إذا ما أراد الله أمراً فإنما   يقول له: «كن»، قولة فيكون

أى: أنه تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به، فإنه تعالى لا يمانع ولا يخالف، لأنه [هو][(٢)] الواحد القهار العظيم، الذى قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شىء، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

وقال ابن أبى حاتم: ذكر[(٣)] الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج، عن ابن جُرَيْج، أخبرنى عطاء: أنه سمع أبا هريرة يقول: قال الله تعالى: سَبَّنى ابن آدم ولم يكن ينبغى له أن يسبنى، وكذبنى ولم يكن ينبغى له أن يكذبنى، فأما تكذيبه إياى فقال: **﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾**، قال: وقلت: **﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾**، وأما سبه إياى فقال: **﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾** [المائدة: ٧٣]، وقلت: **﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَد. وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾** [سورة الإخلاص][(٤)].

هكذا[(٥)] ذكره موقوفا، وهو فى الصحيحين مرفوعا، بلفظ آخر[(٦)].

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢) ﴾.

يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين فى سبيله ابتغاء مرضاته، الذين فارقوا الدار والإخوان والخلان، رجاء ثواب الله وجزائه.

ويحتمل أن يكون سبب نزول هذه الآية الكريمة فى مُهاجرة الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة، حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة، ليتمكنوا من عبادة ربهم، ومن أشرافهم: عثمان ابن عفان، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وجعفر بن أبى طالب، ابن عمر الرسول[(٧)]، وأبو سلمة بن عبد الأسد[(٨)] فى جماعة قريب من ثمانين، ما بين رجل وامرأة، صديق وصديقة، رضى الله عنهم وأرضاهم. وقد فعل فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة فى الدنيا والآخرة فقال: **﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾** قال ابن عباس والشعبى، وقتادة: المدينة. وقيل: الرزق الطيب، قاله مجاهد.

ولا منافاة بين القولين، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم فعوضهم الله خيراً منها[(٩)] فى الدنيا، فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله بما هو خير له منه[(١٠)]، وكذلك وقع فإنهم مكن الله لهم فى البلاد

---

(١) مضى البيت عند تفسير الآية: ١١٧ من سورة البقرة.

(٢) زيادة من ت، ف، أ.

(٣) فى ت: «ذكره».

(٤) ورواه الطبرى فى تفسيره (١٤/ ٧٣) من طريق حجاج به موقوفاً.

(٥) فى ت: «هذا».

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٩٧٤) ولفظه: «قال الله تعالى: كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمنى ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياى، فقوله: لن يعيدنى كما بدأنى، وليس أول الخلق بأهون علىَّ من إعادته، وأما شتمه إياى فقوله: اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد، لم ألد ولم أولد، ولم يكن لى كفواً أحد».

(٧) فى ف، أ: «ابن عم رسول الله ﷺ».

(٨) فى ف، أ: «عبد الأسود».

(٩) فى ت، ف، أ: «منه».

(١٠) فى ت، ف، أ: «منه فى الدنيا».

وحكمهم على رقاب العباد، فصاروا أمراء حكاما، وكل منهم للمتقين إماما، وأخبر أن ثوابه للمهاجرين فى الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم فى الدنيا، فقال: ﴿ وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ أى: مما أعطيناهم فى الدنيا ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أى: لو كان المتخلفون عن الهجرة معهم يعلمون ما ادخر الله لمن أطاعه واتبع رسوله؛ ولهذا قال هُشَيْم، عن العوام، عمن حدثه؛ أن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه[١] يقول: خذ، بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله فى الدنيا، وما ادخر[٢] لك فى الآخرة أفضل، ثم قرأ[٣] هذه الآية: ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[٤].

ثم وصفهم تعالى فقال: ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أى: صبروا على أقل[٥] من آذاهم من قومهم، متوكلين على الله الذى أحسن لهم العاقبة فى الدنيا والآخرة.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) ﴾.

قال الضحاك، عن ابن عباس: لما بعث الله محمداً ﷺ رسولا، أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر منهم، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا. فأنزل الله: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾ [يونس: ٢]، وقال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ يعنى: أهل الكتب الماضية: أبشر كانت الرسل التى أتتكم[٦] أم ملائكة؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم، وإن كانوا بشرا فلا تنكروا أن يكون محمد ﷺ رسولا؟ [و][٧]قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً يُوحِي[٨] إِلَيْهِمْ من أهل القرى﴾، ليسوا من أهل السماء كما قلتم.

وهكذا روى عن مجاهد، عن ابن عباس، أن المراد بأهل الذكر: أهل الكتاب. وقاله مجاهد، والأعمش.

وقول عبد الرحمن بن زيد ـ الذكر: القرآن واستشهد بقوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] ـ صحيح، [و][٩] لكن ليس هو المراد هاهنا؛ لأن المخالف لا يرجع فى إثباته بعد إنكاره إليه.

وكذا قول أبى جعفر الباقر: «نحن أهل الذكر» ـ ومراده أن هذه الأمة أهل الذكر ـ صحيح، فإن هذه الأمة أعلم من جميع الأمم السالفة، وعلماء أهل بيت الرسول، عليهم[١٠] السلام والرحمة، من

(١) فى أ: «عطاءً».
(٢) فى ف: «وما دخره».
(٣) فى أ: «يقرأ».
(٤) رواه الطبرى فى تفسيره (١٤/ ٧٤).
(٥) فى ت، ف، أ: «أذى».
(٦) فى هـ، ت، أ: «إليهم» والمثبت من الطبرى. مستفاد من حاشية الشعب.
(٧) زيادة من ت، ف، أ.
(٨) فى ف، أ: «نوحى».
(٩) زيادة من ف، أ.
(١٠) فى ت: «عليه».

خير العلماء إذا كانوا على السنة المستقيمة، كعلى، وابن عباس، وبنى على: الحسن والحسين، ومحمد بن الحنفية، وعلى بن الحسين زين العابدين، وعلى بن عبد الله بن عباس، وأبى جعفر الباقر ـ وهو محمد بن على بن الحسين ـ وجعفر ابنه، وأمثالهم وأضرابهم وأشكالهم، ممن هو متمسك بحبل الله المتين وصراطه المستقيم، وعرف لكل ذى حق حقه، ونزل كل المنزل الذى أعطاه الله ورسوله واجتمع إليه قلوب عباده المؤمنين.

والغرض أن هذه الآية الكريمة أخبرت أن(١) الرسل الماضين(٢) قبل محمد ﷺ كانوا بشراً كما هو بشر، كما قال تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً. وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ [الإسراء: ٩٣، ٩٤] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ. [ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ](٣)﴾ [الأنبياء: ٨، ٩]، وقال: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

ثم أرشد الله تعالى من شك فى كون الرسل كانوا بشراً، إلى سؤال أصحاب الكتب المتقدمة عن الأنبياء(٤) الذين سلفوا: هل كان أنبياؤهم بشراً أو ملائكة؟

ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى: بالدلالات والحجج، ﴿وَالزُّبُرِ﴾ وهى الكتب. قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وغيرهم.

والزبر: جمع زبور، تقول العرب: زبرت الكتاب إذا كتبته، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢]، وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ يعنى: القرآن، ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ من ربهم، أى: لعلمك(٥) بمعنى ما أنزل عليك، وحرصك عليه، واتباعك له، لعلمنا بأنك(٦) أفضل الخلائق وسيد ولد آدم، فتفصل(٧) لهم ما أجمل، وتبين لهم ما أشكل: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أى: ينظرون لأنفسهم فيهتدون، فيفوزون(٨) بالنجاة فى الدارين.

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾.

---

(١) فى ت، ف: «بأن». (٢) فى أ: «الماضية». (٣) زيادة من ف، أ.
(٤) فى ف، أ: «بشرا أن يسألوا أهل الذكر عن الأنبياء».
(٥) فى ت: «يعلمك». (٦) فى أ: «بأنه». (٧) فى أ: «تفصل».
(٨) فى ت، ف: «فيفوزوا».

يخبر تعالى عن حلمه [وإمهاله][١] وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها، ويمكرون بالناس فى دعائهم إياهم وحملهم عليها، مع قدرته على ﴿ **أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ** ﴾ أى: من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم، كما قال تعالى: ﴿ **أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ. أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ** ﴾ [الملك: ١٦، ١٧]، وقوله: ﴿ **أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ**﴾ أى: فى تقلبهم فى المعايش واشتغالهم بها، من أسفار [٢]ونحوها من الأشغال الملهية.

قال قتادة والسدى: ﴿ **تَقَلُّبِهِمْ**﴾ أى: أسفارهم.

وقال مجاهد، والضحاك: ﴿ **فِي تَقَلُّبِهِمْ**﴾ فى الليل والنهار، كما قال تعالى: ﴿ **أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ. أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ** ﴾ [الأعراف: ٩٧، ٩٨].

وقوله: ﴿ **فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ**﴾ أى: لا يُعجزون الله على أى حال كانوا عليه.

وقوله: ﴿ **أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ**﴾ أى: أو يأخذهم الله فى حال خوفهم من أخذه لهم، فإنه يكون أبلغ وأشد حالة الأخذ؛ فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد؛ ولهذا قال العوفى، عن ابن عباس: ﴿ **أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ**﴾ يقول: إن شئت أخذته على أثر موت صاحبه وتخوفه بذلك. وكذا روى عن مجاهد، والضحاك، وقتادة وغيرهم.

ثم قال تعالى: ﴿ **فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ أى: حيث لم يعاجلكم بالعقوبة، كما ثبت فى الصحيحين «[لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم»[٣]، وفى الصحيحين][٤]: «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ** ﴾ [هود: ١٠٢][٥] وقال تعالى: ﴿ **وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ** ﴾ [الحج: ٤٨].

﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠)** ﴾.

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه الذى خضع له كل شىء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها: جمادها وحيواناتها، ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة، فأخبر[٦] أن كل ما له ظل يتفيأ

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى أ: «بما فى أسفارهم».

(٣) صحيح البخارى برقم (٦٠٩٩) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٤).

(٤) زيادة من ت، ف، أ.

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٦٨٦) وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٣) من حديث أبى موسى الأشعرى، رضى الله عنه.

(٦) فى ت: «والمخبر».

ذات اليمين وذات الشمال، أى: بكرة وعشيا، فإنه ساجد بظله لله تعالى.

قال مجاهد: إذا زالت الشمس سجد كلٌّ شىء لله عز وجل. وكذا قال قتادة، والضحاك، وغيرهم.

وقوله: ﴿ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ أى: صاغرون.

وقال مجاهد أيضاً: سجود كل شىء فيه. وذكر الجبال قال: سجودها فيها.

وقال أبو غالب الشيبانى: أمواج البحر صلاته.

ونزلهم منزلة من يعقل إذ أسند السجود إليهم.

ثم قال: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾، كما قال: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]، وقوله: ﴿ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أى: تسجد لله أى غير مستكبرين عن عبادته، ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ أى: يسجدون خائفين وجلين من الرب جل جلاله، ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ أى: مثابرين على طاعته(١) تعالى، وامتثال أوامره، وترك زواجره.

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) ﴾.

يُقرر تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه لا ينبغى العبادة إلا له وحده لا شريك له؛ فإنه مالك كل شىء وخالقه وربه.

﴿ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وعِكْرِمة(٢)، وميمون بن مِهْران، والسدى، وقتادة، وغير واحد: أى دائما.

وعن ابن عباس أيضاً: واجباً. وقال مجاهد: خالصا. أى: له العبادة وحده ممن فى السموات والأرض، كقوله: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣]. هذا على قول ابن عباس وعكرمة، فيكون من باب الخبر، وأما على قول مجاهد فإنه يكون من باب الطلب، أى: ارهبوا أن تشركوا به(٣) شيئا، وأخلصوا له الطلب(٤)، كما فى قوله تعالى: ﴿ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ [الزمر: ٣].

ثم أخبر أنه مالك النفع والضر، وأن ما بالعبد من رزق، ونعمة(٥) وعافية ونصر فمن فضله

---

(١) فى ف: «طاعة الله». (٢) فى ت، ف: «وعكرمة ومجاهد». (٣) فى أ: «بى».

(٤) فى أ: «الطاعة». (٥) فى ت، ف: «بالعباد من نعمة ورزق».

عليه[(١)]، وإحسانه إليه، ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُون ﴾ أى: لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو، فإنكم عند الضرورات تلجؤون إليه، وتسألونه وتلحون فى الرغبة مستغيثين به[(٢)]، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال هاهنا: ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ. لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾.

قيل: «اللام» هاهنا لام العاقبة. وقيل: لام التعليل، بمعنى: قيضنا لهم ذلك[(٣)] ليكفروا، أى: يستروا ويجحدوا نعم الله عليهم، وأنه المسدى إليهم النعم، الكاشف عنهم النقم.

ثم توعدهم قائلا: ﴿ فَتَمَتَّعُوا ﴾ أى: اعملوا ما شئتم وتمتعوا بما أنتم فيه قليلا، ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أى: عاقبة ذلك.

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠) ﴾.

يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد، وجعلوا لها نصيبا مما رزقهم الله، فقالوا: ﴿ هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ [بغير علم][(٤)] وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ﴾ [الأنعام: ١٣٦] أى: جعلوا لآلهتهم نصيباً مع الله وفضلوهم[(٥)] أيضاً على جانبه، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذى افتروه، وائتفكوه، وليقابلنهم[(٦)] عليه وليجازينهم أوفر الجزاء فى نار جهنم، فقال: ﴿ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾.

ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا، وجعلوها بنات الله، وعبدوها معه، فأخطؤوا خطأ كبيراً فى كل مقام من هذه المقامات الثلاث، فنسبوا إليه تعالى أن له ولدا، ولا ولد له! ثم أعطوه أخس القسمين من الأولاد وهو البنات، وهم لا يرضونها لأنفسهم، كما قال: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى. تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢] وقال هاهنا: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ﴾ أى: عن قولهم وإفكهم، ﴿ أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ. وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ . مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [الصافات: ١٥١ـ ١٥٤].

---

(١) فى أ: «عليهم».
(٢) فى ت: «وتلجؤون فى الرغبة إليه».
(٣) فى أ: «قيضناهم لذلك».
(٤) زيادة من ف.
(٥) فى ف: «وفضلوها».
(٦) فى أ: «وليقابلهم».

وقوله: ﴿ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ أى: يختارون لأنفسهم الذكور ويأنَفُون لأنفسهم من البنات التى نسبوها إلى الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، فإنه ﴿ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ أى: كئيبا من الهم، ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾، ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن، ﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ ﴾ أى: يكره أن يراه الناس ﴿ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أى: إن أبقاها أبقاها مهانة لا يورثها، ولا يعتنى بها، ويفضل أولاده الذكور عليها، ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أى: يئدها: وهو: أن يدفنها فيه حية، كما كانوا يصنعون فى الجاهلية، أفمن يكرهونه هذه الكراهة ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله؟ ﴿ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أى: بئس ما قالوا، وبئس ما قسموا، وبئس ما نسبوا إليه، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [الزخرف: ١٧]، وقال هاهنا: ﴿ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ﴾ أى: النقص إنما ينسب إليهم، ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ ﴾ أى: الكمال المطلق من كل وجه، وهو منسوب إليه، ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ (٦٢) ﴾.

يخبر تعالى عن حلمه[(١)] بخلقه مع ظلمهم، وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة، أى: لأهلك جميع دواب الأرض تبعاً لإهلاك بنى آدم، ولكن الرب، جل جلاله، يحلم ويستر، وينظر ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى: لا يعاجلهم بالعقوبة؛ إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحداً.

قال سفيان الثورى، عن أبى إسحاق، عن أبى الأحوص أنه قال: كاد الجُعَل أن يعذب بذنب بنى آدم، وقرأ: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا[(٢)] مِن دَابَّةٍ﴾[(٣)].

وكذا رَوَى الأعمش، عن أبى إسحاق، عن أبى عبيدة قال: قال عبد الله: كاد الجُعَل أن يهلك فى جحرة بخطيئة بنى آدم.

وقال ابن جرير: حدثنى محمد بن المثنى، حدثنا إسماعيل بن حكيم الخزاعى، حدثنا محمد بن جابر الحنفى[(٤)]، عن يحيى بن أبى كثير، عن أبى سلمة قال: سمع أبو هريرة رجلا وهو يقول: إن الظالم لا يضر إلا نفسه[(٥)]. قال: فالتفت إليه فقال: بلى والله، حتى إن الحبارى لتموت فى وكرها [هُزالا][(٦)] بظلم الظالم[(٧)].

---

(١) فى ت: «علمه».

(٢) فى ف، أ: «على ظهرها» وهو خطأ.

(٣) رواه الطبرى فى تفسيره (١٤/ ٨٥).

(٤) فى ت: «الجعفى».

(٥) فى ف: «بنفسه».

(٦) زيادة من ت، ف، أ، و الطبرى.

(٧) تفسير الطبرى (١٤/ ٨٥) وقال ابن حجر: «فى إسناده محمد بن جابر اليمامى، وهو متروك».

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، أنبأنا الوليد بن عبد الملك بن عبيد الله[١] بن مسرح، حدثنا سليمان[٢] بن عطاء، عن مسْلَمة[٣] بن عبد الله، عن عمه أبى مَشْجَعة بن رِبْعى، عن أبى الدرداء، رضى الله عنه، قال: ذكرنا عند رسول الله ﷺ، فقال: «إن الله لا يؤخر شيئا إذا جاء أجله، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة، يرزقها الله العبد فيدعون له من بعده، فيلحقه دعاؤهم فى قبره، فذلك زيادة العمر»[٤].

وقوله: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أى: من البنات ومن الشركاء الذين هم [من][٥] عَبيده، وهم يأنفون أن يكون عند أحدهم شريك له فى ماله.

وقوله: ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾: إنكار عليهم فى دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى فى الدنيا، وإن كان ثمَّ معاد ففيه أيضا لهم الحسنى، وإخبار عن قيل من قال منهم، كقوله: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ. وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [هود: ٩، ١٠]، وكقوله[٦]: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٥٠]، وقوله: ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ[٧] بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا. [أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا][٨]﴾ [مريم: ٧٧، ٧٨] وقال إخبارا عن أحد الرجلين: أنه ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ[٩] مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا. وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٥، ٣٦] ـ فجمع هؤلاء بين عمل السوء وتمنى الباطل، بأن يجازوا على ذلك حسنا وهذا مستحيل، كما ذكر ابن إسحاق: أنه وُجد حجر فى أساس الكعبة حين نقضوها ليجددوها مكتوب عليه حِكَم ومواعظ، فمن[١٠] ذلك: تعملون السيئات[١١] ويجزون الحسنات؟ أجل كما يجتنى[١٢] من الشوك العنب[١٣].

وقال مجاهد، وقتادة: ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ﴾ أى[١٤]: الغلمان.

وقال ابن جرير: ﴿ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ﴾ أى: يوم القيامة، كما قدمنا بيانه، وهو الصواب، ولله الحمد.

ولهذا قال الله تعالى رادا عليهم فى تمنيهم [ذلك][١٥]: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أى : حقا لابد منه ﴿ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ أى: يوم القيامة، ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾.

---

(١) فى ت: «الوليد بن عبد الله بن عبد الله».
(٢) فى ت: «سفيان». (٣) فى ت، ف، أ: «سلمة».
(٤) ورواه ابن عدى فى الكامل (٣/ ٢٨٥) من طريق الوليد بن عبد الملك به نحوه، وفيه سليمان بن عطاء مجمع على ضعفه.
(٥) زيادة من ت. (٦) فى أ: «وقال». (٧) فى ت: «الذين كفروا» وهو خطأ.
(٨) زيادة من ف، أ. (٩) فى ت، ف، أ: «فقال». (١٠) فى ت: «فى».
(١١) فى ف: «السوء». (١٢) فى ف، أ: «يجنى».
(١٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٩٦).
(١٤) فى أ: «إلى». (١٥) زيادة من ت، ف، أ.

قال مجاهد، وسعيد بن جُبَيْر، وقتادة وغيرهم: منسيون فيها مضيعون.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا[١] لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف: ٥١].

وعن قتادة أيضا: ﴿مُفْرَطُونَ﴾ أى: معجلون إلى النار، من الفَرَط وهو السابق إلى الوِرْد ولا منافاة لأنهم يعجل بهم يوم القيامة إلى النار، وينسون فيها، أى: يخلدون.

﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥) ﴾.

يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رُسُلا، فكُذِّبت الرسل، فلك يا محمد فى إخوانك من المرسلين أسوة، فلا يهيدنَّك تكذيب قومك لك، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل، فإنما حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم ما فعلوه، ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ أى: هم تحت العقوبة والنكال، والشيطان وليهم، ولا يملك لهم خلاصا، ولا صريخ لهم، ولهم عذاب أليم.

ثم قال[٢] تعالى لرسوله: إنه إنما أنزل[٣] عليه الكتاب ليبين للناس الذى يختلفون فيه، فالقرآن فاصل بين الناس فى كل ما يتنازعون فيه، ﴿ وَهُدًى ﴾ أى: للقلوب، ﴿ وَرَحْمَةً﴾ أى: لمن تمسك به، ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

وكما جعل تعالى القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها، كذلك يحيى [الله][٤] الأرض بعد موتها بما ينزله[٥] عليها من السماء من ماء، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أى: يفهمون الكلام ومعناه.

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧) ﴾.

يقول تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ ﴾ أيها الناس ﴿فِي الْأَنْعَامِ﴾ وهى: الإبل والبقر والغنم، ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ أى: لآية ودلالة على قدرة خالقها وحكمته ولطفه ورحمته، ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾، وأفرد هاهنا [الضمير][٦] عوداً على معنى النعم، أو الضمير[٧] عائد على الحيوان؛ فإن الأنعام حيوانات، أى: نسقيكم مما فى بطن[٨] هذا الحيوان.

---

(١) فى ت، ف، أ: «ننساكم كما نسيتم» وهو خطأ. (٢) فى أ: «وقال». (٣) فى أ: «نزل».
(٤) زيادة من ت. (٥) فى أ: «نزله». (٦) زيادة من ت، ف، أ.
(٧) فى ف، أ: «والضمير». (٨) فى ف، أ: «بطون».

وفى الآية الأخرى: ﴿ مِمَّا فِي بُطُونِهَا ﴾ [المؤمنون: ٢١]، ويجوز هذا وهذا، كما فى قوله تعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ. فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ [المدثر: ٥٤، ٥٥]، وفى قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ. فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ﴾ [النمل: ٣٥، ٣٦] أى: المال.

وقوله: ﴿ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾ أى: يتخلص الدم بياضه وطعمه وحلاوته من بين فرث ودم فى باطن الحيوان، فيسرى كلٌّ إلى موطنه، إذا نضج الغذاء فى معدته تصرف[1] منه دم إلى العروق، ولبن إلى الضرع[2]، وبول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، وكل منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه، ولا يتغير به.

وقوله: ﴿ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ أى: لا يغص به أحد[3].

ولما ذكر اللبن وأنه تعالى جعله شرابا للناس سائغا[4]، ثَنَّى بذكر ما يتخذه الناس من الأشربة، من ثمرات النخيل والأعناب، وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه؛ ولهذا امتن به عليهم فقال: ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ ، دل على إباحته شرعا قبل تحريمه، ودل على التسوية بين السَّكَر المتخذ من العنب، والمتخذ من النخل كما هو مذهب مالك والشافعى وأحمد وجمهور العلماء، وكذا حُكْم سائر الأشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذرة والعسل، كما جاءت السنة بتفصيل ذلك، وليس هذا موضع بسط ذلك، كما قال[5] ابن عباس فى قوله: ﴿سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾، قال: السَّكَر: ما حرم من ثمرتيهما، والرزق الحسن ما أحل من ثمرتيهما. وفى رواية: السَّكر حرامه، والرزق الحسن حلاله. يعنى: ما يبس منهما من تمر وزبيب، وما عمل منهما من طلاء ـ وهو الدِّبس[6] ـ وخل ونبيذ، حلال يشرب قبل أن يشتد، كما وردت السنة بذلك.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: ناسب ذكر العقل هاهنا، فإنه أشرف ما فى الإنسان؛ ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها، قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ. لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ. سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٤ـ ٣٦].

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩) ﴾.

المراد بالوحى هاهنا: الإلهام والهداية والإرشاد إلى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتا تأوى إليها، ومن الشجر، ومما يعرشون. ثم هى محكمة فى غاية الإتقان فى تسديسها ورصها، بحيث لا يكون بينها خلَل.

---

(١) فى ت، ف: «يصرف». (٢) فى أ: «الضروع». (٣) فى ت، ف، أ: «أحد به».
(٤) فى ف: «وسائغا». (٥) فى ف: «قاله».
(٦) الطلاء: الشراب المطبوخ من عصير العنب، وأما الدبس: فهو عسل التمر وعصارته.

ثم أذن لها تعالى إذنا قدريا تسخيريا أن تأكل من كل الثمرات، وأن تسلك الطرق التى جعلها الله تعالى لها مذللة، أى: سهلة عليها حيث شاءت فى هذا الجو العظيم والبرارى الشاسعة، والأودية والجبال الشاهقة، ثم تعود كل واحدة منها إلى موضعها وبيتها، لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة، بل إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل، فتبنى الشمع من أجنحتها، وتقىء العسل من فيها[١]، وتبيض الفراخ من دبرها، ثم تصبح إلى مراعيها.

وقال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾، أى: مطيعة. فجعلاه حالا من السالكة. قال ابن زيد: وهو كقول الله تعالى: ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧٢] قال: ألا ترى أنهم ينقلون النحل[٢] من بيوته من بلد إلى بلد وهو يصحبهم.

والقول الأول أظهر، وهو أنه حال من الطريق، أى: فاسلكيها مذلَّلةً لك، نص عليه مجاهد. وقال ابن جرير: كلا القولين صحيح[٣].

وقد قال أبو يعلى الموصلى: حدثنا شيبان بن فَرُّوخ، حدثنا سُكَيْن[٤] بن عبد العزيز، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «عُمْرُ الذباب أربعون يوما، والذباب كله فى النار إلا النحل»[٥].

وقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ أى: ما بين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة، على اختلاف مراعيها ومأكلها منها[٦].

وقوله: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ أى: فى العسل شفاء للناس من أدواء تعرض لهم.

قال بعض من تكلم على الطب النبوى: لو قال فيه: «الشفاء للناس» لكان دواء لكل داء، ولكن قال ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ أى: يصلح لكل أحد من أدواء باردة، فإنه حار، والشىء يداوى بضده.

وقال مجاهد بن جبْر[٧] فى قوله: ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ يعنى: القرآن.

وهذا قول صحيح فى نفسه، ولكن ليس هو الظاهر هاهنا من سياق الآية؛ فإن الآية إنما ذكر فيها العسل، ولم يتابع مجاهد على قوله هاهنا، وإنما الذى قاله ذكروه فى قوله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآية [الإسراء: ٨٢]. وقوله تعالى: ﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧].

والدليل على أن المراد بقوله تعالى: ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ هو العسل ـ الحديثُ الذى رواه البخارى ومسلم فى صحيحهما[٨]، من رواية قتادة، عن أبى المتوكل على بن داود الناجى، عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أخى استَطْلَق بطنُه. فقال: «اسقه عسلا». فسقاه عسلا، ثم جاء فقال: يا رسول الله، سقيته عسلا فما زاده إلا استطلاقا! قال: «اذهب فاسقه عسلا». فذهب فسقاه، ثم جاء فقال: يا رسول الله، ما زاده إلا استطلاقا! فقال رسول

---

(١) فى ت: «فمها».
(٢) فى ت، ف، أ: «ينتقلون بالنحل».
(٣) فى ت، ف: «متجه».
(٤) فى ت، ف: «مسكين».
(٥) مسند أبى يعلى (٧/ ٢٣١) وحسنه البوصيرى كما فى حاشية المطالب العالية (٢/ ٢٩٦).
(٦) فى أ: «منه».
(٧) فى أ: «جبير».
(٨) فى ف: «صحيحيهما».

الله ﷺ: «صدق الله، وكذب بطن أخيك! اذهب فاسقه عسلا». فذهب فسقاه فبرئ[(١)].

قال بعض العلماء بالطب: كان هذا الرجل عنده فضلات، فلما سقاه عسلا وهو حار تحللت، فأسرعت فى الاندفاع، فزاد إسهاله، فاعتقد[(٢)] الأعرابى أن هذا يضره وهو مصلحة لأخيه، ثم سقاه فازداد التحليل والدفع، ثم سقاه فكذلك، فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن استمسك بطنه، وصلح مزاجه، واندفعت الأسقام والآلام ببركة إشارته، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام[(٣)].

وفى الصحيحين، من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، رضى الله عنها؛ أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الحَلْواء والعسل. هذا[(٤)] لفظ البخارى[(٥)].

وفى صحيح البخارى: من حديث سالم الأفطس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الشفاء فى ثلاثة: فى شَرْطةِ مِحْجَم، أو شربة عسل، أو كيَّةٍ بنار، وأنهى أمتى عن الكى»[(٦)].

وقال البخارى: حدثنا أبو نعيم، حدثنا عبد الرحمن بن الغَسِيل، عن عاصم بن عمر بن قتادة، سمعت جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن كان فى شىء من أدويتكم، أو يكونُ فى شىء من أدويتكم خير: ففى شرطة مِحْجَم، أو شربة عسل، أو لذعة بنار توافق الداء، وما أحب أن أكتوى».

ورواه مسلم من حديث عاصم بن عمر بن قتادة، عن جابر، به[(٧)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا على بن إسحاق، أنبأنا عبد الله، أنبأنا سعيد بن أبى أيوب، حدثنا عبد الله بن الوليد، عن أبى الخير، عن عقبة بن عامر الجُهَنى قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث إن كان فى شىء شفاء: فشَرْطة مِحْجَم، أو شربة عسل، أو كيَّة تصيب ألما، وأنا أكره الكى ولا أحبه»[(٨)].

ورواه الطبرانى عن هارون بن مَلّول[(٩)] المصرى، عن أبى عبد الرحمن المقرئ، [عن حيوة بن شريح][(١٠)] عن عبد الله بن الوليد، به. ولفظه: «إن كان فى شىء شفاء: فشرطة محجم»... وذكره[(١١)] وهذا إسناد صحيح، ولم يخرجوه.

وقال الإمام أبو عبد الله محمد بن زيد[(١٢)] بن ماجه القزوينى فى سننه: حدثنا على بن سلمة ـ

---

(١) صحيح البخارى برقم (٥٧١٦) وصحيح مسلم برقم (٢٢١٧).
(٢) فى ف: «واعتقد».
(٣) انظر: زاد المعاد لابن القيم (٤/ ٣٣ـ ٣٦) وفتح البارى لابن حجر (١٠/ ١٦٩، ١٧٠).
(٤) فى ف: «وهذا».
(٥) صحيح البخارى برقم (٥٦٨٢) وصحيح مسلم برقم (١٤٧٤).
(٦) صحيح البخارى برقم (٥٦٨٠، ٥٦٨١).
(٧) صحيح البخارى برقم (٥٦٨٣) وصحيح مسلم برقم (٢٢٠٥).
(٨) المسند (٤/ ١٤٦).
(٩) فى هـ، ف: «مملول» وفى أ: «سلول» والمثبت من المعجم للطبرانى.
(١٠) زيادة من المعجم الكبير للطبرانى.
(١١) المعجم الكبير (١٧/ ١٨٨) والمعجم الأوسط برقم (٩٣٣٥) ومجمع البحرين برقم (٤١٦٥).
تنبيه: وقع فى المعجم الأوسط عن أبى عبد الرحمن المقرى، عن سعيد بن أبى أيوب، عن عبد الله بن الوليد به، وقال: «لم يروه عن عبد الله بن الوليد إلا سعيد» وقد رأيته فى المعجم الكبير رواه عنه شريح، فلا أدرى هل هو خطأ أم لا؟ والله أعلم.
(١٢) فى ت، ف: «يزيد».

هو اللبقى ـ حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا سفيان عن أبى إسحاق، عن أبى الأحوص، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالشفاءين: العسل والقرآن»(١).

وهذا إسناد جيد، تفرد بإخراجه ابن ماجه مرفوعاً، وقد رواه ابن جرير، عن سفيان بن وَكِيع، عن أبيه، عن سفيان ـ هو الثورى ـ به موقوفا(٢): ولَهو(٣) أشبه.

وروينا عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب، رضي الله عنه، أنه قال: إذا أراد أحدكم الشفاء فليكتب آية من كتاب الله فى صَحْفَة، وليغسلها بماء السماء، وليأخذ من امرأته درهما عن طيب نفس منها، فليشتر به عسلا فليشربه بذلك، فإنه شفاء(٤). أى: من وجوه، قال الله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ [الإسراء: ٨٢] وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ [ق: ٩] وقال: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ [النساء: ٤]، وقال فى العسل: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾.

وقال ابن ماجه أيضاً: حدثنا محمود بن خِدَاش، حدثنا سعيد بن زكريا القرشى، حدثنا الزبير بن سعيد الهاشمى، عن عبد الحميد بن سالم، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لَعِق العسل ثلاث غَدَوَاتٍ فى كل شهر، لم يصبه عظيم من البلاء»(٥).

الزبير بن سعيد متروك.

وقال ابن ماجه أيضاً: حدثنا إبراهيم بن محمد بن يوسف بن سَرْح الفريابى، حدثنا عمرو بن بكر(٦) السَّكْسكى، حدثنا إبراهيم بن أبى عبْلَة. سمعت أبا أبى بن أم حَرَام ـ وكان قد صلى القبلتين ـ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عليكم بالسَّنَى والسَّنُّوت، فإن فيهما شفاء من كل داء إلا السام». قيل: يا رسول الله، وما السام؟ قال: «الموت».

قال عمرو: قال ابن أبى عبلة: «السَّنُّوت»: الشِّبْتُ. وقال آخرون: بل هو العسل الذى [يكون](٧) فى زِقَاق السمن، وهو قول الشاعر:

هُمُ السَّمْنُ بالسَّنُّوت لا أَلْسَ فيهم وَهُمْ يَمنَعُونَ الجارَ أنْ يُقَرَّدا

كذا رواه ابن ماجه(٨). وقوله: «لا أَلْسَ فيهم» أى: لا خلط. وقوله: «يمنعون الجار أن يقَرَّدا»، [أى: يضطهد ويظلم](٩).

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أى: إن فى إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقة إلى السلوك فى هذه المهامة والاجتناء من سائر الثمار، ثم جمعها للشمع والعسل، وهو من أطيب

(١) سنن ابن ماجه برقم (٣٤٥٢).

(٢) تفسير الطبرى (١٤/ ٩٤) وقال الدارقطنى فى العلل: «الموقوف أصح».

(٣) فى ت، ف: «وهو».

(٤) قال ابن حجر فى الفتح (١٠/ ١٧٠): «أخرجه ابن أبى حاتم فى التفسير بسند حسن».

(٥) سنن ابن ماجه برقم (٣٤٥٠) وهو منقطع أيضاً، عبد الحميد بن سالم لم يسمعه من أبى هريرة.

(٦) فى ف: «بكير». (٧) زيادة من ت، ف، أ، وسنن ابن ماجه.

(٨) سنن ابن ماجه برقم (٣٤٥٧) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ١٢٣): «إسناده ضعيف» ثم أعله بعمرو السكسكى.

(٩) زيادة من ت، ف، أ.

الأشياء، ﴿ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فى عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها، فيستدلون بذلك على أنه [الفاعل][١] القادر، الحكيم العليم، الكريم الرحيم.

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠) ﴾.

يخبر تعالى عن تصرفه فى عباده، وأنه هو الذى أنشأهم من العدم، ثم بعد ذلك يتوفاهم، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهَرَم ـ وهو الضعف فى الخلقة ـ كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

وقد روى عن على، رضي الله عنه، فى أرذل العمر [قال][٢]: خمس وسبعون سنة. وفى هذا السن يحصل له ضعف القوى والخرف وسوء الحفظ وقلة العلم؛ ولهذا قال: ﴿ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ[٣] عِلْمٍ شَيْئًا﴾ أى: بعد ما كان عالماً أصبح لا يدرى شيئاً من الفَنَد والخرف؛ ولهذا روى البخارى عند تفسير هذه الآية:

حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا هارون بن موسى أبو عبد الله الأعور، عن شُعَيب، عن أنس ابن مالك؛ أن رسول الله ﷺ كان يدعو: «أعوذ بك من البخل والكسل، والهرم وأرذل العمر، وعذاب القبر، وفتنة الدجال، وفتنة المحيا والممات».

ورواه مسلم، من حديث هارون الأعور، به[٤].

وقال زهير بن أبى سلمى فى معلقته[٥] المشهورة:

سَئِمتُ تكَاليفَ الحيَاة، ومَنْ يعشْ ... ثمانينَ عاما ـ لا أبَالك ـ يَسْأم
رَأيتُ المَنَايا خبط عَشْواء من تصبْ ... تمته ومَنْ تُخْطئ يُعَمَّرْ فَيهْرَمِ[٦]

﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١) ﴾.

يبين تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه[٧] لله من الشركاء، وهم يعترفون[٨] أنها عبيد له، كما كانوا يقولون فى تلبياتهم فى حجهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك». فقال تعالى منكرا عليهم: إنكم[٩] لا ترضون أن تساووا عبيدكم فيما رزقناكم، فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيده له فى الإلهية والتعظيم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ

---

(١) زيادة من ف، أ. (٢) زيادة من ت، ف، أ. (٣) فى ت: «من بعد» وهو خطأ.
(٤) صحيح البخارى برقم (٤٧٠٧) وصحيح مسلم برقم (٢٧٠٦) وليس فى الصحيح: «والهرم».
(٥) فى ف: «قصيدته».
(٦) ديوان زهير بن أبى سلمى (ص٢٩).
(٧) فى ت، ف: «يزعمون». (٨) فى ت، ف، أ: «يعرفون». (٩) فى ت، ف، أ: «أنتم».

أنفسكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا[١] مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية [الروم: ٢٨].

قال العوفى، عن ابن عباس في هذه الآية: يقول: لم يكونوا ليشركوا عبيدهم فى أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدى معى فى سلطانى، فذلك قوله: ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾.

وقال فى الرواية الأخرى، عنه: فكيف ترضون لى مالا ترضون[٢] لأنفسكم.

وقال مجاهد فى هذه الآية: هذا مثل للآلهة الباطلة[٣].

وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله، فهل منكم من أحد شارك[٤] مملوكه فى زوجته وفى فراشه، فتعدلون بالله خلقه وعباده؟ فإن لم ترض لنفسك هذا، فالله[٥] أحق أن ينَزَّه منك.

وقوله: ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ أى: إنهم جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا، فجحدوا نعمته[٦]، وأشركوا معه غيره.

وعن الحسن البصرى قال: كتب عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، هذه الرسالة إلى أبى موسى الأشعرى: واقنع برزقك من الدنيا، فإن الرحمن فَضَّل بعض عباده على بعض فى الرزق، بل[٧] يبتلى به كلاً، فيبتلى من بَسَط له، كيف شُكره لله وأداؤه الحق الذى افترض عليه فيما رزقه وخوله؟ رواه ابن أبى حاتم.

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢) ﴾.

يذكر تعالى نعمه[٨] على عبيده، بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم [وزيهم][٩]، ولو جعل الأزواج من نوع آخر لما حصل ائتلاف ومودة ورحمة. ولكن من رحمته خلق من بنى آدم ذكوراً وإناثا، وجعل الإناث أزواجا للذكور.

ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة، وهم أولاد البنين. قاله ابن عباس، وعكرمة، والحسن، والضحاك، وابن زيد.

قال شعبة، عن أبى بشر، عن سعيد بن جبُير، عن ابن عباس: ﴿ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾: هم الولد وولد الولد.

وقال سُنَيْد: حدثنا حجاج عن أبى بكر، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس، قال: بنوك حين يحفدونك ويرفدونك ويعينونك ويخدمونك، قال جميل:

حفَد الولائد حَولْهن وأسلمت ... بأكفِّهن أزِمَّةَ الأجْمَال[١٠]

---

(١) فى ت: «فيما». (٢) فى ت: «ترضوه». (٣) فى ت، ف، أ: «الباطل».
(٤) فى ف: «يشارك». (٥) فى ف: «فإن الله». (٦) فى ف، أ: «بنعمة الله».
(٧) فى ت، ف، أ: «بلاء». (٨) فى ف، أ: «نعمته». (٩) زيادة من ت، ف، أ.
(١٠) البيت فى تفسير الطبرى (١٤/ ٩٨) ونسبه لحميد.

وقال مجاهد: ﴿ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾: ابنه وخادمه. وقال فى رواية: الحفدة: الأنصار والأعوان والخدام.

وقال طاوس: الحفدة: الخدم[١]. وكذا قال قتادة، وأبو مالك، والحسن البصرى.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَر، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة أنه قال: الحفدة: مَنْ خَدَمَك من ولدك وولد ولدك[٢].

قال الضحاك: إنما كانت العرب يخدمها بنوها.

وقال العوفى، عن ابن عباس قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ يقول: بنو امرأة الرجل، ليسوا منه. ويقال: الحفدة: الرجل يعمل بين يدى الرجل، يقال: فلان يحفد لنا قال: ويزعم[٣] رجال أن الحفدة أَخْتَان الرجل.

وهذا [القول][٤] الأخير الذى ذكره ابن عباس قاله ابن مسعود، ومسروق، وأبو الضُّحى، وإبراهيم النَّخَعىّ، وسعيد بن جُبَيْر، ومجاهد، والقُرَظى. ورواه عكرمة، عن ابن عباس.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: هم الأصهار.

قال ابن جرير: وهذه الأقوال كلها داخلة فى معنى: «الحَفْد» وهو الخدمة، الذى منه قوله فى القنوت: «وإليك نسعى ونحفد»، ولما كانت الخدمة قد تكون من الأولاد والأصهار والخدم[٥]، فالنعمة حاصلة بهذا كله؛ ولهذا[٦] قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾.

قلت: فمن جعل ﴿وَحَفَدَةً﴾ متعلقا بأزواجكم، فلابد أن يكون المراد الأولاد، وأولاد الأولاد، والأصهار؛ لأنهم أزواج البنات، وأولاد الزوجة، كما قال[٧] الشعبى والضحاك، فإنهم غالبا يكونون تحت كنف الرجل وفى حجْره وفى خدمته. وقد يكون هذا هو المراد من قوله [عليه الصلاة و][٨] والسلام فى حديث بَصرة بن أكثم: «والولد عبد لك» رواه أبو داود[٩].

وأما من جعل الحَفَدَة هم الخدم فعنده أنه معطوف على قوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أى: وجعل لكم الأزواج والأولاد[١٠].

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من المطاعم والمشارب.

ثم قال تعالى منكرا على من أشرك فى عبادة المنعم غيره: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ وهم[١١]: الأصنام والأنداد، ﴿وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أى: يسترون نعم الله عليهم ويضيفونها إلى غيره.

وفى الحديث الصحيح: «إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة ممتنا عليه: ألم أزوجك؟ ألم

---

(١) فى ت: «الخدام».
(٢) تفسير عبد الرزاق (١/ ٣٠٩).
(٣) فى ف: «وزعم».
(٤) زيادة من أ.
(٥) فى ت، ف: «والخدام».
(٦) فى ف: «لهذا».
(٧) فى ت، ف: «قاله».
(٨) زيادة من ف، أ.
(٩) سنن أبى داود برقم (٢١٣١).
(١٠) فى أ: «وجعل لكم خداما».
(١١) فى ت: «وهو».

أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتَرْبع[١]؟»[٢].

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧٤) ﴾.

يقول تعالى إخبارا عن المشركين الذين عبدوا معه غيره، مع أنه هو المنعم المتفضل الخالق الرازق وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان **﴿ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا ﴾** أى: لا يقدر على إنزال مطر ولا إنبات زرع ولا شجر، ولا يملكون ذلك، أى: ليس لهم[٣] ذلك ولا يقدرون عليه لو أرادوه، ولهذا قال تعالى: **﴿ فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ ﴾** أى: لا تجعلوا[٤] له أنداداً وأشباها[٥] وأمثالاً، **﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾** أى: إنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا الله[٦]، وأنتم بجهلكم تشركون به غيره.

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾.

قال العوفى، عن ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن: وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير.

والعبد[٧] المملوك الذى لا يقدر على شىء مثل الكافر والمرزوق الرزق الحسن، فهو ينفق منه سرا وجهرا، هو[٨] المؤمن.

وقال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد: هو مثل مضروب للوثن والحق تعالى، فهل يستوى هذا وهذا؟

ولما كان الفرق ما بينهما بينا واضحا ظاهراً لا يجهله إلا كل غبى، قال [الله][٩] تعالى: **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾**. [ثم قال تعالى][١٠]:

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٦) ﴾.

قال مجاهد: وهذا أيضاً المراد به الوثن والحق تعالى، يعنى: أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق

---

(١) فى ت، ف: «وترتع».

(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٩٦٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٣) فى ت، ف: «إليهم».
(٤) فى ت: «أى تجعلون».
(٥) فى ف: «أشباحاً وأنداداً».

(٦) فى ف: «إلا هو».
(٧) فى ت، ف: «فالعبد».
(٨) فى ت: «فهو».

(٩) زيادة من ت، ف، أ.
(١٠) زيادة من أ.

بخير ولا بشيء[١]، ولا يقدر على شيء بالكلية، فلا مقال، ولا فعال، وهو مع هذا ﴿كَلٌّ﴾ أي: عيال وكلفة على مولاه، ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾ أي: بعثه﴿ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ ولا ينجح مسعاه، ﴿ هَلْ يَسْتَوِي ﴾ من هذه صفاته، ﴿ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ أي: بالقسط، فقاله حق وفعاله مستقيمة[٢]، ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وبهذا قال السدى، وقتادة وعطاء الخراساني. واختار هذا القول ابن جرير.

وقال العوفي، عن ابن عباس: هو مثل للكافر والمؤمن أيضاً، كما تقدم.

وقال ابن جرير: حدثنا الحسن بن الصباح البزار، حدثنا يحيى بن إسحاق، السَّيْلحيني[٣]، حدثنا حماد، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم[٤]، عن إبراهيم، عن[٥] عكْرمة، عن يَعْلَى بن أمية، عن ابن عباس في قوله: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾: نزلت في رجل من قريش وعبده. وفي قوله: ﴿ [وَضَرَبَ اللَّهُ][٦] مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ [لاَ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ][٧] ﴾ إلى قوله: ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، قال: هو عثمان بن عفان. قال: والأبكم الذى أينما يوجهه لا يأت بخير قال هو: مولى لعثمان بن عفان، كان عثمان ينفق عليه ويكفله[٨] ويكفيه المئونة، وكان الآخر يكره الإسلام ويأباه وينهاه عن الصدقة والمعروف، فنزلت فيهما[٩].

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧) وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) ﴾.

يخبر تعالى عن كماله وقدرته على الأشياء، في علمه غيب السموات والأرض، واختصاصه بذلك، فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلعه [الله][١٠] تعالى على ما يشاء ـ وفي قدرته التامة[١١] التي لا تخالف ولا تمانع، وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن، فيكون، كما قال: ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] أي: فيكون ما يريد كطرف العين. وهكذا قال هاهنا: ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، كما قال: ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

ثم ذكر تعالى مِنَّتَه على عباده، في إخراجه[١٢] إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ثم بعد

(١) في ت، أ: «ولا بشر». (٢) في ت: «مستقيم». (٣) في أ: «السلحيينى».
(٤) في ت: «خيثم». (٥) في ف: «ابن». (٦، ٧) زيادة من ت، ف، أ.
(٨) في ت، ف: «ويكلفه».
(٩) تفسير الطبري (١٤/ ١٠١).
(١٠) زيادة من ت. (١١) في ف: «العامة». (١٢) في ت: «إخراجهم».

هذا يرزقهم[١] تعالى السمع الذى به يدركون الأصوات، والأبصار اللاتى بها يحسون المرئيات، والأفئدة ـ وهى العقول ـ التى مركزها القلب على الصحيح، وقيل: الدماغ والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها. وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدريج قليلا قليلا، كلما كبر زيد فى سمعه وبصره وقوى عقله حتى يبلغ أشده.

وإنما جعل تعالى هذه فى الإنسان، ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى، فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه، كما جاء فى صحيح البخارى، عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول تعالى: من عادى لى وليا فقد بارزنى بالحرب، وما تقرب إلىّ عبدى بمثل[٢] أداء ما افترضت عليه. ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى[٣] يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، ولئن سألنى لأعطيته، ولئن دعانى لأجيبنه، ولئن استعاذ بى لأعيذنه، وما ترددت فى شىء أنا فاعله ترددى فى قبض نفس عبدى المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولابد له منه»[٤].

فمعنى الحديث: أن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله عز وجل، فلا يسمع إلا الله، ولا يبصر إلا الله، أى: ما شرعه الله له، ولا يبطش ولا يمشى إلا فى طاعة الله عز وجل، مستعينا بالله فى ذلك كله؛ ولهذا جاء فى بعض رواية الحديث فى غير الصحيح، بعد قوله: «ورجله التى يمشى بها»: «فبى يسمع، وبى يبصر، وبى يبطش، وبى يمشى»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ **قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ. قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** ﴾ [الملك: ٢٣، ٢٤].

ثم نبه تعالى عباده إلى[٥] النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض، كيف جعله يطير بجناحيه بين السماء والأرض، فى جو السماء ما يمسكه هناك إلا الله بقدرته تعالى، الذى جعل فيها قوىً تفعل ذلك، وسخر الهواء يحملها ويسر الطير لذلك، كما قال تعالى فى سورة الملك: ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ** ﴾ [الملك: ١٩]. وقال هاهنا: ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾.

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٨٠) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ

---

(١) فى ت: «يرزقهم الله». (٢) فى ت، ف، أ: «بأفضل». (٣) فى ت: «الذى».
(٤) صحيح البخارى برقم (٦٥٠٢).
(٥) فى ف: «على».

تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون (٨١) فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين (٨٢) يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون (٨٣)﴾.

يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عبيده، بما جعل لهم من البيوت التى هى سكن لهم، يأوون إليها، ويستترون بها، وينتفعون بها سائر[١] وجوه الانتفاع، وجعل لهم أيضاً ﴿مّن جلود الأنعام بيوتًا﴾ أى: من الأدم، يستخفون حملها فى أسفارهم، ليضربوها[٢] لهم فى إقامتهم فى السفر والحضر ولهذا قال: ﴿ تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها ﴾ أى: الغنم، ﴿ وأوبارها ﴾ أى: الإبل، ﴿ وأشعارها﴾ أى: المعز ـ والضمير عائد على الأنعام ـ ﴿أثاثًا﴾ أى: تتخذون منه أثاثا، وهو المال. وقيل: المتاع. وقيل: الثياب والصحيح أعم من هذا كله، فإنه يتخذ من[٣] الأثاث البسط والثياب وغير ذلك، ويتخذ مالا وتجارة.

وقال ابن عباس: الأثاث: المتاع. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وعطية العوفى، وعطاء الخراسانى، والضحاك، وقتادة.

وقوله: ﴿إلىٰ حين﴾ أى: إلى أجل مسمى ووقت[٤] معلوم.

وقوله: ﴿والله جعل لكم مما خلق ظلالا﴾: قال قتادة: يعنى: الشجر.

﴿وجعل لكم من الجبال أكنانًا﴾ أى: حصونا ومعاقل، كما ﴿جعل لكم سرابيل تقيكم الحر﴾، وهى الثياب من القطن والكتان والصوف، ﴿ وسرابيل تقيكم بأسكم ﴾ كالدروع من الحديد المصفَّح والزَّرد وغير ذلك، ﴿كذلك يتم نعمته عليكم ﴾ أى: هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم، وما تحتاجون إليه، ليكون ـ عوناً لكم على طاعته وعبادته، ﴿ لعلكم تسلمون﴾.

هكذا فسره الجمهور، وقرؤوه بكسر اللام من ﴿ تسلمون﴾ أى: من الإسلام.

وقال قتادة فى قوله: ﴿ كذلك يتم نعمته عليكم [لعلكم تسلمون][٥]﴾: هذه السورة تسمى سورة النِّعَم.

وقال عبد الله بن المبارك وعباد بن العوام، عن حَنْظَلة السدوسى، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن ابن عباس أنه كان يقرؤها «تَسلَمون» بفتح اللام، يعنى من الجراح[٦]. رواه أبو عبيد القاسم بن سلام، عن عباد، وأخرجه ابن جرير من الوجهين، وردَّ هذه القراءة[٧].

وقال عطاء الخراسانى: إنما نزل القرآن على قدر معرفة العرب، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ والله جعل لكم مما خلق ظلالاً وجعل لكم من الجبال أكنانًا﴾، وما جعل [لكم][٨] من السهل أعظم وأكثر[٩]، ولكنهم كانوا أصحاب جبال[١٠]؟ ألا ترى إلى قوله: ﴿ ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلىٰ

(١) فى ف: «سرائر». (٢) فى ت: «لتضربونها». (٣) فى ت، ف: «منه».
(٤) فى ت، ف، أ: «أى إلى وقت». (٥) زيادة من ت، ف، أ.
(٦) فى ت، ف: «يعنى من الجراح بفتح اللام».
(٧) تفسير الطبرى (١٤/ ١٠٤).
(٨) زيادة من ف، أ. (٩) فى ت، ف: «وأكبر». (١٠) فى ف: «جبل».

حِينٍ﴾ وما جعل لكم من غير ذلك أعظم منه وأكثر[(١)]، ولكنهم كانوا أصحاب وبر وشعَر، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾ [النور: ٤٣]، لعجبهم من ذلك، وما أنزل من الثلج أعظم وأكثر[(٢)]، ولكنهم كانوا لا يعرفونه؟ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾، وما بقى من البرد أعظم وأكثر[(٣)]، ولكنهم كانوا أصحاب حر.

وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أى: بعد هذا البيان وهذا الامتنان، فلا عليك منهم، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾، وقد أديته إليهم.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ أى: يعرفون أن الله تعالى هو المسدى إليهم ذلك، وهو المتفضل به عليهم، ومع هذا ينكرون ذلك، ويعبدون معه غيره، ويسندون النصر والرزق[(٤)] إلى غيره، ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ـ كما قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن مجاهد؛ أن أعرابياً أتى رسول الله ﷺ فسأله، فقرأ عليه رسول الله ﷺ: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾، قال الأعرابى: نعم. قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾، قال الأعرابى: نعم. ثم قرأ عليه، كل ذلك يقول الأعرابى: نعم، حتى بلغ: ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾، فولى الأعرابى، فأنزل الله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾[(٥)].

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم فى الدار الآخرة، وأنه يبعث من كل أمة شهيدا، وهو نبيها، يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى، ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: فى الاعتذار؛ لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه، كما قال: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ. وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦]. ولهذا قال: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ. وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أى: أشركوا ﴿الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ أى: لا يفتر عنهم ساعة واحدة، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أى: [و][(٦)] لا يؤخر عنهم، بل يأخذهم سريعا من الموقف بلا حساب، فإنه إذا جىء بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف

(١) فى ت، ف، أ: «أكبر». (٢) فى ف: «وأكبر».
(٣) فى ف: «وأكبر». (٤) فى ف: «الرزق والنصر».
(٥) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/ ١٥٥) وعزاه لابن أبى حاتم وهو مرسل.
(٦) زيادة من ت.

ملك، فيشرف عُنُق منها على الخلائق، وتزفر زفرة لا[١] يبقى أحد إلا جثا لركبتيه، فتقول: إني وكلت بكل جبار عنيد، الذى جعل مع الله إلهاً آخر، وبكذا وكذا[٢]، وتذكر[٣] أصنافا من الناس، كما جاء فى الحديث. ثم تنطوى[٤] عليهم وتتلقَّطهم من الموقف كما يتلقط الطائر الحب قال الله تعالى: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا. وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا. لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ [الفرقان: ١٢ ـ ١٤]، وقال تعالى: ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ [الكهف: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ. بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٩، ٤٠].

ثم أخبر تعالى عن تبرىء آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها، فقال: ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ أى: الذين كانوا يعبدونهم فى الدنيا، ﴿ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أى: قالت لهم الآلهة: كذبتم، ما نحن أمرناكم[٥] بعبادتنا. كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ. وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦] وقال تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا. كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]. وقال الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ[٦] الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥] وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ[٧] فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾ [الكهف: ٥٢] والآيات فى هذا كثيرة.

وقوله: ﴿ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ ـ قال قتادة، وعكرمة: ذلوا واستسلموا يومئذ، أى: استسلموا لله جميعهم، فلا أحد إلا سامع مطيع، كما قال: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨] أى: ما أسمعهم وما أبصرهم يومئذ! وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾ [طه: ١١١] أى: خضعت وذلت واستكانت وأنابت واستسلمت.

﴿ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أى: ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجير.

ثم قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ أى: عذابا على كفرهم، وعذاباً على صدهم الناس عن اتباع الحق، كما قال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ [الأنعام: ٢٦] أى: ينهون الناس، عن اتباعه، ويبتعدون هم منه أيضاً ﴿ وَإِن

---

(١) فى ف: «فلا». (٢) فى ت، ف: «وبكذا». (٣) فى ف: «ويذكر».

(٤) فى ف: «ينطوى». (٥) فى ف: «نحن ما أمرناكم».

(٦) فى ت: «وقال الخليل ويوم»، وفى ف: «وقال الخليل عليه السلام ويوم».

(٧) فى ت، ف، أ، هـ: «وقيل ادعوا شركاءكم» والصواب ما أثبتناه.

يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٦]

وهذا دليل على تفاوت الكفار فى عذابهم، كما يتفاوت المؤمنون فى منازلهم فى الجنة ودرجاتهم، كما قال [الله](١) تعالى: **﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾** [الأعراف: ٣٨].

وقد قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سُرَيْج بن يونس، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عبد الله بن مُرَّة، عن مسروق، عن عبد الله فى قول الله: **﴿ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾** قال: زيدوا عقارب أنيابها كالنخل الطوال(٢).

وحدثنا سريج بن يونس، حدثنا إبراهيم بن سليمان، حدثنا الأعمش، عن الحسن، عن ابن عباس أنه قال: **﴿ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾** قال: هى خمسة أنهار فوق(٣) العرش يعذبون ببعضها بالليل وببعضها بالنهار(٤).

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩) ﴾.

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ: **﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ(٥) فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلاءِ﴾** يعنى: أمته.

أى: اذكر ذلك اليوم وهوله وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع. وهذه الآية شبيهة بالآية التى انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله ﷺ صدر سورة «النساء» فلما وصل إلى قوله تعالى: **﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلاءِ شَهِيدًا ﴾** [النساء: ٤١]. فقال له رسول الله ﷺ: «حسبك». قال ابن مسعود، رضى الله عنه: فالتفت فإذا عيناه تذرفان(٦).

وقوله: **﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لكل شَيْءٍ﴾**: قال ابن مسعود: [و](٧)قد بين لنا فى هذا القرآن كل علم، وكل شىء.

وقال مجاهد: كل حلال وحرام.

وقول ابن مسعود: أعم وأشمل؛ فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتى، وحكم كل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون(٨) فى أمر دنياهم ودينهم، ومعاشهم

---

(١) زيادة من ف، أ.

(٢) مسند أبى يعلى (٥/ ٦٦) ورواه الطبرى فى تفسيره (١٤/ ١٠٧) من طريق أبى معاوية عن الأعمش به.

(٣) فى ت، ف، أ: «تحت».

(٤) مسند أبى يعلى (٥/ ٦٦) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٣٩٠): «رجاله رجال الصحيح».

(٥) فى ت: «يبعث».

(٦) تقدم تخريج الحديث عند تفسير الآية: ٤١ من سورة النساء.

(٧) زيادة من ف. (٨) فى ف: «محتاجون إليه».

ومعادهم.

﴿ وَهُدًى ﴾ أى: للقلوب، ﴿ ورَحْمَةً وبُشْرَىٰ لِلْمُسْلمِينَ﴾.

وقال الأوزاعى: ﴿ وَنزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى: بالسنة.

ووجه اقتران قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ مع قوله: ﴿ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَىٰ هَؤُلاءِ﴾ أن المراد ـ والله أعلم ـ: إن الذى فرض عليك تبليغ الكتاب الذى أنزله عليك، سائلك عن ذلك يوم القيامة، ﴿ فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]، ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ [القصص: ٨٥] أى: إن الذى أوجب عليك تبليغ القرآن لرادك إليه، ومعيدك يوم القيامة، وسائلك عن أداء ما فرض عليك. هذا أحد الأقوال، وهو مُتَّجه حسن.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) ﴾.

يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل، وهو القسط والموازنة، ويندب إلى الإحسان، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، وقال: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال: ﴿ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا، من[1] شرعية العدل والندب إلى الفضل.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله.

وقال سفيان بن عيينة: العدل فى هذا الموضع: استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله عملا. والإحسان: أن تكون[2] سريرته أحسن من علانيته. والفحشاء والمنكر: أن تكون[3] علانيته أحسن من سريرته.

وقوله: ﴿ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ أى: يأمر بصلة الأرحام، كما قال: ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً ﴾ [الإسراء: ٢٦].

وقوله: ﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾: فالفواحش: المحرمات. والمنكرات: ما ظهر منها من فاعلها؛ ولهذا قال فى الموضع الآخر: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأعراف: ٣٣]. وأما البغى فهو: العدوان على الناس. وقد جاء فى الحديث: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله

---

(١) فى ف: «فى».

(٢، ٣) فى ف: «يكون».

عقوبته فى الدنيا، مع ما يدخر لصاحبه فى الآخرة، من البغى وقطيعة الرحم»[(١)].

وقوله: ﴿ يَعِظُكُمْ ﴾ أى: يأمركم بما يأمركم به من الخير، وينهاكم عما[(٢)] ينهاكم عنه من الشر، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾.

قال الشعبى، عن شُتَيْر بن شَكَل: سمعت ابن مسعود يقول: إن أجمع آية فى القرآن فى سورة النحل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ الآية. رواه ابن جرير[(٣)].

وقال سعيد عن قتادة: قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ الآية، ليس من خُلُق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنون إلا أمر الله به، وليس من خلق سيئ كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدم فيه. وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها.

قلت: ولهذا جاء فى الحديث: «إن الله يحب معالى الأخلاق، ويكره سَفْسافها»[(٤)].

وقال الحافظ أبو نُعَيم فى كتابه «كتاب معرفة الصحابة»: حدثنا أبو بكر محمد بن الفتح الحنبلى، حدثنا يحيى[(٥)] بن محمد مولى بنى هاشم، حدثنا الحسن بن داود المنْكَدِرى، حدثنا عمر بن على المقدمى، عن على بن عبد الملك بن عمير[(٦)] عن أبيه قال: بلغ أكثم بن صيفى مخرج النبى ﷺ، فأراد أن يأتيه، فأبى قومه أن يدعوه وقالوا: أنت كبيرنا، لم تكن لتخف إليه! قال: فليأته من يبلغه عنى ويبلغنى عنه. فانتدب رجلان فأتيا النبى[(٧)] ﷺ فقالا: نحن رسل أكثم بن صيفى، وهو يسألك: من أنت؟ وما أنت[(٨)]؟ فقال النبى ﷺ: «أما من أنا فأنا محمد بن عبد الله، وأما ما أنا فأنا عبد الله ورسوله». قال: ثم تلا عليهم هذه الآية: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، قالوا: اردد علينا هذا القول فردده عليهم حتى حفظوه. فأتيا أكثم فقالا: أبى أن يرفع نسبه، فسألنا عن نسبه، فوجدناه زاكى النسب، واسطا فى مضر، وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها، فلما سمعهن أكثم قال: إنى قد أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن ملائمها، فكونوا فى هذا الأمر رؤوسا، ولا تكونوا فيه أذنابا[(٩)].

---

(١) رواه أحمد فى المسند (٥/ ٣٦) وأبو داود فى السنن برقم (٤٩٠٢) والترمذى فى السنن برقم (٢٥١١) وابن ماجه فى السنن برقم (٤٢١١) من حديث أبى بكرة رضى الله عنه، وقال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) فى ف: «عن الذى».

(٣) تفسير الطبرى (١٤/ ١٠٩).

(٤) رواه الخرائطى فى مكارم الأخلاق برقم (٣) وأبو نعيم فى الحلية (٨/ ٢٥٥) من طريق معمر، عن أبى حازم، عن سهل بن سعد مرفوعاً، وقال أبو نعيم: «غريب من حديث أبى حازم وسهل تفرد به عن أبى حازم معمر».

(٥) فى ف: «حدثنا محمد بن يحيى».

(٦) فى هـ، ت، أ: «على بن عبد الله بن عمير» وهو خطأ، وانظر: معرفة الصحابة (٢/ ٤٢٠) والثقات لابن حبان (٧/ ٢٠٧) والإصابة (١/ ١١٨).

(٧) فى أ: «رسول الله». (٨) فى ف: «من أنت وصفاتك وما جئت به».

(٩) معرفة الصحابة (٢/ ٤٢٠) قال ابن حجر: «وهو مرسل» وأورده ابن عبد البر فى الاستيعاب (١/ ١٤٦) وأنكر كون أكثم بن صيفى من الصحابة وانظر: الإصابة (١/ ١١٩).

وقد ورد فى نزول هذه الآية الكريمة حديث حَسن، رواه الإمام أحمد:

حدثنا أبو النضر، حدثنا عبد الحميد، حدثنا شهر، حدثنى عبد الله بن عباس قال: بينما رسول الله ﷺ بفناء بيته جالس، إذ مر به عثمان بن مظعون، فكشر[(١)] إلى رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «ألا تجلس؟» فقال: بلى. قال: فجلس رسول الله ﷺ مستقبله، فبينما هو يحدثه إذ شَخَص رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء، فنظر ساعة إلى [السماء][(٢)] فأخذ يضع بصره حتى وضعه على يَمْنته فى الأرض، فتحرَّف رسول الله ﷺ عن جليسه عثمان إلى حيث وضع بصره فأخذ ينغض رأسه كأنه يستفقه ما يقال له، وابن مظعون ينظر فلما قضى حاجته واستفقه ما يقال له، شخص بصر رسول الله ﷺ إلى السماء كما شخص أول مرة. فأتبعه بصره حتى توارى فى السماء. فأقبل إلى عثمان بجلسته الأولى فقال: يا محمد، فيم كنت أجالسك؟ ما رأيتك تفعل كفعلك الغداة! قال: «وما رأيتنى فعلت؟» قال: رأيتك شخص بصرك إلى السماء ثم وضعته حيث وضعته على يمينك، فتحرفت إليه وتركتنى، فأخذت تُنغض رأسك كأنك تستفقه شيئا يقال لك. قال: «وفطنت لذلك؟» فقال عثمان: نعم. قال رسول الله ﷺ: «أتانى رسول الله آنفا وأنت جالس». قال: رسولُ الله؟ قال: «نعم». قال: فما قال لك؟ قال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ قال عثمان: فذلك حين استقر الإيمان فى قلبى، وأحببت محمداً ﷺ[(٣)].

إسناد جيد متصل حسن، قد[(٤)] بُيِّن فيه السماع المتصل. ورواه ابن أبى حاتم، من حديث عبد الحميد بن بَهرام مختصراً.

حديث آخر: عن عثمان بن أبى العاص الثقفى فى ذلك، قال الإمام أحمد:

حدثنا أسود بن عامر، حدثنا هُرَيْم، عن لَيْث، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن عثمان بن أبى العاص قال: كنت عند رسول الله ﷺ جالسا، إذ شَخَصَ بَصره فقال: «أتانى جبريل، فأمرنى أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السورة: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ [وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ][(٥)]﴾[(٦)].

وهذا إسناد لا بأس به، ولعله عند شهر بن حوشب من الوجهين، والله أعلم.

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ

---

(١) فى ف: «فكر».
(٢) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.
(٣) المسند (١/ ٣١٨).
(٤) فى ف: «وقد».
(٥) زيادة من ف، أ، وفى هـ: «الآية».
(٦) المسند (٤/ ٢١٨).

أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢)﴾.

وهذا مما يأمر الله تعالى به[١]، وهو: الوفاء بالعهود والمواثيق، والمحافظة على الأيمان المؤكدة؛ ولهذا قال: ﴿ **وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا**﴾.

ولا تعارض بين هذا وبين قوله: ﴿ **وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا [وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ]**[٢]﴾ [البقرة: ٢٢٤] وبين قوله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ** ﴾ [المائدة: ٨٩] أي: لا تتركوها بلا تكفير، وبين قوله، عليه السلام[٣]، فيما ثبت عنه فى الصحيحين[٤]: «إنى والله إن شاء الله، لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها، إلا أتيت الذى هو خير وتحللتها». وفى رواية: «وكفرت عن يمينى» لا تعارض بين هذا كله، ولا بين الآية المذكورة هاهنا وهى قوله: ﴿ **وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا [وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً]**[٥]﴾؛ لأن هذه الأيمان، المراد بها الداخلة فى العهود والمواثيق، لا الأيمان التى هى واردة على حَثّ أو منع؛ ولهذا قال مجاهد فى قوله: ﴿ **وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا**﴾ يعنى: الحِلْف، أى: حلْفَ الجاهلية؛ ويؤيده ما رواه الإمام أحمد:

حدثنا عبد الله بن محمد ـ هو ابن أبى شيبة ـ حدثنا ابن نُمَيْر وأبو أسامة، عن زكريا ـ هو ابن أبى زائدة ـ عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه، عن جُبَيْر بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حِلْف فى الإسلام، وأيما حلف كان فى الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة».

وكذا رواه مسلم، عن ابن أبى شيبة، به[٦].

ومعناه: أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلْف الذى كان أهل الجاهلية يفعلونه، فإن فى التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه.

وأما ما ورد فى الصحيحين، عن عاصم الأحول، عن أنس، رضى الله عنه، أنه قال: حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار فى دارنا[٧] ـ فمعناه: أنه آخى بينهم، فكانوا يتوارثون به، حتى نسخ الله ذلك، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنى محمد بن عمارة الأسدى، حدثنا عبيد الله[٨] بن موسى، أخبرنا ابن أبى ليلى، عن مَزِيدة[٩] فى قوله: ﴿ **وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ** ﴾ قال: نزلت فى بيعة النبى ﷺ، كان من أسلم بايع النبى ﷺ على الإسلام، فقال: ﴿ **وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ** ﴾، هذه البيعة التى بايعتم

---

(١) فى ت، ف، أ: «به تعالى». (٢) زيادة من ف، أ. (٣) فى ف، أ: «ﷺ».
(٤) فى ت: «الصحيح». (٥) زيادة من ت، ف، أ.
(٦) المسند (٤/ ٨٣) وصحيح مسلم برقم (٢٥٣٠).
(٧) صحيح البخارى برقم (٢٢٩٤) وصحيح مسلم برقم (٢٥٢٩).
(٨) فى ت: «عبد الله». (٩) فى ف: «بريدة».

على الإسلام، ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ البيعة، لا يحملنكم قلة محمد [وأصحابه][(١)] وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التى تبايعتم على الإسلام.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا صخر ابن جُوَيرية، عن نافع قال: لما خلع الناس يزيد بن معاوية، جمع ابن عمر بنيه وأهله، ثم تشهد، ثم قال: أما بعد، فإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الغادر يُنصب له لواء يوم القيامة، فيقال[(٢)]: هذه غَدْرة فلان وإن من أعظم الغَدرْ ـ إلا أن يكون الإشراك بالله ـ أن يبايع رجل رجلا على بيع الله ورسوله، ثم ينكث بيعته، فلا يخلعن أحد منكم يزيد ولا يسرفن أحد منكم فى هذا الأمر، فيكون صَيْلم بينى وبينه»[(٣)].

المرفوع منه فى الصحيحين[(٤)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا حجاج، عن عبد الرحمن بن عابس، عن أبيه، عن حذيفة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شرط لأخيه شرطاً، لا يريد أن يفى له به، فهو كالمدلى جاره إلى غير مَنْعَة»[(٥)].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾: قال عبد الله بن كثير، والسدّى: هذه امرأة خرقاء كانت بمكة، كلما غزلت شيئا نقضته بعد إبرامه.

وقال مجاهد، وقتادة، وابن زيد: هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده.

وهذا القول أرجح وأظهر، وسواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا.

وقوله: ﴿أَنكَاثًا﴾: يحتمل أن يكون اسم مصدر: نقضت غزلها أنكاثا، أى: أنقاضا. ويحتمل أن يكون بدلا عن خبر كان، أى: لا تكونوا أنكاثا، جمع نكث من ناكث؛ ولهذا قال بعده: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ أى: خديعة ومكراً، ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أى: يحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمئنوا إليكم، فإذا أمكنكم الغدر بهم غَدَرتُم. فنهى الله عن ذلك، لينبه بالأدنى على الأعلى؛ إذا كان قد نهى عن الغدر والحالة هذه، فلأن ينهى عنه مع التمكن والقدرة بطريق الأولى.

وقد قدمنا ـ ولله الحمد ـ فى سورة «الأنفال»[(٦)] قصة معاوية لما كان بينه وبين ملك الروم أَمَدٌ، فسار معاوية إليهم فى آخر الأجل، حتى إذا انقضى وهو قريب من بلادهم، أغار عليهم وهم غارون لا يشعرون، فقال له عمرو بن عَبْسَة: الله أكبر يا معاوية، وفاء لا غدراً، سمعت رسول الله ﷺ

---

(١) زيادة من ت، ف، أ.

(٢) فى ت، ف: «يقال».

(٣) المسند (٢/ ٤٨).

(٤) صحيح البخارى برقم (٣١٨٨) وصحيح مسلم برقم (١٧٣٥).

(٥) المسند (٥/ ٤٠٤).

(٦) عند تفسير الآية: ٥٨.

يقول: «من كان بينه وبين قوم أجل فلا يحلن عُقدة حتى ينقضى أمَدها». فرجع معاوية بالجيش، رضى الله عنه وأرضاه.

قال ابن عباس: ﴿ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ أى: أكثر.

وقال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء، فيجدون أكثر منهم وأعز، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز. فنهوا عن ذلك. وقال الضحاك، وقتادة، وابن زيد نحوه.

وقوله: ﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ﴾: قال سعيد بن جُبَيْر: يعنى بالكثرة. رواه ابن أبى حاتم.

وقال ابن جرير: أى: بأمره إياكم بالوفاء والعهد.

﴿ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾، فيجازى كل عامل بعمله، من خير وشر.

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤) وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) ﴾.

يقول تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ ﴾ أيها الناس ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾[(١)]، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس:٩٩] أى: لوفق بينكم. ولما جعل اختلافا ولا تباغُضَ ولا شحناء ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، وهكذا قال هاهنا: ﴿ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾، ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم، فيجازيكم عليها على الفتيل والنقير والقطْمير.

ثم حذر تعالى عباده عن[(٢)] اتخاذ الأيمان دخَلا، أى: خديعة ومكراً، لئلا تَزِل قدم بعد ثبوتها: مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها وزل عن طريق الهدى، بسبب الأيمان الحانثة[(٣)] المشتملة على الصد عن سبيل الله، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به، لم يبق له وثوق بالدين، فانصد بسببه عن الدخول فى الإسلام؛ ولهذا قال: ﴿ وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ أى: لا تعتاضوا عن الأيمان بالله عَرَض الحياة الدنيا وزينتها، فإنها قليلة، ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خير له، أى: جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وآمن به[(٤)] وطلبه، وحفظ عهده[(٥)] رجاء موعوده؛ ولهذا قال: ﴿ إِن

---

(١) فى ت: «أمة واحدة أيها الناس».
(٢) فى ت، ف: «من».
(٣) فى ت: «الحادثة».
(٤) فى ف: «خير لمن آمن به ورجاه».
(٥) فى ف، أ: «عهد الله».

كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾ أى: يفرغ وينقضى، فإنه إلى أجل معدود محصور مقدَّر مُتَناه، **﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾** أى: وثوابه لكم فى الجنة باق لا انقطاع ولا نفاد له فإنه دائم لا يحول ولا يزول، **﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**: قسم من الرب عز وجل[(١)] مُتَلقى باللام، أنه يجازى الصابرين بأحسن أعمالهم، أى: ويتجاوز عن سيئها.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)﴾.

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحا ـ وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه[(٢)]، من ذكر أو أنثى من بنى آدم، وقلبه مؤمن بالله ورسوله، وأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله ـ بأن يحييه الله حياة طيبة فى الدنيا وأن يجزيه[(٣)] بأحسن ما عمله فى الدار الآخرة.

والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أى جهة كانت. وقد روى عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب.

وعن على بن أبى طالب، رضي الله عنه، أنه فسرها بالقناعة. وكذا قال ابن عباس، وعِكْرِمة، ووهب بن منبه.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: أنها[(٤)]: السعادة.

وقال الحسن، ومجاهد، وقتادة: لا يطيب لأحد الحياة إلا فى الجنة.

وقال الضحاك: هى الرزق الحلال والعبادة فى الدنيا، وقال الضحاك أيضا: هى[(٥)] العمل بالطاعة والانشراح بها.

والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد:

حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا سعيد بن أبى أيوب، حدثنى شرحبيل بن شريك، عن أبى عبد الرحمن الحُبُلى، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم ورُزق كفافا، وقَنَّعه الله بما آتاه».

ورواه مسلم، من حديث عبد الله بن يزيد المقرئ، به[(٦)].

وروى الترمذى والنسائى، من حديث أبى هانئ، عن أبى على الجنبى[(٧)] عن فضالة بن عُبَيد؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قد أفلح من هُدى إلى الإسلام، وكان عيشه كفافا، وقنع[(٨)] به». وقال

---

(١) فى ف: «جل شأنه». (٢) فى ت: «رسوله». (٣) فى ت: «يجزى».
(٤) فى ت، ف: «هى». (٥) فى ت، ف: «هو».
(٦) المسند (٢/١٦٨) وصحيح مسلم برقم (١٠٥٤).
(٧) فى ت، ف، أ: «الحسبى». (٨) فى ت: «ومنع».

الترمذى: هذا حديث صحيح[(١)].

وقال الإمام أحمد، حدثنا يزيد، حدثنا هَمَّام، عن يحيى، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطى بها فى الدنيا [ويثاب عليها فى الآخرة وأما الكافر فيعطيه حسناته فى الدنيا][(٢)] حتى إذا أفضى إلى الآخرة، لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً». انفرد بإخراجه مسلم[(٣)].

﴿ **فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)** ﴾.

هذا أمر من الله لعباده[(٤)] على لسان نبيه ﷺ: إذا أرادوا قراءة القرآن، أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم. وهو أمرُ ندبٍ ليس بواجب، حكى الإجماع على ذلك[(٥)] الإمام أبو جعفر بن جرير وغيره من الأئمة. وقد قدمنا الأحاديث الواردة فى الاستعاذة مبسوطة فى أول التفسير، ولله الحمد والمنة.

والمعنى فى الاستعاذة عند ابتداء القراءة، لئلا يلبس[(٦)] على القارئ قراءته ويخلط عليه، ويمنعه من التدبر والتفكر، ولهذا ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة[(٧)]، وحكى عن حمزة، وأبى حاتم السجستانى: أنها تكون بعد التلاوة، واحتجا بهذه الآية. ونقل النووى فى شرح المهذب مثل ذلك عن أبى هريرة أيضاً، ومحمد بن سيرين، وإبراهيم النَّخَعى. والصحيح الأول، لما تقدم من الأحاديث الدالة على تَقَدمها على التلاوة، والله أعلم.

وقوله: ﴿ **إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾: قال الثورى: ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم فى ذنب لا يتوبون منه.

وقال آخرون: معناه لا حجة له عليهم. وقال آخرون: كقوله: ﴿ **إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ﴾ [ص: ٨٣].

﴿ **إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ** ﴾: قال مجاهد: يطيعونه.

وقال آخرون: اتخذوه ولياً من دون الله.

---

(١) سنن الترمذى برقم (٢٣٤٩).

(٢) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.

(٣) المسند (٣/ ١٢٣) وصحيح مسلم برقم (٢٨١٨).

(٤) فى ت، ف: «عباده».

(٥) فى ت، ف: «وحكى على ذلك الإجماع».

(٦) فى ف: «تلتبس».

(٧) فى ف: «القراءة».

﴿ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ أى: أشركوه فى عبادة الله تعالى. ويحتمل أن تكون الباء سببية، أى: صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى.

وقال آخرون: معناه: أنه شركهم فى الأموال والأولاد.

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) ﴾.

يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم، وأنه لا يتصور منهم الإيمان وقد كتب عليهم الشقاوة، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا للرسول: ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ أى: كذاب. وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

وقال مجاهد: ﴿ بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ﴾ أى: رفعناها وأثبتنا غيرها.

وقال قتادة: هو كقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦].

فقال تعالى مجيبا لهم: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ أى: جبريل، ﴿ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ أى: بالصدق والعدل، ﴿ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فيصدقوا بما نزل أولا وثانيا وتخبت له قلوبهم،﴿ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ أى: وجعله هاديا [مهدياً][1] وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسله.

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبهت: إن محمداً إنما يعلمه هذا الذى يتلوه علينا من القرآن بشر، ويشيرون إلى رجل أعجمى كان بين أظهرهم، غلام لبعض بطون قريش، وكان بياعا يبيع عند الصفا، فربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشىء، وذاك كان أعجمى اللسان لا يعرف العربية، أو أنه كان يعرف الشىء اليسير بقدر ما يَرُد جواب الخطاب فيما لابد منه؛ فلهذا قال الله تعالى راداً عليهم فى افترائهم ذلك: ﴿ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ يعنى: القرآن، أى: فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن، فى فَصَاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة، التى هى أكمل من[2] معانى كل كتاب نزل على نبى أرسل، كيف يتعلم من رجل أعجمى؟! لا يقول هذا من له أدنى مُسْكة[3] من العقل.

قال محمد بن إسحاق بن يَسَار فى السيرة: كان رسول الله ﷺ ـ فيما بلغنى ـ كثيراً ما يجلس

(١) زيادة من ت. (٢) فى ت: «هى من أكمل». (٣) فى ت: «مسلة».

عند المروة إلى مَبيعة غلام نصرانى يقال له جبر، عبد لبعض بنى الحضرمى، [فكانوا يقولون: والله ما يُعلم محمداً كثيرا مما يأتى به إلا جبر النصرانى، غلام بنى الحضرمى](١) فأنزل الله: ﴿ **وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ** ﴾(٢).

وكذا قال عبد الله بن كثير: وعن عِكْرِمة وقتادة: كان اسمه يعيش.

وقال ابن جرير: حدثنى أحمد بن محمد الطوسى، حدثنا أبو عامر، حدثنا إبراهيم بن طَهْمَان، عن مسلم بن عبد الله الملائى، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعلم قَيناً بمكة، وكان اسمه بلغام، وكان أعجمى اللسان، وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده، قالوا: إنما يعلمه بلغام، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ **وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ** ﴾(٣).

وقال الضحاك بن مزاحم: هو سلمان الفارسى، وهذا القول ضعيف؛ لأن هذه الآية مكية، وسلمان إنما أسلم بالمدينة وقال عبيد الله(٤) بن مسلم: كان لنا غلامان روميان يقرآن كتابا لهما بلسانهما، فكان النبى ﷺ يمر بهما(٥)، فيقوم فيسمع منهما فقال المشركون: يتعلم منهما، فأنزل الله هذه الآية.

وقال الزهرى، عن سعيد بن المسيب: الذى قال ذلك من المشركين رجل كان يكتب الوحى لرسول الله ﷺ، فارتد بعد ذلك عن الإسلام، وافترى هذه المقالة، قبحه الله!.

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥)** ﴾.

يخبر تعالى أنه لا يهدى(٦) من أعرض عن ذكره وتَغَافل عما أنزله على رسوله، ولم يكن له قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته وما أرسل به رسله فى الدنيا، ولهم عذاب أليم موجع فى الآخرة.

ثم أخبر تعالى أن رسوله ليس بمفتر ولا كَذَّاب؛ لأنه ﴿ **إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ** ﴾ على الله وعلى رسوله شِرارُ الخلق، ﴿ **الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ** ﴾ من الكفرة والملحدين المعروفين بالكذب عند الناس. والرسول محمد ﷺ، كان(٧) أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علما وعملا وإيمانا وإيقانا، معروفاً بالصدق فى قومه، لا يشك فى ذلك أحد منهم بحيث لا يُدْعى بينهم إلا بالأمين محمد؛ ولهذا لما

---

(١) زيادة من ت، ف، أ، وابن هشام.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/٣٩٣).

(٣) تفسير الطبرى (١٤/١١٩).

(٤) فى ت، ف: «عبد الله».

(٥) فى أ: «عليهما».

(٦) فى أ: «لا يهتدى».

(٧) فى ت: «كان من».

سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التى سألها من صفة رسول الله ﷺ، كان فيما قال له: أو كنتم[١] تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا. فقال: هرقل فما كان لِيَدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله عز وجل.

﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩)﴾.

أخبر تعالى عمن كفر به بعد الإيمان والتبصر، وشرح صدره بالكفر واطمأن به: أنه قد غضِب عليه، لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه، وأن لهم عذابا عظيما فى الدار الآخرة؛ لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا[٢] على ما أقدموا عليه من الردة لأجل[٣] الدنيا، ولم يهد الله قلوبهم ويثبتهم على الدين الحق، فطبع على قلوبهم فلا[٤] يعقلون بها شيئا ينفعهم وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها، ولا أغنت عنهم شيئا، فهم غافلون عما يراد بهم.

﴿لا جَرَمَ﴾ أى: لابد ولا عَجَب أن هذه صفته، ﴿أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أى: الذين خسروا أنفسهم وأهاليهم[٥] يوم القيامة.

وأما قوله: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾: فهو استثناء ممن[٦] كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرها لما ناله من ضرب وأذى، وقلبه يأبى ما يقول، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله.

وقد روى العَوفىّ عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت فى عمَّار بن ياسر، حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ، فوافقهم على ذلك مُكرَهاً[٧]، وجاء معتذراً إلى النبى ﷺ، فأنزل الله هذه الآية، وهكذا قال الشعبى، وأبو مالك، وقتادة.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثَور، عن مَعْمَر، عن عبد الكريم الجَزَرىّ، عن أبى عبيدة [بن][٨] محمد بن عمار[٩] بن ياسر قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم فى بعض ما أرادوا، فشكا ذلك إلى النبى ﷺ، فقال النبى ﷺ: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئنا بالإيمان قال النبى ﷺ: «إن عادوا فعد»[١٠].

ورواه البيهقى بأبسط من ذلك، وفيه أنه سب النبى ﷺ وذكر آلهتهم بخير، وأنه قال: يا رسول

---

(١) فى ف: «أفكنتم». (٢) فى ت: «فما قدموا». (٣) فى ت: «الردة إلا لأجل».
(٤) فى أ: «فهم لا». (٥) فى ت: «وأهليتهم». (٦) فى ت: «فمن».
(٧) فى ف، أ: «مستكرهاً». (٨) زيادة من ت، ف، أ، والطبرى. (٩) فى ت: «على».
(١٠) تفسير الطبرى (١٤/ ١٢٢).

الله، ما تُركتُ حتى سَبَبتك وذكرت آلهتهم بخير! قال: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئنا بالإيمان. فقال: «إن عادوا فعد». وفي ذلك أنزل الله: ﴿ إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾[١].

ولهذا اتفق العلماء على أنه يجوز أن يُوَالى المكرَه على الكفر، إبقاءً لمهجته، ويجوز له أن يستقتل، كما كان بلال رضى الله عنه يأبى عليهم ذلك وهم يفعلون به الأفاعيل، حتى إنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره فى شدَّة الحر، ويأمرونه أن يشرك بالله فيأبى عليهم وهو يقول: أحَد، أحَد. ويقول: والله لو أعلم كلمة هى[٢] أغيظ لكم منها لقلتها، رضى الله عنه وأرضاه. وكذلك حبيب بن زيد[٣] الأنصارى لما قال له مسيلمة الكذاب: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم. فيقول: أتشهد أنى رسول الله؟ فيقول: لا أسمع. فلم يزل يقطعه إرْباً إرْباً وهو ثابت على ذلك[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا أيوب، عن عِكْرِمة، أن عليا، رضى الله عنه، حَرَّق ناسا ارتدوا عن الإسلام، فبلغ ذلك ابن عباس فقال: لم أكن لأحرقهم بالنار، إن رسول الله ﷺ قال: «لا تعذبوا بعذاب الله». وكنت قاتلهم بقول رسول الله ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه» فبلغ ذلك عليا فقال: ويح أم ابن[٥] عباس. رواه البخارى[٦].

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا مَعْمَر، عن أيوب، عن حُمَيْد بن هلال العَدَوىّ، عن أبى بردة قال: قدم على أبى موسى معاذُ بن جبل باليمن، فإذا رجل عنده، قال: ما هذا؟ قال[٧]: رجل كان يهوديا فأسلم، ثم تهود، ونحن نريده على الإسلام منذ ـ قال: أحسب ـ شهرين فقال: والله لا أقعد[٨] حتى تضربوا عنقه. فضربت عنقه. فقال: قضى الله ورسوله أن من رجع عن دينه فاقتلوه ـ أو قال: من بدل دينه فاقتلوه[٩].

وهذه القصة فى الصحيحين بلفظ آخر[١٠].

والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه، ولو أفضى إلى قتله، كما قال[١١] الحافظ ابن عساكر، فى ترجمة عبد الله بن حُذَافة السهمى أحد الصحابة: أنه أسرته الروم، فجاؤوا به إلى[١٢] ملكهم، فقال له: تنصر وأنا أشركك فى ملكى وأزوجك ابنتى. فقال له: لو أعطيتنى جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب، على أن أرجع عن دين محمد طرفة عين، ما فعلت! فقال: إذا أقتلك. قال: أنت وذاك! فأمر به فصلب، وأمر الرماة فرموه قريبا من يديه ورجليه، وهو يعرض عليه دين

---

(١) سنن البيهقى الكبرى (٨/ ٢٠٩).
(٢) زيادة من ت، ف، أ.
(٣) فى ف: «يزيد».
(٤) انظر: الاستيعاب لابن عبد البر (١/ ٣٢٧) وأسد الغابة لابن الأثير (١/ ٤٤٣).
(٥) فى ت، ف: «ابن أم».
(٦) المسند (١/ ٢١٧) وصحيح البخارى برقم (٦٩٢٢).
(٧) فى ت: «فقال».
(٨) فى ف: «قعدتك».
(٩) المسند (٥/ ٢٣١).
(١٠) صحيح البخارى برقم (٦٩٢٣) وصحيح مسلم برقم (١٧٣٣).
(١١) فى ف، أ: «كما ذكر».
(١٢) فى ف: «عند».

النصرانية، فيأبى[١]، ثم أمر به فأنزل، ثم أمر بِقِدْر. وفى رواية: ببقرة من نحاس، فأحميت، وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر، فإذا هو عظام تلوح. وعرض عليه فأبى، فأمر به أن يلقى فيها، فرفع فى البَكَرَة ليلقى فيها، فبكى فطمع فيه ودعاه فقال له: إنى إنما بكيت لأن نفسى إنما هى نفس واحدة، تُلْقى فى هذه القدر الساعة فى الله، فأحببت أن يكون لى بعدد كل شعرة فى جسدى نفس تعذب هذا العذاب فى الله. وفى بعض الروايات: أنه سجنه ومنع عنه الطعام والشراب أياما، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير، فلم يقربه، ثم استدعاه فقال: ما منعك أن تأكل؟ فقال: أما إنه قد حَلَّ لى، ولكن لم أكن لأشمتك فىَّ. فقال له الملك: فَقَبِّلْ رأسى وأنا أطلقك. فقال: وتطلق معى جميع أسارى المسلمين؟ قال: نعم. فقبل رأسه، فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده، فلما رجع قال عمر بن الخطاب: حَقّ على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة، وأنا أبدأ. فقام فقبل رأسه[٢].

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾.

هؤلاء صنف آخر كانوا مستضعفين بمكة، مهانين فى قومهم قد واتوهم على الفتنة، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة، فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه، وانتظموا فى سلك المؤمنين، وجاهدوا معهم الكافرين، وصبروا، فأخبر الله تعالى أنه **﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾** أى: تلك الفعلة، وهى الإجابة إلى الفتنة لغفور لهم، رحيم بهم يوم معادهم.

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ﴾ أى: تحاجّ **﴿عَن نَّفْسِهَا﴾** ليس أحد يحاج عنها لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة، **﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾** أى: من خير وشر، **﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾** أى: لا ينقص من ثواب الخير ولا يزداد على ثواب الشر[٣]، ولا يظلمون نقيراً.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

هذا مثل أريد به أهل مكة، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يُتخطَّف الناس من حولها، ومن دخلها آمن لا يخاف، كما قال تعالى: **﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ**

---

(١) فى ف: «فأبى».

(٢) تاريخ دمشق (٩/ ١١٦ «المخطوط»).

(٣) فى ت: «المسىء».

حَرَمًا آمنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧] وهكذا[١] قال ها هنا: ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾ أى: هنيئها سهلا، ﴿ مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ أى: جحدت آلاء الله عليها وأعظم ذلك بعثة محمد ﷺ إليهم، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ. جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ[٢] الْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]. ولهذا بدَّلهم الله بحاليهم الأولين خلافهما، فقال: ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ أى: ألبسها وأذاقها[٣] الجوع بعد أن كان يُجبى إليهم ثمرات كل شىء، ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان، وذلك لما استعصوا على رسول الله ﷺ وأبوا إلا خلافه، فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف، فأصابتهم سنة[٤] أذهبت كل شىء لهم، فأكلوا العِلْهِز ـ وهو: وبر البعير، يجعل بدمه إذا نحروه.

وقوله: ﴿ وَالْخَوْفِ﴾، وذلك بأنهم[٥] بُدِّلوا بأمنهم خوفاً من رسول الله ﷺ وأصحابه، حين هاجروا إلى المدينة، من سطوة سراياه وجُيوشه، وجعلوا كل ما لهم فى سَفَال ودمار، حتى فتحها الله عليهم[٦]، وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول الذى بعثه الله فيهم منهم، وامتن به عليهم فى قوله: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا . رَسُولاً [يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ][٧]﴾ [الطلاق: ١٠، ١١] الآية وقوله[٨]: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ إلى قوله[٩]: ﴿ وَلا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢].

وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم، فخافوا بعد الأمن، وجاعوا بعد الرغد، بَدَّل[١٠] الله المؤمنين من بعد خوفهم أمنا، ورزقهم بعد العَيْلَة، وجعلهم أمراء الناس وحكامهم، وسادتهم وقادتهم[١١] وأئمتهم.

وهذا[١٢] الذى قلناه من أن هذا المثل مضروب لمكة، قاله العوفى، عن ابن عباس. وإليه ذهب مجاهد، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وحكاه مالك عن الزهرى، رحمهم الله.

وقال ابن جرير: حدثنى ابن عبد الرحيم البَرْقى، حدثنا ابن أبى مريم، حدثنا نافع بن زيد، حدثنا عبد الرحمن بن شُرَيْح، أن عبد الكريم بن الحارث الحضرمى حدثه، أنه سمع مِشْرَح بن هاعان يقول: سمعت سليم بن عتر[١٣] يقول: صدرنا من الحج مع حفصة زوج النبى ﷺ، وعثمان، رضى

---

(١) فى ف: «ولكن».
(٢) فى ت: «فبئس» وهو خطأ.
(٣) فى ت: «فأذاقها».
(٤) فى ت، ف، أ: «سنة جائحة».
(٥) فى ت، ف: «أنهم».
(٦) فى ت، ف: «على رسول الله ﷺ».
(٧) زيادة من ت، ف، أ.
(٨) فى ف: «وقال»
(٩) فى ت، ف، أ: «ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون. فاذكرونى أذكركم واشكروا لى».
(١٠) فى ف: «فبدل».
(١١) فى ت، ف: «وقادتهم وسادتهم»
(١٢) فى أ: «وهكذا».
(١٣) فى ت: «عمير».

الله عنه، محصور بالمدينة، فكانت تسأل عنه: ما فعل؟ حتى رأت راكبين، فأرسلت إليهما تسألهما، فقالا: قتل. فقالت حفصة: والذى نفسى بيده، إنها القرية التى قال الله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾. قال أبو شريح: وأخبرنى عبيد الله بن المغيرة، عمن حدثه: أنه كان يقول: إنها المدينة[1].

﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٥) وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧)﴾.

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بأكل رزقه الحلال الطيب، وبشكره على ذلك، فإنه المنعم المتفضل به ابتداء، الذى يستحق العبادة وحده لا شريك له.

ثم ذكر ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم فى دينهم ودنياهم، من الميتة والدم، ولحم الخنزير.

﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أى: ذبح على غير اسم الله، ومع هذا ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ أى: احتاج فى غير بغى ولا عدوان، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية فى سورة «البقرة»[2] بما فيه كفاية عن إعادته، ولله الحمد [والمنة][3].

ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين، الذين حللوا وحرموا بمجرد ما وضعوه واصطلحوا عليه من الأسماء بآرائهم، من البَحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وغير ذلك مما كان شرعا لهم ابتدعوه فى جاهليتهم، فقال: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾. ويدخل فى هذا كل من ابتدع بدعة ليس [له][4] فيها مستند شرعى، أو حلل شيئا مما حرم الله، أو حرم شيئا مما أباح الله، بمجرد رأيه وتشهيه.

و«ما» فى قوله: ﴿لِمَا﴾ مصدرية، أى: ولا تقولوا الكذب لوصف ألسنتكم.

ثم توعد على ذلك فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ﴾ أى: فى الدنيا ولا فى الآخرة. أما فى الدنيا فمتاع[5] قليل، وأما فى الآخرة فلهم عذاب أليم، كما قال: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ

(١) تفسير الطبرى (١٤/ ١٢٥).

(٢) عند تفسير الآية: ١٣٧.

(٣) زيادة من أ. (٤) زيادة من ت، ف، أ. (٥) فى ت، ف: «متاع».

نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾[لقمان: ٢٤] وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ. مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾[يونس: ٦٩، ٧٠].

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٩) ﴾.

لما ذكر تعالى أنه إنما حرم علينا الميتة[١] والدم ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، وأنه[٢] أرخص فيه عند الضرورة ـ وفى ذلك توسعة لهذه الأمة، التى يريد الله بها اليسر ولا يريد بها العسر ـ ذكر سبحانه وتعالى ما كان حَرَّمه على اليهود فى شريعتهم قبل أن ينسخها، وما كانوا فيه من الآصار والأغلال والحرج والتضييق، فقال: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ يعنى: فى «سورة الأنعام» فى قوله: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا [أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ][٣] ﴾ [الأنعام: ١٤٦]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ أى: فيما ضيقنا عليهم، ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أى: فاستحقوا ذلك، كما قال: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠].

ثم أخبر تعالى تكرماً وامتناناً فى حق العصاة المؤمنين: أن من تاب منهم إليه تاب عليه، فقال: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾. قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل.

﴿ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ أى: أقلعوا عما كانوا فيه من المعاصى، وأقبلوا على فعل الطاعات، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا ﴾ أى: تلك الفعلة والذلة ﴿ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) ﴾.

يمدح [تبارك و][٤] تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم، إمام الحنفاء ووالد الأنبياء، ويبرئه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية فقال: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ﴾، فأما «الأمة»، فهو

---

(١) فى ت: «المدينة». (٢) فى ف: «وإنما».

(٣) زيادة من ت، ف، أ، وفى هـ: «إلى قوله: وإنا لصادقون».

(٤) زيادة من ف، أ.

الإمام الذى يقتدى به. والقانت: هو الخاشع المطيع. والحنيف: المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد؛ ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

قال سفيان الثورى، عن سلمة بن كُهَيْل، عن مسلم البَطِين، عن أبى العبيدين: أنه سأل عبد الله ابن مسعود عن الأمة القانت، فقال: الأمة: معلم الخير، والقانت: المطيع لله ورسوله.

وعن مالك قال: قال ابن عمر: الأمة الذى يعلم الناس دينهم.

وقال الأعمش، [عن الحكم][1] عن يحيى بن الجزار، عن أبى العبَيْدين؛ أنه جاء إلى عبد الله فقال: مَنْ نسأل إذا لم نسألك؟ فكأن ابن مسعود رقَّ له، فقال: أخبرنى عن الأمة[2]، فقال: الذى يعلم الناس الخير.

وقال الشعبى: حدثنى فروَة بن نوفل الأشجعى قال: قال ابن مسعود: إن معاذاً كان أمة قانتا لله حنيفا، فقلت فى نفسى: غلط أبو عبد الرحمن، إنما قال الله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾، فقال: أتدرى ما الأمة وما القانت؟ قلت: الله [ورسوله][3] أعلم. قال: الأمة الذى يعلم [الناس][4] الخير. والقانت: المطيع لله ورسوله. وكذلك كان معاذ معلم الخير، وكان مطيعاً لله ورسوله.

وقد روى من غير وجه، عن ابن مسعود؛ حرره ابن جرير[5].

وقال مجاهد: ﴿أُمَّةً﴾ أى: أمة وحده، والقانت: المطيع. وقال مجاهد أيضاً: كان إبراهيم أمة، أى: مؤمنا وحده، والناس كلهم إذ ذاك كفار.

وقال قتادة: كان إمام هُدى، والقانت: المطيع لله.

وقوله: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ أى: قائماً بشكر[6] نعم الله عليه، كما قال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النجم: ٣٧]، أى: قام بجميع ما أمره الله تعالى به.

وقوله: ﴿اجْتَبَاهُ﴾ أى: اختاره واصطفاه، كما قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

ثم قال: ﴿وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضى.

وقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أى: جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه فى إكمال حياته الطيبة، ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

وقال مجاهد فى قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أى: لسان صدق.

---

(١) زيادة من ت، ف، أ، والطبرى. (٢) فى ف، أ: «أمة».

(٣) زيادة من أ. (٤) زيادة من ف، أ.

(٥) تفسير الطبرى (١٤/ ١٢٨، ١٢٩).

(٦) فى ت: «يشكر».

وقوله: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أى: ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه، أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء: ﴿ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾، كما قال: فى «الأنعام»: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١]، ثم قال تعالى منكرا على اليهود.

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤) ﴾.

لا شك أن الله شرَع فى كل ملة يوما من الأسبوع، يجتمع الناس فيه للعبادة، فشرع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة؛ لأنه اليوم السادس الذى أكمل الله فيه الخليقة، واجتمعت [الناس](١) فيه وتمت النعمة على عباده. ويقال: إنه تعالى شرع ذلك لبنى إسرائيل على لسان موسى، فعدلوا عنه واختاروا السبت؛ لأنه اليوم الذى لم يخلق فيه الرب شيئاً من المخلوقات الذى(٢) كمل خلقها يوم الجمعة، فألزمهم(٣) تعالى به فى شريعة التوراة، ووصاهم أن يتمسكوا به وأن يحافظوا عليه، مع أمره إياهم بمتابعة محمد ﷺ إذا بعثه. وأخذه(٤) مواثيقهم وعهودهم على ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾.

قال مجاهد: اتبعوه وتركوا الجمعة.

ثم إنهم لم يزالوا متمسكين به، حتى بعث الله عيسى ابن مريم، فيقال: إنه حوَّلهم إلى يوم الأحد. ويقال إنه: لم [يترك(٥) شريعة التوراة إلا ما نسخ من بعض أحكامها وإنه لم](٦) يزل محافظًا على السبت حتى رفع، وإن النصارى بعده فى زمان قسطنطين هم الذين تحولوا إلى يوم الأحد، مخالفة لليهود، وتحولوا إلى الصلاة شرقا عن الصخرة، والله(٧) أعلم.

وقد ثبت فى الصحيحين، من حديث عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن همام، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذى فرض الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غدا، والنصارى بعد غد». لفظ البخارى(٨).

وعن أبى هريرة، وحذيفة، رضى الله عنهما، قالا: قال رسول الله ﷺ: «أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم

(١) زيادة من ت، ف. (٢) فى أ: «التى». (٣) فى أ: «وألزمهم».
(٤) فى أ: «وأخذ». (٥) فى أ: «يزل على». (٦) زيادة من ت، ف، أ.
(٧) فى ت: «فالله».
(٨) صحيح البخارى برقم (٦٦٢٤) وصحيح مسلم برقم (٨٥٥).

الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة، والمقضى بينهم قبل الخلائق». رواه مسلم [والله أعلم][١][٢].

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥)﴾.

يقول تعالى آمراً رسوله محمداً ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله **﴿بِالْحِكْمَةِ﴾**.

قال ابن جرير: وهو ما أنزله عليه[٣] من الكتاب والسنة **﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾** أى: بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس ذكرهم[٤] بها، ليحذروا بأس الله تعالى.

وقوله: **﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾** أى: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب، كما قال: **﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾** [العنكبوت: ٤٦] فأمره تعالى بلين الجانب، كما أمر موسى وهارون، عليهما السلام، حين بعثهما إلى فرعون فقال: **﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾** [طه: ٤٤].

وقوله: **﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾** أى: قد علم الشقى منهم والسعيد، وكتب ذلك عنده وفرغ منه، فادعهم إلى الله، ولا تذهب نفسك على من ضل منهم[٥] حسرات، فإنه ليس عليك هداهم إنما أنت نذير، عليك البلاغ، وعلينا الحساب، **﴿إِنَّكَ[٦] لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾** [القصص: ٥٦]، و**﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾** [البقرة: ٢٧٢].

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨)﴾.

يأمر تعالى بالعدل فى الاقتصاص والمماثلة فى استيفاء الحق، كما قال عبد الرزاق، عن الثورى، عن خالد، عن ابن سيرين: أنه قال فى قوله تعالى: **﴿فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾**: إن أخذ منك رجل شيئاً، فخذ منه مثله.

وكذا قال مجاهد، وإبراهيم، والحسن البصرى، وغيرهم. واختاره ابن جرير.

وقال ابن زيد: كانوا قد أمروا بالصفح عن المشركين، فأسلم رجال ذوومنعة، فقالوا: يا رسول

---

(١) زيادة من ف، أ.

(٢) صحيح مسلم برقم (٨٥٦).

(٣) فى ف، أ: «عليك».

(٤) فى ت، ف: «يذكرهم».

(٥) فى ت: «عليهم».

(٦) فى ف: «وإنك» وهو خطأ.

الله، لو أذن الله لنا لانتصرنا من هؤلاء الكلاب! فنزلت هذه الآية، ثم نسخ ذلك بالجهاد.

وقال محمد بن إسحاق، عن بعض أصحابه، عن عطاء بن يَسَار قال: نزلت سورة «النحل» كلها بمكة، وهى مكية إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة بعد أحد، حيث قتل حمزة، رضى الله عنه، ومثِّل به، فقال رسول الله ﷺ: «لئن ظهرنا عليهم لنمثلن بثلاثين رجلا منهم» فلما سمع المسلمون ذلك قالوا: والله لئن ظهرنا عليهم لنمثلن بهم مثله لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط. فأنزل الله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ إلى آخر السورة(١).

وهذا مرسل، وفيه [رجل](٢) مبهم لم يسم، وقد روى هذا من وجه(٣) آخر متصل، فقال الحافظ أبو بكر البزار:

حدثنا الحسن بن يحيى، حدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا صالح المرى(٤)، عن سليمان التيمى، عن أبى عثمان، عن أبى هريرة، رضى الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة بن عبد المطلب، رضَى الله عنه، حين استشهد، فنظر إلى منظر لم ينظر أوجع للقلب منه. أو قال: لقلبه [منه](٥)، فنظر(٦) إليه وقد مُثِّل به فقال: «رحمة الله عليك، إن كنت ـ لما علمتُ ـ لوصولا للرحم، فعولا للخيرات، والله لولا حزن من بعدك عليك، لسرنى أن أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع ـ أو كلمة نحوها ـ أما والله على ذلك، لأمثلهن بسبعين كمثلتك(٧)». فنزل جبريل، عليه السلام، على محمد ﷺ بهذه السورة(٨)، وقرأ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ إلى آخر الآية، فكفر رسول الله ﷺ ـ يعنى: عن يمينه ـ وأمسك عن ذلك(٩).

وهذا إسناد فيه ضعف؛ لأن صالحا ـ هو ابن بشير المرى ـ ضعيف عند الأئمة، وقال البخارى: هو منكر الحديث.

وقال الشعبى وابن جُرَيْج: نزلت فى قول المسلمين يوم أحد فيمن مثل بهم: لنمثلن بهم. فأنزل الله فيهم ذلك.

وقال عبد الله بن الإمام أحمد فى مسند أبيه: حدثنا هديَّة(١٠) بن عبد الوهاب المروزى، حدثنا الفضل بن موسى، حدثنا عيسى بن عبيد، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية، عن أبى بن كعب قال: لما كان يوم أحد، قتل من الأنصار ستون رجلا، ومن المهاجرين ستة، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لَنُرْبِيَنَّ عليهم. فلما كان يوم الفتح قال رجل: لا

---

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٤/ ١٣٢).

(٢) زيادة من ف، أ. (٣) فى أ: «من غير وجه». (٤) فى ت: «حدثنا صالح حدثنا المرى».

(٥) زيادة من ت. (٦) فى ت: «ونظر». (٧) فى ف، أ: «كمثلك».

(٨) فى ت: «الآية».

(٩) مسند البزار برقم (١٧٩٥) «كشف الأستار».

(١٠) فى ت، ف، أ: «هدبة».

تعرف[١] قريش بعد اليوم. فنادى مناد: إن رسول الله ﷺ آمن الأسود والأبيض إلا فلانا وفلانا ـ ناسا سماهم ـ فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ [فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ][٢]﴾ فقال رسول الله ﷺ: «نصبر ولا نعاقب»[٣].

وهذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن، فإنها مشتملة على مشروعية العدل والندب إلى الفضل، كما في قوله: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾، ثم قال: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى: ٤٠]. وقال: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾، ثم قال: ﴿ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾، ثم قال: ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾.

وقوله: ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾: تأكيد للأمر بالصبر، وإخبار بأن ذلك إنما ينال بمشيئة الله وإعانته، وحوله وقوته.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: على من خالفك، لا تحزن عليهم؛ فإن الله قدر ذلك، ﴿ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ ﴾ أي: غم ﴿ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي: مما يجهدون [أنفسهم][٤] في عداوتك وإيصال الشر إليك، فإن الله كافيك وناصرك، ومؤيدك، ومظهرك ومظفرك بهم.

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ أي: معهم بتأييده ونصره ومعونته وهذه معية خاصة، كقوله: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢]، وقوله لموسى وهارون: ﴿ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]، وقول النبي ﷺ للصديق وهما في الغار: ﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠] وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم، كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد: ٤]، وكقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧]، وكما قال تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا [إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ][٥] ﴾ [يونس: ٦١].

ومعنى ﴿ الَّذِينَ اتَّقَوا ﴾ أي: تركوا المحرمات، ﴿ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ أي: فعلوا الطاعات، فهؤلاء الله يحفظهم ويكلؤهم، وينصرهم ويؤيدهم، ويظفرهم على أعدائهم ومخالفيهم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا

---

(١) في ت، ف، أ: «يعرف».
(٢) زيادة من ت، ف، أ، وفي هـ: «الآية».
(٣) زوائد المسند (٥/ ١٣٥).
(٤) زيادة من ت، ف، أ.
(٥) زيادة من ت، ف، أ، وفي هـ: «الآية».

مِسْعر، عن ابن عون، عن محمد بن حاطب قال: كان عثمان، رضى الله عنه، من الذين آمنوا، والذين اتقوا، والذين هم محسنون.

[ولله الحمد أجمعه والمنة، وبه المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل][1]

(١) ما بين المعقوفين من «هـ».

/ سورة النحل [٣٠٧و]

وتسمّى سورة النعم، وهي مكّيّة غيرَ ثلاث آيات في آخرها، وهي مائة وثمان وعشرون آيةً.[١]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ١﴾

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: الساعةُ أو ما يعُمّها وغيرَها مِن العذاب الموعود للكفَرة، عُبِّر عن ذلك بأمر الله للتفخيم والتهويل وللإيذان بأنّ تحقّقه في نفسه وإتيانه مَنوطٌ بحُكمه النافذ وقضائه الغالب. وإتيانه عبارة عن دنوّه واقترابه على طريقة نَظْم المتوقَّع في سِلك الواقع، أو عن إتيان مباديه القريبة على نهج إسناد حال الأسباب إلى[٢] المسبَّبات.

وأيًّا ما كان ففيه تنبيه على كمال قربه مِن الوقوع واتّصالِه به، وتكميلٌ لحُسن موقع التفريع في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فإنّ النهي عن استعجال الشيء وإن صحّ تفريعه على قُرب وقوعه أو على وقوع أسبابه القريبة لكنّه ليس بمثابة تفريعه على وقوعه، إذ بالوقوع يستحيل الاستعجال رأسًا لا بما ذُكِر مِن قُرب وقوعه ووقوع مباديه.

والخطاب للكفَرة خاصّة كما يدلّ عليه القراءةُ على صيغة نهي الغائبِ. واستعجالُهم وإن كان بطريق الاستهزاء لكنّه حُمل على الحقيقة ونُهوا عنه بضرب مِن التهكّم لا مع المؤمنين، سواءٌ أريدَ بـ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ ما ذُكر أو العذابُ الموعود للكفَرة خاصّة.

---

[١] س – سورة النحل، وتسمى سورة النعم، وهي مكّيّة غير ثلاث آيات في آخرها، وهي مائة وثمان وعشرون آية؛ س: سورة النحل، مائة وعشرون وثمان آيات، مكّيّة.

[٢] س + حال.

أمّا الأوّل فلأنّه لا يتصوَّر مِن المؤمنين استعجالُ الساعة أو ما يعمّها وغيرها[١] مِن العذاب حتّى يعمّهم النهيُ عنه، وأمّا الثاني فلأنّ استعجالهم له بطريق الحقيقة واستعجالَ الكفَرة بطريق الاستهزاءِ كما عرَفتَه فلا ينتظمهما صيغة واحدة. والالتجاء إلى إرادة معنًى مجازي يعمُّهما معًا مِن غير أن يكون هناك رعايةُ نكتة سَرِيّة تعسُّف لا يليق بشأن التنزيل الجليل.

وما رُوي مِن أنّه لمّا نزلت ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر، ١/٥٤] قال الكفّار فيما بينهم: «إنّ هذا يزعُم أنّ القيامة قد قرُبت فأمسِكوا عن بعض ما تعملون حتّى ننظر ما هو كائن»، فلمّا تأخّرت / قالوا: «ما نرى شيئًا»، فنزلت ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ [٣٠٧ظ]
حِسَابُهُمۡ﴾ [الأنبياء، ١/٢١] فأشفقوا وانتظروا قُربها، فلمّا امتدّت الأيّام قالوا: «يا محمّد ما نرى شيئًا ممّا تُخوّفنا به»، فنزلت ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾، فوثب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فرفَع الناس رءوسهم، فلمّا نزل ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾ اطمأنّوا.[٢]

فليس فيه دلالة[٣] على عموم الخطاب كما قيل،[٤] لا لِما تُوهِّم مِن أنّ التصدير بـ"الفاء" يأباه، فإنّه بمَعزِل عن إبائه حسبما تحققْتَه؛ بل لأنّ مَناط اطمئنانهم إنّما هو وقوفهم على أنّ المراد بالإتيان هو الإتيان الادّعائي لا الحقيقي الموجِب لاستحالة الاستعجال المستلزِمة لامتناع النهي عنه، لِما أنّ النهيَ عن الشيء يقتضي إمكانَه في الجملة.

ومدار ذلك الوقوف إنّما هو النهي عن الاستعجال المستلزِم لإمكانه المقتضي لعدم وقوع المستعجَل بعدُ، ولا يختلف ذلك باختلاف المستعجِل كائنًا مَن كان؛ بل فيه[٥] دلالة واضحة على عدم العموم؛ لأنّ المراد بأمر الله إنّما هو الساعة، وقد عرفتَ استحالة صدور استعجالها عن المؤمنين، نعم يجوز تخصيص الخطاب بهم على تقدير كون أَمر الله عبارة عن العذاب

---

١ ط س - وغيرها.
٢ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٥٩/١٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٧/٥-١٨ والكشّاف للزمخشري، ٤٣٥/٢.
٣ السياق: وما رُوِيَ... فليس فيه دلالة...
٤ في هامش م: قاضي وطيبي. | انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٥١/٢؛ وفتوح الغيب للطِّيبي، ٧١/٩.
٥ في هامش م: أي: فيما رُوي.

الموعود للكفَرة خاصّة، لكن الذي يقضي به الإعجازُ التنزيليُّ أنّه خاصّ بالكفَرة كما ستقف عليه.

ولمّا كان استعجالهم ذلك مِن نتائج إشراكهم المستتبع لنسبة الله عزّ وجلّ إلى ما لا يليق به مِن العجز والاحتياج إلى الغير، واعتقاد أنّ أحدًا يحجُزه عن إنجاز وَعْده أو إمضاء وعيده، وقد قالوا في تضاعيفه: إن صحّ مجيء العذاب فالأصنام تُخلِّصنا عنه بشفاعتها، رُدَّ ذلك فقيل بطريق الاستئناف: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أي: تنزّه وتقدّس بذاته وجلّ عن إشراكهم المؤدِّي إلى صدور أمثالِ هذه الأباطيلِ عنهم، أو عن أن يكون له شريك فيدفعَ ما أراد بهم بوجه مِن الوجوه.

وصيغة الاستقبال للدلالة على تجدّد إشراكهم واستمراره. والالتفات إلى الغَيبة للإيذان باقتضاء ذِكر / قبائحهم للإعراض عنهم وطرحِهم عن رتبة الخِطاب، [٣٠٨و]
وحكايةِ شنائعهم لغيرهم، وعلى تقدير تخصيص الخِطاب بالمؤمنين تفوت هذه النُّكتة كما يفوت ارتباط المَنهيّ عنه بالمتنزِّه عنه. وقُرئ على صيغة الخطاب.[١]

﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ۝٤﴾

﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ بيان لتحتّم التوحيد حسبما نُبّه عليه تنبيهًا إجماليًّا ببيان تقدُّس جناب الكبرياء وتعاليه عن أن يحوم حوله شائبة أن يُشاركه شيء في شيء، وإيذانٌ بأنّه دِين أجمع عليه جمهور الأنبياء عليهم السلام، وأُمروا بدعوة الناس إليه، مع الإشارة إلى سرّ البَعثة والتشريع وكيفيّة إلقاء الوحي، والتنبيهِ على طريق عِلم الرسول صلّى الله عليه وسلّم بإتيان ما أَوْعَدهم به، وباقترابه إزاحةً لاستبعادهم اختصاصَه عليه السلام بذلك، وإظهارًا لبُطلان رأيهم في الاستعجال والتكذيب.

---

[١] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٢.

وإيثارُ صيغة الاستقبال للإشعار بأنّ ذلك عادة مستمرّة له سبحانه. والمراد بـ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾ إمّا جبريلُ عليه السلام، قال الواحديّ: يُسمَّى الواحد بالجميع إذا كان رئيسًا أو هو ومَن معه مِن حفَظة الوحي بأمر الله تعالى.[١] وقرئ: "يُنْزِلُ"[٢] مِن الإنزال، و"تَنَزَّلُ"[٣] بحذف إحدى التاءين، وعلى صيغة المبنيّ للمفعول مِن التنزيل.[٤]

﴿بِٱلرُّوحِ﴾ أي: بالوحي الذي مِن جملته القرآن على نهج الاستعارة، فإنّه يُحيِي القلوب الميّتة بالجهل، أو يقوم في الدِّين مَقام الروح في الجسد، و"الباء" متعلِّقة بالفعل أو بما هو حال مِن مفعوله، أي: ملتبِسين بالروح.

﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ بيان للروح الذي أُريدَ به الوحي، فإنّه أمر بالخير، أو حال منه، أي: حال كونه ناشئًا ومبتدأ منه، أو صفةٌ له على رأي مَن جوَّز حذف الموصول مع بعض صلته، أي: بالروح الكائن مِن أمره الناشئ منه، أو متعلِّق بـ﴿يُنَزِّلُ﴾، / و﴿مِنْ﴾ للسببيّة كـ"الباء" مثلُ ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ [٣٠٨ظ]
[نوح، ٢٥/٧١]، أي: ينزِّلهم بأمره. ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: ينزِّلهم به عليهم لاختصاصهم بصفات تؤهِّلهم لذلك.

﴿أَنْ أَنذِرُوٓا۟﴾ بدل مِن ﴿ٱلرُّوحِ﴾، أي: ينزِّلهم ملتبِسين بـ﴿أَنْ أَنذِرُوٓا۟﴾، أي: بهذا القول، والمخاطَبون به الأنبياء الذين نُزِّلت الملائكة عليهم عليهم السلام. والآمرُ هو الله سبحانه، والملائكةُ نَقَلة للأمر كما يُشعِر به الباء في المبدَل منه. و﴿أَنْ﴾: إمّا مخفَّفة مِن "أنّ"، وضميرُ الشأن الذي هو اسمها محذوف، أي: ينزِّلهم ملتبِسين بأنّ الشأن أقول لكم: أَنذِروا؛ أو مفسِّرةٌ على أنّ تنزيل الملائكة بالوحي فيه معنى القول، كأنّه قيل: يقول بواسطة الملائكة لمَن يشاء مِن عباده: "أنذروا" فلا محلّ لها مِن الإعراب؛ أو مصدريّة لجواز كون صلتها إنشائيّة،

---

[١] ما وقفتُ عليه فيما بين يديّ من كتب الواحدي.

[٢] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ورويس. النشر لابن الجزري، ٣٠٢/٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وسلّام والفضل وزيد ورَوح وأبي حَيْوَة وأبي بكر من طريق ابن جُبير وأبي الحسن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٦؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٠٩٩.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن قُطيب والمِنهال عن يعقوب وأبي الحسن عن أبي بكر. المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٠٩٩.

كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ [يونس، ١٠/١٠٥]، حسبما ذُكِر في أوائل سورة هود، فمَحلُّها الجرّ على البدليّة أيضًا.

و"الإنذارُ": الإعلام، خلا أنّه مختصّ بإعلام المحذور مِن "نذِر بالشيء" إذا عَلِمه فحذِره، و"أنذَره بالأمر إنذارًا"، أي: أعلَمه وحذّره وخوّفه في إبلاغه. كذا في **القاموس**،[١] أي: أعلِموا الناس ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾، فالضمير للشأن، ومدارُ وضعه موضعَه ادّعاءُ شهرته المغنِية عن التصريح به.

وفائدةُ تصدير الجملة به الإيذانُ مِن أوّل الأمر بفخامة مضمونها مع ما فيه مِن زيادة تقرير له في الذهن، فإنّ الضمير لا يُفهَم منه ابتداءً إلّا شأن مُبهَم له خَطَر، فيبقى الذهن مترقِّبًا لِما يعقُبه فيتمكّن لديه عند وروده فضلَ تمكُّن، كأنّه قيل: أنذِروا أنّ الشأن الخطير هذا، وإنباءُ مضمونه عن المحذور ليس لذاته؛ بل مِن حيث اتّصافُ المنذَرين بما يضادُّه مِن الإشراك وذلك كافٍ في كون إعلامه إنذارًا.

وقوله سبحانه: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ خِطاب للمستعجِلين على طريقة الالتفات، و"الفاء" فصيحة، أي: إذا كان الأمر كما ذُكِر / مِن جريان عادته تعالى بتنزيل [٣٠٩و] الملائكة على الأنبياء عليهم السلام وأَمرِهم بأن يُنذِروا الناس أنّه لا شريكَ له في الألوهيّة، فاتّقوني في الإخلال بمضمونه ومباشرة ما ينافيه مِن الإشراك وفروعه التي مِن جملتها الاستعجال والاستهزاء.

وبعد تمهيد الدليل السمعيّ للتوحيد شُرِع في تحرير الأدلّة العقليّة، فقيل: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: أوجَدهما على ما هما عليه مِن الوجه الفائق والنمط اللائق. ﴿تَعَٰلَىٰ﴾ وتقدّس بذاته لاسيّما بأفعاله التي مِن جملتها إبداع هذين المخلوقَين. ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عن إشراكهم المعهود، أو عن شركة ما يشركونه به مِن الباطل الذي لا يُبدئ ولا يعيد.

وبعد ما نبّه على صُنعه الكلّي المنطوي على تفاصيل مخلوقاته شرَع في تعداد ما فيه مِن خلائقه، فبدأ بفعله المتعلّق بالأنفس فقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي:

---
[١] انظر: **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، «نذر».

هذا النوعَ غيرَ الفرد الأوّل منه ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ جمادٍ لا حسَّ له ولا حَراكَ، سيّالٍ لا يحفظ شكلًا ولا وضعًا.

﴿فَإِذَا هُوَ﴾ بعد الخلق ﴿خَصِيمٌ﴾ مِنطيق مُجادِل عن نفسه مُكافِح للخصوم ﴿مُبِينٌ﴾ لحجَّته لَقِن بها. وهذا أنسَب بمقام الامتنان بإعطاء القدرة على الاستدلال بذلك على قدرته تعالى ووحدته، أو مخاصِمٌ لخالقه منكِر له قائل: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس، ٧٨/٣٦]، وهذا أنسَب بمقام تعداد هَنات الكفَرة. رُوي أنّ أُبيّ بن خلَف الجُمَحي[١] أتى النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم بعَظْم رميم فقال: يا محمّد أترى الله تعالى يُحيي هذا بعد ما قد رمّ، فنزلت.[٢]

﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝﴾

[٣٠٩ظ] ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ﴾ / وهي الأزواج الثمانية مِن الإبل والبقر والضأن والمَعْز، وانتصابُها بمضمر يفسّره قوله تعالى: ﴿خَلَقَهَا﴾، أو بالعطف على ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾،[٣] وما بعده بيانُ ما خُلِق لأجله والذي بعده تفصيل لذلك. وقوله: ﴿لَكُمْ﴾ إمّا متعلِّق بـ﴿خَلَقَهَا﴾، وقوله: ﴿فِيهَا﴾ خبر مقدَّم، وقوله: ﴿دِفْءٌ﴾ مبتدأ وهو ما يُدفأ به، فيَقي مِن البرد، والجملةُ حال مِن المفعول، أو الظرفُ الأوّل خبر للمبتدأ المذكور و﴿فِيهَا﴾ حال مِن ﴿دِفْءٌ﴾، إذ لو تأخَّر لكان صفة.

﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ هي دَرّها ورُكوبها وحَملها والحِراثة بها وغيرُ ذلك، وإنّما عُبِّر عنها بها ليتناول الكلّ مع أنّه الأنسَب بمقام الامتنان بالنعم. وتقديم "الدفء" على "المنافع" لرعاية أسلوب الترقّي إلى الأعلى.

---

١ أُبيّ بن خلف الجمحي مِن المشركين المعادين للنبيّ عليه الصلاة والسلام، أُسِر يوم بدر، فلمّا أُفتدي مِن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال له: «إنّ لي فرسًا أعلفها كلّ يوم لعلّي أقتلك عليها»، فقال له النبيّ عليه الصلاة والسلام: «بل أنا أقتلك عليها إن شاء الله»، فلمّا كان أُحُد رماه النبيّ بحربة وقتله، وهو قاتل شمّاس بن عثمان بن الشريد الأنصاري في أحد. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٤٢/٢-٤٣.

٢ بلفظ قريب في **معالم التنزيل** للبغوي، ٩/٥؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٣٦/٢؛ **واللباب** لابن عادل، ١١/١٢.

٣ في الآية السابقة.

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: تأكُلون ما يؤكَل منها مِن اللحوم والشحوم وغيرِ ذلك. وتغيير النظم للإيماء إلى أنّها لا تبقى عند الأكل كما في السابق واللاحق، فإنّ الدفء والمنافع والجمال يحصُل منها وهي باقية على حالها، ولذلك جُعلت محالًّا[١] لها بخلاف الأكل. وتقديم الظرف للإيذان بأنّ الأكل منها هو المعتاد المُعتمَد في المعاش، وأنّ الأكل ممّا عداها مِن الدجاج والبطّ وصيد البرّ والبحر مِن قبيل التفكُّه مع أنّ فيه مراعاةً للفواصل، ويحتمل أن يكون معنى الأكل منها أكلَ ما يحصُل بسببها، فإنّ الحبوب والثمار المأكولة تُكتسَب بإكراء الإبل وبأثمان نِتاجها وألبانها وجلودها.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾

﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ مع ما فُصِّل مِن أنواع المنافع الضروريّة ﴿جَمَالٌ﴾ أي: زينة في أعيُن الناس ووَجاهة عندهم ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ ترُدّونها مِن مراعيها إلى مَراحها بالعشيّ، ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ تُخرِجونها بالغداة مِن حظائرها / إلى مَسارحها. فالمفعول محذوف مِن كلا الفعلين لرعاية الفواصل. [٣١٠و]

وتعيين الوقتين لأنّ ما يدور عليه أمر الجَمال مِن تزيّن الأفنية والأكناف بها وبتجاوُب ثُغائها ورُغائها إنّما هو عند ورودها وصدورها في ذينك الوقتين، وأمّا عند كونها في المراعي فينقطِع إضافتها الحسّيّة إلى أربابها، وعند كونها في الحظائر لا يراها راءٍ ولا ينظر إليها ناظر.

وتقديم الإراحة على السَّرح لتقدّم الوُرود على الصُدور، ولكونها أظهر منه في استتباع ما ذُكر مِن الجَمال وأتمَّ في استجلاب الأُنس والبهجة، إذ فيها حضور بعد غَيبة وإقبال بعد إدبار على أحسن ما يكون، ملأى البطون مرتفعةَ الضلوع[٢] حافلةَ الضُّروع.

وقرئ: "حِينًا تُرِيحُون وحِينًا تَسرَحُون"[٣] على أنّ كلا الفعلين وَصْف لـ"حينًا"، بمعنى: تُريحون فيه وتَسرَحون فيه.

---

١ كذا في م س، وهو ممنوع من الصرف، فلا ينوّن.

٢ س: الظلوع.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة والضحّاك. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٦.

﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٧﴾

﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ﴾ جَمْع "ثِقْل"، وهو متاعُ المسافر. وقيل: أثقالكم: أجرامكم.[١] ﴿إِلَىٰ بَلَدٖ﴾ قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: أُريدَ به اليمن ومصرُ والشام.[٢] ولعلّه نظَر إلى أنّها متاجرُ أهل مكّة، وقال عكرمةُ: أُريدَ به مكّةُ.[٣] ولعلّه نظَر إلى أنّ أثقالهم وأحمالهم عند القُفول مِن متاجرهم أكثرُ، وحاجتَهم إلى الحمولة أمَسُّ، والظاهرُ أنّه عامّ لكل بلد سحيق.

﴿لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ﴾ واصلين إليه بأنفسكم مجرَّدين عن الأثقال لولا الإبل ﴿إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِ﴾ فضلًا عن استصحابها معكم. وقُرئ بفتح الشين،[٤] وهما لغتان بمعنى الكُلفة والمشقّة. وقيل: المفتوح مصدر مِن "شَقّ الأمر عليه شقًّا"، وحقيقتُه راجعة إلى الشَّقّ الذي هو الصَّدْع، والمكسورُ النِّصف، كأنّه يُذهِب نصف القوّة لِما يناله مِن الجُهد،[٥] فالإضافة إلى ﴿ٱلۡأَنفُسِ﴾ مجازيّة، أو على تقدير مضاف / أي: إلّا بشِقّ قُوى الأنفس. وهو استثناء مفرَّغ مِن أعمّ الأشياء، [٣١٠ظ]
أي: لم تكونوا بالغيه بشيء مِن الأشياء إلّا بشِقّ الأنفس.

ولعلّ تغييرَ النظم الكريم السابق الدالّ على كون الأنعام مدارًا للنِّعم السابقة إلى الجملة الفعليّة المفيدة لمجرَّد الحدوث للإشعار بأنّ هذه النِعمة ليست في العموم بحسب المنشأ وبحسب المتعلِّق، وفي الشمول للأوقات والاطّراد في الأحيان المعهودة بمثابة النِّعم السالفة، فإنّها بحسب المنشأ خاصّة بالإبل وبحسب المتعلِّق بالضاربين في الأرض المتقلِّبين فيها للتجارة وغيرها في أحايينَ غير مطَّردة.

وأمّا سائر النِّعم المعدودة فموجودة في جميع أصناف الأنعام وعامّة لكافّة المخاطَبين دائمًا، أو في عامّة الأوقات. ﴿إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ ولذلك أسبغ عليكم هذه النِّعم الجليلة ويسَّر لكم الأمور الشاقّة.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٣٧/٢.
٢ ولم أجِده في مظانّه، وهو بلفظ قريب في تفسير الرازي، ١٧٦/١٩؛ واللباب لابن عادل، ١٥/١٢.
٣ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٦٩/١٤-١٧٠؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٩/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٣٧/٢.
٤ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٠٢/٢.
٥ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٥٣/٢.

﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨﴾

﴿وَٱلۡخَيۡلَ﴾ هو اسم جنس للفرس لا واحد له مِن لفظه كـ"الإبل"، وهو عطفٌ على ﴿ٱلۡأَنۡعَٰمَ﴾،[١] أي: خلق الخيل ﴿وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا﴾ تعليل بمعظَم منافعها، وإلّا فالانتفاع بها بالحمل أيضًا ممّا لا ريبَ في تحقّقه. ﴿وَزِينَةٗۚ﴾ عطفٌ على محلّ ﴿لِتَرۡكَبُوهَا﴾، وتجريدُه عن "اللام" لكونه فعلًا لفاعل الفعل المعلَّل دون الأوّل. وتأخيره لأنّ الرُّكوب أهمّ منه، أو مصدرٌ لفعل محذوف، أي: وتتزيّنوا بها زينةً. وقُرئ بغير واو،[٢] أي: خلَقها زينة لتَركبوها. ويجوز أن يكون مصدرًا واقعًا موقع الحال مِن فاعل تركبوها أو مفعوله، أي: متزيِّنين بها أو متزيِّنًا بها.

﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي: يخلق في الدنيا غيرَ ما عُدِّد مِن أصناف النِّعم فيكم ولكم ما لا تعلمون كنهَه وكيفيّة خَلْقه، فالعدول إلى صيغة الاستقبال للدلالة على الاستمرار والتجدّد أو لاستحضار الصورة، أو يخلُق لكم في الجنّة / غيرَ ما ذُكِر مِن النِّعم الدنيويّة ما لا تعلمون، أي: ما ليس مِن شأنكم [٣١١و] أن تعلموه، وهو ما أُشيرَ إليه بقوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن الله عزّ وجلّ: «أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمِعت ولا خطَر على قلب بشَر».[٣]

ويجوز أن يكون هذا إخبارًا بأنّه سبحانه يخلق مِن الخلائق ما لا علمَ لنا به دلالةً على قدرته الباهرة الموجِبة للتوحيد كنعمته الباطنة والظاهرة. عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّ عن يمين العرش نهرًا مِن نور مثلَ السماوات السبع والأرضِين السبع والبحار السبعة، يدخُل فيه جبريلُ عليه السلام كلّ سَحَر فيغتسِل فيزداد نورًا إلى نور وجمالًا إلى جمال وعِظَمًا إلى عِظَم، ثمّ ينتفض فيخلق الله تعالى مِن كلّ قطرة تقع مِن ريشه كذا وكذا ألفَ ملَك،

---

١ النحل، ١٦/٥.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وأبي عِياض. المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١١٠٠.

٣ مضى بتخريجه في هامش للمُصنِّف عند الكلام على الآية الثامنة بعد المئة مِن سورة هود.

فيدخُل منهم كلّ يوم سبعون ألفَ ملَك البيت المعمور وسبعون ألف ملَك الكعبة لا يعودون إليه إلى يوم القيامة.[١]

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠﴾

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ القَصْد مصدر بمعنى الفاعل، يقال: سبيل قَصْد وقاصد، أي مستقيم، على طريقة الاستعارة، أو على نهج إسنادِ حال سالكِه إليه، كأنّه يقصِد الوجهَ الذي يؤمّه السالك لا يعدِل عنه، أي: حقّ عليه سبحانه وتعالى بموجَب رحمته ووعدِه المحتوم بيانُ الطريق المستقيم الموصلِ لمَن يسلكه إلى الحقّ الذي هو التوحيد بنصب الأدلّة وإرسال الرسل وإنزال الكتب لدعوة الناس إليه.

أو مصدرٌ بمعنى الإقامة والتعديل،[٢] قاله أبو البقاء،[٣] أي عليه عزّ وجلّ تقويمها وتعديلها، أي: جعلُها بحيث يصِل سالكه إلى الحقّ، لكن لا بعد ما كانت في نفسها منحرفةً عنه؛ بل إبداعُها ابتداءً كذلك على نهج قوله: "سبحان مَن صغّر البعوض وكبّر الفيل".

[٣١١ظ] / وحقيقتُه راجعة إلى ما ذُكِر مِن نَصْب الأدلّة، وقد فعَل ذلك حيث أبدع هذه البدائع التي كلّ واحد منها لاحِبٌ[٤] يُهتدى بمناره وعَلَمٌ يُستضاء بناره، وأَرسل رُسلًا مبشِّرين ومنذِرين، وأنزَل عليهم كُتبًا مِن جملتها هذا الوحيُ الناطق بحقيقة الحقّ الفاحصُ عن كلّ ما جلّ مِن الأسرار ودقّ، الهادي إلى سبيل الاستدلال بتلك الأدلّة المفضِية إلى معالم الهدى، المنْجِية عن فيافي الضلالة ومَهاوي الردى.

ألا يُرى كيف بيَّن أوّلًا تنزُّهَ جَناب الكبرياء وتعاليَه بحسب الذات عن أن يحوم حوله شائبة توهّمِ الإشراك، ثمّ أوضح سِرَّ إلقاء الوحي على الأنبياء

---

[١] بلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ٢٤/١٦؛ وتفسير الرازي، ١٧٨/١٩؛ واللباب لابن عادل، ١٨/١٢. ولم أجِده في مظانّه.

[٢] السياق: مصدر بمعنى الفاعل... أو مصدر...

[٣] انظر: التبيان للعكبري، ٧٩٠/٢؛ واللباب لابن عادل، ١٩/١٢

[٤] اللاحب: الطريق الواسع المُنقاد الذي لا ينقطع. لسان العرب لابن منظور، «لحب».

عليهم السلام وكيفيّةَ أَمْرهم بإنذار الناس ودعوتِهم إلى التوحيد ونهيِهم عن الإشراك، ثمّ كرّ على بيان تعاليه عن ذلك بحسب الأفعال مرشِدًا إلى طريقة الاستدلال، فبدأ بفعله المتعلِّق بمحيط العالم الجسماني ومركزِه بقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ[1] تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾،[2] ثمّ فصّل أفعاله المتعلِّقة بما بينهما فبدأ بفعله المتعلِّق بأنفس المخاطَبين، ثمّ ذكَر ما يتعلّق بما لا بدّ لهم منه في معايشهم، ثمّ بيَّن قدرته على خَلْق ما لا يحيط به عِلم البشر بقوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾،[3] وكلُّ ذلك كما ترى بيان لسبيل التوحيد غِبَّ بيانٍ وتعديلٌ له أيّما تعديل.

فالمراد بـ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ على الأوّل[4] الجنسُ بدليل إضافة "القصد" إليه، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا﴾ في محلّ الرفع على الابتداء، إمّا باعتبار مضمونه وإمّا بتقدير الموصوف، كما في قوله: ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الجن، ١١/٧٢]، وقد مرّ في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾... إلخ [البقرة، ٨/٢]، أي: بعضُ السبيل أو بعضٌ مِن السبيل، فإنّها تُؤنَّث وتُذكَّر. ﴿جَآئِرٌ﴾ أي: مائل عن الحقّ منحرِف عنه لا يُوصِل سالكَه إليه، وهو طُرق الضلال التي لا يكاد يحصى عددها المندرجُ كلُّها تحت الجائر.

وعلى الثاني[5] نفسُ السبيل المستقيم، والضمير في ﴿مِنْهَا﴾ راجع إليها / بتقدير المضاف، أي: ومِن جنسها، لِما عرفتَ مِن أنّ تعديل السبيل وتقويمَه إبداعُه ابتداءً على وَجْه الاستقامة والعدالة لا تقويمُه بعد انحرافه. [٣١٢و]

وأيًّا ما كان فليس في النظم الكريم تغييرُ الأسلوب رعايةً لأمر مطلوب كما قيل.[6] فإنّ ذلك إنّما يكون فيما اقتضى الظاهر سَبكًا معيَّنًا ولكن يُعدَل عن ذلك لنُكتة أهمَّ منه، كما في قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِى هُوَ[7] يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۞ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء، ٧٩/٢٦-٨٠]، فإنّ مقتضى الظاهر أن يقال: "والذي يُسقِمني ويشفين"، ولكن غُيِّر إلى ما عليه النظم الكريم تفاديًا عن إسناد ما تكرَهه النفس إليه سبحانه.

---

[1] م س - بِٱلْحَقِّ.
[2] النحل، ٣/١٦.
[3] في الآية السابقة.
[4] وفي هامش م: وهو كون القصد بمعنى الفاعل. «منه».
[5] وفي هامش م: وهو كون القصد مصدرًا. «منه».
[6] في الكشّاف للزمخشري، ٤٣٨/٢.
[7] م س - هُوَ.

وليس المراد ببيان قَصْد السبيل مجرّدَ إعلام أنّه مستقيم حتّى يصِحّ إسناد أنّه جائرٌ إليه تعالى، فيُحتاجَ إلى الاعتذار عن عدم ذلك، على أنّه لو أريدَ ذلك لم يوجد لتغيير الأسلوب نكتةٌ، وقد بُيِّن ذلك في مواضعَ غير معدودة؛ بل المرادُ ما مرّ مِن نَصْب الأدلّة لهداية الناس إليه، ولا إمكانَ لإسناد مثله إليه تعالى بالنسبة إلى الطريق الجائر بأن يقال: "وجائرُها" حتّى يُصرَف ذلك الإسناد منه تعالى إلى غيره لنكتة تستدعيه، ولا يتوهَّمه متوهِّم حتّى يقتضيَ الحال دفعَ ذلك بأن يقال: "لا جائرُها"، ثمّ يُغيَّر سبك النظم عن ذلك لداعية أقوى منه؛ بل الجملة الظرفيّة اعتراضيّة جيء بها لبيان الحاجة إلى البيان والتعديل وإظهارِ جلالة قدر النعمة في ذلك، والمعنى: على الله تعالى بيانُ الطريق المستقيم الموصلِ إلى الحقّ وتعديلُه بما ذُكِر مِن نَصْب الأدلّة ليسلُكَه الناس باختيارهم ويصلوا إلى المقصِد.

وهذا هو الهداية المفسَّرة بالدلالة على ما يوصِل إلى المطلوب لا الهداية المستلزمة للاهتداء البتّةَ، فإنّ ذلك ممّا ليس بحقّ على الله تعالى لا بحسب ذاته ولا بحسب رحمته؛ / بل هو مُخِلّ بحكمته حيث يستدعي تسوية المحسِن [٣١٢ظ]
والمسيء والمطيعِ والعاصي بحسب الاستعداد، وإليه أشيرَ بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: لو شاء أن يهديَكم إلى ما ذُكِر مِن التوحيد هداية موصِلة إليه البتّةَ مستلزِمة لاهتدائكم أجمعين لفعَل ذلك، ولكن لم يشأه لأنّ مشيئته تابعة للحكمة الداعية إليها، ولا حكمةَ في تلك المشيئة، لِما أنّ الذي عليه يدور فلَك التكليف وإليه ينسحِب الثواب والعقاب إنّما هو الاختيار الجُزئي الذي عليه تترتّب الأعمال التي بها نِيط الجزاء. هذا هو الذي يقتضيه المقام ويستدعيه حُسن الانتظام.

وقد فُسِّر كون قَصْد السبيل عليه تعالى بانتهائه إليه على نهج الاستقامة، وإيثارُ حرف الاستعلاءِ على أداة الانتهاء لتأكيد الاستقامة على وجه تمثيلي مِن غير أن يكون هناك استعلاء لشيء عليه سبحانه وتعالى عنه عُلوًّا كبيرًا، كما في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر، ٤١/١٥]. فـ"القَصْد" مصدر بمعنى الفاعل،

والمراد بـ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ الجنس كما مرّ، وقوله تعالى: ﴿وَمِنۡهَا جَآئِرٌ﴾ معطوف على الجملة الأولى، والمعنى أنّ قَصْد السبيل واصل إليه تعالى بالاستقامة وبعضُها منحرِف عنه ولو شاء لهداكم جميعًا إلى الأوّل.

وأنت خبيرٌ بأن هذا حقّ في نفسه، ولكنّه بمَعزِل عن نكتة موجِبة لتوسيطه بين ما سبَق مِن أدلّة التوحيدِ وبين ما لحِق.

ولمّا بُيِّن الطريق السمعي للتوحيد علىٰ وجه إجمالي وفصِّل بعض أدلّته المتعلِّقة بأحوال الحيوانات، وعُقِّب ذلك ببيان السرّ الداعي إليه بعثًا للمخاطَبين على التأمُّل فيما سبَق وحثًّا على حُسن التلقّي لِما لحِق، أُتبع ذلك[1] ذِكرُ ما يدلّ عليه مِن أحوال النبات فقيل: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ﴾ بقدرته القاهرة ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: مِن السحاب أو مِن جانب السماء ﴿مَآءً﴾ أي: نوعًا منه وهو المطر. وتأخيره عن المجرور / لِما مرّ مِرارًا مِن أنّ المقصود هو الإخبار بأنّه أنزل مِن السماء [٣١٣و]
شيئًا هو الماء لا أنّه أنزله مِن السماء، والسرُّ فيه ما سلَف مِن أنّ عند تأخيرِ ما حقُّه التقديمُ يبقى الذهن مترقِّبًا له مشتاقًا إليه فيتمكّن لديه عند وروده عليه فضلَ تمكّن.

﴿لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٌ﴾ أي: ما تشربونه، وهو إمّا مرتفعٌ بالظرف الأوّل أو مبتدأٌ وهو خبره والجملةُ صفة لـ﴿مَآءً﴾، والظرفُ الثاني نصبٌ على الحاليّة مِن ﴿شَرَابٌ﴾، و﴿مِن﴾ تبعيضيّة. وليس في تقديمه إيهامُ حَصْر المشروب فيه حتّى يفتقر إلى الاعتذار بأنّه لا بأسَ به؛ لأنّ مياه العيون والآبار[2] منه لقوله تعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الزمر، ٢١/٣٩]، وقوله تعالى: ﴿فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [المؤمنون، ١٨/٢٣].[3]

وقيل: الظرف الأوّل متعلق بـ﴿أَنزَلَ﴾، والثاني خبر لـ﴿شَرَابٌ﴾، والجملةُ صفة لـ﴿مَآءً﴾.[4]

---

[1] السياق: ولمّا بيّن... أُتبع ذلك...

[2] رسمت في م: الأبئار. | ولعلّ المُصنِّف أراد لفظ الأصل فيها وهو "الأبْآر"

[3] هذا الاعتذار في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٥٤/٢.

[4] انظر: اللباب لابن عادل، ٢١/١٢.

وأنت خبير بأنّ ما فيه مِن توسيط المنصوب بين المجرورين وتوسيطِ الثاني منهما بين "الماء" وصفتِه ممّا لا يليق بجزالة نَظْم التنزيل الجليل.

﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ ﴿مِن﴾ ابتدائيّة، أي: ومنه يحصُل شجر ترعاه المواشي، والمراد به ما ينبُت مِن الأرض سواء كان له ساق أو لا، أو تبعيضيّة مجازًا؛ لأنّه لمّا كان سقيُه مِن الماء جُعِل كأنّه منه، كقوله:

أسـنـمـةُ الآبـالِ فـي رَبـابـهِ[١]

يعني به المطرَ الذي ينبت به الكلأ الذي تأكله الإبل فتسمَن أسنِمتُها. وفي حديث عكرِمةَ: «لا تأكُلوا ثمن الشجر فإنّه سُحت»،[٢] يعني الكلأ. ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ ترعَون مِن "سامَت الماشية، وأسامَها صاحبها"، وأصلُها "السُّومة" وهي: العلامة؛ لأنّها تؤثِّر بالرعي علاماتٍ في الأرض.

﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١١﴾

﴿يُنۢبِتُ﴾ أي: الله عزّ وجلّ، وقُرئ بالنون.[٣] ﴿لَكُم بِهِ﴾ أي:[٤] بما أنزل مِن السماء ﴿ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ﴾ بيان للنِّعم الفائضة عليهم مِن الأرض بطريق الاستئناف. وإيثار صيغة الاستقبالِ للدلالة على التجدّد والاستمرار وأنّها سنّته الجارية على مرّ الدهور، / أو لاستحضار صورة الإنبات. [٣١٣ظ]

وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لِما مرّ آنفًا مع ما في تقديم أوّلهما مِن الاهتمام به لإدخال المسرّة ابتداءً. وتقديم ﴿ٱلزَّرۡعَ﴾ على ما عداه؛

---

١ في هامش م: وهو السحاب الأبيض. | والرجز ما عرفتُ قائله. وهو بلا نسبة في الكامل للمبرِّد، ٤٢٦/١؛ والكشّاف للزمخشري، ٤١٦/٣ (الأحزاب، ٤٩/٣٣)؛ ومفتاح العلوم للسكّاكي، ٣٦٥/١، وفيها «سحابه» مكان «ربابه»؛ واللباب لابن عادل، ٢١/١٢، وهو فيها جميعًا على ما نحن فيه. وقال المبرّد في شرحه: «أراد أنّ ذلك السّحاب يُنبت ما تأكله الإبل؛ فيصير شُحومًا في أسنِمتها».

٢ الكشّاف للزمخشري، ٤٣٨/٢؛ تفسير الرازي، ١٨٠/١٩؛ اللباب لابن عادل، ٢١/١٢. وانظر لتفصيل تخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢٢٥/٢.

٣ قرأ بها أبو بكر. النشر لابن الجزري، ٣٠٢/٢.

٤ م - أي.

لأنّه أصل الأغذية وعَمود المعاش. وتقديم ﴿ٱلزَّيْتُونَ﴾ لِما فيه مِن الشرف مِن حيث إنّه إدام مِن وجه وفاكهةٌ مِن وجه. وتقديم ﴿ٱلنَّخِيلَ﴾ على ﴿ٱلْأَعْنَٰبَ﴾ لظهور أصالتها وبقائها. وجُمع ﴿ٱلْأَعْنَٰبَ﴾ للإشارة إلى ما فيها مِن الاشتمال على الأصناف المختلفة.

وتخصيص الأنواع المعدودة بالذِّكر مع اندراجها تحت قولِه تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ للإشعار بفضلها. وتقديم "الشجر"[١] عليها مع كونه غذاءً للأنعام لحصوله بغير صُنع مِن البشر، أو للإرشاد إلى مكارم الأخلاق، فإنّ مقتضاها أن يكون اهتمام الإنسان بأمر ما تحت يده أكملَ مِن اهتمامه بأمر نفسه، أو لأنّ أكثر المخاطَبين مِن أصحاب المواشي ليس لهم زرعٌ ولا ثمرٌ. وقيل: المراد تقديم ما يُسام لا تقديمُ غذائه، فإنّه غذاء حيواني للإنسان، وهو أشرف الأغذية.[٢] وقُرئ: "يَنْبُتُ"[٣] مِن الثلاثي مسندًا إلى ﴿ٱلزَّرْعَ﴾ وما عُطف عليه.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: في إنزال الماء وإنباتِ ما فُصِّل ﴿لَءَايَةً﴾ عظيمة دالّة على تفرّده تعالى بالألوهيّة لاشتماله على كمال العِلم والقدرة والحكمة ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإنّ مَن تفكّر في أنّ الحبّة أو النواة تقع في الأرض وتصِل إليها نداوة تنفُذ فيها فينشقّ أسفلها فيخرُج منه عروق تنبسِط في أعماق الأرض، وينشقّ أعلاها وإن كانت مُنتكِسة في الوقوع، ويخرُج منه ساق فينمو وتخرُج منه الأوراق والأزهار والحبوب والثمار المشتمِلة على أجسام مختلفةِ الأشكال والألوان والخواصّ والطبائع، وعلى نواة قابلة لتوليد الأمثالِ على النمط المحرَّر لا إلى نهاية، مع اتّحاد الموادّ واستواء نسبة الطبائع السفليّة والتأثيرات العُلويّة بالنسبة إلى الكلّ، عَلِمَ[٤] أنّ مَن هذه أفعالُه وآثارُه لا يُمكِن أن يشبِهه شيء في شيء مِن صفات الكمال فضلًا / عن أن تُشاركه أخصُّ الأشياء في أخصّ صفاته [٣١٤و] التي هي الألوهيّة واستحقاق العبادة، تعالى عن ذلك عُلوًّا كبيرًا. وحيث افتقر سلوك هذه الطريقة إلى ترتيب المقدِّمات الفكريّة قطَع الآية الكريمة بالتفكّر.

---

١ في الآية السابقة.

٢ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٥٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٦.

٤ السياق: فإنّ مَن تفكّر... عَلِمَ...

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝١٢﴾

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ يتعاقبان خِلْفةً لمنامكم ومعاشكم ولعَقد الثمار وإنضاجها ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ يَدْأبان في سَيرهما وإنارتهما أصالةً وخلافةً وإصلاحِهما لِما نِيط بهما صلاحه مِن المكوِّنات التي مِن جملتها ما فُصِّل وأُجمِل، كلُّ ذلك لمصالحكم ومنافعكم، وليس المراد بتسخيرها لهم تمكينَهم مِن تصرّفها كيف شاءوا، كما في قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ [الزخرف، ١٣/٤٣] ونظائره؛ بل هو تصريفه تعالى لها حسبما تترتّب عليه منافعهم ومصالحهم، كأنّ ذلك تسخير لهم وتصرّف مِن قِبَلهم حسب إرادتهم.

وفي التعبير عن ذلك التصريف بالتسخير إيماءٌ إلى ما في المسخَّرات مِن صعوبة المأخذ بالنسبة إلى المخاطَبين، وإيثارُ صيغة الماضي للدلالة على أنّ ذلك أمر واحد مستمرّ وإن تجدَّدت آثاره.

﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ مبتدأ وخبر، أي: سائر النجوم في حركاتها وأوضاعها مِن التثليث والتربيع ونحوهما مسخَّراتٌ لله تعالى أو لِما خُلقن له بإرادته ومشيئته، وحيث لم يكن عَودُ منافع النجوم إليهم في الظهور بمثابة ما قبلها مِن المَلَوَين[1] والقمَرَين لم يُنسَب تسخيرها إليهم بأداة الاختصاص؛ بل ذُكر على وجه يفيد كونَها تحت ملكوته تعالى مِن غير دلالة على شيء آخرَ، ولذلك عُدِل عن الجملة الفعليّة الدالّة على الحدوث إلى الاسميّة المفيدة للدوام والاستمرار.

وقُرئ برفع ﴿ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ أيضًا،[2] وقرئ بنصب ﴿ٱلنُّجُومُ﴾[3] على أنّه مفعول أوّلُ لفعل مقدَّر يُنبئ عنه الفعل المذكور و"مُسخَّراتٍ" / مفعولٌ ثانٍ له، [٣١٤ظ]

---

١ الملوان: الليل والنهار. لسان العرب لابن منظور، «ملو».

٢ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٠٢/٢.

٣ قرأ بها العشرة إلّا ابن عامر وحفصًا. النشر لابن الجزري، ٣٠٣/٢.

أي: وجعَل النجوم مسخَّراتٍ بأمره، أو على أنّه معطوف على المنصوبات المتقدِّمة و"مُسخَّراتٍ" حال مِن الكلّ، والعامل ما في ﴿سَخَّرَ﴾ مِن معنى نفَع، أي: نفَعكم بها حالَ كونها مسخَّراتٍ لله الذي خلَقها ودبَّرها كيف شاء، أو لِما خُلقنَ له بإيجاده وتقديره، أو لحُكمه، أو مصدرٌ ميميّ جُمع لاختلاف الأنواع، أي: أنواعًا مِن التسخير.

وما قيل مِن أنّ فيه إيذانًا بالجواب عمّا عسى يقال إنّ المؤثِّر في تكوين النبات حركاتُ الكواكب وأوضاعُها، بأنّ ذلك إن سَلِم فلا ريبَ في أنّها أيضًا أمور ممكِنةُ الذات والصفات واقعةٌ على بعض الوجوه الممْكِنة، فلا بدّ لها مِن مُوجِد مخصِّص مختار واجبِ الوجود دفعًا للدَّور والتسلسل،[1] فمبناه حِسبان ما ذُكر أدلّةً على وجود الصانع تعالى وقدرته واختياره، وأنت تدري أن ليس الأمر كذلك فإنّه ليس ممّا يُنازع فيه الخصم ولا يتلعثم في قَبوله، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت، ٦١/٢٩]، وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ الآية [العنكبوت، ٦٣/٢٩]، وإنّما ذلك أدلّة التوحيد مِن حيث إنّ مَن هذا شأنه لا يتوهَّم أن يُشارِكه شيء في شيء فضلًا عن أن يُشارِكه الجماد في الألوهيّة.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر مِن التسخير المتعلِّق بما ذُكر مُجمَلًا ومُفصَّلًا ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ باهرةً متكاثِرة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، وحيث كانت هذه الآثار العُلويّة متعدِّدةً ودلالةُ ما فيها مِن عظيم القدرة والعِلم والحكمة على الوحدانيّة أظهرَ جُمع الآيات وعُلِّقت بمجرّد العقل مِن غير حاجة إلى التأمّل والتفكّر، ويجوز أن يكون المراد "لِقوم يعقلون ذلك"، فالمشار إليه / حينئذ تعاجيب [٣١٥و] الدقائق المُودَعةِ في العُلويّات المدلولِ عليها بالتسخير التي لا يتصدّى لمعرفتها إلّا المهَرة مِن أساطين علماء الحكمة، ولا ريبَ في أنّ احتياجها إلى التفكّر أكثر.

---

[1] كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٥٥/٢.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣﴾

﴿وَمَا ذَرَأَ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿وَٱلنُّجُومُ﴾[١] رفعًا ونصبًا على أنّه مفعول لـ"جعَل"،[٢] أي: وما خلَق ﴿لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مِن حيوان ونبات حال كونه ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أي: أصنافُه، فإنّ اختلافها غالبًا يكون باختلاف اللون مسخَّرٌ لله تعالى أو لِما خُلق له مِن الخواصّ والأحوال والكيفيّات، أو جُعل ذلك مختلفَ الألوان، أي: الأصنافِ لتتفنّنوا في التمتّع بها،[٣] وقد عُطف على ما قبله مِن المنصوبات، وعُقِّب بأنّ ذِكر الخلق لهم مغنٍ عن ذِكر التسخير.

واعتُذر بأنّ الأوّل لا يستلزم الثانيَ لزومًا عقليًا لجواز كون ما خُلق لهم عزيزَ المرام صعبَ المنال. وقيل:[٤] هو منصوب بفعل مقدَّر، أي: "خلَق وأنبَت"، على أن قوله: ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ حال مِن مفعوله.[٥]

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر مِن التسخيرات ونحوها ﴿لَءَايَةً﴾ بيّنةَ الدلالة على أنّ مَن هذا شأنه واحد لا نِدَّ له ولا ضِدَّ.

﴿لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ فإنّ ذلك غيرُ محتاج إلّا إلى تذكّر ما عسى يُغفَل عنه مِن العلوم الضروريّة، وأمّا ما يقال مِن أنّ اختلافها في الطباع والهيئات والمناظر ليس إلّا بصُنع صانع حكيم فمدارُه ما لوّحنا به مِن حِسبان ما ذُكر دليلًا على إثبات الصانع تعالى، وقد عرفتَ حقيقة الحال فإنّ إيراد ما يدلّ على اتّصافه سبحانه بما ذُكر مِن صفات الكمال ليس بطريق الاستدلال عليه؛ بل مِن حيث إنّ ذلك مِن المقدِّمات المسلَّمة، جيء به للاستدلال به على ما يقتضيه ضرورةً مِن وحدانيّته تعالى واستحالةِ أن يشارِكه شيء في الألوهيّة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٤﴾

---

١ في الآية السابقة.

٢ المُقدَّر، كما مضى في وجوه إعراب ﴿ٱلنُّجُومُ﴾.

٣ م ط س: لتتمتّعوا مِن ذلك بأيّ صنف شئتم [صُحّح في هامش م].

٤ وفي هامش م: أبو البقاء.

٥ انظر: التبيان للعكبري، ٧٩١/٢؛ وهو عنه في اللباب لابن عادل، ٢٧/١٢.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾ شروع في تعداد النِّعم / المتعلِّقة بالبحر إثرَ تفصيل [٣١٥ظ]
النِّعم المتعلِّقة بالبرّ حيوانًا ونباتًا، أي: جعَله بحيث تتمكّنون مِن الانتفاع به بالركوب والغَوص والاصطياد ﴿لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ هو السمَك. والتعبير عنه بـ"اللحم" مع كونه حيوانًا للتلويح بانحصار الانتفاع به في الأكل، ووصفُه بـ"الطراءة" للإشعار بلطافته والتنبيهِ على وجوب المسارَعة إلى أكله كيلا يتسارع إليه الفساد، كما يُنبئ عنه جَعْل البحر مبتدأَ أكلِه، وللإيذان بكمال قدرته تعالى في خَلْقه عذبًا طريًّا في ماء زُعاق.[١]

ومِن إطلاق اللحم عليه ذهَب مالك والثوريّ إلى أنّ مَن حلَف لا يأكل اللحم حنِث بأكله. والجواب أنّ مبنى الأيمان العُرف، ولا ريبَ في أنّه لا يُفهَم مِن اللحم عند الإطلاق، ولذلك لو أمَر خادمه بشراء اللحم فجاء بالسمك لم يكن ممتثِلًا بالأمر، ألا يُرى إلى أنّ الله تعالى سمّى الكافر دابّة حيث قال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنفال، ٨/٥٥]، ولا يحنَث بركوبه مَن حلَف لا يركبُ دابّة.[٢]

﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً﴾ كاللؤلؤ والمَرجان ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ عُبّر في مقام الامتنان عن لُبس نسائهم بلُبسهم لكونهنّ منهم أو لكون لُبسِهنّ لأجلهم.

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ﴾ السُّفن ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ جواريَ فيه مُقبِلةً ومُدبِرة ومعترِضة بريح واحدة، تشقُّه بحَيْزُومها،[٣] مِن المَخْر: وهو شقُّ الماء، وقيل: هو صوت جَرْي الفُلك.[٤]

﴿وَلِتَبْتَغُوا۟﴾ عطفٌ على ﴿تَسْتَخْرِجُوا۟﴾ وما عُطِف هو عليه، وما بينهما اعتراض لتمهيد مبادي الابتغاء ودَفْع توهُّم كونه باستخراج الحِلية، أو على علّة محذوفة، أي: لتنتفعوا بذلك ولتبتغوا، ذكَره ابن الأنباري،[٥] أو متعلِّقة بفعل محذوفٍ، أي: وفعَل ذلك لتبتغوا ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ مِن سَعة رزقِه بركوبها للتجارة.

---

١ الماء الزُّعاق: المُرّ الغليظ الذي لا يُطاق شربه من ملوحته. لسان العرب لابن منظور، «زعق».

٢ الكلام على ما ذهبا إليه بلفظ قريب في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٥٥؛ وبمعناه في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٣٩.

٣ الحيزوم: الصدر. لسان العرب لابن منظور، «حزم».

٤ هو قول الفرّاء في معاني القرآن، ٢/٩٨، وذكَره عنه الزمخشري في الكشّاف، ٢/٤٣٩، وابن عادل في اللباب، ١٢/٢٩.

٥ هو له في اللباب لابن عادل، ١٢/٣١.

[٣١٦و] ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: / تعرِفون حقوق نِعَمه الجليلة فتقومون بأدائها بالطاعة والتوحيد، ولعلّ تخصيصَ هذه النعمة بالتعقيب بالشكر مِن حيث إنّ فيها قطعًا لمسافة طويلة مع أحمال ثقيلة في مدّة قليلة مِن غير مزاولة أسباب السفر؛ بل مِن غير حركة أصلًا مع أنّها في تضاعيف المهالك. وعدمُ توسيط الفوز بالمطلوب بين الابتغاء والشكر للإيذان باستغنائه عن التصريح به وبحصولهما معًا.

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ أي: جبالًا ثوابتَ، وقد مرّ تحقيقُه في أوّل سورة الرعد.[١]

﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ كراهةَ أن تميل بكم وتضطربَ، أو لئلّا تميدَ بكم، فإنّ الأرض قبل أن تُخلَق فيها الجبال كانت كُرَة حقيقيّة بسيطة الطبع، وكان مِن حقّها أن تتحرّك بالاستدارة كالأفلاك أو تتحرّكَ بأدنى سبب مُحرِّك، فلمّا خُلقت الجبال تفاوتت حافّاتها وتوجّهت الجبال بثقلها نحو المركز فصارت كالأوتاد. وقيل: لمّا خلَق الله تعالى الأرض جعلَت تَمور فقالت الملائكة: ما هي بمَقَرِّ أحدٍ على ظهرها[٢] فأصبحت وقد أُرسِيت بالجبال.[٣]

﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ أي: وجعَل فيه أنهارًا؛ لأنّ في ﴿أَلْقَىٰ﴾ معنى الجَعْل ﴿وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ بها إلى مقاصدكم.

﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ معالمَ يَستدِلّ بها السابلة بالنهار مِن جبل ومَنهَل وريح، وقد نُقل أنّ جماعة يشمّون الترابَ ويتعرّفون به الطرقات.

﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بالليل في البراري والبحار حيث لا علامةَ غيرُه. والمراد بالنجم الجنسُ. وقيل: هو الثُّريّا والفَرْقدان وبنات النَّعْش والجَدْيُ.[٤]

---

١ في تفسير الآية الثالثة منها.

٢ وفي هامش م: صفة "أحد"، أي: كائن على ظهرها. «منه».

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٤٠.

٤ مرويّ عن السدّي في معالم التنزيل للبغوي، ١٣/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٤٤٠.

وقُرئ بضمّتين،[١] وبضمّة وسكون،[٢] وهو جمع كـ"رَهْن" و"رُهُن" و"رُهْن". وقيل: الأوّل بطريق حذف الواو مِن "النجوم" للتخفيف.[٣] ولعلّ الضميرَ لقريش فإنّهم / كانوا كثيري التردّد للتجارة مشهورين بالاهتداء بالنجوم في أسفارهم. [٣١٦ظ] وصَرْفُ النظم عن سَنن الخطاب وتقديمُ ﴿ٱلنَّجۡمِ﴾ وإقحامُ الضمير للتخصيص، كأنّه قيل: وبالنجم خصوصًا هؤلاء خصوصًا يهتدون، فالاعتبار بذلك والشكر عليه ألزَمُ لهم وأوجَب عليهم.

﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧﴾

﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ﴾ هذه المصنوعات العظيمة ويفعل هاتيك الأفاعيلَ البديعة، أو يخلُق كلّ شيء ﴿كَمَن لَّا يَخۡلُقُ﴾ شيئًا أصلًا، وهو تبكيت للكفَرة وإبطال لإشراكهم وعبادتِهم للأصنام بإنكار ما يستلزمه ذلك مِن المشابهة بينها وبينه سبحانه وتعالى بعد تعداد ما يقتضي ذلك اقتضاء ظاهرًا. وتعقيبُ الهمزة بـ"الفاء" لتوجيه الإنكار إلى ترتُّب توهُّم المشابهة المذكورة على ما فُصِّل مِن الأمور العظيمة الظاهرة الاختصاصِ به تعالى المعلومة كذلك فيما بينهم، حسبما يُؤْذِن به ما تلَوناه مِن قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم﴾ الآيتين [العنكبوت، ٢٩/٦١، ٦٣].

والاقتصار على ذِكر الخلق مِن بينها لكونه أعظمَها وأظهرَها واستتباعِه إيّاها، أو لكون كلّ منها خَلْقًا مخصوصًا، أي: أبَعْدَ ظهورِ اختصاصه تعالى بمبدئيّة هذه الشئون الواضحة الدلالة على وحدانيّته تعالى وتفرُّده بالألوهيّة واستبداده باستحقاق العبادة، يُتصوَّر المشابهة بينه وبين ما هو بمَعزِل مِن ذلك بالمرّة كما هو قضيّة إشراككم، ومدارُها وإن كان على تشبيه غير الخالق بالخالق، لكنّ التشبيه حيث كان نسبةً تقوم بالمنتسِبين اختير ما عليه النظم الكريم مراعاةً لحَقّ سَبْق الملَكة على العدم وتفاديًا عن توسيط عدمها بينها وبين جزئيّاتها

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن ومجاهد وابن قُطيب والأديب عن أبي بكر عن عاصم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٦؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٩؛ المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ١١٠٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٩.

[٣] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٤٠.

المفصَّلة قبلها وتنبيهًا على كمال قُبح ما فعلوه مِن حيث إنّ ذلك ليس مجرّد رَفْع الأصنام عن محلِّها؛ بل هو حطّ لمنزلة الربوبيّة إلى مرتبة الجمادات، / ولا [٣١٧و] ريبَ في أنّه أقبح مِن الأوّل.

والمراد بـ﴿مَن لَّا يَخۡلُقُ﴾ كلُّ ما هذا شأنه كائنًا ما كان، والتعبيرُ عنه بما يختصّ بالعقلاء للمشاكلة، أو العقلاء خاصّة، ويُعرَف منه حال غيرهم بدلالة النصّ فإنّ مَن يخلُق حيث لم يكن كمَن لا يخلق وهو مِن جملة العقلاء، فما ظنُّك بالجماد؟ وأيًّا ما كان فدخول الأصنام في حُكم عدم المماثلة والمشابهة: إمّا بطريق الاندراج تحت الموصول العامّ، وإما بطريق الانفهام بدلالة النصّ على الطريقة البرهانيّة، لا بأنّها هي المرادة بالموصول خاصّة.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: ألا تلاحظون فلا تتذكّرون ذلك فإنّه لوضوحه بحيث لا يفتقِر إلى شيء سوى التذكُّر.

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾ تذكير إجمالي لِنعمه تعالى بعد تعداد طائفة منها، وكان الظاهر إيرادَه عقيبَها تكملةً لها على طريقة قوله تعالى: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.[١] ولعلّ فصْلَ ما بينهما بقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُ﴾ للمبادرة إلى إلزام الحجّة وإلقامِ الحجر إثرَ تفصيل ما فُصِّل مِن الأفاعيل التي هي أدلّة الوحدانيّة مع ما فيه مِن سرّ ستقف عليه، ودلالتها عليها وإن لم تكن مقصورة على حيثيّة الخَلْق ضرورةَ ظهور دلالتها عليها مِن حيثيّة الإنعام أيضًا، لكنّها حيث كانت مِن مستتبعات الحيثيّة الأولى استُغنيَ عن التصريح بها ثمّ بُيِّن حالها بطريق الإجمال، أي: إن تعدّوا نعمته الفائضة عليكم ممّا ذُكِر وما لم يُذكَر حسبما يُعرِب عنه قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة، ٢/٢٩].

﴿لَا تُحۡصُوهَآ﴾ لا تُطيقوا بحَصْرها وضبط عددها ولوَ إجمالًا، فضلًا عن القيام بشُكرها، وقد خرجنا عن عُهدة تحقيقه في سورة إبراهيمَ[٢] بفضل الله سبحانه.

---

١ النحل، ١٦/٨.

٢ في تفسير إبراهيم، ١٤/٣٤.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ﴾ حيث يَستُر ما فرَط منكم مِن كفرانها والإخلال بالقيام بحقوقها، ولا يُعاجلكم بالعقوبة على ذلك، / ﴿رَّحِيمٌ﴾ حيث يُفيضها عليكم [٣١٧ظ]
مع استحقاقكم للقطع والحِرمان بما تأتون وتذرون مِن أصناف الكفر التي مِن جملتها عدم الفرق بين الخالق وغيره،[١] وكلٌّ مِن ذلك نعمة وأيُّما نعمة، فالجملةُ تعليل للحكم بعدم الإحصاء، وتقديمُ وصف المغفرة على نعت الرحمة لتقدّم التخلية على التحلية.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ١٩﴾

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾ تُضمِرونه مِن العقائد والأعمال، ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أي: تُظهرونه منهما، وحُذف العائد لمراعاة الفواصل، أي: يستوي بالنسبة إلى عِلمه المحيط سِرُّكم وعَلَنكم، وفيه مِن الوعيد والدلالة على اختصاصه سبحانه بنعوت الإلهيّة ما لا يخفى. وتقديم السرّ على العلن لِما ذكرناه في سورة البقرة وسورة هود[٢] مِن تحقيق المساواة بين عِلمَيه المتعلِّقَين بهما على أبلغ وجه، كأنّ عِلمه تعالى بالسرّ أقدم منه بالعلن، أو لأنّ كلّ شيء يُعلَن فهو قبل ذلك مُضمَر في القلب، فتعلّقُ عِلمه تعالى بحالته الأُولى أقدم مِن تعلّقه بحالته الثانية.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ٢٠ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ٢١﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ شروع في تحقيق كون الأصنام بمَعزِل مِن استحقاق العبادة وتوضيحِه بحيث لا يبقى فيه شائبة ريب بتعديد أوصافها وأحوالها المنافية لذلك منافاة ظاهرة، وتلك الأحوال وإن كانت غنيّة عن البيان، لكنّها شُرِحت للتنبيه على كمال حماقة عبَدَتها وأنّهم لا يعرِفون ذلك إلّا بالتصريح، أي: والآلهة الذين يعبدهم الكفّار ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه. وقُرئ على صيغة

---

[١] وفي هامش م: وهذا هو السرّ الموعود. «منه».

[٢] وفي هامش م: وقد فُصِّل الأمر هناك بما لا مزيدَ عليه. «منه».

المبنيّ للمفعول[١] وعلى الخطاب.[٢] ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ مِن الأشياء أصلًا، أي: ليس مِن شأنهم ذلك.

ولمّا لم يكن بين نفي الخالقيّة وبين المخلوقيّة تلازُم بحسب المفهوم وإن تلازما في الصدق أثبِتَ لهم ذلك صريحًا فقيل: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: شأنُهم ومقتضى ذاتِهم المخلوقيّة؛ لأنّها ذوات ممكِنة مفتقِرة في ماهيّاتها ووُجُوداتها إلى المُوجِد. وبناءُ الفعل للمفعول لتحقيق التضادّ والمقابلة بين ما أثبِتَ لهم وبين ما نُفي عنهم / مِن وصفَي المخلوقيّة والخالقيّة، وللإيذان بعدم الافتقار [٣١٨و] إلى بيان الفاعل لظهور اختصاص الفعل بفاعله جلّ جلاله.

ويجوز أن يُجعَل الخَلْق الثاني عبارةً عن النحت والتصوير رعاية للمشاكلة بينه وبين الأوّل ومبالغة في كونهم مصنوعين لعبدتهم وأعجز عنهم وإيذانًا بكمال ركاكة عقولهم، حيث أشركوا بخالقهم مخلوقَهم، وأمّا جعلُ الأوّل أيضًا عبارةً عن ذلك كما فُعل فلا وجهَ له، إذ القدرة على مثل ذلك الخلق ليست ممّا يدور عليه استحقاق العبادة أصلًا.

ولِما أنّ إثبات المخلوقيّة لهم غير مستدعٍ لنفي الحياة عنهم لِما أنّ بعض المخلوقين أحياء صُرِّح بذلك فقيل: ﴿أَمْوَٰتٌ﴾ وهو خبر ثانٍ للموصول لا للضمير كما قيل، أو خبرُ مبتدأ محذوفٍ. وحيث كان بعض الأموات ممّا يعتريه الحياة سابقًا أو لاحقًا كأجساد الحيوان والنُّطف التى يُنشِئها الله تعالى حَيَوَانًا احترُز عن ذلك فقيل: ﴿غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ أي: لا يعتريها الحياة أصلًا فهي أمواتٌ على الإطلاق.

وأمّا قوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: ما يشعر أولئك الآلهة أيّان يُبعث عَبَدتهم فعلى طريقة التهكّم بهم؛ لأنّ شعور الجماد بالأمور الظاهرة بديهيُّ الاستحالة عند كلّ أحدٍ فكيف بما لا يعلمه إلّا العليم الخبير؟ وفيه إيذان بأنّ البعث مِن لوازم التكليف وأنّ معرفة وقته ممّا لا بدّ منه في الألوهيّة.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني والزعفراني. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٦؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٠٢.

[٢] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي وابن عامر وحمزة وأبو جعفر وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٣.

﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ٢٢﴾

﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ﴾ لا يشاركه شيء في شيء، وهو تصريح بالمُدّعى وتلخيص للنتيجة غِبَّ إقامةِ الحجّة. ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ وأحوالِها التي مِن جملتها ما ذُكِر مِن البعث وما يعقُبه مِن الجزاء المستلزِم لعقوبتهم وذِلّتهم ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ﴾ للوَحدانيّة جاحدة لها أو للآيات الدالّة عليها. ﴿وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾ عن الاعتراف بها، / أو عن الآيات الدالّة عليها. [٣١٨ظ]

و"الفاء" للإيذان بأنّ إصرارهم على الإنكار واستمرارهم على الاستكبار وقَع مَوقِع النتيجة للدلائل الظاهرة والبراهين الباهرة، والمعنى أنّه قد ثبَت بما قُرِّر مِن الحُجَج والبيِّنات اختصاص الإلهيّة به سبحانه، فكان مِن نتيجة ذلك إصرارهم على ما ذُكر مِن الإنكار والاستكبار.

وبناءُ الحكم المذكورِ على الموصول للإشعار بكونه معلَّلًا بما في حيّز الصلة، فإنّ الكفر بالآخرة وبما فيها مِن البعث والجزاء المتنوِّع إلى الثواب على الطاعة والعقابِ على المعصية يؤدّي إلى قَصْر النظر على العاجل والإعراضِ عن الدلائل السمعيّة والعقليّة الموجبِ لإنكارها وإنكارِ مؤدّاها والاستكبارِ عن اتّباع الرسول عليه السلام وتصديقِه، وأمّا الإيمان بها وبما فيها فيدعو لا محالةَ إلى التأمّل في الآيات والدلائل رغبةً ورهبة فيُورث ذلك يقينًا بالوحدانيّة وخضوعًا لأمر الله تعالى.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ٢٣﴾

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقًّا، وقد مرّ تحقيقُه في سورة هود[١] ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ مِن إنكار قلوبهم ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ مِن استكبارهم وقولِهم للقرآن: أساطيرُ الأولين وغيرِ ذلك مِن قبائحهم فيُجازيهم بذلك.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ﴾ تعليل لِما تضمَّنه الكلام مِن الوعيد، أي: لا يحِبّ المستكبِرين عن التوحيد أو عن الآيات الدالّة عليه، أو لا يحِبّ جنس المستكبِرين فكيف بمن استكبر عمّا ذُكر.

---

[١] في تفسير الآية الثانية والعشرين منها.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٤﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم﴾ أي: لأولئك المنكِرين المستكبِرين، وهو بيان لإضلالهم غِبَّ بيان ضلالهم. ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ القائلُ الوافدون عليهم أو المسلمون أو بعضٌ منهم على طريق التهكُّم. و﴿مَاذَا﴾ منصوب[1] بما بعده، أو مرفوع،[2] أي: أيَّ شيء أنزل؟ أو ما الذي أنزله؟

[٣١٩و] / ﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما تدّعون نزوله، أو المنزَلُ بطريق السخرية أحاديثُ الأوّلين وأباطيلهم، وليس مِن الإنزال في شيء. قيل: هؤلاء القائلون هم المقتسِمون الذين اقتسموا مداخلَ مكّةَ ينفِرون عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عند سؤال وفود الحاجّ عمّا نزل عليه عليه السلام.

﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ۝٢٥﴾

﴿لِيَحْمِلُوٓاْ﴾ متعلِّق بـ"قالوا"، أي قالوا ما قالوا ليحملوا ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾ الخاصّة بهم، وهي أوزار ضلالهم ﴿كَامِلَةً﴾ لم يُكفَّر منها شيء بنكبة أصابتهم في الدنيا كما يُكفَّر بها أوزار المؤمنين ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ظرف ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ﴾.

﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ وبعضِ أوزار مَن ضلّ بإضلالهم وهو وِزر الإضلال لأنّهما شريكان، هذا يُضلّه وهذا يُطاوعه فيتحاملان الوِزر. و"اللام" للتعليل في نفس الأمر مِن غير أن يكون غرضًا، وصيغةُ الاستقبال للدلالة على استمرار الإضلالِ أو باعتبار حال قولِهم لا حالِ الحَمْل.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حال مِن الفاعل، أي: يضلّونهم غيرَ عالمين بأنّ ما يدّعون إليه طريق الضلال. وأمّا حملُه على معنى غيرَ عالمين بأنّهم يحمِلون يوم القيامة أوزار الضلال والإضلال على أن يكون العامل في الحال "قالوا" وتأييدُه بما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾[3] مِن حيث إنّ حَمْل ما ذُكر

---

[1] وفي هامش م: على أنّه اسم واحد بمعنى: أيُّ شيء؟ «منه».

[2] وفي هامش م: على أنّ "ما" استفهاميّة و"ذا" بمعنى "الذي". «منه».

[3] في الآية التالية.

مِن أوزار الضلال والإضلال مِن قبيل إتيان العذاب مِن حيث لا يشعرون، فيردُّه[١] أنّ الحَمْل المذكور إنّما هو يوم القيامة والعذابَ المذكور إنّما هو العذاب الدنيوي، كما ستقف عليه.

أو حال مِن المفعول،[٢] أي: يضلُّون مَن لا يعلم أنّهم ضُلّال. وفائدة التقييد بها الإشعارُ بأنّ مَكرهم لا يرُوج عند ذي لُبّ، وإنّما يتبعهم الأغبياء والجهَلة، والتنبيهُ على أنّ جهلهم ذلك لا يكون عُذرًا؛ إذ كان يجب عليهم أن يبحثوا ويميّزوا بين المُحِقّ الحقيق بالاتّباع وبين المُبطِل.

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي: بئس شيئًا يزرونه ما ذُكر.

﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾

/ ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وعيد لهم برجوع غائلة مكرِهم إلى أنفسهم [٣١٩ظ] كدأب مَن قبلهم مِن الأمم الخالية الذين أصابهم ما أصابهم مِن العذاب العاجل، أي: قد سوَّوا مَنْصُوباتٍ ليمكروا بها رسلَ الله تعالى، ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ﴾ أي: أمره وحُكمه ﴿بُنْيَٰنَهُم﴾ وقُرِئ: "بَيْتَهُمْ"[٣] و"بُيُوْتَهُمْ"[٤] ﴿مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ مِن جهة القواعد وهي الأساطين التي تعمِده أو أساسُه فضُعضِعَتْ أركانُه ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ أي: سقط عليهم سقف بنيانهم، إذ لا يتصوَّر له القيام بعد تهدّم القواعد.

شُبِّهت حال أولئك الماكرين في تسويتهم المكائدَ والمنصوباتِ التي أرادوا بها الإيقاعَ برسل الله سبحانه، وفي إبطاله تعالى تلك الحيلَ والمكائدَ وجَعْلِه إيّاها أسبابًا لهلاكهم بحال قوم بنَوا بنيانًا وعمَدوه بالأساطين فأُتيَ ذلك

---

[١] السياق: وأمّا حَمْله... فيردُّه...

[٢] السياق: حال مِن الفاعل... أو حال مِن المفعول...

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن محمّد بن عليّ وجعفر بن محمّد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٠.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس عن أبي عمرو برواية بن مسلم عبد الرحمن بن واقد عن العبّاس عنه وعن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٠.

مِن قِبَل أساطينِه بأن ضُعْضِعت فسقَط عليهم السقف وهلكوا، وقُرئ: "فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السُّقُفُ"[١] بضمّتين.

﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: الهلاك والدمار ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه منه؛ بل يتوقّعون إتيان مقابله ممّا يُريدون ويشتهون، والمعنى أنّ هؤلاء الماكرين القائلين للقرآن العظيم أساطير الأوّلين سيأتيهم مِن العذاب مثلُ ما أتاهم وهم لا يحتسِبون.

والمراد به العذابُ العاجل لقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ فإنّه عطفٌ على مقدّر ينسحِب عليه الكلام، أي: هذا الذي فُهم مِن التمثيل مِن عذاب هؤلاء أو ما هو أعمّ منه وممّا ذُكر مِن عذاب أولئك جزاؤهم في الدنيا ويوم القيامة يُخزيهم، أي: يُذِلّهم بعذاب الخِزْي على رءوس الأشهاد.

وأصلُ الخِزي: ذُلّ يُستحيى منه. و﴿ثُمَّ﴾ للإيماء إلى ما بين الجزاءين مِن التفاوت[٢] / مع ما يدلّ عليه مِن التراخي الزماني. وتغيير السبك بتقديم الظرف [٣٢١و] ليس لقصر الخِزي على يوم القيامة كما هو المتبادر مِن تقديم الظرف على الفعل؛ بل لأنّ الإخبار بجزائهم في الدنيا مؤذِن بأنّ لهم جزاءً أُخرويًّا فتبقى النفسُ مترقِّبة إلى وروده سائلةً عنه بأنّه ماذا؟ مع تيقّنها بأنّه في الآخرة فسِيق الكلام على وَجْه يؤذِن بأنّ المقصود بالذِّكر إخزاؤهم لا كونُه يوم القيامة.

والضمير إمّا للمفترين في حقّ القرآن الكريم أو لهم ولمَن مُثِّلوا بهم مِن الماكرين، كما أشيرَ إليه وتخصيصُه بهم يأباه السِّباق والسِّياق كما ستقف عليه.

﴿وَيَقُولُ﴾ لهم تفضيحًا وتوبيخًا، فهو إلىَ آخره بيان للإخزاء ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ أضافهم إليه سبحانه حكاية لإضافتهم الكاذبة، ففيه توبيخ إثرَ توبيخ مع استهزاء بهم ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ أي: تُخاصمون الأنبياء والمؤمنين في شأنهم بأنّهم شركاء حقًّا حين بيّنوا لكم بطلانها.

والمراد بالاستفهام استحضارها للشفاعة أو المدافعةُ على طريقة الاستهزاء والتبكيت، والاستفسارُ عن مكانهم لا يُوجِب غَيبتهم حقيقة حتّى يُعتذَر بأنّه يجوز

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج ومجاهد وابن محيصن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٦.

[٢] وقع في ترقيم ألواح م ههنا اضطراب، إذا تقدم اللوح ٣٢٠ على اللوح ٣٢١.

أن يُحال بينهم وبين عبدَتهم حينئذ ليتفقّدوها في ساعة علّقوا بها الرجاء فيها، أو بأنّهم لمّا لم ينفعوهم فكأنّهم غُيّب؛ بل يكفي في ذلك عدم حضورهم بالعنوان الذي كانوا يزعُمون أنّهم متّصفون به مِن عنوان الإلهيّة، فليس هناك شركاء ولا أماكنها، على أنّ قوله: "ليتفقّدوا"[1] ليس بسديد، فإنّه قد تبيّن عندهم الأمرُ حينئذ فرجعوا عن ذلك الزعم الباطل فكيف يُتصوَّر منهم التفقّد. وقرئ بكسر النون،[2] أي: تشاقّونني على أنّ مُشاقّة الأنبياء والمؤمنين لاسيّما في شأن متعلّق به سبحانه مُشاقّة له عزّ وجلّ.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ مِن أهل الموقف وهم الأنبياء والمؤمنون الذين أوتوا علمًا بدلائل التوحيد وكانوا يدعونهم في الدنيا إلى التوحيد فيُجادلونهم ويتكبّرون عليهم، أي: يقولون توبيخًا لهم وإظهارًا للشماتة بهم / وتقريرًا لِما كانوا [٣٢١ظ] يعِظونهم وتحقيقًا لِما أوعدوهم به. وإيثار صيغة الماضي للدلالة على تحقّقه وتحتُّم وقوعه حسبما هو المعتاد في إخباره سبحانه وتعالى، كقوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف، ٤٤/٧]، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ﴾ [الأعراف، ٤٨/٧].

﴿إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ﴾ الفضيحة والذلّ والهوان ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ منصوب بالخِزي على رأي مَن يرى إعمال المَصدر المُصدَّر باللام، أو بالاستقرار في الظرف، وفيه فَصْل بين العامل والمعمول بالمعطوف إلّا أنّه مغتفَر في الظروف، وإيرادُه للإشعار بأنّهم كانوا قبل ذلك في عزّة وشِقاق، ﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾ العذاب ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بالله تعالى وبآياته ورسله.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٨﴾

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بتأنيث الفعل، وقُرئ بتذكيره[3] وبإدغام التاء في التاء.[4] والعدول إلى صيغة المضارع لاستحضار صورة تَوفّيهم إيّاهم لِما فيها

---

[1] ما وقفت على صاحب القول فيما بين يديّ من المظانّ.
[2] قرأ بها نافع. النشر لابن الجزري، ٣٠٣/٢.
[3] قرأ بها حمزة وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٠٣/٢.
[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧١.

مِن الهَول، والموصولُ في محلّ الجرّ على أنّه نَعت للكافرين أو بدل منه أو في محلّ النصب أو الرفع على الذمّ، وفائدتُه تخصيص الخِزي والسوء بمَن استمرّ كُفره إلى حين الموت دون مَن آمن منهم ولو في آخر عُمره، أي: على الكافرين المُستمرّين على الكفر إلى أن تتوفّاهم الملائكة ﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: حالَ كونهم مستمرّين على الكفر، فإنّه ظلم منهم لأنفسهم وأيُّ ظلم؟ حيث عرّضوها للعذاب المخلَّد وبدّلوا فطرةَ الله تبديلًا.

﴿فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: فيُلقُون. والعدول إلى صيغة الماضي للدلالة على تحقّق الوقوع، وهو عطفٌ على قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ﴾،[1] وما بينهما جملة اعتراضيّة جيءَ بها تحقيقًا لِما حاق بهم مِن الخِزي على رءوس الأشهاد، أي: فيُسالِمون ويتركون المُشاقّة وينزِلون عمّا كانوا عليه في الدنيا مِن الكِبْر وشدّة الشكيمة قائلين: ﴿مَا كُنَّا نَعۡمَلُ﴾ في الدنيا ﴿مِن سُوٓءِۭ﴾ أي: مِن شِرك، قالوه منكِرين لصدوره عنهم، كقولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام، ٢٣/٦].

وإنّما عبّروا عنه بالسوء اعترافًا بكونه سيّئًا لا إنكارًا لكونه كذلك مع الاعتراف بصدوره عنهم. ويجوز أن يكون تفسيرًا لـ﴿ٱلسَّلَمَ﴾ على أن يكون المراد به الكلامَ الدالّ عليه، وعلى التقديرين فهو جواب عن قوله سبحانه:
[٣٢٢و] ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ﴾[2] كما في سورة الأنعام[3] / لا عن قول أولي العِلم ادّعاء لعدم استحقاقهم لِما دهِمهم مِن الخِزي والسوء.

﴿بَلَىٰٓ﴾ ردّ عليهم مِن قِبَل أولي العِلم وإثبات لِما نفَوه، أي: بلى كنتُم تعملون ما تعملون. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ فهو يجازيكم عليه، وهذا أوانُه.

﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٢٩﴾

﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ أي: كلّ صنف بابَه المُعَدَّ له. وقيل: أبوابها أصناف

---

١ في الآية السابقة.

٢ في الآية السابقة.

٣ وفي هامش م: من قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ۝ ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام، ٢٢/٦-٢٣]. «منه».

عذابها، فالدخولُ عبارة عن الملابسة والمقاساة. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ إن أُريدَ بالدخول حدوثُه فالحال مقدَّرة، وإن أُريدَ مطلق الكون فيها فهي مقارِنة.

﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: عن التوحيد، كما قال تعالى: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل، ٢٢/١٦]. وذِكرُهم بعنوان التكبّر للإشعار بعلِّيّته لثوائهم فيها، والمخصوصُ بالذمّ محذوف، أي: جهنّمُ. وتأويلُ قولهم: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾[1] بأنّا ما كنّا عاملين ذلك في اعتقادنا رَوْمًا للمحافظة على ألّا كذِبَ ثمّة يردّه الردّ المذكور وما في سورة الأنعام مِن قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأنعام، ٢٤/٦].

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٣٠﴾

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ أي: المؤمنين، وُصفوا بالتقوى إشعارًا بأنّ ما صدَر عنهم مِن الجواب ناشئ عن التقوى: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًا﴾ سلكوا في الجواب مَسلَك السؤال مِن غير تلعثُم ولا تغيير في الصورة، والمعنى: أي: أنزل خيرًا فإنّه جواب مطابق للسؤال سبكًا وللواقع في نفس الأمر مضمونًا، وأمّا الكفَرة فإنّهم خذلهم الله تعالى كما غيَّروا الجواب عن نهج الحقّ الواقع الذي ليس له مِن دافع غيَّروا صورته وعدَلوا بها عن سَنن السؤال، حيث رفعوا الأساطير رَومًا لِما مرّ مِن إنكار النزول.

رُوي أنّ أحياء العرب كانوا يبعثون أيّام الموسم مَن يأتيهم بخبر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فإذا جاء الوافد كفَّه المقتسِمون وأمروه بالانصراف وقالوا: إن لم تلقَه كان خيرًا لك، فيقول: أنا شرُّ وافد إن رجعت / إلى قومي دون أن [٣٢٢ظ]
أستطلع أمرَ محمّد وأراه، فيلقى أصحابَ النبي صلّى الله عليه وسلّم ورضي عنهم فيخبرونه بحقيقة الحالِ فهم الذين قالوا خيرًا.[2]

---

[1] في الآية السابقة.

[2] بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ١٧/٥؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤٤٣/٢.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ أي: أعمالَهم أو فعلوا الإحسانَ ﴿فِي هَٰذِهِ﴾ الدار ﴿ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي: مثُوبة حسنة مكافأةً فيها.

﴿وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ﴾ أي: مثوبتهم فيها ﴿خَيْرٌ﴾ ممّا أوتوا في الدنيا مِن المثوبة، أو خيرٌ على الإطلاق فيجوز إسناد الخيريّة إلى نفس دار الآخرة.

﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: دار الآخرة، حُذف لدلالة ما سبَق عليه. وهذا كلام مبتدأ مدَح الله تعالى به المتّقين وعدّ جوابَهم المَحكيّ مِن جملة إحسانهم ووعدهم بذلك ثوابَي الدنيا والآخرة فلا محلّ له مِن الإعراب، أو بدلٌ مِن ﴿خَيْرًا﴾ أو تفسير له، أي: أنزل خيرًا هو هذا الكلام الجامع، قالوه ترغيبًا للسائل.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٣١﴾

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف، أو مبتدأ خبره محذوف، أي: لهم جنّات، ويجوز أن يكون هو المخصوص بالمدح. ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ صفة لـ﴿جَنَّٰتُ﴾ على تقدير تنكير ﴿عَدْنٍ﴾، وكذلك ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، أو كلاهما حال على تقدير عَلَميّته.

﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ في تلك الجنّات ﴿مَا يَشَآءُونَ﴾ الظرف الأوّل خبرٌ لـ﴿مَا﴾ والثاني حال منه، والعامل ﴿مَا﴾ في الأوّل، أو متعلّق به، أي: حاصل لهم فيها ما يشاءون مِن أنواع المشتَهيات. وتقديمُه للاحتراز عن توهّم تعلّقِه بالمشيئة، أو لِما مرّ مرارًا مِن أنّ تأخير ما حقُّه التقديم يُوجِب ترقّبَ النفسِ إليه فيتمكّن عند وروده عليها فضلَ تمكّن.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلَ ذلك الجزاء الأوفى ﴿يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ "اللام" للجنس، أي: كلّ مَن يتّقي مِن الشِّرك والمعاصي، ويدخُل فيه المتّقون المذكورون دخولًا أوّليًا، ويكون فيه بَعْث لغيرهم على التقوى، أو للعهد فيكون فيه تخسير للكفَرة.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٣٢﴾

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ نعت للمتّقين، وقوله تعالى: ﴿طَيِّبِينَ﴾ أي:[١] طاهرين عن دنَس الظلم لأنفسهم، حال مِن الضمير، وفائدتُه الإيذان بأنّ مَلاك الأمر في التقوى هو الطهارة عمّا ذُكر إلى وقت توفّيهم، ففيه حثّ للمؤمنين على الاستمرار على ذلك، / ولغيرهم على تحصيله. وقيل: فرحين طيّبي [٣٢٣و] النفوس ببِشارة الملائكة إيّاهم بالجنّة، أو طيّبين بقبض أرواحِهم لتوجّه نفوسهم بالكلّيّة إلى جناب القُدس.[٢]

﴿يَقُولُونَ﴾ حال مِن الملائكة، أي: قائلين لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ قال القُرَظي رحمه الله: إذا استُدعيَت نفس المؤمن جاءه ملَك الموت عليه السلام، فقال: «السلامُ عليك يا وليَّ الله، الله تعالى يقرأ عليك السلام»، وبشّره بالجنّة.[٣]

﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ "اللام" للعهد، أي: جنّات عدن... إلخ، ولذلك جُرِّدت عن النعت، والمراد دخولهم لها في وقته، فإنّ ذلك بِشارة عظيمة وإن تراخى المبشَّر به لا دخولَ القبر الذي هو روضة مِن رياضها، إذ ليس في البِشارة به ما في البِشارة بدخول نفس الجنّة.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بسبب ثباتكم على التقوى والطاعة، أو بالذي كنتم تعملونه مِن ذلك. وقيل: المراد بالتوفّي التوفّي للحشر، لأنّ الأمر بالدخول حينئذ يتحقّق.[٤]

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٣٣﴾

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي: ما ينتظر كفّار مكّةَ المارُّ ذكرُهم ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم بالعذاب، جُعلوا منتظِرين لذلك وشتّان بينهم وبين انتظاره،

---

١ ط س - أي.
٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٦٠.
٣ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٤/٢١٣؛ وبلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٤٣.
٤ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٦٠.

لا لأنّه يلحقهم البتّةَ لحوق الأمر المنتظَر؛ بل لمباشرتهم لأسبابه الموجبة له المؤدِّية إليه، فكأنّهم يقصِدون إتيانه ويترصّدون لوروده، وقُرئ بتذكير الفعل.[١]

﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ التعرّض لوصف الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام إشعار بأنّ إتيانه لطف به صلّى الله عليه وسلّم وإن كان عذابًا عليهم، والمرادُ بالأمر العذاب الدنيويُّ لا القيامة، لكن لا لأنّ انتظارها بجامع انتظار إتيان الملائكة، فلا يلائمه العطف بـ﴿أَوْ﴾ لأنّها ليست نصًا / في العِناد، إذ يجوز أن يعتبَر منع الخلوّ ويرادَ بإيرادها كفاية كلّ واحد مِن الأمرين في عذابهم؛ بل لأنّ قوله تعالى فيما سيأتي: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ فَأَصَابَهُمْ﴾ الآية، صريحٌ في أنّ المراد به[٢] ما أصابهم مِن العذاب الدنيوي. [٣٢٣ظ]

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ فعل هؤلاء مِن الشِّرك والظلم والتكذيب والاستهزاء ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ﴾ خلَوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِن الأمم.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بما سيُتلى مِن عذابهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ﴾ بما كانوا مستمرّين عليه مِن القبائح الموجبةِ لذلك ﴿أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ كان الظاهر أن يقال: ولكن كانوا هم الظالمين كما في سورة الزخرف،[٣] لكنّه أوثر ما عليه النظم الكريم لإفادة أنّ غائلة ظلمهم آيلة إليهم وعاقبتَه مقصورةٌ عليهم، مع استلزام اقتصارِ ظُلم كلّ أحد على نفسه مِن حيث الوقوعُ اقتصارَه عليه مِن حيث الصدور. وقد مرّ تحقيقُه في سورة يونس.[٤]

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ٣٤﴾

﴿فَأَصَابَهُمْ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[٥] وما بينهما اعتراض لبيان أنّ فعلهم ذلك ظُلم لأنفسهم. ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ أي: أجزيةُ أعمالِهم السيّئة على طريقة تسمية المُسبَّب باسم سببِه إيذانًا لفظاعته، لا على حذف المضاف؛ فإنّه يوهِم أنّ لهم أعمالًا غيرَ سيّئاتهم.

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٣.
٢ س – به.
٣ في الآية السادسة والسبعين منها.
٤ في تفسير الآية الرابعة والأربعين منها.
٥ في الآية السابقة.

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: أحاط بهم مِن الحَيق الذي هو إحاطةُ الشرّ، وهو أبلغ مِن الإصابة وأفظع ﴿مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ مِن العذاب.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٖ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ٣٥﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ أي: أهل مكّة، وهو بيان لفنّ آخرَ مِن كفرهم، والعدول عن الإضمار إلى الموصول لتقريعهم بما في حيّز الصلة وذمِّهم بذلك مِن أوّل الأمر.

﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٖ﴾ أي: لو شاء عدم عبادتنا لشيء غيره كما تقول لَما عبدنا ذلك ﴿نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ الذين نقتديهم في ديننا، ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٖ﴾ مِن السوائب والبحائر وغيرها. وإنّما قالوا ذلك تكذيبًا للرسول عليه السلام وطعنًا في الرسالة رأسًا متمسِّكين بأنّ ما شاء الله تعالى يجِب وما لم يشأ يمتنع، / فلو أنّه شاء أن نوحِّده ولا نُشرِكَ به شيئًا ولا نُحرِّمَ [٣٢٠و]
ممّا حرّمنا شيئًا -كما يقوله الرسل وينقُلونه مِن جهة الله عزّ وجلّ- لكان الأمر كما شاء مِن التوحيد ونفي الإشراك وما يتبعهما، وحيث لم يكن كذلك ثبت أنّه لم يشأ شيئًا مِن ذلك.

وإنّما يقوله الرسل مِن تلقاء أنفسهم فأجيبَ عنه بقوله عزّ وجلّ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الفعل الشنيع ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِن الأمم، أي: أشركوا بالله وحرّموا حِلّه وردّوا رسله وجادلوهم بالباطل حين نبّهوهم على الخطأ وهَدَوْهم إلى الحقّ.

﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ﴾ الذين يبلِّغون رسالات الله وعزائمَ أمره ونهيه ﴿إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: ليست وظيفتهم إلّا تبليغ الرسالة تبليغًا واضحًا أو موضحًا، وإبانةُ طريق الحقّ وإظهار أحكام الوحي الذي مِن جملتها تحتُّم تعلُّق مشيئةِ الله تعالى باهتداء مَن صَرَف قدرته واختياره إلى تحصيل الحقّ، لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت، ٦٩/٢٩].

وأمَّا إلجاؤهم إلى ذلك وتنفيذ قولهم عليهم شاءوا أو أبَوا كما هو مقتضى استدلالهم، فليس ذلك مِن وظيفتهم ولا مِن الحكمة التي عليها يدور أمْر التكليف في شيء حتّى يُستدلَّ بعدم ظهور آثاره على عدم حقّيّة الرسل أو على عدم تعلُّق مشيئته تعالى بذلك، فإنّ ما يترتَّب عليه الثواب والعقاب مِن أفعال العباد لا بدّ في تعلّق مشيئته تعالى بوقوعه مِن مباشرتهم الاختياريّة له وصرفِ اختيارهم الجزئي إلى تحصيله، وإلّا لكان الثواب والعقاب اضطراريَّين، فـ"الفاءُ" للتعليل، كأنّه قيل: كذلك فعَل أسلافهم، وذلك باطل فإنّ الرسل ليس شأنهم إلّا تبليغَ أوامر الله سبحانه ونواهيه لا تحقيقَ مضمونهما وإجراءَ موجَبهما على الناس قسرًا وإلجاءً، وإيرادُ كلمة ﴿عَلَى﴾ للإيذان بأنّهم في ذلك مأمورون أو بأنّ ما يبلغونه حقٌّ للناس عليهم إيفاؤه. وبهذا ظهر أنّ حَمْل قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾... إلخ، على الاستهزاء لا يلائم الجواب، والله تعالى أعلمُ بالصواب.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ تحقيق لكيفيّة تعلّقِ مشيئته تعالى بأفعال العباد بعد بيان أنّ الإلجاء ليس مِن وظائف الرسالة / ولا مِن باب المشيئة [٣٢٠ظ]
المتعلِّقة بما يدور عليه الثواب والعقاب مِن الأفعال الاختياريّة لهم، أي: بعثنا في كلّ أمّة مِن الأمم الخالية رسولًا خاصًّا بهم ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ يجوز أن يكون ﴿أَنْ﴾ مفسِّرةً لِما في البعث مِن معنى القول وأن يكون مصدريّةً، أي: بعثنا بأن اعبدوا الله وحدَه، ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ هو الشيطانُ وكلُّ ما يدعو إلى الضلالة.

﴿فَمِنْهُم﴾ أي: مِن تلك الأمم، و"الفاء" فصيحة، أي: فبلَّغوا ما بُعثوا به مِن الأمر بعبادة الله وحدَه واجتناب الطاغوت فتفرَّقوا، فمنهم ﴿مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾ إلى الحقّ الذي هو عبادته واجتنابُ الطاغوت بعد صَرْف قدرتهم واختيارهم الجزئي إلى تحصيله، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ أي: وجبَت وثبَتت إلى حين الموت لعِناده وإصراره عليها وعدم صَرْف قدرته إلى تحصيل الحقّ.

وتغيير الأسلوب للإشعار بأنّ ذلك لسوء اختيارهم، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء، ٢٦/٨٠]. فلم يكن كلٌّ مِن مشيئة الهداية وعدمها إلّا حسبما حصَل منهم مِن التوجّه إلى الحقّ وعدمه، لا بطريق القسر والإلجاء حتّى يُستدلّ بعدمهما على عدم تعلُّق مشيئته تعالى بعبادتهم له تعالى وحدَه.

﴿فَسِيرُوا﴾ يا معشرَ قريش ﴿فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا﴾ في أكنافها ﴿كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ مِن عاد وثمودَ ومَن سار سِيرتَهم ممّن حقّت عليهم الضلالة لعلّكم تعتبرون حين تشاهدون في منازلهم وديارهم آثارَ الهلاك والعذاب. وترتيب الأمر بالسير على مجرّد الإخبار بثبوت الضلالة عليهم مِن غير إخبار بحلول العذاب للإيذان بأنّه غنيّ عن البيان وأن ليس الخبرُ كالعِيان، وترتيبُ النظر على السير لِما أنّه بعده وأنّ مَلاك الأمر في تلك العاقبة هو التكذيب والتعلّل بأنّه لو شاء الله ما عبدنا مِن دونه مِن شيء.

﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ۝٣٧﴾

﴿إِن تَحْرِصْ﴾ خطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وقرئ بفتح الراء[1] وهي لُغيّة. ﴿عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ﴾ أي: إن تطلُب هدايتهم بجهدك ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ أي: فاعلم أنّه / تعالى لا يخلق الهداية جبرًا وقسرًا فيمَن يخلُق فيه [٣٢٤و]
الضلالة بسوء اختياره، والمرادُ به قريش، وإنّما وُضِع الموصول مَوضعَ الضمير للتنصيص على أنّهم ممّن حقّت عليه الضلالة والإشعارِ بعلّة الحُكم.

ويجوز أن يكون المذكور علّة للجزاء المحذوف، أي: إن تحرِص على هداهم فلست بقادر على ذلك؛ لأنّ الله لا يهدي مَن يُضلّه وهؤلاء مِن جملتهم. وقُرئ: "لَا يُهْدَى"[2] على بناء المفعول، أي: لا يقدِر أحد على هداية مَن يُضلّه الله تعالى، وقُرئ: "لَا يَهَدِّيْ"[3] بفتح الهاء وإدغام تاء يهتدي في الدال،

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن النخَعي والحسن وأبي البرَهسَم وأبي حَيْوَة والسُّلمي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٦-٧٧؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧١؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١١٠٦.

[2] قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٠٤/٢.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. الكشّاف للزمخشري، ٤٤٥/٢.

ويجوز أن يكون يهدي بمعنى يهتدي، وقرئ: "يَضِلُّ"[١] بفتح الياء، وقُرئ: "لَا هَادِيَ لِمَنْ يُضِلُّ وَلِمَنْ أَضَلَّ".[٢]

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ينصرونهم في الهداية أو يدفعون العذاب عنهم، وصيغة الجمع في "الناصرين" باعتبار الجمعيّة في الضمير، فإنّ مقابلة الجمع بالجمع يقتضي انقسام الآحاد إلى الآحاد، لا لأنّ المراد نفي طائفة مِن الناصرين مِن كلّ منهم.

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٨﴾

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ شروع في بيان فنّ آخرَ مِن أباطيلهم وهو إنكارهم البعث ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ مَصْدر في موقع الحال، أي: جاهدين في أيمانهم ﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ ولقد ردّ الله تعالى عليهم أبلغَ ردّ بقوله الحقّ.

﴿بَلَىٰ﴾ أي: بلى يبعَثهم ﴿وَعْدًا﴾ مَصْدر مؤكِّد لِما دلّ عليه ﴿بَلَىٰ﴾، فإنّ ذلك موعد مِن الله سبحانه، أو لِمحذوف، أي: وعَد بذلك وَعْدًا ﴿عَلَيْهِ﴾ صفة لـ﴿وَعْدًا﴾، أي: وعدًا ثابتًا عليه إنجازه لامتناع الخُلف في وَعْده، أو لأنّ البعث مِن مقتضيات الحِكمة. ﴿حَقًّا﴾ صفة أخرى له، أو نصبٌ على المصدريّة، أي: حقّ حقًّا.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ لجهلهم بشئون الله عزّ شأنه مِن العِلم والقدرة والحكمة وغيرها مِن صفات الكمال، وبما يجوز عليه وما لا يجوز وعدم وقوفهم على سرّ التكوين والغاية القصوى منه، وعلى أنّ البعث ممّا يقتضيه الحكمة التي جرت عادته سبحانه بمراعاتها. ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّه يبعثهم فيبتّون[٣] القول بعدمه أو أنّه وَعْد عليه حقّ فيكذبونه قائلين: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون، ٢٣/٨٣].

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧١.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ. الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٤٥.

[٣] س: فبتّون.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ٣٩﴾

/ ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ غاية لِما دلّ عليه ﴿بَلَىٰ﴾[1] مِن البعث، والضمير لمَن يموت، [٣٢٤ظ]
إذ التبيين يعمّ المؤمنين أيضًا فإنّهم وإن كانوا عالمين بذلك لكنّه عند معاينة حقيقة الحال يتّضح الأمر فيصِل علمهم إلى مرتبة عين اليقين، أي: يبعثهم ليبيِّنَ لهم بذلك وبما يحصُل لهم مِن مشاهدة الأحوال كما هي ومعاينتها بصورها الحقيقيّة الشأنِ ﴿ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ مِن الحقّ المنتظِم لجميع ما خالفوه ممّا جاء به الشرعُ المُبين، ويدخُل فيه البعث دخولًا أوّليًّا.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بالله سبحانه بالإشراك وإنكار البعث وتكذيب وعده الحقّ ﴿أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ في كلّ ما يقولون لاسيّما في قولهم: ﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾.[2]

والتعبير عن الحقّ بالموصول للدلالة على فخامته، وللإشعار بعلّيّة ما ذُكر في حيّز الصلة للتبيين وما عُطف عليه، وجعلِهما غاية للبعث المشار إليه باعتبار وروده في معرِض الردّ على المخالِفين، وإبطالِ مقالة المعاندين المستدعي للتعرّض لِما يردعهم عن المخالفة ويُلجِئهم إلى الإذعان للحقّ؛ فإنّ الكفَرة إذا علِموا أنّ تحقيق البعث إذا كان لتبيين أنّه حقّ وليعلموا أنّهم كاذبون في إنكاره كان ذلك أزجر لهم عن إنكاره وأدعى إلى الاعتراف به ضرورةَ أنّه يدلّ على صدق العزيمةِ على تحقيقه، كما تقول لمَن ينكر أنّك تصلّي: "لأصَلّيَنّ رغمًا لأنفك وإظهارًا لكذبك"، ولأنّ تكرّر الغايات أدلُّ على وقوع الفعل المُغيّا بها، / وإلّا فالغاية الأصليّة للبعث باعتباره ذاتَه إنّما هو الجزاء الذي هو الغاية [٣٢٥و]
القصوى للخَلْق المُغيّا بمعرفته عزّ وجلّ وعبادته، وإنّما لم يُذكر ذلك لتكرّر ذِكره في مواضعَ أُخَرَ وشهرته.

وإنّما لم يُدرَج عِلم الكفّار بكذبهم تحت التبيين بأن يقال: وإنّ الذين كفروا كانوا كاذبين؛ بل جيء بصيغة العِلم؛ لأنّ ذلك ليس ممّا تعلّق به التبيين الذي هو عبارة عن إظهار ما كان مُبهَمًا قبل ذلك بأن يُخبَر به فيُختلَف فيه،

---

[1] في الآية السابقة.

[2] في الآية السابقة.

كالبعث الذي نطق به القرآن فاختلف فيه المختلفون، وأمّا كَذِب الكافرين فليس مِن هذا القبيل، فما يتعلّق به عِلم ضروريّ حاصل لهم مِن قِبَل أنفسهم، وقد مرّ تحقيقه في سورة التوبة عند قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ [التوبة، ٤٣/٩]. وإنّما خُصّ الإسناد بهم حيث لم يقل: "وليعلموا أنّ الكافرين" الآية، لأنّ عِلمَ المؤمنين بذلك حاصل قبل ذلك أيضًا.

﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝﴾

﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا﴾ استئناف لبيان كيفيّة التكوين على الإطلاق إبداءً وإعادةً بعد التنبيه على آنيّة البعث، ومنه يظهر كيفيّته، فـ﴿مَا﴾ كافّة و﴿قَوۡلُنَا﴾ مبتدأ، وقوله: ﴿لِشَيۡءٍ﴾ أي: أيّ شيء كان ممّا عزّ وهان متعلِّق به، على أنّ "اللام" للتبليغ كهي في قولك: "قلتُ له قُم فقام"، وجعلها الزجّاج سببيّة، أي: لأجل شيء.[1] وليس بواضح.[2] والتعبير عنه بذلك باعتبار وجوده عند تعلّق مشيئته تعالى به، لا أنّه كان شيئًا قبل ذلك. ﴿إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ﴾ ظرف لـ﴿قَوۡلُنَا﴾، أي: وقت إرادتنا لوجوده.

﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن﴾ خبر للمبتدأ. ﴿فَيَكُونُ﴾ إمّا عطفٌ على مقدَّر يُفصِح عنه "الفاء" وينسحب عليه الكلام، أي: فنقول ذلك فيكون كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [غافر، ٦٨/٤٠]، وإمّا جواب[3] لشرط محذوف، أي: فإذا قلنا ذلك فهو يكون.

وليس هناك قول ولا مَقول له ولا أمر ولا مأمور حتّى يقال إنّه يلزَم منه أحد المُحالين، إمّا خطابُ المعدوم أو تحصيل الحاصل، أو يقال إنّ ما يستدعيه انحصار قوله تعالى في قوله تعالى: ﴿كُن﴾، وليس يلزَم منه انحصار أسباب التكوين فيه كما يُفيده قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس، ٨٢/٣٦]، فإنّ المراد بالأمر هو الشأن الشامل للقول والفعل، ومِن ضرورة انحصاره في كلمة ﴿كُن﴾ انحصارُ أسبابه على الإطلاق فيه؛

---

١ انظر: **معاني القرآن وإعرابه** للزجّاج، ١٩٩/٣.

٢ قول الزجّاج مع الردّ عليه في **الدرّ المصون** للسمين الحلبي، ٢٢٠/٧؛ **واللباب** لابن عادل، ٥٧/١٢.

٣ السياق: إمّا عطفٌ... وإمّا جواب...

بل إنّما هو تمثيل لسهولة تأتّي المقدورات حسب تعلّق مشيئته تعالى بها، وتصويرٌ لسرعة حدوثها بما هو عَلَم في ذلك مِن طاعة المأمور المطيع / لأمر [٣٢٥ظ] الآمر المُطاع، فالمعنى إنّما إيجادنا لشيء عند تعلّق مشيئتنا به أن نُوجده في أسرع ما يكون، ولمّا عُبّر عنه بالأمر الذي هو قول مخصوص وجَب أن يُعبّر عن مطلَق الإيجاد بالقول المطلَق، فتأمّل.

وفي الآية الكريمة مِن الفخامة والجزالة ما يحار فيه العقولُ والألباب. وقرئ بنصب ﴿يَكُونُ﴾[١] عطفًا على ﴿نَقُولَ﴾ أو تشبيهًا له بجواب الأمر.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِى ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةً وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ﴾ أي: في شأن الله تعالى ورِضاه وفي حقّه ولوجهه ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ ولعلّهم الذين ظلمهم أهل مكّة مِن أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأخرجوهم مِن ديارهم، فهاجروا إلى الحبَشة، ثمّ بوّأهم الله تعالى المدينةَ حسبما وعد بقوله سبحانه: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِى ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةً﴾ أي: مَباءة حسنة، أو تبوئةً حسنة كما قال قتادة.[٢] وهو الأنسب لما هو المشهور مِن كون السورة غيرَ ثلاثِ آياتٍ مِن آخرها مكّيّةً.

وأمّا ما نُقل عن ابن عبّاس رضي الله عنهما مِن أنّها نزلت في صهيب وبلال وعمّار وخبّاب وعابس وجُبير وأبي جندل بن سهيل،[٣] أخذهم المشركون فجعلوا يعذّبونهم ليردّوهم عن الإسلام، فأمّا صهيب فقال لهم: «أنا رجل كبير إن كنتُ معكم لم أنفعكم وإن كنت عليكم لم أضرَّكم»، فافتدى منهم بماله وهاجر،

---

١ قرأ بها ابن عامر والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٠.

٢ انظر: جامع البيان للطبري، ١٤/٢٢٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٠.

٣ هو العاص بن سهيل بن عمرو العامري بن عبد شمس بن عبد ودّ بن نصر بن حسل بن عامر بن لؤيّ بن غالب بن فهر العامري القرشي، أبو جندل. كان مِن السابقين إلى الإسلام وقد حبسه أبوه وقيّده بسبب إسلامه، فلمّا كان صلح الحديبية هرب يحجل في قيوده وأبوه حاضر بين يدي النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لكتاب الحديبية، ثمّ خلص وهاجر وجاهد، وكان مِن خيار الصحابة. انظر: الاستيعاب لابن عبد البرّ، ٤/١٦٢١؛ وسير أعلام النبلاء للذهبي، ١/١٩٢.

فلمّا رآه أبو بكر رضي الله عنه قال: «ربِحَ البيع يا صهيبُ»، وقال عمرُ رضي الله عنه: «نعم العبدُ صُهيب لو لم يخِفِ الله لم يَعْصِه»،[١] فإنّما يُناسِب[٢] ما حُكي عن الأصمّ مِن كون كلّ السورة مدنيّة.[٣]

وما نُقل عن قتادةَ مِن كون هذه الآية إلى آخر السورة مدنيّة[٤] فيُحمَل ما نقلنا عنه مِن نزول الآية في أصحاب الهجرتَين، على أن يكون نزولها بالمدينة بين الهجرتَين. وأمّا جَعْل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مِن جملتهم فلا يُساعده نظم التنزيل ولا شأنه الجليل. وقرئ: "لنُثْوِيَنَّهُمْ"،[٥] ومعناه إثواءةً حسَنة أو لنُنزِلَنّهم في الدنيا منزلةً حسَنة، وهي الغَلبة على مَن ظلَمهم مِن أهل مكّةَ وعلى العَرب قاطبةً وأهلِ الشرق والغرب كافّة.

[٣٢٦و] ﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: أجر أعمالهم المذكورة في الآخرة ﴿أَكۡبَرُۚ﴾ / ممّا يعجَّل لهم في الدنيا، وعن عمر رضي الله عنه أنّه كان إذا أعطى رجلًا مِن المهاجرين عطاءً قال له: «خُذ بارك الله تعالى لك فيه، هذا ما وعدك الله تعالى في الدنيا وما ادّخر في الآخرة أفضلُ».[٦]

﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ الضمير للكفّار، أي: لو علموا أن الله تعالى يجمع لهؤلاء المهاجرين خيرَ الدارين لوافقوهم في الدين، وقيل: للمهاجرين أي لو علموا ذلك لزادوا في الاجتهاد أو لَما تألموا لِما أصابهم مِن المهاجَرة وشدائدِها.

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٤٢﴾

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على الشدائد مِن أذيّة الكفّار ومفارقة الأهل والوطن وغير ذلك، ومحلُّه النصب أو الرفع على المدح.

---

١ الكلام كلُّه من قوله: "ابن عبّاس" بلفظ قريب في اللباب لابن عادل، ٥٩/١٢؛ وبعضه في أسباب النزول للواحدي، ص ٢٨٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٠/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٤٦/٢.

٢ السياق: وأمّا ما نُقِل... فإنّما يُناسِب...

٣ انظر: اللباب لابن عادل، ٣/١٢ (النحل، ١/١٦).

٤ انظر: اللباب لابن عادل، ٣/١٢ (النحل، ١/١٦).

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ والأعمش والربيع بن خُثيم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٢؛ المغني في القراءات للنُّوْزاوازي، ص ١١٠٧.

٦ معالم التنزيل للبغوي، ٢٠/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٤٦/٢.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ خاصّة ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ منقطعين إليه تعالى مُعرِضين عمّا سواه مفوِّضين إليه الأمرَ كلّه، والجملةُ إمّا معطوفة على الصلة، وتقديمُ الجارّ والمجرور للدلالة على قَصْر التوكّل على الله تعالى، وصيغةُ الاستقبال للدلالة على دوام التوكّل؛ أو حال[1] مِن ضمير ﴿صَبَرُواْ﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٤٣﴾

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ وقرئ بالياء مبنيًا للمفعول[2] وهو ردّ لقريش حين قالوا: الله أجلُّ مِن أن يكون له رسول مِن البشر، كما هو مبنى قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا﴾... إلخ،[3] أي: جرت السنّة الإلهيّة حسبما اقتضته الحكمة بألّا يَبعَث للدعوة العامّة إلّا بشرًا يوحي إليهم بواسطة الملَك أوامرَه ونواهيَه ليُبلّغوها الناس.

ولمّا كان المقصود مِن الخِطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم تنبيه الكفّار على مضمونه صُرف الخطاب إليهم فقيل: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ أي: أهلَ الكتاب أو علماءَ الأخبار أو كلَّ مَن يُذكَر بعِلم وتحقيق ليعلِّموكم ذلك.

﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ حُذف جوابُه لدلالة ما قبله عليه، وفيه دلالة على أنّه لم يُرسِل للدعوة العامّة ملَكًا، وقولُه تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر، ١/٣٥] معناه: رُسلًا إلى الملائكة / أو إلى الرسل، ولا امرأةً ولا صبيًا، ولا ينافيه نبوّة عيسى عليه السلام وهو في المهد لأنّها أعمُّ مِن الرسالة، وإشارة إلى وجوب المراجعة إلى العلماء فيما لا يُعلم. [٣٢٦ظ]

﴿بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾

﴿بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ بالمعجزات والكتُب، والباءُ متعلّقة بمقدّر وقَع جوابًا عن سؤال مَن قال: بمَ أُرسلوا؟ فقيل: أرسلوا بالبيّنات والزُّبر، أو بـ﴿مَآ أَرْسَلْنَا﴾[4]

---

١ السياق: إمّا معطوفة... أو حال...
٢ قرأ بها العشرة إلّا حفصًا. النشر لابن الجزري، ٢٩٦/٢.
٣ النحل، ٣٥/١٦.
٤ في الآية السابقة.

داخلًا تحت الاستثناء مع ﴿رِجَالٗا﴾[١] عند مَن يُجوِّزه، أي ما أرسلنا إلّا رجالًا بالبيّنات، كقولك: "ما ضربتُ إلّا زيدًا بالسوط"، أو على نيّة التقديم قبل أداة الاستثناء، أي: ما أرسلنا مِن قبلك بالبيّنات والزُّبر إلّا رجالًا عند مَن يُجوّز تأخّر صلةِ "ما" قبل إلّا إلى ما بعده، أو بما وقع صفةً للمستثنى، أي: إلّا رجالًا ملتبِسين بالبيّنات، أو بـ﴿نُوحِيٓ﴾[٢] على المفعوليّة أو الحاليّة[٣] مِن القائم مقامَ فاعل "يُوحَى" وهو ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾، على أنّ قوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ﴾[٤] اعتراض، أو بقوله ﴿لَا تَعۡلَمُونَ﴾[٥] على أنّ الشرط للتبكيت كقول الأجير: "إن كنتُ عمِلتُ لك فأعطِني حقّي".

﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ﴾ أي: القرآن، وإنّما سُمّي به لأنّه تذكير وتنبيه للغافلين؛ ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ كافّةً ويدخُل فيهم أهل مكّة دخولًا أوّليًا. ﴿مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ في ذلك الذِّكر مِن الأحكام والشرائع وغير ذلك مِن أحوال القرون المُهلَكة بأفانين العذاب حسب أعمالهم الموجِبة لذلك على وجه التفصيل بيانًا شافيًا، كما ينبئ عنه صيغةُ التفعيل في الفعلين لاسيّما بعد ورودِ الثاني، أو لا على صيغة الإفعال، ولِما أنّ التبيين أعمّ مِن التصريح بالمقصود ومِن الإرشاد إلى ما يدلّ عليه دخَل تحته القياسُ على الإطلاق سواء كان في الأحكام الشرعيّة أو غيرها، ولعلّ قولَه عزّ وجلّ: ﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ إشارة إلى ذلك، أي: إرادةَ أن يتأمّلوا فيتنبّهوا للحقائق وما فيه مِن العِبَر، ويحترزوا عمّا يؤدّي إلى مِثل ما أصاب الأوّلين مِن العذاب.

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٤٥﴾

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ هم أهلُ مكّةَ الذين مكروا برسول الله صلّى الله عليه وسلّم وراموا صدَّ أصحابه عن الإيمان عليهم الرضوان، لا الذين احتالوا

---

١ في الآية السابقة.
٢ في الآية السابقة.
٣ السياق: والباء متعلّقة بمقدّر... أو بـ﴿مَآ أَرۡسَلۡنَا﴾... أو بـ﴿نُوحِيٓ﴾.
٤ في الآية السابقة.
٥ في الآية السابقة.

لهلاك الأنبياء كما قيل،[١] ولا مَن يعُمّ الفريقين، لِما أنّ المراد تحذير هؤلاء عن إصابة مثل ما أصاب أولئك مِن فنون العذاب المعدودة.

و﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ نعت لمصدر محذوف، أي: مكروا المكَراتِ السيّئاتِ التي قُصّت عنهم، / أو مفعولٌ به للفعل المذكور على تضمينه معنى العمل، أي: عمِلوا السيّئات، فقوله تعالى: ﴿أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ مفعول لـ﴿أَمِنَ﴾، أو ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ صفة لِما هو المفعول، أي: أفأمن الماكرون العقوباتِ السيّئة، وقوله: ﴿أَن يَخۡسِفَ﴾... إلخ، بدل مِن ذلك. [٣٢٧و]

وعلى كلّ حال فـ"الفاء" للعطف على مقدَّر ينسحِب عليه النظم الكريم، أي: أنزلنا إليك الذِّكر لتُبيِّن لهم مضمونه الذي مِن جملته إنباء الأمم المهلَكة بفنون العذاب ويتفكّروا في ذلك، ألم يتفكّر فأمن الذين مكروا السيّئات أن يخسِف الله بهم الأرضَ كما فعل بقارون، على توجيه الإنكار إلى المعطوفين معًا، أو أتَفكّروا فأمِنوا، على توجيهه إلى المعطوف، على أنّ الأمن بعد التفكّر ممّا لا يكاد يفعله أحد. وقيل:[٢] هو عطفٌ على مقدَّر تنبئ عنه الصلةُ، أي: أَمَكَر فأمِن الذين مكروا... إلخ.[٣]

﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ بإتيانه، أي: في حالة غفلتهم، أو مِن مأمنهم، أو مِن حيث يرجون إتيانَ ما يشتهون، كما حُكي فيما سلف ممّا نزَل بالماكرين.

﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ﴾ أي: في حالة تقلّبِهم في مسائرهم ومتاجرهم، ﴿فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ بمُمتنعين أو فائتين بالهرب والفِرار، على ما يوهِمه حال التقلّب والسير. و"الفاء" إمّا لتعليل الأخذ أو لترتيب عدم الإعجاز عليه دلالة على شدّته وفظاعته، حسبما قال صلّى الله عليه وسلّم: «إن الله لَيُملي للظالم حتّى إذا أخذه لم يُفلته».[٤] وإيراد الجملة الاسميّة للدلالة على دوام النفي لا نفي الدوام.

---

١ في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٦٣.

٢ وفي هامش م: جاربردي. «منه».

٣ في هامش حاشية الجاربردي على الكشّاف، ٦٠و.

٤ صحيح البخاري، ٦/٧٤ (٤٦٨٦)؛ سنن الترمذي، ٥/٢٨٨ (٣١١٠)؛ جامع البيان للطبري، ١٢/٥٧٢ (هود، ١١/١٠٢)؛ معالم التنزيل للبغوي، ٤/١٩٩ (هود، ١١/١٠٢).

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٤٧﴾

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ أي: مخافة وحذَر عن الهلاك والعذاب بأن يُهلِك قومًا قبلهم فيتخوّفوا فيأخذَهم العذاب وهم متخوّفون، / وحيث كانت حالتا [٣٢٧ظ] التقلّب والتخوّف مَظِنةً للهرب عُبّر عن إصابة العذاب فيهما بالأخذ وعن إصابته حالة الغفلة المنبِئة عن السكون بالإتيان. وقيل: التخوّف: التنقّص، قال قائلهم:

تـخـوَّفَ الـرحـلُ منها تامكًا قَـرِدًا كما تـخـوّفَ عُـودَ النَّبْعةِ السَّفَنُ[1]

أي: يأخذهم على أن يتنقّصهم شيئًا بعد شيءٍ في أنفسهم وأموالهم حتّى يهلِكوا، والمرادُ بذِكر الأحوال الثلاث بيان قدرة الله سبحانه على إهلاكهم بأيّ وجه كان لا الحصر فيها. ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث لا يُعاجلكم بالعقوبة، ويحلُم عنكم مع استحقاقكم لها.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ۝٤٨ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٤٩﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ استفهام إنكاري، وقرئ على صيغة الخِطاب،[2] و"الواو" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: ألم ينظروا ولم يرَوا متوجِّهين ﴿إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ أي: مِن كلّ شيء ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ﴾ أي ترجع شيئًا فشيئًا حسبما تقتضيه إرادة الخالق تعالى، فإنّ التفيُّؤ مُطاوِعُ الإفاءة، وقرئ بتأنيث الفعل.[3]

---

١ البيت مختلف في نسبته: فهو لأبي كبير الهذلي في الكشف والبيان للثعلبي، ١٦/٥١؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٤٤٧؛ وأنوار التنزيل للبَيضاوي، ٢/٢٦٣؛ وهو لذي الرُّمّة في الصحاح للجوهري، «خوف»، «سفن»؛ وهو في ملحق ديوانه ٣/١٩١٧. ويُروى لغيرهما. انظر تفصيل ذلك في تخريج مُحقِّق ديوان ذي الرُّمّة ٣/١٩١٧-١٩١٨. | والتامك: السنام المرتفع. القَرِد: الذي أكله القُراد. النبعة: مفرد النبع وهو شجر تتّخذ منه القِسيّ. والسَّفَن: ما يُنحت به الشيء. انظر: لسان العرب لابن منظور، «تمك»، «قرد»، «نبع»، «سفن».

٢ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٤.

٣ قرأ بها أبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٤.

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ أي: ألم يرَوا الأشياء التي لها ظلال متفيِّئة عن أيمانها وشمائلها، أي: عن جانبَي كلّ واحد منها، استُعير لهما ذلك مِن يمين الإنسان وشِماله.

﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ حال مِن الظلال كقوله تعالى: ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ [الرعد، ١٥/١٣]. والمراد بسجودها تصرّفها على مشيئة الله سبحانه وتأتّيها لإرادته تعالى في الامتداد والتقلّص وغيرهما غيرَ ممتنِعة عليه فيما سخَّرها له.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ أي: صاغرون منقادون، حال مِن الضمير في ﴿ظِلَٰلُهُۥ﴾، والجمعُ باعتبار المعنى، وإيرادُ الصيغة الخاصّة بالعقلاء لِما أنّ الدُّخور مِن خصائصهم، / والمعنى: ترجع الظلال مِن جانب إلى جانب بارتفاع [٣٢٨و] الشمس وانحدارها، أو باختلاف مشارقها ومغاربها، فإنّها كلّ يوم مِن أيّام السنة تتحرَّك على مدار معيَّن مِن المدارات اليوميّة بتقدير العزيز العليم منقادةً لِما قُدِّر لها مِن التفيُّؤ أو واقعةً على الأرض ملتصقةً بها على هيئة الساجد، والحالُ أنّ أصحابها مِن الأجرام داخرة منقادة لحُكمه تعالى، ووصفُها بالدُّخور مغنٍ عن وصف ظلالها به، أو كلاهما حال مِن الضمير المشار إليه، والمعنى: ترجع ظلال تلك الأجرام حالَ كونها منقادةً لله تعالى داخرةً، فوصفُها بهما مغنٍ عن وصف ظلالها بهما.

ولعلّ المرادَ بالموصول الجماداتُ مِن الجبال والأشجار والأحجار التي لا يظهَر لظلالها أثر سوى التفيُّؤ بما ذُكر مِن ارتفاع الشمس وانحدارها أو اختلاف مشارقها ومغاربها، وأمّا الحيوان فظلُّه يتحرّك بتحرّكه. وقيل: المراد بـ﴿ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ يمينُ الفَلك وهو جانبه الشرقيّ؛ لأنّ الكواكب منه تظهر آخذةً في الارتفاع والسطوع، وشمالُه وهو جانبُه الغربيُّ المقابل له، فإنّ الظلال في أوّل النهار تبتدئ مِن الشرق واقعةً على الرُّبع الغربي مِن الأرض وعند الزوال تبتدئ مِن الغرب واقعةً على الربع الشرقي منها.[١]

وبعد ما بيّن سجود الظلال وأصحابها مِن الأجرام السفليّة الثابتة في أحيازها ودخورُهما له سبحانه وتعالى شُرع في بيان سجود المخلوقات المتحرِّكة بالإرادة

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٦٤/٢.

سواء كانت لها ظلال أو لا، فقيل: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ أي: له تعالى وحدَه يخضع وينقاد لا لشيء غيره استقلالًا أو اشتراكًا، فالقصرُ ينتظم القلبَ والإفراد إلّا أن الأنسب بحال المخاطَبين قصرُ الإفراد، كما يؤذن به قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾.[1]

[٣٢٨ظ] / ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ قاطبة ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ كائنًا ما كان ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ بيان لِما في الأرض. وتقديمه لقلّته ولئلّا يقعَ بين المُبيّن والمُبيَّن فَصل، والإفرادُ مع أنّ المراد الجمع لإفادة وضوح شمول السجود لكلّ فرد مِن الدوابّ. قال الأخفش: «هو كقولك: ما أَتَانِي مِن رَجُلٍ مثلِه وما أتاني مِن الرجال مثلُه».[2]

﴿وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ عطفٌ على ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ عطفَ جبريلَ على الملائكة تعظيمًا وإجلالًا، أو على أن يُراد بـ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الخَلقُ الذي يقال له: الروح، أو يراد به ملائكةُ السماوات، وبقوله: ﴿وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ ملائكةُ الأرض مِن الحفَظة وغيرِهم.

﴿وَهُمۡ﴾ أي: الملائكةُ مع عُلوّ شأنهم ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ عن عبادته عزّ وجلّ والسجود له. وتقديم الضمير ليس للقصر، والجملة إمّا حال مِن فاعل ﴿يَسۡجُدُ﴾ مسنَدًا إلى ﴿ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ﴾، أو استئنافٌ أُخبر عنهم بذلك.

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ۩ ۝٥٠ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّـٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٥١﴾

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم﴾ أي: مالكَ أمرهم، وفيه تربية للمهابة وإشعار بعلّة الحُكم. ﴿مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ أي: يخافونه جلّ وعلا خوفَ هَيبة وإجلال وهو فوقهم بالقهر، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام، ١٨/٦]، أو يخافون أن يُرسِل عليهم عذابًا مِن فوقهم، والجملة حال مِن الضمير في لا يستكبرون أو بيان له وتقرير لأنّ مَن يخاف الله سبحانه لا يستكبر عن عبادته.

---

[1] النحل، ٥١/١٦.

[2] معاني القرآن للأخفش، ٤١٦/٢؛ وهو عنه في اللباب لابن عادل، ٧٣/١٢.

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ۩﴾ أي: ما يؤمَرون به مِن الطاعات والتدبيرات، وإيرادُ الفعل مبنيًا للمفعول جَرْي على سَنن الجلالة وإيذانٌ بعدم الحاجة إلى التصريح بالفاعل لاستحالة استناده إلى غيره سبحانه، وفيه أنّ الملائكة مكلّفون مُدارون بين الخوف والرجاء.

وبعد ما بيّن أنّ جميع الموجودات يُخَصّون الخضوع والانقياد الطبيعي وما يجري مجراه مِن عبادة الملائكة حيث لا يُتصوَّر منهم عدم الانقياد أصلًا لله عزّ وجلّ، أُردِف / ذلك بحكاية نهْيِه سبحانه وتعالى للمكلَّفين عن الإشراك [٣٢٩و]
فقيل: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾ عطفًا على قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾، وإظهارُ الفاعل وتخصيصُ لفظة الجلالة بالذِّكر للإيذان بأنّه متعيّنُ الألوهيّة، وإنّما المنهيّ عنه هو الإشراك به لا أنّ المنهيّ عنه مطلَق اتّخاذِ إلهين بحيث يتحقّق الانتهاء عنه برفض أيّهما كان، أي: قال تعالى لجميع المكلّفين: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾.

وإنّما ذُكر العدد مع أنّ صيغة التثنية مُغنِية عن ذلك دلالة على أنّ مَساق النهي هو الاثنَينيّة وأنّها منافيةٌ للألوهيّة، كما أنّ وَصْف الإله بالوَحدة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ للدلالة على أنّ المقصود إثبات الوحدانيّة وأنّها مِن لوازم الإلهيّة، وأمّا الإلهيّة فأمر مُسلَّمُ الثبوت له سبحانه، وإليه أشيرَ حيث أسندَ إليه القول. وفيه التفاتٌ مِن التكلّم إلى الغَيبة على رأي مَن اكتفى في تحقّق الالتفات بكون الأسلوب الملتفَت عنه حقَّ الكلام، ولم يشترِط سبقَ الذِّكر على ذلك الوجه.[١]

﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ التفات مِن الغيبة إلى التكلّم لتربية المهابة وإلقاء الرهبة في القلوب، ولذلك قُدِّم المفعول وكُرِّر الفعلُ، أي: إن كنتم راهبين شيئًا فإيايَ ارهبوا فارهبون لا غيرُ، فإنّي ذلك الواحد الذي يسجُد له ما في السماوات والأرض.

﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ۝٥٢﴾

﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ خلقًا ومُلكًا، تقرير لعلّة انقياد ما فيهما له سبحانه خاصّة، وتحقيق لتخصيص الرهبة به تعالى. وتقديم الظرف لتقوية

---

١ كما هو مذهب السّكّاكي في الالتفات، وقد يُفهَم مِن كلام الزمخشري. انظر: **مفتاح العلوم** للسّكّاكي، ص ٢٩٩، و**المطوَّل** للتفتازاني، ص ١٣١-١٣٢.

ما في "اللام" مِن معنى الاختصاصِ. وكذا في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ﴾ أي: الطاعة والانقياد.

﴿وَاصِبًا﴾ أي: واجبًا ثابتًا، لا زوالَ له لِما تقرّر أنّه الإله وحدَه الحقيقُ بأن يُرهَب، وقيل: واصبًا مِن الوصَب، أي: وله الدين ذا كُلفة. وقيل: الدِّينُ: الجزاء، أي: وله الجزاء الدائم بحيث لا ينقطع ثوابه لمَن آمن وعقابُه لمَن كفَر.[١]

[٣٢٩ظ] ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ الهمزة للإنكار، و"الفاء" للعطف / على مقدَّر ينسحب عليه السياق، أي: أعَقيبَ تقرُّر الشئون المذكورة مِن تخصيص جميع الموجودات للسجود به تعالى، وكون ذلك كلّه له، ونهيِه عن اتّخاذ الأنداد، وكونِ الدِّين له واصبًا المستدعي ذلك لتخصيص التقوى به سبحانه، غيرَ الله الذي شأنُه ما ذُكر تتّقون فتطيعون؟

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝٥٣﴾

﴿وَمَا بِكُم﴾ أي: أيُّ شيء يُلابسكم ويصاحبكم ﴿مِّن نِّعْمَةٍ﴾ أيّة نعمة كانت ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ فهي مِن الله، فـ﴿مَا﴾ شرطيّة أو موصولة متضمِّنة لمعنى الشرط باعتبار الإخبارِ دون الحصول، فإنّ ملابَسة النعمة بهم سبب للإخبار بأنّها منه تعالى، لا لكونها منه تعالى. ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ مِساسًا يسيرًا ﴿فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾: تتضرّعون في كشفه لا إلى غيره. والجُؤار: رفعُ الصوت بالدعاء والاستغاثة، قال الأعشى:

يـــــراوِحُ مِـــن صـــلَـــواتِ الـمـلـيـــ ـــك طـورًا سـجـودًا وطـورًا جـؤارا[٢]

وقُرِئ: "تَجَرُوْنَ"[٣] بطرح الهمزة وإلقاء حركتها إلى ما قبلها.

وفي ذكر المِساس المُنبئ عن أدنى إصابة، وإيرادِه بالجملة الفعليّة المعربةِ عن الحدوث، مع ﴿ثُمَّ﴾ الدالّة على وقوعه بعد برهة مِن الدهر، وتحليةِ الضُّر

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٦٥.

٢ البيت للأعشى في ديوانه، ص ٥٣؛ وهو له في جامع البيان للطبري، ١٤/٢٥١؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٤٤٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الزُّهري وأبي جعفر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٢.

بلام الجنس المفيدة لِمساس أدنى ما ينطلِق عليه اسم الجنس، مع إيراد النعمة بالجملة الاسميّة الدالّة على الدوام، والتعبيرِ عن ملابستها للمخاطبين بباء المصاحبة، وإيرادِ ﴿مَا﴾ المعرِبة عن العموم، ما لا يخفى[1] مِن الجزالة والفخامة. ولعلّ إيرادَ ﴿إِذَا﴾ دون "إن" للتوسّل به إلى تحقّق وقوع الجواب.

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ٥٤﴾

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ﴾ وقُرئ: "كَاشَفَ الضُّرَّ"،[2] وكلمةُ ﴿ثُمَّ﴾ ليست للدلالة على تمادي زمان مِساس الضرّ ووقوع الكشف بعد برهة مديدة؛ بل للدلالة على تراخي رتبة ما يترتّب عليه مِن مفاجأة الإشراك المدلول عليها بقوله سبحانه: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾، فإنّ ترتّبها على ذلك في أبعد غاية مِن الضلال، ثمّ إن وُجّه الخطاب / إلى الناس جميعًا فـ"مِن" للتبعيض، [٣٣٠و] والفريقُ فريق الكفَرة، وإن وُجّه إلى الكفَرة فـ"مِن" للبيان، كأنّه قيل: إذا فريق كافر وهم أنتم.

ويجوز أن يكون فيهم مَن اعتبر وازدجر، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ [لقمان، ٣٢/٣١] فـ"مِن" تبعيضيّة أيضًا. والتعرّض لوصف الربوبيّة للإيذان بكمال قُبح ما ارتكبوه مِن الإشراك والكفران.

﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ٥٥﴾

﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ مِن نعمة الكشف عنهم، كأنّهم جعلوا غرضهم في الشِّرك كُفرانَ النعمة وإنكارَ كونها مِن الله عزّ وجلّ. ﴿فَتَمَتَّعُوا۟﴾ أمرُ تهديد. والالتفاتُ إلى الخطاب للإيذان بتناهي السخط، وقُرئ بالياء[3] مبنيًّا للمفعول عطفًا على ﴿لِيَكْفُرُوا۟﴾، على أن يكون كُفران النعمة والتمتّع غرضًا لهم مِن الإشراك. ويجوز أن تكون "اللام" لام الأمر الوارد للتهديد.

---

[1] السياق: وفي ذِكر... ما لا يخفى...

[2] وفي هامش م: بمعنى "كَشَفَ"، وفيه مبالغة تُنبئ عنها صيغة المغالبة. «منه». | والقراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٧.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي العالية. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٧.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبةَ أمرِكم، وما ينزل بكم مِن العذاب. وفيه وعيدٌ أكيد، مُنبِئ عن أَخْذ شديد، حيث لم يُذكر المفعول إشعارًا بأنّه ممّا لا يوصف.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ٥٦﴾

﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ لعلّه عطفٌ على ما سبق، بحسب المعنى، تعدادًا لجناياتهم، أي: يفعلون ما يفعلون مِن الجُؤار إلى الله تعالى عند مِساس الضرّ، ومِن الإشراك به عند كشفِه، ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لِما لا يعلمون حقيقته وقَدْره الخسيسَ مِن الجمادات التي يتّخذونها شركاء لله سبحانه جهالةً وسَفاهًا، ويزعُمون أنّها تنفَعهم وتشفع لهم، على أنّ «مَا» موصولة والعائد إليها محذوف، أو لِما لا علمَ له أصلًا، وليس مِن شأنه ذلك، فـ«مَا» موصولة أيضًا والعائد إليها ما في الفعل مِن الضمير المستكِنّ، وصيغةُ جَمْع العقلاء لكون «مَا» عبارةً عن آلهتهم التي وصفوها بصفات العقلاء، أو مصدريّةٌ[1] و"اللام" للتعليل، أي: لعدم علمِهم، والمجعول له محذوف للعِلم بمكانه.

﴿نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ مِن الزرع والأنعام وغيرهما تقرّبًا إليها.

[٣٣٠ظ] / ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ سؤالَ توبيخ وتقريع ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ في الدنيا بأنّها آلهة حقيقةٌ بأن يُتقرَّب إليها. وفي تصدير الجملة بالقسم وصرفِ الكلام مِن الغَيبة إلى الخطاب المُنبئ عن كمال الغضب مِن شدّة الوعيد ما لا يخفى.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ٥٧﴾

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾ هم خُزاعةُ وكِنانةُ[2] الذين يقولون: الملائكة بنات الله. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيه وتقديس له عزّ وجلّ عن مضمون قولهم ذلك، أو تعجُّب مِن جُرْأتهم على التفوُّه بمثل تلك العظيمة.

---

١ السياق: على أنّ «مَا» موصولة... أو مصدريّة...

٢ كِنانة: مِن مشاهير العرب المستعربة، وهم بنو كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس، وله مِن الولد على عمود النسب النبوي ابنه النضر، وبنو كنانة بطن مِن مضر القحطانيّة، وأمّهم مُرّة بن مُرّ بن أُدّ. انظر: **قلائد الجمان** للقلقشندي، ١/١٣٤؛ **ونهاية الأرب** للقلقشندي، ١/٤٠٨.

﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ مِن البنين. و﴿مَا﴾ مرفوعةُ المحلّ على أنّه مبتدأ والظرفُ المقدَّم خبره، والجملة حاليّة. و﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ اعتراض في حاقّ موقعه، وجعلُها منصوبةً بالعطف على ﴿ٱلْبَنَٰتِ﴾ أي: يجعلون لأنفسهم ما يشتهون مِن البنين، يؤدّي إلى جَعْل الجَعْل بمعنًى يعمّ الزَّعْمَ والاختيار.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨﴾

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾ أي: أُخبِر بولادتها ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ﴾ أي: صار، أو دام النهارَ كلَّه ﴿مُسْوَدًّا﴾ مِن الكآبة والحياء مِن الناس، واسودادُ الوجه كناية عن الاغتمام والتشوير.[1] ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾، ممتلئ حَنقًا وغيظًا.

﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩﴾

﴿يَتَوَٰرَىٰ﴾ يستخفي ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ مِن أجل سوئه، والتعبيرُ عنها بـ﴿مَا﴾ لإسقاطها عن درجة العقلاء. ﴿أَيُمْسِكُهُۥ﴾ أي: متردّدًا في أمره محدِّثًا نفسَه في شأنه: أيُمسِكه ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾ ذلّ، وقُرئ: "هوانٍ"،[2] ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ﴾ يُخفيه ﴿فِى ٱلتُّرَابِ﴾ بالوأد، والتذكيرُ باعتبار لفظ ﴿مَا﴾، وقُرئ بالتأنيث.[3]

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ حيث يجعلون ما هذا شأنُه عندهم مِن الهُون والحقارة لله المتعالي عن الصاحبة والولد، والحالُ أنّهم يتحاشَون عنه ويختارون / لأنفسهم البنين، فمدارُ الخطأ جعلُهم ذلك لله سبحانه مع إبائهم [٣٣١و]
إيّاه، لا جعلُهم البنين لأنفسهم ولا عدمُ جعلهم له سبحانه.[4] ويجوز أن يكون مداره التعكيس، لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ [النجم، ٥٣/٢٢].

---

١ التشوير: مِن "شوَّر به" إذا أخجله. **الصحاح للجوهري**، «شور».

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجَحدري وعيسى بن عمر وابن أبي عبلة وابن مِقسَم والزّعفراني. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٧٧؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٧٣؛ **المغني في القراءات** للنَّوزاوازي، ص ١١١٠.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجَحدري. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٧٣.

٤ وفي هامش م: أي: عدم جَعْل البنين له سبحانه. «منه».

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ ممّن ذُكرت قبائحُهم ﴿مَثَلُ السَّوْءِ﴾ صفةُ السَّوْء الذي هو كالمَثل في القُبح، وهي الحاجة إلى الولد ليقوم مقامَهم عند موتهم، وإيثارُ الذكور للاستظهار بهم، ووأدُ البنات لدفع العار وخشيةِ الإملاق، المنادي كلّ ذلك بالعجز والقصور والشحّ البالغ. ووضعُ الموصول موضعَ الضمير للإشعار بأنّ مدار اتّصافهم بتلك القبائح هو الكفر بالآخرة.

﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ أي: الصفة العجيبة الشأنِ، التي هي مثَل في العُلوّ مطلقًا، وهو الوجوب الذاتي والغنى المطلَق والجود الواسع والنزاهة عن صفات المخلوقين، ويدخُل فيه علوُّه تعالى عمّا قالوه عُلوًّا كبيرًا.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ المتفرّد بكمال القدرة لاسيّما على مؤاخذتهم بذنوبهم، ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يفعَل كلّ ما يفعَل بمقتضى الحكمة البالغة، وهذا أيضًا مِن جملة صفاته العجيبة تعالى.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ﴾ الكفّارَ ﴿بِظُلْمِهِم﴾ بكفرهم ومعاصيهم التي مِن جملتها ما عُدِّد مِن قبائحهم، وهذا تصريح بما أفاده قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1] وإيذانٌ بأنّ ما أتَوه مِن القبائح قد تناهى إلى أمَد لا غايةَ وراءه، ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ على الأرض المدلولِ عليها بـ﴿النَّاسَ﴾ وبقوله تعالى: ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ أي: ما ترك عليها شيئًا مِن دابّة قطُّ؛ بل أهلَكها بالمرّة بشؤم ظُلم الظالمين، [٣٣١ظ] كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً / لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال، ٨/٢٥].

وعن أبي هريرة رضيَ الله عنه أنّه سمع رجلًا يقول: «إنّ الظالم لا يضُرّ إلّا نفسه»، فقال: «بلى والله، حتّى إنّ الحُبارَى لَتموت في وَكرها بظُلم الظالم».[2]

[1] في الآية السابقة.

[2] جامع البيان للطبري، ١٤/٢٦٠؛ معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٦؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٥٠.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «كاد الجُعَل يهلِك في جُحره بذنب ابن آدمَ»،[١] أو مِن دابّة ظالمة. وقيل: لو أُهلِك الآباءَ لم يكن الأبناءُ، فيلزَم ألّا يكون في الأرض دابّة لِما أنّها مخلوقة لمنافع البشر، لقوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة، ٢٩/٢].

﴿وَلَٰكِن﴾ لا يؤاخِذهم بذلك؛ بل ﴿يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لأعمارهم، أو لعذابهم كي يتوالدوا، أويكثُر عذابهم، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ المسمّى ﴿لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ عن ذلك الأجل، أي: لا يتأخّرون. وصيغةُ الاستفعال للإشعار بعَجْزهم عنه مع طلبهم له. ﴿سَاعَةً﴾ فذّةً، وهي مَثَل في قلّة المدّة، ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي: لا يتقدّمون.

وإنّما تعرَّض لذِكره مع أنّه لا يُتصوَّر الاستقدام عند مجيء الأجل مبالغة في بيان عدم الاستئخار بنَظْمه في سِلك ما يمتنع، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء، ١٨/٤]، فإنّ مَن مات كافرًا مع أنّه لا توبةَ له رأسًا قد نُظم في سِمْط مَن لم تُقبل توبته للإيذان بأنّهما سِيّان في ذلك، وقد مرّ في تفسير سورة يونس.[٢]

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ۚ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ﴾ أي: يُثبتون له سبحانه، وينسُبون إليه في زعمهم ﴿مَا يَكْرَهُونَ﴾ لأنفسهم ممّا ذُكر، وهو تكرير لِما سبق تثنيةً للتقريع وتوطئةً لقوله تعالى: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ أي: يجعلون له تعالى ما يجعلون ومع ذلك تصف ألسنتهم الكذب، وهو ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ / العاقبةَ الحسنى عند الله [٣٣٢و] تعالى، كقوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت، ٥٠/٤١]. وقُرئ: "الكُذُبُ"[٣] وهو جمع "كَذوب"، على أنّه صفة "الألسنة".

---

١ جامع البيان للطبري، ٢٦٠/١٤-٢٦١؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٦/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٠/٢.

٢ في تفسير الآية التاسعة والأربعين منها، ومرّ أيضًا في تفسير الآية التاسعة والثلاثين مِن سورة الأعراف.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن معاذ بن جبل وابن أبي عبلة والزّعفراني وابن مجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٣؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١١١.

﴿لَا جَرَمَ﴾ ردّ لكلامهم ذلك وإثباتٌ لنقيضه، أي: حقًّا ﴿أَنَّ لَهُمُ﴾ مكانَ ما أمّلوا مِن الحسنى ﴿ٱلنَّارَ﴾ التي ليس[1] وراء عذابها عذابٌ، وهي[2] عَلَم في السُّوآى.

﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ أي: مقدَّمون إليها، مِن "أفرطتُه"، أي: قدّمتُه في طلب الماء، وقيل: مَنسيّون، مِن "أفرطتُ فلانًا خلفي" إذا خلّفتَه ونسِيتَه، وقُرئ بالتشديد وفتح الراء،[3] مِن "فرَّطتُه في طلب الماء"، وبكسر الراء المشدّدة،[4] مِن التفريط في الطاعات، وبكسر المخفّفة،[5] مِن الإفراط في المعاصي، فلا يكونان حينئذ مِن أحوالهم الأخرويّة، كما عُطف عليه.

﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم عمّا يناله مِن جهالات الكفَرة، ووعيدٌ لهم على ذلك، أي: أرسلنا إليهم رسلًا، فدعَوهم إلى الحقّ، فلم يجيبوا إلى ذلك، ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ القبيحةَ، فعكفوا عليها مُصِرّين.

﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾ أي: قرينُهم، وبئس القرينُ. ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ أي: يوم زيَّن لهم الشيطان أعمالهم فيه؛ على طريق حكاية الحال الماضية، أو في الدنيا، أو يوم القيامة على طريقة حكاية الحال الآتية، وهي حال كونهم معذَّبين في النار، والوليُّ بمعنى: الناصر، أي: فهو ناصرهم اليوم لا ناصرَ لهم غيره، مبالغةً في نفي الناصر عنهم. ويجوز أن يكون الضمير عائدًا إلى مشركي قريش، والمعنى: زيَّن للأمم السالفة أعمالهم، فهو وليّ هؤلاء لأنّهم منهم. وأن يكون على حذف المضاف، أي: وليّ أمثالهم.

﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هو عذاب النار.

---

١ ط س: ليست.
٢ س: هو.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٣.
٤ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٤.
٥ قرأ بها نافع. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٤.

﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٦٤﴾

/ ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي القرآن ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمّ العِلَل، أي: ما أنزلناه عليك لعلّة مِن العِلَل إلّا لتبيِّن ﴿لَهُمُ﴾ أي: للناس ﴿ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ مِن التوحيد والقدَر وأحكام الأفعال وأحوال المعاد. [٣٣٢ظ]

﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ﴾ معطوفان على محلّ ﴿لِتُبَيِّنَ﴾، أي: وللهداية والرحمة ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾، وإنّما انتصبا لكونهما إثرَي فاعل الفعل المعلَّل، بخلاف "التبيين" حيث لـم ينتصِب لفقدان شرطه، ولعلّ تقديمَه عليهما لتقدّمِه في الوجود، وتخصيصُ كونهما هدًى ورحمة بالمؤمنين لأنّهم المغتنِمون آثارَه.

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٥﴾

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مِن السحاب أو مِن جانب السماء حسبما مرّ، وهذا تكرير لِما سبَق تأكيدًا لمضمونه وتوطئةً لِما يعقُبه مِن أدلّة التوحيد. ﴿مَآءٗ﴾ نوعًا خاصًّا مِن الماء هو المطر، وتقديمُ المجرور على المنصوب لِما مرّ مرارًا مِن التشويق إلى المؤخَّر. ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ بما أنبت به فيها مِن أنواع النباتات ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَآ﴾ أي: بعد يُبسها، وما تفيده "الفاء" مِن التعقيب العادي لا ينافيه ما بين المعطوفين مِن المُهلة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في إنزال الماء مِن السماء وإحياءِ الأرض الميتة به ﴿لَأٓيَةٗ﴾ وأيّةَ آيةٍ دالّةً على وحدته سبحانه وعلمه وقدرته وحكمته. ﴿لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ هذا التذكيرَ ونظائره سماعَ تفكّر وتدبّر، فكأنّ مَن ليس كذلك أصمُّ.

﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦﴾

﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗ﴾ عظيمةً وأيَّ عبرةٍ تحار في دَرْكها العقول وتهيم في فهمها ألباب الفُحول. ﴿نُّسۡقِيكُم﴾ استئناف لبيان ما أُبهِم أوّلًا مِن "العِبرة".

[٣٣٣و] / ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ أي: بطون الأنعام، والتذكيرُ هنا لمراعاة جانبِ اللفظ؛ فإنّه اسم جمع، ولذلك عدّه سيبويه في المفردات المبنيّة على "أفعال"، كـ"أكياش"[١] و"أخلاق"،[٢] كما أنّ تأنيثه في سورة المؤمنين لرعاية جانب المعنى، ومَن جعَله جَمْع "نَعَمٍ" جعَل الضمير للبعض، فإنّ اللبَن ليس لجميعها، أو له على المعنى، فإنّ المراد به الجنس، وقرئ بفتح النون ههنا وفي سورة المؤمنين.[٣]

﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا﴾ الفَرْث: فضالةُ ما يبقى مِن العلَف في الكَرِش المُنهضِمة بعضَ الانهضام، وكثيفُ ما يبقى في المِعا. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ البهيمة إذا اعتلفت وانطبخ العلفُ في كَرِشها كان أسفله فَرْثًا وأوسطُه لبنًا، وأعلاه دمًا.[٤] ولعلّ المرادَ به: أنّ أوسطه يكون مادّةَ اللبن، وأعلاه مادّةَ الدم الذي يغذو البدن؛ لأنّ عدم تكوّنهما في الكَرِش ممّا لا ريبَ فيه؛ بل الكبِدُ تجذب صفاوة الطعام المنهضِم في الكَرِش، ويبقى ثُفله وهو: الفَرْثُ، ثمّ يُمسكها ريثما يهضِمها، فيُحدث أخلاطًا أربعة معها مائيّةً، فتُميِّز القوّة المميّزة تلك المائيّة بما زاد على قدر الحاجة مِن المِرَّتين الصفراء والسوداء، ويدفعها إلى الكِلْية والمَرارة والطِّحال، ثمّ تُوزِّع الباقي على الأعضاء بحسبها، فتُجري على كلّ حقَّه على ما يليق به بتقدير العزيز الحكيم، ثمّ إن كان الحيوان أنثى زاد أخلاطها على قَدْر غِذائها لاستيلاء البرد والرطوبة على مِزاجها، فيندفع الزائد أوّلا لأجل الجنين إلى الرحِم، فإذا
[٣٣٣ظ] انفصل انصبّ ذلك الزائد / أو بعضُه إلى الضروع، فيبيَضّ لمجاورته لحومها الغُدديّة البِيض ويلَذّ طعمُه فيصير لبنًا. ومَن تدبَّر في بدائع صُنع الله تعالى فيما ذُكِر مِن الأخلاط والألبانِ، وإعداد مقارّها ومجاريها، والأسبابِ المولّدة لها،

---

[١] وفي هامش م: وهو الذي أُعيد غَزْله. «منه».

[٢] انظر: كتاب سيبويه، ٢٣٠/٣، وفيه أنّ أفعال قد يقع للواحد، فتقول العرب: "هو أنعام"، كما في هذه الآية، كما تقول: "هذا ثوب أكياش". والكلام عنه في الكشّاف للزمخشري، ٤٥١/٢.

[٣] قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٠٤/٢.

[٤] مروي عنه بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٢٨/٥؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٦٨/٢؛ وبلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٤٥٢/٢.

وتسخيرِ القُوى المتصرِّفة فيها، كلٌّ وقت على ما يليق به، اضطُرّ[1] إلى الاعتراف بكمال عِلمه وقدرته وحكمته وتناهي رأفته ورحمتِه.[2]

ف﴿مِن﴾ الأُولى تبعيضيّة، لِما أنّ اللبَن بعض ما في بطونه؛ لأنّه مخلوق مِن بعض أجزاء الدم المتولِّد مِن الأجزاء اللطيفة التي في الفَرْث، حسبما فُصِّل، والثانيةُ: ابتدائيّة، كقولك: "سقَيتُ مِن الحوض"؛ لأنّ بين الفَرْث والدم مبدأ الإسقاء، وهي متعلِّقة بـ﴿نُسْقِيكُم﴾.

وتقديمه على المفعول لِما مرّ مرارًا مِن أنّ تقديم ما حقُّه التأخيرُ يبعث للنفس شوقًا إلى المؤخَّر موجِبًا لفَضْل تمكّنِه عند وروده عليها، لاسيّما إذا كان المقدَّم متضمِّنًا لوَصْف مُنافٍ لوَصْف المؤخَّر، كالذي نحن فيه، فإنّ بين وصفَي المقدَّم والمؤخَّر تنافيًا وتنائيًا، بحيث لا يتراءى ناراهما، فإنّ ذلك ممّا يزيد الشوق والاستشراف إلى المؤخَّر، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ[3] لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ [يس، ٨٠/٣٦]، أو حالٌ[4] مِن ﴿لَبَنًا﴾ قُدِّم عليه لتنكيره، وللتنبيه على أنّه موضع العِبرة.

﴿خَالِصًا﴾ عن شائبة ما في الدم والفَرْث مِن الأوصاف، ببرزخ مِن القدرة القاهرة الحاجزة عن بغي أحدهما عليه، مع كونهما مكتنِفين له. ﴿سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ سهلَ المرور في حلقهم. قيل: لم يغَصّ أحد باللبن.[5] وقرئ: "سَيِّغًا" بالتشديد[6] وبالتخفيف،[7] مثل "هَيِّن" و"هَيْن".

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ﴾ / متعلِّق بما يدلّ عليه الإسقاء مِن مطلَق [٣٣٤و]

---

١ السياق: ومَن تدبّر... اضطُر...

٢ الكلام كلّه بلفظ قريب في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٦٨/٢-٢٦٩.

٣ م س: هو الذي أخرج.

٤ السياق: والثانية: ابتدائيّة... أو حالٌ...

٥ كما في الكشّاف للزمخشري، ٤٥٢/٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٣.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر، مع رفع الغين. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٣.

الإطعام المنتظِم لإعطاء المطعوم والمشروب؛ فإنّ اللبن مطعوم، كما أنّه مشروب، أي: ونطعِمكم مِن ثمرات النخيل ومِن الأعناب، أي: مِن عصيرهما.

وقوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا﴾ استئناف لبيان كُنه الإطعام وكشفِه؛ أو بقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ﴾.[١] وتكرير الظرف للتأكيد، أو خبر لمبتدأ محذوف، صفتُه ﴿تَتَّخِذُونَ﴾، أي: ومِن ثمرات النخيل والأعناب ثمَر تتّخذون منه، وحذفُ الموصوف إذا كان في الكلام كلمةُ "مِن" شائع نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ﴾ [الصافات، ١٦٤/٣٧]. وتذكيرُ الضمير على الوجهين الأوّلَين؛ لأنّه للمضاف المحذوفِ، أعني: العصير، أو لأنّ المراد هو الجنس. و"السَّكَرَ" مصدر سُمّيَ به الخمر. وقيل: هو النبيذ،[٢] وقيل: هو الطُّعم.[٣]

﴿وَرِزۡقًا حَسَنًا﴾ كالتّمْر والدِّبس والزبيب والخلّ، والآية إن كانت سابقةَ النزول على تحريم الخمر فدالّة على كراهتها وإلّا فجامعةٌ بين العِتاب والمِنّة. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾ باهرةً ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ يستعملون عقولَهم في الآيات بالنظر والتأمّل.

﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ۝٦٨﴾

﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾ أي: ألهَمها وقذَف في قلوبها وعلّمها بوجه لا يعلمه إلّا العليم الخبير. وقُرئ بفتحتين.[٤] ﴿أَنِ ٱتَّخِذِي﴾ أي: بأن اتخذي، على أنّ ﴿أَن﴾ مصدريّة. ويجوز أن تكون مفسِّرة؛ لِما في الإيحاء مِن معنى القول. وتأنيثُ الضمير مع أنّ ﴿ٱلنَّحۡلِ﴾ مذكَّر للحمل على المعنى أو لأنّه جمعُ "نَحْلة"، والتأنيثُ لغة أهل الحِجاز.

﴿مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا﴾ أي: أوكارًا مع ما فيها مِن الخلايا، وقُرئ: "بِيُوتًا"[٥] بكسر الباء. ﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ﴾ / أي: يعرِشه الناس، أي: يرفعه مِن كَرْم [٣٣٤ظ]

---

١ السياق: متعلّق بما يدلّ... أو بقوله...

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٥٢/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٦٩/٢.

٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٦٩/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب وأبان بن تغلب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٧؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٤.

٥ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٤٥٣/٢.

أو سقف. وقيل: المراد به ما يرفَعه الناس ويبنونه للنحل،[1] والمعنى: اتّخذي لنفسكِ بيوتًا مِن الجبال والشجر إذا لم يكن لك أرباب، وإلّا فاتّخذي ما يعرِشونه لك. وإيراد حرفِ التبعيض لِما أنّها لا تُبنى في كلّ جبل وكلّ شجر وكلّ عرش ولا في كلّ مكان منها.

﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ٦٩﴾

﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ مِن كلّ ثمرة تشتهينها حُلوِها ومُرِّها ﴿فَٱسْلُكِي﴾ ما أكلتِ منها ﴿سُبُلَ رَبِّكِ﴾ أي: مسالكَه التي برأها، بحيث يُحيل فيها بقدرته القاهرة النَّوْر[2] المُرَّ عسلًا مِن أجوافك، أو فاسلكي الطُّرق التي ألهَمك في عمَل العسل، أو فاسلكي راجعةً إلى بيوتك سُبل ربّك، لا تتوعّر عليك ولا تلتبِس. ﴿ذُلُلًا﴾ جمع "ذَلول"، وهو حال مِن "السبل"، أي: مذلَّلة غيرَ متوعِّرة، ذلَّلها الله سبحانه وسهَّلها لك، أو مِن الضمير في ﴿ٱسْلُكِي﴾، أي: اسلكي منقادةً لما أُمرتِ به.

﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا﴾ استئناف عُدل به عن خطاب النحل لبيان ما يظهَر منها مِن تعاجيب صُنع الله تعالى، التي هي موضع العِبرة، بعد ما أُمِرت بما أُمِرت.

﴿شَرَابٌ﴾ أي: عسَل؛ لأنّه مشروب. واحتجّ به وبقوله تعالى: ﴿كُلِي﴾ مَن زعَم أنّ النحل تأكُل الأزهار والأوراق العطِرة فتستحيل في بطنها عسَلًا، ثمّ تقيءُ ادّخارًا للشتاء. ومَن زعم أنّها تلتقط بأفواهها أجزاءً قليلة حُلوة صغيرة متفرّقة على الأزهار والأوراق وتضعها في بيوتها، / فإذا اجتمع فيها شيءٌ كثيرٌ [٣٣٥و]
يكون عسلًا، فسّر[3] "البطون" بالأفواه. ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أبيضُ وأسودُ وأصفرُ وأحمرُ حسب اختلاف سنّ النحل أو الفصل أو الذي أخذت منه العسل.

﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ إمّا بنفسه كما في الأمراض البلغميّة، أو مع غيره كما في سائر الأمراض، إذ قلّما يكون معجون لا يكون فيه عسل، مع أنّ التنكير فيه

[1] القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٥٣.
[2] النَّوْر: الزَّهْر، وقيل: الأبيض منه. لسان العرب لابن منظور، «نور».
[3] السياق: ومَن زعم... فسّر...

مُشعِر بالتبعيض، ويجوز كونه للتفخيم. وعن قتادةَ أنّ رجلًا جاء إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: «إنّ أخي يشتكي بطنه»، فقال عليه السلام: «اسقِه العسل»، فذهب ثمّ رجع فقال: «قد سقَيْتُه فما نفع»، فقال: «اذهبْ فاسقِه عسلًا، فقد صدق الله، وكذب بطنُ أخيك»، فسقاه فشفاه فبرئ كأنّما أُنشِط مِن عِقال.[١] وقيل: الضمير للقرآن، أو لِما بيَّن الله تعالى مِن أحوال النحل.[٢] وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «العسَل شفاء لكلّ داء، والقرآنُ شفاء لِما في الصدور»،[٣] «فعليكم بالشفاءين: العسل والقرآن».[٤]

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر مِن أعاجيب آثار قدرة الله تعالى ﴿لَآيَةً﴾ عظيمة ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإنّ مَن تفكَّر في اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والأفعال العجيبة المشتملة على حُسن الصنعة وصحّة القِسمة التي لا يقدِر عليها حُذّاقُ المهندسين إلّا بآلات رقيقةٍ وأدواتٍ أنيقة وأنظار دقيقة، جزَم[٥] قطعًا بأنّ له خالقًا قادرًا حكيمًا يُلهِمها ذلك ويهديها إليه جلّ جلاله.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ لمّا ذكَر سبحانه مِن عجائب أحوال ما ذَكَر مِن الماء والنبات والأنعام والنحل أشار إلى بعض عجائب أحوال البشر، / مِن أوّل [٣٣٥ظ] عمُره إلى آخره وتطوّراتِه فيما بين ذلك، وقد ضبطوا مراتب العمُر في أربع: الأُولى: سنُّ النشوء والنماء، والثانية: سنُّ الوقوف وهي سنّ الشباب، والثالثة: سنُّ الانحطاط القليل وهي سنُّ الكهولة، والرابعة: سنُّ الانحطاط الكبير، وهي:

---

١ بلفظ قريب في صحيح البخاري، ١٢٣/٧ (٥٦٨٤)؛ وصحيح مسلم، ١٧٣٦/٤ (٢٢١٧)؛ وجامع البيان للطبري، ٢٩٠/١٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٥٤/٢.

٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٧٠/٢.

٣ جامع البيان للطبري، ٢٩٠/١٤؛ معالم التنزيل للبغوي، ٣٠/٥.

٤ عن ابن مسعود في المصنَّف لابن أبي شيبة، ٦٠/٥ (٢٣٦٨٩)؛ وسنن ابن ماجه، ٥٠٧/٤ (٣٤٥٢)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٠/٥، بلفظ «عليكم» مكان «فعليكم». وأوردهما الزمخشري في حديث واحد بلفظه ههنا في الكشّاف، ٤٥٤/٢.

٥ السياق: مَن تفكّر... جزم...

سنُّ الشيخوخة. ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ حسبما يقتضيه مشيئته المبنيّة على حِكَم بالغة بآجال مختلفة، أطفالًا وشبابًا وشيوخًا.

﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ﴾ قبل توفّيه، أي: يعاد ﴿إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ أي: أخسّه وأحقره، وهو خمس وسبعون سنة، على ما رُوي عن عليّ رضي الله عنه،[1] وتسعون سنة على ما نُقل عن قتادة رضي الله عنه،[2] وقيل: خمسٌ وتسعون. وإيثارُ "الردّ" على الوصول والبلوغ ونحوهما للإيذان بأنّ بلوغه والوصول إليه رجوعٌ في الحقيقة إلى الضّعف بعد القوّة، كقوله تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ [يس، ٦٨/٣٦]، ولا عُمرَ أسوأَ حالًا مِن عُمُر الهَرِم الذي يُشبِه الطفل في نقصان العقل والقوّة.

﴿لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ﴾ كثير ﴿شَيْـًٔا﴾ مِن العِلم، أو مِن المعلومات، أو لكيلا يعلم شيئًا بعد عِلمٍ بذلك الشيء، وقيل: لئلّا يعقِل بعد عَقْله الأوّل شيئًا.[3]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بمقادير أعماركم، ﴿قَدِيرٌ﴾ على كلّ شيء، يُميت الشابَّ النشيط، ويُبقي الهَرِم الفانيَ. وفيه تنبيه على أنّ تفاوت الآجال ليس إلّا بتقدير قادر حكيم، ركّب أبنيتهم وعدّل أمزجتهم على قدَر معلوم، ولو كان ذلك مقتضى الطبائع لَما بلغ التفاوت هذا المبلغ.

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾ أي: جعلكم متفاوتين فيه، فأعطاكم منه أفضل ممّا أعطى مماليككم. ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟﴾ فيه على غيرهم / ﴿بِرَآدِّى [٣٣٦و]
رِزْقِهِمْ﴾ الذي رزقهم إيّاه ﴿عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ﴾ على مماليكهم الذين هم شركاؤهم في المخلوقيّة والمرزوقيّة.

﴿فَهُمْ﴾ أي: المُلّاك والمماليك ﴿فِيهِ﴾ أي: في الرزق ﴿سَوَآءٌ﴾ أي: لا يردُّونه عليهم، بحيث يُساوونهم في التصرّف ويشاركونهم في التدبير. و"الفاء" للدلالة

---

[1] جامع البيان للطبري، ٢٩٢/١٤؛ معالم التنزيل للبغوي، ٣٠/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٤/٢.

[2] معالم التنزيل للبغوي، ٣٠/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٤/٢.

[3] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٥٤/٢.

على ترتّب التساوي على الردّ، أي: لا يردُّونه عليهم ردًّا مستتبعًا للتساوي، وإنّما يردُّون عليهم منه شيئًا يسيرًا، فحيث لا يرضَون بمساواة مماليكهم لأنفسهم وهم أمثالهم في البشريّة والمخلوقيّة لله عزّ سلطانه في شيء لا يختصّ بهم؛ بل يعُمّهم وإيّاهم مِن الرزق الذي هم أُسوة لهم في استحقاقه، فما بالهم يُشرِكون بالله سبحانه وتعالى فيما لا يليق إلّا به مِن الألوهيّة والمعبوديّة الخاصّة بذاته تعالى لذاته بعضَ[١] مخلوقاته الذي هو بمَعزِل مِن درجة الاعتبار! وهذا كما ترى مثَل ضُرِب لكمال قباحة ما فعَله المشركون تقريعًا عليهم، كقوله تعالى: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن[٢] شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ[٣] فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ الآية [الروم، ٢٨/٣٠].

﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ حيث يفعلون ما يفعلون مِن الإشراك، فإنّ ذلك يقتضي أن يُضيفوا نِعَم الله سبحانه الفائضة عليهم إلى شركائهم، ويجحدوا كونها مِن عند الله تعالى، أو حيث أنكروا أمثال هذه الحُجج البالغةِ بعد ما أنعم الله بها عليهم. والباء لتضمين الجحود معنى الكفر، نحو ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا﴾ [النمل، ١٤/٢٧]. و"الفاء" للعطف على مقدَّر، وهي داخلة في المعنى على الفعل، أي: أيُشرِكون به فيجحدون نعمته؟ وقُرِئ: "تَجْحَدُوْنَ"[٤] على الخطاب. أو ليس الموالي برادّي رزقهم على مماليكهم، بل أنا الذي / أرزقهم وإيّاهم، فلا يحسبوا أنّهم يُعطونهم شيئًا، وإنّما هو رزقي أُجريه على أيديهم، فهم جميعًا في ذلك سواء، لا مزيّةَ لهم على مماليكهم، ألا يفهمون ذلك فيجحدون نعمة الله؟ [٣٣٦ظ]

فهو ردّ على زَعْم المفضَّلين، أو على فعلهم المؤذِن بذلك، أو ما المفضَّلون برادّي بعضِ فضلهم على مماليكهم فيتساووا في ذلك جميعًا، مع أنّ التفضيل ليس إلّا ليبلوَهم أيشكُرون أم يكفرون، ألا يعرِفون ذلك فيجحدون نعمةَ الله تعالى؟ كأنّه قيل: فلم يردُّوه عليهم.

والجملة الاسميّة للدلالة على استمرارهم على عدم الردّ. يُحكى عن أبي ذرّ رضيَ الله عنه أنّه سمع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «إنّما هم إخوانكم،

---

١ السياق: يُشرِكون... بعض...
٢ م س - من.
٣ م س: آتيناكم.
٤ قرأ بها أبو بكر ورُويس. النشر لابن الجزري، ٣٠٤/٢.

فاكسُوهم ممّا تلبَسون، وأطعِموهم ممّا تَطعَمون».[١] فما رُؤِيَ عبده بعد ذلك إلّا ورداؤه رداؤه وإزارُه إزاره مِن غير تفاوت.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ٧٢﴾

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ أي: مِن جنسكم ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾ لتأنَسوا بها وتقيموا بذلك جميع مصالحكم، ويكون أولادكم أمثالَكم. وقيل: هو خلقُ حوّاءَ مِن ضِلْع آدمَ عليه السلام.[٢]

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم﴾ وُضِع الظاهر موضعَ المُضمَر للإيذان بأنّ المراد: جعَل لكلٍّ منكم مِن زوجه لا مِن زوج غيره ﴿بَنِينَ﴾، وبأنّ نتيجة الازدواج هو التوالد. ﴿وَحَفَدَةٗ﴾ جَمْع "حافد"، وهو الذي يُسرِع في الخِدمة والطاعة، ومنه قول القانت: «وإليك نسعى ونحفِد»،[٣] أي: جعَل لكم خدَمًا يُسرِعون في خِدمتكم وطاعتكم. فقيل: المراد بهم: أولاد الأولاد، وقيل: البناتُ، عُبِّر عنهنّ بذلك إيذانًا بوجه المِنّة فإنّهنّ يخْدُمن البيوت أتمَّ خِدمة، وقيل: أولادُ المرأة مِن الزوج الأوّل، وقيل: البنون، والعطفُ لاختلاف الوصفين، وقيل: الأختان على البنات.[٤]

وتأخيرُ المنصوب في الموضعين عن المجرور لِما مرّ مِن التشويق، وتقديمُ المجرور / بـ"اللام" على المجرور بـ﴿مِن﴾ للإيذان مِن أوّل الأمر بعَود منفعة الجعل إليهم إمدادًا للتشويق وتقويةً له، أي: جعَل لمصلحتكم ممّا يناسِبكم أزواجًا، وجعَل لمنفعتكم مِن جهة مناسبة لكم بنين وحفَدة. [٣٣٧و]

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ مِن اللذائذ أو مِن الحلالات، و﴿مِن﴾ للتبعيض؛ إذ المرزوق في الدنيا أنموذج لِما في الآخرة.

---

١ بلفظ قريب في صحيح البخاري، ١٦/٨ (٦٠٥٠)؛ وصحيح مسلم، ١٢٨٢/٣ (١٦٦١)؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٥٥/٢.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٥٥/٢.

٣ المُصنَّف لابن أبي شيبة، ٩٥/٢ (٦٨٩٣)؛ الدعاء للطبراني، ص ٢٣٨ (٧٥٠)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٥/٢.

٤ الأقوال في الكشّاف للزمخشري، ٤٥٥/٢.

﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ﴾ وهو أنّ الأصنام تنفعهم، وأنّ البحائر ونحوها حرام. و"الفاء" في المعنى داخلة على الفعل، وهي للعطف على مقدَّر، أي: أيكفُرون بالله الذي شأنه هذا، فيُؤمنون بالباطل؟ أو أبَعْد تحقّقِ ما ذُكر مِن نِعَم الله تعالى بالباطل يؤمنون دون الله سبحانه.

﴿وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ﴾ تعالى الفائضة عليهم ممّا ذُكر وممّا لا تحيط به دائرة البيان. ﴿هُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾ حيث يضيفونها إلى الأصنام. وتقديم الصلة على الفعل للاهتمام، أو لإيهام الاختصاص مبالغةً، أو لرعاية الفواصل. والالتفات إلى الغيبة للإيذان باستيجاب حالهم للإعراض عنهم وصرفِ الخطاب إلى غيرهم مِن السامعين تعجيبًا لهم ممّا فعلوه.

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٧٣﴾

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لعلّه عطفٌ على ﴿يَكۡفُرُونَ﴾ داخلٌ تحت الإنكار التوبيخي، أي: أيكفرون بنعمة الله؟ ويعبدون مِن دونه ﴿مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا﴾، إن جُعل "الرزق" مصدرًا، فـ﴿شَيۡـٔٗا﴾ نَصْب على المفعولية منه، أي: ما لا يقدِر على أن يرزقهم شيئًا، لا مِن السماوات مطرًا، ولا مِن الأرض نباتًا، وإن جُعل اسمًا للمرزوق فنصبٌ على البدليّة منه، بمعنى: قليلًا، ومِن السماوات والأرض: صفةٌ لـ﴿رِزۡقٗا﴾، أي: كائنًا منهما، ويجوز كونه تأكيدًا لِـ﴿لَا يَمۡلِكُ﴾، أي: لا يملك رزقًا ما شيئًا مِن المُلك، ﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ / أن يملكوه؛ إذ لا استطاعةَ لهم رأسًا، لأنّها مَوات لا حَراك بها، فالضميرُ [٣٣٧ظ] للآلهة، ويجوز أن يكون للكفَرة، على معنى أنّهم مع كونهم أحياء متصرِّفين في الأمور لا يستطيعون مِن ذلك شيئًا، فكيف بالجماد الذي لا حِسّ به؟

﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧٤ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٧٥﴾

﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾ التفات إلى الخطاب للإيذان بالاهتمام بشأن النهي، أي: لا تُشركوا به شيئًا، والتعبيرُ عن ذلك بضرب المثَل للقصد إلى النهي عن الإشراك به تعالى في شأن مِن الشئون، فإنّ ضرب المثَل مبناه تشبيهُ حالة بحالة وقصّة بقصّة، أي: لا تُشَبِّهوا بشأنه شأنًا مِن الشئون، و"اللامُ" مثلها في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ﴾ [التحريم، ١٠/٦٦]، ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ﴾ [التحريم، ١١/٦٦]، لا مثلُها في قوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ[1] لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ [يس، ١٣/٣٦] ونظائره.

و"الفاء" للدلالة على ترتّب النهي على ما عدَّد مِن النِّعم الفائضة عليهم مِن جهته سبحانه، وكونِ ما يشركون به تعالى بمَعزِل مِن أن يملِك لهم مِن أقطار السماوات والأرض شيئًا مِن رزق ما، فضلًا عمّا فُصِّل مِن نعمة الخلق والتفضيل في الرزق ونعمةِ الأزواج والأولاد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ تعليل للنهي المذكور ووعيدٌ على المنهيّ عنه، أي: إنّه تعالى يعلم كُنهَ ما تأتون وما تذرون، وأنّه في غاية العِظم والقبح، ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ذلك، وإلّا لَما فعلتموه، أو أنّه تعالى يعلم كُنهَ الأشياء، وأنتم لا تعلمونه، فدعوا رأيَكم، وقِفوا في مواقف الامتثال بما ورَد عليكم مِن الأمر والنهي. ويجوز أن يُراد: فلا تضربوا لله الأمثال، إنّ الله يعلم كيف يضرب الأمثال، وأنتم لا تعلمون ذلك، فتقعون فيما تقعون فيه مِن مهاوي الردى والضلال.

ثمّ علّمهم كيفيّة ضَرْب الأمثال في هذا الباب فقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ أي: ذكر وأورد شيئًا يُستدل به على تبايُن الحال بين جنابه عزّ وجلّ وبين ما أشركوا به وعلى تباعدهما، بحيث يُنادى بفساد / ما ارتكبوه نداء جليًّا. [٣٣٨و]

﴿عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ بدل مِن ﴿مَثَلًا﴾ وتفسير له، والمثَل في الحقيقة حالته العارضة له مِن المملوكيّة والعجز التامّ وبحسَبها ضُرِب نفسه مثلًا، ووَصْفُ العبد بالمملوكيّة للتمييز عن الحرّ لاشتراكهما في كونهما عبدًا لله سبحانه، وقد أُدمج فيه أنّ الكلّ عبيد له تعالى، وبعدم القدرة لتمييزه

---

[1] وفي هامش م: على أحد الوجهين. «منه».

عن المُكاتَب والمأذون، اللَّذين لهما التصرّف في الجملة. وفي إبهام "المَثَل" أوّلًا ثمّ بيانه بما ذُكر ما لا يخفى مِن الفخامة والجزالة.

﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ﴾ ﴿مَن﴾ موصوفة معطوفة على ﴿عَبْدًا﴾، أي: رزقناه بطريق المُلك. والالتفاتُ إلى التكلّم للإشعار باختلاف حالَي ضَرب المَثل والرزق. ﴿مِنَّا﴾ مِن جنابنا الكبير المتعالي، ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ حلالًا طيّبًا أو مستحسَنًا عند الناس مرضيًّا ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ﴾ تفضُّلًا وإحسانًا. و"الفاءُ" لترتيب الإنفاق على الرزق، كأنّه قيل: ومَن رزقناه منّا رزقًا حسنًا فأنفق. وإيثار ما عليه النظم الكريم مِن الجملة الاسميّة الفعليّةِ الخبرِ للدلالة على ثبات الإنفاق واستمرارِه التجددي.

﴿سِرًّا وَجَهْرًا﴾ أي: حالَ السرّ والجهر، أو إنفاقَ سرّ وإنفاقَ جَهْر، والمراد بيانُ عموم إنفاقه للأوقات وشمولِ إنعامه لمَن يجتنب عن قبوله جهرًا، والإشارةُ إلى أصناف نِعَم الله تعالى الباطنة والظاهرة.

وتقديم السرّ على الجهر للإيذان بفضله عليه، والعدولُ عن تطبيق القرينتين بأن يقال: "وحرًّا مالكًا للأموال" مع كونه أدلَّ على تبايُن الحال بينه وبين قسيمه، لتوخّي تحقيق الحقّ بأنّ الأحرار أيضًا تحت رِبقة عبوديّته سبحانه وتعالى، / وأنّ مالكيّتهم لِما يملِكونه ليست إلّا بأن يرزُقَهم الله تعالى إيّاه مِن غير أن يكون لهم مدخلٌ في ذلك، مع محاولة المبالغة في الدلالة على ما قُصد بـ"المَثَل" مِن تباين الحال بين الممثَّلَين، فإنّ العبد المملوك حيث لم يكن مثلَ العبد المالك، فما ظنُّك بالجماد ومالكِ المُلك خلّاق العالمين؟ [٣٣٨ظ]

﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾ جَمْعُ الضمير للإيذان بأنّ المراد بما ذُكر مَن اتَّصف بالأوصاف المذكورة مِن الجنسين المذكورين، لا فردان مُعيَّنان منهما، أي: هل يستوي العبيد والأحرار الموصوفون بما ذُكر مِن الصفات؟ مع أنّ الفريقين سِيّان في البشريّة والمخلوقيّة لله سبحانه، وأنّ ما ينفِقه الأحرار ليس ممّا لهم دَخْل في إيجاده ولا في تملّكه؛ بل هو ممّا أعطاه الله تعالى إيّاهم، فحيث لم يستوِ الفريقان، فما ظنُّكم بربّ العالمين؟ حيث تُشركون به ما لا ذليلَ أذلُّ منه، وهو الأصنام.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: كلُّه له؛ لأنّه مَولى جميع النِّعم لا يستحقّه أحد غيره، وإن ظهرت على أيدي بعض الوسائط فضلًا عن استحقاق العبادة، وفيه إرشاد إلى ما هو الحقّ مِن أنّ ما يظهَر على يد مَن ينفِق فيما ذُكر راجعٌ إلى الله سبحانه كما لوّح به قوله تعالى: ﴿رَزَقْنَٰهُ﴾؛ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما ذُكر فيُضيفون نِعَمه تعالى إلى غيره، ويعبدونه لأجلها. ونفيُ العِلم عن أكثرهم للإشعار بأنّ بعضهم يعلمون ذلك، وإنّما لا يعملون بموجَبه عنادًا، كقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [النحل، ١٦/٨٣].

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٦﴾

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ / أي: مثلًا آخرَ يدلّ على ما دلّ عليه المَثل السابق [٣٣٩و]
على وجه أوضحَ وأظهرَ، وبَعْد ما أُبهِم ذلك لتنتظرَ النفس إلى وروده وتترقّبه حتّى يتمكّن لديها عند ورودِه، بيّن فقيل: ﴿رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ وهو مَن وُلد أخرسَ ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ مِن الأشياء المتعلّقة بنفسه أو بغيره، بحَدْس أو فِراسة لقِلّة فهمه وسوءِ إدراكه. ﴿وَهُوَ كَلٌّ﴾ ثِقل وعِيال ﴿عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ على مَن يعوله ويلي أمرَه، وهذا بيان لعدم قدرته على إقامة مصالح نفسه بعد ذِكر عدم قدرته على شيء مطلقًا.

وقوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾ أي: حيث يرسله مولاه في أمر، بيانٌ لعدم قدرته على إقامة مصالح مولاه ولو كانت مصلحة يسيرة. وقُرئ: "يُوَجَّهْ"[١] على البناء للمفعول،[٢] وعلى صيغة الماضي مِن التوجّه.[٣] ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ بنُجْح وكفاية مُهِمّ البتّةَ.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود ومجاهد وعلقمة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٧؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٤.

[٢] وفي هامش م: وقُرئ: "يَوَجّهْ" على البناء للفاعل بمعنى يتوجّه، من قولهم: «أينما أُوَجِّه ألقَ سعدًا»، ولعلّ ذلك مَبنيّ على تنزيل المتعدّي منزلة اللازم، لاتّحاد الفاعل والمفعول، ويجوز أن يُحمَل على حَذْف المفعول. «منه». | والقراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وعلقمة ويحيى وطلحة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٧؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٤. والقول المذكور من أمثال العرب. انظر: مجمع الأمثال للميداني، ١/٥٣.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن عُبيد بن عُمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٤.

﴿هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ﴾ مع ما فيه مِن الأوصاف المذكورةِ ﴿وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ أي: مَن هو مِنطيق فَهِم ذو رأي وكِفاية ورُشد، ينفع الناس بحَثّهم على العدل الجامع لمجامع الفضائل، ﴿وَهُوَ﴾ في نفسه، مع ما ذُكر مِن نَفْعه التامّ للخاصّ والعامّ، ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾. ومقابلةُ الصفاتِ المذكورة بهذين الوصفين لأنّهما في حاقّ ما يقابِلها، فإنّ محصِّل الصفاتِ المذكورة عدم استحقاق المأموريّة. وملخَّص هذين استحقاق كمال الآمريّة المستتبع لحيازة المحاسن بأجمعها. وتغييرُ الأسلوب، حيث لم يقل: "والآخرُ / آمرٌ بالعدل" الآية، لمراعاة الملاءمة بينه وبين ما هو المقصود مِن بيان التبايُن بين القرينتين. [٣٣٩ظ]

واعلم أنّ كلًّا مِن الفعلين ليس المراد بهما حكاية الضرب الماضي؛ بل المراد إنشاؤه بما ذُكر عَقيبه، ولا يبعُد أن يقال: إنّ الله تعالى ضرَب مثَلًا بخَلْق الفريقين على ما هما عليه، فكان خلقُهما كذلك للاستدلال بعدم تساويهما على امتناع التساوي بينه سبحانه وبين ما يُشرِكون، فيكون كلّ مِن الفعلين حكايةً للضرب الماضي.

﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٧٧﴾

﴿وَلِلَّهِ﴾ تعالى خاصّةً، لا لأحد غيره استقلالًا ولا اشتراكًا، ﴿غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: الأمور الغائبة عن علوم المخلوقين قاطبةً، بحيث لا سبيلَ لهم إليها لا مشاهدةً ولا استدلالًا، ومعنى الإضافة إليهما: التعلّق بهما إمّا باعتبار الوقوع فيهما حالًا أو مآلًا، وإمّا باعتبار الغَيبة عن أهلهما، والمراد بيان الاختصاص به تعالى مِن حيث المعلوميّة حسبما ينبئ عنه عنوان الغيبيّة، لا مِن حيث المخلوقيّة والمملوكيّة، وإن كان الأمر كذلك في نفس الأمر، وفيه إشعارٌ بأنّ عِلمه سبحانه حضوري، فإنّ تحقّق الغيوب في أنفسها عِلم بالنسبة إليه تعالى، ولذلك لم يقل: ولله عِلم غيب السماوات والأرض.

﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ التي هي أعظم ما وقَع فيه المماراة مِن الغيوب المتعلِّقة بهما، مِن حيث غيبتها عن أهلهما، أو ظهور آثارها فيهما عند وقوعها،

فإنّ وقت وقوعها بعينه مِن الغيوب المختصّة به سبحانه، وإن كان إنيّتُها مِن الغيوب التي نُصبت عليها الأدلّة، أي: ما شأنها في سرعة المجيء ﴿إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ أي: كرَجْع الطَّرْف مِن أعلى الحدَقة / إلى أسفلها، ﴿أَوْ هُوَ﴾ أي: بل [٣٤٠و]
أمرُها فيما ذُكر ﴿أَقْرَبُ﴾ مِن ذلك وأسرع زمانًا، بأن يقع في بعض مِن زمانه، فإنّ ذلك وإن قصُر حركةٌ أينيّة لها هُوِيّة اتصاليّة منطبِقة على زمان له هُوِيّة كذلك، قابلٌ للانقسام إلى أبعاض هي أزمنة أيضًا؛ بل في آن غير منقسِم مِن ذلك الزمان، وهو آن ابتداء تلك الحركة، أو ما أمرها إلّا كالشيء الذي يُستقرَب ويقال: هو كلمح البصر أو هو أقرب. وأيًّا ما كان، فهو تمثيل لسرعة مجيئها حسبما عُبّر عنها في فاتحة السورة الشريفة بالإتيان.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومِن جملة الأشياء أن يجيء بها أسرعَ ما يكون، فهو قادر على ذلك، أو وما أمرُ إقامة الساعة التي كُنهها وكيفيّتها مِن الغيوب الخاصّة به سبحانه، وهي إماتة الأحياء وإحياءُ الأموات مِن الأوّلِين والآخِرين، وتبديلُ صور الأكوان أجمعين، وقد أنكرها المنكِرون وجعلوها مِن قبيل ما لا يدخُل تحت الإمكان في سرعة الوقوع وسهولة التأتّي، إلّا كلمح[١] البصر أو هو أقربُ على ما مرّ مِن الوجهين، إنّ الله على كلّ شيء قدير فهو قادر على ذلك لا محالةَ. وقيل: غيب السماوات والأرض عبارة عن يوم القيامة بعينه؛ لِما أنّ عِلمه بخصوصه غائب عن أهلهما،[٢] فوضعُ الساعة موضعَ الضمير لتقوية مضمون الجملة.

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٧٨﴾

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾،[٣] منتظِم معه في سِلك أدلّة التوحيد مِن قوله تعالى:

---

١ السياق: وما أمر... إلّا كلمح...
٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٥٧-٤٥٨.
٣ النحل، ٧٢/١٦.

[٣٤٠ظ] ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾،[١] / وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾،[٢] وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.[٣] والأمّهات: بضمّ الهمزة، وقرئ بكسرها أيضًا،[٤] جَمْعُ "الأمّ" زِيدَت الهاء فيه، كما زِيدَت في "أهراق" مِن "أراق"، وشذّت زيادتُها في الواحدة، قال:

أُمَّهتي خِندِفُ[٥] والياسُ[٦] أبي[٧]

﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ في موقع الحال، أي: غيرَ عالمين شيئًا أصلًا.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ عطفٌ على ﴿أَخْرَجَكُم﴾، وليس فيه دلالة على تأخّر الجَعْل المذكور مِن الإخراج؛ لِما أنّ مدلول الواو هو الجمع مطلقًا لا الترتيب، على أنّ أثَر ذلك الجعل لا يظهر قبل الإخراج، أي: جعَل لكم هذه الأشياء آلاتٍ تُحصِّلون بها العِلم والمعرفة، بأن تُحِسُّوا بمشاعركم جزئيّاتِ الأشياء وتُدرِكوها بأفئدتكم، وتتنبَّهوا لِما بينها مِن المشاركات والمبايَنات بتكرّر الإحساس، فتحصُل لكم علوم بديهيّة تتمكّنون بالنظر فيها مِن تحصيل العلوم الكسبيّة.

والأفئدة: جمع "فؤاد"، وهو وسط القلب، وهو مِن القلب كالقلب مِن الصدر، وهو مِن جموع القلّة التي جرَت مَجرى جموع الكثرة. وتقديم المجرور على المنصوبات لِما مرّ مِن الإيذان مِن أوّل الأمر بكون المجعول نافعًا لهم، وتشويقِ النفس إلى المؤخّر ليتمكّن عند وروده عليها فضلَ تمكّن.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ كي تعرِفوا ما أنعَم به عليكم طورًا غِبَّ طَور فتشكروه.

---

١ النحل، ١٦/٦٥.

٢ النحل، ١٦/٧٠.

٣ النحل، ١٦/٧١.

٤ قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٨، ٣٠٤.

٥ خِندف: مِن مشاهير العرب المستعربة، وهم بنو إلياس بن مضر بن نزار بن عدنان بن معدّ بن عدنان، وخِندف: اسم امرأته عُرف بها بنوه، وله مِن الولد على عمود النسب النبوي مُدرِكة. انظر: قلائد الجمان للقلقشندي، ١/١٣٢-١٣٣؛ ونهاية الأرب للقلقشندي، ١/٢٤٨.

٦ الياس: هو ولد مُضر وبه كان يُكنّى. انظر: أنساب الأشراف للبلاذري، ١/٣١.

٧ الرجز لقُصيّ بن كلاب جدّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في معجم ديوان الأدب للفارابي، ٤/١٧٥؛ وشرح التسهيل لابن مالك، ١/٩٩. وبلا نسبة في الصحاح للجوهري، «أمم»؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٤٥٨.

وتقديم ﴿ٱلسَّمۡعَ﴾ على "البصر" لِما أنّه طريق تلقّي الوحي، / أو لأنّ إدراكه أقدم [٣٤١و]
مِن إدراك البصر، وإفرادُه باعتبار كونه مصدرًا في الأصل.

﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٧٩﴾

﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾، وقرئ بالتاء.[1] ﴿إِلَى ٱلطَّيۡرِ﴾ جمع "طائر"، أي: ألم ينظروا إليها ﴿مُسَخَّرَٰتٖ﴾ مذلَّلاتٍ للطيران بما خلَق لها مِن الأجنحة والأسباب المساعِدة له، وفيه مبالغةٌ مِن حيث إنّ معنى التسخير: جعلُ الشيء منقادًا لآخرَ يتصرَّف فيه كيف يشاء، كتسخير البحر والفُلك والدوابّ للإنسان، والواقعُ ههنا تسخير الهواء للطير لتطير فيه كيف تشاء، فكان مقتضى طبيعة الطير السقوطَ، فسخَّرها الله تعالى للطيران، وفيه تنبيهٌ على أنّ الطيران ليس بمقتضى طَبْع الطير، بل ذلك بتسخير الله تعالى.

﴿فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: في الهواء المتباعِد مِن الأرض، والسُّكاك واللَّوح أبعدُ منه، وإضافتُه إلى السماء لِما أنّه في جانبها مِن الناظر ولإظهار كمال القُدرة. ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ﴾ في الجوّ حين قَبْض أجنحتهنّ وبَسْطِها ووُقوفِهنّ ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ عزّ وجلّ بقدرته الواسعة، فإنّ ثِقَل جسدها ورِقّةَ قوام الهواء يقتضيان سقوطها، ولا عِلاقةَ مِن فوقها ولا دِعامة مِن تحتها، وهو إمّا حال مِن الضمير المستتر في ﴿مُسَخَّرَٰتٖ﴾ أو مِن ﴿ٱلطَّيۡرِ﴾، وإمّا مستأنَف.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر مِن تسخير الطير للطيران بأن خلَقها خِلْقةً تتمكّن بها منه، بأن جعَل لها أجنحة خفيفة وأذنابًا كذلك، وجعَل أجسادها مِن الخِفّة / بحيث إذا بسطت أجنحتَها وأذنابَها لا يُطيق ثقلها بخرقِ ما تحتها مِن الهواء [٣٤١ظ]
الرقيق القِوام، وتَخرِقُ ما بين يديها مِن الهواء؛ لأنّها لا تُلاقيه بحجم كبير. ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ ظاهرة ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: مِن شأنهم أن يؤمنوا، وإنّما خص ذلك بهم لأنّهم المنتفِعون به.

---

[1] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٤.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم﴾ معطوف على ما مرّ، وتقديمُ ﴿لَكُم﴾ على ما سيأتي مِن المجرور والمنصوب لِما مرّ مِن الإيذان مِن أوّل الأمر بأنّه لمصلحتهم ومنفعتهم؛ لتشويق النفس إلى وروده. وقولُه تعالى: ﴿مِّنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ أي: مِن بيوتكم المعهودة التي تبنونها مِن الحَجر والمَدَر، تبيين لذلك المجعول المُبْهم في الجملة، وتأكيدٌ لِما سبَق مِن التشويق ﴿سَكَنًا﴾ "فَعَلٌ"، بمعنى: مفعول، أي: موضعًا تسكنون فيه وقت إقامتكم، أو تسكنون إليه مِن غير أن ينتقل مِن مكانه، أي: جعَل بعض بيوتكم بحيث تسكنون إليه وتطمئنّون به.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ أي: بيوتًا أُخَرَ مُغايِرةً لبيوتكم المعهودة، هي الخِيام والقِباب والأخبية والفَساطِيطُ. ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ تجدونها خفيفةً سهلةَ المأخذ. ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ وقت تَرحالكم في النقض والحَمْل والنقل، وقُرئ: بفتح العين.[١] ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ وقت نزولِكم في الضرب والبناء.

﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿مِن جُلُودِ﴾، والضمائر للأنعام على وَجْه التنويع، أي: وجعَل لكم مِن أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المَعْز ﴿أَثَٰثًا﴾ أي: متاعَ البيت، وأصلُه الكثرة والاجتماع، / ومنه [٣٤٢و]
"شَعْرٌ أثيثٌ".[٢] ﴿وَمَتَٰعًا﴾ أي: شيئًا يُتمتّع به بفنون التمتّع. ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى أن تقضوا منه أوطارَكم، أو إلى أن يبلى ويفنى، فإنّه في معرِض البِلى والفناء، وقيل: إلى أن تموتوا.[٣] والكلام في ترتيب المفاعيل مِثل ما مرّ مِن قبل.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ﴾ مِن غير صُنع مِن قِبَلكم، ﴿ظِلَٰلًا﴾ أشياءَ تستظلّون بها مِن الحرّ، كالغمام والشجر والجبل وغيرها. امتنّ سبحانه بذلك

---

[١] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٤.

[٢] أي: غزير طويل. لسان العرب لابن منظور، «أثث».

[٣] كما في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٥٩.

لِما أنّ تلك الديار غالبة الحرارة. ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ مواضعَ تسكنون فيها مِن الكهوف والغِيران والسُّروب. والكلام في الترتيب الواقع بين المفاعيل كالذي مرّ غيرَ مرّة.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾ جمع "سِربال"، وهو كلّ ما يُلبَس، أي: جعَل لكم ثيابًا مِن القُطن والكَتان والصوف وغيرها. ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ خصّه بالذِّكر اكتفاء بذِكر أحد الضدّين عن ذِكر الآخر، أو لأنّ وقايته هي الأهمّ عندهم لِما مرّ آنفًا. ﴿وَسَرَٰبِيلَ﴾ مِن الدروع والجواشن،[1] ﴿تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ أي: البأس الذي يصِل إلى بعضكم مِن بعض في الحرب مِن الضرب والطعن.

ولقد منّ الله سبحانه علينا حيث ذكَر جميع نِعَمه الفائضة على جميع الطوائف، فبدأ بما يخُصّ المقيمين حيث قال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾،[2] ثمّ بما يخصّ المسافرين ممّن لهم قدرة على الخِيام وأضرابها حيث قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾... إلخ،[3] ثمّ بما يعمّ مَن لا يقدِر على ذلك ولا يُئويه إلّا الظلال حيث قال: ﴿وَٱللَّهُ[4] جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾... إلخ، ثمّ بما لا بدّ منه لأحد حيث قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾... إلخ، ثمّ بما لا غنى عنه في الحروب حيث قال: ﴿وَسَرَٰبِيلَ / تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾. [٣٤٢ظ]

ثمّ قال: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الإتمام البالغ ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ أي: إرادةَ أن تنظُروا فيما أسبَغ عليكم مِن النِّعَم الظاهرة والباطنة والأنفسيّة والآفاقيّة، فتعرِفوا حقَّ مُنعمِها، فتؤمنوا به وحدَه وتذروا ما كنتُم به تشركون وتنقادوا لأمره. وإفرادُ النعمة إمّا لأنّ المراد بها المصدر، أو لإظهار أنّ ذلك بالنسبة إلى جانب الكبرياء شيءٌ قليل، وقُرئ: "تَسْلَمُوْنَ"،[5] أي: تَسلَمون مِن العذاب أو مِن الشِّرك، وقيل: مِن الجراح بلُبْس الدُّروع.[6]

---

١ الجواشن جمع جَوْشَن: وهو الدِّرع. لسان العرب لابن منظور، «جشن».

٢ النحل، ٨٠/١٦.

٣ النحل، ٨٠/١٦.

٤ م س – الله.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وعِكرمة وعمرو بن عُبيد. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٧؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٤.

٦ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٥٩/٢.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝٨٢﴾

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ فعل ماض على طريقة الالتفات، وصَرْفُ الخطاب عنهم إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تسليةً له، أي: فإن أعرضوا عن الإسلام، ولم يقبلوا منك ما أُلقيَ إليهم مِن البيّنات والعِبر والعظات ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: فلا قصورَ مِن جهتك؛ لأنّ وظيفتك هي البلاغ المُوضِح أو الواضح، وقد فعلتَه بما لا مزيدَ عليه، فهو مِن باب وَضْع السبب موضعَ المُسبَّب.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٣﴾

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ استئناف لبيان أنّ تولّيهم وإعراضَهم عن الإسلام ليس لعدم معرفتهم بما عُدِّد مِن نِعَم الله تعالى أصلًا، فإنّهم يعرِفونها ويعترفون أنّها مِن الله تعالى، ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ بأفعالهم حيث يعبدون غيرَ مُنعِمها، أو بقولهم: إنّها بشفاعة آلهتنا أو بسبب كذا. وقيل: نعمة الله تعالى نبوّةُ محمّد صلّى الله عليه وسلّم، عرَفوها بالمعجزات كما يعرِفون أبناءهم، ثمّ أنكروها عِنادًا.[١] ومعنى ﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الإنكار بعد المعرفة؛ لأنّ حقّ مَن عرف النعمة الاعترافُ بها لا الإنكارُ.

[٣٤٣و] وإسناد "المعرفة" و"الإنكار" / المتفرّع عليها إلى ضمير المشركين على الإطلاق مِن باب إسناد حال البعض إلى الكلّ كقولهم: "بنو فلان قتلوا فلانًا" وإنّما القاتل واحد منهم، فإنّ بعضهم ليسوا كذلك لقوله سبحانه: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: المنكِرون بقلوبهم غيرُ المعترفين بما ذُكر، والحُكم عليهم بمطلَق الكفر المؤذِن بالكمال مِن حيث الكميّةُ لا ينافي كمال الفِرقة الأولى مِن حيث الكيفيّةُ. هذا، وقد قيل: ذِكر الأكثر إمّا لأنّ بعضهم لم يَعرِفوا لنقصان العقل أو التفريطِ في النظر، أو لم يقُم عليه الحجّة لأنّه لم يبلغ حدّ التكليف،[٢] فتدبّر.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝٨٤ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝٨٥﴾

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يشهَد لهم بالإيمان والطاعة وعليهم بالكفر

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٥٩/٢.
٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٧٥/٢.

والعصيان وهو نبيُّها، ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الاعتذار إذ لا عذرَ لهم. و﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على أنّ ابتلاءهم بالمنع عن الاعتذار المُنبئ عن الإقناط الكلّي -وهو عندما يقال لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون، ١٠٨/٢٣]- أشدُّ مِن ابتلائهم بشهادة الأنبياء عليهم السلام عليهم وأطمُّ، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يُستَرضَون، أي: لا يقال لهم: أرضُوا ربكم إذ الآخرةُ دار الجزاء لا دارُ العمل. وانتصاب الظرف بمحذوف تقديرُه: اذكرْ أو خوِّفهم يوم نبعث... إلخ، أو يوم نبعث يحيق بهم ما يحيق ممّا لا يوصف. وكذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ الذي يستوجبونه بظلمهم، وهو عذابُ جهنّم، ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ ذلك ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: يُمهَلون، / كقوله تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾ [الأنبياء، ٤٠/٢١]. [٣٤٣ظ]

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ﴾ الذين كانوا يدعُونهم في الدنيا، وهم الأوثان أو الشياطين الذين شاركوهم في الكفر بالحَمْل عليه، وقارنوهم في الغيّ والضلال، ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ﴾ أي: نعبدهم أو نُطيعهم، ولعلّهم قالوا ذلك طمعًا في توزيع العذاب بينهم، كما يُنبئ عنه قوله سبحانه: ﴿فَأَلْقَوْا۟﴾ أي: شركاؤهم ﴿إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، فإنّ تكذيبهم إيّاهم فيما قالوا ليس إلّا للمدافعة والتخلّص عن غائلة مضمونه، وإنّما كذّبوهم وقد كانوا يعبدونهم ويُطيعونهم؛ لأنّ الأوثان ما كانوا راضين بعبادتهم لهم،[١] فكأنّ عبادتهم لم تكن عبادة لهم كما قالت الملائكة عليهم السلام: ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ [سبأ، ٤١/٣٤]، يعنون: أنّ الجنّ هم الذين كانوا راضين بعبادتهم لا نحن، أو كذّبوهم في تسميتهم شركاء وآلهة تنزيهًا لله سبحانه مِن الشريك، والشياطينُ وإن كانوا راضين بعبادتهم لهم لكنّهم لم يكونوا حاملين لهم

---

[١] وفي هامش م: لعدم شعورهم بها إذ ذاك. «منه».

على وَجْه القَسْر والإلجاء، كما قال إبليسُ: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم، ٢٢/١٤]، فكأنّهم قالوا: ما عبدتمونا حقيقة؛ بل إنّما عبدتُم أهواءكم.

﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝٨٧﴾

﴿وَأَلْقَوْاْ﴾ أي: الذين أشركوا ﴿إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾: الاستسلام والانقياد لحُكمه العزيزِ الغالب بعد الاستكبار عنه في الدنيا.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: ضاع وبطَل ﴿مَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾، مِن أنّ لله سبحانه شركاءَ، وأنّهم ينصُرونهم / ويشفعون لهم، وذلك حين كذّبوهم وتبرّءوا منهم. [٣٤٤و]

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ۝٨٨﴾

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في أنفسهم ﴿وَصَدُّواْ﴾ غيرَهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بالمنع عن الإسلام والحملِ على الكفر، ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ الذي كانوا يستحقّونه بكفرهم. قيل في زيادة عذابهم: حياتٌ أمثال البُخْت، وعقاربُ أمثال البِغال، تلسَع إحداهنّ، فيجِد صاحبها حُمَّتها[١] أربعين خريفًا، وقيل: يُخرَجون مِن النار إلى الزمهرير، فيبادرون مِن شدّة البرد إلى النار.[٢] ﴿بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ متعلّق بقوله: زدناهم، أي: زدنا عذابهم بسبب استمرارهم على الإفساد، وهو الصدّ المذكور.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝٨٩﴾

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾ تكرير لِما سبق تثنيةً للتهديد، ﴿فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم﴾ أي: نبيًا ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ مِن جنسهم قطعًا لمعذرتهم، وفي قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِم﴾ إشعارٌ بأنّ شهادة أنبيائهم على الأمم تكون بمَحضَر منهم.

---

١ الحُمّة والحُمَة: سُمّ العقرب. لسان العرب لابن منظور، «حمم».

٢ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤٦٠/٢.

﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ إيثارُ لفظ المجيء على البعث لكمال العناية بشأنه عليه السلام، وصيغةُ الماضي للدلالة على تحقّق الوقوع. ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الأُممِ وشهدائهم، كقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء، ٤/٤١]. وقيل: على أمّتك.[١] والعامل في الظرف محذوفٌ كما مرّ، والمراد به يوم القيامة.

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الكاملَ في الكتابيّة، الحقيقَ بأن يُخَصّ به اسم الجنس، وهو إمّا استئناف، أو حال بتقدير "قد".

﴿تِبْيَٰنًا﴾: بيانًا بليغًا ﴿لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ يتعلّق بأمور الدِّين، ومِن جملة ذلك أحوال الأمم مع أنبيائهم، فيكون كالدليل على كونه عليه السلام شهيدًا عليهم، وكذا مِن جملته ما أخبر به هذه الآيةُ الكريمة مِن بَعْث الشهداء، وبَعْثِه عليه السلام شهيدًا عليهم عليهم السلام. و"التِّبيانُ" كـ"التِّلقاء" / في كَسْر أوّله، وكونه تِبيانًا لكلّ شيء مِن أمور الدِّين، باعتبار أنّ فيه نصًّا على بعضها، وإحالةً لبعضها على السُّنّة، حيث أُمِر باتّباع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وطاعته، وقيل فيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم، ٥٣/٣]، وحثًّا على الإجماع. وقد رضي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لأمّته اتّباع أصحابه حيث قال: «أصحابي كالنّجوم بأيّهم اقتديتُم اهتديتُم»،[٢] وقد اجتهدوا وقاسوا ووطّأوا طُرقَ الاجتهاد، فكانت السُّنّة والإجماع والقياس مستندةً إلى تِبيان الكتاب، ولم يضُرَّ ما في البعض مِن الخفاء في كونه تِبيانًا، فإنّ المبالغة باعتبار الكمّيّة دون الكيفيّة، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق، ٥٠/٢٩]، إنّه مِن قولك: فلان ظالم لعبده وظلّام لعَبيده، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة، ٢/٢٧٠]. [٣٤٤ظ]

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ للعالمين، فإنّ حرمان الكفَرة مِن مغانم آثاره مِن تفريطهم لا مِن جهة الكتاب. ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ خاصّة، أو يكون كلُّ ذلك خاصًّا بهم؛ لأنّهم المنتفِعون بذلك.

---

١ كما في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٦٠.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ١٠/٤٣٥ (النساء، ٤/٥٩)؛ جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البرّ، ٢/٨٩٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٦١. وانظر لتفصيل تخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢/٢٢٩-٢٣٢.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ﴾ أي: فيما نزّله تِبيانًا لكلّ شيء وهدًى وبشرى. وإيثارُ صيغة الاستقبال فيه وفيما بعده لإفادة التجدّد والاستمرار.

﴿بِٱلۡعَدۡلِ﴾ بمراعاة التوسّط بين طرفَي الإفراط والتفريط، وهو رأس الفضائل كلِّها، تندرج تحته فضيلةُ القوّة العقليّة الملكيّة مِن الحِكمة المتوسِّطة بين الجَرْبَزَة والبَلادة، وفضيلةُ القوّةِ الشّهويّة البهيميّة مِن العِفّة المتوسِّطة بين الخلاعة والخمود، وفضيلةُ القوّة الغضبيّة السبُعيّة مِن الشجاعة المتوسِّطة بين التهوّر والجُبن، فمِن الحِكَم الاعتقاديّة التوحيد المتوسِّط بين التعطيل والتشريك.
[٣٤٥و] نُقل عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّ العدل هو التوحيد.[١] / والقول بالكسب المتوسِّط بين الجبر والقدَر، ومِن الحِكَم العمليّة التعبّد بأداء الواجبات المتوسِّط بين البطالة والترهّب، ومِن الحِكَم الخُلُقيّة الجودُ المتوسّط بين البخل والتبذير.

﴿وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ أي: الإتيان بما أُمِر به على الوجه اللائق، وهو إمّا بحسب الكمّيّة كالتطوّع بالنوافل أو بحسب الكيفيّة، كما يشير إليه قوله عليه السلام: «الإحسان أن تعبُد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك».[٢] ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ أي: إعطاء الأقارب ما يحتاجون إليه، وهو تخصيصٌ إثرَ تعميم اهتمامًا بشأنه.

﴿وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ الإفراط في مشايعة القوّة الشهويّة كالزنا مثلًا. ﴿وَٱلۡمُنكَرِ﴾ ما يُنكَر شرعًا أو عقلًا مِن الإفراط في إظهار آثار القوّة الغضبيّة. ﴿وَٱلۡبَغۡيِ﴾ الاستعلاء والاستيلاء على الناس والتجبّر عليهم، وهو مِن آثار القوّة الوهميّة الشيطانيّة التي هي حاصلة مِن رذيلتَي القوّتين المذكورتين الشهويّة والغضبيّة. وليس في البشَر شرّ إلّا وهو مندرِج في هذه الأقسام صادرٌ عنه

---

[١] بمعناه في جامع البيان للطبري، ١٤/٣٣٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/٣٨؛ وتفسير الرازي، ٢٠/٢٥٩.

[٢] صحيح البخاري، ١/١٩ (٥٠)؛ صحيح مسلم، ١/٣٦ (٨).

بواسطة هذه القُوى الثلاث، ولذلك قال ابن مسعود رضيَ الله عنه: «هي أجمعُ آية في القرآن للخير والشرّ»،[١] ولو لم يكن فيه غيرُ هذه الآية الكريمة، لكفَتْ في كونه تِبيانًا لكل شيءٍ، وهدى.

﴿يَعِظُكُمْ﴾ بما يأمر وينهى، وهو إمّا استئناف وإما حال مِن الضمير في الفعلين. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ طلبًا لأن تتّعظوا بذلك.

﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾

﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ هو البَيعة لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فإنّها مبايعة لله سبحانه لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح، ١٠/٤٨]. / ﴿إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ أي: حافِظوا على حدود ما عاهدتم الله عليه وبايعتم به رسول الله عليه السلام. [٣٤٥ظ]

﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ التي تحلِفون بها عند المعاهدة ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ حسبما هو المعهودُ في أثناء العُهود، لا على أن يكون النهيُ مقيَّدًا بالتوكيد مختصًّا به. ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ شاهدًا رقيبًا، فإنّ الكفيل مُراعٍ لحال المكفول به محافظ عليه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ مِن نَقْض الأيمان والعهود، فيُجازيكم على ذلك.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلَۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾

﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾ فيما تصنعون مِن النقض ﴿كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ أي: ما غزَلتْه، مصدرٌ بمعنى المفعول. ﴿مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ متعلِّق بـ﴿نَقَضَتْ﴾، أي: كالمرأة التي نقضَت غَزْلها مِن بعد إبرامه وإحكامِه. ﴿أَنكَٰثًا﴾ طاقاتٍ نكثتْ فَتْلها: جَمْعُ "نِكْث".

---

[١] جامع البيان للطبري، ٣٣٧/١٤؛ المعجم الكبير للطبراني، ١٣٢/٩ (٨٦٥٨)؛ ٣٣٧/١٤؛ شعب الإيمان للبيهقي، ٥٥/٤، ٨٣ (٢١٧٣، ٢٢١٦) ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٩/٥.

وانتصابه على الحاليّة مِن ﴿غَزْلَهَا﴾، أو على أنّه مفعول ثانٍ لـ﴿نَقَضَتْ﴾، فإنّه بمعنى صيَّرت، والمرادُ تقبيح حال النقض، بتشبيه الناقض بمثل هذه الخرقاءِ المعتوهة. قيل: هي رَيْطة بنت سعد بن تيم،[١] وكانت خرقاءَ، اتّخذت مِغزلًا قدرَ ذراع وصِنّارةً[٢] مثلَ إصبع وفَلكةً عظيمةً على قَدْرها، فكانت تغزِل هي وجواريها مِن الغداة إلى الظهر، ثمّ تأمرهنّ فينقُضْن ما غزَلْن.

﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ حالٌ مِن الضمير في ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾، أو في الجارّ والمجرور الواقع موقعَ الخبر، أي: مشابهين بامرأة شأنها هذا حالَ كونِكم متَّخذين أيمانكم مَفْسَدةً ودَغَلًا بينكم، وأصلُ الدَّخَل: ما يدخُل الشيء ولم يكن منه.

﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ﴾ بأن تكون جماعة ﴿هِىَ أَرْبَىٰ﴾ أي: أزيَدَ عددًا وأوفرَ مالًا ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾ مِن جماعة أخرى، / أي: لا تغدِروا بقوم لكثرتكم وقلّتهم أو لكثرة [٣٤٦و] مُنابذيهم وقوّتهم كقريش، فإنّهم كانوا إذا رأوا شوكةً في أعادي حلفائهم، نقضوا عهدهم وحالفوا أعداءهم.

﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ أي: بأن تكون أمّة أربى مِن أمّة، أي: يعامِلكم بذلك معاملة مَن يختبركم لينظر أتتمسَّكون بحبل الوفاء بعهد الله وبَيعة رسوله صلّى الله عليه وسلّم، أم تغترّون بكثرة قريش وشوكتهم وقلّة المؤمنين وضعفهم بحسب ظاهر الحال. ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ حين جازاكم بأعمالكم ثوابًا وعقابًا.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ مشيئةَ قَسْر وإلجاء ﴿لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ متّفقةً على الإسلام، ﴿وَلَٰكِن﴾ لا يشاء ذلك لكونه مزاحِمًا لقضيّة الحِكمة؛ بل ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾

---

[١] هي رَيْطة بنت سعد مناة تلقّب بالجِعِرّانة، ويقال: هي التي نقضت غزلها مِن بعد قوّة. انظر: الروض الأنف للسهيلي، ٧/٢٧٩.

[٢] الصِّنارة: الحديدة الدقيقة المُعقَّفة التي في رأس المِغزل. لسان العرب لابن منظور، «صنر».

إضلاله، أي: يخلُق فيه الضلال حسبما يصرِف اختياره الجزئي إليه. ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ هدايته حسبما يصرِف اختياره إلى تحصيلها.

﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ﴾ جميعًا يوم القيامة ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا، وهذا إشارة إلى ما لُوّح به مِن الكَسْب الذي عليه يدور أمر الهداية والضلال.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ تصريح بالنهي عنه بعد التضمين، تأكيدًا ومبالغةً في بيان قُبح المنهيّ عنه وتمهيدًا لقوله سبحانه: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ﴾ عن مَحجّة الحقّ ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ عليها ورسوخها فيها بالإيمان، وإفرادُ "القَدم" وتنكيرها للإيذان بأنّ زلَل قَدم واحدة أيّ قَدم كانت عزّت أو هانتْ محذورٌ عظيم، فكيف بأقدام كثيرة؟ ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي: العذاب الدنيوي ﴿بِمَا صَدَدتُّمْ﴾ بصدودكم أو بصدّكم غيرَكم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الذي ينتظم الوفاء بالعهود والأيمان، فإنّ مَن نقَض البَيعة وارتدّ جَعل ذلك سنّةً لغيره، ﴿وَلَكُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تأخذوا بمقابَلة عهده تعالى وبَيعةِ رسوله صلّى الله عليه وسلّم، أو آياتِه الناطقة بإيجاب المحافظة على العهود والأيمان. ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ / أي: لا تستبدلوا بها عوضًا يسيرًا، وهو ما كانت قريش يعِدون [٣٤٦ظ] ضعَفة المسلمين ويشترطون لهم على الارتداد مِن حُطام الدنيا. ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ عزّ وجلّ مِن النصر والتغنيم والثواب الأخروي ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ممّا يعِدونكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إن كنتم مِن أهل العِلم والتمييز، وهو تعليل للنهي على طريقة التحقيق.

كما أنّ قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ﴾[١] تعليل للخيريّة بطريق الاستئناف، أي: ما تتمتّعون به مِن نعيم الدنيا وإن جلّ؛ بل الدنيا وما فيها جميعًا ﴿يَنفَدُ﴾ وإن جمّ عددُه وينقضي وإن طال أمَده. ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ مِن خزائن رحمته الدنيويّة والأخرويّة ﴿بَاقٍ﴾ لا نَفادَ له، أمّا الأخرويّة فظاهرة، وأمّا الدنيويّة فحيث كانت موصولة بالأخرويّة ومستتبِعةً لها، فقد انتظمت في سِمْط الباقيات الصالحات. وفي إيثار الاسم على صيغة المضارع مِن الدلالة على الدوام ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ﴾ بنون العظمة على طريقة الالتفات[٢] تكريرٌ للوعد المستفاد مِن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾،[٣] على نهج التوكيد القسَمي مبالغة في الحمل على الثبات في الدِّين، والالتفاتُ عمّا يقتضيه ظاهر الحال مِن أن يقال: ولنجزينّكم أجركم بأحسنِ ما كنتم تعملون، للتوسّل إلى التعرّض لأعمالهم والإشعار بعلّيّتها للجزاء، أي: واللهِ لنجزينّ ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾ على أذيّة المشركين ومشاقِّ الإسلام التي مِن جملتها الوفاء بالعهود والفقرُ. وقُرئ بالياء مِن غير التفات.[٤]

﴿أَجْرَهُم﴾ مفعول ثانٍ لـ"نجزينّ"، أي: لنُعطِينّهم أجرهم الخاصّ بهم بمقابلة صبرهم على ما مُنوا به مِن الأمور المذكورة. ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: لنجزينّهم بما كانوا يعملونه مِن الصبر المذكور. وإنّما أُضيف إليه "الأحسن" للإشعار بكمال حُسنه، كما في قوله سبحانه: ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْأٓخِرَةِ﴾ [آل عمران، ١٤٨/٣]، لا لإفادة قَصْر الجزاء على الأحسن منه دون الحسَن، فإنّ ذلك ممّا لا يخطر ببال أحد، لاسيّما بعد قوله تعالى: ﴿أَجْرَهُم﴾ و﴿وَلَنَجْزِيَنَّ﴾، بحسب أحسَن أفراد أعمالهم، على معنى: لنعطينّهم بمقابلة الفرد الأدنى مِن أعمالهم المذكورة ما نعطيه بمقابلة الفرد الأعلى منها مِن الأجر الجزيل، لا أنّا نُعطي الأجر بحسب أفرادها المتفاوتة في مراتب الحسَن بأن نجزيَ الحسَن منها بالأجر الحسَن، والأحسَنَ بالأحسن. وفيه ما لا يخفى مِن العِدَة الجميلة باغتفار

---

١ وفي هامش م: إلخ.

٢ وفي هامش م: وهو أنسَب بالقسم المُقدَّر. «منه».

٣ في الآية السابقة.

٤ قرأ بها نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي وعامر بخلاف عنه ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٠٥/٢.

ما عسى يعتريهم في تضاعيف الصبر مِن بعض جزَع ونظمِه في سِلك الصبر الجميل، أو لنجزينّهم بجزاء أحسَنَ مِن أعمالهم.

/ وأمّا التفسير بما ترجّح فِعله مِن أعمالهم، كالواجبات والمندوبات، أو بما ترجّح تركه أيضًا كالمحرّمات والمكروهات دلالةً على أنّ ذلك هو المدار للجزاء دون ما يستوي فعله وتَرْكه كالمباحات، فلا يُساعده مقام الحثّ على الثبات على ما هم عليه مِن الأعمال الحسَنة المخصوصة والترغيب في تحصيل ثمراتها؛ بل التعرّضُ لإخراج بعض أعمالهم عن مداريّة الجزاء مِن قبيل تحجير الرحمة الواسعة في مقام توسيع حِماها. [٣٤٧و]

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: عملًا صالحًا أيَّ عمل كان، وهذا شروع في تحريض كافّة المؤمنين على كلّ عمل صالح غِبَّ ترغيب طائفة منهم في الثبات على ما هم عليه مِن عمل صالح مخصوص، دفعًا لتوهّم اختصاص الأجر الموفور بهم وبعملهم المذكور.

وقوله تعالى: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ مبالغةٌ في بيان شموله للكلّ. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ قيّده به إذ لا اعتدادَ بأعمال الكفَرة في استحقاق الثواب أو تخفيف العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان، ٢٥/٢٣]. وإيثارُ إيراده بالجملة الاسميّة الحاليّة على نَظْمه في سِلك الصلة لإفادة وجوب دوامه ومقارنته للعمل الصالح.

﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ في الدنيا يعيش عيشًا طيّبًا، أمّا إن كان موسِرًا فظاهر، وأمّا إن كان معسِرًا فيطيب عيشُه بالقناعة والرضى بالقسمة، وتوقُّع الأجرِ العظيم كالصائم يطيب نهاره بملاحظة نعيم ليله، بخلاف الفاجر فإنّه إن كان معسِرًا فظاهر، وإن كان موسِرًا فلا يدعه الحِرص وخوف الفوات أن يتهنّأ بعيشه.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ في الآخرة ﴿أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ حسبما نفعل بالصابرين فليس فيه شائبةُ تكرار. والجمع في الضمائر العائدة إلى الموصول لمراعاة جانب المعنى، كما أنّ الإفراد فيما سلف لرعاية جانب اللفظ، وإيثار ذلك على العكس لِما أنّ وقوع الجزاء بطريق الاجتماع المناسِب للجمعيّة ووقوعَ ما في حيّز الصلة وما يترتّب عليه بطريق الافتراق والتعاقُب الملائم للإفراد.

وإذ قد انتهى الأمر إلى أنّ مدار الجزاء المذكور هو صلاح العمل وحسنُه، [٣٤٧ظ] رُتِّب عليه بإلغاء / الإرشاد إلى ما به يحسُن العمل الصالح، ويخلُص عن شَوب الفساد فقيل: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: إذا أردتَ قراءتَه، عُبِّر بها عن إرادتها على طريقة إطلاقِ اسم المسبَّب على السبب إيذانًا بأنّ المراد هي الإرادة المتّصلة بالقراءة. ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ فاسأله عزّ جارُه أن يُعيذك ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ مِن وساوسه وخَطَراته كيلا يوسوسَك عند القراءة، فإنّ له هَمّةً بذلك، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ الآية [الحج، ٥٢/٢٢]، وتوجيهُ الخطاب إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وتخصيصُ قراءة القرآن مِن بين الأعمال الصالحة بالاستعاذة عند إرادتها؛ للتنبيه على أنّها لغيره عليه السلام وفي سائر الأعمال الصالحة أهمُّ، فإنّه عليه الصلاة السلام حيث أُمِر بها عند قراءة القرآن الذي لا يأتيه الباطل مِن بين يديه ولا مِن خلفه، فما ظنُّكم بمَن عداه عليه السلام وفيما عدا القراءةَ مِن الأعمال؟ والأمرُ للندب وهذا مذهب الجمهور، وعند عطاء للوجوب، وقد أخذ بظاهر النظمِ الكريم فاستعاذ عَقيبَ القراءة أبو هريرة رضي الله عنه ومالكٌ وابنُ سيرينَ وداودُ وحمزةُ مِن القرّاء،[١] وعن ابن مسعودٍ رضيَ الله عنه: قرأتُ على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقلت: أعوذ بالسميع العليم مِن الشيطان الرجيم، فقال عليه السلام: «قل أعوذ بالله مِن الشيطان الرجيم، هكذا أقرأنيه جبريلُ عليه السلام عن القلم عن اللوح المحفوظ».[٢]

---

١ الكلام بلفظ قريب في اللباب لابن عادل، ١٥٥/١٢.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ١٢٤/١٦؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٨٤/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٦٥/٢.

﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩﴾

﴿إِنَّهُۥ﴾ الضمير للشأن أو للشيطان، ﴿لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ﴾ تسلُّط وولاية ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: إليه يُفوِّضون أمورهم وبه يعوذون في كلّ ما يأتون وما يذرون؛ فإنّ وسوسته لا تؤثّر فيهم، ودعوتَه غيرُ مستجابة عندهم. وإيثارُ صيغة الماضي في الصلة الأولى للدلالة على التحقّق كما أنّ اختيار صيغة الاستقبال / في الثانية لإفادة الاستمرار التجدّدي، وفي التعرّض لوصف [٣٤٨و]
الربوبيّة عِدَةٌ كريمة بإعادة المتوكِّلين، والجملةُ تعليل للأمر بالاستعاذة أو لجوابه المَنْوي، أي: يُعِذك أو نحوه.

﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ۝١٠٠﴾

﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ﴾ أي: تسلُّطه وولايتُه بدعوته المستتبعة للاستجابة، لا سلطانُه بالقسر والإلجاء، فإنّه مُنتفٍ مِن الفريقين؛ لقوله سبحانه حكايةً عنه: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِي﴾ [إبراهيم، ٢٢/١٤]، وقد أفصح عنه قولُه تعالى: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾ أي: يتّخذونه وليًّا، ويستجيبون دعوتَه ويُطيعونه، فإنّ المقسور بمَعزِل مِن ذلك.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مُشۡرِكُونَ﴾، أو بسبب الشيطانِ مشركون؛ إذ هو الذي حمَلهم على الإشراك بالله سبحانه. وقَصْرُ سلطانه عليهم غِبَّ نفيه عن المؤمنين المتوكِّلين دليلٌ على ألّا واسطة في الخارج بين التوكّل على الله تعالى وبين تولّي الشيطان، وإن كان بينهما واسطة في المفهوم، وأنّ مَن لم يتوكّل عليه تعالى ينتظِمُ في سِلك مَن يتولّى الشيطانَ مِن حيث لا يحتسِب؛ إذ به يتمّ التعليل، ففيه مبالغةٌ في الحَمْل على التوكّل والتحذير عن مقابِله.

وإيثارُ الجملة الفعليّة الاستقباليّة في الصلة الأولى لِما مرّ مِن إفادة الاستمرار التجدّدي، كما أنّ اختيار الجملة الاسميّة في الثانية للدلالة على الثبات. وتكريرُ الموصولِ للاحتراز عن توهُّم كون الصلة الثانية حاليّة مفيدة لعدم دخول غير المشركين مِن أولياء الشيطان تحت سلطانه. وتقديمُ الأُولى

على الثانية التي هي بمقابلة الصلة الأُولى فيما سلف لرعاية المقارَنة بينها وبين ما يُقابِلها مِن التوكّل على الله تعالى، ولو رُوعيَ الترتيب السابق لانفصل كلٌّ مِن القرينتين عمّا يقابلها.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ أي: إذا أنزلنا آية مِن القرآن مكانَ آية منه، وجعلناها بدلًا منها بأن نسخناها بها ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ أوّلًا وآخِرًا، وبأنّ كلًّا مِن ذلك ما نزلت حيثما نزلت إلّا حسبما يقتضيه الحِكمة والمصلحة، فإنّ كلّ وقت له مقتضًى غيرُ مقتضى الآخَر، فكم مِن مصلحة في وقت تنقلِب في وقت آخرَ مَفسَدةً وبالعكس، لانقلاب الأمور الداعية إلى ذلك، وما الشرائع إلّا مصالحُ للعباد في المعاش والمعاد، تدور حسبما تدور المصالح. / والجملة [٣٤٨ظ]
إمّا معترضة لتوبيخ الكفَرة والتنبيهِ على فساد رأيهم. وفي الالتفات إلى الغَيبة مع إسناد الخبر إلى الاسم الجليل المُستجمِع للصفات ما لا يخفى مِن تربية المهابةِ وتحقيقِ معنى الاعتراض، أو حاليّة.[١] وقرئ بالتخفيف،[٢] مِن الإنزال.

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: الكفَرة الجاهلون بحِكمة النَّسخ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ أي: متقوِّل على الله تعالى، تأمُر بشيء ثمّ يبدو لك فتنهى عنه. وحكاية هذا القول عنهم ههنا للإيذان بأنّ ذلك كفْرة ناشئة مِن نزَغات الشيطان، وأنّه وليُّهم.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلَمون شيئًا أصلًا، أو لا يعلَمون أنّ في النَّسخ حِكَمًا بالغةً. وإسنادُ هذا الحُكم إلى الأكثر لِما أنّ منهم مَن يعلَم ذلك، وإنّما يُنكِره عِنادًا.

﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

---

١ السياق: والجملة إمّا معترضة... أو حاليّة...

٢ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢١٨، ٣٠٥.

﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ﴾ أي: القرآنَ المدلولَ عليه بالآية ﴿رُوحُ ٱلۡقُدُسِ﴾ يعني: جبريلُ عليه السلام، أي: الروحُ المطهَّر مِن الأدناس البشريّة، وإضافةُ "الروح" إلى ﴿ٱلۡقُدُسِ﴾ -وهو الطُّهْر- كإضافة "حاتِم" إلى "الجود"، حيث قيل: "حاتِمُ الجودِ" للمبالغة في ذلك الوصف، كأنّه طُبِع منه، وفي صيغة التفعيل في الموضعين إشعارٌ بأنّ التدريج في الإنزال ممّا تقتضيه الحِكَم البالغة.

﴿مِن رَّبِّكَ﴾، في إضافة الربِّ إلى ضميره صلّى الله عليه وسلّم مِن الدلالة على تحقيق إفاضة آثار الربوبيّة عليه عليه السلام ما ليس في إضافته إلى ياء المتكلِّم المَبنيّة على التلقين المَحْض. ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: ملتبِسًا بالحقّ الثابت الموافِق للحِكمة المقتضيةِ له، بحيث لا يفارقها إنشاءً ونسخًا، وفيه دلالةٌ على أنّ النسخ حقّ.

﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على الإيمان بأنّه كلامه تعالى، فإنّهم إذا سمعوا الناسخ، وتدبّروا ما فيه مِن رعاية المصالح اللائقة بالحال، رسَخت عقائدهم واطمأنّت قلوبهم، وقرئ: "لِيُثْبِتَ"[1] مِن الإفعال. ﴿وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ المنقادين لحُكمه تعالى، وهما معطوفان على محلّ ﴿لِيُثَبِّتَ﴾، أي: تثبيتًا وهداية وبِشارة، وفيه تعريضٌ بحصول أضداد الأمور المذكورة لمَن سواهم / مِن الكفّار. [٣٤٩و]

﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ١٠٣﴾

﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ﴾ غيرَ ما نُقِل عنهم مِن المقالة الشنعاء: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ﴾ أي: القرآنَ ﴿بَشَرٞ﴾ على طريق البتّ، مع ظهور أنّه نزّله روح القدس[2] عليه السلام. وتحليةُ الجملة بفنون التأكيد لتحقيق ما تتضمّنه مِن الوعيد، وصيغةُ الاستقبال لإفادة استمرار العِلم بحسب الاستمرار التجدّدي في متعلَّقه،

---

[1] قراءة شاذّة، مَرويّة عن أبي حَيْوَة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٧.

[2] م: نزل به الروح الأمين [صُحِّح في هامش م].

فإنّهم مستمِرُّون على تفوّه تلك العظيمة، يعنون بذلك حَبرًا الروميّ[١] غلامَ عامر بن الحضرمي،[٢] وقيل: حَبرًا ويَسارًا، كانا يصنعان السيفَ بمكّة، ويقرآن التوراة والإنجيلَ، وكان الرسول صلّى الله عليه وسلّم يمرّ عليهما ويسمع ما يقرآنه.[٣] وقيل: عابسًا غلامَ حُويطِب بن عبد العُزّى،[٤] قد أسلم وكان صاحبَ كُتب.[٥] وقيل: سلمانَ الفارسي.[٦]

وإنّما لم يصرِّح باسم مَن زعموا أنّه يعلّمه، مع كونه أدخلَ في ظهور كذبِهم للإيذان بأنّ مدار خطأهم ليس نسبتَه عليه السلام إلى التعلّم مِن شخص معيَّن؛ بل مِن البشر كائنًا مَن كان، مع كونه عليه السلام معدِنًا لعلوم الأوّلين والآخِرين.

﴿لِسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾ الإلحاد: الإمالة، مِن "ألحَد القبر"، إذا أمال حفره عن الاستقامة فحفَر في شقّ منه، ثمّ استُعير لكلّ إمالة عن الاستقامة فقالوا: ألحَد فلان في قوله وألحَد في دينه، أي: لغةُ الرجل الذي يُميلون إليه القول مِن الاستقامة أعجميّةٌ غيرُ بيّنة. وقرئ بفتح الياء والحاء،[٧] وبتعريف "اللِّسان".[٨]

﴿وَهَٰذَا﴾ القرآنُ الكريم ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ ذو بيان وفصاحة، والجملتان مستأنَفتان لإبطال طعنهم. وتقريرُه أنّ القرآن معجِز بنظمه، كما أنّه معجِز بمعناه،

---

١ حَبر أو جبر الرُّومي، هو مولى عامر بن الحضرمي، وكان قد أسلم فأكرهه عامر على الكفر، ذكر مقاتل في تفسيره أنّ قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل، ١٠٦/١٦] نزلت فيه، ثمّ أسلم عامر بعد ذلك وهاجر هو ومولاه جميعًا. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٤٩٧/٥، ٣٣١/٣.

٢ هو مِن المشركين وقاتل يوم بدر معهم. وقيل مات يوم بدر كافرًا. وقيل: أسلم وهاجر مع مولى له، وهو أخ الصحابي المشهور العلاء بن الحضرمي. انظر: **الاستيعاب** لابن عبد البرّ، ١٠٨٦/٣؛ و**الإصابة** لابن حجر، ٤٩٧/٥.

٣ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٦٦/٢.

٤ هو حُويطب بن عبد العُزّى بن قيس بن عبد ودّ مِن بني عامر بن لؤي القرشي، أبو محمّد أو أبو الإصبع (ت. ٥٤هـ/٦٧٤م). حارب الإسلام إلى أن فُتحت مكّة فأسلم وشهد مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم حنينًا والطائف، عاش مائة وعشرين سنةً ومات في المدينة في خلافة معاوية. انظر: **الاستيعاب** لابن عبد البرّ، ٣٩٩/١؛ و**سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٥٤٠/٢؛ و**الأعلام** للزركلي، ٢٨٩/٢.

٥ القول في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢٨٠/٢.

٦ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٦٦/٢.

٧ قراءة شاذّة، غير منسوبة. **الكشّاف** للزمخشري، ٤٦٦/٢.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٧٧.

فإن زعمتُم أنّ بشرًا يعلِّمه معناه، فكيف يعلِّمه هذا النظم الذي أعجز جميع أهل الدنيا؟ والتشبّث في أثناء الطعن بأذيال أمثال هذه الخرافات الركيكة دليل على كمال عجزهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٠٤ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ۝١٠٥﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يصدّقون أنّها مِن عند الله؛ / بل يقولون فيها ما يقولون، يسمّونها تارة افتراء وأخرى أساطيرَ معلَّمة مِن البشر. ﴿لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ إلى الحقّ، أو إلى سبيل النجاة هداية مُوصِلة إلى المطلوب لِما عُلم أنّهم لا يستحقّون ذلك لسوء حالهم. ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وهذا تهديد لهم ووعيد على ما هم عليه مِن الكفر بآيات الله تعالى ونسبةِ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى الافتراء والتعلّم مِن البشر بعد إماطة شُبهتهم وردّ طعنهم. [٣٤٩ظ]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ردٌّ لقولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ﴾،[١] وقلبٌ للأمر عليهم ببيان أنّهم هم المفترون، بعد ردّه بتحقيق أنّه منزّل مِن عند الله بواسطة روح القدس، وإنّما وُسّط بينهما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ﴾ الآية،[٢] لِما لا يخفى مِن شدّة اتّصالِه بالردّ الأوّل، والمعنى والله تعالى أعلمُ: أنّ المفتريَ هو الذي يكذِّب بآيات الله ويقول: إنّه افتراء ومعلَّم مِن البشر، أي: تكذيبُها على الوجه المذكور هو الافتراء على الحقيقة؛ لأنّ حقيقته الكذب، والحُكمُ بأنّ ما هو كلامه تعالى ليس بكلامه تعالى في كونه كذبًا وافتراءً كالحُكم بأنّ ما ليس بكلامه تعالى كلامُه تعالى.

والتصريح بالكذب للمبالغة في بيان قُبحِه. وصيغة المضارع لرعاية المطابقة بينه وبين ما هو عبارة عنه، أعني قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾. وقيل: المعنى "إنّما يفتري الكذب"، ويليق ذلك بمَن لا يؤمن بآيات الله؛ لأنّه لا يترقّب عقابًا عليه

---

[١] النحل، ١٠١/١٦.
[٢] النحل، ١٠٣/١٦.

ليرتدعَ عنه، وأمّا مَن يؤمن بها ويخاف ما نطقت به مِن العقاب، فلا يمكن أن يصدر عنه افتراء البتّةَ.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر مِن عدم الإيمانِ بآيات الله ﴿هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ على الحقيقة، أو الكاملون في الكذب؛ إذ لا كذِبَ أعظمُ مِن تكذيب آياته تعالى والطعنِ فيها بأمثال هاتيك الأباطيل. والسرُّ في ذلك أنّ الكذِب الساذَج الذي هو عبارة عن الإخبار بعدم وقوع ما هو واقع في نفس الأمر بخَلْق الله تعالى أو
[٣٥٠و] بوقوع ما لم يقع كذلك، مدافعة لله سبحانه في فعله فقط، والتكذيبُ / مدافعة له سبحانه في فعله وقوله المبنيّ عليه[1] معًا، أو الذين عادتهم الكذب لا يزَعُهم عنه وازع مِن دين أو مروءة. وقيل: الكاذبون في قولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾.[2]

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٠٦﴾

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾ أي: تلفّظ بكلمة الكفر ﴿مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ به تعالى، وهو ابتداءُ كلام لبيان حال مَن كفر بآيات الله بعدما آمن بها، بعد بيان حال مَن لم يؤمن بها رأسًا. و﴿مَن﴾ موصولة ومحلُّها الرفع على الابتداء، والخبرُ محذوف لدلالة الخبر الآتي عليه، أو هو خبر لهما معًا، أو النصبُ على الذمّ. ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ على ذلك بأمر يخاف على نفسه أو على عُضو مِن أعضائه، وهو استثناء متّصل مِن حكم الغضب والعذاب أو الذمّ؛ لأنّ الكفر لغة يتمّ بالقول، كما أشيرَ إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ حال مِن المستثنى، والعاملُ هو الكفر الواقع بالإكراه لا نفس الإكراه؛ لأنّ مقارنة اطمئنان القلب بالإيمان للإكراه لا يُجدي نفعًا، وإنّما المُجدي مقارنته للكفر الواقع به، أي: إلّا مَن كفَر بإكراه وإلّا مَن أُكرِه فكفَر، والحالُ أنّ قلبه مطمئنّ بالإيمان لم يتغيّر عقيدتُه،

---

[1] م س ط: المنبئ عنه [صُحّح في هامش م].

[2] النحل، ١٦/١٠١. | والقول للزمخشري في الكشّاف، ٢/٤٦٧.

وإنّما لم يُصرّح به إيماءً إلى أنّه ليس بكفر حقيقة، وفيه دليلٌ على أنّ الإيمان هو التصديق بالقلب.

﴿وَلَٰكِن مَّن﴾ لم يكن كذلك؛ بل ﴿شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أي: اعتقده وطاب به نفسًا ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ عظيم لا يُكتنه كُنهه، ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إظهارُ الاسم الجليل لتربية المَهابة وتقويةِ تعظيم العذاب. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إذ لا جُرمَ أعظمُ مِن جرمهم. والجمع في الضميرين المجرورين لمراعاة جانب المعنى، كما أنّ الإفراد في المستكِنّ في الصلة لرعاية جانب اللفظ.

رُوي أنّ قريشًا أكرهوا عمّارًا وأبويه ياسرًا وسُميّة على الارتداد فأباه أبواه، فربطوا سُميّة بين بعيرين ووُجئ[١] بحَرْبة في قُبلها، وقالوا: إنّما أسلمتِ مِن أجل الرجال فقتلوها وقتلوا ياسرًا، وهما أوّل قتيلين في الإسلام، وأمّا عمّار فأعطاهم بلسانه ما أكرهوا عليه، فقيل: يا رسول الله إنّ عمّارًا كفر، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «كلّا إنّ عمّارًا مُلئ إيمانًا مِن قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه»، فأتى عمّار رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو يبكي، فجعل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم / يمسح عينيه، وقال: «ما لك؟ إن عادوا [٣٥٠ظ]
لك فعُد لهم بما قلتَ».[٢] وهو دليل على جواز التكلّم بكلمة الكفر عند الإكراه الملجئ، وإن كان الأفضل أن يُتجنب عنه إعزازًا للدين كما فعله أبواه.[٣]

ورُوي أنّ مُسيلَمة الكذّاب أخذ رجلين، فقال لأحدهما: ما تقول في محمّد صلّى الله عليه وسلّم؟ قال: رسول الله، قال: فما تقول فيّ؟ قال: فأنت أيضًا، فخلاه؛ وقال للآخر: ما تقول في محمّد عليه السلام؟ قال: رسول الله، قال: فما تقول فيّ؟ قال: أنا أصمُّ، فأعاد ثلاثًا فأعاد جوابه، فبلغ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال: «أمّا الأوّل فقد أخذ برخصة، وأما الثاني فقد صدع بالحقّ».[٤]

---

١ وجأ: ضرب. **لسان العرب** لابن منظور، «وجأ».

٢ **معالم التنزيل** للبغوي، ٥/٤٥-٤٦؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٤٦٧. وبمعناه في **جامع البيان** للطبري، ١٤/٢٧٣-٢٧٦.

٣ انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٤٦٧.

٤ بلفظ قريب في **المُصنَّف** لابن أبي شيبة، ٦/٤٧٣ (٣٣٠٣٧)؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ٢/٤٦٨. وانظر لتفصيل تخريجه: **تخريج أحاديث الكشّاف** للزّيلعي، ٢/٢٤٧.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٠٧ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ١٠٨﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الكفر بعد الإيمان، أو إلى الوعيد المذكور، ﴿بِأَنَّهُمُ﴾ بسبب أنّهم ﴿ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ آثروها ﴿عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى﴾ إلى الإيمان، وإلى ما يُوجب الثبات عليه هدايةَ قسر وإلجاء ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في عِلمه المحيط، فلا يعصِمهم عن الزَّيغ وما يؤدّي إليه مِن الغضب والعذاب العظيم. ولولا أحد الأمرين: إمّا إيثار الحياة الدنيا على الآخرة، وإمّا عدم هداية الله سبحانه للكافرين هدايةَ قسر بأن آثروا الآخرة على الدنيا، أو بأن هداهم الله تعالى هدايةَ قسر، لَما كان ذلك، لكنّ الثانيَ مخالِف للحكمة، والأوّلَ ممّا لا يدخُل تحت الوقوع، وإليه أشيرَ بقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي: أولئك الموصوفون بما ذُكر مِن القبائح ﴿ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ فأبت عن إدراك الحقّ والتأمُّل فيه. ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ أي: الكاملون في الغفلة؛ إذ لا غفلةَ أعظمُ مِن الغفلة عن تدبّر العواقب.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ١٠٩ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ١١٠﴾

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؛ إذ ضيّعوا أعمارَهم وصرفوها إلى ما لا يُفضي إلّا إلى العذاب المُخلَّد.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ إلى دار الإسلام، وهم عمّار وأصحابه رضي الله عنهم، أي: لهم بالولاية والنصر لا عليهم، كما يُوجبه ظاهر أعمالِهم السابقة. فالجارُّ والمجرور خبر لـ﴿إِنَّ﴾، ويجوز أن يكون خبرُها محذوفًا لدلالة الخبر الآتي عليه، ويجوز أن يكون ذلك خبرًا لها ويكون ﴿إِنَّ﴾ الثانيةُ تأكيدًا للأولى، و﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على تباعُد رتبة حالهم هذه عن رتبة حالهم التي يفيدها الاستثناءُ مِن مجرَّد الخروج عن حُكم الغضب والعذاب بطريق الإشارة، لا عن رُتبة حال الكفَرة.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾ أي: عُذّبوا على الارتداد وتلفّظوا بما يُرضيهم مع اطمئنان قلوبهم بالإيمان. وقرئ على بناء الفاعل،[١] أي: عذّبوا / المؤمنين، كالحَضْرمي [٣٥١و] أكره مولاه جبرًا حتّى ارتدّ ثمّ أسلما وهاجرا. ﴿ثُمَّ جَٰهَدُواْ﴾ في سبيل الله تعالى ﴿وَصَبَرُوٓاْ﴾ على مشاقّ الجهاد.

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ مِن بعد المهاجَرة والجهاد والصبر، فهو تصريح بما أشعَر به بناء الحُكم على الموصول مِن عِلّيّة الصلة له أو مِن بعد الفتنة المذكورة فهو لبيان عدم إخلال ذلك بالحُكم.[٢] ﴿لَغَفُورٞ﴾ لِما فعلوا مِن قبلُ ﴿رَّحِيمٞ﴾ يُنعِم عليهم مُجازاةً على ما صنعوا مِن بعد، وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة في الموضعَين إيماء إلى علّة الحُكم. وفي إضافة الربّ إلى ضميره صلّى الله عليه وسلّم مع ظهور الأثر في الطائفة المذكورة إظهارٌ لكمال اللطف به عليه الصلاة السلام، وإشعارٌ بأنّ إفاضة آثار الربوبيّة عليهم مِن المغفرة والرحمة بواسطته عليه السلام ولكونهم أتباعًا له.

﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١١١﴾

﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ﴾ منصوب بـ﴿رَحِيمٞ﴾ وما رُتّب عليه،[٣] أو بـ"اذكر" وهو يوم القيامة، يوم يقوم الناس لربّ العالمين. ﴿تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾ عن ذاتها تسعى في خلاصها بالاعتذار لا يُهِمّها شأن غيرها، فتقول: نفسي نفسي.

﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ﴾ أي: تُعطى وافيًا كاملًا ﴿مَّا عَمِلَتۡ﴾ أي: جزاءَ ما عمِلت بطريق إطلاق اسم السبب على المسبَّب إشعارًا بكمال الاتّصال بين الأجزية والأعمال. وإيثارُ الإظهار على الإضمار لزيادة التقرير وللإيذان باختلاف وقتَي المجادَلة والتوفية، وإن كانتا في يوم واحد. ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ لا يُنقَصون أجورَهم، أو لا يُعاقَبون بغير مُوجِب، ولا يُزاد في عقابهم على ذنوبهم.

---

١ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٥.

٢ وفي هامش م: ويندرج فيه حُكم قراءة الفتح في ﴿فُتِنُواْ﴾. «منه».

٣ وفي هامش م: فإنّ المراد توقيت رحمته تعالى المقارِنة لمغفرته المترتّبة عليها. «منه».

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ١١٢﴾

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ قيل: ضَرْب المثل: صُنعه واعتماله، وقد مرّ تحقيقُه في سورة البقرة،[1] ولا يتعدّى إلّا إلى مفعول واحد، وإنّما عُدّيَ إلى الاثنين لتضمينه معنى الجَعْل. وتأخيرُ ﴿قَرْيَةً﴾ مع كونها مفعولًا أوّلَ؛ لئلا يَحُول المفعول الثاني بينها وبين صفتها وما يترتَّب عليها، إذ التأخير عن الكلّ مُخِلّ بتجاذُب أطراف النظم وتجاوبها؛ ولأنّ تأخيرَ ما حقّه التقديمُ ممّا يُورِث النفسَ ترقّبًا لوروده وتشوّقًا إليه، / لاسيّما إذا كان في المُقدَّم ما يدعو إليه، فإنّ المَثَل ممّا يدعو إلى المحافظة على تفاصيل أحوال ما هو مَثَل، فيتمكّن المتأخِّر[2] عند ورودِه لديها فضلَ تمكُّن. و"القرية" إمّا محقَّقةٌ في الغابرين، وإمّا مقدَّرة، أي: جَعَلها مثلًا لأهل مكّةَ خاصّةً، أو لكلّ قوم أنعَم الله تعالى عليهم فأبطرتهم النعمة، ففعلوا ما فعلوا، فبدّل الله تعالى بنعمتهم نقمة، ودخَل فيهم أهل مكّةَ دخولًا أوّليًا. [٣٥١ظ]

﴿كَانَتْ ءَامِنَةً﴾ ذاتَ أمن مِن كلّ مَخُوف ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ لا يُزعِج أهلَها مُزعجٌ، ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا﴾ أقواتُ أهلها، صفة ثانية لـ﴿قَرْيَةً﴾. وتغييرُ سَبْكها عن الصفة الأولى لِما أنّ إتيان رزقها متجدِّد، وكونَها آمنةً مطمئنة ثابتٌ مستمرّ. ﴿رَغَدًا﴾ واسعًا ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ مِن نواحيها.

﴿فَكَفَرَتْ﴾ أي: كفر أهلها ﴿بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ أي: بنِعَمه: جمع "نِعمة"، على ترك الاعتداد بالتاء، كـ"دِرع" و"أدرُع"، أو جمع "نُعْم"، كـ"بُؤس" و"أَبْؤس"، والمراد بها نعمةُ الرزق والأمن المستمِرّ. وإيثارُ جمع القِلّة للإيذان بأنّ كُفران نعمة قليلة حيث أوجب هذا العذابَ فما ظنُّك بكفران نِعَم كثيرة؟ ﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ﴾ أي: أذاق أهلها ﴿لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ شُبِّه أثرُ الجوع والخوف وضررُهما المحيط بهم باللباس الغاشي للّابس، فاستُعير له اسمه، وأُوقِع عليه الإذاقةُ المستعارة لمطلق الإيصال المنبئة عن شدّة الإصابة بما فيها مِن اجتماع

---

[1] في تفسير الآية السادسة والعشرين منها.

[2] في هامش م: المؤخَر.

إدراكَي اللامسة والذائقة على نهج التجريد، فإنّها لشيوع استعمالها في ذلك، وكثرةِ جرَيانها على الألسِنة جرت مَجرى الحقيقة، كقول كُثيِّر:

غَـمْـرُ الـرداء إذا تـبـسَّـم ضـاحـكًـا   غَـلِـقـت لـضِـحـكـتـه رقـابُ الـمـالِ[1]

فإنّ الغَمْر مع كونه في الحقيقة مِن أحوال الماء[2] لمّا كان كثير الاستعمال في المعروف المُشبَّه بالماء الكثير، جرى مَجرى الحقيقة، فصارت إضافته إلى الرداء المستعار للمعروف تجريدًا. أو شُبّه أثرُهما وضررُهما[3] / مِن حيث [٣٥٢و] الإحاطةُ بهم والكراهةُ لديهم تارة باللباس الغاشي للّابس المناسِب للخوف بجامع الإحاطة واللزوم تشبيهَ معقول بمحسوس، فاستُعير له اسمه استعارةً تصريحيّة، وأخرى بطَعْم المُرّ والبشِع الملائم للجوع الناشئ مِن فَقْد الرزق بجامع الكراهة، فأُومئَ إليه بأن أُوقِع عليه الإذاقة المستعارة لإيصال الضارّ المُنبئةُ عن شدّة الإصابة بما فيها مِن اجتماع إدراكَي اللامسة والذائقة.

وتقديمُ الجوع الناشئ ممّا ذُكر مِن فقدان الرزق على الخوف المترتِّب على زوال الأمن المقدَّم فيما تقدَّم على إتيان الرزق لكونه أنسبَ بالإذاقة، أو لمراعاة المقارنة بينها وبين إتيان الرزق. وقد قُرئ بتقديم ﴿ٱلْخَوْفِ﴾،[4] وبنصبه[5] أيضًا عطفًا على المضاف، أو إقامةً له مُقامَ مضاف محذوف، وأصله: ولباسَ الخوف.

﴿بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ فيما قبلُ، أو على وجه الاستمرار، وهو الكفران المذكور، أُسنِد ذلك إلى أهل القرية تحقيقًا للأمر بعد إسناد الكفران إليها

---

١ البيت لكُثيِّر عزّة يمدح عبد العزيز بن مروان، وهو في ديوانه، ص ٢٨٨؛ وله في الكشّاف للزمخشري، ٤٦٩/٢، والإيضاح للقزويني، ص ٤٣٢. وفي معاهد التنصيص للعبّاسي، ١٤٩/١-١٥٠: «غَمْر الرداء: كثير العطاء... "غلِقت لضحكته رقاب المال"، يقال: "غلِق الرّهن في يد المرتهَن" إذا لم يقدِر على انفكاكه، وهو يريد في البيت أنّ ممدوحه إذا تبسّم غلِقت رقاب أمواله في أيدي السائلين».

٢ في هامش م: الكثير.

٣ السياق: شُبّه أثر الجوع... أو شُبّه...

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وأُبيّ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٨.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي السَّمّال وعبّاس والجُعفي واللؤلئي وعبد الوارث عن أبي عمرو. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١١٧.

وإيقاع الإذاقة عليها إرادة للمبالغة، وفي صيغة "الصنعة" إيذانٌ بأنّ كفران النعمة صار صنعة راسخة لهم وسُنّة مَسلُوكة.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ﴾ مِن تتمّة المَثَل، جيء بها لبيان أنّ ما فعلوه مِن كُفران النِّعم لم يكن مزاحمة منهم لقضيّة العقل فقط؛ بل كان ذلك معارضة لحجّة الله على الخلق أيضًا، أي: ولقد جاء أهلَ تلك القرية ﴿رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: مِن جنسهم يعرِفونه بأصله ونسَبه، فأخبرهم بوجوب الشكر على النعمة، وأنذَرهم سوء عاقبة ما يأتون وما يذرون، ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ في رسالته، أو فيما أخبَرهم به ممّا ذُكر. فـ"الفاء" فصيحةٌ وعدم ذِكره للإيذان بمفاجأتهم بالتكذيب مِن غير تَلَعْثُمٍ.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ المستأصِل لشأفتهم غِبَّ ما ذاقوا نُبذةً مِن ذلك. ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي: حالَ التباسهم بما هم عليه مِن الظلم الذي هو كفران نِعَم الله تعالى وتكذيبُ رسوله، غيرَ مُقلعين عنه بما ذاقوا مِن مقدّماته الزاجرة عنه، وفيه دلالةٌ على تماديهم في الكفر والعِناد وتجاوزهم في ذلك كلّ حدّ مُعتاد.

[٣٥٢ظ] وترتيبُ العذاب على تكذيب الرسول جرى على سنّة الله تعالى / حسبما يُرشِد إليه قوله سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء، ١٥/١٧]، وبه يتمّ التمثيل، فإنّ حال أهل مكّةَ سواء ضُرِب المَثَل لهم خاصّة أو لمَن سار سيرتهم كافّة مُحاذية لحال أهل تلك القرية حَذْو القُذّة بالقُذّة[1] مِن غير تفاوت بينهما ولو في خَصلة فَذّة،[2] كيف لا، وقد كانوا في حرَم آمِن ويُتخطَّف الناس مِن حولهم وما يمرّ ببالهم طَيف مِن الخوف، وكانت تُجبى إليه ثمراتُ كلّ شيء، ولقد جاءهم رسول منهم وأيُّ رسول، يحار في إدراك سموّ رتبته العقولُ،

---

[1] القُذّة: ريش السهم. لسان العرب لابن منظور، «قذذ». وحذو القُذّة بالقُذّة، أي: مِثلًا بمِثل، وهو مثل يُضرَب في التسوية بين الشيئين. انظر: مجمع الأمثال للميداني، ١٩٥/١.

[2] الفذّ: الفرد. لسان العرب لابن منظور، «فذذ».

صلّى الله عليه وسلّم ما اختلف الدّبور والقَبول،[١] فكفروا بأنعم الله وكذّبوا رسوله صلّى الله عليه وسلّم، فأذاقهم الله لباس الجوع والخوف، حيث أصابهم بدعائه عليه السلام بقوله: «اللّهمّ أعِنّي عليهم بسَبْع كسَبْع يوسفَ»،[٢] ما أصابهم مِن جَدْب شديدٍ وأزمة حصّت كلّ شيء[٣] حتّى اضطرّتهم إلى أكْل الجِيف والكلاب الميّتة والعِظام المُحرَقة والعِلْهِز -وهو الوبر المعالَج بالدم- وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحُبت مِن سرايا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حيث كانوا يُغيرون على مواشيهم وعِيرهم وقوافلهم، ثمّ أخذهم يومَ بدر ما أخَذهم مِن العذاب.

هذا هو الذي يقتضيه المقام ويستدعيه حُسن النِّظام، وأمّا ما أجمَع عليه أكثر أهل التفسير مِن أنّ الضمير في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ﴾ لأهل مكّةَ قد ذُكر حالهم صريحًا بعد ما ذُكر مَثَلهم، وأنّ المراد بـ"الرسول" محمّد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وبـ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ ما أصابهم مِن الجَدْب ووقعة بدر فبمَعزِل مِن التحقيق؛[٤] كيف لا، وقوله سبحانه: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ مُفرّعٌ على نتيجة التمثيل، وصدّ لهم عمّا يؤدّي إلى مِثل عاقبته.

والمعنى: وإذ قد استبان لكم حال مَن كفَر بأنعُم الله وكذّب رسوله وما حلّ بهم بسبب ذلك مِن اللّتيّا والتي أوّلًا وآخِرًا فانتهُوا عمّا أنتم عليه مِن كُفران النِّعم وتكذيب الرسول صلّى الله عليه وسلّم، كيلا يحِلّ بكم / مِثلُ ما [٣٥٣و] حلّ بهم، واعرِفوا حقّ نِعَم الله تعالى، وأطيعوا رسوله صلّى الله عليه وسلّم في أمره ونهيه، وكلوا مِن رزق الله حالَ كونه ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾، وذروا ما تفترون مِن تحريم البحائر ونحوها.

﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾، واعرِفوا حقّها ولا تُقابلوها بالكفران. و"الفاء" في المعنى داخلة على الأمر بالشكر، وإنّما أُدخِلت على الأمر بالأكْل لكون الأكْل

---

١ الدّبور: الرّيح التي تُقابل الصَّبا والقَبول، وتهبّ على جزيرة العرب من جهة المَغرب. والقَبول: ريح الصَّبا تهبّ مِن جهة المشرِق. لسان العرب لابن منظور، «دبر»، «قبل».

٢ مسند أحمد، ١٧٩/٧ (٤١٠٤)؛ صحيح البخاري، ٧٧/٦ (٤٦٩٧)، وفيه «اكفنيهم» مكان «أعِنّي عليهم»؛ سنن الترمذي، ٤٥٧/٥ (٣٢٥٤).

٣ يقال: جاءت سنة حصّت كلّ شيء، أي: أذهبته. لسان العرب لابن منظور، «حصص».

٤ السياق: وأمّا ما أجمع... فبمَعزِل...

ذريعةً إلى الشكر، فكأنّه قيل: فاشكروا نعمة الله غِبّ أَكْلها حلالًا طيّبًا، وقد أُدمِج فيه النهيُ عن زَعْم الحُرمة، ولا ريبَ في أنّ هذا إنّما يُتصوّر حين كان العذابُ المستأصِل مُتوقَّعًا بعدُ وقد تمهّدت مباديه، وبعد ما وقَع ما وقَع فمَن ذا الذي يُحذَّر ومَن ذا الذي يُؤمَر بالأكل والشكر؟

وحَمْلُ قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾[1] على الإخبار بذلك قبل الوقوع يأباه التصدّي لاستصلاحهم بالأمر والنهي، وتوجيهُ خطاب الأمر بالأكل إلى المؤمنين مع أنّ ما يتلوه مِن خطاب النهي متوجّه إلى الكفّار، كما فعله الواحديُّ حيث قال: فكلوا أنتم يا معشر المؤمنين ممّا رزقكم الله مِن الغنائم،[2] ممّا لا يليق[3] بشأن التنزيلِ الجليل.

﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي: تطيعون، أو إن صحّ زعمُكم أنّكم تقصِدون بعبادة الآلهة عبادتَه تعالى.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ تعليلٌ لحِلّ ما أمرهم بأكله ممّا رزقهم، أي: إنّما حرّم هذه الأشياءَ دون ما تزعُمون حرمته مِن البحائر والسوائب ونحوها.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ بما اعتراه مِن الضرورة فتناوَل شيئًا مِن ذلك ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي: على مضطرّ آخرَ ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي: متجاوزٍ قدرَ الضرورة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: لا يؤاخِذه بذلك، فأقيمَ سببه مُقامه. وفي التعرّض لوصف الربوبيّة إيماءٌ إلى عِلّة الحُكم. وفي الإضافة إلى ضميره عليه السلام إظهارٌ لكمال اللطف به عليه السلام. وتصدير الجملة بـ﴿إِنَّمَا﴾ لحَصْر المحرّمات في الأجناس الأربعة

---

[1] في الآية السابقة.
[2] انظر: التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٨٩.
[3] السياق: وحَمْلُ... ممّا لا يليق...
[4] م س: ربّك.

إلّا ما ضُمّ إليه كالسِّباع والحمُر الأهليّة.

ثمّ أكّد ذلك بالنهي عن التحريم والتحليل بأهوائهم فقال: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ﴾ "اللام" صلة مِثلما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتٌ﴾ [البقرة، ١٥٤/٢]، أي: لا تقولوا في شأن ما تصفه ألسنتُكم مِن البهائم بالحِلّ والحُرمة / في قولكم: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [الأنعام، ١٣٩/٦]، مِن غير ترتّب ذلك الوصف على ملاحظة وفِكْر، فضلًا عن استناده إلى وحي أو قياس مبنيّ عليه. ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ منتصب بـ﴿لَا تَقُولُواْ﴾، وقولُه تعالى: ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ بدلٌ منه. ويجوز أن يتعلَّق بـ﴿تَصِفُ﴾ على إرادة القول، أي: لا تقولوا لِما تصِف ألسنتكم فتقول: هذا حلال وهذا حرام، وأن يكون القول المقدَّر حالًا مِن ﴿أَلْسِنَتُكُمُ﴾، أي: قائلةً هذا حلال... إلخ. [٣٥٣ظ]

ويجوز أن ينتصب ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ بـ﴿تَصِفُ﴾، ويتعلَّق ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ﴾... إلخ، بـ﴿لَا تَقُولُواْ﴾، و"اللام" للتعليل و﴿مَا﴾ مصدريّة، أي: لا تقولوا "هذا حلال وهذا حرام" لوَصْف ألسنتكم الكذبَ، أي: لا تُحِلّوا ولا تُحرِّموا لمجرَّد وَصْف ألسنتكم الكذبَ وتصويرِها له بصورة مستحسَنة وتزيينها له في المسامع، كأنّ ألسنتكم لكونها منشأ للكذب ومنبعًا للزور شخصٌ عالم بكُنهه ومحيط بحقيقته، يصفه للناس ويعرِّفه أوضحَ وصفٍ وأبينَ تعريف، على طريقة الاستعارة بالكناية، كما يقال: وجهُه يصِف الجمالَ وعينُه تصِف السِّحر. وقرئ بالجرّ[١] صفةً لـ﴿مَا﴾ مع مدخولها، كأنّه قيل: لوَصْفها الكذبِ، بمعنى: الكاذب، كقوله تعالى: ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف، ١٨/١٢]. والمراد بالوصف وصفُها البهائمَ بالحِلّ والحُرمة. وقرئ: "الكُذُبُ"،[٢] جمع "كَذوب" بالرفع صفة للألسنة، وبالنصب على الشَّتم، أو بمعنى الكلِم الكواذب،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٥.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن معاذ بن جبل ومَسلَمة بن مُحارب والهَمْدانيُّ عن طلحة وابن أبي عبلة وقُربى الشاميُّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٥-٢٧٦؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١١٨.

أو هو جَمْع "الكِذاب" مِن قولهم: كذَب كِذابًا، ذكَره ابن جنّي.[١]

﴿لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ فإنّ مَدار الحِلّ والحُرمة ليس إلّا أمر الله تعالى، فالحُكم بالحِلّ والحُرمة إسناد للتحليل والتحريم إلى الله سبحانه مِن غير أن يكون ذلك منه، و"اللام" لام العاقبة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ في أمر مِن الأمور ﴿لَا يُفۡلِحُونَ﴾ لا يفوزون بمطالبهم التي ارتكبوا الافتراءَ للفوز بها.

﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١٧﴾

﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف، أي: منفعتُهم فيما هم عليه مِن أفعال الجاهليّة منفعة قليلة، ﴿وَلَهُمۡ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ لا يُكتنه كُنهُه.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٨﴾

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ خاصّة دون غيرهم مِن الأوّلين والآخِرين ﴿حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ﴾ أي: بقوله تعالى: ﴿حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ﴾ الآية [الأنعام، ٦/١٤٦]. ﴿مِن قَبۡلُ﴾ متعلِّق بـ﴿قَصَصۡنَا﴾ أو بـ﴿حَرَّمۡنَا﴾، وهو تحقيق لِما سلف مِن حصر المحرَّمات فيما فُصِّل بإبطال ما يُخالفه مِن فِريَة اليهود وتكذيبهم في ذلك، فإنّهم كانوا يقولون: لسنا أوّل مَن حُرِّمت عليه، وإنّما كانت محرمّة على نوح وإبراهيمَ ومَن بعدهما حتّى انتهى الأمر إلينا.

﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾ بذلك التحريم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ حيث فعلوا ما عوقبوا به عليه حسبما نعى عليهم قوله تعالى: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ

---

[١] انظر: المحتسب لابن جنّي، ٢/١٣. | هو عثمان بن جنّي الموصلي، أبو الفتح المعروف بابن جنّي (ت. ٣٩٢هـ/١٠٠٢م). مِن أئمّة اللغة والنحو والأدب. لازم إمام العربيّة أبا عليّ الفارسي، وُلد بالموصل وتوفّي ببغداد عن نحو خمسة وستّين عامًا. وله نمط فريد في التأليف، مِن أبرز تصانيفه: الخصائص، والمحتسَب، وسرّ الصناعة، واللمع، والفسر -وهو الشرح الكبير على ديوان المتنبّي- والتنبيه على شرح مشكل أبيات الحماسة. وهي مطبوعة. انظر: وفيات الأعيان لابن خلّكان، ٣/٢٤٦؛ والأعلام للزركلي، ٤/٢٠٤.

هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ الآية [النساء، ٤/١٦٠]، ولقد ألقمهم الحجر قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران، ٣/٩٣]. رُوي أنّه عليه السلام لمّا قال لهم ذلك بُهتوا ولم يجسروا أن يُخرِجوا التوراةَ، كيف؟ وقد بُيّن فيها أنّ تحريم ما حُرِّم عليهم مِن الطيِّبات لظُلمهم وبغيهم عقوبةً وتشديدًا أوضحَ بيان، وفيه تنبيه على الفرق بينهم وبين غيرهم في التحريم.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ أي: بسبب جهالة أو ملتبِسين بها ليعُمَّ الجهل بالله وبعقابه، وعدمِ التدبّر في العواقب لغلبة الشهوة. والسوء / يعمّ [٣٥٤و] الافتراء على الله تعالى وغيرَه. ﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: مِن بعد ما عملوا ما عملوا. والتصريحُ به مع دلالة ﴿ثُمَّ﴾ عليه للتأكيد والمبالغة. ﴿وَأَصْلَحُوٓاْ﴾ أي: أصلحوا أعمالهم، أو دخلوا في الصلاح.

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ مِن بعد التوبة ﴿لَغَفُورٌ﴾ لذلك السوء ﴿رَّحِيمٌ﴾ يُثيب على طاعته تركًا وفعلًا. وتكريرُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ لتأكيد الوعد وإظهار كمال العناية بإنجازه. والتعرّضُ لوصف الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام مع ظهور الأثر في التائبين للإيماء إلى أنّ إفاضة آثار الربوبيّة مِن المغفرة والرحمة عليهم بتوسّطه عليه السلام وكونِهم مِن أتباعه، كما أشيرَ إليه فيما مرّ.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ على حِياله لحِيازته مِن الفضائل البشريّة ما لا يكاد يوجد إلّا متفرّقةً في أمّة جَمّة، حسبما قيل:

ليس مِن الله بمستنكَرٍ أن يجمع العالَمَ في واحدِ[١]

وهو رئيس أهل التوحيد، وقدوة أصحاب التحقيق، جادَل أهل الشِّرك وألقَمهم الحَجَر ببيِّنات باهرة لا تُبقي ولا تذَر، وأبطَل مذاهبهم الزائفة بالبراهين القاطعة والحُجج الدامغة، أو لأنّه عليه السلام كان مؤمنًا وحدَه والناسُ كلّهم كفّار. وقيل: هي "فُعْلة" بمعنى مفعول، كـ"الرُّحلة" و"النُّخبة"، مِن "أمَّه" إذا قصَده أو اقتدى به، فإنّ الناس كانوا يقصِدونه ويقتدون بسيرته، كقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة، ١٢٤/٢].[٢] وإيرادُ ذِكره عليه السلام عَقيبَ تزييف مذاهب المشركين مِن الشِّرك والطعن في النبوّة وتحريم ما أحلّه الله تعالى للإيذان بأنّ حقّيّة دين الإسلام وبطلانَ الشِّرك وفروعه أمرٌ ثابت لا ريبَ فيه.

﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ مطيعًا له قائمًا بأمره، ﴿حَنِيفًا﴾ مائلًا عن كلّ دِين باطل إلى الدِّين الحقّ / غيرَ زائل عنه بحال. ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في أمر مِن أمور [٣٥٤ظ]
دينهم أصلًا وفرعًا، صرَّح بذلك مع ظهوره لا ردًّا على كفّار قريش فقط في قولهم: "نحن على ملّة أبينا إبراهيمَ"؛ بل عليهم وعلى اليهود المشركين بقولهم: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة، ٣٠/٩]، في افترائهم وادعائهم أنّه عليه السلام كان على ما هم عليه، كقوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران، ٦٧/٣]، إذ به ينتظِم أمر إيراد التحريم والسبت سابقًا ولاحقًا.

﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾

﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ صفة ثالثة لـ﴿أُمَّةً﴾،[٣] وإنّما أُوثِر صيغة جَمْع القِلّة للإيذان بأنّه عليه السلام كان لا يُخِلُّ بشُكر النِّعمة القليلة، فكيف بالكثيرة؟ وللتصريح

---

١ لأبي نواس في ديوانه، ٢٠٥/١؛ وفيه «الله» مكان «مِن الله»؛ وهو له في كتاب الحيوان للجاحظ، ٢٩/٣؛ والوساطة للقاضي الجرجاني ٢٥٤؛ وبلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٤٧١/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٨٦/٢، وفيها جميعًا «على الله» مكان «من الله».

٢ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٨٦/٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٧١/٢.

٣ في الآية السابقة.

بكونه عليه السلام على خلاف ما هم عليه مِن الكُفران بأنعُم الله تعالى حسبما بُيِّن ذلك بضرب المَثَل.

﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾ للنبوّة ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ مُوصِل إليه سبحانه وهو مِلّة الإسلام، وليست نتيجة هذه الهداية مجرَّدَ اهتدائه عليه السلام؛ بل مع إرشاد الخَلْق أيضًا بمعونة قرينة الاجتباء.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ حالة حسَنة مِن الذِّكر الجميل والثناءِ فيما بين الناس قاطبة، حتّى إنّه ليس مِن أهل دِين إلّا وهم يتولّونه. وقيل: هي الخَلّة والنبوّة. وقيل: قول المصلّي منّا "كما صلّيتَ على إبراهيمَ". والالتفات إلى التكلّم لإظهار كمال الاعتناء بشأنه وتفخيمِ مكانه عليه السلام.

﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أصحابِ الدرجات العالية في الجنّة، حسبما سأله بقوله: ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ۞ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۞ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الشعراء، ٢٦/٨٣-٨٥].

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ مع علوّ طبقتك وسُموّ رُتبتِك: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ المِلّة: اسمٌ لِما شرَعه الله تعالى لعباده على لسان / الأنبياء عليهم السلام، مِن "أمللتُ الكتابَ" إذا أمليتَه، وهو الدِّين بعينه لكن باعتبار الطاعة له. وتحقيقه أنّ الوضع الإلهي مهما نُسِب إلى مَن يُؤدِّيه عن الله تعالى يُسمّى مِلّةً، ومهما نُسِب إلى مَن يُقيمه ويعمل به يُسمّى دِينًا. قال الراغب: الفرقُ بينهما أنّ المِلّة لا تُضاف إلّا إلى النبيّ عليه السلام ولا تكاد توجَد مضافةً إلى الله سبحانه ولا إلى آحاد الأمّة ولا تُستعمَل إلّا في جملة الشرائع دون آحادها.[١] والمراد بمِلّته عليه السلام الإسلامُ الذي عُبِّر عنه آنفًا بالصراط المستقيم. [٣٥٥و]

---

١ انظر: مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني، ص ٧٧٣.

﴿حَنِيفًا﴾ حال مِن المضاف إليه، لِما أنّ المضاف لشِدّة اتّصاله به عليه السلام جرى منه مَجرى البعض فعُدّ بذلك مِن قبيل: "رأيتُ وجه هندٍ قائمةً". والمأمور به الاتّباع في الأصول دون الشرائع المتبدّلة بتبدّلِ الأعصار، وما في ﴿ثُمَّ﴾ مِن التراخي في الرُّتبة للإيذان بأنّ هذه النعمة أجلّ النِّعم الفائضة عليه عليه السلام. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ تكرير لِما سبَق لزيادة تأكيد وتقرير لنزاهته عليه السلام عمّا هم عليه مِن عَقْد وعمَل.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ﴾ أي: فُرض تعظيمه والتخلّي فيه للعبادة. وتركُ الصيد فيه تحقيقٌ لذلك النفي الكلّي، وتوضيحٌ له بإبطال ما عسى يُتوهَّم كونه قادحًا في كلّيّته حسبما سلَف في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا﴾... إلخ [الأنعام، ١٤٦/٦]، فإنّ اليهود كانوا يدّعون أنّ السبت مِن شعائر الإسلام، وأنّ إبراهيمَ عليه السلام كان محافِظًا عليه، أي: ليس السبت مِن شرائع وشعائر ملّته التي أُمرْتَ باتّباعها حتّى يكون بينه عليه السلام وبين بعض المشركين علاقةٌ في الجملة،[١] وإنّما شُرع ذلك لبني إسرائيلَ بعد مدّة طويلة.

وإيراد الفعل مبنيًّا للمفعول جَريّ على سَنن الكبرياء، وإيذانٌ بعدم الحاجة إلى التصريح بالفاعل لاستحالة الإسناد إلى الغير، وقد قُرئ على البناء للفاعل،[٢] وإنّما عُبّر عن ذلك بالجعل موصولًا بكلمة ﴿عَلَى﴾ وعنهم بالاسم الموصول باختلافهم، فقيل: إنّما جُعل السبت ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ للإيذان بتضمّنه للتشديد والابتلاء المؤدّي إلى العذاب، وبكونه معلَّلًا باختلافهم في شأنه قبل الوقوع، إيثارًا له[٣]

١ وفي هامش م: أي: اليهود الذين أشركوا بقولهم: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة، ٣٠/٩] سبحانه وتعالى عمّا يقولون عُلوًّا كبيرًا. «منه».

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والنخَعي واليزيدي وأبي حَيْوَة وابن أبي عبلة وابن مِقسَم والزعفراني والصرصري عن أبي بكر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٨؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٦؛ المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ١١١٩.

٣ وفي هامش م: كما فعله بعضهم. «منه».

على ما أمَر الله تعالى به / واختيارًا[١] للعكس، لكن لا باعتبار شُمول العلّيّة لطرفَي الاختلاف وعموم الغائلة للفريقين؛ بل باعتبار حال منشأ الاختلاف مِن الطرف المخالِف للحقّ. [٣٥٥ظ]

وذلك أنّ موسى عليه السلام أمر اليهود أن يجعلوا في الأسبوع يومًا واحدًا للعبادة، وأن يكون ذلك يومَ الجمعة، فأبَوا عليه وقالوا: نريد اليوم الذي فرَغ الله تعالى فيه مِن خَلْق السماوات والأرض وهو السبت، إلّا شرذمةً منهم قد رضُوا بالجمعة فأذِن الله تعالى لهم في السبت، وابتلاهم بتحريم الصيد فيه، فأطاع أمرَ الله تعالى الراضُون بالجمعة فكانوا لا يَصيدون، وأعقابُهم لم يصبِروا عن الصيد فمسَخهم الله سبحانه قِرَدةً دون أولئك المُطيعين.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: بين الفريقينِ المختلفَين فيه ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ أي: يفصِل ما بينهما مِن الخصومة والاختلاف، فيُجازي كلّ فريق بما يستحقّه مِن الثواب والعقاب. وفيه إيماءٌ إلى أنّ ما وقَع في الدنيا مِن مَسْخ أحد الفريقين وإنجاءِ الآخر بالنسبة إلى ما سيقع في الآخرة شيءٌ لا يُعتدّ به. هذا هو الذي يستدعيه الإعجاز التنزيلي.

وقد قيل: المعنى إنّما جُعل وبال السبت وهو المَسْخ على الذين اختلفوا فيه، أي: أحلُّوا الصيد فيه تارةً وحرّموه أخرى،[٢] وكان حتمًا عليهم أن يتّفقوا على تحريمه حسبما أمَر الله سبحانه به، وفُسِّر الحُكم بينهم بالمُجازاة باختلاف أفعالهم بالإحلال تارة والتحريمِ أخرى. ووجهُ إيراده ههنا بأنّه أريدَ به إنذار المشركين مِن سخط الله تعالى على العصاة والمخالفين لأوامره، كضَرْب المثَل بالقرية التي كفرت بأنعُم الله تعالى، ولا ريبَ في أنّ كلمة ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ تحكُم بأنّ المراد بالحُكم هو فَصْل ما بين الفريقين مِن الاختلاف، وأنّ توسيط حديث المَسْخ للإنذار المذكور بين حكاية أمر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم باتّباع مِلّة إبراهيمَ عليه السلام، وبين أمرِه صلّى الله عليه وسلّم بالدعوة إليها مِن قبيل الفَصْل بين الشجر ولِحائِه، فتأمَّل.

---

[١] وفي هامش م: كما فعله بعضهم. «منه».

[٢] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٨٧.

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾

﴿ٱدۡعُ﴾ أي: مَن بُعثتَ إليهم مِن الأمّة قاطبة، فحُذف المفعول للتعميم، أو افعل الدعوة كما في قولهم: "يعطي ويمنع"، أي: يفعل الإعطاء والمنع، فحذفُه للقصد إلى إيجاد نفس الفعل إشعارًا بأنّ عموم الدعوة غنيٌّ عن البيان، وإنّما المقصود الأمر بإيجادها على وجه مخصوص.

﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ إلى الإسلام الذي عُبّر عنه تارةً بالصراط المستقيم وأخرى بمِلّة إبراهيمَ عليه السلام. وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة المُنبِئة عن المالكيّة وتبليغِ الشيء إلى كماله اللائق شيئًا فشيئًا، مع إضافة الربّ إلى ضمير النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في مقام الأمر بدعوة الأمّة على الوجه الحكيم وتكميلهم بأحكام الشريعة الشريفة مِن الدلالة على إظهار اللُّطف به صلّى الله عليه وسلّم والإيماءِ إلى وجه بناءِ الحُكم ما لا يخفى.[1]

[٣٥٦و] ﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ أي: بالمقالة المُحكمَة الصحيحة، وهو الدليل المُوضِح / للحقّ المزيحُ للشبهة. ﴿وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ أي: الخطابيّات المقنِعة والعِبَر النافعة على وجه لا يخفى عليهم أنّك تُناصحهم وتقصِد ما ينفعهم. فالأولى لدعوة خواصّ الأمّة الطالبين للحقائق، والثانيةُ لدعوة عوامّهم. ويجوز أن يكون المراد بهما القرآنَ المجيد؛ فإنّه جامع لكلا الوصفين.

﴿وَجَٰدِلۡهُم﴾ أي: ناظِرْ معاندِيهم ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ بالطريقة التي هي أحسن طرُق المناظَرة والمجادَلة مِن الرِّفق واللِّين واختيار الوجه الأيسَر واستعمال المقدِّمات المشهورة تسكينًا لشغَبهم وإطفاءً للَهَبهم، كما فعله الخليل عليه السلام.[2]

---

[1] السياق: وفي التعرّض... مِن الدلالة... ما لا يخفى...

[2] وفي هامش م: مِن جملته ما قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [البقرة، ٢٥٨/٢]. «منه».

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الذي أمرك بدعوة الخَلْق إليه، وأعرضَ عن قَبول الحقّ بعد ما عايَن ما عايَن مِن الحِكَم والمواعظ والعِبَر. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ إليه بذلك. وهو تعليل لِما ذُكر مِن الأمرين، والمعنى -والله تعالى أعلمُ- اسلُكْ في الدعوة والمناظَرةِ الطريقةَ المذكورة،[١] فإنّه تعالى هو أعلَمُ بحال مَن لا يرعوي عن الضلال بموجَب استعداده المكتسَب، وبحال مَن يصير أمره إلى الاهتداء لِما فيه مِن خير جِبِلّي، فما شرَعه لك في الدعوة هو الذي تقتضيه الحكمة، فإنّه كافٍ في هداية المهتدين وإزالة عُذر الضالّين؛ أو ما عليك[٢] إلّا ما ذُكر مِن الدعوة والمجادلة بالأحسن، وأمّا حصولُ الهداية أو الضلال والمجازاةُ عليهما فإلى الله سبحانه؛ إذ هو أعلمُ بمَن يبقى على الضلال وبمَن يهتدي إليه فيُجازي كلًّا منهما بما يستحقّه.

وتقديم "الضالين" لِما أنّ مساق الكلام لهم، وإيرادُ "الضلال" بصيغة الفعل الدالِّ على الحدوث لِما أنّه تغيير لفطرة الله[٣] التي فطَر الناس عليها وإعراضٌ عن الدعوة، وذلك أمر عارض، بخلاف الاهتداء الذي هو عبارة عن الثبات على الفطرة والجرَيانِ على مُوجَب الدعوة، ولذلك جيء به على صيغة الاسم المُنبئ عن الثبات. وتكرير ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ للتأكيد والإشعارِ / بتبايُن حال [٣٥٦ظ] المعلومَين[٤] ومآلِهما مِن العقاب والثواب.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

وبعد ما أمره عليه السلام فيما يختصّ به مِن شأن الدعوة بما أمره به مِن الوجه اللائق، عقّبه بخطاب شامل له ولمَن شايَعه فيما يعمّ الكلّ، فقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ أي: إن أردتُم المعاقبة على طريقة قول الطبيب للمُحتمي: "إن أكلتَ فكُلْ قليلًا"، ﴿فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ أي: بمثل ما فُعل بكم.

---

١ وفي هامش م: بما ذُكر مِن الحِكَم والمواعظ. «منه».

٢ السياق: اسلُك في الدعوة... أو ما عليك...

٣ س + تعالى.

٤ وفي هامش م: من الضالّين والمُهتدين.

وقد عُبّر عنه بالعقاب على طريقة إطلاقِ اسم المسبَّب على السبب، نحوُ «كما تَدين تُدان»،[١] أو على نهج المشاكلة، والمقصودُ إيجاب مراعاة العدل مع مَن يُناصبُهم مِن غير تجاوز حينما آل الجِدال إلى القتال وأدّى النِزاع إلى القِراع، فإنّ الدعوة المأمور بها لا تكاد تنفكّ عن ذلك، كيف لا، وهي موجبة لصرف الوجوه عن القِبَل المعبودة وإدخالِ الأعناق في قِلادة غير معهودة قاضيةً عليهم بفساد ما يأتون وما يذرون، وبطلان دِين استمرّت عليه آباؤهم الأوّلون، وقد ضاقت عليهم الحِيل، وعيَّت بهم العِلَل، وسُدّت عليهم طرُق المُحاجّة والمناظَرة، وأُرتِجَت دونهم أبواب المباحَثة والمحاوَرة.

وقيل: إنّه صلّى الله عليه وسلّم لمّا رأى حمزةَ رضي الله عنه يوم أحُد قد مُثِّل به قال: «لئن أظفَرني الله بهم لأمثّلنّ بسبعين مكانك»،[٢] فنزلت، فكفّر عن يمينه وكُفَّ عمّا أراده، وقرئ: "وَإِنْ عَقَّبْتُمْ فَعَقِّبُوا"،[٣] أي: وإن قَفَّيْتم بالانتصار فقفّوا بمثل ما فُعل بكم غيرَ متجاوزين عنه.

والأمرُ وإن دلّ على إباحة المماثلة في المُثْلة مِن غير تجاوُز لكن في تقييده بقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ حثًّا على العفو تعريضًا، وقد صُرّح به على الوجه الآكد فقيل: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾ أي: عن المعاقَبة بالمِثل ﴿لَهُوَ﴾ أي: لَصَبرُكم ذلك ﴿خَيْرٌ﴾ لكم مِن الانتصار / بالمعاقبة. وإنما قيل: ﴿لِلصَّابِرِينَ﴾ مدحًا لهم وثناءً عليهم بالصبر، أو وصفًا لهم بصفة تحصُل لهم عند تَرْك المعاقَبة، ويجوز عَود الضمير إلى مطلَق الصبر المدلول عليه بالفعل، فيدخُل فيه صبرهم كدخول أنفسهم في جنس الصابرين دخولًا أوّليًا. [٣٥٧و]

ثمّ أُمِر صلّى الله عليه وسلّم صريحًا بما نُدِب إليه غيره تعريضًا مِن الصبر؛ لأنّه أَولى الناس بعزائم الأمور لزيادة عِلمه بشئونه سبحانه ووفورِ وثوقه به فقيل:

---

١ طرف حديث في الأسماء والصفات للبيهقي، ١/١٩٧-١٩٨ (١٣٢)؛ وانظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزّيلعي، ١/٢٦. ومذكور في أمثال العرب. انظر: مَجمع الأمثال للميداني، ٢/١٥٥؛ والمُستقصى للزمخشري، ٢/٢٧١.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٧٣، وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٨٧-٢٨٨. وانظر لتفصيل تخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢/٢٥٠.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن سيرين. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٨.

﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ أي: على ما أصابك مِن جهتهم مِن فنون الآلام والأذيّة وعاينتَ مِن إعراضهم عن الحقّ بالكلّيّة.

﴿وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمّ الأشياء، أي: وما صبرُك مُلابسًا ومَصحوبًا بشيء مِن الأشياء إلّا بالله، أي: بذِكره والاستغراق في مراقبة شئونه والتبتّل إليه بمجامع الهمّة، وفيه مِن تسليته عليه السلام وتهوينِ مَشاقّ الصبر عليه وتشريفِه ما لا مزيدَ عليه. أو إلّا بمشيئته المَبنيّة على حِكَم بالغة مستتبِعة لعواقبَ حميدة، فالتسلية مِن حيث اشتمالُه على غايات جميلة. وقيل: إلّا بتوفيقه ومعونته،[١] فهي مِن حيث تسهيلُه وتيسيره فقط.

﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: على الكافرين بوقوع اليأس مِن إيمانهم بك ومتابعتهم لك نحو: ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة، ٦٨/٥]. وقيل: على المؤمنين وما فُعل بهم.[٢] والأوّلُ هو الأنسَب بجزالة النظم الكريم.

﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ﴾ بالفتح، وقُرئ بالكسر،[٣] وهما لغتان كـ"القَوْل والقِيل"، أي: لا تكن في ضيق صدر وحرَج. ويجوز كون الأوّل تخفيفَ "ضيّق"، كـ"هَيْن" مِن "هَيِّن"، أي: في أمر ضيّق ﴿مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ أي: مِن مَكرهم بك فيما يُستقبَل، فالأوّلُ نهيٌ عن التألّم بمطلوب مِن قِبَلهم فاتَ، والثاني عن التألّم بمحذور مِن جِهَتهم آت، والنهيُ عنهما مع أنّ انتفاءهما مِن لوازمِ الصبر المأمور به لاسيّما على الوجه الأوّل لزيادة التأكيد وإظهارِ كمال العناية بشأن التسلية، وإلّا فهل يخطُر ببال مَن توجّه إلى الله سبحانه بشَراشرِ نفسِه متنزِّهًا عن كلّ ما سواه مِن الشواغل شيءٌ مِن مطلوب فيُنهى عن الحُزن بفواته، أو محذورٌ فيُكَفّ عن الخوف مِن وقوعه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ تعليل لِما سبَق مِن الأمر والنهي. والمراد بالمعيّة الوَلاية الدائمة / التي لا تحوم حول صاحبها شائبةُ شيء مِن الجزَع والحزَن [٣٥٧ظ]

---

١ كما في الكشّاف للزمخشري، ٤٧٤/٢.
٢ كما في الكشّاف للزمخشري، ٤٧٤/٢.
٣ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٠٥/٢.

وضِيق الصدر، وما يُشعِر به دخول كلمة ﴿مَعَ﴾ مِن متبوعيّة المتّقين إنّما هي مِن حيث إنّهم المباشِرون للتقوى، وكذا الحال في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة، ١٥٣/٢] ونظائرِهما كافّة.

والمراد بالتقوى المرتبة الثالثة منه، الجامعةُ لِما تحتها مِن مرتبة التوقّي عن الشِّرك ومرتبةِ التجنّب عن كلّ ما يُؤثِم مِن فعل وترك، أعني التنزّهَ عن كلّ ما يشغَل سِرّه عن الحقّ والتبتّل إليه بشَراشر نفسِه، وهو التقوى الحقيقي المُورِث لوَلايته تعالى المقرونة ببِشارة قوله سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس، ٦٢/١٠]، والمعنى أنّ الله وليُّ الذين تبتّلوا إليه بالكلّيّة وتنزّهوا عن كلّ ما يشغَل سِرّهم عنه، فلم يخطُر ببالهم شيء مِن مطلوب أو محذور، فضلًا عن الحزن بفواته أو الخوفِ مِن وقوعه، وهو المعنيُّ بما به الصبر المأمور به حسبما أشيرَ إليه، وبه يحصُل التقريب ويتمّ التعليل كما في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [هود، ٤٩/١١]، على أحد التفسيرين كما حُقّق في مَقامه، وإلّا فمجرّدُ التوقّي عن المعاصي لا يكون مدارًا لشيء مِن العزائم المرخَّص في تركها، فكيف بالصبر المُشار إليه ورديفَيه، وإنّما مَدارُه المعنى المذكور، فكأنّه قيل: إنّ الله مع الذين صبروا.

وإنّما أوثرَ ما عليه النظم الكريم مبالغة في الحثّ على الصبر بالتنبيه على أنّه مِن خصائص أجلّ النعوت الجليلة وروادفه، كما أنّ قوله تعالى: ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ للإشعار بأنّه مِن باب الإحسان الذي يتنافس فيه المتنافسون على ما فُعل ذلك حيث قيل: ﴿وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [هود، ١١٥/١١]، وقد نُبّه على أنّ كلًّا مِن الصبر والتقوى مِن قبيل الإحسان في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف، ٩٠/١٢]. وحقيقة الإحسان الإتيان بالأعمال على الوجه اللائقِ الذي هو حُسنها الوصفي المستلزِم لحُسنها الذاتي، وقد فسّره صلّى الله عليه وسلّم بقوله: «أن تعبُد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك».[1]

---

[1] صحيح البخاري، ١٩/١ (٥٠)؛ صحيح مسلم، ٣٦/١ (٨).

وتكرير الموصول للإيذان بكفاية كلّ مِن الصلتين في ولايته سبحانه مِن غير أن تكون إحداهما تتمّة للأخرى، وإيرادُ الأولى فِعليّةً للدلالة على الحدوث، كما أنّ إيراد الثانية اسميّةً لإفادة كون مضمونها شِيمة راسخةً لهم. وتقديم التقوى على الإحسان لِما أنّ التخلية متقدِّمة على التحلية، والمراد بالموصولَين إمّا جنسُ المتّقين والمُحسنين وهو عليه السلام داخل في زُمرتهم دخولًا أوّليًّا، وإمّا هو عليه السلام ومَن شايَعه، عُبّر عنهم بذلك مدحًا لهم وثناءً عليهم بالنعتَين الجميلَين. وفيه رمزٌ إلى أنّ صنيعَه عليه السلام مستتبع لاقتداء الأمّة به، كقول مَن قال لابن عبّاس رضي الله عنهما عند التعزية:

اصبِرْ نكنْ بك صابِرين فإنّما صَبْر الرعيّة عند صَبْر الراسِ[1]

عن هرِم بن حيّان أنّه قيل له حين الاحتضار: أوصِ، قال: إنّما الوصيّة مِن المال، وأوصيكم بخواتيم سورة النحل. عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة النحل لم يحاسبه الله تعالى[2] بما أنعَم عليه في دار الدنيا، وإن مات في يوم تلاها أو ليلة كان له مِن الأجر كالذي مات وأحسنَ الوصيّة».[3]

تمّت السورة الكريمة والحمد لله سبحانه أوّلًا وآخرًا، وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين، والحمد لله ربّ العالمين.[4]

---

١ وفي هامش م: بعده:
خيرٌ من العبّاس أجرُكَ بعده والله خيرٌ منك للعبّاسِ
والبيتان لأعرابي في الدُّرّ الفريد لابن آيدمر، ٤٠٣/٣.

٢ س – تعالى.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٩/١٦؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٧٤/٢؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٨٨/٢. وهو جزء من حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١. وانظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢٥١/٢.

٤ س – تمّت السورة الكريمة والحمد لله سبحانه أوّلا آخرا وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين، والحمد لله ربّ العالمين؛ س + والحمد لله وحده. | وفي هامش م: وحسبنا الله تعالى ونِعْم الوكيلُ، وقَع الفراغ مِن التسويد في العاشر مِن رمضان الشريف سنة ٩٥٦.

١٦

سُورَةُ النَّحلِ

مكية إلاّ «وإن عاقبتم» إلى آخرها، مِائَةٌ وثمانٍ وعشرون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

لمّا استبطأ المُشركون العذابَ نزل: ١ ـ ﴿أَتَى أمرُ اللهِ﴾ أي: الساعةُ ـ و«أتى» بصيغة الماضي لتحقّق وُقوعه ـ أي: قَرُبَ. ﴿فلا تَستَعجِلُوهُ﴾: تطلبوه قبل حِينه. فإنه واقع لا محالة. ﴿سُبحانَهُ﴾: تنزيهًا له ﴿وتَعالَى عَمّا يُشرِكُونَ﴾ به غيرَه!

٢ ـ ﴿يُنْزِلُ المَلائكةَ﴾: أي: جِبريلَ ﴿بِالرُّوحِ﴾: بالوحي ﴿مِن أمرِهِ﴾: بإرادته ﴿علَى مَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ﴾ ـ وهم الأنبياء ـ ﴿أنْ﴾: مُفسّرةٌ ﴿أنذِرُوا﴾:..

سُورَةُ النَّحلِ

قولُهُ: (﴿أَتَى﴾) فيه لطافَةٌ.

قولُهُ: (وَاقِعٌ) ولا خيرَ لكُم فيه ولا خلاصَ لكُم منه.

قولُهُ: (غيرَهُ) وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: بالخطابِ في الموضعينِ[1].

قولُهُ: (أي: جبرِيلَ) فالجمعُ للتَّعظيمِ.

قولُهُ: (بالوَحيِ) أو القرآنِ، فإنَّهُ يحيي القلبَ الميتَ بالجهلِ، أو يقومُ في الدِّينِ مقامَ الرُّوحِ في البدنِ.

قولُهُ: (بإِرَادَتِهِ) أو بأمرِهِ، أو من أجلِهِ.

قولُهُ: (مُفَسِّرةٌ) لأنَّ الرُّوحَ بمعنى الوَحيِ الدَّالِّ على القَولِ، أو مصدريَّةٌ في مَوضعِ الجرِّ بدلاً من الرُّوحِ، أو النَّصبُ بنزعِ الخافضِ، أو مخفَّفةٌ من الثَّقيلةِ.

---

(١) أي: قوله: (تشركون) في الآية (١) والآية (٣)، انظر: «حجة القراءات» (ص: ٣٨٤).

خوّفوا الكافرين بالعذاب وأعلموهم ﴿أَنَّهُ لا إلــٰـهَ إلاّ أنا. فاتَّقُونِ﴾: خافونِ. ٣ ـ ﴿خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ بِالحَقِّ﴾، أي: مُحقًّا. ﴿تعالَى عَمّا يُشرِكُونَ﴾ به من الأصنام!

٤ ـ ﴿خَلَقَ الإنسانَ مِن نُطْفةٍ﴾: مَنِيٍّ إلى أن صيّره قويًّا شديدًا، ﴿فإذا هُوَ خَصِيمٌ﴾: شديد الخُصومة ﴿مُبِينٌ﴾: بيِّنُها في نفي البعث، قائلاً: «مَن يُحيِي العِظامَ، وهْيَ رَمِيمٌ»؟ ٥ ـ ﴿والأنعامَ﴾: الإبلَ والبقر والغنم، ونَصبُه بفعل يُفسّره: ﴿خَلَقَها لكُم﴾ في جُملة الناس، ﴿فِيها دِفْءٌ﴾: ما تستدفئون به من الأكسية والأردية من أشعارها وأصوافها، ﴿ومَنافِعُ﴾ من النسل والدرّ والركوب، ﴿ومِنها تأكُلُونَ﴾ ـ قدّمَ الظرفَ للفاصلة ـ ٦ ـ ﴿ولَكُم فِيها جَمالٌ﴾: زِينة ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ تردّونها إلى مُراحها بالعشيّ، ﴿وحِينَ تَسرَحُونَ﴾: تُخرجونها إلى المرعى بالغداة، ٧ ـ ﴿ وتَحمِلُ أثقالَكُم﴾: أحمالكم ﴿إلَى بَلَدٍ، لَم تَكُونُوا بالِغِيهِ﴾: واصلِين إليه على غير الإبل ﴿إلاّ بِشِقِّ الأنفسِ﴾: بجَهدها. ﴿إنَّ رَبَّكُم لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ بكم حيثُ خلقها لكم.

قولُهُ: (وأَعلِمُوهُمْ) هذا تلفيقٌ بينَ قولين: أحدُهُما: خوِّفُوهم بأَنَّهُ واقع[١]، والثَّاني: أعلِموا أنَّ الشَّأنَ، مِن نَذِرْتُ بكذا: إذا علمْتُهُ، فكانَ حقَّهُ أن يقولَ: أو أعلِمُوهُم؛ ولئلَّا يُتوهَّمَ تقديرُهُ.

قولُهُ: (بيِّنُهَا) يحتملُ الوصْفَ والمعنَى.

قولُهُ: (الأَكسِيَةِ) جمعُ: كساءٍ.

قولُهُ: (مِنْ أَشعَارِهَا) وأوبارِها.

قولُهُ: (قَدَّمَ الظَّرفَ) أي: تأكُلونَ ما يُؤكَلُ منها من اللُّحومِ والشُّحومِ والألبانِ.

قولُهُ: (إلَى مُرَاحِهَا) بضمِّ الميمِ؛ يعني: من مَراعيهَا.

قولُهُ: (بالغَدَاةِ) فإنَّ الأفنيةَ تتزيَّنُ بها في الوقتَينِ، ويُجَلُّ أهلُها في أعينِ النَّاظرينَ إليها.

قالَ تعالى: (﴿إلى بَلَدٍ﴾) قالَ ابنُ عبَّاسٍ: يعني مكَّةَ[٢].

قولُهُ: (بجَهدِهَا) أي: بكلفَتِها ومشقَّتِها.

---

(١) «واقع»: ليس في (م) و(د).

(٢) رواه الطبري وابن أبي حاتم وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٥/ ١١٠).

ورواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ١٧٠) عن عكرمة.

٨ ـ ﴿وَ﴾ خلقَ ﴿الخَيلَ والبِغالَ والحَمِيرَ لِتَركَبُوها وزِينةً﴾: مفعول له ـ والتعليل بهما لتعريف النِّعم لا يُنافي خلقها لغير ذلك كالأكلِ في الخيل الثابتِ في حديث الصحيحين ـ ﴿ويَخلُقُ ما لا تَعلَمُونَ﴾ من الأشياء العجيبة الغريبة، ٩ ـ ﴿وعلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ أي: بيانُ الطريقِ المستقيم،.....

قالَ تعالى: (﴿وَالْخَيْلَ﴾... إلخ)، قالَ في «المداركِ»[١]: عطفٌ[٢] على ﴿الأَنْعَامَ﴾؛ أي: وخلقَ هؤلاءِ للرُّكوبِ والزِّينةِ، وقد احتجَّ أبو حنيفَةَ[٣] على حرمةِ أكلِ لحمِ الخيلِ؛ لأنَّهُ علَّلَ خلقَها للرُّكوبِ والزِّينةِ، ولم يذكرِ الأكلَ بعدَ ما ذكرَهُ في الأنعامِ، ومنفعَةُ الأكلِ أقوى، والآيَةُ سيقَتْ لبيانِ النِّعمِ، ولا يليقُ بالحكمَةِ أن يذكرَ في مَوضِعِ المنَّةَ أدنى النِّعمَتينِ ويتركَ أعلاهُما، انتهى.

وذُكرَ أنَّ كراهةَ[٤] لحمِ الخيلِ تحريميَّةٌ عندَ أبي حنيفَةَ، وقالَ الإسبيجَابيُّ: الأصحُّ أنَّها تنزيهيَّةٌ، كذا نقلَهُ ابنُ شِحنَةَ[٥].

قولُهُ: (فِي الصَّحِيحَينِ) وهو حديثُ جابرٍ قالَ: «نهى رسولُ اللهِ ﷺ عن لحومِ الحُمُرِ الأهليَّةِ، ورخَّصَ في لحومِ الخيلِ»[٦].

وذهبَ أبو حنيفةَ ومالكٌ والأوزاعيُّ إلى أنَّها مكروهَةٌ[٧]، واستدلُّوا بما في «السُّننِ» لأبي داودَ والنَّسائيِّ وابن ماجَه أنَّهُ عليهِ السَّلامُ: «نهى عن أكلِ لحومِ الخيلِ والبغَالِ والحَميرِ»[٨] وللآيةِ[٩].

قولُهُ: (الغَرِيبَةِ) في الدُّنيا أو الآخرةِ.

قولُهُ: (المُستَقِيمِ) الموصِلِ إلى الحقِّ، أو: عليه قصدُ السَّبيلِ يصلُ إليه مَن يسلكُهُ لا محالةَ.

---

(١) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٢٠٤).

(٢) في (ص) زيادة: «الخيل».

(٣) انظر: «المبسوط» (١١/ ٢٣٤).

(٤) بعده في (ص): «أكل».

(٥) قال ابن الشِّحْنة في «لسان الحكام» (ص: ٣٨١): ويكره لحم الخيل عند أبي حنيفة رحمه الله وفي الكراهة روايتان والأصح كراهة التحريم.

(٦) رواه البخاري (٥٥٢٠)، ومسلم (١٩٤١).

(٧) أي: كراهة لحم الخيل، أما الحمر الأهلية والبغال فحرام. انظر: «الهداية» للمرغيناني (٤/ ٣٥٢)، و«المعونة» للقاضي عبد الوهاب المالكي (ص: ٧٠٢)، و«تفسير القرطبي» (١٠/ ٧٦).

(٨) رواه أبو داود (٣٧٩٠)، والنسائي (٤٣٣٢)، وابن ماجه (٣١٩٨) من حديث خالد بن الوليد رضي الله عنه.

(٩) في (ص): «وبالآية».

﴿ومنها﴾ أي: السبيلِ ﴿جائرٌ﴾: حائد عن الاستقامة، ﴿ولَو شاءَ﴾ هِدايتكم ﴿لَهَداكُم﴾ إلى قصد السبيل ﴿أجمَعِينَ﴾، فتهتدون إليه باختيار منكم.

١٠ ـ ﴿هُوَ الَّذِي أنزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً، لَكُم مِنهُ شَرابٌ﴾ تشربونه، ﴿ومِنهُ شَجَرٌ﴾ يَنبتُ بسببه ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾: ترعَون دوابّكم، ١١ ـ ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرعَ والزَّيتُونَ والنَّخِيلَ والأعنابَ ومِن كُلِّ الثَّمَراتِ. إنَّ في ذلِكَ﴾ المذكورِ ﴿لَآيَةً﴾ دالّة على وحدانيّة الله ـ تعالى ـ ﴿لِقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في صُنعه فيؤمنون.

١٢ ـ ﴿وسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيلَ والنَّهارَ والشَّمسَ﴾ ـ بالنصبِ عطفًا على ما قبله، والرفعِ مبتدأ ـ ﴿والقَمَرَ والنُّجُومَ﴾، بالوجهين، ﴿مُسَخَّراتٍ﴾، بالنصبِ حالٌ والرفع خبرٌ، ﴿بِأمرِهِ﴾: بإرادته ـ ﴿إنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ لِقَومٍ يَعقِلُونَ﴾: يتدبّرون ـ ١٣ ـ ﴿و﴾ سخّر لكم ﴿ما ذَرَأَ﴾: خلق ﴿لَكُم في الأرضِ﴾ من الحيوان والنبات وغير ذلك، ﴿مُختَلِفًا ألْوانُهُ﴾ كأحمرَ وأخضر وأصفر وغيرِها. ﴿إنَّ في ذلِكَ لَآيَةً لِقَومٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ يتّعظون.

١٤ ـ ﴿وهُوَ الَّذِي سَخَّرَ البَحرَ﴾: ذلّـلَه لرُكوبه والغوص فيه،..............................

قولُهُ: (حَائِدٌ) أي: عادلٌ مائلٌ.

قولُهُ: (عنِ الاستِقَامَةِ) والقصدِ، أو: عنِ اللهِ.

قولُهُ: (هدَايَتَكُم) أي: أجمعين.

قولُهُ: (إلى قَصدِ السَّبيلِ) هدايةً مستلزِمةً للاهتِداءِ.

قولُهُ: (تشرَبُونَهُ) الظَّاهرُ: ما تشربونَهُ.

قالَ تعالى: (﴿يُنبِتُ﴾) شعبةُ: بالنُّونِ على التَّعظيمِ[1].

قولُهُ: (والرَّفعِ): ابنُ عامرٍ[2].

وقولُهُ: (بالوَجهَينِ) وافقَهُ حفصٌ في الأخيرينِ[3].

قولُهُ: (حَالٌ) من الجميعِ.

قولُهُ: (سَخَّرَ لَكُم) عطفٌ على ﴿اللَّيلَ﴾.

قولُهُ: (والغَوصِ) والاصطيادِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٧٠)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٨٦).

(٢) انظر المصدرين السابقين.

(٣) أي: قوله: ﴿والنجوم مسخرات﴾ انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٧٠).

﴿لِتأكُلوا مِنهُ لَحمًا طَرِيًّا﴾ هو السمك، ﴿وتَستَخرِجُوا مِنهُ حِليَةً تَلبَسُونَها﴾ هي اللؤلؤ والمَرجانُ ـ ﴿وتَرَى﴾: تُبصِرُ ﴿الفُلْكَ﴾ السُّفنَ ﴿مَواخِرَ فِيهِ﴾: تمخر الماء أي: تشقّه بجريها فيه مُقبلةً ومُدبرةً بريح واحدة ـ ﴿ولِتَبتَغُوا﴾ عطفٌ على «لتأكلوا»: تطلبوا ﴿مِن فَضلِهِ﴾ ـ تعالى ـ بالتجارة، ﴿ولَعَلَّكُم تَشكُرُونَ﴾ اللهَ على ذلك.

١٥ ـ ﴿وألقَى في الأرضِ رَواسِيَ﴾: جِبالاً ثوابتَ، لِـ ﴿أن﴾ لا ﴿تَمِيدَ﴾: تتحرّك ﴿بِكُم، و﴾ جعل فيها ﴿أنهارًا﴾ كالنيل ﴿وسُبُلاً﴾: طُرقًا، ﴿لَعَلَّكُم تَهتَدُونَ﴾ إلى مَقاصدكم، ١٦ ـ ﴿وعَلاماتٍ﴾ تستدلّون بها على الطرق كالجِبال بالنهار. ﴿وبِالنَّجمِ﴾، بمعنى النجوم، ﴿هُم يَهتَدُونَ﴾ إلى الطُّرق والقِبلة بالليل.

١٧ ـ ﴿أفمَن يَخلُقُ﴾ ـ وهو اللهُ ـ ﴿كَمَن لا يَخلُقُ﴾. وهو الأصنام، حتى تُشركونها معه في العبادة؟ لا.

قولُهُ: (هيَ اللُّؤلُؤ) أي: تلبسُها نساؤكُم، فأسندَ إليهم لأنَّهُنَّ من جملتِهم، ولأنَّهُنَّ يتزيَّنَّ بها لأجلِهم، كذا قالَهُ القاضِي[1].

وقالَ الفاضلُ في «الفتاوى»[2]: لا بأسَ بأن يلبسَ الصَّبيُّ اللُّؤلؤَ، وكذا البالغُ.

قولُهُ: (السُّفُنَ) بضمَّتَينِ، جمعُ: سفينةٍ.

قالَ[3] تعالى: (﴿مَوَاخِرَ﴾) جواريَ.

قولُهُ: (لـ﴿أَنْ﴾ لَا) أو: كراهَةَ أنْ.

قولُهُ: (تَتحَرَّكَ) وتضطرِبَ وتميلَ.

قولُهُ: (﴿و﴾جَعلَ) لأنَّ ألقى في معناهُ.

قولُهُ: (إلَى مَقاصِدِكُم) أو إلى معرفةِ اللهِ.

قولُهُ: (بمَعْنَى النُّجُومِ) يعني به: الجِنسَ.

قولُهُ: (﴿كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾) أي: لا يقدرُ على الخلقِ.

قولُهُ: (وهُو الأصنَامُ) فإجراؤُها مُجرَى أولي العلمِ لأنَّهم سَمَّوها آلهةً، ومِن حقِّ الإلهِ أن يعلمَ، أو للمشاكَلةِ بينَهُ وبينَ مَن يخلقُ، أو للمُبالغةِ؛ فكأنَّهُ قيلَ: إنَّ مَن يخلقُ ليسَ كمَن لا يخلقُ مِن أولي العلمِ، فكيفَ

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٢٢٢).

(٢) وانظر: «الفتاوى السراجية» (ص: ٣٢٨).

(٣) في (ص): «وقوله».

﴿أفلا تَذَّكَّرُونَ﴾ هذا، فتؤمنون؟ ١٨ ـ ﴿وإن تَعُدُّوا نِعْمةَ اللهِ لا تُحصُوها﴾: تَضبطوها، فضلاً أن تُطيقوا شُكرها.

﴿إنَّ اللهَ لَغفورٌ رَحِيمٌ﴾ حيثُ يُنعم عليكم مع تقصيركم وعِصيانكم، ١٩ ـ ٢٠ ـ ﴿واللهُ يَعلَمُ ما تُسِرُّونَ وما تُعلِنُونَ، والَّذِينَ تَدعُونَ﴾، بالتاء والياء: تعبدون ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ ـ وهم الأصنام ـ ﴿لا يَخلُقُونَ شَيئًا، وهُم يُخلَقُونَ﴾: يُصوَّرون من الحِجارة وغيرها، ٢١ ـ ﴿أمْواتٌ﴾: لا روحَ فيهم خبرٌ ثانٍ ﴿غيرُ أحياءٍ﴾: تأكيدٌ، ﴿وما يَشعُرُونَ﴾ أي: الأصنامُ ﴿أيّانَ﴾: وقتَ ﴿يُبعَثُونَ﴾ أي: الخلقُ. فكيف يُعبَدون إذ لا يكون إلهًا إلاّ الخالقُ الحيّ العالم بالغيب؟

٢٢ ـ ﴿إلـٰهُكُم﴾: المُستحقّ للعبادة منكم ﴿إلـٰهٌ واحِدٌ﴾: لا نظير له في ذاته ولا صِفاته. وهو الله تعالى. ﴿فالَّذِينَ لا يُؤمِنُونَ بِالآخِرةِ قُلُوبُهُم مُنكِرةٌ﴾: جاحدة للوحدانيّة، ﴿وهُم مُستكبِرُونَ﴾: مُتكبّرون عن الإيمان بها. ٢٣ ـ ﴿لا جَرَمَ﴾: حقًّا ﴿أنَّ اللهَ يَعلَمُ ما يُسِرُّونَ وما يُعلِنُونَ﴾ فيُجازيهم بذلك. ﴿إنَّهُ لا يُحِبُّ المُستكبِرِينَ﴾ بمعنى أنه يُعاقبهم.

ونزل في النضر بن الحارث: ٢٤ ـ ﴿وإذا قِيلَ لَهُم: ما﴾: استفهاميّة ﴿ذا﴾: موصولة ﴿أنزَلَ رَبُّكُم﴾ على مُحمّد؟ ﴿قالُوا﴾: هو ﴿أساطِيرُ﴾: ....

بمن لا علمَ عندَهُ، أو المرادُ بمن لا يخلقُ: كلُّ ما عُبدَ من دونِ اللهِ مغلَّباً فيهِ أولو العلمِ منهم للنُّكتةِ المتقدِّمةِ.

قولُهُ: (تَضبِطُوهَا) أي: عَدَدها.

قولُهُ: (بالياءِ) الغيبيَّة: عاصمٌ[1].

قولُهُ: (خَبرٌ ثانٍ) أي: لـ﴿هُم﴾ أي: وهم يخلقُونَ وهم أمواتٌ، وإن شئتَ جعلتَ ﴿يخلقُونَ﴾ و﴿أمواتٌ﴾ خبراً واحداً، وإن شئتَ كانَ خبرَ مبتدأ محذوفٍ؛ أي: هم أمواتٌ.

قولُهُ: (تَأكِيدٌ) أي: صفةٌ مؤكِّدةٌ لـ﴿أمواتٌ﴾، ويجوزُ أن يكونَ قُصدَ بها أنَّهُم في الحالِ غيرُ أحياءٍ؛ ليرفعَ به توهُّمَ أنَّ قولَهُ: ﴿أمواتٌ﴾ فيما بعدُ.

قولُهُ: (وَقْتَ) أي: بعثِهِم أو بعثِ عبدَتِهِم.

وقولُهُ: (﴿أنَّ اللهَ﴾) في مَوضعِ الرَّفعِ بـ﴿جَرَمَ﴾؛ لأنَّهُ مصدرٌ أو فعلٌ.

قولُهُ: (بذلِكَ) أي: بـ﴿ما يسرُّونَ﴾ إلخ.

قولُهُ: (هوَ) أي: ما يدَّعونَ نزولَهُ، أو المنزَلُ؛ على التَّهكُّمِ أو الفَرْضِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٧١)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٨٧).

أكاذيبُ ﴿الأَوَّلِينَ﴾، إضلالاً للناس. ٢٥ ـ ﴿لِيَحمِلُوا﴾ في عاقبة الأمر ﴿أوزارَهُم﴾: ذُنوبهم ﴿كامِلَةً﴾: لم يُكفَّر منها شيء ﴿يَومَ القِيامةِ، ومِن﴾: بعضِ ﴿أوزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيرِ عِلمٍ﴾ لأنهم دعَوهم إلى الضلال، فاتّبعوهم فاشتركوا في الإثم. ﴿ألا ساءَ﴾: بئسَ ﴿ما يَزِرُونَ﴾: يحملونه حِملُهم هذا!

٢٦ ـ ﴿قَد مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبلِهِم﴾ وهو نُمروذُ، بنَى صرحًا طويلاً ليصعد منه إلى السماء ليُقاتل أهلها، ﴿فأتَى اللهُ﴾: قصدَ ﴿بُنيانَهُم مِنَ القَواعِدِ﴾: الإساسِ، فأرسل عليه الريح والزلزلة فهدمته، ﴿فخَرَّ عليهِمِ السَّقفُ مِن فَوقِهِم﴾ أي: وهم تحته، ﴿وأتاهُمُ العَذابُ مِن حَيثُ لا يَشعُرُونَ﴾: من جِهةٍ لا تخطر ببالهم. وقيل: هذا تمثيل لِإفساد ما أبرموه من المكر بالرسل.

٢٧ ـ ﴿ثُمَّ يَومَ القِيامةِ يُخزِيهِم﴾: يُذِلّهم، ﴿ويَقُولُ﴾ لهم اللهُ على لسان الملائكة توبيخًا: ﴿أينَ شُرَكائيَ﴾ ـ بزعمكم ـ ﴿الَّذِينَ كُنتُم تُشاقُّونَ﴾: تُخالفون المؤمنين ﴿فِيهِم﴾: في شأنهم؟ ﴿قالَ﴾ أي: يقول ﴿الَّذِينَ أُوتُوا العِلمَ﴾ من الأنبياء والمُؤمنين:..

قولُهُ: (إِضلَالاً) علّةٌ لـ﴿قالُوا﴾.

قولُهُ: (بَعضِ) أي: بعضَ أوزارِ ضلالِ الَّذين، وهو حصَّةُ التَّسبُّبِ.

وقولُهُ: (﴿بِغَيرِ عِلمٍ﴾) حالٌ مِن المفعولِ؛ أي: يضلُّونَ مَن لا يعلمُ أنَّهُم ضلَّالٌ، وفائدَتُها: الدِّلالةُ على أنَّ جهلَهُم لا يعذرُهُم.

قولُهُ: (يَحمِلُونَهُ) أو: شيئاً يَزِرُونَهُ فعلُهُم.

قولُهُ: (نَمرُوذُ) بنُ كنعانَ.

قولُهُ: (بَنَى) ببابلَ[1].

قولُهُ: (طَوِيلاً) ارتفاعُهُ خمسةُ آلافِ ذراعٍ.

قولُهُ: (قَصَدَ) أو: فأتاهَا أمرُه مِن جهةِ العَمَدِ الَّتي بنَوا عليها بأن هُدِمَت.

قولُهُ: (أي: وهُم تحتَهُ) يعني: هو وقومُهُ، وصارَ سببَ هَلاكِهِم.

قولُهُ: (تُخَالِفُونَ) نافعٌ: بكسرِ النُّونِ[2]؛ أي: تخالفُوني.

قولُهُ: (مِن الأنبيَاءِ) أو الملائكةِ.

---

(١) انظر: «معجم البلدان» (١/ ٣٠٩).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٧١)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٨٨).

﴿إِنَّ الخِزيَ اليَومَ والسُّوءَ علَى الكافِرينَ﴾ ـ يقولونه شماتةً بهم ـ ٢٨ ـ ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ﴾، بالتاء والياء، ﴿المَلائكةُ ظالِمِي أنفُسِهِم﴾ بالكُفر. ﴿فألقَوُا السَّلَمَ﴾: انقادوا واستسلموا عِند الموت قائلين: ﴿ما كُنَّا نَعمَلُ مِن سُوءٍ﴾: شِرك. فتقول الملائكة: ﴿بَلَى إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِما كُنتُم تَعمَلُونَ﴾ فيُجازيكم به، ويقال لهم: ٢٩ ـ ﴿فادخُلُوا أبوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها. فلَبِئسَ مَثوَى﴾: مأوى ﴿المُتكَبِّرِينَ﴾!

٣٠ ـ ﴿وقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوا﴾ الشِّركَ: ﴿ماذا أنزَلَ رَبُّكُم؟ قالُوا: خَيرًا، لِلَّذِينَ أحسَنُوا﴾ بالإيمان ﴿في هذِهِ الدُّنيا حَسَنةٌ﴾: حياة طيِّبة، ﴿ولَدارُ الآخِرةِ﴾ أي: الجنَّةُ ﴿خَيرٌ﴾ من الدنيا وما فيها. قال تعالى فيها: ﴿ولَنِعمَ دارُ المُتَّقِينَ﴾ هي! ٣١ ـ ٣٢ ـ ﴿جَنّاتُ عَدْنٍ﴾: إقامةٍ، مبتدأٌ خبرُه: ﴿يَدخُلُونَها، تَجرِي مِن تَحتِها الأنهارُ، لَهُم فِيها ما يَشاؤُونَ. كَذلِكَ﴾ الجزاءِ ﴿يَجزِي اللهُ المُتَّقِينَ الَّذِينَ﴾: نعت ﴿تَتَوَفّاهُمُ المَلائكةُ طَيِّبِينَ﴾: طاهرين من الكُفر، ﴿يَقُولُونَ﴾ لهم عند الموت: ﴿سَلامٌ علَيكُمُ﴾، ويقال لهم في الآخرة: ﴿ادخُلُوا الجَنّةَ بِما كُنتُم تَعمَلُونَ﴾.

قالَ تعالى: (﴿إِنَّ الخِزْيَ اليَوْمَ والسُّوءَ﴾) أي: الذِّلَّةَ والعذابَ.

قولُهُ: (يقُولُونَهُ) أي: فائدةُ قولِهِم إظهارُ الشَّماتةِ وزيادةُ الإهانَةِ، وحكايتِه[1] ليكونَ لطفاً لمَن سمعَ.

قولُهُ: (والياءِ) التَّذكيرُ: حمزةُ معَ الإمالةِ[2]، وكذا ما يأتي[3]، وموضعُ الموصُولِ يحتمِلُ الأوجهَ الثَّلاثةَ.

قالَ تعَالى: (﴿قَالُوا: خَيْراً﴾) أي: أنزلَ خيراً.

قولُهُ: (حيَاةٌ طيِّبةٌ) مكافَأَةً في الدُّنيا.

قولُهُ: (أي: الجنَّةُ) أو لثوَابِهِم فيها.

قولُهُ: (قَالَ تَعَالَى فِيهَا) أي: في حقِّ دارِ الآخرةِ.

قولُهُ: (هيَ) أي: دارُ الآخرةِ، فحذفَ لتقدُّمِ ذكرِهِ، وقولُه: (﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾) خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، ويجوزُ أن يكونَ المخصُوصَ بالمدحِ.

قولُهُ: (عِندَ المَوتِ: ﴿سَلَامٌ﴾) أي: لا يلحقُكُم بعدُ[4] مكروهٌ.

قولُهُ: (ويُقالُ) أو التَّقديرُ: حينَ تُبعثونَ.

---

(١) قوله: «وحكايته» عطف على «قولهم»؛ أي: وفائدةُ حكايةِ ذلك عنهم. انظر: «حاشية زكريا الأنصاري على تفسير البيضاوي» (٣/ ٤٣٦).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٧٢)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٨٨).

(٣) أي: قوله تعالى: ﴿تتوفاهم﴾ في الآية (٣٢).

(٤) في (ص): «بعده».

٣٣ ـ ﴿هَل﴾: ما ﴿يَنظُرُونَ﴾: ينتظر الكُفّار ﴿إلاّ أن تأتِيَهُمُ﴾ ـ بالتاء والياء ـ ﴿المَلائكةُ﴾ لقبض أرواحهم، ﴿أو يأتِيَ أمرُ رَبِّكَ﴾: العذابُ أو القيامةُ المشتملة عليه؟ ﴿كَذلِكَ﴾: كما فعل هؤلاء ﴿فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبلِهِم﴾ من الأُمم، كذّبوا رُسلهم فأُهلكوا، ﴿وما ظَلَمَهُمُ اللهُ﴾ بإهلاكهم بغير ذنب، ﴿ولكِن كانُوا أنفُسَهُم يَظلِمُونَ﴾ بالكُفر، ٣٤ ـ ﴿فأصابَهُم سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا﴾ أي: جزاؤها، ﴿وحاقَ﴾: نزل ﴿بِهِم ما كانُوا بِهِ يَستَهزِئُونَ﴾ أي: العذابُ.

٣٥ ـ ﴿وقالَ الَّذِينَ أشرَكُوا﴾ من أهل مكّة: ﴿لَو شاءَ اللهُ ما عَبَدْنا مِن دُونِهِ مِن شَيءٍ نَحنُ ولا آباؤُنا، ولا حَرَّمْنا مِن دُونِهِ مِن شَيءٍ﴾ من البحائر والسوائب. فإشراكنا وتحريمنا بمشيئته، فهو راض به. قال تعالى: ﴿كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبلِهِم﴾ أي: كذّبوا رُسلهم فيما جاؤوا به. ﴿فَهَل﴾: فما ﴿عَلَى الرُّسُلِ إلاّ البَلاغُ المُبِينُ﴾: الإبلاغ البيّن؟ وليس عليهم هداية.

٣٦ ـ ﴿ولَقَد بَعَثْنا في كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً﴾ كما بعثناك في هؤلاء، ﴿أنِ﴾ أي: بأنِ ﴿اعبُدُوا اللهَ﴾: وحّدوه، ﴿واجتَنِبُوا الطّاغُوتَ﴾: الأوثانَ أن تعبدوها، ﴿فمِنهُم مَن هَدَى اللهُ﴾ فآمنَ،...............

قولُهُ: (الكفَّارُ) المارُّ ذكرُهُم.

قولُهُ: (والياءِ) التَّذكيرُ: حمزةُ والكسائيُّ[1]، وكذا في الأُولى[2]، ولو ذكرَهُ هناكَ كانَ أولى.

قولُهُ: (العَذَابُ) المستأصِلُ.

قولُهُ: (جزَاؤُهَا) على حذفِ المضافِ، أو تسميةِ الجزاءِ باسمِها.

قولُهُ: (نَزَلَ) وأحاطَ.

قولُهُ: (العذَابُ) أو جزاؤهُ.

قولُهُ: (فهُو رَاضٍ بهِ) أي: قالُوا ذلك إنكاراً لقُبحِ ما أنكرَ عليهم من الشِّركِ والتَّحريمِ محتجِّينَ بأنَّها لو كانَتْ مستقبَحَةً لمَا شاءَ اللهُ صُدورَها عنهم، ولشاءَ خلافَهُ ملجئاً إليه، لا اعتِذاراً؛ إذ لم يعتَقِدوا قبحَ أعمالِهِم.

قولُهُ: (كَذَّبُوا) وحرَّمُوا حلَّهُ.

قولُهُ: (الإِبلَاغُ) مصدرُ: أبلغَ.

قولُهُ: (البيِّنُ) أي: الموضِّحُ للحقِّ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٧٢)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٨٨).

(٢) لعل المصنف التبس عليه الأمر فظن أن هذه لقوله تعالى: ﴿تتوفاهم﴾ وقد أشار إليها من قبل، أما قوله: ﴿تأتيهم﴾ فلم تسبق في هذه السورة.

﴿ومنهم مَن حقَّتْ﴾: وَجبتْ ﴿علَيهِ الضَّلالةُ﴾ في علم الله فلم يُؤمن. ﴿فسِيرُوا﴾ ـ يا كُفّار مكّة ـ ﴿في الأرضِ، فانظرُوا: كَيفَ كانَ عاقِبةُ المُكَذِّبِينَ﴾ رسلَهم من الهلاك؟

٣٧ ـ ﴿إن تَحرِصْ﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿علَى هُداهُم﴾، وقد أضلّهم الله، لا تقدِرْ على ذلك ﴿فإنَّ اللهَ لا يُهدَى﴾ ـ بالبناء للمفعول وللفاعل ـ ﴿مَن يُضِلُّ﴾: من يُريد إضلاله، ﴿وما لَهُم مِن ناصِرِينَ﴾: مانعين من عذاب الله.

٣٨ ـ ﴿وأقسَمُوا بِاللهِ جَهدَ أَيمانِهِم﴾ أي: غايةَ اجتهادهم فيها، ﴿لا يَبعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ﴾. قال تعالى: ﴿بَلَى﴾ يبعثهم، ﴿وَعدًا علَيهِ حَقًّا﴾: مصدران مؤكّدان منصوبان بفعلهما المُقدّر، أي: وَعَدَ ذلك وحقَّه حقًّا ـ ﴿ولكِنَّ أكثَرَ النّاسِ﴾ أي: أهلِ مكّة ﴿لا يَعلَمُونَ﴾ ذلك ـ ٣٩ ـ ﴿لِيُبَيِّنَ﴾: مُتعلّق بـ«يبعثهم» المُقدّرِ، ﴿لَهُمُ الَّذِي يَختَلِفُونَ﴾ مع المؤمنين ﴿فِيهِ﴾ من أمر الدِّين بتعذيبهم وإثابة المؤمنين، ﴿ولِيَعلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُم كانُوا كاذِبِينَ﴾ في إنكار البعث. ٤٠ ـ ﴿إنَّما قَولُنا لِشَيءٍ، إذا أَرَدْناهُ﴾ أي: أردنا إيجاده، وقولُنا: مبتدأ خبره: ﴿أن نَقُولَ لَهُ: كُنْ. فيَكُونُ﴾ أي: فهو يكون. وفي قراءة بالنصب....

قولُهُ: (مِنَ الهَلَاكِ) لعلَّكُم تعتبِرونَ فتؤمِنونَ.

قولُهُ: (والفَاعِلِ) للكوفيِّ(١).

قولُهُ: (مَن يُرِيدُ) أي: اللهُ، فـ﴿مَنْ يُضِلُّ﴾ مبتدأٌ، و﴿لَا يُهْدَى﴾ خبرُهُ فيصيرُ كقولِهِ تعالى: ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

وقَولُهُ تَعَالَى: (﴿عَلَيْهِ﴾) أي: إنجازُهُ؛ لامتِناعِ الخُلفِ في وعدِهِ، صفةٌ للوعدِ، و﴿حَقًّا﴾ صفةٌ أخرى للوعدِ.

قولُهُ: (مُؤَكِّدَانِ) الأظهرُ أنَّ ﴿وَعْداً﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ لنفسِهِ، وهو ما دلَّ عليه ﴿بَلَى﴾ فإنَّ ﴿يَبْعَثُ﴾ موعدٌ من اللهِ.

قولُهُ: (وحقَّهُ) الظَّاهرُ: «وحقَّ» بلا ضَميرٍ؛ لأنَّهُ لازمٌ، اللَّهمَّ إلَّا أن يُقالَ: إنَّهُ بمعنى: أثبَتَهُ.

قولُهُ: (ذلِكَ) أي: أنَّهُم يُبعَثونَ، أو أنَّ وعدَهُ حقٌّ.

قولُهُ: (المُقدَّرِ) يعني في ﴿بَلَى﴾.

قولُهُ: (وفِي قِرَاءَةٍ) لشاميٍّ وكسائيٍّ(٢).

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٧٢)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٨٨).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٧٣)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٨٩).

عطفًا على «نقولَ». والآية لتقرير القُدرة على البعث.

٤١ ـ ﴿والَّذِينَ هاجَرُوا في اللهِ﴾: لإقامة دِينه، ﴿مِن بَعدِ ما ظُلِمُوا﴾ بالأذى من أهل مكّة ـ وهم النبيّ وأصحابه ـ ﴿لَنُبَوِّئَنَّهم﴾: نُنزلنّهم ﴿في الدُّنيا﴾ دارًا ﴿حَسَنَةً﴾ هي المدينة، ﴿ولَأَجرُ الآخِرةِ﴾ أي: الجنّةُ ﴿أكبَرُ﴾: أعظم. ﴿لَو كانُوا يَعلَمُونَ﴾ أي: الكُفّارُ أو المُتخلّفون عن الهِجرة ما للمُهاجرين من الكرامة لوافقوهم. ٤٢ ـ هم ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على أذى المُشرِكِينَ والهِجرة لإظهار الدِّين، ﴿وعلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ﴾، فيرزقهم من حيثُ لا يحتسبون.

٤٣ ـ ﴿وما أرسَلْنا مِن قَبلِكَ إلاّ رِجالاً يُوحَى إلَيهِم﴾ لا ملائكةً ـ ﴿فاسألُوا أهلَ الذِّكرِ﴾: العلماءَ بالتوراة والإنجيل، ﴿إن كُنتُم لا تَعلَمُونَ﴾ ذلك فإنهم يعلمونه، وأنتم إلى تصديقهم أقربُ من تصديق المُؤمنين بمُحمّد ـ ٤٤ ـ ﴿بِالبَيِّناتِ﴾:........................

قولُهُ: (عَطْفاً) أو جواباً للأمرِ.

قولُهُ: (لإقَامَةِ دِينِهِ) أي: في سبيلِ اللهِ وحقِّهِ ولوجهِهِ.

قولُهُ: (أصحَابُهُ) المهاجرون، ظلَمَهُم قريش، فهاجرَ بعضُهم إلى الحبشةِ ثمَّ إلى المدينةِ، وبعضُهم إلى المدينةِ، أو المعذَّبونَ[1] المحبوسونَ بمكَّةَ بعدَ هجرةِ رسُولِ اللهِ ﷺ كبلالٍ وصُهَيبٍ وعمَّارٍ وخبَّابٍ وعابسٍ، وقولُ البَيضاويِّ: وأبو جندلٍ وسهيلٌ[2]، سهوٌ، والصَّوابُ: أبو جندلِ بن سهيلٍ، كما في «المعالمِ»[3].

قولُهُ: (دَاراً) أو مباءةً.

قولُهُ: (هيَ المَدِينَةُ) أو تبوئةً حسنةً[4].

قولُهُ: (أعظَمُ) ممَّا يعجَّلُ لهم في الدُّنيا.

قوله: (أو المتخلِّفونَ) أو المهاجِرونَ لو عَلِموا ذلك لزادُوا في اجتِهادِهِم.

قولُهُ: (لا مَلائكَةً) ردٌّ لقولِ قريش: اللهُ أعظمُ من أن يكونَ رسولُهُ بشراً[5].

ومِن العَجيبِ[6] أنَّهم يرضونَ أن يكونَ إلهُهُم حجراً، فإن شككتُم فيهِ ﴿فاسألوا﴾.

(١) في (ص): «والمعذبون».

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٢٢٧).

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٧٩).

(٤) فمعنى: ﴿لنبوئنهم في الدنيا حسنة﴾: مَباءةً حَسَنةً، وهي المدينةُ، أو: تَبوِئَةً حَسَنةً. انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٢٢٧).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٢٠٨)، وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٥/ ١٣٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) في (ص): «العجب»، وفي (د): «أو من العجب».

مُتعلّق بمحذوف أي: أرسلناهم بالحُججِ الواضحة، ﴿والزُّبُرِ﴾: الكُتب، ﴿وأنزَلْنا إلَيكَ الذِّكرَ﴾: القُرآن ﴿لِتُبيِّنَ لِلنّاسِ ما نُزِّلَ إلَيهِم﴾ فيه من الحلال والحرام، ﴿ولَعَلَّهُم يَتَفَكَّرُونَ﴾ في ذلك فيعتبرون. ٤٥ ـ ﴿أفأمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا﴾ المَكَراتِ ﴿السَّيِّئاتِ﴾ بالنبيّ في دار الندوة من تقييده أو قتله أو إخراجه كما ذُكر في «الأنفال» ﴿أن يَخسِفَ اللهُ بِهِم الأرضَ﴾ كقارونَ، ﴿أو يأتِيَهُمُ العَذابُ مِن حَيثُ لا يَشعُرُونَ﴾ أي: من جِهةٍ لا تخطر ببالهم، وقد أُهلِكوا ببدر ولم يكونوا يُقدِّروا ذلك، ٤٦ ـ ﴿أو يأخُذَهم في تَقَلُّبِهِم﴾ في أسفارهم للتجارة ـ ﴿فما هُم بِمُعجِزِينَ﴾: بفائتين العذابَ ـ ٤٧ ـ ﴿أو يأخُذَهُم علَى تَخَوُّفٍ﴾: تنقّصٍ شيئًا فشيئًا حتّى يَهلِكَ الجميعُ؟ حالٌ من الفاعل أو المفعول. ﴿فإنَّ رَبَّكُم لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ حيثُ لم يُعاجلهم بالعُقوبة.

٤٨ ـ ﴿أوَلَم يَرَوا إلَى ما خَلَقَ اللهُ مِن شَيءٍ﴾ له ظِلّ كشجرة وجبل، ﴿تَتَفَيَّأُ﴾: تتميّلُ ﴿ظِلالُهُ عَنِ اليَمِينِ والشَّمائلِ﴾:..

قولُهُ: (مُتَعلِّقٌ بمَحذُوفٍ) يعني: لا بالمذكورِ؛ لأنَّ ما قبلَ (إلَّا) لا يعملُ فيما بعدَها إذا تمَّ الكلامُ على (إلَّا) وما يليهَا.

قولُهُ: (أي: أرسَلنَاهُمْ) ولا يبعدُ أن يكونَ التَّقديرُ: إن كنتُم لا تعلَمونَ إرسالَهُم.

قولُهُ: (بالحُجَجِ الوَاضِحَةِ) أو المعجِزاتِ.

قولُهُ: (مِن الحَلالِ) أو ممَّا تشابَهَ عليهِم.

قولُهُ: (مِنْ جِهَةٍ) أي: بغتةً كقومِ لوطٍ.

قولُهُ: (يُقدِّرُوا) بالتَّشديدِ، الظَّاهرُ: يقدِّرونَ، ويمكنُ أن يكونَ بدلاً.

قولُهُ: (تَنقُّصٍ) من تخوَّفتُهُ: إذا تنقَّصتُهُ[1].

قولُهُ: (حتَّى يَهلِكَ) من الهلاكِ أو الإهلاكِ.

قولُهُ: (لم يُعاجِلْهُم) أي: بعقوبةِ كفرِهم.

قوله: (لهُ ظلٌّ) قرأَ حمزةُ والكسائيُّ: بالخطابِ[2].

قولُهُ: (تَتميَّل) أبو عَمرٍو: بالتَّأنيثِ[3].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٠١).

(٢) أي: (تروا) بالتاء. انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٧٣)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٩٠).

(٣) أي: (تتفيؤا) بالتاء. انظر المصدرين السابقين: (ص: ٣٧٤)، و(ص: ٣٩١).

جمع شِمال، أي: عن جانبيها أوّلَ النهار وآخِرَه، ﴿سُجَّدًا لِلهِ﴾: حالٌ أي: خاضعين بما يُراد منهم، ﴿وهُم﴾ أي: الظِّلال ﴿داخِرُونَ﴾ صاغرون؟ نُزّلوا منزلة العُقلاء. ٤٩ ـ ﴿ولِلهِ يَسجُدُ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ مِن دابّةٍ﴾ أي: نسمةٍ تدبّ عليها، أي: يخضع له بما يراد منه ـ وغُلّب في الإتيان بـ «ما» ما لا يَعقل لكثرته ـ ﴿والمَلائكةُ﴾ خصّهم بالذكر تفضيلاً، ﴿وهُم لا يَستكبِرُونَ﴾: يتكبّرون عن عِبادته، ٥٠ ـ ﴿يخافُونَ﴾ أي: الملائكةُ: حالٌ من ضمير «يستكبرون» ﴿رَبَّهُم مِن فَوقِهِم﴾: حالٌ من هم، أي: عاليًا عليهم بالقهر، ﴿ويَفعَلُونَ ما يُؤمَرُونَ﴾ به.

٥١ ـ ﴿وقالَ اللهُ: لا تَتَّخِذُوا إلـٰهَينِ اثنَينِ﴾: تأكيد. ﴿إنَّما هُوَ إلـٰهٌ واحِدٌ﴾ ـ أتى به لِإثبات الإلـٰهيّة والوحدانيّة. ﴿فإيّايَ فارهَبُونِ﴾: خافونِ دُون غيري..

قولُهُ: (جَمعُ شِمَالٍ) ولعلَّ توحيدَ اليمينِ وجمعَ الشِّمالِ لاعتبارِ لفظِ ﴿ما﴾ ومَعناها؛ كتوحيدِ الضَّميرِ في ﴿ظلالُهُ﴾، وجمعِه في قولِه: ﴿سُجَّداً﴾.

قولُهُ: (حَالٌ) من الضَّميرِ في ﴿ظلالُهُ﴾ وكذا ما بعدَهُ.

قولُهُ: (نُزِّلوا... إلخ) لأنَّ الدُّخولَ من أوصافِ العُقلاءِ، أو لأنَّ[1] من جُملتِها مَن يعقلُ، فيكونُ تغليباً.

قولُهُ: (تَدِبُّ عَليهَا) أي: على الأرضِ، فتكونُ ﴿مِنْ﴾ بياناً لـ﴿مَا﴾ الثَّانيةِ، وقالَ البيضاويُّ: بيانٌ لهما؛ لأنَّ الدَّبيبَ هو الحركةُ الجسمانيَّةُ سواءٌ كانَ في أرضٍ أو سماءٍ[2].

قولُهُ: (أي: تخضَعُ) يعني: المرادُ من السُّجودِ: الاستسلامُ والانقيَادُ سواءٌ كانَ بالطَّبعِ أو الاختيارِ.

قولُهُ: (تَفضِيلاً) الأَولى: تعظيماً.

قولُهُ: (حَالٌ) أي: لازمةٌ؛ لأنَّهُم جميعَهُم لا يستكبِرونَ مطلقاً.

قولُهُ: (حَالٌ مِنْ هُمْ) يعني من قولِهِ: «هُمْ» الملائكةَ، وقالَ أبو البقاءِ[3]: حالٌ من ﴿ربَّهُمْ﴾، ويجوزُ أن يتعلَّقَ بـ﴿يخافُونَ﴾.

قولُهُ: (بِهِ) من الطَّاعةِ والتَّدبيرِ، وفيهِ دليلٌ على أنَّ الملائكةَ مكلَّفُونَ مداورونَ بين الخوفِ والرَّجاءِ.

قولُهُ: (لإِثبَاتِ الإلهِيَّةِ) قالَ القاضِي: ذكرَ الواحدَ للدَّلالةِ على أنَّ المقصودَ إثباتُ الوحدانيَّةِ دونَ

---

(١) في (ص): «كان».

(٢) أي قوله: ﴿من دابة﴾ بيان لهما...، انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٢٢٩).

(٣) انظر: «التبيان في إعراب القرآن» (٢/ ٧٩٨).

وفيه التفات عن الغَيبة ـ ٥٢ ـ ﴿ولَهُ ما في السَّماواتِ والأرضِ﴾ مُلكًا وخلقًا وعبيدًا، ﴿ولَهُ الدِّينُ﴾: الطاعةُ ﴿واصِبًا﴾ دائمًا: حالٌ من «الدِّين» والعاملُ فيه معنى الظرف. ﴿أفغَيرَ اللهِ تَتَّقُونَ﴾، وهو الإلَـٰهُ الحقّ ولا إلَـٰهَ غيره؟ والاستفهام للإنكار أو للتوبيخ.

٥٣ ـ ﴿وما بِكُم مِن نِعْمةٍ فمِنَ اللهِ﴾ لا يأتي بها غيرُه ـ وما: شرطيّة أو موصولة ـ ﴿ثُمَّ إذا مَسَّكُمُ﴾: أصابكم ﴿الضُّرُّ﴾: الفقر والمرض ﴿فإلَيهِ تَجْأَرُونَ﴾: ترفعون أصواتكم بالاستغاثة والدعاء ولا تَدْعُون غيره، ٥٤ ـ ٥٥ ـ ﴿ثُمَّ إذا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُم إذا فَرِيقٌ مِنكُم بِرَبِّهِم يُشرِكُونَ، لِيَكفُرُوا بِما آتيناهُم﴾ من النِّعمة. ﴿فتَمَتَّعُوا﴾ باجتماعكم على عِبادة الأصنام. أمرُ تهديد. ﴿فسَوفَ تَعلَمُونَ﴾ عاقبة ذلك.

٥٦ ـ ﴿ويَجعَلُونَ﴾ أي: المُشركون، ﴿لِما لا يَعلَمُونَ﴾ أنها تضرّ ولا تنفع ـ وهي الأصنام ـ.......

الإلهيَّةِ[١]؛ إذ ليسَ في اللهِ شكٌّ ﴿ولئِنْ سألْتَهُم مَنْ خلقَهم ليقولن اللهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] ولذا ما جاءَ الرُّسلُ إلَّا بلا إلهَ إلَّا اللهُ، لا بأنَّ اللهَ موجودٌ أو ثابتٌ.

قولُهُ: (فيهِ) أي: ﴿إيَّايَ﴾.

قولُهُ: (دَائماً) الأولى: لازماً، وقيلَ: ﴿الدِّينُ﴾: الجزاءُ، فمعناهُ: دائماً لا ينقطعُ ثوابُهُ للمؤمنِ وعقابُهُ للكافرِ.

قولُهُ: (ولَا إلهَ غيرُهُ) ولا ضارَّ سواهُ كما لا نافعَ غيرُه.

قولُهُ: (أو مَوصُولَةٌ) متضمِّنةٌ معنى الشَّرطِ؛ أي: أيُّ شيءٍ اتَّصلَ بكُم من نعمةٍ فهو مِن اللهِ.

قولُهُ: (ترفَعُونَ) الجؤارُ: رفعُ الصَّوتِ بالدُّعاءِ والاستغاثَةِ[٢].

قولُهُ: (ولَا تَدْعُونَ غيرَهُ) بل تَدعونَ غيرَهُ.

قالَ تعَالى: (﴿لِيَكْفُرُوا﴾) أي: بعبَادةِ غيرِهِ.

قولُهُ: (مِنْ النِّعمَةِ) أي: نعمَةِ الكشْفِ عنهم كأنَّهُم قصَدوا بشركِهِم كُفرانَ النِّعمَةِ أو إنكارَ كونِها مِن اللهِ.

قولُهُ: (عَاقِبةَ ذلكَ) أغلظُ وعيدٍ.

قولُهُ: (وهيَ الأصنَامُ) أي: لآلهتِهِم الَّتي لا علمَ لها لأنَّها جمادٌ، فيكونُ الضَّميرُ في ﴿يعلمُونَ﴾ لـ﴿ما﴾ أو للَّتي لا يعلَمونَها، فيعتقِدونَ فيها جَهالاتٍ مثلَ أنَّها تنفعُهُم وتشفعُ لهم، على أنَّ العائدَ إلى ﴿ما﴾ محذوفٌ، أو لجهلِهِم على أنَّ ﴿ما﴾ مصدريَّةٌ والمجعولَ له وهي الأصنامُ محذوفٌ للعِلمِ به.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٢٢٩).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٠٤).

﴿نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُم﴾ من الحرث والأنعام، بقولهم: «هذا... وهذا لِشُرَكائنا». ﴿تَاللهِ لَتُسأَلُنَّ﴾ سُؤالَ توبيخ، وفيه التفات عن الغَيبة، ﴿عَمَّا كُنتُم تَفتَرُونَ﴾ على الله، من أنه أمرَكم بذلك! ٥٧ ـ ﴿وَيَجعَلُونَ لِلهِ البَنَاتِ﴾ بقولهم: الملائكةُ بناتُ الله ـ ﴿سُبحانَهُ﴾: تنزيهًا له عمّا زعموا ـ ﴿وَلَهُم ما يَشتَهُونَ﴾ أي: البنون. والجملة: في محلّ رفع، أو نصب بـ«يجعل». المعنى: يجعلون له البنات التي يكرهونها، وهو منزَّه عن الولد، ويجعلون لهم الأبناء التي يختارونها فيختصّون بالأسنى كقوله: «فاستَفتِهِم: أَلِرَبِّكَ البَنَاتُ ولَهُمُ البَنُونَ»؟

٥٨ ـ ﴿وإذا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى﴾ تُولدُ له ﴿ظَلَّ﴾: صار ﴿وَجهُهُ مُسوَدًّا﴾: مُتغيرًا تغيرَ مُغتمّ، ﴿وهُوَ كَظِيمٌ﴾: ممتلئ غمًّا. فكيف تُنسب البنات إليه تعالى؟ ٥٩ ـ ﴿يَتَوارَى﴾: يختفي ﴿مِنَ القَومِ﴾ أي: قومه..

قولُهُ: (بقَولِهِم) أي: خزاعَةَ وكنانةَ.

قولُهُ: (تنزِيْهاً) أو تعجيبٌ منه.

قولُهُ: (في محَلِّ رَفعٍ) بالابتداءِ.

قولُهُ: (أو نَصْبٍ) بالعطفِ على ﴿البناتِ﴾ على أنَّ الجعلَ بمعنى الاختيَارِ، وهو ـ أي: النَّصبُ على الوجهِ المذكورِ ـ وإن أفضَى إلى أن يكونَ ضميرُ الفاعلِ في ﴿يجعلونَ﴾ والمفعولِ في ﴿مَا يشتهونَ﴾ لشيءٍ واحِدٍ؛ وهو الكفرُ، لكنَّهُ لا يبعدُ تجويزُهُ في المعطوفِ، و﴿سبحانَهُ﴾ معترضةٌ.

قال أبو البقاءِ: وضعَّفَ هذا الوجهَ قومٌ[1].

فكانَ الأولى في حقِّ الشَّيخِ أن لا يذكرَهُ لمَا تقدَّمَ له في خُطبتِهِ[2].

قولُهُ: (صَارَ) أو دامَ النَّهارَ كلَّهُ.

قولُهُ: (تغيُّرَ مُغتَمٍّ) من الكآبةِ والحياءِ من النَّاسِ، فاسودادُ الوَجهِ كنايةٌ عن الاغتِمامِ والتَّخجيلِ.

قولُهُ: (مُمتَلِئٌ) مملوءٌ غيظاً من المرأةِ، أو منَ اللهِ.

---

(١) في (ص): «هذا القول جمع».

وقال أبو البقاء في «التبيان» (٢/ ٧٩٩): وقيل: «ما» في موضع نصب عطفاً على ﴿نصيباً﴾ أي: ويجعلون ما يشتهون لهم. وضعف قوم هذا الوجه، وقالوا: لو كان كذلك لقال: ولأنفسهم؛ وفيه نظر، انتهى. وانظر تفصيل الاعتراض ونقضه في «روح المعاني» (٧/ ٤٠٧).

(٢) وهو قوله: والاعتماد على أرجح الأقوال.

﴿مِن سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ﴾ خوفًا من التعيير مُتردّدًا فيما يفعل به، ﴿أَيُمسِكُهُ﴾: يتركه بلا قتل ﴿عَلَى هُونٍ﴾: هَوانٍ وذُلّ، ﴿أم يَدُسُّهُ في التُّرابِ﴾ بأن يئدَه؟ ﴿ألا ساءَ﴾: بئسَ ﴿ما يَحكُمُونَ﴾ حُكمُهم هذا، حيثُ نسبوا لخالقهم البناتِ اللاّتي هي عِندهم بهذا المحلّ!

٦٠ ـ ﴿لِلَّذِينَ لا يُؤمِنُونَ بِالآخِرةِ﴾ أي: الكُفّارِ ﴿مَثَلُ السَّوءِ﴾ أي الصفةُ السَّوءَى بمعنى القبيحة، وهي وأدُهم البناتِ مع احتياجهم إليهنّ للنكاح، ﴿ولِلهِ المَثَلُ الأعلَى﴾ الصفةُ العُليا ـ وهو أنه لا إلٰـهَ إلاّ هو ـ ﴿وهُوَ العَزِيزُ﴾ في مُلكه ﴿الحَكِيمُ﴾ في خلقه، ٦١ ـ ﴿ولَو يُؤاخِذُ اللهُ النّاسَ بِظُلمِهِم﴾: بالمعاصي ﴿ما تَرَكَ علَيها﴾ أي: الأرضِ ﴿مِن دابَّةٍ﴾: نَسَمةٍ تدِبّ عليها،...........

قولُهُ: (﴿ما بُشِّرَ بِهِ﴾) أي: المبشَّرُ به عُرفاً، أو المخبرُ به.

قولُهُ: (مُتَردِّداً) محدِّثاً نفسَهُ متفكِّراً في أن يتركَهُ على هُونٍ.

قولُهُ: (يَئِدهُ) أي: يخفيَهُ ويدفنَهُ حيًّا، وتذكيرُ الضَّميرِ للَفظِ ﴿ما﴾.

قولُهُ: (السَّوأَى) بزنةِ الفَعلَى.

وقولُهُ: (بِمَعنَى القَبِيحَةِ) وهي الحاجةُ إلى الولدِ المنَاديةُ بالموتِ، واشتِهاءُ[1] الذُّكورِ استِظهاراً بهم، وكراهَةُ الإناثِ ووأدهنَّ خشيةَ الإنفاقِ، فكانَ الأولى للشَّيخِ أن يقولَ: كوأدِهِم.

قولُهُ: (الصِّفَةُ العُليَا) وهو الوجوبُ الذَّاتيُّ، والغنى المطلقُ، والجودُ الفائقُ، والنَّزاهَةُ عن صفاتِ المخلوقينَ.

قولُهُ: (أي: الأَرضِ) وإنَّما أضمَرَها مِن غيرِ ذكرٍ لدلالةِ ﴿النَّاسَ﴾ أو الدَّابَّةِ عليها.

قولُهُ: (نَسمَةٍ) قطُّ بشؤمِ ظلمِهِم، وعن ابنِ مسعودٍ: كادَ الجُعَلُ يهلكُ في جحرِهِ بذنبِ ابن آدمَ[2]. أو: مِن دابَّةٍ ظالمةٍ.

وقيلَ: لو أهلكَ الآباءَ بظلمِهِم لم يكُن الأبناءُ، هذا والأنبياءُ مستَثنَونَ عقلاً، فقولُهُ: ﴿بظلمِهِم﴾ أي: أكثرِهم.

---

(١) في «تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٣٠): «واستيقاء»، ولكل وجه.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤٥٦٥)، والطبري في «تفسيره» (١٧/ ٢٣١)، والطبراني في «الكبير» (٩/ ٢١٣) (٩٠٤٠)، والحاكم في «المستدرك» (٣٦٠٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٠٧٤).

قال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٩٧): رواه الطبراني عن شيخه عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مريم وهو ضعيف.

﴿ولكِن يُؤَخِّرُهُم إلَى أجَلٍ مُسَمًّى، فإذا جاءَ أجَلُهُم لا يَستأخِرُونَ﴾ عنه ﴿ساعةً ولا يَستَقدِمُونَ﴾ عليه.

٦٢ ـ ﴿ويَجعَلُونَ لِلهِ ما يَكرهُونَ﴾ لِأنفسهم من البناتِ والشريكِ في الرياسة وإهانةِ الرُّسل، ﴿وتَصِفُ﴾: تقول ﴿ألسِنتُهُمُ﴾ مع ذلك ﴿الكَذِبَ﴾، وهو ﴿أنَّ لَهُمُ الحُسنَى﴾ عِند الله أي: الجنّة كقوله: «ولَئِنْ رُجِعتُ إلَى رَبِّيَ إنَّ لِي عِندَهُ لَلحُسنَى». قال تعالى: ﴿لا جَرَمَ﴾: حقًّا ﴿أنَّ لَهُمُ النّارَ، وأنَّهُم مُفرَطُونَ﴾: متروكون فيها أو مُقدَّمون إليها. وفي قراءة بكسر الراء، أي: مُتجاوِزون الحدَّ.

٦٣ ـ ﴿تاللهِ، لَقَد أرسَلْنا إلَى أُمَمٍ مِن قَبلِكَ﴾ رُسلاً، ﴿فزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيطانُ أعمالَهُم﴾ السيّئة، فرأوها حسنة فكذّبوا الرسل! ﴿فهُوَ وَلِيُّهُم﴾: مُتولّي أُمورهم ﴿اليَومَ﴾ أي: في الدنيا، ﴿ولَهُم عَذابٌ ألِيمٌ﴾: مُؤلم في الآخِرة. وقيل: المُراد باليوم يوم القيامة على حكاية الحال الآتية أي: لا وليّ لهم غيره، وهو عاجز عن نصر نفسه. فكيف ينصرهم؟ ٦٤ ـ ﴿وما أنزَلْنا علَيكَ﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿الكِتابَ﴾: القُرآن ﴿إلاّ لِتُبيِّنَ لَهُمُ﴾: للناس ﴿الّذِي اختَلَفُوا فِيهِ﴾ من أمر الدِّين، ﴿وهُدًى﴾ ـ عطف على «لتبيّن» ﴿ورَحمةً لِقَومٍ يُؤمِنُونَ﴾ به.

قالَ تعالى: (﴿إلى أجَلٍ مُسَمًّى﴾) سمّاهُ لأعمارِهِم أو لعذابِهِم.

قولُهُ: (وهُو) فـ﴿أنَّ﴾ بدلٌ مِن ﴿الكذبَ﴾ وقيلَ: التَّقديرُ: بأنَّ لهم.

قولُهُ: (حَقًّا... إلخ) ردٌّ لكلامِهِم وإثباتٌ لضدِّهِ.

قولُهُ: (مَترُوكُونَ) قالهُ ابنُ عبَّاسٍ[1]، وفي «القاموسِ»: أي: منسيُّونَ متروكونَ فيها[2].

قولُهُ: (أو مُقدَّمُونَ) معجَّلُونَ، من أفرطتُه في طلبِ الماءِ: إذا قدَّمتَهُ[3].

قولُهُ: (وفِي قِرَاءَةٍ) لنافعٍ[4] على أنَّهُ من الإفراطِ في المعاصِي.

قولُهُ: (فَرَأوْهَا حَسَنَةً) فأصرُّوا على قبائِحِها.

قولُهُ: (أي: فِي الدُّنيَا) وعبَّرَ باليومِ عن زمانِها.

قولُهُ: (مِنْ أَمرِ الدِّينِ) كالتَّوحيدِ والقدرِ وأحوالِ المعادِ وأحكامِ الأفعَالِ.

قولُهُ: (عَطفٌ) معَ ما بعدَهُ على ﴿لِتُبيِّنَ﴾؛ أي: محلِّهِ، فإنَّهُما فعلُ المنزِّلِ، بخلافِ التَّبيينِ فإنَّهُ فعلُ المنزَّلِ عليهِ عليهِ السَّلامُ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٢٣٣) ولكن عن سعيد بن جبير.

(٢) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٦٨١).

(٣) كذا قال الزمخشري أيضاً في «الكشاف» (٢/ ٦١٤).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٧٤)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٩١).

٦٥ ـ ﴿واللهُ أنزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً، فأحْيا بِهِ الأرضَ﴾ بالنبات ﴿بَعدَ مَوتِها﴾: يُبسِها. ﴿إنَّ في ذٰلِكَ﴾ المذكورِ ﴿لَآيَةً﴾ دالّة على البعث ﴿لِقَومٍ يَسمَعُونَ﴾ سماعَ تدبّر، ٦٦ ـ ﴿وإنَّ لَكُم في الأنعامِ لَعِبْرَةً﴾: اعتبارًا ـ ﴿نُسقِيكُم﴾ بيانٌ للعِبرة ﴿مِمّا في بُطُونِهِ﴾ أي: الأنعامِ، ﴿مِن﴾: للابتداء مُتعلّقة بـ «نُسقيكم» ﴿بَينِ فَرْثٍ﴾: ثُفل الكَرِش ﴿ودَمٍ لَبَنًا خالِصًا﴾: ....

قولُهُ: (تَدَبُّرٍ) وإنصافٍ.

قولُهُ: (اعْتبَاراً) أي: دلالةً يُعبرُ بها مِن الجهلِ إلى العلمِ.

قولُهُ: (بَيَانٌ) أي: استِئنافٌ لبيانِ العِبرةِ، كأنَّهُ قيلَ: كيفَ العبرةُ؟ فقيلَ: ﴿نُسْقِيكُمْ﴾، وقرأ نافعٌ وشاميٌّ وشعبةُ: بفتحِ النُّونِ[1].

قولُهُ: (أي: الأَنعَامِ) ذكرَ سيبويه الأنعامَ في الأسماءِ المفرَدةِ الواردَةِ على أفعالٍ[2]، ولذا رجعَ الضَّميرُ إليه مفرداً، وأمَّا ﴿مما في بطونِهَا﴾ [المؤمنون: ٢١] في سورَةِ المؤمنينَ فلأنَّ معناهُ الجمعُ، كذا في «المدارِكِ»[3]، فـ﴿الأنعامِ﴾ اسمُ جمعٍ، و﴿مِنْ﴾ تبعيضيَّةٌ؛ لأنَّ اللَّبنَ بعضُ ما في بُطونِهِ.

قولُهُ: (ثُفْلُ الكَرِشِ) الفرْثُ: هو الأشياءُ المأكُولةُ المنهَضِمةُ بعضَ الانهِضامِ في الكَرِشِ، كذا قالَهُ القاضِي[4].

وفي «القاموسِ»: الفرثُ: السِّرجينُ في الكرشِ[5].

وكلامُ الشَّيخِ يشيرُ إلى ما نُقلَ عن ابنِ عبَّاسٍ[6]: أنَّ البهيمةَ إذا اعتلفَتْ وانطبخَ العلفُ في كرشِها، كانَ أسفلُهُ فَرْثاً وأوسطُهُ لبناً وأعلاهُ دماً.

قالَ القاضِي[7]: ولعلَّهُ إن صحَّ فالمرادُ به: أنَّ أوسطَهُ يكونُ مادَّةَ اللَّبنِ، وأعلاهُ مادَّةَ الدَّمِ الذي يغذِّي البدنَ؛ لأنَّهما لا يتكوَّنانِ في الكرشِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٧٤)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٩١).

(٢) انظر: «الكتاب» (٣/ ٢٣٠).

(٣) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٢٢٠).

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٢٣٢).

(٥) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٧٤).

(٦) ذكره الواحدي في «التفسير البسيط» (١٣/ ١١٣)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ٥٦٨).

(٧) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٢٣٢).

لا يشوبه شيء من الفرث والدم من طعم أو ريح أو لون، وهو بينهما، ﴿سائغًا لِلشّارِبِينَ﴾: سهلَ المُرُور في حلقهم لا يُغَصّ به ـ ٦٧ ـ ﴿ومن ثَمَراتِ النَّخِيلِ والأعنابِ﴾ ثمرٌ، ﴿تَتَّخِذُونَ مِنهُ سَكَرًا﴾: خمرًا يُسكِر، سُمّيتْ بالمصدر ـ وهذا قبل تحريمها ـ ﴿ورِزقًا حَسَنًا﴾ كالتمر والزَّبيب والخلّ والدِّبْس. ﴿إنَّ في ذلِكَ﴾ المذكورِ ﴿لَآيَةً﴾ دالّة على قُدرته ـ تعالى ـ ﴿لِقَومٍ يَعقِلُونَ﴾: يتدبّرون.

٦٨ ـ ﴿وأَوحَى رَبُّكَ إلَى النَّحلِ﴾ وحْيَ إلهامٍ ﴿أنِ﴾: مُفسّرةٌ أو مصدرية ﴿اتَّخِذِي مِنَ الجِبالِ بُيُوتًا﴾ تأوين إليها، ﴿ومِنَ الشَّجَرِ﴾ بُيوتًا ﴿ومِمّا يَعرِشُونَ﴾ أي: الناسُ يبنون لكِ من الأماكن ـ وإلاّ لم تأوِ إليها ـ ٦٩ ـ ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَراتِ، فاسلُكِي﴾: ادخلي ﴿سُبُلَ رَبِّكِ﴾: طُرقَه في طلب المرعى، ﴿ذُلُلاً﴾: جمع ذلولٍ، حالٌ من السبل أي: مُسخّرةً لكِ، فلا تعسُرَ عليكِ وإن توعّرتْ ولا تَضلّي عن العود منها وإن بعدتْ، وقيل: من الضمير في «اسلكي» أي: مُنقادةً لِما يُراد منكِ.

﴿يَخرُجُ مِن بُطُونِها شَرابٌ﴾ هو العسل ﴿مُختَلِفٌ ألْوانُهُ، فِيهِ شِفاءٌ لِلنّاسِ﴾ من الأوجاع،........

قولُهُ: (ثمرٌ) يعني: الجارُّ والمجرورُ[1] خبرٌ لمحذوفٍ، صفتُهُ: ﴿تتّخذُونَ﴾.

قولُهُ: (خَمْراً) وقيل: النَّبيذُ، وقيل: ما يسدُّ الجوعَ.

قولُهُ: (مُفَسِّرةٌ) لأنَّ في الإيحاءِ معنى القولِ.

قولُهُ: (أو مصدَريَّةٌ) أي: بـأن، في «القاموسِ»: النَّحلُ: ذبابُ العسلِ للذَّكرِ والأنثَى[2].

فقولُ البيضاويِّ: تأنيثُ الضَّميرِ على المعنى؛ فإنَّ النَّحلَ مذكَّرٌ[3]. غيرُ مرضيٍّ.

قولُهُ: (يَبْنُونَ) وشاميٌّ[4] وشعبةُ: بضمِّ الرَّاء[5].

قولُهُ: (لَم تَأوِ) الظَّاهرُ: فلا تأوي.

قولُهُ: (لِمَا يُرَادُ) أو لِمَا أمِرْتِ به، فالإفرادُ في الخطابِ باعتبارِ اللَّفظِ، والجمعُ في الحالِ باعتبارِ المعنى.

قولُهُ: (هُو العسَلُ) لأنَّه ممَّا يُشرَبُ.

وقولُهُ تعالى: (﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾) أبيضُ وأحمرُ وأصفرُ وأسودُ بسببِ اختلافِ سنِّ النَّحلِ، أو الفصلِ مِن فصولِ السَّنةِ.

---

(١) أي: قوله تعالى: ﴿ومن ثمرات﴾.

(٢) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٠٦١).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٢٣٢).

(٤) في (ص): «شامي».

(٥) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٧٤)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٩٢).

قيل: لبعضها كما دلّ عليه تنكير «شفاء» أو لكُلّها بضميمته إلى غيره. أقول: وبدونها بِنِيّتِه. وقد أمر به ﷺ مَن استُطلِقَ بطنُه. رواه الشيخانِ. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في صُنعه تعالى.

٧٠ ـ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ ولم تكونوا شيئًا، ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ عِند انقضاء آجالكم، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ أي: أخسّه من الهرَم والخرَف، ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾. قال عِكرِمة: مَن قرأ القرآنَ لم يصِر بهذه الحالة. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بتدبير خلقه ﴿قَدِيرٌ﴾ على ما يُريده.

٧١ ـ ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾، فمنكم غنيّ وفقير ومالك ومملوك، ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا﴾ أي: الموالي ﴿بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي: بجاعلي ما رزقناهم من الأموالِ وغيرِها شركةً بينهم وبين مماليكهم، ﴿فَهُمْ﴾ أي: المماليك والموالي ﴿فِيهِ سَوَاءٌ﴾: شُركاءُ. المعنى: ليس لهم شُركاء من مماليكهم في أموالهم. فكيف يجعلون بعض مماليك الله شُركاءَ له؟ ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾: يكفرونَ حيثُ يجعلون له شُركاء؟

٧٢ ـ ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾، فخلق حوّاءَ من ضِلَع آدمَ وسائرَ الناس من نُطف الرجال والنساء، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ أولادَ الأولادِ،..........

قولُهُ: (تَنْكِيرُ ﴿شِفَاءٌ﴾) يجوزُ أن يكونَ للتَّعظيم.

قولُهُ: (بضَمِّهِ) ـ وفي نسخةٍ: «بضميمتِهِ» ـ في أكثرِ الأمراضِ، إذ قلَّ ما يكونُ معجونٌ إلَّا والعسلُ جزءٌ منه، أو بنفسِهِ كما في الأمراضِ البلغميَّةِ.

قولُهُ: (مَن استَطلَقَ) جاءَ رجلٌ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقالَ: إنَّ أخي يشتكي بطنَهُ، فقالَ: «اسقِهِ العسلَ»، فذهبَ ثمَّ رجعَ، فقالَ: قد سقيتُهُ فمَا نفعَ، فقالَ: «اذهبْ واسقِهِ عسلاً، فقد صدقَ اللهُ وكذبَ بطنُ أخيكَ»، فسقَاهُ فشفَاهُ اللهُ تعالى(١).

أقولُ: وليسَ في الحديثِ ما يدلُّ على اعتبارِ النيَّةِ.

قولُهُ: (والخَرَفِ) الَّذي يشابهُ الطُّفوليَّةَ في نُقصانِ القوَّةِ والعقلِ والنِّسيانِ وسوءِ الفهمِ.

قولُهُ: (بهذِهِ الحَالَةِ) أي: الصِّفةِ.

قولُهُ: (يكفُرُونَ) شعبةُ: بالخطابِ(٢).

قولُهُ: (فخَلَقَ) أو المعنى: مِن جنسِكُم لتأنسوا بها، ولتكونَ أولادُكُم مثلَكُم.

---

(١) رواه البخاري (٥٦٨٤)، ومسلم (٢٢١٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أي: (تجحدون) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٧٤)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٩٢).

﴿ورزقكم من الطيبات﴾ من أنواع الثمار والحبوب والحيوان. ﴿أفبالباطل﴾: الصنم ﴿يؤمنون، وبنعمة الله هم يكفرون﴾ بإشراكهم؟

٧٣ - ﴿ويعبدون من دون الله﴾ أي: غيره ﴿ما لا يملك لهم رزقًا من السماوات﴾ بالمطر ﴿والأرض﴾ بالنبات ﴿شيئًا﴾: بدلٌ من «رزقًا»، ﴿ولا يستطيعون﴾: يقدرون على شيء. وهم الأصنام.

٧٤ - ﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾ أي: لا تجعلوا له أشباهًا تُشركوهم به. ﴿إن الله يعلم﴾ أنْ لا مِثلَ له ﴿وأنتم لا تعلمون﴾ ذلك.

٧٥ - ﴿ضرب الله مثلًا﴾، ويُبدلُ منه: ﴿عبدًا مملوكًا﴾: صفةٌ تُميّزه من الحُرّ فإنه عبدُ الله، ﴿لا يقدر على شيء﴾ لعدم مُلكه، ﴿ومن﴾: نكرةٌ موصوفة أي: حُرًّا ﴿رزقناه منا رزقًا حسنًا، فهو ينفق منه سرًّا وجهرًا﴾ أي: يتصرّف فيه كيف يشاء؟ والأوّل مَثَل الأصنام، والثاني مَثَله تعالى. ﴿هل يستوون﴾ أي: العبيدُ العَجَزة والحُرّ المُتصرّف؟ لا.

قولُهُ: (الصَّنَمِ) بأنَّهُ ينفعُهم.

قولُهُ: (بإشرَاكِهِمْ) حيثُ أضافوا نعمَهُ إلى الأصنامِ.

قولُهُ: (بَدَلٌ) وإن جعلْتَهُ مصدراً فـ﴿شيئاً﴾ منصوبٌ به.

قولُهُ: (يَقدِرُونَ) جمعُ الضَّميرِ فيه وتوحيدُهُ في ﴿لا يملكُ﴾ نظراً إلى اللَّفظِ والمعنَى.

قولُهُ: (تُشرِكُونَهُم) أو تقيسونَهُم عليه، فإنَّ ضربَ المثلِ تشبيهُ حالٍ بحالٍ.

قولُهُ: (أنْ لَا مِثْلَ لَهُ) أو: فسادَ ما تعتمِدونَ عليهِ مِن القياسِ على أنَّ عبادةَ عبيدِ الملِكِ أدخلُ في التَّعظيمِ مِن عبادتِهِ، أو: عِظَمَ جرمِكُم فيما تفعَلونَ.

قولُهُ: (ذلِكَ) ولو علمتُموهُ لَمَا جَرُؤتُم عليه، فهو تعليلٌ للنَّهي، أو: أنَّهُ يعلمُ كنهَ الأشياءِ وأنتُم لا تعلمونَ، فدَعوا رأيَكُم دونَ نصبِهِ، أو: أنَّهُ يعلمُ كيفَ يضربُ الأمثالَ وأنتم لا تعلمُونَ.

قولُهُ: (ويُبدَلُ منهُ) قيلَ: التَّقديرُ: مَثَلاً مَثَلَ عبدٍ.

قولُهُ: (لِعَدمِ ملْكِهِ) الأظهرُ: أنَّ التَّقييدَ بسببِ القدرةِ؛ للتَّمييزِ عن المكاتَبِ والمأذونِ، وجعلُهُ قسيماً للمالِكِ المتصرِّفِ يدلُّ على أنَّ المملوكَ لا يملكُ.

قولُهُ: (كيفَ يشَاءُ) مصدرانِ في موضعِ الحالِ.

قولُهُ: (أي: العَبِيدُ) وجمعَ الضَّميرَ لأنَّهُ للجنسَينِ، فإنَّ المعنى: هل يستَوي الأحرارُ والعبيدُ؟ فقولُهُ: (والحرُّ) جنسٌ[1].

---

(١) في (ص) زيادة: «حسن».

﴿الحَمدُ للهِ﴾ وحده. ﴿بَل أكثَرُهم﴾ أي: أهلِ مكّة ﴿لا يَعلَمُونَ﴾ ما يصيرون إليه من العذاب فيُشركون.

٧٦ ـ ﴿وضَرَبَ اللهُ مَثَلاً﴾، ويُبدل منه: ﴿رَجُلَينِ: أحَدُهُما أبكَمُ﴾ وُلِدَ أخرسَ ﴿لا يَقدِرُ علَى شَيءٍ﴾ لأنه لا يَفهَم ولا يُفهِم، ﴿وهُوَ كَلٌّ﴾: ثقيل ﴿علَى مَولاهُ﴾: وليِّ أمره، ﴿أينَما يُوَجِّهْهُ﴾: يُصرِّفه ﴿لا يأتِ﴾ منه ﴿بِخَيرٍ﴾: بنُجح ـ وهذا مَثَل الكافر ـ ﴿هَل يَستَوِي هُوَ﴾ أي: الأبكمُ المذكور ﴿ومَن يأمُرُ بِالعَدلِ﴾ أي: ومَن هو ناطق نافع للناس حيثُ يأمر به ويحثّ عليه، ﴿وهُوَ علَى صِراطٍ﴾: طريق ﴿مُستَقِيمٍ﴾، وهو الثاني المؤمن؟ لا. وقيل: هذا مَثَلٌ لِلهِ والأبكمُ للأصنام، والذي قبله للكافر والمُؤمن.

٧٧ ـ ٧٨ ـ ﴿ولِلهِ غَيبُ السَّماواتِ والأرضِ﴾ أي: عِلمُ ما غاب فيهما، ﴿وما أمرُ السّاعةِ إلاّ كَلَمحِ البَصَرِ، أو هُوَ أقرَبُ﴾ منه لأنه بلفظ: «كُنْ، فيَكُونُ» ـ..........................

قولُهُ: (وَحْدهُ) أي: كلُّ الحمدِ له، لا يستحقُّهُ غيرُهُ فضلاً عن العبادَةِ؛ لأنَّهُ مُولي النِّعمِ كلِّها.

قولُهُ: (مَا يَصِيرُونَ) أو: فيُضيفونَ نعمَهُ إلى غيرِهِ ويعبدونَهُ لأجلِها.

قولُهُ: (لأنَّهُ) أو: على شيءٍ مِن الصَّنائعِ والتَّدابيرِ لنقصانِ عقلِهِ.

قولُهُ: (ثَقِيلٌ) وعيالٌ.

قولُهُ: (وَلِيِّ) بتشديدِ الياءِ.

قولُهُ: (يُصرِّفُهُ) ويرسلُهُ مولاهُ في أمرٍ.

قولُهُ: (بنُجْحٍ) وكفايةِ مُهِمٍّ.

قولُهُ: (بِهِ) أي: بالعدلِ الشَّاملِ لمجامعِ الفَضائلِ.

قالَ تعَالى: (﴿وَهُوَ﴾) أي: بنفسِهِ على طريقٍ مستقيمٍ لا يتوجَّهُ إلى مطلَبٍ إلَّا ويبلغُهُ بأقربِ سعيٍ.

قولُهُ: (وهُو الثَّانِي) أي: المثلُ الثَّاني.

قولُهُ: (فِي الكَافِرِ) أي: المخذولِ (والمُؤمنِ) أي: الموفَّق.

قولُهُ: (فيهِمَا) عن العبادِ بأنْ لم يكُن محسُوساً ولم يدلَّ عليه محسوسٌ.

قالَ تعَالى: (﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ﴾) أي: قيامُ القيامَةِ في سُرعتِهِ وسهولتِهِ إلَّا كرجعِ الطَّرفِ مِن أعلى الحدقةِ إلى أسفَلِها.

قولُهُ: (منهُ) أي: أو أمرُها أقربُ مِن لمحِ البصَرِ بأن يكونَ قيامُ السَّاعةِ في زمانٍ نصفِ تلكَ الحركةِ، بل في الآنِ الَّتي تبتدأُ الحركةُ فيه، فإنَّه تعالى يحيي الخلائقَ دفعةً، وما يُوجَدُ دفعةً كانَ في آنٍ، و﴿أو﴾: للتَّخييرِ، أو بمعنى: بل.

﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ـ واللهُ أخرَجَكُم مِن بُطُونِ أُمَّهاتِكُم، لا تَعلَمُونَ شَيئًا﴾ ـ الجملة: حال ـ ﴿وجَعَلَ لَكُمُ السَّمعَ﴾ بمعنى الأسماع ﴿والأبصارَ والأفئِدَةَ﴾: القلوب، ﴿لَعَلَّكُم تَشكُرُونَ﴾ ـه على ذلك فتؤمنون.

٧٩ ـ ﴿أَلَم يَرَوا إِلَى الطَّيرِ مُسَخَّراتٍ﴾: مُذلَّلاتٍ للطيران ﴿في جَوِّ السَّماءِ﴾ أي: الهواء بين السماء والأرض، ﴿ما يُمسِكُهُنَّ﴾ عند قبض أجنحتهنّ وبسطها أن يَقَعْنَ ﴿إلاّ اللهُ﴾ بقُدرته؟ ﴿إِنَّ في ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَومٍ يُؤمِنُونَ﴾، هي خلقُها بحيثُ يُمكنها الطيران، وخلقُ الجوّ بحيثُ يُمكن الطيرانُ فيه، وإمساكُها.

٨٠ ـ ﴿واللهُ جَعَلَ لَكُم مِن بُيُوتِكُم سَكَنًا﴾: موضعًا تسكنون فيه، ﴿وجَعَلَ لَكُم مِن جُلُودِ الأنعامِ بُيُوتًا﴾ كالخِيام والقِباب، ﴿تَستَخِفُّونَها﴾ للحمل ﴿يَومَ ظَعَنِكُم﴾: سفركم ﴿ويَومَ إقامَتِكُم، ومِن أصوافِها﴾..

قولُهُ: (حَالٌ) أي: جهَّالاً مستصحِبينَ جهلَ الجماديَّةِ.

قولُهُ: (بمَعْنَى الأسمَاعِ) ولم يُجمَع؛ لأنَّهُ في الأصلِ مصدرٌ.

قولُهُ: (عَلى ذلِكَ) أي: ما أنعمَ عليكُم طوراً بعد طورٍ.

قولُهُ: (مُذَلَّلاتٍ) وابنُ عامرٍ وحمزةُ بالخطابِ للعامَّةِ[1].

قولُهُ: (هيَ) أي: الآياتُ الثَّلاثُ، أو منها، أو أحدُها.

قولُهُ: (تسكُنُونَ فيهِ) وقتَ إقامتِكُم كالبيوتِ المتَّخذةِ مِن الحجرِ والمدرِ، فَعَلٌ بمعنى: مفعولٍ.

قولُهُ: (كالخِيَامِ) المتَّخذةِ مِن الوبرِ والصُّوفِ والشَّعرِ، فإنَّهَا من حيثُ إنَّها نابتةٌ على جلودِها يصدقُ عليها أنَّها مِن جلودِها.

قولُهُ: (والقِبَابِ) المتَّخذةِ من الأدمِ.

قولُهُ: (للحَمْلِ) أي: تجِدونَها خفيفةً يخفُّ عليكُم حملُها ونقلُها.

قولُهُ: (سَفرِكُم) أي: وقتَ ترحالِكُم، وبفتحِ العينِ: الحِرْميَّانِ وأبو عَمرٍو، وقولُ البيضاويِّ: قرأَ الحجازيَّانِ[2]. قاصرٌ.

---

(١) أي: (ألم تروا) انظر: «حجة القراءات» (ص: ٣٩٣).

(٢) الذي في «أنوار التنزيل» (٣/ ٢٣٦) قال: وقرأ الحجازيان والبصريان (يوم ظعَنكم) بالفتح.

والحجازيان: نافع المدني وابن كثير المكي، وهما الحرميان، والبصريان: أبو عمرو ويعقوب. وكلهم قرأ بها فلا قصور في كلام =

أي: الغنمِ ﴿وأوبارِها﴾ أي: الإبلِ ﴿وأشعارِها﴾ أي: المعزِ ﴿أثاثًا﴾: متاعًا لبيوتكم كبُسُط وأكسية، ﴿ومَتاعًا﴾ تتمتّعون به ﴿إلَى حِينٍ﴾ يبلى فيه.

٨١ ـ ﴿واللهُ جَعَلَ لَكُم مِمّا خَلَقَ﴾ من البُيوت والشجر والغمام ﴿ظِلالاً﴾: جمع ظِلّ، تقيكم حرّ الشمس، ﴿وجَعَلَ لَكُم مِنَ الجِبالِ أكنانًا﴾: جمع كِنّ ـ وهو ما يُستكنّ فيه كالغار والسَّرَب ـ ﴿وجَعَلَ لَكُم سَرابِيلَ﴾: قُمُصًا ﴿تَقِيكُمُ الحَرَّ﴾ أي: والبردَ، ﴿وسَرابِيلَ تَقِيكُم بأسَكُم﴾: حربكم أي: الطعن والضرب فيها كالدروع والجواشن. ﴿كَذلِكَ﴾:........................

قولُهُ: (أي: الغَنَمِ) الصَّوابُ: الضَّأنِ، فإنَّ الغنمَ جنسٌ، والضَّأنُ والمعزُ نوعانِ منه، وإضافتُها إلى ضَميرِ الأنعامِ لأنَّهَا مِن جملَتِها.

قولُهُ: (كبُسُطٍ وأَكْسِيَةٍ) ما يُفرشُ ويلبَسُ.

قولُهُ: (تتَمتَّعُونَ) يعني: ما يتَّجرُ به.

قولُهُ: (يَبْلَى) أي: إلى[1] مدَّةٍ من الزَّمانِ، فإنَّها لصَلابتِها تبقَى مدَّةً مديدةً، أو: إلى حينِ مماتِكُم، أو: إلى أن تَقضوا منه حاجاتِكُم.

قولُهُ: (البُيوتِ) أي: الأبنيةِ.

قولُهُ: (والشَّجرِ) والجبلِ.

قولُهُ: (والسِّردَابِ) بالكسرِ: بناءٌ تحتَ الأرضِ للصَّيفِ، معرَّبٌ، كذا في «القاموسِ»[2]، فذكرُهُ غيرُ ملائمٍ هنا، وكذا «السَّرَب» على ما في بعضِ النُّسخِ، بل يُقالُ: والبيوتِ المنحُوتةِ فيها؛ ليكونَ إشعاراً بأنَّ الغارَ كهفٌ خَلقيٌّ.

قولُهُ: (قُمُصاً) الأَولى: ثياباً مِن الصُّوفِ والكتَّانِ والقُطنِ وغيرِها، ففي «القاموسِ»: السِّربالُ ـ بالكسرِ ـ: القميصُ، أو الدِّرعُ، أو كلُّ ما يُلبَسُ[3].

قوله: (أي: والبَردَ) يعني: خصَّهُ بالذِّكرِ اكتفاءً بأحدِ الضِّدَّينِ، أو لأنَّ وقايةَ الحرِّ كانَت أهمَّ عندَهُم.

= البيضاوي، إنما القصور في نسخ المؤلف التي سقط منها «والبصريان» انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٥)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢٦٥)، و«التيسير» (ص: ١٣٨)، و«النشر» (٢/ ٣٠٤).

(١) «إلى»: ليست في (ص).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٩٧).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٠١٤).

كما خلق هذه الأشياء ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُ﴾ في الدنيا ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بخلق ما تحتاجون إليه، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ - يا أهل مكّة - ﴿تُسْلِمُونَ﴾: تُوحّدونه.

٨٢ - ﴿فَإِن تَوَلَّوا﴾: أعرضوا عن الإسلام ﴿فَإِنَّما عَلَيْكَ﴾ - يا مُحمّد - ﴿البَلاغُ المُبِينُ﴾: الإبلاغ البيِّن. وهذا قبلَ الأمر بالقتال. ٨٣ - ﴿يَعرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ﴾ أي: يُقرّون بأنها من عِنده، ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَها﴾ بإشراكهم، ﴿وأكثَرُهُمُ الكافِرُونَ﴾.

٨٤ - ﴿و﴾ اذكرْ ﴿يَومَ نَبعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ هو نبيّها يشهد عليها ولها - وهو يوم القيامة - ﴿ثُمَّ لا يُؤذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الاعتذار، ﴿ولا هُم يُستَعتَبُونَ﴾: لا يُطلب منهم العُتبى، أي: الرجوع إلى ما يُرضي اللهَ.

٨٥ - ﴿وإذا رأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: كفروا ﴿العَذابَ﴾: النار ﴿فلا يُخَفَّفُ عَنهُم﴾ العذاب، ﴿ولا هُم يُنظَرُونَ﴾: يُمهَلون عنه إذا رأَوه،..................

قولُهُ: (هذِهِ الأشيَاءَ) أي: النِّعمَ الَّتي تقدَّمَت.

قولُهُ: (﴿تُسْلِمُونَ﴾) أو تنقادونَ لحكمِهِ.

قولُهُ: (أَعرَضُوا) فلا يضرُّكَ.

قولُهُ: (الإبْلَاغُ) وقد بلَّغتَ وبالغتَ، وهذا مِن إقامةِ السَّببِ - وهو البلاغُ - مُقامَ المسبَّبِ وهو العذرُ؛ أي: إن تولَّوا فأنتَ معذورٌ لأنَّكَ قد بلَّغتَ، وليس في هذا ما يُشعِرُ بتركِ القتالِ حتَّى يُقالَ ما قيلَ[1].

قولُهُ: (بإِشْرَاكِهِم) غيرَ المنعِمِ بها.

قالَ تعَالى: (﴿وأَكْثَرُهُمْ﴾) لكفرِهِم عِناداً، إذ بعضُهم لم يعرفِ الحقَّ لنُقصانِ العقلِ، أو لتفريطٍ في النَّظرِ، أو لأنَّهُ يُقامُ مقامَ الكلِّ، أو لأنَّ بعضَهُم سيؤمِنونَ.

قولُهُ: ([عليها و]لَهَا) بالكُفرِ والإيمانِ.

قولُهُ: (فِي الاعتِذَارِ) إذ لا عذرَ لهم، وقيل[2]: في الرُّجوعِ إلى الدُّنيا.

قولُهُ: (لا يُطلَبُ) أي: لا يُقالُ لهم: أرضوا ربَّكُم؛ لأنَّ الآخرةَ ليسَت بدارِ عملٍ.

قولُهُ: (إِذَا رَأَوْهُ) مستدرَكٌ.

---

(١) في (د): «قال». وعلى كل فالمراد قول الجلال: «وهذا قبلَ الأمر بالقتال».

(٢) في (م): «فقط». والمثبت موافق لما في «أنوار التنزيل».

٨٦ ـ ﴿وإذا رأى الَّذِينَ أشرَكُوا شُرَكاءَهُم﴾ من الشياطين وغيرها ﴿قالُوا: رَبَّنا، هؤُلاءِ شُرَكاؤُنا الَّذِينَ كُنَّا نَدعُو﴾: نعبدهم ﴿مِن دُونِكَ. فألقَوا إلَيهِمِ القَولَ﴾ أي: قالوا لهم: ﴿إنَّكُم لَكاذِبُونَ﴾ في قولكم: «إنكم عبدتمونا» كما في آية أُخرى «ما كانُوا إيّانا يَعبُدُونَ»، «سَيَكفُرُونَ بِعِبادتِهِم». ٨٧ ـ ﴿وألقَوا إلَى اللهِ يَومَئِذٍ السَّلَمَ﴾ أي: استسلموا لحُكمه، ﴿وضَلَّ﴾: غاب ﴿عَنهُم ما كانُوا يَفتَرُونَ﴾ من أنّ آلهتهم تشفع لهم.

٨٨ ـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا، وصَدُّوا﴾ الناسَ ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾: دِينه، ﴿زِدْناهُم عَذابًا فَوقَ العَذابِ﴾ الذي استحقّوه بكُفرهم ـ قال ابن مسعود: عقاربُ أنيابها كالنخل الطّوال ـ ﴿بِما كانُوا يُفسِدُونَ﴾ بصدّهم الناسَ عن الإيمان.

٨٩ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿يَومَ نَبعَثُ في كُلِّ أُمّةٍ شَهِيدًا علَيهِم مِن أنفُسِهِم﴾، هو نبيّهم، ﴿وجِئْنا بِكَ﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿شَهِيدًا علَى هؤُلاءِ﴾ أي: قومك. ﴿ونَزَّلْنا علَيكَ الكِتابَ﴾: القُرآن، ﴿تِبيانًا﴾: بيانًا ﴿لِكُلِّ شَيءٍ﴾، يَحتاج إليه الناسُ من أمر الشريعة ....

قولُهُ: (نَعبُدهُمْ) أو نطيعُهُم، وهو اعترافٌ بأنَّهم كانوا مخطِئينَ في ذلك، أو التماسٌ لأن ينصَّفَ عذابُهُم.

قولُهُ: (أي: قَالُوا) أي: أجابوهُم بالتَّكذيبِ في أنَّهُم شركاءُ اللهِ، أو أنَّهُم عبَدوهُم حقيقةً، وإنَّما عبَدوا أهواءَهُم.

قولُهُ: (أي: استَسْلَمُوا) أي: الَّذين ظَلموا.

قولُهُ: (لحُكمِهِ) بعدَ الاستكبارِ في الدُّنيا.

قولُهُ: (غَابَ) وضاعَ وبطلَ.

قولُهُ: (تشفَعُ لَهُم) أو تنصرُهُم.

قولُهُ: (عَقَارب) بيانٌ لـ﴿عذاباً﴾.

قولُهُ: (يصُدُّونَ)[١] والباءُ سببيَّةٌ متعلِّقةٌ بـ﴿زدنَاهُم﴾ و﴿ما﴾ مصدريَّةٌ؛ أي: بكونِهِم مفسِدينَ لصدِّهِم.

قولُهُ: (أي: قَومِكَ) الأَولى: أمَّتِكَ، أو: الشُّهداءِ من الأنبياءِ.

قولُهُ: (بَيَاناً) بليغاً.

قولُهُ: (مِنْ أَمْرِ الشَّرِيعَةِ) على التفصيلِ والإجمالِ بالإحالةِ إلى السُّنَّةِ والقياسِ.

---

(١) كذا في النسخ فهو تفسير لـ﴿يفسدون﴾، وما في المتن من قوله: «بصدهم» هو تفسير لـ﴿بما كانوا يفسدون﴾، والمؤدى واحد.

﴿وهُدًى﴾ من الضلالة ﴿ورَحْمةً وبُشرَى﴾ بالجنّة ﴿لِلمُسلِمِينَ﴾: المُوحّدين.

٩٠ ـ ﴿إِنَّ اللهَ يأمُرُ بِالعَدلِ﴾: التوحيدِ أو الإنصافِ ﴿والإحسانِ﴾: أداء الفرائض أو «أن تَعبُدَ اللهَ كأنّكَ تَراهُ» كما في الحديث ﴿وإيتاءِ﴾: إعطاءِ ﴿ذِي القُربَى﴾: القرابةِ ـ خصّه بالذكر اهتمامًا به ـ ﴿ويَنهَى عَنِ الفَحشاءِ﴾: الزِّنى ﴿والمُنكَرِ﴾ شرعًا من الكُفر والمعاصي ﴿والبَغيِ﴾: الظلم للناس ـ خصّه بالذكر اهتمامًا كما بدأ بالفحشاء كذلك ـ ﴿يَعِظُكُم﴾ بالأمر والنهي، ﴿لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ﴾: تتّعظون. وفيه إدغام التاء في الأصل في الذال. وفي «المستدرك» عن ابن مسعود: «هذه أجمعُ آيةٍ في القُرآن للخير والشرّ».

٩١ ـ ﴿وأَوفُوا بِعَهدِ اللهِ﴾ من البِيَعِ والأيمانِ ....

قولُهُ: (مِنَ الضَّلَالةِ) للجميعِ، وإنّما حرمانُ المحرومِ من تفريطِهِ.

قولُهُ: (المُوَحِّدينَ) خاصّةً.

قولُهُ: (التَّوحِيدِ) يعني: بالتوسُّطِ في الأمُورِ اعتِقاداً؛ كالتّوحيدِ المتوسّطِ بين التّعطيلِ والتّشريكِ، والقولِ بالكسبِ المتوسّطِ بين محضِ الجَبرِ والقدَرِ، والتّرضيةِ عن الصّحابةِ وحبِّهم المتوسّطِ بين الرّفضِ والخروجِ، وعملاً كالتعبدِ بأداءِ الواجباتِ المتوسّطِ بينَ البطالةِ والتّرهُّبِ، وخُلُقاً كالجودِ المتوسّطِ بينَ البُخلِ والتّبذيرِ.

قولُهُ: (أو الإنصَافِ) أي: في الحكُوماتِ الشّرعيّةِ.

قولُهُ: (أدَاءِ الفَرَائضِ) أو إحسانِ الطّاعاتِ، أو الإحسانِ إلى النّاسِ.

قولُهُ: (كمَا في الحَدِيثِ) «فإنْ لم تكُنْ تراهُ فإنّهُ يراكَ»[1].

قولُهُ: (القَرَابةِ) ما يحتاجونَ إليه.

قولُهُ: (اهتِمَاماً) أو مبالغةً كأنّهُ جنسٌ آخرُ.

قولُهُ: (بالأَمْرِ والنَّهْيِ) والميْزِ بينَ الخيرِ والشَّرِّ.

قولُهُ: (وفِيهِ إدغَامُ التَّاءِ... إلخ) وفي قراءةِ حمزةَ والكسائيِّ وحفصٍ: بالإظهارِ[2].

قولُهُ: (هذِهِ أجمَعُ آيَةٍ) ولو لم يكُن في القرآنِ غيرُ هذه الآيةِ لصَدَقَ عليه أنّهُ تبيانٌ لكلِّ شيءٍ.

قولُهُ: (مِنَ البِيَعِ) بكسرِ الباءِ وفتحِ الياءِ، جمعُ: البَيْعةِ، ومنها: البيعةُ لرسُولِ اللهِ ﷺ.

قولُهُ: (والأَيمَانِ) بفتحِ الهمزةِ، جمعُ اليمينِ.

---

(١) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أي: قوله: ﴿تَذَكَّرون﴾ انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٧٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٢٧٩).

وغيرها ﴿إذا عاهَدتُم، ولا تَنقُضُوا الأَيمانَ بَعدَ تَوكِيدِها﴾: توثيقها، ﴿وقَد جَعَلتُمُ اللهَ علَيكُم كَفِيلاً﴾ بالوفاء، حيثُ حلفتم به - والجُملة: حال. ﴿إنَّ اللهَ يَعلَمُ ما تَفعَلُونَ﴾. تهديد لهم - ٩٢ - ﴿ولا تَكُونُوا كالَّتِي نَقَضَتْ﴾: أفسدتْ ﴿غَزلَها﴾: ما غزلتْه ﴿مِن بَعدِ قُوّةٍ﴾: إحكام له وبرم ﴿أنكاثًا﴾: حالٌ جمع نِكث - وهو ما يُنكث، أي: يُحَلّ إحكامه. وهي امرأة حمقاء من مكّة، كانت تغزل طول يومها ثم تنقضه - ﴿تَتَّخِذُونَ﴾: حالٌ من ضمير «تكونوا» أي: لا تكونوا مثلها في اتّخاذكم ﴿أَيمانكُم دَخَلاً﴾ هو: ما يدخل في الشيء وليس منه، أي: فسادًا وخديعة ﴿بَينكُم﴾ بأن تنقضوها ﴿أن﴾ أي: لِأن ﴿تكُونَ أُمّةٌ﴾: جماعة ﴿هِيَ أربَى﴾: أكثرُ ﴿مِن أُمّةٍ﴾. وكانوا يحالفون الحُلفاء، فإذا وجدوا أكثر منهم وأعزّ نقضوا حلف أُولئك وحالفوهم.

﴿إنَّما يَبلُوكُمُ﴾: يختبركم ﴿اللهُ بِهِ﴾ أي: بما أمر به من الوفاء بالعهد لينظر المُطيع منكم والعاصي، أو بكون أُمّة هي أربى لينظر:..

قولُهُ: (وغَيرِهِمَا) من النَّذرِ[1]، وقيلَ: كلُّ أمرٍ يجبُ الوفاءُ به.

وقولُهُ تعالى: (﴿وَلَا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ﴾) أي: أيمانَ البيعةِ، أو مطلقَ الأيمانِ.

قولُهُ: (تَوثِيقِهَا) بذكرِ اللهِ، ومنهُ: أكَّدَ، بقلبِ الواوِ همزةً.

قولُهُ: (بالوَفَاءِ) أي: شاهداً بتلكَ البيعةِ، فإنَّ الكفيلَ مراعٍ لحالِ المكفولِ به رقيبٌ عليه.

قوله: (تَهدِيدٌ) كما يقتَضيهِ المقامُ، ويحتملُ أن يكونَ وعداً ووعيداً على إرادةِ إفادةِ معنى العامِّ.

قولُهُ: (مَا غزَلَتْهُ) مصدرٌ بمعنى المفعولِ.

قولُهُ: (وبَرْمٍ) أي: إبرامٍ، متعلِّقٌ بـ﴿نَقَضَتْ﴾.

قولُهُ: (حَالٌ) من ﴿غزْلَهَا﴾ أو مفعولٌ ثانٍ لـ﴿نَقَضَتْ﴾ فإنَّهُ بمعنى: صيَّرت؛ أي: طاقاتٍ نُكِثَ فتلُها.

قولُهُ: (جَمعُ نِكثٍ) بكسرِ النُّونِ.

قولُهُ: (مَا يُنكَثُ) أي: فتلُهُ.

قولُهُ: (وهِي امرَأَةٌ) أو المرادُ: تشبيهُ النَّاقضِ بمن هذا شأنُهُ.

قولُهُ: (فِي اتّخَاذِكُم) الظَّاهِرُ: متَّخذِي أيمانِكم.

قولُهُ: (أَكثَرُ) أي: أزيدُ عدداً، وأوفرُ مالاً.

---

(١) في (ص): «النذور».

أَتفُونَ أم لا؟ ﴿وليُبيِّنَنَّ لكُم يَومَ القِيامةِ ما كُنتُم فِيهِ تَختَلِفُونَ﴾ في الدنيا من أمر العهد وغيره، بأن يُعذِّبَ الناكث ويُثيبَ الوافيَ، ٩٣ ـ ﴿ولَو شاءَ اللهُ لَجَعَلَكُم أُمَّةً واحِدةً﴾: أهلَ دِين واحد، ﴿ولكِن يُضِلُّ مَن يَشاءُ، ويَهدِي مَن يَشاءُ، ولَتُسألُنَّ﴾ يومَ القيامة سُؤالَ تبكيت ﴿عَمّا كُنتُم تَعمَلُونَ﴾ لتُجازَوا عليه.

٩٤ ـ ﴿ولا تَتَّخِذُوا أَيمانَكُم دَخَلاً بَينَكُم﴾ ـ كرّرَه تأكيدًا ـ ﴿فتزِلَّ قَدَمٌ﴾ أي: أقدامكم عن محجّة الإسلام ﴿بَعدَ ثُبُوتِها﴾: استقامتها عليها، ﴿وتَذُوقُوا السُّوءَ﴾: العذاب ﴿بِما صَدَدْتُم عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ أي: بصدّكم عن الوفاء بالعهد أو بصدّكم غيرَكم عنه لأنه يَستَنُّ بكم، ﴿ولكُم عَذابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة، ٩٥ ـ ﴿ولا تَشتَرُوا بِعَهدِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ من الدنيا بأن تنقضوه لأجله. ﴿إنَّ ما عِندَ اللهِ﴾ من الثواب ﴿هُوَ خَيرٌ لَكُم﴾ ممّا في الدنيا، ﴿إن كُنتُم تَعلَمُونَ﴾ ذلك فلا تنقضوا.

٩٦ ـ ﴿ما عِندَكُم﴾ من الدنيا ﴿يَنفَدُ﴾: يفنى، ﴿وما عِندَ اللهِ باقٍ﴾: دائم، ﴿ولَيَجزِيَنَّ﴾ ـ بالياء والنون ـ........................

قولُهُ: (أَتَفُونَ) بعهدِ اللهِ وبيعةِ رسولِهِ.

قولُهُ: (واحِدٍ) متَّفقةً على الإسلامِ.

قولُهُ: (تَبْكِيْتٍ) لا تعرُّفٍ واستعلامٍ.

قولُهُ: (كرَّرَهُ تَأكِيْداً) يعني: أنّه تصريحٌ بالنَّهي عنه بعدَ التَّضمينِ تأكيداً ومبالغةً في قُبحِ المنهيِّ، أو ليرتَّبَ عليه ما بعدَهُ.

قولُهُ: (أي: أقدَامُكُمْ) وإنَّما وحَّدَ ونكَّرَ للدِّلالةِ على أنَّ زلَلَ قدمٍ واحدةٍ عظيمٌ، فكيف بأقدامٍ كثيرةٍ.

قولُهُ: (العَذَابَ) في الدُّنيا.

قولُهُ: (أي: بصَدِّكُم) الصَّوابُ: بصدودِكُم؛ أي: إعراضِكُم، فإنَّهُ مصدرُ اللَّازمِ.

قولُهُ: (عنهُ) يعني: حقيقةً أو حكماً.

قولُهُ: (لأنَّهُ يَستَنُّ بكُمْ) فإنَّ مَن نقضَ البيعةَ وارتدَّ جعلَ ذلك سُنَّةً لغيرِهِ.

قولُهُ: (مِنَ الدُّنيَا) وهو ما كانَتْ قريشٌ يَعدُونَ لضعفاءِ المسلِمِينَ ويشترطونَ لهم على الارتدادِ.

قولُهُ: (مِنَ الثَّوَابِ) في العُقبى والنَّصرِ والنَّعيمِ في الدُّنيا.

قولُهُ: (ممَّا فِي الدُّنيَا) ممَّا يعِدونَ وغيرِهِ.

قولُهُ: (والنُّونِ) مكيٌّ وعاصمٌ[1].

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٧٥).

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على الوفاء بالعهود ﴿أجرَهُم بِأحسَنِ ما كانُوا يَعمَلُونَ﴾: أحسنُ بمعنى: حَسَن. ٩٧ ـ ﴿مَن عَمِلَ صالِحًا مِن ذَكَرٍ أو أُنثى، وهُوَ مُؤمِنٌ، فلَنُحيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً﴾ ـ قيل: هي حياة الجنّة، وقيل: في الدنيا بالقناعة أو الرزق الحلال ـ ﴿ولَنَجزِيَنَّهُم أجرَهُم بِأحسَنِ ما كانُوا يَعمَلُونَ﴾.

٩٨ ـ ﴿فإذا قَرَأتَ القُرآنَ﴾ أي: أردتَ قراءته ﴿فاستَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجِيمِ﴾ أي: قل: «أعوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجِيمِ». ٩٩ ـ ١٠٠ ـ ﴿إنَّهُ لَيسَ لَهُ سُلطانٌ﴾: تسلّط ﴿على الَّذِينَ آمَنُوا وعلى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ. إنَّما سُلطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّونَهُ﴾ بطاعته ﴿والَّذِينَ هُم بِهِ﴾ أي: اللهِ ﴿مُشرِكُونَ﴾.

١٠١ ـ ﴿وإذا بَدَّلنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ﴾ بنَسخِها وإنزال غيرها لمصلحة العباد ـ ﴿واللهُ أعلَمُ بِما يُنَزِّلُ ـ قالُوا﴾ أي: الكُفّار للنبيّ: ﴿إنَّما أنتَ مُفتَرٍ﴾: كذّابٌ تقولُه من عِندك. ﴿بَل أكثَرُهُم لا يَعلَمُونَ﴾ حقيقةَ القُرآن وفائدةَ النَّسخ. ١٠٢ ـ ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ﴾: جبريلُ ﴿مِن رَبِّكَ بِالحَقِّ﴾:.........

قولُهُ: (عَلى الوَفَاءِ) أو على الفاقَةِ وأذى الكفَّارِ، وعلى مشاقِّ التَّكاليفِ.

قولُهُ: (بمَعنَى: حَسَنٍ) أو بما ترجَّحَ فعلُهُ على تركِهِ من أعمالِهم كالواجِباتِ والمندُوباتِ، أو بجزاءِ أحسنَ مِن أعمالِهم.

قولُهُ: (فِي الدُّنيَا) بأن يعيشَ عيشاً طيِّباً؛ فإنَّهُ إن كانَ موسِراً فظاهرٌ، وإن كانَ معسِراً كانَ يطيبُ عيشُهُ بالقَناعةِ، والرِّضا بالقسمَةِ، وتوقُّعِ الأجرِ العظيمِ في الآخرةِ، بخلافِ الكافرِ فإنَّهُ إن كانَ مُعسِراً فظاهرٌ، وإن كانَ موسِراً لم يدعْهُ الحرصُ وخوفُ الفواتِ أن يتهنَّأَ بعيشِهِ، هذا وعندَ العارفينَ: إنَّما الحياةُ الحقيقيَّةُ هي الحضورُ مع اللهِ والذُّهولُ عمَّا سواهُ، ﴿ولِمَنْ خافَ مقامَ ربِّهِ جنَّتانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

قولُهُ: (أي: قُلْ) أي: اسألِ اللهَ أن يعيذكَ من وساوسِهِ لئلَّا يوسوسَكَ في القراءةِ خُصوصاً، والتَّعوُّذُ باللَّفظِ المذكورِ أفضلُ، والجمهورُ على أنَّ الأمرَ للاستِحبابِ.

قولُهُ: (باللَّهِ) أو بسببِ الشَّيطانِ.

قولُهُ: (بطَاعتِهِ) أي: يحبُّونَهُ ويطيعونَهُ على وجهِ الإصرارِ.

قولُهُ: (بنَسخِهَا) فجعلنا الآيَةَ النَّاسِخةَ مكانَ المنسوخَةِ لفظاً أو حُكماً.

قولُهُ: (تَقَوَّلُهُ) بحذفِ التَّاءِ؛ أي: تأمرُ بشيءٍ ثمَّ يبدو لكَ فتنهَى عنه، وهو جوابُ ﴿إذا﴾، ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ﴾ اعتراضٌ.

قولُهُ: (وفَائِدةَ النَّسخِ) وحكمةَ الأحكامِ.

قولُهُ: (جِبرِيلُ) وإضافةُ الرُّوحِ إلى القدسِ ـ وهو الطُّهرُ ـ كقولِهم: حاتمُ الجودِ.

مُتعلّق بـ «نزّل» ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بإيمانهم به، ﴿وهُدًى وبُشرَى لِلمُسلِمِينَ﴾.

١٠٣ ـ ﴿ولَقَد﴾: للتحقيق ﴿نَعلَمُ أنَّهم يَقُولُونَ: إنَّما يُعَلِّمُهُ﴾ القُرآنَ ﴿بَشَرٌ﴾. وهو قَين نصرانيّ، كان النبيّ ﷺ يدخل عليه. قال تعالى: ﴿لِسانُ﴾: لغةُ ﴿الَّذِي يُلحِدُونَ﴾: يُميلون ﴿إلَيهِ﴾ أنه يُعلّمه ﴿أعجَمِيٌّ، وهذا﴾ القُرآن ﴿لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾: ذو بيان وفصاحة. فكيف يُعلّمه أعجميٌّ؟ ١٠٤ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ لا يُؤمِنُونَ بِآياتِ اللهِ لا يَهدِيهِمِ اللهُ، ولَهُم عَذابٌ ألِيمٌ﴾: مُؤلم. ١٠٥ ـ ﴿إنَّما يَفتَرِي الكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤمِنُونَ بِآياتِ اللهِ﴾: القُرآن بقولهم: هذا من قول البشر ـ ﴿وأُولئِكَ هُمُ الكاذِبُونَ﴾. والتأكيد بالتكرارِ و«إنّ» وغيرِهما ردٌّ لقولهم: «إنَّما أنتَ مُفْتَرٍ».

١٠٦ ـ ١٠٧ ـ ١٠٨ ـ ﴿مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعدِ إيمانِهِ، إلاّ مَن أُكرِهَ﴾ على التلفظ بالكُفر فتلفظ به...

قولُهُ: (مُتَعلّقٌ) أو: ملتبِساً بالحكمةِ.

قولُهُ: (بإيمَانِهِمْ) الظَّاهرُ: على إيمانِهِم.

وقوله: (بِهِ) أي: بأنَّهُ كلامُهُ.

وقولُهُ تعَالى: (﴿وهُدىً وَبُشْرَى﴾) معطوفانِ على محلِّ ﴿لِيُثَبِّتَ﴾ أي: تَثبيتاً وهدايةً وبِشارةً، وفيهِ تعريضٌ بحُصولِ أضدادِ ذلك لغيرِهِم.

قولُهُ: (القُرْآنَ) مفعولٌ ثانٍ.

قولُهُ: (وهُو قَيْنٌ) أي: حدَّادٌ، أو جَبرٌ غلامٌ روميٌّ، وقيل: سلمانُ الفارسيُّ.

قولُهُ: (يُميلُونَ) وحمزةُ والكسائيُّ بفتحِهِما[1].

قالَ تعالى: (﴿أَعْجَمِيٌّ﴾) أي: لسانٌ أعجميٌّ[2] غيرُ بيِّنٍ، وطعنُهُم في القرآنِ بأمثالِ هذه الكلِماتِ الرَّكيكَةِ دليلٌ على غايةِ عَجزِهِم.

قولُهُ: (وَغَيرِهِمَا) من ضَميرِ الفَصلِ وتعريفِ الخَبرِ.

قولُهُ: (فتَلَفَّظَ بِهِ) قالَ ابنُ عبَّاسٍ: نزلَت في عمَّارِ بن ياسرٍ[3]. والأفضلُ ما فعلَ أبواهُ مِن الامتِناعِ حتَّى قُتِلا، والاستثناءُ متَّصلٌ؛ لأنَّ الكفرَ يُطلَقُ على القَولِ والاعتِقادِ.

---

(١) أي: (يَلحَدون) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٧٥)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٩٤).

(٢) «أي لسان أعجمي»: ليست في (ص).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٣٠٤).

﴿وقَلبُهُ مُطمَئِنٌّ بِالإيمانِ﴾ ـ ومَن: مبتدأ أو شرطيّة والخبرُ أو الجواب: لهم وعيد شديد ـ دلّ على هذا: ﴿ولكِنْ مَن شَرَحَ بِالكُفرِ صَدرًا﴾ له أي: فتَحه ووَسّعَه، بمعنى: طابت به نفسُه، ﴿فعلَيهِم غَضَبٌ مِنَ اللهِ، ولَهُم عَذابٌ عَظِيمٌ. ذلِكَ﴾ الوعيد لهم ﴿بِأَنَّهُمُ استَحَبُّوا الحَياةَ الدُّنيا﴾: اختاروها ﴿عَلَى الآخِرةِ، وأَنَّ اللهَ لا يَهدِي القَومَ الكافِرِينَ. أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِم وسَمعِهِم وأبصارِهِم، وأُولئِكَ هُمُ الغافِلُونَ﴾ عمّا يُراد بهم، ١٠٩ ـ ﴿لا جَرَمَ﴾: حقًّا ﴿أَنَّهُم في الآخِرةِ هُمُ الخاسِرُونَ﴾ لمصيرهم إلى النار المُؤبّدة عليهم.

١١٠ ـ ﴿ثُمَّ إنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا﴾ إلى المدينة ﴿مِن بَعدِ ما فُتِنُوا﴾: عُذّبوا وتلفّظوا بالكُفر ـ وفي قراءة بالبناء للفاعل، أي: كفروا أو فَتنوا الناسَ عن الإيمان ـ ﴿ثُمَّ جاهَدُوا وصَبَرُوا﴾ على الطاعة، ﴿إنَّ رَبَّكَ مِن بَعدِها﴾ أي: الفِتنةِ ﴿لَغَفُورٌ﴾..

قالَ تعَالى: (﴿وقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ﴾) أي: لم تتغيَّر عقيدتُهُ، فدلَّ[1] على أنَّ الإيمانَ هو التَّصديقُ.

قولُهُ: (﴿مَنْ﴾ مُبْتَدأٌ) أي: ﴿مَن كفرَ﴾.

قولُهُ: (دَلَّ عَلَى هَذَا ﴿وَلَكِنْ﴾... إلخ) أي: فعلَيهِم غضبٌ... إلخ، ويجوزُ أن ينتَصِبَ بالذَّمِّ.

قولُهُ: (فتَحَهُ) أي: صدرَهُ؛ أي: اعتقدَهُ.

قولُهُ: (لَهُمْ) أي: للكافِرينَ.

قولُهُ: (عمَّا يُرَادُ بِهِمْ) إذ أغفلَتْهُم الحالةُ الرَّاهنةُ عن تَدبُّرِ العَواقبِ.

قولُهُ: (لمَصِيرِهِمْ) بتَضييعِ أعمارِهِم.

قولُهُ: (بالكُفْرِ) كعمَّارٍ وأصحابِهِ.

قولُهُ: (وفِي قِرَاءَةٍ) للشَّاميِّ[2].

قولُهُ: (كَفَرُوا) أي: فتنوا أنفسَهُم.

قولُهُ: (أو افْتَنُوا) لغةٌ في فتَنوا؛ أي: بعد ما عَذَّبوا المؤمنينَ كالحضرميِّ أكرهَ مولاهُ جبراً حتَّى ارتدَّ ثمَّ أسلَما وهاجَرا.

قولُهُ: (عَلى الطَّاعَةِ) والجِهادِ وما أصابَهُم من المشاقِّ.

قولُهُ: (أي: الفِتْنَةِ) أو الهجرةِ والجهادِ والصَّبرِ.

---

(١) في (م): «يدل».

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٧٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٩٥).

لهم ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم ـ وخبر «إنّ» الأُولى دلّ عليه خبرُ الثانية ـ ١١١ ـ اذكرْ ﴿يَومَ تأتِي كُلُّ نَفسٍ، تُجادِلُ﴾: تُحاجُّ ﴿عَن نَفْسِها﴾ لا يُهمّها غيرُها ـ وهو يوم القيامة ـ ﴿وتُوَفَّى كُلُّ نَفسٍ﴾ جزاءَ ﴿ما عَمِلَتْ، وهُم لا يُظلَمُونَ﴾ شيئًا.

١١٢ ـ ١١٣ ـ ﴿وضَرَبَ اللهُ مَثَلاً﴾، ويُبدل منه: ﴿قَرْيَةً﴾ هي مكّة والمراد أهلها، ﴿كانَت آمِنَةً﴾ من الغارات لا تُهاج ﴿مُطمَئِنَّةً﴾ لا يُحتاج إلى الانتقال عنها لضيق أو خوف، ﴿يأتِيها رِزقُها رَغَدًا﴾: واسعًا ﴿مِن كُلِّ مَكانٍ، فكَفَرَتْ بِأنعُمِ اللهِ﴾ بتكذيب النبيّ، ﴿فأذاقَها اللهُ لِباسَ الجُوعِ﴾: فقُحِطوا سبعَ سنين ﴿والخَوفِ﴾ بسرايا النبيّ ﴿بِما كانُوا يَصنَعُونَ، ولَقَد جاءَهُم رَسُولٌ مِنهُم﴾ مُحمّد ﷺ، ﴿فكَذَّبُوهُ، فأخَذَهُمُ العَذابُ﴾: الجوع والخوف، ﴿وهُم ظالِمُونَ﴾.

١١٤ ـ ١١٥ ـ ١١٦ ـ ﴿فكُلُوا﴾ ـ أيها المُؤمنون ـ ﴿مِمّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالاً طَيِّبًا، واشكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ، إن كُنتُم إيّاهُ تَعبُدُونَ ـ إنّما حَرَّمَ علَيكُمُ المَيْتَةَ والدَّمَ ولَحمَ الخِنزِيرِ، وما أُهِلَّ لِغَيرِ اللهِ بِهِ. فمَنِ اضطُرَّ غَيرَ باغٍ ولا عادٍ فإنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ـ ولا تَقُولُوا لِما تَصِفُ ألسِنَتُكُمُ﴾..........

قولُهُ: (لَهُم) أي: لما فعَلوا قبلُ.

قولُهُ: (بِهِم) يُنعِمُ عليهِم مجازاةً على ما صنَعوا بعدُ.

قولُهُ: (وَخَبرُ ﴿إنَّ﴾.. إلخ) أو ﴿إنَّ﴾ الثَّانيةِ واسمُها تكريرٌ للتَّوكيدِ، وهذا هو الملائمُ؛ لقولِهِ: أي: الفتنةِ.

قولُهُ: (غَيرُهَا) فتقولُ: نفسِي نفسِي.

قولُهُ: (شَيْئاً) من نقصِ ثوابٍ أو زيادةِ عِقابٍ.

قولُهُ: (هيَ مَكَّة) وقيلَ: المدينةُ، أو جعلَها مثلاً لكلِّ قومٍ أنعمَ اللهُ عليهم فأبطرتْهُمُ النِّعمةُ فكفروا فأنزَلَ اللهُ بهم نقمتَهُ.

قوله: (تُهَاجُ) من هاجَ الغبارُ: ثارَ.

قولُهُ: (بتكذِيبِ) الباءُ للسَّببيَّةِ، وباءُ ﴿بأَنْعُمِ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿كَفرَتْ﴾.

قولُهُ: (بِسَرايَا) استعارَ الذَّوقَ لإدراكِ أثرِ الضَّررِ واللِّباسِ لِمَا غشيَهُم واشتملَ عليهم من الجوعِ والخوفِ.

قولُهُ: (الجُوعُ) أو وقعةُ بدرٍ.

قولُهُ: (أيُّها المُؤمِنُونَ) أو أمرَ الكفَّارَ بأكلِ ما أحلَّ لهم وشكرِ ما أنعَمَ عليهِم بعدَ ما زجرَهُم عنِ الكفرِ.

أي: لوصف ألسنتكم ﴿الكَذِبَ: هذا حَلالٌ وهذا حَرامٌ﴾ لِما لم يُحِلَّه الله ولم يُحرِّمْه، ﴿لِتَفتَرُوا علَى اللهِ الكَذِبَ﴾ بنسبة ذلك إليه. ﴿إنَّ الَّذِينَ يَفتَرُونَ علَى اللهِ الكَذِبَ لا يُفلِحُونَ﴾، ١١٧ ـ لهم ﴿مَتاعٌ قَلِيلٌ﴾ في الدنيا، ﴿ولَهُم﴾ في الآخرة ﴿عَذابٌ ألِيمٌ﴾: مُؤلم.

١١٨ ـ ﴿وعلَى الَّذِينَ هادُوا﴾ أي: اليهودِ ﴿حَرَّمْنا ما قَصَصْنا علَيكَ مِن قَبلُ﴾ في آيةِ: «وعلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ» إلى آخرها، ﴿وما ظَلَمْناهُم﴾ بتحريم ذلك، ﴿ولكِن كانُوا أنفُسَهُم يَظلِمُونَ﴾ بارتكاب المعاصي المُوجبةِ لذلك، ١١٩ ـ ﴿ثُمَّ إنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ﴾: الشِّرك ﴿بِجَهالَةٍ، ثُمَّ تابُوا﴾: رجَعوا ﴿مِن بَعدِ ذلِكَ وأصلَحُوا﴾ عَمَلَهم، ﴿إنَّ رَبَّكَ مِن بَعدِها﴾ أي: الجهالةِ أو التَّوبة ﴿لَغَفُورٌ﴾ لهم ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم.

١٢٠ ـ ١٢١ ـ ١٢٢ ـ ﴿إنَّ إبراهِيمَ كانَ أُمَّةً﴾: إمامًا قُدوة جامعًا لخِصال الخير..............

قولُهُ: (لِوَصفِ) يعني: ﴿ما﴾ مصدريَّةٌ، و﴿الكَذِبَ﴾ منتصبٌ بـ﴿تَصِفُ﴾، و﴿هَذَا حَلَالٌ وهَذَا حَرَامٌ﴾ مفعولُ ﴿ولَا تَقُولُوا﴾ أي: لا تحرِّموا ولا تُحلِّلوا بمجرَّدِ قولٍ تنطقُ به ألسنتُكم من غيرِ دليلٍ.

قولُهُ: (لَهُم) أو ما هم فيه منفعةٌ قليلةٌ تنقطعُ عن قريبٍ.

قولُهُ: (إلَى آخِرِهَا) و﴿مِنْ قَبلُ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿قَصَصْنَا﴾ وقيل: بـ﴿حَرَّمْنَا﴾.

قولُهُ: (لذَلِكَ) أي: التَّحريمِ، وفيهِ تنبيهٌ على الفرقِ بينَهُم وبينَ غيرِهِم في التَّحريمِ، وأنَّهُ كما يكونُ للمضرَّةِ يكونُ للعقوبةِ.

قولُهُ: (الشِّركَ) والافتراءَ على اللهِ ونحوَهما.

وقولُهُ تَعَالى: (﴿بِجَهَالَةٍ﴾) أي: بسبَبِها.

قولُهُ: (لَهُم) ذلك السُّوءَ.

قولُهُ: (بِهِم) يثيبُ على مَن يُنيبُ.

قولُهُ: (لِخِصَالِ الخَيرِ) الَّتي لا تكادُ توجَدُ إلَّا مفرَّقةً في أشخاصٍ كثيرةٍ، كقولِ الشَّاعرِ[1]:

لَيسَ مِنَ اللهِ بِمُستَنكَرٍ ... أنْ يجمعَ العَالَمَ في واحدِ

وهو رئيسُ الموحِّدينَ، وقدوةُ المحقِّقينَ، الَّذي جادَلَ المشركينَ وأبطلَ مذاهبَهُمُ الزَّائفةَ[2] بالحججِ الدَّامغةِ، أو لأنَّهُ كانَ وحدَهُ مؤمناً وكانَ سائرُ النَّاسِ كفَّاراً.

---

(١) هو أبو نواس انظر: «ديوانه» برواية الصولي (ص: ٢٦٢).

(٢) في (ص): «الزائغة».

﴿قَانِتًا﴾: مُطيعًا ﴿لِلَّهِ حَنِيفًا﴾: مائلاً إلى الدِّين القيِّم، ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ، اجْتَبَاهُ﴾: اصطفاه ﴿وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَآتَيْنَاهُ﴾ - فيه التفات عن الغَيبة - ﴿فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ هي الثناء الحسن في كُلّ أهل الأديان، ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين لهم الدرجات العُلى، ١٢٣ - ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ - يا مُحمّد - : ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ﴾: دِينَ ﴿إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. كُرِّر ردًّا على زعم اليهود والنصارى أنهم على دِينه.

١٢٤ - ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ﴾: فُرِض تعظيمه ﴿عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ على نبيّهم - وهم اليهود، أُمروا أن يتفرّغوا للعِبادة يومَ الجُمعة، فقالوا: لا نُريده. واختاروا السبتَ، ....

وقيلَ: هي فُعْلَةٌ بمعنى مفعولٍ، كالرُّحْلةِ والنُّخْبةِ، مِن أمَّهُ: إذا قصدَهُ أو اقتَدَى به، فإنَّ النَّاسَ كانوا يؤمُّونَهُ للاستِفادةِ ويقتدونَ بسيرتِه، كقولِهِ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ [البقرة: ١٢٤] وبهذا يُعلَمُ أنَّ كلامَ الشَّيخِ ملفّقٌ ولفٌّ محقّقٌ.

قولُهُ: (مُطِيعاً) له قائماً بأوامرِهِ.

قالَ تعالى: (﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾) كما زعَمُوا، فإنَّ قريشاً كانوا يزعُمونَ أنَّهُم على ملَّتِهِ.

قولُهُ: (اصطَفَاهُ) للنُّبوَّةِ.

قولُهُ: (هِيَ الثَّناءُ الحسَنُ) وأولادٌ طيِّبةٌ وعمرٌ طويلٌ في السَّعةِ والطَّاعةِ.

قولُهُ: (يَا مُحمَّدُ) و﴿ثُمَّ﴾ إمَّا لتعظيمِهِ، أو لتَراخي أيَّامِهِ.

قولُهُ: (دِينَ إبرَاهِيمَ) في التَّوحيدِ والدَّعوةِ إليه بالرِّفقِ وإيرادِ الدَّلائلِ مرَّةً بعدَ أخرى، والمجادلةِ مع كلِّ واحدٍ بحسبِ فهمِهِ، قالَ الدِّينوريُّ[١]: أُمِرَ النَّبيُّ ﷺ باتِّباعِ الخليلِ لئلَّا يأنفَ أحدٌ عن الاتِّباعِ، وملَّةُ إبراهيمَ كانَت السَّخاءَ وحسنَ الخُلُقِ، فزادَ ﷺ حتَّى جادَ الكونَينِ عوضاً عن الحقِّ[٢]، فقيلَ له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

قولُهُ: (رَدًّا) أي: كرَّرهُ لفظاً، وإلَّا فلا تكرارَ معنًى.

قولُهُ: (تَعْظِيمه) والتَّخلِّي فيه للعِبادةِ.

قولُهُ: (واختَارُوا السَّبتَ) وعلَّلُوا بأنَّهُ تعالى فرغَ فيه من خَلقِ السَّماواتِ والأرضِ.

---

(١) وانظر: «عرائس البيان» (٢/ ٣٤٣).

(٢) وانظر: «اتحاف السادة المتقين» (٧/ ٣٢٤)

فشدّد عليهم فيه ـ ﴿وإنَّ رَبَّكَ لَيَحكُمُ بَينَهُم يَومَ القِيامةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَختَلِفُونَ﴾ من أمره بأن يُثيب الطائع ويُعذّب العاصي بانتهاك حُرمته.

١٢٥ ـ ﴿ادعُ﴾ الناسَ ـ يا مُحمّد ـ ﴿إلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾: دِينه ﴿بِالحِكْمةِ﴾: بالقُرآن ﴿والمَوعِظةِ الحَسَنةِ﴾: مَواعظِ القرآن أو القولِ الرقيق، ﴿وجادِلْهُم بِالَّتِي﴾ أي: بالمُجادلة التي ﴿هِيَ أحسَنُ﴾ كالدعاء إلى الله بآياته والدعاء إلى حُججه. ﴿إنَّ رَبَّكَ هُوَ أعلَمُ﴾ أي: عالمٌ ﴿بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ، وهُوَ أعلَمُ بِالمُهتَدِينَ﴾ فيُجازيهم. وهذا قبل الأمر بالقتال.

ونزل لمّا قُتلَ حمزةُ ومُثِّلَ به، فقال ﷺ وقد رآه: «لَأُمثِّلَنَّ بِسَبعِينَ مِنهُم مَكانَكَ»: ١٢٦ ـ ﴿وإن عاقَبتُم فعاقِبُوا بِمِثلِ ما عُوقِبتُم بِهِ ـ ولَئِنْ صَبَرتُم﴾ عن الانتقام ﴿لَهُوَ﴾ أي: الصبرُ ﴿خَيرٌ لِلصّابِرِينَ﴾. فكَفَّ ﷺ وكَفَّر عن يمينه. رواه البزّار ـ ١٢٧ ـ ﴿واصبِرْ، وما صَبرُكَ إلاّ بِاللهِ﴾: بتوفيقه، ﴿ولا تَحزَنْ عَلَيهِم﴾ أي: الكُفّارِ، إن لم يُؤمنوا لحِرصك على إيمانهم، ﴿ولا تَكُ في ضَيقٍ مِمّا يَمكُرُونَ﴾.........

قولُهُ: (فشُدِّدَ) أي: فألزَمَهُمُ اللهُ السَّبتَ وشَدَّدَ الأمرَ عليهِم.

قولُهُ: (النَّاسَ) الأَولَى: من بُعثتَ إليهِم.

قولُهُ: (بالقُرآنِ) أو بالمقالَةِ المحكمَةِ، وهو الدَّليلُ الموضِّحُ للحقِّ المزيلُ للشُّبهةِ.

قولُهُ: (أو القَولِ) أو الخطاباتِ المقنعةِ والعِبَرِ النَّافعةِ، والأُولَى لدعوةِ الخواصِّ والثَّانيةُ للعوامِّ.

وقولُهُ تعالَى: (﴿وَجَادِلْهُم﴾) أي: معانديهِم؛ بالياءِ أو التاءِ.

قولُهُ: (بالمُجَادَلَةِ) أو بالطَّريقةِ الَّتي هي أحسنُ طرقِ المجادلةِ مِن الرِّفقِ واللِّينِ، وإيثارِ الوجهِ الأيسرِ والمقدِّماتِ الأشهرِ، فإنَّ ذلك أنفعُ في تسكينِ لُبِّهِم، وتليينِ شَغَبِهم.

قولُهُ: (أي: عَالِمٌ) بل ﴿أعلمُ﴾ على بابِهِ؛ أي: إنَّما عليك البلاغُ والدَّعوةُ، وأمَّا حصُولُ الهدايةِ والضَّلالةِ والمجازاةِ عليهما فلا إليكَ بل هو أعلمُ بالضَّالِّينَ والمعتدينَ وهو المجازي لهُم.

قولُهُ: (وهَذا) كانَ حقَّهُ أنْ يذكرَهُ قبلَ قولِهِ: ﴿إنَّ رَبَّكَ﴾ ومع هذا لا يلزمُ من المجادلةِ عدمُ المقاتلَةِ ولا من المقاتلةِ عدمُ المجادلةِ ليكونَ هناكَ نسخٌ.

قالَ تعالى: (﴿خيرٌ﴾) من الانتقامِ للمنتقِمينَ.

قولُهُ: (أي: الكُفَّارِ) أو على المؤمنينَ وما فُعِلَ بهم.

قولُهُ: (﴿فِي ضَيْقٍ﴾) أي: ضيقِ صدرٍ، وابنُ كثيرٍ بالكسرِ[1].

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٧٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٩٥).

أي: لا تهتمَّ بمكرهم. فأنا ناصرك عليهم. ١٢٨ ـ ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ الكُفر والمعاصيَ ﴿والَّذِينَ هُم مُحسِنُونَ﴾ بالطاعة والصبر، بالعون والنصر.

قولُهُ: (الكُفْرَ) أو اللهَ، بتعظيمِ أمرِهِ.

قولُهُ: (بِالطَّاعَةِ) أو بالشَّفقةِ على خلقِهِ.

قولُهُ: (بالعَوْنِ) متعلِّقٌ بقولِهِ: ﴿مع﴾ واللهُ أعلمُ.

* * *

سُورَةُ النَّحْلِ

وتُسَمَّى كما أخرج ابن أبي حاتم سورةَ النِّعَم[1]، قال ابن الفَرَس: لِمَا عَدَّد الله تعالى فيها من النِّعَم على عباده.

وأطلق جَمعٌ القولَ بأنها مَكِّية؛ وأخرج ذلك ابن مردويه[2] عن ابن عباس وابنِ الزُّبير ﷺ. وأخرج النحَّاسُ من طريق مجاهدٍ عن الحِبر أنها نزلت بمكةَ سوى ثلاثِ آياتٍ من آخرها فإنَّهنَّ نزلن بين مكةَ والمدينة في مُنصَرَف رسول الله ﷺ من أُحُدٍ[3]. وفي روايةٍ عنه: إنها كلَّها مَكِّيةٌ إلا قولَه تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الآيات: ٩٥-٩٧].

ورَوى أُميَّةُ الأَزْديُّ[4] عن جابر بن زيد أنَّ أربعين آيةً منها نزلت بمكَّةَ وبقيَّتها نزلت بالمدينة.

وهي مئةٌ وثمانٌ وعشرون آيةً، قال الطَّبرسيُّ وغيرُه: بلا خلافٍ[5]. والذي ذَكَره الدَّانيُّ في كتاب «العدَد»[6] أنها تسعون وثلاث. وقيل: أربعٌ. وقيل: خمسٌ في سائر المصاحف.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٩٥، عن قتادة.

(٢) كما في الدر المنثور ٤/١٠٩.

(٣) الناسخ والمنسوخ ٢/ ٤٨٤.

(٤) هو: أُمَيَّةُ بن زيد الأزدي البصري، ذكره ابن حبّان في الثقات ٦/ ٧٠، وقال الحافظ في التقريب: مقبول.

(٥) مجمع البيان ٤/ ٤٨.

(٦) كما في حاشية الشهاب ٥/ ٣٠٩، والكلام منه.

وتحتوي من المنسوخ، قيل: على أربع آياتٍ بإجماعٍ، وعلى آيةٍ واحدةٍ[(١)] مختَلَفٍ فيها، وسيظهَرُ لك حقيقةُ الأمر في ذلك إن شاء الله تعالى.

ولمَّا ذُكِرَ في آخِرِ السورة السابقة المستهزؤون المُكَذِّبون لَهُ ﷺ ابتُدئَ هنا بعدَ قوله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ المناسِبِ لذلك على ما ذَكَرَ غيرُ واحدٍ في معناه وسببِ نزوله، وفي «البحر»[(٢)] في بيان وجه الارتباط أنه تعالى لمَّا قال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢] كان ذلك تنبيهاً على حَشرهم يومَ القيامة، وسؤالهم عمَّا فَعَلوه في الدنيا، فقيلَ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ فإنَّ المُرادَ به ـ على قول الجمهور ـ يومُ القيامة.

وذَكَرَ الجلال السُّيُوطيُّ[(٣)] أنَّ آخِرَ «الحِجْر» شديدةُ الالتِئام بأوَّل هذه السورة؛ فإنَّ قولَه سبحانه: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ الذي هو مُفَسَّرٌ بالموت ظاهرُ المناسَبةِ بقوله سبحانه هنا: (أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ)، وانظر كيف جاء في المُتقدِّمة «يأتيك» بلفظ المضارع، وفي المُتأخِّرة «أتى» بلفظ الماضي؛ لأن المستقبَلَ سابقٌ على الماضي كَمَا تَقَرَّر في محلِّه.

والأمرُ: واحدُ الأمُور، وتفسيره بيوم القيامة كما في «البحر»[(٤)]، وفُسِّر بما يَعُمُّهُ وغيرَهُ من نُزول العذاب الموعود للكفرة.

وعن ابن جُرَيجٍ تفسيرُه بنزول العذاب فقط، فقال: المراد بالأمر هنا ما وَعَدَ الله تعالى نبيَّه ﷺ من النصر والظَّفر على الأعداءِ، والانتقام منهم بالقتل والسبي ونهبِ الأموال، والاستيلاءِ على المنازل والديار.

---

(١) بعدها في (م): على.
(٢) ٥/ ٤٧٢.
(٣) في تناسق الدرر في تناسب السور ص٦٢.
(٤) ٥/ ٤٧٢، ووقع في (م): كما قال في البحر.

وأخرج ابن جريرٍ وغيرُه عن الضَّحَّاك أنَّ المراد به الأحكامُ والحدودُ والفرائضُ(١). وكأنَّه حَمَلَه على ما هو أحدُ الأوامر، وفيما ذَكَرَه بُعْدٌ، إذ لم يُنْقَل عن أحدٍ أنَّه استَعجَلَ فرائضَ الله تعالى وحدودَه سبحانه.

والتعبيرُ عن ذلك بأمر الله؛ للتهويلِ والتفخيمِ، وفيه إيذانٌ بأنَّ تَحقُّقه في نفسه وإتيانَه منُوطٌ بحُكْمِه تعالى النافذِ، وقضائه الغالب.

وإتيانُه عِبارةٌ عن دُنوِّه واقترابه على طريقة نظم المتُوَقَّع في سلك الواقع. وجُوِّزَ أنْ يكونَ المرادُ إتيانَ مباديه، فالماضي باقٍ على حقيقته، ولعلَّ ما أخرجه ابن مردويه(٢) من طريق الضحَّاكِ عن ابن عباس ﷺ أنَّه فَسَّر الأمرَ بخرُوج النبيِّ ﷺ مُؤيِّدٌ لِمَا ذُكِرَ.

وبعضُهم أبقى الفِعلَ على معناه الحقيقيِّ، وزعَم أنَّ المعنى: أتى أمرُ الله وَعداً فلا تستعجلوه وُقوعاً، وهو ما ترى.

وظاهرُ صنيع الكثير يُشعِر باختيار أنَّ الماضي بمعنى المضارع على طريق الاستعارة، بتَشبيه المستقبَل المُتحقق بالماضي في تحقُّق الوقوع، والقَرينةُ عليه قولُه سبحانه: [﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾](٣) فإنَّه لو وَقَعَ ما استُعْجِلَ. وهو الذي يَميلُ إليه القلبُ.

والضميرُ المنصوبُ في «تستعجلوه» على ما هو الظاهِرُ عائدٌ على الأمر؛ لأنَّه هو المُحَدَّثُ عنه. وقيل: يعود على الله سبحانه، أي: فلا تستعجلوا اللهَ تعالى بالعذاب، أو: بإتيان يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧]، وهو خلاف الظاهر، لكنْ قيلَ: إنَّ ذلك أوفقُ بما بَعدُ.

والخطابُ للكفرة خاصةً، ويدلُّ عليه قراءةُ ابن جُبَير: «فلا يستعجلوه»(٤) على صيغة نهي الغائب، واستعجالُهُم وإنْ كان بطريق الاستِهزاء لكنَّه حُمِلَ على الحقيقة، ونُهُوا بضَربٍ من التَّهَكُّم، لا مَعَ المؤمنين، سواءٌ أُريدَ بأمر الله تعالى

(١) تفسير الطبري ١٤/ ١٥٨.
(٢) كما في الدر المنثور ٤/ ١٠٩.
(٣) ليست في الأصل و(م)، والمثبت من حاشية الشهاب ٥/ ٣٠٩، والكلام منه.
(٤) القراءات الشاذة ص ٧٢، والبحر ٥/ ٤٧٢.

ما قَدَّمْنا أو العذابُ الموعودُ للكفرة خاصةً؛ أمَّا الأولُ: فلأنَّه لا يُتصَوَّر من المؤمنين استعجالُ الساعة[(١)] أو ما يعمُّها من العذاب حتى يعمَّهم النهيُ عنه. وأما الثاني: فلأنَّ الاستعجالَ من المؤمنين حقيقةٌ، ومن الكفرة استهزاءٌ، فلا ينتظمهما[(٢)] صيغةٌ واحدة. والالتجاءُ إلى إرادة معنًى مجازيٍّ يعمُّهما معاً من غير أن يكون هناك نكتةٌ سرِّيَّةٌ تعَسُّفٌ لا يليقُ بشأن التنزيل.

وادَّعى بعضُهم عمومَ الخطاب، واستدلَّ بما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه لمَّا نزل قولُه تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]، قال الكفارُ فيما بينهم: إن هذا يزعُم أنَّ القيامة قد قَرُبتْ، فأمسِكوا عن بعض ما تعملون حتى تنظروا[(٣)] ما هو كائن، فلما تأخَّرت قالوا: ما نرى شيئاً، فنزلت: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١] فأشفَقوا وانتَظروا قُربَها، فلما امتدَّت الأيام قالوا: يا محمد، ما نرى شيئاً مما تُخَوِّفنا به، فنزلت: (أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ)، فوثب ﷺ فرفع الناسُ رؤوسهم، فلما نزل: (فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ) اطمأنُّوا، ثم قال ﷺ: «بُعِثْتُ أنا والساعةُ كهاتَين ـ وأشارَ بأصبعَيه ـ إنْ كادَتْ لتَسبِقُني»[(٤)]، ولا دلالةَ فيه على ذلك؛ لأنَّ مناطَ اطمئنانهم إنما هو وقوفُهم على أنَّ المراد بالإتيان هو الإتيان الادِّعائيُّ لا الحقيقيُّ الموجِبُ لاستحالة الاستعجال المستَلزِمةِ لامتناع النهي عنه، لِمَا أنَّ النهيَ عن الشيء يقتضي إمكانَه في الجملة، ومدارُ ذلك الوقوف إنما هو النهيُ عن الاستعجالِ المستَلزِمِ لإمكانِه المقتضي عدمَ وقوعِ المستعجَل[(٥)] بعدُ، ولا يَختلفُ ذلك باختلاف المستَعجل كائناً مَن كان، بل فيه دلالةٌ واضحة على عدم العموم؛ لأنَّ

---

(١) جاء في هامش (م): قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى:١٨]. اهـ منه.

(٢) في (م): ينظمهما، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٥/ ٩٤، والكلام منه.

(٣) في الأصل: تنتظروا.

(٤) الخبر ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٦١، والواحدي في أسباب النزول ص ٢٨٣، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٤٢٦، والقرطبي في تفسيره ١٢/ ٢٦٧. وقوله ﷺ: «بُعثتُ أنا والساعةُ كهاتين» أخرجه أحمد (١٢٢٤٥)، والبخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١) من حديث أنس رضي الله عنه، وأخرجه البخاري (٦٥٠٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) في الأصل و(م): المستحيل، والمثبت من تفسير أبي السعود ٥/ ٩٤، والكلام منه.

المرادَ بأمر الله إنما هو الساعةُ، وصدورُ استعجالِها عن المؤمنين مستحيلٌ. نعم يَجوز تخصيصُ الخِطاب بهم على تقدير كونِ أمر الله تعالى العذاب الموعود للكفرة خاصةً، لكن الذي يقضي به الإعجازُ التنزيليُّ أنه خاصٌّ بالكفرة. كذا قاله أبو السعود(١).

وبَحث فيه من وجوه:

أما أوّلاً: فلأنَّ الذي لا يُتصوَّر من المؤمنين الاستعجالُ بمعنى طلب الوقوع عاجلاً، لا عَدُّهُ عاجلاً، وسياقُ ما روي يدل على الأخير فإنه لما سمعوا صدر الكلام حملوه على الظاهر فاضطربوا، فقيل لهم: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أي: لا تعدُّوه عاجلاً، على أن عدمَ تَصَوُّر المعنى الأول أيضاً منهم في حَيِّز المنع، لجواز أن يَستعجلوه لِتَشفِّي صدورهم وإذهابِ غيظِ قلوبهم والاستهزاءِ بهم والضحك منهم.

وأما ثانياً: فلأنَّ الجمعَ بين الحقيقة والمجاز لعلَّه مذهبُ ذلك القائل.

وأما ثالثاً: فلأنَّ القولَ بكون القراءة(٢) على صيغة نهي الغائب دالةً على أن الخطابَ مخصوصٌ بالكفرة ممنوعٌ، والسند ظاهرٌ.

وأما رابعاً: فلأن نفيَ دلالة ما رُوي على عموم الخطاب غيرُ مُوَجَّهٍ لعموم لفظ الناس.

وأما خامساً: فلأن قوله: بل فيه دلالةٌ واضحة على عدم العموم لأن المراد بأمر الله تعالى إنما هو الساعة.. إلى آخره، يرد عليه أنه لا دلالة فيه أصلاً على عدم العموم فضلاً أن تكونَ واضحةً. وقد عرفت ما في قوله: وقد عرفت.

وأما سادساً: فلأن حصرَه المرادَ بالأمر في الساعة مخالفٌ لما ذَكَره في تفسير قوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، حيث قال: أي: الساعة أو ما يعمُّها وغيرَها من العذاب، فبعد هذا التصريح كيف يدَّعي ذلك الحصر؟!. وفي بعض الأبحاث نَظَرٌ.

---

(١) في تفسيره ٥/ ٩٤-٩٥.

(٢) في الأصل: القرآن.

وقال بعضُ الفضلاء: قد يقال: إن المرادَ بالناس في الخبَر المؤمنون؛ لما في خبرٍ آخَر أخرجه ابن مردويه[١] عن الحبر قال: لما نزلت (أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ) ذُعِر أصحابُ رسول الله ﷺ، حتى نزلت: (فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ) فسكنوا. وهذا أيضاً ـ على ما قيل ـ لا يقتضي كونَ الخطاب للمؤمنين، لجواز أن يُقال: إنهم لما سَمِعوا أولَ الآية ذُعروا واضطَربوا لِظَنٍّ أنه وَقَعَ، فلمَّا سمِعوا خطابَ الكفرة بقوله سبحانه: (فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ) اطمأنَّت قلوبُهم وسكنوا.

وقد يُورَدُ على دعوى أنَّ صُدورَ استعجالِ الساعة من المؤمنين مستحيلٌ أنَّ ذلك حقٌّ لو كان استعجالُهُم على طِرْز استعجال الكفرة لها، وليس ذلك بِمُسَلَّمٍ؛ فإنه يَجوز أن يُرادَ باستعجالهم اضطرابُهم وتهيُّؤهم لها المُنْزَلُ منزلةَ الاستعجالِ الحقيقيّ.

واستُدلَّ على كون الخطاب للكفرة بقوله سبحانه وتعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝١﴾، فإنه على ذلك التقدير يظهرُ ارتباطُه بما قَبلَه؛ وذلك بأن يقال حينئذٍ: لمَّا كان استعجالُهم ذلك من نتائج إشراكِهم المُسْتَتْبِعِ لنسبةِ اللهِ تعالى إلى ما لا يَليق به سبحانه من العجز والاحتياج إلى الغير، واعتقادهم أن أحداً يحجُزه عن إمضاء وعيده أو إنجاز وعدِه، قيل: بطريق الاستئناف ذلك، على معنى: تَنزَّه وتقدَّسَ بذاته، وجَلَّ عن إشراكِهم المؤدِّي إلى صدور أمثال هذه الأباطيل عنهم، أو عن أن يكونَ له شريكٌ فيدفَعَ مَا أراد بهم بوجهٍ من الوجوه، وقد كانوا يقولون على ما في بعض الروايات: إن صَحَّ مجيءُ ذلك فالأصنامُ تُخلِّصنا عنه بشفاعتها لنا.

والتعبيرُ بالمضارع، للدلالة على تَجَدُّد إشراكهم واستمراره، والالتفاتُ إلى الغَيبة؛ للإيذان باقتضاء ذِكْر قبائحهم للإعراضِ عنهم، وطرحِهم عن رُتبةِ الخطاب، وحكايةِ شنائعهم للغَير، وهذا لا يتأتَّى على تقديرِ تخصيص الخطاب بالمؤمنين، وقيل في وجه الارتباط على ذلك التقدير: إنه تعالى لما نهاهم عن الاستعجال ذَكَر ما يتَضمَّن أنَّ إنذارَه سبحانه وإخبارَه تعالى للتخويف والإرشاد، وأنَّ قوله جلَّ وعلا: (أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ) إنما هو لذلك، فيستَعِدَّ كلُّ أحدٍ لِمَعَاده ويشتغلَ قبلَ السفر بتهيئة

---

(١) كما في الدر المنثور ٤/١٠٩، وأسباب النزول للسيوطي ص ٢٢٠.

زاده، فلذلك عَقَّبَ بذلك دونَ عطفٍ. وقد أشار بعضُهم إلى ارتباط ذلك باعتبار ما بعده، فيكون ما ذُكِر مقدِّمةً واستفتاحاً له. وأيضاً فإن قولَه تعالى: (أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ) تنبيهٌ وإيقاظ لما يَرِدُ بعدَه مِن أدلَّةِ التوحيد[١]. اهـ.

وأنتَ تَعلم أن الارتباطَ ـ على ما قُرِّر أولاً ـ لا يَظْهَر[٢] منه على هذا التقرير، فافهم.

ثم إن «ما» تحتمل الموصوليةَ والمصدريةَ، والاحتمال الثاني أظهرُ، ولا بُدَّ على الاحتمال الأول من اعتبار ما أشرنا إليه، وإلا فلا يظهرُ التنزيهُ عن الشريك.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «تُشْرِكُونَ»[٣] بتاء الخطاب على وفق: «فلا تستعجلوه»، وقرأ باقي السبعة والأعرجُ وأبو جعفر وأبو رجاء والحسن بياء الغَيبة[٤]، وقد تقدَّم أنَّ في الكلام حينئذٍ التفاتاً، وهو مَبنيٌّ على أنَّ الخطابَ السابقَ للكفرة، أما إذا كان للمؤمنين، أو لهم وللكفرة فلا يَتَّحِد معنى الضميرَين حتى يكون التفاتاً، ولا التفاتَ أيضاً على قراءة: «تشركون» بالتاء، سواء كان الخطاب الأول للكفرة أو لهم وللمؤمنين. نَعَم في ذلك على تقدير عموم الخطاب تغليبان على ما قيل، الأول: تَغليبُ المؤمنين على غيرهم في الخطاب. والثاني: تَغليبُ غيرهم عليهم في نسبة الشِّرك. وعلى قراءة: «يستعجلوه» و«يشركون» ـ بالتحتيَّة فيهما ـ لا التفات ولا تغليبَ.

﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ قيل: هو إشارةٌ إلى طريق عِلْم الرسول ﷺ بإتيان ما أُوْعِدَ به وباقترابه، إزاحةً لاستبعادِ اختصاصِه عليه الصلاة والسلام بذلك.

وقال في «الكشف»: التحقيق أنَّ قوله سبحانه: (أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ) تنبيهٌ وإيقاظ، ليكون ما يَرِدُ بعدَه مُمكَّناً في نَفْسٍ حاضرةٍ مُلقِيَةٍ إليه، وهو تمهيدٌ لما يَرِدُ من دلائل التوحيد. وقولُه تعالى: (يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ) إلخ، تَفصيلٌ لما أُجْمِل في قوله: (سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ) أيقظَ أوَّلاً، ثم نَعى عليهم ما هم فيه من الشرك، ثم أردفَه بدلائل السمع

---

(١) حاشية الشهاب ٥/ ٣١٠.

(٢) في (م): أظهر.

(٣) التيسير ص ١٢١، والنشر ٢/ ٢٨٢.

(٤) التيسير ص ١٢١، والنشر ٢/ ٢٨٢، والبحر ٥/ ٤٧٢، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٧٨.

والعقل، وقدَّم السمعيَّ؛ لأن صاحبَه هو القائمُ بتحرير العقليّ وتهذيبِه أيضاً، فليس النظر إلى دليل السمع بل إلى مَن قامَ به من الملائكة والرُّسل عليهم السلام، وهم القائمون بالأمرَين جميعاً، فافهم. وأَخْذُ سيبويه منه أن جعل «ينزل» حالاً من ضمير «يشركون» لا يُطابق المقام البتَّةَ. انتهى.

وما ذَكَره من أمر الحاليَّة إشارةٌ إلى الاعتراض على شيخه العلَّامة الطِّيبيِّ حيث جعَل ذلك أحَد احتمالَين في الجملة، ثانيهما: كونها مستأنفةً، وهو الظاهر، وما أشار إليه من وجه الرَّبط وادَّعى أنه التحقيق لا يخلو عمَّا هو خلاف المُتبادر. والتعبيرُ بصيغة الاستقبال؛ للإشارة إلى أن التنزيل عادة مستمِرة له تعالى.

والمراد بالملائكة عند الجمهور جبريلُ عليه السلام، ويسمَّى الواحد بالجمع ـ كما قال الواحديُّ[١] ـ إذا كان رئيساً، وعند بعضٍ هو عليه السلام ومن معه من حَفَظة الوحي.

وقَرَأَ ابنُ كَثير وأبو عمرو: «يُنْزِلُ» مخفَّفاً من الإنزال[٢]، وزيدُ بنُ عليٍّ ﵄ والأعمش وأبو بكر: «تُنَزَّلُ»[٣] مشدَّداً مبنيّاً للمفعول، و«الملائكةُ» بالرفع على أنه نائب الفاعل[٤]، والجَحدريُّ كذلك إلا أنه خفَّف[٥]، وأبو العالية والأعرج والمفضَّل عن عاصم: «تَنَزَّلُ» بتاء فوقيَّة مفتوحة وتشديد الزاي مبنياً للفاعل[٦]، وقد حُذف منه أحد التاءينِ وأصله «تَتَنَزَّلُ»، وابنُ أبي عَبْلة: «نُنَزِّلُ» بنون العظَمة والتشديد، وقتادةُ بالنون والتخفيف، وفي هاتَين القراءَتين كما في «البحر»[٧] التفات.

---

(١) ونقله عنه الرازي ١٩/ ٢١٩، وأبو السعود ٥/ ٩٥.
(٢) وهي أيضاً قراءة رويس، التيسير ص ٧٥، والنشر ٢/ ٣٠٢.
(٣) في الأصل و(م): ينزل. بالياء، وهو تصحيف؛ لأن كتب القراءات اتفقت على نقلها عن هؤلاء القُرَّاء بالتاء المثناة من فوق، وكذلك هي في البحر المحيط ٥/ ٤٧٣ وعنه نقل المصنِّف.
(٤) النشر ٢/ ٣٠٢.
(٥) أي: بلفظ: تُنْزَلُ، البحر ٥/ ٤٧٣، والدر المصون ٧/ ١٨٨.
(٦) وهي أيضاً قراءة يعقوب في رواية روح. النشر ٢/ ٣٠٢.
(٧) ٥/ ٤٧٣ والقراءات السالفة فيه.

﴿بِٱلرُّوحِ﴾ أي: الوحي، كما أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس[1]. ويدخُل في ذلك القرآن. ورُوي عن الضحَّاك والرَّبيع بن أنس الاقتصارُ عليه.

وأيّاً ما كان فإطلاق «الروح» على ذلك بطريق الاستعارة المصرّحة المحقّقة، ووجه الشَّبَه أنَّ الوحي يُحيي القلوبَ الميتة بداء الجهل والضلال، أو أنه يكون به قِوَامُ الدِّين كما أن بالروح يكونُ قِوَامُ البَدَن، ويَلزَمُ ذلك استعارةٌ مَكْنِيَّة وتَخييْلية؛ وهي تشبيه الجهل والضلال بالموت وضِدِّ ذلك بالحياة، أو تشبيه الدِّين بإنسان ذي جسد وروح، وهذا كما إذا قلتَ: رأيتُ بحراً يغتَرِف الناس منه وشمساً يستضيئون[2] بها. فإنه يتضمَّن تشبيهَ عِلم الممدوح بالماء العظيم والنور الساطع، لكنه جاءَ مِن عَرَضٍ، فليس كـ: أظفار المَنِيَّة[3]، وليس غيرَ كونِه استعارةً مصرّحة، وجعل ذلك في «الكشف» من قَبيل الاستعارة بالكناية، وليس بذاك.

والباء متعلِّقة بالفعل السابق أو بما هو حال من مفعوله، أي: يُنَزِّل الملائكةَ مُلتَبِسين بالروح.

وقوله سبحانه: ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ بيان للروح المرادِ به الوحي، والأمر بمعنى الشأن، واحدُ الأمور، ولا يُخرِجُ ذلك الروحَ من الاستعارة إلى التشبيه، كما قيل في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧]؛ لِمَا قالوا: من أن بينهما بَوناً بعيداً؛ لأن نفسَ الفجر ـ عين المُشَبَّه[4] ـ شُبِّهَ بخيطٍ، وليس مُطْلَقُ الأمر بالمعنى السابق مُشَبَّهاً به، ولذا بُيِّنَتْ به الروحُ الحقيقيةُ في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] كما تُبَيَّنُ به المجَازيةُ، ولو قيل: يُلقي أمرَه الذي هو الروح، لم يَخرج عن الاستعارة، فليس وِزَانُ «من أمره»

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ١٦٢، والدر المنثور ٤/ ١١٠.

(٢) في (م) والأصل: يستغيثون، والمثبت من حاشية الشهاب ٥/ ٣١٠، والكلام منه.

(٣) يُشير إلى قَول أبي ذُؤَيْب الهُذَليّ:

وإذا المَنِيَّةُ أَنشَبَتْ أظفارَها ... أَلفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لا تَنفَعُ

شرح أشعار الهُذَليين ١/ ٨.

(٤) بعدها في الأصل: به. والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٥/ ٣١٠، والكلام منه.

وِزانَ «من الفجر»، وليس كلُّ بيانٍ مانعاً من الاستعارة؛ كما يُتَوَهَّم من كلام المحقِّق في «شرح التلخيص».

وجُوِّزَ أن يكون الجارُّ والمجرور متعلقاً بمحذوفٍ وقَع حالاً من الروح، على معنى: حال كونه ناشئاً ومبتدأً منه، أو صفةً له على رأي من جوَّز حذف الموصول مع بعض صلته؛ أي: بالروح الكائن من أمره، أو متعلقاً بـ «يُنَزِّل»، و«من» سببيَّة أو تعليليَّة، أي[1]: ينزِّل الملائكةَ بسبب أمره أو لأجله. و«الأمر» ـ على هذا ـ واحد الأوامر، وعلى ما قبله قيل: فيه احتمالان.

وذهب بعضُهم إلى أن «الروح» هو جبريل عليه السلام وأيَّده بقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣] وجعل الباء بمعنى «مع».

وعن ابن عباس ﷺ أنَّ الروح خَلْقٌ من خَلق الله تعالى كصُوَر بَني آدمَ لا ينزِل من «السماء» مَلَك إلا ومعه واحد منهم، ورُوي ذلك عن ابن جُرَيج، وعليه حَمَل بعضُهم ما في الآية هنا، وتعقَّب ذلك ابنُ عطية بأن هذا قول ضعيف لم يأتِ له سَنَد يُعَوَّل عليه[2].

وأضعفُ منه بل لا يكاد يُقْدِمُ عليه في الآية أحَدٌ ما رُوي عن مجاهد أنَّ المرادَ بالروح أرواحُ الخلائق[3] لا ينزِل مَلَك إلا ومعه رُوح من تلك الأرواح.

﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ أي: أنْ ينزِّل عليهم لا لاختصاصِهم بصفاتٍ تؤهِّلُهم لذلك.

والآيةُ دليلٌ على أنَّ النُّبُوَّةَ عطائيَّةٌ كما هو المذهبُ الحقّ، ويُرَدُّ بها أيضاً على بعض المتصوفة القائلين: بأنه لا حاجةَ للخَلق إلى إرسال الرسُلِ عليهم السلام، قالوا: الرُّسلُ سوى اللهِ تعالى، وكلُّ ما سواه سبحانه حِجابٌ عنه جلَّ شأنه، فالرُّسل حجابٌ عنه تعالى، وكلُّ ما هو حجابٌ لا حاجةَ للخَلق إليه، فالرسُلُ لا حاجةَ إليهم!

---

(١) في الأصل و(م): أو. والصواب ما أثبتناه.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٨.
(٣) في (م) والبحر ٥/ ٤٧٣: الخَلق.

وهذا جهل ظاهر، ولعَمْري إنه زَندقةٌ وإلحاد، وفسادُه مثلُ كونه زندقةً في الظُّهور، ويكفي في ذلك منعُ الكُبْرى القائلةِ: بأنَّ كلَّ ما سواه سبحانه.. إلخ، فإنَّ الرسلَ وسيلةٌ إلى اللهِ تعالى، والوصول إليه عزَّ وجلَّ لا حِجابٌ، وهل يَقبل ذو عقلٍ أنَّ نائبَ السلطان في بلاده حِجَابٌ عنه؟! وهَبْ هذا القائل أمكَنَه الوصولُ إليه سبحانه بلا واسطةٍ بقوَّة الرياضة والاستعداد والقابلية، فالسَّوَاد الأعظمُ الذين لا يُمْكنُهم ما أمكَنَه كيف يصنعون؟!

وممَّن يَنتَظِم في سِلك هؤلاء الملحدين البراهمةُ، فإنهم أيضاً نفَوا النبوَّةَ، لكنَّهم استَدلُّوا بأنَّ العقلَ كافٍ فيما ينبغي أنْ يستعمِلَه المكلَّفُ، فيأتي بالحَسَن، ويجتنبُ القبيحَ، ويحتاطُ في المشتَبه بفعلٍ أو تركٍ، فالأنبياء عليهم السلام إما أن يأتوا بما يوافقُ العقلَ فلا حاجةَ معه إليهم، أو بما يخالفُه فلا التفَاتَ إليهم.

وجوابُه: أنَّ هذا مبنيٌّ على القول بالحُسْن والقُبْح العقليَّين، وقد رُفِعت الأقلامُ وجفَّت الصحفُ، وتمَّ الأمر في إبطاله، وعلى تقدير تسليمه لا نُسلِّم أنَّ العقلَ يستَقِلُّ بجميع ما ينبغي، ولا نُسَلِّم أيضاً أنهم إنْ جاؤوا بما يوافق العقلَ لا حاجةَ إليهم، لجواز أنْ يُعَرِّفوا المكلَّفَ بعضَ ما يخفَى عليه ممَّا ينبغي له، أو يُؤَكِّدوا حُكْمَه بحكمهم، ودليلان أقوى من دليلٍ، ولا نُسلِّم أيضاً أنهم إنْ جاؤوا بما يخالف العقلَ لا يُلتَفَتُ إليهم، لجواز أن يخالفوه فيما يَخفَى عليه، على أنَّ ذلك فَرْض مُحال؛ لإجماع الناس على أنَّ الشرعَ لا يأتي بخلاف العقل في نفس الأمر، وإنَّما يأتي بما يَقْصُرُ عن إدراكِهِ بنفسه، كوجوب صوم آخرِ يومٍ من رمضانَ، وحرمةِ صوم أوَّل يومٍ من شوَّال، وتَمَام الكلام في ذلك يُطْلَب من مَحلِّه.

﴿أَنۡ أَنذِرُوٓاْ﴾ بدل من الروح، على أنَّ «أنْ» هي التي من شأنها أنْ تنصبَ المضارعَ وُصِلَتْ بالأمر كما وُصلت به في قولهم: كتبتُ إليه بأن قُمْ، ولا ضَيْر في ذلك كما حُقِّق في موضعه. أي: يُنَزِّلهم ملتَبِسين بطلب الإنذار منهم.

وجَوَّز ابنُ عطية[1] وأبو البقاء[2] وصاحب «الغنيان»[3] كونَ «أنْ» مفسِّرةً؛

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٨.

(٢) إملاء ما مَنَّ به الرحمن ٣/ ٤٣٨.

(٣) كما نقله عنه في البحر ٥/ ٤٧٣.

فلا موضعَ لها من الإعراب، وذلك لِمَا في تنزيل الملائكة بالوحي من معنى القول، كأنه قيلَ: يقول بواسطة الملائكة لِمنَ يشاء من عباده: أنْ أنذروا، وجوَّز الزمخشريُّ ذلك وكونَ «أنْ» المخفَّفة من الثقيلة[1] وأمر البدلية على حالِه، قال: والتقديرُ بأنَّه أنذروا؛ أي: بأنَّ الشأنَ أقولُ لكم: أنذروا[2].

وتعقَّبه أبو حيان بأنَّ جَعْلها مخفَّفةً وإضمارَ اسمها - وهو ضميرُ الشأن - وتقديرَ القول حتى يكونَ الخبرُ جملةً خبريةً = تكلُّفٌ لا حاجةَ إليه، مع سهولة جَعلِها الشأنيَّة[3] التي من شأنها نصبُ المضارع.

وفيه بَحثٌ؛ ففي «الكشف»: أنَّ تحقيقَ وصلِ الأمر بهذا الحرف - ناصبةً كانت أو مخفَّفةً - وإضمار القول قد سَلَف، إنَّما الكلامُ في إيثارِ المخفَّفةِ ها هنا وفي «يونس»[4]، والناصبة في «نوح»[5]، وهي الأصل لقلَّة التقدير؛ وذلك لأنَّ مقامَ المبالغة يقتضي إيثارَ المخفَّفة، ولهذا جُعل بدلاً، والمبدَلُ منه ما عرفتَ شأنَهُ، وكذلك في «يونس» معناه: اعجَبُوا من هذا الأمر المحقَّق وهو أنَّ الشأنَ كذا، وأما في «نوح» فكلام ابتدائيٌّ، وجعلُهم فائدةَ القول أنْ لا يقعَ الطلبيُّ خبراً مِن ضِيْق العَطَن، فذلك في ضمير الشأن غيرُ مُسَلَّمٍ؛ لأنه متَّحِدٌ بما بعدَه، وهو كما تقول: كلامي: اضرب زيداً. انتهى.

وقُرِئَ: «لِيُنْذِرُوا»[6].

والإنذارُ: الإعلامُ كما قيلَ، خَلَا أنه مختَصٌّ بإعلام المحذور؛ أي: أَعلِمُوا: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾، فالضمير للشأن، وهو من خلاف مقتضَى الظاهر، وفائدةُ

---

(١) في (م): المثقلة.

(٢) الكشاف ٢/ ٤٠٠.

(٣) في الأصل و(م): الثنائية، والمثبت من البحر ٥/ ٤٧٤، والكلام منه.

(٤) يعني قولَه تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢].

(٥) يعني قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح: ١].

(٦) قرأ بها الأعمش، البحر ٥/ ٤٧٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٧٨.

تصدير الجملة به الإيذانُ من أول الأمر بفخامة مضمونها، مع ما في ذلك من زيادة تقرير في الذهن.

و«أنَّ» وما بعدها في موضع المفعول الثاني لـ: «أَنْذِرُوا»[(١)] دونَ تقدير جارٍّ فيه، والمفعولُ الأولُ محذوفٌ، والمرادُ العمومُ أي: أَعْلِموا الناس أنَّ الشأنَ الخطيرَ هذا، ووجهُ إنباءِ مضمونِه عن المحذور بأنه ليس لذاته بل من حيثُ اتصاف المنذَرين بما يضادُّه من الإشراك، ولا يُشتَرَط تَحقُّقُ المحذورِ ـ كالاتصاف المذكور بالفعل ـ في تحقُّق ماهيةِ الإنذار، وإنْ أبيتَ إلا الاشتراطَ فتحقُّقُ الاتصاف في بعض أفراد المنذَرين ـ لاسِيما الأكثر بالفعل ـ كافٍ.

وقال الراغب: الإنذارُ: إخبارٌ فيه تخويفٌ، كما أنَّ التبشيرَ إخبار فيه سُرور[(٢)].

وهو قريب مما تقدَّم، ومحصَّلُه ـ على العبارتَين ـ التخويفُ، ومن هنا جوَّز بعضُهم تفسيرَه بذلك، وقَدَّر المفعولَ الأولَ خاصّاً، و«أنَّ» وما بعدها في موضع المفعول الثاني بتقدير الجارِّ، أي: خَوِّفوا أهلَ الكفر والمعاصي بأنَّ الشأن الخطير هذا، وذلك كما جوَّز تفسيرَه بالإعلام، وجعَل المفعولَ الأول عامّاً ولم يُقَدِّر جَارّاً في الثاني، وذكر أنَّ ذلك أصلُ معناه، وأنَّ تخصيصَه بإعلام المحذور طارئٌ، فإنْ أُريدَ ذلك الأصلُ كان تعلُّقُه بما بعدَه ظاهراً غايةَ الظهور، وإنْ أُريدَ غيرُه احتاجَ إلى التوجيه.

وقد علمتَهُ فيما إذا كان المفعول الأول عامّاً، والأمرُ فيما إذا كان خاصّاً بعدَ ذلك أظهرُ من أنْ يُذْكَر.

وذكَر بعضُ الفضلاء أنَّ الثابتَ في اللغة: أنَّ نَذِرَ[(٣)] بالشيء ـ كفَرِحَ به ـ [عَلِمَه][(٤)] فَحَذِره، وأنذَرَه إذا أعلَمه بما يَحذَرُه، وليس فيها مجيئُه بمعنى

(١) في الأصل: لأعلموا.
(٢) المفردات (نَذَر).
(٣) في الأصل: أنذر.
(٤) ليست في الأصل و(م)، والمثبت من تفسير أبي السعود ٥/ ٩٦، وحاشية الشهاب ٥/ ٣١٠، والكلام منه.

التخويف، فأصله الإعلام مع التخويف، فاستعملوه بكلٍّ من جُزأي معنَيَيه الإعلامِ والتخويفِ. انتهى.

وفيه غَفلة عمَّا أشرنا إليه، وكأنه لهذا قيل: إنه لم يأتِ بشيءٍ يُعْتَدُّ به.

﴿فَاتَّقُونِ ۝﴾ جعله أبو السعود خطاباً للمستعجِلين على طريقة الالتفات، والفاء فصيحة؛ أي: إذا كان الأمر كما ذكر ـ من جَرَيان عادته تعالى بتنزيل الملائكة على مَن يشاءُ تنزيلَهم عليه من عباده وأَمْرِ المنزلِ عليهم بأن يُنذِروا الناسَ بأنه تعالى لا شريك له في الألوهية ـ فاتقونِ في الإخلالِ بمضمونِه، ومباشرةِ ما يُنافيه وفروعه التي من جملتها الاستعجالُ والاستهزاء[1]. انتهى.

وهو على ما يقتضيه الظاهرُ مبنيٌّ على ما مال إليه من اختصاص الخطاب السابق بالكفرة، وجعَل بعضُهم هذا الخطابَ رجوعاً أيضاً إلى خطاب قريش، لكنه مُتفرِّعٌ على التوحيد، ووجهُ تفرُّعِه عليه: أنه سبحانه وتعالى إذا كان واحداً لم يُتَصَوَّر تخليصُ أحَدٍ لأحدٍ من عذابه إذا أراد ذلك، ولم يجوِّز جعلَه من جملة الموحَى به، على معنى: أعلِمُوهم قولي: أنَّ الشأن لا إله إلا أنا فاتقون، أو: خوِّفوهم بذلك، مُعلِّلاً بأنه لو كان ذلك لقيل: «إنَّ» بالكسر لا بالفتح.

وتُعُقِّب بمنع اللزوم؛ فإن «إنَّ» ليست بعد قولٍ صريحٍ أو مقدَّرٍ، وإنَّما ذكروا ذلك في بيان المعنى لتصويرِه.

واختِيْرَ أنه إذا كان الإنذارُ بمعنى التخويف فالظاهرُ دخولُ هذا الأمر في المنذَر به؛ لأنه هو المنذَر به في الحقيقة، وهو المقصودُ بالذكر، وإذا كان بمعنى الإعلام فالمقصودُ بالإعلام هو الجملةُ الأولى، وهو متفرِّعٌ عليها على طريق الالتفات. ولا يخلو عن مناقشةٍ؛ فتأمَّلْ.

والذي يميل إليه القلبُ: أن المجموعَ داخلٌ في حيِّز الإنذار، وهو مشتَمِلٌ على التوحيد الذي هو منتهى كمال القوَّة العِلْمية، والأمرِ بالتقوى التي هي أقصى كمال القوَّة العَمَلية، فإن النفوسَ البشريةَ لها نِسبةٌ إلى عالم الغيب، تستَعِدُّ بها لقَبُول الصُّوَر والتَّحَلِّي بالمعارف والإدراكات من ذلك العالم، ونسبةٌ إلى عالم الشهادة،

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٩٦.

تستَعِدُّ بها لأن تتصرَّف في أجسام هذا العالم، ويُسمَّى استعدادُها الحاصلُ لها باعتبار النسبة الأولى: قوَّةً نَظَريةً، واستعدادُها باعتبار النسبة الثانية: قوَّةً عَمَليةً، وأشرفُ كمالات القوَّةِ النظريةِ معرفةُ أن لا إله إلا الله تعالى، وأشرفُ كمالات القوَّة العملية الإتيانُ بالأعمال الصالحة الواقية عن خِزي يوم القيامة.

وقدَّم قولَه تعالى: (لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠) على قوله سبحانه: (فَٱتَّقُونِ)؛ للإشارة إلى أن ما يستَنِد إلى القوَّة النظرية أعلى كمالاً مما يستَنِد إلى القوَّة العملية، والكمالُ الإنسانيُّ باعتبار هاتَين القوَّتين يُسمَّى كمالاً نفسانياً، وله كمالاتٌ أُخَرُ هي: كمالاتُه البدنية وقواه الحيوانية، وقد فُصِّل ذلك في موضعه.

ثم إنه تعالى شَرَع في تحرير الدلائل العقلية الدالَّة على توحيده الذي هو المقصد الأعظم من بعثة الرسل عليهم السلام؛ فقال عزَّ قائلاً: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ﴾.

وذكر بعضُ المحقِّقين أنه تعالى شأنه وعَظُم برهانه قد استوفى أدلةَ التوحيدِ واتصافِ ذاته الكريمة بصفات الجلال والإكرام على أسلوبٍ بديع، جَمَع فيه بين دلالة المصنوع على الصانع والنعمةِ على المُنْعِم، ونَبَّهَ على أن كلَّ واحدٍ يكفي صارفاً للمشركين عَمَّا هُمْ فيه من الشرك، وعليه مَدَارُ السورة الكريمة؛ كُلَّما بَصَّرَهم طائفةً من البصائر ضَمَّنها تبكيتَهم وكفرانَهم نعمتَي الرِّعاية والهداية.

وانظر إلى فاتحته ثم إلى خاتمته في قوله سبحانه: (وَٱصْبِرْ) إلى آخر السورة، يَبِنْ لكَ[1] بعضُ ما ضُمِّن الكتابُ الكريمُ من أسرار البلاغة وأنوار الإعجاز.

والمرادُ بالسماوات والأرض: إما هذه الأجرامُ والأجسام المعلومةُ، وإما جهةُ العلوِّ والسُّفل.

أي: أوجدَ ذلك ملتبساً بما يحقُّ له بمقتضى الحكمة، فيدلُّ على صانعٍ حيٍّ عالمٍ قادرٍ مريدٍ مُنْفَرِدٍ بالألوهية والربوبية، وإلَّا لَزِمَ إمكانُ التمانُعِ المستَلْزِمُ لإمكانِ المحالِ، حسبما بُيِّنَ في علم الكلام، ولذا عقَّبَ هذا بقوله تعالى: ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣﴾.

---

(١) في (م): بين لك، و: لك. ليست في الأصل.

وقرأ الأعمش: «فتعالى» بالفاء[1]. و«ما» يحتمل أن تكون مصدريةً، أي: تعالى وتقدَّس بذاته وأفعاله عن إشراكهم، وأن تكون موصولةً، على معنى: تعالى عن شِركَةِ ما يُشرِكُونه من الباطل الذي لا يُبدئُ ولا يُعيد، واستُدِلَّ بالآية على أنه تعالى ليس من قَبيل الأجرام والأجسام كما يقوله المجسِّمةُ، ووجهُ ذلك: أنها تدلُّ على احتياج الأجرام والأجسام إلى خالق[2] سبحانه وتعالى لا يُجانسها؛ وإلَّا لاحتاج إليه فلا يكون خالقاً. وبإرادة الجهتَين يكون وجهُ الدلالة من الآية أظهر.

وقرأ الكسائيُّ: «تُشْرِكُونَ» بالتاء[3].

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ أي: هذا النوع، غير الفَرد الأول منه ﴿مِن نُّطْفَـةٍ﴾ أصلُها الماء الصافي، ويُعَبَّرُ بها عن ماءِ الرَّجُلِ، أي: أوجدَه من جَمادٍ لا حسَّ له ولا حراكَ، سَيَّالٍ لا يَحْفَظ شكلاً ولا وَضعاً.

﴿فَإِذَا هُوَ﴾ بعد الخَلْقِ من ذلك ﴿خَصِيمٌ﴾ مِنْطيقٌ مجادِل عن نفسه، مكافِحٌ للخُصُوم. وهو صيغةُ مبالَغةٍ، وقال الواحديُّ: بمعنى مخاصم[4]. وفَعيل بمعنى مُفَاعِل معروفٌ عندهم، كالنَسيب بمعنى المناسِب، والخليط بمعنى المخالِط، والعَشير بمعنى المعاشِر.

﴿مُّبِينٌ ۝٤﴾ مُظْهِرٌ للحُجَّة لَقِنٌ بها. وقيل: المعنى: أوجده من ذلك فإذا هو خَصيمٌ لخالقه سبحانه، مُنْكِر لعظيم قدرته، قائل: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨]. والأوَّلُ أنسبُ بمقام الامتنان بإعطاء القدرة على الاستدلال بذلك على قدرتِهِ جلَّ جلالُه ووحدتِه.

وبَيَّنَ الإمامُ وجهَ الاستدلال؛ فقال ـ بعدَ أنْ زعمَ أن الإنسان في الشَّرف بعد الأفلاك والكواكب، وأشار إلى أنه لذلك عَقَّب الاستدلالَ بخَلق تلك بالاستدلالِ بخَلقه ـ: اعلَمْ أن الإنسانَ مركَّبٌ مِن نَفْسٍ وبَدَن، وصَدْرُ الآية إشارةٌ إلى الاستدلال

(١) البحر ٥/ ٤٧٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٧٩.
(٢) بعدها في الأصل: فهو.
(٣) التيسير ص ١٢١، والنشر ٢/ ٢٨٢.
(٤) التفسير الوسيط ٣/ ٥٦.

ببدنه على وجود الصانع الحكيم، وعَجُزُها إشارة إلى الاستدلال بأحواله، وتقريرُ الأول أنْ يقال: إن النطفةَ إما أن تكون متشابهةَ الأجزاء أو مختلفتَها، فإن كان الأولُ لم يَجُزْ أن يكون المقتضَى لتولُّد هذا البدن منها هو الطبيعة الحاصلة في جوهرها؛ لأنَّ تأثيرَ الطبيعة بالذات والإيجاب، فمتى عَمِلَتْ في مادةٍ متشابهة الأجزاء وجَبَ أن يكون عملها الكُرِيَّة[1]، وحيثُ لم يكن الأمرُ ـ فيما نحن فيه ـ كذلك؛ لظهور أنَّ الأبدانَ ليست كُريةً، علمنا أنَّ المقتَضِي لها هو الفاعل الحكيم المختار، وإن كان الثاني قُلنا: إنه يجب أن ينتهي تحليل تركيبها إلى أجزاء يكون كلٌّ واحدٍ منها في نفسه جسماً بسيطاً، وحينئذٍ لو كان المدبِّر لها قوَّةً طبيعيةً لوَجَب أن يكون كلٌّ من تلك البسائط كُرِيَّ الشكل، فكان يلزم أن يكون الإنسان على شكل كُرَاتٍ مضمومةٍ بعضها إلى بعض، وحيث لم يكن كذلك[2]، علمنا أن المقتضي هو الفاعل المختار أيضاً جلَّ شأنه.

وأيضاً: إنَّ النطفةَ رطبةٌ سريعةُ الاستحالة فلا تَحفَظ الوضع، فالجزء الذي هو مادة الدماغ يمكن حصوله في السُّفْل، والجزءُ الذي هو مادة القلب يمكن حصوله في الفوق؛ فحيث كان الإنسان على هذا الترتيب المعيَّن دائماً مع إمكان غيره، علمنا أن حدوثه على ذلك الترتيب ليس إلا بتدبير الفاعل المختار الحكيم. ولا يصحُّ أن يقال: إن ذلك من تأثير النجوم والأوضاع الفلكية؛ لأنَّ تأثيراتِها متشابهةٌ، على أنه قد بُيِّن بطلانُ كونها مؤثرةً بغير ذلك في موضعه.

وتقرير الثاني: أن النفوسَ الإنسانية في أوَّل الفِطرة أقلُّ فهماً وذكاءً وفطنةً من نفوس سائر الحيوانات؛ فإنَّ فرخَ الدجاجة حينَ خروجهِ من قِشر البيضة يُميِّز بين العدوِّ والصديق، فيهرب من الهرة ويلتجئُ إلى الأمِّ، ويُميِّز بين الغذاء الذي يوافقه والذي لا يوافقه، وأما ولد الإنسان فإنه حين انفصاله من بطن أمه لا يميِّز بين العدوِّ والصديق، ولا بين الضارِّ والنافع، ثم إنه ـ بعدَ كِبَرهِ ـ يقوَى عقلُه ويعظمُ فهمُه، ويصير بحيث يقوى على معرفة الله تعالى، وعلى معرفة أصناف المخلوقات العلوية والسفلية والاطلاع على كثير من أحوالها الدقيقة، وعلى الخصومات والمباحثات؛

(١) الكُرِيَّة ـ بضم الكاف وكسر الراء المخففة ـ: نسبة إلى الكُرَة. المصباح المنير (كري).
(٢) في (م): لذلك.

فانتقال نفسه من تلك البلادة المُفْرِطة إلى هذه الكَيَاسة المفرطة لابُدَّ وأنْ يكونَ بتدبير إلهٍ مختارٍ حكيم، ينقلها من نقصانها إلى كمالها ومن جهالَتها إلى معرفتها بحسب الحكمة والاختيار[1].

والثاني - قيلَ -: أنسبُ بمقام تعداد هنات الكفرة، فإنه قد اشتمل من بيان جراءةِ مَن كَفَر على الله تعالى، وعدمِ استحيائِه منه سبحانَه، ووقاحتِه بتماديه في الكفر، وذكَر بعضُهم أنه يؤيِّد هذا الوجهَ قولُه تعالى في سورة «يس» - بعد ما ذَكَر مثلَه -: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨]؛ فإنه نَصٌّ فيما ذُكِر، فيكون صَدرُ الآية للاستدلال، وعَجُزُها لتقرير الوقاحة.

وتُعُقِّب بأنه ليس بشيءٍ؛ لأنَّ مَدَارَ ما قبلها - في تلك السورة - على ذِكْر الحشر والنشر ومكابرتهم فيه، بخلافِ هذه، ولكلٍّ مقامٍ مقالٌ، وأما كون الآية مَسُوقة لتقرير وقاحة الإنسان؛ لانتفاء التنافي بينَ الاستدلالِ على الوحدانية والقدرة وتقرير وقاحة المنكِرين، ولذا جعل التَّتْميم لما قبله: (تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ)؛ فعَدَمُ المنافي لا يقتضي وجودَ المناسِب، وعندي لكلٍّ وِجهةٌ.

وفي «الكشف» المعنَيان ملائمان للمقام، إلا أنَّ في الثاني زيادة ملائمة مع قوله: (تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ)، ثم إنه أدْمَج فيه المعنى الأول.

وروَى الواحديُّ أنَّ أُبَيَّ بن خلف أتى النبيَّ ﷺ بعظمٍ رميم وقال: يا محمد، أَتَرى أنَّ اللهَ تعالى يُحيي هذا بعد ما قَدْ رَمَّ؟ فنزلَتْ نظيرَ ما في آخر «يس»[2].

والمشهورُ أنَّ تلك هي النازلةُ في تلك القصة.

ثمَّ وجهُ التعقيبِ، و«إذا» الفجائية في قوله سبحانه: (فَإِذَا هُوَ) إلى آخره، مع أنَّ كونَه خصيماً مبيناً - بأيِّ معنًى أُريدَ - لم يَعْقُبْ خَلْقَه من نطفةٍ، إذْ بينَهما وسائطُ = أنه بيانٌ لأطوارِه إلى كمالِ عقله، فالتعقيبُ باعتبار آخرها؛ فلا وَجْهَ لتقدير الوسائط، ولا للقول بأنَّه من باب التعبير عن حال الشيء بما يؤُول إليه، فافهم.

---

(١) إلى هنا انتهى نقله عن الفخر الرازي في تفسيره ١٩/ ٢٢٤-٢٢٦.

(٢) أسباب النزول ص ٢٨٤.

﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ﴾ وهي الأزواج الثمانية من الإبل والبقر والضأن والمعز، قال الراغبُ: ولا يُقال: أنعام إلا إذا كان فيها إبل[١].

وخصَّها بعضُهم هنا بذلك، وليس بشيءٍ. والنصبُ على المفعولية لِفِعلٍ مضمَرٍ، يفسِّره قولُه تعالى: ﴿خَلَقَهَاۗ﴾، وهو أرجحُ من الرفع في مثل هذا الموضع؛ لتقدُّم الفعلية، وقُرِئَ به في الشواذِّ[٢]، أو على العطف على الإنسان، وما بعدُ بيانُ ما خُلِقَ لأجله، والذي بعدَه تفصيلٌ لذلك.

وقولُه سبحانه: ﴿لَكُمْ﴾ إما متعلِّق بـ «خَلَقَها»، وقولُه تعالى: ﴿فِيهَا﴾ خبرٌ مقدَّم، وقولُه جلَّ وعلا: ﴿دِفْءٌ﴾ مبتدأٌ مؤخَّر، والجملةُ حالٌ من المفعول. أو: الجارُّ والمجرورُ الأولُ خبرٌ للمبتدأ المذكور، والثاني متعلِّقٌ بما فيه من معنى الاستقرار. وقيل: حال من الضمير المستكِنِّ فيه العائدِ على المبتدأ. وقيل: حال من «دفء» إذ لو تأخَّر لكان صفةً.

وجوَّز أبو البقاء أنْ يكونَ الثاني هو الخبرَ، والأولُ في موضع الحال من مبتدئه[٣].

وتَعقَّبه أبو حيان بأن هذا لا يجوز؛ لأنَّ الحال - إذا كان العاملُ فيها معنًى - لا يجوز تقديمُها على الجملة بأسرها، فلا يجوزُ: قائماً في الدار زيدٌ. فإنْ تأخَّرت الحالُ عن الجملة جازتْ بلا خلاف، وإن توسَّطت فالأخفَشُ على الجواز، والجمهور على المنع[٤].

وجوَّز أبو البقاء أيضاً أنْ يرتفعَ «دفءٌ» بـ «لكم» أو بـ «فيها»، والجملة كلُّها حالٌ من الضمير المنصوب[٥].

وتعقَّبه أبو حيان أيضاً بأن ذلك لا يُعَدُّ من قبيل الجملة بل هو من قبيل المفرد،

---

(١) المفردات (نعم).

(٢) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٤٣٩، والبحر ٥/ ٤٧٥، والدر المصون ٧/ ١٩١.

(٣) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٤٣٩.

(٤) البحر ٥/ ٤٧٤.

(٥) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٤٣٩.

ونَقَل أنهم جوَّزوا أن يكون «لكم» متعلقاً بـ «خَلَقَها»، وجملةُ «فيها دفء» استئنافٌ لذكْرِ منافع الأنعامِ، واستَظْهَرَ كونَ جملة: «لكم فيها دفء» مستأنَفةً، ثم قال: ويؤيِّد الاستئنافَ فيها الاستئنافُ في مقابلتها، أعني قولَه تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾؛ فقابلَ سبحانه المنفعةَ الضروريةَ بالمنفعة الغيرِ الضرورية(١).

وإلى نحو ذلك ذهب القطبُ فاختار أنَّ الكلامَ قد تَمَّ عند «خَلَقَها»؛ لهذا العطف.

وخالفه في ذلك صاحبُ «الكشف»؛ فقال: إنَّ قولَه تعالى: ﴿خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ ـ بناءً على تفسير الزمخشريِّ له بقوله: ما خلقها إلا لكم ولمصالحكم يا جنس الإنسان(٢) ـ طرفٌ من ترشيح المعنى الثاني في قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾؛ لِمَا في الالتفات المشار إليه من الدلالة عليه. وأما الحصرُ المشارُ إليه بقوله: ما خلقها إلا لكم، فمن اللام المفيدة للاختصاص، سِيَّما وقد نَوَّع الخطابَ بما يفيد زيادةَ التمييز والاختصاص، وهذا أولى مِن جَعْل «لكم فيها دفء» مقابِلَ «لكم فيها جمال»؛ لإفادته المعنى الثاني وأبلغُ، على أنَّه يكون «فيها دفء» تفصيلاً للأوَّل. وكرّر «لكم» في الثاني؛ لبُعْد العهد وزيادة التقريع. اهـ.

والحقُّ في دعوى أولويَّةِ تعلُّقِ «لكم» بما قبله مَعَهُ، كما لا يَخفى.

والدِّفءُ: اسم لما يُدَفَّأ به، أي: يُسَخَّنُ، وتقول العربُ: دَفِئَ يومُنا فهو دَفيءٌ إذا حصلت فيه سُخُونةٌ، ودَفِئَ الرجلُ دَفاءً ودِفاءً بالفتح والكسر، ورجلٌ دفآنٌ وامرأة دَفْأَى، ويُجمَع الدِّفءُ على أَدْفَاء. والمراد به ما يَعُمُّ اللباسَ والبيتَ الذي يُتَّخَذ من أوبارها وأصوافها.

وفسَّره ابن عباس ـ فيما أخرجه عنه ابن جرير وغيرُهُ ـ بالثياب(٣).

---

(١) البحر ٥/ ٤٧٤.

(٢) الكشاف ٢/ ٤٠١.

(٣) تفسير الطبري ١٤/ ١٦٦، وزاد نسبته في الدر المنثور ٤/ ١١٠ إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

وأخرج عبد الرزاق وغيرُه عنه ﷺ أيضاً أنه نَسْلُ كلِّ دابَّةٍ[١].

ونَقَلَه الأُمَويُّ عن لغة بعض العرب[٢]. والظاهرُ هو الأوَّل.

وقرأ الزُّهريُّ وأبو جعفر: «دِفٌّ»[٣] بضمِّ الفاء وتشديدها[٤] وتنوينها، ووَجَّهَ ذلك في «البحر» بأنه نَقَل الحركة من الهمزة إلى الفاء وحُذِفَتْ، ثمَّ شدَّد الفاء إجراءً للوَصْل[٥] مجرى الوقف؛ إذ يجوز تشديدُها في الوقف[٦].

وقرأ زيد بن عليٍّ ﷺ: «دِفٌ» بنقل الحركة والحذف دون تشديد[٧].

وفي «اللوامح»: قرأ الزهريُّ: «دِفٌ» بضمِّ الفاء من غير همزة وهي محركة بحركتها[٨]، ومنهم مَن يعوِّض عن هذه الهمزة فيشدِّد الفاء، وهو أحد وَجهَيْ حمزةَ بن حبيب وقفاً[٩]. واعتُرِضَ بأنَّ التشديدَ وَقْفاً لغةٌ مستقلَّةٌ وإنْ لم يكن ثمةَ حذفٌ من الكلمة الموقوفِ عليها، ودُفِع بأنه إنما يكون ذلك إذا وُقِفَ على آخر حرفٍ منها، أما إذا وُقف على ما قبل الآخر منها ـ كقاضٍ ـ فلا.

﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ هي دَرُّها وركوبها والحراثة بها والنضح عليها، وغيرُ ذلك، وإنَّما عَبَّر عنها بها؛ ليشمل الكُلَّ مع أنه الأنسبُ بمقام الامتنان بالنِّعَم. وقدَّم الدِّفءَ؛ رعايةً لأسلوب التَّرَقِّي إلى الأعلى.

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥﴾ أي: تأكلون ما يُؤْكَل منها من اللحوم والشحوم ونحو ذلك،

(١) تفسير عبد الرزاق ١/ ٣٥٣، وتفسير الطبري ١٤/ ١٦٧، وزاد نسبته في الدر المنثور ٤/ ١١٠ إلى: الفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم.
(٢) كما في المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٩.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٩، والبحر ٥/ ٤٧٥.
(٤) في (م): وشدّها.
(٥) في (م): للوصول.
(٦) البحر ٥/ ٤٧٥.
(٧) البحر ٥/ ٤٧٥، والدر المصون ٧/ ١٩٢، وذكرها ابن جنِّي في المحتسب ٢/ ٧ ونسبها للزهري.
(٨) وقراءته في المحتسب ٢/ ٧ كما مرَّ معنا آنفاً.
(٩) وهو وقف هشام أيضاً، التيسير ص ٣٦، وتحبير التيسير ص ٦٠، وإتحاف فضلاء البشر ص ٣٤٩.

ف: «من» تبعيضيَّة. والأكل إما على معناه المتبادَرِ، وإما بمعنى التناول الشامل للشرب، فيدخلُ في العَدِّ الألبانُ، وجُوِّزَ أنْ تكون «مِن» ابتدائيةً، وأنْ تكون للتبعيض مجازاً، أو سببيةً؛ أي: تأكلون ما يحصل بسببها، فإنَّ الحبوبَ والثمارَ المأكولةَ تُكتَسَب باكتراء الإبل ـ مثلاً ـ وأثمانِ نِتاجِها وألبانِها وجلودِها، والأولُ أظهرُ. وأُدْخِل ما يحصُل من اكترائها ـ من الإجارة التي يُتَوَصَّل بها إلى مصالح كثيرةٍ ـ في المنافع.

وتغييرُ النَّظمِ الجليل، قيل: للإيماء إلى أنَّها لا تبقى عندَ الأكل كما في السابق واللاحق، فإنَّ الدفءَ والمنافعَ التي أشرنا إليها والجمالَ يحصُل منها وهي باقيةٌ على حالها، ولذلك جُعِلت محالًّا لها؛ بخلاف الأكل.

وتقديم الظرف للحصر، على معنى أنَّ الأكل منها هو المعتادُ المعتَمَدُ في المعاش[1] بين سائر الحيوانات، فلا يَرِدُ الأكلُ من الدجاج والبَطِّ وصيد البَرِّ والبحر؛ فإنه من قَبيل التفكُّه، وكذا لا يَرِدُ أكلُ لحم الخيل عند مَن أباحَهُ؛ لأنه ليس من المعتاد المعتَمَد أيضاً. والحاصلُ أنَّ الحصرَ إضافيٌّ، وبذلك لا يَرِدُ أيضاً أكلُ الخبز والبقول ونحوها.

ويُضَمُّ إلى هذا الوجه في التقديم رعايةُ الفواصل، وجَعْلُه لمجرَّد ذلك كما في «الكشف» قصورٌ، وأبو حيان يُنكِرُ كونَ التقديم مطلقاً للحصر[2]؛ فينحصرُ وجهُه حينئذٍ هنا[3] في الرعاية المذكورة.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ مع ما ذُكِرَ من المنافع الضرورية ﴿جَمَالٌ﴾ زينةٌ في أعين الناس وعظَمةٌ ووجَاهةٌ عندهم، والمشهورُ إطلاقُه على الحُسْن الكثير، ويكون في الصورة بحُسْن التركيب وتناسُق الأعضاء وتناسبها، وفي الأخلاق باشتمالها على الصفات المحمودة، وفي الأفعال بكونها[4] ملائِمةً للمصلحة من دَرْءِ المضرَّة وجَلب المنفعة، وهو في الأصلِ مصدرُ: جَمُل، بضمِّ الميم، ويقال للرجل: جَميل وجَمَال

---

(١) بعدها في (م): من.
(٢) البحر ١/ ١٦ و٥/ ٤٧٥.
(٣) في (م): هنا حينئذٍ.
(٤) في الأصل: بكون.

وجُمَّال على التكثير، وللمرأة جَميلة وجَمْلَاءُ ـ عند الكسائيِّ ـ وأنشَدَ:

فَهْيَ جَمْلَاءُ كَبَدْرٍ طالعٍ بَذَّت الخَلْقَ جَميعاً بالجَمَالِ(١)

ورَأَى بعضُهم إطلاقَه على التَجمُّل؛ فظَنَّ أنه مصدرٌ بإسقاط الزوائد.

﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ أي: تَرُدُّونَها بالعَشيِّ من المرعى إلى مَرَاحها، يقال: أراح الماشية إذا رَدَّها إلى المراح وقتئذٍ.

﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾ تُخرجونها غدوةً من حظائرها ومبيتها إلى مسارحها ومراعيها، يقال: سَرَّحَها يُسَرِّحُها سَرْحاً وسُرُوحاً، وسَرَحت هي، يتعدَّى ولا يتعدَّى، والفعلُ الأولُ ـ وكذا الثاني ـ مُتَعَدٍّ، والمفعولُ محذوفٌ؛ لرعاية الفواصل.

وتَعْيِينُ الوقتَين؛ لأنَّ ما يدُور عليه أمرُ الجمالِ ـ من تَزْيين الأفْنية وتجاوُب ثُغَائِها ورُغَائها ـ إنَّما هو عندَ الذهاب والمجيءِ في ذَينك الوقتَين، وأما عندَ كونها في المسارح فتنقطع إضافتُها الحِسِّية إلى أربابِها، وعندَ كونها في الحظائر لا يراها راءٍ ولا ينظر إليها ناظرٌ.

وتقديمُ الإراحة على السَّرْح مع أنها متأخِّرةٌ في الوجود عنه؛ لكونها أظهرَ منه في استتباع ما ذُكر من الجمال، وأتَمَّ في استجلاب الأُنْس والبَهْجة؛ إذْ فيها حضورٌ بعدَ غَيبةٍ، وإقبالٌ بعدَ إدبار، على أحسن ما يكونُ مَلْأَى البطون حافلةَ الضروع.

وقرأ عكرمةُ والضحَّاك والجَحْدريُّ: «حِيْناً» فيهما بالتنوين وفَكِّ الإضافة(٢)، على أن كلتا الجملتَين صفةٌ لـ: «حيناً» قبلَها، والعائدُ محذوفٌ، كما في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ﴾ [البقرة: ٤٨] أي: حيناً تُريحون فيه، وحيناً تسرحون فيه.

والعامل في «حين» إمَّا المبتدأ؛ لأنه بمعنى التَّجمُّل كما قيلَ، وإما خَبَره؛ لِمَا فيه من معنى الاستقرار. وجُوِّزَ أن يكون متعلقاً بمحذوفٍ وَقَع صفةً لـ «جمال».

---

(١) البيت في الصِّحاح واللسان وتاج العروس (جمل)، وتفسير القرطبي ١٢/ ٢٧٣، وشرح المفصل لابن يعيش ١/ ١٥، والبحر ٥/ ٤٧٥، والدر المصون ٧/ ١٩٣ ولم ينسبوه لأحد.
وقوله: بذَّت: سبقت وغلبت. اللسان (بذذ)، ووقع في الأصل: بزَّت. بالزاي

(٢) القراءات الشاذة ص ٧٢، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٧٩، والبحر ٥/ ٤٧٦.

﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ﴾ أي: أحمالكم الثقيلة، جمعُ ثِقْل، وقيلَ: أجسامكم، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢]، حيث فُسِّرت الأثقالُ فيه بأجسام بني آدم.

﴿إِلَىٰ بَلَدٍ﴾ رُوي عن ابن عباس أنه اليمن والشام ومصر. وكأنه نظر إلى أنها مَتَاجِرُ أهل مكةَ كما يُؤْذِنُ به ما في «تفسير[1] الخازن» عنه رضي الله عنه من أنه قال: يُرِيدُ من مكة إلى اليمن وإلى الشام[2].

وفي رواية أخرى عنه وعن الربيع بن أنس وعكرمة: أنه مكة. وكأنهم نَظَروا إلى أن أثقالَهم وأحمالَهم عندَ القُفُول مِن متاجرهم أكثَرُ، وحاجتَهم إلى الحمولة أَمَسُّ.

والظاهر: أنه عامٌّ لكلِّ بَلَدٍ سَحيقٍ، وإلى ذلك ذهب أبو حيان[3]، وجَعَل ما وَرَد من التَّعيين ـ كالمذكور، وكالذي نَقَله عن بعضهم من أنها مدينة الرسول ﷺ ـ محمولاً على التمثيل لا على أنَّ المرادَ ذلك المعيَّنُ دونَ غيره.

﴿لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ﴾ واصِلِينَ إليه بأنفسِكم مُجَرَّدِين عن الأثقال[4] ـ فَضْلاً عن أن تحمِلوا على ظهوركم أثقالَكم ـ لو لم تكن الأنعامُ ولم تُخْلَق.

﴿إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِ﴾ أي: مشقَّتها وتَعَبها، وقيلَ: المعنى: لم تكونوا بالِغِيه بها إلا بما ذُكِر، وحَذَف «بها»؛ لأنَّ المسافرَ لا بُدَّ لَهُ من الأثقال، والمراد التنبيهُ على بُعْد البلد، وأنه مع الاستعانة بها بحمل الأثقال لا تصلون إليه إلا بالمشقَّة. ولا يَخفى أن الأولَ أبلَغُ.

وقَرَأ مجاهد والأعرج وأبو جعفر وعَمرو بن مَيمون[5] وابن أرقم: «بِشَقِّ» بفتح

---

(١) بعدها في الأصل: ابن.

(٢) تفسير الخازن ٤/ ٨٠.

(٣) البحر ٥/ ٤٧٦.

(٤) في (م): الأقفال.

(٥) في (م) والأصل: معين، والمثبت من المحتسب ٢/ ٧، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٨٠، والبحر ٥/ ٤٧٦ وعنه نقل المصنف.

الشين[١]، ورُوي ذلك عن نافع وأبي عمرو[٢]، وكِلَا ذلك لغةٌ، والمعنى ما تقدَّم.

وقيل: الشَّقُّ ـ بالفتح ـ المصدرُ، وبالكسر الاسمُ يعني المَشَقَّةَ، وعلى الكسر بهذا المعنى جاء قولُه:

وَذِيْ إِبِـلٍ يَـسْـعَـى وَيَـحْـسَـبُـهَـا لَـهُ أَخِـيْ نَـصَـبٍ مِـنْ شِـقِّـهـا وَدُؤُوبِ[٣]

فإنه أرادَ: مِن مَشَقَّتِها.

وعن الفرَّاء[٤]: أنَّ المفتوحَ مَصدَرٌ من شَقَّ الأمرُ عليه شَقًّا، وحقيقته راجعة إلى الشَّقِّ الذي هو الصَّدْعُ، والمكسورَ النِّصفُ، يقال: أخذتُ شِقَّ الشاة؛ أي: نصفَها، وجاء: «اتَّقُوا النَّارَ ولو بِشِقِّ تَمرةٍ»[٥]. والمعنى: إلَّا بذهاب نِصْف الأنفس، كأنَّ الأنفُسَ تذوبُ تعباً ونَصَباً لِمَا ينالُها من المشقَّة، كما يُقال: لا تقدِرُ على كذا إلا بذهاب جُلِّ نفسك أو قِطعة من كبدك. وهو من المجاز. وجوَّزَ بعضُهم أن يكون على تقدير مضافٍ؛ أي: إلَّا بشقِّ قوى الأنفُسِ.

والاستثناء مفرَّغ؛ أي: لم تكونوا «بالغيه» بشيءٍ من الأشياء «إلَّا بشِقِّ الأنفس».

وجعلَ أبو البقاء الجارَّ والمجرورَ في موضع الحال من الضمير المرفوع في «بالغيه»؛ أي: مشقوقاً عليكم[٦].

---

(١) القراءات الشاذة ص ٧٢، والمحتسب ٢/ ٧، والبحر ٥/ ٤٧٦، وقراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٠٢.

(٢) وهي غير المشهورة عنهما، القراءات الشاذة ص ٧٢، وجامع البيان ٢/ ٢٤٠، والبحر ٥/ ٤٧٦، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٨٠، وإتحاف فضلاء البشر ص ٣٤٩.

(٣) البيت للنَّمِر بن تَوْلَب كما في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٥٦، والكامل للمبرد ١/ ٤٧٩، واللسان وتاج العروس (شقق) ونسبه أبو طاهر التجيبي في شرح المختار من شعر بشار ص١٣٤ لحاتم الطائي. ونُسِبَ في شرح القصائد السبع الجاهليات ص ١٣٨ إلى أبي حازم العُكلي.

(٤) كما في معاني القرآن له ٢/ ٩٧.

(٥) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (١٨٢٧٢)، والبخاري (١٤١٧)، ومسلم (١٠١٦) عن عدي بن حاتم الطائي ﷺ مرفوعاً.

(٦) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٤٤٠.

وضميرُ «تحمل» للأنعام؛ إلَّا أنَّ الحملَ المذكورَ باعتبار بعض أنواعها وهي الإبلُ، ومثلُه كثيرٌ، ومن هنا يظْهرُ ضعفُ استدلالِ بعضِهم بهذا الإسنادِ على أنَّ المرادَ بالأنعام ـ فيما مَرَّ ـ الإبلُ فقط.

وتغيير النظم الكريم السابق ـ الدَّالِّ على كون الأنعام مداراً للنِّعم ـ إلى الفعلية المفيدة للحدوث؛ قيل: لعلَّه للإشعار بأنَّ هذه النعمةَ ليست في العموم ـ بحسب المنشأ وبحسب المتعلّق وفي الشمول للأوقات والاطّراد في الأحيانِ المعهودة ـ بمثابة النِّعَم السالفة؛ فإنَّها بحسب المنشأ خاصَّةٌ ـ كما سمعت ـ بالإبل، وبحسب المتعلّق بالمتقلِّبين في الأرض للتجارة وغيرها في أحايين غير مطردة، وأمَّا سائرُ النِّعَم المعدودة فموجودةٌ في جميع الأصناف، وعامَّةٌ لكافة المخاطَبين دائماً وفي عامة الأوقات[1]. اهـ.

واحتَجَّ ـ كما قال الإمام ـ منكرو كراماتِ الأولياء بهذه الآية؛ لأنَّها تدُلُّ على أنَّ الإنسانَ لا يمكنه الانتقالُ من بلدٍ إلى بلدٍ[2] إلا بشِقِّ الأنفس وحملِ الأثقال على الجِمَال.

ومثبتُو الكرامات يقولون: إن الأولياء قد ينتقلون من بلدٍ إلى آخر بعيدٍ في زمان قليلٍ من غير تَعَبٍ وتحمُّلِ مشقةٍ، فكان ذلك على خلاف الآية؛ فيكون باطلاً، وإذا بطلَتْ في هذه الصورة بطلتْ في الجميع إذْ لا قائلَ بالفرق.

وأجاب: بأنَّا نُخَصِّصُ عمومَ الآية بالأدلة الدَّالَّة على وقوع الكرامات. اهـ.

ولعلَّ القائلين بعدَم ثُبوت طَيِّ المسافةِ للأولياء يستندون إلى هذه الآية، لكنَّ هؤلاء لا يَنْفُون الكراماتِ مطلقاً؛ فلا يصِحُّ قولُه: إذ لا قائل بالفرق. ومَنْ أنصَفَ عَلِمَ أنَّ الاستدلالَ بها على هذا المَطْلَب ممَّا لا يكاد يُلْتَفَتُ إليه؛ بناءً على أنها مَسُوقةٌ للامتنان، ويكفي فيه وجود هذا في أكثر الأحايين لأكثر الناس، فافهم ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾ ولذلك أسبغَ عليكم النِّعَم الجليلةَ، ويَسَّر لكم الأمورَ الشاقَّةَ العسيرة.

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٩٧-٩٨.

(٢) في (م): آخر، والمثبت من الأصل ومن تفسير الرازي ١٩/ ٢٢٩ والكلام منه.

﴿وَٱلْخَيْلَ﴾ هو كما قال غيرُ واحدٍ: اسمُ جنسٍ للفرس، لا واحدَ له من لفظه، كالإبل، وذكر الراغبُ أنه في الأصل يُطْلَقُ على الأفراس والفُرسان(١). وهو عَطْفٌ على «الأنعام» أي: وخَلَقَ الخيلَ.

﴿وَٱلْبِغَالَ﴾ جمع: بغلٍ معروف ﴿وَٱلْحَمِيرَ﴾ جمعُ: حمارٍ كذلك، ويُجمع في القِلَّة على أَحْمِرة، وفي الكثرة على حُمُر، وهو القياس، وقرأ ابنُ أبي عبلة برفع «الخيلُ» وما عُطِفَ عليه(٢) ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ تعليلٌ لخلق المذكورات، والكلامُ في تعليل أفعال الله تعالى مبسوطٌ في الكلام. ﴿وَزِينَةً﴾ عَطْفٌ على محلِّ «لتركبوها» فهو مثله مفعول لأجله، وتجريده عن اللام دونه؛ لأنَّ الزينة فعلُ الزائن، وهو الخالقُ تعالى، ففاعلُ الفعلين المعلَّل والمعلَّل به واحدٌ، بخلاف فاعل الركوب وفاعل المعلَّل به، فشَرْطُ النصب الذي اشترطه مَنِ اشترطه موجودٌ في المعطوف دون المعطوف عليه. قاله غير واحد.

وذكر بعضُ المدقِّقين أنَّ في عدم مجيئهما(٣) على سَنَنٍ واحدٍ دلالة على أنَّ المقصودَ الأصليَّ الأولُ، فجيءَ بالحرف الموضوع(٤) لذلك، وسِيقَ الخطابُ وأُعيدَ الضميرُ للثلاثة في «لتركبوها» وجيءَ بالثاني تتميماً ودلالةً على أنه لما كان من مقاصدهم عُدَّ في مَعْرِض الامتنان، وإلَّا فليس التزيُّنُ بالعَرَضِ الزائل مما يقصده أهلُ الله تعالى، وهم أهلُ الخطاب بالقَصْد الأول.

واعتُرض ما تقدَّم بأنه وإن ثبتَ اتِّحادُ الفاعل، لكن لم تتمَّ به شروطُ صحَّة النَّصب؛ لفقد شرطٍ آخرَ منها، وهو المقارنةُ في الوجود، فإنَّ الخَلْقَ متقدِّمٌ على الزينة.

وأجيب بأنَّ ذلك على إرادة إرادة الزينة كما قيل في: ضربتُ زيداً تأديباً. أنَّ التأديبَ بتأويل إرادته.

---

(١) المفردات في غريب القرآن (خيل).

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٨٠، والبحر المحيط ٥/٤٧٦.

(٣) في (م): مجيئها.

(٤) في (م): بالحروف الموضوعة.

وجوَّز أبو البقاء كون «زينة» مصدراً لفعلٍ محذوف، أي: ولتتزيَّنوا بها زينة[١]. وقال ابن عطيةَ: إنه مفعولٌ به لفعلٍ محذوف، أي: وجَعَلها زينة[٢]. وروى قتادة عن ابن عباس أنه قرأ: «لتركبوها زينة» بغير واو[٣]، قال صاحب «اللوامح»: إنَّ «زينةً» حينئذٍ نُصِبَ على الحال من الضمير في «خَلَقها» أو من الضمير في «لتركبوها». ولم يُعيّن الضميرُ، وعيَّنَهُ ابنُ عطية فقال: هو المنصوب[٤]. وقال غيرُ واحدٍ: تجوزُ الحاليةُ من كلٍّ من الضميرين، أي: لتركبوها متزيِّنينَ أو متزيَّناً بها. وقال الزمخشريُّ بعد حكاية القراءة: أي: خَلَقها زينةً لتركبوها[٥]. ومراده ـ على ما قيل ـ أنَّ الزينةَ إما ثاني مفعولَي «خَلَقَ» على إجرائه مجرى «جعل»، أو هو حالٌ عن المفعولات الثلاثة على الجمع، وجُوِّز كونه مفعولاً له «لتركبوها» وهو بمعنى التزيُّن. فلا يَرِدُ عليه اختلافُ فاعل الفعلين.

قيل: وأما لزومُ تخصيص الركوب المطلوب بكونه لأجل الزينة، وكونِ الحكمة في خَلْقها ذلك، وكونِ ذلك هو المقصود الأصليّ لنا، فلا ضَير فيه؛ لأنَّ التجمُّل بالملابس والمراكب لا مانعَ منه شرعاً، وهو لا ينافي أن يكونَ لخَلْقها حِكَمٌ أهمُّ كالجهاد عليها وسَفَر الطاعات، وإنما خُصَّ؛ لمناسبته لمقام الامتنان، مع أنَّ الزينةَ ـ على ما قال الراغب ـ ما لا يشينُ في الدنيا ولا في الآخرة، وأما ما يَزِينُ في حالةٍ دون أخرى فهو من وجهٍ شَينٌ[٦]. اهـ. فتأمَّلْ ولا تغفلْ.

واستُدلَّ بالآية على حُرْمة أكل لحوم المذكورات؛ لأنَّ السَّوقَ في معرِض الاستدلال بخَلْق هذه النِّعَم ـ مِنَّةً على هذا النوع ـ دلالةٌ على التوحيد وسوء صنيع مَنْ يقابلها بالإشراك، والحكيمُ لا يَمُنُّ بأدنى النِّعمتين تاركاً أعلاهما، كيف وقد ذُكر أماماً.

---

(١) الإملاء ٣/ ٤٤٠.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٨٠.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٧٦، ونسبها ابن جني في المحتسب ٢/ ٨، والنحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٩٢، وابن عطية في المحرر ٣/ ٣٨٠ لأبي عياض.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٣٨٠.
(٥) الكشاف ٢/ ٤٠٢.
(٦) المفردات في غريب القرآن (زين).

وروى ابنُ جرير وغيره القولَ بكراهة أَكْلِ لحوم الخيل لهذه الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما[(١)].

وروي عن أبي حنيفةَ ـ عليه الرحمة ـ أنه قال: رَخَّص بعضُ العلماء في لحم الخيل، فأما أنا فلا يُعجبني أكله، وفي روايةٍ أخرى أنه قال: أكرهه. والأُولى تلوِّحُ إلى قوله بكراهة التنزيه، والثانية تدلُّ على التحريم؛ بناءً على ما روي عن أبي يوسف أنه سأله: إذا قلتَ في شيءٍ: أكرهه، فما رأيكَ فيه؟ فقال: التحريم، وكأنه لهذا قال صاحب «الهداية»: الأصحُّ أنَّ كراهةَ أكلِ لحمها تحريميَّةٌ عند الإمام[(٢)]، وفي «العمادية»[(٣)] أنه رضي الله عنه رجع عن القول بالكراهة قبل موته بثلاثة أيام، وعليه الفتوى. وقال صاحباه والإمامُ الشافعيُّ رضي الله عنه: لابأس بأكلِ لحوم الخيل. وأجاب بعضُ الشافعية عن الاستدلال بالآية بمَنْعِ كون المذكور أدنى النعمتين بالنسبة إلى الخيل قال: وذلك لأنَّ الآيةَ وردتْ للامتنان عليهم على نحو ما أَلِفوه، ولا يُنكرُ ذو أَرَبٍ أنَّ معظمَ الغرض من الخيل الركوبُ والزينةُ، لا الأكل، بخلاف النَّعَم، وذكْرُ أغلب المنفعتين وتَرْكُ أدناهما ليس بِدْعاً بل هو دأبُ اختصارات القرآن، وذِكْرهُ في الأول إن لم يصرْ حُجَّةً لنا في الاكتفاء مع التنبيه على أنه نَزْرٌ في المقابل، فلا يصيرُ حُجَّةً علينا، فظهر أنه لا استدلالَ لا من عبارة الآية ولا من إشارتها.

واستدلوا على الحِلِّ بما صحَّ من حديث جابرٍ أنه ﷺ نهى عن لحوم الحُمُر الأهلية والبغال وأَذِنَ عليه الصلاة والسلام في لحم الخيل يوم خيبر[(٤)]، وفيه دليلٌ عندهم على أنَّ الآيةَ لا تدلُّ على التحريم، لإفادته أنَّ تحريمَ لحوم الحمر الأهلية إنما وقع عامَ خيبر كما هو الثابت عند أكثر المحدِّثين، وهذه السورةُ مكيةٌ، فلو عُلم

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ١٧٣.

(٢) الهداية مع شرحها فتح القدير ٨/ ٦٤.

(٣) الفصول العمادية لعبد الرحيم بن أبي بكر المرغيناني الحنفي. كشف الظنون ٢/ ١٢٧٠، وهدية العارفين ١/ ٥٦٠، والفوائد البهية ص ١٥٩.

(٤) أخرجه أحمد (١٤٨٤٠) و(١٤٩٠٢)، وأبو داود (٣٧٨٩).
وأخرجه ـ أيضاً ـ أحمد (١٤٨٩٠)، والبخاري (٤٢١٩)، (٥٥٢٠)، (٥٥٢٤)، ومسلم (١٩٤١) دون ذكر «البغال».

التحريمُ مما فيها كان ثابتاً قبله، وبُحِثَ فيه بأنَّ السورةَ وإنْ كانتْ مكية، يجوزُ كونُ هذه الآية مدنية، وفيه أنَّ مثل ذلك يحتاجُ إلى الرواية، ومجرَّدُ الجواز لا يكفي.

وعُورض حديثُ جابرٍ بما أخرجه أبو عبيد وأبو داود والنسائيُّ وابن المنذر عن خالد بن الوليد قال: نهى رسول الله ﷺ عن أكْل كلِّ ذي نابٍ من السباع، وعن لحوم الخيل والبغال والحمير(١). والترجيح كما قال في «الهداية» للمحرِّم(٢)، لكن أنت تعلمُ أنَّ هذا الخبرَ يوهي أمرَ الاستدلال بالآية، لما أنَّ خالداً قد أسلم بالمدينة والآيةُ مكية، فلو كان التحريمُ معلوماً منها لما كان للنهي الذي سمعه كثيرُ فائدة، وبالجملة(٣) الاستدلالُ بالآية على حُرْمة لحوم الخيل لا يسلمُ من العِثار، فلا بدَّ من الرجوع في ذلك إلى الأخبار، والحُكْم عند تعارضها لا يخفى على ذوي الاستبصار، والذي أميل إليه الحِلُّ، والله تعالى أعلم.

﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ أي: ويخلُق غيرَ ذلك الذي فصَّله سبحانه لكم، والتعبير عنه بما ذكر؛ لأنَّ مجموعه غيرُ معلوم، ولا يكاد يكونُ معلوماً، فالكلام إجمالاً لما عدا الحيوانات المحتاج إليها(٤) غالباً احتياجاً ضروريّاً أو غير ضروري، والعدولُ إلى صيغة الاستقبال؛ للدلالة على الاستمرار والتجدُّد، أو لاستحضار الصورة، ويجوز أن يكونَ إخباراً منه تعالى بأنَّ له سبحانه ما لا عِلْمَ لنا به من الخلائق، فـ «ما لا تعلمون» على ظاهره، فقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ مما خلقَ الله تعالى لأرضاً [من] لؤلؤةٍ بيضاءَ، مسيرةَ ألفِ عام، عليها جبلٌ من ياقوتةٍ حمراء، مُحدقٌ بها في تلك الأرض ملكٌ قد ملأ شَرْقَها وغَرْبها، له ستُّ مئة ألف رأسٍ، في كلِّ رأسٍ ستُّ مئة وجهٍ، في كلِّ وجهٍ ستُّ مئة ألف وستونَ ألف فم، في كلِّ فم ستُّونَ ألفَ لسان، يُثني على الله تعالى ويقدِّسه ويُهلِّله ويُكبِّره، بكلِّ لسانٍ ستُّ مئة ألفٍ وستينَ ألفَ مرَّة، فإذا كان يومُ

(١) أبو عبيد وابن المنذر كما في الدر المنذور ٤/ ١١١، وأبو داود (٣٧٩٠)، والنسائي في المجتبى ٧/ ٢٠٢، وفي الكبرى (٤٨٢٥) و(٦٦٠٦)، وهو عند أحمد (١٦٨١٦) و(١٦٨١٧) و(١٦٨١٨).

(٢) الهداية ٨/ ٦٤.

(٣) في (م): والجملة.

(٤) ليس في (م).

القيامة نظر إلى عظمة الله تعالى فيقول: وعزَّتك ما عبدتُك حقَّ عبادتك، فذلك قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾»[١].

وفي رواية أخرى عنه أنَّ عن يمين العرش نهراً من نورٍ مثل السماوات السبع والأرضين السبع والبحار السبع، يدخلُ فيه جبريلُ عليه السلام كلَّ سَحَرٍ، فيغتسلُ فيزدادُ جمالاً إلى جماله، وعِظَماً إلى عِظَمه، ثم ينتفضُ فيخلقُ الله تعالى من كلِّ قَطْرةٍ تقعُ من ريشه كذا وكذا ألفَ ملكٍ، فيدخلُ منهم كلَّ يومٍ سبعونَ ألفَ ملكٍ البيتَ المعمور، وسبعونَ ألفَ ملكٍ الكعبةَ، لا يعودونَ إلى يوم القيامة[٢]. وروي هذا أيضاً عن الضحاك ومقاتل وعطاء.

ومما لا نعلمه أرضُ السِّمسمة التي ذكر عنها الشيخُ الأكبر قُدِّسَ سِرُّهُ ما ذكر[٣]، وجابَرْسا وجابَلْقا[٤] حسبما ذكر غيرُ واحد، وإن زعمت ذلك من الخرافات كالذي ذكره عصريُّنا ـ رئيسُ الطائفة الذين سمَّوا أنفسَهم بالكشفيَّة[٥]، ودعاهم أعداؤهم من الإمامية بالكفشية ـ في غالب كتبه مما تضحكُ منه ـ لَعَمْرُ أبيك ـ الثَّكلى، ويتمنَّى العالم عند سماعه ـ لمزيد حيائه من الجهلة ـ نزولَهُ إلى الأرض السُّفلى. فاقنعْ بما جاء في الآثار، ولا يثنينَّك عنه شُبَهُ الفلاسفة إذا صحَّ سندهُ، فإنها كسرابٍ بقِيعة، والذي أظنُّهُ أنه ليس أحدٌ من الكفار ـ فضلاً عن المؤمنين ـ يشكُّ في أنَّ لله تعالى خَلْقاً لا نعلمهم، ليحتاج إلى إيراد الشواهد على ذلك.

---

(١) ابن مردويه كما في الدر المنثور ٤/ ١١٢. وفيه: في كل وجه ستون ألف فم. وما بين حاصرتين منه، ومخايل الوضع عليه ظاهرة.

(٢) ذكره الرازي في تفسيره ١٩/ ٢٣١.

(٣) ذكرها في بداية الباب الثامن من الفتوحات ١/ ١٢٦ فصل في معرفة الأرض التي خلقت من بقية خميرة طينة آدم عليه السلام.

(٤) ذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان ٢/ ٩١ أن جابرس مدينة بأقصى المشرق وأهلها من ولد ثمود، وجابلق مدينة بأقصى المغرب وأهلها من ولد عاد.
وقد جاء في الأصل و(م): جابرصا.

(٥) نسبة إلى الكشف والإلهام، وكان يدَّعيهما أحمد بن زين الدين الأحسائي المتوفى سنة (١٢٤١هـ) وتبعه أتباع ربما قيل لهم: الشيخية أيضاً نسبة إلى الشيخ أحمد ـ المذكور آنفاً ـ ولهم شطحات وزندقات. هدية العارفين ١/ ١٨٥، والأعلام ١/ ١٢٩.

ويجوز أن يكونَ المرادُ بهذا الخلقِ الخلق في الجنة، أي: ويخلقُ في الجنة غيرَ ما ذكر من النِّعَم الدنيوية ما لا تعلمون، أي: ما ليس من شأنكم أن تعلموه، وهو ما أ أُشيرَ إليه بقوله ﷺ حكاية عن الله تعالى: «أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذنٌ سمعتْ، ولا خَطَرَ على قلب بشر»(١).

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ القَصْدُ مصدرٌ بمعنى الفاعل، يقال: سبيلٌ قَصْدٌ وقاصدٌ، أي: مستقيمٌ، كأنه يَقصِدُ الوجهَ الذي يؤمُّه السالكُ ولا يَعدِلِ عنه، فهو نحو: نهرٌ جارٍ، وطريقٌ سائر.

و«على» للوجوب مجازاً، والكلامُ على حَذْفِ مضافٍ، أي: متحتِّمٌ عليه تعالى متعيِّنٌ كالأمر الواجب لِسَبْق الوعد بيانُ ـ وقيل: هدايةُ ـ الطريق المستقيم الموصل لمن سَلَكَهُ إلى الحقِّ الذي هو التوحيدُ بِنَصْبِ الأدلَّةِ وإرسال الرسل عليهم السلام وإنزال الكتب لدعوة الناس إليه، أو هو مصدرٌ بمعنى الإقامة والتعديل.

و«على» على حالها المارِّ إلَّا أنه لا حاجةَ إلى تقدير المضاف، أي: عليه سبحانه تقويمُ السبيل وتعديلُها، أي: جَعْلها بحيثُ يصلُ سالكُها إلى الحقِّ على حدٍّ: صَغَّرَ البعوضةَ وكَبَّر الفيل. وحقيقتُه راجعةٌ إلى ما ذُكر من نَصْب الأدلة وإرسال الرسل عليهم السلام وإنزال الكتب.

وجوِّز أن يكونَ القَصْدُ بمعنى القاصد، أي: المستقيم كما في التفسير الأول، و«على» ليست للوجوب واللزوم، والمعنى أنَّ قَصْدَ السبيل(٢) ومستقيمه موصلٌ إليه تعالى ومارٌّ عليه سبحانه، وفيه تشبيهُ ما يدلُّ على الله عزَّ وجلَّ بطريقٍ مستقيمٍ شأنه ذلك، وقد ذكر نحوَ هذا ابنُ عطيةَ(٣)، وهو كما ترى.

و«أل» في «السبيل» للجنس عند كثيرٍ فهو شاملٌ للمستقيم وغيره، وإضافةُ القَصْد بمعنى المستقيم إليه من إضافة العامِّ إلى الخاصِّ، وإضافةُ الصفة إلى الموصوف خلافُ الظاهر على ما قيل، وقيل: «أل» للعهد، والمراد: سبيلُ الشرع.

---

(١) أخرجه أحمد (٨١٤٣)، والبخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٢) في (م): للسبيل.
(٣) في تفسيره ٣/ ٣٨١.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ أي: عادلٌ عن المحجَّة، منحرفٌ عن الحقِّ، لا يوصِلُ سالكَهُ إليه، ظاهرٌ في إرادة الجنس، إذ البعضيَّةُ إنما تتأتَّى على ذلك، فإنَّ الجائرَ على إرادة العهد ليسَ من ذلك، بل قسيمه، ومَنْ أراده أعادَ الضميرَ على المطلق الذي في ضمن ذلك المقيَّد، أو على المذكور بتقدير مضافٍ، أي: ومن جنسها جائرٌ، وقال ابن عطية: يحتمل أن يعود على سبيل الشرع، والمراد بهذا البعض فِرَقُ الضَّلالة من أمة محمد ﷺ، وهو جائرٌ عن قَصْد السبيل[1].

وزعم بعضُهم أنَّ الضميرَ يعودُ على الخلائق، أي: ومن الخلائق جائرٌ عن الحقِّ، وأُيِّدَ بقراءة عيسى ـ ورويت عن ابن مسعود ـ: «ومنكم»[2] وأخرجها ابنُ الأنباريِّ في «المصاحف»[3] عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه، لكن بالفاء بدل الواو، وليس بذاك. والتأنيثُ؛ لأنَّ السبيلَ تؤنَّثُ وتُذَكَّرُ، والجارُّ والمجرورُ قيل خَبرٌ مقدَّمٌ، و«جائرٌ» مبتدأٌ مؤخَّرٌ، وقيل: هو في محلِّ رَفْعٍ بالابتداء، إما باعتبار مضمونه، وإما بتقدير الموصوف، أي: بعضُ السبيل، أو بعضٌ من السبيل جائرٌ.

والجملةُ ـ على ما اختاره بعضُ المحققين ـ اعتراضيةٌ جِيءَ بها لبيان الحاجة إلى البيان أو التعديل بنَصْب الأدلة والإرسال والإنزال ـ الأمور المذكورة سابقاً ـ وإظهار جلالة قَدْر النِّعمة في ذلك، وذلك هو الهدايةُ المفسَّرةُ بالدلالة على ما يُوصِلُ إلى المطلوب، لا الهدايةُ المستلزمةُ للاهتداء إليه، فإنَّ ذلك ليس على الله سبحانه أصلاً، بل هو مُخِلٌّ بحكمته كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾ فإنَّ معناه: ولو شاء هدايتَكم إلى ما ذكر من التوحيد هدايةً مستلزمةً للاهتداء إليه لَفَعَل، ولكنْ لم يشأ؛ لأنَّ مشيئتَهُ تابعةٌ للحكمة، ولا حكمةَ في تلك المشيئة، لما أنَّ الذي يدورُ عليه فَلَكُ التكليف إنما هو الاختيارُ الذي عليه تُرتَّبُ الأعمال التي بها يرتبط الجزاء.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٨١.

(٢) قراءة عيسى ذكرها صاحب البحر المحيط ٥/ ٤٧٧، وقراءة ابن مسعود أخرجها عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣٥٤، والطبري ١٤/ ١٧٩، وقراءة علي ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٧٢، والنحاس في معاني القرآن ٤/ ٥٨.

(٣) كما في الدر المنثور ٤/ ١١٢.

وقيد «أجمعين» للمنفيِّ لا للنفي، فيكون المرادُ سَلْبَ العموم لا عمومَ السلب. وذكر بعضُهم أنه كان الظاهرُ أن يقال: وعلى الله قَصْدُ السبيل وجائرُها، أو: وعليه جائرُها. إلا أنه عُدِلَ عنه إلى ما فِي النَّظْم الكريم؛ لأنَّ الضَّلالَ لا يُضاف إليه تعالى تأدُّباً، فهو كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧].

وزعم الزمخشريُّ أنَّ المخالفةَ بين أسلوبي الجملتين؛ للإيذان بما يجوزُ إضافتُه من السبيلين إليه تعالى وما لا يجوز[١]. وعنى الإشارةَ إلى ما ذهب إليه إخوانه المعتزلةُ من عدم جواز إضافة الضَّلال إليه سبحانه؛ لأنه غيرُ خالقه، وجعلوا الآيةَ للمخالفة حُجَّةً لهم في هذه المخالفة.

وأجاب بعضُ الجماعة بأنَّ المرادَ: على الله تعالى بحَسب الفضل والكَرَم بيانُ الدين الحقِّ والمذهب الصحيح، فأما بيانُ كيفية الإغواء والإضلال، فليس عليه سبحانه. وبحثَ فيه بأنه كما أنَّ بيانَ الهداية وطريقها مُتحتِّمٌ، فكذا ضدّه، وليس إرسالُ الرسل عليهم السلام وإنزال الكتب إلا لذلك.

وقال ابن المنير: إنَّ المخالفةَ بين الأسلوبين؛ لأنَّ سياقَ الكلام لإقامة الحُجَّة على الخلق بأنه تعالى بيَّن السبيلَ القاصدَ والجائرَ، وهدى قوماً اختاروا الهدى، وأَضَلَّ آخرينَ اختاروا الضلالة. وقد حقق أنَّ كلَّ فعلٍ صَدَرَ على يد العبد فله اعتباران: فهو من حيثُ كونه موجوداً مخلوقٌ لله تعالى ومضافٌ إليه سبحانه بهذا الاعتبار، وهو من حيثُ كونه مقترناً باختيار العبد له وتيسُّره عليه، يُضاف إلى العبد، وأنَّ تعدُّد هذين الاعتبارين ثابتٌ في كلِّ فعلٍ، فناسَبَ إقامةَ الحُجَّة على العباد إضافةُ الهداية إلى الله تعالى باعتبار خَلْقه لها، وإضافةُ الضلال إلى العبد باعتبار اختياره له. والحاصل أنه ذَكَرَ في كلِّ واحدٍ من الفعلين نسبةً غيرَ النسبة المذكورة في الآخر، ليناسبَ ذلك إقامةَ الحُجَّة، ألا لله الحُجَّة البالغة[٢].

وأنكر بعضُ المحقِّقينَ أن يكون هناك تغييرُ الأسلوب لأمرٍ مطلوبٍ بناءً على أنَّ

---

(١) الكشاف ٢/ ٤٠٣.

(٢) الانتصاف بهامش الكشاف ٢/ ٤٠٣-٤٠٤.

ذلك إنما يكونُ فيما اقتضى الظاهر سَبْكاً معيَّناً، ولكن يُعدَلُ عن ذلك لنُكتةٍ أهمّ منه، وليس المرادُ من بيان قَصْد السبيل مجردَ إعلام أنه مستقيمٌ حتى يَصِحَّ إسنادُ أنه جائرٌ إليه تعالى، فيحتاج إلى الاعتذار عن عدم ذلك، على أنه لو أريد ذلك لم يوجدْ لتغيير الأسلوب نكتةٌ، وقد بيَّن ذلك في مواضعَ غير معدودة، بل المراد نَصْبُ الأدلة للهداية إليه، ولا إمكانَ لإسناد مثله إليه تعالى بالنسبة إلى الطريق الجائر بأن يقال: وجائرها، حتى يُصرَفَ ذلك الإسنادُ منه تعالى إلى غيره سبحانه لنكتة، ولا يتوهَّمه متوهِّمٌ حتى يقتضي الحالُ دَفْعَ ذلك بأن يقال: لا جائرها، ثم يُغيّر سَبْك النَّظم عنه لداعيةٍ أقوى منه، وذُكِرَ أنَّ الجملةَ اعتراضيةٌ حسبما نقلناه سابقاً، وهو كلامٌ يلوحُ عليه مخايلُ التحقيق، بَيْدَ أنَّ لقائلٍ أن يقول: لم لا يجوزُ أن يُرادَ ببيان السبيل المستقيم وببيان السبيل الجائر نَصْبُ الأدلة الدالة على حَقِّيَّةِ الأول ليُهتدى إليه وبطلانِ الثاني ليُحذَر ولا يعوَّلَ عليه، وهذا غيرُ مجرَّد الإعلام الذي ذكره، ونسبته إليه تعالى ممكنةٌ، بل قال بعضهم: إنَّ الحقَّ أنَّ المعنى: على الله تعالى بيانُ طريق الهداية ليهتدوا إليه، وبيانُ غيرها ليحذروه، لكن اكتُفي بأحدهما؛ للزوم الآخر له.

وفي «الكشف» أنَّ تغايرَ الأسلوبين على أصل أهل السنة واضحٌ أيضاً، إذ لا منكرَ أنَّ الأولَ هو المقصودُ لذاته، فبيانُ طريق الضَّلالة إجمالاً قَدْرَ ما يمتاز قَصْدُ السبيل منه في ضمن بيان قَصْد السبيل ضرورةٌ، وبيانه التفصيليُّ ليس مما لابدَّ من وقوعه، ولا أنَّ الوعدَ جرى به على مذهب. اهـ، فليتأمل.

ثم إنَّ الآيةَ مناديةٌ على خلاف ما زعمه المعتزلةُ ـ ومنهم الزجاج[1] ـ من عدم استلزام تعلُّقِ مشيئته تعالى بشيء وجوده، وقد التجؤوا إلى التزام تفسيرها بالقَسْريَّة. وقال أبو عليٍّ منهم: المعنى: لو شاء لهداكم إلى الثواب أو إلى الجنة بغير استحقاقٍ، وكلُّ ذلك خلافُ الظاهر كما لا يخفى.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ شروعٌ في نوعٍ آخرَ من النِّعَم الدالة على توحيده سبحانه، والمراد من الماء نوعٌ منه وهو المطر، ومن السماء إما السحابُ

(١) معاني القرآن ٣/ ١٩٢.

على سبيل الاستعارة أو المجاز المرسل، وإما الجِرْمُ المعروف، والكلامُ على حَذْفِ مضافٍ، أي: من جانب السماء أو جهتها، وحَمْلُها على ذلك بدون هذا يقتضيه ظاهرُ بعض الأخبار، ولا أقول به.

و«من» على كلٍّ تقديرٍ ابتدائيةٌ، وهو متعلِّقٌ بما عنده، وتأخيرُ المفعول الصَّريح عنه ليظمأَ الذِّهنُ إليه، فيتمكَّن أتمَّ تمكُّنٍ عند وروده عليه، وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ﴾ يحتملُ أن يكونَ خبراً مقدَّماً، وقوله سبحانه: ﴿مِّنْهُ﴾ في موضع الحال من قوله عز وجل: ﴿شَرَابٌ﴾ أي: ما تشربون، وهو مبتدأٌ مؤخَّرٌ، أو هو فاعلٌ بالظرف الأول، والجملة صفةٌ لـ «ماء»، و«من» تبعيضيةٌ، وليس في تقديمها إيهامُ حَصْر، ومن توهَّمه قال: لابأس به؛ لأنَّ جميعَ المياه العذبة المشروبة بحسب الأصل منه، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَابِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١]، وقوله سبحانه: ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨]. ويحتمل أن يكون متعلِّقاً بما عنده، و«منه شرابٌ» مبتدأ وخبر، أو: «شرابٌ» فاعلٌ بالظرف والجملة و«من» كما تقدم.

وتُعقِّبَ بأنَّ توسيطَ المنصوب بين المجرورين وتوسيطَ الثاني منهما بين الماء وصفته مما لا يليقُ بجزالة النَّظْم الجليل، وهو كذلك.

﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ أي: نباتٌ مطلقاً، سواءٌ كان له ساقٌ أم لا، كما نُقل عن الزجاج[1]، وهو حقيقةٌ في الأول، ومن استعماله في الثاني قولُ الراجز:

نـعـلـفـهـا الـلَّـحـمَ إذا عـزَّ الـشَّـجَـرْ والخيل في إطعامها اللَّحمَ ضَررْ[2]

فإنه قيل: الشجرُ فيه بمعنى الكَلَأ؛ لأنه الذي يُعلَف، وكذا فسَّره في «النهاية» بذلك في قوله ﷺ: «لا تأكلوا ثمنَ الشَّجر فإنه سُحْتٌ»[3] ولعلَّ ذلك؛ لأنه جاء في الحديث النهيُ عن مَنْع فَضْل الماء، كمنع فَضْل الكلأ[4]، وتشاركُ الناس في الماء

(١) معاني القرآن له ٣/ ١٩٢.

(٢) البيت للنمر بن تولب، وهو في رسائل الجاحظ ٢/ ٣٢٩، والشعر والشعراء ١/ ٣٠٩، والوافي بالوفيات ٢٧/ ١٦٩.

(٣) أخرجه عبد الرزاق (١٤٥٠١) من قول عكرمة.

(٤) أخرج أحمد (٧٣٢٤)، والبخاري (٢٣٥٣) و(٢٣٥٤) و(٦٩٦٢)، ومسلم (١٥٦٦) من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يُمنع فَضْلُ الماء ليُمنع به الكلأ».

والكلأ والنار[١]، وأبقاه بعضُهم على حقيقته ولم يجعله مجازاً شاملاً، و«من» إما للتبعيض مجازاً؛ لأنَّ الشجر لمَّا كان حاصلاً بسَقْيه جُعل كأنه منه كقوله:

أسـنـمـةُ الآبـال فـي ربـابـهِ[٢]

يعني به المطرَ الذي ينبتُ به ما تأكله الإبلِ فتسمنُ أسنمتُها.

وإما للابتداء، أي: وكائنٌ منه شجرٌ. والأوَّل أولى بالنسبة إلى ما قبله.

وقال أبو البقاء: هي سببيةٌ، أي: وبسببه إنباتُ شجر، ودلَّ على ذلك: (يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ)[٣].

وجوَّز ابنُ الأنباريِّ الوجهين الأوَّلين على ما يقتضيه ظاهر قوله: الكلامُ على حَذْف[٤] مضافٍ إما قبل الضمير، أي: من جهته، أو من سَقْيه شجر، وإما قبل «شجر» أي: ومنه شرابُ شجر، كقوله تعالى: ﴿وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾ [البقرة: ٩٣]، أي: حبَّه. اهـ. وهو بعيدٌ، وإن قيل: الإضمارُ أولى من المجاز لا العكس الذي ذهب إليه البعض، وصحَّح المساواةَ لاحتياج كلٍّ منهما إلى قرينة.

﴿فِيهِ تُسِيمُونَ ⑩﴾ أي: ترعون، يقال: أسامَ الماشيةَ وسوَّمها: جعلها ترعى، وسامت بنفسها فهي سائمةٌ وسَوام: رَعَتْ حيثُ شاءت، وأصلُ ذلك ـ على ما قال الزجَّاج ـ السُّومة، وهي كالسِّمة العَلَامة؛ لأنَّ المواشي تؤثِّر علاماتٍ في الأرض والأماكن التي ترعاها[٥].

---

(١) أخرج أحمد (٢٣٠٨٢)، وأبو داود (٣٤٧٧) من حديث رجل من الصحابة أنَّ النبي ﷺ قال: «المسلمون شركاء في ثلاث الماء والكلأ والنار».
وأخرجه ابن ماجه (٢٤٧٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
وأخرجه ـ أيضاً ـ (٢٤٧٣) من حديث أبي هريرة بلفظ: «ثلاث لا يمنعن الماء والكلأ والنار».

(٢) الرجز في الكامل للمبرد ٢/ ٩٩٤ دون نسبة، ولفظه:
أقـبـلَ فـي الـمُـسْـتَـنِّ مـن ربـابـهِ أسـنـمـةُ الآبـال فـي سـحـابـهِ

(٣) الإملاء ٣/ ٤٤٢.

(٤) في (م): على تقدير. والمثبت من الأصل، والبحر المحيط ٥/ ٤٧٨، والدر المصون ٧/ ١٩٧.

(٥) معاني القرآن ٣/ ١٩٢.

وقرأ زيدُ بن عليٍّ ﷺ: «تَسيمون» بفتح التاء[(١)]، فإن سُمع «سَامَ» متعدِّياً، كان هو و«أسام» بمعنى، وإلا فتأويلُ ذلك أنَّ الكلامَ على حَذْفِ مضافٍ، أي: تُسيمُ مواشيكم. ﴿يُنۢبِتُ﴾ أي: الله عزَّ وجلَّ، يقال: نَبَتَ الشيءُ وأنبته اللهُ تعالى فهو منبوت، وقياسُ هذا مُنْبَت، وقيل: يقال: أنبتَ الشجرُ، لازماً، وأنشد الفرَّاء:

رأيتُ ذوي الحاجات حولَ بيوتهم ... قَطِيناً لهم حتى إذا أنبتَ البقلُ[(٢)]

أي: نَبَتَ، وكان الأصمعيُّ ينكرُ مجيءَ «أنبتَ» بمعنى «نَبَتَ»[(٣)].

وقرأ أبو بكر: «ننبت» بنون العَظَمة[(٤)]، والزهري: «نُنَبِّتُ»[(٥)] بالتشديد، وهو للتكثير في قول، واستظهر أبو حيان أنه تضعيف التعدية[(٦)].

وقرأ أُبيٌّ: «يَنبُتُ» بفتح الياء، ورفع المتعاطفات بعدُ على الفاعلية[(٧)]، وجملةُ يُنبت ﴿لَكُم بِهِ﴾ أي: بما أنزل من السماء ﴿ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ﴾ يحتمل أن تكون صفة أخرى لـ «ماء» وأن تكون مستأنفة استئنافاً بيانياً، كأنه قيل: وهل له منافعُ أُخَر؟ فقيل: ينبتُ لكم به... إلخ.

وإيثار صيغة الاستقبال؛ للدلالة على التجدُّد والاستمرار، وأنَّ الإنباتَ سُنَّته سبحانه الجارية على ممرِّ الدهور، أو لاستحضار الصورة لما فيها من الغرابة.

وتقديمُ الظرفين على المفعول الصَّريح لما أشرنا إليه آنفاً، مع ما في تقديم أوَّلهما من الاهتمام به؛ لإدخال المسرَّة ابتداءً. وتقديمُ الزَّرع على ما عداه قيل: لأنه أصلُ الأغذية وعمودُ المعاش وقوتُ أكثر العالم، وفيه مناسبةٌ للكلأ المرعي.

---

(١) البحر المحيط ٥/٤٧٨، والدر المصون ٧/١٩٨.

(٢) البيت لزهير بن أبي سلمى، وهو في شرح ديوانه ص ١١١، ووقع في الأصل و(م): بها، بدل: لهم، والمثبت من الديوان، ولم نقف عليه في معاني القرآن للفراء. والقطين: أهل الرجل وحَشَمه، أو الساكن النازل في الدار.

(٣) ينظر تهذيب اللغة ١٤/٣٠٣.

(٤) التيسير ص ١٣٧، والنشر ٢/٣٠٢.

(٥) في الأصل و(م): ينبت. والمثبت من البحر المحيط ٥/٤٧٨، والدر المصون ٧/١٩٩.

(٦) البحر المحيط ٥/٤٧٨.

(٧) الكشاف ٢/٤٠٣، والبحر المحيط ٥/٤٧٨.

ثم الزيتون لما فيه من الشَّرف من حيثُ إنه إدامٌ من وجه وفاكهةٌ من وجه، وقد ذكر الأطبَّاءُ له منافعَ جمَّة، وذكر غير يسيرٍ منها في «التذكرة»[1]، والظاهر من كلام اللُّغويين أنه اسمُ جنسٍ جمعيٍّ، واحدهُ: زيتونة؛ وأنه يُطلَقُ على الشجر المخصوص، وعلى ثمرته. واستظهر أنَّ المرادَ به هنا الأول، وسيأتي قريباً إن شاء الله تعالى تمامُ الكلام في ذلك، وأكثرُ ما ينبتُ في المواضع التي زاد عَرْضُها على الميل، واشتدَّ بردُها، وكانت جبليةً ذات تربةٍ بيضاء أو حمراء.

ثم النخيل على الأعناب لظهور دوامها بالنسبة إليها، فإنَّ الواحدةَ منها كثيراً ما تتجاوز مئة سنة ـ وشجرةُ العِنَب ليست كذلك، نعم الزيتونُ أكثرُ دواماً منهما، فإن الشجرةَ منه قد تدومُ ألفَ سنة ـ مع أنَّ ثمرتَها كثيراً ما يقتات بها، حتى جاء في الخبر: «ما جاعَ بيتٌ وفيه تمر»[2] وأكثر ما تنبتُ في البلاد الحارَّة اليابسة التي يغلِبُ عليها الرملُ كالمدينة المشرَّفة والعراق وأطراف مصر، وهي ـ على ما قال الراغب ـ جَمْعُ «نخلٍ» وهو يُطلقُ على الواحد والجمع[3]. ويقال للواحدة: نخلة، وأما الأعنابُ فجمعُ عِنَبة بكسر العين وفتح النون والباء، وقد جاءت ألفاظٌ مفرَدةٌ على هذا الوزن غيرُ قليلة. وقد ذكر في «القاموس» عِدَّةً منها، ونَسَبَ الجوهريَّ إلى قِلَّة الاطلاع في قوله: إنَّ هذا البناءَ في الواحد نادرٌ، وجاء منه العِنَبَة والتِّوَلَة والحِبَرة والطِّيَبة والخِيَرة، ولا أعرفُ غيرَ ذلك. وذكر الجوهريُّ أنه إن أردت جمعَهُ في أدنى العدد جمعتَه بالتاء وقلت: عِنَبَات، وفي الكثير: عِنَبٌ وأعناب[4].

ولينظر هذا مع عَدِّهم أفعالاً من جموع القِلَّة، ويُطلق العِنَبُ ـ كما قال الراغب ـ على ثمرةِ الكَرْم وعلى الكَرْم نفسه[5]. والظاهر أنَّ المراد هو الثاني.

وذكر أبو حيان في وجه تأخير الأعناب أنَّ ثمرتها فاكهةٌ محضة[6]. وفيه أنه إن

---

(١) تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب لداود الأنطاكي ١/ ١٨٢-١٨٣.

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٤٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) المفردات (نخل).

(٤) الصحاح والقاموس (عنب).

(٥) المفردات (عنب).

(٦) البحر المحيط ٥/ ٤٧٨.

أرادَ بثمرتها العِنَب مادام طريّاً قبل أن يتزبَّب، فيمكن أن يُسلَّم، وإن أراد به المتزبِّبَ فغيرُ مُسلَّم، وفي كلام كثيرٍ من الفقهاء في بحث زكاة الفطر أنَّ في الزبيب اقتياتاً، بل ظاهرُ كلامهم أنه في ذلك بعد التَّمر وقبل الأرز، والباحثُ في هذا لا ينفي الاقتيات، كما لا يخفى على الواقف على البحث.

وفي جَمْع «النخيل والأعناب» إشارةٌ إلى أنَّ ثمارَها مختلفةُ الأصناف، ففي «التذكرة» عند ذِكر التَّمر أنه مختلفُ كثيرُ الأنواع كالعِنَب، حتى سمعتُ أنه يزيدُ على خمسين صنفاً. وعند ذِكْر العِنَب أنه يختلفُ بحسب الكِبَر والاستطالة وغِلَظ القِشْر وعدم العَجَم[1] وكثرة الشَّحم واللَّون والطعم وغير ذلك[2]، إلى أنواعٍ كثيرة كالتمر.

وأنا قد سمعتُ من والدي عليه الرحمةُ أنه سَمِعَ في مصرَ حين جاءها بعد عَوْده من الحجِّ لزيارة أخيه المهاجر إليها لطلب العلم أنَّ في نواحيها من أصناف التمر ما يقرُبُ من ثلاث مئة صِنْفٍ، والعُهْدةُ على مَنْ سَمِعَ منه هذا، وللعلَّامة أبي السعود هنا ما يُشعر ظاهرُه بالغفلة، وسبحان من لا يغفل.

وكان الظاهرُ تقديمُ غذاء الإنسان لشرفه على غذاء ما يُسام، لكن قُدِّم ذاك ـ على ما قال الإمام ـ للتنبيه على مكارم الأخلاق، وأن يكون اهتمامُ الإنسان بمَنْ تحت يده أقوى من اهتمامه بنفسه[3]. والعكسُ في قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾ [طه: ٥٤] للإيذان بأنَّ ذلك ليس بلازمٍ وإن كان من الأخلاق الحميدة، وهو على طِبْق ما ورد في الخبر: «ابدأ بنفسك ثم بِمَنْ تعول»[4]، وقيل: لأنَّ ذلك مما لا دَخْلَ للخلائق فيه ببذْرٍ وغَرْسٍ، فالامتنان به أقوى، وقيل: لأنَّ أكثرَ المخاطَبين من أصحاب المواشي، وليس لهم زَرْعٌ ولا شيءٌ مما ذُكر.

---

(١) العَجَم: النوى وكلُّ ما كان في جوف مأكول كالزبيب وما أشبهه. الصحاح (عجم).

(٢) التذكرة ١/ ٩٦، ٢٤٠.

(٣) تفسير الرازي ١٩/ ٢٣٤.

(٤) لم نقف عليه هكذا مجموعاً في رواية واحدة. بل أخرج مسلم (٩٩٧) من حديث جابر رضي الله عنه بلفظ: «ابدأ بنفسك فتصدق عليها...». وأخرج أحمد (٧١٥٥)، والبخاري (١٤٢٨)، ومسلم (١٠٤٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «... وابدأ بمن تعول».
وأخرجه ـ أيضاً ـ أحمد (٤٤٧٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
وأخرجه البخاري (١٤٢٧)، ومسلم (١٠٣٤) من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه.

وقال شهاب الدين في وجه ذلك: ولك أن تقول: لمَّا سبقَ ذِكْرُ الحيوانات المأكولة والمركوبة ناسبَ تعقيبُها بذكْر مَشْرَبها ومأكَلها؛ لأنه أقوى في الامتنان بها، إذ خَلْقُها ومعاشُها لأجلهم، فإنَّ مَنْ وَهَبَ دابَّةً مع عَلَفها كان أحسن، كما قيل: من الظَّرْف هِبةُ الهدية مع الظَّرْف(١). ولا يخلو عن حُسْن.

والأولى عليه أن يُراد من قوله تعالى: ﴿لَكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ ما يُشرب، وأما ما قيل: إنَّ ما قدّم من الغذاء غذاءٌ للإنسان أيضاً لكن بواسطة، فإنه غذاءٌ لغذائه الحيوانيِّ، فلا يدفع السؤال؛ لأنه يقال بَعْدُ: كان ينبغي تقديمُ ما كان غذاءً له بغير واسطة، لا يقال: هذا السؤال إنما يَحْسُنُ إذا كان المرادُ من المتعاطفات المذكورات ثمراتها؛ لا ما يحصل منها الثمرات؛ لأنَّ ذلك ليس غذاء الإنسان؛ لأنَّا نقول: ليس المقصودُ من ذِكْرها إلا الامتنان بثمراتها، إلا أنها ذُكرت على نَمَطِ سابقها المذكور في غذاء الماشية، ويُرشد إلى أنَّ الامتنانَ بثمراتها قوله سبحانه: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ وإرادةُ الثمرات منها من أول الأمر بارتكاب نوعٍ من المجاز في بعضها لهذا إهمالٌ لرعاية غيرِ أمرٍ يحسُنُ له حملُها على ما قلنا دون ذلك منه ينبت، إذ ظاهره يقتضي التعلُّق بنفس الشجرة لا بثمرتها فليعمل بما يقتضيه في صَدْر الكلام وإن اقتضى آخره اعتبار نحو ما قيل في:

علفتُها تبناً وماءً باردا(٢)

كذا قيل وفيه تأمل، ومنع بعضُهم كونَ الإنبات مما يقتضي التعلُّق المذكورَ، فقد قال سبحانه: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا﴾ [عبس: ٢٧-٣١]. وجُوِّز أن لا يكونَ الملحوظُ فيما عدَّ مجرد الغذائية، بل ما يعمُّها وغيرها على معنى: يُنبتُ به لنفعكم ما ذكر، والنفع يكون بما فيه غذاءٌ وغيره، و«من» للتبعيض والمعنى: ويُنبتُ لكم بعضَ كلِّ الثمرات، وإنما قيل ذلك لما في «الكشاف» وغيره من أنَّ كلَّ الثمرات لا تكون إلا في الجنة، وإنما أُنبت في

---

(١) حاشية الشهاب ٥/ ٣١٦. وقوله: من الظرف هبة الهدية مع الظرف، معناه أن من الكياسة إعطاء الهدية مع الوعاء. ينظر معنى الظرف في الصحاح واللسان (ظرف).

(٢) عجزه: حتى شتت همالة عيناها. وسلف ٦/ ٣٢٥.

الأرض بعضٌ من كلٍّ للتذكرة[1]. وقال بعضُ الأجلَّة: المراد بعض مما في بقاع الإمكان من ثمر القدرة الذي لم تَجْنِهِ راحة الوجود.

وهو أظهرُ وأشملُ وأنسبُ بما تقدَّم؛ لأنه سبحانه كما عقَّب ذِكْرَ الحيوانات المنتَفَعِ بها على التفصيل بقوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ عقَّب ذِكْرَ الثمرات المنتفع بها بمثله.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من إنزال الماء وإنزال ما فُصِّل ﴿لَآيَةً﴾ عظيمةً دالةً على تفرُّده تعالى بالإلهية لاشتماله على كمال العلم والقدرة والحكمة ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ فإنَّ مَنْ تفكَّر في أنَّ الحبَّةَ والنَّواة تقعُ في الأرض وتصلُ إليها نداوةٌ تنفذُ فيها، فينشقُّ أسفلُها، فيخرجُ منه عروقٌ تنبسطُ في الأرض، وربما انبسطتْ فيها وإن كانت صُلْبة، وينشقُّ أعلاها وإن كانت منتكسةً في الوقوع، فيخرجُ منها ساقٌ فينمو، فيخرجُ منه الأوراق والأزهار والحبوب والثمارُ المشتملة على أجسامٍ مختلفةِ الأشكال والألوان والخواصِّ والطبائع، وعلى نواةٍ قابلةٍ لتوليد الأمثال على النَّمطِ المحرَّر لا إلى نهاية مع اتِّحاد الماء والأرض والهواء وغيرها بالنسبة إلى الكلِّ، عَلِمَ أنَّ مَنْ هذه آثارُهُ لا يمكنُ أن يُشبهه شيءٌ في شيءٍ من صفات الكمال، فَضْلاً عن أن يشاركهُ في أخصِّ صفاته - التي هي الألوهية واستحقاق العبادة - أخسُّ الأشياء كالجماد، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، ولله تعالى دَرُّ مَنْ قال:

تأملْ في رياض الوَرْد وانظرْ ... إلى آثار ما صَنَعَ المليكُ
عيونٌ من لُجينٍ شاخصاتٌ ... على أهدابها ذهبٌ سبيكُ
على قضب الزَّبرجَدِ شاهداتٌ ... بأنَّ الله ليس له شريكُ[2]

وحيث كان الاستدلالُ بما ذُكر لاشتماله على أمرٍ خفيٍّ محتاجٍ إلى التفكُّر والتدبُّر لمن له نظرٌ سديدٌ خَتَمَ الآيةَ بالتفكُّر.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ يتعاقبان خِلفةً لمنامكم واستراحتكم وسعيكم في مصالحكم من الإسامة وتعهُّد حالِ الزرع ونحو ذلك.

---

(١) الكشاف ٢/ ٤٠٣.

(٢) الأبيات في ديوان عبد الغني النابلسي ٢/ ٢.

﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ يدأبانِ في سيرهما وإنارتهما ـ أصالةً وخِلافةً ـ وأدائهما ما نِيْط بهما من تربيةِ الأشجار والزروع، وإنضاج الثمرات وتلوينها، وغير ذلك من التأثيرات المترتِّبة عليهما بإذن الله تعالى، حسبما يقوله السَّلفُ في الأسباب والمسببات، وليس المراد بتسخير ذلك للمخاطَبين تمكينَهم من التصرُّف به كيف شاؤوا كما في قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ [الزخرف: ١٣] ونحوه، بل تصريفُهُ سبحانه لذلك حسبما يترتَّبُ عليه منافعهم ومصالحهم، كأنَّ ذلك تسخيرٌ لهم وتصرُّفٌ من قِبَلهم حَسب إرادتهم. قاله بعض المحققين.

وقال آخرون: إنَّ أَصْلَ التسخير السَّوقُ قهراً، ولا يصحُّ إرادةُ ذلك؛ لأنَّ القَهْرَ والغلبةَ مما لا يُعقَلُ فيما لا شعور له من الجمادات، كالشمس والقمر، وعدمُ تعقُّله في نحو الليل والنهار أظهرُ من ذلك، فهو هنا مجازٌ عن الإعداد والتهيئة لما يُراد من الانتفاع، وفي ذلك إيماءٌ إلى ما في المسخَّر من صعوبة المأخَذ بالنسبة إلى المخاطَبين.

وذكر الإمامُ في المراد من التسخير نحو ما ذكر أولاً، ثم ذَكَرَ وجهاً آخر قال فيه: إنه لا يستقيم إلا على مذهب أصحاب الهيئة، وهو أنهم يقولون: الحركةُ الطبيعيةُ للشمس والقمر هي الحركة من المغرب إلى المشرق، فالله تعالى سخَّر هذه الكواكبَ بواسطة حركة الفلك الأعظم من المشرق إلى المغرب، فكانت هذه الحركةُ قسريةً، فلذا وَرَدَ فيها لفظ التسخير. وذكر أيضاً أنَّ حدوثَ الليل والنهار ليس إلا بسبب حركة الفلك الأعظم دون حركة الشمس، وأما حركتُها فهي سببٌ لحدوث السَّنة، ولذا لم يكن ذِكْرُ الليل والنهار مُغنياً عن ذِكْر الشمس[1].

ولا يُعترض عليه بأنَّ ما ذكره من قوله: إنَّ حدوثَ الليل والنهار إلى آخره لا يتأتَّى في عَرْض تسعين؛ لأنَّ الليلَ والنهارَ لا يحصلان إلا بغروب الشمس وطلوعها، وهي هناك لا تغرُبُ ولا تطلُعُ بحركةِ الفلك الأعظم، بل بحركتها الخاصة، ولذا كانت السَّنةُ يوماً وليلة، لما أنَّ ذلك العَرْضَ غيرُ مسكونٍ، وكذا ما يقربُ منه، فلا يدخلُ في حَيِّز الامتنان. نعم في كلامه عند المتمسِّكين بأذيال الشريعة غيرُ ذلك فلينظر.

---

(١) تفسير الرازي ٢٠/ ٤-٥.

وفي كون الشمس والقمر مما لا شعورَ لهما خلافٌ بين العلماء، فذهب البعضُ إلى أنهما عالَمان، وهو الذي تقتضيه الظواهرُ، وإليه ذهب الصوفيةُ والفلاسفة، ولم أشعرْ بوقوعِ خلافٍ في أنَّ الليلَ والنهار مما لا شعورَ لهما، نعم رأيتُ في «البهجة القادرية» عن القطب الربانيِّ الشيخ عبد القادر الكيلاني قُدِّسَ سِرُّهُ العزيز أنَّ الشَّهر أو الأسبوعَ يأتيه في صورةِ شخصٍ فيُخبره بما يحدثُ فيه من الحوادث. ولعلَّ هذا على نحو ظهور القرآن يومَ القيامة في صورة الرجل الشَّاحب وقوله لمن كان يحفظه: «أنا الذي أسهرتُكَ في الدياجي، وأظمأتُكَ في الهواجر»[(١)] وظهور الموت في صورة كَبْشٍ أملحَ وذَبْحُهُ بين الجنة والنار يوم القيامة كما جاء في الخبر[(٢)].

وعليك بالإيمان بما جاء عن الصادق المصدوق ﷺ وأنت في الإيمان بغيره بالخِيار، وإيثارُ صيغةِ الماضي، قيل: للدلالة على أنَّ ذلك التسخيرَ أمرٌ واحدٌ مستمرٌّ وإن تجدَّدتْ آثاره.

﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ﴾ مبتدأٌ وخبرٌ، أي: وسائرُ النجوم البيبانية[(٣)] وغيرها في حركاتها وأوضاعها المتبدِّلة وغير المتبدِّلة، وسائر أحوالها مسخَّرات لما خُلِقتْ له بخَلْقه تعالى وتدبيره الجاري على وَفْق مشيئته. فالأمر واحدُ الأمور، وجُوِّزَ أن يكونَ واحدَ الأوامر، ويرادُ منه الأمرُ التكوينيُّ عند مَنْ لا يقول بإدراك النجوم، والمعنى: إنها مسخَّراتٌ[(٤)] لما خُلقتْ له بقدرته تعالى وإيجاده، قيل: وحيثُ لم يكنْ عَودُ منافع النجوم إليهم في الظهور بمثابة ما قبلها من الجديدين والنَّيِّرين لم يُنسَبْ تسخيرُها إليهم بأداة الاختصاص، بل ذُكر على وجهٍ يُفيد أنها تحتَ ملكوته عزَّ وجلَّ من غير دلالةٍ على شيءٍ آخر، ولذلك عَدَلَ عن الجملة الفعلية الدالَّة على الحدوث إلى الاسمية المفيدة للدوام والاستمرار.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٩٧٦)، وابن ماجه (٣٧٨١) من حديث بريدة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (١١٠٦٦)، والبخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) الكواكب البابانيات هي التي لا ينزل بها شمس ولا قمر إنما يُهتدى بها في البر والبحر، وهي شامية، ومهبُّ الشمال منها... لسان العرب (بين).

(٤) في (م): مسخرة.

وقرأ ابنُ عامرٍ برفع: «الشمسُ والقمرُ»[١] أيضاً، فيكونُ المبتدأُ «الشمس» والبواقي معطوفة عليه، و«مسخراتٌ» خبرٌ عن الجميع، ولا يتأتّى على هذه القراءة ما قيل في وجهِ عدمِ نسبة تسخيرِ ذلك إليهم بأداة الاختصاص كما لا يخفى، واعتبار عدم كون ظهور المنافع بمثابة السابق بالنظر إلى المجموع كما ترى.

ومن الناس من قال في ذلك: إنَّ المرادَ بتسخير الليل والنهار لهم، نفعُهم بهما من حيثُ إنهما وقتا سعي في المصالح واستراحة، ومن حيث ظهور ما يترتَّب عليه منافعهم مما نِيطَ به صلاحُ المكونات التي من جملتها ما فَصَّل وأجمل مثلاً كالشمس والقمر فيهما، ويؤول ذلك بالآخرة إلى النفع بذلك، وهو معنى تسخيره لهم، فيكون تسخيرُ الليل والنهار لهم متضمِّناً لتسخير ذلك لهم، فحيثُ أفادهُ الكلامُ أولاً استغنى عن التصريح به ثانياً، وصرَّح بما هو أعظمُ شأناً منه، وهو أنَّ تلك الأمور لم تزلْ ولاتزالُ مقهورةً تحت قدرته، منقادةً لإرادته ومشيئته، سواءٌ كنتم أو لم تكونوا. فليُتدبَّر.

وقرأ الجمهور: «والنجومَ» و«مسخَّراتٍ» بالنصب فيهما وكذا فيما تقدم[٢]، وخُرِّج ذلك على أنَّ «النجوم» مفعولٌ أولُ لفعلٍ محذوف يُنبِئُ عنه الفعل المذكور، و«مسخرات» مفعولٌ ثانٍ له، أي: وجعل النجومَ مسخَّراتٍ، وجُوِّزَ جَعْلُ «جَعَلَ» بمعنى خَلَقَ المتعدِّي لمفعولٍ واحدٍ، فـ «مسخراتٍ» حالٌ، واستظهر أبو حيان كون «النجوم» معطوفاً على ما قبله بلا إضمار[٣]. و«مسخَّرات» حينئذٍ قيل: حالٌ من الجميع، على أنَّ التسخيرَ مجازٌ عن النَّفع، أي: نَفَعكم بها حالَ كونها مسخَّراتٍ لما خُلقتْ له مما هو طريقٌ لنفعكم، وإلا فالحملُ على الظاهر دالٌّ على أنَّ التسخيرَ في حال التسخير بأمره، ولا كذلك لتأخُّر الأول، وقيل لذلك أيضاً: إنَّ المرادَ مستمرةٌ على التسخير بأمره الإيجادي؛ لأنَّ الإحداث لا يدلُّ على الاستمرار.

وجوَّز بعضُ أَجِلَّة المعاصرين أن يكونَ حالاً مؤكِّدة بتقدير «بأمره» متعلِّقاً بـ «سخَّر» والكلامُ من باب التنازع، وقبوله مفوَّضٌ إليك.

---

(١) التيسير ص ١٣٧، والنشر ٢/ ٣٠٢.
(٢) التيسير ص ١٣٧، والنشر ٢/ ٣٠٣.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٧٩.

وقيل: هو مصدرٌ ميميٌّ كمسرَّح، منصوبٌ على أنه مفعولٌ مطلقٌ لـ «سخَّر» المذكور أولاً، وسخَّرها مسخَّراتٍ على منوال: ضربتُه ضَرَباتٍ، وجُمع إشارةً إلى اختلاف الأنواع، وفي إفادة تسخير ما ذكر إيذانٌ بالجواب عمَّا عسى يقال: إنَّ المؤثِّر في تكوين النبات حركاتُ الكواكب وأوضاعُها، فإنَّ ذلك إن سَلِمَ فلا ريبَ في أنها ممكنةُ الذات والصفات، واقعةٌ على بعض الوجوه المحتملة، فلابدَّ من مُوجِدٍ ضرورةَ احتياج الممكن في وجوده إلى مخصص، لئلّا يلزمَ من الوقوع على بعض الوجوه مع احتمال غيره ترجيحٌ بلا مرجِّح مختار، لما أنَّ الإيجاب ينافي الترجيحَ واجب الوجود دَفْعاً للدَّور أو التسلسل. كذا قاله بعضُ الأجلَّة.

واعترضه المولى العماديُّ(١) بأنه مبنيٌّ على حسبان ما ذُكر أدلة [على وجود] الصانع تعالى وقدرته واختياره. وليس الأمر كذلك فإنه مما لا يُنازعُ فيه الخَصْم ولا يتلعثم في قَبوله، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت:٦١]، وقال سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ الآية [العنكبوت:٦٣] وإنما ذلك أدلة التوحيد من حيث إنَّ مَنْ هذا شأنه لا يتوهَّم أن يشاركه شيءٌ في شيءٍ، فضلاً أن يشاركه الجمادُ في الألوهية.

وتُعقِّبَ بأنَّ كون ما ذُكر أدلة التوحيد لا يأبى أن يكونَ فيه إيذانٌ بالجواب عمَّا عسى يقال: وأيُّ ضررٍ في أن يُساقَ شيءٌ لأمرٍ، ويؤذِنَ بأمرٍ آخر، ولَعَمري لا أرى لهذا الاعتراض وجهاً بعد قول القائل: في ذلك إيذانٌ بالجواب عمَّا عسى يقال.. إلخ. حيث لم يَبتَّ القول، وأقحم «عسى» في البَين، لكن للقائل كلامٌ يدلُّ دلالةً ظاهرةً على أنه اعتبر الأدلة المذكورةَ أدلةً على وجود الصانع عزَّ شأنه أيضاً، وقد سبقه في ذلك الإمام.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: التسخيرِ المتعلِّق بما ذُكر ﴿لَآيَٰتٍ﴾ باهرةً متكاثرةً على ما يقتضيه المقام ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ وحيثُ كانت هذه الآثارُ العُلويَّةُ متعدِّدةً، ودلالةُ ما فيها من عظيم القدرة والعلم والحكمة على الوحدانية أظهرَ جمع الآيات، وعُلِّقتْ بمجرَّد العقل من غير تأمُّلٍ وتفكُّر، كأنها لمزيد ظهورها مدرَكَةٌ ببداهة

---

(١) أي: أبو السعود في تفسيره ٥/١٠٢، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

العقل، بخلاف الآثار السُّفْليةِ في ذلك. كذا قالوا، وهو ظاهرٌ على تقدير كون الاستدلال على الوحدانية لا على الوجود أيضاً، وأما إذا كان الاستدلالُ على ذلك ففي دعوى الظهور المذكور بحثٌ لانجرارِ الكلام على ذلك إلى إبطال التسلسل، فكيف تكونُ الدلالةُ ظاهرةً غير مُحْوِجَةٍ إلى فِكْر.

وأجيب عنه بأنَّ الاستدلالَ بالدَّور أو التسلسل إنما هو بعد التفكُّر في بَدْءِ أمرها وما نشأ منه من اختلاف أحوالها. فافهم.

وجُوِّزَ أن يكونَ المرادُ: لقوم يعقلون ذلك، والمشارُ إليه نهايةُ تعاجيب الدقائق المودَعة في العلويَّات المدلولِ عليها بالتسخير التي لا يتصدَّى لمعرفتها إلا المهرةُ الذين لهم نهايةُ الإدراك من أساطين علماء الحكمة، وحينئذٍ قَطَعَ الآيةَ بقوله سبحانه هنا: ﴿يَعْقِلُونَ﴾ للإشارة إلى احتياج ذلك إلى التفكُّر أكثر من غيره، والأولُ أولى كما لا يخفى.

﴿وَمَا ذَرَأَ﴾ أي: خلق، ومنه الذُّرِّية على قولٍ، والعطفُ عند بعضٍ على «النجوم» رَفْعاً ونَصْباً على أنه مفعولٌ لـ «جعل»، و«ما» موصولة، أي: والذي ذرأه ﴿لَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ من حيوانٍ ونباتٍ، وقيل: من المعادن، ولابأس في التعميم فيما أرى حالَ كونه ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ أي: أصنافه كما قال جَمْعٌ من المفسِّرين، وهو مجازٌ معروفٌ في ذلك.

قال الراغب(١): الألوانُ يُعبَّرُ بها عن الأجناس والأنواع، يقال: فلانٌ أتى بألوانٍ من الحديث والطعام. وكأنَّ ذلك لما أنَّ اختلافها غالباً يكون باختلاف اللون، وقيل: المراد المعنى الحقيقيُّ، أي: مختلفاً ألوانه من البياض والسواد وغيرهما. والأول أبلغُ، أي: ذلك مسخَّرٌ لله تعالى أو لما خلقَ له من الخواص والأحوال والكيفيات، أو جعلَ ذلك مختلفَ الألوان والأصناف لتتمتَّعوا بأيِّ صنفٍ شئتم منه.

وذهب بعضُهم إلى أنَّ الموصولَ معطوفٌ على «الليل» وقيل عليه: إنَّ في ذلك شِبْهُ التكرار، بناءً على أنَّ اللام في «لكم» للنَّفع، وقد فُسِّر «سخَّر لكم» لِنَفْعِكم، فمآلُ المعنى: نَفَعَكُم بما خَلَقَ لِنَفْعكم، فالأولى جَعْلُهُ في محلِّ نَصْبٍ بفعلٍ

---

(١) المفردات (لون).

محذوف، أي: خلقَ أو أنبتَ كما قاله أبو البقاء، ويجعل «مختلفاً» حالاً من مفعوله[1].

واعتذر بأنَّ الخلق للإنسان لا يستلزمُ التسخيرَ لزوماً عقليّاً، فإنَّ الغرضَ قد يتخلَّفُ، مع أنَّ الإعادة لطول العهد لا تُنْكَر.

ورُدَّ بأنه غفلةٌ عن كون المعنى: نفعكم، وما ذُكر علاوةً مبنيٌّ على كون «لكم» متعلقة بـ «سخَّر» أيضاً، وهي عند ذلك الذاهب متعلِّقةٌ - كما هو الظاهر - بـ «ذرأ»، وفي «الحواشي الشهابية» أنَّ هذا ليس بشيءٍ؛ لأنَّ التكرارَ لما ذكر وللتأكيد أمرٌ سهل، وكونُ المعنى: نفعكم، لا يأباهُ، مع أنَّ هذه الآية سيقتْ كالفذلكة لما قبلها، ولذا خُتمتْ بالتذكُّر[2].

وليس لمن يُميِّزُ بين الشمال واليمين أن يقول: «ما» مبتدأٌ و«مختلفاً» حالٌ من ضميره المحذوف، وجملة قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝﴾ خبرُهُ، والرابطُ اسم الإشارة على حَدِّ ما قيل في قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦] كأنه قيل: وما ذرأهُ لكم في الأرض إنَّ فيه لآية، وحاصله: إنَّ فيما ذرأ لآية، لظهور مخالفة الآية عليه السِّباق والسِّياق، بل عدم لياقته لأنْ يكون مَحْملاً لكلام الله تعالى الجليل أظهر من أن يُنبَّه عليه.

و«ألوانه» على ألوان الاحتمالات مرفوعٌ بـ «مختلفاً»، وقدَّرَ بعضُهم ليصحَّ رَفْعهُ به موصوفاً وقال: أي: صِنْفاً مختلفاً ألوانه، وهو مما لا حاجةَ إليه كما لا[3] يخفى على مَنْ له أدنى تدرُّبٍ في علم النحو، ثم إنَّ المشار إليه ما ذكر من التسخير ونحوه، وقيل: اختلاف الألوان، وتنوين «آية» للتفخيم أي: آيةٌ فخيمةٌ بيِّنةُ الدلالة على أنَّ مَنْ هذا شأنهُ واحدٌ لا ينبغي أن يُشبهه شيءٌ في شيءٍ.

وخَتْمُ الآية بالتذكُّر إما لما في «الحواشي الشهابية» من أنها كالفَذْلكة

---

(١) الإملاء ٣/ ٤٤٢.

(٢) حاشية الشهاب ٥/ ٣١٧. والفذلكة: من فَذْلَكَ حسابه: أنهاه وفرغ منه، مُخْترعةٌ من قوله إذا أجمَلَ حسابَهُ: فذلكَ كذا وكذا. القاموس المحيط (فذلك).

(٣) قوله: لا. ليست في (م).

لما قبلها[1]، وإما للإشارة إلى أنَّ الأمرَ ظاهرٌ جداً غيرُ محتاجٍ إلا إلى تذكُّر ما عسى يُغفَلُ عنه من العلوم الضرورية.

وقال بعضهم: يذَّكَّرون أنَّ اختلافَ طبائع ما ذكر وهيآته وأشكاله مع اتحاد مادَّته يدلُّ على الفاعل الحكيم المختار. وهو ظاهرٌ في أنَّ ما ذُكر دليلٌ على إثبات وجود الصانع، كما أنه دليلٌ على وحدانيَّته، وهو الذي ذهب إليه الإمام واقتدى به غيره، ولم يرتضهِ شيخُ الإسلام بناءً على أنَّ الخَصْمَ لا يُنازعُ في الوجود، وإنما يُنازعُ في الوحدانية، فجيءَ بما هو مُسلَّمٌ عنده من صفات الكمال؛ للاستدلال به على ما يقتضيه ضرورة من وحدانيته تعالَى واستحالة أن يشاركه شيءٌ في الألوهية[2].

وقال بعضهم: لا مانع من أن يكونَ المرادُ الاستدلال بما ذُكر من الآيات على مجموع الوجود والوحدانية، والخصمُ يُنكر ذلك وإن لم يُنكرِ الوجودَ، وكأنَّ في أَخْذِ الوجود في المطلوب إشارة إلى أنَّ القولَ به مع زَعْم الشِّرْكة في الألوهية مما لا يُعتَدُّ به، وليس بينه وبين عدم القول به كثيرُ نَفْعٍ، فتدبَّر ذاك والله تعالى يتولَّى هُداك.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾ شروعٌ في نوعٍ آخرَ من النِّعَم متعلِّق بالبحر إثْرَ تفصيل النوعِ المتعلِّق بالبَرِّ، وجعلهُ بعضُهم عَديلاً لقوله تعالى: (هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم) فلذا جاء على أسلوبه جملة اسمية معرَّفة الجزأين، وما وقع في البَين إما مترتِّبٌ على ذلك الماء المنزَّل، وإما متضمِّنٌ لمصلحة ما يترتَّبُ عليه، والبحر على ما في «البحر» يشملُ المِلْحَ والعَذْب[3]. والمعنى: جعل لكم ذلك بحيثُ تتمكَّنون من الانتفاع به بالركوب والغَوص والاصطياد.

﴿لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو السمك، والتعبيرُ عنه باللَّحم مع كونه حيواناً للإشارة إلى قِلَّة عظامه وضَعْفها في أغلب ما يُصطاد للأكل بالنسبة إلى الأنعام الممتَنِّ بالأكل منها فيما سبق، وقيل: للتلويح بانحصار الانتفاع به في الأكل، و«من» متعلِّقٌ بـ «تأكلوا» أو حالٌ مما بعده، وهي ابتدائية، وجُوِّزَ أن تكونَ تبعيضية

(١) حاشية الشهاب ٥/ ٣١٧.
(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ١٠٣.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٧٩.

والكلام على حَذْفِ مضاف، أي: من حيوانه، وحينئذٍ يجوز أن [يُراد][1] من اللَّحم الطَّريّ لحم السمك، كما يجوز أن يُراد منه السمك.

والطَّريُّ فعيلٌ من طَرُوَ يَطْرُو طَراوَةً، مثل سَرُوَ يَسْرُو سَرَاوَةً، وقال الفراء: من طَرِيَ يَطْرَى طَراءً وطراوةً كَشَقِيَ يَشْقَى شَقاءً وشَقاوةً.

والطراوة ضد اليبوسة، ووَصفه بذلك للإشعار بلطافته والتنبيه إلى أنه ينبغي المسارَعةُ إلى أكْله، فإنه لكونه رَطْباً مستعدٌّ للتغيُّر، فيُسرع إليه الفساد والاستحالة، وقد قال الأطباء: إنَّ تناوله بعد ذهاب طراوته من أَضَرِّ الأشياء، ففيه إدماجٌ لِحُكْمٍ طِبِّيٍّ، وهذا على ما قيل لا ينافي تقديدَهُ وأَكْلَه محلَّلاً[2] كما توهّم، وفي جَعْل «البحر» مبتدأ أَكْله على أحد الاحتمالين إيذانٌ بالمسارَعة أيضاً.

وزعم بعضُهم أنَّ في الوصف إيذاناً أيضاً بكمال قُدْرته تعالى في خَلْقه عَذْباً طَرِيّاً في ماءٍ مُرٍّ لا يُشْرب، وفيه شيءٌ [كما][3] لا يخفى.

ولا يؤكَلُ عندنا من حيوان البحر إلا السمك، ويؤيِّدُه تفسيرُ اللَّحم به المرويُّ عن قتادة وغيره. وعن مالكٍ وجماعةٍ من أهل العلم إطلاقُ جميع ما في البحر، واستثنى بعضُهم الخنزيرَ والكلبَ والإنسانَ، وعن الشافعيِّ أنه أطلق ذلك كلَّه، ويوافقه ما أخرجه ابنُ أبي حاتم عن السُّدِّيِّ أنه قال: هو السمك وما في البحر من الدواب[4]. نعم يكره عندنا أكلُ الطَّافي منه، وهو الذي يموتُ حَتْفَ أنفه في الماء، فيطفو على وجه الماء؛ لحديث جابرٍ عن النبيِّ ﷺ: «ما نَضَبَ الماءُ عنه فكلوا، وما لَفَظَهُ الماءُ فكلوا، وما طفا فلا تأكلوا»[5] وهو مذهبُ جماعةٍ من

(١) ما بين حاصرتين ليس في (م).
(٢) كذا في الأصل و(م): محللاً. وفي حاشية الشهاب ٥/ ٣١٧ والكلام منه: مخللاً.
(٣) ما بين حاصرتين ليس في (م).
(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٧٨.
(٥) ذكره ابن حجر في الدراية ٢/ ٢١٢، والزيلعي في نصب الراية ٤/ ٢٠٢. قال ابن حجر: لم أجده هكذا، والذي أخرجه أبو داود [٣٨١٥] من حديث جابر رفعه: «ما ألقاه البحر أو جزر عنه فكلوه، وما مات فيه وطفا فلا تأكلوه». وقد روي موقوفاً. قال أبو داود: وهو أرجح. وكذا قال الدارقطني.

الصحابة رضي الله عنهم، وميتةُ البحر في خبر: «هو الطَّهور ماؤه، الحلُّ ميتته»[1] ما لَفَظَهُ ليكون موتُهُ مضافاً إليه لا ما مات فيه من غير آفة، وما قُطِعَ بعضُه فمات، يَحِلُّ أَكْلُ ما أُبينَ وما بقي؛ لأنَّ موتَهُ بآفةٍ، وما أُبينَ من الحيِّ فهو ميتٌ، وإن كان ميتاً فميتته حلال، ولو وُجد في بَطْنِ السَّمكةِ سمكةٌ أخرى تؤكل؛ لأنَّ ضِيقَ المكان سببُ موتها، وكذا إذا قَتَلَها طيرُ الماء وغيره، أو ماتتْ في حُبٍّ[2] ماءٍ، وكذا إن جُمع السَّمكُ في حظيرةٍ لا يستطيعُ الخروجَ منه، وهو يقدرُ على أَخْذه بغير صَيدٍ فمات فيها، وإن كان لا يؤخَذُ بغير صيدٍ فلا خيرَ في أكله؛ لأنه لم يظهر لموته سبب، وإذا ماتتِ السَّمكةُ في الشَّبكة وهي لا تقدِرُ على التخلُّص منها، أو أكلتْ شيئاً ألقاه في الماء لتأكل منه، فماتت منه، وذلك معلومٌ، فلا بأسَ بأكلها؛ لأنَّ ذلك في معنى ما انحسَرَ عنه الماء، وفي موت الحَرِّ والبردِ روايتان: إحداهما ـ وهي مرويةٌ عن محمد ـ: يؤكلُ؛ لأنه ماتَ بسبب حادثٍ، وكان كما لو ألقاه الماءُ على اليبس. والأخرى ورويت عن الإمام أنه لا يؤكل؛ لأنَّ الحَرَّ والبردَ صفتان من صفة الزمان، وليسا من أسباب الموت في الغالب، ولابأس بأكلِ الجِرِّيثِ والمَارْماهي[3]، واشتهر عن الشيعة حُرْمة أكل الأول فليُراجع.

واستدلَّ قتادةُ كما أخرج ابنُ أبي شيبةَ عنه[4] بالآية على حِنْثِ مَنْ حَلَفَ لا يأكلُ لحماً، فأكل سَمَكاً؛ لما فيها من إطلاق اللَّحم عليه. وروي ذلك عن مالكٍ أيضاً.

وأجيب بأنَّ مبنى الأيمان على ما يتفاهمهُ الناسُ في عُرْفهم لا على الحقيقة اللُّغوية، ولا على استعمال القرآن، ولذا لمَّا أفتى الثوريُّ بالحِنْثِ في المسألة المذكورة للآية، وبلغ أبا حنيفةَ عليه الرحمةُ قال للسائل: ارجعْ واسأله عمَّن حلفَ لا يجلس على بساطٍ، فجلسَ على الأرض، هل يحنثُ لقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ

---

(١) أخرجه أحمد (٧٢٣٣)، وأبو داود (٨٣)، والترمذي (٦٩)، والنسائي ١/ ٥٠، وابن ماجه (٣٨٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) الحُبُّ: الجرَّة، أو الضخمةُ منها. القاموس المحيط (حبب).

(٣) الجِرِّيث: ضَرْبٌ من السمك معروف، ويقال له: الجِرِّيُّ.

والمارماهي: نوع من السمك يشبه الحيات. لسان العرب (جرث)، والمعجم الفارسي ص ٥٣٣.

(٤) ٤/ ٥٣ نشرة العمروي.

﴿ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ [نوح: ١٩] فقال له: كأنكَ السائلُ أمس؟ فقال: نعم، فقال: لا يحنثُ في هذا ولا في ذاك، ورجع عمَّا أفتى به أولاً، والظاهرُ أن متمسَّك الإمام قد كان العُرْف، وهو الذي ذهب إليه ابنُ الهمام لا ما في «الهداية» كما قال من أنَّ القياس الحِنْث، ووجهُ الاستحسان أنَّ التسميةَ القرآنيةَ مجازيةٌ؛ لأنَّ منشأَ اللَّحمِ الدم، ولا دمَ في السمك لسكونه الماءَ، مع انتقاضه بالآلية فإنها تنعقدُ من الدَّم ولاَ يَحْنَثُ بأكلها[١].

واعتُرض بأنه يجوزُ أن يكونَ في المسألة دليلان ليس بينهما تَنافٍ، وما ذُكر من النقض مدفوعٌ بأنَّ المذكورَ كلُّ لحمٍ ينشأُ من الدَّم، ولا يلزمُ عكسه الكُلِّي.

وتعقِّبَ بأنَّ إطلاقَ اللَّحم على السَّمك لغةً، لا شُبهةَ فيه، فينتقضُ الطَّردُ والعَكْسُ، فمراد المعترض الردُّ عليه بزيادةٍ في الإلزام. نعم قد يقال: مرادهُ بالمجاز المذكور أنه مجازٌ عرفيٌّ كالدابة إذا أُطلقتْ على الإنسان، فيرجعُ كلامهُ إلى ما قاله الإمام، وحينئذٍ لا غُبار عليه، وما ذكره بيانٌ لوجه الاستعمال العرفيِّ، فلا يردُ عليه شيءٌ، وهو كما ترى، وعلى طِرز ما قاله الإمامُ يقال فيمنْ حلفَ لا يركبُ دابةً، فركبَ كافراً أنه لا يحنثُ، مع أنَّ الله سبحانه سمَّى الكافرَ دابةً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنفال: ٥٥]، وفي «الكشاف» بيان[٢] لعدم إطلاق اللَّحم على السمك عُرْفاً أنه إذا قال واحدٌ لغلامه: اشترِ بهذه الدراهم لحماً، فجاء بالسمك، كان حقيقاً بالإنكار عليه[٣]. أي: وهو دليلٌ على عدم إطلاق اللَّحم عليه في العُرْف، فَحيثُ كانت الأيمان مبنيةً على العُرْف لم يَحْنَثْ بأكله.

واعتُرض بأنه لو قال لغلامه: اشترِ لحماً فاشترى لحمَ عصفور، كان حقيقاً بالإنكار مع الحنث بأكله. وتُعقِّب بأنَّ الإنكار إنما جاء من نُدْرة اشتراءِ مثله؛ لأنه غيرُ متعارفٍ، وفيما نحن فيه اشتراءُ السمك ولحمُه متعارَفٌ، فليس محلُّ الإنكار إلا عدم إطلاق اللَّحم عليه.

---

(١) فتح القدير ٤/٤٧.
(٢) في الأصل و(م): بياناً، والمثبت هو الصواب.
(٣) الكشاف ٢/٤٠٤.

﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً﴾ كاللؤلؤ والمرجان ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ أي: تلبسها نساؤكم، وُجِّه[1] ذلك بأنه أُسند إلى الرجال لاختلاطهم بالنساء وكونهم متبوعين، أو لأنهم سببٌ لتزيُّنهنَّ، فإنهنَّ يتزيَّنَّ ليحسُنَّ في أعينِ الرجال، فكان ذلك زينتهم ولباسهم.

قال ابن المنير: ولله تعالى دَرُّ مالكٍ ﷺ حيثُ جعل للزوج الحَجْر على زوجته فيما له بالٌ من مالها، وذلك مقدَّرٌ بالزائد على الثلث لحقِّه فيه بالتجمُّل، فانظر إلى مَكَنة حَظِّ الرجال من مال النساء ومن زينتهنَّ، حتى جُعل كحظِّ المرأة من مالها وزينتها، فعبَّر عن حَظِّه في لبسها بلبسه كما يُعبَّر عن حَظِّها سواء، مؤيَّداً بالحديث المرويِّ في الباب[2].

ويُفهم منه جواز اعتبار المجاز في الطرف، وصرَّح بذلك بعضُهم وفسَّر «تلبسون» بتتمتَّعون وتتلذَّذون، ويجوز أن يكونَ المجازُ في النقص وما أُظهر في التفسير مرادٌ في النَّظْم.

وقيل: الكلامُ على التغليب أو من باب: بنو فلان قتلوا زيداً، ففيه إسنادُ ما للبعض إلى الكُلِّ.

وتُعقِّبَ بأنه وجهٌ لكلا الوجهين، أما الأولُ فلعدمِ التلبُّس بالمسنَد وهو اللبس، وأما الثاني فلأنه لا يتمُّ بدون المجاز في الطَّرف، فلا وجهَ للعدول عن اعتباره على النحو السابق إلى هذا.

وقال بعضُهم: لا حاجةَ إلى كلِّ ذلك، فإنه لا مانعَ من تزيُّن الرجال باللؤلؤ.

وتُعقِّب بأنه بعد تسليم أنه لا مانعَ منه شرعاً مخالفٌ للعادة المستمرَّة، فيأباه لفظُ المضارع الدالُّ على خلافه، ولا يصحُّ ما يقال: إنَّ في البحر زمرُّداً بحريّاً، وبفَرْض الصِّحَّة يجيءُ هذا أيضاً، ولعله لما أنَّ النساءَ مأموراتٌ بالحجاب وإخفاء الزينة عن غير المحارم أخفى التصريحَ بنسبة اللّبس إليهنَّ ليكون اللَّفظ كالمعنى.

واستدلَّ أبو يوسف ومحمد عليهما الرحمة بالآية على أنَّ اللؤلؤ يُسمَّى حَلْياً، حتى لو حلفَ لا يلبسُ حلْياً فلبسهُ حَنثَ. وأبو حنيفة ﷺ يقول: لا يحنثُ؛ لأنَّ

---

(١) في (م): وجهة.

(٢) الإنصاف ٢/ ٤٠٤.

اللؤلؤَ وحدهُ لا يسمَّى حَلْياً في العُرْف، وبائعه لا يقال له بائع الحُليّ، كذا في «أحكام الجصاص»[١].

واستدلَّ بعضُهم بالآية على أنه لا زكاةَ في حَلْي النساء، فأخرج ابنُ جريرٍ عن أبي جعفر أنه سُئل هل في حَلْي النساء صدقة؟ قال: لا، هي كما قال الله تعالى: ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾[٢]. وهو كما ترى، ثم إنَّ اللَّحم الطَّريَّ يخرجُ من البحر العَذْب والبحر المِلْح، والحلية إنما تخرجُ من المِلْح، وقيل: إنَّ العَذْب يخرجُ منه لؤلؤٌ أيضاً إلا أنه لا يُلبَسُ إلا قليلاً، والكثيرُ للتداوي به، ولم نرَ مَنْ ذكرَ ذلك في أكثر الكتب المصنَّفة لذِكْر مثل ذلك.

وأخرج البزارُ عن أبي هريرةَ قال: كلَّم الله تعالى البحرَ الغربيَّ وكلَّم البحر الشرقيَّ، فقال للبحر الغربي: إني حاملٌ فيك عباداً من عبادي، فما أنت صانعٌ بهم؟ قال: أُغرقهم. قال: بأسُكَ في نواحيك، وحَرَمَهُ الحِليةَ والصيدَ، وكلَّم هذا البحرَ الشرقي فقال: إني حاملٌ فيك عباداً من عبادي، فما أنتَ صانعٌ بهم؟ قال: أَحملهم على يدي، وأكونُ لهم كالوالدة لولدها، فأثابه سبحانه الحِليةَ والصيد[٣]. وأخرج نحو ذلك ابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن عمرو بن العاص عن كعب الأحبار[٤]، والله تعالى أعلم بصحة ذلك، وظاهرُ كلام الأكثرين حَمْلُ «البحر» في الآية على البحر المِلْح وهو مملوءٌ من السمك، بل قيل: إنَّ السمكَ يُطلقُ على كلِّ ما فيه من الحيوانات، ولا يكون اللؤلؤ إلا في مواضعَ مخصوصةٍ منه.

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ﴾ السفن ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ جواري فيه، جَمْع: ماخِرة؛ بمعنى جارية، وأصل المَخْر الشَّق، يقال: مَخَرَ الماءُ الأرضَ إذا شَقَّها، وسُمِّيتِ السُّفن بذلك لأنها تَشُقُّ الماءَ بمَقْدِمِها، وقال الفراء: هو صوتُ جَري الفلك بالرياح[٥].

---

(١) ٣/ ١٨٤.
(٢) تفسير الطبري ٤/ ١٨٦.
(٣) البزار (١٦٦٩) كشف الأستار. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ٢٨٢: رواه البزار وجادةً، وفيه: عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر العُمري وهو متروك.
(٤) كما في الدر المنثور ٤/ ١١٣.
(٥) معاني القرآن ٢/ ٩٨.

﴿وَلِتَبۡتَغُواْ﴾ عَطْفٌ على «تستخرجوا» وما عُطف عليه وما بينهما اعتراضٌ لتمهيد مبادئ الابتغاء ودفع كونه باستخراج الحلية، وعدلَ عن نمط الخطاب السابق واللاحق ـ أعني: خطابَ الجمع إلى خطابِ المفرد ـ المراد به كلُّ مَنْ يصلح للخطاب؛ إيذاناً بأنَّ ذاك غير مسوقٍ مساقهما، وأجاز ابنُ الأنباريِّ[1] أن يكون معطوفاً على عِلَّةٍ محذوفةٍ أي: لتنتفعوا بذلك ولتبتغوا، وأن يكون متعلِّقاً بفعْلٍ محذوفٍ، أي: فَعَلَ ذلك لتبتغوا، وهو تكلُّفٌ يغني الله تعالى عنه.

﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾ من سعة رزقه بركوبها للتجارة ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٤﴾ تقومون بحقِّ نِعَم الله تعالى بالطاعة والتوحيد، ولعلَّ تخصيصَ هذه النعمة بالتعقيب بالشكر؛ لأنها أقوى في باب الإنعام من حيثُ إنه جعلَ ركوبَ البحر ـ مع كونه مَظِنَّة الهلاك؛ لأنَّ راكبيه كما قال عمر ﷺ: دودٌ على عود ـ سبباً للانتفاع وحصول المعاش، وهو من كمال النعمة لقطع المسافة الطويلة في زمن قصير مع عدم الاحتياج إلى الحِلِّ والتّرحال والحركة، مع الاستراحة والسُّكون، وما أحسن ما قيل في ذلك:

وإنَّا لفي الدنيا كركب سفينةٍ نُظَنُّ وقوفاً والزمانُ بنا يسري[2]

وعدمُ توسيط الفوز بالمطلوب بين الابتغاء والشكر قيل: للإيذان باستغنائه عن التصريح به وبحصولهما معاً.

واستُدلَّ بالآية على جواز ركوب البحر للتجارة بلا كراهة، وإليه ذهب جماعة، وأخرج عبد الرزاق عن ابن عمر أنه كان يكرهُ ركوبَ البحر إلا لثلاثٍ غازٍ أو حاجٍّ أو معتمر[3].

﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾ أي: جبالاً ثوابت، وقد مرَّ تمامُ الكلام في ذلك[4].

---

(١) كما نقل عنه صاحب البحر ٥/ ٤٨٠.

(٢) البيت للتهامي، وهو في الكشكول ١/ ٨. وفيه: يجري، بدل: يسري.

(٣) مصنف عبد الرزاق (٩٦٢٨).

(٤) في سورة الرعد، الآية (٣)، ينظر ١٣/ ٢٣.

﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي: كراهةَ أن تميد، أو لئلّا تميد، والمَيْد: اضطرابُ الشيء العظيم، ووجهُ كون الإلقاء مانعاً عن اضطراب الأرض بأنها كسفينةٍ على وجه الماء، والسفينةُ إذا لم يكن فيها أجرامٌ ثقيلةٌ تضطربُ وتميلُ من جانبٍ إلى جانبٍ بأدنى شيءٍ، وإذا وُضعتْ فيها أجرامٌ ثقيلةٌ تستقرُّ، فكذا الأرضُ لو لم يكنْ عليها هذه الجبالُ لاضطربت، فالجبالُ بالنسبة إليها كالأجرام الثقيلة الموضوعة في السفينة بالنسبة إليها.

وتعقَّبه الإمام بوجوه[1]: الأول على مذهب الحكماء القائلين بأنَّ حركةَ الأجسام أو سكونَها لطبائعها: أنَّ الأرضَ أثقلُ من الماء، فيلزمُ أن تغوصَ فيه، لا أن تطفوَ أو ترسى بالجبال، وهذا بخلاف السفينة فإنها متَّخذةٌ من الخشب وبين أجزائه هواءٌ يمنعه من السكون، ويُفضي به إلى المَيْد لولا الثقيل. والثاني: على مذهب أهل الحقِّ القائلينَ بأنه ليس للأجسام طبائع تقتضي السكون أو الحركة، فما سَكَنَ ساكنٌ وما تحرَّكَ متحرِّكٌ في برٍّ وبحرٍ إلَّا بمحضِ قُدْرة الله تعالى وحده.

والثاني: أنَّ إرساءَ الأرض بالجبال لئلَّا تميدَ وتبقى واقفة على وجه الماء، إنما يُعقَلُ إذا كان الماءُ الذي استقرَّت على وجهه ساكناً، وحينئذٍ يقال: إن قيل: إنَّ سببَ سكونه في حَيِّزه المخصوص طبيعتُهُ المخصوصةُ، فَلِمَ لا يقال في سكون الأرض في هذا الحيِّز إنه بسبب طبيعتها المخصوصة أيضاً، وإن قلنا: إنه بمَحْضِ قدرته سبحانه، فَلِمَ لمْ يقل: إنَّ سكونَ الأرض أيضاً كذلك، فلا يُعقَلُ الإرساءُ بالجبال على التقديرين.

والثالث: أنه يجوز أن تميدَ الأرضُ بكلِّيَّتها، ولا تظهر حركتُها ولا يشعر بها أهلها، ويكون ذلك نظير حركة السفينة من غير شعور راكبها بها، ولا يأبى ذلك الشعور بحركتها عند احتقان البخار فيها؛ لأنَّ ذلك يكونُ في قطعة صغيرة منها، وهو يجري مجرى الاختلاج الذي يحصلُ في عضوٍ معيَّنٍ من البدن، ثم قال: والذي عندي في هذا الموضع المشكل أن يُقال: ثبتَ بالدلائل اليقينية أنَّ الأرضَ كرةٌ، وثبتَ أنَّ هذه الجبالَ على سطح الكرة جاريةٌ مجرى خشوناتٍ تحصلُ على

(١) في (م): لوجوه.

وجه هذه الكرة، وحينئذٍ نقول: لو فرضنا أنَّ هذه الخشونات ما كانت حاصلةً، بل كانت ملساءَ خاليةً عنها، لصارت بحيث تتحرَّكُ على الاستدارة كالأفلاك لبساطتها، أو تتحرَّكُ بأدنى سببٍ للتحريك، فلمَّا خُلقتْ هذه الجبال وكانت كالخشونات على وجهها، تفاوتتْ جوانبها وتوجَّهتِ الجبالُ بثِقَلِها نحوَ المركز، فصارتْ كالأوتاد لمنعها إياها عن الحركة المستديرة[١].

وقد تابع الإمامَ في هذا الحلِّ العلامةُ البيضاويُّ[٢]، واعتُرض عليه بأنه لا وجهَ لما ذكره على مذهب أهل الحقِّ، ولا على مذهب الفلاسفة، أما الأول فلأنَّ ذاتَ شيءٍ لا تقتضي تحرُّكهُ، وإنما ذلك بإرادة الله تعالى، وأما الثاني فلأنَّ الفلاسفةَ لم يقولوا: إنَّ حقَّ الأرض أن تتحرَّك بالاستدارة؛ لأنَّ في الأرض ميلاً مستقيماً وما هو كذلك لا يكون فيه مَبْدُ ومَيلٌ[٣] مستديرٌ على ما ذكروا في الطبيعي.

وأُوردَ أيضاً على مَنْعِ الجبال لها من الحركة أنه قد ثبتَ في الهندسة أنَّ [نسبة][٤] أعظم جبلٍ في الأرض ـ وهو ما ارتفاعه فَرْسخان وثلث فَرسخ ـ إلى قُطْرِ الأرض نسبةُ خُمْس سُبْع عَرْض شعيرةٍ إلى كُرةٍ قُطرها ذراع، ولا ريبَ في أنَّ ذلك القَدْر من الشعيرة لا يُخرجُ تلكَ الكرةَ عن الاستدارة، بحيث يمنعها عن الحركة، وكذا حالُ الجبال بالنسبة إلى كرةِ الأرض.

ثم قيل: الصحيحُ أن يُقال: خلق الله تعالى الأرض مضطربةً لحكمةٍ لا يعلمها إلا هو، ثم أرساها بالجبال على جريان عادته في جَعْل الأشياء منوطة بالأسباب.

وقال بعض المحققين في الجواب: إنَّ المقصودَ أنَّ الأرض من حيثُ كونُها كرةً حقيقيةً بسيطةً مع قَطْع النظر عن كونها عنصراً، كان حقُّها أحد الأمرين، لأنها من تلك الحيثية إما ذو مَيلٍ مستديرٍ كالأفلاك، فكان حقُّها حينئذٍ أن تتحرَّكَ مثلَها على الاستدارة، وإما ذو مَيلٍ مستقيم فكان حقُّها[٥] السكون، لكنها تتحرَّكُ بأدنى

---

(١) تفسير الرازي ٢٠/٨-٩ بنحوه.

(٢) تفسير البيضاوي ٣/١٧٨.

(٣) في الأصل و(م): مبدأ ميل. والمثبت من حاشية الشهاب ٥/٣١٩ والكلام منها.

(٤) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٥/٣١٩، والكلام منها.

(٥) في (م): مستقيم فحقها.

قاسر، أما السكون فلأنَّ الجسمَ الحاصلَ في الحيِّز الطبيعيِّ لا[1] يتحرَّكُ حركةً طبيعية آنيةً لاستلزامها الخروجَ عن الحيِّز الطبيعيِّ، ولا يتصوَّرُ من الأرض الحركة الإرادية لكونها عديمةَ الشعور، وأما التحرُّك بأدنى قاسر فيَحكم به بالضرورة مَنْ له تخيُّلٌ صحيحٌ، واستوضح ذلك من كرةٍ حقيقية على سطح حقيقيٍّ، فإنها لا تماسُّه إلا بنقطةٍ، فبأدنى شيءٍ ولو نفخةٍ تتدحرجُ عن مكانها. نعم الواقعُ في نفس الأمر أحدُ الأمرين معيَّناً، وذِكْرهما توسيعٌ للدائرة، وهو أمرٌ شائعٌ فيما بينهم، فيندفع قوله: وأما الثاني فلأنَّ الفلاسفة.. إلخ.

وأما قوله: إنه قد ثبتَ في الهندسة.. إلخ، فجوابه أنهم قد صرَّحوا في كتب الهيئة بأنَّ في كلِّ إقليم ثلاثين جبلاً، بل أكثر، فنسبةُ كلِّ جبلٍ وإن كانت كالنسبة المذكورة، لكن يجوزُ أن يكونَ مجموعُها مانعاً عن حركتها، كالحبل المؤلَّفِ من الشَّعَرات المخالف حكمه حكم كلِّ شعرة، على أنَّ تلك النسبة باعتبار الحجْم ومنعها عن حركتها باعتبار الثِّقَل وثقل هذه الجبال، يكادُ أن يقاومَ ثِقَلَ الأرض؛ لأنَّ الجبالَ أجسامٌ صلبةٌ حجريةٌ، والأرضَ رِخوةٌ متخلخلةٌ كالكرة الخشبية التي أُلزقتْ عليها حبَّاتٌ من حديد، وما يقال من أنَّ فيه غير ذلك ابتناءً على قواعد الفلسفة، فلا يُطعن فيه؛ لأنَّ ذلك الابتناء غيرُ مُضِرٍّ إن لم يخالفِ القواعدَ الشرعيةَ كما فيما نحن فيه.

واعتُرض على ما ادَّعى المعترِضُ صحَّته بأنه يردُ عليه ما أورده، وظني أنه بعد الوقوفِ على مراده لا يردُ عليه شيءٌ مما ذكر، ونحن قد أسلفنا نحوه وأطنبنا الكلامَ في هذا المقام، ومنه يظهرُ ما هو الأوفق بقواعد الإسلام، ثم ما ذكره المجيب من أنَّ المصرَّح به في كتب الهيئة أنَّ في كلِّ إقليم ثلاثينَ جبلاً بل أكثر، خلافُ المشهور، وهو أنَّ في الإقليم الأول عشرينَ وفي الثاني سبعة وعشرين، وفي الثالث ثلاثة وثلاثين، وفي الرابع خمسة وخمسين، وفي الخامس ثلاثين، وفي كلٍّ من السادس والسابع أحدَ عشرَ، والمجموعُ مئةٌ وسبعةٌ وثمانونَ جبلاً، على أنَّ كلامه لا يخلو عن مناقشة، فتدبر.

---

(١) في (م): لما.

ومعنى «ألقى» على ما نقل ابنُ عطيةَ عن المتأوِّلين: خَلَقَ وجَعَلَ، واختار هو أنه أخصُّ من ذلك، وذلك أنه يقتضي أنَّ الله سبحانه أوجدَ الجبالَ من محضِ قُدرته واختراعه، لا من الأرض، ووَضَعها عليها[١]. وأُيِّدَ بأخبارٍ رووها في هذا المقام، وقد تقدَّم بعضها.

ولم يُعَدَّ بـ «على» كما في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩] للإشارة إلى كمال الجبال ورسوخها وثباتها في الأرض، حتى كأنها مساميرُ في ساجة[٢]. وانظر هل تُعَدُّ من الأرض فيَحنَثُ مَنْ حَلَفَ لا يجلسُ على الأرض إذا جلس عليها، أم لا، فلا يحنث، لم يحضرني مَنْ تعرَّض لذلك، والظاهرُ الأول لِعَدِّ العُرْف إياها منها، وإن كان ظاهرُ هذه الآية كغيرها عدمَ العَدِّ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ عَطْفٌ على «رواسي»، والعامل فيه «ألقى» إلا أنَّ تَسَلُّطهُ عليه باعتبار ما فيه من معنى الجَعْل والخَلْق، أو تضمينه[٣] إياه، وعلى التقديرين لا إضمارَ، وهو الذي اختاره غيرُ واحد، وجُوِّزَ أن يكون مفعولاً به لفعلٍ مُضْمَر، وليس إجماعاً، خلافاً لابن عطية[٤]، أي: وجَعَلَ أو خَلَقَ أنهاراً، نظيرَ ما قيل في قوله:

عَلَفْتُها تبناً وماءً بارداً[٥]

وقَدَّر أبو البقاء[٦]: شَقَّ، والعطفُ حينئذٍ من عَطْفِ الجُمَلِ، وكأنه لمَّا كان أغلبُ منابع الأنهار من الجبال، ذَكَرَ الأنهار بعد ما ذكر الجبال.

وقوله تعالى: ﴿وَسُبُلًا﴾ عَطْفٌ على «أنهاراً» أي: وجَعَلَ طُرُقاً لمقاصدكم ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥﴾ لها، فالتعليلُ بالنظر إلى قوله تعالى: (وَسُبُلًا) كما هو

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٨٤.

(٢) الساج: ضربٌ عظيم من الشجر، الواحدة: ساجة، وجمعها: ساجات، ولا ينبت إلا بالهند ويُجلب منها إلى غيرها. وقال الزمخشري: خشب سود رِزان لا تكاد الأرض تبليها. أساس البلاغة والمصباح المنير (سوج).

(٣) في الأصل: أو تضمنه.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٣٨٤.

(٥) عجزه: حتى شتت همالة عيناها. وسلف ٦/ ٣٢٥.

(٦) الإملاء ٣/ ٤٤٣.

الظاهر، ويجوز أن يكونَ تعليلاً بالنظر إلى جميع ما تقدم؛ لأنَّ تلك الآثار العِظام تدلُّ على بطلان الشِّرك[1]، وقيل: تدلُّ على وجود فاعل حكيم، ففي قوله تعالى: ﴿تَهْتَدُونَ﴾ توريةٌ حينئذ.

﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ معالمُ يستدلُّ بها السَّابلةُ من نحو جبلٍ ومنهل ورائحة تراب، فقد حُكي أنَّ من الناس من يَشَمُّ الترابَ فيعرفُ بشَمِّه الطَّريقَ وأنها مسلوكةٌ أو غيرُ مسلوكة، ولذا سُمِّيتِ المسافةُ مسافةً أخذاً لها من السَّوف بمعنى الشَّم، وأخرج ابنُ جرير وغيره عن ابن عباس أنها معالمُ الطُّرق بالنهار. وعن الكلبيِّ أنها الجبال. وعن قتادة أنها النجوم[2]، وقال ابن عيسى: المراد منها الأمور التي يُعلَمُ بها ما يُراد من خَطٍّ أو لفظٍ أو إشارةٍ أو هيئة. والظاهر ما ذُكر أولاً.

وأغربُ ما فُسِّرتْ به وأبعدهُ أنَّ المرادَ منها حيتانٌ طِوالٌ رِقاقٌ كالحيات في ألوانها وحركاتها، تكونُ في بحر الهند الذي يُسارُ إليه من اليمن، سُمِّيتْ بذلك لأنها إذا ظهرتْ كانت علامةً للوصول إلى بلاد الهند وأمارةً للنجاة.

﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ بالليل في البرِّ والبحر، والمراد بالنجم الجنس، فيشمل الخُنَّسَ[3] وغيرها مما يهتدى به، وعن السُّدِّيِّ تخصيصُ ذلك بالثُّريا والفَرْقدين وبنات نَعْشٍ والجَدي[4]؛ وعن الفراء تخصيصه بالجدي والفرقدين[5]. وعن بعضهم أنه الثريا، فإنه عَلَمٌ بالغَلَبة لها، ففي الحديث: «إذا طلعَ النجمُ ارتفعت العاهة»[6] وقال الشاعر:

---

(١) في (م): الترك.

(٢) تفسير الطبري ١٤/ ١٩٢-١٩٣.

(٣) الخُنَّس: الكواكب كلها، أو السيارة، أو النجوم الخمسة: زُحَل والمشتري والمريخ والزهرة وعُطارد، وخنوسها أنها تغيب. القاموس المحيط (خنس).

(٤) الفرقد: هو النجم الذي يُهتدى به. وبنات نعش: سبعة كواكب أربعة منها نعش وثلاث بنات. والجدي: هو النجم الدائر مع بنات نعش. القاموس المحيط (فرقد) و(نعش) و(جدي).

(٥) معاني القرآن ٢/ ٩٨.

(٦) أخرجه أحمد (٨٤٩٥)، من حديث أبي هريرة ﷺ ولفظه: «إذا طلع النجم ذا صباح رُفعت العاهة» قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٤/ ٣٩٥: النجم هو الثريا، وطلوعها صباحاً يقع في =

حتى إذا ما استقرَّ النَّجمُ في غَلَسٍ وغُودِرَ البقلُ مَلْويٌّ ومحصودُ[1]

وعن ابن عباس أنه سأل النبيَّ ﷺ عن ذلك فقال: «هو الجدي»[2]. ولو صحَّ هذا لا يُعدلُ عنه، والجَدْي: هو جَدْي الفَرْقد، وهو على ما في «المُغْرِب» بفتح الجيم وسكون الدَّال، والمنجِّمون يُصغِّرونه فَرْقاً بينه وبين البُرج[3]. وقيل: إنه كذلك لغة، واستدلَّ على إرادة ما يعمُّ ذلك بما في «اللوامح» عن الحسن أنه قرأ: «وبالنُّجُم» بضمَّتين، وعن ابن وثَّاب أنه قرأ بضَمٍّ فسكون[4]، فإنَّ ذلك في القراءتين جَمْعٌ، كَسُقُف وسَقْف، ورُهُن ورَهن، والتسكينُ قيل: للتخفيف، وقيل: لغة.

والقول بأنَّ ذلك جمعٌ على «فُعُل» أولى مما قيل: إنَّ أصله النجوم، فحُذفت الواو، وزعم ابنُ عصفور أنَّ قولهم: «النُّجُم» من ضرورة الشعر وأنشد:

إنَّ الذي قضى بذا قاضٍ حَكَمْ

أن يَرِدَ الماءَ إذا غابَ النُّجُم[5]

= أول فصل الصيف، وذلك عند اشتداد الحَرِّ في بلاد الحجاز وابتداء نضج الثمار، فالمعتبر في الحقيقة النضج، وطلوع النجم علامة له.

قال ابن الأثير في النهاية (نجم): أراد بطلوعها طلوعها عند الصبح، وذلك في العشر الأوسط من أيار، وسقوطُها مع الصبح في العشر الأوسط من تشرين الآخر، والعرب تزعم أن بين طلوعها وغروبها أمراضاً ووباء وعاهات في الناس والإبل والثمار... قال الحربي: إنما أراد بهذا الحديث أرض الحجاز لأن في أيار يقع الحصاد بها وتُدرك الثمار وحينئذ تباع لأنها قد أُمن عليها من العاهة.

(١) البيت لذي الرمة، وهو في شرح ديوانه ١٣٦٦/٢، ولفظه:

حتى إذا ما استقلَّ النجمُ في غلس وأُحصد البقل أو مُلْوٍ ومحصود

قال شارحه أبو نصر: استقلَّ النجم: أي طلع بعد النور عند الصبح. ويقال: قد ألوى النبتُ إلواءً إذا جفَّ.

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره ٣٠٦/١٢.

(٣) المغرب في ترتيب المعرب (جدي). وقوله: والمنجِّمون يُصغِّرونه، أي: جُدَيّ.

(٤) ذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٧٢ قراءة الحسن، وذكر ابن جني في المحتسب ٨/٢ القراءتين.

(٥) الرجز للأخطل، وهو في ديوانه ص ١٨٣. والبيت الأول فيه: إن الفقير بيننا قاض حكم.

وهو نظير قوله:

حتى إذا ابتلَّت حلاقيم الحُلُق[1]

والضمير يحتمل أن يكونَ عامًّا لكلِّ سالك في البرِّ والبحر من المخاطَبين فيما تقدَّم، وتغييرُ التعبير للالتفات، وتقديمُ الجارّ والمجرور للفاصلة، والضمير المنفصل للتقوِّي، ويحتمل أن يكون الضمير لقريش؛ لأنهم كانوا كثيري الأسفار للتجارة مشهورين بالاهتداء[2] في مسايرهم بالنجم، وإخراجُ الكلام عن سَنَن الخطاب، وتقديم الجارِّ والضمير للتخصيص؛ كأنه قيل: وبالنجم خصوصاً هؤلاء خصوصاً يهتدون، فالاعتبار بذلك والشكر عليه بالتوحيد ألزمُ لهم وأوجب عليهم.

وجعل بعضُهم الآيةَ أصلاً لمراعاة النجوم لمعرفة الأوقات والقبلة والطُّرق، فلابأس بتعلُّم ما يفيد تلك المعرفة، لكنْ معرفةُ عين القبلة على التحقيق بالنُّجوم مُتعسِّرٌ بل متعذِّر كما أفاده العلامة الربانيُّ أبو العباس أحمد بن البناء؛ لأنه إن اعتبر ذلك بما يُسامت رؤوس أهل مكة من النجوم، فليس مَسْقطُ العمود منه على بسيط مكة هو العمودَ الواقعَ منه على بسيط غيرها من المدن، وإن اعتبر بالجَدْي، فلا يلزمُ من أن يكون في مكة على الكَتِف أو على المنكب أن يكون في غيرها كذلك إلا لمن يكون في دائرة السَّمت المارَّة برؤوس أهل مكة والبلد الآخر، وذلك مجهولٌ لا يُتوصَّل إليه إلا بمعرفة ما بين الطُّولين والعَرْضين، وهو شيءٌ اختُلف في مقداره ولم يتعيَّن الصحيحُ فيه، وقولُ مَنْ قال: إنَّ ذلك يُعرفُ بجَعْل المصلِّي مثلاً الشمسَ بين عينيه إذا استوتْ في كَبِدِ السماء أطول يوم في السنة، فمتى فَعَلَ ذلك فقد استقبلَ البيتَ إن أراد بكبد السماء فيه كبد سماء بلده، فليس بصحيحٍ؛ لأنَّ الشمسَ لا تستوي في كَبِدِ السماء في وقتٍ واحدٍ في بلدين متنائيين كثيراً، وإن أراد به كَبِدَ سماءِ مكةَ، فلا يُعلَم ذلك في بلدٍ آخر إلا بمعرفة ما بين البلدين في الطول، وقد سمعتَ ما في ذلك من الاختلاف[3]، ويقال نحو هذا فيما يشبه ما ذكر، بل قال

---

(١) البيت لرؤبة ولم نقف عليه في ديوانه، وهو في المنصف ١/٣٤٨، والخصائص ٣/١٣٤، والبحر ٥/٤٨١.

(٢) في الأصل و(م): للاهتداء. والمثبت من تفسير البيضاوي ٣/١٧٨ والكلام منه.

(٣) في الأصل: الاختلال.

قُدِّس سِرُّه: إنَّ معرفةَ ذلك على التحقيق بما يذكرونه من الدائرة الهندية ونحوها متعذِّرٌ أيضاً؛ لأنَّ مبنى جميع ذلك على معرفة الأطوال والعروض، ودون تحقيق ذلك خَرْطُ القتاد، فلا ينبغي أن يكون الواجب على المصلِّي إلا تحرِّي الجهة، ومعرفةُ الجهة تحصلُ بالنجوم وكذا بغيرها مما هو مذكورٌ في محلِّه.

﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ﴾ ما ذكر من المخلوقات البديعة، أو يخلقُ كلَّ شيءٍ يريده ﴿كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ شيئاً ما جليلاً أو حقيراً، وهو تبكيتٌ للكَفَرة وإبطالٌ لإشراكهم وعبادتهم غيرَه تعالى شأنه من الأصنام بإنكار ما يستلزمه ذلك من المشابهة بينه سبحانه وبينه، بعدَ تعداد ما يقتضي ذلك اقتضاءً ظاهراً، وتعقيبُ الهمزة بالفاء لتوجيه الإنكار إلى ترتُّب توهُّم المشابهة المذكورة على ما فَعَلَ[(١)] سبحانه من الأمور العظيمة الظاهرةِ الاختصاص به تعالى شأنه، المعلومة كذلك فيما بينهم حسبما يُؤْذِنُ به غير آية، والاقتصارُ على ذِكْر الخلق من بين ما تقدَّم لكونه أعظمه وأظهره واستتباعه إياه، أو لكون كلّ من ذلك خَلْقاً مخصوصاً، أي: أبعد ظهور اختصاصه سبحانه بمبدئية هذه الشؤون الواضحة الدالة على وحدانيته تعالى وتفرُّده بالألوهية واستحقاق العبادة، يتصور المشابهة بينه وبين ما هو بمعزلٍ عن ذلك بالمرَّة كما هو قضية إشراككم، وكان حقُّ الكلام بحَسب الظاهر في بادئ النظر: أفمن لا يخلقُ كَمَنْ يخلق، لكن قيل: حيث كان التشبيهُ نسبةً تقوم بالمنتسبين[(٢)] اختير ما عليه النَّظْمُ الكريمُ مراعاةً لحقِّ سبق الملكة على العدم، وتفادياً عن توسيط عَدَمها بينها وبين جزئياتها المفصَّلة قبلها، وتنبيهاً على كمال قُبْح ما فعلوه من حيثُ إنَّ ذلك ليس مجرَّد رَفْع أصنامهم عن محلِّها، بل هو حَطٌّ لمنزلة الربوبية إلى مرتبة الجماد، ولا ريبَ أنه أقبحُ من الأول.

والمراد بـ «مَنْ لا يخلق» كلُّ ما هذا شأنه من ذوي العلم؛ كالملائكة وعيسى عليهم السلام وغيرهم كالأصنام، وأتى بـ «مَنْ» تغليباً لذوي العلم على غيرهم، مع ما فيه من المشاكلة، أو ذوو العلم خاصة، ويُعرَفُ منه حالُ غيرهم بدلالة النَّصِّ، فإنَّ مَنْ يخلقُ حيثُ لم يكن، كَمَنْ لا يخلقُ وهو من جملة ذوي العلم، فما ظنُّك بالجماد.

---

(١) كذا في الأصل و(م)، وفي تفسير أبي السعود ٥/ ١٠٤ والكلام منه: على ما فصل.
(٢) في الأصل: بين المنتسبين.

وقيل: المراد به الأصنامُ خاصة، والتعبير بـ «مَنْ» إما للمشاكلة، أو بناءً على ما عند عبدتها[1]، والأولى ما تقدَّم. ودخولُ الأصنام في حُكْم عدم المشابهة؛ إما بطريق الاندراج، أو بطريق الانفهام بدلالة النص على الطريق البرهانيِّ. قاله بعض المحققين.

واستُدلَّ بالآية على بطلان مذهب المعتزلة في زَعْمهم أنَّ العبادَ خالقون لأفعالهم.

وقال الشهاب بعد أنْ قرَّر تقديرَ المفعول عامّاً على طِرز ما ذكرنا، وجوّز أن يكونَ العمومُ فيه مأخوذاً من تنزيل الفعل منزلةَ اللازم أنه عُلم من هذا عدمُ توجُّه الاحتجاج بها على المعتزلة في إبطال قولهم بخَلْق العباد أفعالهم، كما وقع في كتب الكلام، لأنَّ السَّلْبَ الكُلِّيَّ لا ينافي الإيجابَ الجزئيَّ[2]. حسبما وجدناه في النسخ التي بأيدينا، ولعلها سقيمة، وإلا فلا أظنُّ ذلك إلا كبوة جواد، وهو ظاهر.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧﴾ أي: ألا تلاحظون فلا تتذكَّرون ذلك، فإنه لجلائه لا يحتاجُ إلى شيءٍ سوى التذكُّر، وهو مراجعةُ ما سبقَ تصوُّره وذُهِلَ عنه، وقدَّر بعضُهم المفعولَ عدم المساواة، وذكر أنه لعدم سَبْقه حتى يتصوَّر فيه حقيقة التذكُّر بأن يُتصوَّر ويُذهَلَ عنه، جُعل التذكُّر استعارةً تصريحية للعلم به، وقيل: الاستعارةُ مكنيةٌ في المفعول المقدَّر، وإثبات التذكُّر تخييلٌ، فتذكَّر.

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ تذكيرٌ إجماليٌّ لنعمه تعالى بعد تعداد طائفةٍ منها، وفَصَلَ ما بينهما بقوله تعالى: (أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ) - كما قيل - للمبادرة إلى إلزام الحُجَّة وإلقام الحجر إثْرَ تفصيل ما فَصَّلَ من الأفاعيل التي هي أدلةُ التوحيد، ودلالتها عليه وإن لم تكن مقصورة على حيثية الخلق ضرورة ظهور دلالتها عليه من حيثية الإنعام أيضاً، لكنها حيثُ كانت من مستتبعات الحيثية الأولى، استُغني عن التصريح بها، ثم بيَّن حالها بطريق الإجمال[3]، أي: إن تعدُّوا نعمَهُ

(١) في (م): عبدتهما.
(٢) حاشية الشهاب ٥/ ٣٢٠.
(٣) في (م): الإجمالي. والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٥/ ١٠٥.

تعالى الفائضةَ عليكم مما ذُكر ومما يُذكر، لا تطيقوا حَصْرَها وضَبْطَ عددها، فضلاً عن القيام بشكرها، وقد تقدَّم الكلامُ في تحقيق ذلك حسبما مَنَّ الله تعالى[1] به.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ﴾ حيث يستر ما فَرَطَ منكم من كُفْرانها والإخلال بالقيام بحقوقها، ولا يعاجلكم بالعقوبة على ذلك.

﴿رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ حيثُ يفيضها عليكم مع استحقاقكم للقَطْع والحرمان بما تأتون وما تذرون من أصناف الكفر والعصيان التي من جملتها المساواةُ بين الخالق وغيره، وكلٌّ من ذَينك الستر والإفاضة نعمةٌ وأيُّما نعمة، فالجملةُ تعليلٌ للحكم بعدم الإحصاء، وتقديمُ المغفرة على الرحمة لتقديم[2] التخلية على التحلية.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾ أي: تضمرونه من العقائد والأعمال ﴿وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي: تظهرونه منهما، وحُذِفَ العائدُ لمراعاة الفواصل، أي: يستوي بالنسبة إلى عِلْمه سبحانه المحيطِ الأمران.

وفي تقديم الأول على الثاني تحقيقٌ للمساواة على أبلغ وجه، وفي ذلك من الوعيد والدلالة على اختصاصه تعالى بصفات الإلهية ما لا يخفى، أما الأول فلأنَّ عِلْمَ الملك القادر بمخالفة عبده يقتضي مجازاته، وكثيراً ما ذُكِرَ عِلْمُ الله تعالى وقُدْرته وأُريد ذلك، وأما الثاني فبناءً على ما قيل: إنَّ تقديمَ المسنَدِ إليه في مِثْل ذلك يُفيدُ الحصْرَ، ومن هنا قيل: إنه سبحانه أبطلَ شِرْكهم للأصنام أولاً بقوله تعالى: (أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ) وأبطله ثانياً بقوله تبارك اسمه: (وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ) إلخ كأنه قيل: إنه تعالى عالمٌ بذلك دون ما تُشركون به، فإنه لا يعلم ذلك، بل لا يعلم شيئاً أصلاً، فكيف يُعَدُّ شريكاً لعالم السِّرِّ والخفيَّات.

وفي «الكشف» إنَّ في الجملة الأولى إشعاراً بأنه تعالى ما كلَّفهم[3] حقَّ الشكر لعدم الإمكان، وتجاوَزَ سبحانه عن الممكن إلى السهل الميسور، وفي الثانية ما يُشعر بأنهم قَصَّروا في هذا الميسور أيضاً، فاستحقُّوا العتاب[4].

---

(١) في سورة إبراهيم، الآية (٣٤). ينظر ١٣/ ٣٠٠ وما بعد.

(٢) في (م): لتقدم.

(٣) في (م): وما كلفهم.

(٤) في الأصل: العقاب.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ شروعٌ في تحقيق أنَّ آلهتهم بمَعزِلٍ عن استحقاق العبادة، وتوضيحه بحيث لا يبقى فيه شائبةُ رَيب بتعداد أحوالها المنافية لذلك منافاةً ظاهرةً، وكأنها إنما شُرحت مع ظهورها للتنبيه على كمال حماقة المشركين، وأنهم لا يعرفون ذلك إلا بالتصريح، أي: والآلهةُ الذين تعبدونهم أيُّها الكفار ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه ﴿لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا﴾ من الأشياء أصلاً، أي: ليس من شأنهم ذلك.

وذكر بعضُ الأَجِلَّة أنَّ ذِكْرَ هذا بعد نفي التشابه والمشاركة للاستدلال على ذلك، فكأنه قيل: هم لا يخلقونَ شيئاً، ولا يُشارك مَنْ يخلقُ مَنْ لا يخلق، فينتجُ من الثالث: هم لا يشاركون مَنْ يخلق، ويلزمه أنَّ مَنْ يخلق لا يشاركهم، فلا تكرار، وقيل عليه: إنه مبنيٌّ على أنَّ مَنْ يخلقْ ومن لا [يخلق][1] مُجرًى على غير معيَّن، ويُفهَمُ من سابق كلام هذا البعض أنه بنى الكلامَ على أنَّ الأولَ هو الله تعالى، والثاني الأصنام، ويقتضي تقريرهُ هناك عدم الحاجة إلى هذه المقدِّمة للعلم بها، وكونها مفروغاً عنها، فالوجه أنَّ التكرار لمزاوجة قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ۝٢٠﴾ وتُعقِّبَ بأنَّ المصرَّح به العمومُ في الموضعين، وأما التخصيصُ فيهما بما ذُكر فلأنَّ مَنْ يخلقُ عندنا مخصوصٌ به تعالى في الخارج اختصاصَ الكوكب النهاريِّ بالشمس، وإن عمَّ باعتبار مفهومه، ومَنْ لا يخلق وإن عمَّ ذهناً وخارجاً، فتفسيره بمَنْ عبد لاقتضاء المقام له، ومقتضى التقرير ليس عدم الحاجة إلى المقدِّمة، بل هو كونها في غاية الظهور بحيث لا يُحتاج إلى إثباتها، وهذا مصحِّحٌ لكونها جزءاً من الدليل، وإذا ظهر المرادُ بَطَلَ الإيراد.

ولعلَّ الأوجهَ في توجيه الذِّكر ما أشرنا إليه أولاً، وحيث إنه لا تَلازُمَ أصلاً بين نفي الخالقية وبين المخلوقية أثبت ذلك لهم صريحاً على معنى: شأنهم أنهم يخلقون؛ إذ المخلوقيةُ مقتضى ذواتهم؛ لأنها ممكنةٌ مفتقرةٌ في وجودها وبقائها إلى الفاعل، وبناءُ الفعل للمفعول ـ كما قال بعضُ الأجلَّة ـ لتحقيق التَّضادِّ والمقابلة بين ما أُثبت لهم وما نُفيَ عنهم من وَصْف الخالقية والمخلوقية، وللإيذان بعدم الحاجة إلى بيان الفاعل، لظهور اختصاصٍ بفاعله جلَّ جلاله، ولعلَّ تقديمَ الضمير هنا لمجرد التقوى، والمرادُ بالخَلْق منفياً ومُثْبَتاً المعنى المتبادر منه.

---

(١) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٥/ ٣٢٢ والكلام منها.

وجُوِّزَ أن يُرادَ من الثاني النحتُ والتصوير بناءً على أنَّ المرادَ من الذين يدعونهم الأصنام، والتعبيرُ عنهم بما يُعبَّر عنه عن العقلاء لمعاملتهم إياهم معاملتهم، والتعبيرُ عن ذلك بالخَلْق لرعاية المشاكلة، وفي ذلك من الإيماء بمزيد ركاكة عقول المشركين ما فيه، حيثُ أشركوا بخالقهم مخلوقيهم، وإرادةُ هذا المعنى من الأول أيضاً ليست بشيءٍ؛ إذ القدرةُ على مِثْل ذلك الخلق ليست مما يدور عليه استحقاقُ العبادة أصلاً.

وقرأ الجمهور بالتاء المثناة من فوق في «تُسرُّون» و«تعلنون» و«تدعون» وهي قراءةُ مجاهدٍ والأعرج وشيبة وأبي جعفر وهُبيرة عن عاصم، وفي المشهور عنه أنه قرأ بالياء آخر الحروف في الأخير وبالتاء في الأولين، وقُرئت الثلاثةُ بالياء في روايةٍ عن أبي عمرو وحمزة[1]، وقرأ الأعمش: «والله يعلم الذي تبدون وما تكتمون والذين تدعون» إلخ بالتاء من فوقٍ في الأفعال الثلاثة[2]، وقرأ طلحة: «ما تخفون وما تعلنون» و«تدعون» بالتاء كذلك، وحملت القراءتان على التفسير لمخالفتهما لسواد المصحف، وقرأ محمد اليمانيُّ: «يُدعَون» بضمِّ الياء وفتح العين مبنياً للمفعول[3]، أي: يدعونهم الكفَّارُ ويعبدونهم.

﴿أَمْوَٰتٌ﴾ خبرٌ ثانٍ للموصول، أو خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هم أموات، وصرَّح بذلك لما أنَّ إثباتَ المخلوقية لهم غيرُ مستَدعٍ لنفي الحياة عنهم، لما أنَّ بعضَ المخلوقين أحياء، والمراد بالموت ـ على أن يكونَ المرادُ من المخبَر عنه الأصنام ـ عدم الحياة بلا زيادة عمَّا من شأنه أن يكون حيّاً.

وقوله سبحانه: ﴿غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ خبرٌ بعد خبرٍ أيضاً، أو صفة «أموات»، وفائدةُ ذِكْره التأكيدُ عند بعض، واختيرَ التأسيس، وذلك أنَّ بعضَ ما لا حياة فيه قد تعتريه الحياةُ، كالنُّطفة، فجيءَ به للاحتراز عن مثل هذا البعض، فكأنه قيل: هم أمواتٌ حالاً وغيرُ قابلين للحياة مآلاً، وجُوِّزَ أن يكونَ المراد من المخبَر عنه بما ذكر ما يتناول جميعَ معبوداتهم من ذوي العقول وغيرهم، فيرتكب في «أموات» عمومُ المجاز ليشملَ ما كان له حياة ثم مات، كـ :عُزير، أو سيموتُ

---

(١) التيسير ص ١٣٧، والنشر ٢/ ٣٠٣، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٨٥، والبحر المحيط ٥/ ٤٨٢.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٨٥.

(٣) الكشاف ٢/ ٤٠٥، والبحرالمحيط ٥/ ٤٨٢.

ك: عيسى والملائكة عليهم الصلاة والسلام، وما ليس من شأنه الحياة أصلاً كالأصنام.

و«غيرُ أحياء» على هذا إذا فُسِّر بغير قابلين للحياة، يكون من وَصْفِ الكُلِّ بصفة البعض، ليكون تأسيساً في الجملة، وإذا اعتُبر التأكيدُ فالأمرُ ظاهر، وجُوِّز أن يُراد[1] من أولئك المعبودين الملائكة عليهم الصلاة والسلام، وكان أناسٌ من المخاطَبين يعبدونهم، ومعنى كونهم أمواتاً: أنهم لابدَّ لهم من الموت، وكونهم غير أحياء: غير تامة حياتهم، والحياةُ التامةُ هي الحياةُ الذاتيةُ التي لا يَرِدُ عليها الموت، وجُوِّز في قراءة: «والذين يدعون» بالياء آخر الحروف أن يكونَ الأمواتُ هم الداعين، وأُخبر عنهم بذلك تشبيهاً لهم بالأموات لكونهم ضُلَّالاً غير مهتدين، ولا يخفى ما فيه من البعد.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ الضميرُ الأول للآلهة، والثاني لعبَدَتها، والشعورُ العلم أو مباديه، وقال الراغب: يقال: شَعَرْتُ أي: أَصبتُ الشَّعَر، ومنه استُعير: شَعَرْتُ كذا، أي: عَلِمتُ علماً في الدقَّة كإصابة الشعر، قيل: وسُمِّيَ الشاعرُ شاعراً لفطنته ودِقَّة معرفته، ثم ذكر أنَّ المشاعرَ الحواسُّ، وأنَّ معنى «لا تشعرون» لا تُدركون بالحواسِّ، وأن لو قيل في كثيرٍ مما جاء فيه: «لا تشعرون»: لا تعقلون، لم يجز؛ إذ كثيرٌ مما لا يكون محسوساً يكون معقولاً[2].

و«أيَّان» عبارةٌ عن وقت الشيء، ويقارب معنى «متى»، وأصله عند بعضهم: أيُّ أوانٍ، أي: أيُّ وقت، فحذف الألف ثم جعل الواو ياءً وأدغم، وهو كما ترى.

وقرأ أبو عبد الرحمن: «إيَّان» بكسر الهمزة[3]، وهي لغةُ قومه سُليم، والظاهر أنه معمولٌ لـ «يبعثون»، والجملة في موضع نصب بـ «يشعرون» لأنه معلَّقٌ عن العمل، أي: ما يشعرُ أولئك الآلهةُ متى يُبعث عَبَدَتُهم، وهذا من باب التهكُّم بهم بناءً على إرادة الأصنام؛ لأنَّ شعورَ الجماد بالأمور الظاهرة بديهيّ الاستحالة عند كلِّ أحدٍ، فكيف بما لا يعلمه إلا العليم الخبير.

---

(١) ليس في (م).

(٢) المفردات (شعر).

(٣) القراءات الشاذة ص ٧٢، والمحتسب ٢/ ٩.

وفي «البحر» أنَّ فيه تهكُّماً بالمشركين، وأنَّ آلهتهم لا يعلمون وقتَ بَعْثِهم ليُجازوهم على عبادتهم إياهم[1]. ولعلَّ هذا جارٍ على سائر الاحتمالات في الآلهة، وفيه تنبيهٌ على أنَّ البعثَ من لوازم التكليف؛ لأنه للجزاء، والجزاء للتكليف، فيكونُ هو له، وأنَّ معرفةَ وقته لابدَّ منه في الألوهية، وقيل: ضميرا «يشعرون» و«يبعثون» للآلهة، ويلزمُ من نفي شعورهم بوقت بَعْثِهم نفيُ شعورهم بوقت بَعْثِ عَبَدَتهم، وهو الذي يقتضيه الظاهر، ومَنْ جَوَّز أن يكونَ المرادُ من الأموات الكَفَرة الضُّلَّال[2]، جَعَلَ ضميرَي الجمع هنا لهم، والكلامُ خارجٌ مخرجَ الوعيد، أي: وما يشعر أولئك المشركون متى يُبعثون إلى التعذيب. وقيل: الكلامُ تمَّ عند قوله تعالى: (وَمَا يَشْعُرُونَ)، و(أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) ظرفٌ لقوله سبحانه: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ على معنى أنَّ الإله واحدٌ يوم القيامة نظير: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] قال أبو حيان: ولا يصحُّ هذا القولُ؛ لأنَّ «أيَّان» إذ ذاك تخرجُ عمَّا استقرَّ فيها من كونها ظرفاً، إمَّا استفهاماً أو شرطاً، وتتمحَّضُ للظرفية بمعنى: وقت، مضافاً للجملة بعده نحو: وقتَ يقومُ زيدٌ أقومُ[3]. على أنَّ هذا التعلُّقَ في نفسه خلافُ الظاهر، والظاهرُ أنَّ قوله سبحانه: (إِلَٰهُكُمْ) تصريحٌ بالمدَّعى، وتلخيصٌ للنتيجة غِبَّ إقامة الحُجَّة.

﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ وأحوالها التي من جملتها البعثُ وما يعقبه من الجزاء ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ للوحدانية جاحدةٌ لها، أو للآيات الدالة عليها ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ عن الاعتراف بها أو عن الآيات الدالة عليها، والفاءُ للإيذان بأنَّ إصرارَهم على الإنكار واستمرارَهم على الاستكبار وَقَعَ موقعَ النتيجة للدلائل الظاهرة والبراهين القطعية[4]، فهي للسببية كما في قولك: أحسنتُ إلى زيدٍ فإنه أحسنَ إليَّ، والمعنى أنه قد ثَبَتَ بما قُرِّرَ من الدلائل والحجج اختصاص الإلهية به سبحانه، فكان من نتيجة ذلك إصرارهم على الإنكار، واستمرارهم على الاستكبار.

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٨٢.
(٢) في الأصل: الضالين.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٨٣.
(٤) في الأصل: العقلية.

وبناءُ الحكم على الموصول للإشعار بعِلِّيَّةِ ما في حَيِّز الصِّلة له، فإنَّ الكُفْر بالآخرة وبما فيها من البعث والجزاء على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب يؤدِّي إلى قَصْر النظر على العاجل، وعدم الالتفات إلى الدلائل الموجب لإنكارها وإنكار مؤدَّاها، والاستكبار عن اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام والإيمان به، وأما الإيمان بها وبما فيها فيدعو لا محالةَ إلى الالتفات إلى الدلائل والتأمل فيها رغبةً ورهبةً، فيُورثُ ذلك يقيناً بالوحدانية وخضوعاً لأمر الله تعالى. قاله بعض المحققين.

ومن الناس من قال: المرادُ: وهم مستكبرونَ عن الإيمان برسول الله ﷺ واتِّباعه، فيكونُ الإنكارُ إشارةً إلى كُفْرهم بالله تعالى، والاستكبارُ إشارةً إلى كُفْرهم برسوله ﷺ. والأول أظهر.

وإسنادُ الإنكار إلى القلوب؛ لأنها مَحلّه، وهو أبلغُ من إسناده إليهم، ولعلَّه إنما لم يسلكْ في إسناد الاستكبار مثل ذلك؛ لأنه أثرٌ ظاهرٌ كما تشير إليه الآية بَعْدُ، وقد قال بعض العلماء: كلُّ ذنبٍ يمكن التستُّر به وإخفاؤه إلا التكبُّر، فإنه فِسْقٌ يلزمه الإعلان.

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقّ أو حقّاً ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من الإنكار ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من الاستكبار، وقال يحيى بن سلام والنقاش: المراد هنا بما يُسرُّونَ تشاورهم في دار النَّدوة في قَتْل النبيِّ عليه الصلاة والسلام، وهو كما ترى، وأيّاً ما كان فالمرادُ من العلم بذلك الوعيدُ بالجزاء عليه، و«أنَّ» وما بعدها في تأويل مصدرٍ مرفوع بـ «لا جَرَم» بناءً على ما ذهب إليه الخليل وسيبويه والجمهور من أنها اسمٌ مركَّبٌ مع «لا» تركيبَ خمسةَ عَشَر، وبعدَ التركيب صار معناها معنى فعل وهو حقّ فهي مؤولةٌ بفعل. وأبو البقاء يؤوِّلها بمصدرٍ قائم مقامه، وهو حقًّا، وقيل: مرفوعٌ بـ «جَرَم» نفسها على أنها فعلٌ ماضٍ بمعنى ثَبَتَ وَوَجَبَ، و«لا» نافيةٌ لكلام مقدَّر تكلَّم به الكَفَرةُ، كقوله سبحانه: ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ [القيامة: ١] على وجه. وذهب الزجاج إلى أنه منصوبٌ على المفعولية لـ «جَرَم» على أنها فعلٌ أيضاً، لكن بمعنى كَسَبَ، وفاعلها مستترٌ يعودُ إلى ما فُهم من السِّياق و«لا» كما في القول السابق، وقيل: إنه خبر «لا» حُذِفَ منه

حرفُ الجَرِّ و«جَرَم» اسمها، والمعنى: لا صدأ ولا منع في أنَّ الله يعلم.. إلخ، وقد مرَّ تمامُ الكلام في ذلك(١).

وقرأ عيسى الثقفي: «إنَّ» بكَسْر الهمزة على الاستئناف والقطع مما قبله على ما قال أبو حيان، ونقل عن بعضهم أنه قد يغني «لا جرم» عن القسم تقول: لا جرم لآتينَّك، وحينئذٍ فتكون الجملةُ جواب القسم(٢).

﴿إِنَّهُۥ﴾ جلَّ جلاله ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: مطلقاً، ويدخل فيه من استكبر عن التوحيد أو عن الآيات الدالة عليه دخولاً أولياً، وجُوِّزَ أن يُراد به أولئك المستكبرون، والأول أولى، وأيّاً ما كان فالاستفعال ليس للطَّلب مثله فيما تقدم، وجوِّز كونه عامّاً مع حَمْل الاستفعال على ظاهره من الطَّلب، أي: لا يُحبُّ من طَلَبَ الكِبْر فضلاً عمَّن اتَّصف به، وقد فرَّق الراغب بين الكِبْر والتكبُّر والاستكبار بعد القول بأنها متقاربة(٣)، والحقُّ أنه قد يُستعملُ بعضُها موضعَ بعض، وسيأتي إن شاء الله تعالى ذكرُ ذلك آنفاً، وأظنه قد تقدَّم أيضاً؛ والجملةُ تعليلٌ لما تضمَّنه الكلامُ السابقُ من الوعيد، والمراد من نَفْي الحُبِّ البُغض، وهو عند البعض مؤوَّلٌ بنحو الانتقام والتعذيب، والأخبارُ الناطقةُ بسوء حال المتكبِّر يوم القيامة كثيرةٌ جدّاً(٤).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم﴾ أي: لأولئك المستكبرين، وهو بيانٌ لإضلالهم غِبَّ بيان ضلالهم، وقيل: الضمير لكفَّار قريش الذين كانوا - كما روي عن قتادة - يقعدونَ بطريق مَنْ يغدو على النبيِّ ﷺ ليطَّلع على جَلِيَّةِ أمره، فإذا مرَّ بهم قال لهم: ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ على محمد عليه الصلاة والسلام؟ ﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾(٥)

---

(١) عند الآية(٢٢) من سورة هود.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٨٣. والقراءة في القراءات الشاذة ص ٧٢، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٨٧.
(٣) المفردات (كبر).
(٤) منها ما أخرجه أحمد (٦٦٧٧)، والترمذي (٢٤٩٢) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال: «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذَّرِّ في صور الناس، يعلوهم كل شيء من الصَّغار حتى يدخلوا سجناً في جهنم يقال له: بولس...» قال الترمذي: حديث حسن صحيح.
(٥) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٨١.

أي: ما كتبه الأولون كما قالوا: ﴿اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ [الفرقان: ٥] فالأساطير جمع أسْطارٍ جمع سَطْر، فهو جَمْعُ الجمع؛ وقال المبرِّد: جمع أُسطورة كأُرجوحة وأراجيح، ومقصودهم من ذلك أنه لا تحقيق فيه، وقيل: القائل لهم بعضُ المسلمين ليعلموا ما عندهم. وقيل: القائلُ بعضُهم على سبيل التهكُّم، وإلا فهو لا يعتقدُ إنزالَ شيء، ومثلُ هذا يقال في الجواب عن تسميته بالمنزَّل في الجواب بناءً على تقدير المبتدأ فيه ذلك، ويجوز أن يسمُّوه بما ذكر على الفرض والتسليم ليردُّوه كقوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٧] وقيل: قدَّروه منزَّلاً مجاراةً ومشاكلة.

وفي «الكشاف» إنَّ «ماذا» منصوبٌ بـ «أنزل» أي: أيَّ شيءٍ أنزل ربُّكم؟ أو مرفوعٌ بالابتداء بمعنى: أيُّ شيءٍ أنزله ربُّكم؟ فإذا نصبت فمعنى «أساطير الأولين» ما تدَّعونَ نزولَهُ ذلك، وإذا رفعتَ فالمعنى: المنزَّلُ ذلك، كقوله تعالى: ﴿مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩] فيمن رفع[١].

وقد خفيَ تحقيقُ مرامه على بعض المحققين، فقد قال صاحب «الفرائد»: الوجه أن يكون مرفوعاً بالابتداء بدليل رفع «أساطير» فإنَّ جوابَ المرفوع مرفوعٌ وجوابَ المنصوب منصوبٌ، ولم يقرأ أحدٌ هنا بالنصب.

وقال صاحب «التقريب»: إنَّ في كلام الزمخشريِّ نظراً، وبيَّنه بما بيَّنه وأجاب بما أجاب، وأطال الطِّيبيُّ الكلامَ في ذلك، وقد أجاد صاحب «الكشف» في هذا المقام فقال: إنَّ قوله: أو مرفوعٌ بالابتداء بمعنى: أيّ شيءٍ أنزله؟ إيضاحٌ، وإلا فالمعنى: ما الذي أنزله، على المصرَّح به في «المفصل» إذ لا وجه لحذف الضمير من غير استطالة، مع أنَّ اللَّفظ يحتملُ النَّصْبَ والرفع احتمالاً سواء، وعلى ذلك يلوحُ الفرقُ بين التقديرين ظهوراً بيِّناً، فإنَّ المنصوبَ وإن دلَّ على ثبوت أَصْل الفعل، وأنَّ السؤال عن المفعول متقاعدٌ عن دلالة المرفوع، فقد عُلم أنَّ الجملة التي تقعُ صلةً للموصول حقُّها أن تكونَ معلومةً للمخاطب، وأين الحكمُ المسلَّمُ المعلوم من غيره، وإذا ثبتَ ذلك فليُعلم أنه على تقديرين لم يطابق به الجواب لقوله في ﴿قَالُوا خَيْرًا﴾ [النحل: ٣٠] طُوبق به الجواب، بخلاف «أساطير» وقوله هنا كقوله تعالى: ﴿مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩] إلى آخره فيمن رَفَعَ تشبيه في العدول إلى

(١) الكشاف ٢/ ٤٠٦.

الرفع، لا وجهه، فإنَّ الجوابَ هنالك طبق السؤال بخلاف ما نحن فيه، وإنما قُدِّر: ما تدَّعون نزوله، على تقدير النَّصب؛ لأنَّ السائلَ لم يكنْ معتقداً لإنزالٍ محقَّقٍ، بل سُئل عن تعيين ما سَمِعَ نزولَه في الجملة، فيكفي في رَدِّه إلى الصَّواب ما تدَّعونَ نزوله أساطير، وأما على تقدير الرفع، فلما دَلَّ على أنَّ الإنزالَ عنده محقَّقٌ مُسَلَّمٌ لا نزاعَ فيه، وإنما السؤال عن التعيين للمنزَّل أُجيب بأنَّ ذلك المحقَّق عندك أساطير تهكُّماً؛ إذ من المعلوم أنَّ المنزَّلَ لا يكون أساطير، فبُولغ في رَدِّه إلى الصواب بالتَّهكُّم به، وأنه بتَّ الحكم بالتحقيق في غير موضعه، فأرى السائلَ أنه طُوبق ولم يطابق في الحقيقة، بل بُولغ في الردِّ، ويشبه أن يكون الأولُ جواباً للسؤال فيما بينهم أو الوافدين، والثاني جواباً عن سؤال المسلمين على ما ذكر من الاحتمالين لا العكس على ما ظُنَّ، هذا هو الأشبهُ في تقرير قوله الموافق لما ذكره من بعد على ما مرَّ.

وجعل ما ذكره هنالك وجهاً ثالثاً وأنه طُوبق به الجواب هاهنا، وتوجيه اختلاف التقديرين ادِّعاءً ونزولاً بما مهَّدناه، وإن ذهب إليه الجمهور = تكلُّفٌ عنه غنى.

وقرئ: «أساطيرَ» بالنَّصب كما نصَّ عليه أبو حيان وغيره[١]، فإنكارُ صاحب «الفرائد» من قلَّة الاطِّلاع.

﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ﴾ متعلِّقٌ بـ «قالوا» كما هو الظاهر، أي: قالوا ذلك لأن يحملوا ﴿أَوۡزَارَهُمۡ﴾ أي: آثامهم الخاصة بهم، وهي آثامُ ضلالهم، وهو جَمْعُ وِزْرٍ، ويقال للثِّقْل تشبيهاً بوِزْر الجبل، ويُعبَّر بكلٍّ منهما عن الإثم كما في هذه الآية، وقوله تعالى ليحملوا أثقالهم ﴿كَامِلَةً﴾ لم ينقصْ منها شيءٌ، ولم يُكفَّر بنحو نكبةٍ تصيبهم في الدنيا أو طاعةٍ مقبولةٍ فيها كما تُكفَّرُ بذلك أوزارُ المؤمنين، وقال الإمام: معنى ذلك أنه لا يُخفَّفُ من عذابهم شيءٌ، بل يُوصَلُ إليهم بكُلِّيَّته، وفيه دليلٌ على أنه تعالى قد يُسقِطُ بعضَ العقاب عن المؤمنين؛ إذ لو كان هذا المعنى حاصلاً للكُلِّ لم يكن لتخصيص هؤلاء الكفار به فائدة[٢].

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٨٤، والإملاء ٣/ ٤٤٤.

(٢) تفسير الرازي ٢٠/ ١٨.

وحَمْلُ الأوزار مجازٌ عن العقاب عليها، وأخرج ابنُ جريرٍ عن زيد بن أسلم أنه بلغه أنَّ الكافرَ يتمثَّل له عملُه في صورةٍ أقبح ما خلق الله تعالى وجهاً، وأنتنِه رِيحاً، فيجلسُ إلى جَنْبه كلَّما أفزعه شيءٌ زاده، وكلَّما يخافُ شيئاً زاده خوفاً فيقول: بئسَ الصاحبُ أنت، ومن أنت؟ فيقول: وما تعرفني؟ فيقول: لا. فيقول: أنا عملُكَ، كان قبيحاً، فلذلك تراني قبيحاً، وكان مُنتناً، فلذلك تراني منتناً، طأطئْ إليَّ أرْكَبْك، فطالما ركبتني في الدنيا. فيَركبُهُ، وهو قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً﴾[1].

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ ظرفٌ ليحملوا ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ أي: وبعض أوزار مَنْ ضَلَّ بإضلالهم على معنى: ومثلُ بعض أوزارهم، فـ «من» تبعيضيةٌ؛ لأنَّ مقابلته لقوله تعالى: ﴿كَامِلَةً﴾ يُعيِّنُ ذلك.

والمراد بهذا البعض حِصَّةُ التسبُّب، فالمُضِلُّ والضَّالُّ شريكان، هذا يُضِلُّهُ وهذا يطاوعه، فيتحاملان الوِزْرَ، وللضَّالِّ أوزارٌ غيرُ ذلك، وليست تلك محمولة، وقال الأخفش: إنَّ «من» زائدةٌ، أي: وأوزار الذين يُضلُّونهم، على معنى أنهم يعاقَبون عقاباً يكون مساوياً لعقاب كلِّ مَن اقتدى بهم، وإلى الزيادة ذهب أبو البقاء[2].

واعتُرض على التبعيض بأنه يقتضي أنَّ المُضِلَّ غيرُ حاملٍ كلَّ أوزار الضَّالِّ، وهو مخالفٌ للمأثور: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً سيئةً فعليه وِزْرُها وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بها من غير أن ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً»[3]. وفيه أنَّ المأثورَ يدلُّ على التبعيض، لا أنَّ بينهما مخالفة كما لا يخفى، ولِتَوَهُّم هذه المخالفة قال الواحديُّ: إنَّ «من» للجنس، أي: ليحملوا من جنس أوزار الأتباع، وتعقَّبه أبو حيان بأنَّ «من» التي لبيان الجنس لا تُقدَّر بما ذُكر، وإنما تُقدَّرُ بقولنا: الأوزار التي هي أوزارُ الذين يُضلُّونهم، فيؤول من حيثُ المعنى إلى قول الأخفش، وإن اختلفا في التقدير[4].

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٢٠١-٢٠٢.

(٢) الإملاء ٣/ ٤٤٤-٤٤٥.

(٣) أخرجه أحمد (١٩١٥٦)، ومسلم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله البجلي ﷺ.

(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٨٤-٤٨٥.

ولام «ليحملوا» للعاقبة، لأنَّ الحملَ مترتِّبٌ على فِعْلهم، وليس باعثاً ولا غَرَضاً لهم؛ وعن ابن عطية أنها تحتملُ أن تكونَ لام التعليل، ومتعلِّقة بفِعْلٍ مقدَّرٍ، لا بـ «قالوا» أي: قَدَّرَ صدورَ ذلك ليحملوا[١]، ويجيء حديثُ تعليل أفعال الله تعالى بالأغراض، وأنت تدري أنَّ فيه خلافاً.

وجوَّز في «البحر» كونها لامَ الأمر الجازمة، على معنى أنَّ ذلك الحَمْلَ متحتِّمٌ عليهم[٢]. فيتمُّ الكلامُ عند قوله سبحانه: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ والظاهرُ العاقبة، وصيغةُ الاستقبال في «يُضلُّونهم» للدلالة على استمرار الإضلال، أو باعتبار حال قولهم لا حال الحمل.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حالٌ من المفعول، كأنه قيل: يُضِلُّون من لا يعلمُ أنهم ضُلَّالٌ على الباطل، وفيه تنبيهٌ على أنَّ كَيدهم لا يروجُ على ذي لُبٍّ، وإنما يُقلِّدهمُ الجَهَلةُ الأغبياءُ، وفيه زيادةُ تعييرٍ لهم وذمٍّ، إذ كان عليهم إرشادُ الجاهلين لا إضلالهم، وقيل: إنه حالٌ من الفاعل، أي: يُضلُّون غير عالمين بأنَّ ما يدعون إليه طريق الضلال، وقيل: المعنى حينئذٍ: يُضلُّون جهلاً منهم بما يستحقُّونه من العذاب الشديد على ذلك الإضلال، ونُقل القولُ بالحاليَّةِ عن الفاعل بنحو هذا المعنى عن الواحديِّ، وزعم بعضُهم أنه الوجهُ لا الحالية من المفعول، وأُيِّدَ بأنَّ التذييلَ بقوله تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ وقوله سبحانه: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يقوِّيه، وليس بذاك، وما ذُكر ظَنٌّ من هذا المؤيِّد أنه إذا جُعل حالاً من المفعول لم يكن له تعلُّقٌ بما سِيق له الكلام من حال المُضِلِّين، وقد هُديت إلى وجهه.

ورجَّحه أبو حيان بأنَّ المحدَّث عنه هو المسنَد إليه الإضلال على جهة الفاعلية[٣]. فاعتباره ذا الحالَ أولى، ويرد عليه مع ما يُعلَم مما ذُكر أنَّ القُرْبَ يُعارضه، فلا يصلحُ مرجِّحاً.

وقيل: هو حالٌ من ضمير الفاعل في «قالوا» على معنى: قالوا ذلك غير عالمين بأنهم يحملون يومَ القيامة أوزارَ الضَّلال والإضلال، وأيِّد بقوله تعالى:

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٨٧.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٨٤.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٨٥.

(وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ) من حيث إنَّ حَمْلَ ما ذُكر من أوزار الضَّلال والإضلال من قبيل إتيان العذاب من حيثُ لا يشعرون. ويردُّه أنَّ الحملَ المذكورَ كما هو صريحُ الآية إنما هو يوم القيامة، والعذاب المذكور إنما هو العذاب الدنيويُّ كما ستسمعه إن شاء الله تعالى. وجُوِّز أن يكون حالاً من الفاعل والمفعول كما قال ذلك ابن جنِّي في قوله: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ [مريم: ٢٧] وهو خلافُ الظاهر.

واستُدلَّ بالآية على أنَّ المقلِّد يجبُ عليه أن يبحثَ ويُميِّزَ بين المُحِقِّ والمبطل، ولا يُعذَر بالجهل، وهو ظاهرٌ على ما قدَّمناه من الوجه الأوجه.

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ۝٢٥﴾ أي: بئس شيئاً يزرونه ويرتكبونه من الإثم فِعْلهم المذكور.

﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وعيدٌ لهم برجوع غائلةِ مَكْرهم عليهم كَدَأْبِ مَنْ قبلَهم من الأُمم الخالية الذين أصابهم ما أصابهم من العذاب العاجلِ، والمكْرُ صَرْفُ الغير عمَّا يقصِدُه بحيلةٍ، وهو ها هنا ـ على ما قيل ـ مجازٌ عن مباشرة أسبابه وترتيب مقدِّماته؛ لأنَّ ما بعدُ يدلُّ على أنه لم يَحْصُلِ الصَّرْفُ، وجُوِّزَ أن يُرتكَبَ فيه التجريدُ، أي: سَوَّوا منصوباتٍ وحِيَلاً ليخدعوا بها رُسُلَ الله عليهم الصلاة والسلام.

﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ أي: من جهة الدعائم والعُمُد التي بَنَوا عليها، بأنْ ضُعْضِعَتْ، ف «مِنْ» ابتدائية، والبنيانُ اسمٌ مفرَدٌ مذكَّرٌ، ونقل الراغبُ عن بعض اللُّغويين أنه جَمْعُ بُنيانةٍ، مثلُ شَعيرٍ وشَعِيرةٍ وتَمْرٍ وتَمْرةٍ ونَخْلٍ ونَخْلةٍ، وأنَّ هذا النحوَ من الجَمْع يَصِحُّ تذكيرهُ وتأنيثهُ. وأصلُ الإتيان ـ كما قال ـ المجيءُ بسهولةٍ[1]. وهو مستحيلٌ بظاهره في حَقِّه سبحانه، ولذلك احتاجَ بعضُهم إلى تقدير مضافٍ، أي: أَمْرُ الله تعالى، وروي ذلك عن قتادة[2]، وجعل ذلك في «الكشاف» من قبيل: أتى عليه الدهر، بمعنى أهلكه وأفناه[3]. وحينئذٍ لا حاجة إلى تقدير

(١) المفردات (بنى) و(أتى).
(٢) تفسير الطبري ١٤/ ٢٠٥.
(٣) الكشاف ٢/ ٤٠٧ بنحوه.

المضاف. وقرئ: «بِنْيَتَهُمْ» وهو بمعنى بنائهم يقال: بنيتُ أبني بناءً وبِنْيَة وبِنًى، نعم كثيراً ما يُعبَّر بالبَنِيَّة عن الكعبة. وقرأ جعفر: «بَيْتَهم»، والضحاك: «بُيوتهم»[(١)].

﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ أي: سقط عليهم سَقْفُ بُنيانهم؛ إذ لا يُتصوَّر له القيامُ بعد تهدُّم قواعده، و«من» متعلِّقٌ بـ «خرَّ» وهي لابتداء الغاية، أو متعلِّقٌ بمحذوفٍ على أنه حالٌ من السَّقف مؤكِّدةٌ، وقال ابن عطية وابن الأعرابيِّ: إنَّ «من فوقهم» ليس بتأكيد لأنَّ العربَ تقولُ: خرَّ علينا سقفٌ، ووقعَ علينا حائطٌ، إذا انهدمَ في مُلك القائل، وإن لم يقع عليه حقيقة فهو لبيان أنهم كانوا تحته حين هدم[(٢)].

ومن الناس مَنْ زَعَمَ أنَّ «على» بمعنى «عن» وهي للتعليل، والكلامُ على تقدير مُضافٍ، أي: خَرَّ من أجل كُفْرهمُ السَّقْفُ، وجيءَ بقوله تعالى: (مِن فَوْقِهِمْ) مع «خَرَّ» لدفع توهُّم أن يكونَ قد خَرَّ وهم ليسوا تحته. ولا يخفى أنه تطويلٌ من غير طائل، بل كلامٌ لا ينبغي أن يتفوَّه به فاضل، والكلامُ تمثيلٌ، يعني أنَّ حالهم في تسويتهم المنصوبات والحِيَل ليمكروا بها رُسُلَ الله تعالى عليهم الصلاة والسلام، وإبطال الله تعالى إياها وجَعْلها سبباً لهلاكهم كحال قوم بنَوا بُنياناً وعَمَدوه بالأساطين، فأتى ذلك من قِبَل أساطينه بأن ضُعْضِعت فسقط عليهم السقف وهلكوا تحته، ووجهُ الشَّبه أنَّ ما نصبوه وخيَّلوه سببَ التحصُّن والاستيلاء صارَ سببَ البوار والفناء، فالأساطينُ بمنزلة المنصوبات، وانقلابها عليهم مُهلِكَة كانقلاب تلك الحِيَل على أصحابها، والبنيانُ ما كان زوَّروه وروَّجوا فيه تلك المنصوبات وتواطؤوا عليه من الرأي المدغَّم بالمكائد، ويشبه ذلك قولهم: مَنْ حَفَرَ لأخيه جُبًّا وقع فيه منكبًّا.

ويقربُ من هذا ما قيل: إنَّ المرادَ: أحبطَ الله تعالى أعمالهم، وقيل: الأمرُ مبنيٌّ على الحقيقة، وذلك أنَّ نُمروذ بن كنعان بنى صَرْحاً ببابل ليصعدَ بزَعْمه إلى السماء ويعرفَ أمرَها ويقاتلَ أهلها، وأفرطَ في عُلوِّه، فكان طوله في السماء ـ على

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٨٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٨٨.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٨٨ بنحوه.

ما حكى النقاشُ وروي عن كعب ـ فرسخين، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ووهبٌ: كان ارتفاعه خمسة آلاف ذراع وعَرْضه ثلاثة آلاف ذراع، فبعَث الله تعالى عليه ريحاً فهدمته وخرَّ سَقْفه عليه وعلى أتباعه، فهلكوا. وقيل: هدمه جبريل عليه السلام بجناحه، ولما سَقَطَ تبلبلتِ الناسُ من الفزع، فتكلَّموا يومئذٍ بثلاثٍ وسبعين لساناً، فلذلك سُمِّيت بابل، وكان لسانُ الناس قبل ذلك السُّريانية[1].

ولا يخفى ما في هذا الخبر من المخالفة للمشهور؛ لأنَّ موجبه أنَّ هلاكَ نُمروذ كان بما ذُكر، والمشهور أنه عاشَ بعد قصة الصَّرْح وأهلكه الله تعالى ببعوضةٍ وصلتْ لدماغه؛ إظهاراً لكمال خِسَّته وعجْزه، وجازاهُ سبحانه من جنس عمله؛ لأنه صَعِدَ إلى جهة السماء بالنُّسور، فأهلكه الله تعالى بأَخَسِّ الطيور، وما ذُكر في وجه تسمية المكان المعروف ببابل هو المشهور، وفي «معجم البلدان» أنَّ مدينة بابل [بناها] يوراسف الجبار، واشتقَّ اسمها من المشتري؛ لأنَّ بابل باللِّسان البابليِّ الأول اسمٌ للمشتري، وأَخْرَبَها الإسكندر[2].

وما ذُكر من أنَّ اللِّسانَ كان قبل ذلك السريانية ذكره البغوي[3]، ونظر فيه الخازنُ بأنَّ صالحاً عليه السلام وقومَهُ كانوا قبلُ، وكانوا يتكلَّمون بالعربية، وكان قبائل قبل إبراهيم عليه السلام مثل طَسْم وجديس يتكلَّمون بالعربية أيضاً[4]. وقد يدفع بالعناية.

وقال الضحاك: الآيةُ إشارةٌ إلى قوم لوطٍ عليه السلام، وما فُعل بهم وبِقُراهم، والكلامُ أيضاً مبنيٌّ على الحقيقة. واختار جماعةٌ بناءه على التمثيل حسبما سمعت، وعليه فالمراد ـ على المختار ـ من الذين كفروا من قبل ما يشمل جميع الماكرين الذين هُدم عليهم بنيانهم، وسُقِطَ في أيديهم.

وقرأ الأعرجُ: «السُّقُف»[5] وزيد بن عليٍّ رضي الله عنهما ومجاهد: «السُّقْف» بضمِّ

---

(١) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٦٦، والطبري ١٤/ ٢٠٤.
(٢) معجم البلدان ١/ ٣١٠ وما بين حاصرتين منه.
(٣) في تفسيره ٣/ ٦٦.
(٤) تفسير الخازن ٣/ ٨٦.
(٥) القراءات الشاذة ص ٧٢.

السين فقط[١]، وكلاهما جمع سَقْفٍ، وفُعُل وفُعْل ـ على ما قال أبو حيان ـ محفوظان في جَمْع فَعْل، وليسا مقيسين فيه، ويُجمع على سُقُوفٍ وهو القياس. وقرأتْ فرقةٌ: «السَّقُف» بفتح السِّين وضَمِّ القاف، وهي لغةٌ في السَّقْف، وذكر أنَّ الأصلَ مضمومُ القاف وساكِنُهُ مُخَفَّفُهُ، وكَثُر استعماله على عَكْسِ قولهم: رَجُل ـ بفَتْح فَضَمّ ـ ورَجْل بفتحٍ فسكون ـ وهي لغةٌ تميمية[٢].

﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۝٢٦﴾ بإتيانه منه، بل يتوقَّعون إتيان مقابله مما يريدون ويشتهون، والمراد به العذابُ العاجلُ، وفي عَطْفِ هذه الجملة على ما تقدَّم تهويلٌ لأمر هلاكهم، ويدلُّ على أنَّ المراد به العاجل قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أي: يُذِلُّهم، والظاهرُ أنَّ ضمائرَ الجمع للذين مكروا من قبل، كأنه قيل: قد مَكَرَ الذينَ من قبلهم، فعذَّبهم الله تعالى في الدنيا، ثم يُعذِّبهم في العُقبى، و«ثم» للإيماء إلى ما بين الجزاءين من التفاوت مع ما تدلُّ عليه من التراخي الزماني، وتقديمُ الظَّرف على الفعل قيل: لقَصْر الإخزاء على يوم القيامة، والمراد به ما بُيِّنَ بقوله سبحانه: ﴿وَيَقُولُ﴾ أي: لهم تفضيحاً وتوبيخاً: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ إلى آخره، ولا شكَّ أنَّ ذلك لا يكونُ إلا في ذلك اليوم.

وقال بعض المحققين: ليس التقديمُ لذلك، بل لأنَّ الإخبارَ بجزائهم في الدنيا مُؤْذِنٌ بأنَّ لهم جزاءً أُخْرَوِيّاً، فتبقى النفسُ مترقِّبةً إلى وروده، سائلةً عنه بأنه ماذا مع تيقُّنها بأنه في الآخرة، فَسِيقَ الكلامُ على وجهٍ يُؤْذِنُ بأنَّ المقصودَ بالذكر جزاؤهم، لا كونه في الآخرة، وذكر أيضاً أنَّ الجملةَ المذكورةَ عَطْفٌ على مقدَّرٍ ينسحبُ عليه الكلام، أي: هذا الذي فُهم من التمثيل من عذاب هؤلاء الماكرين القائلين في القرآن العظيم أساطير الأولين، أو ما هو أعمُّ منه، ومما ذُكر من عذاب أولئك الماكرين من قَبْلُ، جزاؤهم في الدنيا ويوم القيامة يخزيهم.. إلى آخره، ثم قال: والضميرُ إما للمفترين[٣] في حقِّ القرآن الكريم، أو: لهم ولمن مثّلوا بهم من

---

(١) المحتسب ٢/ ٩.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٨٥. وقوله: وساكنه مخففه أي: السَّقْف مُخَفَّفٌ عن السَّقُف.
(٣) في (م): للمغترين. والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٥/ ١٠٨ والكلام منه.

الماكرين، وتخصيصه بهم يأباه السباق والسياق. وفيه من ارتكاب خلافِ الظاهر ما فيه، فليتأمل.

وفسَّر بعضُهم الإخزاء بما هو من روادف التعذيب بالنار؛ لأنه الفَرْدُ الكامل، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٩٢]، وقيل عليه: إنَّ قوله سبحانه: (أَيْنَ شُرَكَآءِىَ) إلى آخره يأباه؛ لأنه قبل دخولهم النار.

وأجيب بأنَّ الواو لا تقتضي الترتيبَ، وأنت تعلمُ أنَّ الأَولى مع هذا حملُهُ على مُطْلَق الإذلال، وإضافةُ الشركاء إلى نفسه عزَّ وجلَّ لأدنى ملابسةٍ بناءً على زَعْمهم أنهم شركاء لله، سبحانه عمَّا يشركون، فتكون الآيةُ كقوله تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢].

وجُوِّزَ أن يكونَ ما ذُكر حكاية منه تعالى لإضافتهم، فإنهم كانوا يضيفون ويقولون: شركاءُ الله تعالى، وفي ذلك زيادة في توبيخهم ليست في: أين أصنامكم، مثلاً لو قيل، ولا يخفى أنَّ هذا خِزيٌ وإهانةٌ بالقول، فإذا فُسِّر الإخزاءُ فيما تقدَّم بالتعذيب بالنار، كانت الآيةُ مشيرةً إلى خِزْيَين؛ فعليٍّ وقوليٍّ، وأُشير إلى الأول أولاً؛ لأنه أَنسبُ بسابقه.

وقرأ الجمهور: «شركائيَ» ممدوداً مهموزاً مفتوحَ الياء، وفِرقةٌ كذلك، إلا أنهم سكَّنوا الياء فتسقط في الدَّرْج لالتقاء الساكنين، والبزِّي عن ابن كثيرٍ بخلافٍ عنه بالقَصْر وفَتْح الياء[1]، وأنكر ذلك جماعةٌ وزعموا أنَّ هذه القراءةَ غيرُمأخوذٍ بها لأنَّ قَصْر الممدود لا يجوز إلا ضرورةً، وليس كما قالوا، فإنه يجوزُ في السَّعة، وقد وُجِّه أيضاً بأنَّ الهمزةَ المكسورةَ قبل الياء حُذفت للتخفيف، وليس كقَصْر الممدود مطلقاً، مع أنه قد روي عن ابن كثير قَصْرُ التي في «القَصص»[2]، و«ورائي» في «مريم»[3] [الآية: ٥]، وعن قُنْبل قَصْر «أن رآه استغنى» في «العلق» [الآية: ٧] فكيف يُعَدُّ ذلك ضرورة.

---

(١) يعني: شركايَ. التيسير ص ١٣٧، والنشر ٢/ ٣٠٣.

(٢) الآية (٦٢).

(٣) والقراءتان غير المشهورتين عنه.

نعم قال أبو حيان: إنَّ وقوعَهُ في الكلام قليلٌ[1] فاعرفْ ذلك فقد غَفَل عنه كثيرٌ من الناس.

﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْۚ﴾ أي: تخاصمون وتُنازعون الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم في شأنهم، وتزعمون أنهم شركاءُ حقّاً حين بيَّنوا لكم ضدّ ذلك، وفسَّر بعضُهم المشاقَّةَ بالمعاداة، وتفسيرُها بالمخاصمة ليظهر تعلُّقُ «فيهم» به، ولا يحتاج إلى جَعْل «في» للسببية أولى، وقيل: للمخاصمة مشاقة أَخْذاً من شَقّ العصا، أو لكون كلٍّ من المتخاصمين في شقّ؛ والمراد بالاستفهام استحضارُها للشفاعة على طريق الاستهزاء والتبكيت، فإنهم كانوا يقولون: إن صَحَّ ما تقولون فالأصنامُ تشفعُ لنا، والاستفسارُ عن مكانتهم لا يُوجبُ غيبَتهم حقيقة، بل يكفي في ذلك عدمُ حضورهم بالعنوان الذي كانوا يزعمون أنهم متَّصفون به، فليس هناك شركاءُ ولا أماكنها.

وقيل: إنَّ ذلك يُوجِبُ الغَيبة، ويقال: إنه يُحالُ بينَهم وبين شركائهم حينئذٍ ليتفقَّدوهم في ساعة علَّقوا الرجاءَ بها فيهم، أو أنهم لمَّا لم ينفعوهم فكأنهم غُيَّبٌ. ولا يُحتاج إلى هذا بعدما علمتَ، على أنه أُورد على قوله: ليتفقَّدوهم.. إلى آخره أنه ليس بسَديد، فإنه قد تبيَّن للمشركين حقيقةُ الأمر، فرجعوا عن ذلك الزَّعْم الباطل، فكيف يُتصوَّرُ منهم التفقُّد.

وأجيب بأنه يجوز أن يغفلوا لِعِظَم الهول عن ذلك فيتفقَّدوهم، ثم إنَّ ما ذُكر يقتضي حَشْرَ الأصنام، وهو الذي يدلُّ عليه كثيرٌ من الآيات كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٩٨]، وقوله سبحانه: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤] على قول، ولا أرى مانعاً من حَمْل الشُّركاء على معبوداتهم الباطلة بحيث تشملُ ذوي العقول أيضاً.

وقرأ الجمهور: «تُشاقُّون» بفتح النون، ونافع بكسرها[2]، ورويت عن الحسن[3]، ولا يلتفت إلى تضعيف أبي حاتم. وقرأتْ فرقةٌ بتشديدها على أنه أدغم نونَ الرفع في نون الوقاية والكسر على حذف ياء المتكلم، والاكتفاء به أي:

---

(١) البحر المحيط ٥/٤٨٦.

(٢) التيسير ص ١٣٧، والنشر ٢/٣٠٣.

(٣) المحرر الوجيز ٣/٣٨٨، والبحر المحيط ٥/٤٨٦.

تشاقُّونني[١]، على أنَّ مشاقَّةَ الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم كمشاقَّة الله تعالى شأنه، ولولا ذلك لم يصح تعليق المشاقَّة به سبحانه. أما إذا كانت بمعنى المخاصمة فظاهر أنهم لم يخاصموا الله تعالى، وأما إذا كانت بمعنى العداوة، فلأنهم لا يعتقدون أنهم أعداءٌ لله تعالى. وأما قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١] يعني المشركين فمؤوَّلٌ أيضاً بغير شبهة.

﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من أهل الموقف وهم الأنبياءُ عليهم السلام والمؤمنون الذين أُوتوا عِلماً بدلائل التوحيد، وكانوا يدعونهم في الدنيا إلى التوحيد، فيجادلونهم ويتكبَّرون عليهم، واقتصر يحيى بن سلام على المؤمنين، والأمرُ فيه سهل. وعن ابن عباس ﷺ أنهم الملائكة عليهم السلام. ولم نقف على تقييده إياهم. وعن مقاتل أنهم الحفَظَةُ منهم. ويُشعر كلامُ بعضِهم بأنهم ملائكة الموت، حيث أَورد على القول بأنهم الملائكة أنَّ الواجبَ حينئذٍ: يتوفَّونهم مكان «تتوفَّاهم الملائكة» وأنه يلزمُ منه الإبهامُ في موضع التعيين، والتعيينُ في موضع الإبهام. وهو ـ كما قال الشهاب ـ في غاية السقوط[٢]. وقيل: المراد كلُّ من اتَّصف بهذا العنوان من مَلكٍ وإنسيٍّ وغير ذلك.

والذي يميلُ إليه القلبُ السليمُ القولُ الأول، أي: يقول أولئك توبيخاً للمشركين وإظهاراً للشماتة بهم، وتقريراً لما كانوا يَعِظونهم وتحقيقاً لما أوعدوهم به. وإيثارُ صيغة الماضي للدلالة على تحقُّق وقوعه وتحتُّمه حسبما هو المعهودُ في إخباره تعالى كقوله سبحانه: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٤٤].

﴿إِنَّ الْخِزْيَ﴾ الذُّلَّ والهوان. وفسَّره الراغب بالذل الذي يستحى منه[٣]. ﴿الْيَوْمَ﴾ منصوبٌ بالخزي على رأي مَنْ يرى إعمالَ المصدر باللام، كقوله:

ضعيفُ النِّكايةِ أعداءَهُ[٤]

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٨٦، والإملاء ٣/ ٤٤٥.
(٢) حاشية الشهاب ٥/ ٣٢٧.
(٣) ينظر المفردات (خزي).
(٤) صدر بيت لم يُعرف قائله، وعجزه: يَخالُ الفرار يُراخي الأجَلْ.
وهو في شرح المفصل ٦/ ٥٩، وخزانة الأدب ٨/ ١٢٧.

أو بالاستقرار في الظَّرف الواقع خبراً لـ «إن»، وفيه فَصْلٌ بين العامل والمعمول بالمعطوف، إلا أنه مُغتَفَرٌ في الظرف. و«أل» للحضور، أي: اليوم الحاضر، وإيراده للإشعار بأنهم كانوا قبل ذلك في عِزَّةٍ وشقاق.

﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾ العذاب، ومن الخزي به جَعْلُ ذكر هذا للتأكيد ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢٧﴾ بالله تعالى وآياته ورسله عليهم السلام.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بتأنيث الفعل، وقرأ حمزة والأعمش: «يتوفَّاهم» بالتذكير هنا وفيما سيأتي إن شاء الله تعالى[1]، والوجهان شائعان في أمثال ذلك.

وقرئ بإدغام تاءِ المضارعة في التاء بعدها، ويجتلب في مثله حينئذٍ همزةُ وَصْلٍ في الابتداء، وتسقطُ في الدَّرج وإن لم يُعهَد همزة وَصْل في أول فعلٍ مضارع. وفي مصحف عبد الله بتاءٍ واحدةٍ في الموضعين[2].

وفي الموصول أوجهُ الإعراب الثلاثة: الجرُّ على أنه صفة «الكافرين»، أو بدلٌ منه أو بيانٌ له، والنَّصْبُ والرفعُ على القَطْع للذَّمِّ؛ وجوَّزَ ابنُ عطية كونه مرتفعاً بالابتداء وجملة «فألقوا» خبره[3]. وتعقَّبه أبو حيان بأنَّ زيادةَ الفاء في الخبر لا تجوز هنا إلا على مذهب الأخفش في إجازته زيادتها[4] في الخبر مطلقاً نحو: زيدٌ فقام، أي: قام، ثم قال: ولا يتوهَّمُ أنَّ هذه الفاء هي الداخلة في خبر المبتدأ إذا كان موصولاً وضُمِّنَ معنى الشرط؛ لأنها لا يجوزُ دخولها في مِثْل هذا الفعل مع صريح أداة الشرط، فلا يجوزُ مع ما ضُمِّن معناه[5]. اهـ بلفظه.

ونقل شهابٌ عنه أنه قال: إنَّ المنعَ مع ما ضُمِّنَ معناه أولى. وتعقبه بأنَّ كونه أولى غيرُ مُسلَّمٍ، لأنَّ امتناعَ الفاء معه؛ لأنه لقوَّته لا يحتاجُ إلى رابطٍ إذا صحَّ

---

(١) التيسير ص ١٣٧، والنشر ٢/ ٣٠٣، والبحر المحيط ٥/ ٤٨٦، والموضع الثاني هو الآية (٣٢) من هذه السورة.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٨٦، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٩٠.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٨٩.

(٤) في (م): وزيادتها.

(٥) البحر المحيط ٥/ ٤٨٦.

مباشرته للفعل، وما تضمَّنَ معناه ليس كذلك[١]. وكلامه الذي نقلناه لا يُشعر بالأولوية، فلعلَّه وجد[٢] له كلاماً آخر يُشعر بها.

واستظهر هو[٣] الجرَّ على الوصفية ثم قال: فيكونُ ذلك داخلاً في المقول، فإن كان القول يوم القيامة يكون «تتوفَّاهم» بصيغةِ المضارع حكاية للحال الماضية، وإن كان في الدنيا أي: لما أخبر سبحانه أنه يخزيهم يومَ القيامة ويقول جلَّ وعلا لهم ما يقول، قال أهل العلم: إنَّ الخزيَ اليومَ الذي أخبر الله تعالى أنه يخزيهم فيه والسوء على الكافرين، يكون «تتوفَّاهم» على بابه، ويشملُ من حيث المعنى من توفَّته ومن تتوفَّاه، وعلى ما ذكره ابن عطية يحتملُ أن يكون «الذين» إلى آخره من كلام الذين أُوتوا العلم، وأن يكون إخباراً منه تعالى.

والظاهر أنَّ القول يوم القيامة، فصيغةُ المضارع لاستحضار صورة تَوَفِّي الملائكة إياهم كما قيل آنفاً لما فيها من الهول، وفي تخصيص الخزي والسوء بمَن استمرَّ كفرُهُ إلى حين الموت، دون مَنْ آمنَ منهم ولو في آخر عمره، وفيه تنديمٌ لهم لا يخفى، أي: الكافرين المستمرِّين على الكُفْر إلى أن تتوفَّاهم الملائكة.

﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ أي: حالَ كونهم مستمرِّين على الشِّرك الذي هو ظُلمٌ منهم لأنفسهم وأيُّ ظُلْمٍ حيث عرَّضوها للعذاب المقيم.

﴿فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: الاستسلام، كما قاله الأخفش، وقال قتادة: الخضوع، ولا بُعْدَ بين القولين. والمراد عليهما أنهم أظهروا الانقيادَ والخضوعَ، وأصلُ الإلقاء في الأجسام فاستُعمل في إظهارهم الانقياد وإشعاراً بغاية خضوعهم وانقيادهم، وجُعل ذلك كالشيء المُلقَى بين يدي القاهر الغالب.

والجملة قيل: عَطْفٌ على قوله تعالى: (وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِىَ) وما بينهما جملةٌ اعتراضيةٌ جِيءَ بها تحقيقاً لما حاقَ بهم من الخزي على رؤوس الأشهاد. وكان الظاهر: فيُلقون.. إلى آخره، إلا أنه عبَّر بصيغة الماضي للدلالة على تحقُّق

(١) حاشية الشهاب ٥/ ٣٢٧.
(٢) في الأصل: وجه.
(٣) أي: أبو حيان في تفسيره ٥/ ٤٨٦.

الوقوع، أي: يقول لهم سبحانه ذلك فيستسلمون وينقادون ويتركون المشاقَّة، وينزلون عمَّا كانوا عليه في الدنيا من الكِبْر وشِدَّة الشَّكيمة، ولعلَّه مرادُ مَنْ قال: إنَّ الكلامَ قد تمَّ عند قوله تعالى: (أَنفُسِهِمْ) ثم عاد إلى حكاية حالهم يوم القيامة.

وقيل: عَطْفٌ على «قال الذين»، وجوَّز أبو البقاء وغيره العَطْفَ على «تتوفَّاهم»(١)، واستظهره أبو حيان(٢)، لكن قال الشهاب: إنه إنما يتمشَّى على كون «تتوفَّاهم» بمعنى الماضي(٣). وقد تقدَّم لك القولُ بأنَّ الجملةَ خبر «الذين» مع ما فيه. واعترض الأول بأنَّ قوله تعالى: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ إما أن يكون منصوباً بقولٍ مُضْمَرٍ، وذلك القولُ حالٌ من ضمير «ألقوا» أي: ألقوا السَّلَم قائلين: ما كنَّا.. إلى آخره، أو تفسيراً للسَّلَم الذي ألقوه بناءً على أنَّ المراد به القولُ الدالُّ عليه، بدليل الآية الأخرى: ﴿فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾ [النحل: ٨٦] وأيّاً ما كان فذلك العَطْفُ يقتضي وقوعَ هذا القول منهم يوم القيامة، وهو كَذِبٌ صريحٌ، ولا يجوزُ وقوعه يومئذ.

وأجيب بأنَّ المرادَ: ما كنَّا عاملينَ السُّوءَ في اعتقادنا، أي: كان اعتقادنا أنَّ عَمَلنا غيرُ سيِّئ، وهذا نظيرُ ما قيل في تأويل قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقد تُعقِّبَ بأنه لا يلائمه الردُّ عليهم بـ «بلى إنَّ الله» إلى آخره لظهور أنه لإبطال النفي، ولا يقال: الردُّ على مَنْ جَحَدَ واستيقنت نفسُه؛ لأنه يكونُ كَذِباً أيضاً، فلا يُفيد التأويل.

ومن الناس من قال بجواز وقوعِ الكذبِ يومَ القيامة، وعليه فلا إشكال، ولا يخفى أنَّ هذا البحثَ جارٍ على تقدير كون العَطْف على «قال الذين» أيضاً؛ إذ يقتضي كالأول وقوع القول يوم القيامة، وهو مدارُ البحث.

واختار شيخ الإسلام عليه الرحمة العَطْفَ السابق وقال: إنه جوابٌ عن قوله سبحانه: (أَيْنَ شُرَكَآءِىَ) وأرادوا بالسوء الشِّركَ منكرين صدورَهُ عنهم، وإنما عبَّروا عنه بما ذكر اعترافاً بكونه سيِّئاً، لا إنكاراً لكونه كذلك مع الاعتراف بصدوره

(١) الإملاء ٣/ ٤٤٥.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٨٦.
(٣) حاشية الشهاب ٥/ ٣٢٧.

عنهم، ونفى أن يكونَ جواباً عن قول أُولي العلم ادِّعاءً لعدم استحقاقهم لما دَهَمهم من الخزي والسوء[١]. ولعلَّه متعيّنٌ على تقدير العَطْف على «قال الذين» إلى آخره، وإذا كان العَطْفُ على «تتوفَّاهم الملائكة» كان الغرضُ من قولهم هذا الصادرِ منه عند معاينتهم الموت استعطاف الملائكة عليهم السلام بنفي صدور ما يُوجِبُ استحقاقَ ما يُعانونه عند ذلك، وقيل: المراد بالسُّوء الفعلُ السيئ، أعمُّ من الشرك وغيره، ويدخل فيه الشِّركُ دخولاً أوَّليّاً، أي: ما كنَّا نعملُ سوءاً ما فضلاً عن الشرك، و«من» على كلِّ حالٍ زائدة و«سوء» مفعولٌ لـ «نعمل».

﴿بَلَىٰٓ﴾ ردٌّ عليهم من قِبَل الله تعالى، أو من قِبَل أولي العلم، أو من قِبَلِ الملائكة عليهم السلام، ويتعيَّنُ الأخيرُ على كون القول عند معاينة الموت ومعاناته، أي: بلى كنتم تعملون ما تعملون. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٨﴾ فهو يجازيكم عليه وهذا أوانه.

﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ خِطابٌ لكلِّ صنفٍ منهم أن يدخل باباً من أبواب جهنم، والمرادُ بها إما المنفذُ أو الطبقة، ولا يجوزُ أن يكونَ خطاباً لكلِّ فردٍ لئلا يلزمَ دخول الفرد من الكفار من أبوابٍ متعدِّدة، أو يكون لجهنمَ أبوابٌ بعَدَدِ الأفراد، وجُوِّزَ أن يُراد بالأبواب أصناف العذاب، فقد جاء إطلاقُ الباب على الصِّنف كما يقال: فلانٌ ينظر في بابٍ من العلم، أي: صنفٍ منه، وحينئذٍ لا مانعَ في كون الخطاب لكلِّ فرد، وأَبعدَ من قال: المراد بتلك الأبواب قبورُ الكَفَرة المملوءةُ عذاباً مستدلًّا بما جاء: «القبرُ روضةٌ من رياض الجنة، أو حفرةٌ من حُفَر النار»[٢].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حالٌ مقدَّرةٌ إن أُريد بالدخول حدوثُهُ، ومقارنةٌ إن أُريد به مُطلق الكون، وضميرُ «فيها» قيل: للأبواب بمعنى الطبقات، وقيل: لجهنم، والتزم هذا وكون الحال مقدَّرة مَنْ أَبْعَدَ، وحَمْلُ الخلود على المُكْثِ الطويل للاستغناء عن هذا الالتزام، وإن كان واقعاً في كلامهم خلاف المعهود في القرآن الكريم.

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ١٠٩.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٦٠) ضمن حديث طويل عن أبي سعيد ﷺ وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: عن التوحيد، وذَكَرهم بعنوان التكبُّر للإشعار بعِلِّيَّته لثوائهم فيها، وقد وَصَفَ سبحانه الكفَّار فيما تقدَّم بالاستكبار، وهنا بالتَّكبُّر، وذكر الراغبُ أنهما والكِبْرُ تتقاربُ؛ فالكِبر الحالةُ التي يتخصَّصُ بها الإنسانُ من إعجابه بنفسه، والاستكبارُ على وجهين؛ أحدهما: أن يتحرَّى الإنسانُ ويطلبَ أن يصيرَ كبيراً، وذلك متى كان على ما يَجبُ، وفي المكان الذي يَجبُ، وفي الوقت الذي يَجبُ، وهو محمود. والثاني: أن يتشبَّع فيُظهرَ من نفسه ما ليس له وهو مذموم، والتكبُّر على وجهين أيضاً؛ الأول: أن تكونَ الأفعالُ الحسَنَةُ كثيرةً في الحقيقة، وزائدةً على محاسن غيره، وعلى هذا وصف الله تعالى بالمتكبِّر. والثاني: أن يكونَ مُتكلِّفاً لذلك، مُتشبِّعاً، وذلك في وَصْفِ عامةِ الناس؛ والتكبُّر على الوجه الأول محمودٌ، وعلى الثاني مذمومٌ[1].

والمخصوصُ بالذَّمِّ محذوف أي: جهنم أو أبوابها إن فسِّرت بالطبقات، والفاء عاطفة، واللام جيء بها للتأكيد اعتناء بالذَّمِّ لما أنَّ القومَ ضالُّون مُضلُّون كما ينبئُ عنه قوله تعالى: (لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ) وللتأكيد اعتناءً بالمدح جيءَ باللام أيضاً فيما بعدُ من قوله سبحانه: ﴿وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠] لأنَّ أولئك القوم على ضدِّ هؤلاء هادونَ مهديُّون، وكأنه لعدمِ هذا المقتضى في آيتي «الزُّمر» و«المؤمن»[2]، لم يُؤتَ باللام، وقيل: (فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ) وقيل: التأكيدُ متوجِّهٌ لما يُفهم من الجملة من أنَّ جهنَّمَ مثواهم، وحيث إنه لم يُفهم من الآيات قبلَ هنا، فهمه منها قبل آيتَي تينك السورتين، جيءَ بالتأكيد هناك ولم يجئ به هنا اكتفاءً بما هو كالصريح في إفادة أنها مثواهم، مما ستسمعه إن شاء الله تعالى هناك.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ أي: المؤمنين، وُصِفُوا بذلك إشعاراً بأنَّ ما صَدَرَ عنهم من الجواب ناشئٌ من التقوى:

﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ﴾ أي: أنـزل خيـراً، فـ «مـاذا» اسـمٌ واحـدٌ مُـركَّـبٌ للاستفهام بمعنى: أيّ شيءٍ، محلُّهُ النَّصب بـ «أنزل»، و«خيراً» مفعولٌ لفعلٍ

(١) المفردات (كبر).
(٢) الزمر (٧٢)، والمؤمن (٧٦).

محذوفٍ، وفي اختيار ذلك دليلٌ على أنهم لم يتلعثموا في الجواب، وأطبقوه على السؤال معترفين بالإنزال على خلاف الكَفَرة حيث عَدَلوا بالجواب عن السؤال فقالوا: هو أساطيرُ الأولين، وليس من الإنزال في شيء.

نعم قرأ زيدُ بن عليٍّ ﵄: «خيرٌ» بالرفع[1]، ف «ما» اسمُ استفهامٍ، و«ذا» اسمٌ موصولٌ بمعنى «الذي»، أي: أيُّ شيءٍ الذي أنزله ربُّكم، و«خيرٌ» خبرُ مبتدأ محذوفٍ، فيتوافقُ جملتا الجواب والسؤال في كون كلٍّ منهما جملةً اسمية، وجَعْلُ «ماذا» منصوباً على المفعولية كما مرَّ، ورَفْعُ «خير» على الخبرية لمبتدأ جائزٌ إلا أنه خلافُ الأولى، وفي «الكشف» أنه يظهرُ من الوقوف على مراد صاحب «الكشاف»[2] في هذا المقام أنَّ فائدةَ النَّصْب مع أنَّ الرفعَ أقوى دَفْعُ الالتباسِ ليكونَ نصّاً في المطلوب، كما أُوثر النَّصْبُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] لذلك، وينحلُّ مراده من ذلك بالرجوع إلى ما نقلناه عنه سابقاً والتأمل فيه، فتأمَّل فإنه دقيق.

هذا، ولم نجدْ في السائل هنا خلافاً كما في السائل فيما تقدَّم، والذي رأيناهُ في كثيرٍ مما وقفنا عليه من التفاسير أنَّ السائلَ الوفدُ الذي كان سائلاً أولاً في بعض الأقوال المحكية هناك، وذَكَرَ أنه السائلُ في الموضعين كثيرٌ منهم ابنُ أبي حاتم، فقد أخرج عن السُّدِّيِّ قال: اجتمعتْ قريشٌ فقالوا: إنَّ محمداً ﷺ رجلٌ حلوُ اللِّسان، إذا كلَّمه الرجلُ ذهبَ بعقله، فانظروا أناساً من أشرافكم المعدودين، المعروفة أنسابهم، فابعثوهم في كلِّ طريقٍ من طُرُقِ مكَّةَ على رأس ليلةٍ أو ليلتين، فمَنْ جاء يريده فردُّوه عنه، فخرجَ ناسٌ منهم في كلِّ طريقٍ، فكان إذا أقبلَ الرجلُ وافداً لقومه ينظر ما يقولُ محمدٌ ﷺ، فينزلُ بهم، قالوا له: أيا[3] فلان ابن فلان، فيعرِّفه بنَسَبه ويقول: أنا أُخبرك عن محمدٍ ﷺ: هو رجلٌ كذَّابٌ، لم يتبعهُ على أمره إلا السُّفهاءُ والعبيدُ ومَنْ لا خيرَ فيه، وأما شيوخُ قومه وخيارُهم، فمفارقون له، فيرجعُ أحدُهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٨٧.
(٢) ٢/ ٤٠٧.
(٣) في تفسير ابن أبي حاتم: أنا، وفي (م): يا. والمثبت من الأصل.

ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ فإذا كان الوافدُ ممَّنْ عَزَمَ اللهُ تعالى له على الرشاد فقالوا له مِثْلَ ذلك قال: بئسَ الوافدُ أنا لقومي إن كنتُ جئتُ، حتى إذا بلغتُ مسيرةَ يوم رَجَعْتُ قبل أن ألقى هذا الرجل وأنظر ما يقول وآتي قومي ببيان أمره، فيدخلُ مكةَ فيلقى المؤمنين فيسألهم ماذا يقول محمد ﷺ، فيقولون: خيراً... إلخ[١].

نعم يجوز عقلاً أن يكونَ السائلُ بعضهم لبعضٍ ليقوى ما عنده بجوابه، أو لنحو ذلك كالاستلذاذ بسماع الجواب، وكثيراً ما يسأل المحبُّ عمَّا يعلمه من أحوال محبوبه استلذاذاً بمدامة ذِكْره وتشنيفاً لسَمْعه بسَنيِّ دُرِّه:

ألا فاسقني خمراً وقلْ لي هي الخمرُ ولا تسقني سِرّاً إذا أمكنَ الجهرُ[٢]

بل يجوز أيضاً أن يكونَ السائلُ من الكَفَرة المعاندين، وغرضُهُ بذلك التلاعب والتهكم.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ أتوا بالأعمال الحسنة الصالحة ﴿فِي هَٰذِهِ﴾ الدار ﴿ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ مثوبةٌ حَسَنَةٌ جزاءَ إحسانهم، والجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بما بعده على معنى أنَّ تلكَ الحسنة لهم في الدنيا، والمراد بها على ما روي عن الضحاك النصرُ والفتحُ، وقيل: المدح والثناء منه تعالى، وقال الإمام: يحتمل أن يكونَ فتحَ باب المكاشفات والمشاهدات والألطاف كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾[٣] [محمد: ١٧]، وقيل: متعلِّقٌ بما قبله، وحينئذٍ يحتملُ أن يكونَ الكلامُ على تقدير مثله متعلِّقاً بما بعد أو لا، بل تكون هذه الحسنةُ الواقعةُ مثوبةً لإحسانهم في الدنيا في الآخرة، واقتصر بعضُهم على هذا الاحتمال، والمرادُ بالحسنة حينئذٍ إما الثوابُ العظيمُ الذي أَعدَّه الله تعالى يوم القيامة للمحسنين، وإما التضعيفُ بعَشْر أمثالها إلى سبع مئة ضِعْف، إلى ما لا يعلمه غيرهُ جلَّ وعلا، واختير كونه متعلِّقاً بما بعد؛ لأنه الأوفقُ بقوله سبحانه: ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ والكلامُ كما يُشعر به كلامُ غير واحدٍ على حَذْف مضافٍ، أي: ولَثوابُ دار الآخرة، أي: ثوابهم فيها خيرٌ مما أُوتوا في الدنيا من الثواب.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٨١.
(٢) البيت لأبي نواس وهو في ديوانه ص ٢٤٢.
(٣) تفسير الرازي ٢٠/ ٢٤.

وجُوِّز أن يكونَ المعنى: خيرٌ على الإطلاق، فيجوز إسنادُ الخيرية إلى نفس دار الآخرة.

﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٣٠﴾ أي: دار الآخرة، حُذف لدلالة ما سبق عليه كما قاله ابن عطية، والزجاج[١]، وابنُ الأنباري، وغيرهم، وهذا كلامٌ مبتدأ عِدَةٌ منه تعالى للذين اتَّقوا على قولهم، وهو في الوعد ها هنا نظير «ليحملوا أوزارهم» في الوعيد فيما مرَّ، وجُوِّزَ أن يكونَ «خيراً» مفعول «قالوا» وعمل فيه؛ لأنه في معنى الجملة ك: قال قصيدةً، أو صفة مصدر، أي: قولاً خيراً، وهذه الجملةُ بدلٌ منه، فمحلُّها النَّصبُ، أو مفسِّرةٌ له، فلا محلَّ لها من الإعراب، وعلى التقديرين مقولهم في الحقيقة «للذين أحسنوا» إلخ إلا أنَّ الله سبحانه سمَّاه خيراً، ثم حكاه كما تقول: قال فلانٌ جميلاً: مَنْ قَصَدنا وَجَبَ حقُّه علينا، وعلى ما ذكر لا يكون دلالةُ النصب على ما مرَّ لما أُشير إليه هناك، وإنما تكونُ من حيثُ شهادةُ الله تعالى بخيريَّة قولهم، ويحتملُ جَعْلُ ذلك كما في «الكشف» مفعولَ «أنزل» ويكونُ تسميتهُ خيراً من الله تعالى كما في قوله سبحانه: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩] ليشعر أولِ ما يقرعُ السمعَ بالمطابقة من غير نَظَرٍ إلى فَهْم معناه، وأما قولهم: «للذين أحسنوا» أي: قالوا أنزلَ هذه المقالة، فإنَّ ما يُفهم من المطابقة بعد تدبُّر المعنى، وزعمَ بعضُهم أنه لا يجوزُ جعله منصوباً بـ «أنزل» لأنَّ هذا القولَ ليس منزَّلاً من الله تعالى، وفيه تفوتُ المطابقةُ حينئذٍ، وهو كلامٌ ناشئٌ من قِلَّة التدبُّر.

وفي «البحر»: الظاهرُ أنَّ «للذين» إلخ مندرجٌ تحت القول، وهو تفسيرٌ للخير الذي أنزل الله تعالى في الوحي[٢]. وظاهره أنه وجهٌ آخرُ غيرُ ما ذكر، وفيه رَدٌّ على الزاعم أيضاً، ولعلَّ اقتصارَهم على هذا من بين المنزَّل؛ لأنه كلامٌ جامعٌ، وفيه ترغيبٌ للسائل، والمختار من هذه الأوجه عند جَمْعٍ هو الأول، بل قيل: إنه الوجه.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ كما اختاره الزجاجُ[٣] وابنُ الأنباري، أي:

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٩٠، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٩٦.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٨٨.

(٣) في معاني القرآن ٣/ ١٩٦.

هي جنات، وجُوِّزَ أن يكونَ مبتدأ خبرهُ محذوفٌ، أي: لهم جناتٌ، أو هو المخصوصُ بالمدح.

﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ نعتٌ لـ «جنَّات» عند الحوفي بناءً على أنَّ «عَدْن» نكرةٌ، وكذلك ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وكلاهما حالٌ عند غيرِ واحدٍ بناءً على أنها عَلَمٌ. وجوَّزوا أن يكون «جنات» مبتدأ، وجملة «يدخلونها» خبره، وجملة «تجري» إلخ حالٌ، وقرأ زيد بن ثابت وأبو عبد الرحمن: «جناتِ» بالنَّصب على الاشتغال أي: يدخلونَ جناتِ عدنٍ يَدخلونها[1]، قال أبو حيان: وهذه القراءةُ تقوِّي كونَ «جنات» مرفوعاً مبتدأ، والجملةُ بعده خبره. وقرأ زيدُ بن عليٍّ ﵄: «ولنعمتُ[2] دارِ المتقين» بتاءٍ مضمومة و«دارِ» مخفوضة، فيكون «نعمتُ» مبتدأ مضافاً إلى «دار»، و«جنات» خبره. وقرأ إسماعيل بن جعفر عن نافع: «يُدْخَلونها» بالياء على الغيبة والفعلُ مبنيٌّ للمفعول، ورويتْ عن أبي جعفر وشيبة[3].

﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ أي: في تلك الجنات ﴿مَا يَشَاءُونَ﴾ الظَّرفُ الأول خبرٌ لـ «ما» والثاني حالٌ منه، والعاملُ ما في الأول من معنى الحصول والاستقرار، أو متعلِّقٌ به لذلك، أي: حاصلٌ لهم فيها ما يشاؤون من أنواع المشتهيات، وتقديمُهُ للاحتراز عن تَوَهُّم تعلُّقه بالمشيئة، أو لما مرَّ غيرَ مرَّةٍ من أنَّ تأخيرَ ما حقُّه التقديم يُوجبُ ترقُّبَ النفس إليه، فيتمكَّنُ عند وروده أفضلَ[4] تمكُّن.

وذكر بعضُهم أنَّ تقديم «فيها» للحَصْر، و«ما» للعموم بقرينة المقام، فيفيدُ أنَّ الإنسانَ لا يجدُ جميعَ ما يريده إلا في الجنة. فتأمله.

والجملة في موضع الحال نظيرَ ما تقدم، وزُعِمَ أنَّ «لهم» متعلِّقٌ بـ «تجري»، أي: تجري من تحتها الأنهارُ لنفعهم، و«فيها ما يشاؤون» مبتدأ وخبرٌ في موضع الحال، لا يخفى حاله عند ذوي التمييز.

---

(١) القراءات الشاذة ص ٧٣، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٩٠، والبحر المحيط ٥/ ٤٨٨.

(٢) في (م): ولنعمة.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٨٨، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٩٠.

(٤) في (م): فضل.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلُ ذلك الجزاء الأوفى ﴿يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٣١﴾ أي: جنسَهم، فيشملُ كلَّ من يتَّقي من الشرك والمعاصي، وقيل: من الشرك، ويدخلُ فيه المتَّقون المذكورون دخولاً أوّلياً، ويكونُ فيه بَعْثٌ لغيرهم على التقوى، أو المذكورين، فيكون فيه تحسيرٌ للكَفَرة، قيل: وهذه الجملة تؤيِّدُ كون قوله سبحانه (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا) عِدَةً، فإنَّ جَعْلَ ذلك جزاءً لهم يُنظر إلى الوعد به من الله تعالى، وإذا كان مقولَ القول لا يكون من كلامه تعالى حتى يكونَ وَعْداً منه سبحانه، وقيل: إنها تؤيِّدُ كون «جنات» خبرَ مبتدأ محذوفٍ، لا مخصوصاً بالمدح؛ لأنه إذا كان مخصوصاً بالمدح يكون كالصَّريح في أنَّ «جنات عَدْن» جزاءً للمتقين، فيكونُ «كذلك» إلخ تأكيداً، بخلاف ما إذا كان خبرَ مبتدأ محذوف، فإنه لم يعلَمْ صريحاً أنَّ جنات عدن جزاءً للمتقين، وفيه نظرٌ، وكذا في سابقه إلا أنَّ في التعبير بالتأبيد ما يُهوِّن الأمر.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ نَعْتٌ للمتقين، وجُوِّزَ قَطْعُهُ، وقوله سبحانه: ﴿طَيِّبِينَ﴾ حالٌ من ضميرهم، ومعناه على ما روي عن أبي معاذ: طاهرين من دَنَسِ الشِّرك. وهو المناسبُ لِجَعْله في مقابلة «ظالمي أنفسهم» في وَصْف الكَفَرة بناءً على أنَّ المرادَ بالظُّلم أعظمُ أنواعه، وهو الشرك، لكن قيل عليه: إنَّ ذِكْرَ الطهارة عن الشِّرك وحده لا فائدةَ فيه بعد وَصْفهم بالتقوى.

وأجيب بأنَّ فائدةَ ذلك الإشارةُ إلى أنَّ الطهارةَ عن الشِّرك هي الأصل الأصيل. وفي «إرشاد العقل السليم» بعد تفسير الظُّلم بالكُفْر وتفسير «طيّبين» بطاهرين عن دَنَس الظُّلم وجَعْله حالاً قال: وفائدته الإيذانُ بأنَّ مَلاكَ الأمر في التقوى هو الطهارةُ عمَّا ذكر إلى وقت تَوَفِّيهم، ففيه حثٌّ للمؤمنين على الاستمرار على ذلك، ولغيرهم على تحصيله[1].

وقال مجاهد: المراد بـ «طيّبين» زاكية أقوالهم وأفعالهم، وهو مرادُ مَنْ قال: طاهرين من ظُلْم أنفسهم بالكفر والمعاصي. وإلى هذا ذهب الراغبُ حيث قال: الطَّيِّبُ من الإنسان منْ تعرَّى من نجاسةِ الجَهْل والفِسْق وقبائح الأعمال، وتحلّى

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ١١١.

بالعِلْم والإيمان ومحاسن الأعمال، وإياهم قَصَدَ بقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾(١).

وانتُصر لذلك بأنَّ وَصْفَهم بأنهم متَّقون موعودون بالجنة في مقابلة الأعمال يقتضي ما ذُكر، وحملوا الظُّلمَ فيما مرَّ على ما يعمُّ الكُفْرَ والمعاصي، لأنَّ ذلك مُجابٌ بقولهم: «ما كنَّا نعملُ من سوء» فلا تفوتُ المناسبةُ في جَعْل هذا مقابلاً لذاك، لكن في الاستدلال بما ذكر في الجواب على إرادة العامِّ ما لا يخفى.

والكثيرُ على تفسير الطَّيِّبِ بالطاهر عن قاذورات الذنوب مطلقاً(٢) الذي لا خُبْثَ فيه، وقيل: المعنى فرحين ببشارة الملائكة عليهم السلام إياهم، أو بقَبْض أرواحهم لتوجُّه نفوسهم بالكُلِّيةِ إلى حظيرة القدس، فالمرادُ بالطِّيب طِيبُ النفس، وطِيبُها عبارةٌ عن القبول مع انشراح الصدر.

﴿يَقُولُونَ﴾ حالٌ من الملائكة، وجُوِّزَ أن يكونَ «الذين» مبتدأً، خبره هذه الجملة، أي: قائلين أو قائلون لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ لا يحيقكم بعدُ مكروه.

قال القرطبيُّ ـ وروى نحوه البيهقيُّ ـ: عن محمد بن كعب القُرَظي: إذا استُدْعِيَتْ نفسُ المؤمن جاءه ملكُ الموت عليه السلام فقال: السلامُ عليك يا وليَّ الله، إنَّ الله تعالى يقرأ عليك السلام، وبشَّرَهُ بالجنة(٣).

﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ التي أعدَّها الله تعالى لكم، ووعدكم إياها، وكأنها إنما لم تُوصف لشهرة أمرها.

وفي «إرشاد العقل السليم» اللام للعهد، أي: جنات عدن. . .إلخ ولذلك جُرِّدتْ عن النَّعت(٤). وهو كما ترى، والمراد دخولهم فيها بعد البعث بناءً على أنَّ المتبادر الدخولُ بالأرواح والأبدان، والمقصودُ من الأمر بذلك قبل مجيء وقته البشارةُ بالجنة على أتمِّ وجه، ويجوز أن يُرادَ الدخولُ حين التَّوفِّي، بناءً على حَمْل الدخول على الدخول بالأرواح كما يُشير إليه خبرُ: «القبر روضةٌ من رياض

---

(١) المفردات (طيب).

(٢) في (م): مطابق.

(٣) تفسير القرطبي ١١/١٧-١٨، و١٢/٣٢٠. وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان ١/٣٦١.

(٤) إرشاد العقل السليم ٥/١١١.

الجنة»[١] وكون البشارة بذلك دون البشارة بدخول الجنة على المعنى الأول، لا يمنعُ عن ذلك، على أنَّ لقائلٍ أن يقول: إنَّ البشارةَ بدخول الجنة بالأرواح متضمِّنةٌ للبشارة بدخولها بالأرواح والأبدان عند وقته؛ وكونُ هذا القول كسابقه عند قبض الأرواح هو المرويُّ عن ابن مسعود وجماعة من المفسرين. وقال مقاتل والحسن: إنَّ ذلك يوم القيامة، والمراد من التَّوفِّي وفاة الحشر، أعني: تسليم أجسادهم وإيصالها إلى موقف الحشر، مِن تَوَفَّى الشيءَ إذا أخذه وافياً، وجُوِّزَ حَمْلُ التَّوفِّي على المعنى المتعارف، مع كون القول يوم القيامة إما بجَعْل «الذين تتوفَّاهم الملائكة يقولون» مبتدأً وخبراً، أو بجَعْل «يقولون» حالاً مقدَّرةً من الملائكة، و«الذين» على حاله أوّلاً، وحالُ ذلك لا يخفى.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝﴾ أي: بسبب ثباتكم على التقوى والطاعة بالذي كنتم تعملونه من ذلك، والباء للسببية العادية، وهي فيما في الصحيحين من قوله ﷺ: «لن يدخلَ الجنةَ أحدُكم بعمله»[٢] الحديث، للسببية الحقيقية، فلا تعارُضَ بين الآية والحديث. وبعضُهم جَعَلَ الباءَ للمقابلة دَفْعاً للتعارض.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي: ما ينتظرُ كفَّارُ مكةَ المارُّ ذِكْرهم ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لقبضِ أرواحهم كما روي عن قتادة ومجاهد. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وابنُ وثَّابٍ وطلحةُ والأعمش: «يأتيهم» بالياء آخر الحروف[٣]، ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي: القيامة كما روي عمَّن تقدَّم أيضاً، وقال بعضهم: المرادُ به العذابُ الدنيويُّ دونها، لا لأنَّ انتظارَها يُجامعَ انتظارَ إتيان الملائكة، فلا يلائمه العَطْفُ بـ «أو»، لا لأنها ليست نصّاً في العناد؛ إذ يجوز أن يُعتبر مَنْعُ الخلوِّ ويُراد بإيرادها كفاية كلِّ واحدٍ من الأمرين في عذابهم، بل لأنَّ قولَهُ تعالى فيما سيأتي إن شاء الله تعالى: (وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝ فَأَصَابَهُمْ) الآية صريحٌ في أنَّ المرادَ به ما أصابهم من العذاب الدنيويِّ، وفيه مَنْعٌ ظاهر، ويؤيدُ إرادة الأول التعبير بـ «يأتي» دون «يأتيهم».

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٦٠). وسلف ص٩٠ من هذا الجزء.

(٢) صحيح البخاري (٥٦٧٣)، وصحيح مسلم (٢٨١٦) (٧٢) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه ـ أيضاً ـ أحمد (٧٥٨٧).

(٣) التيسير ص ١٠٨، والنشر ٢/ ٣٠٣، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٩١.

وقيل: المرادُ بإتيان الملائكة إتيانهم للشهادة بصِدْق النبيِّ ﷺ، أي: ما ينتظرون في تصديقك إلا أن تنزل الملائكة تشهد بنبوَّتك، فهو كقوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ﴾ [الأنعام: ٨] والجمهور على الأول، وجُعلوا منتظرين لذلك مجازاً لأنه يلحقهم لحوقَ الأمر المنتظر كما قيل.

واختير أنَّ ذلك لمباشرتهم أسبابَ العذاب الموجبة له المؤدِّية إليه، فكأنهم يقصدون إيتاءه ويتصدَّون لوروده، ولا يخفى ما في التعبير بالرَّبِّ وإضافته إلى ضميره ﷺ من اللُّطف به عليه الصلاة والسلام، وسيأتي قريباً إن شاء الله تعالى وجهُ رَبْطِ الآيات.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثْلُ ذلك الفعل من الشرك والتكذيب ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ﴾ خلَوا ﴿مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ من الأمم ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ إذ أصابهم جزاء فِعْلهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٣٣﴾ بالاستمرار على فِعْلِ القبائح المؤدِّي لذلك، قيل: وكان الظاهرُ أن يقال: ولكن كانوا هم الظالمين كما في سورة «الزخرف»[(١)]، لكنه أُوثر ما عليه النَّظْمُ الكريمُ لإفادة أنَّ غائلةَ ظُلْمهم آيلةٌ إليهم، وعاقبته مقصورةٌ عليهم، مع استلزام اقتصار ظُلْمِ كلِّ أحدٍ على نفسه من حيثُ الوقوعُ اقتصاره عليه من حيث الصدور.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ أي: أجزيةُ أعمالهم السيئة، على طريقة إطلاق اسم السَّبب على المسبَّب إيذاناً بفظاعته.

وقيل: الكلامُ على حَذْف المضاف.

وتُعقِّب بأنه يُوهم أنَّ لهم أعمالاً غير سيئة، والتزم ومُثِّلَ ذلك بنحو صلة الأرحام، ولا يخفى أنَّ المعنى ليس على التخصيص، والداعي إلى ارتكاب أحد الأمرين أنَّ الكلامَ بظاهره يدلُّ على أنَّ ما أصابهم سيئة، وليس بها.

وقد يُستغنى عن ارتكاب ذلك لما ذكر بأنَّ ما يدلُّ عليه الظاهرُ من باب المشاكلة كما في قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثْلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠] كما في «الكشاف»[(٢)].

---

(١) الآية (٧٦).

(٢) ٢/ ٤٠٨.

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: أحاطَ بهم، وأصْلُ معنى الحَيق الإحاطةُ مطلقاً، ثم خُصَّ في الاستعمال بإحاطة الشَّرِّ، فلا يقالُ: أحاطتْ به النِّعمة، بل النقمة. وهذا أبلغُ وأفظعُ من «أصابهم» ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٤﴾ أي: من العذاب كما قيل، على أنَّ «ما» موصولةٌ عبارةٌ عن العذاب، وليس في الكلام حَذْفٌ ولا ارتكابُ مجاز على نحو ما مرَّ آنفاً.

وقيل: «ما» مصدريةٌ، وضميرُ «به» للرسول عليه الصلاة والسلام وإن لم يُذْكَر، والمراد: أحاطَ بهم جزاءُ استهزائهم بالرسول ﷺ، أو موصولةٌ عامةٌ للرسول عليه الصلاة والسلام وغيره، وضمير «به» عائدٌ عليها، والمعنى على الجزاء أيضاً، ولا يخفى ما فيه، وأيّاً ما كان فـ «به» متعلق بـ «يستهزؤون» قُدِّم للفاصلة[1]. هذا، ثم إنَّ قوله تعالى: (هَلۡ يَنظُرُونَ) إلخ على ما في «الكشف» رجوعٌ إلى عَدِّ ما هم فيه من العناد والاستشراء في الفساد، وأنهم لا يُقلعون عن ذلك كأسلافهم الغابرين إلى يوم التناد، وما وقع من أحوال أضدادهم في البَين، كان لزيادة التحسير والتبكيت والتخسير، وفيه دلالةٌ على أنَّ الحُجَّة قد تمَّتْ وأنه ﷺ أدَّى ما عليه من البلاغ المبين.

وقوله تعالى: (فَأَصَابَهُمۡ) عَطْفٌ على (فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ) مترتِّبٌ؛ إذ المعنى: كذلك التكذيبُ والشِّركُ فِعْلُ أسلافهم، وأصابهم ما أصابهم. وفيه تحذيرٌ مما فعله هؤلاء وتذكيرٌ لقوله سبحانه: ﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [النحل: ٢٦] ولا يخفى حُسْنُ الترتُّب على ذلك؛ لأنَّ التكذيبَ والشِّركَ تسبَّبا لإصابة السيئات لمن قبلهم، وقوله سبحانه: (وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ) اعتراضٌ واقعٌ حاق موقعه، وجَعْلُ ذلك راجعاً إلى المفهوم من قوله تعالى: (هَلۡ يَنظُرُونَ) أي: كذلك كان مَنْ قبلهم مكذِّبين، لزمتهمُ الحُجَّةُ منتظرين، فأصابهم ما كانوا منتظرين = سديدٌ حَسَنٌ إلا أنَّ معتَمدَ الكلام الأولُ، وهو أقربُ مأخذاً، ودلالةُ «فَعَل» عليه أظهر، فهذه فَذْلكةٌ ضُمِّنَتْ محصَّلَ ما قابلوا به تلك النِّعم والبصائر، وأُدمج فيها تسليته ﷺ والبشرى بقلب الدائرة على مَنْ تربَّص به وبأصحابه عليه الصلاة والسلام الدوائرَ، وخُتمت بما يدلُّ على أنهم انقطعوا فاحتجُّوا بآخرِ ما يحتجُّ به المحجوج، ينقلبُ[2] عليه

---

(١) في (م): للقاصلة. والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٥/ ٣٣٠.

(٢) في (م): يتقلب.

فلا يُبصرُ إلا وهو مثلوجٌ مشجوجٌ، وهو ما تضمَّنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ فهو من تتمَّة قوله سبحانه: (هَلْ يَنظُرُونَ) ألا ترى كيفَ خَتَمَ بنحوه آخرَ مجادلاتهم في سورة «الأنعام» في قوله سبحانه: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ [الأنعام: ١٤٨] وكذلك في سورة «الزخرف»(١)، ولا تراهم يتشبَّثون بالمشيئة إلا عند انخزال الحُجَّة و﴿قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [فصلت: ١٤]. ويكفي في الانقلاب ما يشير إليه قولُه سبحانه: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام:١٤٩].

وفي «إرشاد العقل السليم» إنَّ هذه الآية بيانٌ لفنٍّ آخرَ من كُفْر أهل مكة، فهم المرادُ بالموصول، والعدولُ عن الضمير إليه لتقريعهم بما في حَيِّز الصِّلة وذمِّهم بذلك من أول الأمر، والمعنى: لو شاء الله تعالى عدمَ عبادتنا لشيءٍ غيرِهِ سبحانه كما تقول ما عَبَدنا ذلك(٢).

﴿نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ الذين نهتدي بهم في ديننا ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ من السوائب والبحائر وغيرها، فـ «من» الأولى بيانيةٌ، والثانية زائدةٌ لتأكيد الاستغراق، وكذا الثالثة، و«نحن» لتأكيد ضمير «عَبَدنا» لا لتصحيح العَطْف؛ لوجود الفاصل وإن كان محسِّناً له، وتقديرُ مفعول «شاء» عدم العبادة مما صرَّح به بعضُهم، وكان الظاهر أن يُضمَّ إليه عدمُ التحريم. واعترض تقدير ذلك بأنَّ العدمَ لا يحتاجُ إلى المشيئة كما يُنبئُ عنه قوله ﷺ: «ما شاء الله تعالى كان، وما لم يشأ لم يكن»(٣) حيث لم يقل عليه الصلاة والسلام: ما شاء الله تعالى كان وما شاء عدم كونه لم يكن، بل يكفي فيه عدمُ مشيئة الوجود، وهو معنى قولهم: عِلَّةُ العَدَمِ عدمُ عِلَّةِ الوجود، فالأولى أن يقدَّر المفعولُ وجودياً كالتوحيد والتحليل، وكامتثال ما جئت به، والأمرُ في ذلك سهل.

وفي تخصيص الإشراك والتحريم بالنفي لأنهما أعظمُ وأشهرُ ما هم عليه، وغرضُهم من ذلك ـ كما قال بعض المحققين ـ تكذيبُ الرسول عليه الصلاة

---

(١) الآية (٢٠).

(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ١١٢.

(٣) أخرجه أبو داود (٥٠٧٥) من حديث عبد الحميد مولى بني هاشم عن أمه.

والسلام والطَّعنُ في الرسالة رأساً، فإنَّ حاصِلَه أنَّ ما شاءَ الله تعالى يجبُ، وما لم يشأ يمتنع، فلو أنه سبحانه شاءَ أن نوحِّدهُ ولا نشركَ به شيئاً ونحلِّل ما أحلَّه ولا نحرِّم شيئاً مما حرَّمنا كما تقول الرسل، وينقلونه من جهته تعالى، لكان الأمرُ كما شاء من التوحيد ونفي الإشراك وتحليل ما أحلَّه وعدم تحريم شيءٍ من ذلك، وحيثُ لم يكنْ كذلك ثبتَ أنه لم يشأ شيئاً من ذلك، بل شاء ما نحنُ عليه وتحقَّقَ أنَّ ما تقوله الرسل عليهم السلام من تلقاء أنفسهم، وردَّ الله تعالى عليهم بقوله سبحانه عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثْلُ ذلك الفعل الشنيع ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ من الأمم، أي: أشركوا بالله تعالى وحرَّموا من دونه ما حرَّموا، وجادلوا رُسُلَهم بالباطل ليدحضوا به الحقَّ.

﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ﴾ الذين أُمروا بتبليغ رسالات الله تعالى وعزائم أمره ونهيه ﴿إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥﴾ أي: ليست وظيفتُهم إلا الإبلاغَ للرسالة المُوضح طريقَ الحق والمظهر أحكامَ الوحي التي منها تحتُّم تعلُّق مشيئته تعالى باهتداء مَنْ صَرَفَ قُدْرته واختياره إلى تحصيل الحقِّ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وأما إلجاؤهم إلى ذلك وتنفيذُ قولهم عليهم شاؤوا أو أبوا كما هو مقتضى استدلالهم، فليسَ ذلك من وظيفتهم ولا من الحكمة التي يدورُ عليها فَلَكُ التكليف حتى يُستَدَلَّ بعدم ظهور آثاره على عدم حَقِّيَّةِ الرسل عليهم السلام، أو على عدم تعلُّق مشيئة الله تعالى بذلك، فإنَّ ما يترتَّبُ عليه الثوابُ والعقابُ من الأفعال لابدَّ في تعلُّق مشيئته تعالى بوقوعه من مباشرتهم الاختيارية وصَرْف اختيارهم الجزئيِّ إلى تحصيله وإلا لكان الثوابُ والعقابُ اضطراريَّين؛ والفاء على هذا للتعليل كأنه قيل: كذلك فعل أسلافهم، وذلك باطلٌ، فإنَّ الرسلَ عليهم السلام ليس شأنهم إلا تبليغ الأوامر والنواهي، لا تحقيق مضمونها قَسْراً وإلجاءً.

وكأني بك لا تبريه من تكلُّف، وهو متضمِّنٌ للردِّ على الزمخشريِّ فقد سَلَكَ في هذا المقام الغلوَّ في المقال، وعَدَلَ عن سنن الهدى إلى مهواة الضلال، فذكر أنَّ هؤلاء المشركين فعلوا ما فعلوا من القبائح، ثم نسبوا فِعْلَهم إلى الله تعالى وقالوا: لو شاء الله.. إلى آخره، وهذا مذهبُ المجبِّرة بعينه، كذلك فَعَلَ أسلافهم، فلما نُبِّهوا

على قُبْحِ فِعْلهم وركّوه على ربِّهم، فهل على الرسل إلا أن يُبلِّغوا الحقَّ، وأنَّ الله سبحانه لا يشاءُ الشِّركَ والمعاصي بالبيان والبرهان، ويطَّلعوا على بطلان الشِّرك وقُبْحه وبراءة الله تعالى من أفعال العباد، وأنهم فاعلوها بقَصْدهم وإرادتهم واختيارهم، والله تعالى باعثُهم على جميلها وموفِّقهم له وزاجرهم عن قبيحها ومُوعدهم عليه(١). إلى آخر ما قال مما هو على هذا المنوال، ولعَمْري إنه فسَّر الآيات على وَفْق هواه، وهي عليه لا له لو تدبَّر ما فيها وحواه، وقد ردَّ عليه غيرُ واحدٍ من المحققين وأَجِلَّة المدققين، وبيَّنوا أنَّ الآيةَ بمَعْزِلٍ عن أن تكون دليلاً لأهل الاعتزال، كما أنَّ الشَّرْطيةَ لا تُنْتِجُ مطلوبَ أولئك الضُّلَّال، وقد تقدَّم نبذةٌ من الكلام في ذلك(٢).

ثم إنَّ كونَ غرضِ المشركين من الشرطيَّة تكذيبُ الرسل عليهم السلام هو أحدُ احتمالين في ذلك، قال المدقق في «الكشف» في نظير الآية: إنَّ قولَهم هذا إما لدعوى مشروعية ما هم عليه ردّاً للرسل عليهم السلام، أو لتسليم أنهم على الباطل اعتذاراً بأنهم مجبورون، والأولُ باطلٌ؛ لأنَّ المشيئةَ تتعلَّقُ بفِعْلهم المشروع وغيره، فما شاء الله تعالى أن يقعَ منهم مشروعاً وَقَعَ كذلك، وما شاء الله تعالى أن يقعَ لا كذلك وَقَعَ لا كذلك، ولا شكَّ أنَّ مَنْ توهَّم أنَّ كونَ الفعل بمشيئته تعالى ينافي مجيءَ الرسل عليهم السلام بخلاف ما عليه المباشر من الكُفْر والضَّلال، فقد كذَّب التكذيبَ كلَّه، وهو كاذبٌ في استنتاج المقصود من هذه اللُّزوميَّة، وظاهرُ الآية مسوقٌ لهذا المعنى. والثاني على ما فيه [من](٣) حصول المقصود - وهو الاعترافُ بالبطلان - باطلٌ أيضاً؛ إذ لا جَبْرَ؛ لأنَّ المشيئةَ تعلَّقتْ بأن يُشركوا اختياراً منهم، والعلمُ تعلَّقَ كذلك، ومثله في التحريم، فهو يؤكِّدُ دَفْعَ العُذْر لا أنهُ يحقِّقه، وذكر أنَّ معنى «فهل على الرسل» أنَّ الذي على الرسلِ أن يُبلِّغوا ويُبيِّنوا معالمَ الهدى بالإرشاد إلى تمهيد قواعد النظر، والإمداد بأدلَّة السمع والبصر، ولا عليهم من مجادلة من يريد أن يَدْحَضَ بباطله الحقَّ الأبلج؛ إذ بعد ذلك التبيينِ يتَّضحُ الحقُّ للناظرين، ولا تجدي نَفْعاً مجادلة المعاندين، وجُوِّزَ أن يكون قولهم هذا مَنْعاً للبعثة والتكليف متمسِّكين بأنَّ ما شاء الله تعالى يجبُ وما لم يشأ يمتنع، فما الفائدة

---

(١) الكشاف ٢/ ٤٠٨-٤٠٩، ومعنى: ورَّكوه، أي: أوجبوه. القاموس (ورك).

(٢) ينظر ما سلف عند تفسير الآية (١٤٨) من سورة الأنعام.

(٣) ما بين حاصرتين استدركناه مما سيأتي ٢٤/ ٣٦٥.

فيهما، أو إنكاراً لِقُبْح ما أُنكر عليهم من الشِّرك والتحريم محتجِّين بأنَّ ذلك لو كان مستَقْبَحاً لما شاء الله تعالى صدوره عنَّا، أو لشاءَ خلافه ملجأً إليه، وأُشير إلى جواب الشُّبهة الأولى بقوله سبحانه: (فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ) إلى آخره كأنه قيل: إنَّ فائدةَ البعثة البلاغُ الموضحُ للحقِّ، فإنَّ ما شاء الله تعالى وجودَهُ أو عَدَمَهُ لا يجبُ ولا يمتنعُ مطلقاً كما زعمتم، بل قد يجبُ أو يمتنعُ بتوسُّط أسبابٍ أُخَر قدَّرها سبحانه، ومن ذلك البعثةُ، فإنها تؤدّي إلى هدى من شاء الله تعالى على سبيل التوسُّط، وأما الشبهةُ الثانيةُ فقد أُشير إلى جوابها في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الخالية ﴿رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحده ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ هو كلُّ ما يدعو إلى الضلالة، وقال الحسن: هو الشيطان، والمراد من اجتنابه اجتناب ما يدعو إليه.

﴿فَمِنْهُم﴾ أي: من أولئك الأمم ﴿مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾ إلى الحقِّ من عبادته، أو اجتناب الطاغوت بأن وفَّقهم لذلك ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ ثبتتْ وَوَجبتْ؛ إذ لم يوفِّقهم ولم يُرِدْ هدايتَهم. ووجهُ الإشارة أنَّ تحقُّقَ الضَّلال وثباتَهُ من حيثُ إنه وقعَ قسيماً للهداية التي هي بإرادته تعالى ومشيئته كان هو أيضاً كذلك.

وأما أنَّ إرادةَ القبيح قبيحةٌ فلا يجوز اتِّصافُ الله سبحانه بها فظاهرُ الفساد؛ لأنَّ القبيحَ كَسْبُ القبيح والاتصاف به لا إرادته وخلقه على ما تقرَّر في الكلام. وأنت تعلم أنَّ كلتا الإشارتين في غاية الخفاء، ولينظر أيُّ حاجةٍ إلى الحَصْر، وما المراد به على جَعْل «فهل على الرسل» إلى آخره مشيراً إلى جواب الشبهة الأولى.

وقال الإمام: إنَّ المشركين أرادوا من قولهم ذلك أنه لمَّا كان الكُلُّ من الله تعالى، كان بعثُهُ الأنبياءَ عليهم السلام عَبَثاً، فنقول: هذا اعتراضٌ على الله تعالى وجارٍ مجرى طلبِ العِلَّة في أحكامه تعالى وأفعاله، وذلك باطلٌ؛ إذ لله سبحانه أن يفعلَ في مُلْكه ما يشاء ويحكمَ ما يريد، ولا يجوز أن يقالَ له: لم فعلتَ هذا، ولِمَ لَمْ تفعل ذاك. والدليل على أنَّ الإنكارَ إنما توجَّه إلى هذا المعنى أنه تعالى صرَّحَ بهذا المعنى في قوله سبحانه: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا) إلى آخره، حيث بيَّن فيه أنَّ سُنَّتَهُ سبحانه

في عباده إرسالُ الرسل إليهم وأَمْرُهم بعبادته ونهيُهمْ عن عبادة غيره. وأفاد أنه تعالى وإنْ أَمَرَ الكُلَّ ونهاهم، إلَّا أنه جلَّ جلاله هدى البعضَ وأَضَلَّ البعض، ولا شكَّ أنه إنما يَحسُنُ منه تعالى ذلك بحُكْم كونه إلهاً منزَّهاً عن اعتراضات المعترضين ومطالبات المنازعين، فكان إيرادُ هذا السؤال من هؤلاء الكفار موجباً للجهل والضلال والبعد عن الله المتعال، فثبتَ أنَّ الله تعالى إنما ذمَّ هؤلاء القائلين؛ لأنهم اعتقدوا أنَّ كونَ الأمر كذلك يمنعُ من جواز بعثة الرسل، لا لأنهم كذبوا في قولهم ذلك، وهذا هو الجواب الصحيحُ الذي يُعوَّلُ عليه في هذا الباب. ومعنى «فهل على الرسل» إلى آخره أنه تعالى أَمَرَ الرسلَ عليهم السلام بالتبليغ، فهو الواجبُ عليهم، وأما أنَّ الإيمان هل يحصلُ أو لا يحصلُ، فذلك[1] لا تعلُّق للرسل به، ولكنَّ الله تعالى يهدي من يشاء بإحسانه ويُضِلُّ من يشاء بخذلانه[2]، وهو كما ترى.

ونقل الواحديُّ في «الوسيط» عن الزجاج أنهم قالوا ذلك على الهزو[3]. ولم يرتضهِ كثيرٌ من المحققين، وذكر بعضُهم أنَّ حَمْله على ذاك لا يلائم الجواب.

نعم قال في «الكشف» عند قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠]: إنهم دفعوا قولَ الرسل عليهم السلام بدعوتهم إلى عبادته تعالى، ونهيهم عن عبادة غيره سبحانه بهذه المقالة، وهم مُلزَمون على مساق هذا القول؛ لأنه إذا استند الكلُّ إلى مشيئته تعالى فقد شاءَ إرسالَ الرسل وشاءَ دعوتَهم إلى العباد وشاءَ جحودهم وشاءَ دخولهم النار، فالإنكارُ والدَّفْعُ بعد هذا القول دليلٌ على أنهم قالوه لا عن اعتقادٍ بل مجازفة، وقال في موضع آخر عند نظير الآية أيضاً: إنهم كاذبون في هذا القول لجَزْمهم، حيث لا ظنَّ مطلقاً فَضْلاً عن العلم، وذلك لأنَّ من المعلوم أنَّ العلمَ بصفات الله تعالى فرعُ العلم بذاته والإيمان بها كذلك، والمحتجُّون به كَفَرَةٌ مشركون مجسِّمون، وأطالَ الكلام في هذا المقام في سورة «الزخرف».

---

(١) في (م): فذاك.
(٢) تفسير الرازي ٢٠/ ٢٧-٢٨.
(٣) الوسيط ٣/ ٦٢.

وذكر أنَّ في كلامهم تعجيزَ الخالق بإثبات التمانع بين المشيئة وضدّ المأمور به، فيلزمُ أن لا يريد إلا ما أمر به، ولا ينهى إلا وهو لا يريده، وهذا تعجيزٌ من وجهين؛ إخراج بعض المقدورات عن أن يصير محلّها، وتضييقُ محلٍّ أمره ونهيه، وهذا بعينه مذهبُ إخوانهم القدرية.

ويجوز أن يقال: إنَّ المشركين إنما قالوا ذلك إلزاماً بزعمهم حيث سمعوا من المرسلين وأتباعهم أنَّ ما شاء الله تعالى كان وما لم يشأ لم يكن، وإلا فهمْ أجهلُ الخلق بربِّهم جلَّ شأنه وصفاته ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان: ٤٤] ومرادهم إسكاتُ المرسلين وقَطْعُهمْ عن دعوتهم إلى ما يخالف ما هم عليه، والاستراحةُ عن معارضتهم، فكأنهم قالوا: إنكم تقولون ما شاء الله تعالى كان وما لم يشأ لم يكن، فما نحن عليه مما شاءه الله تعالى وما تدعونا إليه مما لم يشأه وإلا لكان، واللائقُ بكم عدمُ التعرُّضِ لخلاف مشيئة الله تعالى، فإنَّ وظيفةَ الرسول الجريُ على إرادة المرسل؛ لأنَّ الإرسالَ إنما هو لتنفيذ تلك الإرادة وتحصيل المراد بها. وهذا جَهْلٌ منهم بحقيقة الأمر وكيفية تعلُّقِ المشيئة وفائدة البعثة، وذلك لأنَّ مشيئته تعالى إنما تتعلَّقُ وَفْقَ علمه، وعلمُهُ إنما يتعلَّق وَفْقَ ما عليه الشيءُ في نفسه، فالله تعالى ما شاء شِرْكَهم مثلاً إلا بعد أن علم ذلك، وما عَلِمَهُ إلا وَفْقَ ما هو عليه في نفس الأمر، فهم مشركون في الأزل ونفس الأمر إلا أنه سبحانه حين أبرزهم على وَفْق ما عَلِمَ فيهم لو تركهم وحالهم كان لهم الحجَّةُ عليه سبحانه إذا عذَّبهم يومَ القيامة؛ إذ يقولون حينئذ: ما جاءنا من نذير، فأرسلَ جلَّ شأنه الرسلَ مبشِّرين ومنذرين لئلَّا يكونَ للناس على الله حجةٌ بعد الرسل، فليس على الرسل إلا تبليغ الأوامر والنواهي لتقومَ الحجَّةُ البالغةُ لله تعالى، فالتبليغُ مرادُ الله تعالى من الرسل عليهم السلام لإقامة حُجَّته تعالى على خَلْقه به، وليس مرادُهُ من خَلْقه إلا ما هم عليه في نفس الأمر خيراً كان أو شرًّا.

وفي الخبر: يقول الله تعالى: «يا عبادي إنما هي أعمالُكم أُحصيها لكم، فمَنْ وَجَدَ خيراً فليحمدِ الله، ومَنْ وَجَدَ غيرَ ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه»[1].

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذرٍّ ﷺ.

ولا منافاة بين الأمر بشيءٍ وإرادة غيره منه تعالى؛ لأنَّ الأمرَ بذلك حسبما يليقُ بجلاله وجماله، والإرادة حسبما يستدعيه في الآخرة الشيء في نفسه، وقد قرَّر الجماعةُ انفكاكَ الأمر عن الإرادة في الشاهد أيضاً، وذكر بعضُ الحنابلة الانفكاكَ أيضاً، لكن عن الإرادة التكوينية لا مطلقاً، والبحثُ مفصَّلٌ في موضعه، وإذا عُلم ذلك فاعلم أنَّ قوله سبحانه: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ يتضمَّنُ الإشارةَ إلى رَدِّهم، كأنه قيل: ما أَشرتمْ إليه من أنَّ اللائقَ بالرسل تركُ الدعوة إلى خلاف ما شاءه الله تعالى منَّا والجريُ على وَفْق المشيئة والسكوتُ عنَّا باطلٌ؛ لأنَّ وظيفتَهُمْ والواجبَ عليهم هو التبليغُ، وهو مرادُ الله تعالى منهم لتقومَ به حُجَّةُ الله تعالى عليكم، لا السكوتُ وتَرْكُ الدعوة، وفي قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا﴾ إلخ إشارةٌ يتفطَّنُ لها مَنْ له قلبٌ إلى أنَّ المشيئةَ حَسبَ الاستعداد الذي عليه الشخصُ في نفس الأمر. فتأمَّلْ فإنَّ هذا الوجهَ لا يخلو عن بُعْدٍ ودَغدغة.

والذي ذكره القاضي في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا﴾ إلخ أنه بيَّن فيه أنَّ البعثةَ أَمْرٌ جرتْ به السنةُ الإلهية في الأمم كلِّها سبباً لهدي مَنْ أراد سبحانه اهتداءه وزيادةً لضلال مَنْ أراد ضلاله، كالغذاء الصالح ينفعُ المزاجَ السَّويَّ ويقوِّيه، ويضرُّ المنحرفَ ويُفنيه[1].

وفي «إرشاد العقل السليم» أنه تحقيقٌ لكيفية تعلُّقِ مشيئته تعالى بأفعال العباد بعد بيان أنَّ الإلجاءَ ليس من وظائف الرسالة، ولا من باب المشيئة المتعلِّقة بما يدورُ عليه فَلَكُ الثواب والعقاب من الأفعال الاختيارية[2]. والمعنى: إنَّا بعثنا في كلِّ أمةٍ رسولاً يأمرهم بعبادة الله تعالى واجتناب الطاغوت، فأمروهم فتفرَّقوا، فمنهم من هداه الله تعالى بعد صَرْفِ قُدْرته واختياره الجزئيِّ إلى تحصيل ما هدى إليه، ومنهم مَنْ ثبتَ على الضلالة لعناده وعدم صَرْف قُدْرته إلى تحصيل الحق، والفاء في «فمنهم» فصيحةٌ كما أُشير إليه، وكان الظاهر في القسم الثاني: ومنهم من أضلَّ الله، إلا أنه غيَّر الأسلوبَ إلى ما في النَّظْم الكريم؛ للإشعار بأنَّ ذلك لسوء اختيارهم كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] و«أن» يحتملُ أن

---

(١) تفسير البيضاوي ٣/ ١٨١.

(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ١١٢.

تكونَ مفسِّرةً لما في البعث من معنى القول، وأن تكونَ مصدريةً بتقدير حرف الجرِّ أي: بأن اعبدوا الله.

﴿فَسِيرُواْ﴾ أيها المشركون المكذِّبون القائلون: لو شاء الله ما عبدنا من دونه ﴿فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ من عادٍ وثمودَ ومَنْ سار سَيرهم ممَّن حقَّتْ عليه الضلالة وقال كما قلتم لعلَّكم تعتبرون، وترتيبُ الأمر بالسَّير على مجرَّد الإخبار بثبوت الضلالة عليهم من غير إخبارٍ بحلول العذاب؛ للإيذان بأنَّ ذلك غنيٌّ عن البيان، وفي عَطْفِ الأمر الثاني بالفاء إشعارٌ بوجوب المبادرة إلى النظر والاستدلال المنقذَين من الضلال.

﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ﴾ خطابٌ لرسول الله ﷺ. والحرص: فَرْطُ الإرادة. وقرأ النخعيُّ: «وإن» بزيادة واو[1]، وهو والحسن وأبو حيوة: «تحرَص» بفتح الراء مضارعُ حَرِصَ بكسرها، وهي لغة[2]، والجمهور: «تَحرِص» بكَسر الراء مضارعُ حَرَصَ بفتحها، وهي لغةُ الحجاز.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ جوابُ الشرط على معنى: فاعلم ذلك، أو علة للجواب المحذوف، أي: إن تحرص على هداهم لم ينفع حرصك شيئاً فإن الله تعالى لا يهدي من يُضل، والمرادُ بالموصول قريشٌ المعبَّرُ عنهم فيما مرَّ بالذين أشركوا، وَوَضْعُ الموصول مَوضِعَ ضميرهم للتنصيص على أنهم ممَّنْ حقَّتْ عليهمُ الضلالة وللإشعار بعِلَّة الحكم. ويجوز أن يُرادَ به ما يشملهمْ، ويدخلون فيه دخولاً أوَّلياً، ومعنى الآية على ما قيل: إنه سبحانه لا يخلقُ الهدايةَ جَبْراً وقَسْراً فيمن يخلق فيه الضَّلالة بسوء اختياره. ولابدَّ من نحو هذا التأويل؛ لأنَّ الحُكْمَ بدون ذلك مما لا يكادُ يُجهل، و«مَنْ» على هذا مفعولُ «يهدي» كما هو الظاهر، وقيل: إنَّ يهدي مضارعُ هدى، بمعنى اهتدى، فهو لازمٌ و«مَنْ» فاعلُهُ، وضميرُ الفاعل في «يُضِلّ» لله تعالى، والعائدُ محذوفٌ، أي: مَنْ يُضلُّه، وقد حكى مجيءَ «هدى»

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٩٠، والدر المصون ٧/ ٢١٧.

(٢) القراءات الشاذة ص ٧٣، والمحتسب ٢/ ٩، والبحر المحيط ٥/ ٤٩٠. وجاء في المحتسب: ابن خيرة. بدل: أبو حيوة.

بمعنى «اهتدى» الفراءُ[١]. وقرأ غيرُ واحدٍ من السبعة، والحسنُ والأعرجُ ومجاهدٌ وابنُ سيرين والعُطَارديّ ومزاحمُ الخراساني وغيرهم: «لا يُهدَى» بالبناء للمفعول[٢]، فـ «من» نائبُ الفاعل، والعائدُ وضمير الفاعل كما مرَّ، وهذه القراءةُ أبلغُ من الأولى؛ لأنها تدلُّ على أنَّ مَنْ أضلَّهُ الله تعالى لا يهديه كلُّ أحدٍ، بخلاف الأولى، فإنها تدلُّ على أنَّ الله تعالى لا يهديه فقط، وإن كان مَنْ لم يهدِ الله فلا هادي له، وهذا ـ على ما قيل ـ إن لم نقلْ بلزوم «هدى»، وأما إذا قلنا به فهما بمعنى، إلا أنَّ هذه صريحةٌ في عموم الفاعل، بخلاف تلك، مع أنَّ المتعدِّي هو الأكثر. وقرأتْ فرقةٌ منهم عبد الله: «لا يَهِدِّي» بفتح الياء وكسر الهاء والدال وتشديدها[٣]، وأصله يهتدي، فأُدغم كقولك في يختصم: يخصِّم.

وقرأتْ فرقةٌ أخرى: «لا يُهدِي» بضم الياء وكسر الدال[٤]، قال ابن عطية: وهي ضعيفة[٥]، وتعقَّبه في «البحر» بأنه إذا ثبتَ «هدى» لازماً بمعنى اهتدى، لم تكن ضعيفةً، لأنه أدخل على اللازم همزةَ التعدية، فالمعنى: لا يُجعَلُ مهتدياً مَنْ أضَلَّه[٦].

وأجيب بأنه يحتمل أنَّ وَجْهَ الضَّعْف عنده عدمُ اشتهار «أهدى» المزيد. وقرئ «يَضِلُّ» بفتح الياء[٧]، وفي مصحف أبيٍّ: «فإنَّ الله لا هاديَ لمن أَضَلَّ»[٨].

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٧﴾ ينصرونهم في الهداية، أو يدفعون العذابَ عنهم، وهو تتميمٌ بإبطال ظنِّ أنَّ آلهتهم تنفعُهمْ شيئاً، وضمير «لهم» عائدٌ على معنى «من» وصيغةُ الجمع في الناصرين باعتبار الجمعية في الضمير، فإنَّ مقابلةَ الجمع

---

(١) معاني القرآن ٢/ ٩٩.
(٢) قرأ بها من العشرة نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب. التيسير ص ١٣٧، والنشر ٢/ ٣٠٤، والبحر المحيط ٥/ ٤٩٠.
(٣) الكشاف ٢/ ٤٠٩، والبحر المحيط ٥/ ٤٩٠.
(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٩٠.
(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٣٩٢.
(٦) البحر المحيط ٥/ ٤٩٠.
(٧) الكشاف ٢/ ٤٠٩، والبحر المحيط ٥/ ٤٩٠.
(٨) القراءات الشاذة ص ٧٣، والكشاف ٢/ ٤٠٩، والبحر المحيط ٥/ ٤٩٠.

بالجمع تفيدُ انقسامَ الآحاد على الآحاد، لا لأنَّ المرادَ نفيُ طائفةٍ من الناصرين من كلٍّ منهم.

ثمَّ إنَّ أوَّلَ هذه الآيات ربَّما يُوهِمُ نُصْرةَ مذهب الاعتزال، لكنَّ آخرَها مشتملٌ على الوجوه الكثيرة ـ كما قال الإمام ـ الدالةِ على نُصْرة مذهب أهل الحقِّ[(١)]، ولعلَّ الأمر غنيٌّ عن البيان، ولله تعالى الحمد على ذلك.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾ شروعٌ في بيان فنٍّ آخرَ من أباطيلهم، وهو إنكارهم البعث، وهو على ما في «الكشاف»[(٢)] وغيره عَطْفٌ على قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا) قيل: ولتضمُّن الأول إنكارَ التوحيد، وهذا إنكارَ البعث، وهما أمران عظيمان من الكفر والجهل حَسُنَ العَطْفُ بينهما، والضميرُ لأهل مكةَ أيضاً، أي: حَلَفوا بالله ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ مصدرٌ منصوبٌ على الحال، أي: جاهدين في أيمانهم ﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ وهو مبنيٌّ على أنَّ الميتَ يُعدَمُ ويَفنى، وأنَّ البعثَ إعادةٌ له، وأنه يستحيلُ إعادةُ المعدوم، وقد ذهب إلى هذه الاستحالة الفلاسفةُ، ولم يوافقهم في دعوى ذلك أحدٌ من المتكلِّمين إلا الكرَّامية وأبو الحسين البصري من المعتزلة، واحتجُّوا عليها بما ردَّه المحقِّقون، وبعضُهم ادَّعى الضرورةَ في ذلك، وأنَّ ما يُذكَرُ في بيانه تنبيهاتٌ عليه، فقد نقل الإمام عن الشيخ أبي عليٍّ بن سينا أنه قال: كلُّ مَنْ رَجَعَ إلى فطرته السليمة، ورَفَضَ عن نفسه الميلَ والتَّعصُّبَ، شَهِدَ عقلُهُ الصريحُ بأنَّ إعادةَ المعدوم بعينه ممتنعةٌ؛ وفي قَسَم هؤلاء الكفار على عدم البعث إشارةٌ ـ كما قال في التفسير ـ إلى أنهم يدَّعون العلم الضروريَّ بذلك[(٣)].

وأنت تعلم أنه إذا جُوِّزَ إعادةُ المعدوم بعينه كما هو رأي جمهور المتكلِّمين، فلا إشكالَ في البعث أصلاً، وأما إن قلنا بعَدَم جواز الإعادة لقيام القاطع على ذلك فقد قيل: نلتزمُ القولَ بعدم انعدامِ شيءٍ من الأبدان حتى يلزمَ في البعث إعادةُ المعدوم، وإنما عَرَضَ لها التفرُّقُ، ويَعْرِضُ لها في البعث الاجتماعُ، فلا إعادةَ لمعدوم، وفيه بحثٌ، وإن أُيِّدَ بقصَّةِ إبراهيم عليه السلام، ومن هنا قال المولى

(١) تفسير الرازي ٢٠/ ٢٩.
(٢) ٢/ ٤٠٩.
(٣) تفسير الرازي ٢٠/ ٣١ ولم نقف على نقله عن ابن سينا.

ميرزاجان[١]: لا مخلصَ إلا بأن يقال ببقاء النفس المجردة وأنَّ البدنَ المبعوثَ مثلُ البدن الذي كان في الدنيا، وليس عينهُ بالشَّخص، ولا ينافي هذا قانونَ العدالة إذ الفاعلُ هو النفسُ ليس إلا، والبدنُ بمنزلة السِّكِّين بالنسبة إلى القَطْع، فكما أنَّ الأثرَ المترتِّبَ على القطع من المدح والذَّمِّ والثواب والعقاب إنما هو للقاطع لا للسكين، كذلك الأثرُ المترتِّبُ على أفعال الإنسان إنما هو للنفس، وهي المتلذِّذةُ والمتألِّمةُ تلذُّذاً أو تألُّماً عقلياً أو حسِّياً، فليس يلزمُ خلافُ العدالة، وأما الظواهر الدالَّةُ على عَوْدِ ذلك الشخص بعينه، فمؤوَّلةٌ لفَرْض القاطع الدَّالِّ على الامتناع، وذلك بأن يقال: المرادُ إعادةُ مادَّتهِ مع صورةٍ كانت أشبهَ الصُّوَر إلى الصورة الأولى، فتدبَّر؛ وسيأتي إن شاء الله تعالى في سورة «يس» تحقيقُ هذا المطلب على أتمِّ وجه.

ونُقل عن ابن الجوزيِّ وأبي العالية أنَّ هذه الآية نزلت لأنَّ رجلاً من المسلمين تقاضى ديناً على رجل من المشركين، فكان فيما تكلَّم به المسلمُ: والذي أرجوه بعد الموت، فقال المشرك: وإنك لتُبعثُ بعد الموت!. وأَقسمَ بالله لا يَبعثُ الله مَنْ يموت[٢]. فقصَّ الله تعالى ذلك وردَّه أبلغَ رَدٍّ بقوله سبحانه: ﴿بَلَىٰ﴾ لإيجاب النفي، أي: بلى يبعثهم ﴿وَعْدًا﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ لما دلَّ عليه «بلى» إذ لا معنى له سوى الوعد بالبعث والإخبار عنه، ويسمَّى نحو هذا مؤكِّداً لنفسه، وجُوِّزَ أن يكون مصدراً لمحذوفٍ أي: وَعَدَ ذلك وَعْداً ﴿عَلَيْهِ﴾ صفةُ «وَعْداً» والمراد وَعْداً ثابتاً عليه إنجازه، وإلا فنفسُ الوعد ليس ثابتاً عليه، وثبوتُ الإنجاز لامتناع الخُلْف في وَعْده، أو لأنَّ البعثَ من مقتضيات الحكمة.

﴿حَقًّا﴾ صفةٌ أخرى لـ «وَعْداً» وهي مؤكِّدةٌ إن كان بمعنى: ثابتاً متحقِّقاً، ومؤسِّسةٌ إن كان بمعنى: غير باطل، أو نُصبَ على المصدرية بمحذوفٍ، أي: حقَّ حقّاً.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ لجهلهم بشؤون الله تعالى من العلم والقدرة والحكمة وغيرها من صفات الكمال، وبما يجوزُ عليه وما لا يجوز، وعدم وقوفهم على سرِّ

---

(١) هو حبيب الله بن عبد الله العلوي الدهلوي الحنفي له من الكتب أنموذج الفنون، حاشية على تجريد العقائد الجديدة والقديمة وغيرها. توفي سنة (٩٩٤هـ). هدية العارفين ١/ ٢٦٢.

(٢) زاد المسير ٤/ ٤٤٧، وتفسير الطبري ١٤/ ٢٢٠.

التكوين، والغاية القصوى منه، وعلى أنَّ البعثَ مما تقتضيه الحكمة. ﴿لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ أنه تعالى يبعثهم، ونعى عليهم عدمَ العلم بالبعث دون العلم بعدمه الذي يزعمونه على ما يقتضيه ظاهرُ قَسَمهم؛ ليُعلم منه نعيُ ذاك بالطريق الأولى[١].

وجُوِّزَ أن يكون للإيذان بأنَّ ما عندهم بمعزِلٍ عن أن يُسمَّى عِلماً، بل هو توهُّمٌ صِرْفٌ وجَهْلٌ محضٌ، وتقدير مفعول «يعلمون» ما علمتَ هو الأنسبُ بالسياق، وجُوِّزَ أن يكون التقدير: لا يعلمون أنه وَعْدٌ عليه حقٌّ، فيكذِّبونه قائلين: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النمل: ٦٨].

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ متعلِّقٌ بما دلَّ عليه: بلى وهو يبعثهم، والضمير لمن يموت الشامل للمؤمنين والكافرين؛ إذ التبيينُ يكون للمؤمنين أيضاً، فإنهم وإن كانوا عالمين بذلك، لكنه عند معاينة حقيقة الحال يتَّضحُ الأمر، فيَصِلُ عِلْمهمْ إلى مرتبة عين اليقين، أي: يبعثهم ليبيِّن لهم بذلك، وبما يحصل لهم بمشاهدة الأحوال كما هي ومعاينتها بصورها الحقيقية الشأن.

﴿ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾[٢] من الحقِّ الشامل لجميع ما خالفوه مما جاء به الرسل المبعوثون فيهم، ويدخل فيه البعثُ دخولاً أوَّليّاً، والتعبير عن ذلك بالموصول للدلالة على فخامته، وللإشعار بعِلِّيَّةِ ما ذُكر في حيِّز الصِّلة للتبيين، وتقديمُ الجارِّ والمجرور لرعاية رؤوس الآي.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ بالله تعالى بالإشراك وإنكار البعث الجسمانيِّ وتكذيب الرسل عليهم السلام، ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾ في كلِّ ما يقولونه، ويدخل فيه قولهم: «لا يبعث الله من يموت» دخولاً أوَّليّاً.

ونقل في «البحر» القول بتعلُّق «ليبيِّن»... إلخ بقوله تعالى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا) أي: بعثناه ليبيِّنَ لهم ما اختلفوا فيه، وأنهم كانوا على الضَّلالة قبل بَعْثه، مفترين على الله سبحانه الكذب[٣]. ولا يخفى بُعْدُ ذلك وتبادُرُ ما تقدَّم، وجعل

---

(١) قوله: الأولى. ليست في (م).

(٢) في الأصل: الذي فيه يختلفون. وبنى عليه قوله الآتي: وتقديم الجار والمجرور لرعاية رؤوس الآي!

(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٩١.

التبيين والعلم المذكورين غاية للبعث كما في «إرشاد العقل السليم» باعتبار وروده في مَعْرِض الرَّدِّ على المخالفين، وإبطال مقالة المعاندين المستدعي للتعرُّض لما يردعهم عن المخالفة، ويأخذ بهم إلى الإذعان للحقِّ، فإنَّ الكَفَرَةَ إذا علموا أنَّ تحقُّقَ البعث إذا كان لتبيين أنه حقٌّ، وليعلموا أنهم كاذبون في إنكاره، كان أزجر لهم عن إنكاره، وأدعى إلى الاعتراف به ضرورةَ أنه يدلُّ على صِدْقِ العزيمة على تحقيقه، كما تقول لمن يُنكر أنك تصلِّي: لأُصلينَّ رَغْماً لأنفك وإظهاراً لكَذِبك، ولأنَّ تكرُّرَ الغايات أدلُّ على وقوع المُغيَّى بها، وإلا فالغايةُ الأصليةُ للبعث باعتبار ذاته إنما هو الجزاءُ الذي هو الغايةُ القصوى للخلق المُغيَّى بمعرفته عزَّ وجلَّ وعبادته، وإنما لم يذكر ذلك لتكرُّر ذِكْره في مواضعَ وشهرته، وفيه أنه إنما لم يُدْرَجْ علمُ الكفَّار بكَذِبهم تحتَ التبيين بأن يقال مثلاً: وإنَّ الذين كفروا كانوا كاذبين، بل جيءَ بصيغة العلم؛ لأنَّ ذلك ليس مما يتعلَّقُ به التبيينُ الذي هو عبارةٌ عن إظهار ما كان مبهماً قبل ذلك بأن يُخبَرَ به فيختلف فيه، كالبعث الذي نَطَقَ به القرآنُ فاختلف فيه المختلفون، وأما كَذِبُ الكافرين فليس من هذا القبيل[1].

ويُستفاد من تحقيقه في نظير ما هنا أنه لمَّا كان مدلولُ الخبر هو الصدقَ، والكَذِب احتمالٌ عقليٌّ، وكان معنى تبيين الصِّدق إظهار ذلك المدلول وقَطْع احتمال نقيضه بعد ما كان محتملاً له احتمالاً عقليّاً، ناسَبَ أن يُعلَّق التبيينُ بالذي فيه يختلفون من الحقِّ، وليس بين الصِّدق والحقِّ كثيرُ فرق، ولمَّا كان الكَذِبُ أمراً حادثاً لا دلالة للخبر[2] عليه حتى يتعلَّق به التبيينُ والإظهارُ، بل هو نقيضُ مدلوله، فما يتعلَّق به يكون عِلْماً مستأنفاً = ناسَبَ أن يُعلَّقَ العلمُ بأنهم كانوا كاذبين، فليتدبر.

قيل: ولكون العلم بما ذُكر من روادف ذلك التبيين قيل: «وليعلم الذين كفروا» دون: وليجعل الذين كفروا عالمين، وخُصَّ الإسنادُ بهم حيث لم يقلْ: وليعلموا أنَّ الذين كفروا كانوا كاذبين؛ تنبيهاً على أنَّ الأهمَّ عِلْمهُمْ، وقيل: لم يقلْ ذلك لأنَّ عِلْمَ المؤمنين بما ذُكر حاصلٌ قبل ذلك أيضاً.

---

(١) إرشاد العقل السليم ٥/ ١١٤.

(٢) في (م): الخبر.

وتُعقِّبَ بأنَّ حصولَ مرتبةٍ من مراتب العلم لا يأبى حصولَ مرتبةٍ أعلى منها، فَلِمَ لَمْ يقلْ ذلك إيذاناً بحصول هذه المرتبة من العلم لهم حينئذٍ، ولعلَّ فيه غفلةً عن مراد القائل.

وجُوِّزَ أن يُرادَ من عِلْم الكَفَرة بأنهم كانوا كاذبين تعذيبُهُمْ على كَذِبهم، فكأنه قيل: ليُظهر للمؤمنين والكافرين الحقّ وليعذِّب الكافرين[1] على كذبهم فيما كانوا يقولونه من أنه تعالى لا يبعثُ من يموت، ونحوه، وهذا كما يقال للجاني: غداً تعلمُ جنايتك، وحينئذٍ وجهُ تخصيص الإسناد بهم ظاهرٌ، وهو كما ترى.

وزعم بعضُ الشيعة أنَّ الآية في عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه والأئمةِ من بَنِيْه ﵃، وأنها من أدلة الرَّجعة التي قال بها أكثرهم، وهو زَعْمٌ باطلٌ، والقولُ بالرَّجْعة محضُ سخافةٍ لا يكاد يقول بها مَنْ يُؤمن بالبعث، وقد بين ذلك على أتمِّ وجهٍ في «التحفة الاثني عشرية» ولعلَّ النَّوبة تُفضي إن شاء الله تعالى إلى بيانه، وما أخرجه ابنُ مردويه عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه أنه قال: إنَّ قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾ الآية نزلت فيَّ[2]، غيرُ مسلَّم الصحة، وعلى فَرْضِ التسليم لا دليلَ فيه على ما يزعمونه من الرَّجعة بأنْ يقال: إنه ﵁ أراد أنها نزلت بسببي، ويكونُ ﵁ هو الرجلَ الذي تقاضى ديناً له على رجلٍ من المشركين فقال ما قال، كما مرَّ عن ابن الجوزي وأبي العالية، وأخرجه عن أبي العالية عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم[3]، واستنبطَ الشيخُ بهاءُ الدين من الآية دليلاً على أنَّ الكَذِبَ مخالفةُ الواقع، ولا عبرةَ بالاعتقاد، وهو ظاهرٌ، فافهم.

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا﴾ استئنافٌ لبيان التكوين على الإطلاق ابتداءً أو إعادةً بعد التنبيه على إنِّيَّةِ البعث، ومنه يُعلَمُ كيفيَّته، فـ «ما» كافَّةٌ و«قولنا» مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿لِشَيْءٍ﴾ متعلِّقٌ به، واللام للتبليغ كما في قولك: قلتُ لزيدٍ: قُمْ، فقام، وقال الزجاج: هي لامُ السَّبب، أي: لأجل إيجاد شيء، وتُعقِّبَ بأنه ليس بواضحٍ،

---

(١) في (م): الكافرون.

(٢) أخرجه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٤/ ١١٨.

(٣) تفسير الطبري ١٤/ ٢٢٠، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٤/ ١١٨.

والمتبادَرُ من الشيء هنا المعدوم، وهو أحدُ إطلاقاته، وقد برهن الشيخ إبراهيم الكوراني عليه الرحمة على أنَّ إطلاقَ الشيء على المعدوم حقيقةٌ كإطلاقه على الموجود، وألَّف في ذلك رسالةً جليلةً سماها: «جلاء الفهوم»، ويُعلَمُ منها أنَّ القولَ بذلك الإطلاق ليس خاصّاً بالمعتزلة كما هو المشهور، ولهذا أوَّلَ هنا مَنْ لم يقفْ على التحقيق من الجماعة فقال: إنَّ التعبيرَ عنه بذلك باعتبار وجوده عند تعلُّق مشيئته تعالى به؛ لا أنه كان شيئاً قبل ذلك.

وفي «البحر» نقلاً عن ابن عطية: إنَّ في قوله تعالى: «لشيء» وجهين: أحدهما أنه لما كان وجودُهُ حَتْماً جاز أن يُسمَّى شيئاً، وهو في حال العدم، والثاني: أنَّ ذلك تنبيهٌ على الأمثلة التي يُنظَر فيها، وأنَّ ما كان منها موجوداً كان مراداً، وقيل له: كُنْ فكان، فصارَ مثالاً لما يتأخَّرُ من الأمور بما تقدَّم، وفي هذا مَخْلَصٌ من تسمية المعدوم شيئاً[1]، وفيه من الخفاء ما فيه، وأيّاً ما كان، فالتنوين للتنكير، أي: لشيءٍ أيِّ شيءٍ كان مما عزَّ وهان.

﴿إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ﴾ ظرفٌ لـ «قولنا» أي: وقت تعلُّق إرادتنا بإيجاده ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن﴾ في تأويل مصدرٍ خبرٍ للمبتدأ، واللامُ في «له» كاللام في «الشيء».

﴿فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ إما عَطْفٌ على مقدَّرٍ يُفصِحُ عنه الفاء، وينسحبُ عليه الكلامُ، أي: فنقول ذلك فيكون، وإما جوابٌ لشرطٍ محذوفٍ، أي: فإذا قلنا ذلك فهو يكون، وقيل: إنه بعد تقدير «هو» تكونُ الجملةُ خبراً لمبتدأ محذوفٍ، أي: ما أردناه فهو يكون. و«كان» في الموضعين تامة، والذي ذهب إليه أكثرُ المحققين وذكره مقتصراً عليه شيخُ الإسلام أنه ليس هناك قولٌ ولا مقولٌ له ولا أَمرٌ ولا مأمورٌ حتى يقال: إنه يلزمُ أحد المحالين إما خطابُ المعدوم أو تحصيلُ الحاصل؛ أو يقال: «إنما» مستدعيةٌ انحصارَ قوله تعالى في قوله تعالى: «كُنْ» وليس يلزم منه انحصارُ أسباب التكوين فيه كما يفيده قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فإنَّ المرادَ بالأمر الشأنُ الشاملُ للقول والفعل، ومن ضرورة انحصاره في كلمة «كُنْ» انحصارُ أسبابه على الإطلاق في ذلك، بل إنما هو تمثيلٌ

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٩١-٤٩٢، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٩٣.

لسهولة تأتّي المقدورات حَسْب تعلُّقِ مشيئته تعالى، وتصويرٌ لسرعة حدوثها بما هو عَلَمٌ في ذلك من طاعة المأمور المطيع لأمر الآمر المطاع، فالمعنى: إنما إيجادنا لشيءٍ عند تعلُّق مشيئتنا به أن نُوجده في أسرع ما يكون، ولما عبَّر عنه بالأمر الذي هو قولٌ مخصوصٌ وَجَبَ أن يُعبَّر عن مطلق الإيجاد بالقول المطلق[١].

وقيل: إنَّ الكلامَ على حقيقته، وبذلك جرت العادةُ الإلهية. ونُسِبَ إلى السلف، وأُجيب لهم عن حديث لزوم أحد المحذورين تارةً بأنَّ الخطابَ تكوينيٌّ، ولا ضيرَ في توجُّهه إلى المعدوم، وتُعقِّبَ بأنه قولٌ بالتمثيل، وتارةً بأنَّ المعدومَ ثابتٌ في العلم، ويكفي في صحة خطابه ذلك، حتى إنَّ بعضَهم قال بأنه مرئيٌّ له تعالى في حال عَدَمه، وتُعقِّبَ بما يطول، وأما حديث الانحصار فقالوا: إنَّ الأمر فيه هَيِّنٌ، وقد مرَّ بعضُ الكلام في هذا المقام.

واحتجَّ بعضُ أهل السنة بالآية بناءً على الحقيقة على قِدَم القرآن قال: إنها تدلُّ على أنه تعالى إذا أراد إحداثَ شيءٍ قال له: كُنْ، فلو كان «كن» حادثاً لَزِمَ التسلسلُ، وهو مُحالٌ، فيكونُ قديماً، ومتى قيل بقِدَمِ البعض فَلْيُقَلْ بقِدَم الكُلِّ، وتُعقِّب بأنَّ كلمة«إذا» لا تفيدُ التكرار، ولذا إذا قال لامرأته: إذا دخلت الدارَ فأنت طالقٌ، فدخلتْ مرَّاتٍ لا تطلق إلا طلقةً واحدةً، فلا يلزمُ أن يكونَ كلُّ مُحدَثٍ مُحدَثاً بكلمة «كن» فلا يلزمُ التسلسلُ، على أنَّ القولَ بقِدَم «كن» ضروريُّ البطلان لما فيه من ترتُّب الحروف، وكذا يقال في سائر الكلام اللفظي.

وقال الإمام: إنَّ الآيةَ مشعرةٌ بحدوث الكلام من وجوه: الأول أنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ يقتضي كونَ القول واقعاً بالإرادة، وما كان كذلك فهو مُحدَثٌ، والثاني: أنه عَلَّق القولَ بكلمة «إذا» ولا شكَّ أنها تدخل للاستقبال، والثالث أنَّ قوله تعالى: ﴿أَن نَّقُولَ﴾ لا خلافَ في أنه يُنبئُ عن الاستقبال، والرابع: أنَّ قوله سبحانه: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ «كُنْ» فيه مُقدَّمةٌ على حدوث المكوَّن ولو بزمانٍ واحد، والمقدَّمُ على المحدَثِ كذلك مُحدَث، فلابدَّ من القول بحدوث الكلام[٢].

---

(١) إرشاد العقل السليم ٥/ ١١٥.
(٢) التفسير الكبير ٢٠/ ٣٣.

نعم إنها تُشعر بحدوث الكلام اللفظيِّ الذي يقول به الحنابلة ومَنْ وافقهم، ولا تُشعر بحدوث الكلام النفسي. والأشاعرةُ في المشهور عنهم لا يدَّعون إلا قِدَمَ النفسيِّ، وينكرون قِدَم اللفظيِّ، وهو بحثٌ أطالوا الكلام فيه، فليراجع.

وما ذُكر من دلالة «إذا» و«نقول» على الاستقبال هو ما ذكره غيرُ واحد، لكن نقلَ أبو حيان عن ابن عطيةَ أنه قال: ما في ألفاظ هذه الآية من معنى الاستقبال والاستئناف إنما هو راجعٌ إلى المراد لا إلى الإرادة، وذلك أنَّ الأشياءَ المرادَةَ المكوَّنَةَ في وجودها استئنافٌ واستقبالٌ، لا في إرادة ذلك ولا في الأمر به، لأنَّ ذَينك قديمان، فمن أَجْل المراد عبَّر بـ «إذا» و«نقول»[1].

وأنت تعلم أنه لا كلام في قِدَم الإرادة، لكنهم اختلفوا في أنها هل لها تعلُّقٌ حادثٌ أم لا؛ فقال بعضُهم بالأول، وقال آخرون: ليس لها إلا تعلُّقٌ أزليٌّ، لكن بوجود الممكنات فيما لا يزال كلٌّ في وقته المقدَّر له. فالله تعالى تعلَّقتْ إرادته في الأزل بوجود زيدٍ مثلاً في يوم كذا، وبوجود عمرو في يوم كذا، وهكذا، ولا حاجةَ إلى تعلُّق حادثٍ في ذلك اليوم؛ وأما الأمر فالنفسيُّ منه قديمٌ، واللفظيُّ حادثٌ عند[2] القائلين بحدوث الكلام اللفظيِّ، وأما الزمانُ فكثيراً ما لا يلاحظ في الأفعال المستندة إليه تعالى، واعتُبر: كان الله تعالى ولا شيء معه، وخلق الله تعالى العالم ونحو ذلك، ولا أرى هذا الحُكْم مخصوصاً فيما إذا فُسِّر الزمانُ بما ذهب إليه الفلاسفةُ، بل يطَّردُ في ذلك وفيما إذا فُسِّر بما ذهب إليه المتكلِّمون. فتأمل والله تعالى الهادي.

وجعل غيرُ واحدٍ الآيةَ لبيان إمكان البعث، وتقريره أنَّ تكوين الله تعالى بمَحْضِ قُدْرته ومشيئته لا تَوَقُّف له على سَبْق المواد والمدد، وإلا لَزِمَ التسلسل، وكما أمكن له تكوينُ الأشياء ابتداءً بلا سَبْق مادةٍ ومثالٍ، أمكنَ له تكوينُها إعادةً بعده، وظاهرهُ أنه قولٌ بإعادة المعدوم، وظواهرُ كثيرٍ من النصوص أنَّ البعثَ بجَمْع الأجزاء المتفرِّقة، وسيأتي تحقيقُ ذلك كما وعدناك آنفاً إن شاء الله تعالى.

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٩١، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٩٣.

(٢) في (م): عن.

وقرأ ابن عامر والكسائيُّ ها هنا وفي «يس»: «فيكونَ» بالنصب[1]، وخرَّجه الزجاج على العطف على «نقول» أي: فأن يكون، أو على أن يكون جواب «كُنْ»[2]، وقد ردَّ هذا الرضيُّ وغيره بأنَّ النصبَ في جواب الأمر مشروطٌ بسببية مصدرِ الأول للثاني، وهو لا يمكنُ هنا لاتِّحادهما، فلا يستقيمُ ذاك، وَوُجِّه بأنَّ مراده أنه نُصِبَ لأنه مشابهٌ لجواب الأمر لمجيئه بعده، وليس بجوابٍ له من حيثُ المعنى؛ لأنه لا معنى لقولك: قلتُ لزيدٍ: اضربْ، تضرب.

وتُعقِّبَ بأنه لا يخفى ضَعْفُهُ، وأنه يقتضي إلغاءَ الشرط المذكور، ثم قيل: والظاهرُ أن يُوجَّهَ بأنه إذا صَدَرَ مِثْلُه عن البليغ على قَصْد التمثيل لسرعة التأثير بسرعة مبادرة المأمور إلى الامتثال يكون المعنى: إنْ أَقُلْ لك: اضربْ، تُسرعْ إلى الامتثال، فيكونُ المصدرُ المسبَّبُ عنه مسبوكاً من الهيئة لا من المادة، ومصدرُ الثاني من المادة أو محصّل المعنى، وبه يحصلُ التغايرُ بين المصدرين، ويتَّضح السببية والمسبَّبية، وقال بعضُهم: إنَّ مرادَ مَنْ قال: إنَّ النَّصْبَ للمشابهة لجواب الأمر أنَّ «فيكون» ـ كما في قراءة الرفع ـ معطوفٌ على ما ينسحبُ عليه الكلامُ، أو هو بتقدير «فهو يكون» خبر لمبتدأ محذوف إلا أنه نُصب لهذه المشابهة، وفيه ما فيه.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾ أي: في حَقِّه، فـ «في» على ظاهرها، ففيه إشارةٌ إلى أنها هجرةٌ متمكِّنةٌ تمكُّنَ الظرف في مظروفه، فهي ظرفيةٌ مجازيةٌ، أو لأجل رضاه فـ «في» للتعليل كما في قوله ﷺ: «إنَّ امرأةً دخلتِ النارَ في هرَّةٍ»[3] والمهاجَرة في الأصل مُصارَمة الغير ومتاركته، واستُعملتْ في الخروج من دار الكُفْر إلى دار الإيمان، أي: والذين هجروا أوطانهم وتركوها في الله تعالى وخرجوا ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ أي: من بعد ظُلم الكفار إياهم. أخرج عبدُ بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال: هم أصحابُ محمدٍ ﷺ ظَلَمَهُمْ أهلُ مكةَ، فخرجوا من ديارهم حتى لَحِقَ طوائفُ منهم بأرض الحبشة، ثم بوَّأهم الله تعالى المدينةَ بعد

(١) التيسير ص ١٣٧، والنشر ٢/ ٢٢٠.
(٢) معاني القرآن ٣/ ١٩٨.
(٣) أخرجه أحمد (٧٥٤٧)، والبخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٢٤٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ذلك[(١)]، حسبما وعد سبحانه بقوله جل وعلا: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: مباءةً حسنةً، وحاصله: لَنُنزِّلنَّهم[(٢)] في الدنيا منزلاً حَسَناً، وعن الحسن: داراً حَسَنة، والتقدير الأول أظهرُ لدلالة الفعل عليه. والثاني أوفقُ بقوله تعالى: ﴿تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ﴾ [الحشر: ٩] وأيّاً ما كان فـ «حَسَنةٌ» صفةُ محذوفٍ منصوبٍ نَصْبَ الظروف، وجُوِّزَ أن يكونَ مفعولاً ثانياً «لنبوِّئنَّهم» على معنى لنعطينَّهم منزلة حسنة، وفُسِّر ذلك بالغَلَبة على أهل مكة الذين ظلموهم، وعلى العرب قاطبة، وقيل: هي ما بقي لهم في الدنيا من الثناء، وما صار لأولادهم من الشرف، وعن مجاهدٍ أنَّ التقديرَ معيشةٌ حَسَنةٌ، أي: رزقاً حَسَناً، وقيل: التقدير عطيةٌ حَسَنةٌ، والمراد بالعَطية المُعْطَى، ويُفسَّر ذلك بكلِّ شيءٍ حَسَنٍ ناله المهاجرون في الدنيا، وقدَّر بعضُهم: تبوئةً حسنة، فهو صفةُ مصدرٍ محذوفٍ، وقد تُعتَبر هذه التبوئةُ بحيثُ تشملُ إعطاءَ كلِّ شيءٍ حَسَنٍ صار للمهاجرين على نحو السابق. وفي «البحر» أنَّ الظاهرَ أنَّ انتصابَ «حَسَنة» على المصدر على غير الصَّدر؛ لأنَّ معنى «لنبوئنَّهم» لنُحسِنَنَّ إليهم، فـ «حسنةٌ» بمعنى إحساناً[(٣)]. وعلى جميع التقادير «الذين هاجروا» مبتدأ، وجملةُ «لنبوِّئنَّهم» خبره.

وجوَّز أبو البقاء أن يكون «الذين» منصوبٌ بفعلٍ محذوفٍ يُفسِّرهُ المذكور[(٤)]. والأولُ متعيِّنٌ عند أبي حيان قال: وفيه دليلٌ على صحَّة وقوع الجملة القَسَمية خبراً للمبتدأ، خلافاً لثعلب[(٥)]. والذي ذهب إليه بعضُ المحققين أنَّ الخبرَ في مثل ذلك إنما هو جملةُ الجواب المؤكَّدةُ بالقَسَم، وهي إخباريةٌ لا إنشائية، واعترض على أبي البقاء في الوجه الثاني بأنه لا يجوزُ النَّصْبُ بالفعل المحذوف إلا حيث يجوزُ للمذكور أن يعملَ في ذلك المنصوب حتى يصحَّ أن يكونَ مفسِّراً، وما هنا ليس كذلك، فإنه لا يجوز: زيداً لأضربنَّ، فلا يجوز زيداً لأضربنه، والجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بما عنده، وقيل: بمحذوفٍ وَقَعَ حالاً من «حسنة».

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٢٢٣، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٨٤، ونسبه لعبد بن حميد وابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١١٨.
(٢) في (م): لننزلهم.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٩٢.
(٤) الإملاء ٣/ ٤٤٨.
(٥) البحر المحيط ٥/ ٤٩٣.

هذا، ونُقل عن ابن عباسٍ أنَّ الآيةَ نزلت في صهيبٍ وبلال وعمار وخبَّاب وعابس وجبير وأبي جندل بن سهيل أَخَذهم المشركون، فجعلوا يعذِّبونهم ليردُّوهم عن الإسلام، فأما صهيبٌ فقال لهم: أنا رجلٌ كبيرٌ، إن كنتُ معكم لم أنفعْكم، وإن كنتُ عليكم لم أضرَّكم، فافتدى منهم بماله وهاجرَ، فلما رآه أبو بكر رضي الله عنه قال: رَبِحَ البيعُ يا صهيب؛ وقال عمر رضي الله عنه: نِعْمَ العبدُ صهيبٌ لو لم يَخَفِ الله لم يَعْصِهِ[١].

والجمهور على ما روي عن قتادة، بل قال ابن عطية: إنه الصحيح[٢]. ولم نجد لهذا الخبر عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما سنداً يُعوَّل عليه. وذكر العلامة الشيخ بهاء الدين السبكي في «شرح التلخيص» كغيره من المحدِّثين مثل الحافظ العلامة زين الدين عبد الرحيم العراقي، وولده الفقيه الحافظ أبي زُرْعة، وغيرهما فيما نُسب لعمر رضي الله عنه فيه من قوله: نِعْمَ العبدُ صهيبٌ.. إلى آخره: إنَّا لم نجده في شيءٍ من كتب الحديث بعد الفحص الشديد، وهذا يوقع شُبْهةً قويةً في صحَّة ذلك. نعم في «الدر المنثور» أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في هؤلاء الذين هاجروا: هم قومٌ من أهل مكة هاجروا إلى رسول الله ﷺ بعد ظُلْمهم ثم قال: وظُلْمُهم الشِّركُ[٣]. لكن يقتضي هذا بظاهره أنه رضي الله عنه كان يقرأ: «ظَلَموا» بالبناء للفاعل.

وأُورد على الخبرين أنه قيل: إنَّ السورةَ مكيةٌ إلا ثلاث آيات في آخرها، فإنها مدنية، ويلتزم إذا صحَّ الخبرُ الذهاب إلى أنَّ فيها مدنياً غيرَ ذلك، أو القولُ بأنَّ المرادَ من المَكِّي ما نَزَلَ في حقِّ أهل مكة، أو أنَّ هذه الآيةَ لم تنزل بالمدينة، وأنَّ المَكِّيَّ ما نزل بغيرها، أو القول بأنَّ ذلك من الإخبار بالشيء قبل وقوعه، والكلُّ كما ترى، ولا يرد على القول الأول الذي عليه الجمهور أنه مخالفٌ للقول المشهور في السورة؛ لأنَّ هِجْرةَ الحبشة كانت قبل هجرة المدينة،

---

(١) ذكره الرازي في تفسيره ٢٠/ ٣٤.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٩٤.

(٣) الدر المنثور ٤/ ١١٨، وتفسير الطبري ١٤/ ٢٢٤، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٨٣. وفيها: وظلمهم المشركون. وأشار محققو تفسير الطبري إلى أنه في بعض النسخ: الشرك.

فلا مانع من كون الآية مكِّيَّةً بالمعنى المشهور عليه، لكن قيل: إنَّ قتادة القائل بما تقدَّم قائلٌ بأنَّ هذه الآيةَ إلى آخر السورة مدنيةٌ، وهو آبٍ عمَّا ذكر، ومن هنا حمل بعضُهم ما نُقل عنه سابقاً على أنَّ نزولها كان بين الهجرتين بالمدينة، ولا يمكن الجمعُ بين هذه الأقوال أصلاً. والذي ينبغي أن يُعوَّل عَليه أنَّ السورة مكيةٌ إلا آياتٍ ليستْ هذه منها، بل هي مكيةٌ نزلتْ بين الهجرتين فيمن ذكره الجمهور، والله تعالى أعلم بحقيقة الحال.

وقال بعضهم: إنَّ الذين هاجروا عامٌّ في المهاجرين كائناً مَنْ كان، فيشملُ أَوَّلَهم وآخرَهم، وكأن هذا من قائله اعتبارٌ لعموم اللفظ لا لخصوص السبب، كما هو المقرَّر عندهم.

وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه وعبد الله ﷺ ونُعيم بن مَيْسرة والربيع بن خيثم: «لَنُثوِيَنَّهمْ» بالثاء المثلَّثة(١) من أثْوى المنقول بهمزة التعدية من ثوى بالمكان أقام فيه، قال في «البحر»: وانتصاب «حَسَنة» على تقدير: إثواءةً حَسَنةً، أو على نَزْع الخافض، أي: في حَسَنةٍ، أي: دارٍ حسنة، أو منزلةٍ حَسَنةٍ(٢). ولا مانع ـ على ما قيل ـ من اعتبار تضمينِ الفعل معنى «نعطيهم» كما أُشير إليه أولاً. واستُدلَّ بالآية ـ على أحد الأقوال ـ على شَرَفِ المدينة وشَرَفِ إخلاص العمل لله تعالى.

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ﴾ أي: أجرُ أعمالهم المذكورة في الدار الآخرة ﴿أَكْبَرُ﴾ مما يُعجَّلُ لهم في الدنيا، أخرج ابن جرير وابن المنذر عن عمر بن الخطاب أنه كان إذا أعطى الرجلَ من المهاجرين عطاءً يقول له: خُذْ، باركَ الله تعالى لك، هذا ما وَعَدَكَ الله تعالى في الدنيا، وما أَخَّر لك في الآخرة أفضل، ثم يقرأ هذه الآية(٣).

وقيل: المراد أكبرُ من أن يعلمهُ أحدٌ قبل مشاهدته، ولا يخفى ما في مخالفة أسلوب هذا الوعد لما قبله من المبالغة.

---

(١) المحتسب ٢/ ٩، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٩٤، والبحر المحيط ٥/ ٤٩٢.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٩٢.
(٣) تفسير الطبري ١٤/ ٢٢٤-٢٢٥، والدر المنثور ٤/ ١١٨.

﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝٤١﴾ الضميرُ للكَفَرة الظالمين، أي: لو عَلِموا أنَّ الله تعالى يجمعُ لهؤلاء المهاجرين خيرَ الدارين لوافقوهم في الدِّين، وقيل: هو للمهاجرين، أي: لو عَلِموا ذلك لزادوا في الاجتهاد، ولما تألَّموا لما أصابهم من المهاجَرة وشدائدها، ولازدادوا سروراً. وفي «المعالم»: لا يجوز ذلك؛ لأنَّ المهاجرين يعلمونه[1]. ودُفع بأنَّ المرادَ عِلْمُ المشاهدة، وليس الخبرُ كالمعاينة، أو المراد العلم التفصيلي. وجُوِّزَ أن يكونَ الضميرُ للمتخلِّفين عن الهجرة، يعني: لو علِمَ المتخلِّفون عن الهجرة ما للمهاجرين من الكرامة لوافقوهم.

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على ما نالهم من الظُّلم، ولم يرجعوا القَهقَرى، وعلى مفارقة الوطن، وهو حَرَمُ الله سبحانه المحبوبُ لكلِّ مؤمنٍ فَضْلاً عمَّن كان مَسْقطَ رأسه، وعلى احتمال الغُرْبة بين أناسٍ أجانبَ في النَّسَب لم يألفهم، وعلى غير ذلك، ومحلُّ الموصول النَّصْبُ بتقدير: أعني، أو الرفع بتقدير «هم»، ويجوز أن يكون تابعاً للذين هاجروا بدلاً أو بياناً أو نعتاً.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٤٢﴾ منقطعين إليه مُعرضين عمَّن سواه، مفوِّضين إليه الأمرَ كلَّه كما يفيده حَذْفُ متعلّق التوكل، وقيل: تقديمُ الجارِّ والمجرور المؤذِن بالحَصْر، وكونه لرعاية الفواصل غيرُ متعيّن، وصيغةُ الاستقبال إما للاستمرار أو لاستحضار تلك الصورة البديعة، والجملةُ إما معطوفةٌ على الصِّلة، أو حالٌ من ضمير «صبروا».

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ ردٌّ لقريشٍ حيث أنكروا رسالة النبيِّ ﷺ وقالوا: الله تعالى أعظمُ أن يكونَ رسولُهُ بشراً، هلَّا بعثَ إلينا مَلَكاً، أي: جرت السُّنَّةُ الإلهيةُ حسبما اقتضته الحكمةُ بأن لانبعثَ للدعوة العامة إلا بشراً نوحي إليهم بواسطة المَلَك في الأغلب الأوامر والنواهي ليُبلِّغوها، ويحترزُ بالدعوة العامة عن بَعْثِ الملك للأنبياء عليهم السلام للتبليغ أو لغيرهم، كَبَعْثِهِ لمريم للبشارة، وبالأغلب بعضُ أقسام الوحي مما لم يكن بواسطة الملك كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١]. وقرأ الجمهور «يوحَى» بالياء وفتح الحاء. وفرقةٌ بالياء

---

(١) معالم التنزيل للبغوي ٣/ ٦٩.

وكسرها. وعبد الله والسُّلَميُّ وطلحةُ وحفصٌ بالنون وكسرها[1]. وفي ذلك من تعظيم أمر الوحي ما لا يخفى.

ولمَّا كان المقصودُ من الخطاب لرسول الله ﷺ تنبيهَ الكفار على مضمونه صرف الخطاب إليهم فقيل: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ أي: أهل الكتاب من اليهود والنصارى. قاله ابن عباس والحسن والسُّدِّي وغيرهم، وتسميةُ الكتاب تُعلَم مما سيأتي إن شاء الله تعالى، وعن مجاهدٍ تخصيصه بالتوراة لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] فأهله اليهود.

قال في «البحر»: والمراد مَنْ لم يُسلم من أهل الكتاب؛ لأنهم الذين لا يُتَّهمون عند أهل مكة في إخبارهم بأنَّ الرسلَ عليهم السلام كانوا رجالاً، فإخبارهم بذلك حُجَّةٌ عليهم، والمراد كَسْرُ حُجَّتهم وإلزامهم، وإلا فالحقُّ واضحٌ في نفسه لا يحتاجُ فيه إلى إخبار هؤلاء، وقد أرسل المشركون بعد نزولها إلى أهل يثرب يسألونهم عن ذلك[2].

وقال الأعمش وابن عيينة وابن جبير: المراد مَنْ أسلمَ منهم كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي رضي الله عنهما وغيرهما.

ويُضعِّفه أنَّ قولَ مَنْ أسلمَ لا حُجَّةَ فيه على الكفَّار، ومنه يُعلَمُ ضَعْفُ ما قال أبو جعفر وابن زيد من أنَّ المرادَ من الذكر القرآن؛ لأنَّ الله تعالى سمَّاه ذِكْراً في مواضعَ، منها ما سيأتي إن شاء الله تعالى قريباً، وأهلُ الذِّكر على هذا المسلمونَ مطلقاً، وخصَّهم بعضُ الإمامية بالأئمة أهل البيت احتجاجاً بما رواه جابر ومحمد بن مسلم منهم عن أبي جعفر رضي الله عنه أنه قال: نحنُ أهلُ الذكر[3]. وبعضُهم فسَّر الذِّكْرَ بالنبيِّ ﷺ لقوله تعالى: ﴿ذِكْرًا ۞ رَّسُولًا﴾ [الطلاق: ١٠-١١] على قولٍ، ويقال على مقتضى ما في «البحر»: كيف يقنعُ كفَّارُ أهل مكة بخبر أهل البيت في ذلك، وليسوا بأصدقَ من رسول الله ﷺ عندهم، وهو عليه الصلاة والسلام المشهور فيما بينهم بالأمين، ولعلَّ ما رواه ابنُ مردويه منَّا موافقاً بظاهره لمن زَعَمهُ ذلك البعض من الإمامية عن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الرجلَ

---

(١) التيسير ص ١٣٠، والنشر ٢/ ٢٩٦، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٩٥، والبحر المحيط ٥/ ٤٩٣.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٩٣-٤٩٤.
(٣) مجمع البيان ١٤/ ٧٧.

ليُصلِّي ويصومُ ويحجُّ ويعتمر، وإنه لمنافقٌ» قيل: يا رسول الله، بماذا دخلَ عليه النفاق؟ قال: «يطعنُ على إمامه، وإمامُهُ مَنْ قال الله تعالى في كتابه: (فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ)» إلى آخره(١)، مما لا يصحُّ، وأنا أقول: يجوز أن يراد من أهل الذكر أهل القرآن وإن قال أبو حيان ما قال، وستعلم وَجْهَهُ قريباً إن شاء الله تعالى المنَّان، وقال الرُّمَّانيُّ والزجاج(٢) والأزهريُّ: المراد بأهل الذكر علماء أخبار الأمم السالفة كائناً مَنْ كان، فالذِّكر بمعنى الحفظ، كأنه قيل: اسألوا المطَّلعين على أخبار الأمم يُعلموكم بذلك.

﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٤٣﴾ وجوابُ «إن» إما محذوفٌ لدلالة ما قبله عليه، أي: فاسألوا، وإما نفس ما قبله بناءً على جواز تقدُّم الجواب على الشرط. واستُدلَّ بالآية على أنه تعالى لم يُرسلِ امرأةً ولا صبيّاً، ولا ينافيه نبوَّةُ عيسى عليه السلام في المهد، فإنَّ النبوَّةَ أعمُّ من الرسالة؛ ولا يقتضي صحةَ القول بنبوَّةِ مريمَ أيضاً؛ لأنَّ غايته نفيُ رسالة المرأة، ولا يلزمُ من ذلك إثباتُ نبوَّتها، وذهب إلى صحَّةِ نبوَّةِ النساء جماعةٌ، وصحَّح ذلك ابنُ السيد، ولا ينافي ما دلَّت عليه الآيةُ من نفي إرسال الملائكة عليهم السلام قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١] لأنَّ المرادَ: جاعلُهم رسلاً إلى الملائكة، أو إلى الأنبياء عليهم السلام، لا للدعوة العامة، وهو المدَّعى كما علمتَ، فالرسولُ إما بالمعنى المصطلح أو بالمعنى اللُّغوي، وقال الجُبَّائيُّ: إنَّ الملائكةَ عليهم السلام لم يُبعثوا إلى الأنبياء عليهم السلام إلا ممثَّلين بصُوَر الرجال، وَرُدَّ بما روي أنَّ نبيَّنا ﷺ رأى جبريل عليه السلام على صورته التي هو عليها مرَّتين(٣)، وهو واردٌ على الحَصْر المقتضي للعموم، فلا يردُ عليه أنه لا دلالةَ فيما روي على رؤية من قِبَل نبيِّنا عليه الصلاة والسلام لجبريل عليه السلام على صورته، مع أنه إذا ثبتَ ذلك للنبيِّ ﷺ - ولم يثبت أنه من خصوصياته عليه الصلاة والسلام - فلا مانعَ من ثبوته لغيره. قاله

(١) لم نقف عليه من رواية أنس، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره كما في الدر المنثور ٤/ ١١٨ من حديث سعيد بن جبير، وهو منقطع.

(٢) معاني القرآن ٣/ ٢٠٠.

(٣) أخرجه أحمد (٢٤٢٢٧) و(٢٥٩٩٣) و(٢٦٠٤٠)، والبخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧) من حديث عائشة رضي الله عنها. وأخرجه - أيضاً- أحمد (٣٨٦٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

الشهاب، وذكر أنه نقل الإمامُ عن القاضي أنَّ مرادَ الجبَّائي أنهم لم يُبعثوا إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بحَضْرة أممهم إلا وهم على صُوَرِ الرجال كما روي أنَّ جبريلَ عليه السلام حَضَرَ عند رسول الله ﷺ بمحضرٍ من أصحابه في صورة دِحْيةَ الكلبي، وفي صورة سُراقة[١]. وفي صورة أعرابيٍّ لم يعرفوه[٢]. واستدلَّ بها أيضاً على وجوب المراجعة للعلماء فيما لا يعلم.

وفي «الإكليل»[٣] للجلال السيوطي أنه استُدلَّ بها على جواز تقليد العامِّيِّ في الفروع، وانظر التقييدَ بالفروع فإنَّ الظاهرَ العموم لاسيما إذا قلنا: إنَّ المسألةَ المأمورين بالمراجعة فيها والسؤال عنها من الأصول، ويؤيدُ ذلك ما نُقل عن الجلال المحلِّي[٤] أنه يلزمُ غيرُ المجتهد عامِّيّاً كان أو غيره التقليد للمجتهد؛ لقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ والصحيح أنه لا فرقَ بين المسائل الاعتقادية وغيرها، وبين أن يكون المجتهد حيّاً أو ميتاً.

وصحَّحَ هو وغيره امتناعَ التقليد على المجتهد مطلقاً، سواء كان له قاطعٌ أو لا، وسواء كان مجتهداً بالفعل أو له أهليةُ الاجتهاد، ومقتضى كلامهم أنه لا فرقَ بين تقليد أحد أئمة المذاهب الأربع وبين تقليد غيره من المجتهدين. نعم ذكر العلامةُ ابنُ حَجَرٍ وغيره أنه يُشترَطُ في تقليد الغير أن يكونَ مذهبُهُ مدوَّناً محفوظَ الشروط والمعتبرات، فقولُ السُّبكي: إنَّ مُخالِفَ الأربعةِ كمخالفِ الإجماع، محمولٌ على ما لم يُحفَظْ ولم تُعْرَفْ شروطُهُ وسائرُ معتبراته من المذاهب التي انقطعَ حَمَلتُها وفُقِدتْ كُتُبها كمذهب الثوريِّ والأوزاعيِّ وابن أبي ليلى وغيرهم.

---

(١) حاشية الشهاب ٥/ ٣٣٤، وتفسير الرازي ٢٠/ ٣٦.
وحضور جبريل عليه السلام في صورة دحية الكلبي، أخرجه أحمد (٥٨٥٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
وأما حضوره في صورة سراقة فلم نعثر عليه، والمحفوظ حضور إبليس في صورة سراقة كما أخرج ذلك الطبري في تفسيره ١١/ ٢٢١، وابن أبي حاتم ٥/ ١٧١٥ وغيرهما.

(٢) أخرجه أحمد (٣٦٧)، ومسلم (٨) من حديث عمر رضي الله عنه أنه قال: بينما نحن ذات يوم عند نبي الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر... إلخ.

(٣) الإكليل في استنباط التنزيل ص١٦٣.

(٤) شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع ٢/ ٣٩٣ ومعه حاشية البناني.

ثم إنَّ تقليدَ الغير بشَرْطه إنما يجوزُ في العمل، وأما للإفتاء والقضاء فيتعيَّنُ أحدُ المذاهب الأربع، واستَشْكَلَ الفَرْقَ العلامةُ ابنُ قاسم العبَّادي، وأجيبَ بأنه يحتملُ أن يكونَ الفرقُ أنه يُحتاط فيهما لِتَعدِّيهما ما لا يحتاط في العمل فيتركان لأدنى محذور ولو محتملاً، ونظير ذلك ما ذكره بعض الشافعية في القولين المتكافئين أنه لا يفتى ولا يقضى بكلٍّ منهما لاحتمال كونه مرجوحاً ويجوز العمل به.

وذكر الإمام أنَّ من الناس مَنْ جوَّزَ التقليدَ للمجتهد لهذه الآية فقال: لمَّا لم يكن أحدُ المجتهدين عالماً وَجَبَ عليه الرجوعُ إلى المجتهد العالم لقوله تعالى: ﴿فَسْئَلُوٓا﴾ الآية فإن لم يجبْ فلا أقلَّ من الجواز، وأُيِّدَ ذلك بأنَّ بعضَ المجتهدينَ نقلوا مذاهبَ بعض الصحابة وأقرُّوا الحُكْمَ عليها، والصحيحُ ما سمعتَ أولاً، وما ذُكر ليس بتقليدٍ، بل هو من باب موافقة الاجتهاد الاجتهاد. واحتجَّ بها أيضاً نفاةُ القياس فقالوا: المكلَّفُ إذا نزلتْ به واقعةٌ فإن كان عالماً بحُكْمها لم يجزْ له القياسُ، وإلا وَجَبَ عليه سؤالُ مَنْ كان عالماً بها بظاهر الآية، ولو كان القياس حُجَّةً لما وَجَبَ عليه السؤالُ لأجل أنه يمكنه استنباطُ ذلك الحُكْم بالقياس، فثبتَ أنَّ تجويزَ العمل بالقياس يُوجبُ تَرْكَ العمل بظاهر الآية، فَوَجَبَ أن لا يجوز، وأجيب بأنه ثَبَتَ جوازُ العمل بالقياس بإجماع الصحابة، والإجماع أقوى من هذا الدليل(١).

وقال بعضهم: إذا كان المكلَّفُ ممنْ يقدرُ على القياس كان ممَّنْ يعلمُ، فلا يَجبُ عليه السؤال. فتأمل.

﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ أي: بالمعجزات والكتب، والأولى للدلالة على الصدق، والثانية لبيان الشرائع والتكاليف.

وانحرفَ عن الحقِّ من فسَّرهما بما هو مصطَلحُ أهل الحِرَف. والجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بمقدَّرٍ يدلُّ عليه ما قبله، وَقَع جواباً عن سؤالِ مَنْ قال: بمَ أُرسلوا؟ فقيل: أُرسلوا بالبينات والزبر.

وجوَّز الزمخشريُّ والحوفي تعلُّقه بـ «أرسلنا» السابق داخلاً تحت حُكم

(١) التفسير الكبير ٢٠/ ٣٧.

الاستثناء مع «رجالاً» أي: وما أرسلنا إلا رجالاً بالبيِّنات[١]. وهو في معنى قولك: ما أرسلنا جماعةً من الجماعات بشيءٍ من الأشياء إلا رجالاً بالبينات، ومثله: ما ضربتُ إلا زيداً بسَوْط، وهو مبنيٌّ على ما جوَّزهُ بعضُ النحاة من جواز أن يُستثنى بأداةٍ واحدةٍ شيئان دونَ عَطْفٍ، وأنه يجري في الاستثناء المفرَّغ، وأكثرُ النحاة على مَنْعه كما صرَّح به صاحبُ «التسهيل»[٢] وغيره.

وقال في «الكشف»: والحقُّ أنه لا يجوز؛ لأنَّ «إلا» من تتمَّةِ ما دخلتْ عليه كالجزء منه، وللزوم الإلباس، أو وجوب أن يكونَ جميعُ ما يقعُ بعد «إلا» محصوراً، وأن يجبَ نحو: ما ضربَ إلا زيداً عَمْراً، إذا أُريد الحصْرُ فيهما، ولا يكونُ فَرْقٌ بين هذا وذاك، وكلُّ ذلك ظاهرُ الانتفاء. والزمخشريُّ جَوَّزَ ذلك وصرَّح به في مواضعَ من كشافه، واستدلَّ عليه بأنَّ أصل: ما ضربتُ إلا زيداً بسوطٍ: ضربتُ زيداً بسوطٍ. وأراد أنَّ زيادةَ «ما» و«إلا» ليست إلا تأكيداً، فلتؤكّد لما كان أصل الكلام عليه، وهو حَسَنٌ لولا أنَّ الاستعمالَ والقياسَ آبيان.

وقال بعضُهم: إنه متعلِّقٌ به من غير دخوله مع «رجالاً» تحت حكم الاستثناء، على أنَّ أَصْله: وما أرسلنا بالبينات والزبر إلا رجالاً.

وتُعقِّبَ بأنه لا يجوز على مذهب البصريين، حيث لا يجيزون أن يقعَ بعد «إلا» إلا مستثنًى أو مستثنًى منه، أو تابعاً، وما ظُنَّ من غير الثلاثة معمولاً لما قبل «إلا» قُدِّر له عامل، وأجاز الكسائيُّ أن يقعَ معمولاً لما قبلها منصوبٌ، ك : ما ضَرَبَ إلا زيدٌ عمراً، ومخفوضٌ ك : ما مرَّ إلا زيدٌ بعمرٍو:

ولا يعذِّب إلا الله بالنار[٣]

ومرفوعٌ ك : ما ضرب إلا زيداً عمرٌو، ووافقه ابنُ الأنباريِّ في المرفوع، والأخفشُ في الظرف والجارِّ والحال، فما ذُكر مبنيٌّ على مذهب الكسائي

---

(١) الكشاف ٢/ ٤١١.

(٢) التسهيل ص١٠٣.

(٣) عجز بيت ليزيد بن الطثرية، وهو في كتاب الأغاني ٨/ ١٧٢ وصدره:

خُبِّرتُهم عذَّبوا بالنار جارتهم

والأخفش، لكن قال الشهاب: إنه خلافُ ظاهر الكلام، وإخراجٌ له عن سَنَن الانتظام، وأكثرُ النُّحاة على أنه ممنوع[١].

وجُوِّزَ أن يكون متعلِّقاً بما رُفع صفةً لـ «رجالاً» أي: رجالاً ملتبسين بالبيِّناتِ ولم يقع حالاً منه، قيل: لأنه نكرةٌ متقدِّمةٌ، نعم قيل بجواز وقوعه حالاً من ضمير الرجال في «إليهم»، وقيل: يجوزُ كونه حالاً من «رجالاً» لأنه نكرةٌ موصوفةٌ، واختار أبو حيان مجيءَ الحال من النكرة بلا مسوِّغٍ كثيراً قياساً، ونقله عن سيبويه وإن كان دون الاتباع في القوة.

وجُوِّزَ أيضاً تعلُّقه بـ «نوحي»، وقوله سبحانه: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ اعتراضٌ على الوجوه المتقدِّمة أو غيرُ الأول، وتصديرُ الجملة المعترضة بالفاء صرَّح به في «التسهيل» وغيره، وما نقل من مَنْعه ليس بثَبْتٍ، ثم إذا كان اعتراضاً متخلِّلاً بين مقصورَي حَرف الاستثناء معناه: فاسألوا أهلَ الذكر إن كنتم لا تعلمون أنَّا أرسلنا رجالاً بالبيِّنات. وعلى الوصفية: إن كنتم لا تعلمونَ أنهم رجالٌ متلبِّسون بالبيِّنات، وعلى هذا يقدَّرُ الاعتراضُ مناسباً لما تخلَّل بينهما، وأشبهُ الأوجه أن يكون على كلامين ليقع الاعتراضُ موقعهُ اللائق به لفظاً ومعنًى. قاله في «الكشف».

وجُوِّزَ أن يتعلَّقَ بـ «تعلمون» فلا اعتراض، وفي الشرط معنى التبكيتِ والإلزام كما في قول الأجير: إنْ كنتُ عملتُ لك فأعطني حَقِّي، فإنَّ الأجيرَ لا يشكُّ في أنه عَمِلَ وإنما أخرج الكلامَ مخرجَ الشَّكِّ؛ لأنَّ ما يُعامل به من التسويف معاملةَ من يَظُنُّ بأجيره أنه لم يعمل، فهو في ذلك يلزمهُ مقتضى ما اعترف به من العمل، ويبكته بالتقصير مجهِّلاً إياه، فكذا ما هنا لا يُشَكُّ أنَّ قريشاً لم يكونوا من علم البينات والزبر في شيء فيقول: إنَّ كونَ الرسل عليهم السلام رجالاً = أَمْرٌ مكشوفٌ لا شبهةَ فيه. فاسألوا أهل الذكر إن لم تكونوا من أهله يُبيِّنْ لكم، يريدُ أنَّ إنكاركم وأنتم لا تعلمون ليس بسديد، وإنما السبيلُ أن تسألوا من أهل الذكر، لا أن تُنكروا قولَهم، فإنكاركم منافٍ لما تقتضيه حالكم من السؤال، فهو تبكيتٌ من حيثُ الاعترافُ بعدم العلم، وسبيلُ الجاهل سؤالُ مَنْ يعلم، لا إنكاره. قاله في

(١) حاشية الشهاب ٥/ ٣٣٤.

«الكشف» أيضاً، ثم قال: ولا أَخُصُّ أهلَ الذكر بأهل الكتابين ليشمل النبيَّ ﷺ وأصحابه، ولو خُصَّ لجاز؛ لأنهم موافقون في ذلك، فإنكارهم إنكارهم، ثم التبكيتُ متوجِّهٌ إلى العدولِ عن السؤال إلى الإنكار، سألوا أَوْ لا. انتهى.

ومنه يُعلَمُ جوازُ أن يُرادَ بأهل الذكر أهلُ القرآن. وما ذكره أبو حيان في تضعيفه من أنه لا حُجَّةَ في إخبارهم ولا إلزام ناشئٌ من عدم الوقوف على هذا التحقيق الأنيق، وهذا ظاهرٌ على تقدير تعلُّق «بالبينات» بـ «يعلمون» والباء على هذا التقدير سببيةٌ، والمفعول محذوفٌ عند بعضٍ، وزعم آخرُ أنها زائدةٌ، والبيناتُ هي المفعول، فافهم ذاك، والله تعالى يتولَّى هداك.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ أي: القرآن، وهو من التذكير، إما بمعنى الوَعْظ، أو بمعنى الإيقاظ من سِنَةِ الغفلة، وإطلاقُهُ على القرآن إما لاشتماله على ما ذكر، أو لأنه سببٌ له، ومنه يُعلَمُ وجهُ تسمية التوراة ونحوها ذِكْرًا، وقيل: المراد بالذِّكر العلمُ، وليس بذاك.

﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ كافَّةً، ويدخلُ فيهم أهلُ مكة دخولًا أوَّليًا ﴿مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ في ذلك الذكر من الأحكام والشرائع، وغير ذلك من أحوال القرون المهلَكةِ بأفانين العذاب حَسبَ أعمالهم مع أنبيائهم عليهم السلام الموجبة لذلك على وجه التفصيل بيانًا شافيًا كما يُنبئُ عنه صيغةُ التفعيل في الفِعلين، لاسيما بعد ورود الثاني أولًا على صيغة الأفعال، وعن مجاهدٍ أنَّ المرادَ بهذا التبيين تفسيرُ المجمَلِ وشرحُ ما أشكل؛ إذ هما المحتاجان للتبيين، وأما النصُّ والظاهر، فلا يحتاجان إليه.

وقيل: المراد به إيقافهم على حَسَبِ استعداداتهم المتفاوتة، على ما خفي عليهم من أسرار القرآن وعلومه التي لا تكاد تُحصى، ولا يختصُّ ذلك بتبيين الحرام والحلال وأحوال القرون الخالية والأمم الماضية، واستأنس له بما أخرجه الحاكم وصحَّحه عن حذيفة قال: قام فينا رسول الله ﷺ مقامًا أخبرنا فيه بما يكون إلى يوم القيامة، عَقَلَهُ منَّا مَنْ عَقَلَهُ، ونَسِيَهُ مَنْ نَسيَه(١).

---

(١) مستدرك الحاكم ٤/ ٤٧٢.

وهذا في معنى ما ذكره غيرُ واحدٍ أنَّ التبيينَ أعمُّ من التصريح بالمقصود ومن الإرشاد إلى ما يدلُّ عليه، ويدخلُ فيه القياسُ وإشارة النص ودلالته، وما يستنبط منه من العقائد والحقائق والأسرار الإلهية، ولعلَّ قوله عز وجل: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ إشارةٌ إلى ذلك،أي: وطلب أن يتأملوا فيتنبَّهوا[1] للحقائق وما فيه من العِبَر ويحترزوا[2] عمَّا يؤدِّي إلى ما أصاب الأولين من العذاب، وقال بعض المعتزلة: أي: وإرادة أن يتفكَّروا في ذلك فيعلموا الحقَّ، ثم قال: وفيه دلالةٌ على أنَّ الله تعالى أراد من جميع الناس التفكُّرَ والنظرَ المؤدِّي إلى المعرفةِ بخلاف ما يقول أهل الجَبْر، ونحن في غنًى عن تقدير الإرادة بتقدير الطلب، ومن قدَّرها منَّا أراده منها، وإلا ورد عليه عدمُ تأمُّل البعض، ولعلَّه الأكثر، وهي لا ينفكُّ المرادُ عنها على المذهب الحقِّ، فلا بدَّ من العدول عنه إلى مقابله، وقيل: أرادَ تعلُّقها بالبعض وهو المتأمِّل لا بالكلِّ، وأيَّدَ بعضُهم إرادةَ الصحابة أو ما يشملهم والنبي ﷺ من أهل الذكر فيما تقدَّم بذكر هذه الآية بعده، وليس بذي آية[3].

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ هم عند أكثر المفسِّرين أهلُ مكَّةَ الذين مَكَرُوا برسول الله ﷺ وراموا صَدَّ أصحابه ﵃ عن الإيمان، وأخرج ابن أبي شيبةَ وابن جرير وغيرهما عن مجاهد أنهم نمروذُ بن كَنْعان وقومُه[4]. وعمَّم بعضُهم فقال: هم الذين احتالوا لهلاك الأنبياء عليهم السلام. وتُعقِّبَ بأنَّ المرادَ تحذيرُ أهل مكة عن إصابة مثل ما أصاب الأوَّلين من فنون العذاب المعدودة. فالمعوَّل عليه ما عند الأكثر، و«السيئات» نعتٌ لمصدر محذوف، أي: مكروا المكَرات السيئاتِ التي قُصَّتْ عنهم، أو: مفعولٌ به للفعل المذكور على تضمينه معنى «فَعَل» متعدٍّ كَعَمِلَ، أي: عملوا السيئات ماكرين، فقوله تعالى: ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ مفعولٌ لـ «أَمِنَ»، أو «السيئاتِ» مفعولٌ لـ «أَمِنَ» بتقدير مضاف، أو تجوّز أي: عقاب السيئات، أو على أنَّ «السيئات» بمعنى العقوبات التي تسوءهم، و«أن يخسف» بدلٌ

(١) في (م): فينتبهوا. والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٥/ ١١٧، والكلام منه.

(٢) في (م): ويحترز. والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٥/ ١١٧.

(٣) في (م): أيد.

(٤) تفسير الطبري ١٤/ ٢٣٣، ونسبه لابن أبي شيبة السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١١٩.

من ذلك، وعلى كلِّ حالٍ فالفاءُ للعَطْف على مقدَّرٍ ينسحبُ عليه النَّظْمُ الكريم، أي: أنزلنا إليك الذكر لتبيِّنَ لهم مضمونه الذي من جملته إنباءُ الأمم المهلَكَةِ بفنون العذاب، ويتفكَّروا في ذلك، ألم يتفكَّروا فأَمِنَ الذين مكروا السيئات... إلخ على توجيه الإنكار إلى المعطوفين، أو: أتفكَّروا فأَمِنوا، على توجيهه إلى المعطوف، وقيل: هو للعطف على مقدَّرٍ يُنبئُ عنه الصِّلة، أي: أَمَكَروا فَأَمِنَ الذين مكروا السيئات... إلخ.

وخَسَفَ يُستعمل لازماً ومتعدِّياً يقال ـ كما قال الراغب ـ: خَسَفَهُ الله تعالى وخَسَفَ هو[1]. وكلا الاستعمالين محتملٌ هنا، فالباء إما للتعدية أو للملابسة، و«الأرض» إما مفعولٌ به أو نُصِبَ بنَزْعِ الخافض، أي: أفأمن[2] الذين مكروا السيئات أن يُغيِّبهمُ الله تعالى في الأرض، أو يُغيِّبها بهم كما فعل بقارون.

﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: من الجهة التي لا شعورَ لهم بمجيء العذاب منها، كجهة مأمَنهم، أو الجهة التي يرجُون إتيانَ ما يشتهون منها، وقال البيضاويُّ: أي: بغتةً من جانب السماء كما فعل بقوم لوط[3]، وكأنَّ التخصيصَ بجانب السماء لأنَّ ما يجيءُ منه لا يُشعَرُ به غالباً، بخلاف ما يجيءُ من الأرض فإنه محسوسٌ في الأكثر، ولعلَّ اعتبارَهُ أوفقُ بالمقابلة، ويحتملُ أن يكونَ مراده بما من جانب السماء ما لا يكون على يدِ مخلوقٍ سواءٌ نشأ من الأرض أو السماء كما قيل:

دَعْهــا ســمــاويــةً تــجــري عــلــى قــدر[4]

فيكونُ مجازًا، لكن قيل عليه: إنه لا يلائم المثال وإن كان لا يخصص.

---

(١) المفردات (خسف).

(٢) في (م): فأمن.

(٣) تفسير البيضاوي ٣/ ١٨٢.

(٤) صدر بيت لابن الحجاج كما نسبه اليوسي في زهر الأكم ٢/ ٨٥ وعجزه:

لا تـفـسـدنـهـا بـرأي مـنـك أرضـيِّ

وهو في الوافي بالوفيات ٢٢/ ٣٣ منسوبًا للسراج الوراق ولفظه:

قـالـت سـعـاد مـولانـا لـصـابـغـهـا ... دعـهـا سـمـاويـةً تـمـضـي عـلـى قـدر

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ﴾ أي: العذاب، أو الله تعالى، ورُجِّحَ الأول بالقرب، والثاني بكَثْرة إسناد الأخذ إليه تعالى في القرآن العظيم، مع أنه جلَّ شأنه هو الفاعلُ الحقيقيُّ له.

﴿فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ أي: حركتهم إقبالًا وإدبارًا، والمراد ـ على ما أخرجه ابن جرير وغيره عن قتادة ـ وروي عن ابن عباس ـ في أسفارهم[1]. وحَمْله على ذلك، قال الإمام: مأخوذٌ من قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾[2] [آل عمران: ١٩٦] أو المراد في حال ما يتقلَّبون في قضاء مَكْرهم والسَّعي في تنفيذه.

وقيل: المراد في حال تقلُّبهم على الفُرُش يميناً وشمالاً، وهو في معنى ما جاء في روايةٍ عن ابن عباس أيضاً في منامهم، ولا أراه يصحُّ.

وقال الزجاج: المرادُ ما يعمُّ سائرَ حركاتهم في أمورهم ليلاً ونهاراً، والجمهور على الأول.

والأخذ في الأصل: حَوْزُ الشيء وتحصيلُهُ، والمراد به القَهْرُ والإهلاك، والجارُّ والمجرورُ إما في موضع الحال، أو متعلِّق بالفعل قبله، والأول أولى نظراً إلى أنه الظاهر في نظيره الآتي إن شاء الله تعالى، لكنَّ الظاهر فيما قبله الثاني.

﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾﴾ بفائتين الله تعالى بالهَرَبِ والفرار على ما يوهمه حالُ التقلُّب والسَّير، أو ما هم بممتنعين كما يُوهمه مَكْرهم وتقلُّبهم فيه، والفاء قيل: لتعليل الأخْذ، أو لترتيب عَدَم الإعجاز عليه دلالةً على شِدَّته وفظاعته حسبما قال ﷺ: «إنَّ الله تعالى لَيُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْه»[3]، والجملةُ الاسميةُ للدلالة على دوام النفي والتأكيدُ يعود إليه أيضاً.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ أي: مخافة وحَذَر من الهلاك والعذاب بأن يُهلك قوماً قبلهم، أويُحدثَ حالاتٍ يخاف منها غير ذلك كالرياح الشديدة والصواعق والزلازل، فيتخوَّفوا، فيأخذهم بالعذاب وهم متخوِّفون، ويُروى نحوه عن

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٢٣٤.

(٢) التفسير الكبير ٢٠/ ٣٨.

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

الضحاك، وهو ـ على ما قال الزمخشريُّ ويقتضيه كلامُ ابن بحر ـ خلاف قوله تعالى: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾(١)، وقال غيرُ واحدٍ من الأَجلَّة: على أن يُنقصهم شيئًا فشيئًا في أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا، من تَخَوَّفته إذا تنقَّصته، وروي تفسيره بذلك عن ابن عباس ومجاهد والضحاك أيضاً.

وذكر الهيثم بن عَديٍّ أنَّ التنقُّص بهذا المعنى لغةُ أَزْدِشَنُوءة، ويروى أنَّ عمر ﷺ قال على المنبر: ما تقولون فيها، أي الآية، والتخوُّف منها؟ فسكتوا، فقام شيخٌ من هذيل فقال: هذه لغتنا، التخوُّفُ التنقُّصُ. فقال: هل تعرفُ العربُ ذلك في أشعارها؟ فقال: نعم، قال شاعرنا أبو كبير يصفُ ناقته:

تخوَّفَ الرَّحْلُ منها تامِكًا قَرِداً ... كما تخوَّفَ عُودَ النَّبْعةِ السَّفَنُ(٢)

فقال عمر ﷺ: عليكم بديوانكم لا تضلُّوا، قالوا: وما ديواننا؟ قال: شِعْرُ الجاهلية، فإنَّ فيه تفسيرَ كتابكم ومعاني كلامكم(٣).

والجارُّ والمجرورُ قال أبو البقاء: في موضعِ الحال من الفاعل، أو المفعول في «يأخذهم»(٤)، وقال الخفاجيُّ: الظاهر أنه حالٌ من المفعول(٥). وكأنه أراد على تفسيرَي التخوُّفِ ويتخوَّف، من الجزم به على التفسير الثاني، والمراد من ذِكْر هذه المتعاطفات بيانُ قُدرة الله تعالى على إهلاكهم بأيِّ وجهٍ كان، لا الحَصْر، ثم

---

(١) الكشاف ٢/ ٤١١.

(٢) هكذا نسبه هنا، وكذا في تفسير البيضاوي ٣/ ١٨٢، ونسبه الأزهري في تهذيب اللغة ٧/ ٥٩٤ لابن مقبل، وهو في ديوانه ص٤٠٥، ونسبه في الصحاح (خوف) و(سفن) لذي الرمة، ونسبه الزمخشري في الكشاف ٢/ ٤١١، وفي أساس البلاغة ص١٧٨ لزهير، ونسبه البكري في سمط اللآلي ص٧٣٨ لقعنب بن أم صاحب، ونسبه الأصفهاني في الأغاني في ترجمة حماد الراوية لابن مزاحم الثمالي.
التامك: السنام ما كان، وقيل: هو السنام المرتفع. وقردا: القَرَد: ما تمعَّط من الوبر والصوف وتلبَّد، النبعة: النبع شجر من أشجار الجبال تُتَّخذ منه القِسي، والسَّفَن: قَدُوم تنشر به الأجذاع. لسان العرب (تمك)، (قرد)، (نبع)، (سفن).

(٣) أخرجه الطبري ١٤/ ٢٣٦ عن رجل عن عمر ﷺ بنحوه.

(٤) الإملاء ٣/ ٤٤٩.

(٥) حاشية الشهاب ٥/ ٣٣٥.

إنَّ بعضَهم اعتبر في التقابل بينهما أنَّ المرادَ بخَسْفِ الأرض بهم إهلاكُهم من تحتهم، وبإتيانِ العذاب من حيث لا يشعرون إهلاكُهم من فوقهم، وحيثُ قُوبلا بإهلاكهم في تقلُّبهم وأسفارهم كان المعتَبَرُ فيهما سكونَهم في مساكنهم وأوطانهم، والمقابلة بين أَخْذِهم على تخوُّفٍ على المعنى الأول، والأخذ بغتةً المشعرِ به «من حيثُ لا يشعرون» ظاهرة، واعتُبر عدمُ الشعور في الأَخْذِ في التقلُّب والخَسْف لقرينةِ الأَخْذ على تخوُّفٍ على ذلك المعنى، وحُمِلَ سائرُها على عذابِ الاستئصال دون الأَخْذ على تخوُّفٍ على المعنى الثاني، ومُجْمَلُ القول في ذلك أنه اعتُبر في كلٍّ اثنين من الأربعة مَنْعُ الجَمْع، لكن بعد أن يُرادَ بالعامِّ منهما للمقابلة ما عدا الخاصِّ، سواءٌ كان بين الاثنين عمومٌ من وجهٍ أو مطلقًا.

وذكر الإمام وابن الخازن في حاصل الآية أنه تعالى خوَّفهم بخَوْفٍ يحصلُ في الأرض، أو بعذابٍ ينزلُ من السماء، أو بآفاتٍ تحدثُ دفعةً، أو بآفاتٍ تأتي قليلاً قليلاً إلى أن يأتيَ الهلاكُ على آخرهم[1].

وكان الظاهر في الآية أن يقال: أو يُعذِّبهم من حيثُ لا يشعرون، ليناسبَ ما قبله وما بعده بناءً على أنَّ إسنادَ الفعل فيهما إليه تعالى وما قبله فقط بناءً على أنَّ إسناد الفعل فيما بعدُ إلى العذاب مع كونه أخصرَ مما في النَّظْم الجليل، لكنه عَدَلَ عنه إلى ذلك لكونه أبلغَ في التخويف، وأدلَّ على استحقاق العذاب من حيثُ إنَّ فيه إشعارًا بأنَّ هناك عذابًا موجودًا مهيَّأً لا يحتاج إلا إلى الإتيان دون الإحداث، وليس في «يُعذِّبهم» إشعارٌ كذلك على أنَّ ما في النَّظْم الجليل أبعدُ من أن يُتوهَّم فيه معنًى غير صحيح، كما يُتوهَّم في البدل المفروض حيث يتوهَّم فيه أنه سبحانه يعذِّبهم من حيث لا يشعرون بالعذاب، وهو كما ترى. وحيث كانت حالتا التقلُّب والتخوُّف مَظِنَّةً للهرب، عَبَّر عن إصابة العذاب فيهما بالأخذ، وعن إصابته حالةَ الغفلة المنبئةِ عن السكون بالإتيان، وجيءَ بـ «في» مع التقلُّب وبـ «على» مع التخوُّف قيل: لأنَّ في التقلُّب حركتين، فكأن الشخص المتقلِّب بينهما، ولا كذلك التخوف.

(١) التفسير الكبير ٢٠/ ٣٩، وتفسير الخازن ٤/ ٩٣.

وقيل: لمَّا كان التقلُّب شاغلًا الإنسان بسائر جوارحه، حتى كأنه محيطٌ به، وهو مظروفٌ فيه، جيءَ بـ «في» معه، والتخوُّف - أي: المخافة - إنما يقومُ بعضوٍ من أعضائه فقط، وهو القلبُ المحيطُ به بدنُ الإنسان، فلذا جيءَ بـ «على» معه.

وقيل: إنَّ «على» بمعنى «مع» كما في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١٧٧] أي: يأخذهم مصاحبين لذلك، ولمَّا كان التخوُّفُ نفسُهُ نوعاً من العذاب لما فيه من تألُّمِ القلب ومشغوليةِ الذِّهن، وكان الأخْذُ مشيرًا إلى نوعٍ آخرَ من العذاب أيضاً جيءَ بـ «على» التي بمعنى «مع» ليكون المعنى: يُعذِّبهم مع عذابهم، ولم يُعتَبر ذلك مع التقلُّب مرادًا به الإقبال والإدبار في الأسفار والمتاجر، مع أنه جاء: «السفر قِطْعَةٌ من العذاب»[1] لأنهم لا يعدُّون ذلك عذابًا، وفي القلب من هذا شيءٌ، فتدبَّر وتأملْ، فأسرارُ كتاب الله تعالى لا تحصى.

﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٤٧﴾ جعله ابنُ بحر تعليلًا للأخذ على تخوُّفٍ بناءً على أنَّ المراد به أَخْذُهم على حدوثِ حالاتٍ يخاف منها؛ كالرياح الشديدة والصواعق والزلازل، لا بغتةً، فإنَّ في ذلك امتدادَ وقتٍ ومُهْلةٍ يمكن فيها التلافي، فكأنه قيل: أو يأخُذَهمْ على تخوُّفٍ ولا يفاجئهم؛ لأنه سبحانه رؤوفٌ رحيمٌ، وذلك أنسبُ برأفته ورحمته جلَّ وعلا، وجُوِّزَ أن يكونَ تعليلًا لذلك على المعنى الأخير، فإنَّ في تنقُّصهم شيئًا بعد شيءٍ دون أَخْذهم دفعة إمهالًا في الجملة، وهو مطلقًا من آثار الرحمة.

وقيل: هو تعليلٌ لما يُفهمُ من الآية من أنه سبحانه قادرٌ على إهلاكهم بأيِّ وجهٍ كان، لكنه تعالى لم يفعل.

وقيل: هو كالتعليل للأمن المستفهَم عنه، والتعبيرُ بعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير الخطاب من آثار رحمته جلَّ شأنه.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ الهمزةُ للإنكار، والواو للعَطْفِ على مقدَّرٍ يقتضيه المقام. والرؤية بصريةٌ مؤدِّيةٌ إلى التفكُّر، والضميرُ للذين مكروا السيئات، أي: ألم ينظرْ هؤلاء الماكرون ولم يروا متوجهين ﴿إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾.

---

(١) أخرجه أحمد (٧٢٢٥)، (٩٧٤٠)، (١٠٤٤٥)، والبخاري (١٨٠٤)، (٣٠٠١)، (٥٤٢٩)، ومسلم (١٩٢٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وقيل: الضمير للناس الشامل لأولئك وغيرهم، والإنكارُ بالنسبة إليهم.

وقرأ السُّلَميُّ والأعرجُ والأخوان: «أولم تروا»[1] بتاء الخطاب جَرْياً على أسلوب قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ﴾ كما أنَّ الجمهورَ قرؤوا بالياء جَرْياً على أسلوب قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا﴾ وذكر الخفاجيُّ وغيره أنَّ قراءة التاء على الالتفات، أو تقدير: قُلْ، أو الخطابُ فيها عامٌّ للخلق و«ما» موصولةٌ مبهمةٌ[2]، وقوله تعالى: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ بيانٌ لها، لكن باعتبار صفته، وهي قوله تعالى: ﴿يَتَفَيَّؤُا ظِلَٰلُهُۥ﴾ فهي المبيِّنةُ في الحقيقة، والموصوفُ توطئةٌ لها، وإلا فأيُّ بيانٍ يحصلُ به نفسه، والتفيُّؤُ تفعُّلٌ من فاء يفيءُ فَيئًا إذا رجَعَ، وفاءَ لازمٌ، وإذا عُدِّيَ فبالهمزة أو التضعيف كأفاءه الله تعالى وفيَّأَهُ فتفيَّأَ، وتفيَّا مطاوعٌ له لازم، وقد استعمله أبو تمام متعدِّياً في قوله من قصيدةٍ يمدحُ بها خالدَ بنَ يزيد الشيباني:

طَلَبَتْ ربيعَ ربيعةَ المُمْهِي لها ... وتفيَّأَتْ ظِلًّا لهُ ممدودا[3]

ويحتاجُ ذلك إلى نَقْلٍ من كلام العرب، والظِّلال جَمْعُ ظِلٍّ، وهو في قولٍ: ما يكون بالغداة، وهو ما لم تَنَلْهُ الشمسُ، والفيءُ ما يكون بالعَشِيِّ، وهو ما انصرفتْ عنه الشمس، وأنشدوا له قولَ حُميد بن ثور يصفُ سَرْحةً وكنَّى بها عن امرأة:

فلا الظِّلَّ من بَرْد الضُّحى تستطيعه ... ولا الفَيءَ من بَرْد العَشِيِّ تذوقُ[4]

ونقل ثعلبٌ عن رؤبةَ: ما كانت عليه الشمسُ فزالتْ عنه فهو فيءٌ وظِلٌّ، وما لم تكنْ عليه فهو ظِلٌّ، فالظِّلُّ أَعَمُّ من الفيء، وقيل: هما مترادفان يُطلَقُ كلٌّ منهما على ما كان قبل الزوال وعلى خلافه، وأنشد أبو زيد للنابغة الجعدي:

---

(١) الأخوان: حمزة والكسائي، وقراءتهما في التيسير ص١٣٨، والنشر ٢/ ٣٠٤، وقراءة السلمي والأعرج في المحرر الوجيز ٣/ ٣٩٧، والبحر المحيط ٥/ ٤٩٥.

(٢) حاشية الشهاب ٥/ ٣٣٥.

(٣) ديوان أبي تمام ١/ ٤١١، وأشار محققه إلى أنه هكذا برواية الصولي، وأما رواية الديوان فجاء عجز البيت هكذا:

فوردن ظلَّ ربيعة الممدودا

ومعنى: الممهي لها: المحسِّن الكثير الماء. وقيل غيره.

(٤) ديوان حميد بن ثور ص٤٠.

فسلامُ الإله يغدو عليهمْ وفُيوءُ الفردوسِ ذات الظِّلال[١]

والمشهور أنَّ الفيءَ لا يكون إلا بعد الزوال، ومن هنا قال الأزهريُّ: إن تفيُّؤَ الظِّلال رجوعُها بعد انتصاف النهار[٢]، وقال أبو حيان: إن الاعتبار في أول النهار إلى آخره، وإضافة الظلال إلى ضميرِ المفرد لأنَّ مرجعه وإن كان مفردًا في اللفظ، لكنه كثيرٌ في المعنى[٣]. ونظيرُ ذلك أكثرُ من أن يُحصى، والمعنى: أَوَلَمْ يروا الأشياء التي ترجعُ وتتنقَّلُ ظلالها.

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ والمراد بها الأشياءُ الكثيفةُ من الجبال والأشجار وغيرها، سواءٌ كان جمادًا أو إنسانًا على ما عليه بعضُ المفسِّرين، وخصَّها بعضُهم بالجمادات التي لا يظهرُ لظلالها أثرٌ سوى التفيُّؤ بواسطة الشمس على ما ستعلمه إن شاء الله تعالى، دون ما يَشْمَلُ الحيوانَ الذي يتحرَّكُ ظِلُّهُ بتحرُّكه، وكلا القولين على تقدير كون «من» بيانية كما سمعت؛ وذهب بعض المحققين إلى العموم، لكنه جعلَ «من» ابتدائية متعلِّقة بـ «خلق» والمراد بما خلقهُ من شيء عالَم الأجسام المقابل لعالَم الروح، والأمر الذي لم يُخْلَقْ من شيءٍ بل وُجِدَ بأمر «كُنْ» كما قال سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ولا يخفى بُعده، واعتُرض أيضاً بأنَّ السماوات والجنَّ من عالَم الأجسام والخلق، ولا ظلَّ لها، ومقتضى عموم «ما» أنه لا يخلو شيءٌ منها عنه، بخلاف ما إذا جُعلت «من» بيانية، و«يتفيَّؤ» صفةُ شيءٍ مخصِّصةٌ له.

ورُدَّ بأنَّ جملة «يتفيَّؤ» حينئذٍ ليست صفةً لـ «شيءٍ» إذ المراد إثباتُ ذلك لما خلق من شيء، لا له، وليس صفة لـ «ما» لتخالفهما تعريفًا وتنكيرًا، بل هي مستأنفةٌ لإثبات أنَّ له ظلالًا متفيِّئةً، وعمومُ «ما» لا يُوجبُ أن يكون المعنى: لكلٍّ منه هذه الصفة.

وتُعقِّب بأنه إن أُريد أنه لا يقتضي العمومَ ظاهرًا فممنوعٌ، وإن أُريد أنه يحتملُ فلا يَرِدُ ردًّا؛ لأنه مبنيٌّ على الظاهر المتبادر.

---

(١) ديوان النابغة الجعدي ص٢٣١.

(٢) تهذيب اللغة ١٥/ ٥٧٨، وقد جاء في الأصل و(م): إن تفيء.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٩٦.

والمراد باليمين والشمائل ـ على ما قيل ـ جانبا الشيء استعارةً من يمين الإنسان وشماله، أو مجازًا من إطلاق المقيَّد على المطلق، أي: ألم يَرَوا الأشياء التي لها ظلالٌ متفيئةٌ عن جانبي كلٍّ واحدٍ منها، ترجعُ من جانبٍ إلى جانبٍ بارتفاع الشمس وانحدارها، أو باختلاف مشارقها ومغاربها، فإنَّ لها مشارقَ ومغاربَ بحَسَبِ مداراتها اليومية حالَ كون تلك الظلال ﴿سُجَّدًا لِلَّهِ﴾ أي: منقادةً له تعالى جاريةً على ما أراد من الامتداد والتقلُّص وغيرهما، غير ممتنعةٍ عليه سبحانه فيما سخَّرها له، وهو المرادُ بسجودها، وقد يُفسَّرُ باللُّصوق في الأرض، أي: حالَ كونها لاصقةً بالأرض على هيئة الساجد، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ حالٌ من ضمير «ظلاله» الراجع إلى شيء، والجمعُ باعتبار المعنى، وصَحَّ مجيءُ الحال من المضاف إليه لأنه كالجزء، وإيرادُ الصيغة الخاصة بالعقلاء لما أنَّ الدُّخور من خصائصهم، فإنه التصاغرُ والذُّلُّ، قال ذو الرُّمة:

فلم يبقَ إلا داخرٌ في مُخَيَّسٍ ... ومُنْجحرٌ في غير أرضك في جُحْرِ[1]

فالكلامُ على الاستعارة، أو لأنَّ في جملة ذلك مَنْ يعقلُ فغُلِّبَ، ووجهُ التعبير بهم يُعلَمُ مما ذُكر، ويجوز أن يُعتبَرَ وجههُ أولاً، ويجعل ما بعده جاريًا على المشاكلة له، أي: والحال أنَّ أصحابَ تلك الظِّلال ذليلةٌ منقادةٌ لحُكمه تعالى، وَوَصْفُها بالدُّخور مُغْنٍ عن وَصْف ظلالها به.

وجُوِّز كون «سُجَّدًا» والجملة حالَين من الضمير، أي: ترجعُ ظِلالُ تلك الأجرام حالَ كون تلك الأجرام منقادة له تعالى داخرة، فَوَصْفُها بهما مُغْنٍ عن وَصْف ظِلالها بهما.

والمراد بالسجود أيضاً الانقيادُ سواءٌ كان بالطَّبْع أو بالقَسْر أو بالإرادة، فلا يَرِدُ على احتمال أن يكونَ المرادُ بـ «ما خلق» شاملاً للعقلاء وغيرهم: كيف يكون «سُجَّدًا» حالاً من ضميره وسجودُ العقلاء غيرُ سجود غيرهم.

وحاصل ما أشرنا إليه أنَّ ذلك من عموم المجاز، والأمرُ على احتمال أن يُرادَ

---

(١) ديوان ذي الرمة ٢/ ٩٧٩. وجاء في (م): ومنحجر، و: حجر.
والمخيس: السجن. القاموس المحيط (خيس).

من ذاك الجمادات ظاهرٌ، وزَعَمَ بعضُهم أنَّ السجودَ حقيقةٌ مطلقاً، وهو الوقوعُ على الأرض على قَصْد العبادة، ويستدعي ذلك الحياةَ والعِلْمَ لتَقَصُّد العبادة، وليس بشيءٍ كما لا يخفى. ثم إنْ قلنا على هذا الوجه: إنَّ الواوَ حاليةٌ كما أُشير إليه، فالحالان مترادفتان، وتعدُّدُ الحال جائزٌ عند الجمهور، ومَنْ لم يُجوِّزه[(١)] جَعَلَ الثانيةَ بدلَ اشتمالٍ، أو بدلَ كلٍّ من كلٍّ كما فصَّله السَّمين[(٢)]، وإن قلنا: إنها عاطفةٌ فلا تكونُ الحالُ مترادفةً بل متعاطفة. وقال أبو البقاء: «سُجَّدًا» حالٌ من الظِّلال «وهم داخرون» حالٌ من الضمير في «سُجَّدًا» ويجوز أن يكونَ حالًا ثانيةً معطوفةً[(٣)]. وفيه القولُ بالتداخل وهو محتملٌ على تقدير كون «سُجَّدًا» حالًا من ضمير «ظلاله»، والوجهُ الأولُ هو المختارُ عند الزمخشريِّ[(٤)]، ورَجَّحهُ في «الكشف» فقال: إنَّ انقيادَ الظِّلِّ وذي الظِّلِّ مطلوبٌ، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥] فجاعلهما حالاً من الضمير في «ظلاله» مقصِّرٌ. وفيه تكميلٌ حَسَنٌ، لمَّا وَصَفَ الظِّلالَ بالسجود وَصَفَ أصحابها بالدُّخور الذي هو أبلغُ؛ لأنه انقيادٌ قَهريٌّ مع صفة المنقاد، ولم يُجعلْ حالاً من الراجع إلى الموصول في «خلق الله» إذ المعنى على تصوير سجود الظِّلِّ وذويهِ وتقارنهما في الوجود، لا على مقارنة الخلق والدُّخور، والعاملُ في الحال الثاني «يتفيَّؤُ» على ما قال ابنُ مالك في قوله تعالى: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا﴾ [البقرة: ١٣٥]. ومنه يُعلَمُ ما في إعراب أبي البقاء. نعم إنَّ في هذا الوجه بُعْدًا لفظيًا، والأمرُ فيه هَيِّنٌ، وأما جَعْلُ «وهم داخرون» حالاً من ضمير «يروا» فممَّا لا يصحُّ بحالٍ كما لا يخفى.

هذا، وذكر الإمام في اليمين والشمال قولين غيرَ ما تقدم؛ الأول أنَّ المرادَ بهما المشرق والمغرب تشبيهًا لهما بيمين الإنسان وشماله فإنَّ الحركةَ اليومية آخذةٌ من المشرق، وهو أقوى الجانبين فهو اليمين، والجانبُ الآخرُ الشمال، فالظِّلالُ في أول النهار تبتدئُ من الشرق واقعةً على الربع الغربي من الأرض، وعند الزوال تبتدئُ من الغرب واقعةً على الربع الشرقي منها.

---

(١) في (م): يجوز.

(٢) الدر المصون ٧/ ٢٣٣.

(٣) الإملاء ٣/ ٤٤٩.

(٤) الكشاف ٢/ ٤١٢.

والثاني: يمينُ البلد وشماله، وذلك أنَّ البلدةَ التي يكونُ عَرْضُها أقلّ من مقدار الميل الكُلِّي وهو (كج لي يز، أو: كح له)[١] على اختلاف الأرصاد، فإنَّ في الصَّيف تحصلُ الشمس على يمين تلك البلدة، وحينئذٍ تقعُ الأظلال على يسارها، وفي الشتاء بالعكس[٢].

ولا يخفى ما في الثاني فإنه مختصٌّ بقُطْرٍ مخصوصٍ، والكلامُ ظاهرٌ في العموم.

وقيل: المراد باليمين والشمال يمينُ مستَقْبِلِ الجنوب وشمالُهُ، و«عن» كما قال الحوفيُّ متعلِّقةٌ بـ «يتفيَّؤ»، وقال أبو البقاء: متعلِّقةٌ بمحذوفٍ وَقَعَ حالًا[٣]، وقيل: هي اسمٌ بمعنى جانب، فتكونُ في موضعِ نَصْبٍ على الظرفية. ولهم في توحيد «اليمين» وجَمْعِ «الشمائل» وهو جَمْعٌ غيرُ قياسيٍّ كلامٌ طويلٌ، فقيل: إنَّ العربَ إذا ذكرتْ صيغَتَي جَمْعٍ عبَّرت عن إحداهما بلفظ المفرد كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: ١] و﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ﴾ [البقرة: ٧] وقيل: إذا فسَّرنا اليمينَ بالمشرق كان النقطةُ التي هي مَشْرِقُ الشمس واحدةً بعينها، فكانت اليمينُ واحدةً، وأما الشمائلُ فهي عبارةٌ عن الانحرافات الواقعةِ في تلك الأظلال بعد وقوعها على الأرض، وهي كثيرةٌ، فلذلك عَبَّر عنها بصيغة الجمع.

وقيل: اليمينُ مفرَدٌ لَفْظاً لكنه جَمْعٌ معنًى فيطابق الشمائلَ من حيثُ المعنى، وقال الفراء: إنه يحتملُ أن يكونَ مفردًا أوجَمْعاً، فإن كان مفرداً ذهبَ إلى واحدٍ من ذوات الظِّلال، وإن كان جَمْعاً ذهبَ إلى كلِّها؛ لأنَّ «ما خلق الله» لفظُهُ واحدٌ ومعناه الجمع[٤]، وقال الكرمانيُّ: يحتمل أن يُراد بالشمائل الشمالُ والقُدَّام والخلف؛ لأنَّ

---

(١) يريد بهذه العبارة ما يقابل عددها في حساب الجُمَّل[وهي طريقة يستخدمها علماء الفلك العرب يستبدلون فيها الأرقام بالحروف وفق ترتيب: أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ، فيبدؤون من الرقم (١) وحتى (١٠) وهي تقابل الياء من هذا الترتيب، ثم من (٢٠) وحتى (١٠٠) وهي تقابل القاف يعدُّون عشرة عشرة، ثم بعدها يعدُّون مئة مئة من (٢٠٠) وحتى (١٠٠٠) وهي تقابل الغين وفق هذا الترتيب. آخر الحروف] فالعبارة الأولى التي ذكرها المصنف تقابل بهذا الحساب(٨٠) درجة، والعبارة الثانية تقابل(٦٣) درجة بحساب الفلكيين. ينظر لحساب الجُمَّل الموسوعة العربية الميسرة ١/ ٧١٦.

(٢) التفسير الكبير ٢٠/ ٤١.

(٣) الإملاء ٣/ ٤٤٩.

(٤) الكلام بنحوه في معاني القرآن ٢/ ١٠٢.

الظِّلَّ يفيءُ من الجهات كلِّها فبدأ باليمين؛ لأنَّ ابتداء التفيؤ منها أو تيمُّنًا بذِكْرها، ثم جَمَعَ الباقي على لفظ الشمال لما بين الشمال واليمين من التضادِّ، ونزَّل الخلف والقُدَّام منزلةَ الشمال لما بينهما وبين اليمين من الخلاف. وهو قريبٌ من الأول، وتُعقِّبَ بأنْ فيه جَمْعَ اللفظ باعتبار حقيقته ومجازه، وفي صِحَّته مقال.

وقيل: المراد باليمين يمينُ الواقف مستقبِل المشرق، ويُسمَّى الجنوب، وبالشمال شماله، فكأنه قيل: يتفيَّؤ ظلاله عن الجنوب إلى الشمال، وعن الشمال إلى الجنوب، ولمَّا كان غالبُ المعمورة شماليًّا، وظلالها كذلك، جَمَعَ الشمال ولم يَجْمَعِ اليمين، وهو كما ترى.

ونقل أبو حيان عن أستاذه أبي الحسن علي بن الضائع[١] أنه أَفردَ وجَمَعَ بالنظر إلى الغايتين؛ لأنَّ ظِلَّ الغداة يضمحلُّ حتى لا يبقى منه إلا اليسير، فكأنه في جهةٍ واحدةٍ، وهو في العَشِيِّ على العكس، لاستيلائه على جميع الجهات، فلُحِظَتْ الغايتان، هذا من جهة المعنى، وأما من جهة اللَّفظ فَجَمَعَ الثاني ليطابق «سُجَّدًا» المجاور له شمالًا، كما أَفرد الأولَ ليطابقَ ضمير «ظلاله» المجاور له يمينًا، ولا يخفى ما في التقديم والتأخير من حُسْنِ رعايةِ الأصل والفَرْع أيضاً، فحصل في الآية مطابقةُ اللَّفظِ للمعنى وملاحظتهما معًا، وتلك الغايةُ في الإعجاز[٢].

ويخطر لي وجهٌ آخر في الإفراد والجمع مبنيٌّ على أنَّ المرادَ باليمين جهةُ المشرق، وبالشمال جهةُ المغرب، وهو أنه لمَّا كانت الجهةُ الأولى مطلعَ النور، والجهةُ الثانية مغربه ومظهر الظلمة، أَفرد ما يدلُّ على الجهة الأولى كما أفرد «النور» في كلِّ القرآن، وجَمَعَ ما يدلُّ على الجهة الثانية كما جَمَعَ الظلمة كذلك، وإفرادُ النور وجَمْعُ الظُّلمة تقدَّمَ الكلام فيهما، وقد يقال: إنَّ جَمْعَ الظلال مع إفراد ما قبله وما بعده؛ لأنَّ الظِّلَّ ظلمةٌ حاصلةٌ من حجب الكثيف الشمس مثلاً عن أن يقع ضوءها على ما يقابله، فجُمعت الظلال كما جُمعت الظلمات، ولا يُعكِّر على

---

(١) في الأصل و(م): الصائغ. والمثبت من ترجمة أبي الحسن علي بن محمد بن علي ابن الضائع، له شرح الجمل للزجاجي، وشرح كتاب سيبويه. (ت ٦٨٠هـ). بغية الوعاة ٢/ ٢٠٤.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٩٧-٤٩٨.

هذا أنه جُمعت المشارقُ في القرآن كالمغارب؛ إذ كثيرًا ما يُرْتَكَبُ أمرٌ لنكتةٍ في مقامٍ، ولا يُرتكَبُ لها في مقامٍ آخر.

وآخرُ أيضاً وهو أنه لما كان اليمينُ عبارةً عن جهة المشرق وهو مبدأ الظِّلِّ وحده مناسبة لتوحيد المبدأ الحقيقي وهو الله تعالى، ولا كذلك جهة المغرب، ولا يناسبُ رعاية نحو هذا في الشمال كما يرشدك إلى ذلك: «وكلتا يديه يمين»(١)، ويُعين على ملاحظة المبدئية نسبةُ الخلق إليه تعالى.

وآخر أيضاً، وهو أنَّ الظِّلَّ الجائي من جهة المشرق لا يتعلَّقُ به أمرٌ شرعيٌّ والجائي من جهة المغرب يتعلَّقُ به ذلك، فإنَّ صلاةَ الظهر يدخلُ وقتها بأول حدوثه من تلك الجهة بزوال الشمس عن وسط السماء، ووقتُ العصر بِصَيرورته مثلَ الشاخص أو مثليه بعد ظل الزوال إن كان كما في الآفاق المائلة، ووقتُ المغرب بشموله البسيطة بغروب الشمس، وما أَلطف وقوعَ «سُجَّدًا» بعد «الشمائل» على هذا.

وآخر أيضاً وهو أوفقُ بباب الإشارة، وسيأتي فيه إن شاء الله تعالى الفتاح، وبعدُ لِمَسْلك الذِّهن اتساعٌ، فتأمَّلْ فلعلَّ ما ذكرته لا يرضيك.

وقد بيَّن الإمامُ أنَّ اختلافَ الظِّلالِ دليلٌ على كونها منقادةً لله تعالى خاضعةً لتقديره وتدبيره سبحانه، ثم قال: فإن قيل: لم لا يجوزُ أن يُقالَ: اختلافُها معلَّلٌ باختلاف الشمس؟ قلنا: قد دللنا على أنَّ الجسمَ لا يكونُ متحرِّكًا لذاته، فلابدَّ أن يكونَ تحرُّكه من غيره، ولابدَّ من الاستناد بالأخرة إلى واجب الوجود جلَّ شأنه، فيرجعُ أَمْرُ اختلاف الظِّلال إليه تعالى على هذا التقدير(٢).

وأنت تعلم أنه لا ينبغي أن يُتردَّدَ في أنَّ السببَ الظاهريَّ للظِّلال هو الشمسُ ونحوها وكثافةُ الشاخص، نعم في كون ذلك مستندًا إليه تعالى في الحقيقة ابتداءً أو بالواسطة خلافٌ، ومذهبُ السلف غيرُ خفيٍّ عليك فقد أشرنا إليه غيرَ مرَّةٍ، فتذكَّره إن لم يكن على ذِكْرٍ منك.

---

(١) قطعة من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ، أخرجه أحمد (٦٤٩٢)، ومسلم (١٨٢٧).

(٢) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ٢٠/ ٤٢-٤٣.

ثم الظاهرُ أنَّ المرادَ بالظلال الظلالُ المبسوطةُ، وتسمَّى المستوية، ويجوز أن يُرادَ بها ما يشملُ الظلال المعكوسة، فإنها أيضاً تتفيَّؤُ عن اليمين والشمائل، فاعرفْ ذلك ولا تغفل.

وقرأ أبو عمرو وعيسى ويعقوب: «تتفيَّؤ» بالتاء على التأنيث[1]، وأَمْرُ التأنيث والتذكير في الفعل المسنَدِ لمثل الجمع المذكور ظاهرٌ.

وقرأ عيسى: «ظُلَلَهُ»[2] وهو جَمْعُ ظُلَّةٍ كَحُلَّةٍ وحُلَلَ؛ قال صاحب «اللوامح»: الظُّلَّة بالضم: الغيم، وأما بالكسر فهو: الفيءُ، والأولُ جسمٌ والثاني عَرَض، فرأى عيسى أنَّ التفيُّؤَ الذي هو الرجوع بالأجسام أولى، وأما في العامة فعلى الاستعارة.

ويلوح منه القولُ بالقراءة بالرأي، ومن الناس من فسَّر الظلال في قراءة العامة بالأشخاص لتكون على نحو قراءة عيسى، وأنشدوا لاستعمال الظلال في ذلك قولَ عَبْدة:

إذا نزلنا نَصَبْنا ظِلَّ أخبيةٍ ... وفارَ للقوم باللَّحم المراجيلُ[3]

فإنه إنما تُنصبُ الأخبية لا الظِّلُّ الذي هو الفيء، وقول الآخر:

تتبَّعُ أفياءَ الظِّلال عشيَّةً[4]

فإنه أراد أفياءَ الأشخاص. وتَعقَّبَ ذلك الراغبُ بأنه لا حُجَّةَ فيما ذكر فإنَّ قوله: رَفَعنا ظلَّ أخبية؛ معناه: رفعنا الأخبيةَ فرفعنا بها ظلَّها، فكأنه رَفَعَ الظِّلَّ، وقوله: أفياءَ الظِّلال، فالظِّلالُ فيه عامٌّ والفيءُ خاصٌّ، والإضافةُ من إضافة الشيء إلى جنسه[5].

---

(١) التيسير ص١٣٨، والنشر ٢/ ٣٠٤.

(٢) المحتسب ٢/ ١٠، والبحر المحيط ٥/ ٤٩٦.

(٣) البيت في الكامل ٢/ ٦٧٥، والمفضليات ص١٤١.

(٤) صدر بيت لعلقمة الفحل وهو في ديوانه ص٤٠ وعجزه:

على طُرُقٍ كأنهنَّ سُبوب

(٥) المفردات (ظلل).

وقال بعضهم: المراد من الظُّلَّةِ في قراءة عيسى الظِّلُّ الذي يشبه الظُّلَّة، والمراد بها شيءٌ كهيئة الصفة في الانتفاع به.

وقيل: الكلامُ في تلك القراءة على حَذْفِ مضافٍ، أي: ظلالُ ظُلَلِه، وتُفسَّر الظُّلَّة بما هو كهيئة الصفة، والمتبادَرُ من الظِّلِّ حينئذٍ الظِّلُّ المعكوس.

ثم إنه تعالى بعد أن ذكر ما ذكر أردفه بما يفيده تأكيدًا مع زيادة سجود ما لا ظلَّ له فقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أو أنه سبحانه بعد ما بيَّن سجودَ الظِّلال وذويها من الأجرام السفلية الثابتة في أحيازها ودخورها له سبحانه، شَرَع في شأن سجود المخلوقات المتحركة بالإرادة سواء كانت لها ظلالٌ أم لا؟ فقال عزَّ من قائل ما قال.

والمراد بالسجود على ما ذكره غيرُ واحدٍ الانقيادُ سواءٌ كان انقيادًا لإرادته تعالى وتأثيره طبعاً، أو انقيادًا لتكليفه وأَمْره طَوْعًا ليصحَّ إسنادهُ إلى عامة أهل السماوات والأرض من غير جَمْعٍ بين الحقيقة والمجاز، ولكون الآية آية سجدةٍ لابدَّ من دلالتها على السجود المتعارَفِ ولو ضِمْناً.

والاسمُ الجليلُ متعلِّقٌ بـ «يسجد»، والتقديمُ لإفادة القَصْر، وهو ينتظمُ القلبَ والإفراد، إلا أنَّ الأنسب بحال المخاطَبين قَصْرُ الإفراد كما يُؤْذِنُ به قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [النحل: ٥١] أي: له تعالى وحدهُ ينقادُ ويخضعُ جميعُ ما في السماوات وما في الأرض.

﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ بيانٌ لما فيهما بناءً على أنَّ الدبيبَ هو الحركةُ الجسمانيةُ، سواءٌ كان في أرضٍ أو سماء، والملائكةُ أجسامٌ لطيفةٌ غيرُ مجرَّدةٍ، وتقييدُ الدبيب بكونه على وجه الأرض لظهوره، أو لأنه أصلُ معناه، وهو عامٌّ هنا بقرينة المبين، وقوله سبحانه: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عَطْفٌ على محلِّ الدابة المبيَّن به وهو الرفع، على أنه خبرُ مبتدأ محذوف؛ لأنَّ «من» البيانية لا تكونُ ظَرْفًا لغوًا، وهو من عَطْفِ الخاصِّ على العام إفادةً لِعِظَم شأن الملائكة عليهم السلام، وجُوِّزَ أن يكونَ من عَطْفِ المباين بناءً على أن يُراد بما في السماوات الجسمانيات، ويلتزمُ القول بتجرُّدِ الملائكة عليهم السلام، فلا يدخلون فيما في السماوات؛ لأنَّ المجرَّدات ليست في حَيِّزٍ وجهةٍ، وبعضُهم استدلَّ بالآية على تجرُّد الملائكة بناءً على أنَّ ما في السماوات

وما في الأرض بُيِّنَ أحدُهما بالدابة والآخر بالملائكة، والأصلُ في التقابل التغاير، والدابةُ المتحرِّكةُ حركةً جسمانيةً، فلا يكون مقابلها من الأجسام لأنَّ الجسمَ لابدَّ فيه من حركةٍ جسمانية، ولا يخفى أنه دليلٌ إقناعيٌّ إذ يحتملُ كونه تخصيصًا بعد تعميم كما سمعتَ آنفًا، أو هوبيانٌ لما في الأرض.

والدابةُ: اسمٌ لما يَدبُّ على الأرض. و«الملائكة» عَطْفٌ على ما في السماوات، وهو تكريرٌ له وتعيينٌ إجلالًا وتعظيمًا، وذَكَرَ غيرُ واحدٍ أنه من عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ لذلك أيضاً، وجُوِّزَ أن يُراد بما في السماوات الخلقُ الذين يقال لهم: الروح، ويلتزم القول بأنهم غيرُ الملائكة عليهم السلام، فيكون من عَطْفِ المباين، أو هما بيانٌ لما في الأرض، والمراد بالملائكة عليهم السلام ملائكةٌ يكونون فيها كالحَفَظة والكرام الكاتبين، ولا يُراد بالدابة ما يشملهم.

و«ما» إذا قلنا: إنها مختصَّةٌ بغير العقلاء كما يشهدُ له خبرُ ابن الزبعرى[(١)] فاستعمالها هنا في العقلاء وغيرهم للتغليب، وأما إن قلنا: إنَّ وَضْعها لأن تُستعملَ في غير العقلاء وفيما يعمُّ العقلاء وغيرهم، كالشَّبَحِ المرئيِّ الذي لا يُعرف أنه عاقلٌ أو لا، فإنه يُطلقُ عليه «ما» حقيقة، فالأمرُ ـ على ما قيل ـ غيرُ محتاجٍ إلى تغليب. وفي «أنوار التنزيل»: إنَّ «ما» لمَّا استُعمل للعقلاء كما استُعملَ لغيرهم كان استعمالهُ حيثُ اجتمعَ القبيلان أولى من إطلاق «مَنْ» تغليباً[(٢)]. وفي «الكشاف»: إنه لو جيء بـ «من» لم يكن فيه دليلٌ على التغليب، فكان متناولاً للعقلاء خاصةً، فجيءَ بما هو صالحٌ للعقلاء وغيرهم إرادةَ العموم[(٣)]. وهو جوابٌ عن سبب اختيار «ما» على «من».

---

(١) وهو أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٩٨]، قال عبد الله بن الزبعرى: أنا أخصم لكم محمداً، فقال للنبي ﷺ: يا محمد، أليس فيما أنزل الله عليك: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ قال: «نعم» قال: فهذه النصارى تعبد عيسى، وهذه اليهود تعبد عزيراً، وهذه بنو تميم تعبد الملائكة، فهؤلاء في النار؟! فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١]. أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٧٣٩) عن ابن عباس ﷺ.

(٢) تفسير البيضاوي ٣/ ١٨٣.

(٣) الكشاف ٢/ ٤١٢.

وحاصله ـ على ما في «الكشف» ـ أنَّ «من» للعقلاء والتغليبُ مجازٌ، فلو جيءَ بغير قرينةٍ تعين الحقيقة والمقامُ يقتضي التعميم، فجِيءَ بما يعمُّ وهو «ما» وأراد أن لا دليلَ في اللفظ، وقرينةُ العموم في السابق لا تكفي لجواز تخصيصهم من البين بعد التعميم، على أنَّ اقتضاءَ المقام العموم وما في التغليب من الخصوص كافٍ في العدول. انتهى.

وقيل بناءً على أنَّ «ما» مختصَّةٌ بغير العقلاء و«من» مختصة بالعقلاء: إنَّ الإتيانَ بـ «ما» وارتكاب التغليب أوفقُ بتعظيم الله تعالى من الإتيان بـ «من» وارتكاب ذلك، فليفهم.

﴿وَهُمْ﴾ أي: الملائكة مع علوِّ شأنهم ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ عن عبادته تعالى شأنه والسجود له، وتقديمُ الضمير ليس للقَصْر، والسينُ ليست للطلب. وقيل: له على معنى: لا يطلبون ذلك فضلًا عن فعله والاتصاف به. وإذا قلنا: إنَّ صيغةَ المضارع للاستمرار التجدُّدي، فالمراد استمرارُ النفي. والجملةُ إما حالٌ من فاعل «يسجدُ» مسنَدًا إلى الملائكة، أو استئنافٌ للإخبار عنهم بذلك، وإنما لم يجعل الضمير لـ «ما» لاختصاصه بأولي العلم، وليس المقامُ مقامَ التغليب، وخالفَ في ذلك بعضُهم فجعله لها، وكذا الضمير في قوله سبحانه: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم﴾ وممَّن صرَّح بعَوْد الضمير فيه على «ما» أبو سليمان الدمشقي، وقال أبو حيان: إنه الظاهر[1]، وذهب ابنُ السائب ومقاتلٌ إلى ما قلنا، أي: يخافون مالك أَمرهم.

﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ إما متعلِّقٌ بـ «يخافون» وخوفُ ربِّهم كنايةٌ عن خوف عذابه، أو الكلامُ على تقدير مضافٍ هو العذاب على ما هو الظاهر، أو متعلِّقٌ بمحذوفٍ وَقَعَ حالًا من «ربِّهم» أي: كائناً من فوقهم، ومعنى كونه سبحانه فوقَهم قهرُهُ وغلبتهُ؛ لأنَّ الفوقية المكانية مستحيلةٌ بالنسبة إليه تعالى، ومذهبُ السلف قد أسلفناه لك، وأظنُّه على ذِكْرٍ منك.

والجملة حالٌ من الضمير في «لا يستكبرون»، وجُوِّزَ أن تكون بيانًا لنفي الاستكبار وتقريرًا له؛ لأنَّ مَنْ خافَ الله تعالى لم يستكبرْ عن عبادته، واختاره ابنُ

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٩٩.

المُنَيِّر وقال: إنه الوجه ليس إلا[1]. لئلّا يتقيد الاستكبار، وليدلَّ على ثبوت هذه الصفة أيضاً على الإطلاق، ولابدَّ أن يقالَ على تقدير الحالية: إنها حالٌ غيرُ منتقلةٍ، وقد جاءت في الفصيح، بل في أفصحه على الصحيح، وفي اختيار عنوان الربوبية تربيةٌ للمهابة، وإشعارٌ بعِلّة الحكم.

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي: ما يؤمرون به من الطاعات والتدبيرات، وإيرادُ الفعل مبنيًّا للمفعول جرى على سَنَنِ الجلالةِ، وإيذانٌ بعدم الحاجة إلى التصريح بالفاعل لاستحالة استناده إلى غيره سبحانه، واستُدلَّ بالآية على أنَّ الملائكةَ مكلَّفون مُدارون بين الخوف والرجاء، أما دلالتها على التكليف فلمكان الأمر، وأما على الخوف فهو أظهرُ من أن يخفى، وأما على الرجاء فلاستلزام الخوف له على ما قيل.

وقيل: إنَّ اتِّصافهم بالرجاء لأنَّ مَنْ خَدَمَ أكرمَ الأكرمين كان من الرجاء بمكانٍ مَكين.

وزعم بعضُهم أنَّ خوفهم ليس إلا خوفَ إجلالٍ ومهابةٍ لا خوفَ وعيدٍ وعذاب، ويردُّه قوله تعالى: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٨-٢٩] ولا ينافي ذلك عصمتهم.

وقال الإمام: الأصحُّ أنَّ ذلك الخوف خوف الإجلال، وذكر أنه نُقل عن ابن عباس واستدلَّ له بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[2] [فاطر: ٢٨]. وفي القلب منه شيءٌ، والحقُّ أنَّ الآيةَ لا تصلحُ دليلًا لكَونِ الملائكة أفضلَ من البشر. واستدلَّ بها فرقةٌ على ذلك من أربعة أوجهٍ ذكرها الإمام[3]، ولم يتعقَّبها بشيء؛ لأنه ممَّن يقولُ بهذه الأفضلية، وموضعُ تحقيق ذلك كتبُ الكلام.

❁ ❁ ❁

---

(١) الإنصاف ٢/ ٤١٢-٤١٣.

(٢) التفسير الكبير ٢٠/ ٤٥.

(٣) التفسير الكبير ٢٠/ ٤٦-٤٧.

هذا، ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ وهو القيامة الكبرى التي يرتفعُ فيها حُجُب التعيُّنات ويضمحلُّ السِّوى، ولما كان ﷺ مشاهدًا لذلك في عين الجمع قال: ﴿أَتَىٰٓ﴾ ولما كان ظهورها على التفصيل بحيث تظهر للكُلِّ لا يكون إلا بعد حين قال: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ لأنَّ هذا ليسَ وقتَ ظهوره، ثم أكَّد شهودَهُ لوجه الله تعالى، وفناء الخلق في القيامة بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ بإثبات وجود الغير، ثم فصَّل ما شاهدَ في عين الجمع لكونه في مقام الفَرْق بعد الجمع لا يحتجبُ بالوحدة عن الكَثْرة، ولا بالعكس، فقال: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾ وهو العلمُ الذي تحيا به القلوب ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ وهم المخلِصون له ﴿أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ وقال بعضهم: أي: خوِّفوا الخلقَ من الخواطر الرديئةِ الممزوجة بالنظر إلى غيري، وخوِّفهم من عظيم جلالي، وهذا وحيُ تبليغ، وهو مخصوصٌ بالمرسلين عليهم السلام، وذكروا أنَّ الوحيَ إذا لم يكنْ كذلك غيرُ مخصوصٍ بهم، بل يكونُ للأولياء أيضاً ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ [فصلت: ٣٠] وقد روي عن بعض أئمة أهل البيت أنَّ الملائكةَ تُزاحمهم في مجالسهم. ثم إنه تعالى عدَّد الصفات وفصَّل النِّعم فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ إلخ.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ﴾ إلخ إشارةٌ ـ كما نُقل عن الجنيد قُدِّسَ سِرُّه ـ إلى أنه ينبغي لمن أراد البلوغَ إلى مقصده أن يكون أول أمره وقَصْده الجهد والاجتهاد ليُوصله بركةُ ذلك إلى مقصوده، وذكروا أنَّ المحمولين من العباد إلى المقاصد أصنافٌ، وكذا المحمولُ عليه: فمحمولٌ بنور الفعل، ومحمولٌ بنور الصِّفة، ومحمولٌ بنور الذات، فالمحمولُ بنور الفعل يكون بلدهُ مقامَ الخوف والرجاء، ومحلَّتهُ صِدْق اليقين، ودارُهُ مُربَّع الشهود، والمحمولُ بنور الصِّفة يكون بلدهُ مقامَ المعرفة، ومحلَّتهُ صفو الخُلَّة، ودارهُ دار المودَّة، والمحمولُ بنور الذات يكونُ بلدهُ التوحيدَ، ومحلَّتُه الفناء، ودارهُ البقاء، وهذه الأصناف للسالك، وأما المجذوب فمحمولٌ على مَطيَّةِ الفَضْل إلى بلد المشاهدة.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ تحييرٌ للأفهام، وتعجيزٌ أيُّ تعجيزٍ عن أن تُدرِكَ الملكَ العلام؛ وقال بعضُهم: إنَّ فيها تعليمًا للوقوف عند ما لا يدركه

العقل من آثار الصُّنع وفنون العلم، وعدم مقابلة ذلك بالإنكار، حيث أَخبر سبحانه أنه يخلقُ ما لا يُعلَمُ بمقتضى القوى البشرية المعتادة، وإنما يُعلَمُ بقوةٍ إلهيةٍ وعنايةٍ صَمَدية، ألا ترى الصوفيةَ الذين مَنَّ الله تعالى عليهم بما مَنَّ، كيفَ علموا عوالمَ عظيمة نسبةُ عالَمِ الشهادة إليها كنسبة الذَّرَّة إلى الجبل العظيم، وممَّنْ زَعَمَ الانتظامَ في سِلْكهم كالكَفشية الملقِّبين أنفسَهم بالكشفية من ذكر من ذلك أشياء لا يشكُّ العاقل في أنها لا أصلَ لها، بل لو عُرِضَ كلامُهمْ في ذلك على الأطفال أو المجانين لم يشكُّوا في أنه حديثُ خُرافةٍ صادرٌ عن مَحْضِ التخيُّل، وأنا أسألُ الله تعالى أن لا يبتلي مسلمًا بمِثْل ما ابتلاهم، وقد عزمتُ حين رأيتُ بعضَ كتبهم التي ألَّفها بعضُ معاصرينا منهم مما اشتملَ على ذلك، على أن أصنعَ نحو ما صنعوا مقابلةً للباطل بمثله، لكن منعني الحياءُ من الله تعالى، والاشتغالُ بخِدْمة كلامه سبحانه، والعلمُ بأنَّ تلك الخرافات لا تروجُ إلا عند مَنْ سُلب منه الإدراك والتَحَقَ بالجمادات.

وقال الواسطيُّ في الآية: المعنى: يخلقُ فيكم من الأفعال ما لا تعلمون أنها لكم أم عليكم.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: السبيلُ القَصْدُ، وهو التوحيد ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ وهو ما عدا ذلك ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لكنه لم يشأ لعدم استعدادكم، ولتظهرَ صفاتُ جماله وجلاله سبحانه: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ وهم الأوتاد أربابُ التمكين ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي: تضطرب، ومن الكلام المشهور على الألسنة: لو خَلَتْ قُلِبَتْ ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ وهم العلماءُ الذين تحيا بفُرات علومهم أشجارُ القلوب ﴿وَسُبُلًا﴾ وهم المرشدون الداعون إليه تعالى ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ وهي الآياتُ الآفاقية والأنفسية ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ وهي الأنوار التي تلوح للسالك من عالم الغيب.

وقال بعضهم: ألقى في أرض القلوب رواسي العلوم الغيبية، والمعارف السرمدية، وأجرى فيها أنهارَ أنوار المعرفة والمكاشفة والمحبَّةِ والشَّوق والعشق والحِكْمة والفِطْنة، وأَوْضَحَ سُبُلًا للأرواح والعقول والأسرار، فسبيلُ الأرواح إلى أنوار الصفات، وسبيلُ العقول إلى أنوار الآيات، وسبيلُ الأسرار إلى أنوار الذات،

والسُّبُلُ في الحقيقة غيرُ متناهية، ومن كلامهم: الطُّرق إلى الله تعالى بعَدَدِ أنفاس الخلائق.

والعلاماتُ في الظاهر أنوارُ الأفعال للعموم، وأخصُّ العلامات في العالم الأولياء، والنجومُ أهلُ المعارف الذين يُسبِّحون في أفلاك الديمومية بأرواحهم وقلوبهم وأسرارهم مَن اقتدى بهم يهتدي إلى مقصوده الأبدي، وفي الحديث: «أصحابي كالنجوم بأيِّهمُ اقتديتم اهتديتم»[1]، والمراد بهم خواصُّهم ليتأتَّى الخطاب، ويجوز أن يُرادَ كلُّهم والخطابُ لنا، ولا مانعَ من ذلك على مَشْرب القوم ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۞ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ما أعظمها من آية في النَّعْي على مَنْ يستغيثُ بغير الله تعالى من الجمادات والأموات، ويطلبُ منه ما لا يستطيع جَلْبه لنفسه أو دَفْعه عنها.

وقال بعضُ أكابر السادة الصوفية قدَّس الله تعالى أسرارهم: إنَّ الاستغاثةَ بالأولياء محظورةٌ إلا من عارفٍ يميِّزُ بين الحدوث والقِدَم، فيستغيثُ بالوليِّ لا من حيثُ نفسُهُ بل من حيثُ ظهورُ الحقِّ فيه، فإنَّ ذلك غيرُ محظورٍ لأنه استغاثةٌ بالحقِّ حينئذ، وأنا أقول: إذا كان الأمرُ كذلك فما الدَّاعي للعدول عن الاستغاثة بالحقِّ من أول الأمر؟ وأيضاً إذا ساغت الاستغاثةُ بالوليِّ من هذه الحيثية، فلتسغ الصلاةُ والصومُ وسائر أنواع العبادة له من تلك الحيثية أيضاً، ولعلَّ القائلَ بذلك قائلٌ بهذا. بل قد رأيتُ لبعضهم ما يكونُ هذا القولُ بالنسبة إليه تسبيحٌ ولا يكادُ يجري قلمي أو يُفتَحُ فمي بذِكْره، فالطريقُ المأمونُ عند كلِّ رشيدٍ قَصْرُ الاستغاثة والاستعانة على الله عزَّ وجلَّ، فهو سبحانه الحيُّ القادرُ العالمُ بمصالح عباده، فإياكَ والانتظامَ في سِلْكِ الذين يَرجُون النفعَ من غيره تعالى.

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ ذكروا أنَّ السابقينَ الموحِّدين يتوفَّاهم الله تعالى بذاته، وأما الأبرارُ والسُّعداء فقِسْمان، فمَنْ ترقَّى عن مقام النفس بالتجرُّد وَوَصَلَ إلى مقام القلب بالعلوم والفضائل يتوفَّاهم ملكُ الموت، ومَنْ كان في مقام النفس من العُبَّاد والصُّلَحاء والزُّهَّاد المتشرِّعين الذين لم يتجرَّدوا عن علائق البدن

(١) سلف الحديث ١/ ٢٠١.

بالتحلية والتخلية تتوفَّاهم ملائكةُ الرحمة، وأما الأشرارُ الأشقياء فتتوفَّاهم الملائكةُ أيضاً، ولكن ملائكةُ العذاب، ويتشكَّلون لهم على صورةِ أخلاقهم الذميمة، كما يتشكَّلُ ملائكةُ الرحمةِ لمن تقدَّم على صورة أخلاقهم الحسنة.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ طابتْ نفوسُهم في خِدْمة مولاها، وطابتْ قلوبهم في محبَّةِ سيِّدها، وطابتْ أرواحهم بطِيْبِ مشاهدةِ ربِّها، وطابتْ أسرارهم بطِيْبِ الأنوار، وقيل: طَيِّبةٌ أبدانهم وأرواحهم بملازمة الخِدمة وتَرْك الشهوات. وقيل: طَيِّبةٌ أرواحهم بالموت لكونه باب الوصال وسبب الحياة الأبدية.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ قالوه إلزاماً لزَعْمهم للموحِّدين، وما دروا أنه حُجَّةٌ عليهم؛ لأنه تعالى لا يشاءُ إلا ما يعلم، ولا يعلم إلا ما عليه الشيءُ في نفسه، فلولا أنهم في نفس الأمر مشركون ما شاء الله تعالى ذلك.

﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ هم أهلُ القرآن المتخلِّقونَ بأخلاقه القائمون بأمره ونهيه، الواقفونَ على ما أُودع فيه من الأسرار والغيوب وقليلٌ ما هم، فالمراد بالذِّكر القرآن كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الله تعالى لم يُظهرْ مكنونات أسرار كتابه إلا لنبيِّهِ ﷺ فهو عليه الصلاة والسلام الأمينُ المؤتمنُ على الأسرار، وقد أشار سبحانه له عليه الصلاة والسلام بتبيين ذلك، وقد فعلَ، ولكن على حَسَبِ القابليات: لا تمنعوا الحكمة عن أهلها فتظلموهم، ولا تمنحوها غيرَ أهلها فتظلموها[1]. ولا تُودَع الأسرارُ إلا عند الأحرار، وذلك لأنها أمانةٌ، وإذا أُودعت عند غيرهم لم يؤمَنْ عليها من الخيانة، وخيانتها إفشاؤها، وإفشاؤها خَطَرٌ عظيم. ولذا قيل:

من شاوروه فأبدى السِّرَّ مشتهراً ... لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا
وجانَبوه فلم يَسْعَدْ بقربهم ... وأبدلوه مكانَ الأُنس إيحاشا
لا يصطفون مذيعاً بعضَ سِرِّهم ... وحاشا ودادهم من ذاكم حاشا

(١) قال العجلوني في كشف الخفاء ٢/ ٥٠٣: رواه ابن عساكر عن ابن عباس من قول عيسى بن مريم عليه السلام.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ أي: ذاتٍ وحقيقةٍ مخلوقةٍ أية ذاتٍ كانت ﴿يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ﴾ قيل: أي: يتمثَّل صُوره ومظاهره ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾ جهة الخير ﴿وَالشَّمَائِلِ﴾ جهات الشرور، ولمَّا كانت جهةُ اليمين إشارةً إلى جهة الخير الذي لا يُنسَبُ إلا إليه تعالى وَحَّدَ اليمين، ولما كانت جهةُ الشمال إشارةً إلى جهة الشَّرِّ الذي لا ينبغي أن يُنْسَبَ إليه تعالى كما يرشد إليه قوله ﷺ: «والشر ليس إليك»(١) ولكن يُنْسَبُ إلى غيره سبحانه، وكان في الغير تعدُّدٌ ظاهرٌ = جَمَعَ الشمال.

وقيل في وجه الإفراد والجمع: إنَّ جميعَ الموجودات تشتركُ في نوعٍ من الخير لا تكادُ تفيءُ عنه، وهو العِشْقُ، فقد برهنَ ابنُ سينا على سَرَيان قوةِ العِشقِ في كلِّ واحدٍ من الهويات، ولا تكادُ تشتركُ في شرٍّ كذلك، فما تفيءُ عنه من الشر لا يكون إلا متعدِّداً، فلذا جَمَعَ الشمال، ولا كذلك ما تفيءُ عنه من الخير، فلذا أفرد اليمين، فليتأمل.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ ينقاد ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾ أيّ موجودٍ يَدِبُّ ويتحرَّكُ من العدم إلى الوجود ﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ لا يمتنعونَ عن الانقياد والتذلل لأمره ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ لأنه القاهرُ المؤثِّرُ فيهم ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ طَوْعاً وانقياداً، والله تعالى الهادي سواء السبيل.

❀ ❀ ❀

ثم إنه تعالى بعد ما بيَّن أنَّ جميعَ الموجودات خاضعةٌ منقادةٌ له تعالى، أردفَ ذلك بحكاية نهيه سبحانه وتعالى للمكلَّفين عن الإشراك فقال عزَّ قائلاً:

﴿وَقَالَ اللَّهُ﴾ عَطْفًا على قوله سبحانه: (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ). وجُوِّزَ أن يكونَ معطوفاً على «وأنزلنا إليك الذكر» وقيل: إنه معطوفٌ على «ما خلق الله» على أسلوب:

علفتُها تبنًا وماءً باردا(٢)

---

(١) قطعة من حديث طويل أخرجه أحمد (٨٠٣)، ومسلم (٧٧١) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
(٢) عجزه: حتى شتت همالة عيناها. وسلف ٦/ ٣٢٥.

أي: أَوَلم يروا إلى ما خلق الله، ولم يسمعوا إلى ما قال الله، ولا يخفى تكلُّفه.

وإظهارُ الفاعل وتخصيصُ لفظة الجلالة بالذكر للإيذان بأنه تعالى متعيِّنُ الألوهية، وإنما المنهيُّ عنه هو الإشراكُ به، لا أنَّ المنهيَّ عنه هو مطلقُ اتخاذ إلهين، بحيثُ يتحقَّقُ الانتهاءُ عنه برَفْضِ أيِّهما كان، ولم يُذْكَر المقول لهم للعموم أي: قال تعالى لجميع المكلَّفين بواسطة الرسل عليهم السلام: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ المشهور أنَّ «اثنين» وصفٌ لـ «إلهين» وكذا «واحدٌ» في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ صفةٌ لـ «إله»، وجِيءَ بهما للإيضاح والتفسير، لا للتأكيد وإن حصل، وتقريرُ ذلك أنَّ لَفْظَ «إلهين» حاملٌ لمعنى الجنسية، أعني: الإلهية، ومعنى العدد أعني الاثنينية، وكذا لفظُ «إله» حاملٌ لمعنى الجنسية والوَحْدة، والغرضُ المسوقُ له الكلامُ في الأول النهيُ عن اتخاذ الاثنين من الإله، لا عن اتخاذ جنس الإله، وفي الثاني إثباتُ الواحد من الإله، لا إثباتُ جنسه، فَوَصفَ «إلهين» بـ «اثنين» و«إله» بـ «واحد» إيضاحاً لهذا الغرض وتفسيراً له، فإنه قد يُرادُ بالمفرد الجنسُ، نحو: نِعْمَ الرجلُ زيدٌ. وكذا المثنَّى كقوله:

فإنَّ النارَ بالعُودَين تُذْكَى وإنَّ الحربَ أوَّلُها الكلامُ[1]

وإلى هذا ذهب صاحبُ «الكشاف»[2] وما يُفهم منه أنه تأكيدٌ، فمعناه أنه محقَّقٌ ومقرَّرٌ من المتبوع، فهو تأكيدٌ لُغويٌّ، لا أنه مؤكِّدٌ أَمْرَ المتبوع في النسبة أو الشمول، ليكون تأكيداً صناعيًّا، كيف وهو إنما يكونُ بتقرير المتبوع بنفسه أو بما يوافقه معنًى أو بألفاظٍ محفوظة، فما قيل: إنَّ مذهبه أنَّ ذلك من التأكيد الصناعيِّ ليس بشيءٍ؛ إذ لا دلالة في كلامه عليه. وقد أورد السَّكاكيُّ الآيةَ في باب عَطْفِ البيان[3] مصرِّحاً بأنه من هذا القبيل، فتوهَّم منه بعضُهم أنه قائلٌ بأنَّ ذلك عَطْفُ بيانٍ صناعي، وهو الذي اختاره العلامةُ القُطْبُ في «شرح المفتاح» نافياً كونه

---

(١) البيت لنصر بن سيار، وهو في البيان والتبيين للجاحظ ١/ ١٥٨، وعيون الأخبار ١/ ١٢٨، والأمثال لأبي عبيد ص١٥٣، والتمثيل والمحاضرة ص٢٦٤.
(٢) ٢/ ٤١٣.
(٣) مفتاح العلوم ص١٩٠.

وَصْفاً، واستدلَّ على ذلك بأنَّ معنى قولهم: الصفةُ تابعٌ يدلُّ على معنًى في متبوعه أنه تابعٌ ذُكِرَ ليدلّ على معنًى في متبوعه على ما نُقل عن ابن الحاجب، ولم يذكر «اثنين» و«واحد» للدلالة على الاثنينية والوحدة اللتين في متبوعهما، فيكونا وَصْفَين، بل ذُكرا للدلالة على أنَّ القَصْدَ من متبوعهما إلى أحد جزئيه ـ أعني: الاثنينية والوحدة ـ دون الجزء الآخر ـ أعني: الجنسية ـ فكلٌّ منهما تابعٌ غيرُ صفةٍ يُوضِّحُ متبوعه، فيكون عَطْف بيان لا صفة.

وقال العلَّامة الثاني: ليس في كلام السكاكيِّ ما يدلُّ على أنه عَطْفُ بيانٍ صناعي؛ لجواز أن يُريد أنه من قبيل الإيضاح والتفسير، وإن كان وَصْفاً صناعيًّا، ويكون إيراده في ذلك المبحث مثل إيراد: كلُّ رجلٍ عارف، وكلُّ إنسان حيوان، في بحث التأكيد، ومثل ذلك عادة له.

وتعقب العلَّامةُ الأول بأنه إن أُريد أنه لم يُذْكر إلا ليدلَّ على معنًى في متبوعه، فلا يصدقُ التعريفُ على شيءٍ من الصفة؛ لأنها البتَّة تكونُ لتخصيصٍ أو تأكيدٍ أو مَدْحٍ أو نحو ذلك، وإن أريد أنه ذُكر ليدلَّ على هذا المعنى، ويكونُ الغرضُ من دلالته عليه شيئاً آخرَ كالتخصيص والتأكيد وغيرهما، فيجوز أن يكون ذِكْرُ «اثنين» و«واحد» للدلالة على الاثنينية والوحدة، ويكون الغرضُ من هذا بيانَ المقصود وتفسيره، كما أنَّ الدابرَ في: أمس الدَّابِر، ذُكر ليدلَّ على معنى الدُّبور، والغرضُ منه التأكيدُ، بل الأمرُ كذلك عند التحقيق، ألا ترى أنَّ السَّكاكيَّ جعلَ من الوصف ما هو كاشفٌ وموضِّحٌ، ولم يخرج بهذا عن الوصفية.

وأجيب بأنَّا نختارُ الشقَّ الثاني ونقول: مرادُ العلَّامة من قوله: ذُكر ليدلَّ على معنًى في متبوعه، أن يكونَ المقصودُ من ذِكْره الدلالةَ على حصول المعنى في المتبوع، ليتوسَّلَ بذلك إلى التخصيص أو التوضيح أو المدح أو الذم، إلى غير ذلك. وذِكْرُ «اثنين» و«واحد» ليس للدلالة على حصول الاثنينية والوحدة في موصوفيهما، بل تعيينُ المقصود من جزئيهما، فلا يكونان صفة، وذِكْرُ الدابر ليدلَّ على حصول الدبور في الأمس، ثم يتوسَّلُ بذلك إلى التأكيد، وكذا في الوصف الكاشفِ، بخلاف ما نحن فيه، فتدبره فإنه غامض.

ولم يجوِّز العلَّامةُ الأولُ البدليةَ فقال: وأما أنه ليس ببدلٍ فظاهرٌ؛ لأنه لا يقومُ مقام المبدَلِ منه.

ونظر فيه العلَّامة الثاني بأنَّا لا نُسلِّم أنَّ البدلَ يجبُ صحةُ قيامه مقامَ المبدَلِ منه، فقد جعل الزمخشريُّ «الجنَّ» في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ [الأنعام: ١٠٠] بدلاً من «شركاء»[1]، ومعلومٌ أنه لا معنى لقولنا: وجعلوا لله الجنَّ، ثم قال: بل لا يبعد أن يقال: الأولى أنه بدلٌ؛ لأنه المقصودُ بالنسبة؛ إذ النهيُ عن اتخاذ الاثنين من الإله على ما مرَّ تقريره.

وتُعقِّبَ بأنَّ الرضيَّ قد ذَكر أنه لمَّا لم يكنِ البدلُ معنًى في المتبوع حتى يحتاج إلى المتبوع كما احتاج الوصف ولم يفهم معناه من المتبوع كما فُهم ذلك في التأكيد جاز اعتبارُهُ مستقلًّا لَفْظاً، أي: صالحاً لأن يقوم مقام المتبوع. اهـ.

ولا يخفى أنَّ صحةَ إقامته بهذا المعنى لا تقتضي أن يتمَّ معنى الكلام بدونه حتى يرد ما أورد؛ وقيل: إنَّ ذِكْرَ «اثنين» للدلالة على منافاة الاثنينية للأُلوهية، وذِكْرَ الوحدة للتنبيه على أنها من لوازم الألوهية.

وجعل ذلك بعضُهم من روادف الدلالة على كون ما ذُكر مساق النهي والإثبات وهو الظاهر، وإن قيل فيه ما قيل.

وزعم بعضُهم أنَّ «تتَّخذوا» متعدٍّ إلى مفعولين، وأنَّ «اثنين» مفعوله الأول و«إلهين» مفعوله الثاني، والتقدير: لا تتَّخذوا اثنين إلهين.

وقيل: الأولُ مفعولٌ أولُ والثاني ثانٍ، وقيل: «إلهين» مفعوله الأول، و«اثنين» باقٍ على الوَصْفيةِ والتوكيد، والمفعولُ الثاني محذوفٌ، أي: معبودين، ولا يخفى ما في ذلك، وإثباتُ الوحدة له تعالى مع أنَّ المسمَّى المعيَّنُ لا يتعدَّدُ بمعنى أنه لا مُشارِكَ له في صفاته وألوهيته، فليس الحملُ لَغْواً، ولا حاجةَ لِجَعْل الضمير للمعبود بحقِّ المفهوم من الجلالة على طريق الاستخدام كما قيل، وسيأتي إن شاء الله تعالى تحقيقُهُ في سورة الإخلاص.

---

(١) الكشاف ٢/ ٤٠.

وفي التعبير بالضمير الموضوع للغائب التفاتٌ من التكلُّم إلى الغَيبة على رأي السَّكاكي المكتفي بكون الأسلوب الملتَفَتِ عنه حقّ الكلام، وإن لم يسبق الذكر على ذلك الوجه، وأما قوله تعالى: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ ففيه التفاتٌ من الغَيبة إلى التكلُّم على مذهب الجمهور أيضاً، والنكتةُ فيه بعد النكتةِ العامة ـ أعني الإيقاظ وتطرية الإصغاء ـ المبالغةُ في التخويف والترهيب، فإنَّ تخويفَ الحاضر مواجهةً أبلغُ من تخويف الغائب، سيَّما بعد وَصْفه بالوحدة والأُلوهية المقتضية للعَظَمة والقُدْرة التامةِ على الانتقام.

والفاء في «فإياي» واقعةٌ في جواب شَرْطٍ مقدَّرٍ، و«إياي» مفعولٌ لفِعْلٍ محذوفٍ يُقدَّرُ مؤخَّرًا، يدلُّ عليه «فارهبون» أي: إن رَهبْتُم شيئاً فإيايَ ارهبوا، وقول ابن عطية: إنَّ «إياي» منصوبٌ بفِعْلٍ مُضْمَرٍ تقديرُه: فارهبوا إيايَ فارهبون[1]؛ ذهولٌ عن القاعدة النحوية، وهي أنه إذا كان المعمولُ ضميراً منفصلاً والفعلُ متعدٌّ إلى واحدٍ هو الضمير، وَجَبَ تأخُّر الفعل، نحو: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] ولا يجوز أن يتقدَّم إلا في ضرورةٍ نحو قوله:

إلــيــكَ حــتــى بَــلَــغَــتْ إيــاكــا[2]

وعَطْفُ المفسِّر المذكور على المفسَّر المحذوف بالفاء؛ لأنَّ المراد رهبةٌ بعد رهبة، وقيل: لأنَّ المفسِّر حقُّه أن يُذْكَر بعد المفسَّر، ولا يخفى فَضْلُ الضمير وتقديمُه من الحَصْر، أي: ارهبوني لا غير، فأنا ذلك الإلهُ الواحدُ القادرُ على الانتقام.

﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ عَطْفٌ على قوله سبحانه: (إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ) أو على الخبر أو مستأنَفٌ جِيءَ به تقريرًا لِعِلَّةِ انقياد ما فيهما له سبحانه خاصة، وتحقيقًا لتخصيص الرهبة به تعالى، وتقديمُ الظَّرف لتقوية ما في اللام من معنى التخصيص، وكذا يقال فيما بعد، أي: له تعالى وحده ما في السماوات والأرض

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٩٩-٤٠٠.

(٢) عجز بيت لحميد الأرقط وهو في الإنصاف للأنباري ٢/ ٦٩٩، وشرح المفصل ٣/ ١٠١، والخزانة ٥/ ٢٨٠. وصدره: أتتك عنس تقطع الأراكا.

خَلْقاً ومُلْكاً ﴿وَلَهُ﴾ وحده ﴿ٱلدِّينُ﴾ أي: الطاعةُ والانقيادُ كما هو أحدُ معانيه. ونُقل عن ابن عطية وغيره[1].

﴿وَاصِبًا﴾ أي: واجباً لازماً لا زوالَ له، لما تقرَّر أنه سبحانه الإله وحده الحقيقُ بأن يُرْهَب، وتفسير «واصباً» بما ذُكر مرويٌّ عن ابن عباس والحسن وعكرمة ومجاهد والضحاك وجماعة، وأنشدوا لأبي الأسود الدؤلي:

لا أبتغي الحمدَ القليلَ بقاؤه يومًا بذمِّ الدهر أجمعَ واصبا[2]

وقال ابنُ الأنباريّ: هو من الوَصَب بمعنى التَّعب أوشدَّته، وفاعلٌ للنَّسَب كما في قوله:

وأضحى فؤادي به فاتنا[3]

أي: ذا وَصَبٍ وكُلْفة، ومن هنا سُمِّي الدينُ تكليفاً، وقال الربيع بن أنس: «واصباً» خالصاً، ونُقل ذلك أيضاً عن الفراء[4]، وقيل: الدينُ: المُلْك، والواصبُ: الدائم، ويُبعد ذلك قول أمية بن أبي الصلت[5]:

وله الدينُ واصبًا وله المُلـ ك وحَمْدٌ له على كلِّ حالِ

وقيل: الدينُ الجزاء، والواصبُ كما في سابقه، أي: له تعالى الجزاءُ دائمًا لا ينقطعُ ثوابه للمطيع وعقابه للعاصي، وأيًّا ما كان فَنَصْبُ «واصبًا» على أنه حالٌ من ضمير «الدين» المستكنِّ في الظرف، والظرفُ عاملٌ فيه أو حالٌ من «الدين» والظرفُ هو العاملُ على رأي مَنْ يرى جواز اختلاف العامل في الحال والعامل في صاحبها. واستُدلَّ بالآية على أنَّ أفعالَ العباد مخلوقةٌ له تعالى.

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾ الهمزةُ للإنكار، والفاءُ للتعقيب، أي: أَبَعْدَ ما تقرَّر من تخصيص جميع الموجودات للسجود به تعالى، وكون ذلك كلّه له سبحانه، ونهيه

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٠٠.
(٢) البيت في ديوانه ص٥٢.
(٣) صدره: رخيم الكلام قطيع القيام. وهو في الصحاح واللسان (فتن) دون نسبة.
(٤) في معاني القرآن له ٢/ ١٠٤.
(٥) في الأصل و(م): أمية بن الصلت. والمثبت هو الصواب، والبيت في ديوانه ص١٠٧.

عن اتخاذ الإلهين، وكون الدين له واصبًا المستدعي ذلك لتخصيص التقوى به تعالى؛ تتَّقونَ غيرَه. والمنكَرُ تقوى غيرِ الله تعالى، لا مطلقُ التقوى، ولذا قُدِّم الغير، وأولى الهمزة لا للاختصاص حتى يردَ أنَّ إنكارَ تخصيص التقوى بغيره سبحانه لا ينافي جوازها، وقيل: يصحُّ أن يُعتبرَ الاختصاصُ بالإنكار، فيكون التقديمُ لاختصاص الإنكار، لا لإنكار الاختصاص. وفي «البحر» أنَّ هذا الاستفهامَ يتضمَّنُ التوبيخَ والتعجُّبَ، أي: بعد ما عرفتمْ من وحدانيته سبحانه، وأنَّ ما سواه له ومحتاجٌ إليه كيفَ تتقون وتخافون غيره[1]؟!

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: أيُّ شيءٍ يلابسكم ويصاحبكم من نعمةٍ أيِّ نعمةٍ كانت فهي منه تعالى، فـ «ما» موصولةٌ مبتدأ متضمِّنةٌ معنى الشرط، و«من الله» خبرها، والفاءُ زائدةٌ في الخبر لذلك التضمُّن، و«من نعمة» بيانٌ للموصول، و«بكم» صِلَتُهُ، وأجاز الفراء وتَبِعَهُ الحوفيُّ أن تكونَ «ما» شرطيةً، وفعلُ الشرط محذوفٌ، أي: وما يكنْ بكم من نعمةٍ... إلخ[2]. واعترضه أبو حيان[3] بأنه لا يُحذَفُ فعلُ الشَّرط إلا بعد «إن» خاصةً في موضعين؛ باب الاشتغال نحو ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ [التوبة: ٦] وأن تكون «إن» الشرطية متلوَّةً بـ «لا» النافية، وقد دلَّ على الشرط ما قبله؛ كقوله:

فطلِّقْها فلستَ لها بكُفءٍ ... وإلَّا يَعْلُ مَفْرِقَكَ الحسامُ[4]

وحَذْفُهُ في غيرِ ما ذُكر ضرورة، كقوله:

قالتْ بناتُ العمِّ يا سلمى وإنْ ... كان فقيرًا مُعْدِمًا قالت وإنْ[5]

وقوله:

أينما الريحُ تُميِّلْها تَمِلْ[6]

(١) البحر ٥/ ٥٠٢.
(٢) معاني القرآن ٢/ ١٠٤.
(٣) في البحر ٥/ ٥٠٢.
(٤) البيت للأحوص الأنصاري، وهو في ديوانه ص١٩١.
(٥) البيت لرؤبة بن العجاج، وهو في ديوانه ص١٨٦.
(٦) عجز بيت لكعب بن جُعيل وصدره:

=

وأجيب بأنَّ الفراءَ لا يُسلِّم هذا، فما أجازه مبنيٌّ على مذهبه. واستُشكل أَمْرُ الشرطية على الوجهين من حيثُ إنَّ الشرطَ لابدَّ أن يكونَ سببًا للجزاء كما تقول: إن تُسلِم تدخل الجنةَ، فإن الإسلامَ سببٌ لدخول الجنة، وهنا على العكس، فإنَّ الأولَ وهو استقرارُ النعمة بالمخاطَبين لا يستقيمُ أن يكون سببًا للثاني وهو كونُها من الله من جهة وكونه فَرْعًا عنه.

وأجاب في «إيضاح المفصَّل»: بأنَّ الآية جِيءَ بها لإخبارِ قومٍ استقرَّتْ بهم نِعَمٌ جَهِلوا مُعطيها، أو شَكُّوا فيه، أو فعلوا ما يؤدِّي إلى أن يكونوا شاكِّينَ، فاستقرارها مجهولةً أو مشكوكةً سببٌ للإخبار بكونها من الله تعالى، فيتحقَّقُ أنَّ الشرطَ والمشروطَ فيها على حسب المعروف من كون الأول سبباً والثاني مسببًا، وقد وهم مَنْ قال: إنَّ الشرطَ قد يكونُ مسببًا. وفي «الكشف» أنَّ الشرطَ والجزاء ليسا على الظاهر، فإنَّ الأولَ ليس سببًا للثاني، بل الأمر بالعكس، لكنَّ المقصودَ منه تذكيرُهم وتعريفُهمْ، فالاتصالُ سببُ العلم بكونها من الله تعالى. وهذا أولى مما قدَّره ابنُ الحاجب من أنه سببُ الإعلام بكونها منه، لأنه في قومٍ استقرَّتْ بهمُ النِّعَمُ وجهلوا مُعطيها أو شكُّوا فيه، ألا ترى إلى ما بُني عليه بعدُ كيفَ دَلَّ على أنهم عالمونَ بأنه سبحانه المنعمُ، ولكنْ يضطرُّون إليه عند الإلجاء، ويكفرونَ بعد الإنجاء. انتهى.

وفيه أنه يُدفَعُ ما ذكره بأنَّ علْمَهمْ نزلَ لعدم الاعتداد به وفعلهم ما ينافيه منزلةَ الجهل، فأُخبروا بذلك كما تقول لمن توبِّخه: أما أعطيتك كذا، أما وأما.

﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ مساسًا يسيرًا ﴿فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ تتضرَّعون في كَشْفه، لا إلى غيره، كما يفيده تقديمُ الجارِّ والمجرور، والجُؤار في الأصل: صياحُ الوحش، واستعمل في رَفْعِ الصوت بالدعاء والاستغاثة، قال الأعشى يصفُ راهبًا:

يداومُ مِن صلواتِ المليكِ ... طَورًا سجودًا وطَورًا جُؤارا[1]

= صَغْدَةٌ نابتةٌ في حائرِ

وهو في المؤتلف والمختلف ص١١٥، والخزانة ٣/ ٤٧.

(١) في الأصل و(م): جؤرا. والمثبت من ديوان الأعشى ص٥.

وقرأ الزهري: «تَجَرون» بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على الجيم[١]، وفي ذكر المساس المنبئ عن أدنى إصابةٍ وإيراده بالجملة الفعلية المؤذنةِ بالحدوث مع «ثم» الدالة على وقوعه بعد بُرهةٍ من الدهر، وتحلية «الضُّرّ» بلام الجنس المفيدةِ لمساس أدنى ما ينطلقُ عليه اسمُ الجنس مع إيراد النعمة بالجملة الاسمية المؤذنة بالدوام والتعبير عن ملابستها للمخاطبين بباء المصاحبة، وإيراد «ما» المعربة عن العموم على احتماليها ما لا يخفى من الجزالة والفخامة، ولعل إيراد «إذا» دون «إن» للتوسُّل به إلى تحقُّقِ وقوع الجواب. قاله المولى أبو السعود[٢]. وفيه ما يُعرفُ مع الجواب عنه بأدنى تأمُّل.

وكان الظاهر على ما قيل أن يقال بعد «أفغيرَ الله تتقون»: وما يصيبكم ضرٌّ إلا منه لِيَقْوى إنكارُ اتِّقاء غيره سبحانه، لكن ذَكَرَ النَّفعَ الذي يُفهَمُ بواسطته الضُّرُّ، واقتصر عليه إشارةً إلى سَبْقِ رحمته وعمومها، وبملاحظة هذا المعنى قيل: يظهر ارتباطُ «وما بكم من نعمة فمن الله» بما قبله، وسيأتي قريبًا إن شاء الله تعالى ما يتعلَّقُ بذلك.

واستُدلَّ بالآية على أنَّ لله تعالى نعمةً على الكافر، وعلى أنَّ الإيمانَ مخلوقٌ له تعالى.

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ﴾ أي: رفع ما مسَّكم من الضُّرِّ ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝٥٤﴾ أي: يتجدَّدُ إشراكهم به تعالى بعبادة غيره سبحانه، والخطاب في الآية إن كان عامًّا فـ «من» للتبعيض، والفريقُ الكَفَرة، وإن كان خاصًّا بالمشركين كما استظهره في «الكشف» فـ «من» للبيان على سبيل التجريد لِيَحْسُنَ، وإلا فليس من مَواقعه كما قيل، والمعنى: إذا فريقٌ هم أنتم يشركون. وجُوِّزَ على هذا الاحتمال في الخطاب كون «من» تبعيضية أيضاً؛ لأنَّ من المشركين مَنْ يرجعُ عن شِرْكه إذا شاهد ضُرًّا شديدًا كما يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ [لقمان: ٣٢] على تقدير أن يُفسَّر الاقتصادُ بالتوحيد لا بعدم الغلوِّ في الكُفْر، و«إذا» الأولى شرطيةٌ والثانية فجائية والجملة بعدها جوابُ الشرط، واستدلَّ

(١) المحتسب ٢/ ١٠، والبحر المحيط ٥/ ٥٠٢.

(٢) في تفسيره ٥/ ١٢٠.

أبو حيان باقترانها بـ «إذا» الفجائية، على أنَّ «إذا» الشرطية ليس العامل فيها الجواب؛ لأنه لا يعمل ما بعد «إذا» الفجائية فيما قبلها[1]. و«بربهم» متعلقٌ بـ «يشركون»، والتقديمُ لمراعاة رؤوس الآي، والتعرُّضُ لوصف الربوبية للإيذان بكمال قُبْح ما ارتكبوه من الإشراك الذي هو غايةٌ في الكفران. و«ثم» قال في «إرشاد العقل السليم»: ليست لتمادي زمان مساس الضُّرِّ ووقوع الكَشْف بعد بُرْهةٍ مديدةٍ، بل للدلالة على تراخي رتبةِ ما يترتَّبُ عليه من مفاجآت الإشراك، فإنَّ ترتُّبها على ذلك في أبعد غايةٍ من الضلال[2].

وفي «الكشف» متعقِّبًا صاحبَ «الكشاف» بأنه لم يذكر وجهَ الكلام في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ﴾ ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ﴾ وهو على وجهين - والله تعالى أعلم - أحدهما: أن يكونَ قوله سبحانه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ من تتمةِ السابق على معنى إنكار اتِّقاء غيرِ الله تعالى، وقد علموا أنَّ كلَّ ما يتقلَّبونَ فيه من نعمته فهو سبحانه القادر على سَلْبها، ثم أنكر عليهم تخصيصهم بالجُؤار عند الضُّرِّ في مقابلة تخصيص غيره بالاتِّقاء، ثم إشراكهم به تعالى كُفْرانًا لتلك النعمة، وجيءَ بـ «ثم» لتفاوت الإنكارين، فإنَّ اتقاءَ غيرِ المنعِمِ أقربُ من الإعراض عنه، وهو متقلِّبٌ في نِعمِهِ، ثم اللَّجَأُ إلى هذا المكفور به وحدَهُ عند الحاجة، وأبعدُ منه الإعراضُ ولم يجفَّ قدمُهُ من ندى النجاة.

والثاني: أن يكون جملةً مستقلَّةً واردة للتقريع، و«ثم» في الأول لتراخي الزمان إشعارًا بأنهم غَمِطُوا تلك النِّعَم، ولم يزالوا عليه إلى وقت الإلجاء، وفيه الإشعارُ بتراخي الرتبة أيضاً على سبيل الإشارة، وفي الثاني لتراخي الرتبة وحده. اهـ.

وهو كلامٌ نفيسٌ، وللطيبيِّ كلامٌ طويلٌ في هذا المقام إن أردته فارجع إليه.

وقرأ الزهريُّ: «ثم إذا كاشَفَ»[3]، وفاعَلَ هنا بمعنى فَعَلَ.

وفي الآية ما يدلُّ على أنَّ صنيعَ أكثر العوامِّ اليومَ من الجُؤار إلى غيره تعالى

(١) البحر المحيط ٥/ ٥٠٢.

(٢) إرشاد العقل السليم ٥/ ١٢٠.

(٣) القراءات الشاذة ص٧٣، والمحتسب ٢/ ١٠، والبحر المحيط ٥/ ٥٠٢ عن قتادة.

ممن لا يملكُ لهم بل ولا لنفسه نَفْعًا ولا ضُرًّا عند إصابة الضُّرِّ لهم، وإعراضهم عن دعائه تعالى عند ذلك بالكلية سَفَهٌ عظيمٌ وضلالٌ جديدٌ، لكنه أشدُّ من الضلال القديم. ومما تقشعرُّ منه الجلود وتُصَعَّرُ له الخدود، الكَفَرَة أصحاب الأخدود فَضْلاً عن المؤمنين باليوم الموعود، أنَّ بعضَ المتشيِّخين قال لي وأنا صغير: إياك ثم إياك أن تستغيثَ بالله تعالى إذا خَطْبٌ دهاك، فإنَّ الله تعالى لا يُعجِّلُ في إغاثتك ولا يهمُّهُ سوءُ حالتك، وعليك بالاستغاثة بالأولياء السالفين، فإنهم يُعجِّلون في تفريج كَرْبك ويهمُّهم سوءُ ما حلَّ بك، فمجَّ ذلك سمعي وهَمَى دمعي وسألتُ الله تعالى أن يعصمني والمسلمين من أمثال هذا الضلال المبين، ولكثيرٍ من المتشيِّخين اليومَ كلماتٌ مثلُ ذلك.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ﴾ من نعمةِ الكَشْف عنهم، فالكُفْر بمعنى كُفْران النعمة، واللامُ لام العاقبة والصيرورة، وهي استعارةٌ تبعيةٌ، فإنه لمَّا لم يُنتِجْ كفرُهم وإشراكُهمْ غيرَ كُفْران ما أنعم الله تعالى به عليهم، جُعل كأنه علَّةٌ غائيةٌ له مقصودةٌ منه.

وجُوِّزَ أن يكونَ الكُفْرُ بمعنى الجحود، أي: إنكار كون تلك النعمة من الله تعالى، واللامُ هي اللام، والمعنيان متقاربان.

﴿فَتَمَتَّعُوا۟ۖ﴾ أمرُ تهديدٍ كما هو أحدُ معاني الأمر المجازية عند الجمهور، كما يقول السيدُ لعبده: افعلْ ما تريد، والالتفاتُ إلى الخطاب للإيذان بتناهي السخط.

وقرأ أبو العالية: «فيُمْتَعُوا»[١] بضمِّ الياء التحتية، ساكن الميم مفتوح التاء، مضارع «مُتِعَ» مخفَّفًا مبنيًّا للمفعول، وروى ذلك مكحولٌ الشاميُّ عن أبي رافعٍ مولى النبيِّ ﷺ[٢]، وهو معطوفٌ «يكفروا» على أن يكون الأمران عَرَضا لهم من الإشراك. ويجوز أن يكون لام «ليكفروا» لام الأمر، والمقصود منه التهديدُ بتخليتهم وما هم فيه لخذلانهم، فالفاءُ واقعةٌ في جواب الأمر، وما بعدها منصوبٌ

(١) الكشاف ٢/ ٤١٤، والبحر المحيط ٥/ ٥٠٢.

(٢) في المحتسب ٢/ ١١ أن الذي رواه مكحول عن أبي رافع هو رواية التشديد «فيُمتَّعوا».

بإسقاط النون، ويجوز جَزْمُهُ بالعَطْفِ أيضاً كما يُنصَبُ بالعَطْفِ إذا كانت اللامُ جارَّةً.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ عاقبةَ أَمْرِكم وما يَنزِلُ بكم من العذاب، وفيه وعيدٌ شديدٌ حيث لم يُذكر المفعولُ إشعارًا بأنه لا يُوصَفُ. وقرأ أبو العالية أيضاً: «يعلمون» بالياء التحتية، وروى ذلك مكحولٌ عن أبي رافعٍ أيضاً[١].

﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ قيل: معطوفٌ على «يشركون»، وليس بشيءٍ. وقيل: لعلَّهُ عَطْفٌ على ما سبق بحَسَبِ المعنى تعدادًا لجناياتهم، أي: يفعلونَ ما يفعلون مما قصَّ عليك ويجعلون ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لآلهتهم التي لا يعلمونَ أحوالها، وأنها لا تضرّ ولا تنفعُ، على أنَّ «ما» موصولةٌ والعائدُ محذوفٌ، وضميرُ الجمع للكفار أو لآلهتهم التي لا عِلْم لها بشيءٍ؛ لأنها جمادٌ، على أنَّ «ما» موصولةٌ أيضاً عبارة عن الآلهة. وضميرُ «يعلمون» عائدٌ عليه، ومفعولُ «يعلمون» مُتْرَكٌ لقَصْد العموم. وجُوِّزَ أن يُنزَّلَ منزلةَ اللازم، أي: ليس من شأنهم العلم، وصيغةُ جَمْعِ العقلاء لِوَصْفِهم الآلهةَ بصفاتهم. ويجوز أن تكون «ما» مصدريةً، وضميرُ الجمع للمشركين، واللامُ تعليليةٌ لا صلةُ الجعل كما في الوجهين الأولين، وصِلَتُهُ محذوفةٌ للعلم بها، أي: يجعلون لآلهتهم لأجل جهلهم ﴿نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ من الحرث والأنعام وغيرهما مما ذرأ تقرُّبًا إليها.

﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ سؤالَ توبيخ وتقريع في الآخرة، وقيل: عند عذاب القبر، وقيل: عند القرب من الموت.

﴿عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ من قبلُ بأنها آلهةٌ حقيقة بأن يتقرَّب إليها، وفي تصدير الجملة بالقَسَم وصَرْف الكلام من الغَيبة إلى الخطاب المنبئ عن كمال الغضب من شدَّة الوعيد ما لا يخفى.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾ هم خزاعةُ وكنانةُ كانوا يقولون: الملائكةُ بناتُ الله تعالى، وكأنهم لجهلهم زعموا تأنيثها وبنوَّتها، وقال الإمام: أظنُّ أنهم أطلقوا عليها البنات لاستتارها عن العيون كالنساء؛ ولهذا لمَّا كان قرصُ الشمس يجري مجرى المستتر

---

(١) المحتسب ٢/١١، والبحر المحيط ٥/٥٠٢.

عن العيون بسبب ضوئه الباهر ونوره القاهر، أطلقوا عليه لفظَ التأنيث[١].

ولا يردُ على ذلك أنَّ الجنَّ كذلك؛ لأنه لا يلزمُ في مثله الاطِّراد، وقيل: أطلقوا عليها ذلك للاستتار، مع كونها في محلٍّ لا تصلُ إليه الأغيار، فهي كبناتِ الرجل اللاتي يغارُ عليهنَّ، فيُسكنهنَّ في محلٍّ أمينٍ ومكان مكين، والجنُّ وإن كانوا مستترين لكن لا على هذه الصورة، وهذا أولى مما ذكره الإمامُ، وأما عدمُ التوالد فلا يُناسِبُ ذلك.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيهٌ وتقديسٌ له تعالى شأنه عن مضمون قولهم ذلك، أو تعجيبٌ من جراءتهم على التفوُّهِ بمثل تلك العظيمة، وهو في المعنى الأول حقيقةٌ وفي الثاني مجاز.

﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ يعني: البنين، و«ما» مرفوعُ المحلِّ على أنه مبتدأٌ، والظرفُ المقدَّمُ خبرهُ، والجملةُ حاليةٌ، و«سبحانه» اعتراضٌ في حاق موقعه. وجوَّز الفراءُ والحوفيُّ أنه في محلِّ نَصْبٍ معطوف على «البنات»، كأنه قيل: ويجعلون لهم ما يشتهون[٢].

واعترض عليه الزجاج[٣] وغيره بأنه مخالفٌ للقاعدة النحوية، وهي أنه لا يجوز تعدِّي فِعل المضمَر المتصل المرفوع بالفاعلية، وكذا الظاهر إلى ضميره المتصل، سواء كان تعدِّيه بنفسه أو بحرف الجرِّ إلا في «ظنَّ» وما أُلحق به من «فَقَدَ» و«عَدِمَ» فلا يجوز: زيدٌ ضربه، بمعنى: ضربَ نفسَهُ، ولا: زيدٌ مَرَّ به، أي: مرَّ هو بنفسه، ويجوز: زيدٌ ظنَّهُ قائمًا، وزيدٌ فَقَدَهُ وعَدِمه، فلو كان مكان الضمير اسمٌ ظاهر[٤] كالنفس نحو: زيدٌ ضرب نفسَهُ، أو ضميرٌ منفصل[٥] نحو: زيدٌ ما ضَرَبَ إلا إياه، وما ضربَ زيدٌ إلا إياه، جاز، فإذا عُطف «ما» على «البنات» أدى إلى تعديةِ فِعْلِ المُضمَر المتَّصل وهو واو «يجعلون» إلى ضميره المتصل وهو «هم» المجرور باللام

(١) تفسير الرازي ٢٠/ ٥٤.
(٢) معاني القرآن ٢/ ١٠٥.
(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٠٦.
(٤) في الأصل و(م): اسمًا ظاهرًا. والمثبت من حاشية الشهاب ٥/ ٣٤١ والكلام منها.
(٥) في الأصل و(م): ضميرًا منفصلاً. والمثبت من حاشية الشهاب ٥/ ٣٤١.

في غير ما استثني، وهو ممنوعٌ عند البصريين ضعيفٌ عند غيرهم، فكان حقُّه أن يقال: لأنفسهم.

وأجيب بأنَّ الممتنعَ إنما هو تعدِّي الفعل، بمعنى وقوعه عليه أو على ما جُرَّ بالحرف نحو: زيدٌ مرَّ به، فإنَّ المرورَ واقعٌ بزيدٍ، وما نحن فيه ليس من هذا القبيل، فإنَّ الجَعْلَ ليس واقعًا بالجاعلين بل بما يشتهون. ومُحصَّلُه ـ كما قال الخفاجيُّ[1] ـ المنعُ في المتعدِّي بنفسه مطلقًا، والتفصيلُ في المتعدِّي بالحرف بين ما قُصد الإيقاعُ عليه وغيره، فيمتنعُ في الأول دونَ الثاني لِعدم إلْف إيقاعِ المرء بنفسه.

وأبو حيان اعترضَ القاعدةَ بقوله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٥] ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾[2] [القصص: ٣٢].

والعلَّامة البيضاويُّ أجاب بوجهٍ آخرَ، وهو أنَّ الامتناعَ إنما هو إذا تعدَّى الفعلُ أولاً لا ثانياً وتبعًا، فإنه يُغتفرُ في التابع ما لا يُغتفرُ في المتبوعِ[3]. ومنهم مَنْ خصَّ ذلك بالمتعدِّي بنفسه، وجوَّزَ في المتعدِّي بالحرف كما هنا. وارتضاهُ الشاطبيُّ في «شرح الألفية»، وقال الخفاجيُّ: هو قويٌّ عندي[4]، لكن لا يخفى أنَّ العَطْفَ هنا بعد هذا القيل والقال يؤدِّي إلى جَعْل الجَعْلِ بمعنًى يعمُّ الزعم والاختيار.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾ أي: أُخبر بولادتها، وأصلُ البشارة الإخبارُ بما يسرُّ، لكن لما كانت ولادةُ الأنثى تسوءهم حُملتْ على مطلق الإخبار، وجُوِّزَ أن يكونَ ذلك بشارةً باعتبار الولادة بقَطْعِ النَّظر عن كونها أنثى، وقيل: إنه بشارةٌ حقيقة بالنظر إلى حال المبشَّر به في نفس الأمر، وأيًّا ما كان فالكلام على تقدير مضافٍ كما أشرنا إليه.

﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ﴾ أي: صار ﴿مُسْوَدًّا﴾ من الكآبة والحياء من الناس، وأصل معنى «ظَلَّ» أقامَ نهارًا على الصفة التي تُسنَدُ إلى الاسم، ولمَّا كان التبشيرُ قد يكونُ في الليل وقد يكونُ في النهار فُسِّرَ بما ذُكر، وقد تلْحَظُ الحالة الغالبة بناءً على أنَّ أكثرَ

---

(١) في حاشيته ٥/ ٣٤١.
(٢) البحر المحيط ٦/ ١٨٤ ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ١٤١.
(٣) هذه عبارة الشهاب في حاشيته على تفسير البيضاوي ٥/ ٣٤١.
(٤) حاشية الشهاب ٥/ ١٤١.

الولادات يكون بالليل، ويتأخَّرُ إخبارُ المولود له إلى النهار، خصوصًا بالأنثى، فيكونُ ظُلوله على ذلك الوصف طولَ النهار. واسودادُ الوجه كنايةٌ عن العبوس والغَمِّ والفِكْرة والنفرة التي لحقته بولادة الأنثى.

قيل: إذا قويَ الفرحُ انبسطَ روحُ القلب من داخله ووصلَ إلى الأطراف، لاسيَّما إلى الوجه؛ لما بين القلب والدماغ من التعلُّقِ الشديد، فيُرى الوجهُ مشرقًا متلألئًا، وإذا قويَ الغَمُّ انحصرَ الروحُ إلى باطن القلب ولم يبق له أثرٌ قويٌّ في ظاهر الوجه، فَيَرْبَدُّ ويتغيّرُ ويصفرُّ ويسودُّ ويظهر فيه أثر الأرضية، فمِنْ لوازم الفرح استنارةُ الوجه وإشراقه، ومن لوازم الغَمِّ والحزن اربدَادُهُ واسوداده، فلذلك كنَّى عن الفرح بالاستنارة وعن الغَمِّ بالاسوداد.

ولو قيل بالمجاز لم يبعد، بل قال بعضهم: إنه الظاهر، والظاهر أنَّ «وجهه» اسمُ «ظَلَّ»، و«مسودًّا» خبرُهُ، وجُوِّزَ كونُ الاسم ضميرًا لـ «أحد» و«وجهه» بدلًا منه، ولو رُفع «مسودًّا» على أنَّ «وجهه» مبتدأ وهو خبرٌ له، والجملةُ خبرُ «ظَلَّ» صحَّ، لكنه لم يُقرأ بذلك هنا.

﴿وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ أي: مملوءٌ غيظًا، وأصلُ الكَظْم: مخرجُ النَّفَس، يقال: أخذ بِكَظَمِهِ إذا أَخَذَ بِمَخْرَجِ نَفَسه، ومنه كَظْمُ الغيظ لإخفائه وحَبْسه عن الوصول إلى مخرجه. وفعيلٌ إما بمعنى مفعول كما أُشير إليه أو صيغة مبالغة، والظاهر أنَّ ذلك الغيظ على المرأة حيث ولدت أنثى ولم تلد ذكرًا، ويُؤيِّدهُ ما روى الأصمعيُّ أنَّ امرأةً وَلَدَت بنتًا سمَّتها الذَّلفاء، فَهَجَرَها زوجها فأنشدت:

ما لأبي الذَّلفاء لا يأتينا ... يظلُّ في البيت الذي يلينا
يَحرِدُ أن لا نَلِدَ البنينا ... وإنما نأخذُ ما يُعطينا[(١)]

والفقيرُ قد رأيتُ مَنْ طَلَّقَ زوجتهُ لأنْ وَلَدَت أنثى.

والجملةُ في موضع الحال من الضمير في «ظل»، وجوَّزَ أبو البقاء أن يكونَ حالًا من «وجه»[(٢)]، وجوَّزَ غيره أيضاً حاليته من ضمير «مسودًّا».

---

(١) البيتان في مجمع الأمثال للميداني ١/ ٦٤.
(٢) الإملاء ٣/ ٤٥٠.

﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ يستخفي من قومه ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ عُرْفًا وهو الأنثى، والتعبير عنها بـ «ما» لإسقاطها بزعمهم عن درجة العقلاء، والجملةُ مستأنفةٌ، أو حالٌ على الأوجُهِ السابقة في «وهو كظيم» إلا كونه من «وجهه» والجارَّان متعلّقان بـ «يتوارى»، و«من» الأولى ابتدائيةٌ، والثانية تعليليةٌ، أي: يتوارى من أجل ذلك، ويُروى أنَّ بعضَ الجاهلية يتوارى في حال الطَّلْقِ، فإن أُخبر بذَكَرٍ ابتهجَ، أو بأُنثى حَزِنَ وبقيَ متواريًا أيامًا يُدبِّرُ فيها ما يصنع.

﴿أَيُمْسِكُهُۥ﴾ أيتركه ويُربِّيه ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾ أي: ذُلٍّ، والجارُّ والمجرورُ في موضع الحال من الفاعل، ولذا قال ابن عباس ﵄: معناه: أَيُمسكه مع رضاه بهَوان نفسه وعلى رَغْمِ أنفه، وقيل: حالٌ من المفعول به، أي: أيُمسك المَبشَّرَ به وهو الأنثى مُهانًا ذليلًا، وجملةُ «أيمسكه» معمولةٌ لمحذوفٍ مُعلَّقٍ بالاستفهام عنها وَقَعَ حالًا من فاعل «يتوارى» أي: مُحدِّثًا نفسَهُ متفكِّرًا في أن يتركه ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ﴾ يخفيه ﴿فِى ٱلتُّرَابِ﴾ والمراد: يَئِدُهُ ويدفنُه حيًّا حتى يموت، وإلى هذا ذهب السُّدِّيُّ وقتادة وابن جريج وغيرهم.

وقيل: المراد إهلاكه سواءً كان بالدَّفْن حيًّا أم بأمرٍ آخر، فقد كان بعضُهم يُلقي الأنثى من شاهقٍ، رُوِيَ أنَّ رجلًا قال: يا رسول الله، والذي بعثك بالحقِّ ما أجدُ حلاوةَ الإسلام منذ أسلمتُ، وقد كانت لي في الجاهلية بنتٌ وأمرتُ امرأتي أن تزيِّنها وأخرجتُها، فلما انتهيتُ إلى وادٍ بعيدِ القَعْرِ ألقيتُها، فقالت: يا أبتِ قتلتني، فكلَّما ذَكَرْتُ قولَها لم ينفعني شيءٌ، فقال ﷺ: «ما في الجاهلية فقد هَدَمَهُ الإسلام، وما في الإسلام يهدمه الاستغفار»(١).

وكان بعضُهم يُغرقها، وبعضُهم يذبحها، إلى غير ذلك، ولما كان الكلُّ إماتةً تُفضي إلى الدفن في التراب قيل: «أم يَدسُّه في التراب»، وقيل: المرادُ إخفاؤه عن الناس حتى لا يُعرفَ كالمدسوس في التراب، وتذكيرُ الضميرين للفظ «ما».

---

(١) ذكره الرازي في تفسيره ٢٠/ ٥٥. وقوله: «ما في الجاهلية فقد هدمه الإسلام» يشهد له حديث عمرو بن العاص ﷺ الوارد في قصة بيعته لرسول الله ﷺ وفيه: «يا عمرو، بايع، فإن الإسلام يجب ما قبله».

وقرأ الجحدريُّ بالتأنيث فيهما عَوْدًا على قوله سبحانه: ﴿بِٱلْأُنثَىٰ﴾ أو على معنى «ما»[(١)]، وقرئ بتذكير الأول وتأنيث الثاني[(٢)]، وقرأ الجحدري أيضاً وعيسى «هَوان» بفتح الهاء وألف بعد الواو[(٣)]، وقرئ: «على هَوْن» بفتح الهاء وإسكان الواو[(٤)]، وهو بمعنى الذُّلِّ أيضاً، ويكون بمعنى الرِّفق واللِّين، وليس بمراد، وقرأ الأعمشُ: «على سوء» وهي عند أبي حيان تفسيرٌ لا قراءةٌ لمخالفتها السواد[(٥)].

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩﴾ حيث يجعلون لمن تنزَّهَ عن الصاحبة والولد ما هذا شأنه عندهم، والحال أنهم يتحاشون عنه ويختارون لأنفسهم البنين، فمدارُ الخطأ جَعْلُهمْ ذلك لله تعالى شأنه مع إبائهم إياه، لا جَعْلُهم البنينَ لأنفسهم، ولا عدمُ جَعْلهم له سبحانه، وجُوِّزَ أن يكونَ مدارُهُ التعكيسَ كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٢].

وقال ابنُ عطية: هذا استقباحٌ منه تعالى شأنه لسوء فِعْلهم وحُكمهم في بناتهم بالإمساك على هُونٍ أو الوأد، مع أنَّ رِزْقَ الجميع على الله سبحانه[(٦)]، فكأنه قيل: ألا ساءَ ما يحكمونَ في بناتهم، وهو خلافُ الظاهر جدًّا، وروي الأول عن السدي وعليه الجمهور.

والآيةُ ظاهرةٌ في ذَمِّ مَنْ يحزنُ إذا بُشِّرَ بالأنثى حيثُ أخبرتْ أنَّ ذلك فِعْلُ الكَفَرة، وقد أخرج ابن جرير وغيره عن قتادة أنه قال في قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ﴾ إلخ: هذا صنيعُ مشركي العرب، أخبركم الله تعالى بخُبْثه، فأما المؤمنُ فهو حقيقٌ أن يَرضى بما قَسَمَ الله تعالى له، وقضاءُ الله تعالى خيرٌ من قضاءِ المرءِ لنفسه، ولَعَمْري ما ندري أيٌّ خيرٌ، لَرُبَّ جاريةٍ خيرٌ لأهلها من غلام، وإنما أخبركم اللهُ عزَّ وجلَّ بصنيعهم لتجتنبوه ولتنتهوا عنه[(٧)].

---

(١) الكشاف ٢/ ٤١٤، والبحر المحيط ٥/ ٥٠٤.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٥٠٤.
(٣) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٧٦، والقراءات الشاذة ص٧٣، والبحر المحيط ٥/ ٥٠٤.
(٤) القراءات الشاذة ص٧٣، والبحر المحيط ٥/ ٥٠٤ دون نسبة.
(٥) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٧٦، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٠٢، والبحر المحيط ٥/ ٥٠٤.
(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٠٢، ونقله المصنف عنه بواسطة البحر ٥/ ٥٠٥.
(٧) تفسير الطبري ١٤/ ٢٥٦، وأخرجه ـ أيضاً ـ ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٨٧، وعبد بن حميد وابن

واستدل القاضي بالآية على بطلان مذهب القائلين بنسبةِ أفعالِ العباد إليه تعالى؛ لأنَّ في ذلك إضافةَ فواحشَ لو أضيفت إلى أحدهم أَجْهَدَ نفسَهُ في البراءة منها والتباعد عنها قال: فَحُكْمُ هؤلاء القائلينَ مشابهٌ لِحُكْمِ هؤلاء المشركين، بل أعظمُ؛ لأنَّ إضافةَ البناتِ إليه سبحانه إضافةٌ لقبيحٍ واحدٍ، وهو أسهلُ من إضافة كلِّ القبائح والفواحش إليه عز وجل.

وأجيب عن ذلك بأنه لمَّا ثبتَ بالدليل استحالةُ الصاحبة والولد عليه سبحانه، أَردفه عزَّ وجلَّ بذِكْرِ هذا الوجه الإقناعيِّ، وإلا فليس كلُّ ما قَبُحَ منَّا في العُرْف قَبُحَ منه تعالى، ألا ترى أنَّ رجلًا لو زيَّن إماءه وعبيده، وبالغَ في تحسين صُوَرِهم وصُوَرِهنَّ، ثم بالغ في تقوية الشهوة فيهم وفيهنَّ، ثم جَمَعَ بين الكُلِّ، وأزالَ الحائلَ والمانعَ، وبقيَ ينظرُ ما يحدثُ بينهم من الوقاع وغيره، عُدَّ من أَسْفَهِ السُّفهاء، وعُدَّ صنيعهُ أقبحَ كلِّ صنيعٍ، مع أنَّ ذلك لا يقبحُ منه تعالى، بل قد صنعهُ جلَّ جلاله، فعُلِمَ أنَّ التعويلَ على مِثْلِ هذه الوجوه المبنيةِ على العُرْفِ إنما يحسُنُ إذا كانت مسبوقةً بالدلائلِ القطعية، وقد ثبتَ بها امتناعُ الولد عليه سبحانه، فلا جَرَمَ حَسُنَتْ تقويتها لهذه الوجوه الإقناعية. وأما أفعالُ العباد فقد ثبتَ بالدلائل القاطعة أنَّ خالِقَها هو الله تعالى، فكيفَ يمكنُ إلحاقُ أحد البابين بالآخر لولا سوء التعصُّب.

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ ممن ذُكرتْ قبائحهم ﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ صفةُ السَّوء التي هي كالمثل في القبح، وهي الحاجةُ إلى الولد ليقوم مقامهم بعد موتهم ويبقى به ذكرهم، وإيثارُ الذكور للاستظهار، وَوَأْدُ البنات لدفع العار أو خشية الإملاق على حسب اختلاف أغراض الوائدين المنادي كلٌّ واحدٍ من ذلك بالعجز والقصور والشُّحِّ البالغ.

وعن ابن عباس: مَثَلُ السوء: النار. وأظنه لا يصحُّ عنه رضي الله عنه، ومنع ابنُ عطيةَ حَمْلَ المثل على الصِّفة وقال: إنه لا يُضطرُّ إليه؛ لأنه خروجٌ عن اللفظ، بل هو على بابه، وذلك أنهم إذا قالوا: إنَّ البنات لله سبحانه، فقد جعلوا لله عزَّ وجلَّ

= المنذر كما في الدر المنثور ٤/ ١٢١.

وقد جاء في المصادر: ما ندري إنه، بدل: ما ندري أي.

مثلًا، فإنَّ البنات من البشر، وكثرة البنات أمرٌ مكروهٌ عندهم ذميم، فهو المَثَلُ السّوء الذي أخبر الله تعالى بأنه لهم، وليس في البنات فقط، بل لما جعلوا له تعالى البنات، جعله هو سبحانه لهم على الإطلاق في كلِّ سوءٍ، ولا غاية أبعد من عذاب النار[١].

وهو أشبه شيء عندي بالرطانة[٢] كما لا يخفى؛ وَوَضْعُ الموصول موضعَ الضمير للإشعار بأنَّ مدارَ اتصافهم بتلك القبائح هو الكفر بالآخرة.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: الصفةُ العجيبةُ التي هي مَثَلٌ في العلوِّ مطلقًا، وهو الوجوبُ الذاتيُّ والغنى المطلقُ والجودُ الواسعُ والنَّزاهةُ عن صفات المخلوقين، ويدخلُ فيه علوُّهُ تعالى عمَّا يقولون[٣] علوًّا كبيرًا.

وأخرج ابن جرير وغيره عن قتادة أنَّ المثل الأعلى شهادةُ أن لا إله إلا الله[٤]. وهو روايةٌ عن ابن عباس. والذي أخرجه عنه البيهقيُّ في «الأسماء والصفات» وغيره هو: ليس كمثله شيء[٥].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ المنفردُ بكمال القدرة على كلِّ شيءٍ، ومن ذلك مؤاخذتهم بقبائحهم، وقيل: هو الذي لا يوجد له نظير.

﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ الذي يفعلُ كلَّ ما يفعلُ بمقتضى الحكمة البالغة.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ الظالمين مطلقًا، وقيل: بالكفر، والمؤاخَذةُ مفاعَلةٌ من فاعَلَ بمعنى فَعَلَ وهو الظاهر، وقال ابن عطية: هي مجازٌ، كأنَّ العبد يأخذُ حقَّ الله تعالى بمعصيته، والله تعالى يأخذُ منه بمعاقبته، وكذا الحالُ في مُؤَاخذة الخَلْق بعضهم بعضًا[٦]. ﴿بِظُلْمِهِم﴾ أي: بسبب كُفْرهم ومعاصيهم بناءً على أنَّ الظلمَ فِعْلُ

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٠٢.

(٢) الرَّطانة: الكلام بالأعجمية. القاموس المحيط (رطن).

(٣) في (م): يقول، وفي تفسير أبي السعود ٥/ ١٢٢: قالوه. والكلام منه. والمثبت من الأصل.

(٤) تفسير الطبري ١٤/ ٢٥٨.

(٥) الأسماء والصفات (٦١٠).

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٠٢ بنحوه.

ما لا ينبغي ووضعُهُ في غير موضعه؛ وقد يُخَصُّ بالكفر والتعدِّي على الغير، ويدخل فيه ما عُدَّ من القبائح، وهذا تصريحٌ بما أفاده قوله تعالى: (وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ) وإيذانٌ بأنَّ ما أتاه هؤلاء الكَفَرةُ من القبائح قد تناهى إلى أمدٍ لا غايةَ وراءه.

﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ أي: على الأرض المدلول عليها بالناس وبقوله تعالى: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ بناءً على شُهْرة كون الدبيب في الأرض، أي: ما ترك عليها شيئًا من الدوابِّ أصلاً، بل أهلكها بالمرَّة، أما الظالمُ فبظلمه، وأما غيرُهُ فبشؤم ذلك، فقد قال سبحانه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] وأخرج البيهقيُّ في «الشعب» وغيره عن أبي هريرة أنه سمع رجلاً يقول: إنَّ الظالمَ لا يضرُّ إلا نفسه، فقال: بلى والله إنَّ الحُبارى لتموتُ هزلاً في وَكْرِها من ظُلم الظالم[1].

وأخرج أيضاً هو فيه وغيره عن ابن مسعود قال: كادَ الجُعْلُ أن يُعذَّبَ في جُحْره بذنبِ ابنِ آدم، ثم قرأ الآية[2].

وأخرج أحمد في «الزهد»[3] عنه أنه قال: ذنوبُ ابن آدم قتلت الجُعْلَ في جُحْره، ثم قال: إي والله زمن غرق قوم نوح عليه السلام.

وقيل: المراد: من دابة ظالمة، على أنَّ التنوينَ للنوع، وهو مخصوصٌ بالكفار والعصاة من الإنس، وقيل: منهم ومن الجن، وقيل: المرادُ الدابةُ الظالمةُ الفاعلةُ لما لا ينبغي شرعًا أو عُرْفًا، فيدخلُ بعضُ الدوابِّ إذا ضرَّ غيره، وقالت فرقةٌ منهم ابن عباس: المرادُ بالدابة المشركُ، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنفال: ٥٥]. وقال الجبائيُّ: الدابةُ على عمومها، فتشملُ سائر الحيوانات، والمراد بالناس الظالمون مطلقًا؛ ووجه الملازمة أنه تعالى لو آخذهم بما كَسَبوا من كُفْرٍ أو معصيةٍ لَعجَّل هلاكهم، وحينئذٍ لا يبقى لهم نَسْلٌ، ومن المعلوم أنْ لا أحدَ إلا وفي آبائه من يستحقُّ العقاب، وإذا هلكوا جميعًا وبَطَلَ

---

(١) الشعب (٧٤٧٩)، وأخرجه ـ أيضاً ـ الطبري في تفسيره ١٤/ ٢٦٠.
(٢) الشعب (٧٤٧٨)، وأخرجه ـ أيضاً ـ الطبري في تفسيره ١٤/ ٢٦٠.
(٣) كما في الدر المنثور ٤/ ١٢١.

نَسْلُهمْ لا يبقى أحدٌ من الناس، وحينئذٍ يهلك الدوابُّ؛ لأنها مخلوقةٌ لمنافع العباد ومصالحهم كما يُشعر به قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] وبتخصيص الناس يسقطُ الاستدلالُ بالآية على عدم عصمة الأنبياء عليهم السلام.

وقال بعض المحققين: لا حاجةَ إلى التخصيص في ذلك، والآيةُ من باب: بنو تميمٍ قتلوا قتيلًا؛ لِتَضافُرِ الأدلة والنصوص على عِصْمةِ الأنبياء عليهم السلام، فلا يُقال: الأصلُ الحملُ على الحقيقة.

واستدلَّ بعضهم للتخصيص بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر: ٣٢] وإلا يَفسدُ التقسيم، وقد يقال: إنه ما أحدٌ إلا وهو متَّصفٌ بظلمٍ إلا أنَّ مراتبه مختلفةٌ، فحسناتُ الأبرار سيئات المقرَّبين، والعِصْمةُ التي تُدعى للأنبياء عليهم السلام إنما هي العصمةُ مما يُعَدُّ ذنبًا بالنسبة إلى غيرهم، وأما العصمةُ مما يُعَدُّ ذنبًا بالنسبة إلى مقامهم ومرتبتهم، فلا تُدعى لهم؛ إذ قد وقع ذلك منهم كما يشهد به كثيرٌ من الآيات.

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أنَّ الله تعالى يؤاخذني وعيسى ابن مريم بذنوبنا ـ وفي لفظٍ: بما جَنَتْ هاتان؛ الإبهامُ والتي تليها ـ لعذَّبَنا ما يَظلِمُنا شيئًا»(١)، نعم إنه لا يقال لنبيٍّ: هو ظالم، ولا للأنبياء عليهم السلام: هم ظالمون، ويقال: الناس ظالمون، وهذا نظير قولهم: لا يقال لله سبحانه: خالقُ القردة والخنازير، ويقال: هو خالقُ كلِّ شيء. ورُبَّ شيءٍ يجوز تبعًا ولا يجوز استقلالًا، وأَمْرُ التقسيم هيِّنٌ عند المتأمِّل، فليتأمل.

ومن الناس من احتجَّ بالآية على أنَّ أصلَ المضارِّ الحرمة؛ إذ لو كان الضررُ مشروعًا فإما أن يكون مشروعًا على وجهٍ يكون جزاءً على جُرْمٍ أو لا، وكلا القسمين باطلٌ، أما الأول فللآية وذلك من وجهين: الأول: أنها لمكان «لو» تقتضي أنَّ الله تعالى ما آخَذَ الناسَ بظُلمهم، وأنه تَرَكَ على ظهرها دابة. الثاني: أنَّ مقتضى

(١) الدر المنثور ٤/ ١٢١، وأخرجه ـ أيضاً ـ أبو نعيم في الحلية ٨/ ١٣٢، وابن حبان (٦٥٧). وجاء في رواية الحلية: يعني أصبعيه التي تلي الإبهام والتي تليها.

المؤاخذة عدمُ ترك دابةٍ على ظهرها، ونحن نشاهدُ أنه سبحانه قد ترك كثيرًا من الدوابِّ، فيجبُ القَطْعُ بأنه تعالى لم يؤاخذ بالظُّلم.

وأما الثاني فباطلٌ بالإجماع، فثبتَ بمقتضى الآية تحريمُ المضارّ، ويؤكِّدُ ذلك آياتٌ أُخر وأخبار؛ وحينئذٍ يقال: إذا وقعتْ حادثةٌ مشتملةٌ على الضرر من جميع الوجوه، فإنْ وَجَدنا نصًّا يدلُّ على كونه مشروعًا قضينا به، تقديمًا للخاصِّ على العامِّ، وإلا قضينا بالحرمة بناءً على الأصل الذي قُرِّر.

واستدلَّ بها المعتزلة على أنَّ العباد خالقون لأفعالهم، ووجهه[1] مع ردِّه غنيٌّ عن البيان.

﴿وَلَٰكِن﴾ لا يؤاخذهم بذلك بل ﴿يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ سمَّاه سبحانه وعيَّنه لأعمارهم، أو لعذابهم كي يتوالدوا أو يكثر عذابهم ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ المسمى ﴿لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ عنه ﴿سَاعَةً﴾ أقلّ مدّة ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ عليه، وقد مرَّ الكلام في نظيرها.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ﴾ أي: يثبتون له سبحانه وينسبون إليه بزعمهم ﴿مَا يَكْرَهُونَ﴾ الذي يكرهونه لأنفسهم من البنات، والتعبير بـ «ما» عند أبي حيان على إرادة النوع[2]، وهذا على ما سمعتَ تكريرٌ لما سبق تثنيته[3] للتقريع وتوطئة لقوله تعالى: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ أي: يجعلون لله تعالى ما يجعلون، ومع ذلك تَصِفُ ألسنتهم الكذب وهو ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: العاقبة الحسنى عند الله عزَّ وجلَّ، ولا يتعيَّنُ إرادة الجنة.

وعن بعضهم أنَّ المرادَ بها ذلك بناءً على أنَّ منهم من يُقِرُّ بالبعث، وهذا بالنسبة لهم، أو أنه على الفرض والتقدير كما روي أنهم قالوا: إن كان محمدٌ ﷺ صادقًا في البعث فلنا الجنة بما نحن عليه، قيل: وهو المناسبُ لقوله تعالى الآتي: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ لظهور دلالته على أنهم حكموا لأنفسهم بالجنة، فلا يرد

(١) في (م): ووجه.
(٢) البحر المحيط ٥/٥٠٦.
(٣) في (م): تثنية.

أنهم كيف قالوا ذلك وهم منكرون للبعث. وعن مجاهدٍ أنهم أرادوا بالحسنى البنينَ، وليس بذاك.

وقال بعض المحققين: المراد بـ «ما يكرهون» أعمُّ مما تقدَّم، فيشملُ البنات، وقد عُلم كراهتهم لها وإثباتها لله تعالى بزعمهم والشركاء في الرياسة، فإنَّ أحدهم لا يرضى أن يشرك في ذلك، ويزعمُ الشريكَ له سبحانه والاستخفاف برسل الله تعالى عليهم السلام، فإنهم يَغضبون لو استُخِفَّ برسولٍ لهم أَرسلوه في أمرٍ لغيرهم، ويستخفُّون برسل الله تعالى عليهم السلام وأراذل الأموال، فإنهم كانوا إذا رأوا ما عيَّنوه لله تعالى من أنعامهم أزكى بدَّلوه بما لآلهتهم، وإذا رأوا ما لآلهتهم أزكى تركوه لها، ولو فُعل نحوُ ذلك معهم غضبوا، وعلى هذا يُفسَّر الجَعْلُ بما يعمُّ الزَّعْمَ والاختيار، و«ما» تعمُّ العقلاء وغيرهم، ولا يخلو الكلامُ عن نوع تكرير، والمراد من «تصفُ ألسنتهم الكذب» يكذِّبون، وهو من بليغِ الكلام وبديعه، ومثله قولهم: عينُها تَصِفُ السحر، أي: ساحرة، وقَدُّها يَصِفُ الهَيف، أي: هيفاء، وقول أبي العلاء المعرِّي:

سَرى بَرْقُ المعرَّةِ بعد وَهْنٍ فباتَ برامةٍ يصفُ الكَلالا[1]

وسيأتي إن شاء الله تعالى قريبًا تمامُ الكلام في ذلك. والظاهرُ أنَّ «الكذبَ» مفعولُ «تصف»، و«أنَّ لهم» بدلٌ منه، أو بتقدير: بأنَّ لهم، ولمَّا حُذفت الباءُ صار في موضع نَصْبٍ عند سيبويه، وعند الخليل: هو في موضع جَرٍّ، وجُوِّزَ أن يكون خبرًا لمبتدأ محذوف كما أشرنا إليه في بيان المعنى، وجوَّز أبو البقاء كون «الكذب» بدلاً من «ما يكرهون» وهو كما ترى[2].

وقرأ الحسن ومجاهد باختلافٍ: «ألسُنهم» بإسقاط التاء[3]، وهي لغةُ تميم، واللسانُ يُذكَّرُ ويؤنَّثُ، قيل: ويُجمَعُ المذكَّر على «ألسنة» نحو حمار وأَحْمِرة، والمؤنَّثُ على أَلْسُن كَذِراع وأَذْرع.

---

(١) البيت في سقط الزند ١/ ٧٨.

(٢) الإملاء ٣/ ٤٥١.

(٣) كذا في الأصل و(م). والذي في البحر المحيط ٥/ ٥٠٦، والدر المصون ٧/ ٢٤٧، واللباب ١٢/ ٩٤: ألسنْهم، بإسكان التاء.

وقرأ معاذ بن جبل وبعضُ أهل الشام: «الكُذُبُ» بثلاث ضمَّاتٍ[(١)]، وهو جمعُ كذوبٍ كَصُبُرٍ وصَبورٍ، وهو مقيسٌ. وقيل: جمعُ كاذبٍ نحو شَارفٍ[(٢)] وشُرُف، وهو غير مقيس، ورَفْعهُ على أنه صفةُ الألسنة، و«أنَّ لهم الحسنى» حينئذٍ مفعولُ «تصف».

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقًّا ﴿أَنَّ لَهُمُ﴾ مكان ما زعموه من الحسنى ﴿ٱلنَّارَ﴾ التي ليس وراءَ عذابها عذابٌ، وهي عَلَم في السوأى، وكلمة «لا» رَدٌّ لكلامٍ، و«جَرَمَ» بمعنى كَسَبَ، و«أنَّ لهم» في موضع نَصْبٍ على المفعولية، أي: كَسَبَ ما صَدَرَ منهم أنَّ لهم ذلك.

وإلى هذا ذهب الزجاج[(٣)]، وقال قطرب: «جَرَمَ» بمعنى ثَبَتَ وَوَجَبَ، و«أنَّ لهم» في موضع رَفْعٍ على الفاعلية له، وقيل: «لا جرم» بمعنى حقًّا، و«أنَّ لهم» فاعلُ «حقَّ» المحذوف، وقد مرَّ تمامُ الكلام في ذلك وحلا[(٤)].

وقرأ الحسن وعيسى بن عمر: «إنَّ لهم» بكَسْر الهمزة[(٥)] وجَعْلِ الجملة جوابَ قَسَمٍ أغنت عنه «لا جرم» وكذا قرأا بالكَسْر في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾[(٦)] أي: مُقدَّمونَ مُعجَّلٌ بهم إليها على ما روي عن الحسن وقتادة، من أفرطتُهُ إلى كذا: قدَّمته، وهو معدًّى بالهمزة من فَرَطَ إلى كذا: تقدَّم إليه، ومنه: «أنا فَرَطكم على الحوض»[(٧)] أي: متقدِّمكم، وكثيرًا ما يقال للمتقدِّم إلى الماء لإصلاح نحو دلوٍ: فارطٌ وفَرَط. وأنشدوا للقطامي:

---

(١) المحتسب ٢/ ١١، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٠٣.
(٢) الشارف من السهام: العتيق القديم، ومن النوق: المسنَّة الهَرِمة. القاموس المحيط (شرف).
(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٠٧.
(٤) عند تفسير الآية (٢٢) من سورة هود.
(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٠٣، والبحر المحيط ٥/ ٥٠٦.
(٦) الدر المصون ٧/ ٢٤٩.
(٧) أخرجه أحمد (١٨٨٠٩)، والبخاري (٦٥٨٩)، ومسلم (٢٢٨٩)، من حديث جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه.
وأخرجه أحمد (٣٦٣٩)، والبخاري (٦٥٧٥)، ومسلم (٢٢٩٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

واستعجلونا وكانوا من صحابتنا كما تعجَّل فُرَّاطٌ لِوُرَّاد[1]

وقال مجاهد وابن جبير وابن أبي هند: أي: مُتركون في النار منسيُّونَ فيها أبدًا، من أَفْرَطْتُ فلانًا خلفي إذا تركتهُ ونسيتهُ.

وقرأ ابن عباس وابن مسعود وأبو رجاء وشيبة ونافع وأكثر أهل المدينة: «مُفرِطون» بكسر الراء[2] اسمُ فاعلٍ من «أفْرَطَ» اللازم إذا تجاوز، أي: متجاوزو الحدِّ في معاصي الله تعالى.

وقرأ أبو جعفر: «مُفَرِّطون» بتشديد الراء وكسرها[3] من فَرَّطَ في كذا، إذا قصَّر، أي: مقصِّرون في طاعة الله تعالى. وعنه أنه قرأ: «مُفَرَّطون» بتشديد الراء وفتحها[4]، من فرَّطْتُهُ المعدَّى بالتضعيف من فَرَط بمعنى تقدَّم، أي: مقدَّمون إلى النار.

﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ تسليةٌ للرسول ﷺ عمَّا كان يناله من جهالات قومه الكَفَرة ووعيدٌ لهم على ذلك، ولا يخفى ما في ذلك من عظيم التأكيد، أي: أرسلنا رُسُلاً إلى أممٍ من قبل أمَّتك، أو من قبل إرسالك إلى هؤلاء فدعوهم إلى الحقِّ.

﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ القبيحةَ فلم يتركوها ولم يمتثلوا دعوةَ الرسل عليهم السلام، وقد تقدَّم الكلامُ في نسبة التزيين إلى الشيطان[5]. ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾ أي: قرينُ الأمم وبئسَ القرين، أو متولِّي إغوائهم وصرفهم عن الحقِّ.

﴿ٱلْيَوْمَ﴾ أي: يومَ زيَّنَ الشيطانُ أعمالهم فيه، وهو وإن كان ماضياً واليومُ المعرَّفُ معروفٌ في زمان الحال كالآن، لكن صُوِّرَ بصورةِ الحال ليستحضر السامعُ تلك الصورةَ العجيبةَ ويتعجَّبَ منها، وسُمِّي مِثْلُ ذلك حكاية الحال الماضية، وهو

(١) ديوان القطامي ص٩٠.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٥٠٦، وقراءة نافع في التيسير ص١٣٨، والنشر ٢/ ٣٠٤.
(٣) النشر ٢/ ٣٠٤.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٠٤، والبحر المحيط ٥/ ٥٠٦.
(٥) عند تفسير الآية (٤٣) من سورة الأنعام.

استعارةٌ من الحضور الخارجي للحضور الذهني، أو المراد باليوم مدَّة الدنيا؛ لأنها كالوقت الحاضر بالنسبة للآخرة، وهي شاملةٌ للماضي والآتي وما بينهما، أي: فهو وليُّهم في الدنيا.

﴿وَلَهُمْ﴾ في الأخرى ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ وهو عذابُ النار، وقد ورد إطلاق اليوم على مدَّتها كثيرًا، فهو مجازٌ مُتَعارفٌ، وليس فيه حكايةٌ لما مضى، أو يوم القيامة الذي فيه عذابهم لكن صُوِّرَ بصورةِ الحال استحضارًا له كما في الوجه الأول، إلا أنه حكايةُ حالٍ آتيةٍ، وفي الأول حكايةُ حالٍ ماضية وليس من مجاز الأَوْل، والوليُّ على هذا بمعنى الناصر، أي: لا ناصرَ لهم في ذلك اليوم غيرُهُ، وهو نفيٌ للناصر على أبلغ وجهٍ على حدِّ قوله:

وبلدةٍ ليس بها أنيسُ ... إلا اليعافيرُ وإلا العِيسُ[(١)]

ولا يجوز أن يكون بمعنى المتولِّي للإغواء؛ إذ لا إغواءَ ثَمَّةَ، ولا بمعنى القرين؛ لأنه في الدَّرْك الأسفل من النار، وجوَّزهُ بعضُهم باعتبار أنه معهم في النار في الجملة، ولا يضرُّ اختلافهم في الدَّركات، والظاهر أنَّ ضمائرَ الجمع كلَّها للأمم كما أشرنا إليه في بعضها، وجوَّز الزمخشريُّ أن يكون ضمير «وليّهم» المضاف إليه لقريشٍ لا للأمم[(٢)]. و«اليوم» بمعنى الزمان الذي وَقَعَ فيه الخطاب، أي: زَيَّنَ الشيطانُ للكَفَرة المتقدِّمين أعمالَهم فهو وليُّ هؤلاء؛ لأنهم منهم، وأن يكون الضميرُ للمتقدِّمين، والكلامُ على حَذْفِ مضافٍ، أي: وليُّ أمثالهم، والمراد من الأمثال قريش.

وتعقَّب ذلك أبو حيان بأنَّ فيه بُعْدًا لاختلاف الضمائر من غير داعٍ إليه ولا إلى تقدير المضاف[(٣)].

ورُدَّ بأنَّ لَفْظَ «اليوم» داعٍ إليه، وقال الطيبيُّ: إنه الوجهُ، وعليه النَّظْمُ الفائقُ؛ لأنَّ في تصدير القَسَمية بقولِه تعالى: (تَٱللَّهِ) بعدَ إنكارِهم الرسالةَ وتعدادِ قبائحهم

---

(١) البيت لجرَّان العود وهو في ديوانه ص٩٧.

(٢) الكشاف ٢/ ٤١٦.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٥٠٧.

الإشعارَ بأنَّ ما ذُكر كالتسلية للرسول ﷺ، فكأنه قيل: إنَّ الأممَ الخاليةَ مع الرسل السالفة لم تزلْ على هذه الوتيرة، فَلَكَ أسوةٌ بالرسل عليهم السلام، وقومُكَ خَلْفٌ لتلك الأمم، فلا تهتمَّ لذلك، فإنَّ ربَّكَ ينتقمُ لك منهم في الدنيا والآخرة، فاشتغلْ أنت بتبليغ ما أُنزل إليك، وتقرير أنواع الدلائل المنصوبة على الوحدانية، وبالتنبيه على إقامة الشكر على نِعَمِ الله تعالى المتظاهرة.

وقال في «الكشف»: لا ترجيحَ لهذا الوجه من حيثُ التسلِّي؛ إذ الكلُّ مفيدٌ لذلك على وجهٍ بيِّنٍ، وإنما الترجيحُ للوجه الصائر إلى استحضار الحال لما فيه من مزيد التَّشفِّي.

والحقُّ أنَّ ما ذكره الزمخشريُّ غيرُ ظاهرٍ، وما قيل: إنَّ لَفْظَ «اليوم» داعٍ إليه ففي حيِّز المنع، وقصارى ما يقال: وجودُ القرينة المصحِّحة لا المرجِّحة هذا.

وذكر في «الكشف» في بيان رَبْطِ الآيات أنَّ قوله سبحانه: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ إلى هذا الموضع فنٌّ آخرُ من كفرانهم وتعداد قبائحهم، وجاز أن يكون من تتمَّةِ سابقه على منوال: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ إلَّا أنه بُني على الغَيبة دلالة على أنه فنٌّ آخر، وهذا قريبُ المتناول، وجاز أن يُجعَلَ عَطْفًا على قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ فإنَّ ما وقع من الكلام بعده من تتمَّته اعتراضًا واستطرادًا، كأنه قيل: ذاكَ مُعْتَقدهم في المعاد، وهذا في المبدأ، وهم فيما بين ذلك متديِّنون بهذا الدين القويم، ومع اختلاف العقيدة في المبدأ والمعاد يدَّعون أنَّ لهم الحسنى، فيحِقُّ لهم ضدّ ذلك حقًّا، ثم قال: وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ شديدُ الملاءمة على هذا الوجه لقوله سبحانه هنالك: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾، ولقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ وفيه أنَّ مَنِ استبانَ له الهدى لهذا البيان استغنى عن ذلك البيان حيثُ لا ينفعهُ إلا العلم بكذبه. وهذا أنسبُ لتأليف النَّظْم.

وأنت تعلم أنَّ احتمالَ العَطْفِ بعيدٌ، والمرادُ بالكتاب القرآنُ، فإنه الحقيقُ بهذا الاسم، والاستثناءُ مفرَّغٌ من أعمِّ العلل، أي: ما أنزلناه عليك لِعِلَّةٍ من العِلَلِ إلا لتبيِّنَ لهم ما اختلفوا فيه من البعث، وقد كان فيهم مَنْ يؤمنُ به، وأشياء من التحليل والتحريم والإقرار والإنكار، ومقتضى رجوع الضمائر السابقة إلى الأمم

السالفة أن يرجعَ ضميرُ «إليهم» و«اختلفوا» إليهم أيضاً، لكن منع عنه عدمُ تأتِّي تبيين الذي اختلفوا فيه لهم، فمنهم مَنْ جعلهُ راجعًا إلى قريشٍ لأنَّ البحث فيهم، ومنهم مَنْ جعله راجعًا إلى الناس مطلقًا لعدم اختصاص ذلك بقريش، ويدخلون فيه دخولاً أوليًّا.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ عظيمين ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ خصَّهم بالذكر لكونهم المغتنمين آثاره، والاسمان ـ قال أبو حيان: ـ في موضع نَصْبٍ على أنهما مفعولٌ من أجله، والناصبُ «أنزلنا»، ولمَّا اتَّحد الفاعلُ في العِلَّة والمعلول وَصَلَ الفعلُ لهما بنفسه، ولمَّا لم يتَّحدْ في «التَّبيِّن» لأنَّ فاعلَ الإنزال هو الله تعالى لا الرسول عليه الصلاة والسلام وصلتِ العِلَّةُ بالحرف.

وقال الزمخشريُّ: هما معطوفان على محلِّ «التبيِّن»[(١)]، وهو ليس بصحيح لأنَّ محلَّه ليس نَصْبًا فيُعطف منصوب عليه، ألا ترى أنه لو نصب لم يجز لاختلاف الفاعل[(٢)].

وتُعقِّبَ بأنَّ معنى كونه في محلِّ نصبٍ أنه في محلٍّ لو خلا من الموانع ظَهَرَ نَصْبُهُ، وهو هنا كذلك لمن تأمَّلَ، فقوله: ليس بصحيحٍ؛ لأنَّ محلَّهُ ليس نَصْبًا، ليس على ما ينبغي.

وقال الحلبيُّ: إن ذلك ممنوعٌ إذ لا خلافَ في أنَّ محلَّ الجارِّ والمجرور النصبُ، ولذا أجازوا: مَرَرْتُ بزيدٍ وعَمْرًا، بالعَطْفِ على المحلِّ[(٣)]. وللخفاجيِّ هاهنا كلامٌ إن أردته فارجع إليه وراجعه[(٤)]، ولعله إنما قُدِّمتْ عِلَّةُ التبيين على علَّتَي الهدى والرحمة لتقدُّمه في الوجود عليهما.

﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ تقدَّم الكلام في مثله، وهذا على ما قيل تكريرٌ لما سبق تأكيدًا لمضمونه وتوحيدًا لما يعقبُهُ من أدلة التوحيد.

---

(١) الكشاف ٢/ ٤١٦.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٥٠٧.

(٣) الدر المصون ٧/ ٢٥٠-٢٥١.

(٤) حاشية الشهاب ٥/ ٣٤٤، وجاء في (م): وراجع.

﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ بما أنبتَ به فيها من أنواع النباتات ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ بعد يَبسها، فالإحياءُ والموتُ استعارةٌ للإنبات واليَبْسِ، وليس المراد إعادةَ اليابس، بل إنبات مثله، والفاء للتعقيب العادي، فلا ينافيه ما بين المتعاطفين من المهلة، ونظير ذلك: تزوَّجَ فَولدَ له ولدٌ، والآيةُ دليلٌ لمن قال: إنَّ المسبّبات بالأسباب لا عندها، ومن قال به أوَّل.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض الميتة ﴿لَأٓيَةٗ﴾ - وأيَّةُ آيةٍ - دالةً على وحدته سبحانه وعلمه وقدرته وحكمته جلَّ شأنه، والإشارةُ بما يدلُّ على البعد إما لتعظيم المشار إليه، أو لعدم ذكره صريحًا.

﴿لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٥﴾ قال المولى ابن الكمال: أُريدَ بالسمع القبول كما في: سمع الله لمن حمده، أي: لقومٍ يتأملون فيها ويعقلون وجهَ دلالتها ويقبلون مدلولها، وإنما خُصَّ كونها آيةً لهم؛ لأنَّ غيرَهم لا ينتفعُ بها، وهذا كالتخصيص في قوله تعالى: ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢] وبما قرَّرناه تبيَّنَ وجهُ العدول عن «يبصرون» إلى «يسمعون». انتهى.

وقال الخفاجيُّ: اللائقُ بالمقام ما ذكره الشيخان، وبيانه أنه تعالى لما ذكر أنه أرسل إلى الأمم السالفة رسلًا وكتبًا فكفروا بها، فكان لهم خزيٌ في الدنيا والآخرة، عقَّبه بأنه أرسله ﷺ بسيِّد الكتب، فكان عينَ الهدى والرحمة لمن أرسل إليه؛ إشارةً إلى أنَّ مخالفةَ أمته لمن قبلهم تقرِّبهم(١) من سعادةِ الدارين، وتبشيرًا له عليه الصلاة والسلام بكثرة متابعيه وقلَّة مناوئيه، وأنهم سيدخلون في دينه أفواجاً أفواجاً، ثم أَتبعَ ذلك على سبيل التمثيل لإنزاله تلكَ الرحمةَ التي أَحْيَتْ من موتة الضلال إنزالَ الأمطار التي أَحْيَتْ مواتَ الأرض، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ﴾ [الشورى: ٢٨]، ولولا هذا لكان قوله تعالى: (وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ) كالأجنبيِّ عمَّا قبله وبعده، وقوله سبحانه: (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ) إلخ تتميمٌ لقوله تعالى: (وَمَآ أَنزَلۡنَا) إلخ وللمقصود بالذات منه، فالمناسب «يسمعون» لا «يبصرون» ولو كان تتميمًا لملاصقه(٢) من الإنبات لم يكن لـ «يسمعون» بمعنى يقبلون مناسبةٌ أيضاً، ثم

(١) في حاشية الشهاب ٥/ ٣٤٥: لقربهم.
(٢) في حاشية الشهاب: ولو كان مفهمًا لما لاصقه.

قال: ومن لم يقف على محطِّ نظرهم قال في جوابه: يمكن أن يُحمل على «يسمعون» قول[1]: والله أنزل.. إلخ فإنه مذكِّرٌ وحاملٌ على تأمُّلِ مدلوله. انتهى.

وفي قوله: عقَّبهُ بأنه أرسله ﷺ بسيِّد الكتب، فكان عينَ الهدى والرحمة إشارةً... إلخ خفاءٌ كما لا يخفى، ومتى كان تتميمًا لقوله تعالى: (وَمَآ أَنزَلْنَا) إلخ لم يظهر جَعْلُ المشار إليه ما سمعتَ وهو الظاهر.

وفي «البحر» أنه تعالى لما ذكر إنزالَ الكتاب للتبيين كان القرآنُ حياةً للأرواح وشفاءً لما في الصدور من علل العقائد، ولذلك خَتَمَ بقوله سبحانه: (لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) أي: يصدِّقون، والتصديقُ محلُّه القلبُ = ذَكَرَ سبحانه إنزالَ المطر الذي هو حياة الأجسام وسببُ بقائها، ثم أشار سبحانه بإحياء الأرض بعد موتها إلى إحياء القلوب بالقرآن كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] فكما تصيرُ الأرض خَضِرة بالنبات نَضِرَةً بعد همودها، كذلك القلبُ يحيا بالقرآن بعد أن كان ميتًا بالجهل، ولذلك خَتَمَ تعالى بقوله سبحانه: (يَسْمَعُونَ) أي: يسمعون هذا التشبيه المشارَ إليه، والمعنى: سماعَ إنصافٍ وتدبُّرٍ، ولملاحظة هذا المعنى ـ والله تعالى أعلم ـ لم يختم سبحانه بـ «القومٍ يبصرون» وإن كان إنزالُ المطر مما يُبصَر ويُشاهد[2]. انتهى.

وفيه أيضاً من التكلُّف ما فيه، وأقول: لعلَّ الأظهر أنَّ المشارَ إليه ما ذُكر من الإنزال والإحياء، والسماع على ظاهره، والكلامُ تتميمٌ لملاصقه، والعدولُ عن «يبصرون» إلى «يسمعون» للإشارة إلى ظهور هذا المعتبَر فيه، وأنه لا يحتاج إلى نظرٍ ولا تفكُّرٍ، وإنما يحتاجُ المنبَّهُ إلى أن يسمعَ القولَ فقط، ويكفي في رَبْطِ الآية بما قبلها تَشارُكُ الكتاب والمطر في الإحياء، لكنْ في ذاك إحياءُ القلوب، وفي هذا إحياءُ الأرض الجدوب. فتأمل.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ أي: مَعْبَرًا يُعبَرُ به من الجهل إلى العلم، وأصل معنى العَبْر والعُبور: التجاوز من محلٍّ إلى آخرَ، وقال الراغب: العُبور مختصٌّ

---

(١) في الأصل و(م): قولي، والمثبت من حاشية الشهاب.
(٢) البحر المحيط ٥/٥٠٧.

بتجاوز الماء بسباحةٍ ونحوها[١]، والمشهور عمومه، فإطلاقُ العِبْرَةِ على ما يُعتَبر به لما ذُكر، لكنه صارَ حقيقةً في عُرْف اللغة، والتنكيرُ للتفخيم، أي: لعِبرةً عظيمةً ﴿نُّسْقِيكُم﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنه قيل: كيف العِبْرةُ فيها؟ فقيل: نسقيكم ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ ومنهم مَنْ قَدَّرَ هنا مبتدأ، وهو: هي نسقيكم. ولا حاجة إليه، وضمير «بطونه» للأنعام، وهو اسمُ جمعٍ، واسمُ الجمع يجوزُ تذكيره وإفراده باعتبار لفظه، وتأنيثُهُ وجمعُه باعتبار معناه، ولذا جاء بالوجهين في القرآن وكلام العرب. كذا قيل.

ونُقل عن سيبويه[٢] أنه عَدَّ الأنعام مفرَدًا، وكلامه رحمه الله تعالى متناقضٌ ظاهرًا، فإنه قال في باب: ما كان على مثال مفاعِلَ ومفاعِيل ما نصُّه: وأما أَجمالٌ وفُلُوْسٌ فإنها تنصرفُ وما أشبهها؛ لأنها ضارَعتِ الواحدَ، ألا ترى أنك تقول: أَقوالٌ وأَقاويلُ، وأعرابٌ وأَعاريبُ، وأَيدٍ وأَيادٍ، فهذه الأحرفُ تُخْرَجُ إلى مَفاعِل ومَفاعيل كما يُخرَجُ الواحدُ إليه إذا كُسِّر[٣] للجمع، وأما مَفاعِلُ ومَفاعيلُ فلا يُكسَّر فَيُخْرَجُ الجمعُ إلى بناءٍ غير هذا؛ لأنَّ هذا هو الغايةُ، فلما ضارَعتِ الواحدَ صُرفتْ، ثم قال: وكذلك الفُعول لو كُسِّرتْ مثلُ الفُلوس، فإنك تُخرجهُ إلى فعائل كما تقول: جَدودٌ وجدائد، ورَكوبٌ ورَكائب. ولو فعلتَ ذلك بمفاعِلَ ومفاعيلَ لم يُجاوز هذا البناء، ويقوِّي ذلك أنَّ بعضَ العرب تقول: أُتيٌّ للواحد، فَيَضُمُّ الألف، وأما أفعالٌ فقد يقعُ للواحد، ومن العرب مَنْ يقولُ هو الأنعام، قال جلّ ثناؤه: (نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ)، وقال أبو الخطاب: سمعتُ العربَ تقول: هذا ثوبٌ أكياش[٤]. انتهى. وقال رحمه الله تعالى في باب: ما لحقته الزوائد من بنات الثلاثة: وليس في الكلام أُفعِيلٌ ولا أَفْعَوْلٌ ولا أُفعال ولا أَفعِيل[٥] ولا أَفعال إلا أن

---

(١) المفردات (عبر).

(٢) الكتاب ٣/ ٢٢٩-٢٣٠.

(٣) في (م): فسر. والمثبت من الأصل والكتاب لسيبويه.

(٤) في (م): أكياس. والمثبت من الأصل والكتاب. والأكياش: من برود اليمن. ويقال: أكباش. بالباء. اللسان (كبش) و(كيش).

(٥) في الأصل و(م): أفعل. والمثبت من الكتاب ٤/ ٢٤٧، والبحر المحيط ٥/ ٥٠٩، والدر المصون ٧/ ٢٥٥.

تكسَّر عليه اسمًا[(١)] للجمع. انتهى.

وقد اضطربَ الناسُ في التوفيق بين كلاميه، فذهب أبو حيان إلى تأويل الأول وإبقاء الثاني على ظاهره من أنَّ «أفعالاً» لا يكونُ من أبنية[(٢)] المفرَدِ فحمل قوله أولاً: وأما «أفعال» فقد يقعُ للواحد... إلخ، على أنَّ بعضَ العربِ قد يستعمله فيه مجازًا كالأنعام بمعنى النَّعَم كما قال الشاعر:

تَـرَكْـنـا الـخـيـلَ والـنَّـعَـمَ الـمـفـدَّى وقـلـنـا لـلـنـسـاءِ بـهـا أَقـيـمـي[(٣)]

وليس مراده أنه مُفْرَدٌ صيغةً ووَضْعاً بدليل ما صرَّح به في الموضع الآخر من أنه لا يكون إلا جمعاً.

واعتُرض عليه بأنَّ مقصودَ سيبويه بما[(٤)] ذكره أولاً الفرقُ بين صيغتي منتهى الجموع وأفعال وفعول، حيث مَنَعَ الصَّرفَ للأول دون الثاني بوجوه منها: أنَّ الأولين لا يقعانِ على الواحد، بخلاف الأخيرين كما أوضحه، فلو لم يكن وقوعُ «أفعال» على الواحد بالوَضْعِ لم يحصلِ الفَرْقُ، فلا يتمُّ المقصود. نعم لا كلامَ في تدافُعِ كلاميه، وأيضاً لو كانَ كذلك لم يختصَّ ببعضهم؛ وأيضاً: إنَّ التجوُّزَ بالجمع عن الواحد يصحُّ في كلِّ جَمْعٍ حتى صيغَتَي منتهى الجموع. وتعقَّبه الخفاجي[(٥)] بقوله: والحقُّ أنه لا تدافُعَ بين كلاميه، فإنه فَرَّقَ بين صيغتي منتهى الجموع والصيغتين الأخيرتين بأنَّ الأولتين لا تُجمعان والأخيرتان تُجمعان، فأشبهتا الآحاد، ثم قوَّى ذلك بأنَّ قوماً من العرب استعملت «أُتيّ» وهو على وزن فُعُولٌ مفرداً حقيقة، ومنهم من استعمل «الأنعام» وهو على وزن «أفعال» كذلك، وقد أشار إلى أنَّ ذلك لغة نادرة بـ «بعض» و«من»[(٦)] وما ذكره بعدُ بناءً على اللغة

---

(١) في (م): أسماء. والمثبت من الأصل، والكتاب ٤/ ٢٤٧.

(٢) في (م): أبنيته. والمثبت من الأصل والبحر المحيط ٥/ ٥٠٩. وينظر حاشية الشهاب ٥/ ٣٤٥.

(٣) لم نهتد إلى قائله، وهو في البحر المحيط ٥/ ٥٠٩، والدر المصون ٧/ ٢٥٥.

(٤) في الأصل: مما.

(٥) في حاشيته ٥/ ٣٤٥ وما قبله منه.

(٦) أي: في قوله السالف: بعض العرب، ومن العرب.

المتداولة، وقوله: إنَّ مقصودَهُ أولاً الفرقُ بوجوهٍ؛ لا وجهَ له كما يعرفه حَمَلَةُ الكتاب. انتهى.

ويُعلَمُ منه أنَّ رجوعَ الضمير المفردِ المذكَّر إلى الأنعام عند سيبويه باعتبار أنه مفردٌ على لغة بعض العرب، ومَنْ قال: إنه جمعُ «نَعَم» جَعَلَ الضميرَ للبعض إما المقدَّر أي: بعضُ الأنعام، أو المفهوم منها، أو للأنعام باعتبار بعضها، وهو الإناثُ التي يكونُ اللبنُ منها، أو لواحده كما في قول ابن الحاجب: المرفوعاتُ هو ما اشتملَ على علم الفاعلية. أوَّله على المعنى؛ لأنَّ «أل» الجنسية تُسَوِّي بين المفرد والجمع في المعنى، فيجوزُ عَوْدُ ضمير كلٍّ منهما على الآخر.

وفي «البحر»: أعاد الضمير مذكَّراً مراعاةً للجنس[1]؛ لأنَّه إذا صَحَّ وقوعُ المفرَدِ الدالِّ على الجنس مقامَ جَمْعِهِ جازَ عَوْدُهُ عليه مذكَّراً، كقولهم: هو أَحْسَنُ الفتيان وأنبله[2]؛ لأنه يصحُّ: هو أحسنُ فتًى، وإن كان هذا لا ينقاسُ عند سيبويه؛ وقيل: جمع التكسير[3] فيما لا يعقلُ يُعامَلُ معاملةَ الجماعة ومعاملةَ الجَمْعِ، فيعودُ الضميرُ عليه مفرَداً كقوله:

مِـثْـلُ الـفِـراخِ نـتـقَـتْ حـواصِـلُـه[4]

وقال الكسائيُّ: أفرد وذكَّر على تقدير المذكور كما يُفرَدُ اسمُ الإشارة بعد الجمع كقوله:

فـيـهـا خـطـوطٌ مـن سـوادٍ وبَـلَـقْ كـأنـهـا في الـجـلـد تـولـيـعُ الـبَـهَـقْ[5]

وهو في القرآن سائغٌ، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۞ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾[6]

---

(١) في (م): الجنس. والمثبت من الأصل والبحر.

(٢) في (م): وأبتله. والمثبت من الأصل والبحر.

(٣) في (م): التكثير. والمثبت من الأصل والبحر.

(٤) الرجز في مجالس ثعلب ص١٠٣، ومعاني القرآن للفراء ١/ ١٣٠، ٢/ ١٠٩، وتفسير الطبري ١٤/ ٢٧٣. وتحرفت في الأصل و(م) إلى: نتفت. والمثبت من المصادر. ونتق نتوقاً: امتلأ جلده شحماً ولحماً. تهذيب اللغة ٩/ ٦٢.

(٥) البيت لرؤبة بن العجّاج، وهو في ديوانه ص١٠٤. وجاء في (م): كأنه. بدل: كأنها.

(٦) جاء في الأصل و(م): «إن هذه تذكرة. . . .» والمثبت هو الصواب.

[عبس: ١١-١٢] ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٨]. ولا يكون هذا إلا في التأنيث المجازي، فلا يجوز: جاريتك ذهب[١].

واعترض بأنه كيف جمع «نَعَم» وهي تختصُّ بالإبل والأنعام، تقال للبقر والإبل والغنم، مع أنه لو اختصَّ كان مساوياً.

وأجيب بأنَّ مَنْ يراهُ جَمْعاً له يخصُّ الأنعام أو يُعمِّمُ النَّعَم، ويجعلُ التفرقةَ ناشئة من الاستعمال، ويجعلُ الجمعَ للدلالة على تعدُّد الأنواع.

وقرأ ابن مسعود بخلافٍ عنه والحسنُ وزيدُ بن عليٍّ ﵄ وابنُ عامرٍ ونافعٌ وأبو بكر وأهلُ المدينة: «نَسقيكم» بفتح النون هنا وفي «المؤمنين»[٢] على أنه مضارعُ «سقى» وهو لغةٌ في أَسْقى عند جَمْعٍ، وأنشدوا قولَ لبيد:

سقى قومي بني مَجْدٍ وأَسْقى نُمَيراً والقبائلَ من هلالِ[٣]

وقال بعضٌ: يقال: سَقيتُهُ لِشَفَته، وأَسقيتُهُ لماشيته وأرضه، وقيل: سقاهُ بمعنى رواه بالماء، وأسقاه بمعنى جعله شراباً مُعَدًّا له، وفيه كلامٌ بَعْدُ فتذكَّر.

وقرأ أبو رجاء: «يُسقيكم» بالياء مضمومة[٤]، والضميرُ عائدٌ على الله تعالى.

وقال صاحب «اللوامح»: ويجوزُ أن يكون عائداً على النَّعَم، وذُكِّرَ لأنَّ النَّعَم مما يُذكَّر ويُؤنَّثُ، والمعنى: وإنَّ لكم في الأنعام نِعَماً يُسقيكم، أي: يُجْعَلُ لكم سُقْياً، وهو كما ترى.

وقرأتْ فرقةٌ منهم أبو جعفر: «تَسقيكم» بالتاء الفوقية مفتوحة. قال ابن عطية: وهي قراءة ضعيفة[٥]. انتهى.

ولم يُبيِّنْ وَجْهَ ضَعْفها، وكأنه ـ والله تعالى أعلم ـ عنى به اجتماعَ التأنيث في

(١) البحر المحيط ٥/٥٠٨-٥٠٩.
(٢) التيسير ص١٣٨، والنشر ٢/٣٠٤، والمحرر الوجيز ٣/٤٠٤، والبحر المحيط ٥/٥٠٨.
(٣) ديوان لبيد بن ربيعة ص١١٠.
(٤) البحر المحيط ٥/٥٠٨.
(٥) النشر ٢/٣٠٤، والمحرر الوجيز ٣/٤٠٥.

«تَسقيكم» والتذكير في «بطونه» وغفل أنَّ مثلَ ذلك لا يُعَدُّ ضَعْفاً؛ لأنَّ التأنيثَ والتذكيرَ باعتبار وجهين.

﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا﴾ الفَرْث ـ على ما في «الصحاح»[1] ـ السِّرجين مادام في الكَرِشِ، والجمع فُروثٌ. وفي «البحر» كثيفُ ما يبقى من المأكول في الكَرِشِ أو المِعَى[2]، و«بين» تقتضي متعدِّدًا وهو هنا الفَرْثُ والدَّمُ، فيكون مقتضى ظاهر النَّظْم توسُّط اللَّبن بينهما، وروى ذلك الكلبيُّ عن أبي صالحٍ عن ابن عباس ﵄ قال: إنَّ البهيمة إذا اعتلفتْ وأنضجَ العَلَفُ في كَرِشِها كان أسفلُهُ فَرْثاً وأوسَطُهُ لبناً وأعلاه دَماً[3].

وروي نحوه عن ابن جبير، فالبينية على حقيقتها وظاهرها، وتعقَّب ذلك الإمامُ الرازيُّ بقوله: ولقائلٍ أن يقول: اللَّبنُ والدمُ لا يتولدان في الكَرِش، والدليل عليه الحسُّ، فإنَّ الحيوانات تُذبحُ دائماً ولا يُرى في كَرِشِها شيءٌ من ذلك، ولو كان تَوَلُّدَ ما ذُكِرَ فيه لَوَجَبَ أن يُشاهَدَ في بعض الأحوال، والشيءُ الذي دلَّتِ المشاهدةُ على فساده لم يجز المصير إليه، بل الحقُّ أنَّ الحيوانَ إذا تناولَ الغذاء وَصَلَ إلى معدته، وإلى كَرِشه إن كان من الأنعام وغيرها، فإذا طُبِخ وحَصَلَ الهضمُ الأولُ فيه، فما كان منه صافياً انجذبَ إلى الكبد، وما كان كثيفاً نزل إلى الأمعاء، ثم ذلك الذي يحصلُ في الكبد ينضجُ ويصيرُ دماً، وذلك هو الهضم الثاني ويكونُ ذلك مخلوطاً بالصفراء والسوداء وزيادة المائية، أما الصفراءُ فتذهبُ إلى المرارة، والسوداءُ إلى الطِّحال، والماءُ إلى الكلية ومنها إلى المثانة، وأما ذلك الدم فإنه يدخلُ في الأوردة و[هي] العروقُ النابتةُ من الكبد، وهناك يحصلُ الهضمُ الثالث، وبين الكبد والضَّرْع عروقٌ كثيرةٌ فينصبُّ الدمُ من تلك العروق إلى الضَّرع، والضَّرعُ لحمٌ غُدَديٌّ رِخوٌ أبيض، فيقلب الله تعالى الدم فيه إلى صورة اللَّبن، لا يقال: إنَّ هذه المعاني[4] حاصلةٌ في الحيوان الذَّكر، فَلِمَ لَمْ يحصلْ منه اللبن؛ لأنا نقول:

---

(١) مادة (فرث).

(٢) البحر ٥/ ٥٠٠.

(٣) ذكره الرازي في تفسيره ٢٠/ ٦٤.

(٤) في (م): إن هذه المعنى.

الحكمةُ الإلهية اقتضتْ تدبيرَ كلِّ شيءٍ على الوجه اللائق به الموافق لمصلحته، فأوجبتْ أن يكونَ مزاجُ الذَّكَرِ حارًّا يابساً، ومزاجُ الأنثى بارداً رَطْباً، فإنَّ الولدَ يتولَّدُ في داخل بدن الأنثى، فكان اللائقُ بها اختصاصَها بالرطوبة لتصيرَ مادةً للتولُّدِ وسبباً لقَبول التمدُّد فتتَّسعُ للولد، ثم إنَّ تلك الرطوبة بعد انفصال الجنين تَنْصَبُّ إلى الضَّرع فتصير مادةً لغذائه كما كانت كذلك قبلُ في الرحم[١].

ومن تدبَّر في بدائع صُنْع الله تعالى فيما ذكر من الأخلاط والألبان وإعداد مقارِّها ومجاريها، والأسبابِ المولِّدة لها، وتسخير القوى المتصرِّفة فيها كلَّ وقتٍ على ما يليق به، اضطرَّ إلى الاعتراف بكمال عِلْمه سبحانه وقدرته وحكمته، وتناهي رأفته ورحمته:

حِكَمٌ حارتِ البريةُ فيها وحقيقٌ بأنها تحتارُ[٢]

وحاصلُ ما ذكروه أنه إذا وردَ الغذاءُ الكَرِشَ انطبخَ فيه وتميَّزت منه أجزاءٌ لطيفةٌ تنجذب إلى الكبد، فينطبخُ فيها، فيحصلُ الدمُ، فتسري أجزاءٌ منه إلى الضَّرْع، ويستحيلُ لبناً بتدبير[٣] الحكيم العليم، وحينئذٍ فالمراد أنَّ اللبنَ إنما يحصلُ من بين أجزاءِ الفَرْث، ثم من بين أجزاء الدم، فالبينيةُ على هذا مجازية.

وفي «إرشاد العقل السليم» وغيره: لعلَّ المراد بما روي عن ابن عباس أنَّ أوسطه يكونُ مادة اللبن، وأعلاه مادة الدَّم الذي يغذو البدن، فإنَّ عدمَ تكوُّنهما في الكَرِشِ مما ريب فيه[٤]. والداعي إلى ذلك مخالفةُ ما يقتضيه الظاهرُ للحسِّ، ولما ذكره الحكماءُ أهل التشريح.

ويؤيد ما ذكروه ما أخبرني به مَنْ أَثِقُ به من أنه قد شاهدَ خروجَ الدم من الضَّرع بعد اللَّبن عند المبالغة في الحَلْبِ، والله تعالى أعلم.

و«من» الأولى تبعيضيةٌ لما أنَّ اللَّبنَ بعضُ ما في بطون الأنعام؛ لأنه مخلوقٌ

---

(١) تفسير الرازي ٢٠/ ٦٤-٦٥ وما بين حاصرتين منه.
(٢) البيت لعبد الغني النابلسي، وهو في ديوانه ١/ ٢٠٨.
(٣) في الأصل: بتقدير.
(٤) إرشاد العقل السليم ٥/ ١٢٤.

من بعضِ أجزاء الدم المتولِّد من الأجزاء اللَّطيفة التي في الفَرْثِ حسبما سمعتَ، وهي متعلقةٌ بـ «نسقيكم» و«من» الثانية ابتدائيةٌ وهي أيضاً متعلِّقةٌ بـ «نُسقيكم» فإنَّ بين الدم والفَرْثِ المحلَّ الذي يُبتدأُ منه الإسقاءُ، وتعلُّقهما بعاملٍ واحدٍ لاختلاف مدلوليهما.

و«لبناً» مفعولٌ ثانٍ لـ «نُسقيكم»، وتقديمُ ذلك عليه لما مرَّ مراراً من أنَّ تقديمَ ما حقُّه التأخيرُ يبعثُ للنفس شوقاً إلى المؤخَّر موجباً لِفَضْلِ تمكُّنه عند وروده عليها، لاسيَّما إذا كان المقدَّم متضمِّناً لوَصْفٍ منافٍ لِوَصْفِ المؤخَّرِ كالذي نحن فيه، فإنَّ بين وَصْفَي المقدَّم والمؤخَّر تنافياً وتنائياً، بحيث لا يتراءى ناراهما، فإنَّ ذلك مما يزيدُ الشوقَ والاستشرافَ إلى المؤخَّر.

وجُوِّزَ أن يكونَ «من بين» حالاً من «لبناً» قُدِّمَ عليه لتنكيره وللتنبيه على أنه موضعُ العِبْرة.

وجُوِّزَ أن تكونَ «من» الأولى ابتدائية كالثانية، فيكون «من بين» بدل اشتمالٍ مما تقدَّم.

﴿خَالِصًا﴾ مصفًّى عمَّا يَصحبهُ من الأجزاء الكثيفةِ بتضييق مَخرجه، أو صافياً لا يستصحبهُ لونُ الدم ولا رائحةُ الفَرْث.

﴿سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ سهل المرور في حَلْقهم لدهنيَّته. أخرج ابن مردويه[(١)] عن يحيى بن عبد الرحمن ابن أبي لبيبة عن أبيه عن جده أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما شَرِبَ أحدٌ لبناً فَشَرِقَ، إنَّ الله تعالى يقول: ﴿لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾».

وقرأتْ فرقة: «سَيِّغاً» بتشديد الياء[(٢)]. وقرأ عيسى بن عمر: «سَيغاً» مخفَّفاً من سَيْغٍ كَهَيْنٍ المخفَّفِ من هَيِّن[(٣)].

واستُدلَّ بالآية على طهارة لبن المأكول وإباحة شُرْبه، وقد احتجَّ بعضُ مَنْ يَرى

---

(١) كما في الدر المنثور ٤/ ١٢٢.
(٢) القراءات الشاذة ص٧٣، والكشاف ٢/ ٤١٦، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٠٥، والبحر المحيط ٥/ ٥١٠.
(٣) القراءات الشاذة ص٧٣، والمحتسب ٢/ ١١، والبحر المحيط ٥/ ٥١٠.

على أنَّ المنيَّ طاهرٌ على مَنْ جعله نجساً لِجَريه في مسلك البول بها أيضاً، وأنه ليس بمستَنْكَرٍ أن يَسلُكَ مَسْلَكَ البول وهو طاهرٌ، كما خرجَ اللَّبنُ من بين فَرْثٍ ودمٍ طاهراً.

وفي «التفسير الكبير»: قال أهلُ التحقيق: اعتبارُ حدوثِ اللَّبن كما يدلُّ على وجود الصانع المختار، يدلُّ على إمكان الحشرِ والنشر، وذلك لأنَّ هذا العشبَ الذي يأكلُهُ الحيوانُ إنما يتولَّدُ من الماء والأرض، فخالقُ العالم دبَّرَ تدبيراً انقلبَ به لبناً، ثم دبَّرَ تدبيراً آخرَ حَدَثَ من ذلك اللَّبنِ الدُّهْنُ والجُبْن، وهذا يدلُّ على أنه تعالى قادرٌ على أن يقلبَ هذه الأجسام من صفةٍ إلى صفة، ومن حالةٍ إلى حالة؛ فإذا كان كذلك لم يمتنعْ أيضاً أن يكونَ قادراً على أن يقلبَ أجزاءَ أبدانِ الأموات إلى صفة الحياة والعقل كما كانت قبل ذلك، فهذا الاعتبارُ يدلُّ من هذا الوجه على أنَّ البعثَ والقيامةَ أمرٌ ممكنٌ غيرُ ممتنع[١].

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ تقديره: ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب، أي: من عصيرهما، وحُذف لدلالة «نُسقيكم» قبله عليه، وقوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ بيانٌ وكَشْفٌ عن كُنْهِ الإسقاء.

أو بـ «تتخذون»، و«منه» من تكريرِ الظَّرف للتأكيد كما في قولك: زيدٌ في الدار فيها. أو خبرٌ لمحذوفٍ صفتهُ «تتخذون» أي: ومن ثمراتِ النخيل والأعناب ثمرٌ تتخذون منه، وضميرُ «منه» عائدٌ إما على المضاف المقدَّر أو على الثمرات المؤولة بالثمر؛ لأنه جَمْعٌ مُعَرَّفٌ أُريد به الجنس، وفائدةُ الصيغة الإشارةُ إلى تعداد الأنواع، أو على «ثمر» المقدَّر، و«السَّكَرُ»: الخمر. قال الأخطل[٢]:

بئسَ الصُّحاةُ وبئسَ الشَّربُ شربُهمُ إذا جرى فيهمُ المُزَّاءُ[٣] والسَّكَرُ

وهو في الأصل مصدرُ سَكِرَ سُكراً وسَكَراً نحو رَشِدَ رُشْداً ورَشَداً. واستشهد له بقوله:

---

(١) تفسير الرازي ٢٠/ ٦٧.
(٢) في ديوانه ص١١٠.
(٣) جاء فوقها في الأصل: هو نوع من الأشربة.

وجاؤونا بهم سَكَرٌ علينا فأجلى اليومُ والسَّكْرانُ صاحي[1]

وفَسَّروا الرزقَ الحَسَنَ بالخَلِّ والرُّبِّ والتَّمر والزبيب وغير ذلك، وإليه ذهب صاحب «الكشاف»[2] وقد ذكر في توجيه إعرابها ما ذكرناه، وقدَّم الوجهَ الأولَ من أوجهه الثلاثة، وهو ظاهرٌ في ترجيحه، وصرَّح به الطيبيُّ وبيَّنه بما بيَّنه، وأَخَّر الثالثَ، وهو ظاهرٌ في أنه دون أخويه.

وفي «الكشف» بعد نقل كلامه في الوجه الأول: فيه إضمارُ العصير وأنه لا يصلحُ عَطْفاً في الظاهر على السابق؛ لأنه لا يصلحُ بياناً للعِبْرة في الأنعام، وفيه أنَّ «تتَّخذون» لا يصلحُ كَشْفاً عن كُنْه الإسقاء، كيفَ وقد فَسَّرَ الرزقَ الحَسَنَ بالتمر والزبيب أيضاً، وأيُّ مدخلٍ للعصير، وأين هذا البيانُ من البيان بقوله تعالى: ﴿نُّسْقِيكُم﴾ ليجعل مدركاً لترجيحه، فهذا وجهٌ مرجوحٌ مؤوَّلٌ بأنه عَطْفٌ على مجموع السابق، وأُوثر الفعلية لمكان قربه من «نُسقيكم» وقوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ تم البيانُ عنده، ثم أتى بفائدةٍ زائدة. وأَظْهَرُ الأوجه ما ذُكِرَ آخراً، أي: ومن ثمراتِ النخيل والأعناب ثمرٌ تتَّخذونَ، ليكونَ عَطْفاً للاسمية على الاسمية، أعني قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ ولمَّا لم يكن العِبْرةُ فيه كالأول اكتفى بكونه عَطْفاً على ما هو عِبْرةٌ ولم يُصرِّح، وأُفيد بالتبعيض أنَّ من ثمراتها ما يؤكلُ قبل الإدراك، وما يتلفُ ويأكلُ الوحوش وغير ذلك. اهـ.

وما ذكره في التأويل من بيان البيان عند «سَكَراً» مُحوجٌ إلى جَعْل «رزقاً» معمولاً لعاملٍ آخر، ولا يخفى بُعده، والظاهر أنه لا يُنكرُه، وما ذكره من الوجه الأظهر ذكرُه الحوفيُّ كصاحبه، ولا يردُ عليه أنَّ فيه حَذْفَ الموصوف بالجملة؛ لأنَّ ذلك إذا كان الموصوف بعضاً من مجرورِ «من» أو في المقدَّم عليه مطردٌ نحو: منَّا أقامَ ومنَّا ظَعن، أراد فريقٌ، وقد يُحذَفُ موصوفاً بالجملة في غير ذلك كقول الراجز:

مالَكَ عندي غيرُ سَهْمٍ وحَجَرْ

---

(١) البيت في إصلاح المنطق ص٩٩، واللسان (سكر).
(٢) ٢/ ٤١٧.

وغـيـرُ كَـبْـداءَ شـديـدة الـوَتَـرْ
جـادَتْ بِـكَـفَّـي كـان مـن أَرمـى الـبـشـرْ[1]

أراد: رجل. نعم قال الطبريُّ: التقدير: ومن ثمراتِ النخيل والأعناب ما تتخذون منه[2]، وتعقَّبه أبو حيان بأنَّ ذلك لا يجوز على مذهب البصريين[3]. وكأنه اعتبر «ما» موصولةً، وحذْفُ الموصول مع إبقاء الصِّلة لا يجوزُ عنهم، ولعلَّهم يُفرِّقون بين الموصول والموصوف فيما ذكر.

وقال العلَّامة ابنُ كمال في بعض رسائله: لا وجهَ لما اختاره صاحبُ «الكشاف» يعني به تعليق الجارِّ بـ «نسقيكم» محذوفاً، وتقدير العصير مضافاً؛ لأنه حينئذٍ لا يتناولُ المأكولَ، وهو أعظمُ صِنْفَي ثمراتهما، يعني: النخيل والأعناب، والمقامُ مقامُ الامتنان، ومقتضاهُ استيعابُ الصِّنفين، ثم قال: والعَجَبُ منه وممَّن اتبعه كالبيضاويِّ كيف اتفقوا على تفسير الرزق الحَسَنِ بما ينتظمُ التَّمرَ والزبيبَ، ومع ذلك يقولون: إنَّ المعنى: ومِن عصيرهما تتَّخذون سَكَراً ورزقاً حَسَناً، فإنه لا انتظامَ بين هذين الكلامين، فالوجه أن يتعلَّقَ الجارُّ بـ «تتخذون» ويكون «منه» من تكرير الظرف للتأكيد.

وهو الذي استظهره أبو حيان، وقد سبقت الإشارة إلى الاعتراض بما تَعْجَبُ منه مع الجواب بما فيه بعد، ونُقل عنه أنه جعله متعلِّقاً بما في الإسقاء من معنى الإطعام؛ أي: نُطعمكم من ثمرات النخيل والأعناب لينتظمَ المأكول منهما والمشروبُ المتَّخذ من عصيرهما. وفيه من البُعْدِ ما فيه.

وأنت تعلم أنَّ تقدير العصير على الوجه الأول عند مَنْ يراه لازمٌ، وتقديره على الوجه الثاني جائزٌ عند ذاك أيضاً، ولا يجوز عند المعترض.

---

(١) الرجز في الخصائص ٢/ ٣٦٧، والإنصاف ١/ ١١٤-١١٥، والخزانة ٥/ ٦٥. وجاء في الأصل و(م): شديد، بدل: شديدة. والمثبت من المصادر. قال في الخزانة: كبداء: أي: قوس كبداء، وهي التي يملأ الكفَّ مقبضُها. وجادت: أي أحسنت... وهذا الشاهد قلما خلا منه كتابٌ نحويٌّ، لكنه لم يعرف له قائل.

(٢) تفسير الطبري ١٤/ ٢٧٥.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٥١٠.

واختار أبو البقاء تعليقه بـ: خلق لكم أو جعل[1]. وليس بذاك، وقيل: إنه معطوفٌ على الأنعام على معنى: ومن ثمرات النخيل والأعناب عبرةٌ، و«تتخذون» بيانٌ لها، وهو غيرُ الوجه الذي استظهرهُ صاحبُ «الكشف» وكان الظاهر «في» بدل «من»، وضميرُ «منه» لا يتعيَّنُ فيه ما سمعتَ كما لا يخفى عليك بعد أن أَحَطْتَ خُبراً بما قيل في ضمير «بطونه».

وتفسير السَّكَر بالخمر هو المرويُّ عن ابن مسعود وابن عمر وأبي رزين والحسن ومجاهد والشعبيِّ والنخعيِّ وابن أبي ليلى وأبي ثور والكلبيِّ وابن جبيرٍ مع خلقٍ آخرين، والآيةُ نزلتْ في مكةَ والخمرُ إذ ذاك كانت حلالاً يشربُها البَرُّ والفاجرُ، وتحريمها إنما كان بالمدينة اتفاقاً، واختلفوا في أنه قبل أُحدٍ أو بعدها، والآيةُ المحرِّمة لها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠] على ما ذهب إليه جمعٌ، فما هنا منسوخٌ بها، وروي ذلك عن غير واحدٍ ممن تقدَّم كالنخعي وأبي ثور وابن جبير.

وقيل: نزلت قبلُ ولا نَسْخَ بناءً على ما روي عن ابن عباس أنَّ السَّكَر هو الخلُّ بلغةِ الحبشة، أو على ما نُقل عن أبي عبيدةَ أنَّ السَّكَرَ المطعومُ المتفكَّهُ به كالنَّقْلِ وأنشد:

جَـعَـلْـتَ أعـراضَ الـكـرام سَـكَـرا[2]

وتُعقِّب بأنَّ كونَ السَّكَر في ذلك بمعنى الخمر أشبهُ منه بالطعام، والمعنى أنه لِشَغَفِهِ بالغِيبة وتمزيق الأعراض جرى ذلك عنده مجرى الخمر المُسْكرة، وكأنه لهذا قال الزجاج: إنَّ قول أبي عبيدة لا يصح[3]، وفيه أنَّ المعروفَ في الغِيبة جعلُها نَقْلاً، ولذا قيل: الغِيبة فاكهة القرَّاء.

وإلى عدم النَّسْخِ ذهب الحنفيون وقالوا: المرادُ بالسَّكَر ما لا يُسكر من

---

(١) الإملاء ٣/ ٤٥٢.

(٢) نسبه أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣٦٣ إلى جندل، وهو عند الطبري ١٤/ ٢٨٤، والنكت والعيون ٣/ ١٩٨، واللسان (سكر) دون نسبة. ولفظه في هذه المصادر عدا اللسان: جعلتَ عيبَ الأكرمين سَكَراً.

(٣) نقله المصنف عنه بواسطة البحر ٥/ ٥١١. وينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٠٩.

الأنبذة، واستدلوا عليه بأنَّ الله تعالى امتنَّ على عباده بما خَلَقَ لهم من ذلك، ولا يقعُ الامتنان إلا بمُحَلَّلٍ، فيكونُ ذلك دليلاً على جواز شُرْب ما دون المسكِر من النبيذ، فإذا انتهى إلى السكرِ لم يجز، وعَضَدوا هذا من السنة بما روي عن النبي ﷺ قال: «حرَّم الله تعالى الخمرَ بعينها القليلَ منها والكثيرَ والسُّكر من كلِّ شراب» أخرجه الدارقطنيُّ[(١)]، وإلى حِلِّ شُرب النبيذ ما لم يصلْ إلى الإسكارِ ذهب إبراهيمُ النخعيُّ، وأبو جعفر الطحاويُّ[(٢)] وكان إمامَ أهل زمانه، وسفيان الثوري وهو مَنْ تعلمُ، وكان عليه الرحمة يشربهُ كما ذكر ذلك القرطبيُّ في «تفسيره»[(٣)]. والبيضاويُّ بعد أن فَسَّر «السَّكَر» بالخمر تردَّدَ في أمر نزولها فقال: إلا أنَّ الآيَةَ إن كانت سابقةً على تحريم الخمر فدالَّة على كراهيتها، وإلا فجامعة بين العتاب والمِنَّة[(٤)]. ووجهُ دلالتها على الكراهية بأنَّ الخمرَ وقعتْ في مقابلة الحسن، وهو مقتضٍ لقُبْحها، والقبيحُ لا يخلو عن الكراهة، وإن خلا عن الحرمة، واعترض عليه بأنَّ تردُّدهُ هنا في سَبْقها على تحريم الخمر ينافي ما في سورة «البقرة» حيثُ ساق الكلامَ على القَطْع على أنه جَزَمَ في أول هذه السورة بأنها مكيةٌ إلا ثلاث آيات من آخرها. وفي «الكشاف» بعد أن فسَّر «السَّكر» أيضاً بما ذكر قال: وفيه وجهان: أحدهما أن تكونَ منسوخة. والثاني: أن يُجمع بين العتاب والمِنَّة[(٥)].

ونقل صاحب «الكشف» أنَّ القولَ بكونها منسوخةً أولى الأقاويل، ثم قال: وفي الآية دليلٌ على قُبْح تناولها تعريضاً من تقييد المقابل بالحسن، وهذا وَجْهُ مَنْ ذهبَ إلى أنه جَمْعٌ بين العتاب والمِنَّة، وعلى الأول يكونُ رمزاً إلى أنَّ السَّكر وإن كان مباحاً فهو مما يحسن اجتنابه. اهـ.

---

(١) ٤/ ٢٥٥ من حديث ابن عباس موقوفاً، وأخرجه ـ أيضاً ـ النسائي في الكبرى (٥١٧٤) و(٦٧٤٧) و(٦٧٤٨)، وفي المجتبى ٨/ ٣٢١، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/ ٢١٤.
وأخرجه العقيلي في الضعفاء ٢/ ٣٢٤ من حديث علي ﷺ مرفوعاً وقال: وهذا يُعرف عن عبد الله بن شداد بن الهاد عن ابن عباس قوله. وينظر الدراية ٢/ ٢٥١.

(٢) كما شرح معاني الآثار ٤/ ٢١٤.

(٣) ١٢/ ٣٦٢.

(٤) تفسير البيضاوي ٣/ ١٨٦.

(٥) الكشاف ٢/ ٤١٧.

واستدلَّ ابنُ كمال على نزولها قبل التحريم بأنَّ المقام لا يحتملُ العتاب، فإنَّ مساقَ الكلام على ما دلَّ عليه سياقه ولحاقه في تعداد النعم العظام، وذكر أنَّ كلام الزمخشريّ ومَنْ تَبعه ناشئٌ عن الغفلة عن هذا، ولعلَّ عدم وَصْفِ «السكر» بما وُصف به ما بعده لعلم الله تعالى أنه سيكون رِجْساً يحكم الشرعُ بتحريمه.

وجوَّزَ الزمخشريُّ أن يُجعل السَّكر رزقاً حسناً كأنه قيل: تتخذون منه ما هو مُسكرٌ ورزقٌ حَسَنٌ[١]. أي: على أنَّ العَطْفَ من عَطْفِ الصفات. وأنت تعلم أنَّ العَطْفَ ظاهرهُ المغايرة.

هذا، ولما كان اللبنُ نعمةً عظيمةً لا دَخْلَ لفعل الخلق فيه أضافهُ سبحانه لنفسه بقوله تعالى: ﴿نُّسْقِيكُم﴾ بخلاف اتخاذ السَّكر، وقد صرَّح بذلك في «البحر»[٢] فتأمل.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ باهرةً ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ يستعملون عقولهم بالنظر والتأمل بالآيات، فالفعلُ منزَّلٌ منزلةَ اللازم، قال أبو حيان: ولما كان مفتتحُ الكلام «وإن لكم في الأنعام لعبرة» ناسبَ الختم بقوله سبحانه: ﴿يَعْقِلُونَ﴾ لأنه لا يعتبر إلا ذوو العقول[٣].

وأنا أقول: إذا كان في الآية إشارةٌ إلى الحَظّ من أمْر السَّكر، ففي الختم المذكور تقويةٌ لذلك، وله في النفوس موقعٌ وأيُّ موقع، حيثُ إنَّ العُقَار ـ كما قيل ـ للعقول عقال:

إذا دارها بالأكفّ السّقاة لخطابها أمهروها العقولا

فافهم ذاك، والله تعالى يتولى هداك.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ ألهمها وألقى في رُوْعها وعَلَّمها بوجهٍ لا يعلمه إلا اللطيف الخبير؛ وفسَّر بعضُهم الإيحاءَ إليها بتسخيرها لما أُريد منها، ومنعوا أن يكون المرادُ حقيقةَ الإيحاء؛ لأنه إنما يكونُ للعقلاء وليس النحلُ منها. نعم يَصدرُ

---

(١) المصدر السابق.

(٢) ٥/ ٥١١.

(٣) المصدر السابق.

منها أفعالٌ ويوجدُ فيها أحوالٌ يتخيَّل بها أنها ذوات عقولٍ وصاحبةُ فَضْلٍ تقصرُ عنه الفحول، فتراها يكونُ بينها واحدٌ كالرئيس وهو(١) أعظمها جُثَّةً، يكون نافذَ الحُكْم على سائرها، والكلُّ يخدمونه ويحملون عنه، ويُسمَّى(٢): اليعسوب والأمير، وذكروا أنها إذا نفرتْ عن وَكْرها ذهبتْ بجمعيَّتها إلى موضعٍ آخر، فإذا أرادوا عَوْدها إلى وَكْرها ضربوا لها الطبول وآلات الموسيقى وردُّوها بواسطة تلك الألحان إلى وَكْرها، وهي تبني البيوتَ المسدَّسة من أضلاعٍ متساويةٍ، والعقلاءُ لا يمكنهم ذلك إلا بآلات مثل المسطرة والفرجار، وتختارها على غيرها من البيوت المشكَّلة بأشكالٍ أُخر كالمثلَّثات والمربَّعات والمخمَّسات وغيرها، وفي ذلك سِرٌّ لطيفٌ، فإنهم قالوا: ثبتَ في الهندسة أنها لو كانت مشكَّلةً بأشكالٍ أُخَر يبقى فيما بينها بالضرورة فُرَجٌ خاليةٌ ضائعةٌ؛ ولها أحوالٌ كثيرةٌ عجيبةٌ غيرُ ذلك، قد شاهدها كثيرٌ من الناس، وسبحان مَنْ أعطى كلَّ شيءٍ خَلْقه ثم هدى.

والصوفيةُ ـ على ما ذكره الشعرانيُّ في غير موضع ـ لا يمنعونَ إرادةَ الحقيقة، وقد أثبتوا في سائر الحيوانات رسلاً وأنبياءَ، والشرعُ يأبى ذلك.

وذهب بعضُ حكماء الإشراق إلى ثبوت النفس الناطقة لجميع الحيوانات، وأكادُ أُسلِّم لهم ذلك، ولم نسمعْ عن أحدٍ غير الصوفية القولَ بما سمعتَ عنهم.

والنحلُ جنسٌ، واحده: نحلة، ويؤنَّثُ في لغة الحجاز، ولذلك قال سبحانه: ﴿أَنِ اتَّخِذِى﴾ وقرأ ابنُ وثَّاب: «النَّحَل» بفتحتين(٣)، وهو يحتملُ أن يكونَ لغةً، وأن يكون إتباعاً لحركة النون، و«أن» إما مصدرية بتقدير باء الملابسة، أي: بأن اتخذي، أو تفسيرية وما بعدها مفسِّرٌ للإيحاء؛ لأنَّ فيه باعتبار معناه المشهور معنى القول دون حروفه، وذلك كافٍ في جعلها تفسيرية، وقد غفل عن ذلك أبو حيان أو لم يعتبره فقال: إنَّ في ذلك نظراً لأنَّ الوحيَ هنا بمعنى الإلهام إجماعاً، وليس في الإلهام معنى القول(٤).

---

(١) في (م): هو.
(٢) في (م): وسمي.
(٣) القراءات الشاذة ص٧٣، والبحر المحيط ٥/ ٥١١.
(٤) البحر المحيط ٥/ ٥١١.

﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ أوكارًا، وأصل البيت مأوى الإنسان واستُعمل هنا في الوَكْر الذي تبنيه النحلُ لتُعسِّل فيه تشبيهاً له بما يبنيه الإنسان، لما فيه من حُسْنِ الصَّنعة وصحَّةِ القِسْمة كما سمعت، وقرئ: «بيوتًا» بكسر الباء لمناسبة الياء[1]، وإلا فجَمْعُ فَعْل على فُعُولٍ بالضم.

﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨﴾ أي: يَعْرِشُهُ الناسُ، أي: يرفعه من الكروم كما روي عن ابن زيد وغيره، أو السُّقوف كما نُقل عن الطبريِّ[2]، أو أعمُّ منهما كما قال البعض.

و«من» في المواضع الثلاثة للتبعيض بحَسَبِ الأفراد وبحسب الأجزاء، فإنَّ النحل لا يبني في كلِّ شجر وكلِّ جبلٍ وكلِّ ما يَعْرِشُ، ولا في كلِّ مكان من ذلك.

وبعضهم قال: إنَّ «من» للتبعيض بحسب الأفراد فقط، والمعنى الآخَرُ معلومٌ من خارجٍ لا من مدلول «من» إذ لا يجوز استعمالها فيهما، ولمولانا ابن كمال تأليفٌ مُفرَدٌ في المسألة فليُراجَعْ.

وأيًّا ما كان ففيه مع ما يأتي قريباً إن شاء الله تعالى من البديع صنعةُ الطباق.

وتفسيرُ البيوت بما تبنيه هو الذي ذهب إليه غيرُ واحدٍ، وقال أبو حيان: الظاهر أنها عبارةٌ عن الكُوى التي تكون في الجبال وفي متجوِّفِ الأشجار، والخلايا التي يصنعها ابنُ آدمَ للنحلِ والكُوى التي تكون في الحيطان، ولمَّا كان النحلُ نوعين؛ منه ما مقرُّه في الجبال والغِياض، ولا يتعهَّده أحدٌ، ومنه ما يكون في بيوت الناس، ويُتعهَّدُ في الخلايا ونحوها، شَمِلَ الأمرُ باتخاذ[3] البيوت النوعين.

﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: من جميعها، وهي جمعُ ثَمرةٍ ـ محرَّكة ـ حَمْلُ الشجر، وأخذ بظاهر ذلك ابنُ عطيةَ فقال: إنما تأكل النُّوَّار من الأشجار[4]، وتقال

---

(١) الكشاف ٢/ ٤١٧، ومفاتيح الغيب ٢٠/ ٧٠.
(٢) في تفسيره ١٤/ ٢٨٦.
(٣) في الأصل و(م): بالاتخاذ. والمثبت من البحر المحيط ٥/ ٥١٢.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٠٦.

الثمرةُ للشجرة أيضاً كما في «القاموس»[1]. قيل: وهو المناسبُ هنا؛ إذ التخصيصُ بحَمْلِ الشَّجر خلافُ الواقع؛ لعموم أكْلها للأوراق والأزهار والثمار.

وتُعقِّبَ بأنه لا يخفى أنَّ إطلاق الثمرة على الشجرة مجازٌ غيرُ معروف، وكونها تأكلُ من غيرها غيرُ معلومٍ وغيرُ منافٍ للاقتصار على أكْلِ ما ينبت فيها، والعمومُ في «كلّ» على ما يُشير إليه كلامُ البعض عرفيٌّ، وجُوِّزَ أن يكونَ مخصوصاً بالعادة، أي: كلي من كلِّ ثمرةٍ تشتهينها، وقيل: «كل» للتكثير، قال الخفاجيُّ: ولو أُبقي على ظاهره أيضاً جاز؛ لأنه لا يلزم من الأمر بالأكل من جميع الثمرات الأكلُ منها؛ لأنَّ الأمر للتخلية والإباحة[2]. وأيًّا ما ف «من» للتبعيض.

وقال الإمام: رأيتُ في كتب الطِّبِّ أنه تعالى دَبَّر هذا العالمَ على وجهٍ يحدث في الهواء طَلٌّ[3] لطيفٌ في الليالي، ويقعُ على أوراق الأشجار، فقد تكونُ تلك الأجزاءُ لطيفةً صغيرةً متفرِّقةً على الأوراق والأزهار، وقد تكون كثيرةً بحيثُ يجتمعُ منها أجزاءٌ محسوسةٌ، وهذا مثل التَّرَنْجَبين فإنه طلٌّ ينزلُ من الهواء ويجتمعُ على الأطراف في بعض البلدان، وأما القسمُ الأولُ فهو الذي أَلهمَ الله تعالى النحلَ حتى تلتقطه من الأزهار وأوراق الأشجار بأفواهها وتغتذي به، فإذا شَبِعَت التقطتْ بأفواهها مرَّةً أخرى شيئاً من تلك الأجزاء وذهبت به إلى بيوتها ووضعته هناك، كأنها تحاولُ أن تدَّخرَ لنفسها غذاءَها، فالمجتمعُ من ذلك هو العسل، ومن الناس من يقول: إنَّ النحلَ تأكلُ من الأزهار الطيبة والأوراق العَطِرَةِ أشياءَ، ثم إنه تعالى يقلبُ تلك الأجسام في داخل بدنها عَسَلاً ثم تقيئهُ، والقولُ الأولُ أقربُ إلى العقل وأشدُّ مناسبةً للاستقراء، فإنَّ طبيعةَ التَّرنجبين قريبةٌ من العسل في الطَّعْم والشَّكل، ولا شكَّ أنه طَلٌّ يَحدُثُ في الهواء ويقعُ على أطراف الأشجار والأزهار، فكذا هاهنا، وأيضاً فنحنُ نشاهدُ أنَّ النحلَ تتغذَّى بالعَسل حتى إنَّا إذا أخرجنا العسلَ من بيوتها تركنا لها بقيةً منه لغذائها، وحينئذٍ فكلمةُ «من» لابتداء الغاية[4]. اهـ.

---

(١) مادة (ثمر).

(٢) حاشية الشهاب ٥/ ٣٤٨.

(٣) الطل: هو المطر الضعيف، أو أخفُّ المطر وأضعفه، أو الندى. القاموس المحيط (طلل).

(٤) مفاتيح الغيب ٢٠/ ٧١.

وأنت تعلم أنَّ ظاهرَ «كلي» يؤيدُ القولَ الثاني، وهو أشدُّ تأييداً له من تأييد مشابهة التَّرنجبين للعسل في الطَّعم والشكلَ للقول الأول، لاسيَّما وطبيعةُ العسل والتَّرنجبين مختلفةٌ، فقد ذكر بعضُ أَجِلَّةِ الأطباء أنَّ العسلَ حارٌّ في الثالثة يابسٌ في الثانية، والتَّرنجبين حارٌّ في الأولى رَطْبٌ في الثانية أو معتدلٌ. نعم لتلك المشابهة يطلقُ عليه اسمُ العسل، فإنَّ «ترنجبين» فارسيٌّ معناه: عَسَلٌ رَطْبٌ، لا طَلٌّ الندى كما زُعِمَ وإن قالوا: هو في الحقيقة طَلٌّ يسقطُ على العاقول[1] بفارس، ويُجمع كالمنِّ، ويُجلَبُ من التُّكرور[2] شيءٌ يُسمَّى بلسانهم: طنبيط، أشبهُ الأشياء به في الصورة والفعل، لكنه أغلظ، والأمر في مشاهدة تغذِّيها بالعسل سهلٌ، فإنه ليس دائميًّا، وينقل عن بعض الطيور التي تكمنُ شتاءً التغذِّي بالرجيع.

ويؤيد المشهورَ ما روي عن الأمير عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه في تحقير الدنيا: أشرفُ لباسِ ابن آدمَ فيها لعابُ دودة، وأشرفُ شرابه رجيعُ نَحْلٍ. وجاء عنه كرَّم الله تعالى وجهه أيضاً: أما العسلُ فَوَنيمُ ذباب. وحَمْلُهُ على التمثيل خلافُ الظاهر، وعلى ذلك نُظِمَتِ الأشعار فقال المعرِّيُّ:

والنحلُ يجني المرَّ من زهر الرُّبا فيعودُ شَهْداً في طريق رُضابه[3]

وقال الحريري:

تقول هذا مُجاجُ النحلِ تمدحه وإن تُرِدْ ذمَّه قيء الزنابير[4]

وأخبرني مَنْ أَثِقُ به أنه شاهدَ كثيراً حَمْلَها لأوراق الأزهار بفَمها إلى بيوتها، وهو مما يُستأنس به للأكل، وسيأتي إن شاء الله تعالى أيضاً ما يؤيده.

---

(١) دير العاقول: بين مدائن كسرى والنعمانية بينه وبين بغداد خمسة عشر فرسخاً. معجم البلدان ٢/ ٥٢٠.

(٢) التكرور: بلاد تنسب إلى قبيل من السودان في أقصى جنوب المغرب وأهلها أشبه الناس بالزنوج. معجم البلدان ٢/ ٣٨.

(٣) البيت في شروح سقط الزند ٢/ ٧٢٠.

(٤) هذا البيت لابن الرومي وهو في ديوانه ٣/ ١١٤٤.
والشطر الثاني منه: وإن تعِبْ قلت ذا قَيء الزنابير
وجاء في (م): هذا محجاج. والمثبت من الأصل والمصدر.
وفي هامش الأصل: وإن ذممت فقل قيء الزنابير.

﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ﴾ أي: طُرُقه سبحانه راجعةً إلى بيوتك بعد الأكل، فالمراد بالسُّبل مسالِكُها في العَوْد، ويُحكى أنها ربما أَجدبَ عليها ما حولها فانتجعتِ الأماكنَ البعيدةَ للمرعى، ثم تعودُ إلى بيوتها لا تَضلُّ عنها.

وفي إضافة السبل إلى الربِّ المضافِ إلى ضميرها إشارةٌ إلى أنه سبحانه هو المهيِّئُ لذلك والميسِّرُ له والقائم بمصالحها ومعايشها.

وقيل: المرادُ من السُّبل طُرقُ الذهاب إلى مظانٍّ ما تأكل منه، وحينئذٍ فمعنى «كلي» اقصدي الأكل.

وقيل: السُّبلُ مجازٌ عن طُرق العمل وأنواعها، أي: فاسلكي الطُّرقَ التي أَلهمكِ ربُّك في عمل العسل.

وقيل: مجازٌ عن طُرق إحالة الغذاء عَسَلاً.

و«اسلكي» متعدٍّ من سَلَكْتُ الخيطَ في الإبرة سَلْكاً، لا لازمٌ من سَلَكَ في الطريق سُلوكاً، ومفعوله محذوفٌ، أي: فاسلكي ما أكلتِ في مسالكه التي يستحيلُ فيها بقدرته النَّوْرُ[1] المرُّ عَسَلاً من أجوافك.

وتُعقِّبَ بأنَّ السَّلْك في تلك المسالك ليس فيه لها اختيارٌ حتى تُؤمَرَ به، فلا بدَّ أن يكونَ الأمرُ تكوينيًّا، وَرُدَّ بأنه ليس بشيءٍ؛ لأنَّ الإدخال باختيارها فلا يضرُّهُ كونُ الإحالة المترتِّبةِ عليه ليست اختياريةً، وهو ظاهرٌ، فليس كما زُعم.

﴿ذُلُلًا﴾ أي: مُذَلَّلَةً، ذَلَّلها الله تعالى وسهَّلها لك، فهو جَمْعُ: ذلولٍ، حالٌ من السُّبل، وروي هذا عن مجاهد.

وجعل ابنُ عبد السلام وَصْفَ السُّبل بالذُّلل دليلاً على أنَّ المرادَ بالسُّبل مسالكَ الغذاء، لا طُرُقَ الذهاب أو الإياب، قال: لأنَّ النحلَ تذهبُ وتؤوبُ في الهواء، وهو ليس طرقاً ذُللاً؛ لأنَّ الذَّلول هو الذي يُذَلَّلُ بكثرةِ الوطءِ، والهواءُ ليس كذلك. وفيه نظر.

وقال قتادة: أي: مطيعةً منقادةً، فهو حالٌ من الضمير في «فاسلكي».

---

(١) النَّوْر: هو الزهر. القاموس المحيط (نور).

﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا﴾ استئنافٌ عُدِلَ به عن خطاب النحل إلى الكلام مع الناس لبيان ما يظهرُ منها من تعاجيب صُنْعِ الله تعالى التي هي موضعُ عبرتهم بعد ما أُمرتْ بما أُمرتْ.

﴿شَرَابٌ﴾ يعني: العسل، وسُمِّيَ بذلك لأنه مما يُشْرَبُ حتى قيل: إنه لا يقال: أكلتُ عَسَلاً، وإنما يقال: شَربتُ عَسَلاً، وكأنه سبحانه إنما لم يُعبِّرْ بالإخراج مُسنَداً إليه تعالى اكتفاءً بإسناد الإيحاء بالمَبادي إليه جلَّ شأنه، وفيه إيذانٌ بعظيم قُدْرته عزَّ وجلَّ بحيثُ إنَّ ما يُشعرُ بإرادة الشيءِ كافٍ في حصوله.

و«من» لابتداء الغاية، وذَكَرَ سبحانه مبدأَ الغاية الأولى وهي البطون، ولم يَذْكر سبحانه مبدأ الغاية الأخيرة. والجمهور على أنه يخرجُ من أفواهها، وزَعَمَ بعضُهم أنه أبلغُ في القدرة، وبيَّتَ الحريريُّ على ذلك[١]، وكذا قولُ الحسن: لُبابُ البُرِّ بِلُعابِ النَّحل بخالص السَّمْن ما عابَهُ مسلم.

وقيل: من أدبارها، وهو ظاهرُ ما روي عن يَعْسوب المؤمنين كرَّم الله تعالى وجهه.

وقال آخرون: لا ندري إلا ما ذكره الله تعالى. وحكي أنَّ سليمان عليه السلام والإسكندر وأرسطو صنعوا لها بيوتاً من زجاج لينظروا إلى كيفية صنيعها، وهل يخرجُ العسلُ من فِيها أم من غيره، فلم تضعْ[٢] من العسل شيئاً حتى لَطَّخت باطنَ الزجاج بالطين بحيثُ يمنع المشاهدة.

وقال بعضُهم: المرادُ بالبطون الأفواه، وسُمِّيَ الفمُ بَطْناً لأنه في حُكْمه، ولأنه مما يُبطَنُ ولا يُظْهَر، وهذا تأويلُ مَنْ ذَهَبَ إلى أنها تلتقطُ الذرَّات الصغيرة من الطَّلِّ وتدَّخرها في بيوتها وهو العسل. وأنت تعلم أنَّ الظاهرَ من البطن الجارحةُ المعروفةُ، فالآيةُ تؤيِّد القولَ المشهورَ في تكوُّنِ العسل.

وفي «الكشف» أنَّ في قوله تعالى: (ثُمَّ كُلِي) إشارةٌ إلى أنَّ لِمَعِدَةِ النحل في ذلك تأثيراً. وهو المختارُ عند المحقِّقين من الحكماء، ومَنْ جَعَلَ العَسَلَ نباتيًّا مَحْضاً

---

(١) أي: في شعره السالف قريباً.

(٢) في الأصل: تصنع. والمثبت من (م) والبحر المحيط ٥/ ٥١٣ والكلام منه.

وفسَّر البطونَ بأفواه النحل، فليتَ شعري ماذا يصنعُ بقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ كُلِي﴾! وأُجيب بأنه يفسِّرُ الأكلَ بالالتقاط، وهو كما ترى، إن دُفع الفسادُ لا يُدفعُ الاستبعاد.

ومن الناس مَنْ زَعَمَ أنها تجتني زهرًا وطَلًّا، فالمجتنى من الزهر نفسِهِ يكونُ عَسَلاً، والمجتنى من الطَّلِّ يكون مُوماً(١)، والعقلُ يُجوِّزُ العكسَ، ولعلَّه أقربُ من ذلك.

﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ بالبياض والصُّفرة والحمرة والسواد، إما لمحضِ إرادة الصانع الحكيم جلَّ جلاله، وإما لاختلاف المرعى، أو لاختلاف الفصل، أو لاختلاف سِنِّ النحل، فالأبيضُ لِفَتيِّها، والأصفرُ لِكَهْلِها، والأحمرُ لِمُسِنِّها، والأسود للطَّاعن في ذلك جدًّا.

وتُعقِّب بأنه مما لا دليلَ عليه، وقد سألتُ جَمْعاً ممن أثقُ بهم قد اختبروا أحوالها، فذكروا أنهم قد استقرؤوا وسَبروا فرأوا أقوى الأسباب الظاهرة لاختلاف الألوان اختلافُ السِّنِّ، بل قال بعضهم: ما عَلِمنا لذلك سبباً إلا هذا بالاستقراء، وحينئذٍ يكونُ ما ذُكر مؤيِّداً للقول المشهور في تكوُّنِ العسل كما لا يخفى على مَنْ له أدنى ذوق.

﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ إما بنفسه كما في الأمراض البَلغمية، أو مع غيره كما في سائر الأمراض؛ إذ قلَّما يكونُ معجونٌ لا يكونُ فيه عَسَلٌ، فله دَخْلٌ في أكثر ما به الشفاء من المعاجين والتراكيب، وقيل عليه: إنَّ دخوله في ذلك لا يقتضي أن يكونَ له دخلٌ في الشفاء، بل عدم الضرر؛ إذ قيل: إنَّ إدخاله في التراكيب لحفظها، ولذا نابَ عنه في ذلك السُّكَّر، والذي رأيناه في كثيرٍ من كُتب الطِّبِّ أنه يحفظ قوى الأدوية طويلاً ويبلِّغها منافعها، ولا يخفى على المنصف أنَّ ما يَحفظُ القُوى ويبلغُ منافعَ الدواء يَصْدُقُ عليه أنَّ له دخلاً في الشفاء، ولم يَشتهر أنَّ السُّكَّر ينوبُ منابه في ذلك.

وفي «البحر» أنَّ العسل موجودٌ كثيراً في أكثر البلاد، وأما السكر فمختصٌّ به

---

(١) الموم: الشمع. القاموس المحيط (موم).

بعضُ البلاد، وهو مُحدَثٌ مصنوعٌ للبشر، ولم يكنْ فيما تقدَّمَ من الأزمان يُجعل في الأدوية والأشربة إلا العسل[١].

وفي «شرح الشمائل» أنه عليه الصلاة والسلام لم يأكل السكر، وذكر غيرُ واحدٍ أنه ليس المرادُ بالناس هنا العموم؛ لأنَّ كثيراً من الأمراض لا يدخلُ في دوائها العسل؛ كأمراض الصَّفراء، فإنه مُضرٌّ للصَّفراوي، ولو يُسلَّم أنَّ السَّكَنْجَبين ـ الذي هو خَلٌّ وعسلٌ كما يُنبئُ عنه أصلُ معناه ـ نافعٌ له، والنافعُ نوعٌ آخرُ من السَّكَنْجَبين، فإنه نُقل إلى ما رُكِّبَ من حامض وحلو، وله أنواعٌ كثيرةٌ أُلِّفتْ في جَمْعها الرسائلُ، حتى قالوا بحرمة تناوله عليه، وإنما المرادُ بالناس الذين ينجعُ العسلُ في أمراضهم.

والتنوينُ في «شفاءٌ» إما للتعظيم، أي: شفاءٌ أيُّ شفاء، وإما للتبعيض، أي: فيه بعضُ الشفاء، فلا يقتضي أنَّ كلَّ شفاءٍ به، ولا أنَّ كلَّ أحدٍ يستشفي به.

ولا يرد أنَّ اللبنَ أيضاً كذلك، بل قلَّما يُوجدُ شيءٌ من العقاقير إلا وفيه شفاءٌ للناس بهذا المعنى لما قيل: إنَّ التنصيصَ على هذا الحكم فيه لإفادة ما يكادُ يُستَبعدُ من اشتمال ما يخرجُ على اختلاف ألوانه من هذه الدودة التي هي أشبهُ شيءٍ بذوات السُّموم، ولعلَّها ذاتُ سُمٍّ أيضاً، فإنها تلسعُ وتؤلمُ، وقد يَرِمُ الجلد من لَسْعها، وهو ظاهرٌ في أنها ذاتُ سُمٍّ على شفاء للناس.

ويُفهم من ظاهر بعض الآثار أنَّ الكلامَ على عمومه، فقد أخرج حميد بن زنجويه[٢] عن نافعٍ أنَّ ابنَ عمر رضي الله عنهما كان لا يشكو قَرْحةً ولا شيئاً إلا جعل عليه عسلاً حتى الدُّمَّل إذا كان به طلاه عَسَلاً، فقلنا له: تُداوي الدُّمَّلَ بالعسل؟! فقال: أليس الله تعالى يقول: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾.

وأنت تعلم أنه لا بأسَ بمداواة الدُّمَّل بالعسل، فقد ذكر الأطباءُ أنه يُنقِّي الجروحَ ويدملُ ويأكلُ اللَّحم الزائد. والحقُّ أنه لا مساغَ للعموم؛ إذ لا شكَّ في وجود مرضٍ لا ينفع فيه العسل، والآثارُ المشعرةُ بالعموم الله تعالى أعلم بصحَّتها.

(١) البحر المحيط ٥/ ٥١٣.

(٢) كما في الدر المنثور ٤/ ١٢٣.

وأما ما أخرجه أحمدُ والبخاريُّ ومسلم وابن مردويه عن أبي سعيد الخدريِّ أنَّ رجلاً أتى رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنَّ أخي استطلقَ بَطْنُه، فقال: «اسْقِهِ عَسَلاً»، فسقاه عَسَلاً، ثم جاء فقال: سقيتُهُ عَسَلًا فما زادهُ إلا استطلاقاً، قال: «اذهبْ فاسْقِهِ عَسَلاً»، فسقاهُ عَسَلاً، ثم جاء فقال: ما زاده إلا استطلاقاً، فقال رسول الله ﷺ: «صَدَقَ الله تعالى وكَذَبَ بطنُ أخيك، اذهبْ فاسْقِهِ عَسَلاً» فذهب فسقاه فبرئ[1]. فليس صريحاً في العموم لجواز أن يكونَ عليه الصلاة والسلام قد علَّمه الله سبحانه أنَّ داءَ هذا المستطلق مما يُشفَى بالعسل، فإنَّ بعضَ الاستطلاق قد يُشفى بالعسل، ففي «طبقات الأطباء» أنه إنما قال ﷺ ذلك لأنه علم أنَّ في معدةِ المريض رطوباتٍ لزجة غليظة قد أَزلفتْ معدتَهُ، فكلما مرَّ به شيءٌ من الأدوية القابضة لم يؤثِّر فيها، والرطوباتُ باقيةٌ على حالها، والأطعمة تَزْلَقُ عنها فيبقى الإسهال، فلما تناولَ العسلَ جلا تلك الرطوبات وأَحدرها فكثُر الإسهال أولاً بخروجها، وتوالى ذلك حتى نَفِدَت الرطوبةُ بأَسْرها فانقطعَ إسهاله وبرئ، فقوله ﷺ: «صدق الله تعالى» يعني: بالعلم الذي عرَّف نبيَّه عليه الصلاة والسلام به، وقوله: «كذب بطنُ أخيك» يعني: ما كان يظهرُ من بطنه من الإسهال، وكثرته بطريق العَرَض، وليس هو بإسهالٍ ومرضٍ حقيقيٍّ، فكان بطنه كاذباً. اهـ.

وقال بعضهم: المراد بـ «صدق الله تعالى»: صَدَقَ سبحانه في أنَّ العسلَ فيه الشفاءُ، وقوله عليه الصلاة والسلام: «كَذَبَ بطنُ أخيك» من المشاكلة الضِّدِّية كقولهم: مَنْ طالتْ لحيته تَكَوْسَجَ عقله، وهو على الأول استعارةٌ مبنيةٌ على تشبيه البطن بالكاذب في كون ما ظهر من إسهالها ليس بأمرٍ حقيقيٍّ، وإنما هو لما عَرَضَ لها، وعلى ذلك قول الأطباء: زَحيرٌ[2] كاذبٌ وزَحيرٌ صادقٌ.

وأنكر بعضُهم هذا النوعَ من المشاكلة وقال: إنها ليستْ معروفةً، وإنه إنما عبَّر به لأنَّ بطنهُ كأنه كذَّبَ قولَ الله تعالى بلسان حاله، وهو ناشئٌ من قلة الاطلاع.

وقد وقع نظيرُ هذه القصة في زمن المأمون، وذلك أنَّ ثمامة العبسيَّ ـ وكان من

---

(١) أحمد (١١١٤٦)، والبخاري (٥٦٨٤)، ومسلم (٢٢١٧)، وابن مردويه كما في الدر المنثور ٤/١٢٣.

(٢) الزحير: استطلاق البطن بشدة. القاموس المحيط (زحر).

خواصِّهِ ـ مَرِضَ بالإسهال، فكان يقومُ في اليوم والليلة مئةَ مرة، وعَجَزَ الأطباءُ عن علاجه، فعالجه يزيدُ بن يوحنَّا طبيبُ المأمون بالمسهِّل أيضاً فبرئ، وكان قد ظنَّ الأطباءُ أنه يموتُ بسبب ذلك ولا يبقى لِغَدِهِ، وذكر الطبيبُ حين سأله المأمونُ عن وجه الحكمة فيما فعل، فذكَرَ أنه كان في جوف الرجل كيموسٌ[1] فاسدٌ فلا يدخلهُ غذاءٌ ولا دواءٌ إلا أفسده، فعلمت أنه لا علاج له إلا قَلْعُ ذلك بالإسهال، ومنه يُعلم أنَّ ما فعله النبيُّ ﷺ كان من معجزاته الدالة على علمه بدقائق الطِّبِّ من غير تعليم، وكذا يُعلَمُ أنَّ ما طَعَنَ به بعضُ الملحدين ومَنْ في قلبه مرضٌ من أنه كيف يداوي الإسهالَ بالعسل وهو مسهِّلٌ باتفاقِ الأطباء؛ ناشئٌ عن الجهل بالدقائق وعدم الوقوف على الحقائق.

ونقل عن مجاهد والضحاك والفراء[2] وابن كَيسان ـ وهو روايةٌ عن ابن عباس والحسن ـ أنَّ ضمير «فيه» للقرآن، والمراد أنَّ في القرآن شفاءً لأمراض الجهل والشرك وهدًى ورحمة، واستحسن ذلك ابنُ النحاس[3].

وقال القاضي أبو بكر بن العربي: أرى هذا القولَ لا يصحُّ نقلهُ عن هؤلاء، ولو صَحَّ نقلاً لم يصحَّ عقلاً، فإنَّ سياقَ الكلام كلّه للعسل، ليس للقرآن فيه ذِكْرٌ[4].

ورجوعُ الضمير للكتاب في قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ مما لا يكادُ يقوله أمثالُ هؤلاء الكرام والعلماء الأعلام، نعم كونُ القرآن شفاءً مما لا كلام فيه، وقد أخرج الطبرانيُّ وغيره عن ابن مسعود: عليكم بالشفاءين: العسل والقرآن[5].

---

(١) الكيموس: الخِلْط، سُريانية. القاموس المحيط (كمس).

(٢) في معاني القرآن له ٢/ ١٠٩.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٨٤-٨٥. وينظر تفسير القرطبي ١٢/ ٣٦٧-٣٦٨.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤٦.

(٥) معجم الطبراني الكبير (٩٠٧٦) بلفظ: القرآن والعسل هما شفاءان، من قول ابن مسعود رضي الله عنه. وأخرجه ابن ماجه (٣٤٥٢)، والحاكم ٤/ ٢٠٠، ٤٠٣، والبيهقي ٩/ ٣٤٤ مرفوعاً. قال البيهقي: رفعه غير معروف، والصحيح موقوف. وقال ابن حجر في الفتح ١٠/ ١٧٠: أخرجه ابن ماجه والحاكم مرفوعاً وأخرجه ابن أبي شيبة والحاكم موقوفاً ورجاله رجال الصحيح.

هذا، وقدَّمَ سبحانه الإخبارَ عن إنزال الماء لما أنَّ الماءَ أتمُّ نفعاً وأعظمُ شأناً، وهو أصلٌ أصيلٌ لتكوُّن اللَّبن وما بعده، ثم ذكر اللَّبنَ لأنه يحتاجُ إليه أكثر من غيره مما ذُكر بعده، وقد يُستغنى بشربه عن شرب الماء كما شاهدنا ذلك من بعض متزهِّدي زماننا، فقد تركَ شُرْبَ الماء عدَّةً من السنين مكتفياً بشرب اللبن، وسمعنا نحو ذلك عن بعض رؤساء الأعراب، وهو الدليلُ على الفطرة، ولذلك اختاره ﷺ حين أسري به وعُرض عليه مع الخمر والعسل[1]. ثم الخمرُ لأنها أقربُ إلى الماء من العسل، فإنها ماءُ العنب ولم يُعهدْ جَعْلُها إداماً كالعسل، فإنه كثيراً ما يُؤدَمُ به الخبزُ ويؤكل، وبينها وبين اللبن نوعُ مشابهةٍ من حيث إنَّ كلًّا منهما يخرج من بين أجزاءٍ كثيفةٍ وما أشبه ثُفله بالفرث، وإذا لوحظ السَّوغُ في اللَّبن وعدمُهُ في الخمر بناءً على ما يقولون: إنها ليست سهلةَ المرور في الحلق، ولذا يُقطِّبُ شاربُها عند الشرب وقد يغصُّ بها = كان بينهما نوعٌ من التضادِّ، ويحسنُ إيقاعُ الضِّدِّ بعد الضِّدِّ كما يحسُنُ إيقاعُ المثل بعد المثل، وإذا لوحظ مآلُ أمرهما شرعاً رأيتَ أنَّ الخمرَ لم يَسُغْ شربُها بعد نزول الآية فيه، وشُربُ اللبن لم يزلْ سائغاً، وبذلك يقوى التضاد، ويقوِّيه أيضاً أنَّ اللبنَ يخرجُ من بطن حيوانٍ ولا دَخْلَ لعمل البشر فيه، والخمرُ ليست كذلك.

وأما ذِكْرُ الرزق الحسن بعد الخمر وتقديمُه على العسل فالوجهُ فيه ظاهرٌ جدًّا، ولعلَّ ما اعتبرناه في وجه تقديم الخمر على العسل وذكرهُ بعد اللَّبن أقوى مما يصحُّ اعتباره في العسل وجهاً لتقديمه على الخمر وذكره بعد اللبن، فلا يردُ أنَّ في كلِّ جهةٍ تقديماً، فاعتبارها في أحدهما دون الآخر ترجيحٌ بلا مرجِّحٌ.

وقد جاء ذِكْرُ الماء واللبن والخمر والعسل في وَصْفِ الجنة على هذا الترتيب قال تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥] فتأملْ فَلِمَسْلك الذهن اتساعٌ، والله تعالى أعلم بأسرار كتابه.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور من آثار قدرة الله تعالى ﴿لَأيَةً﴾ عظيمة ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

---

(١) أخرجه أبو عوانة في مسنده ٥/ ٣٢٣ من حديث أنس ﷺ، وأخرجه أحمد (١٠٦٤٧)، والبخاري (٣٣٩٤)، ومسلم (١٦٨) من حديث أبي هريرة ﷺ دون ذكر العسل.

فإنَّ من تفكَّر في اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والأفعال العجيبة التي مرَّت الإشارةُ إليها، وخروجِ هذا الشراب الحلو المختلف الألوان وتضمُّنه الشفاءَ؛ جَزَمَ قَطْعاً أنَّ لها ربًّا حكيماً قادراً ألهمها ما ألهم وأَودع فيها ما أودع، ولما كان شأنها في ذلك عجيباً يحتاجُ إلى مزيد تأمُّلٍ خَتَمَ سبحانه الآية بالتفكُّر.

ومن بِدَعِ تأويلات الرافضة على ما في «الكشاف» أنَّ المرادَ بالنحل عليٌّ كرَّمَ الله تعالى وجهه وقومه. وعن بعضهم أنه قال عند المهدي: إنما النحلُ بنو هاشم يخرجُ من بطونهم العلمُ، فقال له رجل: جعلَ الله تعالى طعامك وشرابك مما يخرجُ من بطونهم. فضحك المهديُّ وحدَّث به المنصورَ، فاتَّخذوه أضحوكةً من أضاحيكهما[1]. وستسمع إن شاء الله تعالى ما يقوله الصوفية قدَّسَ الله تعالى أسرارهم في باب الإشارة.

ثم إنه سبحانه لمَّا ذكر من عجائب أحوال ما ذكر من الماء والنبات والأنعام والنَّحل، أشارَ إلى بعض عجائبِ أحوال البشر من أول عمره إلى آخره وتطوُّراته بين ذلك فقال عزَّ قائلاً:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ حسبما تقتضيه مشيئته تعالى المبنية[2] على الحِكَم البالغة بآجالٍ مختلفة، والقرينةُ على إرادة ذلك قوله سبحانه: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ ولذا قيل: إنه معطوفٌ على مقدَّرٍ، أي: فمنكم من تُعجَّل وفاته ومنكم.. إلخ. و«أرذل العمر» أخسُّه وأحقره، وهو وقتُ الهرم الذي تنقص فيه القوى وتفسدُ الحواسُّ، ويكون حالُ الشخص فيه كحاله وقت الطفولية من ضَعْفِ العقل والقوة، ومن هنا تُصوِّرَ الردُّ، فهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ [يس: ٦٨] ففيه مجاز.

وأخرج ابنُ جريرٍ عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنَّ «أرذل العمر» خمسٌ وسبعون سنة[3]. وعن قتادة أنه تسعون، وقيل: خمسٌ وتسعون، واختار جمعٌ تفسيره بما سبق، وهو يختلفُ باختلاف الأمزجة، فَرُبَّ مُعمَّرٍ لم تنتقصْ قواهُ، ومُنْتَقَصٍ

(١) الكشاف ٢/ ٤١٨.
(٢) في الأصل: المنبئة.
(٣) تفسير الطبري ١٤/ ٢٩٢.

القوى لم يُعمَّر، ولعلَّ التقييدَ بسنٍّ مخصوصٍ مبنيٌّ على الأغلب عند من قيَّد.

والخطابُ إن كان للموجودين وقتَ النزول فالتعبيرُ بالماضي والمستقبل فيه ظاهرٌ، وإن كان عامًّا فالمُضِيُّ بالنسبة إلى وقت وجودهم، والاستقبالُ بالنسبة إلى الخلق، وعلى التقديرين الظاهرُ أنَّ «مَنْ يُردُّ إلى أرذل العمر» يعمُّ المؤمنَ مطلقاً والكافر. وقيل: إنه مخصوصٌ بالكافر، والمسلمُ لا يُرَدُّ إلى أرذل العمر لقوله تعالى﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: ٥-٦].

وأخرج ابن المنذر(١) وغيره عن عكرمة أنه قال: من قرأ القرآنَ لم يُرَدَّ إلى أرذل العمر.

والمشاهدةُ تكذِّبُ كلا القولين، فكم رأينا مسلماً قارئ القرآن قد رُدَّ إلى ذلك، والاستدلالُ بالآية على خلافه فيه نظرٌ، وكان من دعائه ﷺ كما أخرجه البخاريُّ وابن مردويه عن أنس: «أعوذُ بك من البخل والكسل، وأرذلِ العمر، وعذاب القبر، وفتنة الدجال، وفتنة المَحيا والمَمَات»(٢).

﴿لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ اللامُ للصيرورة والعاقبة، وهي في الأصل للتعليل، و«كي» مصدريةٌ، والفعلُ منصوبٌ بها، والمنسبكُ مجرور باللام، والجارُّ والمجرورُ متعلقٌ بـ «يُردُّ»، وزعم الحوفيُّ أنَّ اللام لامُ «كي» دخلت على «كي» للتوكيد. وليس بشيء.

والعلم بمعنى المعرفة، والكلامُ كنايةٌ عن غاية النسيان، أي: ليصيرَ نسَّاءً بحيثُ إذا كسبَ علماً في شيءٍ لم يَنشَبْ أن ينساه ويَزِلَّ عنه علمهُ من ساعته، يقول لك: من هذا؟ فتقول: فلانٌ، فما يلبثُ لحظةً إلا سألك عنه.

وقيل: المراد: لئلَّا يعلمَ زيادةَ علم على علمه، وقيل: لئلَّا يَعقِلَ من بعد عَقْله الأول شيئاً، فالعلمُ بمعنى العقل لا بمعناه الحقيقي كما في سابقه، وفيه دلالة على وقوفه، وأنه لا يقدرُ على علم زائد، والوجهُ المعتمد الأول.

---

(١) كما في الدر المنثور ٤/ ١٢٣، وأخرجه - أيضاً - ابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢٢٩٠.

(٢) صحيح البخاري (٤٧٠٧)، وابن مردويه كما في الدر المنثور ٤/ ١٢٣. وهو عند مسلم (٢٧٠٦) (٥٢).

ونصب «شيئاً» على المصدرية أو المفعولية، وجُوِّز فيه التنازُعُ بين «يعلمُ» و«عِلم» وكون مفعول «عِلْم» محذوفاً لقَصْدِ العموم، أي: لا يعلمُ شيئاً ما بعد علم أشياء كثيرة.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بكلِّ شيءٍ، ومن ذلك وجهُ الحكمة في الخلق والتوفِّي والردِّ إلى أرذل العمر.

﴿قَدِيرٌ ۝٧٠﴾ على كلِّ شيءٍ، ومنه ما يشاؤه سبحانه من ذلك، وقيل: «عليمٌ» بمقادير أعماركم «قديرٌ» على كلِّ شيءٍ يُميتُ الشابَّ النشيطَ ويُبقي الهرم الفاني، وفيه تنبيهٌ على أنَّ تفاوتَ الآجال ليس إلا بتقدير قادرٍ حكيم ركب[1] الأبنيةَ وعدَّل الأمزجة على قَدَرٍ معلوم، ولو كان ذلك مقتضى الطبائع لما بلَغ هذا المبلغ.

وقيل: إنه تعالى لما ذَكَرَ ما يَعرِضُ في الهرم من ضَعْفِ القوى والقدرة وانتفاء العلم، ذَكَرَ أنه جلَّ شأنه مستمرٌّ على العلم الكامل والقدرة الكاملة، لا يتغيَّران بمرور الأزمان كما يتغيَّرُ علم البشر وقدرتهم، ويفيدُ الاستمرارَ الجملةُ الاسمية، والكمالُ صيغة فَعيل، وقدَّم صفةَ العلم لتجاوز انتفاء العلم عن المخاطبين مع أنَّ تعلُّقَ صفة العلم بالشيء أوَّلَ لتعلُّق[2] صفة القدرة به، ولا يخفى عليك ما هو الأولى من الثلاثة. فتدبر.

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ أي: جعلكم متفاوتين فيه، فأعطاكم منه أفضل مما أعطى مماليككم.

﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا﴾ فيه على غيرهم وهم المُلَّاك ﴿بِرَادِّي﴾ أي: بمعطي ﴿رِزْقِهِمْ﴾ الذي رزقهم إياه ﴿عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ على مماليكهم الذين هم شركاؤهم في المخلوقية والمرزوقية ﴿فَهُمْ﴾ أي: المُلَّاكُ الذين فُضِّلوا والمماليكُ ﴿فِيهِ﴾ أي: في الرزق ﴿سَوَاءٌ﴾ لا تَفاضُلَ بينهم، والجملةُ الاسميةُ واقعةٌ موقعَ فِعلٍ منصوبٍ في جواب النفي، أي: لا يردُّونه عليهم فيستووا فيه ويشتركوا. وجُوِّزَ أن

---

(١) في الأصل و(م): رتب. والمثبت من تفسير أبي السعود ٥/ ١٢٧، وتفسير البيضاوي ٣/ ١٨٦ والكلام فيهما.

(٢) في (م): لتعلقه.

تكونَ في تأويل فِعلٍ مرفوعٍ معطوفٍ على قوله تعالى: ﴿بِرَآدِّي﴾ أي: لا يردُّونه عليهم فلا يستوون. والمراد بذلك توبيخُ الذين يشركون به سبحانه بعضَ مخلوقاته، وتقريعُهم والتنبيهُ على كمال قُبْحِ فعلهم، كأنه قيل: إنكم لا ترضون بشِرْكَةِ عبيدكم لكم بشيءٍ لا يختصُّ بكم، بل يعمُّكم وإياهم من الرزق الذي هم أسوةٌ لكم في استحقاقه، وهم أمثالكم في البشرية والمخلوقية لله عزَّ سلطانه، فما بالكم تشركون به سبحانه وتعالى فيما لا يليقُ إلا به جلَّ وعلا من الألوهية والمعبودية الخاصة بذاته تعالى لذاته بعضَ مخلوقاته الذي هو بمعزلٍ عن درجة الاعتبار، وهو على ما صرَّح به جماعة على شاكلة قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ [الروم: ٢٨] يعنونَ بذلك أنه مَثَلٌ ضُرِبَ لكمال قباحة ما فعلوه، وفي قوله تعالى: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾ قرينةٌ ـ كما قيل ـ على ذلك، وكذا في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾.

والهمزةُ للإنكار، والفاءُ للعطف على مقدَّرٍ وهي داخلةٌ في الحقيقة على الفعل، أعني «يجحدون» ولتضمُّنِ الجحود معنى الكفر جيءَ بالباء في معموله المقدَّم عليه للاهتمام أو لإيهام الاختصاص مبالغةً أو لرعاية رؤوس الآي.

والمراد بالنعمة، قيل: الرزقُ، وقيل ـ ولعله الأولى ـ: ما يشمله وغيره من النِّعَم الفائضة عليهم منه سبحانه، أي: يشركون به تعالى فيجحدون نعمته تعالى حيث يفعلون ما يفعلون من الإشراك، فإنَّ ذلك يقتضي أن يُضيفوا ما أُفيض عليهم من الله تعالى من النِّعَم إلى شركائهم، ويجحدوا كونَها من عنده جلَّ وعلا، وجُوِّزَ كونُ المرادِ بنعمة الله تعالى ما أنعم سبحانه به من إقامة الحجج وإيضاح السُّبل وإرسال الرسل عليهم السلام، ولا نعمةَ أَجَلُّ من ذلك، فمعنى جحودهم ذلك إنكاره وعدمُ الالتفات إليه، وصيغةُ الغَيبة لرعاية «فما الذين».

وقرأ أبو بكر عن عاصم وأبو عبد الرحمن والأعرج بخلافٍ عنه: «تجحدون» بالتاء على الخطاب رعايةً لبعضكم[١].

هذا، وجُوِّزَ أن يكون معنى الآية: إنَّ الله تعالى فضَّل بعضاً على بعضٍ في

(١) التيسير ص١٣٨، والنشر ٢/ ٣٠٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٠٧، والبحر المحيط ٥/ ٥١٥.

الرزق، وأنَّ المفضَّلين لا يردُّون من رزقهم على من دونهم شيئاً، وإنما أنا رازقهم، فالمالك والمملوك في أصل الرزق سواء وإن تفاوتا كمًّا وكيفاً، والمراد النهيُ عن الإعجاب والمنّ اللَّذين هما مقدِّمتا الكفران.

والعطفُ على مقدَّرٍ أيضاً، أي: أيعجبون ويمنُّون فيجحدون نعمةَ الله تعالى عليهم، وقيل: التقدير ألا يفهمونَ فيجحدون.

واختار في «الكشاف» أنَّ المعنى أنه سبحانه جعلكم متفاوتين في الرزق، فرزقكم أفضل مما رزقَ مماليككم وهم بشرٌ مثلكم وإخوانكم، وكان ينبغي أن تردُّوا فَضْلَ ما رُزقتموه عليهم حتى تتساووا[1] في الملبس والمطعم كما يحكى عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنما هم إخوانكم فاكسوهم مما تَلبَسون وأَطعموهم مما تَطْعَمون» فما رُئيَ عبدهُ بعد ذلك إلا ورداؤه رداؤه وإزاره إزاره من غير تفاوت[2].

وحاصله أنَّ الله تعالى فضَّلكم على أمثالكم، فكان عليكم أن تردُّوا من ذلك الفضل عليهم شكراً لنعمته تعالى لتكونوا سواءً في ذلك الفضل، ويبقى لكم فضلُ الإفضال والتفضُّل، فالآيةُ حَثٌّ على حُسْن الملَكَة، وأُدمج أنهم وعبيدُهم مربوبون بنعمته تعالى ورزقه، لا يعرفون ذلك مع تقلُّبهم فيها ليكون تمهيداً لكفرانهم نعمه سبحانه السوابغ إلى أن جعلوا له عزَّ وجلَّ أنداداً لا تملكُ لنفسها ضرًّا ولا نفعاً، فعبدوها عبادته تعالى أو أشدَّ وأسدَّ، وفي ذلك من البعد ما فيه، والعطفُ فيه على مقدَّرٍ أيضاً كـ: ألا يعرفون ذلك فيجحدون.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: من جنسكم ونوعكم، وهو مجازٌ في ذلك، والأشهرُ من معاني النفسِ الذاتُ، ولا يستقيمُ هنا كغيره، فلذا ارتكبَ المجاز وهو إما في المفرد أو الجمع، واستدلَّ بذلك بعضُهم على أنه لا يجوز للإنسان أن ينكحَ من الجنِّ. ﴿أَزْوَٰجًا﴾ لتأنسوا بها وتقيموا بذلك مصالحكم ويكون أولادكم أمثالكم.

---

(١) في الأصل: تساوون، وفي (م): تساووا. والمثبت من الكشاف.
(٢) الكشاف ٢/٤١٨-٤١٩. والحديث أخرجه مسلم (١٦٦١).

وأخرج غيرُ واحدٍ عن قتادة أنَّ هذا خَلْقُ آدم وحواء عليهما السلام، فإنَّ حواءَ خُلقتْ من نفسه عليه السلام.

وتُعقِّب بأنه لا يلائمه جَمْعُ الأنفس والأزواج، وحَمْلُهُ على التغليب تكلُّفٌ غيرُ مناسبٍ للمقام، وكذا كونُ المراد منهما بعض الأنفس وبعض الأزواج.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ أي: منها، فَوَضَعَ الظاهرَ موضعَ الضمير للإيذان بأنَّ المرادَ: جعلَ لكلٍّ منكم من زَوْجه لا من زوج غيره ﴿بَنِينَ﴾ وبأنَّ نتيجةَ الأزواج هو التوالد.

﴿وَحَفَدَةً﴾ جمعُ حافدٍ ككاتبٍ وكَتَبة، وهو من قولهم: حَفَدَ يَحْفِدُ حَفْداً وحُفوداً وحَفَداناً إذا أسرعَ في الخدمة والطاعة، وفي الحديث: «إليك نسعى ونحْفِد»[1] وقال جميل:

حَفَدَ الولائدُ حولهنَّ وأُسلِمَتْ ... بأكفِّهنَّ أَزِمَّةُ الأجمالِ[2]

وقد وردَ الفعلُ لازماً ومتعدِّياً كقوله:

يَحفِدونَ الضيفَ في أبياتهم ... كَرَماً ذلك منهم غيرَ ذُلّ[3]

وجاء في لغة ـ كما قال أبو عبيدة[4] ـ أَحْفَدَ إحفاداً، وقيل: الحَفْد: سرعة القَطْع، وقيل: مقاربةُ الخطو.

---

(١) أخرجه أبو داود في المراسيل (٨٩)، والبيهقي ٢/ ٢١٠ من حديث خالد بن أبي عمران مرسلاً. قال البيهقي: هذا مرسل، وقد روي عن عمر بن الخطاب ﵁ صحيحاً موصولاً. وأخرجه مطولاً عنه.

(٢) لم نقف عليه في ديوان جميل. وهو منسوب لجميل أيضاً في مجاز القرآن ١/ ٣٦٤، وتفسير الطبري ١٤/ ٣٠٢، والنكت والعيون ٣/ ٢٠٢. ونسبه ابن دريد في الجمهرة ٢/ ١٢٣ إلى الفرزدق، وأبو عبيد الهروي في غريب الحديث ٣/ ٣٧٤ إلى الأخطل، والطبراني في الكبير (١٠٥٩٧) ١٠/ ٢٥٠ إلى أمية بن أبي الصلت، ونسبه القرطبي في تفسيره ١٢/ ٣٧٩ لكثيِّر، ولم نقف عليه في دواوينهم.

(٣) البيت في تفسير الماوردي ٣/ ٢٠٢ منسوباً لطرفة بن العبد وليس في ديوانه، وهو في البحر المحيط ٥/ ٥٠٠، والدر المصون ٧/ ٢٦٥ دون نسبة.

(٤) كذا في الأصل و(م) والبحر ٥/ ٥٠٠ (والكلام منه): أبو عبيدة. والصواب أبو عبيد، والكلام في غريب الحديث له ٣/ ٣٧٥.

والمراد بالحَفَدة ـ على ما روي عن الحسن والأزهريِّ، وجاء في روايةٍ عن ابن عباس واختاره ابن العربي[(١)] ـ أولادُ الأولاد، وكونهم من الأزواج حينئذٍ بالواسطة.

وقيل: البنات، عبَّر عنهنَّ بذلك إيذاناً بوجه المِنَّة، فإنهنَّ في الغالب يخدمنَ في البيوت أتمَّ خِدْمة.

وقيل: البنون، والعطفُ لاختلاف الوصفين البنوَّةِ والخدمة، وهو منزَّلٌ منزلةَ تغاير الذات، وقد مرَّ نظيره، فيكونُ ذلك امتناناً بإعطاء الجامع لهذين[(٢)] الوصفين الجليلين، فكأنه قيل: وجعل لكم منهنَّ أولاداً هم بنونَ وهم حافدون، أي: جامعون بين هذين الأمرين، ويقرب منه ما روي عن ابن عباس من أنَّ البنينَ صغارُ الأولاد، والحَفَدة كبارهم، وكذا ما نقل عن مقاتل من العكس، وكأنَّ ابنَ عباسٍ نظرَ إلى أنَّ الكبارَ أقوى على الخدمة فهم أحقُّ بهذا الوصف، ومقاتلٌ نظر إلى أنَّ الصغارَ أقربُ للانقياد لها وامتثال الأمر بها، واعتبر الحَفْدَ بمعنى مقاربة الخَطْو[(٣)].

وقيل: أولاد المرأة من الزوج الأول، وأخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس[(٤)].

وأخرج الطبرانيُّ والبيهقيُّ في سننه، والبخاريُّ في تاريخه، والحاكم وصحَّحه عن ابن مسعود أنهم الأختان[(٥)]، وأُريد بهم ـ على ما قيل ـ أزواجُ البنات، ويقال لهم: أصهار، وأنشدوا:

---

(١) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ٣٠١، وتهذيب اللغة ٤/ ٤٢٨، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥١.

(٢) في (م): لهذه.

(٣) في (م): الخط.

(٤) تفسير الطبري ١٤/ ٣٠٢-٣٠٣، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٩٢.

(٥) معجم الطبراني الكبير (٩٠٨٨) و(٩٠٨٩)، وسنن البيهقي ٧/ ٧٧، وتاريخ البخاري (٢٠٠٦)، والمستدرك ٢/ ٣٥٥.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٤٨: فيه عاصم بن أبي النجود، وهو حسن الحديث وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح.

فلو أنَّ نفسي طاوعتني لأصبحتْ لـهـا حَـفَـدٌ مـمـا يُـعَـدُّ كـثـيـرُ
ولـكـنـهـا نـفـسٌ عـلـيَّ أَبـيَّـةٌ عيوني لأصهار اللئام تدورُ(١)

والنصبُ على هذا بفعلٍ مقدَّرٍ، أي: وجعلَ لكم حَفَدَةً، لا بالعطف على «بنين» لأنَّ القيدَ إذا تقدَّم يُعلَّقُ بالمتعاطفَين، وأزواجُ البنات ليسوا من الأزواج.

وضُعِّف بأنه لا قرينةَ على تقدير خلاف الظاهر، وفيه دغدغةٌ لا تخفى.

وقيل: لا مانع من العَطْف بأن يُرادَ بالأختان أقاربُ المرأة؛ كأبيها وأخيها، لا أزواجُ البنات، فإنَّ إطلاقَ الأختان عليه إنما هو عند العامة، وأما عند العرب فلا كما في «الصحاح»(٢)، وتجعل «من» سببية، ولا شكَّ أنَّ الأزواجَ سببٌ لجعل الحَفَدة بهذا المعنى، وهو كما ترى.

وتُعقِّبَ تفسيرهُ بالأختان والربائب بأنَّ السياقَ للامتنان، ولا يُمتَنُّ بذلك.

وأجيب بأنَّ الامتنانَ باعتبار الخدمة، ولا يخفى أنه مصحِّحٌ لا مرجِّحٌ.

وقيل: الحَفَدةُ هم الخدم والأعوان، وهو المعنى المشهور له لغة. والنصبُ أيضاً بمقدَّرٍ أي: وجعلَ لكم خَدَماً يَحفِدون في مصالحكم ويعينونكم في أموركم.

وقال ابن عطيةَ بعد نَقْلِ عدَّة أقوالٍ في المراد من ذلك: وهذه الأقوالُ مبنيةٌ على أنَّ كلَّ أحدٍ جعلَ له من زوجته بنونَ وحَفَدة، ولا يخفى أنه باعتبار الغالب، ويحتملُ أن يُحمَلَ قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ على العموم والاشتراك، أي: جعل من أزواج البشر البنينَ والحَفَدةَ، ويستقيمُ على هذا إجراءُ الحَفَدة على مجراها في اللغة؛ إذ البشر بجملتهم لا يستغني أحدهم عن حَفَدة(٣).

وحينئذٍ لا يُحتاج إلى تقديرٍ، لكن لا يخفى أنَّ فيه بُعداً، وتأخيرُ المنصوب في الموضعين عن المجرور لما مرَّ غيرَ مرَّةٍ من التشويق، وتقديمُ المجرور باللام على

---

(١) البيتان للصحابي الجليل النعمان بن بشير الأنصاري، وهما في ديوانه ص١٠٢، والبيت الثاني فيه:
ولـكـنـهـا نـفـسٌ عـلـيَّ كـريـمـةٌ عـيـوفٌ لأصـهـار الـلـئـام قـذور

(٢) مادة: (ختن).

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٠٨.

المجرور بـ «من» للإيذان من أول الأمر بعَوْد منفعة الجَعْل إليهم إمداداً للتشويق وتقويةً له.

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ أي: اللذائذ، وهو معناها اللُّغوي، وجُوِّزَ أن يُرادَ بالطَّيِّب ما هو متعارَفٌ في لسان الشرع وهو الحلال. وتعقَّبه أبو حيان بأنَّ المخاطَبين بهذا الكفارُ، وهم لا شَرْعَ لهم(١). فتفسيره بذلك غير ظاهر.

وأجيب بأنهم مكلَّفون بالفروع كالأصول فيوجد في حَقِّهم الحلالُ والحرام، وأيضاً هم مرزوقون بكثيرٍ من الحلال الذي أكلوا بعضَه، ولا يلزمُ اعتقادهم للحِلِّ ونحوه.

و«من» للتبعيض؛ لأنَّ ما رُزقوه بعضٌ من كلِّ الطيبات، فإنَّ ما في الدنيا منها بأَسْره أُنموذجٌ لما في الآخرة؛ إذ فيها ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خَطَرَ على قلب بشر، وما في الدنيا لم يصلْ كثيرٌ منه إليهم.

والظاهر على ما ذكرنا عمومُ الطيبات للنبات والثمار والحبوب والأشربة والحيوان، وقيل: المراد بها ما أُتي من غير نَصَبٍ، وقيل: الغنائم، وليس بشيء.

﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ﴾ وهو منفعةُ الأصنام وبركتُها، وما ذاك إلا وهمٌ باطلٌ لم يتوصَّلوا إليه بدليلٍ ولا أمارة، والجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ وقُدِّمَ للحَصْر، فيفيد أن ليس لهم إيمانٌ إلا بذلك، كأنه شيءٌ معلومٌ مستيقنٌ.

﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ المشاهدة المعاينة التي لا شبهةَ فيها لذي عَقْلٍ وتمييز مما ذكر ومما لا تحيط به دائرة البيان. ﴿هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ أي: يستمرُّون على الكفر بها والإنكار لها، كما يُنكَر المُحالُ الذي لا تتصوره(٢) العقول، وذلك بإضافتها إلى أصنامهم. وقيل: الباطلُ ما يُسوِّل لهم الشيطان من تحريم البَحيرة والسائبة وغيرهما، ونعمةُ الله تعالى ما أُحِلَّ لهم. والآية على هذا ظاهرةُ التعلُّق بقوله سبحانه: (وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ) فقط، دون ما قبله أيضاً، والظاهر تعلُّقها بهما، ومن

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٥١٥.

(٢) في الأصل و(م): لا يتصوره. والمثبت من البحر ٥/ ٥١٦ والكلام منه.

ذلك يظهرُ حال ما أخرجه ابن المنذر[(١)] عن ابن جريج من أنَّ الباطلَ الشيطانُ، ونعمةَ الله تعالى محمدٌ ﷺ، وما ذكرناه قد صرَّح بأكثره الزمخشريُّ[(٢)]. واستفادةُ الحَصْر من التقديم ظاهرةٌ، وأما كأنه شيءٌ معلومٌ مستيقنٌ، فمستفادٌ من حَصْرهم الإيمانَ فيما ذُكر؛ لأنَّ ذلك شأنُ المؤمن به، لاسيما وقد حصروا، وأيضاً المقابلةُ بالمشاهَد المحسوس - أعني نعمةَ الله تعالى - دلَّتْ على تعكيسهم، فيدلُّ على أنهم جعلوا الموهومَ بمنزلة المتيقَّن وبالعكس، والفاء التي للتعكيس شديدةُ الدلالة على هذا الأمر، والحملُ على أنها للعطف على محذوفٍ ليس بالوجه، كذا في «الكشف» وفيه ردٌّ على ما قيل: إنَّ في كلا التركيبين تأكيداً وتخصيصاً، أما التخصيصُ فيهما فمن تقديم المعمول، وأما التأكيد في الأول فلأنَّ الفاءَ تستدعي معطوفاً عليه تقديره: أيكفرون بالحقِّ ويؤمنون بالباطل، والكفرُ بالحقِّ مستلزمٌ للإيمان بالباطل، فقد تكرَّرَ الإيمانُ بالباطل، والتكريرُ يفيدُ التأكيد، وأما التأكيد في الثاني فمن بناء «يكفرون» على «هم» المفيد لِتَقوِّي الحكم، وجُعل كلام الزمخشريِّ مشيراً إلى ذلك كلِّه، فتدبر.

وما ذكر من أنَّ تقديمَ الجارِّ في التركيبين للتخصيص مما صرَّح به غيرُ واحد، والعلَّامةُ البيضاويُّ[(٣)] جوَّزَ ذلك، لكنه أقحمَ الإيهامَ هنا نظيرَ ما فعلناه فيما سلف آنفاً.

ووجهُ ذلك بأنَّ المقامَ ليسَ بمقام تخصيصٍ حقيقةً، إذ لا اختصاص لإيمانهم بالباطل ولا لكفرانهم بنِعَم الله سبحانه، ولم يقحمه في تفسير نظير ذلك في «العنكبوت»[(٤)]، فإنْ وُجِّهَ بأنهم إذا آمنوا بالباطل كان إيمانهم بغيره بمنزلة العدم، وأنَّ النِّعَم كلَّها من الله تعالى إما بالذات أو بالواسطة فليس كفرانهم إلا لنعمه سبحانه كما قيل:

لا يشكر اللهَ من لا يشكر الناسا[(٥)]

---

(١) كما في الدر المنثور ٤/ ١٢٤.

(٢) في الكشاف ٢/ ٤١٩.

(٣) في تفسيره ٣/ ١٨٧.

(٤) عند قوله تعالى: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ الآية (٦٧).

(٥) عجز بيت لزكريا بن درهم وهو في البيان والتبيين ١/ ٣٨٩ وصدره:

=

بقي المخالفة، وأجيب بأنه إذا نُظر للواقع فلا حَصْرَ فيه، وإن لوحظ ما ذكر يكون الحصرُ ادِّعائيًّا وهو معنى الإيهام للمبالغة فلا تَخالُف.

وجُوِّز أن يكون التقديمُ للاهتمام؛ لأنَّ المقصودَ بالإنكار الذي سِيقَ له الكلامُ تعلُّق كُفْرانهم بنعمة الله تعالى واعتقادهم للباطل، لا مطلق الإيمان والكفران، وأن يكون لرعاية الفواصل وهو دونَ النكتتين، والالتفاتُ إلى الغَيبة للإيذان باستيجاب حالهم للإعراض عنهم، وصَرْفُ الخطاب إلى غيرهم من السامعين تعجيباً لهم مما فعلوه.

وفي «البحر» أنَّ السُّلميَّ قرأ: «تؤمنون» بالتاء على الخطاب، وأنه روي ذلك عن عاصم، والجملةُ فيما بعده على هذا كما استظهره في «البحر» مجرد إخبار[1] عن الكَفَرة غير مندرجٍ في التقريع.

هذا، بقي أنه وقع في «العنكبوت»: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [الآية: ٦٧] بدون ضميرٍ، ووقع هنا ما سمعت بالضمير، وبيَّن الخفاجيُّ سِرَّ ذلك بأنه لـمَّا سبق في هذه السورة قوله تعالى: (أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ) أي: يكفرون كما مرَّ، فلو ذُكر ما نحن فيه بدون الضمير لكانت الآيةُ تكراراً بحَسَب الظاهر، فأتى بالضمير الدالِّ على المبالغة والتأكيد ليكونَ ترقِّياً في الذَّمِّ بعيداً عن اللَّغوية، ثم قال: وقيل: إنه أُجري على عادة العباد إذا أُخبروا عن أحدٍ بمنكرٍ يجدون مَوْجِدَةً، فيُخبِرُوا عن حاله الأخرى بكلامٍ آكد من الأول[2].

ولا يخفى أنَّ هذا إنما ينفعُ إذا سئل لم قيل: (أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ) بدون ضمير وقيل: (وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ) به؟ وأما في الفرق بين ما هنا وما هناك فلا.

وقيل: آياتُ «العنكبوت» استمرَّتْ على الغَيبة فلم يُحتَجْ إلى زيادة ضمير

= لا تُنكروا لسعيد فضلَ نعمته

وأصله حديث النبي ﷺ: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله عز وجل» أخرجه أحمد (٧٥٠٤) و(٩٩٤٤) من حديث أبي هريرة ﷺ. وجاء في (م): الناس. والمثبت من الأصل والمصدر.

(١) في الأصل: مجرد عن، وفي (م): مجرداً عن. والمثبت من البحر ٥/٥١٦.

(٢) حاشية الشهاب ٥/٣٥٣.

الغائب، وأما الآيةُ التي نحن فيها فقد سبقَ قبلها مخاطباتٌ كثيرةٌ، فلم يكنْ بُدٌّ من ضمير الغائب المؤكّد لئلّا يلتبس بالخطاب، وتخصيص هذه بالزيادة دون: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ مع أنها الأولى بها بحَسَب الظاهر لتقدُّمها؛ لئلّا يلزم زيادة الفاصلة الأولى على الثانية. واعترض عليه بأنه لا يخفى أنه لا مقتضى للزوم الغَيبة ولا لَبْسَ لو تُرك الضمير.

وقد يقال: إنما لم يؤتَ في آية «العنكبوت» بالضمير ويُبنى الفعل عليه إفادةً للتقوّي، استغناءً بتكرُّر ما يفيد كُفْرَ القوم بالنِّعَم مع قُرْبه من تلك الآية عن ذلك، على أنه قد تقدَّم هناك ما تستمدُّ منه الجملتان أتمَّ استمداد، وإن كان فيه نوعُ بُعْدٍ ومغايرةٍ ما، وذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢] ولمَّا لم تكن آيةُ «النحل» فيما ذُكر بهذه المرتبة جيءَ فيها بما يفيد التقوّي، أو يقال: إنه لمَّا كان سَرْدُ النِّعَم هنا على وجهٍ ظاهرٍ في وصولها إليهم والامتنان بها عليهم، كان ذلك أوفقَ بأن يُؤتى بما يفيد كُفْرهم بها على وجهٍ يُشعر باستبعاد وقوعه منهم، فجيءَ بالضمير فيه، ولمَّا لم يكن ما هنالك كذلك لم يُؤتَ فيه بما ذكر، ولعلَّ التعبير هنا بـ «يكفرون» وفيما قبل بـ «يجحدون» لأنَّ ما قبل كان مسبوقاً ـ على ما قيل ـ بضَرْب مَثَلٍ لكمال قباحة ما فعلوه، والجحودُ أوفقُ بذلك لما أنَّ كمالَ القبح فيه أتمُّ، ولا كذلك فيما البحث فيه، كذا قيل، فافهم، والله تعالى بأسرار كتابه أعلم.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال أبو حيان: هو استئنافُ إخبارٍ عن حالهم في عبادة الأصنام، وفيه تبيينٌ لقوله تعالى: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

وقال بعض أجلة المحققين: لعلَّه عَطْفٌ على «يكفرون» داخلٌ تحت الإنكار التوبيخيِّ، أي: أيكفرون بنعمة الله ويعبدون من دونه سبحانه ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا﴾ أي: ما لا يقدرُ أن يرزقهم شيئاً، لا من السماوات مطراً، ولا من الأرض نباتاً، فـ «رزقاً» مصدرٌ، و«شيئاً» نُصِبَ على المفعولية له، وإلى ذلك ذهب أبو عليٍّ وغيره. وتعقَّبه ابنُ الطَّراوة بأنَّ الرزقَ هو المرزوق كالرِّعْي والطِّحْن، والمصدر إنما هو الرَّزق بفتح الراء، كالرَّعْي والطَّحْن.

---

(١) البحر المحيط ٥/٥١٦.

ورُدَّ عليه بأنَّ مكسورَ الراء مصدرٌ أيضاً كالعلمِ، وسُمع ذلك فيه، فصحَّ أن يعملَ في المفعول.

وقيل: هو اسمُ مصدرٍ، والكوفيُّ يجوِّزُ عمله في المفعول، فـ «شيئاً» مفعوله على رأيهم.

وجُوِّزَ أن يكون بمعنى مرزوق، و«شيئاً» بدلٌ منه، أي: لا يملك لهم شيئاً.

وأورد عليه السَّمينُ وأبو حيان أنه غيرُ مفيدٍ؛ إذ من المعلوم أنَّ الرزقَ من الأشياء، والبدلُ يأتي لأحد شيئين: البيانِ والتأكيد، وليسا بموجودين هنا[1].

وأجيب بأنَّ تنوين «شيئاً» للتقليل والتحقير، فإن كان تنوين «رزقاً» كذلك فهو مؤكِّدٌ، وإلا فمبيِّنٌ، وحينئذٍ فيصحُّ فيه أن يكونَ بدلَ بعضٍ أو كلٍّ، ولا إشكال.

وجُوِّز أن يكون «شيئاً» مفعولاً مطلقاً ليملك، أي: لا يملك شيئاً من الملك. و«من السماوات» إما متعلِّقٌ بقوله تعالى: (لَا يَمْلِكُ) أو بمحذوفٍ وقع صفةً لـ «رزقاً»، أي: رزقاً كائناً منهما، وإطلاق الرزق على المطر لأنه ينشأ عنه.

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ جُوِّزَ أن يكون عَطْفاً على صلة «ما»، وأن يكون مستأنفاً للإخبار عن حال الآلهة، و«استطاع» متعدٍّ، ومفعوله محذوفٌ هو ضمير الملك، أي: لا يستطيعون أن يملكوا ذلك ولا يمكنهم، فالكلام تتميمٌ لسابقه، وفيه من الترقِّي ما فيه، فلا يكون نفي استطاعة الملك بعد نفي ملك الرزق غير محتاجٍ إليه، وإن جُعل المفعولُ ضميرَ الرزق كما جوَّزه في «الكشاف»[2] يكون هذا النفيُّ تأكيداً لما قبله.

وأورد عليه أنه قد قُرِّرَ في المعاني أنَّ حرف العَطْفِ لا يدخلُ بين المؤكِّد والمؤكَّد لما بينهما من كمال الاتصال.

ودُفع بأنَّ ذلك غيرُ مُسلَّم عند النحاة، وليس مطلقاً عند أهل المعاني، ألا ترى قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: ٤-٥] نعم يرد عليه

---

(١) الدر المصون ٧/ ٢٦٦، والبحر المحيط ٥/ ٥١٧.

(٢) ٢/ ٤٢٠.

حديث أنَّ التَّأسيسَ خيرٌ من التأكيد، ويجوز ـ ولعله الأولى ـ أن يكون الفعل منزَّلاً منزلةَ اللازم، فيكون المراد نفي الاستطاعة عنهم مطلقًا على حدِّ: يُعطي ويمنع، فالمعنى أنهم أمواتٌ لا قدرةَ لهم أصلاً، فيكون تذييلاً للكلام السابق، وفيه ما فيه على الوجه الأول وزيادة.

وجمع الضمير فيه وتوحيده في «لا يملك» لرعاية جانب اللفظ أولاً والمعنى ثانياً، فإنَّ «ما» مفرَدٌ بمعنى الآلهة، ومثل هذه الرعاية واردٌ في الفصيح، وإن أنكره بعضُهم لما يلزمه من الإجمال بعد البيان المخالف للبلاغة، فإنه مردودٌ كما بُيِّنَ في محلِّه، وقد روعي أيضاً في التعبير حالُ معبوداتهم في نفس الأمر، فإنها أحجارٌ وجماداتٌ، فعبَّر عنها بـ «ما» الموضوعة في المشهور لغير العالم، وحالها باعتبار اعتقادهم فيها أنها آلهةٌ، فعبَّر عنها بضمير الجمع الموضوع لذوي العلم، هذا إذا كان المراد بـ «ما» الأصنام، ولا يخفى عليك الحال إذا كان المراد بها المعبودات الباطلة مطلقاً ملكاً كانت أو بشراً أو حَجَراً أو غيرها.

وجُوِّزَ أن يكونَ ضميرُ الجمع عائداً على الكفار كضمير «يعبدون»، و«ما» على المعنى المشهور فيها على معنى أنهم مع كونهم أحياء متصرِّفين في الأمور لا يستطيعون من ذلك شيئاً، فكيف بالجماد الذي لا حِسَّ له، فجملة «لا يستطيعون» معترضةٌ لتأكيد نفي المُلْك عن الآلهة، والمفعولُ محذوفٌ كما أشير إليه، وهذا وإن كان خلافَ الظاهر لكنه سالمٌ عن مخالفة المشهور في العَوْد على المعنى بعد مراعاة اللفظ.

﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾ التفاتٌ إلى الخطاب للإيذان بالاهتمام بشأن النهي، والفاءُ للدلالة على ترتيب النهي على ما عدَّد من النِّعَم الفائضة عليهم منه تعالى، وكون آلهتهم بمعزلٍ من أن يملكوا لهم رزقاً فضلاً عمَّا فصَّل(١).

والأمثال جمع مِثْلٍ كَعِلْم، والمراد من الضَّرب الجعلُ، فكأنه قيل: فلا تجعلوا لله تعالى الأمثال والأكفاء، فالآية كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ [البقرة: ٢٢] وهذا ما يقتضيه ظاهر كلام ابن عباس، فقد أخرج ابن جرير

---

(١) في (م): فضل.

وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه ﷺ أنه قال في الآية: يقول سبحانه: لا تجعلوا معي إلهاً غيري، فإنه لا إله غيري[١].

وجعل كثيرٌ الأمثالَ جمع مَثَلٍ بالتحريك، والمراد من ضَرب المثل لله سبحانه الإشراكُ والتشبيه به جلَّ وعلا من باب الاستعارة التمثيلية. ففي «الكشف» أنَّ الله تعالى جعل المشركَ به الذي يُشبِّهه تعالى بخلقه بمنزلة ضارب المثل، فإنَّ المشبِّه المخذولَ يُشبِّهُ صفةً بصفةٍ وذاتاً بذاتٍ كما أنَّ ضاربَ المثل كذلك، فكأنه قيل: ولا تشركوا بالله سبحانه، وعَدَلَ عنه إلى المنزَّل دلالةً على التعميم في النهي عن التشبيه وصفاً وذاتاً. وفي لفظ «الأمثال» لمن لا مثالَ له أصلاً نعيٌ عظيمٌ عليهم بسوء فعلهم، وفيه إدماجُ أنَّ الأسماءَ توقيفيةٌ، وهذا هو الظاهر لدلالة الفاء وعدم ذِكْر ضَرْب مثلٍ منهم سابقاً.

وهذا الوجه هو الذي اختاره الزمخشريُّ[٢]، وكلام الحِبْر ﷺ لا يأباه، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧٤﴾ تعليلٌ للنهي، أي: إنه تعالى يعلمُ كُنْهَ ما تفعلون وعِظَمهُ، وهو سبحانه معاقبكم عليه أعظمَ العقاب، وأنتم لا تعلمون كُنْهه وكُنْهَ عقابه، فلذا صَدَرَ منكم وتجاسَرْتم عليه.

وجُوِّزَ أن يكون المرادُ النهيَ عن قياس الله تعالى على غيره بجَعْلِ ضَرْبِ المثل استعارةً للقياس، فإنَّ القياسَ إلحاقُ شيءٍ بشيءٍ، وهو عند التحقيق تشبيهُ مركَّبٍ بمركَّب، والفرقُ بينه وبين الوجه السابق قليلٌ، وأمرُ التعليل على حاله.

وجوَّزَ الزمخشريُّ وغيره أن يكونَ المراد النهيَ عن ضرب الأمثال لله سبحانه حقيقةً، والمعنى: فلا تضربوا لله تعالى الأمثالَ التي يضربها بعضُكم لبعضٍ، إنَّ الله تعالى يعلم كيف تُضرب الأمثال وأنتم لا تعلمون[٣].

ووجه التعليل ظاهرٌ، واللام على سائر الأوجه متعلّقةٌ بـ «تضربوا»، وزعم ابن المُنَيِّر تعلُّقها بـ «الأمثال» فيما إذا كان المراد التمثيلَ للإشراك والتشبيه، ثم قال:

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٣٠٥، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٩٢، وينظر الدر المنثور ٤/ ١٢٥.
(٢) في الكشاف ٢/ ٤٢٠.
(٣) المصدر السابق.

كأنه قيل: فلا تُمثِّلوا الله تعالى ولا تشبِّهوه، وتعلُّقها بـ «تضربوا» على هذا الوجه، ثم قال: كأنه قيل: فلا تُمثِّلوا لله تعالى الأمثالَ، فإنَّ ضَرْبَ المثل إنما يُستعمل من العالِمِ لغير العالِم ليبيِّنَ له ما خفي عنه، والله تعالى هو العالِمُ وأنتم لا تعلمون، فتمثيلُ غيرِ العالِم للعالِم عكسٌ للحقيقة(١). وليس بشيءٍ؛ والمعنى الذي ذكره على تقدير تعلُّقه بالفعل خلافُ ما يقتضيه السياق، وإن كان التعليلُ عليه أظهر، ومن هنا قال العلَّامة المدقِّق في «الكشف» في ذلك بعد أن قال: إنه نهيٌ عن ضَرْبِ الأمثال حقيقةً: كأنه أُريد المبالغةُ في أن لا يُلحدوا في أسمائه تعالى وصفاته، فإنه إذا لم يجزْ ضَرْبُ المثل، والاستعارات يكفي فيها شبهٌ ما، والإطلاق لتلك العلاقة كافٍ، فعدمُ جواز إطلاق الأسماء من غير سَبْقِ تعليم منه تعالى وإثبات الصفات أولى وأولى، ووجهُ ربط قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ إلخ على هذا عند المدقِّق أنه تعالى بعد أن نهاهم عن ضَرْبِ الأمثال له سبحانه ضَرَبَ مثلاً دلَّ به على أنهم ليسوا أهلاً لذلك، وأنهم إذا كانوا على هذا الحدِّ من المعرفة والتقليد أو المكابرة، فليس لهم إلى ضرب الأمثال المطابقةِ المستدعي ذكاءً وهدايةً سبيلٌ.

وقال غيره في ذلك ـ ولعله أظهر منه ـ: إنه تعالى لما ذكر أنه يعلمُ كيف تُضربُ الأمثالُ وأنهم لا يعلمون، علَّمهم كيف تُضرَبُ الأمثال في هذا الباب فقال تعالى: (ضَرَبَ) إلخ.

ووجه الربط على ما تقدَّم من أنَّ النهيَ عن الإشراك أنه سبحانه لما نهاهم عن ضَرْبِ المثل الفعليِّ وهو الإشراكُ، عقَّبه بالكشف لذي البصيرة عن فساد ما ارتكبوه بقوله سبحانه: (ضَرَبَ) إلخ أي: أورد وذكر ما يستدلُّ به على تباين الحال بين جنابه تعالى شأنه وبين ما أشركوه به سبحانه، وينادي بفساد ما هم عليه نداءً جليًّا.

﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ بدلٌ من «مثلاً» وتفسيرٌ له، والمثلُ في الحقيقة حالتُه العارضةُ له من المملوكية والعجز التامِّ، وبحَسَبها ضرب نفسه مثلاً، ووُصفَ العبد بالمملوكية للتمييز عن الحرِّ لاشتراكهما في كونهما عبدا الله تعالى(٢)، وقد

---

(١) الانتصاف بهامش الكشاف ٢/ ٤٢٠.

(٢) كذا في الأصل و(م)، وفي تفسير أبي السعود ٥/ ١٢٩ (والكلام منه): عبدان لله. والوجه: عبدين لله تعالى.

أدمج فيه ـ على ما قيل ـ أنَّ الكلَّ عبيدٌ له تعالى، وبعدم القَدْر لتمييزه عن المكاتَب والمأذون اللَّذين لهما تصرُّفٌ في الجملة، وفي إبهام المثل أولاً ثم بيانه بما ذكر ما لا يخفى من الجزالة.

﴿وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ﴾ «مَنْ» نكرةٌ موصوفةٌ على ما استظهره الزمخشريُّ(١) ليطابق «عبداً» فإنه أيضاً نكرة موصوفةٌ، وإلى ذلك ذهب أبو البقاء(٢)، وقال الحوفيُّ: هي موصولةٌ، واستظهره أبو حيان(٣)، وزعم بعضهم أنَّ ذلك لكَوْن استعمالها موصولةً أكثرَ من استعمالها موصوفة، والأول مختارُ الأكثرين، أي: حُرًّا رزقناه بطريق الملك؛ والالتفاتُ إلى التكلُّم للإشعار باختلاف حال ضَرْب المثل والرزق، وفي اختيار ضمير العَظَمة تعظيمٌ لأمر ذلك الرزق، ويزيد ذلك تعظيماً قوله سبحانه: ﴿مِنَّا﴾ أي: من جنابنا الكبير المتعالي ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ حلالاً طَيِّباً، أو مستحسناً عند الناس مرضيًّا، ويُؤخَذُ منه ـ على ما قيل ـ كونه كثيرًا بناءً على أنَّ القِلَّةَ التي هي أُختُ العدم لا حُسْنَ في ذاتها.

﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ﴾ تفضُّلاً وإحساناً، والفاء لترتُّبِ الإنفاق على الرزق، كأنه قيل: ومَنْ رزقناه منَّا رزقاً حسناً فأنفقَ، وإيثارُ المنزَّل من الجملة الاسمية الفعلية الخبر للدلالة على ثبات الإنفاق واستمراره التجدُّدي.

﴿سِرًّا وَجَهْرًا﴾ أي: حالَ السِّرِّ وحالَ الجهر، أو إنفاقَ سِرٍّ وإنفاقَ جَهْرٍ، والمراد بيان عموم إنفاقه للأوقات وشمول إنعامه لمن يجتنبُ عن قبوله جهراً.

وجُوِّزَ أن يكون وَصْفهُ بالكَثْرَة مأخوذًا من هذا بناءً على أنَّ المرادَ منه كيف يشاء، وهو يدلُّ على إنحاء التصرُّف وسعة المتصرّف منه، وتقديم السِّرِّ على الجهر للإيذان بفضله عليه، وقد مرَّ الكلامُ في ذلك(٤).

والعدولُ عن تطبيق القرينتين بأن يقال: وحرًّا مالكاً للأموال، مع كونه أدلَّ

---

(١) في الكشاف ٢/ ٤٢٠.

(٢) في الإملاء ٣/ ٤٥٦.

(٣) في البحر ٥/ ٥١٩.

(٤) عند الآية (٧٧) من سورة البقرة، والآية (٥) من سورة هود.

على تباين الحال بينه وبين قَسيمه لما في «إرشاد العقل السليم» من توخِّي تحقيق الحقِّ بأنَّ الأحرار أيضاً تحت رِبْقة عبوديته تعالى، وأنَّ مالكيَّتهم لما يملكونه ليست إلا بأن يرزقهم الله تعالى إياه من غير أن يكون لهم مدخلٌ في ذلك، مع محاولة المبالغة في الدلالة على ما قصد بالمثل من تباين الحال بين الممثَّلَين، فإنَّ العبدَ المملوكَ حيث لم يكن مثلَ العبد المالك، فما ظنُّك بالجماد ومالك الملك خلَّاق العالمين[١].

﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾ جُمع الضميرُ ـ وإن تقدَّمه اثنان، وكان الظاهر: يستويان ـ للإيذان بأنَّ المرادَ بما ذُكر من اتَّصفَ بالأوصاف المذكورة من الجنسين المذكورين، لا فردان معيَّنان منهما، وإن أخرج ابنُ عساكر وجماعة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ الآيةَ نزلت في هشام بن عمرو وهو الذي ينفق ماله سرًّا وجهراً، وفي عبده أبي الجوزاء الذي كان ينهاه[٢]. والله تعالى أعلم بصحَّته.

وقيل: نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه وعبدٍ له[٣]. ولا يصحُّ إسناده كما في «البحر» وفيه: أنه يحتمل أن يكون الجمعُ باعتبار أنَّ المراد بـ «من» الجمع، وأن يكون باعتبار عَوْد الضمير على العبيد والأحرار وإن لم يجرِ لهما ذِكْرٌ لدلالة «عبد مملوك» و«من رزقناه» عليهما[٤].

والمعوَّل عليه ما ذُكر أولاً، والمعنى: هل يستوي العبيدُ والأحرار الموصوفون بما ذُكر من الصفات، مع أنَّ الفريقين سيَّان في البشرية والمخلوقية لله سبحانه، وأنَّ ما ينفقه الأحرار ليس مما لهم دَخْلٌ في إيجاده ولا تملُّكه، بل هو مما أعطاه الله تعالى إياهم، فحيث لم يستوِ الفريقان فما ظنُّكم بربِّ العالمين حيث تشركون به ما لا ذليل أذلّ منه وهو الأصنام.

وقيل: إنَّ هذا تمثيلٌ للكافر المخذول والمؤمن الموفَّق، شبَّه الأولَ بمملوكٍ

---

(١) إرشاد العقل السليم ٥/ ١٢٩.

(٢) تاريخ دمشق ٣٩/ ٢١٨، وأخرجه ـ أيضاً ـ ابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢٢٩٣، وقد جاء في تاريخ دمشق أن اسم العبد: أبو الحوانة.

(٣) أخرجه الطبري ١٤/ ٣١٢.

(٤) البحر المحيط ٥/ ٥١٩.

لا تَصرُّفَ له؛ لأنه لإحباط عمله وعدم الاعتداد بأفعاله واتباعه لهواه كالعبد المنقاد الملحَقِ بالبهائم، بخلاف المؤمن الموفَّق. وجَعْلُهُ تمثيلاً لذلك مرويٌّ عن ابن عباس ﷺ وقتادة، ولا تعيينَ أيضاً، وإن قيل: إنَّ الآيةَ نزلت في أبي بكرٍ ﷺ وأبي جهل، على أنَّ أبا حيان قال: إنه لا يصحُّ إسناد ذلك[١].

هذا، ثم اعلم أنهم اختلفوا في العبد هل يصحُّ له ملكٌ أم لا، قال في «الكشاف»: المذهب الظاهر أنه لا يصح[٢]. وبه قال الشافعيُّ، وقال ابن المُنيِّر[٣] على ما لخصه في «الكشف» من كلامٍ طويلٍ: إنه يصح له الملك عند مالك. وظاهر الآية تشهد له؛ لأنه أثبتَ له العجزَ بقوله تعالى: ﴿مَّمْلُوكًا﴾ ثم نفى القدرةَ العارضةَ بتمليك السيد بقوله سبحانه: ﴿لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ وليس المعنى القدرة على التصرف؛ لأنَّ مقابله ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾. والحملُ على إخراج المكاتَب مع شذوذه إيجازٌ مع إخلالٍ، كما قال إمام الحرمين رحمه الله تعالى في: «أيما امرأةٍ نكحتْ بغير إذن وليها»[٤]: الحملُ على المكاتبة بعيدٌ لا يجوز، والمأذون لم يخرج لما مرَّ من أنَّ المرادَ بالقدرة ما هو، وليس لقائلٍ أن يقول: إنه صفةٌ لازمةٌ موضحةٌ، فالأصلُ في الصفات التقييد. اهـ.

وتعقَّبه المدقق[٥] بقوله: والجواب أنَّ المعنى على نفي القدرة عن التصرف، فالآيةُ واردةٌ في تمثيل حالِ الأصنام به تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً، وكلما بولغ في حال عجز المشبَّه به وكمال المقابل دلَّ في المشبَّه به أيضاً على ذلك، فالذي يطابقُ المقامَ القدرةُ على التصرف، وهو في مقابلة قوله تعالى: ﴿يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ وما ذكره لا حاصل له ولا إخلالَ في إخراج المكاتَب لشمول اللفظ، مع أنَّ المقام مقامُ مبالغةٍ، فما يُتوهَّم دخوله بوجهٍ ينبغي أن يُنفى، وأين هذا مما نقله عن إمام الحرمين. اهـ.

---

(١) البحر المحيط ٥/٥١٩.
(٢) الكشاف ٢/ ٤٢٠.
(٣) الانتصاف بهامش الكشاف ٢/ ٤٢٠.
(٤) ينظر البرهان للجويني ١/ ٣٤١ وما بعدها، والحديث أخرجه أحمد (٢٤٣٧٢)، وأبو داود (٢٠٨٤)، والترمذي (١١٠٢)، والنسائي في الكبرى (٥٣٧٣) من حديث عائشة ﷺ.
(٥) هو صاحب الكشف.

واستدلَّ بالآية أيضاً على أنَّ العبد لا يملكُ الطلاقَ أيضاً، وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، فقد أخرج ابن أبي حاتم عنه أنه قال: ليس للعبد طلاقٌ إلا بإذن سيِّده، وقرأ الآية[1]. وقد فُصِّلتْ أحكامُ العبيد في حكم الفقه على أتمِّ وجه.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: كلّه له سبحانه لا يستحقُّه أحدٌ غيره تعالى؛ لأنه جلَّ شأنه المولي للنِّعم وإن ظهرتْ على أيدي بعض الوسائط فضلاً عن استحقاق العبادة.

وفيه إرشادٌ إلى ما هو الحقُّ من أنَّ ما يظهر على يدِ مَنْ ينفقُ فيما ذكر راجعٌ إليه تعالى كما لوَّح به «رزقناه»، وقال غير واحد: هذا حَمْدٌ على ظهور المحجَّة وقوَّة هذه الحجَّة.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٧٥﴾ ما ذُكر، فيضيفون نعمه تعالى إلى غيره، ويعبدونه لأجلها، أو لا يعلمون ظهورَ ذلك وقوة ما هنالك، فيبقون على شركهم وضلالهم، ونفي العلم عن أكثرهم للإشعار بأنَّ بعضَهم يعلمون ذلك، وإنما لم يعملوا بموجبه عناداً.

وقيل: المراد بالأكثر الكلُّ، فكأنه قيل: هم لا يعلمون، وقيل: ضمير «هم» للخلق، والأكثر هم المشركون، وكلا القولين خلافُ الظاهر.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ أي: مثلاً آخرَ يدلُّ على ما يدلُّ عليه المثل السابق على وجهٍ أظهر وأوضح، وأبهم ثم بُيِّن بقوله تعالى: ﴿رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ لما تقدَّم، والبَكَمُ: الخَرَسُ المقارِنُ للخِلْقة، ويلزمه الصَّمَمُ فصاحبه لا يفهمُ لعدم السَّمع ولا يُفهِمُ غيرَهُ لعدم النُّطق، والإشارةُ لا يُعتدُّ بها لعدم تفهيمها حقَّ التفهيم لكلِّ أحدٍ، فكأنه قيل: أحدهما أخرسُ أصمّ لا يَفهم ولا يُفهِم.

﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ من الأشياء المتعلِّقة بنفسه أو غيره بحَدْسٍ أو فراسةٍ لسوء فهمه وإدراكه.

﴿وَهُوَ كَلٌّ﴾ ثقيلٌ وعيالٌ ﴿عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ على من يعوله ويلي أمره، وهذا بيانٌ لعدم قدرته على إقامة مصالح نفسه بعد ذِكْر عدم قدرته مطلقاً.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٩٣.

وقوله سبحانه: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ أي: حيثما يرسله مولاهُ في أمرٍ لا يأتِ بنُجْحٍ وكفاية مُهمٍّ، بيانٌ لعدم قدرته على مصالح مولاه.

وقرأ عبد الله في رواية: «تُوجِّهه» على الخطاب[(١)]، وقرأ علقمةُ وابنُ وثاب ومجاهد وطلحة، وهي رواية أخرى عن عبد الله: «يُوجِّهْ» بالبناء للفاعل والجزم[(٢)]، وخُرِّجَ على أنَّ الفاعلَ يعود على المولى، والمفعول محذوفٌ، وهو ضميرُ الأبكم، أي: يوجِّهه، ويجوز أن يكون ضميرُ الفاعل عائداً على الأبكم، ويكون الفعلُ لازمَ وَجَّهَ بمعنى تَوجَّه، وعلى ذلك جاء قولُ الأضبط بن قريع السعدي:

أينما أُوَجِّه ألقَ سعداً[(٣)]

وعن علقمة وطلحة وابن وثاب أيضاً: «يوجَّهْ» بالجزم والبناء للمفعول[(٤)]، وفي روايةٍ أخرى عن علقمة وطلحة أنهما قرأا: «يوجِّهُ» بكسر الجيم وضمِّ الهاء[(٥)]، قال صاحب «اللوامح»: فإن صحَّ ذلك فالهاء التي هي لامُ الفعل محذوفةٌ فراراً من التضعيف، أو لم يرد بـ «أينما» الشرطُ، والمراد: أينما هو يُوجِّهُ، وقد حُذف منه ضميرُ المفعول به، فيكون حذفُ الياء من آخر «يأت» للتخفيف.

وتعقَّبه أبو حيان بأنَّ «أين» لا تخرجُ عن الشرط أو الاستفهام، ونقل عن أبي حاتمٍ أنَّ هذه القراءةَ ضعيفةٌ لأنَّ الجزمَ لازمٌ، ثم قال: والذي تُوجَّهُ به هذه القراءةُ أنَّ «أينما» شرطٌ حُملتْ على «إذا» بجامع ما اشتركا فيه من الشرط، ثم حذفت ياء «يأت» تخفيفاً، أو جُزم على توهُّم أنه جيءَ بـ «أينما» جازمةً كقراءة من قرأ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يتَّقي وَيَصْبِرْ﴾ [يوسف: ٩٠] في أحد الوجهين[(٦)]. ويكون معنى يوجِّه: يتوجَّه كما مرَّ آنفاً[(٧)].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤١١، والبحر المحيط ٥/ ٥٢٠.
(٢) القراءات الشاذة ص٧٣، والمحتسب ٢/ ١١، والبحر المحيط ٥/ ٥٢٠.
(٣) مثلٌ قاله الأضبط بن قريع وقد كان سيداً لقومه فرأى منهم جفوة فرحل عنهم إلى آخرين فرآهم يصنعون بساداتهم مثل ذلك. مجمع الأمثال ١/ ٥٣.
(٤) القراءات الشاذة ص٧٣، والمحتسب ٢/ ١١، والبحر المحيط ٥/ ٥٢٠.
(٥) البحر المحيط ٥/ ٥٢٠.
(٦) وهي قراءة ابن كثير في رواية قنبل. التيسير ص١٣١، والنشر ٢/ ٢٩٧.
(٧) البحر المحيط ٥/ ٥٢٠.

﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ﴾ أي: ذلك الأبكمُ الموصوفُ بتلك الصفات المذكورة ﴿وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ ومن هو مِنطيقٌ فَهِمٌ ذو رأي ورُشْدٍ يكفي الناسَ في مهمَّاتهم، وينفعهم بحَثِّهم على العدل الجامع لمجامع الفضائل.

﴿وَهُوَ﴾ في نفسه مع ما ذُكر من نفعه الخاصِّ والعامِّ ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٦﴾ لا يتوجَّهُ إلى مطلبٍ إلا ويبلغه بأقرب سعي، فالجملةُ حاليةٌ مبيِّنةٌ لكماله في نفسه، ولمَّا كان ذلك مقدَّماً على تكميل الغير أتى بها اسميةً، فإنها تُشعر بذلك مع الثبوت إلى مقارنة ذي الحال، فلا يقال: الأنسبُ تقديمها في النَّظم الكريم.

ومقابلة تلك الصفات الأربع بهذين الوصفين لأنهما كمالُ ما يقابلها ونهايته، فاختير آخرُ صفات الكامل المستدعية لما ذُكر وأَزْيَدُ حيث جُعل هادياً مهديًّا.

وتغييرُ الأسلوب حيث لم يقل: والآخَرُ «يأمر بالعدل» الآية؛ لمراعاة الملاءمة بينه وبين ما هو المقصود من بيان التباين بين الفريقين، ويقال هنا كما قيل في المثل السابق: إنه حيث لم يستوِ الفريقان في الفضل والشرف مع استوائهما في الماهية والصورة، فلأن يُحكَم بأنَّ الصنم الذي لا ينطق ولا يسمع وهو عاجزٌ لا يقدر على شيءٍ كَلٌّ على عابده يحتاجُ إلى أن يحمله ويضعه ويمسح عنه الأذى إذا وقع عليه ويخدمه، وإن وَجَّههُ إلى أيِّ مهمٍّ من مهمَّاته لا ينفعه، ولا يأت له به، لا يساوي ربَّ العالمين، وهو هو في استحقاق المعبودية = أحرى وأولى.

وقيل: هذا تمثيلٌ للمؤمن والكافر، فالأبكمُ هو الكافر، ومن يأمر بالعدل هو المؤمن، وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأيًّا ما كان فليس المراد بـ «رجلين» رجلان معيَّنان، بل رجلان متَّصفان[1] بما ذُكر من الصفات مطلقاً.

وما روي من أنَّ الأبكمَ أبو جهل والآمرَ بالعدل عمارٌ، أو الأبكم أُبيّ بن خلف والآمر عثمان بن مظعون، فقال أبو حيان: لا يصحُّ إسناده[2]، وما أخرج ابن جرير وابن عساكر وغيرهما عن ابن عباس أنه قال: نزلت هذه الآية: (وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ) إلخ في عثمان بن عفان ومولى له كافر وهو أَسِيدُ بن أبي العِيص، كان يكرهُ

---

(١) كذا في الأصل و(م). والوجه: رجلين معيَّنين، بل رجلين متصفين...

(٢) البحر المحيط ٥/ ٥٢٠، وينظر مجمع البيان ١٤/ ١٠٤.

الإسلامَ، وكان عثمان ينفقُ عليه ويكفُلُه ويكفيه المؤونة، وكان الآخرُ ينهاهُ عن الصدقة والمعروف، فنزلت فيهما(١). فبعد تحقُّق صحَّته لا يضرُّنا في إرادة الموصوفين مطلقاً، بحيث يدخلُ فيهما مَنْ ذُكر، فقد صرَّحوا بأنَّ خصوصَ السبب لا ينافي العموم.

هذا، وقد اقتصر شيخ الإسلام على كون الغرض من التمثيلين نفي المساواة بينه جلَّ جلاله وبين ما يشركون، وهو دليلٌ على أنه مختاره، ثم قال: اعلمْ أنَّ كلا الفعلين ليس المرادُ بهما حكايةَ الضَّرب الماضي، بل المرادُ إنشاؤه بما ذُكر عَقيبه، ولا يبعد أن يقال: إنَّ الله تعالى ضرب مثلًا بخَلْق الفريقين على ما هما عليه، فكان خَلْقهما كذلك للاستدلال بعدم تساويهما على امتناع التساوي بينه سبحانه وتعالى وبين ما يشركون، فيكون كلٌّ من الفعلين حكايةً للضرب الماضي(٢). ولا يخفى أنه لا كلامَ في حُسْن اختياره، لكن في النفس من قوله: لا يبعد، شيءٌ.

﴿وَلِلَّهِ﴾ تعالى خاصة لا لأحدٍ غيره استقلالاً ولا اشتراكاً ﴿غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: جميع الأمور الغائبة عن علوم المخلوقين، بحيث لا سبيلَ لهم إلى إدراكها حِسًّا ولا إلى فهمها عقلاً.

ومعنى الإضافة إليهما التعلُّقُ بهما إما باعتبار الوقوع فيهما حالاً أو مآلاً، وإما باعتبار الغَيبة عن أهلهما، ولا حاجةَ إلى تقدير هذا المضاف، والمراد بيانُ الاختصاص به تعالى من حيثُ المعلوميةُ حسبما يُنبئ عنه عنوان الغَيبة، لا من حيثُ المخلوقيةُ والمملوكيةُ، وإن كان الأمر كذلك في نفس الأمر، وفيه ـ كما في «إرشاد العقل السليم» ـ إشعارٌ بأنَّ علمه تعالى حضوريٌّ وأنَّ تحقُّقَ الغيوب في نفسها بالنسبة إليه سبحانه وتعالى، ولذلك لم يقلْ تعالى: ولله علمُ غيب السماوات والأرض(٣).

وقيل: المراد بغيب السماوات والأرض ما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ الآية [لقمان: ٣٤].

وقيل: يوم القيامة، ولا يخفى أنَّ القولَ بالعموم أولى.

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٣١٢، وتاريخ دمشق ٣٩/ ٢١٨.
(٢) إرشاد العقل السليم ٥/ ١٣٠.
(٣) إرشاد العقل السليم ٥/ ١٣١.

﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ التي هي أعظمُ ما وقع فيه المماراةُ من الغيوب المتعلِّقة بالسماوات والأرض من حيثُ الغَيبةُ عن أهلهما، أو ظهورُ آثارها فيهما عند وقوعها، أي: وما شأنها في سرعة المجيء ﴿إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ أي: كَرَجْع الطَّرْف من أعلا الحدقة إلى أسفلها. وفي «البحر»[1]: اللَّمْحُ: النظر بسرعة؛ يقال: لَمَحهُ لَمْحاً ولَمَحاناً، إذا نَظَرهُ بسرعة.

﴿أَوۡ هُوَ﴾ أي: أمرها ﴿أَقۡرَبُ﴾ أي: من ذلك وأسرعُ بأن يقعَ في بعض أجزاء زمانه، فإنَّ رَجْعَ الطَّرْف من أعلا الحَدَقة إلى أسفلها وإن قَصُرَ حركةٌ أينية[2] لها هويةٌ اتصاليةٌ منطبقةٌ على زمانٍ له هو كذلك قابل للانقسام إلى أبعاضٍ هي أزمنةٌ أيضاً، بل بأن يقعَ فيما يقال له: آنٌ، وهو جزءٌ غيرُ منقسمٍ من أجزاءِ الزمان كـ «آن» ابتداء الحركة.

و«أو» قال الفراء: بمعنى «بل»[3]. وردَّهُ في «البحر» بأنَّ «بل» للإضراب، وهو لا يصحُّ هنا بقسميه، أما الإبطال فلأنه يؤول إلى أنَّ الحكمَ السابقَ غيرُ مطابقٍ، فيكونُ الإخبار به كَذِباً، والله سبحانه وتعالى منزَّهٌ عن ذلك، وأما الانتقال فلأنه يلزمه التنافي بين الإخبار بكونه مثل لَمْحِ البصر، وكونه أقربَ، فلا يمكن صدقهما معاً، ويلزم الكذبُ المحال أيضاً[4].

وأجيب باختيار الثاني، ولا تنافي بين تشبيهه في السرعة بما هو غاية ما يتعارفه الناس في بابه، وبين كونه في الواقع أقرب من ذلك، وهذا بناءً على أنَّ الغرضَ من التشبيه بيانُ سرعته لا بيانُ مقدار زمان وقوعه وتحديده.

وأجيب أيضاً بما يُصحِّحهُ بشِقَّيه، وهو أنه ورد على عادة الناس، يعني أنَّ أمرها إذا سئلتم عنها أن يقال فيه: هو كَلَمْحِ البصر، ثم يُضرَبُ عنه إلى ما هو أقرب.

---

(١) ٥/ ٥١٨.
(٢) كذا في الأصل و(م)، والذي في تفسير أبي السعود ٥/ ١٣١ والكلام منه: آنية.
(٣) كما في البحر المحيط ٥/ ٥٢١.
(٤) البحر المحيط ٥/ ٥٢١ بنحوه.

وقيل: هي للتخيير. وردَّهُ في «البحر» أيضاً بأنه إنما يكون في المحظورات ك: خُذْ من مالي ديناراً أو درهماً، أو في التكليفات كآية الكفارات[١].

وأجيب بأنَّ هذا مبنيٌّ على مذهب ابن مالك من أنَّ «أو» تأتي للتخيير، وأنه غيرُ مختصٍّ بالوقوع بعد الطلب بل يقع في الخبر ويكثر في التشبيه حتى خصَّه بعضُهم به. وفي «شرح الهادي»[٢]: اعلم أنَّ التخييرَ والإباحةَ مختصَّانِ بالأمر، إذ لا معنى لهما في الخبر، كما أنَّ الشَّكَّ والإبهامَ مختصَّان بالخبر، وقد جاءت الإباحةُ في غير الأمر كقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۞ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٦-١٩] أي: بأيِّ هذين شَبَّهتَ فأنتَ مصيبٌ، وكذا إن شبَّهتَ بهما جميعاً، ومثله في الشعر كثير.

وقيل: إنَّ المرادَ تخييرُ المخاطَبِ بعد فرض الطلب والسؤال، فلا حاجةَ إلى البناء على ما ذكر، وهو كما ترى.

وزعم بعضُهم أنَّ التخييرَ مُشكلٌ من جهةٍ أخرى، وهي أنَّ أحدَ الأمرين من كونه كلَمْحِ البصر أو أقرب غيرُ مطابقٍ للواقع، فكيف يُخيِّرُ الله تعالى بين ما لا يطابقه، وفيه أنَّ المراد التخييرُ في التشبيه، وأيُّ ضررٍ في عدم وقوع المشبَّه به، بل قد يُستحسنُ فيه عدمُ الوقوع كما في قوله:

أعلامُ ياقوتٍ نُشِرْ ... نَ على رماحٍ من زَبَرْجَد[٣]

وقال ابن عطية: هي للشَّكِّ على بابها على معنى أنه لو اتفقَ أن يقفَ على أمرها شخصٌ من البشر لكانت من السرعة بحيثُ يشكُّ هل هو كلمحِ البصر أو أقرب[٤]. وتعقَّبه في «البحر» أيضاً بأنَّ الشَّكَّ بعيدٌ؛ لأنَّ هذا إخبارٌ من الله تعالى

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٥٢١.

(٢) هو لعبد الوهاب بن إبراهيم بن أبي المعالي الخزرجي الزنجاني، وهو كتاب مشهور في علم التصريف، وقد أكثر الجاربردي من النقل عنه في شرح الشافية. أبجد العلوم ٣/ ٣٦.

(٣) ينسب البيت للصنوبري، وهو في أسرار البلاغة ص١٥٠، ومعاهد التنصيص ٢/ ٤.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤١١.

عن أمر الساعة، والشَّكُّ مستحيلٌ عليه سبحانه[١]. أي: فلا بدَّ أن يكون ذلك بالنسبة إلى غير المتكلِّم، وفي ارتكابه بُعدٌ، ويدلُّ على أنَّ هذا مراده تعليله البُعدَ بالاستحالة، فليس اعتراضه مما يقضى منه العجبُ كما توهّم.

وقال الزجاج[٢]: هي للإبهام. وتُعقِّبَ بأنه لا فائدةَ في إبهام أمرها في السرعة، وإنما الفائدةُ في إبهام وقت مجيئها.

وأجيب بأنَّ المرادَ أنه يَشْتَبِهُ على مَنْ يُشاهد سرعتَها هل هي كلمحِ البصر أو أقلّ، فتدبر.

والمأثور عن ابن جريج أنها بمعنى «بل» وعليه كثيرون، والمراد تمثيلُ سرعة مجيئها واستقرابه على وجه المبالغة، وقد كَثُرَ في النَّظْم مثلُ هذه المبالغة، ومنه قول الشاعر:

قالت له البرقُ وقالت له الريـ ... ـحُ جميعاً وهما ما هما
أأنتَ تجري معنا قال إن ... نشطتُ أضحكتكما منكما
إنَّ ارتدادَ الطَّرْف قد فُتُّهُ ... إلى المدى سبقاً فمن أنتما[٣]

وقيل: المعنى: وما أَمْرُ إقامة الساعة المختصّ عِلْمها به سبحانه، وهي إماتةُ الأحياء وإحياءُ الأموات من الأوَّلين والآخرين، وتبديلُ صُوَرِ الأكوان أجمعين، وقد أنكرها المنكرون وجعلوها من قبيل ما لا يدخل تحت دائرة الإمكان في سرعة الوقوع وسهولة التأتِّي = إلا كلمح البصر أو هو أقرب، على ما مرَّ من الأقوال في «أو».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾ ومن جملة الأشياء أن يجيءَ بها في أسرع ما يكون، فهو قادرٌ على ذلك، وتقول على الثاني: ومن جملة ذلك أَمْرُ إقامتها، فهو سبحانه قادرٌ عليه، فالجملةُ في موضع التعليل.

وفي «الكشف» على تقدير عموم الغيب وشموله لجميع ما غاب في السماوات

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٥٢١.

(٢) كما في البحر المحيط ٥/ ٥٢١.

(٣) الأبيات لابن الحجاج وهي في معاهد التنصيص ٣/ ٤١.

والأرض أنَّ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ كالمستفاد من الأول، وهو كالتمهيد له، أي: يختصُّ به عِلْمُ كلِّ غيب الساعة وغيرها، فهو الآتي بها للعلم والقدرة، ولهذا عقَّب بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ إلخ، وأما إذا أُريد بالغيب الساعة فهو ظاهر. اهـ.

ولا يخفى الحالُ على القول بأنَّ المرادَ بالغيب ما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾ الآية [لقمان: ٣٤]، وعلى القول الأخير في الغيب يكون ذِكْرُ الساعة من وَضْعِ الظاهر موضعَ الضمير لتقوية مضمون الجملة.

﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ عَطْفٌ على قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ منتظمٌ معه في سِلْكِ أدلة التوحيد، ويُفهم من قول العلامة الطيبيِّ أنه تعالى عقَّب قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ بقوله جلَّ وعلا: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم﴾ إلخ معطوفاً بالواو إيذاناً بأنَّ مقدوراته تعالى لا نهايةَ لها، والمذكورُ بعضٌ منها = أنَّ العَطْفَ على قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ إلخ، والذي تنبسطُ له النفس هو الأول.

والأُمَّهات بضمِّ الهمزة وفتح الهمزة[1] جمعُ أُمٍّ، والهاءُ فيه مَزيدةٌ وكَثُرَ زيادتها فيه، وورد بدونها، والمعنى في الحالين واحد، وقيل: ذو الزيادة للأناسيِّ، والعاري عنها للبهائم، ووزنُ المفرد فُعلٌ لقولهم: الأمومة، وجاء بالهاء كقول قصي بن كِلاب عليهما الرحمة:

أُمَّهَـتـي خِـنْـدِفُ وإلـيـاس أبـي[2]

وهو قليل[3]، وأقلُّ من ذلك زيادةُ الهاء في الفعل كما قيل في إهراق، وفيه بحثٌ فارجع إلى «الصحاح»[4] وغيره.

---

(١) كذا في الأصل و(م). ولعلها سبق قلم من المصنف رحمه الله، والصواب: وفتح الميم.

(٢) الجمهرة ٣/٢٦٧، وشرح الشافية للأستراباذي ٤/٣٠٣، والمزهر ١/١٧٩، والخزانة ٧/٣٧٩. وخندف زوجة إلياس بن مضر واسمها ليلى بنت حلوان بن عمران، وخندف لقبها. القاموس (خندف).

(٣) ذكر السيوطي في المزهر ١/١٧٩ عن الأصمعي عن أبي عمرو أن هذا مصنوع.

(٤) مادة (أمم).

وقرأ حمزةُ بكسر الهمزة والميم هنا، وفي «الزمر» و«النجم» و«الروم»، والكسائيُّ بكسر الهمزة فيهنَّ[1]؛ والأعمش بحذف الهمزة وكسر الميم، وابن أبي ليلى بحذفها وفتح الميم، قال أبو حاتم: حَذْفُ الهمزة رديءٌ، ولكنَّ قراءةَ ابن أبي ليلى أصوب[2]، وكانت كذلك على ما في «البحر»[3] لأنَّ كَسْرَ الميم إنما هو لإتباعها حركةَ الهمزة، فإذا كانت الهمزةُ محذوفةً زالَ الإتباع، بخلاف قراءة ابن أبي ليلى فإنه أقرَّ الميم على حركتها.

﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ في موضع الحال، و«شيئاً» منصوبٌ على المصدرية، أو مفعول «تعلمون»، والنفي منصبٌّ عليه، والعلم بمعنى المعرفة، أي: غير عارفين شيئاً أصلاً من حقِّ المنعِم وغيره. وقيل: شيئاً من منافعكم، وقيل: مما قضى عليكم من السعادة أو الشقاوة، وقيل: مما أخذ عليكم من الميثاق في أصلاب آبائكم، والظاهر العموم، ولا داعي إلى التخصيص. وعن وهب: يولد المولودُ خَدِراً إلى سبعة أيامٍ لا يدرك راحةً ولا ألماً.

وادَّعى بعضُهم أنَّ النفسَ لا تخلو في مبدأ الفطرة عن العلم الحضوريِّ، وهو علمها بنفسها؛ إذ المجرَّدُ لا يغيبُ عن ذاته أصلاً، فقد قال الشيخ في بعض تعليقاته عند إثبات تجرُّد النفس: إنك لا تغفلُ عن ذاتك أصلاً في حالٍ من الأحوال، ولو في حال النوم والسُّكْر، ولو جوَّزَ مجوِّزٌ أن يغفلَ عن ذاته في بعض الأحوال حتى لا يكونَ بينه وبين الجماد في هذه الحالة فرقٌ، فلا يجدي هذا البرهان معه.

وقال بهمنيار في «التحصيل» في فصل العقل والمعقول: ثم إنَّ النفسَ الإنسانيةَ تشعر بذاتها، فيجبُ أن يكونَ وجودُها عقليًّا، فيكونُ نفسُ وجودها نفسَ إدراكها، ولهذا لا تَعزُبُ عن ذاتها البتَّة، ومثله في «الشفاء»[4]، وأنت تعلم أنَّ عدمَ الخلوِّ

---

(١) التيسير ص٩٤، والنشر ٢/ ٢٤٨.
وينظر الآية (٦١) من سورة النور، والآية (٦) من سورة الزمر، والآية (٣٢) من سورة النجم.
وقد جاء في الأصل و(م): والكسائي بكسر الميم فيهن. والمثبت هو الصواب. ينظر البحر المحيط ٥/ ٥٢٢.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤١١، والبحر المحيط ٥/ ٥٢٢.

(٣) ٥/ ٥٢٢.

(٤) الشفاء لابن سينا ص١٥ (الطبيعيات ـ النفس).

مبنيٌّ على مقدِّماتٍ خفيةٍ كتجرُّد النفس الذي أنكره الطبيعيون عن آخرهم، وأنَّ كلَّ مجرَّد عالم، ولا يتمُّ البرهان عليه، وأيضاً ما نقل من أنَّ علم النفس بذاتها عينُ ذاتها لا ينافي أن يكون لكون الذات عِلْماً بها شرطٌ، فما لم يتحقَّق ذلك الشرطُ لم تكن الذاتُ علماً بها، كما أنَّ لكون المبدأ الفياض خزانةً لمعقولات زيدٍ مثلاً شرطاً إذا تحقَّق تحقَّق، وإلا فلا.

ويؤيد ذلك أنَّ علم النفس بصفاتها أيضاً نفسُ صفاتها عندهم؛ ومع ذلك يجوز الغفلةُ عن الصفة في بعض الأحيان كما لا يخفى.

وأيضاً إذا قلنا: إنَّ حقيقةَ الذات غيرُ غائبةٍ عنها، وقلنا: إنَّ ذلك علمٌ بها، يلزمُ أن يكون حقيقةُ النفس المجردة معلومةً لكلِّ أحد؛ ومن البَين أنه ليس كذلك.

على أنَّ المحقق الطوسيَّ قد منع قولهم: إنك لا تغفلُ عن ذاتك أبداً، وقال: إنَّ المغمى عليه ربما غَفَلَ عن ذاته في وقت الإغماء، ومثله كثيرٌ من الأمراض النفسانية. ومن العجائب أنَّ بعضَ الأَجلَّة ذكر أنَّ المرادَ بخلوِّها في مبدأ الفطرة خلوُّها حالَ تعلُّقها بالبدن، وقال: إنه لا ينافي ذلك ما قاله الشيخ من أنَّ الطفلَ يتعلَّقُ بالثدي حالَ التولُّد بإلهام فطريٍّ؛ لأنَّ حالَ التعلُّق سابقٌ على ذلك، وذلك بعد أن ذكر أنَّ الخلوَّ في مبدأ الفِطرة إنما يظهر لذوي الحدس بملاحظة حال الطفل وتجارب أحواله، ووجه العجب ظاهرٌ فافهم ولا تغفل.

وتفسيرُ العلم بالمعرفة مما ذهب إليه غيرُ واحدٍ، وفي «أمالي العز» لا يجوزُ أن يُجعلَ باقياً على بابه، ويكون «شيئاً» مصدراً، أي: لا تعلمون علماً لوجهين؛ الأول: أنه يلزمُ حذفُ المفعولين، وهو خلافُ الأصل. الثاني: أنه لو كان باقياً على بابه لكان الناس يعلمونَ المبتدأ الذي هو أحدُ المفعولين قبل الخروج من البطون، وهو محالٌ لاستحالة العلم على منْ لم يولد. بيانُ ذلك أنَّا إذا قلنا: علمتُ زيداً مقيماً، يجبُ أن يكون العلمُ بزيدٍ متقدِّماً قبل هذا العلم، وهذا العلمُ إنما يتعلَّقُ بإقامته، وكذلك إذا قلت: ما علمتُ زيداً مقيماً، فالذي لم يُعلَم هو إقامة زيدٍ، وأما هو فمعلومٌ، وذلك مستفادٌ من جهة الوضع، فحيثُ أُثبتَ العلمُ أو نُفيَ فلابدَّ أن يكون الأولُ معلوماً، فيتعيَّنُ حَمْلُ العلم على المعرفة. اهـ.

ويعلم منه عدمُ استقامة جَعْل العلم على بابه، و«شيئاً» مفعوله الأول، والمفعول الثاني محذوف.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ يحتملُ أن يكون جملةً ابتدائيةً، ويحتملُ أن يكون معطوفاً على الجملة الواقعة خبراً، والواو لا تقتضي الترتيب، ونكتةُ تأخيره أنَّ السَّمْعَ ونحوه من آلات الإدراك إنما يُعتدُّ به إذا أَحسَّ وأدركَ، وذلك بعد الإخراج، و«جعل» إن تعدَّى لواحدٍ بأن كان بمعنى «خلق» فـ «لكم» متعلِّقٌ به، وإن تعدَّى لاثنين بأن كان بمعنى «صيَّر» فهو مفعوله الثاني، وتقديمُ الجارِّ والمجرور على المنصوبات لما مرَّ غيرَ مرَّة.

والمعنى: جعل لكم هذه الأشياءَ آلاتٍ تُحصِّلون بها العلمَ والمعرفة، بأن تحسُّوا بمشاعركم جزئيات الأشياء وتدركوها بأفئدتكم، وتنتبهوا لما بينها من المشاركات والمباينات بتكرير الإحساس، فيحصلُ لكم علومٌ بديهيةٌ تتمكَّنونَ بالنظر فيها من تحصيل العلوم الكَسْبية، وهذا خلاصة ما ذكره الإمام في هذا المقام[1]. ومستمدُّ ما ذهب إليه الكثيرُ من الحكماء من أنَّ النفسَ في أول أمرها خاليةٌ عن العلوم، فإذا استعملت الحواسّ الظاهرة أدركتْ بالقوة الوهمية أموراً جزئيةً بمشاركاتٍ ومباينات جزئية بينها، فاستعدَّت لأن يفيض عليها المبدأ الفياض المشاركات الكلية، ويثبتون للنفس أربع مراتب؛ مرتبة العقل الهيولاني، ومرتبة العقل بالمَلَكة، ومرتبة العقل بالفعل، ومرتبة العقل المستفاد، ويزعمون أنَّ النفسَ لا تُدرِكُ الجزئيَّ الماديَّ، ولهم في هذا المقام كلامٌ طويل وبحثٌ عريض.

وأهل السنة يقولون: إنَّ النفسَ تدرك الكُلِّيَّ والجزئيَّ مطلقاً باستعمال المشاعر وبدونه كما فُصِّلَ في محلِّه، وتحقيقُ هذا المطلب بما لَهُ وما عليه يحتاجُ إلى بَسْطٍ كثير، وقد عرض والمستعان بالحيِّ القيوم جلَّ جلاله وعمَّ نواله من الحوادث الموجبة لاختلال أمر الخاصة والعامة ما شوَّشَ ذهني وحالَ بين تحقيق ذلك وبيني، أسأل الله سبحانه أن يمنَّ علينا بما يسرُّ الفؤادَ ويُيسِّرُ لنا ما يكونُ عوناً على تحصيل المراد.

---

(١) تفسير الرازي ٢٠/٨٩-٩٠ بنحوه.

والجملة المأثورةُ عن ابن عباس ﭫ في هذه الآية أنه قال: يريد سبحانه أنه جعل لكم ذلك لتسمعوا مواعظَ الله تعالى وتبصروا ما أنعم الله تعالى به عليكم من إخراجكم من بطون أمهاتكم إلى أن صِرْتم رجالاً، وتعقلوا عظمته سبحانه.

وقيل: المعنى: جعل لكم السمعَ لتسمعوا به نصوصَ الكتاب والسنة التي هي دلائلُ سمعيةٌ لتستدلُّوا بها على ما يصلحكم في أمر دينكم، والأبصارَ لتبصروا بها عجائبَ مصنوعاته تعالى وغرائبَ مخلوقاته سبحانه، فتستدلُّوا بها على وحدانيته جلَّ وعلا. والأفئدةَ لتعقلوا بها معاني الأشياء التي جعلها سبحانه دلائلَ لكم، والسمعُ والأبصارُ على هذين القولين على ظاهرهما، ولم نَرَ من جَوَّزَ إخراجهما عن ذلك. وجُوِّزَ أن يراد بهما الحواسُّ الظاهرةُ على الأول.

والأفئدةُ جمع فؤاد، وهو وسطُ القلبِ، وهو من القلب كالقلب من الصَّدر، وهذا الجمع ـ على ما في «الكشاف» ـ من جموع القِلَّةِ الجارية مجرى جموع الكَثْرة والقِلَّة؛ إذ لم يَرِدْ في السماع غيرها، كما جاء: شُسُوع في جمع شِسْعٍ لا غير، فجرى ذلك المجرى[(١)].

وقال الزجاج: لم يُجمعْ «فؤاد» على أكثر العدد، وربما قيل: أفئدةٌ وفئدان كما قيل: أَغربة وغربان في جمع غراب[(٢)]، وفي «التفسير الكبير»: لعلَّ الفؤادَ إنما جُمع على بناء القِلَّة تنبيهاً على أنَّ السمعَ والبصرَ كثيرٌ، وأما الفؤاد فقليلٌ؛ لأنه إنما خُلق للمعارف الحقيقية والعلوم اليقينية، وأكثرُ الخلق ليس لهم ذلك، بل يكونون مشتغلين بالأفعال البهيمية والصفات السَّبعية، فكأنَّ فؤادهم ليس بفؤادٍ، فلذا ذكر في جمعه جمع القِلَّة[(٣)].

ويرد عليه الأبصار، فإنه جمعُ قِلَّةٍ أيضاً. وفي «البحر» بعد نقله أنه قولٌ هذيانيٌّ: ولولا جلالة قائله لم نُسطِّرهُ في الكتب، وإنما يقال في هذا ما قاله الزمخشريُّ مما ذُكر سابقاً، إلا أنَّ قوله: لم يجئ في جمع شِسْع إلا شُسُوع، ليس

(١) الكشاف ٢/ ٤٢٢.
(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢١٤.
(٣) التفسير الكبير ٢٠/ ٩٠.

بصحيحٍ، بل جاء فيه أشساعٌ جمع قِلَّةٍ على قِلَّة[1]. فاحفظ ولا تغفل.

وزعم بعضُهم أنَّ الفؤاد إنما يُدرِكُ ما ليس بمحدودٍ بنحو: أين وكيف وكم وغير ذلك، وإنَّ لكلِّ مُدرِكٍ قوةً مدرِكةً له تناسبه، لا يمكن أن يُدرِكَ بغيرها على نحو المحسوسات الظاهرة من الأصوات والألوان والطعوم ونحوها، والحواسِّ الظاهرة من السمع والبصر والذوق، إلى غير ذلك، وهو كما ترى.

وإفراد السمع باعتبار أنه مصدرٌ في الأصل، وقيل: إنما أُفرد وجُمع «الأبصار» للإشارة إلى أنَّ مدركاته نوعٌ واحدٌ، ومدركات البصر أكثر من ذلك، وتقديمه لما أنه طريقُ تلقِّي الوحي، أو لأنَّ إدراكه أقدمُ من إدراك البصر، وقيل: لأنَّ مدركاته أقلُّ من مدركاته، والخلاف في الأفضل منهما شهيرٌ، وقد مرَّ[2].

وتقديمها على الأفئدة المشار بها إلى العقل لتقدُّم الظاهر على الباطن، أو لأنَّ لهما مدخلاً في إدراكه في الجملة، بل هما من خَدَمِهِ، والخَدَمُ تتقدَّمُ بين يدي السادة، وكثيرٌ من السُّنن أُمر بتقديمه على فروض العبادة، أو لأنَّ مدرَكاتهما أقلُّ قليلٍ بالنسبة إلى مُدرَكاته، كيف لا ومدركاته لا تكاد تحصى، وإن قيل: إنَّ للعقل حدّاً ينتهي إليه، كما أنَّ للبصر حدّاً كذلك، واستأنس بعضُهم بذكر ما يشير إليه فقط دون ضَمِّ ما يشيرُ إلى سائر المشاعر الباطنة إليه لنفي الحواسِّ الخَمْسِ الباطنة التي أثبتها الحكماء بما لا يخلو عن كَدَرٍ، وتفصيلُ الكلامِ في محلِّه.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ كي تعرفوا ما أنعم سبحانه به عليكم طَوْراً غِبَّ طَوْرٍ فتشكروه.

وقيل: المعنى: جعل ذلك كي تشكروه تعالى باستعمال ما ذكر فيما خلق لأجله.

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٥٢٢. وشاهده قولُ عُبيد بن أيوب العنبري:

يُدير نَعليه لئلّا تُعرفا يجعلُ أشساعها نحو القفا

وينظر تاج العروس (شسع).

(٢) ١/ ٤٠٠.

﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ وقرأ حمزةُ وابن عامر وطلحةُ والأعمش وابن هرمز: «ألم تروا» بالتاء الفوقية على أنه خطاب العامة(١)، والمراد بهم جميعُ الخلق المخاطَبون قبلُ في قوله تعالى: (وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ) لا على أنَّ المخاطَبَ مَنْ وَقَعَ في قوله تعالى: (وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ) بتلوين الخطاب؛ لأنه المناسبُ للاستفهام الإنكاريِّ، ولذا جعل قراءة الجمهور بياء الغَيبة باعتبار غيبة «يعبدون» ولم يجعلوا ذلك التفاتاً، وحينئذٍ فالإنكار باعتبار اندراجهم في العامة، والرؤيةُ بَصَريةٌ، أي: ألم ينظروا ﴿إِلَى ٱلطَّيۡرِ﴾ جمع طائرٍ كَرَكْبٍ وراكب، ويقع على الواحد أيضاً، وليس بمرادٍ، ويقال في الجمع أيضاً: طُيورٌ وأَطيار.

﴿مُسَخَّرَٰتٖ﴾ مذلَّلات للطيران، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ طيرانَها ليس بمقتضى طَبْعها.

﴿فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: في الهواء المتباعد من الأرض واللوح والسّكاك أبعد منه.

وقيل: الجوُّ مسافةُ ما بين السماء والأرض، والجوَّةُ لغةٌ فيه، وإضافته إلى السماء لما أنه في جانبها من الناظر، ولإظهار كمال القدرة، وعن السُّدِّي: تفسيرُ الجوِّ بالجوف، وفُسِّرتِ السماءُ على هذا بجهة العلوِّ، والطيرُ قد يطيرُ في هذه الجهة حتى يغيب عن النظر، ولم يَعلم منتهى ارتفاعه في الطيران إلا الله تعالى، وعن كعبٍ: أنَّ الطيرَ لا ترتفع أكثر من اثني عشر ميلاً.

﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ﴾ في الجوِّ عن الوقوع ﴿إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ عزَّ وجلَّ بقدرته الواسعة، فإنَّ ثِقَل جَسَدها ورِقَّةَ الهواء يقتضيان سقوطها، ولا عِلاقَةَ من فوقها ولا دِعامة من تحتها، والجملة إما حالٌ من الضمير المستتر في «مسخَّرات» أو من «الطير» وإما مستأنفة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر من التسخير في الجوِّ والإمساك فيه، وقيل: المشار إليه ما اشتملت عليه هذه الآية والتي قبلها.

---

(١) قراءة حمزة وابن عامر في التيسير ص١٣٨، والنشر ٢/ ٣٠٤، وقراءة طلحة والأعمش وابن هرمز في المحرر الوجيز ٣/ ٤١١، والبحر المحيط ٥/ ٥٢٢.

﴿لَآيَٰتٍ﴾ دالة على كمال قدرته جلَّ شأنه ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٧٩﴾ أي: من شأنهم أن يؤمنوا، وخصَّ ذلك بهم لأنهم المنتفعون به، واقتصر الإمام على جَعْل المشار إليه ما في هذه الآية، قال: وهذا دليلٌ على كمال قدرة الله تعالى وحكمته سبحانه، فإنه جلَّ شأنه خَلَقَ الطائر خِلْقَةً معها يمكنه الطيران، أعطاه جناحاً يبسطه مرَّة ويُكِنُّه أخرى، مثل ما يعمل السابحُ في الماء، وخلق الجوَّ خلْقةً معها يمكن الطيران، خَلَقهُ خِلْقةً لطيفةً يسهلُ بسببها خَرْقُهُ والنفاذُ فيه، ولولا ذلك لما كان الطيرانُ ممكناً(١).

وكذا المولى أبو السعود قال: إنَّ في ذلك الذي ذكر من تسخير الطير للطيران بأن خَلَقها خِلْقةً تتمكَّنُ بها منهِ بأنْ جعل لها أجنحةً خفيفةً وأذناباً كذلك، وجعل أجسادها من الخِفَّةِ بحيث إذا بَسطتْ أجنحتَها وأذنابها لا يطيقُ ثِقَلها أن يخرقَ ما تحتها من الهواء الرقيق القوام، وتخرقُ ما بين يديها من الهواء لأنها لا تلاقيه بحجم كبيرٍ لآياتٍ ظاهرة، وذكر أنَّ تسخيرَها بما خَلَقَ لها من الأجنحة والأسباب المساعدة(٢).

وتعقَّب ذلك أبو حيان بقوله: والذي نقوله: إنه كان يمكن الطائر أن يطيرَ ولو لم يُخلقْ له جناح، وإنه كان يمكنه خَرْقُ الشيء الكثيف، وذلك بقدرة الله تعالى، ولا نقول: إنه لولا الجناح ولُطْف الجوِّ والآلات ما أمكن الطيران(٣).

وأنا لا أظنُّ أنَّ أحداً ينفي الإمكانَ الذاتيَّ للطيران بدون الجناح مثلاً، لكن لا يبعدُ نفيهُ بدون لُطفِ المطار، والكثيف متى خرق كان المطار لطيفاً، فافهم.

واستُدلَّ بالآية على أنَّ العبدَ خالقٌ لأفعاله، وأَوَّلَها القاضي، وهو ارتكابٌ لخلاف الظاهر لغير دليل.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم﴾ معطوفٌ على ما مَّر، وتقديمُ «لكم» على ما بعده للتشويق والإيذان من أول الأمر بأنَّ هذا الجَعْلَ لمنفعتهم، وقوله تعالى: ﴿مِّنۢ بُيُوتِكُمْ﴾

---

(١) تفسير الرازي ٢٠/ ٩١.

(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ١٣٢.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٥٢٢-٥٢٣.

تبيينٌ لذلك المجعول المبهَم في الجملة، وتأكيدٌ لما سبق من التشويق، والإضافةُ للعهد، أي: من بيوتكم المعهودة التي تبنونها من الحَجَر والمَدَرِ والأخشاب.

﴿سَكَنًا﴾ فَعَلٌ بمعنى مفعول كَنَقَض، وأنشد الفراء:

جاء الشتاءُ ولمَّا أتخذْ سَكَناً يا ويحَ نفسي من حَفْر القراميصِ[1]

وليس بمصدرٍ كما ذهب إليه ابنُ عطية[2]، أي: موضعاً تسكنون فيه وقتَ إقامتكم، وجُوِّزَ أن يكونَ المعنى: تسكنون إليه من غير أن ينتقلَ من مكانه، أي: جعل بعضَ بيوتكم بحيث تسكنون إليه وتطمئنون به.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا﴾ أي: بيوتاً أُخَر مغايرةً لبيوتكم المعهودة، وهي القِباب المتَّخذةُ من الأَدَم، والظاهر أنه لا يندرجُ في هذه البيوت المتَّخَذَةُ من الشعر والصُّوف والوبر. وقال ابن سلام وغيره: بالاندراج لأنها من حيثُ إنها ثابتةٌ على جلودها يَصْدُقُ عليها أنها من جلودها.

واعترض بأنَّ «من» على الأول تبعيضيةٌ، وعلى إرادة البيوت التي من الشعر ونحوه ابتدائية، فإذا عُمِّمَ ذلك يلزمُ استعمالُ المشتَرَك في معنييه.

وأجيب بأنَّ القائلَ بذلك لعلَّهُ يرى جوازَ هذا الاستعمال، وممن قال بذلك البيضاويُّ[3] وهو شافعيٌّ.

وقيل: الجلودُ مجازٌ عن المجموع.

﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ أي: تجدونها خفيفةً سهلةَ المأخذِ، فالسينُ ليست للطَّلب بل للوجدان؛ كأحمدتُهُ: وجدتُهُ محموداً.

﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ وقتَ ترحالكم في النقض والحمل.

﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ ووقتَ نزولكم وإقامتكم في مسايركم حسبما يتفقُ في الضَّرب والبناء، وجُوِّزَ أن يكونَ المعنى: تجدونها خفيفةً في أوقات السفر وفي أوقات

---

(١) البيت في إصلاح المنطق ص٨٣، والاشتقاق ص٤١٤، وزهر الأكم ١/ ٣٤٠ دون نسبة.
(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٤١٢.
(٣) تفسير البيضاوي ٣/ ١٨٨.

الحضر، واختار ابن المُنَيِّر الأول وقال: إنه التفسير؛ لأنَّ المِنَّةَ في خِفَّتها في السفر أتمُّ وأقوى؛ إذ لا يهمُّ المقيمَ أمرُها(١)، قال في «الكشف»: وهو حقٌّ.

وقال بعض الفضلاء: ينبغي أن يكونَ الثاني أولى للعموم، فإنَّ حالتي السفر اندرجتا في يوم ظَعْنِكم حيثُ أُريد به مقابل الحضر، والخِفَّةُ على المقيم نعمةٌ في حَقِّهِ أيضاً، فإنه يضربها وقد ينقلها من مكانٍ إلى مكانٍ قريبٍ لداعٍ يدعو إليه، فالأولى أن لا تخلوَ الآيةُ عن التعرُّض لذلك.

ولا يخفى أنَّ الاندراجَ ظاهرٌ إن أُريد بالظَّعن مقابل الحضر، وأما إذا أُريد به مقابل النزول كما سمعتَ، فغيرُ ظاهرٍ. نعم يجوز إرادة ذلك.

وقرأ الحرميَّان وأبو عمرو: «ظَعَنكم» بفتح العين، وباقي السبعة بسكونها(٢)، وهما لغتان، والفتح على ما في «المعالم» أجزلهما(٣).

وقيل: الأصل الفتحُ، والسكونُ تخفيفٌ لأجل حرف الحَلْقِ كالشَّعْر والشَّعَر.

﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: (مِّن جُلُودِ) والضميرُ للأنعام على وجه التنويع، أي: وجعل لكم من أصواف الضأن وأوبار الإبلِ وأشعار المعز.

﴿أَثَٰثًا﴾ أي: متاعَ البيت كالفُرُش وغيرها، كما قال المفضَّل، قال الفراء: لا واحدَ له من لفظه، كما أنَّ المتاعَ كذلك، ولو جَمعتَ قلت: الأثية(٤) في القليل، وأُثُث في الكثير. وقال أبو زيد: واحده: أَثاثةٌ، وأصله ـ كما قال الخليل ـ من قولهم: أَثَّ النباتُ والشَّعر، وهو أثيثٌ: إذا كَثُرَ، قال امرؤ القيس(٥):

وفَرْعٍ يَزِينُ المَتنَ أسودَ فاحمٍ أثيثٍ كقِنْوِ النخلةِ المُتَعَثْكِلِ

---

(١) الانتصاف بهامش الكشاف ٢/ ٤٢٢.

(٢) التيسير ص١٣٨، والنشر ٢/ ٣٠٤.

(٣) معالم التنزيل للبغوي ٣/ ٧٩.

(٤) كذا رسمت في الأصل، وفي (م): أثثة. وكلام الفراء نقله عنه الزبيدي في تاج العروس (أثث) وقال: قال الفراء: ولو جمعت الأثاث لقلت: ثلاثة آثَّة، وأُثُث كثيرة.

(٥) في ديوانه ص١٦.

ونصبه على أنه معطوفٌ على «بيوتاً» مفعولُ «جعل» فيكونُ مما عُطِفَ فيه جارٌّ ومجرورٌ مقدَّمٌ ومنصوبٌ على مثلهما، نحو: ضربتُ في الدار زيداً، وفي الحُجْرة عَمْراً، وهو جائزٌ وليس بمستَقبَحٍ كما زعم في «الإيضاح»[1]. وجُوِّزَ أن يكونَ نَصْباً على الحال، فيكون من عَطْفِ الجارِّ والمجرور فقط على مثله، أي: وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها حالَ كونها أثاثاً. وتعقَّبه السمينُ بأنَّ المعنى ليس على هذا[2]. وهو ظاهرٌ.

﴿وَمَتَٰعًا﴾ أي: شيئاً يتمتَّع به وينتفع في المتجر والمعاش. قاله المفضل، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: المتاعُ الزينة، وقال الخليل: الأثاثُ والمتاعُ واحدٌ، والعَطْفُ لتنزيل تغاير اللفظ منزلةَ تغاير المعنى كما في قوله:

وألـفـى قـولـهـا كَـذِبـاً وَمَـيْـنـاً[3]

والأول أولى.

﴿إِلَىٰ حِينٍ ۝٨٠﴾ إلى انقضاء حاجاتكم منه، وعن مقاتل: إلى بِلَى ذلك وفنائه؛ وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إلى الموت. والكلامُ في ترتيب المفاعيل مثله فيما مرَّ غيرَ مرَّة.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ﴾ من غير صُنْعٍ منكم ﴿ظِلَٰلًا﴾ أشياءَ تستظلُّون بها من الغمام والشجر والجبال وغيرها، وهو الذي يقتضيه الظاهرُ، وروي ذلك عن قتادة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد الاقتصارُ على الغمام، وعن الزجاج[4] وقتادة أيضاً الاقتصارُ على الشجر، وعن ابن قتيبة الاقتصارُ على الشجر والجبال، ولعلَّ كلَّ ذلك من باب التمثيل، وعن ابن السائب أنَّ المراد ظلالُ البيوت، وهو كما ترى، ومَنَّ سبحانه بما ذكر لأنَّ تلك الديار كانت غالبة الحرارة.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ مواضعَ تستكنُّون فيها من الغِيران

---

(١) للفارسي.
(٢) الدر المصون ٧/ ٢٧٤.
(٣) عجز بيت لعدي بن زيد العبادي، وهو في معاهد التنصيص ١/ ٣١٠، وزهر الأكم ١/ ١٩٢ وصدره: وقدَّدت الأديم لراهشيه.
(٤) معاني القرآن ٣/ ٢١٥.

ونحوها، والواحد: كِنٌّ، وأصله السُّتْرة، من أَكَنَّهُ وكَنَّهُ أي: ستره، ويجمع على أكنانٍ وأَكِنَّةٍ.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾ جمع سِربال، وهو كلُّ ما يُلبس، أي: جعل لكم لباساً من القطن والكَتَّان والصوف وغيرها ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ خصَّه بالذكر كما قال المبّرد اكتفاءً بذِكْر أحد الضِّدَّين عن الآخر، أعني البرد، ولم يُخَصَّ هو بالذكر اكتفاءً لأنَّ وقايةَ الحرِّ أهمُّ عندهم لما مرَّ آنفاً.

وقال بعضهم: من الرأس، خَصَّ الحرَّ بالذِّكر لأنَّ وقايته أهم. وتُعقِّبَ دعوى الأهمية بأنه يُبعدها ذِكْرُ وقاية البرد سابقاً في قوله تعالى: (لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ) ثم قيل: وهذا وجهُ الاقتصار على الحرِّ هنا لتقدُّم ذِكْرِ خلافه ثمَّة.

واعتُرض بأنَّا لا نسلِّمُ أنَّ إثباتَ الدفء هناك يُبعد دعوى الأهمية، بل في تغاير الأسلوبين ما يُشعرُ بهذه الأهمية.

وقال الزجاج: خُصَّ الحَرُّ بالذكر لأنَّ ما يقي من الحرِّ يقي من البرد[1]، وذكر ذلك الزمخشريُّ[2] بعد ذكر الأهمية، وقال في «الكشف»: هو الوجه، وتخصيصُ الحرِّ بالذكر لما قدَّمه في الوجه الأول، يعني الأهمية، وما قيل: من أولوية الأول لقوله تعالى: (مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا) فليس بشيءٍ لأنه تعالى عقَّبه بقوله سبحانه: (مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا) كيف وهو في مقام الاستيعاب. وصاحب القيل هو ابن المنير، وقد اعترضَ أيضاً على قوله: إنَّ ما يقي من الحرِّ يقي من البرد بأنه خلافُ المعروف، فإنَّ المعروفَ أنَّ وقايةَ الحرِّ رقيقُ القمصان ورفيعُها، ووقايةَ البرد ضِدُّه، ولو لبس الإنسان في كلِّ واحدٍ من الفصلين القيظِ والشتاء لباسَ الآخر لَعُدَّ من الثقلاء[3]. اهـ. فتدبر.

﴿وَسَرَٰبِيلَ﴾ من الجواشن والدُّروع ﴿تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ أي: البأسَ الذي يصلُ من بعضكم إلى بعض في الحروب من الضَّرب والطَّعن، وقال بعضهم: أصل

(١) معاني القرآن ٣/ ٢١٥.
(٢) في الكشاف ٢/ ٤٢٣.
(٣) الانتصاف بهامش الكشاف ٢/ ٤٢٣.

البأس الشدَّة، وأُريدَ به هنا الحرب، والكلامُ على حذف مضافٍ، أي: أذى بأسكم، وعلى الأول لا حاجةَ إليه وقد رُجِّح لذلك.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الإتمام للنعمة في الماضي ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ في المستقبل، ومن هنا قيل:

كما أحسنَ الله فيما مضى كذلك يُحسنُ فيما بقي[١]

أو مثل هذا الإتمام البالغ يُتمُّ نعمته عليكم، وإفرادُ النعمة إما لأنَّ المرادَ بها المصدر، أو لإظهار أنَّ ذلك بالنسبة إلى جناب الكبرياء شيءٌ قليل.

وقرأ ابن عباس: «تَتِمُّ» بتاءٍ مفتوحةٍ، و«نعمتُهُ» بالرفع على الفاعلية[٢]، وإسنادُ التمام إليها على الاتساع، وعنه أيضاً رضي الله عنه «نِعَمُهُ» بصيغة الجمع[٣].

﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ أي: إرادة أن تنظروا فيما أسبغ عليكم من النِّعَم فتعرفوا حقَّ مُنعمها، فتؤمنوا به تعالى وحده وتذروا ما كنتم به تشركون، على أنَّ الإسلام بمعناه المعروف أي: رديفُ الإيمان، ويجوز أن يكون بمعناه اللُّغوي وهو الاستسلام والانقياد أي: لعلَّكم تستسلمون له سبحانه وتنقادون لأمره عزَّ وجلَّ، وأيًّا ما كان فهو موضوعٌ موضِعَ سببه كما أشير إليه، أو مَكْنيٌّ به عنه.

وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: «تَسْلَمون» بفتح التاء واللام[٤] من السلامة، أي: تشكرون فتَسلمون من العذاب، أو تنظرون فيها فتسلمون من الشرك، وقيل: تسلمون من الجراح بلُبس تلك السرابيل، ولا بأس أن يُفسَّر ذلك بالسلامة من الآفات مطلقاً ليشملَ آفةَ الحرِّ والبرد، والأقربُ إلى معنى قراءة الجمهور التفسيرُ الثاني.

هذا وفي بعض الآثار أنَّ أعرابياً سَمِعَ قوله تعالى: (وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ

---

(١) البيت للإمام علي بن أبي طالب، وهو في ديوانه ص٧٠.
(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٠٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٤١٣، والبحر المحيط ٥/ ٥٢٤.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٥٢٤.
(٤) القراءات الشاذة ص٧٤، والبحر المحيط ٥/ ٥٢٤. وقد ردَّ الطبري هذه القراءة في تفسيره ١٤/ ٣٢٢.

سَكَنًا) إلى آخر الآيتين فقال عند كلِّ نعمة: اللهم نعم، فلما سمع قوله سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ اللهم هذا فلا، فنزلت[1].

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ فعلٌ ماضٍ على طريقة الالتفات من الخطاب إلى الغَيبة، وتوجيه الكلام إلى رسول الله ﷺ تسليةٌ له عليه الصلاة والسلام، أي: فإن داموا على التولِّي والإعراض وعدم قَبول ما أُلقيَ إليهم من البينات ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾ أي: فلا يضرُّكَ؛ لأنَّ وظيفتكَ هي البلاغُ الموضِّحُ أو الواضحُ، وقد فعلته بما لا مزيد عليه، فهو من باب وَضْع السَّبب موضِعَ المسبّب.

وقال ابن عطية: تقدير المعنى: إن أَعرضوا فلستَ بقادرٍ على خَلْقِ الإيمان في قلوبهم، فإنما عليك البَلاغُ لا خَلْقُ الإيمان[2].

وجُوِّزَ أن يكون «تولَّوا» مضارعاً حُذفتْ إحدى تاءيه، وأصله تَتَولَّوا، فلا التفات، لكن قيل عليه: إنه لا يظهر حينئذٍ ارتباطُ الجزاء بالشرط إلا بتكلُّفٍ، ولذا لم يلتفتْ إليه بعضُ المحقِّقين.

وفي التعبير بصيغة التفعيل إشارةٌ ـ كما قيل ـ إلى أنَّ الفطرةَ الأُولى داعيةٌ إلى الإقبال على الله تعالى، والإعراضُ لا يكون إلا بنوعِ تكلُّفٍ ومعالجة.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ استئنافٌ لبيان أنَّ تولِّي المشركين وإعراضهم عن الإسلام ليس لعدم معرفتهم نعمة الله سبحانه أصلاً، فإنهم يعرفونها أنها من الله تعالى ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ بأفعالهم حيث لم يُفردوا مُنعِمَها بالعبادة، فكأنهم لم يعبدوه سبحانه أصلاً، وذلك كفرانٌ منزَّلٌ منزلةَ الإنكار.

وأخرج ابن جرير وغيره عن مجاهد أنه قال: إنكارهم إياها قولهم: ورثناها من آبائنا[3]، وأخرج هو وغيره أيضاً عن عَوْن بن عبد الله أنه قال: إنكارهم إياها أن يقولَ الرجل: لولا فلانٌ أصابني كذا وكذا، ولولا فلانٌ لم أُصِبْ كذا وكذا[4].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢٢٩٥-٢٢٩٦.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤١٣.
(٣) تفسير الطبري ١٤/ ٣٢٥-٣٢٦.
(٤) تفسير الطبري ١٤/ ٣٢٦.

وفي لفظٍ: إنكارُها إضافتُها إلى الأسباب. وقيل: قولهم هي بشفاعة آلهتهم عند الله تعالى، وحكى صاحب «الغنيان» يعرفونها في الشدَّة ثم ينكرونها في الرخاء، وقيل: يعرفونها بقلوبهم ثم ينكرونها بألسنتهم.

وأخرج ابن المنذر وغيره[1] عن السُّدِّي أنه قال: النعمةُ هنا محمدٌ ﷺ. ورجَّحَ ذلك الطبريُّ[2]، أي: يعرفون أنه عليه الصلاة والسلام نبيٌّ بالمعجزات ثم ينكرون ذلك ويجحدونه عناداً.

وفي لفظ ابن أبي حاتم[3] أنه قال: هذا في حديث أبي جهل والأخنس حين سألَ الأخنسُ أبا جهل عن محمد ﷺ، فقال: هو نبيٌّ.

ومعنى «ثم» لاستبعاد[4] الإنكار بعد المعرفة؛ لأنَّ حقَّ مَنْ عَرَفَ النعمةَ الاعترافُ بها وأداءُ حقِّها لا إنكارها، وإسناد المعرفة والإنكار المتفرِّع عليها إلى ضمير المشركين على الإطلاق من باب إسناد حالِ البعض إلى الكلِّ، فإنَّ بعضَهم ليسوا كذلك كما هو ظاهر قوله سبحانه: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٣﴾ أي: المنكرون بقلوبهم غير المعترفين بما ذكر، والحُكْمُ عليهم بمطلق الكُفْر المؤذِن بالكمال من حيثُ الكميةُ لا ينافي كمالَ الفِرْقة الأولى من حيث الكيفيةُ. كذا قيل.

وجوَّزَ أن يكونَ الإسناد السالفُ على ظاهره، والمراد أنَّ أكثرهم المصرُّونَ الثابتون على كفرهم إلى يوم يلقونه، فالتعبيرُ بالأكثر لعلمه تعالى أنَّ منهم من يؤمن. وقيل: المعنى: وأكثرهم الجاحدونَ عناداً، والتعبيرُ بالأكثر إما لأنَّ بعضَهم لم يعرفِ الحقَّ لنقصان عقله وعدمِ اهتدائه إليه، أو لعدم نظره في الأدلة نظراً يؤدِّي إلى المطلوب، أو لأنه لم يقم عليه الحجَّة لكونه لم يصلْ إلى حَدِّ المكلَّفين لِصِغَرٍ ونحوه، وإما لأنه يُقامُ مقامَ الكلِّ. فتأمل.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ جماعةٍ من الناس ﴿شَهِيدًا﴾ يشهدُ لهم بالإيمان

---

(١) ابن المنذر كما في الدر المنثور ٤/ ١٢٧، وأخرجه ـ أيضاً ـ الطبري ١٤/ ٣٢٥.
(٢) في تفسيره ١٤/ ٣٢٦.
(٣) كما في الدر المنثور ٤/ ٢٠٦.
(٤) في (م): الاستبعاد. والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٥/ ١٣٤ والكلام منه.

والطاعة، وعليهم بالكفر والعصيان، والمراد به كما روى ابن المنذر وغيره[1] عن قتادة: نبيُّ تلك الأمة.

﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: في الاعتذار كما قال سبحانه: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥-٣٦] والظاهر أنهم يستأذنون في ذلك فلا يُؤذَنُ لهم، ويحتمل أنهم لا استئذانَ منهم ولا إذن؛ إذ لا حُجَّةَ لهم حتى تُذْكَر، ولا عُذْرَ حتى يُعتَذر، وقال أبو مسلم: المعنى: لا يُسْمَعُ كلامُهمْ بعد شهادة الشهداء، ولا يُلتفت إليه كما في قول عديٍّ بن زيد:

فـي سـمـاعٍ يَـأذنُ الـشـيـخُ لـه وحـديـث مـثـل مـاذيّ مُـشَـارْ[2]

وقيل: لا يُؤذنُ لهم في الرجوع إلى دار الدنيا، والأول مرويٌّ عن ابن عباس وأبي العالية، و«ثم» للدلالة على أنَّ ابتلاءهم بعدم الإذن المنبئِ عن الإقناط الكُلِّيِّ، وذلك عندما يقال لهم: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، أشدُّ من ابتلائهم بشهادة الأنبياء عليهم السلام، فهي للتراخي الرُّتبي.

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝٨٤﴾ أي: لا يُطلبُ منهم أن يزيلوا عَتَبَ ربِّهم، أي: غضبه بالتوبة والعمل الصالح، إذ الآخرةُ دارُ الجزاء لا دارُ العمل، والرجوعُ إلى الدنيا مما لا يكون، وقولُ الزمخشريِّ: أي: لا يقال لهم: أَرضوا ربَّكم[3]؛ تفسيرٌ باللازم.

وقيل: المعنى: ولا يطلب رضاهم في أنفسهم بالتلُّطف بهم، من اسْتَعْتَبَهُ كَأَعْتَبَهُ إذا أعطاه العُتْبى، وهي الرضا، وأيّاً ما كان فالمراد استمرارُ النفي لا نفيُ الاستمرار.

وانتصاب الظرف على ما قال الحوفيُّ وغيره بمحذوفٍ تقديره: اذكر. وقدَّرهُ بعضُهم: خوفهم، وهو في ذلك مفعولٌ به.

---

(١) ابن المنذر كما في الدر المنثور ٤/١٢٧، وأخرجه ـ أيضاً ـ ابن جرير في تفسيره ١٤/٣٢٧، وابن أبي حاتم ٧/٢٢٩٦.

(٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/١٤٥١، والعقد الفريد ٥/٤١٦، والماذي: العسل.

(٣) الكشاف ٢/٤٢٣.

وقيل: هو نَصْبٌ على الظرفية بمحذوفٍ، أي: يوم نبعثُ يحيقُ بهم ما يحيق، وقال الطبريُّ[(١)]: هو معطوفٌ على ظَرْفٍ محذوفٍ العاملُ فيه: ينكرونها، أي: ثم ينكرونها اليومَ ويومَ نبعث من كلِّ أمةٍ شهيداً فيشهدُ عليهم ويكذِّبهم. وليس بشيءٍ.

وتجري هذه الاحتمالاتُ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: الذي يستوجبونه بظُلْمهم وهو عذابُ جهنم، والمراد من الذين ظلموا: الذين كفروا، وكان الظاهر الضمير، إلا أنه أُقيمَ المُظْهَرُ مقامه للنعي عليهم بما ذُكر في حَيِّز الصِّلة، وتعليقُ الرؤية بالعذاب للمبالغة، وقيل: المراد به جهنم نفسُها مجازاً.

ويراد بضميره في قوله تعالى: (فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ) معناه الحقيقيُّ على سبيل الاستخدام، وليس بذاك، وهذه الجملةُ قيل: مستأنفةٌ، وقيل: جواب «إذا» بتقدير: فهو لا يُخَفَّفُ؛ لأنَّ المضارعَ مثبتاً كان أو منفيّاً إذا وقع جوابَ «إذا» لا يقترنُ بالفاء، واستظهر ذلك أبو حيان ونقل عن الحوفيِّ القولَ بأنه جواب، وأنه العامل في «إذا» ثم قال: وقد تقدَّم لنا أن ما تقدَّم فاء الجواب في غير «أما» لا يعمل فيما قبله، وبيَّنَّا أنَّ العاملَ في «إذا» الفعلُ الذي يليها كسائر أدوات الشرط، وإن كان ليس قولَ الجمهور[(٢)].

وتعقَّب الخفاجيُّ القولَ بالجوابية بأنه محتاجٌ إلى ما سمعتَ من التقدير، وهو مع كونه خلافَ الأصل مُنافٍ للغرض في تغاير الجملتين في النَّظْم. يعني: قوله تعالى: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ﴾ العذاب، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝٨٥﴾ أي: يُمهلونَ، وهو أنَّ عدمَ التخفيف واقعٌ بعد رؤية العذاب، فلذا لم يؤتَ بجملةٍ اسميةٍ بخلاف عدم الإمهال، فإنه ثابتٌ لهم في تلك الحالة[(٣)].

وفي كلام الزمخشريِّ كما في «الكشف» إشعارٌ بأنَّ الناصبَ المحذوفَ لـ «إذا»: بغتهم، وأنه هو الجوابُ حيث قال بعد أن بيَّن وجهَ انتصاب اليوم: وكذلك إذا رأوا العذاب بَغَتَهُمْ وثَقُلَ عليهم، فلا يُخفَّفُ عنهم ولا هم ينظرون

(١) كما في البحر المحيط ٥/ ٥٢٥.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٥٢٦.
(٣) حاشية الشهاب ٥/ ٣٦١.

كقوله تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾ الآية[1] [الأنبياء: ٤٠]. وفيه إشعارٌ أيضاً بأنَّ عدمَ التخفيف والإنظار يدلُّ على إثقاله ومباغتته كما صرَّح به في الآية الأخرى حيث أثبت[2] الإتيان بغتةً والبُهت الذي هو الإثقال وزيادة، ورتَّب عليه ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٠] ومثل هذه الفاء فصيحةٌ عنده، فافهم.

وفي «التفسير الكبير»: قال المتكلِّمون: إنَّ العذابَ يجبُ أن يكونَ خالصاً عن شوائب النفع، وهو المراد بقوله تعالى: «لا يخفف عنهم» ويجب أن يكونَ دائمياً، وهو المراد من قوله سبحانه: «ولا هم ينظرون»[3]. وفيه نظر.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ﴾ الذين كانوا يزعمونهم شركاءَ لله سبحانه وتعالى، ويعبدونهم معه عزَّ وجلَّ؛ والمراد بهم كلُّ من اتَّخذوه شريكاً له جلَّ وعلا من صنمٍ وَوَثَنٍ وشيطانٍ وآدميٍّ وملكٍ، وإضافتُهم إلى ضمير المشركين لهذا الاتِّخاذ، وقيلَ: أُريد بهم معبوداتهم الباطلة كما تقدم، والإضافة إليهم لأنهم جعلوا لهم نصيباً من أموالهم وأنعامهم، واقتصر بعضُهم على الأصنام، ولعلَّ التعميمَ أولى، وقال الحسن: شركاؤهم: الشياطينُ، شَرِكوهم في الأموال والأولاد، وقيل: شَرِكوهم في الكُفْر، أي: كفروا مثلَ كُفْرهم، وقيل: شَرِكوهم في وبَال ذلك حيث حملوهم عليه.

﴿قَالُوا۟﴾ أي: بألسنتهم، وقيل: ختم الله تعالى على أفواههم وأنطقَ جوارحهم فقالت عنهم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ﴾ أي: نعبدهم ونطيعهم، ولعلَّهم قالوا ذلك طمعاً في توزيع العذاب بينهم.

واعتُرض بأنه لا يناسبُ تفسيرَ الشركاء بالأصنام، وفيه أنها تجيءُ على حالةٍ يُعقَلُ معها عذابُها، فلا بأس في ذلك، سواءٌ فُسِّرتِ الشركاءُ بالأصنام فقط أو بما يعمُّها وغيرَها، وقال أبو مسلم: مقصودهم من ذلك إحالةُ الذنب على الشركاء

(١) الكشاف ٢/ ٤٢٣.
(٢) في (م): أبت.
(٣) التفسير الكبير ٢٠/ ٩٦.

ظنّاً منهم أنَّ ذلك يُنجِّيهم من عذاب الله تعالى، أو يُنقصُ من عذابهم شيئاً.

وتعقَّبه القاضي بأنه بعيدٌ؛ لأنَّ الكفارَ يعلمونَ علماً ضروريّاً في الآخرة أنَّ العذابَ سينزلُ بهم ولا نُصْرةَ ولا فديةَ ولا شفاعة، وأوردَ نحوه على ما ذكرنا بناءً على أنهم يعلمونَ علماً ضروريّاً أيضاً أنه لا يحملُ أحدٌ من عذابهم شيئاً.

وأجيب بأنه على تقدير تسليم حصول العلم الضروريِّ لهم بذلك إذ ذاكَ يجوزُ أن يدهشوا فيغفلوا عن ذلك فيقولوا ما يقولون طامعين فيما ذكر، وهو نظيرُ قولهم: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾[1] [غافر: ٤٩]. ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]. ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ [فاطر: ٣٧] إلى غير ذلك مما لهم علمٌ ضروريٌّ عند بعضهم بأنه لا يكون.

وقيل: إنَّ القومَ مع عِلْمهم بأنَّ ما يرجونه ويطمعون فيه لا يحصلُ لهم أصلاً، وعدمُ غفلتهم عن ذلك تغلبهم أنفسهم بمقتضى الطبيعة لشدَّة ما هم فيه ـ والعياذ بالله تعالى ـ حتى تعلّق آمالها بالمحال.

وقيل: قالوا ذلك اعترافاً بأنهم كانوا مخطئين في عبادتهم.

وتُعقِّبَ بأنه لا يناسبُ قوله تعالى: (مِن دُونِكَ) وفيه تأملٌ.

نعم قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَوْا﴾ أي: شركاؤهم ﴿إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾ أظهرُ ملاءمة للأول، فإنَّ تكذيبهم إياهم فيما قالوا ظاهرٌ في كونه للمدافعة والتخلُّصِ عن غائلة مضمونه، والظاهرُ أنَّ التكذيبَ راجعٌ إلى دعوى أنهم كانوا يعبدونهم أو يطيعونهم من دون الله تعالى، ومرادهم على ما قيل: إنكم ما عبدتمونا حقيقةً وإنما عبدتم أشياءَ تصوَّرتموها بأذهانكم الفاسدة، وزعمتم أنَّا هاتيك الأشياء، وهيهات هيهات ليس بيننا وبينها جهةٌ جامعةٌ ولا علاقةٌ نافعةٌ.

وقيل: إنما كذَّبوهم وقد كانوا يعبدونهم؛ لأنَّ الأوثانَ ما كانوا راضين بعبادتهم لهم، فكأنَّ عبادتهم لم تكن عبادةً لهم كما قالت الملائكة عليهم السلام: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ [سبأ: ٤١] يعنون أنَّ الجنَّ هم الذين كانوا راضين

(١) في الأصل و(م): ربنا خفف عنا يوماً من العذاب. والمثبت هو الصواب.

بعبادتهم لا نحن، والشياطينُ وإن كانوا راضين بعبادتهم لهم لكنهم لم يكونوا حاملين لهم على وجه القَسْر والإلجاء كما قال إبليس: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم:٢٢] فكأنهم قالوا: ما عبدتمونا حقيقةً وإنما عبدتم أهواءكم.

وقيل: يجوز أن يكون الشياطين كاذبين في إخبارهم بِكَذِبِ مَنْ عَبَدهم كما كذَّب إبليسُ عليه اللعنةُ في قوله: ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢] وجُوِّزَ أن يكونَ التكذيبُ راجعاً إلى أنهم شركاء لله سبحانه، لا إلى أنهم كانوا يعبدونهم، ومرادهم تنزيهُ الله جلَّ وعلا عن الشريك في ذلك الموقف، وخصَّ هذا بعضُهم بتقدير إرادة الشياطين من الشركاء، فافهم.

والظاهر أنَّ قائلَ هذا جميعُ الشركاء، ولا يمنعُ من ذلك تفسيره بما يعمُّ الأصنام؛ إذ لا بُعْدَ في أنْ ينطقها الله تعالى الذي أَنطقَ كلَّ شيءٍ بذلك.

وجُوِّزَ على التعميم أن يكون القائلُ بعضهم، وهو مَنْ يَعقِلُ منهم؛ وكان الظاهر: فقالوا لهم: إنكم لكاذبون، إلا أنه عُدِلَ إلى ما في النَّظْم الكريم للإشارة إلى أنهم قالوا ذلك لهم على وجه الإفصاح، بحيث يُدرَكُ ويمتازُ عن غيره، وفيه من الإشعار بالحرص على تكذيبهم ما فيه، ويؤيد ذلك تأكيدهم الجملةَ الدالةَ على تكذيبهم أتمَّ تأكيد، وهي في موضع البدل من القول كما قال الإمام، أي: أَلقَوا إليهم إنكم لكاذبون[١].

﴿وَأَلْقَوْا۟﴾ أي: الذين أشركوا، وقيل: هم وشركاؤهم جميعاً، والأكثرون على الأول ﴿إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ الاستسلام والانقياد لحكمه تعالى العزيز الغالب بعد الإباء والاستكبار في الدنيا، فلم يكن لهم إذ ذاكَ حيلةٌ ولا دَفْعٌ. وروى يعقوب عن أبي عمرو أنه قرأ: «السَّلْم» بإسكان اللام[٢]، وقرأ مجاهد: «السُّلُم» بضم السين واللام[٣].

---

(١) تفسير الرازي ٢٠/ ٩٧.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤١٥، والبحر المحيط ٥/ ٥٢٦-٥٢٧.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤١٥، والبحر المحيط ٥/ ٥٢٧.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ ضاعَ وبَطَلَ ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ من أنَّ لله سبحانه شركاء، وأنهم ينصرونهم ويشفعون لهم حين سمعوا ما سمعوا.

❁ ❁ ❁

هذا، ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ بنسبة ذلك إلى غيره سبحانه ورؤيته منه ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ من النعمة بالغفلة عن مُنْعمها ﴿فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وبالَ ذلك، أو فسوفَ تعلمونَ بظهور التوحيد أن لا تأثيرَ لغيره تعالى في شيءٍ.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيعتقدون فيه من الجهالات ما يعتقدون، وهو السِّوى ﴿نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ فيقولون: هو أعطاني كذا، ولو لم يعطني لكان كذا.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ الإشارةُ فيه - على ما في «أسرار القرآن» - إلى ما تشربه الأرواح مما يحصل في العقول الصافية بين النفس والقلب من زُلال بحر المشاهدة، وهناك منازلُ اعتبار المعتبرين. والإشارةُ في قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ على ما فيه أيضاً إلى ما تتخذُه الأرواحُ والأسرارُ من ثمرات نخيلِ القلوب وأعناب العقول من خَمْرِ المحبة والأُنس الآخذة بها إلى حظيرة القدس:

ولو نَضحوا منها ثرى قبرِ ميِّتٍ لعادتْ إليه الروحُ وانتعشَ الجسمُ(١)

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ قيل: أي: نحلِ الأرواح ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ﴾ أي: جبال أنوار الذات ﴿بُيُوتًا﴾ مقارَّ لتسكنين فيها ﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ﴾ أي: ومن أشجار أنوار الصِّفات ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ أنوار عروش الأفعال ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: من ثمرات تلك الأشجار الصِّفاتية، ونور بهاء الأنوار الذاتية، وأزهار الأنوار الأفعالية ﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ﴾ وهي صحارى قُدْسه تعالى، وبراري جلاله جلَّ شأنه ﴿ذُلُلًا﴾ منقادةً لما أُمرتْ به ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾ وهو شرابُ معرفته تعالى بقِدَمِ جلاله

(١) البيت لابن الفارض وهو في ديوانه ص١٤١.

وعزِّ بقائه وتقدُّس ذاته سبحانه ﴿مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ باختلاف الثمرات ﴿فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۗ﴾ لكلِّ مريضِ المحبَّة وسقيم الأُلفة، ولديغ الشَّوق.

وقيل: الإشارةُ بالنحل إلى الذين هم في مبادي السلوك من أرباب الاستعداد، ومن هنا قال الشيخ الأكبر قُدِّسَ سِرُّهُ في مولانا ابن الفارض قُدِّسَ سِرُّهُ حين سئل عنه: نحلةٌ تُدندنُ حولَ الحمى. أمرهم الله تعالى أولاً أن يتخذوا مقارَّ من العقائد الدينية التي هي كالجبال في الرسوخ والثبات، ومن العبادات الشرعية التي هي كالشجر في التشعُّب، ومن المعاملات المرضية التي هي كالعروش في الارتفاع، ثم يسلكوا سُبُلَهُ سبحانه وطُرُقه الموصلة إليه جلَّ شأنه من تهذيب الباطن والمراقبة والفكر ونحو ذلك، متذلِّلين خاضعينَ غير مُعجَبين، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ السلوكَ إنما يصحُّ بعد تصحيح العقائد ومعرفة الأحكام الشرعية، ليكونَ السالكُ على بصيرةٍ في أمره، وإلا فهو كمن رَكِبَ متنَ عمياء وخَبَطَ خَبْطَ عشواء، ومتى سلك على ذلك الوجه حصل له الفوزُ بالمطلوب، وتفجَّرت ينابيعُ الحِكْمة من قلبه، وصار ما يقذف به قلبهُ كالعسل شفاءً من عِلل الشهوات وأمراض النفس، لاسيَّما مرض التثبُّط والتكاسل عن العبادة، وهو المرض البلغميُّ.

وقال أبو بكر الورَّاق: النحلةُ لمَّا اتَّبعتِ الأمرَ وسلكتْ سُبُلَ ربِّها على ما أُمرت به، جعل لعابها شفاءً للناس، كذلك المؤمنُ إذا اتَّبع الأمرَ وحفظ السِّرَّ وأقبلَ على ربِّه عزَّ وجلَّ، جعل رؤيته وكلامه ومجالسته شفاءً للخلق، فمن نظر إليه اعتبر، ومن سَمِعَ كلامه اتَّعظ، ومن جالسه سَعِدَ. انتهى.

وفي الآية إشارةٌ أيضاً إلى أنه تعالى قد يُودِع الشخصَ الحقيرَ الشيءَ العزيزَ، فإنه سبحانه أودعَ النحلَ ـ وهي من أحقر الحيوانات وأضعفها ـ العسلَ، وهو من ألذِّ المذوقات وأحلاها، فلا ينبغي التقيُّدُ بالصُّور والاحتجاب بالهيئات، وفي الحديث: «رُبَّ أشعثَ أغبرَ ذي طِمْرين، لو أقسم على الله تعالى لأبرَّه»[1]، وعن يَعسوب المؤمنين عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه: لا تنظرْ إلى مَنْ قال، وانظرْ إلى ما قال.

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٤٧٦)، والترمذي (٣٨٥٤) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾ قيل: الإشارة فيه إلى تفاوت أرزاق السالكين، فرزقُ بعضهم طاعات، وبعضٍ آخرَ مقامات، وبعضٍ حالات، وبعضٍ مكاشفات، وبعضٍ مشاهدات، وبعضٍ معرفة، وبعضٍ محبة، وبعضٍ توحيد، إلى غير ذلك، وذكروا أنَّ رِزْقَ الأشباح العبودية، ورِزْقَ الأرواح رؤية أنوار الربوبية، ورِزْقَ العقول الأفكار، ورِزْقَ القلوب الأذكار، ورِزْقَ الأسرار حقائق العلوم الغيبية المكشوفة لها في مجالس القرب ومشاهدة الغيب.

﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ لتقدُّسِه تعالى عن الأوهام والإشارات والعبارات، وتنزُّهه سبحانه عن دَرْك الخليقة، فإنَّ الخَلْقَ لا يُدركُ إلا خَلْقاً، ولذا قال عليٌّ كرم الله تعالى وجهه: إنما تُحِدُّ الأدوات أنفسها، وتشيرُ الآلات إلى نظائرها، فلا يعرفُ اللهَ تعالى إلا الله عزَّ وجلَّ، وعلَّل النهي بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ محبًّا لغير الله تعالى، ولا شكَّ أنَّ المحبَّ أسيرٌ بيد المحبوبِ، لا يقدر على شيءٍ لأنه مقيَّدٌ بوثاق المحبة ﴿وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ فجعلناه محبّاً لنا مقبلاً بقلبه علينا، متجرِّداً عمَّا سوانا، وآتيناه من لدنَّا عِلْماً ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا﴾ وذلك من النِّعَم الباطنة ﴿وَجَهْرًا﴾ وذلك من النِّعم الظاهرة.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ لا استعدادَ فيه للنطق وهو مَثَلُ المشرك ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ لعدم استطاعته وقصور قوَّته للنقص اللازم لاستعداده ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ لعجزهِ بالطَّبع عن تحصيل حاجته(١) ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ لعدم استعداده وشرارته بالطبع، فلا يناسبُ إلا الشَّرَّ الذي هو العدم.

﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ وهو الموحِّدُ القائم بالله تعالى الفاني عن غيره، والعَدْلُ على ما قيل: ظِلُّ الوحدة في عالم الكثرة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ صراطِ العزيز الحميدِ الذي عليه خاصَّته تعالى من أهل البقاء بعد الفناء، الممدود على نار الطبيعة لأهل الحقيقة، يمرُّون عليه كالبرق اللامع.

---

(١) في (م): حاجة.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ علمُ مراتب الغيوب، أو ما غاب من حقيقتهما، أو ما خفي فيهما من أمر القيامة الكبرى.

﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: القيامة الكبرى بالقياس إلى الأمور الزمانية ﴿إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ وهو بناء على التمثيل، وإلا فقد قيل: إنَّ أَمْرَ الساعة ليس بزمانيٍّ، وما كان كذلك يُدركه مَنْ يُدركه لا في الزمان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومن ذلك أَمْرُ الساعة.

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ الآية، قال في «أسرار القرآن»: أخبر سبحانه أنه أخرجهم من بطون الأقدار وأرحام العَدَم وأصلاب المشيئة، على نعت الجهل لا يعلمونَ شيئاً من أحكام الربوبية وأمور العبودية وأوصاف الأزل، فألبسهم أسماعاً من نور سَمْعه، وكساهم أبصاراً من نور بَصَره، وأَودَعَ في قلوبهم علومَ غيبته لعلَّهم يشكرونه. انتهى. وهو ظاهرٌ في أنَّ المرادَ بالأفئدة القلوبُ.

وذكر بعضُ من أدركناه من المرتاضين في كتابه «الفوائد» و«شرحه» أنَّ مشاعرَ الإنسان الصدرُ، والمراد به الخيالُ والنفس الكلية التي هي محلُّ الصُّور العلمية كليةً أو جزئية، فهو محلُّ العلم المقابل للجهل. والقلبُ وهو محلُّ المعاني واليقين بالنِّسَبِ الحكمية، ويقابله الشَّكُّ والرَّيبُ. والفؤاد وهو محلُّ المعارف الإلهية المجرَّد عن جميع الصُّور والنِّسَبِ والأوضاع والإشارات والجهات والأوقات، ويقابلها الإنكار، وهو أعلى المشاعر. ونورُ الله تعالى المشار إليه بقوله ﷺ: «اتقوا فراسةَ المؤمن، فإنه ينظرُ بنور الله تعالى»(١) وهو الوجود؛ لأنه الجهةُ العليا من الإنسان، أعني: وجهه من جهة ربه، وبه يعرفُ الله تعالى، وهو في الإنسان بمنزلة الملك في المدينة، والقلبُ بمنزلة الوزير له. انتهى.

وله أيضاً كلامٌ في الأمِّ، وكذا في الأب غير ما ذكر، وذلك أنه يُطلق الأبَ على المادة، والأمَّ على الصُّورة، وزعم أنَّ قولَ الصادق رضي الله عنه: إنَّ الله تعالى خلقَ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٢٧)، والبخاري في التاريخ الكبير ٧/ ٣٥٤ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

المؤمنين من نوره وصَبَغهم في رحمته، فالمؤمن أخو المؤمن لأبيه وأمِّه، أبوه النور وأمُّه الرحمة، إشارةٌ إلى ذلك، وأنَّ ما اصطلح عليه المتقدِّمون والحكماءُ من أنَّ الأب هو الصورةُ، والأمَّ هي المادة، وأنَّ الصُّورةَ إذا نَكحتِ المادةَ تولَّدَ عنهما الشيءُ، توهُّماً منهم أنَّ النشورَ والخَلْقَ في بطن المادة بعيدٌ من جهة المناسبة، إلى آخر ما قال، فتفطَّنْ وإياك أن تعدِلَ عن الطريق السَّوي.

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ فيه إشارةٌ إلى تسخير طير القوى الروحانية والنفسانية من الفكر والعقل النظريِّ والعملي، بل الوهم والتخيُّل في فضاء عالم الأرواح.

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ من غير تعلُّقٍ بمادة، ولا اعتمادٍ على جسم ثقيل ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ عزَّ وجلَّ.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ وهو ما يستظلُّ به من وهج نار الحاجةِ فالماءُ ظِلٌّ للعطشان، والطعام ظِلٌّ للجيعان، وكلُّ ما يقوم بحاجة شخصٍ ظلٌّ له، وفي الخبر: «السلطانُ ظِلُّ الله تعالى في الأرض، يأوي إليه كلُّ مظلوم»(١). وقيل: الظلال: الأولياء يستظلُّ بهم المريدون من شِدَّةِ حَرِّ الهجران، ويأوون إليهم من قهر الطغيان، وقد يؤول قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ بنحو هذا، فما أشبه الأولياء بالجبال.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ فيه إشارةٌ إلى ما جعل للعارفين من سرابيل روح الأُنس لئلَّا يحترقوا بنيران القُدُس.

وأشار تعالى بقوله جلَّ جلاله: ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ إلى ما مَنَّ به من المعرفة والمحبة، ليدفع بذلك كيدَ الشياطين والنفوس.

﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ تنقادون لأمره سبحانه في العبودية وتخضعون لعزِّ الربوبية.

قال ابن عطاء: تمام النعمة السكونُ إلى المنعم. وقال حمدون: تمامها في الدنيا المعرفة، وفي الآخرة الرؤية، وقال أبو محمد الحريري: تمامها خلوُّ القلب

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن ٨/ ١٦٢، وفي الشعب (٧٣٦٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

من الشرك الخفي، وسلامةُ النفس من الرياء والسمعة.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ وهي هدايةُ النبيِّ أو وجوده بقوة الفطرة ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ لعنادهم وغلبة صفات نفوسهم ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لشهادة فِطَرهم بحَقِّيَّته.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في الاعتذار عن التخلُّف عن دعوته؛ إذ لا عُذْرَ لهم ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لأنهم قد حقَّ عليهم القولُ بمقتضى استعدادهم. نسأل الله تعالى العفو والعافية.

﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ قيل: هذا في الموقف الثاني حين تضعفُ غواشي أنفسهم المظلمة، وترقُّ حُجُبها الكثيفة، وأما في الموقف الأول حين قوَّةِ الهيئات الرذائل وشدَّة شكيمة النفس في الشيطنة، فلا يستسلمون كما يُشير إليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨] وقيل: المستسلمون بعضٌ والحالفون بعضٌ. فافهم، والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في أنفسهم ﴿وَصَدُّوا۟﴾ غيرهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بمَنْع مَنْ يريد الإسلامَ عنه، وبحَمْلِ من استخفُّوه على الكفر، فالصَّدُّ عن السبيل أعمُّ من المنع عنه ابتداءً وبقاءً. كذا قيل، والظاهر الأول، والظاهر أنَّ الموصولَ مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ خبرهُ، وجوَّزَ ابنُ عطيةَ كونَ الموصول بدلاً من فاعل «يفترون» ويكون «زدناهم» مستأنفاً[(١)]. وجوَّزَ بعضُهم كونَ الأول نَصْباً على الذم، أو رَفْعاً عليه، فيُضمر الناصبُ والمبتدأ وجوباً، و«زدناهم» بحاله، وهذه الزيادة إما بالشِّدَّة أو بنوعٍ آخرَ من العذاب، والثاني هو المأثور، فقد أخرج ابن مردويه والخطيب عن البراء أنَّ النبيَّ ﷺ سئل عن ذلك فقال: «عقارب أمثالُ النخل الطِّوال، ينهشونهم في جهنم»[(٢)]، وروى نحوه الحاكم وصححه والبيهقيُّ وغيره عن ابن مسعود[(٣)].

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤١٥.
(٢) الدر المنثور ٤/ ١٢٧، وتالي تلخيص المتشابه للخطيب (٣١٩).
(٣) الحاكم في المستدرك ٤/ ٥٩٣-٥٩٤، والبيهقي في البعث والنشور (٦١٥).

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي أنه قال: إنَّ أهلَ النار إذا جزعوا من حرِّها استغاثوا بضحضاح في النار، فإذا أتوه تلقاهم عقاربُ كأنهنَّ البغال الدُّهْم وأفاعي كأنهنَّ البَخاتي، فتضربهم، فذلك الزيادة(١).

وعن ابن عباس: أنها أنهارٌ من صُفْرٍ(٢) مُذابٍ يسيلُ من تحت العرش يُعذَّبون بها. وعن الزجاج: يخرجون من حَرِّ النار إلى الزمهرير، فيبادرون من شدَّة برده إلى النار(٣).

﴿بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ متعلقٌ بـ «زدناهم» أي: زدناهم عذاباً فوقَ العذاب الذي يستحقُّونه بكُفْرهم بسبب استمرارهم على الإفساد، وهو الصَّدُّ عن السبيل، وجُوِّزَ أن يُفسَّر ذلك بما هو أعمُّ من الكفر والصَّدِّ، والمعنى: زدناهم عذاباً فوق عذابهم الذي يستحقُّونه بمجرَّد الكفر والصَّدِّ بسبب استمرارهم على هذين الأمرين القبيحين، ووجهُ ذلك أنَّ البقاءَ على المعصية يومين مثلاً أقبحُ من البقاء عليها يوماً، والبقاءَ ثلاثة أيام أقبحُ من البقاء يومين، وهكذا، ومن هنا قالوا: الإصرار على الصغيرة كبيرةٌ.

وقيل: إنَّ أهلَ جهنم يستحقُّون من العذاب مرتبةً مخصوصةً هي ما يكون لهم أول دخولها، والزيادة عليها إنما هي لحفظها؛ إذ لو لم تزدْ لألِفوها وطابت أنفسهم بها، كمن وَضَعَ يده في ماءٍ حارٍّ مثلاً، فإنه يجد أولَ زمانِ وَضْعها مالا يجدهُ بعد مُضِيِّ ساعةٍ، وهو كما ترى.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم﴾ وهو كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما نبيُّهم الذي بُعثَ فيهم في الدنيا، ومعنى كونه ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أنه منهم، وذلك ليكونَ أقطع للمعذرة، ولا يردُ لوطٌ عليه السلام، فإنه لمَّا تأهَّل فيهم وسكنَ معهم عُدَّ منهم أيضاً.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٩٧. والضحضاح: ما رقَّ من الماء على وجه الأرض ما يبلغ الكعبين واستعير للنار. والدُّهم: السُّود. والبخاتي: الجمال الطوال الأعناق. النهاية (ضحضح) و(دهم) و(بخت).

(٢) الصُّفْر: هو النحاس. القاموس المحيط (صفر).

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢١٦.

وقال ابن عطية: يجوز أن يبعثَ الله تعالى شهداءَ من الصالحين مع الأنبياء عليهم السلام، وقد قال بعضُ الصحابة ﷺ: إذا رأيتَ أحداً على معصية فانهَهُ، فإن أطاعك، وإلا كنتَ شهيداً عليه يوم القيامة[1].

وذكر الإمامُ في الآية قولين؛ الأول: أنَّ كلَّ نبيٍّ شاهدٌ على قومه كما تقدم، والثاني: إنَّ كلَّ قَرْنٍ وجَمْعٍ يحصلُ في الدنيا، فلا بدَّ أن يحصلَ فيهم مَنْ يكونُ شهيداً عليهم، ولا بدَّ أن لا يكون جائزَ الخطأ، وإلا لاحتاج إلى آخر، وهكذا فيلزم التسلسل، ووجودُ الشهيد كذلك في عَصْر النبيِّ ﷺ ظاهرٌ، وأما بعده فلا بدَّ في كلِّ عصرٍ من أقوامٍ تقوم الحجة بقولهم، وهم قائمون مقامَ الشهيد المعصوم، ثم قال: وهذا يقتضي أنْ يكونَ إجماعُ الأمة حُجَّة[2]. انتهى.

وإلى أنه لابدَّ في كلِّ عَصْرٍ ممن يكونُ قولُهُ حُجَّةً على أهل عصره ذهب الجبائيُّ وأكثر المعتزلة، قال الطبرسيُّ في «مجمع البيان»: ومذهبهم يوافق مذهبَ أصحابنا - يعني الشيعة - وإن خالفه في أنَّ ذلك الحُجَّة من هو[3].

وأنت تعلم أنَّ الاستدلالَ بالآية على هذا المطلب ضعيفٌ، وتحقيقُ الكلامِ في ذلك يُطلَبُ من محلِّه.

وقال الأصمُّ: المراد بالشهيد أجزاءٌ من الإنسان، وذلك أنه تعالى يُنطِقُ عشرةَ أجزاء منه، وهي الأذنان والعينان والرِّجلان واليدان والجلد واللسان، فتشهدُ عليه؛ لأنه سبحانه قال في صفة الشهيد (مِّنْ أَنفُسِهِمْ). وتعقَّبه القاضي وغيره بأنَّ كونه شهيداً على الأمة يقتضي أن يكون غيرهم. وأيضاً قوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ [الآية: ٨٤] يأبى ذلك إذ لا يصحُّ وَصْفُ آحاد الأعضاء بأنها من الأمة؛ وأيضاً مقابلة ذلك بقوله سبحانه: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يُبعد ما ذكر كما لا يخفى، والمراد بهؤلاء أمته ﷺ عند أكثر المفسِّرين، ولم يستبعد أن يكون المراد بهم ما يشمل الحاضرين وقتَ النزول وغيرَهم إلى يوم القيامة، فإنَّ أعمالَ أمته عليه الصلاة والسلام تُعرَضُ عليه بعد موته.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤١٥.
(٢) تفسير الرازي ٢٠/ ٩٨-٩٩.
(٣) مجمع البيان ١٤/ ١١٣.

فقد روي عنه ﷺ أنه قال: «حياتي خيرٌ لكم تُحدِثُونَ ويُحدَثُ لكم، ومماتي خيرٌ لكم تُعرَضُ عليَّ أعمالكم، فما رأيتُ من خيرٍ حَمَدْتُ الله تعالى عليه، وما رأيتُ من شرٍّ استغفرتُ الله تعالى لكم»(١).

بل جاء أنَّ أعمالَ العبد تُعرض على أقاربه من الموتى، فقد أخرج ابن أبي الدنيا عن أبي هريرةَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لا تفضحوا أمواتكم بسيئات أعمالكم، فإنها تُعرَضُ على أوليائكم من أهل القبور»(٢).

وأخرج أحمد(٣) عن أنس مرفوعاً: «إنَّ أعمالَكم تُعرَضُ على أقاربكم وعشائركم من الأموات، فإن كان خيراً استبشروا، وان كان غيرَ ذلك قالوا: اللهمَّ لا تُمِتْهُمْ حتى تَهدِيَهم كما هديتنا».

وأخرجه أبو داود من حديث جابر بزيادة: «وألهمهم أن يعملوا بطاعتك»(٤).

وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي الدرداء أنه قال: إنَّ أعمالكم تُعرَضُ على موتاكم فيُسَرُّونَ ويساؤون. فكان أبو الدرداء يقول عند ذلك: اللهم إني أعوذ بك أن يمقتني خالي عبد الله بن رواحة إذا لقيتُهُ. يقول ذلك في سجوده(٥).

والنبيُّ ﷺ لأُمته بمنزلة الوالد، بل أولى، ولم أقف على عَرْض أعمال الأمم السابقة على أنبيائهم بعد الموت، ولم أرَ مَنْ تعرَّضَ لذلك لا نفياً ولا إثباتاً، فإن قيل: إنها تُعرضُ، فأَمْرُ الشهادة مما لا غبار عليه في نبيٍّ لم يُبعثْ في أمته بعد خلوِّهم عنه نبيٌّ آخر، وإن قيل: إنها لا تعرض، احتاجَ أَمْرُ الشهادة إلى الفحص عن وجود أمرٍ يفيد العلمَ المصحِّحَ لها، أو التزام أنَّ الشهيدَ ليس هو النبي وحده كما سمعتَ فيما سبق، ثم إنَّ حديثَ العَرْض على نبينا عليه الصلاة والسلام يُشكِلُ

(١) أخرجه البزار ٥/٣٠٨ (١٩٢٥) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢٤: رجاله رجال الصحيح.

(٢) قال العجلوني في كشف الخفاء ٢/ ٤٨١: رواه ابن أبي الدنيا والمحاملي بسند ضعيف عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في مسنده (١٢٦٨٣).

(٤) مسند أبي داود الطيالسي (١٩٠٣) [طبعة دار هجر].

(٥) أخرجه ابن المبارك في الزهد ص٤٢ (زوائد نعيم بن حماد).

عليه حديث: «ليذادنَّ عن الحوض أقوام» الخبر[١]، وقد ذكر ذلك المُنَاويُّ[٢] ولم يُجب عنه، وقد أجبتُ عنه في بعض تعليقاتي، فتأمل.

وقيل: المراد بهم شهداءُ الأمم وهم الأنبياء عليهم السلام لعلمه عليه الصلاة والسلام بعقائدهم، واستجماع شرعه لقواعدهم، لا الأمة؛ لأنَّ كونه ﷺ شهيداً على أمته عُلِمَ مما تقدَّم، فالآيةُ مسوقةٌ لشهادته عليه الصلاة والسلام على الأنبياء ﷺ فتخلو عن التكرار.

ورُدَّ بأنَّ المرادَ بشهادته عليه الصلاة والسلام على أمته تزكيته وتعديله لهم بعد أن يشهدوا على تبليغ الأنبياء عليهم السلام حسبما علموه من كتابهم، وهذا لم يُعلم مما مرَّ ليكونَ تكراراً، وهو الوارد في الحديث، وقد ذكره غيرُ واحد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] و«على» لا مضرَّةَ فيها وإن ضرَّت فالضررُ مشترك. نعم لم يُفهم مما قبل[٣] شهادةُ هذه الأمة على تبليغ الأنبياء عليهم السلام ليظهر كون هذه الشهادة للتزكية كما في آية «البقرة»، ولعلَّ الأمر في ذلك سهلٌ.

وفي «إرشاد العقل السليم» أنَّ قوله تعالى: (وَيَوْمَ نَبْعَثُ) تكريرٌ لما سبقَ تثنية للتهديد، والمراد بهؤلاء الأممُ وشهداؤهم، وإيثارُ لفظ المجيء على البعث لكمال العناية بشأنه ﷺ، وصيغة الماضي للدلالة على تحقُّق الوقوع[٤]. انتهى.

وتعقَّبَ بأنَّ حَمْلَ «هؤلاء» على ما ذكر خلاف الظاهر، وجُوِّزَ أن يكونَ إيثارُ المجيء على البعث للإيذان بالمغايرة بين الشهادتين بناءً على أنَّ شهادته ﷺ على أمته للتزكية، ولا كذلك شهادةُ سائر الأنبياء عليهم السلام على أممهم.

والظرفُ معمولٌ لمحذوفٍ كما مرَّ، والمراد به يوم القيامة.

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الكاملَ في الكتابية، الحقيقَ بأن يُخصَّ به اسمُ

---

(١) أخرجه أحمد (٧٩٩٣)، ومسلم (٢٤٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٢) في فيض القدير ٣/ ٤٥.
(٣) في الأصل: قيل.
(٤) إرشاد العقل السليم ٥/ ١٣٥.

الجنس، وهذا ـ على ما في «البحر»[1] ـ استئنافُ إخبار، أو ليس داخلاً مع ما قبله لاختلاف الزمانين.

وجوَّزَ غيرُ واحدٍ كونه حالاً بتقدير «قد»، وذكر بعضُ الأفاضل أنَّ قوله تعالى: (وَجِئْنَا بِكَ) إلخ إن كان كلاماً مبتدأً غيرَ معطوفٍ على قوله سبحانه: (نَبْعَثُ) و(شَهِيدًا) حالٌ[2] مقدَّرة، فلا إشكالَ في الحالية، وإن كان عطفاً عليه، والتعبيرُ بالماضي لما عُرف في أمثاله، فمضمونُ الجملة الحالية متقدِّمٌ بكثير، فلا يتمشَّى التأويلُ الذي ذكروه في تصحيح كون الماضوية حالاً هنا، ففي صحة كونه حالاً كلامٌ، إلا أن يُبنى على عدم جريان الزمان عليه سبحانه وتعالى. وتُعقِّبَ بأنه ليس بشيءٍ لأنَّ قوله سبحانه: ﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ يدخل فيه العقائد والقواعد بالدخول الأولى، وذلك مستمرٌّ إلى البعث وما بعده، ولا حاجةَ إلى ما قيل من أنَّ المعنى: بحيثُ أو بحال أنَّا كنَّا نزَّلنا عليك، وتلك الحيثيةُ ثابتةٌ له سبحانه وتعالى إلى الأبد. انتهى، وفيه نظر.

وزعم بعضُهم أنَّ الجملةَ حالٌ من ضمير الرفع في الفعل العامل في الظرف، أي: خَوِّفهم ذلك اليوم وقد نزَّلنا عليك الكتاب، وهو كما ترى، والأسلم الاستئناف.

والتبيانُ مصدرٌ يدلُّ على التكثير على ما روى ثعلب عن الكوفيين، والمبرّد عن البصريين، قال سلامة الأنباري في «شرح المقامات»: كلُّ ما ورد من المصادر عن العرب على «تَفعال» فهو بفتح التاء، إلا لفظتين وهما: تِبيان وتِلقاء[3].

وقال ابن عطية: هو اسمٌ وليس بمصدر[4]. وهذه الصيغة أيضاً في الأسماء قليلةٌ، فعن ابن مالك أنه قال في «نظم الفرائد»: جاء على تِفعال بالكسر ـ وهو غيرُ مصدر ـ رجلٌ تِكلامٌ وتِلقامٌ وتِلعابٌ وتِمساحٌ للكذَّاب، وتِضرابٌ للناقة القريبة بضِراب الفحل، وتِمرادٌ لبيت الحمام، وتِلفافٌ لثوبين ملفوفين، وتِجفافٌ لما تجلَّل به الفرس، وتِهواءٌ لجزء ماضٍ من الليل، وتِنبالٌ للقصير اللئيم، وتِعشارٌ وتِبراكٌ

---

(١) ٥/ ٥٢٧.

(٢) في (م): حالاً.

(٣) المزهر ٢/ ٩٢.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤١٥.

لموضعين، وزاد ابن جعوان(١): تِمثالٌ وتِيفاقٌ لموافقة الهلال.

واقتصر أبو جعفر النحاس في «شرح المعلقات» على أقلَّ من ذلك فقال: ليس في كلام العرب على تِفعالَ إلا أربعةُ أسماء، وخامسٌ مختلفٌ فيه، يقال: تبيانٌ، ويقال لقلادة المرأة: تِقصارٌ وتِعشارٌ وتِبراكٌ، والخامس تِمساحٌ، وتمسح أكثر وأفصح(٢). انتهى.

والمعروف أنَّ «تبياناً» مصدرٌ وليس باسم، وإن قيل: إنه قولُ أكثر النحويين، وجوَّزَ الزجاجُ(٣) فيه الفتحَ في غير القرآن.

والمراد من «كلِّ شيء» على ما ذهب إليه جمعٌ: ما يتعلَّقُ بأمور الدين، أي: بياناً بليغاً لكلِّ شيءٍ يتعلَّقُ بذلك، ومن جملته أحوالُ الأمم مع أنبيائهم عليهم السلام، وكذا ما أخبرتْ به هذه الآية من بَعْثِ الشهداء وبعثه عليه الصلاة والسلام، فانتظام الآية بما قبلها ظاهرٌ، والدليلُ على تقدير الوصف المخصِّص للشيء المقام، وأنَّ بعثةَ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إنما هي لبيان الدين، ولذا أجيب السؤال عن الأهِلَّة بما أجيب(٤)، وقال ﷺ: «أنتم أعلم بأمور دنياكم»(٥) وكونُ الكتاب تبياناً لذلك باعتبار أنَّ فيه نصّاً على البعض، وإحالةً للبعض الآخر على السنة حيث أَمر باتباع النبيِّ ﷺ، وقيل فيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣] وحثّاً على الإجماع في قوله سبحانه: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية [النساء: ١١٥]، فإنها على ما روي عن الشافعي وجماعةٍ دليلُ الإجماع، وقد رضي ﷺ لأمته باتباع أصحابه حيث قال عليه الصلاة والسلام: «عليكم بسنَّتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عَضُّوا عليها بالنَّواجذ»(٦)، وقد اجتهدوا وقاسوا ووطَّؤوا طرقَ

---

(١) هو الحافظ النحوي محمد بن محمد بن جعوان، أحد من برع في العربية على ابن مالك. توفي سنة (٦٨٢هـ). تذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٩١.

(٢) المزهر ٢/ ٩٢.

(٣) في معاني القرآن له ٣/ ٢١٧.

(٤) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩].

(٥) أخرجه مسلم (٢٣٦٣) من حديث أنس ﷺ.

(٦) أخرجه أحمد (١٧١٤٤)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢) و(٤٣) من حديث العرباض بن سارية ﷺ.

الاجتهاد، فكانت السنةُ والإجماعُ والاجتهادُ[١] والقياسُ مستندةً إلى تبيان الكتاب.

وقال بعضٌ: «كلّ» للتكثير والتفخيم كما في قوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥] إذ يأبى الإحاطة والتعميم ما في التبيان من المبالغة في البيان، وإنَّ: من أمور الدين، تخصيصاً لا يقتضيه المقام. وردَّ الثاني بما سمعتَ آنفاً؛ والأول بأنَّ المبالغةَ بحسب الكمية لا الكيفية كما قيل في قوله سبحانه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]: إنه من قولك: فلانٌ ظالمٌ لعبده وظلَّامٌ لعبيده، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠] وقال بعضهم: لكلٍّ من القولين وجهةٌ، والمرجِّحُ للأول إبقاءُ «كلٍّ» على حقيقتها في الجملة، وتُعقِّبَ بأنه يُرجِّحُ الثاني إبقاءُ «شيءٍ» على العموم وسلامته من التقدير الذي هو خلافُ الأصل ومن المجاز على قولٍ. نعم ذهب أكثرُ المفسِّرين إلى اعتبار التخصيص، وروي ذلك عن مجاهد.

وقال الجلال المحليُّ في الردِّ على مَنْ لم يُجوِّزْ تخصيصَ السنة بالكتاب: إنه يدلُّ على الجواز قوله تعالى: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ) وإن خُصَّ من عمومه ما خُصَّ بغير القرآن[٢].

وتوجيهُ كونه تبياناً لكلِّ ما يتعلَّقُ بالدين بما تقدَّم هو الذي يقتضيه كلامُ غير واحدٍ من الأجلَّة، فعن الشافعيِّ رضي الله عنه أنه قال مرةً بمكة: سلوني عمَّا شئتم أُخبركم عنه من كتاب الله تعالى، فقيل له: ما تقولُ في المحرِمِ يقتلُ الزُّنبور؟ فقال: بسم الله الرحمن الرحيم قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] وحدثنا سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن ربعي بن حِرَاش عن حذيفة بن اليمان عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «اقتدوا باللَّذَين من بعدي؛ أبي بكر وعمر». وحدثنا سفيان عن مِسْعَر بن كِدام عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه أَمَرَ بقتل المحرِمِ الزُّنبورَ[٣].

---

(١) قوله: والاجتهاد. ليس في (م).

(٢) البدر الطالع في حل جمع الجوامع ١/ ٣٩٣.

(٣) أخرجه بتمامه البيهقي في السنن ٥/ ٢١٢، والخبر الأول أخرجه أيضاً أحمد (٢٣٢٤٥)، =

وروى البخاريُّ عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: «لعن الله تعالى الواشمات والمتوشِّمات والمتنمِّصات والمتفلِّجات للحُسْن المغيِّرات خَلْقَ الله تعالى» فقالت له امرأةٌ في ذلك، فقال: ما لي لا ألعنُ مَنْ لَعَنَ رسولُ الله ﷺ وهو في كتاب الله تعالى، فقالت له: لقد قرأتُ ما بين اللَّوحَين فما وجدتُ فيه ما تقول، فقال: لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه، أما قرأت ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ قالت: بلى. قال: فإنه عليه الصلاة والسلام قد نهى عنه[1].

وذهب بعضُهم إلى ما يقتضيه ظاهرُ الآية غير قائلٍ بالتخصيص ولا بأنَّ «كلّ» للتكثير فقال: ما من شيءٍ من أمر الدين والدنيا إلا ويمكن استخراجهُ من القرآن، وقد بُيِّنَ فيه كلُّ شيءٍ بياناً بليغاً، واعتبرَ في ذلك مراتبَ الناس في الفهم، فرُبَّ شيءٍ يكونُ بياناً بليغاً لقومٍ، ولا يكونُ كذلك لآخرين، بل قد يكونُ بياناً لواحدٍ ولا يكون بياناً لآخر، فضلاً عن كون البيان بليغاً أو غيرَ بليغ، وليس هذا إلا لتفاوت قوى البصائر، ونظيرُ ذلك اختلافُ مراتب الإحساس لتفاوت قوى الإبصار.

وقيل: معنى كونه «تبياناً» أنه كذلك في نفسه، وهو لا يستدعي وجودَ مبيِّنٍ له فضلاً عن تشارك الجميع في تحقُّق هذا الوصف بالنسبة إليهم بأن يفهموا حالَ كلِّ شيءٍ منه على أتمِّ وجه، ونظيرُ ذلك الشمس، فإنها منيرةٌ في حَدِّ ذاتها وإن لم يكن هناك مستنيرٌ أو ناظرٌ، ويُغني عن هذا الاعتبار اعتبارُ أنَّ المبالغةَ بحَسَبِ الكمية لا الكيفية، ويؤيدُ القولَ بالظاهر أنَّ الشيخَ الأكبرَ قُدِّسَ سِرُّهُ وغيره قد استخرجوا منه ما لا يحصى من الحوادث الكونية، وقد رأيتُ جدولاً حرفيّاً منسوباً إلى الشيخ كتب عليه أنه يعرفُ منه حوادث أهل المحشر، وآخر كُتبَ عليه أنه يعرفُ منه حوادثَ أهل الجنة، وآخر كُتبَ عليه أنه يعرفُ منه حوادثَ أهل النار، وكلُّ ذلك على ما يزعمون مُستخرَجٌ من الكتاب الكريم، ومثلُ هذا الجفرُ[2] الجامعُ المنسوب

= والترمذي (٣٦٦٢) من طريق سفيان بن عيينة، عن زائدة، عن عبد الملك بن عمير، به. قال الترمذي: هذا حديث حسن. اهـ. والخبر الثاني أخرجه أيضاً أبو نعيم في الحلية ٩/١٠٩-١١٠ بإسناد آخر مع ذكر الخبر الأول بإسناد أحمد.

(١) صحيح البخاري (٤٨٨٦)، وهو عند أحمد (٤١٢٩)، ومسلم (٢١٢٥).

(٢) الجامعة والجفر: كتابان لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وقد ذكر فيهما على طريقة علم الحروف الحوادث التي تحدث إلى انقراض العالم. دستور العلماء ١/٢٦١.

إلى أمير المؤمنين عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه فإنهم قالوا: إنه جامعٌ لما شاء الله تعالى من الحوادث الكونية، وهو أيضاً مستخرَجٌ من القرآن العظيم.

وقد نقل الجلال السيوطيُّ عن المرسيِّ أنه قال: جمعَ القرآنُ علومَ الأولين والآخرين بحيث لم يُحِطْ بها علماً حقيقة إلا المتكلِّمُ به، ثم رسولُ الله ﷺ، خلا ما استأثر به سبحانه، ثم وَرِثَ عنه معظمُ ذلك ساداتُ الصحابة وأعلامُهم، مثل الخلفاء الأربعة ومثل ابن عباس وابن مسعود، حتى قال الأول: لو ضاعَ لي عِقالُ بعيرٍ لوجدته في كتاب الله تعالى. ثم وَرِثَ عنهم التابعون لهم بإحسانٍ، ثم تقاصرتِ الهمم، وفَتَرتِ العزائم، وتضاءلَ أهلُ العلم وضعفُوا عن حَمْل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه، فنوَّعوا علومه، وقامتْ كلُّ طائفةٍ بفنٍّ من فنونه[1].

وقيل: لا يخلو الزمانُ من عارفٍ بجميع ذلك، وهو الوارثُ المحمَّديُّ، ويُسمَّى الغَوثُ، وقُطْبُ الأقطاب، والمُظهِرُ الأتَمُّ، ومُظهِرُ الاسم الأعظم، إلى غير ذلك.

ويَرُدُّ على هؤلاء القائلين حديثُ التأبير، وقوله ﷺ: «أنتم أعلم بأمور دنياكم»[2]. وأُجيب بأنه يحتملُ أن يكونَ ذلك منه ﷺ قبل نزول ما يعلم منه عليه الصلاة والسلام حالَ التأبير، ويحتملُ أن يكونَ بعد النزول، وقال ذلك ﷺ قبل الرجوع إليه والنظر فيه، ولو رَجَعَ ونَظَرَ لَعَلِمَ فوقَ ما علموا، فأَعلميَّتُهم بأمور دنياهم إنما جاءت لكَوْن علمهم بذلك لا يحتاجُ إلى الرجوع والنظر، وعلمهُ عليه الصلاة والسلام يحتاجُ إلى ذلك، وهذا كما قال ﷺ: «لو استقبلتُ ما استدبرتُ لما سُقْتُ الهَدْي»[3] مع أنْ سَوْقَ الهدي من الأمور الدينية، وقد قالوا: إنَّ القرآنَ العظيمَ تبيانٌ لها، وهذا يردُ عليهم لولا هذا الجواب، فتأمل فالبحثُ بعدُ غيرُ خالٍ عن القيل والقال.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ١٠٢٧-١٠٢٨.

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٦٣) من حديث أنس ﷺ، وسلف ص٢٦٣ من هذا الجزء.

(٣) أخرجه أحمد (١٢٥٠٢) من حديث أنس ﷺ، وبرقم (٢٥٤٢٥) من حديث عائشة ﷺ، وأخرجه البخاري (١٧٨٥)، ومسلم (١٢١٦) من حديث جابر ﷺ.

وقال بعضهم: إنَّ الأمورَ إما دينيةٌ أو دنيويةٌ، والدنيويةُ لا اهتمامَ للشارع بها؛ إذ لم يُبعث لها، والدينيةُ إما أصليةٌ أو فرعيةٌ، والاهتمامُ بالفرعية دونَ الاهتمام بالأصلية، فإنَّ المطلوبَ أولاً بالذات من بعثة الأنبياء عليهم السلام هو التوحيدُ وما أشبهه، بل المطلوبُ من خَلْق العباد هو معرفته تعالى كما يشهد له قوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] بناءً على تفسير كثيرٍ العبادة بالمعرفة، وقوله تعالى في الحديث القدسيِّ المشهور على الألسنة المصحَّح من طريق الصوفية: «كنتُ كنزاً مخفيّاً، فأحببتُ أن أُعرَفَ، فخلقتُ الخَلْقَ لأُعْرف»[1] والقرآنُ العظيمُ قد تكفَّل ببيان الأمور الدينية الأصلية على أتمِّ وجهٍ، فليكنِ المراد من «كل شيء» ذلك، ولا يحتاج هذا إلى توجيه كونه تبياناً إلى ما احتاج إليه حَمْلُ «كل شيء» على أمور الدين مطلقاً من قولنا: إنه باعتبار أنَّ فيه نصّاً على البعض وإحالةً للبعض الآخر على السُّنة... إلخ.

واختار بعضُ المتأخِّرين أنَّ «كل شيء» على ظاهره، إلَّا أنَّ المرادَ بالتبيان التبيانُ على سبيل الإجمال، وما من شيءٍ إلا بُيِّنَ في الكتاب حاله إجمالاً، ويكفي في ذلك بيانُ بعض أحواله، والمبالغة باعتبار الكمية لا الكيفية على ما علمتَ سابقاً، ولو حُمل التبيان على ما يعمُّ الإجمالَ والتفصيلَ مع اعتبار مراتب المبيَّن لهم، واعتُبر التوزيعُ، جاز أيضاً فليتدبر.

ونُصب «تبياناً» على الحال كما قال أبو حيان[2]، وجُوِّزَ أن يكون مفعولاً من أجله، أي: نزَّلنا عليك الكتابَ لأجل التبيان.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ للجميع بقرينة قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وحرمان الكفرة من جهة تفريطهم.

﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ خاصة، وجُوِّزَ صرفُ الجميع لهم لأنهم المنتفعونَ

---

(١) قال العجلوني في كشف الخفاء ٢/ ١٧٣: قال ابن تيمية: ليس من كلامه ﷺ، ولا يُعرف له سند صحيح ولا ضعيف. وتبعه الزركشي والحافظ ابن حجر في اللآلئ والسيوطي وغيرهم. وقال القاري: لكن معناه صحيح مستفاد من قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: ليعرفوني كما فسره ابن عباس ﵄.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٥٢٨.

بذلك، أو لأنَّ الهدايةَ الدَّلالةُ الموصلةُ، والرحمةَ الرحمةُ التامَّة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ﴾ أي: فيما نزَّله عليك تبياناً لكلِّ شيءٍ، وإيثارُ صيغة الاستقبال فيه وفيما بعده لإفادة التجدُّد والاستمرار.

﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ أي: بمراعاة التوسُّط بين طرفي الإفراط والتفريط، وهو رأسُ الفضائل كلِّها، يندرجُ تحته فضيلةُ القوة العقلية الملكية من الحكمة المتوسطة بين الحرمزة[1] والبلادة، وفضيلةُ القوة الشَّهوية البهيمية من العِفَّة المتوسطة بين الخلاعة والجمود[2]، وفضيلةُ القوة الغَضَبية السَّبُعِيَّة من الشجاعة المتوسطة بين التهوُّر والجبن.

فمن الحِكَم الاعتقادية التوحيدُ المتوسِّطُ بين التعطيل ونفي الصانع كما تقوله الدهرية، والتشريك كما تقوله الثَّنويةُ والوثنية، وعليه اقتصر ابن عباس في تفسير «العدل» على ما رواه عنه البيهقيُّ في «الأسماء والصفات» وابن جرير وابن المنذر وغيرهم[3]، وضمَّ إليه بعضُهم القولَ بالكَسْب المتوسط بين محض الجبر والقدر.

ومن الحِكَم العملية التعبُّد بأداء الواجبات المتوسط بين البطالة وترك العمل، لزعم أنه لا فائدةَ فيه؛ إذ الشقيُّ والسعيد متعيّنان في الأزل كما ذهب إليه بعض الملاحدة، والترهب بترك المباحات تشبيهاً بالرهبان.

ومن الحِكَم الخُلُقية الجودُ المتوسِّطُ بين البخل والتبذير.

وعن سفيان بن عيينة أنَّ العدلَ استواءُ السريرة والعلانية في العمل. وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي أنه قال: دعاني عمر بن عبد العزيز فقال لي: صِفْ لي العدلَ، فقلت: بخٍ، سألتَ عن أمر جسيم، كُنْ لصغير الناس أباً، ولكبيرهم ابناً، وللمِثْل منهم أخاً، وللنساء كذلك، وعاقبِ الناسَ على قدر ذنوبهم وعلى قدر

---

(١) في الأصل و(م): الجربزة. والمثبت من تفسير أبي السعود ٥/ ١٣٦ والكلام منه. والحرمزة: الذكاء. القاموس المحيط (حرمز).

(٢) في تفسير أبي السعود ٥/ ١٣٦: والخمود.

(٣) الأسماء والصفات ١/ ٢٧٢ (٢٠٦)، والطبري ١٤/ ٣٣٥، وابن المنذر كما في الدر المنثور ٤/ ١٢٨، وأخرجه ـ أيضاً ـ ابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢٢٩٩.

أجسادهم، ولا تضربنَّ لغضبكَ سَوْطاً واحداً فتكونَ من العادين[1]. ولعلَّ اختيارَ ذلك لأنه الأوفقُ بمقام السائل، وإلا فما تقدَّم في تفسيره أولى.

﴿وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ أي: إحسان الأعمال والعبادة، أي: الإتيان بها على الوجه اللائق، وهو إما بحسب الكيفية كما يشير إليه ما رواه البخاريُّ من قوله ﷺ: «الإحسان أن تعبدَ الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[2].

أو بحسب الكمية كالتطوع بالنوافل الجابرة لما في الواجبات من النقص.

وجُوِّزَ أن يُرادَ بالإحسان الإحسانُ المتعدِّي بـ «إلى»، لا المتعدِّي بنفسه، فإنه يقال: أَحْسَنه وأحسنَ إليه، أي الإحسانُ إلى الناس والتفضُّلُ عليهم، فقد أخرج ابن النجار في «تاريخه»[3] من طريق العكلي عن أبيه قال: مرَّ عليٌّ بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه بقومٍ يتحدثون فقال: فيمَ أنتم؟ فقالوا: نتذاكر المروءة. فقال: أو ما كفاكم الله عزَّ وجلَّ ذاك في كتابه إذ يقول: (إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ) فالعدلُ الإنصافُ، والإحسانُ التفضُّلُ، فما بقي بعد هذا؟!

وأعلى مراتب الإحسان على هذا الإحسانُ إلى المسيء، وقد أمر به نبيُّنا ﷺ. وأخرج ابن أبي حاتم عن الشعبيِّ قال: قال عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام: إنما الإحسان أن تُحسنَ إلى من أساء إليك، ليس الإحسانُ أن تُحسن إلى من أحسن إليك[4].

وابن عباس رضي الله عنهما بعد ما فسَّر العدل بالتوحيد فسَّر الإحسانَ بأداء الفرائض، وفيه اعتبارُ الإحسان متعدِّياً بنفسه.

وقيل: العدلُ أن يُنصِفَ وينتصف، والإحسانُ أن يُنصِفَ ولا ينتصف؛ وقيل: العدلُ في الأفعال والإحسان في الأقوال.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٩٩.
(٢) أخرجه أحمد (٣٦٧)، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وأخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وسلف ١/ ٢٩٥.
(٣) كما في الدر المنثور ٤/ ١٢٨.
(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٩٩.

﴿وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: إعطاء الأقارب حقَّهم من الصلة والبرِّ، وهذا داخلٌ في العدل أو[1] الإحسان، وصرَّحَ به اهتماماً بشأنه، والظاهر أنَّ المرادَ بذي القربى ما يعمُّ سائرَ الأقارب سواءً كانوا من جهة الأم أو من جهة الأب، وهذا هو المراد بذوي الأرحام الذين حثَّ الشارعُ ﷺ على صِلَتهم على الأصح[2].

وقيل: ذوو الأرحام الأقاربُ من جهة الأم، وذكر الطبرسيُّ أنَّ المرويَّ عن أبي جعفرٍ أنَّ المرادَ من «ذي القربى» هنا قرابته ﷺ المرادون في قوله سبحانه: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[3] [الأنفال: ٤١].

﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ الإفراط في متابعة القوة الشهوية كالزنى مثلاً، وفسَّر ابنُ عباس رضي الله عنهما الفحشاء به، ولعله تمثيلٌ لا تخصيص.

﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ ما يُنكَرُ على متعاطيه من الإفراط في إظهار القوة الغَضَبية، وعن ابن عباسٍ ومقاتلٍ تفسيره بالشرك، وعن ابن السائب أنه ما وُعِدَ عليه بالنار، وعن ابن عيينة أنه مخالفةُ السريرة للعلانية، وقيل: ما لا يوجبُ الحدَّ في الدنيا لكن يُوجبُ العذابَ في الآخرة.

وقال الزمخشريُّ: ما تنكرهُ العقول. وتعقَّبه ابن المنير فقال: إنه لفتةٌ إلى الاعتزال، ولو قال: المنكر ما أنكرهُ الشرعُ، لوافقَ الحقَّ، لكنه لا يدعُ بِدْعةَ المعتزلة في التحسين والتقبيح بالعقل[4].

وقال في «الكشف» بعد قوله: ما تنكره العقول، أي: بعد رَدِّه إلى قوانين الشرع، فالإنكارُ بالعقل بالضرورة، وإنما الخلافُ في مأخذه، والمقصودُ أنَّ ما يمكنُ أن يجريَ على المذهبين لا يحقُّ المحاقَّة فيه. وهو كالتعريض بابن المنير،

---

(١) في الأصل: و.
(٢) كالحديث القدسي الذي يخاطب فيه ربُّ العزة الرحم: «أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك» أخرجه البخاري (٤٨٣٠)، ومسلم (٢٥٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) مجمع البيان ١٤/ ١١٤.
(٤) الكشاف ٢/ ٤٢٥ (وبهامشه الانتصاف لابن المنير).

واستظهر أبو حيان أنَّ المنكر أعمُّ من الفحشاء، قال: لاشتماله على المعاصي والرذائل(١).

﴿وَٱلْبَغْيِۚ﴾ الاستعلاءُ والاستيلاءُ على الناس والتجبُّر عليهم، وهو من آثار القوة الوهمية الشيطانية التي هي حاصلةٌ من رذيلَتي القوتين المذكورتين الشهوانية والغضبية، وأصل معنى البغي الطلبُ، ثم اختصَّ بطلب التطاول بالظلم والعدوان، ومن ثم فُسِّرَ بما فُسِّرَ، وبذلك فسَّره ابن عباس ﵄، وتخصيصُ كلٍّ من المتعاطفات الثلاثة المنهيِّ عنها بالإشارة إلى قوةٍ من القوى الثلاث، مما ذهب إليه غير واحد.

واعترض بأنَّ ذلك مما لا دليلَ عليه، وقال بعضهم: المنكر أعمُّ الثلاثة باعتبار أنَّ المرادَ به ما ينكره الشرع ويُقبِّحهُ من الأقوال والأفعال، سواءٌ عَظُمَ قُبْحهُ ومفسدته أم لا، وسواءٌ كان متعدِّياً إلى الغير أم لا، وأنَّ المرادَ بالفحشاء ما عَظُمَ قُبْحهُ من ذلك، ومنه قيل لمن عَظُمَ قُبحه في البخل: فاحش، وعلى ذلك حمل الراغب قول الشاعر:

أرى الموتَ يعتامُ الكرامَ ويصطفي عقيلةَ مالِ الفاحشِ المتشدِّدِ(٢)

والبغيُ: التطاولُ بالظلم والعدوان، ففي الآية عطفُ العام على الخاص، وعطفُ الخاص على العام، وقيل: المراد بالفحشاء مقابلُ العدل، ويُفسَّرُ بما خرج عن سَنَن الاعتدال إلى جانب الإفراط، وبالمنكر ما يقابل ما فيه الإحسان، ويُفسَّرُ بما أُتي به على غير الوجه اللائق، بل على وجهٍ يُنْكَرُ ويُستقبح، وبالبغي ما يقابل إيتاءَ ذي القربى ويُفسَّرُ بما فُسِّر، ويكون قد قوبل في الآية الأمرُ بالنهي، وكلٌّ من المأمور به بكلٍّ من المنهيِّ عنه، وجُمع بين الأمر والنهي مع أنَّ الأمرَ بالشيء نهيٌ عن ضدِّه، والنهي عن الشيء أمرٌ بضدِّه لمزيد الاهتمام والاعتناء.

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٥٣٠. وجاء بعدها في (م): وعلى. . . أولا ليس الأمر كذلك، وسيأتي إن شاء الله تعالى. وفي هامشها: محل هذا البياض كلمة مقطوعة في نسخة المؤلف، وليس من كلام أبي حيان، ولعلها ما فسر به.

(٢) البيت لطرفة بن العبد، وهو في ديوانه ص٣٤. وينظر مفردات الراغب (فحش).

والإمام الرازي قد أطالَ الكلام في هذا المقام، وذكر أنَّ ظاهرَ الآية يقتضي المغايرةَ بين الثلاثة المأمور بها، ويقتضي أيضاً المغايرةَ بين الثلاثة المنهيِّ عنها، وشَرَعَ في بيان المغايرة بين الأُوَل ثم قال: والحاصلُ أنَّ العدلَ عبارةٌ عن القدر الواجب من الخيرات، والإحسان عبارةٌ عن الزيادة في الطاعات بحسب الكمية وبحسب الكيفية، وبحسب الدواعي والصوارف، وبحسب الاستغراق في شهود مقام العبودية والربوبية، ويدخلُ في تفسيره التعظيمُ لأمر الله تعالى، والشفقةُ على خَلْقه سبحانه، ومن الظاهر أنَّ الشفقةَ على الخلق أقسامٌ كثيرةٌ أشرفُها وأجلُّها صلةُ الرحم، لا جَرَمَ أنه سبحانه أفرده بالذكر.

ثم شَرَعَ في بيان المغايرة بين الأخيرة وقال: تفصيلُ القول في ذلك أنه تعالى أودعَ في النفس البشرية قوًى أربعة، وهي الشهوانيةُ البهيميةُ، والغَضَبيةُ السَّبعيةُ، والوهميةُ الشيطانيةُ، والعقليةُ الملكيةُ، وهذه الأخيرةُ لا يحتاجُ الإنسانُ إلى تهذيبها؛ لأنها من جوهر الملائكة عليهم السلام، ونتائجِ الأرواح القدسية العلوية، وإنما المحتاجُ إلى التهذيب الثلاثةُ قبلها، ولمَّا كانت الأولى ـ أعني القوة الشهوانية ـ إنما ترغبُ في تحصيل اللَّذَّات الشهوانية، وكان هذا النوعُ مخصوصاً باسم الفحش ـ ألا ترى أنه تعالى سمَّى الزنى فاحشة ـ أشار إلى تهذيبها بقوله سبحانه: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ المراد منه المنعُ من تحصيل اللَّذَّات الشهوانية الخارجة عن إذن الشريعة، ولما كانت الثانية ـ أعني القوةَ الغَضَبيةَ السَّبعية ـ تسعى أبداً في إيصال الشَّرِّ والبلاء والإيذاء إلى سائر الناس، أشارَ سبحانه إلى تهذيبها بنهيهِ تعالى عن المنكر؛ إذ لا شكَّ أنَّ الناسَ ينكرونَ تلك الحالةَ، فالمنكر عبارةٌ عن الإفراط الحاصل في آثار القوة الغضبية، ولما كانت الثالثة ـ أعني القوةَ الوهميةَ الشيطانيةَ ـ تسعى أبداً في الاستعلاء على الناس والترفُّع وإظهار الرياسة والتقدُّم، أشارَ سبحانه إلى تهذيبها بالنهي عن البغي إذ لا معنى له إلا التطاولُ والترفُّعُ على الناس.

ثم قال: ومن العجائب في هذا الباب أنَّ العقلاءَ قالوا: أَخسُّ هذه القوى الثلاث الشهوانية، وأوسطُها الغَضَبية، وأعلاها الوهمية، والله تعالى راعى هذا الترتيبَ فبدأ سبحانه بذكر الفحشاء التي هي نتيجةُ القوة الشهوانية، ثم بالمنكر الذي

هو نتيجةُ القوة الغضبية، ثم بالبغي الذي هو[١] نتيجة القوة الوهمية[٢].

وما تقدَّم عن غير واحدٍ مأخوذٌ من هذا، ولينظر هل يثبتُ بما قرَّره دليلُ التخصيص، فيندفعُ الاعتراضُ السابقُ أم لا، ثم إنَّ الظاهرَ عليه أنَّ عَطْفَ البغي على ما قبله كعطف «إيتاء ذي القربى» على ما قبله.

وبالجملة إنَّ الآيةَ ـ كما أخرج البخاريُّ في «الأدب» والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» والحاكم وصحَّحه عن ابن مسعود ـ أجمعُ آية للخير والشر[٣].

وأخرج البيهقيُّ عن الحسن نحو ذلك[٤]، وأخرج الباورديُّ[٥]، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» عن عبد الملك بن عمير قال: بلغ أكتمَ بن صيفي مخرجُ رسول الله ﷺ، فأرادَ أن يأتيه، فأتى قومه فانتدبَ رجلان فأتيا رسولَ الله ﷺ فقالا: نحن رُسُلُ أكتم يسألك من أنت وما جئت به؟ فقال النبيُّ ﷺ: أنا محمد بن عبد الله، عبدُ الله ورسوله، ثم تلا عليهم هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ﴾ إلخ قالوا: ردِّد علينا هذا القول، فردَّدهُ عليه الصلاة والسلام عليهم حتى حفظوه، فأتيا أكتمَ فأخبراه، فلما سمع الآية قال: إني لأراه يأمرُ بمكارم الأخلاق، وينهى عن مذامِّها، فكونوا في هذا الأمر رأساً ولا تكونوا فيه أذناباً[٦].

وقد صارت هذه الآية أيضاً كما أخرج أحمد والطبرانيُّ والبخاريُّ في «الأدب» عن ابن عباس سببَ استقرار الإيمان في قلب عثمان بن مظعون، ومحبَّته للنبيِّ ﷺ[٧]. ولجمعها ما جمعتْ أقامها عمرُ بن عبد العزيز حين آلت الخلافة إليه مقامَ ما كان بنو أميةَ ـ غَضِبَ الله تعالى عليهم ـ يجعلونه في أواخر خُطَبهم من سَبِّ عليٍّ كرَّمَ الله تعالى وجهه، ولَعَنَ كلَّ مَنْ بَغَضَهُ وسَبَّهُ، وكان ذلك من أعظم مآثره رضي الله عنه.

---

(١) في (م): هي. والمثبت من الأصل وتفسير الرازي.

(٢) تفسير الرازي ٢٠/ ١٠١-١٠٤.

(٣) الأدب المفرد (٤٨٩)، والشعب (٢٤٤٠)، والحاكم ٢/ ٣٥٦.

(٤) شعب الإيمان ١/ ١٦١-١٦٢.

(٥) الباوردي: هو أبو منصور محمد بن سعد الباوردي وهو من شيوخ ابن منده، له كتاب: معرفة الصحابة، توفي سنة (٣٠١هـ). الرسالة المستطرفة ص١٢٨.

(٦) الدر المنثور ٤/ ١٢٨، ومعرفة الصحابة لأبي نعيم ٢/ ٤١٩.

(٧) مسند أحمد (٢٩١٩)، والمعجم الكبير ٩/ ٣٩ (٨٣٢٢)، والأدب المفرد (٨٩٣).

وقال غيرُ واحدٍ: لو لم يكن في القرآن غير هذه الآية الكريمة لكفتْ في كونه تبياناً لكلِّ شيءٍ وهدًى. ولعلَّ إيرادَها عَقيبَ قوله تعالى: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ) للتنبيه عليه، فإنها إذا نُظر إلى أنها قد جمعتْ ما جمعتْ مع وجازَتها استيقظتْ عيونُ البصائر، وتحرَّكتْ للنظر فيما عداها.

وأخرج أحمد عن عثمان بن أبي العاص قال: كنتُ عند رسول الله ﷺ جالساً؛ إذ شَخَصَ بَصَره فقال: أتاني جبريل عليه السلام فأمرني أن أضعَ هذه الآيةَ بهذا الموضع (إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ) إلخ[١].

واستُدلَّ بها على أنَّ صيغةَ «أ م ر» تتناولَ الواجبَ والمندوبَ، وموضوعُها القَدْرُ المشترك. وتحقيقُ ذلك في الأصول.

﴿يَعِظُكُمْ﴾ أي: يُنبِّهكم بما يأمرُ وينهى سبحانه أحسنَ تنبيه، وهو إما استئنافٌ وإما حالٌ من الضمير في الفعلين.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ طلباً لأن تتَّعظوا بذلك وتنتبهوا.

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ قال قتادة ومجاهد: نزلتْ فيما كان من تَحالُفِ الجاهلية في أَمْرٍ بمعروفٍ أو نهيٍ عن منكر.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مَزيدةَ بن جابر أنها نزلت في بيعة النبيِّ ﷺ، كان مَنْ أَسلمَ بايعَ على الإسلام[٢].

وظاهره أنها في البيعة على الإسلام مطلقاً، فالمراد بعهد الله تلك البيعةُ كما نصَّ عليه غير واحد.

واعترض بأنَّ الظاهرَ أنه عامٌّ في كلِّ مَوْثق، وهو الذي يقتضيه كلامُ ميمون بن مِهران[٣]، وسببُ النزول ليس من المخصِّصات، ولذا قالوا: الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

---

(١) مسند أحمد (١٧٩١٨).

(٢) الدرالمنثور ٤/ ١٢٩، وتفسير الطبري ١٤/ ٣٣٨-٣٣٩.

(٣) حيث قال: الوفاء لمن عاهدته مسلماً كان أو كافراً فإنما العهد لله. البحر المحيط ٥/ ٥٣٠.

وأجيب بأنَّ قرينةَ التخصيص قوله تعالى فيما قبل: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية، وفيه نظرٌ، وقال الأصمُّ: المراد به الجهاد، وما فُرض في الأموال من حقٍّ. ولا يلائمه قوله تعالى: ﴿إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ وقيل: المراد به النذر، وقيل: اليمين. وتعقَّب ذلك الإمامُ بأنه حينئذٍ يكون قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ تكراراً لأنَّ الوفاءَ بالعهد والمنعَ من النقض متقاربان؛ لأنَّ الأمرَ بالفعل يستلزمُ النهيَ عن الترك(١).

وإذا حُمل العهد على العموم بحيث دخلَ تحته اليمين، كان هذا من باب تخصيص بعض الأفراد بالذكر للاعتناء به، وبعضُ مَنْ فَسَّر العهدَ بالبيعة لرسول الله ﷺ حَمَلَ الأيمانَ على ما وقع عند تلك البيعة، وجوَّزَ بعضُهم حَمْلها على مطلق الأيمان.

وفي «الحواشي السعدية»: إنَّ الظاهرَ أنَّ المرادَ بها الأشياءُ المحلوفُ عليها كما في قوله عليه الصلاة والسلام: «من حَلَفَ على يمينٍ فرأى غيرَها خيراً منها، فليأتِ الذي هو خيرٌ وليُكَفِّرْ عن يمينه»(٢)، لأنه لو كان المراد ذكرَ اسم الله تعالى كان عين التأكيد لا المؤكّد، فلم يكن محلّ ذِكْرِ العَطْفِ كما تقرَّر في المعاني.

ورُدَّ بأنَّ المرادَ بها العقدُ لا المحلوفُ عليه؛ لأنَّ النقضَ إنما يلائم العقد، ولا ينافي ذلك في قوله تعالى: ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ لأنَّ المرادَ كونُ العقد مؤكَّداً بذكر الله تعالى لا بذكر غيره كما يفعله العامة الجهلةُ، فالمعنى أنَّ ذلك النهي لما ذُكِرَ، لا عن نَقْض الحلف بغير الله تعالى(٣).

وقال الواحديُّ: إنَّ قوله سبحانه: ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ لإخراج لغو اليمين نحو: لا والله، بلى والله، بناءً على أنَّ المعنى: «بعد توكيدها» بالعزم والعقد، ولغوُ اليمين ليست كذلك.

---

(١) تفسير الرازي ٢٠/ ١٠٧.

(٢) أخرجه أحمد (٦٩٠٧) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وأخرجه - أيضاً - مسلم (١٦٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) لعلَّ الحواشي السعدية للسعد التفتازاني على الكشاف، والكلام بتمامه في حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٥/ ٣٦٤-٣٦٥ دون نسبتها للحواشي السعدية.

ثم إذا حُمل الأيمان على مطلقها فهو ـ كما قال الإمام ـ عامٌّ دخلهُ التخصيصُ بالحديث السابق الدالِّ على أنه متى كان الصلاحُ في نقض اليمين جاز نقضُها[١].

وتعقِّب بأنَّ فيه تأمُّلاً؛ لأنَّ الحظر[٢] لو لم يكن باقياً لما احتيج إلى الكفارة الساترة للذنب.

وأجيب بأنَّ وجوبَ الكفارة بطريق الزجر؛ إذ أصلُ الأيمان الانعقادُ ولو محظورة، فلا ينافي لزوم موجبها.

وجوِّزَ أن يقال: إنَّ ذلك للإقدام على الحلف بالله تعالى في غير محلِّه. فليتأمل.

والتوكيدُ: التوثيق، ومنه «أَكَّدَ» بقَلْبِ الواو همزةً على ما ذهب إليه الزجاج[٣] وغيره من النحاة.

وذهب آخرون إلى أنَّ «وكَّد» و«أَكَّد» لغتان أصليتان؛ لأنَّ الاستعمالين في المادة متساويان، فلا يَحسُنُ القولُ بأنَّ الواوَ بدلٌ من الهمزة كما في «الدر المصون»[٤] وهو الذي اختاره أبو حيان[٥].

﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ أي: شاهداً رقيباً، فإنَّ الكفيلَ مُراعٍ لحال المكفول به رقيبٌ عليه، واستعمالُ الكفيل في ذلك إما من باب الاستعارة أو المجاز المرسل، والعلاقة اللزوم.

والظاهر أنَّ جَعْلهم مجازٌ أيضاً؛ لأنهم لما فعلوا ذلك والله تعالى مُطَّلعٌ عليهم، فكأنهم جعلوه سبحانه شاهداً. قاله الخفاجيُّ ثم قال: ولو أبقى الكفيلَ على ظاهره، وجعل تمثيلاً لعدم تخلُّصهم من عقوبته، وأنه يسلمهم لها كما يسلم الكفيلُ من كَفَله كما يقال: مَنْ ظلم فقد أقام كفيلاً بظُلمه؛ تنبيهاً على أنه لا يمكنه التخلُّص

(١) تفسير الرازي ٢٠/١٠٧-١٠٨.
(٢) في الأصل: الخطر.
(٣) في معاني القرآن ٣/٢١٧.
(٤) ٧/ ٢٨٠.
(٥) البحر المحيط ٥/٥٢٨.

من العقوبة كما ذكره الراغب، لكان معنًى بليغاً جدًّا، فتدبر. والظاهر أنَّ الجملةَ في موضع الحال من فاعل «تنقضوا» وجُوِّزَ أن تكونَ حالاً من فاعل المصدر وإن كان محذوفاً[١].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ۝٩١﴾ أي: من النقض فيجازيكم على ذلك، في موضع التعليل للنهي السابق، وقال الخفاجيُّ: إنه كالتفسير لما قبله[٢].

﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾ فيما تصنعون من النقض ﴿كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا﴾ مصدرٌ بمعنى المفعول، أي: مغزولها، والفعل منه غَزَلَ يَغزِل بكسر الزاي، والنقضُ ضدُّ الإبرام، وهو في الجرْم فكُّ أجزائه بعضها من بعض، وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ﴾ متعلِّقٌ بـ «نقضت»، على أنه ظرفٌ له لا حال، و«من» زائدةٌ مطَّردةٌ في مثله، أي: كالمرأة التي نقضتْ غزْلَها من بعد إبرامه وإحكامه.

﴿أَنكَٰثٗا﴾ جمع نِكْث ـ بكسر النون ـ وهو ما ينكُثُ فَتْلُهُ، وانتصابه قيل: على أنه حالٌ مؤكّدةٌ من «غَزْلها» وقيل: على أنه مفعولٌ ثانٍ لـ : نقض، لتضمُّنه معنى: جعل، وجوَّزَ الزجاجُ كونَ النصب على المصدرية؛ لأن «نقضت» بمعنى نكثت[٣]، فهو ملاقٍ لعامله في المعنى.

وقال في «الكشف»: إنَّ جَعْله مفعولاً على التضمين أولى من جعله حالاً أو مصدراً، وفي الإتيان به مجموعاً مبالغةٌ، وكذلك في حَذْفِ الموصوفة ليدلَّ على الخرقاء الحمقاء وما أشبه ذلك، وفي «الكشاف» ما يشيرُ إلى اعتبار التضمين حيث قال: أي: لا تكونوا كالمرأة التي أَنْحَتْ على غزلها بعد أن أحكمته فجعلته أنكاثاً[٤]. وفي قوله: أنحت ـ على ما قال القطب ـ إشارةٌ إلى أنَّ «نقضتْ» مجازٌ عن أرادت النقضَ على حدِّ قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة:٦] وذكر أنه فُسِّرَ بذلك جَمْعاً بين القصد والفعل ليدلَّ على حماقتها واستحقاقها اللومَ بذلك، فإنَّ نقضَها لو كان من غير قصدٍ لم تستحقَّ ذلك، ولأنَّ التشبيهَ كلَّما كان

(١) حاشية الشهاب ٥/ ٣٦٥، وينظر مفردات الراغب (كفل).
(٢) حاشية الشهاب ٥/ ٣٦٥.
(٣) معاني القرآن ٣/ ٢١٧.
(٤) الكشاف ٢/ ٤٢٥-٤٢٦.

أكثر تفصيلاً كان أحسن. ولا يخفى ما في اعتبار التضمين وهذا المجاز من التكلُّف، وكأنه لهذا قيل: إنَّ اعتبار القصد جائز[١] لأنَّ المتبادرَ من الفعل الاختياري، وفي «الكشف» خرج ذلك المعنى من قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ﴾ فإنَّ نَقْضَ المبرَمِ لا يكونُ إلا بعد إنحاءٍ بالغٍ وقصدٍ تامٍّ، ولم يُرد بالموصول امرأةً بعينها، بل المراد مَنْ هذه صفتُهُ، ففي الآية تشبيهُ حال الناقض بحال الناقض في أخسِّ أحواله تحذيراً منه، وأنَّ ذلك ليس من فعل العقلاء، وصاحبه داخلٌ في عداد حمقى النساء.

وقيل: المراد امرأةٌ معلومةٌ عند المخاطَبين كانت تغزلُ، فإذا أبرمتْ[٢] غَزْلها تنقضُهُ، وكانت تسمَّى: خرقاءَ مكة، قال ابنُ الأنباري: كان اسمها: ريطة بنت عمرو المريَّة، تُلقَّبُ الحفراء[٣]، وقال الكلبِّي ومقاتل: هي امرأةٌ من قريش اسمها: ريطةُ بنتُ سعد التيمي، اتخذت مِغْزَلاً قَدْر ذراعٍ وصِنَّارةً مثل أُصبع وفَلْكَةً عظيمةً على قَدْرها، فكانت تغزلُ هي وجواريها[٤] من الغداة إلى الظهر، ثم تأمرهنَّ فينقضن ما غزلنَ.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي بكر بن حفص قال: كانت سعيدةُ الأسدية مجنونةً تجمعُ الشَّعر واللِّيف، فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا﴾[٥].

وروى ابن مردويه عن عطاء[٦] أنها شَكَتْ جنونَها إلى رسول الله ﷺ وطلبتْ أن يدعوَ لها بالمعافاة، فقال لها عليه الصلاة والسلام: «إن شئتِ دعوتُ فعافاكِ الله تعالى، وإن شئتِ صَبَرْتِ واحتسبتِ ولك الجنة» فاختارت الصبرَ والجنة، وذكر عطاء أنَّ ابنَ عباسٍ أراه إياها.

---

(١) قوله: جائز. ليس في (م).

(٢) في (م): برمت.

(٣) كذا في الأصل و(م)، والذي في البحر ٥/ ٥٣١: الجفراء، وفي تفسير الرازي ٢٠/ ١٠٨: الجعراء.

(٤) في الأصل و(م): وجوارها. والمثبت من البحر المحيط ٥/ ٥٣١ والكلام منه.

(٥) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٠٠.

(٦) في الأصل و(م): ابن عطاء. والمثبت من الدر المنثور ٤/ ١٢٩ وهو عطاء بن أبي رباح كما صرَّح السيوطي بذلك.

وعن مجاهدٍ: هذا فِعْلُ نساء نَجْدٍ تنقضُ إحداهنَّ غَزْلها، ثم تنفشُهُ فتغزله بالصوف. وإلى عدم التعيين ذهب قتادة عليه الرحمة.

﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ حالٌ من الضمير في «لا تكونوا» أو في الجارِّ والمجرور الواقع موقع الخبر.

وجُوِّزَ أن يكونَ خبر «تكونوا»، و«كالتي نقضت» في موضع الحال، وهو خلافُ الظاهر، وقال الإمام: الجملة مستأنفةٌ على سبيل الاستفهام الإنكاري، أي: أتتخذون(١).

والدَّخَلُ في الأصل ما يدخل في الشيء ولم يكن منه، ثم كُنِّي به عن الفساد والعداوة المستبطنة كالدَّغَل، وفسَّرهُ قتادة بالغدر والخيانة، ونصبه على أنه مفعولٌ ثانٍ، وقيل: على المفعولية من أجله، وفائدةُ وقوع الجملة حالاً الإشارةُ إلى وَجْهِ الشبهِ، أي: لا تكونوا مُشبَّهين بامرأةٍ هذا شأنها، متَّخذين أيمانكم وسيلةً للغدر والفساد بينكم.

﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ﴾ أي: بأن تكونَ جماعةٌ ﴿هِيَ أَرْبَىٰ﴾ أي: أَزيدُ عدداً وأوفرُ مالاً ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي: من جماعةٍ أخرى، والمعنى: لا تغدروا بقومٍ بسبب كثرتكم وقلَّتِهم، بل حافظوا على إيمانكم معهم.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وغيرهما عن مجاهد أنه قال: كانوا يُحالفون الحلفاء، فيجدون أكثرَ منهم وأعزَّ، فينقضونَ حِلفهم، ويُحالفون الذين هم أعزُّ، فنُهوا عن ذلك(٢). فالمعنى: لا تغدروا بجماعةٍ بسبب أن تكونَ جماعةٌ أخرى أكثر منها وأعزَّ، بل عليكم الوفاء بالأيمان والمحافظة عليها، وإن قلَّ من حلفتم(٣) له وكَثُرَ الآخر.

وجُوِّزَ في «تكون» أن تكونَ تامةً وناقصةً، وفي «هي» أن تكون مبتدأ وعماداً،

---

(١) تفسير الرازي ٢٠/١٠٩.

(٢) ابن جرير في تفسيره ١٤/ ٣٤٥، وابن المنذر كما في الدر المنثور ٤/ ١٢٩.

(٣) في (م): خلفتم.

فـ «أربى» إما مرفوعٌ أو منصوبٌ، وأنت تعلم أنَّ البصريينَ لا يجوِّزون كون «هي» عماداً لتنكير «أمة».

وزعم بعض الشيعة أنَّ هذه الآية قد حُرِّفت، وأصلها: أن تكونَ أئمةٌ هي أزكى من أئمتكم. ولعمري لقد ضلُّوا سواء السبيل.

﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِۦ﴾ الضميرُ المجرورُ عائدٌ إما على المصدر المنسبك من «أن تكون» أو على المصدر المنفهم من «أربى» وهو الربو بمعنى الزيادة، وقول ابن جبير وابن السائب ومقاتل: يعني بالكَثْرة، مرادُهم منه هذا، واكتفوا ببيان حاصل المعنى، وظنَّ ابنُ الأنباريِّ أنهم أرادوا أنَّ الضميرَ راجعٌ إلى نفس الكثرة، لكن لمَّا كان تأنيثها غيرَ حقيقيٍّ صحَّ التذكيرُ، وهو كما ترى.

وقيل: إنه لـ «أربى»، لتأويله بالكثير، وقيل: للأمر بالوفاء المدلول عليه بقوله تعالى (وَأَوْفُوا) إلخ، ولا حاجة إلى جعله منفهماً من النهي عن الغدر بالعهد. واختار بعضُهم الأولَ لأنه أسرعُ تبادراً، أي: يعاملكم معاملةَ المختبر بذلك الكون لينظرَ أتتمسَّكون بحبل الوفاء بعهد الله تعالى وبيعة رسوله عليه الصلاة والسلام، أم تغترُّون بكثرة قريشٍ وشوكتهم وقلَّة المؤمنين وضَعْفهم بحَسَب ظاهر الحال.

﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾ فيجازيكم بأعمالكم ثواباً وعقاباً.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ متَّفقةً على الإسلام ﴿وَلَٰكِن﴾ لا يشاء ذلك رعايةً للحكمة، بل ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾ إضلاله بأن يخلقَ فيه الضلالَ حسبما يصرفُ اختياره التابع لاستعداده له ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ هدايته حسبما يصرفُ اختياره التابع لاستعداده لتحصيلها.

﴿وَلَتُسْأَلُنَّ﴾ جميعاً يوم القيامة سؤالَ محاسبةٍ ومجازاةٍ لا سؤالَ استفسار وتفهُّم.

﴿عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ تستمرُّون على عمله في الدنيا بقُدَركم المؤثِّرة بإذن الله تعالى، والآيةُ ظاهرةٌ في أنَّ مشيئةَ الله تعالى لإسلام الخلق كلِّهم ما وقعتْ، وأنه سبحانه إنما شاء منهم الافتراقَ والاختلاف، فإيمانٌ وكُفْرٌ، وتصديقٌ وتكذيبٌ، ووقع الأمرُ كما شاء جلَّ وعلا.

والمعتزلةُ ينكرون كونَ الضلال بمشيئته تعالى، ويزعمون أنه سبحانه إنما شاء من الجميع الإيمانَ، ووقع خلافُ ما شاء عزَّ شأنه.

وأجاب الزمخشريُّ عن الآية بأنَّ المعنى: لو شاء على طريقة الإلجاء والقَسْر لجعلكم أمةً واحدةً مُسلمةً، فإنه سبحانه قادرٌ على ذلك، لكن اقتضت الحكمةُ أن يُضلَّ ويخذلَ من يشاء ممن علم سبحانه أنه يختارُ الكُفْر ويُصمِّمُ عليه، ويهدي من يشاء بأن يلطفَ بمَنْ علم أنه يختار الإيمان، والحاصل أنه تعالى بنى الأمرَ على الاختيار وعلى ما يستحقُّ به اللُّطف والخذلان، والثواب والعقاب، ولم يَبْنِهِ على الإجبار الذي لا يستحقُّ به شيء، ولو كان العبيد مضطرِّين للهداية والضلال لما أثبتَ سبحانه لهم عملاً يُسألون عنه بقوله: ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(١). اهـ.

وللعسكريِّ نحوه، وقد قدَّمنا لك غيرَ مرَّةٍ أنَّ المذهبَ الحقَّ على ما بيَّنه علَّامةُ المتأخرين الكورانيُّ وأَلَّف فيه عدَّةَ رسائل أنَّ للعبد قدرة مؤثرة بإذن الله تعالى، لا أنه لا قدرةَ له أصلاً كما يقول الجبرية، ولا أنَّ له قدرةً مقارنةً غير مؤثرةٍ كما هو المشهور عند الأشعرية، ولا أنَّ له قدرةً مؤثرةً وإن لم يأذن الله تعالى(٢) كما يقول المعتزلة، وأن له اختياراً أُعطيه بعد طلب استعداده الثابتِ في علم الله تعالى له، فللعبد في هذا المذهب اختيارٌ، والعبدُ مجبورٌ فيه، بمعنى أنه لا بدَّ من أن يكونَ له لأنَّ استعدادَهُ الأزليَّ الغيرَ المجعول قد طلبه من الجواد المطلق والحكيم الذي يضعُ الأشياءَ في مواضعها، والإثابةُ والتعذيبُ إنما يترتَّبان على الاستعداد للخير والشر الثابت في نفس الأمر، والخيرُ والشرُّ يدلَّان على ذلك نحو دلالة الأثر على المؤثِّر والغاية على ذي الغاية، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ٣٣]، ومن وَجَدَ خيراً فليَحْمَدِ اللهَ ومن وَجَدَ غيرَ ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه.

وقال ابن المنير: إنَّ أهلَ السنة عن الإجبار بمعزلٍ لأنهم يُثبتونَ للعبد قدرةً واختياراً وأفعالاً، وهم مع ذلك يُوحِّدونَ الله تعالى حقَّ توحيده، فيجعلون قدرته

---

(١) الكشاف ٢/ ٤٢٦-٤٢٧.

(٢) في (م): وإن لم يؤذن لله تعالى.

سبحانه هي الموجدةَ والمؤثِّرةَ، وقدرة العبد مقارنة فحسب، وبذلك يُميَّزُ بين الاختياريِّ والقَسْري، وتقومُ حُجَّةُ الله تعالى على عباده[١]. اهـ.

وهذا هو المشهور من مذهب الأشعرية، وهو كما ترى، وسيأتي إن شاء الله تعالى تمامُ الكلام في هذا المقام وما فيه من النَّقْضِ والإبرام.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ قالوا: هو تصريحٌ بالنهي عن اتخاذ الأيمان دَخَلاً بعد التضمين؛ لأنَّ الاتِّخاذَ المذكورَ فيما سبق وَقَعَ قيداً للمنهيِّ عنه، فكان منهيًّا عنه ضمْناً تأكيداً ومبالغةً في قُبْح المنهيِّ عنه، وتمهيداً لقوله تعالى: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ﴾ عن مَحَجَّةِ الحقِّ ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ عليها ورسوخها فيها بالإيمان، وقيل: ما تقدَّم كان نهياً عن الدخول في الحَلِفِ ونقض العهد بالقِلَّة والكَثْرة، وما هنا نهيٌ عن الدَّخَل في الأيمان التي يُرادُ بها اقتطاعُ الحقوق، فكأنه قيل: لا تتخذوا أيمانكم دَخَلاً بينكم لتتوصَّلوا بذلك إلى قَطْعِ حقوق المسلمين.

وقال أبو حيان: لم يتكرَّر النهيُ، فإنَّ ما سَبَقَ إخبارٌ بأنهم اتَّخذوا أيمانهم دَخَلاً مُعلَّلاً بشيءٍ خاصٍّ وهو أن تكونَ أمةٌ هي أربى من أمة، وجاءَ النهيُ المستأنَفُ الإنشائيُّ عن اتخاذ الأيمان دَخَلاً على العموم، فيشملُ جميعَ الصور من الحَلِفِ في المبايعة وقَطْع الحقوق المالية وغير ذلك[٢].

ورُدَّ بأنَّ قيد المنهيِّ عنه منهيٌّ عنه، فليس إخباراً صِرْفاً ولا عمومَ في الثاني؛ لأنَّ قوله تعالى: (فَتَزِلَّ) إلخ إشارةٌ إلى العِلَّة السابقة إجمالاً، على أنه قد يقال: إنَّ الخاصَّ مذكورٌ في ضمن العامِّ أيضاً، فلا محيصَ عن التكرار أيضاً، ولو سَلِمَ ما ذكره. فتأمل، ونُصب «تزلَّ» بـ «أن» مضمرةً في جواب النهي لبيان ما يترتَّبُ عليه ويقتضيه، قال في «البحر»: وهو استعارةٌ للوقوع في أمرٍ عظيمٍ؛ لأنَّ القَدَمَ إذا زلَّتِ انقلبَ الإنسانُ من حالِ خيرٍ إلى حالِ شرٍّ[٣].

وتوحيدُ القدم وتنكيرها ـ كما قال الزمخشريُّ ـ للإيذان بأنَّ زللَ قدمٍ واحدة أيِّ

(١) الانتصاف بهامش الكشاف ٢/ ٤٢٦-٤٢٧.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٥٣٢.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٥٣٢.

قَدَمٍ كانتْ عَزَّتْ أو هانتْ محذورٌ عظيمٌ، فكيف بأقدام(١).

وقال أبو حيان: إنَّ الجمعَ تارةً يُلْحَظُ فيه المجموع من حيث هو مجموعٌ، وتارةً يُلْحَظُ فيه كلُّ فردٍ فردٍ، وفي الأول يكونُ الإسنادُ معتبراً فيه الجمعية، وفي الثاني يكون الإسنادُ مطابقاً للفظ الجمع كثيراً، فيجمع ما أسند إليه، ومطابقاً لكلِّ فردٍ فيُفرد كقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ [يوسف: ٣١] فأفرد المتَّكأ لما لوحظ في «لهنَّ» كلُّ واحدةٍ منهنَّ، ولو جاء مراداً به الجمعية أو على الكثير في الوجه الثاني لجمع، وعلى هذا ينبغي أن يُحمل قوله:

فإني وجدتُ الضامرينَ متاعَهم   يموتُ ويفنى فارضخي من وِعائيا(٢)

أي: كلّ ضامر، ولذا أفردَ الضميرَ في «يموت» و«يفنى» ولمَّا كان المعنى هنا: لا يتَّخذْ كلُّ واحدٍ منكم، جاء: «فتزلَّ قدمٌ» مراعاةً لهذا المعنى، ثم قال سبحانه: ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾ مراعاةً للمجموع، أو للفظ الجمع على وجه الكثير إذا قلنا: إنَّ الإسنادَ لكلِّ فردٍ فردٍ فتكونُ الآيةُ قد تعرَّضتْ للنهي عن اتخاذ الأيمان دَخَلاً باعتبار المجموع وباعتبار كلِّ فردٍ، ودلَّ على ذلك بإفراد «قدم» وجَمْعِ الضمير في «وتذوقوا»(٣).

وتُعقِّبَ بأنَّ ما ذكره الزمخشريُّ نكتةٌ سُرِّيَّةٌ، وهذا توجيهٌ للإفراد من جهة العربية، فلا ينافي النكتةَ المذكورة.

والمراد من السوءِ العذابُ الدنيويُّ من القتل والأَسْر والنَّهْب والجلاء وغير ذلك مما يسوء. ولا يخفى ما في «تذوقوا» من الاستعارة.

﴿بِمَا صَدَدتُّمْ﴾ أي: بسبب صدودكم وإعراضكم، أو صَدِّ غيركم ومنعه ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الذي ينتظمُ الوفاء بالعهود والأيمان، فإنَّ مَنْ نَقَضَ البيعةَ وارتدَّ جعل ذلك سنةً لغيره يتبعه فيها من بعده من أهل الشقاء والإعراض عن الحقِّ، فيكونُ صادًّا عن السبيل.

---

(١) الكشاف ٢/ ٤٢٧.

(٢) نسبه ابن منظور في اللسان (حظل) لمنظور الدُّبيري، وينظر الأمالي للقالي ٢/ ٢١٢.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٥٣٢-٥٣٣.

وجعل هذا بعضُهم دليلاً أنَّ الآيةَ فيمن بايعَ رسولَ الله ﷺ، وهو كما ترى.

﴿وَلَكُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ لا يعلم عِظَمهُ إلا الله تعالى.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ المراد به عند كثيرٍ بيعةُ رسول الله ﷺ على الإيمان، والاشتراءُ مجازٌ عن الاستبدال لمكان قوله تعالى: ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فإنَّ الثمنَ مشترًى به لا مشترًى[1]، أي: لا تأخذوا بمقابلة عهده تعالى عِوَضاً يسيراً من الدنيا، قال الزمخشريُّ: كان قومٌ ممن أسلم بمكة زَيَّنَ لهم الشيطانُ لجزعهم مما رأوا من غلبة قريش واستضعافهم المسلمينَ وإيذائهم لهم ولما كانوا يَعِدُونهم من المواعيد إن رجعوا أن ينقضوا ما بايعوا عليه رسول الله ﷺ، فثبَّتهم الله تعالى بهذه الآية، ونهاهم عن أن يستبدلوا ذلك بما وعدوهم به من عَرَضِ الدنيا[2].

وقال ابن عطية: هذا نهيٌ عن الرِّشا وأَخْذِ الأموال على تَرْك ما يجبُ على الآخذ فِعْلُهُ، أو فعلُ ما يجب عليه تركه[3]. فالمراد بعهد الله تعالى ما يعمُّ ما تقدَّم وغيره، ولا يخفى حسنه.

﴿إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ﴾ أي: ما أَخبأَهُ وادَّخرهُ لكم في الدنيا والآخرة ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من ذلك الثمن القليل ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾ أي: إن كنتم من أهل العلم والتمييز، فالفعلُ منزَّلٌ منزلةَ اللازم، وقيل: متعدٍّ، والمفعولُ محذوفٌ، وهو فَضْلُ ما بين العِوَضين. والأولُ أبلغُ ومستغنٍ عن التقدير.

وفي التعبير بـ «إن» ما لا يخفى، والجملةُ تعليلٌ للنهي على طريقة التحقيق، كما أنَّ قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ﴾ إلخ تعليلٌ للخيرية بطريق الاستئناف، أي: ما تتمتَّعون به من نعيم الدنيا، بل الدنيا وما فيها جميعاً ﴿يَنفَدُ﴾ ينقضي ويفنى، وإن جَمَّ عددهُ وطالَ مددهُ، يقال: نَفِدَ بكَسْر العين يَنْفَدُ بفتحها نَفاداً ونُفوداً، إذا ذهب وفني، وأما نَفَذَ بالذال المعجَمة فبفتح العين ومضارعه يَنْفُذُ بضمِّها.

﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ﴾ من خزائن رحمته الدنيوية والأخروية ﴿بَاقٍ﴾ لا نفادَ له؛

---

(١) في (م): فإن الثمن مشترى لا مشترى به. والمثبت من الأصل.

(٢) الكشاف ٢/ ٤٢٧.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤١٩.

أما الأخروية فظاهرٌ، وأما الدنيوية فحيثُ كانت موصولةً بالأُخروية ومستتبِعةً لها، فقد انتظمتْ في سِلْكِ الباقيات الصالحات.

وأخرج ابنُ أبي حاتم عن ابن جبير أنَّ المرادَ بما عند الله في الموضعين الثوابُ الأُخرويُّ[(١)]. واختاره بعضُ الأئمة، وفي إيثار الاسم على صيغة المضارع من الدلالة على الدوام ما لا يخفى.

ورُدَّ بالآية على جَهْم بن صفوان حيث زَعَمَ أنَّ نعيمَ الجنة منقطعٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ﴾ بنون العَظَمة، وهي قراءة عاصمٍ وابن كثير على طريقة الالتفات من الغَيبة إلى التكلُّم تكريرٌ للوعد المستفاد من قوله سبحانه: (إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ) على نهج التوكيد القَسَمِيِّ مبالغةً في الحمل على الثبات على العهد. وقرأ باقي السبعة بالياء[(٢)]، فلا التفات.

والعدول عما يقتضيه ظاهر الحال من أن يقال: ولنجزينكم ـ بالنون أو بالياء ـ أَجركم بأحسن ما كنتم تعملون؛ للتوسُّل إلى التعرُّض لأعمالهم، والإشعار بعلِّيَّتها للجزاء، أي: والله لنجزينَّ ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾ على العهد أو على أذية المشركين ومشاقِّ الإسلام التي من جملتها الوفاءُ بالعهود، وإن وَعَدَ المعاهدون على نَقْضِها بما وعدوا ﴿أَجْرَهُم﴾ مفعولٌ لـ «نجزينَّ» أي: لنعطينَّهم أَجْرَهم الخاصَّ بهم بمقابلة صبرهم ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ وهو الصبر، فإنه من الأعمال القلبية، والكلامُ على حَذْفِ مضافٍ، أي: لنجزينَّهم بجزاء صَبْرهم، وكان الصبرُ أحسنَ الأعمال لاحتياج جميع التكاليف إليه، فهو رأسُها. قاله أبو حيان[(٣)].

وفي «إرشاد العقل السليم»: إنما أُضيفَ الأحسنُ إلى ما ذُكر للإشعار بكمال حُسْنه كما في قوله تعالى: ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْأٓخِرَةِۗ﴾ [آل عمران: ١٤٨] لا لإفادة قَصْر الجزاء على الأحسن منه دون الحَسَن، فإن ذلك مما لا يَخطُرُ ببالِ أحدٍ، لا سيَّما بعد قوله تعالى: (أَجْرَهُم) فالإضافة للترغيب.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٠٠-٢٣٠١.

(٢) التيسير ص١٣٨، والنشر ٢/ ٣٠٥.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٥٣٣.

وجُوِّزَ أن يكونَ المعنى: لنجزيَّنهم بحَسَبِ أَحسنِ أفراد أعمالهم، أي: لنعطينَّهم بمقابلة الفرد الأدنى من أعمالهم ما نعطيه بمقابلة الفرد الأعلى منها من الأجر الجزيل، لا أنَّا نعطي الأجرَ بحَسَبِ أفرادها المتفاوتة في مراتب الحُسْنِ بأنْ نجزيَ الحَسَنَ منها بالحَسَنِ والأحْسَنَ بالأحسن، وفيه ما لا يخفى من العِدَةِ الجميلةِ باغتفار ما عسى يعتريهم في تضاعيف الصَّبر من بعض جَزَعٍ ونَظْمه في سِلْكِ الصبر الجميل، وأن يكون «أحسن» صفة جزاءٍ محذوفاً، والإضافةُ على معنى «من» التفضيلية أي: لنجزينَّهم بجزاءٍ أحسن من أعمالهم، وكونه أحسن لمضاعفته، وقيل: المراد بالأحسن ما ترجَّح فِعْلُه على تركه كالواجبات والمندوبات، أو بما ترجَّح تركه أيضاً كالمحرَّمات والمكروهات، والحسن ما لم يترجَّحْ فِعلُهُ ولا تَرْكه وهو لا يثاب عليه. وتعقَّبه في «الإرشاد» بأنه لا يُساعده مقامُ الحَثِّ على الثبات على ما هم عليه من الأعمال الحَسَنة المخصوصة، والترغيب في تحصيل ثمراتها، بل التعرُّض لإخراج بعض أعمالهم من مدارية الجزاء من قبيل تحجير الرحمة الواسعة في مقام توسيع حماها(١).

وقيل: المراد بالأحسن النفلُ، وكان أحسن؛ لأنه لم يُحتَّمْ بل يأتي الإنسانُ به مختاراً غير مُلزَم، وإذا علمتَ المجازاةَ على النفل الذي هو أحسن علمتَ المجازاة على الفرض الذي هو حَسَنٌ، ولا يخفى أنه ليس بحَسَنٍ أصلاً.

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: عملاً صالحاً أيَّ عملٍ كان، وهذا ـ كما قيل ـ شروعٌ في تحريض كافة المؤمنين على كلِّ عملٍ صالحٍ غبَّ ترغيبِ طائفةٍ منهم في الثبات على ما هم عليه من عملٍ صالحٍ مخصوصٍ دَفْعاً لتوهُّم الأجر الموفور بهم وبعملهم، وقوله تعالى: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ دَفْعٌ لتوهُّم تخصيص «مَنْ» بالذكور لتبادرهم من ظاهر لفظ «من» فإنه مُذَكَّرٌ، وعاد عليه ضميره وإن شَمِلَ النوعين وَضْعاً على الأصح، واستُدلَّ عليه بما رواه الترمذيُّ من قوله ﷺ: «من جَرَّ ثوبه خُيَلاء، لم ينظر الله تعالى إليه» وقول أمِّ سلمة: فكيف تصنع النساء بذيولهنَّ... الحديث(٢)،

---

(١) إرشاد العقل السليم ٥/١٣٨-١٣٩.

(٢) سنن الترمذي (١٧٣١) وقال: حديث حسن صحيح. وأخرجه أحمد (٥٣٥١)، والبخاري (٣٦٦٥) دون ذكر قول أم سلمة رضي الله عنها.

فإنَّ أمَّ سلمةَ ﵂ فهمتْ دخولَ النساء في «مَنْ» وأقرَّها على ذلك رسول الله ﷺ، وبأنهم أجمعوا على أنه لو قال: مَنْ دخلَ داري فهو حرٌّ، فدخلها الإماءُ عَتَقْنَ.

وبعضهم يستدلُّ على ذلك أيضاً بهذه الآية؛ إذ لولا تناوله الأنثى وَضْعاً لما صحَّ أن يُبيّنَ بالنوعين. وفي «الكشف»: كان الظاهر تناوله للذكور من حيث إنَّ الإناثَ لا يدخلنَ في أكثر الأحكام والمحاورات، وإن كان التناولُ على طريق التعميم والتغليب حاصلاً، لكن لمَّا أُريدَ التنصيصُ ليكون أغبط للفريقين ونصًّا في تناولهما بُيِّنَ بذِكْر النوعين. اهـ.

والقولُ الأصحُّ أنَّ التناولَ لا يحتاجُ إلى التغليب، وتمام الكلام في ذلك في كتب الأصول.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ في موضع الحال من فاعل «عمل» وقُيِّدَ به إذ لا اعتدادَ بأعمال الكَفَرة الصالحة في استحقاق الثواب إجماعاً، واختلف في ترتُّبِ تخفيف العقاب عليها، فقال بعضهم: لا يترتَّبُ أيضاً لقوله تعالى: (وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ) وقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقال الإمام(١): إنَّ إفادةَ العمل الصالح لتخفيف العقاب غيرُ مشروطةٍ بالإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧] وحديث أبي طالب أنه أخفُّ الناس عذاباً لمحبَّته وحمايته النبيَّ ﷺ(٢).

وفي «البحر» أنَّ قوله تعالى: (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ) مخصَّصٌ بهذه الآية ونحوها، أو يراد بمثقال ذرةٍ: مثقالُ ذرَّةٍ من إيمانٍ، كما جاء فيمن يخرج من النار من عصاة المؤمنين(٣).

---

(١) التفسير الكبير ٢٠/١١٢ بنحوه.

(٢) أخرجه أحمد (١٧٦٣)، والبخاري (٣٨٨٣)، ومسلم (٢٠٩) من حديث العباس بن عبد المطلب ﵁.

(٣) البحر المحيط ٥/٥٣٣، والحديث أخرجه البخاري (٢٢)، ومسلم (١٨٤) من حديث أبي سعيد الخدري ﵁.

وقال الكرمانيُّ: إن تخفيفَ العذاب عن أبي طالبٍ ليس جزاءً لعمله، بل هو لرجاء غيره، أو هو من خصائص نبيِّنا عليه الصلاة والسلام.

وقال بعضهم: الإيمانُ شَرْطٌ لترتُّبِ التخفيف على الأعمال الصالحة إذا كانت مما يتوقَّفُ صحَّتها على النية التي لا تصحُّ من كافرٍ، وليس شرطاً للترتُّب عليها إذا لم تكن كذلك. وسيأتي إن شاء الله تعالى تمامُ الكلام في هذا المقام. وإيثارُ الجملة الاسمية لإفادة وجوب دوام الإيمان ومقارنته للعمل الصالح في ترتُّب قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ إلخ، والمراد بالحياة الطيبة الحياةُ التي تكونُ في الجنة؛ إذ هناك حياةٌ بلا موتٍ، وغنًى بلا فقر، وصحةٌ بلا سَقَم، ومُلْكٌ بلا هُلْك، وسعادةٌ بلا شقاوة.

أخرج ابن جرير وابن المنذر وغيرهما عن الحسن قال: ما تطيب الحياة لأحدٍ إلا في الجنة(١). وروي نحوه عن مجاهد وقتادة وابن زيد(٢)، ولله تعالى دَرُّ مَنْ قال:

لا طيبَ للعيش ما دامت منغَّصةً لذَّاتُهُ بادِّكار الموتِ والهرم

وقال شريك: هي حياةٌ تكون في البرزخ، فقد جاء: «القبرُ روضةٌ من رياض الجنةِ، أو حفرةٌ من حُفَر النار»(٣).

وقال غير واحد: هي في الدنيا، وأُريد بها حياةٌ تصحَبُها القناعةُ والرضا بما قَسَمَهُ الله تعالى له وقدَّره، فقد أخرج البيهقيُّ في «الشعب» والحاكم وصححه، وابن أبي حاتم وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه فسَّرها بذلك وقال: كان رسول الله ﷺ يدعو: «اللهمَّ قنِّعني بما رزقتني وبارك لي فيه، واخلفْ عليَّ كلَّ غائبةٍ لي بخير»(٤)، وجاء: «القناعةُ مالٌ لا ينفد»(٥).

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٣٥٣، ونسبه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٣٠.

(٢) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ٣٥٣-٣٥٤.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٦٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) الدر المنثور ٤/ ١٣٠، وشعب الإيمان (٤٠٤٧)، والمستدرك ١/ ٤٥٥ و٥١٠.

(٥) أخرجه العقيلي في الضعفاء ٢/ ٢٣٣، والطبراني في الأوسط (٦٩١٨). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٥٦: فيه خالد بن إسماعيل المخزومي، وهو متروك.

وقال أبو بكر الورَّاق: هي حياةٌ تصحَبها حلاوةُ الطاعة، وأخرج عبد الرزاق(١) وغيره عن ابن عباسٍ أنه سُئل عن ذلك فقال: الحياةُ الطيبةُ: الرزقُ الحلال، وروي عن الضحاك.

ووَجَّهَ بعضُهم طِيبَ هذه الحياة بأنه لا يترتَّبُ عليها عقابٌ، بخلاف الحياة بالرزق الحرام فقد جاء: «أيُّما لحمٍ نبتَ من سُحْتٍ فالنارُ أَولى به»(٢) وهو كما ترى، وقيل غير ذلك؛ وأولى الأقوال على تقدير أن يكونَ ذلك في الدنيا تفسيرها بما يَصحبه القناعة.

قال الواحديُّ: إنَّ تفسيرَها بذلك حَسَنٌ مختارٌ، فإنه لا يطيبُ في الدنيا إلا عيشُ القانع، وأما الحريصُ فإنه أبداً في الكَدِّ والعَناء، وقال الإمام: إنَّ عيشَ المؤمن في الدنيا أطيبُ من عيش الكافر لوجوه:

الأول: أنه لما عَرَفَ أنَّ رزقَهُ إنما حَصَلَ بتدبير الله تعالى، وأنه سبحانه مُحسنٌ كريمٌ لا يفعلُ إلا الصوابَ، كان راضياً بكلِّ ما قضاه وقدَّره، وعَرَفَ أنَّ مصلحتَهُ في ذلك، وأما الجاهلُ فلا يعرفُ هذه الأصول، فكان أبداً في الحزن والشقاء.

الثاني: أنَّ المؤمنَ يستحضرُ أبداً في عقله أنواعَ المصائب والمِحَنِ، ويُقدِّرُ وقوعَها، ويجدُ نفسَهُ راضيةً بذلك، فعند الوقوع لا يستعظمها، بخلاف الجاهل فإنه غافلٌ عن تلك المعارف، فعند وقوع المصائب يَعظُمُ تأثيرها في قلبه.

الثالث: أنَّ المؤمنَ منشرحٌ بنور معرفة الله تعالى، والقلبُ إذا كان مملوءاً بالمعرفة لم يتَّسعْ للأحزان الواقعة بسبب أحوال الدنيا، وأما الجاهلُ فقلبهُ خالٍ عن المعرفة، متفرِّغٌ للأحزان من المصائب الدنيوية.

الرابع: أنَّ المؤمنَ عارفٌ أنَّ خيراتِ الحياة الجسمانية خسيسةٌ، فلا يَعظُمُ فرحهُ بوجدانها، ولا غَمُّهُ بفقدانها، والجاهلُ لا يعرفُ سعادةً أخرى تغايرها، فيعظمُ فرحهُ بوجدانها وغمُّهُ بفقدانها.

---

(١) كما في الدر المنثور ٤/ ١٣٠، وأخرجه ـ أيضاً ـ الطبري ١٤/ ٣٥٠.

(٢) أخرجه أحمد (١٤٤٤١) من حديث جابر بن عبد الله ﵁، والترمذي (٦١٤) من حديث كعب بن عجرة ﵁.

الخامس: أنَّ المؤمنَ يعلمُ أنَّ خيراتِ الدنيا واجبةُ التغير، سريعةُ الزوال، ولولا تغيرُها وانقلابها ما وصلتْ إليه، فعند وصولها إليه لا يتعلَّقُ بها قلبه، ولا يعانقها معانقةَ العاشق، فلا يحزنهُ فواتُها، والجاهلُ بخلاف ذلك[1]. اهـ.

وللبحث فيه مجال. وأُورد على التفسير المختار أنَّ بعضَ مَنْ عملَ صالحاً وهو مؤمنٌ لم يُرزَقِ القناعةَ، بل قد ابتلي بالقُنوع[2]، وأُجيب بأنَّ المرادَ بالمؤمن مَنْ كَمَلَ إيمانه، أو يقال: المراد بـ: «مَنْ عمل صالحاً» من كان جميعُ عمله صالحاً.

وقال البيضاويُّ في بيان ترتُّب إحيائه حياةً طيبةً: إنه إن كان مُعسراً فظاهرٌ، وان كان مُوسراً فَطيبُ عيشهِ بالقناعة والرضا بالقسمة وتوقُّع الأجر العظيم في الآخرة[3]، أي: على تخلُّفِ بعض مراداته عنه وضَنكِ عيشه.

فقال الخفاجيُّ: إنَّ هذه الأمورَ لابدَّ من وجود بعضِها في المؤمن. والأخير ـ يعني: توقُّع الأجر في الآخرة ـ عامٌّ شاملٌ لكلِّ مؤمنٍ، فلا يردُ عليه أنَّ هذا لا يُوجدُ في كلِّ مَنْ عمل صالحاً حتى يُؤوَّلَ المؤمنُ بمَنْ كَمَلَ إيمانه[4].. إلى آخر ما سمعت. وتُعقِّبَ بأنَّ القناعةَ هي الرضا بالقِسْم كما في «القاموس»[5] وغيره، وتوقُّع الأجر العظيم لا يوجد بدون ذلك، وكيف يحصلُ الأجرُ على تخلُّف المراد وضَنكِ العيش مع الجزعِ وعدم الرضا، وكلامه ظاهرٌ في تحقُّق هذا التوقُّع وإن لم يكن هناك قناعةٌ ورضاً، ولا يكاد يقعُ هذا من مؤمنٍ عارفٍ، فلا بدَّ من التأويل.

وبحث بعضُهم فيه أيضاً بأنَّ كمالَ الإيمان لا يكون بدون الرضا، وكذا كونُ جميع الأعمال صالحة لا يوجد بدونه؛ لأنَّ الأعمالَ تشملُ القلبيةَ والقالبية، والرضا من النوع الأول.

---

(١) تفسير الرازي ٢٠/ ١١٢-١١٣.

(٢) القُنوع: السؤال والتذلل، والرضا بالقِسْم، ضِدٌّ، ومن دعائهم: نسأل الله القناعة ونعوذ بالله من القنوع. القاموس المحيط (قنع).

(٣) كذا في الأصل و(م)، والصواب: إنه إن كان موسراً فظاهر، وإن كان معسراً فطيب.... كما في تفسير البيضاوي(٥/ ٣٦٧ بهامش حاشية الشهاب).

(٤) حاشية الشهاب ٥/ ٣٦٧.

(٥) مادة (قنع).

والمراد من «النحيينه حياة طيبة»: لنعطينَّه ما تطيبُ به حياته، فيؤوَّلُ معنى الآية حينئذٍ على تقدير أن يُرادَ القناعةُ والرضا: مَنْ رضيَ بالقِسْمة وفَعَلَ كذا كذا وهو مؤمنٌ، أو مَنْ عملَ صالحاً وهو راضٍ بالقِسْمة متَّصفٌ بكذا وكذا مما فيه كمالُ الإيمان، فلنعطينَّهُ الرضا بالقِسْمة الذي تطيبُ به حياته، ويتضمَّنُ مَنْ رضيَ بالقِسْمة فلنعطينَّهُ الرضا بالقِسْمة الذي تطيبُ به حياته، وهو كما ترى، وفيه ما لا يخفى.

نعم تفسيرُ الحياة الطيبة بما يكونُ في الجنة سالمٌ عن هذا القيل والقال، ويُرادُ بها ما سَلِمَتْ من توهُّم الموتِ والهرم وحلول الألم والسَّقَم، فيكونُ قوله تعالى: (فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً) إشارة إلى دَرْءِ المفاسد، وقوله سبحانه: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ إشارة إلى جَلْب المصالح، ولكَوْن الأول أهم قُدِّم فليتأمل، وكأنَّ المراد: ولنجزينَّهم. . .إلخ حسبما يُفعَلُ بالصابرين، فليس في الآية شائبةُ تكرارٍ كما زعم الطبرسي[1].

والجمعُ في الضمائر العائدة إلى الموصول لمراعاة جانب المعنى، كما أنَّ الإفراد فيما سلف لرعاية جانب اللفظ، وإيثارُ ذلك على العكس بناءً على كون الإحياء حياةً طيبة في الدنيا، وجزاء الأجر في الآخرة لما أنَّ وقوعَ الجزاء بطريق الاجتماع المناسب للجمعية، ووقوع ما في حَيِّز الصلة وما يترتب عليه بطريق الافتراق والتعاقب الملائم للإفراد، وقيل ـ بناءً على كون ذلك في الآخرة ـ إنَّ الجمعَ والإفرادَ لما تقدم، وكذا إيثارُ ذلك على العكس فيما عدا ضمير «النحيينَّه» وأما في ضميره فلما أنَّ الإحياءَ حياةً طيبةً بمعنى: ما سلمتْ مما تقدَّم، أمرٌ واحدٌ في الجميع لا يتفاوتُ فيه أهل الجنة، فكأنهم في ذلك شيءٌ واحد، ولمَّا لم يكن الجزاءُ كذلك، وكان أهلُ الجنة فيه متفاوتين، جيءَ بضمير الجمع معه، فتأمل كلَّ ذلك.

وروي عن نافع أنه قرأ: «وليجزينَّهم» بالياء على الالتفات من التكلُّم إلى الغَيبة[2].

---

(١) في مجمع البيان ١٤/ ١٢٢.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤١٩، والبحر المحيط ٥/ ٥٣٤.

قال أبو حيان: وينبغي أن يكون ذلك على تقدير قَسَمٍ ثانٍ لا معطوفاً على «فلنحيينه» فيكونُ من عَطْفِ جملةٍ قَسَميةٍ على مثلها، وكلتاهما محذوفتان، ولا يكونُ من عَطْفِ جوابٍ على مثله لتغايرِ الإسناد وإفضاءِ الثاني إلى إخبار المتكلِّم عن نفسه إخبارَ الغائب، وذلك لا يجوز، وعلى هذا لا يجوز: زيدٌ قال: لأضربنَّ هنداً ولينفينَّها، تريد: ولينفينَّها زيدٌ، فإنْ جعلته على إضمار قَسَمٍ ثانٍ جازَ، أي: وقال زيدٌ: لينفينَّها؛ لأنَّ لك في هذا التركيب حكاية المعنى وحكاية اللفظ، ومن الثاني: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [التوبة: ١٠٧] ومن الأول ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ [التوبة: ٧٤] ولو حُكي اللفظُ قيل ما قلنا[١]. اهـ.

واستدلَّ بالآية على أنَّ الإيمانَ مغايرٌ للعمل الصالح مغايرةَ الشرط للمشروط.

هذا، وإذ قد انتهى الأمرُ إلى مدار الجزاء ـ وهو صلاحُ العمل وحُسْنهُ ـ رُتِّب عليه بالفاء الإرشادُ إلى ما به يحسنُ العمل الصالح، ويخلص عن شَوْب الفساد فقيل: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي: إذا أردتَ قراءةَ القرآن فاسأله عزَّ جارهُ أن يُعيذك ﴿مِنَ﴾ وساوس ﴿ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ كيلا يوسوسك في القراءة، فالقراءةُ مجازٌ مرسلٌ عن إرادتها إطلاقاً لاسم المسبّب على السبب، وكيفيةُ الاستعاذة عند الجمهور من القرَّاء وغيرهم: أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم؛ لتضافر الروايات على أنه ﷺ كان يستعيذُ كذلك.

وروى الثعلبيُّ والواحديُّ أنَّ ابنَ مسعودٍ قرأ عليه عليه الصلاة والسلام فقال: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم. فقال له ﷺ: «يا ابن أمِّ عبدٍ قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هكذا أقرأنيه جبريلُ عن القلم عن اللوح المحفوظ»[٢]، نعم أخرج أبو داود والبيهقيُّ عن عائشة ﵂ في ذِكْرِ الإفك، قالت: جلس رسول الله ﷺ وكشف عن وجهه وقال: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ الآية[٣] [النور: ١١]، وأخرجا عن أبي سعيد أنه قال: كان رسول الله عليه الصلاة والسلام إذا قام من الليل فاستفتح الصلاة

(١) البحر المحيط ٥/ ٥٣٤.

(٢) أخرجه الواحدي في الوسيط ٣/ ٨٣-٨٤.

(٣) أبو داود (٧٨٥)، والبيهقي ٢/ ٤٣.

قال: «سبحانك اللهمَّ وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جَدُّكَ، ولا إله غيرك، ثم يقول: أعوذ بالله السميع العليم»[١] إلخ وبذلك أخذ من استعاذ كذلك.

وفي «الهداية»: الأولى أن يقول: أستعيذ بالله؛ ليوافق القرآن، ويَقرُب: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم[٢]. والمختار ما سمعتَ أولاً؛ لأن لفظ «استعذ» طلبُ العَوْذ، وقوله: «أعوذ» امتثالٌ مطابقٌ لمقتضاه. والقُرْبُ من اللفظ مُهدَرٌ، ويكفي لأولوية ما عليه الجمهور مجيئه في المأثور، وقال بعضُ أصحابنا: لا ينبغي أن يزيد المتعوِّذُ: السميعَ العليم؛ لأنه ثناءٌ، وما بعد التعوُّذ محلُّ القراءة، لا محلُّ الثناء، وفيه أنَّ هذا بعد تسليم الخبرين السابقين غيرُ سديدٍ، على أنه ليس في ذلك إتيانٌ بالثناء بعد التعوذ، بل إتيانٌ به في أثنائه كما لا يخفى.

والأمرُ بها للندب عندهم، وأخرج عبد الرزاق في «المصنف» وابن المنذر[٣] عن عطاء ـ وروي عن الثوري ـ أنها واجبةٌ لكلِّ قراءةٍ في الصلاة أو غيرها، لهذه الآية. فحملا الأمر فيها على الوجوب نظراً إلى أنه حقيقةٌ فيه، وعدم صلاحية كونها لدفع الوسوسة في القراءة صارفاً عنه، بل يصحُّ شَرْعُ الوجوب معه.

وأجيب بأنه خلافُ الإجماع، ويَبعدُ منهما أن يبتدعا قولاً خارقاً له من بعد علمهما بأنَّ ذلك لا يجوز، فالله تعالى أعلم بالصارف على قول الجمهور، وقد يقال: هو تعليمهُ ﷺ الأعرابيَّ الصلاةَ، ولم يذكرها عليه الصلاة والسلام[٤].

وقد يجاب بأنَّ تعليمه إياها بتعليمه ما هو من خصائصها، وهي ليست من واجباتها بل من واجبات القراءة، أو أنَّ كونها تقالُ عند القراءة كان ظاهراً معهوداً فاستغنى عن ذكرها، وفيه أنه لا يتأتَّى على ما ستسمع قريباً إن شاء الله تعالى من قول أبي يوسف عليه الرحمة.

---

(١) سنن أبي داود (٧٧٥)، وسنن البيهقي ٢/ ٣٤، وهو عند أحمد (١١٤٧٣). وجاء في الأصل و(م): عن سعيد، بدل: عن أبي سعيد.

(٢) الهداية مع فتح القدير ١/ ٢٠٤.

(٣) مصنف عبد الرزاق (٢٥٧٤)، وابن المنذر كما في الدر المنثور ٤/ ١٣٠.

(٤) أخرجه البخاري (٧٥٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وقال الخفاجيُّ: إنَّ حمل الأمر على الندب لما روي من ترك النبي ﷺ لها[١]. وإذا ثبت هذا كفى صارفاً.

ومذهب ابن سيرين والنخعي ـ وهو أحد قولي الشافعي ـ أنها مشروعةٌ في القراءة في كلِّ ركعةٍ؛ لأنَّ الأمرَ مُعلَّقٌ على شرطٍ، فيتكررُ بتكرُّره كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾ [المائدة: ٦] وأيضاً حيث كانت مشروعةً في الركعة الأولى فهي مشروعةٌ في غيرها من الركعات قياساً للاشتراك في العلة.

ومذهبُ أبي حنيفة ـ وهو القولُ الآخرُ للشافعيِّ ـ أنها مشروعةٌ في الأولى فقط؛ لأنَّ قراءةَ الصلاة كلَّها كقراءةٍ واحدة. وقيل: إنها عند الإمام أبي حنيفةَ للصلاة، ولذا لا تكرَّرَ، والمذكور في «الهداية» وغيرها أنها عند الإمام ومحمد للقراءة دون الثناء، حتى يأتي بها المسبوقُ دون المقتدي، وقال أبو يوسف: إنها للثناء[٢]. وفي «الخلاصة» أنه الأصح، وتظهرُ ثمرةُ الخلاف في ثلاث مسائل ذُكرت فيها، فما ذكره صاحب القيل لم نعثر عليه في كتب الأصحاب.

ومالكٌ لا يرى التعوذَ في الصلاة المفروضة، ويراه في غيرها كقيام رمضان، والمرويُّ عنه في غير الصلاة فيما سمعتُ من بعض مقلِّديه.

وعن أبي هريرة وابن سيرين وداود وحمزةَ من القرَّاء أنَّ الاستعاذةَ عَقِبَ القراءة أَخْذاً بظاهر الآية.

وللجمهور ما رواه أئمةُ القراءة مسنَداً عن نافعٍ عن جبير بن مطعم أنه ﷺ كان يقول قبل القراءة: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»[٣]. قال في «الكشف»: دلَّ الحديثُ على أنَّ التقديمَ هو السنة، فبقي سببية القراءة لها، والفاء في «فاستعذ» دلَّتْ على السببية، فلتُقَدَّرِ الإرادةُ ليصحَّ. وأيضاً الفراغُ عن العمل لا يناسبُ الاستعاذة من العدو، وإنما يناسبها الشروعُ فيه والتوسُّط، فلتُقَدَّرِ ليكونا ـ أي القراءة والاستعاذة ـ مسَّببتين عن سببٍ واحدٍ لا يكون بينهما مجرَّد الصُّحبة الاتفاقية

---

(١) حاشية الشهاب ٥/ ٣٦٨.

(٢) الهداية ١/ ٢٠٤.

(٣) أخرجه أحمد (١٦٧٨٤)، وأبو داود (٧٦٤)، وابن ماجه (٨٠٧).

التي تنافيها الفاء، وإليه أشار صاحب «المفتاح»[١] بقوله: بقرينة الفاء، والسنة المستفيضة. انتهى.

ومنه يُعلم أنَّ ما قيل من أنَّ الفاءَ لا دلالةَ فيها على ما ذُكر، وأنَّ إجماعهم على صحة هذا المجاز يدلُّ على أنَّ القرينةَ المانعةَ عن إرادة الحقيقة ليس بشرطٍ فيه = ليس بشيء؛ وكذا القولُ بالفَرْق بين الآية وقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ﴾ [المائدة:٦] إلخ بأنَّ ثمة دليلاً قائماً على المجاز، فَتَرْكُ الظاهر له بخلاف ما نحن فيه.

والظاهر أنَّ المرادَ بالشيطان إبليس وأعوانه، وقيل: هو عامٌّ في كلِّ متمرِّدٍ عاتٍ من جِنٍّ وإنس، وتوجيهُ الخطاب إلى رسول الله ﷺ وتخصيصُ قراءة القرآن من بين الأعمال الصالحة بالاستعاذة عند إرادتها؛ للتنبيه على أنها لغيره عليه الصلاة والسلام، وفي سائر الأعمال الصالحة أهمّ، فإنه ﷺ حيث أُمِرَ بها عند قراءة القرآن الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، فما الظَّنُّ بمَنْ عداه عليه الصلاة والسلام فيما عدا القراءة من الأعمال.

﴿إِنَّهُۥ﴾ الضمير للشأن أو للشيطان ﴿لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ﴾ تسلُّط واستيلاءٌ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ أي: إليه تعالى لا إلى غيره سبحانه يفوِّضون أمورهم، وبه يعوذون، فالمراد نفيُ التسلُّط بعد الاستعاذة، فتكونُ الجملةُ تعليلاً للأمر بها، أو لجوابه المنويِّ، أي: إن يُعذكَ، ونحوه.

وقال البعض: المراد نفي ذلك مطلقاً، قال أبو حيان: وهو الذي يقتضيه ظاهر الإخبار[٢]. وتُعقِّبَ بأنه إذا لم يكن له تسلُّطٌ فَلِمَ أُمروا بالاستعاذة منه. وأُجيب بأنَّ المرادَ نفيُ ما عَظُمَ من التسلُّط.

وقد أخرج ابن جرير وغيره عن سفيان الثوري أنه قال في الآية: ليس له سلطانٌ على أن يحمِلَهم على ذنبٍ لا يُغفَرُ لهم[٣]. والاستعاذةُ من المحتقَرات، فهم

(١) مفتاح العلوم ص ٣٦٦.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٥٣٥.
(٣) تفسير الطبري ١٤/ ٣٥٨-٣٥٩، وأخرجه - أيضاً - ابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٠٢.

لا يطيعونَ أوامرهُ ولا يقبلون وساوسه إلا فيما يحتقرونه على ندورٍ وغفلة، فأُمروا بالاستعاذة منه لمزيد الاعتناء بحفظهم، وقد ذهب إلى هذا البيضاويُّ ثم قال: فَذِكْرُ السَّلطنة بعد الأمر بالاستعاذة؛ لئلَّا يتوهَّم منه أنَّ له سلطاناً[1].

وفي «الكشف» أنَّ هذه الجملةَ جاريةٌ مجرى البيان للاستعاذة المأمور بها، وأنه لا يكفي فيها مجردُ القول الفارغ عن اللَّجَأ إلى الله تعالى، واللَّجأُ إنما هو بالإيمان أولاً والتوكل ثانياً، وأيّاً ما كان فَوَجْهُ ترك العطف ظاهرٌ وإيثار صيغة الماضي في الصلة الأولى للدلالة على التحقيق، كما أنَّ اختيارَ صيغة الاستقبال في الثانية لإفادة الاستمرار التجدُّدي، وفي التعرُّض لوصف الربوبية تأكيدٌ لنفي السلطان عن المؤمنين المتوكِّلين.

﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ أي: يجعلونه والياً عليهم، فيحبُّونه ويُطيعونه ويستجيبون دعوته، فالمراد بالسلطان التسلُّط والولايةُ بالدعوة المستتبعة للاستجابة، لا ما يعمُّ ذلك والتسلط بالقَسْر والإلجاء، فإنَّ في جَعْل التولِّي صلة «ما» يفصح بنفي إرادة التسلُّط القَسْري، فإنَّ المقسور بمعزِلٍ عنه بهذا المعنى، وقد نُفي هذا أيضاً عن الكَفرة في قوله تعالى حكاية عن اللَّعين: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ﴾ أي: بسبب الشيطان وإغوائه إياهم ﴿مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ بالله تعالى، وقيل: أي: بإشراكهم الشيطانَ مشركون بالله تعالى، وجُوِّزَ أن يكون الضميرُ للربِّ تعالى شأنه، والباءُ للتعدية، وروي ذلك عن مجاهدٍ، ورُجِّحَ الأولُ باتحاد الضمائر فيه مع تبادره إلى الذهن. وفي «إرشاد العقل السليم» ما يشعر باختيار الأخير، وذكر فيه أيضاً أنَّ قَصْرَ سلطان اللَّعين على المذكورين غِبَّ نفيه عن المؤمنين المتوكِّلين دليلٌ على أنه لا واسطةَ في الخارج بين التوكُّل على الله تعالى وتولِّي الشيطانِ وإن كان بينهما واسطةٌ في المفهومِ، وأنَّ مَنْ لم يتوكَّلْ عليه تعالى ينتظمُ في سلك من يتولَّى الشيطان من حيث لا يحتسب؛ إذ به يتمُّ التعليل، ففيه مبالغةٌ في الحمل على التوكُّل والتحذير عن مقابله.

---

(١) تفسير البيضاوي ٣/ ١٩١.

وإيثارُ الجملة الفعلية الاستقبالية في الصِّلة الأولى لما مرَّ آنفاً، والاسمية في الثانية للدلالة على الثبات، وتكريرُ الموصول للاحتراز عن توهُّم كون الصِّلة الثانية حالية مفيدة لعدم دخول غير المشركين من أولياء الشيطان تحت سلطانه.

وتقديم الأولى على الثانية التي هي بمقابلة الصِّلة الأولى فيما سلف لرعاية المقارنة بينها وبين ما يقابلها من التوكُّل على الله تعالى، ولو رُوعي الترتيب السابقُ لانفصلَ كلٌّ من القرينتين عما يقابلها[1].

وقيل: لمَّا كان كلٌّ من الإيمان والتولِّي منشأً لما بعده قُدِّم عليه، وتقديمُ الجارِّ والمجرور لرعاية الفواصل.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ أي: إذا نزَّلنا آيةً من القرآن مكانَ آية منه، وجعلناها بدلاً منها بأن نسخناها بها، والظاهر على ما في «البحر» أنَّ المرادَ نسخُ اللَّفظ والمعنى، ويجوز أن يُراد نسخُ المعنى مع بقاء اللفظ[2].

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ من المصالح، فكلٌّ من الناسخ والمنسوخ مُنزَّلٌ حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة، فإنَّ كلَّ وقتٍ له مقتضًى غير مقتضى الآخر، فكم من مصلحةٍ تنقلبُ مفسدةً في وقت آخرَ؛ لانقلاب الأمور الداعية إليها، ونرى الطبيبَ الحاذقَ قد يأمرُ المريضَ بَشَرْبةٍ، ثم بعد ذلك ينهاهُ عنها ويأمره بضدِّها، وما الشرائعُ إلا مصالحُ للعباد وأدويةٌ لأمراضهم المعنوية، فتختلفُ حسب اختلاف ذلك في الأوقات، وسبحان الحكيم العليم.

والجملةُ إما معترضةٌ لتوبيخ الكَفرة والتنبيه على فساد رأيهم - وفي الالتفات إلى الغَيبة مع الإسناد إلى الاسم الجليل ما لا يخفى من تربية المهابة وتحقيق معنى الاعتراض - أو حاليةٌ كما قال أبو البقاء[3] وغيره، وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو: «يُنْزِل» من الإنزال[4].

---

(١) إرشاد العقل السليم ٥/ ١٤٠.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٥٣٥.
(٣) الإملاء ٣/ ٤٦٢.
(٤) النشر ٢/ ٣٠٥.

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: الكفرة الجاهلون بحكمة النسخ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ متقوِّلٌ على الله تعالى تأمرُ بشيءٍ ثم يبدو لك فتنهى عنه، وقد بالغوا ـ قاتلهم الله تعالى ـ في نسبة الافتراء إلى حَضْرة الصادق المصدوق ﷺ، حيث وجَّهوا الخطاب إليه عليه الصلاة والسلام وجاؤوا بالجملة الاسمية مع التأكيد بـ «إنما»، وحكايةُ هذا القول عنهم هاهنا للإيذان بأنه كَفْرةٌ ناشئةٌ من نزغات الشيطان وأنه وليُّهم. وفي «الكشف» أنَّ وجه ذكره عقيبَ الأمر بالاستعاذة عند القراءة أنه بابٌ عظيمٌ من أبوابه يَفتِنُ به الناقصين ويوسوس[1] إليهم البداء والتضادَّ وغير ذلك.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ أي: لا يعلمون شيئاً أصلاً، أو لا يعلمون أنَّ في التبديل المذكور حِكَماً بالغة، وإسناد هذا الحكم إلى أكثرهم لما أنَّ منهم من يعلم ذلك وإنما يُنكر عناداً.

والآيةُ دليلٌ على نسخ القرآن بالقرآن، وهي ساكتةٌ عن نفي نسخه بغير ذلك مما فُصِّلَ في كتب الأصول.

﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ﴾ أي: القرآن المدلول عليه بالآية، وقال الطبرسيُّ: أي: الناسخ المدلول عليه بما تقدم[2] ﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ يعني: جبريل عليه السلام، وأُطلق عليه ذلك من حيث إنه يَنزلُ بالقدس من الله تعالى، أي: مما يُطهِّر النفوسَ من القرآن والحكمة والفَيض الإلهي، وقيل: لطهره من الأدناس البشرية. والإضافةُ عند بعضٍ للاختصاص كما في «ربِّ العزة» وجعلها بعضُ المحققين من إضافة الموصوف للصفة على جَعْله نفس القدس مبالغة نحو: خبر سوء، ورجل صدق. على ما ارتضاه الرضيُّ. ومثل ذلك: حاتمُ الجود، وسَحْبان[3] الفصاحة. وخالف في ذلك صاحب «الكشف» مختاراً أنها للاختصاص، ولا يخفى ما في صيغة التفعيل بناءً على القول بأنها تفيدُ التدريجَ من المناسبة لمقتضى المقام لما فيها من الإشارة إلى أنه أُنزل دفعاتٍ على حَسَب المصالح.

---

(١) في (م): يوسوس. بدون واو.
(٢) مجمع البيان ١٤/ ١٢٥.
(٣) سحبان: بليغ يُضرب به المثل. القاموس المحيط (سحب).

﴿مِن رَّبِّكَ﴾ في إضافة الربِّ إلى ضميره ﷺ من الدلالة على تحقيق إفاضة آثار الربوبية عليه عليه الصلاة والسلام ما ليس في إضافته إلى ياء المتكلم المنبئة عن التلقين المحض كما في «إرشاد العقل السليم»[1]، وكأنه اعتناء بأمر هذه الدلالة لم يقل: من ربكم، على أنَّ في تَرْك خطابهم من حَطِّ قَدْرهم ما فيه، و«من» لابتداء الغاية مجازاً. ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: ملتبساً بالحكمة المقتضية له بحيث لا يفارقها ناسخاً كان أو منسوخاً.

﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: على الإيمان بما يجبُ الإيمان به، لما فيه من الحُجَج القاطعة والأدلة الساطعة، أو على الإيمان بأنه كلامه تعالى، فإنهم إذا سمعوا الناسخَ وتدبَّروا ما فيه من رعاية المصالح رَسَخَتْ عقائدهم واطمأنَّتْ به قلوبهم، وأوَّلَ بعضُهم الآيةَ على هذا الوجه بقوله: ليبيِّنَ ثباتهم. وتُعقِّبَ بأنه لا حاجةَ إليه؛ إذ التثبيتُ بعد النسخ لم يكن قبله، فإنْ نُظر إلى مطلق الإيمان صحَّ.

وقرئ: «لِيُثْبِتَ»[2] من الإفعال.

﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ عَطْفٌ على محلِّ «لِيُثَبِّتَ» عند الزمخشريِّ[3] ومن تابعه، وهو نظيرُ: زُرْتكَ لأُحدِّثك وإجلالاً لك، أي: تثبيتاً وهدايةً وبشارةً، وتُعقِّبَ بأنه إذا اعتبر الكلُّ فِعْلَ المُنزل على الإسناد المجازي لم يكن للفرق بإدخال اللام في البعض والترك في البعض وجهٌ ظاهر، وكذا إذا اعتبر فِعْلَ الله تعالى كما هو كذلك على الحقيقة، وإذا اعتبر البعض فِعلَ المنزَل ليتَّحد فاعل المصدر وفاعل الفعل المعلَّل به، فيترك اللام له، والبعض الآخر فعلَ الله تعالى ليختلف الفاعلُ فيؤتى باللام، لم يكن لهذا التخصيص وجهٌ ظاهرٌ أيضاً، ويفوتُ به حُسْنُ النظم.

وقال الخفاجيُّ: يُوجَّهُ تَرْكُ اللام في المعطوف دونَ المعطوف عليه مع وجود شَرْط الترك فيهما بأنَّ المصدرَ المسبوكَ معرفةٌ ـ على ما تقرَّر في العربية ـ والمفعولَ له الصريح وإن لم يجب تنكيره ـ كما عُزي للرياشي ـ فخلافه قليلٌ كقوله:

---

(١) ٥/ ١٤١.

(٢) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٧٤ لأبي حيوة، وينظر الكشاف ٢/ ٤٢٩، والبحر المحيط ٥/ ٥٣٦.

(٣) الكشاف ٢/ ٤٢٩.

وأغفرُ عوراءَ الكريم ادِّخارَه[(١)]

ففرَّقَ بينهما تفنُّناً وجرياً على الأفصح فيهما، والنكتةُ فيه أنَّ التثبيتَ أمرٌ عارضٌ بعد حصول المثبت عليه، فاختيرَ فيه صيغةُ الحدوث مع ذِكْر الفاعل إشارةً إلى أنه فِعْلٌ لله تعالى مختصٌّ به، بخلاف الهداية والبشارة، فإنهما يكونان بالواسطة، وقيل: إنَّ وجودَ الشرط مجوِّزٌ لا موجبٌ، والاختيارُ مرجِّحٌ مع ما في ذلك من فائدة بيان جواز الوجهين، وفيه: أنه لا يصلحُ وَجْهاً عند التحقيق[(٢)].

وقد اعترض أبو حيان هنا بما تقدَّم في الكلام على قوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ [النحل: ٦٤] وذكر أنه لا يمتنعُ أن يكونَ العَطْفُ على المصدر المنسبك؛ لأنه مجرورٌ، فيكون «هدى وبشرى» مجرورين[(٣)].

وجوَّز أبو البقاء أن يكونا مرفوعين على أنهما خبرا مبتدأ محذوفٍ، أي: وهو هدًى وبشرًى، والجملةُ في موضع الحال من الهاء في «نزله»[(٤)].

والمراد بالمسلمين الذين آمنوا، والعدولُ عن ضميرهم لمدحهم بكلا العنوانين، وفسَّر بعضُهم الإسلامَ بمعناه اللغوي فقيل: إنَّ ذلك ليفيد بعد توصيفهم بالإيمان، والظاهر أنَّ «للمسلمين» قيدٌ للهدى والبشرى، ولم أرَ من تعرَّضَ لجواز كونه قيداً للبشرى فقط، كما تعرض لذلك في قوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩] على ما سمعت هناك.

وفي هذه الآية ـ على ما قالوا ـ تعريضٌ لحصول أضداد الأمور المذكورة لمن سوى المذكورين من الكفار من حيث إنَّ قوله تعالى: (قُلْ نَزَّلَهُۥ) جوابٌ لقولهم: (إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ) فيكفي فيه: (قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ) فالزيادةُ لمكان التعريض.

وقال الطيبيُّ: إنَّ (نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ) بدل: نزله الله، فيه زيادةُ تصويرٍ في

---

(١) صدر بيت لحاتم الطائي وهو في ديوانه ص٨١ وتمامه:

وأصفح من شتم اللئيم تكرما

(٢) حاشية الشهاب ٥/ ٣٦٩.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٥٣٦.

(٤) الإملاء ٣/ ٤٦٢.

الجواب، وزِيدَ قوله تعالى: (بِٱلْحَقِّ) لينبِّه على دَفْع الطَّعن بألطف الوجوه، ثم نعى قبيحَ أفعالهم بقوله تعالى: (لِيُثَبِّتَ) إلخ تعريضاً بأنهم متزلزلونَ ضالُّون موبَّخون مُنْذَرون بالخزي والنكال واللَّعن في الدنيا والآخرة، وأنَّ عذابهم في خلاف ذلك ليزيد في غَيظهم وحَنَقهم، وفي الكلام ما هو قريبٌ من الأسلوب الحكيم. اهـ فتأمل.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ غير ما نقل عنهم من المقالة الشنعاء ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ﴾ أي: يُعلِّم النبيَّ ﷺ القرآن، وهو الذي يقتضيه ظاهرُ كلام قتادة ومجاهد وغيرهما، واختير كونُ الضمير للقرآن ليوافق ضمير «أنزله» أي: يقولون إنما يُعلِّم القرآنَ النبيَّ عليه الصلاة والسلام ﴿بَشَرٌ﴾ على طريق البَتِّ مع ظهور أنه نزَّله[1] روح القدس عليه الصلاة والسلام، وتأكيدُ الجملة لتحقيق ما تتضمَّنه من الوعيد، وصيغةُ الاستقبال لإفادة استمرار العلم بحسب الاستمرار التجدّدي في متعلّقه، فإنهم مستمرُّون على التفوُّه بتلك العظيمة، وفي «البحر» أنَّ المعنى على المضيِّ، فالمراد: عَلِمْنا[2].

وعنوا بهذا البشر قيل: جَبْراً الروميَّ غلامَ عامر بن الحضرمي، وكان قد قرأ التوراةَ والإنجيلَ، وكان ﷺ يجلس إليه إذا آذاه أهلُ مكةَ، فقالوا ما قالوا[3]. وروي ذلك عن السدي. وقيل: مولى لحويطب بن عبد العُزَّى، اسمه: عائشٌ، أو: يعيش، كان يقرأُ الكتبَ، وقد أسلم وحَسُنَ إسلامه. قاله الفراء والزجاج[4].

وقيل: أبا فُكيهة مولى لامرأةٍ بمكةَ، قيل: اسمه: يسار، وكان يهودياً. قاله مقاتل، وابن جبير إلا أنه لم يقلْ: كان يهودياً.

وأخرج آدم بن أبي إياس والبيهقيُّ وجماعةٌ عن عبد الله بن مسلم الحضرميِّ قال: كان لنا عبدان نصرانيان من أهل عين التمر، يقال لأحدهما: يسار، وللآخر: جَبْر، وكانا يصنعان السيوف بمكةَ، وكانا يقرأان الإنجيلَ، فربَّما مرَّ بهما النبيُّ ﷺ

---

(١) في (م): نزوله. والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٥/ ١٤١ والكلام منه.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٥٣٦.
(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٣٩٣، وأخرجه عنه ـ أيضاً ـ الطبري ١٤/ ٣٦٦.
(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ١١٣، وللزجاج ٣/ ٢١٩.

وهما يقرأان، فيقفُ ويستمعُ، فقال المشركون: إنما يتعلَّم منهما[(١)]. وفي بعض الروايات أنه قيل لأحدهما: إنك تُعلِّمُ محمداً ﷺ، فقال: لا، بل هو يُعلِّمني.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كان بمكَّة غلامٌ أعجميٌّ روميٌّ لبعض قريش يقال له: بَلْعام، وكان رسول الله ﷺ يُعلِّمه الإسلامَ، فقالت قريش: هذا يُعلِّمُ محمداً عليه الصلاة والسلام من جهة الأعاجم[(٢)].

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الضحاك أنه سلمان الفارسيُّ رضي الله عنه[(٣)]، وضُعِّفَ هذا بأنَّ الآيةَ مكيةٌ، وسلمان أسلم بالمدينة، وكونها إخباراً بأمرٍ مُغيَّبٍ لا يناسب السياق[(٤)]. ورواية أنه أسلم بمكة واشتراه أبو بكر رضي الله عنه وأعتقه بها، قيل: ضعيفةٌ لا يعوَّلُ عليها، كاحتمال أنَّ هذه الآيةَ مدنيَّةٌ.

وقد أخبرني من أثِقُ به عن بعض النصارى أنه قال له: كان نبيُّكم ﷺ يتردَّدُ إليه في غار حراء رجلان: نصرانيٌّ ويهوديٌّ يعلِّمانه. ولم أجدْ هذا عن أحدٍ من المشركين، وهو كَذِبٌ بحتٌ لا منشأ له، وبُهْتٌ محضٌ لا شبهةَ فيه، وإنما لم يُصرِّحْ باسم مَنْ زعموا أنه يعلِّمه عليه الصلاة والسلام مع أنه أدخلُ في ظهور كذبهم للإيذان بأنَّ مدارَ خَطَئِهم ليس بنسبته ﷺ إلى التعلُّم من شخصٍ معيَّنٍ، بل من البشر كائناً من كان، مع كونه عليه الصلاة والسلام مَعْدِناً لعلوم الأولين والآخرين.

﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ﴾ اللسان مجازٌ مشهورٌ عن التكلم، والإلحاد: الميل، يقال: لَحَدَ وألْحد: إذا مالَ عن القصد، ومنه لَحْدُ القبر؛ لأنه حُفرةٌ مائلةٌ عن وسطه، والمُلحِدُ لأنه أمالَ مذهبه عن الأديان كلِّها.

والأعجميُّ: الغير البيِّن، قال أبو الفتح الموصلي: تركيبُ «ع ج م» في كلام العرب للإبهام والإخفاء وضدّ البيان والإيضاح، ومنه قولهم: رجلٌ أعجمُ وامرأةٌ

---

(١) البيهقي في الشعب (١٣٨)، وأخرجه ـ أيضاً ـ الطبري ١٤/ ٣٦٧-٣٦٨، والواحدي في أسباب النزول ص٢٨٧-٢٨٨.

(٢) أخرجه الطبري ١٤/ ٣٦٥.

(٣) تفسير الطبري ١٤/ ٣٦٨، وينظر الدر المنثور ٤/ ١٣١.

(٤) في (م): السباق. والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٥/ ٣٧٠ والكلام منه.

عجماءُ، إذا كانا لا يُفصِحان؛ وعَجَمُ الزبيب سُمِّي بذلك لاستتاره واختفائه، ويقال للبهيمة: العجماء؛ لأنه لا تُوضِحُ ما في نفسها، وسَمَّوا صلاتَي الظهر والعصر العجماوين؛ لأنَّ القراءةَ فيهما سِرٌّ، وأما قولهم: أَعجمتُ الكتابَ فمعناه: أزلتُ عُجْمتَهُ كأشكيتُ زيداً: أزلتُ شكواه، والأعجميُّ والأعجمُ: الذي في لسانه عُجْمةٌ من العجم كان أو من العرب، ومن ذلك: زيادُ الأعجم، وكان عربيّاً في لسانه لُكْنَة، وكذلك حبيبٌ الأعجمي تلميذُ الحسن البصريِّ قدَّسَ الله تعالى سِرَّهما، على ما رأيته في بعض التواريخ.

والمراد من «الذي» على القول بتعدُّد مَنْ زعموا نسبةَ التعليم إليه الجنسُ، ومفعول «يُلحدون» محذوفٌ، أي: تَكَلُّمُ الذي يميلون قولهم عن الاستقامة إليه، أي: ينسبون التعليم إليه غيرُ بيِّنٍ لا يتَّضح المراد منه.

وظاهر كلام ابن عطية أنَّ اللسانَ على معناه الحقيقي، وهو الجارحة المعروفة[1]. وقرأ الحسن: «اللسان الذي»[2] بتعريف اللسان بـ «أل» وَوَصْفه بـ «الذي». وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وعبد الله بن طلحة والسُّلَميُّ والأعمش: «يَلحَدون»[3] بفتح الياء والحاء من لَحَد، وأَلْحَدَ ولَحَدَ لغتان فصيحتان مشهورتان.

﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن الكريم ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ ذو بيانٍ وفصاحةٍ على ما يُشعر به وَصْفه بـ «مبين» بعد وصفه بـ «عربي»، والكلامُ على حَذْفِ مضافٍ عند ابن عطية، أي: سَرْدُ لسان أو نطقُ لسان[4]. والجملتان مستأنفتان عند الزمخشريِّ[5] لإبطال طعنهم، وجَوَّزَ أبو حيان أن يكونا حالين من فاعل: «يقولون» ثم قال: وهو أبلغُ في الإنكار، أي: يقولون هذا والحالُ أنَّ عِلْمهم بأعجمية هذا البشر وعربية هذا القرآن كان ينبغي أن يمنعهم عن مثل تلك المقالة، كقولك: أتشتمُ فلاناً وهو قد أحسنَ إليك، وإنما ذهب الزمخشريُّ إلى الاستئناف لأنَّ مجيءَ

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٢١.

(٢) القراءات الشاذة ص٧٤، والمحتسب ٢/ ١٢، والبحر المحيط ٥/ ٥٣٦.

(٣) التيسير ص١٣٨، والنشر ٢/ ٢٧٣، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٢١، والبحر المحيط ٥/ ٥٣٦.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٢١.

(٥) الكشاف ٢/ ٤٢٩.

الاسمية حالاً بدون واوٍ شاذٌّ عنده، وهو مذهبٌ مرجوحٌ تَبعَ فيه الفراء؛ إذ مجيئُها كذلك في كلام العرب أكثرُ من أن يُحصى(١).

وتقرير الإبطال ـ كما قال العلامة البيضاويُّ ـ يحتمل وجهين؛ أحدهما: أنَّ ما يسمعهُ من ذلك البشر كلامٌ أعجميٌّ لا يفهمه هو ولا أنتم، والقرآنُ عربيٌّ تفهمونه بأدنى تأملٍ، فكيف يكونُ ما تلقَّفه منه. وثانيهما: هَبْ أنه تعلَّم منه المعنى باستماع كلامه، ولكن لم يَلْقَفْ منه اللَّفظَ؛ لأنَّ ذلك أعجميٌّ وهذا عربيٌّ، والقرآن كما هو معجزٌ باعتبار المعنى فهو معجزٌ من حيثُ اللَّفظُ، مع أنَّ العلومَ الكثيرةَ التي في القرآن لا يمكنُ تعلُّمها إلا بملازمة مُعلِّمٍ فائقٍ في تلك العلوم مدَّةً متطاولة، فكيف تعلَّم جميعَ ذلك من غلامٍ سوقيٍّ سمعَ منه بعضَ المنقولات بكلماتٍ أعجميةٍ لعلَّه لم يَعرفْ معناها(٢).

وحاصل ذلك منعُ تعلُّمه عليه الصلاة والسلام منه مع سنده، ثم تسليمه باعتبار المعنى؛ إذ لفظهُ مغايرٌ للفظ ذلك بديهية، فيكفي دليلاً له ما أتى به من اللفظ المعجز، ويمكن تقريره بنحو هذا على سائر الأقوال السابقة في البشر.

وقال الكرمانيُّ: المعنى: أنتم أفصحُ الناس وأبلغهم وأقدرهم على الكلام نَظْماً ونثراً، وقد عجزتم وعجز جميعُ العرب عن الإتيان بمثله، فكيف تنسبونه إلى أعجميٍّ ألْكن، وهو كما ترى، وبالجملة التشبُّثُ في أثناء الطَّعن بمثل هذه الخرافات الركيكة دليلٌ قويٌّ على كمال عجزهم، فقد راموا اجتماعَ اليوم والأمس واستواء السُّها والشمس:

فدعهم يزعمونَ الصبحَ ليلاً أيعمى الناظرون عن الضياء(٣)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يصدِّقون بأنها من عنده تعالى، بل يقولون فيها ما يقولون، يُسمُّونها تارةً افتراءً وأخرى أساطير مُعلَّمة من البشر.

وقيل: المراد الآيات المعجزاتُ الدالة على صِدْق النبيِّ ﷺ، ويدخلُ فيها

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٥٣٧.
(٢) تفسير البيضاوي ٣/ ١٩٢.
(٣) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ١/ ١٣٨.

الآياتُ القرآنية دخولاً أوليّاً. والأول ـ على ما قيل ـ أوفقُ بالمقام.

﴿لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ قيل: أي: إلى الجنة، بل يسوقهم إلى النار كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ وقال بعض المحققين: المعنى: لا يهديهم إلى ما يُنجِّيهم من الحقِّ، لما يعلم من سوء استعدادهم، وقال في «البحر»[1] أي: لا يخلق الإيمان في قلوبهم، وهذا عامٌّ مخصوصٌ، فقد اهتدى قومٌ كفروا بآيات الله تعالى.

وقال الجلبي: المعنى أنَّ سببَ عدم إيمانهم هو أنه تعالى لا يهديهم لختمه على قلوبهم، أو لا يهديهم سبحانه مجازاةً لعدم إيمانهم بأنَّ تلك الآيات من عنده تعالى.

وقال العسكريُّ: يجوز أن يكون المعنى: إنهم إن لم يؤمنوا بهذه الآيات لم يهتدوا، والمراد بـ «لا يهديهم الله» لا يهتدون، فإنه إنما يقال: هدى الله تعالى فلاناً، على الإطلاق إذا اهتدى هو، وأما مَنْ لم يقبل الهدى فإنه يقال فيه: إنَّ الله تعالى هداه فلم يهتد، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

وقيل: المعنى: إنَّ الذين لا يصرفون اختيارهم إلى الإيمان بآياته تعالى، لا يخلقه سبحانه في قلوبهم، وقال ابن عطية: المفهومُ من الوجود أنَّ الذين لا يهديهم الله تعالى لا يؤمنون بآياته، ولكنه قدَّم وأخَّر تتميماً لتقبيح حالهم وللتشنيع بخطئهم كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[2] [الصف: ٥] ويؤدِّي مؤدَّى التقديم والتأخير ما ذكره الجلبيُّ أولاً، والأكثرُ لا يخلو عن دغدغة.

وقال القاضي: أقوى ما قيل في الآية ما ذكر أولاً[3]. وكونه تفسيراً للمعتزلة مناسباً لأصولهم فيه نظرٌ، وأيّاً ما كان فالمراد من الآية التهديدُ والوعيدُ لأولئك الكَفَرة على ما هم عليه من الكفر بآيات الله تعالى ونسبة رسوله ﷺ إلى الافتراء والتعلُّم من البشر، بعد إماطة شبهتهم وردِّ طعنهم.

---

(١) ٥/ ٥٣٨.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٢٢.
(٣) تفسير الرازي ٢٠/ ١١٨.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ تمهيدٌ لكونهم هم المفترين، وقلب عليهم بعد أن حقَّقَ بالبيان البرهانيِّ براءةَ ساحته ﷺ عن لَوْث الافتراء.

وقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ۝١٠٥﴾ إشارةٌ إلى قريش القائلين: «إنما أنت مفترٍ»، وهو تصريحٌ بعد التعريض ليكون كالوَسْم عليهم، وهذا الأسلوبُ أبلغُ من أن يقال: أنتم معشر قريشٍ مُفتَرونَ، لما أُشير إليه، وإقامةُ الدليل على أنهم كذلك وأنَّ من زَنُّوه[1] به لا يجوز أن يتعلَّقَ بذيله نَشَبٌ منه أي: إنما يليقُ افتراءُ الكذب بمَنْ لا يؤمن؛ لأنه لا يترقَّبُ عقاباً عليه، وقريشٌ كذلك، فهمُ الكاذبون.

أو إشارةٌ إلى «الذين لا يؤمنون» فيستمرُّ الكلام على وتيرةٍ واحدة، والمعنى: إنَّ الكاذبَ بالحقيقة هذا الكاذب على ما قرَّروه في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥] واللام للجنس، وهو شهادةٌ عليهم بالكمال في الافتراء، فالكذبُ في الحقيقة مقيَّدٌ بالكذب بآيات الله تعالى، وأُطلق إشعاراً بأن لا كَذِبَ فوقه ليكون كالحجَّة على كمال الافتراء، أو الكذبُ غيرُ مقيَّدٍ على هذا الوجه على معنى أنهم الذين عادَتُهم الكذب، فلذلك اجترؤوا على تكذيب آيات الله تعالى دلالةً على أنَّ ذلك لا يصدرُ إلا ممن لَهِجَ بالكذب قبله. ويدلُّ على اعتبار هذا المعنى التعبيرُ بالجملة الاسمية، ولذا عُطفت على الفعلية، وفيه قلبٌ حَسَنٌ، وإشارةٌ إلى أنَّ قريشاً لمَّا كان من عادتهم الكذب، أخذوا يكذبون بآيات الله تعالى ومن أتى بها، ثم لم يرضوا بذلك حتى نسبوا من شهدوا له بالأمانة والصدق إلى الافتراء.

وموضع الحُسْن الإيماءُ إلى سَبْقِ حالتي النبيِّ ﷺ وقريشٍ، أو الكذب مقيَّدٌ على هذا الوجه أيضاً بما نسبوا إليه عليه الصلاة والسلام من الافتراء، و«الذين لا يؤمنون» على هذا المراد به قريش، من إقامة الظاهر مقام المضمر، وإيثار المضارع على الماضي دلالةً على استمرار عدم إيمانهم وتجدُّده عَقِبَ نزول كلِّ آية، واستحضاراً لذلك، وهذا الوجه مرجوحٌ بالنسبة إلى السوابق، وقد ذكر هذه الأوجه صاحبُ «الكشاف»[2]، وقد حرَّرها بما ذكر المولى المدقق في «كشفه»، والحصرُ

(١) زنَّه بكذا: اتَّهمه به. القاموس (زنن).
(٢) ٢/٤٢٩.

في سائرها غيرُ حقيقيٍّ، ولا استدراكَ في الآية لا سيَّما على الأول منها، وهي من الكلام المنصف في بعضها. وتعلُّقها بقوله سبحانه حكاية عنهم: (إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ) لأنها كما سمعتَ لردِّه، وتوسيطُ ما وُسِّطَ لما لا يخفى من شَدَّة اتصاله بالرَّدِّ الأول.

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾ أي: بكلمة الكفر ﴿مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ به تعالى، وهذا بحَسَب الظاهر ابتداءُ كلام لبيان حالِ مَنْ كَفَرَ بآيات الله تعالى بعد ما آمن بها بعد بيان حال من لم يؤمن بها رأساً.

و«من» موصولةٌ محلُّها الرفعُ على الابتداء، والخبرُ محذوفٌ لدلالة «فعليهم غضبٌ» الآتي عليه، وحَذْفُ مثل ذلك كثيرٌ في الكلام، وجُوِّزَ أيضاً الرفعُ، وكذا النصبُ على القَطْع؛ لقصد الذَّمِّ، أي: هم، أو: أَذمُّ من كفر، والقَطْعُ للذَّمِّ والمدح وإن تُعورف في النعت، و«من» لا يُوصَفُ بها، لكن لا مانع من اعتباره في غيره كالبدل، وقد نصَّ عليه سيبويه. نعم قال أبو حيان: إنَّ النصبَ على الذمِّ بعيدٌ[(١)]. وأجاز الحوفيُّ والزمخشريُّ كونها بدلاً من «الذين لا يؤمنون بآيات الله» وقوله تعالى: (وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ) اعتراضٌ بينهما[(٢)]. واعترضه أبو حيان وغيره بأنه يقتضي أن لا يفتريَ الكذبَ إلا مَنْ كَفَرَ بعد إيمانه، والوجودُ يقتضي أنَّ مَنْ يفتري الكذبَ هو الذي لا يؤمنُ مطلقاً، وهم أكثر المفترين[(٣)]. وأيضاً البدلُ هو المقصودُ، والآيةُ سِيقتْ للردِّ على قريشٍ وهم كفارٌ أصليُّون. ووجَّه ذلك الطيبيُّ بأن يُراد بقوله تعالى: (مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ) من بعد تمكُّنه منه كقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٦] وذكر أنَّ فيه ترشيحاً لطريق الاستدراج، وتحسيراً لهم على ما فاتهم من التصديق، وما اقترفوه من نسبته عليه الصلاة والسلام إلى الافتراء، وفيه كما في «الكشف» أنَّ قوله سبحانه: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ لا يساعد عليه، وحَمْلُ التمكُّن منه على ما هو أعمُّ من التمكُّن في إحداثه وبقائه لا يخفى ما فيه.

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٥٤٠.
(٢) الكشاف ٢/ ٤٢٩.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٥٤٠.

وقال المدقق: الأَولى في التوجيه أن يُجعلَ المعنى: مَنْ وَجَدَ الكُفْرَ فيما بينهم تعبيراً[(١)] على الارتداد أيضاً، وأنَّ مَنْ وَجَدَ فيهم هذه الخصلةَ لا يبعد منهم الافتراء، ويجعل ذلك ذريعةً إلى أن ينعى عليهم ما كانوا يفعلونه مع المؤمنين من المُثْلة، ويدمجُ فيه الرخصة بإجراء كلمة الكُفْر على اللسان على سبيل الإكراه، وتفاوتٌ ما بين صاحب العزيمة والرخصة، ولا يخفى ما فيه أيضاً، وأنه غيرُ ملائمٍ لسبب النزول.

وقال الخفاجيُّ: لك أن تقول: الأقرب أن يبقى الكلامُ على ظاهره من غير تكلُّفٍ، وأنَّ هذا تكذيبٌ لهم على أبلغ وجهٍ كما يقال لمن قال: إنَّ الشمسَ غيرُ طالعةٍ في يومٍ صاحٍ: هذا ليس بكذب؛ لأنَّ الكَذِبَ يصدرُ فيما قد تقبله العقول، ويكونُ هذا على تقدير أن يكون المراد في «لا يهديهم الله»: لا يهديهم إلى الحقِّ، فالله تعالى لما لم يهدهم إلى الحقِّ والصِّدق، وختم على حواسِّهم، نزلوا منزلةَ مَنْ لم يعرفه، حتى يساعده لسانه على النطق به، فَقُبْحُ إنكارهم له أجلُّ من أن يُسمَّى كَذِباً، وإنما يكذب من تعمَّد ذلك ونطق به مرَّة، فتكونُ الآيةُ الأولى للردِّ على قريشٍ صريحاً، والأخرى دلالة على أبلغ وجه[(٢)]. انتهى.

ولعمري إنه نهايةٌ في التكلُّف، ومثلُ هذا الإبدالِ الإبدالُ من «أولئك» والإبدالُ من «الكاذبون» وقد جوَّزهما الزمخشريُّ أيضاً[(٣)]؛ وجوَّزَ الحوفيُّ الأخيرَ أيضاً، ولم يجوِّز الزجاجُ غيرَهُ[(٤)].

وجوَّز غير واحد كون «مَنْ» شرطية مرفوعة المحلِّ على الابتداء، واستظهره في «البحر»[(٥)]، والجوابُ محذوفٌ لدلالة الآتي عليه كما سمعتَ في الوجه الأول، والكلامُ في خبر «من» الشرطية مشهورٌ، وظاهرُ صنيع الزمخشريِّ اختيارُ الإبدال، وهو عندي غريبٌ منه.

وفي «الكشف»: إنَّ كون «مَنْ» شرطيةً مبتدأً وجهٌ ظاهرُ السَّداد إلا أنَّ الذي حمل

---

(١) في الأصل: تعبيراً، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٥/ ٣٧١.
(٢) حاشية الشهاب ٥/ ٣٧١-٣٧٢.
(٣) الكشاف ٢/ ٤٣٠.
(٤) معاني القرآن ٣/ ٢١٩.
(٥) ٥/ ٥٣٨.

جارَ الله[١] على إيثار كون «مَنْ» بدلاً طَلَبُ الملاءمة بين أجزاء النظم الكريم، لا أن يكونَ ابتداء بيان حكم. ولا يخفى ما في هذا العذر من الوهن، والظاهرُ أنَّ استثناء «من أكره» أي: على التلفُّظ بالكفر بأمرٍ يخاف منه على نفسه أو عضوٍ من أعضائه - ممّن كفر - استثناءٌ متصلٌ؛ لأنَّ الكفرَ التلفُّظُ بما يدلُّ عليه سواء طابقَ الاعتقاد أو لا.

قال الراغب: يقال: كَفَرَ فلانٌ إذا اعتقدَ الكُفْرَ، ويقال إذا أظهرَ الكفرَ وإن لم يعتقد[٢]. فيدخلُ هذا المستثنى في المستثنى منه المذكور.

وقيل: مستثنًى من الخبر أو[٣] الجواب المقدَّر، وقيل: مستثنًى مقدَّم من قوله تعالى: (فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ) وليس بذاك، والمراد إخراجه من حُكْم الغضب والعذاب أو الذم.

وقوله سبحانه: ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ حالٌ من المستثنى، والعامل - كما في «إرشاد العقل السليم»[٤] - هو الكفر الواقع بالإكراه، لا نفسُ الإكراه؛ لأنَّ مقارنةَ اطمئنان القلب بالإيمان للإكراه لا تجدي نفعاً، وإنما المجدي مقارنته للكفر الواقع به، أي: إلا مَنْ كَفَرَ بإكراهٍ أو إلا مَنْ أُكره فكَفَر، والحالُ أنَّ قلبه مطمئنٌّ بالإيمان لم تتغيَّر عقيدته.

وأصل معنى الاطمئنان سكونٌ بعد انزعاج، والمرادُ هنا السكون والثبات على ما كان عليه بعد إزعاج الإكراه، وإنما لم يصرِّح بذلك العامل إيماءً إلى أنه ليس بكفر حقيقة.

واستدلَّ بالآية على أنَّ الإيمانَ هو التصديقُ بالقلب، والإقرار ليس ركناً فيه كما قيل.

واعتُرض بأنَّ مَنْ جعله ركناً لم يُرد أنه ركنٌ حقيقيٌّ لا يسقط أصلاً، بل إنه دالٌّ على الحقيقة التي هي التصديقُ؛ إذ لا يمكن الاطلاع عليها، فلا يضرُّهُ عند سقوطه لنحو الإكراه والعجز، فتأمل.

---

(١) هو الزمخشري، ينظر الكشاف ٢/ ٤٣٠.
(٢) مفردات الراغب (كفر).
(٣) قوله: أو. ليس في (م).
(٤) ٥/ ١٤٣.

﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أي: اعتقده وطابَ به نفساً، و«صَدْراً» على معنى صَدْره؛ إذ البشر في عجزٍ عن شَرْح صَدْر غيره، ونَصْبه ـ كما قال الإمام ـ على أنه مفعول به لـ «شرح»[1]. وجوَّز بعضُهم كونه على التمييز، و«مَنْ» إما شرطيةٌ أو موصولةٌ، لكن إذا جُعلت شرطية، قال أبو حيان: لابدَّ من تقدير مبتدأ قبلها؛ لأنَّ «لكن» لا تليها الجملُ الشرطية، والتقدير هنا: ولكن هم مَنْ شَرَحَ بالكفر صَدْراً، أي: منهم، ومثله قوله:

ولكنْ متى تَسترفدِ القومَ أرفدِ[2]

أي: ولكن أنا متى تسترفد... إلخ[3]. وتُعقِّبَ بأنه تقديرٌ غيرُ لازم.

وقوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ جوابُ الشرط على تقدير شرطية «مَنْ» وهي على التقديرين مبتدأٌ وهذا خبرها على تقدير الموصولية، وكذا على تقدير الشرطية في رأي، والخلافُ مشهور، وجعله بعضُهم خبراً لـ «مَنْ» هذه والأولى؛ للاتحاد في المعنى؛ إذ المراد بـ «مَنْ كفر» الصنفُ الشارحُ بالكفر صَدْراً.

وتعقَّبه في «البحر»[4] بأنَّ ها هنا جملتين شرطيتين، وقد فُصِلَ بينهما بأداة الاستدراك، فلا بدَّ لكلٍّ واحدةٍ منهما من جوابٍ على حِدَةٍ، فتقديرُ الحذف أحرى في صناعة الإعراب.

وقد ضعَّفوا مذهبَ أبي الحسن في ادِّعائه أنَّ قوله تعالى: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٩١] وقوله سبحانه: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ [الواقعة: ٨٩] جوابٌ لـ «أما» ولأنَّ «هذا» و«هما» أداتا شرطٍ تلي إحداهما الأخرى، ويبعد بهذا[5] عندي جَعْلُهُ خبراً لهما على تقدير الموصولية والاستدراك من الإكراه على ما قيل؛ ووُجِّه بأنَّ قوله تعالى: (إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ) يوهم أنَّ المُكْرَهَ مطلقاً مستثنًى مما تقدَّم، وقوله

(١) تفسير الرازي ٢٠/ ١٢٣.

(٢) عجز بيت لطرفة بن العبد وهو في ديوانه ص٢٩ وصدره:

ولستُ بحلّال التلاع مخافةً

(٣) البحر المحيط ٥/ ٥٣٩.

(٤) ٥/ ٥٣٩.

(٥) في الأصل: هذا.

سبحانه: (وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ) لا ينفي ذلك الوهم، فاحتيج إلى الاستدراك لدفعه، وفيه بحثٌ ظاهر.

وقيل: المراد مجرَّدُ التأكيد كما في نحو قولك: لو جاء زيدٌ لأكرمتك، لكنه لم يجئ. وأنت تعلم ما في ذلك فتأمل جداً.

وتنوين «غضبٌ» للتعظيم، أي: غَضَبٌ عظيمٌ لا يَكْتَنِهُ كُنْهَهُ كائنٌ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جلَّ جلاله ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ لِعِظَم جُرْمهم، فَجُوزوا من جنس عملهم، وفي اختيار الاسم الجليل من تربية المهابة وتقوية تعظيم العذاب ما فيه.

والجمع في الضميرين المجرورين لمراعاة جانب المعنى، كما أنَّ الإفرادَ في المستكنِّ في الصلة لرعاية جانب اللفظ.

روي أنَّ قريشاً أكرهوا عماراً وأبويه ياسراً وسُميَّة على الارتداد، فأَبَوْا، فربطوا سُميَّةَ بين بعيرين وَوُجئتْ[1] بحربةٍ في قُبُلها، وقالوا: إنما أسلمت من أجل الرجال. فقتلوها وقتلوا ياسراً، وهما أولُ قتيلين في الإسلام، وأما عمارٌ فأعطاهم بلسانه ما أكرهوه عليه، فقيل: يا رسول الله: إنَّ عماراً كَفَرَ. فقال رسول الله ﷺ: «كلَّا، إنَّ عماراً مليءٌ إيماناً من قَرْنه إلى قدمه، واختلطَ الإيمانُ بلحمه ودمه» فأتى عمارٌ رسولَ الله عليه الصلاة والسلام وهو يبكي، فجعلَ رسول الله ﷺ يمسحُ عينيه وقال: «مالكَ إن عادوا فَعُدْ لهم بما قلتَ» وفي رواية: أنهم أخذوه فلم يتركوه حتى سبَّ النبيَّ ﷺ، وذكر آلهتهم بخير، ثم تركوه، فلما أتى رسولَ الله عليه الصلاة والسلام قال: «ما وراءك»؟ قال: شرٌّ، ما تُركْتُ حتى نلتُ منك، وذكرتُ آلهتهم بخير. قال: «كيف تجدُ قلبك»؟ قال: مطمئنٌّ بالإيمان. قال ﷺ: «إن عادوا فَعُدْ»، فنزلت هذه الآية[2].

وكأنَّ الأمرَ بالعَوْد في الرواية الأولى للترخيص بناءً على ما قال النسفيُّ أنه أدنى مراتبه، وكذا الأمر في الرواية الثانية إن اعتُبر مُقيَّداً بما قُيِّدَ به في الرواية

---

(١) في الأصل و(م): ووجئ. والمثبت من تفسير أبي السعود ٥/ ١٤٣ حيث نقل المصنف.
(٢) أخرجه الطبري ١٤/ ٣٧٤، والحاكم ٢/ ٣٥٧، والبيهقي ٨/ ٢٠٨-٢٠٩، والواحدي في أسباب النزول ص٢٨٨.

الأولى، وأما إن اعتبر مقيَّداً بطمأنينة القلب كما في «الهداية» أي: عُدْ إلى جعلها نَصْبَ عينيك واثبتْ عليها، فالأمر للوجوب.

والآيةُ دليلٌ على جواز التكلُّم بكلمة الكفر عند الإكراه، وإن كان الأفضلُ أن يتجنَّب عن ذلك إعزازاً للدين ولو تيقَّنَ القتلَ كما فعل ياسرٌ وسميَّةُ، وليس ذلك من إلقاء النفس إلى التهلكة، بل هو كالقتل في الغزو كما صرَّحوا به.

وقد أخرج ابن أبي شيبةَ عن الحسن، وعبد الرزاق في «تفسيره» عن معمر: أنَّ مسيلمةَ أخذ رجلين فقال لأحدهما: ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله. قال: فما تقول فيَّ؟ قال: أنت أيضاً. فخلَّاه، وقال للآخر: ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله. قال: فما تقول فيَّ؟ فقال: أنا أصمّ، فأعاد عليه ثلاثاً، فأعاد ذلك في جوابه، فقتله، فبلغ رسول الله ﷺ خبرهما فقال: «أما الأول فقد أخذ برخصة الله تعالى، وأما الثاني فقد صَدع بالحقِّ فهنيئاً له»(١).

وفي «أحكام الجصاص»(٢): أنه يجبُ على المكرَهِ على الكُفْر إخطارُ أنه لا يريده، فإن لم يخطر بباله ذلك كفر.

وفي «شرح المنهاج» لابن حجر: لا توجد رِدَّةُ مُكْرَهٍ على مكفِّرٍ قلبُهُ مطمئنٌّ بالإيمان؛ للآية، وكذا إن تجرَّدَ قلبه عنهما فيما يتَّجه ترجيحه؛ لإطلاقهم أنَّ المكرَهَ لا يلزمه التورية. فافهم(٣).

وقال القاضي: يجبُ على المكرَه تعريضُ النفس للقتل، ولا يباحُ له التلفُّظ بالكفر؛ لأنه كَذِبٌ، وهو قبيحٌ لذاته، فيقبح على كلِّ حال، ولو جاز أن يخرجَ عن القُبْح لرعاية بعض المصالح لم يمتنع أن يفعل الله سبحانه الكذب لها، وحينئذٍ لا يبقى وُثوقٌ بوعده تعالى ووعيده؛ لاحتمال أنه سبحانه فعل الكَذِبَ لرعاية المصلحة التي لا يعلمها إلا هو، وردُّه ظاهر.

وهذا الخلاف فيما إذا تعيَّنَ على المُكرَه؛ إما التزامُ الكذب وإما تعريضُ النفس

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١٢/ ٣٥٧-٣٥٨، وتفسير عبد الرزاق ١/ ٣٦٢.
(٢) ٣/ ١٩٢.
(٣) تحفة المحتاج بشرح المنهاج بهامش حواشي الشرواني وابن قاسم العبادي ٩/ ٩٣.

للتلف، وإلا فمتى أمكنه نحو التعريض أو إخراج الكلام على نية الاستفهام الإنكاريِّ، لم يجبْ عليه تعريضُ النفس لذلك إجماعاً.

واستُدلَّ بإباحة التلفُّظ بالكفر عند الإكراه على إباحة سائر المعاصي عنده أيضاً، وفيه بحثٌ، فقد ذكر الإمام أنَّ من المعاصي ما يجب فعله عند الإكراه كشرب الخمر وأكل الميتة ولحم الخنزير، فإنَّ حِفْظَ النفس عن الفوات واجبٌ، فحيث تعيَّن الأكلُ سبيلاً ولا ضرر فيه لحيوانٍ ولا إهانةَ لحقِّ الله تعالى وَجَبَ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] ومنها ما يحرم كقتل إنسانٍ محترمٍ أو قطع عضوٍ من أعضائه، وفي وجوب القصاص على المكره قولان للشافعي عليه الرحمة، وذكر أنَّ من الأفعال ما لا يقبل الإكراه ومثَّل بالزنى؛ لأنَّ الإكراهَ يُوجبُ الخوفَ الشديد، وذلك يمنعُ من انتشار الآلة، فحيثُ دخل[١] الزنى في الوجود، عَلِمنا أنه وقع بالاختيار لا على سبيل الإكراه[٢]. وتمام الكلام في هذا المقام يُطلب من محلِّه.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الكفر بعد الإيمان، أو الوعيد الذي تضمَّنه قوله تعالى: (فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) أو المذكور من الغضب والعذاب. ﴿بِأَنَّهُمُ﴾ أي: بسبب أنَّ الشارحينَ صدورهم بالكفر ﴿اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: آثروها وقدَّموها، ولتضمُّن الاستحباب معنى الإيثار قيل: ﴿عَلَى الْآخِرَةِ﴾ فعُدِّي بـ «على»، والمراد على ما في «البحر»[٣] أنهم فعلوا فِعْلَ المستحبِّين ذلك، وإلا فهم غيرُ مصدِّقين بالآخرة.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ إلى الإيمان وإلى ما يوجب الثباتَ عليه، وقيل: إلى الجنة. وردَّه الإمامُ[٤]. وفسَّر بعضُهم الهدايةَ المنفيةَ بهداية القَسْر، أي: لا يهدي هدايةَ قَسْرٍ وإلجاءٍ. ونُسِبَ إلى المعتزلة. ﴿الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ أي: في علمه تعالى المحيط، فلا يعصمهم تعالى عن الزيغ وما يؤدي إليه من الغضب والعذاب، ولولا أحد الأمرين ـ إما إيثار الحياة الدنيا على الآخرة، وإما عدمُ هداية الله تعالى

---

(١) في الأصل و(م): دلّ. والمثبت من تفسير الرازي ٢٠/ ١٢٣.

(٢) تفسير الرازي ٢٠/ ١٢٢-١٢٣.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٥٤٠.

(٤) تفسير الرازي ٢٠/ ١٢٤.

إياهم بأن آثروا الآخرةَ على الدنيا، أو بأن هداهم الله سبحانه ـ لما كان ذلك، لكن كلاهما لا يكون؛ لأنه خلافُ ما في العلم بالأشياء على ما هي عليه في نفس الأمر، وقال البعضُ: لكنَّ الثاني مخالفٌ للحكمة، والأول مما لا يدخلُ تحت الوقوع، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الموصوفون بما ذكر ﴿ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ﴾ فلم تُفتحْ لإدراك الحقِّ واكتساب ما يوصل إليه، واستظهر أبو حيان كونَ ذلك إشارة إلى ما استحقُّوه من الغضب والعذاب، وقال: إنَّ قوله تعالى (ٱسۡتَحَبُّواْ) إشارةٌ إلى الكسب[1] (وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ) إشارةٌ إلى الاختراع، فجمعت الآيةُ الأمرين، وذلك عقيدةُ أهل السنة[2]، فافهم. وقد تقدم الكلام على الطبع.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٠٨﴾ أي: الكاملون في الغفلة؛ إذ لا غفلة أعظمُ من الغفلة عن تدبُّر العواقب والنظر في المصالح، وروي عن ابن عباس ﵄ أنه قال: غافلونَ عمَّا يُرادُ منهم في الآخرة.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٠٩﴾ إذ ضيَّعوا رؤوس أموالهم، وهي أعمارهم، وصرفوها فيما لا يفضي إلا إلى العذاب المخلَّد، ولله تعالى [درُّ] من قال:

إذا كان رأسُ المال عُمرَكَ فاحترسْ ... عليه من الإنفاق في غير واجب[3]

ووقع في آية أخرى: ﴿ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ [هود: ٢٢] وذلك لاقتضاء المقام على ما لا يخفى على الناظر فيه، أو لأنه وقع في الفواصل هنا اعتمادُ الألف كالكافرين والغافلين، فعبّر به لرعاية ذلك، وهو أمرٌ سهل، وتقدَّم الكلام في «لا جرم» فتذكَّره فما في العهد من قِدَم[4].

---

(١) في (م): الكذب. والمثبت من الأصل والمصدر.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٥٤٠.

(٣) البيت لأبي بكر الجوهري، وهو في ريحانة الألبَّا ١/ ١٦٧، وما ورد بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

(٤) تقدم في الآية (٢٢) من سورة هود، و(٢٣) و(٦٢) من سورة النحل.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ إلى دار الإسلام، وهم عمار وأضرابه، أي: لهم بالولاية والنصر لا عليهم كما يقتضيه ظاهرُ أعمالهم السابقة، فالجارُّ والمجرورُ في موضع الخبر لـ «إنَّ»، وجوِّز أن يكون خبرها محذوفاً لدلالة خبر «إنَّ» الثانية عليه، والجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بذلك المحذوف، وقال أبو البقاء: الخبر هو الآتي، و«إنَّ» الثانية واسمها تكريرٌ للتأكيد[1]، ولا تطلب خبراً من حيث الإعراب، والجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بأحد المرفوعين على الإعمال، وقيل: بمحذوفٍ على جهة البيان كأنه قيل: أعني للذين، أي: الغفران. وليس بشيء، وقيل: لا خبرَ لـ «إنَّ» هذه في اللفظ لأنَّ خبر الثانية أغنى عنه، وليس بجيِّدٍ كما لا يخفى. و«ثم» للدلالة على تباعد رتبة حالهم هذه عن رتبة حالهم التي يفيدها الاستثناء من مجرد الخروج عن حكم الغضب والعذاب، لا عن رتبة حال الكفرة.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ أي: عُذِّبوا على الارتداد، وأصلُ الفَتْنِ إدخالُ الذهب النارَ لتظهر جودته من رداءته، ثم تُجوِّزَ به عن البلاء وتعذيب الإنسان. وقرأ ابن عامر: «فَتَنوا» مبنياً للفاعل[2]، وهو ضميرُ المشركين عند غير واحدٍ، أي: عذَّبوا المؤمنين كالحضرميِّ أكرهَ مولاه جَبْراً حتى ارتدَّ، ثم أسلما وهاجرا، أو وقعوا في الفتنة، فإنَّ «فتن» جاء متعدِّياً ولازماً. وتستعمل الفتنة فيما يحصل عنه العذاب.

وقال أبو حيان: الظاهر أنَّ الضميرَ عائدٌ على «الذين هاجروا» والمعنى: فتنوا أنفسهم بما أَعطوا المشركين من القول، كما فعل عمار، أو لما كانوا صابرين على الإسلام وعُذِّبوا بسبب ذلك صاروا كأنهم عَذَّبوا أنفسهم[3].

﴿ثُمَّ جَاهَدُوا﴾ الكفار ﴿وَصَبَرُوا﴾ على مشاقِّ الجهاد، أو على ما أصابهم من المشاقِّ مطلقاً.

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: المذكورات من الفتنة والهجرة والجهاد والصبر، وهو تصريحٌ بما أشعر به بناءُ الحكم على الموصول من عِلِّيَّةِ الصِّلة.

---

(١) الإملاء ٣/ ٤٦٤.

(٢) التيسير ص١٣٨، والنشر ٢/ ٣٠٥.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٥٤١.

وجُوِّزَ أن يكونَ الضميرُ للفتنة المفهومة من الفعل السابق، ويكون ما ذكر بياناً لعدم إخلال ذلك بالحكم، وقال ابن عطية: يجوز أن يكونَ للتوبة، والكلام يُعطيها وإن لم يجرِ لها ذكرٌ صريحٌ[1].

﴿لَغَفُورٌ﴾ لما فعلوا من قبل ﴿رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ يُنعم عليهم مجازاةً لما صنعوا من بعد، وفي التعرض لعنوان الربوبية في الموضعين إيماءٌ إلى عِلَّة الحكم، وما في إضافة الرب إلى ضميره عليه الصلاة والسلام مع ظهور الأثر في الطائفة المذكورة إظهارٌ لكمال اللطف به ﷺ بأنَّ إفاضةَ آثار الربوبية عليهم من المغفرة والرحمة بواسطته عليه الصلاة والسلام ولكونهم أتباعاً له.

هذا، وكون الآية في عمار وأضرابه ﵃ مما ذكره غيرُ واحدٍ، وصرَّحَ ابنُ إسحاق بأنها نزلت فيه وفي عياش بن أبي ربيعة والوليد بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد. وتعقَّبه ابنُ عطية بأنَّ ذِكْرَ عمار في ذلك غيرُ قويم، فإنه أرفعُ [من] طبقة هؤلاء، وهؤلاء ممن شَرَحَ بالكفر صدراً، فتحَ الله تعالى لهم بابَ التوبة في آخر الآية، وذكر أنَّ الآية مدنيةٌ، وأنه لا يعلم في ذلك خلافاً[2]. ونقل عن ابن عباس ﵄ أنها نزلت، فكتب بها المسلمونَ إلى مَنْ كان أسلمَ بمكة: إنَّ الله تعالى قد جعل لكم مخرجاً، فخرجوا، فلحقهم المشركون فقاتلوهم حتى نجا وقتل من قتل، وأخرج ذلك ابن مردويه[3]، وفي رواية: أنهم خرجوا واتبعوا وقاتلوا فنزلت، وأخرج هذا ابن المنذر وغيره[4] عن قتادة، فالمراد بالجهاد قتالهم لمتبعيهم، وأخرج ابن جرير عن الحسن وعكرمة أنها نزلت في عبد الله ابن أبي سَرْح الذي كان يكتبُ لرسول الله ﷺ فأزلَّه الشيطانُ فلَحِقَ بالكفار فأمر به النبيُّ عليه الصلاة والسلام أن يُقتَل يومَ فتح مكة، فاستجارَ له عثمان بن عفان ﵁، فأجاره النبيُّ ﷺ[5].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٢٥.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٢٥. وما بين حاصرتين منه.

(٣) كما في الدر المنثور ٤/ ١٣٣.

(٤) كما في الدر المنثور ٤/ ١٣٣.

(٥) تفسير الطبري ١٤/ ٣٨٠-٣٨١، وأخرجه ـ أيضاً ـ أبو داود (٤٣٥٨)، والنسائي في الكبرى (٣٥١٨)، وفي المجتبى ٧/ ١٠٧.

والمراد نزلت فيه وفي أشباهه كما صرّح به في بعض الروايات، وفسَّروا «فتنوا» على هذا بـ «فَتَنَهم» الشيطانُ وأزلَّهم حتى ارتدُّوا باختيارهم، وما ذكره ابنُ عطيةَ فيمن ذكر مع عمار غيرُ مسلَّم، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة أنَّ عياشاً رضي الله عنه كان أخا أبي جهلٍ لأمه، وكان يضربه سوطاً وراحلته سوطاً ليرتدَّ عن الإسلام(١).

وفي «التفسير الخازني» أنَّ عياشاً ـ وكان أخا أبي جهل من الرضاعة، وقيل: لأمه ـ وأبا جندل بنَ سهل بن عمرو، وسلمة بن هشام، والوليد بن المغيرة، وعبد الله بن سلمة الثقفي فَتَنَهم المشركون وعذَّبوهم، فأعطوهم بعض ما أرادوا ليَسلموا من شرِّهم، ثم إنهم بعد ذلك هاجروا وجاهدوا، والآية نزلتْ فيهم(٢)، والله تعالى أعلم بحقيقة الحال.

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ﴾ نَصب على الظرفية بـ «رحيم»، وقيل: على أنه مفعولٌ به لـ «اذكر» محذوفاً، ورُجِّحَ الأول بارتباط النَّظْم عليه ومقابلته لقوله تعالى: (فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ) ولا يضرُّ تقييد الرحمة بذلك اليوم؛ لأنَّ الرحمةَ في غيره تثبتُ بالطريق الأولى، والمراد بهذا اليوم يوم القيامة. ﴿تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ تدافع وتسعى في خلاصها بالاعتذار، ولا يهمُّها شأنُ غيرها من ولدٍ ووالدٍ وقريب.

أخرج أحمد في «الزهد»، وجماعةٌ عن كعبٍ قال: كنت عند عمر بن الخطاب فقال: خوِّفنا يا كعب، فقلت: يا أمير المؤمنين، أوَليس فيكم كتاب الله تعالى وحكمةُ رسوله ﷺ؟ قال: بلى، ولكن خوِّفنا، قلت: يا أمير المؤمنين، لو وافيتَ يومَ القيامة بعمل سبعين نبيّاً لازدرأتَ عملك مما ترى، قال: زدنا، قلتُ: يا أمير المؤمنين، إنَّ جهنمَ لَتَزْفُرُ زفرةً يومَ القيامة لا يبقى مَلَكٌ مقرَّبٌ، ولا نبيٌّ مرسلٌ إلا خَرَّ جاثياً على ركبتيه، حتى إنَّ إبراهيمَ خليله لَيَخِرُّ جاثياً على ركبتيه فيقول: ربِّ نفسي نفسي، لا أسالك اليومَ إلا نفسي، فأطرقَ عمر مليّاً، قلت: يا أمير

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٤/ ١٣٣.
(٢) تفسير الخازن ٣/ ١١٨.

المؤمنين، أَوَليس تجدون هذا في كتاب الله؟ قال: كيف؟ قلت: قول الله تعالى في هذه الآية: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ﴾ إلخ[1].

وجعل بعضُهم هذا القولَ هو الجدال، ولم يرتضه ابنُ عطية[2]، والحقُّ أنه ليس فيه إلا الدلالة على عدم الاهتمام بشأن الغير، وهو بعضُ ما تدلُّ عليه الآية، وعن ابن عباس[3] أنَّ هذه المجادلة بين الروح والجسد، يقول الجسد: بكَ نَطَقَ لساني وأبصرتْ عيني ومشتْ رجلي، ولولاكَ لكنتُ خشبةً ملقاةً، وتقول الروح: أنتَ كسبتَ وعصيتَ لا أنا، وأنت كنتَ الحاملَ وأنا المحمول، فيقول الله تعالى: أضرب لكما مثلاً، أعمى حَمَلَ مُقْعداً إلى بستانٍ، فأصابا من ثماره، فالعذاب عليكما[4]، والظاهرُ عدمُ صحة هذا عن هذا الحبر، وهو أَجَلُّ من أن يحمل المجادلةَ في الآية على ما ذكر.

وضمير «نفسها» عائدٌ على النفس الأولى، فكأنه قيل: عن نفس النفس، وظاهره إضافةُ الشيء إلى نفسه، فَوُجِّهَ بأنَّ النفسَ الأولى هي الذات والجملة أي: الشخصُ بأجزائه كما في قولك: نفسٌ كريمةٌ، ونفسٌ مباركةٌ، والثانية عينُها أي: التي تجري مجرى التأكيد، ويدلُّ على حقيقة الشيء وهويته بحسب المقام، والفرق بينهما أنَّ الأجزاءَ ملاحَظةٌ في الأول دون الثاني، والأصل هو الثاني، لكن لعدم المغايرة في الحقيقة بين الذات وصاحبها استُعمل بمعنى الصاحب، ثم أُضيف الذات إليه، فوزان «كل نفس» وزان قولك: كلُّ أحدٍ، كذا في «الكشف»، وفي «الفرائد»: المغايرةُ شَرْطٌ بين المضاف والمضاف إليه؛ لامتناع النسبة بدون المنتسبين، فلذلك قالوا: يمتنعُ إضافة الشيء إلى نفسه إلا أنَّ المغايرةَ قبل الإضافة كافيةٌ، وهي محقَّقةٌ هاهنا؛ لأنه لا يلزمُ من مطلق النفس نفسك، ويلزم من نفسك مطلق النفسِ، فلما أضيف ما لا يلزم أن يكون نفسك إلى نفسك صحَّتِ الإضافة

---

(١) الزهد ص١٥١، وأخرجه ـ أيضاً ـ ابن أبي شيبة ١٣/ ١٥٤-١٥٥، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ٣٦٨-٣٦٩.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٢٦.

(٣) جاء فوقها في الأصل: رواه عكرمة.

(٤) البحر المحيط ٥/ ٥٤٢.

وإن اتَّحدا بعد الإضافة، ولذا جاز: عينُ الشيء وكلُّه ونفسُهُ، بخلاف: أسدُ الليث، وحَبْسُ المنع ونحوهما.

وقال ابن عطية: النفس الأولى هي المعروفة، والثانية هي البدن[١]. وقال العسكريُّ: الإنسان يُسمَّى نفساً، تقول العرب: ما جاءني إلا نفسٌ واحدةٌ، أي: إنسانٌ واحد[٢]، والنفسُ في الحقيقة لا تأتي لأنها هي الشيءُ الذي يعيشُ به الإنسان، فتأمل ففي النفس من بعض ما قالوه شيء، والظاهرُ أنَّ السؤالَ والجوابَ المشهورين في: كل رجل وضيعته، يجريان هاهنا. فتفطَّن.

وفي «البحر»[٣]: إنما لم تجئ: تجادل عنها، بدل: «تجادل عن نفسها» لأنَّ الفعلَ إذا لم يكن من باب «ظن» و«فقد» لا يتعدَّى ـ ظاهراً كان فاعله أو مضمراً ـ إلى ضميره المتصل، فلا يقال: ضربتها هندٌ، أو: هندٌ ضربتها، وإنما يقال: ضربتْ نفسَها هندٌ، وهندٌ ضربتْ نفسَها، وتأنيث «تأتي» مع إسناده إلى «كلّ» وهو مذكَّرٌ لرعاية المعنى، وكذا يقال فيما بعد، وعلى ذلك جاء قوله:

جادتْ عليها كلُّ عينٍ ثَرَّةٍ فَتَرَكْنَ كلَّ حديقةٍ كالدرهم[٤]

﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: تعطى وافياً كاملاً ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ أي: جزاء عملها، أو الذي عملته، إن خيراً فخيرٌ وإن شرّاً فشرٌّ، بطريق إطلاق اسم السبب على المسبَّب إشعاراً بكمال الاتصال بين الأجزية والأعمال، والإظهار في مقام الإضمار لزيادة التقرير، وللإيذان باختلاف وقتَي المجادلة والتوفية، وإن كانتا في يومٍ واحد.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾ بزيادة العقاب أو بالعقاب بغير ذنب، وقيل: بنقص أجورهم. وتُعقِّبَ بأنه عُلم من السابق. وأجيب بأنَّ القائلَ به لعلَّه أراد بجزاء ما عملت العقاب، وعلى تقدير إرادة الأعمِّ فهذا تكرارٌ للتأكيد، ووجهُ ضمير الجمع ظاهر.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/٤٢٦.

(٢) في (م): واحدة. والمثبت من الأصل والبحر المحيط ٥/٥٤٢.

(٣) ٥/٥٤٢.

(٤) البيت لعنترة بن شداد، وهو في ديوانه ص ١٤٥.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ أي: أهل قرية، وذلك إما بإطلاق القرية وإرادة أهلها، وإما بتقدير مضاف، وانتصابه على أنه مفعولٌ أول لـ «ضرب» على تضمينه معنى الجعل، وأُخِّرَ لئلا يفصل الثاني بين الموصوف وصفته وما يترتب عليها، وتأخيره عن الكلِّ مخلٌّ بتجاوب أطراف النظم الجليل وتجاذبه، ولأنَّ تأخيرَ ما حقُّه التقديم مما يورثُ النفسَ شوقاً لوروده، لا سيما إذا كان في المقدَّم ما يدعو إليه كما هنا فيتمكن عند وروده فضل تمكُّن. وعن الزجاج أنَّ النصبَ على البدلية، والأصل عنده: ضَرَبَ الله مثلاً مَثَلَ قريةٍ[1]، فحُذفَ المضافُ وأُقيم المضافُ إليه مقامه، والمراد بالقرية إما قريةٌ محقَّقةٌ من قرى الأولين، وإما مقدَّرةٌ، ووجودُ المشبَّه به غيرُ لازم، ولم يُجوِّز ذلك أبو حيان لمكان «ولقد جاءهم رسول منهم»[2]، وأنت تعلم أنه غيرُ مانع.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ومجاهدٍ أنها مكة[3]، وروي هذا عن ابن زيد وقتادة وعطية.

وأخرج ابن أبي حاتم وغيره عن سليم بن عمر قال: صحبتُ حفصةَ زوج النبيِّ ﷺ وهي خارجةٌ من مكة إلى المدينة، فأُخبرَتْ أنَّ عثمانَ قد قتل، فرجعت وقالت: ارجعوا بي، فوالذي نفسي بيده إنها لَلْقرية التي قال الله تعالى، وتلتْ ما في الآية[4]. ولعلَّها أرادت أنها مثلها، ويمكن حَمْلُ ما روي عن الحبر ومَنْ معه على ذلك، والمعنى: جعلها الله تعالى مثلاً لأهل مكة، أو لكلِّ قومٍ أَنعمَ الله تعالى عليهم، فأبطرتهم النعمةُ، ففعلوا ما فعلوا، فَجُوزوا بما جُوزوا، ودخل فيهم أهلُ مكة دخولاً أوليّاً. ولعله المختار.

﴿كَانَتْ ءَامِنَةً﴾ قيل: ذاتُ أَمنٍ لا يأتي عليها ما يُوجبُ الخوف، كما يأتي على بعض القرى من إغارة أهل الشرِّ عليها وطلبِ الإيقاع بها.

﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ ساكنةً قارَّةً لا يحدثُ فيها ما يوجب الانزعاج، كما يحدثُ في

(١) ينظر معاني القرآن ٣/ ٢٢١.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٥٤٢.
(٣) تفسير الطبري ١٤/ ٣٨٣.
(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٠٥.

بعض القرى من الفتن بين أهاليها ووقوع بعضهم في بعض كبغداد[١] فإنها قلَّما تأمن من إغارة شرِّيرٍ عليها، وهيهات هيهات أن ترى شخصين متصافيين[٢] فيها:

والمرءُ يخشى من أبيه وابنه ويخونه فيها أخوه وجاره

وقيل: يُفهم من كلام بعضهم أنَّ الاطمئنانَ أثرُ الأمن ولازمه من حيثُ إنَّ الخوف يوجب الانزعاج وينافي الاطمئنان، وفي «البحر»[٣] أنه زيادةٌ في الأمن.

﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا﴾ أقواتها ﴿رَغَدًا﴾ واسعاً ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ من جميع نواحيها، وغيّر أسلوب هذه الصفة عما تقدَّم إلى ما ترى؛ لما أنَّ إتيانَ الرزق متجدِّدٌ، وكونها «آمنةً مطمئنةً» ثابتٌ مستمرٌّ، وذكر الإمام أنَّ الآيةَ تضمَّنت ثلاثَ نِعَم جَمَعَها قولهم:

ثلاثةٌ ليس لها نهايه الأمنُ والصحةُ والكفايه

فـ «آمنة» إشارةٌ إلى الأمن، و«مطمئنة» إلى الصحة و«يأتيها رزقها» إلخ إلى الكفاية، وجُعل سببُ الاطمئنان ملاءمةَ هواء البلد لأمزجة أهله[٤]. وفيه تأمُّل.

﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ جمعُ نعمة كَشِدَّة وأَشُدّ، على تَرْك الاعتداد بالتاء؛ لأنَّ المطَّردَ جَمْعُ فِعْل على أَفْعُل لا فِعْلة[٥]، وقال الفاضل اليمنيُّ: اسمُ جَمْعٍ للنعمة، وقُطْربٌ: جَمْعُ نُعْم بضمِّ النون كبُؤْسٍ وأَبْؤُس، والنُّعْمُ عنده بمعنى النعيم، وحمل على ذلك قولهم: هذا يومُ طُعْمٍ ونُعْمٍ، وعند غيره بمعنى النعمة، والمراد بالنِّعَم ما تضمَّنته الآيةُ قبلُ؛ ولعلَّه في قوة نِعَمٍ كثيرةٍ، بل هو كذلك، وفي إيثار جَمْع القلة إيذانٌ بأنَّ كفرانَ نِعَمٍ قليلةٍ أوجبتْ هذا العذابَ، فما ظنُّكَ بكفران نِعَمٍ كثيرة.

﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ شبَّهَ أثرَ الجوع والخوف وضررهما الغاشي باللباس بجامع الإحاطة والاشتمال، فاستعير له اسمه، وأوقع عليه الإذاقة

---

(١) قوله: كبغداد. ليس في (م).

(٢) في (م): متصادقين.

(٣) ٥/٥٤٢.

(٤) تفسير الرازي ٢٠/١٢٨.

(٥) قوله: فِعْلة، معطوف على قوله: فِعْل، والمعنى: المطرد أن الذي يجمع على أَفْعُل هو فِعْل لا فِعْلة.

المستعارةَ للإصابة، وأُوثرت للدلالة على شِدَّة التأثير التي تفوت لو استُعملت الإصابة، وبيَّنوا العلاقةَ بأنَّ المدرَكَ من أثر الضرر شُبِّهَ بالمدرَكِ من طَعْمِ المُرِّ البَشِع، من باب استعارةِ محسوسٍ لمعقول؛ لأنَّ الوجدانيات لزَّت في قرن العقليات، وكذا يقال في الأول، ولِشُيوع استعمال الإذاقة في ذلك وكثرةِ جريانها على الألسنة جرتْ مجرى الحقيقة، ولذا جُعل إيقاعُها على اللباس تجريداً، فإنَّ التجريدَ إنما يَحسُنُ أو يصحُّ بالحقيقة، أو ما أُلحق بها من المجاز الشائع، فلا فَرْقَ في هذا بين: أذاقها إياه، وأصابها به، وإنما لم يقلْ: فكساها؛ إيثاراً للترشيح لئلَّا يفوت ما تفيده الإذاقة من التأثير والإدراك وطَعْمِ الجوع لما في اللِّباس من الدلالة على الشمول. وصاحب «المفتاح» حَمَلَ اللباسَ على انتقاع اللون ورثاثة الهيئة اللازِمَين للجوع والخوف[1]. والاستعارةُ حينئذٍ من باب استعارة المحسوس للمحسوس، وما ذكر أولاً أولى؛ إذ لا يحلُّ موقع الإذاقة، وتكونُ الإصابةُ أبلغَ موقعاً.

ونُقل عن الأصحاب أنَّ لَفْظَ اللباس عندهم تخييلٌ، وبُيِّنَ ذلك بأنْ يُشبَّهَ الجوعُ والخوفُ في التأثير بذي لباس قاصدٍ للتأثير مبالغٍ فيه، فيخترع له صورةً كاللباس، ويُطلقُ عليها اسمه. واعتُرض بأنَّ ذلك لا يلائم بلاغةَ القرآن العظيم؛ لأنَّ الجوعَ إذا شُبِّه بالمؤثِّر القاصد الكامل فيما تولَّاه، ناسَبَ أن تُخْتَرَعَ له صورةُ ما يكون آلةً للتأثير، لا صورةُ اللباس الذي لا مدخلَ له فيه.

وتُعقِّبَ بأنَّ صاحبَ «المفتاح» يرى أنَّ التخييليةَ مستعملةٌ في أمرٍ وَهْميٍّ توهَّمه المتكلِّمُ شبيهاً بمعناه الحقيقيِّ، فاللباسُ إذا كان تخييلاً يجوزُ أن يكونَ المرادُ به أمراً مشتملاً على الجوع اشتمالَ اللباس كالقَحْطِ، ومشتملاً على الخوف كإحاطة العدوِّ، فلا وَجْهَ لقوله: صورةُ اللباس، مما لا دخل له في التأثير، والقولُ بأنه لا يناسبُ مع الفاعل إلا ذِكْرُ الآلة للتأثير، مما لم يُصرِّح به أحدٌ من القوم، ولا يتأتَّى التزامهُ في كلِّ مكنية، ألا تراك لو قلت: مسافةُ [القصر][2] القريض، ما زال يطويها حتى نزل ببابه[3]، على تشبيه المدح بمسافرٍ ثَبَتَ له المسافة تخييلاً

(١) مفتاح العلوم ص٣٧٨.

(٢) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٥/ ٣٧٥ والكلام منها.

(٣) في الأصل: بيانه.

وما بعده ترشيحاً[١] كانت استعارةً حسنةً، وليس قرينتها آلة لذلك الفاعل، بل أمرٌ من لوازمه، ومثله كثيرٌ في كلام البلغاء. اهـ.

وأنت تعلم أنَّ هذا على ما فيه لا يفيدُ عند صحيح التخيُّل تمييز ما نقل عن الأصحاب على ما ذكر أولاً، ولا مساراته له، والمشهور أنَّ في «لباس» استعارتين تصريحية ومكنية، وبُيِّنَ ذلك بأن شُبِّه ما غشي الإنسانَ عند الجوع والخوف من أثر الضرر من حيث الاشتمال باللباس، فاستعير له اسمه، ومن حيث الكراهة بالطَّعم المرِّ البشع، فيكون استعارةً مصرِّحةً نظراً إلى الأول ومكنيةً إلى الثاني، وتكون الإذاقةُ تخييلاً، وفيه بحثٌ مشهورٌ بين الطلبة.

وجُوِّزَ أن يكونَ لباس الجوع، كلُجين الماء، أي: أذاقها الله الجوعَ الذي هو في الإحاطة كاللباس، والأول أيضاً أولى، ومثلُ ذلك في قول كثيِّر:

غَمْرُ الرداء إذا تبسَّم ضاحكاً غَلِقَتْ لضحكتهِ رقابُ المالِ[٢]

فإنه استعارَ الرداء للمعروف لأنه يصونُ عِرْضَ صاحبه صَوْنَ الرداء لما يُلقى عليه، وأضاف إليه الغَمْرَ وهو في وَصْفِ المعروف استعارةٌ جرتْ مجرى الحقيقة، وحقيقته من الغَمْرة، وهي معظم الماء وكثرته، وتقديمُ الجوع الناشئ من فقدان الرزق على الخوف المترتِّب على زوال الأمن المقدَّم فيما تقدَّم على إتيان الرزق؛ لكونه أنسبَ بالإذاقة، أو لمراعاة المقارنة بين ذلك وبين إتيان الرزق.

وفي مصحف أبيٍّ: «لباسَ الخوف والجوع» بتقديم الخوف، وكذا قرأ عبد الله، إلا أنه لم يذكر اللباسَ[٣]، وعدَّ ذلك أبو حيان تفسيراً لا قراءة[٤]، وروى العباس عن أبي عمرو أنه قرأ: «والخوف» بالنصب عَطْفاً على «لباس»[٥]، وجعله الزمخشريُّ على حَذْفِ مضافٍ وإقامة المضاف مقامه، أي: ولباس الخوف[٦].

---

(١) في الأصل و(م): ترشيح. والمثبت من حاشية الشهاب.

(٢) ديوان كُثيِّر عزة ص٢٩٥.

(٣) القراءات الشاذة ص٧٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٢٧، والبحر المحيط ٥/ ٥٤٣-٥٤٤.

(٤) البحر ٥/ ٥٤٣.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٢٧، والبحر المحيط ٥/ ٥٤٣.

(٦) الكشاف ٢/ ٤٣٢.

وقال صاحب «اللوامح»: يجوزُ أن يكونَ نَصْبُهُ بإضمار فعل، وفي مقابلة ما تقدَّم بالجوع والخوف فقط ما يشير إلى عَدِّ الأمن والاطمئنان كالشيء الواحد، وإلا فكان الظاهرُ: فأذاقها الله لباس الجوع والخوف والانزعاج ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ فيما قبل، أو على وَجْه الاستمرار، وهو الكفران المذكور.

و«ما» موصولةٌ، والعائد محذوفٌ، أي: يصنعونه، وجوَّزَ أن تكونَ مصدرية، والباء على الوجهين سببيةٌ، والضميران قيل: عائدان على «أهل» المقدَّر المضاف إلى القرية بعدما عادت الضمائر السابقة إلى لفظها، وقيل: عائدان إلى القرية مراداً بها أهلها.

وفي «إرشاد العقل السليم»(١) أَسند ما ذكر إلى أهل القرية تحقيقاً للأمر بعد إسناد الكفران إليها وإيقاع الإذاقة عليها إرادةً للمبالغة، وفي صيغة الصَّنعة إيذانٌ بأنَّ كُفْرانَ الصنيعة صنعةٌ راسخةٌ لهم وسنةٌ مسلوكةٌ.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ﴾ من تتمة التمثيل، والضميرُ فيه عائدٌ على مَنْ عاد إليه الضميران قبله، وجيءَ بذلك لبيان أنَّ ما صنعوه من كُفران أنعُم الله تعالى لم يكن مزاحمةً منهم لقضية العقل فقط، بل كان ذلك معارضة لحجَّة الله تعالى على الخلق أيضاً، أي: ولقد جاء أهلَ تلك القرية ﴿رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: من جنسهم يعرفونه بأصله ونَسَبه، فأخبرهم بوجوب الشكر على النعمة، وأنذرهم بسوء عاقبة ما هم عليه.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ في رسالته أو فيما أخبرهم به مما ذكر، فالفاءُ فصيحةٌ، وعدم ذِكْر ما أفصحت عنه للإيذان بمفاجأتهم بالتكذيب من غير تلعثم.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ المستأصِلُ لشأفتهم غِبَّ ما ذاقوا منه ما سمعت ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ أي: حالَ التباسهم بالظلم، وهو الكفران والتكذيبُ غير مقلعين عنه بما ذاقوا من المقدِّمات الزاجرة عنه، وفيه دلالةٌ على تماديهم في الكفر والعناد، وتجاوزهم في ذلك كلَّ حَدٍّ معتاد.

وترتيبُ أَخْذِ العذاب على تكذيب الرسول جريٌ على سنة الله تعالى حسبما يُرشد إليه قوله سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وبه

---

(١) ٥/ ١٤٥.

يتمُّ التمثيلُ، فإنَّ حالَ أهل مكةَ سواءٌ ضُرِبَ المثلُ لهم خاصةً، أو لهم ولمن سار سيرتهم كافة أشبهُ بحال أهل تلك القرية من الغُراب بالغراب، فقد كانوا في حَرَمٍ آمنٍ يُتَخطَّفُ الناسُ من حولهم، ولا يمرُّ ببالهم طَيفٌ من الخوف، ولا يُزعِجُ قطاً قلوبهم مُزعِجٌ، وكانت تُجبى إليه ثمراتُ كلِّ شيءٍ، ولقد جاءهم رسولٌ منهم وأيُّ رسولٍ، تحار في إدراك سموِّ مرتبته العقولُ ﷺ ما اختلف الدَّبور والقَبول، فأنذرهم وحذَّرهم، فكفروا بأنعُم الله تعالى وكذَّبوه عليه الصلاة والسلام، فأذاقهم الله تعالى لباسَ الجوع والخوف حيث أصابهم بدعائه ﷺ: «اللهم اشْدُدْ وطأتَكَ على مُضَرَ، واجعلها عليهم سنينَ كَسِني يوسف»[1] ما أصابهم من جَدْبٍ شديدٍ وأزمةٍ ما عليها مزيد، فاضطروا إلى أكل الجِيَفِ والكلاب الميتة والعظام المحروقة، والعلهز: وهو طعامٌ يُتَّخذُ في سِني المجاعة من الدم والوَبَر، وكان أحدهم ينظر إلى السماء فيرى شبه الدخان من الجوع، وقد ضاقت عليهم الأرضُ بما رَحُبَتْ من سرايا رسول الله ﷺ حيث كانوا يُغيرون على مواشيهم وعِيرهم وقوافلهم، ثم أخذهم يومَ بدرٍ ما أخذهم من العذاب.

هذا ما اختاره شيخُ الإسلام وقال: إنه الذي يقتضيه المقام ويستدعيه النظام، وأما ما أجمع عليه أكثرُ أهل التفسير من أنَّ الضميرَ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ﴾ لأهل مكةَ، والكلام انتقالٌ إلى ذِكرِ حالهم صريحاً بعد ذِكْرِ مثلهم، وأنَّ المرادَ بالرسول محمد ﷺ، وبالعذاب ما أصابهم من الجدب، ووقعة بدر فبمعزلٍ عن التحقيق، كيفَ لا وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ مفرَّعٌ على نتيجة التمثيل وصدٌّ لهم عما يؤدِّي إلى مثل عاقبته، والمعنى: وإذ قد استبانَ لكم حالُ مَنْ كَفَرَ بأنعُمِ الله تعالى وكذَّب رسولَهُ وما حلَّ بهم بسبب ذلك من اللُّتيَّا والتي أولاً وآخراً، فانتهوا عمَّا أنتم عليه من كفران النِّعَم وتكذيب الرسول ﷺ كيلا يَحِلَّ بكم ما حلَّ بهم، واعرفوا حقَّ نِعَمِ الله تعالى، وأطيعوا الرسول عليه الصلاة والسلام في أمره ونهيه، فكلوا من رزق الله تعالى حالَ كونه ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ وذروا ما تفترون من تحريم البحائر ونحوها ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ واعرفوا حقَّها ولا تقابلوها بالكفران.

(١) أخرجه أحمد (٧٢٦٠)، والبخاري (٨٠٤)، ومسلم (٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والفاء في المعنى داخلةٌ على الأمر بالشكر، وإنما دخلتْ على الأمر بالأكل لكَوْنِ الأكلِ ذريعة إلى الشكر، فكأنه قيل: فاشكروا نعمةَ الله غِبَّ أكلها حلالاً طيباً، وقد أُدمج فيه النهيُ عن زَعْمِ الحرمة، ولا ريب في أنَّ هذا إنما يُتصوَّرُ حين كان العذابُ المستأصِلُ متوقَّعاً بعد، وقد تمهَّدت مباديه. وأما بعد ما وقع فمَنْ ذا الذي يحذر، ومن ذا الذي يُؤمَرُ بالأكل والشكر.

وحَمْلُ قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ على الإخبار بذلك قبل الوقوع يأباه التصدِّي لاستصلاحهم بالأمر والنهي وإن لم يأباه التعبيرُ بالماضي لأنَّ استعماله في المستقبل المتحقّق الوقوع مجازاً كثيرٌ.

وتوجيهُ خطابِ الأمر بالأكل إلى المؤمنين مع أنَّ ما يتلوهُ من خطاب النهي متوجِّهٌ إلى الكفار كما فعل الواحديُّ قال: فكلوا أنتم يا معشر المؤمنين مما رزقكم الله تعالى من الغنائم = مما لا يليق بشأن التنزيل[١].

وتُعقِّبَ بأنه بعد ما فُسِّرَ العذابُ بالعذاب المستأصِلِ للشَّأفة كيفَ يُرادُ به ما وقع في بدر، وما بقي منهم أضعافُ ما ذهب، وإن كان مثلُ ذلك كافياً في الاستئصال فليكنْ المحذَّرُ والمأمورُ الباقي منهم.

وما ذكره عن الواحديِّ من توجيه خطاب الأمر بالأكل للمؤمنين رواه الإمامُ عن ابن عباس رضي الله عنهما، ثم نقل عن الكلبيِّ ما يستدعي أنَّ الخطابَ لأهل مكة حيث قال: إنَّ رؤساءَ مكةَ كلَّموا رسولَ الله ﷺ حين جُهدوا وقالوا: عاديتَ الرجالَ، فما بالُ الصبيان والنساء؟ وكانت المِيرةُ قد قُطِعَتْ عنهم بأمر رسول الله ﷺ، فأذِنَ في الحمل إليهم، فحمل الطعامُ إليهم، فقال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ إلخ ثم قال: والقولُ ما قال ابن عباس، يدلُّ عليه قوله تعالى فيما بعد: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ إلخ يعني أنكم لمَّا آمنتم وتركتمُ الكُفْرَ فكلوا الحلالَ الطيبَ، وهو الغنيمةُ، واتركوا الخبائثَ وهو الميتة والدم[٢].

وفي «التفسير الخازني» أنَّ كونَ الخطاب للمؤمنين من أهل المدينة هو

(١) إرشاد العقل السليم ٥/١٤٦-١٤٧، وينظر الوسيط للواحدي ٣/٨٩.
(٢) تفسير الرازي ٢٠/١٣٠.

الصحيح، فإنَّ الصحيحَ أنَّ الآيةَ مدنيةٌ كما قال مقاتلٌ وبعضُ المفسرين، والمراد بالقرية مكة، وقد ضربها الله تعالى لأهل المدينة يخوِّفهم ويُحذِّرهم أنْ يصنعوا مثلَ صنيعهم، فيصيبهم ما أصابهم من الجوع والخوف، ويشهدُ لصحة ذلك أنَّ الخوفَ المذكورَ في الآية كان من البعوث والسرايا التي كانت يبعثها رسول الله ﷺ في قولِ جميع المفسِّرين؛ لأنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام لم يُؤمَر بالقتال وهو بمكة، وإنما أُمر به وهو بالمدينة، فكان ﷺ يبعثُ البعوثَ إلى مكة يخوِّفهم بذلك وهو بالمدينة(١).

والمراد بالعذاب ما أصابهم من الجوع والخوف وهو أولى من أن يُرادَ به القتلُ يومَ بدر، والظاهر أنَّ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ﴾ إلخ عنده كما هو عند الجمهور انتقالٌ من التمثيل بهم إلى التصريح بحالهم الداخلة فيه، وليس من تتمَّته، فإنه ـ على ما قيل ـ خلافُ المتبادر إلى الفهم. نعم كونُ خطاب النهي فيما بعدُ للمؤمنين بعيدٌ غايةَ البعد، وجَعْلُهُ للكفار مع جَعْلِ خطاب الأمر السابق للمؤمنين بعيدٌ أيضاً، لكن دون ذلك.

وادَّعى أبو حيان أنَّ الظاهرَ أنَّ خطابَ النهي كخطاب الأمر للمكلَّفين كلِّهم، ونقل كونَ خطاب النهي لهم عن العسكري، وكونه للكفار عن الزمخشريِّ وابن عطية والجمهور(٢)، ولعلَّ الأولى ما ذكره شيخ الإسلام، إلا أنَّ تقييدَ العذاب بالمستأصِل، ودعوى أنَّ حالَ أهل مكة كحال أهل تلك القرية حذو القُذَّة بالقُذَّة من غير تفاوتٍ بينهما ولو في خصلةٍ فذة، لا يخلو عن شيءٍ من حيث إنَّ أهلَ مكة لم يُستأصَلوا، فتأمل ذاك والله تعالى يتولَّى هداك.

﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝١١٤﴾ تطيعون أو إن صحَّ زعمكم أنكم تقصدون بعبادة الآلهة عبادته سبحانه، ومن قال: إنَّ الخطابَ للمؤمنين أبقى هذا على ظاهره، أي: إن كنتم تخصُّونه تعالى بالعبادة، والكلامُ خارجٌ مخرجَ التهييج.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِۦ﴾ تعليلٌ

---

(١) تفسير الخازن ٣/١١٩-١٢٠.

(٢) البحر المحيط ٥/٥٤٥، وينظر الكشاف ٢/٤٣٢، والمحرر الوجيز ٣/٤٢٧.

لِحِلِّ ما أمرهم بأكله مما رزقهم، والحَصْرُ إضافيٌّ على ما قال غيرُ واحدٍ، أي: إنما حرَّم أكلَ هذه الأشياء دون ما تزعمون من البحائر والسوائب ونحوها، فلا ينافي تحريم غير المذكورات كالسباع والحمر الأهلية.

وقيل: الحصرُ على ظاهره، والسباعُ ونحوها لم تُحرَّم قبلُ، وإنما حُرِّمتْ بعدُ، وليس الحصرُ إلا بالنظر إلى الماضي.

وقال الإمام: إنه تعالى حَصَرَ المحرَّمات في الأربع في هذه السورة وفي سورة الأنعام بقوله سبحانه: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾ [الأنعام: ١٤٥] إلخ وهما مكِّيَّتان، وحَصَرها فيها أيضاً في «البقرة»[١]، وكذا في «المائدة» فإنه تعالى قال فيها: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١] فأباح الكلَّ إلا ما يتلى عليهم، وأجمعوا على أنَّ المرادَ بما يتلى هو قوله تعالى في تلك السورة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٣] وما ذكره تعالى من المنخنقة والموقوذة والمتردِّية والنطيحة وما أكل السَّبُعُ داخلٌ في الميتة، وما ذُبح على النُّصُبِ داخلٌ فيما أُهِلَّ به لغير الله، فثبتَ أنَّ هذه السُّور الأربع دالةٌ على حَصْر المحرَّمات في هذه الأربع، وسورتا النحل والأنعام مكِّيَّتان، وسورتا البقرة والمائدة مدنيتان، و«المائدةُ» من آخر ما نزل بالمدينة، فمَنْ أنكر حَصْرَ التحريم في الأربع إلا ما خصَّه الإجماعُ والدلائل القاطعة، كان في محلِّ أن يخشى عليه؛ لأنَّ هذه السور دلَّتْ على أنَّ حَصْرَ المحرَّمات فيها كان مشروعاً ثابتاً في أول أمر مكة وآخرها، وأول المدينة وآخرها، وفي إعادة البيان قَطْعٌ للأعذار وإزالةٌ للشُّبه[٢]، فتفطَّنْ ولا تغفل.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ أي: دَعَتْهُ ضرورةُ المخمصة إلى تناول شيءٍ من ذلك ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ على مضطرٍّ آخر ﴿وَلَا عَادٍ﴾ متعدٍّ قَدْرَ الضرورة وسَدِّ الرمق ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ أي: لا يؤاخذه سبحانه بذلك، فأُقيم سببه مقامه، ولتعظيم أمر المغفرة

---

(١) وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣].

(٢) تفسير الرازي ٢٠/ ١٣٠-١٣١.

والرحمة جيءَ بالاسم الجليل، وقد سها شيخُ الإسلام(١) فظنَّ أنَّ الآية «فإنَّ ربك غفورٌ رحيمٌ» فبيَّن سِرَّ التعرُّض لوَصْف الربوبية والإضافة إلى ضميره ﷺ، وسبحان من لا يسهو.

واستُدلَّ بالآية على أنَّ الكافرَ مكلَّفٌ بالفروع، ثم إنه تعالى أكَّد ما يُفهَمُ من الحصر بالنهي عن التحريم والتحليل بالأهواء فقال عزَّ قائلاً: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ﴾ إلخ، ولا ينافي ذلك العطف كما لا يخفى، واللام صِلَةُ القول مثلها في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتٌۢ﴾ [البقرة: ١٥٤] وقولك: لا تقل للنبيذ: إنه حلالٌ، ومعناها الاختصاص، و«ما» موصولةٌ والعائد محذوفٌ، أي: لا تقولوا في شأن الذي تصفه ألسنتكم من البهائم بالحِلِّ والحرمة في قولكم: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩] من غير ترتُّب ذلك الوصف على ملاحظةٍ وفِكْرٍ فضلاً عن استناده إلى وحي أو قياس مبنيٍّ عليه، بل مجرد قول باللسان.

﴿ٱلۡكَذِبَ﴾ منتصبٌ على أنه مفعول به لـ «تقولوا»، وقوله سبحانه: ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ بدلٌ منه بدلَ كلٍّ، وقيل: منصوبٌ بإضمار: أعني، وقيل: «الكذب» منتصبٌ على المصدرية، و«هذا» مقول القول.

وجُوِّزَ أن يكونَ بدلَ اشتمال، وجُوِّزَ أن يكون «الكذب» مقول القول المذكور، ويُضْمَرُ قولٌ آخر بعد الوصف، واللام على حالها، أي: لا تقولوا الكذبَ لما تَصِفُهُ ألسنتكم فتقولُ: هذا حلالٌ وهذا حرامٌ.

والجملةُ مبيِّنةٌ ومفسِّرةٌ لقوله تعالى: (تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ) كما في قوله سبحانه: ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمۡ﴾ [البقرة: ٥٤] وجُوِّزَ أن لا يُضمَرَ القولُ على المذهب الكوفي، وأن يُقدَّرَ قائله، على أنَّ المقدَّر حالٌ من الألسنة، ويجوز أن يكون اللام للتعليل، و«ما» مصدرية، و«الكذب» مفعول الوصف، و«هذا حلال» إلخ مقول القول، أي: لا تقولوا: هذا حلالٌ وهذا حرامٌ لأجل وَصْفِ ألسنتكم الكذب، وإلى هذا ذهب الكسائيُّ والزجاج(٢). وحاصله: لا تُحِلُّوا ولا تُحرِّموا

(١) في إرشاد العقل السليم ٥/ ١٤٧.
(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٢٢.

لمجرَّدِ وَصْفِ ألسنتكم الكذبَ وتصويرها له وتحقيقها لماهيته، كأنَّ ألسنتهم لكونها منشأً للكذب ومنبعاً للزور شخصٌ عالمٌ بكُنْهه ومحيطٌ بحقيقته يَصِفُهُ للناس ويُعرِّفه أوضح وَصْفٍ وأبْيَنَ تعريف، ومثلُ هذا واردٌ في كلام العرب والعَجَم تقول: له وَجْهٌ يَصِفُ الجمالَ، وريقٌ يَصِفُ السُّلاف[1]، وعينٌ تَصِفُ السِّحْر، وتقدَّم بيتُ المعرِّي[2]. وقد بولغ في الآية من حيثُ جَعْلُ قولهم كذباً، ثم جَعْلُ اللسان الناطقة بتلك المقالة ينبوعه مصوِّرةً إياه بصورته التي هو عليها، وهو من باب الاستعارة بالكناية، وجعلهُ بعضُهم من باب الإسناد المجازيِّ نحو: نهاره صائم، كأنَّ ألسنتهم لكونها موصوفةً بالكذب صارتْ كأنها حقيقته ومنبعه الذي يُعرَفُ منه حتى كأنه يصفه ويعرفه كقوله:

أضحتْ يمينُكَ من جودٍ مصوَّرةً ... لا بل يمينك منها صُوِّر الجود[3]

وقرأ الحسن وابن يَعمر وطلحةُ والأعرج وابن أبي إسحاق وابن عبيد ونُعيم بن مَيْسرة: «الكَذِبِ»[4] بالجرِّ، وخُرِّجَ على أن يكون بدلاً من «ما» مع مدخولها، وجعله غيرُ واحدٍ صفةً لـ «ما» المصدرية مع صلتها.

وتعقَّبه أبو حيان بأنَّ المصدرَ المسبوكَ من «ما» أو «أن» أو «كي» مع الفعل معرفة كالمضمر لا يجوز نعتُهُ، فلا يقال: أعجبني أن تقومَ السريع، كما يقال: أعجبني قيامك السريع، وليس لكلِّ مقدَّرٍ حُكْمَ المنطوق به، وإنما يتبعُ بذلك كلام العرب[5].

---

(١) السُّلاف: ما سال من عصير العنب قبل أن يُعصر، وتسمى الخمر سلافاً. مختار الصحاح (سلف).

(٢) وهو قوله:

سرى برق المعرة بعد وهن ... فبات برامة يصف الكلالا

وتقدم ص١٧٤ من هذا الجزء، و١٤/ ١٧٢.

(٣) البيت لابن مطير، وهو في المحاسن والمساوئ ص٢٤٢، والخزانة ٥/ ٤٧٨.

(٤) القراءات الشاذة ص٧٣، والمحتسب ٢/ ١٢، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٢٩، والبحر المحيط ٥/ ٥٤٥.

(٥) البحر المحيط ٥/ ٥٤٥.

وقرأ معاذ وابن أبي عبلة وبعضُ أهل الشام: «الكُذُبُ» بضم الثلاثة[١] صفة للألسنة، وهو جمع كَذُوب، كَصَبُور وصُبُرٍ، قال صاحب «اللوامح»: أو جمعُ كِذَاب ـ بكَسْر الكاف وتخفيف الذال ـ مصدرٌ كالقتال وُصِف به مبالغةً، وجمع فُعُل ككتابٍ وكُتُب، أو جَمْعُ كاذبٍ كَشَارفٍ وشُرُف.

وقرأ مسلمة بن محارب ـ كما قال ابن عطية ـ أو يعقوب ـ كما قال صاحب «اللوامح» ونسب قراءة معاذ ومن معه إلى مسلمة ـ: «الكُذُبَ» بضمتين والنصب[٢]، وخُرِّجَ على أوجه:

الأول: أنَّ ذلك منصوبٌ على الشتم والذمِّ، وهو نعتٌ للألسنة مقطوع.

الثاني: أنه مفعولٌ به لـ «تصف» أو «تقولوا» والمراد: الكَلِمُ الكواذب.

الثالث: أنه مفعولٌ مطلقٌ لـ «تصف» من معناه، على أنه جمعُ كِذَاب المصدر، وأُعرب «هذا حلالٌ» إلخ على ما مرَّ، ولا إشكالَ في إبداله؛ لأنه كَلِمٌ باعتبار موادِّه، وكلامان ظاهراً.

﴿لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ اللامُ لامُ العاقبة والصيرورة، وللتعليل؛ لأنَّ ما صدر منهم ليس لأجل الافتراء على الله تعالى، بل لأغراضٍ أُخَر، ويترتَّبُ على ذلك ما ذكر، وإلى هذا ذهب الزمخشريُّ[٣] وجماعة.

وقال بعضُهم: يجوز أن تكونَ للتعليل، ولا يبعد قصدهم لذلك كما قالوا: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] وفي «البحر» أنه الظاهر[٤]. ولا يكون ذلك على سبيل التوكيد للتعليل السابق على احتمال كون اللام للتعليل، و«ما» مصدريةٌ؛ لأنَّ في هذا التنبيهَ على مَن افتروا الكذبَ عليه، وليس فيما مرَّ، بل فيه إثباتُ الكَذِبِ مطلقاً، ففي ذلك إشارةٌ إلى أنهم لتمرُّنهم على الكذب اجترؤوا على الكذب على الله تعالى، فنسبوا ما حلَّلوا وحرَّموا إليه سبحانه.

---

(١) المحتسب ٢/ ١٢، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٢٩، والبحر ٥/ ٥٤٥.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٢٩، وينظر المحتسب ٢/ ١٢، والبحر ٥/ ٥٤٥.

(٣) الكشاف ٢/ ٤٣٣.

(٤) البحر ٥/ ٥٤٥.

وقال الواحديُّ: إنَّ «لتفتروا» بدل من «لما تصف» إلخ لأنَّ وَصْفَهم الكذبَ هو افتراءٌ على الله تعالى. وهو على ما في «البحر»[١] أيضاً على تقدير كون «ما» مصدرية؛ لأنها إذا جُعلتْ موصولةً لا تكونُ اللام للتعليل ليبدل من ذلك ما يفهم التعليل.

وقيل: لا مانع من التعليل على تقدير الموصولية، فعند قَصْدِ التعليل يجوز الإبدال.

وحاصل معنى الآية ـ على ما نصَّ عليه العسكريُّ ـ لا تُسَمُّوا ما لم يأتكم حِلُّهُ ولا حُرْمته عن الله تعالى ورسوله ﷺ حلالاً ولا حراماً، فتكونوا كاذبين على الله تعالى؛ لأنَّ مدارَ الحِلِّ والحرمة ليس إلا حكمةُ سبحانه، ومن هنا قال أبو نضرة: لم أزل أخافُ الفُتيا منذ سمعتُ آيةَ «النحل» إلى يومي هذا.

وقال ابن العربي: كره مالكٌ وقومٌ أن يقول المفتي: هذا حلالٌ وهذا حرامٌ، في المسائل الاجتهادية؛ وإنما يقال ذلك فيما نصَّ الله تعالى عليه، ويقال في مسائل الاجتهاد: إني أكرهُ كذا وكذا، ونحو ذلك، فهو أبعدُ من أن يكون فيه ما يتوهَّم منه الافتراء على الله سبحانه[٢].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ في أمرٍ من الأمور ﴿لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ لا يفوزون بمطلوب.

﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ أي: منفعتهم التي قصدوها بذلك الافتراء منفعةٌ قليلةٌ منقطعةٌ عن قريب، فـ «متاع» خبرُ مبتدأ محذوف، و«قليل» صفته، والجملةُ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنه لما نفى عنهم الفوزَ بمطلوبٍ قيل: كيف ذلك وهم قد تحصَّلَ لهم منفعةٌ بالافتراء؟ فقيل: ذاك متاعٌ قليلٌ لا عبرةَ به، ويرجع الأمرُ بالآخرة إلى أنَّ المرادَ نفيُ الفوز بمطلوبٍ يُعتَدُّ به. وإلى كون «متاع» خبرُ مبتدأ محذوف ذهب أبو البقاء إلا أنه قال: أي: بقاؤهم متاعٌ قليلٌ، ونحو ذلك[٣]. وقال الحوفي: «متاعٌ قليلٌ» مبتدأٌ وخبرٌ، وفيه أنَّ النكرةَ لا يُبتدأ بها بدون مسوِّغٍ، وتأويله بمتاعهم ونحوه بعيدٌ.

---

(١) ٥/ ٥٤٥.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٧١.

(٣) الإملاء ٣/ ٤٦٦.

﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ لا يُكْتَنَهُ كُنْهُهُ.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ خاصةً دون غيرهم من الأولين ﴿حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل نزول هذه الآية، وذلك في قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، والظاهر أنَّ «من قبل» متعلِّقٌ بـ «قصصنا»، وجُوِّزَ تعليقه بـ «حرَّمنا»، والمضافُ إليه المقدَّرُ ما مرَّ أيضاً.

ويحتمل أن يُقدَّر: «من قبل» تحريم ما حرّم على أمتك، وهو أولى على ما قيل، وجُوِّزَ أن يكونَ الكلامُ من باب التنازع، وهذا تحقيقٌ لما سلف من حَصْر المحرَّمات فيما فُصِّلَ بإبطال ما يخالف من فِريةِ اليهود وتكذيبهم في ذلك، فإنهم كانوا يقولون: لسنا أولَ من حُرِّمتْ عليه، وإنما كانت محرَّمةً على نوح وإبراهيم ومن بعدهما، حتى انتهى الأمر إلينا.

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بذلك التحْريم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾ حيث فعلوا ما عُوقبوا عليه بذلك حسبما نعى عليهم قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ الآية [النساء: ١٦٠]، وفيه تنبيهٌ على الفرق بينهم وبين غيرهم في التحريم، وأنه كما يكون للمضرَّة يكون للعقوبة.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ﴾ هو ما يسيءُ صاحبَهُ من كُفْرٍ أو معصية، ويدخل فيه الافتراءُ على الله تعالى، وعن ابن عباس أنه الشرك، والتعميم أولى. ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ أي: بسببها، على معنى أنَّ الجهالةَ السببُ الحاملُ لهم على العمل كالغيرة الجاهلية الحاملة على القتل وغير ذلك، وفُسِّرتِ الجهالةُ بالأمر الذي لا يليق، وقال ابن عطية: هي هنا تعدِّي الطور وركوب الرأس، لا ضدّ العلم، ومنه ما جاء في الخبر: «اللهم أعوذ بك من أن أجهلَ أو يُجهل عليَّ»(١) وقول الشاعر:

ألا لا يجهلنْ أحدٌ علينا فنجهلَ فوقَ جَهْلِ الجاهلينا(٢)

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦٧٣٠)، وأبو داود (٥٠٩٤)، والنسائي في الكبرى (٩٨٣٥)، وابن ماجه (٣٨٨٤) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٢) البيت لعمرو بن كلثوم، وهو من معلقته. ينظر شرح المعلقات للنحاس ص١٢٥.

نعم كثيراً ما تصحبُ هذه الجهالة التي هي بمعنى ضدّ العلم[١]، وفسَّرها بعضُهم بذلك، وجعل الباءَ للملابسة والجارَّ والمجرورَ في موضع الحال، أي: ملتبسين بجهالةٍ غير عارفين بالله تعالى وبعقابه، أو غير متدبِّرين في العواقب لغلبة الشهوة عليهم.

﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: من بعد ما عملوا ما عملوا، والتصريحُ به مع دلالة «ثم» عليه للتوكيد والمبالغة.

﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أي: أصلحوا أعمالهم، أو دخلوا في الصلاح، وفسَّر بعضُهم الإصلاحَ بالاستقامة على التوبة.

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: التوبة كما قال غيرُ واحد، ولعلَّ الإصلاحَ مندرجٌ في التوبة وتكميلٌ لها.

وقال أبو حيان: الضميرُ عائدٌ على المصادر المفهومة من الأفعال السابقة، أي: من بعد عمل السوء والتوبة والإصلاح، وقيل: يعودُ على الجهالة، وقيل: على السوء على معنى المعصية[٢]. وليس بذاك.

﴿لَغَفُورٌ﴾ لذلك السوء ﴿رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾ يثيبُ على طاعته سبحانه فعلاً وتركاً، وتكرير «إنَّ ربك» لتأكيد الوعد وإظهار كمال العناية بإنجازه، والتعرُّضُ لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ﷺ مع ظهور الأثر في التائبين للإيماء إلى أنَّ إفاضةَ آثار الربوبية من المغفرة والرحمة عليهم بتوسُّطه ﷺ وكونهم من أتباعه كما مرَّ عن قريب، والتقييدُ بالجهالة قيل: لبيان الواقع؛ لأنَّ كلَّ من يعمل السُّوء لا يعمله إلا بجهالة.

وقال العسكريُّ: ليس المعنى أنه تعالى يغفرُ لمن يعمل السوءَ بجهالةٍ ولا يغفر لمن عمله بغير جهالة، بل المرادُ أنَّ جميعَ مَنْ تابَ فهذه سبيله، وإنما خُصَّ مَنْ يعمل السوء بجهالة؛ لأنَّ أكثرَ من يأتي الذنوبَ يأتيها بقِلَّةِ فِكْرٍ في عاقبة الأمر، أو عند غلبة الشهوة، أو في جهالة الشباب، فَذكر الأكثر على عادة العرب في مثل ذلك. وعلى القولين لا مفهوم للقيد.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٠.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٥٤٦.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: كان عنده عليه السلام من الخير ما كان عند أمة، وهي الجماعةُ الكثيرةُ، فإطلاقها عليه عليه السلام لاستجماعه كمالاتٍ لا تكاد توجد إلا متفرقةً في أمة جمَّة:

وليس على الله بمُستنكَرٍ أن يجمعَ العالمَ في واحد[1]

وهو ﷺ رئيسُ الموحِّدين وقدوةُ المحقِّقين الذي نَصَبَ أدلةَ التوحيد، ورَفَعَ أعلامها، وخَفَضَ رايات الشرك، وجزم ببواتر الحُجَج هامَها، وقال مجاهد: سُمِّيَ عليه السلام أمةً؛ لانفراده بالإيمان في وقته مدَّةً ما.

وفي «صحيح البخاري» أنه عليه السلام قال لسارة: ليس على الأرض اليوم مؤمنٌ غيري وغيرك[2].

وذكر في «القاموس»[3] أنَّ من معاني الأُمَّة: مَنْ هو على الحقِّ مخالفٌ لسائر الأديان.

والظاهر أنه مجازٌ بجعله كأنه جميعُ ذلك العَصْر؛ لأنَّ الكَفَرة بمنزلة العَدَم.

وقيل: الأمة هنا فُعْلة بمعنى مفعول، كالرُّحلة بمعنى المرحول إليه، والنُّخبة بمعنى المنتَخَبِ، من أَمَّهُ إذا قَصَدَهُ أو اقتدى به، أي: كان مأموماً أو مؤتمّاً به، فإنَّ الناسَ كانوا يقصدونه للاستفادة ويقتدون بسيرته.

وقال ابن الأنباري: هذا مِثْلُ قول العرب: فلانٌ رحمةٌ وعلَّامةٌ ونسَّابةٌ، يقصدونَ بالتأنيث التناهي في المعنى الموصوف به.

وإيرادُ ذكره عليه السلام عَقيبَ تزييف مذاهب المشركين من الشرك والطعن في النبوة، وتحريم ما أَحلَّ الله تعالى؛ للإيذان بأنَّ حَقِّيةَ دين الإسلام وبطلانَ الشرك وفروعه أمرٌ ثابتٌ لا ريبَ فيه. وفي ذلك أيضاً رَدٌّ لقريشٍ حيث يزعمونَ أنهم على دينه.

---

(١) البيت لأبي نواس، وهو في ديوانه ص٢١٨.
(٢) صحيح البخاري (٢٢١٧)، وهو عند أحمد (٩٢٤١)، ومسلم (٢٣٧١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) مادة (أمم).

وقيل: إنه تعالى لمَّا بيَّنَ حالَ المشركين وأجرى ذكر اليهود بيَّن طريقةَ إبراهيم عليه السلام ليظهر الفرق بين حاله وحال المشركين وحال اليهود.

﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾ مطيعاً له سبحانه قائماً بأمره تعالى.

﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن كلِّ دينٍ باطلٍ إلى الدين الحقِّ غير زائل عنه.

﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ في أمرٍ من أمور دينهم أصلاً وفَرْعاً، صرَّحَ بذلك مع ظهوره، قيل: ردّاً على كفار قريش في قولهم: نحن على مِلَّة أبينا إبراهيم، وقيل: لذلك وللرَّدِّ على اليهود المشركين بقولهم: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] في افترائهم وزعمهم أنه عليه السلام كان على ما هم عليه كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧] إذ به ينتظمُ أمرُ إيراد التحريم والسبت سابقاً ولاحقاً.

﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ صفةٌ ثالثةٌ لـ: «أُمَّة»، والجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بـ «شاكراً» كما هو الظاهر، وأُوثر صيغة جمع القلة قيل: للإيذان بأنه عليه السلام لا يُخِلُّ بشُكْرِ النعمة القليلة، فكيف بالكثيرة، وللتصريحِ بأنه عليه السلام على خلاف ما هم عليه من الكفران بأنْعُمِ الله تعالى حسبما أُشير إليه بِضَرْب المثل، وقيل: إنَّ جمعَ القِلَّة هنا مستعارٌ لجمع الكثرة، ولا حاجةَ إليه.

وفي بعض الآثار أنه عليه السلام كان لا يتغدَّى إلا مع ضيفٍ، فلم يجدْ ذاتَ يومٍ ضيفاً فأَخَّر غداءه، فإذا هو بفوجٍ من الملائكة عليهم السلام في صورة البشر، فدعاهم إلى الطعام، فخيَّلوا أنَّ بهم جُذاماً فقال: الآن وجبتْ مؤاكلتكم شكراً لله تعالى على أنه عافاني مما ابتلاكم به. وجوَّزَ أبو البقاء كونَ الجارِّ والمجرور متعلِّقاً بقوله تعالى: ﴿اجْتَبَاهُ﴾[1]، وهو خلافُ الظاهر. وجعل بعضُهم متعلّق هذا محذوفاً، أي: اختاره واصطفاه للنبوة، وأصلُ الاجتباء الجمعُ على طريق الاصطفاء، ويُطلقُ على تخصيص الله تعالى العبدَ بفَيضٍ إلهيٍّ يتحصَّلُ له منه أنواعٌ من النِّعَم بلا سعي منه، ويكونُ للأنبياء عليهم السلام ومن يقاربهم.

﴿وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾ موصلٍ إليه تعالى، وهو ملةُ الإسلام، وليست

---

(١) الإملاء ٣/ ٤٦٦.

نتيجةُ هذه الهداية ـ كما في «إرشاد العقل السليم»(١) ـ مجرد اهتدائه عليه السلام، بل مع إرشاد الخلق أيضاً إلى ذلك، والدعوة إليه بمعونة قرينة الاجتباء.

وجوَّز بعضُهم كونَ «إلى صراط» متعلِّقاً بـ «اجتباه وهداه» على التنازع، والجملةُ إما حالٌ بتقدير «قد» على المشهور، وإما خبرٌ ثانٍ لـ «إنَّ»، وجوَّزَ أبو البقاء الاستئنافَ أيضاً(٢).

﴿وَءَاتَيْنَهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ بأن حبَّبه إلى الناس حتى إنَّ جميع أهل الأديان يتولَّونه ويُثنون عليه عليه السلام حسبما سأل بقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤] وروي هذا عن قتادة وغيره، وعن الحسن: الحسنةُ النبوة، وقيل: الأولاد الأبرار على الكِبَر.

وقيل: المالُ يصرفهُ في وجوه الخير والبِرِّ، وقيل: العُمُرُ الطويلُ في السَّعة والطاعة. فـ «حسنةٌ» على الأول بمعنى سيرةٍ حسنةٍ، وعلى ما بعده عطية أو نعمة حسنة، كذا قيل. وجُوِّز في الجمع أن يُرادَ عطية حسنة، والالتفات إلى التكلم لإظهار كمال الاعتناء بشأنه وتفخيم مكانه عليه السلام.

﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ داخلٌ في عِدادهم كائنٌ معهم في الدرجات العُلى من الجنة حسبما سأل بقوله: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣] وأراد بهم الأنبياء عليهم السلام.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وهي على ما روي عن قتادة: الإسلام المعبَّرُ عنه آنفاً بالصراط المستقيم، وفي روايةٍ أخرى عنه: أنها جميعُ شريعته إلا ما أُمر ﷺ بتركه، وفي «التفسير الخازني» حكايةُ هذا عن أهل الأصول(٣)، وعن ابن عمرو بن العاص أنها مناسكُ الحج.

وقال الإمام: قال قومٌ: إنَّ النبيَّ ﷺ كان على مِلَّة إبراهيمَ وشريعته، وليس له شَرْعٌ متفرِّدٌ به، بل بُعث عليه الصلاة والسلام لإحياء شريعة إبراهيمَ لهذه الآية،

(١) ٥/ ١٤٩.
(٢) الإملاء ٣/ ٤٦٦.
(٣) تفسير الخازن ٣/ ١٢٣.

فحملوا المِلَّة على الشريعة أصولاً وفروعاً. وهو قولٌ ضعيف، والمراد من «ملة إبراهيم» التوحيدُ ونفي الشرك المفهوم من قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥] فإن قيل: إنه ﷺ إنما نفى الشركَ وأثبتَ التوحيدَ للأدلة القطعية، فلا يُعدُّ ذلك متابعة، فيجبُ حَمْلُ الملة على الشرائع التي يصحُّ حصولُ المتابعة فيها، قلنا: يجوزُ أن يكونَ المرادُ الأمرَ بمتابعته في كيفية الدعوة إلى التوحيد، وهي أن يدعوَ إليه بطريق الرفق والسهولة وإيراد الدلائل مرَّةً بعد أخرى بأنواعٍ كثيرة، على ما هو الطريقة المألوفة في القرآن[١]. اهـ.

وتعقَّبه أبو حيان بأنه لا يحتاج إليه؛ لأنَّ المعتقد الذي تقتضيه دلائلُ العقول لا يمتنع أن يوحى ليتضافر المعقول والمنقول على اعتقاده، ألا ترى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الأنبياء: ١٠٨] كيف تضمَّن الوحي بما اقتضاه الدليل العقلي[٢]. فلا يمتنعُ أن يُؤمَرَ النبيُّ ﷺ باتباع ملة إبراهيمَ عليه السلام بنفي الشرك والتوحيد، وإن كان ذلك مما ثبت عنده عليه الصلاة والسلام بالدليل العقلي ليتضافر الدليلان العقليّ والنقليّ على هذا المطلب الجليل، وآخرُ بأنه ظاهرٌ في حَمْلِ المِلَّة على كيفية الدعوة، ولا شك أنَّ ذلك ليس داخلاً في مفهومها، فإنها ما شرعه الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء عليهم السلام، من أَمْلَلْتُ الكتابَ إذا أمليتَهُ، وهي الدينُ بعينه، لكن باعتبار الطاعة له، وتحقيقهُ أنَّ الوَضْعَ الإلهيَّ مهما نُسب إلى من يؤدِّيه عن الله تعالى يُسمَّى مِلَّةً، ومهما نُسِبَ إلى من يقيمه يُسمَّى ديناً.

قال الراغب: الفرقُ بينها وبين الدين أنها لا تُضافُ إلا للنبيِّ ﷺ الذي يُسنَدُ إليه، ولا تكادُ توجدُ مضافةً إلى الله تعالى، ولا إلى آحاد أمة النبيِّ عليه السلام، ولا تُستعملُ إلا في جُملةِ الشرائع دون آحادها، ولا كذلك الدين[٣]. وأكثر المفسِّرين على أنَّ المرادَ بها هنا أصولُ الشرائع، ويُحملُ عليه ما روي عن قتادة أولاً، ولا بأس بما روي عنه ثانياً.

(١) تفسير الرازي ٢٠/١٣٦.
(٢) البحر المحيط ٥/٥٤٨.
(٣) مفردات ألفاظ القرآن (ملل).

واستدلالُ بعض الشافعية على وجوب الختان، وما كان من شَرْعه عليه السلام ولم يَرِدْ به ناسخٌ، مبنيٌّ على ذلك كما لا يخفى. وما روي عن ابن عمرو بن العاص ذكره في «البحر»[1]، والذي أخرجه ابن المنذر والبيهقيُّ في «الشعب» وجماعةٌ عنه أنه قال: صلى جبريل عليه السلام بإبراهيم الظهرَ والعصرَ بعرفات، ثم وقف حتى إذا غابت الشمس دفع به، ثم صلى المغرب والعشاء بجَمْعٍ، ثم صلى به الفجر كأَسرع ما يُصلِّي أحدٌ من المسلمين، ثم وقف به حتى إذا كانَ كأبطأ ما يُصلِّي أحد من المسلمين دفع به، ثم رمى الجمرة، ثم ذبح وحلق، ثم أفاض به إلى البيت، فطاف به، فقال الله تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾[2]. ولعلَّ ما ذُكر أولاً مأخوذٌ منه.

وأنت تعلم أنه ليس نصًّا فيه، ولا أظنُّ أنَّ أحداً يوافقُ على تخصيص مِلَّتِهِ عليه السلام بمناسك الحج.

و«أن» تفسيريةٌ أو مصدريةٌ، ومرَّ الكلام في وَصْلها بالأمر، و«ثم» قيل: للتراخي الزماني لظهور أنَّ أيامه ﷺ بعد أيامه عليه السلام بكثير، واختار المحققون أنها للتراخي الرُّتبي لأنه أبلغ وأنسب بالمقام.

قال الزمخشريُّ: إنَّ في «ثم» هذه إيذاناً بأنه أشرفُ ما أُوتي خليلُ الله عليه السلام من الكرامة، وأجلُّ ما أُوتي من النعمة اتباعُ رسول الله ﷺ مِلَّتَهُ وتعظيماً لمنزلة نبينا عليه الصلاة والسلام وإجلالاً لمحلِّه[3]. أما الأول فمن دلالة «ثم» على تباين هذا المؤتى وسائر ما أوتي عليه السلام من الرُّتَب والمآثر، وأما الثاني فمن حيثُ إنَّ الخليلَ مع جلالة محلِّه عند الله تعالى أَجَلُّ رتبته أن أُوحيَ إلى الحبيب اتباعُ ملَّته، وفي لفظ «أوحينا» ثم الأمر باتباع الملَّة لا اتباع إبراهيم عليه السلام ما يدلُّ ـ كما في «الكشف» ـ على أنه ﷺ ليس بتابعٍ له، بل هو مستقلٌّ بالأخذ عمَّن أخذ إبراهيم عليه السلام عنه.

---

(١) ٥/ ٥٤٧.
(٢) شعب الإيمان (٤٠٧٥).
(٣) الكشاف ٢/ ٤٣٤.

﴿حَنِيفًا﴾ حالٌ من «إبراهيم» المضاف إليه لما أنَّ المضافَ لشدَّة اتصاله به جرى منه مجرى البعض، فَعُدَّ بذلك من قبيل: رأيت وَجْهَ هندٍ قائمة.

ونقل ابن عطية عن مكِّيٍّ عدمَ جواز كونه حالاً منه، معلِّلاً ذلك بأنه مضافٌ إليه، وتعقَّبه بقوله: ليس كما قال؛ لأنَّ الحالَ قد يعملُ فيها حروفُ الخفض إذا عملت في ذي الحال نحو: مررتُ بزيدٍ قائماً[(١)]. وفي كلا الكلامين بحثٌ لا يخفى.

ومنع أبو حيان مجيءَ الحال من المضاف إليه في مثل هذه الصورة أيضاً، وزعم أنَّ الجوازَ فيها مما تفرَّدَ به ابنُ مالك، والتزم كونَ «حنيفاً» حالاً من «ملة» لأنها والدينُ بمعنًى، أو من الضمير في «اتبع»[(٢)]. وليس بشيء، ولم يتفرَّد بذلك ابنُ مالكٍ بل سبقه إليه الأخفشُ وتبعه جماعة.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ بل كان قدوةَ المحققين، وهذا تكريرٌ لما سبق لزيادة تأكيدٍ وتقريرٍ لنزاهته عليه السلام عمَّا هم عليه من عقدٍ وعمل.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ﴾ بمعنى إنما فُرض تعظيمُهُ والتخلِّي للعبادة وتركُ الصيد فيه تحقيقٌ لذلك النفي الكُلِّيِّ وتوضيحٌ له بإبطال ما عسى يُتوهَّم كونه قادحاً في الكلية، فإنَّ اليهودَ كانوا يزعمون أنَّ السبتَ من شعائر الإسلام، وأنَّ إبراهيمَ عليه السلام كان محافظاً عليه، أي: ليس السبتُ من شرائع إبراهيمَ وشعائر مِلَّته عليه السلام التي أُمرتَ باتِّباعها حتى يكون بينهُ وبين بعض المشركين علاقةٌ في الجملة، وإنما شُرع ذلك لبني إسرائيل بعد مُدَّةٍ طويلة. وإيرادُ الفعل مبنيّاً للمفعول جرى على سَنَن الكبرياء وإيذانٌ بعدم الحاجة إلى التصريح بالفاعل لاستحالة الإسناد إلى الغير.

وقرأ أبو حيوة: «جَعَل» بالبناء للفاعل، وعن ابن مسعود والأعمش أنهما قرأا: «إنما أنزلنا السبت»[(٣)] وهو ـ على ما قال أبو حيان ـ تفسيرُ معنًى لا قراءة؛ لمخالفة

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٣١.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٥٤٨.

(٣) القراءات الشاذة ص٧٤، والكشاف ٢/ ٤٣٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٣١، والبحر المحيط ٥/ ٥٤٩.

ذلك سوادَ المصحف، والمستفيضُ عنهما أنهما قرأا كالجماعة: «إنما جُعِلَ السبت»[(١)].

﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ على نبيِّهم حيث أمرهم بالجمعة فاختاروا السبت، وهم اليهود.

أخرج الشافعيُّ في «الأم» والشيخان في «صحيحيهما» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بَيْدَ أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم، ثم هذا يومهم الذي فُرِضَ عليهم - يعني الجمعة - فاختلفوا فيه، فهدانا الله تعالى له، فالناسُ لنا فيه تَبَعٌ، اليهودُ غداً والنصارى بعد غدٍ»[(٢)].

وجاء عن ابن عباس ﵄ أنه قال: أَمر موسى عليه السلام اليهودَ بالجمعة وقال: تفرَّغوا لله تعالى في كلِّ سبعة أيام يوماً واحداً وهو يوم الجمعة، ولا تعملوا فيه شيئاً من أعمالكم، فأبوا أن يقبلوا ذلك وقالوا: لا نريد إلا اليوم الذي فَرَغَ الله تعالى فيه من الخلق، وهو يوم السبت، فجُعل عليهم وشدّد فيه الأمر، ثم جاء عيسى عليه السلام بالجمعة فقالت النصارى: لا نريد أن يكون عيدُهم بعد عيدنا، فاتخذوا الأحد[(٣)]. وكأنهم إنما اختاروه لأنه مبتدأ الخلق، واختار هذا الإمامُ وحمل «في» على التعليل، أي: اختلفوا على نبيِّهم لأجل ذلك اليوم[(٤)].

وقال الخفاجي: معنى «اختلفوا فيه» خالفوا جميعُهم نبيَّهم، فهو اختلافٌ بينهم وبين نبيِّهم[(٥)]، وظاهرُ الأخبار يقتضي أنه عيَّن لهم أولاً يوم الجمعة، وقال القاضي عياض: الظاهر أنه فُرض عليهم تعظيمُ يوم الجمعة بغير تعيين، وَوُكِلَ إلى اجتهادهم، فاختلفت أحبارهم في تعيينه، ولم يهدهم الله تعالى له وفُرض على هذه

---

(١) البحر المحيط ٥/٥٤٩.

(٢) الأم ١/١٦٧، وصحيح البخاري (٨٧٦)، وصحيح مسلم (٨٥٥) (٢٠)، وهو عند أحمد (٧٣١٠).

(٣) تفسير الرازي ٢٠/١٣٧.

(٤) المصدر السابق.

(٥) حاشية الشهاب ٥/٣٨١.

الأمة مبيَّناً، ففازوا بفضيلته، ولو كان منصوصاً عليه لم يصحَّ أن يقال: «اختلفوا» بل يقال: خالفوا[١].

وقال الإمام النووي: يمكن أن يكونوا أُمروا صريحاً ونصّ عليه، فاختلفوا فيه هل يلزمُ تعيينه أم لهم إبداله، فأبدلوه وغلطوا في إبداله[٢].

وقال الواحديُّ: قد أشكلَ أمرُ هذا الاختلاف على كثيرٍ من المفسِّرين حتى قال بعضُهم: معنى اختلافهم في السبت أنَّ بعضَهم قال: هو أعظمُ الأيام حرمةً؛ لأنَّ الله تعالى فَرَغَ من خَلْقِ الأشياء فيه، وقال الآخرون: أعظمها حرمةً الأحد؛ لأنَّ الله سبحانه ابتدأ الخلقَ فيه. وهذا غلطٌ؛ لأنَّ اليهودَ لم يكونوا فرقتين في السبت، وإنما اختار الأحد النصارى بعدهم بزمان.

وقيل: المراد: اختلفوا فيما بينهم في شأنِهِ، ففضَّلته فرقةٌ منهم على الجمعة ولم ترضَ بها، وفضَّلتْ أخرى الجمعةَ عليه ومالت إليها بناءً على ما روي من أنَّ موسى عليه السلام جاءهم بالجمعةِ، فأبى أكثرهم إلا السبت، ورضي شرذمةٌ منهم بها، فأَذِنَ الله تعالى لهم في السبت، وابتلاهم بتحريم الصيد فيه، فأطاعَ أمرَ الله تعالى الراضون بالجمعة، فكانوا لا يصيدون، وأعقابهم لم يصبروا عن الصيد، فمسخهم الله تعالى قردةً دون أولئك المطيعين. والتفسيرُ الأولُ تفسيرُ رئيس المفسِّرين وترجمان القرآن وحِبر الأمة المروي من طرقٍ صحيحة عن أفضل النبيين وأعلم الخلق بمراد ربِّ العالمين ﷺ.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: المختلفين ﴿يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ أي: يقضي بينهم بالمجازاة على اختلافهم على نبيِّهم ومخالفتهم له في ذلك، أو يفصلُ ما بين الفريقين منهم من الخصومة والاختلاف، فيجازي كلَّ فريقٍ بما يستحقُّه من الثواب والعقاب، وفيه على هذا إيماءٌ إلى أنَّ ما وقع في الدنيا من مَسْخِ أحدِ الفريقين وإنجاء الآخر بالنسبة إلى ما سيقع في الآخرة شيءٌ لا يُعتدُّ به، وعُبِّرَ عن الفرض بالجَعْل موصولاً بكلمة «على» للإيذان بتضمُّنه

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض ٣/ ٢٥٠.
(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ٦/ ١٤٣-١٤٤.

للتشديد والابتلاء المؤدِّي إلى العذاب، وعن اليهود بالاسم الموصول بالاختلاف إشارةً إلى عِلّة ذلك.

وقيل: المعنى: إنما جُعل وبالُ تَرْكِ تعظيم السبت، وهو المسخُ كائناً أو واقعاً على الذين اختلفوا فيه، أي: أَحلُّوا الصيدَ فيه تارةً وحرَّموه أخرى، وكان حتماً عليهم أن يتَّفقوا على تحريمه حسبما أَمَرَ الله تعالى به، وروي ذلك عن قتادة، وفَسَّر الحكمَ بينهم بالمجازاة باختلاف أفعالهم بالإحلال تارةً والتحريم أخرى.

ووجه إيراد ذلك هاهنا بأنه أُريد منه إنذارُ المشركين وتهديدهم بما في مخالفة الأنبياء عليهم السلام من الوبال، كما ذُكرت القرية التي كفرتْ بأنعُمِ الله تعالى تمثيلاً لذلك.

واعتُرض بأنَّ توسيطَ ذلك لما ذكر بين حكاية أمر النبيِّ ﷺ باتباع ملة إبراهيم عليه السلام وبين أمره ﷺ بالدعوة إليها كالفَصْل بين الشجر ولحائه.

وأجيب بأنَّ فيه حثًّا على إجابة الدعوة التي تضمَّنها الكلامُ السابق وأمر بها في الكلام اللاحق، فللمتوسِّط نسبة إلى الطرفين تخرجه من أن يكون الفصل به كالفصل بين الشجر ولحائه، وهو كما ترى.

واعترض أيضاً بأنَّ كلمة «بينهم» تحكم بأنَّ المرادَ بالحكم هو فَصْلُ ما بين الفريقين من الاختلاف دون المجازاة باختلاف أفعالهم بالإحلال تارةً والتحريم أخرى.

ويرد هذا أيضاً على تفسيره بالقضاء بالمجازاة على اختلافهم جميعهم على نبيِّهم ومخالفتهم له فيما جاءهم به، وقد فُسِّر بذلك على التفسير المأثور عن ترجمان القرآن، ومنهم من فسَّره عليه بما فسّر به على التفسير المرويِّ عن قتادة، فيرد عليه أيضاً ما ذكر مع ما في ضمنه من القول باختلاف الاختلافين معنى، والظاهر اتحادهما.

وأجاب بعضُهم عن الاعتراض بمنع حكم كلمة «بينهم» بما تقدَّم فتأمل.

وتفسير السبت باليوم المخصوص هو الظاهر الذي ذهب إليه الكثير، وجُوِّزَ كونه مصدرَ سَبتتِ اليهود إذا عظَّمت سَبْتَها، قيل: ويجوز على هذا أن يكون في الآية استخدام.

﴿ادْعُ﴾ أي: مَنْ بُعثتَ إليهم من الأمة قاطبة، فَحَذْفُ المفعول دلالةٌ على التعميم، وجُوِّزَ أن يكونَ المراد: افعل الدعوةَ؛ تنزيلاً له منزلةَ اللازم للقصد إلى إيجاد نفس الفعل إشعاراً بأنَّ عمومَ الدعوة غنيٌّ عن البيان، وإنما المقصودُ الأمرُ بإيجادها على وجهٍ مخصوص.

وتُعقِّبَ بأنَّ ذلك لا يناسبُ المقامَ كما لا يناسب قوله تعالى: «وجادلهم».

﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ إلى الإسلام الذي عبّر عنه تارةً بالصراط المستقيم، وأخرى بملَّة إبراهيم عليه السلام، وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير النبيِّ ﷺ ما لا يخفى.

﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ بالمقالة المحكمة، وهي الحُجَّة القطعيةُ المُزيحةُ للشُّبَه؛ وقريبٌ من هذا ما في «البحر»[1] أنها الكلامُ الصوابُ الواقعُ من النفس أجملَ موقع.

﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ وهي الخطاباتُ المقنعة والعِبَر النافعةُ التي لا يخفى عليهم أنك تناصحهم بها.

﴿وَجَادِلْهُم﴾ ناظِرْ معانديهم ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ بالطريقة التي هي أحسنُ طُرقِ المناظرة والمجادلة مِن الرفق واللِّين واختيار الوجه الأيسر، واستعمال المقدِّمات المشهورة؛ تسكيناً لِشَغَبهم وإطفاءً للهبهم كما فعله الخليلُ عليه السلام.

واستدلَّ ـ كما قيل ـ أربابُ العقول[2] بالآية على أنَّ المعتبرَ في الدعوة من بين الصناعات الخمس إنما هو البرهانُ والخطابةُ والجدلُ، حيث اقتصر في الآية على ما يشير إليها، وإنما تفاوتتْ طُرقُ دعوته عليه الصلاة والسلام لتفاوت مراتب الناس، فمنهم خواصّ وهم أصحابُ نفوسٍ مشرقةٍ قويةِ الاستعداد لإدراك المعاني، قوية الانجذاب إلى المبادي العاليةِ، مائلة إلى تحصيل اليقين على اختلاف مراتبه، وهؤلاء يَدْعون بالحكمة بالمعنى السابق.

ومنهم عوامّ أصحابُ نفوسٍ كَدِرَةٍ ضعيفةِ الاستعداد شديدةِ الإلْفِ بالمحسوسات، قوية التعلُّق بالرسوم والعادات، قاصرةٍ عن درجة البرهانِ لكن

---

(١) ٥/٥٤٩.

(٢) في (م): المعقول.

لا عِنادَ عندهم، وهؤلاء يَدعون بالموعظة الحسنة بالمعنى المتقدم.

ومنهم من يُعاند ويُجادل بالباطل ليدحضَ به الحقَّ، لما غلب عليه من تقليد الأسلاف ورَسَخَ فيه من العقائد الباطلة، فصار بحيثُ لا تنفعه المواعظُ والعِبَرُ، بل لابدَّ من إلقامه الحجرَ بأحسن طرق الجدال لِتَلينَ عَريكته وتزولَ شكيمته، وهؤلاء الذين أمر ﷺ بجدالهم بالتي هي أحسن، وإنما لم تُعتَبر المغالطةُ والشِّعْرُ لأنَّ فائدةَ المغالطة تغليطُ الخصم والاحتراز عن تغليطه إياه، ومرتبةُ الرسول عليه الصلاة والسلام تُنافي أن يَغْلَطَ، وتتعالى أن يُغَلِّط، والشِّعر وإن كان مفيداً للخواصِّ والعوامِّ، فإنَّ الناسَ في باب الإقدام والإحجام أطوعُ للتخييل منهم للتصديق، إلا أنَّ مداره على الكذب، ومن ثمَّة قيل: الشعرُ أكذبه أَعذبه. فلا يليقُ بالصادق المصدوق كما يشهد به قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩] لا يقال: الشعر الذي هو أحد الصناعات قياسٌ مؤلَّفٌ من مقدِّماتٍ مخيلة، والشعرُ الذي مداره على الكذب هو الكلامُ الموزونُ المقفَّى، وهو الذي نُفي تعليمهُ عنه ﷺ لما قيل: كونُ الشعر مذموماً ليس كونه كلاماً موزوناً مقفًّى، بل لاشتماله على تخيُّلاتٍ كاذبةٍ فهُما من وادٍ واحدٍ، ذَكَرَ ذلك بعضُ المتأخِّرين.

وقد ذهب غيرُ واحدٍ إلى أنَّ فيها إشارةً إلى تفاوت مراتب المدعوِّين، إلا أنه خالفَ في بعض ما تقدم، ففي «الكشف» بعد أن ذكر أنَّ كلامَ الزمخشريِّ يدلُّ على أنه عليه الصلاة والسلام ينبغي أن يجمع في الدعوة بين الثلاث، فيكونُ الكلامُ في نفسه حَسَنَ التأليف منتجاً لما عُلِّقَ به من الغرض، ومع ذلك مقصوداً به المناصحة لمن خُوطب به، ويكون المتكلِّم حَسَنَ الخُلُقِ في ذلك معلِّماً ناصحاً شفيقاً رفيقاً ما نصه: والأحسنُ على ما ذهب إليه المحقِّقون أنه تعميمٌ للدعوة حسب مراتب المدعوِّين في الفهم والاستعداد، فمَنْ دُعي بلسان الحكمة ليفادَ اليقين العياني أو البرهاني هم السابقون، ومن دُعي بالموعظة الحسنة وهي الإقناعات الحكمية لا الخطابات المشهورة طائفة دون هؤلاء، ومن دُعي بالمجادلة الحسنة هم عمومُ أهل الإسلام والكفار أيضاً. اهـ.

ولا أرى ما يوجبُ نفي أن يكون المراد بالموعظة الحسنة الخطابات المشهورة، وكونها مركَّبةً من مقدِّماتٍ مظنونةٍ أو مقبولةٍ من شخصٍ معتَقَدٍ فيه،

ولا يليق بالنبيِّ ﷺ استعمالُ الظَّنِّيات، أو أخذُ كلام الغير والدعوة به هو الموجب لذلك لا يخفى ما فيه فتدبَّره.

وذكر الأحسائيُّ رئيسُ الفرقة الظاهرة في زماننا المسماة بالكشفية في كتابه «شرح الفوائد» ما محصّله: إنَّ المدعوِّينَ من المكلَّفين ثلاثةُ أنواع، وكذا الأدلة التي أشارت إليها الآيةُ، فإنْ كانوا من الحكماء العقلاء والعلماء النبلاء فدعوتهم إلى الحقِّ الذي يريده الله تعالى منهم من معرفته بدليل الحكمة، وهو الدليلُ الذوقيُّ العيانيُّ الذي يلزمُ منه العلمُ الضروريُّ بالمستَدَلِّ عليه؛ لأنه نوعٌ من المعاينة كقولنا في رَدِّ مَنْ زَعَمَ أنَّ حقائقَ الأشياء كانت كامنةً في ذاته تعالى بنحوٍ أشرف، ثم أفاضها: إنه لا بدَّ وأن يكون لذاته سبحانه قبل الإفاضة حالٌ مغايرٌ لما بعدها، سواءٌ كان التغيُّرُ في نفس الذات أو فيما هو في الذات، فإن حصل التغيُّرُ في الذات لزمَ حدوثها، وإن حصل فيما هو في الذات ـ أعني حقائقَ الأشياء الكامنة ـ لزمَ أن تكونَ الذاتُ محلًّا للمتغيِّر المختلف، ويلزم من ذلك حدوثها.

وكقولنا في إثبات أنه سبحانه أظهر من كلِّ شيء: إنَّ كلَّ أثرٍ يشابه صفةَ مؤثِّرة، وأنه قائمٌ بفعله قيامَ صدورٍ كالأشعة بالنيرات، والكلام بالمتكلِّم، فالأشياء هي ظهورُ الواجب بها لها؛ لأنه سبحانه لا يظهر بذاته، وإلا لاختلفت حالتاه، ولا يكونُ شيءٌ أشدَّ ظهوراً من الظاهر في ظهوره؛ لأنَّ الظاهرَ أظهرُ من ظهوره، وإن كان لا يمكن التوصُّلُ إلى معرفته إلا بظهوره، مثل القيام، فإنَّ القائمَ أظهرُ في القيام من القيام، والقاعدَ أظهرُ في القعود من القعود، وإن كان لا يمكن التوصُّل إلى معرفتهما إلا بالقيام والقعود فتقول: يا قائم ويا قاعد، والمعنيُّ لك إنما هو القائم والقاعد، لا القيام والقعود؛ لأنه بظهوره لك بذلك غيبٌ عليك مشاهدته، وإن التفتَّ إليه احتجبَ عنك القائم والقاعد، وهو آلةٌ لمعرفة المعارف الحقِّيَّة كالتوحيد وما يلحق به، ومستنده الفؤاد، وهو نور الله تعالى المشار إليه بقوله ﷺ: «اتقوا فِراسةَ المؤمن فإنه ينظرُ بنور الله تعالى»[1] والنقل من الكتاب والسنة، وشَرْطُهُ الذي يتوقف عليه فتح باب النور ثلاثة أشياء:

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٢٧) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، وقال: هذا حديث غريب. وسلف ١٠/١١٦.

أحدها: أن تُنصفَ ربك وتقبل منه سبحانه قوله، ولا تتبع شهوةَ نفسك.

وثانيها: أن تقفَ عند بيانك وتبيُّنك وتبيينك على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وثالثها: أن تنظر في تلك الأحوال، أعني: البيان وما بعده بعينه تعالى، وهي العينُ التي هي وَصْفُ نفسه لك، أعني وجودك من حيث كونه أثراً ونوراً، لا بعينك التي هي أنت من حيث إنك أنتَ أنتَ، فإنَك لا تعرف بهذه العين إلا الحادثات المحتاجة الفانية.

وإن كانوا من العلماء ذوي الألباب وأرباب القلوب فدعوتهم إلى الحقِّ الذي يريده سبحانه منهم من اليقين الحقيقيِّ في اعتقاداتهم بدليل الموعظة الحسنة، وهي الدليلُ العقليُّ اليقينيُّ الذي يلزمُ منه اليقينُ في الإيمان به سبحانه وبغيره مما أمرهم بالإيمان به، وهو آلةٌ لعلم الطريقة وتهذيب الأخلاق وعلم اليقين والتقوى، وهذه العلوم وإن كانت قد تستفاد من غيره ولكن بدون ملاحظته لا يوقف على اليقين والاطمئنان الذي هو أصلُ علم الأخلاق، ومستندهُ القلبُ والنقل، وشرطُ صِحَّته والانتفاع به اتِّصافُ عقلك به بأن تلزم ما ألزمك به ولا تظلمه، وهو كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٥٢] وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠] إلى غير ذلك مما لا يُحصى كثرة.

وإن كانوا من العلماء أصحاب الرسوم كالمتكلِّمين ونظائرهم فدعوتهم على الحقِّ الذي يُريده سبحانه منهم من اليقين الرسميِّ بمقتضى طبيعتهم القاصرة بدليل المجادلة بالتي هي أحسن، وهي الدليلُ العلميُّ القطعيُّ الذي هو يلزمُ منه العلم فيما ذكر، وهو آلةٌ لعلم الشريعة، ومستنده العلم والنقل، وشرطه إنصاف الخصم بأن يقيمه على النحو المقرَّر في علم الميزان، وقد ذكره العلماء في كتبهم الأصولية والفروعية، بل لا يكادُ يُسمعُ منهم غيرُ هذا الدليل، وهو محلُّ المناقشات والمعارضات، وأما الدليلان الأولان فليس فيهما مناقشة ولا معارضة، فإذا اعترضَ عليهما معترضٌ فقد اعترضَ فيهما بغيرهما. انتهى المراد منه، وهو

كما ترى، وإنما ذكرته لتعلم حالَ المرؤوس من حال الرئيس، ولقد رأيتُ مشايخَ هذه الطائفة يتكلَّمون بما هو كشوك القنافذ ويحسبونه كريش الطواويس.

وجُوِّزَ أن يُرادَ «بالحكمة والموعظة الحسنة» القرآنُ المجيدُ، فإنه جامعٌ لكِلا الأمرين، فكأنه قيل: ادعُ بالقرآن الذي هو حكمةٌ وموعظةٌ حسنةٌ، وقيل غير ذلك، ومنه أنَّ الحكمةَ النبوةُ. وليس من الحكمة.

وفسَّر بعضُهم المجادلةَ الحسنةَ بالإعراض عن أذاهم، وادَّعى أنَّ الآيةَ منسوخةٌ بآية السيف(١)، والجمهور على أنها محكَمةٌ، وأنَّ معنى الآية ما تقدَّم، ولكون الحكمة أعلى الدلائل وأشرفها(٢)، والمدعوِّين به الكاملينَ الطالبينَ للمعارف الإلهية والعلوم الحقيقة وقليلٌ ما هم، جيءَ بها أولاً، ولكون الجدل أدنى الدلائل ـ إذ ليس المقصودُ منه سوى إلزام الخصم وإفحامه، ولا يُستعمل إلا مع الناقصين الذين تغلبُ عليهم المشاغبةُ والمخاصمةُ، وليسوا بصددِ تحصيل هاتيك العلوم ـ ذُكر أخيراً، ولكون الموعظة الحسنة دون الحُجَّة وفوقَ الجدل، والمدعوِّين بها المتوسِّطين الذين لم يبلغوا في الكمال حَدَّ الحكماء المحقِّقين، ولم يكونوا في النقصان بمرتبة أولئك المشاغبين، وُسِّطَتْ بين الأمرين، وكأنه إنما لم يقل: ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة والجدال الأحسن، لما أنَّ الجدالَ ليس من باب الدعوة، بل المقصودُ منه غرضٌ آخر مغايرٌ لها، وهو الإلزامُ والإفحامُ كما قاله الإمام(٣). فليفهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الذي أمرك بدعوة الخلق إليه وأعرضَ عن قبوله.

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ إليه، وهو تعليلٌ لما ذكر أولاً من الأمرين، كأنه قيل: اسلكْ في الدعوة والمناظرة الطريقةَ المذكورةَ، وما عليك غيرُ ذلك، وأما حصولُ الهداية والضلال والمجازاة عليهما فإلى الله سبحانه، لا إلى غيره؛ إذ هو أعلمُ بمَنْ يبقى على الضلال وبمَنْ يهتدي إليه، فيجازي كلًّا منهما ما يستحقُّه. كذا قيل.

---

(١) وهي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥].
(٢) في (م): وأشرافها.
(٣) تفسير الرازي ٢٠/١٣٩-١٤٠.

واعتُرض بأنَّ دلالةَ الآية على المجازاة مسلَّمةٌ، وأما أنَّ حصولَ الهداية والضلالة ليس لغيره تعالى فالآيةُ لا تدلُّ عليه أصلاً.

وأجيب بأنه إذا انحصرَ علمُ الهداية والضلالة فيه تعالى عُلم أنه لا يكونُ لغيره سبحانه علمهما، فكيف يكونُ له حصولهما، فالقول بعدم دلالة الآية على ذلك غيرُ سديد.

وقيل: المعنى: اسلكْ في الدعوة والمناظرة الطريقةَ المذكورةَ، فإنه تعالى هو أعلمُ بحال مَنْ لا يرعوي عن الضلال لسوء اختياره، وبحال مَنْ يصيرُ أمره إلى الاهتداء لما فيه من الخير، فما شَرَعهُ لك في الدعوة هو الذي تقتضيه الحكمةُ، فإنه كافٍ في هداية المهتدين وإزالة عُذر الضالين.

وقيل: المعنى: إنما عليكَ البلاغُ، فلا تلحَّ عليهم إن أَبَوا بعد الإبلاغ مرَّةً أو مرتين مثلاً، فإنَّ ربك هو أعلمُ بهم، فمَنْ كان فيه خيرٌ كَفَتْهُ النصيحةُ اليسيرةُ، ومن لا خيرَ فيه عَجَزَتْ عنه الحِيَل.

وتقديمُ الضالين لأنَّ الكلامَ فيهم، وإيرادُ الضلال بصيغة الفعل الدالِّ على الحدوث لما أنه تغييرٌ لفطرة الله تعالى التي فَطَرَ الناسَ عليها، وإعراضٌ عن الدعوة، وذلك أمرٌ عارضٌ، بخلاف الاهتداءِ الذي هو عبارةٌ عن الثبات على الفطرة والجريان على موجب الدعوة، ولذلك جيءَ به على صيغة الاسم المنبئِ عن الثبات.

وجملة «هو أعلم بالمهتدين» قيل: عَطْفٌ على جملة «إنَّ ربك» إلخ، أو على خبر «إنَّ»، وتكريرُ «هو أعلم» للتأكيد والإشعار بتباين حال المعلومين ومآلهما من العقاب والثواب، وهو في الجملة الأولى ضميرُ فَصْلٍ للتخصيص كما هو ظاهرُ كلام البعض، أو للتقوية كما قيل، ولا يخفى ما في التعرُّض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ﷺ من اللطافة.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ أي: إن أردتم المعاقبة ﴿فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ أي: بمثل ما فُعل بكم، وقد عبّر عنه بالعقاب على طريقة إطلاق اسم المسبَّب على السبب، نحو: كما تدينُ تدان، على نهج المشاكلة، وقال الخفاجيُّ: إنَّ العقابَ

في العرف مطلقُ العذاب ولو ابتداءً، وفي أصل اللغة: المجازاةُ على عذابٍ سابقٍ، فإن اعتُبر الثاني فهو مشاكلةٌ، وإن اعتُبر الأول فلا مشاكلة[(١)].

وعلى الاعتبارين صيغةُ المفاعَلة ليست للمشاركة، والآيةُ نزلتْ في شأن التمثيل بحمزةَ ﷺ يومَ أُحد، فقد صحَّ عن أبي هريرةَ أنَّ النبيَّ ﷺ وقفَ على حمزةَ يوم استشهد، فنظر إلى منظرٍ لم ينظر إلى شيءٍ قطُّ كان أوجعَ لقلبه منه، ونظر إليه قد مُثِّلَ به فقال: «رحمةُ الله تعالى عليك، فإنك كنتَ ما علمتُ وَصُولاً للرَّحِم فَعولاً للخيرات، ولولا حُزنُ مَنْ بعدكَ عليكَ لَسَرَّني أن أتركك حتى يحشركَ الله تعالى من أرواحٍ شتى، أما والله لأُمثِّلَنَّ بسبعينَ منهم مكانك» فنزل جبريل عليه السلام والنبيُّ ﷺ واقفٌ بخواتيم «النحل»: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ إلى آخرها، فكفَّر عليه الصلاة والسلام عن يمينه وأمسك عن الذي أراد وصبر[(٢)].

فهي على هذا مدنيَّةٌ. وذهب النحاس[(٣)] إلى أنها مكيةٌ، وليست في شأن التمثيل بحمزة ﷺ. واختاره بعضُهم لما يلزمُ على ذلك من عدم الارتباط المنزَّه عنه كلامُ ربِّ العزة جلَّ شأنه؛ إذ لا مناسبةَ لتلك القضية لما قبل، وأما على القول بأنها مكيةٌ فوجهُ الارتباط أنه لما أمر سبحانه نبيَّهُ ﷺ بالدعوة، وبيَّن طريقها أشارَ إليه عليه الصلاة والسلام وإلى من يتابعه بمراعاة العدل مع من يُناصبهم والمماثلة، فإنَّ الدعوةَ لا تكادُ تنفكُّ عن ذلك، كيف لا وهي موجبةٌ لِصَرْفِ الوجوه عن القبل المعبودة وإدخال الأعناق في قلادةٍ غير معهودة، قاضيةٍ عليهم بفساد ما يأتون وما يذرون، وبطلان دينٍ استمرَّت عليه آباؤهم الأولون، وقد ضاقتْ بهم الحِيَلُ وعيتْ بهم العِلَل، وسُدَّت عليهم طُرق المحاجَّة والمناظرة، وأُرتجتْ دونهم أبواب المباحثة والمحاورة، وتردَّدتْ في صدورهم الأنفاسُ، ووقعوا في حَيص بَيص، يضربونَ أخماساً في أسداس، لا يجدونَ إلا الأسنَّةَ مركباً، ويختارون الموتَ الأحمرَ دون دين الإسلام مذهباً.

(١) حاشية الشهاب ٥/ ٣٨٢.
(٢) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٢٩٠، والبيهقي في الدلائل ٣/ ٢٨٩، وفي إسناده: صالح المُرِّي، وهو ضعيف كما في تقريب التهذيب ص٢١٢.
(٣) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٤٨٤.

وإلى الأول ذهب جمهور المفسِّرين ووقع ذلك في «صحيح البخاري»[(١)] بل قال القرطبيُّ: إنه مما أطبق عليه المفسِّرون[(٢)]. وما ذكر من لزوم عدم الارتباط عليه ليس بشيء، فإنَّ التنبيهَ على تلك القضية للإشارة إلى أنَّ الدعوةَ لا تخلو من مثل ذلك، وأنَّ المجادلة تنجرُّ إلى المجالدة، فإذا وقعتْ فاللائقُ ما ذكر، فلا فَرْقَ في الارتباط بحسب المآل بين أن تكون مكيةً وأن تكون مدنية، وخصوصُ السبب لا ينافي عمومَ المعنى، فالمعوَّلُ عليه عدمُ العدول عما قاله الجمهور.

وقرأ ابن سيرين: «وإن عقَّبتم فعقِّبوا» بتشديد القافين[(٣)]، أي: وإن قَفَّيتُمْ بالانتصار فَقَفُّوا بمثل ما فُعل بكم غير متجاوزين عنه.

واستُدلَّ بالآية على أنَّ للمقتصِّ أن يفعلَ بالجاني مثلَ ما فعل في الجنس والقَدْر، وهذا مما لا خلاف فيه. وأما اتحادُ الآلة بأن يُقتلَ بحجرٍ مَنْ قَتَلَ به، وبسيفٍ مَنْ قتل به مثلاً، فذهب إليه بعضُ الأئمة، ومذهب أبي حنيفةَ ﷺ أنه لا قَوَدَ إلا بالسيف، ووجهُ ذلك ـ مع أنَّ الآيةَ ظاهرةٌ في خلافه ـ أنَّ القتْلَ بالحجر ونحوه مما لا يمكن مماثلةُ مقداره شدَّةً وضَعْفاً، فاعتبرت مماثلته في القتل وإزهاق الروح، والأصل في ذلك السيفُ كما ذكره الرازيُّ في «أحكامه»[(٤)]. وذكر بعضُهم أنه اختُلفَ في هذه الآية فأخذ الشافعيُّ بظاهرها، وأجابَ الحنفيةُ بأنَّ المماثلةَ في العدد بأن يُقتلَ بالواحد واحدٌ؛ لأنها نزلتْ لقول النبيِّ ﷺ: «لأُمثِّلَنَّ بسبعينَ منهم» لما قُتِلَ حمزة ومُثِّل به كما سمعتَ فلا دليلَ فيها، وقال الواحديُّ: إنها منسوخةٌ كغيرها من المثلة، وفيه كلام في شروح «الهداية».

وفي تقييد الأمر بقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ حَثٌّ على العفو تعريضاً لما في «إن» الشرطية من الدلالة على عدم الجزم بوقوع ما في حيِّزها، فكأنه قيل: لا تعاقبوا وإن عاقبتم... إلخ، كقول طبيبٍ لمريضٍ سأله عن أكل الفاكهة: إن كنتَ تأكلُ الفاكهةَ فكُلِ الكُمَّثْرَى. وقد صرَّح بذلك على الوجه الآكد فقيل: ﴿وَلَئِن

(١) لم نقف عليه في صحيح البخاري.
(٢) تفسير القرطبي ١٢/ ٤٦١.
(٣) القراءات الشاذة ص٧٤، والمحتسب ٢/ ١٣.
(٤) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ١٩٤.

صَبَرْتُمْ﴾ أي: عن المعاقبة بالمثل ﴿لَهُوَ﴾ أي: لَصَبْرُكم ذلك على حدِّ: ﴿ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] ﴿خَيْرٌ﴾ من الانتصار بالمعاقبة ﴿لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ أي: لكم إلا أنه عدل عنه إلى ما في النَّظْم الجليل مدحاً لهم وثناءً عليهم بالصبر، وفيه إرشادٌ إلى أنه إن صبرتم فهو شيمتكم المعروفة، فلا تتركوها إذاً في هذه القضية، أو وَصْفاً لهم بصفةٍ تحصل لهم إذا صبروا عن المعاقبة، فهو على حدِّ: مَنْ قتل قتيلاً، وهو الظاهر من اللفظ، وفيه ترغيبٌ في الصبر بالغٌ.

ويجوز عَوْدُ الضمير إلى مطلق الصبر المدلول عليه بالفعل، والمراد بالصابرين جنسهم فيدخل هؤلاء دخولاً أوليًّا.

ثم إنه تعالى أمرَ نبيَّه ﷺ صريحاً بما ندب إليه غيره تعريضاً من الصبر؛ لأنه عليه الصلاة والسلام أولى الناس بعزائم الأمور لزيادة علمه بشؤونه سبحانه ووثوقه به تعالى فقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ على ما أصابك من جهتهم من فنون الآلام والأذية، وعاينتَ من إعراضهم بعد الدعوة عن الحقِّ بالكلية.

﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ استثناءٌ مفرغٌ من أعمِّ الأشياء، أي: وما صبرك ملابساً ومصحوباً بشيءٍ من الأشياء إلا بذكر الله تعالى، والاستغراق بمراقبة شؤونه والتبتل إليه سبحانه بمجامع الهمة، وفيه من تسلية النبيِّ ﷺ وتهوين مشاقِّ الصبر عليه وتشريفه ما لا مزيد عليه. أو إلا بمشيئته المبنية على حِكَمٍ بالغةٍ مستتبعةٍ لعواقب حميدةٍ، فالتسليةُ من حيث اشتماله على غاياتٍ جليلة. قاله شيخ الإسلام(١).

وقال غير واحد: أي: إلا بتوفيقه ومعونته، فالتسليةُ من حيث تيسير الصبر وتسهيله، ولعلَّ ذلك أظهر مما تقدم.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على الكافرين وكفرهم بك وعدم متابعتهم لك، نحو: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨] وقيل: على المؤمنين وما فُعل بهم من المُثْلة يومَ أُحد.

﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ﴾ بفتح الضاد، وقرأ ابن كثيرٍ بكسرها(٢)، وروي ذلك عن

(١) إرشاد العقل السليم ٥/ ١٥٢.
(٢) التيسير ص١٣٩، والنشر ٢/ ٣٠٥.

نافع، ولا يصحُّ على ما قال أبو حيان عنه[١]، وهما لغتان كالقَول والقيل، أي: لا تكن في ضيقِ صدرٍ وحرجٍ. وفيه استعارةٌ لا تخفى، ولا داعي إلى ارتكاب القلب، وقال أبو عبيدة: الضَّيق بالفتح مخفَّفُ ضَيِّق كَهَيْنٍ وهَيِّن، أي: لا تكُ في أمرِ ضَيِّقٍ[٢]. وردَّه أبو عليٍّ كما في «البحر»[٣] بأنَّ الصفةَ غيرُ خاصَّة بالموصوف، فلا يجوز ادِّعاءُ الحذف، ولذلك جازَ: مررتُ بكاتبٍ، وامتنعَ: بآكل. وتُعقِّبَ بالمنع لأنه إذا كانت الصفةُ عامةً وقُدِّرَ موصوفٌ عامٌّ فلا مانع منه.

﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ أي: من مكرهم بك فيما يستقبل، فالأولُ ـ كما في «إرشاد العقل السليم»[٤] ـ نهيٌ عن التألم بمطلوبٍ من جهتهم فات، والثاني نهيٌ عن التألم بمحذورٍ من جهتهم آت، وفيه أنَّ النهيَ عنهما مع أنَّ انتفاءهما من لوازم الصبر المأمور به لزيادة التأكيد، وإظهار كمال العناية بشأن التسلية، وإلا فهل يخطر ببال من توجَّه إلى الله تعالى بشراشره متنزِّهاً عن كلِّ ما سواه سبحانه من الشواغل شيء مطلوبٌ، فينهى عن الحزن بفواته.

وقيل: «يمكرون» بمعنى مكروا، وإنما عبر بالمضارع استحضاراً للصورة الماضية، والأول نهيٌ عن الحزن على سوء حالهم في أنفسهم من اتصافهم بالكفر والإعراض عن الدعوة، والثاني نهيٌ عن الحزن على سوء حالهم معه ﷺ من إيذائهم له بالتمثيل بأحبابه ونحوه، والمراد من النهيين محضُ التسلية لا حقيقة النهي، وأنت تعلم أنَّ الظاهرَ إبقاءُ المضارع على حقيقته، فتأمل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا﴾ تعليلٌ لما سبق من الأمر والنهي، والمراد بالمعيَّة الولايةُ الدائمةُ التي لا يحوم[٥] حول صاحبها شيءٌ من الجزع والحزن وضيق الصدر، وما يُشعر به دخول كلمة «مع» من متبوعية المتقين من حيث إنهم المباشرون للتقوى، والمراد بها هنا أعلى مراتبها، أعني: التنزّه عن كلِّ ما يشغلُ

(١) البحر المحيط ٥/ ٥٥٠.
(٢) مجاز القرآن ١/ ٣٦٩.
(٣) ٥/ ٥٥٠.
(٤) ٥/ ١٥٢-١٥٣.
(٥) في الأصل و(م): لا يحول. والمثبت من إرشاد العقل السليم ٥/ ١٥٢.

السِّرَّ عن الحقِّ سبحانه والتبتُّل إليه تعالى بالكلية؛ لأنَّ ذلك هو المورث لولايته عزَّ وجلَّ المقرونة ببشارة ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]. والمعنى أنَّ الله تعالى وليُّ الذين تبتَّلوا إليه سبحانه بالكلية وتنزَّهوا عن كلِّ ما يشغلُ سِرَّهم عنه عزَّ وجلَّ، فلم يخطر ببالهم شيءٌ من مطلوبٍ أو محذورٍ، فضلاً عن الحزن عليه فواتاً أو وقوعاً، وهو المعنيُّ بما به الصبرُ المأمورُ به على أول الاحتمالات السالفة، وبذلك يحصلُ التقريبُ ويتمُّ التعليلُ، وإلا فمجرد التوقِّي عن المعاصي لا يكونُ مداراً لشيءٍ من العزائم المرخَّص في تركها، فكيف بالصبر المشار إليه ورديفيه، وإنما مدارهُ المعنى المذكور، فكأنه قيل: إنَّ الله مع الذين صبروا، وإنما أُوثر عليه ما في النظم الكريم مبالغةً في الحثِّ على الصبر بالتنبيه على أنه من خصائص أجلِّ النعوت الجليلة وروادفه، كما أنَّ قوله تعالى: ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ للإشعار بأنه من باب الإحسان الذي فيه يتنافسُ المتنافسون، على ما يؤذن بذلك قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١٥] وقد نبَّه سبحانه على أنَّ كلًّا من الصبر والتقوى من قبيل الإحسان بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠] وحقيقةُ الإحسان الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق، وقد فسَّره ﷺ بـ: «أنْ تعبد الله تعالى كأنك تراه، فإنْ لم تكن تراهُ فإنه يراك»(١) وتكريرُ الموصول للإيذان بكفاية كلٍّ من الصلتين في ولايته سبحانه من غير أن تكونَ إحداهما تتمة للأخرى، وإيرادُ الأولى فعليةً للدلالة على الحدوث، كما أنَّ إيراد الثانية اسميةً لإفادة كون مضمونها شيمة راسخة لهم، وتقديمُ التقوى على الإحسان لما أنَّ التخليةَ مقدَّمةٌ على التحلية.

والمراد بالموصولين إما جنسُ المتقين والمحسنين، ويدخلُ عليه الصلاة والسلام في زمرتهم دخولاً أولياً، وإما هو ﷺ وأشياعه رضي الله عنهم، وعبَّر بذلك عنهم مَدْحاً لهم وثناءً عليهم بالنعتين الجميلين، وفيه رمزٌ إلى أنَّ صنيعه عليه الصلاة والسلام مستتبعٌ لاقتداء الأمة به، كقول من قال لابن عباس رضي الله عنهما عند التعزية:

اصبر نكنْ بك صابرينَ وإنما ... صبرُ الرعية عند صبر الراس

---

(١) أخرجه أحمد (٣٦٧)، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وأخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وسلف ١/ ٢٩٥.

قال كلُّ ذلك في «إرشاد العقل السليم»(١)، وإلى كون الجملة في موضع التعليل لما سبقَ ذهب العلامة الطيبيُّ حيث قال: إنه تعالى لما أمر حبيبه بالصَّبر على أذى المخالفين، ونهاه عن الحزن على عنادهم وإبائهم الحقَّ، وعمَّا يلحقه من مكرهم وخداعهم، وعلَّل ذلك بقوله سبحانه: (إِنَّ ٱللَّهَ) إلخ أي: لا تُبالِ بهم وبمكرهم؛ لأنَّ الله تعالى وَلِيُّكَ ومُحبُّكَ وناصركُ، ومُبغضُهمْ وخاذلهم، وعمَّم الحكمَ إرشاداً للاقتداء به عليه الصلاة والسلام، وفيه تعريضٌ بالمخالفين وبخذلانهم كما صرَّح به في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١] وذكر أنَّ إيرادَ الجملة الثانية اسمية وبناءَ «محسنون» على «هم» على سبيل التقوى مؤذنٌ باستدامة الإحسان واستحكامه، وهو مستلزمٌ لاستمرار التقوى؛ لأنَّ الإحسانَ إنما يتمُّ إذا لم يعدْ إلى ما كان عليه من الإساءة، وإليه الإشارةُ بما ورد: «من حُسْن إسلام المرء تَرْكُهُ ما لا يعنيه»(٢) وما ذكر من حمل التقوى على أعلى مراتبها غيرُ متعيّنٍ. وما ذكره في بيانه لا يخلو عن نظر كما لا يخفى على المتأمل.

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وغيرهم عن الحسن أنه قال في الآية: اتقوا فيما حرَّم الله تعالى عليهم، وأحسنوا فيما افترضَ عليهم(٣).

ويوهم كلامُ بعضهم أنَّ الجملةَ في موضعِ التعليل للأمر بالمعاقبة بالمثل حيث قال: إنَّ المعنى: إنَّ الله بالعون والرحمة والفضل مع الذين خافوا عقابَ الله تعالى وأشفقوا منه، فشفقوا على خلقه بعد الإسراف في المعاقبة، وفسَّر الإحسانَ بترك الإساءة كما قيل:

تَـــرْكُ الإســـاءة إحـــســـانٌ وإجـــمـــالُ(٤)

ولا يخفى ما فيه من البعد، وقد اشتملت هذه الآياتُ على تعليم حُسْنِ الأدب في الدعوة، وترك التعدِّي، والأمر بالصبر على المكروه مع البشارة للمتقين

---

(١) ٥/ ١٥٣.

(٢) أخرجه أحمد (١٧٣٢) من حديث حسين بن علي رضي الله عنهما.

(٣) تفسير الطبري ١٤/ ٤٠٩، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٠٨، وينظر الدر المنثور ٤/ ١٣٥.

(٤) لم نقف عليه هكذا، بل الوارد في قول المتنبي في ديوانه ٣/ ٤٠٧:

إنَّا لفي زَمَنٍ تَرْكُ القبيح به ... من أكثر الناس إحسان وإجمالُ

المحسنين، وقد أخرج سعيد بن منصور وابن جرير وغيرهما عن هرم بن حَيَّان أنه قيل له حين الاحتضار: أوْصِ. فقال: إنما الوصية من المال، ولا مال لي، وأوصيكم بخواتيم سورة «النحل»[1].

❁ ❁ ❁

هذا، ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: مما كان وما يكون، فيفرّق به بين المحقِّ والمبطل، والصادق والكاذب، والمتَّبع والمبتدع.

وقيل: كلُّ شيءٍ هو النبيُّ ﷺ كما قيل أنه عليه الصلاة والسلام الإمام في قوله سبحانه: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ قال السيادي: العدل رؤيةُ المِنَّة منه تعالى قديماً وحديثاً، والإحسانُ الاستقامة بشرط الوفاء إلى الأبد.

وقيل: العدل أن لا يرى العبدُ فاتراً عن طاعة مولاه، مع عدم الالتفات إلى العِوَض، وإيتاءُ ذي القربى الإحسانُ إلى ذوي القرابة في المعرفة والمحبة والدين، فيخدمهم بالصِّدق والشفقة، ويؤدي إليهم حَقَّهم، والفحشاءُ الاستهانةُ بالشريعة، والمنكرُ الإصرارُ على الذنب كيفما كان، والبغي ظلم العباد.

وقيل: الفحشاءُ إضافةُ الأشياء إلى غيره تعالى مُلْكاً وإيجاداً.

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ المأخوذ عليكم في عالم الأرواح بالبقاء على حُكْمه وهو الإعراضُ عن الغير والتجرُّدُ عن العلائق والعوائق في التوجُّه إليه تعالى إذا عاهدتم، أي تذكَّرتموه بإشراق نور النبيِّ ﷺ عليكم وتذكيره إياكم؛ قال النصراباذي: العهودُ مختلفةٌ، فعهدُ العوامِّ لزومُ الظاهر، وعهدُ الخواصِّ حفظُ السرائر، وعهد خواصِّ الخواص التخلي من الكلِّ لمن له الكُلُّ.

﴿مَا عِندَكُمْ﴾ من الصفات ﴿يَنفَدُ﴾ لمكان الحدوث ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ لمكان

(١) الطبري في تفسيره ١٤/٤٠٩-٤١٠.

القِدَم، فالعبدُ الحقيقيُّ مَنْ كان فانياً من أوصافه باقياً بما عند الله تعالى، كذا في «أسرار القرآن».

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ أي: عملاً يوصله إلى كماله الذي يقتضيه استعداده ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ معتقدٌ للحقِّ اعتقاداً جازماً ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ أي: حياةً حقيقيةً لا موتَ بعدها، بالتجرد عن المواد البدينة، والانخراط في سلك الأنوار القدسية، والتلذّذ بكمالات الصفات ومشاهدات التجليات الأفعالية والصفاتية.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم﴾ من جنات الصفات والأفعال ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ إذ عملهم يناسب صفاتهم التي هي مبادي أفعالهم، وأجرهم يناسب صفات الله تعالى التي هي مصادرُ أفعاله، فانظرْ كم بينهما من التفاوت في الحُسْن، ويقال: الحياةُ الطيبةُ ما تكونُ مع المحبوب، ومن هنا قيل:

كلُّ عيشٍ ينقضي ما لم يكنْ ... مع مليحٍ ما لذاكَ العيشِ مِلْحُ[1]

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قال سهلٌ: هو إشارةٌ إلى الذين رجعوا القهقرى في طريق سلوكهم ثم عادوا، أي: إنَّ ربكَ للذين هجروا قُرناءَ السوء من بعد أن ظهر لهم منهم الفتنة في صحبتهم، ثم جاهدوا أنفسهم على ملازمة أهل الخير، ثم صبروا معهم على ذلك، ولم يرجعوا إلى ما كانوا عليه في الفتنة، لساترٌ عليهم ما صَدَرَ منهم، مُنعمٌ عليهم بصنوف الإنعام.

وقيل: إنَّ ربكَ للذين هاجروا، أي: تباعدوا عن موطنِ النفس بتَرْك المألوفات والمشتهيات من بعد ما فُتنوا بها بحُكْم النشأة البشرية، ثم جاهدوا في الله تعالى بالرياضات وسلوك طريقه سبحانه بالترقِّي في المقامات والتجريد عن التعلُّقات، وصبروا عمَّا تُحِبُّ النفسُ وعلى ما تكرهه بالثبات في السَّير، إن ربك لغفورٌ يسترُ غواشي الصفات النفسانية رحيمٌ بإفاضة الكمال والصفات القدسية.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ للنفس المستعدَّة القابلة لفَيض القلب الثابتة في طريق اكتساب الفضائل الآمنة من خوف فواتها المطمئنة باعتقادها.

---

(١) البيت لفتح الله بن النحاس، وهو من حائيته المشهورة كما ذكر ذلك المحبي في نفحة الريحانة ٢/ ٥٢٢.

﴿يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا﴾ من العلوم والفضائل والأنوار ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٖ﴾ من جميع جهات الطرق البدنية؛ كالحواسِّ والجوارح والآلات، ومن جهة القلب.

﴿فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ﴾ ظهرتْ بصفاتها بَطَراً وإعجاباً بزينتها، ونظراً إلى ذاتها ببهجتها وبهائها، فاحتجبتْ بصفاتها الظُّلمانية عن تلك الأنوار، ومالتْ إلى الأمور السُّفْلية، وانقطعَ إمدادُ القلب عنها، وانقلبتِ المعاني الواردة عليها من طرق الحِسِّ هيئات غاسقة من صور المحسوسات التي انجذبتْ إليها.

﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ﴾ بانقطاع مدد المعاني والفضائل والأنوار من القلب، ﴿وَٱلۡخَوۡفِ﴾ من زوال مقتنياتها من الشهوات والمألوفات ﴿بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ من كُفْران أَنعُمِ الله تعالى.

﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ﴾ أي: من جنسهم وهي القوة الفكرية ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بما ألقى إليهم من المعاني المعقولة والآراء الصادقة ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ أي: عذاب الحرمان والاحتجاب ﴿وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ في حالة ظلمهم وترفُّعهم عن طريق الفضيلة ونقصهم لحقوق صاحبهم.

﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ﴾ لاجتماع ما تفرَّقَ في غيره من الصفات الكاملة فيه، وكذا كلُّ نبيٍّ، ولذا جاء في الخبر على ما قيل: «لو وُزِنت بأمتي لرجحت بهم»(١).

﴿قَانِتٗا لِّلَّهِ﴾ مطيعاً له سبحانه على أكمل وجه ﴿حَنِيفٗا﴾ مائلاً عن كلِّ ما سواه تعالى ﴿وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ بنسبة شيءٍ إلى غيره سبحانه.

﴿شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ﴾ مستعملاً لها على ما ينبغي ﴿ٱجۡتَبَٰهُ﴾ اختاره بلا واسطة عملٍ؛ لكونه من الذين سبقتْ لهم الحسنى، فتقدّم كشوفهم على سلوكهم ﴿وَهَدَىٰهُ﴾ بعد الكشف ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ وهو مقامُ الإرشاد والدعوة، يعنون به مقام الفرق بعد الجمع.

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ﴾ وهي الذكرُ الجميلُ والملكُ العظيمُ والنبوة ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ قيل: أي: في عالم الأرواح ﴿لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ المتمكِّنين في مقام الاستقامة، وقيل: أي يومَ القيامة لَمِنَ الصالحين للجلوس على بساط القُرْب والمشاهدة

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٩/ ١٦٩-١٧٠ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

بلا حجاب، وهذا لدفعِ توهُّم أنَّ ما أوتيه في الدنيا ينقصُ مقامه في العُقْبى كما قيل: إنَّ مقامَ الوليِّ المشهور دون الوليِّ الذي في زوايا الخمول، وإليه الإشارة بقولهم: الشهرةُ آفةٌ، وقد نصَّ على ذلك الشعرانيُّ في بعض كتبه.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾ وهم اليهودُ، واختاروه لأنه اليومُ الذي انتهتْ به أيامُ الخلق، فكان بزعمهم أنسبَ لترك الأعمال الدنيوية، وهو على ما قال الشيخُ الأكبرُ قُدِّسَ سِرُّهُ في «الفتوحات»[1] يوم الأبد الذي لا انقضاءَ له، فليلهُ في جهنم ونهاره في الجنة. واختيارُ النصارى ليوم الأحد؛ لأنه أول يومٍ اعتنى الله تعالى فيه بخَلْقِ الخلق، فكان بزعمهم أولى بالتفرُّغ لعبادة الله تعالى وشكره سبحانه، وقد هدى الله تعالى لما هو أعظم من ذلك وهو يوم الجمعة الذي أكملَ الله تعالى به الخلقَ وظهرتْ فيه حكمةُ الاقتدار بخلق الإنسان الذي خُلق على صورة الرحمن، فكان أولى بأن يَتفرَّغَ فيه الإنسانُ للعبادة والشكر من ذَينك اليومين، وسبحان مَنْ خَلَقَ فهدى.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ لما في ذلك من قَهْرِ النفس الموجب لترقِّيها إلى أعلى المقامات.

﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ قيل: الصبرُ أقسامٌ: صبرٌ لله تعالى، وصبرٌ في الله تعالى، وصبرٌ مع الله تعالى، وصبرٌ عن الله تعالى، وصبرٌ بالله تعالى، فالصبرُ لله تعالى هو من لوازم الإيمان، وأول درجات الإسلام، وهو حَبْسُ النفس عن الجزع عند فوات مرغوبٍ أو وقوع مكروهٍ، وهو من فضائل الأخلاق الموهوبة من فضل الله تعالى لأهل دينه وطاعته المقتضية للثواب الجزيل.

والصبرُ في الله تعالى هو الثباتُ في سلوك طريق الحقِّ، وتوطين النفس على المجاهدة بالاختيار، وترك المألوفات واللَّذَّات وتحمُّل البليات وقوة العزيمة في التوجُّه إلى منبع الكمالات، وهو من مقامات السالكين يهبهُ الله تعالى لمن يشاء من أهل الطريقة.

والصبرُ مع الله تعالى هو لأهل الحضور والكَشْفِ عند التجرد عن ملابس

(١) في الباب الحادي والسبعين.

الأفعال والصفات، والتعرُّض لتجليات الجمال والجلال، وتوارد واردات الأُنس والهيبة، فهو بحضور القلب لمن كان له قلبٌ، والاحتراس عن الغفلة والغيبة عند التلوينات بظهور النفس، وهو أشقُّ على النفس من الضَّرْب على الهام، وإن كان لذيذاً جدًّا.

والصبر عن الله تعالى هو لأهل العيان والمشاهدة من العشَّاق المشتاقين المتقلِّبين في أطوار التجلِّي والاستتار، المنخلعين عن الناسوت، المتنوِّرين بنور اللاهوت ما بقي لهم قلبٌ ولا وَصْفٌ، كلما لاحَ لهم نورٌ من سبحات أنوار الجمال احترقوا وتفانوا، وكلما ضُرِبَ لهم حجاب ورد وجودهم تشويقاً وتعظيماً ذاقوا من ألم الشوق وحُرْقة الفرقة ما عِيلَ به صبرهم وتحقَّق موتهم.

والصبرُ بالله تعالى هو لأهل التمكين في مقام الاستقامة الذين أفناهم الله تعالى بالكلية، وما ترك عليهم شيئاً من بقية الأنية والاثنينية، ثم وَهَبَ لهم وجوداً من ذاته حتى قاموا به وفعلوا بصفاته، وهو من أخلاق الله تعالى، ليس لأحدٍ فيه نصيب، ولهذا بعد أن أَمَرَ سبحانه به نبيَّهُ ﷺ بيَّن له عليه الصلاة والسلام أنك لا تباشره إلا بي، ولا تطيقه إلا بقوتي، ثم قال سبحانه له ﷺ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ فالكلُّ مني ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ لانشراح صدرك بي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ بقاياهم وفنوا فيه سبحانه ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ بشهود الوحدة في الكثرة، وهؤلاء الذين لا يحجبهم الفَرْقُ عن الجمع، ولا الجمعُ عن الفَرْق، ويسعهمْ مراعاةُ الحقِّ والخلق.

وذكر الطيبيُّ أنَّ التقوى في الآية بمنزلة التوبة للعارف، والإحسان بمنزلة السير والسلوك في الأحوال والمقامات إلى أن ينتهي إلى محوِ الرسم والوصول إلى مخدع الأنس.

هذا، والله سبحانه الهادي إلى سواء السبيل، فنسأله جلَّ شأنه أن يهدينا إليه، ويوفِّقنا للعلن النافع لديه، ويفتح لنا خزائنَ الأسرار، ويحفظنا من شرِّ الأشرار بحُرْمة القرآن العظيم والرسول الكريم، عليه أفضل الصلاة وأكمل التسليم.